تفسير الخازن

المسمّى

لُباب التأويل في معاني التنزيل

للإمام علاء الدين علي بن محمد بن ابراهيم البغدادي
الشهير بالخازن
المتوفى سنة ٧٢٥ هـ

ومعه

تفسير البغوي

المسمّى

معالم التنزيل

للإمام أبي محمد الحسين بن مسعود
الفراء البغوي الشافعي
المتوفى سنة ٥١٦ هـ

ضبطه وصححه

عبد السلام محمد علي شاهين

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

فهرس المحتويات

تفسير سورة آل عمران

فهرس المحتويات

تفسير سورة المائدة

تفسير سورة الأنعام

تفسير سورة الأعراف

فهرس المحتويات

فهرس المحتويات

تفسير سورة النور

تفسير سورة الفرقان

تفسير سورة الشعراء

تفسير سورة النمل

فهرس المحتويات

تفسير سورة سبأ

تفسير سورة فاطر

تفسير سورة يسٓ

تفسير سورة والصافات

تفسير سورة صٓ

تفسير سورة الزمر

تفسير سورة حمٓ المؤمن

تفسير سورة فصلت

تفسير سورة حمٓ عسقٓ

تفسير سورة الزخرف

تفسير سورة الدخان

تفسير سورة الجاثية

تفسير سورة الأحقاف

تفسير سورة محمد ﷺ

تفسير سورة الفتح

تفسير سورة الحجرات

فهرس المحتويات

تفسير الخازن

المسمى

لباب التأويل في معاني التنزيل

للإمام علاء الدين علي بن محمد بن ابراهيم البغدادي
الشهير بالخازن
المتوفى سنة ٧٢٥ هـ

ومعه

تفسير البغوي

المسمى

معالم التنزيل

للإمام أبي محمد الحسين بن مسعود
الفراء البغوي الشافعي
المتوفى سنة ٥١٦ هـ

ضبطه وصححه

عبد السلام محمد علي شاهين

المحتوى
أول سورة الفاتحة ـ آخر سورة آل عمران

دار الكتب العلمية
بيروت ـ لبنان

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي خلق الأشياء فقدرها تقديراً، وصور شكل الإنسان فأحسنة تصويراً، ومنحه العقل وجعله سميعاً بصيراً وشرفه بما عرفه به من العلم ونور قلبه تنويراً وهداه، إلى معرفته فيا لها نعمة وفضلاً كبيراً، وأطلق لسانه فأذعن بشكره تحميداً وتهليلاً وتكبيراً، وأرسل محمداً ﷺ إلى كافة الخلق بشيراً ونذيراً، وأنزل عليه كتاباً منيراً، وأودعه حكمة وحكماً وترغيباً وتحذيراً، وألهم حفاظه تلاوة له وتحبيراً، وعلم عباده علومه تفهيماً وتبصيراً، وضرب فيه الأمثال ليزيل جهالة وتحييراً، وجعله برهاناً واضحاً وصواباً لائحاً ووفر فضله توفيراً، في الصدور محفوظاً وبالألسنة متلواً وفي الصحف مسطوراً، يهدي للتي هي أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيراً، وجعل كل بليغ عن الإتيان بسورة مثله حسيراً. **﴿قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً﴾**.

(أحمده) على تواتر إنعامه حمداً كثيراً وأتوكل عليه مفوضاً أمري إليه ومستجيراً، وأشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له شهادة يغدو قلب قائلها مطمئناً مستنيراً، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله الذي كساه من فضله عزاً ومهابة وتوقيراً صلى الله عليه وسلم وعلى آله وأصحابه كما أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً.

(وبعد) فإن الله جلّ ذكره ونفذ أمره أرسل رسوله محمداً ﷺ بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله رحمة للعالمين وبشيراً للمؤمنين ونذيراً للمخالفين أكمل به بنيان النبوة وختم به ديوان الرسالة، وأتم به مكارم الأخلاق، ونشر فضله في الآفاق وأنزل عليه نوراً هدى به من الضلالة، وأنقذ به من الجهالة، وحكم بالفوز والفلاح لمن اتبعه

بسم الله الرحمن الرحيم

خطبة المصنّف

قال الشيخ الإمام الأجل السيد محيي السُّنّة ناصر الحديث مفتي الشرق والغرب: أبو محمد الحسين بن مسعود الفرّاء البغوي رضي الله عنه وعن والديه، الحمد لله ذي العظمة والكبرياء والعزّة والبقاء والرّفعة والعلاء والمجد والثناء، تعالى عن الأنداد والشركاء، وتقدّس عن الأمثال والنظراء، والصلاة والسلام على نبيّه وحبيبه وصفيّه محمد خاتم الأنبياء وإمام الأتقياء عدد ذرّات الثرى ونجوم السماء، الحمد للّه الملك السلام المؤمن المهيمن العلاّم شارع الأحكام ذي الجلال والإكرام الذي أكرمنا بدين الإسلام ومنَّ علينا بنبيّنا محمد عليه التحية والسلام، وأنعم علينا بكتابه المفرّق بين الحلال والحرام، والصلاة والسلام على حبيبه وخيرته من خلقه محمد سيّد الأنام عدد ساعات الليالي والأيام وعلى آله وأصحابه، عدد نجوم الظلام وعلى جميع الأنبياء والملائكة البررة الكرام.

أما بعد، فإنّ الله جلّ ذكره أرسل رسوله بالهدى ودين الحق رحمة للعالمين وبشيراً للمؤمنين، ونذيراً

وبالخسران لمن أعرض عنه بعدما سمعه عجز الخلائق عن معارضته حين تحداهم على أن يأتوا بسورة من مثله في مقابلته، ثم سهل على عباده المؤمنين مع إعجازه تلاوته ويسر على الألسن قراءته أمر فيه وزجر وبشر وأنذر وذكر المواعظ ليتذكر، وضرب فيه الأمثال ليتدبر، وقص فيه من أخبار الماضين ليعتبر ودل فيه على آيات التوحيد ليتفكر، ثم لم يرض منا بسرد حروفه دون حفظ حدوده ولا بإقامة كلماته دون العمل بمحكماته ولا بتلاوته دون تدبر آياته في قراءته ولا بدراسته دون تعلم حقائقه وتفهم دقائقه ولا حصول لهذه المقاصد منه إلاّ بدراية تفسيره وأحكامه ومعرفة حلاله وحرامه وأسباب نزوله وأقسامه والوقوف على ناسخه ومنسوخه في خاصه وعامه، فإنه أرسخ العلوم أصلاً وأسبغها فرعاً وفصلاً وأكرمها نتاجاً وأنورها سراجاً فلا شرف إلاّ وهو السبيل إليه ولا خير إلاّ وهو الدال عليه وقد قيض الله تعالى له رجالاً موفقين وبالحق ناطقين حتى صنفوا في سائر علومه المصنفات، وجمعوا سائر فنونه المتفرقات كل على قدر فهمه ومبلغ علمه نظراً للخلف واقتداء بالسلف فشكر الله سعيهم ورحم كافتهم. ولما كان كتاب معالم التنزيل الذي صنفه الشيخ الجليل والحبر النبيل الإمام العالم الكامل محيي السنة قدوة الأمة وإمام الأئمة مفتي الفرق ناصر الحديث ظهير الدين أبو محمد الحسين بن مسعود البغويّ قدس الله روحه ونور ضريحه من أجل المصنفات في علم التفسير وأعلاها وأنبلها وأسناها جامعاً للصحيح من الأقاويل عارياً عن الشبه والتصحيف والتبديل محلى بالأحاديث النبوية، مطرزاً بالأحكام الشرعية موشى بالقصص الغريبة وأخبار الماضين العجيبة مرصعاً بأحسن الإشارات مخرجاً بأوضح العبارات، مفرغاً في قالب الجمال بأفصح مقال، فرحم الله تعالى مصنفه وأجزل ثوابه وجعل الجنة متقلبه ومآبه.

ولما كان هذا الكتاب كما وصفت أحببت أن أنتخب من غرر فوائده ودرر فرائده وزواهر نصوصه وجواهر فصوصه مختصراً جامعاً لمعاني التفسير ولباب التأويل والتعبير حاوياً لخلاصة منقوله متضمناً لنكته وأصوله مع فوائد نقلتها وفرائد لخصتها من كتب التفاسير المصنفة في سائر علومه المؤلفة، ولم أجعل لنفسي تصرفاً سوى النقل والانتخاب، مجتنباً حد التطويل والإسهاب وحذفت منه الإسناد لأنه أقرب إلى تحصيل المراد فما أوردت فيه

للمخالفين أكمل به ديوان النبوّة، وختم به ديوان الرسالة، وأتمَّ به مكارم الأخلاق ومحاسن الأفعال، وأنزل عليه بفضله نوراً هدى به من الضلالة وأنقذ به من الجهالة، حَكم بالفلاح لمَن تبعه، وبالخسران لِمَن أعرض عنه بعدما سمعه، وأعجز الخليقة عن معارضته، وعن الإتيان بسورة من مثله في مقابلته، ثم سهّل على الخلق مع إعجازه تلاوتَه، ويسّر على الألسن قراءته، أمر فيه وزجر وبشّر وأنذرَ وذكر المواعظ ليُتذكّر، وقصّ عن أحوال الماضين ليُعتبر، وضرب فيه الأمثال ليُتدبّر، ودلّ على آيات التوحيد ليُتفكّر، ولا حصول لهذه المقاصد إلاّ بدراية تفسيره وإعلامه، ومعرفة أسباب نزوله وأحكامه والوقوف على ناسخه ومنسوخه، ومعرفة خاصّه وعامّه، ثم هو كلام معجز وبحر عميق لا نهاية لأسرار علومه، ولا إدراكَ لحقائق معانيه، وقد ألّف أئمة السلف في أنواع علومه كُتباً كلٌّ على قدر فهمه ومبلغ علمه نظراً للخلق، فشكر الله تعالى سعيهم ورحم كافّتهم.

فسألني جماعة من أصحابي المخلصين وعلى اقتباس العلم مقبلين كتاباً في معالم التنزيل وتفسيره، فأجبتهم إليه معتمداً على فضل الله تعالى وتيسيره، ممتثلاً وصيّة رسول الله ﷺ فيهم فيما يرويه أبو سعيد الخدري رضي الله عنه، أنه عليه الصلاة والسلام قال: «إنّ رجالاً يأتونكم من أقطار الأرض يتفقهون في الدّين فإذا أتوكم فاستوصوا بهم خيراً»، واقتداءً بالماضين من السلف في تدوين العلم إبقاء على الخلق وليس على ما فعلوه مزيد، ولكن لا بدّ في كل زمان من تجديد ما طال به العهد، وقصر المطالبين فيه الجدّ والجهد، تنبيهاً للمتوفقين وتحريضاً للمتثبطين،

من الأحاديث النبوية والأخبار المصطفوية على تفسير آية أو بيان حكم، فإن الكتاب يطلب بيانه من السنة، وعليهما مدار الشرع وأحكام الدين عزوته إلى مخرجه، وبينت اسم ناقله، وجعلت عوض كل اسم حرفاً يعرف به ليهون على الطالب طلبه فما كان من صحيح أبي عبدالله محمد بن إسماعيل البخاري فعلامته قبل ذكر اسم الصحابي الراوي للحديث (خ) وما كان من صحيح أبي الحسين مسلم بن الحجاج النيسابوري فعلامته (م) وما كان مما اتفقا عليه فعلامته (ق) وما كان من كتب السنن أبي داود والترمذي والنسائي فإني أذكر اسمه بغير علامة وما لم أجده في هذه الكتب ووجدت البغوي قد أخرجه بسند له انفرد به قلت روى البغوي بسنده، وما رواه البغوي بإسناد الثعلبي قلت: روى البغوي بإسناد الثعلبي، وما كان فيه من أحاديث زائدة وألفاظ متغيرة ناعتمده فإني اجتهدت في تصحيح ما أخرجته من الكتب المعتبرة عند العلماء كالجمع بين الصحيحين للحميدي وكتاب جامع الأصول لابن الأثير الجزري، ثم إني عوضت عن حذف الإسناد شرح غريب الحديث، وما يتعلق به ليكون أكمل فائدة في هذا الكتاب وأسهل على الطلاب، وسقته بأبلغ ما قدرت عليه من الإيجاز وحسن الترتيب مع التسهيل والتقريب.
وينبغي لكل مؤلّف كتاباً في فن قد سبق إليه أن لا يخلو كتابه من خمس فوائد استنباط شيء كان معضلاً أو جمعه إن كان متفرقاً، أو شرحه إن كان غامضاً، أو حسن نظم وتأليف أو إسقاط حشو وتطويل وأرجو أن لا يخلو هذا الكتاب عن هذه الخصال التي ذكرت وسميته [لباب التأويل في معاني التنزيل] والله تعالى أسأل التوفيق لإتمام ما قصدت، وإليه أرغب في تيسير ما أردت، وأن يجعله خالصاً لوجهه الكريم، وأن يتقبله مني إنه هو السميع العليم، وهو حسبي ونعم الوكيل، عليه توكلت وإليه أنيب، وقبل أن أشرع في الكلام على التفسير أقدم مقدمة تتضمن ثلاثة فصول:

الفصل الأول: في فضل القرآن وتلاوته وتعليمه:

(م) عن زيد بن أرقم قال قام رسول الله ﷺ يوماً فينا خطيباً بماء يدعى خمّاً بين مكة والمدينة فحمد الله وأثنى عليه ووعظ وذكر ثم قال: «أما بعد ألا أيها الناس إنما أنا بشر يوشك أن يأتيني رسول ربي فأجيب وإني تارك فيكم

فجمعت بعون الله تعالى وحُسن توفيقه فيما سألوا كتاباً متوسطاً بين الطويل الممل، والقصير المخل، أرجو أن يكون مفيداً لمَن أقبل على تحصيله مزيداً، وما نقلت فيه من التفسير عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما حبر هذه الأمة، ومن بعده من التابعين، وأئمة السلف مثل: مُجاهد وعِكرمة وعطاء بن أبي رباح والحسن البصري رضي الله عنهما، وقتادة وأبي العالية ومحمد بن كعب القرظي، وزيد بن أسلم والكلبي والضحّاك، ومقاتل بن حيان ومقاتل بن سليمان والسدي وغيرهم، فأكثرها مما أخبرني الشيخ أبو سعيد أحمد بن محمد الشّرَيحي الخوارزمي فيما قرأته عليه، عن الأستاذ أبي إسحق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي عن شيوخه، أما تفسير عبد الله بن عباس رضي الله عنهما ترجمان القرآن، الذي قال فيه النبي ﷺ: «اللّهمّ علّمه الكتابَ وقال: اللّهمّ فقّهه في الدين»، وقال أبو إسحاق: أخبرنا أبو محمد بن عبد الله بن حامد، أنا أبو الحسن أحمد بن محمد بن عبدوس الطوائفي، ثنا عثمان بن سعيد الدارمي، ثنا عبد الله بن صالح: أن معاوية بن صالح حدّثه عن علي بن أبي طلحة الوالبي عن عبد الله بن عباس، وقال: أنا أبو القاسم الحسن بن حبيب، ثنا عبد الله بن محمد الثقفي أنا أبو جعفر محمد بن نَضْرَوَيْه المازني، أنا محمد بن سعيد بن محمد بن الحسن بن عطية سعد العوفي، قال: حدّثني عمّي الحسين بن الحسن بن عطية، حدّثني أبي عن جدّي عطية عن ابن عباس، وقال الثعلبي: ثنا أبو القاسم الحسن بن محمد بن الحسن النيسابوري، أنا أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي الصريمي المروزي، أنا أبو العباس أحمد بن

ثقلين أولهما كتاب الله فيه الهدى والنور فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به» فحث على كتاب الله ورغب فيه ثم قال: «وأهل بيتي أذكركم الله في أهل بيتي أذكركم الله في أهل بيتي زاد في رواية كتاب الله فيه الهدى والنور من استمسك به وأخذ به كان على الهدى ومن أخطأه ضل» وفي رواية: كتاب الله هو حبل الله من اتبعه كان على الهدى، ومن تركه كان على ضلالة، وفي رواية الترمذي عنه قال قال رسول الله ﷺ: «إني تارك فيكم ما إنّ تمسكتم به لن تضلوا بعدي أحدهما أعظم من الآخر وهو كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض وعترتي أهل بيتي لن يفترقا حتى يردا عليَّ الحوض فانظروا كيف تخلفوني فيهما» (م) عن عمر بن الخطاب قال أما إن نبيكم ﷺ قال: «إن الله تعالى يرفع بهذا الكتاب أقواماً ويضع به آخرين» وعن الحارث الأعور قال: مررت في المسجد فإذا الناس يخوضون في الأحاديث فدخلت على عليّ فقلت يا أمير المؤمنين ألا ترى الناس قد خاضوا في الأحاديث قال: أوقد فعلوها قلت نعم قال أما إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: ألا إنها ستكون فتنة فقلت ما المخرج منها يا رسول الله قال: كتاب الله فيه نبأ ما كان قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم والفصل ليس بالهزل من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله، وهو حبل الله المتين وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا تشبع منه العلماء، ولا يخلق عن كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه. هو الذي لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا: إنا سمعنا قرآناً عجباً يهدي إلى الرشد فآمنا به من قال به صدق ومن عمل به أجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هدي إلى صراط مستقيم خذها إليك يا أعور. أخرجه الترمذي وقال: حديث غريب وإسناده مجهول وفي الحارث مقال.

(قوله هو الفصل) أي الفاصل بين الحق والباطل ليس بالهزل أي هو جد كله ليس فيه شيء من الهزل، والجبار في صفة الآدمي هو المتسلط العاتي المتكبر على الناس، قصمه الله أي أهلكه.

(قوله وهو حبل الله المتين) الحبل يرد على وجوه منها العهد ومنها الأمان فإذا اعتصم به الإنسان آواه الله تعالى إلى جواره والذكر الشرف والحكيم المحكم العاري من الاختلاف والاضطراب، والصراط المستقيم الطريق

الحضر الصيرفي، أنا أبو داود سليمان بن معبد السنجي، أنا علي بن الحسين بن واقد عن يزيد النحوي، عن عكرمة عن ابن عباس.

وأما تفسير مجاهد بن حبر المكّي: قال أبو عبد الله محمد بن أحمد بن بطّة، ثنا عبد الله بن محمد بن زكريا ثنا سعيد بن يحيىٰ بن سعيد الأموي، ثنا مسلم بن خالد الزنجي عن ابن أبي نجيح عن مجاهد.

وأما تفسير عطاء بن أبي رباح: قال ثنا أبو القاسم الحسن بن محمد بن حسن النيسابوري، ثنا أبو القاسم عبد الرحمن بن ياسين بن الجراح الطبري، أنا أبو محمد بن بكر بن مستهل الدمياطي، ثنا عبد الغني بن سعيد الثقفي عن أبي محمد موسى بن عبد الرحمن الصغاني، عن أبي جريج عن عطاء بن أبي رباح.

وأما تفسير الحسن البصري قال: حدّثني أبو القاسم الحسن البصري قال: حدّثني أبو القاسم الحسين بن محمد بن عبد الله بن الملكيب، حدّثني أبي أنا أبو الحسن محمد بن أحمد الصلة المعروف بابن شبود المقدئي، ثنا سعيد بن محمد، ثنا المنهل بن واصل عن أبي صالح عن عمرو بن عبيد عن الحسن بن أبي الحسن البصري.

وأما تفسير قتادة قال: أنا أبو محمد عبد الله بن حامد محمد بن الأصبهاني، أنا أبو علي حامد بن محمد بن الهروي، ثنا أبو يعقوب إسحق بن الحسن بن ميمون الحربي، ثنا أبو محمد الحسين بن محمد المروزي، ثنا

الواضح، ومعنى لا تزيغ به الأهواء أي لا يميل عن الحق، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الرجل الذي ليس في جوفه شيء من القرآن كالبيت الخرب» أخرجه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح (خ) عن عثمان عن النبي ﷺ قال: «خيركم من تعلم القرآن وعلمه» (ق) عن عائشة قالت قال رسول الله ﷺ: «الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة والذي يقرأ القرآن ويتمتع فيه وهو عليه شاق له أجران».

(قوله الماهر بالقرآن) يعني الحاذق الكامل الحفظ الجيد التلاوة، وقوله: مع السفرة جمع سافر وهو الرسول من الملائكة سمي بذلك لأنه يسفر برسالات الله إلى أنبيائه وقيل السفرة الكتبة من الملائكة والبررة المطيعون لله تعالى فيما يأمر، به ومعنى كونه من الملائكة أن له منازل في الجنة يكون فيها رفيقاً لهم. وقوله: يتعتع أي يتردد في تلاوته لضعف حفظه. له أجران: يعني يحصل له أجر بسبب القراءة وأجر بسبب تعبه فيها والمشقة التي تحصل له فيها وليس معناه أن له أجراً أكثر من الماهر، بل الماهر أفضل منه وأكثر أجراً (ق) عن أبي موسى الأشعري أن النبي ﷺ قال: مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن كمثل الأترجة طعمها طيب، وريحها طيب ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن كمثل التمرة طعمها طيب ولا ريح لها، ومثل الفاجر الذي يقرأ القرآن كمثل الريحانة ريحها طيب ولا طعم لها، ومثل الفاجر الذي لا يقرأ القرآن، كمثل الحنظلة طعمها مر ولا ريح لها فيه دليل على فضيلة حفاظ القرآن واستحباب ضرب الأمثال لإيضاح المقاصد، عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ حرفاً من كتاب الله فله حسنة والحسنة بعشر أمثالها لا أقول الم حرف ولكن ألف حرف ولام حرف وميم حرف» أخرجه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح غريب، وقد رفعه بعضهم عن ابن مسعود، ووقفه بعضهم عليه عن ابن عباس قال: قال رجل يا رسول الله أي الأعمال أحب إلى الله تعالى؟ قال «الحالّ المرتحل». قال: وما الحال المرتحل؟ قال: «الذي يضرب من أول القرآن إلى آخره كلما حل ارتحل». أخرجه الترمذي عن عبدالله بن عمرو بن العاص قال قال رسول الله ﷺ: «يقال لصاحب القرآن اقرأ وارق ورتل كما كنت ترتل في الدنيا فإن منزلك عند الله آخر آية تقرؤها» أخرجه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح. عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «يجيء القرآن يوم القيامة فيقول يا

شبان بن عبد الرحمن النحوي عن قتادة، وقال ثنا عائشة أبو القاسم الحبيبي: أنا أبو زكريا العنبري، ثنا جعفر بن محمد سوار، أنا محمد بن رافع عن عبد الرزّاق عن معمر عن قتادة بن دعامة السدوسي.

وأما تفسير أبي العالية واسمه رفيع بن مهران، قال: ثنا أبو القاسم الحسن بن محمد بن الحسن المفسّر أنا أبو عمر أحمد بن محمد بن منصور العمركي بن حسن، ثنا أبو الحسن أحمد بن إسحاق بن إبراهيم بن مزيد السَّرْخَسِي أنا أبو علي الحسن محمد بن موسى الأزْدي، عن عمّار بن الحسن بن بشير الهمداني، عن عبد الله بن أبي جعفر عن أبيه عن الربيع بن أنس عن أبي عالية الرّياحي.

وأما تفسير القرظي، قال: ثنا أبو القاسم الحسن بن محمد بن حبيب عن أُبي، ثنا أبو العباس محمد بن الحسن الهروي، ثنا رجاء بن عبد الله، أنا مالك بن سليمان الهروي عن أبي معشر عن محمد بن كعب القرظي.

وأما تفسير زيد بن أسلم قال: أنا الحسن بن محمد بن الحسن قال: كتب إليّ أحمد بن كامل بن خلف بن محمد بن جرير الطبري حدّثتهم، قال: ثنا يونس بن عبد الأعلى الصيرفي، أنا عبد الله بن وهب أخبرني عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه.

وأما تفسير الكلبي: فقد قرأت بمرو على الشيخ أبي عبد الله محمد بن الحسن المروزي في شهر رمضان سنة أربع وستّين وأربعمائة، قال: أنا أبو مسعود محمد بن أحمد بن محمد بن يونس الخطيب الكشمهيني، في محرّم

رب حله فيلبس تاج الكرامة ثم يقول يا رب زده فيلبس حلة الكرامة ثم يقول يا رب ارض عنه فيرضى عنه فيقال اقرأ وارق ويزاد بكل آية حسنة» أخرجه الترمذي وقال: حديث حسن عن سهل بن معاذ الجهني عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال: «من قرأ القرآن وعمل به ألبس والداه يوم القيامة تاجاً ضوءه أحسن من ضوء الشمس في بيوت الدنيا لو كانت فيكم فما ظنكم بالذي عمل بهذا» أخرجه أبو داود عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «من قرأ القرآن فاستظهره فأحل حلاله وحرم حرامه أدخله الله به الجنة، وشفعه في عشرة من أهل بيته كلهم قد وجبت لهم النار» أخرجه الترمذي وقال: حديث غريب وليس له إسناد صحيح (ق) عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أذن الله لشيء كإذنه لنبي يتغنى بالقرآن يجهر به» معنى أذن في اللغة استمع ولا نحمله على الإصغاء فإنه يستحيل على الله تعالى بل هو كناية عن تقريبه قارىء القرآن وإجزال ثوابه في ذلك وذلك لأن سماع الله لا يختلف فموجب تأويل الحديث، وقوله يتغنى بالقرآن أي يحسن صوته به ويكون ذلك مع تحزين وترقيق في القراءة، وقيل معناه يستغنى به عن الناس، والقول الأول أولى ويدل عليه سياق الحديث وهو قوله يجهر به (خ) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس منا من لم يتغنَّ بالقرآن».

الفصل الثاني في وعيد من قال في القرآن برأيه من غير علم ووعيد من أوتي القرآن فنسيه ولم يتعهده:

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «من قال في القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار» وفي رواية: من قال في القرآن برأيه؛ أخرجه الترمذي وقال: حديث حسن (قوله فليتبوأ) معناه فليتخذ له مباءة أي منزلاً من النار. عن جندب بن عبدالله قال: قال رسول الله ﷺ: «من قال في كتاب الله عزّ وجلّ برأيه فأصاب فقد أخطأ» أخرجه أبو داود والترمذي وقال: حديث غريب وسأل أبو بكر الصديق رضي الله عنه عن قوله تعالى ﴿وفاكهة وأبّاً﴾ فقال: أي سماء تظلني وأي أرض تقلني إذا قلت في كتاب الله بغير علم. قال العلماء: النهي عن

سنة خمسين وأربعمائة، قال: أنا أبو إسحق بن إبراهيم بن أحمد بن محمد بن معروف الهرمروزي، ثنا محمد بن علي الأنصاري المفسّر ثنا علي بن إسحق وصالح بن محمد السمرقندي، قالا: ثنا محمد بن مروان عن محمد بن السائب الكلبي عن أبي نضر عن أبي صالح أنا ذاذان مولى أُم هانىء بنت أبي طالب عن ابن عباس.

وأما تفسير الضحّاك بن مزاحم الهلالي، قال: أنا أستاذ إسحق الثعلبي ثنا أبو القاسم الحسن بن محمد السدوسي، ثنا أبو عمر وأحمد بن محمد العمركي بن حسن، ثنا جعفر بن محمد سوار ثنا أحمد بن محمد بن جميل المروزي، ثنا أبو معاذ عن عبيد بن سليمان الباهلي عن الضحّاك.

وأما تفسير مقاتل بن حيان قال: أنا عبد الله بن حامد الوزاني ثنا أحمد بن محمد بن عبدوس، ثنا إسماعيل بن قتيبة ثنا أبو خالد يزيد بن صالح الفرّاء النيسابوري، حدّثنا بكير بن معروف البلخي الأزدي، ثنا أبو معاذ عن مقاتل بن حيان.

وأما تفسير مقاتل بن سليمان قال: أخبرنا أبو إسحق إبراهيم بن محمد المهرجاني، أنا أبو محمد عبد الخالق بن الحسن بن محمد السقيطي المعروف بابن أبي رؤية، ثنا عبد الله بن ثابت بن يعقوب المقري، هكذا المقري، أبو محمد قال: ثنا أبو محمد حدّثني أبو الهُذيل بن حبيب أبو صالح الزيداني، عن مقاتل بن سليمان.

القول في القرآن: الرأي إنما ورد في حق من يتأول القرآن على مراد نفسه وما هو تابع لهواه وهذا لا يخلو إما أن يكون عن علم أو لا، فإن كان عن علم كمن يحتج ببعض آيات القرآن على تصحيح بدعته وهو يعلم أن المراد من الآية غير ذلك لكن غرضه أن يلبس على خصمه بما يقوي حجته على بدعته كما يستعمله الباطنية والخوارج وغيرهم من أهل البدع في المقاصد الفاسدة ليغروا بذلك الناس، وإن كان القول في القرآن بغير علم لكن عن جهل وذلك بأن تكون الآية محتملة لوجوه فيفسرها بغير ما تحتمله من المعاني والوجوه. فهذان القسمان مذمومان وكلاهما داخل في النهي والوعيد الوارد في ذلك فأما التأويل وهو صرف الآية على طريق الاستنباط إلي معنى يليق بها محتمل لما قبلها وما بعدها وغير مخالف للكتاب والسنة فقد رخص فيه أهل العلم، فإن الصحابة رضي الله عنهم قد فسروا القرآن واختلفوا في تفسيره على وجوه وليس كل ما قالوه سمعوه من النبي ﷺ ولكن على قدر ما فهموا من القرآن تكلموا في معانيه وقد دعا النبي ﷺ لابن عباس فقال: «اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل» فكان أكثر ما نقل عنه التفسير (ق) عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «تعاهدوا هذا القرآن فوالذي نفس محمد بيده لهو أشد تفلتاً من الإبل في عقلها» (ق) عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «إنما مثل صاحب القرآن كمثل صاحب الإبل المعلقة إن تعاهد عليها أمسكها وإن أطلقها ذهبت الإبل المعلقة التي حبست بالعقال» وهذا مثل ضربه لصاحب القرآن ففيه الحث على تعاهده بكثره التلاوة والتكرار لئلا ينسى (ق) عن عبدالله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «بئسما لأحدكم أن يقول نسيت آية كيت وكيت بل هو نسي استذكروا القرآن فإنه أشد تفصّياً من صدور الرجال من النعم من عقلها» وفي رواية لا يقل أحدكم نسيت آية كذا وكذا بل هو نسي.

(قوله بئسما لأحدكم): أي بئست الحالة حالة من حفظ القرآن ثم غفل عنه حتى نسيه (قوله لا يقل أحدكم نسيت آية كذا وكذا) معناه إنما كره نسبة النسيان إلى النفس لأجل أن الله تعالى هو المقدر للأشياء كلها وهو الذي أنساه وإياه. وقيل أصل النسيان الترك فكره أن يقول تركت القرآن أو قصدت إلى نسيانه، وقوله: بل نُسّيَ هو بضم النون وتشديد السين وفتح الياء أي عوقب بالنسيان على ذنب صدر منه أو لسوء تعهده القرآن وقوله أشد تفصياً أي خروجاً من صدور الرجال وفي معناه تفلتا من الإبل في عقلها أي تخلصاً من العقال وهو الحبل الذي تربط به، عن سعد بن عبادة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «ما من امرىء يقرأ القرآن ثم ينساه إلاّ لقي الله يوم القيامة

وأما تفسير السّدي قال: ثنا أبو القاسم حسن بن محمد بن الحسن، أنا أبو الطيب محمد بن عبد الله بن مبارك الشعيري، ثنا أحمد بن محمد بن نصر اللباد، ثنا عمرو بن طلحة القناد، عن أسباط عن السدي.

وأما ما نقلته عن المبتدأ لِوهب بن منبّه، وعن المغازي لمحمد بن إسحق: فأخبرينه أبو سعيد الشّريحي قال: أنا أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي، قال: أنبأني أبو نعيم عبد الملك بن الحسن بن محمد بن إسحق الأزهري، أنا أبو محمد الحسن بن محمد بن إسحق بن راهويه بن أُخت أبي عُوانة، أنا أبو الحسن محمد بن حمد بن البراء العبدي، قال: قرأت على أبي عبد الله عبد المنعم بني إدريس، عن أبيه عن وهب بن منبّه، وأنا أبو سعيد الشريحي أنا أبو إسحق الثعلبي أنا أبو عبد الله محمد بن عبد الله الحافظ، أنا أبو العباس محمد بن يعقوب بن يوسف المعقلي ثنا أحمد بن عبد الجبار العطاردي، أنا يونس بن بكير عن محمد بن إسحق بن يسار المدني، وأنا أبو سعيد الشريحي، قال أبو إسحق الثعلبي: أنا أبو محمد عبد الله بن محمد بن أحمد بن عقيل الأنصاري، أنا أبو الحسن علي بن الفضل الخزاعي، أنا أبو شعيب بن عبد الله بن الحسن الحرّاني، أنا النقيلي أنا محمد بن سلمة عن محمد بن إسحق.

أجذم». أخرجه أبو داود الأجذم. قيل هو مقطوع اليد، وقيل هو مقطوع الحجة وقيل هو الذي به جذام. عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «عرضت على أجور أمتي حتى القذاة يخرجها الرجل من المسجد، وعرضت على ذنوب أمتي فلم أر فيها ذنباً أعظم من سورة من القرآن أو آية أوتيها رجل ثم نسيها» أخرجه أبو داود والترمذي وقال حديث غريب (ق) عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «لا تسافروا بالقرآن إلى أرض العدو مخافة أن ينال بسوء».

أراد بالقرآن المصحف فلا يجوز حمله إلى أرض العدو وهي بلاد الكفار للنهي الوارد فيه ولو كتب كتاباً إليهم فيه آية من القرآن فلا بأس بذلك لأن النبي ﷺ كتب إلى هرقل ملك الروم: ﴿**قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم**﴾.

عن عمران بن حصين أنه مر على رجل يقرأ ثم سأل فاسترجع ثم قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من قرأ القرآن فليسأل الله به، فإنه سيجيء أقوام يقرؤون القرآن يسألون به الناس» أخرجه الترمذي عن صهيب قال قال رسول الله ﷺ: «ما آمن بالقرآن من استحل محارمه» أخرجه الترمذي وقال ليس إسناده بالقوي. عن عقبة بن عامر قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الجاهر بالقرآن كالجاهر بالصدقة، والمسر بالقرآن كالمسر بالصدقة» أخرجه الترمذي وقال: حديث حسن غريب.

الفصل الثالث في جمع القرآن وترتيب نزوله وفي كونه نزل على سبعة أحرف:

(خ) عن زيد بن ثابت قال: بعث إليَّ أبو بكر لمقتل أهل اليمامة وعنده عمر فقال أبو بكر إنْ عمر جاءني فقال: إن القتل قد استحرَّ يوم اليمامة بقراء القرآن وإني أخشى أن يستحر القتل بالقراء في كل المواطن فيذهب من القرآن كثير، وإني أرى أن تأمر بجمع القرآن قال قلت لعمر كيف أفعل شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ فقال عمر: هو والله خير، فلم يزل يراجعني في ذلك حتى شرح الله صدري للذي شرح له صدر عمر، ورأيت في ذلك الذي رأى عمر. قال زيد: فقال لي أبو بكر إنك رجل شاب عاقل لا نتهمك، قد كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ فتتبع القرآن فاجمعه قال زيد: فوالله لو كلفني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل عليَّ مما أمرني به من جمع القرآن،

فهذه أسانيد أكثر ما نقلته عن هؤلاء الأئمة وهي مسموعة من طرق سواها، تركت ذكرها حذراً من الإطالة، وربما حكيت عنهم أو عن غيرهم من الصحابة أو التابعين قولاً سمعته بغير هذه الأسانيد بعضها في موضعه من الكتاب إن شاء الله تعالى عزّ وجلّ.

ثم إن النّاس كما أنهم مُتَعَبَّدُون باتّباع أحكام القرآن، وحفظ حدوده فهم مُتعبدُون بتلاوتِهِ وحفظ حروفه على سُنن خط المصحف، أعني الإمام الذي اتّفقت عليه الصحابة وأنْ لا يجاوزوا فيما يوافق الخط ما قرأ به القرّاء المعروفون الذين خلفوا الصحابة والتابعين، واتفقت الأئمة على اختيارهم، وقد ذكرت في الكتاب قراءة مَن اشتهر منهم بالقراآت واختياراتهم، على ما قرأته على الإمام أبي نَصْر محمد بن أحمد بن علي المقري المرُوزي، رحمة الله عليه، تلاوةً وروايةً، قال: قرأت على أبي القاسم ظاهر بن علي الصرفي، قال: قرأت على أبي بكر أحمد بن الحسين بن مهران بإسناده المذكور، في كتابه المعروف بكتاب العناية، وهم أبو جعفر يزيد بن القعقاع، وأبو عبد الرحمن نافع بن عبد الرحمن المدنيان، وأبو معبد عبد الله بن كثير الداري المكّي، وأبو عمران عبد الله بن عامر الشامي، وأبو عمرو زبان بن العلاء المازني العطار، وأبو محمد بن يعقوب بن إسحق الحضرمي البصريان،

فقلت كيف تفعلان شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ؟ فقال أبو بكر هو والله خير، فلم يزل أبو بكر يراجعني حتى شرح الله صدري للذي شرح له صدر أبي بكر، وفي رواية فلم يزل عمر يراجعني حتى شرح الله صدري للذي شرح له صدر أبي بكر وعمر، ورأيت في ذلك الذي رأيا.

قال: فتتبعت القرآن أجمعه من الرقاع والعسب واللخاف وصدور الرجال حتى وجدت آخر سورة التوبة مع خزيمة أو مع أبي خزيمة الأنصاري، فلم أجدها مع أحد غيره لقد جاءكم رسول من أنفسكم إلى آخر براءة فألحقتها في سورتها.

قال: فكانت الصحف عند أبي بكر حياته حتى توفاه الله، ثم عند عمر حياته حتى توفاه الله، ثم عند حفصة بنت عمر.

قال بعض الرواة: اللخاف يعني الخزف (خ) عن أنس أن حذيفة بن اليمان قدم على عثمان وكان يغازي أهل الشام في فتح أرمينية وأذربيجان مع أهل العراق، فأفزع حذيفة اختلافهم في القراءة فقال حذيفة لعثمان: يا أمير المؤمنين أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى، فأرسل عثمان إلى حفصة أن أرسلي إلينا بالصحف ننسخها في المصاحف ثم نردها إليك، فأرسلت بها إليه فأمر زيد بن ثابت وعبدالله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبدالرحمن بن الحارث بن هشام رضي الله عنهم فنسخوها في المصاحف، وقال عثمان للرهط القرشيين: إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش، فإنما نزل بلسانهم، ففعلوا حتى إذا نسخوا الصحف في المصاحف رد عثمان الصحف إلى حفصة، وأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا، وأمر بما سوى ذلك من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يحرق.

قال ابن شهاب: وأخبرني خارجة بن زيد أنه سمع زيد بن ثابت يقول فقدت آية من سورة الأحزاب حين نسخت الصحف قد كنت أسمع رسول الله ﷺ يقرأ بها، فالتمسناها فوجدناها مع خزيمة بن ثابت الأنصاري من المؤمنين ﴿**رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه**﴾ فألحقناها في سورتها في المصحف قال في رواية ابن اليمان مع خزيمة بن ثابت الذي جعل رسول الله ﷺ شهادته رجلين، زاد في رواية قال ابن شهاب: اختلفوا يومئذٍ في التابوت

وأبو بكر عاصم بن أبي النجود الأسدي، وأبو عمارة حمزة بن حبيب الزيّات، وأبو الحسن علي بن حمزة الكسائي الكوفيون.

فأما أبو جعفر فإنه أخذ القراءة عن عبد الله بن عباس وأبي هريرة وغيرهما، وهم قرأوا على أُبي بن كعب، وأما نافع فإنه قرأ على أبي جعفر القاري، وعبد الرحمن بن هرمز الأعرج قرأ على أبي هريرة، وقرأ أبو هريرة على أُبيّ بن كعب، وأمّا عبد الله بن كثير فإنه قرأ على مجاهد بن جبير، وقرأ مجاهد على ابن عباس، وقرأ ابن عباس على أُبيّ بن كعب، وقرأ أُبيّ بن كعب على رسول الله ﷺ، وأما عبد الله بن عامر فإنه قرأ على المغيرة بن أبي شعاب المخزومي، وقرأ المغيرة على عثمان بن عفّان، وأما عاصم فإنه قرأ على أبي عبد الرحمن السُّلَمي، وقرأ أبو عبد الرحمن على علي بن أبي طالب، قال عاصم: فكنت أرجع من عند أبي عبد الرحمن فأقرأ على ذرّ بن حُبيش، وكان ذَر قد قرأ على عبد الله بن مسعود، وأما حمزة فإنه قرأ على عبد الرحمن بن أبي ليلى وسليمان بن مهران الأعمش وعمدان بن الأعين وغيرهم، وقرأ عبد الرحمن بن أبي ليلى على جماعة من أصحاب علي، وقرأ سليمان بن الأعمش على يحيىٰ بن وثاب، وقرأ يحيىٰ على جماعة من أصحاب عبد الله، وقرأ عمدان على أبي الأسود الـدؤلي، وقرأ أبو الأسود الـدؤلي على عثمان وعلي، وأما الكسائي فإنه قرأ على حمزة، وأما يعقوب فإنه

فقال زيد التابوه وقال عبدالله بن الزبير وسعيد بن العاص التابوت، فرفع اختلافهم إلى عثمان فقال: اكتبوه التابوت فإنه بلسان قريش.

(شرح غريب ألفاظ الحديثين وما يتعلق بهما) (قوله بعث إلى أبو بكر لمقتل أهل اليمامة) أي لأوان قتلهم وأراد به الوقعة التي كانت باليمامة في زمن أبي بكر الصديق. وهي وقعة الردة مع أصحاب الردة فقتل فيها خلق كثير من قراء القرآن. واليمامة مدينة باليمن على يومين من الطائف وعلى أربعة أيام من مكة، ولها عمائر وهي في عداد أرض نجد (قوله استحرَّ القتل) أي كثر، وينسب المكروه إلى الحر والمحبوب إلى البرد. وشرح الصدر سعته وقبوله الخير (قوله فتتبعت القرآن جمعه من الرقاع) جمع رقعة، وهي ما يكتب فيها، والعسب بضم العين والسين المهملتين جمع عسيب وهو جريد النخل وسعفه، واللخاف حجارة بيض رقاق واحدته لخفة. (قوله يغازي أهل الشام) أي مع أهل الشام في فتح إرمينية بكسر الهمزة وتخفيف الياء لا غير، سميت بارمين بن لمطي بن لومن بن يافث بن نوح وهو أول ما نزل بها سميت باسمه وآذربيجان بفتح الهمزة وسكون الذال وغير ذلك في ضبطها. وقال ابن جني فيها خمسة موانع من الصرف: التعريف والتأنيث والعجمة والتركيب والألف والنون، وهو موضع من بلاد العجم يشتمل على بلاد كثيرة.

(قوله حتى وجدت آخر سورة التوبة مع خزيمة) أو مع أبي خزيمة الأنصاري. وفي الحديث الآخر فقدت آية من سورة الأحزاب إلى قوله فوجدناها مع خزيمة بن ثابت الأنصاري ﴿**من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه**﴾ الآية فاعلم أن المذكور في الحديث الأول غير المذكور في الحديث الثاني وهما قضيتان، فأما المذكور في الحديث الأول فهو أبو خزيمة بن أوس بن زيد بن أصرم بن ثعلبة بن عمر بن مالك بن النجار الأنصاري، شهد بدراً وما بعدها، وتوفي في خلافة عثمان، وهو الذي وجدت عنده آخر سورة التوبة، كذا ذكره ابن عبد البر.

وأما المذكور في الحديث الثاني فهو أبو عمارة خزيمة بن ثابت بن الفاكه بن ثعلبة بن ساعدة الخطمي الأوسي الأنصاري يعرف بذي الشهادتين شهد بدراً، وما بعدها وقتل يوم صفين مع علي بن أبي طالب.

قرأ على أبي المنذر سلام بن سليمان الخُراساني، وقرأ سلّام على عاصم، فذكرت قراءة هؤلاء للاتفاق على جواز القراءة بها. وما ذكرت من أحاديث رسول الله ﷺ في أثناء الكتاب على وِفاق آية أو بيان حكم، فإنَّ الكتاب يطلب بيانه من السُّنّة، وعليهما مدار الشرع وأمور الدين، فهي من الكتب المسموعة للحفّاظ وأئمة الحديث، وأعرضت عن ذكر المناكير وما لا يليق بحال التفسير، فأرجو أن يكون مباركاً على مَن أراده وبالله التوفيق.

فصل في فضائل القرآن وتعليمه

أنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أبو محمد عبد الرحمن بن أبي شُريح، أنا أبو القاسم عبد الله بن محمد بن عبد العزيز البغوي، ثنا علي بن الجعد أنا شعبة عن علقمة بن مرثد، قال: سمعت سعد بن عبيدة يحدّث عن أبي عبد الرحمن السُّلمي عن عثمان، قال شعبة: قلت: عن النبي ﷺ؟ قال: نعم، قال: «خيركم مَن تعلّم القرآن وعلّمه» صحيح أخرجه البخاري عن الحجّاج بن منهال عن شعبة، أنا أبو بكر محمد بن عبد الصمد الترابي، أنا أبو محمد عبد الله بن أحمد حموية السرخسي، أنا أبو إسحق إبراهيم بن حزيم الشاشي، أنا أبو محمد عبد بن حميد الشاشي، ثنا حسين بن علي الجعفي، قال: سمعت حمزة الزيّات عن أبي المختار الطائي عن ابن أخي الحارث الأعور عن الحارث الأعور، قال: مررت في المسجد فإذا الناس يخوضون في الأحاديث، فدخلت على

(قوله فقدت آية من سورة الأحزاب إلى قوله فوجدنا مع خزيمة) معناه أنه كان يطلب نسخ القرآن من الأصل الذي كتب بأمر النبي ﷺ وبين يديه فلم يجد تلك الآية إلاّ مع خزيمة، وليس فيه إثبات القرآن بقول الواحد لأن زيداً كان قد سمعها من رسول الله ﷺ وعلم موضعها من سورة الأحزاب بتعليم رسول الله ﷺ كما صرح به الحديث قد كنت أسمع رسول الله ﷺ يقرأ بها وتتبعه الرجال كان للاستظهار لا لاستحداث علم لأن القرآن العظيم كان محفوظاً عند زيد وغيره من الصحابة فقد ثبت في الصحيح عن أنس قال: جمع القرآن على عهد رسول الله ﷺ أربعة كلهم من الأنصار أبيّ بن كعب ومعاذ بن جبل وأبو زيد وزيد يعني ابن ثابت قلت لأنس من أبو زيد؟ قال أحد عمومتي أخرجاه في الصحيحين اسم أبي زيد سعد بن عبيد. وأخرج الترمذي من حديث ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «خذوا القرآن من أربعة من ابن مسعود وأبيّ بن كعب ومعاذ بن جبل وسالم مولى أبي حذيفة قال: حديث حسن صحيح وتقدم حديث زيد بن ثابت وفيه أنه استحرَّ القتل بقراء القرآن، فثبت بمجموع هذه الأحاديث أن القرآن كان على هذا التأليف والجمع في زمن رسول الله ﷺ وإنما ترك جمعه في مصحف واحد لأن النسخ كان يرد على بعضه ويرفع الشيء بعد الشيء من التلاوة كما كان ينسخ بعض أحكامه فلم يجمع في مصحف واحد ثم لو رفع بعض تلاوته أدى ذلك إلى الاختلاف واختلاط أمر الدين، فحفظ الله كتابه في القلوب إلى انقضاء زمن النسخ، ثم وفق لجمعه الخلفاء الراشدين رضي الله تعالى عنهم، وثبت بالدليل الصحيح أن الصحابة إنما جمعوا القرآن بين الدفين كما أنزله الله عزّ وجلّ على رسوله ﷺ من غير أن زادوا فيه أو نقصوا منه شيئاً. والذي حملهم على جمعه ما جاء مبيناً في الحديث وهو أنه كان مفرقاً في العسب واللخاف وصدور الرجال فخافوا ذهاب بعضه بذهاب حفظته، ففزعوا إلى خليفة رسول رب العالمين ﷺ أبي بكر فدعوا إلى جمعه، فرأى في ذلك رأيهم فأمر بجمعه في موضع واحد باتفاق من جميعهم، فكتبوا كما سمعوه من رسول الله ﷺ من غير أن قدموا أو أخروا شيئاً ووضعوا له ترتيباً لم يأخذوا من رسول الله ﷺ وكان رسول الله ﷺ يلقن أصحابه ويعلمهم ما ينزل عليه من القرآن على الترتيب الذي هو الآن في مصاحفنا بتوقيف جبريل عليه السلام إياه على ذلك، وإعلامه عند نزول كل آية أن هذه الآية، تكتب عقب آية كذا في سورة كذا، فثبت أن سعي الصحابة كان في جمعه في موضع واحد لا في ترتيبه، فإن القرآن

عليّ رضي الله عنه، فقلت: يا أمير المؤمنين، ألا ترى أن الناس قد خاضوا في الأحاديث؟ قال: أو قد فعلوها؟ قلت: نعم، قال: أمَا إني قد سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ألا إنها ستكون فتنة، فقلت: فما المخرج منها يا رسول الله؟ قال: كتاب الله فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم، وحُكم ما بينكم، هو الفصل ليس بالهزل، مَن تركه من جبار قصمه الله، ومَن ابتغى الهدى في غيره أضلّه الله، وهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، هو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة ولا تشبع منه العلماء، ولا يَخْلَقُ عن كثرة الردِّ، ولا تنقضي عجائبه، هو الذي لم تنته الجن ـ أي: لم يتوقفوا ـ في قبوله، وأنه كلام الله تعالى إذ سمعته حتى قالوا: إنّا سمعنا قرآناً عجباً يهدي إلى الرشد فآمنّا به، مَن قال به صدق ومَن عمل به أُجِر، ومَن حَكم به عدل، ومَن دعا إليه هُدي إلى صراطٍ مستقيم»، خذها إليك يا أعور، قال أبو عيسى: هذا الحديث لا نعرفه إلاّ من هذا الوجه، وإسناده مجهول، والحرث فيه مقال، أنا عبد الواحد بن أحمد المليحي، أنا أبو منصور محمد بن محمد بن السمعاني، أنا أبو جعفر محمد بن أحمد بن عبد الجبار الزياتي، ثنا حميد بن زنجويه ثنا إسحاق بن عيسى، قال: سمعت ابن لهيعة يقول: ثنا مسرح بن عاهان قال: سمعت عقبة بن عامر يقول: سمعت النبي ﷺ يقول: «لو كان القرآن في إهاب ما مسّته النار»، قيل معناه: مَن حمل القرآن وقرأه لم تمسّه النار يوم القيامة، أنا عبد الواحد المليحي، أنا أبو منصور السمعاني، أنا أبو جعفر الزياتي ثنا حميد بن زنجويه، ثنا جعفر بن عوف أنا إبراهيم بن مسلم عن أبي

مكتوب في اللوح المحفوظ على النحو الذي هو في مصاحفنا الآن، وقد صح في حديث ابن عباس أن النبي ﷺ كان يعرض القرآن على جبريل عليه السلام في كل عام مرة في رمضان، وأنه عرضه في العام الذي توفي فيه مرتين. ويقال إن زيد بن ثابت شهد العرضة الأخيرة التي عرضها رسول الله ﷺ على جبريل عليه السلام، وهي العرضة التي نسخ فيها ما نسخ وبقي فيها ما بقي. ولهذا أقام أبو بكر زيد بن ثابت في كتابة المصحف، وألزمه بها لأنه قرأ على النبي ﷺ في العام الذي توفي فيه مرتين فكان جمع القرآن سبباً لبقائه في الأمة رحمة من الله تعالى لعباده وتحقيقاً لوعده في حفظه على ما قال تعالى: ﴿**إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون**﴾ واعلم أن الله تعالى أنزل القرآن المجيد من اللوح المحفوظ جملة واحدة إلى سماء الدنيا في شهر رمضان في ليلة القدر، ثم كان ينزله مفرقاً على لسان جبريل عليه السلام إلى النبي ﷺ مدة رسالته نحو ما عند الحاجة وحدوث ما يحدث على ما شاء الله تعالى وترتيب نزول القرآن غير ترتيبه في التلاوة والمصحف، فأما ترتيب نزوله على رسول الله ﷺ فأول ما نزل من القرآن بمكة ﴿**اقرأ باسم ربك الذي خلق**﴾. ثم ﴿**نٓ والقلم**﴾ ثم ﴿**يا أيها المزمل**﴾. ثم المدثر. ثم ﴿**تبت يدا أبي لهب**﴾. ثم ﴿**إذا الشمس كورت**﴾. ثم ﴿**سبح اسم ربك الأعلى**﴾. ثم ﴿**والليل إذا يغشى**﴾ ثم ﴿**والفجر**﴾. ثم ﴿**والضحى**﴾. ثم ﴿**ألم نشرح**﴾ ثم ﴿**والعصر**﴾ ثم ﴿**والعاديات**﴾ ثم ﴿**إنا أعطيناك الكوثر**﴾ ثم ﴿**ألهاكم التكاثر**﴾ ثم ﴿**أرأيت الذي**﴾ ثم ﴿**قل يا أيها الكافرون**﴾. ثم ﴿**الفيل**﴾. ثم ﴿**قل هو الله أحد**﴾. ثم ﴿**والنجم**﴾. ثم ﴿**عبس**﴾. ثم سورة القدر. ثم سورة البروج. ثم التين. ثم ﴿**لإيلاف قريش**﴾. ثم ﴿**القارعة**﴾. ثم القيامة. ثم الهمزة. ثم المرسلات. ثم قٓ. ثم سورة البلد. ثم ﴿**الطارق**﴾ ثم ﴿**اقتربت الساعة**﴾ ثم ﴿**صٓ**﴾. ثم الأعراف. ثم الجن. ثم يسٓ. ثم الفرقان. ثم فاطر. ثم مريم. ثم طه. الواقعة. ثم الشعراء ثم النمل ثم القصص. ثم سورة بني إسرائيل. ثم يونس. ثم هود ثم يوسف. ثم الحجر. ثم الأنعام. ثم والصافات. ثم لقمان. ثم سبأ. ثم الزمر. ثم المؤمن. ثم السجدة. ثم حمٓ عسقٓ. ثم الزخرف. ثم الدخان. ثم الجاثية. ثم الأحقاف. ثم الذاريات. ثم الغاشية. ثم الكهف. ثم النحل. ثم نوح. ثم إبراهيم. ثم الأنبياء. ثم ﴿**قد أفلح المؤمنون**﴾. ثم تنزيل السجدة.

الأحوص، عن عبد الله بن مسعود قال: إن هذا القرآن مأدبة الله، فتعلّموا من مأدبته ما استطعتم، إن هذا القرآن حبل الله، والنور المبين والشفاء النافع، وعصمة لمَن تمسّك به ونجاة لمَن تبعه، لا يزيغ فيستعتب، ولا يعوج فيُقوّم، ولا تنقضي عجائبه، ولا يَخْلَقُ عن كثرة الرد، فاتلوه فإن الله عزّ وجلّ يأجركم على تلاوته بكل حرف عشر حسنات، أما أني لا أقول: آلٓمٓ ولكن الألف واللام والميم. رواه بعضهم عن ابن مسعود مرفوعاً أنا أبو جعفر أحمد ابن أبي أحمد بن مقوية، أنا الشريف أبو القاسم علي بن محمد بن علي الحسني الحرّاني فيما كتب إليّ، أنا أبو بكر محمد بن الحسين بن عبد الله الأجدي، ثنا أبو الفضل جعفر بن محمد بن الصدلي، ثنا الحسن بن محمد الزعفراني، ثنا علي بن عاصم عن إبراهيم الهَجَري، عن أبي الأحوص عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ بمعناه، أنا الإمام أبو علي الحسين بن القاضي ثنا أبو محمد عبد الله بن يوسف بن محمد بن ناموية الأصفهاني، أنا أبو محمد عبد الرحمن بن يحيىٰ القاضي الزهري بمكة، أنا محمد بن إسماعيل بن سالم الصائغ أنا سليمان بن داود الهاشمي، ثنا إبراهيم بن سعد عن ابن شهاب الزهري عن عامر بن واثلة بن الطفيل، أن نافع بن عبد الحارث لقي عمر بن الخطاب رضي الله عنه، بعسفان وكان عمر استعمله على مكة، فقال له عمر: مَن استخلفت على أهل الوادي؟ قال: استخلفت عليهم ابن أبزى، قال: ومَن ابن أبزى؟ قال: مولى من موالينا، قال عمر: فاستخلفت عليهم مولى؟ فقال: يا أمير المؤمنين إنه رجل قارىء القرآن عالم بالفرائض قاضٍ بالكتاب، فقال عمر: أما إن نبيكم ﷺ قال: «إن الله يرفع بالقرآن أقواماً ويضع به آخرين»، صحيح أخرجه مسلم عن زهير بن حرب، أنا

ثم الطور ثم الملك. ثم الحاقة. ثم ﴿سأل سائل﴾. ثم ﴿عم يتساءلون﴾ ثم النازعات. ثم ﴿إذا السماء انفطرت﴾. ثم ﴿إذا السماء انشقت﴾. ثم الروم. ثم العنكبوت، واختلفوا في آخر ما نزل بمكة فقال ابن عباس العنكبوت وقال الضحاك وعطاء المؤمنين، وقال مجاهد: ويل للمطففين، فهذا ترتيب ما نزل من القرآن بمكة فذلك ثلاث وثمانون سورة على ما استقرت عليه روايات الثقات. وأمّا ما نزل بالمدينة فإحدى وثلاثون سورة، فأول ما نزل بها سورة البقرة. ثم الأنفال. ثم آل عمران. ثم الأحزاب. ثم الممتحنة. ثم النساء. ثم ﴿إذا زلزلت الأرض﴾. ثم الحديد. ثم سورة محمد ﷺ. ثم الرعد. ثم سورة الرحمن. ثم ﴿هل أتى على الإنسان﴾. ثم الطلاق. ثم ﴿لم يكن﴾ ثم الحشر. ثم الفلق. ثم الناس. ثم ﴿إذا جاء نصر الله والفتح﴾ ثم النور. ثم الحج. ثم ﴿إذا جاءك المنافقون﴾ ثم المجادلة. ثم الحجرات. ثم التحريم. ثم الصف. ثم الجمعة. ثم التغابن. ثم الفتح. ثم التوبة. ثم المائدة. ومنهم من يقدم المائدة على التوبة فهذا ترتيب ما نزل من القرآن بالمدينة واختلفوا في الشورى فقيل نزلت بمكة وقيل نزلت بالمدينة، وسنذكر ذلك في مواضعه إن شاء الله تعالى.

فصل في كون القرآن نزل على سبعة أحرف وما قيل في ذلك:

(ق) عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: سمعت هشام بن حكيم بن حزام يقرأ سورة الفرقان في حياة رسول الله ﷺ فاستمعت لقراءته فإذا هو يقرأ على حروف كثيرة لم يقرئنيها رسول الله ﷺ فكدت أساوره في الصلاة فتربصت حتى سلم فلببته بردائه فقلت من أقرأك هذه السورة التي سمعتك تقرؤها قال: أقرأنيها رسول الله ﷺ فقلت: كذبت فإن رسول الله ﷺ قد أقرأنيها على غير ما قرأت، فانطلقت به أقوده إلى رسول الله ﷺ فقلت يا رسول الله إني سمعت هذا يقرأ سورة الفرقان على حروف لم تقرأنيها فقال رسول الله ﷺ أرسله، اقرأ يا هشام فقرأ عليه القراءة التي سمعه يقرؤها فقال رسول الله ﷺ: «هكذا أنزلت» ثم قال النبي ﷺ: «اقرأ يا عمر» فقرأت بقراءتي التي أقرأني فقال رسول الله ﷺ: «هكذا أنزلت» ثم قال رسول الله ﷺ: «إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقرؤوا ما تيسر منه».

يعقوب بن إبراهيم عن أبيه إبراهيم بن سعد الترابي، أنا أبو بكر بن محمد بن عبد الصمد الترابي المعروف بابن أبي الهيثم، أنا الحاكم أبو الفضل محمد بن الحسين الحدادي سنة أربع وثمانين وثلثمائة، أنا أبو يزيد محمد بن يحيىٰ بن خالد أنا إسحق بن إبراهيم الحنظلي، أنا جرير يعني ابن عبد الحميد عن قابوس ابن أبي ظبيان عن أبيه عن ابن عباس رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الرجل الذي ليس في جوفه شيء من القرآن كالبيت الخرب»، قال أبو عيسى: هذا حديث صحيح حسن، أنا عبد الواحد المليحي، أنا أبو منصور السمعاني، أنا أبو جعفر الزياني ثنا حميد بن زنجويه، أنا أبو أيوب الدمشقي ثنا سعد: أن ابن يحيىٰ ثنا عبد الله بن أبي حُميد عن أبي الحاكم الهُذلي عن واثلة بن الأسقع، عن رسول الله ﷺ قال: «أُعطيت مكان التوراة السبع الطوال، وأُعطيت مكان الإنجيل المئين، وأُعطيت مكان الزبور المثاني، وأُعطيت فاتحة الكتاب وخواتيم البقرة من تحت العرش لم يعطها نبي قبلي، وأعطاني ربي المفصل نافلة»، غريب.

فصل في فضائل تلاوة القرآن

أنا عبد الواحد بن أحمد بن المليحي أنا أبو محمد أنا عبد الرحمن بن أبي شُرَيح، أنا أبو القاسم البغوي ثنا علي بن الجعد، أنا شعبة عن قتادة عن ذُرارة بن أبي أوفى عن سعد بن هشام عن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ قال: «مثل الماهر بالقرآن مثل السَّفَرة الكرام البَرَرَة، ومثل الذي يقرأه وهو عليه شاق له أجران»، صحيح.

(قوله فكدت أساوره في الصلاة) أي أو أثبه وأقاتله وهو في الصلاة والتربص التثبت.

(قوله فلببته بردائه) هو بتشديد الباء الأولى ومعناه أخذت بمجامع ردائه في عنقه وجذبته به مأخوذ من اللبة وفيه بيان ما كانوا عليه من الاعتناء بالقرآن والذب عنه والمحافظة على لفظه كما سمعوه من غير عدول إلى ما تجوزه العربية، وأما أمر النبي ﷺ عمر بإرساله فلأنه لم يثبت عنده ما يقتضي تعزيره، ولأن عمر إنما نسبة إلى مخالفته في القراءة والنبي ﷺ كان يعلم من جواز القراءة ووجوهها ما لا يعلمه عمر، ولأنه إذا قرأ وهو ملبب لا يتمكن من حضور القلب وتحقيق القراءة تمكن المطلق.

(قوله إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقرؤوا ما تيسر منه) قال العلماء: سبب إنزاله على سبعة أحرف التخفيف والتسهيل، واختلفوا في المراد بسبعة أحرف فقيل: هو توسعه وتسهيل ولم يقصد به الحصر وقال الأكثرون: هو حصر العدد في سبعة أحرف ثم قيل هي في سبع من المعاني كالوعد والوعيد والمحكم والمتشابه والحلال والحرام والقصص والأمثال والأمر والنهي، وقيل: هي في صورة التلاوة وكيفية النطق بكلمات القرآن من إدغام وإظهار وتفخيم وترقيق ومد وقصر وإمالة لأن العرب كانت مختلفة اللغات في هذه الوجوه فيسر الله تعالى عليهم ليقرأ كل إنسان بما يوافق لغته ويسهل على لسانه.

وقال أبو عبيدة هي سبع لغات من لغات العرب تميمها ومعدها وهي أفصح لغات العرب وأعلاها، وقيل: هي لغة قريش وهوازن وهذيل وأهل اليمن، وقيل: السبعة كلها لمضر وحدها وهي متفرقة في القرآن العزيز غير مجتمعة في كلمة واحدة، وقيل: بل هي مجتمعة في بعض الكلمات كقوله تعالى ﴿**وعبد الطاغوت**﴾ و﴿**نرتع ونلعب**﴾ و﴿**باعد بين أسفارنا**﴾ و﴿**بعذاب بئيس**﴾ وقيل هي سبع قراءات وهو الصحيح الموافق للحديث لأن هذه السبعة ظهرت واستفاضت عن النبي ﷺ وضبطها عنه الصحابة وأثبتها عثمان والجماعة في المصاحف وأخبروا بصحتها وحذفوا منها ما لم يثبت متواتراً. وإن هذه الأحرف تختلف معانيها تارة وألفاظها أخرى وليست متضادة ولا متباينة. فأما من قال إن المراد بالأحرف سبعة معان مختلفة كالأحكام والأمثال والقصص فخطأ محض لأن النبي ﷺ أشار إلى جواز القراءة بكل واحد من الحروف وإبدال حرف بحرف وقد تقرر إجماع المسلمين على أنه

وقال هشام الدستوائي عن قتادة بهذا الإسناد: (الذي يقرأ وهو ماهر به مع السَّفَرة الكرام البَرَرَة). أنا أبو حامد أحمد بن عبد الله الصالحي، أنا أبو عمر بكر بن محمد بن عبد الله حفيد العباس بن حمزة، ثنا أبو علي الحسين بن الفضل البجلي ثنا عفّان، ثنا أبَان بن يزيد ثنا قتادة عن أنس عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، أن النبي ﷺ كان يقول: «مَثَلُ المؤمن الذي يقرأ القرآن كمثل الأترجة طعمها طيب وريحها طيب، ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن كمثل التمرة طعمها طيب ولا ريح لها، ومثل الفاجر الذي يقرأ القرآن كمثل الريحان ريحها طيب ولا طعم لها، ومثل الفاجر الذي لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة طعمها مرّ ولا ريح لها»، صحيح أخرجه البخاري عن قتيبة عن أبي عُوانة عن قتادة، أنا عبد الواحد المليحي أنا أبو منصور السمعاني ثنا أبو جعفر الزياتي، ثنا حميد بن زنجويه ثنا أبو نعيم ثنا سفيان عن عاصم ـ يعني ـ ابن بهدلة عن ذَر عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: «يقال يعني لصاحب القرآن إقرأ وارقَ ورتّل كما كنت ترتّل في الدنيا، فإن منزلك عند آخر آية تقرأها»، قال أبو عيسى: هذا حديث صحيح حسن. أنا عبد الواحد المليحي أنا أبو منصور السمعاني أنا أبو جعفر الزياتي ثنا حميد بن زنجويه، ثنا النضر بن شُميل ثنا هشام الدستوائي، عن يحيىٰ بن كثير عن أبي سلّام عن أبي أُمامة أنه حدّثه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «إقرأ القرآن فإنه يأتي شافعاً لأصحابه، إقرأ الزهراوين: البقرة وآل عمران فإنهما يأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان أو غيابتان أو فرقان من طير صواف تُحاجّان عن صاحبهما، إقرأ البقرة فإن

يحرم إبدال آية أمثال بآية أحكام، وقول من قال إن المراد خواتيم الآي فيجعل مكان غفور رحيم سميع عليم ففاسد أيضاً وخطأ للإجماع على أنه لا يجوز تغيير نظم القرآن والله أعلم (ق) عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «أقرأني جبريل على حرف فراجعته فزادني فلم أزل أستزيده ويزيدني حتى انتهى إلى سبعة أحرف» معنى الحديث لم أزل أطلب من جبريل أن يطلب من الله عزّ وجلّ الزيادة في الأحرف للتوسعة والتخفيف ويسأل جبريل ربه عزّ وجلّ فيزيده حتى انتهى إلى السبعة (م) عن أبي بن كعب رضي الله عنه قال: كنت في المسجد فدخل رجل يصلّي فقرأ قراءة أنكرتها عليه ثم دخل آخر، فقرأ قراءة سوى قراءة صاحبه، فلما قضينا الصلاة دخلنا جميعاً على رسول الله ﷺ فقلت: إن هذا قرأ قراءة أنكرتها عليه فدخل آخر فقرأ قراءة سوى قراءة صاحبه فأمرهما رسول الله ﷺ فقرأ فحسن النبي ﷺ شأنهما فسقط في نفسي من التكذيب ولا إذ كنت في الجاهلية، فلما رأى رسول الله ﷺ ما غشيني ضرب في صدري ففضت عرقاً وكأنما أنظر إلى الله عزّ وجلّ فرقاً فقال لي: يا أبي أرسل إليّ أن اقرأ على حرف واحد فرددت إليه أن هوّن على أمتي، فرد إليّ الثانية أن اقرأه على حرفين فرددت إليه أن هوّن على أمتي، فرد إليّ الثالثة أن أقرأه على سبعة أحرف ولك بكل ردة رددتها مسألة تسألنيها فقلت: اللهم اغفر لأمتي اللهم اغفر لأمتي وأخرت الثالثة ليوم ترغب إلى الناس كلهم حتى إبراهيم.

(قوله فسقط في نفسي من التكذيب ولا إذ كنت في الجاهلية) معناه وسوس لي الشيطان تكذيباً للنبوة أشد مما كنت عليه في الجاهلية لأنه كان في الجاهلية غافلاً ومشككاً فوسوس له الشيطان الجزم بالتكذيب. وقيل: معناه أنه اعترته حيرة ودهشة ونزغ الشيطان في قلبه تكذيباً لم يعتقده وهذه الخواطر إذا لم يستمر عليها الإنسان لا يؤاخذ بها.

(قوله ضرب في صدري ففضت عرقاً) قال القاضي عياض: ضربه ﷺ في صدره تثبيتاً له حين رآه قد غشيه ذلك الخاطر المذموم.

(قوله وكأنما انظر إلى الله تعالى فرقاً) الفرق بالتحريك الخوف والخشية والمعنى أنه غشيه من الهيبة والخوف والعظمة حين ضربه ما أزال عنه ذلك الخاطر.

أخذها بركة وتركها حسرة ولا يستطيعها البطلة». صحيح. أنا عبد الواحد المليحي أنا أبو منصور السمعاني أنا أبو جعفر الزياتي ثنا حميد بن زنجويه، ثنا أبو نعيم ثنا بشير بن مهاجر العنوي، ثنا عبد الله بن بُريدة عن أبيه قال: كنت جالساً عند النبي ﷺ فسمعته يقول: «تعلّموا سورة البقرة فإن أخذها بركة وتركها حسرة ولا يستطيعها البَطلة» ثم سكت ساعة ثم قال: «تعلّموا سورة البقرة وآل عمران فإنهما الزهراوين وإنهما تظلّان صاحبهما يوم القيامة كأنهما غمامتان أو غيابتان أو فرقان من طير صوافٍّ، وأن القرآن يأتي صاحبه يوم القيامة حين ينشقّ عنه قبره كالرجل الشاحب فيقول له: هل تعرفني؟ فيقول: ما أعرفك فيقول له أنا صاحبك القرآن الذي أظمأتك بالهواجر وأسهرت ليلتك، وإن كل تاجر من وراء تجارته، وإنك اليوم من ورائي كل تجارة فيعطى الملك بيمينه والخُلْد بشماله، ويُوضع على رأسه تاج الوقار ويُكسى والداه حُلّتين لا يقوم لهما أهل الدنيا فيقولان: بِمَ كسبنا هذا؟ فيقول لهما: بأخذِ وَلدكما القرآن، ثم يُقال: إقرأوا واصعدوا في درج الجنة وغُرفها فهو في صعودها ما دام يقرأ هزّاً كان أو ترتيلاً»، غريب. أنا عبد الواحد المليحي أنا أبو منصور السمعاني أنا أبو جعفر الزياتي ثنا حميد بن زنجويه ثنا أيوب الدمشقي، ثنا إسماعيل بن عباس ثنا ليث بن أبي سليم عن مجاهد عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «مَن استمع إلى آية من كتاب الله عزّ وجلّ كُتبت له حسنةٌ مُضاعفة، ومَن قرأ آيةً من كتاب الله كانت له نوراً يوم القيامة» أخبرنا الإمام أبو علي حسين بن محمد القاضي، أنا أبو طاهر محمد بن محمد بن محمش الزيادي، أنا أبو

(قوله ولك بكل ردة رددتها مسألة تسألنيها) معناه مسألة مجابة قطعاً وأما باقي الدعوات فمرجوة الإجابة وليست قطعية الإجابة والله أعلم. روى البغوي بسنده عن ابن مسعود عن النبي ﷺ أنه قال: «إن القرآن نزل على سبعة أحرف لكل آية منه ويروي لكل حرف منه ظهر وبطن ولكل حد مطلع» قيل في معناه الظهر لفظ القرآن والبطن تأويله. وقيل في معناه الظهر ما حدث عن أقوام أنهم عصوا فعوقبوا فهو في الظاهر خبر وفي الباطن عظة. وقيل الظهر التلاوة باللسان كما أنزل، والبطن التدبر والتفهم والتفكر بالقلب فالتلاوة باللسان كما تكون بالتعليم والتلقين والتدبر والتفهم تكون بصدق النية وتعظيم الحرمة وإخلاص العمل وطيب المطعم من الحلال المحض.

(قوله ولكل حد مطلع) معناه، مصعد يصعد إليه من معرفة علمه. وقيل المطلع الفهم وقد يفتح الله تعالى على المتدبر والمتفكر في القرآن العزيز من التأويل والمعاني ما لا يفتحه على غيره «وفوق كل ذي علم عليم» والله أعلم.

فصل في معنى التفسير والتأويل:

فأما التفسير فأصله في اللغة من الفسر، وهو كشف ما غطى، وهو بيان المعاني المعقولة فكل ما يعرف به الشيء ومعناه فهو تفسير. وقد يقال فيما يختص بمفردات الألفاظ وغريبها تفسير. وقيل هو من التفسرة وهو الدليل الذي ينظر فيه الطبيب فيكشف عن علة المريض فكذلك المفسر يكشف عن معنى الآية وشأنها وقصتها. وأما التأويل فاشتقاقه من الأول وهو الرجوع إلى الأصل يقال أولته فأول أي صرفته فانصرف، وهو رد الشيء إلى الغاية والمراد منه بيان غايته المقصودة منه فالتأويل بيان المعاني والوجوه المستنبطة الموافقة للفظ الآية. والفرق بين التفسير والتأويل أن التفسير يتوقف على النقل المسموع والتأويل يتوقف على الفهم الصحيح والله أعلم.

(القول في الاستعاذة) ولفظها المختار أعوذ بالله من الشيطان الرجيم لموافقة قوله تعالى: ﴿فإذا قرأت القرآن

بكر محمد بن عمر بن حفص التاجر، ثنا إبراهيم بن عبد الله بن عمر بن بكير الكوفي، أنا وكيع عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أيحبّ أحدكم إذا رجع إلى أهله أن يجد فيه ثلاثَ خَلِفَاتٍ عِظَام سِمان؟» قلنا: نعم يا رسول الله! قال: «فثلاث آيات يقرؤهنّ أحدكم في صلاته خيرٌ له من ثلاثِ خَلِفَاتٍ عِظَام سِمان». صحيح. أنا عبد الواحد المليحي أنا أبو منصور السمعاني أنا أبو جعفر الزياتي، ثنا حميد بن زنجويه ثنا أبو الأسود ثنا ابن لهيعة عن زبان هو ابن فائد عن سهل هو ابن معاذ الجهني عن أبيه رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «مَن قرأ القرآن فأحكمه وعمل بما فيه أُلبس والده يوم القيامة تاجاً ضوءُه أحسن من ضوء الشمس في بيت من بيوت الدنيا لو كانت فيه فما ظنكم بالذي عمل به؟». أنا أحمد بن عبد الله الصالحي أنا أبو سعيد محمد بن موسى الصيرفي أنا محمد بن عبد الله الصفار ثنا أحمد بن محمد بن عيسى البولي، ثنا أبو حذيفة ثنا سفيان الثوري عن الأعمش عن حثيمة عن رجل أن عمران بن حصين مرّ على رجل يقرأ على قوم، فلما قرأ، سأل، فقال عمران: إنّا لله وإنّا إليه راجعون سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَن قرأ القرآن فليسأل الله به فإنه سيجيء أقوام يقرؤون القرآن يسألون الناس به»، رواه أبو عيسى عن محمود بن غيلان عن أبي أحمد عن سفيان عن الأعمش عن حثيمة عن الحسن، عن عمران بن حصين قال: وقال محمد بن إسماعيل هو حثيمة البصري الذي روى عنه جابر الجعفي، وليس هو حثيمة بن عبد الرحمن.

فصل في وعيد مَن قال في القرآن برأيه من غير علم

أنا أبو بكر محمد بن عبد الصمد الترابي، أنا أبو محمد عبد الله بن أحمد بن حموية السرخسي، أنا أبو

فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم﴾ ومعنى أعوذ بالله ألتجىء إليه وأمتنع به مما أخشاه من عاذ يعوذ، والشيطان أصله من شطن أي تباعد من الرحمة وقيل من شاط يشيط إذا هلك واحترق غضباً والشيطان اسم لكل عارم عات من الجن والإنس وشيطان الجن مخلوق من قوة النار فلذلك فيه القوة الغضبية الرجيم فعيل بمعنى فاعل أي يرجم بالوسوسة والشر وقيل بمعنى مفعول أي مرجوم بالشهب عند استراق السمع، وقيل مرجوم بالعذاب وقيل مرجوم بمعنى مطرود عن الرحمة وعن الخيرات وعن منازل الملأ الأعلى. وأما حكم الاستعاذة ففيه مسائل.

المسألة الأولى: اتفق الجمهور على أن الاستعاذة سنة في الصلاة فلو تركها لم تبطل صلاته سواء تركها عمداً أو سهواً، ويستحب لقارىء القرآن خارج الصلاة أن يتعوذ أيضاً. وحكي عن عطاء وجوبها سواء كانت في الصلاة أو غيرها. وقال ابن سيرين إذا تعوذ الرجل في عمره مرة واحدة كفى في إسقاط الوجوب، دليل الوجوب ظاهر قوله تعالى: **﴿فاستعذ﴾** والأمر للوجوب، وأن النبي ﷺ واظب على التعوذ فيكون واجباً، ودليل الجمهور أن النبي ﷺ لم يعلم الأعرابي الاستعاذة في جملة أعمال الصلاة وتأخير البيان عن وقته غير جائز. وأجيب عن قوله تعالى: **﴿فاستعذ﴾** بأن معناه عند جماهير العلماء إذا أردت القراءة فاستعذ كقوله: «إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا» معناه إذا أردتم القيام إلى الصلاة. وأجيب عن مواظبة النبي ﷺ بأنه ﷺ واظب على أشياء كثيرة من أفعال الصلاة ليست بواجبة كتكبيرات الانتقالات والتسبيحات في الصلاة فكان التعوذ مثلها.

المسألة الثانية: وقت الاستعاذة قبل القراءة عند الجمهور سواء كان في الصلاة أو خارجها، وحكي عن النخعي أنه بعد القراءة، وهو قول داود وإحدى الروايتين عن ابن سيرين حجة الجمهور ما روي عن أبي سعيد الخدري قال: «كان النبي ﷺ إذا قام إلى الصلاة بالليل كبر ثم يقول: سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جدك ولا إله غيرك. ثم يقول: الله أكبر كبيراً، ثم يقول: أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم من همزه ونفخه ونفثه» أخرجه الترمذي وقال هذا الحديث أشهر حديث في الباب وقد تكلم في بعض رجاله وقال

إسحاق إبراهيم بن حزيم الشاشي، ثنا أبو محمد عبيد بن حميد ثنا عبد الرزاق، أنا الثوري عن عبد الأعلى عن سعيد بن جُبير، عن ابن عباس رضي الله عنهم، قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن قال في القرآن برأيه فليتبوّأ مقعده من النار»، أنا أبو منصور محمد بن عبد الملك المظفري، أنا أبو سعيد أحمد بن الفضل الفقيه، أنا أبو عبد الله الحسين بن البصري ثنا أبو الفضل العباس بن محمد الدوري، أخبرنا يحيىٰ بن حمّاد ثنا أبو عوانة عن عبد الأعلى، عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما، عن النبي ﷺ قال: «مَن قال في القرآن بغير علم فليتبوّأ مقعده من النار»، أنا أبو بكر محمد بن عبد الصمد الترابي حدّثنا عبد الله بن أحمد بن حموية، أنا إبراهيم بن خزيم أنا عبد بن حميد، ثنا حبّان بن هلال ثنا سهيل أخو حزم القطعي، ثنا أبو عمران الحوفي، عن جند بن عبد الله البجلي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن قال في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ»، غريب، وسُئل أبو بكر الصديق رضي الله عنه عن قوله تعالى: ﴿ وفاكهة وأبا ﴾ [عبس: ٣١] فقال: وأيّ سماء تُظلّني وأيّ أرض تُقلّني إذا قلت في كتاب الله ما لا أعلم؟! وقال أبو الدرداء رضي الله عنه لا تفقه كل الفقه حتى ترى للقرآن وجوهاً كثيرة، قال حمّاد: قلت لأبي أيوب: ما معنى قول أبي الدرداء رضي الله عنه، فجعل يتفكّر، فقلت: هو أن ترى له وجوهاً فتهاب الإقدام عليه، فقال: هو ذاك.

قال شيخنا الإمام رحمه الله: قد جاء الوعيد في حق مَن قال في القرآن برأيه وذلك فيمن قال منْ قِبَلِ نفسه شيئاً من غير علم، فأمّا التأويل وهو صرف الآية إلى معنًى مُحتمل يُوافق ما قبلها وما بعدها غير مخالف للكتاب

أحمد لا يصح ولأبي داود والنسائي عن أبي سعيد نحوه. وعن جبير بن مطعم أنه رأى النبي ﷺ صلّى صلاة قال عمر ولا أدري أي صلاة هي قال: الله أكبر كبيراً والحمد لله كثيرا ثلاثاً وسبحان الله بكرة وأصيلا ثلاثاً أعوذ بالله من الشيطان الرجيم من نفخة ونفثه وهمزه، قال نفخه الكبر ونفثه الشعر وهمزه الموتة» أخرجه أبو داود وقيل الموتة الجنون لأن من جن فقد مات عقله. وقيل همزه هو الذي يوسوسه في الصلاة ونفخه هو الذي يلقيه من الشبه في الصلاة ليقطع عليه صلاته. ، واحتج مخالف الجمهور بظاهر قوله تعالى: ﴿**فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله**﴾ وأجيب عنه بما تقدم. وقال مالك: لا يتعوذ في المكتوبة ويتعوذ في قيام رمضان بعد القراءة. لنا ما تقدم من الأدلة.

المسألة الثالثة: المختار من لفظ الاستعاذة عند الشافعي أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، وبه قال أبو حنيفة لموافقة قوله تعالى: ﴿**فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم**﴾ ولحديث جبير بن مطعم. وقال أحمد الأولى أن يقول أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم جمعاً بين هذه الآية وبين قوله تعالى: ﴿**فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم**﴾ ولحديث أبي سعيد. وقال الثوري والأوزاعي: الأولى أن يقول: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم إن الله هو السميع العليم، وبالجملة فالاستعاذة تطهر القلب عن كل شيء يشغله عن الله تعالى. ومن لطائف الاستعاذة أن قوله أعوذ بالله من الشيطان الرجيم إقرار من العبد بالعجز والضعف واعتراف من العبد بقدرة الباريء عزّ وجلّ وأنه هو الغني القادر على دفع جميع المضرات والآفات واعتراف من العبد أيضاً بأن الشيطان عدو مبين، ففي الاستعاذة التجاء إلى الله تعالى القادر على دفع وسوسة الشيطان الغوي الفاجر، وأنه لا يقدر على دفعه عن العبد إلّا الله تعالى والله أعلم.

والسُّنّة من طريق الاستنباط فقد رُخّص فيه لأهل العلم، أما التفسير وهو الكلام في أسباب نزول الآية وشأنها وقصتها، فلا يجوز إلّا بالسّماع بعد ثبوته من طريق النقل، وأصل التفسير من التفسرة، وهي الدليل، من الماء الذي ينظر فيه الطبيب فيكشف عن علّة المريض، كذلك المفسِّر يكشف عن شأن الآية وقصتها، واشتقاق التأويل: من الأوْل، وهو الرجوع، يُقال: أوّلته فأُوِّل، أي: صرفته فانصرف. أخبرنا أبو بكر بن أبي الهيثم البراني أنا الحاكم أبو الفضل الحدادي أنا أبو يزيد محمد بن يحيىٰ أن إسحق بن إبراهيم الحنظلي، ثنا جرير بن عبد الحميد عن المغيرة عن واصل بن حيان، عن ابن هذيل عن أبي الأحوص عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «إن القرآن أُنزل على سبعة أحرف، لكل آية منها ظهر وبطن ولكل حدّ مطلع» ويُروى: «لكل حرف حدّ ولكل حدّ مطلع». واختلفوا في تأويله، قيل: الظهر لفظ القرآن، والبطن تأويله، وقيل: الظهر ما حدث عن أقوام أنهم عصوا فعُوقبوا، فهو في الظاهر خبر وباطنه عظة وتحذير أن يفعل أحد مثل ما فعلوا فيحلّ به ما حلّ بهم، وقيل: معنى الظهر والبطن التلاوة والتفهّم، يقول: لكل آية ظاهر وهو أن تقرأها كما أُنزلت، قال الله تعالى: ﴿ ورتّلِ القرآنَ ترتيلاً ﴾ [المزّمل: ٤]، وباطن وهو التدبّر والتفكّر، قال الله تعالى: ﴿ كتاب أنزلناه إليك مباركٌ ليدَّبرُوا آياتهِ ﴾ [صٓ: ٢٩]، ثم التلاوة تكون بالتعلّم، والحفظ بالدرس، والتفهّم يكون بصدق النيّة وتعظيم الحرمة، وطيب الطعمة، وقوله: «لكل حرف حدّ» أراد به من حدّ في التلاوة والتفسير لا يجاوز، ففي التلاوة لا يُجاوز المصحف وفي التفسير لا يجاوز المسموع، وقوله: «لكل حدّ مطلع» أي: مصعد يصعد إليه من معرفة علمه، ويُقال: المطلع الفهم، وقد يفتح الله على المدبّر والمتفكّر في التأويل والمعاني ما لا يفتح على غيره، وفوق كل ذي علم عليم وما توفيقي إلّا بالله العزيز الحكيم.

تفسير سورة الفاتحة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿١﴾

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾

وهي سبع آيات بالاتفاق وسبع وعشرون كلمة ومائة وأربعون حرفاً. واختلف العلماء في نزولها فقيل نزلت بمكة وهو قول أكثر العلماء. وقيل نزلت بالمدينة وهو قول مجاهد. وقيل نزلت مرتين بمكة ومرة بالمدينة وسبب ذلك التنبيه على شرفها وفضلها ولها عدة أسماء وكثرة الأسماء تدل على شرف المسمى وفضله. (فأول ذلك فاتحة الكتاب) سميت بذلك لأن بها افتتح القرآن، وبها تفتتح كتابة المصاحف، وبها تفتتح الصلاة. (الثاني سورة الحمد) سميت بذلك لافتتاحها بالحمد لله (الثالث أم القرآن) وأم الكتاب، سميت بذلك لأنها أصل القرآن وأم كل شيء أصله، وقيل هي إمام لما يتلوها من السور. (الرابع السبع المثاني) سميت بذلك لأنها تثنى في الصلاة ويقرأ بها في كل ركعة، وقيل لأن الله تعالى استثناها لهذه الأمة وادخرها لهم لم ينزلها على غيرهم وقيل لأنها أنزلت مرتين (الخامس الوافية) سميت بذلك لأنها لا تقسم في القراءة في الصلاة كما يقسم غيرها من السور (السادس الكافية) سميت بذلك لأنها تكفي عن غيرها في الصلاة ولا يكفي عنها غيرها.

سُوْرَة الفَاتِحَة

ولها ثلاثة أسماء معروفة: فاتحة الكتاب، وأُمّ القرآن، والسبع المثاني، سُمِّيت فاتحة الكتاب لأنه تعالى بها افتتح القرآن، وأُمّ الكتاب: لأنها أصل القرآن، منها بُدىء القرآن، وأمّ الشيء أصله، ويُقال لمكّة: أمّ القرى، لأنها أصل البلاد، دُحيت الأرض من تحتها، وقيل: لأنها مقدمة وإمام يتلوها من السور يبدأ بكتابتها في الصحف وبقراءتها في الصلاة، والسبع المثاني: لأنها سبع آيات باتفاق العلماء، وسُمّيت مثاني لأنها تثّنى في الصلاة، فتُقرأ في كل ركعة، وقال مجاهد: سُمّيت مثاني لأنّ الله تعالى استثناها لهذه الأمة فدخرها لهم، وهي مكيّة على قول الأكثرين، وقال مجاهد: مدنيّة، وقيل: نزلت مرتين، مرة بمكة ومرة بالمدينة، ولذلك سُمّيت مثاني، والأوّلُ أصح أنّها مكيّة لأن الله تعالى منّ على الرسول ﷺ بقوله: ﴿ ولقد آتيناك سبعاً من المثاني ﴾ [الحجر: ٨٧]، والمراد منها: فاتحة الكتاب، وسورة الحِجْرِ مكيّة، فلم يكن يمنّ عليه بها قبل نزولها.

قوله: ﴿ بسم الله ﴾ الباء زائدة يخفض ما بعدها، مثل مِنْ وعَنْ، والمتعلق به محذوف لدلالة الكلام عليه، تقديره: ابدأ بسم الله أو قل بسم الله، وأُسقطت الألف من الاسم طلباً للخفّة لكثرة استعمالها، وطوّلت الباء قال

فصل: في ذكر فضلها:

(خ) عن أبي سعيد بن المعلى قال: كنت أصلي في المسجد فدعاني رسول الله ﷺ فلم أجبه، ثم أتيته فقلت يا رسول إلي إني كنت أصلي فقال: ألم يقل الله استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم ثم قال لي لأعلمنك سورة هي أعظم السور في القرآن قبل أن تخرج من المسجد ثم أخذ بيدي فلما أراد أن يخرج قلت له يا رسول ألم تقل لأعلمنك سورة هي أعظم السور في القرآن قال: الحمد لله رب العالمين هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته ورواه مالك في الموطأ عنه وقال فيه إن النبي ﷺ نادى أبي بن كعب وهو يصلي وذكر نحوه وفيه حتى تعلم سورة ما أنزل في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الزبور مثلها ورواه الترمذي عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ خرج على أبيّ وهو يصلي وذكر نحو رواية الموطأ وقال فيه حديث حسن صحيح عن أبيّ بن كعب قال قال رسول الله ﷺ: «ما أنزل الله في التوراة ولا في الإنجيل مثل أم القرآن وهي السبع المثاني وهو مقسومة بيني وبين عبدي، ولعبدي ما سأل» أخرجه الترمذي والنسائي عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «الحمد لله رب العالمين أم القرآن وأم الكتاب والسبع المثاني» أخرجه أبو داود والترمذي وقال حديث حسن صحيح (م) عن ابن عباس قال: بينا جبريل قاعد عند رسول الله ﷺ سمع نقيضاً من فوقه فرفع رأسه فقال هذا باب من السماء فتح اليوم ولم يفتح قط إلا اليوم فنزل منه ملك فقال هذا ملك نزل إلى الأرض لم ينزل قط إلا اليوم فسلم وقال أبشر بنورين أوتيتهما لم يؤتهما نبي قبلك: فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة لن تقرأ بحرف منها إلا أعطيته (قوله سمع نقيضاً) هو بالقاف والضاد المعجمة أي صوتاً كصوت فتح الباب (م) عن أبي هريرة قال رسول الله ﷺ: «من صلى صلاة لم يقرأ فيها بأم القرآن فهي خداج هي خداج غير تمام» قال فقلت يا أبا هريرة إنا أحياناً نكون وراء الإمام فغمز ذراعي وقال: اقرأ بها في نفسك يا فارسي فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: قال الله تبارك وتعالى: «قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين فنصفها لي ونصفها لعبدي ولعبدي ما سأل، فإذا قال العبد الحمد لله رب العالمين قال الله حمدني عبدي، وإذا قال الرحمن الرحيم قال أثنى علي عبدي، وإذا قال مالك يوم الدين قال مجدني عبدني وربما قال فوض إليَّ عبدي، وإذا قال إياك نعبد وإياك نستعين قال هذا بيني وبين عبدي ولعبدي ما

القطيبي: ليكون افتتاح كلام كتاب الله بحرف مُعظَّم، كان عمر بن عبد العزيز رحمه الله يقول لكتّابه: طوّلوا الباء وأظهروا السين وفرِّجوا بينهما ودوّروا الميم تعظيماً لكتاب الله عزّ وجلّ، وقيل: لمّا أسقطوا الألف ردّوا طُول الألف على الباء ليكون دالاً على سقوط الألف، ألا ترى أنه لمّا كتب الألف في: ﴿ اقرأ باسم ربِّـك ﴾ [العلق: ١] رُدّت الباء إلى صيغتها، ولا يحذف الألف إذا أُضيف الاسم إلى غير الله ولا مع غير الباء، والاسم هو المسمّى وعينه وذاته، قال الله تعالى: ﴿ إنّا نبشّرك بغلام اسمه يحيىٰ ﴾ [مريم: ٧]، أخبر أن اسمه يحيىٰ ثم نادى الاسم فقال: ﴿ يا يحيىٰ ﴾ [مريم: ١٢]، وقال: ﴿ ما تعبدون من دونه إلّا أسماء سمّيتموها ﴾ [يوسف: ٤٠]، وأراد الأشخاص المعبودة، لأنهم كانوا يعبدون المسمّيات وقال: ﴿ سبّح اسم ربّك ﴾ [الأعلى: ١]، و﴿ تبارك اسم ربّك ﴾ [الرحمن: ٧٨]، ثم يُقال للتسمية أيضاً اسم، فاستعماله في التسمية أكثر من المسمّى، فإن قيل: ما معنى التسمية من الله لنفسه؟ قيل: هو تعليمٌ للعباد كيف يستفتحون القراءة، واختلفوا في اشتقاقه، قال المبرّد من البصريين: هو مشتق من السموّ وهو العلوّ، فكأنه على علا معناه وظهر عليه وصار معناه لا تحته، وقال ثعلب من الكوفيين: هو من الوسم والسِّمة وهي العلامة وكأنه علامة لمعناه وعلامة للمسمّى، والأول أصح لأنه يُصغّر على سُمي، ولو كان من السمت لكان يُصغّر على الوسيم كما يُقال في الوعد وعيد، ويُقال في تصريفه: سمّيت، ولو كان من الوسم لقيل: وسمت.

سأل، وإذا قال اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين قال: هذا لعبدي ولعبدي ما سأل».

(قوله: فهي خداج) أي ناقصة (قوله: فغمز ذراعي) أي كبس ساعدي بيده. (قوله قسمت الصلاة) أراد بالصلاة هنا القراءة لأنه فسرها بها ولأن القراءة ركن من أركانها وجزء من أجزائها. (قوله: نصفين) حقيقة هذه القسمة التي جعلها بينه وبين عبده راجعة إلى المعنى لا إلى اللفظ لأن هذه السورة من جهة المعنى نصفها ثناء ونصفها مسألة ودعاء وقسم الثناء انتهى عند قوله تعالى: ﴿**إياك نعبد وإياك نستعين**﴾ من قسم الدعاء ولهذا قال هذا بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل. (قوله: حمدني عبدي ومجدني) أي أثنى علي لأن الحمد هو الثناء بجميل الفعال والتمجيد الثناء بصفات الجلال وقيل التحميد والتمجيد التعظيم (قوله: وربما قال فوض إلي عبدي) وجه مطابقة هذا لقوله مالك يوم الدين يقال فلان فوض أمره إلى فلان إذا رده إليه وعول فيه عليه وفي الحديث دليل على وجوب قراءة الفاتحة وأنها متعينة وهو مذهب الشافعي وجماعة وستأتي هذه المسألة إن شاء الله تعالى بعد ذكر تفسير الفاتحة، والله أعلم.

(بسم الله الرحمن الرحيم) الباء في بسم الله حرف خافض يخفض ما بعده مثل من وعن والمتعلق به مضمر محذوف لدلالة الكلام عليه تقديره: أبدأ بسم الله أو باسم الله أبدأ أو أقرأ، وإنما طولت الباء في بسم الله وأسقطت الألف طلباً للخفة، وقيل لما أسقطوا الألف ردوا طولها على الباء ليدل طولها على الألف المحذوفة وأثبتت الألف في قوله تعالى: ﴿فسبح باسم ربك العظيم﴾ لقلة استعماله وقيل إنما طولوا الباء لأنهم أرادوا أن يستفتحوا كتاب الله بحرف معظم وقيل الباء حرف منخفض الصورة فلما اتصل باسم الله ارتفع واستعلى وقيل إن عمر بن عبد العزيز كان يقول لكتابه طولوا الباء من بسم الله وأظهروا السين ودوروا الميم تعظيماً لكتاب الله عز وجل. والاسم هو المسمى عينه وذاته قال الله تعالى: ﴿إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى﴾ ثم نادى الاسم فقال يا يحيى وقال ﴿سبح اسم ربك، وتبارك اسم ربك﴾ وهذا القول ليس بقوي، والصحيح المختار أن الاسم غير المسمى وغير التسمية،

قوله تعالى: ﴿ الله ﴾ قال الخليل وجماعة: هو اسم علمٍ خاصٌ لله عزّ وجلّ لا اشتقاق له كأسماء الأعلام للعباد، مثل زيد وعمرو، وقال جماعة: هو مشتق، ثم اختلفوا في اشتقاقه فقيل: من أله إلاهة أي: عبد عبادة، وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿ ويذرك وآلهتَك ﴾ [الأعراف: ١٢٧] أي: عبادتك معناه أنه المستحق للعبادة دون غيره، وقيل: أصله أله، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿ وما كان معه من إله إذاً لذهب كل إله بما خلق ﴾ [المؤمنون: ٩١]، قال المبرّد: هو قول العرب: ألهت إلى فلان أي سكنت إليه، قال الشاعر:

ألهت إليها والحوادث جمّة

فكأن الخلق يسكنون إليه ويطمئنون بذكره، يقال: ألهت إليه أي: فزعت إليه، وقال الشاعر:

ألهت إليها والركائب وقف

وقيل: أصل الإلَه ولاه، فأُبدلت الواو بالهمزة مثل وشاح وأشاح، اشتقاقه من الوله لأن العباد يولهون إليه، أي يفزعون إليه في الشدائد ويلجؤون إليه في الحوائج كما يوله كل طفل إلى أُمه، وقيل: هو من الوله وهو ذهاب العقل لفقد مَن يعزّ عليك.

قوله: ﴿ الرحمن الرحيم ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: هما اسمان رقيقان أحدهما أرقّ من الآخر، واختلفوا فيهما، منهم مَن قال: هما بمعنى واحد مثل ندمان ونديم، ومعناهما ذو الرحمة، وذكر أحدهما بعد الآخر

فالاسم ما تعرف به ذات الشيء، وذلك لأن الاسم هو الأصوات المقطعة والحروف المؤلفة الدالة على ذات ذلك الشيء المسمى به، فثبت بهذا أن الاسم غير المسمى وأيضاً قد تكون الأسماء كثيرة والمسمى واحد كقوله تعالى: ﴿ولله الأسماء الحسنى﴾. وقد يكون الاسم واحداً والمسميات به كثيرة كالأسماء المشتركة وذلك يوجب المغايرة وأيضاً فقوله: ﴿فادعوه بها﴾ أمر أن يدعي الله تعالى بأسمائه فالاسم آلة الدعاء والمدعو هو الله تعالى فالمغايرة حاصلة بين ذات المدعو وبين اللفظ المدعو به. وأجيب عن قوله تعالى: ﴿إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى﴾ بأن المراد ذات الشخص المعبر عنه بيحيى لا نفس الاسم. وأجيب عن قوله تعالى سبح اسم ربك وتبارك اسم ربك بأن معنى هذه الألفاظ يقتضي إضافة الاسم إلى الله تعالى وإضافة الشيء إلى نفسه محال وقيل كما يجب تنزيه ذاته سبحانه وتعالى عن النقص فكذلك يجب تنزيه أسمائه وكون الاسم غير التسمية هو أن التسمية عبارة عن تعيين اللفظ المعين لتعريف ذات الشيء، والاسم عبارة عن تلك اللفظة المعينة والفرق ظاهر. واختلفوا في اشتقاق الاسم فقال البصريون من السمو وهو العلو، فاسم الشيء ما علاه حتى ظهر به وعلا عليه، فكأنه علا على معناه وصار علماً له. وقال الكوفيون من السمة وهي العلامة فكأنه علامة لمسماه، وحجة البصريين لو كان الاسم اشتقاقه من السمة لكان تصغيره وسيم وجمعه أوسام وأجمعوا على أن تصغيره سمي وجمعه أسماء وأسام (الله) هو اسم علم خاص لله تعالى تفرد به الباري سبحانه وتعالى ليس بمشتق ولا يشركه فيه أحد وهو الصحيح المختار دليله قوله تعالى: ﴿هل تعلم له سمياً﴾ يعني لا يقال لغيره الله، وقيل هو مشتق من أله يأله إلاهة مثل عبد الرجل يعبد عبادة دليله «ويذرك وآلهتك» أي وعبادتك ومعناه المستحق للعبادة دون غيره. وقيل: من الوله وهو الفزع لأن الخلق يولهون إليه أي يفزعون إليه في حوائجهم، قال بعضهم:

ولهت إليكم في بلايا تنوبني فألفتكم فيها كرائم محتد

وقيل أصله أله، يقال: ألهت إلى فلان أي سكنت إليه فكأن الخلق يسكنون إليه ويطمئنون بذكره، وقيل أصله ولاه فأبدلت الواو همزة سمي بذلك لأن كل مخلوق وإله نحوه إما بالتخير أو بالإرادة ومن هذا قيل الله محبوب كل الأشياء يدل عليه، «وإن من شيء إلا يسبح بحمده» ومن خصائص هذا الاسم أنك إذا حذفت منه شيئاً بقي الباقي يدل عليه فإن حذفت الألف بقي الله، وإن حذفت اللام وأثبت الألف بقي إله، وإن حذفتهما بقي له وإن

تطميعاً لقلوب الراغبين، وقال المبرّد: هو إنعام بعد إنعام وتفضّل بعد تفضّل، ومنهم مَن فرّق بينهما فقال: للرحمن معنى العموم، وللرحيم معنى الخصوص، فالرحمن بمعنى الرزّاق في الدنيا، وهو على العموم لكافّة الخلق، والرحيم بمعنى المعافي في الآخرة والعفو في الآخرة للمؤمنين على الخصوص، ولذلك قيل في الدعاء: يا رحمن الدنيا ورحيم الآخرة، فالرحمن مَن يصل رحمته إلى الخلق على العموم، والرحيم مَن يصل رحمته إليهم على الخصوص، ولذلك يدعى غير الله رحيماً ولا يدعى رحماناً، فالرحمن عامّ المعنى خاصّ اللفظ، والرحيم عامّ اللفظ خاصّ المعنى، والرحمة إرادةُ الله الخيرَ لأهله، وقيل: هي ترك عقوبة مَن يستحقها وإسداء الخير إلى مَن لا يستحق، فهي على الأول صفة ذات وعلى الثاني صفة فعل، واختلفوا في آية التسمية فذهب قرّاء المدينة والبصرة وفقهاء الكوفة إلى أنها ليست من فاتحة الكتاب، ولا من غيرها من السور والافتتاح بها للتيّمن والتبرّك، وذهب قرّاء مكة والكوفة وأكثر فقهاء الحجاز إلى أنها ليست من الفاتحة وليست من سائر السور، فإنما كتبت للفصل، وذهب جماعة إلى أنها من الفاتحة ومن كل سورة إلاّ سورة التوبة، وهو قول الثّوري وابن المبارك والشافعي في قول، لأنها كتبت في المصحف بخط سائر القرآن، واتفقوا على أن الفاتحة سبع آيات والآية الأولى عند مَن يعدّها من الفاتحة بسم الله الرحمن الرحيم وابتداء الآية الأخيرة صراط الذين، ومَن لم يعدّها من الفاتحة قال: ابتداؤها الحمد لله ربّ

حذفت الألف واللامين معاً بقي هو والواو عوض عن الضمة. وذهب بعضهم إلى أن هذا الاسم هو الاسم الأعظم لأنه يدل على الذات وباقي الأسماء تدل على الصفات (الرحمن الرحيم) قال ابن عباس: هما اسمان رقيقان أحدهما أرق من الآخر، قيل: هما بمعنى مثل ندمان ونديم ومعناهما ذو الرحمة وإنما جمع بينهما للتأكيد، وقيل: ذكر أحدهما بعد الآخر تطميعاً لقلوب الراغبين إليه، وقيل الرحمن فيه معنى العموم والرحيم فيه معنى الخصوص فالرحمن بمعنى الرزاق في الدنيا وهو على العموم لكافة الخلق المؤمن والكافر والرحيم بمعنى الغفور الكافي للمؤمنين في الآخرة فهو على الخصوص، ولذلك قيل رحمن الدنيا ورحيم الآخرة ورحمة الله إرادة الخير والإحسان لأهله، وقيل هي ترك عقوبة من يستحق العقاب وإسداء الخير والإحسان إلى من لا يستحق فهو على الأول صفة ذات، وعلى الثاني صفة فعل، وقيل الرحمن بكشف الكروب والرحيم بغفر الذنوب، وقيل: الرحمن بتبيين الطريق، والرحيم بالعصمة والتوفيق.

فصل: في حكم البسملة:

وفيه مسألتان: **(الأولى)** في كون البسملة الفاتحة وغيرها من السور سوى سورة براءة. اختلف العلماء في ذلك، فذهب الشافعي وجماعة من العلماء إلى أنها آية من الفاتحة ومن كل سورة ذكرت في أولها سوى سورة براءة، وهو قول ابن عباس وابن عمر وأبي هريرة وسعيد بن جبير وعطاء وابن المبارك وأحمد في إحدى الروايتين عنه وإسحاق، ونقل البيهقي هذا القول عن علي بن أبي طالب والزهري والثوري ومحمد بن كعب. وذهب الأوزاعي ومالك وأبو حنيفة إلى أن البسملة ليست بآية من الفاتحة، زاد أبو داود ولا من غيرها من السور، وإنما هي بعض آية في سورة النمل، وإنما كتبت للفصل والتبرك قال مالك ولا يستفتح بها في الصلاة المفروضة، وللشافعي قول إنها ليست من أوائل السور مع القطع بأنها من الفاتحة. فأما حجة من منع كون البسملة آية من الفاتحة ومن غيرها فحديث أنس المشهور المخرج في الصحيحين وحديث عائشة قالت: «كان رسول الله ﷺ يفتتح الصلاة بالتكبير والقراءة بالحمد لله رب العالمين» قالوا ولأن أول ما نزل به جبريل: ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق﴾ ولم يذكر البسملة في أولها فدلّ على أنها ليست منها قالوا ولأن محل القرآن لا يثبت إلا بالتواتر والاستفاضة ولأن الصحابة أجمعوا على عدد كثير من السور منها سورة الملك ثلاثون آية وسورة الكوثر ثلاث آيات وسورة الإخلاص

العالمين وابتداء الآية الأخيرة غير المغضوب عليهم، واحتجّ مَن جعلها من الفاتحة ومن السور بأنها كُتبت في المصحف بخط القرآن وبما أخبرنا عبد الوهاب بن محمد الكسائي، أنا أبو محمد عبد العزيز بن أحمد الخلال ثنا أبو العباس محمد بن يعقوب الأصم، وأنا الربيع بن سليمان أنا الشافعي أنا عبد المجيد عن ابن جريج أخبرني أبي عن سعيد بن جبير: ﴿ ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم ﴾ [الحجر: ٨٧] هي أُمّ القرآن قال أبي وقرأها على سعيد بن جبير حتى ختمها ثم قال: بسم الله الرحمن الرحيم الآية السابعة، قال سعيد: قرأها عليٌّ وابن عباس كما قرأتُها عليك ثم قال: بسم الله الرحمن الرحيم الآية السابعة، قال ابن عباس: فذخرها لكم فما أخرجها لأحد قبلكم ومَن لم يجعلها من الفاتحة، احتجّ بما ثنا أبو الحسن محمد بن محمد الشيرازي أنا زاهر بن أحمد ثنا أبو إسحق الهاشمي، أنا أبو مصعب عن حميد الطويل عن أنس بن مالك أنه قال: قمت وراء أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفّان كلهم كانوا لا يقرؤون بسم الله الرحمن الرحيم إذا افتتح الصلاة، قال سعيد بن جبير: عن ابن عباس كان رسول الله ﷺ لا يعرف خَتْمَ السورة حتى ينزل بسم الله الرحمن الرحيم، عن ابن مسعود قال: كنّا لا نعلم فصل ما بين السورتين حتى ينزل بسم الله الرحمن الرحيم، وقال الشعبي: كان رسول الله ﷺ يكتب في بدء الأمر على رسم قريش باسمك اللّهمَّ حتى نزل ﴿ وقال اركبوا فيها بسم الله مجراها ﴾ [هود: ٤١]، فكتب بسم

أربع آيات فلو كانت البسملة منها لكانت خمساً. وأما حجة من ذهب إلى إثباتها في أوائل السور من جهة النقل فقد صح عن أم سلمة «أن النبي ﷺ قرأ البسملة في أول الفاتحة في الصلاة وعدها آية منها» وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما في قوله تعالى: ﴿ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم﴾ قال هي فاتحة الكتاب قيل فأين السابعة قال بسم الله الرحمن الرحيم أخرجهما ابن خزيمة وغيره، وروى عن ابن عباس: «أن النبي ﷺ كان لا يعلم فصل السورة وفي رواية انقضاء السورة حتى ينزل عليه بسم الله الرحمن الرحيم» أخرجه أبو داود والحاكم أبو عبدالله في مستدركه وقال فيه: إنه صحيح على شرط الشيخين. وروى الدارقطني عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «إذا قرأ تم الحمد لله فاقرؤوا بسم الله الرحمن الرحيم فإنها أم القرآن وأم الكتاب والسبع المثاني وبسم الله الرحمن الرحيم أحد آياتها» قال الدارقطني في رجال إسناده كلهم ثقات وروى موقوفاً، وروى الدارقطني عن أم سلمة «أن رسول الله ﷺ كان يقرأ بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين إلى آخرها قطعها آية آية وعدَّها عد الأعراب، وعدّ بسم الله الرحمن الرحيم آية ولم يعد عليهم» وأخرج مسلم في أفراده عن أنس قال: «بينا رسول الله ﷺ بين أظهرنا إذ غفا غفوة ثم رفع رأسه متبسماً فقلنا ما أضحكك يا رسول الله؟ قال أنزلت عليّ آنفاً سورة فقرأ بسم الله الرحمن الرحيم ﴿إنا أعطيناك الكوثر﴾ الحديث. قال البيهقي: أحسن ما احتج به أصحابنا في أن بسم الله الرحمن الرحيم من القرآن وأنها من فواتح السور سوى سورة براءة ما رويناه في جمع الصحابة كتاب الله عز وجل في المصاحف وأنهم كتبوا فيها بسم الله الرحمن الرحيم على رأس كل سورة سوى سورة براءة فكيف يتوهم متوهم أنهم كتبوا فيها مائة وثلاثة عشر آية ليست في القرآن، قال: وقد علمنا بالروايات الصحيحة عن ابن عباس أنه كان يعد بسم الله الرحمن الرحيم آية من الفاتحة وروى الشافعي بسنده عن ابن عمر أنه كان لا يدع بسم الله الرحمن الرحيم لأمّ القرآن والسورة التي بعدها زاد غيره عنه إنه كان يقول لما كتبت في المصحف لم لم تقرأ وروى الشافعي عن ابن عباس أنه كان يفعله ويقول انتزع الشيطان منهم خير آية في القرآن. وفي أفراد البخاري

الله حتى نزلت ﴿قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن﴾ [الإسراء: ١١٠]، فكتب بسم الله الرحمن حتى نزلت ﴿إنه من سليمان وإنّه بسم الله الرحمن الرحيم﴾ [النمل: ٣٠]، فكتب مثلها.

قوله: ﴿الحمد لله﴾ لفظه خبر كأنه يخبر عن المستَحِق للحمد هو الله عزّ وجلّ وفيه تعليم الخلق، تقديره: قولوا الحمد لله، والحمد يكون بمعنى الشكر على النعمة ويكون بمعنى الثناء عليه بما فيه من الخصال الحميدة، يُقال حمدت فلاناً على ما أسدى إليّ من نعمة، وحمدته على عِلمه وشجاعته، والشكر لا يكون إلّا على النعمة، والحمد أعمّ من الشكر إذ لا يقال: شكرت فلاناً على علمه، فكل حامد شاكر وليس كل شاكر حامداً، وقيل: الحمد باللسان قولاً والشكر بالأركان فعلاً، قال الله تعالى: ﴿وقل الحمد لله الذي لم يتّخذ ولداً﴾ [الإسراء: ١١١]، وقال: ﴿اعملوا آل داود شكراً﴾ [سبأ: ١٣]، يعني: اعملوا الأعمال لأجل الشكر، فشكراً مفعولاً له وانتصب باعملوا.

قوله: ﴿لله﴾ اللام فيه للاستحقاق كما يُقال الدار لزيدٍ قوله: ﴿ربِّ العالمينَ الرحمنِ الرحيم﴾، فالربّ يكون بمعنى المالك كما يُقال لمالك الدار: ربُّ الدار، ويقال: ربّ الشيء إذا ملكه، ويكون بمعنى التربية والإصلاح يقال: ربّ فلانٌ الضيعةَ يربّـها إذا أتمّها وأصلحها، فهو ربّ مثل طب وبر، فالله تعالى مالك العالمين ومُربّيهم، ولا يقال للمخلوق: هو الربّ معرّفاً، إنّما يُقال: ربّ كذا مضافاً، لأنّ الألف واللام للتعميم، وهو لا يملك الكل، والعالمين: جمع عالَم والعالم جمعٌ لا واحدَ له من لفظه، واختلفوا في العالَمين، قال ابن عباس: هم الجن والإنس، لأنهم مكلّفون بالخطاب، قال الله تعالى: ﴿ليكونَ للعالمين نذيراً﴾ [الفرقان: ١]، وقال قتادة

من حديث أنس «أنه سئل كيف كانت قراءة رسول الله ﷺ قال كانت مداً ثم قرأ بسم الله الرحمن الرحيم يمد الله ويمد الرحمن ويمد الرحيم» فقد ثبت بهذه الأدلة الصحيحة الواضحة أن البسملة من الفاتحة من كل موضع ذكرت فيه وأيضاً فأجمع الصحابة على إثباتها في المصاحف، وأنهم طلبوا بكتابة المصاحف تجريد كلام الله عز وجل المنزل على محمد ﷺ قرآناً وتدوينه مخافة من أن يزيدوا فيه أو ينقصوا منه، ولهذا لم يكتبوا فيه لفظة آمين، وإن كان قد ورد أنه كان يقولها بعد الفاتحة فلو لم تكن البسملة من القرآن في أوائل السور لما كتبوها وكان حكمها حكم آمين.

المسألة الثانية في حكم الجهر بالبسملة والإسرار:

إذا ثبت بما تقدم من الأدلة أن البسملة آية من الفاتحة ومن غيرها من السور حيث كتبت كان حكمها في الجهر والإسرار حكم الفاتحة فيجهر بها مع الفاتحة في الصلاة الجهرية ويسر بها مع الفاتحة في الصلاة السرية؛ وممن قال بالجهر بالبسملة من الصحابة أبو هريرة وابن عباس وابن عمر وابن الزبير. ومن التابعين فمن بعدهم سعيد بن جبير وأبو قلابة والزهري وعكرمة وعطاء وطاوس ومجاهد وعلي بن الحسين وسالم بن عبدالله ومحمد بن كعب القرظي وابن سيرين وابن المنكدر ونافع مولى ابن عمر ويزيد بن أسلم وعمر ومكحول وعمر بن عبد العزيز وعمرو بن دينار ومسلم بن خالد وإليه ذهب الشافعي وهو أحد قولي ابن وهب صاحب مالك ويحكى أيضاً عن ابن المبارك وأبي ثور. وممن ذهب إلى الإسرار بها من الصحابة أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وابن مسعود وعمار بن ياسر وابن مغفل وغيرهم. ومن التابعين فمن بعدهم الحسن والشعبي وإبراهيم النخعي وقتادة والأعمش والثوري وإليه ذهب مالك وأبو حنيفة وأحمد وغيرهم. أما حجة من قال بالجهر فقد روى جماعة من الصحابة منهم أبو هريرة وابن عباس وأنس وعلي بن أبي طالب وسمرة بن جندب وأم سلمة «أن النبي ﷺ جهر بالبسملة فمنهم من

ومجاهد والحسن: جميع المخلوقين، قال الله تعالى: ﴿قال فرعون وما ربُّ العالمين قال ربّ السموات والأرض وما بينهما﴾ [الشعراء: ٢٣ و٢٤]، واشتقاقه من العلم والعلامة، سُمُّوا به لظهور أثر الصنعة فيهم، قال أبو عبيد: هم أربع أُمم، الملائكة والإنس والجن والشياطين، مشتق من العلم، ولا يقال للبهائم: عالم لأنها لا تعقل واختلفوا في مبلَغِهم، قال سعيد بن المسيب: لله ألف عالَم ستمائة في البحر وأربعمائة في البر، وقال مقاتل بن حيان: لله ثمانون ألف عالَم، أربعون ألفاً في البحر وأربعون ألفاً في البرّ، وقال وهب: لله ثمانية عشر ألف عالَم، الدنيا عالم منها وما العمران في الخراب إلّا كفسطاط في صحراء، وقال كعب الأحبار: ولا يحصي عدد العالمين أحدٌ إلّا الله، قال: ﴿وما يعلم جنودَ ربِّك إلّا وهو﴾ [المدّثر: ٣١].

قوله: ﴿**مالِكِ يومِ الدين**﴾، قرأ عاصم والكسائي ويعقوب ﴿**مالك**﴾ وقرأ الآخرون «مَلِك» قال: قوم معناهما واحد مثل فرِهين وفارهين وحذِرين وحاذرينَ، ومعناهما الربّ، يقال: ربّ الدار ومالكها، وقيل: المالك هو القادر على اختراع الأعيان من العدم إلى الوجود، ولا يقدر عليه أحدٌ غير الله، قال أبو عبيدة: «مالك» أجمع وأوسع لأنه يقال: مالك العبد والطير والدواب، ولا يقال ملكَ هذه الأشياء، ولأنّه لا يكون مالك لشيء إلّا وهو يملكه، وقد يكون ملك الشيء ولا يملكه، وقال قوم: ملك أولى لأن كل ملك مالك، وليس كل ملك ملكاً، ولأنه أوفق لسائر القرآن، مثل قوله تعالى: ﴿فتعالى الله الملك الحق﴾ [المؤمنون: ١١٦، طه: ١١٤] و﴿الملك القدوس﴾ [الحشر: ٢٣، الجمعة: ١] و﴿ملك الناس﴾ [الناس: ٢] قال ابن عباس ومقاتل والسدي: ملك يوم الدين قاضي يوم الحساب، وقال قتادة: الدين الجزاء، ويقع على الجزاء في الخير والشر جميعاً، كما يقال: كما تدين تُدان،

صرح بذلك ومنهم من فهم ذلك من عبارته ولم يرد في صريح الإسرار بها عن النبي ﷺ إلا روايتان إحداهما ضعيفة وهي رواية عبدالله بن مغفل والأخرى عن أنس وهي في الصحيح وهي معللة بما أوجب سقوط الاحتجاج بها، وروى نعيم بن عبدالله المجمر قال: «صليت وراء أبي هريرة فقرأ بسم الله الرحمن الرحيم ثم قرأ بأم القرآن وذكر الحديث وفيه ثم يقول إذا سلم إني لأشبهكم صلاة برسول الله ﷺ» أخرجه النسائي وابن خزيمة في صحيحه وقال أما الجهر ببسم الله الرحمن الرحيم فقد ثبت وصح عن النبي ﷺ وروى الدارقطني بسنده عن أبي هريرة عن النبي ﷺ «كان إذا قرأ وهو يؤم الناس افتتح ببسم الله الرحمن الرحيم» وذكر الحديث قال الدارقطني إسناده كلهم ثقات وعن ابن عباس قال كان النبي ﷺ: «يجهر ببسم الله الرحمن الرحيم» أخرجه الدارقطني وقال ليس في روايته مجروح وأخرجه الحاكم أبو عبدالله وقال إسناده صحيح وليس له علة وفي رواية عن ابن عباس قال: «كان رسول الله ﷺ يفتتح الصلاة ببسم الله الرحمن الرحيم» أخرجه الدارقطني وقال صحيح ليس في إسناده مجروح وأخرجه الترمذي وقال ليس إسناده بذلك قال الشيخ أبو شامة أي لا يماثل إسناده ما في الصحيح ولكن إذا انضم إلى ما تقدم من الأدلة رجح على ما في الصحيح وعن أنس قال: «كان رسول الله ﷺ يجهر بالقراءة ببسم الله الرحمن الرحيم» أخرجه الدارقطني وقال إسناده صحيح وفيه عن محمد بن أبي السري العسقلاني قال: صليت خلف المعتمر بن سليمان ما لا أحصى صلاة الصبح والمغرب، فكان يجهر ببسم الله الرحمن الرحيم قبل فاتحة الكتاب وبعدها، وسمعت المعتمر يقول: ما ألوي أن أقتدي بصلاة أنس بن مالك: وقال أنس بن مالك ما ألوي أن أقتدي بصلاة رسول الله ﷺ أخرجه الدارقطني وقال: كلهم ثقات. وأخرجه الحاكم أبو عبدالله وقال: رواة هذا الحديث عن آخرهم كلهم ثقات. قلت وفي الباب أحاديث وأدلة وإيرادات وأجوبة من الجانبين يطول ذكرها وفي هذا القدر كفاية وبالله التوفيق. قوله عز وجل: ﴿**الحمد لله**﴾ لفظه خبر كأنه سبحانه وتعالى يخبر أن المستحق للحمد هو الله تعالى، ومعناه الأمر أي قولوا **الحمد** لله وفيه تعليم الخلق كيف يحمدونه و**الحمد** والمدح أخوان، وقيل بينهما فرق وهو أن المدح قد يكون قبل الإحسان وبعده و**الحمد** لا يكون إلا بعد الإحسان، وقيل إن المدح قد يكون منهياً عنه، وأما الحمد فمأمور به، والحمد يكون بمعنى الشكر على النعمة ويكون بمعنى الثناء بجميل الأفعال، تقول: حمدت الرجل على علمه وكرمه والشكر لا يكون إلا على النعمة، فالحمد أعم من الشكر، إذ لا تقول شكرت فلاناً على علمه فكل حامد شاكر وليس كل شاكر حامداً، وقيل: الحمد باللسان قولاً، والشكر

قال محمد بن كعب القرظي: ملك يوم لا ينفع فيه إلاّ الدِّين، وقال يَمَانُ بن ريان: الدِّين القهر، يُقال دِنته فدان، أي: قهرته فذلّ، وقيل: الدِّين الطاعة، أي: يوم الطاعة، وإنما خُصَّ يومُ الدين بالذكر مع كونه مالكاً للأيام كلها لأن الأملاك يومئذ زائلة فلا ملك ولا أمر إلاّ له، قال الله تعالى: ﴿ الملك يومئذ الحق للرحمن ﴾ [الفرقان: ٢٦]، وقال: ﴿ لمَن الملك اليوم لله الواحد القهّار ﴾ [غافر: ١٦]، وقال: ﴿ والأمر يومئذ لله ﴾ [الانفطار: ١٩]، وقرأ أبو عمرو: ﴿ الرحيم ملك ﴾ بإدغام الميم في الميم، وكذلك يُدغم كل حرفين من جنس واحد أو مخرج واحد أو قريبي المخرج سواء كان الحرف ساكناً أو متحرّكاً إلاّ أن يكون الحرف الأول مشدّداً أو منوّناً أو منقوصاً أو مفتوحاً أو تاء الخطاب قبله ساكن من غير المثلين فإنه لا يدغمها وإدغام المتحرك يكون في الإدغام الكبير، وافقه حمزة في إدغام المتحرّك في قوله: ﴿ بيت طائفة ﴾ [النساء: ٨١] ﴿ والصّافّات صفّاً فالزاجرات زجراً فالتاليات ذكراً ﴾ [الصّافّات: ١ ـ ٣] و﴿ الذاريات ذرواً ﴾ [الذاريات: ١]، وأدغم التاء فيما بعدها من الحروف وافقه حمزة برواية رجاء وخلف والكسائي إلاّ في الراء عند اللام والدال عند الجيم، وكذلك لا يدغم حمزة الدال عند السين والصاد والزاي، ولا إدغام لسائر القرّاء إلاّ في أحرف معدودة.

بالأركان فعلاً، والحمد ضد الذم واللام في لله لام الاستحقاق كقولك الدار لزيد يعني أنه المستحق للحمد لأنه المحسن المتفضل على كافة الخلق على الإطلاق ﴿رب العالمين﴾ الرب بمعنى المالك كما يقال رب الدار ورب الشيء أي مالكه ويكون بمعنى التربية والإصلاح، يقال: رب فلان الضيعة يربها إذا أصلحها فالله تعالى، مالك العالمين ومربيهم ومصلحهم، ولا يقال الرب للمخلوق معرفاً بل يقال رب الشيء مضافاً. والعالمين جمع عالم لا واحد له من لفظه، وهو اسم لكل موجود سوى الله تعالى فيدخل فيه جميع الخلق. وقال ابن عباس: هم الجن والإنس لأنهم المكلفون بالخطاب وقيل العالم اسم لذوي العلم من الملائكة والجن والإنس ولا يقال للبهائم عالم لأنها لا تعقل. واختلف في مبلغ عددهم فقيل لله ألف عالم ستمائة عالم في البحر وأربعمائة في البر. وقيل ثمانون ألف عالم أربعون ألفاً في البر ومثلهم في البحر. وقيل ثمانية عشر ألف عالم الدنيا منها عالم واحد وما العمران في الخراب إلا كفسطاط في صحراء. الفسطاط الخيمة واشتقاق العالم من العلم وقيل من العلامة، وإنما سمي بذلك لأنه دال على الخالق سبحانه وتعالى ﴿الرحمن الرحيم﴾ فالرحمن هو المنعم بما لا يتصور صدور تلك النعمة من العباد، والرحيم هو المنعم بما يتصور صدور تلك النعمة من العباد فلا يقال لغير الله رحمن، ويقال لغيره من العباد رحيم. فإن قلت قد سمي مسيلمة الكذاب برحمان اليمامة وهو قول شاعرهم فيه: وأنت غيث الورى لا زلت رحماناً. قلت هو من باب تعنتهم في كفرهم ومبالغتهم في مدح صاحبهم فلا يلتفت إلى قولهم هذا. فإن قلت: قد ذكر الرحمن الرحيم في البسملة فما فائدة تكريره هنا مرة ثانية. قلت: ليعلم أن العناية بالرحمة أكثرها من غيرها من الأمور وأن الحاجة إليها أكثر فنبه سبحانه وتعالى بتكرير ذكر الرحمة على كثرتها وأنه هو المتفضل بها على خلقه. قوله تعالى: ﴿مالك يوم الدين﴾ يعني أنه تعالى صاحب ذلك اليوم الذي يكون فيه الجزاء. والمالك هو المتصرف بالأمر والنهي، وقيل: هو القادر على اختراع الأعيان من العدم إلى الوجود ولا يقدر على ذلك إلا الله تعالى. وقيل: مالك أوسع من ملك لأنه يقال مالك العبد والدابة ولا يقال ملك هذه الأشياء ولأنه لا يكون ملكاً لشيء إلا وهو يملكه، وقد يكون مالكاً لشيء ولا يملكه وقيل ملك أولى، لأن كل ملك مالك وليس كل مالك ملكاً وقيل هما بمعنى واحد مثل فرهين وفارهين، قال ابن عباس: مالك يوم الدين قاضي يوم الحساب. وقيل؛ الدين الجزاء ويقع على الخير والشر يقال كما تدين تدان وقيل هو يوم لا ينفع فيه إلا الدين وقيل الدين القهر. يقال: دنته فدان أي قهرته فذل. فإن قلت: لم خص يوم الدين بالذكر مع كونه مالكاً للأيام كلها؟ قلت: لأن ملك

قوله: ﴿ إيّاك ﴾، إيّا كلمة ضمير خُصّتْ بالإضافة إلى المضمر، ويستعمل مقدّماً على الفعل، فيقال: إياك أعني وإياك أسأل، ولا يستعمل مؤخراً إلاّ منفصلاً فيقال: ما عنيت إلاّ إياك.

قوله: ﴿ نعبد ﴾ أي: نوحّدك ونطيعك خاضعين، والعبادة الطاعة مع التذلّل والخضوع وسُمّي العبد عبداً لذلّته وانقياده يقال: طريق معبد أي: مُذلّل، ﴿ وإيّاك نستعين ﴾، نطلب منك المعونة على عبادتك وعلى جميع أمورنا، فإن قيل: لِمَ قدّم ذكر العبادة على الاستعانة والاستعانة تكون قبل العبادة، فلهذا يلزم مَن يجعل الاستطاعة قبل الفعل، ونحن نحمد الله ونجعل التوفيق والاستعانة مع الفعل، فلا فرق بين التقديم والتأخير ويقال: الاستعانة نوع تعبُّد فكأنه ذكر جملة العبادة أوّلاً، ثم ذكر ما هو من تفاصيلها.

قوله: ﴿ إهدنا الصراط المستقيم ﴾، اهدنا: أرشدنا، وقال عليّ وأُبيّ بن كعب: ثبّتنا، كما يُقال للقائم: قم حتى أعود إليك، أي: دم على ما أنت عليه، وهذا الدعاء من المؤمنين مع كونهم على الهداية، بمعنى التثبيت وبمعنى طلب مزيد الهداية، لأن الإلطاف والهدايات من الله تعالى لا تتناهى على مذهب أهل السُّنّة.

الأملاك يومئذ زائل فلا ملك ولا أمر يومئذ إلا لله تعالى كما قال تعالى: ﴿الملك يومئذ الحق للرحمن﴾ وقال: ﴿لمن الملك اليوم لله الواحد القهار﴾ وقد يسمى في دار الدنيا آحاد الناس بالملك وذلك على المجاز لا على الحقيقة. قوله تعالى: ﴿**إياك نعبد**﴾ رجع من الخبر إلى الخطاب، وفائدة ذلك من أول السورة إلى هنا ثناء والثناء في الغيبة أولى. ومن قوله: إياك نعبد دعاء والخطاب في الدعاء أولى. وقيل فيه ضمير أي قولوا: إياك نعبد والمعنى إياك نخص بالعبادة ونوحدك ونطيعك خاضعين لك. والعبادة أقصى غاية الخضوع والتذلل، وسمي العبد عبداً لذلته وانقياده. وقيل: العبادة عبارة عن الفعل الذي يؤدي به الفرض لتعظيم الله تعالى، فقول العبد إياك نعبد معناه لا أعبد أحداً سواك، والعبادة غاية التذلل من العبد ونهاية التعظيم للرب سبحانه وتعالى لأنه العظيم المستحق للعبادة ولا تستعمل العبادة إلا في الخضوع لله تعالى لأنه مولى أعظم النعم وهي إيجاد العبد من العدم إلى الوجود ثم هداه إلى دينه فكان العبد حقيقاً بالخضوع والتذلل به ﴿**وإياك نستعين**﴾ أي منك نطلب المعونة على عبادتك وعلى جميع أمورنا. فإن قلت: الاستعانة على العمل إنما تكون قبل الشروع فيه فلم أخر الاستعانة على العبادة وما الحكمة فيه؟ قلت ذكروا فيه وجوهاً أحدها أن هذا يلزم من يجعل الاستطاعة قبل الفعل ونحن بحمد الله نجعل التوفيق والاستطاعة مع الفعل فلا فرق بين التقديم والتأخير. الثاني أن الاستعانة نوع تعبد فكأنه ذكر جملة العبادة أولاً ثم ذكر ما هو من تفاصيلها ثانياً. الثالث كأن العبد يقول شرعت في العبادة فإني أستعين بك على إتمامها فلا يمنعني من إتمامها مانع. الرابع إن العبد إذا قال إياك نعبد حصل له الفخر وذلك منزلة عظيمة فيحصل بسبب ذلك العجب فأردف ذلك بقوله وإياك نستعين ليزول ذلك العجب الحاصل بسبب تلك العبادة ﴿**اهدنا الصراط المستقيم**﴾ أي أرشدنا، وقيل ثبتنا، وهو كما تقول للقائم قم حتى أعود إليك ومعناه دم على ما أنت عليه وهذا الدعاء من المؤمنين مع كونهم على الهداية يعني سؤال التثبيت وطلب مزيد الهداية لأن الألطاف والهدايات من الله لا تتناهى وهذا مذهب أهل السنّة والصراط الطريق، قال جرير:

أميـــر المــــؤمنيــــن علــــى صـــراط إذا اعـــــوج المــــــوارد مستقيـــــم

﴿ **الصراط** ﴾: وصراط قُرِىء بالسين رواه أويس عن يعقوب وهو الأصل سُمّي سراطاً لأنه يسرط السابلة، ويُقرأ بالزاي وقرأ حمزة بإشمام الزاي وكلها لغات صحيحة، والاختيار الصاد عند أكثر القرّاء لموافقة المصحف.

والصراط المستقيم: قال ابن عباس وجابر: هو الإسلام وهو قول مقاتل، وقال ابن مسعود: هو القرآن، ورُوِيَ عن عليّ مرفوعاً «الصراط المستقيم كتاب الله» وقال سعيد بن جبير: طريق الجنّة، وقال سهل بن عبد الله: طريق السُّنّة والجماعة، وقال بكر بن عبد الله المزني: طريق رسول الله ﷺ، وقال أبو العالية والحسن: رسول الله وآله وصاحباه، وأصله في اللغة الطريق الواضح.

﴿ **صراط الذين أنعمت عليهم** ﴾ أي: مننت عليهم بالهداية والتوفيق، قال عكرمة: مننت عليهم بالثبات على الإيمان والاستقامة وهم الأنبياء عليهم السلام، وقيل: هم كلّ مَن ثبّته الله على الإيمان من النبيّين والمؤمنين الذين ذكر الله تعالى في قوله: ﴿ فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيّين ﴾ [النساء: ٦٩] الآية، وقال ابن عباس: هم قوم موسى وعيسى عليهما السلام قبل أن غيّروا دينهم، وقال عبد الرحمن: هم النبي ومَن معه، وقال أبو العالية: هم الرسول ﷺ وأبو بكر وعمر رضي الله عنهما، وقال عبد الرحمن بن زيدان: رسول الله ﷺ وأهل بيته، وقال شَهْرُ بن حوشب: هم أصحاب رسول الله ﷺ وأهل بيته؛ قرأ حمزة «عليهم ولديهم وإليهم» بضم هاآتها، ويضم يعقوب كل هاء قبلها ياء ساكنة تثنيةً وجمعاً إلاّ قوله: ﴿ بين أيديهنَّ وأرجلهنَّ ﴾ [الممتحنة: ١٢]، وقرأ

أي على طريقة حسنة، قال ابن عباس: هو دين الإسلام، وقيل هو القرآن وروى ذلك مرفوعاً. وقيل السنّة والجماعة وقيل معناه اهدنا صراط المستحقين للجنة ﴿صراط الذين أنعمت عليهم﴾ هذا بدل من الأول، أي الذين مننت عليهم بالهداية والتوفيق، وهم الأنبياء والمؤمنين الذين ذكرهم الله تعالى في قوله: ﴿فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين﴾ وقال ابن عباس: هم قوم موسى وعيسى الذين لم يغيّروا ولم يبدلوا وقيل هم أصحاب محمد ﷺ وأهل بيته ﴿غير المغضوب عليهم﴾ يعني غير صراط الذين غضبت عليهم. والغضب في الأصل هو ثوران دم القلب لإرادة الانتقام ومنه قوله ﷺ: «اتقوا الغضب فإنه جمرة تتوقد في قلب ابن آدم ألم تروا إلى انتفاخ أوداجه وحمرة عينيه» وإذا وصف الله به فالمراد منه الانتقام فقط دون غيره وهو انتقامه من العصاة وغضب الله لا يلحق عصاة المؤمنين إنما يلحق الكافرين ﴿ولا الضالين﴾ أي وغير الضالين عن الهدى وأصل الضلال الغيبوبة والهلاك يقال ضل الماء في اللبن إذا غاب فيه وهلك وقيل غير المغضوب عليهم هم اليهود والضالين هم النصارى. عن عدي بن حاتم عن النبي ﷺ قال: «اليهود مغضوب عليهم والنصارى ضلال» أخرجه الترمذي، وذلك لأن الله تعالى حكم على اليهود بالغضب فقال: ﴿من لعنه الله وغضب عليه﴾ وحكم على النصارى بالضلال فقال: ﴿ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل﴾ وقيل: غير المغضوب عليهم بالبدعة ولا الضالين عن السنّة والله أعلم.

فصل: في آمين وحكم الفاتحة وفيه مسألتان: الأولى:

السنّة للقارىء بعد فراغه من الفاتحة أن يقول آمين مفصولاً عنها بسكتة، وهو مخفف وفيه لغتان المد والقصر قال في المد: ويرحم الله عبداً قال آمينا. وقال في القصر: آمين فزاد الله ما بيننا بعداً. ومعنى آمين اللهم اسمع واستجب. وقال ابن عباس: معناه كذلك يكون. وقيل: هو اسم من أسماء الله تعالى وقيل هو خاتم الله

الآخرون بكسرهما، فمَن ضمّ الهاء ردّها إلى الأصل لأنها مضمومة عند الانفراد، ومَن كسرها فلأجل الياء الساكنة والياء أُخت الكسرة، وضمّ ابن كثير وأبو جعفر كل ميم جمعٍ مشبعاً في الوصل إذا لم يلقها ساكن، فإن لقيها ساكن فلا يُشبع، ونافع يخير، ويضم ورش عند ألف القطع، وإذا تلقته ألفُ وصل وقبل الهاء كسر أو ياء ساكنة ضمّ الهاء والميم حمزة والكسائي وكسرهما أبو عمرو، كذلك يعقوب إذا انكسر ما قبله، والآخرون يقرؤون بضمّ الميم وكسر الهاء لأجل الياء أو لكسر ما قبلها وضمّ الميم على الأصل.

قوله: ﴿ غير المغضوب عليهم ﴾ يعني: غير صراط الذين غضبت عليهم، والغضب هو إرادة الانتقام من العصاة، وغضب الله تعالى لا يلحق عصاة المؤمنين إنما يلحق الكافرين.

﴿ ولا الضالّين ﴾ أي: وغير الضالّين عن الهدى، وأصل الضلال الهلاك والغيبوبة، يقال: ضلّ الماء في اللبن إذا هلك وغاب، و«غير» ههنا بمعنى لا، ولا بمعنى غير، ولذلك جاز العطف عليها، كما يُقال: فلان غير محسن ولا مجمل، فإذا كان غير بمعنى سوى، فلا يجوز العطف عليها بلا، لا يجوزُ في الكلام: عِندي سوى عبدِ اللّهِ ولا زيد، وقرأ عمر بن الخطاب رضي الله عنه: صراط مَن أنعمت عليهم، لأن الله تعالى حكم على اليهود بالغضب، فقال: مَنْ لعنه الله وغضب عليه، وحكم على النصارى بالضلال، غير المغضوب عليهم وغير الضالّين، وقيل: ﴿ المغضوب عليهم ﴾ هم اليهود والضالّون هم النصارى، فقال: ﴿ ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلّوا من قبل ﴾ [المائدة: ٧٧]، وقال سهل بن عبد الله: غير المغضوب عليهم بالبدعة ولا الضالّين عن السُّنّة، والسُّنّة للقارىء أن يقول بعد فراغه من قراءة الفاتحة: « آمين »، مفصولاً عن الفاتحة بسكتة، وهو مخفّف ويجوز ممدوداً ومقصوراً،

تعالى على عباده به يدفع عنهم الآثام (ق) عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إذا أمن الإمام فأمنوا فإن من وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه» قال ابن شهاب: وكان رسول الله ﷺ يقول آمين وفي رواية للبخاري «أن الإمام إذا قرأ غير المغضوب عليهم ولا الضالين فقولوا آمين فإن الملائكة تقول آمين فمن وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه».

(قوله: فمن وافق تأمينه تأمين الملائكة). معناه وافقهم في وقت التأمين فأمن مع تأمينهم، وقيل: وافقهم في الصفة والخشوع والإخلاص والقول الأول هو الصحيح. واختلفوا في هؤلاء الملائكة فقيل هم الحفظة وقيل غيرهم من الملائكة.

(قوله غفر له ما تقدم من ذنبه): يعني تغفر له الذنوب الصغائر دون الكبائر وقول ابن شهاب: كان رسول الله ﷺ يقول آمين معناه أن هذه صيغة تأمينه ﷺ.

المسألة الثانية في حكم الفاتحة: اختلف العلماء في وجوب قراءة الفاتحة فذهب مالك والشافعي وأحمد وجمهور العلماء إلى وجوب الفاتحة وأنها متعينة في الصلاة ولا تجزىء إلا بها، واحتجوا بما روى عبادة بن الصامت أن رسول الله ﷺ قال: «لا صلاة لمن لم يقرأ فيها بفاتحة الكتاب» أخرجاه في الصحيحين وبحديث أبي هريرة: «من

ومعناه اللّهمّ اسمعْ واستجب، وقال ابن عباس وقتادة: معناه كذلك يكون، وقال مجاهد: هو اسم من أسماء الله تعالى، وقيل: هو طابع الدعاء، وقيل: هو خاتم الله على عباده يدفع به الآفات عنهم، الخاتم الكتاب يمنعه من الفساد وظهور ما فيه. أخبرنا الإمام أبو علي الحسين بن محمد بن القاضي، وأبو حامد أحمد بن عبد الله الصالحي قالا: أنا أبو بكر أحمد بن حسن الحيري أنا أبو علي محمد بن أحمد بن محمد بن معقل الميداني، ثنا محمد بن يحيىٰ ثنا عبد الرزّاق أنا معمر عن الزهري عن ابن المسيب عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبيّ ﷺ قال: «إذا قال الإمام: ﴿ **غير المغضوب عليهم ولا الضالين** ﴾، فقولوا: آمين، فإن الملائكة تقول: «آمين، وأن الإمام يقول آمين فمَن وافق تأمينُه تأمينَ الملائكة غُفر له ما تقدم من ذنبه» صحيح.

فصل في فضل فاتحة الكتاب

أنا أبو الحسن أحمد بن عبد الرحمن بن محمد الكتاني أنا أبو نصر محمد بن علي بن الفضل الخزاعي، أنا أبو عثمان عمر بن عبد الله البصري ثنا محمد بن عبد الله الوهاب، ثنا خالد بن مخلد القطراني حدّثني محمد بن جعفر بن أبي كثير هو أخو إسماعيل بن جعفر عن ابن العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه، عن أبي هريرة قال: مرّ رسول الله ﷺ على أُبيّ بن كعب وهو قائم يُصلّي فصاح به فقال: تعال يا أُبيّ فعجّل أُبيّ في صلاته، ثم جاء إلى رسول الله ﷺ، فقال: «ما منعك يا أُبيّ أن تجيبني إذْ دعوتك، أليس الله يقول: ﴿ يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم ﴾ [الأنفال: ٢٤]»؟ قال أُبيّ: لا جرم يا رسول الله، لا تدعوني إلّا أجبتك وإن كنت مصليّاً، قال: «أتحبّ أن أُعلّمك سورةً لم ينزل في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الزبور ولا في القرآن مثلها»؟ فقال أُبيّ: نعم يا رسول الله! فقال: «لا تخرج من باب المسجد حتى تعلمها» والنبيّ ﷺ يمشي يريد أن يخرج من المسجد فلما بلغ الباب ليخرج قال له أُبيّ: السورة يا رسول الله، فوقف فقال: «نعم! كيف تقرأ في صلاتك»؟ فقرأ أُبيّ أُمّ القرآن، فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده ما أُنزل في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الزبور ولا في القرآن مثلها وإنما هي السبع من المثاني التي أتاني الله عزّ وجلّ»، هذا حديث حسن صحيح، أخبرنا أبو بكر محمد بن

صلى صلاة لم يقرأ فيها بفاتحة الكتاب فهي خداج ثلاثاً غير تمام» الحديث وقد تقدم في فضل سورة الفاتحة وذهب أبو حنيفة إلى أن الفاتحة لا تتعين على المصلي بل الواجب عليه قراءة آية من القرآن طويلة أو ثلاث آيات قصار واحتج بقوله تعالى: ﴿فاقرؤوا ما تيسر منه﴾ وبقوله ﷺ في حديث الأعرابي المسيء صلاته «ثم اقرأ بما تيسر معك من القرآن» أخرجاه في الصحيحين دليل الجمهور ما تقدم من الأحاديث. فإن قيل المراد من الحديث لا صلاة كاملة قلنا هذا خلاف ظاهر لفظ الحديث ومما يدل عليه حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تجزىء صلاة لمن لم يقرأ فيها بفاتحة الكتاب» أخرجه الدارقطني وقال إسناده صحيح وعنه «أن رسول الله ﷺ أمره أن يخرج فينادي لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب فما زاد» أخرجه أبو داود. وأجيب عن حديث الأعرابي بأنه محمول على الفاتحة فإنها متيسرة أو على ما زاد على الفاتحة أو على العاجز عن قراءة الفاتحة، والله أعلم.

عبد الصمد الترابي أنا الحاكم أبو الفضل محمد بن حسين الحدادي، أنا أبو يزيد محمد بن يحيىٰ بن خالد أنا إسحق بن إبراهيم الحنظلي، ثنا يحيىٰ بن آدم ثنا أبو الأحوص عن عمّار بن ذريق، عن عبد الله بن عيسى عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال بينا رسول الله ﷺ وعنده جبريل إذا سمع نقضاً من فوقه، فرفع جبريل بصره إلى السماء فقال: هذا باب فتح من السماء ما فتح قطّ، قال: فنزل منه ملك فأتى النبيّ ﷺ فقال: «أبشرْ بنورين أُوتيتهما لم يؤتهما نبيّ قبلك، فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة لن تقرأ حرفاً منهما إلاّ أعطيته»، صحيح. أخبرنا أبو الحسن محمد بن محمد الشيرازي حدّثنا زاهر بن أحمد السرخسي، أنا أبو إسحق إبراهيم بن عبد الصمد الهاشمي، أنا أبو مصعب أحمد بن أبي بكر الزهري عن مالك عن العلاء بن عبد الرحمن: أنه سمع أبا السائب مولى هشام بن زهرة يقول: سمعت أبا هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ: «مَن صلّى صلاة لم يقرأ فيها بأُمّ القرآن فهي خداج غير تمام»، قال: فقلت: يا أبا هريرة إنّي أحياناً أكون وراء الإمام؟ فغمز ذراعي وقال: اقرأْ بها يا قارىء في نفسك فإنّي سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال الله عزّ وجلّ قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، نصفها لي ونصفها لعبدي ولعبدي ما سأل»، قال رسول الله ﷺ: «اقرؤوا يقول العبد: ﴿ **الحمد لله ربّ العالمين** ﴾ يقول الله: حمدني عبدي، يقول العبد: ﴿ **الرحمن الرحيم** ﴾، يقول الله: أثنى عليّ عبدي، يقول العبد: ﴿ **مالك يوم الدين** ﴾، يقول الله: مجدني عبدي، يقول العبد: ﴿ **إيّاك نعبد وإيّاك نستعين** ﴾، يقول الله عزّ وجلّ: هذه الآية بيني وبين عبدي، فلعبدي ما سأل، يقول العبد: ﴿ **إهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالّين** ﴾ يقول الله: فهؤلاء لعبدي ولعبدي ما سأل». صحيح.

تفسير سورة البقرة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾

قال ابن عباس: هي أول ما نزل بالمدينة قيل سوى آية وهي قوله تعالى: ﴿**واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله**﴾ فإنها نزلت يوم النحر بمكة في حجة الوداع وهي مائتان وست وقيل سبع وثمانون آية وستة آلاف ومائة وإحدى وعشرون كلمة وخمسة وعشرون ألف حرف وخمسمائة حرف.

فصل: في فضلها:

(م) عن أبي أمامة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «اقرؤوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه اقرؤوا الزهراوين البقرة وآل عمران فإنهما يأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان أو غيايتان أو كأنهما فرقان من طير صواف يحاجان عن صاحبهما اقرؤوا البقرة فإن أخذها بركة وتركها حسرة ولا تستطيعها البطلة» قال معاوية بن سلام بلغني أن البطلة السحرة (قوله اقرؤوا الزهراوين) سميتا بذلك لنورهما يقال لكل مستنير زاهر. قوله: كأنهما غمامتان أو غيايتان: قال أهل اللغة الغمامة والغياية كل شيء أظل الإنسان فوق رأسه من سحابة وغيرها والمعنى أن ثوابهما يأتي كغمامتين (قوله: فرقان من طير صواف) الفرقان الجماعة من الطير والصواف جمع صافة وهي التي

سُوْرَةُ البَقَرَةِ

﴿ **الٓمٓ** ﴾ قال الشعبي وجماعة: الٓمٓ وسائر حروف الهجاء في أوائل السور من المتشابه الذي استأثر الله بعلمه، وهي سرُّ القرآن، فنحن نؤمن بظاهرها ونكل العلم فيها إلى الله تعالى، وفائدة ذكرها طلب الإيمان بها، قال أبو بكر الصديق: في كل كتاب سرّ وسرّ الله في القرآن أوائل السور، وقال علي: إن لكل كتاب صفوة وصفوة هذا الكتاب حروف التهجّي، قال داود بن أبي هند: كنت أسأل الشعبي عن فواتح السور فقال: يا داود إن لكل كتاب سرّ وإن سرّ القرآن فواتح السور فدعْها، وسَلْ عمّا سوى ذلك، وقال جماعة: معلومة المعاني، فقيل: كل حرف منها مفتاح اسم من أسمائه كما قال ابن عباس في ﴿ كٓهيعٓصٓ ﴾ [مريم: ١]: الكاف من كاف والهاء من هاد والياء من حكيم والعين من عليم والصاد من صادق، وقيل في ﴿ الٓمٓصٓ ﴾ [الأعراف: ١]: أنا الله الملك الصادق، وقال الربيع بن أنس في ﴿ الٓمٓ ﴾: الألف مفتاح اسمه الله واللام مفتاح اسمه اللطيف والميم مفتاح اسمه المجيد، وقال محمد بن كعب: الألف آلاء الله واللام لطفه والميم ملكه، وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه قال: معنى ﴿ الٓمٓ ﴾ أنا الله أعلم، ومعنى ﴿ الٓمٓصٓ ﴾ أنا الله أعلم وأفضل، ومعنى ﴿ الٓر ﴾ [يونس: ١، هود: ١،

تصف أجنحتها عند الطيران يحاجان. المحاجة المجادلة والمخاصمة وإظهار الحجة والبطلة السحرة كما جاء في الحديث مبيناً يقال أبطل إذا جاء بالباطل. وفي الحديث دليل على جواز قول سورة البقرة وسورة آل عمران وكذا باقي السور، وأنه لا كراهة في ذلك وكرهه بعض المتقدمين. وقال: إنما يقال السورة التي يذكر فيها البقرة وكذا باقي السور والصواب هو الأول وبه قال الجمهور لورود النص به (م) عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تجعلوا بيوتكم مقابر إن الشيطان يفر من البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة» وعنه قال قال رسول الله ﷺ: «لكل شيء سنام وإن سنام القرآن سورة البقرة وفيها آية هي سيدة آي القرآن آية الكرسي» أخرجه الترمذي وقال حديث غريب (بسم الله الرحمن الرحيم) قوله عز وجل: ﴿الٓمٓ﴾ قيل إن حروف الهجاء في أوائل السور من المتشابه الذي استأثر الله بعلمه، وهي سر الله في القرآن، فنحن نؤمن بظاهرها، ونكل العلم فيها إلى الله تعالى، وفائدة ذكرها طلب الإيمان بها قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه، في كل كتاب سر وسر الله في القرآن أوائل السور وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه إن لكل كتاب صفوة وصفوة هذا الكتاب حروف التهجي. وأورد على هذا القول بأنه لا يجوز أن يخاطب الله عباده بما لا يعلمون، وأجيب عنه بأنه يجوز أن يكلف الله عباده بما لا يعقل معناه كرمي الجمار فإنه مما لا يعقل معناه؛ والحكمة فيه هو كمال الانقياد والطاعة فكذلك هذه الحروف يجب الإيمان بها ولا يلزم البحث عنها. وقال آخرون من أهل العلم: هي معروفة المعاني. ثم اختلفوا فيها فقيل كل حرف منها مفتاح اسم من أسماء الله تعالى فالألف مفتاح اسمه الله واللام مفتاح اسمه لطيف والميم مفتاح اسمه مجيد وقيل الألف آلاء الله واللام لطفه والميم ملكه، ويؤيد هذا أن العرب تذكر حرفاً من كلمة تريد كلها قال الراجز:

قلت لها قفي فقالت قاف ... لا تحسبي أنا نسينا الإيجاف

قولها: قاف أي وقفت فاكتفت بجزء الكلمة عن كلها، والإيجاف الإسراع في السير قال ابن عباس: الٓمٓ أنا الله أعلم. وقيل: هي أسماء الله مقطعة لو علم الناس تأليفها لعلموا اسم الله الأعظم ألا ترى أنك تقول الٓر وحمٓ ونٓ فيكون مجموعها الرحمن وكذلك سائرها، ولكن لم يتهيأ تأليفها جميعاً وقيل أسماء السور وبه قال جماعة من المحققين وقال ابن عباس: هي أقسام فقيل أقسم الله بهذه الحروف لشرفها وفضلها لأنها مباني كتبه المنزلة

يوسف: ١، إبراهيم: ١، الحجر: ١] أنا الله أرى، ومعنى ﴿الٓمٓر﴾ [الرعد: ١] أنا الله أعلم وأرى. قال الزجّاج: وهذا حسن فإن العرب تذكر حرفاً من كلمة تريدها كقولهم:

قلت لها قفي فقالت لي قاف

أي: وقفت، وعن سعيد بن جبير قال: هي أسماء الله تعالى مقطعة لو أحسن الناس تأليفها لعلموا اسم الله الأعظم، ألا ترى أنك تقول ﴿الٓمٓر﴾ [الرعد: ١] و﴿حمٓ﴾ [الجاثية: ١، الأحقاف: ١، غافر: ١، فصّلت: ١، الدخان: ١، الزخرف: ١] و﴿نٓ﴾ [القلم: ١] فيكون الرحمن، وكذلك سائرها إلاّ أنّا لا نقدر على وصلها، وقال قتادة: هذه الحروف أسماء القرآن، وقال مجاهد وابن زيد: هي أسماء السور، وبيانه أن القائل إذا قال قرأت الٓمٓصٓ عرف السامع أنه قرأ السورة التي افتتحت بالٓمٓصٓ، ورُوِيَ عن ابن عباس: أنها أقسام، وقال الأخفش: إنما أقسم الله بهذه الحروف لشرفها وفضلها لأنها مباني كتبه المنزلة ومبادىء أسمائه الحسنى.

قوله: ﴿ذلك الكتاب﴾ أي: هذا الكتاب وهو القرآن، وقيل: هذا فيه مضمر أي هذا ذلك الكتاب، قال الفرّاء: كان الله قد وعد نبيه ﷺ أن ينزل عليه كتاباً لا يمحوه الماء ولا يخلق عن كثرة الردّ، فلما أنزل الله القرآن قال: هذا ذلك الكتاب الذي وعدتك أن أُنزله عليك في التوراة والإنجيل، وعلى لسان النبيّين من قبلك، وهذا

وأسمائه الحسنى وصفاته العليا، وإنما اقتصر على بعضها وإن كان المراد كلها فهو كما تقول قرأت الحمد لله، وتريد أنك قرأت السورة بكمالها فكأنه تعالى أقسم بهذه الحروف أو هذا الكتاب هو الكتاب المثبت في اللوح المحفوظ وقيل إن الله تعالى لما تحداهم بقوله: ﴿فائتوا بسورة من مثله﴾ وفي آية ﴿بعشر سور مثله﴾ فعجزوا عنه أنزل هذه الأحرف ومعناه أن القرآن ليس هو إلاّ من هذه الأحرف وأنتم قادرون عليها فكان يجب أن تأتوا بمثله فلما عجزتم عنه دل ذلك على أنه من عند الله لا من عند البشر. وقيل: إنهم لما أعرضوا عن سماع القرآن وأراد الله صلاح بعضهم أنزل هذه الأحرف فكانوا إذا سمعوها قالوا كالمتعجبين اسمعوا إلى ما يجيء به محمد فإذا أصغوا إليه وسمعوه رسخ في قلوبهم، فكان ذلك سبباً لإيمانهم، وقيل: إن الله تعالى غير عقول الخلق في ابتداء خطابه ليعلموا أن لا سبيل لأحد إلى معرفة خطابه إلاّ باعترافهم بالعجز عن معرفة كنه حقيقة خطابه. واعلم أن مجموع الأحرف المنزلة في أوائل السور أربعة عشر حرفاً في تسع وعشرين سورة وهي الألف واللام والميم والصاد والراء والكاف والهاء والياء والعين والطاء والسين والحاء والقاف والنون وهي نصف حروف المعجم، وسيأتي الكلام على باقيها في مواضعها إن شاء الله تعالى. وقوله تعالى: ﴿**ذلك الكتاب**﴾ أي هذا الكتاب هو القرآن وقيل فيه إضمار، والمعنى هذا الكتاب الذي وعدتك به وكان الله قد وعد نبيه ﷺ أن ينزل عليه كتاباً لا يمحوه الماء ولا يخلق على كثرة الرد، فلما أنزل القرآن قال هذا ذلك الكتاب الذي وعدتك به وقيل إن الله وعد بني إسرائيل أن ينزل كتاباً ويرسل رسولاً من ولد إسماعيل. فلما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة وبها من اليهود خلق كثير أنزل الله تعالى هذه الآية ﴿**الٓمٓ ذلك الكتاب**﴾ أي هذا الكتاب الذي وعدت به على لسان موسى أن أنزله على النبي الذي هو من ولد إسماعيل والكتاب مصدر بمعنى المكتوب وأصله الضم والجمع ومنه يقال للجند كتيبة لاجتماعها فسمي الكتاب كتاباً لأنه يجمع الحروف بعضها إلى بعض والكتاب اسم من أسماء القرآن ﴿**لا ريب فيه**﴾ أي لا شك فيه أنه من عند الله وأنه الحق والصدق، وقيل: هو خبر بمعنى النهي أي لا ترتابوا فيه. فإن قلت قد ارتاب به قوم فما

للتقريب وذلك للتبعيد، وقال ابن كيسان: إن الله تعالى أنزل قبل سورة البقرة سوراً كذّب بها المشركون ثم أنزل سورة البقرة فقال: ذلك الكتاب يعني ما تقدّم البقرة من السور، لا شك فيه، والكتاب مصدر وهو بمعنى المكتوب كما يقال للمخلوق، وهذا الدرهم ضرب فلان، أي: مضروبه، وأصل الكتاب الضمّ والجمع، ويقال للجند كتيبة، لاجتماعها وسُمّي الكتاب كتاباً لأنه جمع حرف إلى أحرف. قوله تعالى: ﴿ **لا ريب فيه** ﴾، أي: لا شك فيه أنه من عند الله وأنه الحق والصدق، وقيل: هو خبر بمعنى النهي أي: لا ترتابوا فيه لقوله تعالى: ﴿ **فلا رفث ولا فسوق** ﴾ [البقرة: ١٩٧]، أي: لا ترفثوا ولا تفسقوا، قرأ ابن كثير فيه بالإشباع في الوصل، وكذلك كل هاء كناية قبلها ساكن يشبعها وصلاً ما لم يلها ساكن، ثم إن كان الساكن قبل الهاء ياء يشبعها بالكسر ياءً، وإن كان غيرها يشبعها بالضم واواً، ووافقه حفص في قوله: ﴿ فيه مهاناً ﴾ [الفرقان: ٦٩] فأشبعه.

قوله تعالى: ﴿ **هدى للمتقين** ﴾، يدغم الغنّة عند اللام والراء أبو جعفر وابن كثير وحمزة والكسائي، زاد حمزة والكسائي عند الياء، وزاد حمزة عند الواو، والآخرون لا يدغمونها، ويخفي أبو جعفر النون والتنوين عند الخاء والغين، هدًى للمتّقين، أي: هو هدى، أي: رشد وبيان لأهل التقوى، وقيل: هو نصب على الحال، أي: هادياً تقديره لا ريب فيه في هدايته للمتّقين، والهدى ما يهتدي به الإنسان للمتّقين، أي: للمؤمنين قال ابن عباس: المتقي مَن يتّقي الشرك والكبائر والفواحش، وهو مأخوذ من الاتقاء، وأصله الحجز بين شيئين، ومنه يُقال: اتقى بترسه أي: جعله حاجزاً بين نفسه وبين ما يقصده، وفي الحديث: كنّا إذا اشتدّ البأس

معنى لا ريب فيه. قلت معناه أنه في نفسه حق وصدق فمن حقق النظر عرف حقيقة ذلك ﴿هدى للمتقين﴾ الهدى عبارة عن الدلالة وقيل دلالة بلطف وقيل الهداية الإرشاد والمعنى هو هدى للمتقين وقيل هو هاد لا ريب في هدايته والمتقي اسم فاعل من وقاه فاتقى والتقوى جعل النفس في وقاية مما يخاف وقيل التقوى في عرف الشرع حفظ النفس مما يؤثم وذلك بترك المحظور وبعض المباحات قال ابن عباس: المتقي من يتقي الشرك والكبائر والفواحش، وهو مأخوذ من الاتقاء وأصله الحجز بين الشيئين، يقال: اتقى بترسه إذا جعله حاجزاً بينه وبين ما يقصده وفي الحديث «كنا إذا اشتد البأس اتقينا برسول الله ﷺ» معناه أنا كنا إذا اشتد الحرب جعلنا رسول الله ﷺ حاجزاً بيننا وبين العدو فكأن المتقي يجعل امتثال أوامر الله واجتناب نواهيه حاجزاً بينه وبين النار وقيل المتقي هو من لا يرى نفسه خيراً من أحد. وقيل: التقوى ترك ما حرم الله وأداء ما افترض. وقيل: التقوى ترك الإصرار على المعصية وترك الاغترار بالطاعة. وقيل: التقوى أن لا يراك مولاك حيث نهاك وقيل: التقوى الاقتداء بالنبي ﷺ وأصحابه وفي الحديث «جماع التقوى في قوله تعالى: ﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان﴾ الآية» وقيل المتقي هو الذي يترك ما لا بأس به حذراً مما به بأس، وخص المتقين بالذكر تشريفاً لهم، لأن مقام التقوى مقام شريف عزيز، لأنهم هم المنتفعون بالهداية، ولو لم يكن للمتقين فضل إلّا قوله تعالى هدى للمتقين لكناهم. فإن قلت كيف قال هدى للمتقين والمتقون هم المهتدون. قلت هو كقولك للعزيز الكريم أعزك الله وأكرمك تريد طلب الزيادة له إلى ما هو ثابت فيه كقوله تعالى: ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾ ﴿الذين يؤمنون بالغيب﴾ أي يصدقون بالغيب، وأصل الإيمان في اللغة التصديق قال الله تعالى: ﴿وما أنت بمؤمن لنا﴾ أي بمصدق فإذا فسر الإيمان بهذا فإنه لا يزيد ولا ينقص لأن التصديق لا يتجزأ حتى يتصور كما له مرة ونقصانه أخرى. والإيمان في لسان الشرع عبارة عن التصديق بالقلب والإقرار باللسان والعمل بالأركان، وإذا فسر بهذا فإنه يزيد وينقص وهو مذهب أهل السنة من أهل الحديث وغيرهم، وفائدة هذا الخلاف تظهر في مسألة وهي أن المصدق بقلبه إذا لم يجمع إلى

اتّقينا برسول الله ﷺ أي: إذا اشتد الحرب جعلناه حاجزاً بيننا وبين العدو، فكأنَّ المتّقى يجعل امتثالَ أمر الله والاجتناب عمّا نهاه حاجزاً بينه وبين العذاب، قال عمر بن الخطاب لكعب الأحبار: حدّثنا عن التقوى، فقال: هل اخذت طريقاً ذا شوك؟ قال: نعم، قال: فما عملت فيه؟ قال: حذّرت وتشمّرت، قال كعب: وذلك التقوى، وقال شهر بن حوشب: المتّقي الذي يترك ما لا بأس به حذراً لما به بأس، وقال عمر بن عبد العزيز: التقوى تركُ ما حرّم الله وأداءُ ما افترض الله، فما رزق الله بعد ذلك فهو خير إلى خير، وقيل: هو اقتداء بالنبي ﷺ، وفي الحديث: «جماع التقوى» في قوله تعالى: ﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان ﴾[النحل: ٩٠] الآية، وقال ابن عمر: التقوى أن لا ترى نفسك خيراً من أحد، وتخصيص المتّقين بالذكر تشريف لهم أو لأنهم هم المنتفعون بالهدى.

قوله تعالى: ﴿ الـذين يؤمنون ﴾ موضع الذين خفض، نعتاً للمتّقين يؤمنون يصدقون، ويترك همزة أبو عمرو وورش، والآخرون يهمزونه، وكذلك يتركان كل همزة ساكنة هي فاء الفعل نحو يؤمن ومؤمن إلّا أحرفاً معدودة، وحقيقة الإيمان التصديق بالقلب، قال الله تعالى: ﴿ وما أنت بمؤمن لنا ﴾ [يوسف: ١٧] أي: بمصدق لنا، وهو في الشريعة: الاعتقاد بالقلب والإقرار باللسان والعمل بالأركان، فسُمّي الإقرار والعمل إيماناً لوجه من المناسبة لأنه من شرائعه، والإسلام هو الخضوع والانقياد فكل إيمان إسلام وليس كل إسلام إيماناً إذا لم يكن معه تصديق، قال الله تعالى: ﴿ قالت الأعراب آمنّا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ﴾ [الحجرات: ١٤]، وذلك لأن الرجل قد يكون مستسلماً في الظاهر غير مصدق في الباطن ويكون مصدقاً في الباطن غير منقاد في الظاهر، وقد اختلف جواب النبيّ ﷺ عنهما حين سأله جبريل عليه السلام، وهو ما أخبرنا أبو طاهر محمد بن علي بن محمد التوبة الزراد

تصديقه العمل بموجب الإيمان من الصلاة والزكاة والصوم والحج ونحو ذلك من أركان الدين هل يسمى مؤمناً أم لا؟ فيه خلاف، والمختار عند أهل السنة أنه لا يسمى مؤمناً لقوله ﷺ: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن» فنفى عنه اسم الإيمان أو كمال الإيمان وأنكر أكثر المتكلمين زيادة الإيمان ونقصانه، وقالوا: متى قبل الزيادة والنقص كان ذلك شكاً وكفراً. وقال المحققون من متكلمي أهل السنة: إن نفس التصديق لا يزيد ولا ينقص والإيمان الشرعي يزيد وينقص بزيادة الأعمال ونقصانها وبهذا أمكن الجمع بين ظواهر نصوص الكتاب والسنة التي جاءت بزيادة الإيمان ونقصانه وبين أصله من اللغة. وقال بعض المحققين: إن نفس التصديق قد يزيد وينقص بكثرة النظر في الأدلة والبراهين وقلة إمعان النظر في ذلك ولهذا يكون إيمان الصديقين أقوى وأثبت من إيمان غيرهم لأنهم لا تعتريهم شبهة في إيمانهم ولا تزلزل، وما غيرهم من آحاد الناس فليس كذلك، إذ لا يشك عاقل أن نفس تصديق أبي بكر رضي الله عنه لا يساويه تصديق غيره من آحاد الأمة وقيل إنما سمي الإقرار والعمل إيماناً لوجه المناسبة لأنه من شرائعه، والدليل على أن الأعمال من الإيمان ما روي عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «الإيمان بضع وسبعون شعبة أفضلها قول لا إله إلاّ الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان» أخرجاه في الصحيحين. البضع بكسر الباء ما بين الثلاثة إلى العشرة والشعبة القطعة من الشيء وإماطة الأذى عن الطريق وهو عزل الحجر والشوك ونحو ذلك عنه. والحياء بالمد وهو انقباض النفس عن فعل القبيح وإنما جعل من الإيمان وهو اكتساب لأن المستحيي ينزجر باستحيائه عن المعاصي فصار من الإيمان، وقيل الإيمان مأخوذ من الأمن فسمي المؤمن مؤمناً لأنه يؤمن نفسه من عذاب الله. والإسلام هو الانقياد والخضوع فكل إيمان إسلام وليس كل إسلام إيماناً إن لم يكن معه تصديق وذلك أن الرجل قد يكون مسلماً في الظاهر غير مصدق في الباطن (ق) عن

البخاري، أنا أبو القاسم علي بن أحمد الخزاعي، ثنا أبو سعيد الهيثم بن كليب الشاشي، ثنا أبو أحمد عيسى بن أحمد العسقلاني أنا يزيد بن هارون أنا كهمس بن الحسن، عن عبد الله بن بريدة عن يحيـىٰ بن يعمر قال: كان أول مَن تكلم في القدر يعني بالبصرة معبد الجهني، فخرجت أنا وحميد بن عبد الرحمن نريد مكة قلنا لو لقينا أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ فسألناه ما يقول هؤلاء، فلقينا عبد الله بن عمر فاكتنفته أنا وصاحبي ـ اكتنفوا أي: أحاطوا ـ أحدنا عن يمينه والآخر عن شماله، فعلمت أنه سيكل الكلام إليّ فقلت: أبا عبد الرحمن إنه قد ظهر قِبَلنا أُناس يتفقرون هذا العلم ويطلبونه، يزعمون أن لا قدر إنما الأمر أُنف، قال: فإذا لقيتَ أولئك فأخبرهم أنّي منهم بريء وأنهم منّي بُراء، والذي نفسي بيده لو أن لأحدهـم مثل أُحدٍ ذهباً فأنفقه في سبيل الله ما قَبِلَ الله منه شيئاً حتى يؤمن بالقدر خيره وشرّه، ثم قال: حدّثنا عمر بن الخطاب، قال: بينا نحن عند رسول الله ﷺ إذْ أقبل رجلٌ شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر ما يُرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منّا أحد فأقبل حتى جلس بين يدي رسول الله ﷺ وركبته تمسّ ركبته، فقال: يا محمد أخبرني عن الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: «الإسلام تشهدُ أن لا إلَه إلّا الله وأن محمداً رسول الله، وتُقيمُ الصلاة وتُؤتي الزكاة وتصومُ رمضانَ وتحجُّ البيتَ إنِ استطعت إليه سبيلاً»، فقال: صدقت، فتعجبنا من سؤاله وتصديقه، ثم قال: فما الإيمان؟ قال: «أن تؤمن بالله وحده وملائكته وكتبه ورسله وبالبعث بعد الموت والجنّة والنار وبالقدر خيره وشرّه»، فقال: صدقت، ثم قال: فما الإحسان؟ قال: «أنْ تعبدَ الله كأنّك تراه فإنّك إن لم تكن تراه فإنه يراك»، قال: صدقت، ثم قال: فأخبرني عن الساعة، فقال: «ما المسؤول عنها بأعلم من السائل»، قال: صدقت، قال: فأخبرني عن أماراتها قال: «أن تلد الأمةُ رَبَّتها وأن ترى الحُفاةَ العُراةَ رِعاء الشاء يتطاولون في بنيان المدر»، قال: صدقت، ثم انطلق، فلما كان بعد ثالثة قال لي رسول الله ﷺ: «يا عمر هل تدري مَنِ الرجل»؟ قال: قلت اللَّهُ ورسولُهُ أعلمُ قال: «ذلك جبرائيل أتاكم يعلمكم أمر دينكم، وما أتاني في صورة

أبي هريرة قال: كان رسول الله ﷺ يوماً بارزاً للناس فأتاه رجل فقال يا رسول الله ما الإيمان «قال أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ولقائه ورسله وتؤمن بالبعث الآخر» قال يا رسول الله ما الإسلام؟ قال: «أن تعبد الله ولا تشرك به شيئاً، وتقيم الصلاة المكتوبة، وتؤدي الزكاة المفروضة، وتصوم رمضان». قال: يا رسول الله ما الإحسان؟ قال «أن تعبد الله كأنك تراه. فإن لم تكن تراه فإنه يراك». قال: يا رسول الله متى الساعة؟ قال: «ما المسؤول عنها بأعلم من السائل، ولكن سأحدثك عن أشراطها. إذا ولدت الأمة ربها فذاك من أشراطها، وإذا كانت الحفاة العراة رؤوس الناس فذاك من أشراطها، وإذا تطاول رعاء البهم في البنيان فذاك من أشراطها، وخمس لا يعلمهن إلّا الله» ثم تلا رسول الله ﷺ: ﴿إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام﴾ إلى قوله: ﴿عليم خبير﴾ قال ثم أدبر الرجل فقال رسول الله ﷺ: «ردوا عليَّ هذا الرجل» فأخذوا ليردوه فلم يروا شيئاً فقال رسول الله ﷺ: «هذا جبريل جاء ليعلم الناس دينهم» وفي أفراد مسلم من حديث عمر بن الخطاب نحو هذا الحديث وبمعناه، وقد تقدم الكلام على معنى الإيمان والإسلام. وبقي أشياء تتعلق بمعنى الحديث، فقوله كان رسول الله ﷺ يوماً بارزاً أي ظاهراً، وقوله: أن تؤمن بالله ولقائه وتؤمن بالبعث الآخر هو بكسر الخاء. وقيل في الجامع بين قوله وتؤمن بلقاء الله وبالبعث فإن اللقاء يحصل بمجرد الانتقال إلى الدار الآخرة وهو الموت والبعث هو بعده عند قيام الساعة وفي تقييده بالآخر وجه آخر وهو أن خروجه إلى الدنيا بعث من الأرحام وخروجه من القبر إلى الآخرة بعث آخر. قوله ما الإحسان هو هنا الإخلاص في العمل وهو شرط في صحة الإيمان والإسلام لأن من أتى بلفظ الشهادة وأتى بالعمل من غير إخلاص لم يكن محسناً، وقيل أراد بالإحسان المراقبة وحسن الطاعة، فإن من راقب الله حسن عمله، وهو المراد بقوله، فإن لم تكن تراه فإنه يراك، وأشراط الساعة علاماتها التي تظهر قبلها. قوله: إذا ولدت

إلّا عرفتُه فيها إلّا في صورته هذه»، قال الفرّاء: فالنبي ﷺ جعل الإسلام في هذا الحديث اسماً لِمَا ظهر من الأعمال، والإيمان اسماً لِمَا بطن من الاعتقاد، وليس ذلك لأن الأعمال ليست من الإيمان، وتصديق بالقلب ليس من الإسلام، بل ذلك تفصيل لجملة هي كلها شيء واحد، وجمّاعها الدين، ولذلك قال: «ذلك جبرائيل أتاكم يعلّمكم أمر دينكم»، والدليل على أن الأعمال من الإيمان، ما أخبر أحمد بن عبد الله الصالحي أنا أبو القاسم إبراهيم بن محمد بن علي بن الشاة، ثنا أبو أحمد بن محمد بن قريش بن سليمان، ثنا بشير بن موسى ثنا خلف بن الوليد عن جرير الرازي، عن سهل بن أبي صالح عن عبد الله بن دينار، عن أبي صالح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «الإيمان بضعٌ وسبعون شعبة أفضلها قول لا إلّه إلّا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق والحياء شعبة من الإيمان»، الإيمان مأخوذ من الأمان فسُمّي المؤمن مؤمناً لأنه يُؤمّن نفسه من عذاب الله، والله تعالى مؤمن لأنه يؤمّن العباد من عذابه.

﴿ بالغيب ﴾، والغيب: مصدرٌ وُضع موضع الاسم، فقيل للغائب: غيب، كما قيل للعادل: عدل، وللزائر: زور، والغيب ما كان مغيباً من العيون، قال ابن عباس: الغيب ههنا كل ما أُمرت بالإيمان به فيما غاب عن بصرك من الملائكة والبعث والجنة والنار والصراط والميزان، وقيل: الغيب ههنا هو الله تعالى، وقيل: القرآن وقال الحسن: الآخرة وقال زر بن حبيش وابن جريج: الوحي، نظيره: ﴿ أعنده علم الغيب ﴾ [النجم: ٣٥]، وقال ابن كيسان: بالقدر، وقال عبد الرحمن بن يزيد: كنّا عند عبد الله بن مسعود فذكرنا أصحاب محمد ﷺ وما سبقوا به فقال عبد الله: إن أمر محمد كان بيننا لمَن رآه والذي لا إلّه غيره ما آمن أحدٌ قطّ إيماناً أفضل من إيمان بغيب، ثم قرأ: ﴿ الٓمٓ ذلك الكتاب ﴾، إلى قوله: ﴿ المفلحون ﴾، قرأ أبو جعفر وأبو عمرو وورش: «يومنون»، بترك الهمزة، وكذلك يترك أبو جعفر كل همزة ساكنة إلّا في ﴿ أنبئهم ﴾ [البقرة: ٣٣]، و﴿ ينبئهم ﴾ [المائدة: ١٤،

الأمة ربها يعني سيدها والمعنى أن الرجل تكون له الأمة فتلد له ولداً فيكون ذلك الولد ابنها وسيدها، ورعاء البهم بكسر الراء وفتح الباء وإسكان الهاء من البهم وهي الصغار من أولاد الضأن، والمعنى أنه يبسط المال على أهل البادية وأشباههم حتى يتباهون في البناء ويسودون الناس فذلك من أشراط الساعة والله أعلم. قوله تعالى ﴿**بالغيب**﴾، والغيب هنا مصدر وضع موضع الاسم، فقيل: الغائب غيب وهو ما كان مغيباً عن العيون قال ابن عباس: الغيب هنا كل ما أمرت بالإيمان به مما غاب عن بصرك من الملائكة والبعث والجنة والنار والصراط والميزان. وقيل: الغيب هنا هو الله تعالى وقيل القرآن وقيل بالآخرة وقيل بالوحي وقيل بالقدر وقال عبدالرحمن بن يزيد كنا عند عبدالله بن مسعود فذكرنا أصحاب محمد ﷺ وما سبقونا به فقال عبدالله بن مسعود إن أمر محمد ﷺ كان بيناً لمن رآه والذي لا إله غيره ما آمن أحد قط أفضل من إيمان بغيب ثم قرأ ﴿**الم ذلك الكتاب لا ريب فيه**﴾ إلى قوله ﴿**وأولئك هم المفلحون**﴾ ﴿**ويقيمون الصلاة**﴾ أي يداومون عليها في مواقيتها بحدودها وإتمام أركانها وحفظها من أن يقع فيها خلل في فرائضها وسننها وآدابها، يقال: قام بالأمر وأقام الأمر إذا أتى به معطى حقوقه، والمراد به الصلوات الخمس. والصلاة في اللغة الدعاء والرحمة ومنه وصل عليهم أي ادع لهم وأصله من صليت العود إذا لينته فكأن المصلي يلين ويخشع. وفي الشرع اسم لأفعال مخصوصة من قيام وركوع وسجود وقعود ودعاء مع النية ﴿**ومما رزقناهم**﴾ أي أعطيناهم من الرزق وهو اسم لما ينتفع به من مال وولد وأصله الحظ والنصيب ﴿**ينفقون**﴾ أي يخرجون ويتصدقون في طاعة الله تعالى وسبيله، ويدخل فيه إنفاق الواجب كالزكاة والنذر والإنفاق على النفس وعلى من تجب نفقته عليه والإنفاق في الجهاد إذا وجب عليه والإنفاق في المندوب، وهو

الأنعام: ١٠٨ و١٥٩، النور: ٦٤، المجادلة: ٦ و٧، الحجر: ٤٩]، و﴿ نبئنا ﴾ [يوسف: ٣٦]، ويترك أبو عمرو كلها إلا أن يكون علامةً للجزم نحو ﴿ نبئهم ﴾ [القمر: ٢٨، الحجر: ٥١]، و﴿ أنبئهم ﴾ [البقرة: ٣٣]، و﴿ تسؤهم ﴾ [آل عمران: ١٢٠]، و﴿ تسؤكم ﴾ [المائدة: ١٠١]، و﴿ إن نشأ ﴾ [الشعراء: ٤، سبأ: ٩، يٓس: ٤٣]، و« ننسأها »، ونحوها أو يكون خروجها من لغة إلى أخرى نحو: « مؤصدة »، و« رِئْيا »، ويترك ورش كل همزة ساكنة كانت قبل فاء الفعل، إلاّ: « تؤوي »، و« تؤويه »، ولا يترك من عين الفعل إلاّ: « الرؤيا »، وبابه إلاّ ما كان على وزن فعل.

قوله: ﴿ **ويقيمون الصلوٰة** ﴾، أي: يديمونها ويحافظون عليها في مواقيتها بحدودها وأركانها وهيئاتها، يقال: قام بالأمر وأقام الأمر إذا أتى به معطياً حقوقه، أو المراد بها الصلوات الخمس، ذُكر بلفظ الواحد كقوله تعالى: ﴿فبعث الله النبيّين مبشّرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ﴾ [البقرة: ٢١٣]، يعني: الكتب، والصلاة في اللغة: الدعاء، قال الله تعالى: ﴿ فصل عليهم ﴾ [التوبة: ١٠٣] أي: ادعُ لهم، وفي الشريعةُ اسم لأفعال مخصوصة من قيام وركوع وسجود وقعود ودعاء وثناء، وقيل في قوله تعالى: ﴿ إن الله وملائكته يُصلّون على النبي ﴾ [الأحزاب: ٥٦]، الآية، إن الصلاة من الله في هذه الآية الرحمة، ومن الملائكة الاستغفار، ومن المؤمنين الدعاء.

قوله: ﴿ **ومما رزقناهم** ﴾، أي: أعطيناهم، والرزق اسم لكل ما يُنتفع به حتى الولد والعبد، وأصله في اللغة: الحظ والنصيب.

﴿ **ينفقون** ﴾: يتصدقون، قال قتادة: ينفقون في سبيل الله وطاعته، وأصل الإنفاق: الإخراج عن اليد والملك، ومنه نَفاق السوق، لأنه يُخرج فيه السلعة عن اليد، ومنه نَفَقَتِ الدابّة: إذا خرجتْ روحها، فهذه الآية في المؤمنين من مشركي العرب.

صدقه التطوع ومواساة الإخوان، وهذه كلها مما يمدح بها وأدخل من التي هي للتبعيض صيانة لهم وكفاً عن السرف والتبذير المنهي عنهما في الإنفاق.

﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾﴾

﴿**والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك**﴾ أي يصدقون بالقرآن المنزل عليك وبالكتب المنزلة على الأنبياء من قبل كالتوراة والإنجيل والزبور وصحف الأنبياء كلها فيجب الإيمان بذلك كله ﴿**وبالآخرة**﴾ يعني بالدار الآخرة سميت آخرة لتأخرها عن الدنيا وكونها بعدها ﴿**هم يوقنون**﴾ من الإيقان وهو العلم والمعنى يستيقنون ويعلمون أنها كائنة.

﴿أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾﴾

﴿**أولئك**﴾ أي الذين هذه صفتهم ﴿**على هدى من ربهم**﴾ أي على رشاد ونور من ربهم وقيل على استقامة ﴿**وأولئك هم المفلحون**﴾ أي الناجون الفائزون نجوا من النار وفازوا بالجنة والمفلح الظافر بالمطلوب أي الذي انفتحت له وجوه الظفر ولم تستغلق عليه ويكون الفلاح بمعنى البقاء قال الشاعر:

لو كان حيٌّ مدرك الفلاح أدركه مُلاعب الرماح

يريد البقاء فيكون المعنى أولئك هم الباقون في النعيم المقيم والفلاح والظفر وإدراك البغية من السعادة والعز والبقاء والغنى وأصل الفلاح الشق كما قيل: إن الحديد بالحديد يفلح، أي يقطع، فعلى هذا يكون المعنى أولئك

قوله: ﴿ **والذين يؤمنون بما أُنزل إليك** ﴾، يعني: القرآن. ﴿ **وما أُنزل مِنْ قبلك** ﴾: من التوراة والإنجيل وسائر الكتب المنزَّلة على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ويترك أبو جعفر وابن كثير وقالون وأهل البصرة ويعقوب كلَّ مدّ يقع بين كل كلمتين، والآخرون يمدّونها، وهذه الآية في المؤمنين من أهل الكتب.

قوله: ﴿ **وبالآخرة** ﴾، أي: بالدار الآخرة، سُميت الدنيا: دنيا لدنوّها من الآخرة، وسُمّيت الآخرة: آخرة لتأخّرها وكونها بعد الدنيا. ﴿ **هم يُوقنون** ﴾، أي: يستيقنون أنها كائنة، من الإيقان وهو العلم، وقيل: الإيقان واليقين علم عن استدلال، ولذلك لا يُسمّى الله موقناً ولا علمه يقيناً إذْ ليس علمه عن استدلال.

قوله: ﴿ **أولئك** ﴾، أي: أهل هذه الصفة، وأُولاء: كلمة معناها الكناية عن جماعة نحو: هم، والكاف للخطاب، كما في حرف ذلك. ﴿ **على هدًى** ﴾، أي: رُشد وبيان وبصيرة. ﴿ **مِنْ ربِّهم وأولئك هم المفلحون** ﴾: الناجون والفائزون فازوا بالجنة ونجوا من النار، ويكون الفلاح بمعنى البقاء، أي: باقون في النعيم المقيم، وأصل الفلاح: القطع والشق، ومنه سُمي الزَّراع: فلاحاً، لأنه يشق الأرض، وفي مثل: الحديد بالحديد يفلح، أي: يشق، فهم المقطوع لهم بالخير في الدنيا والآخرة.

قوله: ﴿ **إن الذين كفروا** ﴾، يعني مشركي العرب، قال الكلبي: يعني اليهود، والكفر عن الجحود، وأصله: من الستر ومنه سُمّي الليل كافراً لأنه يستر الأشياء بظلمته، وسُمّيَ الزَّراع كافراً لأنه يستر الحبّ بالتراب، فالكافر يستر

هم المقطوع لهم بالخير في الدنيا والآخرة. واعلم أن الله عزّ وجلّ صدر هذه السورة بأربع آيات أنزلها في المؤمنين وبآيتين أنزلهما في الكافرين وبثلاث عشرة آية أنزلها في المنافقين فأما التي في الكفار فقوله تعالى: ﴿**إن الذين كفروا**﴾ أي جحدوا وأنكروا وأصل الكفر في اللغة الستر والتغطية، ومنه سمي الليل كافراً لأنه يستر الأشياء بظلمته قال الشاعر، في ليلة كفر النجوم غمامها، أي سترها والكفر على أربعة أضرب: **كفر** إنكار وهو أن لا يعرف الله أصلاً ككفر فرعون وهو قوله ما علمت لكم من إله غيري، وكفر جحود وهو أن يعرف الله بقلبه ولا يقر بلسانه ككفر إبليس، وكفر عناد وهو أن يعرف الله بقلبه ويقر بلسانه ولا يدين به ككفر أمية بن أبي الصلت وأبي طالب حيث يقول في شعر له:

ولقـــد علمـــت بـــأن ديـــن محمـــد مـــن خيـــر أديـــان البـــريـــة دينـــا
لـــولا المـــلامـــة أو حـــذار مسبـــة لـــوجـــدتنـــي سمحـــاً بـــذاك مبينـــا

وكفر نفاق، وهو أن يقر بلسانه ولا يعتقد صحة ذلك بقلبه، فجميع هذه الأنواع كفر. وحاصله أن من جحد الله أو أنكر وحدانيته أو أنكر شيئاً مما أنزله على رسوله أو أنكر نبوة محمد ﷺ أو أحداً من الرسل فهو كافر فإن مات على ذلك فهو في النار خالداً فيها ولا يغفر الله له نزلت في مشركي العرب. وقيل في اليهود ﴿**سواء عليهم**﴾ أي متساوٍ لديهم ﴿**أأنذرتهم**﴾ أي خوفتهم وحذرتهم والإنذار إعلام مع تخويف فكل منذر معلم وليس كل معلم منذراً ﴿**أم لم تنذرهم لا يؤمنون**﴾ أي لا يصدقون وهذه الآية في أقوام حقت عليهم كلمة العذاب في سابق علم الله الأزلي أنهم لا يؤمنون. ثم ذكر سبب تركهم الإيمان فقال تعالى: ﴿**ختم الله على قلوبهم**﴾ أي طبع الله

الحق بجحوده، والكفر على أربعة أنحاء: كفر إنكار، وكفر جحود، وكفر عناد، وكفر نفاق، فكفر الإنكار هو أن لا يعرف الله أصلاً ولا يعترف به، وكفر به، وكفرُ الجحود هو أنْ لا يعرف الله بقلبه ولا يعترف بلسانه ككفر إبليس وكفر اليهود، قال الله تعالى: ﴿ فلما جاءهمْ ما عرفوا كفرُوا به ﴾ [البقرة: ٨٩]، وكفرُ العناد هو أن يعرف الله بقلبه ويعترف بلسانه ولا يدين به ككفر أبي طالب حيث يقول:

ولقـد علمت بـأن دين مـحـمـد من خيـر أديـان البـريّـة دينـا
لـولا المـلامـة أو حـذار مسبّـة لـوجـدتني سمحـاً بـذاك مبينـا

وأما كفر النفاق فهو أن يقرّ باللسان ولا يعتقد بالقلب، وجميع هذه الأنواع سواء في أن مَن لقي اللَّهَ تعالى بواحد منها لا يغفر له. قوله: ﴿ **سواء عليهم** ﴾: متساوٍ لديهم ﴿ **أأنذرتهم** ﴾: خوّفتهم وحذّرتهم، والإنذار: إعلام مع تخويف وتحذير، فكل منذر معلّم وليس كل معلّم منذراً، وحقّق ابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي الهمزتين في ﴿ **أأنذرتهم** ﴾، وكذلك كل همزتين تقعان في أول الكلمة، والآخرون يلينون الثانية، ﴿ **أم** ﴾: حرف عطف على الاستفهام، ﴿ **لم** ﴾: حرف جزم لا يلي إلّا الفعل، لأن الجزم يختصّ بالأفعال. ﴿ **تنذرهم لا يؤمنون** ﴾: وهذه الآية في أقوام حقّت عليهم كلمة الشقاوة في سابق علم الله، ثم ذكر سبب تركهم الإيمان فقال:

﴿ **ختمَ اللَّهُ** ﴾ أي: طبع الله ﴿ **على قلوبهم** ﴾ فلا تعني خيراً ولا تفهمه، وحقيقة الختم: الاستيثاق من الشيء كيلا يدخله ما خرج منه ولا يخرج عنه ما فيه ومنه الختم على الباب، قال أهل السُّنّةُ أي: حكم على قلوبهم بالكفرِ لما سبق من علمه الأول فيهم، وقال المعتزلة: جعل على قلوبهم علامة تعرفهم الملائكة بها، ﴿ **وعلى سمعهم** ﴾، أي: على موضع سمعهم فلا يسمعون الحق ولا ينتفعون به، وأراد على أسماعهم كما قال على قلوبهم، وإنما وحده لأنه مصدر والمصدر لا يُثنى ولا يُجمع. ﴿ **وعلى أبصارهم غِشاوة** ﴾: هذا ابتداء كلام، **غشاوة** أي: غطاء فلا يرون الحق.

عليها فلا تعي خيراً ولا تفهمه وأصل الختم التغطية وحقيقة الاستيثاق من الشيء لكي لا يخرج منه ما حصل فيه ولا يدخله ما خرج، منه ومنه ختم الكتاب. قال أهل السنة: ختم الله على قلوبهم بالكفر لما سبق في علمه الأزلي فيهم وإنما خص القلب بالختم لأنه محل الفهم والعلم ﴿**وعلى سمعهم**﴾ أي وختم على موضوع سمعهم فلا يسمعون الحق ولا ينتفعون به لأنها تمجه وتنبو عن الإصغاء إليه كأنها مستوثق منها بالختم أيضاً، وذكر السمع بلفظ التوحيد ومعناه الجمع قيل إنما وحده لأنه مصدر والمصدر لا يثنى ولا يجمع ﴿**وعلى أبصارهم غشاوة**﴾ هذا ابتداء كلام والغشاوة الغطاء، ومنه غاشية السرج أي وجعل على أبصارهم غشاوة فلا يرون الحق وهي غطاء التعامي عن آيات الله ودلائل توحيده ﴿**ولهم عذاب عظيم**﴾ يعني في الآخرة وقيل الأسر والقتل في الدنيا والعذاب الدائم في العقبى. وحقيقة العذاب هو كل ما يؤلم الإنسان ويعيبه ويشق عليه وقيل هو الإيجاع الشديد وقيل هو ما يمنع الإنسان من مراده ومنه الماء العذب لأنه يمنع العطش والعظيم ضد الحقير. قوله عزّ وجلّ: ﴿**ومن الناس من يقول آمنا بالله**﴾ نزلت في المنافقين عبد الله بن أبي ابن سلول ومعتب بن قشير وجد بن قيس وأصحابهم وذلك أنهم أظهروا كلمة الإسلام ليسلموا بها من النبي ﷺ وأصحابه وأسروا الكفر واعتقدوه وأكثرهم من اليهود. وصفة المنافق أن يعترف بلسانه بالإيمان ويقربه وينكره بقلبه ويصبح على حال ويمسي على غيرها، والناس جمع إنسان سمي به لأنه عهد إليه فنسي قال الشاعر. سميت إنساناً لأنك ناسي، وقيل سمي إنساناً لأنه يستأنس بمثله ﴿**وباليوم الآخر**﴾ أي وآمنا باليوم الآخر وهو يوم القيامة سمي بذلك لأنه يأتي بعد الدنيا وهو آخر الأيام المحدودة المعدودة وما بعده فلا حد له ولا آخر قال الله تعالى رداً على المنافقين ﴿**وما هم بمؤمنين**﴾ نفى عنهم الإيمان بالكلية.

﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ٩﴾

﴿**يخادعون الله والذين آمنوا**﴾ أي يخالفون الله والخديعة الحيلة والمكر وأصله في اللغة لإخفاء والمخادع

وقرأ أبو عمرو والكسائي: ﴿**أبصـارهم**﴾ بالإمالة وكذلك كلّ ألف بعدها راء مجرورة في الأسماء كانت لام الفعل يُميلانها، ويميل حمزة منها ما فيه الراء «كالقرار» ونحوه، زاد الكسائي إمالة (جبارين، والجوار، مأواكم، ومن أنصاري، ونسارع) وبابه، وكذلك يميل هؤلاء كل ألف بمنزلة لام الفعل أو كانت علماً للتأنيث إذا كان قبلها راء، فعلم التأنيث مثل: (الكبرى، والأخرى)، ولام الفعل مثل: (ترى، وفترى)، يكسرون الراء منها.

﴿ **ولهم عذاب عظيم** ﴾ أي: في الآخرة، وقيل: القتل والأسر في الدنيا والعذاب الدائم في العُقبى، والعذاب: كل ما يعني الإنسان ويشقّ عليه، قال الخليل: العذاب ما يمنع الإنسان عن مراده، ومنه الماء العذب لأنه يمنع العطش.

قوله: ﴿ **ومِنَ الناسِ مَنْ يقول آمنّا بالله** ﴾: نزلت في المنافقين عبد الله بن أُبيّ ابن سَلُول ومعتب بن قشير وجِدِّ قيس وأصحابهم، حيث أظهروا كلمة الإسلام لِيَسْلمُوا من النبيّ ﷺ وأصحابه، واعتقدوا خِلافها، وأكثرهم من اليهود، والناس: جمع إنسان، سُمّي به لأنه عُهد إليه فنسي، كما قال الله تعالى: ﴿ ولقدْ عهِدنا إلى آدم من قبلُ فنسي ﴾ [طه: ١١٥]، وقيل: لظهوره من قولهم أي أبصرت، وقيل: لأنه يستأنس به، ﴿ **وباليوم الآخر** ﴾ أي: بيوم القيامة، قال الله تعالى: ﴿ **وما همْ بمؤمنين** ﴾.

﴿ **يُخادعون الله** ﴾ أي: يخالفون الله، وأصل الخداع في اللغة الإخفاء، ومنه المخدع للبيت الذي يُخفى فيه المتاع، فالمخادع يظهر خلاف ما يضمر، والخداع من الله في قوله: ﴿ وهو خادعهم ﴾ [النساء: ١٤٢] أي: يُظهرُ

يظهر ضد ما يضمر ليتخلص فهو بمنزلة النفاق، وهو خادعهم أي يظهر لهم نعيم الدنيا ويعجله لهم بخلاف ما يغيب عنهم من عذاب الآخرة. فإن قلت المخادعة مفاعلة، وإنما تجيء في الفعل المشترك، والله تعالى منزه عن المشاركة قلت المفاعلة قد ترد لا على وجه المشاركة تقول عافاك الله وطارقت النعل وعاقبت اللص، فالمخادعة هنا عبارة عن فعل الواحد والله تعالى منزه عن أن يكون منه خداع. فإن قلت: كيف يخادع الله وهو يعلم الضمائر والأسرار؟ فمخادعة الله ممتنعة فكيف يقال يخادعون الله؟. قلت إن الله تعالى ذكر نفسه وأراد به رسوله ﷺ وذلك تفخيم لأمره وتعظيم لشأنه، وقيل أراد به المؤمنين وإذا خادعوا المؤمنين فكأنهم خادعوا الله تعالى وذلك أنهم ظنوا أن النبي ﷺ والمؤمنين لم يعلموا حالهم ولتجري عليهم أحكام الإسلام في الظاهر وهم، على خلافه في الباطن ﴿وما يخدعون إلّا أنفسهم﴾ أي إن الله تعالى يجازيهم على ذلك ويعاقبهم عليه فلا يكونون في الحقيقة إلّا خادعين أنفسهم، وقيل: إن وبال ذلك الخداع راجع إليهم لأن الله تعالى يطلع نبيه ﷺ على نفاقهم فيفتضحون في الدنيا ويستوجبون العقاب في العقبى. والنفس ذات الشيء وحقيقته. وقيل للدم نفس لأن به قوة البدن ﴿وما يشعرون﴾ أي لا يعلمون أن وبال خداعهم راجع عليهم.

فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَـٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَـٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَـٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾

﴿في قلوبهم مرض﴾ أي شك ونفاق وأصل المرض الضعف والخروج عن الاعتدال الخاص بالإنسان وسمي الشك في الدين والنفاق مرضاً لأنه يضعف الدين كالمرض يضعف البدن ﴿فزادهم الله مرضاً﴾ يعني أن الآيات

لهم ويُعجّل لهم من النعيم في الدنيا خلاف ما يغيب عنهم من عذاب الآخرة، وقيل: أصل الخداع: الفساد، معناه يفسدون ما أظهروا من الإيمان بما أضمروا من الكفر، وقوله: ﴿ وهو خادعهم ﴾ [النساء: ١٤٢]، أي: يُفسد عليهم نعيمهم في الدنيا بما يصيرهم إليه من عذاب الآخرة، فإن قيل: ما معنى قوله: ﴿ يخادعون الله ﴾، والمفاعلة للمشاركة وقد جلّ الله تعالى عن المشاركة في المخادعة؟ قيل: قد ترد المفاعلة لا على معنى المشاركة كقولك: عافاك الله وعافيت فلاناً وطارقت النعل، وقال الحسن: معناه يُخادعون رسول الله ﷺ، كما قال الله تعالى: ﴿ إن الذين يؤذون الله ﴾ [الأحزاب: ٥٧]، أي: أولياء الله، وقيل: ذِكرُ الله ههنا تحسينٌ، والقصد بالمخادعة الذين آمنوا، كقوله تعالى: ﴿ فإنّ للّهِ خُمُسَهُ وللرسول ﴾ [الأنفال: ٤١]، وقيل: معناه يفعلون في دين الله ما هو خداع في دينهم. ﴿ والذين آمنوا ﴾، أي: ويخادعون المؤمنين بقولهم إذا رأوهم آمنّا وهم غير مؤمنين، ﴿ وما يخدعون ﴾، قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو ﴿ ما يخدعون ﴾. كالحرف الأول وجعلوه من المفاعلة التي يختصّ بالواحد، وقرأ الباقون ﴿ وما يخدعون ﴾ على الأصل ﴿ إلّا أنفسهم ﴾، لأن وبال خداعهم راجع إليهم لأن الله يُطلع نبيّه ﷺ على نفاقهم فيُفتضحون في الدنيا ويستوجبون العقاب في العُقبى، ﴿ وما يشعرون ﴾ أي: لا يعلمون أنهم يخدعون أنفسهم وأن وَبالَ خِداعهم يعود عليهم.

﴿ في قلوبهم مرض ﴾: شك ونفاق، وأصل المرض الضعف، سُمّي الشك في الدنيا مرضاً لأنه يُضعف الدينَ كالمرض يُضعف البدنَ، ﴿ فزادهم الله مرضاً ﴾، لأن الآيات كانت تنزل تترى آيةً بعد آية، كلما

كانت تنزل تترى، أي آية بعد آية فلما كفروا بآية ازدادوا بعد ذلك كفراً ونفاقاً ﴿**ولهم عذاب أليم**﴾ أي مؤلم يخلص وجعه إلى قلوبهم ﴿**بما كانوا يكذبون**﴾ أي بتكذيبهم الله ورسوله في السر، وقرىء بالتخفيف أي بكذبهم إذ قالوا آمنا وهم غير مؤمنين ﴿**وإذا قيل لهم**﴾ يعني المنافقين وقيل اليهود والمعنى إذا قال لهم المؤمنون ﴿**لا تفسدوا في الأرض**﴾ أي بالكفر وتعويق الناس عن الإيمان بمحمد ﷺ وبالقرآن ﴿**قالوا إنما نحن مصلحون**﴾ يعني يقولونه كذباً ﴿**ألا**﴾ كلمة تنبيه ينبه بها المخاطب ﴿**إنهم هم المفسدون**﴾ يعني في الأرض بالكفر وهو أشد الفساد ﴿**ولكن لا يشعرون**﴾ وذلك لأنهم يظنون أن ما هم عليه من النفاق وإبطان الكفر صلاح وهو عين الفساد. وقيل لا يشعرون ما أعد الله لهم من العذاب ﴿**وإذا قيل لهم**﴾ يعني المنافقين وقيل اليهود ﴿**آمنوا كما آمن الناس**﴾ يعني المهاجرين والأنصار. وقيل عبدالله بن سلام وأصحابه من مؤمني أهل الكتاب، والمعنى أخلصوا في إيمانكم كما أخلص هؤلاء في إيمانهم لأن المنافقين كانوا يظهرون الإيمان ﴿**قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء**﴾ أي الجهال. فإن قلت كيف يصح النفاق مع المجاهرة بقولهم: أنؤمن كما آمن السفهاء. قلت كانوا يظهرون هذا القول فيما بينهم لا عند المؤمنين فأخبر الله نبيه ﷺ والمؤمنين بذلك فرد الله ذلك عليهم بقوله ﴿**ألا إنهم هم السفهاء**﴾ يعني الجهال. وأصل السفه خفة العقل ورقة العلم وإنما سمى الله المنافقين سفهاء لأنهم كانوا عند أنفسهم عقلاء رؤساء فقلب ذلك عليهم وسماهم سفهاء ﴿**ولكن لا يعلمون**﴾ يعني أنهم كذلك. قوله تعالى: ﴿**وإذا لقوا الذين آمنوا**﴾ يعني هؤلاء المنافقين إذا لقوا المهاجرين والأنصار ﴿**قالوا آمنا**﴾ كإيمانكم ﴿**وإذا خلوا**﴾ أي رجعوا. وقيل هو من الخلوة ﴿**إلى**﴾ قيل بمعنى الباء أي بـ ﴿**شياطينهم**﴾ وقيل بمعنى مع أي مع شياطينهم والمراد بشياطينهم رؤساؤهم وكهنتهم

كفروا بآية ازدادوا كفراً ونفاقاً، وذلك معنى قوله تعالى: ﴿ وأمّا الذين في قلوبهم مرضٌ فزادتْهم رِجْساً إلى رجسهم ﴾ [التوبة: ١٢٥]، قرأ ابن عامر وحمزة ﴿ فزادهم ﴾، بالإمالة، وزاد حمزة إمالة (زاد) حيث وقع، (وزاغ، وخاب، وطاب، وحاق، وضاق)، والآخرون لا يُميلونها، ﴿ **ولهم عذابٌ أليم** ﴾: مؤلم يخلص وجعُه إلى قلوبهم، ﴿ **بما كانوا يَكذبون** ﴾: ما للمصدر، أي: بتكذيبهم الله ورسوله في السرّ، وقرأ الكوفيون يكذبون بالتخفيف، أي: بكذبهم إذا قالوا: آمنّا وهم غير مؤمنين، (وإذا قيل) قرأ الكسائي (قيل، وغيض، وجيء، وحِيل، وسِيق، وسِيئت)، بِرَوْمِ أوائلهنّ الضم، ووافق أهل المدينة في (سِيء، وسِيئت) ووافق ابن عامر في (سِيق، وحِيل، وسِيء، وسِيئت)، لأن أصلها قُوِل بضم القاف وكسر الواو، مثل قُتِل، وكذلك في أخواته، فأُشير إلى الضمّة لتكون دالّةً على الواو المنقلبة، والباقون يكسر أوائلهنّ، استثقلوا الحركة على الواو، فنقلوا كسرتها إلى فاء الفعل وانقلبت الواو ياء لكسرة ما قبلها.

﴿ **وإذا قيل لهم** ﴾، يعني: للمنافقين، وقيل: لليهود، أي: قال لهم المؤمنون: ﴿ **لا تفسدوا في الأرض** ﴾، بالكفر وتعويق الناس عن الإيمان بمحمد ﷺ والقرآن، وقيل: معناه لا تكفروا، والكفر أشد فساداً في الدين، ﴿ **قالوا إنّما نحنُ مصلحون** ﴾: يقول هذا القول كذباً كقولهم آمنّا وهم كاذبون.

﴿ **ألا** ﴾: كلمة تنبيه ينبّه بها المخاطب، ﴿ **إنّهم هم المُفسِدُون** ﴾ أنفسَهم بالكفر، والناسَ بالتعويق عن الإيمان، ﴿ **ولكنْ لا يشعرون** ﴾ أي: لا يعلمون أنهم مفسدون، لأنهم يظنون أنّ الذي هم عليه من إبطان الكفر صلاح، وقيل: لا يعلمون ما أعدّ الله لهم من العذاب.

﴿ **وإذا قيل لهم** ﴾ أي: للمنافقين، وقيـل لليهود: ﴿ **آمنوا كما آمن الناس** ﴾: عبد الله بن سلام وغيره من مؤمني أهل الكتاب، وقيل: كما آمن المهاجرون والأنصار، ﴿ **قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء** ﴾ أي: الجهّال، فإن قيل: كيف يصحّ النفاق مع المجاهرة بقولهم أنؤمن كما آمن السفهاء؟ قيل: إنهم كانوا يُظهِرون هذا القول فيما

قال ابن عباس وهم خمسة نفر: كعب بن الأشرف من اليهود بالمدينة وأبو بردة من بني أسلم، وعبد الدار في جهينة وعوف بن عامر في بني أسد وعبدالله بن السوداء بالشام، ولا يكون كاهن إلّا ومعه شيطان تابع لهم، وقيل لهم رؤساؤهم الذين شابهوا الشياطين في تمردهم ﴿قالوا إنا معكم﴾ أي على دينكم ﴿إنما نحن مستهزئون﴾ أي بمحمد وأصحابه بما نظهر لهم من الإسلام لنأمن شرهم ونقف على سرهم ونأخذ من غنائمهم وصدقاتهم. قال ابن عباس نزلت هذه الآية في عبدالله بن أبي وأصحابه، وذلك أنهم خرجوا ذات يوم فاستقبلهم نفر من أصحاب رسول الله ﷺ فقال عبدالله بن أبي لأصحابه انظروا كيف أرد هؤلاء السفهاء عنكم؟ فذهب فأخذ بيد أبي بكر الصديق فقال: مرحباً بالصديق سيد بني تميم وشيخ الإسلام وثاني رسول الله ﷺ في الغار الباذل نفسه وماله لرسول الله ﷺ ثم أخذ بيد عمر فقال: مرحباً بسيد بني عدي بن كعب الفاروق القوي في دين الله الباذل نفسه وماله لرسول الله ﷺ ثم أخذ بيد علي فقال: مرحباً يا ابن عم رسول الله ﷺ وختمه وسيد بني هاشم ما خلا رسول الله ﷺ. فقال له علي: اتق الله يا عبدالله ولا تنافق فإن المنافقين شر خليقة الله. فقال مهلاً يا أبا الحسن إني لا أقول هذا نفاقاً والله إن إيماننا كإيمانكم وتصديقنا كتصديقكم ثم تفرقوا فقال عبدالله لأصحابه كيف رأيتموني فعلت؟ فأثنوا عليه خيراً.

ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَـٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَـٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ

بينهم لا عند المؤمنين، فأخبر الله نبيَّهُ ﷺ والمؤمنين بذلك فردَّ اللَّهُ عليهم فقال: ﴿ **ألا إنّهم هم السّفهاءُ ولكنْ لا يعلمون** ﴾، أنهم كذلك، والسفيه خفيف العقل رقيق الحلم، من قولهم: ثوب سفيه، أي: رقيق، وقيل: السفيه: الكذاب الذي يتعمّد بخلاف ما يعلم.

قرأ أهل الكوفة والشام ﴿ **السفهاءُ ألا** ﴾ بتحقيق الهمزتين، وكذلك كل همزتين وقعتا في كلمتين اتفقتا أو اختلفتا، والآخرون يحقّقون الأولى ويلينون الثانية في المختلفتين طلباً للخفّة، فإن كانتا متفقتين مثل: (هؤلاء، وأولياء، وأولئك، وجاء أمر ربّك)، قرأ أبو عمرو والبَزّي عن ابن كثير بهمزة واحدة، وقرأ أبو جعفر وورش والقواس ويعقوب بتحقيق الأولى وتليين الثانية، وقرأ قالون بتليين الأولى وتحقيق الثانية لأن ما يستأنف أُولى بالهمزة مما يُسكت عليه.

﴿ **وإذا لَقُوا الذين آمنوا** ﴾، يعني: هؤلاء المنافقين إذا لقوا المهاجرين والأنصار: ﴿ **قالوا آمنّا** ﴾ كإيمانكم ﴿ **وإذا خَلَوْا** ﴾ رجعوا، ويجوز أن يكون من الخلوة، و﴿ **إلى** ﴾، بمعنى: الباء، أي: بشياطينهم، وقيل: إلى بمعنى مع، كما قال الله تعالى: ﴿ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم﴾ [النساء: ٢] أي: مع أموالكم. ﴿ **شياطينهم** ﴾، أي: رؤسائهم وكَهَنَتِهم، قال ابن عباس: وهم خمسة نفر من اليهود: كعب بن الأشرف بالمدينة، وأبو بردة في بني أسلم، وعبد الدار في جُهينة، وعوف بن عامر في بني أسد، وعبد الله بن السوداء بالشام، ولا يكون كاهن إلّا ومعه شيطان تابع له، والشيطان المتمرّد العاتي من الجن والإنس ومن كل شيء، وأصله البُعد، يقال: بئر شطون، أي: بعيدة العمق، سُمّي الشيطان شيطاناً لامتداده في الشر وبعده من الخير، وقال مجاهد: إلى أصحابهم من المنافقين والمشركين، ﴿ **قالوا إنّا معكم** ﴾، أي: على دينكم ﴿ **إنّما نحنُ مُستهزءُون** ﴾ بمحمد ﷺ وأصحابه بما نُظهر من الإسلام. قرأ أبو جعفر (مستهزؤن، ويستهزؤن، وقل استهزؤوا، وليطفؤا، وليواطؤا، ويستنبؤنك، وخاطين، وخاطون، ومتكين ومتكون فمالون، والمنشون)، بترك الهمزة فيهنّ.

وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾

﴿الله يستهزىء بهم﴾ أي يجازيهم جزاء استهزائهم بالمؤمنين فسمي الجزاء باسمه لأنه في مقابلته قال ابن عباس يفتح لهم باب الجنة فإذا انتهوا إليه سدّ عنهم وردوا إلى النار ﴿ويمدهم﴾ أي يتركهم ويمهلهم. والمد والإمداد واحد وأصله الزيادة وأكثر ما يأتي المد في الشر والإمداد في الخير ﴿في طغيانهم﴾ أي في ضلالهم وأصل الطغيان مجاوزة الحد ﴿يعمهون﴾ أي يترددون في الضلالة متحيرين ﴿أولئك﴾ يعني المنافقين ﴿الذين اشتروا الضلالة بالهدى﴾ أي استبدلوا الكفر بالإيمان وإنّما أخرجه بلفظ الشراء والتجارة توسعاً على سبيل الاستعارة لأن الشراء فيه إعطاء بدل وأخذ آخر. فإن قلت كيف قال اشتروا الضلالة بالهدى وما كانوا على هدى. قلت جعلوا لتمكنهم منه كأنه في أيديهم فإذا تركوه إلي الضلالة فقد عطلوه واستبدلوه بها. والضلالة الجور عن القصد وفقد الاهتداء ﴿فما ربحت تجارتهم﴾ أي ما ربحوا في تجارتهم والربح الفضل عن رأس المال وأضاف الربح إلى التجارة لأن الربح يكون فيها ﴿وما كانوا مهتدين﴾ أي مصيبين في تجارتهم، لأن رأس المال هو الإيمان فلما أضاعوه واعتقدوا الضلالة فقد ضلوا عن الهدى. وقيل وما كانوا مهتدين في ضلالتهم. قوله عزّ وجلّ ﴿مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً﴾ المثل عبارة عن قول يشبه ذلك القول قولاً آخر بينهما مشابهة ليبين أحدهما الآخر ويصوره، ولهذا ضرب الله تعالى الأمثال في كتابه، وهو أحد أقسام القرآن السبعة ولما ذكر الله تعالى حقيقة وصف المنافقين عقبه بضرب المثل زيادة في الكشف والبيان، لأنه يؤثر في القلوب ما لا يؤثره وصف الشيء في نفسه، ولأن المثل تشبيه الخفي بالجلي، فيتأكد الوقوف على ماهيته وذلك هو النهاية في الإيضاح، وشرطه أن يكون قولاً فيه غرابة من بعض الوجوه كمثل الذي استوقد ناراً لينتفع بها ﴿فلما أضاءت﴾ يعني النار ﴿ما حوله﴾ يعني حول المستوقد ﴿ذهب الله بنورهم﴾ فإن قلت كيف وحد أولاً ثم جمع ثانياً. قلت يجوز وضع الذي يوضع الذين كقوله:

﴿ الله يستهزىء بهم ﴾، أي: يجازيهم جزاء استهزائهم، سمي الجزاء باسمه لأنه بمقابلته، كما قال الله تعالى: ﴿ وجزاء سيئة سيئة مثلها﴾ [الشورى: ٤٠]، قال ابن عباس: هو أن يفتح لهم باب من الجنة فإذا انتهوا إليه سُدّ عنهم ورُدّوا إلى النار، وقيل: هو أن يُضرب للمؤمنين نورٌ يمشون على الصراط فإذا وصل المنافقون إليه حيل بينهم وبين المؤمنين، كما قال الله تعالى: ﴿ وحيل بينهم وبين ما يشتهون ﴾ [سبأ: ٥٤]، وقال الله تعالى: ﴿ فضرب بينهم بسور له باب ﴾ [الحديد: ١٣]، الآية. وقال الحسن: معناه أن الله يظهر المؤمنين على نفاقهم. ﴿ ويَمدّهم ﴾: يتركهم ويمهلهم، والمدّ والإمداد واحد، وأصله الزيادة إلّا أن المدَّ كثيراً ما يأتي في الشر، والإمداد في الخير، قال الله تعالى في المدّ: ﴿ ونُمِدُّ له من العذاب مدّاً ﴾ [مريم: ٧٩]، وقال في الإمداد: ﴿ وأمددناكم بأموال وبنين ﴾ [الإسراء: ٦]، ﴿ وأمددناهم بفاكهة ﴾ [الطور: ٢٢]. ﴿ في طغيانهم ﴾ أي: في ضلالتهم، وأصل الطغيان: مجاوزة الحدّ، ومنه: طغى الماء. ﴿ يعمهون ﴾، أي: يتردّدون في الضلالة متحيّرين.

﴿ أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى ﴾: بالإيمان، ﴿ فما ربحت تجارتهم ﴾، أي: استبدلوا الكفر، أي: ما ربحوا في تجارتهم، أضاف الربح إلى التجارة لأن الربح يكون فيها كما تقول العرب: ربح بيعك وخسرت صفقتك. ﴿ وما كانوا مهتدين ﴾: من الضلالة، وقيل: مصيبين في تجارتهم.

﴿ مثلهم ﴾: شَبَهُهُمْ، وقيل: صفتهم، والمَثَلُ قولٌ سائر في عُرف الناس يُعرَف به منه الشيء، وهو أحد أقسام القرآن السبعة، ﴿ كمثل الذي ﴾: يعني الذين بدليل سياق الآية، ونظيره: ﴿ والذي جاء بالصدق وصدّق به أولئك

﴿وخضتم كالذي خاضوا﴾ وقيل إنما شبه قصتهم بقصة المستوقد، وقيل معناه مثل الواحد منهم كمثل الذي استوقد ناراً ﴿**وتركهم في ظلمات لا يبصرون**﴾ قال ابن عباس: نزلت في المنافقين يقول مثلهم في نفاقهم كمثل رجل أوقد ناراً في ليلة مظلمة في مفازة فاستدفأ ورأى ما حوله فاتقى مما يخاف، فبينا هو كذلك إذ طفئت ناره فبقي في ظلمة حائراً متخوفاً، فكذلك حال المنافقين أظهروا كلمة الإيمان فأمنوا بها على أنفسهم وأموالهم وأولادهم وناكحوا المسلمين وقاسموهم في الغنائم فذلك نورهم، فلما ماتوا عادوا إلى الظلمة والخوف. وقيل: ذهاب نورهم عقيدتهم للمؤمنين على لسان رسول الله ﷺ. وقيل ذهاب نورهم في القبر أو على الصراط. فإن قلت ما وجه تشبيه الإيمان بالنور والكفر بالظلمة؟ قلت: وجه تشبيه الإيمان بالنور أن النور أبلغ الأشياء في الهداية إلى المحجة القصوى وإلى الطريق المستقيم وإزالة الحيرة وكذلك الإيمان هو الطريق الواضح إلى الله تعالى وإلى جنانه، وشبه الكفر بالظلمة لأن الضال عن الطريق المسلوكة في الظلمة لا يزداد إلّا حيرة وكذلك الكفر لا يزداد صاحبه في الآخرة إلّا حيرة. وفي ضرب المثل للمنافقين بالنار ثلاث حكم: إحداها أن المستضيء بالنار مستضيء بنور غيره فإذا ذهب ذلك بقي هو في ظلمته فكأنهم لما أقروا بالإيمان من غير اعتقاد قلوبهم كان إيمانهم كالمستعار. الثانية أن النار تحتاج في دوامها إلى مادة الحطب لتدوم فكذلك الإيمان يحتاج إلى مادة الاعتقاد ليدوم الثالثة أن الظلمة الحادثة بعد الضوء أشد على الإنسان من ظلمة لم يجد قبلها ضياء فشبه حالهم بذلك. ثم وصفهم الله تعالى فقال ﴿**صم**﴾ أي عن سماع الحق لأنهم لا يقبلونه وإذا لم يقبلوه فكأنهم لم يسمعوه ﴿**بكم**﴾ أي خرس عن النطق بالحق فهم لا يقولونه ﴿**عمي**﴾ أي لا بصائر لهم يميزون بها بين الحق والباطل ومن لا بصيره له كمن لا بصر له فهو أعمى، كانت حواسهم سليمة ولكن لما سدوا عن سماع الحق آذانهم وأبوا أن تنطق به ألسنتهم وأن ينظروا إليه بعيونهم جعلوا كمن تعطلت حواسه وذهب إدراكه قال الشاعر:

صـمٌ إذا سمعـوا خيـراً ذكـرت بـه ... وإن ذكـرت بسـوء كلهـم أذن

هم المتّقون ﴾ [الزمر: ٣٣]، ﴿ **استوقد ناراً** ﴾: أَوْقَدَ ناراً، ﴿ **فلما أضاءت** ﴾ النار ﴿ **ما حوله** ﴾، أي: حول المستوقد، وأضاء لازمٌ ومتعدٍّ، يقال: أضاء الشيءُ بنفسه وأضاء غيره، وهو هنا متعدٍّ، ﴿ **ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يُبصرون** ﴾، قال ابن عباس وقتادة ومقاتل والضحاك والسدي: نزلت في المنافقين يقول مثلهم في نفاقهم كمثل رجل أوقد ناراً في ليلة مظلمة في مفازة فاستدفأ ورأى ما حوله فاتقى مما يخاف، فبينما هو كذلك إذ طُفئت نارُه فبقي في ظلمة خائفاً متحيّراً، فكذلك المنافقون بإظهار كلمة الإيمان أَمِنُوا على أموالهم وأولادهم وناكحوا المؤمنين ووارثوهم وقاسموهم الغنائم، فذلك نورهم، فإذا ماتوا عادُوا إلى الظلمة والخوف، وقيل: ذهاب نورهم في القبر، وقيل: في القيامة حيث يقولون: ﴿ للذين آمنوا انْظُرونا نقتبسْ من نوركم ﴾ [الحديد: ١٣]، وقيل: ذهاب نورهم بإظهار عقيدتهم على لسان النبيّ ﷺ، فضرب النار مثلاً، ثم لم يقل: أطفأ الله نارهم لكن عبّر بإذهاب النور عنه، لأن النار نورٌ وحرارةٌ فيذهب نورُهم وتبقى الحرارةُ عليهم، وقال مجاهد: إضاءة النار إقبالهم إلى المسلمين والهدى، وذهاب نورهم إقبالهم إلى المشركين والضلالة، وقال عطاء ومحمد بن كعب: نزلت في اليهود وانتظارهم خروج النبيّ ﷺ واستفتاحهم به على مشركي العرب، فلما خرج كفروا به، ثم وصفهم الله فقال:

﴿ **صُمٌّ** ﴾ أي: هم صُمٌّ عن الحق لا يقبلونه، وإذا لم يقبلوا فكأنهم لم يسمعوا، ﴿ **بُكْمٌ** ﴾ خُرسٌ عن الحق لا يقولونه، أو أنهم لمّا أبطنوا خلاف ما أظهروا فكأنهم لم ينطقوا بالحق، ﴿ **عُميٌ** ﴾ أي: لَا بصائرَ لهم، ومَن لا بصيرة له كمَن لا بصر له، ﴿ **فهم لا يرجعون** ﴾ عن الضلالة إلى الحق.

﴿ **أو كصيّب** ﴾ أي: كأصحاب صيب، وهذا مثل آخر ضربه الله تعالى للمنافقين، بمعنى: إن شئت مثّلهم

﴿فهم لا يرجعون﴾ أي عن ضلالتهم ونفاقهم. قوله تعالى: ﴿أو كصيِّب﴾ أي كأصحاب صيِّب وهو المطر، وكل ما أنزل من الأعلى إلى الأسفل فهو صيب ﴿من السماء﴾ أي من السحاب لأن كل ما علاك فأظلك فهو سماء ومنه قيل لسقف البيت سماء وقيل من السماء بعينها، وإنما ذكر الله تعالى السماء وإن كان المطر لا ينزل إلاّ منها ليرد على من زعم أن المطر ينعقد من أبخرة الأرض فأبطل مذهب الحكماء بقوله من السماء ليعلم أن المطر ليس من أبخرة الأرض كما زعم الحكماء ﴿فيه﴾ أي الصيِّب ﴿ظلمات﴾ جمع ظلمة ﴿ورعد﴾ هو الصوت الذي يسمع من السحاب ﴿وبرق﴾ يعني النار التي تخرج منه. قال ابن عباس: الرعد اسم ملك يسوق السحاب والبرق لمعان سوط من نور يزجر به السحاب. وقيل الرعد اسم ملك يزجر السحاب إذا تبددت جمعها وضمها فإذا اشتد غضبه يخرج من فيه النار فهي البرق والصواعق، وقيل الرعد تسبيح الملك. وقيل اسمه ﴿يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق﴾ جمع صاعقة وهي الصيحة التي يموت كل من يسمعها أو يغشى عليه، وقيل الصاعقة قطعة من العذاب ينزلها الله على من يشاء. عن ابن عمر «أن رسول الله ﷺ كان إذا سمع صوت الرعد والصواعق قال: اللهم لا تقتلنا بغضبك ولا تهلكنا بعذابك وعافنا قبل ذلك» أخرجه الترمذي وقال حديث غريب ﴿حذر الموت﴾ أي مخافة الهلاك ﴿والله محيط بالكافرين﴾ أي عالم بحالهم وقيل يجمعهم ويعذبهم. ﴿يكاد البرق﴾ أي يقرب، يقال كاد يفعل ولم يفعل ﴿يخطف أبصارهم﴾ أي يختلسها. والخطف استلاب الشيء بسرعة ﴿كلما﴾ أي متى ما جاء ﴿أضاء لهم﴾ يعني البرق ﴿مشوا فيه﴾ أي في إضاءته ونوره ﴿وإذا أظلم عليهم قاموا﴾ أي وقفوا متحيرين، وهذا مثل آخر ضربه الله تعالى للمنافقين، ووجه التمثيل أن الله عزّ وجلّ شبههم في كفرهم ونفاقهم بقوم كانوا في مفازة في ليلة مظلمة أصابهم مطر فيه ظلمات وهي ظلمة الليل وظلمة المطر وظلمة السحاب من صفة تلك الظلمات أن الساري لا يمكنه المشي فيها، ورعد من صفته أن يضم سامعوه أصابعهم إلى آذانهم من هوله، وبرق من صفته أن يخطف أبصارهم ويعميها من شدته فهذا مثل ضربه الله تعالى للقرآن وصنيع الكافرين والمنافقين معه، فالمطر هو القرآن لأنه حياة القلوب كما أن المطر حياة الأرض، والظلمات ما في القرآن من ذكر الكفر والشرك والنفاق. والرعد ما خوفوا به من الوعيد وذكر النار والبرق ما فيه من الهدى والبيان والوعد وذكر الجنة فالكافرون والمنافقون يسدون

بالمستوقد، وإن شئت بأهل الصيِّب، وقيل: أو بمعنى الواو يريد، وكصيِّب، كقوله تعالى: ﴿أو يزيدون﴾ [الصَّافّات: ١٤٧]، بمعنى: ويزيدون، والصيِّب: المطر وكل ما نزل من الأعلى إلى الأسفل فهو صيب، فعيل من صاب يصوب، أي: نزل ﴿من السماء﴾ أي: من السحاب، وقيل: هي السماء بعينها، والسماء كلّ ما علاك فأظلّك، وهي من أسماء الأجناس يكون واحداً وجمعاً. ﴿فيه﴾ أي: في الصيِّب، وقيل: في السماء، أي: في السحاب، ولذلك ذكره، وقيل: السماء يُذكّر ويُؤنّث، قال الله تعالى: ﴿السماء منفطر به﴾ [المزّمّل: ١٨]، وقال: ﴿إذا السماء انفطرت﴾ [الانفطار: ١]، ﴿ظلماتٌ﴾: جمع ظلمة ﴿ورعد﴾: وهو الصوت الذي يُسمع من السحاب، ﴿وبرق﴾: وهو النار التي تخرج منه، قال عليّ وابن عباس وأكثر المفسّرين: الرعد اسم ملك يسوق السحاب، والبرقُ لمعانُ سَوْطٍ من نور، يزجُر بِهِ الملكُ السحابَ، وقيل: الصوت زجر السحاب، وقيل: تسبيح الملك، وقيل: الرعد نطق الملك والبرق ضحكه، وقال مجاهد: الرعد اسم الملك، ويقال لصوته أيضاً: رعد، والبرق: اسم ملك يسوق السحاب، وقال شَهْرُ بن حَوْشب: الرعد ملك يزجر فإذا تبدّدتْ ضمّها فإذا اشتدّ غضبه طارت من فِيهِ النار فهي الصواعق، وقيل: الرعد صوت انحراق الريح بين السحاب، والأول أصح. ﴿يجعلون أصابعهم في آذانهمْ من الصواعق﴾: جمع صاعقة، وهي الصيحة التي يموت مَن يسمعها أو يُغشى عليه، ويقال لكل عذاب مُهلك: صاعقة، وقال: الصاعقة قطعة عذاب ينزلها الله على مَن يشاء، رُوِيَ عن سالم بن عبد الله بن عمر عن أبيه أن رسول الله ﷺ كان إذا سمع صوت الرعد والصواعق قال: «اللّهمّ لا تقتلنا بغضبك ولا

آذانهم عند قراءة القرآن وسماعه مخافة أن تميل قلوبهم إليه لأن الإيمان به عندهم كفر والكفر موت، وقيل هذا مثل ضربه الله تعالى للإسلام، فالمطر هو الإسلام، والظلمات ما فيه من البلاء والمحن، والرعد ما فيه من ذكر الوعيد والمخاوف في الآخرة، والبرق ما فيه من الوعد، ﴿يجعلون أصابعهم في آذانهم﴾ يعني المنافقين إذا رأوا في الإسلام بلاء وشدة هربوا حذراً من الهلاك ﴿والله محيط بالكافرين﴾ يعني لا ينفعهم الهرب لأن الله من ورائهم يجمعهم ويعذبهم.

يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾

﴿**يكاد البرق**﴾ يعني دلائل الإسلام تزعجهم إلى النظر لولا ما سبق لهم من الشقاوة كلمة أضاء لهم يعني المنافقين، وإضاءته لهم هو تركهم بلا ابتلاء ولا امتحان ﴿**مشوا فيه**﴾ يعني على المسالمة بإظهار كلمة الإيمان وقيل كلما نالوا غنيمة وراحة في الإسلام ثبتوا وقالوا إنا معكم، ﴿**وإذا أظلم عليهم قاموا**﴾ يعني إذا رأوا شدة وبلاء تأخروا ﴿**ولو شاء الله لذهب بسمعهم**﴾ أي بصوت الرعد ﴿**وأبصارهم**﴾ بوميض البرق. وقيل: أي لذهب بأسماعهم وأبصارهم الظاهرة كما أذهب أسماعهم وأبصارهم الباطنة ﴿**إن الله على كل شيء قدير**﴾ أي هو الفاعل لما يشاء لا منازع له فيه. قوله عزّ وجلّ: ﴿**يا أيها الناس**﴾ قال ابن عباس: يا أيها الناس خطاب لأهل مكة ويا أيها الذين آمنوا خطاب لأهل المدينة، وهو هنا خطاب عام لسائر المكلفين ﴿**اعبدوا ربكم**﴾ قال ابن عباس: وحدوا

تُهلكنا بعذابك وعافنا قبل ذلك» قوله: ﴿ **حذر الموت** ﴾، أي: مخافة الهلاك، ﴿ **والله محيط بالكافرين** ﴾، أي: عالم بهم وقيل: جامعهم قال مجاهد: يجمعهم فيعذبهم، وقيل: مهلكهم، دليله قوله تعالى: ﴿ إلاّ أن يُحاط بكم ﴾ [يوسف: ٦٦]، أي: تُهلكوا جميعاً ويُميل أبو عمرو والكسائي الكافرين في محل النصب أو الخفض، ولا يُميلان، ﴿ أول كافر به ﴾ [البقرة: ٤١].

﴿ **يكاد البرق** ﴾، أي: يقرب، يقال: كاد يفعل إذا قرب ولم يفعل، ﴿ **يخطف أبصارهم** ﴾: يختلسها، والخطف استلابٌ بسرعة، ﴿ **كلّما** ﴾: كل حرف جملة، ضُمّ إلى مَا الجزاء فصار أداةً للتكرار، ومعناهما متى ما، ﴿ **أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا** ﴾، أي: وقفوا متحيّرين، فالله تعالى شبّههم في كفرهم ونفاقهم بقوم كانوا في مفازة وسواد في ليلة مظلمة أصابهم مطرٌ فيه ظلمات، من صفتها أن الساري لا يمكنه المشي فيها، ورعد من صفته أن يضمّ السامعون أصابعهم إلى آذانهم من هَوْله، وبرق من صفته أن يقرب من أن يخطف أبصارهم ويعميها من شدّة توقّده، فهذا مَثَلٌ ضربه الله للقرآن، وصنيع الكافرين والمنافقين معه، فالمطر: القرآن لأنه حياة الجنان كما أن المطر حياة الأبدان، والظلمات: ما في القرآن من ذكر الكفر والشرك، والرعد ما خُوّفوا به من الوعيد، وذكر النار والبرق ما فيه من الهُدى والبيان والوَعد وذكر الجنة، فالكافرون يسدّون آذانهم عند قراءة القرآن مخافة ميل القلب إليه، لأن الإيمان عندهم كفر، والكفر موت، يكاد البرق يخطف أبصارهم أي: القرآن يُبهر قلوبهم، وقيل: هذا مثل ضربه الله للإسلام، فالمطر: الإسلام، والظلمات: ما فيه من البلاء والمِحن، والرعد: ما

ربكم وكل ما ورد في القرآن من العبادة فمعناه التوحيد. وأصل العبودية التذلل والعبادة غاية التذلُّل ولا يستحقها إلّا من له غاية الإفضال والإنعام وهو الله تعالى ﴿**الذي خلقكم**﴾ أي ابتدع خلقكم على غير مثال سبق ﴿**والذين من قبلكم**﴾ أي وخلق الذين من قبلكم ﴿**لعلكم**﴾ لعل وعسى حرفا ترجّ وهما أي كل منهما من الله واجب ﴿**تتقون**﴾ أي لكي تنجوا من العذاب، وقيل معناه تكونوا على رجاء التقوى بأن تصيروا في ستر ووقاية من عذاب الله وحكم الله من ورائكم يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ﴿**الذي جعل لكم الأرض فراشاً**﴾ أي خلق لكم الأرض بساطاً ووطاء مذللة ولم يجعلها حزنة لا يمكن القرار عليها، والحزن ما غلظ من الأرض ﴿**والسماء بناء**﴾ أي سقفاً مرفوعاً قيل إذا تأمل الإنسان المتفكر في العالم وجده كالبيت المعمور فيه كل ما يحتاج إليه فالسماء مرفوعة كالسقف والأرض مفروشة كالبساط والنجوم كالمصابيح والإنسان كمالك البيت وفيه ضروب النبات المهيأة لمنافعه وأصناف الحيوان مصروفة في مصالحه، فيجب على الإنسان المسخر له هذه الأشياء شكر الله تعالى عليها ﴿**وأنزل من السماء**﴾ يعني السحاب ﴿**ماء**﴾ يعني المطر ﴿**فأخرج به**﴾ أي بذلك الماء ﴿**من الثمرات**﴾ يعني من ألوان الثمرات وأصناف النبات ﴿**رزقاً لكم**﴾ أي وعلفاً لدوابكم ﴿**فلا تجعلوا لله أنداداً**﴾ يعني أمثالاً تعبدونهم كعادته، والندّ المثل ﴿**وأنتم تعلمون**﴾ يعني أنكم بعقولكم تعلمون أن هذه الأشياء والأمثال لا يصح جعلها أنداداً لله، وأنه واحد خالق لجميع الأشياء وأنه لا مثل له ولا ضد له.

قوله تعالى: ﴿**وإن كنتم في ريب**﴾ أي إن كنتم في شك لأن الله تعالى عليم أنهم شاكون ﴿**مما نزلنا على عبدنا**﴾ أي محمد ﷺ لما تقرر إثبات الربوبية لله سبحانه وتعالى وأنه الواحد الخالق وأنه لا ضد له ولا ندّ أتبعه بإقامة الحجة على إثبات نبوة محمد ﷺ ما يدحض الشبهة في كون القرآن معجزة، وأنه من عند الله تعالى لا من عند نفسه كما تدّعون فيه، وقوله على عبدنا إضافة تشريف لمحمد ﷺ وأن القرآن منزل عليه من عند الله سبحانه وتعالى ﴿**فأتوا**﴾ أمر تعجيز ﴿**بسورة**﴾ والسورة قطعة من القرآن معلومة الأول والآخر وقيل السورة اسم للمنزلة الرفيعة، ومنه سور البلد لارتفاعه، سميت سورة لأن القارىء ينال بها منزلة رفيعة حتى يستكمل المنازل باستكمال سور القرآن ﴿**من مثله**﴾ أي مثل القرآن، وقيل الضمير في مثله راجع إلى عبدنا، يعني من مثل محمد ﷺ أميّ لم

فيه من الوَعيد والمخاوف في الآخرة، والبرق: ما فيه من الوعد، ﴿ يجعلون أصابعهم في آذانهم ﴾ [البقرة: ١٩]. يعني: أن المنافقين إذا رأوا في الإسلام بلاءً وشدّةً هَرَبُوا حَذَراً من الهلاك، والله محيط بالكافرين: جامعهم، يعني: لا ينفعهم هَرَبُهم لأن الله تعالى من ورائهم يجمعهم فيعذبهم، ﴿ يكاد البرق ﴾ يعني: دلائل الإسلام تزعجهم إلى النظر لولا ما سبق لهم من الشقاوة، ﴿ كلّما أضاء لهم مشوا فيه ﴾ يعني: أن المنافقين إذا أظهروا كلمة الإيمان آمنوا فإذا ماتوا عادُوا إلى الظلمة، وقيل: معناه كلّما نالُوا غَنيمةً وراحةً في الإسلام ثَبَتُوا وقالوا: إنّا معكم، وإذا أظلم عليهم يعني: رأَوا شِدَّةً وبلاءً تأخروا وقاموا، أي: وقفوا، كما قال الله تعالى: ﴿ ومِنَ النّاس مَنْ يعبدُ اللّهَ على حَرْف ﴾ [الحج: ١١]، ﴿ ولو شاء اللّهُ لذهبَ بسمعهم ﴾، أي: بأسماعهم ﴿ وأبصارهم ﴾ الظاهرة، كما ذهب بأسماعهم وأبصارهم الباطنة، وقيل: لذهب بما استفادوا من العِزّ والأمان الذي لهم بمنزلة السمع والبصر، ﴿ إنّ الله على كل شيء قدير ﴾: قادر، قرأ ابن عامر وحمزة: «شاء، وجاء»، حيث كان بالإمالة.

قوله تعالى: ﴿ يا أيّها الناس ﴾، قال ابن عباس: يا أيها الناس: خطاب أهل مكة، ويا أيها الذين آمنوا خطاب أهل المدينة، وهو ههنا عامّ إلّا من حيث إنه لا يدخله الصِّغار والمجانين. ﴿ اعبدوا ﴾: وحّدوا، قال ابن عباس: كلّ ما ورد في القرآن من العبادة فمعناها التوحيد، ﴿ ربكم الذي خلقكم ﴾: والخَلْقُ اختراع الشيء على غير مثال سبق، ﴿ والذين مِنْ قبلكم ﴾، أي وخلق الذين من قبلكم، ﴿ لعلكم تتقون ﴾: لكي تنجوا من العذاب،

يحسن الكتابة ولم يجالس العلماء ولم يأخذ العلم عن أحد، ورد الضمير إلى القرآن أوجه وأولى ويدل عليه أن ذلك مطابق لسائر الآيات الواردة في التحدي وإنما وقع الكلام في المنزل ألا ترى أن المعنى وإن ارتبتم في أن القرآن منزل من عند الله فأتوا أنتم بسورة مما يماثله ويجانسه، ولو كان الضمير مردوداً إلى محمد ﷺ لقال وإن ارتبتم في أن محمداً منزل عليه فهاتوا قرآناً مثل محمد ﷺ، ويدل على كون القرآن معجزاً ما اشتمل عليه من الفصاحة والبلاغة في طرفي الإيجاز والإطالة فتارة يأتي بالقصة باللفظ الطويل ثم يعيدها باللفظ الوجيز ولا يخل بالمقصود الأول، وأنه فارقت أساليبه أساليب الكلام وأوزانه أوزان الأشعار والخطب والرسائل ولهذا تحديت العرب به، فعجزوا عنه وتحيروا فيه واعترفوا بفضله وهم معدن البلاغة وفرسان الفصاحة ولهم النظم والنثر من الأشعار والخطب والرسائل، حتى قال الوليد بن المغيرة في وصف القرآن: والله إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة وإن أصله لمغدق وإن أعلاه لمثمر ﴿**وادعوا شهداءكم من دون الله**﴾ أي استعينوا بآلهتكم التي تعبدونها من دون الله والمعنى إن كان الأمر كما تقولون أنها تستحق العبادة فاجعلوا الاستعانة بها في دفع ما نزل بكم من أمر محمد ﷺ وإلاّ فاعلموا أنكم مبطلون في دعواكم أنها إلهة. وقيل معناه وادعوا أناساً يشهدون لكم ﴿**إن كنتم صادقين**﴾ أن محمداً ﷺ تقوله من تلقاء نفسه.

فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُواْ

وقيل: معناه كونوا على رجاء التقوى بأن تصيروا في ستر وَوِقاية من عذاب الله، وحكم الله من ورائكم يفعل ما يشاء، كما قال: ﴿ فقُولاَ له قولاً ليّناً لعلّه يتذكر أو يخشى ﴾ [طه: ٤٤]، أي: ادعوه إلى الحق وكُونَا على رجاء التذكّر، وحكم الله من ورائه يفعل ما يشاء، قال سيبويه: لعلّ وعسى حَرْفَا ترجٍّ وهُمَا من الله واجب.

﴿ **الذي جعل لكم الأرض فراشاً** ﴾، أي بساطاً، وقيل: مناماً، وقيل: وِطَاءً، أي ذلّلها ولم يجعلها حَزْنةً لا يمكن القرار عليها، والجعل ههنا بمعنى: الخلق، ﴿ **والسماء بناءً** ﴾: سقفاً مرفوعاً، ﴿ **وأنزل من السماء** ﴾، أي: من السحاب، ﴿ **ماءً** ﴾، وهو المطر، ﴿ **فأخرج به من الثمرات** ﴾: من ألوان الثمرات وأنواع النبات، ﴿ **رِزْقاً لكم** ﴾: طعاماً لكم وعَلَفاً لدوابّكم، ﴿ **فلا تجعلوا لله أنداداً** ﴾، أي: أمثالاً تعبدونهم كعبادة الله، وقال أبو عبيدة: النّد الضّد، وهو من الأضداد، والله تعالى بريء من المِثْل والضِد، ﴿ **وأنتم تعلمون** ﴾: أنّه واحدٌ خالقُ هذه الأشياء.

﴿ **وإن كنتم في رَيب** ﴾، أي: وإن كنتم في شك، لأن الله تعالى علم أنهم شاكّون ﴿ **مما نزّلنا** ﴾، يعني: القرآن، ﴿ **على عبدنا** ﴾: محمد، ﴿ **فأتوا** ﴾: أمرُ تعجيزٍ، ﴿ **بسورة** ﴾، والسورة قِطعة من القرآن معلومة الأول والآخِر، من أسارت، أي: أفضلت، حذفت الهمزة، وقيل: السورة اسم للمنزلة الرفيعة، ومنه سور البلد لارتفاعه، سُمّيت سورة لأن القارىء ينال بقراءتها منزلةً رفيعةً حتى يستكملَ المنازل باستكماله سور القرآن، ﴿ **مِنْ مِثْله** ﴾، أي: مثل القرآن، ومِنْ: صلة، كقوله تعالى: ﴿ قلْ للمؤمنين يَغُضُّوا مِنْ أبصارهم ﴾ [النور: ٣٠]، وقيل: الهاء في مثله راجعة إلى محمد ﷺ، يعني: مِنْ مِثْلِ محمدٍ ﷺ أمّيّ لا يُحسِن الخط والكتابة، ﴿ **وادْعُوا شهداءكم** ﴾، أي: واستعينوا بآلهتكم التي تعبدونها، ﴿ **مِنْ دُون الله** ﴾، وقال مجاهد: ناساً يشهدون لكم، ﴿ **إن كنتم صادقين** ﴾: أنّ محمداً ﷺ تقوّلَه من تلقاء نفسه، فلما تحدّاهم عجزوا، فقال:

هَٰذَا ٱلَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥﴾

﴿**فإن لم تفعلوا**﴾ أي فيما مضى ﴿**ولن تفعلوا**﴾ فيما بقي وهذه الآية دالة على عجزهم وأنهم لم يأتوا بمثله ولا بمثل شيء منه. وذلك أن النفوس الأبية إذا قرعت بمثل هذا التقريع استفرغت الوسع في الإتيان بمثل القرآن أو بمثل سورة منه ولو قدروا على ذلك لأتوا به فحيث لم يأتوا بشيء ظهرت المعجزة للنبي ﷺ وبان عجزهم وهم أهل الفصاحة والبلاغة، والقرآنُ من جنس كلامهم، وكانوا حراصاً على إطفاء نوره وإبطال أمره ثم مع هذا الحرص الشديد لم توجد المعارضة من أحدهم ورضوا بسبى الذراري وأخذ الأموال والقتل وإذا ظهر عجزهم عن المعارضة صح صدق رسول الله ﷺ وإذا كان الأمر كذلك وجب ترك العناد وهو قوله تعالى: ﴿**فاتقوا النار**﴾ أي فآمنوا واتقوا بالإيمان النار ﴿**التي وقودها**﴾ أي حطبها ﴿**الناس والحجارة**﴾ قال ابن عباس يعني حجارة الكبريت لأنها أكثر التهاباً. وقيل جميع الحجارة وفيه دليل على عظم تلك النار وقوتها. وقيل أراد بها الأصنام لأن أكثر أصنامهم كانت من الحجارة وإنما قرن الناس مع الحجارة لأنهم كانوا يعبدونها معتقدين فيها أنها تنفعهم وتشفع لهم فجعلها الله عذابهم في نار جهنم ﴿**أعدت**﴾ أي هيئت ﴿**للكافرين**﴾ قوله عزّ وجلّ: ﴿**وبشر الذين آمنوا**﴾ أي أخبر المؤمنين، وهذا أمر للنبي ﷺ. والبشارة إيراد الخبر السار على سامع يستبشر به ويظهر السرور في بشرة وجهه لأن الإنسان إذا فرح بشيء وسر به ظهر ذلك على بشرة وجهه ثم كثر حتى وضع موضع الخير والشر ومنه قوله: ﴿وبشرهم بعذاب أليم﴾ ولكن هو في السرور والخير أغلب ﴿**وعملوا الصالحات**﴾ أي الفعلات الصالحات وهي الطاعات. قيل العمل الصالح ما كان فيه أربعة أشياء: العلم والنية والصبر والإخلاص. وقال عثمان بن عفان: وعملوا الصالحات

﴿ **فإن لم تفعلوا** ﴾، فيما مضى ﴿ **ولنْ تفعلوا** ﴾، أبداً فيما بقي، وإنّما قال ذلك لبيان الإعجاز، وأن القرآن كان معجزة النبيّ ﷺ حيث عجزوا عن الإتيان بمثله، قوله: ﴿ **فاتّقوا النار** ﴾، أي: فآمنوا واتقوا بالإيمان النارَ، ﴿ **التي وَقودها الناس والحجارة** ﴾، قال ابن عباس وأكثر المفسّرين: يعني حجارة الكبريت لأنها أكثر التهاباً، وقيل: جمع الحجارة، وهو دليل على عِظَم تلك النار، وقيل: أراد بها الأصنام لأن أكثر أصنامهم كانت منحوتة من الحجارة، كما قال: ﴿ إنكم وما تعبدون منْ دونِ اللّهِ حَصَبُ جهنم ﴾ [الأنبياء: ٩٨]، ﴿ **أُعِدّتْ** ﴾: **هُيِّئت** ﴿ **للكافرين** ﴾.

قوله تعالى: ﴿ **وبشّر الذين آمنوا** ﴾، أي: أخبر، والبشارة: كل خبر صدق تتغير به بشرة الوجه، ويُستعمل في الخير والشر وفي الخير أغلب، ﴿ **وعملوا الصالحات** ﴾، أي: الفعلات الصالحات، يعني: المؤمنين الذين هم من أهل الطاعات، قال عثمان بن عفّان رضي الله تعالى عنه: وعملوا الصالحات، أي: أخلصوا الأعمال، كما قال: ﴿ فليعمل عملاً صالحاً ﴾ [الكهف: ١١٠] أي: خالياً عن الرياء، قال معاذ: العمل الصالح الذي فيه أربعة أشياء: العلم والنيّة والصبر والإخلاص، ﴿ **أنّ لهم جنّات** ﴾: جمع الجنّة، والجنّة: البستان الذي فيه أشجار مثمرة، سُمّيت بها لاجتنانها وتسترها بالأشجار، وقال الفراء: الجنة ما فيه النخيل، والفردوس ما فيه الكرم، ﴿ **تجري من تحتها** ﴾ أي: من تحت أشجارها ومساكنها ﴿ **الأنهار** ﴾، أي: المياه في الأنهار، لأن النهر لا يجري، وقيل: من تحتها أي: بأمرهم، لقوله تعالى حكاية عن فرعون: ﴿ وهذه الأنهار تجري من تحتي بأمري ﴾ [الزخرف: ٥١]، والأنهار جمع نهر، سُمّي به لسعته وضيائه، ومنه النهار، وفي الحديث: «أنها الجنة تجري في غير أخدود». ﴿ **كُلّما** ﴾: متى ما، ﴿ **رُزِقوا** ﴾: أُطعموا ﴿ **منها** ﴾ أي: من الجنة، ﴿ **مِنْ ثمرة** ﴾ أي: ثمرة، ومِنْ: صلة، ﴿ **رزقاً** ﴾: طعاماً، ﴿ **قالوا هذا الذي رُزقنا من قبل** ﴾، وقبل رفع على الغاية، قال الله تعالى: ﴿ لله

أي أخلصوا الأعمال يعني عن الرياء ﴿أن لهم جنات﴾ جمع جنة وهي البستان الذي فيه أشجار مثمرة سميت جنة لاجتنابها وتسترها بالأشجار والأوراق. وقيل: الجنة ما فيه نخيل والفردوس ما فيه كرم ﴿تجري من تحتها﴾ أي من تحت أشجارها ومساكنها ﴿الأنهار﴾ أي تجري المياه في الأنهار لأن الأنهار لا تجري وقيل معناه تجري بأمرهم وفي الحديث «إن أنهار الجنة تجري في غير أخدود» أي في غير شق والخد الشق ﴿كلما رزقوا﴾ أي أطعموا ﴿منها﴾ أي من الجنة ﴿من ثمرة رزقاً﴾ أي طعاماً ﴿قالوا هذا الذي رزقنا من قبل﴾ أي في الدنيا، وقيل: إن ثمار الجنة متشابهة في اللون مختلفة في الطعم فإذا رزقوا ثمرة بعد أخرى ظنوا أنها الأولى ﴿وأتوا به﴾ أي بالرزق ﴿متشابهاً﴾ قال ابن عباس مختلفاً في الطعوم وقيل يشبه بعضه بعضاً في الجودة لا رداءة فيها وقيل يشبه ثمار الدنيا في الاسم لا في الطعم (م) عن جابر بن عبدالله رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ «أهل الجنة يأكلون ويشربون ولا يبولون ولا يتغوطون ولا يمتخطون ولا يبزقون يلهمون الحمد والتسبيح كما يلهمون النفس طعامهم جشاء ورشح كرشح المسك» وفي رواية «ورشحهم المسك». قوله: يلهمون التسبيح كما يلهمون النفس أي يجري على ألسنتهم كما يجري النفس فلا يشغلهم عن شيء كما أن النفس لا يشغل عن شيء قوله طعامهم جشاء، يعني أن فضول طعامهم يخرج في الجشاء وهو تنفس المعدة. والرشح العرق وقوله العرق. وقوله تعالى ﴿ولهم فيها﴾ أي في الجنات ﴿أزواج﴾ أي من الحور العين ﴿مطهرة﴾ يعني من البول والغائط والحيض والولد وسائر الأقذار وقيل هن عجائزكم الغمص العمش طهرن من قذرات الدنيا وقيل طهرن من مساوي الأخلاق قيل في الجنة جماع ما شئت ولا ولد ﴿وهم فيها خالدون﴾ أي لا يخرجون منها ولا يموتون. والخلد البقاء الدائم الذي لا انقطاع له (ق) عن

الأمر مِنْ قَبْلُ ومِنْ بعدُ ﴾ [الروم: ٤] قيل: من قبل في الدنيا، وقيل: الثمار في الجنة متشابهة في اللون مختلفة في الطعـم، فإذا رُزِقوا ثمرة بعد أخرى ظنوا أنها الأولى، ﴿ وأُتوا به ﴾: رزقاً ﴿ متشابهاً ﴾، قال ابن عباس ومجاهد والربيع: متشابهاً في الألوان مختلفاً في الطعوم، وقال الحسن وقتادة: متشابهاً أي: يشبه بعضها بعضاً في الجودة، أي: كلها خيار لا رذالة فيها، وقال محمد بن كعب: يشبه ثمر الدنيا، غير أنها أطيب، وقيل: متشابهاً في الاسم مختلفاً في الطعم، قال ابن عباس رضي الله تعالى عنه: ليس في الدنيا مما في الجنة إلّا الأسامي، أنا أبو حامد بن عبد الله الصالحي، أنا أبو سعيد محمد بن موسى الصيرفي، أنا أبو عبد الله محمد بن الصفار، أنا أحمد بن محمد بن عيسى البزي، أنا محمد بن كثير أنا سفيان الثّوري عن الأعمش عن أبي سفيان عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «أهل الجنة يأكلون ويشربون ولا يبولون ولا يتغوطون ولا يمتخطون ولا يبزقون، يُلهمون الحمد والتسبيح كما تُلهمون النفس، طعامهم الجشاء ورشحهم المسك».

قوله تعالى: ﴿ ولهم فيها ﴾: في الجنان ﴿ أزواج ﴾: نساء وجوارٍ، يعني: من الحور العين، ﴿ مُطهرة ﴾: من الغائط والبول والحيض والنفاس والبصاق والمخاط والمني والولد وكل قذر، قال إبراهيم النخْعي: في الجنة جماع ما شئت ولا ولد، وقال الحسن: هنّ عجائزكم الغُمص العُمش طُهّرن من قذرات الدنيا، وقيل: مطهّرة عن مساوىء الأخلاق، ﴿ وهم فيها خالدون ﴾، دائمون لا يموتون فيها ولا يخرجون منها، أنا أبو عمرو وعبد الواحد بن أحمد المليحي، أنا أبو حامد أحمد بن عبد الله النُّعيمي، أنا محمد بن يوسف العزيزي، أنا محمد بن إسماعيل البخاري أنا قتيبة بن سعيد، أنا جرير عن عمارة عن أبي زُرعة عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أول زُمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر، ثم الذين يلونهم على أشد كوكب دُرّي في السماء إضاءة، لا يبولون ولا يتغوطون ولا يتفلون ولا يمتخطون، أمشاطهم الذهب ورشحهم المسك ومجامرهم الألوة، وأزواجهم الحور العين

أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «إن أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر ثم الذين يلونهم على أشد كوكب دري في السماء إضاءة لا يبصقون ولا يمتخطون ولا يتغوطون ولا يبولون أمشاطهم الذهب ورشحهم المسك ومجامرهم الألوّة وأزواجهم الحور العين على خلق رجل واحد وعلى صورة أبيهم آدم ستون ذراعاً في السماء» وفي رواية «ولكل واحد منهم زوجتان يرى مخ سوقهما من وراء اللحم من الحسن لا اختلاف بينهم ولا تباغض قلوبهم قلب رجل واحد يسبحون الله بكرة وعشياً» (ق) عن أبي موسى الأشعري أن النبي ﷺ قال: «إن للمؤمن في الجنة لخيمة من لؤلؤة واحدة مجوفة طولها في السماء ستون ميلاً للمؤمن فيها أهلون يطوف عليهم المؤمن فلا يرى بعضهم بعضاً» عن أبي هريرة قال: «قلت يا رسول الله ممّ خلق الله الخلق؟ قال من الماء، قلت الجنة ما بناؤها؟ قال لبنة من فضة ولبنة من ذهب وملاطها المسك الأذفر وحصباؤها اللؤلؤ والياقوت وتربتها الزعفران من يدخلها ينعم ولا ييأس ويخلد ولا يموت ولا تبلى ثيابهم ولا يفنى شبابهم» أخرجه الترمذي بزيادة وقال ليس إسناده بذلك القوي. عن عبادة بن الصامت أن رسول الله ﷺ قال: «إن في الجنة مائة درجة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض والفردوس أعلاها درجة ومنها تفجر أنهار الجنة الأربعة ومن فوقها يكون العرش فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس» أخرجه الترمذي (م) عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: «إن في الجنة لسوقاً يأتونها

على خلق رجل واحد، على صورة أبيهم آدم، ستّون ذراعاً في السماء» أنا عبد الواحد المليحي أنا عبد الرحمن بن أبي شُرَيح أنا أبو القاسم البغوي، أنا علي بن الجعد أنا فُضيل هو ابن مرزوق، عن عطية عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «أول زمرة مَن يدخل الجنة يوم القيامة صورة وجوههم مثل صورة القمر ليلة البدر، والزمرة الثانية على لون أحسن الكواكب في السماء، لكل رجل منهم زوجتان على كل زوجة سبعون حلّة يرى مخّ سوقهنّ دون لحومها ودمائها وحللها». أنا أبو عبد الله محمد بن الفضل الخرقي المروزي، أنا أبو الحسن علي بن عبد الله الطيسفوني، أنا عبد الرحمن بن أبي شُريح أنا عبد الله بن عمر الجوهري، أنا أحمد بن علي الكشميهني أنا علي بن حجر، أنا إسماعيل بن جعفر بن أبي كثير الهمذاني عن حُميد الطويل عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «لو أن امرأة من نساء أهل الجنّة اطلعت على الأرض لأضاءت ما بينهما، ولملأت ما بينهما ريحاً ولنصيفها على رأسها خير من الدنيا وما فيها»، صحيح، أخرجه محمد بن عبد الله بن محمد عن معاوية بن عمر عن أبي إسحاق عن حميد أنا أبو الحسن علي بن يوسف الجويني أنا أبو محمد محمد بن علي بن محمد بن شريك الشافعي، أنا عبد الله بن مسلم أنا أبو بكر الجوريدي أنا أحمد بن الفرج الحمصي أنا عثمان بن سعيد بن كثير بن دينار، أنا محمد بن المهاجر عن الضحاك المغافري عن سليمان بن موسى حدّثني كريب أنه سمع أُسامة بن زيد يقول: قال رسول الله ﷺ: «ألاَ هَلْ مِنْ مُشَمِّر للجنة، وإن الجنة لا خطر لها، وهي وربِّ الكعبة نورٌ يتلألأ ورَيحانة تهتزّ، وقصر مشيّد ونهر مطّرد، وثمرة نضيجة وزوجة حسناء جميلة وحُلَل كثيرة ومقام أبد في دار سليمة وفاكهة خضرة وحبرة ونعمة في محلة عالية بهيّة»، قالوا: نعم يا رسول الله نحن المشمّرون لها، قال: «قولوا: إن شاء الله»، قال القوم: إن شاء الله، ورُوِي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أهل الجنّة جردٌ مُرد كحل لا يفنى شبابهم ولا يبلى ثيابهم»، وأنا أبو بكر محمد بن عبد الصمد الترابي، أنا الحاكم أبو الفضل الحدادي أنا أبو يزيد محمد بن يحيىٰ، أنا إسحق الحنظلي أنا أبو معاوية أنا عبد الرحمن بن إسحاق، عن النعمان بن سعيد عن علي قال: قال رسول الله ﷺ: «إن في الجنة لسوقاً ليس فيها بيع ولا شراء إلّا الصور من الرجال والنساء فإذا اشتهى الرجل صورة دخل فيها، وإن فيها لمجتمع الحور العين ينادين بصوت لم يسمع الخلائق مثله نحن الخالدات فلا نبيد أبداً ونحن الناعمات فلا نبأس أبداً ونحن الراضيات فلا نسخط، فطوبى لمَن كان لنا وكنّا له أو نحن له»، ورواه أبو عيسى عن

كل جمعة فتهب ريح الشمال فتحثو في وجوههم وثيابهم فيزدادون حسناً وجمالاً فيرجعون إلى أهلهم وقد ازدادوا حسناً وجمالاً فيقول لهم أهلوهم والله لقد ازددتم بعدنا حسناً وجمالاً فيقولون وأنتم والله لقد ازددتم بعدنا حسناً وجمالاً» عن علي رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «إن في الجنة لمجتمعاً للحور العين يرفعن بأصوات لم تسمع الخلائق مثلها يقلن: نحن الخالدات فلا نبيد ونحن الناعمات فلا نبأس ونحن الراضيات فلا نسخط طوبى لمن كان لنا وكنا له» أخرجه الترمذي وقال حديث غريب. قوله تعالى:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾

﴿**إن الله لا يستحي أن يضرب مثلاً ما بعوضة فما فوقها**﴾ سبب نزول هذه الآية أن الله تعالى لما ضرب المثل بالذباب والعنكبوت وذكر النحل والنمل قالت اليهود. ما أراد الله بذكر هذه الأشياء الخسيسة. وقيل قال المشركون إنا لا نعبد إلهاً يذكر هذه الأشياء وذلك لأن الكفار كانوا متفقين على إيذاء رسول الله ﷺ فقالوا ذلك، فأنزل الله تعالى ﴿**إن الله لا يستحي**﴾ الحياء تغير وانكسار يعتري الإنسان من خوف ما يعاب به ويذم عليه. وقيل هو انقباض النفس عن القبائح هذا أصله في وصف الإنسان، والله تعالى منزه عن ذلك كله فإذا وصف الله تعالى به يكون معناه الترك، وذلك لأن لكل فعل بداية ونهاية، فبداية الحياء هو التغير الذي يلحق الإنسان من خوف أن ينسب إليه ذلك الفعل القبيح، ونهايته ترك ذلك الفعل القبيح، فإذا ورد وصف الحياء في حق الله تعالى فليس المراد منه بدايته وهو التغير والخوف، بل المراد منه ترك الفعل الذي هو نهاية الحياء وغايته فيكون معنى إن الله لا يستحي أن يضرب مثلاً أي لا يترك المثل لقول الكفار واليهود «ما» قيل ما صلة فيكون المعنى أن يضرب مثلاً بعوضة، وقيل ليس هي بصلة بل هي للإبهام والنكرة، والبعوض صغار البق وهو من عجيب خلق الله تعالى فإنه في غاية الصغر وله خرطوم

هنّاد وأحمد بن منيع عن أبي معاوية مرفوعاً وقال: هذا حديث غريب. أنا إسماعيل بن عبد القاهر الجرجاني أنا عبد الغافر بن محمد الفارسي أنا محمد بن عيسى الجلودي، أنا إبراهيم بن محمد بن سفيان أنا مسلم بن الحجّاج، أنا أبو عثمان سعد بن عبد الجبار البصري، أنا حمّاد بن مسلمة عن ثابت البناني عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «إن في الجنة لسوقاً يأتونها كل جمعة فتهبّ ريح الشمال فتحثو في وجوههم وثيابهم فيزدادون حُسناً وجمالاً فيرجعون إلى أهليهم وقد ازدادوا حُسناً وجمالاً، فيقول لهم أهلهم: والله لقد ازددتم بَعْدَنا حُسْناً وجمالاً فيقولون: وأنتم والله لقد ازددتم بَعْدَنا حُسْناً وجمالاً».

قوله تعالى: ﴿ **إنّ الله لا يستحي أنْ يَضْربَ مثلاً ما بعوضةً فما فوقها** ﴾، سبب نزول هذه الآية أن الله تعالى لمّا ضرب المثل بالذّباب والعنكبوت فقال: ﴿ إن الذين تدعون من دون الله لنْ يخلقُوا ذُباباً ولو اجتمعوا له ﴾ [الحج: ٧٣]، وقال: ﴿ مثل الذين اتخذوا مِنْ دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً ﴾ [العنكبوت: ٤١]، قالت اليهود: ما أراد الله بذكر هذه الأشياء الخسيسة؟ وقيل: قال المشركون: إنّا لا نعبد إلّهاً يذكر مثل هذه الأشياء، فأنزل الله تعالى: ﴿ **إن الله لا يستحي** ﴾، أي: لا يترك ولا يمنعه الحياء أن يضرب مثلاً يذكر شبهاً، ﴿ **ما بعوضة** ﴾، ما: صلة، أي: مثلاً بالبعوضة، وبعوضة: نصب بدل عن المثل، والبعوض صغار البق، سُمّيت بعوضة لأنها كانت بعض البق، ﴿ **فما فوقها** ﴾، يعني: الذباب والعنكبوت، وقال أبو عبيدة: أي: فما دونها، كما يُقال:

مجوف وهو مع صغره يغوص خرطومه في جلد الفيل والجاموس والجمل فيبلغ منه الغاية حتى أن الجمل يموت من قرصه فما فوقها يعني الذباب والعنكبوت وما هو أعظم منهما في الجثة.

وقيل معناه فما دونها وأصغر منها، وهذا القول أشبه بالآية لأن الغرض بيان أن الله تعالى لا يمتنع من التمثيل بالشيء الصغير الحقير وقد ضرب النبي ﷺ مثلاً للدنيا بجناح البعوضة وهو أصغر منها، وقد ضربت العرب المثل بالمحقرات، فقيل: هو أحقر من ذرة وأجمع من نملة وأطيش من ذبابة وألح من ذبابة **﴿فأما الذين آمنوا﴾** يعني بمحمد ﷺ والقرآن **﴿فيعلمون أنه﴾** يعني ضرب المثل **﴿الحق﴾** يعني الصدق **﴿من ربهم﴾** الثابت الذي لا يجوز إنكاره لأن ضرب المثل من الأمور المستحسنة في العقل وعند العرب **﴿وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلاً﴾** أي بهذا المثل **﴿يضل به كثيراً﴾** أي من الكفار وذلك أنهم يكذبونه فيزدادون به ضلالاً **﴿ويهدي به كثيراً﴾** يعني المؤمنين يصدقونه ويعلمون أنه حق **﴿وما يضل به إلاّ الفاسقين﴾** يعني الكافرين وقيل المنافقين. وقيل اليهود، والفسق الخروج عن طاعة الله وطاعة رسوله ثم وصفهم فقال تعالى: **﴿الذين ينقضون﴾** أي يخالفون ويتركون وأصل النقض الفسخ وفك المركب **﴿عهد الله﴾** أي أمر الله وأصل العهد حفظ الشيء ومراعاته حالاً بعد حال **﴿من بعد ميثاقه﴾** أي من بعد عقده وتوكيده وفي معنى هذا العهد أقوال أحدها أنه الذي أخذه عليهم يوم الميثاق وهو قوله تعالى: **﴿ألست بربكم قالوا بلى﴾** الثاني المراد به الذي أخذه على إجبار اليهود في التوراة أن يؤمنوا بمحمد ﷺ ويبينوا نعته وصفته الثالث المراد به الكفار والمنافقون الذين نقضوا عهداً أبرمه الله تعالى وأحكمه بما أنزل في كتابه من الآيات الدالة على توحيده **﴿ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل﴾** يعني الإيمان بمحمد ﷺ وجميع الرسل فآمنوا ببعض وكفروا ببعض وهم اليهود. وقيل أراد به قطع الأرحام التي أمر الله بوصلها **﴿ويفسدون في الأرض﴾** يعني بالمعاصي وتعويق الناس عن الإيمان بمحمد ﷺ والقرآن **﴿أولئك هم الخاسرون﴾** أي المغبونون. وأصل الخسار النقص ثم قال تعالى لمشركي العرب على وجه التعجب لكن فيه تبكيت وتعنيف لهم.

فلان جاهل، فيقال: وفوق ذلك، أي: وأجهل. **﴿ فأمّا الذين آمنوا ﴾**: بمحمد والقرآن، **﴿ فيعلمون أنّه ﴾**، يعني: المثل هو **﴿ الحق ﴾**: الصدق **﴿ منْ رَبِّهم وأمّا الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلًا ﴾**؟ أي: بهذا المثل، فلما حذف الألف واللام نصب على الحال والقطع، ثم أجابهم فقال: **﴿ يضلّ به كثيراً ﴾** من الكفّار، وذلك أنهم يكذبون فيزدادون ضلالاً، **﴿ ويهدي به ﴾**، أي: بهذا المثل **﴿ كثيراً ﴾** من المؤمنين فيصدقونه، والإضلال هو الصرف عن الحق إلى الباطل، وقيل: هو الهلاك، يقال: ضلّ الماء في اللبن إذا هلك، **﴿ وما يضلّ به إلاّ الفاسقين ﴾**: الكافرين، وأصل الفسق: الخروج، يقال: فسقت الرطبة إذا خرجت عن قشرها، قال الله تعالى: **﴿ ففسق عن أمر ربّه ﴾** [الكهف: ٥٠]، أي: خرج، ثم وصفهم فقال:

﴿ الذين ينقضون ﴾: يخالفون ويتركون، وأصل النقض: الكسر، **﴿ عهد الله ﴾**: أمر الله الذي عهد إليهم يوم الميثاق بقوله: ﴿ألستُ بربّكم قالوا بلى ﴾ [الأعراف: ١٧٢]، وقيل: أراد به العهد الذي أخذه على النبيّين وسائر الأمم أن يؤمنوا بمحمد ﷺ في قوله: ﴿ وإذْ أخذ الله ميثاق النبيّين ﴾ [آل عمران: ٨١]، الآية، وقيل: أراد به العهد الذي عهد إليهم في التوراة أن يؤمنوا بمحمد ﷺ ويُبيِّنوا نعته، **﴿ من بعد ميثاقه ﴾**: توكيده، والميثاق: العهد المؤكد، **﴿ ويقطعونَ ما أمرَ اللّهُ بِهِ أنْ يُوصل ﴾**، يعني: الإيمان بمحمد ﷺ وبجميع الرّسل عليهم السلام لأنهم قالوا: ﴿ نؤمن ببعضٍ ونكفر ببعض ﴾ [النساء: ١٥٠]، وقال المؤمنون: ﴿ لا نفرِّق بين أحد منْ رسله ﴾ [البقرة: ١٣٦]، وقيل: أراد به الأرحام، **﴿ ويفسدون في الأرض ﴾**: بالمعاصي وتعويق الناس عن الإيمان بمحمد ﷺ وبالقرآن، **﴿ أولئك هم الخاسرون ﴾**: المغبونون، ثم قال لمشركي العرب على وجه التعجّب:

كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾

﴿كيف تكفرون بالله﴾ يعني بعد نصب الدلائل ووضع البراهين الدالة على وحدانيته ثم ذكر الدلائل فقال تعالى: ﴿وكنتم أمواتاً﴾ يعني نطفاً في أصلاب آبائكم ﴿فأحياكم﴾ يعني في الارحام والدنيا ﴿ثم يميتكم﴾ أي عند انقضاء آجالكم ﴿ثم يحييكم﴾ يعني بعد الموت للبعث ﴿ثم إليه ترجعون﴾ أي تردون في الآخرة فيجزيكم بأعمالكم. قوله عز وجل: ﴿هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً﴾ يعني من المعادن والنبات والحيوان والجبال والبحار والمعنى كيف تكفرون بالله وقد خلق لكم ما في الأرض جميعاً لتنتفعوا به في مصالح الدين والدنيا أما مصالح الدين فهو الاعتبار والتفكر في عجائب مخلوقات الله تعالى الدالة على وحدانيته وأما مصالح الدنيا فهو الانتفاع بما خلق فيها ﴿ثم استوى إلى السماء﴾ أي قصد وأقبل على خلقها وقيل عمد، وقال ابن عباس: ارتفع وفي رواية عنه صعد. قال الأزهري معناه صعد أمره وكذا ذكره صاحب المحكم وذلك أن الله تعالى خلق الأرض أولاً ثم عمد إلى خلق السماء. فإن قلت كيف الجمع بين هذا وقوله تعالى: ﴿والأرض بعد ذلك دحاها﴾ قلت: الدحو البسط فيحتمل أن الله تعالى خلق جرم الأرض ولم يبسطها ثم خلق السماء وبسط جرم الأرض بعد ذلك، فإن قلت هذا مشكل أيضاً لأن قوله تعالى خلق لكم ما في الأرض جميعاً يقتضي أن ذلك لا يكون إلاّ بعد الدحو. قلت: يحتمل أنه ليس هنا ترتيب وإنما هو على سبيل تعداد النعم كقوله الرجل لمن يذكره ما أنعم به عليه: ألم أعطك؟ ألم أرفع قدرك؟ ألم أدفع عنك؟ ولعل بعض هذه النعم متقدمة على بعض والله أعلم ﴿فسواهن سبع سموات﴾ خلقهن سبع سموات مستويات لا صدع فيها ولا فطور وسيأتي ذكر خلق الأرض عند قوله تعالى: ﴿قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين﴾ في سورة حمّ السجدة إن شاء الله تعالى ﴿وهو بكل شيء عليم﴾ يعني يعلم الجزئيات كما يعلم الكليات قوله تعالى:

وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ

﴿ كيف تكفرون بالله ﴾؟ بعد نصب الدلائل ووضوح البرهان، ثم ذكر الدلائل فقال: ﴿ وكنتم أمواتاً ﴾: نُطفاً في أصلاب آبائكم، ﴿ فأحياكم ﴾: في الأرحام والدنيا، ﴿ ثم يُميتكم ﴾ عند انقضاء آجالكم، ﴿ ثم يُحييكم ﴾: للبعث، ﴿ ثم إليه ترجعون ﴾، أي: تُردّون في الآخرة فيجزيكم بأعمالكم، قرأ يعقوب (ترجعون) كل القرآن بفتح الياء والتاء على تسمية الفاعل.

قوله تعالى: ﴿ هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً ﴾، للحيّ لكي تعتبروا وتستدلّوا، وقيل: لكي تنتفعوا، ﴿ ثم استوى إلى السماء ﴾، قال ابن عباس وأكثر مفسّري السلف: أي ارتفع إلى السماء، وقال ابن كيسان والفرّاء وجماعة من النحويين: أي أقبل على خلق السماء، وقيل: قصد لأنه خلق الأرض أولاً ثم عمد إلى خلق السماء، ﴿ فسوّاهنّ سبعَ سموات ﴾: خلقهنّ مستويات لا فطور فيها ولا صدوع، ﴿ وهو بكل شيء عليم ﴾، قرأ أبو جعفر وأبو عمرو والكسائي وقالون (وهو، وهي) بسكون الهاء إذا كان قبل الهاء: واوٌ أو فاء أو لام، زاد الكسائي وقالون (ثم هو) وقالون أن يملّ هو.

ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾

﴿وإذ قال ربك﴾ أي واذكر يا محمد إذ قال ربك وكل ما ورد في القرآن من هذا النحو فهذا سبيله، وقيل إذ زائدة والأول أوجه ﴿للملائكة﴾ جمع ملك وأصله مألك من المألكة والألوكة وهي لفظ البغوي وهي الرسالة وأراد بالملائكة الذين كانوا في الأرض وذلك أن الله تعالى خلق الأرض والسماء وخلق الملائكة والجن فأسكن الملائكة السماء وأسكن الجن الأرض، فعبدوا دهراً طويلاً، ثم ظهر فيهم الحسد والبغي فأفسدوا وقتلوا، فبعث الله إليهم جناً من الملائكة يقال لهم الجان ورأسهم إبليس وهم خزان الجنان فهبطوا إلى الأرض وطردوا الجن إلى جزائر البحور وشعوب الجبال وسكنوا هم الأرض وخفف الله عنهم العبادة وأعطى الله إبليس ملك الأرض وملك السماء الدنيا وخزانة الجنة، وكان رئيسهم ومرشدهم وأكثرهم علماً فكان يعبد الله تارة في الأرض وتارة في السماء وتارة في الجنة فدخله العجب وقال في نفسه: ما أعطاني الله هذا الملك إلّا لأني أكرم الملائكة عليه فقال له ولجنده ﴿إني جاعل في الأرض خليفة﴾ أي إني خالق خليفة يعني بدلاً منكم ورافعكم إليّ فكرهوا ذلك لأنهم كانوا أهون الملائكة عبادة والمراد بالخليفة هنا آدم عليه الصلاة والسلام لأنه خلف الجن وجاء بعدهم. وقيل لأنه يخلفه غيره والصحيح إنه إنما سمي خليفة لأنه خليفة الله في أرضه لإقامة حدوده وتنفيذ قضاياه ﴿قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها﴾ أي بالمعاصي ﴿ويسفك الدماء﴾ أي بغير حق كما فعل الجن. فإن قلت من أين عرفوا ذلك حتى قالوا هذا القول؟ قلت يحتمل أن يكونوا عرفوا ذلك بإخبار الله إياهم أو قاسوا الشاهد على الغائب، وقيل إنهم لما رأوا أن آدم خلق من أخلاط مركبة علموا أنه يكون فيه الحقد والغضب ومنهما يتولد الفساد وسفك الدماء فلهذا قالوا ذلك. وقيل لما خلق الله تعالى النار خافت الملائكة، وقالوا لمن خلقت هذه النار؟ قال لمن عصاني فلما قال إني جاعل في الأرض خليفة قالوا هو ذلك. فإن قلت الملائكة معصومون فكيف وقع منهم هذا الاعتراض. قلت ذهب بعضهم إلى أنهم غير معصومين واستدل على ذلك بوجوه منها قوله ﴿أتجعل فيها من يفسد فيها﴾ ومن ذهب إلى

قوله تعالى: ﴿ وإذ قال ربك ﴾، أي: وقال ربك وإذْ زائدة، وقيل: معناه واذكر إذْ قال ربك، وكذلك كلّ ما ورد في القرآن من هذا النحو فهذا سبيله، وإذْ وإذا حرفا توقيت إلّا أن إذْ للماضي وإذا للمستقبل، وقد يُوضع أحدهما موضع الآخر، قال المبرّد: إذا جاء إذْ مع المستقبل كان معناه ماضياً، كقوله تعالى: ﴿ وإذ يمكر ﴾ [الأنفال: ٣٠]، يريد وإذ مكر، وإذا جاء إذا مع الماضي كانت معناه مستقبلاً، كقوله: ﴿ فإذا جاءت الطامّة ﴾ [النازعات: ٣٤]، ﴿ وإذا جاء نصر الله ﴾ [النصر: ١] أي: يجيء. ﴿ للملائكة ﴾، جمع ملك، وأصله مألك من المألكة والألوكة والألوك، وهي الرسالة، فقلب فقيل: ملأك، ثم حذفت الهمزة طلباً للخفّة لكثرة استعماله ونقلت حركتها إلى اللام، فقيل: ملَكٌ وأراد به الملائكة الذين كانوا في الأرض، وذلك أن الله تعالى خلق السماء والأرض وخلق الملائكة والجن فأسكن الملائكة السماء وأسكن الجن الأرض فعبدوا دهراً طويلاً في الأرض ثم ظهر فيهم الحسد والبغي فأفسدوا وقتلوا فبعث الله إليهم جنداً من الملائكة يقال لهم: الجن، وهم خُزّان الجِنان اشتق لهم من الجنة رأسهم إبليس وكان رئيسهم ومرشدهم وأكثرهم علماً فهبطوا إلى الأرض فطردوا الجن إلى شعوب الجبال وجزائر البحور وسكنوا الأرض وخفّف الله عنهم العبادة فأعطى الله إبليس الأرض، وملك السماء الدنيا وخزانة الجنة وكان يعبد الله تارةً في الأرض وتارةً في السماء وتارةً في الجنة فدخله العجب، وقال في نفسه: ما أعطاني الله هذا

عصمتهم أجاب عنه بأن هذا السؤال إنما وقع على سبيل التعجب لا على سبيل الإنكار والاعتراض فإنهم تعجبوا من كمال حكم الله تعالى وإحاطة علمه بما خفي عليهم، ولهذا أجابهم بقوله ﴿**إني أعلم ما لا تعلمون**﴾ وقيل: إن العبد المخلص في حب سيده يكره أن يكون له عبد آخر يعصيه فكان سؤالهم على وجه المبالغة في إعظام الله عز وجل: ﴿**ونحن نسبح بحمدك**﴾ أي نقول: سبحان الله وبحمده وهي صلاة الخلق وعليها يرزقون (م) عن أبي ذر أن رسول الله ﷺ سئل أي الكلام أفضل قال «ما اصطفى الله لملائكته أو لعباده سبحان الله وبحمده» قال ابن عباس رضي الله عنهما كل ما جاء في القرآن من التسبيح فالمراد منه الصلاة فيكون المعنى ونحن نصلي لك. وقيل أصل التسبيح تنزيه الله عما لا يليق بجلاله فيكون المعنى، ونحن ننزهك عن كل سوء ونقيصة. ومعنى بحمدك حامدين لك أو متلبسين بحمدك، فإنه لولا إنعامك علينا بالتوفيق لم نتمكن من ذلك ﴿**ونقدس لك**﴾ أصل التقديس التطهير أن نطهرك عن النقائص وكل سوء ونصفك بما يليق بعزك وجلالك من العلو والعظمة واللام صلة وقيل معناه نطهر أنفسنا لطاعتك وعبادتك ﴿**قال إني أعلم ما لا تعلمون**﴾ قيل إنه جواب لقول الملائكة ﴿**أتجعل فيها**﴾ فقال تعالى: ﴿**أعلم**﴾ من وجوه المصلحة والحكمة ما لا تعلمون. وقيل أعلم أن فيهم من يعبدني ويطيعني وهم الأنبياء والأولياء والصالحون، ومن يعصيني منكم وهو إبليس، وقيل أعلم أنهم يذنبون ويستغفرون فاغفر لهم.

فصل: في ماهية الملائكة وقصة خلق آدم عليه السلام:

قيل إن الملائكة أجسام لطيفة هوائية خلقت من النور تقدر أن تتشكل بأشكال مختلفة، مسكنهم السموات عن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: «إني أرى ما لا ترون وأسمع ما لا تسمعون أطت السماء وحق لها أن تئط ما فيها موضع أربع أصابع إلاّ وملك واضع جبهته لله ساجداً» أخرجه الترمذي بزيادة، وقال حديث حسن غريب. وأما صفة خلق آدم عليه السلام فقال وهب بن منبه: لما أراد الله تعالى أن يخلق آدم أوحى إلى الأرض أني خالق منك خليقة منهم من يطيعني ومنهم من يعصيني فمن أطاعني أدخلته الجنة، ومن عصاني أدخلته النار. قالت الأرض أتخلق مني خلقاً يكون للنار قال نعم. فبكت الأرض فانفجرت منها العيون إلى يوم القيامة، فبعث الله إليها جبريل ليأتيه بقبضة منها من أحمرها وأسودها وطيبها وخبيثها، فلما أتاها ليقبض منها قالت: أعوذ بعزة الله الذي أرسلك إليّ أن لا تأخذ مني شيئاً فرجع جبريل إلى مكانه وقال: يا رب استعاذت بك مني فكرهت أن أقدم عليها فقال الله تعالى لميكائيل: انطلق فأتني بقبضة منها فلما أتاها ليقبض منها قالت له مثل ما قالت لجبريل، فرجع إلى ربه فقال ما قالت له، فقال لعزرائيل انطلق فأتني بقبضة من الأرض فلما أتاها قالت له الأرض، أعوذ بعزة الله الذي أرسلك

المُلْك إلاّ لأني أكرم الملائكة عليه فقال الله له ولجنده: ﴿ **إني جاعل في الأرض خليفة** ﴾، أي: بدلاً منكم ورافعكم إليّ فكرهوا ذلك لأنهم كانوا أهون الملائكة عبادة، والمراد بالخليفة ههنا آدم سمّاه خليفة لأنه خلف الجن، أي: جاء بعدهم، وقيل: لأنه يخلفه غيره، والصحيح أنه خليفة الله في أرضه لإقامة أحكامه وتنفيذ قضاياه، ﴿ **قالوا أتجعل فيها مَنْ يفسد فيها** ﴾: بالمعاصي، ﴿ **ويسفك الدماء** ﴾ بغير حق، أي: كما فعل بنو الجان فقاسوا الشاهد على الغائب، وإلاّ فهم ما كانوا يعلمون الغيب، ﴿ **ونحن نسبّح بحمدك** ﴾، قال الحسن: نقول سبحان الله وبحمده هو صلاة الخلق وصلاة البهائم وغيرهما سوى الآدميين وعليها يرزقون، أخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر أنا عبد الغافر بن محمد، أنا محمد بن عيسى أنا إبراهيم بن محمد بن سفيان، أنا مسلم بن الحجّاج أنا زهير بن حرب أنا جبنان بن هلال، أنا وهيب أنا سعيد الجريري عن أبي عبد الله الجسري عن ابن الصامت عن أبي ذَر عن رسول الله ﷺ: سُئل أيّ الكلام أفضل؟ قال: «ما اصطفى الله لملائكته أو لعباده سبحان الله وبحمده»، وقيل: نحن نصلّي بأمرك، قال ابن عباس: كلّ ما في القرآن من التسبيح فالمراد منه الصلاة، ﴿ **ونقدس لك** ﴾، أي: نثني عليك

أن لا تأخذ مني شيئاً، فقال: وأنا أعوذ بعزته أن أعصي له أمراً. وقبض منها قبضة من جميع بقاعها من عذبها ومالحها وحلوها ومرها وطيبها وخبيثها، وصعد بها إلى السماء فسأله ربه عز وجل وهو أعلم بما صنع فأخبره بما قالت له الأرض وبما رد عليها فقال الله تعالى: وعزتي وجلالي لأخلقن مما جئت به خلقاً ولأسلطنك على قبض أرواحهم لقلة رحمتك. ثم جعل الله تلك القبضة نصفها في الجنة ونصفها في النار ثم تركها ما شاء الله ثم أخرجها فعجنها طيناً لازباً مدة ثم حمأ مسنوناً مدة ثم صلصالاً ثم جعلها جسداً وألقاه على باب الجنة فكانت الملائكة يعجبون من صفة صورته لأنهم لم يكونوا رأوا مثله، وكان إبليس يمر عليه ويقول لأمر ما خلق هذا ونظر إليه فإذا هو أجوف فقال هذا خلق لا يتمالك، وقال يوماً للملائكة إن فضل هذا عليكم ما تصنعون؟ فقالوا نطيع ربنا ولا نعصيه فقال إبليس في نفسه لئن فضل علي لأعصينه ولئن فضلت عليه لأهلكنه فلما أراد الله تعالى أن ينفخ فيه الروح أمرها أن تدخل في جسد آدم فنظرت فرأت مدخلاً ضيقاً فقال يا رب كيف أدخل هذا الجسد؟ قال الله عز وجل لها ادخليه كرهاً وستخرجين منه كرهاً فدخلت في يافوخه فوصلت إلى عينيه فجعل ينظر إلى سائر جسده طيناً فصارت إلى أن وصلت منخريه فعطس فلما بلغت لسانه قال: الحمد لله رب العالمين وهي أول كلمة قالها فناداه الله تعالى رحمك ربك يا أبا محمد ولهذا خلقتك. ولما بلغت الروح إلى الركبتين همّ ليقوم فلم يقدر، قال الله تعالى: ﴿خلق الإنسان من عجل﴾ فلما بلغت إلى الساقين والقدمين استوى قائماً بشراً سوياً لحماً ودماً وعظاماً وعروقاً وعصباً وأحشاء وكسي لباساً من ظفر يزداد جسده جمالاً وحسناً كل يوم، وجعل في جسده تسعة أبواب سبعة في رأسه وهي الأذنان يسمع بهما والعينان يبصر بهما والمنخران يشم بهما والفم فيه اللسان يتكلم به والأسنان يطحن بها ما يأكله ويجد لذة المطعومات بها وبابين في أسفل جسده وهما القبل والدبر يخرج منهما ثفل طعامه وشرابه وجعل عقله في دماغه وفكره وصرامته في قلبه وشرهه في كليته وغضبه في كبده ورغبته في رئته وضحكه في طحاله وفرجه وحزنه في وجهه فسبحان من جعله يسمع بعظم ويبصر بشحم وينطق بلحم ويعرف بدم وركب فيه الشهوة وحجزه بالحياء (ق) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: خلق الله تعالى آدم عليه السلام وطوله ستون ذراعاً ثم قال اذهب فسلم على أولئك نفر من الملائكة فاستمع ما يحيونك به فإنها تحيتك وتحية ذريتك فقال: السلام عليكم فقالوا: السلام عليك ورحمة الله فزاده ورحمة فكل من يدخل الجنة على صورة آدم. قال: فلم يزل الخلق ينقص حتى الآن (م) عن أنس قال قال رسول الله ﷺ: لما صور الله آدم تركه ما شاء الله أن يتركه، فجعل إبليس يطوف به ينظر ما هو فلما رآه أجوف عرف أنه لا يتمالك. عن أبي موسى قال: سمعت رسول الله ﷺ

بالقدس والطهارة عمّا لا يليق بعظمتك وجلالك، وقيل: ونطهّر أنفسنا لطاعتك، وقيل: وننزّهك، واللام: صلة، وقيل: لم يكن هذا من الملائكة على طريق الاعتراض والعجب بالعمل بل على سبيل التعجّب وطلب الحكمة فيه، ﴿ قال ﴾ الله: ﴿ إني أعلم ما لا تعلمون ﴾: من المصلحة فيه، وقيل: إني أعلم أن في ذريّته مَن يطيعني ويعبدني من الأنبياء والأولياء والصلحاء، وقيل: إن أعلم أن فيكم مَن يعصيني وهو إبليس، وقيل: إني أعلم أنهم يذنبون وأنا أغفر لهم، قرأ أهل الحجاز والبصرة: (إنـي أعلـم) بفتـح اليـاء وكذلك كل ياء إضافة استقبلها ألف مفتوحة إلّا في مواضع معدودة، ويفتحون في بعض مواضع عند الألف المضمومة والمكسورة، وعند غير الألف، وبين القرّاء في تفصيله اختلاف.

قوله تعالى: ﴿ وعلّم آدم الأسماء كلها ﴾: سُمّي آدم لأنه خلق من أديم الأرض، وقيل: لأنه كان آدم اللون، وكنيته أبو محمد وأبو البشر، فلما خلقه الله عزّ وجلّ علّمه أسماء الأشياء، وذلك أن الملائكة قالوا لمّا قال الله تعالى: ﴿ إني جاعل في الأرض خليفة ﴾ ليخلق ربنا ما شاء فلن يخلق خلقاً أكرم عليه منّا وإن كان غيرنا أكرم عليه

يقول: إن الله تبارك وتعالى خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض فجاء بنو آدم على قدر الأرض منهم الأحمر والأبيض والأسود وبين ذلك والسهل والحزن والخبيث والطيب. أخرجه الترمذي وأبو داود. قوله عز وجل ﴿وعلم آدم الأسماء كلها﴾ سمي آدم لأنه خلق من أديم الأرض. وقيل لأنه كان آدم اللون وكنيته أبو محمد، وقيل: أبو البشر ولما خلق الله آدم وتم خلقه علمه أسماء الأشياء كلها، وذلك أن الملائكة قالوا ليخلق ربنا ما شاء فلن يخلق خلقاً أكرم علم منا وإن كان فنحن أعلم منه لأنا خلقنا قبله ورأينا ما لم يره، فأظهر الله فضل آدم عليهم بالعلم. وفيه دليل لمذهب أهل السنة أن الأنبياء أفضل من الملائكة وإن كانوا رسلاً، قال ابن عباس: علمه اسم كل شيء حتى القصعة والقصيعة، وقيل: خلق الله كل شيء من الحيوان والجماد وغير ذلك، وعلم آدم أسماءها كلها فقال يا آدم هذا بعير وهذا فرس وهذه شاة حتى أتى على آخرها. وقيل علم آدم أسماء الملائكة وقيل أسماء ذريته وقيل علمه اللغات كلها ﴿ثم عرضهم﴾ يعني تلك الأشخاص، وإنما قال عرضهم ولم يقل عرضها لأن المسميات إذا جمعت من يعقل ومن لا يعقل عبر عنه بلفظ من يعقل لتغليب العقلاء عليهم كما يعبر عن الذكور والإناث بلفظ الذكور ﴿على الملائكة فقال﴾ يعني تعجيزاً لهم ﴿أنبئوني﴾ أي أخبروني ﴿بأسماء هؤلاء﴾ يعني تلك الأشخاص ﴿إن كنتم صادقين﴾ أي إني لم أخلق خلقاً إلاّ كنتم أفضل منه وأعلم ﴿قالوا﴾ يعني الملائكة﴿سبحانك﴾ تنزيهاً لك وذلك لما ظهر عجزهم ﴿لا علم لنا إلاّ ما علمتنا﴾ أي إنك أجل من أن نحيط بشيء من علمك إلاّ ما علمتنا ﴿إنك أنت العليم﴾ أي بخلقك وهو من أسماء الصفات التامة وهو المحيط بكل المعلومات ﴿الحكيم﴾ أي في أمرك، وله معنيان أحدهما أنه القاضي العدل والثاني المحكم للأمر كيلا يتطرق إليه الفساد.

قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ

فنحن أعلم منه لأنّا خلقنا قبله ورأينا ما لم يره، فأظهر الله تعالى فضله عليهم بالعلم، وفيه دليل على أن الأنبياء أفضل من الملائكة، وإن كانوا رُسلاً كما ذهب إليه أهل السُّنّة والجماعة، قال ابن عباس ومجاهد وقتادة: علّمه اسم كل شيء حتى القصعة والقصيعة، وقيل: اسم ما كان وما يكون إلى يوم القيامة، وقال الربيع بن أنس: أسماء الملائكة، وقيل: أسماء ذريّته، وقيل: صنعة كل شيء، قال أهل التأويل: إن الله عزّ وجلّ علّم آدم جميع اللغات ثم تكلم كل واحد من أولاده بلغة فتفرقوا في البلاد واختصّ كل فرقة منهم بلغة، ﴿ ثم عرضهم على الملائكة ﴾، إنّما قال: ﴿ عرضهم ﴾، ولم يقل عرضها، لأن المسميات إذا جمعت مَن يعقل ومَن لا يعقل يُكنّى عنها بلفظ مَن يعقل، كما يُكنّى عن الذكور والإناث بلفظ الذكور، وقال مقاتل: خلق الله كل شيء الحيوان والجماد ثم عرض تلك الشخوص على الملائكة، فالكناية راجعة إلى الخصوص، فلذلك فقال عرضهم: ﴿ فقال أنبؤني ﴾ أخبروني ﴿ بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين ﴾، إني لا أخلق خلقاً إلاّ وكنتم أفضل وأعلم منه، فقالت الملائكة: إقراراً بالعجز.

﴿ قالوا سبحانك ﴾: تنزيهاً لك، ﴿ لا علم لنا إلاّ ما علّمتنا ﴾، معناه: إنك أجلّ من أن نحيط بشيء من علمك إلاّ ما علّمتنا، ﴿ إنك أنت العليم ﴾ بخلقك ﴿ الحكيم ﴾ في أمرك، والحكيم له معنيان أحدهما الحاكم وهو القاضي العدل، والثاني المحكم للأمر كي لا يتطرق إليه الفساد، وأصل الحكمة في اللغة: المنع فهي تمنع صاحبها من الباطل، ومنه حكمة الدابّة لأنها تمنعها من الإعوجاج، فلما ظهر عجزهم.

ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ وَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾

﴿قال﴾ يعني الله تعالى ﴿يا آدم أنبئهم بأسمائهم﴾ وذلك لما ظهر عجز الملائكة فسمى كل شيء باسمه وذكر وجه الحكمة التي خلق لها ﴿فلما أنباهم بأسمائهم قال﴾ يعني الله تعالى ﴿ألم أقل لكم﴾ يعني يا ملائكتي ﴿إني أعلم غيب السموات والأرض﴾ يعني ما كان وما سيكون وذلك أنه سبحانه وتعالى علم أحوال آدم قبل أن يخلقه فلهذا قال لهم: إني أعلم ما لا تعلمون ﴿وأعلم ما تبدون﴾ يعني قول الملائكة: أتجعل فيها ﴿وما كنتم تكتمون﴾ يعني قولكم لن يخلق الله تعالى خلقاً أكرم عليه منا وقال ابن عباس أعلم ما تبدون من الطاعة وما كنتم تكتمون، يعني إبليس من المعصية. قوله عز وجل: ﴿وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم﴾ قيل هذا الخطاب كان مع الملائكة الذين كانوا سكان الأرض والأصح أنه خطاب مع جميع الملائكة بدليل قوله: «فسجد الملائكة كلهم أجمعون إلاّ إبليس» ﴿فسجدوا﴾ يعني الملائكة وفي هذا السجود قولان أصحهما أنه كان لآدم على الحقيقة ولم يكن فيه وضع الجبهة على الأرض وإنما هو الانحناء وكان سجود تحية وتعظيم لا سجود عبادة كسجود إخوة يوسف له في قوله: ﴿وخروا له سجداً﴾ فلما جاء الإسلام أبطل ذلك بالسلام. وفي سجود الملائكة لآدم معنى الطاعة لله تعالى والامتثال لأمره. والقول الثاني أن آدم كان كالقبلة، وكان السجود لله تعالى، كما جعلت الكعبة قبلة للصلاة والصلاة لله تعالى، وفي هذه الآية دليل لمذهب أهل السنة في تفضيل الأنبياء على الملائكة ﴿إلاّ إبليس﴾ سمي به لأنه أبلس من رحمة الله أي يئس، وكان اسمه عزازيل بالسريانية وبالعربية الحارث فلما عصى غير اسمه فسمي

﴿ قال ﴾ الله تعالى: ﴿ يا آدم أنبئهم بأسمائهم ﴾، أخبرهم بأسمائهم فسمّى آدم كل شيء وذكر الحكمة التي لأجلها خلق، ﴿ فلما أنبأهم بأسمائهم قال ﴾ الله تعالى: ﴿ ألم أقلْ لكم ﴾ يا ملائكتي ﴿ إني أعلم غيب السموات والأرض ﴾، ما كان منهما وما يكون، لأنه قد قال لهم: ﴿ إني أعلم ما لا تعلمون ﴾، قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو: (إنيَ)، بفتح الياء وكذلك يفتحون كل ياء إضافة استقبلها ألف قطع مفتوحة إلاّ أحرفاً معدودة، ويفتح نافع وعمرو عند الألف المكسورة أيضاً إلاّ أحرفاً معدودة، ويفتح نافع عند المضمومة إلاّ أحرفاً معدودة، والآخرون لا يفتحون إلاّ في أحرف معدودة، ﴿ وأعلم ما تبدون ﴾، قال الحسن وقتادة: يعني قولهم أتجعل فيها مَنْ يفسد فيها، ﴿ وما كنتم تكتمون ﴾: قولكم لنْ يخلق الله خلقاً أكرم عليه منّا، قال ابن عباس هو: إن إبليس مرّ على جسد آدم وهو ملقى بين مكة والطائف لا روح فيه، فقال: لأمرٍ ما خُلق هذا، ثم دخل في فِيهِ وخرج من دبره، وقال: إنه خلق لا يتماسك لأنه أجوف، ثم قال للملائكة الذين معه: أرأيتم إنْ فُضِّل هذا عليكم وأُمرتم بطاعته ماذا تصنعون؟ قالوا: نطيع أمر ربّنا، فقال إبليس في نفسه: والله لئن سُلّطت عليه لأهلكنّه ولئن سُلّط عليّ لأعصينّه، فقال الله تعالى: ﴿ وأعلم ما تبدون ﴾ يعني: ما تُبديه الملائكة من الطاعة، وما كنتم تكتمون يعني إبليس من المعصية.

وقوله تعالى: ﴿ وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم ﴾، قرأ أبو جعفر: ﴿ للملائكةُ اسجدوا ﴾ بضم التاء على جوار ألف اسجدوا، وكذلك قرأ ﴿ قلْ ربُّ احكم بالحق ﴾ [الأنبياء: ١١٢]، بضم الباء، وضعّفه النحاة جداً ونسبوه إلى الغلط فيه، واختلفوا في أن هذا الخطاب مع الملائكة، فقال بعضهم: مع الذين كانوا سكان الأرض والأصحّ أنه مع جميع الملائكة، لقوله تعالى: ﴿ فسجد الملائكة كلهم أجمعون ﴾ [الحجر: ٣٠، صٓ: ٧٣]، وقوله: ﴿ اسجدوا ﴾، فيه قولان الأصحّ أن السجود كان لآدم على الحقيقة وتضمن معنى الطاعة لله عزّ وجلّ امتثال

إبليس وغيرت صورته قال ابن عباس كان إبليس من الملائكة بدليل أنه استثناه منهم وقيل إنه من الجن لأنه خلق من النار ولملائكته خلقوا من النور ولأنه أصل الجن كما أن آدم أصل الإنس والأول أصح لأن الخطاب كان مع الملائكة فهو داخل فيهم ثم استثناه منهم ﴿**أبى**﴾ أي امتنع من السجود فلم يسجد ﴿**واستكبر**﴾ أي تكبر وتعظم عن السجود لآدم ﴿**وكان من الكافرين**﴾ أي في علم الله تعالى فإنه وجبت له النار لسابق علم الله تعالى بشقاوته (م) عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد اعتزل الشيطان يبكي يقول يا ويله» وفي رواية يا ويلتاه أمر ابن آدم بالسجود فسجد فله الجنة وأمرت بالسجود فعصيت فلي النار. قوله عز وجل ﴿**وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة**﴾ أي اتخذها مأوى ومنزلاً وليس معناه الاستقرار لأنه لم يقل أسكنتك الجنة لأنه خلق لعمارة الأرض ولما أسكن الله آدم في الجنة بقي وحده ليس معه من يستأنس به ويجالسه فألقى الله عليه النوم ثم أخذ ضلعاً من أضلاع جنبه الأيسر، وهو الأقصر فخلق منه زوجته حواء، ووضع مكان الضلع لحماً من غير أن يحس بذلك آدم ولم يجد ألماً، ولو وجد ألماً لما عطف رجل على امرأة قط، وسميت حواء لأنها خلقت من حي، فلما استيقظ آدم من نومه ورآها جالسة كأحسن ما خلق الله تعالى فقال لها: من أنت؟ قالت: أنا زوجتك حواء قال: ولماذا خلقت؟ قالت: لتسكن إلي وأسكن إليك. واختلفوا في الجنة التي أمر آدم بسكناها فقيل إنها جنة كانت في الأرض بدليل أنه لو كانت الجنة التي هي دار الجزاء والثواب لما أخرج منها. وأجاب صاحب هذا القول عن قوله تعالى: ﴿**اهبطا**﴾ بأن المراد من الهبوط التحول والانتقال فهو كقوله تعالى: ﴿**اهبطوا مصر**﴾ والقول

أمره، وكان ذلك سجود تعظيم وتحية لا سجود عبادة، كسجود أُخوة يوسف له في قوله عزّ وجلّ: ﴿ وخرّوا له سُجداً ﴾ [يوسف: ١٠٠]، ولم يكن فيه وضع الوجه على الأرض إنما كان انحناءً فلما جاء الإسلام أبطل ذلك بالسلام، وقيل معنى قوله: ﴿ **اسجدوا لآدم** ﴾ أي: إلى آدم فكان آدم قبلةً والسجودُ لله تعالى كما جُعلت الكعبة قبلةً للصلاة والصلاة لله عزّ وجلّ، ﴿ **فسجدوا** ﴾ يعني: الملائكة، ﴿ **إلّا إبليس** ﴾، وكان اسمه عزازيل بالسريانية وبالعربية الحرث، فلما أعصى غيّر اسمه وصورته، فقيل: **إبليس** لأنه أبلس من رحمة الله تعالى، أي: يئس، واختلفوا فيه، فقال ابن عباس وأكثر المفسّرين: كان إبليس من الملائكة، وقال الحسن: كان من الجن ولم يكن من الملائكة، وقال الحسن: كان من الجن ولم يكن من الملائكة لقوله تعالى: ﴿ **إلّا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه** ﴾ [الكهف: ٥٠]، فهو أصل الجن كما أن آدم أصل الإنس، ولأنه خلق من النار والملائكة خلقوا من النور، ولأن له ذريّة ولا ذريّة للملائكة، والأول أصحّ لأن خطاب السجود كان مع الملائكة، وقوله: ﴿ **كان من الجن** ﴾ [الكهف: ٥٠]، أي: من الملائكة الذين هم خَزَنَة الجنة، وقال سعيد بن جبير: من الذين يعملون في الجنة، وقال قوم: من الملائكة الذين كانوا يصوغُون حِليّ أهل الجنة، وقيل: إن فرقة من الملائكة خلقوا من النار سُمّوا جنّاً لاستتارهم عن الأعين، وإبليس كان منهم، والدليل عليه قوله تعالى: ﴿ **وجعلوا بينه وبين الجنة نسباً** ﴾ [الصّافّات: ١٥٨]، وهو قولهم الملائكة بنات الله، ولمّا أخرجه الله من الملائكة جعل له ذريّة، قوله: ﴿ **أبى** ﴾ أي: امتنع فلم يسجد، ﴿ **واستكبر** ﴾، أي: تكبّر عن السجود لآدم، ﴿ **وكان** ﴾ أي: وصار ﴿ **من الكافرين** ﴾، وقال أكثر المفسّرين: وكان في سابق علم الله من الكافرين الذين وجبت لهم الشقاوة، أنا أبو بكر محمد بن عبد الصمد الترابي أنا ابن الحاكم أبو الفضل محمد بن الحسين الحدادي أنا أبو يزيد محمد بن يحيىٰ بن خالد، أنا إسحق بن إبراهيم الحنظلي أنا جرير ووكيع وأبو معاوية، عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة عن النبيّ ﷺ قال: «إذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد، اعتزل الشيطان يبكي ويقول: يا ويله أُمر ابن آدم بالسجود فأطاع فله الجنة وأُمرت بالسجود فعصيت فلي النار».

الصحيح أنها الجنة التي هي دار الجزاء والثواب لأن الألف واللام للعهد والجنة بين المسلمين وفي عرفهم التي هي دار الجزاء. وقيل: كلا القولين ممكن فلا وجه للقطع ﴿وكلا منهما رغداً﴾ أي واسعاً كثيراً ﴿حيث شئتما﴾ أي كيف شئتما ومتى شئتما وأين شئتما والمقصود منه الإطلاق في الأكل من الجنة بلا منع إلاّ ما نهى عنه، وهو قوله تعالى: ﴿ولا تقربا هذه الشجرة﴾ يعني للأكل قيل إنما وقع هذه النهي عن جنس الشجرة. وقيل عن شجرة مخصوصة قال ابن عباس هي السنبلة وقيل الكرمة. وقيل هي شجرة التين وقيل هي شجرة العلم. وقيل الكافور. وقيل: ليس في ظاهر الكلام ما يدل على التبيين إذ لا حاجة إليه لأنه ليس المقصود تعرّف عين تلك الشجرة وما لا يكون مقصود لا يجب بيانه ﴿فتكونا من الظالمين﴾ يعني إن أكلتما من هذه الشجرة ظلمتما أنفسكما فمن جوّز ارتكاب الذنوب على الأنبياء قال ظلم نفسه بالمعصية. وأصل الظلم وصنع الشيء في غير موضعه ومن لم يجوز ذلك على الأنبياء جعل الظلم على أنه فعل ما كان الأولى أن لا يفعله. وقيل: يحمل على أنه فعل هذا قبل النبوة. فإن قلت: هل يجوز وصف الأنبياء بالظلم أو بظلم أنفسهم؟ قلت: لا يجوز أن يطلق عليهم ذلك لما فيه من الذم.

قوله عز وجل:

فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾

﴿فأزلهما الشيطان﴾ أي استزل آدم وحواء ودعاهما إلى الزلة وهي الخطيئة، وسيأتي الكلام إن شاء الله تعالى على عصمة الأنبياء والجواب عما صدر منهم عند قوله عز وجل: ﴿وعصى آدم ربه فغوى﴾ في سورة طه ﴿عنها﴾ أي الجنة ﴿فأخرجهما مما كانا فيه﴾ يعني من النعيم وذلك أن إبليس أراد أن يدخل الجنة ليوسوس لآدم وحواء فمنعه الخزنة فأتى الحية وكانت صديقة لإبليس وكانت من أحسن الدواب لها أربع قوائم كقوائم البعير وكانت من

قوله تعالى: ﴿ وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة ﴾، وذلك أن آدم لم يكن في الجنة مَن يجانسه فنام نومة فخلق الله زوجته حوّاء من قُصيراء شقّه الأيسر، وسُمّيت حوّاء لأنها خلقت من حيّ، خلقها الله عزّ وجلّ من غير أن يحسَّ به آدم ولا وجد له ألماً، ولو وجد لما عطف رجل على امرأة قطّ، فلما هبَّ من نومه رآها جالسة عند رأسه كأحسن ما خلق الله، فقال لها: مَن أنت قالت: زوجتك خلقني الله لك تسكن إليّ وأسكن إليك ﴿ وكُلا منها رَغداً ﴾: واسعاً كثيراً، ﴿ حيث شئتما ﴾: كيف شئتما وأين شئتما، ﴿ ولا تقربا هذه الشجرة ﴾، يعني: بالأكل، قال بعض العلماء: وقع النهي على جنس من الشجر، وقال آخرون: على شجرة مخصوصة، واختلفوا في تلك الشجرة، قال ابن عباس ومحمد بن كعب ومقاتل: هي السنبلة، وقال ابن مسعود: هي شجرة العنب، وقال ابن جريج: شجرة التين، وقال قتادة: شجرة العلم، وفيها من كل شيء، وقال عليّ: شجرة الكافور، ﴿ فتكونا ﴾: فتصيرا ﴿ من الظالمين ﴾، أي: الضاربين بأنفسكما بالمعصية، وأصل الظلم: وضع الشيء في غير موضعه.

﴿ فأزلّهما ﴾: استزلّ ﴿ الشيطان ﴾ آدم وحوّاء، أي: دعاهما إلى الزلّة، وقرأ حمزة ﴿ فأزالهما ﴾ أي: نحّاهما، الشيطان: فيعال من شطن، أي: بَعُد، سُمّي به لبُعده عن الخير وعن الرحمة، ﴿ عنها ﴾ عن الجنة ﴿ فأخرجهما مما كانا فيه ﴾: من النعيم، وذلك أن إبليس أراد أن يدخل لِيُوسْوس إلى آدم وحوّاء فمنعته الخَزَنة فأتى الحيّة وكانت صديقة لإبليس وكانت من أحسن الدواب لها أربع قوائم كقوائم البعير وكانت من خُزّان الجنّة، فسألها إبليس أن تُدخله في فمها فأدخلته ومرّت به على الخَزَنة وهم لا يعلمون، فأدخلته الجنة، وقال الحسن: إنّما

خزّان الجنة فسألها أن تدخله الجنة في فيها فأدخلته ومرت به على الخزنة وهم لا يعلمون. وقيل إنما رآهما على باب الجنة لأنهما كانا يخرجان منهما، وكان إبليس بقرب الباب فوسوس لهما وذلك أن آدم لما دخل الجنة ورأى ما فيها من النعيم قال لو أن خلداً فاغتنم ذلك الشيطان منه وأتاه من قبل الخلد. وقيل لما دخل الجنة وقف على آدم وحواء وهما لا يعلمان أنه إبليس فبكى وناح نياحة أحزنتهما وهو أول من ناح فقالا ما يبكيك قال أبكي عليكما لأنكما تموتان فتفارقان ما أنتما فيه من النعمة فوقع ذلك في أنفسهما واغتما ومضى إبليس ثم أتاهما بعد ذلك وقال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد فأبى أن يقبل منه فقاسمهما بالله إني لكما لمن الناصحين، فاغترا وما ظنا أن أحداً يحلف بالله كاذباً، فبادرت حواء إلى أكل الشجرة، ثم ناولت آدم فأكل منها. قال إبراهيم بن أدهم: أورثتنا تلك الأكلة حزناً طويلاً، قال ابن عباس: قال الله تعالى: «يا آدم ألم يكن فيما أبحتك من الجنة مندوحة عن الشجرة قال بلى يا رب وعزتك ولكن ما ظننت أن أحداً يحلف بك كاذباً. قال: فبعزتي لأهبطنك إلى الأرض ثم لا تنال العيش فيها إلاّ نكداً فاهبط من الجنة وعلم صنعة الحديد، وأمر بالحرث فحرث وزرع وسقى حتى إذا بلغ واشتد حصده ثم درسه ثم ذراه ثم طحنه ثم عجنه وخبزه ثم أكله فلم يبلغه حتى بلغ منه الجهد». وفي رواية أخرى عن ابن عباس: إن آدم لما أكل من الشجرة التي نهى عنها قال الله تعالى: يا آدم ما حملك على ما صنعت؟ قال يا رب زينته لي حواء قال: فإني أعقبتها أن لا تحمل إلاّ كرهاً ولا تضع إلاّ كرهاً ودميتها في الشهر مرتين، فرنت حواء عند ذلك فقيل عليك الرنة وعلى بناتك. والرنة الصوت، فلما أكلا من الشجرة تهافتت عنهما ثيابهما، وأخرجا من الجنة، فذلك قوله عز وجل ﴿وقلنا اهبطوا﴾ أي انزلوا إلى الأرض يعني آدم وحواء وإبليس والحية فهبط آدم بسرنديب من أرض الهند على جبل يقال له نود، وأهبطت حواء بجدة وإبليس بالإبلة من أعمال البصرة والحية بأصبهان ﴿بعضكم لبعض عدو﴾ يعني العداوة التي بين المؤمنين من ذرية آدم وبين إبليس وإليه الإشارة بقوله عز وجل: ﴿إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً﴾ والعداوة التي بين ذرية آدم والحية. عن ابن عباس قال:

رآهما على باب الجنة، لأنهما كانا يخرجان منها وقد كان آدم حين دخل الجنة ورأى ما فيها من النعيم قال: لو أن أخلد، فاغتنم ذلك منه الشيطان فأتاه الشيطان من قِبَل الخُلد، فلما دخل الجنة وقف بين يدي آدم وحوّاء وهما لا يعلمان أنه إبليس فبكى وناح نياحة أحزنتهما وهو أول مَن ناح، فقالا له: ما يُبكيك؟ قال: أبكي عليكما تموتان فتفارقان ما أنتما فيه من النعمة، فوقع ذلك في أنفسهما فاغتمّا، ومضى إبليس ثم أتاهما بعد ذلك وقال: يا آدم هل أدلّك على شجرة الخُلد، فأبى أن يقبل منه وقاسمهما بالله أنه لهما لمن الناصحين فاغترّا، وما ظنّا أن أحداً يحلف بالله كاذباً فبادرت حوّاء إلى أكل الشجرة ثم ناولت آدم حتى أكلها، وكان سعيد بن المسيب يحلف بالله ما أكل آدم من الشجرة وهو يعقل ولكن حوّاء سقته الخمر حتى سكر قادته إليها فأكل، قال إبراهيم بن أدهم: أورثْتنا تلك الأكلة حُزناً طويلاً، قال ابن عباس وقتادة: قال الله عزّ وجلّ لآدم: ألم يكن فيما أبحتك من الجنّة مندوحة عن الشجرة؟ قال: بلى يا رب وعزّتك، ولكن ما ظننت أن أحداً يحلف بك كاذباً، قال: فبعزّتي لأهبطنّك إلى الأرض ثم لا تنال العيش إلاّ نَكِداً، فأُهبط من الجنة، وكانا يأكلان فيها رَغَداً فعُلّم صنعة الحديد وأُمر بالحرث فحرث وزرع ثم سقى حتى إذا بلغ حصد، ثم درس ثم ذرّاه ثم طحنه ثم عجنه ثم خبزه ثم أكله، فلم يبلغه حتى بلغ ما شاء الله، قال سعيد بن جبير عن ابن عباس: إن آدم لمّا أكل من الشجرة التي نُهِيَ عنها قال الله عزّ وجلّ: يا آدم ما حملك على ما صنعت قال: يا ربِّ زينته لي حوّاء، قال: فإني أعقبتها أن لا تحمل إلا كرهاً ولا تضع إلاّ كرهاً ودمّيتها في الشهر مرتين، فرنت حوّاء عند ذلك فقيل: عليك الرنة وعلى بناتك، فلما أكلا منها فُتّت عنهما ثيابُهما وبدتْ سوآتُهما وأُخرجا من الجنة، فذلك قوله تعالى: ﴿ وقلنا اهبطوا ﴾: انزلوا إلى الأرض، يعني: آدم وحوّاء وإبليس والحية، فهبط آدم

قال رسول الله ﷺ: «من ترك الحيات مخافة طلبهن فليس منا، ما سالماهن منذ حاربناهن» أخرجه أبو داود، وله عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: «اقتلوا الحيات كلهن فمن خاف من ثأرهن فليس مني» وفي رواية «اقتلوا الكبار كلها إلّا الجان الأبيض الذي كأنه قضيب فضة» (م) عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: «إن بالمدينة جنّاً قد أسلموا فإذا رأيتم منهم شيئاً فآذنوه ثلاثة أيام فإن بدا لكم بعد ذلك فاقتلوه فإنما هو شيطان» وفي رواية «إن بهذه البيوت عوامر فإذا رأيتم منها شيئاً فاخرجوا عليه ثلاثاً فإن ذهب وإلّا فاقتلوه فإنه كافر» ﴿**ولكم في الأرض مستقر**﴾ أي موضع قرار ﴿**ومتاع**﴾ أي بلغة ومستمتع ﴿**إلى حين**﴾ أي إلى وقت انقضاء آجالكم. قوله عز وجل ﴿**فتلقى آدم**﴾ أي فتلقن، والتلقي هو قبول عن فطنة وفهم. وقيل هو التعلم ﴿**من ربه كلمات**﴾ أي كانت سبب توبته. وقيل إن تلك الكلمات هي قوله ربنا ظلمنا أنفسنا الآية وقيل هي لا إله إلّا أنت سبحانك وبحمدك رب عملت سوءاً وظلمت نفسي فتب علي إنك أنت التواب الرحيم لا إله إلّا أنت سبحانك وبحمدك رب عملت سوءاً وظلمت نفسي فاغفر لي إنك أنت الغفور الرحيم لا إله إلّا أنت سبحانك وبحمدك رب عملت سوءاً وظلمت نفسي فارحمني إنك أنت أرحم الراحمين، وقيل قال آدم: يا رب أرأيت ما أتيت أشيء ابتدعته من تلقاء نفسي أم شيء قدرته عليّ قبل أن تخلقني؟ قال: بل شيء قدرته عليك قبل أن أخلقك. قال: يا رب فكما قدرته علي فاغفر لي. وقيل: إن الله تعالى أمر آدم بالحج وعلمه أركانه فطاف بالبيت سبعاً وهو يومئذٍ ربوة حمراء ثم صلّى ركعتين ثم استقبل البيت وقال اللهم إنك تعلم سري وعلانيتي فاقبل معذرتي وتعلم حاجتي فأعطني سؤلي وتعلم ما في نفسي فاغفر لي ذنوبي، فأوحى الله تعالى إليه يا آدم قد غفرت لك ذنوبك. وقيل: إن آدم لما أهبط إلى الأرض مكث ثلاثمائة سنة لا يرفع رأسه إلى السماء حياء من الله تعالى. وقيل هي ثلاثة أشياء: الحياء والدعاء والبكاء. قال ابن عباس: بكى آدم وحواء على ما فاتهما من نعيم الجنة مائتي سنة ولم يأكلا ولم يشربا أربعين يوماً. وقيل: لو أن دموع أهل الأرض جمعت لكانت دموع آدم أكثر حيث أصاب الخطيئة لو أن دموع داود ودموع أهل الأرض جمعت

بسر نديب من أرض الهند على جبل يقال له نـود، وحوّاء بجـدَّة، وإبليس بالابلة والحيّـة بأصفهـان، ﴿ **بعضكم لبعض عدو** ﴾ أراد العداوة التي بين ذريّة آدم والحية، وبين المؤمنين من ذريّة آدم وبين إبليس، قال الله تعالى: ﴿ إن الشيطان لكما عدوٌ مبين ﴾ [الأعراف: ٢٢] أنا أحمد بن عبد الله الصالحي أنا أبو الحسن بشران، أنا إسماعيل بن محمد الصفار أنا أحمد بن محمد بن الصفار، حدّثنا منصور الرمادي أنا عبد الرزّاق أنا معمر عن أيوب عن عكرمة عن ابن عباس قال: لا أعلمه إلّا رفع الحديث: «أنه كان يأمر بقتل الحيّات وقال: مَن تركهنّ خشيةً أو مخافةَ ثائر فليس منّا»، وزاد موسى بن مسلم عن عكرمة في الحديث: «ما سَالمناهُنّ منذُ حارَبَناهُنّ»، وَرُوِيَ «أنه نهى عن ذوات البيوت»، ورُوِيَ عن أبي سعيد الخدري عن النبيِّ ﷺ «أن بالمدينة جِنّا قد أسلموا فإن رأيتم منهم شيئاً فآذنوه ثلاثة أيام فإن بدا لكم بعد ذلك فاقتلوه فإنما هو شيطان»، قوله تعالى: ﴿ **ولكم في الأرض مستقر** ﴾: موضع قرار ﴿ **ومتاع** ﴾ بُلْغة ومُستمتع ﴿ **إلى حين** ﴾: إلى انقضاء آجالكم.

﴿ **فتلقى** ﴾: تلقى، والتلقّي: هو قبول عن فطنة وفهم، وقيل: هو التعلّم، ﴿ **آدمُ منْ ربّه كلمات** ﴾ قراءة العامّة آدمُ برفع الميم وكلمات بخفض التاء، وقرأ ابن كثير (آدم) بالنصب (كلماتٌ) برفع التاء، يعني: جاءت الكلمات آدم من ربه وكانت سبب توبته، واختلفوا في تلك الكلمات، قال سعيد بن جبير ومجاهد والحسن: هي قوله: ﴿ ربّنا ظلمنا أنفسنا ﴾ [الأعراف: ٢٣] الآية، وقال مجاهد ومحمد بن كعب القرظي: هو قوله لا إلّه إلّا أنت سبحانك وبحمدك ربِّ عملتُ سوءاً وظلمت نفسي فاغفرْ لي إنّك أنت الغفور الرحيم، لا إلّه إلّا أنت سبحانك وبحمدك ربِّ عملتُ سوءاً وظلمت نفسي فارحمني إنك أنت أرحم الراحمين، وقال عبيد بن عمير: هي أن آدم

لكانت دموع آدم أكثر حيث أخرجه الله من الجنة ﴿فتاب عليه﴾ أي فتجاوز عنه وغفر له. وأصل التوبة من تاب يتوب إذا رجع فكأن التائب رجع عن ذلك الذنب الذي كان عليه، ولا تتحقق التوبة منه إلّا بثلاثة أمور. علم وحال وعمل. أما العلم فهو أن يعلم العبد ضرر الذنب وأنه حجاب عن الله تعالى، فإذا حصل هذا العلم تألم القلب فعند ذلك يحصل الندم وهو الحال فيترك العبد الذنب، ويعزم في المستقبل أن لا يعود إليه وهو العمل فإذا تحققت هذه الثلاثة الأمور وحصلت التوبة، وسيأتي بسط هذا عند قوله تعالى: ﴿توبوا إلى الله توبة نصوحاً﴾ في سورة التحريم إن شاء الله تعالى ﴿إنه هو التواب﴾ أي الرجاع على عباده بقبول التوبة. والتواب في وصف الله سبحانه وتعالى: المبالغ في قبول توبة عباده ﴿الرحيم﴾ أي بخلقه وصف سبحانه وتعالى نفسه مع كونه بأنه رحيم ﴿قلنا اهبطوا منها جميعاً﴾ يعني هؤلاء الأربعة. وقيل إن الهبوط الأول من الجنة إلى سماء الدنيا والهبوط الثاني من السماء الدنيا إلى الأرض، وفيه ضعف لأنه قال في الهبوط الأول «ولكم في الأرض مستقر» فدل على أنه كان من الجنة إلى الأرض، والأصح أنه للتأكيد ﴿فأما يأتينكم مني هدى﴾ فيه تنبيه على عظم نعم الله على آدم وحواء كأنه قال وإن أهبطتكم من الجنة إلى الأرض فقد أنعمت عليكم بهدايتي التي تؤديكم إلى الجنة مرة أخرى على الدوام الذي لا ينقطع وقيل المخاطب هم ذرية آدم يعني يا ذرية آدم إما يأتينكم مني رشد وبيان وشريعة وقيل كتاب ورسول ﴿فمن تبع هداي فلا خوف عليهم﴾ يعني فيما يستقبلهم ﴿ولا هم يحزنون﴾ أي على ما خلفوا وقيل لا خوف عليهم ولا هم يحزنون في الآخرة.

وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّـٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٤٠﴾ وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦۖ وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَـٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّـٰىَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾ وَلَا تَلْبِسُواْ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَـٰطِلِ وَتَكْتُمُواْ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ

قال: يا ربّ أرأيت ما أتيت، أشيءٌ ابتدعتُه من تلقاء نفسي أم شيءٌ قدّرتَه عليّ قبل أن تخلقني؟ قال الله تعالى: لا بل شيءٌ قدّرته عليك قبل أن أخلقك، قال: يا رب فكما قدّرته قبل أن تخلقني فاغفر لي، وقيل: هي ثلاثة أشياء الحياء والدعاء والبكاء، قال ابن عباس: بكى آدم وحوّاء على ما فاتهما من نعيم الجنة مائتي سنة ولم يأكلا ولم يشربا أربعين يوماً، ولم يقرب آدم حوّاء مائة سنة، وروى المسعودي عن يونس بن خطاب وعلقمة بن مرثد قالا: لو أن دموع جميع أهل الأرض جُمعت لكانت دموع داود أكثر حيث أصاب الخطيئة، ولو أن دموع داود ودموع أهل الأرض جُمعت لكانت دموع آدم أكثر حيث أخرجه الله من الجنة، قال شهر بن حوشب: بلغني أن آدم لما أُهبط إلى الأرض مكث ثلاثمائة سنة لا يرفع رأسه حياءً من الله تعالى، قوله: ﴿ فتاب عليه ﴾: فتجاوز عنه ﴿ إنه هو التوّاب ﴾: يقبل توبة عباده، ﴿ الرحيم ﴾: بخلقه.

قوله تعالى: ﴿ قلنا اهبطوا منها جميعاً ﴾، يعني: هؤلاء الأربعة وقيل الهبوط الأول من الجنة إلى السماء الدنيا، والهبوط الثاني من السماء الدنيا إلى الأرض، ﴿ فإما يأتينّكم ﴾، أي: فإن يأتكم يا ذرية آدم ﴿ منّي هُدى ﴾، أي: رُشدٌ وبيان شريعة، وقيل: كتاب ورسولٌ، ﴿ فمَنْ تبع هُدايَ فلا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون ﴾، قرأ يعقوب: (فلا خوفَ)، بالفتح في كل القرآن، والآخرون بالضم والتنوين ﴿ فلا خوف عليهم ﴾ فيما يستقبلهم ﴿ ولا هم يحزنون ﴾ على ما خلفوا، وقيل: لا خوف عليهم في الدنيا ولا هم يحزنون في الآخرة.

تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ۞ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَٰبَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾

﴿**والذين كفروا**﴾ أي جحدوا ﴿**وكذبوا بآياتنا**﴾ أي بالقرآن ﴿**أولئك أصحاب النار**﴾ أي يوم القيامة ﴿**هم فيها خالدون**﴾ أي لا يخرجون منها ولا يموتون فيها قوله عز وجل ﴿**يا بني إسرائيل**﴾ اتفق المفسرون على أن إسرائيل هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم صلّى الله عليهم وسلم أجمعين ومعنى إسرائيل عبدالله وقيل صفوة الله والمعنى يا أولاد يعقوب ﴿**اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم**﴾ أي اشكروا نعمتي وإنما عبر عنه بالذكر لأن من ذكر النعمة فقد شكرها ومن جحدها فقد كفرها وقيل الذكر يكون بالقلب ويكون باللسان ووحد النعمة لأنها المنفعة المفعولة على جهة الإحسان إلى الغير ومعناه أن المضرة المحضة لا تكون نعمة ولو فعل الإنسان منفعة وقصد نفسه بها لا تسمى نعمة إذا لم يقصد بها الغير ثم إن النعم ثلاثة: نعمة تفرد بها الله تعالى وهي إيجاد الإنسان ورزقه ونعمة وصلت إلى الإنسان بواسطة الغير لكن الله مكنه من ذلك فالمنعم بها في الحقيقة هو الله تعالى ونعمة حصلت للإنسان بسبب الطاعة وهي أيضاً من الله تعالى، فالله هو المنعم المطلق في الحقيقة لأن أصول النعم كلها منه. وأما النعم المختصة ببني إسرائيل فكثيرة لأن قوله ﴿**اذكروا نعمتي**﴾ لفظها واحد ومعناها الجمع فمن النعم أن الله تعالى أنقذهم من فرعون وفلق البحر لهم وأغرق فرعون وتظليلهم بالغمام وإنزال المن والسلوى في التيه عليهم وإنزال التوراة ونعم غير هذه كثيرة فإن قلت إذا فسر النعمة بهذا فما كانت على المخاطبين بها بل كانت على آبائهم فكيف تكون نعمة عليهم حتى يذكروها. قلت إنما ذكر المخاطبين بها لأن فخر الآباء فخر الأبناء ولأن الأبناء إذا تيقنوا أن الله قد أنعم على آبائهم بهذه النعم فقد وجب عليهم ذكرها وشكرها. وقيل إن هذه النعم هي إدراك المخاطبين بها زمن محمد ﷺ وذكرها الإيمان به ﴿**وأوفوا بعهدي**﴾ أي امتثلوا أمري ﴿**أوف بعهدكم**﴾ أي بالقول والثواب وأصل للعهد حفظ الشيء ومراعاته حالاً بعد حال ومنه سمي الموثق الذي تلزم مراعاته عهداً وقيل أراد بالعهد جميع ما أمر الله به من غير تخصيص ببعض التكليف دون بعض وقيل أراد به ما ذكر في سورة المائدة وهو قوله: ﴿**ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل وبعثنا منهم اثني عشر نقيباً**﴾ إلى قوله ﴿**لأكفرن عنكم سيئاتكم**﴾ فهذا قوله: ﴿**أوف بعهدكم**﴾ وقيل هو قوله: ﴿وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوة﴾ يعني شريعة التوراة.

﴿ والذين كفروا ﴾: جحدوا **﴿ وكذبوا بآياتنا ﴾** بالقرآن **﴿ أولئك أصحاب النار ﴾**: يوم القيامة، **﴿ هم فيها خالدون ﴾**: لا يخرجون منها ولا يموتون فيها.

قوله تعالى: **﴿ يا بني إسرائيل ﴾**يا أولاد يعقوب، ومعنى إسرائيل: عبد الله، وإيل: هو الله تعالى، وقيل: صفوة الله، وقرأ أبو جعفر: (إسرائيل) بغير همزة، **﴿ اذكروا ﴾**: احفظوا، والذكر يكون بالقلب ويكون باللسان، وقيل: أراد به الشكر، وذكر بلفظ الذكر، لأن في الشكر ذكراً وفي الكفران نسياناً، قال الحسن: ذكر النعمة شكرها، **﴿ نعمتي ﴾**، أي: نعمي، لفظها واحد ومعناها جمع، كقوله تعالى: **﴿ وإن تَعُدّوا نِعْمَةَ الله لا تحصوها ﴾** [إبراهيم: ٣٤، النحل: ١٨]، **﴿ التي أنعمتُ عليكم ﴾**، أي: على أجدادكم وأسلافكم، قال قتادة: هي النِعَم التي خُصّت بها بنو إسرائيل: فلق البحر، وإنجاؤهم من فرعون بإغراقه، وتظليل الغمام عليهم في التيه، وإنزال المَنّ والسلوى، وإنزال التوراة، في نِعَمٍ كثيرة لا تُحصى، وقال غيره: هي جميع النِّعَم التي لله عزّ وجلّ على عباده، **﴿ وأوفوا بعهدي ﴾**: بامتثال أمري **﴿ أوفِ بعهدكم ﴾**: بالقبول والثواب، قال قتادة ومجاهد: أراد بهذا العهد ما ذكر في قوله: **﴿ ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل وبعثنا منهم حفظ اثني عشر نقيباً ﴾**

وقيل هو قوله: ﴿وإذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل لا تعبدون إلاّ الله﴾. وقيل أراد بهذا العهد ما أثبته في كتب الأنبياء المتقدمة من وصف محمد ﷺ وأنه مبعوث في آخر الزمان، وذلك أن الله عهد إلى بني إسرائيل على لسان موسى عليه الصلاة والسلام أني باعث من بني إسماعيل نبياً أمياً فمن تبعه وصدق النور الذي يأتي به غفرت له ذنبه وأدخلته الجنة وجعلت له أجرين اثنين، وهو قوله: ﴿وإذا أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس﴾ يعني أمر محمد ﷺ وصفته **﴿وإياي فارهبون﴾** أي فخافون في نقضكم العهد **﴿وآمنوا بما أنزلت﴾** يعني بالقرآن **﴿مصدقاً لما معكم﴾** يعني أن القرآن موافق لما في التوراة من التوحيد والنبوة والأخبار ونعمت النبي ﷺ فالإيمان بمحمد ﷺ والقرآن تصديق للتوراة لأن التوراة فيها الإشارة إلى نعت النبي ﷺ وأنه نبي مبعوث فمن آمن به فقد آمن بما في التوراة ومن كذبه وكفر به فقد كذب التوراة وكفر بها **﴿ولا تكونوا أول كافر به﴾** الخطاب لليهود، نزلت في كعب بن الأشرف ورؤساء اليهود، والمعنى ولا تكونوا يا معشر اليهود أول من كفر به. فإن قلت كيف جعلوا أول من كفر به وقد سبقهم إلى الكفر به مشركو العرب من أهل مكة وغيرهم؟ قلت: هذا تعريض لهم والمعنى كان يجب أن تكونوا أول من آمن به لأنكم تعرفون صفته ونعته بخلاف غيركم وكنتم تستفتحون به على الكفار فلما بعث كان أمر اليهود بالعكس. وقيل معناه ولا تكونوا أول كافر به من اليهود فيتبعكم غيركم على ذلك فتبوءوا بإثمكم وإثم غيركم ممن تبعكم على ذلك **﴿ولا تشتروا﴾** أي ولا تستبدلوا **﴿بآياتي﴾** أي ببيان صفة محمد ﷺ التي في التوراة **﴿ثمناً قليلاً﴾** أي عوضاً يسيراً من الدنيا لأن الدنيا بالنسبة إلى الآخرة كالشيء اليسير الحقير الذي لا قيمة له والذي كانوا يأخذونه من الدنيا كالشيء اليسير بالنسبة إلى جميعها فهو قليل القليل فلهذا قال الله تعالى: **﴿ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً﴾** وذلك أن كعب بن الأشرف ورؤساء اليهود وعلماءهم كانوا يصيبون المآكل من سفلتهم وجهالهم وكانوا يأخذون منهم في كل سنة شيئاً معلوماً من زرعهم وثمارهم ونقودهم وضروعهم فخافوا إن بينوا صفة محمد ﷺ وتابعوه أن تفوتهم تلك المآكل فغيروا نعته وكتموا اسمه واختاروا الدنيا على الآخرة وأصروا على الكفر **﴿وإياي فاتقون﴾** أي فخافون في أمر محمد ﷺ. والتقوى قريب من معنى الرهبة والفرق بينهما أن الرهبة

[المائدة: ١٢] إلى أن قال: ﴿ لأُكَفِّرَنّ عنكم سيئاتكم ﴾ [المائدة: ١٢]، فهذا قوله: **﴿ أُوفِ بعهدكم ﴾** وقال الحسن: هو قوله: ﴿ وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوة ﴾ [البقرة: ٦٣]، فهو شريعة التوراة، وقال مقاتل: هو قوله: ﴿ وإذْ أخذنا ميثاق بني إسرائيل لا تعبدون إلاّ الله ﴾ [البقرة: ٨٣]، وقال الكلبي: عهد الله إلى بني إسرائيل على لسان موسى: إني باعث من بني إسماعيل نبيّاً أُميّاً فَمَن اتّبعه وصدق بالنور الذي يأتي به غفرت له ذنبه وأدخلته الجنة، وجعلت له أجرين اثنين، وهو قوله: ﴿ وإذ أخذ الله ميثاق الذين أُوتوا الكتاب لَتُبيِّنّنه للناس ﴾ [آل عمران: ١٨٧]، يعني: أمر محمد ﷺ. **﴿ وإيّايَ فارهبون ﴾**: فخافوني في نقض العهد، وأثبت يعقوب الياآت المحذوفة في الخط مثل (فارهبون، فاتقون، واخشون)، والآخرون يحذفونها على الخط.

﴿ وآمنوا بما أنزلت ﴾ يعني القرآن، **﴿ مصدّقاً لما معكم ﴾**، أي موافقاً لما معكم من التوراة في التوحيد والنبوّة والأخبار ونعت النبيّ ﷺ، نزلت في كعب بن الأشرف وأصحابه من علماء اليهود ورؤسائهم، **﴿ ولا تكونوا أول كافر به ﴾**، أي: بالقرآن، يريد من أهل الكتاب، لأن قريشاً كفرت قبل اليهود بمكة، معناه ولا تكونوا أول مَن كفر بالقرآن فتتابعكم اليهود على ذلك فتبوؤا بآثامكم وآثامهم، **﴿ ولا تشتروا ﴾**، أي: ولا تستبدلوا **﴿ بآياتي ﴾**: ببيان صفة محمد ﷺ، **﴿ ثمناً قليلاً ﴾** أي: عوضاً يسيراً من الدنيا، وذلك أن رؤساء اليهود وعلماءهم كانت لهم مأكلة يصيبونها من سفلتهم وجهّالهم يأخذون كل عام منهم شيئاً معلوماً من زروعهم وضُروعهم ونقودهم، فخافوا

خوف مع حزن واضطراب والتقوى جعل النفس في وقاية مما تخاف. قوله عز وجل: ﴿ولا تلبسوا الحق بالباطل﴾ أي ولا تكتبوا في التوراة ما ليس فيها فيختلط الحق المنزل بالباطل الذي كتبتم. وقيل معناه ولا تخلطوا الحق الذي أنزل عليكم من صفة محمد ﷺ في التوراة الباطل الذي تكتبونه بأيديكم من تغيير صفته وقيل لا تخلطوا صفة محمد ﷺ التي هي الحق بالباطل أي بصفة الدجال وذلك أنه لما بعث رسول الله ﷺ حسده اليهود وقالوا ليس هو الذي ننتظره وإنما هو المسيح ابن داود يعني الدجال وكذبوا فيما قالوا: ﴿وتكتموا الحق وأنتم تعلمون﴾ يعني أن محمداً ﷺ نبي مرسل. وفيه تنبيه لسائر الخلق وتحذير من مثله فصار هذا الخطاب وإن كان خاصاً في الصورة لكنه عام في المعنى فعلى كل أحد أن لا يلبس الحق بالباطل ولا يكتم الحق لما فيه من الضرر والفساد وفيه دلالة أيضاً على أن العالم بالحق يجب عليه إظهاره ويحرم عليه كتمانه ﴿وأقيموا الصلاة﴾ يعني الصلوات الخمس بمواقيتها وحدودها وجميع أركانها ﴿وآتوا الزكاة﴾ أي أدوا الزكاة المفروضة عليكم في أموالكم ﴿واركعوا مع الراكعين﴾ أي صلوا مع المصلين، يعني محمداً ﷺ وأصحابه وعبر عن الصلاة بالركوع لأنه ركن من أركانها وهذا خطاب لليهود لأن صلاتهم ليس فيها ركوع فكأنه قال لهم صلوا صلاة ذات ركوع فلهذا المعنى أعاده بعد قوله وأقيموا الصلاة لأن الأول خطاب الكافة والثاني خطاب قوم مخصوصين وهم اليهود. وفيه حث على إقامة الصلاة في الجماعة فكأنه قال صلوا مع المصلين في الجماعة. قوله عز وجل: ﴿أتأمرون الناس بالبر﴾ الاستفهام فيه للتقرير مع التقريع والتعجب من حالهم. والبر اسم جامع لجميع أعمال الخير والطاعات، نزلت هذه الآية في علماء اليهود، وذلك أن الرجل منهم كان يقول لقريبه وحليفه من المسلمين إذا سأله عن أمر محمد ﷺ اثبت على دينه فإن أمره حق وقوله صدق وقيل إن جماعة من اليهود قالوا لمشركي العرب: إن رسولاً سيظهر منكم ويدعوكم إلى الحق، وكانوا يرغبونهم في اتباعه فلما بعث الله محمداً ﷺ حسدوه وكفروا به فبكتهم الله ووبخهم بذلك حيث إنهم كانوا يأمرون الناس باتباعه قبل ظهوره، فلما ظهر تركوه وأعرضوا عنه. وقيل كانوا يأمرون الناس بالطاعة والصلاة والزكاة وأنواع البر ولا يفعلونه فوبخهم الله بذلك ﴿وتنسون أنفسكم﴾ أي وتعدلون عما لها فيه نفع والنسيان عبارة عن

أنهم إن بيّنوا صفة محمد ﷺ وتابعوه أن تفوتهم تلك المأكلة، فغيّروا نَعْتَه وكتموا اسمه، فاختاروا الدنيا على الآخرة، ﴿ وإيّايَ فاتّقون ﴾: فاخشوني.

﴿ ولا تَلْبِسُوا الحقَ بالباطل ﴾، أي: لا تخلطوا، يقال: لَبِسَ الثوبَ يَلْبَسُ لُبْساً، ولَبَسَ عليه الأمرُ يلبس لبساً، أي: خَلَطَ، يقال: لا تخلطوا الحق الذي أنزلت عليكم من صفة محمد ﷺ بالباطل الذي تكتبونه بأيديكم من تغيير صفة محمد ﷺ، والأكثرون على أنه أراد لا تَلْبِسُوا الإسلام باليهودية والنصرانية، وقال مقاتل: إن اليهود أقرّوا ببعض صفة محمد ﷺ وكتموا بعضاً ليُصدَّقوا في ذلك، فقال ولا تلبسوا الحق الذي تغيّرون بالباطل، يعني: بما تكتمونه، فالحق بيانهم والباطل كتمانهم، ﴿ وتكتموا الحق ﴾، أي: لا تكتموه، يعني: نعتَ محمد ﷺ، ﴿ وأنتم تعلمون ﴾ أنه نبيّ مُرسَل.

﴿ وأقيموا الصلوٰة ﴾، يعني: الصلوات الخمس بمواقيتها وحدودها، ﴿ وآتوا الزكاة ﴾ أدّوا زكاة أموالكم المفروضة، فهي مأخوذة من زكاة الزرع إذا نَما وكثُر، وقيل: مَن تزكّى، أي تطهّر، وكِلا المعنيين موجودان في الزكاة لأن فيها تطهير أو تنمية للمال، ﴿ واركعوا مع الراكعين ﴾، أي: صلّوا مع المصلّين محمد ﷺ وأصحابه، وذكّر بلفظ الركوع لأن الركوع ركن من أركان الصلاة، ولأن صلاة اليهود لم يكن فيها ركوع، وكأنه قال صلّوا صلاة ذات ركوع، قيل: وإعادته بعد قوله: ﴿ وأقيموا الصلاة ﴾، لهذا أي: صلّوا مع الذين في صلواتهم ركوع، فالأول مطلق في حق الكل، وهذا في حق أقوام مخصوصين، وقيل: هذا حثٌّ على إقامَ الصلاة جماعةً كأنه قال لهم:

السهو الحادث بعد حصول العلم والمعنى أتتركون أنفسكم ولا تتبعون محمداً ﷺ ﴿وأنتم تتلون الكتاب﴾ يعني تقرؤون التوراة وتدرسونها وفيها نعت محمد ﷺ وصفته وفيها أيضاً الحث على الأفعال الحسنة والإعراض عن الأفعال القبيحة والإثم ﴿أفلا تعقلون﴾ يعني أنه حق فتتبعونه والعقل قوة يهيىء قبول العلم ويقال للعلم الذي يستفيده الإنسان بتلك القوة عقل ومنه قول علي بن أبي طالب:

وإن العقـــــل عقـــــلان فمطبـــــوع ومسمـــــوع
ولا ينفـــــع مطبـــــوع إذا لـــــم يـــــك مسمـــــوع
كمـــــا لا تنفـــــع الشمـــــس وضـــــوء العيـــــن ممنـــــوع

وأصل العقل الإمساك لأنه مأخوذ من عقال الدابة كعقل البعير بالعقال ليمنعه من الشرود فكذلك العقل يمنع صاحبه من الكفر والجحود والأفعال القبيحة. ومعنى الآية أن المقصود من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو إرشاد الغير إلى تحصيل المصلحة وتحذيره عما يوقعه في المفسدة والإحسان إلى النفس أولى من الإحسان إلى الغير وذلك لأن الإنسان إذا وعظ غيره ولم يتعظ هو فكأنه أتى بفعل متناقض لا يقبله العقل فلهذا قال أفلا تعقلون وقيل إن من وعظ الناس يجتهد أن ينفذ موعظته إلى القلوب فإذا خالف قوله فعله كان ذلك سبب تنفير القلوب عن قبول موعظته (ق) عن أسامة بن زيد قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يؤتى بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار فتندلق أقتاب بطنه فيدور بها كما يدور الحمار في الرحى فيجتمع إليه أهل النار فيقولون يا فلان ما لك ألم تكن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر فيقول بل كنت آمر بالمعروف ولا آتيه وأنهى عن المنكر وآتيه» قوله فتندلق، أي تخرج أقتاب بطنه أي أمعاء بطنه واحدها قتب وروى البغوي بسنده عن أنس قال قال رسول الله ﷺ: «رأيت ليلة أسري بي رجالاً تقرض شفاههم بمقاريض من نار قلت من هؤلاء يا جبريل قال هؤلاء خطباء من أمتك يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم وهم يتلون الكتاب أفلا يعقلون قيل مثل الذي يعلم الناس الخير ولا يعمل به كالسراج يضيء للناس ويحرق نفسه. وقيل من وعظ بقوله ضاع كلامه، ومن وعظ بفعله نفذت سهامه، وقال بعضهم:

صلّوا مع المصلّين الذين سبقوكم بالإيمان.

﴿ أتأمرون الناس بالبرّ ﴾، أي: بالطاعة، نزلت في علماء اليهود وذلك أن الرجل منهم كان يقول لقريبه وحليفه من المؤمنين إذا سأله عن أمر محمد ﷺ: اثبت على دينه فإن أمره حق، وقوله صدق، وقيل: هو خطاب لأحبارهم حيث أمروا أتباعهم بالتمسّك بالتوراة، ثم خالفوا وغيّروا نعتَ محمد ﷺ، ﴿ وتنسون أنفسكم ﴾، أي: تتركون أنفسكم فلا تتبعونه، ﴿ وأنتم تتلون الكتاب ﴾، تقرؤن التوراة فيها نعته وصفته، ﴿ أفلا تعقلون ﴾: أنه حق فتتبعون، والعقل مأخوذ من عِقال الدابّة، وهو ما يُشدّ به ركبة البعير فيمنعه عن الشرود، فكذلك العقل يمنع صاحبه من الكفر والجحود، أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحي أنا أبو عمرو بكر بن محمد المزني، أنا أبو بكر محمد بن عبد الله حفيد العباس بن حمزة، أنا الحسين بن الفضل البجلي أنا عفّان أنا حمّاد بن سلمة أنا علي بن زيد، عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «رأيت ليلة أُسري بي رجالاً تُقرض شفاههم بمقاريض من نار، قلت: مَن هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء خطباء من أُمتك يأمرون الناس بالبرّ وينسون أنفسهم وهم يتلون الكتاب» أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد عبد الله النعيمي، أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل، أنا علي بن عبد الله أنا سفيان عن الأعمش، عن أبي وائل قال: قال أُسامة: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يُجاء بالرجل يوم القيامة فيُلقى في النار فتندلق أقتابه في النار، فيدور كما يدور الحمار برحاه، فيجتمع أهل النار عليه فيقولون: أي

ابدأ بنفسك فانهها عن غيها فإذا انتهت عنه فأنت حكيم
فهناك يسمع ما تقول ويقتدى بالقول منك وينفع التعليم

وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَـٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَـٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ
رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن
نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَـٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِذْ نَجَّيْنَـٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ
يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾

قوله عز وجل: ﴿**واستعينوا بالصبر والصلاة**﴾ قيل إن المخاطبين بهذا هم المؤمنون لأن من ينكر الصلاة والصبر على دين محمد ﷺ لا يقال له استعن بالصبر والصلاة فلا جرم وجب صرفه إلى من صدّق محمداً ﷺ وآمن به. وقيل يحتمل أن يكون الخطاب لبني إسرائيل لأن صرف الخطاب إلى غيرهم يوجب تفكيك نظم القرآن ولأن اليهود لم ينكروا أصل الصلاة والصبر لكن صلاتهم غير صلاة المؤمنين، فعلى هذا القول أن الله تعالى لما أمرهم بالإيمان بمحمد ﷺ والتزام شريعته وترك الرياسة وحب الجاه والمال قال لهم استعينوا بالصبر أي بحبس النفس عن اللذات وإن ضممتم إلى ذلك الصلاة هان عليكم ترك ما أنتم فيه من حب الرياسة والجاه والمال. وعلى القول الأول يكون معنى الآية واستعينوا على حوائجكم إلى الله. وقيل: على ما يشغلكم من أنواع البلاء. وقيل: على طلب الآخرة بالصبر وهو حبس النفس عن اللذات وترك المعاصي. وقيل بالصبر على أداء الفرائض. وقيل الصبر هو الصوم لأن فيه حبس النفس عن المفطرات وعن سائر اللذات وفيه انكسار النفس والصلاة، أي اجمعوا بين الصبر والصلاة وقيل معناه واستعينوا بالصبر على الصلاة وعلى ما يجب فيها من تصحيح النية وإحضار القلب ومراعاة الأركان والآداب مع الخشوع والخشية، فإن من اشتغل بالصلاة ترك ما سواها. وكان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة، أي إذا أهمه أمر لجأ إلى الصلاة وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه نعي له أخوه

فلان ما شأنك أليس كنت تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر؟ قال: كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه وأنهاكم عن المنكر وآتيه»، وقال شعبة عن الأعمش فيطحن بها كما يطحن الحمار برحاه.

﴿ **واستعينوا** ﴾: على ما يستقبلكم من أنواع البلاء، وقيل: على طلب الآخرة، ﴿ **بالصبر والصلاة** ﴾: على تمحيض محو الذنوب أراد حبس النفس عن المعاصي، وقيل: أراد بالصبر: الصبر على أداء الفرائض، وقال مجاهد: الصبر: الصوم، ومنه سُمّي شهر رمضان شهر الصبر، وذلك لأن الصوم يزهده في الدنيا والصلاة ترغّبه في الآخرة، وقيل: الواو بمعنى «على» أي: واستعينوا بالصبر على الصلاة كما قال الله تعالى: ﴿ وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها ﴾ [طه: ١٣٢]، ﴿ وإنها ﴾، ولم يقل وإنهما، ردّ الكناية إلى كل واحد منهما، أي: وإن كل خصلة منهما، كما قال: ﴿ كلتا الجنتين آتت أكلها ﴾ [الكهف: ٣٣]، أي: أُكل كل واحد منهما، وقيل: معناه واستعينوا بالصبر وإنه لكبير، وبالصلاة وإنها لكبيرة، فحذف أحدهما اختصاراً، وقال المورج: ردّ الكناية إلى الصلاة لأنها أعمّ، كقوله تعالى: ﴿ والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها ﴾ [التوبة: ٣٥] ردّ الكناية إلى الفضة لأنها أعمّ، وقيل: ردّ الكناية إلى الصلاة لأنّ الصبر داخل فيها كما قال الله تعالى: ﴿ والله ورسوله أحقّ أن يرضوه ﴾ [التوبة: ٦٢]، ولم يقل يرضوهما، لأن رضى الرسول داخل في رضى الله عزّ وجلّ، وقال الحسين بن الفضل: ردّ الكناية إلى الاستعانة، ﴿ **لكبيرة** ﴾، أي: لثقيلة ﴿ **إلاّ على الخاشعين** ﴾، يعني: المؤمنين، وقال الحسن:

قثم وهو في سفره فاسترجع ثم تنحى عن الطريق، فصلى ركعتين أطال فيهما السجود، ثم قام إلى راحلته وهو يقول: فاستعينوا بالصبر والصلاة ﴿**وإنها**﴾ يعني الصلاة وقيل الاستعانة ﴿**لكبيرة**﴾ أي ثقيلة ﴿**إلا على الخاشعين**﴾ يعني المؤمنين وقيل الخائفين: وقيل المطيعين المتواضعين لله وأصل الخشوع السكون فالخاشع ساكن إلى الطاعة وقيل الخشوع الضراعة وأكثر ما تستعمل في الجوارح وإنما كانت الصلاة ثقيلة على غير الخاشعين لأن من لا يرجو لها ثواباً ولا يخاف على تركها عقاباً فهي ثقيلة عليه. وأما الخاشع الذي يرجو لها ثواباً ويخاف على تركها عقاباً فهي سهلة عليه ﴿**الذين يظنون**﴾ أي يستيقنون وقيل يعلمون ﴿**أنهم ملاقو ربهم**﴾ يعني في الآخرة وفيه دليل على ثبوت رؤية الله تعالى في الآخرة ﴿**وأنهم إليه راجعون**﴾ يعني بعدت فيجزيهم بأعمالهم. قوله عز وجل: ﴿**يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم**﴾ إنما أعاد هذا الكلام مرة أخرى توكيداً للحجة عليهم وتحذيراً من ترك اتباع محمد ﷺ ﴿**وأني فضلتكم على العالمين**﴾ يعني على عالمي زمانكم وهذا التفضيل وإن كان في حق الآباء ولكن يحصل به الشرف للأبناء ﴿**واتقوا يوماً**﴾ أي واخشوا عذاب يوم ﴿**لا تجزي**﴾ أي لا تقضى ﴿**نفس عن نفس شيئاً**﴾ يعني حقاً لزمها. وقيل معناه لا تنوب نفس عن نفس يوم القيامة، ولا ترد عنها شيئاً مما أصابها، بل يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه ﴿**ولا تقبل منها شفاعة**﴾ أي في ذلك اليوم والمعنى لا تقبل الشفاعة إذا كانت النفس كافرة، وذلك أن اليهود قالوا يشفع لنا آباؤنا فرد الله عليهم ذلك بقوله ولا تقبل منها شفاعة وقيل إن طاعة المطيع لا تقضي عن العاصي ما كان واجباً عليه وقيل معناه أن النفس الكافرة لو جاءت بشفيع لا يقبل منها ﴿**ولا يؤخذ منها عدل**﴾ أي فدية وهو مماثلة الشيء بالشيء ﴿**ولا هم ينصرون**﴾ أي لا يمنعون من العذاب.

قوله عز وجل: ﴿**وإذ نجيناكم**﴾ أي واذكروا إذ خلصنا أسلافكم وأجوادكم فاعتدها نعمة ومنة عليهم لأنهم نجوا بنجاة أسلافهم ﴿**من آل فرعون**﴾ أي من أتباعه وأهل دينه وفرعون اسم علم لمن كان يملك مصر من القبط والعماليق وفرعون هذا كان اسمه الوليد بن مصعب بن الريان وعمر أكثر من أربعمائة سنة ﴿**يسومونكم**﴾ أي يكلفونكم ويذيقونكم ﴿**سوء العذاب**﴾ أي أشد العذاب وأسوأه، وقيل: يصرفونكم في العذاب مرة كذا ومرة كذا، وذلك أن فرعون جعل بني إسرائيل خدماً وخولاً، وصنفهم في الأعمال أصنافاً: صنف يبنون ويزرعون، وصنف يخدمونه ومن لم يكن في عمل وضع عليه الجزية وقال ابن وهب: كانوا أصنافاً في أعمال فرعون فذوو القوة يسلخون السواري من الجبال، حتى تقرعت أيديهم وأعناقهم ودبرت ظهورهم من قطعها ونقلها وصنف ينقلون

الخائفين، وقيل: المطيعين، وقال مقاتل بن حيان: المتواضعين، وأصل الخشوع: السكون، قال الله تعالى: ﴿ وخشعتِ الأصواتُ للرحمن ﴾ [طه: ١٠٨]، فالخاشع ساكن إلى طاعة الله تعالى.

﴿ الذين يظنون ﴾: يستيقنون، فالظنّ من الأضداد يكون شكّاً ويقيناً، كالرجاء يكون أمناً وخوفاً، ﴿ أنهمْ مُلاقوا ﴾: مُعاينوا ﴿ ربهم ﴾: في الآخرة، وهو رؤية الله تعالى، وقيل: المراد من اللقاء الصيرورة إليه، ﴿ وإنهم إليه راجعون ﴾: فيجزيهم بأعمالهم.

﴿ يا بني إسرائيل اذكُروا نعمتيَ التي أنعمت عليكم وأني فضّلتكم على العالمين ﴾، أي: عالَمِي زمانكم، وذلك التفضيل وإن كان في حق الآباء ولكن يحصل به الشرف في حق الأبناء.

﴿ واتقوا يوماً ﴾: واخشَوا عقابَ يومٍ، ﴿ لا تجزي نفسٌ ﴾: لا تقضي نفس ﴿ عن نفس شيئاً ﴾ أي: حقاً لزمها، وقيل: لا تغني، وقيل: لا تكفي شيئاً من الشدائد، ﴿ ولا تُقبل منها شفاعةٌ ﴾، قرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب بالتاء، لتأنيث الشفاعة، وقرأ الباقون بالياء، لأن الشفع والشفاعة بمعنى واحد كالوعظ والموعظة، فالتذكير

الحجارة والطين يبنون له القصور، وطائفة يضربون اللبن ويطبخون الآجر، وطائفة نجارون وحدادون، والضعفة منهم يضرب عليهم الخراج يعني الجزية ضريبة يؤدونها كل يوم، فمن غربت عليه الشمس قبل أن يؤدي ضريبته، غلبت يداه إلى عنقه شهراً والنساء يغزلن الكتان وينسجنه وقيل تفسير يسومونكم سوء العذاب، ما بعده وهو قوله عز وجل: ﴿يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم﴾ أي يتركونهن أحياء. وذلك أن فرعون رأى في منامه كأن ناراً أقبلت من بيت المقدس وأحاطت بمصر، وأحرقت كل قبطي بها ولم تتعرض لبني إسرائيل فهاله ذلك، وسأل الكهنة عن رؤياه فقالوا: يولد غلام يكون على يديه هلاكك وزوال ملكك فأمر فرعون بقتل كل غلام يولد في بني إسرائيل، ووكل بالقوابل فكنّ يفعلن ذلك حتى قتل في طلب موسى اثني عشر ألفاً وقيل: سبعين ألفاً، وأسرع الموت في مشيخة بني إسرائيل فدخل رؤساء القبط على فرعون وقالوا: إن الموت قد وقع ببني إسرائيل فتذبح صغارهم ويموت كبارهم فيوشك أن يقع العمل علينا فأمر فرعون أن يذبحوا سنة ويتركوا سنة، فولد هارون في السنة التي لا يذبح فيها وولد موسى في السنة التي يذبح فيها ﴿وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم﴾ أي اختيار وامتحان، والبلاء يطلق على النعمة العظيمة وعلى المحنة الشديدة ليختبر الله العبد على النعمة بالشكر، وعلى الشدة بالصبر فإن حمل قوله: ﴿وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم﴾ على صنع فرعون كان من البلاء والمحنة وإن حمل على الإنجاء كان من النعمة. قوله عز وجل: ﴿وإذ فرقنا بكم البحر﴾ أي فصلنا بعضه من بعض وجعلنا فيه مسالك بسبب دخولكم البحر وسمي بحراً لاتساعه.

ذكر سياق القصة

وذلك أنه لما دنا هلاك فرعون، أمر الله موسى عليه الصلاة والسلام أن يسري ببني إسرائيل من مصر بالليل، فأمر موسى قومه أن يسرجوا في بيوتهم السرج إلى الصبح، وأن يستعيروا حلى القبط لتبقى لهم أو ليتبعوهم لأجل المال، وأخرج الله كل ولد زنا كان في القبط من بني إسرائيل إلى بني إسرائيل وكل ولد زنا كان في بني إسرائيل من القبط إلى القبط حتى يرجع كل ولد إلى أبيه وألقى الله الموت على القبط فمات كل بكر لهم فاشتغلوا بدفنهم وقيل: بلغ ذلك فرعون فقال لا أخرج في طلبهم حتى يصيح الديك فما صاح تلك الليلة ديك وخرج موسى في بني إسرائيل وهم ستمائة ألف وعشرون ألفاً لا يعدون ابن عشرين سنة لصغره، ولا ابن ستين سنة لكبره، وكانوا يوم دخلوا مصر مع يعقوب اثنين وسبعين إنساناً ما بين رجل وامرأة فلما أرادوا السير ضرب عليهم التيه فلم يدروا أين

على المعنى والتأنيث على اللفظ، كقوله تعالى: ﴿ قد جاءتكم موعظة من ربكم ﴾ [يونس: ٥٧]، وقال في موضع آخر: ﴿ فمَنْ جاءه موعظة من ربّه ﴾ [البقرة: ٢٧٥]، أي: لا تقبل منها شفاعة إذا كانت كافرة ﴿ ولا يُؤخذ منها عدل ﴾، أي: فداء: وسُمّي به لأنه مثل المعدي والعدل والعدل المثل، ﴿ ولا هم يُنصرون ﴾: يُمنعون من عذاب الله.

﴿ وإذ نجيناكم ﴾، أي: أسلافكم وأجدادكم فأعتدها مِنّةً عليهم، لأنهم نجوا بنجاتهم، ﴿ منْ آلِ فرعون ﴾: أتباعه وأهل دينه، وفرعون هو الوليد بن مصعب بن الريّان، وكان من القبط العماليق وعمّر أكثر من أربعمائة سنة، ﴿ يَسُومُونكم ﴾: يُكلّفونكم ويُذيقونكم ﴿ سوء العذاب ﴾: أشد العذاب وأسوأه، وقيل: يصرفونكم في العذاب مرة هكذا كالإبل السائمة في البريّة، وذلك أن فرعون جعل بني إسرائيل خدماً وخَوَلاً، وصنّفهم في الأعمال فصِنفٌ يبنون، وصِنفٌ يحرثون ويزرعون، وصِنفٌ يَخدمُونه، ومَن لم يكن منهم في عمل وَضَع عليه الجزية، قال وهب: كانوا أصنافاً في أعمال فرعون، فَذَوُو القوة ينحتون السواري من الجبال حتى قرحت أعناقهم ودبرت ظهورهم من قطعها ونقلها، وطائفة ينقلون الحجارة، وطائفة منهم يضربون اللَّبن ويطبخون الآجر، وطائفة نجّارون وحدّادون، والضَعَفَة منهم يضرب عليهم الخراج، ضريبة يؤدّونها كل يوم فمَن غربت عليه الشمس قبل أن

يذهبون فدعا موسى مشيخة بني إسرائيل وسألهم عن ذلك فقالوا: إن يوسف لما حضره الموت أخذ على إخوته عهداً أن لا يخرجوا من مصر حتى يخرجوه معهم فلذلك انسد علينا الطريق فسألهم عن موضع قبره فلم يعلموه فقال موسى. ينادي أنشد الله كل من يعلم أين قبر يوسف إلا أخبرني به ومن لم يعلم صمت أذناه عن سماع قولي: فكان يمر بالرجل وهو ينادي فلا يسمع صوته حتى سمعته عجوز منهم فقالت له: أرأيتك إن دللتك على قبره أتعطيني كل ما أسألك فأبى عليها وقال: حتى أسأل ربي فأمره أن يعطيها سؤالها فقالت: إني عجوز لا أستطيع المشي فاحملني معك وأخرجني من مصر هذا في الدنيا وأما في الآخرة فأسألك أن لا تنزل غرفة من غرف الجنة إلا نزلتها معك قال: نعم، قالت: إنه في النيل في جوف الماء فادع الله أن يحسر عنه الماء فدعا الله فحسر عنه الماء، ودعا الله أن يؤخر عنه طلوع الفجر حتى يفرغ من أمر يوسف، ثم حفر موسى ذلك الموضع فاستخرجه وهو في صندوق من مرمر وحمله معه حتى دفنه بالشام، فعند ذلك فتح لهم الطريق فسار موسى ببني إسرائيل هو في ساقتهم وهارون في مقدمتهم، ثم خرج فرعون في طلبهم في ألف ألف وسبعمائة ألف وكان فيهم سبعون ألفاً من دهم الخيل سوى سائر الشيات وقيل: كان معهن مائة ألف حصان أدهم وكان فرعون في الدهم وكان على مقدمة عسكر هامان، وكان فرعون في سبعة آلاف ألف وكان بين يديه مائة ألف ألف ناشب ومائة ألف ألف حراب ومائة في ألف ألف، معهم الأعمدة وسار بنو إسرائيل حتى وصلوا البحر والماء في غاية الزيادة، ونظروا حين أشرقت الشمس فإذا هم بفرعون في جنوده فبقوا متحيرين وقالوا: يا موسى أين ما وعدتنا به فكيف نصنع هذا فرعون خلفنا إن أدركنا قتلنا والبحر أمامنا إن دخلناه غرقنا، فأوحى الله إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فضربه فلم يطعه فأوحى الله إليه أن كنه فضربه، وقال: انفلق يا أبا خالد فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم، وظهر فيه اثنا عشر طريقاً لكل سبط منهم طريق وارتفع الماء بين كل طريقين كالجبل وأرسل الله الريح والشمس على قعر البحر، حتى صار يبساً وخاضت بنو إسرائيل البحر كل سبط في طريق عن جوانبهم الماء كالجبال الضخم لا يرى بعضهم بعضاً فخافوا، وقال: كل سبط منهم قد هلك إخواننا فأوحى الله إلى جبال الماء أن تشبكي فصار الماء كالشباك يرى بعضهم بعضاً، ويسمع بعضهم كلام بعض حتى عبروا البحر سالمين فذلك قوله تعالى: .

يؤدّي ضريبته غُلّت يمينه إلى عنقه شهراً، والنساء يغزلن الكتّان وينسجن، وقيل تفسير قوله: ﴿ **يسومونكم سوء العذاب** ﴾: ما بعده وهو قوله تعالى: ﴿ **يُذبّحون أبناءكم** ﴾، فهو مذكور على وجه البدل من قوله: ﴿ **يسومونكم سوء العذاب** ﴾، ﴿ **ويستحيون نساءكم** ﴾ يتركونهنّ أحياء، وذلك أن فرعون رأى في منامه كأن ناراً أقبلت من بيت المقدس وأحاطت بمصر وأحرقت كل قبطي فيها، ولم يُتعرّض لبني إسرائيل، فهاله ذلك وسأل الكهنة عن رُؤياه فقالوا يُولد ولدٌ في بني إسرائيل غلامٌ يكون على يده هلاكُكَ وزوال مُلكك، فأمر فرعون بقتل كل غلام يُولد في بني إسرائيل، وجَمَعَ القوابلَ فقال لهنّ: لا يسقط على أيديكنّ غلام من بني إسرائيل إلاّ قتل ولا جارية إلاّ تُركت، ووكّل بالقوابل، فكنّ يفعلن ذلك حتى قيل: إنه قتل في طلب موسى عليه السلام اثني عشر ألف صبي، وقال وهب: بلغني أنه ذبح في طلب موسى عليه السلام تسعين ألف وليد، ثم أسرع الموت في مشيخة بني إسرائيل، فدخل رؤوسُ القبط على فرعون وقالوا: إن الموت قد وقع في بني إسرائيل فتذبح صغارهم ويموت كبارهم فيوشك أن يقع العمل علينا، فأمر فرعون أن يذبحوا سنة ويتركوا سنة فولد هرون في السنة التي لا يذبحون فيها وولد موسى في السنة التي يذبحون فيها، ﴿ **وفي ذلكم بلاءٌ من ربّكم عظيم** ﴾، قيل: البلاء: المِحْنة، أي في سَوْمهم إياكم سُوء العذاب محنة عظيمة، وقيل: البلاء، النعمة، أي: في إنجائي إيّاكم منهم نعمة عظيمة، فالبلاء يكون بمعنى النعمة وبمعنى الشدّة، فالله تعالى قد يختبر على النعمة بالشكر، وعلى الشدّة بالصبر، قال الله تعالى: ﴿ ونبلوكم بالشرّ والخير فتنة ﴾ [الأنبياء: ٣٥].

﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾﴾

﴿وإذ فرقنا بكم البحر﴾ ﴿فأنجيناكم﴾ يعني من فرعون ﴿وأغرقنا آل فرعون﴾. وذلك أن فرعون لما وصل إلى البحر فرآه منفلقاً، قال لقومه: انظروا إلى البحر كيف انفلق من هيبتي حتى أدرك عبيدي الذين أبقوا مني ادخلوا البحر فهاب قومه أن يدخلوا، وقيل: قالوا له: إن كنت رباً فادخل البحر كما دخل موسى وكان فرعون على حصان أدهم ولم يكن في خيل فرعون فرس أنثى فجاء جبريل عليه السلام على فرس أنثى وديق فتقدمه، وخاض البحر فلما شم أدهم فرعون ريحها اقتحم البحر في أثرها ولم يملك فرعون من أمره شيئاً، واقتحمت الخيول خلفه في البحر وجاء ميكائيل خلفهم يسوقهم وهو على فرس ويقول: الحقوا بأصحابكم حتى صاروا كلهم في البحر

﴿ وإذْ فرقنا بكم البحر ﴾، قيل: معناه فرقنا لكم، وقيل: فرقنا البحر بدخولكم إياه، وسُمّيَ البحر بحراً لاتّساعه، ومنه قيل للفرس: بحر إذا اتّسع في جريه، وذلك أنه لمّا دَنَا هلاكُ فرعون أمر الله تعالى موسى عليه السلام أن يسير ببني إسرائيل من مصر ليلاً فأمر موسى قومه أن يسرجوا في بيوتهم إلى الصبح، وأخرج الله تعالى كل ولد زنا في القبط من بني إسرائيل إليهم وكل ولد زنا في بني إسرائيل من القبط إلى القبط، حتى رجع كلٌّ إلى أبيه، وألقى الله الموت على القبط فمات كل بكر لهم فاشتغلوا بدفنهم حتى أصبحوا، حتى طلعت الشمس وخرج موسى عليه السلام في ستمائة ألف وعشرين ألف مقاتل لا يَعُدّون ابنَ العشرين لصغره ولا ابن الستين لكبره، وكانوا يوم دخلوا مصر مع يعقوب اثنين وسبعين إنساناً ما بين رجل وامرأة، وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: كان أصحاب موسى ستمائة ألف وسبعين ألفاً، وعن عمرو بن ميمون قال: كانوا ستمائة ألف، فلما أرادوا السير ضُرب عليهم التيه فلم يدروا أين يذهبون، فدعا موسى مشيخة بني إسرائيل وسألهم عن ذلك، فقالوا: إن يوسف عليه السلام لمّا حضره الموت أخذ على إخوته عهداً أن لا يخرجوا من مصر حتى يُخرجوه معهم فلذلك انسدّ علينا الطريق، فسألهم عن موضع قبره فلم يعلموا فقام موسى ينادي أَنْشُدُ اللَّهَ كلَّ مَن يعلم أين موضع قبر يوسف عليه السلام إلاّ أخبرني به، ومَن لم يعلم به فصمت أذناه عن سماع قولي، وكان يمر بين الرجلين ينادي ولا يسمعان صوته، حتى سمعته عجوز لهم فقالت: أرأيتك إن دللتك على قبره أتعطيني كل ما سألتك؟ فأبى عليها وقال حتى أسأل ربّي، فأمره الله تعالى بإيتائها سُؤالَهَا، فقالت: إني عجوز كبيرة لا أستطيع المشي فاحملني وأخرجني من مصر، هذا في الدنيا، وأمّا في الآخرة فأسألك أن لا تنزل غرفة من الجنة إلاّ نزلتها معك، قال: نعم، قالت: إنه في جوف الماء في النيل، فادع الله تعالى حتى يحسر عنه الماء، فدعا الله تعالى فحسر عنه الماء، ودعا أن يؤخّر طلوع الفجر إلى أن يفرغ من أمر يوسف عليه السلام، فحفر موسى عليه السلام ذلك الموضع واستخرجه في صندوق من مَرْمرٍ وحمله حتى دفنه بالشام، فَفُتِحَ لهم الطريق فساروا وموسى عليه السلام على ساقتهم وهرون على مقدمتهم، وندر بهم فرعون فجمع قومه وأمرهم أن لا يخرجوا في طلب بني إسرائيل حتى يصيح الديك، فوالله ما صاح ديك تلك الليلة فخرج فرعون في طلب بني إسرائيل، وعلى مقدمة عسكره هامان في ألف ألف وسبعمائة ألف، وكان فيهم سبعون ألفاً من دُهم الخيل سوى سائر الشيات، وقال محمد بن كعب رضي الله عنه: كان في عسكر فرعون مائة ألف حصان أدهم سوى سائر الشيات، وكان فرعون في الدهم، وقيل: كان فرعون في سبعة آلاف ألف، وكان بين يديه مائة ألف ناشب ومائة ألف أصحاب حراب، ومائة ألف أصحاب الأعمدة فسارت بنو إسرائيل حتى وصلوا إلى البحر أو لماء في غاية الزيادة، ونظروا فإذا هم بفرعون حين أشرقت الشمس، فبقوا متحيّرين فقالوا: يا موسى كيف نصنع وأين ما وعدتنا؟ هذا فرعون خلفنا إن أدركنا قتلنا والبحر أمامنا إن دخلناه غرقنا، قال الله تعالى: ﴿ فلما تراءى الجمعان قال أصحاب موسى إِنّا لَمُدرَكون، قال موسى كلا إن معيَ ربي سيهدين﴾ [الشعراء: ٦١ و٦٢] فأوحى الله إليه ﴿ أنِ اضربْ

وخرج جبريل من البحر وهم أولهم بالخروج فأمر الله البحر أن يأخذهم، فالتطم عليهم وأغرقهم أجمعين وكان بين طرفي البحر أربع فراسخ وهو بحر القلزم وهو على طرف من بحر فارس، وقيل: هو بحر من وراء مصر يقال له: إساف وكان إغراق آل فرعون بمرأى من بني إسرائيل فذلك قوله: ﴿وأنتم تنظرون﴾ يعني إلى هلاكهم وقيل: إلى مصارعهم وقيل: إن البحر قذفهم حتى نظروا إليهم ووافق ذلك يوم عاشوراء فصام موسى عليه السلام ذلك اليوم شكراً لله تعالى. قوله عز وجل:

﴿وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾﴾

﴿وإذ وعدنا﴾ من المواعدة وهو من الله الأمر ومن موسى القبول وذلك أن الله وعده بمجيء الميقات ﴿موسى﴾ اسم عبري معرب فموسى بالعبرية الماء والشجر سمي موسى لأنه أخذ من بين الماء والشجر ثم قلبت الشين سيناً فسمي موسى ﴿أربعين ليلة﴾ أي انقضاء أربعين ليلة ثلاثين من ذي القعدة وعشر من ذي الحجة، وقرن

بعصاك البحر ﴾ [الشعراء: ٦٣]، فضربه فلم يطعه فأوحى إليه أن كَنِّه، فضربه وقال: انفلق يا أبا خالد بإذن الله تعالى، ﴿ فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم ﴾ [الشعراء: ٦٣] وظهر فيه اثنا عشر طريقاً لكل سبط طريق، وارتفع الماء بين كل طريقين كالجبل، وأرسل الله الريح والشمس على قعر البحر حتى صار يبساً فخاضت بنو إسرائيل البحر كل سبط في طريق وعن جانبيهم الماء كالجبل الضخم ولا يرى بعضهم بعضاً، فخافوا وقال كل سبط: قد قُتل إخوانُنا فأوحى الله تعالى إلى جبال الماء أن تشبّكي فصار الماء شبكات كالطبقات يرى بعضهم بعضاً ويسمع بعضهم كلامَ بعض، حتى عبروا البحر سالمين، فذلك قوله تعالى: ﴿ وإذْ فرقنا بكم البحر فأنجيناكم ﴾: من آل فرعون والغرق، ﴿ وأغرقنا آل فرعون ﴾، وذلك أن فرعون لمّا وصل إلى البحر فرآه منفلقاً قال لقومه: انظروا إلى البحر انفلق من هيبتي حتى أدرك عبيدي الذين أبِقُوا منّي، ادخلوا البحر فهاب قومه أن يدخلوه، وقيل: قالوا له: إن كنت ربّاً فادخل البحر كما دخل موسى، وكان فرعون على حصان أدهم، ولم يكن في خيل فرعون أُنثى فجاء جبريل على فرس أُنثى وديق، فتقدمهم وخاض البحر، فلما شمّ أدهم فرعون ريحها اقتحم البحر في أثرها وهم لا يرونه، ولم يملك فرعون من أمره شيئاً وهو لا يرى فرس جبريل، واقتحمت الخيول خلفه في البحر وجاء ميكائيل على فرس خلف القوم يسوقهم حتى لا تشذّ رجل منهم ويقول لهم: الحقوا بأصحابكم حتى خاضوا كلهم البحر وخاض جبريل من البحر وخرج ميكائيل من البحر، وهَمَّ أولهم بالخروج فأمر الله تعالى البحر أن يأخذهم فالتطم وأغرقهم أجمعين، وكان بين طرفي البحر أربعة فراسخ وهو على طرف بحر من بحر فارس، قال قتادة: بحر من وراء مصر يقال: إساف، وذلك بمرأى من بني إسرائيل، فذلك قوله تعالى: ﴿ وأنتم تنظرون ﴾ إلى مصارعهم، وقيل: إلى إهلاكهم.

﴿ وإذ واعدنا ﴾، هو من المفاعلة التي تكون من الواحد كقولهم عافاك الله وعاقبتُ اللص وطارقت النعل، وقال الزجاج: كان من الله الأمر ومن موسى القبول، فلذلك ذكر بلفظ المواعدة، وقرأ أبو عمرو وأهل البصرة « وإذْ وعدنا » من الوعد، ﴿ موسى ﴾: اسم عبري عُرّب وهو بالعبرانية الماء والشجر، سُمّي به لأنه أُخذ من بين

التاريخ بالليل دون النهار لأن الأشهر العربية وضعت على سير القمر وقيل لأن الظلمة أقدم من الضوء.

ذكر القصة في ذلك:

قال العلماء: لما أنجى الله بني إسرائيل من البحر وأغرق عدوهم ولم يكن لهم كتاب ولا شريعة ينتهون إليهما، وعد الله موسى أن ينزل عليه التوراة فقال موسى لقومه: إني ذاهب إلى ميقات ربي لآتيكم منه بكتاب فيه بيان ما تأتون وما تذرون، ووعدهم أربعين ليلة واستخلف عليهم أخاه هارون فلما جاء الموعد أتاه جبريل عليه الصلاة والسلام على فرس يقال له: فرس الحياة لا يصيب شيئاً إلا حيي ليذهب بموسى إلى ميقات ربه فرآه السامري، وكان صائغاً اسمه ميخا وقال ابن عباس: اسمه موسى بن ظفر، وقيل: كان من أهل ماحرا وقيل كرمان وقيل من بني إسرائيل من قبيلة يقال لها السامرة وكان منافقاً يظهر الإسلام وكان من قوم يعبدون البقر فلما رأى جبريل على ذلك الفرس ورأى موضع قدم الفرس يخضر في الحال فقال في نفسه إن لهذا لشأناً وقيل رأى جبريل حين دخل البحر قدام فرعون فقبض قبضة من تراب فرسه وألقى في روعه، أنه إذا ألقي في شيء حيي فلما ذهب موسى إلى الميقات، ومكث على الطور أربعين ليلة وأنزل الله عليه التوراة في الألواح وكانت الألواح من زبرجد، وقربه نجياً وأسمعه صرير الأقلام وقيل: إنه بقي أربعين ليلة لم يحدث فيها حدثاً حتى هبط من الطور، وكان بنو إسرائيل قد استعاروا حلياً كثيراً من القبط حين أرادوا الخروج من مصر بعلة عرس لهم فلما هلك فرعون وقومه بقي ذلك الحلي في أيديهم فلما فصل موسى قال لهم السامري: إن الحلي الذي استعرتموه من القبط غنيمة لا تحل لكم فاحفروا حفيرة وادفنوه فيها حتى يرجع موسى، ويرى فيها رأيه وقيل: إن هارون أمرهم بذلك فلما اجتمعت الحلي أخذها السامري وصاغها عجلاً في ثلاثة أيام، ثم ألقى فيها القبضة التي أخذها من تراب فرس جبريل عليه الصلاة والسلام فصار عجلاً من ذهب مرصعاً بالجواهر وخار خورة وقيل: كان يخور ويمشي، فقال لهم السامري؛ «هذا إلهكم وإله موسى فنسي» أي فتركه ها هنا وخرج يطلبه وكان بنو إسرائيل قد أخلفوا الوعد، فعدوا اليوم مع

الماء والشجر، ثم قلبت الشين المعجمة سيناً في العربية، ﴿ أربعين ليلةً ﴾، أي: انقضاءها ثلاثون من ذي القعدة وعشر من ذي الحجة وقَرَنَ بالليل دون النهار لأن شهور العرب وُضعت على سير القمر، والهلال إنما يهلّ بالليل، وقيل: لأن الظلمة أقدم من الضوء، وخُلِقَ الليل قبل النهار، قال الله تعالى: ﴿ وآية لهم الليل نسلخ منه النهار ﴾ [يٓس: ٣٧]، وذلك أن بني إسرائيل لما أمنوا من عدوهم ودخلوا مصر لم يكن لهم كتاب ولا شريعة ينتهون إليهما فوعد الله موسى أن ينزل عليهم التوراة، فقال موسى لقومه: إني ذاهب لميقات ربكم آتيكم بكتاب فيه بيان ما تأتون وما تذرون، وواعدهم أربعين ليلة، ثلاثين من ذي القعدة وعشر من ذي الحجة، واستخلف عليهم أخاه هارون، فلما أتى الوعد جاء جبريل على فرس، يقال له: فرس الحياة لا يصيب شيئاً إلاّ حُيِي ليذهب بموسى إلى ربه، فلما رآه السامري وكان رجلاً صائغاً من أهل باجرمي واسمه ميخا، وقال سعيد بن جبير: كان من أهل كرمان، وقال ابن عباس: اسمه موسى بن ظفر، وقال قتادة: كان من بني إسرائيل من قبيلة يقال لها سامرة، ورأى موضع قدم الفرس تَخْضَرُّ من ذلك، وكان منافقاً أظهر الإسلام، وكان من قوم يعبدون البقر، فلما رأى جبرائيل على ذلك الفرس، علم أن لهذا شأناً فأخذ قبضة من تربة حافر فَرس جبرائيل عليه السلام، قال عكرمة: ألقي في روعه أنه إذا ألقي في شيء غيره حُيي، وكانت بنو إسرائيل قد استعاروا حليّاً كثيرة من قوم فرعون حين أرادوا الخروج من مصر لعلّة عرس لهم فأهلك الله فرعون وبقيت تلك الحِلي في أيدي بني إسرائيل، فلما فصل موسى قال السامري لبني إسرائيل: إن الحِلي التي استعرتموها من قوم فرعون غنيمة لا تحلّ لكم فاحفروا حفرة وادفنوها فيها حتى يرجع موسى، فيرى فيها رأيه، وقال السدي: إن هارون عليه السلام أمرهم أن يُلقوها في حفيرة، حتى يرجع موسى ففعلوا، فلما اجتمعت

الليلة يومين فلما مضى عشرون يوماً، ولم يرجع موسى وقعوا في الفتنة وقيل: كان موسى وعدهم ثلاثين ليلة ثم زيدت العشرة فكانت فتنتهم في تلك العشرة فلما مضت الثلاثون ولم يرجع موسى، ظنوا أنه قد مات ورأوا العجل وسمعوا قول السامري فعكف عليه ثمانية آلاف رجل يعبدونه، وقيل: عبده كلهم إلا هارون مع اثني عشر ألف رجل وهذا أصح فذلك قوله عز وجل: ﴿**ثم اتخذتم العجل**﴾ يعني إلها ﴿**من بعده**﴾ أي من بعد موسى ﴿**وأنتم ظالمون**﴾ أي وأنتم ضارون لأنفسكم بالمعصية حيث وضعتم العبادة في غير موضعها ﴿**ثم عفونا عنكم**﴾ أي محونا ذنوبكم وتجاوزنا عنكم ﴿**من بعد ذلك**﴾ أي من بعد عبادتكم لعجل ﴿**لعلكم تشكرون**﴾ أي لكي تشكروا عفوي عنكم، وحسن صنيعي إليكم وأصل الشكر هو تصور النعمة وإظهارها ويضاده الكفر وهو نسيان النعمة وسترها والشكر على ثلاث أضرب: شكر القلب وهو تصور النعمة. وشكر اللسان وهو الثناء على النعمة. وشكر بسائر الجوارح وهو مكافأة النعمة بقدر استحقاقها، وقيل الشكر هو الطاعة بجميع الجوارح في السر والعلانية؛ وقيل: حقيقة الشكر العجز عن الشكر. وحكي أن موسى عليه الصلاة والسلام قال: إلهي أنعمت عليّ النعم السوابغ وأمرتني بالشكر وإنما شكري إياك نعمة منك فأوحى الله تعالى إليه يا موسى تعلمت العلم الذي لا فوقه علم حسبي من عبدي أن يعلم أن ما به من نعمة فهي مني. وقال داود عليه الصلاة والسلام: سبحان من جعل اعتراف العبد بالعجز عن شكره شكراً كما جعل اعترافه بالعجز عن معرفته معرفة وقال الفضيل: شكر كل نعمة أن لا يعصى بعدها بتلك النعمة وقيل شكر النعمة ذكرها وقيل: شكر النعمة أن لا يراها البتة ويرى المنعم وقيل الشكر لمن فوقك بالطاعة والثناء ولنظيرك بالمكافأة ولمن دونك بالإحسان والإفضال. قوله عز وجل: ﴿**وإذ آتينا موسى الكتاب**﴾ يعني التوراة ﴿**والفرقان**﴾ قيل: هو نعت الكتاب والواو زائدة. والمعنى الكتاب المفرق بين الحلال والحرام والكفر والإيمان وقيل: الفرقان هو النصر على الأعداء والواو أصلية ﴿**لعلكم تهتدون**﴾ يعني بالتوراة ﴿**وإذ قال موسى لقومه**﴾ يعني الذين عبدوا العجل ﴿**يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل**﴾ يعني إلٰهاً تعبدونه فكأنهم قالوا ما نصنع قال ﴿**فتوبوا إلى بارئكم**﴾ أي ارجعوا إلى خالقكم بالتوبة قالوا كيف نتوب قال

الحِلي صاغها السامري عجلاً في ثلاثة أيام، ثم ألقى فيها القِبضة التي أخذها من تراب أثر فرس جبرائيل عليه السلام، فخرج عجلاً من ذهب مرصعاً بالجواهر كأحسن ما يكون، فخار خورةً، وقال السدي كان يخور ويمشي فقال السامري: هذا إلٰهكم وإلٰه موسى، فنسي، أي: فتركه ههنا وخرج يطلبه، وكانت بنو إسرائيل قد أخلفوا الوعد فعدّوا اليوم مع الليلة يومين، فلما مضى عشرون يوماً ولم يرجع موسى وقعوا في الفتنة، وقيل: كان موسى قد وعدهم ثلاثين ليلة ثم زيدت العشرة فكانت فتنتهم في تلك العشرة، فلما مضت الثلاثون ولم يرجع موسى ظنوا أنه قد مات، ورأوا العجل وسمعوا قول السامري، فعكف ثمانية آلاف رجل منهم على العجل يعبدونه، وقيل كلهم عبدوه إلاّ هارون مع اثني عشر ألف رجل وهذا أصحّ، وقال الحسن: كلهم عبدوه إلاّ هارون وحده، فذلك قوله تعالى: ﴿ **ثم اتخذتم العجل** ﴾، أي: إلٰهاً ﴿ **من بعده** ﴾، أظهر ابن كثير وحَفْص الذالَ من (أخذت، وأتخذت)، والآخرون يُدغمونها، ﴿ **وأنتم ظالمون** ﴾: ضارّون لأنفسكم بالمعصية واضعون العبادة في غير موضعها.

﴿ **ثم عفونا عنكم** ﴾: محونا ذنوبكم، ﴿ **من بعد ذلك** ﴾: من عبادتكم العجل، ﴿ **لعلكم تشكرون** ﴾: لكي تشكروا عفوي عنكم وصنيعي إليكم، قيل: الشكر هو الطاعة بجميع الجوارح في السرِّ والعلانية، قال الحسن: شكر النعمة ذكرها، قال الله تعالى: ﴿ وأمّا بنعمة ربّك فحدّث ﴾ [الضحى: ١١]، قال الفضيل: شكر كل نعمة أن لا يُعصى الله بعد تلك النعمة، وقيل: حقيقة الشكر العجز عن الشكر، حكي أن موسى عليه السلام قال: إلٰهي أنعمت عليّ النِّعمَ السوابغَ وأمرتني بالشكر، وإنّما شكري إياك نعمة منك، قال الله تعالى: يا موسى

﴿فاقتلوا أنفسكم﴾ يعني ليقتل البريء منكم المجرم. فإن قلت التوبة عبارة عن الندم على فعل القبيح والعزم على أن لا يعود إليه وهذا مغاير للقتل. فكيف يجوز تفسير التوبة بالقتل. قلت: ليس المراد تفسير التوبة بالقتل بل بيان أن توبتهم لا تتم إلا بالقتل، وإنما كان كذلك لأن الله أوحى إلى موسى عليه الصلاة والسلام أن توبة المرتد لا تتم إلا بالقتل. فإن قلت: التائب من الردة لا يقتل فكيف استحقوا القتل وقد تابوا من الردة. قلت ذلك مما تختلف فيه الشرائع فلعل شرع موسى كان يقتضي أن يقتل التائب من الردة إما عاماً في حق الكل أو خاصاً في حق الذين عبدوا العجل ﴿ذلكم خير لكم عند بارئكم﴾ يعني القتل وتحمل هذه الشدة لأن الموت لا بد منه فلما أمرهم موسى بالقتل قالوا: نصبر لأمر الله تعالى فجلسوا محتبين من الحبوة وهو ضم الساق إلى البطن بثوب، وقيل لهم من حل حبوته أو مد طرفه إلى قاتله أو اتقاه بيد أو رجل فهو ملعون مردودة توبته، وأصلت القوم الخناجر والسيوف، وأقبلوا عليهم فكان الرجل يرى ابنه وأباه وأخاه وقريبه وصديقه وجاره فيرق له، فما يمكنهم المضي لأمر الله تعالى فقالوا يا موسى كيف نفعل؟ فأرسل الله تعالى عليهم سحابة سوداء لا يبصر بعضهم بعضاً فكانوا يقتلون إلى المساء فلما كثر القتل دعا موسى وهارون الله وبكيا وتضرّعا إليه وقال: يا رب هلكت بنو إسرائيل البقية البقية فكشف الله السحابة عنهم وأمرهم أن يكفوا عن القتل، فتكشف عن ألوف من القتلى قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: كان عدد القتلى سبعين ألفاً فاشتد ذلك على موسى فأوحى الله إليه أما يرضيك أن أدخل القاتل والمقتول الجنة، فكان من قتل منهم شهيداً ومن بقي مكفراً عنه ذنوبه فذلك قوله تعالى: ﴿فتاب عليكم﴾ أي فعلتم ما أمرتم به فتجاوز عنكم ﴿إنه هو التواب﴾ أي الرجاع بالمغفرة القابل التوبة ﴿الرحيم﴾ بخلقه. قوله عز وجل:

تعلّمت العلم الذي لا يفوقه شيء من علم، حسبي من عبدي أن يعلم أن ما به من نعمة فهو منّي، وقال داود: سبحان مَن جعل اعتراف العبد بالعجز عن شكره شكراً، كما جعل اعترافه بالعجز عن معرفته معرفة.

قوله تعالى: ﴿ وإذ آتينا موسى الكتاب ﴾، يعني التوراة، ﴿ والفرقان ﴾، قال مجاهد: هو التوراة أيضاً ذكرها باسمين، وقال الكسائي: الفرقان نعت الكتاب، والواو زائدة، يعني: الكتاب الفرقان، أي: المفرّق بين الحلال والحرام، وقال يمان بن ريان: أراد بالفرقان انفراق البحر كما قال: ﴿ وإذ فرقنا بكم البحر فأنجيناكم ﴾، ﴿ لعلكم تهتدون ﴾: بالتوراة.

﴿ وإذ قال موسى لقومه ﴾: الذين عبدوا العجل، ﴿ يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم ﴾: ضررتم بأنفسكم، ﴿ باتخاذكم العجل ﴾: إلّهاً قالوا: فأي شيء نصنع؟ قال: ﴿ فتوبوا ﴾: فارجعوا ﴿ إلى بارئكم ﴾: خالقكم، قالوا: كيف نتوب؟ قال: ﴿ فاقتلوا أنفسكم ﴾، يعني: ليقتل البريء منكم المجرم، ﴿ ذلكم ﴾، أي: القتل، ﴿ خيرٌ لكم عند بارئكم ﴾، فلما أمرهم موسى بالقتل، قالوا: نصبر لأمر الله فجلسوا بالأفنية مُحتَبِين، وقيل لهم: مَن حلَّ حبوته أو مدَّ طرفه إلى قاتله أو اتقاه بيد أو رجل فهو ملعون مردودة توبته، واصلتَ القوم عليهم الخناجرَ وكان الرجل يرى ابنه وأباه وأخاه وقريبه وصديقه وجاره، فلم يمكنهم المضي لأمر الله تعالى، قالوا: يا موسى كيف نفعل؟ فأرسل الله تعالى عليهم ضبابة وسحابة سوداء لا يبصر بعضهم بعضاً فكانوا يقتلونهم إلى المساء فلما كثر القتل دعا موسى وهرون عليهما السلام وبكيا وتضرّعا وقالا: يا رب هلكتْ بنو إسرائيل، البقيةَ البقيةَ، فكشف الله تعالى السحابة وأمرهم أن يكفّوا عن القتل، فكشف عن ألوف من القتلى، يُروى عن عليّ رضي الله عنه أنه قال: كان عدد القتلى سبعين ألفاً فاشتد ذلك على موسى فأوحى الله تعالى إليه: أما يرضيك أن أدخل القاتل والمقتول الجنة؟ فكان مَن قُتل منهم شهيداً ومَن بقي مكفّر عنه ذنوبه، فذلك قوله تعالى: ﴿ فتاب عليكم ﴾، أي: ففعلتم ما أمرتم به فتاب عليكم فتجاوز عنكم، ﴿ إنه هو التوّاب ﴾: القابل للتوبة، ﴿ الرحيم ﴾ بهم.

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۖ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾﴾

﴿وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك﴾ أي لن نصدقك ﴿حتى نرى الله جهرة﴾ أي عياناً وذلك أن الله عز وجل أمر موسى أن يأتيه في ناس من بني إسرائيل يعتذرون إليه من عبادة العجل، فاختار موسى من قومه سبعين رجلاً من خيارهم وقال لهم: صوموا وتطهروا وطهروا ثيابكم، ففعلوا وخرج بهم موسى إلى طور سيناء لميقات ربه فقالوا لموسى: اطلب لنا أن نسمع كلام ربنا قال: أفعل فلما دنا من الجبل وقع عليه عمود من الغمام وتغشى الجبل كله فدخل موسى في الغمام، وقال للقوم: ادنوا حتى دخلوا تحت الغمام وخروا سجداً وكان موسى إذا كلمه ربه وقع على وجه نور ساطع فلا يستطيع أحد أن ينظر إليه فضرب دونهم الحجاب وسمعوه يكلم موسى يأمره وينهاكم وأسمعهم الله تعالى: (إني أنا الله لا إله إلا أنا ذو بكة أخرجتكم من أرض مصر بيد شديدة فاعبدوني ولا تعبدوا غيري فلما فرغ موسى وانكشف الغمام أقبل إليهم فقالوا لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة) وإنما قالوا: جهرة توكيد للرؤية لئلا يتوهم متوهم أن المراد بالرؤية العلم ﴿فأخذتكم الصاعقة﴾ قيل: هي الموت وفيه ضعف لأن قوله وأنتم تنظرون يرده إذ لو كان المراد منها الموت لامتنع كونهم ناظرين إليها وقيل: إن الصاعقة هي سبب الموت واختلفوا في ذلك السبب فقيل: إن ناراً نزلت من السماء فأحرقتهم. وقيل: جاءت صيحة من السماء وقيل: أرسل جموعاً من الملائكة فسمعوا بحسهم فخروا صعقين ﴿وأنتم تنظرون﴾ أي ينظر بعضكم إلى بعض كيف يأخذه الموت فلما هلكوا جعل موسى يبكي ويتضرع ويقول إلهي ماذا أقول لبني إسرائيل إذا أتيتهم وقد هلك خيارهم «لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي أتهلكنا بما فعل السفهاء منا» فلم يزل يناشد ربه حتى أحياهم الله رجلاً

قوله تعالى: ﴿ وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة ﴾، وذلك أن الله تعالى أمر موسى عليه السلام أن يأتيه في ناس من بني إسرائيل يعتذرون إليه من عبادة العجل، فاختار موسى سبعين رجلاً من قومه من خيّارهم وقال لهم: صُوموا وتطهروا وطهِّروا ثيابكم ففعلوا، فخرج بهم موسى إلى طور سيناء لميقات ربِّه، فقالوا لموسى: اطلب لنا أن نسمع كلام ربنا، فقال: أفعل فلما دنا موسى من الجبل وقع عليه عمود الغمام وتغشى الجبل كله فدخل في الغمام، وقال للقوم: ادْنُوا فدنا القوم حتى دخلوا في الغمام وخرُّوا سجداً، وكان موسى إذا كلّمه ربّه وقع على وجهه نور ساطع لا يستطيع أحد من بني آدم أن ينظر إليه، فضرب دونهم الحجاب وسمعوه وهو يكلم موسى يأمره وينهاه،وأسمعهم الله إني أنا الله لا إلّه إلّا أنا ذو بكة أخرجتكم من أرض مصر بيدٍ شديدة فاعبدوني ولا تعبدوا غيري، فلما فرغ موسى وانكشف الغمام أقبل إليهم فقالوا له: لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرةً معاينة، وذلك أن العرب تجعل العلم بالقلب رؤية، فقال: جهرة ليُعلم أن المراد منه العيان، ﴿ فأخذتكم الصاعقة ﴾، أي: الموت، وقيل: نارٌ جاءت من السماء فأحرقتهم، ﴿ وأنتم تنظرون ﴾، أي: ينظر بعضكم لبعض حين أخذكم الموت، وقيل: تعلمون، والنظر يكون بمعنى العلم، فلما هلكوا جعل موسى يبكي ويتضرّع ويقول: ماذا أقول لبني إسرائيل إذا أتيتهم وقد هلك خيّارهم؟ لو شئْتَ أهلكتَهم من قبلُ وإيّايَ، أتُهلكنا بما فعل السفهاء منّا، فلم يزل يناشد ربه حتى أحياهم الله تعالى رجلاً رجلاً، بعدما ماتوا يوماً وليلة ينظر بعضهم إلى بعض كيف يحيون فذلك قوله تعالى:

﴿ ثم بعثناكم ﴾: أحييناكم، والبعث: إثارة الشيء عن محله، يقال: بعثت البعير وبعثت النائم فانبعث،

بعد رجل، بعد ما ماتوا يوماً وليلة ينظر بعضهم إلى بعض كيف يحيون فذلك قوله تعالى: ﴿**ثم بعثناكم**﴾ أي أحييناكم ﴿**من بعد موتكم**﴾ أي لتستوفوا بقية آجالكم وأرزاقكم ولو أنهم كانوا قد ماتوا لانقضاء آجالهم لم يبعثوا إلى يوم القيامة ﴿**لعلكم تشكرون**﴾ قوله عز وجل: ﴿**وظللنا عليكم الغمام**﴾ يعني في التيه يقيكم حر الشمس، وذلك أنه لم يكن لهم في التيه شيء يسترهم ولا يستظلون به فشكوا إلى موسى فأرسل الله غماماً أبيض رقيقاً يسترهم من الشمس وجعل لهم عموداً من نور يضيء لهم الليل إذا لم يكن قمر ﴿**وأنزلنا عليكم المن والسلوى**﴾ أي في التيه الأكثرون على أن المن هو الترنجبين وقيل: هو شيء كالصمغ يقع على الشجر طعمه كالشهد. وقال وهب: هو الخبز الرقاق، وأصل المن هو ما يمن الله به من غير تعب (ق) عن سعيد بن زيد قال: قال رسول الله ﷺ: «الكماة من المن وماؤها شفاء للعين» ومعنى الحديث أن الكمأة شيء أنبته الله من غير سعي أحد ولا مؤنة وهو بمنزلة المن الذي كان ينزل على بني إسرائيل، وقوله: وماؤها شفاء للعين معناه أن يخلط مع الأدوية فينتفع به لا أنه يقطر ماؤها بحتاً في العين وقيل: إن تقطيره في العين ينفع لكن لوجع مخصوص، وليس يوافق كل وجع العين وكان هذا المن ينزل على أشجارهم في كل ليلة من وقت السحر إلى طلوع الشمس، كالثلج لكل إنسان صاع فقالوا: يا موسى قد قتلنا هذا المن بحلاوته، فادع لنا ربك أن يطعمنا اللحم فأرسل الله عليهم السلوى، وهو طائر يشبه السماني وقيل هو السماني بعينه فكان الرجل يأخذ ما يكفيه يوماً وليلة، فإذا كان يوم الجمعة يأخذ ما يكفيه ليومين لأنه لم يكن ينزل يوم السبت شيء ﴿**كلوا**﴾ أي وقلنا لهم كلوا ﴿**من طيبات**﴾ أي حلالات ﴿**ما رزقناكم**﴾ أي ولا تدخروا لغد فخالفوا وادخروا فدود وفسد، فقطع الله عنهم ذلك (ق) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لولا بنو إسرائيل لم يخبث الطعام ولم يخنز اللحم ولولا حواء لم تخن أنثى زوجها

﴿ **من بعد موتكم** ﴾، قال قتادة: أحياهم ليستوفوا بقية آجالهم وأرزاقهم، ولو ماتوا بآجالهم لم يُبعثوا إلى يوم القيامة، ﴿ **لعلكم تشكرون** ﴾.

﴿ **وظللنا عليكم الغمام** ﴾، في التيه تقيكم حرَّ الشمس والغمامُ من الغمّ، وأصله: التغطية والستر، سُمّي السحاب غماماً لأنه يُغطي وجه الشمس، وذلك أنه لم يكن لهم في التيه سكن يسترهم فشكوا إلى موسى فأرسل الله تعالى غماماً أبيضَ رقيقاً أطيب من غمام المطر، وجعل لهم عموداً من نور يُضيء لهم الليل إذ لم يكن لهم قمر، ﴿ **وأنزلنا عليكم المنّ والسلوى** ﴾ أي: في التيه، والأكثرون: عن أن المنّ هو الترنجبين، وقال مجاهد: هو شيء كالصمغ كان يقع على الأشجار طعمه كالشهد، وقال وهب: هو الخبز الرقاق، قال الزجّاج: جملة المنّ مَن يمنّ الله به من غير تعب، وقال مجاهد: هو شيء كالصمغ كان يقع على الأشجار طعمه كالشهد، وقال وهب: هو الخبز الرقاق، قال الزجّاج: جملة المنّ مَن يمنّ الله به من غير تعب، أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل، أنا أبو نعيم أنا سفيان، عن عبد الملك هو ابن عمير، عن عمرو بن حُريث عن سعيد بن زيد قال: قال النبيّ ﷺ: «الكمأة من المنّ وماؤها شفاء للعي»، قالوا: فكان هذا المنّ كل ليلة يقع على أشجارهم مثل الثلج لكل إنسان منهم صاع، فقالوا يا موسى قتلنا هذا المنّ بحلاوته، فادع لنا ربك أن يطعمنا اللحم، فأنزل الله تعالى عليهم السلوى وهو طائر يشبه السماني، وقيل: هو السماني بعينه، بعثه الله سحابةً فمطرت السماني في عرض ميل وطول رمح في السماء بعضه على بعض، وقال المؤرّج: السلوى والعسل، فكان الله ينزل عليهم المنّ والسلوى كل صباح من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس، فيأخذ كل واحد منهم ما يكفيه يوماً وليلة، وإذا كان يوم الجمعة أخذ كل واحد منهم ما يكفيه ليومين، لأنه لم يكن ينزل يوم السبت. ﴿ **كلوا** ﴾: أي: وقلنا لهم كلوا: ﴿ **من طيبات** ﴾: حلالات، ﴿ **ما رزقناكم** ﴾، ولا تدّخروا لغَـدٍ، ففعلوا فقطع الله ذلك عنهم،

الدهر» قوله: لم يخنز اللحم لم ينتن ولم يتغير ﴿وما ظلمونا﴾ أي وما بخسوا حقنا ﴿ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾ يعني بأخذهم أكثر مما حولهم فاستحقوا بذلك عذابي وقطع مادة الرزق الذي كان ينزل عليهم بلا مؤنة ولا تعب في الدنيا ولا حساب في العقبى. قوله عز وجل:

﴿وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ (٥٨) فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ (٥٩) ۞ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٦٠)﴾

﴿وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية﴾ سميت قرية لاجتماع الناس فيها قال ابن عباس: هي أريحاء قرية الجبارين وقيل: كان فيها قوم من بقية عاد يقال لهم: العمالقة ورأسهم عوج بن عنق، فعلى هذا يكون القائل يوشع بن نون لأنه هو الذي فتح أريحاء بعد موت موسى لأن موسى مات في التيه، وقيل: هي بيت المقدس وعلى هذا فيكون القائل موسى. والمعنى إذا خرجتم من التيه بعد مضي الأربعين سنة، ادخلوا بيت المقدس ﴿فكلوا منها حيث شئتم رغداً﴾ أي موسعاً عليكم ﴿وادخلوا الباب﴾ فمن قال: إن القرية أريحاء قال ادخلوا من أي باب كان من أبوابها وكان لها سبعة أبواب ومن قال إن القرية هي بيت المقدس قال هو باب حطة ﴿سجداً﴾ منحنين خضعاً متواضعين كالراكع ولم يرد به نفس السجود ﴿وقولوا حطة﴾ أي حط عنا خطايانا أمروا بالاستغفار. وقال ابن عباس قولوا لا

ودوَّد وفسد ما ادّخروا، فقال الله تعالى: ﴿ وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾، أي: وما بخسوا بحقنا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون باستيجابهم عذابي، وقطع مادة الرزق الذي كان ينزل عليهم بلا مؤنة في الدنيا ولا حساب في العقبى، أخبرنا حسان بن سعيد المنيعي أنا أبو طاهر محمد بن محمد بن محمش الزيادي، أنا أبو بكر محمد بن الحسين القطان أنا أحمد بن يوسف السلمي، أنا عبد الرزّاق أنا معمر عن همّام بن مُنبّه أنا أبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لولا بنو إسرائيل لم يخبث الطعام ولم يخنز اللحم، ولولا حوّاء لم تخن أُنثى زوجها الدهر».

قوله تعالى: ﴿ وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية ﴾، سمّيت القرية قرية لأنها تجمع أهلها، ومنه المقراة للحوض لأنها تجمع الماء، قال ابن عباس رضي الله عنهما: هي أريحاء وهي قرية الجبارين كان فيها قوم من بقية عاد يقال لهم: العمالقة، ورأسهم عوج بن عنق، وقيل: بلقاء، وقال مجاهد: بيت المقدس، وقال الضحاك: هي الرملة والأردن وفلسطين وتدمر، وقال مقاتل: إيليا، وقال ابن كيسان: الشام، ﴿ فكُلُوا منها حيث شئتم رَغَداً ﴾: موسعاً عليكم، ﴿ وادخلوا الباب ﴾، يعني: باباً من أبواب القرية، وكان لها سبعة أبواب﴿ سُجّداً ﴾، أي: رُكّعاً خضعاً منحنين، وقال وهب: فإذا دخلتموه فاسجدوا شكراً لله تعالى، ﴿ وقولوا حطة ﴾، قال قتادة: حطّ عنّا خطايانا، أمروا بالاستغفار، وقال ابن عباس: لا إله إلاّ الله، لأنها تحطّ الذنوب، ورفعها على تقدير: قولوا مسألتنا حطة، ﴿ نغفر لكم خطاياكم ﴾: من الغفر وهو الستر، فالمغفرة: تستر الذنوب، وقرأ نافع بالياء وضمّها وفتح الفاء، وقرأها ابن عامر بالتاء وضمّها وفتح الفاء، وفي الأعراف[١٦١] قرأ جميعاً ويعقوب بالتاء وضمّها، وقرأ الآخرون فيهما: بنصب النون وكسر الفاء، ﴿ وسنزيد المحسنين ﴾: ثواباً من فضلنا. ﴿ فبدّل ﴾: فغيّر ﴿ الذين ظلموا ﴾: أنفسهم، وقالوا: ﴿ قولاً غير الذي قيل لهم ﴾، وذلك أنهم بدّلوا قول الحطة بالحنطة فقالوا بلسانهم: حطاناً سمقاثاً، أي:

إله إلا الله لأنها تحط الذنوب والخطايا على تقدير مسألتنا حطة ﴿**نغفر لكم خطاياكم**﴾ أي نسترها عليكم من الغفر وهو الستر لأن المغفرة تستر الذنوب ﴿**وسنزيد المحسنين**﴾ يعني ثواباً ﴿**فبدل**﴾ أي فغير ﴿**الذين ظلموا قولاً غير الذي قيل لهم**﴾ أي قالوا قولاً غير ما قيل لهم، وذلك أنهم بدلوا قول الحطة بالحنطة، وقالوا بلسانهم حطاناً سمقاثاً أي حنطة حمراء، وذلك استخفافاً منهم بأمر الله تعالى. وقيل: طؤطيء لهم للباب ليخفضوا رؤوسهم فأبوا ذلك ودخلوا زحفاً على أستاههم فخالفوا في الفعل كما خالفوا في القول، وبدلوه (ق) عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «قيل لبني إسرائيل ادخلوا الباب سجداً وقولوا حطة فبدلوا فدخلوا يزحفون على أستاههم وقالوا حبة في شعرة» ﴿**فأنزلنا على الذين ظلموا رجزاً من السماء**﴾ يعني عذاباً من السماء، قيل: أرسل الله عليهم طاعوناً فهلك منهم في ساعة واحدة سبعون ألفاً ﴿**بما كانوا يفسقون**﴾ أي يعصون ويخرجون عن أمر الله تعالى. قوله عز وجل: ﴿**وإذ استسقى موسى لقومه**﴾ أي طلب السقيا لقومه، وذلك أنهم عطشوا في التيه فسألوا موسى أن يستسقي لهم ففعل فأوحى الله إليه كما قال مبيناً ﴿**فقلنا اضرب بعصاك**﴾ وكانت العصا من آس الجنة طولها عشرة أذرع على طول موسى عليه الصلاة والسلام ولها شعبتان تتقدان في الظلمة نوراً واسمها عليق، وقيل: نبعة حملها آدم معه من الجنة فتوارثها الأنبياء حتى وصلت إلى شعيب فأعطاها موسى ﴿**الحجر**﴾ قال وهب: لم يكن حجراً معيناً بل كان موسى يضرب أي حجر كان فيتفجر عيوناً لكل سبط عين، وكانوا اثني عشر سبطاً، وقيل: كان حجراً معيناً بدليل أنه عرفه بالألف واللام قال ابن عباس: كان حجراً خفيفاً مربعاً قدر رأس الرجل وكان موسى عليه الصلاة والسلام يضعه في مخلاة، فإذا احتاجوا إلى الماء وضعه وضربه بعصاه وقيل: كان للحجر أربعة وجوه في كل وجه ثلاثة أعين لكل سبط عين وقيل كان من الرخام وقيل، كان من الكذان وهي الحجارة الليّنة وقيل: هو الحجر الذي وضع

حنطة حمراء استخفافاً بأمر الله تعالى، وقال مجاهد: طوطيء لهم الباب ليخفضوا رؤوسهم فأبوا أن يدخلوها سُجّداً فدخلوا يزحفون على أستاههم مخالفة في الفعل، كما بدّلوا القول وقالوا قولاً غير الذي قيل لهم، أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا إسحق بن نصر، أنا عبد الرزّاق عن معمر عن همّام بن منبّه أنه سمع أبا هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ: «قيل لبني إسرائيل: ادخلوا الباب سجداً وقولوا حطة، فبدّلوا فدخلوا يزحفون على أستاهم وقالوا حبّة في شعرة»، ﴿ فأنزلنا على الذين ظلموا رجزاً من السماء ﴾، قيل: أرسل الله عليهم طاعوناً فهلك منهم في ساعة واحدة سبعون ألفاً، ﴿ بما كانوا يفسقون ﴾: يعصون ويخرجون من أمر الله تعالى.

﴿ وإذ استسقى موسى ﴾: طلب السقيا ﴿ لقومه ﴾، وذلك أنهم عطشوا في التيه فسألوا موسى أن يستسقي لهم ففعل، فأوحى إليه كما قال: ﴿ فقلنا اضربْ بعصاك ﴾ وكانت من آس الجنة طولها عشرة أذرع على طول موسى عليه السلام ولها شعبتان تتّقدان في الظلمة نوراً، واسمها عليق، حملها آدم من الجنة فتوارثها الأنبياء حتى وصلت إلى شعيب عليه السلام، فأعطاها موسى عليه السلام، قال مقاتل: اسم العصا بنعته، قوله تعالى: ﴿ الحجر ﴾، اختلفوا فيه قال وهب: لم يكن حجراً معيناً بل كان موسى يضرب أي حجر كان من عرض الحجارة فينفجر عيوناً، لكل سبط عين، وكانوا اثني عشر سبطاً ثم تسيل كل عين في جدول إلى السبط الذي أُمر أن يسقيهم، وقال الآخرون: كان حجراً معيناً بدليل أنه عرّفه بالألف واللام، وقال ابن عباس: كان حجراً خفيفاً مربعاً على قدر رأس الرجل، كان يضعه في مخلاته فإذا احتاجوا إلى الماء وضعه وضربه بعصاه، وقال عطاء: كان للحجر أربعة وجوه لكل وجه ثلاثة أعين، لكل سبط عين، وقيل: كان الحجر خاماً، وقيل: كان من الكذّان، فيه اثنتا عشرة حفرة ينبع من كل حفرة عين ماء عذب، فإذا فرغوا وأراد موسى حمله ضربه بعصاه فيذهب الماء، وكان يسقي كل

عليه موسى ثوبه ليغتسل، ففر به فأتاه جبريل وقال إن الله يأمرك أن ترفع هذا الحجر فلي فيه قدرة ولك فيه معجزة فوضعه في مخلاة فلما سألوه السقيا قيل اضرب بعصاك الحجر فكان إذا احتاجوا إلى الماء، وضعه وضربه بعصاه فتتفجر منه عيون لكل سبط عين تسيل إليهم في جدول، وكان إذا أراد حمله ضربه بعصاه فيذهب الماء وييبس الحجر فذلك قوله تعالى: ﴿**فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً**﴾ يعني على عدد أسباط بني إسرائيل، والمعنى فضربه فانفجرت قال المفسرون: انفجرت وانبجست: بمعنى واحد وقيل انبجست أي عرقت وانفجرت أي سالت ﴿**قد علم كل أناس مشربهم**﴾ أي موضع شربهم لا يدخل سبط على غيره ﴿**كلوا واشربوا**﴾ أي وقلنا لهم كلوا واشربوا ﴿**من رزق الله**﴾ يعني المن والسلوى والماء فهذا كله من رزق الله كان يأتيهم بلا مشقة ولا كلفة ﴿**ولا تعثوا في الأرض مفسدين**﴾ العيث أشد الفساد في هذه الآية معجزة عظيمة لموسى عليه الصلاة والسلام، حيث انفجر من الحجر الصغير ما روى منه الجمع الكثير ومعجزة نبينا محمد ﷺ أعظم لأنه انفجر الماء من بين أصبعيه فروى منه الجم الغفير، لأن انفجار الماء من الدم واللحم أعظم من انفجاره من الحجر. قوله عز وجل:

وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾

﴿**وإذ قلتم يا موسى لن نصبر على طعام واحد**﴾ وذلك أنهم سئموا من المن والسلوى وملوه، فاشتهوا عليه غيره لأن المواظبة على الطعام الواحد تكون سبباً لنقصان الشهوة. فإن قلت: هما طعامان فما بالهم قالوا على طعام واحد. قلت: أرادوا بالواحد ما لا يختلف ولا يتبدل ولو كان على مائدة الرجل عدة ألوان يداوم عليها في كل يوم لا يبدلها كانت بمنزلة الطعام الواحد ﴿**فادع لنا ربك**﴾ أي فاسأل لنا ربك ﴿**يخرج لنا مما تنبت الأرض** من

يوم ستمائة ألف وقال سعيد بن جبير: هو الحجر الذي وضع موسى ثوبه عليه ليغتسل ففرّ بثوبه ومرّ به على ملأ من بني إسرائيل حين رموه بالإدرة، فلما وقف أتاه جبرائيل فقال: إن الله تعالى يقول ارفع هذا الحجر فلي فيه قدرة ولك فيه معجزة فرفعه ووضعه في مخلاته، قال عطاء: كان يضربه موسى اثنتي عشرة ضربة فيظهر على موضع كل ضربة مثل ثدي المرأة فيعرق تفجر الأنهار ثم يسيل، وأكثر أهل التفسير يقولون: انبجست وانفجرت واحد، وقال أبو عمرو بن العلاء: انبجست عرقت وانفجرت، أي: سالت، فذلك قوله تعالى: ﴿**فانفجرت**﴾، أي: فضرب فانفجرت أي سالت، ﴿ **منه اثنتا عشرة عيناً** ﴾: على عدد الأسباط، ﴿ **قد علم كل أُناس مشربهم** ﴾: موضع شربهم، لا يدخل سبط على غيره في شُربه، ﴿ **كلوا واشربوا منْ رزق الله** ﴾، أي: وقلنا لهم: كلوامن المنّ والسلوى واشربوا من الماء فهذا كله من رزق الله يأتيكم بلا مشقّة، ﴿ **ولا تعثَوا في الأرض مفسدين** ﴾، والعثي: أشد الفساد، يقال: عثى يعثى عثياً، وعثا يعثوا عثواً، وعاث يعيث عيثاً.

قوله تعالى: ﴿ **وإذ قلتم يا موسى لن نصبر على طعام واحد** ﴾، وذلك أنهم أجمعوا وسئموا من أكل المنّ والسلوى، وإنما قال: على طعام واحد وهما اثنان، لأن العرب تعبّر عن الاثنين بلفظ الواحد كما تعبّر عن الواحد بلفظ الاثنين، كقوله تعالى: ﴿ **يُخرج منهما اللؤلؤ والمرجان** ﴾ [الرحمٰن: ٢٢]، وإنما يخرج من المالح دون العذب، وقيل: كانوا يأكلون أحدهما بالآخر فكانا كطعام واحد، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: كانوا

بقلها وقثائها وفومها﴾ قال ابن عباس: الفوم الخبز وقيل هو الحنطة، وقيل هو الثوم ﴿وعدسها وبصلها﴾ إنما طلبوا هذه الأنواع لأنها تعين على تقوية الشهوة أو لأنهم ملوا من البقاء في التيه، فسألوا هذه الأطعمة التي لا توجد إلا في البلاد وكان غرضهم الوصول إلى البلاد لا تلك الأطعمة ﴿قال﴾ يعني موسى ﴿أتستبدلون الذي هو أدنى﴾ أي الذي هو أخس وأردأ وهو الذي طلبوه ﴿بالذي هو خير﴾ يعني بالذي هو أشرف وأفضل وهو ما هم فيه ﴿اهبطوا مصراً﴾ يعني إن أبيتم إلا ذلك، فأتوا مصراً من الأمصار، وقيل: بل هو مصر البلد الذي كانوا فيه ودخول التنوين عليه كدخوله على نوح ولوط، والقول هو الأول ﴿فإن لكم ما سألتم﴾ يعني من نبات الأرض ﴿وضربت عليهم الذلة﴾ أي جعلت الذلة محيطة بهم مشتملة عليهم وألزموا الذل والهوان وقيل: الذلة الجزية وزي اليهودية وفيه بعد لأنه لم تكن ضربت عليهم الجزية بعد ﴿والمسكنة﴾ أي الفقر والفاقة وسمي الفقير مسكيناً لأن الفقر أسكنه وأقعده عن الحركة، فترى اليهود وإن كانوا أغنياء مياسير كأنهم فقراء فلا ترى أحداً من أهل الملل أذل ولا أحرص على المال من اليهود ﴿وباؤوا﴾ أي رجعوا ولا يقال باء إلا بشر ﴿بغضب من الله﴾ وغضب الله إرادة الانتقام ممن عصاه ﴿ذلك﴾ أي الغضب ﴿بأنهم كانو يكفرون بآيات الله﴾ أي بصفة محمد ﷺ وآية الرجم التي في التوراة ويكفرون بالإنجيل والقرآن ﴿ويقتلون النبيين﴾ النبي معناه المخبر من أنبأ ينبيء وقيل هو بمعنى الرفيع مأخوذ من النبوة وهو المكان المرتفع ﴿بغير الحق﴾ أي بغير جرم. فإن قلت: قتل الأنبياء لا يكون إلا بغير حق فما فائدة ذكره. قلت: ذكره وصفاً للقتل والقتل يوصف تارة بالحق وهو ما أمر الله به وتارة بغير الحق وهو قتل العدوان فهو كقوله: ﴿قل رب احكم بالحق﴾ فالحق وصف للحكم، لا أن حكمه ينقسم إلى حق وجور. يروى أن اليهود قتلت سبعين نبياً في أول النهار، وقامت إلى سوق بقلها في آخره وقتلوا زكريا ويحيى وشعياء وغيرهم من

يعجنون المنّ بالسلوى فيصيران واحداً، ﴿ فادع لنا ﴾: فسل لأجلنا: ﴿ ربَّك يُخرجْ لنا ممّا تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها ﴾، قال ابن عباس: الفوم الخبز، وقال عطاء: الحنطة، وقال القتيبي رحمه الله تعالى: الحبوب التي تُؤكل كلها، وقال الكلبي: الثوم، ﴿ وعدسها وبصلها ﴾، ﴿ قال ﴾، لهم موسى عليه السلام: ﴿ أتستبدلون الذي هو أدنى ﴾: أخسّ وأردأ ﴿ بالذي هو خير ﴾: أشرف وأفضل؟ وجعل الحنطة أدنى في القيمة وإن كانت هي خيراً من المنّ والسلوى، أو أراد أنها أسهل وجوداً على العادة، ويجوز أن يكون الخير راجعاً إلى اختيار الله لهم واختيارهم لأنفسهم، ﴿ اهبطوا مصراً ﴾، يعني: فإن أبيتم إلّا ذلك فانزلوا مصراً من الأمصار، وقال الضحاك: هو مصر موسى وفرعون، والأول أصح لأنه لو أراده لم يصرفه، ﴿ فإنّ لكمْ ما سألتم ﴾: من نبات الأرض، ﴿ وضُربتْ عليهم ﴾: جُعلت عليهم، وألزموا: ﴿ الذلّة ﴾: الذل والهوان، قيل: بالجزية، وقال عطاء بن السائب: هو الكستيج والزنـاروزي اليهودية، ﴿ والمسكنة ﴾: الفقر، سُمي الفقير مسكيناً لأن الفقر أسكنه وأقعده عن الحركة، فترى اليهود وإن كانوا مياسير كأنهم فقراء، وقيل: الذلّة هي فقر القلب فلا ترى في أهل الملل أذلّ وأحرص على المال من اليهود، ﴿ وبـاؤا بغضب من الله ﴾: رجعوا، ولا يقال: باءَ إلّا بالشر، وقال أبو عبيدة: احتملوا وأقرّوا به، ومنه الدعاء أبوءُ لك بنعمتك عليّ وأبوءُ بذنبي، أي: أقرّ، ﴿ ذلك ﴾، أي: الغضب، ﴿ بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ﴾: بصفة محمد ﷺ وآية الرجم في التوراة، ويكفر بالإنجيل والقرآن، ﴿ ويقتلون النبيّين ﴾، تفرّد نافع بهمز النبي وبابه، فيكون معناه: المخبر، من أنبأ يُنبىء، والقراءة المعروفة تَرْكُ الهمزة، وله وجهان: أحدهما هو أيضاً من الأنباء تُركت الهمزةُ فيه تخفيفاً لكثرة الاستعمال، والثاني: هو بمعنى الرفيع مأخوذ من النبوّة، وهي المكان المرتفع، فعلى هذا يكون (النبيّين) على الأصل، ﴿ بغير الحق ﴾، أي: بِلاَ جرم، فإن قيل: فلِمَ قال بغير الحق، وقتلُ النبيين لا يكون إلّا بغير الحق؟ قيل: ذكره وصفاً للقتل، والقتل تارة يُوصف بالحق، وتارة يوصف بغير الحق،

الأنبياء ﴿ذلك بما عصوا﴾ أي ذلك القتل والكفر بما عصوا أمري ﴿وكانوا يعتدون﴾ أي يتجاوزون أمري ويرتكبون محارمي قوله عز وجل: .

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾

﴿إن الذين آمنوا والذين هادوا﴾ يعني اليهود سموا بذلك لقولهم: «إنا هدنا إليك» أي ملنا إليك وقيل: هادوا أي تابوا عن عبادة العجل وقيل إنهم مالوا عن دين الإسلام ودين موسى عليه السلام ﴿والنصارى﴾ سموا بذلك لقول الحواريين نحن «أنصار الله» وقيل: لاعتزائهم إلى قرية يقال لها ناصرة وكان المسيح ينزلها ﴿والصابئين﴾ أصله من صبأ إذا خرج من دين إلى دين آخر سموا بذلك لخروجهم من الدين قال عمر وابن عباس: هم قوم من أهل الكتاب قال عمر ذبائحهم ذبائح أهل الكتاب وقال ابن عباس: لا تحل ذبائحهم ولا مناكحتهم وقيل: هم قوم بين اليهود والمجوس لا تحل ذبائحهم ولا مناكحتهم وقيل: هم بين اليهود والنصارى يحلقون أوساط رؤوسهم وقيل: هم قوم يقرون بالله ويقرؤون الزبور ويعبدون الملائكة ويصلون إلى الكعبة أخذوا من كل دين شيئاً، والأقرب أنهم قوم يعبدون الكواكب وذلك أنهم يعتقدون أن الله تعالى خلق هذا العالم وجعل الكواكب مدبرة له فيجب على البشر عبادتها وتعظيمها، وأنها هي التي تقرب إلى الله تعالى. ولما ذكر هذه الوظائف قال ﴿من آمن بالله واليوم الآخر﴾ فإن قلت: كيف قال في أول الآية إن الذين آمنوا وقال في آخرها من آمن بالله فما فائدة التعميم أولاً ثم التخصيص آخراً قلت: اختلف العلماء في حكم الآية فلهم فيه طريقان أحدهما أنه أراد أن الذين آمنوا على التحقيق ثم اختلفوا فيهم فقيل هم الذين آمنوا في زمن الفطرة وهم طلاب الدين مثل حبيب النجار وقس بن ساعدة وورقة بن نوفل وبحيرا الراهب وأبي ذر الغفاري وسلمان الفارسي، فمنهم من أدرك النبي ﷺ وتابعه ومنهم من لم

وهو مثل قوله تعالى: ﴿ قل ربِّ احكم بالحق ﴾ [الأنبياء: ١١٢]، ذكرُ الحق وصفٌ للحكم لا أنّ حكمه ينقسم إلى الجور والحق، ويُروى أن اليهود قتلت سبعين نبياً في أول النهار، وقامت إلى سوق بقلها في آخر النهار، ﴿ **ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون** ﴾: يتجاوزون أمري ويرتكبون محارمي.

﴿ **إنّ الذين آمنوا والذين هادوا** ﴾، يعني: اليهود سُمّوا به لقولهم إنّا هُدنا إليك، أي: ملنا إليك، وقيل: لأنهم هادوا، أي: تابوا عن عبادة العجل، وقيل: لأنهم مالوا عن دين الإسلام وعن دين موسى عليه السلام، وقال أبو عمرو بن العلاء: لأنهم يتهوّدون، أي يتحركون عند قراءة التوراة، ويقولون: إن السموات والأرض تحركت حين أتى الله موسى التوراة، ﴿ **والنصارى** ﴾، سُمّوا به لقول الحواريين: نحن أنصار الله، وقال مقاتل: لأنهم نزلوا قرية يقال لها ناصرة وقيل لاعتزائهم إلى نصرة وهي قرية كان ينزلها عيسى عليه السلام ﴿ **والصابئين** ﴾ قرأ أهل المدينة والصابين والصابون بترك الهمزة، والباقون بالهمزة، وأصله الخروج، يقال: صبأ فلان أي خرج من دين إلى دين آخر، وصبأت النجوم إذا خرجت من مطالعها، وصبأ ناب البعير إذا خرج، فهؤلاء سُمّوا به لخروجهم من دين إلى دين، قال عمر بن الخطاب وابن عباس: هم قوم من أهل الكتاب، قال عمر: تحلّ ذبائحهم مثل ذبائح أهل الكتاب، وقال ابن عباس: لا تحلّ ذبائحهم ولا مناكحتهم، قال مجاهد: هم قبيلة نحو الشام بين اليهود والمجوس، وقال الكلبي: هم قوم اليهود والنصارى يحلقون أوساط رؤوسهم ويجبون مذاكيرهم، وقال قتادة: هم

يدركه فكأنه تعالى قال: إن الذين آمنوا قبل مبعث النبي ﷺ والذين كانوا على الدين الباطل المبدل من اليهود والنصارى والصابئين من آمن منهم بالله واليوم الآخر وبمحمد ﷺ فلهم أجرهم عند ربهم، وقيل: هم المؤمنون من الأمم الماضية وقيل: هم المؤمنون من هذه الأمة والذين هادوا يعني الذين كانوا على دين موسى ولم يبدلوا والنصارى الذين كانوا على دين عيسى ولم يغيروا والصابئين يعني في زمن استقامة أمرهم من آمن منهم ومات وهو مؤمن لأن حقيقة الإيمان تكون بالوفاة. وأما الطريقة الثانية فقالوا؛ إن المذكورين بالإيمان في أول الآية إنما هو على طريق المجاز دون الحقيقة وهم الذين آمنوا بالأنبياء الماضين ولم يؤمنوا بك وقيل: هم المنافقون الذين آمنوا بألسنتهم ولم يؤمنوا بقلوبهم واليهود والنصارى والصابئون، فكأنه تعالى قال هؤلاء المطلوبون كل من آمن منهم الإيمان الحقيقي صار مؤمناً عند الله، وقيل: إن المراد من قوله إن الذين آمنوا يعني بمحمد ﷺ في الحقيقة حين الماضي، ثبتوا على ذلك في المستقبل وهو المراد من قوله تعالى: ﴿**من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً**﴾ أي في إيمانه ﴿**فلهم أجرهم عند ربهم**﴾ أي جزاء أعمالهم ﴿**ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون**﴾ أي في الآخرة. قوله عز وجل: ﴿**وإذ أخذنا ميثاقكم**﴾ أي عهدكم يا معشر اليهود ﴿**ورفعنا فوقكم الطور**﴾ يعني الجبل العظيم قال ابن عباس: أمر الله جبلاً من جبال فلسطين فانقلع من أصله حتى قام على رؤوسهم وسبب ذلك أن الله تعالى لما أنزل

قوم يُقرّون بالله ويقرؤن الزبور ويعبدون الملائكة ويصلّون إلى الكعبة أخذوا من كل دين شيئاً، قال عبد العزيز بن يحيىٰ: انقرضوا. ﴿ مَن آمن بالله واليوم الآخر ﴾، فإن قيل: كيف يستقيم قوله مَن آمن بالله وقد ذكر في ابتداء الآية إن الذين آمنوا؟ قيل: اختلفوا في حكم الآية فقال بعضهم: أراد بقوله إن الذين آمنوا على التحقيق ثم اختلفوا في هؤلاء المؤمنين، فقال قوم: هم الذين آمنوا بمحمد ﷺ قبل المبعث وهم طلّاب الدين، مثل حبيب النجّار وقس بن ساعدة وزيد بن عمرو بن نفيل وورقة بن نوفل والبراء الشني وأبي ذر الغفاري وسلمان الفارسي وبحيراً الراهب ووفد النجاشي، فمنهم مَن أدرك النبي ﷺ وتابعه، ومنهم مَن لم يدركه، وقيل: هم المؤمنون من الأمم الماضية، وقيل: هم المؤمنون من هذه الأمة، والذين هادوا الذين كانوا على دين موسى عليه السلام ولم يبدّلوا، والنصارى الذين كانوا على دين عيسى عليه السلام ولم يغيّروا وماتوا على ذلك، قالوا وهذان الاسمان لزماهم زمن موسى وعيسى عليهما السلام حيث كانوا على الحق كالإسلام لأمة محمد ﷺ، والصابئون زمن استقامة أمرهم، مَن آمن أي: مَن مات منهم وهو مؤمن لأن حقيقة الإيمان بالموافاة، ويجوز أن يكون الواو مضمراً، أي: ومَن آمن بعدك يا محمد إلى يوم القيامة، وقال بعضهم: إن المذكورين بالإيمان في أول الآية على طريق المجاز دون الحقيقة، ثم اختلفوا فيهم فقال: بعضهم الذين آمنوا بالأنبياء الماضين ولم يؤمنوا بك، وقيل: أراد بهم المنافقين الذين آمنوا بألسنتهم ولم يؤمنوا بقلوبهم، واليهود والنصارى الذين اعتقدوا اليهودية والنصرانية بعد التبديل، والصابئون بعض أصناف الكفّار، مَن آمن بالله واليوم الآخر من هذه الأصناف بالقلب واللسان، ﴿ **وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم** ﴾، وإنما ذكر بلفظ الجمع لأن ﴿ مَن ﴾ يصلح للواحد والاثنين والجمع والمذكّر والمؤنث، ﴿ **ولا خوف عليهم** ﴾: في الدنيا ﴿ **ولا هم يحزنون** ﴾: في الآخرة.

قوله تعالى: ﴿ **وإذْ أخذنا ميثاقكم** ﴾: عهدكم يا معشر اليهود، ﴿ **ورفعنا فوقكم الطور** ﴾، وهو الجبل بالسريانية في قول بعضهم، وهو قول مجاهد، وقيل: ما من لغة في الدنيا إلّا في القرآن، وقال الأكثرون: ليس في القرآن لغة غير لغة العرب، لقوله تعالى: ﴿ قرآناً عربياً ﴾ [يوسف: ٢، طه: ١١٣، الزمر: ٢٨، فصّلت: ٣، الشورى: ٧، الزخرف: ٣]، وإنما هذا وأشباهه وِفَاق وقع بين اللغتين، وقال ابن عباس: أمر الله تعالى جبلاً من جبال فلسطين فانقلع من أصله حتى قام على رؤوسهم، وذلك أن الله تعالى أنزل التوراة على موسى عليه السلام،

التوراة على موسى، وأمرهم أن يعملوا بأحكامها فأبوا أن يقبلوها لما فيها من الآصار يعني الأثقال والتكاليف الشاقة أمر الله تعالى جبريل عليه السلام، أن يقلع جبلاً على قدر عسكرهم وكان قدره فرسخاً في فرسخ فرفعه فوق رؤوسهم قدر قامة كالظلة وقيل لهم: إن لم تقبلوا ما في التوراة وإلا أرسلت هذا الجبل عليكم ﴿**خذوا**﴾ أي قلنا لهم خذوا ﴿**ما آتيناكم**﴾ أي ما أعطيناكم ﴿**بقوة**﴾ أي بجد واجتهاد ﴿**واذكروا ما فيه**﴾ أي ادرسوا ما فيه ﴿**لعلكم تتقون**﴾ أي لكي تنجوا من الهلاك في الدنيا والعذاب في العقبى وإلا رضت رؤوسكم بهذا الجبل فلما رأوا ذلك نازلاً بهم قبلوا وسجدوا، وجعلوا يلاحظون الجبل وهم سجود فصار ذلك سنة في سجود اليهود لا يسجدون إلا على أنصاف وجوههم، ويقولون: بهذا السجود رفع عنا العذاب.

﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾﴾

﴿**ثم توليتم**﴾ أي أعرضتم ﴿**من بعد ذلك**﴾ أي من بعد ما قبلتم التوراة ﴿**فلولا فضل الله عليكم ورحمته**﴾ أي بالإمهال ﴿**لكنتم من الخاسرين**﴾ أي المغبونين بذهاب الدنيا والعذاب في العقبى. قوله عز وجل: ﴿**ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم**﴾ أي جاوزوا الحد ﴿**في السبت**﴾ يقال: سبت اليهود لأنهم يعظمونه ويقطعون فيه أعمالهم، وأصل السبت القطع.

فأمر موسى قومه أن يقبلوها ويعملوا بأحكامها، فأبوا أن يقبلوها للآصار والأثقال التي هي فيها، وكانت شريعة ثقيلة، فأمر الله تعالى جبريل عليه السلام فقلع جبلاً على قدر عسكرهم وكان فرسخاً في فرسخ فرفعه فوق رؤوسهم مثل قامة الرجل كالظلّة، وقال لهم: إن لم تقبلوا التوراة أرسلت هذا الجبل عليكم، وقال عطاء عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: رفع الله فوق رؤوسهم الطور وبعث ناراً من قِبَل وجوههم وأتاهم البحر الملح من خلفهم، ﴿ **خذوا** ﴾، أي: قلنا لهم خذوا ﴿ **ما آتيناكم** ﴾: أعطيناكم ﴿ **بقوة** ﴾: بجدّ واجتهاد ومواظبة، ﴿ **واذكروا** ﴾: وادرسوا ﴿ **ما فيه** ﴾، وقيل: احفظوا واعملوا، ﴿ **لعلكم تتقون** ﴾ لكي تنجوا من الهلاك في الدنيا والعذاب في العُقبى، فإن قبلتم وإلّا رضختكم بهذا الجبل وأغرقتكم في هذا البحر وأحرقتكم بهذه النار، فلما رأوا أنْ لا مهرب لهم منها قبلوا وسجدوا، أو جعلوا يلاحظون الجبل وهم سجود فصار سُنّة في اليهود لا يسجدون إلّا على أنصاف وجوههم ويقولون بهذا السجود رفع العذاب عنّا.

﴿ **ثم توليتم** ﴾: أعرضتم ﴿ **من بعد ذلك** ﴾: من بعد ما قبلتم التوراة، ﴿ **فلولا فضل الله عليكم ورحمته** ﴾ يعني بالإمهال والإدراج وتأخير العذاب عنكم، ﴿ **لكنتم** ﴾ لصرتم ﴿ **من الخاسرين** ﴾: من المغبونين بالعقوبة وذهاب الدنيا والآخرة، وقيل: من المعذبين في الحال كأنه رحمهم بالإمهال.

قوله تعالى: ﴿ **ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم في السبت** ﴾، أي: جاوزوا الحدّ، وأصل السبت القطع، قيل: سُمّي يوم السبت بذلك لأن الله تعالى قطع فيه الخلق، وقيل: لأن اليهود أُمروا فيه بقطع الأعمال، والقصة فيه أنهم كانوا زمن داود عليه السلام بأرض يقال لها أيلة حرّم الله عليهم صيد السمك يوم السبت، فكان إذا دخل

ذكر الإشارة إلى القصة

قال العلماء: بالأخبار إنهم كانوا في زمن داود عليه الصلاة والسلام بقرية بأرض أيلة وحرم الله عليهم صيد السمك يوم السبت، فكان إذا دخل يوم السبت لم يبق حوت في البحر إلا اجتمع هناك حتى لا يرى الماء من كثرتها. فإذا مضى السبت تفرقت الحيتان ولزمن قعر البحر فذلك قوله تعالى: ﴿إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعاً ويوم لا يسبتون لا تأتيهم﴾ ثم إن الشيطان وسوس إليهم، وقال: إنما نهيتم عن أخذها يوم السبت ولم تنهوا عن أخذها في غيره فعمد رجال منهم فحفروا حياضاً كباراً حول البحر، وشرعوا منه إليها أنهاراً فإذا كان عشية الجمعة فتحوا تلك الأنهار فيقبل الموج من البحر بالحيتان إلى تلك الحياض فيقعن فيها ولا يقدرن على الخروج منها لعمقها، فإذا كان يوم الأحد أخذوها وقيل: إنهم كانوا ينصبون الشخوص والحبائل يوم الجمعة، ويخرجونها يوم الأحد ففعلوا ذلك زماناً ولم تنزل بهم عقوبة فتجرؤوا على السبت وقالوا ما نرى السبت إلا قد أحل لنا فأخذوا وملحوا وأكلوا وباعوا واشتروا! فلما فعلوا ذلك صار أهل القرية ثلاثة أصناف، وكانوا نحو سبعين ألفاً صنف أمسك عن الصيد ونهى عن الاصطياد وصنف أمسك ولم ينه وصنف انهمكوا في الذنب وهتكوا الحرمة وكان الصنف الناهون اثني عشر ألفاً، فلما أبى المجرمون قبول نصيحتهم قالوا: والله لا نساكنكم في قرية واحدة فقسموا القرية بينهم بجدار فغيروا على ذلك سنين، ثم لعنهم داود وغضب الله عليهم لإصرارهم على المعصية فخرج الناهون ذات يوم من بابهم ولم يخرج من المجرمين أحد، ولم يفتحوا الباب فلما أبطؤوا تسوروا عليهم الجدار فإذا هم جميع قردة لهم أذناب وهم تتعاوون، وقيل: صار الشباب قردة والشيوخ خنازير فمكثوا ثلاثة أيام ثم هلكوا ولم يمكث مسخ فوق ثلاث ولم يتولدوا. قال الله عز وجل: ﴿**فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين**﴾ أمر تحويل وتكوين، ومعنى خاسئين مبعدين مطرودين؛ وقيل فيه تقديم وتأخير معناه كونوا خاسئين قردة ولهذا لم يقل خاسئات ﴿**فجعلناها**﴾ يعني عقوبتهم بالمسخ ﴿**نكالاً**﴾ أي عقوبة وعبرة ﴿**لما بين يديها وما خلفها**﴾ قيل: معناه عقوبة لما مضى من

السبت لم يبق حوت في البحر إلاّ اجتمع هناك حتى يخرجن خراطيمهنّ من الماء لا منها، حتى لا يُرى الماء لكثرتها، فإذا مضى السبت تفرقن ولزمن قعر البحر فلا يُرى شيء منها، فذلك قوله تعالى: ﴿ إذْ تأتيهم حيتانُهم يوم سَبْتِهم شُرّعاً ويوم لا يسبتون لا تأتيهم ﴾ [الأعراف: ١٦٣]، ثم إن الشيطان وسوس إليهم وقال إنما نُهيتم عن أخذها يوم السبت، فعمد رجال فحفروا الحياض حول البحر، وشرعوا منه إليها الأنهار، فإذا كانت عشية الجمعة فتحوا تلك الأنهار فأقبل الموج بالحيتان إلى الحياض فلا يقدرن على الخروج لبعد عمقها وقلّة مائها، فإذا كان يوم الأحد أخذوها، وقيل: كانوا يسوقون الحيتان إلى الحياض يوم السبت ولا يأخذونها، ثم يأخذونها يوم الأحد، وقيل كانوا ينصبون الحبائل والشخوص يوم الجمعة، ويُخرجونها يوم الأحد، ففعلوا ذلك زماناً ولم تنزل عليهم عقوبة، فتجرؤوا على الذنب وقالوا: ما ندري السبب إلاّ وقد أُحِلّ لنا، فأخذوا وأكلوا وملّحوا وباعوا واشتروا وكثر مالهم، فلما فعلوا ذلك صار أهل القرية وكانوا نحواً من سبعين ألفاً، ثلاثة أصناف: صنف أمسك ونهى، وصنف أمسك ولم ينه، وصنف انتهك الحرمة، وكان الناهون اثني عشر ألفاً، فلما أبى المجرمون قبول نصحهم قالوا: والله لا نُساكِنُكم في قرية واحدة، فقسموا القرية بجدار وغيّروا بذلك سنتين، ولعنهم داود عليه السلام وغضب الله عليهم لإصرارهم على المعصية، فخرج الناهون ذات يوم من بابهم ولم يخرج من المجرمين أحد ولم يفتحوا بابهم، فلما أبطؤا تسوّروا عليهم الحائط فإذا هم جميع قردة لها أذناب يتعاوون، قال قتادة: صار الشبّان قردة والشيوخ خنازير، فمكثوا ثلاثة أيام ثم هلكوا، ولم يمكث مسخ فوق ثلاثة أيام ولم يتوالدوا، قال الله تعالى: ﴿ **فقلنا لهم كُونوا قردة** ﴾: أمر تحويل وتكوين، ﴿ **خاسئين** ﴾: مُبعدين مطرودين، قيل: فيه تقديم وتأخير، أي: كونوا خاسئين قردة،

ذنوبهم وعبرة لمن بعدهم وقيل: جعلنا عقوبة قرية أصحاب السبت عبرة لمن بين يديها من القرى التي كانت عامرة في الحال وما خلفها أي. ما يحدث بعدها من القرى ليتعظوا بذلك وقوله عز وجل: ﴿**وموعظة للمتقين**﴾ أي المؤمنين من أمة محمد ﷺ لئلا يفعلوا مثل فعلهم. قوله عز وجل: ﴿**وإذ قال موسى لقومه إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة**﴾ البقرة واحدة البقر وهي الأنثى وأصلها البقر وهو الشق سميت بذلك لأنها تشق الأرض للحراثة.

ذكر الإشارة إلى القصة في ذلك

قال علماء السير والأخبار: إنه كان في زمن بني إسرائيل رجل غني وله ابن عم فقير لا وارث له سواه فلما طال عليه موته قتله ليرثه وحمله إلى قرية أخرى، وألقاه على بابها ثم أصبح يطلب ثاره وجاء بناس إلى موسى يدعي عليهم بالقتل، فجحدوا واشتبه أمر القتيل على موسى عليه الصلاة والسلام. فسألوا موسى أن يدعو الله ليبين لهم ما أشكل عليم، فسأل موسى ربه في ذلك فأمره بذبح بقرة، وأمره أن يضربه ببعضها فقال لهم: إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة ﴿**قالوا أتتخذنا هزواً**﴾ أي نحن نسألك أمر القتيل، وأنت تستهزىء بنا وتأمرنا بذبح بقرة وإنما قالوا ذلك لبعد ما بين الأمرين في الظاهر، ولم يعلموا ما وجه الحكمة فيه ﴿**قال**﴾ يعني موسى ﴿**أعوذ بالله**﴾ أي أمتنع بالله ﴿**أن أكون من الجاهلين**﴾ أي المستهزئين بالمؤمنين وقيل: من الجاهلين بالجواب لا على وفق السؤال فلما علموا أن ذبح البقرة عزم من الله تعالى استوصفوه إياها ولو أنهم عمدوا إلى أي بقرة كانت فذبحوها لأجزأت عنهم ولكن شددوا فشدد عليهم وكان في ذلك حكمة الله عز وجل، وذلك أنه كان رجل صالح في بني إسرائيل، وله ابن طفل وله عجلة فأتى بها غيضة وقال: اللهم إني استودعتك هذه العجلة لابني حتى يكبر ومات ذلك الرجل، وصارت العجلة في الغيضة عواناً وكانت تهرب من الناس، فلما كبر ذلك الطفل، وكان باراً بأمه وكان يقسم ليله

ولذلك لم يقل خاسئات، والخسأ: الطرد والإبعاد، وهو لازم ومعتد، يقال: خسأته خسأ فخسأ خسوءاً، مثل رجعته رجعاً فرجع رجوعاً.

﴿ فجعلناها ﴾، أي: جعلنا عقوبتهم بالمسخ ﴿ نكالاً ﴾، أي: عقوبة وعبرة، والنكال: اسم لكل عقوبة ينكل الناظر من فعل ما جُعلت العقوبة جزاءً عليه، ومنه النكول عن اليمين: وهو الامتناع، وأصله من النكل وهو القيد، وجمعه يكون أنكالاً، ﴿ لما بين يديها ﴾، قال قتادة: أراد بما بين يديها يعني: ما سبق من الذنوب، أي: جعلنا تلك العقوبة جزاءً لِما تقدّم من ذنوبهم قبل نهيهم عن أخذ الصيد، ﴿ وما خلفها ﴾: ما حضر من الذنوب التي أخذوا بها، وهي العصيان بأخذ الحيتان، وقال أبو العالية والربيع: عقوبة لما مضى من ذنوبهم وعِبرة لِمَن بعدهم أن يَسْتَنُّوا بسنّتهم، و﴿ ما ﴾ الثانية بمعنى: من، وقيل: جعلناها أي: جعلنا قرية أصحاب السبتِ عِبرةً لِما بين يديها، أي: القرى التي كانت مبنية في الحال، وما خلفها وما يحدث من القرى بعدُ ليتّعظوا، وقيل: فيه تقديم وتأخير تقديره: فجعلناها وما خلفها، أي: ما أعدّ لهم من العذاب في الآخرة وجزاءً لِما بين يديها، أي: لِما تقدّم من ذنوبهم باعتدائهم في السبت، ﴿ وموعظة للمتّقين ﴾: للمؤمنين من أمة محمد ﷺ، فلا يفعلون مثل فعلهم.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ وإذ قال موسى لقومه إنّ الله يأمركم أن تذبحوا بقرة ﴾: البقرة هي الأنثى من البقر، يقال: هي مأخوذة من البقر وهي الشقّ، سُمّيت به لأنها تبقر الأرض، أي: تشقّها للحراثة، والقصة فيه أنه كان في بني إسرائيل رجل غني وله ابن عمّ فقير لا وارث له سواه، فلما طال عليه موته قتله ليرثه وحمله إلى قرية أخرى وألقاه بفنائهم، ثم أصبح يطلب ثأره وجاء بناس إلى موسى يدّعي عليهم القتل، فسألهم موسى فجحدوا فاشتبه أمر القتيل على موسى، قال الكلبي: وذلك قبل نزول قسامة في التوراة، فسألوا موسى أن يدعو الله ليبيّن لهم بدعائه، فأمرهم

ثلاثة أجزاء يصلي ثلثاً وينام ثلثاً، ويجلس عند رأس أمه ثلثاً فإذا أصبح انطلق فيحتطب ويأتي به السوق فيبيعه بما يشاء الله فيتصدق بثلثه ويأكل ثلثه ويعطي أمه ثلثه، فقالت له أمه يوماً: يا بني إن أباك ورثك عجلة استودعها الله في غيضة كذا فانطلق وادع إله إبراهيم وإسماعيل وإسحاق أن يردها عليك وعلامتها أنك إذا نظرت إليها يخيل إليك أن شعاع الشمس يخرج من جلدها، وكانت تسمى المذهبة لحسنها وصفرتها، فأتى الفتى غيضة فرآها ترعى فصاح بها وقال أعزم عليك بإله إبراهيم وإسماعيل وإسحاق، فأقبلت البقرة حتى وقفت بين يديه فقبض على قرنها يقودها فتكلمت البقرة بإذن الله تعالى، وقالت: أيها الفتى البار بأمه اركبني فإنه أهون عليك. فقال الفتى: إن أمي لم تأمرني بذلك فقالت البقرة والله لو ركبتني ما كنت تقدر عليّ أبداً فانطلق فإنك لو أمرت الجبل أن ينقلع من أصله لانقلع لبرك بأمك فسار الفتى بها إلى أمه فقالت له أمه: إنك رجل فقير ولا مال لك ويشق عليك الاحتطاب بالنهار والقيام بالليل فانطلق فبع البقرة، فقال: بكم أبيعها قالت: بثلاثة دنانير ولا تبع بغير مشورتي وكان ثمن البقرة ثلاثة دنانير فانطلق بها الفتى إلى السوق، وبعث الله ملكاً ليرى خلقه قدرته، وليختبر الفتى كيف بره بأمه، وهو أعلم فقال له الملك: بكم هذه البقرة؟ قال بثلاثة دنانير، وأشترط عليك رضى أمي فقال له الملك: لك ستة دنانير ولا تستأمر أمك فقال له الفتى لو أعطيتني وزنها ذهباً لم آخذه إلا برضا أمي. ورجع الفتى إلى أمه فأخبرها بالثمن

الله بذبح بقرة، فقال لهم موسى: ﴿ إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة﴾، ﴿ قالوا أتتخذنا هُزواً ﴾، أي: تستهزىء بنا نحن نسألك عن أمر القتيل وتأمرنا بذبح البقرة، وإنما قالوا ذلك لبُعد ما بين الأمرين في الظاهر ولم يدروا ما الحكمة فيه، قرأ حمزة «هزواً وكفواً» بالتخفيف، وقرأ الآخرون بالتثقيل، ويترك الهمزة حفص. ﴿ قال ﴾ موسى: ﴿ أعوذ بالله ﴾: أمتنع بالله ﴿ أن أكون من الجاهلين ﴾، أي: من المستهزئين بالمؤمنين، وقيل: من الجاهلين بالجواب لا على وفق السؤال، لأن الجواب لا على وفق السؤال جهل، فلما علم القوم أن ذبح البقرة عزم من الله عزّ وجلّ استوصفوها، ولو أنهم عمدوا إلى أدنى بقرة فذبحوها لأجزأتْ عنهم، ولكنّهم شدّدوا على أنفسهم فشدّد الله عليهم، وكانت تحته حكمة وذلك أنه كان في بني إسرائيل رجل صالح له ابن طفل وله عجلة أتى بها إلى غيضة، وقال: اللّهمّ إني استودعتك هذه العجلة لابني حتى تكبر، ومات الرجل فصارت العجلة في الغيضة عواناً، وكانت تهرب من كل مَن رآها فلما كبر الابن كان باراً بوالدته، وكان يقسم الليل ثلاثة أثلاث يصلّي ثلثاً وينام ثلثاً ويجلس عند رأس أمه ثلثاً، فإذا أصبح انطلق فاحتطب على ظهره فيأتي به إلى السوق، فيبيعه بما شاء الله ثم يتصدّق بثلثه ويأكل ثلثه ويعطي والدته ثلثه، فقالت له أُمه يوماً: إن أباك ورّثك عجلة استودعها الله في غيضة كذا انطلق وادعُ إلّه إبراهيم وإسماعيل وإسحق أن يردّها عليك، وعلامتها أنك إذا نظرت إليها يخيّل إليك أن شعاع الشمس يخرج من جلدها، وكانت تلك البقرة تسمى المذهّبة لحُسنها وصُفرتها، فأتى الفتى الغيضة فرآها ترعى فصاح بها، وقال: أعزم عليك بإلّه إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب، فأقبلت تسعى حتى قامت بين يديه، فقبض على عنقها يقودها، فتكلّمت البقرة بإذن الله تعالى فقالت: أيها الفتى البارّ بوالدتك اركبني، فإن ذلك أهون عليك، فقال الفتى: إن أُمّي لم تأمرني بذلك، ولكن قالت: خذ بعنقها، فقالت البقرة: بإلّه بني إسرائيل لو ركبتني ما كنت تقدر عليَّ أبداً فانطلق فإنك لو أمرت الجبل أن ينقلع من أصله وينطلق معك لفعل، لبرّك بأُمّك فسار الفتى بها إلى أُمه، فقالت له: إنك فقير لا مال لك فيشقّ عليك الاحتطاب بالنهار والقيام بالليل، فانطلقْ فبع البقرة، فقال: بكَم أبيعها؟ قالت: بثلاثة دنانير، ولا تبع بغير مشورتي، وكان ثمن البقرة ثلاثة دنانير، فانطلق بها الفتى إلى السوق، وبعث الله ملكاً لِيُري خَلْقَه قدرته، وليختبر الفتى كيف برّه بأمه وكان الله به خبيراً فقال له الملك: بكم تبيع هذه البقرة؟ قال: بثلاثة دنانير وأشترط عليك رضى والدتي، فقال الملك: لك ستة دنانير ولا تستأمر والدتك، فقال الفتى: لو أعطيتني وزنها ذهباً

فقالت له: ارجع فبعها بستة دنانير ولاتبعها إلا برضاي فرجع بها إلى السوق وأتى الملك فقال له: استأمرت أمك فقال الفتى: نعم. إنها أمرتني أن لا أنقصها عن ستة على رضاها. فقال الملك: إني أعطيتك اثني عشر ديناراً ولا تستأمرها فأبى الفتى ورجع إلى أمه فأخبرها بذلك فقالت له أمه: إن الذي يأتيك ملك في صورة آدمي ليجربك، فإذا أتاك فقل له: أتأمرنا أن نبيع هذه البقرة أم لا ففعل فقال له الملك: اذهب إلى أمك فقل لها أمسكي هذه البقرة فإن موسى بن عمران يشتريها منك لقتيل يقتل في بني إسرائيل، فلا تبعها إلا بملء مسكها ذهباً والمسك الجلد فأمسكتها وقدر الله على بني إسرائيل ذبح البقرة بعينها، فما زالوا يستوصفون البقرة حتى وصفت لهم تلك البقرة بعينها مكافأة بذلك الفتى على بره بأمه فضلاً من الله تعالى ورحمة فذلك قوله تعالى:

﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾﴾

﴿**قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هي**﴾ أي ما سنها ﴿**قال**﴾ يعني موسى ﴿**إنه يقول**﴾ يعني الله عز وجل: ﴿**إنها بقرة لا فارض ولا بكر**﴾ أي لا كبيرة ولا صغيرة والفارض المسنة التي لم تلد، والبكر الفتية التي لم تلد ﴿**عوان**﴾ أي نصف ﴿**بين ذلك**﴾ أي بين السنين ﴿**فافعلوا ما تؤمرون**﴾ أي من ذبح البقرة ولا تكثروا السؤال ﴿**قالوا ادع لنا**

لم آخذه إلّا برضا أمي، فردّها إلى أمه وأخبرها بالثمن، فقالت: ارجع فبعها بستة دنانير على رضىً منّي، فانطلق بها إلى السوق، وأتى الملك فقال: استأمرت أمك؟ فقال الفتى: إنها أمرتني أن لا أنقصها عن ستّة دنانير على أن أستأمرها، وقال الملك: فإني أعطيك اثني عشر على أن لا تستأمرها، فأبى الفتى ورجع إلى أمه فأخبرها بذلك، فقالت: إن الذي يأتيك ذلك في صورة آدمي فإذا أتاك فقل له: أتأمرنا أن نبيع هذه البقرة أم لا؟ ففعل فقال له الملك: اذهب إلى أمك وقلْ لها: أمسكي هذه البقرة فإن موسى بن عمران عليه السلام يشتريها منك لقتيل يقتل في بني إسرائيل، فلا تبعها إلّا بملء مَسْكها دنانير فأمسكها، وقدّر الله تعالى على بني إسرائيل ذبح تلك البقرة بعينها فما زالوا يستوصفونها حتى وُصفت لهم تلك البقرة بعينها مكافأة له على بِرّه بوالدته فضلاً منه ورحمةً.

فذلك قوله تعالى: ﴿ **قالوا ادعُ لنا ربك يبيّن لنا ما هي** ﴾، أي: ما سِنّها ﴿ **قال** ﴾ موسى ﴿ **إنه يقول** ﴾، يعني فسأل الله تعالى فقال إنه يعني: إن الله تعالى يقول: ﴿ **إنها بقرةٌ لا فارضٌ ولا بكر** ﴾، أي: لا كبيرة ولا صغيرة، والفارض: المسنّة التي لا تلد، يقال: منه فرضت تفرض فروضاً، والبكر: الفتية الصغيرة التي لم تلد قطّ، وحُذفت الهاء منهما للاختصاص بالإناث كالحائض، ﴿ **عَوان** ﴾: وسط نصف ﴿ **بين ذلك** ﴾، أي: بين السِّنِّين، يقال: عونت المرأة تعويناً إذا زادت على الثلاثين، قال الأخفش: العوان التي نتجت مراراً، وجمعها عون، ﴿ **فافعلوا ما تُؤمرون** ﴾: من ذبح البقرة ولا تكثروا السؤال.

﴿ **قالوا ادع لنا ربّك يبيّنْ لنا ما لونها قال إنه يقول إنها بقرة صفراء فاقعٌ لونها** ﴾، قال ابن عباس: شديدة الصّفرة وقال قتادة: صاف، وقال الحسن: الصفراء السوداء، والأول أصحّ لأنه لا يقال أسود فاقع، إنّما يقال أصفر

ربك يبين لنا ما لونها قال إنه يقول إنها بقرة صفراء فاقع لونها﴾ قال ابن عباس شديد الصفرة وقيل: لونها صاف وقيل الصفراء السوداء والأول أصح لأنه يقال أصفر فاقع وأسود حالك ﴿تسر الناظرين﴾ أي يعجبهم حسنها وصفاء لونها ﴿قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هي﴾ أي سائمة أو عاملة ﴿إن البقر تشابه علينا﴾ أي التبس واشتبه أمرها علينا ﴿وإنا إن شاء الله لمهتدون﴾ أي إلى وصفها قال رسول الله ﷺ: «وايم الله لو لم يستثنوا لما بينت لهم آخر الدهر» ﴿قال إنه يقول إنها بقرة لا ذلول﴾ أي ليست مذللة بالعمل ﴿تثير الأرض﴾ أي تقلبها للزراعة ﴿ولا تسقي الحرث﴾ أي ليست بسنانية والسانية هي التي تستسقي الماء من البئر لسقي الأرض ﴿مسلمة﴾ أي بريئة من العيوب ﴿لا شية فيها﴾ أي لا لون فيها غير لونها ﴿قالوا الآن جئت بالحق﴾ أي بالبيان التام الذي لا إشكال فيه فطلبوها فلم يجدوا بقرة بكمال وصفها، إلا بقرة ذلك الفتى فاشتروها منه بملء مسكها ذهباً ﴿فذبحوها وما كادوا يفعلون﴾ أي وما قاربوا أن يفعلوا ما أمروا به، قيل لغلاء ثمنها وقيل: لخوف الفضيحة وقيل: لعزة وجودها بهذه الأوصاف جميعاً.

قوله عز وجل:

﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّٰرَءْتُمْ فِيهَا ۖ وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾

﴿وإذ قتلتم نفساً﴾ خوطبت الجماعة بذلك لوجود القتل فيهم ﴿فادارأتم فيها﴾ قال ابن عباس أي اختلفتم واختصمتم من الدرء وهو الدفع لأن المتخاصمين يدفع بعضهم بعضاً ﴿والله مخرج ما كنتم تكتمون﴾ أي مظهر ما

فاقع، وأسود حالك وأحمر قانىء وأخضر ناضر وأبيض بقق للمبالغة، ﴿ تسرّ الناظرين ﴾: إليها يعجبهم حُسنها وصفاء لونها.

﴿ قالوا ادعُ لنا ربّك يبيّنْ لنا ما هي ﴾: أسائمة أم عاملة؟ ﴿ إن البقر تشابه علينا ﴾، ولم يقل تشابهت لتذكير لفظ البقر، كقوله تعالى: ﴿ أعجاز نخل منقعر ﴾ [القمر: ٢٠]، وقال الزجّاج: أي جنس البقر تشابه، أي: التبس واشتبه أمره علينا فلا نهتدي إليه، ﴿ وإنّا إن شاء الله لمهتدون ﴾: إلى وصفها، قال رسول الله ﷺ: «وايْمُ اللَّهِ لو لم يستثنوا لَما بُيّنتْ لهم إلى آخر الأبد».

﴿ قال إنه يقول إنها بقرةٌ لَا ذَلُولٌ ﴾: مذلّلة بالعمل، يقال: رجل ذلول بيّن الذلّ ودابّة ذلولة بيّنة الذلّ، ﴿ تثير الأرض ﴾: تقلبها للزراعة، ﴿ ولا تسقي الحرث ﴾، أي: ليست بسانية، ﴿ مسلمة ﴾: بريئة من العيوب، ﴿ لا شية فيها ﴾: لا لون لها سوى لون جميع جلدها، قال عطاء: لا عيب فيها، قال مجاهد: لا بياض فيها ولا سواد، ﴿ قالوا الآن جئت بالحق ﴾، أي: بالبيان التام الشافي الذي لا إشكال فيه، وطلبوها فلم يجدوا بكمال وصفها إلّا مع الفتى فاشتروها بملء مَسْكها ذهباً ﴿ فذبحوها وما كادوا يفعلون ﴾: من غلاء ثمنها وقال محمد بن كعب: وما كادوا يجدونها باجتماع أوصافها، وقيل: وما كادوا يفعلون من شدّة اضطرابهم واختلافهم فيها.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ وإذْ قتلتُم نفساً ﴾: هذا أول القصة، وإن كان مؤخراً في التلاوة، واسم القتيل عاميل، ﴿ فادّارأتم فيها ﴾، أصله تدارأتم، فأدغمت التاء في الدال وأُدخلت الألف مثل قوله: ﴿ اثّاقلتم ﴾ [التوبة: ٣٨]،

كنتم من أمر القتيل لا محالة ولا يتركه مكتوماً ﴿فقلنا اضربوه﴾ يعني القتيل ﴿ببعضها﴾ أي ببعض البقرة قال ابن عباس ضربوه بالعظم الذي يلي الغضروف، وهو أصل الأذن وقيل: ضربوه بلسانها وقيل: بعجب الذنب وقيل: بفخذها اليمين والأقرب أنهم كانوا مخيرين في ذلك البعض وإنهم إذا ضربوه بأي جزء منها أجزأ وحصل المقصود وإنه ليس في القرآن ما يدل على ذلك البعض ما هو. وذلك يقتضي التخيير وفي الآية إضمار تقديره فضربوه فحيي وقام بإذن الله تعالى، وأوداجه تشخب دماً وقال قتلني فلان يعني ابن عمه ثم سقط ميتاً مكانه. فحرم قاتله الميراث وفي الخبر ما ورث قاتل بعد صاحب البقرة ﴿كذلك﴾ أي كما أحيا الله عاميل صاحب البقرة ﴿يحيي الله الموتى﴾ يعني يوم القيامة ﴿ويريكم آياته لعلكم تعقلون﴾ أي تمنعون أنفسكم عن المعاصي. فإن قلت كان حق هذه القصة أن يقدم ذكر القتيل أولاً، ثم ذكر ذبح البقرة بعد ذلك، فما وجه ترتيب هذه القصة على هذا الترتيب؟ قلت: وجهه أن الله لما ذكر من قصص بني إسرائيل وما وجد من خياناتهم تقريعاً لهم على ذلك وما وجد فيهم من الآيات العظيمة، وهاتان قصتان كل واحدة منهما مستقلة بنوع من التقريع وإن كانتا متصلتين متحدتين في نفس الأمر، فالأولى لتقريعهم على ترك المسارعة إلى امتثال الأمر وما يتبعه والثانية لتقريعهم على قتل النفس المحرمة فلو قدم قصة القتيل على قصة الذبح لكانت قصة واحدة ولذهب الغرض من تثنية التقريع، فلهذا قدم ذكر الذبح أولاً ثم عقبه بذكر القتل. فإن قلت ما فائدة ضرب القتيل ببعض البقرة والله تعالى قادر على أن يحييه ابتداء من غير ضرب بشيء؟ قلت: الفائدة فيه أن تكون الحجة أوكد وعن الحيلة أبعد لاحتمال أن يتوهم متوهم أن موسى عليه السلام، إنما أحياه بضرب من السحر والحيلة فإذا أحيي القتيل، عندما ضرب ببعض البقرة انتفت الشبهة، وعلم أن ذلك من عند الله تعالى وبأمره كان ذلك. فإن قلت: هلا أمروا بذبح غير البقرة؟ قلت: الكلام في غير البقرة لو أمروا به كالكلام في البقرة ثم في ذبح البقرة فوائد منها التقرب بالقربان على ما كانت العادة جارية عندهم، ومنها أن هذا

قال ابن عباس ومجاهد: معناه فاختلفتم، وقال الربيع بن أنس: تدافعتم، أي: يحيل بعضكم على بعض، من الدرء: وهو الدفع، فكان كل واحد يدفع عن نفسه، ﴿ والله مخرجٌ ﴾، أي: مظهر: ﴿ ما كنتم تكتمون ﴾، فإن القاتل كان يكتم القتل.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ فقلنا اضربوه ﴾، يعني: القتيل، ﴿ ببعضها ﴾ أي: ببعض البقرة، واختلفوا في ذلك البعض، قال ابن عباس رضي الله عنه وأكثر المفسّرين: ضربوه بالعظم الذي يلي الغضروف وهو المقتل، وقال مجاهد وسعيد بن جبير: بعَجْب الذنب لأنه أول ما يُخلق وآخر ما يبلى ويُركّب عليه الخلق ثانياً وهو البعث، وقال الضحاك: بلسانها، وقال الحسين بن الفضل: هذا أدلّ بها لأنه آلة الكلام، وقال الكلبي وعكرمة: بفخذها الأيمن، وقيل: بعضو منها لا بعينه، ففعلوا ذلك فقام القتيل حيّاً بإذن الله تعالى وأوداجه، أي: عروق العنق تشخب دماً، وقال: قتلني فلان ثم سقط ومات مكانه فحرم قاتله الميراث، وفي الخبر: (ما ورث قاتل بعد صاحب البقرة)، وفيه إضمار تقديره فضربتُ فحُي، ﴿ كذلك يحي الله الموتى ﴾: كما أحيا عاميل، ﴿ ويُريكم آياته لعلّكم تعقلون ﴾، قيل: تمنعون أنفسكم من المعاصي أما حكم هذه المسألة إذا وُجد في الإسلام قتيل في موضع ولا يعرف قاتله، فإن كان ثمَّ لوث على إنسان، واللوث: أن يغلب على القلب صدق المدّعي بأن اجتمع جماعة في بيت أو صحراء فتفرّقوا عن قتيل يغلب على القلب أن القاتل فيهم، أو وُجد قتيل في محلّة أو قرية كلهم أعداء للقتيل لا يخالطهم غيرهم فيغلب على القلب أنهم قتلوه، فادّعى الوليّ على بعضهم، يحلف المدّعي خمسين يميناً على مَن يدّعي عليه، وإن كان الأولياء جماعة تُوزّع الأيمان عليهم، ثم بعدما حلفوا أخذوا الديّة من عاقلة المدّعى عليه إن ادّعوا قتل خطأ، وإن ادّعوا قتل عمدٍ فمن ماله، ولا قَوَدَ على قول الأكثرين، وذهب بعضهم إلى وجوب القَوَد وهو قول

القربان كان عندهم من أعظم القرابين ومنها تحمل المشقة العظيمة في تحصيلها بتلك الصفة ومنها حصول ذلك المال العظيم الذي أخذه صاحبها من ثمنها.

فصل: في حكم هذه المسألة في شريعة الإسلام إذا وقعت:

وذلك أن: إذا وجد قتيل في موضع، ولا يعرف قاتله فإن كان ثم لوث على إنسان ادعى به. واللوث أن يغلب على الظن صدق المدعى بأن اجتمع جماعة في بيت أو صحراء ثم تفرقوا عن قتيل فيغلب على الظن أن القاتل فيهم أو وجد قتيل في محلة أو قرية وكلهم أعداء القتيل لا يخالطهم غيرهم، فيغلب على الظن أنهم قتلوه فإن ادعى الولي على بعضهم حلف خمسين يميناً على من يدعي عليه، وإن كان الأولياء جماعة توزع الإيمان عليهم فإذا حلفوا أخذوا الدية من عاقلة المدعى عليه، إن ادعوا قتل خطأ، وإن ادعوا قتل عمد فمن مال المدعى عليه ولا قود عليه في قول الأكثرين، وذهب عمر بن عبدالعزيز إلى وجوب القود وبه قال مالك وأحمد فإن لم يكن ثم لوث فالقول قول المدعي عليه لأن الأصل براءة ذمته من القتل وهل يحلف يميناً واحدة أم خمسين يميناً؟ فيه قولان: أحدهما: أنه يحلف يميناً واحدة كما في سائر الدعاوى. والثاني: أنه يحلف خمسين يميناً تغليظاً لأمر القتيل، وعند أبي حنيفة لا حكم للوث ولا يبدأ بيمين المدعي بل إذا وجد قتيل في محلة، يختار الإمام خمسين رجلاً من صلحاء أهلها فيحلفهم أنهم ما قتلوه ولا يعرفون له قاتلاً، فإن حلفوا وإلا أخذ الدية من سكانها. والدليل على أن البداءة بيمين المدعي عند وجود اللوث. ما روى عن سهل بن أبي خيثمة قال: انطلق عبدالله بن سهل ومحيصة بن مسعود إلى خيبر وهي يومئذ صلح فتفرقا فأتى محيصة إلى عبدالله بن سهل وهو يتشحط في دمه قتيلاً فدفنه. ثم قدم المدينة فانطلق عبدالرحمن بن سهل ومحيصة وحويصة ابنا مسعود إلى النبي ﷺ فذهب عبدالرحمن يتكلم فقال رسول الله ﷺ: «كبر كبر وهو أحدث القوم سناً» فسكت، فتكلما فقال أتحلفون وتستحقون قاتلكم أو قال صاحبكم قالوا: كيف نحلف ولم نشهد ولم نر؟ قال: فتبرئكم يهود بأيمان خمسين منهم قالوا: كيف نأخذ بأيمان قوم كفار

عمر بن عبد العزيز، وبه قال مالك وأحمد، وإن لم يكن على المدّعى عليه لوث، فالقول قول المدّعى عليه مع يمينه، ثم هل يحلف يميناً واحدة أم خمسين يميناً فيه قولان: أحدهما يميناً واحدة كما في سائر الدعاوى، والثاني يحلف خمسين يميناً تغليظاً لأمر الدم، وعند أبي حنيفة رضي الله عنه لا حكم للوث، ولا يبدأ بيمين المدّعي، وقال: إذا وُجد قتيل في محلة يختار الإمام خمسين رجلاً من صلحاء أهلها فيحلّفهم أنهم ما قتلوه ولا عرفوا له قاتلاً، ثم يأخذ الديّة من سكانها، والدليل على أن البداية بيمين المـدّعي، عند وجود اللوث ما أخبرنا به عبد الوهاب بن محمد الخطيب أنا عبد العزيز بن أحمد الخلال، أنا أبو العباس محمد بن يعقوب الأصم، أنا الربيع أنا الشافعي أنا عبد الوهاب بن عبد المجيد الثقفي، عن يحيىٰ بن سعيد عن بشير بن يسار عن سهل بن أبي حثمة، أن عبد الله بن سهل ومحيصة بن مسعود: خرجا إلى خيبر فتفرّقا لحاجتهما، فقتل عبد الله بن سهل، فانطلق هو وعبد الرحمن أخو المقتول وحُويصة بـن مسعود إلى رسول الله ﷺ فذكروا له قتل عبد الله بن سهل، فقال رسول الله ﷺ: «تحلفون خمسين يميناً وتستحقون دم صاحبكم أو قاتلكم»، فقالوا: يا رسول الله لم نشهد ولم نحضر، فقال رسول الله ﷺ: «فتبرئكم يهود بخمسين يميناً»، فقالوا: يا رسول الله كيف نقبل أيمانَ قومٍ كفّار؟ فعزم النبيّ ﷺ عَقَلَه من عنده. وفي لفظ آخر: فزعم أن النبي ﷺ عَقَلَه من عنده. قال بشير بن يسار: قال سهل: لقد ركضتني فريضة من تلك الفرائض في مَرْبَدٍ لنا، وفي رواية: لقد ركضتني ناقة حمراء من تلك الفرائض في مربد لنا، وجه الدليل من الخبر: أن النبي ﷺ بدأ بأيمان المدّعين لتقوى جانبهم باللّوث، وهو أن عبد الله بن سهل وجد قتيلاً في خيبر، وكانت العداوة ظاهـرة بين الأنصار وأهل خيبر، وكان يغلب على القلب أنهم قتلوه، واليمين أبداً

فعقله النبي ﷺ من عنده وفي رواية يقسم خمسون منكم على رجل منهم فيدفع برمته وذكر نحوه وزاد في رواية فكره رسول الله ﷺ أن يبطل دمه، فوداه بمائة من إبل الصدقة أخرجاه في الصحيحين، ووجه الدليل من هذا الحديث أن النبي ﷺ بدأ بأيمان المدعين ليقوى جانبهم باللوث لأن اليمين أبداً تكون لمن يقوى جانبه وعند عدم اللوث تكون من جانب المدعى عليه من حيث إن الأصل براءة ذمته، فكان القول قوله مع يمينه والله أعلم. قوله عز وجل: ﴿ثم قست قلوبكم﴾ أي يبست وجفت وقساوة القلب انتزاع الرحمة منه، وقيل معناه غلظت واسودت ﴿من بعد ذلك﴾ أي من بعد ظهور الدلالات التي جاء بها موسى، وقيل: هي إشارة إلى إحياء القتيل بعد ضربه ببعض البقرة ﴿فهي﴾ يعني القلوب في الغلظ والشدة ﴿كالحجارة﴾ أي كالشيء الصلب الذي لا تخلخل فيه ﴿أو﴾ قيل: أو بمعنى بل وقيل بمعنى الواو أي و﴿أشد قسوة﴾ فإن قلت: لم شبه قلوبهم بالحجارة ولم يشبهها بالحديد وهو أشد من الحجارة وأصلب. قلت: لأن الحديد قابل للين بالنار وقد لان لداود عليه الصلاة والسلام والحجارة ليست قابلة للين فلا تلين قط. ثم فضل الحجارة على القلب القاسي فقال ﴿وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار﴾ قيل: أراد به جميع الحجارة وقيل أراد به الحجر الذي كان يضرب عليه موسى ليسقي الأسباط والتفجير التفتح بالسعة والكثرة ﴿وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء﴾ يعني العيون الصغار التي دون الأنهار ﴿وإن منها لما يهبط من خشية الله﴾ أي ينزل من أعلى الجبل إلى أسفله، وخشيتها عبارة عن انقيادها لأمر الله وأنها لا تمتنع عما

تكون حجّة لمَن يقوى جانبه، وعند عدم اللّوث تقوى جانب المدّعى عليه من حيث أن الأصل براءة ذمته، وكان القول قوله مع يمينه.

قوله تعالى: ﴿ ثم قست قلوبكم ﴾، أي: يبست وجفّت، جفاف القلب: خروج الرحمة واللّين عنه، وقيل: غلظت، وقيل: اسودّت، ﴿ من بعد ذلك ﴾: من بعد ظهور الدّلالات، قال الكلبي: قالوا بعد ذلك نحن لم نقتله فلم يكونوا قطّ أعمى قلباً ولا أشدّ تكذيباً لنبيّهم منهم عند ذلك، أي ﴿ فهي ﴾: في الغِلْظَةِ والشدّة: ﴿ كالحجارة أو أشدّ قسوةً ﴾، قيل: أو بمعنى الواو، كقوله: ﴿ مائة ألف أو يزيدون ﴾ [الصّافّات: ١٤٧]، أي: بل يزيدون. وإنّما لم يشبهها بالحديد مع أنه أصلب من الحجارة لأن الحديد قابل للين، فإنه يلين بالنار، وقدْ لاَن لداود عليه السلام، والحجارة لا تلين قطّ، ثم فضّل الحجارة على القلب القاسي فقال: ﴿ وإنّ من الحجارة لَما يتفجّر منه الأنهار ﴾، قيل: أراد به جميع الحجارة، وقيل أراد به الحجر الذي كان يضرب عليه موسى للأسباط، ﴿ وإنّ منهما لما يشقق فيخرج منه الماء ﴾: أراد به عيوناً دون الأنهار، ﴿ وإنّ منها لما يهبط ﴾: ينزل من أعلى الجبل إلى أسفله ﴿ من خشية الله ﴾: وقلوبكم لا تلين ولا تخشع يا معشر اليهود، فإن قيل: الحجر جماد لا يفهم فكيف يخشى؟ قيل: الله يفهمه ويلهمه فيخشى بإلهامه، ومذهب أهل السُّنّة والجماعة أن الله تعالى علماً في الجمادات وسائر الحيوانات، سوى العقلاء لا يقف عليه غير الله، فلها صلاة وتسبيح وخشية، كما قال جلّ ذكره: ﴿ وإنْ من شيء إلاّ يُسبّحُ بحمده﴾ [الإسراء: ٤٤] وقال: ﴿والطير صافّات كلٌّ قد علم صلاته وتسبيحه﴾ [النور: ٤١] وقال: ﴿ألم ترَ أنّ الله يسجد لـه مَن في السموات ومَن في الأرض والشمس والقمر﴾ [الحج: ١٨] الآية، فيجب على المرء الإيمان به ويكل علمه إلى الله سبحانه وتعالى، ويُروى أن النبي ﷺ كان على ثبير. والكفّار يطلبونه فقال الجبل: انزل عنّي فإنّي أخاف أن تُؤخذ عليّ فيعاقبني الله بذلك، فقال له جبل حِرَاء: إليّ يا رسول الله، أخبرنا الإمام أبو علي الحسين بن محمد القاضي، ثنا السدي أبو الحسين محمد بن محمد بن حسن العلوي، أنا أحمد بن محمد بن عبد الوهاب النيسابوري، أنا محمد بن إسماعيل الصائغ، أنا يحيىٰ بن أبي بكر، أنا إبراهيم بن طهمان عن سماك بن حرب عن جابر بن سمرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إني لأعرف حجراً بمكة كان يُسلّم عليّ قبل أن أبعث، وإني لأعرفه

يريد منها، وقلوبكم يا معشر اليهود لا تلين ولا تخشع. فإن قلت: الحجر جماد لا يعقل ولا يفهم فكيف يخشى؟ قلت: إن الله تعالى قادر على إفهام الحجر والجمادات فتعقل وتخشى بإلهامه لها، ومذهب أهل السنة إن الله تعالى أودع في الجمادات والحيوانات، علماً وحكمة لا يقف عليهما غيره فلها صلاة وتسبيح وخشية يدل عليه قوله: ﴿وإن من شيء إلا يسبح الله بحمده﴾ وقال تعالى: ﴿والطير صافات كل قد علم صلاته وتسبيحه﴾ فيجب على المرء الإيمان به وبكل علمه إلى الله تعالى (م) عن جابر بن سمرة قال، قال رسول الله ﷺ: «إني لأعرف حجراً بمكة كان يسلم عليّ قبل أن أبعث، وإني لأعرفه الآن» عن علي قال كنت مع رسول الله ﷺ بمكة فخرجنا إلى بعض نواحيها فما استقبله شجر ولا جبل إلا وهو يقول السلام عليك يا رسول الله ﷺ، أخرجه الترمذي. وقال حديث غريب (خ) عن جابر بن عبدالله قال: «كان في مسجد رسول الله ﷺ جذع في قبلته يقوم إليه رسول الله ﷺ في خطبته فلما وضع المنبر سمعنا للجذع حنيناً مثل صوت العشار حتى نزل رسول الله ﷺ فوضع يده عليه، وفي رواية: صاحت النخلة صياح الصبي فنزل ﷺ حتى أخذها فضمها إليه فجعلت تئن أنين الصبي الذي لا يسكت حتى استقرت. قال: بكت على ما كانت تسمع من الذكر» قال مجاهد: ما ينزل حجر من أعلى إلى أسفل إلا من خشية الله وذلك يشهد لما قلنا ﴿وما الله بغافل عما تعملون﴾ فيه وعيد وتهديد والمعنى أن الله بالمرصاد لهؤلاء القاسية قلوبهم وحافظ لأعمالهم حتى يجازيهم بها في الآخرة. قوله عز وجل: .

الآن»، هذا حديث صحيح أخرجه مسلم عن أبي بكر بن أبي شيبة عن يحيىٰ بن أبي بكر، وصحّ عن أنس أن رسول الله ﷺ: طلع له أُحد، فقال: «هذا جبل يُحبنا ونُحبه»، ورُويَ عن أبي هريرة يقول: صلّى بنا رسول الله ﷺ الصبح ثم أقبل على الناس بوجهه وقال: «بينما رجل يسوق بقرة إذْ عَيِـيَ فركبها فضربهـا، فقالت: إنّا لم نُخلَق لهذا إنما خُلقنا لحراثة الأرض، فقال الناس: سبحان الله بقرة تتكلم؟! فقال رسول الله ﷺ: فإنّـي أُومن به أنا وأبو بكر وعمر وما هُمَا ثَمّ»، وقال: «بينما رجل في غنم له إذْ عدا الذئب على شاة منها فأدركها صاحبها فاستنقذها»، فقال الذئب: فمَن لها يوم السبع، أي: يوم القيامة يوم لا راعي لها غيري؟! فقال الناس: سبحان الله ذئب يتكلم؟! فقال: «أومن به أنا وأبو بكر وعمر وما هما ثَمّ»، وصحّ عن أبي هريرة قال: كان رسول الله ﷺ على حِراء هو وأبو بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير، فتحرّكت الصخرة فقال النبي ﷺ: «اهدأ. أي: اسكن. فما عليك إلّا نبيّ أو صديق أو شهيد»، صحيح أخرجه مسلم، أنا عبد الله الصالحي أنا أبو سعيد يحيـىٰ بن أحمد بن علي الصانع، أنا أبو الحسن علي بن إسحاق بن هشام الرازي أنا محمد أيوب بن ضريس وهو بجلي الرازي، أنا محمد بن الصاح عن الوليد بن أبي ثور عن السدي عن عبادة بن أبي يزيد عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: (كنّا مع رسول الله ﷺ بمكة فخرجنا في نواحيها خارجاً من مكة بين الجبال والشجر فلم يمرّ بشجرة ولا جبل إلّا قال: السلام عليك يا رسول الله). أنا أبو الحسن عبد الوهاب بن محمد الخطيب أنا عبد العزيز بن أحمد الخلال أنا أبو العباس الأصم أنا الربيع، أنا الشافعي أنا عبد المجيد بن عبد العزيز عن ابن جُريج أخبرني أبو الزبير أنه سمع جابر بن عبد الله رضي الله عنه يقول: (كان النبي ﷺ إذا خطب استند إلى جذع نخلة من سواري المسجد، فلما صُنع له المنبر فاستوى عليه اضطربت تلك السارية، وحنّ كحنين الناقة حتى سمعها أهل المسجد حتى نزل رسول الله ﷺ فاعتنقها فسكنت). قال مجاهد: لا ينزل حجر من الأعلى إلى الأسفل إلّا من خشية الله، ويشهد لِما قلنا قوله تعالى: ﴿ لو أنزلنا هذا القرآنَ على جبلٍ لرأيتَهُ خاشعاً متصدّعاً من خشية الله، وتلك الأمثال نضْربها للناس لعلّهم يتفكّرون ﴾ [الحشر: ٢١].

قوله عزّ وجلّ: ﴿ وما الله بغافلٍ ﴾: بساهٍ ﴿ عمّا تعملون ﴾: وعيد وتهديد، وقيل: بتارك عقوبة ما تعملون، بل يجازيكم به، قرأ ابن كثير يعملون بالياء والآخرون بالتاء.

﴿۞ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾﴾

﴿**أفتطمعون**﴾ خطاب للنبي ﷺ لأنه هو الداعي إلى الإيمان وإنما ذكره بلفظ الجمع تعظيماً له، وقيل: هو خطاب للنبي ﷺ وأصحابه لأنهم كانوا يدعونهم إلى الإيمان أيضاً ومعنى أفتطمعون أفترجعون ﴿**أن يؤمنوا لكم**﴾ أي يصدقكم اليهود بما تخبرونهم وقيل: معناه أفتطمعون أن يؤمنوا لكم مع أنهم لم يؤمنوا بموسى عليه الصلاة والسلام وكان هو السبب في خلاصهم من الذل وظهور المعجزات على يده ﴿**وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله**﴾ قيل المراد بالفريق: هم الذين كانوا مع موسى يوم الميقات، وهم الذين سمعوا كلام الله تعالى، وقيل المراد بهم: الذي كانوا في زمن النبي ﷺ، وهو الأقرب لأن الضمير راجع إليهم في أفتطمعون أن يؤمنوا لكم، فعلى هذا يكون معنى يسمعون كلام الله يعني التوراة، لأنه يصح أن يقال لمن يسمع التوراة يسمع كلام الله ﴿**ثم يحرفونه**﴾ أي يغيرون كلام الله، ويبدلونه فمن فسر الفريق الذين يسمعون كلام الله بالفريق الذين كانوا مع موسى عليه السلام استدل بقول ابن عباس رضي الله عنهما إنها نزلت في السبعين الذين اختارهم موسى لميقات ربه، وذلك لأنهم لما رجعوا إلى قومهم بعد ما سمعوا كلام الله أما الصادقون منهم فإنهم أدوا كما سمعوا وقالت طائفة منهم: سمعنا الله يقول في آخر كلامه إن استطعتم أن تفعلوا فافعلوا وإن شئتم فلن تفعلوا، فكان هذا تحريفهم ومن فسر الفريق الذين كانوا يسمعون كلام الله بالذين كانوا في زمن النبي ﷺ قال كان تحريفهم تبديلهم صفة النبي ﷺ وآية الرجم في التوراة ﴿**من بعد ما عقلوه**﴾ أي علموا صحة كلام الله ومراده فيه ثم مع ذلك خالفوه ﴿**وهم يعلمون**﴾ أي فساد مخالفته ويعلمون أيضاً أنهم كاذبون. قوله عز وجل ﴿**وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا**﴾ نزلت هذه الآية في اليهود، الذين كانوا في زمن النبي ﷺ قال ابن عباس رضي الله عنهما: إن منافقي اليهود كانوا إذا لقوا أصحاب رسول الله ﷺ قالوا لهم: آمنا بالذي آمنتم به وإن صاحبكم صادق وقوله حق وإنا نجد نعته وصفته في كتابنا ﴿**وإذا**

قوله عزّ وجلّ: ﴿ **أفتطمعون** ﴾: أفترجون، يُريد محمداً وأصحابه، ﴿ **أن يُؤمنوا لكم** ﴾: تصدقكم اليهود بما تخبرونهم به؟ ﴿ **وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله** ﴾، يعني: التوراة، ﴿ **ثم يحرّفونه** ﴾: يغيّرون ما فيها من الأحكام، ﴿ **من بعد ما عقلوه** ﴾: علموه غيّر واصفة محمد ﷺ، وآية الرجم، ﴿ **وهم يعلمون** ﴾: أنهم كاذبون، هذا قول مجاهد وقتادة وعكرمة والسدي وجماعة، وقال ابن عباس ومقاتل: نزلت في السبعين الذين اختارهم موسى لميقات ربّه، وذلك أنهم لمّا رجعوا بعدما سمعوا كلام الله إلى قومهم رجع الناس إلى قولهم، وأما الصادقون منهم فأدّوا كما سمعوا، وقالت طائفة منهم: سمعنا الله يقول في آخر كلامه إن استطعتم أن تفعلوا، فهذا تحريفهم وهم يعلمون أنه الحق.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ **وإذا لقوا الذين آمنوا** ﴾، قال ابن عباس والحسن وقتادة: يعني: منافقي اليهود الذين آمنوا بألسنتهم إذا لقوا المؤمنين المخلصين، ﴿ **قالوا آمنّا** ﴾، كإيمانكم، ﴿ **وإذا خلا** ﴾: رجع ﴿**بعضهم إلى بعض**﴾ كعب بن الأشرف وكعب بن أسد ووهب بن يهودا، أو غيرهم من رؤساء اليهود، لأمرهم على ذلك، ﴿ **قالوا أتحدّثونهم بما فتح الله عليكم** ﴾: بما قصّ الله عليكم في كتابكم أن محمداً حق وقوله صدق، والفتّاح: القاصّ، وقال الكسائي: بما بيّنه لكم من العلم بصفة محمد ﷺ ونعته، وقال الواقدي: بما أنزل الله عليكم وأعطاكم،

خلا بعضهم إلى بعض﴾ يعني كعب بن الأشرف وكعب بن أسد ووهب بن يهودا ورؤساء اليهود لاموا منافقي اليهود على ذلك و﴿قالوا أتحدثونهم بما فتح الله عليكم﴾ يعني قص الله عليكم في كتابكم من صفة محمد ﷺ وأنه حق وقوله صدق ﴿ليحاجوكم به﴾ أي ليخاصمكم أصحاب محمد ﷺ ويحتجوا عليكم بقولكم فيقولون لكم قد أقررتم أنه نبي حق في كتابكم لم لا تتبعونه، وذلك أن اليهود قالوا لأهل المدينة حين شاوروهم في إتباع محمد ﷺ: آمنوا به فإنه نبي حق ثم لام بعضهم بعضاً، وقالوا: أتحدثونهم بما فتح الله عليكم لتكون لهم الحجة عليكم ﴿عند ربكم﴾ أي في الدنيا والآخرة وقيل: هو قول يهود بني قريظة بعضهم لبعض. حين قال لهم النبي ﷺ: يا إخوان القردة والخنازير. قالوا: من أخبر محمداً بهذا؟ هذا ما خرج إلا منكم وقيل: إن اليهود أخبروا المؤمنين بما عذبهم الله به من الجنايات. فقال بعضهم لبعض: أتحدثونهم بما قضى الله عليكم من العذاب ليروا الكرامة لأنفسهم عليكم عند الله ﴿أفلا تعقلون﴾ أي إن ذلك لا يليق بما أنتم عليه.

أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾

﴿أو لا يعلمون﴾ يعني اليهود ﴿أن الله يعلم ما يسرون﴾ أي ما يخفون ﴿وما يعلنون﴾ أي ما يبدون وما يظهرون. قوله عز وجل: ﴿ومنهم﴾ أي من اليهود ﴿أميون﴾ أي لا يحسنون الكتابة ولا القراءة جمع أمي وهو المنسوب إلى أمه كأنه باق على ما انفصل من الأم لم يتعلم كتابة ولا قراءة ﴿لا يعلمون الكتاب إلا أماني﴾ جمع أمنية وهي التلاوة، ومنه قول الشاعر:

تمنـــى كتـــاب الله أول ليلـــة … تمنـــى داود الـــزبـــور علـــى رســـل

ونظيره ﴿ لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ﴾ [الأعراف: ٩٦]، أي: أنزلنا، وقال أبو عبيدة: بما منّ الله عليكم وأعطاكم، ﴿ ليحاجّوكم به ﴾: ليخاصموكم به، ويعني: أصحاب محمد ﷺ ويحتجّوا بقولكم عليكم، فيقولوا: قد أقررتم أنه نبي حق في كتابكم، ثم لا تتبعونه؟ وذلك أنهم قالوا لأهل المدينة حين شاوروهم في اتّباع محمد ﷺ آمنوا به فإنه حق، ثم قال بعضهم لبعض: أتحدّثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجّوكم به؟. ويعني: لتكون لهم الحجة عليكم. ﴿ عند ربّكم ﴾ الآخرة، وقيل: إنهم أخبروا المؤمنين بما عذّبهم الله به على الجنايات، فقال بعضهم لبعض: أتحدّثونهم بما أنزل الله عليكم من العذاب ليحاجّوكم به عند ربكم، ليروا الكرامة لأنفسهم عليكم عند الله، وقال مجاهد: هو قول يهود قريظة، قال بعضهم لبعض حين قال لهم النبيّ ﷺ يا إخوان القردة والخنازير، فقالوا: مَن أخبر محمداً بهذا؟ ما خرج هذا إلّا منكم، ﴿ أفلا تعقلون ﴾.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ أوَ لا يعلمون أن الله يعلم ما يسرّون ﴾: يخفون، ﴿ وما يعلنون ﴾: يبدون، يعني اليهود.

وقوله تعالى: ﴿ ومنهم أُمّيون ﴾، أي: من اليهود أمّيون لا يحسنون القراءة والكتابة، جمع: أُمّي، منسوب إلى الأم كأنه باقٍ على ما انفصل من الأم لم يعلم كتابة ولا قراءة، ورُوِيَ عن الرسول ﷺ أنه قال: «إنّا أُمّة أُمّيّة»، أي: لا نكتب ولا نحسب، وقيل: هو منسوب إلى أُمّ القرى وهي مكّة، ﴿ لا يعلمون الكتاب إلا أماني ﴾، قرأ أبو جعفر: ﴿ أماني ﴾، بتخفيف الياء، كل القرآن، حذف إحدى الياءين تخفيفاً، وقراءة العامّة بالتشديد، وهو جمع:

أي تلا كتاب الله. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: معناه غير عارفين بمعاني كتاب الله تعالى وقيل الأماني الأحاديث الكاذبة المختلفة وهي الأشياء التي كتبها علماؤهم من عند أنفسهم وأضافوها إلى الله تعالى وذلك من تغيير نعت النبي ﷺ وصفته وغير ذلك، وقيل: هو من التمني وهو قولهم: ﴿لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة﴾ وغير ذلك مما تمنوه فعلى هذا يكون المعنى لا يعلمون الكتاب. لكن يتمنون أشياء لا تحصل لهم ﴿**وإن هم إلا يظنون**﴾ أي على يقين ﴿**فويل**﴾ الويل كلمة تقولها العرب لكل من وقع في هلكة وأصلها في اللغة العذاب والهلاك وقال ابن عباس: الويل شدة العذاب وعن أبي سعيد الخدري. قال قال رسول الله ﷺ: «الويل واد في جهنم يهوي فيه الكافر أربعين خريفاً قبل أن يبلغ قعره» أخرجه الترمذي وقال حديث غريب. الخريف سنة ﴿**للذين يكتبون الكتاب بأيديهم**﴾ تأكيد للكتابة لأنه يحتمل أن يأمر غيره بأن يكتب فقال: بأيديهم لنفي هذه الشبهة والمراد بالذين يكتبون الكتاب اليهود وذلك أن رؤساء اليهود خافوا ذهاب مآكلهم وزوال رياستهم حين قدم النبي ﷺ المدينة فاحتالوا في تعويق سفلتهم عن الإيمان به فعمدوا إلى صفته في التوراة فغيروها، وكانت صفته فيها حسن الوجه حسن الشعر أكحل العينين ربعة فغيروا ذلك وكتبوا مكانه طوال أزرق العينين سبط الشعر فكانوا إذا سألهم سفلتهم عن ذلك قرأوا عليهم ما كتبوا ﴿**ثم يقولون هذا من عند الله**﴾ يعني هذه الصفة التي كتبوها. فإذا نظروا إلى النبي ﷺ وإلى تلك وجدوه مخالفاً لها فيكذبونه ويقولون إنه ليس به ﴿**ليشتروا به**﴾ أي بما كتبوا ﴿**ثمناً قليلاً**﴾ أي المآكل

أُمنية وهي التلاوة، وقال الله تعالى: ﴿ إلاّ إذا تمنّى ألقى الشيطان في أُمنيته ﴾ [الحج: ٥٢]، أي: في قراءته، قال أبو عبيدة: إلاّ تلاوة وقراءة عن ظهر القلب لا يقرؤنه من كتاب، وقيل: يعلمونه حفظاً وقراءةً لا يعرفون معناه، قال ابن عباس: يعني غير عارفين بمعاني الكتابَ وقال مجاهد وقتادة: إلاّ كذباً وباطلاً، قال الفرّاء: إلاّ أماني: الأحاديث المفتعلة، قال عثمان رضي الله عنه: ما تمنيت منذ أسلمت، أي: ما كذبت وأراد بها الأشياء التي كتبها علماؤهم من عند أنفسهم، ثم أضافوها إلى الله من تغيير نعت النبيّ ﷺ وغيره، وقال الحسن وأبو العالية: هي من التمنّي وهي أمانيهم الباطلة التي يتمنّونها على الله عزّ وجلّ، مثل قولهم: ﴿ لنْ يدخل الجنّة إلاّ مَنْ كان هُوداً أو نصارى ﴾ [البقرة: ١١١]، وقولهم: ﴿ لنْ تَمَسّنا النارُ إلاّ أياماً معدودة ﴾ [البقرة: ٨٠]، وقولهم: ﴿ نحن أبناء الله وأحباؤه ﴾ [المائدة: ١٨]، فعلى هذا لا يكون بمعنى لكن، أي لا يعلمون الكتاب لكن يتمنّون أشياء لا تحصل لهم، ﴿ وإنْ هم ﴾، وما هم ﴿ إلاّ يظنون ﴾، يعني: وما يظنون إلاّ ظنّاً وتوهماً لا يقيناً قاله قتادة والربيع، وقال مجاهد: يكذبون.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ فويل ﴾، قال الزجّاج: ويل، كلمة تقولها العرب لكل واقع في هلكة، وقيل: هو دعاء الكفّار على أنفسهم بالويل والثبور، وقال ابن عباس: شدّة العذاب، وقال سعيد بن المسيب: ويل واد في جهنم لو سيّرت فيه جبال الدنيا لانْماعتْ ولَذابتْ من شدّة حرّها، أخبرنا أبو بكر محمد بن عبد الله الخلّال، أنا عبد الله بن المبارك عن راشيد بن سعد عن عمرو بن الحارث أنه حدّث عن أبي السمع عن أبي الهيثم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبيّ ﷺ قال: «الويل وادٍ في جهنم يهوي فيه الكافر أربعين خريفاً قبل أن يبلغ قعره، والصعود جبل من نار يتصعّد فيه سبعين خريفاً ثم يهوي فهو كذلك»، ﴿ **للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً** ﴾، وذلك أن أحبار اليهود خافوا ذهاب مآكلهم وزوال رياستهم حين قَـدِمَ النبـيّ ﷺ المدينـة، فاحتالوا في تعويق اليهود عن الإيمان به فعمدوا إلى صفته في التوراة، وكانت صفته فيها حسن الوجه حسن الشعر أكحل العينين ربعة القامة فغيّروها وكتبوا مكانها طوال أزرق سبط الشعر، فإذا سألهم سفلتهم عن صفته

والرشا التي كانوا يأخذونها من سفلتهم، قال الله تعالى: ﴿**فويل لهم بما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون**﴾.

قوله عز وجل:

﴿وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾﴾

﴿**وقالوا**﴾ أي اليهود ﴿**لن تمسنا**﴾ أي لن تصيبنا ﴿**النار إلا أياماً معدودة**﴾ أي قدراً مقدراً ثم يزول عنا العذاب قال ابن عباس: قالت اليهود: مدة الدنيا سبعة آلاف سنة، وإنما نعذب بكل ألف سنة يوماً ثم ينقطع عنا العذاب بعد سبعة أيام وقيل: إنهم عنوا بالأيام الأربعين يوماً التي عبدوا فيها العجل وقيل: إن اليهود زعموا أن الله تعالى عتب عليهم في أمر فأقسم ليعذبنهم أربعين يوماً تحلة القسم فقال الله رداً عليهم وتكذيباً لهم ﴿**قل**﴾ أي يا محمد لليهود ﴿**أتخذتم عند الله عهداً**﴾ أي موثقاً أن لا يعذبكم إلا هذه المدة ﴿**فلن يخلف الله عهده**﴾ أي وعده ﴿**أم تقولون على الله ما لا تعلمون بلى**﴾ إثبات لما بعد حرف النفي وهو قوله: لن تمسنا النار والمعنى بلى تمسكم النار أبداً ﴿**من كسب سيئة**﴾ السيئة اسم يتناول جميع المعاصي كبيرة كانت أو صغيرة، والسيئة هنا الشرك في قول ابن عباس ﴿**وأحاطت به خطيئته**﴾ أي أحدقت به من جميع جوانبه قال ابن عباس: هي الشرك يموت عليه صاحبه وقيل: أحاطت به أي أهلكته خطيئته وأحبطت ثواب طاعته فعلى مذهب أهل السنة يتعين تفسير السيئة والخطيئة في هذه

قرؤوا ما كتبوه فيجدونه مخالفاً لصفته ويُكذّبونه، قال الله تعالى: ﴿ **فويلٌ لهم مما كتبت أيديهم** ﴾، يعني: كتبوه بأنفسهم اختراعاً من تغيير نعته ﷺ، ﴿ **وويلٌ لهم مما يكسبون** ﴾: من المآكل، ويقال: من المعاصي.

﴿ **وقالوا** ﴾، يعني اليهود ﴿ **لنْ تمسّنا النار** ﴾: لن تصيبنا النار، ﴿ **إلّا أياماً معدودة** ﴾: قدراً مقدّراً ثم يزول عنّا العذاب، واختلفوا في هذه الأيام، فقال ابن عباس ومجاهد: كانت اليهود يقولون مدة الدنيا سبعة آلاف سنة وإنما نعذّب بكل ألف سنة يوماً واحداً ثم ينقطع العذاب بعد سبعة أيام، وقال قتادة وعطاء: يعنون أربعين يوماً التي عبَد فيها آباؤهم العجل، وقال الحسن وأبو العالية: قالت اليهود: إن ربّنا عتب علينا في أمرنا فأقسم الله ليعذّبنا أربعين يوماً فلن تمسّنا النار إلّا أربعين يوماً تحلّة القسم، فقال الله عزّ وجلّ تكذيباً لهم، ﴿ **قل** ﴾: يا محمد ﴿ **اتخذتم عند الله** ﴾ ألف استفهام دخلت على ألف الوصل، ﴿ **عهداً** ﴾ موثقاً أن لا يعذبكم إلّا هذه المدة، ﴿ **فلن يخلف الله عهده** ﴾، وعده، قال ابن مسعود: عهداً بالتوحيد يدلّ عليه قوله تعالى: ﴿**إلّا مَن اتخذ عند الرحمن عهداً** ﴾ [مريم: ٨٧]، يعني: قوله لا إله إلّا الله، ﴿ **أم تقولون على الله ما لا تعلمون** ﴾؟ ثم قال:

﴿ **بلى** ﴾، وبلى وبل: حرفا استدراك، ومعناهما نفي الخبر الماضي وإثبات الخبر المستقبل، ﴿ **مَن كسب سيّئة** ﴾، يعني الشرك ﴿ **وأحاطت به خطيئته** ﴾، قرأ أهل المدينة ﴿ **خطيئاته** ﴾ بالجمع، والإحاطة: الإحداق بالشيء ومن جميع نواحيه، قال ابن عباس وعطاء والضحّاك وأبو العالية والربيع وجماعة: هي الشرك يموت عليه، وقيل: السيئة الكبيرة والإحاطة به أن يصرّ عليها فيموت غير تائب، قال عكرمة والربيع بن خيثم، قال الواحدي رحمه الله في تفسيره الوسيط: المؤمنون لا يدخلون في حكم هذه الآية لأن الله تعالى أوعد بالخلود في النار مَن أحاطت به خطيئته، وتقدّمت منه سيئة وهي الشرك، والمؤمن وإن عمل الكبائر لم يوجد منه الشرك، وقال مجاهد: هي الذنوب تحيط بالقلب كلما عمل ذنباً ارتفعت حتى يغشى القلب، وهي الرين، قال الكلبي: أوبقته

الآية، بالكفر والشرك لقوله تعالى: ﴿فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ فإن الخلود في النار هو للكفار والمشركين.

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّلِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَاءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾﴾

﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾. فإن قلت: العمل الصالح خارج عن اسم الإيمان لأنه تعالى قال: ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ فلو دل الإيمان على العمل الصالح لكان ذكر العمل الصالح بعد الإيمان تكراراً. قلت: أجاب بعضهم بأن الإيمان وإن كان يدخل فيه جميع الأعمال الصالحة إلا أن قوله: آمن لا يفيد إلا أنه فعل فعلاً واحداً من أفعال الإيمان فإذا حسن أن يقول: والذين آمنوا وعملوا الصالحات وقيل: إن قوله آمنوا يفيد الماضي وعملوا الصالحات يفيد المستقبل فكأنه تعالى قال آمنوا أولاً ثم داوموا عليه آخراً ويدخل فيه جميع الأعمال الصالحات ﴿أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون﴾ قوله عز وجل: ﴿وإذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل﴾ يعني في التوراة. والميثاق العهد الشديد ﴿لا تعبدون إلا الله﴾ أي أمر الله تعالى بعبادته فيدخل تحته النهي عن عبادة غيره لأن الله تعالى هو المستحق للعبادة لا غيره ﴿وبالوالدين إحساناً﴾ أي براً بهما ورحمة لهما ونزولاً عند أمرهما فيما لا يخالف أمر الله تعالى ويوصل إليهما ما يحتاجان إليه، ولا يؤذيهما البتة وإن كانا كافرين بل يجب عليه الإحسان إليهما ومن الإحسان إليهما أن يدعوهما إلى الإيمان بالرفق واللين، وكذا إن كانا فاسقين يأمرهما بالمعروف بالرفق، واللين من غير عنف وإنما عطف بر الوالدين على الأمر بعبادته، لأن شكر المنعم واجب، ولله على عبده أعظم النعم لأنه هو الذي خلقه وأوجده بعد العدم فيجب تقديم شكره على شكر، غيره ثم إن للوالدين على الولد نعمة عظيمة، لأنهما السبب في كون الولد ووجوده ثم إن لهما عليه حق التربية أيضاً فيجب شكرهما ثانياً ﴿وذي القربى﴾ أي القرابة لأن حق القرابة تابع لحق الوالدين والإحسان إليهم: إنما هو بواسطة الوالدين فلهذا حسن عطف القرابة على الوالدين ﴿واليتامى﴾ جمع يتيم وهو الذي مات أبوه وهو طفل صغير، فإذا بلغ الحلم زال عنه اليتم وتجب رعاية حقوق اليتيم لثلاثة أمور: لصغره ويتمه ولخلوه، عمن يقوم بمصلحته إذ لا يقدر هو أن ينتفع بنفسه، ولا يقوم بحوائجه ﴿والمساكين﴾ جمع مسكين وسيأتي بيانه إن شاء الله تعالى وإنما تأخرت درجة

ذنوبه، دليله قوله تعالى: ﴿ إلاّ أن يُحاط بكم ﴾ [يوسف: ٦٦]، أي: تهلكوا، ﴿ فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾.

﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك أصحاب الجنّة هم فيها خالدون ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وإذْ أخذنا ميثاق بني إسرائيل ﴾: في التوراة والميثاق العهد الشديد، ﴿ لا تعبدون إلاّ الله ﴾، قرأ ابن كثير وحمزة والكسائي «لا يعبدون»، بالياء، والآخرون بالتاء، كقوله تعالى: ﴿ وقولوا للناس حُسناً ﴾ [البقرة: ٨٣]، معناه أن لا تعبدوا، فلما حذف (أن) صار الفعل مرفوعاً وقرأ أُبيّ بن كعب: «لا تعبدوا»، على النهي، ﴿ وبالوالدين ﴾، أي: وصّيناهم بالوالدين، ﴿ إحساناً ﴾ برّاً بهما وعطفاً عليهما ونزولاً عند أمرهما فيما لا يخالف أمر الله تعالى، ﴿ وذي القربى ﴾، أي: وبذي القرابة، والقربى مصدر كالحسنى، ﴿ واليتامى ﴾، جمع

المساكين عن اليتامى، لأنه قد يمكن أن ينتفع بنفسه وينفع غيره بالخدمة ﴿وقولوا للناس حسناً﴾ فيه وجهان: أحدهما: أنه خطاب للحاضرين من اليهود في زمن النبي ﷺ فلهذا عدل من الغيبة إلى الحضور، والمعنى قولوا: حقاً وصدقاً في شأن محمد ﷺ فمن سألكم عنه فأصدقوه وبينوا صفته ولا تكتموها قاله ابن عباس. الوجه الثاني إن المخاطبين به هم الذين كانوا في زمن موسى عليه السلام، وأخذ عليهم الميثاق وإنما عدل من الغيبة إلى الحضور على طريق الالتفات كقوله: ﴿حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم﴾ وقيل: فيه حذف تقديره وقلنا لهم: في الميثاق وقولوا: للناس حسناً ومعناه مروهم بالمعروف وانهوهم عن المنكر وقيل هو اللين في القول والعشرة وحسن الخلق ﴿وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة﴾ ولما أمرهم الله تعالى بهذه التكاليف الثمانية لتكون لهم المنزلة عنده بما التزموا به أخبر عنهم أنهم ما وفوا بذلك بقوله تعالى: ﴿ثم توليتم﴾ أي أعرضتم عن العهد ﴿إلا قليلاً منكم﴾ يعني من الذين آمنوا كعبدالله بن سلام وأصحابه فإنهم وفوا بالعهد ﴿وأنتم معرضون﴾ أي كإعراض آبائكم. قوله عز وجل: ﴿وإذ أخذنا ميثاقكم﴾ قيل: هو خطاب لمن كان في زمن النبي ﷺ من اليهود وقيل: هو خطاب لآبائهم وفيه تقريع لهم ﴿لا تسفكون﴾ أي لا تريقون ﴿دماءكم﴾ أي لا يسفك بعضكم دم بعض وقيل: معناه لا تسفكوا دماء غيركم فيسفك دماءكم فكأنكم أنتم سفكتم دماء أنفسكم ﴿ولا تخرجون أنفسكم من دياركم﴾ أي لا يخرج بعضكم بعضاً من داره، وقيل: لا تفعلوا شيئاً فتخرجوا بسببه من دياركم ﴿ثم أقررتم﴾ أي بهذا العهد أنه حق ﴿وأنتم تشهدون﴾ يعني أنتم يا معشر اليهود اليوم تشهدون على ذلك.

﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾﴾

﴿ثم أنتم هؤلاء﴾ يعني يا هؤلاء اليهود ﴿تقتلون أنفسكم﴾ أي يقتل بعضكم بعضاً ﴿وتخرجون فريقاً منكم

يتيم وهو الطفل الذي لا أب له، ﴿والمساكين﴾، يعني: الفقراء، ﴿وقولوا للناس حُسناً﴾: صدقاً وحقّاً في شأن محمد ﷺ، فمَن سألكم عنه فأصدقوه وبيّنوا صفته لا تكتموا أمره، هذا قول ابن عباس وسعيد بن جبير وابن جريج ومقاتل، وقال سفيان الثّوري: مُروهم بالمعروف وانهوهم عن المنكر، وقيل: هو اللّين في القول والمعاشرة بحُسْن الخلق، قرأ حمزة والكسائي ويعقوب «حسناً» بفتح الحاء والسين، أي: قولاً حسَناً، ﴿وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ثم تولّيتم﴾، أعرضتم عن العهد والميثاق، ﴿إلّا قليلاً منكم﴾، وذلك أن قوماً منهم آمنوا، ﴿وأنتم معرضون﴾، كإعراض آبائكم.

قوله عزّ وجلّ: ﴿وإذْ أخذنا ميثاقكم لا تسفكون﴾، أي: لا تريقون ﴿دماءكم﴾، أي: لا يسفك بعضكم دمَ بعض، وقيل: لا تسفكوا دماء غيركم فيسفك دماءكم فكأنكم سفكتم دماء أنفسكم، ﴿ولا تُخرجون أنفسكم من دياركم﴾: لا يُخرج بعضكم بعضاً من داره، وقيل لا تسيئوا جوار مَن جاوركم فتلجؤوهم إلى الخروج بسوء جواركم، ﴿ثم أقررتم﴾: بهذا العهد أنه حق وقبلتم، ﴿وأنتم تشهدون﴾: اليوم على ذلك يا معشر اليهود وتعترفون بالقبول.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ثم أنتم هؤلاء﴾، يعني: يا هؤلاء، وهؤلاء للتنبيه، ﴿تقتلون أنفسكم﴾، أي: يقتل

من ديارهم﴾ أي يخرج بعضكم بعضاً من ديارهم ﴿تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان﴾ أي تتعاونون عليهم بالمعصية والظلم ﴿وإن يأتوكم أسارى﴾ جمع أسير ﴿تفادوهم﴾ أي بالمال وهو استنقاذهم بالشراء، وقرىء تفادوهم أي تبادلوهم وهو مفاداة الأسير بالأسير، ومعنى الآية أن الله تعالى أخذ على بني إسرائيل في التوراة أن لا يقتل بعضهم بعضاً. ولا يخرج بعضهم بعضاً من ديارهم وأيما عبد أو أمة من بني إسرائيل وجدتموه فاشتروه بما قام من ثمنه، وأعتقوه وكانت قريظة حلفاء الأوس والنضير حلفاء الخزرج، وكان بين الأوس والخزرج حروب فكانت بنو النضير تقاتل مع حلفائهم وبنو قريظة تقاتل مع حلفائهم فإذا غلب أحد الفريقين أخرجوهم من ديارهم وخربوها. وكان إذا أسر رجل من الفريقين جمعوا له مالاً يفدونه به فعيرتهم العرب. وقالوا: كيف تقاتلونهم ثم تفدونهم؟ فقالوا: إنا أمرنا أن نفديهم فقالوا: كيف تقاتلونهم؟ فقالوا: إنا نستحي أن تذل حلفاؤنا فعيرهم الله تعالى فقال: ﴿ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم﴾ وفي الآية تقديم وتأخير تقديره وتخرجون فريقاً منكم من ديارهم تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان ﴿وهو محرم عليكم إخراجهم﴾ وإن يأتوكم أسارى تفدوهم فكان الله تعالى أخذ عليهم أربعة عهود ترك القتل وترك الإخراج وترك المظاهر مع أعدائهم وفك أسراهم فأعرضوا عن الكل إلا الفداء قال الله عز وجل: ﴿أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض﴾ معناه إن وجدتموهم في يد غيركم فديتموهم وأنتم تقتلونهم بأيديكم فكان إيمانهم الفداء وكفرهم قتل بعضهم بعضاً فذمهم على مناقضة أفعالهم لا على الفداء لأنهم أتوا ببعض ما وجب عليهم وتركوا البعض ﴿فما جزاء من يفعل ذلك منكم﴾ يعني يا معشر اليهود ﴿إلا خزي في الحياة الدنيا﴾ أي عذاب وهوان فكان خزي بني قريظة القتل والسبي وخزي بني النضير الإجلاء والنفي من منازلهم إلى أريحاء

بعضكم بعضاً، ﴿ وتُخرجون فريقاً منكم منْ ديارهم تظاهرون عليهم ﴾، بتشديد الظاء، أي تتظاهرون، أُدغمت التاء في الظاء، وقرأ عاصم وحمزة والكسائي بتخفيف الظاء فحذفوا تاء التفاعل وأبقوا تاء الخطاب، كقوله تعالى: ﴿ ولا تعاونوا ﴾ [المائدة: ٢]، معناهما جميعاً تتعاونون، والظهير: العون، ﴿ بالإثم والعدوان ﴾: بالمعصية والظلم، ﴿ وإن يأتوكم أُسارى ﴾، قرأ حمزة «أسرى»، وهما جمع: أسير، ومعناهما واحد، ﴿ تفادوهم ﴾: بالمال وتنقذوهم، وقرأ أهل المدينة وعاصم والكسائي ويعقوب تفادوهم، أي: تبادلوهم، أراد مفاداة الأسير بالأسير، وقيل: معنى القراءتين واحد، ومعنى الآية: قال السدّي: إنّ الله تعالى أخذ على بني إسرائيل في التوراة أن لا يقتل بعضهم بعضاً ولا يُخرج بعضهم بعضاً من ديارهم، وأيما عبد أو أمة وجدتموه من بني إسرائيل فاشتروه بما قام من ثمنه وأعتقوه، وكانت قريظة حلفاء الأوس والنضير حلفاء الخزرج، وكان يقتلون في حرب سنين، فيقاتل بنو قريظة مع حلفائهم وبنو النضير مع حلفائهم وإذا غلبوا خرّبوا ديارهم وأخرجوهم منها، وإذا أُسر رجل من الفريقين جمعوا له حتى يفدوه وإن كان الأسير من عدوّهم، فتعيّرهم العرب ويقولون: كيف تقاتلونهم وتفدونهم؟ قالوا: إنّا أُمرنا أن نفديهم، فيقولون فلِمَ تقاتلوهم؟ قالوا: إنّا نستحي أن تذلّ حلفاؤنا، فعيّرهم الله تعالى، فقال: ﴿ ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم ﴾ وفي الآية تقديم وتأخير، ونظمها: وتخرجون فريقاً منكم من ديارهم تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان، ﴿ وهو محرّم عليكم إخراجهم ﴾، وإن يأتوكم أسارى تفادوهم فكان الله تعالى أخذ عليهم أربعة عهود: ترك القتال وترك الإخراج وترك المظاهرة عليهم مع أعدائهم وفداء أسرائهم، فأعرضوا عن الكل إلاّ الفداء، قال الله تعالى: ﴿ أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض ﴾، قال مجاهد يقول: إن وجدته في يد غيرك فديته وأنت تقتله بيدك، ﴿ فما جزاء مَن يفعل ذلك منكم ﴾: يا معشر اليهود، ﴿ إلاّ خزي ﴾: عذاب وهوان، ﴿ في الحياة الدّنيا ﴾، فكان خزي بني قريظة القتل والسبي، وخزي بني النضير الجلاء والنفي من منازلهم إلى أذرعات وأريحاء من الشام، ﴿ ويوم القيامة يُردُّون إلى أشدّ العذاب ﴾، وهو عذاب النار، ﴿ وما الله بغافل عمّا

وأذرعات من أرض الشام ﴿ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب﴾ يعني عذاب النار ﴿وما الله بغافل عما تعملون﴾ فيه وعيد وتهديد عظيم.

أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا بِٱلۡأٓخِرَةِۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَقَفَّيۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِۦ بِٱلرُّسُلِۖ وَءَاتَيۡنَا عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدۡنَٰهُ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمۡ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهۡوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ فَفَرِيقٗا كَذَّبۡتُمۡ وَفَرِيقٗا تَقۡتُلُونَ ﴿٨٧﴾ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلۡفُۢۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفۡرِهِمۡ فَقَلِيلٗا مَّا يُؤۡمِنُونَ ﴿٨٨﴾

﴿أولئك الذين اشتروا﴾ أي استبدلوا ﴿الحياة الدنيا بالآخرة﴾ لأن الجمع بين لذات الدنيا والآخرة غير ممكن فمن اشتغل بتحصيل لذات الدنيا فاتته لذات الآخرة ﴿فلا يخفف عنهم العذاب﴾ أي فلا يهون عليهم ﴿ولا هم ينصرون﴾ أي ولا يمنعون من عذاب الله تعالى. قوله عز وجل: ﴿ولقد آتينا﴾ أي أعطينا ﴿موسى الكتاب﴾ يعني التوراة جملة واحدة ﴿وقفينا﴾ أي وأتبعنا من التقفية وهو أن يقفو أثر الآخر ﴿من بعده بالرسل﴾ يعني رسولاً بعد رسول وكانت الرسل بعد موسى إلى زمن عيسى عليهم السلام متواترة يظهر بعضهم في أثر بعض، والشريعة واحدة: قيل إن الرسل بعد موسى يوشع بن نون وأشمويل وداود وسليمان وأرمياء وحزقيل وإلياس ويونس وزكريا ويحيى وغيرهم، وكانوا يحكمون بشريعة موسى إلى أن بعث الله تعالى عيسى عليه السلام فجاءهم بشريعة جديدة، وغير بعض أحكام التوراة فذلك قوله تعالى: ﴿وآتينا عيسى ابن مريم البينات﴾ أي الدلالات الواضحات وهي المعجزات من إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص، وقيل هي الإنجيل. واسم عيسى بالسريانية أيشرع ومريم بمعنى الخادم وقيل هو اسم علم لها كزيد من الرجال ﴿وأيدناه﴾ أي وقويناه ﴿بروح القدس﴾ قيل: أراد بالروح

تعلمون ﴾، قرأ ابن كثير ونافع وأبو بكر بالياء، والباقون بالتاء.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ **أولئك الذين اشتروا** ﴾: استبدلوا ﴿ **الحياة الدنيا بالآخرة فلا يخفّف** ﴾، يهون ﴿ **عنهم العذاب ولا هم ينصرون** ﴾، لا يُمنعون من عذاب الله عزّ وجلّ.

﴿ **ولقد آتينا** ﴾: أعطينا ﴿ **موسى الكتاب** ﴾: التوراة جملة واحدة، ﴿ **وقفّينا** ﴾: وأتبعنا، ﴿ **من بعده بالرّسل** ﴾: رسولاً بعد رسول، ﴿ **وآتينا عيسى ابن مريم البيّنات** ﴾: الدّلالات الواضحات، وهي ما ذكر الله في سورة آل عمران والمائدة، وقيل: أراد الإنجيل، ﴿ **وأيّدناه** ﴾: قوّيناه ﴿ **بروح القدس** ﴾، قرأ ابن كثير ﴿ **القدس** ﴾ بسكون الدال، والآخرون بضمّها، وهما لغتان مثل: الرعب والرعب، واختلفوا في روح القدس، قال الربيع وغيره: أراد الروح الذي لا نفخ فيه، والقدس هو الله أضافه إلى نفسه تكريماً وتخصيصاً، أي: التي نفخ فيه، نحو بيت الله وناقة الله، كما قال: ﴿ فنفخنا فيه منْ رُوحنا ﴾ [الأنبياء: ٩١، التحريم: ١٢]، ﴿ وروح منه ﴾ [النساء: ١٧١]، وقيل: أراد بالقدس: الطهارة، يعني: الروح الطاهرة، سمّى روحه قدساً لأنه لم تتضمنه أصلاب الفحول ولم تشتمل عليه أرحام الطوامث، إنما كان أمراً من أمر الله تعالى، قال قتادة والسدي والضحاك: روح القدس جبريل عليه السلام، وقيل: وصف جبريل بالقدس أي بالطهارة، لأنه لم يقترف ذنباً، وقال الحسن: القدس هو الله وروحه جبريل، قال الله تعالى: ﴿ قل نزّله روح القدس من ربك بالحق ﴾ [النحل: ١٠٢]، وتأييد عيسى بجبريل عليهما السلام أنه أمر أن يسير معه حيث سار حتى صعد به إلى السماء، وقيل: سُمّي جبريل عليه السلام روحاً للطافته ولمكانته من الوحي الذي هو سبب حياة القلوب، وقال ابن عباس وسعيد بن جبير: روح القدس هو

الذي نفخ فيه والقدس هو الله تعالى وأضاف روح عيسى إليه تشريفاً وتكريماً وتخصيصاً له كما تقول عبدالله وأمة الله وبيت الله وناقة الله وقال ابن عباس هو اسم الله الأعظم الذي كان عيسى يحيي به الموتى وقيل هو الإنجيل لأنه حياة القلوب سماه روحاً كما سمى القرآن روحاً وقيل هو جبريل ووصف بالقدس وهو الطهارة لأنه لم يفترق ذنباً قط وقيل القدس هو الله تعالى والروح جبريل كما تقول عبدالله، سمي جبريل روحاً للطافته لأنه روحاني خلق من النور وقيل سمي روحاً لمكانه من الوحي الذي هو سبب حياة القلوب وحمل روح القدس هنا على جبريل أولى لأنه تعالى قال وأيدناه أي قويناه بجبريل وذلك أنه أمر أن يكون مع عيسى ويسير معه حيث سار فلم يفارقه حتى صعد به إلى السماء فلما سمعت اليهود بذكر عيسى قالوا يا محمد لا مثل عيسى كما تزعم عملت ولا كما يقص علينا من أخبار الأنبياء فعلت فأتنا بما أتى به عيسى إن كنت صادقاً قال الله تعالى: ﴿**أفكلما جاءكم**﴾ يعني يا معشر اليهود ﴿**رسول بما لا تهوى**﴾ تقبل ﴿**أنفسكم استكبرتم**﴾ أي تعظمتم عن الإيمان به ﴿**ففريقاً كذبتم**﴾ يعني مثل عيسى ومحمد صلى الله عليهما وسلم ﴿**وفريقاً تقتلون**﴾ يعني مثل زكريا ويحيى وسائر من قتلوه، وذلك أن اليهود كانوا إذا جاءهم رسول بما لا يهوون كذبوه فإن تهيأ لهم قتله قتلوه وإنما كانوا كذلك لإرادتهم الدنيا وطلب الرياسة ﴿**وقالوا**﴾ يعني اليهود ﴿**قلوبنا غلف**﴾ جمع أغلف وهو الذي عليه غشاوة فلا يعي ولا يفقه. قال ابن عباس غلف بضم اللام جمع غلاف والمعنى أن قلوبنا أوعية للعلم فلا تحتاج إلى علمك وقيل أوعية من الوعي لا تسمع حديثاً إلا وعته إلا حديثك فإنها لا تعيه ولا تعقله ولو كان خيراً لفهمته ووعته قال الله تعالى: ﴿**بل لعنهم الله بكفرهم**﴾ أي طردهم وأبعدهم من كل خير. وسبب كفرهم أنهم اعترفوا بنبوة محمد ﷺ ثم إنهم أنكروه وجحدوه فلهذا لعنهم الله تعالى: ﴿**فقليلاً ما يؤمنون**﴾ أي لم يؤمن منهم إلا قليل لأن من آمن من المشركين كان أكثر منهم. قوله عز وجل:

اسم الله تعالى الأعظم الذي كان يُحيي به الموتى، ويُري الناس العجائب، وقيل: هو الإنجيل جعل له روحاً كما جعل القرآن روحاً لمحمد ﷺ، لأنه سبب لحياة القلوب، وقال الله تعالى: ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ﴾ [الشورى: ٥٢]، فلما سمعت اليهود ذكر عيسى عليه السلام، فقالوا: يا محمد لا مثلَ **عيسى كما تزعمُ** عملتَ، ولا كما يُقصّ علينا من الأنبياء فعلت، فأتنا بما أتى به عيسى إن كنت صادقاً، قال الله تعالى: ﴿ **أفكلما جاءكم** ﴾: يا معشر اليهود ﴿ **رسولٌ بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم** ﴾: تكبّرتم وتعظّمتم عن الإيمان، ﴿ **ففريقاً** ﴾: طائفة ﴿ **كذّبتم** ﴾: مثل عيسى ومحمد ﷺ، ﴿ **وفريقاً تقتلون** ﴾، أي: أقتلتم مثل زكريا ويحيى وشعيا، وسائر مَن قتلوا من الأنبياء عليهم السلام.

﴿ **وقالوا** ﴾، يعني اليهود، ﴿ **قلوبنا غلف** ﴾، جمع أغلف وهو الذي عليه غشاوة، معناه: عليها غشاوة فلا تسمع ولا تفقه ما يقول، قال مجاهد وقتادة: نظيره قوله تعالى: ﴿ وقالوا قلوبنا في أكنّة ﴾ [فصّلت: ٥]، وقرأ ابن عباس: «غلُف» بضم اللام، وهي قراءة الأعرج، وهي جمع غلاف، أي: قلوبنا أوعية لكل علم فلا تحتاج إلى علمك، قاله ابن عباس وعطاء، وقال الكلبي: معناه أوعية لكل علم فهي لا تسمع حديثاً إلّا وعته إلّا حديثك لا تعقله ولا تعيه، ولو كان فيه خير لوعته وفهمته، قال الله عزّ وجلّ: ﴿ **بل لعنهم الله** ﴾: طردهم الله وأبعدهم عن كل خير، ﴿ **بكفرهم فقليلاً ما يؤمنون** ﴾، قال قتادة: معناه لا يؤمن منهم إلّا قليل، لأن مَن آمن من المشركين أكثر ممّن آمن من اليهود، أي: فقليلاً يؤمنون، ونصب (قليل) على الحال، وقال معمر: لا يؤمنون إلّا بقليل مما في أيديهم ويكفرون بأكثره، أي: فقليل يؤمنون، ونصب (قليلاً) بنزع الخافض، و(ما) صلة على قولهما، وقال الواقدي: معناه لا يؤمنون لا قليلاً ولا كثيراً، كقول الرجل للآخر: ما أقلّ ما تفعل كذا، أي: لا تفعله أصلاً.

﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾﴾

﴿ولما جاءهم كتاب من عند الله﴾ يعني القرآن ﴿مصدق لما معهم﴾ يعني التوراة وهذا التصديق في صحة نبوة محمد ﷺ لأن نبوته وصفته ثابتة في التوراة ﴿وكانوا﴾ يعني اليهود ﴿من قبل﴾ أي من قبل مبعث النبي ﷺ ﴿يستفتحون﴾ أي يستنصرون به ﴿على الذين كفروا﴾ يعني مشركي العرب وذلك أنهم كانوا إذا أحزنهم أمر ودهمهم عدو يقولون: اللهم انصرنا بالنبي المبعوث في آخر الزمان الذي نجد صفته في التوراة فكانوا ينصرون، وكانوا يقولون لأعدائهم من المشركين: قد أظل زمان نبي يخرج بتصديق ما قلنا فنقتلكم معه قتل عاد وإرم ﴿فلما جاءهم ما عرفوا﴾ أي الذي عرفوه يعني محمداً ﷺ عرفوا نعته وصفته وأنه من غير بني إسرائيل ﴿كفروا به﴾ أي جحدوه وأنكروه بغياً وحسداً ﴿فلعنة الله على الكافرين بئسما اشتروا به أنفسهم﴾ أي بئس شيء اشتروا به أنفسهم حين استبدلوا الباطل بالحق واشتروا بمعنى باعوا والمعنى بئس ما باعوا به حظ أنفسهم ﴿أن يكفروا بما أنزل الله﴾ يعني القرآن ﴿بغياً﴾ أي حسداً ﴿أن ينزل الله من فضله﴾ يعني الكتاب والنبوة ﴿على من يشاء من عباده﴾ يعني محمداً ﷺ ﴿فباؤوا﴾ أي فرجعوا ﴿بغضب على غضب﴾ أي مع غضب قال ابن عباس الغضب الأول بتضييعهم

﴿ ولمّا جاءهم كتابٌ من عند الله ﴾، يعني: القرآن ﴿ مصدّق ﴾: موافق ﴿ لما معهم ﴾، يعني: التوراة، ﴿ وكانوا ﴾ يعني: اليهود، ﴿ من قبل ﴾، من قبل مبعث محمد ﷺ، ﴿ يستفتحون ﴾: يستنصرون، ﴿ على الذين كفروا ﴾: على مشركي العرب، وذلك أنهم كانوا يقولون إذا أحزنهم أمرٌ ودهمهم عدوٌّ: اللّهمّ انصرنا عليهم بالنبي المبعوث في آخر الزمان الذي نجد صفته في التوراة، فكانوا يُنصرون، وكانوا يقولون لأعدائهم من المشركين: قد أظلّ زمان نبي يخرج بتصديق ما قلنا فنقتلكم معه قتل عاد وثمود وإرم.

﴿ فلما جاءهم ما عرفوا ﴾، يعني: محمداً ﷺ من غير بني إسرائيل وعرفوا نعته وصفته، ﴿ كفروا به ﴾: بغياً وحسداً، ﴿ فلعنة الله على الكافرين ﴾.

﴿ بئسما اشتروا به أنفسهم ﴾، بئس ونِعمَ فعلان ماضيان وُضعا للمدح والذمّ، لا يتصرفان تصرّف الأفعال، معناه: بئس الذي اختاروا لأنفسهم حين استبدلوا الباطل بالحق، وقيل: الاشتراء ههنا بمعنى البيع، والمعنى: بئس ما باعوا به حظّ أنفسهم، أي: اختاروا الكفر وبذلوا أنفسهم للنار، ﴿ أن يَكْفُروا بما أنزل الله ﴾، يعني: القرآن، ﴿ بغياً ﴾، أي: حسداً، وأصل البغي: الفساد، يقال: بغى الجرح إذا فسد، والبغي: الظلم، وأصله الطلب، والباغي طالب الظلم والحاسد يظلم المحسود جهده طلباً لإزالة نعمة الله تعالى عنه، ﴿ أنْ ينزّل الله من فضله ﴾، أي: النبوّة والكتاب، ﴿ على مَن يشاء من عباده ﴾: محمد ﷺ، قرأ أهل مكة والبصرة «ينـزل» وبابه بالتخفيف، إلّا في ﴿ سبحان الذي ﴾ [الإسراء: ١، يٓس: ٣٦، الزخرف: ١٣] في موضعين: ﴿ وننـزل من القرآن ﴾ [الإسراء: ٨٢]، ﴿ وحتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه ﴾ [الإسراء: ٩٣]، قال ابن كثير: يشدّدهما، وشدّد البصريون في [الأنعام: ٣٧] على ﴿أن ينزل آيـة﴾ زاد يعقوب تشديد بمـا ينزل في النحـل [٢] ووافق حمزة والكسائي في تخفيف ﴿وينزل الغيث﴾ [لقمان: ٣٤] في سورة لقمان وحمٓعٓسٓقٓ [الشورى: ١]، والآخرون يشدّدون الكل ولم يختلفوا في تشديد

التوراة وتبديلها والثاني بكفرهم بمحمد ﷺ. وقيل الأول بكفرهم بعيسى والإنجيل والثاني بمحمد ﷺ والقرآن.

وقيل: الأول بعبادتهم العجل والثاني: بكفرهم بمحمد ﷺ ﴿وللكافرين﴾ يعني الجاحدين نبوة محمد ﷺ من الناس كلهم ﴿عذاب مهين﴾ أي يهانون فيه.

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾ ۞ وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٩٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾

﴿وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله﴾ يعني بالقرآن وقيل: بكل ما أنزل الله ﴿قالوا نؤمن بما أنزل علينا﴾ يعني التوراة وما أنزل على أنبيائهم ﴿ويكفرون بما وراءه﴾ أي بما سواه من الكتب وقيل: بما بعده يعني الإنجيل والقرآن ﴿وهو الحق﴾ يعني القرآن ﴿مصدقاً لما معهم﴾ يعني التوراة ﴿قل﴾ يا محمد ﴿فلم تقتلون أنبياء الله من قبل﴾ إنما أضاف القتل للمخاطبين من اليهود، وإن كان سلفهم قتلوا لأنهم رضوا بفعلهم قيل: إذا عملت المعصية في الأرض فمن كرهها وأنكرها بريء منها، ومن رضيها كان من أهلها ﴿إن كنتم مؤمنين﴾ أي بالتوراة وقد نهيتم فيها عن قتل الأنبياء. قوله عز وجل ﴿ولقد جاءكم موسى بالبينات﴾ أي بالدلالات الواضحة والمعجزات الباهرة ﴿ثم اتخذتم العجل من بعده﴾ أي من بعد موسى لما ذهب إلى الميقات ﴿وأنتم ظالمون﴾ إنما كرره تبكيتاً لهم وتأكيداً للحجة عليهم ﴿وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا﴾ أي استجيبوا وأطيعوا أي فيما

﴿ وما ننزله إلاّ بقدر ﴾ في [الحجر: ٢١]، ﴿ فباءوا ﴾: رجعوا ﴿ بغضب على غضب ﴾، أي: مع غضب، قال ابن عباس ومجاهد: الغضب الأول بتضييعهم التوراة وتبديلهم، والثاني بكفرهم بمحمد ﷺ والقرآن، وقال قتادة: الأول بكفرهم بعيسى والإنجيل، والثاني بكفرهم بمحمد ﷺ والقرآن، وقال السدي: الأول بعبادة العجل، والثاني بالكفر بمحمد ﷺ، ﴿ وللكافرين ﴾: الجاحدين بنبوّة محمد ﷺ من الناس كلهم، ﴿ عذابٌ مُهين ﴾: مخزٍ يُهانون فيه.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله ﴾، يعني: القرآن، ﴿ قالوا نؤمن بما أنزل علينا ﴾، يعني: التوراة، يكفينا ذلك، ﴿ ويكفرون بما وراءه ﴾، أي: بما سواه من الكتب، كقوله عزّ وجلّ: ﴿ فمَن ابتغى وراء ذلك ﴾ [المؤمنون: ٧، المعارج: ٣١] أي: سواه، وقال أبو عبيدة: بما بعده، ﴿ وهو الحق ﴾، يعني القرآن، ﴿ مصدّقاً ﴾، نُصب على الحال، ﴿ لِما معهم ﴾: من التوراة، ﴿ قل ﴾: لهم يا محمد ﴿ فلم تقتلون ﴾، أي: قتلتم، ﴿ أنبياء الله من قبل ﴾، و(لِـم) أصله لمّا، فحذفت الألف فرقاً بين الخبر والاستفهام، كقولهم فيمَ وبمَ، ﴿ إن كنتم مؤمنين ﴾: بالتوراة، وقد نهيتم فيها عن قتل الأنبياء عليهم السلام.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ ولقد جاءكم موسى بالبيّنات ﴾ بالدّلالات الواضحة والمعجزات الباهرة، ﴿ ثم اتخذتم العجل من بعده ﴾، أي: من بعد انطلاقه إلى الجبل، ﴿ وأنتم ظالمون ﴾.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ وإذْ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطورَ خُذوا ما آتيناكم بقوةٍ واسمعوا ﴾، أي: استجيبوا وأطيعوا، سميت الطاعة والإجابة: سمعاً على المجاز، لأنه سبب للطاعة والإجابة، ﴿ قالوا سَمِعْنَا ﴾: قَوْلَك،

أمرتم به ﴿قالوا سمعنا﴾ يعني قولك ﴿وعصينا﴾ يعني أمرك وقيل إنهم لم يقولوا بألسنتهم، ولكن لما سمعوه وتلقوه بالعصيان فنسب ذلك إليهم ﴿وأشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم﴾ أي تداخل حبه في قلوبهم والحرص على عبادته كما يتداخل الصبغ في الثوب. وقيل: إن موسى أمر أن يبرد العجل ويذرى في النهر وأمرهم أن يشربوا منه فمن بقي في قلبه شيء من حب العجل، ظهر سحالة الذهب على شاربه﴿قل بئسما يأمركم به إيمانكم﴾ أي بأن تعبدوا العجل والمعنى بئس الإيمان إيمان يأمر بعبادة العجل ﴿إن كنتم مؤمنين﴾ أي بزعمكم وذلك أنهم قالوا: نؤمن بما أنزل علينا فكذبهم الله تعالى بذلك في قوله تعالى:

﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾

﴿قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس﴾ وذلك أن اليهود ادعوا دعاوى باطلة منها قولهم: لن يدخل الجنة إلّا من كان هوداً وقولهم: نحن أبناء الله وأحباؤه فكذبهم الله وألزمهم الحجة فقال: قل يا محمد لليهود إن كانت لكم الدار الآخرة يعني الجنة خالصة لكم دون الناس ﴿فتمنوا الموت﴾ أي فاطلبوه واسألوه لأن من علم أن الجنة مأواه وأنها له حن إليها ولا سبيل إلى دخولها إلّا بعد الموت فاستعجلوه بالتمني ﴿إن كنتم صادقين﴾ أي في قولكم ودعواكم، روي ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال: «لو تمنوا الموت لغص كل إنسان بريقه وما بقي على وجه الأرض يهودي إلّا مات» قال الله تعالى: ﴿ولن يتمنوه أبداً﴾ أي لعلمهم أنهم في دعواهم كاذبون ﴿بما قدمت أيديهم﴾ يعني من الأعمال السيئة، وإنما أضاف العمل إلى اليد لأن أكثر جنايات الإنسان تكون من يده

﴿ وعَصَيْنا ﴾: أمْرَكَ، وقيل: سمعنا بالأُذن، وعصينا بالقلوب، قال أهل المعاني: إنهم لم يقولوا هذا بألسنتهم ولكن لما سمعوه وتلقّوه بالعصيان: نُسب ذلك إلى القول اتّساعاً. ﴿ وأُشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم ﴾، أي: حبّ العجل، أي معناه: أُدخل في قلوبهم حبّ العجل وخالطها، كإشراب اللون لشدّة الملازمة، يقال: فلان أُشرِب اللون إذا اختلط بياضه بالحمرة، وفي القصص: أن موسى أمر أن يبرد العجل بالمِبرَد، ثم يذره في النهر وأمرهم بالشرب منه، فمَن بقي في قلبه شيء من حبّ العجل ظهرت سحالة الذهب على شاربه، قوله عزّ وجلّ: ﴿ قلْ بئسما يأمركم به إيمانكم ﴾: أن تعبدوا العجل من دون الله، أي: بئس إيمان يأمر بعبادة العجل، ﴿ إن كنتم مؤمنين ﴾: بزعمكم وذلك أنهم قالوا: نؤمن بما أُنزل علينا، فكذّبهم الله عزّ وجلّ.

قوله تعالى: ﴿ قل إن كانت لكم الدارُ الآخرة عند الله ﴾، وذلك أن اليهود ادّعوا دعاوى باطلة مثل قولهم: ﴿ لن تمسّنا النار إلّا أياماً معدودة ﴾ [البقرة: ٨٠]، و﴿ لن يدخل الجنة إلّا مَن كان هُوداً أو نصارى ﴾ [البقرة: ١١١ ﴾، وقولهم: ﴿ نحن أبناء الله وأحباؤه ﴾ [المائدة: ١٨] فكذّبهم الله عزّ وجلّ وألزمهم الحُجّة فقال: قل لهم يا محمد إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله، يعني: الجنة، ﴿ خالصة ﴾، أي خالصة ﴿ من دون الناس فتمنّوا الموت ﴾، أي: فأريدوه أو اسألوه، لأن مَن علم أن الجنة مأواه حنّ إليها، ولا سبيل إلى دخولها إلّا بعد الموت، فاستعجلوه بالتمنّي، ﴿ إن كنتم صادقين ﴾: في قولكم، وقيل: فتمنّوا الموت، أي: ادعوا بالموت على الفرقة الكاذبة، ورُوِيَ عن ابن عباس أن النبيّ ﷺ قال: «لو تمنّوا لغصّ كل إنسان منهم بريقه وما بقي على وجه الأرض يهودي إلّا مات».

﴿والله عليم بالظالمين﴾ فيه تخويف وتهديد لهم، وإنما خصهم بالظلم لأنه أعم من الكفر لأن كل كافر ظالم وليس كلّ ظالم كافراً فلهذا كان أعم وكانوا أولى به ﴿ولتجدنهم﴾ اللام للقسم والنون للتوكيد تقديره والله لتجدنهم يا محمد يعني اليهود ﴿أحرص الناس على حياة﴾ أي حياة متطاولة، والحرص أشد الطلب ﴿ومن الذين أشركوا﴾ قيل هو متصل بما قبله ومعطوف عليه والمعنى وأحرص من الذين أشركوا. فإن قلت: الذين أشركوا قد دخلوا تحت الناس في قوله أحرص الناس فلم أفردهم بالذكر؟. قلت: أفردهم بالذكر لشدّة حرصهم وفيه توبيخ عظيم لليهود لأن الذين لا يؤمنون بالمعاد ولا يعرفون إلاّ الحياة الدنيا لا يستبعد حرصهم عليها، فإذا زاد عليهم في الحرص من له كتاب وهو مقر بالبعث والجزاء كان حقيقاً بالتوبيخ العظيم وقيل: إن الواو واو استئناف تقديره ومن الذين أشركوا أناس ﴿يود أحدهم﴾ وهم المجوس سموا بذلك لأنهم يقولون: بالنور والظلمة يود أن يتمنى أحدهم ﴿لو يعمر ألف سنة﴾ أي تعمير ألف سنة وإنما خص الألف لأنها نهاية العقود ولأنها تحية المجوس فيما بينهم يقولون: زه هز إرسال أي عش ألف سنة أو ألف نيروز أو ألف مهرجان فهذه تحيتهم. والمعنى أن اليهود أحرص من المجوس الذين يقولون ذلك ﴿وما هو بمزحزحه﴾ أي بمباعده ﴿من العذاب﴾ أي النار ﴿أن يعمر﴾ أي لو عمر طول عمره لا ينقذه من العذاب ﴿والله بصير بما يعملون﴾ أي لا يخفى عليه خافية من أحوالهم. قوله عز وجل:

﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾﴾

﴿قل من كان عدواً لجبريل﴾ قال ابن عباس سبب نزول هذه الآية أن عبدالله بن صوريا حبر من أحبار اليهود قال للنبي ﷺ أي ملك يأتيك من السماء؟ قال جبريل قال ذلك عدونا ولو كان ميكائيل لآمنا بك إن جبريل ينزل بالعذاب والشدّة والخسف، وإنه عادانا مراراً وأشد ذلك علينا أن الله أنزل على نبينا أن بيت المقدس سيخرب على يد رجل يقال له: بختنصر فلما كان زمنه بعثنا من يقتله فلقيه ببابل غلاماً مسكيناً، فأخذه ليقتله فدفع عنه جبريل

قال الله تعالى: ﴿ ولن يتمنّوه أبداً بما قدّمت أيديهم ﴾، لعلمهم أنهم في دعواهم كاذبون، وأراد بما قدّمت أيديهم ما قدّموه من الأعمال، وأضاف العمل إلى اليد لأن أكثر جنايات الإنسان تكون باليد، فأُضيف إلى اليد أعماله، وإن لم يكن لليد فيها عمل، ﴿ والله عليم بالظالمين ﴾.

﴿ ولتجدنّهم ﴾، اللام لام القسم، والنون تأكيد للقسم، تقديره: والله لتجدنّهم يا محمد، يعني: اليهود ﴿ أحرصَ الناسِ على حياة ومن الذين أشركوا ﴾، قيل: هو متصل بالأول، أي: وأحرص من الذين أشركوا، وقيل: تمّ الكلام بقوله: ﴿ على حياة ﴾، ثم ابتدأ ﴿ ومن الذين أشركوا ﴾، وأراد بالذين أشركوا المجوس، قال أبو العالية والربيع: سُمّوا مشركين لأنهم يقولون بالنور والظلمة. ﴿ يَوَدّ ﴾: يريد ويتمنى، ﴿ أحدهم لو يُعَمّر ألف سنة ﴾، يعني: تعمير ألف سنة، وهي تحية المجوس فيما بينهم، يقولون: عش ألف سنة وكل ألف نيروز ومهرجان، يقول الله تعالى: اليهود أحرص على الحياة من المجوس الذين يقولون ذلك: ﴿ وما هو بمزحزحه ﴾: مُباعده ﴿ من العذاب ﴾: من النار ﴿ أنْ يعمر ﴾، أي: طول عمره لا يبعده من العذاب، و(زحزح) لازم ومتعدٍّ، يقال: زحزحته: فتزحزح، وزحزحته: فـزحزح، ﴿ والله بصير بما يعملون ﴾، قرأ يعقوب بالتاء والباقون بالياء.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ قل مَن كان عدوّاً لجبريل ﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما: إن حَبراً من أحبار اليهود، يقال له عبد الله بن صوريا قال للنبي ﷺ: أيُّ ملك يأتيك من السماء؟ قال: جبريل، قال: ذلك عدوّنا من الملائكة، ولو كان ميكائيل لآمنّا بِك، إن جبريل ينزل العذاب والقتال والشدّة وإنه عادانا مراراً، كان أشدّ ذلك علينا

وقال: إن كان الله أمره بهلاككم فلن تسلط عليه وإن لم يكن هو فعلى أي حق تقتله فلما كبر ذلك الغلام وقوى غزانا وخرب بيت المقدس، فلهذا نتخذه عدواً فأنزل الله هذه الآية وقيل: قالوا إن الله أمره أن يجعل النبوة فينا فجعلها في غيرنا فاتخذناه عدواً. وقيل إن عمر بن الخطاب كان له أرض بأعلى المدينة وكان ممره إليها على مدارس اليهود فكان يجلس إليهم ويسمع كلامهم فقالوا يوماً ما في أصحاب محمد أحب إلينا منك وإنا لنطمع فيك فقال عمر والله ما آتيكم لحبكم ولا أسألكم، لأني شاك في ديني وإنما أدخل عليكم لأزداد بصيرة في أمر محمد ﷺ وأرى آثاره في كتابكم فقالوا من صاحب محمد الذي يأتيه من الملائكة قال جبريل قالوا ذلك عدونا يطلع محمداً على سرنا وهو صاحب كل عذاب وخسف وشدة، وإن ميكائيل يجيء بالخصب والسلامة، فقال لهم: تعرفون جبريل وتنكرون محمداً ﷺ؟ قالوا: نعم قال فأخبروني عن منزلة جبريل وميكائيل من الله تعالى قالوا: جبريل عن يمينه وميكائيل عن يساره وميكائيل عدو لجبريل فقال عمر أشهد أن من كان عدواً لأحدهما كان عدواً للآخر. ومن كان عدواً لهما كان عدواً لله ثم رجع عمر إلى النبي ﷺ فوجد جبريل قد سبقه بالوحي فقرأ رسول الله ﷺ هذه الآيات وقال: لقد وافقك ربك يا عمر، فقال عمر: والله لقد رأيتني بعد ذلك في ديني أصلب من الحجر. والأقرب أن سبب هذه العداوة كون جبريل كان ينزل على النبي ﷺ بالوحي لأن قوله: فإنه نزله على قلبك مشعر بذلك وقوله ﴿**فإنه نزله**﴾ يعني جبريل نزل بالقرآن كناية عن غير مذكور ﴿**على قلبك**﴾ يا محمد وإنما خص القلب بالذكر لأنه محل الحفظ ﴿**بإذن الله**﴾ أي بأمره ﴿**مصدقاً**﴾ أي موافقاً ﴿**لما بين يديه**﴾ أي لما قبله من الكتب ﴿**وهدى وبشرى للمؤمنين**﴾ أي في القرآن هداية للمؤمنين إلى الأعمال الصالحة التي يترتب عليها الثواب وبشرى لهم بثوابها إذا أتوا بها.

أن الله تعالى أنزل على نبيِّنا: أنَّ بيت المقدس سيخرب على يد رجل يُقال له: بختنصر، وأخبرنا بالحين الذي يخرب فيه، فلما كان وقته بعثنا رجلاً من أقوياء بني إسرائيل في طلبه ليقتله، فانطلق حتى لقيه ببابل غلاماً مسكيناً فأخذه ليقتله، فدفع عنه جبريل، وكبر بختنصر وقوي وغزانا وخرَّب بيت المقدس، فلهذا نتّخذه عدوّاً، فأنزل الله هذه الآية، وقال مقاتل: قالت اليهود إن جبريل عدوّنا لأنه أُمر أن يجعل النبوّة فينا فجعلها في غيرنا، وقال قتادة وعكرمة والسدي: كان لعمر بن الخطاب رضي الله عنه أرض بأعلى المدينة، وممرّها على مدارس اليهود، فكان إذا أتى أرضه يأتيهم ويسمع منهم، فقالوا له: ما في أصحاب محمد أحبّ إلينا منك، إنهم يمرّون بها فيؤذوننا وأنت لا تؤذينا وإنّا لنطمع فيك، فقال عمر: والله ما آتيكم لحبّكم ولا أسألكم لأني شاكٌّ في ديني وإنما أدخل عليكم لأزداد بصيرة في أمر محمد ﷺ، وأرى آثاره في كتابكم، فقالوا: مَن صاحب محمد الذي يأتيه من الملائكة؟ قال: جبريل، فقالوا: ذاك عدوّنا يُطلع محمداً على سرّنا، وهو صاحب كل عذاب وخسف وسَنَةٍ وشدّة، وإنّ ميكائيل إذا جاء، جاء بالخصب والسلم، فقال لهم عمر: تعرفون جبريل وتنكرون محمداً قالوا: نعم، قال: فأخبروني عن منزلة جبريل وميكائيل من الله عزّ وجلّ، قالوا: جبريل عن يمينه وميكائيل عن يساره، وميكائيل عدوّ لجبريل، قال عمر: فإني أشهد أن مَن كان عدوّاً لجبريل فهو عدوّ لميكائيل، ومَن كان عدوّاً لميكائيل فإنه عدوّ لجبريل، ومَن كان عدوّاً لهما كان الله عدوّاً له، ثم رجع عمر إلى رسول الله ﷺ، فوجد جبريل قد سبقه بالوحي فقرأ رسول الله ﷺ هذه الآيات فقال: «لقد وافقك ربّك يا عمر»، فقال عمر: لقد رأيتني بعد ذلك في دين الله أصْلب من الحجر، قال الله تعالى: ﴿ **قل مَن كان عدوّاً لجبريل** ﴾: ﴿ **فإنه** ﴾: يعني: جبريل ﴿ **نزّله** ﴾، يعني: القرآن، كناية عن غير مذكور، ﴿ **على قلبك** ﴾: يا محمد ﴿ **بإذن الله** ﴾: بأمر الله ﴿ **مصدّقاً** ﴾: موافقاً ﴿ **لما بين يديه** ﴾: لما قبله من الكتب، ﴿ **وهدىً وبشرى للمؤمنين** ﴾.

مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُوا۟ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾

﴿من كان عدواً لله وملائكته ورسله وجبريل وميكائيل﴾ لما بين في الآية الأولى أن من كان عدواً لجبريل لأجل، أنه نزل بالقرآن على قلب محمد ﷺ، وجب أن يكون عدواً لله. لأن الله تعالى هو الذي نزله على محمد بين في هذه الآية أن كل من كان عدواً لأحد هؤلاء، فإنه عدو لجميعهم وبين أن الله عدوه بقوله: ﴿فإن الله عدو للكافرين﴾ فأما عداوتهم لله فإنها لا تضره ولا تؤثر وعداوته لهم تؤديهم إلى العذاب الدائم، الذي لا ضرر أعظم منه، وقيل: المراد من عداوتهم لله وعداوتهم لأوليائه وأهل طاعته فهو كقوله «إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله» أي يحاربون أولياء الله وأهل طاعته. وقوله وملائكته ورسله، يعني أن من عادى واحداً منهم فقد عادى جميعهم ومن كفر بواحد منهم فقد كفر بجميعهم وجبريل وميكائيل إنما خصهما بالذكر وإن كانا داخلين في جملة الملائكة لبيان شرفهما وفضلهما وعلو منزلتهما وقدم جبريل على ميكائيل لفضله عليه لأن جبريل ينزل بالوحي الذي هو غذاء الأرواح وميكائيل ينزل بالمطر الذي هو سبب غذاء الأبدان، وجبريل وميكائيل اسمان أعجميان.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ مَن كان عدوّاً لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال ﴾: خصّهما بالذكر من جملة الملائكة مع دخولها في قوله: ﴿ وملائكته ﴾، تفضيلاً وتخصيصاً، كقوله تعالى: ﴿ فيهما فاكهة ونخل ورمّان ﴾ [الرحمٰن: ٦٨]، خصّ النخل والرمّان بالذكر مع دخولهما في ذكر الفاكهة، للتفضيل، والواو فيهما بمعنى «أو»، يعني: مَن كان عدوّاً لأحد هؤلاء فإنه عدوٌّ للكل، لأن الكافر بالواحد كافر بالكل، ﴿ فإن الله عدوٌّ للكافرين ﴾، قال عكرمة: جيروميت وإسراف هي العبد بالسريانية، وآل وإيل هو الله تعالى، ومعناهما: عبد الله وعبد الرحمن، وقرأ ابن كثير « جبريل » بفتح الجيم غير مهموز، بوزن فعليل، قال حسّان:

وجبريل رسول الله فينا ... وروح القدّيس ليس له كفاء

وقرأ حمزة والكسائي بالهمزة والإشباع وزن (سلسبيل)، وقرأ أبو بكر بالاختلاس، وقرأ الآخرون بكسر الجيم غير مهموز، وميكائيل قرأ أبو عمر ويعقوب وحفص « ميكال » بغير همز، قال جرير:

عبدوا الصليب وكذّبوا بمحمد ... وبجبرائيل وكذبوا ميكال

وقال آخر:

ويوم بدر لقيناكم لنا مدد ... فيه مع نصر جبريل وميكال

وقرأ نافع وأهل المدينة: بالهمزة والاختلاس، بوزن ميكاعل، وقرأ الآخرون: بالهمزة والإشباع بوزن ميكاعل، قال ابن صوريا: ما جئتنا بشيء نعرفه، فأنزل الله تعالى:

﴿ ولقد أنزلنا إليك آيات بيّنات ﴾: واضحات مفصّلات بالحلال والحرام والحدود والأحكام، ﴿ وما يكفر بها إلّا الفاسقون ﴾: الخارجون عن أمر الله عزّ وجلّ.

﴿ أوَ كُلّما ﴾، واو العطف دخلت عليها ألف الاستفهام، ﴿ عاهدوا عهداً ﴾، يعني: اليهود عاهدوا: لئن

ومعناهما: عبدالله وعبدالله لأن جبر وميك بالسريانية هو العبد وإيل هو الله ﴿**ولقد أنزلنا إليك آيات بينات**﴾ قال ابن عباس: هذا جواب لابن صوريا حيث قال لرسول الله ﷺ يا محمد ما جئتنا بشيء نعرفه وما أنزل عليك من آية بينة فنتبعك بها فأنزل الله هذه الآيات، ومعنى بينات واضحات مفصلات بالحلال والحرام والحدود والأحكام ﴿**وما يكفر بها**﴾ أي وما يجحد بهذه الآيات ﴿**إلّا الفاسقون**﴾ أي الخارجون عن طاعتنا وما أمروا به ﴿**أو كلما عاهدوا عهداً**﴾ قال ابن عباس: لما ذكرهم رسول الله ﷺ ما أخذ عليهم من العهود في محمد ﷺ وأن يؤمنوا به قال مالك بن الصيف: والله ما عهد إلينا في محمد عهد فأنزل الله هذه الآية أو كلما استفهام إنكار عاهدوا عهداً هو قولهم: إنه قد أظلّ زمان نبي مبعوث وإنه في كتابنا وقيل إنهم عاهدوا الله عهوداً كثيرة ثم نقضوها ﴿**نبذه**﴾ أي طرح العهد ونقضه ﴿**فريق منهم**﴾ يعني اليهود ﴿**بل أكثرهم لا يؤمنون**﴾ يعني كفر فريق منهم بنقض العهد وكفر فريق منهم بالجحد للحق.

وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾

﴿**ولما جاءهم رسول من عند الله**﴾ يعني محمداً ﷺ ﴿**مصدق لما معهم**﴾ يعني مصدق بصحة التوراة ونبوة موسى عليه الصلاة والسلام وقيل: إن التوراة بشرت بنبوة محمد ﷺ فلما بعث محمد ﷺ كان مجرد مبعثه مصدقاً للتوراة ﴿**نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم**﴾ قيل: أراد بالكتاب القرآن. وقيل: التوراة وهو الأقرب لأن النبذ لا يكون إلّا بعد التمسك، ولم يتمسكوا بالقرآن. أما نبذهم التوراة فإنهم كانوا يقرؤونها ولا يعملون بها. وقيل: إنهم أدرجوها في الحرير وحلوها بالذهب ولم يعملوا ما فيها ﴿**كأنهم لا يعلمون**﴾ يعني أنهم

خرج محمدٌ ﷺ لَتُؤمننّ به، فلما خرج إليهم محمد ﷺ كفروا به، قال ابن عباس رضي الله عنهما: لمّا ذكّرهم رسول الله ﷺ ما أخذ الله عليهم وعهد إليهم في محمد ﷺ أن يؤمنوا به، قال مالك بن الصيف: والله ما عهد إلينا عهداً في محمد، فأنزل الله تعالى هذه الآية، يدلّ عليه قراءة أبي رجاء العطاردي «أو كلما عُوهدوا» فجعلهم مفعولين وقال عطاء؛ هي العهود التي كانت بين رسول الله ﷺ وبين اليهود: أن لا يعاونوا المشركين على قتاله، فنقضوها كفعل بني قريظة والنضير، دليله قوله تعالى: ﴿ الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم ﴾ [الأنفال: ٥٦]، ﴿ **نبذه** ﴾: طرحه ونقضه ﴿ **فريق** ﴾: طوائف ﴿ **منهم** ﴾؛ من اليهود، ﴿ **بل أكثرهم لا يؤمنون** ﴾.

﴿ **ولمّا جاءهم رسول من عند الله** ﴾، يعني: محمداً ﴿ **مصدّقٌ لما معهم نبذَ فريقٌ من الذين أُوتوا الكتابَ كتابَ الله وراءَ ظهُورهم** ﴾، يعني: التوراة، وقيل: القرآن، ﴿ **كأنهم لا يعلمون** ﴾، قال الشعبي: كانوا يقرأون التوراة ولا يعملون بها، وقال سفيان بن عيينة: أدرجوها في الحرير والديباج وحلّوها بالذهب والفضة ولم يعملوا بها، فذلك نبذهم.

نبذوا كتاب الله ورفضوه عن علم به ومعرفة، وإنما حملهم على ذلك عداوة النبي ﷺ وهم علماء اليهود الذين كانوا في زمن النبي ﷺ وكتموا أمره وكان أولئك النفر قليلاً. قوله عز وجل: ﴿**واتبعوا ما تتلو الشياطين**﴾ يعني اليهود نبذوا كتاب الله واتبعوا ما تتلو الشياطين، ومعنى تتلو تقرأ من التلاوة وقيل معناه تفتري وتكذب ﴿**على ملك سليمان**﴾ وهو قولهم: إن سليمان ملك الناس بالسحر وقيل: على ملك سليمان أي على عهده وزمانه. وقصة ذلك أن الشياطين كتبوا السحر والنيرنجيات على لسان آصف: هذا ما علم آصف بن برخيا سليمان الملك وكتبوه ودفنوه تحت كرسيه وذلك حين نزع الله عنه الملك ولم يشعر بذلك وقيل: إن بني إسرائيل اشتغلوا بتعليم السحر في زمانه فمنعهم سليمان من ذلك وأخذ كتبهم ودفنها تحت سريره، فلما مات استخرجها الشياطين. وقالوا للناس إنما ملككم سليمان بهذا فتعلموه فأما صلحاء بني إسرائيل وعلماؤهم فأنكروا ذلك. وقالوا: معاذ الله أن يكون هذا العلم من علم سليمان وأما السفلة منهم. فقالوا: هذا هو علم سليمان وأقبلوا على تعليمه وتركوا كتب أنبيائهم وفشت الملامة لسليمان. فلم تزل هذه حالهم إلى أن بعث الله تعالى محمداً ﷺ وأنزل عليه براءة سليمان عليه السلام فقال تعالى: ﴿**واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان**﴾ ﴿**وما كفر سليمان**﴾ يعني بالسحر ولم يعمل به، وفيه تنزيه سليمان عن السحر، وذلك أن اليهود أنكروا نبوة سليمان، وقالوا: إنما حصل له هذا الملك وسخرت الجن والإنس له بسبب السحر وقيل: إن السحرة من اليهود زعموا أنهم أخذوا السحر عن سليمان فبرأه الله من ذلك، وقيل إن بعض أحبار اليهود قال ألا تعجبون من محمد يزعم أن سليمان كان نبياً وما كان إلّا ساحراً

﴿ **واتبعوا** ﴾، يعني: اليهود ﴿ **ما تتلو الشياطين** ﴾، أي: ما تلت، والعرب تضع المستقبل موضع الماضي، والماضي موضع المستقبل، وقيل: ما كانت تتلو، أي: تقرأ، قال ابن عباس رضي الله عنه: تتبع وتعمل به، وقال عطاء: تحدّث وتتكلم به، ﴿ **على مُلك سليمان** ﴾، أي: في ملكه وعهده، وقصة الآية: أن الشياطين كتبوا السحر والنيرنجيات على لسان آصف بن برخيا: هذا ما علم آصف بن برخيا سليمان الملك، ثم دفنوها تحت مصلاه حتى نزع الله الملك عنه، ولم يشعر بذلك سليمان، فلما مات استخرجوها وقالوا: للناس إنما مَلَكهم سليمان بهذا فتعلّموها، فأمّا علماء بني إسرائيل وصلحاؤهم فقالوا: معاذ الله أن يكون هذا من علم سليمان، وأمّا السَّفَلَة فقالوا: هذا علم سليمان وأقبلوا على تعلّمه، ورفضوا كتب أنبيائهم وفَشَت الملامة لسليمان، فلم يزل هذا حالهم حتى بعث الله محمداً ﷺ، وأنزل عليه براءة سليمان، هذا قول الكلبي، وقال السدي: كانت الشياطين تصعد إلى السماء، فيستمعون كلام الملائكة فيما يكون في الأرض من موت وغيره، فيأتون الكهنة ويخلطون بما سمعوا في كل كلمة سبعين كذبة ويخبرونهم بها، فاكتتب الناس ذلك وفشا في بني إسرائيل أن الجن تَعْلَمُ الغيبَ، فبعث سليمان في الناس، وجمع تلك الكتب وجعلها في صندوق ودفنه تحت كرسيه، وقال: لا أسمع أحداً يقول إن الشيطان يعلم الغيب إلّا ضربت عنقه، فلما مات سليمان وذهب العلماء الذين كانوا يعرفون أمر سليمان ودفنه الكتب، وخلف من بعدهم خلف تمثّل الشيطان على صورة إنسان فأتى نفراً من بني إسرائيل، فقال: هل أدلّكم على كنز لا تأكلونه أبداً قالوا: نعم، قال: فاحفروا تحت الكرسي وذهب معهم فأراهم المكان، وقام ناحية فقالوا: ادنُ، قال: لا ولكن ههنا فإن لم تجدوه فاقتلوني وذلك أنه لم يكن أحد من الشياطين يدنو من الكرسي إلّا احترق، فحفروا وأخرجوا تلك الكتب، قال الشيطان: إن سليمان كان يضبط الجنّ والإنس والشياطين والطير بهذا، ثم طار الشيطان وفشا في الناس أن سليمان كان ساحراً وأخذ بنو إسرائيل تلك الكتب، فلذلك أكثر ما يوجد السحر في اليهود، فلما جاء محمد ﷺ برّأ الله تعالى سليمان من ذلك، وأنزل في عذر سليمان: ﴿ **وما كفر سليمان** ﴾: بالسحر وقيل: لم يكن سليمان كافراً يسحر ويعمل به، ﴿ **ولكن الشياطين كفروا** ﴾، قرأ ابن عباس رضي الله عنه والكسائي وحمزة

فأنزل الله تعالى: ﴿وما كفر سليمان﴾ يعني أن سليمان كونه نبياً ينافي كونه ساحراً كافراً ثم بين الله تعالى أن الذي برأه منه لاحق بغيره فقال ﴿ولكن الشياطين كفروا﴾ يعني أن الذين اتخذوا السحر لأنفسهم هم الذين كفروا ثم بين سبب كفرهم فقال تعالى: ﴿يعلمون الناس السحر﴾ يعني ما كتب لهم الشياطين من كتب السحر. وقيل: يحتمل أن يكون يعلمون يعني اليهود الذين عنوا بقوله: واتبعوا. وسمي السحر سحراً لخفاء سببه، فلا يفعل إلاّ في خفية وقيل: معنى السحر الإزالة وصرف الشيء عن وجهه تقول العرب ما سحرك عن كذا أي ما صرفك عنه فكأن الساحر لما رأى الباطل في صورة الحق فقد سحر الشيء عن وجهه أي صرفه هذا أصله من حيث اللغة، وأما حقيقته فقد قيل: إنه عبارة عن التمويه والتخييل، ومذهب أهل السنة أن له وجوداً أو حقيقة والعمل به كفر وذلك إذا اعتقد أن الكواكب هي المؤثرة في قلب الأعيان وروي عن الشافعي أنه قال: السحر يخيل ويمرض وقد يقتل حتى أوجب القصاص على من قتل به وقيل إن السحر يؤثر في قلب الأعيان فيجعل الإنسان على صورة الحمار، والحمار على صورة الكلب وقد يطير الساحر في الهواء، وهذا القول ضعيف عند أهل السنة لأنهم قالوا: إن الله تعالى هو الخالق الفاعل لهذه الأشياء عند عمل الساحر لذلك إلاّ أن الساحر هو الفاعل لها المؤثر فيها والأصح، أن السحر يخيل ويؤثر في الأبدان بالأمراض والجنون والموت، ويدل على ذلك أن للكلام تأثيراً في الطباع فقد يسمع الإنسان ما يكره فيحم، وقد مات قوم بكلام سمعوه فالسحر بمنزلة العلل في الأبدان وأما حكمه فإنه من الكبائر التي نهى عنها، ويحرم تعلمه لما روي عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «اجتنبوا السبع الموبقات قيل

«ولكن»، خفيفة النون، و«الشياطين»، رفع، وقرأ الآخرون «ولكن»، مشدّدة النون «والشياطين» نصب، وكذلك ﴿ولكن الله قتلهم ولكن الله رمى﴾ [الأنفال: ١٧]، ومعنى لكن نفي الخبر الماضي وإثبات المستقبل، ﴿يُعلِّمون الناس السحر﴾، قيل معنى السحر: العلم والحذق بالشيء، قال الله تعالى: ﴿وقالوا يا أيها الساحر ادعُ لنا ربَّك﴾ [الزخرف: ٤٩] أي: العالم، والصحيح أن السحر عبارة عن التمويه والتخييل، والسحر وجوده حقيقة عند أهل السُّنّة وعليه أكثر الأمم، ولكن العمل به كفر، حُكِيَ عن الشافعي رضي الله عنه أنه قال: السحر يُخيل ويُمرض وقد يقتل، حتى أوجب القصاص على مَن قتل به، فهو من عمل الشيطان يتلقاه الساحر منه بتعليمه إياه، فإذا تلقّاه منه بتعليمه إياه استعمله في غيره، وقيل: إنه يُؤثر في قلب الأعيان فيجعل الآدمي على صورة الحمار، ويجعل الحمار على صورة الكلب، والأصح أن ذلك تخييل، قال الله تعالى: ﴿يُخيَّل إليه من سحرهم أنها تسعى﴾ [طه: ٦٦]، لكنه يؤثر في الأبدان بالأمراض والموت والجنون، وللكلام تأثير في الطِّباع والنفوس، وقد يسمع الإنسان ما يكره فيَحْمى ويغضب، وربما يُحم منه، وقد مات قوم بكلام سمعوه، فهو بمنزلة العوارض والعِلل التي تُؤثّر في الأبدان.

قوله عزّ وجلّ: ﴿وما أُنزل على الملكين ببابل﴾، أي: ويعلمون الذي أُنزل على الملكين، أي: إلهاماً وعلماً، فالإنزال: بمعنى الإلهام والتعليم وقيل: واتّبعوا ما أنزل على الملكين، وقرأ ابن عباس والحسن: «الملكين» بكسر اللام، وقال ابن عباس: هما رجلان ساحران كانا ببابل، وقال الحسن: عِلْجان، لأن الملائكة لا يعلمون السحر، وبابل هي بابل العراق، سُمّيت بابل لتبلبل الألسنة بها عند سقوط صرح نمرود، أي: تفرّقها، قال ابن مسعود: بابل أرض الكوفة، وقيل: جبل دماوند، والقراءة المعروفة: ﴿على المَلَكين﴾ بالفتح، فإن قيل: كيف يجوز تعليم السحر من الملائكة؟ قيل: له تأويلان، أحدهما: أنهما لا يتعمّدان التعليم لكن يصفان السحر، ويذكران بطلانه ويأمران باجتنابه، والتعليم: بمعنى الإعلام، فالشقي يترك نصيحتهما ويتعلّم السحر من صنعتهما، والتأويل الثاني هو الأصحّ: أن الله تعالى امتحن الناس بالملكين في ذلك الوقت، فمَن شقي يتعلّم السحر منهما

يا رسول الله وما هن؟ قال: الإشراك بالله والسحر وقتل النفس التي حرم الله إلاّ بالحق، وأكل مال اليتيم والزنا والتولي يوم الزحف وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات» أخرجاه في الصحيحين. فعد رسول الله ﷺ السحر من الكبائر وثناه بالشرك وأمرنا باجتنابه، وقوله: الموبقات يعني المهلكات والسحر على قسمين: أحدهما، يكفر به صاحبه وهو أن يعتقد أن القدرة لنفسه في ذلك، وهو المؤثر أو يعتقد أن الكواكب هي المؤثرة الفعالة فإذا انتهى به السحر إلى هذه الغاية صار كافراً بالله تعالى، ويجب قتله لما روي عن جندب أن رسول الله ﷺ قال: «حد الساحر ضربه بالسيف» أخرجه الترمذي. والقسم الثاني، من السحر وهو التخييل الذي يشاكل النيرنجيات والشعبذة، ولا يعتقد صاحبه لنفسه فيه قدرة ولا أن الكواكب هي المؤثرة ويعتقد أن القدرة لله تعالى، وأنه هو المؤثر فهذا القدر لا يكفر به صاحبه ولكنه معصية وهو من الكبائر، ويحرم فعله فإن قتل بسحره قتل قصاصاً لما روي عن مالك أنه بلغه أن حفصة زوج النبي ﷺ قتلت جارية لها سحرتها وقد كانت دبرتها، فأمرت بها فقتلت أخرجه في الموطأ. قوله عز وجل: ﴿**وما أنزل على الملكين**﴾ أي ويعلمون الذي أنزل على الملكين والإنزال هنا بمعنى الإلهام والتعليم أي ما ألهما وعلما وقرىء في الشاذ الملكين بكسر اللام. قال: هما رجلان ساحران كانا ببابل. وقيل: علجان ووجهه أن الملائكة لا يعلمون السحر والقراءة المشهورة بفتح اللام. فإن قلت: كيف يجوز أن يضاف إلى الله تعالى إنزال ذلك على الملائكة وكيف يجوز للملائكة تعليم السحر؟ قلت: قال ابن جرير الطبري إن الله تعالى عرف عباده جميع ما أمرهم به وجميع ما نهاهم عنه ثم أمرهم ونهاهم بعد العلم منهم بما يؤمرون به وينهون عنه، ولو كان الأمر على غير ذلك لما كان للأمر والنهي معنى مفهوم، والسحر مما نهى عباده من بني آدم عنه فغير منكر أن يكون الله تعالى علمه الملكين اللذين سماهما في تنزيله وجعلهما فتنة لعباده من بني آدم كما أخبر عنهما أنهم يقولان: لمن جاء يتعلم ذلك منهما: إنما نحن فتنة فلا تكفر ليختبر بهما عباده الذين نهاهم عن السحر وعن التفريق بين المرء وزوجه فيتمحض المؤمن بتركه التعليم منهما، ويجري للكافر بتعلمه الكفر والسحر منهما ويكون الملكان في تعليمهما ما علما من ذلك مطيعين لله تعالى إذ كان عن إذن الله تعالى، لهما بتعليم ذلك وغير ضارهما سحر من سحر ممن تعلم ذلك منهما ما بعد نهيهما إياه عنه بقولهما إنما نحن فتنة فلا تكفر، إذ كانا قد أديا ما أمرا به. وقال غيره؛ إنهما لا يتعمدان ذلك بل يصفان السحر ويذكران بطلانه ويأمران باجتنابه فالشقي من ترك نصحهما، وتعلم السحر من وصفهما، والسعيد من قبل نصحهما وترك تعلم السحر منهما. وقيل: إن الله تعالى امتحن الناس بهما

فيكفر به، ومَن سعد يتركه، فيبقى على الإيمان، ويزداد المعلمان بالتعليم عذاباً ففيه ابتلاء للمعلّم والمتعلّم، ولله أن يمتحن عباده بما شاء فله الأمر والحكم، قوله عزّ وجلّ: ﴿ هاروتَ وماروتَ ﴾: هما اسمان سريانيان وهما في محل الخفض على تفسير الملكين إلاّ أنهما نصبا لعجمتهما ومعرفتهما، وكانت قصتهما على ما ذكر ابن عباس والمفسّرون: أن الملائكة رَأوا ما يصعد إلى السماء من أعمال بني آدم الخبيثة في زمن إدريس عليه السلام، فعيّروهم وقالوا هؤلاء الذين جعلتهم في الأرض خليفة واخترتهم، فهم يعصونك فقال الله تعالى: لو أنزلتكم إلى الأرض وركّبتُ فيكم ما ركبت فيهم لارتكبتم مثل ما ارتكبوا، فقالوا: سبحانك ما كان ينبغي لنا أن نعصيك، قال الله تعالى: فاختاروا ملكين من خيّاركم أهبطهما إلى الأرض، فاختاروا هاروت وماروت وكانا من أصلح الملائكة وأعبدهم، وقال الكلبي: قال الله تعالى لهم: اختاروا ثلاثة فاختاروا عزائيل وهو هاروت وعزايا وهو ماروت، غيّرا اسمهما لمّا قارفا الذنب، فركّب الله فيهم الشهوة وأهبطهم إلى الأرض وأمرهم أن يحكموا بين الناس بالحق، ونهاهم عن الشرك والقتل بغير الحق والزنا وشرب الخمر، فأمّا عزائيل فإنه لما وقعت الشهوة في قلبه استقبل ربّه وسأله أن يرفعه إلى السماء فأقاله، فسجد أربعين سنة لم يرفع رأسه ولم يزل بعد مطأطئاً رأسه حياءً من الله تعالى،

في ذلك الزمان فالشقي من تعلم السحر منهما فيكفر به والسعيد من تركه فيبقى على إيمانه، ولله تعالى أن يمتحن عباده بما شاء كما امتحن بني إسرائيل بنهر طالوت بقوله: ﴿فمن شرب منه فليس مني ومن لم يطعمه فإنه مني﴾ ﴿ببابل﴾ قيل: هي بابل العراق بأرض الكوفة سميت بذلك لتبلبل الألسنة بها عند سقوط صرح نمرود. وقيل: إنها بابل نهاوند والأول أصح وأشهر ﴿هاروت وماروت﴾ اسمان سريانيان. وقصة الآية على ما ذكره ابن عباس وغيره. قالوا: إن الملائكة لما رأوا ما يصعد إلى السماء من أعمال بني آدم الخبيثة في زمن إدريس عليه السلام عيروهم. وقالوا: هؤلاء الذين جعلتهم في الأرض واخترتهم وهم يعصونك فقال الله تعالى: لو أنزلتكم إلى الأرض وركبت فيكم ما ركبت فيهم لركبتم مثل ما ركبوا قالوا: سبحانك ما كان ينبغي لنا أن نعصيك قال الله تعالى: فاختاروا ملكين من خياركم أهبطهما إلى الأرض فاختاروا هاروت وماروت، وكانا من أصلح الملائكة وأعبدهم وكان اسم هاروت عزا وماروت عزايا، فغير اسمهما لما قارفا الذنب وركب الله فيهما الشهوة وأهبطهما إلى الأرض وأمرهما أن يحكما بين الناس بالحق ونهاهما عن الشرك، والقتل بغير الحق والزنا وشرب الخمر، فكانا يقضيان بين الناس يومهما فإذا أمسيا ذكرا اسم الله الأعظم وصعدا إلى السماء فما مر عليهما شهر حتى افتتنا. وقيل: بل افتتنا في أول يوم وذلك أنه اختصم إليهما امرأة يقال لها: الزهرة وكانت من أجمل أهل فارس. وقيل: كانت ملكة فلما رأياها أخذت بقلوبهما فقال أحدهما لصاحبه هل سقط في نفسك مثل الذي سقط في نفسي. قال: نعم فراوداها عن نفسها فأبت وانصرفت. ثم عادت في اليوم الثاني ففعلا مثل ذلك فأبت وقالت: لا إلاّ أن تعبدا هذا الصنم وتقتلا النفس وتشربا الخمر فقالا: لا سبيل إلى هذه الأشياء فإن الله تعالى قد نهانا عنها. فانصرفت ثم عادت في اليوم الثالث، ومعها قدح خمر وفي أنفسهما من الميل إليها ما فيها فراوداها عن نفسها فعرضت عليهما ما قالت بالأمس فقالا: الصلاة لغير الله عظيم وقتل النفس عظيم وأهون الثلاثة شرب الخمر فشربا فلما انتشيا وقعا بالمرأة فزنيا بها فرآهما إنسان فقتلاه خوف الفضيحة. وقيل: إنهما سجدا للصنم. وقيل: جاءتهما امرأة من أحسن الناس تخاصم زوجها. فقال: أحدهما للآخر هل سقط في نفسك مثل الذي سقط في نفسي؟ قال: نعم قال هل لك أن تقضي لها على زوجها فقال له صاحبه أما تعلم ما عند الله من العقوبة والعذاب. فقال له صاحبه: أما تعلم ما عند الله من العفو والرحمة فسألاها نفسها فقالت: لا إلاّ أن يقضيا لي على زوجي فقضيا. ثم سألاها نفسها فقالت: لا إلاّ أن تقتلاه فقال أحدهما: لصاحبه أما تعلم ما عند الله من العقوبة والعذاب؟ فقال له صاحبه أما تعلم ما عند الله من

وأمّا الآخران فإنهما ثبتا على ذلك وكانا يقضيان بين الناس يومَهما، فإذا أمسيا ذكرا اسم الله الأعظم وصعدا به إلى السماء، قال قتادة: فما مرّ عليهما شهر حتى افتتنا، قالوا جميعاً، وذلك أنه اختصم إليهما ذات يوم الزهرة وكانت من أجمل النساء، قال عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه: وكانت من أهل فارس، وكانت ملكة في بلدها، فلما رأياها أخذت بقلوبهما، فراوداها عن نفسها فأبت وانصرفت، ثم عادت في اليوم الثاني ففعلا مثل ذلك فأبت، وقالت: لا إلاّ أن تعبدا ما أعبد وتصليا لهذا الصنم، وتقتلا النفس وتشربا الخمر، فقالا: لا سبيل إلى هذه الأشياء فإن الله تعالى قد نهانا عنها، فانصرفت ثم عادت في اليوم الثالث ومعها قدح من خمر وفي أنفسهما من الميل إليها ما فيها، فراوداها عن نفسها فعرضت عليهما ما قالت بالأمس، فقالا: الصلاة لغير الله عظيم وقتل النفس عظيم، وأهون الثلاثة شرب الخمر فشربا الخمر فانتشيا ووقعا بالمرأة، فزنيا فلما فرغا رآهما إنسان فقتلاه، قال الربيع بن أنس: وسجدا للصنم، فمسخ الله الزهرة كوكباً. وقال بعضهم: جاءتهما امرأةٌ من أحسن الناس تخاصم زوجاً لها، فقال أحدهما للآخر: هل سقط في نفسك مثل الذي سقط في نفسي؟ قال: نعم، فقال: وهل لك أن تقضي لها على زوجها؟ فقال له صاحبه: أمَا تعلم ما عند الله من العقوبة والعذاب؟ فقال له صاحبه: أمَا تعلم ما عند الله من

العفو والرحمة؟ فقتلاه ثم سألاها نفسها فقالت: لا إلاّ أن لي صنماً أعبده إن أنتما صليتما معي عنده فعلت. فقال أحدهما: لصاحبه مثل القول الأول فرد عليه مثله فصليا معها عنده فمسخت شهاباً. وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: قالت لهم لن تدركاني حتى تخبراني بالذي تصعدان به إلى السماء فقالا: اسم الله الأكبر. قالت: فما أنتما بمدركي حتى تعلماني إياه فقال أحدهما للآخر: علمها. فقال: إني أخاف الله فقال الآخر فأين رحمة الله فعلمها ذلك فتكلمت به وصعدت إلى السماء فمسخها الله كوكباً، فذهب بعضهم إلى أنها هي الزهرة بعينها وأنكر آخرون ذلك وقالوا: إن الزهرة من الكواكب السيارة السبعة التي أقسم الله بها فقال: ﴿فلا أقسم بالخنس الجوار الكنس﴾ والتي فتنت هاروت وماروت كانت امرأة تسمى الزهرة لجمالها وحسنها فلما بغت مسخها الله تعالى شهاباً. قالوا: فلما أمسى هاروت وماروت بعد ما قارفا الذنب، هما بالصعود إلى السماء فلم تطاوعهما أجنحتهما، فعلما ما حل بهما فقصدا إدريس النبي عليه السلام وأخبراه بأمرهما وسألاه أن يشفع لهما إلى الله عز وجل. وقالا له: رأينا يصعد لك من العبادة مثل ما يصعد لجميع أهل الأرض فاشفع لنا إلى ربك ففعل ذلك إدريس فخيرهما الله بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة. فاختاروا عذاب الدنيا إذ علما أنه ينقطع، فهما ببابل يعذبان قيل: إنهما معلقان بشعورهما إلى قيام الساعة. وقيل: إنهما منكوسان يضربان بسياط الحديد. وقيل: إن رجلاً قصدهما ليتعلم السحر فوجدهما معلقين بأرجلهما مزرقة عيونهما مسودة جلودهما ليس بين ألسنتهما وبين الماء إلاّ قدر أربع أصابع وهما يعذبان بالعطش، فلما رأى ذلك هاله فقال: لا إله إلاّ الله فلما سمعا كلامه قالا: لا إله إلاّ الله من أنت؟ قال: رجل من الناس. فقالا: من أي أمة أنت؟ قال: من أمة محمد ﷺ قالا؟ أو قد بعث محمد ﷺ قال: نعم فقال: الحمد لله وأظهر الاستبشار فقال الرجل مم استبشاركما؟ قالا: إنه نبي الساعة وقد دنا انقضاء عذابنا.

فصل: في القول بعصمة الملائكة:

أجمع المسلمون على أن الملائكة معصومون فضلاً، واتفق أئمة المسلمين على أن حكم الرسل من الملائكة حكم النبيين، سواء في العصمة في باب البلاغ عن الله عز وجل وفي كل شيء ثبتت فيه عصمة الأنبياء فكذلك

العفو والرحمة، فسألاها عن نفسها فقالت: لا إلاّ أن تقضيا لي على زوجي، فقضيا لها ثم سألاها نفسها، فقالت: لا إلاّ أن تقتلاه فقال أحدهما: أمَا تعلم ما عند الله من العقوبة والعذاب؟ فقال له صاحبه: أمَا تعلم ما عند الله من العفو والرحمة، فقتلاه ثم سألاها نفسها، فقالت: لا إلاّ أن لنا صنماً نعبده إن أنتما صلّيتما معي عنده فعلتُ، فقال أحدهما لصاحبه مثل القول الأول، وقال صاحبه مثله، فصُلّيا معها فمُسِخَتْ شهاباً. قال عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه والكلبي والسدي: إنها قالت لهما: لن تدركاني حتى تخبراني بالذي تصعدان به إلى السماء فقالا باسم الله الأكبر، قالت: فما أنتم بمدركي حتى تعلّمانيه، فقال أحدهما لصاحبه: علّمها، فقال: إني أخاف الله، قال الآخر فأين رحمة الله تعالى؟ فعلّماها ذلك، فتكلّمت به وصعدت إلى السماء فمسخها الله كوكباً، وذهب بعضهم إلى أنها هي الزهرة بعينها، وأنكر الآخرون هذا وقالوا: إن الزهرة من الكواكب السبعة السيّارة التي أقسم الله بها، فقال: ﴿فلا أقسم بالخنس الجوار الكنس﴾ [التكوير: ١٥] والتي فتنت هاروت وماروت امرأة كانت تسمى الزهرة لجمالها، فلما بَغَت مسخها الله تعالى شهاباً، قالوا: فلما أمسى هاروت وماروت بعدما قارفا الذنب همّا بالصعود إلى السماء فلم تطاوعهما أجنحتهما، فعلما ما حلّ بهما فقصدا إدريس النبيّ عليه السلام فأخبراه بأمرهما وسألاه أن يشفع لهما إلى الله عزّ وجلّ، قالا له: إنّا رأيناك يصعد لك من العبادات مثل ما يصعد لجميع أهل الأرض فاستشفع لنا إلى ربك، ففعل ذلك إدريس عليه السلام فخيّرهما الله بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة، فاختارا عذاب الدنيا إذ

الملائكة وأنهم مع الأنبياء في التبليغ إليهم، كالأنبياء مع أممهم، ثم اختلفوا في غير المرسلين من الملائكة فذهب طائفة من المحققين. وجميع المعتزلة إلى عصمة جميع الملائكة عن جميع الذنوب والمعاصي، واحتجوا على ذلك بوجوه سمعية وعقلية، وذهب طائفة إلى أن غير المرسلين من الملائكة غير معصومين، واحتجوا على ذلك بوجوه سمعية وعقلية منها قصة هاروت وماروت عن علي وما نقله أهل الأخبار والسير. ونقله ابن جرير الطبري في تفسيره عن جماعة من الصحابة والتابعين فنقل قصة هاروت وماروت بألفاظ متقاربة. عن علي بن أبي طالب وابن مسعود وكعب الأحبار والسدي والربيع ومجاهد. وأجاب من ذهب إلى عصمة جميع الملائكة عن قصة هاروت وماروت، بأن ما نقله المفسرون وأهل الأخبار في ذلك لم يصح عن رسول الله ﷺ منه شيء وهذه الأخبار إنما أخذت من اليهود، وقد علم افتراؤهم على الملائكة والأنبياء وقد ذكر الله عز وجل في هذه الآيات، افتراء اليهود على سليمان أولاً، ثم عطف على ذلك قصة هاروت وماروت ثانياً، قالوا: ومعنى الآية وما كفر سليمان يعني بالسحر الذي افتعله عليه الشياطين، واتبعتهم في ذلك اليهود فأخبر عن افترائهم وكذبهم، وذكروا أيضاً في الجواب عن هذه القصة وأنها باطلة وجوهاً: الأول: إن في القصة أن الله تعالى قال: للملائكة لو ابتليتم بما ابتليت به بنو آدم لعصيتموني، قالوا: سبحانك ما كان ينبغي لنا أن نعصيك وفيه رد على الله تعالى وذلك كفر وقد ثبت أنهم كانوا معصومين قبل ذلك فلا يقع هذا منهم. الوجه الثاني: أنهما خيرا بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة، وذلك فاسد لأن الله تعالى لا يخير من أشرك، وإن كان قد صحت توبتهما فلا عقوبة عليهما. الوجه الثالث أن المرأة لما فجرت فكيف يعقل أنها صعدت إلى السماء وصارت كوكباً وعظم الله قدرها بحيث أقسم بها في قوله: ﴿**فلا أقسم بالخنس الجوار الكنس**﴾ فبان بهذه الوجوه ركة هذه القصة، والله أعلم بصحة ذلك وسقمه. والأولى تنزيه الملائكة عن كل ما لا يليق بمنصبهم وقوله تعالى: ﴿**وما يعلمان من أحد حتى يقولا**﴾ يعني وما يعلمان أحداً حتى ينصحاه أولاً ويقولا ﴿**إنما نحن فتنة**﴾ أي ابتلاء ومحنة ﴿**فلا تكفر**﴾ أي لا تتعلم السحر فتعمل به فتكفر، قيل: يقولان إنما نحن فتنة فلا تكفر سبع مرات فإن أبى قبول نصحهما وصمم على التعليم يقولان له: ائت هذا الرماد فبل عليه فإذا فعل ذلك خرج منه نور ساطع في السماء فذلك الإيمان والمعرفة. وينزل شيء أسود مثل

علما أنه ينقطع فهما ببابل يعذّبان، واختلفوا في كيفية عذابهما، فقال عبد الله بن مسعود: هما معلّقان بشعورهما إلى قيام الساعة، وقال عطاء بن أبي رباح: رؤوسهما مصوّبة تحت أجنحتهما، وقال قتادة: كُبّلا من أقدامهما إلى أصول أفخاذهما، وقال مجاهد: جُعِلا في جبّ مُلِيء ناراً، وقال عمر بن سعد: منكوسان يُضرَبان بسِياط الحديد، ورُوِيَ أن رجلاً قصد هاروت وماروت لتعلّم السحر فوجدهما معلّقين بأرجلهما مزرقّة أعينهما مسودّة جلودهما، ليس بين ألسنتهما وبين الماء إلاّ أربع أصابع، وهما يعذّبان بالعطش، فلما رأى ذلك هاله مكانهما فقال: لا إلَه إلاّ الله فلما سمعا كلامه قالا له: مَن أنت؟ قال: رجل من الناس، قالا: من أيّ أُمّة؟ قال: من أُمة محمد ﷺ، قالا: أو قد بُعث محمد ﷺ؟ قال: نعم، قالا: الحمد لله وأظهر الاستبشار، فقال الرجل: وبِمَ استبشاركما؟ قالا: إنه نبيّ الساعة وقد دنا انقضاء عذابنا. ﴿ **وما يُعلمان من أحد** ﴾، أي: أحداً و﴿ **من** ﴾ صلة ﴿ **حتى** ﴾: ينصحاه أولاً، ﴿ **يقولا إنما نحن فتنة** ﴾: ابتلاءٌ ومحنةٌ، ﴿ **فلا تكفر** ﴾، أي: لا تتعلّم السحر فتعمل به فتكفر، وأصل الفتنة: الاختبار والامتحان، من قولهم: فتنة الذهب والفضة، إذا أذبتهما بالنار ليتميّز الجيد من الرديء، وإنما وحّد الفتنة وهما اثنان لأن الفتنة مصدر، والمصادر لا تُثنّى ولا تُجمَع، وقيل: إنهما يقولان إنما نحن فتنة فلا تكفر سبع مرات، قال عطاء والسدي: فإن أبى إلاّ التعلّم قالا له: إئت هذا الرماد فبلْ عليه فيخرج منه نور ساطع في السماء، فذلك نور المعرفة، وينزل شيءٌ أسود شبه الدخان حتى يدخل مسامعه، وذلك غضب الله تعالى، قال مجاهد: إن هاروت

الدخان حتى يدخل مسامعه وذلك غضب الله تعالى: **﴿فيتعلمون منهما﴾** يعني من الملكين **﴿ما يفرقون به بين المرء وزوجه﴾** أي علم السحر الذي يكون سبباً في التفريق بين الزوجين، كالتمويه والتخييل والنفث في العقد ونحو ذلك مما يحدث الله عنده البغضاء والنشوز، والخلاف بين الزوجين ابتلاء من الله تعالى لا أن السحر له تأثير في نفسه بدليل قوله: **﴿وما هم﴾** يعني السحرة **﴿بضارين به﴾** أي بالسحر **﴿من أحد﴾** أي أحداً **﴿إلاّ بإذن الله﴾** أي بعلمه وقضائه وتكوينه فالساحر يسحر والله تعالى يقدر ويكون ذلك بقضائه تعالى وقدرته ومشيئته **﴿ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم﴾** يعني السحر لأنهم يقصدون به الشر **﴿ولقد علموا﴾** يعني اليهود **﴿لمن اشتراه﴾** أي اختار السحر **﴿ما له في الآخرة من خلاق﴾** يعني ما له نصيب في الجنة **﴿ولبئس ما شروا به أنفسهم﴾** أي باعوا حظ أنفسهم حيث اختاروا السحر والكفر على الدين والحق **﴿لو كانوا يعلمون﴾** فإن قلت: كيف أثبت الله لهم العلم أولاً في قوله: ولقد علموا على التوكيد القسمي ثم نفاه عنهم آخر في قوله لو كانوا يعلمون. قلت: قد علموا أن من اشترى السحر ما له في الآخرة من خلاق ثم مع هذا العلم خالفوا واشتغلوا بالسحر وتركوا العمل بكتاب الله تعالى وما جاءت به الرسل عناداً منهم وبغياً، وذلك على معرفة منهم بما لمن فعل ذلك منهم من العقاب فكأنهم حين لم يعملوا بعلمهم كانوا منسلخين منه.

وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقُولُوا۟ رَٰعِنَا وَقُولُوا۟ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُوا۟ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾

﴿ولو أنهم﴾ يعني اليهود **﴿آمنوا﴾** بمحمد ﷺ والقرآن **﴿واتقوا﴾** يعني اليهودية والسحر، وما يؤثمهم **﴿لمثوبة من عند الله﴾** أي لكان ثواب الله إياهم **﴿خير﴾** لهم يعني هذا الثواب **﴿لو كانوا يعلمون﴾** يعني ذلك. قوله عز وجل: **﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا﴾** سبب نزول هذه الآية: أن المسلمين كانوا يقولون: راعنا يا رسول الله من المراعاة أي ارعنا سمعك وفرغه لكلامنا وكانت هذه اللفظة سباً قبيحاً، بلغة اليهود ومعناها عندهم

وماروت لا يصل إليهما أحد ويختلف فيما بينهما شيطان في كل مسألة اختلافة واحدة، **﴿ فيتعلمون منهما ما يفرّقون به بين المرء وزوجه ﴾**، وهو أن يؤخذ كل واحد عن صاحبه ويبغض كل واحد إلى صاحبه قال الله تعالى: **﴿ وما هم ﴾**، قيل: أي السحرة: وقيل: الشياطين، **﴿ بضارّين به ﴾**، أي: بالسحر **﴿ من أحد ﴾**، أي: أحداً **﴿ إلاّ بإذن الله ﴾**، أي: بعلمه وتكوينه، فالساحر يسحر والله يكوّن، قال سفيان الثّوري: معناه إلاّ بقضائه وقدرته ومشيئته، **﴿ ويتعلمون ما يضرّهم ﴾**، يعني: السحر يضرّهم، **﴿ ولا ينفعهم ولقد علموا ﴾**: يعني اليهود، **﴿ لَمَنِ اشتراه ﴾**: أي اختار السحر، **﴿ ما له في الآخرة ﴾**، أي: في الجنّة، **﴿ من خَلاق ﴾**، من نصيب **﴿ ولبئس ما شَروا به ﴾**: باعوا به **﴿ أنفسهم ﴾**، حظّ أنفسهم حيث اختاروا السحر والكفر على الدين والحق، **﴿ لوكانوا يعلمون ﴾**، فإن قيل: أليس قد قال: **﴿ ولقد علموا لَمَن اشتراه ﴾** فما معنى قوله تعالى: **﴿ لوكانوا يعلمون ﴾** بعدما أخبر أنهم علموا؟ قيل: أراد بقوله: ولقد علموا، يعني: الشياطين، وقوله: **﴿ لو كانوا يعلمون ﴾** يعني: اليهود، وقيل: كلاهما في اليهود ولكنهم لمّا لم يعملوا بما علموا فكأنهم لم يعلموا.

﴿ ولو أنهم آمنوا ﴾ بمحمد ﷺ والقرآن، **﴿ واتقوا ﴾**: اليهودية والسحر، **﴿ لمثوبة من عند الله خير ﴾**: لكان ثواب الله إياهم خيراً لهم، **﴿ لو كانوا يعلمون ﴾**.

قوله تعالى: **﴿ يا أيّها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا ﴾**، وذلك أن المسلمين كانوا يقولون: راعنا يا رسول الله، من المراعاة، أي: أرعنا سمعك، أي: فرّغ سمعك لكلٍّ منّا، يقال: أرعى الله الشيء وأرعاه، أي: أصغى إليه

اسمع لا سمعت. وقيل: من الرعونة إذا أرادوا أن يحمقوا إنساناً قالوا: راعنا يعني أحمق فلما سمعت اليهود هذه الكلمة من المسلمين قالوا فيما بينهم كنا نسب محمداً سراً فأعلنوا به الآن فكانوا يأتونه ويقولون راعناً يا محمد ويضحكون فيما بينهم فسمعها سعد بن معاذ رضي الله تعالى عنه ففطن لها وكان يعرف لغتهم فقال لليهود لئن سمعتها من أحد منكم يقولها لرسول الله ﷺ لأضربن عنقه فقالوا: أولستم تقولونها فأنزل الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا﴾ أي لكي لا يجد اليهود بذلك سبيلاً إلى شتم رسول الله ﷺ ﴿وقولوا انظرنا﴾ أي انظر إلينا. وقيل معناه انتظرنا وتأن بنا وفهمنا ﴿واسمعوا﴾ أي ما تؤمرون به وأطيعوا نهى الله تعالى عباده المؤمنين أن يقولوا لنبيه محمد ﷺ راعنا لئلا يتطرق أحد إلى شتمه وأمرهم بتوقيره وتعظيمه وأن يتخيروا لخطابه ﷺ من الألفاظ أحسنها ومن المعاني أدقها، وإن سألوه بتبجيل وتعظيم ولين لا يخاطبوه بما يسر اليهود ﴿وللكافرين﴾ يعني اليهود ﴿عذاب أليم﴾ أي مؤلم.

﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾ ۞ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾﴾

﴿ما يود﴾ أي ما يحب ﴿الذين كفروا من أهل الكتاب﴾ يعني اليهود ﴿ولا المشركين﴾ يعني عبدة الأوثان لأن الكفر اسم جنس تحته نوعان أهل الكتاب وهم الذين بدلوا كتابهم وكذبوا الرسل وعبدة الأوثان وهم من عبدوا غير الله ﴿أن ينزل عليكم من خير من ربكم﴾ يعني ما أنزل الله عز وجل على نبيه ﷺ من الوحي والنبوة، وإنما كرهت اليهود وأتباعهم من المشركين ذلك حسداً وبغياً منهم على المؤمنين، وذلك أن المسلمين قالوا لحلفائهم من اليهود آمنوا بمحمد ﷺ قالوا: ما هذا الذي تدعوننا إليه بخير مما نحن فيه ولوددنا لو كان خيراً فأنزل الله تعالى هذه الآية تكذيباً لهم ﴿والله يختص برحمته من يشاء﴾ يعني أنه تعالى يختص بنبوته ورسالته من يشاء من عباده، ويتفضل بالإيمان والهداية على من أحب من خلقه رحمة منه لهم ﴿والله ذو الفضل العظيم﴾ يعني أن كل خير ناله

واستمعه، وكانت هذه اللفظة سبّاً قبيحاً بلغة اليهود، وقيل: كان معناها عندهم: اسمع لا سمعت، وقيل: هي من الرعونة كانوا إذا أرادوا أن يحمقوا إنساناً قالوا: راعنا، بمعنى: يا أحمق فلما سمع اليهود هذه اللفظة من المسلمين قالوا فيما بينهم: كنّا نسب محمداً سرّاً فأعلنوا به الآن، فكانوا يأتونه ويقولون: راعنا يا محمد ويضحكون فيما بينهم، فسمعها سعد بن معاذ ففطن لها وكان يعرف لغتهم، فقال لليهود: لئن سمعتها من أحد منكم يقولها للرسول ﷺ لأضربنّ عنقه، فقالوا: أوَ لستم تقولونها، فأنزل الله تعالى: ﴿ لا تقولوا راعنا ﴾ لكيلا يجد اليهود بذلك سبيلاً إلى شتم رسول الله ﷺ، ﴿ وقولوا انْظُرْنا ﴾، أي: انظر إلينا، وقيل: انتظرنا وتأنَّ بنا، يقال نظرت فلاناً وانتظرته، ومنه قوله تعالى: ﴿ أنظرونا نقتبس من نوركم ﴾ [الحديد: ١٣]، قال مجاهد: معناه فهمنا، ﴿ واسمعوا ﴾: ما تؤمرون به وأطيعوا، ﴿ وللكافرين ﴾، يعني: اليهود، ﴿ عذابٌ أليم ﴾.

قوله تعالى: ﴿ ما يَودُّ الذين كفروا من أهل الكتاب ﴾، وذلك أن المسلمين كانوا إذا قالوا لحلفائهم من اليهود: آمنوا بمحمد ﷺ، قالوا: ما هذا الذي تدعوننا إليه بخير مما نحن عليه، ولَوَدِدنا لو كان خيراً، فأنزل الله تكذيباً لهم ما يَوَدّ الذين، أي: ما يجب وما يتمنى الذين كفروا من أهل الكتاب، يعني: اليهود، ﴿ ولا المشركين ﴾، جرّه بالنسق على (مِنْ) ﴿ أن يُنزَّل عليكم من خير من ربكم ﴾، أي: خير ونبوّة، و (من) ،

عباده في دينهم ودنياهم، فإنه منه ابتداء وتفضلاً عليهم من غير استحقاق أحد منهم لذلك بل له الفضل والمنة على خلقه. قوله عز وجل: ﴿ما ننسخ من آية أو ننسها﴾ الآية. وسبب نزولها أن المشركين قالوا: إن محمداً يأمر أصحابه بأمر ثم ينهاهم عنه ويأمرهم بخلافه ويقول: اليوم قولاً ويرجع عنه غداً ما يقول: إلا من تلقاء نفسه كما أخبر الله تعالى عنهم بقوله: ﴿إذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل قالوا إنما أنت مفتر﴾ فأنزل ما ننسخ من آية فبين بهذه الآية وجه الحكمة في النسخ وأنه من عنده لا من عند محمد ﷺ. وأصل النسخ في اللغة يكون بمعنى النقل والتحويل ومنه نسخ الكتاب، وهو أن ينقل من كتاب إلى كتاب آخر كذلك لا يقتضي إزالة الصورة الأولى بل يقتضي إثبات مثله في كتاب آخر، فعلى هذا المعنى يكون القرآن كله منسوخاً، وذلك أنه نسخ من اللوح المحفوظ ونزل جملة واحدة إلى سماء الدنيا، ويكون النسخ بمعنى الرفع والإزالة وهو إزالة شيء بشيء يعقبه كنسخ الشمس الظل، والشيب الشباب فعلى هذا المعنى يكون بعض القرآن منسوخاً وبعضه ناسخاً، وهو المراد من حكم هذه الآية وهو إزالة الحكم بحكم يعقبه.

فصل في حكم النسخ:

هو في اصطلاح العلماء، عبارة عن رفع الحكم الشرعي بدليل شرعي متأخر عنه، والنسخ جائز عقلاً وواقع سمعاً خلافاً لليهود، فإن منهم من ينكره عقلاً لكنه منعه سمعاً، وشذت طائفة قليلة من المسلمين فأنكرت النسخ احتج الجمهور من المسلمين على جواز النسخ، ووقوعه بأن الدلائل قد دلت على نبوة محمد ﷺ ونبوته لا تصح، إلا مع القول، بالنسخ وهو نسخ شرع من قبله فوجب القطع بالنسخ. ولنا على اليهود إلزامات: منها أن الله تعالى حرم عليهم العمل في يوم السبت، ولم يحرمه على من كان قبلهم. ومنها أنه قد جاء في التوراة أن الله تعالى قال لنوح عليه الصلاة والسلام عند خروجه من الفلك: إني جعلت كل دابة مأكولاً لك ولذريتك وأطلقت ذلك لكم. ثم إنه تعالى حرم على موسى عليه الصلاة والسلام وعلى بني إسرائيل كثيراً من الحيوانات. ومنها إن آدم عليه الصلاة والسلام كان يزوج الأخ للأخت وقد حرمه على من بعده وعلى موسى عليه الصلاة والسلام فثبت بهذا جواز النسخ، وحيث ثبت جواز النسخ فقد اختلفوا فيه على وجوه: أحدها أن القرآن نسخ جميع الشرائع والكتب القديمة كالتوراة والإنجيل وغيرهما. الوجه الثاني المراد من النسخ هو نسخ القرآن ونقله من اللوح المحفوظ إلى سماء الدنيا الوجه الثالث، وهو الصحيح الذي عليه جمهور العلماء أن المراد من النسخ هو رفع حكم بعض الآيات بدليل

صلة، ﴿ والله يختصّ برحمته ﴾: بنبوّته، ﴿ مَن يشاء والله ذو الفضل العظيم ﴾، والفضل ابتداء إحسان بلا علّة، وقيل: المراد بالرحمة الإسلام والهداية، وقيل معنى الآية: إنّ الله تعالى بعث الأنبياء من ولد إسحق فلما بعث النبيّ ﷺ من ولد إسماعيل لم يقع ذلك بِودّ اليهود ومحبتهم، وأمّا المشركون، فإنما لم يقع بودّهم لأنه جاء بتفضيحهم وعيب آلهتهم، فنزلت الآية فيه.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ ما ننسخ من آية أو ننسها ﴾، وذلك أن المشركين قالوا إن محمداً يأمر أصحابه بأمر ثم ينهاهم عنه، ويأمرهم بخلاف، ما يقوله إلاّ من تلقاء نفسه، يقول اليوم قولاً ويرجع عنه غداً، كما أخبر الله: ﴿ وإذا بدّلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل ﴾ [النحل: ١٠١]، قالوا: إنما أنت مفترٍ وأنزل: ﴿ ما ننسخ من آيةٍ أو نُنْسِها ﴾، فبيّن وجه الحكمة في النسخ بهذه الآية، والنسخ في اللغة شيئان، أحدهما: بمعنى التحويل والنقل، ومنه نسخ الكتاب وهو أن يحوّل من كتاب إلى كتاب، فعلى هذا الوجه كلّ القرآن منسوخ، لأنه نسخ من اللوح المحفوظ، والثاني: يكون بمعنى الرفع، يقال: نَسَخَتِ الشمسُ الظلَّ، أي: ذهبت به وأبطلته، فعلى هذا يكون بعض القرآن ناسخاً وبعضه منسوخاً، وهو المراد من الآية، وهذا على وجوه، أحدها: أن يثبت الخط ويُنسخ

آخر يأتي بعده وهو المراد بقوله تعالى: ﴿ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها﴾ لأن الآية إذ أطلقت، فالمراد به آيات القرآن لأنه هو المعهود عندنا.

مسألة: قال الشافعي رضي الله عنه الكتاب لا ينسخ بالسنة المتواترة، واستدل بهذه الآية وهو أنه تعالى قال: ﴿ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها﴾ وذلك يفيد أنه تعالى هو الآتي والمؤتي به هو من جنس القرآن، وما كان من جنس القرآن فهو قرآن. وقوله: نأت بخير منها يفيد أنه هو المنفرد بالإتيان بذلك الخير، وهو القرآن الذي هو كلام الله دون السنة ولأن السنة لا تكون خيراً من القرآن ولا مثله. واحتج الجمهور على جواز نسخ الكتاب بالسنة بأن آية الوصية للأقربين منسوخة بقوله ﷺ: «لا وصية لوارث» أجاب الشافعي رضي الله عنه: بأن هذا ضعيف لأن كون الميراث حقاً للوارث يمنع من صرفه إلى الوصية فثبت أن آية الميراث مانعة من الوصية، وتقرير هذا وبسطه معروف في أصول الفقه. ثم النسخ في القرآن على وجوه: أحدها ما رفع حكمه وتلاوته كما روى عن أبي إمامة بن سهل: أن قوماً من الصحابة قاموا ليلة ليقرؤوا سورة فلم يذكروا منها إلا بسم الله الرحمن الرحيم، فغدوا إلى النبي ﷺ فأخبروه فقال رسول الله ﷺ: «تلك السورة رفعت بتلاوتها وحكمها» أخرجه البغوي بغير سند. وقيل: إن سورة الأحزاب كانت مثل سورة البقرة فرفع بعضها تلاوة وحكماً. الوجه الثاني، ما رفع تلاوته وبقي حكمه مثل آية الرجم روي عن ابن عباس قال: قال عمر بن الخطاب وهو جالس على منبر رسول الله ﷺ: إن الله بعث محمداً بالحق، وأنزل عليه الكتاب فكان فيما أنزل عليه آية الرجم فقرأناها، ووعيناها وعقلناها ورجم رسول الله ﷺ ورجمنا بعده فأخشى إن طال بالناس زمان أن يقول قائل: ما نجد الرجم في كتاب الله فيضلوا بترك فريضة أنزلها الله، وإن الرجم في كتاب الله حق على من زنى إذا أحصن من الرجال والنساء، إذا قامت البينة أو كان الحبل أو الاعتراف. أخرجه مسلم وللبخاري نحوه. والوجه الثالث ما رفع حكمه وثبت خطه وتلاوته وهو كثير في القرآن، مثل آية الوصية للأقربين نسخت بآية الميراث عند الشافعي وبالسنة عند غيره وآية عدة الوفاة بالحول، نسخت بآية أربعة أشهر وعشراً وآية القتال وهي قوله: ﴿إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين﴾ الآية نسخت بقوله: ﴿الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً﴾ الآية ومثل هذا كثير في القرآن. وأما

الحكم، مثل آية الوصيّة للأقارب، وآية عدّة الوفاة بالحول، وآية التخفيف في القتال، وآية الممتحنة، ونحوها.
وقال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿ ما ننسخ من آية ﴾: ما نُثبت خطها ونُبدّل حكمها، ومنها: أن يَرفع تلاوتها ويُبقي حكمها، مثل آية الرجم، ومنها أن يرفع أصلًا عن المصحف وعن القلوب، كما رُوِيَ عن أبي أمامة بن سهل بن حنيف أن قوماً من الصحابة رضي الله عنهم، قاموا ليلة ليقرؤوا سورة فلم يذكروا منها إلّا بسم الله الرحمن الرحيم، فغدوا إلى النبيّ ﷺ، فأخبروه فقال رسول الله ﷺ: «تلك سورة رُفعت بتلاوتها وأحكامها»، وقيل: كانت سورة الأحزاب مثل سورة البقرة فرفع أكثرها تلاوةً وحكماً، ثم مِنْ نسخِ الحُكم ما يُرفع ويُقام غيرُه مقامه، كما أن القِبلة نُسخت من بيت المقدس إلى الكعبة، والوصيّة للأقارب نُسِخت بالميراث، وعدّة الوفاة نُسِخت من الحول إلى أربعة أشهر وعشر، ومُصابرة الواحد العشر في القتال، نُسِخت بمصابرة الإثنين، ومنها ما يُرفع ولا يُقام غيره مقامه كامتحان النساء، والنسخ إنما يعترض على الأوامر والنواهي دون الأخبار، أما الآية فقوله: ﴿ ما ننسخ من آية ﴾، قراءة العامّة بفتح النون والسين، من النسخ أي: ترفعا، وقرأ ابن عاصم بضمّ النون وكسر السين، من الإنساخ، له وجهان: أحدهما نجعله في المنسوخ، والثاني: أن نجعله في المنسوخ نسخة لك، يقال: نَسختُ الكتاب، أي: كتبته، وأنسخته غيري: إذا جعلته نسخة له، أو ننسها، أي: ننسها عن قلبك، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: نتركها لا ننسخها، قال الله تعالى: ﴿ نسوا الله فنسيهم ﴾ [التوبة: ٦٧]، أي: تركوه

معنى الآية فقوله: ما ننسخ من آية أي نرفعها أو نرفع حكمها أو ننسها قرىء بضم النون وكسر السين، ومعناها نثبتها على قلبك وقال ابن عباس: نتركها لا ننسخها. وقيل: معناه نأمر بتركها فعلى هذا يكون النسخ الأول رفع الحكم، وإقامة غيره مقامه والإنساء نسخ من غير إقامة غيره مقامه وقرىء ننسأها بفتح النون والسين وبالهمزة ومعناها: نؤخرها فلا ننزلها أو نرفع تلاوتها ونؤخر حكمها كآية الرجم فعلى هذا يكون النسخ الأول بمعنى رفع التلاوة، والحكم قال سعيد بن المسيب وعطاء: ما ننسخ من آية فهو ما نزل من القرآن جعلاه من نسخت الكتاب إذا نقلته إلى كتاب آخر وننسأها أن نؤخرها ونتركها في اللوح المحفوظ فلا ننزلها ﴿نأت بخير منها﴾ أي بما هو أنفع لكم وأسهل عليكم وأكثر لأجوركم وليس معناه أن آية خير من آية لأن كلام الله تعالى كله واحد ﴿أو مثلها﴾ أي في المنفعة والثواب فما نسخ إلى الأيسر كان أسهل في العمل كالذي كان على المؤمنين من فرض قيام الليل، ثم نسخ ذلك فكان خيراً لهم في عاجلهم لسقوط التعب والمشقة عليهم، وما نسخ إلى الأشق كان أكمل في الثواب كالذي كان عليهم من صيام أيام معدودات في السنة فنسخ ذلك، وفرض صيام شهر رمضان فكان صوم شهر كامل في كل سنة أثقل على الأبدان، وأشق من صيام أيام معدودات فكان ثوابه أكمل وأكثر. أما المثل فكنسخ التوجه إلى بيت المقدس، وصرفه إلى المسجد الحرام واستواء الأجر في ذلك لأن على المصلي التوجه إلى حيث أمره الله تعالى: ﴿ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير﴾ أي على النسخ والتبديل، والمعنى ألم تعلم يا محمد أني قادر على تعويضك مما نسخت من أحكامي، وغيرته من فرائضي التي كنت افترضتها عليك ما أشاء مما هو خير لك ولعبادي المؤمنين وأنفع لك ولهم عاجلاً وآجلاً.

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ وَمَن يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾﴾

﴿ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض﴾ يعني أنه تعالى هو المتصرف في السموات والأرض، وله سلطانهما دون غيره يحكم فيهما وفيما فيهما بما شاء من أمر ونهي ونسخ وتبديل هذا الخبر وإن كان خطاباً

فتركهم، وقيل؛ ننسها أي نأمر بتركها، يقال: أنسيت الشيء، إذا أمرت بتركه، فيكون النسخ الأول من رفع الحكم وإقامة غيره مقامه، والإنساء يكون نسخاً من غير إقامة غيره مقامه، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو «أو نَنْسأها» بفتح النون الأول والسين مهموز، أي نؤخّرها فلا نبدّلها، يقال نسأ الله في أجله وأنسأ الله أجله، في معناه قولان: أحدهما نرفع تلاوتها ونؤخّر حكمها كما فعل في آية الرجم، فعلى هذا يكون النسخ الأول بمعنى رفع التلاوة والحكم، والقول الثاني: قال سعيد بن المسيب وعطاء أما ما نسخ من آية فهو ما قد أتى ونزل من القرآن، جعلاه: من النسخة، أو ننسأها أي نؤخّرها ونتركها في اللوح المحفوظ فلا تنزل. ﴿ نأتِ بخير منها ﴾، أي: بما هو أنفع لكم وأسهل عليكم وأكثر لأجركم، لا أن آية خير من آية، لأن كلام الله واحد وكله خير، ﴿ أو مثلها ﴾: في المنفعة والثواب، فكل ما نُسِخَ إلى الأيسر فهو أسهل في العمل، وما نُسِخَ إلى الأشقّ فهو في الثواب أكثر. ﴿ ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير ﴾: من النسخ والتبديل، لفظه استفهام ومعناه تقرير، أي: إنك تعلم.

﴿ ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض وما لكم ﴾: يا معشر الكفّار عند نزول العذاب، ﴿ من دون الله ﴾: مما سوى الله ﴿ من ولي ﴾: قريب وصديق، وقيل: والٍ، وهو القيّم بالأمور، ﴿ ولا نصير ﴾: ناصر يمنعكم من العذاب.

للنبي ﷺ لكن فيه تكذيب لليهود الذين أنكروا النسخ، وجحدوا نبوة عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام فأخبرهم الله أن له ملك السموات والأرض، وأن الخلق كلهم عبيده وتحت تصرفه يحكم فيهم بما يشاء، وعليهم السمع والطاعة ﴿وما لكم﴾ يعني يا معشر الكفار عند نزول العذاب ﴿من دون الله﴾ أي مما سوى الله ﴿من ولي﴾ أي قريب وصديق، وقيل من وال وهو المقيم بالأمور ﴿ولا نصير﴾ أي ناصر يمنعكم من العذاب وقيل في معنى الآية، وليس لكم أيها المؤمنين بعد الله من قيم يأمركم ولا نصير يؤيدكم، ويقويكم على أعدائكم. قوله عز وجل: ﴿أم تريدون أن تسألوا رسولكم﴾ نزلت في اليهود، وذلك أنهم قالوا يا محمد ائتنا بكتاب من السماء جملة كما أتى موسى بالتوراة، وقيل: إنهم سألوا رسول الله ﷺ فقالوا: لن نؤمن لك حتى تأتي بالله والملائكة قبيلاً كما سئل قوم موسى فقالوا: أرنا الله جهرة فأنزل الله تعالى هذه الآية، والمعنى أتريدون وقيل بل تريدون أن تسألوا رسولكم يعني محمداً ﷺ ﴿كما سئل موسى من قبل﴾ وذلك أن موسى سأله قومه فقالوا: أرنا الله جهرة ففي الآية منعهم ونهيهم عن السؤالات المقترحة بعد ظهور الدلالات والمعجزات وثبوت الحجج والبراهين على صحة نبوة محمد ﷺ. ﴿ومن يتبدل﴾ أي يستبدل ﴿الكفر بالإيمان فقد ضل سواء السبيل﴾ أي أخطأ قصد الطريق، وقيل: إن قوله ومن يتبدل الكفر بالإيمان خطاب للمؤمنين أعلمهم أن اليهود أهل غش وحسد، وأنهم يتمنون للمؤمنين المكاره فنهاهم الله تعالى أن يقبلوا من اليهود شيئاً ينصحونهم به في الظاهر، وأخبرهم أن من ارتد عن دينه فقد أخطأ قصد السبيل. قوله عز وجل: .

﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾﴾

﴿ود كثير من أهل الكتاب﴾ نزلت هذه الآية في نفر من اليهود، وذلك أنهم قالوا لحذيفة بن اليمان وعمار بن ياسر بعد وقعة أحد: لو كنتم على الحق ما هربتم فارجعا إلى ديننا فنحن أهدى سبيلاً منكم، فقال عمار بن ياسر. كيف نقض العهد فيكم قالوا شديد قال: إني عاهدت أن لا أكفر بمحمد ﷺ ما عشت قالت اليهود، أما هذا فقد، صبأ وقال حذيفة: أما أنا فقد رضيت بالله رباً وبمحمد رسولاً وبالإسلام دينا وبالقرآن إماماً وبالكعبة قبلة

قوله: ﴿ أم تريدون أن تسألوا رسولكم ﴾، نزلت في اليهود حين قالوا يا محمد ائتنا بكتاب من السماء جملة كما أتى موسى بالتوراة، فقال تعالى: ﴿ أم تريدون ﴾، يعني: أتريدون، فالميم صلة، وقيل: بل تريدون أن تسألوا رسولكم محمداً ﷺ، ﴿ كما سئل موسى من قبل ﴾، سأله قومه ﴿ أَرِنَا اللَّهَ جهرةً ﴾ [النساء: ١٥٣] وقيل: إنهم سألوا رسول الله ﷺ، فقالوا: لن نؤمن لك حتى تأتي بالله والملائكة قبيلاً، كما أن موسى سأله قومه فقالوا: أرِنَا الله جهرة، ففيه منعهم عن السؤالات المقترحة بعد ظهور الدلائل والبراهين. ﴿ ومَن يتبدّل الكفر بالإيمان ﴾: يستبدل الكفر بالإيمان ﴿ فقد ضلّ سواء السبيل ﴾: أخطأ وسط الطريق، وقيل: قصد السبيل.

قوله تعالى: ﴿ ودّ كثيرٌ من أهل الكتاب ﴾، الآية نزلت في نفرٍ من اليهود، قالوا لحذيفة بن اليمان وعمّار بن ياسر بعد وقعة أحد: لو كنتم على الحق ما هزمتم فارجعا إلى ديننا فنحن أهدى سبيلاً منكم، فقال لهم عمّار: كيف نقض العهد فيكم؟ قالوا: شديداً، قال: فإني قد عاهدت أن لا أكفر بمحمد ﷺ ما عشت، فقالت اليهود: أمّا هذا فقد صبا، وقال حذيفة: أمّا أنا فقد رضيت بالله تعالى ربّاً وبمحمد نبيّاً وبالإسلام ديناً وبالقرآن إماماً وبالكعبة قبلةً

وبالمؤمنين إخواناً. ثم إنهما أتيا رسول الله ﷺ فأخبراه بذلك، فقال: أصبتما الخير وأفلحتما فأنزل الله تعالى: **﴿ود﴾** أي تمنى كثير من أهل الكتاب يعني اليهود **﴿لو يردونكم﴾** أي يا معشر المؤمنين **﴿من إيمانكم كفاراً﴾** أي ترجعون إلى ما كنتم عليه من الكفر **﴿حسداً﴾** أي يحسدونكم حسداً وأصل الحسد تمني زوال النعمة عمن يستحقها، وربما يكون مع ذلك سعي في إزالتها، والحسد مذموم لما روي عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «إياكم والحسد فإن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب أو قال العشب» أخرجه أبو داود، فإذا أنعم الله على عبده نعمة فتمنى آخر زوالها عنه، فهذا هو الحسد وهو حرام فإن استعان بتلك النعمة على الكفر، والمعاصي فتمنى آخر زوالها عنه فليس بحسد، ولا يحرم ذلك لأنه لم يحسده على تلك النعمة، من حيث إنها نعمة بل من حيث إنه يتوصل بتلك النعمة إلى الشر والفساد وقوله: **﴿من عند أنفسهم﴾** أي من تلقاء أنفسهم لم يأمرهم الله بذلك **﴿من بعد ما تبين لهم الحق﴾** يعني في التوراة أن قول محمد ﷺ ودينه، حق لا يشكون فيه فكفروا به حسداً وبغياً **﴿فاعفوا واصفحوا﴾** أي فتجاوزوا عما كان منهم من إساءة وحسد وكان هذا الأمر بالعفو، والصفح قبل أن يؤمر بالقتال **﴿حتى يأتي الله بأمره﴾** أي بعذابه وهو القتل والسبي لبني قريظة والإجلاء والنفي لبني النضير قال ابن عباس: هو أمر الله له بقتالهم في قوله: **﴿قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر﴾** الآية **﴿إن الله على كل شيء قدير﴾** فيه وعيد وتهديد لهم **﴿وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة﴾** لما أمر الله المؤمنين بالعفو والصفح عن اليهود أمرهم بما فيه صلاح أنفسهم من إقام الصلاة وإيتاء الزكاة الواجبتين، ونبه بذلك على سائر الواجبات ثم قال تعالى: **﴿وما تقدموا لأنفسكم من خير﴾** أي من طاعة وعمل صالح، وقيل أراد بالخير المال يعني صدقة التطوع، لأن الزكاة تقدم ذكرها **﴿تجدوه عند الله﴾** يعني ثوابه وأجره حتى التمرة واللقمة مثل أحد **﴿إن الله بما تعملون بصير﴾** أي لا يخفى عليه شيء من قليل الأعمال، وكثيرها ففيه ترغيب في الطاعات، وأعمال البر وزجر عن المعاصي. قوله عز وجل:

﴿وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ

وبالمؤمنين إخواناً، ثم أتيا رسول الله ﷺ فأخبراه بذلك، فقال رسول الله ﷺ: «قد أصبتما الخير وأفلحتما»، فأنزل الله تعالى: **﴿ وَدّ كثير من أهل الكتاب ﴾**، أي: تمنى وأراد كثير من أهل الكتاب من اليهود: **﴿ لو يردّونكم ﴾**، يا معشر المؤمنين **﴿ من بعد إيمانكم كفّاراً حسداً ﴾**، نُصب على المصدر، أي: يحسدونكم حسداً، **﴿ من عند أنفسهم ﴾**، أي: من تلقاء أنفسهم ولم يأمرهم الله بذلك، **﴿ من بعد ما تبين لهم الحق ﴾** في التوراة أن قول محمد ﷺ صدق ودينه حق، **﴿ فاعفوا ﴾**: فاتركوا **﴿ واصفحوا ﴾**، وتجاوزوا، فالعفو، المحو، والصفح: الإعراض، وكان هذا قبل آية القتال، **﴿ حتى يأتي الله بأمره ﴾**، بعذابه القتل والسبي لبني قريظة والجلاء والنفي لبني النضير، وقال ابن عباس رضي الله عنهما وقال قتادة: هو أمره بقتالهم في قوله: **﴿ قاتلوا المشركين الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ﴾**، إلى قوله: **﴿ وهم صاغرون ﴾** [التوبة: ٢٩]، وقال ابن كيسان: بعلمه وحكمه فيهم، حكم لبعضهم بالإسلام ولبعضهم بالقتل والسبي والجزية، **﴿ إنّ الله على كل شيء قدير ﴾**.

﴿ وأقيمُوا الصلاةَ وآتُوا الزكاةَ وما تقدِّموا ﴾: تُسلفوا **﴿ لأنفسكم من خير ﴾**: طاعة وعمل صالح **﴿ تجدوه عند الله ﴾**، وقيل: أراد بالخير المال، كقوله تعالى: **﴿ إنْ ترك خيراً ﴾** [البقرة: ١٨٠]، وأراد: من زكاة أو صدقة تجدوه عند الله حتى الثمرة واللقمة مثل أُحد **﴿ إن الله بما تعملون بصير ﴾**.

﴿يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾ وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾﴾

﴿وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً﴾ يعني يهودياً، وقيل هو جمع هائد ﴿أو نصارى﴾ وذلك أن اليهود قالوا: لن يدخل الجنة إلا من كان يهودياً ولا دين إلا دين اليهودية، وقالت النصارى: لن يدخل الجنة إلا من كان نصرانياً ولا دين إلا دين النصرانية قيل: نزلت في وفد نجران وكانوا نصارى اجتمعوا مع اليهود في مجلس رسول الله ﷺ فكذب بعضهم بعضاً في دعواه قال الله: ﴿تلك أمانيهم﴾ أي شهواتهم الباطلة التي تمنوها على الله بغير حق ﴿قل﴾ يعني يا محمد ﴿هاتوا برهانكم﴾ أي حجتكم على دعواكم أن الجنة لا يدخلها إلا من كان يهودياً أو نصرانياً دون غيرهم ﴿إن كنتم صادقين﴾ يعني فيما تدعون. ثم قال تعالى رداً عليهم: ﴿بلى﴾ أي ليس الأمر كما تزعمون ولكن ﴿من أسلم وجهه لله وهو محسن﴾ فإنه الذي يدخل الجنة وينعم فيها ومعنى أسلم وجهه لله أخلص في دينه لله، وقيل: أخلص عبادته لله. وقيل خضع وتواضع لله، لأن أصل الإسلام الاستسلام وهو الخضوع، وإنما خص الوجه بالذكر لأنه أشرف الأعضاء، وإذا جاد الإنسان بوضع وجهه على الأرض في السجود فقد جاد بجميع أعضائه، قال عمرو بن نفيل:

وأسلمت وجهي لمن أسلمت ... له الأرض تحمل صخراً ثقالا
وأسلمت وجهي لمن أسلمت ... له المزن تحمل عذباً زلالا

يعني بذلك استسلمت لطاعة من استسلم لطاعته الأرض والمزن، وهو محسن أي في عمله لله ﴿فله أجره عند ربه﴾ أي ثواب عمله ﴿ولا خوف عليهم﴾ أي في الآخرة ﴿ولا هم يحزنون﴾ أي على ما فاتهم من الدنيا. قوله عز وجل: ﴿وقالت اليهود ليست النصارى على شيء، وقالت النصارى ليست اليهود على شيء﴾ نزلت في يهود المدينة ونصارى نجران، وذلك أن وفد نجران لما قدموا على النبي ﷺ أتاهم أحبار اليهود وتناظروا حتى ارتفعت أصواتهم فقالت اليهود للنصارى: ما أنتم على شيء من الذين وكفروا بعيسى والإنجيل؛ وقالت النصارى لليهود ما

﴿ وقالوا لنْ يدخل الجنّةَ إلاّ مَنْ كان هوداً ﴾، أي: يهودياً: قال الفرّاء: حذف الياء الزائدة ورجع إلى الفعل من اليهودية، وقال الأخفش: الهود: جمع هائد، مثل عائد وعود وحائل وحول، ﴿ أو نصارى ﴾، وذلك أن اليهود قالوا: لن يدخل الجنة إلاّ مَن كان هوداً ولا دين إلاّ دين اليهودية، وقالت النصارى: لن يدخل الجنة إلاّ مَن كان نصرانياً ولا دين إلاّ دين النصرانية، وقيل: نزلت في وفد نجران وكانوا نصارى، اجتمعوا في مجلس رسول الله ﷺ مع اليهود، فكذب بعضهم بعضاً، قال الله تعالى: ﴿ تلك أمانيهم ﴾، أي: شهواتهم الباطلة التي تمنّوها على الله بغير الحق، ﴿ قلْ ﴾: يا محمد ﴿ هاتوا ﴾، أصله آتوا، ﴿ برهانكم ﴾: حجّتكم على ما زعمتم، ﴿ إن كنتم صادقين ﴾، ثم قال ردّاً عليهم:

﴿ بلى مَن أسلم وجهه ﴾، أي: ليس كما قالوا بل الحكم للإسلام، وإنما يدخل الجنة مَن أسلم وجهه ﴿ لله ﴾، أي: أخلص دينه لله، وقيل: أخلص عبادته لله، وقيل: خضع وتواضع لله، وأصل الإسلام الاستسلام والخضوع، وخصّ الوجه لأنه إذا جاد بوجهه في السجود لم يبخل بسائر جوارحه، ﴿ وهو محسن ﴾: في عمله، وقيل: مؤمن، وقيل: مخلص، ﴿ فله أجره عند ربّه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾.

قوله: ﴿ وقالت اليهود ليست النصارى على شيء ﴾، نزلت في يهود المدينة ونصارى أهل نجران، وذلك أن

أنتم على شيء من الذين وكفروا بموسى والتوراة فأنزل الله تعالى: ﴿**وقالت اليهود ليست النصارى على شيء وقالت النصارى ليست اليهود على شيء**﴾ ﴿**وهم يتلون الكتاب**﴾ يعني وكلا الفريقين يقرؤون الكتاب، وليس في كتابهم هذا الاختلاف فدلت تلاوتهم الكتاب ومخالفتهم لما فيه على كفرهم وكونهم على الباطل. وقيل: إن الإنجيل الذي تدين بصحته النصارى يحقق ما في التوراة من نبوة موسى وما فرض الله فيها على بني إسرائيل من الفرائض، وإن التوراة التي تدين بصحتها اليهود تحقق نبوة عيسى وما جاء به من عند ربه من الأحكام ثم كلا الفريقين، قالوا: ما أخبر الله عنهم بقوله: ﴿**وقالت اليهود ليست النصارى على شيء وقالت النصارى ليست اليهود على شيء**﴾ مع علم كل واحد من الفريقين ببطلان ما قاله: ﴿**كذلك قال الذين لا يعلمون**﴾ يعني مشركي العرب قالوا في نبيهم محمد ﷺ وأصحابه إنهم ليسوا على شيء ﴿**مثل قولهم**﴾ يعني مثل قول اليهود للنصارى والنصارى لليهود. وقيل: أمم كانت قبل اليهود والنصارى مثل قوم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب. قالوا في أنبيائهم: ليسوا على شيء ﴿**فالله يحكم**﴾ أي يقضي ﴿**بينهم يوم القيامة**﴾ يعني بين المحق والمبطل ﴿**فيما كانوا يختلفون**﴾ يعني من أمر الدين قوله عز وجل: .

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾

﴿**ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه**﴾ نزلت في خراب بيت المقدس وذلك أن ططوس الرومي غزا بني إسرائيل فقتل مقاتلتهم، وسبى ذراريهم وحرق التوراة وخرب بيت المقدس فلم يزل خراباً حتى بناه المسلمون في زمن عمر بن الخطاب فأنزل الله تعالى ﴿**ومن أظلم**﴾ أي ومن أكفر وأبغى ممن منع مساجد الله، يعني بيت المقدس ومحاريبه أن يذكر فيها اسمه أي يعبد ويصلي له فيها ﴿**وسعى في خرابها**﴾ وقيل: أن بختنصر

وفد نجران لمّا قَدِموا على النبيّ ﷺ أتاهم أحبار اليهود فتناظروا حتى ارتفعت أصواتهم، فقالت لهم اليهود: ما أنتم على شيء من الدين، وكفروا بعيسى والإنجيـل، وقالت لهم النصارى: ما أنتم على شيء من الدين، وكفروا بموسى والتوراة، فأنزل الله تعالى: ﴿ **وقالت النصارى ليست اليهود على شيء وهم يتلون الكتاب** ﴾، وكِلا الفريقين يقرؤون الكتاب، وقيل: معناه ليس في كتبهم هذا الاختلاف، فدلّ تلاوتهم الكتاب ومخالفتهم ما فيه على كونهم على الباطل، ﴿ **كذلك قال الذين لا يعلمون** ﴾، يعني: آباءهم الذين مضوا، ﴿ **مثل قولهم** ﴾، قال مجاهد: يعني عوّامّ النصارى، وقال مقاتل: يعني مشركي العرب، كذلك قالوا في نبيّهم محمد ﷺ وأصحابه: أنهم ليسوا على شيء من الدين، وقال عطاء: أمم كانت قبل اليهود والنصارى، مثل قوم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب عليهم السلام، قالوا لنبيّهم: إنه ليس على شيء، ﴿ **فالله يحكم بينهم يوم القيامة** ﴾: يقضي بين المحقّ والمبطل، ﴿ **فيما كانوا فيه يختلفون** ﴾: من الدين.

قوله: ﴿ **ومَن أظلم ممّن منع مساجد الله أن يذكر** ﴾، الآية نزلت في ططوس بن أسبيسبانوس الرومي وأصحابه، وذلك أنهم غزوا بني إسرائيل فقتلوا مقاتلتهم وسبوا ذراريهم وحرقوا التوراة وخرّبوا بيت المقدس، وقذفوا فيه الجيف وذبحوا فيه الخنازير، فكان خراباً إلى أن بناه المسلمون في أيام عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وقال قتادة والسدي: هو بختنصر وأصحابه غزوا اليهود وخرّبوا بيت المقدس، وأعانهم على ذلك النصارى ططوس

المجوسي من أهل بابل هو الذي غزا بني إسرائيل وخرب بيت المقدس وأعانه على ذلك النصارى من أجل اليهود، قتلوا يحيى بن زكريا ﴿**أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلاّ خائفين**﴾ وذلك أن بيت المقدس موضع حج النصارى وزيارتهم قال ابن عباس: لم يدخلها بعد عمارتها رومي أو نصراني إلاّ خائفاً إن علم به قتل وقيل أخيفوا بالجزية والقتل فالجزية على الذمي، والقتل على الحربي وقيل: خوفهم هو فتح مدائنهم الثلاث قسطنطينية ورومية وعمورية ﴿**لهم في الدنيا خزي**﴾ يعني الصغار والذل والقتل والسبي ﴿**ولهم في الآخرة عذاب عظيم**﴾ يعني النار. وقيل: إن الآية نزلت في مشركي مكة وأراد بالمساجد المسجد الحرام وذلك أنهم منعوا رسول الله ﷺ وأصحابه أن يصلوا فيه في ابتداء الإسلام، ومنعوهم من حجه والصلاة فيه عام الحديبية، وإذا منعوا من يعمره بذكر الله تعالى وصلواته فيه فقد سعوا في خرابه أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلاّ خائفين يعني مشركي مكة يقول الله تعالى: أفتحها عليكم أيها المسلمون حتى تدخلوها وتكونوا أولى بها منهم ففتحها عليهم وأمر النبي ﷺ أن ينادى بالموسم لما نزلت سورة براءة: ألا لا يحجن البيت بعد هذا العام مشرك فكان هذا خوفهم وثبت في الشرع أن لا يمكن مشرك من دخول الحرم. فإن قلت كيف قيل مساجد الله وإنما وقع المنع والتخريب على مسجد واحد وهو إما بيت المقدس أو المسجد الحرام؟. قلت يجوز أن يجيء الحكم عاماً وإن كان السبب خاصاً كما تقول لمن آذى صالحاً واحداً ومن أظلم ممن آذى الصالحين. فإن قلت أي القولين أرجح؟. قلت رجح الطبري القول الأول وقال إن النصارى هم الذين سعوا في خراب بيت المقدس بدليل أن مشركي مكة لم يسعوا في خراب المسجد الحرام، وإن كانوا قد منعوا رسول الله ﷺ في بعض الأوقات من الصلاة فيه، وأيضاً فإن الآية التي قبل هذه والتي بعدها في ذم أهل الكتاب، ولم يجر لمشركي مكة ذكر ولا للمسجد الحرام فتعين أن يكون المراد بهذه بيت المقدس، ورجح غيره القول الثاني بدليل أن النصارى يعظمون بيت المقدس أكثر من اليهود فكيف يسعون في خرابه وهو موضع حجهم. وذكر ابن العربي في أحكام القرآن قولاً ثالثاً، وهو أنه كل مسجد قال وهو الصحيح لأن اللفظ عام ورد بصيغة الجمع فتخصيصه ببعض المساجد أو ببعض الأزمنة محال. قوله عز وجل: ﴿**ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله**﴾ سبب نزول هذه الآية قال ابن عباس: خرج نفر من أصحاب رسول الله ﷺ في سفر قبل تحويل القبلة إلى الكعبة فأصابهم الضباب وحضرت الصلاة، فتحروا القبلة وصلوا فلما ذهب الضباب استبان لهم أنهم لم يصيبوا، فلما قدموا سألوا رسول الله ﷺ عن ذلك فنزلت هذه الآية. وعن عامر بن ربيعة عن أبيه، قال: كنا مع

الرومي وأصحابه من أهل الروم، قال السدي: من أجل أنهم قتلوا يحيىٰ بن زكريا، وقال قتادة: حملهم بعض اليهود على معاونة بختنصر البابلي المجوسي، فأنزل الله تعالى: ﴿ **وَمَن أظلم** ﴾ أي: أكفر ﴿ **ممّن منع مساجد الله** ﴾ يعني: بيت المقدس ومحاريبه أن يذكر ﴿ **فيها اسمه وسعى في خرابها أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلاّ خائفين** ﴾، وذلك أن بيت المقدس موضع حج النصارى ومحل زيارتهم، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: لم يدخلها يعني بيت المقدس بعد عمارتها رُومي إلاّ خائفاً لو عُلم به قُتل، وقال قتادة ومقاتل: لا يدخل بيت المقدس أحد من النصارى إلاّ مستنكراً لو قُدّر عليه لعُوقب، قال سِدَى: أخيفوا بالجزية، وقيل: هذا خبر بمعنى الأمر، أي: أجهضوهم بالجهاد حتى لا يدخلها أحد منهم إلاّ خائفاً من القتل والسبي، أي: ما ينبغي لهم، ﴿ **لهم في الدنيا خزي** ﴾: عذاب وهوان، قال قتادة: هو القتل للحربي والجزية للذمّي، قال مقاتل والكلبي: تفتح مدائنهم الثلاثة قسطنطينية ورومية وعمورية، ﴿ **ولهم في الآخرة عذاب عظيم** ﴾، وهو النار، وقال عطاء وعبد الرحمن بن زيد: نزلت في مشركي مكّة، وأراد بالمساجد المسجد الحرام منعوا رسول الله ﷺ وأصحابه من حجّه والصلاة فيه عام الحديبية، وإذا منعوا رسول الله ﷺ من أن يعمره بذكر الله فقد سعوا في خرابها، أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلاّ خائفين، يعني: أهل مكة، يقول أفتحها عليكم حتى تدخلوها وتكونوا أولى بها منهم، ففتحها عليهم وأمر النبي ﷺ

رسول الله ﷺ في سفر في ليلة مظلمة فلم ندر أين القبلة فصلى كل رجل منا على حياله فلما أصبحنا ذكرنا ذلك لرسول الله ﷺ فنزلت ﴿فأينما تولوا فثم وجه الله﴾ أخرجه الترمذي. وقال حديث غريب. وقال ابن عمر نزلت في المسافر يصلي التطوع حيثما توجهت به راحلته (ق) عن ابن عمر قال: «إن رسول الله ﷺ كان يسبح على ظهر راحلته حيث كان وجهه يومىء» وكان ابن عمر يفعله وفي رواية لمسلم «كان النبي ﷺ يصلّي على دابته وهو مقبل من مكة إلى المدينة حيثما توجهت وفيه نزلت ﴿فأينما تولوا فثم وجه الله﴾» الآية. وقيل: نزلت في تحويل القبلة إلى الكعبة وذلك أن اليهود عيرت المؤمنين وقالوا: ليس لهم قبلة معلومة فتارة يستقبلون هكذا وتارة يستقبلون هكذا فأنزل الله هذه الآية. وقيل: إنها نزلت في تخيير النبي ﷺ وأصحابه ليصلوا حيث شاؤوا من النواحي ثم إنها نسخت بقوله تعالى: ﴿فول وجهك شطر المسجد الحرام﴾ ومعنى الآية إن لله المشرق والمغرب وما بينهما خلقاً وملكاً، وإنما خص المشرق والمغرب اكتفاء عن جميع الجهات لأن له كلها وما بينهما خلقه وعبيده، وإن على جميعهم طاعته فيما أمرهم به ونهاهم عنه فما أمرهم باستقباله فهو القبلة فإن القبلة ليست قبلة لذاتها بل لأن الله تعالى جعلها قبلة، وأمر بالتوجه إليها ﴿فأينما تولوا فثم وجه الله﴾ أي فهنالك قبلة الله التي وجهكم إليها، وقيل معناه فثم وجه الله تعالى بعلمه وقدرته. والوجه صفة ثابتة لله تعالى لا من حيث الصورة. وقيل: فثم رضا الله أي يريدون بالتوجه إليه رضاه ﴿إن الله واسع﴾ من السعة وهو الغني أي يسع خلقه كلهم بالكفاية، والإفضال والجود والتدبير. وقيل واسع المغفرة ﴿عليم﴾ أي بأعمالكم ونياتكم حيثما تصلوا، وتدعوا لا يغيب عنه منها شيء.

مسألة تتعلق بحكم الآية:

وهي أن المسافر إذا كان في مفازة أو بلاد الشرك، واشتبهت عليه القبلة فإنه يجتهد في طلها بنوع من الدلائل ويصلي إلى الجهة التي أدى إليها اجتهاده ولا إعادة عليه وإن لم يصادف القبلة فإن جهة الاجتهاد قبلته، وكذا

منادياً ينادي ألاَ لا يحجنّ بعد هذا العام مشرك، فهذا خوفهم، وثبت في الشرع أن لا يمكّن مشرك من دخول الحرم، لهم في الدنيا خزي الذلّ والهوان والقتل والسبي والنفي.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ ولله المشرق والمغرب فأينما تولّوا فَثَمَّ وجه الله ﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما: خرج نفر من أصحاب رسول الله ﷺ في سفر قبل تحويل القِبلة إلى الكعبة، فأصابهم الضباب وحضرت الصلاة فتحرّوا القِبلة وصلّوا، فلما ذهب الضباب استبان لهم أنهم لم يصيبوا، فلما قَدِموا سألوا رسول الله ﷺ عن ذلك، فنزلت عليه هذه الآية، وقال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: نزلت في المسافر يصلّي التطوّع حيث ما توجّهت به راحلته، أخبرنا أبو الحسن محمد بن محمد السرخسي أنا زاهر بن أحمد الفقيه السرخسي، أنا أبو إسحق إبراهيم بن عبد الصمد الهاشمي أنا أبو مصعب عن مالك عن عبد الله بن دينار عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، قال: كان رسول الله ﷺ يُصلّي على راحلته في السفر حيث ما توجهت به، وقال عكرمة: نزلت في تحويل القِبلة، قال أبو العالية: صرفت القِبلة إلى الكعبة وعيّرت اليهود المؤمنين وقالوا: ليست لهم قِبلة فتارة يستقبلون هكذا وتارة هكذا. فأنزل الله تعالى هذه الآية، وقال مجاهد والحسن: لمّا نزلت ﴿ وقال ربكم ادعوني أستجب لكم ﴾ [غافر: ٦٠]، قالوا: أين ندعوه فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿ ولله المشرق والمغرب ﴾ [البقرة: ١١٥]، ملكاً وخلقاً ﴿ فأينما تولّوا فَثَمَّ وجه الله ﴾ [البقرة: ١١٥] يعني: أينما تحوّلوا وجوهكم فثَمَّ، أي: هناك وجه الله، قال الكلبي: فثَمَّ الله يعلم ويرى ﴿ وجه ﴾ صلة كقوله تعالى: ﴿ كلُّ شيءٍ هالكٌ إلّا وجهه ﴾ [القصص: ٨٨] أي: إلاّ هو، وقال الحسن ومجاهد وقتادة ومقاتل بن حيّان: فثَمَّ قِبلة الله، والوجه والوجهة والجهة: القِبلة، وقيل: رضا الله

الغريق في البحر إذا بقي على اللوح فإنه يصلي على حسب حاله، وتصح صلاته وكذلك المشدود على جذع بحيث لا يمكنه الاستقبال. قوله عز وجل:

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ ﴿١١٦﴾﴾

﴿**وقالوا اتخذ الله ولداً**﴾ نزلت في يهود المدينة حيث قالوا: عزيز ابن الله، وفي نصارى نجران حيث قالوا المسيح ابن الله وفي مشركي العرب حيث قالوا الملائكة بنات الله ﴿**سبحانه**﴾ أي تنزيهاً لله فنزه الله نفسه عن اتخاذ الولد وعن قولهم: وافترائهم عليه (خ) عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: قال الله عز وجل: «كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك وشتمني ولم يكن له ذلك فأما تكذيبه إياي فزعم إني لا أقدر أن أعيده كما كان وأما شتمه إياي، فقوله لي ولد فسبحاني أن أتخذ صاحبة أو ولداً» ﴿**بل له في السموات والأرض**﴾ يعني عبيداً وملكاً فكيف ينسب إليه الولد وهو داخل فيهما. وقيل: إن الولد لا بد وأن يكون من جنس الوالد والله تعالى منزه عن الشبيه والنظير. وقيل: إن الولد إنما يتخذ للحاجة إليه والانتفاع به عند عجز الوالد وكبره، والله تعالى منزه عن ذلك كله فإضافة الولد إليه محال ﴿**كل له قانتون**﴾ يعني أن أهل السموات والأرض مطيعون لله ومقرون له بالعبودية، وأصل القنوت لزوم الطاعة مع الخضوع. وقيل: أصله: القيام ومنه قوله ﷺ: «أفضل الصلاة طول القنوت» فعلى هذا يكون معنى الآية كل له قائمون بالشهادة ومقرون له بالوحدانية. وقيل: قانتون أي مذللون مسخرون لما خلقوا له. واختلف العلماء في حكم الآية فقال بعضهم: هو خاص ثم سلكوا في تخصيصه طريقين. أحدهما: قالوا هو راجع إلى عزير والمسيح والملائكة. الثاني: قال ابن عباس رضي الله عنهما: هو راجع إلى أهل طاعته دون سائر الكفار وذهب جماعة إلى أن حكم الآية عام لأن لفظة كل تقتضي الشمول والإحاطة ثم سلكوا في الكفار طريقين. أحدهما أن ظلالهم تسجد لله وتطيعه. والثاني أن هذه الطاعة تكون في يوم القيامة. ومن ذهب إلى تخصيص حكم

تعالى: ﴿ إنّ الله واسعٌ ﴾، أي: غنيٌّ يعطي من السّعة، قال الفرّاء: الواسع: الجود الذي يسع عطاؤه كل شيء، قال الكلبي: واسع المغفرة، ﴿ **عليم** ﴾ بنيّاتهم حيث ما صلوا ودعوا.

قوله تعالى: ﴿ وقالوا اتخذ الله ولداً ﴾، قرأ ابن عامر ﴿ **قالوا** ﴾، بلا واو، وقرأ الآخرون ﴿ **وقالوا اتخذ الله ولداً** ﴾**نزلت في يهود المدينة حيث قالوا عزيرٌ ابن الله وفي نصارى نجران حيث قالوا: المسيح ابن الله، وفي مشركي العرب حيث قالوا:** الملائكة بنات الله، ﴿ **سبحانه** ﴾، نزّه وعظّم نفسه، أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا **أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا أبو اليمان، أنا شعيب عن عبد الرحمن بن أبي حسن نافع بن جُبير**: عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «**قال الله تعالى**: كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمني ولم يكن له ذلك، فأمّا تكذيبه إيّاي فزعم أني لا أقدر أن أُعيده كما كان، وأما شتمه إياي فقوله لي ولد، فسبحاني أنْ أتخذ صاحبةً أو ولداً»، قوله تعالى: ﴿ **بلْ له ما في السموات والأرض** ﴾: عبيداً وملكاً، ﴿ **كلٌ له قانتون** ﴾، قال مجاهد وعطاء والسدي مُطيعون، وقال عكرمة ومقاتل: مُقرّون له بالعبودية، وقال ابن كيسان: قائمون بالشهادة، وأصل القنوت القيام، قال النبيّ ﷺ: «أفضل الصلاة طول القنوت». واختلفوا في حكم الآية، فذهب جماعة إلى أن حكم الآية خاص، وقال مقاتل: هو راجع إلى عزير والمسيح والملائكة، وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: هو راجع إلى أهل طاعته دون سائر الناس، وذهب جماعة إلى أن حكم الآية عامّ في جميع الخلق، لأن لفظ كل يقتضي الإحاطة بالشيء بحيث لا يشذّ منه شيء، ثم سلكوا في الكفّار طريقين، فقال مجاهد: يسجد ظلالهم لله على كره منهم، قال الله تعالى: ﴿ وظلالهم بالغدو والآصال ﴾ [الرعد: ١٥]،

الآية أجاب عن لفظة كل بأنها لا تقتضي الشمول والإحاطة بدليل قوله تعالى: ﴿وأوتيت من كل شيء﴾ ولم تؤت ملك سليمان فدل على أن لفظة كل لا تقتضي ذلك. قوله عز وجل:

﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ ۘ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ ۗ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۖ وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾﴾

﴿بديع السموات والأرض﴾ أي خالقها ومبدعها ومنشئها على غير مثال سبق. وقيل: البديع الذي يبدع الأشياء أي يحدثها مما لم يكن ﴿وإذا قضى أمراً﴾ أي قدره وأراد خلقه. وقيل: إذا أحكم أمراً وحتمه وأتقنه. وأصل القضاء الحكم والفراغ والقضاء في اللغة على وجوه كلها ترجع إلى انقطاع الشيء وتمامه والفراغ منه ﴿فإنما يقول له كن فيكون﴾ أي إذا أحكم أمراً وحتمه فإنما يقول له فيكون ذلك الأمر على ما أراد الله تعالى وجوده. فإن قلت المعدوم لا يخاطب فكيف قال فإنما يقول له كن فيكون. قلت: إن الله تعالى عالم بكل ما هو كائن قبل تكوينه وإذا كان كذلك كانت الأشياء التي لم تكن كأنها كائنة لعلمه بها فجاز أن يقول لها: كوني ويأمرها بالخروج من حال العدم إلى حال الوجود وقيل اللام في قوله: ﴿له﴾ لام أجل فيكون المعنى إذا قضى أمراً، فإنما يقول: لأجل تكوينه وإرادته له كن فيكون فعلى هذا يذهب معنى الخطاب. قوله عز وجل: ﴿وقال الذين لا يعلمون﴾ قال ابن عباس هم اليهود الذين كانوا في زمن رسول الله ﷺ وقيل: هم النصارى وقيل: هم مشركو العرب ﴿لولا﴾ أي

وقال السدي: هذا يوم القيامة، دليله: ﴿وعنتِ الوجوه للحيّ القيّوم﴾ [طه: ١١١]، وقيل: قانتون مذلّلون مسخّرون لِما خُلقوا له.

قوله عزّ وجلّ: ﴿بديع السموات والأرض﴾، أي: مبدعها ومنشئها من غير مثال سبق، ﴿وإذا قضى أمراً﴾، أي: قدّره، وقيل: أحكمه وأتقنه، وأصل القضاء: الفراغ، ومنه قيل لِمَن مات: قضي عليه لفراغه من الدنيا، ومنه قضاء الله وقدره، لأنه فرغ منه تقديراً أو تدبيراً، ﴿فإنّما يقول له كن فيكون﴾، قرأ ابن عامر ﴿كن فيكون﴾ بنصب النون في جميع المواضع إلّا في الآية ﴿كن فيكون، الحق من ربك﴾ [آل عمران: ٥٩ و٦٠] وفي الآية ﴿كن فيكون، قوله الحق﴾ [الأنعام: ٧٣]، وإنما نصبها لأن جواب الأمر بالفاء يكون منصوباً، وقرأ الآخرون بالرفع على معنى: فهو يكون، فإن قيل: كيف قال: ﴿فإنما يقول له كن فيكون﴾ والمعدوم لا يُخاطَب؟ قيل: قال ابن الأنباري معناه: فإنما يقول له، أي: لأجل تكوينه، فعلى هذا ذهب معنى الخطاب، وقيل: هو وإن كان معدوماً ولكنه لمّا قدّر وجوده وهو كائن لا محالة كان كالموجود، فصحّ الخطاب.

قوله عزّ وجلّ: ﴿وقال الذين لا يعلمون﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما: اليهود، وقال مجاهد: النصارى، وقال قتادة: مشركو العرب، ﴿لولا﴾: هلاّ ﴿يكلّمنا الله﴾: عياناً بأنك رسوله، وكل ما في القرآن ﴿لولا﴾ فهو بمعنى هلاّ إلّا واحداً وهو قوله ﴿فلولا أنه كان من المسبّحين﴾ [الصّافّات: ١٤٣]، معناه فلو لم يكن، ﴿أو تأتينا آية﴾: دَلَالة علامة على صدقك، قال الله تعالى: ﴿وكذلك قال الذين من قبلهم﴾، أي: كفّار الأمم الخالية، ﴿مثل قولهم تشابهت قلوبهم﴾، أي: أشبه بعضهم بعضاً في الكفر والقسوة وطلب المُحال، ﴿قدْ بينّا الآياتِ لقوم يُوقنون﴾.

﴿إنّا أرسلناك بالحق﴾، أي: بالصدق، كقوله: ﴿ويستنبئونك أحق هو قل أيْ وربّي إنه لحق﴾

هلا ﴿يكلمنا الله﴾ أي عياناً بأنك رسوله ﴿أو تأتينا آية﴾ أي دلالة وعلامة على صدقك ﴿كذلك قال الذين من قبلهم﴾ أي كفار الأمم الخالية ﴿مثل قولهم﴾ وذلك أن اليهود سألوا موسى أن يريهم الله جهرة، وأن يسمعهم كلام الله. وسألوه من الآيات ما ليس لهم مسألته فأخبر الله عن الذين كانوا في زمن رسول الله ﷺ أنهم قالوا: مثل ما قال من كان قبلهم ﴿تشابهت قلوبهم﴾ يعني أن المكذبين للرسل تشابهت أقوالهم وأفعالهم. وقيل تشابهت في الكفر والقسوة والتكذيب وطلب المحال ﴿قد بينا الآيات﴾ أي الدلالات على نبوة محمد ﷺ ﴿لقوم يوقنون﴾ يعني أن آيات القرآن وما جاء به محمد ﷺ من المعجزات الباهرات كافية لمن كان طالباً لليقين، وإنما خص أهل الإيقان بالذكر لأنهم هم أهل التثبت في الأمور ومعرفة الأشياء على يقين. قوله عز وجل: ﴿إنا أرسلناك بالحق﴾ أي بالصدق وقال ابن عباس: بالقرآن وقيل: بالإسلام وقيل: معناه إنا لم نرسلك عبثاً، بل أرسلناك بالحق ﴿بشيراً﴾ أي مبشراً لأوليائي، وأهل طاعتي بالثواب العظيم ﴿ونذيراً﴾ أي منذراً ومخوفاً لأعدائي وأهل معصيتي بالعذاب الأليم ﴿ولا تسأل﴾ قرىء بفتح التاء على النهي قال ابن عباس: وذلك أن النبي ﷺ قال ذات يوم: «ليت شعري ما فعل أبواي» فنزلت هذه الآية، والمعنى إنا أرسلناك لتبليغ ما أرسلت به ولا تسأل عن أصحاب الجحيم. وقرىء ولا تسأل بضم التاء ورفع اللام على الخبر. وقيل: على النفي والمعنى إنا أرسلناك بالحق لتبليغ ما أرسلت به، فإنما عليك البلاغ ولست مسؤولاً عمن كفر ﴿عن أصحاب الجحيم﴾ أي عن أهل النار، سميت النار جحيماً لشدة تأججها. وقيل: الجحيم معظم النار. قوله عز وجل: .

وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٢١﴾

﴿ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم﴾ وذلك أنهم كانوا يسألون النبي ﷺ الهدنة ويطمعونه أنه إن أمهلهم اتبعوه فأنزل الله هذه الآية والمعنى إنك وإن هادنتهم فلا يرجون بها وإنما يطلبون ذلك تعللاً ولا يرجون منك إلا باتباع ملتهم. وقال ابن عباس: هذا في أمر القبلة وذلك أن يهود المدينة ونصارى نجران كانوا

[يونس: ٥٣] أي: صدق، قال ابن عباس رضي الله عنهما: بالقرآن دليله: ﴿ بل كذبوا بالحق لما جاءهم ﴾ [قۤ: ٥]، وقال ابن كيسان: بالإسلام وشرائعه، دليله: قوله عزّ وجلّ: ﴿ وقلْ جاء الحق ﴾ [الإسراء: ٨١، سبأ: ٤٩]، وقال مقاتل: معناه لم نرسلك عبثاً إنما أرسلناك بالحق، كما قال: ﴿ وما خلقنا السمواتِ والأرضَ وما بينهما إلاّ بالحق ﴾ [الحجر: ٨٥]، قوله عزّ وجلّ: ﴿ بشيراً ﴾، أي: مبشّراً لأوليائي وأهل طاعتي بالثواب الكريم، ﴿ ونذيراً ﴾، أي: منذراً مخوّفاً لأعدائي وأهل معصيتي بالعذاب الأليم، قرأ نافع ويعقوب: «ولا تَسْـــأَلْ»: على النهي، قال عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما: وذلك أن النبيّ ﷺ قال ذات يوم: «ليت شعري ما فعل أبواي»، فنزلت هذه الآية، وقيل: هو على معنى قولهم لا تسأل عن شرٍّ فلان فإنه فوق ما تحسب، وليس على النهي، وقرأ الآخرون ﴿ ولا تُسألُ ﴾ بالرفع، على النفي بمعنى: ولست بمسؤول عنهم، كما قال الله تعالى: ﴿ فإنّما عليك البلاغ وعلينا الحساب ﴾ [الرعد: ٤٠]، ﴿ عن أصحاب الجحيم ﴾، والجحيم معظم النار.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملّتهم قلْ إنّ هُدى اللّهِ هو الهدى ﴾، وذلك أنهم يسألون النبي ﷺ الهدنة ويُطمّعونه أنه إن أمهلهم اتّبعوه، فأنزل الله تعالى هذه الآية، معناه أنك وإن هادنتهم فلا يرجون بها، وإنما يطلبون ذلك تعلّلاً ولا يرضون منك إلاّ باتّباع ملّتهم، وقال ابن عباس رضي الله

يرجون النبي ﷺ، حين كان يصلي إلى بيت المقدس، فلما صرف الله القبلة إلى الكعبة أيسوا منه أن يوافقهم على دينهم فأنزل الله تعالى: ﴿ولن ترضى عنك اليهود﴾ يعني إلا باليهودية، ﴿ولا النصارى﴾ يعني إلا بالنصرانية وهذا شيء لا يتصور إذ لا يجتمع في رجل واحد شيئان في وقت واحد وهو قوله: ﴿حتى تتبع ملتهم﴾ يعني دينهم وطريقتهم ﴿قل﴾ أي يا محمد ﴿إن هدى الله﴾ يعني دين الله الذي هو الإسلام ﴿هو الهدى﴾ أي يصح أن يسمى هدى ﴿ولئن اتبعت﴾ يا محمد ﴿أهواءهم﴾ يعني أهواء اليهود والنصارى، فيما يرضيهم عنك وقيل: أهواءهم أقوالهم التي هي أهواء وبدع ﴿بعد الذي جاءك من العلم﴾ أي البيان لأن دين الله هو الإسلام وأن القبلة هي قبلة إبراهيم عليه السلام وهي الكعبة ﴿ما لك من الله من ولي﴾ يعني يلي أمرك ويقوم بك ﴿ولا نصير﴾ أي ينصرك ويمنعك من عقابه وقيل: في قوله ولئن اتبعت أهواءهم أنه خطاب للنبي ﷺ والمراد به أمته، والمعنى إياكم أخاطب ولكم أؤدب وأنهى فقد علمتم أن محمداً ﷺ قد جاءكم بالحق والصدق وقد عصيته فلا تتبعوا أنتم أهواء الكافرين. ولئن اتبعتم أهواءهم بعد الذي جاءكم من العلم والبينات ما لكم من الله من ولي ولا نصير. قوله عز وجل: ﴿الذين آتيناهم الكتاب﴾ قال ابن عباس: نزلت في أهل السفينة الذين قدموا مع جعفر بن أبي طالب وكانوا أربعين رجلاً اثنان وثلاثون رجلاً من الحبشة وثمانية من رهبان الشام منهم بحيرا الرهب، وقيل: هم مؤمنو أهل الكتاب مثل عبدالله بن سلام وأصحابه. وقيل: هم أصحاب رسول الله ﷺ خاصة وقيل: هم مؤمنون عامة ﴿يتلونه حق تلاوته﴾ أي يقرؤونه كما أنزل لا يغيرونه ولا يحرّفونه ولا يبدلون ما فيه من نعت رسول الله ﷺ. وقيل: معناه يتبعونه حق اتباعه فيحلون حلاله ويحرمون حرامه ويعملون بمحكمه ويؤمنون بمتشابهه ويقفون عنده ويكلون علمه إلى الله تعالى. وقيل: معناه تدبروه حق تدبره وتفكروا في معانيه وحقائقه وأسراره ﴿أولئك﴾ يعني الذين يتلونه حق تلاوته ﴿يؤمنون به﴾ أي يصدقون به. فإن قلنا: إن الآية في أهل الكتاب فيكون المعنى إن المؤمن بالتوراة الذي يتلوها حق تلاوتها هو المؤمن بمحمد ﷺ لأن في التوراة نعته وصفته. وإن قلنا: إنها نزلت في المؤمنين عامة فظاهر ﴿ومن يكفر به﴾ أي يجحد ما فيه من فرائض الله ونبوة محمد ﷺ ﴿فأولئك هم الخاسرون﴾ أي خسروا أنفسهم حيث استبدلوا الكفر بالإيمان. قوله عز وجل: .

عنهما: هذا في القِبلة، وذلك أن يهود المدينة ونصارى نجران كانوا يرجون النبي ﷺ حين كان يصلّي إلى قِبلتهم، فلما صرف الله القِبلة إلى الكعبة أيسوا منه أن يوافقهم على دينهم، فأنزل الله تعالى: ﴿ ولن ترضى عنك اليهود ﴾، إلّا باليهودية، ولا النصارى إلّا بالنصرانية، والملّةُ الطريقة، ﴿ ولئن اتّبعت أهواءهم ﴾، قيل الخطاب مع النبي ﷺ والمراد به الأمة كقوله: ﴿ لئن أشركتَ ليحبَطَنَّ عملُك ﴾ [الزمر: ٦٥]، ﴿ بعد الذي جاءك من العلم ﴾: البيان بأن دين الله هو الإسلام والقِبلة قِبلة إبراهيم عليه السلام وهي الكعبة، ﴿ ما لك من الله من ولي ولا نصير ﴾.

﴿ الذين آتيناهم الكتاب ﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما: نزلت في أهل السفينة قَدِموا مع جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه، وكانوا أربعين رجلاً اثنان وثلاثون من الحبشة وثمانية من رهبان الشام منهم بحيراً، وقال الضحاك: هم ممّن آمن من اليهود عبد الله بن سلام وشعبة بن عمرو وتمام بن يَهُوْدَا وأسد وأسيد ابنا كعب وابن يامين وعبد الله بن صوريا، وقال قتادة وعكرمة: هم أصحاب محمد ﷺ، وقيل: هم المؤمنون عامّة، ﴿ يتلونه حقَّ تِلاوته ﴾، قال الكلبي: يصفونه في كتبهم حق صفته لمَن سألهم من الناس، والهاء راجعة إلى محمد ﷺ، وقال الآخرون: هي عائدة إلى الكتاب، واختلفوا في معناه فقال ابن مسعود رضي الله عنه: يقرؤونه كما أُنزل ولا يحرّفونه، ويُحلّون حلاله ويُحرّمون حرامه، وقال الحسن: يعملون بمُحكَمه ويُؤمنون بمتشابهه ويكِلون علمَ ما أشكل عليهم إلى عالمِهِ، وقال مجاهد: يتّبعونه حقَّ اتّباعه، قوله: ﴿ أولئك يُؤمنون به ﴾. ﴿ ومَن يكفر به فأولئك هم الخاسرون ﴾.

﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٢٢ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن
نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ١٢٣ ۞ وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ فَأَتَمَّهُنَّۖ قَالَ
إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗاۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِيۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ ١٢٤﴾

﴿يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم﴾ أي أيادي لديكم وصنعي بكم واستنقاذي إياكم من أيدي عدوكم في نعم كثيرة أنعمت بها عليكم ﴿وأني فضلتكم على العالمين﴾ أي واذكروا تفضيلي إياكم على عالمي زمانكم، وفي هذه الآية عظة لليهود الذي كانوا في زمن رسول الله ﷺ وكررها في أول السورة وهنا للتوكيد وتذكير النعم ﴿واتقوا يوماً لا تجزي نفس عن نفس شيئاً﴾ وفي هذه الآية ترهيب لهم والمعنى يا معشر بني إسرائيل المبدلين كتابي المحرفين له، خافوا عذاب يوم لا تجزى فيه نفس عن نفس شيئاً ﴿ولا يقبل منها عدل ولا تنفعها شفاعة﴾ أي لا يقبل منها فدية ولا يشفع لها شافع وهذا من العام الذي يراد به الخاص كقوله تعالى ﴿ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له﴾ ومعنى الآية ولا تنفعها شفاعة إذا وجب عليها العذاب ولم تستحق سواه. وقيل: إنه رد على اليهود في قولهم إن آباءنا يشفعون لنا ﴿ولا هم ينصرون﴾ أي ولا ناصر لهم ينصرهم من الله إذا انتقم منهم قوله عز وجل: ﴿وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن﴾ إبراهيم اسم أعجمي ومعناه أب رحيم وهو إبراهيم بن تارخ وهو آزر بن ناخور بن شاروع بن أرغو بن فالغ بن عابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح عليه السلام، وكان مولد إبراهيم بالسوس من أرض الأهواز وقيل: ببابل وقيل بكوثى وهي قرية من سواد الكوفة. وقيل: بحران ولكن أباه نقله إلى أرض بابل وهي أرض نمروذ الجبار. وإبراهيم عليه السلام تعترف بفضله جميع الطوائف قديماً، وحديثاً فأما اليهود والنصارى فإنهم مقرون بفضله ويتشرفون بالنسبة إليه وأنهم من أولاده وأما العرب في الجاهلية فإنهم أيضاً يعترفون بفضله ويتشرفون على غيرهم به لأنهم من أولاده، ومن ساكني حرمه وخدام بيته، ولما جاء الإسلام زاده الله شرفاً وفضلاً فحكى الله تعالى عن إبراهيم أموراً توجب على المشركين والنصارى واليهود قبول قول محمد ﷺ، والاعتراف بدينه والانقياد لشرعه لأن ما أوجبه الله على إبراهيم عليه السلام هو من خصائص دين محمد ﷺ وفي ذلك حجة على اليهود والنصارى ومشركي العرب في وجوب الانقياد لمحمد ﷺ والإيمان به وتصديقه. وأصل الابتلاء الامتحان والاختبار ليعرف حال الإنسان وسمي التكليف بلاء لأنه يشق على الأبدان. وقيل: ليختبر به حال الإنسان فإذا قيل: ابتلى فلان بكذا يتضمن أمرين: أحدهما تعرف حاله والوقوف على ما يجهل من أمره. والثاني ظهور جودته ورداءته وابتلاء الله العباد ليس ليعلم أحوالهم، والوقوف على ما يجهل منها

﴿ يا بني إسرائيل اذكروا نعمَتي التي أنعمتُ عليكم وأني فضّلتكم على العالمين ﴾.

﴿ واتّقوا يوماً لا تجزي نفس عن نفس شيئاً ولا يُقبل منها عدلٌ ولا تنفعها شفاعةٌ ولا هم يُنصرون ﴾.

﴿ وإذِ ابْتلى إبراهيمَ ربُّه بكلماتٍ فأتمهنّ ﴾، قرأ ابن عامر: إبراهام بالألف في بعض المواضع، وهو ثلاثة وثلاثون موضعاً، جملته تسعة وتسعون موضعاً، وهو اسم أعجمي ولذلك لا يجري عليه الصرف، وهو إبراهيم بن تارخ هو آزر بن ناخور، وكان مولده بالسوس من أرض الأهواز، وقيل: بابل، وقيل: كوثي، وقيل: كسكر، وقيل: حرّان، ولكن أباه نقله إلى أرض بابل بأرض نمروز بن كنعان، ومعنى الابتلاء: الاختبار والامتحان والأمر، وابتلاء الله العباد ليس ليعلم أحوالهم بالابتلاء لأنه عالم بهم، ولكن ليعلم العبادُ أحوالَهم حتى يعرف بعضهم بعضاً، واختلفوا في الكلمات التي ابتلى اللّهُ بها إبراهيم، فقال عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما: هي ثلاثون

لأنه عالم بجميع المعلومات التي لا نهاية لها على سبيل التفصيل من الأزل إلى الأبد. ولكن ليعلم العباد أحوالهم من ظهور جودة ورداءة وعلى هذا ينزل قوله تعالى: ﴿**وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات**﴾. واختلفوا في تلك الكلمات التي ابتلى الله بها إبراهيم عليه السلام قال ابن عباس: هي ثلاثون سماهن شرائع الإسلام لم يبتل بها أحد فأقامها كلها إلا إبراهيم فكتب الله له البراءة فقال: ﴿وإبراهيم الذي وفى﴾ ومعنى هذا الكلام إنه لم يبتل أحد قبل إبراهيم فأما بعده فقد أتى الأنبياء بجميع ما أمروا به من الدين خصوصاً، نبينا محمد ﷺ فقد أتى بجميع ما أمر به، وهي عشرة مذكورة في سورة براءة في قوله: ﴿التائبون العابدون﴾ الآية وعشرة في سورة الأحزاب في قوله: ﴿إن المسلمين والمسلمات﴾ الآية وعشرة في سورة المؤمنون في قوله: ﴿قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلواتهم خاشعون﴾ الآيات وهي مذكورة أيضاً في سورة سأل سائل. وعن ابن عباس أيضاً قال: ابتلاه الله بعشرة أشياء هن الفطرة خمس في الرأس قص الشارب والمضمضة والاستنشاق والسواك وفرق الرأس وخمس في الجسد تقليم الأظافر ونتف الإبط وحلق العانة والختان والاستنجاء بالماء (ق). عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الفطرة خمس، وفي رواية خمس من الفطرة الختان والاستحداد وقص الشارب وتقليم الأظافر ونتف الإبط» (م) عن عائشة قالت قال رسول الله ﷺ: «عشر من الفطرة قص الشارب وإعفاء اللحية والسواك والاستنشاق بالماء وقص الأظفار وغسل البراجم ونتف الإبط وحلق العانة وانتقاص الماء». يعني الاستنجاء قال مصعب: ونسيت العاشرة إلا أن تكون المضمضة. قال وكيع: انتقاص الماء يعني الاستنجاء قال العلماء: الفطرة السنة. وقيل: الملة وقيل: الطريقة وهذه الأشياء المذكورة في الحديث وأنها من الفطرة قيل كانت على إبراهيم عليه السلام فرضاً وهي لنا سنة واتفقت العلماء على أنها من الملة وأما معانيها فقد قيل: أما قص الشارب وإعفاء اللحية فمخالفة للأعاجم فإنهم كانوا يقصون لحاهم، أو يوفرون شواربهم أو يوفرونهما معاً، وذلك عكس الجمال والنظافة وأما السواك والمضمضة والاستنشاق فلتنظيف الفم، والأنف من الطعام والقلح والوسخ، وأما قص الأظفار فللجمال، والزينة فإنها إذا طالت قبح منظرها، واحتوى الوسخ فيها وأما غسل البراجم وهي العقد التي في

سمّاهنّ، شرائع الإسلام لم يُبتلَ بها أحدٌ فأقامها كلَّها إبراهيمُ، فكُتب له البراءة، فقال: ﴿ وإبراهيم الذي وفّى ﴾ [النجم: ٣٧]، عشرٌ في براءة: ﴿ التائبون العابدون ﴾ [التوبة: ١١٢] إلى آخرها، وعشرٌ في الأحزاب ﴿ إنّ المسلمين والمسلمات ﴾ [الأحزاب: ٣٥] إلى آخرها، وعشرٌ في سورة المؤمنين في قوله: ﴿ قد أفلح المؤمنون ﴾ [المؤمنون: ١]، الآيات، وقوله: ﴿ إلّا المصلّين ﴾ [المعارج: ٢٢]، في سأل سائل، وقال طاوس عن ابن عباس رضي الله عنهما: ابتلاه الله تعالى بعشرة أشياء، وهي الفطرة خمس في الرأس: قصُّ الشارب والمضمضةُ والاستنشاقُ والسواكُ وفَرْقَ الرأس، وخمسٌ في البدن: تقليمُ الأظفار ونتفُ الإبط وحلقُ العانة والختانُ والاستنجاءُ بالماء، وفي الخبر أن إبراهيم عليه السلام أوّل مَن قصّ الشارب، وأول مَن اختتن، وأول مَن قلّم الأظافر، وأول مَن رأى الشيب، فلما رآه قال: يا ربّ ما هذا؟ قال: الوقار، قال: يا ربّ زدني وقاراً، قال مجاهد: هي الآيات التي بعدها في قوله عزّ وجلّ: ﴿ **إنّي جاعلك للناس إماماً** ﴾ إلى آخر القصة، وقال الربيع وقتادة: مناسك الحج، وقال الحسن: ابتلاه الله بسبعة أشياء: بالكواكب والقمر والشمس فأحسن فيها النظر، وعلم أن ربّه دائم لا يزول، وبالنار فصبر عليها، وبالهجرة وبذبح ابنه وبالختان فصبر عليها، قال سعيد بن جُبير: هو قول إبراهيم وإسماعيل إذْ يرفعان البيت: ﴿ ربّنا تقبّل منّا ﴾ [البقرة: ١٢٧] الآية، فرفعاه بسبحان الله والحمد لله ولا إلّه إلّا الله والله أكبر، قال يمان بن رباب: هنّ مَحاجّة قومه، قال الله تعالى: ﴿ وحاجّهُ قومُه ﴾ [الأنعام: ٨٠] إلى قوله تعالى: ﴿ وتلك حجّتُنا آتيناها إبراهيم ﴾ [الأنعام: ٨٣]، وقيل: هي قوله: ﴿ الذي خلقني فهو يهدين ﴾ [الشعراء: ٧٨]،

ظهور الأصابع فإنه يجتمع فيها الوسخ ويشين المنظر، وأما حلق العانة ونتف الإبط فللتنظف عما يجتمع من الوسخ في الشعر وأما الاستنجاء، فلتنظيف ذلك المحل عن الأذى وأما الختان فلتنظيف القلفة، عما يجتمع فيها من البول. واختلف العلماء في وجوبه فذهب الشافعي إلى أن الختان واجب لأنه تنكشف له العورة، ولا يباح ذلك إلا في الواجب وذهب غيره إلى أنه سنّة. وأول من ختن إبراهيم عليه السلام ولم يختتن أحد قبله (ق) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «اختتن إبراهيم بالقدوم» يروى القدوم بالتخفيف والتشديد، فمن خفف ذهب إلى أنه اسم للآلة التي يقطع بها ومن شدد قال: إنه اسم موضع. عن يحيى بن سعيد أنه سمع سعيد بن المسيب يقول: «كان إبراهيم خليل الرحمن أول الناس ضيف الضيف وأول الناس قص شاربه وأول الناس رأى الشيب. قال: رب ما هذا قال الرب تبارك وتعالى وقاراً يا إبراهيم قال يا رب زدني وقاراً» أخرجه مالك في الموطأ وقيل: في الكلمات إنها مناسك الحج. وقيل: ابتلاه الله بسبعة أشياء بالكوكب والقمر والشمس فأحسن النظر فيهن وبالنار والهجرة وذبح ولده والختان، فصبر عليها وقيل: إن الله اختبر إبراهيم بكلمات أوحاها إليه وأمره أن يعمل بهن فأتمهن أي أداهن حق التأدية، وقام بموجبهن حق القيام وعمل بهن من غير تفريط وتوان ولم ينتقص منهن شيئاً. واختلفوا هل كان هذا الابتلاء قبل النبوة أو بعدها فقيل: كان قبل النبوة بدليل قوله في سياق الآية: ﴿إني جاعلك للناس إماماً﴾ والسبب يتقدم على المسبب. وقيل: بل كان هذا الابتلاء بعد النبوة لأن التكليف لا يعلم إلا من جهة الوحي الإلهي وذلك بعد النبوة. والصواب أنه إن فسر الابتلاء بالكوكب والقمر والشمس كان ذلك قبل النبوة، وإن فسر بما وجب عليه من شرائع الدين كان ذلك بعد النبوة. وقوله تعالى: ﴿قال إني جاعلك للناس إماماً﴾ أي يقتدى بك في الخير ويأتمون بسنّتك وهديك، والإمام هو الذي يؤتم به ﴿قال ومن ذريتي﴾ أي قال إبراهيم: واجعل من ذريتي وأولادي أئمة يقتدى بهم ﴿قال﴾ الله ﴿لا ينال﴾ أي لا يصيب ﴿عهدي﴾ أي نبوتي. وقيل الإمامة ﴿الظالمين﴾ يعني من ذريتك والمعنى لا ينال ما عاهدت إليك من النبوة والإمامة من كان ظالماً من ذريتك وولدك. قوله عز وجل: .

﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَـٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾﴾

﴿وإذ جعلنا البيت﴾ يعني البيت الحرام، وهو الكعبة ويدخل فيه الحرم فإن الله تعالى وصفه بكونه آمناً وهذه صفة جميع الحرم ﴿مثابة للناس﴾ أي مرجعاً من ثاب يثوب إذا رجع، والمعنى يثوبون إليه من كل جانب يحجونه

إلى آخر الآيات، فأتمهنّ، قال قتادة أدّاهنّ قال الضحّاك: قام بِهنّ، وقال يمان: عمل بهنّ، قال الله تعالى: ﴿ قال إنّي جاعلك للناس إماماً ﴾: يُقتدى بك في الخير، ﴿ قال ﴾ إبراهيم: ﴿ ومن ذريتي ﴾ أي: ومن أولادي أيضاً فاجعل أئمة يقتدى بهم، ﴿ قال ﴾ الله تعالى: ﴿ لا ينال ﴾: لا يصيب ﴿ عهدي الظالمين ﴾، قرأ حمزة وحفص بإسكان الياء والباقون بفتحها، أي: مَنْ كان منهم ظالماً لا يصيبه، قال عطاء بن أبي رباح: عهدي رحمتي، وقال السدي: نبوّتي، وقيل: الإمامة، قال مجاهد: ليس لظالم أن يُطاع في ظُلمه، ومعنى الآية: لا ينال ما عهدْتُ إليك من النبوّة والإمامة مَن كان ظالماً من وَلَدِك، وقيل: أراد بالعهد الأمان من النار، وبالظالم المشرك، كقوله تعالى: ﴿ الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانَهم بظلمٍ أولئك لهم الأمن ﴾ [الأنعام: ٨٢].

قال الله تعالى: ﴿ وإذْ جعلنا البيتَ ﴾، يعني: الكعبة، ﴿ مثابةً للناس ﴾: مرجعاً لهم، قال مجاهد وسعيد بن جبير: يثوبون إليه من كلّ جانب ويحجّون، قال ابن عباس رضي الله عنهما: معاذاً وملجأً، وقال قتادة

﴿وأمناً﴾ أي موضعاً ذا أمن يؤمنون فيه من أذى المشركين فإنهم كانوا لا يتعرضون لأهل مكة. ويقولون: هم أهل الله. وقال ابن عباس: معاذاً وملجأ (ق) عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ يوم فتح مكة: «إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات والأرض فهو حرام بحرمة الله تعالى إلى يوم القيامة وإنه لم يحل القتال فيه لأحد قبلي، ولم يحل لي إلا ساعة من نهار فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة لا يعضد شوكه، ولا ينفر صيده ولا يلتقط لقطته إلا من عرفها، ولا يختلى خلاه فقال العباس: يا رسول الله إلا الإذخر فإنه لقينهم وبيوتهم فقال: إلا الإذخر». معنى الحديث: أنه لا يحل لأحد أن ينصب القتال والحرب في الحرم وإنما أحل ذلك لرسول الله ﷺ يوم فتح مكة فقط ولا يحل لأحد بعده. قوله: لا يعضد شوكه أي لا يقطع شوك الحرم وأراد به ما لا يؤذي منه أما ما يؤذي منه كالعوسج فلا بأس بقطعه. قوله: ولا ينفر صيده أي لا يتعرض له بالاصطياد ولا يهاج. قوله: ولا يلتقط لقطته إلا من عرفها أي ينشدها. والنشد رفع الصوت بالتعريف. واللقطة في جميع الأرض لا تحل إلا لمن يعرفها حولاً فإن جاء صاحبها أخذها. وإلا انتفع بها الملتقط بشرط الضمان. وحكم مكة في اللقطة أن يعرفها على الدوام بخلاف غيرها من البلاد فإنه محدود بسنة. قوله: ولا يختلى خلاه. الخلي مقصور الرطب من النبات الذي يرعى وقيل: هو اليابس من الحشيش وخلاه قطعه. وقول: لقينهم القين الحداد وقوله تعالى: ﴿واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى﴾ قيل: الحرم كله مقام إبراهيم، وقيل: أراد بمقام إبراهيم جميع مشاهد الحج مثل عرفة والمزدلفة والرمي وسائر المشاهد، والصحيح أن مقام إبراهيم هو الحجر الذي يصلي عنده الأئمة، وذلك الحجر هو الذي قام إبراهيم عليه عند بناء البيت، وقيل: كان أثر أصابع رجلي إبراهيم عليه السلام فيه فاندرست بكثرة المسح بالأيدي وقيل: إنما أمروا بالصلاة عنده ولم يؤمروا بمسحه وتقبيله (ق) عن أنس بن مالك قال قال عمر: «وافقت ربي في ثلاث قلت يا رسول الله لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلّى فنزلت: «واتخذوا من مقام إبراهيم مصلّى» الحديث. وكان بدء قصة المقام على ما رواه البخاري في صحيحه، عن ابن عباس قال: أول ما اتخذت النساء المنطق من

وعكرمة: مجمعاً، ﴿ وأمناً ﴾ أي: مأمناً يأمنون فيه من إيذاء المشركين فإنهم ما كانوا يتعرّضون لأهل مكة، ويقولون هم أهل الله، ويتعرّضون لمَن حوله، كما قال الله تعالى: ﴿ أَوَلَم يَروْا أنّا جعلنا حرماً آمناً ويُتَخَطَّفُ الناسُ من حولهم ﴾ [العنكبوت: ٦٧]، أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف، أنا محمد بن إسماعيل أنا علي بن عبد الله أنا جرير عن منصور عن مجاهد عن طاوس، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ يوم فتح مكة: «إن هذا البلد حرّمه الله يوم خلق السموات والأرض، فهو حرام بحُرمة الله إلى يوم القيامة، لا يعضد شوكه ولا ينفر صيده ولا يلتقط لقطته إلاّ مَن عرّفها ولا يختلى خلاه»، فقال العباس: يا رسول الله إلاّ الإذخر فإنه لقينهم ولبيوتهم، فقال رسول الله ﷺ: «إلاّ الإذخر»، ﴿ واتخذوا ﴾، قرأ نافع وابن عامر بفتح الخاء على الخبر، وقرأ الباقون بكسر الخاء على الأمر، ﴿ منْ مَقام إبراهيم مصلى ﴾، قال يمان: المسجد كله مقام إبراهيم، وقال إبراهيم النخعي: الحرم كله مقام إبراهيم، وقيل: أراد بمقام إبراهيم جميع مشاهد الحج مثل عَرَفَة ومزدلفة وسائر المشاهد، والصحيح: أن مقام إبراهيم هو الحَجَر الذي في المسجد يصلّي إليه الأئمة، وذلك الحجر الذي قام عليه إبراهيم عند بناء البيت، وقيل: كان أثر أصابع رجليه بيّناً فيه فاندرس من كثرة المسح بالأيدي، قال قتادة ومقاتل والسدي: أُمروا بالصلاة عند مقام إبراهيم، ولم يُؤمروا بمسحه وتقبيله، أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف، أنا محمد بن إسماعيل أنا مسدّد عن يحيىٰ بن حميد، عن أنس قال: قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: وافقت الله في ثلاث، أو وافقني ربّي في ثلاث: قلت يا رسول الله لو اتخذت مقام إبراهيم مصلّى، فأنزل الله تعالى: ﴿ واتخذوا من مقام إبراهيم

قبل أم إسماعيل اتخذت منطقاً لتعفي أثرها على سارة ثم جاء بها إبراهيم وبابنها إسماعيل وهي ترضعه حتى وضعهما عند البيت عند دوحة فوق زمزم من أعلى المسجد، وليس بمكة يومئذ أحد وليس بها ماء فوضعهما هناك، ووضع عندهما جراباً فيه تمر وسقاء فيه ماء ثم قفى إبراهيم منطلقاً فتبعته أم إسماعيل. فقالت: يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه أنيس ولا شيء فقالت له: ذلك مراراً وجعل لا يلتفت إليها فقالت له: آلله أمرك بهذا قال: نعم قالت إذا لا يضيعنا ثم رجعت فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه استقبل بوجهه البيت ثم دعا بهؤلاء الدعوات فرفع يديه وقال ربنا: إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع حتى بلغ يشكرون وجعلت أم إسماعيل ترضع إسماعيل، وتشرب من ذلك الماء حتى إذا نفد ما في السقاء عطشت، وعطش ابنها وجعلت تنظر إليه يتلوى أو قال: يتلبط فانطلقت كراهية أن تنظر إليه فوجدت الصفا أقرب جبل في الأرض يليها فقامت عليه ثم استقبلت الوادي تنظر هل ترى أحداً فلم تر أحداً فهبطت من الصفا حتى بلغت الوادي، ورفعت طرف درعها وسعت سعي الإنسان المجهود حتى جاوزت الوادي ثم أتت المروة فقامت عليها، فنظرت هل ترى أحداً فلم تر أحداً ففعلت ذلك سبع مرات. قال ابن عباس: قال النبي ﷺ فلذلك سعى الناس بينهما فلما أشرفت على المروة سمعت صوتاً فقالت: صه تريد نفسها ثم تسمعت فسمعت أيضاً فقالت يا من قد أسمعت إن كان عندك غواث فإذا هي بالملك عند موضع زمزم فبحث بعقبه أو قال بجناحه حتى ظهر الماء فجعلت تحوضه وتقول: بيدها هكذا وجعلت تغرف من الماء في سقائها، وهو يفور بعدما تغرف قال ابن عباس قال النبي ﷺ يرحم الله أم إسماعيل لو تركت زمزم، أو قال: لو لم تغرف من الماء لكانت زمزم عيناً معيناً. قال: فشربت وأرضعت ولدها. فقال: لها الملك لا تخافي الضيعة، فإن ها هنا بيتاً لله يبتنيه هذا الغلام، وأبوه وإن الله لا يضيع أهله، وكان البيت مرتفعاً من الأرض كالرابية، تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وعن شماله فكانت كذلك، حتى مرت بهم رفقة من جرهم أو أهل بيت من جرهم مقبلين من طريق كداء، فنزلوا في أسفل مكة فرأوا طائراً عائفاً، فقالوا: إن هذا الطائر ليدور على ماء لعهدنا بهذا الوادي وما فيه ماء فأرسلوا جرياً أو جريين فإذا هم بالماء، فرجعوا فأخبروهم فأقبلوا وأم إسماعيل عند الماء، فقالوا: أتأذنين لنا أن ننزل عندك قالت: نعم ولكن لا حق لكم

مصلّى ﴾، وقلت: يا رسول الله يدخل عليك البرّ والفاجر، فلو أمرت أمّهات المؤمنين بالحجاب، فأنزل الله عزّ وجلّ آية الحجاب، قال: وبلغني معاتبة النبي ﷺ بعض نسائه، فدخلت عليهنّ فقلت لهنّ: إنِ انتهيتُنّ أو ليبدّلنّه اللَّهُ خيراً منكنّ، فأنزل الله تعالى: ﴿ عسى ربه إنْ طَلَّقَكُنّ أنْ يُبدِّلَه أزواجاً خيراً منكنّ ﴾ [التحريم: ٥]، الآية.

ورواه محمد بن إسماعيل أيضاً عن عمرو بن عون أنا هشام عن حميد عن أنس رضي الله عنه قال: قال عمر رضي الله عنه وافقت ربّي في ثلاث، قلت: يا رسول الله لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلّى، فنزلت: ﴿ واتخذوا من مقام إبراهيم مصلّى ﴾، وأما بدء قصة المقام، فقد روى سعيد بن جُبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما أتى إبراهيم إسماعيل وهاجر وضعهما بمكة، وأتت على ذلك مدة ونزلها الجرهميون وتزوّج إسماعيل منهم امرأة وماتت هاجر، واستأذن إبراهيم سارة أن يأتي هاجر فأذنت له وشرطت عليه أن لا يَنْزِل، فقَدِمَ إبراهيم مكة وقد ماتت هاجر فذهب إلى بيت إسماعيل فقال لامرأته أين صاحبك؟ قالت: ذهب يتصيّد، وكان إسماعيل عليه السلام يخرج من الحرم فيصيد، فقال لها إبراهيم: هل عندك ضيافة؟ قالت: ليس عندي ضيافة وسألها عن عيشهم، فقالت: نحن في ضيق وشدّة، فشكت إليه فقال لها: إذا جاء زوجك فاقرئيه السلام وقولي له: فليغيّر عتبة بابه، فذهب إبراهيم فجاء إسمعيل فوجد ريح أبيه، فقال لامرأته: هل جاءك أحد فقالت: جاءني شيخ صفته كذا وكذا، كالمستخفّة بشأنه، قال: فما قال لك؟ قالت: قال أقرئي زوجك السلام وقولي له فليغيّر عتبة بابه، قال: ذلك أبي وقد أمرني أن أفارقك، إلحقي بأهلك فطلّقها، وتزوّج منهم بأخرى فلبث إبراهيم ما شاء الله أن يلبث، ثم استأذن سارة أن يزور

في الماء قالوا: نعم. قال ابن عباس قال النبي ﷺ فألفى ذلك أم إسماعيل، وهي تحب الأنس فأرسلوا إلى أهليهم فنزلوا معهم حتى إذا كانوا بها أهل أبيات منهم، وشب الغلام وتعلم العربية منهم، وآنسهم وأعجبهم حين شب فلما أدرك زوجوه امرأة منهم، وماتت أم إسماعيل فجاء إبراهيم بعدما تزوج إسماعيل يطالع تركته، فلم يجد إسماعيل فسأل امرأته عنه، فقالت: خرج يبتغي لنا وفي رواية ذهب يصيد لنا ثم سألها عن عيشهم وهيئتهم فقالت: نحن بشر نحن في ضيق وشدة وشكت إليه فقال إذا جاء زوجك اقرئي عليه السلام وقولي له: يغير عتبة بابه فلما جاء إسماعيل كأنه آنس شيئاً فقال: هل جاءكم من أحد؟ قالت: نعم جاءنا شيخ كذا وكذا فسألنا عنك فأخبرته فسألني كيف عيشنا فأخبرته أنا في جهد، وشدة فقال: هل أوصاك بشيء قالت: نعم أمرني أن أقرأ عليك السلام ويقول لك غير عتبة بابك قال ذلك أبي، وقد أمرني أن أفارقك الحقي بأهلك فطلقها، وتزوج منهم أخرى فلبث عنهم إبراهيم ما شاء الله أن يلبث، ثم أتاهم بعد فلم يجده فدخل على امرأته فسأل عنه. فقالت: خرج يبتغي لنا، قال: كيف أنتم وسألها عن عيشهم وهيئتهم فقالت: نحن بخير وسعة وأثنت على الله عز وجل فقال: وما طعامكم؟ قالت اللحم قال: وما شرابكم قالت: الماء قال: اللهم بارك لهم في اللحم والماء قال النبي ﷺ: ولم يكن لهم يومئذ حب ولو كان لهم حب دعا لهم فيه، قال: فهما لا يخلو عليهما أحد بغير مكة إلا لم يوافقاه وفي رواية فجاء فقال: أين إسماعيل؟ فقالت امرأته: قد ذهب يصيد، فقالت امرأته: ألاّ تنزل عندنا فتطعم وتشرب. قال: وما طعامكم وشرابكم قالت: طعامنا اللحم وشرابنا الماء قال اللهم بارك لهم في طعامهم وشرابهم. قال: فقال أبو القاسم بركة دعوة إبراهيم. قال فإذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام ومريه أن يثبت عتبة بابه فلما جاء إسماعيل قال: هل أتاكم من أحد؟ قالت: نعم أتانا شيخ حسن الهيئة، وأثنت عليه فسألني عنك فأخبرته فسألني كيف عيشنا؟ فأخبرته أنا بخير قال فأوصاك بشيء قالت: نعم يقرأ عليك السلام ويأمرك أن تثبت عتبة بابك فقال: ذاك أبي وأنت العتبة أمرني أن أمسكك ثم لبث عنهم ما شاء الله ثم جاء بعد ذلك وإسماعيل يبري نبلاً له تحت دوحة قريباً من زمزم، فلما رآه قام إليه فصنعا كما يصنع الوالد بالولد والولد بالوالد، ثم قال: يا إسماعيل إن الله أمرني بأمر قال: فاسمع ما أمرك ربك، قال: وتعينني قال وأعينك قال: فإن الله أمرني أن أبني بيتاً ها هنا وأشار إلى أكمة مرتفعة على ما حولها فعند ذلك رفع القواعد من البيت، فجعل إسماعيل يأتي بالحجارة وإبراهيم يبني حتى إذا

إسماعيل، فأذنت له وشرطت عليه أن لا ينزل، فجاء إبراهيم عليه السلام حتى انتهى إلى باب إسماعيل، فقال لامرأته: أين صاحبك؟ قالت: ذهب يتصيّد وهو يجيء الآن إن شاء الله، فانزل يرحمك الله، قال: هل عندك ضيافة؟ قالت: نعم، فجاءت باللبن واللحم، وسألها عن عيشهم فقالت: نحن بخير وسِعَة فدعا لهما بالبركة، ولو جاءت يومئذ بخبز بُرٍّ أو شعير أو تمر لكانت أكثر أرض الله بُرّاً أو شعيراً أو تمراً، فقالت له: انزل حتى أغسل رأسك فلم ينزل، فجاءته بالمقام فوضعته عن شقّه الأيمن فوضع قدمه عليه فغسلت شقّ رأسه الأيمن ثم حوّلته إلى شقّه الأيسر فغسلت شقّ رأسه الأيسر، فبقي أثر قدميه عليه، فقال لها: إذا جاء زوجك فأقرئيه السلام وقولي له: قد استقامت عتبة بابك، فلما جاء إسماعيل وجد ريح أبيه فقال لامرأته: هل جاءك أحد؟ قالت: نعم شيخ أحسن الناس وجهاً وأطيبهم ريحاً، وقال لي كذا وكذا، وقلت له: كذا وكذا، وغسلت رأسه وهذا موضع قدميه، فقال ذاك إبراهيم النبي أبي وأنت العتبة أمرني أن أمسكك، ورُوِيَ عن سعيد بن جبير أيضاً عن ابن عباس قال: ثم لبثت عنهم ما شاء الله ثم جاء بعد ذلك وإسماعيل يبري نبلاً تحتة دوحة قريبة من زمزم، فلما رآه قام إليه فصنعا كما يصنع الوالد بالولد والولد بالوالد، ثم قال: يا إسماعيل إن الله تعالى أمرني بأن تُعينني عليه، قال: أعينك عليه، قال: إن الله أمرني أن أبني ههنا بيتاً، فعند ذلك رفع القواعد من البيت، فجعل إسماعيل يأتي بالحجارة وإبراهيم يبني، فلما

ارتفع البناء جاءه بهذا الحجر فوضعه له، فقام إبراهيم عليه وهو يبني وإسماعيل يناوله الحجارة وهما يقولان: ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم: وفي رواية حتى إذا ارتفع البناء وضعف الشيخ عن نقل الحجارة فقام على حجر المقام، فجعل يناوله الحجارة ويقولان: ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم، وقيل: إن امرأة إسماعيل قالت لإبراهيم: انزل اغسل رأسك فلم ينزل فجاءته بالمقام فوضعته عند شقه الأيمن، فوضع قدمه عليه فغسلت شق رأسه الأيمن ثم حولته إلى شقه الأيسر فغسلت شق رأسه الأيسر فبقي أثر قدميه عليه. عن عبدالله بن عمرو بن العاص قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الركن والمقام ياقوتتان من ياقوت الجنة طمس الله نورهما ولو لم يطمس نورهما لأضاء ما بين المشرق والمغرب» أخرجه الترمذي. وقال هذا يروى عن ابن عمر موقوفاً. واختلفوا في قوله: مصلى فمن فسر المقام بمشاهد الحج ومشاعره قال مصلّى مدعى من الصلاة التي هي الدعاء، ومن فسر المقام بالحجر قال معناه واتخذوا من مقام إبراهيم مصلّى قبلة، أمروا بالصلاة عنده وهذا القول هو الصحيح، لأن لفظ الصلاة إذا أطلق لا يعقل منه إلا الصلاة المعهودة ذات الركوع والسجود، ولأن مصلى الرجل هو الموضع الذي يصلي فيه ﴿وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل﴾ أي أمرناهما وألزمناهما وأوجبنا عليهما. قيل: إنما سمي إسماعيل لأن إبراهيم كان يدعو الله أن يرزقه ولداً، ويقول في دعائه: اسمع يا إيل وإيل بلسان السريانية هو الله. فلما رزق الولد سماه به ﴿أن طهرا بيتي﴾ يعني الكعبة أضافه إليه تشريفاً وتفضيلاً وتخصيصاً، أي ابنياه على الطهارة والتوحيد، وقيل طهراه من سائر الأقذار والأنجاس، وقيل طهراه من الشرك والأوثان وقول الزور ﴿للطائفين﴾ يعني الدائرين حوله ﴿والعاكفين﴾ يعني المقيمين به والمجاورين له ﴿والركع السجود﴾ جمع راكع وساجد وهم المصلون وقيل: الطائفين يعني الغرباء الواردين إلى مكة والعاكفين يعني أهل مكة المقيمين بها. قيل: إن الطواف للغرباء أفضل والصلاة لأهل مكة بمكة أفضل. قوله عز وجل:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾﴾

﴿وإذ قال إبراهيم ربِّ اجعل هذا﴾ إشارة إلى مكة وقيل إلى الحرم ﴿بلداً آمناً﴾ أي ذا أمن يأمن فيه أهله، وإنما دعا إبراهيم له بالأمن لأنه بلد ليس فيه زرع ولا ثمر فإذا لم يكن آمناً، لم يجلب إليه شيء من النواحي فيتعذر

ارتفع البناء جاء بهذا الحجر فوضعه له فقام إبراهيم على حجر المقام، وهو يبني وإسماعيل يناوله الحجارة، وهما يقولان: ﴿ ربّنا تقبّل منّا إنك أنت السميع العليم ﴾ [البقرة: ١٢٧]، وفي الخبر: «الركن والمقام ياقوتتان من يواقيت الجنة، ولولا مسّته أيدي المشركين لأضاء ما بين المشرق والمغرب». قوله عزّ وجلّ: ﴿ وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل ﴾، أي: أمرناهما وأوصينا إليهما، قيل: سُمّي إسماعيل لأن إبراهيم كان يدعو الله أن يرزقه ولد ويقول: اسمع يا إيل، وإيل هو الله، فلما رُزق الولد سمّاه به. ﴿ أن طهّرا بيتيَ ﴾، يعني: الكعبة، أضافه إليه تخصيصاً وتفضيلاً، أي: ابنياه على الطهارة والتوحيد، وقال سعيد بن جبير وعطاء: طهّراه من الأوثان والريب وقول الزّور، وقيل: بخّراه وخلّقاه، قاله يمان بن رباب، قرأ أهل المدينة وحفص ﴿ بيتيَ ﴾ بفتح الياء ههنا وفي سورة الحج، [٢٦]، وزاد حفص في سورة نوح [٢٨]، ﴿للطائفين﴾: الدائرين حوله، ﴿والعاكفين﴾: المقيمين المجاورين، ﴿ والركّع ﴾، جمع راكع، ﴿ السجود ﴾: ساجد، وهم المصلّون، قال الكلبي ومقاتل: الطائفين هم الغرباء والعاكفين أهل مكة، قال عطاء ومجاهد وعكرمة: الطواف للغرباء أفضل، والصلاة لأهل مكة أفضل.

﴿ وإذْ قال إبراهيم ربِّ اجعلْ هذا ﴾، يعني مكة، وقيل: الحرم، ﴿ بلداً آمناً ﴾، أي: ذا أمن يأمن فيه أهله، ﴿ وارزق أهله من الثمرات ﴾، إنما دعا بذلك لأنه كان بوادٍ غير ذي زرع، وفي القصص: أن الطائف كانت

المقام به. فأجاب الله تعالى دعاء إبراهيم وجعله بلداً آمناً فما قصده جبار إلا قصمه الله تعالى كما فعل بأصحاب الفيل وغيرهم من الجبابرة. فإن قلت: قد غزا مكة الحجاج وخرب الكعبة. قلت لم يكن قصده بذلك مكة ولا أهلها ولا إخراب الكعبة، وإنما كان قصده خلع ابن الزبير من الخلافة ولم يتمكن من ذلك إلا بذلك فلما حصل قصده أعاد بناء الكعبة فبناها وشيدها وعظم حرمتها وأحسن إلى أهلها. واختلفوا هل كانت مكة محرمة قبل دعوة إبراهيم عليه السلام أو حرمت بدعوته على قولين؟: أحدهما أنها كانت محرمة قبل دعوته بدليل قوله ﷺ: «إن الله حرم مكة يوم خلق السموات والأرض» وقول إبراهيم عليه السلام: «إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم» فهذا يقتضي أن مكة كانت محرمة قبل دعوة إبراهيم. القول الثاني: أنها إنما حرمت بدعوة إبراهيم بدليل قوله ﷺ: «إن إبراهيم حرم مكة وإني حرمت المدينة» وهذا يقتضي أن مكة كانت قبل دعوة إبراهيم حلالاً كغيرها من البلاد، وإنما حرمت بدعوة إبراهيم، ووجه الجمع بين القولين وهو الصواب أن الله تعالى حرم مكة يوم خلقها كما أخبر النبي ﷺ في قوله: «إن الله حرم مكة يوم خلق السموات والأرض» ولكن لم يظهر ذلك التحريم على لسان أحد من أنبيائه ورسله، وإنما كان تعالى يمنعها ممن أرادها بسوء، ويدفع عنها وعن أهلها الآفات والعقوبات فلم يزل ذلك من أمرها حتى بوأها الله تعالى إبراهيم وأسكن بها أهله فحينئذ سأل إبراهيم ربه عز وجل أن يظهر تحريم مكة لعباده على لسانه فأجاب الله تعالى دعوته، وألزم عباده تحريم مكة فصارت مكة حراماً بدعوة إبراهيم، وفرض على الخلق تحريمها والامتناع من استحلالها واستحلال صيدها وشجرها فهذا وجه الجمع بين القولين وهو الصواب، والله أعلم ﴿**وارزق أهله من الثمرات**﴾ إنما سأل إبراهيم ذلك لأن مكة لم يكن بها زرع ولا ثمر فاستجاب الله تعالى له وجعل مكة حرماً آمناً يجبي إليه ثمرات كل شيء ﴿**من آمن منهم بالله واليوم الآخر**﴾ يعني ارزق المؤمنين من أهله خاصة. وسبب هذا التخصيص أن إبراهيم عليه السلام لما سأل ربه عز وجل أن يجعل النبوة والإمامة في ذريته فأجابه الله بقوله: ﴿**لا ينال عهدي الظالمين**﴾ صار ذلك تأديباً له في المسألة، فلا جرم خص ها هنا بدعائه المؤمنين دون الكافرين ثم أعلمه أن الرزق في الدنيا يستوي فيه المؤمن والكافر بقوله: ﴿**قال ومن كفر فأمتعه**﴾ أي سأرزق الكافر أيضاً ﴿**قليلاً**﴾ أي في الدنيا إلى منتهى أجله وذلك قليل لأنه ينقطع ﴿**ثم أضطره إلى عذاب النار**﴾ أي ألجئه وأكرهه وأدفعه إلى عذاب النار، والمضطر هو الذي لا يملك لنفسه الامتناع مما اضطر إليه ﴿**وبئس المصير**﴾ أي وبئس المكان الذي يصير إليه الكافر وهو العذاب.

وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ

قوله تعالى: ﴿**وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل**﴾ وكانت قصة بناء البيت على ما ذكره العلماء،

من بلاد الشام بأردن، فلما دعا إبراهيم عليه السلام هذا الدعاء أمر الله تعالى جبريل عليه السلام حتى قلعها من أصلها وأدارها حول البيت سبعاً ثم وضعها موضعها الذي هي الآن فيه فمنها أكثر ثمرات مكة، ﴿ **مَن آمن منهم بالله واليوم الآخر** ﴾: دعا للمؤمنين خاصّة، ﴿ **قال** ﴾ الله تعالى: ﴿ **ومَن كفر فأُمتعه** ﴾، قرأ ابن عامر ﴿ **فأمتعه** ﴾ خفيفاً بضمّ الهمزة، والباقون مُشدّداً، ومعناهما واحد، ﴿ **قليلاً** ﴾، أي سأرزق الكافر أيضاً قليلاً إلى منتهى أجله، وذلك أن الله تعالى وعد الرزق للخلق كافّة مؤمنهم وكافرهم، وإنما قيّد بالقلّة لأن متاع الدنيا قليل، ﴿ **ثم أضْطره** ﴾، أي ألجئه في الآخرة: ﴿ **إلى عذاب النار وبئس المصير** ﴾، أي: المرجع يصير إليه، قال مجاهد: وجد عند المقام كتاب فيه: أنا الله ذو بكة صنعتها يوم خلقت الشمس والقمرَ وحرّمتها يوم خلقت السموات والأرض، وحففتها بسبعة أفلاك حنفاء، يأتيها رزقها من ثلاثة سبل، مُبارك لها في اللحم والماء.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ **وإذْ يرفع إبراهيمُ القواعدَ من البيتِ وإسمٰعيل** ﴾، قال الرواة: إن الله تعالى خلق موضع

وأصحاب السير أن الله تعالى خلق موضع البيت قبل أن يخلق الأرض بألفي عام فكانت زبدة بيضاء على وجه الماء، فدحيت الأرض من تحتها فلما أهبط الله آدم إلى الأرض استوحش فشكا إلى الله تعالى، فأنزل البيت المعمور وهو من ياقوتة من يواقيت الجنة له بابان من زمرد أخضر باب شرقي، وباب غربي فوضعه على موضع البيت، وقال يا آدم إني أهبطت لك بيتاً تطوف به كما يطاف حول عرشي، وتصلي عنده كما يصلى عند عرشي وأنزل الله عليه الحجر الأسود، وكان أبيض فاسودّ من مس الحيض في الجاهلية فتوجه آدم من الهند ماشياً إلى مكة، وأرسل الله إليه ملكاً يدله على البيت فحج آدم البيت وأقام المناسك، فلما فرغ تلقته الملائكة وقالوا له برّ حجك يا آدم لقد حججنا هذا البيت قبلك بألفي عام.

قال ابن عباس: حج آدم أربعين حجة من الهند إلى مكة على رجليه فكان على ذلك إلى أيام الطوفان فرفعه الله إلى السماء الرابعة، وهو البيت المعمور يدخله كل يوم سبعون ألف ملك ثم لا يعودون إليه، وبعث الله جبريل حتى خبأ الحجر الأسود في جبل أبي قبيس صيانة له، من الغرق فكان موضع البيت خالياً إلى زمن إبراهيم عليه السلام. ثم إن الله تعالى أمر إبراهيم بعد ما ولد له إسماعيل وإسحاق ببناء بيت يذكر فيه ويعبد فسأل الله أن يبين له موضعه، فبعث الله السكينة لتدله على موضع البيت وهي ريح خجوج لها رأسان تشبه الحية، والخجوج من الرياح هي الشديدة السريعة الهبوب وقيل: هي المتلوية في هبوبها، وأمر إبراهيم أن يبني حيث تستقر السكينة فتبعها إبراهيم، حتى أتت موضع البيت فتطوقت عليه كتطويق الحجفة، وقال ابن عباس: بعث الله سبحانه وتعالى سحابة على قدر الكعبة فجعلت تسير، وإبراهيم يمشي في ظلها إلى أن وقفت على موضع البيت، ونودي منها يا إبراهيم ابن على قدر ظلها لا تزد ولا تنقص. وقيل: إن الريح كنست له ما حول الكعبة حتى ظهر له أساس البيت الأول فذلك قوله تعالى: ﴿وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت﴾ فبنى إبراهيم وإسماعيل البيت فكان إبراهيم يبنيه،

البيت قبل الأرض بألفي عام وكانت زبدة بيضاء على الماء فدحيت الأرض من تحتها، فلما أهبط الله آدم إلى الأرض استوحش، فشكا إلى الله تعالى فأنزل الله البيت المعمور من ياقوتة، من يواقيت الجنّة له بابان من زمرّد أخضر باب شرقي وباب غربي، فوضعه على موضع البيت، وقال: يا آدم إنّي أهبطت لك بيتاً تطوف به كما يُطاف حول عرشي تصلّي عنده كما يصلّى عند عرشي، وأنزل الحجر وكان أبيض فاسودّ من لمس الحيّض في الجاهلية، فتوجّه آدم من أرض الهند إلى مكة ماشياً، وقيّض الله له ملكاً يدلّه على البيت، فحجّ البيتَ وأقام المناسك، فلما فرغ تلقّته الملائكة وقالوا: بُرَّ حجُك يا آدم، لقد حججنا هذا البيت قبلك بألفي عام. قال ابن عباس رضي الله عنه: حجّ آدم أربعين حجّة من الهند إلى مكة على رجليه، فكان على ذلك إلى أيام الطوفان فرفعه الله تعالى إلى السماء الرابعة يدخله كل يوم سبعون ألف ملك ثم لا يعودون إليه إلى يوم القيامة، وبعث جبريل عليه السلام حتى خبّأ الحجر الأسود في جبل أبي قبيس صيانة له من الغرق، فكان موضع البيت خالياً إلى زمن إبراهيم، ثم إن الله تعالى أمر إبراهيم بعدما وُلد له إسماعيل وإسحق ببناء بيت يُذكر فيه، فسأل الله عزّ وجلّ أن يُبيّن له موضعه، فبعث الله السكينة لتدلّه على موضع البيت، وهي ريح خجول لها رأسان شبه الحيّة، فأمر إبراهيم أن يبني حيث تستقرّ السكينة، فتبعها إبراهيم حتى أتيا مكة، فتطوّقت السكينة على موضع البيت، كتطوّق الجحفة. هذا قول علي والحسن، وقال ابن عباس: بعث الله سحابة على قدر الكعبة فجعلت تسير وإبراهيم يمشي في ظلّها إلى أن وافق مكة، ووقفت على موضع البيت، فنُودي منها إبراهيم أن ابْنِ على ظِلّها لا تزدْ ولا تنقصْ، وقيل: أرسل الله جبريل ليدلّه على موضع البيت، فذلك قوله تعالى: ﴿ وإذْ بوّأنا لإبراهيم مكان البيت ﴾ [الحج: ٢٦]، فبنى إبراهيم وإسماعيل البيت، فكان إبراهيم يبنيه وإسماعيل يناوله الحجر، فذلك قوله تعالى: ﴿ وإذْ يرفع إبراهيمُ القواعدَ من البيت وإسمٰعيل ﴾، يعني أُسسه، واحدتها: قاعدة، وقال الكسائي: جُدر البيت، قال ابن عباس: إنما بنى البيت

وإسماعيل يناوله الحجارة فذلك قوله تعالى: ﴿وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت﴾ جمع قاعدة وهي أس البيت. وقيل جدرة من البيت. قال ابن عباس: بنى إبراهيم البيت من خمسة أجبل: من طور سيناء وطور زيتا ولبنان جبل بالشام والجودي جبل بالجزيرة، وبنى قواعده من حراء جبل بمكة فلما انتهى إبراهيم إلى موضع الحجر الأسود قال لإسماعيل: ائتني بحجر حسن يكون للناس علماً فأتاه بحجر فقال ائتني بأحسن منه فمضى إسماعيل ليطلب حجراً أحسن منه فصاح أبو قبيس: يا إبراهيم إن لك عندي وديعة فخذها فقذف بالحجر الأسود فأخذه إبراهيم فوضعه مكانه وقيل: إن الله أمد إبراهيم وإسماعيل بسبعة أملاك يعينونهما في بناء البيت فلما فرغا من بنائه قالا: ﴿ربنا تقبل منا﴾ وفي الآية إضمار تقديره ويقولان ربنا تقبل منا أي ما عملنا لك، وتقبل طاعتنا إياك وعبادتنا لك ﴿إنك أنت السميع﴾ أي لدعائنا ﴿العليم﴾ يعني بنياتنا. قوله عز وجل:

﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾

﴿ربنا واجعلنا مسلمين لك﴾ يعني موحدين مخلصين مطيعين خاضعين لك. فإن قلت: الإسلام إما أن يكون المراد منه الدين والاعتقاد أو الاستسلام والانقياد وقد كانا كذلك حالة هذا الدعاء فما فائدة هذا الطلب؟ قلت فيه وجهان أحدهما أن الإسلام عرض قائم بالقلب وقد لا يبقى، فقوله: واجعلنا مسلمين لك يعني في المستقبل وذلك لا ينافي حصوله في الحال. الوجه الثاني يحتمل أن يكون المراد منه طلب الزيادة في الإيمان فكأنهما طلبا زيادة اليقين والتصديق وذلك لا ينافي حصوله في الحال ﴿ومن ذريتنا﴾ أي من أولادنا ﴿أمة﴾ أي جماعة ﴿مسلمة﴾ أي خاضعة منقادة ﴿لك﴾ وإنما أدخل من التي هي للتبعيض لأن الله تعالى أعلمهما بقوله: ﴿لا ينال عهدي الظالمين﴾

من خمسة أجبل طور سينا وطور زيتا ولبنان وهو جبل بالشام والجودي وهو جبل بالجزيرة، وبنيا قواعده من حِراء وهو جبل بمكة، فلما انتهى إبراهيم إلى موضع الحجر الأسود، قال لإسماعيل: ائتني بحجر حسن يكون للناس عَلَماً فأتاه بحجر، فقال: ائتني بأحسن من هذا، فمضى إسماعيل يطلبه فصاح أبو قبيس: يا إبراهيم إن لك عندي وديعة فخذها فأخذ الحجر الأسود فوضعه مكانه، وقيل: إن الله تعالى بنى في السماء بيتاً وهو البيت المعمور، ويُسمى ضراح، وأمر الملائكة أن يبنوا الكعبة في الأرض بحياله على قدره ومثاله، وقيل: أول مَن بنى الكعبة آدم، واندرس زمن الطوفان، ثم أظهره الله لإبراهيم حتى بناه، ﴿ ربنا تقبّل منّا ﴾، فيه إضمار، أي: ويقولان: ربّنا تقبّل منّا بناءنا، ﴿ إنك أنت السميع ﴾، لدعائنا ﴿ العليم ﴾: بنياتنا.

﴿ ربّنا واجعلنا مُسلِمَيْنِ لك ﴾: موحدين مطيعين مخلصين خاضعين لك: ﴿ ومن ذريتنا ﴾، أي: أولادنا، ﴿ أمةً ﴾: جماعةً، والأمة: أتباع الأنبياء، ﴿ مُسلمةً لك ﴾: خاضعة لك، ﴿ وأرنا ﴾ علّمنا وعرّفنا، قرأ ابن كثير ساكنة الراء، وأبو عمرو بالاختلاس، والباقون بكسرها، ووافق ابن عامر وأبو بكر في الإسكان في حمٓ السجدة، وأصله: أرئنا، فحذفت الهمزة طلباً للخفّة، ونُقلت حركتها إلى الراء، ومَن سكّنها قال: ذهبتِ الهمزةُ فذهبت حركتها، ﴿ مناسكنا ﴾: شرائع ديننا وأعلام حجّنا، وقيل: مواضع حجّنا، وقال مجاهد: مذابحنا، والنسك: الذبيحة، وقيل: متعبداتنا، وأصل النسك: العبادة، والناسك: العابد، فأجاب الله تعالى دعاءهما فبعث جبريل فأراهما المناسك في يوم عَرَفَة، فلما بلغ عرفات قال: عرفت يا إبراهيم؟ قال: نعم، فسُمّي الوقت عَرَفَة والموضع

إن في ذريتهما الظالم فلهذا خص بعض الذرية بالدعاء. فإن قلت: لم خص ذريتهما بالدعاء. قلت: لأنهم أحق بالشفقة والنصيحة، قال الله تعالى: ﴿قوا أنفسكم وأهليكم ناراً﴾ ولأن أولاد الأنبياء إذا صلحوا صلح بهم غيرهم ألا ترى أن المتقدمين من العلماء والكبراء: إذا كانوا على السداد كيف يتسببون لسداد من وراءهم. وقيل: أراد بالأمة أمة محمد ﷺ بدليل قوله تعالى: ﴿وابعث فيهم رسولاً منهم﴾ ﴿وأرنا﴾ أي علمنا وبصرنا ﴿مناسكنا﴾ أي شرائع ديننا وأعلام حجنا، وقيل: مناسكنا يعني مذابحنا والنسك الذبيحة، وقيل متعبداتنا وأصل النسك العبادة والناسك العابد فأجاب الله دعاءهما وبعث جبريل فأراهما المناسك في يوم عرفة فلما بلغ عرفات قال: عرفت يا إبراهيم. قال إبراهيم: نعم فسمي ذلك الوقت عرفة والموضع عرفات ﴿وتب علينا﴾ أي تجاوز عنا ﴿إنك أنت التواب﴾ أي المتجاوز عن عباده ﴿الرحيم﴾ بهم واحتج بقوله «وتب علينا» من جوز الذنوب على الأنبياء. ووجهه أن التوبة لا تطلب من الله إلّا بعد تقدم الذنب فلو لا تقدم الذنب لم يكن لطلب التوبة وجه. وأجيب عنه بأن العبد وإن اجتهد في طاعة ربه عز وجل فإنه لا ينفك عن تقصير في بعض الأوقات. أما على سبيل السهو أو ترك الأولى والأفضل، وكان هذا الدعاء لأجل ذلك، وقيل: يحتمل أن الله تعالى لما أعلم إبراهيم أن في ذريته من ظالم فلا جرم سأل ربه التوبة لأولئك الظلمة، والمعنى وتب على الظلمة من أولادنا حتى يرجعوا إلى طاعتك فيكون ظاهر الكلام الدعاء لأنفسهما والمراد به ذريتهما. وقيل: يحتمل أنهما لما رفعا قواعد البيت وكان ذلك المكان أحرى الأماكن بالإجابة دعوا الله بذلك الدعاء ليجعلا ذلك سنة وليقتدى من بعدهما في ذلك الدعاء لأن ذلك المكان هو موضع التنصل من الذنوب وسؤال التوبة والمغفرة من الله تعالى. قوله عز وجل: ﴿**ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم**﴾ يعني وابعث في الأمة المسلمة أو الذرية وهم العرب من ولد إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام. وقوله: رسولاً منهم يعني ليدعوهم إلى الإسلام ويكمل الدين والشرع، وإذا كان الرسول منهم يعرفون نسبه ومولده ومنشأه كان أقرب لقبول قوله ويكون هو أشفق عليهم من غيره، وأجمع المفسرون على أن المراد بقوله «رسولاً منهم» هو محمد ﷺ لأن إبراهيم عليه السلام إنما دعا لذريته وهو بمكة ولم يبعث من ذريته بمكة غير محمد ﷺ فدل على أن المراد به محمد ﷺ وروى البغوي بإسناده عن العرباض بن سارية عن رسول الله ﷺ قال: «إني عند الله مكتوب خاتم النبيين، وإن آدم لمنجدل في طينته وسأخبركم بأول أمري أنا دعوة إبراهيم وبشارة عيسى ورؤيا أمي التي رأت حين وضعتني، وقد خرج لها نور ساطع أضاءت لها منه قصور الشام» وقوله: لمنجدل في طينته معناه أنه مطروح على وجه الأرض صورة من طين لم تجر فيه الروح وأراد بدعوة إبراهيم قوله: ﴿**ربنا وابعث فيهم رسولاً**

عرفات. ﴿ **وتُبْ علينا** ﴾، تجاوز عنّا، ﴿ **إنك أنت التوّاب الرحيم** ﴾.

﴿ **ربّنا وابعث فيهم** ﴾، أي: في الأمة المسلمة من ذريّة إبراهيم وإسماعيل، وقيل: في أهل مكة، ﴿ **رسولاً منهم** ﴾، أي: مرسلاً منهم، أراد به محمداً ﷺ، حدّثنا السيد أبو القاسم علي بن موسى الموسوي، حدّثني أبو بكر أحمد بن محمد بن عباس البلخي، أنا الإمام أبو سليمان أحمد بن محمد بن إبراهيم الخطابي، أنا محمد بن المكّي أنا إسحاق بن إبراهيم أنا ابن أخي ابن وهب أنا عمّي أنا معاوية عن صالح عن سعيد بن سويد عن عبد الأعلى عن هلال السّلمي عن العرباض بن سارية عن رسول الله ﷺ قال: «إني عند الله مكتوب خاتم النبيّين وأن آدم لمنجدل في طينته، وسأُخبركم بأول أمري: أنا دعوة إبراهيم، وبشارة عيسى، ورؤيا أُمي التي رأت حين وضعتني وقد خرج منها نورٌ أضاءت لها منه قصور الشام»، وأراد بدعوة إبراهيم هذا فإنه دعا أن يبعث في بني إسماعيل رسولاً منهم، قال ابن عباس: كل الأنبياء من بني إسرائيل إلّا عشرة: نوح وهود وصالح وشعيب ولوط وإبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب ومحمد صلوات الله عليهم أجمعين. ﴿ **يتلو** ﴾: يقرأ ﴿ **عليهم آياتك** ﴾،

منهم﴾، فاستجاب الله دعاء إبراهيم وبعث محمداً ﷺ في آخر الزمان وأنقذهم به من الكفر والظلم وأراد ببشارة عيسى عليه السلام قوله في سورة الصف: ﴿ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد﴾ ﴿يتلو عليهم﴾ أي يقرأ عليهم ﴿آياتك﴾ يعني ما توحيه إليه وهو القرآن الذي أنزل على محمد ﷺ لأن الذي كان يتلوه عليهم هو القرآن فوجب حمله عليه ﴿ويعلمهم الكتاب﴾ يعني معاني الكتاب وحقائقه لأن المقصود الأعظم تعليم ما في القرآن من دلائل التوحيد والنبوة والأحكام الشرعية فلما ذكر الله تعالى أولاً أمر التلاوة، وهي حفظ القرآن ودراسته ليبقى مصوناً عن التحريف، والتبديل ذكر بعده تعليم حقائقه وأسراره ﴿والحكمة﴾ أي ويعلمهم الحكمة وهي الإصابة في القول والعمل ولا يسمى الرجل حكيماً إلّا إذا اجتمع فيه الأمران. وقيل: الحكمة هي التي ترد عن الجهل والخطأ وذلك إنما يكون بما ذكرناه من الإصابة في القول والعمل ووضع كل شيء موضعه، وقيل الحكمة معرفة الأشياء بحقائقها. واختلف المفسرون في المراد بالحكمة ها هنا فروى ابن وهب قال: قلت لمالك ما الحكمة. قال: المعرفة بالدين والفقه فيه والاتباع له. وقال قتادة: الحكمة هي السنة وذلك لأن الله تعالى ذكر تلاوة الكتاب وتعليمه ثم عطف عليه الحكمة فوجب أن يكون المراد بها شيئاً آخر وليس ذلك إلّا السنة. وقيل الحكمة: هي العلم بأحكام الله تعالى التي لا يدرك علمها إلّا ببيان الرسول ﷺ والمعرفة بها منه. وقيل الحكمة: هي الفصل بين الحق والباطل. وقيل: هي معرفة الأحكام والقضاء وقيل: هي فهم القرآن، والمعنى ويعلمهم ما في القرآن من الأحكام والحكمة وهي ما فيه من المصالح الدينية والأحكام الشرعية. وقيل: كل كلمة وعظتك أودعتك إلى مكرمة أو نهتك عن قبيح فهي حكمة ﴿ويزكيهم﴾ أي ويطهرهم من الشرك وعبادة الأوثان، وسائر الأرجاس والرذائل والنقائص، وقيل: يزكيهم من التزكية أي يشهد لهم يوم القيامة بالعدالة، إذا شهدوا للأنبياء بالبلاغ ثم ختم إبراهيم الدعاء بالثناء على الله تعالى فقال ﴿إنك أنت العزيز﴾ قال ابن عباس: العزيز الذي لا يوجد مثله. وقيل: هو الذي يقهر ولا يقهر وقيل هو المنيع الذي لا تناله الأيدي، وقيل العزيز القوي والعزة القوة من قولهم أرض عزاز أي صلبة قوية ﴿الحكيم﴾ أي العالم الذي لا تخفى عليه خافية، وقيل هو العالم بالأشياء وإيجادها على غاية الإحكام. قوله عز وجل:

وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ

كتابك يعني: القرآن، والآية من القرآن كلام متّصل إلى انقطاعه، وقيل هي جماعة حروف، يقال خرج القوم بآيتهم، أي: بجماعتهم، ﴿ ويعلّمهم الكتاب ﴾، يعني: القرآن، ﴿ والحكمةَ ﴾، قال مجاهد: فهم القرآن، وقال مقاتل: مواعظ القرآن وما فيه من الأحكام، قال قتيبة: هي العلم والعمل، ولا يكون الرجل حكيماً حتى يجمعهما، وقيل: هي السُّنّة والأحكام، وقيل: هي القضاء، وقيل: الحكمة الفقه، قال أبو بكر بن دريد كل كلمة وَعَظَتْك أو دَعَتْك إلى مكرمة أو نهتك عن قبيح فهي حكمة، ﴿ ويزكّيهم ﴾، أي: يطهّرهم من الشرك والذنوب، وقيل: يأخذ الزكاة من أموالهم، وقال ابن كيسان: يشهد لهم يوم القيامة بالعدالة إذا شهدوا للأنبياء بالبلاغ من التزكية وهي التعديل، ﴿ إنك أنت العزيز الحكيم ﴾، قال ابن عباس: العزيز: الذي لا يُوجد مثله، وقال الكلبي: المنتقم، بيانه قوله تعالى: ﴿ والله عزيزٌ ذو انتقام ﴾ [آل عمران: ٤، المائدة: ٩٥]، وقيل: المنيع الذي لا تناله الأيدي ولا يصل إليه شيء، وقيل: القوي، والعزّة القوّة، قال الله تعالى: ﴿ فعززنا بثالث فقالوا ﴾ [يٰس: ١٤]، أي: قوّينا، وقيل: الغالب، قال الله تعالى إخباراً ﴿ وعزّني في الخطاب ﴾ [صٓ: ٢٣] أي: غلبني، ويقال في المثل: من عزيز أي: من غَلَبَ سَلَبَ.

ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذۡ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسۡلِمۡۖ قَالَ أَسۡلَمۡتُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾

﴿ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلاّ من سفه نفسه﴾ سبب نزول هذه الآية أن عبدالله بن سلام دعا ابني أخيه إلى الإسلام مهاجراً وسلمة، وقال لهما: قد علمتما أن الله تعالى قال في التوراة إني باعث من ولد إسماعيل نبياً اسمه أحمد فمن آمن به فقد اهتدى، ومن لم يؤمن به فهو ملعون، فأسلم سلمة وأبى مهاجر أن يسلم فأنزل الله تعالى:

﴿ومن يرغب عن ملة إبراهيم﴾ أي يترك دينه وشريعته، وفيه تعريض باليهود والنصارى ومشركي العرب لأن اليهود والنصارى يفتخرون بالانتساب إلى إبراهيم والوصلة إليه، لأنهم من بني إسرائيل وهو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، والعرب يفتخرون به لأنهم من ولد إسماعيل بن إبراهيم وإذا كان كذلك كان إبراهيم هو الذي طلب بعثة هذا الرسول في آخر الزمان فمن رغب عن الإيمان بهذا الرسول الذي هو دعوة إبراهيم فقد رغب عن ملة إبراهيم ومعنى يرغب عن ملة إبراهيم أي يترك دينه وشريعته يقال: رغب في الشيء إذا أراده ورغب عنه إذا تركه إلاّ من سفه نفسه قال ابن عباس: خسر نفسه وقيل: أهلك نفسه وقيل: امتهنها واستخف بها وأصل السفه الخفة. وقيل: الجهل وضعف الرأي فكل سفيه جاهل لأن من عبد غير الله فقد جهل نفسه لأنه لم يعترف بأن الله خالقها وقد جاء «من عرف نفسه فقد عرف ربه» ومعناه: أن يعرف نفسه بالذل والعجز والضعف والفناء، ويعرف ربه بالعز والقدرة والقوة والبقاء ويدل على هذا أن الله تعالى أوحى إلى داود عليه السلام اعرف نفسك واعرفني قال: يا رب وكيف أعرف نفسي وكيف أعرفك؟ قال: اعرف نفسك بالعجز والضعف والفناء واعرفني بالقوة والقدرة والبقاء **﴿ولقد اصطفيناه﴾** أي اخترناه **﴿في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين﴾** يعني الفائزين وقيل: مع الأنبياء في الجنة **﴿إذ قال له ربه أسلم﴾** أي استقم على الإسلام واثبت عليه لأنه كان مسلماً لأن الأنبياء إنما نشؤوا على الإسلام والتوحيد، قال ابن عباس رضي الله عنهما: قال له ذلك حين خرج من السرب وذلك عند استدلاله بالكواكب والشمس والقمر واطلاعه على أمارات الحدوث فيها، وافتقارها إلى محدث مدبر فلما عرف ذلك قال له ربه:

﴿ وَمَنْ يرغبُ عنْ مِلّة إبراهيم ﴾، وذلك أن عبد الله بن سلام دعا ابني أخيه سَلمةَ ومهاجراً إلى الإسلام فقال لهما: قد علمتما أن الله عزّ وجلّ قال في التوراة: إني باعث من ولد إسماعيل نبيّاً اسمه أحمد فمَن آمن به فقد اهتدى ومَن لم يؤمن به فهو ملعون، فأسلم سلمة وأبى مهاجر أن يُسلم، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿ ومَن يرغب عن ملّة إبراهيم ﴾، أي: يترك دينه وشريعته، يقال: رغب في الشيء إذا أراده، ورغب عنه إذا تركه، وقوله ﴿ من ﴾: لفظة استفهام ومعناه التقريع والتوبيخ، يعني: ما يرغب عن ملّة إبراهيم **﴿ إلاّ مَن سفه نفسه ﴾**، قال ابن عباس: مَن خسر نفسه، وقال الكلبي: ضلّ من قِبَل نفسه، وقال أبو عبيدة: أهلك نفسه، وقال ابن كيسان والزجّاج: معناه جهل نفسه، والسفاهةُ: الجهلُ وضعف الرأي، وكلّ سفيه جاهل، وذلك أن مَنْ عبدَ غيرَ الله فقد جَهِلَ نفسه لأنه لم يعرف أنّ اللّهَ خلقها، وقد جاء: مَنْ عرف نفسه فقد عرف ربّه، وفي الأخبار: أن الله تعالى أوحى إلى داود: اعرف نفسك واعرفني، فقال: يا رب كيف أعرف نفسي وكيف أعرفك؟ فأوحى الله إليه: اعرف نفسك بالضعف والعجز والفناء، واعرفني بالقوة والقدرة والبقاء. وقال الأخفش: معناه سفه في نفسه، و﴿ نفسه ﴾ على هذا القول: نصب بنزع حرف الصفة، وقال الفرّاء: نصب على التفسير، وكان الأصل سفهتْ نفسُه، فلما أضاف الفعل إلى صاحبها خرجت النفس مفسّرة ليعلم موضع السفه، كما يقال ضقت به ذرعاً أو ضاق ذرعي به، **﴿ ولقد اصطفيناه في الدنيا ﴾**: اخترناه في الدنيا، **﴿ وإنه في الآخرة لَمِنَ الصالحين ﴾**، يعني: أي مع الأنبياء في الجنة، وقال الحسين بن الفضل: فيه تقديم وتأخير، تقديره ولقد اصطفيناه في الدنيا والآخرة وإنه لمن الصالحين.

أسلم ﴿قال أسلمت لرب العالمين﴾ أي قال إبراهيم: خضعت بالطاعة وأخلصت العبادة لمالك الخلائق ومدبرها ومحدثها. وقيل: معنى أسلم أخلص دينك وعبادتك لله واجعلها سليمة. وقيل: الإيمان من صفات القلب والإسلام من صفات الجوارح وإن إبراهيم كان مؤمناً بقلبه عارفاً بالله فأمره الله أن يعمل بجوارحه وقيل: معناه أسلم نفسك إلى الله تعالى وفوض أمرك إليه. قال: أسلمت أي فوضت أمري لرب العالمين. قال ابن عباس رضي الله عنهما: وقد حقق ذلك حيث لم يستعن بأحد من الملائكة حين ألقي في النار. قوله عز وجل:

﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾ وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾

﴿ووصى بها إبراهيم بنيه﴾ يعني بكلمة الإخلاص، وهي لا إله إلاّ الله. وقيل هي الملة الحنيفية وكان لإبراهيم ثمانية أولاد إسماعيل وأمه هاجر القبطية وإسحاق وأمه سارة ومدين ومدان ويقنان وزمران وشيق وشوخ وأمهم قطورا بنت يقطن الكنعانية تزوجها إبراهيم حين وفاة سارة، فإن قلت، لم قال: وصى بها إبراهيم بنيه ولم يقل أمرهم؟. قلت: لأن لفظ الوصية أوكد من لفظ الأمر لأن الوصية إنما تكون عند الخوف من الموت وفي ذلك الوقت يكون احتياط الإنسان لولده أشد وأعظم، وكانوا هم إلى قبول وصيته أقرب وإنما خص بنيه بهذه الوصية لأن شفقة الرجل على بنيه أكثر من شفقته على غيرهم. وقيل: لأنهم كانوا أئمة يقتدى بهم فكان صلاحهم صلاحاً لغيرهم ﴿ويعقوب﴾ أي ووصى يعقوب بمثل ما وصي به إبراهيم، وسمي يعقوب لأنه هو والعيص كانا توأمين في بطن واحد فتقدم العيص وقت الولادة في الخروج من بطن أمه وخرج يعقوب على أثره آخذاً بعقبه قال ابن عباس: وقيل سمي يعقوب لكثرة عقبه وكان له من الولد اثنا عشر وهم: روبيل وشمعون ولاوى ويهوذا وربالون ويشجرودان ونفتالي وجاد وآشر ويوسف وبنيامين، ثم خاطب يعقوب بنيه فقال ﴿يا بني إن الله اصطفى لكم الدين﴾ أي اختار لكم دين الإسلام ﴿فلا تموتن إلاّ وأنتم مسلمون﴾ أي مؤمنون مخلصون فالمعنى دوموا على إسلامكم حتى يأتيكم الموت وأنتم مسلمون لأنه لا يعلم في أي وقت يأتي الموت على الإنسان. وقيل: في معنى وأنتم مسلمون أي محسنون الظن بالله عز وجل يدل عليه ما روي عن جابر قال سمعت رسول الله ﷺ قبل موته

﴿ إذْ قال له ربه أسلم ﴾، أي استقم على الإسلام واثبت عليه، لأنه كان مسلماً، قال ابن عباس: قال له ذلك حين خرج من السرب، وقال الكلبي أخلص دينك وعبادتك لله، وقال عطاء: أسلم نفسك إلى الله عزّ وجلّ وفوِّضْ أمورك إليه، ﴿ قال أسلمت لربّ العالمين ﴾، أي: فوّضت، قال ابن عباس: وقد حقّق ذلك حيث لم يستعن بأحد من الملائكة حين أُلقي في النار.

﴿ ووصّى بها إبراهيمُ بنيهِ ويعقوبُ ﴾، قرأ أهل المدينة والشام و﴿ أوصى ﴾ بالألف، وكذلك في مصاحفهم، وقرأ الباقون ﴿ ووصّى ﴾ مشدّداً، وهما لغتان مثل نزل ونزّل معناه: ووصّى بها إبراهيم ووصّى يعقوب بنيه، قال الكلبي ومقاتل: يعني بكلمة الإخلاص لا إلّه إلاّ الله، قال أبو عبيدة: إن شئت رددت الكناية إلى الملّة لأنه ذكر ملّة إبراهيم، وإن شئت رددتها إلى الوصية، أي: وصّى إبراهيم بنيه الثمانية: إسماعيل وأُمه هاجر القبطية

بثلاثة أيام يقول: «لا يموتن أحدكم إلاّ وهو يحسن الظن بربه» أخرجاه في الصحيحين. قوله عز وجل: ﴿**أم كنتم شهداء**﴾ جمع شهيد بمعنى الحاضر أي ما كنتم حاضرين ﴿**إذ حضر يعقوب الموت**﴾ أي حين احتضر وقرب من الموت نزلت في اليهود، وذلك لأنهم قالوا للنبي ﷺ إن يعقوب يوم مات أوصى بنيه باليهودية فأنزل الله تعالى هذه الآية تكذيباً لهم، والمعنى أم كنتم يا معشر اليهود شهوداً على يعقوب إذ حضره الموت، أي إنكم لم تحضروا ذلك فلا تدّعوا على أنبيائي ورسلي الأباطيل وتنسبوهم إلى اليهودية فإني ما ابتعثت خليلي إبراهيم، وولده وأولادهم إلاّ بدين الإسلام، وبذلك وصوا أولادهم وبه عهدوا إليهم ثم بين ما قال يعقوب لبنيه فقال تعالى: ﴿**إذ قال**﴾ يعني يعقوب ﴿**لبنيه**﴾ يعني لأولاده الاثني عشر ﴿**ما تعبدون**﴾ أي أي شيء تعبدون ﴿**من بعدي**﴾ قيل إن الله تعالى لم يقبض نبياً حتى يخيره: بين الحياة والموت، فلما خير يعقوب وكان قد رأى أهل مصر يعبدون الأوثان والنيران فقال انظرني حتى أسأل ولدي وأوصيهم فأمهله فجمع ولده وولد ولده قال لهم قد حضر أجلي ما تعبدون من بعدي؟ ﴿**قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق**﴾ إنما قدم إسماعيل لأنه كان أكبر من إسحاق وأدخله في جملة الآباء وإن كان عماً لهم لأن العرب تسمي العم أباً والخالة أمّاً قال رسول الله ﷺ: «عم الرجل صنو أبيه» وقال في عمه العباس «ردوا عليّ أبي» ﴿**إلهاً واحداً ونحن له مسلمون**﴾ أي مخلصون العبودية ﴿**تلك**﴾ إشارة إلى الأمة المذكورة، يعني إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب وولدهم ﴿**أمة قد خلت**﴾ أي مضت لسبيلها

وإسحق وأُمه سارة، وستّة أُمهم قنطورا بنت يقطن الكنعانية، تزوّجها إبراهيم بعد وفاة سارة، ويعقوب، سُمّي بذلك لأنه والعيص كانا تَوْأَمين فتقدّم عيص في الخروج من بطن أُمه، وخرج يعقوب على أثره آخذ بعقبه، قاله ابن عباس، وقيل سُمّي يعقوب لكثرة عقبه، يعني ووصى أيضاً يعقوب بنيه الإثني عشر ﴿ **يا بني** ﴾، معناه أن يا بني: ﴿ **إن الله اصطفى** ﴾: اختار ﴿ **لكم الدين** ﴾، أي: دين الإسلام، ﴿ **فلا تموتنّ إلاّ وأنتم مسلمون** ﴾، مؤمنون، وقيل مخلصون، وقيل مفوّضون، والنهي في ظاهر الكلام وقع على الموت، وإنما نُهوا في الحقيقة عن ترك الإسلام معناه، داوموا على الإسلام حتى لا يصادفكم الموت إلاّ وأنتم مسلمون، وعن الفضيل بن عياض رحمه الله: أنه قال: إلاّ وأنتم مسلمون، أي: محسنون بربكم الظن، أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أبو محمد عبد الرحمن بن أبي شريح، أنا أبو القاسم عبد الله بن محمد بن عبد العزيز البغوي، أنا علي بن الجعد أنا أبو جعفر الرازي عن الأعمش عن أبي سفيان عن جابر بن عبد الله قال: سمعت رسول الله ﷺ قبل موته بثلاثة أيام، يقول: «لا يموتنّ أحدكم إلاّ وهو يُحسن الظن بالله عزّ وجلّ».

قوله تعالى: ﴿ **أم كنتم شهداء** ﴾ يعني أكنتم شهداء يريد ما كنتم شهداء حضوراً ﴿ **إذْ حضر يعقوب الموت** ﴾، أي: حين قرب يعقوب من الموت، قيل: نزلت في اليهود حين قالوا للنبي ﷺ: ألست تعلم أن يعقوب يوم مات أوصى بنيه باليهودية فعلى هذا القول يكون الخطاب لليهود، وقال الكلبي: لمّا دخل يعقوب مصر رآهم يعبدون الأوثان والنيران، فجمع ولده وخاف عليهم ذلك، فقال عزّ وجلّ: ﴿ **إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي** ﴾؟ قال عطاء: إن الله تعالى لم يقبض نبياً حتى خيّره بين الحياة والموت، فلما خيّر يعقوب قال: يا ربّ أنظرني حتى أسأل ولدي وأُوصيهم، ففعل الله ذلك به، فجمع ولده وولد ولده وقال لهم: قد حضر أجلي فما تعبدون من بعدي؟ ﴿ **قالوا نعبد إلَهك وإلَه آبائك إبراهيم وإسمٰعيل وإسحق** ﴾، وكان إسماعيل عمّاً لهم، والعرب تسمي العمّ أباً كما تسمّي الخالة أُمّاً، قال النبيّ ﷺ: «عمُّ الرجل صنو أبيه»، وقال في عمّه العباس: «ردّوا عليّ أبي فإني أخشى أن تفعل به قريش ما فعلت ثقيف بعروة بن مسعود»، وذلك أنهم قتلوه: ﴿ **إلَهاً واحداً** ﴾ نُصب على البدل من قوله: ﴿ **إلَهك** ﴾، وقيل: نعرفه إلَهاً واحداً، ﴿ **ونحن له مسلمون** ﴾.

والمعنى يا معشر اليهود والنصارى دعوا ذكر إبراهيم وإسماعيل وإسحاق والمسلمين من أولادهم، ولا تقولوا عليهم ما ليس فيهم ﴿لها ما كسبت﴾ يعني من العمل ﴿ولكم﴾ يعني يا معشر اليهود والنصارى ﴿ما كسبتم﴾ أي من العمل ﴿ولا تسألون عما كانوا يعملون﴾ يعني كل فريق يسأل عن عمله لا عن عمل غيره. قوله عز وجل: ﴿وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا﴾ قال ابن عباس: نزلت في رؤساء اليهود: كعب بن الأشرف ومالك بن الصيف ووهب بن يهودا وأبي ياسر بن أخطب وفي نصارى نجران السيد، والعاقب وأصحابهما، وذلك أنهم خاصموا المؤمنين في الدين، فكل فريق منهم يزعم أنه أحق بدين الله فقالت اليهود: نبينا موسى أفضل الأنبياء وكتابنا التوراة أفضل الكتب وديننا أفضل الأديان وكفروا بعيسى والإنجيل ومحمد والقرآن وقالت النصارى كذلك، وقال كل واحد من الفريقين للمؤمنين: كونوا على ديننا فلا دين إلّا ذلك فأنزل الله عز وجل: ﴿قل﴾ يعني يا محمد ﴿بل ملة إبراهيم﴾ يعني إذا كان لا بد من الاتباع فنتبع ملة إبراهيم لأنه مجمع على فضله ﴿حنيفاً﴾ أصله من الحنف وهو ميل واعوجاج يكون في القدم. قال ابن عباس: الحنيف المائل عن الأديان كلها إلى دين الإسلام، قال الشاعر:

ولكنــــا خلقنــــا إذ خلقنــــا ... حنيفـــاً ديننـــا عـــن كـــل ديـــن

والعرب تسمي كل من حج أو اختتن حنيفاً تنبيهاً على أنه على دين إبراهيم، وقيل: الحنيفية الختان وإقامة المناسك مسلماً، يعني أن الحنيفية هي دين الإسلام وهو دين إبراهيم عليه السلام ﴿وما كان من المشركين﴾ يعني إبراهيم وفيه تعريض لليهود والنصارى وغيرهم ممن يدعي اتباع ملة إبراهيم وهو على الشرك، ثم علم المؤمنين طرائق الإيمان فقال تعالى:

﴿تلك أمّة﴾: جماعة، **﴿ قد خلت ﴾**: مضت، **﴿ لها ما كسبت ﴾**: من العمل، **﴿ ولكم ما كسبتم ولا تسئلون عمّا كانوا يعملون ﴾**، يعني: يسئل كلٌّ عن عمله لا عن عمل غيره.

﴿ وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا ﴾، قال ابن عباس: نزلت في رؤساء يهود المدينة: كعب بن الأشرف ومالك بن الصيف ووهب بن يهود وأبي ياسر بن أخطب، وفي نصارى أهل نجران السيد والعاقب وأصحابهما، وذلك أنهم خاصموا المسلمين في الدين كل فرقة تزعم أنها أحقّ بدين الله ، فقالت اليهود: نبيّنا موسى أفضل الأنبياء وكتابنا التوراة أفضل الكتب، وديننا أفضل الأديان، وكفرت بعيسى والإنجيل وبمحمد ﷺ والقرآن، وقالت النصارى نبيّنا أفضل الأنبياء وكتابنا الإنجيل أفضل الكتب، وديننا أفضل الأديان وكفرتْ بمحمد ﷺ والقرآن وقال كل واحد من الفريقين للمؤمنين كونوا على ديننا فلا دين إلّا ذلك، فقال تعالى: **﴿ قل ﴾** يا محمد: **﴿ بل ملّة إبراهيم ﴾**، بل نتّبع ملّة إبراهيم، وقال الكسائي: هو نصب على الإغراء كأنه يقول: اتّبعوا ملّة إبراهيم، وقيل: معناه بل نكون على ملّة إبراهيم، فحذف على فصار منصوباً، **﴿ حنيفاً ﴾**، نصب على الحال عند نحاة البصرة، وعند نحاة الكوفة نصب على القطع، أراد به ملّة إبراهيم الحنيف، فلما أسقطت الألف واللام لم تتبع النكرة المعرفة فانقطع منه، فنصب. قال مجاهد: الحنيفة أتباع إبراهيم فيما أتى به من الشريعة التي صار بها إماماً للناس، قال ابن عباس: الحنيف المائل عن الأديان كلها إلى دين الإسلام، وأصله من الحنف وهو ميل وعوج يكون في القدم، وقال سعيد بن جبير: الحنيف هو الحاج المختتن، وقال الضحّاك: إذا كان مع الحنيف المسلم فهو الحاج، وإذا لم يكن مع المسلم فهو المسلم، قال قتادة: الحنيفة الختان وتحريم الأمهات والبنات والأخوات والعمّات والخالات وإقامة المناسك، **﴿ وما كان من المشركين ﴾**، ثم علّم المؤمنين طريق الإيمان فقال جلّ ذكره:

﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ
وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ١٣٦ فَإِنۡ ءَامَنُواْ بِمِثۡلِ مَآ ءَامَنتُم
بِهِۦ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا هُمۡ فِي شِقَاقٖۖ فَسَيَكۡفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ١٣٧﴾

﴿قولوا آمنا بالله﴾ يعني قولوا أيها المؤمنون لهؤلاء اليهود والنصارى الذين قالوا لكم: كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا: آمنا بالله أي صدقنا بالله ﴿وما أنزل إلينا﴾ يعني القرآن ﴿وما أنزل إلى إبراهيم﴾ يعني وآمنا بما أنزل إلى إبراهيم وهو عشر صحائف ﴿وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط﴾ وهم أولاد يعقوب الاثنا عشر واحدهم سبط وكانوا أنبياء، وقيل: السبط هو ولد الولد وهو الحافد ومنه قيل: للحسن والحسين سبطا رسول الله ﷺ والأسباط في بني إسرائيل كالقبائل في العرب من بني إسماعيل وكان في الأسباط أنبياء ﴿وما أوتي موسى﴾ يعني التوراة ﴿وعيسى﴾ يعني الإنجيل ﴿وما أوتي النبيون من ربهم﴾ والمعنى آمنا أيضاً بالتوراة والإنجيل والكتب التي أوتي جميع النبيين وصدقنا أن ذلك كله حق وهدى ونور وأن الجميع من عند الله وأن جميع ما ذكر الله من أنبيائه كانوا على هدى وحق ﴿لا نفرق بين أحد منهم﴾ أي لا نؤمن ببعض الأنبياء ونكفر ببعض وكما تبرأت اليهود من عيسى ومحمد ﷺ، وأقرت ببعض الأنبياء وكما تبرأت النصارى من محمد ﷺ وأقرت ببعض الأنبياء بل نؤمن بكل الأنبياء وأن جميعهم كانوا على حق وهدى ﴿ونحن له مسلمون﴾ أي ونحن لله تعالى خاضعون بالطاعة مذعنون له بالعبودية (خ) عن أبي هريرة قال: كان أهل الكتاب يقرؤون التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام فقال رسول الله ﷺ: «لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم.

﴿وقولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا﴾. الآية. قوله عز وجل: ﴿فإن آمنوا﴾ يعني اليهود والنصارى ﴿بمثل ما

﴿ قولوا آمنّا بالله وما أُنزل إلينا ﴾، يعني القرآن، ﴿ وما أُنزل إلى إبـراهيم ﴾، وهو عشـر صحف، ﴿ وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط ﴾، يعني: أولاد يعقوب، وهم اثنا عشر سبطاً: واحدهم: سبط، سُمّوا بذلك لأنه ولد لكل واحد منهم جماعة، وسبط الرجل: حافده، ومنه قيل للحسن والحسين رضي الله عنهما: سبطا رسول الله ﷺ، والأسباط من بني إسرائيل كالقبائل من العرب، من بني إسمٰعيل، والشعوب من العجم، وكان في الأسباط أنبياء، ولذلك قال: ﴿ وما أُنزل إليهم ﴾ [آل عمران: ١٩٩، المائدة: ٦٦]، وقيل: هم بنو يعقوب من صلبه صاروا كلّهم أنبياء. ﴿ وما أُوتي موسى ﴾، يعني التوراة، ﴿ وعيسى ﴾، يعني الإنجيل، ﴿ وما أُوتي ﴾: أعطى ﴿ النبيّون من ربّهم لا نُفرِّق بين أحدٍ منهم ﴾، أي: نؤمن بالكل لا نفرّق بين أحد منهم فنؤمن ببعض ونكفر ببعض كما فعل اليهود والنصارى، ﴿ ونحن له مسلمون ﴾، أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف، أنا محمد بن إسماعيل أنا محمد بن بشّار أنا عثمان بن عمر، أنا علي بن المبارك عن يحيىٰ بن أبي كثير، عن أبي سلمة عن أبي هريرة قال: كان أهل الكتاب يقرؤون التوراة بالعبرانية ويفسّرونها بالعربية لأهل الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: «لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم، وقالوا: آمنّا بالله» الآية.

﴿ فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به ﴾ أي: بما آمنتم به، وكذلك كان يقرؤها ابن عباس و(المثل) صلة، كقوله تعالى: ﴿ ليس كمثله شيء ﴾ [الشورى: ١١] أي: ليس هو كشيء، وقيل: معناه فإن آمنوا بجميع ما آمنتم به أي: أتوا بإيمانٍ كإيمانكم وتوحيدٍ كتوحيدكم، وقيل: معناه فإن آمنوا مثل ما آمنتم، والباء زائدة كقوله تعالى: ﴿ وهزّي إليك بجذع النخلة ﴾ [مريم: ٢٥]، وقال أبو معاذ النحوي: معناه فإن آمنوا بكتابكم كما آمنتم بكتابهم: ﴿ فقد

آمنتم به﴾ أي بما آمنتم به ومثل صلة فهو كقوله: «ليس كمثله شيء» أي ليس مثله شيء وقيل: فإن أتوا بإيمان كإيمانكم وتوحيد كتوحيدكم ﴿فقد اهتدوا﴾ والمعنى إن حصلوا ديناً آخر يساوي هذا الدين في الصحة، والسداد فقد اهتدوا ولكن لما استحال أن يوجد دين آخر يساوي هذا الدين في الصحة والسداد استحال الاهتداء بغيره لأن هذا الدين مبناه على التوحيد والإقرار بكل الأنبياء وما أنزل إليهم وقيل معناه فإن آمنوا بكتابكم كما آمنتم بكتابهم فقد اهتدوا ﴿وإن تولوا﴾ أي أعرضوا ﴿فإنما هم في شقاق﴾ أي في خلاف ومنازعة وقيل: في عداوة ومحاربة وقيل: في ضلال، وأصله من الشق كأنه صار في شق غير شق صاحبه بسبب عداوته وقيل هو من المشقة لأن كل واحد منهما يحرص على ما يشق على صاحبه ويؤذيه ﴿فسيكفيكهم الله﴾ أي يكفيك الله يا محمد شر اليهود والنصارى وهو ضمان من الله تعالى لإظهار رسول الله ﷺ، لأنه إذا تكفلّ بشيء أنجزه وهو إخبار بغيب نفيه معجزة للنبي ﷺ وقد أنجز الله وعده بقتل بني قريظة وسبيهم وإجلاء بني النضير وضرب الجزية على اليهود والنصارى ﴿وهو السميع﴾ لأقوالهم ﴿العليم﴾ بأحوالهم يسمع جميع ما ينطقون به، ويعلم جميع ما يضمرون من الحسد، والغل وهو مجازيهم، ومعاقبهم عليه. قوله عز وجل:

﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾ قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾﴾

﴿صبغة الله﴾ قال ابن عباس: دين الله وإنما سماه الله صبغة لأن أثر الدين يظهر على المتدين كما يظهر أثر الصبغ على الثوب وقيل: فطرة الله وقيل: سنة الله وقيل: أراد به الختان لأنه يصبغ المختتن بالدم قال ابن عباس: إن النصارى إذا ولد لأحدهم مولود وأتى عليه سبعة أيام غمسوه في ماء لهم أصفر يسمونه ماء المعمودية وصبغوه به ليطهروه به مكان الختان، فإذا فعلوا ذلك به قالوا الآن صار نصرانياً حقاً، فأخبر الله أن دينه الإسلام لا ما تفعله النصارى ﴿ومن أحسن من الله صبغة﴾ أي ديناً وقيل تطهيراً لأنه يطهر من أوساخ الكفر ﴿ونحن له عابدون﴾ أي

اهتدوا وإن تولّوا فإنّما هم في شقاق ﴾، أي: في خلاف ومنازعة، قال ابن عباس وعطاء: يقال شاقّ مشاقّة إذا خالف، كأن كل واحد أخذ في شقّ غير شقّ صاحبه، قال الله تعالى: ﴿ لا يجرمنّكم شقاقي ﴾ [هود: ٨٩] أي: خلافي، وقيل: في عداوة، دليله قوله تعالى: ﴿ ذلك بأنهم شاقّوا الله ﴾ [الأنفال: ١٣، الحشر: ٤]، أي عادوا الله، ﴿ فَسَيَكْفِيكَهُمُ الله ﴾: يا محمد، أي يكفيك شرَّ اليهود والنصارى، وقد كُفي بإجلاء بني النضير، وقتل بني قريظة، وضَرْب الجزية على اليهود والنصارى، ﴿ وهو السميع ﴾: لأقوالهم، ﴿ العليم ﴾ بأحوالهم.

﴿ صبغة الله ﴾، قال ابن عباس في رواية الكلبي وقتادة والحسن: دين الله، وإنما سمّاه صبغة لأنه يظهر أثر الدين على المتديّن، كما يظهر أثر الثوب على الصبغ، وقيل: لأن المتديّن يلزمه ولا يفارقه كالصبغ يلزم الثوب، وقال مجاهد: فطرة الله وهو قريب من الأول، وقيل: سُنّة الله، وقيل: أراد به الختان لأنه يصبغ صاحبه بالدم، وقال ابن عباس: هي أن النصارى إذا ولد لأحدهم ولد وفاتت عليه سبعة أيام غمسوه في ماء لهم أصفر، يقال له المعمودية، وصبغوه به ليطهّروه بذلك الماء مكان الختان، فإذا فعلوا به ذلك قالوا: الآن صار نصرانياً حقّاً، فأخبر الله أن دينه الإسلام لا ما يفعله النصارى، وهو نصب على الإغراء، يعني إلزموا دين الله، قال الأخفش: هي بدل

مطيعون ﴿**قل**﴾ يعني يا محمد لليهود والنصارى الذين قالوا إن دينهم خير من دينكم وأمروكم باتباعهم ﴿**أتحاجوننا في الله**﴾ أي أتخاصموننا وتجادلوننا في دين الله الذي أمرنا أن نتدين به والمحاجة المجادلة لإظهار الحجة، وذلك أنهم قالوا: إن ديننا أقدم من دينكم وإن الأنبياء منا وعلى ديننا فنحن أولى بالله منكم، فأمر الله تعالى المؤمنين أن يقولوا لهم: أتحاجوننا في الله ﴿**وهو ربنا وربكم**﴾ أي ونحن وأنتم في الله سواء فإنه ربنا وربكم ﴿**ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم**﴾ يعني أن لكل أحد جزاء عمله ﴿**ونحن له مخلصون**﴾ أي مخلصو الطاعة والعبادة له وفيه توبيخ لليهود والنصارى والمعنى وأنتم به مشركون. والإخلاص أن يخلص العبد دينه، وعمله لله تعالى فلا يشرك في دينه ولا يرائي بعمله، قال الفضيل بن عياض: ترك العمل من أجل الناس رياء والعمل من أجل الناس شرك والإخلاص أن يعافيك الله منهما وهذه الآية منسوخة بآية السيف. قوله عز وجل: ﴿**أم تقولون**﴾ يعني اليهود والنصارى وهو استفهام ومعناه التوبيخ ﴿**إن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا هوداً أو نصارى**﴾ يعني أتزعمون أن إبراهيم وبنيه كانوا على دينكم وملتكم وإنما حدثت اليهودية والنصرانية بعدهم فثبت كذبكم يا معشر اليهود والنصارى على إبراهيم وبنيه ﴿**قل**﴾ يا محمد ﴿**أأنتم أعلم**﴾ يعني بدينهم ﴿**أم الله**﴾؟ أي الله أعلم بذلك. وقد أخبر أن إبراهيم وبنيه لم يكونوا على اليهودية والنصرانية ولكن كانوا مسلمين حنفاء ﴿**ومن أظلم ممن كتم**﴾ يعني أخفى ﴿**شهادة عنده من الله**﴾ وهي علمهم بأن إبراهيم وبنيه كانوا مسلمين وأن محمداً أحق بنعته وصفته وجدوا ذلك في كتبهم وكتموه وجحدوه، والمعنى ومن أظلم ممن كتم شهادة جاءته من عند الله فكتمها وأخفاها ﴿**وما الله بغافل عما تعملون**﴾ يعني من كتمانكم الحق فيما ألزمكم به في كتابه من أن إبراهيم وبنيه كانوا مسلمين حنفاء. وأن الدين هو الإسلام لا اليهودية والنصرانية، والمعنى وما الله غافل عن عملكم بل هو محصيه عليكم ثم يعاقبكم عليه في الآخرة.

من قوله: ﴿ **ملّة إبراهيم** ﴾، ﴿ **ومَنْ أحسنُ مِنَ الله صِبغَةً** ﴾: ديناً وقيل: تطهيراً. ﴿ **ونحن له عابدون** ﴾: مطيعون.

﴿ **قل** ﴾: يا محمد لليهود والنصارى: ﴿ **أتُحاجّوننا في الله** ﴾، أي في دين الله، والمحاجّة: المجادلة في الله لإظهار الحجّة، وذلك بأنهم قالوا: إنَّ الأنبياء كانوا منّا وعلى ديننا، وديننا أقدم فنحن أولى بالله منكم، فقال الله: ﴿ **قل أتحاجوننا في الله** ﴾، ﴿ **وهو ربنا وربكم** ﴾، أي: نحن وأنتم سواء في الله فإنه ربّنا وربّكم، ﴿ **ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم** ﴾، أي: لكل واحد جزاء عمله فكيف تدعون أنكم أولى بالله، ﴿ **ونحن له مُخلصون** ﴾، وأنتم به مشركون، قال سعيد بن جبير: الإخلاص أن يخلص العبد دينه وعمله فلا يشرك به في دينه ولا يُرائي بعمله، قال الفضيل: ترك العمل لأجل الناس رياء، والعمل من أجل الناس شرك، والإخلاص أن يعافيك الله منهما.

قال الله تعالى: ﴿ **أم تقولون** ﴾، يعني: أتقولون، صيغة استفهام، ومعناه التوبيخ، وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائي وحفص بالتاء، لقوله تعالى: ﴿ **قل أتُحاجّوننا في الله** ﴾، وقال بعده: ﴿ **قل أأنتم أعلم أم الله** ﴾، وقرأ الآخرون بالياء، يعني: يقول اليهود والنصارى: ﴿ **إن إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط كانوا هوداً أو نصارى قل** ﴾: يا محمد ﴿ **أأنتم أعلم** ﴾ بدينهم ﴿ **أم الله** ﴾؟ وقد أخبر الله تعالى أن إبراهيم لم يكن يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً. ﴿ **ومَن أظلم ممّن كتم** ﴾: أخفى ﴿ **شهادة عنده من الله** ﴾ تعالى، وهي علمهم بأن إبراهيم وبنيه كانوا مسلمين، وأن محمداً ﷺ حق ورسول أشهدهم الله عليه في كتبهم، ﴿ **وما الله بغافل عمّا تعملون** ﴾.

تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾ ۞ سَيَقُولُ
السُّفَهَآءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ
مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَآءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا
جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى
الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾

﴿**تلك أمة قد خلت**﴾ يعني إبراهيم وبنيه ﴿**لها ما كسبت**﴾ أي جزاء ما كسبت ﴿**ولكم ما كسبتم**﴾ أي جزاء ما كسبتم ﴿**ولا تسألون عما كانوا يعملون**﴾ يعني أن كل إنسان إنما يسأل يوم القيامة عن كسبه وعمله لا عن كسب غيره وعمله، وفيه وعظ وزجر لليهود ولمن يتكل على فضل الآباء، وشرفهم أي لا تتكلوا على فضل الآباء فكل يؤخذ بعمله وإنما كررت هذه الآية لأنه إذا اختلف مواطن الحجاج، والمجادلة حسن تكريره للتذكير به وتأكيده. وقيل: إنما كرره تنبيهاً لليهود لئلا يغتروا بشرف آبائهم. قوله عز وجل: ﴿**سيقول السفهاء من الناس**﴾ أي الجهال من الناس والسفه خفة في النفس لنقصان العقل في الأمور الدينية والدنيوية، ولا شك أن ذلك في باب الدين أعظم لأن العادل عن الأمر الواضح في أمر دنياه يعد سفيهاً، فمن كان كذلك في أمر دينه، كان أولى بهذا الاسم فلا كافر إلّا وهو سفيه ولهذا أمكن حمل هذا اللفظ على اليهود والمشركين، والمنافقين فقيل: نزلت هذه الآية في اليهود وذلك أنهم طعنوا في تحويل القبلة عن بيت المقدس إلى الكعبة لأنهم لا يرون النسخ. وقيل: نزلت في مشركي مكة وذلك أنهم قالوا قد تردد على محمد أمره واشتاق مولده، وقد توجه إلى نحو بلدكم فلعله يرجع إلى دينكم وقيل نزلت في المنافقين وإنما قالوا ذلك استهزاء بالإسلام وقيل: يحتمل أن لفظ السفهاء للعموم فيدخل فيه جميع الكفار والمنافقين واليهود ويحتمل وقوع هذا الكلام من كلهم إذ لا فائدة في التخصيص، ولأن الأعداء يبالغون في الطعن والقدح فإذا وجدوا مقالاً قالوا أو مجالاً جالوا ﴿**ما ولاهم**﴾ يعني أي شيء صرفهم ﴿**عن قبلتهم التي كانوا**

﴿ **تلك أُمة قد خلتْ لها ما كسبتْ ولكم ما كسبتُم ولا تُسئلون عمّا كانوا يعْملون** ﴾، كرره تأكيداً.

قوله تعالى: ﴿ **سيقول السفهاء** ﴾: الجهّال ﴿ **من الناس ما ولّاهم** ﴾، أي شيء صرفهم وحوّلهم ﴿ **عن قِبلتهم التي كانوا عليها** ﴾، يعني بيت المقدس، والقِبلة فعلة من المقابلة نزلت في اليهود ومشركي مكة، طعنوا في تحويل القِبلة من بيت المقدس إلى مكة فقالوا لمشركي مكة: قد تردّد على محمد أمره فاشتاق إلى مولده وقد توجّه نحو بلدكم، وهو راجع إلى دينكم، فقال الله تعالى: ﴿ **قل لله المشرق والمغرب** ﴾: مُلكاً والخلق عبيده، ﴿ **يهدي مَن يشاء إلى صراط مستقيم** ﴾.

﴿ **وكذلك جعلناكم أمةً وسطاً** ﴾، نزلت في رؤساء اليهود، قالوا لمعاذ بن جبل: ما ترك محمد قِبْلَتنا إلّا حسداً وإن قِبلتنا قِبلة الأنبياء، ولقد علم محمدٌ أنّا عدلٌ بين الناس، فقال معاذ: أنا على حق وعدل، فأنزل الله تعالى: ﴿ **وكذلك** ﴾ أي: وهكذا، وقيل: الكاف للتشبيه، وهي مردودة على قوله: ﴿ ولقد اصطفيناه في الدنيا ﴾ [البقرة: ١٣٠] أي: كما اخترنا إبراهيم وذريّته واصطفيناهم، كذلك جعلناكم أُمةً وسطاً، أي: عدلاً خيّاراً، قال الله تعالى: ﴿ قال أوسطهم ﴾ [القلم: ٢٨] أي خيرهم وأعدلهم، وخير الأشياء أوسطها، وقال الكلبي: يعني أهل دين وسط بين الغلو والتقصير لأنهما مذمومان في الدين، أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أبو معشر إبراهيم بن

عليها﴾ يعني بيت المقدس، والقبلة هي الجهة التي يستقبلها الإنسان وإنما سميت قبلة لأن المصلي يقابلها وتقابله ولما قال السفهاء ذلك رد الله تعالى عليهم بقوله: **﴿قل﴾** يا محمد **﴿لله المشرق والمغرب﴾** يعني أن له قطري المشرق والمغرب وما بينهما ملكاً فلا يستحق شيء أن يكون لذاته قبلة لأن الجهات كلها شيء واحد، وإنما تصير قبلة لأن الله تعالى هو الذي جعلها قبلة فلا اعتراض عليه وهو قوله: **﴿يهدي من يشاء﴾** يعني من عباده **﴿إلى صراط مستقيم﴾** يعني إلى جهة الكعبة وهي قبلة إبراهيم عليه السلام. قوله عز وجل: **﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطاً﴾** الكاف في قوله وكذلك كاف التشبيه جاء لمشبه به وفيه وجوه أحدها أنه معطوف على ما تقدم من قوله في حق إبراهيم: ولقد اصطفيناه في الدنيا، وكذلك جعلناكم أمة وسطاً الثاني أنه معطوف على قوله: **﴿يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم﴾** وكذلك هديناكم وجعلنا قبلتكم وسطاً بين المشرق والمغرب كذلك جعلناكم أمة وسطاً يعني عدولاً خياراً، وخير الأمور أوسطها، قال زهير:

هـم وسـط يـرضـى الأنـام بحكمهـم إذا نـزلـت إحـدى الليـالـي بمعظـم

وقيل: متوسطة والمعنى أهل دين وسط بين الغلو والتقصير، لأنهما مذمومان في أمر الدين لا كغلو النصارى في عيسى، ولا كتقصير اليهود في الدين وهو تحريفهم وتبديلهم. وسبب نزول هذه الآية أن رؤساء اليهود قالوا لمعاذ بن جبل: ما ترك محمد قبلتنا إلّا حسداً وإن قبلتنا قبلة الأنبياء ولقد علم محمد أنّا أعدل الناس فقال معاذ: إنا على حق وعدل فأنزل الله تعالى هذه الآية. وروى أبو سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال: «ألا وإن هذه الأمة توفي سبعين أمة هي آخرها، وخيرها وأكرمها على الله تعالى». وقوله تعالى: **﴿لتكونوا شهداء على الناس﴾** يعني يوم القيامة أن الرسل قد بلغتهم رسالات ربهم، وقيل: إن أمة محمد ﷺ شهداء على من ترك الحق من الناس أجمعين **﴿ويكون الرسول﴾** يعني محمداً ﷺ **﴿عليكم شهيداً﴾** يعني عدلاً مزكياً لكم وذلك أن الله تعالى يجمع الأولين والآخرين في صعيد واحد ثم يقول لكفار الأمم: ألم يأتكم نذير فينكرون ويقولون ما جاءنا من نذير فيسأل الله الأنبياء عن ذلك فيقولون: كذبوا قد بلغناهم فيسألهم البينة وهو أعلم بهم إقامة الحجة فيقولون أمة محمد تشهد لنا فيؤتى بأمة محمد عليه الصلاة والسلام، فيشهدون لهم بأنهم قد بلغوا فتقول الأمم الماضية من أين علموا وإنما

محمد بن الحسين الورّاق، أنا أبو عبد الله محمد بن زكريا بن يحيىٰ، أنا أبو الصلت أنا حمّاد بن زيد أنا علي بن زيد عن أبي نضرة، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قام فينا رسول الله ﷺ يوماً بعد العصر، فما ترك شيئاً إلى يوم القيامة إلّا ذكره في مقامه ذلك، حتى إذا كانت الشمس على رؤوس النخل وأطراف الحيطان، قال: «إنه لم يبق من الدنيا فيما مضى منها إلّا كما بقي من يومكم هذا، ألا وأن هذه الأمة توفي سبعين أمة هي آخرها وأخيرها وأكرمها عـلى الله تعـالى»، قوله تعالى: ﴿ **لتكونوا شهداء على الناس** ﴾، يوم القيامة أن الرسل قد بلغتهم، قال ابن جريج: قلت لعطاء: ما معنى قوله تعالى: ﴿ **لتكونوا شهداء على الناس** ﴾؟ قال: أمة محمد ﷺ شهداء على مَن يترك الحق من الناس أجمعين، ﴿ **ويكون الرسول** ﴾: محمدٌ ﷺ ﴿ **عليكم شهيداً** ﴾: مُعدَّلاً مزكيّاً لكم، وذلك أن الله تعالى يجمع الأوّلين والآخرين في صعيد واحد، ثم يقول لكفّار الأمم الماضية: ألم يأتكم نذير؟ فينكرون ويقولون: ما جاءنا من بشير ولا نذير فيسأل الله الأنبياء عليهم السلام عن ذلك فيقولون: كذبوا قد بلغناهم: فيسأل البيّنة ـ وهو أعلم بهم إقامة للحجّة ـ فيُؤتى بأمة محمد ﷺ فيشهدون لهم أنهم بلغوا فتقول الأمم الماضية من أين علموا أو إنما أتوا بعدنا؟ فيسأل هذه الأمة فيقولون: أرسلتَ إلينا رسولاً وأنزلتَ عليه كتاباً أخبرتنا فيه بتبليغ الرُّسل وأنت صادق فيما أخبرت، ثم يُؤتى بمحمد ﷺ فيسأل عن حال أُمته فيزكّيهم ويشهد بصدقهم، أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف أخبرنا محمد بن

أتوا بعدنا؟ فيسأل هذه الأمة. فيقولون: أرسلت إلينا رسولاً وأنزلت عليه كتاباً أخبرتنا فيه بتبليغ الرسل وأنت صادق فيما أخبرت ثم يؤتى بمحمد ﷺ فيسأل عن حال أمته فيزكيهم ويشهد بصدقهم (خ) عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «يجاء بنوح وأمته يوم القيامة فيقال له: هل بلغت؟ فيقول نعم أي رب فيسأل أمته هل بلغكم؟ فيقولون ما جاءنا من نذير فيقال لنوح من يشهد لك؟ فيقول: محمد وأمته فيجاء بكم فتشهدون» ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿**وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس، ويكون الرسول عليكم شهيداً**﴾ زاد الترمذي وسطاً عدولاً.

قوله عز وجل: ﴿**وما جعلنا القبلة التي كنت عليها**﴾ أي وما جعلنا صرفك عن القبلة التي كنت عليها، وهي بيت المقدس، وإنما حذف ذكر الصرف اكتفاء بدلالة اللفظ عليه، وقيل: معناه وما جعلنا القبلة التي كنت عليها منسوخة وقيل: معناه وما جعلنا القبلة التي كنت عليها وهي الكعبة و﴿**إلاّ لنعلم من يتبع الرسول**﴾ فإن قلت ما معنى قوله: إلاّ لنعلم وهو عالم بالأشياء كلها قبل كونها قلت: أراد به العلم الذي يتعلق به الثواب والعقاب فإنه لا يتعلق بما هو عالم به في الغيب إنما يتعلق بما يوجد. والمعنى لنعلم العلم الذي يستحق العامل عليه الثواب والعقاب، وقيل: العلم هنا بمعنى الرؤية أي لنرى ونميز من يتبع الرسول في القبلة ممن ينقلب على عقبيه وقيل: معناه إلاّ لتعلم رسلي وحزبي وأوليائي من المؤمنين من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه وكان من شأن العرب إضافة ما فعله الاتباع إلى الكبير. كقولهم: فتح عمر العراق وجبى خراجها وإنما فعل ذلك أتباعه عن أمره، وقيل إنما قال إلاّ لنعلم وهو بذلك عالم قبل كونه على وجه الرفق بعباده ومعناه إلاّ لتعلموا، أنتم إذ كنتم جهالاً به قبل كونه فإضافة العلم إلى نفسه رفقاً بعباده المخاطبين. وقيل: معناه لعلمنا لأنه تعالى سبق في علمه أن تحويل القبلة

إسماعيل، أخبرنا إسحق بن منصور أخبرنا أبو أسامة قال الأعمش: أخبرنا أبو صالح عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «يُجاء بنوح يوم القيامة فيُقال له: هل بلغت؟ فيقول: نعم يا رب، فيسأل أُمته هل بلغكم؟ فيقولون: ما جاءنا من نذير، فيُقال: مَنْ شهودك؟ فيقول: محمدٌ وأمته، فقال رسول الله ﷺ: فيُجاء بكم فتشهدون»، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿ **وكذلك جعلناكم أمةً وسطاً لتكونوا شهداء على الناس، ويكونَ الرسولُ عليكم شهيداً** ﴾. قوله تعالى: ﴿ **وما جعلنا القِبلة التي كنت عليها** ﴾، أي: تحويلها، يعني عن بيت المقدس، فيكون من باب حذف المضاف، ويحتمل أن يكون المفعول الثاني للجعل محذوفاً على تقدير: وما جعلنا القِبلة التي كنت عليها منسوخة، وقيل معناه التي أنت عليها وهي الكعبة، كقوله تعالى: ﴿ كنتم خير أمة ﴾ [آل عمران: ١١٠] أي: أنتم، ﴿ **إلاّ لنعلمَ مَنْ يتبعُ الرسولَ** ﴾، فإن قيل: ما معنى قوله: ﴿ **إلاّ لنعلم** ﴾ وهو عالم بالأشياء كلها قبل كونها؟ قيل: أراد به العلم الذي يتعلق به الثواب والعقاب، فإنه لا يتعلق بما هو عالم به في الغيب، إنما يتعلق بما يُوجد معناه لنعلم العلم الذي يستحق العامل عليه الثواب والعقاب، وقيل: إلاّ لنعلم أي: لنرى ونُميز مَن يتبع الرسول في القِبلة، ﴿ **ممّنْ يَنقلبُ على عقبيه** ﴾، فيرتدّ، وفي الحديث: «أن القِبلة لمّا حُوّلت ارتدَّ قومٌ من المسلمين إلى اليهودية، وقالوا: رجع محمد إلى دين آبائه»، وقال أهل المعاني: معناه إلاّ لِعِلْمِنَا مَنْ يتبع الرسولَ ممّن **ينقلبُ** على عقبيه، كأنه سبق في علمه أنّ تحويل القِبلة سبب لهداية قوم وضلالة قوم، وقد يأتي لفظ الاستقبال بمعنى الماضي، كما قال الله تعالى: ﴿ فلِمَ تقتلون أنبياءَ الله ﴾ [البقرة: ٩١]، أي: فلِمَ قتلتهم ﴿ **وإن كانت** ﴾، أي: وقد كانت، أو توليةُ القِبلة، وقيل: الكتابة راجعة إلى القِبلة، وقيل: إلى الكعبة، قال الزجّاج: وإن كانت التحويلة، ﴿ **لكبيرة** ﴾: ثقيلة شديدة، ﴿ **إلاّ على الذين هدى الله** ﴾، أي: هداهم الله، قال سيبويه: (وإن) تأكيدٌ شبيهٌ باليمين، ولذلك دخلت اللام في جوابها، ﴿ **وما كان الله ليضيع إيمانكم** ﴾، وذلك أن

سبب لهداية قوم وضلالة آخرين ومعنى من يتبع الرسول أي يطيعه في أمر القبلة وتحويلها ﴿**ممن ينقلب على عقبيه**﴾ أي يرجع إلى ما كان عليه من الكفر فيرتد، وفي الحديث «إنه لما تحولت القبلة إلى الكعبة ارتد قوم إلى اليهودية وقالوا رجع محمد إلى دين آبائه» ﴿**وإن كانت**﴾ أي وقد كانت ﴿**لكبيرة**﴾ يعني تولية القبلة ثقيلة شاقة وقيل هي التولية من بيت المقدس إلى الكعبة وقيل الكبيرة هي القبلة التي وجهه إليها قبل التحويل وهي بيت المقدس، وأنث الكبيرة لتأنيث القبلة وقيل: لتأنيث التولية ﴿**إلا على الذين هدى الله**﴾ يعني الصادقين في اتباع الرسول ﴿**وما كان الله ليضيع إيمانكم**﴾ يعني صلاتكم إلى بيت المقدس، وذلك أن حيي بن أخطب وأصحابه من اليهود قالوا للمسلمين: أخبرونا عن صلاتكم إلى بيت المقدس إن كانت على هدى فقد تحولتم عنه وإن كانت على ضلالة فقد دنتم الله بها مدة، ومن مات عليها فقد مات على ضلالة فقال المسلمون: إنما الهدى فيما أمر الله به والضلالة نهى الله عنه قالوا: فما شهادتكم على من مات منكم على قبلتنا وكان قد مات قبل أن تحول القبلة إلى الكعبة أسعد بن زرارة من بني النجار والبراء بن معرور من بني سلمة وكانا من النقباء ورجال آخرون فانطلق عشائرهم إلى النبي ﷺ فقالوا يا رسول الله قد صرفك الله إلى قبلة إبراهيم فكيف بإخواننا الذين ماتوا وهم يصلون إلى بيت المقدس فأنزل الله تعالى: ﴿**وما كان الله ليضيع إيمانكم**﴾ يعني صلاتكم إلى بيت المقدس ﴿**إن الله بالناس لرؤوف رحيم**﴾ يعني لا يضيع أجورهم، والرأفة أخص من الرحمة وأرق، وقيل: الرأفة أشد من الرحمة. وقيل: الرأفة الرحمة وقيل: في الفرق بين الرأفة والرحمة. أن الرأفة مبالغة في رحمة خاصة، وهي دفع المكروه وإزالة الضرر وأما الرحمة فإنها اسم جامع يدخل فيه ذلك المعنى ويدخل فيه أيضاً جميع الإفضال والإنعام فذكر الله الرأفة، ولا بمعنى أنه لا نضيع أعمالهم ثم ذكر الرحمة ثانياً لأنها أعم وأشمل. قوله عز وجل: .

قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾

﴿**قد نرى تقلب وجهك في السماء**﴾ سبب نزول هذه الآية أن النبي ﷺ وأصحابه كانوا يصلون بمكة إلى

حيي بن أخطب وأصحابه من اليهود، قالوا للمسلمين: أخبرونا عن صلاتكم نحو بيت المقدس إن كانت هدى، فقد تحوّلتم عنها، وإن كانت ضلالة فقدْ دنتم الله بها؟ ومَن مات منكم عليها فقد مات على الضلالة، فقال المسلمون إنما الهدى ما أمر الله به، والضلالة ما نهى الله عنه، قالوا: فما شهادتكم على مَن مات منكم على قِبلتنا، وكان قد مات قبل أن تحوّل إلى الكعبة من المسلمين أسعد بن زرارة، من بني النجار والبراء بن معرور من بني سلمة، وكانا من النقباء، ورجال آخرون، فانطلق عشائرهم إلى النبي ﷺ وقالوا: يا رسول الله قد صرفك إلى قِبلة إبراهيم فكيف بإخواننا الذين ماتوا وهم يصلّون إلى بيت المقدس؟ فأنزل الله تعالى: ﴿ **وما كان اللّهُ لِيُضيعَ إيمانكم** ﴾، يعني: صلاتكم إلى بيت المقدس، ﴿ **إنّ الله بالناس لرءُوفٌ رحيم** ﴾، قرأ أهل الحجاز وابن عامر وحفص لرؤوف مشبعاً على وزن فعول، لأن أكثر أسماء الله تعالى على فعول وفعيل، كالغفور والشكور والرحيم والكريم وغيرها، وأبو جعفر يلين الهمزة، وقرأ الآخرون بالاختلاس على وزن فعل، قال جرير:

للمسلمين عليك حقاً كفعل الواحد الرؤوف الرحيم

والرأفة: أشدّ الرحمة.

﴿ **قد نرى تقلّب وجهك في السماء** ﴾، هذه الآية وإن كانت متأخرة في التلاوة فهي متقدمة في المعنى، فإنها

الكعبة، فلما هاجر إلى المدينة أحب أن يستقبل بيت المقدس يتألف بذلك اليهود وقيل إن الله تعالى أمره بذلك ليكون أقرب إلى تصديق اليهود إياه، إذا صلّى إلى قبلتهم مع ما يجدون من نعته وصفته في التوراة فصلّى إلى بيت المقدس بعد الهجرة ستة عشر أو سبعة عشر شهراً، وكان يحب أن يتوجه إلى الكعبة لأنها قبلة أبيه إبراهيم، وقيل: كان يحب ذلك من أجل أن اليهود قالوا: يخالفنا محمد في ديننا ويتبع قبلتنا فقال رسول الله ﷺ لجبريل: وددت لو حولني الله إلى الكعبة فإنها قبلة أبي إبراهيم فقال: جبريل ﷺ إنما أنا عبد مثلك وأنت كريم على ربك فسل أنت ربك فإنك عند الله بمكان ثم عرج جبريل وجعل رسول الله ﷺ يديم النظر إلى السماء، رجاء أن ينزل جبريل بما يحب من أمر القبلة فأنزل الله عز وجل قد نرى تقلب وجهك في السماء يعني، تردد وجهك وتصرف نظرك في السماء أي إلى جهة السماء، وهذه الآية وإن كانت متأخرة في التلاوة فهي متقدمة في المعنى لأنها رأس القصة وأول ما نسخ من أحكام الشرع أمر القبلة ﴿فلنولينك﴾ أي فلنحولنك ولنصرفنك ﴿قبلة﴾ أي ولنصرفنك عن بيت المقدس إلى قبلة ﴿ترضاها﴾ أي تحبها وتميل إليها ﴿فول وجهك شطر المسجد الحرام﴾ أي نحوه وتلقاءه وأراد به الكعبة (ق) عن ابن عباس قال: لما دخل النبي ﷺ البيت دعا في نواحيه كلها ولم يصل حتى خرج منه ولما خرج ركع ركعتين قبل الكعبة وقال هذه القبلة يعني أن أمر القبلة قد استقر على هذا البيت فلا ينسخ بعد اليوم فصلوا إلى الكعبة أبداً فهي قبلتكم (ق) عن البراء بن عازب أن النبي ﷺ كان أول ما قدم المدينة نزل على أجداده، أو قال أخواله من الأنصار وأنه صلّى قبل بيت المقدس ستة عشر أو سبعة عشر شهراً، وكان يعجبه أن تكون قبلته قبل البيت وأنه صلّى أول صلاة صلاها صلاة العصر، وصلّى معه قوم فخرج رجل ممن صلّى معه، فمر على أهل مسجد قباء وهم راكعون فقال أشهد بالله لقد صليت مع رسول الله ﷺ قبل الكعبة فداروا كما هم قبل البيت وكانت اليهود قد أعجبهم إذ ذاك أنه يصلّي قبل بيت المقدس، وهي قبلة أهل الكتاب فلما ولى وجهه قبل البيت أنكروا ذلك. قال البراء في حديثه هذا: وأنه مات على القبلة قبل أن تحول رجال وقتلوا فلم ندر ما نقول فيهم فأنزل الله

رأس القصة، وأمر القِبلة أول ما نُسخ من أمور الشرع، وذلك أن رسول الله ﷺ وأصحابه كانوا يصلّون بمكة إلى الكعبة فلما هاجر إلى المدينة أمره أن يصلّي نحو صخرة بيت المقدس، ليكون أقرب إلى تصديق اليهود إيّاه إذا صلّى إلى قِبلتهم مع ما يجدون من نعته في التوراة، فصلّى بعد الهجرة ستّة عشر أو سبعة عشر أشهر إلى بيت المقدس، وكان يجب أن يُوجَّه إلى الكعبة لأنها كانت قِبلة أبيه إبراهيم عليه السلام، وقال مجاهد: كان يُحبّ ذلك من أجل اليهود لأنهم كانوا يقولون يخالفنا محمد ﷺ في ديننا ويتبع قِبلتنا، فقال لجبريل عليه السلام وَددتُ لو حوّلني الله إلى الكعبة، فإنها قِبلة أبي إبراهيم عليه السلام، فقال جبريل: إنما أنا عبد مثلك وأنت كريم على ربّك فسَلْ أنت ربّك فإنك عند الله عزّ وجلّ بمكان، فعرج جبريل عليه السلام وجعل رسول الله ﷺ يُديم النظر إلى السماء رجاء أن ينزل جبريل بما يحبّ من أمر القِبلة، فأنزل الله تعالى: ﴿قد نرى تقلّب وجهك في السماء﴾، ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبلةً﴾، فلنُحوّلنّك إلى قِبلة ﴿ترضاها﴾، أي: تحبّها وتهواها، ﴿فولِ﴾ أي: حوّلْ ﴿وجهك شطرَ المسجدِ الحرام﴾ أي: نحوه، وأراد به الكعبة، والحرام: المحرّم، ﴿وحيثما كنتم﴾، منْ برٍّ أو نحو شرق أو غرب: ﴿فولّوا وُجوهَكم شطره﴾، عند الصلاة، أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي أخبرنا محمد بن يوسف، أخبرنا محمد بن إسماعيل أخبرنا إسحق بن نصر، أخبرنا عبد الرزّاق أخبرنا ابن جريج عن عطاء قال: سمعت ابن عباس قال: لمّا دخل النبيّ ﷺ البيت دعا في نواحيه كلها ولم يصل حتى خرج منه، فلما خرج ركع ركعتين في قِبَل الكعبة وقال: «هذه القِبلة»، أخبرنا عبد الواحد المليحي أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف أخبرنا محمد بن إسماعيل أخبرنا عمرو بن خالد، أخبرنا زهير أخبرنا أبو

تعالى: ﴿وما كان الله ليضيع إيمانكم﴾ واختلفت العلماء في وقت تحويل القبلة فقال الأكثرون: كان في يوم الاثنين بعد الزوال للنصف من رجب، على رأس سبعة عشر شهراً من مقدم رسول الله ﷺ المدينة وقيل: كان يوم الثلاثاء لثمانية عشر شهراً وقيل: كان لستة عشر شهراً وقيل: لثلاثة عشر شهراً وقيل: نزلت ورسول الله ﷺ في مسجد بني سلمة وقد صلّى بأصحابه ركعتين من صلاة الظهر، فتحول في الصلاة واستقبل الميزاب وحول الرجال مكان النساء، والنساء مكان الرجال، فسمّي ذلك المسجد مسجد القبلتين، ووصل الخبر إلى أهل قباء في صلاة الصبح (ق) عن ابن عمر قال: بينما الناس بقباء في صلاة الصبح إذ جاءهم آت فقال: إن النبي ﷺ قد أنزل عليه الليلة قرآن وقد أمر أن يستقبل القبلة فاستقبلوها، وكانت وجوههم إلى الشام فاستداروا إلى الكعبة. وقوله تعالى: ﴿وحيثما كنتم﴾ أي من بر أو بحر مشرق أو مغرب ﴿فولوا وجوهكم شطره﴾ أي نحو البيت وتلقاءه، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «ما بين المشرق والمغرب قبلة» أخرجه الترمذي. وقال: حديث حسن صحيح، قيل: أراد بالمشرق مشرق الشتاء في أقصر يوم من السنة وبالمغرب مغرب الصيف في أطول يوم من السنة فمن جعل مغرب الصيف في هذا الوقت عن يمينه ومشرق الشتاء عن يساره كان مستقبلاً للقبلة، وهذا في حق أهل المشرق لأن المشرق الشتوي جنوبي متباعد عن خط الاستواء بمقدار الميل، والمغرب الصيفي شمالي متباعد عن خط الاستواء والذي بينهما فقوسها مكة. والفرض لمن بمكة في القبلة إصابة عين الكعبة، ولمن بعد من مكة إصابة الجهة، ويعرف ذلك بدلائل القبلة وليس هذا موضع ذكرها، ولما تحولت القبلة إلى الكعبة قالت اليهود: يا محمد ما هو إلاّ شيء ابتدعته من تلقاء نفسك فتارة تصلّي إلى بيت المقدس وتارة إلى الكعبة ولو ثبت على قبلتنا لكنا نرجو أن تكون صاحبنا الذي ننتظره فأنزل الله تعالى ﴿وإن الذين أوتوا الكتاب﴾ يعني اليهود والنصارى ﴿ليعلمون أنه الحق من ربهم﴾ يعني أمر القبلة وتحويلها إلى الكعبة ثم هددهم فقال تعالى: ﴿وما الله بغافل عما يعملون﴾

إسحق، عن براء أن النبيّ ﷺ كان أول ما قَدِمَ المدينة نزل على أجداده أو قال أخواله من الأنصار وإنه صلّى قبل بيت المقدس ستّة عشر أو سبعة عشر شهراً وكان يعجبه أن تكون قِبلته قبل البيت، وأنه صلّى أول صلاة صلّاها صلاة العصر، وصلّى معه قوم فخرج رجل ممّن صلّى معه، فمرّ على أهل مسجد وهم راكعون، فقال: أشهد بالله لقد صلّيتُ مع رسول الله ﷺ قِبَل مكة، فداروا كما هم قِبَل البيت، وكانت اليهود قد أعجبهم إذا كان يصلّي قِبَل بيت المقدس، وأهل الكتاب، فلما تولّى وِجْهَه قِبَل البيتِ أنكروا ذلك، وقال البراء في حديثه هذا: إنه مات على القِبلة قَبْل أن تُحوّل رجالٌ وقتلوا فلم ندرِ ما نقول فيهم، فأنزل الله تعالى: ﴿ وما كان الله ليضيع إيمانكم ﴾ [البقرة: ١٤٣]، وكان تحويل القِبلة في رجب بعد زوال الشمس قبل قتال بدر بشهرين. قال مجاهد وغيره: نزلت هذه الآية ورسول الله ﷺ في مسجد بني سَلَمَة، وقد صلّى بأصحابه ركعتين من صلاة الظُهر، فتحوّل في صلاة واستقبل الميزان، وحوّل الرجال مكان النساء والنساء مكان الرجال، فسُمّي ذلك المسجد مسجد القبلتين، وقيل: كان التحويل خارج الصلاة بين الصلاتين، وأهل قِباء وَصَل إليهم الخبر في صلاة الصبح. أخبرنا أبو الحسن محمد بن محمد السرخسي أخبرنا أبو علي زاهر بن أحمد الفقيه السرخسي، أخبرنا أبو إسحق إبراهيم بن عبد الصمد الهاشمي السامري، أخبرنا أبو مصعب أحمد بن أبي بكر الزهري، عن مالك بن أنس عن عبد الله بن دينار أن عبد الله بن عمر قال: بينا الناس بقباء في صلاة الصبح إذا جاءهم آتٍ وقال لهم: إن رسول الله ﷺ قد أُنزل عليه الليلة قرآن وقد أُمر أن يستقبل الكعبة فاستقبلوها، وكانت وجوههم إلى الشام فاستداروا إلى الكعبة، فلما تحوّلت القِبلة قالت اليهود: يا محمد ما هو إلاّ شيء تبتدعه من تلقاء نفسك فتارة تُصلّي إلى بيت المقدس وتارة إلى الكعبة، ولو ثبت على قِبلتنا لكنّا نرجو أن تكون صاحبنا الذي ننتظره، فأنزل الله تعالى: ﴿ وإن الذين أُوتُوا الكتابَ ليعلمون

يعني وما أنا بساه عما يفعل هؤلاء اليهود، فأنا أجازيهم عليه في الدنيا والآخرة وقرىء تعملون بالتاء. قال ابن عباس: يريد أنكم يا معشر المؤمنين تطلبون مرضاتي وما أنا بغافل عن ثوابكم وجزائكم فأنا أثيبكم على طاعتكم أفضل الثواب، وأجزيكم أحسن الجزاء. قوله عز وجل:.

وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٥﴾

﴿**ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب**﴾ يعني اليهود والنصارى ﴿**بكل آية**﴾ أي بكل معجزة وقيل: بكل حجة وبرهان وذلك بأنهم قالوا: ائتنا بآية على ما تقول فأنزل الله تعالى هذه الآية: ﴿**ما تبعوا قبلتك**﴾ يعني الكعبة ﴿**وما أنت بتابع قبلتهم**﴾ يعني أن اليهود تصلي إلى بيت المقدس والنصارى إلى المشرق وأنت يا محمد تصلّي إلى الكعبة. فكيف يكون سبيل إلى اتباع قبلة أحد هؤلاء مع اختلاف جهاتها فالزم أنت قبلتك التي أمرت بالصلاة إليها ﴿**وما بعضهم بتابع قبلة بعض**﴾ يعني وما اليهود بتابعة قبلة النصارى ولا النصارى بتابعة قبلة اليهود، لأن اليهود والنصارى لا يجتمعون على قبلة واحدة ﴿**ولئن اتبعت أهواءهم**﴾ يعني مرادهم ورضاهم لو رجعت إلى قبلتهم ﴿**من بعد ما جاءك من العلم**﴾ أي في أمر القبلة وقيل معناه: من بعد ما وصل إليك من العلم بأن اليهود والنصارى مقيمون على باطل، وعناد للحق ﴿**إنك إذاً لمن الظالمين**﴾ يعني أنك إن فعلت ذلك كنت بمنزلة من ظلم نفسه وضرها. قيل: هذا خطاب للنبي ﷺ والمراد به الأمة لأنه ﷺ لا يتبع أهواءهم أبداً. وقيل: هو خطاب له خاصة فيكون ذلك على سبيل التذكير والتنبيه. قوله عز وجل:.

الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ الْحَقُّ

أنه ﴾ يعني أمر الكعبة، ﴿ **الحق من ربّهم** ﴾، ثم هدّدهم فقال: ﴿ **وما الله بغافل عمّا يعملون** ﴾، قرأ أبو جعفر وابن عامر وحمزة والكسائي بالتاء، قال ابن عباس: يريد أنكم يا معشر المؤمنين تطلبون مرضاتي وما أنا بغافل عن ثوابكم وجزائكم، وقرأ الباقون بالياء، يعني: ما أنا بغافل عمّا يفعل اليهود فأجازيهم في الدنيا وفي الآخرة.

قوله تعالى: ﴿ **ولئن أتيت الذين أُوتوا الكتاب** ﴾، يعني: اليهود والنصارى، قالوا: إئتنا بآية على ما تقول، قال الله تعالى: ﴿ **ولئن أتيت الذين أُوتوا الكتاب بكل آية** ﴾: معجزة، ﴿ **ما تبعوا قِبلتك** ﴾ يعني: الكعبة، ﴿ **وما أنت بتابع قِبلتهم وما بعضهم بتابع قِبلة بعض** ﴾، لأن اليهود تستقبل بيت المقدس وهو المغرب، والنصارى تستقبل المشرق، وقِبلة المسلمين الكعبة، أخبرنا أبو عثمان سعيد بن إسماعيل الضبّي، أخبرنا أبو محمد عبد الجبّار بن محمد بن الجرّاح، أخبرنا أبو العباس محمد بن أحمد المحبوبي أخبرنا أبو عيسى محمد بن عيسى الترمذي، أخبرنا الحسن بن بكر المروزي أخبرنا المُعلّى بن منصور أخبرنا عبد الله بن جعفر المخزومي، عن عثمان الأخنسي عن سعيد المَقبُري عن أبي هريرة عن النبيّ ﷺ قال: «قِبلة ما بين المشرق والمغرب»، وأراد به في حق أهل المشرق وأراد بالمشرق: مشرق الشتاء في أقصر يوم من السنة، وبالمغرب: مغرب الصيف في أطول يوم من السنة، فمَن جعل مغرب الصيف في هذا الوقت على يمينه ومشرق الشتاء على يساره كان وجهه إلى القِبلة. ﴿ **ولئِن اتبعتَ أهواءهم** ﴾: مرادهم، الخطاب مع النبيّ ﷺ، والمراد به الأمة، ﴿ **من بعد ما جاءك من العلم** ﴾، من الحق في القِبلة، ﴿ **إنك إذاً لمِنَ الظالمين** ﴾.

مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا۟ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾

﴿**الذين آتيناهم الكتاب**﴾ يعني علماء اليهود والنصارى وقيل: أراد به مؤمني أهل الكتاب كعبدالله بن سلام وأصحابه ﴿**يعرفونه**﴾ أي يعرفون محمداً ﷺ معرفة جلية بالوصف المعين الذي يجدونه عندهم ﴿**كما يعرفون أبناءهم**﴾ أي لا يشكون فيه ولا تشتبه عليهم كما لا يشتبه عليهم أبناؤهم من أبناء غيرهم، روي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال لعبد الله بن سلام: إن الله أنزل على نبيه محمد ﷺ: ﴿**الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم**﴾ فكيف هذه المعرفة؟ فقال عبدالله: يا عمر لقد عرفته حين رأيته كما أعرف ابني ومعرفتي بمحمد ﷺ أشد من معرفتي بابني فقال عمر وكيف ذلك فقال: أشهد أنه رسول الله حق من الله وقد نعته الله في كتابنا ولا أدري ما تصنع النساء، فقبل عمر رأس عبدالله وقال: وفقك الله يا ابن سلام فقد صدقت. وقيل: الضمير في يعرفونه يعود إلى أمر القبلة والمعنى أن علماء اليهود والنصارى يعرفون أن القبلة التي صرفتك إليها هي قبلة إبراهيم وقبلة الأنبياء قبلك كما يعرفون أبناءهم لا يشكون في ذلك ﴿**وإن فريقاً منهم**﴾ أي من علماء أهل الكتاب ﴿**ليكتمون الحق**﴾ يعني صفة محمد ﷺ. وقيل أمر القبلة ﴿**وهم يعلمون**﴾ يعني أن كتمان الحق معصية. وقيل يعلمون أن صفة محمد ﷺ مكتوبة عندهم في التوراة والإنجيل وهم مع ذلك يكتمونه ﴿**الحق**﴾ أي الذي يكتمونه هو الحق ﴿**من ربك فلا تكونن من الممترين**﴾ أي من الشاكين في أن الذين تقدم ذكرهم، علموا صحة نبوتك وقيل: يرجع إلى أمر القبلة والمعنى أن بعضهم عاند وكتم الحق فلا تشك في ذلك. فإن قلت: النبي ﷺ لم يمتر ولم يشك فما معنى هذا النهي؟. قلت: هذا الخطاب وإن كان للنبي ﷺ ولكن المراد غيره والمعنى فلا تشكوا أنتم أيها المؤمنون وقد تقدم نظير هذا. قوله عز وجل: ﴿**ولكل وجهة**﴾ أي ولكل أهل ملة قبلة، والوجهة اسم للمتوجه إليه. وقيل الوجهة الهيئة والحالة في التوجه إلى القبلة، وقيل في قوله: ﴿**ولكل وجهة**﴾ إن المراد به جميع المؤمنين، أي ولكل أهل جهة من الآفاق وجهة من الكعبة يصلون إليها. وقيل: المراد بالوجهة المنهاج والشرع والمعنى ولكل قوم شريعة وطريقة لأن الشرائع مصالح للعباد فلهذا اختلفت الشرائع بحسب اختلاف الزمان والأشخاص ﴿**هو موليها**﴾ أي مستقبلها والمعنى أن لكل أهل ملة وجهة هو مول وجهه إليها، وقيل: متوليها أي مختارها وقيل: إن هو عائد على اسم الله تعالى، والمعنى إن الله موليها إياه، وقرىء مولاّها أي مصروف إليها

قوله تعالى: ﴿ **الذين آتيناهم الكتاب** ﴾، يعني: مؤمني أهل الكتاب عبد الله بن سلام وأصحابه، ﴿ **يعرفونه** ﴾، يعني: يعرفون محمداً ﷺ ﴿ **كما يعرفون أبناءهم** ﴾: من بين الصبيان، قال عمر بن الخطاب لعبد الله بن سلّام: إن الله قد أنزل على نبيّه ﴿ **الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم** ﴾، فكيف هذه المعرفة؟ قال عبد الله: يا عمر لقد عرفته حين رأيته كما عرفت ابني، ومعرفي بمحمد ﷺ أشدّ من معرفتي بابني، فقال عمر: كيف ذلك؟ فقال أشهد أنه رسول حق من الله تعالى، وقد نعته الله في كتابنا، ولا أدري ما تصنع النساء، فقال عمر: وفّقك الله يا ابن سلام فقد صدقت، ﴿ **وإن فريقاً منهم ليكتمون الحق** ﴾، يعني: صفة محمد ﷺ وأمر الكعبة، ﴿ **وهم يعلمون** ﴾.

ثم قال: ﴿ **الحق من ربّك** ﴾، أي: هذا الحق خير، مبتدأ مضمر، وقيل: رُفع بإضمار فعل، أي: جاء الحق من ربّك، ﴿ **فلا تكوننّ من المُمْتَرِين** ﴾: الشاكّين.

قوله تعالى: ﴿ **ولكلٍّ وِجهة** ﴾، أي: لأهل كلّ ملّة قِبلة، والوِجهة: اسم للمتوجَه إليه، ﴿ **هو مولّيها** ﴾،

﴿فاستبقوا الخيرات﴾ أي بادروا بالطاعات وقبول الأوامر وفيه حث على المبادرة إلى الأولوية والأفضلية. فعلى هذا تكون الآية دليلاً لمذهب الشافعي في أن الصلاة أول الوقت أفضل لقوله: فاستبقوا الخيرات لأن ظاهر الأمر للوجوب، فإذا لم يتحقق الوجوب فلا أقل من الندب ﴿أينما تكونوا﴾ يعني أنتم وأهل الكتاب ﴿يأت بكم الله جميعاً﴾ يعني يوم القيامة فهو وعد لأهل الطاعة بالثواب ووعيد لأهل المعصية بالعقاب ﴿إن الله على كل شيء قدير﴾ أي على الإعادة بعد الموت والإثابة لأهل الطاعة والعقاب لمستحق العقوبة. قوله عز وجل:

﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾﴾

﴿ومن حيث خرجت فولِّ وجهك شطر المسجد الحرام﴾ أي من أي موضع خرجت في سفر وغيره فول وجهك يا محمد قبل المسجد الحرام ونحوه ﴿وإنه﴾ يعني التوجه إليه ﴿للحق من ربك﴾ أي الحق الذي لا شك فيه فحافظ عليه ﴿وما الله بغافل عما تعملون﴾ أي ليس هو بساه عن أعمالكم، ولكنه محصيها لكم، وعليكم فيجازيكم بها يوم القيامة ﴿ومن حيث خرجت فولِّ وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره﴾ فإن قلت: هل في هذا التكرار فائدة. قلت: فيه فائدة عظيمة جليلة وهي أن هذه الواقعة أول الوقائع التي ظهر النسخ فيها في شرعنا، فدعت الحاجة إلى التكرار لأجل التأكيد والتقرير وإزالة الشبهة، وإيضاح البيان فحسن التكرار فيهم لنقلهم من جهة إلى جهة ﴿لئلا يكون للناس عليكم حجة﴾ قيل: أراد بالناس أهل الكتاب: وقيل: هو على

أي: مستقبلها، ومُقبِل عليها، يقال: ولّيته، وولّيت إليه إذا أقبلت عليه، وولّيت عنه إذا أدبرت عنه، قال مجاهد: هو مولّيها وَجْهَهُ، وقال الأخفش: هو كناية عن الله عزّ وجلّ، يعني: مُولى الأمم إلى قِبلتهم، وقرأ ابن عامر: هو مولاها، أي: المستقبل مصروف إليها، ﴿ فاستبقوا الخيرات ﴾، أي: إلى الخيرات، يريد بادروا بالطاعات، والمراد: المبادرة إلى القبول، ﴿ أينما تكونوا ﴾: أنتم وأهل الكتاب، ﴿ يأتِ بكم الله جميعاً ﴾: يوم القيامة فيجزيكم بأعمالكم، ﴿ إن الله على كل شيء قدير ﴾.

قوله تعالى: ﴿ ومن حيث خرجت فولِّ وجهك شطرَ المسجد الحرام وإنه للحق من ربّك وما الله بغافلٍ عمّا تعملون ﴾، قرأ أبو عمرو بالياء، والباقون بالتاء.

﴿ ومن حيث خرجتَ فولِّ وجهك شطرَ المسجد الحرام وحيثما كنتم فولّوا وجوهكم شطره ﴾، وإنما كرّره لتأييد النسخ، ﴿ لئلا يكون للناس عليكم حجّة إلاّ الذين ظلموا ﴾، اختلفوا في تأويل هذه الآية، ووجه قوله: ﴿ إلاّ ﴾ فقال بعضهم: معناه حُوّلت القِبلة إلى الكعبة لئلا يكون للناس عليكم حجّة إذا توجّهتم إلى غيرها، فيقولون: ليست لكم قِبلة، إلاّ الذين ظلموا وهم قريش واليهود، فأمّا قريش فتقول: رجع محمد إلى الكعبة لأنه علم أنها الحق وأنها قِبلة آبائه، فكذلك يرجع إلى ديننا، وأما اليهود فتقول لم ينصرف عن بيت المقدس مع علمه بأنه حق إلاّ أنه يعمل برأيه، وقال قوم: لئلا يكون للناس عليكم حجّة يعني: اليهود، وكانت حجّتهم على طريق المخاصمة على المؤمنين في صلاتهم إلى بيت المقدس، أنهم كانوا يقولون: ما درى محمدٌ ﷺ وأصحابُه أين قِبلتهم حتى هديناهم نحن، وقوله: ﴿ إلاّ الذين ظلموا ﴾، وهم مشركوا مكة، وحجّتهم أنهم قالوا لمّا صرفت

العموم وقيل هم قريش واليهود فأما قريش فقالوا: رجع محمد إلى الكعبة لأنه علم أنها الحق وأنها قبلة أبيه وسيرجع إلى ديننا كما رجع إلى قبلتنا وقالت اليهود: لم ينصرف محمد عن بيت المقدس مع علمه أنه حق إلاّ أنه يعمل برأيه فعلى هذا يكون الاستثناء في قوله: إلاّ الذين ظلموا منهم متصلاً صحيحاً والمعنى، لا حجة لأحد عليكم إلاّ مشركو قريش واليهود فإنهم يجادلونك الباطل والظلم، وإنما سمي الاحتجاج بالباطل حجة، لأن اشتقاقها من حجه إذا غلبه فكما تكون صحيحة فكذلك تسمى حجة وتكون باطلة قال الله تعالى: ﴿**حجتهم داحضة عند ربهم**﴾ وقيل: هذا الاستثناء منقطع عن الكلام الأول، ومعناه لكن الذين ظلموا منهم يجادلونك بالباطل كما قال النابغة:

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهن فلول من قراع الكتائب

أي لكن سيوفهم بهن فلول، وليس بعيب وقيل: في معنى الآية إن اليهود عرفوا أن الكعبة قبلة إبراهيم ووجدوا في التوراة أن محمداً سيحول إليها فتكون حجتهم أنهم يقولون إن النبي الذي نجده في كتابنا سيحول إلى الكعبة ولم تحول أنت فلما حول إلى الكعبة ذهبت حجتهم ﴿**إلاّ الذين ظلموا منهم**﴾ أي إلاّ أن يظلموا فيكتموا ما عرفوا من الحق.

﴿**فلا تخشوهم**﴾ أي فلا تخافوهم في انصرافكم إلى الكعبة في تظاهرهم عليكم بالمجادلة الباطلة فإني وليكم وناصركم، أظهركم عليهم بالحجة والنصرة ﴿**واخشوني**﴾ أي احذروا عقابي إن أنتم عدلتم عما ألزمتكم به

قِبلتهم إلى الكعبة: إن محمداً قد تحيّر في دينه وسيعود إلى ملّتنا كما عاد إلى قِبلتنا، وهذا معنى قول مجاهد وعطاء وقتادة، وعلى هذين التأويلين يكون الاستثناء صحيحاً، وقوله: ﴿ **إلاّ الذين ظلموا** ﴾ يعني: لا حجّة لأحد عليكم إلاّ مشركوا قريش فإنهم يحاجّونكم فيجادلونكم ويخاصمونكم بالباطل والظلم، والاحتجاج بالباطل يسمّى: حجّة، كما قال الله تعالى: ﴿ **حجّتهم داحضة عند ربّهم** ﴾ [الشورى: ١٦]، وموضع ﴿ **الذين** ﴾ خفض كأنه قال: سوى إلاّ الذين ظلموا، قاله الكسائي، وقال الفرّاء: نُصب بالاستثناء، قوله تعالى: ﴿ **منهم** ﴾، يعني: من الناس، وقيل: هذا استثناء منقطع عن الكلام الأول، معناه ولكن الذين ظلموا يجادلونكم بالباطل، كما قال الله تعالى: ﴿ **ما لهم به من علم إلاّ اتّباع الظن** ﴾ [النساء: ١٥٧]، يعني: لكن يتبعون الظن، فهو كقول الرجل: ما لك عندي حق إلاّ أن تظلمني، قال أبو روق: لئلا يكون للناس، يعني: اليهود عليكم حجة، وذلك أنهم عرفوا أن الكعبة لإبراهيم، ووجدوا في التوراة أن محمداً سيُحوّل إليها، فحوّله الله تعالى إليها لئلا يكون لهم حجّة فيقولوا: إن النبي الذي نجده في كتابنا سيحوّل إليها ولم تُحوّل أنت، فلما حُوّل إليها ذهبت حجّتهم، إلاّ الذين ظلموا، يعني: إلاّ أن يظلموا فيكتموا ما عرفوا من الحق، وقال أبو عبيدة: قِبلة إلاّ الذين ظلموا ليس باستثناء، ولكن ﴿ **إلاّ** ﴾ في موضع واو العطف، يعني: والذين ظلموا أيضاً لا يكون لهم حجة، كما قال الشاعر:

وكلّ أخ مفارقه أخوه لعمر أبيك إلاّ الفرقدان

معناه: والفرقدان أيضاً يتفرقان، فمعنى الآية: فتوجّهوا إلى الكعبة لئلا يكون للناس ـ يعني لليهود ـ عليكم حجّة فيقولوا: لِمَ تركتم الكعبة وهي قِبلة إبراهيم وأنتم على دينه ولا الذين ظلموا وهم مشركو مكة فيقولون لِمَ ترك محمد قِبلة جدّه وتحوّل عنها إلى قِبلة اليهود؟ ﴿ **فلا تخشوهم** ﴾: في انصرافكم إلى الكعبة، وفي تظاهرهم عليكم بالمجادلة، فإنّي وليّكم أظهركم عليهم بالحجّة والنّصرة، ﴿ **واخشوني، ولأُتِمّ نعمتي عليكم** ﴾، عطف على قوله: ﴿ **لئلا يكون للناس عليكم حجّة** ﴾، ولكي أُتِمّ نعمتي عليكم بهدايتي إيّاكم إلى قِبلة إبراهيم، فتتمّ به لكم الملّة

وفرضته عليكم ﴿ولأتم نعمتي عليكم﴾ ولكي أتم نعمتي عليكم بهدايتي إلى قبلة إبراهيم لتتم لكم الملة الحنيفية. وقيل: تمام النعمة الموت على الإسلام ثم دخول الجنة ثم رؤية الله تعالى: ﴿ولعلكم تهتدون﴾ أي لكي تهتدوا من الضلالة. ولعل وعسى من الله واجب. قوله عز وجل:

﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ (١٥١) فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ (١٥٢)﴾

﴿كما أرسلنا فيكم﴾ كاف التشبيه تحتاج إلى شيء ترجع إليه فقيل ترجع إلى ما قبلها ومعناه ولأتم نعمتي عليكم كما أرسلنا فيكم وقيل إن إبراهيم قال: ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم وقال: ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك، فبعث الله فيهم رسولاً منهم وهو محمد ﷺ ووعده إجابة الدعوة الثانية بأن يجعل في ذريته أمة مسلمة، والمعنى كما أجبت دعوته ببعثة الرسول كذلك أجبت دعوته بأن أهديكم لدينه، وأجعلكم مسلمين، وأتم نعمتي عليكم ببيان شرائع الملة الحنيفية. وقيل: إن الكاف متعلقة بما بعدها وهو قوله: ﴿فاذكروني أذكركم﴾ والمعنى كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم فاذكروني، ووجه التشبيه أن النعمة بالذكر جارية مجرى النعمة بإرسال الرسول، وإن قلنا: إنها متعلقة بما قبلها كان وجه التشبيه أن النعمة في أمر القبلة كالنعمة بالرسالة، وفيكم خطاب لأهل مكة والعرب وكذا قوله منكم، وفي إرساله رسولاً منهم نعمة عظيمة عليه لما فيه من الشرف لهم ولأن المعروف من حال العرب الأنفة الشديدة من الانقياد للغير فكان بعثة الرسول منهم وفيهم أقرب إلى قبول قوله والانقياد له، والمعنى كما أرسلنا فيكم يا معشر العرب ﴿رسولاً منكم﴾ يعني محمداً ﷺ ﴿يتلو عليكم آياتنا﴾ يعني القرآن وذلك من أعظم النعم لأنه معجزة باقية على الدهر ﴿ويزكيكم﴾ أي ويطهركم من دنس الشرك والذنوب وقيل يعلمكم ما إذا فعلتموه صرتم أزكياء مثل محاسن الأخلاق ومكارم الأفعال ﴿ويعلمكم الكتاب﴾ يعني أحكام الكتاب وهو القرآن وقيل إن التعليم غير التلاوة فليس بتكرار ﴿والحكمة﴾ يعني السنة والفقه في الدين ﴿ويعلمكم

الحنيفية، وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: تمام النعمة الموت على الإسلام، قال سعيد بن جُبير: لا يتمّ نعمة على المسلم إلّا أن يدخل الجنّة، ﴿ ولعلّكم تهتدون ﴾: لكي تهتدوا من الضلالة، و﴿ لعلّ وعسى ﴾ من الله واجب.

قوله تعالى: ﴿ كما أرسلنا فيكم ﴾، هذه الكاف للتشبيه، ويحتاج إلى شيء يرجع إليه، فقال بعضهم: يرجع إلى ما قبلها، معناه: ولأتمَّ نعمتي عليكم كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم، قال محمد بن جرير: دعا إبراهيم عليه السلام بدعوتين إحداهما، قال: ﴿ ربّنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك ﴾ [البقرة: ١٢٨]، والثانية قوله: ﴿ ربّنا وابعثْ فيهم رسولاً منهم ﴾ [البقرة: ١٢٩]، فبعث الله الرسول، وهو محمد ﷺ، ووَعْدُ إجابة الدعوة الثانية بأن يجعل في ذريته أمة مسلمة، يعني: كما أُجيبتْ دعوتُه ببعث الرسول، كذلك أُجيبتْ دعوته بأن أهديكم لدينه وأجعلكم مسلمين، وأُتمّ نعمتي عليكم ببيان شرائع الملّة الحنيفية، وقال مجاهد وعطاء والكلبي: هي متعلقة بما بعدها وهو قوله: ﴿ فاذكروني أذكركم ﴾ [البقرة: ١٥٢] معناه: كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم فاذكروني، وهذه الآية خطاب لأهل مكة والعرب، يعني: كما أرسلنا فيكم يا معشر العرب ﴿ رسولاً منكم ﴾ يعني: محمداً ﷺ، ﴿ يتلو عليكم آياتنا ﴾ يعني: القرآن، ﴿ ويُزكّيكم ويُعلّمكم الكتابَ والحكمةَ ﴾، قيل: الحكمة السُّنّة، وقيل: مواعظ القرآن، ﴿ ويُعلّمكم ما لم تكونوا تعلمون ﴾، من الأحكام وشرائع الإسلام.

﴿ فاذكروني أذكركم ﴾، قال ابن عباس: اذكروني بطاعتي أذكركم بمَعُونتي، وقال سعيد بن جبير: اذكروني

ما لم تكونوا تعلمون﴾ يعني يعلمكم من أخبار الأمم الماضية والقرون الخالية وقصص الأنبياء والخبر عن الحوادث المستقبلية مما لم تكونوا تعلمون وذلك قبل بعثة رسول الله ﷺ **﴿فاذكروني﴾** قيل الذكر يكون باللسان، وهو أن يسبحه ويحمده ويمجده ونحو ذلك من الأذكار، ويكون بالقلب وهو أن يتفكر في عظمة الله تعالى، وفي الدلائل الدالة على وحدانيته، ويكون بالجوارح وهو أن تكون مستغرقة في الأعمال التي أمروا بها، مثل الصلاة وسائر الطاعات التي للجوارح فيها فعل **﴿أذكركم﴾** أي بالثواب والرضا عنكم قال ابن عباس: اذكروني بطاعتي أذكركم بمعونتي وقيل: اذكروني في النعمة والرخاء أذكركم في الشدة والبلاء، وقال أهل المعاني: اذكروني بالتوحيد والإيمان: أذكركم بالجنان والرضوان. وقيل: اذكروني بالإخلاص أذكركم بالخلاص اذكروني بالقلوب، أذكركم بغفران الذنوب. اذكروني بالدعاء أذكركم بالعطاء (ق) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله عز وجل: «أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه إذا ذكرني فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه، وإن تقرب إليَّ شبراً تقربت إليه ذراعاً وإن تقرب إليَّ ذراعاً، تقربت إليه باعاً، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة» قوله عز وجل: «أنا عند ظن عبدي بي» قيل: معناه بالغفران إذا استغفر وبالقبول والإجابة، إذا دعا، وبالكفاية إذا طلب الكفاية. وقيل: المراد منه تحقيق الرجاء وتأميل العفو وهذا أصح قوله: وأنا معه إذا ذكرني يعني بالرحمة والتوفيق والهداية والإعانة. وقوله: «فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي». النفس في اللغة لها معان: منها ذات الشيء والله تعالى له ذات حقيقة. ومنها الغيب فعلى هذا يكون المعنى فإن ذكرني خالياً ذكرته بالإثابة والمجازاة مما لا يطلع عليه أحد. قوله: «وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه». الملأ أشراف الناس وعظماؤهم الذين يرجع إلى رأيهم وهذا مما استدلت به المعتزلة ومن وافقهم على تفضيل الملائكة على الأنبياء. وأجيب عنه بأن الذكر غالباً يكون في جماعة لا نبي فيهم. قوله: «وإن تقرب إلي شبراً تقربت إليه ذراعاً إلخ». وهذا من أحاديث الصفات ويستحيل إرادة ظاهره فلا بد من التأويل فعلى هذا يكون ذكر الشبر والذراع والباع والمشي والهرولة استعارة، ومجازاً فيكون المراد بقرب العبد من الله تعالى القرب بالذكر والطاعة والعمل الصالح والمراد بقرب الله من العبد قرب نعمه وألطافه وبره وكرمه وإحسانه إليه، وفيض مواهبه

بطاعتي أذكركم بمغفرتي، وقيل: اذكروني في النعمة والرخاء أذكركم في الشدّة والبلاء، بيانه: ﴿ فلولا أنه كان من المسبّحين للبث في بطنه إلى يوم يبعثون ﴾ [الصّافّات: ١٤٤]، أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف أخبرنا محمد بن إسماعيل أخبرنا عمر بن حفص، أخبرنا أبي أخبرنا الأعمش قال: سمعت أبا صالح عن أبي هريرة قال: قال النبيّ ﷺ: «يقول الله تعالى أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه، وإن تقرّب إليّ شبراً تقرّبت إليه ذراعاً، وإن تقرّب إليّ ذراعاً تقرّبت إليه باعاً، ومَن أتاني يمشي أتيته هرولة» أخبرنا الإمام أبو علي الحسين بن محمد بن القاضي، وثنا أبو بكر محمد بن عبد الله بن أبي توبة الكشميهني قال: حدّثنا أبو العباس أحمد بن محمد بن سراج الطحّان، أخبرنا أبو أحمد محمد بن قريش بن سليمان أخبرنا أبو عبد الملك الدمشقي، أخبرنا سليمان بن عبد الرحمن أخبرنا منذر بن زياد عن صخر بن جويرية، عن الحسن عن أنس قال: إني سمعت هذا الحديث من رسول الله ﷺ عدد أناملي هذه العشر، أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله تعالى يقول يا ابن آدم إن ذكرتني في نفسك ذكرتك في نفسي وإن ذكرتني في ملأ ذكرتك في ملأ خيرٍ منهم، وإن دنوتَ منّي شبراً دنوت منك ذراعاً وإن دنوت منّي ذراعاً دنوت منك باعاً وإن مشيت إليّ هرولتُ إليك، وإن هرولت إليّ سَعَيْتُ إليك، وإن سألتني أعطيتك، وإن لم تسألني غضبت عليك»، أخبرنا عبد الواحد المليحي أخبرنا أبو منصور السمعاني، أخبرنا

ورحمته عليه والمعنى كلما زاد بالطاعة والذكر زدت بالبر والإحسان وإن أتاني في طاعتي أتيته هرولة أي صببت عليه الرحمة صباً وسبقته بها (ق) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «قال رسول الله ﷺ: يقول الله عز وجل: «أنا مع عبدي ما ذكرني وتحركت بي شفتاه» (ق) عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر ربه كمثل الحي والميت (م) عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «سبق المفردون قالوا وما المفردون يا رسول لله قال الذاكرون الله كثيراً والذاكرات» المفردون الذين ذهب القرن الذي كانوا فيه، وبقوا وهم يذكرون الله تعالى. ويقال: تفرد الرجل إذا تفقه واعتزل.

وقوله تعالى: ﴿واشكروا لي﴾ يعني بالطاعة ﴿ولا تكفرون﴾ أي بالمعصية فمن أطاع الله فقد شكره ومن عصاه فقد كفره. قوله عز وجل:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٣﴾ وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾﴾

﴿يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة﴾ إنما خصهما بذلك لما فيهما من المعونة على العبادات؛ أما الصبر فهو حبس النفس على احتمال المكاره في ذات الله وتوطينها على تحمل المشاق في العبادات، وسائر الطاعات وتجنب الجزع وتجنب المحظورات ومن الناس من حمل الصبر على الصوم وفسره به، ومنهم من حمله على الجهاد وأما الاستعانة بالصلاة فلأنها تجب أن تفعل على طريق الخضوع والتذلل للمعبود والإخلاص له. وقيل: استعينوا على طلب الآخرة بالصبر على الفرائض، وبالصلوات الخمس في مواقيتها على تمحيص الذنوب ﴿إن الله مع الصابرين﴾ أي بالعون والنصر ﴿ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات﴾ نزلت فيمن قتل ببدر من المسلمين وكانوا أربعة عشر رجلاً ستة من المهاجرين وهم: عبيدة بن الحارث بن عبدالمطلب وعمير بن أبي وقاص بن أهيب بن عبد مناف بن زهرة الزهري أخو سعد بن أبي وقاص وذو الشمالين واسمه عمير بن عبد عمرو بن العاص بن نضلة بن عمرو بن خزاعة ثم بني غبشان وعاقل بن البكير من بني سعد بن ليث بن كنانة ومهجع مولى لعمر بن الخطاب، وصفوان بن بيضاء من بني الحارث بن فهر ومن الأنصار ثمانية، وهم سعد بن خيثمة ومبشر بن عبد بن المنذر، ويزيد بن الحارث بن قيس بن فسحم وعمير بن الحمام ورافع بن المعلى وحارثة بن سراقة، وعوف ومعوذ ابنا الحارث بن رفاعة بن سواد وهما ابنا عفراء وهي أمهما، كان الناس يقولون لمن قتل في سبيل الله مات فلان وذهب عنه نعيم الدنيا ولذاتها فأنزل الله تعالى هذه الآية، وقيل: إن الكفار

أبو جعفر الرياني أخبرنا حميد بن زنجويه، أخبرنا يحيىٰ بن عبد الله أخبرنا الأوزاعي، أخبرنا إسماعيل بن عبد الله، عن أبي الدرداء عن أبي هريرة قال: قال النبيّ ﷺ: «يقول الله عزّ وجلّ: أنا مع عبدي ما ذكرني وتحرّكتْ بي شفتاه»، أخبرنا عبد الواحد المليحي أخبرنا عبد الرحمن أبي شريح، أنا أبو القاسم البغوي أخبرنا علي بن الجعد، أخبرنا إسماعيل بن عباس، أخبرنا عمرو بن قيس السكوني، عن عبد الله بن بشير المازني قال: جاء أعرابي إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله أيُّ الأعمال أفضل؟ قال: «أن لا تفارق الدنيا إلاّ ولسانك رَطْبٌ من ذكر الله تعالى»، قوله تعالى: ﴿ واشكروا لي ولا تكفرون ﴾، يعني: واشكروا لي بالطاعة ولا تكفرون بالمعصية، فإن مَن أطاع الله، فقد شكره ومَن عصاه فقد كفره.

قوله تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلوٰة إن الله مع الصابرين ﴾: بالعون والنصرة.

﴿ ولا تقولوا لمَن يُقتل في سبيل الله أموات ﴾، نزلت في قتلى بدر من المسلمين، وكانوا أربعة عشر رجلاً،

والمنافقين قالوا: إن الناس يقتلون أنفسهم ظلماً لمرضاة محمد من غير فائدة فنزلت هذه الآية وأخبر أن من قتل في سبيل الله فإنه حي بقوله تعالى: ﴿**بل أحياء**﴾ وإنما أحياهم الله عز وجل في الوقت لإيصال الثواب إليهم. وعن الحسن أن الشهداء أحياء عند الله تعالى تعرض أرزاقهم على أرواحهم، ويصل إليهم الروح والريحان والفرح كما تعرض النار على أرواح آل فرعون غدوة وعشياً فيصل إليهم، الألم والوجع ففيه دليل على أن المطيعين لله يصل إليهم ثوابهم وهم في قبورهم في البرزخ وكذا العصاة يعذبون في قبورهم. فإن قلت: نحن نراهم موتى فما معنى قوله بل أحياء وما وجه النهي، في قوله ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات. قلت: معناه لا تقولوا أموات بمنزلة غيرهم من الأموات بل هم أحياء تصل أرواحهم إلى الجنان كما ورد، «إن أرواح الشهداء في حواصل طير خضر تسرح في الجنة» فهم أحياء من هذه الجهة، وإن كانوا أمواتاً من جهة خروج الروح من أجسادهم، وجواب آخر وهو أنهم أحياء عند الله تعالى في عالم الغيب، لأنهم صاروا إلى الآخرة فنحن لا نشاهدهم كذلك ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿**ولكن لا تشعرون**﴾ أي لا ترونهم أحياء فتعلموا ذلك حقيقة، وإنما تعلمون ذلك بإخباري إياكم به. فإن قلت: ليس سائر المطيعين من المسلمين لله يصل إليهم من نعيم الجنة في قبورهم فلم خصص الشهداء بالذكر؟. قلت: إنما خصهم لأن الشهداء فضلوا على غيرهم بمزيد النعيم وهو أنهم يرزقون من مطاعم الجنة ومآكلها وغيرهم ينعمون بما دون ذلك، وجواب آخر أنه رد لقول من قال: إن من قتل في سبيل الله قد مات وذهب عنه نعيم الدنيا ولذاتها فأخبر الله تعالى بقوله: ﴿**بل أحياء**﴾ بأنهم في نعيم دائم. قوله عز وجل:

وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ۗ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾

﴿**ولنبلونكم**﴾ أي لنختبرنكم يا أمة محمد واللام جواب القسم تقديره، والله لنبلونكم، والابتلاء لإظهار الطائع من العاصي لا ليعلم شيئاً، لم يكن عالماً به فإنه سبحانه وتعالى عالم بجميع الأشياء قبل كونها وحدوثها ﴿**بشيء**﴾ إنما قال: بشيء ولم يقل بأشياء لئلا يوهم أن أشياء تدل على ضروب من الخوف. وكذا الباقي فلما قال بشيء كان التقدير بشيء من الخوف، وبشيء من الجوع. وقيل: معناه بشيء قليل من هذه الأشياء ﴿**من الخوف**﴾

ستّة من المهاجرين وثمانية من الأنصار، كان الناس يقولون لمَن يقتل في سبيل الله: مات فلان وذهب عنه نعيم الدنيا ولذّتها، فأنزل الله تعالى: ﴿ **ولا تقولوا لمَنْ يُقتَل في سبيل الله أموات** ﴾، ﴿ **بل أحياءٌ ولكن لا تشعرون** ﴾، كما قال في شهداء أُحد: ﴿ ولا تحسبنّ الذين قُتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يُرزقون ﴾ [آل عمران: ١٦٩]، قال الحسن: إن الشهداء أحياء عند الله تعالى تعرض أرزاقهم على أرواحهم فيصل إليهم الرَّوْحُ والفرح، كما تعرض النار على أرواح آل فرعون غُدوةً وعشيةً، فيصل إليهم الوجع.

قوله تعالى: ﴿ **ولنبلونّكم** ﴾ أي: ولنختبرنّكم يا أمة محمد، واللام: لجواب القسم المحذوف، تقديره: واللّهِ لنبلونّكم، والابتلاء من الله لإظهار المطيع من العاصي، لا ليعلم شيئاً لم يكن عالماً به، ﴿ **بشيءٍ من الخوف** ﴾، قال ابن عباس: يعني خوف العدو، ﴿ **والجوع** ﴾، يعني: القحط، ﴿ **ونقص من الأموال** ﴾: بالخسران والهلاك، ﴿ **والأنفس** ﴾، يعني: بالقتل والموت، وقيل: بالمرض والشيب، ﴿ **والثمرات** ﴾، يعني: الجوائح في الثمار، وحكي عن الشافعي أنه قال: الخوف خوف الله تعالى، والجوع صيام رمضان، ونقص من الأموال أداء الزكاة والصدقات، والأنفس الأمراض، والثمرات موت الأولاد، لأن ولد الرجل ثمرة قلبه. أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أخبرنا أبو منصور محمد بن محمد بن سمعان، أخبرنا أبو جعفر محمد بن أحمد بن

قال ابن عباس: يعني خوف العدو والخوف توقع مكروه يحصل منه ألم في القلب ﴿والجوع﴾ يعني القحط وتعذر حصول القوت ﴿ونقص من الأموال﴾ يعني بالهلاك والخسران ﴿والأنفس﴾ أي ونقص من الأنفس بالموت أو القتل ﴿والثمرات﴾ يعني الجوائح في الثمار وقيل: قد يكون بالجدب أيضاً وبترك العمل والعمارة في الأشجار. وحكي عن الشافعي رضي الله عنه في تفسير هذه الآية قال: الخوف خوف الله تعالى والجوع صيام شهر رمضان ونقص من الأموال يعني إخراج الزكاة والصدقات والأنفس يعني بالأمراض، والثمرات يعني موت الأولاد، لأن الولد ثمرة القلب. عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «إذا مات ولد العبد قال الله تعالى لملائكته أقبضتم ولد عبدي؟ قالوا: نعم. قال: أقبضتم ثمرة فؤاده؟ قالوا نعم قال فماذا قال؟ قالوا: حمدك واسترجع قال: ابنوا له بيتاً في الجنة وسموه بيت الحمد» أخرجه الترمذي، وقال حديث حسن. فإن قلت ما الحكمة في تقديم تعريف هذا الابتلاء في قوله: ولنبلونكم. قلت فيه حكم: منها أن العبد إذا علم أنه مبتلي بشيء، وطن نفسه على الصبر، فإذا نزل به ذلك البلاء لم يجزع. ومنها أن الكفار إذا شاهدوا المؤمنين مقيمين على دينهم ثابتين عند نزول البلاء صابرين له علموا بذلك صحة الدين فيدعوهم ذلك إلى متابعته والدخول فيه. ومنها أن الله تعالى أخبر بهذا الابتلاء، قبل وقوعه فإذا وقع كان ذلك إخباراً عن غيب فيكون معجزة للنبي ﷺ ومنها أن المنافقين إنما أظهروا الإيمان طمعاً في المال وسعة الرزق من الغنائم فلما أخبر الله أنه مبتلي عباده فعند ذلك تميز المؤمن من المنافق والصادق من الكاذب، ومنها أن الإنسان في حال الابتلاء أشد إخلاصاً لله منه في حال الرخاء، فإذا علم أنه مبتلي دام على التضرع والابتهال إلى الله تعالى لينجيه مما عسى أن ينزل به من البلاء ثم قال تعالى: ﴿وبشر الصابرين﴾ يعني عند نزول البلاء والمعنى وبشر يا محمد الصابرين على امتحاني بما أمتحنهم به من الشدائد والمكاره، ثم وصفهم بقوله تعالى: ﴿الذين إذا أصابتهم مصيبة﴾ أي نائبة وابتلاء ﴿قالوا إنا لله﴾ أي عبيداً وملكاً ﴿وإنا إليه راجعون﴾ يعني في الآخرة (م) عن أم سلمة قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من عبد تصيبه مصيبة فيقول: إنا لله وإنا إليه راجعون اللهم أجرني في مصيبتي وأخلف لي خيراً منها إلاّ آجره الله في مصيبته وأخلف له خيراً منها» قيل: ما أعطي أحد ما أعطيت هذه الأمة يعني الاسترجاع عند المصيبة ولو أعطيها أحد لأعطى يعقوب

عبد الجبار الزياتي أخبرنا حميد بن زنجويه، أخبرنا الحسن بن موسى أخبرنا حمّاد بن سلمة، عن أبي سنان قال: دفنت ابني سناناً وأبو طلحة الخولاني على شفير القبر، فلما أردت الخروج أخذ بيدي فأخرجني فقال: ألا أبشّرك؟ حدّثني الضحّاك عن عروة عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا مات ولد العبد قال الله لملائكته أقبضتم ولد عبدي؟ قالوا: نعم، قال: أقبضتم ثمرة فؤاده؟ قالوا: نعم، قال: فماذا قال عبدي؟ قالوا: استرجع وحمدك، قال: ابنوا له بيتاً في الجنة وسمّوه بيتَ الحمد»، ﴿ وبشّر الصابرين ﴾: على البلايا والرزايا، ثم وصفهم فقال:

﴿ الذين إذا أصابتهمْ مصيبةٌ قالوا إنّا لله ﴾: عبيداً وملكاً، ﴿ وإنّا إليه راجعون ﴾: في الآخرة، أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي، أخبرنا أبو منصور محمد بن محمد بن سمعان، أخبرنا أبو جعفر الزياتي أخبرنا حميد بن زنجويه، أخبرنا محاضر بن الموزّع أخبرنا سعيد عن عمرو بن كثير، أنا أفلح أخبرنا مولى أم سلمة عن أم سلمة زوج النبي ﷺ أنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من مصيبة تُصيب عبداً فيقول: إنّا لله وإنّا إليه راجعون، اللّهمَّ أجِرني في مصيبتي واخلف لي خيراً منها إلاّ آجره الله في مصيبته، وأخلف له خيراً منها»، قالت أم سلمة: لمّا توفي أبو سلمة عَزَمَ الله لي فقلت: اللّهمَّ أجِرني في مصيبتي واخلف لي خيراً منها، فأخلف الله لي رسول الله ﷺ. وقال سعيد بن جبير: ما أُعطي أحدٌ في المصيبة ما أُعطي هذه الأمة يعني: الاسترجاع، ولو أُعطيها

عليه السلام ألا تسمع إلى قوله عند فقد يوسف ﴿يا أسفى على يوسف﴾. وقيل: في قول العبد إنا لله وإنا إليه راجعون تفويض منه إلى الله وأنه راض بكل ما نزل به من المصائب.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ١٥٧﴾

﴿**أولئك**﴾ يعني من هذه صفتهم ﴿**عليهم صلوات من ربهم**﴾ قال ابن عباس: أي مغفرة من ربهم ومنه قوله ﷺ: «اللهم صل على آل أبي أوفى» أي أغفر لهم وأرحمهم وإنما جمع الصلوات لأنه عنى مغفرة، بعد مغفرة ورحمة بعد رحمة ﴿**ورحمة**﴾ قال ابن عباس: ونعمة والرحمة من الله إنعامه وإفضاله وإحسانه، ومن الآدميين رقة وتعطف. وقيل: إنما ذكر الرحمة بعد الصلوات لأن الصلاة من الله الرحمة لاتساع المعنى واتساع اللفظ وتفعل ذلك العرب كثيراً، إذا اختلف اللفظ، واتفق المعنى، وقيل: كررهما للتأكيد أي عليهم رحمة بعد رحمة ﴿**وأولئك هم المهتدون**﴾ يعني إلى الاسترجاع. وقيل: إلى الجنة الفائزون بالثواب. وقيل: المهتدون إلى الحق والصواب. وقال عمر بن الخطاب: نعم العدلان ونعمت العلاوة فالعدلان الصلاة والرحمة والعلاوة الهداية.

فصل: في ذكر أحاديث وردت في ثواب أهل البلاء وأجر الصابرين:

(خ) عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «من يرد الله به خيراً يصب منه» يعني يبتليه بالمصائب حتى يأجره على ذلك (ق) عن أبي سعيد وأبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «ما يصيب المؤمن من نصب ولا وصب ولا حزن ولا

أحدٌ لأعطيها ليعقوب عليه السلام، ألا تسمع إلى قوله تعالى في قصة فَقْد يوسف عليه السلام ﴿ يا أسفي على يوسف ﴾ [يوسف: ٨٤].

﴿ **أولئك** ﴾: أهل هذه الصفة: ﴿ **عليهم صلوات من ربهم ورحمة** ﴾، صلوات أي: رحمة، فإن الصلاة من الله الرحمة، والرحمة ذكرها الله تأكيداً، وجميع الصلوات، أي رحمة: ﴿ **وأولئك هم المهتدون** ﴾: إلى الاسترجاع، وقيل: إلى الحق والصواب، وقيل: إلى الجنة والثواب، قال عمر رضي الله عنه: نِعْمَ العدلان ونعمت العـلاوة فالعدلان: الصلاة والرحمة، والعلاوة الهداية، وقد وردت أخبار في ثواب أهل البلاء وأجْر الصابرين، منها ما أخبرنا أبو الحسن محمد بن محمد السرخسي، أخبرنا أبو علي زاهر بن أحمد السرخسي أخبرنا أبو إسحق إبراهيم بن عبد الصمد الهاشمي، أخبرنا أبو مصعب عن مالك عن محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي صَعْصَعة أنه قال: سمعت أبا الحباب سعد بن يسار يقول: سمعت أبا هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ: «مَن يرد الله به خيراً يُصبْ منه»، أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أخبرنا ابن عبد الله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف أخبرنا محمد بن إسماعيل أخبرنا عبد الله بن محمد، أخبرنا عبد الملك بن عمر أخبرنا زهير بن محمد عن محمد بن عمرو بن حلحلة، عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد الخدري عن أبي هريرة عن النبيّ ﷺ قال: «ما يُصيب المسلم من نَصبٍ ولا وَصبٍ ولا هَمٍّ ولا حَزَنٍ ولا أذى ولا غمّ، حتى الشوكة يُشاكها، إلّا كفّر اللَّهُ بها من خطاياه»، أخبرنا عبد الواحد المليحي أخبرنا أبو منصور السمعاني، أخبرنا أبو جعفر الزياتي أخبرنا حميد بن زنجويه، أنا محمد بن عبيد أخبرنا محمد بن عمرو عن أبي سلمة، عن أبي هريرة قال: جاءت امرأة بها لَمَمٌ إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله ادعُ الله لي أن يشفيَني، قال: «إن شئت دعوت الله أن يشفيك وإن شئتِ فاصبري ولا حسابَ عليك»، قالت: بل أصبر ولا حساب عليّ، أخبرنا الإمام أبو علي الحسين بن محمد القاضي، أخبرنا أبو سعيد خلف بن

أذى ولا غم حتى الشوكة يشاكها إلّا كفر الله عنه بها خطاياه» النصب التعب والإعياء والوصب المرض (ق) عن عبدالله قال قال رسول الله ﷺ: «ما من مسلم يصيبه أذى من مرض فما سواه إلّا حط الله عنه من سيئاته كما تحط الشجرة ورقها» (ق) عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «مثل المؤمن كمثل الزرع لا تزال الريح تفيئه ولا يزال المؤمن يصيبه البلاء، ومثل المنافق كمثل شجرة الأرزة لا تهتز حتى تحصد» الأرزة شجر معروف بالشام ويعرف في العراق، ومصر بالصنوبر والصنوبر ثمرة الأرزة وقيل: الأرزة الثابتة في الأرض. عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: «إذا أراد الله بعبد خيراً عجل له العقوبة في الدنيا وإذا أراد الله بعبد شرّاً أمسك عنه حتى يوافي يوم القيامة» وبهذا الإسناد عن النبي ﷺ قال: «إن عظم الجزاء مع عظم البلاء وإن الله إذا أحب قوماً ابتلاهم فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السخط» أخرجه الترمذي. وله عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «يود أهل العافية يوم القيامة حين يعطى أهل البلاء الثواب لو أن جلودهم كانت قرضت في الدنيا بالمقاريض» وله عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة في نفسه وولده حتى يلقى الله وما عليه خطيئة» وقال حديث حسن صحيح (خ) عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «قال الله تعالى: ما لعبدي المؤمن عندي جزاء إذا قبضت صفيه من أهل الدنيا ثم احتسبه إلّا الجنة عن سعد بن أبي وقاص وقال: قلت يا رسول الله أي الناس أشد بلاء قال: «الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل يبتلى الرجل على دينه فإن كان في دينه صلباً اشتد بلاؤه، وإن كان في دينه رقة هون عليه فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض، وما عليه خطيئة» أخرجه الترمذي وقال حديث حسن.

عبد الرحمن بن أبي نزار، أخبرنا أبو منصور العباس بن الفضل النضروي، أخبرنا أحمد بن نجدة أخبرنا يحيىٰ بن عبد الحميد الحِماني، أخبرنا حمّاد بن زيدٍ عن عاصم هو ابن أبي النَّجود، عن مصعب بن سعد عن سعد، قال: سُئل رسول الله ﷺ عن أشدّ الناس بلاءً قال: «الأنبياء والأمثل فالأمثل، يبتلي الله الرجل على حسب دينه، فإن كان في دينه صلباً ابْتُلي على قدر ذلك، وإن كان في دينه رقّة هُوّن عليه، فما يزال كذلك حتى يمشي على الأرض وما له ذنب» أخبرنا عبد الواحد المليحي أخبرنا أبو منصور السمعاني، أخبرنا أبو جعفر الزياتي أخبرنا حميد بن زنجويه، أخبرنا عبد الله بن صالح قال: حدّثني الليث حدّثني يزيد بن أبي حبيب، عن سعيد بن سنان عن أنس بن مالك عن النبيّ ﷺ، أنه قال: «إنّ عِظَمَ الجزاءِ عند الله مع عِظَمِ البَلاء، فإن الله إذا أحبَّ قوماً ابتلاهم، فمَن رضي فله الرضا، ومَن سخط فله السخط»، أخبرنا أبو حامد أحمد بن عبد الله الصالحي، أخبرنا أبو بكر أحمد بن الحسن الحيري، أخبرنا حاجب بن أحمد الطوسي أخبرنا محمد بن يحيىٰ، أخبرنا زيد بن هٰرون أخبرنا محمد بن عمرو، وعن أبي سلمة عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة في نفسه وماله وولده حتى يلقى الله وما عليه من خطيئة»، أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحي أخبرنا أبو الحسين علي بن محمد بن عبد الله بن بشران، أخبرنا أبو إسماعيل بن محمد الصفّار أخبرنا أحمد بن منصور الرمادي، أخبرنا عبد الرزّاق أخبرنا معمر عن الزهري، عن ابن المسيب عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «مَثَلُ المؤمن كمَثَل الزرع لا تزال الريح تفيئه، ولا يزال المؤمن يُصيبه البلاء، ومَثَلُ المنافق كمَثَل شجرة الأَرْزة لا تهتم حتى تُستحصد»، أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحي، أخبرنا أبو الحسين بن بشران أخبرنا إسماعيل بن محمد الصفّار، أخبرنا أحمد بن منصور الرمادي أخبرنا عبد الرزّاق، أخبرنا معمر عن أبي إسحق عن العَيْزار بن حُريث عن عمرو بن سعد بن أبي وقّاص عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «عجباً للمؤمن إن أصابه خيرٌ حمدَ الله وشكر، وإن أصابته مصيبة حمد الله وصبر، فالمؤمن يُؤجر في كل أمره حتى يؤجر في اللقمة يرفعها إلى فِيْ امرأته».

﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلۡمَرۡوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ فَمَنۡ حَجَّ ٱلۡبَيۡتَ أَوِ ٱعۡتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَاۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴾

قوله عز وجل: ﴿**إن الصفا والمروة من شعائر الله**﴾ الصفا جمع صفاة، وهي الصخرة الصلبة الملساء، وقيل هي الحجارة الصافية. والمروة الحجر الرخو، وجمعها مرو ومروات وهذان أصلهما في اللغة، وإنما عنى الله بهما الجبلين المعروفين بمكة في طرفي المسعى، ولذلك أدخل فيهما الألف واللام وشعائر الله أعلام دينه وأصلها من الإشعار وهو الإعلام واحدتها شعيرة وكل ما كان معلماً لقربان يتقرب به إلى الله تعالى من صلاة، ودعاء وذبيحة فهو شعيرة من شعائر الله. ومشاعر الحج معالمه الظاهرة للحواس ويقال: شعائر الحج فالمطاف والموقف والمنحر، كلها شعائر والمراد بالشعائر هنا المناسك التي جعلها الله أعلاماً لطاعته فالصفا، والمروة منها حيث يسعى بينهما ﴿**فمن حج البيت**﴾ قصد البيت هذا أصله في اللغة وفي الشرع عبارة عن أفعال مخصوصة لإقامة المناسك ﴿**أو اعتمر**﴾ أي زار البيت والعمرة الزيارة ففي الحج والعمرة المشروعين قصد وزيارة ﴿**فلا جناح عليه**﴾ أي فلا إثم عليه وأصله من جنح إذا مال عن القصد المستقيم ﴿**أن يطوف بهما**﴾ أي يدور بهما ويسعى بينهما.
وسبب نزول هذه الآية، أنه كان على الصفا والمروة صنمان يقال لهما إساف ونائلة فكان إساف على الصفات ونائلة على المروة وكان أهل الجاهلية يطوفون بين الصفا، والمروة تعظيماً للصنمين فلما جاء الإسلام وكسرت الأصنام، تحرج المسلمون عن السعي بين الصفا والمروة فأنزل الله هذه الآية وأذن في السعي بينهما وأخبر أنه من شعائر الله (ق) عن عاصم بن سليمان الأحول قال قلت لأنس: أكنتم تكرهون السعي بين الصفا والمروة؟ فقال: نعم لأنها كانت من شعائر الجاهلية حتى أنزل الله ﴿**إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما**﴾. وفي رواية قال: كانت الأنصار يكرهون أن يطوفوا بين الصفا والمروة حتى نزلت ﴿**إن الصفا والمروة من شعائر الله**﴾.

قوله تعالى: ﴿ **إنّ الصفا والمروة من شعائر الله** ﴾، الصفا جمع: صفاة، وهي الصخرة الصلبة الملساء، يقال: صفاة وصَفاً، مثل: حصاةٌ وحصىً ونواةٍ ونوًى، والمَرْوَة: الحجر الرخو، وجمعها: مَرْوَات، وجمع الكثير: مرو، مثل: تمرة وتمرات وتمر، وإنما عنى بهما الجبلين المعروفين بمكة في طرفي المسعى، ولذلك أدخل فيهما الألف واللام، وشعائر الله أعلام دينه، أصلها من الإشعار، وهو الإعلام، واحدتها شَعيرة، وكل ما كان مُعلّماً لقرباتٍ يُتقرّب به إلى الله تعالى من صلاة ودعاء وذبيحة، فهو شعيرةٌ، فالمَطاف والمَوقف والنَّحر كلها شعائر الله، ومثلها المشاعر، والمراد بالمشاعر ههنا: المناسك التي جعلها الله إعلاماً لطاعته فالصفا والمروة منها حتى يُطاف بهما جميعاً، ﴿ **فمَن حجّ البيت أو اعتمر** ﴾، فالحج في اللغة: القصد، والعمرة: الزيارة، وفي الحج والعمرة المشروعين: قصد وزيارة، ﴿ **فلا جُناح عليه** ﴾، أي: لا إثم عليه، وأصله من جنح، أي: مال عن القصد، ﴿ **أن يطوف بهما** ﴾، أي: يدور بهما، وأصله يتطوّف أُدغمت التاء في الطاء. وسبب نزول هذه الآية أنه كان على الصفا والمروة صنمان إساف ونائلة، وكان إساف على الصفا ونائلة على المروة، وكان أهل الجاهلية يطوفون بين الصفا والمروة تعظيماً للصنمين ويتمسحون بهما، فلما جاء الإسلام وكُسرت الأصنام كان المسلمون يتحرّجون عن السعي بين الصفا والمروة لأجل الصنمين، فأذن الله فيه وأخبر أنه من شعائر الله، واختلف أهل العلم في حكم هذه الآية ووجوب السعي بين الصفا والمروة في الحج والعمرة، فذهب جماعة إلى وجوبه، وهو قول ابن عمرو وجابر وعائشة، وبه قال الحسن وإليه ذهب مالك والشافعي، وذهب قوم إلى أنه تطوّع، وهو قول ابن عباس، وبه قال ابن

فصل

اختلف العلماء في حكم السعي بين الصفا والمروة في الحج والعمرة، فذهب جماعة إلى وجوبه وهو قول ابن عمر وجابر وعائشة وبه قال الحسن: وإليه ذهب مالك والشافعي وذهب قوم إلى أنه تطوع. وهو قول ابن عباس: وبه قال ابن سيرين وذهب الثوري وأبو حنيفة إلى أنه ليس بركن وعلى من تركه دم وروي عن ابن الزبير ومجاهد وعطاء أن من تركه فلا شيء عليه واختلفت الرواية عن أحمد في ذلك فروي عنه أن من ترك السعي بين الصفا والمروة لم يجزه حجه وروي عنه أنه لا شيء في تركه عمداً، ولا سهواً ولا ينبغي أن يتركه ونقل الجمهور عنه أنه تطوع وسبب هذا الاختلاف أن قوله تعالى: **﴿فلا جناح عليه﴾** يصدق عليه أنه لا إثم عليه في فعله، فدخل تحته الواجب والمندوب والمباح فظاهر هذه الآية، لا يدل على أن السعي بين الصفا والمروة واجب أو ليس بواجب، لأن اللفظ الدال على القدر المشترك بين الأقسام الثلاثة لا دلالة فيه على خصوصية أحدهما، فإذا لا بد من دليل خارج يدل على أن السعي واجب أو غير واجب فحجة الشافعي ومن وافقه في أن السعي بين الصفا والمروة، ركن من أركان الحج والعمرة، ما روى الشافعي بسنده عن صفية بنت شيبة، قالت: أخبرتني بنت أبي تجزاة واسمها حبيبة إحدى نساء بني عبد الدار قالت: دخلت مع نسوة من قريش دار آل أبي حسين ننظر إلى النبي ﷺ وهو يسعى بين الصفا والمروة، فرأيته يسعى وإن مئزره ليدور من شدة السعي حتى لأقول: إني لأرى ركبته وسمعته يقول: «اسعوا فإن الله كتب عليكم السعي» وصححه الدارقطني (ق) عن عروة بن الزبير قال: قلت لعائشة زوج النبي ﷺ أرأيت قول الله: **﴿إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن**

سيرين ومجاهد، وإليه ذهب سفيان الثّوري وأصحاب الرأي، وقال الثّوري وأصحاب الرأي على مَنْ تَركَه دمٌ، واحتجَّ مَن أوجبه بما أخبرنا عبد الوهاب بن محمد الكسائي الخطيب، أخبرنا عبد العزيز بن أحمد الخلال، أخبرنا أبو العباس محمد بن يعقوب الأصم، أخبرنا الربيع بن سليمان أخبرنا الشافعي، أخبرنا عبد الله بن نوفل العائذي، عن عمرو بن عبد الرحمن بن محيص، عن عطاء بن أبي رباح عن صفية بنت شيبة قالت: أخبرتني بنت أبي تجزاةَ اسمها حبيبة إحدى نساء بني عبد الدار ـ قالت: دخلت مع نسوة من قريش دار آل أبي حسين ننظر إلى رسول الله ﷺ وهو يسعى بين الصفا والمروة، فرأيته يسعى وإن مئزره ليدور من شدّة السعي، حتى لأقول إني لأرى ركبته، وسمعته يقول: «اسعُوا فإنّ الله كتبَ عليكم السعي»، أخبرنا أبو الحسين محمد بن محمد السرخسي أخبرنا زاهر بن أحمد، أخبرنا أبو إسحق الهاشمي أخبرنا أبو مصعب عن مالك عن هشام بن عروة عن أبيه أنه قال: قلت لعائشة زوج النبيّ ﷺ: أرأيتَ قولَ الله تعالى: **﴿ إن الصفا والمروة من شعائر الله فمَن حجَّ البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أنْ يطوّف بهما ﴾**، فما أرى على أحد شيئاً ألّا يطوف بهما، قالت عائشة: كلا لو كانت كما تقول، كانت: فلا جناح عليه أن لا يطوف بهما، إنما أُنزلت هذه الآية في الأنصار كانوا يُهلّون لِمَنَاةَ وكانت مناة حِذْوَ قديد، وكانوا يتحرّون أن يطوفوا بين الصفا والمروة، فلما جاء الإسلام سألوا رسول الله ﷺ عن ذلك، فأنزل الله تعالى: **﴿ إن الصفا والمروة من شعائر الله ﴾** الآية، وقال عاصم: قلت لأنس بن مالك: أكنتم تكرهون السعي بين الصفا والمروة؟ فقال: نعم، لأنها كانت من شعائر الجاهلية حتى أنزل الله تعالى: **﴿ إن الصفا والمروة من شعائر الله ﴾**، أخبرنا أبو الحسن السرخسي، أخبرنا زاهر بن أحمد أخبرنا أبو إسحق الهاشمي، أخبرنا أبو مصعب عن مالك عن جعفر بن محمد، عن أبيه عن جابر بن عبد الله أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ حين خرج من المسجد وهو يريد الصفا يقول: «نَبْدَأ بما بَدَأ الله تعالى به، فبدأ بالصفا، وقال: كان إذا وقف على الصفا يكبّر ثلاثاً ويقول لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له. له المُلْك وله الحمد يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير، يصنع ذلك ثلاث مرات، ويدعو ويصنع

يطوف بهما﴾ فما أرى على أحد شيئاً أن لا يطوف بهما فقالت عائشة: كلا لو كان كما تقول كانت فلا جناح عليه، أن لا يطوف بهما إنما نزلت هذه الآية في الأنصار، كانوا يهلون لمناة وكانت مناة حذو قديد وكانوا يتحرجون أن يطوفوا بين الصفا والمروة، فلما جاء الإسلام سألوا رسول الله ﷺ فأنزل الله تعالى: **﴿إن الصفا والمروة من شعائر الله﴾** الآية (م) عن جابر في حديثه الطويل في صفة حجة الوداع قال: «ثم خرج من الباب إلى الصفا فلما دنا من الصفا قرأ: «إن الصفا والمروة من شعائر الله أبدأ بما بدأ الله به فبدأ بالصفا» الحديث فإذا ثبت أن النبي ﷺ سعى وجب علينا السعي لقوله تعالى: فاتبعوه، ولقوله ﷺ: «خذوا عني مناسككم» والأمر للوجوب ومن القياس أن السعي أشواط شرعت في بقعة من بقاع الحرم ويؤتى به في إحرام كامل فكان ركناً كطواف الزيارة واحتج أبو حنيفة ومن لا يرى وجوب السعي بقوله: «فلا جناح عليه أن يطوف بهما». وهذا لا يقال في الواجبات ثم إنه تعالى أكد ذلك بقوله: **﴿ومن تطوع خيراً﴾** فبين أنه تطوع وليس بواجب. وأجيب عن الأول بأن قوله تعالى: **﴿فلا جناح عليه﴾** ليس فيه إلّا أنه لا إثم على فعله وهذا القدر مشترك بين الواجب، وغيره كما تقدم بيانه فلا يكون فيه دلالة على نفي الوجوب. وعن الثاني وهو التمسك بقوله تعالى: **﴿ومن تطوع خيراً﴾** فضعيف لأن هذا لا يقتضي أن يكون المراد من هذا التطوع هو الطواف المذكور، أولاً بل يجوز أن يكون المقصود منه شيئاً آخر يدل على ذلك قول الحسن: إن المراد من قوله: **﴿ومن تطوع خيراً﴾** جميع الطاعات في الدين يعني فعل فعلاً زائداً على ما افترض عليه من صلاة وصدقة وصيام وحج وعمرة، وطواف، وغير ذلك من أنواع الطاعات. وقال مجاهد: ومن تطوع خيراً بالطواف بهما وهذا على قول من لا يرى الطواف بهما فرضاً وقيل معناه ومن تطوع خيراً فزاد في الطواف بعد الواجب والقول الأول أولى للعموم **﴿فإن الله شاكر﴾** أي مجاز على الطاعة **﴿عليم﴾** أي بنيته وحقيقة الشاكر في اللغة هو المظهر للأنعام عليه والشكر هو تصور النعمة، وإظهارها والله تعالى لا يوصف بذلك لأنه لا يلحقه المنافع والمضار، فالشاكر في صفة الله تعالى مجاز فإذا وصف به أريد به أنه المجازي على الطاعة بالثواب، إلّا أن اللفظ خرج مخرج التلطف للعباد مظاهرة في الإحسان إليهم. قوله عز وجل:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ١٥٩ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيۡهِمۡ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١٦٠ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةُ ٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ١٦١ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ

على المروة مثل ذلك، وقال: كان إذا نزل من الصفا مشى حتى إذا نصبت قدماه في بطن الوادي يسعى حتى يخرج منه»، قال مجاهد رحمه الله: حجّ موسى عليه السلام على جمل أحمر وعليه عباءتان قطوانيتان فطاف بالبيت، ثم صعد الصفا ودعا ثم هبط إلى السعي وهو يلبّي فيقول: لبّيك اللّهمّ لبّيك، فقال الله تعالى: «لبّيك عبدي أنا معك وسامع لك وناظر إليك»، فخرّ موسى عليه السلام ساجداً. قوله تعالى: ﴿ **وَمَن تطوع خيراً** ﴾، قرأ حمزة والكسائي بالياء وتشديد الطاء وجزْم العين، وكذلك الثانية: ﴿ فمَن تطوّع خيراً فهو خير له وأن تصوموا ﴾ [البقرة: ١٨٤]، بمعنى: يتطوع، ووافق يعقوب في الأول وقرأ الباقون بالتاء وفتح العين في الماضي، وقال مجاهد: معناه فإنْ تطوع بالطواف بالصفا والمروة، وقال مقاتل والكلبي فمَن تطوّع، أي: زاد في الطواف بعد الواجب، وقيل: مَن تطوّع بالحج والعمرة بعد أداء الحجة الواجبة عليه، وقال الحسن وغيره: أراد سائر الأعمال، يعني: فعل غير المفترض عليه من زكاة وصلاة وطواف وغيرها من أنواع الطاعات، ﴿ **فإن الله شاكر** ﴾، مجازٍ لعبده بعمله، ﴿ **عليم** ﴾: بنيّته، والشكر من الله تعالى أن يُعطي لعبده فوق ما يستحق، يشكر اليسير ويعطي الكثير.

ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿١٦٢﴾ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾

﴿**إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى**﴾ نزلت في علماء اليهود الذين كتموا صفة محمد ﷺ وآية الرجم وغيرها من الأحكام التي كانت في التوراة. وقيل: إن الآية على العموم فيمن كتم شيئاً من أمر الدين لأن اللفظ عام والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبت، ومن قال بالقول الأول، وإنها في اليهود قال: إن الكتم لا يصح إلّا منهم لأنهم كتموا صفة محمد ﷺ ومعنى الكتمان ترك إظهار الشيء مع الحاجة إلى بيانه وإظهاره، فمن كتم شيئاً من أمر الدين فقد عظمت مصيبته (ق) عن أبي هريرة قال: لولا آيتان أنزلهما الله في كتابه ما حدثت شيئاً أبداً: ﴿**إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى**﴾ وقوله: ﴿**وإذ أخذ ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه**﴾ إلى آخر الآيتين، وهل إظهار علوم الدين فرض كفاية أو فرض عين؟ فيه خلاف والأصح، أنه إذا ظهر للبعض بحيث يتمكن كل واحد من الوصول إليه لم يبق مكتوماً، وقيل: متى سئل العالم عن شيء يعلمه من أمر الدين يجب عليه إظهاره وإلّا فلا ﴿**من بعد ما بيناه للناس في الكتاب**﴾ يعني في التوراة من صفة محمد ﷺ فعلى هذا يكون المراد بالناس علماء بني إسرائيل، ومن قال: إن المراد بالكتاب جميع ما أنزل الله على أنبيائه من الأحكام قال المراد بالناس العلماء كافة ﴿**أولئك**﴾ يعني الذين يكتمون ما أنزل الله من البينات والهدى ﴿**يلعنهم الله**﴾ أي يبعدهم من رحمته وأصل اللعن في اللغة الطرد والإبعاد ﴿**ويلعنهم اللاعنون**﴾ قال ابن عباس: جميع الخلائق إلّا الجن والإنس وذلك أن البهائم تقول إنما منعنا القطر بمعاصي بني آدم. وقيل: اللاعنون هم الجن والإنس لأنه وصفهم بوصف من يعقل وقيل: ما تلا عن اثنان من المسلمين إلّا رجعت إلى اليهود والنصارى الذين كتموا صفة محمد ﷺ ثم استثنى فقال تعالى: ﴿**إلّا الذين تابوا**﴾ أي ندموا على ما فعلوا فرجعوا عن الكفر إلى الإسلام ﴿**وأصلحوا**﴾ يعني الأعمال فيما بينهم وبين الله تعالى ﴿**وبينوا**﴾ يعني ما كتموا من العلم ﴿**فأولئك أتوب عليهم**﴾ أي أتجاوز عنهم وأقبل توبتهم ﴿**وأنا التواب**﴾ أي المتجاوز عن عبادي الرجاع بقلوبهم المنصرفة عني إلي ﴿**الرحيم**﴾ يعني بهم بعد إقبالهم علي. قوله عز وجل: ﴿**إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار أولئك عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين**﴾ قيل: هذا اللعن يكون يوم القيامة يؤتى بالكافر فيوقف فيلعنه الله ثم تلعنه الملائكة ثم يلعنه الناس أجمعون. فإن قلت: الكافر لا يلعن نفسه ولا يلعنه أهل دينه وملته فما معنى قوله والناس أجمعين.

قوله تعالى: ﴿ **إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البيّنات والهُدَى مِنْ بعد ما بيّنّاه للنّاس في الكتاب** ﴾، نزلتْ في علماء اليهود كتموا صفة محمد ﷺ وآية الرجم وغيرهما من الأحكام التي كانت في التوراة، ﴿ **أولئك يلعنهم الله** ﴾، وأصل اللّعن الطرد والبُعد، ﴿ **ويلعنهم اللاّعنون** ﴾، أي: يسألون الله أن يلعنهم ويقولون: اللّهمّ العنهم، واختلفوا في هؤلاء اللاعنين، قال ابن عباس: جميع الخلائق إلّا الجن والإنس، وقال قتادة: هم الملائكة، وقال عطاء: الجن والإنس، وقال الحسن: جميع عباد الله قال ابن مسعود: ما تَلاَ عَن اثنان من المسلمين إلّا رجعت تلك اللعنة عن اليهود والنصارى الذين كتموا أمر محمد ﷺ وصفته، وقال مجاهد: اللاعنون البهائم تلعن عصاة بني آدم إذا اشتدت السَنَةُ وأمسك المطر، وقالت: هذا من شؤم ذنوب بني آدم، ثم استثنى فقال:

﴿ **إلاّ الذين تابوا** ﴾: من الكفر، ﴿ **وأصلحُوا** ﴾: أسلموا أو أصلحوا الأعمال فيما بينهم وبين ربّهم، ﴿ **وبيّنوا** ﴾: ما كتموا، ﴿ **فأولئك أتوب عليهم** ﴾: أتجاوز عنهم وأقبل توبتهم، ﴿ **وأنا التوّاب** ﴾ الرجّاع بقلوب عبادي المنصرفة عنّي إليّ. ﴿ **الرحيم** ﴾: بهم بعد إقبالهم عليّ.

﴿ **إن الذين كفروا وماتوا وهم كفّار أولئك عليهم لعنة الله والملائكة** ﴾، أي: لعنة الملائكة ﴿ **والناس**

قلت فيه أوجه: أحدها: أنه أراد بالناس من يعتد بلعنه وهم المؤمنون. الثاني: أن الكفار يلعن بعضهم بعضاً يوم القيامة. الثالث: أنهم يلعنون الظالمين والكفار من الظالمين فيكون قد لعن نفسه ﴿خالدين فيها﴾ أي مقيمين في اللعنة وقيل: في النار وإنما أضمرت لعظم شأنها ﴿لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون﴾ أي لا يمهلون ولا يؤجلون. وقيل: لا ينظرون ليعتذروا. وقيل: لا ينظر إليهم نظر رحمة.

فصل فيما يتعلق بهذه الآية من الحكم:

قال العلماء: لا يجوز لعن كافر معين لأن حاله عند الوفاة لا يعلم فلعله يموت على الإسلام وقد شرط الله في هذه الآية إطلاق اللعنة على من مات على الكفر ويجوز لعن الكفار يدل عليه قوله ﷺ: «لعن الله اليهود حرمت عليهم الشحوم فجملوها فباعوها» وذهب بعضهم إلى جواز لعن إنسان معين من الكفار، بدليل جواز قتاله وأما العصاة من المؤمنين فلا يجوز لعنة أحد منهم على التعيين وأما على الإطلاق فيجوز لما روي أن النبي ﷺ قال: «لعن الله السارق يسرق البيضة والحبل فتقطع يده» ولعن رسول الله ﷺ الواشمة والمستوشمة وآكل الربا ومؤكله ولعن من غير منار الأرض، ومن انتسب لغير أبيه وكل هذه في الصحيح. قوله عز وجل: ﴿وإلهكم إله واحد﴾ سبب نزول هذه الآية، أن كفار قريش قالوا: يا محمد صف لنا ربك وانسبه، فأنزل الله هذه الآية وسورة الإخلاص ومعنى الوحدة الانفراد، وحقيقة الواحد هو الشيء الذي لا يتبعض ولا ينقسم والواحد في صفة الله أنه واحد لا نظير له وليس كمثله شيء وقيل واحد في ألوهيته وربوبيته ليس له شريك لأن المشركين أشركوا معه الآلهة فكذبهم الله تعالى بقوله: ﴿وإلهكم إله واحد﴾ يعني لا شريك له في ألوهيته ولا نظير له في الربوبية والتوحيد، هو نفي الشريك والقسيم والشبيه فالله تعالى واحد فى أفعاله لا شريك له يشاركه في مصنوعاته وواحد في ذاته لا قسيم له وواحد في صفاته لا يشبهه شيء من خلقه ﴿لا إله إلاّ هو﴾ تقرير للوحدانية بنفي غيره من الألوهية وإثباتها له سبحانه وتعالى: ﴿الرحمن الرحيم﴾ يعني أنه المولى لجميع النعم وأصولها وفروعها فلا شيء سواه بهذه الصفة لأن كل ما سواه إما نعمة وأما منعم عليه. وهو المنعم على خلقه الرحيم بهم. عن أسماء بنت يزيد سمعت رسول الله ﷺ يقول: «اسم الله الأعظم في هاتين الآيتين: ﴿وإلهكم إله واحد لا إله إلاّ هو الرحمن الرحيم﴾،

أجمعين﴾، قال أبو العالية: هذا يوم القيامة يوقف الكافر فيلعنه الله ثم تلعنه الملائكة ثم يلعنه الناس، فإن قيل: فقد قال والناس أجمعين والملعون هو من جملة الناس، فكيف يلعن نفسه؟ قيل: يلعن نفسه في القيامة، قال الله تعالى: ﴿ ويلعن بعضكم بعضاً ﴾ [العنكبوت: ٢٥]، وقيل: إنهم يلعنون الظالمين والكافرين، ومَن يلعن الظالمين والكافرين وهو منهم فقد لعن نفسه.

﴿ **خالدين فيها** ﴾ مقيمين في اللعنة وقيل في النار، ﴿ **لا يخفّف عنهم العذاب ولا هم ينظرون** ﴾ لا يُمهلون ولا يؤجلون، وقال أبو العالية :لا ينظرون فيعتذروا، كقوله تعالى: ﴿ ولا يُؤذن لهم فيعتذرون ﴾ [المرسلات: ٣٦].

قوله تعالى: ﴿ **وإلَهكم إلَه واحد لا إلَه إلاّ هو الرحمن الرحيم** ﴾، سبب نزول هذه الآية أن كفّار قريش قالوا: يا محمد صفْ لنا ربك وانْسبه، فأنزل الله تعالى هذه الآية وسورة الإخلاص، والواحد: الذي لا نظير له ولا شريك له، أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أخبرنا أبو منصور السمعاني، أخبرنا أبو جعفر الزياتي أخبرنا حميد بن زنجويه، أخبرنا بكر بن إبراهيم وأبو عاصم، عن عبد الله بن أبي زياد عن شهر بن حوشب عن أسماء بنت يزيد أنها قالت: سمعت النبي ﷺ يقول: إن في هاتين الآيتين اسم الله الأعظم: ﴿ **وإلَهكم إلَه واحد لا إلَه إلاّ هو الرحمن الرحيم** ﴾، و﴿ الله لا إلَه إلاّ هو الحيّ القيّوم ﴾ [البقرة: ٢٥٥، وآل عمران: ٢]، قال أبو الضحى: لمّا

وفاتحة آل عمران: ﴿الٓمٓ الله لا إله إلاّ هو الحي القيوم﴾ »أخرجه أبو داود والترمذي وقال حديث صحيح. وقيل: لما نزلت هذه الآية. قال المشركون: إن محمداً يقول: «إلهكم إله واحد فليأتنا بآية إن كان صادقاً» فأنزل الله تعالى:

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾

﴿إن في خلق السموات والأرض﴾ وعلمه كيفية الاستدلال على وحدانية الصانع، وردهم إلى التفكر في آياته والنظر في عجائب مصنوعاته وإتقان أفعاله ففي ذلك دليل على وحدانيته إذ لو كان في الوجود صانعان لهذه الأفعال، لاستحال اتفاقهما على أمر واحد ولامتنع في أفعالهما التساوي في صفة الكمال فثبت بذاك أن خالق هذا العالم والمدبر له واحد قادر مختار، فبين سبحانه وتعالى من عجائب مخلوقاته ثمانية أنواع أولها: إن في خلق السموات والأرض وإنما جمع السموات لأنها أجناس مختلفة كل سماء من جنس غير جنس الأخرى ووحد الأرض لأنها جنس واحد وهو التراب، والآية في السماء هي سمكها وارتفاعها بغير عمد، ولا علاقة وما يرى فيها من الشمس والقمر والنجوم، والآية في الأرض مدها وبسطها على الماء، وما يرى فيها من الجبال والبحار والمعادن والجواهر والأنهار والأشجار والثمار والنبات. النوع الثاني قوله تعالى: ﴿واختلاف الليل والنهار﴾ أي تعاقبهما في المجيء والذهاب وقيل اختلافهما في الطول والقصر والزيادة والنقصان والنور والظلمة. وإنما قدم الليل على النهار لأن الظلمة أقدم. والآية في الليل والنهار أن انتظام أحوال العباد بسبب طلب الكسب والمعيشة يكون في النهار وطلب النوم والراحة يكون في الليل فاختلاف الليل والنهار إنما هو لتحصيل مصالح العباد. النوع الثالث قوله تعالى: ﴿والفلك التي تجري في البحر﴾ أي السفن واحدة وجمعه سواء، وسمي البحر بحراً لاتساعه وانبساطه، والآية في الفلك تسخيرها وجريانها على وجه الماء وهي موقرة بالأثقال والرجال فلا ترسب وجريانها بالريح مقبلة ومدبرة، وتسخير البحر لحمل الفلك مع قوة سلطان الماء، وهيجان البحر فلا ينجي منه إلاّ الله تعالى النوع الرابع قوله تعالى: ﴿بما ينفع الناس﴾ يعني ركوبها والحمل عليها في التجارات لطلب الأرباح، والآية في

نزلت هذه الآية قال المشركون: إن محمداً يقول: إنّ إلٰهكم إلٰه واحد فليأتنا بآية إن كان من الصادقين فأنزل الله عزّ وجلّ:

﴿ إنّ في خلق السمواتِ والأرض ﴾، ذكر السماوات بلفظ الجمع والأرض بلفظ الواحد لأن كل سماء من جنس آخر، والأرضون كلها من جنس واحد وهو التراب، فالآية في السماوات: سمكها وارتفاعها من غير عمد ولا علاقة، وما يُرى فيها من الشمس والقمر والنجوم، والآية في الأرض: مدّها وبسْطها وسعتُها وما يُرى فيها من الأشجار والأنهار، والجبال والبحار والجواهر والنبات. قوله تعالى: ﴿ واختلاف الليل والنهار ﴾، أي: تعاقبهما في الذهاب والمجيء يخلف أحدُهما صاحبَه، إذا ذهب أحدهما جاء الآخر، أي: بعده، نظيره: قوله تعالى: ﴿ وهو الذي جعل الليل والنّهار خِلْفَةً ﴾ [الفرقان: ٦٢]، قال عطاء: أراد اختلافهما في النور والظلمة والزيادة والنقصان، والليل جمع ليلة، والليالي جمع الجمع، والنهار جمع نهر، وقدّم الليل على النهار في الذكر لأنه أقدم منه، قال الله تعالى: ﴿ وآية لهم الليل نسلخ منه النهار ﴾ [يٓس: ٣٧]، ﴿ والفُلْك التي تجري في البحر ﴾، يعني: السفن واحده وجمعه سواء، فإذا أُريد به الجمعُ يُؤنّث، وفي الواحد يُذكّر، قال الله تعالى في الواحد والتذكير: ﴿ إذْ أبق

ذلك أن الله تعالى لو لم يقو قلب من يركب هذه السفن لما تم الغرض في تجاراتهم، ومنافعهم وأيضاً فإن الله تعالى خص كل قطر من أقطار العالم بشيء معين، وأحوج الكل إلى الكل فصار ذلك سبباً يدعوهم إلى اقتحام الأخطار في الأسفار من ركوب السفن وخوض البحر وغير ذلك فالحامل ينتفع، لأنه يربح والمحمول إليه ينتفع بما حمل إليه. النوع الخامس قوله تعالى: ﴿**وما أنزل الله من السماء من ماء**﴾ يعني المطر قيل أراد بالسماء السحاب سمي سماء لأن كل ما علاك فأظلك فهو سماء خلق الله الماء في السحاب، ومنه ينزل إلى الأرض وقيل: أراد السماء بعينها خلق الله الماء في السماء ومنه ينزل إلى السحاب ثم منه إلى الأرض ﴿**فأحيا به**﴾ أي بالماء ﴿**الأرض بعد موتها**﴾ أي يبسها وجدبها سماه موتاً مجازاً لأنها إذا لم تنبت شيئاً، ولم يصبها المطر فهي كالميتة، والآية في إنزال المطر وإحياء الأرض به أن الله تعالى جعله سبباً لإحياء الجميع من حيوان ونبات ونزوله عند وقت الحاجة إليه بمقدار المنفعة، وعند الاستسقاء والدعاء وإنزاله بمكان دون مكان. النوع السادس قوله تعالى: ﴿**وبث**﴾ أي فرق ﴿**فيها**﴾ أي في الأرض ﴿**من كل دابة**﴾ قال ابن عباس: يريد كل ما دب على وجه الأرض من جميع الخلق من الناس وغيرهم، والآية في ذلك أن جنس الإنسان يرجع إلى أصل واحد وهو آدم ثم ما فيهم من الاختلاف في الصور والأشكال والألوان والألسنة والطبائع والأخلاق والأوصاف إلى غير ذلك ثم يقاس على بني آدم سائر الحيوان. النوع السابع قوله تعالى: ﴿**وتصريف الرياح**﴾ يعني في مهابِّها قبولاً ودبوراً وشمالاً وجنوباً ونكباء وهي الريح التي تأتي من غير مهب صحيح، فكل ريح تختلف مهابها تسمى: نكباء. وقيل: تصريفها في أحوال مهابها لينة وعاصفة وحارة وباردة وسميت ريحاً لأنها تريح قال ابن عباس: أعظم جنود الله الريح وقيل ما هبت ريح إلّا لشفاء سقيم أو ضده. وقيل: البشارة في ثلاث رياح الصبا والشمال والجنوب والدبور: هي الريح العقيم التي أهلكت بها عاد فلا بشارة فيها، والآية في الريح أنها جسم لطيف لا يمسك ولا يرى وهي مع ذلك في غاية القوة تقلع الشجر والصخر وتخرب البنيان العظيم وهي مع ذلك حياة الوجود فلو أمسكت طرفة عين لمات كل ذي روح وأنتن ما على وجه الأرض.

إلى الفلك المشحون ﴾ [الصّافّات: ١٤٠]، وقال في الجمع والتأنيث: ﴿ حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة ﴾ [يونس: ٢٢]، ﴿ **والفلك التي تجري في البحر** ﴾ الآية في الفلك: تسخيرها وجريها على وجه الماء، وهي موقرة لا ترسب تحت الماء، ﴿ **بما ينفع الناس** ﴾، يعني: ركوبها والحمل عليها في التجارات والمكاسب وأنواع المطالب، ﴿ **وما أنزل الله من السماء من ماء** ﴾، يعني: المطر، قيل: أراد بالسماء السحاب، يخلق الله الماء في السحاب ثم من السحاب ينزل، وقيل: أراد به السماء المعروفة، يخلق الله تعالى الماء في السماء ثم ينزل من السماء إلى السحاب ثم من السحاب ينزل إلى الأرض، ﴿ **فأحيا به** ﴾، أي: بالماء ﴿ **الأرض بعد موتها** ﴾، أي: بعد يبسها وجدوبتها، ﴿ **وبثّ فيها** ﴾، أي: فرّق فيها ﴿ **من كل دابّة، وتصريف الرياح** ﴾، قرأ حمزة والكسائي (الريح) بغير ألف، وقرأ الباقون بالألف، وكل ريح في القرآن ليس فيها ألف ولا لام، اختلفوا في جمعها وتوحيدها إلاّ في آية: ﴿ الريح العقيم ﴾ [الذّاريات: ٤١]، اتفقوا على توحيدها، وفي الحرف الأول من آية: ﴿ الرياح مبشّرات ﴾ [الروم: ٤٦]، اتفقوا على جمعها، وقرأ أبو جعفر سائرها على الجمع، والقرّاء مختلفون فيها، والريحُ يُذكّر ويُؤنّث، وتصريفها أنها يتصرّف إلى الجنوب والشمال، والقُبول والدُّبور والنكباء، وقيل: تصريفها أنها تارةً تكون ليناً، وتارة تكون عاصفاً، وتارة تكون حارّة، وتارة باردة، قال ابن عباس: أعظم جنود الله الريح والماء، وسُمّيت الريح ريحاً لأنها تُريح النفوس، قال شريح القاضي: ما هبّت ريح إلاّ لشفاء سقيم أو لسقم صحيح، والبشارة في ثلاث من الرياح: في الصبا والشمال والجنوب، أما الدّبور فهي الريح العقيم، لا بشارة

النوع الثامن قوله تعالى: ﴿والسحاب المسخر بين السماء والأرض﴾ أي الغيم المذلل سمي سحاباً لسرعة سيره كأنه يسحب. والآية في ذلك أن السحاب مع ما فيه من المياه العظيمة التي تسيل منها الأدوية العظيمة يبقى معلقاً بين السماء والأرض، ففي هذه الأنواع الثمانية المذكورة في هذه الآية دلالة عظيمة على وجود الصانع القادر المختار، وأنه الواحد في ملكه فلا شريك له ولا نظير وهو المراد من قوله: «وإلهكم إله واحد لا إله إلاّ هو» وقوله: ﴿لآيات﴾ أي فيما ذكر من دلائل مصنوعاته الدالة على وحدانيته قيل إنما جمع آيات لأن في كل واحد مما ذكر من هذه الأنواع آيات كثيرة تدل على أن لها خالقاً مدبراً مختاراً ﴿لقوم يعقلون﴾ أي ينظرون بصفاء عقولهم ويتفكرون بقلوبهم، فيعلمون أن لهذه الأشياء خالقاً ومدبراً مختاراً وصانعاً قادراً على ما يريد. قوله عز وجل:

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾﴾

﴿ومن الناس﴾ يعني المشركين ﴿من يتخذ من دون الله أنداداً﴾ يعني أصناماً يعبدونها والند المثل المنازع فعلى هذا الأصنام أنداداً بعضها لبعض وليست أنداداً لله تعالى وتعالى الله أن يكون له ند، أوله مثل منازع وقيل: الأنداد الأكفاء من الرجال وهم رؤساؤهم وكبراؤهم الذين يطيعونهم في معصية الله تعالى: ﴿يحبونهم﴾ أي يودونهم ويميلون إليهم والحب نقيض البغض وأحببت فلاناً أي جعلته معرضاً بأن تحبه والمحبة الإرادة ﴿كحب الله﴾ أي كحب المؤمنين لله والمعنى: يحبون الأصنام كما يحب المؤمنون ربهم عزّ وجلّ. وقيل: معناه يحبونهم كحب الله فيكون المعنى أنهم يسوون بين الأصنام وبين الله في المحبة فمن قال بالقول الأول لم يثبت للكفار محبة الله تعالى ومن قال بالقول الثاني أثبت للكفار محبة الله تعالى لكن جعلوا الأصنام شركاء له في الحب ﴿والذين آمنوا أشد حباً لله﴾ أي أثبت وأدوم على محبته لأنهم لا يختارون مع الله سواه، والمشركون إذا اتخذوا صنماً ثم رأوا آخر أحسن منه طرحوا الأول واختاروا الثاني. وقيل: إن الكفار يعدلون عن أصنامهم في الشدائد ويقبلون إلى الله

فيها، وقيل: الرياح ثمانية، أربعة للرحمة، وأربعة للعذاب، فأمّا التي للرحمة: المبشرات والباشرات والذاريات والمرسلات، وأمّا التي للعذاب: فالعقيم والصرصر في البرّ والعاصف والقاصف في البحر. ﴿ والسحاب المسخّر ﴾، أي: الغيم المذلّل، سُمّي سحاباً لأنه ينسحب، أي: يسير في سرعة كأنه يُسحب أي يُجرّ، ﴿ بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون ﴾، فيعلمون أن لهذه الأشياء خالقاً وصانعاً قال وهب بن منبّه: ثلاثة لا يُدرى من أين تجيء، الرعد والبرق والسّحاب.

قوله تعالى: ﴿ ومن الناس ﴾، يعني: المشركين، ﴿ مَنْ يتّخذ من دون الله أنداداً ﴾، أي: أصناماً يعبدونها، ﴿ يُحبّونهم كحُبِّ الله ﴾، أي: يُحبّون آلهتهم كحبّ المؤمنين اللّهَ، وقال الزجّاج: يحبّون الأصنام كما يحبّون الله لأنهم أشركوها مع الله، فسوَوا بين الله وبين أوثانهم في المحبّة، ﴿ والذين آمنوا أشدّ حُبّاً لله ﴾، أي: أثبت وأدوم على حُبّه من المشركين، لأنهم لا يختارون على الله ما سواه، والمشركون إذا اتخذوا صنماً ثم رأوا أحسن منه، طرحوا الأول واختاروا الثاني، قال قتادة: إن الكافر يُعرِض عن معبوده في وقت البلاء ويُقبل على الله تعالى، كما أخبر الله عزّ وجلّ عنهم فقال: ﴿ فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين ﴾ [العنكبوت: ٦٥]، والمؤمن لا يُعرِض عن الله في السرّاء والضرّاء والشدّة والرخاء، قال سعيد بن جبير: إن الله عزّ وجلّ يأمر يوم القيامة مَن أحرق نفسه في الدنيا على رؤية الأصنام أن يدخلوا جهنم مع أصنامهم، فلا يدخلون لعلمهم أن عذاب جهنم على

تعالى كما أخبر عنهم فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين. والمؤمنون لا يعدلون عن الله تعالى في السراء ولا في الضراء ولا في الشدة ولا في الرخاء وقيل: إن المؤمنين يوحدون ربهم والكفار يعبدون أصناماً كثيرة فتنقص المحبة لصنم واحد. وقيل: إنما هو قال ﴿**والذين آمنوا أشد حباً لله**﴾ لأن الله أحبهم أولاً فأحبوه ومن شهد له المعبود بالمحبة كانت محبته أتم وسيأتي بسط الكلام في معنى المحبة عند قوله: يحبهم ويحبونه ﴿**ولو يرى الذين ظلموا**﴾ قرىء بالتاء والمعنى ولو ترى يا محمد الذين ظلموا. يعني أشركوا في شدة العذاب، لرأيت أمراً عظيماً وقرىء بالياء ومعناه ولو يرى الذين ظلموا أنفسهم عند رؤية العذاب حين يقذف بهم في النار لعرفوا مضرة الكفر وأن ما اتخذوه من الأصنام لا ينفعهم ﴿**إذ يرون العذاب أن القوة لله جميعاً**﴾ معناه لو رأى الذين كانوا يشركون في الدنيا عذاب الآخرة لعلموا حين يرون العذاب أن القوة ثابتة لله جميعاً، والمعنى أنهم شاهدوا من قدرة الله تعالى ما تيقنوا معه أن القوة له جميعاً، وأن الأمر ليس على ما كانوا عليه من الشرك والجحود ﴿**وأن الله شديد العذاب**﴾ قوله عز وجل: .

إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾

﴿**إذ تبرأ**﴾ أي تنزه وتباعد ﴿**الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب**﴾ أي القادة من مشركي الإنس من الأتباع وذلك يوم القيامة حين يجمع القادة والأتباع فيتبرأ بعضهم من بعض عند نزول العذاب بهم وعجزهم عن دفعه عن أنفسهم فكيف عن غيرهم. وقيل: هم الشياطين يتبرؤون من الإنس، والقول هو الأول ﴿**وتقطعت بهم**

الدوام، ثم يقول للمؤمنين وهم بين أيدي الكفّار: إن كنتم أحبائي فادخلوا جهنم، فيقتحمون فيها فينادي مُنادٍ من تحت العرش: ﴿ **والذين آمنوا أشدُّ حُبّاً لله** ﴾، وقيل: إنما قال: ﴿ **والذين آمنوا أشدّ حبّاً لله** ﴾، لأن الله تعالى أحبّهم أولاً ثم أحبّوه، ومَن شهد له المعبود بالمحبة كانت محبته أتمّ، قال الله تعالى: ﴿ **يحبّهم ويحبّونه** ﴾ [المائدة: ٥٤]. قوله تعالى: ﴿ **ولو يرى الذين ظلموا** ﴾، قرأ نافع وابن عامر ويعقوب ﴿ **ولو ترى** ﴾ بالتاء وقرأ الآخرون بالياء وجواب ﴿ **لو** ﴾ ههنا محذوف، ومثله كثير في القرآن، كقوله تعالى: ﴿ **ولو أن قرآناً سُيّرت به الجبال أو قُطعت به** ﴾ [الرعد: ٣١] الآية يعني: لكان هذا القرآن، فمَن قرأ بالتاء معناه: ولو ترى يا محمد الذين ظلموا أنفسهم في شدّة العذاب، لرأيت أمراً عظيماً، قيل: معناه: قل يا محمد: أيها الظالم لو ترى الذين ظلموا، أي: أشركوا في شدّة العقاب، لرأيت أمراً فظيعاً، ومَن قرأ بالياء معناه: ولو يرى الذين ظلموا أنفسهم عند رؤية العذاب، أي: ولو رأوا شدّة عذاب الله وعقوبته حين يرون العذاب، لعرفوا مضرّة الكفر، وأنّ ما اتخذوا من الأصنام لا ينفعهم، قوله تعالى: ﴿ **إذ يَرُونَ** ﴾، قرأ ابن عامر بضمّ الياء والباقون بفتحها، ﴿ **العذابَ أنّ القوة لله جميعاً، وأنّ الله شديدُ العذاب** ﴾ أي: بأن القوة لله جميعاً معناه: لرأوا وأيقنوا أن القوة لله جميعاً، وقرأ أبو جعفر ويعقـوب (إن القـوة) و(إن الله) بكسـر الألف على الاستئناف، والكلام تامّ عند قوله: ﴿ **إذ يرون العذاب** ﴾، مع إضمار الجواب.

﴿ **إذ تبرّأ الذين اتُّبِعُوا من الذين اتّبَعُوا ورأوا العذاب** ﴾، هذا في يوم القيامة حين يجمع الله القادة والأتباع، فيتبرأ بعضهم من بعض، هذا قول أكثر المفسّرين، وقال السدي: هم الشياطين يتبرأون من الإنس، ﴿ **وتقطعتْ بهم** ﴾، أي: عنهم ﴿ **الأسباب** ﴾، أي الصِّلات التي كانت بينهم في الدنيا، من القرابات والصداقات، وصارت

الأسباب﴾ يعني الوصلات التي كانت بينهم في الدنيا يتواصلون بها من قرابة وصداقة. وقيل: الأعمال التي كانت بينهم يعملونها في الدنيا. وقيل: العهود والحلف التي كانت بينهم يتوادون عليها. وأصل السبب في اللغة الحبل الذي يصعد به النخل وسمي كل ما يتوصل به إلى شيء من ذريعة أو قرابة أو مودة سبباً تشبيهاً بالحبل الذي يصعد به **﴿وقال الذين اتبعوا﴾** يعني الأتباع **﴿لو أن لنا كرة﴾** أي رجعة إلى الدنيا **﴿فنتبرأ منهم﴾** أي من المتبوعين **﴿كما تبرؤوا منا﴾** اليوم **﴿كذلك يريهم الله﴾** أي كما أراهم العذاب يريهم الله **﴿أعمالهم حسرات عليهم﴾** لأنهم أيقنوا بالهلاك. والحسرة الغم على ما فاته وشدة الندم عليه كأنه انحسر عنه الجهل الذي حمله على ما ارتكبه، والمعنى أن الله تعالى يريهم السيئات التي عملوها، وارتكبوها في الدنيا فيتحسرون لم عملوها؟. وقيل: يريهم ما تركوا من الحسنات فيندمون على تضييعها. وقيل: يرفع لهم منازلهم في الجنة فيقال لهم تلك مساكنكم لو أطعتم الله ثم تقسم بين المؤمنين فذلك حين يتحسرون ويندمون على ما فاتهم ولا ينفعهم الندم **﴿وما هم بخارجين من النار﴾** قوله عز وجل: .

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَـٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾

﴿يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالاً طيباً﴾ نزلت في ثقيف وخزاعة وعامر بن صعصعة وبني مدلج فيما حرموا على أنفسهم من الحرث والأنعام والبحيرة والسائبة والوصيلة والحام. والحلال المباح الذي أحله الشرع وانحلت عقدة الحظر عنه، وأصله من الحل الذي هو نقيض العقد. والطيب ما يستلذ، والمسلم لا يستطيب إلا الحلال ويعاف الحرام. وقيل: الطيب هو الطاهر لأن النجس تكرهه النفس وتعافه **﴿ولا تتبعوا خطوات الشيطان﴾**

مخالطتهم عداوة، وقال ابن جريج: الأرحام، كما قال الله تعالى: ﴿ فلا أنساب بينهم يومئذ ﴾ [المؤمنون: ١٠١]، وقال السدي: يعني الأعمال التي كانوا يعملونها في الدنيا، كما قال الله تعالى: ﴿ وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباءً منثوراً ﴾ [الفرقان: ٢٣]، وأصل السبب ما يُوصَل به إلى الشيء من ذريعة أو قرابة أو مودّة ومِنّة، يقال للحبل: سبب، وللطريق: سبب.

﴿ **وقال الذين اتَّبَعُوا** ﴾، يعني: الأتباع: ﴿ **لو أن لنا كرّةً** ﴾، أي: رجعة إلى الدنيا، ﴿ **فنتبرّأ منهم** ﴾، أي: من المتبوعين، ﴿ **كما تبرأوا منّا** ﴾: اليوم، ﴿ **كذلك** ﴾، أي: كما أراهم العذاب، كذلك ﴿ **يُريهم الله** ﴾، وقيل: كَتَبَرُّءِ بعضهم من بعض، يُريهم الله: ﴿ **أعمالَهم حسراتٍ** ﴾: نداماتٍ ﴿ **عليهم** ﴾، جمع حسرة، قيل: يُريهم ما ارتكبوا من السيئات فيتحسرون لِمَ عملوا، وقيل يريهم ما تركوا من الحسنات، فيندمون على تضييعها، وقال ابن كيسان: إنهم أشركوا بالله الأوثان رجاء أن تقرّبهم إلى الله عزّ وجلّ، فلما عُذّبوا على ما كانوا يرجون ثوابه تحسّروا وندموا، قال السدي: تُرفع لهم الجنة فينظرون إليها وإلى بيوتهم فيها لو أطاعوا الله فيقال لهم: تلك مساكنكم لو أطعتم الله، ثم تقسم بين المؤمنين فذلك حين يندمون ويتحسّرون ﴿ **وما هم بخارجين من النار** ﴾.

قوله تعالى: ﴿ **يا أيّها الناس كُلُوا ممّا في الأرض حلالاً طيباً** ﴾، نزلت في ثقيف وخزاعة وعامر بن صعصعة، وبني مدلج فيما حرّموا على أنفسهم من الحرث والأنعام، والبحيرة والسائبة والوصيلة والحام، فالحلال ما أحلّه الشرع طيِّباً، قيل: ما يُستطاب ويستلذ، والمسلم يستطيب الحلال ويخاف الحرام، وقيل الطيب، ﴿ **ولا تتبعوا خُطُوَاتِ الشيطان** ﴾، قرأ أبو جعفر وابن عامر والكسائي وحفص ويعقوب بضمّ الطاء، والباقون بسكونها،

أي لا تسلكوا سبيله. وقيل معناه لا تأثموا به ولا تتبعوا آثاره وزلاته، والمعنى احذروا أن تتعدوا ما أحل الله لكم إلى ما يدعوكم إليه الشيطان. قيل: هي النذور في المعاصي. وقيل: هي المحقرات من الذنوب ثم بين علة هذا التحذير، بقوله تعالى: ﴿**إنه لكم عدو مبين**﴾ أي ظاهر العداوة وقد أظهر الله تعالى عداوته بآية السجود لآدم ثم بين عداوته ما هي فقال تعالى: ﴿**إنما يأمركم بالسوء**﴾ يعني بالإثم. والسوء ما يسوء صاحبه ويخزيه ﴿**والفحشاء**﴾ يعني بها المعاصي وما قبح من قول أو فعل. قال ابن عباس: السوء ما لا حد فيه، والفحشاء ما يجب فيه الحد. وقيل الفحشاء الزنا. وقيل هو البخل ﴿**وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون**﴾ يعني من تحريم الحرث والأنعام ويتناول ذلك جميع المذاهب الفاسدة التي لم يأذن فيها الله ولم ترد عن رسول الله ﷺ. واعلم أن أمر الشيطان ووسوسته عبارة عن هذه الخواطر التي يجدها الإنسان في قلبه، وماهية هذه الخواطر حروف وأصوات منتظمة خفية تشبه الكلام في الخارج، ثم إن فاعل هذه الخواطر هو الله تعالى وهو المحدث لها في باطن الإنسان، وإنما الشيطان كالعرض، والله هو المقدر له على ذلك وقد ورد في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ: «إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم» وإنما أقدر على ذلك لإيصال هذه الخواطر إلى باطن الإنسان. قوله عز وجل: ﴿**وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله**﴾ هذه قصة مستأنفة والضمير في «لهم» يعود إلى غير مذكور. قال ابن عباس: دعا رسول الله ﷺ اليهود إلى الإسلام. فقال رافع بن خارجة ومالك بن عوف: بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا فهم كانوا خيراً منا وأعلم منا فأنزل الله هذه الآية. وقيل: إن الآية متصلة بما قبلها والضمير في «لهم» يعود إلى قوله: ﴿ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً﴾ وهم مشركو العرب. قالوا: بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا يعني من عبادة الأصنام. وقيل: بل الضمير في «لهم» يعود على قوله: ﴿يا أيها الناس كلوا مما في الأرض﴾ والمعنى وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله

﴿ **وخطوات الشيطان** ﴾ آثاره وزلّاته، وقيل: هي النذور في المعاصي، وقال أبو عبيدة: هي المحقّرات من الذنوب، وقال الزجّاج: طُرَقه، ﴿ **إنّه لكم عدوّ مبين** ﴾: بيّن العداوة، وقد أظهر عداوته بإبائه السجود لآدم وغروره إيّاه، حتى أخرجه من الجنة، و(أبان) يكون لازماً ومتعدياً ثم ذكر عداوته فقال:

﴿ **إنّما يأمركم بالسوء** ﴾، أي: بالإثم، وأصل السوء ما يسوء صاحبه، وهو مصدر ساء يسوء سوءاً ومساءةً، أي: أحزنه، وسوّأته فساء أي: حزّنته فحزن، ﴿ **والفحشاء** ﴾: المعاصي وما قَبُح من القول والفعل، وهو مصدر كالسرّاء والضرّاء، روى باذنٌ عن ابن عباس قال: الفحشاء من المعاصي ما يجب فيه الحدّ، والسوء من الذنوب ما لا حدّ فيه، وقال السدي: هي الزنا، وقيل: هي البخل، ﴿ **وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون** ﴾، من تحريم الحرث والأنعام.

قوله تعالى: ﴿ **وإذا قيل لهم اتّبعوا ما أنزل الله** ﴾ قيل: هذه قصة مستأنفة، والهاء والميم في ﴿ **لهم** ﴾ كناية عن غير مذكور، ورُوِيَ عن ابن عباس قال: دعا رسول الله ﷺ اليهود إلى الإسلام، فقال رافع بن خارجة ومالك بن عوف: بل نتّبع ما ألفينا عليه آباءنا، أي: ما وجدنا عليه آباءنا فهم كانوا أفضل وأعلم منّا، فأنزل الله تعالى هذه الآية، وقيل: الآية متّصلة بما قبلها وهي نازلة في مشركي العرب وكفّار قريش، والهاء والميم عائدة إلى قوله: ﴿ ومِن الناس مَن يتّخذ من دون الله أنداداً ﴾ [البقرة: ١٦٥]، ﴿ **قالوا بل نتّبع ما ألفينا** ﴾، أي: ما وجدنا ﴿ **عليه آباءنا** ﴾، من عبادة الأصنام، وقيل: معناه وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله في تحليل ما حرّموا على أنفسهم من الحرث والأنعام والبَحِيرَة والسائبة، والهاء والميم عائدتان إلى الناس في قوله تعالى: ﴿ **يا أيّها الناس كُلوا** ﴾ ﴿ **قالوا بل نتّبع** ﴾، قرأ الكسائي ﴿ **بل نتّبع** ﴾ بإدغام اللام في النون، وكذلك يدغم لام هل وبل في التاء والثاء والزاء والسين والصاد والطاء والظاء، ووافق حمزة في الثاء والسين، و﴿ **ما ألفينا** ﴾ ما وجدنا عليه آباءنا من التحريم

يعني في تحليل ما حرموا على أنفسهم ﴿قالوا بل نتبع ما ألفينا﴾ يعني وجدنا ﴿عليه آباءنا﴾ من التحريم والتحليل، قال الله تعالى: ﴿أو لو كان آباؤهم﴾ يعني الذين يتبعونهم ﴿لا يعقلون شيئاً﴾ يعني لا يعلمون شيئاً من أمر الدين، لفظه عام ومعناه خاص وذلك أنهم كانوا يعقلون أمر الدنيا ﴿ولا يهتدون﴾ أي إلى الصواب. ثم ضرب لهم مثلاً فقال تعالى:

﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾﴾

﴿ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسع إلاّ دعاء ونداء﴾ النعيق صوت الراعي بالغنم، ولا يقال نعق إلاّ للراعي بالغنم وحدها، ومعنى الآية: ومثلك يا محمد ومثل الكفار في وعظهم ودعائهم إلى الله كمثل الراعي الذي ينعق بالغنم وهي لا تسمع إلاّ صوتاً فصار الداعي إلى الله وهو الرسول ﷺ بمنزلة الراعي، وصار الكفار بمنزلة الغنم المنعوق بها، ووجه المثل أن الغنم تسمع الصوت ولا تفطن للمراد وكذلك الكفار يسمعون صوت الرسول ﷺ ولكن لا ينتفعون به، وقيل معناه ومثل الذين كفروا في قلة عقلهم وفهمهم عن الله ورسوله كمثل المنعوق به من البهائم التي لا تفهم من الأمر والنهي إلاّ الصوت فيكون المعنى بالمثل المنعوق به خارج عن الناعق. وقيل: معناه ومثل الذين كفروا في دعائهم الأصنام التي لا تفقه ولا تعقل كمثل الناعق بالغنم، فهو لا ينتفع من نعيقه بشيء غير أنه غني عن الدعاء والنداء، فكذلك الكافر ليس له من دعاء الأصنام وعبادتها إلاّ العناء والبلاء، والفرق بين هذا القول والقول الذي قبله أن المحذوف هنا هو المدعو وهي الأصنام وفي القول الأول المحذوف هو الداعي وهو الرسول ﷺ ﴿صم بكم عمي﴾ لما شبههم بالبهائم زاد في تبكيتهم فقال: صم لأنهم إذا سمعوا الحق ودعاء الرسول، ولم ينتفعوا به صاروا بمنزلة الأصم الذي لا يسمع ولا يعقل كأنه أصم، بكم أي عن

والتحليل، قال تعالى: ﴿ أوَ لو كان آباؤهم ﴾ أي: كيف يتّبعون آباءهم، وآباؤهم ﴿ لا يعقلون شيئاً ﴾؟ الواو في ﴿ أوَلَوْ ﴾ وَاْوُ العطف، ويُقال لها أيضاً: واو التعجّب دخلت عليها ألف الاستفهام للتوبيخ، والمعنى: أيتّبعون آباءَهم وإن كانوا جهّالاً لا يعقلون شيئاً، لفظه عامّ ومعناه الخصوص، أي: لا يعقلون شيئاً من أمور الدين، لأنهم كانوا يعقلون أمر الدنيا، ﴿ ولا يهتدون ﴾، ثم ضرب لهم مثلاً فقال جلّ ذكره:

﴿ ومَثَلُ الذين كفروا كمثل الذي ينعقُ بما لا يسمع ﴾، والنعيق والنعق: صوت الراعي بالغنم، معناه: مَثَلُكَ يا محمد ومَثَل الكفّار في وعظهم ودعائهم إلى الله عزّ وجلّ كَمَثَل الراعي الذي ينعق بالغنم، وقيل: مثل واعظ الكفّار وداعيهم معهم كمَثَل الراعي ينعق بالغنم وهي لا تسمع، ﴿ إلاّ دعاءً ﴾ صوتاً ﴿ ونداءً ﴾، فأضاف المثل إلى الذين كفروا، لدلالة الكلام عليه، كما في قوله تعالى: ﴿ واسأل القرية ﴾ [يوسف: ٨٢]، معناه كما أن البهائم تسمع صوت الراعي ولا تفهم ولا تعقل ما يقال لها، كذلك الكافر لا ينتفع بوعظك إنّما يسمع صوتك، وقيل: معناه ومثل الذين كفروا في قلّة عقلهم وفهمهم عن الله وعن رسوله، كمَثَل المنعوق به من البهائم التي لا تفقه من الأمر والنهي إلاّ الصوت، فيكون المعنى للمنعوق به والكلام خارج عن الناعق، وهو فاش في كلام العرب يفعلون ذلك يقلبون الكلام لإيضاح المعنى عندهم، يقولون: فلان يخافك كخوف الأسد، أي: كخوفه الأسد، وقال تعالى: ﴿ ما إنّ مفاتِحَهُ لتنوء بالعصبة ﴾ [القصص: ٧٦]، وإنما العصبة لتنوء بالمفاتيح، وقيل: معناه مثل الذين كفروا في دعاء الأصنام التي لا تفقه ولا تعقل كمَثَل الناعق بالغنم، فلا ينتفع من نعيقه بشيء، غير أنه في غناء من الدعاء والنداء، كذلك الكافر ليس له من دعاء الآلهة وعبادتها إلاّ العَناء والبلاء، كما قال تعالى: ﴿ إن تدعوهم لا يسمعوا

النطق بالحق عمي أي عن طريق الهدى ﴿فهم لا يعقلون﴾ قيل المراد به العقل الكسبي لأن العقل الطبيعي كان حاصلاً فيهم قوله عز وجل: ﴿يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم﴾ قيل إن الأمر في قوله: كلوا قد يكون للوجوب كالأكل لحفظ النفس ودفع الضرر عنها، وقد يكون للندب كالأكل مع الضيف وقد يكون للإباحة إذا خلا من هذه العوارض. والطيب هو الحلال (م) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «إن الله طيب ولا يقبل إلّا الطيب وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال: يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً وقال: يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يده إلى السماء: يا رب يا رب ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغذي بالحرام فأنى يستجاب لذلك». قوله: أشعث أغبر هو البعيد العهد بالدهن والغسل والنظافة. وقيل الطيب المستلذ من الطعام فلعل قوماً تنزهوا عن أكل المستلذ من المطاعم فأباح الله تعالى لهم ذلك ﴿واشكروا لله﴾ يعني على نعمه ﴿إن كنتم إياه تعبدون﴾ أي اشكروا الله الذي رزقكم هذه النعم إن كنتم تخصونه بالعبادة وتقرون أنه إلهكم لا غيره وقيل إن كنتم عارفين بالله وبنعمه فاشكروه عليها.

إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾

قوله عز وجل: ﴿إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير﴾ لما أمرنا الله تعالى في الآية التي تقدمت بأكل الطيبات التي هي الحلالات بين في هذه الآية أنواعاً من المحرمات، أما الميتة فكل ما فارقته روحه من غير ذكاة مما يذبح. وأما الدم فهو الجاري وكانت العرب تجعل الدم في المصارين ثم تشويه وتأكله فحرم الله الدم. وأما الخنزير فإنه أراد بلحمه جميع أجزائه وإنما خص اللحم بالذكر لأنه المقصود لذاته بالأكل ﴿وما أهل به

دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ﴾ [فاطر: ١٤]، وقيل: معنى الآية ومثل الذين كفروا في دعاء الأوثان، كمَثَل الذي يصيح في جوف الجبال، فيسمع صوتاً يُقال له الصداء لا يُفهَم منه شيئاً، فمعنى الآية: كَمَثَل الذي ينعق بما لا يسمع منه الناعق إلّا دعاء ونداء. ﴿ صُمٌّ ﴾، تقول العرب لمَن لا يسمع ولا يعمل: كأنه أصمّ، ﴿ بُكْمٌ ﴾، عن الخير لا يقولونَه، ﴿ عُميٌ ﴾، عن الهُدَى لا يبصرونه، ﴿ فهم لا يعقلون ﴾.

قوله تعالى: ﴿ يا أيّها الذين آمنوا كُلوا من طيبات ﴾: حلالات ﴿ ما رزقناكم ﴾، أخبرنا عبد الواحد المليحي أخبرنا أبو محمد وعبد الرحمن بن أبي شريح، أخبرنا أبو القاسم عبد الله بن محمد بن عبد العزيز البغوي، أخبرنا علي بن الجعد أخبرنا فُضيل بن مرزوق عن عديّ بن ثابت، عن أبي حازم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يا أيها الناس إنّ اللّهَ طيبٌ لا يقبل إلّا الطيبَ، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال: ﴿ يا أيّها الرّسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً ﴾ [المؤمنون: ٥١]، ﴿ يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم ﴾، ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعثَ أغبرَ يمدُّ يده إلى السماء يا ربِّ يا ربِّ ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغُذِّي بالحرام فأنّى يُستجاب لذلك». ﴿ واشكروا لله ﴾: على نعمه، ﴿ إن كنتم إيّاه تعبدون ﴾، ثم بيّن المحرّمات فقال:

﴿ إنما حرّم عليكم الميتة ﴾، قرأ أبو جعفر ﴿ الميتة ﴾ كل القرآن بالتشديد، والباقون يشددون البعض، والميتة: كل ما لم تدرك ذكاته ممّا يُذبح، ﴿ والدم ﴾، أراد به الدم الجاري، يدلّ عليه قوله تعالى: ﴿ أو دماً مسفوحاً ﴾ [الأنعام: ١٤٥]، واستثنى الشرع من الميتة السمك والجراد، ومن الدم الكبد والطحال فأحلّها، أخبرنا

لغير الله﴾ يعني وما ذبح للأصنام والطواغيت وأصل الإهلال رفع الصوت وذلك أنهم كانوا يرفعون أصواتهم بذكر آلهتهم إذا ذبحوا لها فجرى ذلك مجرى أمرهم وحالهم حتى قيل لكم ذابح مهل وإن لم يجهر بالتسمية ﴿فمن اضطر﴾ يعني إلى أكل الميتة وأحوج إليها ﴿غير باغ﴾ أصل البغي الفساد ﴿ولا عاد﴾ أصله من العدوان وهو الظلم ومجاوزة الحد ﴿فلا إثم عليه﴾ أي فأكل فلا إثم عليه، أي فلا حرج في أكلها ﴿إن الله غفور﴾ أي لما أكله في حال الضرورة ﴿رحيم﴾ يعني حيث رخص لعباده في ذلك.

فصل في حكم هذه الآية وفيه مسائل:

الأولى في حكم الميتة أجمعت الأمة على تحريم أكل الميتة، وأنها نجسة واستثنى الشرع منها السمك والجراد، أما السمك فلقوله ﷺ في البحر: «هو الطهور ماؤه الحل ميتته» أخرجه الجماعة غير البخاري ومسلم. قال الترمذي: فيه حديث حسن صحيح. وأما الجراد فلما روي عن ابن أبي أوفى قال: «غزونا مع رسول الله ﷺ سبع غزوات، أو ستاً وكنا نأكل الجراد ونحن معه» أخرجاه في الصحيحين. واختلف في السمك الميت الطافي على الماء فقال مالك والشافعي لا بأس به وقال أبو حنيفة وأصحابه والحسن بن صالح بن حي إنه مكروه وروي عن علي بن أبي طالب أنه قال: ما طفى من صيد البحر فلا تأكله وعن ابن عباس وجابر بن عبدالله مثله وروي عن أبي بكر الصديق وأبي أيوب إباحته. واختلف في الجراد، فقال الشافعي وأبو حنيفة: لا بأس بأكل الجراد كله ما أخذته وما وجدته ميتاً. وروى مالك أن ما وجد ميتاً فلا يحل وما أخذ حياً يذكى زكاة مثله بأن يقطع رأسه ويشوى فإن غفل عنه حتى يموت فلا يحل.

المسألة الثانية في حكم الدم: اتفق العلماء على أن الدم حرام نجس لا يؤكل، ولا ينتفع به. قال الشافعي: تحرم جميع الدماء سواء كان مسفوحاً أو غير مسفوح. وقال أبو حنيفة: دم السمك ليس بحرام قال لأنه إذا يبس ابيض واستثنى الشارع من الدم الكبد والطحال. روى الدارقطني عن عبدالرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه عن عبدالله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «أحل لنا من الدم دمان ومن الميتة ميتتان الحوت والجراد ومن الدم الكبد والطحال» وفي لفظ آخر: «أحلت لنا ميتتان ودمان فأما الميتتان فالجراد والحوت، وأما الدمان فالطحال والكبد»

عبد الوهاب بن محمد الخطيب، أخبرنا عبد العزيز بن أحمد الخلال أخبرنا أبو العباس الأصم، أخبرنا الربيع بن سليمان أخبرنا الشافعي أخبرنا عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، عن أبيه عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «أُحلَّتْ لنا ميتتان ودمان، الميتتان: الحوت والجراد، والدمان: أحسبه قال الكبد والطحال» ﴿ **ولحم الخنزير** ﴾، أراد به جميع أجزائه، فعبّر عن ذلك باللحم لأنه مُعظمه، ﴿ **وما أهلّ به لغير الله** ﴾، أي: ما ذبح للأصنام والطواغيت، وأصل الإهلال رفع الصوت، وكانوا إذا ذبحوا لآلهتهم يرفعون أصواتهم بذكرها، فجرى ذلك من أمرهم حتى قيل لكل ذابح وإن لم يجهر بالتسمية: مُهِلٌّ، وقال الربيع بن أنس وغيره: ﴿ **وما أهلّ به لغير الله** ﴾ قال: ما ذُكر عليه اسم غير الله، ﴿ **فمَنِ اضطر** ﴾، بكسر النون وإخواته، عاصم وحمزة، ووافق أبو عمرو إلاّ في اللام والواو مثل: ﴿ قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن ﴾ [الإسراء: ١١٠] ويعقوب إلاّ في الواو، ووافق ابن عامر في التنوين، والباقون كلهم بالضم، فمَن كسر قال لأن الجزم يُحَرّك إلى الكسر، ومَن ضمّ فلضمه أول الفعل، نقلَ حركتها إلى ما قبلها، وأبو جعفر بكسر الطاء ومعناه فمَن اضطر إلى أكل الميتة، أي: أُحوج وأُلْجىء إليه، ﴿ **غيرَ** ﴾، نُصب على الحال، وقيل: على الاستثناء، وإذا رأيت ﴿ **غير** ﴾ لا يصلح في موضعها (إلاّ) فهي حال، وإذا صلح في موضعها (إلا) فهي استثناء، ﴿ **باغٍ ولا عادٍ** ﴾، أصل البغي: قصد الفساد، يقال: بغى الجرح يبغي بغياً إذا ترامَى إلى الفساد، وأصل العدوان: الظلم ومجاوزة الحدّ، يقال: عدا عليه عدواً وعدواناً إذا ظلم، واختلفوا في معنى

أخرجه ابن ماجه وأحمد بن حنبل. قال أحمد وعلي بن المديني: عبدالرحمن بن زيد ضعيف. وأخوه عبدالله بن زيد قوي. ثقة. وقد أخرج الدارقطني هذا الحديث من رواية عبدالله بن زيد عن أبيه عن ابن عمر مرفوعاً وضعف أبو بكر بن العربي هذا الحديث وقال: يروى عن عمر بما لا يصح سنده وقال البيهقي: يروى هذا الحديث عن ابن عمر موقوفاً ومرفوعاً والصحيح الموقوف. واختلف في تخصيص هذا العموم في الكبد والطحال فقال: مالك لا تخصيص لأن الكبد والطحال لحم، ويشهد لذلك العيان الذي لا يفتقر إلى برهان وقال الشافعي: هما دمان ويشهد له الحديث فهو تخصيص من العموم.

المسألة الثالثة في الخنزير: أجمعت الأمة على أن الخنزير بجميع أجزائه محرم، وإنما ذكر الله تعالى لحمه لأن معظم الانتفاع متعلق به ثم اختلفوا في نجاسته فقال جمهور العلماء إنه نجس وقال مالك: إنه طاهر. وكذا كل حيوان عنده، لأن علة الطهارة هي الحياة وللشافعي قولان: في ولوغ الخنزير الجديد أنه كالكلب والقديم يكفي في ولوغه غسلة واحدة. والفرق بينهما أن التغليظ في الكلب لأن العرب كانت تألفه بخلاف الخنزير. وقيل: إن التغليظ في الكلب تعبدي لا يعقل معناه فلا يتعدى إلى غيره.

المسألة الرابعة في حكم قوله: وما أهل به لغير الله: من الناس من زعم أن المراد بذلك ذبائح عبدة الأوثان التي كانوا يذبحونها لأصنامهم، وأجاز ذبيحة النصارى إذا سمي عليها باسم المسيح وهو مذهب عطاء ومكحول والحسن والشعبي وسعيد بن المسيب لعموم قوله: ﴿**وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم**﴾ وقال مالك والشافعي وأبو حنيفة: لا يحل ذلك والحجة فيه أنهم إذا ذبحوا على اسم المسيح فقد أهلوا به لغير الله فوجب أن يحرم. وروي عن علي بن أبي طالب أنه قال: إذا سمعتم اليهود والنصارى يهلون لغير الله فلا تأكلوا وإذا لم تسمعوهم فكلوا، فإن الله قد أحل ذبائحهم وهو يعلم ما يقولون.

المسألة الخامسة في حكم المضطر: المضطر هو المكلف بالشيء، الملجأ إليه المكره عليه والمراد بالمضطر في قوله فمن اضطر أي خاف التلف حتى قيل: من اضطر إلى أكل فلم يأكل الميتة فلم يأكل منها حتى مات دخل النار. والمضطر على ثلاثة أقسام: إما بإكراه أو بجوع في مخمصة أو بفقر لا يجد شيئاً البتة فإن التحريم يرتفع مع وجود هذه الأقسام بحكم الاستثناء في قوله: فلا إثم عليه وتباح له الميتة فأما الإكراه فيبيح ذلك إلى زوال الإكراه وأما المخمصة فلا يخلو إن كانت دائمة فلا خلاف في جواز الشبع منها، وإن كانت نادرة فاختلف العلماء فيه. وللشافعي قولان أحدهما أنه يأكل ما يسد به الرمق، وبه قال أبو حنيفة. والثاني يأكل قدر الشبع، وبه قال مالك.

قوله: ﴿ غير باغٍ ولا عادٍ ﴾، فقال بعضهم: غير باغٍ أي: غير خارج على السلطان، ولا عادٍ: متعدٍّ، عاصٍ بسفره، بأن خرج لقطع الطريق أو لفساد في الأرض، وهو قول ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جُبير، وقالوا: لا يجوز للعاصي بسفره أن يأكل الميتة إذا اضطر إليها، ولا أن يترخّص برُخَصِ المسافر حتى يتوب، وبه قال الشافعي، لأن إباحة الميتة له إعانة له على فساده، وذهب جماعة إلى أن البغي والعدوان راجعان إلى الأكل، واختلفوا في تفصيله، وقال الحسن وقتادة: غير باغٍ بأكله من غير اضطرار ولا عاد، أي: لا يعدو لشبعه، وقيل: غير باغٍ أي غير طالبها وهو يجد غيرها، ولا عاد أي غير متعدٍّ ما حُدّ له، فيأكل حتى يشبع، ولكن يأكل منها قوتاً مقدارَ ما يُمسك رَمقَه، وقال مقاتل بن حيّان: غير باغٍ أي مستحِل لها، ولا عادٍ أي متزوِّد منها، وقيل: غير باغٍ أي غير مجاوز للقدر الذي أُحِلَّ له، ولا عادٍ أي لا يُقصِّر فيما أُبيح له فيدعه، قال مسروق: مَن اضطر إلى الميتة والدم ولحم الخنزير فلم يأكل ولم يشرب حتى مات دخل النار، واختلف العلماء في مقدار ما يَحِلُّ للمضطر أكلُه من الميتة، فقال بعضهم: مقدار ما يسدّ رَمقَه، وهو قول أبي حنيفة رضي الله عنه، وأحد قولي الشافعي رضي الله عنه، والقول

المسألة السادسة في قوله غير باغ ولا عاد: قال ابن عباس: معنى غير باغ غير خارج على السلطان ولا عادٍ أي معتدٍ يعني العاصي بسفره بأن يخرج لقطع الطريق أو أبق من مولاه فلا يجوز للعاصي بسفره أن يأكل من الميتة إذا اضطر إليها، ولا يترخص برخص المسافرين حتى يتوب، وبه قال الشافعي: لأن إباحة الميتة له إعانة له على فساده وذهب قوم إلى أن البغي والعدوان يرجعان إلى الأكل وبه قال أبو حنيفة. وأباح أكل الميتة للمضطر وإن كان عاصياً، وقيل في معنى قوله غير باغ أي غير طالب الميتة وهو يجد غيرها ولا عاد أي غير متعد ما حدّ له، وقيل: غير مستحل لها ولا متزود منها. قوله عز وجل:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۙ أُو۟لَـٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَـٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ وَٱلْعَذَابَ بِٱلْمَغْفِرَةِ ۚ فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ ﴿١٧٥﴾﴾

﴿**إن الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب**﴾ نزلت في رؤساء اليهود وعلمائهم وذلك أنهم كانوا يصيبون من سفلتهم الهدايا والمآكل وكانوا يرجون أن يكون النبي المبعوث منهم، فلما بعث محمد ﷺ وهو من غيرهم خافوا على ذهاب مآكلهم وزوال رياستهم فعمدوا إلى صفة رسول الله ﷺ فكتموها فأنزل الله: ﴿**إن الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب**﴾ أي في الكتاب من صفة رسول الله ﷺ ونعته ووقت نبوته هذا قول المفسرين قال الإمام فخر الدين الرازي وعند المتكلمين هذا ممتنع لأن التوراة والإنجيل قد بلغا من الشهرة والتواتر إلى حيث تعذر ذلك فيهما بل كانوا يكتمون التأويل لأنه قد كان منهم من يعرف الآيات الدالة على نبوة محمد ﷺ فكانوا يذكرون لها تأويلات باطلة ويصرفونها عن محالها الصحيحة الدالة على نبوة محمد ﷺ فهذا هو المراد بالكتمان فيصير المعنى، إن الذين يكتمون معاني ما أنزل الله من الكتاب ﴿**ويشترون به**﴾ أي بالكتمان وقيل يعود الضمير إلى ما أنزل الله من الكتاب ﴿**ثمناً قليلاً**﴾ أي عوضاً يسيراً وهي المآكل التي كانوا يأخذونها من سفلتهم ﴿**أولئك ما يأكلون في بطونهم إلاّ النار**﴾ يعني ما يؤديهم إلى النار وهو الرشا والحرام فلما كان يفضي بهم ذلك إلى النار فكأنهم أكلوها ﴿**ولا يكلمهم الله يوم القيامة**﴾ أي كلام رحمة وما يسرهم بل يكلمهم بالتوبيخ، وهو قوله اخسؤوا فيها وقيل أراد به الغضب يقال فلان لا يكلم فلاناً إذا غضب عليه ﴿**ولا يزكيهم**﴾ أي ولا يطهرهم من دنس الذنوب ﴿**ولهم عذاب أليم**﴾ أي وجيع

الآخر: يجوز أن يأكل حتى يشبع، وبه قال مالك رحمه الله تعالى، وقال سهل بن عبد الله: غير باغٍ مفارق للجماعة، ولا عادٍ مبتدع مخالف للسُّنّة، ولم يُرخّص للمبتدع في تناول المحرّم عند الضرورة، ﴿ **فلا إثم عليه** ﴾، فلا حرج عليه في أكلها، ﴿ **إنّ الله غفور** ﴾، لمَن أكل في حال الاضطرار ﴿ **رحيم** ﴾، حيث رخّص للعباد في ذلك.

قوله تعالى: ﴿ **إنّ الذين يكتمون ما أنزلَ اللّهُ من الكتاب** ﴾، نزلت في رُؤساء اليهود وعلمائهم، كانوا يُصيبون من سفلتهم الهدايا والمآكل وكانوا يرجون أن يكون النبي المبعوث منهم، ولما بُعث محمد ﷺ من غيرهم، خافوا ذهاب مِأكلهم وزوال رياستهم، فعمدوا إلى صفة رسول الله ﷺ فغيّروها، ثم أخرجوها إليهم، فلما نظرت السفلة إلى النعت المغيّر وجدوه مخالفاً لصفة محمد ﷺ فلم يتبعوه، فأنزل الله تعالى: ﴿ **إن الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب** ﴾، يعني: صفة محمد ﷺ ونبوّته، ﴿ **ويشترون به** ﴾ أي: بالمكتوم ﴿ **ثمناً قليلاً** ﴾، أي: عوضاً يسيراً، يعني: المآكل التي يُصيبونها من سفلتهم، ﴿ **أولئك ما يأكلون في بطونهم إلاّ النار** ﴾، يعني: إلاّ ما يؤدّيهم إلى النار وهو الرشوة والحرام وثمن الدين، فلما كان يفضي ذلك بهم إلى النار فكأنهم أكلوا النار، وقيل: معناه أنه

يصل ألمه إلى قلوبهم ﴿أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة﴾ معناه: أنهم اختاروا الضلالة على الهدى واختاروا العذاب على المغفرة لأنهم كانوا عالمين بالحق، ولكن كتموه وأخفوه وكان في إظهاره الهدى والمغفرة وفي كتمانه الضلالة والعذاب فلما أقدموا على إخفاء الحق وكتمانه كانوا بائعين الهدى بالضلالة والمغفرة بالعذاب ﴿فما أصبرهم على النار﴾ أي ما الذي صبرهم وأي شيء جسرهم على النار حتى تركوا الحق واتبعوا الباطل، فهو استفهام بمعنى التوبيخ وقيل: إنه بمعنى التعجب من حالهم في التباسهم بموجبات النار من غير مبالاة منهم، فلما أقدموا على ما يوجب النار مع علمهم بذلك صاروا كالراضين بالعذاب والصابرين عليه، تعجب من حالهم بقوله: فما أصبرهم على النار.

ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾ ۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾

﴿ذلك بأن الله نزل الكتاب﴾ يعني ذلك العذاب بسبب إن الله نزل الكتاب ﴿بالحق﴾ فكفروا به وأنكروه وقيل معناه فعلنا بهم ذلك، لأن الله أنزل الكتاب بالحق فحرفوه فعلى هذا يكون المراد بالكتاب التوراة ﴿وإن الذين اختلفوا في الكتاب﴾ يعني اختلفوا في معانيه وتأويله فحرفوها وبدلوها، وقيل: آمنوا ببعض وكفروا ببعض ﴿لفي شقاق﴾ أي خلاف ومنازعة ﴿بعيد﴾ يعني عن الحق.

قوله عز وجل: ﴿ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب﴾ هذا خطاب لأهل الكتاب لأن

يصير ناراً في بطونهم، ﴿ ولا يكلّمهم الله يوم القيامة ﴾، أي: لا يكلمهم بالرحمة وبما يسرّهم، إنما يكلمهم بالتوبيخ، وقيل: أراد به أن يكون عليهم غضبان، كما يقال: فلان لا يكلم فلاناً إذا كان عليه غضبان، ﴿ ولا يزكّيهم ﴾، أي: لا يطهّرهم من دَنَس الذنوب، ﴿ ولهم عذاب أليم ﴾.

﴿ أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة فما أصبرهم على النار ﴾، قال عطاء والسدي: هو ما الاستفهام معناه: ما الذي صبّرهم على النار؟ وأيّ شيء صبّرهم على النار حتى تركوا الحق واتّبعوا الباطل؟ قال الحسن وقتادة: والله ما لهم عليها من صبر، ولكن ما أجرأهم على العمل الذي يُقرّبهم إلى النار؟ وقال الكسائي: فما أصبرهم على أهل النار، أي: ما أدومهم عليه.

﴿ ذلك بأن الله نزّل الكتاب بالحق ﴾، يعني: ذلك العذاب بأن الله نزّل الكتاب بالحق فأنكروه وكفروا به، وحينئذ يكون ﴿ ذلك ﴾ في محل الرفع، وقال بعضهم: محله نصب، معناه: فعلنا ذلك بهم ﴿ بأن الله ﴾، أي: لأن الله نزّل الكتاب بالحق، فاختلفوا فيه، وقيل: معناه ذلك أي فعلهم الذين يفعلون من الكفر والاختلاف والاجتراء على الله، من أجل أن الله نزّل الكتاب بالحق، وهو قوله تعالى: ﴿ إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تُنذرْهم لا يُؤمنون ختم اللّهُ على قلوبهم ﴾ [البقرة: ٦ و٧]، ﴿ وإنّ الذين اختلفوا في الكتاب ﴾: فآمنوا ببعضٍ وكفروا ببعض، ﴿ لفي شقاق بعيد ﴾، أي: في خلاف وضلال بعيد.

النصارى تصلي قبل المشرق واليهود قبل المغرب إلى بيت المقدس، وزعم كل طائفة منهم أن البر في ذلك، فأخبر الله تعالى أن البر ليس فيما زعموا ولكن فيما بينه في هذه الآية. وقال ابن عباس: هو خطاب للمؤمنين وذلك أن الرجل كان في ابتداء الإسلام إذا أتى بالشهادتين وصلى إلى أي جهة كانت ثم مات على ذلك، وجبت له الجنة فلما هاجر رسول الله ﷺ ونزلت الفرائض وصرفت القبلة إلى الكعبة، أنزل الله هذه الآية فقال تعالى: ﴿**ليس البر أن تولوا وجوهكم**﴾ أي في صلاتكم قبل المشرق والمغرب ولا تعملوا ذلك ﴿**ولكن البر**﴾ يعني ما بينته لكم والبر اسم جامع لكل الطاعات وأعمال الخير المقربة إلى الله الموجبة للثواب والمؤدية إلى الجنة ثم بين خصالاً من البر فقال تعالى: ﴿**من آمن بالله**﴾ أي ولكن البر من آمن بالله فالمراد بالبر هنا الإيمان بالله والتقوى من الله ﴿**واليوم الآخر**﴾ وإنما ذكر الإيمان باليوم الآخر، لأن عبدة الأوثان كانوا ينكرون البعث بعد الموت ﴿**والملائكة**﴾ أي ومن البر الإيمان بالملائكة كلهم لأن اليهود قالوا: إن جبريل عدونا ﴿**والكتاب**﴾ قيل: أراد به القرآن وقيل جميع الكتب المنزلة لسياق ما بعده وهو قوله ﴿**والنبيين**﴾ يعني أجمع وإنما خص الإيمان بهذه الأمور الخمسة لأنه يدخل تحت كل واحد منها أشياء كثيرة مما يلزم المؤمن أن يصدق بها ﴿**وآتى المال على حبه**﴾ يعني من أعمال البر إيتاء المال على حبه قيل إن الضمير راجع إلى المال فالتقدير على هذا وآتى المال على حب المال (ق) عن أبي هريرة قال: «جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال يا رسول الله أي الصدقة أعظم أجراً؟ قال أن تصدق وأنت صحيح شحيح تخشى الفقر وتأمل الغنى ولا تمهل حتى إذا بلغت الحلقوم قلت لفلان كذا ولفلان كذا وقد كان لفلان» قوله حتى إذا بلغت الحلقوم يعني الروح وإن لم يتقدم لها ذكر وقوله لفلان كذا هو كناية عن الموصى له وقوله وقد كان لفلان كناية عن الوارث وقيل الضمير في حبه راجع إلى الله تعالى أي وآتي المال على حب الله وطلب مرضاته ﴿**ذوي القربى**﴾ يعني أهل قرابة المعطي وإنما قدمهم لأنهم أحق بالإعطاء. عن سليمان بن عامر قال قال رسول الله ﷺ: «الصدقة على

قوله تعالى: ﴿ **ليس البرّ أن تُولّوا وجوهكم قِبَل المشرق والمغرب** ﴾، قرأ حمزة وحفص: ﴿ **ليس البرّ** ﴾ بنصب الراء، والباقون برفعها، فمَن رفعها جعل البراسم ليس وخبره في قوله: ﴿ **أن تولّوا** ﴾ تقديره: ليس البرُّ توليتَكم وجوهكم، ومَن نصب جعل ﴿ **أن تولّوا** ﴾ في موضع الرفع على اسم ليس، تقديره: توليتكم وجوهكم البِرَّ كله، كقوله تعالى: ﴿ ما كان حجّتهم إلاّ أن قالوا ائتوا ﴾ [الجاثية: ٢٥]، والبِرُّ: كلُّ عمل خير يُفضي بصاحبه إلى الجنّة، واختلفوا في المخاطبين بهذه الآية، فقال قوم: عنى بها اليهود والنصارى، وذلك أن اليهود كانت تصلّي قِبَل المغرب إلى بيت المقدس، والنصارى قِبَل المشرق، وزعم كل فريق منهم أن البِرَّ في ذلك، فأخبر الله تعالى أن البرَّ غير دينهم وعملهم، ولكنه ما بيّنه في هذه الآية، وعلى هذا القول قتادة ومقاتل بن حيان، وقال الآخرون: المراد بها المؤمنون، وذلك أن الرجل كان في ابتداء الإسلام قبل نزول الفرائض إذا أتى بالشهادتين وصلّى الصلاة إلى أيّ جهة كانت، ثم مات على ذلك وجبت له الجنة، ولمّا هاجر رسول الله ﷺ ونزلت الفرائض، وحدّدت الحدود وصرفت القِبلة إلى الكعبة، أنزل الله هذه الآية فقال: ﴿ **ليس البِرّ** ﴾، أي: كله أن تصلوا قبل المشرق والمغرب ولا تعملوا على غير ذلك، ﴿ **ولكن البِرَّ** ﴾ ما ذكر في هذه الآية، وعلى هذا القول ابن عباس ومجاهد وعطاء والضحاك، ﴿ **ولكن البرّ** ﴾، قرأ نافع وابن عامر ﴿ **ولكن** ﴾، خفيفة النون ﴿ **البرّ** ﴾، رفع، وقرأ الباقون بتشديد النون ونصب البِرّ، قوله تعالى: ﴿ **مَنْ آمن بالله** ﴾، جعل ﴿ **مَنْ** ﴾ وهي اسم خبر للبرّ هو فعل، ولا يقال: البرّ زيد، واختلفوا في وجهه، قيل: لمّا وقع ﴿ **من** ﴾ في موقع المصدر جعله خبراً للبرّ، كأنه قال: ولكن البرّ الإيمان بالله، والعرب تجعل الاسم خبراً للفعل، وأنشد الفرّاء:

لعَمْرُكَ ما الفتيان إن تنبت اللِّحى ولكنما الفتيان كل فتى ندى

المسكين صدقة وعلى ذوي الرحم ثنتان صدقة وصلة» أخرجه النسائي (ق): «إن ميمونة رضي الله عنها أعتقت وليدة ولم تستأذن النبي ﷺ فلما كان يومها الذي يدور عليها فيه قالت أشعرت يا رسول الله أني أعتقت وليدتي قال أو قد فعلت قالت نعم قال أما إنك لو أعطيتها أخوالك كان أعظم لأجرك» الوليدة الجارية ﴿**واليتامى**﴾ اليتيم هو الذي لا أب له مع الصغر وقيل: يقع على الصغير والبالغ أي وآتى الفقراء من اليتامى ﴿**والمساكين**﴾ جمع مسكين سمي بذلك لأنه دائم السكون إلى الناس لأنه لا شيء له ﴿**وابن السبيل**﴾ يعني المسافر المنقطع عن أهله سمي المسافر ابن السبيل لملازمته الطريق، وقيل هو الضيف ينزل بالرجل لأنه إنما وصل إليه من السبيل وهو الطريق والأول أشبه لأن ابن السبيل اسم جامع جعل للمسافر ﴿**والسائلين**﴾ يعني الطالبين المستطعمين. عن علي بن أبي طالب أن رسول الله ﷺ قال: «للسائل حق ولو جاء على فرس» أخرجه أبو داود عن زيد بن أسلم أن رسول الله ﷺ قال: «أعطوا السائل ولو جاء على فرس» أخرجه مالك في الموطأ عن أم نجيد قالت: قلت يا رسول الله إن المسكين ليقوم على بابي فلم أجد شيئاً أعطيه إياه قال: «إن لم تجدي إلّا ظلفاً محرقاً فادفعيه إليه في يده» أخرجه أبو داود والترمذي. وقال حديث حسن صحيح. وفي رواية مالك في الموطأ عنها أن رسول الله ﷺ قال: «ردوا المسكين ولو بظلف محرق» قوله ردوا المسكين، لم يرد به رد الحرمان وإنما أراد به ردوه بشيء تعطونه إياه ولو كان ظلفاً وهو خف الشاة وفي كونه محرقاً مبالغة في قلة ما يعطي ﴿**وفي الرقاب**﴾ يعني المكاتبين. وقيل: هو فك النسمة وعتق الرقبة وفداء الأسارى ﴿**وأقام الصلاة**﴾ يعني المفروضة في أوقاتها ﴿**وآتى الزكاة**﴾ يعني الواجبة ﴿**والموفون بعهدهم**﴾ يعني ما أخذه الله من العهود على عباده بالقيام بحدوده والعمل بطاعته. وقيل: أراد بالعهد ما يجعله الإنسان على نفسه ابتداء من نذر وغيره. وقيل: العهد الذي كان بينه وبين الناس مثل الوفاء بالمواعيد وأداء الأمانات ﴿**إذا عاهدوا**﴾ يعني إذا وعدوا أنجزوا وإذا نذروا أوفوا وإذا حلفوا بروا في أيمانهم وإذا قالوا صدقوا في

فجعل نبات اللحية خبراً للفتى، وقيل: فيه إضمار، معناه: ولكنّ البرّ مَن آمن بالله، فاستغنى بذكر الأول عن الثاني، كقولهم: الجود حاتم، أي: الجود جود حاتم، وقيل معناه: ولكن ذا البِرَّ مَن آمن بالله، كقوله تعالى: ﴿ هم درجات عند الله ﴾ [آل عمران: ١٦٣]، أي: ذو درجات، وقيل معناه: ولكن البارّ مَن آمن بالله، كقوله تعالى: ﴿ والعاقبة للتقوى ﴾ [طه: ١٣٢] أي: للمتّقي، والمراد من البِرّ ههنا الإيمان والتقوى، ﴿ **واليوم الآخر والملائكة** ﴾: كلهم، ﴿ **والكتاب** ﴾، يعني: الكُتب المنزّلة، ﴿ **والنبيّين** ﴾: أجمع، ﴿ **وآتى المال** ﴾: أعطى المال، ﴿ **على حُبِّه** ﴾، اختلفوا في هذه الكناية، فقال أكثر أهل التفسير: إنها راجعة إلى المال، أي: أعطى المال في حال صحته ومحبته المال، قال ابن مسعود: أن تؤتيه وأنت صحيح شحيح تأمل الغنى وتخشى الفقر، أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي، أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف أخبرنا محمد بن إسماعيل، أخبرنا موسى بن إسماعيل أخبرنا عبد الواحد، ثنا عمارة بن القعقاع أنا أبو زرعة، أخبرنا أبو هريرة قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله أيُّ الصدقة أعظم أجراً؟ قال: «أن تصدّق وأنت صحيح شحيح تخشى الفقر وتأمل الغنى ولا تُمْهل، حتى إذا بلغت الحلقوم قلت لفلان كذا ولفلان كذا، وقد كان لفلان»، وقيل: هي عائدة إلى الله عزّ وجلّ، أي: على حبّ الله تعالى، ﴿ **ذَوي القربى** ﴾: أهل القرابة، أخبرنا أبو عثمان سعيد بن إسماعيل الضبّي، أخبرنا أبو محمد عبد الجبار بن محمد الجراحي، أخبرنا أبو العباس المحبوبي أخبرنا أبو عيسى الترمذي، أخبرنا قتيبة أخبرنا سفيان بن عُيينة، عن عاصم الأحول عن حفصة بنت سيرين، عن الرَّباب عن عمّها سليمان بن عامر، يبلغ به النبيَّ ﷺ قال: «الصدقة على المسكين صدقة، وعلى ذي الرحم ثنتان صدقة وصلة»، قوله تعالى: ﴿ **واليتامى والمساكينَ وابنَ السبيل** ﴾، قال مجاهد: يعني المسافر المنقطع عن أهله يمرّ عليك،

أقوالهم وإذا ائتمنوا أدوا ﴿والصابرين في البأساء﴾ أي في الشدة والفقر والفاقة ﴿والضراء﴾ يعني المرض والزمانة ﴿وحين البأس﴾ يعني القتال والحرب في سبيل الله. وسمي الحرب بأساً لما فيه من الشدة (ق) عن البراء قال كنا والله إذا احمر البأس نتقي به وأن الشجاع منا الذي يحاذي به يعني النبي ﷺ قوله احمر البأس: أي اشتد الحرب ونتقي به أي نجعله وقاية لنا من العدو ﴿أولئك الذين صدقوا﴾ أي أهل هذه الأوصاف هم الذين صدقوا في إيمانهم ﴿وأولئك هم المتقون﴾ قوله عز وجل:

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ۖ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ ۚ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَـٰنٍ ۗ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ۗ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾

﴿يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى﴾ نزلت في حيين من أحياء العرب اقتتلوا في الجاهلية

ويقال للمسافر: ابن السبيل لملازمته الطريق، وقيل: هو الضيف ينزل بالرجل، قال النبي ﷺ: «مَنْ كان يُؤمن بالله واليوم الآخر فليُكرمْ ضيفه»، ﴿ والسائلين ﴾، يعني: الطالبين، أخبرنا أبو الحسن السرخسي أخبرنا زاهر بن أحمد أخبرنا أبو إسحق الهاشمي، أخبرنا أبو مصعب عن مالك عن زيد بن أسلم عن أبي نجيد الأنصاري، وهو عبد الرحمن بن نجيد، عن جدّته وهي أمّ نجيد: أن رسول الله ﷺ قال: «ردُّوا السائلَ ولو بظلف محرق»، وفي رواية: قال لها رسول الله ﷺ: «إنْ لم تجدي شيئاً إلّا ظِلفاً محرقاً فادفعيه إليه»، قوله تعالى: ﴿ وفي الرقاب ﴾، يعني: المكاتبين، قاله أكثر المفسرين، وقيل: عتق النَّسمَة وفكّ الرقبة، وقيل: فداء الأسارى، ﴿ وأقامَ الصلاةَ وآتى الزكاةَ ﴾: وأعطى الزكاة ﴿ والمُوفُون بعهدهم ﴾: فيما بينهم وبين الله عزّ وجلّ، وفيما بينهم وبين الناس، ﴿ إذا عاهدوا ﴾، يعني: إذا وعدوا أنجزوا، وإذا حلفوا ونذروا أوفوا، وإذا عاهدوا أوفوا وإذا قالوا صدقوا وإذا ائتُمِنوا أدّوا، واختلفوا في رفع قوله: ﴿ والموفون ﴾، قيل: هو عطف على خبر، معناه: ولكن ذا البرّ: المؤمنون والموفون بعهدهم، وقيل: تقديرهم الموفون كأنه عدّ أصنافاً، ثم قال: هم والموفون كذا، وقيل: رفع على الابتداء والخبر، يعني: وهم الموفون، ثم قال: ﴿ والصابرين ﴾، وفي نصبها أربعة أوجه، قال أبو عبيدة: نصبها على تطاول الكلام، ومن شأن العرب أن تغيّر الإعراب إذا طال الكلام والنسق، ومثله في قوله: ﴿ والمقيمين الصلاة ﴾ [النساء: ١٦٢] وفي قوله ﴿ والصابئون والنصارى ﴾ [المائدة: ٦٩] وقيل معناه: أعني الصابرين، وقيل: نصبه نسقاً على قوله: ﴿ ذوي القربى ﴾، أي: وأتى الصابرين، وقال الخليل: نصب على المدح، والعرب تنصب الكلام على المدح والذم كأنهم يريدون أفرادَ الممدوح والمذموم، فلا يتبعونه أول الكلام وينصبونه، فالمدح كقوله تعالى: ﴿ والمقيمين الصلاة ﴾ [النساء: ١٦٢]، والذمّ كقوله تعالى: ﴿ ملعونينَ أينما ثُقِفُوا ﴾ [الأحزاب: ٦١] قوله تعالى: ﴿ في البأساء ﴾، أي: الشدّة والفقر ﴿ والضرّاء ﴾: المرض والزمانة، ﴿ وحين البأس ﴾ أي القتال والحرب، أخبرنا المطهر بن علي بن عبد الله الفارسي، أخبرنا أبو ذر محمد بن إبراهيم الصالحاني، أخبرنا أبو محمد عبد الله بن محمد بن جعفر بن حبان، أخبرنا عبد الله بن محمد البغوي أخبرنا علي بن الجعد، أخبرنا زهير عن أبي إسحق عن حارثة بن مضرب عن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، قال: كنّا إذا احمرّ البأس ولقي القومُ القومَ اتّقينا برسول الله ﷺ، فما يكون أحدٌ أقرب إلى العدو منه، يعني: إذا اشتدّ الحرب، ﴿ أولئك الذين صدقوا ﴾: في إيمانهم، ﴿ وأولئك هم المتّقون ﴾: محارم الله.

قوله تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا كُتب عليكم القصاصُ ﴾، قال الشعبي والكلبي وقتادة: نزلت هذه الآية في

بسبب قتيل، فكانت بينهم قتلى وحروب وجراحات كثيرة، ولم يأخذ بعضهم من بعض حتى جاء الإسلام. وقيل نزلت في الأوس والخزرج، وكان لأحد الحيين طول على الآخر في الكثرة والشرف وكانوا ينكحون نساءهم بغير مهر، وأقسموا لنقتلن بالعبد منا الحر منهم وبالمرأة منا الرجل منهم وبالرجل منا الرجلين، وجعلوا جراحاتهم ضعفي جراحات أولئك فرفعوا أمرهم إلى النبي ﷺ فأنزل الله هذه الآية وأمره بالمساواة فرضوا وسلموا. وقيل: إنما نزلت هذه الآية لإزالة الأحكام التي كانت قبل مبعث النبي ﷺ، وذلك أن اليهود كانوا يوجبون القتل فقط بلا عفو والنصارى يوجبون العفو بلا قتل والعرب في الجاهلية كانوا يوجبون القتل تارة ويوجبون أخذ الدية تارة وكانوا يتعدون في الحكمين فإن وقع القتل على شريف قتلوا به عدداً ويأخذون دية الشريف أضعاف دية الخسيس، فلما بعث محمد ﷺ أوجب الله رعاية العدل وسوى بين عباده في حكم القصاص فأنزل الله تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم**﴾ أي فرض عليكم ﴿**القصاص في القتلى**﴾. فإن قلت: كيف يكون القصاص فرضاً والولي مخير فيه بين العفو والقصاص وأخذ الدية؟ قلت: إن القصاص فرض على القاتل للولي لا على الولي. وقيل إذا أردتم القصاص فقد فرض عليكم. والقصاص المساواة والمماثلة في القتل والدية والجراح من قص الأثر إذا اتبعه فالمفعول به يتبع ما فعل فيفعل به مثل ذلك، فلو قتل رجل رجلاً بعصا أو خنقه أو شدخ رأسه بحجر فمات فيقتل القاتل بمثل الذي قتل به وهو قول مالك والشافعي وإحدى الروايتين عن أحمد وقيل يقتل بالسيف وهو قول أبي حنيفة والرواية الثانية عن أحمد ﴿**الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى**﴾ ومعناه أنه إذا تكافأ الدمان من الأحرار المسلمين أو العبيد من المسلمين أو الأحرار من المعاهدين أو العبيد منهم فيقتل كل صنف إذ قتل بمثله الذكر بالذكر والأنثى بالأنثى وبالذكر ولا يقتل مؤمن بكافر ولا حر بعبد ولا والد بولد ويقتل الذمي بالمسلم والعبد بالحر والولد بالوالد هذا مذهب مالك والشافعي وأحمد ويدل عليه ما روى البخاري في صحيحه عن أبي جحيفة قال:

حَيَّيْنِ من أحياء العرب اقتتلوا في الجاهلية قُبيل الإسلام بقليل، وكانت بينهما قتلى وجراحات لم يأخذها بعضهم من بعض، حتى جاء الإسلام، **قال قتادة ومقاتل بن حيّان**: كانت بين بني قريظة والنضير، وقال سعيد بن جبير: كانت بن الأوس والخزرج، قالوا جمعاً: وكان لأحد الحَيَّيْنِ على الآخر طَوْل في الكثرة والشرف، وكانوا ينكحون نساءهم بغير مهور، فأقسموا لنقتلنّ بالعبد منّا الحُرّ منهم، وبالمرأة منّا الرجل منهم، وبالرجل منّا الرجلين منهم، وبالرجلين منّا أربعة رجال منهم، وجعلوا جراحاتهم ضِعْفي جراحات أولئك، فرفعوا أمرهم إلى النبي ﷺ، فأنزل الله تعالى هذه الآية، وأمر بالمساواة، فرضوا وأسلموا، قوله: ﴿ **كُتب عليكم القصاصُ** ﴾ أي: فُرض عليكم القصاص، ﴿ **في القتلى** ﴾، والقِصاص: المُسَاواة والمُمَاثلة في الجراحات والدِّيَات، وأصله من قصّ الأثر إذا اتّبعه، فالمفعول به يتبع ما فعل به فيفعل مثله، ثم بين المماثلة فقال: ﴿ **الحُرُّ بالحُرِّ والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى** ﴾، وجملة الحكم فيه أنه إذا تكافأ الدمان من الأحرار المسلمين، أو العبيد من المسلمين، أو الأحرار من المعاهدين أو العبيد منهم، قُتل من كل صنف منهم الذكر إذا قُتل بالذكر وبالأنثى، وتُقتل الأنثى إذا قُتلت بالأنثى وبالذكر، ولا يُقتل مؤمن بكافر ولا حرٌّ بعبد، ولا والدٌ بولد ولا مسلم بذمي، ويُقتل الذمي بالمسلم والعبدُ بالحرِّ والولدُ بالوالد، هذا قول أكثر أهل العلم من الصحابة ومَن بعدهم، أخبرنا عبد الوهاب بن محمد الخطيب أخبرنا عبد العزيز بن أحمد الخلال، أخبرنا أبو العباس الأصم أخبرنا الربيع بن سليمان، أنا الشافعي أخبرنا سفيان بن عيينة عن مطرف عن الشعبي عن أبي جُحيفة قال: «سألت علياً رضي الله عنه هل عندك عن النبي ﷺ شيءٌ سوى القرآن؟ فقال: لا والذي فلق الحبة وبرأ النَّسمة، إلاّ أن يُؤتي اللّهُ عبداً فهماً في القرآن، وما في هذه الصحيفة، قلت: وما في هذه الصحيفة؟ قال: فِكاكُ الأسير، ولا يُقتل مؤمنٌ بكافر»، ورُوِيَ عن ابن عباس قال: قال رسول

سألت علياً هل عندكم من النبي ﷺ شيء سوى القرآن قال لا والذي فلق الحبة وبرأ النسمة إلّا أن يؤتى الله عبداً فهماً في القرآن وما في هذه الصحيفة قلت: وما في هذه الصحيفة قال: العقل وفك الأسير وأن لا يقتل مؤمن بكافر، وقد أخرج مسلم عن علي نحو هذا من غير رواية أبي جحيفة. العقل هنا هو الدية والعاقلة الجماعة من أولياء القاتل الذين يعقلون. عن ابن عباس قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا تقام الحدود في المساجد، ولا يقتل الوالد بالولد» أخرجه الترمذي، وذهب أصحاب الرأي إلى أن المسلم يقتل الذمي والحر بالعبد وهذه الآية مع الأحاديث حجة لمذهب الشافعي ومن وافقه ويقولون هي مفسرة لما أبهم في قوله: «النفس بالنفس» وأن تلك واردة لحكاية ما كتب على بني إسرائيل في التوراة وهذه الآية خطاب للمسلمين بما كتب عليهم وذهب أصحاب الرأي إلى أن هذه منسوخة بقوله «النفس بالنفس» وتقتل الجماء بالواحد يدل عليه ما روى البخاري في صحيحه عن ابن عمر أن غلاماً قتل غيلة فقال عمر: لو اشترك فيه أهل صنعاء لقتلتهم به. قال البخاري وقال مغيرة بن حكيم عن أبيه: أن أربعة قتلوا صبياً فقال عمر مثله. وروى مالك في الموطأ عن ابن المسيب أن عمر قتل نفراً خمسة أو سبعة برجل واحد قتلوه غيلة وقال: لو تمالأ عليه أهل صنعاء لقتلهم جميعاً. الغيلة أن يقتل الرجل خديعة ومكراً من غير أن يعلم ما يراد به. وقوله لقتلتهم لو تمالأ أي تعاونوا واجتمعوا عليه. وقوله تعالى: ﴿فمن عفي له من أخيه شيء﴾ أي ترك له وصفح عنه من الواجب عليه وهو القصاص في قتل العمد، ورضي بالدية أو العفو عنها، أو قبول الدية في قتل العمد من أخيه أي من دم أخيه وأراد بالأخ ولي المقتول، وإنما قيل له أخ لأنه لابسه من قبل أنه ولي الدم والمطالب به. وقيل: إنما ذكره بلفظ الأخوة ليعطف أحدهما على صاحبه بما هو ثابت بينهما من الجنسية وأخوة الإسلام. وفي قوله شيء دليل على أن بعض الأولياء إذا عفا سقط القود وثبتت الدية لأن شيئاً من الدم قد بطل ﴿فاتباع بالمعروف﴾ أي فليتبع الولي القاتل بالمعروف فلا يأخذ أكثر من حقه ولا يعنفه ﴿وأداء إليه بإحسان﴾ أي على القاتل أداء الدية إلى ولي الدم من غير مماطلة، أمر كل واحد منهما بالإحسان فيما له وعليه وقيل في تقدير الآية: وإذا عفا ولي الدم عن شيء يتعلق بالقاتل، وهو وجوب القصاص فليتبع القاتل ذلك العفو بمعروف

الله ﷺ: «لا تُقام الحدودُ في المساجد ولا يُقاد بالولد الوالد»، وذهب الشعبي والنخعي وأصحاب الرأي إلى أن المسلم يُقتل بالكافر الذميّ، وإلى أن الحُرَّ يُقتل بالعبد، والحديث حجّة لمَن لم يُوجب القصاص على المسلم بقتل الذمي، وتُقتل الجماعة بالواحد، رُوِيَ عن سعيد بن المسيب أن عمر بن الخطاب قتل سبعة أو خمسة برجل قتلوه غيلة، وقال: لو تَمالأ عليه أهل صنعاء لقتلتهم به جميعاً، ويجري القصاص في الأطراف كما يجري في النفوس، إلّا في شيء واحد وهو أن الصحيح السَّوِيّ يُقتل بالمريض والزَّمِن، وفي الأطراف لو قطع يداً شلاء أو ناقصة بالإصبع لا تقطع بها الصحيحة الكاملة، وذهب أصحاب الرأي إلى أن القِصَاص في الأطراف لا يجري إلّا بين حرّين أو حرّتين، ولا يجري بين الذكر والأُنثى ولا العبد، ولا بين الحُرّ والعبد، وعند الآخرين الطرف في القصاص مَقِيسٌ عن النفس، أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف أخبرنا محمد بن إسماعيل أخبرنا عبد الله بن منيرة أنه سمع عبد الله بن بكر السهمي، أخبرنا حميد عن أنس بن النضر أن الربيع عمّته كسرتْ ثَنيةَ جارية فطلبوا إليها العفو فأبوا فعرضُوا الأرْشَ فأبوا فأتوا رسولَ الله ﷺ، فأبوا إلّا القصاص فأمر رسول الله ﷺ بالقصاص، قال أنس بن النضر: يا رسول الله أتُكسر ثنية عمّة الربيع، لا والذي بعثك بالحق لا تكسر ثنيتها، فقال رسول الله ﷺ: «يا أنس كتابُ الله القصاصُ»، فرضي القوم فعفوا، فقال رسول الله ﷺ: «إن من عباد الله مَن لو أقسم على الله لأبرّه»، قوله تعالى: ﴿ فمَن عُفي له من أخيه شيءٌ ﴾، أي: تَرك له وصَفح عنه من الواجب عليه وهو القصاص في قتل العمد، ورضي بالدِّيَةِ، هذا قول أكثر المفسّرين، قالوا: العفو أن يقبل الدِّية في

وليؤد ما وجب عليه من الدية إلى ولي الدم بإحسان من غير مطل ولا مدافعة. وفي الآية دليل على أن القاتل يصير كافراً وأن الفاسق مؤمن ووجه ذلك من وجوه: الأول إن الله تعالى خاطبه بعد القتل بالإيمان وسماه مؤمناً بقوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص﴾ فسماه مؤمناً حال ما وجب عليه من القصاص. وإنما وجب عليه بعد صدور القتل منه وقتل العمد والعدوان من الكبائر بالإجماع فدل على أن صاحب الكبيرة مؤمن.

الوجه الثاني: أنه تعالى أثبت الأخوة بين القاتل وولي الدم بقوله: ﴿فمن عفي له من أخيه شيء﴾ أراد بالأخوة أخوة الإيمان فلولا أن الإيمان باق على القاتل لم تثبت له الأخوة.

الوجه الثالث: أنه تعالى ندب إلى العفو عن القاتل، والعفو لا يليق إلّا عن المؤمن لا عن الكافر. وقوله تعالى: ﴿ذلك تخفيف من ربكم ورحمة﴾ يعني الذي ذكر من الحكم بشرع القصاص والعفو عن القصاص وأخذ الدية تخفيف من ربكم، يعني في حقكم ورحمة، وذلك لأن العفو وأخذ الدية كان حراماً على اليهود وكان القصاص حتماً في التوراة، وكان في شرع النصارى أخذ الدية ولم يكتب عليهم القصاص، وقيل: كان عليهم العفو دون القصاص وأخذ الدية فخير الله هذه الأمة بين القصاص أو العفو وأخذ الدية توسعة عليهم وتيسيراً وتفضيلاً لهم على غيرهم ﴿فمن اعتدى بعد ذلك﴾ يعني بعد هذا التخفيف فقتل الجاني بعد العفو أو قبول الدية ﴿فله عذاب أليم﴾ وهو أن يقتل قصاصاً ولا تقبل منه دية ولا يعفى عنه. وقيل: المراد بالعذاب الأليم عذاب الآخرة..

قتل العمد، وقوله: ﴿ من أخيه ﴾، أي: من دم أخيه، وأراد بالأخ: المقتول، والكنايتان في قوله: ﴿ له ﴾ ومن: ﴿ أخيه ﴾، ترجعان إلى ﴿ من ﴾ وهو القاتل، وقوله: ﴿ شيء ﴾ دليل على أن بعض الأولياء إذا عفا يسقط القَوَدُ لأنّ شيئاً من الدم قد بَطُل. قوله تعالى: ﴿ فاتّباعٌ بالمعروف ﴾، أي: على الطالب للدّية أن يتبع بالمعروف فلا يُطالب بأكثر من حقه، ﴿ وأداءٌ إليه بإحسان ﴾، أي: على المطلوب منه أداء الدية بالإحسان من غير مُماطلة، أُمر كلٌّ واحد منهما بالإحسان فيما له وعليه، ومذهب أكثر العلماء من الصحابة والتابعين: أن ولي الدم إذا عفا عن القصاص على الدية، فله أخذ الدية، وإن لم يرضَ به القاتل، وقال قوم: لا ديّة له إلّا برضى القاتل، وهو قول الحسن والنخعي وأصحاب الرأي، وحجّة المذهب الأول ما أخبرنا عبد الوهاب بن محمد الخطيب أخبرنا عبد العزيز بن أحمد الخلال، أخبرنا أبو العباس الأصم أخبرنا الربيع، أخبرنا الشافعي أخبرنا محمد بن إسماعيل بن أبي فُديك عن ابن أبي ذئب عن سعيد بن أبي سعيد المَقْبُري عن أبي شُريح الكعبي أنّ رسول الله ﷺ قال: «ثم أنتم يا خزاعة قد قتلتم هذا القتيل من هُذيل، وأنا والله عَاقِلُه فمَن قَتل بَعده قتيلاً فأهله بينَ خِيرتين إن أحبّوا قَتلوا وإن أحبوا أخذُوا العَقْل»، قوله تعالى: ﴿ ذلك تخفيفٌ منْ ربكم ورحمة ﴾، أي: ذلك الذي ذكرتُ من العفو عن القصاص وأخذ الدية تخفيف من ربّكم ورحمة، وذلك أن القصاص في النفس والجراح كان حتماً في التوراة على اليهود، ولم يكن لهم أخذ الدية، وكان في شرع النصارى الدية ولم يكن لهم القصاص، فخيّر الله هذه الأمة بين القصاص وبين العفو عن الدية تخفيفاً منه ورحمة، ﴿ فمَن اعتدى بعد ذلك ﴾، فقتل الجاني بعد العفو وقَبُول الدية، ﴿ فله عذابٌ أليم ﴾، وهو أن يقتل قصاصاً، قال ابن جريج: يتحتّم قتله حتى لا يقبل بعد العفو، وفي الآية دليل على أن القاتل لا يصير كافراً بالقتل، لأن الله تعالى خاطبه بعد القتل بخطاب الإيمان فقال: ﴿ يا أيّها الذين آمنوا كُتب عليكم القصاص ﴾، وقال في آخر الآية: ﴿ فمَن عُفي له من أخيه شيءٌ ﴾ وأرادَ بِهِ أخوّة الإيمان، فلم يقطع الأخوّة بينهما بالقتل.

﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿**ولكم في القصاص حياة**﴾ أي بقاء، وذلك أن القاصد للقتل إذا علم أنه إذا قتل قتل ترك القتل وامتنع عنه فيكون فيه بقاؤه وبقاء من هم بقتله. وقيل: إن نفس القصاص سبب للحياة وذلك أن القاتل إذا اقتص منه ارتدع غيره ممن كان يهم بالقتل. واعلم أن هذا الحكم ليس مختصاً بالقصاص الذي هو القتل بل يدخل فيه جميع الجراح والشجاج وغير ذلك لأن الجارح إذا علم أنه إذا جرح جرح لم يجرح، فيصير ذلك سبباً لبقاء الجارح والمجروح، وربما أفضت الجراحة إلى الموت فيقتص من الجارح. وقيل في معنى الآية إن الحياة سلامته من قصاص الآخرة فإنه إذا اقتص منه في الدنيا لم يقتص منه في الآخرة، وفي ذلك حياته وإذا لم يقتص منه في الدنيا اقتص منه في الآخرة ﴿**يا أولي الألباب**﴾ أي يا ذوي العقول الذين يعرفون الصواب لأن العاقل لا يريد إتلاف نفسه بإتلاف غيره ﴿**لعلكم تتقون**﴾ يعني لعلكم تنتهون عن القتل خوف القصاص.

قوله عز وجل: ﴿**كتب**﴾ أي فرض وأوجب ﴿**عليكم إذا حضر أحدكم الموت**﴾ أي قرب ودنا منه، وظهرت آثاره عليه من العلل والأمراض المخوفة وليس المراد منه معاينة الموت لأنه في ذلك الوقت يعجز عن الإيصاء ﴿**إن ترك خيراً**﴾ يعني مالاً قيل يطلق على القليل والكثير وهو قول الزهري: فتجب الوصية في الكل وقيل: إن لفظة الخير لا تطلق إلّا على المال الكثير وهو قول الأكثرين واختلفوا في مقدار الكثير الذي تقع فيه الوصية فقيل: ألف درهم فما زاد عليها. وقيل: سبعمائة فما فوقها. وقيل: ستون ديناراً فما فوقها. وقيل: إنه من خمسمائة إلى ألف وقيل: إنه المال الكثير الفاضل عن العيال، روي أن رجلاً قال لعائشة: إني أريد أن أوصي فقالت كم مالك؟ قال: ثلاثة آلاف درهم قالت: كم عيالك؟ قال أربعة. قالت إنما قال الله: ﴿**إن ترك خيراً**﴾ وهذا شيء يسير فاتركه لعيالك. ﴿**الوصية**﴾ أي الإيصاء والوصية التقدم إلى الغير بما يعمل به وقيل: هي القول المبين لما يستأنف من العمل والقيام به بعد الموت ﴿**للوالدين والأقربين**﴾ كانت الوصية في ابتداء الإسلام فريضة للوالدين والأقربين على من مات وله مال. وسبب ذلك أن أهل الجاهلية كانوا يوصون للأبعدين طلباً للفخر والشرف والرياء ويتركون

قوله تعالى: ﴿ **ولكم في القصاص حياة** ﴾، أي: بقاء، وذلك أن القاصد للقتل إذا علم أنه إذا قَتَل يُقتل، يمتنع عن القتل، فيكون فيه بقاؤه وبقاء مَن هَمَّ بقتله، وقيل في المثل: القتل أنفى للقتل، وقيل معنى الحياة: سلامته من قصاص الآخرة، فإنه إذا اقتُصّ منه في الدنيا حيي في الآخرة، وإذا لم يُقتصّ منه في الدنيا اقتُصّ منه في الآخرة، ﴿ **يا أُولي الألباب لعلّكم تتّقون** ﴾، أي: تنتهون عن القتل مخافة القَوَد.

قوله تعالى: ﴿ **كُتب عليكم** ﴾، أي: فُرض عليكم، ﴿ **إذا حضر أحدَكم الموتُ** ﴾، أي: جاء أسباب الموت وآثاره من العلل والأمراض، ﴿ **إن ترك خيراً** ﴾، أي: مالاً، نظيره قوله تعالى: ﴿ **وما تنفقوا من خير** ﴾ [البقرة: ٢٧٢ و٢٧٣] ﴿ **الوصيةُ للوالدين والأقربين** ﴾، كانت الوصية فريضة في ابتداء الإسلام للوالدين والأقربين على مَن مات وله مال، ثم نُسخت بآية الميراث، أخبرنا الإمام أبو علي الحسين بن محمد القاضي أخبرنا أبو طاهر محمد بن محمد بن محمش الزيادي، أخبرنا أبو بكر محمد بن عمر بن حفص التاجر، أخبرنا محمد بن أحمد بن الوليد، أخبرنا الهيثم بن جميل أخبرنا حمّاد بن سلمة عن قتادة عن شَهْر بن حَوْشَب عن عبد الرحمن بن غنم عن عمرو بن خارجة قال: كنت آخذاً بزمام ناقة النبي ﷺ فقال: «إنّ الله قد أعطى كلَّ ذي حقٍّ حقّه، فلا وصيةَ لوارث»، فذهب جماعة إلى أن وجوبها صار منسوخاً في حق الأقارب الذين يرثون، وبقي وجوبُها في حق الذي

الأقربين فقراء فأوجب الله تعالى الوصية للأقربين، ثم نسخت هذه الآية بآية المواريث، وبما روي عن عمرو بن خارجة قال: كنت آخذاً بزمام ناقة النبي ﷺ وهو يخطب فسمعته يقول: «إن الله أعطى كل ذي حق حقه فلا وصية لوارث» أخرجه النسائي والترمذي، نحوه وذهب ابن عباس إلى أن وجوبها صار منسوخاً في حق من يرث، وبقي وجوبها في حق من لا يرث من الوالدين والأقربين. وهو قول الحسن ومسروق وطاوس والضحاك ومسلم بن يسار وحجة هؤلاء أن الآية دالة على وجوب الوصية للوالدين والأقربين ثم نسخ ذلك الوجوب في حق من يرث بآية الميراث وبالحديث، المذكور فوجب أن تبقى الآية دالة على وجوب الوصية للقريب الذي لا يرث فعلى قول هؤلاء النسخ يتناول بعض أحكام الآية، وذهب الأكثرون من المفسرين والعلماء وفقهاء الحجاز والعراق إلى أن وجوبها صار منسوخاً في حق الكافة وهي مستحبة في حق من لا يرث ويدل على استحباب الوصية والحث عليها ما روي عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «ما حق امرىء مسلم له شيء يوصي فيه» وفي رواية: «له شيء يريد أن يوصي به أن يبيت ليلتين» وفي رواية: «ثلاث ليال إلّا ووصيته مكتوبة عنده» قال نافع سمعت عبدالله بن عمر يقول: ما مرت علي ليلة منذ سمعت رسول الله ﷺ يقول ذلك إلّا ووصيتي مكتوبة عندي أخرجه الجماعة. قوله: ما حق امرىء الحق يشتمل معناه على الوجوب والندب والحث، فيحمل هنا على الحث في الوصية لأنه لا يدري متى يأتيه الموت فربما أتاه بغتة فيمنعه عن الوصية. وقوله تعالى: ﴿**بالمعروف**﴾ أي بالعدل الذي لا وكس فيه ولا شطط فلا يزيد على الثلث ولا يوصي للغني ويدع الفقير (ق) عن سعد بن أبي وقاص قال: «جاءني رسول الله ﷺ يعودني عام حجة الوداع من وجع اشتد بي فقلت يا رسول الله إني قد بلغ بي من الوجع ما ترى، وأنا ذو مال ولا يرثني إلّا ابنة لي أفأتصدق بثلثي ما لي قال لا قلت فالشطر يا رسول الله قال لا قلت فالثلث قال الثلث والثلث كثير أو قال والثلث كبير إنك إن تذر ذريتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس» العالة الفقراء وقوله يتكففون الناس التكفف. المسألة: من الناس كأنه من الطلب بالأكف (ق) عن ابن عباس قال: في الوصية: لو أن الناس غضوا من الثلث إلى الربع فإن النبي ﷺ قال لسعد والثلث كثير وقال علي بن أبي طالب لأن أوصي بالخمس أحب

يرثون من الوالدَين والأقارب، وهو قول ابن عباس وطاوس وقتادة والحسن، قال طاوس: مَن أوصى لقوم سمّاهم وترك ذَوِي قرابته محتاجين، انتُزِعَتْ منهم ورُدّتْ إلى ذَوِي قرابته، وذهب الأكثرون إلى أن الوجوب صار منسوخاً في حقّ الكافّة، وهي مستحبّة في حق الذين لا يرثون، أخبرنا أبو الحسن السرخسي أخبرنا طاهر بن أحمد، أخبرنا إسحق الهاشمي أخبرنا أبو مصعب، عن مالك عن نافع عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «ما حق امرىء مسلم له شيءٌ يُوصي فيه، يَبِيْتُ ليلتين إلّا ووصيّته مكتوبةٌ عند رأسه». قوله تعالى: ﴿ **بالمعروف** ﴾، يُريد: يُوصي بالمعروف ولا يزيد على الثلث، ولا يُوصي للغني ويدع الفقير، قال ابن مسعود: الوصية للأخل فالأخل، أي: الأحوج فالأحوج، أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحي أخبرنا أبو بكر أحمد بن الحسين الخيري، أخبرنا أبو جعفر محمد بن علي بن رحيم الشيباني، أخبرنا أحمد بن حازم بن أبي عُروة أخبرنا عبد الله بن موسى وأبو نُعيم عن سفيان الثّوري، عن سعيد بن إبراهيم، عن عامر بن سعيد عن سعد بن مالك قال: جاءني النبيّ ﷺ يعودني فقلت: يا رسول الله أوصي بمالي كله، قال: «لا»، قلت: فالشطر، قال: «لا»، قلت: فالثلث، قال: «الثلث والثلث كثير، إنك إن تدع ورثَتك أغنياءَ خيرٌ من أن تدعهم عَالةً يتكفّفون الناس بأيديهم»، فقوله: «يتكففون الناس» أي: يسألون الناس الصدقة بأكفِّهم، وعن ابن أبي مُليْكَةَ أن رجلاً قال لعائشة رضي اللّهُ عنها: إني أُريد أن أُوصي، قالت: كم مالك؟ قال: ثلاثة آلاف، قالت: كم عِيالُكَ؟ قال: أربعة، قالت: إنما قال الله: ﴿ **إن ترك خيراً** ﴾، وإن هذا شيءٌ يسير فاتركه لعيالك. وقال عليّ رضي الله عنه: لأن أُوصي بالخُمُسِ أحبّ إليّ من أن أُوصي بالربع، ولأن أُوصي

إلي من أن أوصي بالربع ولأن أوصي بالربع أحب إلي من أن أوصي بالثلث فمن أوصى بالثلث فلم يترك» وقيل يوصي بالسدس أو بالخمس أو الربع ﴿حقاً﴾ أي ثابتاً ثبوت ندب لا ثبوت فرض ووجوب ﴿على المتقين﴾ أي على المؤمنين الذين يتقون الشرك.

﴿فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعْدَ مَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ١٨١﴾

﴿فمن بدله﴾ أي غير الوصية من الأولياء والأوصياء وذلك التغيير يكون إما في الكتابة أو في قسمة الحقوق، أو الشهود بأن يكتموا الشهادة أو يغيروها. وإنما ذكر الكناية في بدله مع أن الوصية مؤنثة لأن الوصية بمعنى الإيصاء كقوله: «فمن جاءه موعظة» أي وعظ والتقدير فمن بدل قول الميت، أو ما أوصي به ﴿بعد ما سمعه﴾ أي من الموصي وتحققه ﴿فإنما إثمه على الذين يبدلونه﴾ أي إن إثم ذلك التبديل لا يعود إلاّ على المبدل، والموصي والموصى له بريئان منه ﴿إن الله سميع﴾ يعني لما أوصى به الموصي ﴿عليم﴾ يعني بتبديل المبدل.

﴿فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ١٨٢ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ١٨٣﴾

﴿فمن خاف﴾ أي علم وهو خطاب عام لجميع المسلمين ﴿من موص جنفاً﴾ يعني جوراً في الوصية وعدولاً عن الحق، والجنف الميل ﴿أو إثماً﴾ أي ظلماً ﴿فأصلح بينهم﴾ وقيل الجنف الخطأ في الوصية والإثم العمد. وقيل في معنى الآية: إنه إذا حضر رجل مريضاً وهو يوصي فرآه يميل في وصيته إما بتقصير أو إسراف أو وضع الوصية في غير موضعها فلا حرج عليه أن يأمره بالعدل في وصيته وينهاه عن الجنف والميل، وقيل إنه أراد به إذا أخطأ الميت في وصيته أو حاف متعمداً فلا حرج على وليه أو وصيه أو ولي أمور المسلمين أن يصلح بعد موته بين ورثته وبين الموصى لهم، ويرد الوصية إلى العدل والحق ﴿فلا إثم عليه﴾ أي فلا حرج عليه في الصلح ﴿إن الله

بالربع أحبّ إليّ من أن أُوصي بالثلث، فمَن أوصى بالثلث فلم يترك. وقال الحسن البصري رضي الله عنه: يُوصي بالسدس أو الخمس أو الربع. وقال الشعبي: إنما كانوا يُوصون بالخمس أو الربع. قوله تعالى: ﴿ حقاً ﴾ نُصب على المصدر، وقيل: على المفعول، أي: جعلَ الوصيةَ حقاً، ﴿ على المتّقين ﴾: المؤمنين.

قوله تعالى: ﴿ فمَنْ بدَّلَهُ ﴾، أي: غيّر الوصيةَ عنِ الأوصياء أو الأولياء أو الشهود، ﴿ بعد ما سمعه ﴾، أي: بعد ما سمع قول الموصي، ولذلك ذكر الكناية مع كون الوصية مؤنّثة، وقيل: الكناية راجعة إلى الإيصاء، كقوله تعالى: ﴿ فمَن جاءه موعظة من ربّه ﴾ [البقرة: ٢٧٥]، رَدّ الكنايةَ إلى الوعظ، ﴿ فإنما إثمه على الذين يُبدِّلونه ﴾، والميتُ بريءٌ منه، ﴿ إنّ الله سميع ﴾، لما أوصى به الموصي، ﴿ عليم ﴾: بتبديل المُبدِّل أو سميع لوصيّته عليم بنيّته.

قوله تعالى: ﴿ فمَنْ خاف ﴾، أي علم، كقوله تعالى: ﴿ فإن خفتم ألاّ يُقيما حدودَ الله ﴾ [البقرة: ٢٢٩]، أي: علمتم، ﴿ مِنْ موصٍ ﴾، قرأ حمزة والكسائي وأبو بكر ويعقوب بفتح الواو وتشديد الصاد، كقوله تعالى: ﴿ ما وَصّى به نوحاً ﴾ [الشورى: ١٣] ﴿ ووصّينا الإنسان ﴾ [العنكبوت: ٨، لقمان: ١٤، الأحقاف: ١٥]، وقرأ الآخرون بسكون الواو وتخفيف الصاد، كقوله تعالى: ﴿ يُوصيكم الله في أولادكم من بعد وصية يُوصي بها أو دين ﴾ [النساء: ١١ و١٢]، ﴿ جنفاً ﴾ أي: جَوراً وعدولاً عن الحق، والجنفُ: الميلُ، ﴿ أو إثماً ﴾ أي: ظلماً، وقال السدي وعكرمة والربيع: الجَنَفُ: الخطأ، والإثم: العمد، ﴿ فأصلح بينهم، فلا إثم عليه ﴾، واختلفوا في

غفور رحيم﴾ أي لمن أصلح وصيته بعد الجنف والميل. عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن رسول الله ﷺ قال: «إن الرجل والمرأة ليعمل بطاعة الله ستين سنة، ثم يحضرهما الموت فيضاران في الوصية فتجب لهما النار» ثم قرأ أبو هريرة: «من بعد وصية يوصي بها أو دين» إلى قوله: «ذلك الفوز العظيم» أخرجه أبو داود والترمذي. قوله: فيضار إن المضارة إيصال الضرر إلى شخص ومعنى المضارة في الوصية أن لا تمضى أو ينقص بعضها أو يوصي لغير أهلها أو يحيف في الوصية ونحو ذلك. قوله عز وجل: ﴿يا أيها الذين آمنوا كتب﴾ أي فرض ﴿عليكم الصيام﴾. والصوم في اللغة: الإمساك يقال صام النهار إذا اعتدل وقام قائم الظهيرة ومنه قوله تعالى: ﴿إني نذرت للرحمن صوماً﴾ أي صمتاً لأنه إمساك عن الكلام، والصوم في الشرع: عبارة عن الإمساك عن الأكل والشرب والجماع في وقت مخصوص وهو من طلوع الفجر إلى غروب الشمس مع النية ﴿كما كتب على الذين من قبلكم﴾ يعني من الأنبياء والأمم من لدن آدم إلى عهدكم والمعنى أن الصوم عبادة قديمة أي في الزمن الأول ما أخلى الله أمة لم يفرضه عليهم كما فرضه عليكم وذلك لأن الصوم عبادة شاقة والشيء الشاق إذا عم سهل عمله وقيل إن صيام شهر رمضان كان واجباً على النصارى كما فرض علينا فصاموا رمضان زماناً فربما وقع في الحر الشديد والبر الشديد وكان يشق ذلك عليهم في أسفارهم ويضرهم في معايشهم فاجتمع رأي علمائهم ورؤسائهم أن يجعلوه في فصل من السنة معتدل بين الصيف والشتاء: فجعلوه في فصل الربيع ثم زادوا فيه عشرة أيام كفارة لما صنعوا فصاموا أربعين يوماً، ثم بعد زمان اشتكى ملكهم فمه فجعل لله عليه إن هو برأ من وجعه أن يزيد في صومهم

معنى الآية قال مجاهد: معناها أن الرجل إذا حضر مريضاً وهو يُوصي فرآه يميل إمّا بتقصير أو إسراف أو وضع الوصية في غير موضعها، فلا حرج على مَن حضره أن يأمره بالعدل وينهاه عن الجنف، فينظر للموصَى له والورثة، وقال الآخرون: إنه أراد به أنه إذا أخطأ الميتُ في وصيّته أو جارَ متعمِّداً فلا حرج على وليّه أو وصيّه أو وَالي أمور المسلمين أن يُصلح بعد موته بين ورثته وبين الموصَى لهم، ويردّ الوصيةَ إلى العدل والحق ﴿ فلا إثم عليه ﴾، أي: لا حرج عليه، ﴿ إن الله غفور رحيم ﴾، وقال طاوس: «جَنَفُهُ» توجيهه، وهو أن يُوصي لبني بنيه، يُريد ابنه أو ولد ابنته ولزوج ابنته يُريد بذلك ابنته، وقال الكلبي: كان الأولياء والأوصياء يُمضون وصيّة الميت بعد نزول قوله تعالى: ﴿ فمَن بدّله بعد ما سمعه ﴾ [البقرة: ١٨١] الآية، وإن استغرق المال كله، ولم يبقَ للورثة شيء، ثم نسخها قوله تعالى: ﴿ فمَن خاف منْ مُوصٍ جنفاً ﴾ الآية، قال ابن زيد: فعجز الموصي أن يُوصي للوالدين والأقربين كما أمر الله تعالى، وعجز الوصي أن يُصلح، فانتزع الله تعالى ذلك منهم، ففرض الفرائض. رُوِيَ عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: «إن الرجل ليعمل أو المرأة بطاعة الله ستّين سنة، ثم يحضرهما الموت فيَضارّان في الوصية فتجبُ لهما النار»، ثم قرأ أبو هريرة ﴿ منْ بعد وصيةٍ ﴾ إلى قوله: ﴿ غير مضار ﴾ [النساء: ١١ و١٢].

قوله تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا كُتب عليكم الصيام ﴾، أي: فُرض وأُوجب الصومُ، والصيام في اللغة: الإمساك، يُقال: صام النهار إذا اعتدل وقام قائم الظهير، لأن الشمس إذا بلغت كبد السماء كأنها وقفت وأمسكت عن السير سريعة، ومنه قوله تعالى: ﴿ فقولي إني نذرتُ للرحمن صوماً ﴾ [مريم: ٢٦] أي: صمتاً، لأنه إمساك عن الكلام، وفي الشريعة: الصوم وهو الإمساك عن الأكل والشرب والجماع مع النيَّة في وقت مخصوص. ﴿ كما كُتب على الذين من قبلكم ﴾: من الأنبياء والأمم، واختلفوا في هذا التشبيه، فقال سعيد بن جُبير: كان صوم من قبلنا من العتمة إلى الليلة القابلة، كما كان في ابتداء الإسلام، وقال جماعة من أهل العلم: أراد أن صيام رمضان كان واجباً على النصارى، كما فُرض علينا، فربّما كان يقع في الحرِّ الشديد والبرد الشديد، وكان يشقّ عليهم في أسفارهم ويضرّهم في معايشهم، فاجتمع رأي علمائهم ورؤسائهم على أن يجعلوا صيامهم في فصل من السنة بين

أسبوعاً فبرأ فزاد فيه أسبوعاً، ثم مات ذلك الملك بعد زمان ووليهم ملك آخر فقال: ما شأن هذه الثلاثة أيام أتموه خمسين يوماً فأتموه وقيل أصابهم موتان فقالوا: زيدوا في صيامكم فزادوا عشراً قبله وعشراً بعده. وقيل: إن النصارى فرض الله عليهم صوم رمضان فصاموا قبله يوماً وبعده يوماً ثم لم يزالوا يزيدونه يوماً بعد يوم حتى بلغ خمسين فلذلك نهى عن صوم يوم الشك ﴿لعلكم تتقون﴾ يعني ما حرم عليكم في صيامكم لأن الصوم وصلة إلى التقوى لما فيه من كسر النفس وترك الشهوات من الأكل والجماع وغيرهما. وقيل: معناه لعلكم تتقون ما فعله النصارى من تغيير الصوم وقيل: لعلكم تنتظمون في زمرة المتقين لأن الصوم من شعارهم.

أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (١٨٤)

﴿أياماً معدودات﴾ أي مقدرات. وقيل قليلات. قيل: إنه كان في ابتداء الإسلام صوم ثلاثة أيام من كل شهر واجباً وصوم يوم عاشوراء ثم نسخ ذلك بفريضة صوم شهر رمضان. قال ابن عباس أول ما نسخ بعد الهجرة أمر القبلة ثم الصوم (ق) عن عائشة قالت: كان يوم عاشوراء تصومه قريش في الجاهلية، وكان رسول الله ﷺ يصومه في الجاهلية فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة صامه وأمر بصيامه فلما فرض رمضان ترك عاشوراء فمن شاء صامه ومن شاء تركه وقيل إن المراد من قوله أياماً معدودات أيام شهر رمضان ووجهه أن الله تعالى قال أولاً: ﴿كتب عليكم الصيام﴾ وهذا يحتمل صوم يوم أو يومين ثم بينه بقوله: معدودات على أنه أكثر من ذلك لكنها غير منحصرة

الشتاء والصيف، فجعلوه في الربيع وزادوا فيه عشرة أيام كفّارة لما صنعوا، فصار أربعين، ثم إن مَلِكاً لهم اشتكى فمه، فجعل لله عليه إن هو برأ من وجعه أن يزيد في صومهم أسبوعاً فبرأ، فزاد فيه أسبوعاً، ثم مات ذلك الملك ووليهم ملك آخر فقال: أتمّوه خمسين يوماً، وقال مجاهد: أصابهم موتان فقالوا: زيدوا في صيامكم، فزاد فيه عشراً قبلُ وعشراً بعدُ، قال الشعبي: لو صمت السنة كلها لأفطرت اليوم الذي يُشكّ فيه، فيقال من شعبان، ويقال من رمضان، وذلك أن النصارى فرض الله عليهم شهر رمضان فصاموا قبله يوماً وبعده يوماً، ثم لم يزل الآخر يستنّ بسنّة القَرْن الذي قبله حتى صاروا إلى خمسين يوماً، فذلك قوله تعالى: ﴿ **كما كُتب على الذين من قبلكم** ﴾، ﴿ **لعلّكم تتّقون** ﴾، يعني: بالصوم، لأن الصوم وصلة إلى التقوى، لِما فيه من قهر النفس وكسر الشهوات، وقيل: ﴿ **لعلكم تتّقون** ﴾ تحذرون عن الشهوات من الأكل والشرب والجماع.

﴿ **أياماً معدودات** ﴾، قيل: كان في ابتداء الإسلام صوم ثلاثة أيام من كل شهر واجباً، وصوم يوم عاشوراء، فصاموا كذلك من الربيع إلى شهر رمضان سبعة عشر شهراً، ثم نُسخ بصوم رمضان، قال ابن عباس: أول ما نُسخ بعد الهجرة أمر القِبلة والصوم، ويقال: نزل صوم شهر رمضان قبل بدر بشهر وأيام، قال محمد بن إسحق: كانت غزوة بدر يوم الجمعة لسبع عشر ليلة خلتْ من شهر رمضان على رأس ثمانية عشر شهراً من الهجرة، حدّثنا أبو الحسن الشيرازي أخبرنا زَاهر بن أحمد، أخبرنا أبو إسحق الهاشمي أخبرنا أبو مصعب، عن مالك عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة أم المؤمنين أنها قالت: كان يوم عاشوراء يوماً تصومه قريشٌ في الجاهلية، وكان رسول الله ﷺ يصومه في الجاهلية، فلما قَدِمَ رسول الله ﷺ المدينة صامه وأمر الناس بصيامه، فلما فُرض رمضان كان هو الفريضة، وتركَ يومَ عاشوراء، فمَن شاء صامه ومَن شاء تركه. وقيل: المراد من قوله: ﴿ **أياماً معدودات** ﴾: شهر رمضان، وهي غير منسوخة، ونصب ﴿ **أياماً** ﴾ على الظرف، أي: في أيامٍ معدودات، وقيل: على التفسير، وقيل: على هو خير ما لم يسمّ فاعله ﴿ **فمَن كان منكم مريضاً أو على سَفرٍ فَعِدّة** ﴾، أي فأفطر فعدّة ﴿ **من أيام**

بعدد ثم بين حصرها بقوله: شهر رمضان فإذا أمكن ذلك فلا وجه لحمل الأيام المعدودات على غير رمضان فتكون الآية غير منسوخة يقال: إن فريضة رمضان نزلت في السنة الثانية من الهجرة وذلك قبل غزوة بدر بشهر وأيام، وكانت غزوة بدر يوم الجمعة لسبع عشر ة خلت من رمضان على رأس ثمانية عشر شهراً من الهجرة ﴿**فمن كان منكم مريضاً أو على سفر**﴾ أي فأفطر ﴿**فـ**﴾ عليه ﴿**عدة من أيام أخر**﴾ يعني غير أيام مرضه وسفره ﴿**وعلى الذين يطيقونه**﴾ أي يطيقون الصوم. واختلف العلماء في حكم هذه الآية فذهب أكثرهم إلى أنها منسوخة وهو قول عمر بن الخطاب وسلمة بن الأكوع وغيرهما، وذلك أنهم كانوا في ابتداء الإسلام مخيرين بين أن يصوموا وبين أن يفطروا ويفدوا وإنما خيرهم الله تعالى لئلا يشق عليهم، لأنهم كانوا لم يتعودوا الصوم ثم نسخ التخيير ونزلت العزيمة بقوله تعالى: ﴿فمن شهد منكم الشهر فليصمه﴾ فصارت هذه الآية ناسخة للتخيير (ق) عن سلمة بن الأكوع قال لما نزلت هذه الآية ﴿**وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين**﴾ كان من أراد أن يفطر ويفتدي فعل حتى نزلت هذه الآية التي بعدها فنسخها وفي رواية حتى نزلت هذه الآية ﴿فمن شهد منكم الشهر فليصمه﴾، وقال قتادة: هي خاصة في حق الشيخ الكبير الذي لا يطيق الصوم ولكن يشق عليه رخص له أن يفطر ويفتدي ثم نسخ ذلك. وقال الحسن: هذا في المريض الذي يقع عليه اسم المرض وهو يستطيع الصوم خير بين الصيام وبين أن يفطر ويفتدي ثم نسخ. وذهب جماعة منهم ابن عباس إلى أن الآية محكمة غير منسوخة، ومعناها وعلى الذين كانوا يطيقونه في حال الشباب، ثم عجزوا عنه عند الكبر فعليهم الفدية بدل الصوم وقرأ ابن عباس: وعلى الذين

أُخَر ﴾، أي: فعليه عدّة، والعدد والعدّة واحد من أيام أُخر، أي: غير أيام مرضه وسفره، و﴿ **أُخر** ﴾ في موضع خفض، لكنّها لا تنصرف، فلذلك نُصبت، قوله تعالى: ﴿ **وعلى الذين يُطيقونه** ﴾، اختلف العلماء في تأويل هذه الآية وحُكمها، فذهب أكثرهم إلى أن الآية منسوخة، وهو قول ابن عمرو سلمة بن الأكوع وغيرهما، وذلك أنهم كانوا في ابتداء الإسلام مُخيّرين بين أن يصوموا وبين أن يفطروا أو يفتدوا، خَيّرهم الله تعالى لئلا يَشُقّ عليهم، لأنهم كانوا لم يتعوّدوا الصوم، ثم نُسخ التخيير ونزلتِ العزيمةُ بقوله تعالى: ﴿ فَمَنْ شهد منكم الشهرَ فَلْيَصُمْه ﴾ [البقرة: ١٨٥]، قال قتادة: هي خاصّة في حق الشيخ الكبير الذي يطيق الصوم، ولكن يشقّ عليه، رُخّص له في أن يفطر ويفدي، ثم نُسخ، وقال الحسن: هذا في المريض الذي به ما يقع عليه اسم المرض وهو مستطيع للصوم، خُيِّر بين أن يصوم وبين أن يفطر أو يفدي، ثم نُسخ بقوله تعالى: ﴿ فمَن شهد منكم الشهر فليصمه ﴾ [البقرة: ١٨٥] وثبتتِ الرخصةُ للذين يُطيقون، وذهب جماعة إلى أن الآية محكمة غير منسوخة، ومعناه: وعلى الذين كانوا يطيقونه في حال الشباب فعجزوا عنه في حال الكِبَر فعليهم الفدية بدل الصوم، وقرأ ابن عباس ﴿ **وعلى الذين يطيقونه** ﴾ بضم الياء وفتح الطاء وتخفيفها وفتح الواو وتشديدها، أي: يُكلّفون الصوم، وتأويله: على الشيخ الكبير والمرأة الكبيرة لا يستطيعان الصوم، والمريض الذي لا يُرجَى زوال مرضه، فهم يُكلّفون الصوم ولا يُطيقونه، فلهم أن يفطروا ويُطعموا مكان كل يوم مسكيناً، وهو قول سعيد بن جُبير، وجعل الآيةَ محكمة. قوله تعالى: ﴿ **فِدْيَةٌ طعامُ مسكين** ﴾، قرأ أهل المدينة والشام مضافاً، وكذلك في قوله: ﴿ كفّارةٌ طعامُ مساكين ﴾ [المائدة: ٩٥]، أضاف الفدية إلى الطعام، وإن كان واحداً لاختلاف اللفظين، كقوله تعالى: ﴿ وحبَّ الحصيد ﴾ [قٓ: ٩]، وقولهم: مسجد الجامع، وربيع الأول، وقرأ الآخرون (فدية وكفّارة) منوّنة، (وطعام)، رفع، وقرأ (مساكين) بالجمع هنا، أهل المدينة والشام، وآخرون على التوحيد، فمَن جمع نصب النون، ومَن وحّد خفض النون ونوّنها، والفدية: الجزاء، ويجب أن يطعم مكان كل يوم مسكيناً مُدّاً من الطعام بِمُدّ النبيّ ﷺ وهو رطل وثلث من غالب قوت البلد، هذا قول فقهاء الحجاز، وقال بعض فقهاء أهل العراق: عليه لكل مسكين نصف صاع لكل

يطوقونه بضم الياء وفتح الطاء وبالواو المشددة المفتوحة عوض الياء ومعناه يكلفون الصوم (خ) عن عطاء أنه سمع ابن عباس يقرأ: ﴿**وعلى الذين يطوقونه فدية طعام مسكين**﴾ قال ابن عباس: ليست بمنسوخة هو الشيخ الكبير والمرأة الكبيرة لا يستطيعان أن يصوما فيطعمان مكان كل يوم مسكيناً ﴿**فدية طعام مسكين**﴾ الفدية الجزاء وهو القدر الذي يبذله الإنسان، يقي به نفسه من تقصير وقع منه في عبادة ونحوها ويجب على من أفطر في رمضان ولم يقدر على القضاء، لكبر أن يطعم مكان كل يوم مسكيناً مداً من غالب قوت البلد وهذا قول فقهاء الحجاز، وقال بعض فقهاء العراق عليه لكل مسكين نصف صاع عن كل يوم وقال بعضهم نصف صاع من البر وصاع من غيره، وقال ابن عباس يعطي كل مسكين عشاءه وسحوره ﴿**فمن تطوع خيراً فهو خير له**﴾ يعني زاد على مسكين واحد فأطعم عن كل يوم مسكينين فأكثر، وقيل فمن زاد على قدر الواجب عليه فأطعم صاعاً وعليه مد فهو خير له ﴿**وأن تصوموا خير لكم**﴾ قيل هو خطاب مع الذين يطيقونه فيكون المعنى وأن تصوموا أيها المطيقون وتتحملوا المشقة فهو خير لكم من الإفطار والفدية، وقيل: هو خطاب مع الكافة وهو الأصح لأن اللفظ عام فرجوعه إلى الكل أولى ﴿**إن كنتم تعلمون**﴾ يعني أن الصوم خير لكم وقيل: معناه إذا صمتم علمتم ما في الصوم من المعاني المورثة للخير والتقوى. واعلم أنه لا رخصة لأحد من المسلمين المكلفين في إفطار رمضان بغير عذر والأعذار المبيحة للفطر ثلاثة: أحدها السفر والمرض والحيض والنفاس فهؤلاء إذا أفطروا فعليهم القضاء دون الكفارة. الثاني الحامل والمرضع إذا خافتا على ولديهما أفطرتا وعليهما القضاء والكفارة وإليه ذهب الشافعي، وذهب أهل الرأي إلى أنه لا فدية عليهما. الثالث الشيخ الكبير والعجوز الكبيرة والمريض الذي لا يرجى برؤه فعليهم الكفارة دون القضاء.

شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَـٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾

قوله عز وجل: ﴿**شهر رمضان**﴾ يعني وقت صيامكم شهر رمضان، سمي الشهر شهراً لشهرته يقال:

يوم يفطر، وقال بعضهم: نصف صاع من قمح أو صاع من غيره، وقال بعض الفقهاء: ما كان المفطر يتقوّته يومَهُ الذي أفطره، وقال ابن عباس: يُعطي كل مسكين عشاءَهُ وسُحورَه، ﴿ **فَمَنْ تطوّع خيراً فهو خيرٌ له** ﴾، أي: زاد على مسكين واحد فأطعم مكان كل يوم مسكينين فأكثر، قاله مجاهد وعطاء وطاوس، وقيل: مَن زاد على القدر الواجب عليه فأعطى صاعاً وعليه مُدّ فهو خير له، ﴿ **وأنْ تَصُومُوا خيرٌ لكم** ﴾، فمَن ذهب إلى النسخ قال معناه: الصوم خير له من الفدية، وقيل هذا في الشيخ الكبير لو تكلّف الصوم، وإن شقّ عليه فهو خير له من أن يفطرَ ويفدي، ﴿**إنْ كنتم تعلمون**﴾، واعلمْ أنّه لا رُخصةَ لمؤمنٍ مُكلّفٍ في إفطار رمضان إلّا لثلاثة، أحدهم: يجب عليه القضاء والكفّارة، والثاني: عليه القضاء دون الكفّارة، والثالث: عليه الكفّارة دون القضاء، أمّا الذي عليه القضاء والكفّارة: فالحامل والمرضع، إذا خافتا على ولديهما فإنهما تفطران وتقضيان، وعليهما مع القضاء الفدية، وهو قول ابن عمر وابن عباس وبه قال مجاهد، وإليه ذهب الشافعي رحمه الله، وقال قوم: لا فدية عليهما، وبه قال الحسن وعطاء وإبراهيم النَّخَعِي والزهري، وإليه ذهب الأوزاعي والثّوري وأصحاب الرأي، وأمّا الذي عليه القضاء دون الكفّارة: فالمريض والمسافر والحائض والنفساء، وأمّا الذي عليه الكفّارة دون القضاء فالشيخ الكبير والمريض الذي لا يُرجى زوال مرضه، ثم بيّن الله تعالى أيام الصيام فقال:

﴿ **شهرُ رمضان** ﴾، رفعه على معنى: هو شهر رمضان، وقال الكسائي كُتب عليكم شهر رمضان، وسُمّي

للسر إذا أظهره شهره وسمي الهلال شهراً لشهرته وبيانه وقيل: سمي الشهر شهراً باسم الهلال، وأما رمضان فاشتقاقه من الرمضاء وهي الحجارة المحماة في الشمس وقيل: إنهم لما نقلوا أسماء الشهور عن اللغة القديمة سموها بالأزمنة التي وقعت فيها، فوافق هذا الشهر أيام رمض الحر فسموه به. وقيل: إن رمضان اسم من أسماء الله تعالى فيكون معناه شهر الله والأصح أن رمضان اسم لهذا الشهر كشهر رجب وشهر شعبان وشهر رمضان ﴿الذي أنزل فيه القرآن﴾ لما خص الله شهر رمضان بهذه العبادة العظيمة بين سبب تخصيصه بإنزال أعظم كتبه فيه، والقرآن اسم لهذا الكتاب المنزل على رسول الله ﷺ روي عن الشافعي أنه كان يقول القرآن اسم وليس بمهموز وليس هو من القراءة ولكنه اسم لهذا الكتاب كالتوراة والإنجيل فعلى هذا القول إنه ليس بمشتق وذهب الأكثرون إلى أنه مشتق من القرء وهو الجمع فسمي قرآناً لأنه يجمع السور والآيات بعضها إلى بعض، ويجمع الأحكام والقصص والأمثال والآيات الدالة على وحدانية الله تعالى. قال ابن عباس أنزل القرآن جملة واحدة من اللوح المحفوظ في ليلة القدر من شهر رمضان فوضع في بيت العزة في سماء الدنيا، ثم نزل به جبريل على محمد ﷺ نجوماً في ثلاث وعشرين سنة فذلك قوله: «فلا أقسم بمواقع النجوم» وروى أبو داود عن النبي ﷺ أنه قال: «أنزلت صحف إبراهيم في ثلاث ليال مضين من رمضان، وفي رواية في أول ليلة من رمضان وأنزلت توراة موسى في ست ليال مضين من رمضان وأنزل إنجيل عيسى في ثلاث عشرة ليلة مضت من رمضان، وأنزل زبور داود في ثمان عشرة ليلة مضت من رمضان، وأنزل الفرقان على محمد ﷺ في الرابعة والعشرين لست بقين بعدها» فعلى هذا يكون ابتداء نزول القرآن على محمد ﷺ في شهر رمضان، وهو قول ابن إسحاق وأبي سليمان الدمشقي وقيل في معنى الآية شهر رمضان الذي نزل بفرض صيامه القرآن كما تقول نزلت هذه الآية في الصلاة والزكاة ونحو ذلك من الفرائض يروى ذلك عن مجاهد والضحاك وهو اختيار الحسن بن الفضل ﴿هدى للناس﴾ يعني من الضلال ﴿وبينات من الهدى والفرقان﴾.

الشهر شهراً لشُهرته، وأمّا رمضان فقد قال مجاهد: هو من أسماء الله تعالى، يقال: شهر رمضان كما يقال شهر الله، والصحيح: أنه اسم للشهر سُمّي به من الرمضاء، وهي الحجارة المحمّاة، وهم كانوا يصومونه في الحرّ الشديد، وكانت ترمض فيه الحجارة من الحرارة، قوله تعالى: ﴿ الذي أنزل فيه القرآن ﴾، سُمّي القرآن قرآناً لأنه يجمع السور والآي والحروف، وجمع فيه القصص والأمر والنهي والوعد والوعيد، وأصل القرء: الجمع، وقد يحذف الهمزة فيقال: قريت الماء في الحوض إذا جمعته، وقرأ ابن كثير القرآن بفتح الراء غير مهموز، وكذلك كان يقرأ الشافعي، ويقول: ليس هو من القراءة ولكنه اسم لهذا الكتاب كالتوراة والإنجيل، رُوي عن مقسم عن ابن عباس أنه سُئِل عن قوله عزّ وجلّ: ﴿ شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن ﴾، وقوله: ﴿ إنّا أنزلناه في ليلة القدر ﴾ [القدر: ١]، وقوله: ﴿ إنّا أنزلناه في ليلة مباركة ﴾ [الدخان: ٣]، وقد نزل في سائر الشهور، وقال عزّ وجلّ: ﴿ وقرآناً فرّقناه ﴾ [الإسراء: ١٠٦]؟ فقال: أنزل القرآن جملة واحدة من اللوح المحفوظ في ليلة القدر من شهر رمضان إلى بيت العزّة في السماء الدنيا، ثم نزل به جبريل عليه السلام على رسول الله ﷺ نجوماً في ثلاث وعشرين سنة، فذلك قوله تعالى: ﴿ فلا أقسم بمواقع النجوم ﴾ [الواقعة: ٧٥]، قال داود بن أبي هند قلت للشعبي: ﴿ شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن ﴾ أمَا كان ينزل في سائر الشهور؟ قال: بلى ولكنّ جبرائيل كان يعارض محمداً ﷺ في رمضان ما أنزل الله إليه، فيُحكم اللّهُ ما يشاء ويُثبت ما يشاء ويُنسيه ما يشاء، ورُوِيَ عن أبي ذرّ عن النبيّ ﷺ قال: «أنزل صحف إبراهيم في ثلاث ليالٍ مضين من رمضان»، ويُروَى «في أول ليلة من رمضان»، «وأنزلت توراة موسى في ست ليالٍ مضين من رمضان، وأنزل الإنجيل على عيسى في ثلاث عشرة ليلة مضت من رمضان، وأنزل الزبور على داود في ثمان عشرة ليلة مضت من رمضان، وأنزل الفرقان على محمد ﷺ في الرابعة

فإن قلت هذا فيه إشكال وهو أنه يقال ما معنى قوله: وبينات من الهدى بعد قوله هدى للناس؟ قلت إنه تعالى ذكر أولاً أنه هدى ثم الهدى على قسمين: تارة يكون هدى جلياً وتارة لا يكون كذلك، فكأنه قال هو هدى في نفسه ثم قال: هو المبين من الهدى الفارق بين الحق والباطل وقيل: إن القرآن هدى في نفسه فكأنه قال: إن القرآن هدى للناس على الإجمال وبينات من الهدى والفرقان على التفصيل، لأن البينات هي الدلالات الواضحات التي تبين الحلال الحرام والحدود والأحكام، ومعنى الفرقان الفارق بين الحق والباطل.

قوله عز وجل: ﴿فمن شهد منكم الشهر فليصمه﴾ أي فمن كان حاضراً مقيماً غير مسافر فأدركه الشهر فليصمه والشهود الحضور، وقيل: هو محمول على العادة بمشاهدة الشهر وهي رؤية الهلال ولذلك قال النبي ﷺ: «صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته» أخرجاه في الصحيحين، ولا خلاف أنه يصوم رمضان من رأى الهلال ومن أخبر به واختلف العلماء في وجه الخبر عنه منهم من قال يجزىء فيه خبر الواحد، قاله أبو ثور: ومنهم من أجراه مجرى الشهادة في سائر الحقوق قاله مالك: ومنهم من أجرى أوله مجرى الأخبار فقبل فيه خبر الواحد وأجرى آخره مجرى الشهادة فلا يقبل في آخره أقل من اثنين؛ قاله الشافعي: وهذا للاحتياط في أمر العبادة لدخولها وخروجها ﴿ومن كان مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر﴾ إنما كرره لأن الله تعالى ذكر في الآية الأولى تخيير المريض والمسافر والمقيم الصحيح ثم نسخ تخيير المقيم الصحيح بقوله: ﴿فمن شهد منكم الشهر فليصمه﴾ فلو اقتصر على هذا لاحتمل أن يشمل النسخ الجميع، فأعاد بعد ذكر الناسخ الرخصة للمريض والمسافر ليعلم أن الحكم باق على ما كان عليه.

فصل في حكم الآية، وفيه مسائل: الأولى:

اختلفوا في المرض المبيح للنظر على ثلاثة أقوال: أحدها وهو قول أهل الظاهر أي مرض كان وهو ما يطلق عليه اسم المرض، فله أن يفطر تنزيلاً للفظ المطلق على أقل أحواله، وإليه ذهب الحسن وابن سيرين. القول

والعشرين من شهر رمضان لست بقين بعدها». قوله تعالى: ﴿ هدًى للناس ﴾: من الضلالة، و﴿ هدى ﴾ في محل النصب على القطع، لأن القرآن معرفة وهدًى نكرة، ﴿ وبيّناتٍ من الهدى ﴾، أي: دَلَالَاتٍ واضحات من الحلال والحرام، والحدود والأحكام، ﴿ والفرقان ﴾، أي: الفارق بين الحق والباطل، قوله تعالى: ﴿ فَمَنْ شَهِدَ منكم الشهرَ فَلْيَصُمْهُ ﴾، أي فمَن كان مقيماً في الحضر فأدركه الشهر، واختلف أهل العلم فيمن أدركه الشهر وهو مقيم ثم سافر، رُوِيَ عن علي رضي الله عنه أنه قال: يجوز له الفطر، وبه قال عُبيدة السلماني، لقوله تعالى: ﴿ فَمَن شهد منكم الشهر فليصمه ﴾ أي: الشهر كلَّه، وذهب أكثر الصحابة والفقهاء إلى أنه إذا أنشأ السفرَ في شهر رمضان جاز له أن يَفطرَ، ومعنى الآية: فمَن شهد منكم الشهر كله فليصمه، أي: الشهر كله ومَن لم يشهد منكم الشهر كله فليصم ما شهد منه، والدليل عليه: ما أخبرنا أبو الحسن السرخسي أخبرنا زاهر بن أحمد، أخبرنا أبو إسحق الهاشمي أخبرنا أبو منصور عن مالك عن ابن شهاب، عن عُبيد الله بن عُتبة بن مسعود عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ خرج إلى مكة عام الفتح في رمضان، فصام حتى بلغ الكديد ثم أفطر وأفطر الناس معه فكانوا يأخذون بالأحدث فالأحدث من أمر رسول الله ﷺ. قوله تعالى: ﴿ ومَنْ كان مريضاً أو على سفرٍ فعدّةٌ من أيامٍ أُخَر ﴾، أباح الفطر لعذر المرض والسفر، أعاد هذا الكلام ليُعلم أن هذا الحكم ثابت في الناسخ ثبوته في المنسوخ، واختلفوا في المرض الذي يبيح الفطر، فذهب أهل الظاهر إلى أن ما يطلق عليه اسم المرض يبيح الفطر، وهو قول ابن سيرين، قال طريق بن تمام العطاردي: دخلت على محمد بن سيرين في رمضان وهو يأكل فقال إنه وجعت أصبعي هذه، وقال الحسن وإبراهيم النخعي: هو المرض الذي يجوز به الصلاة قاعداً، وذهب الأكثرون إلى أنه مرض

الثاني وهو قول الأصم إن هذه الرخصة مختصة بالمريض الذي لو صام، لوقع في مشقة عظيمة تنزيلاً للفظ المطلق على أكمل أحواله. القول الثالث وهو قول أكثر الفقهاء إن المرض المبيح للفطر، هو الذي يؤدي إلى ضرر في النفس أو زيادة علة محتملة كالمحموم إذا خاف أنه لو صام اشتدت حماه وصاحب وجع العين يخاف لو صام أن يشتد وجع عينه فالمراد بالمرض، ما يؤثر في تقويته قال الشافعي إذا أجهده الصوم أفطر، إلاّ فهو كالصحيح.

المسألة الثانية: الفطر في السفر مباح، والصوم جائز وبه قال عامة العلماء وقال ابن عباس وأبو هريرة وبعض أهل الظاهر: لا يجوز الصوم في السفر، ومن صام فعليه القضاء واحتجوا بقوله ﷺ: «ليس من البر الصيام في السفر» وحمله عامة العلماء على من يجهده الصوم في السفر فالأولى له الفطر ويدل على ذلك ما روي عن جابر قال: «كان رسول الله ﷺ في سفر فرأى زحاماً ورجلاً قد ظلل عليه فقال ما هذا؟ قالوا صائم قال: ليس من البر الصيام في السفر» أخرجه البخاري ومسلم، وحجة الجمهور على جواز الصوم والفطر في السفر ما روي عن أنس قال: «سافرنا مع رسول الله ﷺ في رمضان فلم يعب الصائم على المفطر ولا المفطر على الصائم» أخرجاه في الصحيحين.

المسألة الثالثة: اختلف العلماء في قدر السفر المبيح للفطر. فقال داود: الظاهري أي سفر كان ولو كان فرسخاً. وقال الأوزاعي: السفر المبيح للفطر مسيرة يوم واحد. وقال الشافعي وأحمد ومالك: أقله مسيرة ستة عشر فرسخاً يومان وقال أبو حنيفة وأصحابه أقله مسيرة ثلاثة أيام.

المسألة الرابعة: إذا استهل الشهر وهو مقيم ثم أنشأ السفر في أثنائه جاز له أن يفطر حالة السفر ويجوز له أن يصوم في بعض السفر وأن يفطر في بعضه إن أحب، يدل عليه ما روي عن ابن عباس: «أن رسول الله ﷺ خرج إلى مكة عام الفتح في رمضان فصام حتى بلغ الكديد ثم أفطر وأفطر الناس معه، وكانوا يأخذون بالأحدث فالأحدث

يخاف معه من الصوم زيادة علّة غير مُحتملة، وفي الجملة أنه إذا أجهده الصوم فأفطر، وإن لم يجهده فهو كالصحيح، وأما السفر فالفطر فيه مُباح، والصوم جائز عند عامّة أهل العلم إلاّ ما رُوِيَ عن ابن عباس وأبي هريرة وعُروة بن الزبير وعلي بن الحسين أنهم قالوا: لا يجوز الصوم في السفر، ومَن صام فعليه القضاء، احتجّوا بقول النبي ﷺ: «ليس من البرّ الصوم في السفر»، وذلك عند الآخرين في حق مَن يُجهده الصوم، فالأولى له أن يفطر، والدليل ما أخبرنا به عبد الواحد بن أحمد المليحي، أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي أخبرنا محمد بن يوسف، أخبرنا محمد بن إسماعيل أخبرنا آدم، أخبرنا شعبة أخبرنا محمد بن عبد الرحمن الأنصاري قال: سمعت محمد بن عمرو بن الحسين بن علي عن جابر بن عبد الله قال: كان رسول الله ﷺ في سفر فرأى زُحاماً ورجلاً قد ظُلّل عليه، فقال: ما هذا؟ قالوا: هذا صائم، فقال: «ليس من البرّ الصوم في السفر»، والدليل على جواز الصوم ما حدّثنا الأستاذ أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري، أخبرنا أبو نُعيم الإسفرايني، أخبرنا أبو عُوانة أخبرنا أبو أمية أخبرنا عبد الله القواريري، أخبرنا حمّاد بن زيد أخبرنا الحريري، عن أبي نَضْرة عن أبي سعيد قال: كنّا نسافر مع رسول الله ﷺ في رمضان، فمنّا الصائم ومنّا المفطر، فلا يَعيب الصائم على المفطر ولا المفطر على الصائم.
واختلفوا في أفضل الأمرين، فقالت طائفة: الفطر في السفر أفضل من الصوم، رُوِيَ ذلك عن ابن عمر وإليه ذهب سعيد بن المسيب والشعبي، وذهب قوم إلى أن الصوم أفضل، ورُوِيَ ذلك عن معاذ بن جبل وأنس، وبه قال إبراهيم النخعي وسعيد بن جُبير، وقالت طائفة: أفضل الأمرين أيسرهما عليه، لقوله تعالى: ﴿ يريد الله بكم اليُسْرَ ولا يريد بكم العسر ﴾، وهو قول مجاهد وقتادة وعمر بن العزيز، ومَن أصبح مقيماً صائماً ثم سافر في أثناء النهار لا يجوز له أن يفطر ذلك اليوم عند أكثر أهل العلم، وقالت طائفة: له أن يفطر، وهو قول الشعبي وبه قال أحمد، أمّا

من أمر رسول الله ﷺ» أخرجاه في الصحيحين. الكديد اسم موضع وهو على ثمانية وأربعين ميلاً من مكة.

المسألة الخامسة: اختلفوا في الأفضل. فذهب الشافعي إلى أن الصوم أفضل من الفطر في السفر، وبه قال مالك وأبو حنيفة وقال أحمد الفطر، أفضل من الصوم في السفر، وقالت طائفة من العلماء: هما سواء، وأفضل الأمرين أيسرهما، لقوله تعالى: ﴿**يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر**﴾.

المسألة السادسة: يبيح الفطر كل سفر مباح ليس سفر معصية ولا يجوز للعاصي بسفره أن يترخص برخص الشرع وقوله تعالى: ﴿**فعدة من أيام أخر**﴾ معناه فأفطر فعليه عدة من أيام آخر فظاهر هذا أنه يجوز قضاء الصوم متفرقاً وإن كان التتابع أولى، وفيه أيضاً وجوب القضاء من غير تعيين لزمن القضاء فيدل على جواز التراخي في القضاء ويدل عليه أيضاً ما روي عن عائشة قالت: «كان يكون على الصوم من رمضان فما أستطيع أن أقضي إلّا في شعبان ذاك من الشغل بالنبي ﷺ» أخرجاه في الصحيحين ﴿**يريد الله بكم اليسر**﴾ أي التسهيل في هذه العبادة وهي إباحة الفطر للمسافر والمريض ﴿**ولا يريد بكم العسر**﴾ أي وقد نفى عنكم الحرج في أمر الدين قيل: ما خير رجل بين أمرين فاختار أيسرهما إلّا كان ذلك أحب إلى الله تعالى: ﴿**ولتكملوا العدة**﴾ أي عدد الأيام التي أفطرتم فيها بعذر السفر والمرض والحيض، لتقضوا بعددها وقيل: أراد عدد أيام الشهر (ق) عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «الشهر تسع وعشرون ليلة فلا تصوموا حتى تروا الهلال ولا تفطروا حتى تروه فإن غم عليكم فاقدروا له، وفي رواية فأكملوا العدة ثلاثين» ﴿**ولتكبروا الله**﴾ فيه قولان أحدهما أنه تكبير ليلة العيد، قال ابن عباس: حق على المسلمين إذا رأوا إهلال شوال أن يكبروا. وقال الشافعي: واجب إظهار التكبير في العيدين، وبه قال مالك وأحمد وأبو يوسف ومحمد وقال أبو حنيفة: لا يكبر في عيد الفطر ويكبر في عيد الأضحى حجة الشافعي ومن وافقه قوله

المسافر إذا أصبح صائماً فيجوز له أن يفطر بالاتفاق، والدليل عليه ما أخبر عبد الوهاب بن محمد الخطيب، أخبرنا عبد العزيز بن أحمد الخلال أخبرنا أبو العباس الأصم، أخبرنا الربيع أخبرنا الشافعي، أخبرنا عبد العزيز بن محمد بن جعفر بن محمد، عن أبيه عن جابر أن رسول الله ﷺ خرج إلى مكة عام الفتح في رمضان فصام حتى بلغ كراع الغميم، صام الناس معه فقيل له: يا رسول الله إن الناس قد شقّ عليهم الصيام، فدعا بقدح من ماء بعد العصر فشرب والناس ينظرون فأفطر بعض الناس، وصام بعضهم، فبلغه أن ناساً صاموا فقال: «أولئك العصاة»، واختلفوا في السفر الذي يُبيح الفطر، فقال قوم: مسيرة يوم، وذهب جماعة إلى مسيرة يومين، وهو قول الشافعي رحمه الله، وذهب جماعة إلى مسيرة ثلاثة أيام، وهو قول سفيان الثّوري وأصحاب الرأي. قوله تعالى: ﴿ **يُرِيدُ اللَّهُ بكم اليُسْرَ** ﴾، بإباحة الفطر في المرض والسفر، ﴿ **ولا يريد بكم العُسْرَ** ﴾، قرأ أبو جعفر «العسر واليسر» ونحوهما بضم السين، وقرأ الآخرون بالسكون، وقال الشعبي ما خُيِّرَ رجلٌ بين أمرين فاختار أيسرهما إلّا كان ذلك أحبّهما إلى الله عزّ وجلّ، ﴿ **ولِتُكْمِلُوا العِدَّةَ** ﴾، قرأ أبو بكر بتشديد الميم، وقرأ الآخرون بالتخفيف، وهو الاختيار، لَقوله تعالى: ﴿ اليومَ أكملت لكم دينَكم ﴾ [المائدة: ٣]، والواو في قوله تعالى: ﴿ **ولتكملوا** ﴾ وَاوُ النَّسقِ واللامُ لام كي، تقديره: ويريد لكي تكملوا الغدّة، أي لتكملوا عِدّة أيام الشهر بقضاء ما أفطرتُم في مرضكم وسفركم، وقال: ﴿ **ولتكملوا العدّة** ﴾ أي: عدّة أيام الشهر، أخبرنا عبد الوهاب بن محمد الخطيب أخبرنا عبد العزيز بن أحمد الخلال، أخبرنا أبو العباس الأصمّ أخبرنا الربيع أخبرنا الشافعي، أخبرنا مالك عن عبد الله بن دينار عن ابن عمر أنّ رسول الله ﷺ قال: «الشهر تسع وعشرون فلا تصوموا حتى تروا الهلال ولا تفطروا حتى تروه، فإن غُمَّ عليكم فأكملوا العِدّة ثلاثين»، أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحي أخبرنا أبو بكر أحمد بن الحسين الحيري، أخبرنا حاجب بن أحمد الطوسي أخبرنا محمد بن يحيىٰ، أخبرنا يزيد بن هارون أخبرنا محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن

تعالى: ﴿ولتكملوا العدة ولتكبروا الله على ما هداكم﴾ قالوا: معناه ولتكملوا عدة صوم رمضان ولتكبروا الله على ما هداكم إلى آخر هذه العبادة القول الثاني في معنى قوله لتكبروا الله، أي ولتعظموا الله شكراً على ما أنعم به عليكم ووفقكم للقيام بهذه العبادة ﴿على ما هداكم﴾ أي أرشدكم إلى طاعته وإلى ما يرضى به عنكم ﴿ولعلكم تشكرون﴾ الله على نعمه.

فصل: في فضل شهر رمضان وفضل صيامه:

(ق) عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «إذا دخل شهر رمضان صفدت الشياطين وفتحت أبواب الجنة وغلقت أبواب النار» الصفد الغل أي شدت بالأغلال (ق) عن النبي ﷺ قال: من صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه. ومن قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه. قوله إيماناً واحتساباً أي طلباً لوجه الله تعالى وثوابه وقيل إيماناً بأنه فرض عليه، واحتساباً ثوابه عند الله وقيل: معناه نية وعزيمة وهو أن يصوم على التصديق به والرغبة في ثوابه طيبة بها نفسه غير كارهة (ق) عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «كل عمل ابن آدم له يضاعف الحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، قال الله تعالى: «إلّا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به يدع شهوته وطعامه من أجلي، للصائم فرحتان فرحة عند فطره وفرحة عند لقاء ربه، ولخلوف فم الصائم عند الله أطيب من ريح المسك زاد في رواية «والصيام جنة فإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث يومئذ ولا يصخب فإن شتمه أحد أو قاتله فليقل إني صائم». قوله: كل عمل ابن آدم له معناه أن له فيه حظاً لاطلاع الخلق عليه إلّا الصوم فإنه لا يطلع عليه أحد وإنما خص الصوم بقوله تعالى لي وإن كانت جميع الأعمال الصالحة له وهو يجزى عليها لأن الصوم لا

أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقدموا الشهرَ بصوم يوم ولا يومين، إلّا أن يُوافق ذلك صوماً كان يصومه أحدكم، صُوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته فإن غُمّ عليكم فعدّوا ثلاثين ثم أفطروا»، ﴿ ولِتُكبّروا الله ﴾: ولتعظموا الله، ﴿ على ما هَداكم ﴾: أرشدكم إلى ما أرضى به من صوم شهر رمضان وخصّكم به دون سائر أهل المِلَل، قال ابن عباس: هو تكبيرات ليلة الفطر، وروى الشافعي عن ابن المسيب وعروة وأبي سلمة أنه كانوا يكبّرون ليلة الفطر يجهرون بالتكبير، وشبّه ليلة النحر بها إلّا مَن كان حاجاً وذكرُه التلبية، ﴿ ولعلكم تشكرون ﴾: الله على نعمه، وقد وردتْ أخبار في فضل شهر رمضان وثواب الصائمين، أخبرنا أبو عبد الله محمد بن حسن المروزي، أخبرنا أبو العباس أحمد بن محمد بن سراج الطحّان، أخبرنا أبو أحمد محمد بن قريش بن سليمان أخبرنا علي بن عبد العزيز المكّي أخبرنا أبو عبيد القاسمُ بن سلام، حدّثني إسماعيل بن جعفر عن أبي سهيل عن نافع بن مالك عن أبيه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «إذا دخل رمضان صُفدتِ الشياطينُ وفُتّحت أبوابُ الجنة وغُلقتْ أبوابُ النار»، أخبرنا أبو عثمان سعيد بن إسماعيل الضبي أخبرنا أبو محمد عبد الجبار بن محمد بن الجراح، أخبرنا أبو عباس محمد بن أحمد المحوبي أخبرنا أبو عيسى محمد بن عيسى الترمذي، أخبرنا أبو كريب محمد بن العلاء، أخبرنا أبو بكر محمد بن عياش عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا كان أول ليلة من شهر رمضان صُفدتِ الشياطينُ ومَرَدَةُ الجنّ وغُلقت أبواب النار فلم يُفتح منها باب، وفُتّحتْ أبوابُ الجنة فلم يُغلق منها باب، ويُنادي منادٍ: يا باغي الخير أقبل ويا باغي الشرّ أقصر، ولله عُتقاءُ من النار، وذلك كل ليلة». أخبرنا أبو بكر أحمد بن أبي نصر بن أحمد الكوفاني الهروي بها أخبرنا أبو محمد عبد الرحمن بن عمر بن محمد النحيبي المصري بها المعروف بأبي النجاش، قيل له: أخبركم أبو سعيد أحمد بن محمد بن زياد المَقْبُري البصري بمكة المعروف بابن الأعرابي، أخبرنا الحسن بن محمد بن الصباح الزعفراني، أخبرنا سفيان بن عُيينة عن الزهري أخبرنا أبو سلمة بن عبد الرحمن عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «مَنْ صامَ رمضانَ إيماناً واحتساباً غُفر له ما تقدّمَ من

يظهر من ابن آدم بقول ولا فعل حتى تكتبه الحفظة وإنما هو من أعمال القلوب بالنية ولا يطلع عليه إلّا الله تعالى لقول الله تعالى: إنما أتولى جزاءه على ما أحب لا على حساب ولا كتاب له. وقوله: وللصائم فرحتان فرحة عند فطره أي بالطعام لما بلغ به من الجوع لتأخذ النفس حاجتها منه وقيل فرحة بما وفق له من إتمام الصوم الموعود عليه بالثواب وهو قوله: وفرحة عند لقاء ربه لما يرى من جزيل ثوابه. وقوله: ولخلوف بضم الخاء وفتحها لغتان وهو تغير طعم الفم وريحه لتأخير الطعام ومعنى كونه أطيب عند الله من ريح المسك هو الثناء على الصائم والرضا بفعله، لئلا يمتنع من المواظبة على الصوم الجالب للخلوف والمعنى أن خلوف فم الصائم أبلغ عند الله في القبول من ريح المسك عند أحدكم. قوله: الصيام جنة أي حصن من المعاصي لأن الصوم يكسر الشهوة فلا يواقع المعاصي قوله فلا يرفث كلمة جامعة لكل ما يريده الإنسان من المرأة، وقيل: هو التصريح بذكر الجماع. والصخب الضجر والجلبة والصياح (ق) عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: «إن في الجنة باباً يقال له باب

ذنبه، ومَنْ قام رمضان إيماناً واحتساباً غُفر له ما تقدم من ذنبه، ومَن قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غُفر له ما تقدَّمَ من ذنبه»، أخبرنا الإمام أبو علي الحسين بن محمد القاضي، أخبرنا أبو سعيد خلف بن عبد الرحمن بن محمد بن أبي نزار، حدّثنا الحسين بن أحمد بن محمد بن عبد الرحمن بن أسد الصفار، أخبرنا أبو جعفر أحمد بن محمد بن أبي إسحق العنزي، أخبرنا علي بن حجر بن إياس السعدي أخبرنا يوسف بن زياد عن علي بن زيد بن جدعان، عن سعيد بن المسيب عن سلمان قال: خطبنا رسول الله ﷺ في آخر يوم من شعبان فقال: «يا أيّها الناس إنه أظلّكم شهر عظيم»، وفي رواية «قد أطلّكم» بالطاء: أطلّ أشرف شهرٌ عظيم، شهرٌ مبارك شهرٌ فيه ليلة القدر خير من ألف شهر، شهرٌ جعل الله صيامَه فريضة فيما سواه، وهو شهر الصبر، والصبر ثوابه الجنّة، وشهر المواساة أي المساهمة، وشهرٌ يُزاد فيه الرزق، ومَن فطر فيه صائماً كان له مغفرةً لذنوبه وعتق رقبة من النار، وكان له مثل أجره من غير أن ينقص من أجره شيء، قالوا: يا رسول الله ليس كلنا نجد ما نُفطر به الصائم؟ قال رسول الله ﷺ: «يُعطي اللَّهُ هذا الثوابَ لمَن فطّر صائماً على مَذْقةِ لَبَنٍ أو تمرة أو شَرْبةٍ من ماءٍ، ومَن أشبع صائماً سقاه الله عزّ وجلّ من حوضي شَرْبَةً لا يظمأ بعدها حتى يدخل الجنة، ومَن خفّف عن مملوكه فيه غفر الله له وأعتقه من النار حتى يدخل الجنة، وهو شهر أوله رحمة وأوسطه مغفرة وآخره عتقٌ من النار، فاستكثروا فيه من أربع خصال: خصلتين تُرضون بها ربّكم، وخصلتين لا غنى بكم عنهما، أمّا الخصلتان اللتان ترضون بهما ربّكم فشهادة أنْ لا إلَه إلّا الله وتستغفرونه، وأما اللتان لا غنى بكم عنهما فتسألون الله الجنة وتعوذون به من النار»، أخبرنا الإمام أبو علي الحسين بن محمد القاضي، أخبرنا أبو طاهر محمد بن محمش الزيادي، أخبرنا أبو بكر محمد بن عمر بن حفص التاجر، أخبرنا إبراهيم بن عبد الله بن عمر بن بكير الكوفي، أخبرنا وكيع عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «كلّ عمل ابن آدم يُضاعف الحسنةُ بعشر أمثالها إلى سبعِ مائة ضعف، قال الله تعالى: إلّا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به يَدَعُ الصائمُ طعامَهُ وشرابَهُ وشَهْوَتَهُ من أجلي، للصائم فرحتان فرحة عند فطره، وفرحة عند لقاء ربّه، ولَخلُوفُ فِيْهِ أطيب عند الله من ريح المسك، الصوم جُنَّةٌ وإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يَرْفُثْ ولا يَفْسُقْ فإن سابّه أحدٌ أو قاتله فليقلْ: إنّي امرؤٌ صائم»، أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي، أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي أخبرنا محمد بن يوسف أخبرنا محمد بن إسماعيل، أخبرنا سعيد بن أبي مريم أخبرنا محمد بن مطرف، حدّثني أبو حازم عن سهل بن سعد عن النبيّ ﷺ قال: «في الجنة ثمانية أبواب، منها بابٌ يُسمى الريّان لا يدخله إلّا الصائمون»، أخبرنا محمد بن عبد الله بن أبي تَوبة، أخبرنا أبو طاهر محمد بن أحمد بن الحارث، أخبرنا محمد بن يعقوب الكسائي أخبرنا عبد الله بن محمود، أخبرنا إبراهيم بن عبد الله الخلال أخبرنا عبد الله بن المبارك، عن

الريان يدخل منه الصائمون يوم القيام يقال أين الصائمون فيقومون. لا يدخل منه أحد غيرهم فإذا دخلوا أغلق فلا يدخل منه أحد وفي رواية إن في الجنة ثمانية أبواب منها باب يسمى الريان لا يدخله إلاّ الصائمون» عن أبي أمامة قال: أتيت رسول الله ﷺ فقلت يا رسول الله مرني بأمر ينفعني الله به قال: «عليك بالصوم فإنه لا مثل له» وفي رواية: «أي العمل أفضل فقال عليك بالصوم فإنه لا عدل له» أخرجه النسائي.

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿وإذا سألك عبادي عني فإني قريب﴾ قال ابن عباس قال يهود المدينة: يا محمد كيف يسمع ربنا دعاءنا وأنت تزعم أن بيننا وبين السماء خمسمائة عام وأن غلظ كل سماء مثل ذلك فنزلت هذه الآية. وقيل سأل بعض الصحابة النبي ﷺ فقالوا: أقريب ربنا فنناجيه أم بعيد فنناديه وقيل إنهم سألوه في أي ساعة ندعو ربنا فنزلت. وقيل: إنهم قالوا أين ربنا؟ فنزلت هذه الآية وهذا السؤال لا يخلو إما أن يكون عن ذات الله أو عن صفاته أو عن أفعاله أما السؤال عن ذات الله فهو سؤال عن القرب والبعد بحسب الذات، وأما السؤال عن صفاته تعالى فهو أن يكون السائل سأل هل يسمع ربنا دعاءنا، وأما السؤال عن أفعاله تعالى فهو أن يكون السائل سأل هل يجيب ربنا إذا دعوناه؟ فقوله تعالى: ﴿وإذا سألك عبادي عني﴾ فيحتمل هذه الوجوه كلها، وقوله تعالى ﴿فإني قريب﴾ معناه قريب بالعلم والحفظ لا يخفى علي شيء، وفيه إشارة إلى سهولة إجابته لمن دعاه وإنجاح حاجة من سأله (ق) عن أبي موسى الأشعري قال: لما غزا رسول الله ﷺ خيبر، أو قال: توجه إلى خيبر أشرف الناس على واد فرفعوا أصواتهم بالتكبير: الله أكبر لا إله إلاّ الله فقال رسول الله ﷺ: «أيها الناس اربعوا على أنفسكم فإنكم لا تدعون أصم ولا غائباً إنكم تدعون سميعاً بصيراً قريباً وهو معكم» قوله اربعوا على أنفسكم أي ارفقوا بها وقيل معناه أمسكوا عن الجهر فإنه قريب يسمع دعاءكم. وقوله تعالى: ﴿أجيب دعوة الداع إذا دعان﴾ أي أسمع دعاء عبدي الداعي إذا دعاني وقيل: الدعاء عبارة عن التوحيد والثناء على الله تعالى كقول العبد: يا الله لا إله إلاّ أنت فقولك يا الله فيه دعاء، وقولك: لا إله إلاّ أنت فيه توحيد وثناء على الله تعالى فسمي هذا دعاء بهذا الاعتبار وسمي قبوله إجابة لتجانس اللفظ، وفيه إشارة إلى أن العبد يعلم أن له رباً ومدبراً يسمع دعاءه إذا دعاه ولا يخيب رجاء من رجاه وذلك ظاهر فإن العبد إذا دعا، وهو يعلم أن له رباً بإخلاص وتضرع أجاب الله دعوته. فإن قلت: إنا نرى الداعي يبالغ في الدعاء والتضرع فلا يجاب له فما وجه: قوله أجيب دعوة الداع؟ وقوله تعالى: ﴿ادعوني أستجب لكم﴾. قلت ذكر العلماء فيه أجوبة: أحدها أن هذه الآية مطلقة وقد وردت آية أخرى مقيدة وهي قوله: «بل إياه

راشد بن سعد عن يحيىٰ بن عبد الله عن أبي عبد الرحمن الحبلي عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «الصيام والقرآن يشفعان للعبد، يقول الصيام أيْ ربِّ إني منعته الطعام والشراب والشهوات بالنهار فشفعني فيه، ويقول القرآن ربِّ إني منعته النوم بالليل فشفِّعني فيه فيشفعان».

قوله تعالى: ﴿ وإذا سألك عبادي عني فإني قريب ﴾، روى الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس قال: قال يهود أهل المدينة: يا محمد كيف يسمع ربنا دعاءنا وأنت تزعم أنّ بيننا وبين السماء مسيرة خمسمائة عام، وأن غِلَظَ كل سماء مثل ذلك؟ فنزلت هذه الآية، وقال الضحاك: سأل بعض الصحابة النبي ﷺ فقالوا: أقريبٌ ربُّنا فنناجيه أم بعيدٌ فنناديه؟ فأنزل الله تعالى: ﴿ وإذا سألك عبادي عنّي فإني قريب ﴾، وفيه إضمار، كأنه قال: فقل لهم إني قريب منهم بالعلم لا يخفى عليَّ شيء، كما قال: ﴿ ونحنُ أقرب إليه من حبل الوريد ﴾ [قٓ: ١٦]، أخبرنا

تدعون فيكشف ما تدعون إليه إن شاء» والمطلق يحمل على المقيد. وثانيها أن معنى الدعاء هنا هو الطاعة ومعنى الإجابة هو الثواب وذلك في الآخرة. وثالثها أن معنى الآيتين خاص. وإن كان لفظهما عاماً فيكون معناه أجيب دعوة الداعي إذا وافق القضاء أو أجيبه إن كانت الإجابة خيراً له أو أجيبه إذا لم يسأل إثماً أو محالاً. ورابعها أن معناها عام أي أسمع وهو معنى الإجابة المذكورة في الآية، وأما إعطاء الأمنية فليس بمذكور فالإجابة حاصلة عند وجود الدعوة وقد يجيب السيد عبده ولا يعطيه سؤله. وخامسها أن للدعاء آداباً وشرائط وهي أسباب الإجابة، فمن استكملها وأتى بها كان من أهل الإجابة ومن أخطأها كان من أهل الاعتداء في الدعاء فلا يستحق الجواب والله أعلم. وقوله تعالى ﴿فليستجيبوا لي﴾ يعني إذا دعوتهم إلى الإيمان والطاعة كما أني أجبتهم إذا دعوني لحوائجهم. والإجابة في اللغة الطاعة. فالإجابة من العبد الطاعة ومن الله الإثابة والعطاء ﴿وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون﴾ أي لكي يهتدوا إلى مصالح دينهم ودنياهم.

فصل: في فضل الدعاء وآدابه:

(ق) عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «ينزل ربنا كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير فيقول: من يدعوني فأستجيب له من يسألني فأعطيه من يستغفرني فأغفر له» هذا الحديث من أحاديث الصفات، وفيه مذهبان مشهوران للعلماء: أحدهما وهو مذهب جمهور السلف وبعض المتكلمين أنه يجب الإيمان به وبأنه حق على ما يليق به ونكل علمه إلى الله تعالى ورسوله وإن ظاهره المتعارف في حقنا غير مراد ولا نتكلم في تأويله مع اعتقادنا تنزيه الله تعالى عن صفات المخلوقين وعن الانتقال والحركات. والمذهب الثاني مذهب أكثر المتكلمين وجماعة من السلف أنها تؤول على ما يليق فعلى هذا نقل عن مالك وغيره أن معناه تنزل رحمته وأمره وملائكته وقيل: إنه على الاستعارة ومعناه الإقبال على الداعين بالإجابة واللطف وفي الحديث الحث على الدعاء

عبد الواحد المليحي أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف أخبرنا محمد بن إسماعيل، أخبرنا عبد الواحد عن عاصم عن أبي عثمان، عن أبي موسى الأشعري قال: لمّا غَزَا رسول الله ﷺ خيبر، أو قال: لمّا توجّه رسول الله ﷺ إلى خيبر، أشرف الناس على وادٍ فرفعوا أصواتهم بالتكبير الله أكبر الله أكبر لا إله إلاّ الله، فقال رسول الله ﷺ: «أربِعُوا على أنفسكم، إنكم لا تدعون أصمَّ ولا غائباً إنكم تدعون سميعاً قريباً وهو معكم»، قوله تعالى: ﴿أُجيبُ دعوةَ الداعِ إذا دعانِ﴾، قرأ أهل المدينة غير قالون وأبي عمرو بإثبات الياء فيهما في الوصل، والباقون يحذفونها وصلاً ووَقفاً، وكذلك اختلف القرّاء في إثبات الياءات المحذوفة من الخط وحذفها في التلاوة، وأثبت يعقوب جميعها وصلاً ووقفاً، واتفقوا على إثبات ما هو مثبت في الخط وصلاً ووقفاً، ﴿ فليستجيبوا لي ﴾، قيل: الاستجابة بمعنى الإجابة، أي: فليجيبوا إليّ بالطاعة، والإجابة في اللغة: الطاعة وإعطاء ما سئل، فالإجابة من الله تعالى: العطاء، ومن العبد: الطاعة: وقيل: فليستجيبوا إليّ أي: ليستدعوا منّي الإجابة، وحقيقته فليطيعوني، ﴿ وليؤمنوا بي لعلّهم يرشدون ﴾، لكي يهتدوا، فإن قيل: فما وجه قوله تعالى: ﴿ أُجيبُ دعوةَ الداعِ ﴾ وقوله: ﴿ ادْعوني أستجبْ لكم ﴾ [غافر: ٦٠]، وقد ندعو كثيراً فلا يُجِيب؟ قلنا: اختلفوا في معنى الآيتين، قيل: معنى الدعاء ههنا: الطاعة، ومعنى الإجابة: الثواب، وقيل: معنى الآيتين خاص، وإن كان لفظهما عامّاً تقديرهما: أجيبُ دعوة الداعي إنْ شئت، كما قال: ﴿ فيكشف ما تدعون إليه إن شاء ﴾ [الأنعام: ٤١]، وأُجيبُ دعوةَ الداع إن وافق القضاء، أو أُجيبه إن كانت الإجابة خيراً له، أو أُجيبه إن لم يسأل مُحالاً، أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أخبرنا أبو منصور السمعاني، أخبرنا أبو جعفر محمد بن أحمد بن عبد الجبار الزياتي، أخبرنا حميد بن زنجويه أخبرنا عبد الله بن صالح، حدّثني معاوية بن صالح أن ربيعة بن يزيد حدّثه عن

والترغيب فيه عن سلمان قال: قال رسول الله ﷺ: «إن ربكم حي كريم يستحي من عبده إذا رفع إليه يديه أن يردهما صفراً خائبتين» أخرجه أبو داود والترمذي. وقال حديث حسن غريب. الصفر الخالي يقال بيت صفر ليس فيه متاع. عن عبادة بن الصامت أن رسول الله ﷺ قال: «ما على الأرض مسلم يدعو الله بدعوة إلاّ آتاه الله إياها أو صرف عنه من الشر مثلها ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم فقال رجل من القوم إذا نكثر قال الله أكثر» أخرجه الترمذي. قوله؛ الله أكثر معناه الله أكثر إجابة عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة واعلموا أن الله لا يستجيب دعاء من قلب غافل لاه» أخرجه الترمذي. وقال حديث غريب. عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «ليس شيء أكرم على الله من الدعاء» أخرجه الترمذي. وله عن أنس أن النبي ﷺ قال: «الدعاء مخ العبادة» وله عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «من فتح له باب من الدعاء فتحت له أبواب الرحمة وما سئل الله شيئاً أحب إليه من أن يسأل العافية وإن الدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل» وله عن سلمان أن رسول الله ﷺ قال: «لا يرد القضاء إلاّ الدعاء ولا يزيد في العمر إلاّ البر» وله عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «من لم يسأل الله يغضب عليه» (ق) عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «يستجاب لأحدكم ما لم يعجل بقوله قد دعوت فلم يستجب لي» ولمسلم قال: «لا يزال يستجاب للعبد ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم ما لم يستعجل قيل: يا رسول الله ما الاستعجال؟ قال يقول قد دعوت وقد دعوت فلم يستجب لي فيستحسر عند ذلك ويدع الدعاء». قوله يستحسر أي يستنكف عن السؤال وأصله من حسر الطرف إذا كلَّ وضعف (ق) عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إذا دعا أحدكم فلا يقل اللهم اغفر لي إن شئت اللهم ارحمني إن شئت ولكن ليعزم المسألة فإن الله لا مكره له» زاد البخاري «ارزقني إن شئت ليعزم مسألته فإنه يفعل ما يشاء لا مكره له» قوله ليعزم المسألة أي لا تكن في دعائك ربك متردداً بل أعزم وجد في المسألة. عن فضالة بن عبيد قال: «سمع النبي ﷺ رجلاً يدعو في صلاته فلم يصل على النبي ﷺ فقال النبي ﷺ: عجل هذا ثم دعاه فقال له أو لغيره: إذا صلّى أحدكم فليبدأ بحمد الله والثناء عليه ثم ليصل على النبي ﷺ ثم ليدع بما شاء» أخرجه الترمذي وقال حديث صحيح. قوله عز وجل:

﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَٱلْـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُواْ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ حَتَّىٰ

أبي إدريس، عن أبي هريرة عن النبيّ ﷺ قال: «يستجيبُ اللَّهُ لأحدكم ما لم يدعُ بإثم أو قطيعة رحم أو يستعجل»، قالوا: وما الاستعجال يا رسول الله؟ قال: «يقول قد دعوتُكَ يا ربُّ قد دعوتُك يا ربُّ فلا أراك تستجيب لي، فيستحسر عند ذلك، فيدع الدعاء»، وقيل: هو عامّ، ومعنى قوله أُجيب أي: أسمع، ويقال: ليس في الآية أكثر من استجابة الدعوة، فأما إعطاء المنية فليس بمذكور فيها، وقد يجيب السيدُ عبدَه والوالدُ ولدَه ثم لا يُعطيه سؤله، فالإجابة كائنة لا محالة عند حصول الدعوة، وقيل: معنى الآية أنه يُجيب دعاءَه فإن قدّر له ما سأل أعطاه، وإن لم يُقدّرْ له ادّخر له الثواب في الآخرة أو كفّ عنه به سوءاً، والدليل عليه ما أخبرنا عبد الواحد المليحي أخبرنا أبو منصور السمعاني، أخبرنا أبو جعفر الزياتي أخبرنا حميد بن زنجويه، أخبرنا محمد بن يوسف. أخبرنا ابن ثوبان وهو محمد بن عبد الرحمن بن ثابت بن ثوبان، عن أبيه عن مكحول عن جُبير بن نُفير عن عُبادة بن الصامت حدّثهم: أن النبيّ ﷺ قال: «ما على الأرض رجل مسلم يدعو الله تعالى بدعوة إلاّ آتاه الله إيّاها، أو كفّ عنه من السوء مثلَها ما لم يدعُ بإثم أو قطيعة رحم»، وقيل: إن الله تعالى يُجيب دعاء المؤمن في الوقت، ويُؤخّر إعطاء مَن يجيب مرادَه ليدعوه فيسمع صوته، ويعجّل إعطاء مَن لا يحبه لأنه يبغض صوته، وقيل: إن للدعاء آداباً وشرائط وهي أسباب الإجابة، فمَن استكملها كان من أهل الإجابة، ومَن أخلّ بها فهو من أهل الاعتداء في الدعاء، فلا يستحق الإجابة.

يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَٰجِدِ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾

﴿**أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم**﴾ سبب نزول هذه الآية أنه كان في ابتداء الأمر بالصوم إذا أفطر الرجل حل له الطعام والشراب والجماع إلى أن يصلي العشاء الأخيرة أو يرقد قبلها فإذا صلى، أو رقد حرم عليه ذلك كله إلى الليلة القابلة ثم إن عمر بن الخطاب واقع أهله بعد ما صلّى العشاء فلما اغتسل أخذ يبكي ويلوم نفسه ثم أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله أعتذر إلى الله وإليك من هذه الخطيئة إني رجعت إلى أهلي بعد ما صليت العشاء فوجدت رائحة طيبة فسولت لي نفسي فجامعت أهلي فقال النبي ﷺ: «ما كنت بذلك جديراً يا عمر فقام رجال فاعترفوا بمثل ذلك فنزلت في عمر وأصحابه أحل لكم أي أبيح لكم ليلة أراد بالليلة ليالي الصيام الرفث إلى نسائكم الرفث كلام يستقبح لفظه من ذكر الجماع ودواعيه وهو هنا كناية عن الجماع قال ابن عباس إن الله تعالى حي كريم يكنى فما ذكره من المباشرة والملامسة وغير ذلك إنما هو الجماع ﴿**هن لباس لكم**﴾ أي سكن لكم ﴿**وأنتم لباس لهنَّ**﴾ أي سكن لهن قيل لا يسكن شيء إلى شيء كسكون أحد الزوجين إلى الآخر وسمي كل واحد من الزوجين لباساً لتجردهما عند النوم واجتماعهما في ثوب واحد وقيل اللباس اسم لما يوارى فيكون كل واحد منهما ستراً لصاحبه عما لا يحل كما جاء في الحديث «من تزوج فقد أحرز ثلثي دينه» ﴿**علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم**﴾ قال ابن عباس يريد فيما ائتمنكم عليه وخيانتهم أنهم كانوا يباشرون في ليالي الصوم، والمعنى يظلمونها بالمجامعة بعد العشاء وهو من الخيانة وأصل الخيانة أن يؤتمن الرجل على شيء فلا يؤدي فيه الأمانة ويقال للعاصي خائن لأنه مؤتمن على دينه ﴿**فتاب عليكم**﴾ أي فتبتم فتاب عليكم وتجاوز عنكم ﴿**وعفا عنكم**﴾ أي ومحا ذنوبكم (خ) عن البراء قال لما نزل صوم رمضان كانوا لا يقربون النساء رمضان كله فكان رجال يخونون أنفسهم

قوله تعالى: ﴿ **أحلَّ لكم ليلةَ الصيامِ الرَفَثُ إلى نسائكم** ﴾، فالرفث كناية عن الجماع، قال ابن عباس: إن الله حيي كريم يكنّي، كلما ذكر في القرآن من المباشرة والملامسة والإفضاء والدخول والرفث، فإنما عنى به الجماع، وقال الزجّاج: الرفث كلمة جامعة لكل ما يريده الرجال من النساء، قال أهل التفسير كان في ابتداء الأمر إذا أفطر الرجل حلّ له الطعام والشراب والجماع إلى أن يصلّي العشاء الآخرة، أو يرقد قبلها، فإذا صلّى العشاء أو رَقَدَ قبلها حَرُمَ عليه الطعام والشراب والنساء إلى الليلة القابلة، ثم إن عمر بن الخطاب رضي الله عنه واقع أهله بعدما صلّى العشاء فلما اغتسل أخذ يبكي ويلوم نفسه، فأتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله إني أعتذر إلى الله وإليك من نفسي هذه الخطيئة، إني رجعت إلى أهلي بعدما صلّيت العشاء فوجدت رائحة طيّبة فسوّلت لي نفسي فجامعتُ أهلي، فقال النبي ﷺ: ما كنتَ جديراً بذلك يا عمر»، فقام رجال واعترفوا بمثله، فنزل في عمر وأصحابه: ﴿ **أُحِلَّ لكم ليلة الصيام** ﴾، أي: أبيح لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم: ﴿ **هنّ لباسٌ لكم** ﴾ أي سكن لكم، ﴿ **وأنتم لباس لهنّ** ﴾، أي: سكن لهنّ، دليله قوله تعالى: ﴿ وجعل منها زوجها ليسكن إليها ﴾ [الأعراف: ١٨٩] وقيل: لا يسكن شيء إلى شيء كسكون أحد الزوجين إلى الآخر، وقيل: سُمّي كل واحد من الزوجين لباساً لتجرّدهما عند النوم واجتماعهما في ثوب واحد، حتى يصير كل واحد منهما لصاحبه كالثوب الذي يلبسه، وقال الربيع بن أنس: هنّ فراش واجتماعهما لكم، وأنتم لحاف لهنّ، قال أبو عُبيدة وغيره: يقال للمرأة هي لباسك وفراشك وإزارك، وقيل: اللباس اسم لما يُواري الشيء، فيجوز أن يكون كل واحد منهما ستراً لصاحبه عمّا لا يحلّ، كما جاء في الحديث: «مَنْ تزوّج فقد أحرز ثلثي دينه»، ﴿ **علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم** ﴾، أي تخونونها وتظلمونها

فأنزل الله: ﴿علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم فتاب عليكم وعفا عنكم﴾ الآية قال ابن عباس: فكان ذلك مما نفع الله به الناس ورخص لهم ويسر ﴿فالآن باشروهن﴾ أي جامعوهن فهو حلال لكم في ليالي الصوم، وسميت المجامعة مباشرة لتلاصق بشرة واحد بصاحبه ﴿وابتغوا ما كتب الله لكم﴾ أي ما قضى لكم في اللوح المحفوظ يعني الولد، وقيل: وابتغوا الرخصة التي كتب الله لكم بإباحة الأكل والشرب والجماع في اللوح المحفوظ يعني الولد. وقيل: اطلبوا ليلة القدر.

﴿وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود﴾ نزلت في صرمة بن قيس بن صرمة الأنصاري، ويقال قيس بن صرمة وذلك أنه ظل يعمل في أرض له وهو صائم فلما أمسى رجع إلى أهله بتمر، وقال لأهله قدمي الطعام فأرادت المرأة أن تطعمه شيئاً سخناً فأخذت تعمل له ذلك فلما فرغت فإذا هو قد نام وكان قد أعيا من التعب، فأيقظته فكره أن يعصي الله ورسوله وأبى أن يأكل وأصبح صائماً مجهوداً فلم ينتصف النهار حتى غشي عليه فلما أفاق أتى النبي ﷺ فلما رآه قال: يا أبا قيس ما لك أمسيت طليحاً فذكر له حاله فاغتم لذلك رسول الله ﷺ فأنزل الله هذه الآية وقوله: طليحاً أي مهزولاً مجهوداً (خ) عن البراء قال كان أصحاب محمد ﷺ إذا كان الرجل صائماً، فحضر الإفطار فنام قبل أن يفطر لم يأكل ليلته ولا يومه حتى يمسي وإن قيس بن صرمة الأنصاري كان صائماً فلما حضر الإفطار أتى امرأته فقال أعندك طعام؟ قالت: لا ولكن أنطلق فأطلب لك وكان يومه يعمل فغلبته عينه فجاءته امرأته فلما رأته قالت خيبة لك فلما انتصف النهار غشي عليه فذكر ذلك للنبي ﷺ فنزلت هذه الآية: ﴿أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم﴾ ففرحوا بها فرحاً شديداً ونزلت: ﴿وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر﴾ ومعنى الآية: وكلوا واشربوا في ليالي الصوم، حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود: بياض النهار من سواد الليل، وسميا خيطين لأن كل واحد منهما يبدو في الأفق ممتداً كالخيط، قال الشاعر:

فلما أضاءت لنا سدفة ... ولاح من الصبح خيط أنارا

بالمجامعة بعد العشاء، قال البَرّاء: لمّا نزل صوم رمضان، كانوا لا يقرَبُون النساءَ كلّه، وكان رجال يخونون أنفسهم، فأنزل الله تعالى: ﴿ علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم ﴾، ﴿ فتاب عليكم ﴾: تجاوز عنكم، ﴿ وعفا عنكم ﴾: مَحَا ذُنوبَكم، ﴿ فالآن باشرُوهنّ ﴾: جامعوهنّ حلالاً، سُمّيت المجامعة: مباشرة، لملاصقة بشرة كل واحد منهما صاحبه، ﴿ وابتغوا ما كتب الله لكم ﴾، أي: فاطلبوا ما قضى الله لكم، وقيل: ما كتب الله لكم في اللوح المحفوظ، يعني: الولد، قاله أكثر المفسّرين، قال مجاهد: ابتغوا الولد إن لم تلد هذه فهذه، وقال قتادة: وابتغوا الرخصة التي كتب الله لكم بإباحة الأكل والشرب والجماع في اللوح المحفوظ، وقال معاذ بن جبل: وابتغوا ما كتب الله لكم، يعني: ليلة القدر، قوله: ﴿ وكُلُوا واشرَبُوا حتى يتبيّنَ لكمُ الخيطُ الأبيض ﴾، نزلتْ في رجل من الأنصار اسمه أبو صِرْمَة بن قيس بن صِرْمَة، وقال عكرمة: أبو قيس بن صرمة، وقال الكلبي: أبو قيس صرمة بن أنس بن صرمة، وذلك أنه ظلّ نهاره يعمل في أرضٍ له وهو صائم، فلما أمسى رجع إلى أهله بتمر، وقال لأهله قدّمي الطعام، فأرادت المرأة أن تطعمه شيئاً سخيناً فأخذت تعمل له سخينة، وكان في الابتداء مَنْ صلّى العشاء ونام حَرُم عليه الطعامُ والشراب، فلما فرغت من طعامه إذْ هو به قد نام، وكان قد أعيا وكَلَّ، فأيقظته فكره أن يعصي الله ورسوله فأبى أن يأكل فأصبح صائماً مجهوداً، فلم ينتصف النهار حتى غُشِيَ عليه فلما أفاق أتى رسول الله ﷺ فلما رآه رسول الله ﷺ قال: «يا أبا قيس مَا لَكَ أصبحت طليحاً»، فذكر له حاله فاغتمّ لذلك رسول الله ﷺ، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿ وكلوا واشربوا ﴾ يعني في ليالي الصوم ﴿ حتى يتبيّن لكم الخيط الأبيض، من الخيطِ الأسود ﴾

السدف اختلاط الظلام وأسدف الفجر أضاء (ق) عن سهل بن سعد قال لما نزلت: ﴿**وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود**﴾ ولم ينزل «من الفجر» فكان رجال إذا أرادوا الصوم ربط أحدهم في رجله الخيط الأبيض والخيط الأسود، ولا يزال يأكل حتى تتبين له رؤيتهما فأنزل الله عز وجل بعده ﴿**من الفجر**﴾ فعلموا أنه إنما يعني الليل والنهار (ق) عن عدي بن حاتم: «لما نزلت حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود عمدت إلى عقال أسود وعقال أبيض فجعلتهما تحت وسادتي وجعلت أنظر في الليل فلا يتبين لي فغدوت على رسول الله ﷺ، فذكرت له ذلك فقال: إنما ذلك سواد الليل وبياض النهار» (ق) عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «إن بلالاً يؤذن بليل فكلوا واشربوا حتى يؤذن ابن أم مكتوم» قال: وكان ابن أم مكتوم رجلاً أعمى لا ينادي حتى يقال له: أصبحت أصبحت. واعلم أن الفجر الذي يحرم به على الصائم الطعام والشراب والجماع هو الفجر الصادق المستطير المنتشر في الأفق سريعاً، لا الفجر الكاذب المستطيل. فإن قلت كيف شبه الصبح الصادق بالخيط والخيط مستطيل والصبح الصادق ليس بمستطيل؟. قلت إن القدر الذي يبدو من البياض هو أول الصبح يكون رقيقاً صغيراً ثم ينتشر فلهذا شبه بالخيط، والفرق بين الفجر الصادق والفجر الكاذب أن الفجر الكاذب يبدو في الأفق فيرتفع مستطيلاً ثم يضمحل ويذهب ثم يبدو الفجر الصادق بعده منتشراً في الأفق مستطيراً (م) عن سمرة بن جندب قال قال رسول الله ﷺ: «لا يغرنكم من سحوركم أذان بلال ولا بياض الأفق المستطيل هكذا حتى يستطير هكذا» وحكاه حماد بيديه قال يعني معترضاً وفي رواية الترمذي: «لا يمنعكم من سحوركم أذان بلال ولا الفجر المستطيل ولكن الفجر المستطير في الأفق» فإذا تحقق طلوع الفجر الثاني وهو الصادق حرم على الصائم الطعام والشراب والجماع إلى غروب الشمس وهو قوله تعالى: ﴿**ثم أتموا الصيام إلى الليل**﴾ يعني منتهى الصوم إلى الليل فإذا دخل الليل حصل الفطر (ق) عن عمر بن الخطاب قال قال رسول الله ﷺ: «إذا أقبل الليل من هاهنا وأدبر النهار من هاهنا وغربت الشمس فقد أفطر الصائم» وهل يلزم الصائم أن يتناول عند تحقق غروب الشمس شيئاً؟ فيه وجهان: أحدهما نعم يلزم ذلك لنهيه ﷺ عن الوصال. والثاني لا، لأنه قد حصل الفطر بمجرد دخول الليل سواء أكل أو لم يأكل، وتمسكت الحنفية بهذه الآية في أن الصوم النفل يجب إتمامه وقالوا: لأن قوله تعالى:

يعني: بياض النهار من سواد الليل: سُمّيا خيطين لأن كل واحد منهما يبدو في الابتداء ممتدّاً كالخيط، أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف أخبرنا محمد بن إسماعيل، أخبرنا سعيد بن أبي مريم أخبرنا أبو غسان محمد بن مطرف، ثنا أبو حازم عن سهل بن سعد قال: أنزلت: ﴿ **وكلوا واشربوا حتى يتبيّن لكم الخيطُ الأبيضُ من الخيطِ الأسودِ** ﴾، ولم ينزل قوله: ﴿ **من الفجر** ﴾، فكان رجال إذا أرادوا الصوم ربط أحدهم في رجله الخيط الأبيض والخيطَ الأسود، ولا يزال يأكل ويشرب حتى يتبيّن له رؤيتهما، فأنزل الله تعالى بعده: ﴿ **مِنَ الفجر** ﴾، فعلموا إنما يعني بهما: الليل والنهار، أخبرنا عبد الواحد المليحي أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف أخبرنا محمد بن إسماعيل، أخبرنا حجّاج بن منهال أخبرنا هشيم أخبرنا حصين بن عبد الرحمن، عن الشعبي عن عدي بن حاتم قال: لمّا نزلت ﴿ **حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود** ﴾ عمدتُ إلى عقال أسود وإلى عقال أبيض فجعلتهما تحت وسادتي فجعلت أنظر إليهما وإلى الليل فلا يستبين لي، فغدوت إلى رسول الله ﷺ فذكرتُ ذلك له، فقال: «إنما ذلك سواد الليل وبياض النهار»، أخبرنا أبو الحسن السرخسي أخبرنا زاهر بن أحمد أخبرنا أبو إسحاق الهاشمي، أخبرنا أبو مصعب عن مالك عن ابن شهاب، عن سالم بن عبد الله بن عمر عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال: «إن بلالاً ينادي بليل فكلوا واشربوا حتى ينادي ابن أُم مكتوم»، قال: ابن أُمِّ مكتوم رجلًا أعمى لا ينادي حتى يقال له: أصبحت أصبحت،

﴿ثم أتموا الصيام إلى الليل﴾ أمر وهو للوجوب وهو يتناول كل الصيام. أجاب أصحاب الشافعي عنه بأن هذا إنما ورد في بيان أحكام صوم الفرض فكان المراد منه صوم الفرض ويدل على إباحة الفطر من النفل ما روي عن عائشة قالت: «دخل النبي ﷺ ذات يوم فقال هل عندكم شيء، قلنا لا قال: فإني إذاً صائم ثم أتانا يوماً آخر فقلت يا رسول الله أهدي لنا حيس. قال: أرنيه فلقد أصبحت صائماً فأكل» أخرجه مسلم. الحيس هو خلط الأقط والتمر والسمن وقد يجعل عوض الأقط دقيق أو فتيت وقيل هو التمر ينزع نواه ويخلط بالسويق والأول أعرف. قوله عز وجل: ﴿ولا تباشروهن وأنتم عاكفون في المساجد﴾ الاعتكاف هو الإقبال على الشيء والملازمة له على سبيل التعظيم. وهو في الشرع عبارة عن الإقامة في المسجد على عبادة الله تعالى. وسبب نزول هذه الآية أن نفراً من أصحاب رسول الله ﷺ كانوا يعتكفون في المسجد، فإذا عرض لرجل منهم حاجة إلى أهله خرج إليها وخلا بها، ثم اغتسل ورجع إلى المسجد فنهوا عن ذلك حتى يفرغوا من اعتكافهم. واعلم أن الله تعالى بين أن الجماع يحرم على الصائم بالنهار ويباح له في الليل، فكان يحتمل أن يكون حكم الاعتكاف كحكم الصوم فبين الله تعالى في هذه الآية أن الجماع يحرم على المعتكف في النهار والليل حتى يخرج من اعتكافه.

فصل في حكم الاعتكاف:

الاعتكاف سنة ولا يجوز في غير المسجد، وذلك لأن المسجد يتميز عن سائر البقاع بالفضل لأنه بني لإقامة الطاعات والعبادات فيه. ثم اختلفوا فنقل عن علي أنه لا يجوز إلاّ في المسجد الحرام لقوله: ﴿وطهر بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود﴾ فخصه به وقال عطاء: لا يجوز إلاّ في المسجد الحرام ومسجد المدينة. وقال حذيفة: يجوز في هذين المسجدين ومسجد بيت المقدس. وقال الزهري: لا يصح إلاّ في الجامع وقال أبو حنيفة: لا يجوز إلاّ في مسجد له إمام ومؤذن وقال الشافعي ومالك وأحمد يجوز في سائر المساجد لعموم قوله: ﴿وأنتم عاكفون في المساجد﴾ إلاّ أن المسجد الجامع أفضل حتى لا يحتاج إلى الخروج من معتكفه لصلاة الجمعة (ق) عن عائشة: أن النبي ﷺ كان يعتكف العشر الأواخر من رمضان حتى توفاه الله عز وجل ثم اعتكف أزواجه بعده(ق) عن ابن عمر: «أن رسول الله ﷺ كان يعتكف العشر الأواخر من رمضان».

واعلم أن الفجر فجران: كاذب وصادق، فالكاذب: يطلع أولاً مستطيلاً كذنب السرحان يصعد إلى السماء، فبطلوعه لا يخرج الليل ولا يحرم الطعام والشراب على الصائم، ثم يغيب فيطلع بعده الفجر الصادق مستطيراً ينتشر سريعاً في الأفق، فبطلوعه يدخل النهار ويحرم الطعام والشراب على الصائم، أخبرنا أبو عثمان سعيد بن إسماعيل الضبّي، أخبرنا أبو محمد عبد الجبار بن محمد الجراحي، أخبرنا أبو العباس المحبوبي أخبرنا أبو عيسى الترمذي، أخبرنا هنّاد بن يوسف بن عيسى، قال: أخبرنا وكيع عن أبي هلال عن سواد بن حنظلة عن سمرة بن جُندب قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يمنعكم من سحوركم آذان بلال ولا الفجر المستطيل، ولكن الفجر المستطير في الأفق».

قوله تعالى: ﴿ ثم أتِمُّوا الصيامَ إلى الليل ﴾، فالصائم يحرم عليه الطعام والشراب بطلوع الفجر الصادق ويمتد إلى غروب الشمس، وإذا غربت حصل الفطر، أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف أخبرنا محمد بن إسماعيل، أخبرنا الحميدي أخبرنا سفيان الثّوري أخبرنا هشام بن عروة قال: سمعت أبي يقول: سمعت عاصم بن عمر بن الخطاب عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أقبل الليل من هنا وأدبر النهار من ههنا، وغربت الشمس، فقد أفطر الصائم». قوله تعالى: ﴿ ولا تُبَاشِرُوهُنّ وأنتم عاكفون في المساجد﴾، العكوف هو الإقامة على الشيء، والاعتكاف في الشرع هو الإقامة في المسجد على عبادة الله، وهوسُنّة، ولا يجوز في غير المسجد ويجوز في جميع المساجد، أخبرنا عبد الواحد المليحي أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي،

فروع: الأول:

يجوز الاعتكاف بغير صوم والأفضل أن يصوم معه، وقال أبو حنيفة: الصوم شرط في الاعتكاف ولا يصح إلّا به، وحجة الشافعي ما روي عن عمر: «قال يا رسول الله إني نذرت في الجاهلية أن أعتكف ليلة في المسجد الحرام قال فأوف بنذرك» أخرجاه في الصحيحين ومعلوم أنه لا يصح الصوم في الليل.

الفرع الثاني:

لا يقدر للاعتكاف زمان عند الشافعي وأقله لحظة، ولا حد لأكثره، فلو نذر اعتكاف ساعة صح نذره، ولو نذر أن يعتكف مطلقاً يخرج من نذره باعتكاف ساعة. قال الشافعي: وأحب أن يعتكف يوماً، وإنما قال ذلك للخروج من الخلاف فإن أقل زمن الاعتكاف عند مالك وأبي حنيفة يوم بشرط أن يدخل فيه قبل طلوع الفجر ويخرج منه بعد غروب الشمس.

الفرع الثالث:

الجماع حرام في حال الاعتكاف ويفسد به وأما ما دون الجماع كالقبلة ونحوها فمكروه ولا يفسد به عند أكثر العلماء، وهو أظهر قول الشافعي والثاني يبطل به وهو قول مالك، وقيل إن أنزل بطل اعتكافه وإن لم ينزل فلا، وهو قول أبي حنيفة، وأما الملامسة بغير شهوة فجائز، ولا يفسد به الاعتكاف لما روي عن عائشة: «أنها كانت ترجل النبي ﷺ وهي حائض وهو معتكف في المسجد، وهي في حجرتها يناولها رأسه» زاد في رواية: «وكان لا يدخل البيت إلّا لحاجة إذا كان معتكفاً» وفي رواية: «وكان لا يدخل البيت إلّا لحاجة الإنسان» أخرجاه في الصحيحين. الترجيل تسريح الشعر، وقولها إلّا لحاجة حوائج الإنسان كثيرة والمراد منها هاهنا كل ما يضطر الإنسان إليه مما لا يجوز له فعله في المسجد وموضع معتكفه.

وقوله تعالى: ﴿تلك حدود الله﴾ يعني تلك الأحكام التي ذكرت في الصيام والاعتكاف من تحريم الأكل والشرب والجماع حدود الله وقيل حدود الله فرائض الله. وأصل الحد في اللغة المنع، والحد الحاجز بين الشيئين الذي يمنع اختلاط أحدهما بالآخر وحد الشيء بالوصف المحيط بمعناه المميز له عن غيره وقيل معنى حدود الله المقادير التي قدرها ومنع من مخالفتها ﴿فلا تقربوها﴾ أي فلا تأتوها ولا تغشوها. فإن قلت في الآية إشكالان: أما الأول فهو أنه قال: تلك حدود الله وهو إشارة إلى ما تقدم من الأحكام وبعضها فيه إباحة وبعضها فيه حظر فكيف قال في الجميع فلا تقربوها؟. الإشكال الثاني هو أنه تعالى قال في هذه الآية: ﴿تلك حدود الله فلا تقربوها﴾ وقال في آية أخرى: ﴿تلك حدود الله فلا تعتدوها﴾ وقال في آية أخرى: ﴿ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده﴾ فكيف الجمع بين هذه الآيات؟. قلت: الجواب عن السؤالين من وجهين: أما الإشكال الأول، فجوابه أن الأحكام

أخبرنا محمد بن يوسف أخبرنا محمد بن إسماعيل أخبرنا عبد الله بن يوسف، أخبرنا الليث عن عقيل عن ابن شهاب عن عروة بن الزبير، عن عائشة زوج النبيِّ ﷺ أن النبيَّ ﷺ كان يعتكف العشر الأَوَاخِرَ من رمضان حتى توفّاه الله تعالى. ثم اعتكفت أزواجه من بعده، والآية نزلت في نفر من أصحاب النبي ﷺ كانوا يعتكفون في المسجد، فإذا عرضت للرجل منهم الحاجة إلى أهله خرج إليها فجامعها ثم اغتسل، فرجع إلى المسجد، فنُهوا عن ذلك ليلاً ونهاراً حتى يفرغوا من اعتكافهم، فالجماع حرام في حال الاعتكاف، ويفسد به الاعتكاف، أمّا ما دون الجماع من المباشرات كالقبلة واللّمس بالشهوة فمكروه، ولا يفسد به الاعتكاف عند أكثر أهل العلم، وهو أظهر قولي الشافعي، كما لا يبطل به الحج، وقالت طائفة يبطل بها اعتكافه، وهو قول مالك، وقيل: إن أنزل بطل اعتكافه، وإن لم ينزل فلا، كالصوم، وأمّا اللّمس الذي لا يقصد به التلذّذ فلا يفسد به الاعتكاف، لِما أخبرنا أبو الحسن

التي تقدمت فيما قبل، وإن كانت كثيرة إلّا أن أقربها إلى هذه الآية قوله تعالى: ﴿ولا تباشروهن وأنتم عاكفون في المساجد﴾ وذلك يوجب تحريم الجماع في حال الاعتكاف، وقال قبلها: ﴿ثم أتموا الصيام إلى الليل﴾ وذلك يوجب تحريم الأكل والشرب في النهار فلما كان الأقرب إلى هذه الآية جانب التحريم قال ﴿تلك حدود الله فلا تقربوها﴾ والجواب عن الإشكال الثاني أن من كان في طاعة الله تعالى والعمل بفرائضه فهو منصرف في حيزي الحق فنهي أن يتعداه فيقع في حيز الباطل ثم بولغ في ذلك فنهي أن يقرب الحد الذي هو الحاجز بين حيزي الحق والباطل لئلا يداني الباطل فيقع فيه فهو كقوله ﷺ «كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه» وقيل أراد بحدوده هنا محارمه ومناهيه لقوله: ﴿ولا تباشروهن وأنتم عاكفون في المساجد﴾ ونحو هذا التحريم فهي حدود لا تقرب ﴿كذلك﴾ أي كما بين لكم ما أمركم به ونهاكم عنه كذلك ﴿يبين الله آياته﴾ أي معالم دينه وأحكام شريعته ﴿للناس﴾ مثل هذا البيان الشافي الوافي ﴿لعلهم يتقون﴾ أي لكي يتقوا ما حرم عليهم فينجوا من العذاب. قوله عز وجل:

﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾﴾

﴿ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل﴾ نزلت في امرىء القيس بن عابس الكندي ادّعى عليه ربيعة بن عبدان الحضرمي عند رسول الله ﷺ في أرض فقال رسول الله ﷺ للحضرمي: ألك بينة قال لا قال فلك يمينه فانطلق ليحلف فقال رسول الله ﷺ أما إن حلف على ماله ليأكله ظلماً ليلقين الله وهو عنه معرض فأنزل الله هذه الآية. والمعنى لا يأكل بعضكم مال بعض بالباطل أي من غير الوجه الذي أباحه الله له. وأصل الباطل الشيء الذاهب.

فصل

أما حكم الآية فأكل المال بالباطل على وجوه: **الأول**: أن يأكله بطريق التعدي والنهب والغصب. **الثاني**: أن

السرخسي أخبرنا زاهر بن أحمد، أخبرنا أبو إسحاق الهاشمي أخبرنا أبو مصعب عن مالك، عن ابن شهاب عن عروة بن الزبير عن عمرة بنت عبد الرحمن، عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: كان رسول الله ﷺ إذا اعتكف أدنَى إليّ رأسَهُ فأَرَجِلُه وكان لا يدخل البيت إلّا لحاجة الإنسان، قوله تعالى: ﴿ تِلْكَ حُدُودُ الله ﴾، يعني: تلك الأحكام التي ذكرها في الصيام والاعتكاف حدود، أي: ما منع الله عنها، قال السدي: شروط الله وقال شهر بن حَوْشَب: فرائض الله وأصل الحدّ في اللغة المنع، ومنه يُقال للبوّاب: حدّاد لأنه يمنع الناس من الدخول، وحدود الله ما يمنع الناس من مخالفتها، ﴿ فلا تقربوها ﴾ فلا تأتوها ﴿ كذلك ﴾، هكذا ﴿ يُبيّن الله آياتِهِ للناس لعلّهم يتّقون ﴾، لكي يتّقوها فينجوا من العذاب.

قوله تعالى: ﴿ ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل ﴾، قيل: نزلت هذه الآية في امرؤ القيس بن عابس الكندي ادّعى عليه ربيعة بن عبدان الحضرمي عند رسول الله ﷺ أرضاً فقال النبي ﷺ للحضرمي ألك بيّنة؟ قال: لا، قال: فلك يمينه فانطلق ليحلف، فقال رسول الله ﷺ: «إمّا أن يحلف على ماله ليأكله ظلماً ليلقينَّ الله وهو عنه مُعرِض»، فأنزل الله هذه الآية ﴿ ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل ﴾، أي: لا يأكل بعضكم مالَ بعض بالباطل، أي: من غير الوجه الذي أباحه الله وأصل الباطل: الشيء الذاهب، والأكل بالباطل أنواع قد يكون بطريق الغصب والنهب، وقد يكون بطريق اللهو كالقمار وأجرة المغنّي، وغيرهما وقد يكون بطريق الرشوة والخيانة، ﴿ وتُدلُوا بها إلى

يأكله بطريق اللهو كالقمار وأجرة المغنى وثمن الخمر والملاهي ونحو ذلك. **الثالث**: أن يأكله بطريق الرشوة في الحكم وشهادة الزور. **الرابع**: الخيانة وذلك في الوديعة والأمانة ونحو ذلك. وإنما عبر عن أخذ المال بالأكل لأنه المقصود الأعظم، ولهذا وقع في التعارف فلان يأكل أموال الناس بمعنى يأخذها بغير حلها **﴿وتدلوا بها إلى الحكام﴾** أي وتلقوا أمور تلك الأموال التي فيها الحكومة إلى الحكام. قال ابن عباس هذا في الرجل يكون عليه المال وليس عليه بينة فيجحد ويخاصم إلى الحكام وهو يعلم أن الحق عليه وهو آثم بمنعه وقيل: هو أن يقيم شهادة الزور عند الحاكم وهو يعلم ذلك. وقيل معناه ولا تأكلوا المال بالباطل وتنسبوه إلى الحكام، وقيل: لا تدل بمال أخيك إلى الحاكم وأنت تعلم أنك ظالم فإن قضاءه لا يحل حراماً وكان شريح القاضي يقول إني لأقضي لك وإني لأظنك ظالماً ولكن لا يسعني إلاّ أن أقضي بما يحضرني من البينة وإن قضائي لا يحل لك حراماً (ق) عن أم سلمة «أن رسول الله ﷺ سمع جلبة خصم بباب حجرته فخرج إليهم فقال: إنما أنا بشر وإنه يأتيني الخصم فلعل بعضهم أن يكون أبلغ من بعض» وفي رواية «ألحن بحجته من بعض فأحسب أنه صادق فأقضي له فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هي قطعة من النار فليحملها أو يذرها» قوله سمع جلبة خصم يعني أصوات خصم قوله ألحن بحجته، يقال: فلان ألحن بحجته من فلان أي أقوم بها منه وأقدر عليها، من اللحن بفتح الحاء وهو الفطنة **﴿لتأكلوا فريقاً﴾** أي طائفة وقطعة **﴿من أموال الناس بالإثم﴾** يعني بالظلم وقال ابن عباس باليمين الكاذبة وقيل بشهادة الزور **﴿وأنتم تعلمون﴾** يعني أنكم على الباطل. قوله عز وجل:

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾﴾

﴿يسألونك﴾ أي يا محمد **﴿عن الأهلة﴾** نزلت في معاذ بن جبل وثعلبة بن غنم الأنصاريين قالا يا رسول الله

الحكّام ﴾، أي: تُلقوا أمور تلك الأموال بينكم وبين أربابها إلى الحكّام، وأصل الإدلاء إرسال الدلو، وإلقاؤه في البئر، يُقال: أدلى دلوه إذا أرسله، ودلاّه يدلوه إذا أخرجه قال ابن عباس: هذا في الرجل يكون عليه مال وليس عليه بيّنة فيجحد المال، ويخاصم فيه الحاكم وهو يعرف أن الحق عليه، وإنه أثم بمنعه قال مجاهد في هذه الآية: لا تخاصم وأنت ظالم، قال الكلبي هو أن يقيم شهادة الزور، وقوله: **﴿ وتدلوا ﴾** في محل الجزم بتكرير حرف النهي معناه، ولا تدلوا بها إلى الحكّام، وقيل: معناه ولا تأكلوا بالباطل وتنسبونه إلى الحكّام، قال قتادة: لا تدل بمال أخيك إلى الحاكم وأنت تعلم أنك ظالم فإن قضاءَه لا يُحلّ حراماً، وكان شُريح القاضي يقول: إني لأقضي لك وإني لأظنّك ظالماً، ولكن لا يسعني إلاّ أن أقضي لك بما يحضرني من البيّنة، وإن قضائي لا يُحلّ لك حراماً، أخبرنا عبد الوهاب بن محمد الخطيب أخبرنا عبد العزيز بن أحمد الخلال، أخبرنا أبو العباس الأصم أخبرنا الربيع، أخبرنا الشافعي أخبرنا مالك بن أنس عن هشام بن عروة عن أبيه، عن زينب بنت أبي سلمة عن أم سلمة زوج النبي ﷺ أنّ رسول الله ﷺ قال: «إنّما أنا بشر وإنكم تختصمون إليّ ولعلّ بعضكم أن يكون ألحن بحجّته من بعض فأقضي له على نحو ما أسمع منه، فمَن قضيت له بشيء من حق أخيه فلا يأخذنّه، فإنّما أقطع له قطعة من النار»، قوله تعالى: **﴿ لتأكلوا فَرِيقاً ﴾**: طائفة **﴿ من أموال الناس بالإثم ﴾**: بالظلم، وقال ابن عباس: باليمين الكاذبة يقتطع بها مال أخيه، **﴿ وأنتم تعلمون ﴾**: أنكم مُبطلون.

قوله تعالى: **﴿ يسألونك عن الأهلّة ﴾**، نزلت في معاذ بن جبل وثعلبة بن غنم الأنصاريين قالا: يا رسول الله

ما بال الهلال يبدو دقيقاً ثم يزيد حتى يمتلىء نوراً، ثم لا يزال ينقص حتى يعود دقيقاً كما بدا ولا يكون على حال واحدة فأنزل الله: ﴿**يسألونك عن الأهلة**﴾ وكان هذا سؤالاً منهم على وجه الفائدة عن وجه الحكمة في تبيين حال الهلال في الزيادة والنقصان والأهلة جمع هلال وهو أول حال القمر حين يراه الناس أول ليلة من الشهر ﴿**قل هي مواقيت للناس**﴾ جمع ميقات، والمعنى أن فعلنا ذلك لمصالح دينية ودنيوية ليعلم الناس أوقات حجهم وصومهم وإفطارهم ومحل ديونهم وأجائرهم وعدد النساء وأوقات الحيض وغير ذلك من الأحكام المتعلقة بالأهلة ولهذا خالف بينه وبين الشمس التي هي دائمة على حالة واحدة ﴿**والحج**﴾ أي وللحج، وإنما أفرد الحج بالذكر وإن كان داخلاً في جملة العبادات لفائدة عظيمة وهي أن العرب في الجاهلية كانت تحج بالعدد وتبدل الشهور فأبطل الله ذلك من فعلهم وأخبر أن الحج مقصور على الأشهر التي عينها لفرض الحج بالأهلة، وأنه لا يجوز نقل الحج عن تلك الأشهر التي عينها الله تعالى له كما كانت العرب تفعل بالنسيء ﴿**وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها**﴾ (ق) عن البراء قال: نزلت هذه الآية فينا فكانت الأنصار إذا حجوا فجاؤوا لم يدخلوا من قبل أبواب البيوت فجاء رجل من الأنصار فدخل من قبل بابه فكأنه عير بذلك فنزلت: وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ولكن البر من اتقى وأتوا البيوت من أبوابها، وفي رواية كانوا إذا أحرموا في الجاهلية أتوا البيوت من ظهورها فأنزل الله هذه الآية وقيل كان الناس في الجاهلية وفي أول الإسلام إذا أحرم الرجل منهم لم يدخل حائطاً ولا داراً ولا فسطاطاً من بابه، فإن كان من أهل المدر نقب نقباً في ظهر بيته منه يدخل ويخرج أو يتخذ سلماً يصعد منه، وإن كان من أهل الوبر دخل وخرج من خلف الخباء ولا يدخل ولا يخرج من الباب ويرون ذلك براً، وكانت الحمس وهم قريش وكنانة وخزاعة ومن دان بدينهم، سموا حمساً لتشددهم في دينهم والحماسة الشدة كانوا إذا أحرموا لم يدخلوا بيتاً البتة ولم يستظلوا بظل، ثم إن رسول الله ﷺ دخل حائطاً فدخل رجل من الأنصار معه وقيل كانت الحمس لا يبالون بذلك،

ما بال الهلال يبدو دقيقاً ثم يزيد حتى يمتلىء نوراً، ثم يعودَ دقيقاً كما بدأ ولا يكون على حالة، فأنزل الله تعالى: ﴿ يسألونك عن الأهلّة ﴾، وهي جمع هلال، مثل رداء وأردية، سُمّي هلالاً لأن الناس يرفعون أصواتهم بالذكر عند رؤيته، من قولهم استهلّ الصبي إذا صرخ حين يُولد، وأهلّ القوم بالحجّ إذا رفعوا أصواتهم بالتلبية، ﴿ قلْ هي مواقيتُ للناس والحجّ ﴾، جمع ميقات، أي: فعلنا ذلك ليعلم الناس أوقات الحج والعمرة والصوم والإفطار وآجال الديون وعُدد النساء وغيرها، فلذلك خالف بينه وبين الشمس التي هي دائمة على حالة واحدة، ﴿ وليس البِرًّ بأن تأتوا البُيوتَ منْ ظهورها ﴾، قال أهل التفسير: كان الناس في الجاهلية وفي أول الإسلام إذا أحرم الرجل منهم بالحج أو العمرة، لم يدخل حائطاً ولا بيتاً ولا داراً من بابه، فإن كان من أهل المدر نقب نقباً في ظهر بيته ليدخل منه ويخرج، أو يتّخذ سُلّماً فيصعد منه، وإن كان من أهل الوبر خرج من خلف الخيمة والفسطاط ولا يدخل ولا يخرج من الباب حتى يَحِلَّ من إحرامه، ويرون ذلك بِرّاً إلّا أن يكون من الحُمْسِ، وهم قريش وكنانة وخزاعة وثَقيف وخَيثم وبنو عامر بن صَعْصَعة وبنو نضر بن معاوية، سُمّوا أحمساً لتشدّدهم في دينهم، والحماسة الشدّة والصلابة، قالوا: فدخل رسول الله ﷺ ذات يوم بيتاً لبعض الأنصار، فدخل رجل من الأنصار يُقال له: رفاعة بن التابوت على أثره من الباب، وهو محرم فأنكروا عليه، فقال له رسول الله ﷺ: «لِمَ دخلت من الباب وأنت محرم؟» قال: رأيتك دخلت فدخلت على أثرك، فقال رسول الله ﷺ: «إني أحمسي»، فقال الرجل: إن كنت أحمسياً فإني أحمسي رضيتُ بهديك وسمتِك ودينك، فأنزل الله تعالى هذه الآية، وقال الزهري: كان ناس من الأنصار إذا أهلّوا بالعمرة لم يَحِلْ بينهم وبين السماء شيء، وكان الرجل يخرج مُهِلًّا بالعمرة فتبدو له الحاجة بعدما يخرج من بيته، فيرجع ولا يدخل من باب الحجرة من أجل سقف البيت أن يحول بينه وبين السماء، فيفتح الجدار من ورائه ثم يقول في

ثم إن رسول الله ﷺ دخل ذات يوم بيتاً فدخل على أثره رجل من الأنصار يقال له رفاعة بن التابوت من الباب وهو محرم فأنكروا عليه فقال له رسول الله ﷺ لم دخلت من الباب وأنت محرم فقال: رأيتك دخلت فدخلت على أثرك فقال رسول الله ﷺ إني أحمسي فقال الرجل إن كنت أحمسياً فأنا أحمسي رضيت بهديك وسمتك ودينك فأنزل الله تعالى هذه الآية. وقال الزهري كان ناس من الأنصار إذا أهلوا بالعمرة لم يجعلوا بينهم وبين السماء شيئاً، وكان الرجل يخرج مهلاً بالعمرة فتبدو له الحاجة بعد ما خرج من بيته فيرجع ولا يدخل من باب الحجرة من أجل سقف البيت أن يحول بينه وبين السماء فيفتح الجدار من ورائه ثم يقوم في حجرته فيأمر بحاجته ثم بلغنا أن رسول الله ﷺ أهلَّ زمن الحديبية بالعمرة فدخل حجرة فدخل رجل من الأنصار من بني سلمة على أثره فقال النبي ﷺ لم فعلت ذلك؟ قال: لأني رأيتك دخلت فقال عليه الصلاة والسلام: إني أحمسي فقال الأنصاري وأنا أحمسي يقول أنا على دينك فأنزل الله تعالى ﴿**وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ولكن البر من اتقى وأتوا البيوت من أبوابها**﴾ يعني في حال الإحرام وغيره ﴿**واتقوا الله لعلكم تفلحون**﴾.

﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ١٩٠﴾

قوله عز وجل: ﴿**وقاتلوا في سبيل الله**﴾ أي في طاعة الله وطلب رضوانه (ق) عن أبي موسى الأشعري قال سئل رسول الله ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حمية ويقاتل رياء أي ذلك في سبيل الله؟ فقال رسول الله ﷺ من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله ﴿**الذين يقاتلونكم**﴾ كان في ابتداء الإسلام أمر الله رسوله ﷺ بالكف عن قتال المشركين ثم لما هاجر إلى المدينة أمر بقتال من قاتله منهم بهذه الآية. قال الربيع بن أنس: هذه أول آية نزلت في القتال ثم أمر الله بقتال المشركين كافة قاتلوا أو لم يقاتلوا بقوله تعالى: ﴿**وقاتلوا المشركين كافة**﴾.

حجرته فيأمر بحاجته، حتى بلغنا أن رسول الله ﷺ أهلَّ زمن الحديبية بالعُمرة فدخل حُجرة فدخل رجل على أثره من الأنصار من بني سلمة فقال النبي ﷺ: «لِمَ فعلتَ ذلك؟» قال لأني رأيتُك دخلتَ، فقال رسول الله ﷺ: «إني أحمسي»، فقال الأنصاري وأنا أحمسي، يقول: وأنا على دينك، فأنزل الله تعالى: ﴿ **وليس البِرُّ بأن تأتوا البيوت منْ ظُهورها** ﴾، قرأ ابن كثير وابن عامر وحمزة والكسائي وأبو بكر « البيوت والغيوب والجيوب والعيوب وشيوخاً » بكسر أوائلهنّ، لمكان الياء، وقرأ الباقون بالضمّ على الأصل، وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائي « جيوب » بكسر الجيم، وقرأ أبو بكر وحمزة ﴿ **العيوب** ﴾ بكسر العين، ﴿ **ولكنّ البِرَّ مَن اتّقى** ﴾، أي: **البِّرُ بِرّ مَن اتقى** ﴿ **وأتوا البيوت من أبوابها** ﴾، في حال الإحرام، ﴿ **واتقوا الله لعلّكم تُفلحون** ﴾.

﴿ **وقاتلوا في سبيل الله** ﴾، أي: في طاعة الله، ﴿ **الذين يقاتلونكم** ﴾، كان في ابتداء الإسلام أمر الله تعالى رسول الله ﷺ بالكفّ عن قتال المشركين، ثم لمّا هاجر إلى المدينة أمره بقتال مَن قاتله منهم بهذه الآية، وقال الربيع بن أنس: هذه أول آية نزلتْ في القتال، ثم أمره بقتال المشركين كافّة، قاتلوا أو لم يقاتلوا بقوله: ﴿ **اقتلوا المشركين** ﴾ [التوبة: ٥]، فصارت في هذه الآية منسوخة بها، وقيل: نسخ بقوله: ﴿ **اقتلوا المشركين** ﴾ [التوبة: ٥] قريبٌ من سبعين آية. وقوله: ﴿ **ولا تعتدوا** ﴾، أي: لا تبدؤوهم بالقتال، وقيل: هذه الآية محكمة غير منسوخة، أُمر النبي ﷺ بقتال المقاتلين، ومعنى قوله: ﴿ **ولا تعتدوا** ﴾ أي: لا تقتلوا النساء والصبيان والشيخ الكبير والرهبان، ولا مَن ألقى إليكم السلام، هذا قول ابن عباس ومجاهد، أخبرنا أبو الحسن السرخسي أخبرنا زاهر بن أحمد أخبرنا أبو بكر بن محمد بن سهل القهستاني، المعروف بأبي تراب أخبرنا محمد بن عيسى الطوسي، أنا

وبقوله: ﴿اقتلوهم حيث ثقفتموهم﴾ فصارت آية السيف ناسخة لهذه الآية وقيل إنها محكمة ومعناها على هذا القول وقاتلوا في سبيل الله الذين أعدوا أنفسهم للقتال، فأما من لم يعدَّ نفسه للقتال كالرهبان والشيوخ والزمنى والمكافيف والمجانين فلا تقاتلوهم لأنهم لم يقاتلوكم، وهو قوله تعالى: ﴿ولا تعتدوا﴾ وقال ابن عباس ولا تقتلوا النساء والصبيان والشيوخ والرهبان ولا من ألقى إليكم السلام (م) عن بريدة قال: كان رسول الله ﷺ إذا أمَّر أميراً على جيش أو سرية أوصاه في خاصته بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيراً، ثم قال: اغزوا بسم الله في سبيل الله قاتلوا من كفر بالله اغزوا ولا تغلوا ولا تعتدوا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليداً. قوله: ﴿ولا تغلوا﴾ الغلول الخيانة وهو ما يخفيه أحد الغزاة من الغنيمة وقوله: ﴿ولا تعتدوا﴾ أي ولا تنقضوا العهد وقيل في معنى الآية: لا تعتدوا أي لا تبدؤوهم بالقتال فعلى هذا القول تكون الآية منسوخة بآية القتال قال ابن عباس: لما صد المشركون رسول الله ﷺ عام الحديبية وصالحوه على أن يرجع من قابل فيخلوا له مكة ثلاثة أيام يطوف بالبيت، فلما تجهز رسول الله ﷺ وأصحابه لعمرة القضاء خافوا أن لا تفي قريش بما قالوا ويصدُّوهم عن البيت وكره المسلمون قتالهم في الشهر الحرام وفي الحرم، فأنزل الله: ﴿وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم﴾ فأطلق لهم قتال الذين يقاتلونهم في الشهر الحرام وفي الحرم ورفع عنهم الحرج والجناح في ذلك وقال ولا تعتدوا بابتداء القتال ﴿إن الله لا يحب المعتدين﴾ قوله عز وجل:

﴿وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٩٣﴾﴾

﴿واقتلوهم حيث ثقفتموهم﴾ أي حيث وجدتموهم وأدركتموهم في الحل والحرم، وتحقيق القول فيه أن الله تعالى أمر بالجهاد في الآية الأولى بشرط إقدام الكفار على القتال وفي هذه الآية أمرهم بالجهاد معهم سواء قاتلوا أو لم يقاتلوا واستثنى منه المقاتلة عند المسجد الحرام ﴿وأخرجوهم من حيث أخرجوكم﴾ أي وأخرجوهم من ديارهم كما أخرجوكم من دياركم ﴿والفتنة أشد من القتل﴾ يعني أن شركهم بالله أشد وأعظم من قتلكم إياهم في

يحيىٰ بن بكير أنا الليث بن سعد عن جرير بن حازم عن شعبة، عن علقمة بن يزيد عن سليمان بن بُريدة عن أبيه قال: كان النبيُّ ﷺ إذا بعث جيشاً قال: «اغزوا بسم الله وفي سبيل الله قاتلوا مَن كفر بالله لا تغلـوا، ولا تعتدوا ولا تقتلوا امرأةً ولا وليداً ولا شيخاً كبيراً»، وقال الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس: نزلت هذه الآية في صلح الحديبية، وذلك أن رسول الله ﷺ خرج مع أصحابه للعمرة، وكانوا ألفاً وأربعمائة، فساروا حتى نزلوا الحديبية فصدّهم المشركون عن البيت الحرام، فصالحهم على أن يرجع عَامَه ذلك، على أن يخلوا له مكة العام القابل ثلاثة أيام فيطوف بالبيت، فلما كان العام القابل تجهّز رسول الله وأصحابه لعمرة القضاء، وخافوا أن لا تَفِي قريش بما قالوا، وأن يصدّوهم عن البيت الحرام، وكره أصحاب رسول الله ﷺ قتالهم في الشهر الحرام وفي الحَرَم، فأنزل الله تعالى: ﴿ وقاتلوا في سبيل الله ﴾، يعني محرمين، ﴿ الذين يُقاتلونكم ﴾، يعني قريشاً ﴿ ولا تعتدوا ﴾ فتبدؤوا بالقتال في الحرم محرمين، ﴿ إنّ الله لا يُحبّ المعتدين ﴾.

﴿ واقْتُلوهم حيثُ ثَقِفْتُموهم ﴾، قيل: نسختِ الآية الأولى بهذه الآية، وأصل الثقافة: الحِذْقُ والبصر بالأمر، ومعناه: واقتلوهم حيث أبصرتم مقاتلتهم وتمكنتم من قتلهم، ﴿ وأخرجوهم من حيث أخرجوكم ﴾، وذلك أنهم أخرجوا المسلمين من مكة، فقال: أخرجوهم من ديارهم كما أخرجوكم من دياركم، ﴿ والفتنة أشدّ من

الحرم والإحرام وإنما سمي الشرك بالله فتنة لأنه فساد في الأرض يؤدي إلى الظلم. وإنما جعل أعظم من القتل لأن الشرك بالله ذنب يستحق صاحبه الخلود في النار وليس القتل كذلك، والكفر يخرج صاحبه من الأمة وليس القتل كذلك فثبت أن الفتنة أشد من القتل ﴿**ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه**﴾ اختلف العلماء في هذه الآية فذهب مجاهد في جماعة من العلماء إلى أنها محكمة وأنه لا يحل أن يقاتل في المسجد الحرام إلّا من قاتل فيه وهو قوله: ﴿**فإن قاتلوكم فاقتلوهم**﴾ أي فقاتلوهم، وثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «إن مكة لا تحل لأحد قبلي ولا تحل لأحد بعدي وإنما أحلت لي ساعة من نهار ثم عادت حراماً إلى يوم القيامة» فثبت بهذا تحريم القتال في الحرم إلّا أن يقاتلوا فيقاتلوا ويكون دفعاً لهم وذهب قتادة إلى أن هذه الآية منسوخة بقوله: ﴿اقتلوا المشركين حيث وجدتموهم﴾ فأمر بقتالهم في الحل والحرم. وقيل إنها منسوخة بقوله: ﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة﴾ ﴿**كذلك جزاء الكافرين فإن انتهوا**﴾ يعني عن القتال. وقيل عن الشرك والكفر ﴿**فإن الله غفور**﴾ يعني لما سلف ﴿**رحيم**﴾ يعني بعباده حيث لم يعاجلهم بالعقوبة ﴿**وقاتلوهم**﴾ أي وقاتلوا المشركين ﴿**حتى لا تكون فتنة**﴾ أي شرك والمعنى وقاتلوهم حتى يسلموا ولا يقبل من الوثني إلّا الإسلام والقتل بخلاف الكتابي والفرق بينهما أن أهل الكتاب معهم كتب منزلة فيها شرائع وأحكام يرجعون إليها وإن كانوا قد حرفوا وبدلوا فأمهلهم الله تعالى بحرمة تلك الكتب من القتل وأمر بإصغارهم وأخذ الجزية منهم لينظروا في كتبهم ويتدبروها فيقفوا على الحق منها فيتبعوه كفعل مؤمني أهل الكتاب الذين عرفوا الحق فأسلموا، وأما عبدة الأصنام فلم يكن لهم كتاب يرجعون إليه ويرشدهم إلى الحق فكان إمهالهم زيادة في شركهم وكفرهم فأبى الله عز وجل أن يرضى منهم إلّا بالإسلام أو القتل

القتل﴾، يعني: شركهم بالله عزّ وجلّ أشدّ وأعظم من قتلكم إياهم في الحرم والإحرام، ﴿ **ولا تُقاتِلُوهم عند المَسْجِدِ الحَرامِ حتى يُقاتلوكم فيه فإن قاتلوكم فاقتلوهم** ﴾، قرأ حمزة والكسائي ﴿ **ولا تقتلوهم حتى يقتلوكم فإن قتلوكم** ﴾، بغير ألف فيهنّ من القتل على معنى ولا تقتلوا بعضهم، تقول العرب: قتلنا بني فلان وإنما قتلوا بعضهم، وقرأ الباقون بالألف من القتال وكان هذا في ابتداء الإسلام، كان لا يَحِلُّ بدايتهم بالقتال في البلد الحرام، ثم صار منسوخاً بقوله تعالى: ﴿ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ﴾ [البقرة: ١٩٣] هذا قول قتادة، وقال مقاتل بن حبّان: قوله: ﴿ **واقتلوهم حيث ثقفتموهم** ﴾، أي: حيث أدركتموهم في الحِلّ والحرم، صارت هذه الآية منسوخة بقوله تعالى: ﴿ **ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام** ﴾، ثم نسختها آية السيف في براءة، فهي ناسخة منسوخة، وقال مجاهد وجماعة: هذه الآية محكمة ولا يجوز الابتداء بالقتال في الحرم، ﴿ **كذلك جزاء الكافرين** ﴾.

﴿ **فإن انتهوا** ﴾، عن القتال والكفر، ﴿ **فإنّ الله غفورٌ رحيم** ﴾، أي غفورٌ لِما سَلَفَ رحيم بالعباد.

﴿ **وقاتلوهم** ﴾، يعني: المشركين، ﴿ **حتى لا تكون فتنة** ﴾، أي شرك، يعني قاتلوهم حتى يسلموا فلا يقبل من الوثني إلّا الإسلام فإن أبى قُتل، ﴿ **ويكونَ الدينُ** ﴾، أي: الطاعة والعبادة ﴿ **لله** ﴾ وحده فلا يُعبد شيءٌ دونه، قال نافع: جاء رجل إلى ابن عمر في فتنة ابن الزبير، فقال: ما يمنعك أن تخرج؟ قال: يمنعني أن الله حرّم دم أخي، قال: ألا تسمع ما ذكره الله عزّ وجلّ: ﴿ وإنْ طائفتان من المؤمنين اقتتلوا ﴾ [الحجرات: ٩]، فقال: يا ابن أخي ولأن اعتبر بهذه الآية ولا أقاتل أحبّ إليّ من أن أعتبر بالآية التي يقول الله عزّ وجلّ فيها: ﴿ ومَن يقتل مؤمناً متعمّداً ﴾ [النساء: ٩٣]. . . . قال: ألمْ يقلِ الله: ﴿ **وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة** ﴾؟ قال: فعلنا على عهد رسول الله ﷺ إذْ كان الإسلام قليلاً، وكان الرجل يُفتن في دينه ما يقتلونه أو يعذبونه، حتى كثر الإسلام فلم تكون فتنة، وكان الدين لله، وأنتم تريدون أن تقاتلوهم حتى تكون فتنة، ويكون الدين لغير الله. وعن سعيد بن جبير قال: قال رجل لابن عمر كيف ترى في قتال الفتنة؟ فقال: هل تدري ما الفتنة؟ كان محمد ﷺ يقاتل المشركين، وكان

﴿ويكون الدين لله﴾ أي الطاعة والعبادة لله وحده فلا يعبد من دونه شيء ﴿فإن انتهوا﴾ يعني عن القتال وقيل عن الشرك والكفر ﴿فلا عدوان﴾ أي فلا سبيل ﴿إلاّ على الظالمين﴾ قاله ابن عباس فعلى القول الأول تكون الآية منسوخة بآية السيف وعلى القول الآخر الآية محكمة. وقيل: معناه فلا تظلموا إلاّ الظالمين، سمي جزاء الظالمين ظلماً على سبيل المشاكلة، وسمي الكافر ظالماً لوضعه العبادة في غير موضعها. قوله عز وجل:

﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾﴾

﴿الشهر الحرام بالشهر الحرام﴾ نزلت في عمرة القضاء وذلك أن النبي ﷺ خرج معتمراً في ذي القعدة سنة ست من الهجرة فصده المشركون عن البيت بالحديبية فصالح أهل مكة على أن ينصرف عامه ذلك ويرجع من قابل فيقضي عمرته فانصرف رسول الله ﷺ ثم رجع في ذي القعدة سنة سبع فقضى عمرته وذلك قوله تعالى: ﴿الشهر الحرام﴾ يعني ذا القعدة الذي دخلتم فيه مكة وقضيتم عمرتكم ﴿بالشهر الحرام﴾ الذي صددتم فيه عن البيت ﴿والحرمات﴾ جمع حرمة وإنما جمعت لأنه أراد حرمة الشهر وحرمة البلد وحرمة الإحرام ﴿قصاص﴾ القصاص المساواة والمماثلة وهو أن يفعل بالفاعل مثل ما فعل، والمعنى أنهم لما منعوكم عن العمرة وأضاعوا هذه الحرمات في سنة ست، فقد وفقتم حتى قضيتموها على رغمهم في سنة سبع. وقيل: هذا في القتال، ومعناه: فإن بدؤوكم بالقتال في الشهر الحرام فاقتلوهم فيه فإنه قصاص ﴿فمن اعتدى عليكم﴾ أي بالقتال ﴿فاعتدوا عليه﴾ أي فقاتلوه ﴿بمثل ما اعتدى عليكم﴾ سمي الجزاء بالاعتداء على سبيل المشاكلة ﴿واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين﴾ قوله عز وجل:

الدخول عليهم فتنة، وليس قتالكم كقتالهم على الملك، ﴿ فإن انتهوا ﴾: عن الكفر وأسلموا، ﴿ فلا عُدْوَان ﴾، فلا سبيل ﴿ إلاّ على الظالمين ﴾، قاله ابن عباس، يدلّ عليه قوله تعالى: ﴿ أيَّما الأجلين قضيت فلا عدوان عليّ ﴾ [القصص: ٢٨] أي: فلا سبيل عليَّ، وقال أهل المعاني: العدوان: الظلم، أي: فإن أسلموا فلا نهب ولا أسر ولا قتل، إلاّ على الظالمين الذين بقوا على الشرك، وما يفعل بأهل الشرك من هذه الأشياء لا يكون ظلماً، وسمّاه عدواناً على طريق المجازات والمقابلة، كما قال: ﴿ فمَن اعتدَى عليكم فاعْتَدُوا عليه ﴾ [البقرة: ١٩٤]، وكقوله تعالى: ﴿ وجزاءُ سيئة سيئةٌ مثلها ﴾ [الشورى: ٤٠]، وسُمّي الكافرُ ظالماً لأنه يضع العبادة في غير موضعها.

﴿ الشهرُ الحرامِ بالشهر الحرام ﴾، نزلت هذه الآية في عُمْرَةِ القضاء، وذلك أنّ النبي ﷺ خرج معتمراً في ذي القعدة فصدّه المشركون عن البيت بالحديبية، فصالح أهل مكة على أن ينصرف عامه ذلك ويرجع العام المقبل فيقضين عمرته، فانصرف رسول الله ﷺ عامه ذلك، ورجع في العام القابل في ذي القعدة، وقضى عمرته سنة سبعٍ من الهجرة، فذلك معنى قوله تعالى: ﴿ الشهرُ الحرام ﴾ يعني ذي القعدة الذي دخلتم فيه مكة، وقضيتم فيه عُمرتَكم سنة سبع، بالشهر الحرام يعني: ذا القعدة الذي صُددتم فيه عن البيت سنةَ ستٍّ، ﴿ والحُرماتُ قِصاص ﴾: جمع حرمة، وإنما جمعها لأنه أراد حرمة الشهر الحرام والبلد الحرام، وحرمة الإحرامِ والقِصاص: المساواة والمماثلة، وهو أن يُفعل بالفاعل مثل ما فعل، وقيل: هذا في أمر القتال، معناه: إن بدءوكم بالقتال في الشهر الحرام فقاتلوهم فيه، فإنه قصاص بما فعلوا فيه، ﴿ فمَن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه ﴾، وقاتلوه ﴿ بمثل ما اعتدَى عليكم ﴾، سُمّي الجزاء باسم الابتداء على ازدواج الكلام، كقوله تعالى: ﴿ وجزاء سيئة سيئة مثلها ﴾ [الشورى: ٤٠]، ﴿ واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين ﴾.

﴿وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ۛ وَأَحْسِنُوٓا۟ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾﴾

﴿**وأنفقوا في سبيل الله**﴾ يعني به الجهاد وذلك أن الله تعالى لما أمر بالجهاد والاشتغال به يحتاج إلى الانفاق فأمر به، والإنفاق هو صرف المال في وجوه المصالح الدينية كالإنفاق في الحج والعمرة وصلة الرحم والصدقة وفي الجهاد وتجهيز الغزاة وعلى النفس والعيال وغير ذلك مما فيه قربة لله تعالى لأن كل ذلك مما هو في سبيل الله لكن إطلاق هذه اللفظة ينصرف إلى الجهاد (خ) عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «من احتبس فرساً في سبيل الله إيماناً واحتساباً لله وتصديقاً بوعده فإن شبعه وريه وروثه وبوله في ميزانه يوم القيامة» يعني حسنات. عن خريم بن فاتك قال: قال رسول الله ﷺ: «من أنفق نفقة في سبيل الله كتب الله له سبعمائة ضعف» أخرجه الترمذي والنسائي ﴿**ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة**﴾ قيل: الباء زائدة ومعناه لا تلقوا أيديكم إلى التهلكة، والمراد بالأيدي الأنفس والمعنى ولا تلقوا أنفسكم إلى التهلكة، عبر بالأيدي عن الأنفس، وقيل الباء على أصلها وفي الكلام حذف تقديره: ولا تلقوا أنفسكم بأيديكم إلى التهلكة، كما يقال: أهلك فلان نفسه بيده، إذا تسبب في هلاكها وقيل التهلكة كل شيء تصير عاقبته إلى الهلاك وقيل التهلكة ما يمكن الاحتراز عنه والهلاك ما لا يمكن الاحتراز عنه، ومعنى الآية النهي عن ترك الانفاق في سبيل الله لأنه سبب الإهلاك قال ابن عباس: أنفق في سبيل الله وإن لم يكن لك إلّا سهم أو مشقص ولا يقول أحدكم لا أجد شيئاً. السهم هنا هو ما يرمى به، والمشقص سهم فيه نصل عريض وقيل كان رجال يخرجون في البعوث بغير نفقة فإمّا أن ينقطع بهم وإما أن يكونوا عالة فأمرهم الله تعالى بالإنفاق على أنفسهم في سبيل الله ومن لم يكن عنده شيء ينفق عليه في الغزو فلا يخرج لئلا يلقي نفسه في التهلكة وهو أنه يهلك من الجوع والعطش والمشي. وقيل نزلت الآية في ترك الجهاد (ت) عن أبي عمران واسمه أسلم قال: كنا بمدينة الروم فأخرجوا لنا صفاً عظيماً من الروم فخرج إليهم من المسلمين مثلهم أو أكثر وعلى أهل مصر عقبة بن عامر وعلى الجماعة فضالة بن عبيد فحمل رجل من المسلمين على صف الروم حتى دخل فيهم فصاح

قوله تعالى: ﴿ وأنفقوا في سبيل الله ﴾، أراد به الجهاد وكل خير هو في سبيل الله، ولكنّ إطلاقه ينصرف إلى الجهاد، ﴿ ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة ﴾، قيل: الباء في قوله تعالى: ﴿ بأيديكم ﴾ زائدة، يُريد: ولا تلقوا أيـديكم، أي: أنفسكم إلى التهلكة عبّر عن الأنفس بالأيـدي، كقولـه تعـالى: ﴿ بمـا كسبتْ أيـديكم ﴾ [الشورى: ٣٠] أي: بما كسبتم، وقيل: الباء في موضعها، وفيه حذف، أي: ولا تلقوا أنفسكم بأيديكم إلى التهلكة، أي الهلاك، وقيل: التهلكة كل شيء يصير عاقبته إلى الهلاك، أي: ولا تأخذوا في ذلك، وقيل التهلكة ما يمكن الاحتراز عنه، والهلاك ما لا يمكن الاحتراز عنه، والعرب لا تقول للإنسان: ألقَى بيده إلاّ في الشر، واختلفوا في تأويل هذه الآية، فقال بعضهم: هذا في البخل وترك الإنفاق، يقول: ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة بترك الإنفاق في سبيل الله، وهو قول حذيفة والحسن وقتادة وعكرمة وعطاء، وقال ابن عباس في هذه الآية: أنفقْ في سبيل الله وإنْ لم يكن لك إلاّ سهم أو مِشْقَص، ولا يقولنّ أحدُكم: إنّي لا أجد شيئاً، وقال السدي فيها: أنفقْ في سبيل الله ولو عِقالاً ولا تُلقوا بأيديكم إلى التهلكة، ولا تقلْ: ليس عندي شيء، وقال سعيد بن المسيب ومقاتل بن حبّان: لمّا أمر الله تعالى بالإنفاق قال رجال: أُمرنا بالنفقة في سبيل الله، ولو أنفقنا أموالنا بقينا فقراء، فأنزل الله هذه الآية، وقال مجاهد فيها: لا يمنعكم من نفقة في حقٍّ خِيفةَ العِيْلَة، أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحي، أخبرنا أحمد بن الحسن الحيري أخبرنا أبو جعفر محمد بن علي بن دحيم الشيباني، أخبرنا أحمد بن حازم بن أبي غرزة، أخبرنا أبو غسان، أخبرنا خالد بن عبد الله الواسطي، أخبرنا واصل مولى أبي عتبة عن بشّار بن أبي سيف، عن

الناس. سبحان الله يلقي بيديه إلى التهلكة فقام أبو أيوب الأنصاري فقال: «أيها الناس إنكم لتؤولون هذه الآية هذا التأويل، وإنما نزلت هذه الآية فينا معشر الأنصار لما أعز الله الإسلام وكثر ناصروه فقال بعضنا لبعض سرّاً دون رسول الله ﷺ إن أموالنا قد ضاعت وإن الله قد أعز الإسلام وكثر ناصروه فلو أقمنا في أموالنا فأصلحنا ما ضاع منها فأنزل الله تعالى على نبيه ﷺ يرد علينا ما قلنا:

﴿وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة﴾ فكانت التهلكة الإقامة على الأموال وإصلاحها وتركنا الغزو فما زال أبو أيوب شاخصاً في سبيل الله حتى دفن بأرض الروم» وقال حديث غريب صحيح مات أبو أيوب في آخر غزوة غزاها بأرض قسطنطينية ودفن في أصل سورها فهم يتبركون بقبره ويستسقون به (م) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه به مات على شعبة من النفاق» قال ابن المبارك فنرى أن ذلك كان على عهد النبي ﷺ. وقيل الإلقاء إلى التهلكة هو أن يقنط من رحمة الله، وهو أن الرجل يصيب الذنب فيقول قد هلكت ليس لي توبة فييأس من رحمة الله وينهمك على المعاصي فهو القنوط فنهى الله عن ذلك. وقيل في معنى الآية: أنفقوا في سبيل الله ولا تقولوا إنا نخاف الفقر إن أنفقنا فنهلك فنهوا أن يجعلوا أنفسهم هالكين بالإنفاق (خ) عن حذيفة قال: أنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة قال نزلت في النفقة ﴿وأحسنوا﴾ أي بالإنفاق على من تلزمكم مؤنته ونفقته وقيل أحسنوا في الإنفاق ولا تسرفوا ولا تقتروا، نهوا عن الإسراف والإقتار في الإنفاق وقيل معناه: وأحسنوا في أداء فرائض الله تعالى ﴿إن الله يحب المحسنين﴾ أي يثيبهم على إحسانهم. قوله عز وجل:

وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ۚ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ ۖ وَلَا تَحْلِقُوا۟ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ۚ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ

الوليد بن عبد الرحمن عن عياض بن غضيف قال: أتينا أبا عُبيدة نعوده قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ أَنْفَقَ نفقةً فاضلةً في سبيل الله، فبسبعمائة، ومَن أنفق نفقةً على أهله فالحسنة بعشر أمثالها»، وقال زيد بن أسلم: كان رجال يخرجون في البعوث بغير نفقة، فإما أن يُقطع بهم وإما أن يكونوا عيالاً، فأمرهم الله تعالى بالإنفاق على أنفسهم في سبيل الله، ومَن لم يكن عنده شيء ينفقه، فلا يخرج بغير نفقة ولا قوت فيُلقي بيده إلى التهلكة، فالتهلكة: أن يهلك من الجوع والعطش أو بالمشي، وقيل: نزلت الآية في ترك الجهاد، قال أبو أيوب الأنصاري: نزلت فينا معشر الأنصار، وذلك أن الله تعالى لمّا أعزّ ونصر رسوله، قلنا فيما بيننا: إنّا قد تركنا أهلنا وأموالنا حتى فشا الإسلام ونصر الله نبيَّه فلو رجعنا إلى أهلنا وأموالنا فأقمنا فيها فأصلحنا ما ضاع منها، فأنزل الله تعالى: ﴿ وأنفقوا في سبيل الله ولا تُلقوا بأيديكم إلى التهلكة ﴾، فالتهلكة الإقامة في الأهل والمال وترك الجهاد، فما زال أبو أيوب يجاهد في سبيل الله حتى كان آخر غزوة غزاها بقسطنطينية في زمن معاوية، فتوفي هناك ودُفن في أصل سور القسطنطينية، وهم يُستسقون به، ورُوِيَ عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن مات ولم يغزُ ولم يحدّث نفسه بالغزوِ ماتَ على شعبة من النفاق»، وقال محمد بن سيرين وعبيدة السلماني: الإلقاء إلى التهلكة هو القنوط من رحمة الله تعالى، قال أبو قُلابة: هو الرجل يصيب الذنب فيقول قد هلكت ليس لي توبة، فييأس من رحمة الله وينهمك في المعاصي، فنهاهم الله تعالى عن ذلك قال الله تعالى: ﴿ إنه لا يَيْأَسُ من روح الله إلاّ القومُ الكافرون ﴾ [يوسف: ٨٧]، ﴿ وأحسنوا إنّ الله يُحبّ المحسنين ﴾.

ٱلْهَدْيِۚ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِي ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِي ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٩٦﴾

﴿وأتموا الحج والعمرة لله﴾ قال ابن عباس وهو أن يتمهما بمناسكهما وحدودهما وسننهما وقيل إتمامهما أن تحرم بهما من دويرة أهلك وقيل هو أن تفرد لكل واحد منهما سفراً وقيل إتمامها أن تكون النفقة حلالاً وتنتهي عما نهى الله عنه. وقيل إتمامها أن تخرج من أهلك لهما لا للتجارة ولا لحاجة. وقيل إذا شرع فيهما وجب عليه الإتمام.

فصل

واتفقت الأمة على وجوب الحج على من استطاع إليه سبيلاً (م) عن أبي هريرة قال خطبنا رسول الله ﷺ فقال: «أيها الناس قد فرض عليكم الحج فحجوا، فقال رجل أفي كل عام يا رسول الله؟ فسكت حتى قالها ثلاثاً فقال رسول الله ﷺ لو قلت نعم لوجب ولما استطعتم» وفي وجوب العمرة قولان للشافعي أصحهما إنها واجبة وهو قول علي وابن عمر وابن عباس والحسن وابن سيرين وعطاء وطاوس وسعيد بن جبير ومجاهد وإليه ذهب أحمد بن حنبل، والقول الثاني إنها سنة ويروى ذلك عن ابن مسعود وجابر وإبراهيم والشعبي وإليه ذهب مالك وأبو حنيفة. حجة من أوجب العمرة ما روي في حديث الضبي بن معبد أنه قال لعمر بن الخطاب إني وجدت الحج والعمرة مكتوبين عليّ وإني أهلك بهما فقال أهديت لسنة نبيك محمد ﷺ أخرجه أبو داود والنسائي بأطول من هذا وجه الدليل أنه أخبر عن وجوبهما عليه وصوبه عمر وبين أنه مهتد بما رآه في وجوبهما عليه لسنة النبي ﷺ.

وروي عن ابن عباس أنها كقرينها في كتاب الله: ﴿وأتموا الحج والعمرة لله﴾ وعن ابن عمر قال: «الحج

قوله عزّ وجلّ: ﴿ وأتِمُّوا الحجَ والعُمْرَةَ لله ﴾، قرأ علقمة وإبراهيم النخعي: ﴿ وأقيموا الحج والعمرة لله ﴾، واختلفوا في إتمامها فقال بعضهم: هو أن يُتِمَّهُمَا بمناسِكِهما وحُدودِهما وسُننهما، وهو قول ابن عباس وعلقمة وإبراهيم النخعي ومجاهد، وأركان الحج خمسة: الإحرام، والوقوف بعَرَفَة، وطواف الزيارة، والسعي بين الصفا والمروة، وحلق الرأس أو التقصير، وللحج تحلّلان، وأسباب التحلّل ثلاثة: رمي جمرة العقبة يوم النحر، وطواف الزيارة، والحلق، فإذا وُجد شيئان من هذه الأشياء الثلاثة حصل التحلّل الأول، وبالثلاث حصل التحلّل الثاني، وبعد تحلّل الأول يستبيحُ جميعَ محظوراتِ الإحرام إلّا النساء، وبعد الثاني يستبيح الكل، وأركان العمرة أربعة: الإحرام، والطواف بالبيت، والسعي بين الصفا والمروة، والحلق. قال سعيد بن جبير وطاوس: تمام الحج والعمرة أن تُحرم بهما مُفردَين مستأنَفين من دُوَيْرِيَةِ أهلك، وسُئل عليّ بن أبي طالب عن قوله تعالى: ﴿ وأتمّوا الحج والعمرة لله ﴾، قال: أن تحرم بهما من دُوَيْرِيَةِ أهلك، ومثله عن ابن مسعود قال قتادة: تمام العُمرة أن تعمر في غير أشهر الحج، فإن كانت في أشهر الحج ثم أقام حتى حجّ فهي تمتعه، وعليه فيه الهَدِي إن وجدَه أو الصيام إنْ لم يجدِ الهَدْي، وتمام الحج أن يُؤتى بمناسكه كلها حتى لا يلزمه عمّا ترَكَ دمٌ بسبب قِرَانٍ ولا مِتْعَةٍ، وقال الضحّاك: إتمامهما أن تكون النفقة حلالاً وينتهي عمّا نهى الله عنه، وقال سفيان الثّوري: إتمامهما أن تخرج من أهلك لهما، ولا تخرج لتجارة ولا لحاجة أخرى، قال عمر بن الخطاب: الوفد كثير والحاجّ قليل، واتفقتِ الأمةُ على وجوب الحج على مَن استطاع إليه سبيلاً، واختلفوا في وجوب العُمْرةِ، فذهب أكثر أهل العلم إلى وجوبها وهو قول عمر، وعلي وابن عمر، وروى عكرمة عن ابن عباس أنه قال: والله إن العمرة لقرينة الحج في كتاب الله، ﴿ وأتمّوا الحج

والعمرة فريضتان» وعنه: «ليس أحد من خلق الله إلاّ وعليه حجة وعمرة واجبتان من استطاع إلى ذلك سبيلاً» وعن ابن عباس قال: «العمرة واجبة كوجوب الحج» وعن ابن مسعود قال قال رسول الله ﷺ: «تابعوا بين الحج والعمرة فإنهما ينفيان الفقر والذنوب كما ينفي الكير خبث الحديد والذهب والفضة وليس لحجة مبرورة ثواب إلاّ الجنة» أخرجه النسائي والترمذي وزاد: «وما من مؤمن يظل يومه محرماً إلاّ غابت الشمس بذنوبه» وقال حديث حسن صحيح. وجه الدليل أنه أمر بالمتابعة بين الحج والعمرة والأمر للوجوب ولأنها قد نظمت مع الحج في الأمر بالإتمام فكانت واجبة كالحج، وحجة من قال بأنها سنة ما روي عن جابر قال: «سئل رسول الله ﷺ عن العمرة أواجبة هي؟ قال: لا وأن تعتمروا خير لكم» أخرجه الترمذي. وأجيب عنه بأن هذا الحديث يرويه حجاج بن أرطأة وحجاج ليس ممن يقبل منه ما تفرد به لسوء حفظه وقلة مراعاته لما يحدث به واجتمعت الأمة على جواز أداء الحج والعمرة على ثلاثة أنواع إفراد وتمتع وقران فصورة الإفراد أن يحج ثم بعد فراغه منه يعتمر من أدنى الحل أو يعتمر قبل أشهر الحج ثم يحج في تلك السنة. وصورة التمتع أن يحرم بالعمرة في أشهر الحج ويأتي بأعمالها فإذا فرغ من أعمالها أحرم بالحج من مكة في تلك السنة وإنما سمي تمتعاً لأنه يستمتع بمحظورات الإحرام بعد التحلل من العمرة إلى أن يحرم بالحج. وصورة القرآن أن يحرم بالحج والعمرة معاً في أشهر الحج فينويهما بقلبه وكذلك لو أحرم بالعمرة في أشهر الحج ثم أدخل عليها الحج قبل أن يفتتح الطواف فيصير قارناً. واختلفوا في الأفضل فذهب مالك والشافعي إلى أن الإفراد أفضل ثم التمتع ثم القران يدل عليه ما روي عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ أفرد الحج، أخرجه مسلم وله عن ابن عمر قال: أهللنا مع رسول الله ﷺ الحج مفرداً، وفي رواية إن رسول الله ﷺ أهل بالحج مفرداً، وله عن جابر قال: قدمنا مع رسول الله ﷺ ونحن نصرخ بالحج صراخاً. وعن ابن عمر قال: افصلوا بين حجكم وعمرتكم فإن ذلك أتم لحج أحدكم وأتم لعمرته أن يعتمر في غير أشهر الحج.

والعمرة لله﴾، وبه قال عطاء وطاوس ومجاهد والحسن وقتادة وسعيد بن جُبير، وإليه ذهب الثَّوري والشافعي في أصحِّ قوليه، وذهب قوم إلى أنها سُنّة، وهو قول جابر وبه قال الشعبي، وإليه ذهب مالك وأهل العراق وتأوّلوا قوله تعالى: **﴿وأتمّوا الحج والعمرة لله﴾**، على معنى أتمّوهما إذا دخلتم فيها، أمّا ابتداء الشروع فيها فتطوّع، واحتجَّ مَن لم يوجبها بما رُوِيَ عن محمد بن المنكدر عن جابر بن عبد الله عن النبي ﷺ أنه سُئِلَ عن العمرة أواجبة هي؟ فقال: «لا وإن تعتمرُوا خيرٌ لكم»، والقول الأول أصحّ، ومعنى قوله: **﴿وأتمّوا الحجّ والعمرة لله﴾** أي: ابتدؤوهما فإذا دخلتم فيهما فأتمّوهما فهو أمر بالإبداء والإتمام، أي: أقيموهما، كقوله تعالى: **﴿ثم أتمّوا الصِّيامَ إلى الليل﴾** [البقرة: ١٨٧]، أي: ابتدؤوه وأتمّوه، أخبرنا عبد الواحد المليحي أخبرنا أبو منصور السمعاني أخبرنا أبو جعفر الزياتي، أخبرنا حميد بن زنجويه، أخبرنا ابن أبي شيبة، أخبرنا أبو خالد الأحمر عن عمرو بن قيس عن عاصم، عن شقيق عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «تابعوا بين الحج والعمرة فإنهما ينفيان الفقر والذنوب، كما ينفي الكيرُ خَبثَ الحديدِ والذهبِ والفضةِ، وليس للحج المبرور جزاء إلاّ الجنة»، وقال ابن عمر: ليس من خلق الله أحد إلاّ وعليه حجّة وعُمرة واجبتان إن استطاع إلى ذلك سبيلاً كما قال الله تعالى: **﴿وأتمّوا الحج والعمرة لله﴾**، فمَن زاد بعد ذلك فهو خير تطوّع، واتفقت الأمة على أنه يجوز أداء الحج والعمرة على ثلاثة أوجه: الإفراد والتمتّع والقِرَان، فصورة الإفراد أن يُفرد الحج، ثم بعد الفراغ منه يعتمر، وصورة التمتّع: أن يعتمر في أشهر الحج ثم بعد الفراغ من أعمال العمرة يُحرم بالحج من مكة، فيحجّ في هذا العام، وصورة القِرَان أن يُحرم بالحج والعمرة معاً، أو يحرم بالعمرة ثم يُدخل عليها الحج قبل أن يفتتح الطواف، فيصير قارناً، واختلفوا في الأفضل من هذه الوجوه، فذهب جماعة إلى أن الإفراد أفضل، ثم التمتّع ثم القِرَان، وهو قول مالك والشافعي، لِما أخبرنا أبو الحسن السرخسي،

أخرجه مالك في الموطأ وذهب الثوري وأبو حنيفة إلى أن القران أفضل يدل عليه ما روي عن أنس قال سمعت رسول الله ﷺ يلبي بالحج والعمرة جميعاً وفي رواية سمعت رسول الله ﷺ يقول لبيك عمرة وحجاً، أخرجاه في الصحيحين. وذهب أحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه إلى أن التمتع أفضل، يدل عليه ما روي عن ابن عباس قال: «تمتع رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر وعثمان فأول من نهى عنهما معاوية» أخرجه الترمذي (ق) عن ابن عمر قال تمتع رسول الله ﷺ في حجة الوداع بالعمرة إلى الحج وأهدى فساق معه الهدي من ذي الحليفة وبدأ رسول الله ﷺ فأهل بالعمرة ثم أهل بالحج وتمتع الناس مع رسول الله ﷺ بالعمرة إلى الحج وكان من الناس من أهدى ومنهم لم يهد فلما قدم رسول الله ﷺ مكة قال للناس من كان منكم أهدى فإنه لا يحل من شيء حرم منه حتى يقضي حجه ومن لم يكن منكم أهدى فليطف بالبيت والصفا والمروة وليقصر وليتحلل ثم ليهل بالحج وليهد فمن لم يجد هدياً فليصم ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجع إلى أهله، وطاف رسول الله ﷺ حين قدم مكة فاستلم الركن أول شيء ثم خب ثلاثة أطواف من السبع ومشى أربعة أطواف ثم ركع حين قضى طوافه بالبيت عند المقام ركعتين ثم سلم فانصرف فأتى الصفا فطاف بالصفا والمروة سبعة أشواط ثم لم يحل من شيء حرم منه حتى قضى حجه ونحر هديه يوم النحر وأفاض وطاف بالبيت ثم حل من كل شيء حرم منه وفعل مثل ما فعل رسول الله ﷺ من أهدى فساق الهدي من الناس». اختلفت الروايات في حجة النبي ﷺ هل كان مفرداً أو متمتعاً أو قارناً؟ وهي ثلاثة أقوال للعلماء بحسب مذاهبهم السابقة ورجحت كل طائفة نوعاً وادّعت أن حجة النبي ﷺ كذلك وطريق الجمع بين روايات الصحابة واختلافهم في حجته ﷺ أنه كان أولاً مفرداً ثم إنه ﷺ أحرم بالعمرة بعد ذلك وأدخلها على الحج فصار قارناً فمن روى أنه كان مفرداً فهو الأصل ومن روي القرآن اعتمد آخر الأمر ومن روي التمتع أراد التمتع اللغوي وهو الانتفاع والارتفاق وقد ارتفق بالقرآن كارتفاق التمتع وزيادة وهو الاقتصار على فعل واحد، وبهذا أمكن الجمع بين الأحاديث المختلفة في صفة حجة الوداع وهو الصحيح وذكر الشافعي في كتاب اختلاف

أخبرنا زاهر بن أحمد أخبرنا أبو إسحق الهاشمي، أخبرنا أبو مصعب عن مالك عن أبي الأسود محمد بن عبد الرحمن بن نوفل، عن عروة بن الزبير عن عائشة أُمّ المؤمنين أنها قالت: خرجنا مع رسول الله ﷺ عام حَجّة الوداع فمنّا مَن أهلّ بعمرة، ومنّا مَن أهلّ بحج وعُمرة، ومنّا مَن أهلّ بحج، وأهلّ رسول الله ﷺ بالحج، فأمّا مَن أهلّ بالعمرة فحلّ وأمّا مَن أهلّ بالحج أو جمع بين الحج والعمرة، فلن يَحِلّ حتى كان يوم النحر، أخبرنا عبد الوهاب بن محمد الخطيب، أخبرنا عبد العزيز بن أحمد الخلال أخبرنا أبو العباس الأصم، أخبرنا الربيع أخبرنا الشافعي أخبرنا مسلم عن ابن جُريج عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جابر وهو يحدّث عن حَجّة النبي ﷺ قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ لا ننوي إلاّ الحج، ولا نعرف غيره ولا نعرف العُمرة، ورُوِيَ عن ابن عمر أن النبي ﷺ أفرد الحج، وذهب قوم إلى أن القِرَان أفضل، وهو قول الثّوري وأصحاب الرأي واحتجّوا بما أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحي، أخبرنا أبو سعيد محمد بن موسى الصيرفي، أخبرنا أبو العباس محمد بن يعقوب الأصم، أخبرنا محمد بن هشام بن ملاس النميري أخبرنا مروان بن معاوية الفراري أخبرنا حميد قال أنس بن مالك أهلّ رسول الله ﷺ فقال: «لبّيك بحَجّة وعُمرة»، وذهب قوم إلى أنّ التمتّع أفضل، وهو قول أحمد بن حنبل وإسحق بن راهويه، واحتجّوا بما أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف أخبرنا محمد بن إسماعيل أخبرنا يحيىٰ بن بكير، أخبرنا الليث عن عقيل عن ابن شهاب، عن سالم بن عبد الله عن ابن عمر قال: تمتّع رسول الله ﷺ في حَجّة الوداع بالعمرة إلى الحج، فساق معه الهدي من ذي الحُلَيْفَة، وبدأ رسول الله ﷺ فأهلّ بالعمرة ثم أهلّ بالحج، فتمتّع الناس مع النبي ﷺ بالعُمرة إلى الحج، فكان من

الحديث كلاماً موجزاً في ذلك فقال إن أصحاب رسول الله ﷺ كان منهم المفرد والقارن والمتمتع وكل كان يأخذ منه أمر نسكه ويصدر عن تعليمه فأضيف الكل إليه على معنى أنه أمر به وأذن فيه ويجوز في لغة العرب إضافة الفعل إلى الأمر به كما تجوز إضافته إلى فاعله كما يقال بنى فلان داره وأريد به أنه أمر ببنائها وكما يروى: «أن النبي ﷺ رجم ماعزاً» وإنما أمر برجمه، واختار الشافعي الإفراد واحتج في ترجيحه بأنه صح ذلك من رواية جابر وابن عمر وابن عباس وعائشة وهؤلاء لهم مزية في حجة الوداع على غيرهم، فأما جابر فهو أحسن الصحابة سياقة لرواية حديث حجة الوداع فإنه ذكرها من حين خرج النبي ﷺ من المدينة إلى آخرها فهو أضبط لها من غيره، وأما ابن عمر فصح عنه أنه كان آخذاً بخطام ناقة النبي ﷺ في حجة الوداع وإنما سمعه يلبي بالحج. وأما ابن عباس فمحله من العلم والفقه والدين معروف مع كثرة بحثه عن أحوال رسول الله ﷺ وأما عائشة فقربها من رسول الله ﷺ معروف وإطلاعها على باطن أمره وظاهره مع كثرة فقهها وعلمها، ومن دلائل ترجيح الإفراد أن الخلفاء الراشدين أفردوا الحج بعد رسول الله ﷺ وواظبوا عليه. وأركان الحج خمسة الإحرام والوقوف بعرفة والطواف والسعي بين الصفا والمروة وحلق الرأس أو التقصير في أصح القولين. وأركان العمرة أربعة: الإحرام والطواف والسعي والحلق أو التقصير، وبهذه الأركان تمام الحج والعمرة.

قوله تعالى: ﴿فإن أحصرتم﴾ أصل الحصر في اللغة الحبس والتضييق، ثم اختلف أهل اللغة في الحصر والإحصار فقيل إذا رد الرجل عن وجه يريده فقد أحصر، وإذا حبس فقد حصر وقال ابن السكيت أحصره المرض إذا منعه من السفر أو حاجة يريدها وحصره العدو إذا ضيق عليه. وقال الزجاج: الرواية عن أهل اللغة يقال للذي يمنعه الخوف أو المرض أحصر والمحبوس حصر، وقال ابن قتيبة في قوله: ﴿فإن أحصرتم﴾ هو أن يعرض للرجل ما يحول بينه وبين الحج من مرض أو كسر أو عد ويقال أحصر فهو محصر فإن حبس في دار أو سجن قيل حصر فهو محصور وذهب قوم إلى أنهما بمعنى واحد. قال الزجاج: يقال الرجل من حصرك هنا ومن أحصرك وقال

الناس مَن أهدى فساق الهدي، ومنهم مَن لم يهدِ فلما قَدِمَ النبي ﷺ مكةَ قال للناس: «مَن كان منكم أهدَى فإنه لا يَحِلُّ من شيء حَرُم منه، حتى يقضي حجّه، ومَن لم يكن منكم أهدَى فليَطُفْ بالبيت ويسعى بين الصفا والمروة ويُقصِّر وليتحلّل، ثم ليهلّ بالحج فمَن لم يجد هدياً فليصم ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجع إلى أهله»، فطاف حين قَدِمَ مكة واستلم الركن أول شيء، ثم خبَّ ثلاثة أشواط ومشى أربعاً فركع حين قضى طوافه بالبيت عند المقام ركعتين، ثم سلّم فانصرف فأتى الصفا فطاف بالصفا والمروة سبعة أشواط ثم لم يتحلّل من شيء حَرُم منه حتى قضى حَجّه ونحر هديه يوم النحر، وأفاض فطاف بالبيت ثم حلّ من كل شيء حرم منه، وفعل مثل ما فعل رسول الله ﷺ مَنْ أهدى وساق الهدي من الناس، وعن عروة عن عائشة رضي الله عنها أخبرته عن النبي ﷺ في تمتّعه بالعمرة إلى الحج، فتمتّع الناس معه بمثل الذي أخبرني سالم عن ابن عمر عن رسول الله ﷺ قال شيخنا الإمام رضي الله عنه: قد اختلف الرواة في إحرام النبي ﷺ، كما ذكرنا وذكر الشافعي في كتاب اختلاف الأحاديث كلاماً موجزاً أن أصحاب رسول الله ﷺ كان منهم المفرد والقارن والمتمتّع، وكلٌّ كان يأخذ منه أمر نُسكه ويصدر عن تعليمه، فأُضيف الكل إليه على معنى أنه أمر به وأذن فيه، فيجوز في لغة العرب إضافة الفعل إلى الأمر به، كما يجوز إضافته إلى الفاعل له كما يقال: بنَى فلان داراً وأُريد أنه أمر ببنائها، وكما رُوِيَ أن النبي ﷺ رجم ماعزاً، وإنّما أمر برجمه، واختار الشافعي الإفراد، لرواية جابر وعائشة وابن عمر وقدّمها على رواية غيرهم لتقدّم صحبة جابر النبيَّ ﷺ، وحُسن سياقه لابتداء قصة حَجّة الوداع وآخرها، ولفضل حفظ عائشة، وقرب ابن عمر من النبي ﷺ، وقال الشافعي في اختلاف الأحاديث إلى التمتّع، وقال: ليس شيء من الاختلاف أيسر من هذا، وإن

أحمد بن يحيى أصل الحصر والإحصار الحبس وحصر في الحبس أقوى من أحصر وقيل الإحصار يقال في المنع الظاهر كالعدو والمنع الباطن كالمرض والحصر لا يقال إلاّ في المنع الباطن وأما قوله ﴿فإن أحصرتم﴾ فمحمول على الأمرين وبحسب اختلاف أهل اللغة في معناها اختلف الفقهاء في حكمها فذهب قوم إلى أن كل مانع من عدو أو مرض أو ذهاب نفقة فإنه يبيح له التحلل من إحرامه وهو قول عطاء ومجاهد وقتادة وهو مذهب أبي حنيفة ويدل عليه ما روي عن عكرمة قال حدّثني الحجاج بن عمرو قال قال: رسول الله ﷺ: «من كسر أو عرج فقد حلّ وعليه حجة أخرى» قال عكرمة: فذكرت ذلك لأبي هريرة وابن عباس فقالا: صدق، أخرجه أبو داود والنسائي والترمذي وقال حديث حسن وذهب قوم إلى أنه لا يباح له التحلل إلاّ بحبس العدو وهو قول ابن عمر وابن عباس وأنس وبه قال مالك والليث والشافعي وأحمد وقالوا الحصر والإحصار بمعنى واحد واحتجوا بأن نزول الآية كان في قصة الحديبية في سنة ست وكان ذلك حبساً من جهة العدو لأن كفار مكة منعوا النبي ﷺ وأصحابه من الطواف بالبيت فنزلت هذه الآية فحل النبي ﷺ من عمرته ونحر هديه وقضاها من قابل ويدل عليه أيضاً سياق الآية وهو قوله: ﴿فإذا أمنتم﴾ والأمن لا يكون إلاّ من خوف وثبت عن ابن عباس أنه قال لا حصر إلاّ حصر العدو فثبت بذلك أن المراد من الإحصار هو حصر العدو دون المرض وغيره. وأجيب عن حديث الحجاج بن عمرو بأنه محمول على من شرط التحلل بالمرض ونحوه إحرامه ويدل على جواز الاشتراط في الإحرام ما روي عن ابن عباس أن ضباعة بنت الزبير أتت النبي ﷺ فقالت يا رسول الله إني أريد الحج أفأشترط؟ قال نعم قالت كيف أقول؟ قال قولي لبيك اللهم لبيك محلي من الأرض حيث تحبسني أخرجه الترمذي وقال حديث حسن صحيح. ولغيره أن ضباعة بنت الزبير كانت وجعة فقال لها النبي ﷺ: حجي واشترطي وقولي اللهم محلى حيث حبستني فذهب الشافعي وأحمد وإسحاق إذا اشترط في الحج فعرض له مرض أو عذر أن يتحلل ويخرج من إحرامه ثم المحصر يتحلل بذبح الهدي وحلق الرأس وهو المراد من قوله تعالى: ﴿فما استيسر من الهدي﴾ ومعنى الآية فإن أحصرتم دون تمام

كان الغلط فيه قبيحاً من جهة أنه مُباح، لأن الكتاب ثم السُّنّة ثم ما لا أعلم فيه خلافاً يدلّ على أن التمتّع بالعمرة إلى الحج وإفراد الحج والقِرَان واسع كله، أي التمتّع والإفراد والقِرَان، وقال مَن قال إنه إفراد الحج يشبه أن يكون قاله على ما يعرف من أهل العلم الذين أدركوا دَوْرَ رسول الله ﷺ أن أحداً لا يكون مقيماً على الحج إلاّ وقد ابتدأ إحرامه بالحج، قال شيخنا الإمام ومما يدلّ على أنه كان متمتعاً أن الرواية عن ابن عمر وعائشة متعارضة، وقد روينا عن ابن شهاب عن سالم عن ابن عمر قال: تمتع رسول الله ﷺ في حَجّة الوداع بالعمرة إلى الحج، وقال ابن شهاب عن عروة: إنّ عائشة أخبرته عن النبيّ ﷺ في تمتعه بالعمرة إلى الحج، فتمتع الناس معه بمثل الذي أخبرني سالم عن ابن عمر وقال ابن عباس: قال رسول الله ﷺ: «هذه عمرة استمتعنا بها»، وقال سعد بن أبي وقاص في المتعة: صنعها رسول الله ﷺ وصنعناها معه، قال شيخنا الإمام: وما رُوِيَ عن جابر أنه قال: خرجنا لا ننوي إلاّ الحج لا ينافي التمتّع، لأن خروجهم كان لقصد الحج، ثم منهم مَن قدّم العمرة ومنهم مَن أهلّ بالحج إلى أن أمره النبي ﷺ أن يجعله متعة. قوله تعالى: ﴿ فإن أُحصرتم ﴾، اختلف العلماء في الإحصار الذي يُبيح للمحرم التحلّل، من إحرامه، فذهب جماعة إلى أن كل مانع يمنعه عن الوصول إلى البيت الحرام والمضي في إحرامه من عدوٍ أو مرض أو جرح أو ذهاب نفقة أو ضلال راحلة يُبيح له التحلّل، وبه قال ابن مسعود، وهو قول إبراهيم النخعي والحسن ومجاهد وعطاء وقتادة وعُروة بن الزبير، وإليه ذهب سفيان الثّوري وأهل العراق، وقالوا: إن الإحصار في كلام العرب هو: حبس العلّة أو المرض، وقال الكسائي وأبو عبيدة: ما كان من مرض أو ذهاب نفقة، يقال: منه أُحصر فهو مُحصرٌ، وما كان من حبس عدوٍّ أو سجن يُقال: منه حُصر فهو مَحصُور، إنما جعل ههنا حبس العدو إحصاراً

الحج أو العمرة فحللتم فعليكم ما استيسر من الهدي والهدي ما يهدى إلى البيت وأعلاه بدنة وأوسطه بقرة وأدناه شاة. قال ابن عباس: شاة لأنه أقرب إلى اليسر، ومحل ذبح هدي المحصر حيث أحصر وإليه ذهب الشافعي لأن النبي ﷺ ذبح الهدي عام الحديبية بها، وذهب أبو حنيفة إلى أنه يقيم على إحرامه ويبعث بهديه إلى الحرم ويواعد من يذبحه هناك ثم يحل في ذلك الوقت.

﴿**ولا تحلقوا رؤوسكم حتى يبلغ الهدي محله**﴾ أي مكانه الذي يجب أن يذبح فيه، وفيه قولان أحدهما أنه الحرم فإن كان حاجاً فمحله يوم النحر وإن كان معتمراً فمحله يوم يبلغ هديه إلى الحرم وهو قول أبي حنيفة والقول الثاني محل ذبحه حيث أحصر سواء كان في الحل أو في الحرم، ومعنى محله يعني حيث يحل ذبحه وأكله وهو قول مالك والشافعي وأحمد ويدل عليه ما روي عن ابن عمر قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ معتمرين فحال كفار قريش دون البيت فنحر رسول الله ﷺ وحلق رأسه، أخرجه البخاري.

قوله عز وجل: ﴿**فمن كان منكم مريضاً أو به أذى من رأسه**﴾ معناه ولا تحلقوا رؤوسكم في حال الإحرام إلّا أن تضطروا إلى حلقه لمرض أو أذى وهو القمل أو الصداع ﴿**ففدية**﴾ فيه إضمار تقديره فحلق رأسه فعليه فدية، نزلت هذه الآية في كعب بن عجرة (ق) عن كعب بن عجرة قال: أتى على رسول الله ﷺ وأنا أوقد تحت قدر لي والقمل يتناثر على وجهي فقال: أيؤذيك هوام رأسك؟ قال قلت نعم قال فاحلق وصم ثلاثة أيام أو أطعم ستة مساكين أو انسك نسيكة لا أدري بأي ذلك بدأ وفي رواية قال نزلت هذه الآية: ﴿**فمن كان منكم مريضاً أو به أذى من رأسه ففدية من صيام أو صدقة أو نسك**﴾ وذكر نحوه وفي أخرى أن رسول الله ﷺ مر به وهو بالحديبية قبل أن يدخل مكة وهو محرم وذكره، وفي أخرى أن النبي ﷺ قال له: ما كنت أرى أن الوجع بلغ منك ما أرى أو ما كنت أرى أن الجهد بلغ بك ما أرى أتجد شاة؟ قلت لا قال: فصم ثلاثة أيام أو أطعم ستة مساكين لكل مسكين نصف صاع». قال كعب فنزلت في خاصة وهي لكم عامة ومعنى قوله تعالى ﴿**ففدية من صيام**﴾ أي صوم ثلاثة أيام ﴿**أو**

قياساً على المرض إذا كان في معناه، واحتجّوا بما رُوِيَ عن عكرمة عن الحجّاج بن عمرو الأنصاري قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن كُسرَ أو عَرجَ فقد حلّ عليه الحج من قابل»، قال عكرمة: فسألت ابن عباس وأبا هريرة فقالا: صدق، وذهب جماعة إلى أنه لا يباح له التحلّل إلّا بحبس العدو، وهو قول ابن عباس، وقال: لا حصر إلّا حصر العدو، ورُوِيَ معناه عن ابن عمر وعبد الله بن الزبير، وهو قول سعيد بن المسيب وسعيد بن جبير، وإليه ذهب الشافعي وأحمد وإسحق، وقالوا: الحصر والإحصار بمعنى واحد، وقال ثعلب: تقول العرب حصرت الرجل عن حاجته، فهو محصور، وأحصره العدو إذا منعه عن السير هو محصر، واحتجّوا بأن نزول هذه الآية في قصة الحديبية كان ذلك حبساً من جهة العدو، ويدلّ عليه قوله تعالى في سياق الآية: ﴿ فإذا أمنتم ﴾، والأمن يكون من الخوف، وضعفوا حديث الحجّاج بن عمرو بما ثبت عن ابن عباس أنه قال: لا حصر إلا حصر العدو، وتأوّله بعضهم على أنه إنما يحلّ بالكسر والعرج إذا كان قد شرط ذلك في عقد الإحرام، كما رُوِيَ أن ضباعة بنت الزبير كانت وجعة فقال لها النبي ﷺ: «حُجّي واشترطي وقولي اللّهمّ مَحِلّي حيث حبستني»، ثم المحصر يتحلّل بذبح الهدي وحلق الرأس، والهدي بشاة وهو المراد من قوله تعالى: ﴿ فما استيسر من الهدي ﴾ ومحل ذبحه حيث أحصر عند أكثر أهل العلم، لأن النبي ﷺ ذبح الهدي عام الحديبية بها، وذهب قوم إلى أن المحصر يقيم على إحرامه، ويبعث بهديه إلى الحَرَم ويُواعد مَن يذبحه هناك ثم يحلّ، وهو قول أهل العراق، واختلف القول في المحصر إذا لم يجد هدياً ففي قول: لا بدل له فيتحلّل والهدي في ذمته إلى أن يجده، والقول الثاني: له بدل، فعلى هذا اختلف القول فيه، ففي قول: عليه صوم التمتّع، وفي قول: تقوّم الشاة بدراهم ويجعل الدراهم طعاماً فيتصدّق به، فإن عجز عن

صدقة﴾ يعني إطعام ثلاثة أصوع ستة مساكين لكل مسكين نصف صاع ﴿أو نسك﴾ واحدتها نسيكة أي ذبيحة وأعلاها بدنة وأوسطها بقرة وأدناها شاة وهذه الفدية على التخيير إن شاء ذبح أو صام أو تصدق وكل هدي أو طعام يلزم المحرم فإنه لمساكين الحرم إلاّ هدي المحصر فإنه يذبحه حيث أحصر. وأما الصوم فله أن يصوم حيث شاء. قوله تعالى: ﴿فإذا أمنتم﴾ يعني من خوفكم وبرأتم من مرضكم وقيل إذا أمنتم من الإحصار ﴿فمن تمتع بالعمرة إلى الحج﴾ قال ابن الزبير معناه فمن أحصر حتى فاته الحج ولم يتحلل فقدم مكة فخرج من إحرامه بعمل عمرة فاستمتع بإحلاله ذلك بتلك العمرة إلى السنة المستقبلة ثم حج فيكون متمتعاً بذلك الإحلال إلى إحرامه الثاني في العام المقبل وقيل معناه فإذا أمنتم وقد أحللتم من إحرامكم بعد الإحصار ولم تعتمروا في تلك السنة ثم اعتمرتم في السنة القابلة في أشهر الحج ثم أحللتم فاستمتعتم بإحلالكم إلى الحج ثم أحرمتم بالحج فعليكم ما استيسر من الهدي وقال ابن عباس: هو الرجل يقدم معتمراً من أفق الآفاق في أشهر الحج فقضى عمرته وأقام بمكة حلالاً حتى أنشأ منها الحج فحج من عامه ذلك فيكون مستمتعاً بالإحلال عن العمرة إلى إحرامه بالحج. ومعنى التمتع في اللغة هو الاستمتاع بعد الخروج من العمرة والتلذذ بما كان محظوراً عليه في حال الإحرام إلى إحرامه بالحج ﴿فما استيسر من الهدي﴾ يعني فعليه ما استيسر من الهدي وهو شاة يذبحها يوم النحر، فلو ذبح قبله بعدما أحرم بالحج أجزأه عند الشافعي كدم الجبرانات ولا يجزئه ذبحه عند أبي حنيفة قبل يوم النحر كدم الأضحية. ولوجوب دم التمتع خمس شرائط: أحدها: أن يقدم العمرة على الحج. الثاني: أن يحرم بالعمرة في أشهر الحج. الثالث: أن يحج بعد الفراغ من العمرة في هذه السنة. الرابع: أن يحرم من مكة ولا يعود إلى ميقات بلده، فإن رجع إلى

الإطعام صام عن كل مُدّ من الطعام يوماً كما في فدية الطِّيب واللبس، فإن المحرم إذا احتاج إلى ستر رأسه لحرٍّ أو بردٍ أو إلى لبس قميص أو مرض فاحتاج إلى مداواته بدواء فيه طيب، فعلَ وعليه الفدية، وفديته على الترتيب والتعديل فعليه ذبح شاة، فإن لم يجد يقوّم الشاة بدراهم، والدراهم يشتري بها طعاماً فيتصدّق به، فإن عجز صام عن كل مُدٍّ يوماً، ثم المحصر إن كان إحرامه بفرض قد استقر عليه فذلك الفرض في ذمته، وإن كان بحج تطوّع فهل عليه القضاء؟ اختلفوا فيه فذهب جماعة إلى أنه لا قضاء عليه، وهو قول مالك والشافعي، وذهب قوم إلى أن عليه القضاء وهو قول مجاهد والشعبي والنخعي وأصحاب الرأي. قوله تعالى: ﴿ فما استيسر من الهدي ﴾، أي: فعليه ما تيسّر من الهدي، ومحله رفع، وقيل: ﴿ ما ﴾ في محل النصب، أي فاهدِ ما استيسر، والهدي جمع هدية وهي اسم لكل ما يُهدَى إلى بيت الله تقرّباً إليه، وما استيسر من الهدي شاة، قاله عليّ بن أبي طالب وابن عباس لأنه أقرب إلى اليُسْر، وقال الحسن وقتادة أعلاه بدنة وأوسطه بقرة وأدناه شاة، قوله تعالى: ﴿ ولا تحلقوا رؤوسكم حتى يبلغ الهدي مَحِلّه ﴾، اختلفوا في المحلِ الذي يحلّ المحصر ببلوغ هديه إليه، فقال بعضهم: هو ذبحه بالموضع الذي أحصر فيه سواء كان في الحلّ أو في الحَرم، ومعنى ﴿ مَحِلّه ﴾ حيث يحلّ ذبحه فيه، أخبرنا عبد الواحد المليحي أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف أخبرنا محمد بن إسماعيل، أخبرنا عبد الله بن محمد أخبرنا عبد الرزّاق أخبرنا معمر، أخبرني الزهري أخبرني عروة بن الزبير عن المسور بن مخرمة في قصة الحديبية، قال: فلما فرغ من قضية الكتاب، قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «قوموا فانحروا ثم احلقوا»، فوالله ما قام رجل منهم حتى قال ذلك مرّات، فلمّا لم يقم منهم أحدٌ دخل على أُم سلمة فذكر لها ما لقي من الناس، فقالت أُم سلمة: يا نبيّ الله أتحبّ ذلك! اخرج ثم لا تكلّم أحداً منهم بكلمة حتى تنحر بُدْنك وتدعوا حالقك فيحلقك، فخرج فلم يكلّم أحداً منهم حتى فعل ذلك نحر بُدْنَه ودعا حالقه فحلقه، فلمّا رأوا ذلك قاموا فنحروا، وجعل بعضهم يحلق بعضاً حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً، أي: ازدحاماً غمّاً، وقال بعضهم: محل هدي

الميقات وأحرم منه لم يكن متمتعاً. الخامس: أن لا يكون من حاضري المسجد الحرام فهذه الشروط معتبرة في وجوب دم التمتع ومتى فقد شيء منها لم يكن متمتعاً ودم التمتع دم جبران عند الشافعي فلا يجوز أن يأكل منه. وقال أبو حنيفة: هو دم نسك فيجوز أن يأكل منه وقوله ﴿**فمن لم يجد**﴾ يعني الهدي ﴿**فصيام ثلاثة أيام في الحج**﴾ أي فعليه صيام ثلاثة أيام في وقت اشتغاله بالحج. قيل: يصوم يوماً قبل يوم التروية ويوم التروية ويوم عرفة وقيل بل المستحب أن يصوم في أيام الحج بحيث يكون يوم عرفة مفطراً فإن لم يصم قبل يوم النحر فقيل يصوم أيام التشريق وبه قال مالك وأحمد وهو أحد قولي الشافعي. وقيل: بل يصوم بعد أيام التشريق وهو رواية عن أحمد والقول الآخر للشافعي ﴿**وسبعة إذا رجعتم**﴾ يعني وصوموا سبعة أيام إذا رجعتم إلى أوطانكم وأهليكم قاله ابن عباس وبه قال الشافعي، فلو صام قبل الرجوع إلى أهله لم يجزه عنده وقيل المراد من الرجوع هو الفراغ من أعمال الحج والأخذ في الرجوع فعلى هذا يجزئه أن يصوم السبعة أيام بعد الفراغ من أعمال الحج وقبل الرجوع إلى أهله وبه قال أبو حنيفة: ﴿**تلك عشرة كاملة**﴾ يعني في الثواب والأجر وقيل كاملة في قيامها مقام الهدى لأنه قد يحتمل أن يظن ظان أن الثلاثة قد قامت مقام الهدي فاعلم الله أن العشرة بكمالها هي القائمة مقام الهدي وقيل فائدة التكرار التوكيد كقول الفرزدق:

ثـــلاث واثنتـــان فهـــن خمـــس وســـادســـة تميـــل إلـــى سهـــام

ولأن القرآن أنزل بلغة العرب والعرب تكرر الشيء تريد به التوكيد وقيل فائدة ذلك الفذلكة في علم الحساب وهو أن يعلم العدد مفصلاً ثم يعلمه جملة ليحتاط به من جهتين فكذلك قوله تعالى: ﴿**فصيام ثلاثة أيام في الحج**

المحصر: الحَرَم، فإن كان حاجّاً فمحله يوم النحر، وإن كان معتمراً فمحله يوم يبلغ هديه الحرم، قوله تعالى: ﴿ **فَمَن كان منكم مريضاً أو به أذًى من رأسه** ﴾، معناه لا تحلقوا رؤوسكم في حال الإحرام إلّا أن تضطروا إلى حلقه لمرضٍ أو لأذىً في الرأس من هوامٍّ أو صُداع ﴿ **ففديةٌ** ﴾، فيه إضمار، أي: فحلق عليه فدية، نزلت في كعب بن عجرة. أخبرنا عبد الواحد المليحي أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف أخبرنا محمد بن إسماعيل أخبرنا الحسن بن خلف، أخبرنا إسحق بن يوسف عن أبي بشر وَرْقاء عن ابن أبي نجيح عن مجاهد قال: حدّثني عبد الرحمن بن أبي ليلى عن كعب بن عُجرة أن رسول الله ﷺ رآه وقملُه يسقط على وجهه، فقال: «**أيؤذيك هوامُّك**»؟ قال: نعم، فأمره رسول الله ﷺ أن يحلق وهو بالحديبية، ولم يبيّن لهم أنهم يحلّون بها، وهم على طمع أن يدخلوا مكة، فأنزل الله الفدية، فأمره رسول الله ﷺ أن يُطعم فَرْقاً بين ستّة مساكين، أو يهدي شاة أو يصوم ثلاثة أيام، قوله تعالى: ﴿**ففدية من صيام**﴾، أي: ثلاثة أيام، ﴿ **أو صدقة** ﴾، أي: ثلاثة آصع على ستّة مساكين، لكل مسكين نصف صاع، ﴿ **أو نُسُك** ﴾، واحدتها نسيكة، أي: ذبيحة أعلاها بدنة وأوسطها بقرة وأدناها شاة، أيتها شاءَ ذبحَ، فهذه الفدية على التخيير والتقدير، ويتخيّر بين أن يذبح أو يصوم أو يتصدق، وكل هدي أو طعام يلزم المحرم يكون بمكة ويتصدّق به على مساكين الحرم، إلّا هدياً يلزم المحصر فإنه يذبحه حيث أُحصر، وأما الصوم فله أن يصوم حيث شاء، قوله تعالى: ﴿ **فإذا أمنتم** ﴾، أي: من خوفكم وبرأتم من مرضكم، ﴿ **فَمَن تمتّع بالعمرة إلى الحج فما استيسر من الهدي** ﴾، اختلفوا في هذه المتعة فذهب عبد الله بن الزبير إلى أن معناه: فمَن أُحصر حتى فاته الحج ولم يتحلّل فقَدِمَ مكة يخرج من إحرام بعمل عُمرة واستمتع بإحلاله ذلك، فتلك العمرة إلى السنة المقبلة ثم حج، فيكون متمتعاً بذلك الإحلال إلى إحرامه الثاني في العام القابل، وقال بعضهم: معناه فإذا أمنتم وقد حللتم من إحرامكم بعد الإحصار، ولم تقضوا عمرتكم وأخّرتم العمرة إلى السنة القابلة فاعتمرتم في أشهر الحج ثم حللتم فاستمتعتم بإحلالكم إلى الحج ثم أحرمتم بالحج، فعليكم ما استيسر من

وسبعة إذا رجعتم تلك عشرة كاملة﴾ وقيل إن العرب لما كانوا لا يعلمون الحساب وكانوا يحتاجون إلى زيادة بيان وإيضاح فلذلك قال تلك عشرة كاملة وقيل لفظه خبر ومعناه أمر أي أكملوها ولا تنقصوها ﴿ذلك﴾ أي هذا الحكم الذي تقدم ﴿لمن لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام﴾ قيل حاضرو المسجد الحرام هم أهل مكة وهو قول مالك. وقيل: هم أهل الحرم وبه قال طاوس. وقال ابن جريج: هم أهل عرفة والرجيع وضجنان ونخلة. وقال الشافعي: كل من كان وطنه من مكة على أقل من مسافة القصر فهو من حاضري المسجد الحرام وقيل هم من دون الميقات وقال أبو حنيفة حاضرو المسجد الحرام أهل الميقات والمواقيت ذو الحليفة والجحفة وقرن ويلملم وذات عرق فمن كان من أهل هذه المواضع فما دونها إلى مكة فهو من حاضري المسجد الحرام. وقيل حاضرو المسجد الحرام من تلزمه الجمعة فيه ومعنى الآية أن المشار إليه في قوله: ﴿ذلك﴾ يرجع إلى أقرب مذكور وهو لزوم الهدي أو بدله على المتمتع وهو الآفاقي فأما المكي إذا تمتع أو قرن فلا هدي عليه ولا بد له لأنه لا يجب عليه أن يحرم من الميقات فإقدامه على التمتع لا يوجب خللاً في حجه فلا يجب عليه الهدي ويدل على ذلك ما أخرجه

الهدي، وهو قول علقمة وإبراهيم النخعي وسعيد بن جبير، وقال ابن عباس وعطاء وجماعة: هو الرجل يقدم معتمراً من أُفق الآفاق في أشهر الحج، فقضى عمرته وأقام حلالاً بمكة حتى أنشأ منها الحج، فحجّ من عامه ذلك فيكون مستمتعاً بالإحلال من العمرة إلى إحرامه بالحج، فمعنى التمتّع: هو الاستمتاع بعد الخروج من العمرة بما كان محظوراً عليه في الإحرام إلى إحرامه بالحج، ولوجوب هدي التمتع أربع شرائط: أحدها أن يُحرم بالعمرة في أشهر الحج، والثاني أن يحجّ بعد الفراغ من العمرة في هذه السنة، الثالث أن يُحرم بالحج في مكة ولا يعود إلى الميقات لإحرامه، الرابع أن يكون من حاضري المسجد الحرام، فمتى وُجدت هذه الشرائط فعليه ما استيسر من الهدي، وهودم شاة ويذبحها يوم النحر، فلوذبحها قبله بعد ما أحرم بالحج يجوز عند بعض أهل العلم كدماء الجنايات، وذهب بعضهم إلى أنه لا يجوز قبل يوم النحر كدم الأضحية. قوله تعالى: ﴿فمَن لم يجد﴾: الهدي ﴿فصيام ثلاثة أيام في الحج﴾، أي: صوموا ثلاثة أيام يصوم يوماً قبل التروية ويوم التروية ويوم عرفة، ولو صام قبله بعدما أحرم بالحج جاز، ولا يجوز يوم النحر ولا أيام التشريق عند أكثر أهل العلم، وذهب بعضهم إلى جواز صوم الثلاثة في أيام التشريق، يُروى ذلك عن عائشة وابن عمر وابن الزبير، وهو قول مالك والأوزاعي وأحمد وإسحق، قوله تعالى: ﴿ وسبعة إذا رجعتم ﴾، أي صوموا سبعة أيام إذا رجعتم إلى أهليكم وبلدكم، فلو صام السبعة قبل الرجوع إلى أهله لا يجوز، وهو قول أكثر أهل العلم، رُوِيَ ذلك عن ابن عمر وابن عباس، وقيل: يجوز أن يصومها بعد الفراغ من أعمال الحج، وهو المراد من الرجوع المذكور في الآية، قوله تعالى: ﴿ تلك عشرةٌ كاملة ﴾: ذكرها على وجه التأكيد، وهذا لأن العرب ما كانوا يهتدون إلى الحساب فكانوا يحتاجون إلى فضل شرح وزيادة بيان، وقيل: فيه تقديم وتأخير، يعني: فصيام عشرةِ أيام ثلاثة في الحج وسبعة إذا رجعتم، فهي عشرة كاملة، وقيل: كاملة في الثواب والأجْر، وقيل: كاملة فيما أُريد به من إقامة الصوم بدل الهدي، وقيل كاملة شروطها وحدودها، وقيل: لفظه خبرٌ ومعناه أمرٌ: أي فأكملوها ولا تنقصوها، ﴿ ذلك ﴾ أي: هذا الحكم، ﴿ لمَن لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام ﴾، واختلفوا في حاضري المسجد الحرام، فذهب قوم إلى أنهم أهل مكة، وهو قول مالك، وقيل: هم أهل الحرم، وبه قال طاوس، وقال ابن جُريج: أهل عرفة والرجيع وضجنان، وقال الشافعي كلّ مَن كان وطنُه من مكة على أقل من مسافة القصر، فهو من حاضري المسجد الحرام، وقال عكرمة: هم من دون الميقات، وقيل: هم أهل الميقات فما دونه، وهو قول أصحاب الرأي، ودَمُ القِرَان كدم التمتع، والمكّي إذا قَرَن أو تمتع فلا هدي عليه، قال عكرمة: سُئل ابن عباس عن متعة الحج، فقال: أهل المهاجرون والأنصار وأزواج النبي ﷺ في حَجّة الوَداع،

البخاري تعليقاً من حديث عكرمة قال سئل ابن عباس عن متعة الحج فقال: «أهلَّ المهاجرون والأنصار وأزواج رسول الله ﷺ في حجة الوداع وأهللنا فلما قدمنا مكة قال رسول الله ﷺ اجعلوا إهلالكم بالحج عمرة إلّا من قلد الهدي فطفنا بالبيت وبالصفا والمروة وأتينا النساء ولبسنا الثياب وقال: من قلد الهدي فإنه لا يحل من شيء حتى يبلغ الهدي محله ثم أمرنا عشية التروية أن نهل بالحج فإذا فرغنا من المناسك جئنا فطفنا بالبيت وبالصفا والمروة وقد تم حجنا وعلينا الهدي كما قال تعالى ﴿**فما استيسر من الهدي فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجعتم**﴾ إلى أمصاركم والشاة تجزىء فجمعوا بين النسكين في عام بين الحج والعمرة فإن الله أنزله في كتابه وسنة نبيه ﷺ وأباحه للناس من غير أهل مكة قال الله تعالى: ﴿**ذلك لمن لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام**﴾ وفي الحديث زيادة قال الحميدي قال أبو مسعود الدمشقي هذا حديث غريب ولم أجده إلّا عند مسلم بن الحجاج ولم يخرجه في صحيحه، من أجل عكرمة فإنه لم يرو عنه في صحيحه وعندي أن البخاري إنما أخذه من مسلم. وقوله تعالى: ﴿**واتقوا الله**﴾ أي فيما فرضه عليكم ونهاكم عنه في الحج وفي غيره ﴿**واعلموا أن الله شديد العقاب**﴾ يعني لمن خالف أمره وتهاون بحدوده وارتكب مناهيه.

﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٧﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿**الحج أشهر معلومات**﴾ يعني أشهر الحج أشهر معلومات وقيل وقت الحج أشهر معلومات وهي شوال وذو القعدة وعشر ليال من ذي الحجة إلى طلوع الفجر من يوم النحر وبه قال عبدالله بن مسعود وجابر بن عبدالله وعبدالله بن الزبير ومن التابعين الحسن وابن سيرين والشعبي وهو قول الشافعي والثوري وأبي ثور وحجة الشافعي ومن وافقه أن الحج يفوت بطلوع الفجر الثاني من يوم النحر والعبادة لا تفوت مع بقاء وقتها فدل

وأهللنا فلما قَدِمنا مكة قال رسول الله ﷺ: «اجعلوا إهلالَكم بالحج عُمرةً إلّا مَـنْ قلّد الهدي»، فطفنا بالبيت بالصفا والمروة وأتينا النساء ولبسنا الثياب ثم أُمرنا عشية التروية أن نُهلّ بالحج، فإذا فرغنا فقد تمّ حجُّنا وعلينا الهدي، فجمعوا بين نسكين في عام، بين الحج والعمرة، فإن الله أنزل في كتابه وسُنّة نبيّه، وأباحه للناس من غير أهل مكة، قال الله تعالى: ﴿ **ذلك لمَن لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام** ﴾، ومَن فاته الحج، وفواته يكون بفوات الوقوف، بعَرَفَة حتى يطلع الفجر يوم النحر فإنه يتحلّل بعمل العمرة، وعليه القضاء من قابل، والفدية وهي على الترتيب والتقدير كفدية التمتّع والقِران، أخبرنا أبو الحسن السرخسي أخبرنا زاهر بن أحمد، أخبرنا أبو إسحق الهاشمي، أخبرنا أبو مصعب عن مالك عن نافع، عن سليمان بن يسار أن هنّادَ بن الأسود جاء يوم النحر وعمر بن الخطاب ينحر هديَه فقال: يا أمير المؤمنين أخطأنا العدد كنّا نظنّ أن هذا اليوم يوم عَرَفَة، فقال له عمر: اذهب إلى مكة فطف أنت ومَن معك بالبيت، واسعوا بين الصفا والمروة، وانحروا هدياً إن كان معكم، ثم احلقوا وقصّروا، ثم ارجعوا فإذا كان العام القابل فحجّوا وأهدوا، فمَن لم يجد فصيام ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجع. ﴿ **واتقوا الله** ﴾: في أداء الأوامر، ﴿ **واعلموا أنّ الله شديد العقاب** ﴾، على ارتكاب المناهي.

قوله تعالى: ﴿ **الحجُّ أشهرٌ معلومات** ﴾، أي: وقت الحج أشهر معلومات، وهي: شوّال وذو القعدة وتسع من ذي الحجة إلى طلوع الفجر من يوم النحر، ويُروى عن ابن عمر: شوّال وذو القعدة وعشر من ذي الحجة، وكل واحد من اللفظين صحيح غير مختلف فيه، فمَن قال: عشرٌ عبّر به عن الليالي، ومَن قال تسعُ عبّر به عن الأيام، فإن آخر أيامها يوم عَرَفَة وهو يوم التاسع، وإنما قال: ﴿ **أشهر** ﴾ بلفظ الجمع وهي شهران وبعض الثالث لأنها وقت،

على أن يوم النحر ليس من أشهر الحج وأيضاً فإن الإحرام بالحج فيه لا يجوز فدل على أنه وما بعده ليس من أشهر الحج. وقال ابن عباس أشهر الحج شوال وذو القعدة وعشرة أيام من ذي الحجة آخرها يوم النحر وبه قال ابن عمر وعروة بن الزبير وطاوس وعطاء والنخعي وقتادة ومكحول والضحاك والسدي وأبو حنيفة وأحمد بن حنبل وهي إحدى الروايتين عن مالك وحجة هذا القول أن يوم النحر وهو يوم الحج الأكبر لأن فيه يقع طواف الإفاضة وهو تمام أركان الحج، وقيل إن أشهر الحج شوال وذو القعدة وذو الحجة بكماله، وهو رواية عن ابن عمر وبه قال الزهري: وهي الرواية الأخرى عن مالك وحجة هذا القول إن الله تعالى ذكر أشهر الحج بلفظ الجمع وأقل الجمع المطلق ثلاث، ولأن كل شهر كان أوله من أشهر الحج كان آخره كذلك. فإن قلت هنا إشكال. وهو أن الله تعالى قال قبل هذه الآية: ﴿يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس والحج﴾ فجعل الأهلة كلها مواقيت للحج. قلت قوله هي مواقيت للناس والحج وعام وهذه الآية وهي قوله تعالى: ﴿**الحج أشهر معلومات**﴾ خاص والخاص مقدم على العام. وقيل: إن الآية الأولى مجملة وهذه الآية مفسرة لها. فإن قلت إنما قال الحج أشهر بلفظ الجمع وعند الشافعي أشهر الحج شهران وعشر ليال وعند أبي حنيفة وعشرة أيام فما وجه هذا؟ قلت: إن لفظ الجمع يشترك فيه ما وراء الواحد بدليل قوله تعالى: ﴿فقد صغت قلوبكما﴾ وقيل إنه نزل بعض الشهر منزلة كله كما يقال رأيتك سنة كذا وإنما رآه في ساعة منها ولا إشكال فيه على القول الثالث وهو قول من قال إن أشهر الحج ثلاث شوال وذو القعدة وذو الحجة بكماله ﴿**فمن فرض فيهن الحج**﴾ يعني فمن ألزم نفسه وأوجب عليها فيهن الحج والمراد بهذا الفرض ما به يصير حاجاً وهو فعل يفعله ثم اختلفوا في ذلك الفعل فقال الشافعي: ينعقد الإحرام بمجرد النية من غير حاجة إلى التلبية ووجهه أن فرض الحج عبارة عن النية فوجب أن تكون النية كافية في انعقاد الحج وقال أبو حنيفة: لا يصح الشروع في الإحرام بمجرد النية حتى تنضم إليه التلبية أو سوق الهدي ووجهه أن الحج عبادة

والعرب تسمّي الوقتَ تـاماً بقليله وكثيره، فيقول أتيتك يوم الخميس، وإنّما أتاه في ساعة منه، ويقولون: زرتُك العام، وإنّما زاره في بعضه، وقيل: الاثنان فما فوقهماجماعة، لأن معنى الجمع ضمّ شيء إلى شيء فإذا جاز أن يسمى الاثنان جماعة، جاز أن يُسمى الاثنان وبعض الثالث جماعة، وقد ذكر الله تعالى الاثنين بلفظ الجمع فقال: ﴿ فقدْ صغتْ قلوبُكما ﴾ [التحريم: ٤] أي: قَلْبَاكُما، وقال عروة بن الزبير وغيره: أراد بالأشهر شوّالاً وذا القعدة وذا الحجة كمالاً، لأنه يبقى على الحاج أمورٌ بعد عَرَفَة يجب عليه فعلها مثل الرمي والذبح والحلق وطواف الزيارة والبيتوتة بمنى، فكانت في حكم الحج، ﴿ **فمَن فرض فيهنّ الحج** ﴾، أي: فمَن أوجب على نفسه الحجّ بالإحرام والتلبية، وفيه دليل على أن مَن أحرم بالحج في غير أشهر الحج لا ينعقد إحرامه بالحج، وهو قول ابن عباس وجابر، وبه قال عطاء وطاوس ومجاهد وإليه ذهب الأوزاعي والشافعي، وقال سعيد: ينعقد إحرامه بالعُمرة، لأنّ الله تعالى خصّ هذه الأشهر بفرض الحج فيها، فلو انعقد في غيرها لم يكن لهذا التخصيص فائدة، كما أنه علّق بالصلَوات بالمواقيت، ثم مَن أحرم بفرض الصلاة قبل دخول وقته لا ينعقد إحرامه عن العرض، وذهب جماعة إلى أنه ينعقد إحرامه بالحج، وهو قول مالك والثّوري وأبي حنيفة، وأما العمرة فجميع أيام السنة لها وقتٌ إلاّ أن يكون متلبساً بالحج، ورُوِيَ عن أنس أنه كان بمكة فكان إذا حمم رأسه خرج فاعتمر، قوله تعالى: ﴿ **فلا رفث ولا فسوق** ﴾، قرأ ابن كثير وأهل البصرة ﴿ **فلا رفث ولا فسوق** ﴾بالرفع والتنوين فيهما، وقرأ الآخرون بالنصب من غير تنوين، كقوله تعالى: ﴿ **ولا جدال في الحج** ﴾، وقرأ أبو جعفر كلها بالرفع والتنوين واختلفوا في الرفث، قال ابن مسعود وابن عباس وابن عمر: هو الجماع، وهو قول الحسن ومجاهد وعمرو بن دينار وقتادة وعكرمة والربيع وإبراهيم النخعي، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: الرفث غشيان النساء والتقبيل والغمز وأن يعرض لها

لها تحليل وتحريم فلا به من انضمام شيء إلى النية كتكبيرة الإحرام مع النية في الصلاة، وفي الآية دليل على أن الإحرام بالحج لا ينعقد إلّا في أشهره وهو قول ابن عباس وإليه ذهب الشافعي وأحمد وإسحاق لأن الله تعالى خصص هذه الأشهر بفرض الحج فيها فلو انعقد في غيرها لم يكن لهذا التخصيص وجه ولا فائدة وقال مالك والثوري وأبو حنيفة: ينعقد إحرامه بالحج في جميع شهور السنة ووجهه أن الإحرام إلزام الحج فجاز تقديمه على الوقت كالنذر لأن الله تعالى جعل الأهلة كلها مواقيت للحج بقوله: ﴿**هي مواقيت للناس والحج**﴾ وقد تقدم الجواب عنه. وقوله تعالى ﴿**فلا رفث**﴾ قال ابن عباس الرفث الجماع وفي رواية عنه أن الرفث غشيان النساء والتقبيل والغمز وأن يعرض لهن بالفحش من الكلام فعلى هذا القول التلفظ به في غيبة النساء لا يكون رفثاً، قال حصين بن قيس أخذ ابن عباس بذنب بعيره يلويه وهو يحدو ويقول:

وهـــن يمشيـــن بنـــا هميســـا ... إن يصـــدق الطيـــر ننـــك لميســـا

فقلت: أترفث وأنت محرم؟ فقال: إن الرفث ما قيل عند النساء وقوله لميسا هو اسم امرأة وقيل الرفث كلام متضمن لما يستقبح ذكره من ذكر الجماع ودواعيه وقوله فلا رفث يحتمل أن يكون نهياً عن تعاطي الجماع وأن يكون نهياً عن الحديث في ذلك لأنه من دواعيه وقيل الرفث هو الفحش والخنا والقول القبيح. وقيل الرفث اللغو من الكلام ويدل عليه قوله ﷺ: «إذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث يومئذٍ ولا يصخب» ﴿**ولا فسوق**﴾ أصله الخروج عن الطاعة قال ابن عباس: هي المعاصي كلها وهو قول طاوس والحسن وسعيد بن جبير وقتادة والزهري والربيع والقرظي وقال ابن عمر: هو ما نهي عنه المحرم في حال الإحرام من قتل الصيد وتقليم الأظافر، وأخذ الشعر وما أشبه ذلك وقيل هو السباب والتنابز بالألقاب (ق) عن أبي هريرة قال سمعت رسول ﷺ يقول: «من حج ولم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه» ﴿**ولا جدال في الحج**﴾ قال ابن عباس الجدال هو المراء وهو أن يماري

بالفحش من الكلام، قال حصين بن قيس: أخذ ابن عباس رضي الله عنهما بذَنب بعيره، فجعل يلويه وهو يحدو ويقول:

وهن يمشين بنا هميسا ... إن تصدق الطير ننك لميسا

فقلت له: أترفث وأنت محرم؟ فقال: إنما الرفث ما قيل عند النساء، قال طاوس: الرفث التعريض للنساء بالجماع وذكره بين أيديهنّ، وقال عطاء: الرفث قول الرجل للمرأة في حال الإحرام إذا حللت أصبتك، وقيل: الرفث الفحش والقول القبيح، أما الفسوق فقد قال ابن عباس: هو المعاصي كلها، وهو قول طاوس والحسن وسعيد بن جبير وقتادة والزهري والربيع والقرظي، وقال ابن عمر: هو ما نُهي عنه المحرم في حال الإحرام من قتل الصيد وتقليم الأظفار وأخذ الأشعار وما أشبههما، وقال إبراهيم وعطاء ومجاهد: هو السُّباب، بدليل قول النبي ﷺ: «سُباب المسلم فسوق وقتاله كفر»، وقال الضحاك هو التنابز بالألقاب بدليل قوله تعالى: ﴿ ولا تنابزوا بالألقاب بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان ﴾ [الحجرات: ١١]، أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي، أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف أخبرنا محمد بن إسماعيل، أخبرنا آدم أخبرنا شعبة أخبرنا سيّار أبو الحكم، قال: سمعتُ أبا حازم يقول سمعت أبا هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَن حجّ لله فلم يرفثْ ولم يَفْسُقْ رجع من ذُنوبه كيومَ ولدتْه أمه» قوله تعالى: ﴿ ولا جدال في الحج ﴾، قال ابن مسعود وابن عباس: الجدال أن يماري صاحبه ويخاصمه حتى يغضبه، وهو قول عمرو بن دينار وسعيد بن جبير وعكرمة والزهري وعطاء وقتادة، وقال القاسم بن محمد هو أن يقول بعضهم: الحجُّ اليومَ ويقول بعضهم: الحج غداً، وقال القرظي: كانت قريش إذا

الرجل صاحبه ويخاصمه حتى يغضبه وقيل: هو قول الرجل الحج اليوم يقول آخر الحج غداً وقيل هو أن النبي ﷺ قال في حجة الوداع وقد أحرموا بالحج «اجعلوا أهلاً لكم بالحج عمرة إلّا من قلد الهدي قالوا كيف نجعلها عمرة وقد سمينا الحج فهذا كان جدالهم. وقيل: هو ما كان عليه أهل الجاهلية كان بعضهم يقف بعرفة وبعضهم بمزدلفة وكان بعضهم يحج في ذي القعدة وبعضهم في ذي الحجة وكل يقول الصواب فيما فعلته فأنزل الله: ﴿**ولا جدال في الحج**﴾ فأخبر أن أمر الحج قد استقر على ما فعله رسول الله ﷺ فلا خلاف فيه بعده وذلك معنى قول النبي ﷺ: «ألا أن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض» وقيل: معناه ولا شك في الحج أنه في ذي الحجة فأبطل النسيء وقيل: ظاهر الآية خبر ومعناه نهي أي لا ترفثوا ولا تفسقوا ولا تجادلوا في الحج وإنما نهي عن ذلك وأمر باجتنابه في الحج وإن كان اجتناب ذلك في كل الأحوال والأزمان واجباً لأن الرفث والفسوق والجدال في الحج أسمج وأفظع منه في غيره ﴿**وما تفعلوا من خير يعلمه الله**﴾ أي لا يخفى عليه شيء من أعمالكم، وهو الذي يجازيكم عليها، حث الله على فعل الخير عقيب النهي عن الشر وهو أن يستعملوا مكان الرفث الكلام الحسن ومكان الفسوق البر والتقوى ومكان الجمال الوفاق والأخلاق الجميلة، وقيل: جعل فعل الخير عبارة عن ربط الأنفس عن الشر حتى لا يوجد منهم ما نهوا عنه. وقيل: إنما ذكر الخير وإن كان عالماً بجميع أفعال العباد من الخير والشر لفائدة، وهي أنه تعالى إذا علم من العبد الخير ذكره وشهره وإذا علم منه الشر ستره وأخفاه فإذا كان هذا فعله مع عبده في الدنيا فكيف يكون في العقبى وهو أرحم الراحمين وأكرم الأكرمين ﴿**وتزودوا فإن خير الزاد التقوى**﴾ نزلت في أناس من أهل اليمن كانوا يخرجون للحج من غير زاد ويقولون نحن متوكلون ويقولون نحج بيت ربنا أفلا يطعمنا فإذا قدموا مكة سألوا الناس وربما أفضى بهم الحال إلى النهب والغصب فأنزل الله وتزودوا أي ما تتبلغون به وتكفون به وجوهكم عن الناس واتقوا إبرامهم والتثقيل عليهم فإن خير الزاد التقوى وقيل في معنى الآية وتزودوا من التقوى فإن الإنسان لا بد له من سفر في الدنيا، ولا بد فيه من زاد ويحتاج فيه إلى الطعام والشراب والمركب وسفر من الدنيا إلى الآخرة، ولا بد فيه من زاد أيضاً وهو تقوى الله والعمل بطاعته وهذا الزاد

اجتمعت بمنى قال هؤلاء: حجّنا أتمّ من حجّكم، وقال هؤلاء: حجّنا أتمّ من حجّكم، وقال مقاتل: هو أن النبي ﷺ قال لهم في حَجّة الوداع وقد أحرموا بالحج: «اجعلوا إهلالكم بالحج عمرة إلّا مَنْ قلّد الهدي»، قالوا: كيف نجعله عُمرة وقد سمّينا الحج؟ فهذا جدالهم. وقال ابن زيد كانوا يقفون مواقف مختلفة: كلّهم يزعم أن موقفه موقف إبراهيم، فكانوا يجادلون فيه، وقيل: هو ما كان عليه أهل الجاهلية كان بعضهم يقف بعَرَفَة وبعضهم بالمزدلفة وكان بعضهم يحجّ في ذي القعدة وكان بعضهم يحجّ في ذي الحجة، فكلٌّ يقول: ما فعلته فهو الصواب، فقال جلّ ذكره: ﴿ **ولا جدال في الحج** ﴾ أي استقر أمر الحج على ما فعله رسول الله ﷺ، فلا اختلاف فيه من بعد. وذلك معنى قول النبي ﷺ: «ألَا إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السمواتِ والأرض»، قال مجاهد: معناه ولا شك في الحج أنه في ذي الحجة. فأبطل النسيء، قال أهل المعاني: ظاهر الآية نفي، ومعناها: نهي، أي: لا ترفثوا ولا تفسقوا ولا تجادلوا، كقوله تعالى: ﴿ لا ريب فيه ﴾ [البقرة: ٢، آل عمران: ٩ و٢٥، النساء: ٨٧، الأنعام: ١٢، يونس: ٣٧، الإسراء: ٩٩، السجدة: ٢، الشورى: ٧، الجاثية: ٢٦]، أي: لا ترتابوا، ﴿ **وما تفعلوا من خير يعلمه الله** ﴾، أي: لا يخفى عليه فيجازيكم به. قوله تعالى: ﴿ **وتزوّدوا فإنّ خيرَ الزاد التقوى** ﴾، نزلت في ناس من أهل اليمن كانوا يخرجون إلى الحج بغير زاد ويقولون: نحن متوكلون، ويقولون: نحن نحج بيت الله فلا يطعمنا، فإذا قَدِموا مكة سألوا الناس، وربما يُفضي بهم الحال إلى النهب والغصب، فقال الله جلّ ذكره: ﴿ **وتزوّدوا** ﴾ أي: ما تتبلغون به وتكفّون به وجوهكم، قال أهي التفسير: الكعك

أفضل من الزاد الأول، فإن زاد الدنيا يوصل إلى مراد النفس وشهواتها، وزاد الآخرة يوصل إلى النعيم المقيم في الآخرة وفي هذا المعنى قال الأعشى:

إذا أنت لم ترحل بزاد من التقى ولاقيت بعد الموت من قد تزودا
ندمت على أن لا تكون كمثله وأنك لم ترصد كما كان أرصدا

﴿واتقون﴾ أي وخافوا عقابي وقيل معناه واشتغلوا بتقواي وفيه تنبيه على كمال عظمة الله جل جلاله: ﴿يا أولي الألباب﴾ يا ذوي العقول الذين يعلمون حقائق الأمور. قوله عز وجل:

لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿١٩٨﴾

﴿ليس عليكم جناح﴾ أي حرج ﴿أن تبتغوا فضلاً من ربكم﴾ يعني رزقاً ونفعاً وهو الربح في التجارة (خ) عن ابن عباس قال كانت عكاظ ومجنة وذو المجاز أسواقاً في الجاهلية فلما كان الإسلام فكأنهم تأثموا أن يتجروا في المواسم فنزلت:

﴿ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم﴾ في مواسم الحج. وقرأها ابن عباس هكذا وفي رواية أن تبتغوا في مواسم الحج فضلاً من ربكم. وعكاظ سوق معروف بقرب مكة، ومجنة بفتح الميم وكسرها سوق بقرب مكة أيضاً، قال الأزرقي: هي بأسفل مكة على بريد منها وذو المجاز سوق عند عرفة كانت العرب في الجاهلية يتجرون في هذه الأسواق ولها مواسم فكانوا يقيمون بعكاظ عشرين يوماً من ذي القعدة ثم ينتقلون إلى مجنة فيقيمون بها ثمانية عشر يوماً عشرة أيام من آخر ذي القعدة، وثمانية أيام من أول ذي الحجة ثم يخرجون إلى عرفة في يوم التروية وقال الداودي: مجنة عند عرفة وعن أبي أمامة التيمي قال: كنت رجلاً أكري في هذا الوجه وكان الناس يقولون لي: إنه ليس لك حج فلقيت ابن عمر فقلت له يا أبا عبد الرحمن إني رجل أكري في هذا الوجه وإن أناساً يقولون إنه ليس لك حج فقال ابن عمر أليس تحرم وتلبي وتطوف بالبيت وتفيض من عرفات وترمي الجمار؟ فقلت بلى قال فإن ذلك حجاً جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فسأله عن مثل ما سألتني عنه فسكت رسول الله ﷺ فلم يجبه حتى نزلت هذه الآية: ﴿ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم﴾ فأرسل إليه رسول الله ﷺ: «وقرأها عليه وقال لك حج» أخرجه أبو داود والترمذي. وقال بعض العلماء: إن التجارة إن أوقعت نقصاً في أعمال الحج

والزبيب والسويق والتمر ونحوها، ﴿ **فإن خير الزاد التقوى** ﴾ من السؤال والنهب، ﴿ **واتقون يا أُولي الألباب** ﴾: يا ذوي العقول.

قوله تعالى: ﴿ **ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم** ﴾، أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي، أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي أخبرنا محمد بن يوسف، أخبرنا محمد بن إسماعيل أخبرنا علي بن عبد الله، أخبرنا سفيان عن عمرو بن دينار، عن ابن عباس رضي الله عنه قال: كانت عُكاظ ومجنّة وذو المجاز أسواقاً في الجاهلية، فلما كان الإسلام تأثموا من التجارة فيها، فأنزل الله تعالى: ﴿ **ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم** ﴾ في مواسم الحج، قرأ ابن عباس كذا، ورُوِيَ عن أبي أمامة التيمي قال: قلت لابن عمر إنّا قوم نكري في هذا الوجه، يعني: إلى مكة فيزعمون أن لا حجّ لنا؟ فقال: ألستم تحرمون كما يحرمون وتطوفون كما يطوفون

لم تكن مباحة وإن لم توقع نقصاً فيه كانت من المباحات التي الأولى تركها لتجريد العبادة عن غيرها لأن الحج بدون التجارة أفضل وأكمل. قوله تعالى: ﴿فإذا أفضتم﴾ أي دفعتم والإفاضة دفع بكثرة ﴿من عرفات﴾ جمع عرفة سميت بذلك وإن كانت بقعة واحدة لأن كل موضع من تلك المواضع عرفة فسمي مجموع تلك المواضع عرفات وقيل. إن اسم الموضع عرفات. واسم اليوم عرفة قال عطاء كان جبريل يرى إبراهيم المناسك ويقول له: عرفت فيقول عرفت فسمي ذلك المكان عرفات واليوم عرفة. وقال الضحاك: إن آدم لما أهبط وقع بالهند وحواء بجدة فجعل كل واحد منهما يطلب صاحبه فاجتمعا بعرفات في يوم عرفة فتعارفا فسمي اليوم عرفة والموضع عرفات، وقال السدي: إن إبراهيم لما أذن في الناس بالحج وأجابوه بالتلبية وأبى من أبى أمره الله تعالى أن يخرج إلى عرفات ونعتها له، فخرج فلما بلغ الشجرة استقبله الشيطان يرده فرماه بسبع حصيات يكبر مع كل حصاة فطار فوقع على الجمرة الثانية فرماه وكبر فطار فوقع على الجمرة الثالثة فرماه وكبر فطار فلما رأى الشيطان أنه لا يطيعه ذهب فانطلق إبراهيم حتى أتى ذا المجاز فنظر إليه فلم يعرفه فجازه فسمي ذا المجاز، ثم انطلق إبراهيم حتى وقع بعرفات فعرفها بالنعت، فسمي الوقت عرفة والموضع عرفات حتى إذا أمسى ازدلف إلى جمع فسمي ذلك الموضع المزدلفة. وفي رواية عن ابن عباس أن إبراهيم رأى ليلة التروية في منامه أنه يؤمر بذبح ولده فلما أصبح تروى يومه أجمع أي تفكر هل هذه الرؤيا من الله تعالى أم من الشيطان فسمي يوم التروية، ثم رأى ذلك في ليلة عرفة ثانياً فلما أصبح عرف أن ذلك من الله فسمي اليوم عرفة. وقيل: سمي بذلك لأن الناس يعترفون في ذلك اليوم بذنوبهم وقيل: سمي عرفة من العرف وهو الطيب وسميت منى لما يمنى فيها من الدماء أي يصبُّ فيكون فيه الفروث والدماء، فلا يكون الموضع طيباً وعرفات طاهرة عن مثل هذا فتكون طيبة. واعلم أن الوقوف بعرفة ركن من أركان الحج ولا يتم الحج إلّا به، ومن فاته الوقوف في وقته فقد فاته الحج. ويدخل وقت الوقوف بعرفة بزوال الشمس من يوم عرفة ويمتد إلى طلوع الفجر الثاني من يوم النحر وذلك نصف يوم وليلة كاملة فمن وقف بعرفات في هذا

وترمون كما يرمون؟ قلت: بلى، قال: أنت حاجّ، جاء رجل إلى النبيِّ ﷺ يسأله عن الذي سألتني عنه فلم يجبه بشيء حتى نزل جبريل بهذه الآية ﴿ليس عليكم جناح﴾، أي: حرج أن تبتغوا فضلاً من ربكم، يعني: بالتجارة في مواسم الحج، ﴿فإذا أفضتم﴾: دفعتم، والإفاضة: دفع بكثرة، وأصله من قول العرب: أفاض الرجل ماءَه، أي: صبَّه، ﴿من عرفات﴾، هي جمع عَرَفَة، جُمعت عَرَفَة بما حولها وإن كانت بقعة واحدة، كقولهم: ثوب أخلاق واختلفوا في المعنى الذي لأجله سُمّي الموقف عرفات، واليوم عَرَفَة، فقال عطاء: كان جبريل عليه السلام يُري إبراهيم عليه السلام المناسك ويقول أعرفت؟ فيقول: عرفتُ فسُمّي ذلك المكان عرفات، واليوم عَرَفَة، وقال الضحّاك: إن آدم عليه السلام لمّا أُهبط إلى الأرض وقع بالهند وحوّاء بجدّة، فجعل كل واحد منهما يطلب صاحبه، فاجتمعا بعرفات يوم عرَفَة وتعارفا، فسُمّي اليوم يوم عرَفَة والموضع عرفات، وقال السدي: لما أَذّنَ إبراهيم في الناس بالحج وأجابوه بالتلبية، وأتاه مَن أتاه أمره الله أن يخرج إلى عرفات ونعتها له، فخرج فلما بلغ الجمرة عند العقبة استقبله الشيطان ليردّه، فرماه بسبع حصيات فكبّر مع كل حصاة فطار، فوقع على الجمرة الثانية، فرماه وكبّر فطار، فوقع على الجمرة الثالثة فرماه وكبّر فلما رأى الشيطان أنه لا يطيعه ذهب، فانطلق إبراهيم حتى أتى ذا المجاز فلما نظر إليه لم يعرفه فجاز، فسُمّي ذا المجاز، ثم انطلق حتى وقف بعرفات فعرفها بالنعت، فسُمّي الوقت عرَفَة والموضع عرفات، حتى إذا أمسى ازدلف، أي: قرب إلى جمع، فسُمّي المزدلفة. ورُوِيَ عن أبي صالح عن ابن عباس: أن إبراهيم عليه السلام رأى ليلة التروية في منامه أنه يؤمَر بذبح ابنه، فلما أصبح روّى يومه أجمع، أي فكّر أمِنَ الله تعالى هذه الرؤيا؟ أم من الشيطان؟ فسُمّي اليوم يوم التروية، ثم رأى ذلك ليلة عرَفَة ثانياً فلما أصبح عرف

الوقت ولو لحظة واحدة من ليل أو نهار، فقد حصل له الوقوف ويتم حجه وقال أحمد: وقت الوقوف من طلوع الفجر يوم عرفة إلى طلوعه من يوم النحر ووقت الإفاضة من عرفات، بعد غروب الشمس فإذا غربت الشمس دفع من عرفات وأخر صلاة المغرب حتى يجمع بينها وبين العشاء بمزدلفة (ق) عن أسامة بن زيد قال دفع رسول الله ﷺ من عرفة حتى إذا كان بالشعب نزل فبال ثم توضأ ولم يسبغ الوضوء، فقلت: الصلاة يا رسول الله فقال الصلاة أمامك ثم ركب فلما جاء المزدلفة، نزل فتوضأ فأسبغ الوضوء ثم أقيمت الصلاة فصلى المغرب ثم أناخ كل إنسان بعيره، في منزله، ثمّ أقيمت العشاء فصلى ولم يصل بينهما شيئاً.

وقوله تعالى: ﴿**فاذكروا الله عند المشعر الحرام**﴾ سمي مشعراً من الشعار وهي العلامة لأنه من معالم الحج وأصل الحرام المنع فهو ممنوع من أن يفعل فيه ما لم يؤذن فيه، والمشعر الحرام هو ما بين جبلي المزدلفة من مأزمي عرفة إلى وادي محسر، وليس المأزمان ولا وادي محسر من المشعر الحرام وقيل المشعر الحرام هو المزدلفة وسماه الله بذلك لأن الصلاة والمبيت به والدعاء عنده من معالم الحج وقيل المشعر الحرام، هو قزح وهو آخر حد المزدلفة والأول أصح. وسميت المزدلفة من الازدلاف وهو الاقتراب، لأنها منزلة من الله تعالى وقربة. وقيل: لنزول الناس بها زلف الليل: وقيل: لاجتماع الناس بها وتسمى المزدلفة جمعاً لأنه يجمع فيها بين المغرب والعشاء، قيل المراد بالذكر عند المشعر الحرام هو الجمع بين صلاتي المغرب والعشاء هناك. ويدل عليه أن قوله: فاذكروا الله أمر وهو للوجوب ولا يجب هناك إلاّ الصلاة، والذي عليه جمهور العلماء أن المراد بالذكر هو الدعاء والتلبية والتسبيح والتحميد والتهليل والتكبير (ق) عن ابن عباس أن أسامة بن زيد كان رديف النبي ﷺ، من عرفة إلى المزدلفة ثم أردف الفضل من المزدلفة إلى منى فكلاهما قال: لم يزل النبي ﷺ يلبي حتى رمى جمرة العقبة، عن جابر قال دفع رسول الله ﷺ حتى أتى المزدلفة فصلى بها المغرب والعشاء بأذان واحد وإقامتين ولم يسبح بينهما شيئاً، ثم اضطجع حتى طلع الفجر حين تبين له الصبح بأذان وإقامة، ثم ركب القصواء حتى أتى المشعر

أن ذلك من الله تعالى، فسُمّي اليوم يوم عرَفَة. وقيل: سُمّي بذلك لعلو الناس فيه على جباله، والعرب تُسمّي ما علا عرَفَة، ومنه سُمّي عُرف الديك لعلوّه، وقيل: سُمّي بذلك لأن الناس يعترفون في ذلك اليوم بذنوبهم، وقيل: سُمّي بذلك من العَرف، وهو الطيب، وسُمّي منى لأنه يُمنى فيه الدم، أي: يُصبّ فيه فيكون فيه الفروث والدماء ولا يكون الموضع طيباً، وعرفات طاهرة عنها فتكون طيّبة، قوله تعالى: ﴿ **فاذكروا الله** ﴾: بالدعاء والتلبية، ﴿ **عند المشعر الحرام** ﴾، وهو ما بين جبلي المزدلفة من مَرْمَى عرَفَة إلى المُحسِّر، وليس المأزمان ولا المحسّر من المشعر الحرام، وسُمّي مشعراً من الشّعار، وهي العلامة لأنه من معالم الحج، وأصل الحرام من المنع، فهو ممنوع أن يفعل فيه ما لم يُؤذن فيه، وسُمّي المزدلفة جمعاً لأنه يُجمع فيه بين صلاة المغرب والعشاء، والإفاضة من عرفات تكون بعد غروب الشمس، ومَن جمع قبل طلوعها من يوم النحر، قال طاوس: كان أهل الجاهلية يدفعون من عرَفَة قبل أن تغيب الشمس، ومن المزدلفة بعد أن تطلع الشمس، ويقولون أشرق ثبير كيما تغير، فأخّر الله هذه، وقدّم هذه. أخبرنا أبو الحسن السرخسي أخبرنا زاهر بن أحمد، أخبرنا أبو إسحق الهاشمي أخبرنا أبو مصعب، عن مالك عن موسى بن عقبة عن كريب مولى عبد الله بن عباس عن أسامة بن زيد أنه سمعه يقول: دفع رسول الله ﷺ من عرَفَة حتى إذا كان بالشعب، نزل فبالَ ثم توضأ فلم يسبغ الوضوء، فقلت له الصلاة يا رسول الله، قال: فقال: الصلاة أمامك فركب فلما جاء المزدلفة، نزل فتوضأ فأسبغ الوضوء، ثم أُقيمت الصلاة فصلّى المغرب، ثم أناخ كل إنسان بعيره في منزله، ثم أُقيمت العشاء فصلاّها ولم يصلّ بينهما شيئاً، وقال جابر: دفع رسول الله ﷺ حتى أتى المزدلفة فصلّى بها المغرب والعشاء بأذان واحد وإقامتين، ولم يُسبّح بينهما شيئاً ثم اضطجع حتى طلع الفجر،

الحرام فاستقبل القبلة وكبره وهلله ووحده ولم يزل واقفاً حتى أسفر جداً ودفع قبل أن تطلع الشمس هذا الحديث ذكره البغوي بغير سند. ولم أجده في الأصول، قال طاوس كانوا في الجاهلية يدفعون من عرفة قبل أن تغيب الشمس ومن المزدلفة بعد طلوعها وكانوا يقولون: أشرق ثبير كيما نغير، فنسخ الله تعالى أحكام الجاهلية فأخر الإفاضة من عرفة إلى ما بعد غروب الشمس وقدم الإفاضة من المزدلفة إلى ما قبل طلوعها. وثبير جبل بمكة ومعنى قولهم أشرق ثبير أدخل أيها الجبل في الشروق وهو نور الشمس وقولهم كيما نغير أي ندفع للنحر يقال أغار إذا أسرع ودفع في عدوه (خ) عن عمرو بن ميمون قال قال عمر كان أهل الجاهلية لا يفيضون من جمع حتى تطلع الشمس وكانوا يقولون: أشرق ثبير فخالفهم النبي ﷺ فأفاض قبل طلوع الشمس.

وقوله تعالى: ﴿واذكروه كما هداكم﴾ أي اذكروه بالتوحيد والتعظيم كما ذكركم بالهداية فهداكم لدينه ومناسك حجه ﴿وإن كنتم من قبله لمن الضالين﴾ أي لا تعرفون كيف تذكرونه وتعبدونه، والهاء في من قبله راجعة إلى الهدي وقيل إلى الرسول أي من قبل إرسال الرسول لمن الضالين، وهو كناية عن غير مذكور وقيل يرجع إلى القرآن والمعنى واذكروه كما هداكم بكتابه الذي أنزله عليكم، وإن كنتم من قبل إنزاله لمن الضالين. قوله عز وجل:

﴿ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ١٩٩﴾

﴿ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس﴾ أي لتكن إفاضتكم من حيث أفاض الناس، وفي المخاطبين بهذا قولان أحدهما أنه خطاب لقريش قال أهل التفسير: كانت قريش ومن دان بدينها وهم الحمس يقفون بالمزدلفة ويقولون: نحن أهل الله وقطان حرمه فلا نخلف الحرم ولا نخرج منه ويتعاظمون أن يقفوا مع سائر الناس بعرفات، وكان سائر الناس يقفون بعرفات فإذا أفاض الناس من عرفات أفاض الحمس من المزدلفة فأمرهم الله أن يقفوا بعرفات مع سائر الناس، ثم يفيضوا منها إلى جمع وأخبرهم أنه سنة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام (ق) عن عائشة رضي الله عنها قالت كان قريش ومن دان بدينها يقفون بالمزدلفة، وكان يسمون الحمس وكانت سائر العرب يقفون

فصلّى الفجر حين تبيّن له الصبح بأذان وإقامة، ثم ركب القصواء حتى أتى المشعر الحرام فاستقبل القبلة ودعاه وكبّره وهلّله ووحّده، فلم يزل واقفاً حتى أسفر جداً، فدفع قبل أن تطلع الشمس، أخبرنا عبد الواحد المليحي أخبرنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف أخبرنا محمد بن إسماعيل، أخبرنا زهير بن حرب أخبرنا وهب بن جرير، أخبرنا أبي عن يونس الأيلي عن الزهري عن عبد الله بن عبد الله عن ابن عباس أن أسامة بن زيد كان رِدْفَ رسول الله ﷺ من عرَفَة إلى المزدلفة، ثم أردف الفضل من مزدلفة إلى منى، قال: فكِلاهما قال: لم يزل النبي ﷺ يُلبّي حتى رمَى جمرةَ العقبة، قوله تعالى: ﴿ واذْكروه كما هداكم ﴾، أي واذكروه بالتوحيد والتعظيم، كما ذكركم بالهداية، فهداكم لدينه ومناسك حجّه، ﴿ وإن كنتم من قبله لمن الضالّين ﴾، أي: وقد كنتم، وقيل: وما كنتم من قبله إلّا من الضالّين، كقوله تعالى: ﴿ وإن نظنك لمن الكاذبين ﴾ [الشعراء: ١٨٦]، أي: وما نظنك إلّا من الكاذبين، والهاء في قوله: ﴿ من قبله ﴾ راجعة إلى الهُدى، وقيل: إلى رسول الله ﷺ كناية عن غير مذكور.

قوله تعالى: ﴿ ثم أفيضُوا من حيثُ أفاضَ الناس ﴾، قال أهل التفسير كانت قريش وحلفاؤها ومَنْ دَانَ بدينها وهم الحُمس، يقفون بالمزدلفة ويقولون: نحن أهل الله وقُطّان حرمه، فلا نخلف الحرم ولا نخرج منه، ويتعظمون أن يقفوا مع سائر العرب بعرفات، وسائر الناس كانوا يقفون بعرفات، فإذا أفاض الناس من عرفات أفاض الحُمسُ من المزدلفة، فأمرهم الله أن يقفوا بعرفات ويفيضوا منها إلى جمع مع سائر الناس، وأخبرهم أنه سُنّة إبراهيم

بعرفة فلما جاء الإسلام أمر الله نبيه ﷺ أن يأتي عرفات فيقف بها ثم يفيض منها فذلك قوله تعالى: ﴿**ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس**﴾ قولها: كانوا يسمون الحمس هو جمع أحمس وأصله من الشدة والشجاعة وإنما سميت قريش وكنانة حمساً لتشددهم في دينهم فعلى هذا القول الناس معناهم جميع العرب سوى الحمس، والقول الثاني: إنه خطاب لسائر المسلمين أمرهم الله أن يفيضوا من حيث أفاض إبراهيم، وهو المراد بقوله من حيث أفاض الناس، وقيل: الناس هم آدم وحده بدليل قراءة سعيد بن جبير ثم أفيضوا من حيث أفاض الناسي بالياء وقال هو آدم عهد إليه فنسي، ووجه هذا أن الوقوف بعرفات والإفاضة منها شرع قديم وما سواه مبتدع محدث، وقيل: المراد من هذه الآية أن الإفاضة من المزدلفة إلى منى يوم النحر، قبل طلوع الشمس للرمي والنحر، وأراد بالناس إبراهيم وإسماعيل وأتباعهما لأنه كانت إفاضتهم من المزدلفة قبل طلوع الشمس، ووجه هذا القول أن الإفاضة من عرفات قد تقدم ذكرها في قوله: ﴿**فإذا أفضتم من عرفات**﴾ ثم قال بعد ذلك ﴿**ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس**﴾ فدل على أن هذه الإفاضة من المزدلفة إلى منى لكن القول الأول هو الأصح الذي عليه جمهور المفسرين. فإن قلت على القول الأول الذي هو قول جمهور المفسرين إشكال، وهو أن ظاهر الكلام لا يقتضي ذلك لأن قوله: ﴿**فإذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله**﴾ والإفاضة من عرفات قبل الإفاضة من جمع فكيف قال ﴿**ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس**﴾ فكأنه قال فإذا أفضتم من عرفات فأفيضوا من عرفات وذلك غير جائز. قلت: أجيب عن هذا الإشكال بأن فيه تقديماً وتأخيراً وتقديره ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس واستغفروا الله إن الله غفور رحيم ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم فإذا أفضتم من عرفات، فاذكروا الله فعلى هذا الترتيب يصح أن تكون هذه الإفاضة تلك الإفاضة بعينها وقيل: إن ثم في قوله ثم أفيضوا بمعنى الواو أي وأفيضوا كقوله ثم كان من الذين آمنوا والإفاضة الدفع (ق) عن هشام بن عروة عن أبيه قال سأل أسامة بن زيد وأنا جالس كيف كان رسول الله ﷺ يسير في حجة الوداع قال: كان يسير العنق فإذا وجد فجوة نص قال هشام والنص فوق العنق. العنق بفتح العين ضرب من السير سريع، هو أشد من المشي والفجوة: الفرجة وهي المتسع من الأرض، والنص السير السريع حتى يستخرج من الناقة أقصى وسعها (خ) عن ابن عباس أنه دفع مع النبي ﷺ يوم عرفة فسمع النبي ﷺ وراءه زجراً شديداً وضرباً

وإسماعيل عليهما السلام، وقال بعضهم: خاطب به جميع المسلمين. وقوله تعالى: قال: ﴿ من حيث أفاض الناس ﴾ من جمع، أي: ثم أفيضوا من جمع إلى مِنًى، وقالوا: لأن الإفاضة من عرفات قبل الإفاضة من جمع، فكيف يسوغ أن يقول: فإذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله ثم أفيضوا من عرفات؟ والأول قول أكثر أهل التفسير، وفي الكلام تقديم وتأخير، تقديره: فَمَن فرض فيهنّ الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج، ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس، فإذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام، وقيل: ثم بمعنى الواو أي: وأفيضوا، كقوله تعالى: ﴿ ثم كان من الذين آمنوا ﴾ [البلد: ١٧]، وأما الناس فهم العرب كلهم غير الحمس، وقال الكلبي: هم أهل اليمن وربيعة، وقال الضحاك: الناس ههنا إبراهيم عليه السلام وحده، كقوله تعالى: ﴿ أم يحسدون الناس ﴾ [النساء: ٥٤] وأراد به محمداً ﷺ وحده، ويقال: هذا الذي يُقتدَى به ويكون لسانَ قومه، وقال الزهري: الناس ههنا آدم عليه السلام وحده، دليله قراءة سعيد بن جُبير: ﴿ ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس ﴾، بالياء، وقال: هو آدم نسي عهد الله حين أكل من الشجرة، أخبرنا عبد الواحد المليحي أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف أخبرنا محمد بن إسماعيل، أخبرنا عبد الله بن يوسف أخبرنا مالك عن هشام بن عروة، عن أبيه أنه قال: سُئِلَ أسامة وأنا جالس كيف كان يسير رسول الله ﷺ في حجّة الوداع حين دفع؟ قال: كان يسيرُ العَنَق، فإذا وجد فجوةً نَصَّ، قال هشام: والنص فوق العنق. أخبرنا عبد الواحد المليحي أخبرنا أحمد بن عبد الله

للإبل فأشار بسوطه إليهم وقال: يا أيها الناس عليكم بالسكينة فإن البر ليس بالإيضاع، الإيضاع السير السريع الشديد. قوله تعالى: ﴿واستغفروا الله﴾ أي من مخالفتكم في الموقف ولجميع ذنوبكم ﴿إن الله غفور رحيم﴾ يعني أن الله هو الساتر لذنوب عباده برحمته والغفور يفيد المبالغة في الغفر وكذا الرحيم وفيه دليل على أنه تعالى يقبل التوبة من عباده التائبين ويغفر لهم، لأنه تعالى أمر المذنب بالاستغفار ثم وصف نفسه تعالى بأنه كثير الغفران كثير الرحمة فدل ذلك على أنه تعالى يغفر للمستغفرين ويرحم المذنبين بمنه وكرمه. قوله عز وجل:

﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ﴿٢٠٠﴾﴾

﴿فإذا قضيتم مناسككم﴾ أي فرغتم من حجكم وعبادتكم وذبحتم نسائككم أي ذبائحكم وذلك بعد رمي جمرة العقبة والاستقرار بمنى ﴿فاذكروا الله﴾ يعني بالتحميد والتمجيد والتهليل والتكبير والثناء عليه ﴿كذكركم آباءكم﴾ قال أهل التفسير، كانت العرب في الجاهلية إذا فرغوا من حجهم وقفوا بين المسجد بمنى وبين الجبل، وقيل: عند البيت فيذكرون مفاخر آبائهم ومآثرهم وفضائلهم ومحاسنهم ومناقبهم، فيقول أحدهم: كان أبي كبير الجفنة رحب الفناء يقرى للضيف وكان كذا وكذا يعد مفاخره ومناقبه ويتناشدون الأشعار في ذلك ويتكلمون بالمنثور والمنظوم من الكلام الفصيح وغرضهم الشهرة والسمعة والرفعة بذكر مناقب سفلهم وآبائهم، فلما من الله عليهم بالإسلام أمرهم أن يكون ذكرهم لله لا لآبائهم وقال: اذكروني فأنا الذي فعلت ذلك بكم وبهم وأحسنت إليكم وإليهم قال ابن عباس: معناه فاذكروا الله كذكر الصبيان الصغار الآباء وذلك أن الصبي أول ما يفصح بالكلام ويقول: أبه أمه لا يعرف غير ذلك فأمرهم أن يذكروه كذكر الصبيان الصغار الآباء ﴿أو أشد ذكراً﴾ أي بل أشد ذكراً، وقيل: أو بمعنى الواو أي وأشد ذكراً أي وأكثر ذكراً للآباء لأنه هو المنعم عليهم وعلى الآباء، فهو المستحق للذكر والحمد مطلقاً، وسئل ابن عباس عن هذه الآية قيل له قد يأتي على الرجل اليوم ولا يذكر فيه أباه فقال: ليس كذلك ولكن أن تغضب لله عز وجل إذا عصى أشد من غضبك لوالديك إذا شتما ﴿فمن الناس من يقول ربنا آتنا في الدنيا﴾ يعني أن المشركين كانوا يسألون الله في حجهم للدنيا، ونعيمها كانوا يقولون: اللهم أعطنا إبلاً وغنماً وبقراً وعبيداً وإماء وكان أحدهم بقوم فيقول: اللهم إن أبي كان عظيم الفئة كبيراً الجفنة كثير المال فأعطني مثل ما

النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف أخبرنا محمد بن إسماعيل، أخبرنا سعيد بن أبي مريم أخبرنا إبراهيم بن سويد، حدّثني عمرو بن أبي عمرو مولى المطّلب قال: أخبرنا سعيد بن جُبير مولى واثلة الكوفي حدّثني ابن عباس أنه دفع مع النبي ﷺ يوم عرفَة، فسمع النبي ﷺ وراءه زجراً شديداً وضرباً للإبل، فأشار بسوطه إليهم وقال: «أيها الناس عليكم بالسكينة فإنّ البرّ ليس بالإيضاع»، ﴿ واستغفروا الله إن الله غفورٌ رحيم ﴾.

قوله تعالى: ﴿ فإذا قضيتم مناسككم ﴾، أي: فرغتم من حجّكم وذبحتم نَسَائِكَكُم، أي: ذبائحكم، يقال: نسك الرجل ينسك نَسْكاً إذا ذبح نسيكته، وذلك بعد رمي جمرة العقبة والاستقرار بمنى، ﴿ فاذكروا الله ﴾: بالتكبير والتحميد والثناء عليه، ﴿ كذكركم آباءكم ﴾، وذلك أن العرب كانت إذا فرغت من الحج وقفت عند البيت فذكرت مفاخر آبائها، فأمرهم الله بذكره، وقال: ﴿ فاذكروني ﴾ [البقرة: ١٥٢] فإني الذي فعلت ذلك بكم وبآبائكم وأحسنت إليكم وإليهم، قال ابن عباس وعطاء: معناه فاذكروا الله كذكر الصبيان الصغار الآباء، وذلك أن الصبي أول ما يتكلم يلهج بذكر أبيه لا يذكر غيره، فيقول الله: فاذكروا الله لا غير، كذكر الصبي أباه، ﴿ أو أشدَّ ذكراً ﴾، وسُئِل ابن عباس عن قوله: ﴿ فاذكروا الله كذكركم آباءكم ﴾ فقيل: قد يأتي على الرجل اليوم لا يذكر فيه

أعطيته. قال قتادة: هذا عبد نيته الدنيا لها أنفق ولها عمل ونصب (خ) عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال «تعس عبد الدينار وعبد الدرهم وعبد الخميصة إن أعطي رضي، وإن لم يعط سخط تعس، وانتكس وإذا شيك فلا انتقش» قوله: تعس عبد الدينار هذا دعاء عليه بالهلاك وهو الوقوع على الوجه من العثار والخميصة ثوب من خز أو صوف معلم، وقوله وانتكس هذا دعاء عليه أيضاً لأن من انتكس على رأسه أو في أمره فقد خاب، وخسر وقوله وإذا شيك هذا فعل ما لم يسم فاعله، تقول شاكته الشوكة إذا دخلت في جسمه والانتقاش إخراج الشوكة من الجسم وإنما كان سؤال المشركين للدينار ولم يطلبوا التوبة والمغفرة ونعيم الآخرة لأنهم كانوا ينكرون البعث ﴿وما له في الآخرة من خلاق﴾ أي وما له في الآخرة من حظ ولا نصيب.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾﴾

﴿ومنهم من يقول ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار﴾ يعني المؤمنين. واعلم أن الله تعالى قسم الداعين فريقين البعث: فريق اقتصروا في الدعاء على طلب الدنيا وهم الكفار لأنهم كانوا لا يعتقدون البعث والآخرة، والفريق الثاني: هم المؤمنون الذين جمعوا في الدعاء بين طلب الدنيا والآخرة وذلك لأن الإنسان خلق ضعيفاً محتاجاً لا طاقة له بآلام الدنيا ومتاعبها فالأولى له أن يستعيذ بالله من شرها وآلامها لأنه لو اضطرب على الإنسان عرق من عروقه، لشوش عليه حياته في الدنيا، وتعطل عن الاشتغال بطاعة الله تعالى فثبت بذلك أن طلب الدنيا في الدعاء من أمر الدين، فلذلك قال الله تعالى: إخباراً عن المؤمنين: ﴿ومنهم من يقول ربنا آتنا في

أباه، قال ابن عباس: ليس كذلك ولكن إن تغضب لله إذا عصي أشد من غضبك لوالذيك إذا شتما، وقوله تعالى: ﴿ أو أشدّ ذكراً ﴾ يعني: بل أشد، أي: وأكبر ذكراً، ﴿ فمن الناس مَن يقول ربّنا آتنا في الدنيا ﴾، أراد به المشركين كانوا لا يسألون الله تعالى في الحج إلاّ الدنيا، يقولون: اللّهمَّ أعطنا غنماً وإبلاً وبقراً وعبيداً، وكان الرجل يقوم فيقول: اللّهمَّ إن أبي كان عظيم القبّة كبير الجفنة كثير المال، فأعطني مثل ما أعطيته، قال قتادة: هذا عبدٌ نيّتُه الدنيا لها أنفق ولها عمل ونَصب، ﴿ وما له في الآخرة من خلاق ﴾: من حظ ونصيب.

﴿ ومنهم مَنْ يقول ربّنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقِنا عذاب النار ﴾، يعني: المؤمنين، واختلفوا في معنى الحسنتين، قال عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه: في الدنيا حسنة امرأة صالحة، وفي الآخرة حسنة الجنّة والحور العين. أخبرنا أبو القاسم عبد الله بن محمد الحنفي أنا أبو الحسن محمد بن يعقوب الطوسي، أخبرنا أبو بكر أحمد بن يوسف بن خلاد أنا الحارث بن أسامة أنا أبو عبد الرحمن المقري، أخبرنا حياة وابن لهيعة قالا: أخبرنا شرحبيل بن شريك أنه سمع أبا عبد الرحمن الجبلي يحدّث عن عبد الله بن عمرو بن العاص عن رسول الله ﷺ قال: «الدنيا كلها متاع، وخير متاعها المرأة الصالحة»، وقال الحسن: في الدنيا حسنة العلم والعبادة، وفي الآخرة حسنة الجنة والنظر. وقال السدي وابن حبّان: في الدنيا حسنةِ رزقاً حلالاً وعملاً صالحاً، وفي الآخرة حسنة المغفرة والثواب، أخبرنا أبو بكر بن محمد بن عبد الله بن أبي توبة أخبرنا أبو طاهر محمد بن أحمد بن الحارث أخبرنا أبو الحسن محمد بن يعقوب الكسائي، أخبرنا عبد الله بن محمود أخبرنا إبراهيم بن عبد الله الخلال، ثنا عبد الله بن المبارك عن يحيىٰ بن أيوب حدّثني عُبيد الله بن زجر عن علي بن يزيد عن القاسم بن عبد الرحمن عن أبي أمامة عن النبي ﷺ قال: «أغبَطُ أوليائي عندي مؤمنٌ خفيف الحاذ ذو حظٍّ من الصلاة، أحسن عبادة ربّه فأطاعه في السرِّ وكان غامضاً في الناس لا يُشار إليه بالأصابع وكان رزقه كفافاً فصبر على ذلك، ثم نفر بيده فقال: هكذا عجُلتْ منية، قلتْ بواكيه، قل تُراثه»، وقال قتادة في الدنيا عافية وفي الآخرة عافية وقال عوف في هذه الآية مَن آتاه

الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة﴾ قيل: إن الحسنة في الدنيا عبارة عن الصحة والأمن والكفاية والتوفيق إلى الخير والنصر على الأعداء والولد الصالح والزوجة الصالحة (م) عن عبدالله بن عمرو بن العاص عن النبي ﷺ قال: «الدنيا متاع وخير متاعها المرأة الصالحة» وقيل: الحسنة في الدنيا العلم والعبادة وفي الآخرة الجنة وقيل: الحسنة في الدنيا الرزق الحلال والعمل الصالح وفي الآخرة المغفرة والثواب. وقيل: من آتاه الله الإسلام والقرآن وأهلاً ومالاً فقد أوتي في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة يعني في الدنيا عافية وفي الآخرة عافية. (م) عن أنس أن رسول الله ﷺ عاد رجلاً من المسلمين قد خف فصار مثل الفرخ، فقال له رسول الله ﷺ: «هل كنت تدعو الله بشيء أو تسأله إياه؟ قال: نعم كنت أقول اللهم ما كنت معاقبني به في الآخرة فعجله لي في الدنيا فقال رسول الله ﷺ: سبحان الله لا تطيقه ولا تستطيعه أفلا قلت: اللهم آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار» قال: فدعا الله به فشفاه (ق) عن أنس بن مالك. قال كان أكثر دعاء النبي ﷺ: اللهم آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار. عن عبدالله بن السائب قال سمعت رسول الله ﷺ يقول بين الركنين: «ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار» أخرجه أبو داود.

﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا ۚ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٢٠٢) ۞ وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ ۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ لِمَنِ اتَّقَىٰ ۗ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٠٣)﴾

﴿أولئك﴾ إشارة إلى المؤمنين الداعين بالحسنتين ووجه هذا القول أن الله ذكر حكم الفريق بكماله. فقال: وما له في الآخرة من خلاق وقيل: يرجع إلى الفريقين ﴿لهم﴾ جميعاً أي لكل فريق من هؤلاء ﴿نصيب﴾ أي حظ

الله الإسلام والقرآن وأهلاً ومالاً فقد أُوتي في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة، أخبرنا الشيخ أبو القاسم عبد الله بن علي الكرماني الطوسي أخبرنا أبو طاهر محمد بن محمش الزيادي أخبرنا أبو الفضل عبدوس بن الحسين بن منصور السمسار، أخبرنا أبو حاتم محمد بن إدريس الحنظلي الرازي، أخبرنا محمد بن عبد الله الأنصاري، أخبرنا حميد الطويل عن ثابت البناني، عن أنس بن مالك قال رأى رسول الله ﷺ رجلاً قد صار مثل الفرخ فقال: هل كنت تدعو الله بشيء أو تسأله إيّاه؟ فقال: يا رسول الله كنت أقول اللّهمَّ ما كنت معاقبني به في الآخرة فحوّله لي في الدنيا، فقال: «سبحان الله لا تستطيعه ولا تُطيقه، هلاّ قلتَ: اللّهمّ آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار»؟ أخبرنا أبو الحسن محمد بن محمد السرخسي، أخبرنا أبو الحسن أحمد بن محمد بن أبي إسحاق الحجاجي، أخبرنا أبو العباس محمد بن عبد الرحمن الداغولي، أخبرنا محمد بن مسكان أخبرنا أبو داود أخبرنا شعبة عن ثابت عن أنس قال: كان رسول الله ﷺ يُكثر أن يقول: **﴿ ربّنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار ﴾**، أخبرنا عبد الوهاب بن محمد الكسائي أخبرنا عبد العزيز بن أحمد الخلال أخبرنا أبو العباس الأصم أخبرنا الربيع بن سليمان أخبرنا الشافعي أخبرنا سعيد بن سالم القداح عن ابن جريج عن يحيىٰ بن عبيد مولى السائب عن أبيه عبد الله بن السائب أنه سمع رسول الله ﷺ يقول فيما بين ركن بني جمح والركن الأسود: **﴿ ربّنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقِنا عذاب النار ﴾**.

قوله تعالى: **﴿ أولئك لهم نصيب ﴾**: حظٌ **﴿ مما كسبوا ﴾**: من الخير والدعاء بالثواب والجزاء، **﴿ والله سريع الحساب ﴾** يعني: إذا حاسب عبده فحسابه سريع لا يحتاج إلى عقد يد ولا وَعْي صدورٍ ولا إلى رُؤيةٍ ولا

﴿مما كسبوا﴾ يعني من الخير والدعاء بالثواب والجزاء على الدعاء بالدنيا من جنس ما كسب ودعا ﴿والله سريع الحساب﴾ ذكروا في معنى الحساب أن الله تعالى يعلم العباد بما لهم وعليهم بمعنى أن الله تعالى يخلق العلوم الضرورية في قلوبهم بمقادير أعمالهم وكمياتها وكيفياتها وبمقادير ما لهم من الثواب وعليهم من العقاب. وقيل: إن المحاسبة عبارة عن المجازاة ويدل عليه قوله تعالى: ﴿وكأين من قرية عتت عن أمر ربها ورسله فحاسبناها حساباً شديداً﴾ وقيل: إن الله تعالى يكلم عباده يوم القيامة ويعرفهم أحوال أعمالهم وما لهم من الثواب والعقاب. وقيل: إنه تعالى إذا حاسب عباده فحسابه سريع لأنه تعالى لا يحتاج إلى عقد يد وروية فكر وصف الله نفسه تعالى بسرعة الحساب مع كثرة الخلائق وكثرة أعمالهم ليدل بذلك على كمال قدرته لأنه تعالى لا يشغله شأن عن شأن ولا يحتاج إلى آلة ولا مادة ولا مساعد، فلا جرم كان قادراً على أن يحاسب جميع الخلائق في أقل من لمح البصر، وروي أنه تعالى يحاسب الخلائق في قدر حلب شاة أو ناقة، وقيل: في معنى كونه تعالى سريع الحساب أي سريع القبول لدعاء عباده والإجابة لهم، وذلك أنه تعالى يسأله السائلون في الوقت الواحد كل واحد منهم أشياء مختلفة من أمور الدنيا والآخرة فيعطي كل واحد من غير أن يشتبه عليه شيء من ذلك، لأنه تعالى عالم بجميع أحوال عباده وأعمالهم وقيل في معنى الآية إن إتيان القيامة قريب لأن كل ما هو كائن وآت قريب لا محالة، وفيه إشارة إلى المبادرة بالدعاء والذكر وسائر الطاعات وطلب الآخرة.

قوله عز وجل: ﴿واذكروا الله﴾ يعني بالتوحيد والتعظيم والتكبير في أدبار الصلوات وعند رمي الجمرات، وذلك أنه يكبر مع كل حصاة من حصى الجمار فقد ورد في الصحيح أن النبي ﷺ كبر مع كل حصاة ﴿في أيام معدودات﴾ يعني أيام التشريق وهي أيام منى ورمي الجمار سميت معدودات لقلتهن وهي ثلاثة أيام بعد يوم النحر، أولها اليوم الحادي عشر من ذي الحجة وهو قول ابن عمر وابن العباس والحسن وعطاء ومجاهد وقتادة وهو مذهب الشافعي. وقيل: إن الأيام المعدودات يوم النحر ويومان بعده. وهو قول علي بن أبي طالب ويروى عن ابن عمر أيضاً وهو مذهب أبي حنيفة (م) عن نبيشة الهذلي قال: قال رسول الله ﷺ: «أيام التشريق أيام أكل وشرب وذكر الله» ومن الذكر في هذه الأيام التكبير (خ) عن ابن عمر أنه كان يكبر بمنى تلك الأيام وخلف الصلوات، وعلى فراشه وفي فسطاطه وفي مجلسه وفي ممشاه في تلك الأيام جميعاً وفي رواية أنه كان يكبر في قبته فيسمعه أهل المسجد فيكبرون، ويكبر أهل الأسواق حتى ترتج منى أخرجه البخاري بغير إسناد وأجمع العلماء على أن المراد بهذا هو التكبير عند رمي الجمار، وهو أن يكبر مع كل حصاة يرمي بها في جميع أيام التشريق، وأجمعوا أيضاً على أن التكبير في عيد الأضحى وفي هذه الأيام في إدبار الصلوات سنة واختلفوا في وقت التكبير فقيل

فكرٍ، قال الحسن: أسرع من لمح البصر، وقيل: معناه إتيان القيامة قريب لأن ما هو آتٍ لا محالة فهو قريب، قال الله تعالى: ﴿ وما يُدريك لعلّ الساعة قريب ﴾ [الشورى: ١٧].

قوله تعالى: ﴿ واذكروا الله ﴾، يعني التكبيرات أدبار الصلاة وعند الجمرات، يكبّر مع كل حصاة وغيرها من الأوقات، ﴿ في أيام معدودات ﴾ الأيام المعدودات هي أيام التشريق وهي أيام منى ورمي الجمار، سُمّيت معدودات لقلّتهنّ، كقوله: ﴿ دراهم معدودة ﴾ [يوسف: ٢٠]، والأيام المعلومات: عشر ذي الحجة آخرهنّ يوم النحر، هذا قول أكثر أهل العلم، ورُوِيَ عن ابن عباس: المعلومات يوم النحر، ويومان بعده والمعدودات أيام التشريق، وعن عليّ قال: المعلومات يوم النحر وثلاثة أيام بعده، وقال عطاء عن ابن عباس المعلومات يوم عرفة، ويوم النحر وأيام التشريق وقال محمد بن كعب: هما شيء واحد وهي أيام التشريق، ورُوِيَ عن نبيشة الهزلي قال: قال رسول الله ﷺ: «أيام التشريق أيام أكل وشرب وذكر الله»، ومن الذكر في أيام التشريق التكبير، واختلفوا فيه

يبتدىء به من صلاة الظهر يوم النحر إلى صلاة الصبح من آخر أيام التشريق فيكون التكبير على هذا القول في خمسة عشر صلاة، وهو قول ابن عباس وابن عمر، وبه قال الشافعي: في أصح أقواله قال الشافعي: لأن الناس فيه تبع للحاج وذكر الحاج قيل: هذا الوقت هو التلبية ويأخذون في التكبير يوم النحر من صلاة الظهر. وقيل: إنه يبتدىء به من صلاة المغرب ليلة النحر ويختم بصلاة الصبح من آخر أيام التشريق، وهو القول الثاني الشافعي فيكون التكبير على هذا القول: في ثمانية عشر صلاة والقول الثالث للشافعي إنه يبتدىء بالتكبير من صلاة الصبح يوم عرفة، ويختم به بعد صلاة العصر من آخر أيام التشريق، فيكون التكبير على هذا القول في ثلاث وعشرين صلاة وهو قول علي بن أبي طالب، ومكحول وبه قال أبو يوسف ومحمد، وقال ابن مسعود يبتدأ به من صبح يوم عرفة ويختم بصلاة العصر من يوم النحر، فعلى هذا القول يكون التكبير في ثمان صلوات، وبه قال أبو حنيفة وقال أحمد بن حنبل: إذا كان حلالاً كبر عقيب ثلاث وعشرين صلاة أولها الصبح من يوم عرفة وآخرها صلاة العصر من آخر أيام التشريق وإن كان محرماً كبر عقيب سبعة عشر صلاة أولها الظهر من يوم النحر وآخرها عصر آخر أيام التشريق. ولفظ التكبير عند الشافعي ثلاثاً نسقاً الله أكبر الله أكبر الله أكبر وهو قول سعيد بن جبير والحسن، وهو قول أهل المدينة، قال الشافعي: وما زاد من ذكر الله فحسن ويروى عن ابن مسعود أنه يكبر مرتين فيقول الله أكبر الله أكبر وهو قول أهل العراق.

وقوله تعالى: ﴿**فمن تعجل في يومين**﴾ أي فمن تعجل النفر الأول وهو في الثاني من أيام التشريق ﴿**فلا إثم عليه**﴾ أي فلا حرج عليه وذلك أنه يجب على الحاج المبيت بمنى الليلة الأولى والثانية من ليالي أيام التشريق، ليرمي كل يوم بعد الزوال إحدى وعشرين حصاة يرمي عند كل جمرة سبع حصيات ثم من رمى في اليوم الثاني وأراد أن ينفر ويدع البيتوتة الليلة الثالثة ورمى يومها فذلك واسع له لقوله تعالى: ﴿**فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه**﴾ يعني فلا إثم على من تعجل فنفر في اليوم الثاني في تعجيله ﴿**ومن تأخر فلا إثم عليه**﴾ يعني ومن تأخر إلى النفر الثاني، وهو اليوم الثالث من أيام التشريق فلا إثم عليه في تأخره. واعلم أنه إنما يجوز التعجيل لمن نفر بعد

فرُوِيَ عن عمرو عن عبد الله بن عمر أنهما كانا يكبّرا بمنى تلك الأيام خلف الصلاة وفي المجلس وعلى الفراش والفسطاط وفي الطريق، ويكبّر الناس بتكبيرهما، ويتلوان هذه الآية، والتكبير أدبار الصلاة مشروع في هذه الأيام في حق الحاجّ وغير الحاجّ عند عامّة العلماء، واختلفوا في قدره فذهب قوم إلى أنه يبتدىء التكبير عقيب صلاة الصبح من يوم عرَفَة ويختم بعد العصر من أيام التشريق، يُروى ذلك عن عُمر وعن علي رضي الله عنهما، وبه قال مكحول وإليه ذهب أبو يوسف رضي الله عنه، وذهب قوم إلى أنه يبتدىء التكبير عقيب صلاة الصبح من يوم عرفة، ويختم بعد العصر من يوم النحر، يُروى ذلك عن ابن مسعود، وبه قال أبو حنيفة رضي الله عنه، وقال قوم يبتدىء التكبير عقيب صلاة الظهر من يوم النحر ويختم بعد الصبح من آخر أيام التشريق، يُروى ذلك عن ابن عباس، وبه قال مالك والشافعي في أحد قوليه، قال الشافعي: لأن الناس فيه تبع للحاج، وذكر الحاج قبل هذا الوقت التلبية، ويأخذون في التكبير يوم النحر من بعد صلاة الظهر، ولفظ التكبير: كان سعيد بن جبير والحسن يقولان: الله أكبر الله أكبر ثلاثاً نسقاً، وهو قول أهل المدينة وإليه ذهب الشافعي، وقال: وما زاد من ذكر الله فهو حسن، وعند أهل العراق يكبّر اثنين، يُروى ذلك عن ابن مسعود، قوله تعالى: ﴿ **فمَن تعجّل في يومين فلا إثم عليه** ﴾، أراد من نَفْرِ الحاج في اليوم الثاني من أيام التشريق، فلا إثم عليه، وذلك أنه على الحاجّ أن يبيت بمنى الليلة الأولى والثانية من أيام التشريق، ويرمي كل يوم بعد الزوال إحدى وعشرين حصاة، عند كل جمرة بسبع حصيات، ورخّص في ترك البيتوتة لرعاة الإبل وأهل سقاية الحاجّ، ثم كلّ مَن يرمي اليوم الثاني من أيام التشريق وأراد أن ينفر فيدع البيتوتة

الزوال من اليوم الثاني من أيام التشريق وقبل غروب الشمس، من ليلة ذلك اليوم وإن غربت عليه الشمس، وهو بمنى لزمه المبيت بها لرمي اليوم الثالث، هذا مذهب الشافعي وأكثر الفقهاء وقال أبو حنيفة: يجوز له أن ينفر ما لم يطلع الفجر لأنه لم يدخل وقت الرمي، بعد ورخص لرعاة الإبل وأهل سقاية الحاج ترك المبيت بمنى ليالي منى. فإن قلت: قوله ومن تأخر فلا إثم عليه فيه إشكال وهو أن الذي أتى بأفعال الحج كاملة تامة فقد أتى بما يلزمه، فما معنى قوله فلا إثم عليه إنما يخاف من الإثم من قصر فيما يلزمه. قلت فيه أجوبة أحدها أنه تعالى لما أذن في التعجيل على سبيل الرخصة احتمل أن يخطر ببال قوم أن من لم يجر على موجب هذه الرخصة، فإنه يأثم فأزال الله تعالى هذه الشبهة وبين إنه لا إثم عليه في الأمرين فإن شاء عجل وإن شاء أخر. الجواب الثاني أن من الناس من كان يتعجل ومنهم من كان يتأخر، وكل فريق يصوب فعله على فعل الفريق الآخر فبين الله تعالى أن كل واحد من الفريقين مصيب في فعله وأنه لا إثم عليه. الجواب الثالث إنما قال: ومن تأخر فلا إثم عليه لمشاكلة اللفظة الأولى فهو كقوله: ﴿وجزاء سيئة سيئة مثلها﴾ ومعلوم أن جزاء السيئة ليس بسيئة. الجواب الرابع أن فيه دلالة على جواز الأمرين فكأنه تعالى قال: فتعجلوا أو تأخروا فلا إثم في التعجيل ولا في التأخير ﴿**لمن اتقى**﴾ أي ذلك التخيير ونفي الإثم للحاج المتقي وقيل لمن اتقى أن يصيب في حجه شيئاً مما نهاه الله عنه من قتل صيد وغيره، مما هو محظور في الحج، وقيل: معناه أنه ذهب إثمه إن اتقى فيمن بقي من عمره، وذلك أن الحاج يرجع مغفوراً له بشرط أن لا يرتكب ما نهي عنه فيما بقي من عمره وهو قوله: ﴿**واتقوا الله**﴾ أي في المستقبل والتقوى عبارة عن فعل الواجبات وترك المحظورات ﴿**واعلموا أنكم إليه تحشرون**﴾ أي فيجازيكم بأعمالكم وفيه حث على التقوى. قوله عز وجل:

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾﴾

﴿**ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا**﴾ نزلت في الأخنس بن شريق الثقفي حليف بني زهرة، واسمه أبي وإنما سمي الأخنس لأنه خنس يوم بدر بثلاثمائة رجل من بني زهرة، عن قتال رسول الله ﷺ وذلك أنه أشار

الليلة الثالثة، ورمى يومها فذلك له واسع، لقوله تعالى: ﴿ فمَن تعجّل في يومين فلا إثم عليه ﴾ ومَن لم ينفر حتى غربت الشمس فعليه أن يبيت حتى يرمي اليوم الثالث ثم ينفر، وقوله: ﴿ ومَن تأخر فلا إثم عليه ﴾، يعني: لا إثم على مَن تعجّل فنفر في اليوم الثاني في تعجيله، ومَن تأخر حتى ينفر في اليوم الثالث فلا إثم عليه في تأخيره، وقيل معناه: فمَن تعجّل فقد ترخّص فلا إثم عليه بالترخّص، ومَن تأخّر فلا إثم عليه بترك الترخّص، وقيل معناه: رجع مغفوراً له لا ذنب عليه تعجّل أو تأخر، كما روينا: «مَن حجّ فلم يرفث ولم يفسق رجع ـ أي: خرج ـ من ذنوبه كيوم ولدته أُمه»، وهذا قول علي وابن مسعود. قوله تعالى: ﴿ لمَن اتّقى ﴾، أي: لمَن اتّقى أن يصيب في حجّه شيئاً نهاه الله عنها، كما قال: «مَن حجّ فلم يرفث ولم يفسق»، قال ابن مسعود: إنما جُعلت مغفرة الذنوب لمَن اتّقى الله تعالى في حجّه، وفي رواية الكلبي عن ابن عباس معناه: لمَن اتقى الصيد، لا يحلّ له أن يقتل صيداً حتى تنقضي أيام التشريق، وقال أبو العالية: ذهب أثمة أن اتقى فيما بقي من عمره، ﴿ واتقوا الله واعلموا أنكم إليه تُحشرون ﴾: تجمعون في الآخرة يجزيكم بأعمالكم.

قوله تعالى: ﴿ ومِنَ الناس مَنْ يُعجبك قولُه في الحياة الدنيا ﴾، قال الكلبي ومقاتل وعطاء: نزلت في الأخنس بن شُريق الثقفي حليف بني زهرة، واسمه أُبيّ وسُمّي الأخنس لأنه خنّس يوم بدر بثلاثمائة رجل من بني زهرة عن قتال رسول الله ﷺ وكان رجلاً حلو الكلام حلو المنظر، وكان يأتي رسول الله ﷺ فيُجالسه ويُظهر

على بني زهرة الرجوع يوم بدر، وقال لهم: إن محمداً ابن أختكم فإن يك كاذباً كفاكموه الناس وإن يك صادقاً كنتم أسعد الناس به قالوا: نعم ما رأيت قال إني سأخنس بكم فاتبعوني فخنس فسمي الأخنس بذلك وكان الأخنس حلو الكلام حلو المنظر، وكان يأتي رسول الله ﷺ ويجالسه ويظهر الإسلام ويقول: إني لأحبك ويحلف بالله على ذلك وكان رسول الله ﷺ يدني مجلسه وكان الأخنس منافقاً فنزل فيه، ومن الناس من يعجبك قوله، أي يروقك وتستحسنه ويعظم في قلبك في الحياة الدنيا، يعني أن حلاوة كلامه فيما يتعلق بأمر الدنيا ﴿**ويشهد الله على ما في قلبه**﴾ يعني قوله: والله إني بك مؤمن ولك محبّ ﴿**وهو ألد الخصام**﴾ أي شديد الجدال في الباطل، وقيل: هو كاذب القول، وقيل: هو شديد القسوة في المعصية جدل بالباطل يتكلم بالحكمة ويعمل بالخطيئة (ق) عن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ قال: «إن أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم» يعني الشديد في الخصومة.

﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾﴾

﴿**وإذا تولى**﴾ أي أدبر وأعرض عنك بعد إلانة القول وحلاوة المنطق ﴿**سعى في الأرض**﴾ أي سار ومشى في الأرض ﴿**ليفسد فيها**﴾ يعني بقطع الأرحام وسفك دماء المسلمين ﴿**ويهلك الحرث والنسل**﴾ وذلك أن الأخنس بن شريق كان بينه وبين ثقيف خصومة فبيتهم ليلاً، فأحرق زروعهم وأهلك مواشيهم، وقيل: خرج إلى الطائف

الإسلام، ويقول إني لأُحبّك ويحلف بالله على ذلك، وكان منافقاً فكان رسول الله ﷺ يدني مجلسه، فنزل قوله تعالى: ﴿ **ومن الناس مَنْ يُعجبك قوله في الحياة الدنيا** ﴾ أي: تستحسنه ويعظم في قلبك، ويُقال في الاستحسان أعجبني كذا، وفي الكراهية والإنكار: عجبتُ من كذا، ﴿ **ويُشهد الله على ما في قلبه** ﴾، يعني: قول الأخنس المنافق: والله إني بك مؤمن ولك محبّ، ﴿ **وهو ألدّ الخصام** ﴾، أي: شديد الخصومة، يقال: لددتَ يا هذا وأنت تَلِدّ لدداً ولَدَادةً، فإذا أردت أنه غلب على خصمه قلت: لدّه يلدّه لدّاً، يقال: رجل ألدّ وامرأة لدّاء وقومٌ لُدٌّ قال الله تعالى: ﴿ **وتُنذر به قوماً لُدّاً** ﴾ [مريم: ٩٧]، قال الزجّاج: اشتقاقه من لديـدي العنق وهما صفحتان، وتأويله: أنه في أيِّ وجهٍ أخذ من يمين أو شمال، في أبواب الخصومة غلب، والخِصام: مصدر خاصمه خصاماً ومخاصمةً، قاله أبو عبيدة، وقال الزجّاج: وهو جمع خصم، يقال: خصم وخصام وخُصوم، مثل: بحر وبحار وبُحور، قال الحسن: ألدّ الخصام، أي: كاذب القول، قال قتادة شديد القسوة في المعصية، جدل بالباطل يتكلم بالحكمة، ويعمل بالخطيئة، أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف أخبرنا محمد بن إسماعيل، أخبرنا أبو عاصم عن ابن جريج، عن ابن أبي مُليكة عن عائشة رضي الله عنها عن النبيّ ﷺ قال: «إنّ أبغض الرجال إلى الله تعالى الألدُّ الخصم».

﴿ **وإذا تولّى** ﴾، أي: أدبر وأعرض عنك، ﴿ **سعى في الأرض** ﴾، أي: عمل فيها، وقيل: سار فيها ومشى، ﴿ **ليفسد فيها** ﴾، قال ابن جريج: قطع الرحم وسفك دماء المسلمين، ﴿ **ويُهلك الحرث والنسل** ﴾، وذلك أن الأخنس كان بينه وبين ثقيف خصومة فبيّتهم ليلة فأحرق زروعهم وأهلك مواشيهم، قال مقاتل: خرج إلى الطائف مقتضياً مالاً له على غريم فأحرق له كدساً وعقر له أتاناً، والنسل: نسل كل دابّة، والناس منهم، وقال الضحاك وإذا تولّى، أي: ملك الأمر وصار والياً سعَى في الأرض، قال مجاهد في قوله عزّ وجلّ: ﴿ **وإذا تولى سعى في**

مقتضياً ديناً كان له على غريم فأحرق له كدساً وعقر له أتاناً وقيل معناه إذا تولى أي صار والياً وملك الأمر سعى في الأرض ليفسد فيها يعني بالظلم والعدوان كما يفعله ولاة السوء والظلمة، وقيل: يظهر ظلمه حتى يمنع الله بشؤم ظلمه القطر فيهلك الحرث والنسل بسبب منع المطر وقيل أن الآية عامة في حق كل من كان موصوفاً بهذه الصفات المذكورة ولا يمتنع أن تنزل في رجل واحد ثم تكون عامة في حق كل من كان موصوفاً بهذه الصفات ﴿**والله لا يحب الفساد**﴾ قال ابن عباس: لا يرضى بالمعاصي واحتجت المعتزلة بهذه الآية على أن المحبة عبارة عن الإرادة. وأجيب عنه بأن الإرادة معنى غير المحبة، فإن الإنسان قد يريد شيئاً ولا يحبه وذلك لأنه قد يتناول الدواء المر ولا يحبه فبان الفرق بين الإرادة والمحبة، وقيل: إن المحبة مدح الشيء وتعظيمه والإرادة بخلاف ذلك ﴿**وإذا قيل له اتق الله**﴾ أي خف الله في سرك وعلانيتك ﴿**أخذته العزة بالإثم**﴾ أي حملته العزة وحمية الجاهلية على فعل الإثم وقيل بأن يعمل الإثم وهو الظلم وترك الالتفات إلى الوعظ وعدم الإصغاء إليه. وأصل العزة المنعة والتكبر ﴿**فحسبه جهنم**﴾ أي كافية له جهنم جزاء وعذاباً، وجهنم اسم من أسماء النار التي يعذب بها الكفار في الآخرة، وقيل: هو اسم أعجمي وقيل بل هو عربي سميت النار بذلك لبعد قعرها ﴿**ولبئس المهاد**﴾ أي الفراش والمهاد التوطئة أيضاً والمعنى أن العذاب بالنار يجعل تحته وفوقه قال ابن مسعود إن من أكبر الذنوب عند الله أن يقال للعبد: اتق الله فيقول: عليك بنفسك. وروي أنه قيل لعمر اتق الله فوضع خده على الأرض تواضعاً لله تعالى. قوله عز وجل: ﴿**ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله**﴾ قال ابن عباس: نزلت هذه الآية في سرية الرجيع وكانت بعد أحد (خ) عن أبي هريرة قال بعث النبي ﷺ سرية عيناً وأمر عليهم عاصم بن ثابت وهو جد عاصم بن عمر بن الخطاب، فانطلقوا حتى إذا كانوا بين عسفان ومكة ذكروا الحي من هذيل يقال لهم بنو لحيان فتبعوهم بقريب من مائة رام فاقتفوا آثارهم حتى أتوا منزلاً نزلوه فوجدوا فيه نوى تمر تزودوه من المدينة فقالوا هذا تمر يثرب، فتبعوا أثرهم حتى لحقوهم. فلما أحس بهم عاصم وأصحابه لجؤوا إلى فدفد، وجاء القوم فأحاطوا بهم فقالوا: لكم العهد والميثاق إن نزلتم إلينا أن لا نقتل منكم رجلاً، فقال عاصم: أما أنا فلا أنزل في ذمة كافر اللهم أخبر عنا

الأرض﴾ قال: إذا ولّي يعمل بالعدوان والظلم، فأمسك الله المدر وأهلك الحرث والنسل، ﴿ **والله لا يحبّ الفساد** ﴾، أي: لا يرضى بالفساد، وقال سعيد بن المسيب: قطع الدراهم من الفساد في الأرض.

قوله: ﴿ **وإذا قيل له اتّق الله** ﴾، أي: خَفِ الله، ﴿ **أخذتْهُ العِزّةُ بالإثم** ﴾، أي: حملته العزّة، حمية الجاهلية على الفعل بالإثم، أي: بالظلم والعزّة والتكبّر والمِنعة، وقيل معناه: أخذته العزّة للإثم الذي في قلبه، فأقام الباء مقام اللام، قوله: ﴿ **فحسبه جهنم** ﴾، أي كافيه، ﴿ **ولبئس المهاد** ﴾ أي: الفراش، قال عبد الله بن مسعود: إن من أكبر الذنب عند الله أن يقال للعبد: اتّقِ اللَّهَ فيقول: عليك بنفسك، ورُوِيَ أنه قيل لعمر بن الخطاب: اتّق الله فوضع خدّه على الأرض تواضعاً لله عزّ وجلّ.

قوله تعالى: ﴿ **ومِنَ الناس مَنْ يَشْرِي نفسَهُ ابتغاءَ مَرْضاةِ الله** ﴾، أي: لطلب رضا الله تعالى، ﴿ **والله رؤوف بالعباد** ﴾، رُوِيَ عن ابن عباس والضحاك أن هذه الآية نزلتْ في سرية الرجيع، وذلك أن كفّار قريش بعثوا إلى رسول الله ﷺ وهو بالمدينة إنّا قد أسلمنا، فابعث إلينا نفراً من علماء أصحابك يعلّموننا دينك، وكان ذلك مكراً منهم، فبعث رسول الله ﷺ خُبَيْب بن عدي الأنصاري ومَرْثد بن أبي مَرْثد الغَنويّ وخالد بن بكير، وعبد الله بن طارق بن شهاب البَلوي وزيد بن الدَّثِنّة، وأمّر عليهم عاصم بن ثابت بن أبي الأفلح الأنصاري، قال أبو هريرة بعث رسول الله ﷺ عشرة عيناً وأمّر عليهم عاصم بن ثابت الأنصاري فساروا فنزلوا ببطن الرجيع بين مكة والمدينة ومعهم تمر عجوة فأكلوا فمرّت عجوز فأبصرت النّوَى فرجعت إلى قومها بمكة وقالت: قد سلك هذا الطريق أهل يثرب،

رسولك فقاتلوهم فرموهم حتى قتلوا عاصماً في سبعة نفر بالنبل وبقي خبيب وزيد ورجل آخر فأعطوهم العهد والميثاق. فلما أعطوهم العهد والميثاق نزلوا إليهم فلما استمكنوا منهم حلوا أوتار قسيهم فربطوهم بها فقال الرجل الثالث الذي معهم: هذا أول الغدر، فأبى أن يصحبهم فجروه وعالجوه على أن يصحبهم فلم يفعل فقتلوه وانطلقوا بخبيب وزيد حتى باعوهما بمكة، فاشترى خبيباً بنو الحارث بن عامر بن نوفل، وكان خبيب هو الذي قتل الحارث يوم بدر فمكث عندهم أسيراً حتى إذا اجتمعوا على قتله استعار موسى من بعض بنات الحارث ليستحدَّ بها فأعارتها، فقالت: فغفلت عن صبي لي فدرج إليه حتى أتاه فوضعه على فخذه فلما رأيته فزعت فزعة عرف ذلك مني وفي يده الموسى، فقال: أتخشين مني أن أقتله ما كنت لأفعل ذلك إن شاء الله تعالى وكانت تقول: ما رأيت أسيراً قط خيراً من خبيب لقد رأيته يأكل من قطف عنب وما بمكة يومئذٍ تمرة، وإنه لموثق في الحديد. وما كان إلاّ رزقاً رزقه الله خبيباً، فلما خرجوا به من الحرم ليقتلوه قال: دعوني أصلي ركعتين، فصلى ركعتين ثم انصرف فقال: لولا ترون أن ما بي جزع من الموت لزدت، فكان أول من سن ركعتين عند القتل، وقال: اللهم أحصهم عدداً وقال:

فلست أبالي حين أقتل مسلماً على أي جنب كان في الله مصرعي
وذلك في ذات الإله وإن يشأ يبارك على أوصال شلوٍ ممزع

ثم قام إليه عقبة بن الحارث فقتله، وبعثت قريش إلى عاصم ليأتوا بشيء من جسده بعد موته وكان قتل عظيماً من عظمائهم يوم بدر، فبعث الله عليه مثل الظلة من الدبر فحمته من رسلهم، فلم يقدروا منه على شيء زاد

من أصحاب محمد ﷺ، فركب سبعون رجلاً منهم معهم الرماح حتى أحاطوا بهم، وقال أبو هريرة رضي الله عنه ذكروا الحيّ من هُذيل يقال لهم بنو لحيان فتبعوهم بقريب من مائة رجلٍ رامٍ، فاقتفوا آثارهم حتى وجدوا مأكلهم التمر في منزل نزلوه فقالوا: تمر يثرب فاتبعوا آثارهم فلما أحسّ بهم عاصم وأصحابه لجؤوا إلى فدفد فأحاط بهم القومُ فقتلوا مَرْثداً وخالداً وعبد الله بن طارق ونثر عاصم بن ثابت كنانته وفيها سبعة أسهم فقتل بكل سهم رجلاً من عظماء المشركين ثم قال: اللّهمَّ إني قد حميت دينك صدر النهار فاحمِ لحمي آخر النهار، ثم أحاط المشركون فقتلوه فلما قتلوه أرادُوا جَزّ رأسه ليبيعوه من سَلافة بنت سعد بن شهيد، وكانت قد نذرت حين أصاب ابنها يوم أُحد لئن قدرت على رأس عاصم لتشربنّ في قحفه الخمر، فأرسل الله رحْلاً من الدَّبْر وهي الزنابير فحمت عاصماً فلم يقدروا عليه، فسُمّي حميُّ الدَّبْر فقالوا: دعوه حتى نمسي فتذهب عنه فنأخذه، فجاءت سحابة سوداء وأمطرت مطراً كالعزالي فبعث الله الوادي غديراً فاحتمل عاصماً به فذهب به إلى الجنة، وحمل خمسين من المشركين إلى النار، وكان عاصم قد أعطى الله تعالى عهداً أن لا يمسّه مشرك ولا يمسّ مشركاً أبداً وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول حين بلغه أن الدّبر منعته: عجيباً لحفظ الله العبد المؤمن، كان عاصم نذر أن لا يمسّه مشرك ولا يمسّ مشركاً أبداً فمنعه الله بعد وفاته كما امتنع عاصم في حياته، وأسر المشركون خُبيب بن عدي الأنصاري وزيد بن الدَّثِنّة فذهبوا بهما إلى مكة، فأمّا خُبيب فابتاعه بنو الحارث بن عامر بن نوفل بن عبد مناف ليقتلوه بأبيهم، وكان خُبيب هو الذي قتل الحرث يوم بدر، فلبث خبيب عندهم أسيراً، حتى أجمعوا على قتله فلستعار من بعض بنات الحارث موسى ليستحدبها فأعارته، فدرج بُنيٌّ لها وهي غافلة فما راع المرأة إلاّ خُبيب قد أجلس الصبي على فخذه والموسى بيده، فصاحت المرأة، فقال خُبيب: أتخشين أن أقتله ما كنت لأفعل ذلك إن الغدر ليس من شأننا، فقالت المرأة بعد: والله ما رأيت أسيراً خيراً من خُبيب والله لقد وجدته يوماً يأكل قَطْفاً من عنب في يده وإنه لموثق بالحديد وما بمكة من ثمرة إن كان إلاّ رزقاً رزقه الله خُبيباً، ثم إنهم خرجوا به من الحرم ليقتلوه في الحِلّ وأرادوا أن يصلبوه،

في رواية وأخبر يعني النبي ﷺ أصحابه يوم أصيبوا خبرهم. الفدفد: الموضع الذي فيه غلظ وارتفاع. وقوله عالجوه: أي مارسوه، وأراد به أنهم يخدعونه ليتبعهم فأبى. وقوله ليستحد الاستحداد حلق العانة. والقطف العنقود من العنب: قوله على أوصال شلو. الشلو العضو من أعضاء الإنسان. والممزع: المفرق. والظلة: الشيء الذي يظل من فوق الإنسان. والدبر: جماعة النحل والزنابير. وقال أهل التفسير: إن كفار قريش بعثوا إلى رسول الله ﷺ وهو بالمدينة أنا قد أسلمنا فابعث إلينا نفراً من علماء أصحابك يعلمونا دينك، وكان ذلك مكراً منهم فبعث رسول الله ﷺ خبيب بن عدي الأنصاري ومرثد بن أبي مرثد الغنوي وخالد بن بكر وعبدالله بن طارق بن شهاب البلوي وزيد بن الدثنة وأمر عليهم عاصم بن ثابت بن أبي أفلح الأنصاري، وذكر نحو حديث البخاري، زاد عليه: فقالوا: نصلب خبيباً حياً، فقال: اللهم إنك تعلم أنه ليس لي أحد حولي يبلغ سلامي رسولك فأبلغه سلامي، فقام إليه أبو سروعة عقبة بن الحارث فقتله ويقال كان رجل من المشركين يقال له أبو ميسرة سلامان معه رمح فوضعه بين ثديي خبيب فقال له خبيب: اتق الله، فما زاده ذلك إلّا عتواً فطعنه فأنفذه فذلك قوله تعالى: ﴿وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم﴾ يعني سلامان. وأما زيد بن الدثنة فابتاعه صفوان بن أمية ليقتله بأبيه أمية بن خلف فبعثه مع مولى له يسمى نسطاس إلى التنعيم ليقتله في الحل، واجتمع رهط من قريش فيهم أبو سفيان بن حرب فقال له أبو سفيان حين قدم ليقتل أنشدك الله يا زيد أتحب محمداً عندنا الآن مكانك يضرب عنقه وأنك في أهلك قال زيد والله ما أحب أن محمداً الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه وأنا جالس في أهلي، فقال أبو سفيان: ما رأيت أحداً يحب أحداً كحب أصحاب محمد محمداً ثم قتله نسطاس، فلما بلغ النبي ﷺ هذا الخبر قال لأصحابه أيكم ينزل خبيباً عن خشبته وله الجنة فقال الزبير: أنا يا رسول الله وصاحبي

فقال لهم خُبيب: دعوني أصلّي ركعتين فتركوه، فكان خُبيب هو أول مَنْ سنّ لكل مسلم قُتل صبراً الصلاةَ، فركع ركعتين، ثم قال: لولا أن يحسبوا أن ما بي جزع لزدت، اللّهمّ أحصهم عدداً واقتلهم بدداً ولا تُبقِ منهم أحداً ثم أنشأ يقول:

فلستُ أُبالي حين أُقتل مسلماً ... على أيّ شقٍّ كان في الله مصرعي
وذلك في ذات الإلّه وإن يشأ ... يبارك على أوصال شلو ممزع

فصلبوه حيّاً فقال: اللّهمَّ إنك تعلم أنه ليس أحد حولي يبلغ سلامي رسولك فأبلغه سلامي، ثم قام أبو سرعة عقبة بن الحارث فقتله، ويقال كان رجل من المشركين، يقال له سلامان أبو ميسرة معه رمح فوضعه بين ثديي خُبيب فقال له خبيب: اتّقِ الله فما زاده ذلك إلّا عتواً فطعنه فأنفذه، وذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿ وإذا قيل له اتّق الله أخذته العِزّة بالإثم ﴾، يعني: سلامان، وأما زيد بن الدَّثِنَّة فابتاعه صفوان بن أُميّة لقتله بأبيه أُميّة بن خلف، فبعثه مع مولى له يسمّى نسطاس إلى التنعيم ليقتله بأبيه، واجتمع رهط من قريش فيهم أبو سفيان بن حرب فقال له أبو سفيان حين قَدِمَ ليقتل: أنشدك الله يا زيد أتحبّ أن محمداً عندنا الآن بمكانك ونضرب عنقه، وإنك في أهلك؟ فقال: والله ما أُحبّ أن محمداً ﷺ الآن في مكانه الذي هو فيه تُصيبه شوكةٌ تُؤذيه وأنا جالس في أهلي، فقال أبو سفيان: ما رأيت من الناس أحداً يحبّ أحداً كحُبّ أصحاب محمد محمداً، ثم قتله نسطاس، فلما بلغ النبي ﷺ هذا الخبر قال لأصحابه: «أيكم ينزّل خُبيباً عن خشبته وله الجنّة»، فقال الزّبير: أنا يا رسول الله وصاحبي المقداد بن الأسود، فخرجا يمشيان بالليل ويكمنان بالنهار، حتى أتيا التنعيم ليلاً وإذا حول الخشبة أربعون رجلاً من المشركين نائمون نشاوى، فأنزلاه فإذا هو رطب ينثني لم يتغيّر منه شيء بعد أربعين يوماً ويده على جراحته وهي تبضّ دماً اللون لون الدم والريح ريح المسك، فحمله الزبير على فرسه وساروا، فانتبه الكفّار وقد فقدوا خُبيباً

المقداد بن الأسود، فخرجا يمشيان الليل ويكمنان النهار حتى أتيا التنعيم ليلاً، فإذا حول الخشبة أربعون من المشركين نشاوى وهم نيام، فأنزلاه عن خشبته، فإذا هو رطب ينثني ولم يتغير منه شيء بعد أربعين يوماً ويده على جراحته وهي تبض دماً اللون لون الدم والريح ريح المسك، فحمله الزبير على فرسه وسار فانتبه الكفار وقد فقدوا خبيباً فأخبروا قريشاً فركب معهم سبعون فارساً فلما لحقوهم قذف الزبير خبيباً فابتلعته الأرض فسمي بليغ الأرض وقال الزبير ما أجرأكم علينا يا معشر قريش ثم رفع العمامة عن رأسه وقال: أنا الزبير بن العوام وأمي صفية بنت عبد المطلب وصاحبي المقداد بن الأسود أسدان ضاريان يدفعان عن أشبالهما. فإن شئتم ناضلتكم وإن شئتم نازلتكم وإن شئتم انصرفتم، فانصرفوا إلى مكة، وقدم الزبير وصاحبه المقداد على رسول الله ﷺ وجبريل عنده فقال يا محمد إن الملائكة لتباهي بهذين من أصحابك، ونزل في الزبير والمقداد: ﴿**ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله**﴾ حين شريا أنفسهما بإنزال خبيب عن خشبته. وقال أكثر المفسرين: نزلت في صهيب ابن سنان الرومي، وإنما نسب إلى الروم لأن منازلهم كانت بأرض الموصل فأغارت الروم على تلك الناحية فسبوه وهو غلام صغير فنشأ بالروم، وإنما كان من العرب ابن النمر بن قاسط قال سعيد بن المسيب وعطاء أقبل صهيب مهاجراً إلى النبي ﷺ فاتبعه نفر من مشركي قريش فنزل عن راحلته ونثل ما كان في كنانته وقال: والله لا تصلوا إليّ أو أرمي بكل سهم معي ثم أضرب بسيفي ما بقي في يدي، وإن شئتم دللتكم على مال دفنته بمكة وخليتم سبيلي. فقالوا نعم، ففعل، فلما قدم على رسول الله ﷺ نزلت: ﴿**ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله**﴾ الآية فقال رسول الله ﷺ: ربح البيع أبا يحيى، وتلا عليه هذه الآية. وقال الحسن: أتدرون فيم نزلت هذه الآية؟ نزلت في المسلم يلقي الكافر فيقول له قل: لا إله إلاّ الله فيأبى أن يقولها فيقولها المسلم والله لأشرين نفسي لله فتقدم فقاتل وحده حتى قتل، وقيل نزلت هذه الآية في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقال ابن عباس: رضي الله عنهما: أرى من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله يقوم فيأمر هذا بتقوى الله فإذا لم يقبل وأخذته العزة بالإثم قال وأنا أشري

فأخبروا قريشاً فركب منهم سبعون فلما لحقوهم قذف الزبير خُبيباً فابتلعته الأرض، فسُمّي بليع الأرض فقال الزبير ما جراكم علينا يا معشر قريش، ثم رفع العمامة عن رأسه وقال: أنا الزبير بن العوّام وأُمّي صفيّة بنت عبد المطّلب، وصاحبي المقداد بن الأسود أسدان رابضان يدافعان عن شبليهما، فإن شئتم ناضلتكم وإن شئتم نازلتكم، وإن شئتم انصرفتم، فانصرفوا إلى مكة وقَدِما على رسول الله ﷺ وجبريل عنده، فقال: يا محمد إن الملائكة لتباهي بهذين من أصحابك فنزل في الزبير والمقداد بن الأسود: ﴿ **ومن الناس مَن يشري نفسه ابتغاء مرضات الله**﴾، حين شريا أنفسهما بإنزال خُبيب عن خشبته، وقال أكثر المفسّرين: نزلت في صهيب بن سِنان الرومي، حين أخذه المشركون في رهط من المؤمنين، فعذّبوهم فقال لهم صهيب: إني شيخ كبير لا يضرّكم أمِنْكم كنتُ أم من غيركم، فهل لكم أن تأخذوا مالي وتذروني وديني ففعلوا، وكان شرط عليهم راحلة ونفقة فأقام بمكة ما شاء الله، ثم خرج إلى المدينة فتلقّاه أبو بكر وعمر في رجال فقال له أبو بكر: ربح بيعك يا أبا يحيىٰ فقال له صهيب: وبيعك فلا تتحسّر، قال صهيب: ماذا لي فقد أنزل الله فيك وقرأ هذه الآية، وقال سعيد بن المسيب وعطاء: أقبل صهيب مهاجراً نحو النبي ﷺ، فاتّبعه نفرٌ من مشركي قريش، فنزل عن راحلته ونثل ما كان في كنانته، ثم قال: يا معشر قريش لقد علمتم إني لَمِنْ أرماكم رجلاً، والله لا أضع سهماً مما في كنانتي إلاّ في قلب رجل منكم، وأيم الله لا تصلون إليّ حتى أرمي بكل سهم في كنانتي ثم أضرب بسيفي ما بقي في يدي، ثم افعلوا ما شئتم، وإن شئتم دللتكم على مالي بمكة وخلّيتم سبيلي، قالوا: نعم، ففعل ذلك، فأنزل الله هذه الآية، وقال الحسن: أتدرون فيمن نزلتْ هذه الآية؟ نزلت في المسلم يلقَى الكافر، فيقول له: قل لا إلَه إلاّ الله، فيأبى أن يقولها، فقال المسلم: والله لأشرينّ نفسي

نفسي لله فقاتله، وكان علي كرم الله وجهه إذا قرأ هذه الآية يقول اقتتلا ورب الكعبة. وسمع عمر رجلاً يقرأ هذه الآية: ﴿ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله﴾ فقال عمر: إنا لله وإنا إليه راجعون قام رجل فأمر بالمعروف ونهى عن المنكر فقتل. عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ «من أعظم الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر» أخرجه الترمذي، وقال حديث حسن غريب. وأما تفسير الآية فذكر المفسرون أن المراد بهذا الشراء البيع ومنه قوله: ﴿وشروه بثمن﴾ أي باعوه والمعنى أن المسلم باع نفسه بثواب الله تعالى في الدار الآخرة، وهذا البيع هو أن يبذل نفسه في طاعة الله من صلاة وصيام، وحج وجهاد وأمر بمعروف ونهي عن المنكر، فكان ما يبذله من نفسه كالسلعة فصار كالبائع، والله تعالى المشتري، والثمن هو ثواب الله تعالى في الآخرة ابتغاء مرضاة الله أي طلب رضا الله ﴿والله رؤوف بالعباد﴾ أي من رأفة الله بعباده أن جعل النعيم الدائم في الجنة جزاء على العمل القليل المنقطع، ومن رأفته أنه يقبل توبة عبده ومن رأفته أن نفس العباد وأموالهم له، ثم إنه تعالى يشتري ملكه بملكه فضلاً منه ورحمة وإحساناً قوله عز وجل:

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿٢٠٨﴾ فَإِن زَلَلۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡكُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾

﴿يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة﴾ نزلت في مؤمني أهل الكتاب عبدالله بن سلام وأصحابه، وذلك لما أسلموا قاموا على تعظيم شرائع موسى فعظموا السبت وكرهوا لحوم الإبل وألبانها، وقالوا: إن ترك هذه الأشياء مباح في الإسلام وواجب في التوراة، وقالوا أيضاً: يا رسول الله إن التوراة كتاب الله دعنا فلنقم به في صلاتنا بالليل، فأنزل الله هذه الآية وأمرهم أن يدخلوا في السلم أي في شرائع الإسلام ولا يتمسكوا بالتوراة فإنها منسوخة. والمعنى استسلموا لله وأطيعوه فيما أمركم به وقيل هو خطاب لمن لم يؤمن بمحمد ﷺ من أهل الكتاب. والمعنى: يا أيها الذين آمنوا بموسى وعيسى ادخلوا في السلم كافة أي في الإسلام. وروى جابر عن النبي ﷺ حين أتاه عمر فقال إنا نسمع أحاديث من يهود وتعجبنا فنرى أن نكتب بعضها فقال ﷺ: «أتتهوكون كما تهوكت اليهود والنصارى، لقد جئتكم بها بيضاء نقية ولو أن موسى حي ما وسعه إلاّ اتباعي» قوله أتتهوكون أي تتحيرون أنتم في دينكم حتى تأخذوه من اليهود والنصارى، وقوله لقد جئتكم بها يعني بالملة الحنيفية بيضاء نقية،

لله، فتقدّم فقاتل وحْده حتى قُتل، وقيل: نزلت الآية في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قال ابن عباس: أرى مَن يَشْري نفسه ابتغاء مرضات الله يقوم فيأمر هذا بتقوى الله فإذا لم يقبل وأخذته العزّة بالإثم، قال: وأن أشري نفسي لله فقاتله فاقتتل الرجلان لذلك، وكان عليّ إذا قرأ هذه الآية يقول: اقتتلا وربِّ الكعبة، وقال أبو الخليل: سمع عمر بن الخطاب إنساناً يقرأ هذه الآية ﴿ ومن الناس مَنْ يَشْري نفسه ابتغاء مرضات الله ﴾، فقال عمر: إنّا لله وإنّا إليه راجعون، قام رجل يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر فقُتل، أخبرنا عبد الواحد المليحي أخبرنا عبد الرحمن بن شريح أخبرنا أبو القاسم البغوي أخبرنا علي بن الجعد، أخبرنا حمّاد بن سلمة عن أبي غالب عن أبي أمامة أن رجلاً قال: يا رسول الله أيّ الجهاد أفضل؟ قال: «أفضل الجهاد مَن قال كلمة حق عند سلطان جائر».

قوله تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السِّلم كافّة ﴾، قرأ أهل الحجاز والكسائي (السَّـلم) ههنا بفتح السين، وقرأ الباقون بكسرها، وفي سورة الأنفال بالكسر، وقرأ أبو بكر والباقون بالفتح، وفي سورة محمد ﷺ بالكسر، حمزة وأبو بكر، نزلت هذه الآية في مؤمني أهل الكتاب، عبد الله بن سلام النضيري وأصحابه، وذلك

أي لا تحتاج إلى شيء، وقيل يحتمل أن يكون خطاباً للمنافقين من المؤمنين، والمعنى يا أيها الذين آمنوا بألسنتهم ادخلوا في السلم أي الانقياد والطاعة لأن أصل السلم الاستسلام، وهو الانقياد كافة، أي بأجمعكم ولا تتفرقوا، وقيل يحتمل أن يرجع إلى الإسلام والمعنى ادخلوا في أحكام الإسلام وشرائعه كافة وهذا المعنى أليق بظاهر التفسير لأنهم أمروا بالقيام بها كلها. قال حذيفة بن اليمان في هذه الآية: للإسلام ثمانية أسهم فعل الصلاة والزكاة والصوم والحج والعمرة والجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. قال: وقد خاب من لا سهم له ﴿**ولا تتبعوا خطوات الشيطان**﴾ يعني آثاره فيما زين لكم من تحريم السبت ولحوم الإبل وغير ذلك، وقيل: لا تلتفتوا إلى الشبهات التي يلقيها إليكم أصحاب الضلالة والغواية والأهواء المضلة لأن من اتبع سنة إنسان فقد تبع آثره ﴿**إنه لكم عدو مبين**﴾ يعني الشيطان. فإن قلت عداوته بإيصال الضرر وإلقاء الوسوسة فكيف يصح ذلك مع الاعتقاد، فإن الله هو الفاعل لجميع الأشياء. قلت: إنه يحاول إيصال الضرر والبلاء إلينا، ولكن الله منعه عن ذلك وأما معنى الوسوسة فمعلوم أنه يزين المعاصي وإلقاء الشبهات، وكل سبب لوقوع الإنسان في مخالفة الله تعالى فيصده بذلك عن الثواب، فهذا من أعظم جهات العداوة. فإن قلت: كيف يصح وصف الشيطان بأنه مبين مع أنا لا نراه؟ قلت: إن الله تعالى بين عداوته ما هي فكأنه بين وإن لم يشاهد ﴿**فإن زللتم**﴾ أي ملتم وضللتم وقال ابن عباس أشركتم ﴿**من بعد ما جاءتكم البينات**﴾ أي الدلالات الواضحات ﴿**فاعلموا أن الله عزيز**﴾ أي في نقمته ممن خالفه غالب لا يعجزه شيء ﴿**حكيم**﴾ يعني أنه لا ينتقم إلّا بحق والحكيم ذو الإصابة في الأمور كلها وفي الآية وعيد وتهديد لمن في قلبه شك ونفاق، أو عنده شبهة في الدين قوله عز وجل:

هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ

أنهم كانوا يعظّمون السبت ويكرهون لحوم الإبل وألبانها بعدما أسلموا وقالوا: يا رسول الله إن التوراة كتاب الله فدعنا فَلْنَقُمْ بها في صلاتنا بالليل، فأنزل الله تعالى: ﴿ **يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السّلم كافّة** ﴾، أي: في الإسلام، قال مجاهد: في أحكام أهل الإسلام وأعمالهم كافّة أي جميعاً، وقيل: ادخلوا في الإسلام إلى منتهى شرائعه كافّين عن المجاوزة إلى غيره، وأصل السلم من الاستلام والانقياد، ولذلك قيل: للصلح سلم، قال حذيفة بن اليمان في هذه الآية: الإسلام ثمانية أسهم فعدّ الصلاة والزكاة والصوم والحج والعمرة والجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقال: قد خاب مَن لا سهم له، ﴿ **ولا تتّبعوا خُطوَاتِ الشيطان** ﴾، أي: آثاره فيما زيّن لكم من تحريم السبت ولحوم الإبل وغيره، ﴿ **إنه لكم عدوٌّ مبين** ﴾، أخبرنا محمد بن الحسن المروزي أخبرنا أبو العباس الطحّان أخبرنا أبو أحمد محمد بن قريش، أخبرنا علي بن عبد العزيز المكّي أخبرنا أبو عبيد القاسم بن سلام، أخبرنا هاشم أخبرنا مخلد عن الشعبي، عن جابر بن عبد الله عن النبيّ ﷺ حين أتاه عمر فقال: إنّا نسمع أحاديث من يهود تُعجبنا أفترى أن نكتب بعضها؟ فقال: «أمتهوكون أنتم كما تَهوّكَتِ اليهود والنصارى؟ لقد جئتكم بها بيضاء نقيةً ولو كان موسى حيّاً ما وسعه إلّا اتّباعي».

﴿**فإنْ زَلَلْتم**﴾، ضللتم، وقيل: مِلتم، يقال: زلّت قَدمه تزلّ زلّاً وزللاً إذا دحضت، قال ابن عباس: يعني الشرك، قال قتادة: قد علم الله أنه سيزلّ زالّون من الناس، فتقدّم في ذلك وأوعد فيه ليكون لديه الحجّة عليهم، ﴿ **مِنْ بعد ما جاءتْكم البيّنات** ﴾، أي: الدّلالاتِ الواضحاتِ، ﴿ **فاعلموا أن الله عزيزٌ** ﴾: في نقمته، ﴿ **حكيمٌ** ﴾: في أمره، فالعزيز: هو الغالب الذي لا يفوته شيء، والحكيم: ذُو الإصابة في الأمر.

﴿الْأُمُورُ ٢١٠ سَلْ بَنِيَ إِسْرَاءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ٢١١﴾

﴿**هل ينظرون**﴾ أي ينتظرون التاركون الدخول في السلم والمتبعون خطوات الشيطان ﴿**إلاّ أن يأتيهم الله في ظلل**﴾ جمع ظلة ﴿**من الغمام**﴾ يعني السحاب الأبيض الرقيق سمي غماماً لأنه يغم ويستر وقيل هو شيء غير السحاب ولم يكن إلاّ لبني إسرائيل في تيههم وهو كهيئة الضباب الأبيض ﴿**والملائكة**﴾ أي وتأتيهم الملائكة. وروى الطبري في تفسيره بسند متصل عن عكرمة عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال: «من الغمام طاقات يأتي الله عزّ وجلّ فيها محفوفاً، وذلك قوله تعالى ﴿**هل ينظرون إلاّ أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام والملائكة وقضي الأمر**﴾ قال عكرمة: والملائكة حوله وقيل معناه حول الغمام وقيل حول الرب تبارك وتعالى. واعلم أن هذه الآية من آيات الصفات وللعلماء في آيات الصفات وأحاديث الصفات مذهبان أحدهما وهو مذهب سلف هذه الأمة وأعلام أهل السنة: الإيمان والتسليم لما جاء في آيات الصفات وأحاديث الصفات، وأنه يجب علينا الإيمان بظاهرها ونؤمن بها كما جاءت ونكل علمها إلى الله تعالى وإلى رسوله ﷺ مع الإيمان، والاعتقاد بأن الله تعالى منزه عن سمات الحدوث وعن الحركة والسكون. قال الكلبي: هذا من الذي لا يفسر وقال سفيان بن عيينة: كل ما وصف الله به نفسه في كتابه فتفسيره قراءته والسكوت عليه ليس لأحد أن يفسره إلاّ الله ورسوله. وكان الزهري والأوزاعي ومالك وابن المبارك وسفيان الثوري والليث بن سعد وأحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه يقولون في هذه الآية وأمثالها اقرؤوها كما جاءت بلا كيف ولا تشبيه ولا تأويل هذا مذهب أهل السنة ومعتقد سلف الأمة، وأنشد بعضهم في المعنى:

عقيدتنا أن ليس مثل صفاته ... ولا ذاته شيء عقيدة صائب
نسلم آيات الصفات بأسرها ... وأخبارها للظاهر المتقارب
ونؤيس عنها كنه فهم عقولنا ... وتأويلنا فعل اللبيب المغالب
ونركب للتسليم سفناً فإنها ... لتسليم دين المرء خير المراكب

(المذهب الثاني) وهو قول جمهور علماء المتكلمين، وذلك أنه أجمع جميع المتكلمين من العقلاء والمعتبرين من أصحاب النظر على أنه تعالى منزه عن المجيء والذهاب، ويدل على ذلك أن كل ما يصح عليه المجيء والذهاب لا ينفك عن الحركة والسكون وهما محدثان، وما لا ينفك عن المحدث فهو محدث، والله تعالى منزه عن ذلك فيستحيل ذلك في حقه تعالى فثبت بذلك أن ظاهر الآية ليس مراداً، فلا بد من التأويل على

قوله تعالى: ﴿ هل ينظرون ﴾، أي: هل ينتظرون، التاركون الدخول في السلم والمتَّبِعون خطوات الشيطان، يقال نظرته وانتظرته بمعنىً واحد، فإذا كان النظر مقروناً بذكر الوجه أو إلى لم يكن إلاّ بمعنى الرؤية، ﴿ **إلاّ أن يأتيهم الله في ظُلل** ﴾، جمع ظُلّة، ﴿ **من الغمام** ﴾، وهو السحاب الأبيض الرقيق سُمّي غماماً لأنه يغمّ، أي يستر، وقال مجاهد: هو غير السحاب، ولم يكن إلاّ لبني إسرائيل في تيههم، وقال مقاتل: كهيئة الضبابة أبيض، قال الحسن: في سترة من الغمام، فلا ينظر إليهم أهل الأرض، ﴿ **والملائكة** ﴾ قرأ أبو جعفر بالخفض عطفاً على الغمام، تقديره مع الملائكة، تقول العرب: أقبل الأمير في العسكر، أي: مع العسكر، وقرأ الباقون الرفع على معنى إلاّ أن يأتيهم الله والملائكة في ظُلل من الغمام، والأولى في هذه الآية وفيما شاكلها أن يؤمن

سبيل التفصيل، فعلى هذا قيل في معنى الآية هل ينظرون إلاّ أن يأتيهم الله الآيات فيكون مجيء الآيات مجيئاً لله تعالى على سبيل التفخيم لشأن الآيات وقيل معناه إلاّ أن يأتيهم أمر الله ووجه هذا التأويل أن الله تعالى فسره في آية أخرى فقال: هل ينظرون إلاّ أن تأتيهم الملائكة أو يأتي أمر ربك، فصار هذا الحكم مفسراً لهذا المجمل في هذه الآية. وقيل: معناه يأتيهم الله بما أوعد من الحساب والعقاب فحذف ما يأتي به تهويلاً عليهم إذ لو ذكر ما يأتي به كان أسهل عليهم في باب الوعيد، وإذا لم يذكر كان أبلغ وقيل يحتمل أن تكون الفاء بمعنى الباء لأن بعض الحروف يقوم مقام بعض فيكون المعنى هل ينظرون إلاّ أن يأتيهم الله بظلل من الغمام والملائكة، والمراد العذاب الذي يأتي من الغمام مع الملائكة، وقيل معناه ما ينظرون إلاّ أن يأتيهم قهر الله وعذابه في ظلل من الغمام. فإن قلت: لم كان إتيان العذاب في الغمام؟ قلت: لأن الغمام مظنة الرحمة ومنه ينزل المطر، فإذا نزل منه العذاب كان أعظم وأفظع وقيل إن نزول الغمام علامة لظهور القيامة وأهوالها ﴿وقضي الأمر﴾ أي وجب العذاب وفرغ من الحساب، وذلك فصل الله القضاء بين العباد يوم القيامة ﴿وإلى الله ترجع الأمور﴾ أي إلى الله تصير أمور العباد في الآخرة. فإن قلت: هل كانت ترجع إلى غيره؟ قلت: إن أمور جميع العباد ترجع إليه في الدنيا والآخرة، ولكن المراد من هذا إعلام الخلق إنه المجازي على الأعمال بالثواب والعقاب، وجواب آخر وهو أنه لما عبد قوم غيره في الدنيا أضافوا أفعاله إلى سواه ثم فإذا كان يوم القيامة وانكشف الغطاء ردوا إلى الله ما أضافوه إلى غيره في الدنيا. قوله عز وجل: ﴿سل بني إسرائيل﴾ الخطاب للنبي ﷺ أمره أن يسأل يهود المدينة، وليس المراد بهذا السؤال العلم بالآيات لأنه كان ﷺ قد علمها بإعلام الله إياه، ولكن المراد بهذا السؤال التقريع والتوبيخ والمبالغة في الزجر عن الإعراض عن دلائل الله وترك الشكر، وقيل المراد بهذا السؤال التقرير وتذكير النعم التي أنعم بها على سلفهم ﴿كم آتيناهم من آية بينة﴾ أي من دلالة واضحة على نبوة موسى عليه السلام مثل العصا واليد البيضاء وفلق البحر وإنزال المن والسلوى ﴿ومن يبدل نعمة الله من بعد ما جاءته﴾ يعني يغير الآية التي جاءته من الله لأنها هي سبب الهدى والنجاة من الضلالة، وقيل هي حجج الله الدالة على نبوة محمد ﷺ وذلك أنهم أنكروها وبدلوها، وقيل المراد بنعم الله عهده الذي عهد إليهم فلم يفوا به ﴿فإن الله شديد العقاب﴾ يعني لمن بدل نعمة الله. قوله عز وجل: .

الإنسان بظاهرها ويكل علمها إلى الله تعالى، أو يعتقد أن الله عزّ اسمه منزّه عن سِمات الحَدَث، على ذلك مضت أئمة السلف وعلماء السُّنّة، قال الكلبي: هذا من المكتوم الذي لا يُفسّر، وكان مكحول والزهري والأوزاعي ومالك وابن المبارك وسفيان الثّوري والليث بن سعد وأحمد وإسحق، يقولون فيه وفي أمثاله: أمِرْها كما جاءت بلا كيف، قال سفيان بن عُيينة: كلما وصفَ اللَّهُ به نفسَه في كتابه فتفسيره: قراءتُه والسكوتُ عليه، ليس لأحد أن يفسّره إلاّ الله تعالى ورسوله. قوله تعالى: ﴿ وقُضيَ الأمر ﴾، أي: وجب العذاب وفُرغ من الحساب، وذلك فصل الله القضاء بالحق بين الخلق يوم القيامة، ﴿ وإلى الله تُرجع الأمور ﴾، قرأ ابن عامر وحمزة والكسائي ويعقوب بفتح التاء وكسر الجيم، وقرأ الباقون بضمّ التاء وفتح الجيم.

قوله تعالى: ﴿ سلْ بني إسرائيل ﴾، أي: سل يا محمد يهود المدينة: ﴿ كم آتيناهم ﴾: أعطينا آباءهم وأسلافهم، ﴿ من آية بيّنة ﴾، قرأ أهل الحجاز وقتيبة بتشديد الياء والباء، والباقون بتشديد الياء، دَلَالةٍ واضحة على نبوّة موسى عليه السلام، مثل العصا واليد البيضاء وفلق البحر وغيرها، وقيل: معناه الدلالات التي آتاهم الله في التوراة والإنجيل على نبوّة محمد ﷺ، ﴿ ومَنْ يُبدل ﴾، يعني: يُغير ﴿ نِعْمَةَ الله ﴾: كتاب الله، وقيل: عهد الله، وقيل: مَن يُنكر الدّلالة على نبوّة محمد ﷺ، ﴿ من بعد ما جاءته فإنّ الله شديد العقاب ﴾.

﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢١٢﴾﴾

﴿**زين للذين كفروا الحياة الدنيا**﴾ نزلت في مشركي العرب أبي جهل وأصحابه لأنهم كانوا يتنعمون بما بسط لهم في الدنيا من المال ويكذبون بالمعاد، وقيل: نزلت في المنافقين عبدالله بن أبيّ وأصحابه. وقيل: نزلت في رؤساء اليهود. ويحتمل أنها نزلت في الكلّ. والمزين هو الله تعالى بدليل قراءة من قرأ زين بفتح الزاي وذلك أنه لا يمتنع أن يكون الله تعالى هو المزين لهم بما أظهره في الدنيا من الزهرة والنضارة والطيب واللذة وخلق الأشياء العجيبة والمناظر الحسنة، وإنما فعل ذلك ابتلاء العبادة وذلك أنه جعل دار الدنيا ابتلاء وامتحان وركب في الطباع الميل إلى اللذات وحب الشهوات لا على سبيل الإلجاء والقسر الذي لا يمكن تركه، بل على سبيل التحبب الذي تميل النفس إليه مع إمكان. ردها عنه فنظر الخلق إلى الدنيا أكثر من قدرها فأعجبهم حسنها وزهرتها وزينتها فأحبوها وفتنوا بها. وقيل: إن المراد من التزيين أنه تعالى أمهلهم في الدنيا حتى أقبلوا عليها وأحبوها، فكان هذا الإمهال هو التزين. وقيل: إن المزين هو الشيطان وغواة الجن والإنس، وذلك أنهم زينوا للكفار الحرص على الدنيا وطلبها وقبحوا لهم أمر الآخرة. وقيل: أوهموهم أن لا آخرة ليقبلوا على لذات الدنيا وطلب الحرص عليها، وهذا التأويل ضعيف لأن قوله تعالى زين الذين كفروا يتناول جميع الكفار فيدخل فيه الشيطان وغواة الجن والإنس وأن كلهم مزين لهم وهذا المزين لا بد وأن يكون مغايراً لهم فثبت بهذا ضعف قول المعتزلة ﴿**ويسخرون من الذين آمنوا**﴾ يعني أن الكفار يستهزئون بفقراء المؤمنين، قال ابن عباس: مثل عبدالله بن مسعود وعمار بن ياسر وصهيب وبلال ونظرائهم. وقيل: كانوا يقولون انظروا إلى هؤلاء الذين يزعم محمد أنه يغلب بهم ﴿**والذين اتقوا**﴾ يعني الفقراء من المؤمنين ﴿**فوقهم**﴾ أي فوق الكفار ﴿**يوم القيامة**﴾ لأن الفقراء في عليين والكفار والمنافقين في أسفل السافلين (ق) عن حارثة بن وهب أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «ألا أخبركم بأهل الجنة كل ضعيف مستضعف لو

﴿ **زُيِّن للذين كفروا الحياة الدنيا** ﴾، الأكثرون على أن المُزَيِّن هو الله تعالى، والتزيين من الله تعالى هو: أنه خلق الأشياء الحسنة والمناظر العجيبة، فنظر الخلق بأكثر من قدرها فأعجبهم حُسنها فَفُتنوا بها، وقال الزجّاج: زيّن لهم الشيطان، قيل: نزلت هذه الآية في مشركي العرب أبي جهل وأصحابه، كانوا يتنعمون بما بسط الله لهم في الدنيا من المال ويكذّبون بالمعاد، ﴿ **ويسخرون من الذين آمنوا** ﴾، أي: يستهزؤون بالفقراء من المؤمنين، قال ابن عباس: أراد بالذين آمنوا عبد الله بن مسعود وعمّار بن ياسر وصهيباً وبلالاً وخباباً وأمثالهم، وقال مقاتل: نزلت في المنافقين عبد الله بن أُبي وأصحابه كانوا يتنعمون في الدنيا ويسخرون من ضعفاء المؤمنين وفقراء المهاجرين، ويقولون: انظروا إلى هؤلاء الذين يزعم محمد أنه يغلب بهم، وقال عطاء: نزلت في رؤساء اليهود من بني قريظة والنضير وبني قينقاع، سخروا من فقراء المهاجرين، فوعدهم الله أن يعطيهم أموال بني قريظة والنضير بغير قتال، ويسخرون من الذين آمنوا لفقرهم، ﴿ **والذين اتّقوا** ﴾، يعني: هؤلاء الفقراء، ﴿ **فوقهم يوم القيامة** ﴾، لأنهم في أعلى عليين وهم في أسفل السافلين، أخبرنا أبو سعيد عبد الله بن أحمد الطاهري، أخبرنا جدّي عبد الصمد بن عبد الرحمن البزار أخبرنا أبو بكر محمد بن زكريا العذافري، أخبرنا إسحق الديري أخبرنا عبد الرزّاق أخبرنا معمر عن سليمان التيمي عن أبي عثمان النهدي عن أسامة بن زيد قال: قال رسول الله ﷺ: «وقفت على باب الجنّة فرأيت أكثر أهلها المساكين، ووقفت على باب النار فرأيت أكثر أهلها النساء، وإذا أهل الجدّ محبوسون إلاّ مَن كان منهم من أهل النار، فقد أمر به إلى النار»، أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي،

أقسم على الله لأبره ألا أخبركم بأهل النار كل عتلّ جوّاظ جعظري مستكبر» العتل الفظ الغليظ الشديد في الخصومة الذي لا ينقاد لخير. والجواظ الفاجر المختال في مشيته، وقيل هو القصير البطين. والجعظري الفظ الغليظ، وقيل هو الذي يتمدح بما ليس فيه أو عنده (ق) عن أسامة بن زيد عن النبي ﷺ قال: «قمت على باب الجنة فكان عامة من دخلها المساكين وأصحاب الجد محبوسون غير أن أصحاب النار قد أمر بهم إلى النار وقمت على باب النار فإذا عامة من دخلها النساء» الجد بفتح الجيم هو الحظ والغنى وكثرة المال ﴿**والله يرزق من يشاء بغير حساب**﴾ قال ابن عباس: يعطي كثيراً بغير مقدار لأن كل ما يدخل عليه الحساب فهو قليل، والمعنى أنه يوسع لمن يشاء من عباده وقيل يرزقه في الدنيا ولا يحاسبه في الآخرة، وقيل معناه أنه يرزق من يشاء من حيث لا يحتسب وقيل معناه أنه يرزقه بغير استحقاق وقيل معناه أنه تعالى لا يخاف نفاد ما في خزائنه حتى يحتاج إلى حساب لما يخرج منها لأن الحساب إنما يكون ليعلم قدر ما يعطي والله غني عالم بما يعطي ولا يخاف نفاد خزائنه لأنها بين الكاف والنون وقيل معناه إن الله يقتر الرزق على ما يشاء ويبسط الرزق لمن يشاء، ولا يعطي كل واحد على قدر حاجته، بل يعطي الكثير لمن لا يحتاج إليه، ولا معارض له في حكمه، ويحاسب فيما رزق، ولا يقال له لم أعطيت هذا وحرمت هذا، ولا لم أعطيت هذا أكثر من ذاك؟ لأنه تعالى لا شريك له في ملكه ينازعه ولا يسأل عما يفعل. وقيل: يحتمل أن يكون المراد منه ما يعطي الله المتقين في الآخرة من الثواب والكرامة بغير محاسبة منه لهم على ما من به عليهم وذلك أن نعيم الجنة لا نفاد له ولا انقطاع. وقيل: إنه تعالى يعطي أهل الجنة الثواب والأجر بقدر أعمالهم ثم يتفضل عليهم فذلك الفضل منه إليهم بغير حساب قوله عز وجل:

كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾

﴿**كان الناس أمة واحدة**﴾ أي على دين واحد. قيل هو آدم وذريته كانوا مسلمين على دين واحد إلى أن قتل

أخبرنا محمد بن يوسف، أخبرنا محمد بن إسماعيل ثنا إسحاق بن إبراهيم، حدّثني عبد العزيز بن أبي حازم عن أبيه عن سهل بن سعد الساعدي أنه قال: مرّ رجل على رسول الله ﷺ فقال لرجل عنده جالس: «ما رأيك في هذا»؟ فقال رجل من أشراف الناس: هذا والله حريّ إن خطب أن يُنكح، وإن شفع أن يشفع، قال: فسكت رسول الله ﷺ، ثم مرّ رجل آخر فقال له رسول الله ﷺ: «ما رأيك في هذا»؟ فقال: يا رسول الله هذا رجل من فقراء المسلمين، هذا حريّ إن خطب أن لا يُنكح وإن شفع أن لا يشفع وإن قال أن لا يُسمع لقوله، فقال رسول الله ﷺ: «هذا خير من ملء الأرض مثل هذا»، ﴿ **والله يرزق مَن يشاء بغير حساب** ﴾، يعني: كثيراً بغير مقدار، لأن كل ما دخل عليه الحساب فهو قليل، يريد يوسع على مَن يشاء ويبسط لمَن يشاء من عباده، وقال الضحاك: يعني: من غير تبعة يرزقه في الدنيا ولا يحاسبه في الآخرة، وقيل: هذا يرجع إلى الله، معناه: يقتّر على مَن يشاء ويبسط لمَن يشاء، ولا يُعطي لكل أحد بقدر حاجته بل يعطي الكثير مَنْ لا يحتاج إليه ولا يُعطي القليل مَنْ يحتاج إليه، فلا يُعتَرض عليه ولا يُحاسَب فيما يرزق، ولا يُقال: لِمَ أعطيت هذا وحرمت هذا، ولِمَ أعطيت هذا أكثر مما أعطيت ذاك، وقيل: معناه لا يخافُ نَفَاذَ خزائنه، فيحتاج إلى حساب ما يخرج منها لأن الحساب من المعطي إنما يكون بما يخاف من نفاذ خزائنه.

قوله تعالى: ﴿ **كان الناس أمة واحدة** ﴾: على دين واحد، قال مجاهد: أراد آدم وحده كان أمة واحدة، قال: سُمّي الواحد بلفظ الجمع، لأنه أصل النسل وأبو البشر، ثم خلق الله تعالى منه حوّاء ونشر منهما الناس فانتشروا،

قابيل هابيل فاختلفوا. وقيل كان الناس على شريعة واحدة من الحق والهدى من وقت آدم إلى مبعث نوح ثم اختلفوا، فبعث الله نوحاً، وهو أول رسول بعث، ثم بعث بعده الرسل. وقيل هم أهل السفينة الذين كانوا مع نوح وكانوا مؤمنين ثم اختلفوا بعد وفاته. وقيل إن العرب كانت على دين إبراهيم عليه السلام إلى أن غيره عمرو بن لحي. وقيل كانت الناس أمة واحدة حين أخرجوا من ظهر آدم لأخذ الميثاق فقال: ألست بربكم؟ قالوا بلى، فاعترفوا بالعبودية ولم يكونوا أمة واحدة غير ذلك اليوم، ثم لما ظهروا إلى الوجود اختلفوا بسبب البغي والحسد. وقيل إن آدم وحده كان أمة واحدة يعني إماماً وقدوة يقتدى به وإنما ظهر الاختلاف بعده. وقيل كان الناس أمة واحدة على الكفر والباطل بدليل قوله ﴿فبعث الله النبيين﴾ فإن قيل: أليس قد كان فيهم من هو مسلم نحو هابيل وشيث وإدريس ونحوهم؟ فالجواب أن الغالب في ذلك الزمان كان الكفر والحكم للغالب. وقيل إن الآية دلت على أن الناس كانوا أمة واحدة وليس فيها ما يدل على أنهم كانوا على إيمان أو كفر فهو موقوف على دليل من خارج ﴿فبعث الله النبيين﴾ وجملتهم مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً الرسل منهم ثلثمائة وثلاثة عشر المذكورون منهم في القرآن بأسماء الأعلام ثمانية وعشرون نبياً ﴿مبشرين﴾ بالثواب لمن آمن وأطاع ﴿ومنذرين﴾ يعني مخوفين بالعقاب لمن كفر وعصى، وإنما قدم البشارة على الإنذار لأن البشارة تجري مجرى حفظ الصحة للأبدان والإنذار يجري مجرى إزالة المرض، ولا شك أن المقصود هو الأول فكان أولى بالتقديم ﴿وأنزل معهم الكتاب﴾ أي الكتب أو يكون التقدير وأنزل مع كل واحد الكتاب ﴿بالحق﴾ أي بالعدل والصدق وجملة الكتب المنزلة من السماء مائة وأربعة كتب أنزل على آدم عشر صحائف، وعلى شيث ثلاثون، وعلى إدريس خمسون، وعلى موسى عشر صحائف والتوراة، وعلى داود الزبور، وعلى عيسى الإنجيل، وعلى محمد ﷺ وعليهم القرآن ﴿ليحكم بين الناس﴾ يعني الكتاب وإنما أضيف الحكم إلى الكتاب وإن كان الحاكم هو الله تعالى لأنه أنزله. والمعنى ليحكم الله بالكتاب الذي أنزله وقيل معناه ليحكم بين الناس كل نبي بكتابة المنزل عليه فإسناد الحكم إلى الكتاب أو للنبي مجاز والله هو الحاكم في الحقيقة ﴿فيما اختلفوا فيه﴾ أي في الحق الذي اختلفوا فيه من بعد ما كانوا متفقين عليه ﴿وما اختلف فيه﴾ أي في الحق ﴿إلّا الذين أوتوه﴾ أي أعطوا الكتاب والمراد به التوراة والإنجيل والذين أوتوه

وكانوا مسلمين إلى أن قتل هابيل فاختلفوا، ﴿ فبعث الله النبيّين ﴾ قال الحسن وعطاء: كان الناس من وقت وفاة آدم إلى مبعث نوح أمة واحدة على ملّة الكفر أمثال البهائم فبعث الله نوحاً وغيره من النبيّين، وقال قتادة وعكرمة: كان الناس من وقت آدم إلى مبعث نوح، وكان بينهما عشرة قرون، كلهم على شريعة واحدة من الحق والهدى، ثم اختلفوا في زمن نوح، فبعث الله إليهم نوحاً فكان أول نبي بُعث، ثم بَعث بعده النبيّين، وقال الكلبي: هم أهل سفينة نوح كانوا مؤمنين، ثم اختلفوا بعد وفاة نوح، ورُوِيَ عن ابن عباس قال: كان الناس على عهد إبراهيم عليه السلام أمة واحدة كفّاراً كلهم فبعث الله إبراهيم وغيره من النبيّين، وقيل: كان العرب على دين إبراهيم إلى أن غيّره عمرو بن لحيّ لعنة الله عليه، ورُوِيَ عن أبي العالية عن أُبيّ بن كعب قال كان الناس حين عُرضوا على آدم وأُخرجوا من ظهره، وأقرّوا بالعبودية لله تعالى أمةً واحدة مسلمين كلهم، ولم يكونوا أمةً واحدة قطّ غير ذلك اليوم، ثم اختلفوا بعد آدم، نظيره في سورة يونس [١٩]: ﴿ وما كان الناس إلاّ أمة واحدة فاختلفوا فبعث الله النبيّين ﴾، وجملتهم مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً، والرّسل منهم ثلاثمائة وثلاثة عشر، والمذكورون في القرآن باسم العلم ثمانية وعشرون نبيّاً، ﴿ مُبشّرين ﴾: بالثواب مَن آمن وأطاع، ﴿ ومنذرين ﴾، محذّرين بالعقاب مَن كفر وعصى، ﴿ وأنزل معهم الكتاب ﴾، أي: الكتب، تقديره: وأنزل مع كل واحد منهم الكتاب، ﴿ بالحق ﴾: بالعدل والصدق، ﴿ ليحكم بين الناس ﴾، قرأ أبو جعفر ﴿ ليحكم ﴾ بضم الياء وفتح الكاف ههنا، وفي أول آل عمران

اليهود والنصارى واختلافهم هو تكفير بعضهم بعضاً بغياً وحسداً. وقيل اختلافهم هو تحريفهم وتبديلهم. وقيل الكناية فيه راجعة إلى محمد ﷺ والمعنى وما اختلف في أمر محمد ﷺ بعد وضوح الدلالات على صحة نبوته ﷺ إلّا اليهود الذين أوتوا الكتاب بغياً منهم وحسداً ﴿**من بعد ما جاءتهم البينات**﴾ أي الدلالات الواضحات على صحة نبوة محمد ﷺ ﴿**بغياً بينهم**﴾ أي إنهم لم يبق لهم عذر في العدول عنه وترك ما جاء وإنما تركوا إتباعه بغياً وحسداً، وهو طلب الدنيا وطلب الرياسة ﴿**فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه**﴾ أي إلى ما اختلفوا فيه ﴿**من الحق**﴾ والمعنى فهدى الله الذين آمنوا لمعرفة ما اختلفوا فيه من الحق وقيل هو من المقلوب والمعنى فهدى الله الذين آمنوا للحق الذي اختلفوا فيه وكان اختلافهم الذي اختلفوا فيه الجمعة فهدى الله تعالى هذه الأمة الإسلامية إليها (ق) عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «نحن الآخرون السابقون يوم القيامة أوتوا الكتاب من قبلنا وأوتيناه من بعدهم فهذا اليوم الذي اختلفوا فيه فهدانا الله فغداً لليهود وبعد غد للنصارى» وفي رواية قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «نحن الآخرون السابقون بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا ثم هذا يومهم الذي فرض الله عليهم فاختلفوا فيه فهدانا الله له» زاد النسائي: يعني يوم الجمعة، ثم اتفقا فالناس لنا تبع اليهود غداً والنصارى بعد غد (م) عن حذيفة قال: قال رسول الله ﷺ: «أضل الله عن يوم الجمعة من كان قبلنا، فكان لليهود يوم السبت، وللنصارى يوم الأحد، فجاء الله بنا فهدانا ليوم الجمعة فجعل الله الجمعة والسبت والأحد وكذلك هم تبع لنا يوم القيامة نحن الآخرون من أهل الدنيا الأولون يوم القيامة المقضي لهم يوم القيامة قبل الخلائق. وقيل اختلفوا في شأن القبلة فصلت اليهود نحو المغرب إلى بيت المقدس، وصلت النصارى إلى المشرق، وهدانا الله إلى الكعبة. وقيل اختلفوا في الصيام فهدانا الله لشهر رمضان، واختلفوا في إبراهيم فقالت اليهود كان يهودياً، وقالت النصارى كان نصرانياً، فهدانا إلى الحق فقلنا: كان حنيفاً مسلماً. واختلفوا في عيسى ابن مريم فاليهود فرطوا فيه والنصارى أفرطوا فيه، فهدانا الله في ذلك كله للحق. والمعنى فهدى الله الذين آمنوا إلى الحق الذي اختلف فيه من اختلف ﴿**بإذنه**﴾ يعني بعلمه وأمره وإرادته ﴿**والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم**﴾.

وفي النور موضعين، لأن الكتاب لا يحكم في الحقيقة إنما يُحكم به، وقراءة العامّة بفتح الياء وضمّ الكاف، أي: ليحكم الكتاب، ذكره على سِعة الكلام، كقوله تعالى: ﴿ هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق ﴾ [الجاثية: ٢٩]، وقيل: معناه ليحكم كل نبيّ بكتابه، ﴿ **فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه** ﴾، أي: في الكتاب ﴿ **إلّا الذين أُوتوه** ﴾، أي: أُعطوا الكتاب، ﴿ **من بعد ما جاءتهم البيّنات** ﴾، يعني: أحكام التوراة والإنجيل، قال الفرّاء: ولاختلافهم معنيان: أحدهما كفرُ بعضهم بكتاب بعض، قال الله تعالى: ﴿ ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعضٍ ﴾ [النساء: ١٥٠]، والآخر: تحريفهم كتاب الله قال الله: ﴿ يُحرِّفون الكَلِم عن مواضعه ﴾ [النساء: ٤٦، والمائدة: ١٣]، وقيل: الآية راجعة إلى محمد ﷺ وكتابه، اختلف فيه أهل الكتاب ﴿ **مِنْ بعدِ ما جاءتهم البيّنات** ﴾، صفة محمد ﷺ في كتبهم، ﴿ **بغياً** ﴾ ظلماً وحسداً ﴿ **بينهم فهدى الله الذين آمنوا لِما اختلفوا فيه** ﴾، أي: إلى ما اختلفوا فيه، ﴿ **من الحق بإذنه** ﴾، بعلمه وإرادته فيهم، قال ابن زيد في هذه الآية: اختلفوا في القِبلة فمنهم مَن يصلّي إلى المشرق ومنهم مَن يصلّي إلى المغرب، ومنهم مَن يصلّي إلى بيت المقدس، فهدانا الله إلى الكعبة، واختلفوا في الصيام فهدانا الله لشهر رمضان، واختلفوا في الأيام، فأخذت اليهود السبت، والنصارى الأحد، فهدانا الله للجمعة، واختلفوا في إبراهيم عليه السلام، فقالت اليهود: كان يهودياً، وقالت النصارى: كان نصرانياً، فهدانا الله للحق من ذلك، واختلفوا في عيسى فجعلته اليهود الفِرية، وجعلته النصارى إلّهاً، وهدانا الله للحق فيه، ﴿ **والله يهدي مَن يشاء إلى صراط مستقيم** ﴾.

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ ۗ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿**أم حسبتم أن تدخلوا الجنة**﴾ نزلت في غزوة الأحزاب وهي غزوة الخندق، وذلك أن المسلمين أصابهم ما أصابهم من الجهد والشدة والخوف والبرد وضيق العيش الذي كانوا فيه يومئذٍ. وقيل: نزلت في غزوة أحد. وقيل: لما دخل رسول الله ﷺ وأصحابه المدينة في أول الهجرة اشتد عليهم الضر لأنهم خرجوا بلا مال وتركوا أموالهم وديارهم بأيدي المشركين، وآثروا رضا الله ورسوله، وأظهرت اليهود العداوة لرسول الله ﷺ وآثر قوم النفاق فأنزل الله هذه الآية تطيباً لقلوبهم. ومعنى الآية: أحسبتم والميم صلة. وقيل: هل حسبتم والمعنى أظننتم أيها المؤمنون أن تدخلوا الجنة بمجرد الإيمان ولم يصبكم مثل ما أصاب من كان قبلكم من إتباع الأنبياء والرسل من الشدائد والمحن والابتلاء والاختبار وهو قوله: ﴿**ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم**﴾ أي شبه الذين مضوا قبلكم من النبيين وأتباعهم من المؤمنين ومثل محنتهم ﴿**مستهم البأساء**﴾ أي أصابهم الفقر والشدة والمسكنة وهو اسم من البؤس ﴿**والضراء**﴾ يعني المرض والزمانة وضروب الخوف ﴿**وزلزلوا**﴾ أي وحركوا بأنواع البلايا والرزايا وأصل الزلزلة الحركة وذلك لأن الخائف لا يستقر بل لا يزال يضطرب ويتحرك لقلقه ﴿**حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله**﴾ وذلك لأن الرسل أثبت من غيرهم وأصبر وأضبط للنفس عند نزول البلاء وكذا أتباعهم من المؤمنين. والمعنى أنه بلغ بهم الجهد والشدة والبلاء ولم يبق لهم صبر وذلك هو الغاية القصوى في الشدة فلما بلغ بهم الحال في الشدة إلى هذه الغاية واستبطؤا النصر قيل لهم ﴿**ألا إن نصر الله قريب**﴾ إجابة لهم في طلبهم. والمعنى: هكذا كان حالهم لم يغيرهم طول البلاء والشدة عن دينهم إلى أن يأتيهم نصر الله فكونوا يا معشر المؤمنين كذلك وتحملوا الأذى والشدة والمشقة في طلب الحق فإن نصر الله قريب (خ) عن خباب بن الأرت قال: شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة فقلنا ألا تنتصر لنا ألا تدعو لنا فقال: «قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض فيجعل فيها ثم يؤتى بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه ما يصده ذلك عن دينه والله ليتمنَّ الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من

قوله تعالى: ﴿ أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ﴾، قال قتادة والسدي: نزلت هذه الآية في غزوة الخندق حين أصاب المسلمين ما أصابهم من الجهد وشدّة الخوف والبرد وضيق العيش وأنواع الأذى، كما قال الله تعالى: ﴿ وبلغت القلوب الحناجر ﴾ [الأحزاب: ١٠]، وقيل: نزلت في حرب أُحد، وقال عطاء: لمّا دخل رسول الله ﷺ وأصحابه المدينة، اشتدّ عليهم الضرّ لأنهم خرجوا بِلا مالٍ وتركوا ديارهم وأموالهم بأيدي المشركين، وآثروا رضا الله ورسوله، وأظهرت اليهود العداوة لرسول الله ﷺ، وأسرّ قومُ النفاق، فأنزل الله تعالى تطييباً لقلوبهم ﴿ أم حسبتم ﴾، معناه حسبتم والميم صلة قاله الفرّاء، وقال الزجّاج: بل حسبتم، ومعنى الآية: أظننتم أيها المؤمنون أن تدخلوا الجنة، ﴿ ولمّا يأتكم ﴾، أي: ولم يأتكم و﴿ ما ﴾ صلة ﴿ مَثَلُ الذين خَلَوْا ﴾، شبه الذين مضوا، ﴿ مِنْ قبلكم ﴾: من النبيين والمؤمنين، ﴿ مسّتهم البأساء ﴾: الفقر والشدّة والبلاء، ﴿ والضرّاء ﴾: المرض والزَّمَانة، ﴿ وزُلزلوا ﴾، أي: حُرّكوا بأنواع البلايا والرزايا وخُوّفوا، ﴿ حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ﴾، ما زال البلاء بهم حتى استبطأوا النصر، قال الله تعالى: ﴿ ألا إن نصر الله قريب ﴾، قرأ نافع ﴿ حتى يقول الرسول ﴾ بالرفع، معناه: حتى قال الرسول، وإذا كان الفعل الذي يلي حتى في معنى الماضي، ولفظه لفظ المستقبل، فَلَكَ فيه الوجهان: الرفع والنصب، فالنصب على ظاهر الكلام لأن (حتــى) تنصب الفعل المستقبل،

صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون».

﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿**يسألونك ماذا ينفقون**﴾ نزلت في عمرو بن الجموح، وكان شيخاً كبيراً ذا مال، فقال يا رسول الله بماذا نتصدق وعلى من ننفق؟ فأنزل الله تعالى ﴿**يسألونك ماذا ينفقون قل ما أنفقتم من خير**﴾ أي مال والمعنى: وما تفعلوا من إنفاق شيء من المال قل أو كثر ﴿**فللوالدين**﴾ وإنما قدم الإنفاق على الوالدين لوجوب حقهما على الولد لأنهما كانا السبب في إخراجه من العدم إلى الوجود ﴿**والأقربين**﴾ وإنما ذكر بعد الوالدين الأقربين لأن الإنسان لا يقدر أن يقوم بمصالح جميع الفقراء فتقديم القرابة أولى من غيرهم ﴿**واليتامى**﴾ وإنما ذكر بعد الأقربين اليتامى لصغرهم، ولأنهم لا يقدرون على الاكتساب، ولا لهم أحد ينفق عليهم ﴿**والمساكين**﴾ وإنما أخرهم لأن حاجتهم أقل من حاجة غيرهم ﴿**وابن السبيل**﴾ يعني المسافر فإنه بسبب انقطاعه عن بلده قد يقع في الحاجة والفقر فانظر إلى هذا الترتيب الحسن العجيب في كيفية الإنفاق. ثم لما فصل الله هذا التفصيل الحسن الكامل أتبعه بالإجمال فقال تعالى: ﴿**وما تفعلوا من خير فإن الله به عليم**﴾ وما تفعلوا من خير مع هؤلاء أو غيرهم طلباً لوجه الله تعالى ورضوانه فإن الله به عليم فيجازيكم عليه وذكر علماء التفسير أن هذه الآية منسوخة قال ابن مسعود نسختها آية الزكاة وقال الحسن إنها محكمة ووجه إحكامها أن الله ذكر فيها من تجب النفقة عليه مع فقره وهما الوالدان. وقال ابن زيد: هذا في النفل، وهو ظاهر الآية فمن أحب التقرب إلى الله تعالى بالإنفاق فالأولى به أن ينفق في الوجوه المذكورة في الآية، فيقدم الأول فالأول. (بقي في الآية سؤال: وهو أنه كيف طابق السؤال الجواب وهو أنهم سألوا عن بيان ما ينفق فأجيبوا ببيان المصرف، وأجيب عن هذا السؤال بأنه قد تضمن قوله: ما

والرفع معناه الماضي، و(حتى) لا تعمل في الماضي.

قوله تعالى: ﴿ **يسألونك ماذا ينفقون** ﴾، نزلت في عمرو بن الجموح وكان شيخاً كبيراً ذا مال فقال: يا رسول الله بماذا نتصدق وعلى مَن ننفق؟ فأنزل الله تعالى: ﴿ **يسألونك ماذا ينفقون** ﴾، وفي قوله: ﴿ **ماذا** ﴾ وجهان من الإعراب، أحدهما: أن يكون محله نصباً بقوله: ﴿ **ينفقون** ﴾، تقديره أي شيء ينفقون، والآخر: أن يكون رفعاً بـ ﴿ **ما** ﴾ ومعناه: ما الذي ينفقون؟ ﴿ **قل ما أنفقتم من خير** ﴾، أي: من مال، ﴿ **فللوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل، وما تفعلوا من خير فإنّ الله به عليم** ﴾، يُجازيكم به قال أهل التفسير: كان هذا قبل فرض الزكاة فنسخت بالزكاة.

قوله تعالى: ﴿ **كُتب عليكم القتال** ﴾، أي: فُرض عليكم الجهاد، واختلف العلماء في حكم هذه الآية فقال عطاء: الجهادُ تطوّع، والمراد من الآية أصحاب رسول الله ﷺ دون غيرهم، وإليه ذهب الثّوري، واحتجّ مَن ذهب إلى هذا بقوله تعالى: ﴿ فَضَّلَ اللَّهُ المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة وكلاً وَعَدَ اللَّهُ الحُسنى ﴾ [النساء: ٩٥]، ولو كان القاعد تاركاً فرضاً لم يكن بعده الحُسنى، وجرى بعضهم على ظاهر الآية وقال: الجهاد فرض على كافّة المسلمين إلى قيام الساعة، أخبرنا أبو سعيد أحمد بن إبراهيم الشريحي الخوارزمي، أخبرنا أبو إسحق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي، أخبرنا أبو عمرو أحمد بن أبي القرالي، أخبرنا أحمد بن حازم بن أبي

أنفقتم من خير بيان ما ينفقونه وهو المال ثم ضم إلى جواب السؤال ما يكمل به المقصود، وهو بيان المصرف لأن النفقة لا تعد نفقة إلاّ أن تقع موقعها قال الشاعر:

إن الصنيعـــة لا تعـــد صنيعـــة حتـى يصـاب بهـا طـريـق المصنـع

قوله عز وجل: ﴿كتب عليكم القتال﴾ أي فرض عليكم الجهاد. واختلف العلماء في حكم الآية فقال عطاء الجهاد تطوع والمراد من الآية أصحاب رسول الله ﷺ دون غيرهم وإليه ذهب الثوري وحكى عن الأوزاعي نحوه، وحجة هذا القول أن قوله كتب يقتضي الإيجاب ويكفي العمل به مرة واحدة وحجة من أوجبه على أصحاب رسول الله ﷺ أن قوله عليكم يقضتي تخصيص هذا الخطاب بالموجودين في ذلك الوقت، وقيل: بل الآية على ظاهرها والجهاد فرض على كل مسلم ويدل على ذلك ما روي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «الجهاد واجب عليكم مع كل أمير براً كان أو فاجراً» أخرجه أبو داود بزيادة فيه (ق) عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ يوم الفتح: «لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية، وإذا استنفرتم فانفروا» وقيل: إن الجهاد فرض على الكفاية إذا قام به البعض سقط الفرض عن الباقين وهذا القول: هو المختار الذي عليه جمهور العلماء. قال الزهري كتب الله القتال على الناس جاهدوا أو لم يجاهدوا فمن غزا فيها ونعمت ومن قعد عدة إن استعين به أعان وإن استنفر نفر وإن استغنى عنه قعد قال الله تعالى: ﴿فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة وكلاً وعد الله الحسنى﴾ ولو كان القاعد تاركاً فرضاً لم يعده بالحسنى، واختلف علماء الناسخ والمنسوخ في هذه الآية على ثلاثة أقوال: أحدها أنها محكمة ناسخة للعفو عن المشركين. القول الثاني: إنها منسوخة لأن فيها وجوب الجهاد على

غَرزة، أخبرنا سعيد بن عثمان العبدي عن عمرو بن محمد بن المنكدر عن سمي عن أبي صالح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن مات ولم يغزُ ولم يُحدِّث نفسه بالغزو مات على شعبة من النفاق» وقال قوم وعليه **الجمهور**: إن الجهاد فرض على الكفاية إذا قام به البعض سقط عن الباقين، مثل صلاة الجنازة، وردِّ السلام، قال الزهري والأوزاعي: كتب الله الجهاد على الناس غَزُوا أو قعدوا، فمَن غزا فيها ونعمت، ومَن قعد فهو عِدّةٌ إن استُعين به أعان وإن استُنفر نَفَر، وإن استُغني عنه قَعَد، قوله تعالى: ﴿ **وهو كُرهٌ لكم** ﴾، أي: شاق عليكم، قال بعض أهل المعاني: هذا الكره من حيث نفورُ الطبع عنه، لِما فيه من مؤنة المال ومشقّة النفس وخطر الروح، لا أنهم كرهوا أمر الله تعالى، وقال عكرمة: نسخها قوله تعالى: ﴿ سمعنا وأطعنا ﴾ [البقرة: ٢٨٥، النساء: ٤٦، المائدة: ٧، النور: ٥١]، يعني: أنهم كرهوا ثم أحبوه، فقالوا: سمعنا وأطعنا، قال الله تعالى: ﴿ **وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خيرٌ لكم** ﴾، لأنّ في الغزو إحدى الحُسنيين إمّا الظفر والغنيمة وإمّا الشهادة والجنّة، ﴿ **وعسى أن تُحبّوا شيئاً** ﴾، يعني: القعود عن الغزو، ﴿ **وهو شرٌّ لكم** ﴾: لما فيه من فوات الغنيمة والأجر، ﴿ **والله يعلم وأنتم لا تعلمون** ﴾، قوله تعالى: ﴿ يسئلونك عن الشهر الحرام قتال فيه ﴾ [البقرة: ٢١٧]؟ سبب نزول هذه الآية: أن رسول الله ﷺ بعث عبد الله بن جحش وهو ابن عمّة النبي ﷺ أُخت أبيه في جمادى الآخرة، قبل قتال بدر بشهرين على رأس سبعة عشر شهراً من مَقْدِمِه إلى المدينة، وبعث معه ثمانية رهط من المهاجرين، سعد بن أبي وقاص الزهري وعُكاشة بن محصن الأسدي وعتبة بن غَزْوَان السُّلَمي وأبا حذيفة بن عتبة بن ربيعة وسُهيل بن بيضاء وعامر بن ربيعة ووَاقد بن عبد الله وخالد بن بكير، وكتب لأميرهم عبد الله بن جحش كتاباً وقال له: «سرْ على اسم الله، ولا تنظر في الكتاب حتى تسير يومين، فإذا نزلت فافتح الكتاب، واقرأه على أصحابك، ثم امضِ لما أمرتُك ولا تستكرهنّ أحداً من أصحابك على السير معك»، فسار عبد الله يومين ثم نزل وفتح الكتاب فإذا فيه بسم الله الرحمن الرحيم أمّا بعد فسرْ على بركة الله ممّن تبعك من أصحابك حتى تنزل بطن مكة فترصدْ بها عِيرَ قريش لعلك

الكافة ثم نسخ بقوله تعالى: ﴿وما كان المؤمنون لينفروا كافة﴾ القول الثالث: إنها ناسخة من وجه ومنسوخة من وجه فالناسخ منها إيجاب الجهاد مع المشركين بعد المنع منه، والمنسوخ إيجاب الجهاد على الكافة. وقوله تعالى: ﴿وهو كره لكم﴾ أي القتال شاق عليكم وهذا الكره إنما حصل من حيث نفور الطبع عن القتال، لما فيه من مؤنة المال ومشقة النفس وخطر الروح والخوف لا أنهم كرهوا أمر الله قيل: نسخ هذا الكره بقوله تعالى إخباراً عنهم: «وقالوا سمعنا وأطعنا» وقيل: إنما كان كراهتهم القتال قبل أن يفرض عليهم لما فيه من الخوف والشدة وكثرة الأعداء فبين الله تعالى أن الذين تكرهون من القتال هو خير لكم من تركه لئلا يكرهونه بعد أن فرض عليهم ﴿وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم﴾ لفظة عسى توهم الشك مثل لعل، وهي من الله يقين. وقيل: إنها كلمة مطمعة فهي لا تدل على حصول الشك للقائل وتدل على حصول الشك للمستمع، والمعنى أن الغزو فيه إحدى الحسنيين إما الظفر والغنيمة وإما الشهادة والجنة وقيل: ربما كان الشيء شاقاً في الحال وهو سبب المنافع الجليلة في المستقبل، ومثله شرب الدواء المر فإنه ينفر عنه الطبع في الحال ويكرهه لكن يتحمل هذه الكراهة والمشقة لتوقع حصول الصحة في المستقبل ﴿وعسى أن تحبوا شيئاً﴾ يعني القعود عن الغزو ﴿وهو شر لكم﴾ يعني لما فيه من فوت الغنيمة والأجر وطمع العدو فيكم، لأنه إذا علم ميلكم إلى الراحة والدعة والسكون قصد بلادكم وحاول قتالكم وإذا علم أن فيكم شهامة وجلادة على القتال كف عنكم ﴿والله يعلم﴾ يعني ما في الجهاد من الغنيمة والأجر

تأتينا منه بخير، فلما نظر في الكتاب قال سمعاً وطاعةً، ثم قال لأصحابه ذلك، وقال إنه نهاني أن أستكره أحداً منكم فمَن كان يريد الشهادة فلينطق، ومَن كره فليرجع، ثم مضى ومضى معه أصحابه لم يتخلّف عنه منهم أحدٌ حتى كان بمعدن فوق الفرع بموضع من الحجاز يقال له نجران، أضلّ سعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان بعيراً لهما يعتقبانه فتخلّفا في طلبه، ومضى ببقية أصحابه حتى نزلوا بطن نخلة بين مكة والطائف، فبينما هم كذلك إذ مرّت عيرٌ لقريش تحمل زبيباً وأُدْماً وتجارةً من تجارة الطائف فيهم عمرو بن الحضرمي والحكم بن كيسان مولى هشام بن المغيرة وعثمان بن عبد الله بن المغيرة وأخوه نوفل بن عبد الله المخزوميان، فلما رأوا أصحاب رسول الله ﷺ هابوهم، فقال عبد الله بن جحش: إن القوم قد ذُعِرُوا منكم فاحلقوا رأس رجل منكم وليتعرّض لهم، فحلقوا رأس عكاشة فوق ثم أشرفوا عليهم، فقالوا: قوم عمّار لا بأس عليكم فأمنوهم، وكان ذلك في آخر يوم من جُمادى الآخرة، وكانوا يرون أنه من جمادى وهو من رجب، فتشاور القوم وقالوا: إن تركتموهم الليلة ليدخلن الحرم فليمتنعن منكم، فأجمعوا أمرهم في موافقة القوم فرمى واقد بن عبد الله السهمي عمرو بن الحضرمي فقتله، فكان أول قتيل من المشركين وهو أول قتيل في الهجرة، وأدّى النبيّ ﷺ دِيَة ابن الحضرمي إلى ورثته من قريش، قال مجاهد وغيره: لأنه كان بين رسول الله ﷺ وبين قريش عهد، وادع أهل مكة سنتين أن لا يقاتلهم ولا يقاتلوه واستأسر الحكم وعثمان فكانا أول أسيرين في الإسلام وأُفلت نوفل فأعجزهم واستاق المؤمنون العير والأسيرين حتى قدموا على رسول الله ﷺ بالمدينة، فقالت قريش: قد استحلّ محمد الشهر الحرام فسفك فيه الدماء وأخذ الحرائب، وعيّر بذلك أهل مكة مَن كان بها من المسلمين، وقالوا: يا معشر الصبأة استحللتم الشهر الحرام وقاتلتم فيه وبلغ رسول الله ﷺ، فقال لابن جحش وأصحابه: ما أمرتكم بالقتال في الشهر الحرام ووقف العير والأسيرين، وأبى أن يأخذ شيئاً من ذلك، فعظُم ذلك على أصحاب السرية وظنوا أن قد هلكوا وسقط في أيديهم، وقالوا: يا رسول الله إنّا قد قتلنا ابن الحضرمي ثم أمسينا فنظرنا إلى هلال رجب فلا ندري أفي رجب أصبناه أم في جمادى، وأكثَرَ الناسُ في ذلك فأنزل الله تعالى هذه الآية، فأخذ رسول الله ﷺ العير فعزل منها الخُمس فكان أول خُمس في الإسلام، وقسم الباقي بين أصحاب السرية فكان أول غنيمة في الإسلام، وبعث أهل مكة في فداء أسيريهم،

والخير ﴿وأنتم لا تعلمون﴾ يعني ذلك والمعنى أن العبد إذا علم قصور علمه وكمال علم الله ثم إن الله تعالى أمره بأمر كان ذلك الأمر فيه مصلحة عظيمة فيجب على العبد امتثال أمر الله تعالى وإن كان يشق على النفس في الحال.
قوله عز وجل:

يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾

﴿**يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه**﴾ سبب نزول هذه الآية. أن رسول الله ﷺ بعث عبدالله بن جحش وهو ابن عمته في سرية في جمادى الآخرة قبل قتال بدر بشهرين وأمره على السرية وكتب له كتاباً، وقال: سر على اسم الله ولا تنظر في الكتاب حتى تسير يومين، فإذا نزلت فافتح الكتاب فاقرأه على أصحابك ثم امض لما أمرتك به، ولا تستكرهنَّ أحداً منهم على السير معك فسار عبدالله يومين، ثم نزل وفتح الكتاب، فإذا فيه: بسم الله الرحمن الرحيم أما بعد فسر على بركة الله تعالى، بمن معك من أصحابك حتى تنزل بطن نخلة فارصد بها عيراً لقريش لعلك تأتينا منها بخير. فقال: سمعاً وطاعة ثم قال لأصحابه ذلك وقال إنه نهاني أن أستكره أحداً منكم فمن كان يريد الشهادة فلينطلق ومن كان يكره فليرجع، ثم مضى ومضى أصحابه معه وكانوا ثمانية رهط، ولم يتخلف عنه أحد منهم حتى إذا كان بمعدن فوق الفرع بموضع من الحجاز، يقال له نجران أضل سعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان بعيراً لهما كانا يتعقبانه فتخلفا في طلبه، ومضى عبدالله ببقية أصحابه حتى نزل في بطن نخلة بين مكة والطائف فبينما هم كذلك إذ مرت بهم عير لقريش تحمل زبيباً وأدماً، وتجارة من تجارة الطائف وفي العير عمرو بن الحضرمي والحكم بن كيسان وعثمان بن عبدالله بن المغيرة ونوفل بن عبدالله بن المخزوميان فلما رأوا أصحاب رسول الله ﷺ هابوهم وقد نزلوا قريباً منهم فقال عبدالله بن جحش: إن القوم قد ذعروا منكم، فاحلقوا رأس رجلٍ منكم وليتعرض لهم فإذا رأوه محلوقاً أمنوا، فحلقوا رأس عكاشة بن محصن، ثم أشرف عليهم فلما رأوه آمنوا وقالوا: قوم عمار فلابأس علينا وكان ذلك في آخر يوم من جمادى الآخرة وكانوا يرون أنه من رجب فتشاور القوم فيهم، وقالوا: متى تركتموهم هذه الليلة ليدخلن الحرم وليمتنعن منكم فأجمعوا أمرهم في مواقعة

فقال: بل نبقيهما حتى يقدم سعد وعقبة وإن لم يقدما قتلناهما بهما، فلما قَدِمَا فأدّاهما، فأما الحكم بن كيسان فأسلم وأقام مع رسول الله ﷺ بالمدينة فقتل يوم بئر معونة شهيداً، وأمّا عثمان بن عبد الله فرجع إلى مكة فمات بها كافراً، وأما نوفل فضرب بطن فرسه يوم الأحزاب ليدخل الخندق فوقع في الخندق مع فرسه فتحطما جميعاً، فقتله الله فطلب المشركون جيفته بالثمن فقال رسول الله ﷺ: «خذوه فإنه خبيث الجيفة خبيث الديّة»، فهذا سبب نزول هذه الآية.

قوله تعالى: ﴿ **يسألونك عن الشهر الحرام** ﴾؟ يعني: رجباً، سُمّي بذلك لتحريم القتال فيه، قوله تعالى: ﴿ **قتال فيه** ﴾، أي: **عن قتال فيه**، ﴿ قل ﴾، يا محمد: ﴿ **قتال فيه كبير** ﴾: عظيم، تمّ الكلام ههنا ثم ابتدأ فقال: ﴿ **وصدّ عن سبيل الله** ﴾، وصدّكم المسلمين عن الإسلام ﴿ **وكفر به** ﴾، أي: كفركم بالله، ﴿ **والمسجد**

القوم فرمى واقد بن عبدالله السهمي عمرو بن الحضرمي بسهم، فقتله فكان أول قتيل من المشركين وأسر الحكم بن كيسان وعثمان وكانا أول أسيرين في الإسلام، وأفلت نوفل فأعجزهم واستاق المسلمون العير والأسيرين حتى قدموا على رسول الله ﷺ. فقالت قريش: قد استحل محمد الشهر الحرام وسفك الدماء وأخذ الحرائب يعني المال، وعير بذلك أهل مكة من كان بها من المسلمين. وقالوا: يا معشر الصباة استحللتم الشهر الحرام، وقاتلتم فيه فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال لعبدالله بن جحش وأصحابه: ما أمرتكم بالقتال في الشهر الحرام، ووقف العير والأسيرين وأبى أن يأخذ شيئاً من ذلك وعنف المسلمون أصحاب السرية فيما صنعوا، وقالوا لم صنعتم ما لم تؤمروا به، فعظم ذلك على أصحاب السرية وظنوا أنهم قد هلكوا وسقط في أيديهم. وقالوا يا رسول الله إنا قتلنا ابن الحضرمي ثم أمسينا فنظرنا هلال رجب فلا ندري أفي رجب أصبناه أم في جمادى وأكثر الناس في ذلك فأنزل الله هذه الآية فأخذ رسول الله ﷺ العير فعزل منها الخمس، وكان أول خمس في الإسلام وأول غنيمة قسمت فقسم الباقي على أصحاب السرية وبعث أهل مكة في فداء أسيريهم. فقال بل نبقيهما حتى يقدم سعد وعقبة، وإن لم يقدما قتلناهما بهما. فلما قدما فاداهما فأما الحكم بن كيسان فأسلم وأقام مع رسول الله ﷺ بالمدينة فقتل يوم بئر معونة شهيداً وأما عثمان بن عبدالله فرجع إلى مكة فمات بها كافراً. وأما نوفل فضرب بطن فرسه يوم الأحزاب ليدخل الخندق فوقع في الخندق مع فرسه فتحطما جميعاً، وقتله الله، فطلب المشركون جيفته بالثمن. فقال رسول الله ﷺ: خذوه فإنه خبيث الجيفة خبيث الدية وأما تفسير الآية فقوله تعالى: ﴿**يسألونك**﴾ يعني يا محمد عن الشهر الحرام يعني رجباً وسمي بذلك لتحريم القتال فيه وفي السائلين رسول الله ﷺ قولان: أحدهما أنهم المسلمون سألوا رسول الله ﷺ هل أخطؤوا أم أصابوا وقيل: إن المسلمين كانوا يعلمون أن القتال في الحرم وفي الشهر الحرام لا يحل فلما كتب عليهم القتال سألوا رسول الله ﷺ عن القتال في الشهر الحرام فنزلت هذه الآية: والقول الثاني أن السائلين هم المشركون وإنما سألوه على وجه العيب على المسلمين فنزلت هذه الآية ﴿**يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل**﴾ أي قل لهم يا محمد ﴿**قتال فيه كبير**﴾ أي عظيم مستكبر واختلف العلماء في حكم هذه الآية على قولين أحدهما أنها محكمة وأنه لا يجوز الغزو في الشهر الحرام إلّا أن يقاتلوا فيه فيقاتلوا على سبيل الدفع. روي عن عطاء أنه كان يحلف بالله ما يحل للناس، أن يغزوا في الشهر الحرام، ولا أن يقاتلوا فيه وما نسخت. والقول الثاني الذي عليه جمهور العلماء وهو الصحيح أنها منسوخة. قال سعيد بن المسيب وسليمان بن يسار. القتال جائز في الشهر الحرام وهذه الآية منسوخة بقوله: ﴿**اقتلوا المشركين حيث وجدتموهم**﴾ وبقوله: ﴿**وقاتلوا المشركين كافة**﴾ يعني في الأشهر الحرم وغيرها ﴿**وصد عن سبيل الله**﴾ هذا ابتداء كلام والمعنى وصدكم المسلمين عن الحج أو وصدكم عن الإسلام من يريده ﴿**وكفر به**﴾ أي بالله ﴿**والمسجد الحرام**﴾ أي وصدكم عن المسجد الحرام ﴿**وإخراج أهله منه**﴾ يعني رسول الله ﷺ والمؤمنين حين اذوهم حتى هاجروا وتركوا مكة، وإنما جعلهم الله أهله لأنهم كانوا هم القائمين بحقوق المسجد الحرام دون المشركين ﴿**أكبر عند الله**﴾ أي أعظم وزراً عند الله من القتال في الشهر الحرام ﴿**والفتنة**﴾ أي الشرك الذي أنتم عليه ﴿**أكبر من القتل**﴾ يعني قتل ابن الحضرمي

الحرام﴾، أي بالمسجد الحرام، وقيل: وصدّكم عن المسجد الحرام، ﴿ **وإخراج أهله** ﴾، أي: إخراج أهل المسجد ﴿ **منه أكبر** ﴾: أعظم وِزراً ﴿ **عند الله والفتنة** ﴾، أي: الشرك الذي أنتم عليه، ﴿ **أكبر من القتل** ﴾، أي: أعظم من قتل ابن الحضرمي في الشهر الحرام، فلما نزلت هذه الآية كتب عبد الله بن أنيس إلى مؤمني مكة: **إذا** عيّركم المشركين بالقتال في الشهر الحرام فعيِّروهم أنتم بالكفر وإخراج رسول الله ﷺ من مكة ومنعهم المسلمين عن البيت الحرام، ثم قال: ﴿ **ولا يزالون** ﴾، يعني: مشركي مكة، وهو فعل لا مصدر له مثل عسى، ﴿ **يقاتلونكم** ﴾، يا معشر المؤمنين، ﴿ **حتى يردّوكم** ﴾: يصرفوكم، ﴿ **عن دينكم إن استطاعوا ومَن يرتددْ منكم**

في الشهر الحرام فلما نزلت هذه الآية كتب عبدالله بن أنيس وقيل: عبدالله بن جحش إلى مؤمني مكة إن عيركم المشركون بالقتال في الشهر الحرام فعيروهم أنتم بالكفر وبإخراج رسول الله ﷺ من مكة والمسلمين، ومنعهم إياهم من البيت ﴿ولا يزالون﴾ يعني مشركي مكة ﴿يقاتلونكم﴾ يعني يا معشر المؤمنين ﴿حتى يردوكم عن دينكم﴾ يعني إلى دينهم وهو الكفر ﴿إن استطاعوا﴾ يعنى إن قدروا على ذلك وفيه استبعاد لاستطاعتهم فهو كقول الرجل لعدوه إن ظفرت بي فلا تبق علي وهو واثق أنه لا يظفر به ﴿ومن يرتد منكم عن دينه فيمت وهو كافر﴾ يعني ومن يطاوعهم منكم فيرجع إلى دينهم فيمت على ردته قبل أن يتوب ﴿فأولئك حبطت أعمالهم﴾ أي بطلت أعمالهم ﴿في الدنيا والآخرة﴾ وهو أن المرتد يقتل وتبين زوجته منه، ولا يستحق الميراث من أقاربه المؤمنين ولا ينصر إن استنصر ولا يمدح ولا يثنى عليه ويكون ماله فيئاً للمسلمين هذا في الدنيا، ولا يستحق الثواب على أعماله ويحبط أجرها في الآخرة وظاهر الآية يقتضي أن الارتداد إنما تتفرع عليه الأحكام إذا مات المرتد على الكفر، أما إذا أسلم بعد الردة لم يثبت عليه شيء من أحكام الردة وفيه دليل للشافعي أن الردة لا تحبط الأعمال حتى يموت المرتد على ردته. وعند أبي حنيفة أن الردة تحبط العمل وإن أسلم ﴿وأولئك أصحاب النار﴾ يعني الذين ماتوا على الردة والكفر هم أصحاب النار ﴿هم فيها خالدون﴾ أي لا يخرجون منها أبداً ﴿إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله﴾ نزلت في عبدالله بن جحش وأصحابه وذلك أن أصحاب السرية قالوا: يا رسول الله هل نؤجر على وجهنا هذا ونطمع أن يكون لنا غزو. فأنزل الله هذه الآية، وعن جندب بن عبدالله قال: لما كان من أمر عبدالله بن جحش وأصحابه وأمر ابن الحضرمي ما كان قال بعض المسلمين: إن لم يكونوا أصابوا في سفرهم وزراً فليس لهم فيه أجر فأنزل الله هذه الآية ﴿إن الذين آمنوا والذين هاجروا﴾ أي فارقوا مساكنهم وعشائرهم وأموالهم وفارقوا مساكنة المشركين في أمصارهم، ومجاورتهم في ديارهم فتحولوا عن المشركين وعن بلادهم إلى غيرها، وجاهدوا يعني المشركين في سبيل الله أي في طاعة الله فجعل الله لأصحاب هذه السرية جهاداً ﴿أولئك يرجون رحمة الله﴾ أي يطمعون في نيل رحمة الله أخبر أنهم على رجاء الرحمة. وقيل: المراد من الرجاء هنا القطع في أصل الثواب وإنما دخل الظن في كميته ووقته. قال قتادة: أثنى الله تعالى على أصحاب محمد ﷺ أحسن الثناء فقال: «إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله» هؤلاء هم خيار هذه الأمة ثم جعلهم الله أهل رجاء كما تسمعون وأنه من رجا طلب ومن خاف هرب ﴿والله غفور﴾ أي لذنوب عباده ﴿رحيم﴾ بهم والمعنى أنه تعالى غفر لعبدالله بن جحش وأصحابه ما لم يعلموا به قوله عز وجل:

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾

﴿يسألونك عن الخمر والميسر﴾ الآية نزلت في عمر بن الخطاب ومعاذ بن جبل وجماعة من الأنصار أتوا

عن دينه فيمت ﴾، جُزم بالنسق، ﴿ وهو كافر فأولئك حبطت ﴾: بطلت ﴿ أعمالهم ﴾: حسناتهم ﴿ في الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾، قال أصحاب السرية: يا رسول الله هل نُؤجر على وجهنا هذا وهل نطمع أن يكون سفرنا هذا غزواً؟

فأنزل الله تعالى: ﴿ إن الذين آمنوا والذين هاجروا ﴾، فارقوا عشائرهم ومنازلهم وأموالهم، ﴿ وجاهدوا ﴾، المشركين ﴿ في سبيل الله ﴾، طاعة الله فجعلها جهاداً، ﴿ أولئك يرجون رحمة الله ﴾، أخبر أنهم على رجاء الرحمة، ﴿ والله غفور رحيم ﴾.

قوله تعالى: ﴿ يسألونك عن الخمر والميسر ﴾، الآية نزلت في عمر بن الخطاب ومعاذ بن جبل ونفر من

رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله أفتنا في الخمر والميسر فإنهما مذهبة للعقل مسلبة للمال فأنزل الله هذه الآية: وأصل الخمر في اللغة الستر والتغطية وسميت الخمر خمراً لأنها تخامر العقل أي تخالطه. وقيل: لأنها تستره وتغطيه وجملة القول في تحريم الخمر أن الله عز وجل أنزل في الخمر أربع آيات نزلت بمكة: ﴿ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكراً﴾ فكان المسلمون يشربونها في أول الإسلام، وهي لهم حلال ثم نزل بالمدينة في جواب سؤال عمر ومعاذ: ﴿**يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير**﴾ فتركها قوم لقوله، إثم كبير وشربها قوم لقوله ومنافع للناس ثم إن عبد الرحمن بن عوف صنع طعاماً، ودعا إليه ناساً من أصحاب رسول الله ﷺ فأطعمهم وسقاهم الخمر وحضرت صلاة المغرب فقدموا أحدهم ليصلي بهم فقرأ: **قل يا أيها** الكافرون أعبد ما تعبدون بحذف حرف لا إلى آخر السورة فأنزل الله عز وجل: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون﴾ فحرم الله السكر في أوقات الصلوات فكان الرجل يشربها بعد صلاة العشاء، فيصبح وقد زال سكره فيصلي الصبح، ويشربها بعد صلاة الصبح، فيصحو وقت الظهر ثم إن عتبان بن مالك اتخذ صنيعاً يعني وليمة ودعا رجالاً من المسلمين، وفيهم سعد بن أبي وقاص، وكان قد شوى لهم رأس بعير فأكلوا وشربوا الخمر حتى أخذت منهم فافتخروا عند ذلك وانتسبوا وتناشدوا الأشعار، فأنشد سعد قصيدة فيها فخر قومه وهجاء الأنصار، فأخذ رجل من الأنصار لحي البعير فضرب به رأس سعد فشجه موضحة فانطلق سعد إلى رسول الله ﷺ وشكا إليه الأنصاري فقال عمر: اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً، ويروى أن حمزة بن عبدالمطلب، شرب الخمر يوماً وخرج فلقي رجلاً من الأنصار وبيده ناضح له والأنصاري يتمثل ببيتين لكعب بن مالك يمدح قومه وهما:

جمعنا مع الإيواء نصراً وهجرة ... فلم ير حيّ مثلنا في المعاشر
فأحياؤنا من خير أحياء من مضى ... وأمواتنا من خير أهل المقابر

الأنصار أتوا إلى رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول أفتِنا في الخمر والميسر فإنهما مَذهبة للعقل مَسْلبة للمال، فأنزل الله هذه الآية، وجملة القول في تحريم الخمر على ما قاله المفسّرون: إن الله أنزل في الخمر أربع آيات نزلت بمكة وهي: ﴿ ومن ثمرات النخيل والأعناب تتّخذون منه سكراً ورزقاً ﴾ [النحل: ٦٧]، فكان المسلمون يشربونها وهي لهم حلال يومئذ، ثم نزلت هذه الآية في مسألة عمر ومعاذ بن جبل: ﴿ **يسئلونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير** ﴾، فلما نزلت هذه الآية قال رسول الله ﷺ: «إنّ الله تقدّم في تحريم الخمر»، فتركها قوم لقوله: ﴿ **إثم كبير** ﴾، وشربها أقوام لقوله: ﴿ **ومنافع للناس** ﴾ إلى أن صنع عبد الرحمن بن عوف طعاماً فدعا ناساً من أصحاب النبي ﷺ وأتاهم بخمر فشربوا وسكروا وحضرت صلاة المغرب، فقدّموا بعضهم ليصلي بهم فقرأ: **قل يا أيها** الكافرون أعبد ما تعبدون هكذا إلى آخر السورة بحذفِ لا، فأنزل الله تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سُكارى حتى تعلموا ما تقولون ﴾ [النساء: ٤٣]، فحرّم السكر في أوقات الصلاة، فلما نزلت هذه الآية تركها قوم وقالوا: لا خير في شيء يحول بيننا وبين الصلاة، وتركها قوم في أوقات الصلاة وشربوها في غير حين الصلاةِ حتى كان الرجل يشرب بعد صلاة العشاء فيصبح وقد زال عنه السكر، ويشرب بعد صلاة الصبح فيصْحُوا إذا جاء وقت الظهر، واتخذ عتبان بن مالك صَنيعاً ودَعا رجالاً من المسلمين فيهنّ سعد بن أبي وقاص، وكان قد شوى لهم رأس بعير فأكلوا منه وشربوا الخمر حتى أخذت منهم، ثم أنهم افتخروا عند ذلك وانتسبوا وتناشدوا الأشعار، فأنشد سعد قصيدة فيها هجاء للأنصار، وفخر لقومه فأخذ رجل من الأنصار لَحَى بعيرٍ فضرب به رأس سعد فشجّه موضحة فانطلق سعد إلى رسول الله ﷺ وشكا إليه الأنصاري، فقال عمر: اللّهمَّ بيّن لنا في الخمر بياناً شافياً، فأنزل الله

فقال حمزة: أولئك المهاجرون وقال الأنصاري، بل نحن الأنصار فتنازعا فجرد حمزة سيفه وعدا على الأنصاري فهرب الأنصاري وترك ناضحه فقطعه حمزة فجاء الأنصاري مستعدياً إلى رسول الله ﷺ فأخبره بفعل حمزة فغرم له رسول الله ﷺ ناضحاً فقال عمر: اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً فأنزل الله تعالى الآية التي في المائدة إلى قوله ﴿فهل أنتم منتهون﴾ فقال عمر: انتهينا يا رب، وذلك بعد غزوة الأحزاب بأيام والحكمة في وقوع التحريم على هذا الترتيب أن الله تعالى علم أن القوم كانوا قد ألفوا شرب الخمر وكان انتفاعهم بذلك كثيراً فعلم أنه لو منعهم من الخمر دفعة واحدة لشق ذلك عليهم فلا جرم استعمل هذا التدريج وهذا الرفق. قال أنس: حرمت الخمر ولم يكن يومئذٍ للعرب عيش أعجب منها وما حرم عليهم شيء أشد من الخمر (ق) عن أنس قال: ما كان لنا خمر غير فضيخكم وإني لقائم أسقي أبا طلحة وأبا أيوب وفلاناً وفلاناً إذ جاء رجل، فقال: حرمت الخمر فقالوا: أهرق هذه القلال يا أنس فما سألوا عنها ولا راجعوها بعد خبر هذا الرجل. الفضيخ بالضاد والخاء المعجمتين شراب يتخذ من بسر مطبوخ والمفضوخ المشدوخ والمكسور والإهراق الصب والقلال جمع قلة وهي الجرة الكبيرة.

فصل: في تحريم الخمر ووعيد من شربها:

أجمعت الأمة على تحريم الخمر، وأنه يحد شاربها ويفسق بذلك مع اعتقاد تحريمها فإن استحل كفر بذلك ويجب قتله (ق) عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «كل مسكر خمر وكل مسكر حرام ومن شرب الخمر في الدنيا، ومات وهو يدمنها ولم يتب منها لم يشربها في الآخرة» لفظ مسلم (م) عن جابر: «أن رجلاً قدم من جيشان وجيشان من اليمن فسأل النبي ﷺ عن شراب يشربونه بأرضهم من الذرة يقال له: المزر. فقال رسول الله ﷺ: أو مسكر هو؟ قال: نعم. قال رسول الله ﷺ: كل مسكر حرام وإن على الله عهداً لمن يشرب المسكر أن يسقيه من طينة الخبال. قالوا: وما طينة الخبال يا رسول الله. قال: عرق أهل النار أو عصارة أهل النار» وعن ابن عباس أن

تعالى تحريم الخمر في قوله: ﴿ فهل أنتم منتهون ﴾ [المائدة: ٩١]، وذلك بعد غزوة الأحزاب بأيام، فقال عمر رضي الله عنه: انتهينا يا رب، قال أنس: حُرّمت الخمر ولم يكن يومئذ للعرب عيش أعجب منها، وما حرّم عليهم شيء أشد من الخمر، وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: لمّا نزلت الآية التي في سورة المائدة حرمت الخمر فخرجنا بالحُباب إلى الطريق فمنّا مَن حسر حُبه، ومنّا مَن غسله بالماء والطين، ولعلّه غودرت أزقّة المدينة بعد ذلك حيناً، فلما مطرت استبان فيها لون الخمر وفاحت منها ريحها، وعن أنس رضي الله عنه سُمّيت الخمر خمراً لأنهم كانوا يَدَعُونها في الدندان حتى تختمر وتتغير، وعن ابن المسيب: لأنها تُركت حتى صفا لونها ورسب كدرها، أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي أخبرنا محمد بن يوسف أخبرنا محمد بن إسماعيل أخبرنا يعقوب بن إبراهيم أخبرنا ابن عليّة، أخبرنا عبد العزيز بن سهيب قال: قال لي أنس بن مالك ما كان لنا خمر غير فضيخكم وإني لقائم أسقي أبا طلحة وفلاناً وفلاناً إذ جاء رجل فقال: حُرّمت الخمر، فقالوا: أهرق هذه القِلال يا أنس، قال: فما سألوها عنها ولا راجعوها بعد خبر الرجل، واختلف العلماء في ماهيّة الخمر، فقال قوم: هي عصير العنب أو الرُّطَب الذي اشتدّ وغلا من غير عمل النار فيه، واتفقت الأئمة على أن هذه الخمر نجس يُحدّ شاربُها ويُفسق، ويَكْفُر مُستحلّها، وذهب سفيان الثّوري وأبو حنيفة وجماعة إلى أن التحريم لا يتعدّى هذا، ولا يحرم ما يُتّخذ من غيرها كالمتّخذ من الحنطة والشعير والذرة والعسل والفانيذ، إلاّ أن يسكر منه لَيَحْرُم، وقالوا: إذا طبخ عصير العنب والرُّطب حتى ذهب نصفه فهو حلال ولكنهُ يُكره، وإن طبخ حتى ذهب ثلثاه قالوا هو حلال مُباح شربه، إلاّ أن السكر منه حرام، ويحتجّون بما رُوِيَ أن عمر بن الخطاب كتب إلى بعض عمّاله: إن أرزق المسلمين

رسول الله ﷺ قال: «كل مسكر خمر وكل مسكر حرام ومن شرب مسكراً بخست صلاته أربعين صباحاً فإن تاب تاب الله عليه فإن عاد الرابعة كان حقاً على الله أن يسقيه من طينة الخبال. قيل: وما طينة الخبال يا رسول الله قال: صديد أهل النار» أخرجه أبو داود. عن عبدالله بن عمرو بن العاص أن رسول الله ﷺ قال: «من شرب الخمر فجعلها في بطنه لم تقبل منه صلاة سبعاً وإن مات فيها مات كافراً فإن أذهبت عقله عن شيء من الفرائض. وفي رواية عن القرآن لم تقبل صلاته أربعين يوماً وإن مات فيها مات كافراً» أخرجه النسائي. عن عثمان بن عفان قال: اجتنبوا الخمر فإنها أم الخبائث فإنه والله لا يجتمع الإيمان وإدمان الخمر إلّا يوشك أن يخرج أحدهما صاحبه أخرجه النسائي موقوفاً عليه وفيه قصة عن أنس قال لعن رسول الله ﷺ في الخمر عشرة عاصرها ومعتصرها وشاربها وساقيها وحاملها والمحمولة إليه وبائعها ومبتاعها وواهبها وآكل ثمنها أخرجه الترمذي.

فصل: في أحكام تتعلق بالخمر:

وفيه مسائل: الأولى في ماهيتها: قال الشافعي: الخمرة عبارة عن عصير العنب النيء الشديد الذي قذف بالزبد وكذلك نقيع الزبيب والتمر المتخذ من العسل والحنطة والشعير والأرز والذرة، وكل ما أسكر فهو خمر، وقال أبو حنيفة: الخمر من العنب والرطب ونقيع التمر والزبيب فإن طبخ حتى ذهب ثلثاه حل شربه والمسكر منه حرام واحتج على ذلك بما روي عن عمر بن الخطاب أنه كتب إلى بعض عماله أن ارزق المسلمين من الطلاء، ما ذهب ثلثاه وبقي ثلثه وفي رواية: أما بعد فاطبخوا شرابكم حتى يذهب منه نصيب الشيطان فإن له اثنين ولكم واحد أخرجه النسائي. الطلاء بكسر الطاء والمد الشراب المطبوخ من عصير العنب الذي ذهب ثلثاه وبقي ثلثه، واحتج أيضاً بما روي عن ابن عباس قال: حرمت الخمر بعينها قليلها وكثيرها والسكر من كل شراب أخرجه النسائي. واستدل أيضاً على أن السكر حرام لما روي عن أبي الأحوص عن القاسم بن عبدالرحمن عن أبيه عن أبي بردة أن النبي ﷺ قال: «اشربوا ولا تسكروا» وعن عائشة نحوه أخرجه النسائي. وقال هذا حديث غير ثابت، واستدل

من الطِّلاء ما ذهب ثلثاه وبقي ثلثه، ورأى أبو عبيدة ومعاذ شرب الطلاء على الثلث، وقال قوم: إذا طبخ العصير أدنى طبخ صار حلالاً وهو قول إسماعيل بن عَلْية، وذهب أكثر أهل العلم إلى أن كل شراب أسكر كثيره فهو خمر وقليله حرام يُحدّ شاربُه، واحتجّوا بما أخبرنا أبو الحسن السرخسي أخبرنا أبو إسحق الهاشمي، أخبرنا أبو مصعب عن مالك عن ابن شهاب عن أبي سلمة بن عبد الرحمن، عن عائشة زوج النبي ﷺ أنها قالت: سُئِلَ رسول الله ﷺ عن البِتْع، فقال: «كل شراب أسكر فهو حرام»، أخبرنا أبو عبد الله بن محمد بن الفضل الخرقي أنا أبو الحسن علي بن عبد الله الطيسفوني، أنا عبد الله بن عمر الجوهري أخبرنا أحمد بن علي الكشمهيني، أنا علي بن حجر أنا إسماعيل بن جعفر عن داود بن بكر بن أبي الفرات، عن محمد بن المنكدر عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال: «ما أسكر كثيره فقليله حرام»، أخبرنا إسماعيل بن عبد القادر الجرجاني أنا عبد الغافر بن محمد الفارسي، أنا محمد بن عيسى الجلودي أنا إبراهيم بن محمد بن أبي سفيان، أنا مسلم بن الحجّاج أنا أبو الربيع العتكي، أخبرنا حمّاد بن زيد عن أيوب عن نافع عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «كل مُسكِر حرام، ومَن شرب الخمر في الدنيا فمات وهو يدمنها ولم يتب لم يشربها في الآخرة»، أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا أحمد بن أبي رجاء أنا يحيىٰ عن أبي حيّان التيمي، عن الشعبي عن ابن عمر قال: خطب عمر على منبر رسول الله ﷺ فقال: إنه قد نزل تحريم الخمر، وهي من خمسة أشياء من العنب والتمر والحنطة والشعير والعسل، والخمر: ما خامر العقل، وروى الشعبي عن النعمان بن بشير قال: قال رسول الله ﷺ: «إن من العنب خمراً وإن من التمر خمراً وإن من العسل خمراً وإن من

الشافعي على أن الخمر في عدة أشياء بما روي عن ابن عمر أن عمر قال على منبر رسول الله ﷺ: أما بعد أيها الناس أنه نزل تحريم الخمر وهي من خمسة العنب والتمر والعسل والحنطة والشعير والخمر ما خامر العقل ثلاث، وددت أن رسول الله ﷺ كان عهد إلينا فيهن عهداً ننتهي إليه الجد والكلالة وأبواب من أبواب الربا أخرجه البخاري ومسلم (ق) عن عائشة أن رسول الله ﷺ سئل عن البتع فقال كل شراب أسكر فهو حرام. البتع شراب يتخذ من العسل كان أهل اليمن يشربونه. عن النعمان بن بشير أن رسول الله ﷺ قال: «إن من العنب خمراً وإن من البر خمراً وإن من الشعير خمراً وإن من التمر خمراً» أخرجه أبو داود. وزاد في رواية والذرة وإني أنهاكم عن كل مسكر وللترمذي نحوه وزاد وإن من العسل خمراً (خ) عن ابن عباس أنه سئل عن الباذق فقال: سبق حكم محمد في الباذق، فما أسكر فهو حرام عليك والشراب الحلال الطيب ليس بعد الحلال الطيب ليس بعد الحلال الطيب إلّا الحرام الخبيث قال صاحب المطالع: الباذق بفتح الذال المعجمة هو الطلاء المطبوخ من عصير العنب كان أول من صنعه وسماه بنو أمية لينقلوه عن اسم الخمر، وكل ما أسكر فهو خمر لأن الاسم لا ينقله عن معناه الموجود فيه. وقال ابن الأثير في النهاية الباذق الخمر تعريب باذه وهو اسم للخمر بالفارسية أي لم يكن في زمانه أو سبق. قوله: فيها وفي غيرها من جنسها. وقيل معناه سبق حكم محمد ﷺ إن ما أسكر فهو حرام. عن أم سلمة قالت: نهى رسول الله ﷺ عن كل مسكر ومفتر أخرجه أبو داود: والمفتر كل شراب أحمى الجسد وصار فيه فتور وضعف وانكسار واستدل الشافعي على ما أسكر كثيره فقليله حرام، مما روي عن جابر بن عبدالله أن رسول الله ﷺ قال: «ما أسكر كثيره فقليله حرام» أخرجه الترمذي وأبو داود. عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال: «كل مسكر حرام وما أسكر منه الفرق فملء الكف منه حرام» أخرجه أبو داود والنسائي. وفي رواية له «والحسوة منه حرام» الفرق بالتحريك مكيال يسع تسعة عشر رطلاً بالبغدادي، وأجيب عن حديث عمر في الطلاء بأنه معارض بما روي عن السائب يزيد أن عمر قال: وجدت من فلان ريح شراب وزعم أنه شرب الطلاق وأنا سائل عنه فإن كان يسكر جلدته فسأل عنه فقيل له: إنه يسكر فجلده عمر الحد تاماً أخرجه مالك في الموطأ. وأما حديث ابن عباس،

البُرِّ خمراً وإن من الشعير خمراً»، فثبت أنّ الخمر لا يختصّ بما يُتّخذ من العنب أو الرُّطب، أخبرنا أبو الحسن السرخسي أنا زاهر بن أحمد، أخبرنا أبو إسحق الهاشمي أنا أبو مصعب عن مالك عن ابن شهاب، عن السائب بن يزيد أنه أخبره: أن عمر بن الخطاب خرج عليهم فقال: إني وجدت من فلان ريح خمر أو شراب، وزعم أنه شرب الطِّلاء، وأنا سائل عمّا شرب! فإن كان يُسكر جلدتُه، فجلده عمر الحدّ تامّاً، وما رُوِيَ عن عمر وأبي عُبيدة ومُعاذ في الطِّلاء فهو فيما طُبخ حتى خرج عن أن يكون مُسكِراً، سُئل ابن عباس عن الباذق، فقال: سبق محمد الباذق، فما أسكر فهو حرام، قوله تعالى: ﴿ والميسر ﴾ يعني: القمار، قال ابن عباس: كان الرجل في الجاهلية يُخاطر الرجل على أهله وماله فأيّهما قمر صاحبه ذهب بأهله وماله، فأنزل الله تعالى هذه الآية، والميسر: مفعل من قولهم: يسّر لي الشيء إذا وجب ييسر يسراً وميسراً، ثم قيل للقمار: ميسر، وللمقامر: ياسر ويُسر، وكان أصل الميسر في الجزور، وذلك أن أهل الثروة من العرب كانوا يشترون جزوراً فينحرونها ويجزؤونها عشرة أجزاء ثم يُسهمون عليها بعشرة قداح يقال لها الأزلام والأقلام السبعة، منها أنصباء وهي الفذ، وله نصيب واحد، والتوأم وله نصيبان، والرقيب وله ثلاثة أسهم، والحلس وله أربعة، والنافس وله خمسة، والمسبل وله ستة، والمعلى وله سبعة، وثلاثة منها لا أنصباء لها وهي: المنيح والسفيح والوغد، ثم يجعلون القداح في خريطة تسمى الربابة ويضعونها على يدي رجل عدل عندهم يسمى المحيل والمفيض، ثم يحيلها ويخرج قدحاً منها باسم رجل منهم، فأيّهم خرج اسمه أخذ نصيبه على قدر ما خرج، فإن خرج له واحد من هذه الثلاثة التي لا أنصباء لها كان لا يأخذ شيئاً، ويغرم ثمن

فموقوف عليه ومعارض بما روي عنه نبي الباذق، وقوله: والسكر من كل شراب قد رواه الحفاظ السكر بفتح السين. قال صاحب الغريبين: السكر خمر الأعاجم، ويقال لما يسكر السكر وروى هذا الحديث ابن حنبل وقال فيه: والمسكر من كل شراب، وقال موسى بن هارون: وهو الصواب، وأما حديث أبي الأحوص ففيه وهمان: أحدهما في سنده حيث قال: عن أبي بردة، وإنما يرويه سماك عن القاسم عن ابن بريدة عن أبيه والوهم الثاني في متنه حيث قال: اشربوا ولا تسكروا، وإنما يرويه الناس ولا تشربوا مسكراً، ويدل على صحة هذا ما روى مسلم في صحيحه عن محارب بن دثار عن ابن بريدة عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «كنت نهيتكم عن الأشربة في ظروف الأدم فاشربوا في كل وعاء غير أن لا تشربوا مسكراً» وقال النسائي: في حديث أبي الأحوص هذا حديث منكر غلط فيه أبو الأحوص سلام بن سليم لا يعلم أن أحداً تابعه عليه من أصحاب سماك، وأما حديث عائشة فيه فهو غير ثابت كما تقدم في قول النسائي.

المسألة الثانية: في الحكم بنجاسة الخمر. الخمر وما يلحق بها نجسة العين ويدل على نجاستها قوله تعالى: **﴿إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه﴾** والرجس في اللغة النجس والشيء المستقذر وقوله تعالى: **﴿فاجتنبوه﴾** فأمر باجتنابها فكانت نجسة العين ويدل على نجاستها أيضاً أنها محرمة التناول لا للاحترام، ولأن الناس مشغوفون بها فينبغي أن يحكم بنجاستها تأكيداً للزجر عنها.

المسألة الثالثة: في تحريم بيعها والانتفاع بها. أجمعت الأمة على تحريم بيع الخمر والانتفاع بها وتحريم ثمنها ويدل على ذلك ما روي عن جابر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول عام فتح مكة: «إن الله تعالى حرم بيع الخمر والانتفاع بها والميتة والخنزير والأصنام» أخرجاه في الصحيحين مع زيادة اللفظ (ق). عن عائشة قالت خرج رسول الله ﷺ فقال: «حرمت التجارة في الخمر» (ق) عن ابن عباس قال بلغ عمر بن الخطاب أن فلاناً باع خمراً فقال قاتل الله فلاناً ألم يعلم أن رسول الله ﷺ قال: «لعن الله اليهود حرمت عليهم الشحوم فجملوها فباعوها» عن المغيرة بن شعبة قال قال رسول الله ﷺ: «من باع الخمر فليشقص الخنازير» أخرجه أبو داود. وقوله فليشقص الخنازير أي فليقطعها قطعاً قطعاً كما تقطع الشاة للبيع والمعنى من استحل بيع الخمر فليستحل بيع الخنازير فإنهما في التحريم سواء. عن أبي طلحة قال يا نبي الله إني اشتريت خمراً لأيتام في حجري. فقال: اهرق الخمر واكسر الدنان أخرجه الترمذي. وقال وقد روي عن أنس إن أبا طلحة كان عنده خمر لأيتام وهو أصح. فإن قلت فما وجه قوله تعالى: **﴿ومنافع للناس﴾** قلت: منافعها اللذة التي توجد عند شربها والفرح والطرب معها وما كانوا يصيبون من الربح في ثمنها، وذلك قبل التحريم فلما حرمت الخمر حرم ذلك كله.

الجزور كله، وقال بعضهم: كان لا يأخذ شيئاً ولا يُغرَّم، ويكون ذلك القدح لغواً ثم يدفعون ذلك الجزور إلى الفقراء ولا يأكلون منه شيئاً، وكانوا يفتخرون بذاك ويذمّون مَن لم يفعل ذلك، ويسمّونه البرم، وهو أصل القمار الذي كانت تفعله العرب، والمراد من الآية أنواع القمار كلها، قال طاوس وعطاء ومجاهد: كل شيء فيه قمار فهو من الميسر، حتى لُعب الصبيان بالجَوز والكِعاب، ورُوِيَ عن عليّ رضي الله عنه في النرد والشطرنج أنهما من الميسر، **﴿ قلْ فيهما إثمٌ كبير ﴾**: وزر عظيم من المخاصمة والمشاتمة وقول الفُحش، قرأ حمزة والكسائي **﴿ إثم كبير ﴾**، بالثاء المثلثة وقرأ الباقون بالباء، فالإثم في الخمر والميسر ما ذكره الله في قوله: **﴿ إنّما يُريد الشيطان أن يُوقع بينكم العداوةَ والبَغضاءَ في الخمر والميسر ويَصُدَّكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتمْ مُنتهون ﴾**؟ [المائدة: ٩١] **﴿ ومنافع للناس ﴾**، فمنفعة الخمر اللذّة عند شربها والفرح واسْتِمْرَاء الطعام، وما يصيبون من الربح بالتجارة فيها، ومنفعة الميسر إصابة المال من غير كَدٍّ ولا تعب، وارْتِفاق الفقراء به، والإثم فيه أنه إذا ذهب ماله عن

(فصل)

وأما الميسر فهو القمار واشتقاقه من اليسر لأنه أخذ مال بسهولة من غير تعب، وكذا قال ابن عباس كان الرجل في الجاهلية يخاطر الرجل على أهله وماله فأيهما قمر صاحبه ذهب بأهله وماله فأنزل الله هذه الآية. وأصل الميسر أن أهل الثروة من العرب في الجاهلية كانوا يشترون جزوراً فينحرونها ويجزئونها ثمانية وعشرين جزءاً، ثم يسهمون عليها بعشرة قداح يقال لها: الأزلام والأقلام وأسماؤها الفذ والتوأم والرقيب والحلس والنافس والمسبل والمعلى والمنيح والسفيح والوغد وكانوا يسهمون لسبعة منها أنصباء فللفذ سهماً وللتوأم سهمين وللرقيب ثلاثة أسهم وللحلس أربعة وللنافس خمسة، وللمسبل ستة وللمعلى سبعة وثلاثة من القداح لا أنصباء لها وهي المنيح والسفيح والوغد قال بعضهم:

لـــي فـــي الـــدنيـــا سهـــام ليـــس فيهـــن ربيـــح
إنمـــا سهمـــي وغـــد ومنيـــح وسفيـــح

ثم يجمعون القداح في خريطة يسمونها الربابة، ويضعونها على يد رجل عدل عندهم يسمونه المحيل والمفيض فيحيلها في الخريطة، ويخرج منها قدحاً باسم رجل منهم فأيهم خرج اسمه أخذ نصيبه على قدر ما يخرج من القداح، وإن خرج له قدح من الثلاثة التي لا أنصباء لها لم يأخذ شيئاً وغرم ثمن الجزور كله وقيل: لا يأخذ ولا يغرم ويسمون ذلك القدح لغواً ثم يدفعون ذلك الجزور إلى الفقراء ولا يأكلون منه شيئاً وكانوا يفتخرون بذلك ويذمون من لا يفعله ويسمونه البرم يعني البخيل الذي لا يخرج شيئاً بين الأصحاب لبخله. وأما حكم الآية فالمراد به جميع أنواع القمار. فكل شيء فيه قمار فهو من الميسر روي عن ابن سيرين ومجاهد وعطاء كل شيء فيه خطر يعني الرهن فهو من الميسر حتى لعب الصبيان بالجوز والكعاب وأما النرد فيحرم اللعب به سواء كان بخطر أم لا يدل على تحريمه ما روي عن بريدة أن رسول الله ﷺ قال: من لعب بالنردشير فكأنما صبغ يده في دم خنزير. أخرجه مسلم. وعن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ: «من لعب بنرد أو نردشير فقد عصى الله ورسوله» أخرجه أبو داود. وعن علي بن أبي طالب قال النرد والشطرنج من الميسر. واختلفوا في الشطرنج فمذهب أبي حنيفة أنه يحرم اللعب به سواء كان برهن أو بغير رهن، ومذهب الشافعي أنه مباح بشروط ذكرها الشافعي فقال: إذا خلا الشطرنج عن الرهان واللسان عن الطغيان ويروى عن الهذيان والصلاة عن النسيان لم يكن حراماً، وهو خارج عن الميسر لأن الميسر ما يوجب دفع مال، وأخذ مال وهذا ليس كذلك وقوله تعالى: ﴿**قل فيهما**﴾ يعني في الخمر والميسر ﴿**إثم كبير**﴾ أي وزر عظيم وقيل: إن الخمر عدو للعقل فإذا غلبت على عقل الإنسان ارتكب كل

غير عوض ساءه ذلك فعادى صاحبه فقصده بالسوء، ﴿ **وإثمهما أكبر من نفعهما** ﴾، قال الضحّاك وغيره: إثمهما بعد التحريم أكبر من نفعهما قبل التحريم، هو ما يحصل به من العداوة والبغضاء. قوله تعالى: ﴿ **ويسألونك ماذا ينفقون** ﴾؟ وذلك أن رسول الله ﷺ حثّهم على الصدقة، فقالوا: ماذا نُنفق؟ فقال: ﴿ **قل العفو** ﴾، قرأ أبو عمرو والحسن وقتادة وابن أبي إسحق ﴿ **العفو** ﴾ بالرفع، معناه أي: الذي يُنفقون هو العفو، وقرأ الآخرون بالنصب على معنى: **قل**: أنفقوا العفو، واختلفوا في معنى العفو، فقال قتادة وعطاء والسدي: هو ما فَضُلَ عن الحاجة، وكانت الصحابة يكتسبون المال ويمسكون قدر النفقة ويتصدّقون بالفَضْل بحكم هذه الآية، ثم نُسخ بآية الزكاة، وقال مجاهد: معناه التصدّق عن ظهرِ غنىً حتى لا يبقى كَلّاً على الناس، أخبرنا الإمام أبو علي الحسين بن محمد القاضي، أنا أبو طاهر محمد بن محمد بن محمش الزيادي، أنا أبو بكر محمد بن عمر بن حفص التاجر، أنا إبراهيم بن عبد الله بن عمر الكوفي أنا وكيع عن الأعمش، عن أبي صالح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ:

قبيح ففي ذلك آثام كبيرة منها إقدامه على شرب المحرم ومنها فعل ما لا يحل فعله. وأما الإثم الكبير في الميسر فهو أكل المال الحرام بالباطل وما يجري بينهما من الشتمّ والمخاصمة والمعاداة وكل ذلك فيه آثام كثيرة ﴿ومنافع للناس﴾ يعني أنهم كانوا يربحون في بيع الخمر قبل تحريمها. وأما منافع الميسر فهو أخذ مال بغير كد ولا تعب. قيل ربما أن الواحد منهم كان يقمر في المجلس الواحد مائة بعير، فيحصل له المال الكثير، وربما كان يصرفه إلى المحتاجين فيكسب بذلك الثناء والمدح، وهو المنفعة ﴿وإثمهما أكبر من نفعهما﴾ يعني إثمهما بعد التحريم أكبر من نفعهما قبل التحريم، وقيل: إثمهما قوله تعالى: ﴿إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون﴾ فهذه ذنوب يترتب عليها آثام كبيرة بسبب الخمر والميسر. قوله تعالى: ﴿ويسألونك ماذا ينفقون﴾ وذلك أن رسول الله ﷺ حضهم على الصدقة فقالوا ماذا ننفق فقال الله تعالى: ﴿قل العفو﴾ يعني الفضل والعفو ما فضل عن قدر الحاجة. فكانت الصحابة يكتسبون المال ويمسكون قدر النفقة. ويتصدقون بالفاضل بحكم هذه الآية ثم نسخ ذلك بآية الزكاة وقيل: هو التصدق عن ظهر غنى (ق) عن الزهري قال: قال رسول الله ﷺ: «خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى واليد العليا خير من اليد السفلى وابدأ بمن تعول» وقيل: هو الوسط في الإنفاق من غير إسراف ولا إقتار وقيل: هو في صدقة التطوع إذ لو كان المراد بهذا الإنفاق الواجب لبين الله قدره فلما لم يبينه دل ذلك على أن المراد به صدقة التطوع ﴿كذلك يبين الله لكم الآيات﴾ أي يبين لكم الأمور التي سألتم عنها من وجوه الإنفاق ومصارفه ﴿لعلكم تتفكرون في الدنيا والآخرة﴾. يعني فتأخذون ما يصلحكم في الدنيا وتنفقون الباقي فينفعكم في الآخرة. وقيل: لعلكم تتفكرون في زوال الدنيا فتزهدوا فيها وفي إقبال الآخرة وبقائها فترغبوا فيها. قوله عز وجل:

﴿فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ٢٢٠﴾

﴿ويسألونك عن اليتامى﴾ قال ابن عباس لما نزلت: ﴿إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً﴾ تخرج المسلمون من أموال اليتامى تحرجاً شديداً حتى عزلوا أموالهم عن أموالهم وتركوا مخالطتهم، وربما كان يصنع

«خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى، واليد العُليا خير من اليد السفلى، وابدأ بمَن تعول»، وقال عمرو بن دينار: الوسط من غير إسراف ولا إقتار، قال الله تعالى: ﴿ والذين إذا أنفقوا لم يُسرفوا ولم يَقتُروا ﴾ [الفرقان: ٦٧] وقال طاوس: ما يَسُرَ، والعفو اليُسر من كل شيء، ومنه قوله تعالى: ﴿ خُذِ العفوَ ﴾ [الأعراف: ١٩٩] أي الميسور من أخلاق الناس، أخبرنا عبد الوهاب بن محمد الخطيب أنا عبد العزيز أحمد الخلال، أنا أبو العباس الأصم أنا الربيع بن سليمان أخبرنا الشافعي، أنا سفيان عن محمد بن عجلان عن سعيد بن أبي سعد عن أبي هريرة قال جاء رجل إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله عندي دينار، قال ﷺ: «أنفقه على نفسك»، قال: عندي آخر، قال ﷺ: «أنفقه على ولدك»، قال: عندي آخر، قال ﷺ: «أنفقه على أهلك»، قال: عندي آخر، قال ﷺ: «أنفقه على خادمك»، قال: عندي آخر، قال ﷺ: «أنت أعلم»، قوله تعالى: ﴿ كذلك يُبيِّن الله لكم الآيات ﴾، قال الزجّاج: إنما قال كذلك على الواحد وهو يخاطب جماعة، لأن الجماعة معناها القبيل، كأنه قال: كذلك أيها القبيل، وقيل: هو خطاب للنبي ﷺ، فإنه خطاب يشتمل على خطاب الأمة، كقوله تعالى: ﴿ يا أيها النبي إذا طلّقتم النساء ﴾ [الطلاق: ١]، قوله تعالى: ﴿ لعلّكم تتفكّرون ﴾.

﴿ في الدنيا والآخرة ﴾، قيل: معناه يبيّن الله لكم الآيات في أمر النفقة لعلّكم تتفكّرون في الدنيا

لليتيم الطعام فيفضل منه فيتركونه ولا يأكلونه، فاشتد ذلك عليهم فسألوا رسول الله ﷺ فأنزل الله تعالى ويسألونك عن اليتامى ﴿**قل إصلاح لهم خير**﴾ أي إصلاح أموال اليتامى من غير أخذ أجرة، ولا عوض خير لكم أي أعظم أجراً. وقيل: هو أن يوسع على اليتيم من طعام نفسه ولا يوسع من طعام اليتيم ﴿**وإن تخالطوهم**﴾ يعني في الطعام والخدمة والسكنى وهذا فيه إباحة المخالطة أي شاركوهم في أموالهم واخلطوها بأموالكم ونفقاتكم ومساكنكم وخدمكم ودوابكم، فتصيبوا من أموالهم عوضاً من قيامكم بأمورهم أو تكافئهم على ما تصيبون من أموالهم ﴿**فإخوانكم**﴾ أي فهم إخوانكم والإخوان يعين بعضهم بعضاً ويصيب بعضهم من مال بعض على وجه الإصلاح والرضا ﴿**والله يعلم المفسد من المصلح**﴾ يعني المفسد لمال اليتيم والمصلح له، ويعلم الذي يقصد بالمخالطة الخيانة وأكل مال اليتيم بغير حق والذي يقصد الإصلاح.

﴿**ولو شاء الله لأعنتكم**﴾ أي لضيق عليكم وما أباح لكم مخالطتهم وأصل العنت الشدة والمشقة، والمعنى لكلفكم في كل شيء ما يشق عليكم ﴿**إن الله عزيز حكيم**﴾ أي غالب يقدر أن يشق على عباده ويعنتهم ولكنه حكيم لا يكلف عباده إلّا ما تتسع فيه طاقتهم. قوله عز وجل:

﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ

والآخـرة، فتحسبون من أموالكم ما يُصلحكم في معاش الدنيا، وتنفقون الباقي فيما ينفعكم في العُقبى، وقال أكثر المفسِّرين معناها: هكذا يُبيِّن الله لكم الآيات في أمر الدنيا والآخرة لعلّكم تتفكّرون، وقيل: معناه يُبيّن الله لكم الآيات في أمر النفقة لعلّكم تتفكّرون في زوال الدنيا وفنائها فتزهدوا فيها، وفي إقبال الآخرة وبقائها فترغبوا فيها.

قوله تعالى: ﴿ **ويسألونك عن اليتامى** ﴾، قال ابن عباس وقتادة: لمّا نزل قوله تعالى: ﴿ ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن ﴾ [الأنعام: ١٥٢، الإسراء: ٣٤] وقوله تعالى: ﴿ إنّ الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً ﴾ [النساء: ١٠] الآية، تحرّج المسلمون من أموال اليتامى تحرّجاً شديداً حتى عزلوا أموال اليتامى عن أموالهم، حتى كان يُصنع لليتيم طعامٌ منه شيءٌ فيتركونه ولا يأكلونه حتى يفسد، فاشتدّ ذلك عليهم، فسألوا رسول الله ﷺ، فأنزل الله تعالى هذه الآية: ﴿ **قل إصلاح لهم خير** ﴾، أي: الإصلاح لأموالهم من غير أُجرة ولا أخذ عِوض خير وأعظم أجراً لما لكم في ذلك من الثواب، وخير لهم لما في ذلك من توفّر أموالهم عليهم، قال مجاهد: يُوسع عليه من طعام نفسه ولا يوسع من طعام اليتيم، ﴿ **وإن تُخالطوهم** ﴾، هذه إباحة المخالطة، أي: إن تشاركوهم في أموالهم وتخلطوا بأموالكم في نفقاتكم ومساكنكم وخدمكم ودَوَابكم، فتُصيبوا من أموالهم عوضاً عن قيامكم بأمورهم أو تكافؤوهم على ما تصيبون من أموالهم، ﴿ **فإخوانكم** ﴾، أي: فهم إخوانكم، والإخوان يُعين بعضهم بعضاً ويُصيب بعضهم من أموال بعض على وجه الإصلاح والرضا، ﴿ **والله يعلم المفسد** ﴾: لأموالهم ﴿ **من المصلح** ﴾: لها، يعني: الذي يقصد بالمخالطة الخيانة وإفساد مال اليتيم وأكله بغير حق من الذي يقصد الإصلاح ﴿ **ولو شاء الله لأعنتكم** ﴾، أي: لضيق عليكم وما أباح لكم مخالطتهم، وقال ابن عباس: ولو شاء الله لجعل ما أصبتم من أموال اليتامى موبقاً لكم، وأصل العنت: الشدّة والمشقّة، ومعناه: كلّفكم في كل شيء ما يشقّ عليكم، ﴿ **إن الله عزيز** ﴾، أي عزيز في سُلطانه وقدرته على الإعنات، وقيل: العزيز الذي يأمر بعزّه سَهُلَ على العباد أو شَقّ عليهم، ﴿ **حكيم** ﴾ فيما صنع من تدبيره وترك الإعنات.

بِإِذْنِهِۦۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾

﴿ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن﴾ نزلت في أبي مرثد بن أبي مرثد الغنوي واسم أبي مرثد يسار بن حصين بعثه رسول الله ﷺ إلى مكة ليخرج منها ناساً من المسلمين سراً، فلما قدمها سمعت به امرأة مشركة يقال لها عناق وكانت خليلته في الجاهلية فأتته فقالت: ألا تخلو فقال ويحك يا عناق إن الإسلام حال بيني وبين ذلك فقالت له: هل لك أن تتزوج بي؟ قال نعم ولكن أرجع إلى رسول الله ﷺ أستأمره فقالت: أبي تتبرم واستعانت عليه فضربوه ضرباً شديداً، ثم خلوا سبيله فلما قضى حاجته بمكة، وانصرف إلى رسول الله ﷺ أعلمه بما كان من أمره، وأمر عناق وما لقي بسببها وقال يا رسول الله: أيحل لي أن أتزوجها فأنزل الله تعالى هذه الآية وأصل النكاح في اللغة الوطء ثم كثر حتى قيل العقد نكاح. ومعنى الآية: ولا تنكحوا أيها المؤمنون المشركات حتى يؤمنّ أي يصدقن بالله ورسوله وهو الإقرار بالشهادتين والتزام أحكام المسلمين واختلف العلماء في حكم هذه الآية فقيل: إنها تدل على أن كل مشركة يحرم نكاحها على كل مسلم من أي أجناس الشرك كانت كالوثنية والمجوسية والنصرانية وغيرهن من أصناف المشركات، ثم استثنى الله تعالى من ذلك نكاح الحرائر الكتابيات بقوله تعالى: **﴿والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم﴾** فأباح الله تعالى نكاحهن بهذه الآية قال ابن عباس في قوله تعالى: **﴿ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن﴾** ثم استثنى نساء أهل الكتاب فقال: ﴿والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم﴾ وقيل: إن حكم الآية نزل في مشركات العرب الوثنيات خاصة ولم ينسخ منها شيء ولم يستثن وإنما حكمها عام مخصوص، قال قتادة: ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن يعني مشركات العرب اللاتي ليس فيهن كتاب يقرأنه. وبيان هذا في مسألة وهي أن لفظ الشرك على من يطلق؟ فالأكثرون من العلماء وهو القول الصحيح المختار أن لفظ الشرك يندرج فيه أهل الكتاب من اليهود والنصارى وكذلك عبدة الأصنام والمجوس وغيرهم. ويدل على أن اليهود والنصارى يطلق عليهم اسم الشرك.

قوله تعالى: **﴿وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله﴾** ثم قال تعالى: **﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلّا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلّا هو سبحانه عما يشركون﴾**

قوله تعالى: **﴿ ولا تَنكِحُوا المشركاتِ حتى يُؤمنَّ ﴾**، سببُ نزول هذه الآية أن أبا مَرْثد بن أبي مرثد الغَنوي، وقال مقاتل هو أبو مَرْثد الغَنوي، وقال عطاء: أبو مَرْثد كناز بن الحصين، وكان شجاعاً بعثه رسول الله ﷺ إلى مكة ليخرج منها ناساً من المسلمين سرّاً، فلما قَدِمَها سمعتْ به امرأة مشركةٌ يُقال لها عناق، وكانت خليلته في الجاهلية فأتته وقالت: يا أبا مَرْثد ألا تخلوا فقال لها: ويحك يا عناق إن الإسلام قد حال بيننا وبين ذلك، قالت: فهل لك أن تتزوج بي؟ قال: نعم ولكن أرجع إلى رسول الله ﷺ فأستأمره، فقالت: أبي تتبرّم؟ ثم استعانت عليه فضربوه ضرباً شديداً ثم خلّوا سبيله، فلما قضى حاجته بمكة وانصرف إلى رسول الله ﷺ أعلمه بالذي كان من أمْرِهِ وأمْرِ عناق وما لقي بسببها، وقال: يا رسول الله أتحلّ لي أن أتزوّجها؟ فأنزل الله تعالى: **﴿ ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن ﴾** وقيل: الآية منسوخة في حق الكتابيات، لقوله تعالى: **﴿ والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ﴾** [المائدة: ٥]، وبخبر رسولِ الله ﷺ وبإجماع الأمة، روى الحسن عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «نتزوّج نساء أهل الكتاب ولا يتزوجون نساءنا» فإن قيل: كيف أطلقتم اسم الشرك على مَن لم ينكر إلّا نبوّة محمد ﷺ؟ قال أبو الحسن بن فارس: لأن مَن يقول القرآن كلام غير الله فقد أشرك مع الله غيره، وقال قتادة وسعيد بن جبير: أراد بالمشركات الوثنيات، فإن عثمان تزوج نائلة بنت فراقصة وكانت نصرانية فأسلمت تحته،

فهذه الآية صريحة في شرك اليهود والنصارى وقيل: كل من كفر بالنبي ﷺ وإن زعم أن الله تعالى واحد فهو مشرك وذلك أن من كفر بالنبي ﷺ مع صحة نبوته، وظهور معجزاته فقد زعم أن ما أتى به النبي ﷺ، هو من عند غير الله فقد أشرك مع الله غيره فعلى هذا القول أيضاً يدخل فيه اليهود والنصارى لإنكارهم نبوة محمد ﷺ. وقيل: إن اسم الشرك لا يتناول إلّا عبدة الأوثان فقط والأول أصح لما تقدم من الأدلة فعلى قول من قال: إن اسم الشرك لا يتناول إلا الوثنيات تكون الآية محكمة وعلى قول الأكثرين أن اسم الشرك يتناول الوثنيات والكتابيات وغيرهن تكون الآية محكمة في حق الوثنيات منسوخة في حق الكتابيات وقوله تعالى: ﴿**ولأمة مؤمنة خير**﴾ يعني أنفع وأصلح وأفضل ﴿**من مشركة**﴾ يعني حرة ﴿**ولو أعجبتكم**﴾ يعني بجمالها ومالها ونسبها فالأمة المؤمنة خير وأفضل عند الله من الحرة المشركة، نزلت في خنساء وليدة كانت لحذيفة بن اليمان فقال: يا خنساء قد ذكرت في الملأ الأعلى على سوادك ودمامتك ثم أعتقها وتزوجها. وقيل: نزلت في عبدالله بن رواحة كانت عنده أمة سوداء فغضب عليها يوماً فلطمها، ثم فزع فأتى النبي ﷺ فأخبره فقال: وما هي يا عبدالله قال: هي تشهد أن الله لا إله إلّا الله وأنك رسول الله وتصوم رمضان وتحسن الوضوء وتصلي. فقال: هذه أمة مؤمنة. قال عبدالله: فوالذي بعثك بالحق لأعتقنها ولأتزوجنها ففعل فطعن عليه ناس من المسلمين فقالوا أتنكح أمة وعرضوا عليه حرة مشركة فأنزل الله هذه الآية: ﴿**ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا**﴾ هذا خطاب لأولياء المرأة أي لا تزوجوا المسلمة من المشركين. حرم على المؤمنات أن ينكحن مشركين من أي أصناف الشرك كان، وانعقد الإجماع على أنه لا يجوز للمسلمة أن تتزوج ﴿**ولعبد مؤمن خير من مشرك**﴾ يعني حراً ﴿**ولو أعجبكم**﴾ بحسنه وماله وجماله ﴿**أولئك يدعون إلى النار**﴾ يعني يدعون إلى الشرك الذي يؤدي إلى النار ﴿**والله يدعو إلى الجنة والمغفرة**﴾ يعني أنه تعالى بين هذه الأحكام وأباح بعضها، وحرم بعضها، فاعملوا بما أمركم به، وانتهوا عما نهاكم عنه فإن من عمل بذلك استحق الجنة والمغفرة ﴿**بإذنه**﴾ أي بتسير الله وإرادته وتوفيقه ﴿**ويبين آياته للناس**﴾ أي يوضح أدلته وحججه في أوامره ونواهيه وأحكامه ﴿**لعلهم يتذكرون**﴾ أي فيتعظون. قوله عز وجل: .

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ﴾

وتزوج طلحة بن عبد الله نصرانية، وتزوّج حذيفة يهودية، فكتب إليه عمر رضي الله عنه: خلّ سبيلها، فكتب إليه: أتزعم أنها حرام؟! فقال: لا أزعم أنها حرام ولكني أخاف أن تتعاطوا المؤمنات منهنّ، ﴿ **ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم** ﴾: بجمالها ومالِها، نزلتْ في خنساءَ وَليدةِ سوداء كانت لحذيفة بن اليمان قال حذيفة: يا خنساء قد ذُكرت في الملأ الأعلى على سوادك ودمامتك فأعتقها وتزوجها، وقال السدي: نزلت في عبد الله بن رواحة كانت له أمة سوداء فغضب عليها ولطمها ثم خرج فأتى النبيّ ﷺ وأخبره بذلك فقال له ﷺ: «وما هي يا عبد الله»؟ فقال: هي تشهد أن لا إله إلّا الله وإنك رسول الله وتصوم رمضان وتُحسن الوضوء وتصلّي، فقال رسول الله ﷺ: «هذه مؤمنة»، قال عبد الله: فوالذي بعثك بالحق نبياً لأعتقنّها ولأتزوجنّها، ففعل ذلك فطعن عليه ناس من المسلمين وقالوا: أتنكح أمةً؟ وعرضوا عليه حرّةً مشركة فأنزل الله تعالى هذه الآية: ﴿ **ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا** ﴾، هذا إجماع لا يجوز للمسلمة أن تنكح المشرك، ﴿ **ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم أولئك** ﴾، يعني: المشركين ﴿ **يدعون إلى النار** ﴾، أي: إلى الأعمال الموجبة للنار، ﴿ **والله يدعو إلى الجنة والمغفرة بإذنه** ﴾، أي: بقضائه وقدره وإرادته، ﴿ **ويُبيّن آياته للناس** ﴾، أي: أوامِره ونواهيه، ﴿ **لعلّهم يتذكرون** ﴾: يتّعظون.

﴿فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾﴾

﴿ويسألونك عن المحيض﴾ (م) عن أنس أن اليهود كانوا إذا حاضت المرأة فيهم لم يؤاكلوها، ولم يجامعوها في البيوت فسأل أصحاب رسول الله ﷺ النبي ﷺ فأنزل الله عز وجل: ﴿ويسألونك عن المحيض قل هو أذى فاعتزلوا النساء في المحيض﴾ الآية فقال رسول الله ﷺ: «اصنعوا كل شيء إلاّ النكاح» فبلغ ذلك اليهود فقالوا ما يريد هذا الرجل أن يدع من أمرنا شيئاً إلاّ خالفنا فجاء أسيد بن حضير وعباد بن بشر فقالا: يا رسول الله إن اليهود تقول كذا وكذا أفلا نجامعهن فتغير وجه رسول الله ﷺ حتى ظننا أنه قد وجد عليهما فخرجا فاستقبلتهما هدية من لبن إلى رسول الله ﷺ فأرسل في آثارهما فسقاهما فعرفنا أنه لم يجد عليهما الوجد الغضب، وأصل الحيض السيلان والانفجار. يقال: حاض الوادي إذا سال وفاض ماؤه ﴿قل هو أذى﴾ أي هو شيء قذر والأذى في اللغة ما يكره من كل شيء ﴿فاعتزلوا النساء في المحيض﴾ أي فاجتنبوا مجامعتهن ﴿ولا تقربوهن﴾ يعني بالوطء والمجامعة فهو كالتوكيد لقوله: ﴿فاعتزلوا النساء في المحيض حتى يطهرن﴾ يعني في الحيض والمعنى ولا تقربوهن حتى يزول عنهن الدم، وقرىء يطهرن بتشديد الطاء ومعناه حتى يغتسلن ﴿فإذا تطهرن﴾ أي اغتسلن من حيضهن ﴿فأتوهن من حيث أمركم الله﴾ قال ابن عباس: طؤوهن في الفرج ولا تعتدوا إلى غيره فإنه هو الذي أمر الله به ولا تأتوهن إلى غير المأتي وقيل: فأتوهن من الوجه الذي أمركم الله به وهو الطهر. وقيل: معناه وأتوهن من حيث يحل لكم غشيانهن وذلك بأن لا يكن صائمات ولا معتكفات ولا محرمات.

(فصل: في حكم هذه الآية وفيه مسائل)

المسألة الأولى: أجمع المسلمون على تحريم الجماع في زمن الحيض، ومستحله كافر عن أبي هريرة عن

قوله تعالى: ﴿ ويسألونك عن المحيض ﴾، أخبرنا أبو طاهر عمر بن عبد العزيز القاشاني أنا أبو عمر القاسم بن جعفر بن عبد الواحد الهاشمي، أنا أبو علي محمد بن أحمد بن عمر اللؤلؤي أنا أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني، أنا موسى بن إسماعيل أنا حمّاد هو ابن سلمة أنا ثابت البناني عن أنس بن مالك: أن اليهود كانوا إذا حاضت منهم المرأة أخرجوها من البيت، ولم يُؤاكلوها ولم يشاربوها، ولم يجامعوها في البيت، فسُئل رسول الله ﷺ، فأنزل الله تعالى: ﴿ ويسألونك عن المحيض قلْ هو أذىً فاعتزلوا النساء في المحيض ﴾ الآية، فقال رسول الله ﷺ: «جامعوهنّ في البيوت واصنعوا كل شيء إلاّ النكاح»، فقالت اليهود: ما يريد هذا الرجل أن يدع شيئاً من أمْرنا إلاّ خالفنا فيه، فجاء أسيد بن حضير وعباد بن بشير إلى النبي ﷺ فقالا: يا رسول الله إن اليهود تقول كذا وكذا، أفلا ننكحهنّ في المحيض، فتغير وجه رسول الله ﷺ حتى ظننا أن قد وَجَد عليهما فخرجا فاستقبلتهما هدية من لبن إلى رسول الله ﷺ، فبعث في آثارهما فسقاهما فعرفنا أنه لم يَجِدْ عليهما قوله تعالى: ﴿ ويسألونك عن المحيض ﴾، أي: عن الحيض، وهو مصدر حاضت المرأة تحيض حيضاً ومحيضاً، كالسير والمسير، وأصل الحيض الانفجار والسيلان، وقوله: ﴿ قل هو أذىً ﴾ أي: قذر، والأذى كلّ ما يُكره من كل شيء، ﴿ فاعتزلوا النساء في المحيض ﴾ أراد بالاعتزال ترك الوطء، ﴿ ولا تقربوهنّ ﴾ أي: لا تجامعوهنّ، أما الملامسة والمضاجعة معها فجائزة، أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا قبيصة، أنا سفيان عن منصور عن إبراهيم عن الأسود عن عائشة رضي الله عنها قالت: كنت أغتسل أنا والنبي ﷺ من إناء واحد، كِلَانا جنبٌ، وكان يأمرني أن أتّزر فيباشرني وأنا حائض، وكان يُخرج

النبي ﷺ قال: «من أتى حائضاً أو امرأة في دبرها أو كاهناً فقد كفر بما أنزل على محمد» أخرجه الترمذي. وقال: إنما معنى هذا عند أهل العلم على التغليظ ومن فعله وهو عالم بالتحريم عزره الإمام وفي وجوب الكفارة قولان أحدهما أنه يستغفر الله ويتوب إليه ولا كفارة عليه وهو قول أبي حنيفة والشافعي في الجديد، والقول الثاني أنه تجب عليه الكفارة، وهو القول القديم للشافعي وبه قال أحمد بن حنبل: لما روي عن ابن عباس عن النبي ﷺ في الرجل يقع على امرأته وهي حائض، قال: يتصدق بنصف دينار وفي رواية. قال: إذا كان دماً أحمر فدينار وإن كان دماً أصفر فنصف دينار أخرجه الترمذي. وقال: رفعه بعضهم عن ابن عباس ووقفه بعضهم.

المسألة الثانية: أجمع العلماء على جواز الاستمتاع بالمرأة الحائض بما فوق السرة ودون الركبة وجواز مضاجعتها وملامستها، ويدل على ذلك ما روي عن عائشة قالت: كانت إحدانا إذا كانت حائضاً وأراد رسول الله ﷺ أن يباشرها أمرها أن تأتزر بإزار في فور حيضها، ثم يباشرها وأيكم يملك إربه كما كان رسول الله ﷺ يملك إربه وفي رواية قالت: كنت اغتسل أنا ورسول الله ﷺ من إناء واحد وكلانا جنب وكان يأمرني فأتزر فيباشرني وأنا حائض أخرجاه في الصحيحين المراد بالمباشرة الاستمتاع بما دون الفرج، وفور كل شيء أوله وابتناؤه وقولها يملك إربه يروى بسكون الراء وهو العضو وبفتحها وهو الحاجة (م) عن عائشة قالت: قال لي رسول الله ﷺ: ناوليني الخمرة من المسجد قلت: أنا حائض. قال إن حيضتك ليس في يدك. الخمرة حصير صغير

رأسه إليّ وهو معتكف فأغسله وأنا حائض. أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أبو أحمد بن عبد الله النعيمي، أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا سعد بن حفص، أنا شيبان عن يحيىٰ عن أبي سلمة عن زينب بنت أبي سلمة حدّثته: أن أُم سلمة قالت: حضت وأنا مع رسول الله ﷺ في الخَمِيلة فانسللتُ فخرجت منه فأخذت ثياب حيضتي فلبستها، فقال لي رسول الله ﷺ: «أنفست»؟ قلت: نعم، فدعاني فأدخلني معه الخميلة، أخبرنا أبو القاسم بن عبد الله بن محمد الحنفي أنا أبو الحارث طاهر بن محمد الظاهري أنا محمد بن الحسن بن محمد بن حكيم، أنا أبو الموجة محمد بن عمرو، أنا صدقة أنا وكيع أنا مسعر وسفيان عن المقدام بن شُريح عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها قالت: كنت أشرب وأنا حائض فأُناوِلُه النبيَّ ﷺ، فيضع فَاهُ على موضع فِيّ وأتعرق العِرقَ فيتناوله فيضع فاه في موضع فِيّ فوطء الحائض حرام ومَنْ فعله يعصي الله عزّ وجلّ ويعزّزه الإمام إن عُلم منه ذلك، واختلف أهل العلم في وجوب الكفّارة عليه، فذهب أكثرهم إلى أنه لا كفّارة عليه فيستغفر الله ويتوب إليه، وذهب قوم إلى وجوب الكفّارة عليه، منهم قتادة والأوزاعي وأحمد وإسحق، لِما أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا عبد الرحمن بن أبي شريح، أنا أبو القاسم البغوي أنا علي بن الجعد، أنا أبو جعفر الرازي عن عبد الكريم بن أبي المخارق عن مُقسم عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال في رجل جامع امرأته وهي حائض قال: «إن كان الدم عبيطاً فليتصدّق بدينار، وإن كان صفرة فنصف دينار»، ويُروى هذا موقوفاً على ابن عباس، ويمنع الحيضُ جوازَ الصلاة ووجوبَها، ويمنع جوازَ الصوم ولا يمنع وجوبَه، حتى إذا طَهُرتْ يجب عليها قضاء الصوم ولا يجب قضاء الصلاة، وكذلك النفساء، أخبرنا أبو عثمان سعيد عن عبيدة بن أبي محمد عبد الجبار بن محمد الجراحي، أنا أبو العباس محمد بن أحمد المحبوبي، أنا أبو عيسى الترمذي أنا علي بن حجر أنا علي بن مُسهر بن إسماعيل الضبّي، أنا مُعقّب الضبي عن عبد الكريم عن إبراهيم النَّخْعِي عن الأسود عن عائشة قالت: كنّا نحيض عند رسول الله ﷺ ثم نطهر فيأمرنا بقضاء الصيام ولا يأمرنا بقضاء الصلاة. ولا يجوز للحائض الطواف بالبيت ولا الاعتكاف في المسجد ولا مسّ المصحف ولا قراءة القرآن، ولا يجوز للزوج غشيانها، أخبرنا عمر بن عبد العزيز أنا القاسم بن جعفر أنا أبو علي اللولوي، أنا أبو داود أنا مسدد أنا عبد الواحد بن زياد أنا أفلت بن خليفة قال: حدّثتني جسرة بنت دجاجة

مضفور من سعف النخل أو غيره بقدر الكف وقولها: من المسجد يعني ناداها من المسجد لأنه ﷺ كان معتكفاً في المسجد، وعائشة في حجرتها فطلب منها الخمرة وهي حائض.

المسألة الثالثة: يحرم على الحائض الصلاة والصوم ودخول المسجد وقراءة القرآن ومس المصحف وحمله، فلو أمنت الحائض من التلويث في عبور المسجد جاز في أحد الوجهين قياساً على الجنب والثاني لا لأن حدثها أغلظ، ويجب على الحائض قضاء الصوم دون الصلاة لما روي عن معاذة العدوية، قالت: سألت عائشة فقلت: ما بال الحائض تقضي الصوم ولا تقضي الصلاة قالت: أحرورية أنت؟ قلت لست بحرورية ولكني أسأل قالت: كان يصيبنا ذلك فنؤمر بقضاء الصوم ولا نؤمر بقضاء الصلاة أخرجاه في الصحيحين.

المسألة الرابعة: لا يرتفع شيء مما منعه الحيض بانقطاع الدم ما لم تغتسل، أو تتيمم عند عدم الماء إلا الصوم، فإنه إذا انقطع دمها بالليل ونوت الصوم فإنه يصح، وإن اغتسلت في النهار وذهب أبو حنيفة إلى أنه يجوز للزوج غشيانها إذا انقطع الدم لأكثر الحيض، وهو عشرة أيام عنده قبل الغسل، ومذهب الشافعي وغيره من العلماء أنه لا يجوز للزوج غشيانها ما لم تغتسل من الحيض أو تتيمم عند عدم الماء لأن الله تعالى علق جواز وطء الحائض بشرطين: أحدهما انقطاع الدم والثاني الغسل فقال: ﴿**ولا تقربوهن حتى يطهرن**﴾ يعني من الحيض ﴿**فإذا تطهرن**﴾ يعني اغتسلن ﴿**فأتوهن من حيث أمركم الله**﴾ فدل ذلك على أن الوطء لا يحل قبل الغسل. وقوله تعالى: ﴿**إن الله**

قالت: سمعت عائشة تقول: جاء رسول الله ﷺ ووجوه بيوت أصحابه شارِعة في المسجد، فقال: «**وجِّهوا هذه البيوت عن المسجد فإني لا أحلُّ المسجد لحائض ولا جنب**». قوله تعالى: ﴿ **حتى يطهرن** ﴾، قرأ عاصم برواية أبي بكر وحمزة والكسائي بتشديد الطاء والهاء، حتى يغتسلن، وقرأ الآخرون بسكون الطاء وضمّ الهاء مخفّف، ومعناه: حتى يطهرن من الحيض وينقطع دمهنّ، ﴿ **فإذا تطهرن** ﴾ يعني: اغتسلن، ﴿ **فأتوهنّ** ﴾، أي: فجامعوهنّ، ﴿ **من حيث أمركم الله** ﴾، أي: من حيث أمركم أن تعتزلوهنّ منه وهو الفرج، قال مجاهد وقتادة وعكرمة وقال ابن عباس: وطؤهنّ في الفرج ولا تعدّوه إلى غيره، أي: اتّقوا الأدبار، وقيل: من حيث بمعنى في حيث أمركم الله تعالى وهو الفرج، كقوله عزّ وجلّ: ﴿ إذا نُودي للصلاة من يوم الجمعة ﴾ [الجمعة: ٩]، أي: في يوم الجمعة، وقيل: فأتوهنّ من الوجه الذي أمركم الله أن تأتوهنّ وهو الطُّهر، وقال ابن الحنفية مِنْ قِبَل الحلال دون الفجور، وقيل لا تأتوهنّ صائمات ولا معتكفات ولا محرمات واتوهنّ وغشيانهنّ لكم حلال، واعلم أنه لا يرتفع تحريم شيء مما منعه الحيض بانقطاع الدم ما لم تغتسل أو تتيمّم عند عدم الماء إلّا تحريم الصوم، فإن الحائض إذا انقطع دمها بالليل ونوت الصوم فوقع غسلها بالنهار صحّ صومها، والطلاق في حال الحيض يكون بدعياً وإذا طلّقها بعد انقطاع الدم قبل الغسل لا يكون بدعياً، وذهب أبو حنيفة رضي الله عنه إلى أنه إذا انقطع دمُها لأكثر الحيض وهي عنده عشرة أيام يجوز للزوج غشيانها قبل الغسل، وقال مجاهد وعطاء وطاوس: إذا غسلت فرجها يجوز للزوج غشيانها قبل الغسل، وأكثر أهل العلم على التحريم ما لم تغتسل أو تتيمّم عند عدم الماء، لأن الله تعالى علّق جواز وطئها بشرطين: بانقطاع الدم والغسل، فقال: ﴿ **حتى يطهرن** ﴾ يعني: من الحيض ﴿ **فإذا تطهرن** ﴾ يعني: اغتسلن فأتوهنّ، ومَن قرأ يطهرن بالتشديد فالمراد منه: الغسل، كقوله تعالى: ﴿ وإن كنتم جنباً فاطّهروا ﴾ [المائدة: ٦]، أي: فاغتسلوا، فدلّ على أن قبل الغسل لا يحلّ الوطء، قوله تعالى: ﴿ **إنّ الله يحبّ التوّابين ويحبّ المتطهرين** ﴾، قال عطاء ومقاتل بن سليمان والكلبي: يحبّ التوّابين من الذنوب ويحبّ المتطهرين بالماء من الأحداث والنجاسات، وقال مقاتل بن حيّان: يحبّ التوّابين من الذنوب والمتطهرين من الشرك، وقال

يحب التوابين﴾ يعني من الذنوب، والتواب الذي كلما أذنب جدد توبة، وقيل: التواب هو الذي لا يعود إلى الذنب ﴿ويحب المتطهرين﴾ يعني من الأحداث وسائر النجاسات بالماء. وقيل: المتطهرين من الشرك وقيل: هم الذين لم يصيبوا الذنوب.

﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَـٰقُوهُ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿نساؤكم حرث لكم﴾ الآية (ق) عن جابر قال: كانت اليهود تقول: إذا جامعها من ورائها جاء الولد أحول فنزلت: ﴿نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم﴾ وفي رواية للترمذي كانت اليهود تقول: من أتى المرأة في قبلها من دبرها وذكر الحديث وعن ابن عباس قال: جاء عمر إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله هلكت. قال: وما أهلكك قال: حولت رحلي الليلة قال: فلم يرد عليه شيئاً فأوحى الله إلى رسوله ﷺ بهذه الآية: ﴿نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم﴾ أقبل وأدبر واتق الدبر والحيضة أخرجه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح. قوله: حولت رحلي هو كناية عن الإتيان في غير المحل المعتاد هذا ظاهره، ويجوز أن يريد به أنه أتاها في المحل المعتاد لكن من جهة ظهرها، وعن ابن عباس قال: كان هذا الحي من الأنصار وهم أهل وثن مع هذا الحي من يهود وهم أهل كتاب فكانوا يرون لهم فضلاً عليهم في العلم فكانوا يقتدون بكثير من فعلهم، وكان من شأن أهل الكتاب أن لا يأتوا النساء إلا على حرف وذلك أشق ما تكون المرأة، فكان هذا الحي من الأنصار قد أخذوا بذلك من فعلهم، وكان هذا الحي من قريش يشرحون النساء شرحاً منكراً ويتلذذون بهن مقبلات ومدبرات ومستلقيات فلما قدم المهاجرون المدينة تزوج رجل منهم امرأة من الأنصار فذهب أن يصنع بها ذلك

سعيد بن جبير: التوّابين من الشرك والمتطهرين من الذنوب، وقال مجاهد: التوّابين من الذنوب لا يعودون فيها والمتطهرين منها لم يصيبوها، والتوّاب الذي كلما أذنب تاب، نظيره قوله تعالى: ﴿ فإنه كان للأوّابين غفوراً ﴾ [الإسراء: ٢٥].

قوله تعالى: ﴿ نساؤكم حرثٌ لكم فأتوا حرثَكم أنّى شِئْتُم ﴾، أخبرنا أبو سعيد أحمد بن إبراهيم الشريحي، أنا أبو إسحق الثعلبي أخبرنا عبد الله بن حامد الأصبهاني، أخبرنا محمد بن يعقوب أنا ابن المنادى أنا يونس، أنا يعقوب القمي عن جعفر بن المغيرة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس جاء عمر إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله هلكت، قال: «وما الذي أهلكك»؟ قال: حوّلتُ رحلي البارحة فلم يردّ عليه شيئاً، وأوحى الله إليه: ﴿ نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنّى شئتم ﴾، يقول: «أدْبِرْ وأقبل واتقِ الدُّبُرَ والحَيْضَة»، أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحي أخبرنا أحمد بن الحسين الحيري، أنا صاحب ابن أحمد الطوسي أنا عبد الرحيم بن منيب، أنا ابن عُيينة عن ابن المنكدر أنه سمع جابر بن عبد الله يقول: كانت اليهود تقول في الذي يأتي امرأته من دبرها في قلبها أن الولد يكون أحول، فنزلت ﴿ نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنّى شئتم ﴾، وروى مجاهد عن ابن عباس قال: كان من شأن أهل الكتاب أن لا يأتوا النساء إلّا على حرف، وذلك أستر ما تكون المرأة، وكان هذا الحيّ من الأنصار قد أخذوا بذلك من فعلهم، وكان هذا الحيّ من قريش يتلذّذون منهنّ مقبلات ومدبرات ومستلقيات، فلمّا قَدِمَ المهاجرون المدينة تزوّج رجل منهم امرأة من الأنصار فذهب يصنع بها ذلك، فأنكرت عليه وقالت: إنّا كنّا نُؤتى على حرف فإن شئت فاصنع ذلك، وإلّا فاجتنبني، حتى سرَى أمرُهما، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فأنزل الله تعالى: ﴿ نساؤكم حرث لكم ﴾ الآية، يعني: موضع الولد ﴿ فأتوا حرثكم أنّى شئتم ﴾ مقبلات ومدبرات ومستلقيات، و﴿ أنّى ﴾ حرف

فأنكرته عليه. وقالت: إنا كنا نؤتي على حرف فاصنع ذلك وإلا فاجتنبني حتى سرى أمرهما فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فأنزل الله عز وجل: ﴿نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم﴾ أي مقبلات ومدبرات ومستلقيات يعني بذلك موضع الولد، أخرجه أبو داود والوثن الصنم. وقيل: الصورة لا جثة لها. وقوله: على حرف، الحرف الجانب وحرف كل شيء جانبه وقوله: يشرحون النساء. يقال شرح فلان جاريته إذا وطئها على قفاها وأصل الشرح البسط وقوله: سرى أمرهما أي ارتفع وعظم وتفاخم وأصله من سرى البرق إذا لج في اللمعان. عن أم سلمة أن رسول الله ﷺ قال في قوله تعالى: ﴿نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم﴾ في صمام واحد ويروى سمام بالسين أخرجه الترمذي. وقال حديث حسن وقوله تعالى: ﴿حرث لكم﴾ معناه مزرع لكم ومنبت للولد، وهذا على سبيل التشبيه فجعل فرج المرأة كالأرض والنطفة كالبذر والولد كالنبات الخارج ﴿فأتوا حرثكم أنى شئتم﴾ يعني كيف شئتم وحيث شئتم، إذا كان في القبل والمعنى كيف شئتم مقبلة ومدبرة، على كل حال إذا كان في الفرج وفي الآية دليل على تحريم إتيان النساء في أدبارهن لأن محل الحرث والزرع هو القبل لا الدبر، ويؤيد ذلك ما روي عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «ملعون من أتى امرأة في دبرها» أخرجه أبو داود. وقال سعيد بن المسيب: هذا في العزل يعني إن شئتم فاعزلوا وإن شئتم لا تعزلوا، وسئل ابن عباس عن العزل فقال: حرثك إن شئت فعطش وإن شئت فارو ويروى عنه أنه قال: تستأمر الحرة في العزل ولا تستأمر الجارية وبه قال أحمد: وكره جماعة العزل وقالوا: هو الوأد الخفي وروى نافع قال كنت أمسك على ابن عمر المصحف فقرأ هذه الآية:

استفهام يكون سؤالاً عن الحال والمحل، معناه: كيف شئتم وحيث شئتم بعد أن يكون في صمام واحد، وقال عكرمة أنّى شئتم: إنما هو الفرج، ومثله لكم أي: مزرع لكم ومنبت الولد بمنزلة الأرض التي تزرع، وفيه دليل على تحريم الأدبار، لأن محل الحرث والزرع هو القُبل لا الدُّبر، وقال سعيد بن المسيّب: هذا في العزل يعني إن شئتم، فاعزلوا وإن شئتم فلا تعزلوا، وسُئل ابن عباس عن العزل فقال: حرثك إن شئت فاعطش وإن شئت فأروِ، ورُوِيَ عنه أنه قال: تُستأمر الجارية، وبه قال أحمد وكره جماعة العزل، وقال: هو الوأد الخفي، ورُوِيَ عن مالك عن نافع قال: كنت أمسك على ابن عمر المصحف فقرأ هذه الآية ﴿ نساؤكم حرث لكم ﴾ فقال أتدري فِيمَ، نزلت هذه الآية؟ قلت: لا، قال: نزلت في رجل أتى امرأته في دبرها فشقّ ذلك عليه، فنزلت هذه الآية، ويُحكى عن مالك إباحة ذلك، وأنكر ذلك أصحابه، ورُوِيَ عن عبد الله بن الحسن أنه لقي سالم بن عبد الله فقال له: يا أبا عمر ما حدّثت بحديث نافع عن عبد الله أنه لم يكن يرى بأساً بإتيان النساء في أدبارهنّ؟ فقال: كذب العبد وأخطأ إنما قال عبد الله يُؤتَون في فروجهنّ من أدبارهنّ، والدليل على تحريم الأدبار ما أخبرنا عبد الوهاب بن محمد بن الخطيب، أنا عبد العزيز بن أحمد الخلال أخبرنا أبو العباس الأصم، أنا الربيع أخبرنا الشافعي أنا عمر محمد بن علي بن شافع، أخبرنا عبد الله بن علي بن السائب عن عمرو بن أُحيحة بن الحلاج، عن خزيمة بن ثابت أن رجلاً سأل النبيّ ﷺ عن إتيان النساء في أدبارهنّ، فقال النبي ﷺ: «في أيّ الخرمتين، أو في أيّ الخَرزَتين أو في الخَصْفَتين أمِنْ دُبُرِها في قُبُلِها فنعم، أمْ مِن دُبُرِها في دُبرها فلا، فإن الله لا يستحي من الحق، لا تأتوا النساء في أدبارهنّ». أخبرنا أحمد بن إبراهيم الشريحي أنا أبو إسحق الثعلبي، أنا أبو عبد الله الحسين بن محمد الحافظ أنا عمر بن أحمد بن القاسم النهاوندي، أخبرنا محمد بن عبد الله بن سليمان الحضرمي أنا عبد الله بن أبَان أنا يحيىٰ بن زكريا بن أبي زائدة عن مسلم بن خالد عن العلاء عن أبيه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ملعون مَن أتى امرأة في دُبرها». قوله تعالى: ﴿ وقدّموا لأنفسكم ﴾، قال عطاء: التسمية عند الجماع، قال مجاهد: وقدّموا لأنفسكم يعني: إذا أتى أهله فليدْع، أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أنا

﴿نساؤكم حرث لكم﴾ قال: تدري فيم نزلت هذه الآية؟ قلت: لا. قال: نزلت في رجل أتى امرأته في دبرها فشق ذلك عليه فنزلت هذه الآية وروى عبدالله بن الحسن أنه لقي سالم بن عبدالله بن عمر فقال له: يا عم ما حديث يحدثه نافع عن عبدالله أنه لم يكن يرى بأساً بإتيان النساء في أدبارهن فقال: كذب العبد وأخطأ إنما قال عبدالله: يؤتون في فروجهن من أدبارهن، ويحكى عن مالك إباحة ذلك وأنكره أصحابه، وأجمع جمهور العلماء على تحريم إتيان النساء في أدبارهن، وقالوا: لأن الله حرم الفرج في حال الحيض لأجل النجاسة العارضة وهو الدم فأولى أن يحرم الدبر لأجل النجاسة اللازمة ولأن الله تعالى نص على ذكر الحرث والحرث به يكون نبات الولد فلا يحل العدول عنه إلى غيره. وقوله تعالى: ﴿وقدموا لأنفسكم﴾ يعني الولد وقيل: قدموا التسمية والدعاء عند الجماع (ق) عن ابن عباس قال: قال النبي ﷺ: «لو أن أحدكم إذا أراد أن يأتي أهله قال بسم الله اللهم جنبنا الشيطان، وجنب الشيطان ما رزقتنا، فإنه إن يقدر بينهما ولد في ذلك لم يضره الشيطان أبداً» وقيل: أراد به تقديم الإفراط (ق) عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يموت لأحد من المسلمين ثلاثة من الولد فتمسه النار إلا تحلة القسم» قوله إلا تحلة القسم يعني قدر ما يبر الله قسمه فيه وهو قوله تعالى: ﴿وإن منكم إلا واردها﴾ فإذا وردها جاوزها فقد أبر الله قسمه، وقيل: قدموا لأنفسكم يعني من الخير والعمل الصالح بدليل سياق الآية ﴿واتقوا الله﴾أي احذروا أن تأتوا شيئاً مما نهاكم الله عنه ﴿واعلموا أنكم ملاقوه﴾ أي صائرون إليه في الآخرة فيجزيكم بأعمالكم ﴿وبشر المؤمنين﴾ يعني بالكرامة من الله تعالى. قوله عز وجل:

﴿وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ أَن تَبَرُّوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَتُصْلِحُوا۟ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٤﴾﴾

﴿ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم﴾ نزلت في عبدالله بن رواحة كان بينه وبين ختنه بشير بن النعمان شيء، فحلف عبدالله لا يدخل عليه ولا يكلمه ولا يصلح بينه وبين خصم له فكان إذا قيل له: فيه يقول: قد حلفت بالله أن لا أفعل فلا يحل لي إلا أن تبر يميني فأنزل الله هذه الآية، وقيل: نزلت في أبي بكر الصديق حين حلف ألا ينفق

محمد بن إسماعيل أنا عثمان بن أبي شيبة أنا جرير عن منصور عن سالم عن كريب عن ابن عباس قال: قال النبي ﷺ: «لو أن أحدهم إذا أراد أن يأتي أهله قال بسم الله اللَّهمّ جنّبنا الشيطان وجنّب الشيطان ما رزقتنا، فإنه إن يُقدّر بينهما ولدٌ في ذلك لم يضرّه الشيطان أبداً»، وقيل: قدّموا لأنفسكم يعني: طلب الولد، أخبرنا أبو عبد الله محمد بن الفضل الخرقي أنا أبو الحسن علي بن عبد الله الطيسفوني، أخبرنا عبد الله بن عمر الجوهري أنا أحمد بن علي الكشمهيني، أنا علي بن حجر عن العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إذا مات الإنسان انقطع عمله إلاّ من ثلاثة: صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له»، وقيل: هو التزوّج بالعفاف ليكون الولد صالحاً، أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أنا محمد بن يوسف أنا مسدد أنا يحيىٰ عن عبد الله حدّثني سعيد بن أبي سعيد عن أبيه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «تُنكح المرأة لأربع: لمالها ولحسبها ولجمالها ولدينها، فاظفر بذات الدين تَربت يداك»، وقيل: معنى الآية تقديم الإفراط، أخبرنا أبو الحسن السرخسي أخبرنا زاهر بن أحمد أخبرنا أبو إسحق الهاشمي، أنا أبو مصعب عن مالك عن ابن شهاب عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لا يموت لأحد من المسلمين ثلاثة من الولد فتمسّه النار إلاّ تحلّة القسم»، وقال الكلبي والسدي: وقدّموا لأنفسكم يعني: الخير والعمل الصالح بدليل سياق الآية ﴿ واتقوا الله واعلموا أنكم مُلاقوه ﴾: صائرون إليه فيجزيكم بأعمالكم، ﴿ وبشّر المؤمنين ﴾.

قوله تعالى: ﴿ ولا تجعلوا اللَّهَ عُرضةً لأيمانكم ﴾، نزلت في عبد الله بن رواحة كان بينه وبين خَتَنِهِ على

على مسطح حين خاض في حديث الإفك والعرضة ما يجعل معرضاً للشيء، وقيل: العرضة الشدة والقوة وكل ما يعترض فيمنع عن الشيء، فهو عرضة، والمعنى: ولا تجعلوا الحلف بالله سبباً مانعاً لكم من البر والتقوى يدعى أحدكم إلى بر وصلة رحم فيقول قد حلفت بالله لا أفعله فيعتل بيمينه في ترك البر والإصلاح ﴿**أن تبروا وتتقوا وتصلحوا بين الناس**﴾ قبل معناه لا تحلفوا بالله أن لا تبروا ولا تتقوا ولا تصلحوا بين الناس. (م) عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «من حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها فليأتها وليكفر عن يمينه» وقيل: معناه لا تكثروا الحلف بالله وإن كنتم بارين متقين مصلحين فإن كثرة الحلف بالله ضرب من الجراءة عليه ﴿**والله سميع**﴾ أي لحلفكم ﴿**عليم**﴾ يعني بنياتكم. قوله عز وجل: ﴿**لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم**﴾ اللغو كل ساقط مطرح من الكلام، وما لا يعتد به، وهو الذي يورد لا عن روية وفكر. واللغو في اليمين هو الذي لا عقد معه كقول القائل: لا والله بلى والله على سبق اللسان من غير قصد ونية وبه قال الشافعي: ويعضده ما روي عن عائشة قالت نزل قوله تعالى: .

﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَـٰنِكُمْ وَلَـٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾﴾

﴿**لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم**﴾ في قول الرجل: لا والله وبلى والله أخرجه الترمذي. موقوفاً ورفعه أبو داود قال: قالت عائشة قال رسول الله ﷺ: «هو قول الرجل في يمينه كلا والله وبلى والله» ورواه عنها أيضاً موقوفاً، وقيل: في معنى اللغو هو أن يحلف الرجل على شيء يرى أنه صادق ثم يتبين له خلاف ذلك، وبه قال أبو حنيفة: ولا كفارة فيه ولا إثم عليه عنده، قال مالك في الموطأ: أحسن ما سمعت في ذلك أن اللغو حلف الإنسان على الشيء يتيقن أنه كذا ثم يوجد بخلافه فلا كفارة فيه. قال: والذي يحلف على الشيء وهو يعلم أنه فيه آثم كاذب ليرضى به أحداً ويعتذر المخلوق أو يقطع به مالاً، فهذا أعظم من أن تكون فيه كفارة وإنما الكفارة على من حلف أن لا يفعل الشيء المباح له فعله، ثم يفعله أو أن يفعله ثم لا يفعله مثل أن يحلف لا يبيع ثوبه بعشرة

أخيه بشير بن النعمان الأنصاري شيء، فحلف عبد الله أن لا يدخل عليه ولا يكلّمه ولا يصلح بينه وبين خصمه، وإذا قيل له فيه، قال: قد حلفتُ بالله أن لا أفعل فلا يحلّ لي إلّا أن تبرّ بيميني، فأنزل الله هذه الآية، وقال ابن جريج: نزلت في أبي بكر الصديق حين حلف أن لا ينفق على مُسطح حين خاض في حديث الإفك، والعرضة أصلها الشدّة والقوة، ومنه قيل للدابّة التي تُتّخذ للسفر: عُرضة لقوتها عليه، ثم قيل لكل ما يصلح لشيء هو عرضة له، حتى قالوا للمرأة هي عُرضة النكاح إذا صلحت له، والعُرضة كلّ ما يعترض فيمنع عن الشيء، ومعنى الآية: لا تجعلوا الحلف بالله سبباً مانعاً لكم من البرِّ والتقوى، يُدعى أحدكم إلى صلة رحم أو برٍّ، فيقول: حلفتُ بالله أن لا أفعله فيعتلّ بيمينه في ترك البرّ، ﴿ **أن تبرّوا** ﴾، معناه: أنْ لا تبرّوا، كقوله تعالى: ﴿ **يُبيّن الله لكم أن تضلّوا** ﴾ [النساء: ١٧٦] أي: لئلا تضلّوا، ﴿ **وتتّقوا وتصلحوا بين الناس والله سميع عليم** ﴾، أخبرنا أبو الحسن السرخسي أنا زاهر بن أحمد أبو إسحق الهاشمي، أنا أبو مصعب عن مالك عن سهيل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «مَن حلف بيمين فرأى خيراً منها فليُكفِّرْ عن يمينه وليفعلِ الذي هو خير».

قوله تعالى: ﴿ **لا يُؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم** ﴾، اللغو كل ساقطٍ مُطَّرَح من الكلام لا يُعتدّ به، واختلف أهل العلم في لغو اليمين المذكورة في الآية، فقال قوم: هو ما يسبق إلى اللسان على عجلة لصلة الكلام من غير عقدٍ وقصد، كقول القائل لا واللّهِ وبلَى واللّهِ وكلاّ والله، أخبرنا عبد الوهاب بن محمد الكسائي أنا عبد العزيز بن أحمد الخلال أخبرنا أبو العباس الأصم، أنا الربيع أنا الشافعي أنا مالك عن هشام عن عروة، عن أبيه عن عائشة أنها

دراهم، ثم يبيعه بذلك أو يحلف ليضربن غلامه، ثم لا يضربه، وفائدة الخلاف الذي بين الشافعي وأبي حنيفة في لغو اليمين أن الشافعي لا يوجب الكفارة في قول الرجل، لا والله وبلى والله ويوجبها فيما إذا حلف على شيء يعتقد أنه كان ثم بان أنه لم يكن وأبو حنيفة يحكم بضد ذلك، ومذهب الشافعي هو قول: عائشة والشعبي وعكرمة ومذهب أبي حنيفة هو قول ابن عباس والحسن ومجاهد والنخعي والزهري وسليمان بن يسار وقتادة ومكحول. وقيل: في معنى اللغو إنه اليمين في الغضب وقيل: هو ما يقع سهواً من غير قصد البتة ومعنى لا يؤاخذكم أي لا يعاتبكم الله بلغو اليمين. وقيل: ﴿**لا يؤاخذكم**﴾ أي لا يلزمكم الكفارة بلغو اليمين ﴿**ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم**﴾ يعني لكن يؤاخذكم بما عزمتم عليه وقصدتم له، وكسب القلب هو العقد والنية.

(فصل في بيان حكم الآية: وفيه مسائل)

المسألة الأولى: لا تنعقد اليمين إلا بالله وبأسمائه وصفاته، فأما اليمين بالله فهو كقول الرجل: والذي نفسي بيده والذي أعبده، ونحو ذلك، والحلف بأسمائه كقوله والله والرحمن والرحيم والمهيمن ونحو ذلك والحلف بصفاته كقوله وعزة الله، وقدرته وعظمته ونحوه، فإذا حلف بشيء من ذلك ثم حنث فعليه الكفارة.

المسألة الثانية: لا يجوز الحلف بغير الله كقوله: والكعبة والنبي وأبي ونحو ذلك، فإذا حلف بشيء من ذلك لا تنعقد يمينه ولا كفارة عليه، ويكره الحلف به لما روى عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ أدرك عمر وهو يسير في ركب وهو يحلف بأبيه فقال رسول الله ﷺ: «إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم فمن كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت» أخرجاه في الصحيحين.

المسألة الثالثة: إذا حلف على أمر في المستقبل، فحنث فعليه الكفارة وإن كان على أمر ماض ولم يكن، أو

قالت: لغُو اليمين قولُ الإنسان: لا والله وبلى والله، ورفعه بعضهم، وإلى هذا ذهب الشعبي وعكرمة، وبه قال الشافعي، ويُروى عن عائشة أيمان اللغو: ما كانت في الهزل والمِراءِ والخُصومةِ، والحديثِ الذي لا يَعْقِدُ عليه القلب، وقال قوم: هو أن يحلف عن شيء يرى أنه صادق فيه، ثم يتبيّن له خلاف ذلك، وهو قول الحسن والزهري وإبراهيم النخعي وقتادة ومكحول، وبه قال أبو حنيفة رضي الله عنه، وقالوا: لا كفّارة فيه ولا إثم، وقال عليٌّ: الغضب، وبه قال طاوس وقال سعيد بن جُبير: هو اليمين في المعصية لا يُؤاخذه الله بالحِنث فيها، بل يَحْنَثُ ويُكَفِّر، وقال مسروق: ليس عليه كفّارة، أنُكَفِّرُ خُطواتِ الشيطان؟ وقال الشعبي في الرجل يحلف على المعصية: كفّارته أن يتوب منها، وكل يمين لا يَحِلُّ لك أن تفي بها فليس فيها كفّارة، ولو أمرتُه بالكفّارة لأمرته أن يُتِمَّ ويستمر على قوله، وقال زيد بن أسلم: هو دعاء الرجل على نفسه، كقول الإنسان: أعمى الله بصري أن أفعل كذا، فهذا كله لغو لا يؤاخذه الله به، ولو آخذهم به لعجّل لهم العقوبة، ﴿ ولو يُعجِّلُ الله للناس الشرَّ استعجالَهم بالخير لَقُضِيَ إليهم أجلُهم ﴾ [يونس: ١١]، وقال: ﴿ ويدعُ الإنسان بالشرِّ دعاءه بالخير ﴾ [الإسراء: ١١] قوله تعالى: ﴿ **ولكن يُؤاخذكم بما كسبتْ قلوبكم** ﴾، أي: عزمتم وقصدتم إلى اليمين، وكسب القلب: العقد والنيّة، ﴿ **والله غفورٌ حليم** ﴾، واعلم أن اليمين لا تنعقد إلّا بالله أو باسم من أسمائه أو بصفة من صفاته، فاليمين بالله أن يقول: والذي أعبده والذي أصلي له والذي نفسي بيده، ونحو ذلك، واليمين بأسمائه كقوله: والله والرحمن ونحوه، واليمين بصفاته كقوله: وعزّةِ الله وعظمةِ الله وجلالِ الله وقدرةِ الله ونحوهما، فإذا حلف بشيء منها على أمر في المستقبل، فَحنِثَ يجب عليه الكفّارة، وإذا حلف على أمر ماضٍ أنه كان ولم يكن، أو على أنه لم يكن وقد كان، إنْ كان عالماً به حالة ما حلف فهو اليمين الغَمُوس وهو من الكبائر، ويجب فيه الكفّارة عند بعض أهل العلم عالماً كان أو

على أنه لم يكن فكان فإن كان عالماً به حال حلفه بأن يقول: والله ما فعلت وقد فعل أو لقد فعلت وما فهل فهذه اليمين الغموس، وهي من الكبائر سميت غموساً لأنها تغمس صاحبها في الإثم وتجب فيها الكفارة عند الشافعي سواء كان عالماً أو جاهلاً، وذهب أبو حنيفة إلى أنه لا كفارة عليه، فإن كان عالماً فهي كبيرة، وإن كان جاهلاً فهي من لغو اليمين ﴿والله غفور﴾ يعني لعباده فيما لغوا من أيمانهم التي أخبر أنه لا يؤاخذكم عليها، ولو شاء آخذهم وألزمهم للكفارة في العاجل والعقوبة عليها في الآجل ﴿حليم﴾ يعني في ترك معاجلة أهل العصيان بالعقوبة، قال الحليمي في معنى الحليم إنه الذي لا يحبس إنعامه وأفضاله عن عباده لأجل ذنوبهم، ولكنه يرزق العاصي كما يرزق المطيع ويبقيه وهو منهمك في معاصيه كما يبقى البر المتقي وقد يقيه الآفات والبلايا، وهو غافل لا يذكره فضلاً عن أن يدعوه كما يقيها الناسك الذي يدعوه ويسأله، وقال أبو سليمان الخطابي: الحليم ذو الصفح والأناة الذي لا يستفزه غضب ولا يستخفه جهل جاهل ولا عصيان عاص ولا يستحق الصافح مع العجز اسم الحليم، إنما الحليم الصفوح مع القدرة على الانتقام المتأني الذي لا يعجل بالعقوبة قوله عز وجل:

﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ٢٢٦﴾

﴿للذين يؤلون من نسائهم﴾ يؤلون أي يحلفون والألية اليمين قال كثير:

قليل الألايا حافظ ليمينه وإن سبقت منه الألية برت

والإيلاء في عرف الشرع، هو اليمين على ترك الوطء كما إذا قال: والله لا أجامعك أو لا أباضعك أو لا أقربك قال ابن عباس: كان أهل الجاهلية إذا طلب الرجل من امرأته شيئاً فأبت أن تعطيه حلف لا يقربها السنة والسنتين والثلاث فيدعها لا أيّماً، ولا ذات بعل، فلما كان الإسلام جعل الله ذلك للمسلمين أربعة أشهر، وأنزل هذه الآية، وقال سعيد بن المسيب: كان الإيلاء ضرار أهل الجاهلية فكان الرجل يريد امرأته، ولا يحب أن يتزوجها غيره فيحلف أن لا يقربها أبداً فيتركها لا أيما ولا ذات بعل، وكانوا عليه في ابتداء الإسلام فجعل الله تعالى له الأجل الذي يعلم به ما عند الرجل في المرأة أربعة أشهر، وأنزل هذه الآية للذين يؤلون من نسائهم ﴿تربص﴾ أي انتظار ﴿أربعة أشهر﴾ والتربص التثبت والانتظار.

جاهلاً، وبه قال الشافعي، ولا يجب عند بعضهم وهو قول أصحاب الرأي، وقالوا: إن كان عالماً فهو كبيرة ولا كفّارة لها كما في سائر الكبائر، وإن كان جاهلاً فهو يمين اللغو عندهم، ومَن حلف بغير الله مثلاً، مثل إن قال: والكعبة وبيت الله ونبيّ الله، أو حلف بأبيه ونحو ذلك فلا يكون يميناً فلا يجب به الكفّارة إذا حلف، وهو يمين مكروهة، قال الشافعي: وأخشى أن يكون معصية، أخبرنا أبو الحسن السرخسي أنا زاهر بن أحمد أبو إسحاق الشافعي، أنا أبو مصعب عن مالك عن نافع عن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ أدرك عمر بن الخطاب وهو يسير في ركب وهو يحلف بأبيه فقال رسول الله ﷺ: «إنّ الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم، فمَن كان حالفاً فليحلفْ بالله أو ليصمتْ».

قوله تعالى: ﴿ للذين يُؤْلُون مِنْ نسائهم تَربصُ أربعة أشهر ﴾، يؤلون أي: يحلفون، والألية: اليمين، والمراد من الآية اليمين على ترك وطء المرأة، قال قتادة: كان الإيلاء طلاقاً لأهل الجاهلية، وقال سعيد بن المسيب: كان ذلك من ضِرار أهل الجاهلية، وكان الرجل لا يحب امرأته ولا يريد أن يتزوّج بها غيره، فيحلف أن لا يقربها أبداً فيتركها لا أيّماً ولا ذات بعل، وكانوا عليه في ابتداء الإسلام، فضرب الله له أجلاً في الإسلام، واختلف أهل العلم فيه، فذهب أكثرهم إلى أنه إن حلف أن لا يقرب زوجته أبداً أو سمّى مدةً أكثر من أربعة أشهر يكون

﴿فإن فاؤوا﴾ أي رجعوا عن اليمين بالوطء، والمعنى فإن رجعوا عما حلفوا عليه من ترك جماعها ﴿فإن الله غفور رحيم﴾ للزوج إذا تاب من إضراره بامرأته فإنه غفور رحيم لكل التائبين.

(فروع) تتعلق بحكم الآية:

(الفرع الأول): إذا حلف أنه لا يقرب زوجته أبداً أو مدة هي أكثر من أربعة أشهر فهو مول، فإذا مضت أربعة أشهر، يوقف الزوج، ويؤمر بالفيء وهو الرجوع أو الطلاق، وذلك بعد مطالبة الزوجة فإن رجع عما قال بالوطء إن قدر عليه أو بالقول مع العجز عنه، فإن لم يفيء ولم يطلق طلق عليه الحاكم واحدة، وهو قول عمر وعثمان وأبي الدرداء وابن عمر، قال سليمان بن يسار: أدركت بضعة عشر من أصحاب النبي ﷺ كلهم يقول: يوقف المولي. وذهب إليه سعيد بن جبير وسليمان بن يسار ومجاهد. وبه قال مالك والشافعي وأحمد وإسحاق، وقال ابن عباس وابن مسعود: إذا مضت مدة أربعة أشهر يقع عليها طلقة بائنة. وبه قال سفيان الثوري وأبو حنيفة، وقال سعيد بن المسيب والزهري: يقع عليها طلقة رجعية.

(الفرع الثاني): لو حلف أن لا يطأها أقل من أربعة أشهر فليس بمول بل هو حالف فإن وطئها قبل مضي المدة لزمه كفارة يمين.

(الفرع الثالث): لو حلف أن لا يطأها أربعة أشهر، فليس بمول بعد مضي المدة عند الشافعي لأن بقاء المدة شرط للوقوف، وثبوت المطالبة بالفيء أو الطلاق، وقد مضت المدة، وعند أبي حنيفة يكون مولياً ويقع الطلاق بمضي المدة.

(الفرع الرابع): مدة الإيلاء أربعة أشهر في حق الحر والعبد، جميعاً عند الشافعي لأنها مدة ضربت لمعنى يرجع إلى الطبع وهو قلة صبر المرأة عن الزوج فيستوي فيه الحر والعبد كمدة العنة وعن مالك وأبي حنيفة تتنصف

مولياً، فلا يتعرّض قبل مضي أربعة أشهر وبعد مضيها يوقف ويؤمر بالفيء أو بالإطلاق بعد مطالبة المرأة، والفيء: هو الرجوع عمّا قاله بالوطء إن قدر عليه، وإن لم يقدر فبالقول، فإن لم يفِ ولم يُطلّق طلّق عليه السلطان واحدةً، وذهب إلى الوقوف بعد مضي المدة عمر وعثمان وعلي وأبو الدرداء وابن عمر، قال سليمان بن يسار: أدركت بضعة عشر من أصحاب النبي ﷺ كلّهم يقولون يوقف المُولي، وإليه ذهب سعيد بن جبير وسليمان بن يسار ومجاهد، وبه قال مالك والشافعي وأحمد وإسحاق، وقال بعض أهل العلم: إذا مضت أربعة أشهر تقع عليها طلقة بائنة، وهو قول ابن عباس وابن مسعود، وبه قال سفيان الثّوري وأصحاب الرأي، وقال سعيد بن المسيب والزهري: تقع طلقة رجعية، ولو حلف أن لا يطأها أقل من أربعة أشهر لا يكون مُولياً بل هو حالف، فإذا وطئها قبل مضي تلك المدة تجب عليه كفّارة اليمين، ولو حلف أن لا يطأها أربعة أشهر لا يكون مُولياً عند مَن يقول بالوقف بعد مضي المدة، لأن بقاء المدة شرط للوقف وثبوت المطالبة بالفيء أو الطلاق، وقد مضت المدة، وعند مَن لا يقول بالوقف يكون مولياً ويقع الطلاق بمضي المدة، ومدة الإيلاء أربعة أشهر في حق الحرّ والعبد جميعاً عند الشافعي رحمه الله، لأنها ضربت لمعنى يرجع إلى الطبع، وهو قلّة صبر المرأة عن الزوج، فيستوي فيه الحرّ والعبد جميعاً عند الشافعي رحمه الله، لأنها ضربت لمعنى يرجع إلى الطبع، وهو قلّة صبر المرأة عن الزوج، فيستوي فيه الحرّ والعبد كمدة العِنّة، وعند مالك رحمه الله وأبي حنيفة رحمه الله تتّصف مدة العِنّة بالرِّق غير أن عند أبي حنيفة تتنصّف برقّ المرأة، وعند مالك برقّ الزوج، كما قالا في الطلاق قوله تعالى: ﴿تربّصُ أربعةِ أشهرٍ﴾؛ أي: انتظار أربعة أشهر، والتربّص: التثبّت والتوقّف، ﴿فإن فاءوا﴾: رجعوا عن اليمين بالوطء، ﴿فإن اللّهَ غفورٌ رحيمٌ﴾، وإذا

مدة الإيلاء بالرق غير أن عند أبي حنيفة تنتصف مدة الإيلاء برق المرأة، وعند مالك برق الزوج كما في الطلاق.

(الفرع الخامس): إذا وطىء خرج من الإيلاء ويجب عليه كفارة يمين، وهذا قول أكثر العلماء وقيل: لا كفارة عليه لأن الله تعالى وعده المغفرة فقال: ﴿**فإن فاؤوا فإن الله غفور رحيم**﴾ ومن قال: بوجوب الكفارة عليه، قال: ذلك في إسقاط العقوبة عنه لا في الكفارة.

﴿وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ۚ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۚ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓا۟ إِصْلَٰحًا ۚ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿**وإن عزموا الطلاق**﴾ أي تحققوه بالإيقاع ﴿**فإن الله سميع**﴾ يعني أي لأقوالهم ﴿**عليم**﴾ يعني بنياتهم وفيه دليل على أنها لا تطلق ما لم يطلقها زوجها، لأنه تعالى شرط فيها العزم. قوله عز وجل: ﴿**والمطلقات**﴾ أي المخليات من حبال أزواجهن والمطلقة هي التي أوقع الزوج عليها الطلاق ﴿**يتربصن بأنفسهن**﴾ أي ينتظرن فلا يتزوجن ﴿**ثلاثة قروء**﴾ جمع قرء والقرء اسم يقع على الحيض، والطهر، قال أبو عبيدة: الأقراء من الأضداد كالشفق اسم للحمرة، والبياض وقيل: إنه حقيقة في الحيض مجاز في الطهر. وقيل: بالعكس واختلفوا في أصله فقيل أصله الجمع من قرأ أي جمع لأن في وقت الحيض يجتمع الدم في الرحم وفي وقت الطهر يجتمع في البدن وقيل: أصله الوقت. يقال رجع فلان لقرئه أي لوقته الذي كان فيه لأن الحيض يأتي لوقت والطهر يأتي لوقت وبحسب اختلاف أهل اللغة في الأقراء اختلف الفقهاء على قولين: أحدهما أن الأقراء هي الحيض روى ذلك عن عمرو علي وابن مسعود وابن عباس وأبي موسى وعبادة بن الصامت وأبي الدرداء، وبه قال عكرمة والضحاك والسدي والأوزاعي وسفيان الثوري وأبو حنيفة وأصحابه، وقال أحمد بن حنبل: كنت أقول إن الأقراء هي الأطهار وأنا اليوم أذهب إلى أنها الحيض، القول الثاني أنها الأطهار، يروى ذلك عن زيد بن ثابت وابن عمر وعائشة وبه قال الزهري وأبان بن عثمان ومالك والشافعي وحجة من يقول إن الأقراء هي الحيض قوله ﷺ للمستحاضة دعي

وطيء في الفرج عن الإيلاء، وتجب عليه كفّارة اليمين عند أكثر أهل العلم، وقال الحسن وإبراهيم النخعي وقتادة: لا كفّارة عليه لأن الله تعالى وعد بالمغفرة، فقال: ﴿ **فإنّ الله غفور رحيم** ﴾، وذلك عند الأكثرين في سقوط العقوبة لا في الكفّارة، ولو قال لزوجته: إن قربتك فعبدِي حرٌّ أو ضربتك فأنت طالق، أو لله عليّ عِتقُ عبدٍ أو صومٌ أو صلاة، فهو مولٍ لأن المولي مَن يلزمه أمر بالوطء ويوقف بعد مضي المدة، فإن فاء يقع الطلاق أو العتق المعلّق به، وإن التزم في الذمّة تلزمه كفّارة اليمين في قول، وفي قول: يلزمه ما التزم في ذمّته من الإعتاق أو الصلاة أو الصوم.

﴿ **وإن عزمُوا الطلاقَ** ﴾، أي: حقّقوه بالإيقاع، ﴿ **فإنّ الله سميع** ﴾: لقولهم، ﴿ **عليم** ﴾: بنياتهم، وفيه دليل على أنها لا تطلق بعد مضي المدة ما لم يطلقها زوجها، لأنّه شرطَ فيه العزم، وقال: ﴿ **فإنّ الله سميع عليم** ﴾، فدلّ على أنه يقضي مسموعاً، والقول هو الذي يُسمع.

قوله تعالى: ﴿ **والمطلقات** ﴾، أي: المخليات من حبال أزواجهنّ، ﴿ **يتربصن** ﴾: ينتظرن، ﴿ **بأنفسهنّ ثلاثَة قُروء** ﴾، فلا يتزوجن، والقُروء: جمع قَرء مثل قرع، وجمعه القليل: أقرؤ، والجمع الكثير: أقراء، واختلف أهل العلم في القَرء فذهب جماعة إلى أنها الحيض، وهو قول عمر وعلي وابن مسعود وابن عباس، وبه قال الحسن ومجاهد، وإليه ذهب الأوزاعي والثّوري وأصحاب الرأي، واحتجّوا بأن النبي ﷺ قال للمستحاضة: «دعي الصلاة

الصلاة أيام أقرائك يعني أيام حيضك لأن المرأة لا تدع الصلاة إلا أيام حيضها وحجة من يقول: إنها الأطهار أن ابن عمر لما طلق امرأته وهي حائض قال النبي ﷺ: لعمر مره فليراجعها حتى تطهر، ثم إن شاء أمسكها وإن شاء طلق قبل أن يمس فتلك العدة، التي أمر الله أن يطلق لها فأخبر أن زمان العدة هو الطهر لا الحيض ويعضهد من اللغة قول الأعشى:

ففـي كـل عـام أنـت جـاشـم غـزوة تشـد لأقصـاهـا عـزيـم عـرائكـا
مـورثـة مـالاً وفـي الحـي رفعـة لمـا ضـاع فيهـا مـن قـروء نسـائكـا

أراد أنه كان يخرج للغزو ولم يغش نساءه فتضيع أقراؤهن وإنما تضيع بالسفر زمان الطهر لا زمان الحيض، وفائدة الخلاف أن مدة العدة عند الشافعي أقصر، وعند غيره أطول وذلك أن المعتدة إذا شرعت في الحيضة الثالثة فقد انقضت عدتها، وحلت للأزواج ويحسب بقية الطهر الذي وقع فيه الطلاق قرءاً على قول من يجعل الأقراء الأطهار، قالت عائشة رضي الله عنها: إذا دخلت المطلقة في الحيضة الثالثة فقد بانت من زوجها وحلت للأزواج وروي عنها أنها قالت: القرء الطهر ليس بالحيضة. قال الشافعي: والنساء بهذا أعلم لأن هذا مما يبتلي به النساء وإن طلقها في حال الحيض فإذا شرعت في الحيضة الرابعة انقضت عدتها، وعلى قول من يجعل الأقراء حيضاً وهو مذهب أبي حنيفة لا تنقضي عدتها ما لم تطهر من الحيضة الثالثة. إن كان وقع الطلاق في حال الطهر أو من الحيضة الرابعة، إن وقع في حال الحيض فإن قلت ما معنى الإخبار عنهن بالتربص في قوله: والمطلقات يتربصن بأنفسهن. قلت: هو خبر في صورة الأمر، وأصل الكلام وليتربص المطلقات فاخرج الأمر في صورة الخبر تأكيد للأمر، وإشعار بأنه مما يجب أن يلتقي بالمسارعة إلى امتثاله فكأنهن امتثلن الأمر بالتربص فهو يخبر عن موجود

أيام أقرائك»، وإنما تدع المرأة الصلاة أيام حيضها، وذهب جماعة إلى أنها الأطهار، وهو قول زيد بن ثابت وعبد الله بن عمر وعائشة، وهو قول الفقهاء السبعة والزهري، وبه قال ربيعة ومالك والشافعي، واحتجّوا بأن ابن عمر رضي الله عنه لمّا طلّق امرأته وهي حائض قال النبي ﷺ لعمر: «مُرْهُ فليراجعْها حتى تطهر، ثم إن شاء أمسك وإن شاء طلّق قبل أن يمسّ»، فتلك العدّة التي أمر الله أن يُطلّق لها النساء، فأخبر أن زمان العدّة هو الطهر. ومن جهة اللغة قول الشاعر:

ففي كـل عـام أنت جـاشم غـزوة تشـدّ لأقصـاهـا عـزيم عـرائكـا
مـوروثـة مـالاً وفي الحيّ رفعـة لمـا رضاع فيهـا من قروء نسـائكـا

وأراد به أنه كان يخرج إلى الغزو ولم يغشّ نساءه فتضيع أقراؤهنّ، وإنما تضيع بالسفر زمان الطهر، لا زمان الحيض، وفائدة الخلاف تظهر في أن المعتدّة إذا شرعت في الحيضة الثالثة تنقضي عدّتها على قول مَن يجعلها أطهاراً وتحسب بقية الطهر الذي وقع فيه الطلاق قرءاً، قالت عائشة رضي الله عنها: إذا طعنت المطلّقة في الدم من الحيضة الثالثة فقد برئت منه وبرىء منها، ومَن ذهب إلى أن الأقراء هي الحيض يقول لا تنقضي عدّتها ما لم تطهر من الحيضـة الثالثة، وهذا الخلاف من حيث إن اسم القُرء يقع على الطهر والحيض جميعاً، يقال: أقرأت المرأة إذا حاضت، وأقرأت إذا طهرت فهي مقرىء، واختلفوا في أصله فقال أبو عمرو بن العلاء وأبو عبيدة: هو الوقت لمجيء الشيء وذهابه، يقال: رجع فلان لقرئه ولقارئه، أي: لوقته الذي يرجع فيه، وهذا قارىء الرياح، أي: وقت هبوبها، قال مالك بن الحرث الهذلي:

كـرهت العقـر عقـر بني سليـل إذا هبّـت لـقـارئـهـا الـريـاح

ونظيره قولهم في الدعاء: يرحمك الله أخرج في صورة الخبر ثقة بالإجابة فكأنه قال: وجدت الرحمة فهو يخبر عنها.

فصل في أحكام العدة وفيه مسائل:

المسألة الأولى: عدة الحامل تنقضي بوضع الحمل سواء المطلقة والمتوفى عنها زوجها، وسواء في ذلك الحرة والأمة.

المسألة الثانية: عدة المتوفى عنها سوى الحامل أربعة أشهر وعشرة أيام سواء مات عنها زوجها قبل الدخول أو بعده وسواء في ذلك الحيض والأمة والآيسة.

المسألة الثالثة: عدة المطلقة المدخول بها وهي ضربان: أحدهما الحيض فعدتها بالإقراء، وهي ثلاثة أقراء الضرب الثاني الآيسات من الحيض وإما الكبر، أو تكون لم تحض قط فعدتها ثلاثة أشهر وأما المطلقة قبل الدخول فلا عدة عليها.

المسألة الرابعة: عدة الإماء نصف عدة الحرائر فيما له نصف وفي الأقراء قرآن لأنه لا يتنصف قال عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه: ينكح العبد اثنتين ويطلق طلقتين وتعتد الأمة بحيضتين وقوله تعالى: **﴿ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله في أرحامهن﴾** قال ابن عباس: يعني الولد، وقيل: الحيض؛ والمعنى أنه لا يحل للمرأة كتمان ما خلق الله في رحمها من الحيض أو الحمل لتبطل بذلك الكتمان حق الزوج من الرجعة والولد **﴿إن كن يؤمنَّ بالله واليوم الآخر﴾** هذا وعيد شديد لتأكيد تحريم الكتمان وإيجاب أداء الأمانة في الإخبار عما في الرحم من الحيض أو الولد، والمعنى أن هذا من فعل المؤمنات وإن كانت المؤمنة والكافرة فيه سواء، فهو كقولك أدِّ حقي

أي: لوقتها، والقرء يصلح للوجهين لأن الحيض يأتي لوقت، والطهر مثله، وقيل: هو من القرء وهو الحبس والجمع، تقول العرب: ما قرأت الناقة سلاً قطّ، أي: لم تضمّ رحمها على ولد، ومنه قريت الماء في المقراة وهي الحوض، أي: جمعته بترك همزها، فالقرء ههنا احتباس الدم واجتماعه، فعلى هذا يكون الترجيح فيه للطهر، لأنه يحبس الدم ويجمعه، والحيضُ يُرخيه ويُرسله، وجملة الحكم في العدد أن المرأة إذا كانت حاملاً فعدّتها بوضع الحمل سواء وقعت الفرقة بينها وبين الزوج بالطلاق أو بالموت، لقوله تعالى: ﴿ وأُولاتُ الأحمال أجلهنّ أن يضعن حملهنّ ﴾ [الطلاق: ٤]، فإن لم تكن حاملاً نُظر إن وقعت الفرقة بينهما بموت الزوج، فعليها أن تعتدّ بأربعة أشهر وعشر، سواء مات الزوج قبل الدخول أو بعده وسواء كانت المرأة ممّن تحيض أو لا تحيض، لقول الله عزّ وجلّ: ﴿ والذين يُتوفَّون منكم ويذرون أزواجاً يتربصنَ بأنفسهنّ أربعةَ أشهر وعشراً ﴾ [البقرة: ٢٣٤]، وإن وقعت الفرقة بينهما بالطلاق في الحياة نُظر أكان قبل الدخول بها فلا عدّة عليها، لقول الله تعالى: ﴿ إذا نكحتم المؤمنات ثم طلّقتموهنّ من قبل أن تَمسُّوهنّ فما لكم عليهنّ من عدّة تعتدّونها ﴾ [الأحزاب: ٤٩]، وإن كان بعد الدخول نُظر إن كانت المرأة لم تحض قطّ أو بلغت في الكِبَر سِنَّ الآيسات فعدّتها ثلاثة أشهر، لقول الله تعالى: ﴿ واللائي يئسن من المحيض من نسائكم إن ارْتَبْتُمْ فعِدَّتُهنّ ثلاثةُ أشهر واللائي لم يحضن ﴾ [الطلاق: ٤]، وإن كانت ممّن تحيض فعدّتها ثلاثة أقرؤ، لقوله تعالى: **﴿ والمطلّقات يتربصن بأنفسهنّ ثلاثة قروء ﴾** وقوله: **﴿ يتربصن بأنفسهنّ ﴾** لفظه خبر ومعناه أمر، وعِدّة الأمَةِ إن كانت حاملاً بوضع الحمل كالحرّة، وإن كانت حائلاً ففي الوفاة عدّتها شهران وخمس ليالٍ، وفي الطلاق إن كانت تحيض فعدّتها قُرآن، وإن كانت ممّن لا تحيض فشهرٌ ونصف، وقيل: شهران كالقرءين في حق ممّن تحيض، قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: ينكح العبدُ امرأتين ويُطلّق طلقتين، وتعتدُّ

إن كنت مؤمناً يعني أن أداء الحقوق من أفعال المؤمنين وتقول للذي يظلم: إن كنت مؤمناً فلا تظلمني؛ والمعنى ينبغي أن يمنعك إيمانك من الظلم، وفي سبب وعيد النساء بهذا قولان أحدهما أنه لأجل ما يستحقه الزوج من الرجعة. قاله ابن عباس: والثاني أنه لأجل إلحاق الولد بغير أبيه قاله قتادة وقيل: كانت المرأة إذا رغبت في زوجها تقول: إني حائض وإن كانت قد طهرت ليراجعها وإن كانت زاهدة فيه كتمت حيضها وتقول قد طهرت لتفوته فنهاهن الله عن ذلك وأمرن بأداء الأمانة ﴿وبعولتهن أحق بردهن في ذلك﴾ يعني أزواجهن سمي الزوج بعلاً لقيامه بأمر زوجته، وأصل البعل السيد والمالك والمعنى وأزواجهن أولى برجعتهن وردهن إليهم في ذلك أي في حال العدة فإذا انقضى وقت العدة فقد بطل حق الرد والرجعة ﴿إن أرادوا إصلاحاً﴾ يعني إن أراد الزوج بالرجعة الإصلاح وحسن العشرة لا الإضرار بهن، وذلك أن أهل الجاهلية كانوا يراجعون، ويريدون بذلك الإضرار فنهى الله المؤمنين عن مثل ذلك، وأمرهم بالإصلاح وحسن العشرة بعد الرجعة ﴿ولهن﴾ يعني وللنساء على الأزواج ﴿مثل الذي عليهن﴾ يعني للأزواج ﴿بالمعروف﴾ وذلك أن حق الزوجية لا يتم إلا إذا كان كل واحد منهما يراعي حق الآخر فيما له، وعليه فيجب على الزوج أن يقوم بجميع حقها، ومصالحها ويجب على الزوجة الانقياد والطاعة له، قال ابن عباس في معنى الآية: إني أحب أن أتزين لامرأتي كما أحب أن تتزين لي لأن الله تعالى. قال: ﴿ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف﴾ (م) عن جابر أنه ذكر خطبة النبي ﷺ في حجة الوداع وقال: فيها قال رسول الله ﷺ: «فاتقوا الله في النساء فإنكم أخذتموهن بأمانات الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله، ولكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه، فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضرباً غير مبرح، ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف.

قوله: «فاتقوا الله في النساء» فيه الحث على الوصية بهن ومراعاة حقوقهن ومعاشرتهن بالمعروف. قوله: «فإنكم أخذتموهن بأمانات الله» ويروى بأمانة وقوله: «واستحللتم فروجهن بكلمة الله» معناه بإباحة الله والكلمة هي

الأَمَةُ بحيضتين فإن لم تكن تحيض فشهرين أو شهراً ونصفاً، قوله عزّ وجلّ: ﴿ ولا يحلُّ لهنّ أن يكتمن ما خلق الله في أرحامهنّ ﴾، قال عكرمة: يعني الحيض وهو أن يريد الرجل مراجعتها، فتقول قد حضت الثلاثة، وقال ابن عباس وقتادة: يعني الحمل، ومعنى الآية: لا يحلّ للمرأة كتمان ما خلق الله في رحمها من الحيض والحمل لتبطل حقّ الزوج من الرجعة والولد. ﴿ إنْ كُنّ يؤمنّ بالله واليوم الآخر ﴾، معناه: أن هذا من فعل المؤمنات، وإن كانت المؤمنة والكافرة في هذا الحكم سواء، كما تقول: أدِّ حقي إنْ كنتَ مؤمناً، يعني: أداء الحقوق من فعل المؤمنين، ﴿ وبُعولتهنّ ﴾، يعني: أزواجهنّ جمع بعل، كالفحولة جمع فحل، سُمّي الزوج بعلاً لقيامه بأمور زوجته، وأصل البعل السيد والمالك، ﴿ أحقّ بردّهنّ ﴾: أولى برجعتهنّ إليهم، ﴿ في ذلك ﴾، أي: في حال العدّة، ﴿ إنْ أرادوا إصلاحاً ﴾، أي: إن أرادوا بالرجعة الصلاح وحُسن العِشرة لا الإضرار، كما كانوا يفعلونه في الجاهلية كالرجل يطلّق امرأته، فإذا قرب انقضاء عدّتها راجعها، ثم تركها مدة ثم طلّقها، فإذا قَرُبَ انقضاءُ عدّتها راجعها، ثم بعد مدة طلّقها يقصد بذلك تطويل العدّة عليها، ﴿ ولهنّ ﴾، أي: للنساء على الأزواج ﴿ مثل الذي عليهنّ ﴾ للأزواج ﴿ بالمعروف ﴾، قال ابن عباس في معناه: إنّي أحبّ أن أتزين لامرأتي كما تحبّ امرأتي أن تتزين لي، لأن الله تعالى قال: ﴿ ولهنّ مثلُ الذي عليهنّ بالمعروف ﴾، أخبرنا أبو عبد الله محمد بن الحسن المروزي، أخبرنا أبو سهل محمد بن عمر بن طرفة الشجري، أنا أبو سليمان الخطابي أخبرنا أبو بكر بن داسة، أنا أبو داود السجستاني أنا موسى بن إسماعيل، أنا حمّاد أنا أبو قزعة سويد بن حجر الباهلي، عن حكيم بن معاوية القشيري عن أبيه قال: قلت يا رسول الله ما حقُّ زوجة أحدنا عليه؟ قال: «أن تُطعمها إذا طَعِمْتَ وأن تَكْسُوها إذا اكتسيت، ولا تضرب الوجه ولا تقبح ولا تهجر إلاّ في البيت»، أخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر الجرجاني، أخبرنا عبد الغافر بن محمد

قوله: ﴿فانكحوا ما طاب لكم من النساء﴾ وقيل: الكلمة هي قوله ﴿فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان﴾ وقيل: الكلمة هي كلمة التوحيد وهي لا إله إلا الله محمد رسول الله إذ لا تحل مسلمة لغير مسلم وقوله: لا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه معناه ولا يأذن لأحد أن يتحدث إليهن، وكان من عادة العرب أن يتحدث الرجال مع النساء ولا يرون ذلك عيباً ولا يعدونه ريبة إلى أن نزلت آية الحجاب فنهوا عن ذلك وليس المراد بوطء الفرش نفس الزنا فإن ذلك محرم على كل الوجوه، فلا معنى لاشتراط الكراهة فيه، ولو كان المراد ذلك لم يكن الضرب فيه ضرباً غير مبرح إنما كان فيه الحد، والضرب المبرح هو الشديد. وقول: ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف يعني بالعدل وفيه وجوب نفقة الزوجة، وكسوتها وذلك ثابت بالإجماع.

وقوله تعالى: ﴿وللرجال عليهن درجة﴾ أي منزلة ورفعة قال ابن عباس: بما ساق إليها من المهر وأنفق عليها من المال. وقيل: إن فضيلة الرجال على النساء بأمور منها العقل والشهادة والميراث والدية وصلاحية الإمامة والقضاء وللرجال أن يتزوج عليها ويتسرى، وليس لها ذلك وبيد الرجل الطلاق فهو قادر على تطليقها وإذا طلقها رجعية فهو قادر على رجعتها وليس شيء من ذلك بيدها ﴿والله عزيز﴾ أي غالب لا يمتنع عليه شيء ﴿حكيم﴾ أي في جميع أفعاله وأحكامه. روى البغوي بسنده عن أبي ظبيان أن معاذ بن جبل خرج في غزاة بعثه رسول الله ﷺ فيها، ثم رجع فرأى رجالاً يسجد بعضهم لبعض فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «لو أمرت أحداً أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها». قوله عز وجل: .

﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَأۡخُذُواْ مِمَّآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ شَيۡـًٔا إِلَّآ أَن

الفارسي، أنا محمد بن عيسى الجلودي أنا أبو إسحق إبراهيم بن محمد بن سفيان، أنا محمد بن الحجّاج أنا أبو بكر بن أبي شيبة أنا حاتم بن إسماعيل المدني، عن جعفر بن محمد عن أبيه أنه قال: دخلنا على جابر بن عبد الله، فقلت أخبرني عن حجّة رسول الله ﷺ، فسرد قصةَ حجّة الوداع إلى أن ذكر خطبته يوم عرفة، قال: «فاتّقوا الله في النساء فإنكم أخذتموهنّ بأمانة الله واستحللتم فروجهنّ بكلمة الله، ولكم عليهنّ أن لا يُوطئن فَرْشَكُمْ أحداً تكرهونه، فإن فعلن ذلك فاضْرِبُوهنّ ضرباً غير مُبَرِّح، ولهنّ عليكم رزقهنّ وكسوتهنّ بالمعروف، وقد تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلّوا بعده: كتابَ الله، وأنتم تُسألون عنّي فما أنتم قائلين؟ قالوا: نشهد أنك قد بلغتَ وأدّيتَ ونصحتَ، فقال بأصبعه السبّابة يرفعها إلى السماء وينكتها إلى الناس: اللّهمّ اشهدْ ثلاثَ مرات». أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحي أنا أحمد بن الحسن الحيري، أنا حاجب بن أحمد الطوسي أنا محمد بن يحيىٰ، أنا يعلى بن عُبيدة أنا محمد بن عمرو، عن أبي سلمة عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً، وخياركم خياركم لنسائكم»، قوله تعالى: ﴿ وللرجال عليهنّ درجة ﴾، قال ابن عباس: بما ساق إليها من المهر وأنفق عليها من المال، وقال قتادة: بالجهاد، وقيل: بالعقل، وقيل: بالشهادة، وقيل: بالميراث، وقيل: بالديّة، وقيل: بالطلاق، لأن الطلاق بيد الرجال، وقيل: بالرجعة، وقال سفيان وزيد بن أسلم: بالإمارة، وقال القتيبي: ﴿ وللرجال عليهنّ درجة ﴾ معناه: فضيلة في الحق، ﴿ والله عزيز حكيم ﴾، أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحي، أخبرنا أبو سعيد محمد بن موسى الصيرفي، أنا أبو عبد الله محمد بن عبد الله الصفار، أخبرنا أحمد بن محمد بن عيسى البرني، أنا حذيفة أنا سفيان عن الأعمش عن أبي ظبيان أن معاذ بن جبل خرج في غزاة بعثه النبي ﷺ فيها، ثم رجع فرأى رجالاً يسجد بعضهم لبعض، فذكر ذلك للنبي ﷺ فقال النبي ﷺ: «لو أمرتُ أحداً أن يسجد لأحد، لأمرتُ المرأةَ أن تسجدَ لزوجها».

﴿يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَاۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٢٩﴾

﴿الطلاق مرتان﴾ عن عروة بن الزبير قال: كان الرجل إذا طلق زوجته ثم ارتجعها قبل أن تنقضي عدتها، كان له ذلك وإن طلقها ألف مرة، فعمد رجل إلى امرأته فطلقها حتى إذا شارفت انقضاء عدتها ارتجعها ثم قال: والله لا آويك إليّ ولا تحلين أبداً فأنزل الله تعالى: ﴿**الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان**﴾ فاستقبل الناس الطلاق جديداً من ذلك اليوم من كان طلق أو لم يطلق أخرجه الترمذي. وله عن عائشة قالت: كان الناس والرجل يطلق امرأته ما شاء الله أن يطلقها وهي امرأته إذا ارتجعها وهي في العدة وإن طلقها مائة أو أكثر حتى قال رجل لامرأته: والله لا أطلقك فتبيني مني ولا آويك أبداً. قالت: وكيف ذلك؟ قال: أطلقك فكلما همت عدتك أن تنقضي راجعتك فذهبت المرأة حتى دخلت على عائشة فأخبرتها فسكتت عائشة حتى جاء النبي ﷺ فأخبرته فسكت النبي ﷺ حتى نزل القرآن ﴿**الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان**﴾ قالت عائشة: فاستأنف الطلاق مستقبلاً من كان قد طلق ومن لم يطلق، ومعنى الآية أن الطلاق الرجعي مرتان ولا رجعة بعد الثالثة إلا أن تنكح زوجاً آخر، وهذا التفسير هو قول من جوز الجمع بين الطلاق الثلاث في دفعة واحدة وهو الشافعي، وقيل في معنى الآية: إن التطليق الشرعي يجب أن يكون تطليقة بعد تطليقة على التفريق دون الجمع والإرسال دفعة واحدة وهذا التفسير هو قول من قال: إن الجمع بين الثلاثة حرام إلا أن أبا حنيفة قال: يقع الثلاث وإن كان حراماً وقيل: إن الآية دالة على عدد الطلاق الذي يكون للرجل فيه الرجعة على زوجته والعدد الذي تبين به زوجته منه، والمعنى أن عدد الطلاق الذي لكم فيه رجعة على أزواجكم إذا كن مدخولاً بهن تطليقتان، وأنه لا رجعة له بعد التطليقتين إن سرحها فطلقها الثالثة ﴿**فإمساك بمعروف**﴾ يعني بعد الرجعة وذلك أنه إذا راجعها بعد التطليقة الثانية فعليه أن يمسكها بالمعروف وهو كل ما عرف في الشرع من أداء حقوق النكاح وحسن الصحبة ﴿**أو تسريح**

قوله تعالى: ﴿ **الطلاق مرتان** ﴾، رُوِيَ عن عروة بن الزبير قال: كان الناس في الابتداء يطلّقون من غير حصر ولا عدد، وكان الرجل يطلّق امرأته، فإذا قاربت انقضاءَ عِدّتِها راجعها، ثم طلّقها كذلك ثم راجعها، يقصد مضارّتها، فنزلت هذه الآية: ﴿ **الطلاق مرتان** ﴾، يعني الطلاق الذي يملك الرجعة عقيبة مرتان، فإذا طلّق ثلاثاً فلا تحلّ له إلّا بعدَ نكاحِ زوجٍ آخر، قوله تعالى: ﴿ **فإمساكٌ بمعروف** ﴾، قيل: أراد بالإمساك الرجعة بعد الثانية، والصحيح أن المراد منه الإمساك بعد الرجعة، يعني: إذا راجعها بعد الطلقة الثانية فعليه أن يمسكها بالمعروف، والمعروف كل ما يُعرَف في الشرع مِنْ أداءِ حقوق النكاح وحُسن الصحبة، ﴿ **أو تسريحٌ بإحسان** ﴾، هو أن يتركها بعد الطلاق حتى تنقضي عدّتها، وقيل: الطلقة الثالثة، قوله تعالى: ﴿ **أو تسريح بإحسان** ﴾، وصريح اللفظ الذي يقع به الطلاق من غير نيّة ثلاثة: الطلاق والفِراق والسَّراح، وعند أبي حنيفة: الصريح هو لفظ الطلاق فحسب، وجملة الحكم فيه: أن الحرَّ إذا طلّق زوجته طلقةً أو طلقتين بعد الدخول بها يجوز له مراجعتها بغير رضاها ما دامت في العدّة، وإن لم يراجعها حتى انقضتْ عدّتُها، أو طلّقها قبل الدخول بها، أو خالعها، فلا تحلّ له إلّا بنكاح جديد بإذنها وإذن وليّها، فإن طلّقها ثلاثاً فلا تحلّ له حتى تنكح زوجاً غيره، وأما العبد إذا كانت تحته امرأة فطلّقها طلقتين فإنها لا تحلّ إلّا بعد نكاح زوج آخر، واختلف أهل العلم فيما إذا كان أحد الزوجين رقيقاً فذهب أكثرهم إلى أنه يعتبر عدد الطلاق بالزوج فالحرّ يملك على زوجته الأمة ثلاث طلقات، والعبد لا يملك على زوجته الحرّة إلّا طلقتين، قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: الطلاق بالرجال، والعدّة بالنساء، يعني يعتبر في عدد الطلاق في

بإحسان﴾ يعني أنه يتركها بعد الطلاق حتى تنقضي عدتها من غير مضارة. وقيل هو أنه إذا طلقها أدى إليها جميع حقوقها المالية ولا يذكرها بعد المفارقة بسوء ولا ينفر الناس عنها.

(فروع): تتعلق بأحكام الطلاق:

(الفرع الأول): صريح اللفظ الذي يقع به الطلاق، من غير نية ثلاث الطلاق والفراق والسراح، وعند أبي حنيفة الصريح هو لفظ الطلاق فقط.

(الفرع الثاني): الحر إذا طلق زوجته طلقة أو طلقتين بعد الدخول بها فله مراجعتها من غير رضاها مادامت في العدة فإذا لم يراجعها حتى انقضت عدتها أو طلقها قبل الدخول بها أو خالعها، فلا تحل له إلا بنكاح جديد بإذنها وإذن وليها.

(الفرع الثالث): العبد يملك على زوجته الأمة تطليقتين. واختلف فيما إذا كان أحد الزوجين حراً فالحر يملك على زوجته الأمة ثلاث تطليقات، والعبد يملك على زوجته الحرة تطليقتين فالاعتبار بحال الزوج في عدد الطلاق وبه قال الشافعي ومالك وأحمد وذهب أبو حنيفة إلى أن الاعتبار بالمرأة فالعبد يملك على زوجته الحرة ثلاث تطليقات، والحر يملك على زوجته الأمة تطليقتين ﴿ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن﴾ يعني أعطيتموهن شيئاً يعني من مهر أو غيره، ثم استثنى الخلع فقال تعالى: ﴿إلا أن يخافا أن لا يقيما حدود الله﴾ نزلت في جميلة بنت عبدالله بن أبي أوفى ويقال حبيبة بنت سهل الأنصاري كانت تحت ثابت بن قيس بن شماس وكانت تبغضه وهو يحبها، وكان بينهما كلام فأتت أباها تشكو إليه زوجها وقالت: إنه يسب أبي ويضربني فقال: ارجعي إلى زوجك فإنى أكره للمرأة أن لا تزال رافعة يديها تشكو زوجها قال: فرجعت إليه الثالثة وبها أثر الضرب فقال: ارجعي إلى زوجك فلما رأت إن أباها لا يشكيها أتت رسول الله ﷺ فشكت إليه زوجها وأرته آثاراً بها من ضربه

حال الرجل، وفي قدر العدّة حال المرأة، وهو قول عثمان وزيد بن ثابت وابن عباس رضي الله عنهم، وبه قال عطاء وسعيد بن المسيب، وإليه ذهب مالك والشافعي وأحمد وإسحق، وذهب قوم إلى أن الاعتبار بالمرأة في عدد الطلاق، فيملك العبد على زوجته الحرّة ثلاث طلقات، ولا يملك الحرّ على زوجته الأمَة إلّا طلقتين، وهو قول سفيان الثّوري وأصحاب الرأي. قوله تعالى: ﴿ ولا يحلّ لكم أن تأخذوا ممّا آتيتموهنّ شيئاً ﴾: أعطيتموهنّ شيئاً من المهور وغيرها، ثم استثنى الخلع، فقال: ﴿ إلاّ أنْ يخافا أنْ لا يقيما حدودَ الله ﴾، نزلت في جميلة بنت عبد الله بن أبي أوفى، ويقال في حبيبة بنت سهل، كانت تحت ثابت بن قيس بن شماس، وكانت تبغضه وهو يُحبّها فكان بينهما كلام فأتتْ أباها فشكت إليه زوجها، وقالت: إنه يسيء إليّ ويضربني، فقال: ارجعي إلى زوجك فإني أكره للمرأة أن لا تزال رافعة يديها تشكو زوجها، قال:. فرجعت إليه الثانية وبها أثر الضرب، فقال: ارجعي إلى زوجك فلما رأت أن أباها لا يشكيها أتت رسول الله ﷺ فشكت إليه زوجها وأرته آثاراً بها من ضربه، وقالت: يا رسول الله لا أنا ولا هو، فأرسل رسول الله ﷺ إلى ثابت بن قيس فقال: «ما لك ولأهلك»؟ فقال: والذي بعثك بالحق نبيّاً ما على وجه الأرض أحبّ إليّ منها غيرك، فقال لها: «ما تقولين»؟ فكرهت أن تَكْذِبَ رسولَ الله ﷺ حين سألها، فقالت: صدق يا رسول الله ولكن قد خشيت أن يهلكني، فأخرجني منه، وقالت: يا رسول الله ما كنتُ لأحدّثكَ حديثاً يُنزّل الله عليك خلافَه فهو من أكرم الناس محبةً لزوجته، ولكني أبغضه، فلا أنا ولا هو، قال ثابت: يا رسول الله قد أعطيتها حديقة فقل لها تردّها عليّ وأخلي سبيلها، فقال لها: «تردّين عليه حديقته وتملكين أمرك»؟ قالت: نعم، فقال رسول الله ﷺ: «يا ثابتُ خُذْ منها ما أعطيتها، وخلِّ سبيلَها»، ففعل. أخبرنا عبد الواحد المليحي

وقالت: يا رسول الله لا أنا ولا هو فأرسل رسول الله ﷺ إلى ثابت فقال: مالك ولأهلك فقال: والذي بعثك بالحق نبياً ما على وجه الأرض أحب إلى منها غيرك فقال: لها ما تقولين؟ فكرهت أن تكذب رسول الله ﷺ حين سألها فقالت: صدق يا رسول الله ولكني خشيت أن يهلكني فأخرجني منه. وقالت: يا رسول الله ما كنت أحدثك حديثاً ينزل عليك خلافه هو أكرم الناس حباً لزوجته ولكني أبغضه فلا أنا ولا هو قال ثابت أعطيتها حديقة نخل فقل لها فلتردها علي، وأخلي سبيلها، فقال لها: تردين عليه حديقته وتملكين أمرك قالت: نعم فقال رسول الله ﷺ يا ثابت خذ منها ما أعطيتها وخلِّ سبيلها ففعل. (خ) عن ابن عباس «أن امرأة ثابت بن قيس أتت النبي ﷺ فقالت يا رسول الله إن ثابت بن قيس ما أعتب عليه في خلق ولا مال ولكني أكره الكفر في الإسلام. قال أبو عبدالله: يعني تبغضه: قال رسول الله ﷺ: تردين عليه حديقته؟ قالت: نعم قال رسول الله ﷺ: اقبل الحديقة وطلقها تطليقة» قوله: ما أعتب عليه يعني ما أجد عليه والعتبى الموجدة والحديقة البستان من النخل إذا كان عليه الحائط ومعنى قوله تعالى: ﴿إلا أن يخافا﴾ أي يعلما الزوجان من أنفسهما أن لا يقيما حدود الله والمعنى تخاف المرأة أن تعصي الله في أمور زوجها، ويخاف الزوج أنه إذا لم تطعه أن يعتدي عليها، فنهى الله الرجل أن يأخذ من امرأته شيئاً مما أعطاها إلا أن يكون النشوز من قبلها، وذلك أن تقول لا أطيع لك أمراً ولا أطأ لك مضجعاً، ونحو ذلك، وقرىء يخافا بضم الياء، ومعناه إلا أن يعلم ذلك من حالهما يعني يعلم القاضي والوالي ﴿فإن خفتم﴾ يعني فإن خشيتم وأشفقتم، وقيل: معناه فإن ظننتم ﴿ألا يقيما حدود الله﴾ يعني ما أوجب الله على كل واحد منهما من طاعته فيما أمره به من حسن الصحبة، والمعاشرة بالمعروف وقيل: هو يرجع إلى المرأة وهو سوء خلقها واستخفافها بحق زوجها ﴿فلا جناح عليهما فيما افتدت به﴾ أي لا جناح على المرأة في النشوز إذا خشيت الهلاك، والمعصية فيما افتدت به نفسها أو أعطت من المال لأنها ممنوعة من إتلاف المال بغير حق، ولا على الزوج فيما أخذ من المال إذا أعطته المرأة طائعة راضية.

أنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا زاهر بن جميل، أخبرنا عبد الوهاب الثقفي أنا خالد عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما أن امرأة ثابت بن قيس أتت النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله ما أعتبُ عليه في خلق ولا دين ولكني أكره الكفر في الإسلام، قال رسول الله ﷺ: «أتردّين عليه حديقته»؟ قالت: نعم، قال رسول الله ﷺ: «اقبلِ الحديقةَ وطلّقها تطليقة»، قوله تعالى: ﴿ إلّا أن يخافا ﴾، أي: يعلما أن لا يقيما حدود الله، قرأ أبو جعفر وحمزة ويعقوب ﴿ إلّا أن يخافا ﴾ بضمّ الياء، أي: يعلم ذلك منهما، يعني: يعلم القاضي والوالي ذلك من الزوجين، بدليل قوله تعالى: ﴿ فإن خفتم ﴾، فجعل الخوف لغير الزوجين، ولم يقل: فإن خافا، وقرأ الآخرون: ﴿ يَخافا ﴾ بفتح الياء، أي: يعلم الزوجان من أنفسهما أنْ لا يُقيما حدود الله، تخاف المرأة أن تعصي الله في أمر زوجها، ويخاف الزوج إذا لم تطعه امرأته أن يعتدي عليها فنهى الله الرجلَ أن يأخذ من امرأته شيئاً مما آتاها إلّا أن يكون النشوز من قِبلها، فقالت: لا أطيع لك أمراً ولا أطالك مضجعاً ونحو ذلك، قال الله تعالى: ﴿ فإن خفتم ألّا يُقيما حدود الله فلا جُناح عليهما فيما افتدتْ به ﴾، أي: فيما افتدتْ به المرأة نفسَها منه، قال الفرّاء: أراد بقوله ﴿ عليهما ﴾: الزوج دون المرأة، فذكرهما جميعاً لاقترانهما، كقوله تعالى: ﴿ نسيا حوتهما ﴾ [الكهف: ٦١] وإنما الناسي فتى موسى دون موسى، وقيل: أراد أنه لا جُناح عليهما جميعاً، لا جُناح على المرأة في النشوز إذا خشيت الهلاك والمعصية، ولا فيما افتدت به وأعطت به المال لأنها ممنوعة من إتلاف المال بغير حق، وعلى الزوج فيما أخذ منها من المال إذا أعطته طائعة، وذهب أكثر أهل العلم إلى أن الخلع جائز على أكثر مما أعطاها، وقال الزهري: لا يجوز بأكثر مما أعطاها من المهر، وقال سعيد بن المسيب: لا يأخذ منها

فصل: في حكم الخلع وفيه مسائل:

الأولى: قال الزهري والنخعي وداود: لا يباح الخلع إلا عند الغضب والخوف من أن لا يقيما حدود الله فإن وقع الخلع في غير هذه الحالة فهو فاسد، وحجة هذا القول: أن الآية صريحة في أنه لا يجوز للزوج أن يأخذ من المرأة شيئاً عند طلاقها، ثم استثنى الله تعالى حالة مخصوصة فقال: ﴿**إلا أن يخافا أن لا يقيما حدود الله**﴾ فكانت هذه صريحة في أنه لا يجوز الأخذ في غير حالة الغضب، والخوف من أن لا يقيما حدود الله، وذهب جمهور العلماء إلى أنه يجوز الخلع من غير نشوز ولا غضب، غير أنه يكره لما فيه من قطع الوصلة بلا سبب عن ثوبان أن رسول الله ﷺ قال: «أيما امرأة سألت زوجها الطلاق من غير بأس فحرام عليها رائحة الجنة» أخرجه أبو داود والترمذي. عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: «أبغض الحلال إلى الله الطلاق» أخرجه أبو داود ودليل الجمهور على جواز الخلع من غير نشوز قوله تعالى: ﴿**فإن طبن لكم عن شيء منه نفساً فكلوه هنيئاً مريئاً**﴾ فإذا جاز لها أن تهب مهرها من غير أن يحصل لها شيء فإذا بذلت كان ذلك في الخلع الذي تصير بسببه مالكة أمر نفسها أولى. وأجيب عن الاستثناء المذكور في هذه الآية أنه محمول على الاستثناء المنقطع.

المسألة الثانية: الخلع جائز على أكثر مما أعطاها وبه قال أكثر العلماء، وقال بعضهم: لا يجوز أن يأخذ أكثر مما أعطاها وهو قول علي، وبه قال الزهري والشعبي والحسن وعطاء وطاوس وقال سعيد بن المسيب: بل يأخذ دون ما أعطاها حتى يكون الفضل فيه وحجة الجمهور أن الخلع عقد على معاوضة، فوجب أن لا يقيد بمقدار معين كما أن للمرأة أن لا ترضى عند عقد النكاح إلا بالكثير فكذلك للزوج أن لا يرضى عند الخلع إلا بالبذل الكثير، لا سيما وقد أظهرت الاستخفاف بالزوج حيث أظهرت بغضه وكراهته.

المسألة الثالثة: اختلف العلماء في الخلع هل هو فسخ أو طلاق؟ فقال الشافعي في القديم: إنه فسخ وهو

جميع ما أعطاها بل يترك شيئاً، ويجوز الخلع على غير حال النشوز، غير أنه يُكره لِما فيه من قطع الوصلة بلا سبب، أخبرنا أبو سعيد الشريحي أنا أبو إسحق الثعلبي، أنا أبو عبد الله بن زنجويه الدينوري، أنا عبد الله بن محمد بن شيبة، أنا أحمد بن جعفر المستملي أنا أبو محمد يحيىٰ بن إسحق بن شاكر بن أحمد بن خباب، أنا عيسى بن يونس أنا عبيد الله بن الوليد الوصافي عن مُحارب بن دِثار، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ من أبغض الحلال إلى الله تعالى الطلاق، ولا أحبّ إليه من العتق»، أخبرنا أبو سعيد الشريحي أنا أبو إسحق الثعلبي أخبرني ابن زنجويه، أنا ابن أبي شيبة أنا محمد بن عثمان بن أبي شيبة، أنا أبي أنا أسامة عن حمّاد بن زيد عن أبي أيوب، عن أبي قلابة عن أبي أسماء الرحبي، عن ثوبان يرفعه إلى النبيّ ﷺ قال: «أيما امرأة سألت زوجَها الطلاقَ في غير بأس فحرام عليها رائحة الجنة»، وقال طاوس: الخلع يختصّ بحالة خوف النشوز لظاهر الآية، والآية خرجت على وفق العادة في أن الخلع لا يكون إلّا في حال خوف النشوز غالباً، وإذا طلّق الرجل امرأته بلفظ الطلاق على مال فقلبت وقعت البينونة، وانتقص به العدد، واختلف أهل العلم في الخلع، فذهب أكثرهم إلى أنه تطليقة بائنة ينقص بها عدد الطلاق، وهو قول عمر وعثمان وعلي وابن مسعود، وبه قال سعيد بن المسيب وعطاء والحسن والشعبي والنخعي، وإليه ذهب مالك والثّوري والأوزاعي وأصحاب الرأي، وهو أظهر قولي الشافعي، وذهب قوم إلى أنه فَسْخٌ لا ينتقص به عدد الطلاق، وهو قول عبد الله بن عمر وعبد الله بن عباس رضي الله عنهم، وبه قال عكرمة وطاوس، وإليه ذهب أحمد وإسحق، واحتجّوا بأنّ الله تعالى ذكر الطلاق مرتين، ثم ذكر بعد الخلع، ثم ذكر بعده الطلقة الثالثة فقال: ﴿فإن طلّقها فلا تحلّ له من بعد حتى تنكح زوجاً غيره﴾

قول ابن عباس وطاوس وعكرمة. وبه قال أحمد وإسحاق وأبو ثور وقال الشافعي في الجديد: إنه طلاق وهو الأظهر وهو قول عثمان وعلي وابن مسعود والحسن والشعبي والنخعي وعطاء وابن المسيب ومجاهد ومكحول والزهري. وبه قال أبو حنيفة ومالك وسفيان الثوري. وحجة القول القديم أن الله تعالى ذكر الطلاق مرتين ثم ذكر بعده الخلع ثم ذكر الطلقة الثالثة فقال: .

فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوۡجًا غَيۡرَهُۥۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۗ وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾

﴿**فإن طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجاً غيره**﴾ ولو كان الخلع طلاقاً لكان الطلاق أربعاً وحجة القول الجديد أنه لو كان فسخاً لما صح بالزيادة على المهر المسمى كالإقالة في البيع وأيضاً لو كان الخلع فسخاً فإذا خالعها ولم يذكر مهراً وجب أن يجب المهر عليها كالإقالة، فإن الثمن يجب رده وإن لم يذكره فثبت أن الخلع ليس بفسخ وإذا بطل ذلك ثبت أنه طلاق وأيضاً فإن الطلقة الثالثة قوله: أو تسريح بإحسان. وفائدة الخلاف أنا إذا جعلناه طلاقاً ينقص به عدد الطلاق فإن تزوجها بعده كانت معه على طلقتين وإن جعلناه فسخاً بانت منه بثلاث.

قوله تعالى: ﴿**تلك حدود الله**﴾ يعني هذه أوامر الله ونواهيه وهو ما تقدم من أحكام الطلاق والرجعة والخلع وحدود الله ما منع من مجاوزتها وهو قوله: ﴿**فلا تعتدوها**﴾ أي فلا تجاوزها ﴿**ومن يتعد حدود الله**﴾ أي يجاوزها ﴿**فأولئك هم الظالمون**﴾ قوله عز وجل: ﴿**فإن طلقها**﴾ يعني الطلقة الثالثة ﴿**فلا تحل له من بعد**﴾ أي لا تحل له رجعتها بعد الثلاث ﴿**حتى تنكح زوجاً غيره**﴾ يعني حتى تتزوج زوجاً آخر غير المطلق فيجامعها، والنكاح يتناول العقد والوطء جميعاً والمراد هنا الوطء، نزلت في تميمة وقيل: عائشة بنت عبدالرحمن بن عتيك القرظي وكانت تحت ابن عمها رفاعة بن وهب بن عتيك القرظي فطلقها ثلاثاً (ق) عن عائشة قالت: «جاءت امرأة رفاعة القرظي إلى رسول الله ﷺ فقالت إني كنت عند رفاعة فطلقني فبت طلاقي فتزوجت بعده عبدالرحمن بن الزبير وإنما معه مثل هدبة الثوب فتبسم رسول الله ﷺ وقال: أتريدين أن ترجعي إلى رفاعة لا حتى يذوق عسيلتك وتذوقي عسيلته»

[البقرة: ٢٣٠]، ولو كان الخلع طلاقاً لكان الطلاق أربعاً، ومَن قال بالقول الأول جعل الطلقة الثالثة: ﴿ **أو تسريح بإحسان** ﴾. قولِه تعالى: ﴿ **تلك حُدودُ الله** ﴾، أي: هذه أوامر الله ونواهيه، وحدود الله ما منع الشرع من المجاوزة عنه، ﴿ **فلا تعتدوها** ﴾، فلا تجاوزوها، ﴿ **ومَنْ يتعدّ حدودَ الله فأولئك هم الظالمون** ﴾.

قوله تعالى: ﴿ **فإن طلّقها** ﴾، يعني: الطلقة الثالثة، ﴿ **فلا تحلّ له مِنْ بعدُ** ﴾، أي: من بعد الطلقة الثالثة، ﴿ **حتى تنكح زوجاً غيره** ﴾، أي: غير المطلق فيجامعها، والنكاح يتناول الوطء والعقد جميعاً، نزلت في تميمة، وقيل: في عائشة بنت عبد الرحمن بن عتيك القرظي، كانت تحت ابن عمّها رفاعة بن وهب بن عتيك القرظي فطلّقها ثلاثاً، أخبرنا عبد الوهاب بن محمد الخطيب، أنا عبد العزيز بن أحمد الخلال، أنا أبو العباس الأصم أنا الربيع أنا الشافعي، أخبرنا سفيان عن الزهري عن عروة عن عائشة أُمّ المؤمنين رضي الله عنها أنه سمعها تقول: **جاءت امرأة رفاعة القرظي إلى رسول الله ﷺ فقالت: إني كنت عند رفاعة القرظي فطلّقني فبتّ طلاقي وتزوّجت بعده عبد الرحمن بن الزبير، وإنما معه مثل هدبة الثوب، فتبسّم رسول الله ﷺ وقال: أتريدين أن ترجعي إلى رفاعة؟ قالت: نعم، قال: «لا، حتى يذوق عُسيلتك وتذوقي عسيلته»** ورُوِيَ أنها لبثت ما شاء الله، ثم رجعت إلى رسول الله ﷺ فقالت: إن زوجي قد مسّني فقال لها النبي ﷺ: «كذبت بقولك الأول فلن نصدّقك في الآخر» فلبثتْ حتى قُبض النبيّ ﷺ، فأتتْ أبا بكر رضي الله عنه، فقالت: يا خليفة رسول الله ﷺ أرجع إلى زوجي

قولها: فبت طلاقي أي قطعه والبت القطع وقولها: مثل هدبة الثوب أي طرفة وهو كناية عن استرخاء الذكر قوله: حتى يذوق عسيلتك بضم العين تصغير العسل شبة لذة الجماع بالعسل وهو كناية عنه وإنما أنث العسل لأن من العرب من يؤنثه، وقيل: أنثه حملاً له على المعنى، لأن المراد منه النطفة، وعبدالرحمن المذكور هو عبدالرحمن بن الزبير بفتح الزاي وكسر الباء مشددة، وروي أنها لبثت ما شاء الله ثم رجعت إلى رسول الله ﷺ فقالت: إن زوجي قد مسني فقال لها النبي ﷺ: كذبت بقولك الأول فلن أصدقك في الآخر، فلبثت حتى قبض رسول الله ﷺ فأتت أبا بكر فقالت يا خليفة: رسول الله ﷺ أرجع إلى زوجي الأول فإن زوجي الآخر قد مسني وطلقني، فقال لها أبو بكر: قد شهدت رسول الله ﷺ حين أتيته وقال له ما قالت لك ما قال فلا ترجعي إليه، فلما قبض أبو بكر أتت عمر وقالت له ما قالت لأبي بكر فقال لها: لئن رجعت إليه لأرجمنك. قوله تعالى: ﴿فإن طلقها﴾ يعني الزوج الثاني بعد وطئها ﴿فلا جناح عليهما﴾ يعني على المرأة والزوج الأول ﴿أن يتراجعا﴾ يعني بنكاح جديد ﴿إن ظنا﴾ أي علما وأيقنا وقيل: إن رجوا لأن أحداً لا يعلم ما هو كائن إلّا الله تعالى: ﴿أن يقيما حدود الله﴾ يعني يقيما بينهما الصلاح وحسن العشرة والصحبة وقيل: معناه إن علما أن نكاحها على غير دلسة، والمراد بالدلسة التحليل.

فرعان: **الأول**: مذهب جمهور العلماء أن المطلقة بالثلاث لا تحل للزوج المطلقة منه بالثلاث إلّا بشرائط، وهي أن تعتد منه ثم تتزوج بزوج آخر ويطأها، ثم يطلقها، ثم تعتد منه، فإذا حصلت هذه الشرائط فقد حلت للأول وإلّا فلا، وقال سعيد بن جبير وسعيد بن المسيب: تحل بمجرد العقد والمذهب الأول هو الأصح، واختلف العلماء في اشتراط الوطء هل ثبت بالكتاب أو بالسنة؟ على ثلاثة أقوال: الثالث وهو المختار أنه ثبت بهما (الثاني) إذا تزوج بالمطلقة ثلاثة ليحلها للأول فهذا نكاح باطل وعقد فاسد وبه قال: مالك وأحمد لما روي عن ابن مسعود عن النبي ﷺ: «أنه لعن المحلل والمحلل له» أخرجه الترمذي وقال حديث حسن صحيح وروي أنه قال هو التيس المستعار ولو تزوجها ولم يشترط في النكاح أنه يفارقها فالنكاح صحيح ويحصل به التحليل إذا طلقها وانقضت العدة غير أنه يكره إذا كان في عزمهما ذلك، وبه قال الشافعي وأبو حنيفة، ودليل ذلك أن الآية دلت على أن الحرمة تنتهي بوطء مسبوق بعقد وقد وجد ذلك فوجب القول بانتهاء الحرمة، وقال نافع: «أتى رجل إلى ابن عمر

الأول فإن زوجي الآخر قد مسّني وطلّقني، فقال لها أبو بكر: قد شهدت رسول الله ﷺ حين أتيته وقال لك ما قال، فلا ترجعي إليه، فلما قُبض أبو بكر رضي الله عنه أتتْ عمر رضي الله عنه وقالت له مثل ذلك، فقال لها عمر رضي الله عنه: لا ترجعي إليه لئن رجعت إليه لأرجمنّك. قوله تعالى: ﴿ فإن طلّقها فلا جُناح عليهما أن يتراجعا ﴾، يعني: فإن طلّقها الزوج الثاني بعدما جامعها فلا جُناح عليهما، يعني: على المرأة وعلى الزوج الأول أن يتراجعا، يعني: بنكاح جديد، ﴿ إنْ ظنّا ﴾، أي: عَلِما، وقيل: رجوا، لأن أحداً لا يعلم ما هو كائن إلّا الله عزّ وجلّ، ﴿ أن يُقيما حدودَ الله ﴾، أي: يكون بينهما الصلاح وحُسن الصحبة، وقال مجاهد: معناه إن علما أن نكاحهما على غير دلسة، وأراد بالدلسة: التحليل، وهو مذهب سفيان الثّوري والأوزاعي ومالك وأحمد وإسحق، قالوا: إذا تزوّجت المطلّقة ثلاثاً زوجاً آخر ليحلّها للزوج الأول فإن النكاح فاسد، وذهب جماعة إلى أنه إذا لم يُشترط في النكاح مع الثاني أنه يفارقها، فالنكاح صحيح ويحصل به التحليل، ولها صداق مثلها غير أنه يكره إذا كان في عزمها ذلك، أخبرنا أبو الفرج المظفر بن إسماعيل التميمي، أخبرنا أبو القاسم حمزة بن يوسف السهمي أنا أبو أحمد عبد الله بن عدي الحافظ، أنا الحسن بن الفرج أخبرنا عمرو بن خالد الحرّاني، أنا عبيد الله بن عبد الكريم هو الجوزي، عن أبي واصل عن ابن مسعود عن النبي ﷺ أنه قال: «لعنَ اللّهُ المحلِّل والمحلَّل له»، وقال نافع: أتى

فقال: إن رجلاً طلق امرأته ثلاثاً فانطلق أخ له من غير مؤامرة فتزوجها ليحلها للأول فقال: لا إلاّ نكاح رغبة، كنا نعد هذا سفاحاً على عهد رسول الله ﷺ» وقوله تعالى: ﴿وتلك حدود الله يبينها لقوم يعلمون﴾ يعني يعلمون ما أمرهم به ونهاهم عنه، وإنما خص العلماء لأنهم هم الذين ينتفعون بذلك البيان.

﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٣١﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿وإذا طلقتم النساء﴾ نزلت في ثابت بن يسار رجل من الأنصار طلق امرأته حتى إذا قرب انقضاء عدتها راجعها ثم طلقها يقصد بذلك مضارّتها ﴿فبلغن أجلهن﴾ أي قاربن انقضاء عدتهن وشارفن منتهاها، ولم يرد انقضاء العدة لأنه لو انقضت عدتها لم يكن للزوج إمساكها فالبلوغ هنا بلوغ مقاربة كما يقال: بلغ فلان البلد إذا قاربه وشارفه، فهذا من باب المجاز الذي يطلق اسم الكل فيه على الأكثر. وقيل إن الأجل اسم للزمان فيحمل على الزمان الذي هو آخر زمان يمكن إيقاع الرجعة، فيه بحيث إذا فات لا يبقى بعده مكنة إلى الرجعة وعلى هذا التأويل فلا حاجة لنا إلى المجاز ﴿فأمسكوهن﴾ أي راجعوهن ﴿بمعروف﴾ وهو أن يشهد على رجعتها وأن يراجعها بالقول لابالوطء ﴿أو سرحوهن بمعروف﴾ أي اتركوهن حتى تنقضي عدتهن فيملكن أنفسهن ﴿ولا تمسكوهن ضراراً﴾ أي لا تقصدوا بالرجعة المضارة بتطويل الحبس. وقيل: كانوا يضاروهن لتفتدي المرأة منه بمالها ﴿لتعتدوا﴾ أي لتظلموهن بمجاوزتكم في أمورهن حدود الله التي بينها لكم. وقيل معناه: لا تضاروهن على قصد الاعتداء عليهن ﴿ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه﴾ أي ضر نفسه بمخالفة أمر الله وتعريضها عذاب الله ﴿ولا تتخذوا آيات الله هزواً﴾ يعني بذلك ما بين من حلاله وحرامه وأمره ونهيه في وحيه وتنزيله، فلا تتخذوا ذلك استهزاءً ولعباً، فمن وجب عليه طاعة الله وطاعة رسوله ثم وصل إليه هذه الأحكام التي تقدم ذكرها في العدة والرجعة والخلع وترك المضارة فلا يتخذها هزواً، ففيه تهديد عظيم ووعيد شديد، وقيل: هو راجع إلى قوله

رجلٌ ابنَ عمر فقال له: إن رجلاً طلّق امرأته ثلاثاً، فانطلق أخ له من غير مؤامرة، فتزوّجها ليُحلّها للأول، فقال: لا إلاّ نكاح رغبة، كنّا نعدّ هذا سفاحاً على عهد رسول الله ﷺ، وقال رسول الله ﷺ: «لعن الله المحلِّل والمحلَّل له»، ﴿ وتلك حدود الله يبيّنها لقوم يعلمون ﴾، يعني: يعلمون ما أمرهم الله تعالى به.

قوله تعالى: ﴿ وإذا طلّقتم النساءَ فبلغنَ أجلهنّ ﴾، الآية نزلت في رجل من الأنصار يُدعى ثابت بن يسار طلّق امرأته حتى إذا قاربت انقضاء عدّتها راجعها ثم طلّقها يقصد بذلك مضارّتها، قوله تعالى: ﴿ فبلغن أجلهنّ ﴾، أي: أشرفْنَ على أن تَبين بانقضاء العدّة، ولم يرد حقيقة انقضاء العدّة لأن العدّة إذا انقضت لم يكن للزوج إمساكها، فالبلوغ ههنا بلوغ مقاربة، وفي قوله تعالى بعد هذا: ﴿ فبلغن أجلهنّ فلا تعضلوهنّ ﴾ [البقرة: ٢٣٢]، حقيقة انقضاء العدّة والبلوغ يتناول المعنيين، يقال: بلغت المدينة إذا قربت منها إذا دخلتها، ﴿ فأمسكوهنّ ﴾، أي: راجعوهنّ، ﴿ بمعروف ﴾ قيل: المراجعة بالمعروف أن يشهد على رجعتها وأن يراجعها بالقول لا بالوطء، ﴿ أو سرّحُوهنّ بمعروف ﴾، أي: اتركوهنّ حتى تنقضي عِدَّتهنَّ فيكنّ أملك لأنفسهنّ، ﴿ ولا تُمسكوهنّ ضراراً لتعتدوا ﴾، أي: لا تقصدوا بالرجعة المضارّة بتطويل الحبس. ﴿ ومَنْ يفعل ذلك فقد ظلم نفسه ﴾، أي: أضرّ بنفسه بمخالفة أمر الله تعالى، ﴿ ولا تتّخذوا آيات الله هزواً ﴾ قال الكلبي: يعني قوله تعالى: ﴿ فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان ﴾ [البقرة: ٢٢٩]، وكلّ مَن خالف أمر الشرع فهو متّخذ آيات الله هزواً، وقال أبو الدرداء: هو أن

فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان، فكل من خالف أمراً من أمور الشرع فهو متخذ آيات الله هزواً. وقيل: كان الرجل يطلق ويعتق ويتزوج ويقول كنت لاعباً فنهوا عن ذلك. عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «ثلاث جدهن جد وهزلهن جد: النكاح والطلاق والرجعة» أخرجه أبو داود والترمذي.

وقوله تعالى: ﴿واذكروا نعمة الله عليكم﴾ يعني بالإيمان الذي أنعم به الله عليكم فهداكم له وسائر نعمه التي أنعم بها عليكم ﴿وما أنزل عليكم﴾ أي واذكروا نعمته فيما أنزله عليكم ﴿من الكتاب﴾ يعني القرآن ﴿والحكمة﴾ يعني السنة التي علمها رسول الله ﷺ وسنها لكم. وقيل: المراد بالحكمة مواعظ القرآن ﴿يعظكم به﴾ أي بالكتاب الذي أنزله على نبيه ﷺ ﴿واتقوا الله﴾ يعني خافوا الله فيما أمركم به ونهاكم عنه ﴿واعلموا أن الله بكل شيء عليم﴾ يعني أن الله تعالى يعلم ما أخفيتم من طاعة ومعصية في سر وعلن لا يخفى عليه شيء من ذلك. قوله عز وجل:

﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾﴾

﴿وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن﴾ نزلت في معقل بن يسار المزني عضل أخته جميلة، وكانت تحت أبي القداح عاصم بن عدي فطلقها معقل بن يسار قال: كانت لي أخت تخطب إلي وأمنعها من الناس فأتاني ابن عم لي فأنكحتها إياه فاصطحبا ما شاء الله ثم طلقها طلاقاً له رجعة ثم تركها حتى انقضت عدتها، فلما خطبت إلي أتاني يخطبها مع الخطاب، فقلت له: خطبت إلي فمنعتها الناس وآثرتك بها فزوجتك ثم طلقتها طلاقاً لك فيه رجعة، ثم تركتها حتى انقضت عدتها، فلما خطبت إلي أتيتني تخطبها مع الخطاب والله لا أنكحتها لك أبداً، ففي ذلك نزلت هذه الآية: ﴿وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن﴾ الآية، فكفرت عن يميني وأنكحتها إياه أخرجه البخاري، وقيل إن جابر بن عبدالله كانت له ابنة عم فطلقها زوجها تطليقة، فلما انقضت عدتها أراد أن يرتجعها فأبى جابر وقال: طلقت ابنة عمنا ثم تريد أن تنكحها الثانية، وكانت المرأة تريد زوجها قد

الرجل كان يطلّق امرأته ثم يقول كنتُ لَاعباً، ويعتق ويقول مثل ذلك، وينكح ويقول مثل ذلك، أخبرنا أبو عبد الله محمد بن الفضل الخرقي أنا أبو الحسن الطيسفوني أخبرنا عبد الله بن عمر الجوهري، أخبرنا أحمد بن علي الكشمهيني أخبرنا علي بن حجر، أخبرنا إسماعيل بن جعفر عن أبي حبيب بن أردك هو عبد الرحمن بن حبيب وابن ماهك هو يوسف بن ماهك، عن عطاء بن أبي رباح عن أبي ماهك عن أبي .هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «ثلاث جدّهنّ جدّ وهزلهنّ جدّ: الطلاق والنكاح والرجعة»، ﴿ **واذكُروا نعمتَ اللَّهِ عليكم** ﴾: بالإيمان ﴿ **وما أنْزلَ عليكُمْ منَ الكتاب** ﴾، يعني: القرآن، ﴿ **والحكمة** ﴾، يعني: السُّنّة، وقيل: مواعظ القرآن، ﴿ **يعظكم به، واتقوا الله واعلموا أن الله بكل شيء عليم** ﴾.

﴿ **وإذا طلّقتُم النساءَ فبلغنَ أجلهنّ** ﴾، نزلت في جميلة بنت يسار أُخت معقل بن يسار المُزني كانت تحت أبي القداح بن عاصم بن عدي بن عجلان، فطلّقها، أخبرنا عبد الواحد المليحي أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أخبرنا أحمد بن أبي عمرو: حدّثني أبي حدّثني أبو هاشم عن يونس عن الحسن قال: حدّثني معقل بن يسار قال: زوّجت أُختاً لي من رجل فطلّقها حتى إذا انقضت عدّتها جاء يخطبها، فقلت له: زوّجتُك وفرشْتُك وأكرمتُك فطلّقتَها! ثم جئت تخطبها؟ ألا والله لا تعود إليك أبداً، وكان رجلاً لا بأس به وكانت المرأة تريد أن ترجع إليه، فأنزل الله تعالى ﴿ **فلا تعضلوهنّ أن ينكحن أزواجهنّ** ﴾، فقلتُ: الآن أفعل يا رسول الله، قال: فزوّجها إياه، قوله تعالى: ﴿ **فبلغن أجلهنّ** ﴾، أي: انقضت عدّتهنّ ﴿ **فلا تعضلوهنّ أن ينكحن**

رضيته فنزلت هذه الآية: وأراد ببلوغ الأجل في قوله ﴿فبلغن أجلهن﴾ انقضاء العدة بخلاف الآية التي قبل هذه الآية. قال الشافعي: دل اختلاف الكلامين على افتراق البلوغين ﴿فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن﴾ خطاب للأولياء، والمعنى لا تضيقوا عليهن أيها الأولياء، فتمنعوهن من مراجعة أزواجهن بنكاح جديد تبتغون بذلك مضارتهن فهو خطاب عام لجميع الأولياء، وإن كان سبب الآية خاصاً. وأصل العضل المنع والتضييق ومنه قول أوس بن حجر:

وليس أخوك الدائم العهد بالذي ... يذمك إن ولى ويرضيك مقبلا
ولكنه النائي إذا كنت آمناً ... وصاحبك الأدنى إذا الأمر أعضلا

يعني إذا أضاق الأمر، وفي الآية دليل للشافعي ومن وافقه في أن المرأة لا تلي عقد النكاح ولا تأذن فيه إذ لو كانت تملك ذلك لم يكن عضل ولا لنهي الولي عن العضل معنى. وقوله تعالى: ﴿إذا تراضوا بينهم بالمعروف﴾ يعني إذا تراضى الخطاب والنساء، والمعروف هنا ما وافق الشرع من عقد حلال ومهر جائز. وقيل هو أن يرضى كل واحد منهما بما التزمه لصاحبه بحق العقد حتى تحصل الصحبة الحسنة والعشرة الجميلة ﴿ذلك﴾ أي ذلك الذي ذكر من النهي ﴿يوعظ به من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر﴾ يعني أن المؤمن هو الذي ينتفع بالوعظ دون غيره ﴿ذلكم أزكى لكم وأطهر﴾ يعني أنه خير لكم وأطهر لقلوبكم وأطيب عند الله ﴿والله يعلم﴾ يعني ما في ذلك من الزكاة والتطهير ﴿وأنتم لا تعلمون﴾ يعني ذلك. قوله عز وجل:.

﴿۞ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ ۚ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ۗ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ۗ وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٣﴾﴾

﴿والوالدات﴾ يعني المطلقات اللاتي لهن أولاد من أزواجهن وقيل المراد بهن جميع الوالدت سواء كن

﴿أزواجهنّ﴾، أي: لا تمنعوهنّ عن النكاح، والعضل: المنع، وأصله الضيق والشدّة، يقال: عضلتِ المرأة: إذا نشب ولدها في بطنها فضاق عليه الخروج، والداء العضال الذي لا يُطاق علاجه، وفي الآية دليل على أن المرأة لا تلي عقد النكاح، إذْ لو كانت تملك ذلك لم يكن هناك عضل، ولا لنهي الولي عن العضل معنىً، وقيل: الآية خطاب مع الأزواج لمنعهم من الإضرار لأن ابتداء الآية خطاب معهم، والأول أصحّ، ﴿إذا تراضَوْا بينهم بالمعروف﴾، بعقد حلال ومهر جائز، ﴿ذلك﴾، أي: الذي ذُكر من النهي ﴿يُوعظ به مَنْ كان منكم يُؤمن بالله واليوم الآخر﴾، وإنما قال ذلك موحداً والخطاب للأولياء، لأن الأصل في مخاطبة الجمع ذلكم، ثم كثر حتى توهموا أن الكاف من نفس الحرف وليس بكاف خطاب، فقالوا ذلك، فإذا قالوا هذا كانت الكاف موحّدة مستوية في الاثنين والجمع والمؤنث والمذكّر، قيل: هو خطابٌ للنبيِّ ﷺ، فلذلك وحّد ثم رجع إلى خطاب المؤمنين، فقال: ﴿ذلكم أزكى لكم﴾، أي: خير لكم، ﴿وأطهر﴾: لقلوبكم من الريبة وذلك أنه كان في نفس كل واحد منهما علاقة حيث لم يؤمن أن يتجاوز ذلك إلى غير ما أحلّ الله لهما، ولم يؤمن من الأولياء أن يسبق إلى قلوبهم منهما ما لعلّهما أن يكونا بريئين من ذلك فيأثمون، ﴿والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾، أي: يعلم من حبّ كل واحد منهما لصاحبه ما لا تعلمون أنتم.

قوله تعالى: ﴿والوالدات يُرضعن أولادهنّ﴾، أي: المطلّقات اللاتي لهنّ أولاد من أزواجهنّ ﴿يُرضعن﴾

مطلقات أو متزوجات، ويدل عليه أن اللفظ عام، وما قام على دليل التخصيص فوجب تركه على عمومه، ولأنه ظاهر اللفظ فوجب حمله عليه ﴿**يرضعن أولادهن**﴾ هذا خبر بمعنى الأمر، والتقدير والوالدات يرضعن أولادهن في حكم الله الذي أوجبه، وهذا الأمر ليس أمر إيجاب، وإنما هو أمر ندب واستحباب لأن تربية الطفل بلبن الأم أصلح له من لبن غيرها ولكمال شفقتها عليه ويدل على أنه لا يجب على الوالدة إرضاع الولد. قوله: ﴿**فإن أرضعن لكم فآتوهن أجورهن**﴾ ولو وجب عليها الرضاع لما استحقت الأجرة وقال تعالى: ﴿**وإن تعاسرتم فسترضع له أخرى**﴾ هذا نص صريح في ذلك، فإن لم يوجد من يرضع الطفل أو لم يقبل غير لبن أمه وجب عليها إرضاعه كما يجب على كل أحد مواساة المضطر، فإن رغبت الأم في إرضاع ولدها، فهي أولى به من غيرها ﴿**حولين كاملين**﴾ الحول السنة، وأصله من حال يحول إذا انقلب، وإنما قال كاملين للتوكيد لأنه مما يتسامح فيه، تقول: أقمت عند فلان حولاً وإن لم تستكمله، فبين الله أنهما حولان كاملان أربعة وعشرون شهراً، وهذا التحديد بالحولين ليس تحديد إيجاب، ويدل على ذلك قوله بعده: ﴿**لمن أراد أن يتم الرضاعة**﴾ فلما علق الإتمام بإرادتنا علمنا أن هذا الإتمام غير واجب، فثبت أن المقصود من هذا التجديد قطع النزاع بين الزوجين في مقدار زمن الرضاعة فقدر الله تعالى ذلك بالحولين حتى يرجعا إليه عند التنازع، قال ابن عباس في رواية عكرمة: إذا وضعت الولد لستة أشهر أرضعته حولين وإن وضعته لسبعة أشهر أرضعته ثلاثاً وعشرين شهراً، وإن وضعته لتسعة أشهر أرضعته أحداً وعشرين شهراً، كل ذلك ثلاثون شهراً، لقوله تعالى: ﴿**وحمله وفصاله ثلاثون شهراً**﴾ وقال في رواية الوالي عنه: هو حد لكل مولود في أي وقت ولد لا ينقص رضاعه عن حولين إلّا باتفاق من الأبوين، فأيهما أراد فطام الولد قبل الحولين فليس له ذلك إلّا إذا اتفقا عليه يدل على ذلك قوله: ﴿**فإن أرادا فصالاً عن تراض منهما**﴾ وقيل: فرض الله على الوالدات إرضاع الولد حولين ثم أنزل التخفيف فقال: لمن أراد أن يتم الرضاعة، أي هذا منتهى الرضاع لمن أراد إتمام الرضاعة، وليس فيما دون ذلك حد محدود، وإنما هو على مقدار إصلاح الطفل وما

خبر بمعنى الأمر وهو أمر استحباب لا أمر إيجاب، لأنه لا يجب عليهنّ الإرضاع إذا كان يوجد مَن يرضع الولد، لقوله تعالى في سورة الطلاق: ﴿ فإن أرضعن لكم فآتوهنّ أجورهنّ ﴾ [الطلاق: ٦]، فإن رغبت الأم في الإرضاع فهي أولى من غيرها، ﴿ حولين كاملين ﴾، أي: سنتين، وذكر الكمال للتأكيد، كقوله تعالى: ﴿ تلك عشرة كاملة ﴾ [البقرة: ١٩٦] وقيل: إنما قال كاملين لأن العرب قد تسمّي بعض الحول حولاً وبعض الشهر شهراً، كما قال الله تعالى: ﴿ الحجّ أشهر معلومات ﴾ [البقرة: ١٩٧]، وإنّما هي شهران وبعض الثالث، وقال: ﴿ فمَن تعجّل في يومين فلا إثم عليه ﴾ [البقرة: ٢٠٣]، وإنما يتعجّل في يوم وبعض يوم ويقال أقام فلان بموضع كذا حولين، وإنما أقام به حولاً وبعض آخر، فبيّن الله تعالى أنهما حولان كاملان أربعة وعشرون شهراً، واختلف أهل العلم في هذا الحدّ، فمنهم مَن قال: هو حدّ لبعض المولودين، فروى عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما أنها إذا وضعت لستة أشهر فإنها ترضعه حولين كاملين، وإن وضعت لسبعة أشهر فإنها ترضعه ثلاثة وعشرين شهراً، وإن وضعت لتسعة أشهر فإنها ترضعه أحداً وعشرين شهراً، وإن وضعت لعشرة أشهر فإنها ترضعه عشرين شهراً، كل ذلك تمام ثلاثين شهراً، لقوله تعالى: ﴿ وحمله وفصاله ثلاثون شهراً ﴾ [الأحقاف: ١٥]، وقال قوم: هو لكل مولود بأي وقت وُلد لا ينقص رضاعه عن حولين إلّا باتفاق الأبوين، فأيُّهما أراد الفطامَ قبل تمام الحولين ليس له ذلك إلّا أن يجتمعا عليه لقوله تعالى: ﴿ فإن أرادا فصالاً عن تراضٍ منهما وتشاور ﴾، وهذا قول ابن جريج والثّوري، ورواية الوالبي عن ابن عباس رضي الله عنهما، وقيل: المراد من الآية بيان أن الرضاع الذي يثبت الحرمة ما يكون في الحولين فلا يحرم ما يكون بعد الحولين، قال قتادة فرض الله على الوالدات إرضاع حولين كاملين، ثم أنزل التخفيف فقال: ﴿ لمَن أراد أن يُتمّ الرضاعة ﴾، أي: هذا منتهى الرضاعة، وليس فيما دون ذلك حدّ محدود، وإنما هو على مقدار

يعيش به ﴿وعلى المولود له﴾ يعني الأب، وإنما عبر عنه بهذا لأن الوالدات إنما ولدن للآباء، ولذلك ينسب الولد للأب دون الأم قال بعضهم:

وإنمـــا أمهـــات النـــاس أوعيـــة مستـــودعـــات ولـــلآبـــاء أبنـــاء

وقيل: إن هذا تنبيه على أن الولد إنما يلتحق بالوالد لكونه مولود على فراشه، فكأنه قال: إذا ولدت المرأة الولد لأجل الرجل وعلى فراشه وجب عليه رعاية مصالحه ﴿رزقهن﴾ أي طعامهن ﴿وكسوتهن﴾ أي لباسهن ﴿بالمعروف﴾ أي على قدر الميسرة ﴿لا تكلف نفس إلاّ وسعها﴾ يعني طاقتها، والمعنى أن أبا الولد لا يكلف في الإنفاق عليه وعلى أمه إلاّ قدر ما تتسع به مقدرته ولا يبلغ إسراف القدرة ﴿لا تضار والدة بولدها﴾ يعني لا ينزع الولد من أمه بعد أن رضيت بإرضاعه ولا يدفع إلى غيرها وقيل معناه لا تكره الأم على إرضاع الولد إذا قبل الصبي لبن غيرها لأن ذلك ليس بواجب عليها ﴿ولا مولود له بولده﴾ يعني لا تلقي المرأة الولد إلى أبيه وقد ألفها تضاره بذلك، وقيل معناه لا يلزم الأب أن يعطي أم الولد أكثر مما يجب عليه لها إذا لم يرضع الولد من غير أمه، فعلى هذا يرجع الضرار إلى الوالدين فيكون المعنى: لا يضار كل واحد منهما صاحبه بسبب الولد. وقيل يحتمل أن يكون الضرر راجعاً إلى الولد. والمعنى: لا يضار كل واحد من الأبوين الولد فلا ترضعه حتى يموت فيتضرر بذلك ولا ينفق عليه الأب أو ينزعه من أمه فيضره بذلك، فعلى هذا تكون الباء صلة، والمعنى لا تضار والدة ولدها ولا أب ولده ﴿وعلى الوارث مثل ذلك﴾ يعني وعلى وارث أبي الولد إذا مات مثل ما كان يجب عليه من النفقة والكسوة فيلزم وارث الأب أن يقوم مقامه في القيام بحق الولد. وقيل: المراد بالوارث وارث الصبي الذي لو مات الصبي ورثه فعلى هذا الوارث مثل ما كان على أبي الصبي في حال حياته، واختلف في أي وارث هو فقيل هم عصبة الصبي كالجد والأخ والعم وابنه. وقيل: هو كل وارث له من الرجال والنساء، وبه قال أحمد: فيجبرون على نفقة الصبي كل على قدر سهمه منه. وقيل هو من كان ذا رحم محرم منه وبه قال أبو حنيفة. وقيل المراد

صلاح الصبي وما يعيش به. ﴿ وعلى المولود له ﴾، يعني: الأب، ﴿ رزقهنّ ﴾: طعامهنّ، ﴿ وكسوتهنّ ﴾: لباسهنّ، ﴿ بالمعروف ﴾، أي: على قدر الميسرة، ﴿ لا تُكلّف نفسٌ إلاّ وسعها ﴾، أي: طاقتها، ﴿ لا تُضارّ والدةٌ بولدها ﴾، قرأ ابن كثير وأهل البصرة برفع الراء، نسقاً على قوله: ﴿ لا تكلّف ﴾ وأصله تضار، فأُدغمت الراء في الراء، وقرأ الآخرون ﴿ تضار ﴾، بنصب الراء، وقالوا: لمّا أدغمت الراء في الراء حُرّكتْ إلى أخفّ الحركات وهو النصب، ومعنى الآية: لا تضار والدة بولدها فينزِع الولد منها إلى غيرها بعد أن رضيت بإرضاعه، ﴿ ولا مولودٌ له بولده ﴾، أي: لا تلقيه المرأة إلى أبيه بعدما أَلِفها تُضارّه بذلك، وقيل: معناه لا تضارّ والدة فتكره على إرضاعه إذا كرهت إرضاعه، وقَبِلَ الصبي من غيرها، لأن ذلك ليس بواجب عليها ولا مولود له بولده، فيحتمل أن يعطي الأم أكثر مما يجب لها إذا لم يرتضع الولد من غيرها، فعلى هذين القولين أصل الكلمة: لا تضارر، بفتح الراء الأولى على الفعل المجهول، والوالدة والمولود مفعولان، ويُحتمل أن يكون الفعل لهما وتكون تضار بمعنى: تضارر بكسر الأولى على تسمية الفاعل، والمعنى: لا تضار والدة فتأبى أن ترضع ولدها ليشقّ على أبيه، ولا مولود له، أي: لا يضار الأب أم الصبي فينزعه منها ويمنعها من إرضاعه، وعلى هذه الأقوال يرجع الضرار إلى الوالدين، **يضار** كل واحد منهما صاحبه بسبب الولد، ويجوز أن يكون الضرار راجعاً إلى الصبي، أي: لا يضار كل واحد منهما الصبي، ولا تُرضعه الأم حتى يموت، أو لا يُنفق الأبُ، أو ينتزعه من الأم حتى يضرّ بالصبي، فعلى هذا تكون الباء زائدة، ومعناه: لا تضار والدةُ ولدَها، ولا أبُ ولدَه، وكل هذه الأقاويل مرويّة عن المفسّرين. قوله تعالى: ﴿ وعلى الوارث مثل ذلك ﴾، اختلفوا في هذا الوارث، فقال قوم: هو وارث الصبي، معناه: وعلى وارث الصبي الذي لو

بالوارث الصبي نفسه، فعلى هذا تكون أجرة رضاع الصبي في ماله فإن لم يكن له مال فعلى الأم ولا يجبر على نفقة الصبي غير الأبوين، وبه قال مالك والشافعي. وقيل معناه وعلى الوارث ترك المضارة ﴿فإن أرادا﴾ يعني الوالدين ﴿فصالاً﴾ يعني فطام الولد قبل الحولين ﴿عن تراض منهما﴾ أي على اتفاق من الوالدين في ذلك ﴿وتشاور﴾ أي يشاورون أهل العلم في ذلك حتى يخبروا أن الفطام قبل الحولين لا يضر بالولد، والمشاورة استخراج الرأي بما فيه مصلحة ﴿فلا جناح عليهما﴾ أي فلا حرج ولا إثم على الوالدين في الفطام قبل الحولين إذا لم يضر بالولد ﴿وإن أردتم أن تسترضعوا أولادكم﴾ أي لأولادكم مراضع غير أمهاتهم إذا أبت أمهاتهم إرضاعهم أو تعذر ذلك لعلة بهن من انقطاع لبن أو غير ذلك أو أردن التزويج ﴿فلا جناح عليكم إذا سلمتم﴾ يعني إلى المراضع ﴿ما آتيتم﴾ يعني لهن من أجرة الرضاع وقيل إذا سلمتم إلى أمهاتهم من أجرة الرضاع بقدر ما أرضعن ﴿بالمعروف﴾ أي بالإحسان والإجمال أمروا أن يكونوا عند تسليم الأجرة مستبشري الوجوه ناطقين بالقول الجميل مطيبين لأنفس المراضع بما أمكن حتى يؤمن من تفريطهن بقطع معاذيرهن ﴿واتقوا الله﴾ يعني وخافوا الله فيما فرض عليكم من الحقوق وفيما أوجب عليكم لأولادكم ﴿واعلموا أن الله بما تعملون بصير﴾ يعني لا يخفى عليه خافية من جميع أعمالكم سرها وعلانيتها، فإنه تعالى يراها ويعلمها. قوله عز وجل:

مات الصبي وله مال وزنه مثل الذي كان على أبيه في حال حياته، ثم اختلفوا في أنه أيّ وارث هو من ورثته، فقال بعضهم: هو عصبة الصبي من الرجال، مثل الجدّ والأخ وابن الأخ والعمّ وابن العمّ، وهو قول عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه، وبه قال إبراهيم والحسن ومجاهد وعطاء، وهو مذهب سفيان، قالوا: إذا لم يكن للصبي مال ينفق عليه أُجبرت عصبتُه الذين يرثونه على أن يسترضعوه، وقيل: هو وارث الصبي مَن كان من الرجال والنساء، وهو قول قتادة وابن أبي ليلى، ومذهب أحمد وإسحق، وقالوا: يُجبر على نفقته كل وارث على قدر ميراثه، عصبتَه كانوا أو غيرَهم، وقال بعضهم: هو مَن كان ذا رحم محرم من ورثة المولود، فمَن ليس بمحرم مثل ابن العمّ والمولى، فغير مرادِه بالآية: وهو قول أبي حنيفة رحمه الله، وذهب جماعة إلى أن المراد بالوارث هو الصبي نفسه الذي هو وارث أبيه المتوفى، يكون أُجرة رضاعه ونفقته في ماله، فإن لم يكن له مال فعلى الأُم، ولا يجبر على نفقة الصبي إلّا الوالدان، وهو قول مالك والشافعي رحمهما الله، وقيل: هو الباقي من والدي المولود، بعد وفاة الآخر عليه، مثل ما كان على الأب من أُجرة الرضاع والنفقة والكسوة، وقيل: ليس المراد منه النفقة بل معناه وعلى الوارث ترك المضارّة، وبه قال الشعبي والزهري، ﴿ فإن أرادَا ﴾، يعني: الوالدين، ﴿ فِصَالاً ﴾: فطاماً، قيل: الحولين ﴿ عَنْ تراضٍ منهما ﴾، أي: اتفاق الوالدين، ﴿ وتشاور ﴾، أي: يشاورون أهل العلم به حتى يُخبِرُوا أن الفطام في ذلك الوقت لا يضرّ بالولد، والمشاورة استخراج الرأي، ﴿ فلا جُناح عليهما ﴾، أي: لا حرج عليهما في الفطام قبل الحولَين، ﴿ وإن أردتم أن تسترضعوا أولادكم ﴾، أي: لأولادِكم مراضع غير أمهاتهم إذا أبت أُمهاتهم إرضاعهم، أو تعذّر لعلّة بهنّ أو انقطاع لبن أو أردن النكاح، ﴿ فلا جُناحَ عليكم إذا سَلّمتم ﴾، إلى أُمهاتهم، ﴿ ما آتيتم ﴾، ما سمّيتم لهنّ من أُجرة الرضاع، بقدر ما أرضعن، وقيل: إذا سلّمتم أُجور المراضع إليهنّ، ﴿ بالمعروف ﴾، قرأ ابن كثير ﴿ ما آتيتم ﴾ وفي قوله: ﴿ وما آتيتمْ من ربا ﴾ [الروم: ٣٩] بقصر الألف، ومعناه: ما فعلتم، يقال: أتيت جميلاً إذا فعلته، فعلى هذه القراءة يكون التسليم بمعنى الطاعة والانقياد، لا بمعنى تسليم الأجرة، يعني إذا سلّمتم لأمره وانقدْتم لحُكْمه، وقيل: إذا سلّمتم للاسترضاع عن تراضٍ وإنفاق دون الضرار. ﴿ واتقوا الله واعلموا أن الله بما تعملون بصير ﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ۖ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٣٤﴾﴾

﴿والذين يتوفون﴾ يعني يموتون ﴿منكم﴾ وأصل التوفي أخذ الشيء وافياً، فمن مات فقد استوفى عمره كاملاً، ويقال توفي فلان يعني قبض وأخذ ﴿ويذرون﴾ أي ويتركون ﴿أزواجاً﴾ والمراد بالأزواج هنا النساء لأن العرب تطلق اسم الزوج على الرجل والمرأة ﴿يتربصن﴾ أي ينتظرن ﴿بأنفسهن أربعة أشهر وعشراً﴾ يعني قدر هذه المدة وإنما قال عشراً بلفظ التأنيث لأن العرب إذا أبهمت في العدد من الليالي والأيام غلبوا الليالي حتى إن أحدهم ليقول: صمت عشراً من الشهر لكثرة تغليبهم الليالي على الأيام فإذا أظهروا الأيام قالوا صمنا عشرة أيام وقيل إن هذه الأيام أيام حزن ولبس إحداد فشبهها بالليالي على سبيل الاستعارة ووجه الحكمة في أن الله تعالى حد العدة بهذا القدر لأن الولد يركض في بطن أمه لنصف مدة الحمل، يعني يتحرك. وقيل: إن الروح ينفخ في الولد في هذه العشرة أيام، ويدل على ذلك ما روي عن ابن مسعود قال: حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق: «إن خلق أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين يوماً نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يبعث الله إليه ملكاً يكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد، ثم ينفخ فيه الروح» أخرجاه في الصحيحين بزيادة، فدل هذا الحديث على أن خلق الولد يجتمع في مدة أربعة أشهر ويتكامل خلقه بنفخ الروح فيه في هذه الأيام الزائدة.

فصل: في حكم عدة المتوفى عنها زوجها والإحداد. وفي مسائل

المسألة الأولى: عدة المتوفى عنها زوجها أربعة أشهر وعشر وعدة الأمة على نصف عدة الحرة شهران وخمسة أيام، وبه قال جمهور العلماء، وقال أبو بكر الأصم: عدة الأمة كعدة الحرائر وتمسك بظاهر هذه الآية، وعدة الحامل بوضع الحمل سواء فيه الحرة والأمة، ولو وضعت بعد وفاة زوجها بلحظة حل لها أن تتزوج، ويدل

قوله تعالى: ﴿ والذين يُتوفَّونَ منكم ﴾، أي: يموتون ويتوفّى آجالهم، وتوفي واستوفى بمعنى واحد، ومعنى التوفّي: أخذ الشيء وافياً، ﴿ ويذرون أزواجاً ﴾: يتركون أزواجاً، ﴿ يتربصن ﴾: ينتظرن، ﴿ بأنفسهنّ أربعة أشهر وعشراً ﴾، أي: يعتدون بترك الزينة والطيب والنقلة على فراق أزواجهنّ هذه المدة، إلا أن يكنّ حوامل فعدّتهنّ بوضع الحمل، وكانت عدّة الوفاة في الابتداء حولاً كاملاً لقوله تعالى: ﴿ والذين يُتوفّون منكم ويذرون أزواجاً وصيّة لأزواجهم متاعاً إلى الحول غير إخراج ﴾ [البقرة: ٢٤٠]، ثم نُسخت بأربعة أشهر وعشراً، وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد: كانت هذه العدّة يعني أربعة أشهر وعشراً واجبة عند أهل زوجها، فأنزل الله تعالى متاعاً إلى الحول فجعل لها تمام السنة سبعة أشهر وعشرين ليلة وصيّة إن شاءت سكنت في وصيتها وإن شاءت خرجت وهو قول الله عزّ وجلّ: ﴿ غير إخراج فإن خرجن فلا جُناح عليكم فيما فعلن ﴾ [البقرة: ٢٤٠]، كالعدّة كما هي واجبة عليها، وقال عطاء قال ابن عباس رضي الله عنهما: نُسخت هذه الآية عدّتَها عند أهلها، وسكنت في وصيّتها، وإن شاء خرجت، قال عطاء: ثم جاء الميراث فنسخ السكنى، فتعتدّ حيث شاءت ولا سكنى لها، ويجب عليها الإحداد في عدّة الوفاة، وهي أن تمنع من الزينة والطيب، فلا يجوز لها تدهين رأسها بأيّ دهن سواء كان في طيب أو لم يكن، ولها تدهينُ جسدها بدهن لا طيب فيه، فإن كان فيه طيب فلا يجوز، ولا يجوز لها أن تكتحل بكحل فيه طيب أو فيه زينة كالكحل الأسود، ولا بأس بالكحل الفارسي الذي لا زينة فيه، فإن اضطرت إلى كحل فيه زينة فقد رخص فيه كثيرٌ من أهل العلم، منهم سالم بن عبد الله وسليمان بن يسار، وعطاء والنخعي وبه قال مالك وأصحاب

على هذا ما روي عن سبيعة الأسلمية أنها كانت تحت سعد بن خولة وهو من بني عامر بن لؤي، وكان ممن شهد بدراً، فتوفي عنها في حجة الوداع وهي حامل، فلم تلبث أن وضعت حملها بعد وفاته، فلما تعلت من نفاسها تجملت للخطاب فدخل عليها أبو السنابل بن بعكك رجل من بني عبد الدار فقال: ما لي أراك تجملت للخطاب لعلك ترجين النكاح وإنك والله ما أنت بناكح حتى تمر عليك أربعة أشهر وعشر. قالت سبيعة: فلما قال لي ذلك جمعت عليَّ ثيابي حين أمسيت وأتيت رسول الله ﷺ فسألته عن ذلك فأفتاني بأني قد حللت حين وضعت حملي وأمرني بالتزويج إن بدا لي، أخرجاه في الصحيحين، وفيه قال ابن شهاب: ولا أرى بأساً أن تتزوج حين وضعت وإن كانت في دمها غير أنه لا يقربها حتى تطهر، فعلى هذا حكم الآية عام في كل من توفي عنها زوجها بأن تعتد أربعة أشهر وعشراً، ثم خصص من هذا العموم أولات الأحمال بهذا الحديث وبقوله تعالى: ﴿**وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن**﴾.

المسألة الثانية: يجب على من توفي عنها زوجها الإحداد، وهو ترك الزينة والطيب ودهن الرأس بكل دهن والكحل المطيب، فإن اضطرت إلى كحل فيه زينة فيرخص لها، وبه قال مالك وأبو حنيفة. وقال الشافعي: تكتحل به بالليل وتمسحه بالنهار. عن أم سلمة قالت: «دخل عليّ رسول الله ﷺ حين توفي أبو سلمة وقد جعلت عليّ صبراً فقال: ما هذا يا أم سلمة؟ قلت: إنما هو صبر يا رسول الله ليس فيه طيب، فقال: إنه يشب الوجه فلا تجعليه إلاّ بالليل وتنزعيه بالنهار ولا تمتشطي بالطيب ولا بالحناء فإنه خضاب. قلت: بأي شيء أمتشط يا رسول الله؟ قال: بالسدر تغلفين به رأسك» أخرجه أبو داود وللنسائي نحوه. قوله «فإنه يشب الوجه» أي يوقده ويحسنه وبنوره من شب النار إذا أوقدها. قوله «تغلفين به رأسك» أي تلطخين به رأسك والتغلف هو الغمرة على وجه المرأة وكذا رأسها إذا لطخته بشيء فأكثرت منه. ولا يجوز لها لبس الديباج والحرير والحلي والمصبوغ للزينة كالأحمر والأصفر ويجوز لها لبس ما صبغ لغير الزينة كالأسود والأزرق، ويجوز لها أن تلبس البياض من الثياب والصوف والوبر (ق) عن زينب بنت أبي سلمة قالت: دخلت على أم حبيبة زوج النبي ﷺ حين توفي أبوها أبو سفيان بن حرب فدعت أم حبيبة بطيب فيه صفرة خلوق أو غيره فدهنت به جارية ثم مست بعارضيها ثم قالت:

الرأي، وقال الشافعي رحمه الله تكتحل به ليلاً وتمسحه بالنهار، قالت أم سلمة: دخل عليّ رسول الله ﷺ حين تُوفّي أبو سلمة وقد جعلت على وجهي صَبِراً فقال: «إنه يَشُبُّ الوجه فلا تجعليه إلاّ بالليل وتنزعيه بالنهار»، ولا يجوز لها الخضاب ولا لبس الوشي والديباج والحلي، ويجوز لها لبس البيض من الثياب ولبس الثوب والوبر، ولا تلبس الصوف المصبوغ للزينة كالأحمر والأخضر الناضر والأصفر، ويجوز ما صُبغ لغير زينة كالسواد والكحلي، وقال سفيان: لا تلبس المصبوغ بحال، أخبرنا أبو الحسن السرخسي، أنا زاهر بن أحمد أنا أبو إسحاق الهاشمي، أنا أبو مُصْعب عن مالك عن عبد الله بن أبي بكر محمد بن عمر بن حزم، عن حميد بن نافع عن زينب بنت أبي سلمة أنها أخبرتْه بهذه الأحاديث الثلاثة، قالت زينب: دخلت على أُم حبيبة زوج النبي ﷺ حين تُوفّي أبوها أبو سفيان بن حرب فدعت أُمُّ حبيبة بطيب في صُفرة خلوق أو غيره فدهنت به جارية ثم مسَّتْ به بطنها، ثم قالت: والله ما لي بالطيب من حاجة غير أنّي سمعتُ رسول الله ﷺ يقول على المنبر: «لا يحلّ لامرأة أن تَحِدَّ على ميتٍ فوقَ ثلاثِ ليالٍ إلاّ على زوجٍ أربعةَ أشهرٍ وعشراً»، وقالت زينب: ثم دخلت على زينب بنت جحش حين توفي أخوها عبد الله فدعت بطيب فمسَّت به، ثم قالت: والله ما لي بالطيب من حاجة غير أنّي سمعت رسول الله ﷺ يقول على المنبر: «لا يحلّ لامرأة تؤمن بالله أن تحِدَّ على ميت فوق ثلاث ليالٍ إلاّ على زوج أربعة أشهر وعشراً، قالت زينب: وسمعت أُمي أُمَّ سلمة تقول: جاءت امرأة إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله إن ابنتي توفي عنها زوجها وقد

والله ما لي بالطيب من حاجة غير أني سمعت رسول الله ﷺ يقول على المنبر: «لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تحدَّ على ميت فوق ثلاث إلاّ على زوج أربعة أشهر وعشراً» قالت زينب: ثم دخلت على زينب بنت جحش حين توفي أخوها فدعت بطيب فمست منه ثم قالت: والله ما لي بالطيب من حاجة غير أني سمعت رسول الله ﷺ يقول على المنبر: «لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تحدّ على ميت فوق ثلاث إلاّ على زوج أربعة أشهر وعشراً» (م) عن عائشة أن النبي ﷺ قال: «لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تحد على ميت فوق ثلاث إلاّ على زوجها أربعة أشهر وعشراً» (ق) عن أم عطية قالت: «كنا ننهى أن نحد على ميت فوق ثلاث إلاّ على زوج أربعة أشهر وعشراً ولا نكتحل ولا نتطيب ولا نلبس ثوباً مصبوغاً إلاّ ثوب عصب وقد رخص لنا عند الطهر إذا اغتسلت إحدانا من حيضتها في نبذة من كست أظفار». قولها: إلاّ ثوب عصب العصب بالعين والصاد المهملتين من البرود الذي صبغ غزله قبل النسج. قولها: نبذة من كست. النبذة الشيء اليسير. والكست لغة في القسط وهو شيء معروف يتبخر به. عن أم سلمة قالت: قال رسول الله ﷺ: «لا تلبس المتوفى عنها زوجها المعصفرة من الثياب ولا الممشقة ولا الحلي ولا تختضب ولا تكتحل ولا تطيب» أخرجه أبو داود. قولها: ولا الممشقة الثياب. الممشقة هي المصبوغة بالمشق وهي المغرة، عن نافع: «أن صفية بنت عبدالله اشتكت عينها وهي حادٌّ على زوجها ابن عمر فلم تكتحل حتى كادت عيناها ترمضان» أخرجه مالك في الموطأ.

المسألة الثالثة: اختلفوا في أن هذه المدة سببها الوفاة أو العلم بالوفاة، فقال بعضهم: ما لم تعلم بوفاة زوجها لا تعتد بانقضاء الأيام في العدة، واحتجوا على ذلك بأن الله تعالى قال: ﴿**يتربصن بأنفسهن**﴾ وذلك لا يحل إلاّ بالقصد إلى التربص ولا يحل ذلك إلاّ مع العلم. قال الجمهور: السبب هو الموت فلو انقضت المدة أو أكثرها أو بعضها ثم بلغها خبر موت الزوج وجب أن تعتد بما انقضى ويدل على ذلك أن الصغيرة التي لا علم لها يكفي في انقضاء عدتها هذه المدة.

المسألة الرابعة: أجمع العلماء على أن هذه الآية ناسخة لما بعدها من الاعتداد بالحول وإن كانت هذه الآية متقدمة في التلاوة وسنذكر تمام الكلام عليه بعد في موضعه إن شاء الله تعالى، والله أعلم. وقوله تعالى: ﴿فإذا

اشتكتّ عينها أفتكحلها؟ فقال رسول الله ﷺ: «لا»، ثم قال: «إنما هي أربعة أشهر وعشراً، وقد كانت إحداكنّ في الجاهلية ترمي بالبعرة على رأس الحول»، قال حميد: فقلت لزينب: وما ترمي بالبعرة على رأس الحول؟ فقالت زينب: كانت المرأة إذا توفي عنها زوجها دخلت خفشاً ولبست شرَّ ثيابها، ولم تمسّ طيباً ولا شيئاً حتى يمرّ بها سنة، ثم تُؤتى بدابّة حماراً أو شاةً أو طيراً فتفتضّ به، فقلّما تفتضّ بشيء إلا مات، ثم تخرج فتُعطي بعرة فترمي بها، ثم تُراجع بعد ذلك ما شاءت من طيب أو غيره، وقال مالك: تفتضّ أي: تنسلخ جلدها، وقال سعيد بن المسيب: الحكمة في هذه المدة أن فيها ينفخ الروح في الولد، ويقال: إن الولد يرتكض، أي: يتحرّك في البطن لنصف مدة الحمل أربعة أشهر وعشراً قريباً من نصف مدة الحمل، وإنما قال عشراً بلفظ المؤنث لأنه أراد الليالي، لأن العرب إذا أبهمت العدد بين الليالي والأيام غلّبت عليها الليالي، فيقولون صمنا عشراً، والصوم لا يكون إلاّ بالنهار، وقال المبرّد: إنّما أنّث العشر لأنه أراد المدة، أي: عشر مدد، كل مدة يومٌ وليلة، وإذا كان المتوفى عنها زوجها حاملاً فعدّتها بوضع الحمل عند أكثر أهل العلم من الصحابة فمن بعدهم، رُوِيَ عن علي وابن عباس رضي الله عنهم: أنها تنتظر آخر الأجلين من وضع الحمل أو أربعة أشهر وعشراً، وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: أنزلت سورة النساء القُصْرَى بعد الطُّوْلَى، أراد بالقصرى في قوله: ﴿ وأُولاتُ الأحمال أجلهنّ أنْ يضعن حملهنّ ﴾ [الطلاق: ٤]، نزلت بعد قوله تعالى: ﴿ يتربصن بأنفسهنّ أربعة أشهر وعشراً ﴾، في سورة البقرة فحمل على

بلغن أجلهن﴾ أي انقضت عدتهن ﴿فلا جناح عليكم﴾ خطاب للأولياء لأنهم هم الذين يتولون العقد ﴿فيما فعلن في أنفسهن بالمعروف﴾ يعني من التزين والتطيب والنقلة من المسكن الذي كانت معتدة فيه ونكاح من يجوز لها نكاحه وقيل إنما عنى بذلك النكاح خاصة، وقيل معنى قوله: ﴿بالمعروف﴾ هو النكاح الحلال الطيب. واحتج أصحاب أبي حنيفة على جواز النكاح بغير ولي بهذه الآية لأن إضافة الفعل إلى الفاعل محمول على المباشرة، وأجاب أصحاب الشافعي أن قوله تعالى: ﴿فلا جناح عليكم﴾ للأولياء ولو صح العقد بغير ولي لما كان مخاطباً. وأجيب على قوله فيما فعلن في أنفسهن إنما هو التزين والتطيب بعد انقضاء العدة لا أنها تزوج نفسها ﴿والله بما تعملون خبير﴾ يعني أنه تعالى لا يخفى عليه خافية. والخبير في صفة الله تعالى هو العالم بكنه الشيء وحقيقته من غير شك والخبير في صفة المخلوقين إنما يستعمل في نوع من العلم وهو الذي يتوصل إليه بالاجتهاد والفكر، والله تعالى منزه عن ذلك كله. قوله عز وجل:

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُوا۟ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۚ وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٣٥﴾﴾

﴿ولا جناح﴾ أي لا حرج ﴿عليكم فيما عرضتم به﴾ أي لوحتم وأشرتم به والتعريض ضد التصريح ومعناه أن يضمن كلامه ما يصلح للدلالة على مقصوده ويصلح للدلالة على غير مقصوده ولكن إشعاره بجانب المقصود أتم وأرجح وقيل هو الإشارة إلى الشيء بما يفهم السامع مقصوده من غير تصريح به وقيل التعريض من الكلام ما له ظاهر وباطن ﴿من خطبة النساء﴾ يعني المعتدات في عدتهن والخطبة بالكسر طلب النكاح والتماسه وقيل هو ذكر النساء والخطبة بالضم كلام منظوم له أول وآخر، ومعنى الآية فيما عرضتم به من ذكر النساء عندهن. والتعريض

النسخ، وعامّة الفقهاء خصّوا الآية بحديث سُبيعة وهو ما أخبرنا أبو الحسن السرخسي، أخبرنا زاهر بن أحمد أنا أبو إسحق الهاشمي، أنا أبو مُصْعب عن مالك عن هشام بن عروة عن أبيه عن المسور بن مخرمة أن سُبَيعة نَفِسَتْ بعد وفاة زوجها بليالٍ فجاءت إلى رسول الله ﷺ فاستأذنته أن تُنكح، فأذن لها، فنكحت. قوله تعالى: ﴿ فإذا بلغنَ أجلهنّ ﴾، أي: انقضت عدّتهنّ ﴿ فلا جُناحَ عليكم ﴾، خطاب للأولياء، ﴿ فيما فعلن في أنفسهنّ ﴾، أي: من اختيار الأزواج دون العقد إلى الولي، وقيل: فيما فعلن من التزيّن للرجال زينة لا يشكرها الشرع، ﴿ بالمعروف، والله بما تعملون خبير ﴾، والإحدادُ واجب على المرأة في عدّة الوفاة، أمّا المعتدّة عن الطلاق ففيها نظر، فإن كانت رجعيّة لا إحداد عليها في العدّة، لأن لها أن تضع ما يُشوّق قلب الزوج إليها ليُراجعها، وفي البائنة بالخلع والطلقات الثلاث قولان، أحدهما: الإحداد كالمتوفى عنها زوجها، وهو قول سعيد بن المسيب، وبه قال أبو حنيفة، والثاني: لا إحداد عليها، وهو قول عطاء، وبه قال مالك.

قوله تعالى: ﴿ ولا جُناح عليكم فيما عرّضتم به من خِطبة النساء ﴾، أي: النساء المُعتَدّات، وأصل التعريض: هو التلويح بالشيء، والتعريض في الكلام بما يفهم به السامع مرادَه من غير تصريح، والتعريض بالخِطبة مُباح في العدّة، وهو أن يقول: رُبَّ راغبٍ فيك، من يجد مثلك، إنك لجميلة، وإنك لصالحة، وإنك عليّ لكريمة، وإني فيك لراغب، وإنّ من غرضي أن أتزوج بك، وأن جمع الله بيني وبينك بالحلال، أعجبتني، ولئن تزوّجتُك لأُحسن إليك، ونحو ذلك من الكلام من غير أن يقول أنكحيني، والمرأة تجيبه بمثله إن رغبتْ فيه، وقال إبراهيم: لا بأس أن يهدي إليها ويقوم بشغلها في العدّة إذا كانت ﴿ر شابّة، رُوِيَ أن سكينة بنت حنظلة بانت من

بالخطبة في العدة مباح وهو أن يقول: إنك لجميلة، وإنك لصالحة وإن غرضي التزويج وإني فيك لراغب وعسى الله أن ييسر لي امرأة صالحة ونحو ذلك، من الكلام الموهم من غير تصريح لأن يقول إني أريد أن أنكحك أو أتزوجك ونحو ذلك ويدل على صحة هذا التأويل ما روي عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿**فيما عرضتم به من خطبة النساء**﴾ هو أن يقول: إني أريد التزويج، وإن النساء لمن حاجتي، ولوددت أن تيسر لي امرأة صالحة، أخرجه البخاري. وروي أن سكينة بنت حنظلة تأيمت فدخل عليها أبو جعفر محمد بن علي الباقر في عدتها فقال: قد علمت قرابتي من رسول الله ﷺ وحق جدي عليّ وقدمي في الإسلام. فقالت سكينة: غفر الله لك أتخطبني في العدة وأنت يؤخذ عنك؟ فقال: إنما أخبرتك بقرابتي من رسول الله ﷺ قد دخل رسول الله ﷺ على أم سلمة وهي في عدة زوجها أبي سلمة فذكر لها منزلته من الله عز وجل وهو متحامل على يده حتى أثر الحصير في يده ﷺ من شدة تحامله عليها فما كانت تلك خطبة ﴿**أو أكننتم**﴾ يعني أضمرتم ﴿**في أنفسكم**﴾ يعني من نكاحهن وقيل هو أن يدخل ويسلم ويهدي إن شاء ولا يتكلم بشيء، والمقصود أنه لا حرج عليكم في التعريض للمرأة في عدة الوفاة، ولا فيما يضمر الرجل في نفسه من الرغبة فيها ﴿**علم الله أنكم ستذكرونهن**﴾ يعني بقلوبكم لأن شهوة النفس والتمني لا يخلو منه أحد، فلما كان هذا الخاطر كالشيء الشاق أسقط عنه الحرج ﴿**ولكن لا تواعدوهن سراً**﴾ اختلفوا في معنى هذا السر المنهيّ عنه فقيل هو الزنا كان الرجل يدخل على المرأة يعرض بالنكاح ومراده الزنا ويقول لها: دعيني فإذا وفيت عدتك أظهرت نكاحك، فنهوا عن ذلك. وقيل هو قول بالرجل للمرأة لا تفوتيني نفسك فإني ناكحك. وقيل: هو أن يأخذ عليها العهد والميثاق أن لا تتزوج غيره وقيل هو أن يخطبها في العدة وقال الشافعي: السر الجماع، وهو رواية عن ابن عباس. قال الكلبي: لا تصفوا أنفسكم لهن بكثرة الجماع، ويدل على

زوجها فدخلِ عليها أبو جعفر محمد بن علي الباقر في عدّتها وقال: يا بنت حنظلة أنا مَنْ قدْ علمتِ قرابتي من رسول الله ﷺ وحقّ جدّي عليّ وقِدَمي في الإسلام! فقالت سكينة: أتخطبني وأنا في العدّة وأنت يُؤخذ عنك؟ فقال إنما أخبرتك بقرابتي من رسول الله ﷺ، قد دخل رسول الله ﷺ على أم سلمة وهي في عدّة زوجها أبي سلمة، فذكر لها منزلَته من الله عزّ وجلّ وهو متحامل على يده، حتى أثّر الحصير في يده من شدّة تحامله علي يده، والتعريض بالخطبة جائز في عِدّة الوفاة، أما المعتدّة عن فرقة الحياة يُنظر إن كانت ممّن لا يحلّ لِمَن بانت من نكاحها كالمطلقة ثلاثاً، والمُبانَةُ باللّعان والرضاع، فإنه يجوز خطبتها تعريضاً، وإن كانت ممّن يحلّ للزوج نكاحها كالمُختلعة والمفسوخ نكاحها، يجوز لزوجها خطبتها تعريضاً وتصريحاً، وهل يجوز للغير تعريضاً؟ فيه قولان، أحدهما: يجوز كالمطلقة ثلاثاً، والثاني: لا يجوز لأن المعاودة ثابتة لصاحب العدّة كالرجعية لا يجوز للغير تعريضاً بالخطبة، وهو قوله تعالى: ﴿ **من خطبة النساء** ﴾ التماس النكاح وهي مصدر خَطَبَ الرجلُ المرأةَ يَخْطِبُ خِطْبة، وقال الأخفش: الخِطبة الذكر والخُطبة التشهّد، فيكون معناه فيما عرضتم به من ذكر النساء عندهنّ ﴿ **أو أكننتم** ﴾: أضمرتم، ﴿ **في أنفسكم** ﴾، من نكاحهنّ، يقال: أكننتُ الشيءَ وكننتُه لغتان، وقال ثعلب: أكننتُ الشيء، أي: أخفيته في نفسي وكننتُه سترتُه، قال السدي: هو أن يدخل فيُسلِّم ويهدي إن شاء ولا يتكلم بشيء، ﴿ **علم الله أنكم ستذكرونهنّ** ﴾: بقلوبكم، ﴿ **ولكن لا تُواعدوهنّ سِرّاً** ﴾، اختلفوا في السرّ المنهي عنه، فقال قوم: هو الزنا، كان الرجل يدخل على المرأة من أجل الزينة وهو يعرض بالنكاح، ويقول لها: دعيني فإذا وَفيتِ عِدّتَك أظهرتُ نكاحَك، هذا قول الحسن وقتادة وإبراهيم وعطاء، ورواية عطية عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال زيد بن أسلم: أي لا ينكحها سـراً فيمسكها فإذا حلّتْ أظهر ذلك، وقال مجاهد: هو قول الرجل لا تفوتيني بنفسك فإني ناكِحُك، وقال الشعبي والسدي: لا يُؤخذ ميثاقُها أن لا تنكح غيره، وقال عكرمة: لا ينكحها ولا يخطبها في العدّة، قال الشافعي: السرّ هو

أن لفظ السر كناية عن الجماع قول امرىء القيس:

ألا زعمـــت بسبـــاســـة اليـــوم أننـــي كبـــرت وألا يحســـن الســـر أمثـــالـــي

بسباسة اسم امرأة. وإنما وقع الكناية عن الجماع بالسر لأنه مما يسر والله تعالى حييّ كريم فكنى به عن لفظ الجماع الصريح. ومعنى الآية: لا تواعدوهن مواعدة سرية أو لا تواعدوهن بالشيء الموصوف بالسرّ وقيل في معنى الآية أن الله تعالى أن أذن في أول الآية في التعريض بالخطبة ومنع في آخرها عن التصريح بالخطبة ﴿**إلاّ أن تقولوا قولاً معروفاً**﴾ يعني هو ما ذكر من التعريض بالخطبة. وقيل: هو إعلام ولي المرأة أنه راغب في نكاحها ﴿**ولا تعزموا عقدة النكاح حتى يبلغ الكتاب أجله**﴾ أي لا تحققوا العزم على عقدة النكاح في العدة حتى تنقضي وإنما سماها الله كتاباً لأنها فرضت به ﴿**واعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه**﴾ أي فخافوه ﴿**واعلموا أن الله غفور حليم**﴾ لا يعجل بالعقوبة على من جاهره بالمعصية بل يستر عليه. قوله عز وجل: .

لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا۟ لَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَـٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾

﴿**لا جناح عليكم إن طلقتم النساء ما لم تمسوهن أو تفرضوا لهن فريضة**﴾ أي ولم تمسوهن ولم تفرضوا لهن فريضة يعني ولم تعينوا لهن صداقاً ولم توجبوه عليكم. نزلت في رجل من الأنصار تزوج امرأة من بني حنيفة ولم يسم لها صداقاً، ثم طلقها قبل أن يمسها، فنزلت هذه الآية فقال له رسول الله ﷺ: أمتعها ولو بقلنسوتك. فإن قلت: هل على من طلق امرأته جناح بعد المسيس حتى يوضع عنه الجناح قبل المسيس فما وجه نفي الحرج والجناح عنه؟ قلت، فيه سبب قطع الوصلة: وما جاء في الحديث: «إن أبغض الحلال إلى الله الطلاق» فنفى الله

الجماع، وقال الكلبي: أي لا تصفوا أنفسكم لهنّ بكثرة الجماع، فيقول: آتيتك الأربعة والخمسة، وأشباه ذلك، ويُذكر السرُّ ويُراد به الجماع، قال امرُؤُ القيس:

ألا زعمتِ بسبـاسـة القـوم أنني كبـرت وألاّ يُحسن السـرَّ أمثـالي

وإنما قيل للزنا والجماع: سرّاً لأنه لا يكون في خفاء بين الرجل والمرأة، قوله تعالى: ﴿ **إلاّ أن تقولوا قولاً معروفاً** ﴾، هو ما ذكرنا من التعريض بالخِطبة. قوله تعالى: ﴿ **ولا تَعْزِموا عُقدةَ النّكاحِ حتى يَبلغ الكتابُ أجله** ﴾، أي: لا تُحققوا العزم على عقد النكاح في العدّة حتى يبلغ الكتابُ أجله، أي: حتى تنقضي العدّة، وسمّاها الله: كتاباً، لأنها فرض من الله، كقوله تعالى: ﴿ **كُتِبَ عليكم** ﴾ [البقرة: ١٧٨ و١٨٠ و١٨٣ و٢١٦ و٢٤٦] أي: فُرض عليكم، ﴿ **واعلموا أنّ الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه** ﴾، أي: فخافوا الله، ﴿ **واعلموا أنّ الله غفورٌ حليم** ﴾، لا يعجّل بالعقوبة.

وقوله تعالى: ﴿ **لا جُناح عليكم إن طلّقتُم النّساءَ ما لم تمسُّوهنّ أو تَفْرِضُوا لَهنّ فريضة** ﴾، أي: ولم تمسوهنّ ولم تفرضوا، نزلت في رجل من الأنصار تزوج امرأةً من بني حنيفة ولم يُسمِّ لها مهراً، ثم طلقها قبل أن يَمسَّها، فَنزلتْ هذه الآية، فقال له رسول الله ﷺ: «متّعها ولو بقلنسوتك»، قرأ حمزة والكسائي (ما لم تماسوهنّ)، بالألف ههنا وفي الأحزاب على المفاعلة، لأنّ بَدَنَ كل واحد منهما يُلاقي بدنَ صاحبه، كما قال الله تعالى: ﴿ من قبلِ أن يتماسّا ﴾ [المجادلة: ٣ و٤]، وقرأ الباقون ﴿ تمسوهنّ ﴾ بلا ألف، لأن الغشيان يكون من فعل الرجل، دليله قوله تعالى: ﴿ ولم يمسسني بشر ﴾ [آل عمران: ٤٧، مريم: ٢٠]، أو تفرضوا لهنّ فريضة، أي: تُوجبوا لهنّ

الجناح عنه إذا كان الفراق أروح من الإمساك، وقيل معناه لا حرج عليكم في تطليقهن قبل المسيس في أي وقت شئتم حائضاً كانت المرأة أو طاهراً، لأنه لا سنة في طلاقهن قبل الدخول ﴿ومتعوهن﴾ أي أعطوهن من مالكم ما يتمتعن به والمتعة والمتاع ما يتبلغ به من الزاد ﴿على الموسع﴾ أي الغنى الذي يكون في سعة من غناه ﴿قدره﴾ أي قدر إمكانه وطاقته ﴿وعلى المقتر﴾ أي الفقير الذي هو في ضيق من فقره ﴿قدره﴾ أي قدر إمكانه وطاقته ﴿متاعاً بالمعروف﴾ يعني متعوهن تمتيعاً بالمعروف يعني من غير ظلم ولا حيف ﴿حقاً﴾ أي حق ذلك التمتع حقاً واجباً لازماً ﴿على المحسنين﴾ يعني إلى المطلقات بالتمتع، وإنما خص المحسنين بالذكر لأنهم الذين ينتفعون بهذا البيان. وقيل: معناه من أراد أن يكون من المحسنين، فهذا شأنه وطريقه. والمحسن هو المؤمن.

فصل: في بيان حكم الآية وفيه فروع

الفرع الأول: إذا تزوج امرأة ولم يفرض لها مهراً ثم طلقها قبل المسيس يجب لها عليه المتعة، وبه قال الشافعي وأبو حنيفة وأحمد. وقال مالك: المتعة مستحبة ولو طلقها قبل الدخول، وقد فرض لها مهراً وجب لها عليه نصف المهر المفروض ولا متعة لها عليه.

صداقاً، فإن قيل: فما الوجه في نفي الجُناح على المطلِّق؟ قيل: الطلاق قطع سبب الوصلة، وجاء في الحديث «أبغض الحلال إلى الله تعالى الطلاق»، فنفي الجُناح عنه إذا كان الفراق أروح من الإمساك، وقيل: معناه لا سبيل للنساء عليكم إن طلقتموهنّ من قبل المسيس، والفرض بصداق ولا نفقة، وقيل: لا جُناح عليكم في تطليقهنّ قبل المسيس في أيّ وقت شئتم حائضاً كانت المرأة أو طاهراً لأنه لا سُنّةَ ولا بدعة في طلاقهنّ قبل الدخول بها، بخلاف المدخول بها، فإنه لا يجوز تطليقها في حال الحيض، ﴿ ومتعوهنّ ﴾، أي: أعطوهنّ من مالكم ما يتمتعنّ به، والمتعة والمتاع: ما يُتبلّغ به من الزاد، ﴿ على المُوسِعِ ﴾، أي: على الغني، ﴿ قَدَرُهُ وعلى المُقْتِرِ ﴾، أي: الفقير، ﴿ قَدَرُهُ ﴾، أي: إمكانُه وطاقتُه، قرأ أبو جعفر وابن عامر وحمزة والكسائي وحفص ﴿ قدره ﴾ بفتح الدال فيهما، وقرأ الآخرون بسكونهما، وهما لغتان، وقيل: القدْر بسكون الدال: المصدر، وبالفتح: الاسم، ﴿ متاعاً ﴾ نُصب على المصدر، أي: متعوهنّ، ﴿ متاعاً بالمعروف ﴾، أي بما أمركم الله به من غير ظلم، ﴿ حَقّاً على المُحسنين ﴾، وبيان حكم الآية: أنّ مَن تزوج امرأة ولم يفرض لها مهراً، ثم طلقها قبل المسيس يجب عليه المتعة بالاتفاق، وإن طلقها بعد الفرض قبل المسيس فلا متعة لها، على قول الأكثرين، ولها نصف المهر المفروض، واختلفوا في المطلقة بعد الدخول بها فذهبت جماعة إلى أنها لا متعة لها، لأنها تستحق المهر، وهو قول أصحاب الرأي، وذهب جماعة إلى أنها تستحق المتعة لقوله تعالى: ﴿ وللمطلّقات متاعٌ بالمعروف ﴾ [البقرة: ٢٤١] وهو قول عبد الله بن عمر، وبه قال عطاء ومجاهد والقاسم بن محمد وإليه ذهب الشافعي، لأن استحقاقَها المهرُ بمقابلة ما أتلف عليها من منفعة البضع، فلها المتعة على وحشة الفراق، فعلى هذا القول لا متعة إلّا لواحدة، وهي المطلقة قبل الفرض والمسيس، وعلى القول الثاني: لكل مطلقة متعة إلّا لواحدة وهي المطلقة بعد الفرض قبل المسيس، قال عبد الله بن عمر: لكل مطلقة متعة إلّا التي فُرض لها ولم يمسّها زوجها، فحسبها نصفُ المهر، قال الزهري: متعتان يقضي بإحداهما السلطان ولا يقضي بالأخرى، بل يلزمه فيما بينه وبين الله تعالى، فأمّا التي يقضي بها السلطان فهي المطلقة قبل الفرض والمسيس، وهو قوله تعالى: ﴿ حقاً على المحسنين ﴾، والتي تلزمه فيما بينه وبين الله تعالى ولا يقضي بها السلطان، فهي المطلقة بعد المسيس، وهو قوله تعالى: ﴿ حقاً على المتّقين ﴾ [البقرة: ٢٤١]، وذهب الحسن وسعيد بن جبير إلى أن لكل مطلقة متعة سواء كان قبل الفرض والمسيس أو بعد

الفرع الثاني المطلقة المدخول بها: فيها قولان قال في القديم: لا متعة لها لأنها تستحق المهر كاملاً، وبه قال أبو حنيفة، وهو إحدى الروايتين عن أحمد. وقال في الجديد: لها المتعة لقوله تعالى: ﴿**وللمطلقات متاع بالمعروف**﴾ وهو الرواية الأخرى عن أحمد قال ابن عمر: لكل مطلقة متعة إلّا التي فرض لها المهر ولم يدخل بها زوجها فحسبها نصف المهر.

الفرع الثالث في قدر المتعة: قال ابن عباس: أعلاها خادم، وأوسطها ثلاثة أثواب درع وخمار وإزار، وأقلها دون ذلك وقاية أو مقنعة أو شيء من الورق وهو مذهب الشافعي لأنه قال أعلاها على الموسع خادم وأوسطها ثوب وأقلها ما له ثمن وحسن ثلاثون درهماً. وروي أن عبدالرحمن بن عوف طلق امرأته وحممها، يعني متعها جارية سوداء، ومتع الحسن بن علي زوجته بعشرة آلاف درهم فقالت. متاع قليل من حبيب مفارق. وقال أبو حنيفة: مبلغها إذا اختلف الزوجان قدر نصف مهر مثلها لا يجاوز وقال أحمد في إحدى الروايتين عنه تتقدر بما تجزي فيه الصلاة وقال في الرواية الأخرى تتقدر بتقدير الحاكم، والآية تدل على أن المتعة تعتبر بحال الزوج في اليسر والعسر وأنه مفوض إلى الاجتهاد لأنها كالنفقة التي أوجبها الله تعالى للزوجات، وبين أن حال الموسر مخالف حال المعسر في ذلك.

الفرع الرابع: ومن حكم الآية أن من تزوج امرأة بالغة برضاها على غير مهر صح النكاح، ولها مطالبته بأن

الفرض قبل المسيس، لقوله تعالى: ﴿ وللمطلقات متاع بالمعروف ﴾ [البقرة: ٢٤١]، ولقوله تعالى في سورة الأحزاب: ﴿ فمتّعوهنّ وسرِّحُوهنّ سراحاً جميلاً ﴾ [الأحزاب: ٤٩]، وقالا: معنى قوله تعالى: ﴿ **لا جناح عليكم إن طلقتم النساء ما لم تمسوهنّ وقد فرضتم لهنّ فريضة** ﴾، أي: أوَ لم تفرضوا لهنّ فريضة، وقال بعضهم: المتعة غير واجبة والأمر بها أمر ندب واستحباب، رُوِيَ أن رجلاً طلّق امرأته وقد دخل بها فخاصمتْه إلى شُريح في المتعة فقال شريح: لا تأبَ أن تكون من المحسنين ولا تأبَ أن تكون من المتقين، ولم يجبره على ذلك، واختلفوا في قدر المتعة، فرُوِيَ عن ابن عباس: أعلاها خادم، وأوسطها ثلاثة أثواب: دِرْعٌ وخِمارٌ وإزار، ودون ذلك وقاية، أو شيء من الوَرِق، وبه قال الشعبي والزهري وهذا مذهب الشافعي، قال: أعلاها على المُوسع: خادم، وأوسطها: ثوب، وأقلّها: ما لَهُ ثمنٌ حسن ثلاثون درهماً، وطلّق عبد الرحمن بن عوف امرأته وجمعها جارية سوداء، أي: متّعها، ومتّع الحسن بن علي رضي الله عنه امرأةً له بعشرة آلاف درهم، فقالت: متاع قليل من حبيب مفارق، وقال أبو حنيفة رحمه الله: مبلغها إذا اختلف الزوجان قدر نصف مهر مثلها لا يجاوز، والآية تدلّ على أنه يُعتبر حال الزوج في العُسر واليُسر، ومن حكم الآية أن مَن تزوّج امرأة بالغة برضاها على غير مهر يصحّ النكاح، وللمرأة مطالبته بأن يفرض لها صداقاً، فإن دخل بها قبل الفَرْض فلها عليه مهرُ مثلها، وإن طلّقها قبل الفرض والدخول فلها المتعة، وإن مات أحدهما قبل الفرض والدخول، فاختلف أهل العلم في أنها هل تستحق المهر أم لا؟ فذهب جماعة إلى أنه لا مهر لها، وهو قول علي وزيد بن ثابت وعبد الله بن عمر وعبد الله بن عباس، كما لو طلّقها قبل الفرض والدخول، وذهب قوم إلى أن لها المهر لأن الموت كالدخول في تقرير المسمّى، كذلك في إيجاب مهر المثل إذا لم يكن في العقد مسمّىً، وهو قول الثّوري وأصحاب الرأي واحتجّوا بما رُوِيَ عن علقمة عن ابن مسعود أنه سُئِلَ عن رجل تزوج امرأة ولم يفرض لها صداقاً ولم يدخل بها حتى مات، فقال ابن مسعود: لها صداق نسائها ولا وَكْسَ ولا شَطَطَ، وعليها العدّة ولها الميراث، فقام معقل بن يسار الأشجعي فقال: قضى رسول الله ﷺ في بردع بنت واشق امرأة منّا مثلَ ما قضيتَ ففرح بها ابن مسعود رضي الله عنه، وقال الشافعي رحمه الله: فإن ثبت حديث بردع

يفرض لها صداقاً، فإن دخل بها قبل الفرض فلها عليه مهر مثلها وإن طلقها قبل الفرض والدخول فلها المتعة.

قوله عز وجل: .

﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾﴾

﴿وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن﴾ يعني تجامعوهن وهذا في المطلقة بعد تسمية المهر وقبل الدخول حكم الله لها بنصف المهر ولا عدة عليها وهو قوله تعالى: ﴿وقد فرضتم لهن فريضة﴾ أي سميتم لهن مهراً ﴿فنصف ما فرضتم﴾ أي فلهن نصف المهر المسمى، ومذهب الشافعي أن الخلوة من غير مسيس لا توجب إلا نصف المهر المسمى لأن المسيس إما حقيقة في المس باليد أو جعل كناية عن الجماع وأيهما كان فقد وجد الطلاق قبله. وقال أبو حنيفة: الخلوة الصحيحة تقرر المهر ومعنى الخلوة الصحيحة أن يخلو بها وليس هناك مانع حسي ولا شرعي، فالحسي نحو الرتق والقرن أو يكون معهما ثالث، والشرعي نحو الحيض والنفاس وصوم الفرض وصلاة الفرض والإحرام سواء كان فرضاً أو نفلاً، والآية حجة لمذهب الشافعي، قال شريح: لم أسمع الله ذكر في كتابه باباً ولا ستراً إن زعم أنه لم يمسها فلها نصف الصداق، وقال ابن عباس: إذا خلا بها ولم يمسها فلها نصف المهر.

فرع: لو مات أحد الزوجين بعد التسمية وقبل المسيس فلها المهر كاملاً وعليها العدة إن كان الزوج هو الميت. وقوله تعالى: ﴿إلاّ أن يعفون﴾ يعني النساء المطلقات والمعنى إلاّ أن لا تترك المرأة نصيبها من الصداق

بنت واشق فلا حجّة في قول أحد دُون قول النبيّ ﷺ، وإن لم يثبت فلا مهر لها ولها الميراث، وكان علي يقول في حديث بردع: لا تقبل قول أعرابي من أشجع على...

وقوله تعالى: ﴿ **وإن طلّقتموهنّ من قبل أن تمسّوهنّ وقدْ فرضتُمْ لهنّ فريضةً فنصفُ ما فرضتم** ﴾، **هذا في المطلّقة بعد الفرض قبل المَسيس، فلها نصف المفروض وإن مات أحدهما قبلَ المَسيس فلها كمال المهر المفروض، والمراد بالمسّ المذكور في الآية: الجماع، واختلف أهل العلم فيما لو خَلاَ الرجل بامرأته ثم طلقها قبل أن يدخل بها، فذهب قوم إلى أنه لا يجب لها إلاّ نصف الصداق ولا عِدّة عليها، لأن الله تعالى أوجب في الطلاق قبل المَسيس نصف الصداق ولم يوجب العدّة، وهو قول ابن عباس رضي الله عنه وابن مسعود، وبه قال الشافعي رحمه الله، وقال قوم: يجب لها كمال المهر وعليها العدّة، لِما رُوِيَ عن عمر رضي الله عنه أنه قال: إذا أُرخيت الستورُ فقد وجب الصداق، ومثله عن زيد بن ثابت، وحمل بعضهم قول عمر على وجوب تسليم الصداق إليها إذا سلّمت نفسها، لا على تقدير الصداق، وقيل: هذه الآية ناسخة للآية التي في الأحزاب:** ﴿ **فما لكم عليهنّ من عِدّةٍ تعتدونَها، فمتعوهنّ** ﴾ [الأحزاب: ٤٩]، **فقد كان للمطلّقة قبل المسيس متاع فنُسخت بهذه الآية وأوجب للمطلقة المفروض لها قبل المسيس نصف المفروض، ولا متاع لها، وقوله تعالى:** ﴿ **وقد فرضتم لهنّ فريضة** ﴾ **أي: سمّيتم لهنّ مهراً فنصف ما فرضتم، أي: لها نصف المهر المُسمّى،** ﴿ **إلاّ أن يعفونَ** ﴾، **يعني: النساء، أي: إلا أن تترك المرأة نصيبها فيعود جميع الصداق إلى الزوج، قوله تعالى:** ﴿ **أو يعفوا الذي بيده عُقدة النكاح** ﴾، **اختلفوا فيه فذهب بعضهم: إلى أن الذي بيده عُقدة النكاح هو الولي، وبه قال ابن عباس رضي الله عنه، معناه أن**

فتهبه للزوج فيعود جميع الصداق إلى الزوج ﴿أو يعفو الذي بيده عقدة النكاح﴾ فيه قولان: أحدهما أنه الولي وهو قول ابن عباس في رواية عنه والحسن وعلقمة وطاوس والشعبي والنخعي والزهري والسدي وبه قال الشافعي في القديم ومالك. والقول الثاني أنه الزوج، وهو قول علي وابن عباس في الرواية الأخرى وجبير بن مطعم وسعيد بن المسيب وابن جبير ومجاهد والربيع وقتادة ومقاتل والضحاك ومحمد بن كعب القرظي وهو قول أبي حنيفة والشافعي في الجديد وأحمد وجمهور الفقهاء فعلى القول الأول يكون معنى الآية إلاّ أن تعفو المرأة إذا كانت ثيباً بالغة من أهل العفو عن نصيبها للزوج أو يعفو وليها إذا كانت المرأة بكراً صغيرة أو غير جائزة التصرف فيجوز عفو وليها فيترك نصيبها للزوج وإنما يجوز عفو الولي بشروط وهي أن تكون بكراً صغيرة ويكون الولي أباً أو جداً لأن غيرهما لا يزوج الصغيرة وعلى القول الثاني أن الذي بيده عقدة النكاح هو الزوج وصحح هذا القول الطبري والواحدي فيكون معنى الآية أو يعفو الذي بيده عقدة النكاح يعني الزوج فيعطي المرأة الصداق كاملاً لأن الله تعالى لما ذكر عفو المرأة عن النصف الواجب لها ذكر عفو الزوج عن النصف الساقط عنه فيحسن للمرأة أن تعفو ولا تطالب بشيء من الصداق وللرجل أن يعفو فيوفي لها المهر كاملاً. وروي أن جبير بن مطعم تزوج امرأة ثم طلقها قبل الدخول بها فأكمل لها الصداق وقال أنا أحق بالعفو، ولأن المهر حق المرأة فليس لوليها أن يهب من مالها شيئاً، فكذلك المهر لأنه مال لها ﴿وأن تعفوا أقرب للتقوى﴾ هذا خطاب للرجال والنساء جميعاً وإنما غلب جانب التذكير لأن الذكورة هي الأصل والتأنيث فرع عنها والمعنى وعفو بعضكم عن بعض أيها الرجال والنساء أقرب إلى حصول التقوى وقيل هو خطاب للزوج والمعنى وليعف الزوج فيترك حقه الذي ساق من المهر إليها قبل الطلاق فهو أقرب للتقوى ﴿ولا تنسوا الفضل بينكم﴾ يعني ليتفضل بعضكم على بعض فيعطي الرجل الصداق كاملاً أو يترك المرأة نصيبها من الصداق حثهما جميعاً على الإحسان ومكارم الأخلاق ﴿إن الله بما تعملون﴾ يعني من عفو بعضكم لبعض عما وجب له عليه من حق ﴿بصير﴾ أي لا يخفى عليه شيء من ذلك. قوله عز وجل:

﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ۝٢٣٨﴾

﴿حافظوا﴾ أي داوموا وواظبوا ﴿على الصلوات﴾ يعني الخمس المكتوبات أمر الله عز وجل عباده بالمحافظة

لا تعفو المرأة بترك نصيبها إلى الزوج إن كانت ثيّباً من أهل العفو أو يعفو وليها، فيترك نصيبها إن كانت المرأة بكراً، أو غير جائزة العفو فيجوز عفو وليّها، وهو قول علقمة وعطاء والحسن والزهري وربيعة، وذهب بعضهم إلى أنه إنما يجوز عفو الولي إذا كانت المرأة بكراً، فإن كانت ثيّباً فلا يجوز عفو وليّها وقال بعضهم: الذي بيده عُقدة النكاح هو الزوج، وهو قول عليّ، وبه قال سعيد بن المسيب وسعيد بن جبير والشعبي والشريحي ومجاهد وقتادة، وقالوا: لا يجوز لوليّها تركُ الشيء من الصداق بكراً كانت أو ثيّباً كما لا يجوز له ذلك قبل الطلاق بالاتفاق كما لا يجوز له أن يهب شيئاً من مالها، وقالوا: معنى الآية أن لا تعفو المرأة بترك نصيبها فيعود جميع الصداق إلى الزوج، أو يعفو الزوج بترك نصيبه فيكون لها جميع الصداق، فعلى هذا التأويل وجه الآية الذي بيده عُقدة النكاح نكاح نفسه في كل حال قبل الطلاق أو بعده، ﴿ وأن تعفوا أقرب للتقوى ﴾، موضعُهُ رفعٌ بالابتداء، أي: والعفو أقرب للتقوى أي إلى التقوى، والخطاب للرجال والنساء جميعاً، لأن المذكر والمؤنث إذا اجتمعا، كانت الغلبة للمذكّر، معناه وعفو بعضكم عن بعض أقرب للتقوى، ﴿ولا تنسوا الفضل بينكم ﴾، أي: إفضال بعضكم على بعض بإعطاء الرجل تمام الصداق أو ترك المرأة نصيبها، حثّهما جميعاً على الإحسان، ﴿ إن الله بما تعملون بصير ﴾.

قوله تعالى: ﴿ حافِظُوا على الصلواتِ والصلاةِ الوُسْطَى ﴾، أي: واظبوا ودَاوِمُوا على الصلوات المكتوبات

على الصلوات الخمس المكتوبات بجميع شروطها وحدودها وإتمام أركانها وفعلها في أوقاتها المختصة بها ﴿والصلاة الوسطى﴾ تأنيث الأوسط ووسط كل شيء خيره وأعدله وقيل الوسطى يعني الفضلى من قولهم للأفضل أوسط وإنما أفردت وعطفت على الصلوات لانفرادها بالفضل وقيل سميت الوسطى لأنها أوسط الصلوات محلاً.

فصل في ذكر اختلاف العلماء في الصلاة الوسطى

قد اختلف العلماء من الصحابة فمن بعدهم في الصلاة الوسطى على مذاهب: الأول أن الصلاة الوسطى هي صلاة الفجر، وهو قول عمر وابن عمر وابن عباس ومعاذ وجابر وعطاء وعكرمة ومجاهد والربيع بن أنس، وبه قال مالك والشافعي، ويدل على ذلك أن مالكاً بلغه أن علي بن أبي طالب وابن عباس كانا يقولان: الصلاة الوسطى صلاة الفجر أخرجه مالك في الموطأ، وأخرجه الترمذي عن ابن عباس وابن عمر تعليقاً. ولأنها بين صلاتي جمع فالظهر والعصر يجمعان وهما صلاتا نهار، والمغرب والعشاء يجمعان وهما صلاتا ليل وصلاة الفجر لا تقصر ولا تجمع إلى غيرها ولأنها تأتي في وقت مشقة بسبب برد الشتاء وطيب النوم في الصيف وفتور الأعضاء إلى غيرها ولأنها تأتي في وقت مشقة بسبب برد الشتاء وطيب النوم في الصيف وفتور الأعضاء وكثرة النعاس وغفلة الناس عنها فخصت بالمحافظة عليها لكونها معرضة للضياع ولأن الله تعالى قال عقبها ﴿وقوموا لله قانتين﴾ والقنوت هو طول القيام وصلاة الفجر مخصوصة بطول القيام ولأن الله تعالى خصها بالذكر في قوله وقرآن الفجر ﴿إن قرآن الفجر كان مشهوداً﴾ يعني تشهده ملائكة الليل وملائكة النهار فهي مكتوبة في ديوان حفظة الليل وديوان حفظة النهار فدل ذلك على مزيد فضلها. المذهب الثاني أنها صلاة الظهر وهو قول زيد بن ثابت وأسامة بن زيد وأبي سعيد الخدري ورواية عائشة وبه قال عبيدالله بن شداد وهو رواية عن أبي حنيفة ويدل على ذلك ما روي عن زيد بن ثابت وعائشة قالا: الصلاة الوسطى صلاة الظهر، أخرجه مالك في الموطأ عن زيد والترمذي عنهما تعليقاً وأخرجه أبو داود عن زيد قال: «كان رسول الله ﷺ يصلي الظهر بالهاجرة ولم يكن يصلي صلاة أشد على أصحاب رسول الله ﷺ منها فنزلت: ﴿حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى﴾ وقال إن قبلها صلاتين وبعدها صلاتين ولأن صلاة الظهر تأتي وسط النهار وفي شدة الحر ولأنها تأتي بين البردين يعني صلاة الفجر وصلاة العصر. المذهب الثالث أنها صلاة العصر وهو قول علي وابن مسعود وأبي أيوب وأبي هريرة وابن عمر وابن عباس وأبي

بمواقيتها وحدودها، وإتمام أركانها، ثم خصّ من بينها الصلاة الوسطى بالمحافظة عليها دَلالةً على فضلها، ووُسْطَى تأنيث الأوسط، ووَسَط الشيء: خيرُه وأعْدَلُه، واختلف العلماء من الصحابة ومَن بعدهم في الصلاة الوسطى فقال قوم: هي صلاة الفجر، وهو قول عمر وابن عمر وابن عباس ومعاذ وجابر، وبه قال عطاء وعكرمة ومجاهد، وإليه مال مالك والشافعي لأن الله تعالى قال: ﴿ وقوموا لله قانتين ﴾، فالقنوت: طول القيام، وصلاة الصبح مخصوصة بطول القيام وبالقنوت لأن الله تعالى خصّها في آية أخرى من بين الصلاة فقال الله تعالى: ﴿ وقرآن الفجر إنّ قرآن الفجر كان مشهوداً ﴾ [الإسراء: ٧٨]، يعني: تشهدها ملائكة الليل وملائكة النهار فهي مكتوبة في ديوان الليل وديوان النهار، ولأنها بين صلاتي جَمْعٍ، وهي لا تُقصر ولا تُجمع إلى غيرها، وذهب قوم إلى أنها صلاة الظهر، وهو قول زيد بن ثابت وأبي سعيد الخدري وأسامة بن زيد، لأنها في وسط النهار وهي أوسط صلاة النهار في الطول، أخبرنا عمر بن عبد العزيز أخبرنا أبو القاسم بن جعفر الهاشمي، أنا أبو علي اللؤلؤي أنا أبو داود، أنا محمد بن المثنى أنا محمد بن جعفر، أنا شعبة حدّثني عمرو بن أبي حكيم قال: سمعت الزبير يحدّث عن عروة بن الزبير، عن زيد بن ثابت قال: كان رسول الله ﷺ يصلّي الظهر بالهاجرة ولم يكن يصلّي صلاة أشدّ على أصحاب النبي ﷺ منها، فنزلت: ﴿ حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى ﴾، وذهب الأكثرون إلى أنها صلاة

سعيد الخدري وعائشة، وهو قول عبيدة السلماني والحسن البصري وإبراهيم النخعي وقتادة والضحاك والكلبي ومقاتل، وبه قال أبو حنيفة وأحمد وداود وابن المنذر وقال الترمذي: هو قول أكثر الصحابة فمن بعدهم وقال الماوردي من أصحابنا: هذا مذهب الشافعي لصحة الأحاديث فيه قال وإنما نص على أنها الصبح لأنه لم تبلغه الأحاديث الصحيحة في العصر ومذهبه اتباع الحديث ويدل على صحة هذا المذهب ما روي عن علي أن النبي ﷺ قال يوم الأحزاب وفي رواية يوم الخندق «ملأ الله قلوبهم وبيوتهم ناراً كما شغلونا عن الصلاة الوسطى حتى غابت الشمس» وفي رواية «شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر» وذكر نحوه وزاد في أخرى «ثم صلاها بين المغرب والعشاء» أخرجاه في الصحيحين (م) عن ابن مسعود قال حبس المشركون رسول الله ﷺ عن صلاة العصر حتى احمرت الشمس أو اصفرت فقال رسول الله ﷺ: «شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر ملأ الله أجوافهم وقبورهم ناراً، أو حشا الله أجوافهم وقبورهم ناراً» عن سمرة بن جندب أن رسول الله ﷺ قال: «الصلاة الوسطى صلاة العصر» أخرجه الترمذي وله عن ابن مسعود مثله وقال في كل واحد منهما حسن صحيح (م) عن أبي يونس مولى عائشة قال أمرتني عائشة أن أكتب مصحفاً وقالت إذا بلغت هذه الآية فآذني: ﴿**حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى**﴾ قال فلما بلغتها آذنتها فأملت علي: «حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وصلاة العصر وقوموا لله قانتين» قالت عائشة سمعتها من رسول الله ﷺ ويروى عن حفصة نحو ذلك، ولأن صلاة العصر تأتي وقت اشتغال الناس بمعايشهم فكان الأمر بالمحافظة عليها أولى، ولأنها تأتي بين صلاتي نهار وهما الفجر والظهر وصلاتي ليل وهما المغرب والعشاء، وقد خصت بمزيد التأكيد والأمر بالمحافظة والتغليظ لمن ضيعها، ويدل على ذلك ما روي عن أبي المليح قال: كنا مع بريدة في غزوة فقال في يوم ذي غيم: بكروا بصلاة العصر فإن النبي ﷺ قال: «من ترك صلاة العصر فقد حبط عمله» أخرجه البخاري. قوله بكروا بصلاة العصر أي قدموها في أول وقتها (ق) عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «الذي تفوته صلاة العصر فكأنما وتر أهله وماله» قوله: وتر أي نقص وسلب أهله وماله فبقي فرداً بلا أهل ولا مال ومعنى الحديث ليكن حذره من فوت صلاة العصر كحذره من ذهاب أهله وماله. المذهب الرابع أنها صلاة المغرب قاله قبيصة بن ذؤيب، وحجة هذا المذهب أن صلاة المغرب تأتي

العصر، رواه جماعة عن رسول الله ﷺ، وهو قول علي وعبد الله بن مسعود وأبي أيوب وأبي هريرة وعائشة رضوان الله عليهم، وبه قال إبراهيم النخعي وقتادة والحسن، أخبرنا أبو الحسن السرخسي أخبرنا زاهر بن أحمد أخبرنا أبو إسحق الهاشمي، أنا أبو مصعب عن مالك عن زيد بن أسلم، عن القعقاع بن حكيم عن أبي يونس مولى عائشة أمّ المؤمنين رضي الله عنهما أنه قال: أمرتني عائشة أن أكتب لها مُصحفاً وقالت: إذا بلغت هذه الآية فأذِّني ﴿ **حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى** ﴾، فلما بلغتها أذِنْتُها فأملتْ عليّ ﴿ **حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى** ﴾ ـ صلاة العصر ـ ﴿ **وقوموا لله قانتين** ﴾ قالت عائشة رضي الله عنها سمعتها من رسول الله ﷺ، وعن حفصة مثل ذلك. أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي، أنا أبو منصور محمد بن محمد بن سمعان، أنا أبو جعفر الزياتي أنا حميد بن زنجويه، أخبرنا أبو نعيم أنا سفيان عن عاصم بن أبي النَّجُود عن ذر بن حُبيش قال قلنا لعبيدة سَلْ عليّاً عن الصلاة الوسطى، فسأله، قال: كنّا نرى أنها صلاة الفجر حتى سمعتُ رسول الله ﷺ يقول يوم الخندق: «شغلونا عن الصلاة الوسطى، صلاة العصر، ملأ الله أجوافهم وقبورهم ناراً»، ولأنها بين صلاتي نهار وصلاتي ليل، وقد خصّها النبيّ ﷺ بالتغليظ، أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا مسلم بن إبراهيم، أنا هشام يحيىٰ بن أبي كثير عن أبي قلابة عن أبي المليح قال: كنّا مع بُريدة في غزوة في يوم ذي غيم فقال: بكّروا بصلاة العصر فإن النبي ﷺ قال: «مَن ترك صلاة العصر فقد حبط

بين بياض النهار وسواد الليل ولأنها أزيد من ركعتين كما في الصبح، وأقل من أربع، ولا تقصر في السفر وهي وتر النهار، ولأن صلاة الظهر تسمى الأولى لأن ابتداء جبريل كان بها، وإذا كانت الظهر أولى الصلوات كانت المغرب هي الوسطى. المذهب الخامس أنها صلاة العشاء ولم ينقل عن أحد من السلف فيها شيء، وإنما ذكرها بعض المتأخرين، وحجة هذا المذهب أنها متوسطة بين صلاتين لا تقصران وهما المغرب والصبح ولأنها أثقل صلاة على المنافقين. المذهب السادس أن الصلاة الوسطى هي إحدى الصلوات الخمس لا بعينها لأن الله تعالى أمر بالمحافظة على الصلوات الخمس ثم عطف عليها بالصلاة الوسطى، وليس في الآية ذكر بيانها، وإذا كان كذلك أمكن أن يقال في كل واحدة من الصلوات الخمس أنها هي الوسطى أبهمها الله على عباده مع ما خصها بمزيد التوكيد تحريضاً لهم على المحافظة على أداء جميع الصلوات على صفة الكمال والتمام ولهذا السبب أخفى الله تعالى ليلة القدر في شهر رمضان وأخفى ساعة الإجابة في يوم الجمعة وأخفى اسمه الأعظم في جميع أسمائه ليحافظوا على ذلك كله. وهذا المذهب اختاره جمع من العلماء قال محمد بن سيرين إن رجلاً سأل زيد بن ثابت عن الصلاة الوسطى فقال حافظ على الصلوات كلها تصبها وسئل الربيع ابن خيثم عن الصلاة فقال للسائل الوسطى واحدة منهن فحافظ على الكل تكن محافظاً على الوسطى ثم قال أرأيت لو علمتها بعينها أكنت محافظاً عليها ومضيعاً سائرهن فقال السائل لا فقال الربيع إنك أن حافظت عليهن فقد حافظت على الوسطى. والصحيح من هذه الأقوال كلها قولان قول من قال إنها الصبح وقول من قال إنها العصر وأصح الأقوال كلها أنها العصر للأحاديث الصحيحة الواردة فيها والله تعالى أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وقوموا لله قانتين﴾ أي طائعين فهو عبارة عن إكمال الطاعة وإتمامها والاحتراز عن إيقاع الخلل في أركانها وسننها قيل لكل أهل دين صلاة يقومون فيها عاصين فقوموا أنتم لله في صلاتكم طائعين، وقيل القنوت هو الدعاء والذكر بدليل: «أمن هو قانت» ولما أمر بالمحافظة على الصلوات وجب أن يحمل هذا القنوت على ما فيها من الذكر والدعاء فمعنى الآية وقوموا لله داعين ذاكرين وقيل إنما خص القنوت بصلاة الصبح والوتر لهذا المعنى، وقيل: القنوت هو السكوت عما لا يجوز التكلم به في الصلاة، ويدل على ذلك ما روي عن زيد بن أرقم قال: «كنا نتكلم في الصلاة يكلم الرجل صاحبه وهو إلى جنبه في الصلاة حتى نزلت: ﴿وقوموا لله قانتين﴾ فأمرنا

عمله»، وقال قبيصة بن ذؤيب: هي صلاة المغرب لأنها وسط ليس بأقلها ولا أكثرها، وقال بعضهم: إنها صلاة العشاء، ولم يُنقل عن السلف فيها شيء، وإنما ذكرها بعض المتأخرين لأنها بين صلاتين لا تقصران، وقال بعضهم هي إحدى الصلوات الخمس لا بعينها أبهمها الله تعالى تحريضاً للعباد على المحافظة على أداء جميعها، كما أخفى ليلة القدر في شهر رمضان وساعة إجابة الدعوة في يوم الجمعة، وأخفى الاسم الأعظم في الأسماء ليحافظوا على جميعها. قوله تعالى: ﴿ وقوموا لله قانتين ﴾، أي: مطيعين، قال الشعبي وعطاء وسعيد بن جبير والحسن وقتادة وطاوس: القنوتُ: الطاعة، قال الله تعالى: ﴿ أمّةً قانتاً لله ﴾ [النحل: ١٢٠] أي: مُطيعاً، وقال الكلبي ومقاتل: لكل أهل دين صلاة يقومون فيها عاصين، فقوموا أنتم لله في صلاتكم مطيعين، وقيل: القنوت السكوت عمّا لا يجوز التكلّم به في الصلاة، أخبرنا أبو عثمان سعيد بن إسماعيل الضبّي، أنا أبو محمد عبد الجبّار بن محمد الجراحي، أنا أبو العباس محمد بن أحمد المحبوبي، أنا أبو عيسى الترمذي أنا أحمد بن مَنيع، أنا هشيم أنا إسماعيل بن أبي خالد عن الحارث بن سقيل، عن أبي عمرو الشيباني عن زيد بن أرقم، قال: كنّا نتكلم خلف رسول الله ﷺ في الصلاة يُكلّم الرجلُ منّا صاحبَه إلى جنبه، حتى نزلتْ ﴿ وقوموا لله قانتين ﴾، فأمرنا بالسكوت ونُهينا عن الكلام. وقال مجاهد: خاشعين، وقال: من القنوت طول الركوع، وغضُّ البصر، والركودُ وخفضُ الجناح، كان العلماء إذا كان أحدهم يُصلّي يهاب الرحمنَ أن يلْتفت أو يقلّب الحصى أو يعبث بشيء أو يُحدّث

بالسكوت ونهينا عن الكلام» أخرجاه في الصحيحين، وقيل: القنوت هو طول القيام في الصلاة ويدل عليه ما روي عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «أفضل الصلاة طول القنوت» أخرجه مسلم ومن القنوت أيضاً طول الركوع والسجود وغض البصر والهدوء في الصلاة وخفض الجناح والخشوع فيها وكان العلماء إذا قام أحدهم يصلي يهاب الرحمن أن يلتفت أو يقلب الحصى أو يعبث بشيء أو يحدث نفسه بشيء من أمور الدنيا إلّا ناسياً قوله عز وجل:

﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾﴾

﴿فإن خفتم فرجالاً﴾ أي رجالة ﴿أو ركباناً﴾ يعني على الدواب جمع راكب والمعنى إن لم يمكنكم أن تصلوا قانتين موفين حقوق الصلاة من إتمام الركوع والسجود والخضوع والخشوع لخوف عدو أو غيره فصلوا مشاة على أرجلكم أو ركباناً على دوابكم مستقبلي القبلة وغير مستقبليها وهذا في حال المقاتلة والمسايفة في وقت الحربِ. وصلاة الخوف قسمان: أحدهما أن يكون في حال القتال وهو المراد بهذه الآية، وقسم في غير حال القتال وهو المذكور في سورة النساء في قوله تعالى: ﴿وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة﴾ وسيأتي الكلام عليها إن شاء الله تعالى في موضعه، فإذا التحم القتال ولم يكن تركه لأحد فمذهب الشافعي أنهم يصلون ركباناً على الدواب ومشاة على الأرجل إلى القبلة وإلى غير القبلة يؤمنون بالركوع والسجود ويكون السجود أخفض من الركوع ويحترزون عن الصياح فإنه لا حاجة إليه، وقال أبو حنيفة: لا يصلي الماشي بل يؤخر الصلاة ويقضيها لأن النبي ﷺ أخر الصلاة يوم الخندق فصلى الظهر والعصر والمغرب بعدما غربت الشمس فيجب علينا الاقتداء به في ذلك واحتج الشافعي لمذهبه بهذه الآية. وأجيب عن تأخير النبي ﷺ الصلاة يوم الخندق بأنه لم يكن نزل حكم صلاة الخوف وإنما نزل بعد فلما نزلت صلاة الخوف لم يؤخر النبي ﷺ بعد ذلك صلاة قط، أما الخوف الحاصل لا في القتال بل بسبب آخر كالهارب من العدوّ أو قصده سبع هائج أو غشيه سيل يخاف على نفسه الهلاك لو صلى صلاة أمن فله أن يصلي صلاة شدة الخوف بالإيماء في حال العدو لأن قوله تعالى: ﴿فإن خفتم﴾ مطلق يتناول الكل. فإن قلت: قوله تعالى: ﴿فرجالاً أو ركباناً﴾ يدل على أن المراد منه خوف العدو حال القتال. قلت هو كذلك إلّا أنه هناك ثابت لدفع الضرر، وهذا المعنى موجود هنا فوجب أن يكون الحكم كذلك ها هنا وروي عن ابن عباس قال: «فرض الله الصلاة على لسان نبيكم ﷺ في الحضر أربعاً وفي السفر ركعتين وفي الخوف ركعة»

نفسَه بشيء من أمر الدنيا إلّا ناسياً، وقيل: المراد من القنوت طول القيام. أخبرنا أبو عثمان الضبّي أنا أبو محمد الجراحي أنا أبو العباس المحبوبي أنا أبو عيسى الترمذي، أنا ابن أبي عمر أنا سفيان بن عُيينة عن ابن الزبير، عن جابر قال: قيل للنبي ﷺ: أيُّ الصلاة أفضل؟ قال: «طولُ القُنوت»، وقيل: قانتين أي: داعين، دليله ما رُوِيَ عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قنت رسول الله ﷺ شهراً متتابعاً يدعو على أحياء من بني سليم على رعل وذكوان وعصية. وقيل: معناه مصلّين، لقوله تعالى: ﴿ أمَّنْ هو قانتٌ آناء الليل ﴾ [الزمر: ٩]، أي: مُصلٍّ.

قوله تعالى: ﴿ فإن خفتم فرجالاً أو رُكباناً ﴾، فرجالاً أي: رجالة، يقال: راجل ورجال، مثل صاحب وصحاب، وقائم وقيام، ونائم ونيام، أو رُكباناً على دوابِّهم، وهو جمع راكب، معناه: إن لم يُمكنكم أن تصلّوا قانتين موفِّين للصلاة حقَّها لخوف، فصلّوا مشاة على أرجلكم أو ركباناً على ظهورِ دَوَابِّكم، وهذا في حال المقاتلة والمُسايَفة يصلّي حيث كان وجهه، رَاجلاً أو راكباً مستقبل القِبلة، وغير مستقبلها، ويُومِىءُ بالركوع والسجود، ويجعل السجودَ أخفضَ من الركوع، وكذلك إذا قصده سَبُعٌ أو غشيَه سيلٌ يخاف منه على نَفسه فعَدَا أمَامَه مُصلياً بالإيماء يجوز، والصلاة في حال الخوف على أقسام، فهذه أحد أقسام شدّة صلاة الخوف، وسائر الأقسام سيأتي

أخرجه مسلم، وقد عمل بظاهر هذا جماعة من السلف منهم الحسن البصري وعطاء وطاوس ومجاهد وقتادة والضحاك وإبراهيم وإسحاق بن راهويه قالوا: يصلي في حال شدة الخوف ركعة وقال الشافعي ومالك وجمهور العلماء صلاة الخوف كصلاة الأمن في عدد الركعات قال كان الخوف في الحضر وجب عليه أن يصلي أربع ركعات وإن كان في السفر صلّى ركعتين ولا يجوز الاقتصار على ركعة واحدة في حال من الأحوال وتأولوا حديث ابن عباس هذا على أن المراد به ركعة مع الإمام وركعة أخرى يأتي بها منفرداً كما جاءت الأحاديث الصحيحة في صفة صلاة النبي ﷺ وأصحابه في صلاة الخوف وهذا التأويل لا بد منه للجمع بين الأحاديث. وقوله تعالى: ﴿**فإذا أمنتم**﴾ يعني من خوفكم ﴿**فاذكروا الله**﴾ أي فصلوا لله الصلوات الخمس تامة بأركانها وسننها ﴿**كما علمكم ما لم تكونوا تعلمون**﴾ فيه إشارة إلى إنعام الله تعالى علينا بالعلم ولولا هدايته وتعليمه إيانا لم نعلم شيئاً ولم نصل إلى معرفة شيء فله الحمد على ذلك. قوله عز وجل: .

﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِم مَّتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٤٠﴾﴾

﴿**والذين يتوفون منكم**﴾ يعني يا معشر الرجال ﴿**ويذرون أزواجاً**﴾ يعني زوجات ﴿**وصية لأزواجهم**﴾ قرىء بالنصب على معنى فليوصوا وصية وبالرفع على معنى كتب عليهم وصية ﴿**متاعاً إلى الحول**﴾ أي متعوهن متاعاً وقيل جعل الله لهن ذلك متاعاً والمتاع نفقة سنة لطعامها وكسوتها وما تحتاج إليه ﴿**غير إخراج**﴾ أي غير مخرجات من بيوتهن نزلت هذه الآية في رجل من أهل الطائف يقال له حكيم بن الحارث هاجر إلى المدينة ومعه أبواه وامرأته وله أولاد فمات فرفع ذلك إلى النبي ﷺ فأنزل الله هذه الآية فأعطى النبي ﷺ أبويه وأولاده ميراثه ولم يعط امرأته شيئاً وأمرهم أن ينفقوا عليها من تركة زوجها حولاً وكان الحكم في ابتداء الإسلام أنه إذا مات الرجل اعتدت زوجته حولاً وكان يحرم على الوارث إخراجها من البيت قبل تمام الحول وكانت نفقتها وسكناها واجبتين في مال زوجها تلك السنة وليس لها من الميراث شيء، ولكنها تكون مخيرة فإن شاءت اعتدت في بيت زوجها ولها النفقة والسكنى، وإن شاءت خرجت قبل تمام الحول وليس لها نفقة ولا سكنى، وكان يجب على الرجل أن يوصي بذلك فدلت هذه الآية على مجموع أمرين: أحدهما أن لها النفقة والسكنى من مال زوجها سنة والثاني أن عليها عدة سنة

بيانها في سورة النساء إن شاء الله تعالى، ولا يُنتقص عددُ الركعات بالخوف عند أكثر أهل العلم، وروى مجاهد عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: فرض الله الصلاة على لسان نبيّكم ﷺ في الحضر أربعاً وفي السفر ركعتين، وفي الخوف ركعة، وهو قول عطاء وطاوس والحسن ومجاهد وقتادة: أنه يُصلّي في حال شدّة الخوف ركعة، وقال سعيد بن جبير: إذا كنت في القتال وضَربَ الناسُ بعضَهم بعضاً فقل: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلّا الله والله أكبر، واذكر الله، فإذا ذكرت الله فتلك صلاتُك. ﴿ فإذا أمنتم فاذكروا الله ﴾، أي: فصلّوا الصلوات الخمس تامّة بحقوقها، ﴿ كما علّمكم ما لم تكونُوا تعلمون ﴾.

قوله تعالى: ﴿ والذين يُتوفَّونَ منكم ﴾: يا معشر الرجال، ﴿ ويذرون ﴾، أي يتركون ﴿ أزواجاً ﴾ أي: زوجات، ﴿ وصية لأزواجهم ﴾، قرأ أهل البصرة وابن عامر وحمزة وحفص ﴿ وصية ﴾ بالنصب على معنى: فليُوصوا وصيّةً، وقرأ الباقون بالرفع، أي كُتب عليكم الوصيّة، ﴿ متاعاً إلى الحول ﴾، متاعاً نصب على المصدر، أي: متِّعوهنّ متاعاً، وقيل: جعل الله ذلك لهنّ متاعاً، والمتاع: نفقة سنة لطعامها وكسوتها وسَكَنِها وما تحتاج إليه، ﴿ غيرَ إخراج ﴾، نُصب على الحال وقيل: بنزع حرف على الصفة، أي: من غير إخراج، نزلت هذه الآية في رجل

ثم إن الله تعالى نسخ هذين الحكمين، أما الوصية بالنفقة والسكنى فنسخ بآية الميراث فجعل لها الربع أو الثمن عوضاً عن النفقة والسكنى ونسخ عدة الحول بأربعة أشهر وعشراً. فإن قلت كيف نسخت الآية المتقدمة المتأخرة؟ قلت: قد تكون الآية المتقدمة متقدمة في التلاوة متأخرة في التنزيل كقوله تعالى: **﴿سيقول السفهاء من الناس﴾** مع قوله تعالى: **﴿قد نرى تقلب وجهك في السماء﴾**. وقوله تعالى: **﴿فإن خرجن فلا جناح عليكم﴾** يعني يا معشر أولياء الميت **﴿فيما فعلن في أنفسهن من معروف﴾** يعني التزين للنكاح ولرفع الحرج عن الورثة وجهان: أحدهما أنه لا جناح عليكم في قطع النفقة عنهن إذا خرجن قبل انقضاء الحول. والوجه الثاني لا جناح عليكم في ترك منعهن من الخروج لأن مقامها في بيت زوجها حولاً غير واجب عليها خيرها الله تعالى بين أن تقيم في بيت زوجها حولاً ولها النفقة والسكنى وبين أن تخرج ولا نفقة لها ولاسكنى ثم نسخ الله ذلك بأربعة أشهر وعشراً **﴿والله عزيز﴾** أي غالب قوي في انتقامه ممن خالف أمره ونهيه وتعدى حدوده **﴿حكيم﴾** يعني فيما شرع من الشرائع وبين من الأحكام. قوله عز وجل: .

وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾

﴿وللمطلقات متاع بالمعروف﴾ إنما أعاد الله تعالى ذكر المتعة هنا لزيادة معنى وهو أن في تلك الآية بيان حكم غير الممسوسة وفي هذه الآية بيان حكم جميع المطلقات في المتعة وقيل لأنه لما نزل قوله تعالى: **﴿ومتعوهن على الموسع قدره﴾** إلى قوله: **﴿حقاً على المحسنين﴾** قال رجل من المسلمين إن فعلت أحسنت وإن لم أرد لم أفعل فأنزل الله تعالى: **﴿وللمطلقات متاع بالمعروف﴾** فجعل المتعة لهن بلام التمليك وقال تعالى:

من أهل الطائف يقال له: حكيم بن الحرث، هاجر إلى المدينة وله أولاد ومعه أبواه وامرأته، فمات فأنزل الله هذه الآية فأعطى النبي ﷺ والديه وأولاده من ميراثه، ولم يؤت امرأته شيئاً وأمرهم أن ينفقوا عليها من تَرِكَة زوجها حَوْلاً كاملاً وكانت عِدَّة الوفاة في ابتداء الإسلام حَوْلاً كاملاً وكان يحرم على الوارث إخراجها من البيت قبل تمام الحَوْل، وكانت نفقتها وسَكَنُها واجبةً في مال زوجها تلك السنة ما لم تخرج، ولم يكن لها الميراث، فإن خرجت من بيت زوجها سقطتْ نفقتُها، وكان على الرجل أن يوصي بها، فكان كذلك حتى نزلت آية الميراث، فنسخ الله تعالى نفقة الحَوْل بالرّبع والثُّمن، ونسخ عِدَّة الحَوْل بأربعة أشهر وعشراً. قوله تعالى: **﴿ فإنْ خرجنَ ﴾**، يعني: من قِبَل أنفسهنّ قبل الحَوْل من غير إخراج الوَرَثَة، **﴿ فلا جُناح عليكـم ﴾** يا أوْلياء الميت، **﴿ فيما فعلنَ في أنفسهنّ من معروف ﴾**، يعني: التزيّن للنكاح، ولرفع الجُناح عن الرجال وجهان، أحدهما: لا جُناح عليكم في قطع النفقة عنهنّ إذا خرجن قبل انقضاء الحَوْل والآخر: لا جُناح عليكم في ترك منعهنّ من الخروج، لأن مقامها في بيت زوجها حَوْلاً غيرُ واجب عليها، خيّرها الله تعالى بين أن تُقيم حَوْلاً ولها النفقة والسكنَى، وبين أن تخرج فلا نفقة ولا سُكنى، إلى أن نَسَخه بأربعة أشهر وعشراً، **﴿ والله عزيز حكيم ﴾**.

﴿ وللمطلّقات متاعٌ بالمعروف حقّاً على المتّقين ﴾، إنما أعاد ذكر المتعة ههنا لزيادة معنىً وذلك أن في غيرها بيان حكم غير المَمْسُوسة، وفي هذه الآية بيان حكم جميع المطلّقات في المتعة، وقيل: إنه لمّا نزل قوله تعالى: **﴿ومتّعوهنّ على المُوسِع قَدَرُه وعلى المُقتِرِ قَدَرُه ﴾** إلى قوله: **﴿ حقّاً على المحسنين ﴾** [البقرة: ٢٣٦] قال

﴿حقاً على المتقين﴾ يعني المؤمنين الذين يتقون الشرك وقد تقدم أحكام المتعة. وقوله تعالى: ﴿كذلك يبين الله لكم آياته﴾ يعني يبين لكم ما يلزم ويلزم أزواجكم أيها المؤمنون وكما عرفتكم أحكامي والحق الذي يجب لبعضكم على بعض في هذه الآيات كذلك أبين لكم سائر أحكامي في آياتي التي أنزلتها على محمد ﷺ في هذا الكتاب ﴿لعلكم تعقلون﴾ أي لكي تعقلوا ما بينت لكم من الفرائض والأحكام وما فيه صلاحكم وصلاح دينكم ا هـ. قوله عز وجل: ﴿ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم﴾ قال أكثر المفسرين: كانت قرية يقال لها داوردان وقع بها الطاعون فخرجت طائفة منها وبقيت طائفة فسلم الذين خرجوا وهلك أكثر من بقي بالقرية فلما ارتفع الطاعون رجع الذين خرجوا سالمين فقال الذين بقوا كان أصحابنا أحزم منا رأياً لو صنعا كما صنعوا لبقينا كما بقوا ولئن وقع الطاعون ثانية لنخرجن إلى أرض لا وباء فيها فرجع الطاعون من قابل فهرب عامة أهلها فخرجوا حتى نزلوا وادياً أفيح فلما نزلوا المكان الذين يبتغون فيه النجاة ناداهم ملك من أسفل الوادي وملك آخر من أعلاه أن موتوا فماتوا جميعاً. (ق) عن عمر أنه خرج إلى الشام فلما جاء سرغ بلغه أن الوباء قد وقع بها فأخبره عبدالرحمن بن عوف أن رسول الله ﷺ قال: «إذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه وإذا وقع بأرض وأنتم فيها فلا تخرجوا منها فراراً منه» فحمد الله عمر ثم انصرف وقيل إنما فروا من الجهاد وذلك أن ملكاً من ملوك بني إسرائيل أمرهم أن يخرجوا إلى قتال عدوهم فعسكروا ثم جبنوا وكرهوا الموت فاعتلوا وقالوا لملكهم إن الأرض التي تأتيها بها وباء فلا تخرج حتى ينقطع منها الوباء فأرسل الله عليهم الموت فخرجوا فراراً منه فلما رأى الملك ذلك قال: اللهم رب يعقوب وإله موسى قد ترى معصية عبادك فأرهم آية في أنفسهم حتى يعلموا أنهم لا يستطيعون الفرار منك، فلما خرجوا قال لهم موتوا عقوبة لهم فماتوا وماتت دوابهم كموت رجل واحد فما أتى عليهم ثمانية أيام حتى انتفخوا وأروحت أجسادهم فخرج الناس إليهم فعجزوا عن دفنهم فحظروا حظيرة دون السباع فذلك قوله تعالى: ﴿ألم تر﴾ أي ألم

رجل من المسلمين: إن أحسنت فعلت وإن لم أرَ ذلك لم أفعل، فقال الله تعالى: ﴿ وللمطلّقات متاع ﴾، جعل المتعة لهنّ بلام التمليك، وقال: ﴿ حقاً على المتّقين ﴾ يعني: المؤمنين المتّقين الشركَ.

﴿ كذلك يبيّن الله لكم آياتِه لعلّكم تعقلون ﴾.

قوله تعالى: ﴿ ألم ترَ إلى الذين خرجوا من ديارهم ﴾، قال أكثر أهل التفسير: كانت قرية يقال لها دَاوَرْدَان قِبَل وَاسط، بها وقع الطاعون فخرجت طائفة منها وبقيت طائفة فهلك أكثر مَن بقي بالقرية، وسلم الذين خرجوا، فلما ارتفع الطاعون رجعوا سالمين، فقال الذين بقوا: أصحابنا كانوا أحزم منّا لو صنعنا كما صنعوا لبقينا ولئن وقع الطاعون ثانية لنخرجنّ إلى أرض لا وباء بها، فوقع الطاعون من قابل فهرب عامّة أهلها وخرجوا حتى نزلوا وادياً أفْيَح، فلما نزلوا المكان الذي يبتغون فيه النجاة ناداهم مَلَك من أسفل الوادي وآخر من أعلاه: أن مُوتُوا فماتوا جميعاً، أخبرنا أبو الحسن السرخسي، أنا زاهر بن أحمد أخبرنا أبو إسحق الهاشمي، أنا أبو مصعب عن مالك عن ابن شهاب، عن عبدالله بن عامر بن ربيعة أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه خرج إلى الشام فلما جاء سَرْغ بلغه أن الوباء قد وقع بالشام، فأخبره عبد الرحمن بن عوف أن رسول الله ﷺ قال: «إذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجُوا فِرَاراً منه»، فرجع عمر من سرغ. قال الكلبي ومقاتل والضحاك: إنما فرّوا من الجهاد وذلك أن ملكاً من ملوك بني إسرائيل أمرهم أن يخرجوا إلى قتال عدوّهم فعسكروا ثم جبنوا وكرهوا الموت فاعتلّوا وقالوا لملكهم: إن الأرض التي نأتيها بها الوباء فلا نأتيها حتى ينقطع منها الوباء، فأرسل الله عليهم الموت فخرجوا من ديارهم فراراً من الموت، فلما رأى المِلك ذلك قال: اللّهمّ ربّ يعقوب وإله موسى وهرون قد ترى معصية عبادك فأرهم آية في أنفسهم حتى يعلموا أنهم لا يستطيعون الفرار منك، فلما خرجوا قال لهم الله تعالى:

تعلم يا محمد بإعلامي إياك وهو من رؤية القلب قال أهل المعاني هو تعجيب له يقول هل رأيت مثل هؤلاء كما تقول ألم تر إلى صنيع فلان وكل ما في القرآن من قوله ألم تر ولم يعاينه النبي ﷺ فهذا معناه. قوله تعالى: ﴿وهم ألوف﴾ قيل هو من العدد واختلفوا في مبلغ عددهم فقيل ثلاثة آلاف وقيل عشرة آلاف وقيل بضع وثلاثون ألفاً وقيل أربعون ألفاً وقيل سبعون ألفاً وأصح الأقوال قول من قال إنهم كانوا زيادة على عشرة آلاف لأن الله تعالى قال: ﴿وهم ألوف﴾ والألوف جمع الكثير وجمع القليل آلاف وقيل معنى وهم ألوف مؤتلفون جمع ألف والأول أصح قالوا فمر عليهم مدة فبليت أجسادهم وعريت عظامهم فمر عليهم حزقيل بن بوذى هو ثالث خلفاء بني إسرائيل بعد موسى. وذلك أن القيم بأمر بني إسرائيل بعد موسى كان يوشع بن نون ثم كان من بعده كالب بن يوقنا ثم قام من بعده حزقيل. وكان يقال له ابن العجوز لأن أمه كانت عجوزاً فسألت الله تعالى الولد بعدما كبرت وعقمت فوهب الله لها حزقيل ويقال له ذو الكفل سمي به لأن تكفل سبعين نبياً وأنجاهم من القتل فلما مر حزقيل على هؤلاء الموتى وقف عليهم وجعل يفكر فيهم فأوحى الله تعالى إليه أتريد أن أريك قال نعم يا رب فأحياهم الله تعالى وقيل دعا ربه حزقيل أن يحيهم فأحياهم الله تعالى وقيل إنهم كانوا قومه أحياهم الله تعالى بعد ثمانية أيام وذلك أنه لما أصابهم ذلك خرج في طلبهم فوجدهم موتى فبكى وقال يا رب كنت في قوم يعبدونك ويذكرونك فبقيت وحيداً لا قوم لي فأوحى الله إليه إني قد جعلت حياتهم إليك فقال حزقيل احيوا بإذن الله فعاشوا، وقيل إنهم قالوا حين أحيوا سبحانك ربنا وبحمدك لا إله إلاّ أنت ثم رجعوا إلى قومهم وعاشوا دهراً طويلاً وسحنة الموت على وجوههم لا يلبسون ثوباً إلاّ عاد دنساً مثل الكفن حتى ماتوا لآجالهم التي كتبت لهم. قال ابن عباس: وإنها لتوجد اليوم تلك الريح في ذلك السبط من اليهود: قال قتادة: مقتهم الله على فرارهم من الموت فأماتهم عقوبة لهم ثم بعثهم الله ليستوفوا بقية آجالهم ولو جاءت آجالهم لما بعثوا. فإن قلت كيف أميت هؤلاء مرتين في الدنيا وقد قال الله تعالى: ﴿لا يذوقون فيها الموت إلاّ الموتة الأولى﴾ قلت إن موتهم كان عقوبة لهم كما قال قتادة وقيل إن موتهم وإحياءهم

﴿ مُوتُوا ﴾ عقوبة لهم فماتوا وماتت دوابّهم كموت رجل واحد فأتى عليهم ثمانية أيام حتى انتفخوا وأرْوَحت أجسادهم، فخرج إليهم الناس فعجزوا عن دفنهم، فحظروا عليهم حظيرة دون السِّباع وتركوهم، واختلفوا في مبلغ عددهم، قال عطاء الخراساني: كانوا ثلاثة آلاف، وقال وهب: أربعة آلاف مقاتل وقال الكلبي: ثمانية آلاف، وقال أبو رُواق: عشرة آلاف، وقال السدي: بضعة وثلاثون ألفاً، وقال ابن جريج: أربعون ألفاً، وقال عطاء بن أبي رباح: سبعون ألفاً، وأولى الأقاويل قول مَن قال: كانوا زيادة على عشرة آلاف، لأن الله تعالى قال: ﴿ وهم ألوف ﴾ والألوف جمع الكثير، وجمعه القليل آلاف، والألوف لا يُقال لِما دُونَ عشرة آلاف، قالوا: فأتت على ذلك مدة وقد بليت أجسادهم وعريت عظامهم، فمرّ عليهم نبيّ يقال له حزقيل ابن بوذى، ثالث خلفاء بني إسرائيل من بعد موسى عليه السلام، وذلك أن القيم بعد موسى بأمر بني إسرائيل يوشع بن نون ثم كالب بن يوقنا ثم حزقيل، كان يقال له ابن العجوز لأن أمه كانت عجوزاً فسألت الله الولد بعدما كبرت وعقمت فوهبه الله تعالى لها. قال الحسن ومقاتل: هو ذو الكفل، وسُمّي حزقيل ذا الكفل لأنه تكفّل بسبعين نبيّاً وأنجاهم من القتل، فلما مرّ حزقيل على أولئك الموتى، وقف عليهم يتفكّر فيهم متعجّباً، فأوحى الله تعالى إليه تريد أن أُريك آية؟ قال: نعم، فأحياهم الله، وقيل: دعا حزقيل ربّه أن يُحييهم فأحياهم، وقال مقاتل والكلبي: هم كانوا قوم حزقيل أحياهم الله بعد ثمانية أيام، وذلك أنه لمّا أصابهم ذلك خرج حزقيل في طلبهم، فوجدهم موتى فبكى وقال: يا رب كنت في قوم يحمدونك ويسبّحونك ويقدّسونك ويكبّرونك ويهلّلونك فبقيت وحيداً لا قومَ لي فأوحى الله تعالى إليه إنّي جعلت حياتهم إليك قال حزقيل: احْيوا بإذن الله، فعاشوا، قال مجاهد: إنهم قالوا حين أُحيوا سبحانك اللّهمَّ ربنا وبحمدك

كان معجزة من معجزات ذلك النبي ومعجزات الأنبياء خوارق للعادات، ونوادر فلا يقاس عليها فيكون قوله إلّا الموتة الأولى عاماً مخصوصاً بمعجزات الأنبياء أي إلّا الموتة الأولى التي ليست من معجزات الأنبياء ولا من خوارق العادات وفي هذه الآية احتجاج على اليهود ومعجزة عظيمة لنبينا ﷺ حيث أخبرهم بأمر لم يشاهدوه وهم يعلمون صحة ذلك وفيه احتجاج على منكري البعث أيضاً إذ قد أخبر الله تعالى وهو الصادق في خبره أنه أماتهم ثم أحياهم في الدنيا فهو تعالى قادر على أن يحييهم يوم القيامة، وقوله تعالى: ﴿حذر الموت﴾ أي مخافة الطاعون وكان قد نزل بهم وقيل إنهم أمروا بالجهاد ففروا منه حذر الموت ﴿فقال لهم الله موتوا﴾ يحتمل أنهم ماتوا عند قوله تعالى ﴿موتوا﴾ ويحتمل أن يكون ذلك أمر تحويل فهو كقوله: ﴿كونوا قردة خاسئين﴾ ﴿ثم أحياهم﴾ يعني بعد موتهم ﴿إن الله لذو فضل على الناس﴾ يعني أن الله تعالى تفضل على أولئك الذين أماتهم باحيائهم لأنهم ماتوا على معصيته فتفضل عليهم بإعادتهم إلى الدنيا ليتوبوا وقيل هو على العموم فهو تعالى متفضل على كافة الخلق في الدنيا ويخص المؤمنين بفضله يوم القيامة ﴿ولكن أكثر الناس لا يشكرون﴾ يعني أن أكثر من أنعم الله عليه لا يشكره أما الكافر فإنه لم يشكره أصلاً وأما المؤمنون فلم يبلغوا غاية شكره. قوله عز وجل: .

﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ٢٤٤ مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضۡعَافٗا كَثِيرَةٗۚ وَٱللَّهُ يَقۡبِضُ وَيَبۡصُۜطُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٢٤٥﴾

﴿وقاتلوا في سبيل الله﴾ قيل هو خطاب للذين أحيوا أحياهم الله ثم أمرهم بالجهاد فعلى هذا القول فيه إضمار تقديره وقيل لهم قاتلوا في سبيل الله وقيل هو خطاب لأمة محمد ﷺ ومعناه لا تهربوا من الموت كما هرب هؤلاء فلم ينفعهم ذلك ففيه تحريض للمؤمنين على الجهاد ﴿واعلموا أن الله سميع﴾ يعني لما يقوله المتعلل عن

لا إله إلّا أنت، فرجعوا إلى قومهم وعاشوا دهراً طويلاً وسحنة الموت على وجوههم لا يلبسون ثوباً إلّا عاد دنساً مثل الكفن حتى ماتوا لآجالهم التي كُتبت لهم، قال ابن عباس رضي الله عنهما: وإنها لتوجد اليوم في ذلك السبط من اليهود تلك الريح، قال قتادة: مقَتَهم اللّهُ على فِرارهم من الموت فأماتهم عقوبة لهم، ثُمّ بُعثوا ليستوفوا مدة آجالهم، ولو جاءت آجالهم ما بعثوا، فذلك قوله تعالى: ﴿ ألم ترَ ﴾ أي: ألم تعلم بإعلامي إيّاك، وهو من رؤية القلب، وقال أهل المعاني: هو تعجيب يقول: هلِ رأيت مثلهم كما تقول ألم ترَ إلى ما يصنع فلان، وكل ما في القرآن ألم ترَ ولم يعاينه النبي ﷺ فهذا وجهه، ألم ترَ إلى الذين خرجوا من ديارهم، ﴿ وهم أُلوف ﴾، جمع ألف، وقيل: مؤتلفة قلوبهم جمع آلِف، مثل قاعد وقعود، والصحيح: أن المراد منه العدد، ﴿ حذرَ الموت ﴾، أي: خوف الموت، ﴿ فقال لهم الله مُوتوا ﴾، أمر تحويل، كقوله تعالى: ﴿ كونوا قردة خاسئين ﴾ [البقرة: ٦٥، الأعراف: ١٦٦]، ﴿ ثم أحياهم ﴾، بعد موتهم، ﴿ إن الله لذو فضل على الناس ﴾، قيل هو على العموم في حق الكافّة، وقيل على الخصوص في حق المؤمنين، ﴿ ولكن أكثر الناس لا يشكرون ﴾، أمّا الكفّار فلم يشكروا، وأما المؤمنون فلم يبلغوا غاية الشكر.

﴿ وقاتلوا في سبيلِ الله ﴾، أي: في طاعة أعداء الله ﴿ واعلمُوا أنّ اللّهَ سميعٌ عليم ﴾، قال أكثر أهل التفسير: هذا خطاب للذين أُحيوا، أُمروا بالقتال في سبيل الله فخرجوا من ديارهم فراراً من الجهاد فأماتهم الله ثم أحياهم وأمرهم أن يُجاهدوا، وقيل: الخطاب لهذه الأمة أمرهم بالجهاد.

قوله تعالى: ﴿ مَنْ ذَا الذي يُقرض اللّهَ قرضاً حسناً ﴾، القرض: اسم لكل ما يعطيه الإنسان ليجازَى عليه،

القتال ﴿عليم﴾ بما يضمره. قوله عز وجل: ﴿من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً﴾ القرض اسم لكل ما يعطيه الإنسان ليجازى عليه فسمى الله تعالى عمل المؤمنين له قرضاً على رجاء ما وعدهم به من الثواب لأنهم يعلمون لطلب الثواب، وقيل: القرض من ما أسلفت من عمل صالح أو شيء قال أمية بن أبي الصلت:

كل امرىء سوف يجزى قرضه حسناً ... أو سيئاً أو مديناً كالذي دانا

وأصل القرض في اللغة القطع سمي به لأن المقرض يقطع من ماله شيئاً فيعطيه ليرجع إليه مثله ومعنى الآية من ذا الذي يقدم لنفسه إلى الله ما يرجو ثوابه عنده وهذا تلطف من الله تعالى في استدعاء عباده إلى أعمال البر والطاعة وقيل في الآية اختصار تقديره من ذا الذي يقرض عباد الله والمحتاجين من خلقه فهو كقوله: ﴿إن الذين يؤذون الله﴾ أي يؤذون عباد الله، وكما جاء في الحديث الصحيح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تبارك وتعالى يوم القيامة يا ابن آدم استطعمتك فلم تطعمني قال: يا رب كيف أطعمك وأنت رب العالمين؟ قال: استطعمك عبدي فلان فلم تطعمه أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندي؟» الحديث، واختلفوا في المراد بهذا القرض، فقيل هو الإنفاق في سبيل الله، وقيل هو الصدقة الواجبة قيل صدقة التطوع لأن الله تعالى سماه قرضاً والقرض لا يكون إلّا تبرعاً ولما روى الطبري بسنده عن ابن مسعود قال: لما نزلت: ﴿من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً﴾ قال أبو الدحداح وإن الله يريد منا القرض؟ قال النبي ﷺ نعم يا أبا الدحداح قال: ناولني يدك فناوله يده قال: فإني قد أقرضت ربي حائطي حائطاً فيه ستمائة نخلة ثم جاء يمشي حتى أتى الحائط وأم الدحداح فيه في عيالها فناداها يا أم الدحداح قالت لبيك قال اخرجي من الحائط فإني قد أقرضته لربي، زاد غيره فقال النبي ﷺ: كم من عذق رداح لأبي الدحداح وقيل في معنى يقرض الله أي ينفق في طاعته فيدخل فيه الواجب والتطوع وهو الأقرب حسناً يعني محتسباً طيبة به نفسه. وقيل: هو الإنفاق من المال الحلال في وجوه البر وقيل هو أن لا يمن بالقرض ولا يؤذي وقيل هو الخالص لله تعالى ولا يكون فيه رياء ولا سمعة ﴿فيضاعفه له﴾ يعني ثواب ما أنفق ﴿أضعافاً كثيرة﴾ قيل هو يضاعفه إلى سبعمائة ضعف، وقال السدي هذا التضعيف لا يعلمه إلّا الله تعالى وهذا هو الأصح وإنما أبهم الله ذلك لأن ذكر المبهم في باب الترغيب أقوى من ذكر المحدود ﴿والله يقبض ويبسط﴾ قيل

فسمّى الله تعالى عملَ المؤمنين له على رجاء ما عِدّ لهم من الثواب قرضاً، لأنهم يعملونه لطلب ثوابه، قال الكسائي: القرض ما أسلفت من عمل صالح أو سيىء، وأصل القرض في اللغة: القطع، سُمّي به القرض لأنه يقطع به من ماله شيئاً يُعطيه ليرجع إليه مثله، وقيل في الآية اختصارٌ مجازه: مَن ذا الذي يقرض عباد الله والمحتاجين من خلقه، كقوله تعالى: ﴿ إن الذين يُؤذون اللّهَ ورسولَه ﴾ [الأحزاب: ٥٧] أي: يؤذون عباد الله، كما جاء في الحديث الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ اللّهَ تعالى يقول يوم القيامة: يا ابن آدم استطعمتُك فلم تطعمني، قال: يا ربّ كيف أطعمك وأنت ربّ العالمين؟ قال: استطعمَك عبدي فلان فلم تطعمه، أما عَلِمْتَ أنك لو أطعمته لوجدتَ ذلك عندي»؟ وقوله عزّ وجلّ: ﴿ يقرض الله ﴾ أي: ينفق في طاعة الله قرضاً حسناً، قال الحسين بن علي الواقدي يعني: محتسباً طيّبةً به نفسه. قال ابن المبارك: من مالٍ حلالٍ، وقال: لا يمنّ به ولا يُؤذي ﴿ فيضاعفه له ﴾، قرأ ابن كثير وأبو جعفر وابن عامر ويعقوب (فيضعّفه) وبابه بالتشديد، ووافق أبو عمرو في سورة الأحزاب [٣٠] وقرأ الآخرون ﴿فيضاعفه﴾ بالألف مخفّفاً، وهما لغتان، ودليل التشديد قوله: ﴿ أضعافاً كثيرةً ﴾ لأن التشديد للتكثير، وقرأ ابن عامر وعاصم ويعقوب بنصب الفاء، وكذلك في سورة الحديد على جواب الاستفهام، وقيل: بإضمار أن، وقرأ الآخرون برفع الفاء نسقاً على قوله يقرض: ﴿ أضعافاً كثيرة ﴾ قال السدي: هذا التضعيف لا يعلمه إلّا الله عزّ وجلّ، وقيل: سبعمائة ضعف، ﴿ والله يقبض

يقبض بإمساك الرزق والتقتير على من يشاء ويبسط بمعنى يوسع على من يشاء وقيل يقبض بقبول الصدقة ويبسط بالخلف والثواب وقيل إنه تعالى لما أمرهم بالصدقة وحثهم على الإنفاق أخبر أنه لا يمكنهم ذلك إلاّ بتوفيقه وإرادته وإعانته والمعنى والله يقبض بعض القلوب حتى لا تقدر على الإنفاق في الطاعة وعمل الخير ويبسط بعض القلوب حتى تقدر على فعل الطاعات والإنفاق في البر. كما روي عن عبدالله بن عمرو بن العاص قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن قلوب بني آدم بين أصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرفه حيث شاء» ثم قال رسول الله ﷺ: «اللهم مصرف القلوب ثبت قلوبنا على طاعتك» أخرجه مسلم. وهذا الحديث من أحاديث الصفات التي يجب الإيمان بها والسكوت عنها وإمرارها كما جاءت من غير تكييف ولا تشبيه ولا إثبات جارحة، هذا مذهب أهل السنة وسلف هذه الأمة ﴿وإليه ترجعون﴾ يعني في الآخرة فيجزيكم بأعمالكم. قوله عز وجل: .

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾

﴿ألم تر إلى الملأ من بني إسرائيل﴾ الملأ أشراف القوم ووجوههم وأصله الجماعة من الناس لا واحد له من لفظه كالقوم والرهط ﴿من بعد موسى﴾ أي من بعد موت موسى أي من بعد زمنه منه ﴿إذ قالوا﴾ يعني أولئك الملأ ﴿لنبي لهم﴾ اختلفوا في ذلك النبي فقيل هو يوشع بن نون بن أفرايم بن يوسف بن يعقوب وقيل هو شمعون بن صفية بن علقمة من ولد لاوي بن يعقوب وإنما سمي شمعون لأن أمه دعت الله أن يرزقها غلاماً فاستجاب الله لها فولدت غلاماً فسمته شمعون ومعناه سمع الله دعائي وتبدل السين بالعبرانية شيناً وقال أكثر المفسرين هو أشمويل بن يال وقيل: هو ابن هلفائي. قيل إنه من ولد هارون ومعرفة حقيقة ذلك النبي بعينه ليست مرادة من القصة إنما المراد منها الترغيب في الجهاد وذلك حاصل.

ويبسط ﴾، قرأ أهل البصرة وحمزة ﴿ يبسط ﴾ هنا وفي قولــه: ﴿ بسطة ﴾ [الأعراف: ٦٩] بالسين كنظائرهما، وقرأهما الآخرون بالصاد، وقيل: يقبض بإمساك الرزق والنَّفَس والتقتير، ويبسط بالتوسيع، وقيل: يقبض بقبول التوبة والصدقة، ويبسط بالخلف والثواب، وقيل: هو الإحياء والإماتة فمَن أماته فقد قبضه ومَن مدّ له في عمره فقد بسط له، وقيل: هذا في القلوب لِما أمرهم الله تعالى بالصدقة أخبر أنهم لا يمكنهم ذلك إلاّ بتوفيقه، قال: يقبض بعض القلوب فلا ينشط بالخير ويبسط بعضَها فيقدّم لنفسه خيراً كما جاء في الحديث «القلوب بين أصبعين من أصابع الله يقلبها الله كيف يشاء» الحديث، ﴿ وإليه تُرجعون ﴾، أي: إلى الله تعودون فيجزيكم بأعمالكم، وقال قتادة: الهاء راجعة إلى التراب كناية من غير مذكور، أي: من التراب خلقهم وإليه يعودون.

قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إلى الملأ من بني إسرائيل ﴾، والملأ من القوم: وجوههم وأشرافهم، وأصل الملأ: الجماعة من الناس، ولا واحد له من لفظه، كالقوم والرهط والإبل والخيل والجيش، وجمعه أمْلاء، ﴿ من بعد موسى ﴾، أي: من بعد موت موسى، ﴿ إذ قالوا لنبي لهم ﴾، واختلفوا في ذلك النبي، فقال قتادة: هو يوشع بن نون بن أفرائيم بن يوسف عليه السلام، وقال السدي: اسمه شمعون وإنما سُمّي شمعون لأن أُمه دعت الله أن يرزقها غلاماً فاستجاب الله دعاءها فولدت غلاماً فسمّته شمعون، تقول: سمع الله تعالى دعائي، والسين تصير شيناً

ذكر الإشارة إلى القصة

كان سبب مسألة أولئك الملأ لذلك النبي أنه لما مات موسى عليه السلام خلف من بعده في بني إسرائيل يوشع بن نون يقيم فيهم أمر الله تعالى. ويحكم بالتوراة حتى قبضه الله تعالى. ثم خلف من بعده كالب بن يوقنا كذلك، ثم حزقيل كذلك، حتى قبضه الله تعالى فعظمت الأحداث بعده في بني إسرائيل ونسوا عهد الله حتى عبدوا الأصنام فبعث الله إليهم إلياس نبياً فدعاهم إلى الله تعالى، وكانت الأنبياء من بني إسرائيل من بعد موسى يبعثون إليهم ليجددوا ما نسوا من التوراة ويأمروهم بالعمل بأحكامها. ثم خلف من بعد إلياس اليسع فكان فيهم ما شاء الله تعالى ثم قبضه الله تعالى. ثم خلف من بعده خلوف وعظمت فيهم الخطايا وظهر لهم عدو يقال له البلثاثا وهم قوم جالوت وكانوا يسكنون ساحل بحر الروم بين مصر وفلسطين وهم العمالقة فظهروا على بني إسرائيل وغلبوا على كثير من أرضهم وسبوا كثيراً من ذراريهم وأسروا من أبناء ملوكهم أربعمائة وأربعين غلاماً، فضربوا عليهم الجزية وأخذوا توراتهم ولقي بنو إسرائيل منهم بلاء وشدة ولم يكن لهم نبي يدبر أمرهم وكان سبط النبوة قد هلكوا كلهم إلا امرأة حبلى فحبسوها في بيت رهبة أن تلد جارية فتبدلها بغلام لما ترى من رغبة بني إسرائيل في ولدها وجعلت المرأة تدعو الله أن يرزقها غلاماً فولدت غلاماً فسمته أشمويل ومعناه بالعربية إسماعيل. تقول: سمع الله دعائي فلما كبر الغلام أسلمته لتعليم التوراة في بيت المقدس وكفله شيخ من علمائهم وتبناه فلما بلغ الغلام أتاه جبريل عليه السلام وهو نائم إلى جانب الشيخ وكان الشيخ لا يأمن عليه أحداً فدعاه جبريل بلحن الشيخ يا أشمويل! فقام الغلام فزعاً إلى الشيخ وقال: يا أبتاه رأيتك تدعوني فكره الشيخ أن يقول لا فيفزع الغلام فقال يا بني ارجع فنم فنام

بالعبرانية، وهو شمعون ابن صفيّة بنت علقمة من ولد لاوى بن يعقوب وقال سائر المفسّرين: هو أشمويل وهو بالعبرانية إسماعيل بن يال بن علقمة، وقال مقاتل: هو من نسل هـرون، وقال مجاهد: هو أشمويل، وهو بالعبرانية إسماعيل بن هلقايا، وقال وهب وابن إسحق والكلبي وغيرهم: كان سبب مسألتهم إياه ذلك أنه لمّا مات موسى عليه السلام خلف بعده في بني إسرائيل يوشع بن نون يقيم فيهم التوراة وأمر الله تعالى حتى قبضه الله تعالى، ثم خلف فيهم كالب بن يوقنا كذلك حتى قبضه الله تعالى، ثم خلف حزقيل حتى قبضه الله، ثم عظمت الأحداث في بني إسرائيل ونسوا عهد الله حتى عبدوا الأوثان، فبعث الله إليهم إلياس نبيّاً فدعاهم إلى الله تعالى وكانت الأنبياء من بني إسرائيل من بعد موسى يبعثون إليهم بتجديد ما نسوا من التوراة، ثم خلف من بعد إلياس اليسع، فكان فيهم ما شاء الله ثم قبضه الله، وخلف فيهم الخلوف وعظمت الخطايا فظهر لهم عدو يقال له البلثاثا، وهم قوم جالوت كانوا يسكنون ساحل بحر الروم بين مصر وفلسطين، وهم العمالقة فظهروا على بني إسرائيل وغلبوا على كثير من أرضهم وسبوا كثيراً من ذراريهم وأسروا من أبناء ملوكهم أربعمائة وأربعين غلاماً فضربوا عليهم الجزية، وأخذوا توراتهم ولقي بنو إسرائيل منهم بلاءً وشدةً، ولم يكن لهم مَن يدبّر أمرهم، وكان سبط النبوّة قد هلكوا فلم يبقَ منهم إلّا امرأة حبلى فحبسوها في بيتٍ رهبةَ أن تلدَ جاريةً فتبدّلها بغلام لما ترى من رغبة بني إسرائيل في ولدها وجعلت المرأة تدعو الله أن يرزقها غلاماً فولدت غلاماً فسمّته أشمويل، تقول: سمع الله تعالى دعائي، فكَبُرَ الغلام فأسلمته ليعلم التوراة في بيت المقدس، وكفله شيخ من علمائهم وتبنّاه، فلما بلغ الغلام أتاه جبريل وهو نائم إلى جنب الشيخ، وكان لا يأتمن عليه أحداً فدعاه جبريل بلحن الشيخ: يا أشمويل، فقام الغلام فزعاً إلى الشيخ فقال: يا أبتاه دعوتني، فكره الشيخ أن يقول لئلا يفزع الغلام، وقال: يا بني ارجع فنم فرجع الغلام فنام، ثم دعاه الثانية، فقال الغلام: يا أبت دعوتني، فقال: ارجع فنم فإن دعوتك الثالثة فلا تجبني، فلما كانت الثالثة ظهر له جبريل، فقال له: اذهب إلى قومك فبلّغهم رسالة ربّك فإنّ الله قد بعثك فيهم نبيّاً، فلما أتاهم كذّبوه وقالوا: استعجلت بالنبوّة ولم

ثم دعاه الثانية فقال الغلام: دعوتني فقال: نم فإن دعوتك فلا تجبني فلما كانت الثالثة ظهر له: جبريل عليه السلام وقال له اذهب إلى قومك فبلغهم رسالة ربك فإن الله قد بعثك فيهم نبياً فلما أتاهم كذبوه وقالوا له استعجلت بالنبوة ولم تنلك وقالوا له إن كنت صادقاً فابعث لنا ملكاً نقاتل في سبيل الله آية على نبوتك وإنما كان قوام أمر بني إسرائيل بالاجتماع على الملوك وطاعة الملوك أنبياءهم وكان الملك هو الذي يسير بالجموع والنبي هو الذي يقيم له أمره ويشير عليه ويرشده ويأتيه بالخبر من ربه. قال وهب فبعث الله أشمويل نبياً فلبثوا أربعين سنة بأحسن حال ثم كان من أمر جالوت والعمالقة ما كان فذلك قوله تعالى: ﴿**إذ قالوا لنبي لهم ابعث لنا ملكاً نقاتل في سبيل الله**﴾ جزم على جواب الأمر فلما قالوا له ذلك ﴿**قال**﴾ يعني قال النبي ﷺ ﴿**هل عسيتم**﴾ هذا استفهام شك يقول لعلكم ﴿**إن كتب**﴾ أي فرض ﴿**عليكم القتال**﴾ يعني مع ذلك الملك ﴿**أن لا تقاتلوا**﴾ يعني لا تفوا بما قلتم وتجنبوا عن القتال معه ﴿**قالوا وما لنا أن لا نقاتل في سبيل الله**﴾. فإن قلت ما وجه دخول أن والعرب لا تقول ما لك أن لا تفعل كذا ولكن تقول ما لك لا تفعل كذا. قلت دخول أن وحذفها لغتان صحيحتان فالإثبات كقوله: ﴿**ما لك أن لا تكون مع الساجدين**﴾ والحذف كقوله ﴿**ما لكم لا تؤمنون**﴾ وقيل معناه: وما لنا في أن لا نقاتل بحذف حرف الجر وقيل أن هنا زائدة ومعناه وما لنا لا نقاتل في سبيل الله ﴿**وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا**﴾ أي أخرج من غلب عليهم من ديارهم فظاهر الكلام العموم وباطنه الخصوص لأن الذين قالوا لنبيهم ابعث لنا ملكاً كانوا في ديارهم وأبنائهم وإنما أخرج من أسر منهم ومعنى الآية أنهم قالوا لنبيهم إنا إنما كنا تركنا الجهاد لأنا كنا ممنوعين في بلادنا لا يظهر علينا عدونا فأما إذا بلغ ذلك منا فنطيع ربنا في جهاد عدونا ونمنع نساءنا وأولادنا قال الله تعالى: ﴿**فلما كتب عليهم القتال**﴾ في الكلام حذف وتقديره فسأل الله ذلك النبي فبعث لهم ملكاً وكتب عليهم القتال فلما كتب عليهم القتال ﴿**تولوا**﴾ أي أعرضوا عن الجهاد وضيعوا أمر الله ﴿**إلا قليلاً منهم**﴾ يعني لم يتولوا عن الجهاد هم الذين

تنلك، وقالوا له: إن كنت صادقاً فابعث لنا ملكاً نقاتل في سبيل الله آيةً من نبوّتك، وإنما كان قِوام أمر بني إسرائيل بالاجتماع على الملوك، وطاعة الملوك لأنبيائهم، فكان الملك هو الذي يَسير بالجموع والنبي يقيم له أمره ويشير عليه برشده، ويأتيه بالخبر من رَبّه، قال وهب بن منبه: بعث الله تعالى أشمويل نبيّاً فلبثوا أربعين سنة بأحسن حال، ثم كان من أمر جالوت والعمالقة ما كان، فقالوا لأشمويل: ﴿ ابعث لنا ملكاً نقاتلْ في سبيل الله ﴾، جزم على جواب الأمر، فلما قالوا له ذلك، ﴿ قال هل عسيتم ﴾، استفهام شك، يقول: لعلكم، قرأ نافع ﴿ عسِيتم ﴾ بكسر السين، كل القرآن، وقرأ الباقون بالفتح، وهي اللغة الفصيحة بدليل قوله تعالى: ﴿ عسى ربكم ﴾ [الأعراف: ١٢٩، الإسراء: ٨، التحريم: ٨]، ﴿ إنْ كُتبَ ﴾: فُرِضَ ﴿ عليكم القتالُ ﴾، من ذلك الملِك، ﴿ أن لا تقاتلوا ﴾، أن لا تَفُوا بما تقولون ولا تقاتلوا معه، ﴿ قالوا ومَا لنا أنْ لا نُقاتلَ في سبيلِ الله ﴾، فإن قيل: فما وجه دخول أن في هذا الموضع، والعرب لا تقول ما لك أن لا تفعل، وإنما يقال: ما لك لا تفعل؟ قيل: دخول أن وحذفها لغتان صحيحتان، فالإثبات كقوله تعالى: ﴿ ما لك أن لا تكونَ مع الساجدين ﴾ [الحجر: ٣٢]، والحذف كقوله تعالى: ﴿ ما لكم لا تُؤمنون بالله ﴾ [الحديد: ٨]، وقال الكسائي: معناه وما لنا في أن لا نقاتل، فحذف في، وقال الفرّاء: أي: وما يمنعنا أن لا نقاتل في سبيل الله، كقوله تعالى: ﴿ ما منعك أنْ لا تسجد ﴾ [الأعراف: ١٢]، وقال الأخفش: أنْ ههنا زائدة معناه: وما لنا لا نقاتل في سبيل الله، ﴿ وقد أُخرجنا من ديارنا وأبنائنا ﴾، أي أخرج مَن غلب عليهم من ديارهم ظاهر الكلام العموم، وباطنه الخصوص، لأن الذين قالوا لنبيّهم: ابعث لنا ملكاً نقاتل في سبيل الله كانوا في ديارهم وأوطانهم، وإنما أخرج مَن أُسر منهم، ومعنى الآية: أنهم قالوا مجيبين لنبيّهم: إنما كنّا نزهد في الجهاد إذْ كنّا ممنوعين في بلادنا لا يظهر علينا عدوّنا، فأما إذا بلغ ذلك منّا فنطيع ربنا في الجهاد، ونمنع

عبروا النهر مع طالوت واقتصروا على الغرفة على ما سيأتي في قصتهم إن شاء الله تعالى ﴿والله عليم بالظالمين﴾ يعني هو عالم بمن ظلم نفسه حين خالف أمر ربه ولم يف بما قال. قوله عز وجل: .

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًاۚ قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِي ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ٢٤٧﴾

﴿وقال لهم نبيهم إن الله قد بعث لكم طالوت ملكاً﴾ وذلك أن أشمويل سأل الله عز وجل أن يبعث لهم ملكاً فأتى بعصا وقرن فيه دهن القدس، وقيل له إن صاحبكم الذي يكون ملكاً يكون طوله طول هذه العصا وانظر إلى القرن الذي فيه الدهن فإذا دخل عليك رجل فنش الدهن في القرن فهو ملك بني إسرائيل فادهن رأسه بالدهن وملكه عليهم واسم طالوت بالعبرانية ساول بن قيس من سبط بنيامين بن يعقوب. وإنما سمي طالوت لطوله وكان أطول من جميع الناس برأسه ومنكبيه وكان طالوت رجلاً دباغاً يدبغ الأديم قاله وهب وقيل كان سقاء يستقي الماء على حمار فضلّ حماره فخرج يطلبه. وقال وهب: ضلت حمر لأبي طالوت فأرسله أبوه ومعه غلام في طلبها فمر على بيت أشمويل النبي فقال الغلام لطالوت لو دخلنا على هذا النبي فسألناه عن أمر الحمر ليرشدنا أو ليدعو لنا فدخلا عليه فبينما هما عنده يذكران له حاجتهما إذ نش الدهن في القرن فقام أشمويل فقاس طالوت بالعصا فكانت على طوله فقال لطالوت قرب رأسك فقربه إليه فدهنه بدهن القدس. وقال له: أنت ملك بني إسرائيل الذي أمرني الله تعالى أن أملكك عليهم فقال طالوت أوما علمت أن سبطي من أدنى أسباط بني إسرائيل قال: بلى قال فبأي آية قال بآية أنك ترجع وقد وجد أبوك حمره فكان كذلك ثم قال لبني إسرائيل إن الله قد بعث لكم طالوت ملكاً وقيل إنه جلس عنده وقال يا أيها الناس إن الله ملك طالوت فأتت عظماء بني إسرائيل إلى نبيهم أشمويل وقالوا له: ما شأن طالوت تملك علينا وليس هو من بيت النبوة ولا المملكة وقد عرفت أن النبوة في سبط لاوي بن يعقوب

نساءنا وأولادنا، قال الله تعالى: ﴿ فلمّا كُتبَ عليهم القتالُ تولّوا ﴾: أعرضوا عن الجهاد وضيّعوا أمر الله، ﴿ إلاّ قليلاً منهم ﴾، وهم الذين عبروا النهر مع طالوت واقتصروا على الغرفة، على ما سيأتي إن شاء الله تعالى، ﴿ والله عليم بالظالمين ﴾.

﴿ وقال لهم نبيّهم إنّ اللّهَ قد بعثَ لكم طالوتَ مَلِكاً ﴾، وذلك أن أشمويل سأل الله تعالى أن يبعث لهم ملكاً فأتى بعصاً وقرن فيه دهن القدس، وقيل له: إن صاحبكم الذي يكون طولهُ طولَ هذه العصا، وانظر هذا القرن الذي فيه الدهن، فإذا دخل عليك رجل فنشّ الدهن الذي في القرن فهو مَلِكُ بني إسرائيل، فادْهن به رأسَه وملّكه عليهم، وكان طالوت اسمه بالعبرانية ساول بن قيس من أولاد بنيامين بن يعقوب، سُمّي طالوت لطوله، وكان أطول من كل أحد برأسه ومنكبيه، وكان رجلاً دبّاغاً يعمل الأديم، قاله وهب، وقال السدي: كان رجلاً سقّاءً يسقي على حمار له من النيل، فضلّ حماره فخرج في طلبه، وقال وهب: بل ضلّتْ حُمرٌ لأبي طالوت فأرسله وغلاماً له في طلبها فمرّا بِبيْتِ أشمويل عليه السلام، فقال الغلام لطالوت: لو دخلنا على هذا النبي فسألناه عن أمر الحُمر ليرشدنا ويدعو لنا، فدخلا عليه فبينما هما عنده يذكران له حاجتَهما، إذْ نَشّ الدهنُ الذي في القرن، فقام أشمويل عليه السلام فقاس طالوت بالعصا فكانت طوله، فقال لطالوت: قرّبْ رأسكَ فقرّبه فدهنه بدهن القدس، ثم قال له: أنت

والمملكة في سبط يهوذا بن يعقوب فقال لهم نبيهم أشمويل إن الله قد بعث لكم طالوت ملكاً ﴿**قالوا أنى يكون له الملك علينا**﴾ أي من أين يكون له الملك وكيف يستحقه ﴿**ونحن أحق بالملك منه**﴾ إنما قالوا ذلك لأنه كان في بني إسرائيل سبطان سبط نبوة وسبط مملكة فسبط النبوة سبط لاوي بن يعقوب ومنه كان موسى وهارون عليهما السلام وسبط المملكة سبط يهوذا بن يعقوب ومنه كان داود وسليمان عليهما السلام ولم يكن طالوت من أحدهما. وإنما كان من سبط بنيامين بن يعقوب فلهذا السبب أنكروا كونه ملكاً لهم وزعموا أنهم أحق بالملك منه ثم أكدوا ذلك بقولهم ﴿**ولم يؤت سعة من المال**﴾ يعني أنه فقير والملك يحتاج إلى المال ﴿**قال**﴾ يعني أشمويل النبي ﴿**إن الله اصطفاه عليكم**﴾ أي اختاره عليكم وخصه بالملك وفي هذه الآية دليل على بطلان قول من زعم من الشيعة أن الإمامة موروثة وذلك لأن بني إسرائيل أنكروا أن يكون ملكهم من لا يكون من بيت المملكة فرد الله عليهم وأعلمهم أن هذا شرط فاسد والمستحق للملك من خصه الله به ﴿**وزاده بسطة**﴾ أي فضيلة وسعة ﴿**في العلم**﴾ وذلك أنه كان من أعلم بني إسرائيل وقيل إنه أوحى إليه حين أوتي الملك وقيل هو العلم في الحرب ﴿**والجسم**﴾ يعني بالطول وذلك لأنه كان أطول من الناس برأسه ومنكبيه وقيل بالجمال وكان طالوت من أجمل بني إسرائيل وقيل المراد به القوة لأن العلم بالحروب والقوة على الأعداء مما فيه حفظ المملكة ﴿**والله يؤتي ملكه من يشاء**﴾ يعني أن الله تعالى لا اعتراض عليه لأحد في فعله فيخص بملكه من يشاء من عباده ﴿**والله واسع**﴾ يعني أن الله تعالى واسع الفضل والرزق والرحمة وسعت رحمته كل شيء ووسع فضله ورزقه كل خلقه والمعنى أنكم طعنتم في طالوت بكونه فقيراً والله واسع الفضل والرزق فإذا فوض إليه الملك فتح عليه أبواب الرزق والمال من فضله وسعته وقيل الواسع ذو السعة وهو الذي يعطي عن غنى ﴿**عليم**﴾ يعني أنه تعالى مع قدرته على إغناء الفقير عالم بما يحتاج إليه في تدبير نفسه وملكه والعليم هو العالم بما يكون وبما كان. قوله عز وجل: .

وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ

مِلكُ بني إسرائيل الذي أمرني الله تعالى أن أملِّكه عليهم، فقال طالوت: أما علمت أنّ سبطي أدنى أسباط بني إسرائيل، وبيتي أدنى بيوت بني إسرائيل؟ قال: بلى، قال: فبأيّ آية؟ قال: بآية أنك ترجع وقد وجد أبوك حُمُرَه، فكان كذلك، ثم قال لبني إسرائيل: إن الله قد بعث لكم طالوت مَلِكاً، ﴿ **قالوا أَنّى يكونُ له الملكُ علينا** ﴾، أي: من أين يكون له الملك علينا؟ ﴿ **ونحن أحقّ** ﴾: أولى ﴿ **بالما'، منه** ﴾؟ وإنما قالوا ذلك لأنه كان في بني إسرائيل سبطان، سبط النبوّة وسبط المملكة، فكان سبط النبوّة سبط لاوى بن يعقوب، ومنه كان موسى وهٰرون، وسبط المملكة سبط يهوذا بن يعقوب، ومنه كان داود وسليمان، ولم يكن طالوت من أحدهما، إنما كان من سبط بِنْيامين بن يعقوب، وكانوا عملوا ذنباً عظيماً، كانوا ينكحون النساء على ظهر الطريق نهاراً، فغضب الله تعالى عليهم ونزع الملك والنبوّة عنهم، وكانوا يسمّونه سبط الإثم، فلما قال لهم نبيّهم ذلك، أنكروا عليه لأنه لم يكن من سبط المملكة، ومع ذلك قالوا: هو فقير، ﴿ **ولم يُؤتَ سعَةً من المال، قال إن الله اصطفاه** ﴾: اختاره ﴿ **عليكم وزادَه بَسْطةً** ﴾: فضيلة وسِعَة ﴿ **في العلم والجسم** ﴾، وذلك أنه كان أعلم بني إسرائيل في وقته، وقيل: إنه أتاه الوحي حين أُوتي الملك، وقال الكلبي: ﴿ **وزاده بسطة** ﴾ فضيلة وسعة في العلم بالحرب، وفي الجسم بالطول، وقيل: الجسم بالجمال، وكان طالوت أجمل رجل في بني إسرائيل وأعلمهم، ﴿ **واللّهُ يُؤتي مُلكه مَن يشاء والله واسع عليم** ﴾، قيل: الواسع ذو السعة وهو الذي يعطي عن غنى، والعليم العالم، وقيل: العالم بما كان، والعليم بما يكون، فقالوا له: فما آية ملكـه؟ فقال لهم نبيّهم: إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت.

مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾

﴿**وقال لهم نبيهم إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت**﴾ وذلك أنهم سألوا أشمويل النبي فقالوا ما آية ملكه فقال: إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت. وكانت قصة التابوت على ما ذكره علماء السير والأخبار أن الله تعالى أنزل على آدم عليه السلام تابوتاً فيه صور الأنبياء عليهم السلام وكان التابوت من خشب الشمشاد طوله ثلاثة أذرع في عرض ذراعين فكان عند آدم ثم صار إلى شيث ثم توارثه أولاد آدم إلى أن بلغ إبراهيم عليه السلام ثم كان عند إسماعيل لأنه كان أكبر أولاده ثم صار إلى يعقوب ثم كان في بني إسرائيل إلى أن وصل إلى موسى عليه السلام فكان يضع فيه التوراة ومتاعاً من متاعه ثم كان عنده إلى أن مات ثم تداوله أنبياء بني إسرائيل إلى وقت أشمويل وكان في التابوت ما ذكر الله تعالى وهو قوله: ﴿**فيه سكينة من ربكم**﴾ واختلفوا في تلك السكينة ما هي فقال علي بن أبي طالب: هي ريح خجوج هفافة لها رأسان ووجه كوجه الإنسان. وقال مجاهد: هي شيء يشبه الهرة له رأس كرأس الهرة وذنب كذنب الهرة وله جناحان، وقيل له عينان لهما شعاع وجناحان من زمرد وزبرجد، وكانوا إذا سمعوا صوته تيقنوا النصر، فكانوا إذ خرجوا وضعوا التابوت قدامهم، فإذا سار ساروا وإذا وقف وقفوا. وقال ابن عباس هي طشت من ذهب من الجنة كان يغسل فيه قلوب الأنبياء وقال وهب هي روح من الله تعالى تتكلم إذا اختلفوا في شيء فتخبرهم ببيان ما يريدون. وقال عطاء بن أبي رباح هي ما يعرفون من الآيات التي يسكنون إليها وقال قتادة والكلبي هي فعلية من السكون أي طمأنينة من ربكم ففي أي مكان كان التابوت اطمأنوا وسكنوا إليه وهذا القول أولى بالصحة فعلى هذا كل شيء كانوا يسكنون إليه فهو سكينة فيحمل على جميع ما قيل فيه لأن كل شيء يسكن إليه القلب فهو سكينة ولم يرد فيه نص صريح فلا يجوز تصويب قول وتضعيف آخر.

وقوله تعالى: ﴿**وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون**﴾ يعني موسى وهارون أنفسهما بدليل قوله ﷺ لأبي موسى الأشعري: «لقد أوتيت مزماراً من مزامير آل داود» فالمراد به داود نفسه. واختلفوا في تلك البقية التي ترك

فذلك قوله تعالى: ﴿ وقال لهم نبيّهم إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت ﴾، وكانت قصة التابوت أن الله تعالى أنزل تابوتاً على آدم فيه صورة الأنبياء عليهم السلام، وكان من عود الشمشاد نحواً من ثلاثة أذرع في ذراعين، فكان عند آدم إلى أن مات، ثم بعد ذلك عند شيث، ثم توارثه أولاد آدم إلى أن بلغ إبراهيم، ثم عاد عند إسماعيل لأنه كان أكبر ولده، ثم عند يعقوب ثم كان في بني إسرائيل إلى أن وصل إلى موسى، فكان موسى يضع فيه التوراة، ومتاعاً من متاعه، فكان عنده إلى أن مات موسى عليه السلام، ثم تداولته أنبياء بني إسرائيل إلى وقت أشمويل، وكان فيه ما ذكرَ اللَّهُ تعالى: ﴿ فيه سكينة من ربكم ﴾، اختلفوا في السكينة ما هي؟ قال عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه: ريح خجوج هفافة لها رأسان، ووَجه كوجه الإنسان، وعن مجاهد: شيء يشبه الهرّة له رأس كرأس الهرّة وذنب كذنب الهرّة وله جناحان، وقيل: له عينان لهما شعاع وجناحان من زُمُردٍ وزَبَرْجدٍ فكانوا إذا سمعوا صوته تيقّنوا بالنصرة، وكانوا إذا خرجوا وضعوا التابوتَ قُدّامهم، فإذا سارَ ساروا، وإذا وقف وقفوا، وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: هي طشتٌ من ذهب من الجنة، كان يُغسل فيه قلوبُ الأنبياء، وعن وهب بن منبه قال: هي روح من الله يتكلم إذا اختلفوا في شيء يخبرهم ببيان ما يُريدون، وقال عطاء بن أبي رباح: هي ما يعرفون من الآيات فيسكنون إليها، وقال قتادة والكلبي: السكينة فعيلة من السكون أي: طمأنينه من ربّكم، ففي أيّ مكان كان التابوت اطمأنوا إليه وسكنوا، ﴿ وبقيةٌ مما ترك آل موسى وآل هـٰرون ﴾، يعني: موسى وهارون نفسهما، كان فيه لوحان من التوراة

آل موسى وآل هارون فقيل رضاض من الألواح وعصا موسى قاله ابن عباس وقيل عصا موسى وعصا هارون وشيء من ألواح التوراة وقيل كانت العلم والتوراة. وقيل كان فيه عصا موسى ونعلاه وعصا هارون وعمامته وقفيز من المن الذي ينزل على بني إسرائيل فكان التابوت عند بني إسرائيل يتوارثونه قرناً بعد قرن وكانوا إذا اختلفوا في شيء تحاكموا إليه فيتكلم ويحكم بينهم. وكانوا إذا حضروا القتال قدموه بين أيديهم يستفتحون به على عدوهم فينصرون فلما عصوا وأفسدوا سلط الله عز وجل عليهم العمالقة فغلبوهم على التابوت وأخذوه منهم وكان السبب في ذلك أنه كان لعيلى وهو الذي ربى أشمويل ابنان شابان وكان عيلى حبر بني إسرائيل وصاحب قربانهم في زمنه فأحدث ابناه في القربان شيئاً لم يكن فيه وذلك أنه كان منوط القربان الذي ينوطونه كلابين فما أخرجا كانا للكاهن الذي كانا ينوطه فجعل ابناه كلاليب. وكان النساء يصلين في بيت المقدس فيتشبثان بهن فأوحي إلى أشمويل: أن انطلق إلى عيلى وقل له منعك حب الولد من أن تزجر ابنيك عن أن يحدثا في قرباني وقدسي شيئاً وأن يعصياني فلأنزعن الكهانة منك ومن ولدك ولأهلكنك وإياهما. فأخبره أشمويل بذلك ففزع وسار إليهم عدوهم من حولهم فأمر عيلى ابنيه أن يخرجا بالناس فيقاتلا ذلك العدو فخرجا وأخرجا معهما التابوت فلما تهيؤوا القتال جعل عيلى يتوقع الخبر فجاءه رجل فأخبره أن الناس قد انهزموا وقد قتل ابناه قال: فما فعل في التابوت قال أخذه العدو. وكان عيلى قاعداً على كرسيه فشهق ووقع على قفاه فمات فخرج أمر بني إسرائيل وتفرقوا إلى أن بعث الله طالوت ملكاً فسألوا أشمويل البينة على صحة ملك طالوت فقال لهم نبيهم يعني أشمويل: إن آية ملكه يعني علامة ملكة التي تدل على صحته أن يأتيكم التابوت وكانت قصة رجوع التابوت على ما ذكره أصحاب الأخبار أن الذين أخذوا التابوت من بني إسرائيل أتوا به قرية من قرى فلسطين يقال لها أزدود فجعلوه في بيت أصنام لهم ووضعوه تحت الصنم الأعظم فأصبحوا من الغد والصنم تحته فأخذوه ووضعوه فوقه وسمروا قدمي الصنم على التابوت فأصبحوا وقد قطعت يد

ورضاض الألواح التي تكسّرتْ، وكان فيه عصا موسى ونعلاه، وعمامة هارون وعصاه، وقَفيزٌ من المنّ الذي كان ينزل على بني إسرائيل، فكان التابوت عند بني إسرائيل وكانوا إذا اختلفوا في شيء تكلّم وحكم بينهم، وإذا حضروا القتال قدّموه بين أيديهم فيستفتحون به على عدوّهم، فلما عصوا وأفسدوا سلّط الله عليهم العمالقة فغلبهم على التابوت، وكان السبب في ذ... انه كان لَعيْلَى العالِم الذي ربّى أشمويل عليه السلام ابنان شابّان وكان عيلى حبرَهم وصاحبَ قربانهم، فأحدث ابناه في القربان شيئاً لم يكن فيه، وذلك أنه كان لَعيْلَى منوط القربان الذي كانوا ينوطونه به كلابين، فما أخرجا كان للكاهن الذي ينوطه فجعل ابناه كلاليب، وكان النساء يصلّين في بيت المقدس فيتشبثان بهنّ، فأوحى الله تعالى إلى أشمويل عليه السلام انطلق إلى عِيلَى فقل له: منعك حبُّ الولد من أن تزجر ابنيك عن أن يُحدثا في قرباني وقدسي شيئاً، وأن يعصياني فلأنزعنّ الكهانة منك ومن ولدك ولأهلكنّك وإياهم، فأخبر أشمويل عيلى بذلك ففزع فزعاً شديداً، فصار إليهم عدوٌّ ممّن حولهم فأمر ابنيه أن يخرجا بالناس فيقاتلا ذلك العدو، فخرجا وأخرجا معهما التابوت فلما تهيؤوا للقتال جعل عِيلى يتوقع الخبر ماذا صنعوا، فجاءه رجلٌ وهو قاعد على كرسيه فقال: إن الناس قد انهزموا وإن ابْنيك قد قُتلا، قال: فما فعل التابوت؟ قال: ذهب به العدو فشهق ووقع على قفاه من كرسيه ومات، فخرج أمْرُ بني إسرائيل وتفرّقوا إلى أن بعث الله طالوت ملكاً، فسألوه البيّنة فقال لهم نبيّهم: إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت، وكانت قصة التابوت أن الذين سبوا التابوت أتَوا به قرية من قرى فلسطين يقال لها أزدود وجعلوه في بيت صنم لهم ووضعوه تحت الصنم الأعظم فأصبحوا من الغد والصنم تحته فأخذوه ووضعوه فوقه وشمّروا قدمي الصنم على التابوت فأصبحوا وقد قُطعتْ يد الصنم ورجلاه، وأصبح ملقىً تحت التابوت، وأصبحت أصنامُهم منكّسةً فأخرجوه من بيت الصنم ووضعوه في ناحية من مدينتهم، فأخذ أهلَ تلك

الصنم ورجلاه وأصبح الصنم ملقى تحت التابوت وأصبحت أصنامهم منكسة فأخرجوا التابوت من بيت الأصنام ووضعوه في ناحية من مدينتهم فأخذ أهل تلك الناحية وجع في أعناقهم حتى هلك أكثرهم. فقال بعضهم لبعض أليس قد علمتم أن إله بني إسرائيل لا يقوم له شيء فأخرجوه إلى قرية أخرى فبعث الله على أهل تلك الناحية فأرة فكانت الفأرة تبيت مع الرجل فيصبح ميتاً قد أكلت ما في جوفه. فأخرجوه إلى الصحراء ودفنوه في مخرأة لهم فكان كل من تبرز هناك أخذه الباسور والقولنج فتحيروا فيه فقالت لهم امرأة من بني إسرائيل كانت عندهم وهي من بنات الأنبياء: لا تزالون ترون ما تكرهون ما دام هذا التابوت فيكم فأخرجوه عنكم. فأتوا بعجلة بإشارة تلك المرأة وحملوا عليها التابوت ثم علقوها في ثورين وضربوا جنوبهما فأقبل الثوران يسيران ووكل الله بالثورين أربعة أملاك يسوقونهما فأقبلا حتى وقفا على أرض بني إسرائيل فكسرا نيريهما وقطعا حبالهما ووضعا التابوت في أرض فيها حصاد لبني إسرائيل ورجعا إلى أرضهما ما لم يرع بني إسرائيل إلا والتابوت عندهم فكبروا وحمدوا الله تعالى.

﴿تحمله الملائكة﴾ أي تسوقه. وقال ابن عباس جاءت الملائكة بالتابوت تحمله بين السماء والأرض وهم ينظرون إليه حتى وضعته عند طالوت. وقال الحسن كان التابوت مع الملائكة في السماء فلما ولي طالوت الملك حملته الملائكة ووضعته بينهم. وقال قتادة بل كان التابوت في التيه خلفه موسى عند يوشع بن نون فبقي هناك فأقبلت الملائكة تحمله حتى وضعته في دار طالوت فأصبح في داره فأقروا بملكه ﴿إن في ذلك لآية لكم﴾ يعني قال لهم نبيهم أشمويل إن في مجيء التابوت تحمله الملائكة لآية لكم يعني علامة ودلالة على صدقي فيما أخبرتكم أن الله قد بعث لكم طالوت ملكاً ﴿إن كنتم مؤمنين﴾ يعني مصدقين بذلك قال المفسرون فلما جاءهم التابوت وأقروا بالملك لطالوت تأهب للخروج إلى الجهاد فأسرعوا لطاعته وخرجوا معه وذلك قوله تعالى:

فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا

الناحية وجعٌ في أعناقهم حتى هلك أكثرهم، فقال بعضهم لبعض: أليس قد علمتم أن إلَه بني إسرائيل لا يقوم له شيء فأخرجوه إلى قرية كذا، فبعث الله على أهل تلك القرية فأراً فكانت الفأرة تبيت مع الرجل فيصبح ميتاً قد أكلت ما في جوفه، فأخرجوه إلى الصحراء فدفنوه في مخرأة لهم، فكان كل مَن تبرز هناك أخذه الباسور والقولنج فتحيّـروا، فقالت لهم امرأة كانت عندهم من سبى بني إسرائيل من أولاد الأنبياء: لا تزالون ترون ما تكرهون ما دام هذا التابوت فيكم فأخرجوه عنكم، فأتوا بعجلةٍ، بإشارة تلك المرأة، وحملوا عليها التابوت، ثم علّقوها على ثورين وضربوا جُنوبَهما، فأقبل الثوران يسيران، ووكّل الله تعالى بهما أربعة من الملائكة يسوقونها، فأقبلا حتى وقفا على أرض بني إسرائيل فكسرَا نِيرَيْهِمَا وقطعَا حبالَهما ووضعا التابوت في أرض فيها حصاد بني إسرائيل ورجعا إلى أرضهما، فلم يرعَ بني إسرائيل إلّا بالتابوت، فكبّروا وحمدُوا اللَّهَ، فذلك قوله تعالى: ﴿ تحمله الملائكة ﴾، أي: تسوقه، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: جاءت الملائكة بالتابوت تحمله بين السماء والأرض وهم ينظرون إليه حتى وضعته عند طالوت، وقال الحسن: كان التابوت مع الملائكة في السماء فلما وَلِيَ طالوتُ المُلْكَ حملته الملائكة ووضعته بينهم، وقال قتادة: بل كان التابوت في التيه خلفه موسى عبد يوشع بن نون فبقي هناك، فحملته الملائكة حتى وضعته في دار طالوت فأقرّوا بملكه، ﴿ إن في ذلك لآية ﴾: لعبرة، ﴿ لكم إن كنتم مؤمنين ﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما: إن التابوت وعصى موسى في بحيرة طبرية، وإنهما يخرجان قبل يوم القيامة.

مَعَهُۥ قَالُواْ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾

﴿فلما فصل طالوت بالجنود﴾ أي خرج وأصل الفصل القطع يعني قطع مستقره شاخصاً إلى غيره فخرج طالوت من بيت المقدس بالجنود وهم سبعون ألف مقاتل. وقيل ثمانون ألفاً وقيل مائة وعشرون ألفاً ولم يتخلف عنه إلا كبير لكبره أو مريض لمرضه أو معذور لعذره وذلك أنهم لما رأوا التابوت لم يشكوا في النصر فسارعوا إلى الخروج في الجهاد وكان مسيرهم في حر شديد فشكوا إلى طالوت قلة الماء بينهم وبين عدوهم وقالوا إن المياه لا تحملنا فادع الله أن يجري لنا نهراً ﴿فقال﴾ طالوت ﴿إن الله مبتليكم بنهر﴾ أي مختبركم به لتبين طاعتكم وهو أعلم بذلك قال ابن عباس هو نهر فلسطين وقيل هو نهر عذب بين الأردن وفلسطين ﴿فمن شرب منه فليس مني﴾ أي فليس من أهل ديني وطاعتي ﴿ومن لم يطعمه﴾ أي لم يذقه يعني الماء ﴿فإنه مني﴾ يعني من أهل طاعتي ﴿إلا من اغترف غرفة بيده﴾ قرىء بفتح الغين وضمها لغتان، وقيل الغرفة بالضم التي تحصل في الكف من الماء والغرفة بالفتح الاغتراف فالضم اسم والفتح مصدر ﴿فشربوا منه﴾ يعني من النهر ﴿إلا قليلاً منهم﴾ قيل هم أربعة آلاف لم يشربوا منه وقيل ثلاثمائه وبضعة عشر رجلاً وهو الصحيح ويدل على ذلك ما روي عن البراء بن عازب قال: «كان أصحاب محمد ﷺ يتحدثون أن عدة أصحاب بدر على عدة أصحاب طالوت الذين جاوزوا معه النهر ولم يجاوزه معه إلا مؤمن بضعة عشر وثلاثمائة» أخرجه البخاري قيل البضع هنا ثلاثة عشر، فلما وصلوا إلى النهر ألقي عليهم العطش فشرب منه الكل إلا هذا العدد القليل وكان من اغترف منه غرفة كما أمره الله تعالى كفته لشربه وشرب دوابه وقوي قلبه وصح إيمانه وعبر النهر سالماً والذين شربوا منه وخالفوا أمر الله تعالى اسودت شفاههم وغلبهم العطش فلم يرووا وجبنوا وبقوا على شط النهر ولم يجاوزوه، وقيل جاوزوه كلهم ولكن الذين شربوا لم يحضروا القتال

قوله تعالى: ﴿ فلما فصلَ طالوتُ بالجنود ﴾، أي: خرج بهم، وأصل الفصل: القطع، يعني: قطع مستقرَه شاخصاً إلى غيره، فخرج طالوت من بيت المقدس بالجنود وهم يومئذ سبعون ألف مقاتل، وقيل: ثمانون ألفاً لم يتخلّف عنه إلّا كبيرٌ لهَرمِه أو مريضٌ لمرضه، أو معذور لعذره، وذلك أنهم لمّا رأوا التابوت لم يشكّوا في النصر فتسارعوا إلى الجهاد، فقال طالوت: لا حاجة لي في كل ما أرى لا يخرجْ معي رجل يبني بناءً لم يفرغْ منه، ولا صاحب تجارة يشتغل بها، ولا رجل عليه دين ولا رجلِ تزوج امرأة ولم يبنِ بها، ولا يتبعني إلّا الشاب النشيط الفارغ، فاجتمع له ثمانون ألفاً مِنْ شَرْطِه، وكان في حرٍّ شديد فشكوا قِلّة الماء بينهم وبين عدوّهم، فقالوا: إن المياه قليلة لا تحملنا فادعُ اللَّهَ أن يُجري لنا نهراً، ﴿ قال ﴾ طالوت: ﴿ إنّ الله مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ ﴾: مختبركم ليرى طاعتَكم وهو أعلم، ﴿ بنهر ﴾ قال ابن عباس والسدي: هو نهر فلسطين، وقال قتادة: نهر بين أردن وفلسطين عذب، ﴿ فمَنْ شربَ منه فليسَ منّي ﴾، أي: من أهل ديني وطاعتي، ﴿ ومَن لَمْ يطعمْه ﴾: لم يشربه ﴿ فإنه منّي إلّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بيده ﴾، قرأ أهل الحجاز وأبو عمرو ﴿ غرفة ﴾ بفتح الغين، وقرأ الآخرون بالضم وهما لغتان، قال الكسائي: الغرفة بالضم الذي يحصل في الكفّ من الماء إذا غرف، والغَرْفَة بالفتح: الاغتراف، فالضم اسم والفتح مصدر، ﴿ فشربُوا منه إلّا قليلاً منهم ﴾، نصب على الاستثناء، واختلفوا في القليل الذين لم يشربوا، فقال السدي: كانوا أربعة آلاف، وقال غيره: ثلاثمائة وبضعة عشر وهو الصحيح، لِما أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا عبد الله بن رجاء أنا إسرائيل عن أبي

وإنما قاتل أولئك القليل الذين لم يشربوا وهو قوله تعالى: ﴿فلما جاوزه هو﴾ يعني جاوز النهر طالوت ﴿والذين آمنوا معه﴾ يعني أولئك القليل ﴿قالوا﴾ يعني الذين شربوا من النهر وخالفوا أمر الله تعالى وكانوا أهل شك ونفاق فعلى هذا يكون قد جاوز النهر مع طالوت المؤمن والمنافق والطائع والعاصي فلما رأوا العدو قال المنافقون ﴿لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده﴾ فأجابهم المؤمنون بقولهم ﴿كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة﴾ وقيل لم يجاوز النهر مع طالوت إلا المؤمنون خاصة لقوله تعالى: ﴿فلما جاوزه هو والذين آمنوا معه﴾. فإن قلت فعلى هذا القول من القائل «لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده». قلت يحتمل أن يكون أهل الإيمان وهم الثلاثمائة وبضعة عشر انقسموا إلى قسمين قسم حين رأوا العدو وكثرته وقلة المؤمنين قالوا لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده فأجابهم القسم الآخر بقولهم» كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين» ومعنى لا طاقة لنا لا قوة لنا اليوم بجالوت وجنوده ﴿قال الذين يظنون﴾ أي يستيقنون ويعلمون ﴿أنهم ملاقو الله﴾ أي ملاقو ثواب الله ورضوانه في الدار الآخرة ﴿كم من فئة قليلة﴾ الفئة الجماعة لا واحد له من لفظه كالرهط ﴿غلبت فئة كثيرة بإذن الله﴾ أي بقضاء الله وإرادته ﴿والله مع الصابرين﴾ يعني بالنصر والمعونة. قوله عز وجل: .

﴿وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾﴾

﴿ولما برزوا﴾ يعني طالوت وجنوده المؤمنين ﴿لجالوت وجنوده﴾ يعني الكافرين ومعنى برزوا صاروا بالبراز من الأرض وهو ما ظهر واستوى منها ﴿قالوا﴾ يعني المؤمنين أصحاب طالوت ﴿ربنا أفرغ﴾ أي اصبب ﴿علينا صبراً وثبت أقدامنا﴾ أي قو قلوبنا لتثبت أقدامنا ﴿وانصرنا على القوم الكافرين﴾ وذلك أن جالوت وقومه كانوا يعبدون الأصنام فسأل المؤمنون الله أن ينصرهم على القوم الكافرين.

إسحق عن البراء قال: كنّا أصحاب محمد ﷺ نتحدّث أن عدّة أصحاب بدر على عدة أصحاب طالوت الذين جاوزوا معه النهر ولم يجاوز معه إلاّ مؤمن وهم بضعة عشر وثلاثمائة. ورُوِيَ: ثلاثمائة وثلاثة عشر، فلما وصلوا إلى النهر وقد ألقى الله عليهم العطش، فشرب منه الكل إلاّ هذا العدد القليل فمَن اغترف غرفة كما أمر الله قوي قلبه وصحّ إيمانه، وعَبَرَ النهرَ سالماً وكفته تلك الغرفة الواحدة لشربه وحمله ودوابه، والذين شربوا وخالفوا أمر الله اسودّت شفاههم وغلبهم العطش، فلم يُرووا وبقوا على شط النهر وجَبُنوا عن لقاء العدو، فلم يجاوزوا ولم يشهدوا الفتح، وقيل: كلهم جاوزوا ولكن لم يحضر القتال إلاّ الذين لم يشربوا، ﴿ فلما جاوزه ﴾، يعني: النهر ﴿ هو ﴾، يعني: طالوت، ﴿ والذين آمنوا معه ﴾، يعني: القليل، ﴿ قالوا ﴾، يعني: الذين شربوا وخالفوا أمر الله وكانوا أهل شَكٍّ ونفاق، ﴿ لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده ﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما والسدي: فانحرفوا ولم يجاوزوا، ﴿ قال الذين يظنون ﴾: يستيقنون ﴿ أنهم مُلَاقُوا اللّه ﴾، وهم الذين ثبتوا مع طالوت، ﴿ كم من فئة ﴾: جماعة، وهي جمع لا واحد له من لفظه، وجمعها فئات وفـؤُن، في الرفع، وفئين في الخفض والنصب، ﴿ قليلةٍ غلبتْ فِئةً كثيرةً بإذن الله ﴾: بقضائه وقدره وإرادته، ﴿ واللّهُ مع الصابرين ﴾: بالنصر والمعونة.

﴿ ولما برزُوا ﴾، يعني: طالوت وجنوده، يعني: المؤمنين، ﴿ لجالوتَ وجنُودِه ﴾ المشركين، ومعنى برزوا: صاروا بالبراز من الأرض وهو ما ظهر واستوى منها، ﴿ قالوا ربَّنا أفرغْ علينا ﴾: أنزل واصبب ﴿ صبراً وثبتْ أقدامَنا ﴾: قوّ قلوبنا، ﴿ وانصرْنا على القوم الكافرين ﴾.

﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾﴾

﴿فهزموهم بإذن الله﴾ يعني أن الله تعالى استجاب دعاء المؤمنين فأفرغ عليهم الصبر وثبت أقدامهم ونصرهم على القوم الكافرين حين التقوا فهزموهم بإذن الله يعني بقضائه وإرادته وأصل الهزم في اللغة الكسر أي كسروهم وردوهم ﴿وقتل داود جالوت﴾ وكانت قصة قتله ما ذكره أهل التفسير وأصحاب الأخبار أنه عبر النهر فيمن عبر مع طالوت أيشا أبو داود في ثلاثة عشر ابناً له وكان داود أصغرهم وكان يرمي بالقذافة فقال داود لأبيه يوماً يا أبتاه ما أرمي بقذافتي شيئاً إلّا صرعته، فقال له أبوه أبشر يا بني فإن الله قد جعل رزقك في قذافتك ثم أتاه مرة أخرى فقال: يا أبتاه لقد دخلت بين الجبال فوجدت أسداً رابضاً فركبته وأخذت بأذنه فلم يهجني فقال له أبوه: أبشر يا بني فإن هذا خير يريده الله بك، ثم أتاه يوماً آخر فقال له: يا أبتاه إني لأمشي بين الجبال فأسبح فلا يبقى جبل إلّا سبح معي فقال: يا بني أبشر فإن هذا خير أعطاكه الله تعالى. قالوا فأرسل جالوت الجبار إلى طالوت ملك بني إسرائيل أن ابرز إلي وأبرز إليك أو أبرز إلي من يقاتلني، فإن قتلني فلكم ملكي وإن قتلته فلي ملككم فشق ذلك على طالوت ونادى في عسكره من قتل جالوت زوجته ابنتي وناصفته ملكي فهاب الناس جالوت فلم يجبه أحد فسأل طالوت نبيهم أن يدعو الله في ذلك فدعا الله فأتي بقرن فيه دهن القدس وتنور حديد. وقيل له إن صاحبكم الذي يقتل جالوت هو الذي إذا وضع هذا القرن على رأسه سال على رأسه حتى يدهن من رأسه ولا يسيل على وجهه بل يكون على رأسه كهيئة الإكليل ويدخل في هذا التنور فيملؤه ولا يتقلقل فيه فدعا طالوت بني إسرائيل وجربهم فلم يوافقه

﴿فهزموهم بإذن الله﴾ أي: بعلم الله تعالى، ﴿وقتلَ داوُدُ جالوتَ﴾، وصفةُ قتله: قال أهل التفسير: عبر النهر مع طالوت فيمن عبر إيشا أبو داود في ثلاثة عشر ابناً له وكان داود أصغرهم وكان يرمي بالقذافة، فقال لأبيه يوماً: يا أبتاه ما أرمي بقذافتي شيئاً إلّا صرعتُه، فقال له: أبشر يا بني فإن الله جعلٍ رزقك في قذافتك، ثم أتاه مرة أخرى فقال: يا أبتاه لقد دخلت بين الجبال فوجدت أسداً رابضاً فركبته فأخذت بأذنيه فلم يهجني، فقال: أبشر يا بني فإن هذا خير يريده الله بك، ثم أتاه يوماً آخر فقال: يا أبتاه إني لأمشي بين الجبال فأُسبّح فما يبقى جبل إلّا سبّح معي، فقال: أبشر يا بني فإن هذا خير أعطاكه الله تعالى، فأرسل جالوت إلى طالوت أن ابرزْ لي أو أبرزْ إليَّ مَن يقاتلني، فإن قتلني فلكم ملكي وإن قتلته فلي ملككم فشقّ ذلك على طالوت فنادى في عسكره مَن قتل جالوت زوجته ابنتي وناصفته ملكي فهاب الناس جالوت فلم يجبه أحد، فسأل طالوت نبيّهم أن يدعوا الله تعالى فدعاه الله في ذلك فأتى بقرن فيه دهن القدس وتنور في حديد فقيل: إن صاحبكم الذي يقتل جالوت هو الذي يوضع هذا القرن على رأسه فيغلي الدهن حتى يدهن منه رأسه ولا يسيل على وجهه بل يكون على رأسه كهيئة الإكليل، ويدخل في هذا التنور فيملؤه ولا يتقلقل فيه، فدعا طالوت بني إسرائيل فجرّبهم فلم يوافقه منهم أحد، فأوحى الله إلى نبيّهم أن في ولد إيشا مَن يقتل الله به جالوت فدعا طالوت إيشا، فقال: أعرضْ عليّ بنيك، فأخرج الله اثني عشر رجلاً أمثال السواري، فجعل يعرضهم على القرن فلا يرى شيئاً فقال لإيشا: هل بقي لك ولد غيرهم؟ فقال: لا، فقال النبي ﷺ: «يا رب إنه زعم أن لا ولد له غيرهم»، فقال: كذب، فقال النبي ﷺ: «إن ربّي كذبك، فقال: صدق الله يا نبيّ الله إن لي ابناً صغيراً يقال له داود، استحييت أن يراه الناس لقصر قامته وحقارته فخلفته في الغنم يرعاها وهو في شعب كذا وكذا، وكان داود رجلاً قصيراً مِسقاماً مصفاراً أزرق أمعر، فدعاه طالوت، ويقال بل خرج

أحد منهم فأوحى الله إلى نبيهم إن في ولد إيشا من يقتل جالوت فدعا طالوت إيشا وقال له أعرض على بنيك فأخرج له اثني عشر رجلاً أمثال السواري فجعل يعرض واحداً واحداً على القرن فلا يرى شيئاً فقال لإيشا هل بقي لك ولد غير هؤلاء فقال لا؟ فقال النبي ﷺ يا رب إنه قد زعم أنه لا ولد غيرهم فقال له كذب فقال له النبي: إن ربي قد كذبك، فقال إيشا: صدق ربي يا نبي الله إن لي ولداً صغيراً مسقاماً اسمه داود استحييت أن يراه الناس لقصر قامته وحقارته فجعلته في الغنم يرعاها وهو في شعب كذا وكان داود عليه السلام رجلاً قصيراً مسقاماً أزرق أمعر مصفراً فدعا به طالوت ويقال إنه خرج إليه فوجده في الوادي وقد سال الوادي ماء وهو يحمل شاتين شاتين يعبر بهما السيل إلى الزريبة التي يريح فيها غنمه، فلما رآه طالوت قال هذا هو الرجل المطلوب لا شك فيه فهذا يرحم البهائم فهو بالناس أرحم، فدعاه طالوت ووضع القرن على رأسه فنش وفاض فقال له طالوت هل لك أن تقتل جالوت وأزوجك ابنتي وأجري خاتمك في ملكي قال نعم فقال له: هل أنست من نفسك شيئاً تتقوى به على قتله قال نعم أنا أرعى الغنم فيجيء الأسد أو النمر أو الذئب فيأخذ شاة من الغنم فأقوم فأفتح لحييه عنها وأخرجها من قفاه، فأخذ طالوت داود ورده إلى العسكر، فمر داود عليه السلام في طريقه بحجر فناداه يا داود احملني فإني حجر هارون فحمله ثم مر بحجر آخر. فقال يا داود احملني فإني حجر موسى فحمله ثم مر بحجر آخر فقال له: يا داود احملني فإني حجرك الذي تقتل به جالوت، فحمله فوضع الثلاثة في مخلاته، فلما رجع طالوت إلى العسكر ومعه داود وتصافوا للقتال برز جالوت يطلب المبارزة فانتدب له داود عليه السلام فأعطى داود فرساً وسلاحاً فلبس السلاح وركب الفرس وسار قريباً ثم رجع إلى طالوت فقال من حوله: جبن الغلام فجاء فوقف على طالوت فقال له ما شأنك فقال له داود عليه السلام إن لم ينصرني ربي لم يغن هذا السلاح عني شيئاً وإن نصرني فلا حاجة لي به

طالوت إليه فوجد الوادي قد سال بينه وبين الزريبة التي كان يريح إليها فوجده يحمل شاتين يجيز بهما السيل ولا يخوض بهما الماء فلما رآه قال: هذا هو لا شك فيه هذا يرحم البهائم فهو بالناس أرحم، فدعاه ووضع القرن على رأسه ففاض، فقال طالوت: هل لك أن تقتل جالوت وأُزوِّجك ابنتي وأجري خاتمك في ملكي؟ قال: نعم، قال: وهل أنست من نفسك شيئاً تتقوّى به على قتله؟ قال: نعم، أنا أرعى الغنم فيجيء الأسد أو النمر أو الذئب فيأخذ شاة فأقوم إليه فأفتح لِحيَيْهِ عنها وأُخرجها من قفاه، فأخذ طالوت داود وردّه إلى عسكره، فمرّ داود عليه السلام في طريقه بحجر فناداه الحجر: يا داود احملني فإني حجرُ هَارُون الذي قتل بي مَلِك كذا وكذا فحمله في مخلاته، ثم مرّ بحجر آخر فقال: احملني فإني حجر موسى الذي قتل بي مَلِك كذا وكذا فحمله في مخلاته، ثم مرّ بحجر آخر فقال: احملني فإني حجرك الذي تقتل بي جالوت فوضعها في مخلاته، فلما تصافّوا للقتال وبرز جالوت وسأل المبارزة، انتدب له داود فأعطاه طالوت فرساً ودرعاً وسلاحاً فلبس السلاح وركب الفرس وسار قريباً ثم انصرف إلى الملك فقال مَن حوله: جبُنَ الغلامُ فجاء فوقف على الملك، فقال: ما شأنُك؟ فقال له داود: إن الله إن لم ينصرني لم يغنِ عنّي هذا السلاح شيئاً فدعني أُقاتل جالوت كما أُريد، قال: فافعل ما شئت، قال: نعم، فأخذ داود مخلاته فتقلّدها وأخذ المِقلاع ومضى نحو جالوت، وكان جالوت من أشدّ الرجال وأقواهم وكان يهزم الجيوش وحده، وكان له بيضة فيها ثلاثمائة رطل حديد، فلما نظر إلى داود ألقى الله في قلبه الرعب، فقال له: أنت تبرز إليّ؟ قال: نعم، وكان جالوت على فرس أبلق وعليه السلاح التامّ قال: فأتيتني بالمِقلاع والحجر كما تأتـي الكلب؟ قال داود عليه السلام: نعم أنت شرّ من الكلب، قال جالوت: لا جرم لأقسمنّ لحمك بين سباع الأرض وطير السماء، فقال داود: أو يقسم الله لحمك، فقال داود: باسم إلّه إبراهيم وأخرج حجراً ثم أخرج الآخر وقال: باسم إلّه إسحق ووضعه في مِقلاعه ثم أخرج الثالث وقال: باسم إلّه يعقوب ووضعه في مقلاعه فصارت كلها حجراً واحداً، ودوّر داودُ عليه

فدعني أقاتل كما أريد قال نعم فأخذ داود مخلاته وتقلدها وأخذ المقلاع بيده ومضى نحو جالوت وكان جالوت من أشد الناس وأقواهم وكان يهزم الجيوش وحده وكان له بيضة حديد وزنها ثلاثمائة رطل فلما نظر إلى داود وهو يريده وقع الرعب في قلبه فقال له: جالوت وأنت تبرز لي قال: نعم وكان جالوت على فرس أبلق عليه السلاح التام فقال: اتيتني بالمقلاع والحجر كما يؤتى الكلب فقال: نعم وأنت شر من الكلب. قال جالوت: لا جرم لأقسمن لحمك بين سباع الأرض وطير السماء، فقال داود عليه السلام: أو يقسم الله لحمك، ثم قال داود: باسم إله إبراهيم، وأخرج حجراً ثم قال باسم إله إسحاق وأخرج حجراً ثم قال باسم إله يعقوب وأخرج حجراً ووضعها في مقلاعه فصارت الثلاثة حجراً واحداً، وأدار داود المقلاع ورمى به جالوت فسخر الله له الريح فحملت الحجر حتى أصاب أنف البيضة فخلط دماغ جالوت وخرج من قفاه وقتل من ورائه ثلاثين رجلاً، وخر جالوت صريعاً قتيلاً، فأخذ داود يجره حتى ألقاه بين يدي طالوت ففرح بنو إسرائيل بذلك فرحاً شديداً وهزم الله الجيش فرجع طالوت بالناس إلى المدينة سالمين غانمين وجعل الناس يذكرون داود فجاء داود إلى طالوت وقال له. أنجز لي ما وعدتني به فقال له أتريد ابنة الملك بغير صداق فقال له داود ما شرطت علي صداقاً وليس لي شيء فقال: لا أكلفك إلاّ ما تطيق أنت رجل جريء وفي حيالنا أعداء لنا غلف فإن قتلت مائتي رجل وجئتني بغلفهم زوجتك ابنتي فأتاهم فجعل كلما قتل واحداً منهم نظم غلفته في خيط حتى نظم مائتي غلفة فجاء بها إلى طالوت وألقاها بين يديه وقال ادفع إلي امرأتي فزوجه ابنته وأجرى خاتمه في ملكه، فمال الناس إلى داود عليه السلام وأحبوه وأكثروا ذكره فحسده طالوت وأراد قتله فأخبر بذلك ابنة طالوت رجل يقال له ذو العينين فأخبرت بذلك داود وقالت له: إنك مقتول الليلة قال ومن يقتلني قالت: أبي قال: وهل أجرمت جرماً يوجب القتل قالت حدثني بذلك من لا يكذب

السلام المِقلاع ورمى به فسخّر الله له الريح حتى أصاب الحجرُ أنف البيضة فخلط دماغه وخرج من قفاه، وقتل من ورائه ثلاثين رجلاً وهزم الله تعالى الجيش وخرّ جالوت قتيلاً فأخذ يجرّه حتى ألقاه بين يدي طالوت، ففرح المسلمون فرحاً شديداً، وانصرفوا إلى المدينة سالمين غانمين، والناس يذكرون داود، فجاء داودُ طالوتَ وقال: أنجزْ لي ما وعدتني، فقال تريد ابنة الملك بغير صداق، فقال داود: ما شرطتَ عليّ صداقاً وليس لي شيء، فقال: لا أُكلّفك إلاّ ما تطيق أنت رجل جريء وفي حيالنا أعداء لنا غُلف فإذا قتلت منه مائتي رجل وجئتني بغلفهم زوّجتك ابنتي، فأتاهم فجعل كلما قتل واحداً منهم نظم غلفته في خيط حتى نظم مائتي غلفة فجاء بها إلى طالوت وألقاها إليه، وقال: ادفع إليّ امرأتي فزوّجه ابنته وأجرى خاتمه في ملكه فمال الناس إلى داود وأحبّوه، وأكثروا ذِكْرَهُ فحسده طالوت وأراد قتله فأخبر ذلك ابنة طالوت رجل يقال له ذو العينين، فقالت ابنة طالوت لداود: إنك مقتول في هذه الليلة، قال: ومَن يقتلني؟ قالت: أبي، قال: فهل أجرمت جرماً؟ فقالت: حدّثني مَنْ لا يكذب ولا عليك أن تغيب هذه الليلة حتى تنظر مصداق ذلك، قال: لئن كان أراد ذلك ما أستطيع خروجاً ولكن ائتيني بزقّ خمر فأتت به فوضعه في مضجعه على السرير وسجّاه ودخل تحت السرير، فدخل طالوت نصف الليل، فقال لها: أين بعلك؟ قالت: هو نائم على السرير، فضربه بالسيف ضربة فسال الخمر، فلما وجد ريح الخمر قال: يرحم الله داود ما كان أكثر شربه للخمر وخرج، فلما أصبح علم أنه لم يفعل شيئاً فقال: إن رجلاً طلبت منه ما طلبت لخليق أن لا يدعني حتى يدرك منّي ثأره، فاشتدّ حجابه وحرّاسه وأغلق دونه أبوابه، ثم إن داود أتاه ليلة وقد هدأت العيون فأعمى الله سبحانه الحجبة وفتح له الأبواب، فدخل عليه وهو نائم على فراشه فوضع سهماً عند رأسه وسهماً عند رجليه وسهماً عن شماله، ثم خرج فلما استيقظ طالوت بصر بالسهام فعرفها، فقال: يرحم الله تعالى داود هو خير منّي ظفرت به فقصدت قتله وظفر بي فكفَّ عنّي ولو شاء لوضع هذا السهم في حلقي وما أنا بالذي آمنه، فلما كانت القابِلَة أتاه

ولا عليك أن تغيب الليلة حتى تنظر مصداق ذلك فقال إن كان يريد ذلك فلا أستطيع خروجاً ولكن ائتني بزق خمر فأتته به فوضعه في مضجعه على سريره وسجاه ودخل داود تحت السرير فدخل طالوت نصف الليل فقال لابنته أين بعلك قالت هو نائم على سريره فضربه بالسيف فسال الخمر فلما وجد ريح الخمر قال يرحم الله داود ما كان أكثر شربه للخمر وخرج، فلما أصبح علم أنه لم يفعل شيئاً فقال: إن رجلاً طلبت منه ما طلبت لحقيق أن لا يدعني حتى يدرك ثأره مني فاشتد حجابه وحراسه وأغلق دونه أبوابه، ثم إن داود أتاه ليلة وقد هدأت العيون وأعمى الله عنه الحجاب ففتح الأبواب ودخل عليه وهو نائم على فراشه، فوضع سهماً عند رأسه وسهماً عند رجليه وسهماً عن يمينه وسهماً عن شماله وخرج فاستيقظ طالوت فبصر بالسهام فعرفها فقال يرحم الله داود هو خير مني ظفرت به فقصدت قتله وظفر بي فكف عني ولو شاء لوضع هذا السهم في حلقي وما أنا بالذي آمنه فلما كان من الليلة القابلة أتاه ثانياً فأعمى الله عنه الحجاب فدخل عليه وهو نائم فأخذ إبريق وضوئه وكوزه الذي يشرب منه وقطع شعرات من لحيته وشيئاً من طرف ثوبه ثم خرج وتوارى، فلما أصبح طالوت ورأى ذلك سلط على داود العيون وطلبه أشد، الطلب فلم يقدر عليه. ثم إن طالوت ركب يوماً فوجد داود يمشي في البرية فقال اليوم أقتله وركض في أثره فاشتد داود في عدوه. وكان إذا فزع لم يدرك فدخل غاراً فأوحى الله تعالى إلى العنكبوت فنسجت عليه فلما انتهى طالوت إلى الغار ونظر إلى بناء العنكبوت قال: لو كان دخل هنا لتخرق هذا النسج وانطلق طالوت وتركه فخرج داود حتى أتى جبل المتعبدين فتعبد معهم وطعن العلماء والعباد على طالوت في شأن داود فجعل طالوت لا ينهاه أحد عن قتل داود إلاّ قتله فقتل خلقاً كثيراً من العباد والعلماء حتى أتى بامرأة تعلم الاسم الأعظم فأمر خبازه بقتلها فرحمها الخباز فلم يقتلها، وقال: لعلنا نحتاج إلى عالم فتركها ثم وقع في قلب طالوت التوبة والندم على ما فعل وأقبل على البكاء حتى رحمه الناس. وكان كل ليلة يخرج إلى القبور ويبكي وينادي أنشد الله

ثانياً وأعمى الله الحجّاب فدخل عليه وهو نائم فأخذ إبريق طالوت الذي كان يتوضأ منه وكوزَه الذي كان يشرب منه وقطع شعرات من لحيته وشيأً من هدب ثيابه، ثم خرج وهرب وتوارِى، فلما أصبح طالوت ورأى ذلك سلّط على داود العيون وطلبه أشدّ الطلب، فلم يقدر عليه، ثم إن طالوت ركب يومـاً فوجد داود يمشي في البرية، فقال: اليوم أقتله فركض على أثره واشتدَّ داودُ وكان إذا فزع لم يُدرَك، فدخل غاراً فأوحى الله تعالى إلى العنكبوت فنسج عليه بيتاً فلما انتهى طالوت إلى الغار ونظر إلى بناء العنكبوت قال: لو كان دخل ههنا لخرق بناء العنكبوت فتركه ومضى، وانطلق داود وأتى الجبل مع المتعبدين فتعبّد فيه فطعن العلماء والعباد على طالوت في شأن داود فجعل طالوت لا ينهاه أحد عن قتل داود إلاّ قتله وأغرى على قتل العلماء، فلم يكن يقدر على عالم في بني إسرائيل يطيق قتله إلاّ قتله حتى أتى بامرأة تعلم اسم الله الأعظم فأمر خبّازه بقتلها، فرحمها الخبّاز وقال: لعلّنا نحتاج إلى عالِم فتركها فوقع في قلب طالوت التوبة وندم على ما فعل، وأقبل على البكاء حتى رحمه الناس، وكان كل ليلة يخرج إلى القبور فيبكي وينادي أنشد الله عبداً يعلم أن لي توبة إلاّ أخبرني بها فلما أكثر عليهم ناداه مُنادٍ من القبور: يا طالوت أما ترضى أن قتلتنا حتى تؤذينا أمواتاً، فازداد بكاءً وحزناً، فرحمه الخبّاز فقال: ما لك أيها الملك؟ قال: هل تعلم لي في الأرض عالماً أسأله هل لي من توبة؟ فقال الخباز: إنما مثلك مثل ملك نزل قرية عشاء فصاح الديك فتطيّر منه، فقال: لا تتركوا في القرية ديكاً إلاّ ذبحتموه، فلما أراد أن ينام قال لأصحابه: إذا صاح الديك فأيقظونا حتى نُدْلِجَ فقالوا له: وهل تركت ديكاً نسمع صوته؟ ولكن هل تركت عالماً في الأرض؟ فازداد حزناً وبكاءً فلما رأى الخبّاز ذلك قال له: أرأيتك إن دللتك على عالم لعلك أن تقتله، قال: لا، فتوثّق عليه الخبّاز فأخبره أن المرأة العالمة عنده، قال: انطلق بي إليها أسألها هل لي من توبة، وكانت من أهل بيت يعلم الاسم الأعظم، فإذا فنيت

عبداً يعلم لي توبة إلاّ أخبرني بها فلما كثر ذلك منه ناداه مناد من القبور: يا طالوت أما ترضى أن قتلتنا حتى تؤذينا أمواتاً فازداد حزناً وبكاء فتوجه الخباز إلى طالوت لما رأى من حاله وقال: ما لك أيها الملك فأخبره وقال: هل تعلم لي توبة أو تعلم في الأرض عالماً أسأله عن توبتي فقال له الخباز أيها الملك إن دللتك على عالم يوشك أن تقتله فقال لا فتوثق منه باليمين فأخبره أن تلك المرأة العالمة عنده. فقال: انطلق بي إليها لأسألها عن توبتي قال نعم فانطلق به فلما قربا من الباب قال له الخباز. أيها الملك إنها إذا رأتك فزعت ولكن ائت خلفي فلما دخلا عليها قال لها الخباز: يا هذه ألست تعلمين حقي عليك؟ قالت: بلى قال فإن لي إليك حاجة فتقضيها قالت نعم قال هذا طالوت قد جاءك يسأل هل له من توبة فلما سمعت بذكر طالوت غشى عليها فلما أفاقت قالت والله ما أعلم له توبة ولكن دلوني على قبر نبي فانطلقوا بها إلى قبر أشمويل فوقفت عليه ودعت وكانت تعلم الاسم الأعظم ثم قالت يا صاحب القبر فخرج ينفض التراب عن رأسه فلما نظر إلى ثلاثتهم قال: ما لكم أقامت القيامة قالت المرأة لا ولكن هذا طالوت قد جاء يسألك هل له من توبة فقال أشمويل: يا طالوت ما فعلت بعدي قال لم أدع من الشر شيئاً إلاّ فعلته وجئت أطلب التوبة فقال أشمويل يا طالوت كم لك من الولد قال عشرة رجال قال ما أعلم لك من توبة إلاّ أن تتخلى من ملكك وتخرج أنت وولدك في سبيل الله ثم تقدم ولدك حتى يقتلوا بين يديك ثم تقاتل أنت حتى تقتل آخرهم. ثم إن أشمويل سقط ميتاً ورجع طالوت أحزن ما كان رهبة أن لا يتابعه بنوه على ما يريد. وكان قد بكى حتى سقطت أشفار عينيه ونحل جسمه فجمع أولاده وقال لهم: أرأيتم لو دفعت إلى النار هل كنتم تنقذونني منها فقالوا بلى ننقذك بما نقدر عليه قال: فإنها النار إن لم تفعلوا ما آمركم به قالوا: اعرض علينا ما أردت فذكر لهم القصة قالوا: وإنك لمقتول قال نعم قالوا فلا خير لنا في الحياة بعدك قد طابت أنفسنا بالذي سألت. فتجهز هو وولده وخرج طالوت مجاهداً في سبيل الله فتقدم أولاده فقاتلوا حتى قتلوا ثم شد هو من بعدهم فقاتل حتى قتل

رجالهم علمت نساؤهم، فلما بلغ طالوت الباب، قال الخبّاز: إنها إذا رأتك فزعت، ولكن ائت خلفي، ثم دخلا عليها فقال لها: ألستُ أعظم الناس مِنّةً عليك أنجيتك من القتل وآويتك؟ قالت: بلى، قال: فإن لي إليك حاجةً، هذا طالوت يسأل هل لي من توبة، فغُشي عليها من الفرق، فقال لها: إنه لا يريد قتلك، ولكن يسألك هل له من توبة؟ قالت: لا والله لا أعلم لطالوت توبة، ولكن أعلم مكان قبر نبيّ فانطلقت بهما إلى قبر أشمويل فصلّت ودعت ثم نادتْ يا صاحب القبر فخرج أشمويل من القبر ينفض رأسه من التراب فما نظر إليهم ثلاثتهم قال: ما لكم؟ أقامت القيامة؟ قالت: لا ولكن طالوت يسألك هل له من توبة، قال أشمويل: يا طالوت ما فعلت بعدي؟ قال: لم أدع من الشرّ شيئاً إلاّ أتيته وجئت لطلب التوبة، قال له: كم لك عيال، يعني: كم لك من الولد؟ قال: عشرة رجال، قال: ما أعلم لك من توبة إلاّ أن تتخلى من مُلكك وتخرج أنت وولدك تقاتل في سبيل الله، ثم تقدّم ولدك حتى يقتلوا بين يديك، ثم تقاتل أنت حتى تُقتل آخرَهم، ثم رجع أشمويل إلى القبر وسقط وخرّ ميتاً، ورجع طالوت أحزن ما كان رهبةً أن لا يتابعه ولده، وقد بكى حتى سقطت أشفار عينيه ونحل جسمه، فدخل عليه أولاده فقال لهم: أرأيتم لو دُفعتُ إلى النار هل كنتم تفدونني؟ قالوا: بلى نفديك بما قدرنا عليه، قال: فإنها النار إن لم تفعلوا ما أقول لكم، قالوا: فاعرضْ علينا، فذكر لهم القصة، قالوا: وإنك لمقتول؟ قال: نعم، قالوا: فلا خير لنا في الحياة بعدك قد طابت أنفسنا بالذي سألت، فتجهّز بماله وولده فتقدّم ولده وكانوا عشرة فقاتلوا بين يديه حتى قتلوا ثم شدّ هو بعدهم للقتال حتى قُتل، فجاء قاتله إلى داود ليبشّره، وقال: قتلت عدوّك، فقال داود: ما أنت بالذي تحيا بعده فضرب عنقه، وكان ملك طالوت إلى أن قتل أربعين سنة وأتى بنو إسرائيل إلى داود وأعطوه خزائن طالوت وملّكوه على أنفسهم. قال الكلبي والضحّاك: ملك داود بعد قتل طالوت سبع سنين، ولم يجتمع بنو

وجاء قاتل طالوت إلى داود فبشره بقتله وقال له: قد قتلت عدوك فقال داود: ما أنت بباق بعده وقتله فكان ملك طالوت إلى أن قتل مدة أربعين سنة فأتى بنو إسرائيل إلى داود فملكوه عليهم وأعطوه خزائن طالوت. قال الكلبي والضحاك ملك داود بعد قتل جالوت سبع سنين ولم يجتمع بنو إسرائيل على ملك واحد إلاّ على داود فذلك قوله تعالى: ﴿وآتاه الله الملك والحكمة﴾ يعني النبوة جمع الله لداود بين الملك والنبوة ولم يكن كذلك من قبل بل كانت النبوة في سبط والملك في سبط وقيل الحكمة هي العلم مع العمل به ﴿وعلمه مما يشاء﴾ أي وعلم الله داود صنعة الدروع فكان يصنعها ويبيعها وكان لا يأكل إلاّ من عمل يده، وقيل علمه منطق الطير وقيل علمه الزبور وقيل هو الصوت الطيب والألحان ولم يعط الله أحداً من خلقه مثل صوت داود فكان إذا قرأ الزبور تدنو منه الوحوش حتى يؤخذ بأعناقها وتظله الطير مصيخة له ويركد الماء الجاري وتسكن الرياح عند قراءته، وقيل علمه سياسة الملك وضبطه، وذلك لأنه لم يكن من بيت الملك حتى يتعلمه من آبائه، وقال ابن عباس هو أن الله تعالى أعطاه سلسلة موصولة بالمجرة ورأسها عند صومعته قوتها قوة الحديد ولونها لون النور وحلقها مستديرة مفصلة بالجوهر مدسرة بقضبان اللؤلؤ الرطب فكان لا يحدث في الهواء حدث إلاّ صلصلت السلسلة فيعلم داود ذلك الحدث ولا يمسها ذو عاهة إلاّ برىء. وكانوا يتحاكمون إليهما بعد داود إلى أن رفعت فمن تعدى على صاحبه أو أنكره حقاً أتى السلسلة فمن كان صادقاً مديده إلى السلسلة فنالها ومن كان كاذباً لم ينلها فكانت كذلك إلى أن ظهر فيهم المكر والخبث. فبلغنا أن بعض ملوكهم أودع رجلاً جوهرة ثمينة، فلما طالبه بالوديعة أنكره إياها فتحاكما إلى السلسلة، فعمد الذي عنده الجوهرة إلى عكازه فنقرها وجعل الجوهرة فيها واعتمد عليها حتى أتيا السلسلة فقال صاحب الجوهرة: رد على الوديعة فقال صاحبه ما أعرف لك عندي وديعة فإن كنت صادقاً فتناول السلسلة فتناولها بيده

إسرائيل على ملك واحد إلاّ على داود. فذلك قوله تعالى: ﴿ وآتاه اللَّهُ المُلكَ والحِكمة ﴾، يعني: النبوّة، جمع الله لداود بين الملك والنبوّة، ولم يكن كذلك من قبل كان الملك في سبط والنبوّة في سبط، وقيل: الملك والحكمة هو: العلم مع العمل، قوله تعالى: ﴿ وعلّمه مما يشاء ﴾، قال الكلبي وغيره: يعني صنعة الدروع، وكان يصنعها ويبيعها وكان لا يأكل إلاّ من عمل يده، وقيل: منطق الطير وكلام الجعل والنملِ والذرّ، والخنفساء وحمار قبان، وما أشبههما مما لا صوت لها، وقيل: هو الزبور، وقيل هو الصوت الطيب والألحان، فلم يُعطِ الله أحداً من خلقه مثلِ صوته، وكان إذا قرأ الزبور تدنو الوحوش حتى يُؤخذَ بأعناقها، وتظلّه الطير مصيخة له ويركد الماء الجاري، ويسكن الريح، وروى الضحّاك عن ابن عباس رضي الله عنهما: هو أن الله تعالى أعطاه سلسلة موصولة بالمجرّة ورأسها عند صومعته قوّتها قوّة الحديد ولونها لون النار وحلقها مستديرة مفصّلة بالجواهر مدسّرة بقضبان اللؤلؤ الرطب فلا يحدث في الهواء حَدَثٌ إلاّ صلصلت السلسلة فعلم داود ذلك الحدث، ولا يمسّها ذو عاهة إلاّ برىء وكانوا لا يتحاكمون إلاّ إليها بعدِ داود عليه السلامِ إلى أن رفعت، فمَن تعدّى على صاحبه وأنكر له حقّاً أتى السلسلة فمَن كان صادقاً مدّ يده إلى السلسلة فتناولها، ومَن كان كاذباً لم ينلها، فكانت كذلك إلى أن ظهر بهم المكر والخديعة، فبلغنا أن بعض ملوكها أودع رجلاً جوهرة ثمينة فلما استردّها أنكرها فتحاكما إلى السلسلة فعمد الذي عنده الجوهرة إلى عكّازة فنقرها وضمنها الجوهرة واعتمد عليها حتى حضر السلسلة فقالِ صاحب الجوهرة: ردّ عليّ الوديعة، فقال صاحبه: ما أعرف لكِ عندي من وديعة، قال: فإن كنت صادقاً فتناول السلسلة فتناولها بيده، فقيل للمنكرِ: قم أنت فتناولها، فقال لصاحب الجوهرة: خذ عكّازتي هذه فاحفظها حتى أتناول السلسلة فأخذها المالك عنده، ثم قام المنكر نحو السلسلة فأخذها، فقال الرجل: اللّهمّ إن كنت تعلم أن هذه الوديعة التي يدّعيها عليّ قد وصلت إليه فقرّب منّي السلسلة، فمدّ يده فتناولها فتعجّب القوم وشكّوا فيها فأصبحوا وقد رفع الله السلسلة. قوله تعالى:

وقال للمنكر قم أنت أيضاً فتناولها فقال لصاحب الجوهرة أمسك عكازتي فأخذها الرجل منه وقام المنكر إلى السلسلة وقال: اللهم إن كنت تعلم أن الوديعة التي يدعيها قد وصلت إليه فقرب السلسلة مني ومد يده فتناولها فعجب القوم من ذلك وشكوا فيها فأصبحوا وقد رفع الله السلسلة. قوله تعالى: ﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض﴾ يعني ولو أن الله يدفع ببعض الناس وهم أهل الإيمان والطاعة بعضاً وهم أهل الكفر والمعاصي قال ابن عباس ولولا دفع الله بجنوده المسلمين لغلب المشركون على الأرض فقتلوا المؤمنين وخربوا المساجد والبلاد وقيل معناه ولو دفع الله بالمؤمنين والأبرار عن الكفار والفجار ﴿لفسدت الأرض﴾ يعني لهلكت بمن فيها ولكن الله يدفع بالمؤمن عن الكافر وبالصالح عن الفاجر روى أحمد بن حنبل عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله ليدفع بالمسلم الصالح عن مائة أهل بيت من جيرانه البلاء» ثم قرأ ﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض﴾ ﴿ولكن الله ذو فضل على العالمين﴾ يعني إن دفع الفساد بهذا الطريق إنعام وإفضال عم الناس كلهم.

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾ ۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ ۚ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾﴾

﴿تلك آيات الله﴾ يعني القصص التي اقتصها من حديث الألوف وإماتتهم وإحيائهم وتمليك طالوت وإظهاره بالآية وهي التابوت وإهلاك الجبابرة على يد صبي ﴿نتلوها عليك بالحق﴾ أي باليقين الذي لا يشك فيه أهل الكتاب لأنه في كتبهم ﴿وإنك لمن المرسلين﴾ يعني حيث تخبر بهذه الأخبار العجيبة والقصص القديمة من غير أن تعرف بقراءة كتاب ولا سماع أخبار فدل ذلك على أنك من المرسلين وأن الذي تخبر به وحي من الله تعالى. قوله عز وجل: ﴿تلك الرسل﴾ يعني جماعة الرسل الذين تقدم ذكرهم في هذه السورة ﴿فضلنا بعضهم على بعض﴾ فيه

﴿ولولا دفعُ اللَّهِ الناسَ بعضَهم ببعضٍ﴾، قرأ أهل المدينة ويعقوب ﴿دفاع الله﴾ بالألف ههنا وفي سورة الحج [٤٠]، قرأ الآخرون بغير الألف، لأن الله تعالى لا يغالبه أحد، وهو الدافع وحده، ومَن قرأ بالألف قال: قد يكون الدفاع من واحد مثل قول العرب: أحسن الله عنك الدفاع، قال ابن مجاهد: ولولا دفع الله الناس بجنود المسلمين لغلب المشركون على الأرض فقتلوا المؤمنين وخرّبوا المساجد والبلاد، وقال سائر المفسّرين: لولا دفع الله بالمؤمنين والأبرار عن الكفّار والفجّار لهلكت الأرض بمَن فيها ولكن الله يدفع بالمؤمن عن الكافر، وبالصالح عن الفاجر، أخبرنا أحمد بن إبراهيم الشريحي أخبرنا أبو إسحق الثعلبي، أنا أبو عبد الله بن زنجويه أنا أبو بكر بن خرجة، أنا عبد الله بن أحمد بن حنبل أنا أبو حميد الحمصي، أنا يحيىٰ بن سعيد العطّار أنا حفص بن سليمان، عن محمد بن سوقة عن وبرة عن عبد الرحمن عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ اللّهَ عزّ وجلّ ليدفع بالمسلم الصالح عن مائة أهل بيت من جيرانه البلاء»، ثم قرأ ابن عمر رضي الله عنهما ﴿ولولا دفع الله الناسَ بعضهم ببعضٍ لفسدت الأرض ولكنّ الله ذو فضلٍ على العالمين﴾.

﴿ تلك آياتُ الله نتلوها عليك بالحق وإنك لَمِنَ المرسلين ﴾.

﴿ تلك الرسل فَضّلنا بعضَهم على بعضٍ منهم مَنْ كلّم اللّهُ ﴾، أي: كلّمه الله تعالى، يعني: موسى عليه السلام، ﴿ ورفع بعضَهم درجات ﴾، يعني: محمداً ﷺ، قال الشيخ الإمام: وما أُوتي نبيّ آية إلاّ أُوتي نبيُّنا مثل

دليل على زوال الشبهة لمن أوجب التسوية بين الأنبياء في الفضيلة لاستوائهم في القيام بالرسالة وأجمعت الأمة على أن الأنبياء بعضهم أفضل من بعض وأن نبينا محمد ﷺ أفضلهم لعموم رسالته وهو قوله تعالى: ﴿وما أرسلناك إلاّ كافة للناس بشيراً ونذيراً﴾ ﴿منهم﴾ أي من الرسل ﴿من كلم الله﴾ أي كلمة الله وهو موسى عليه السلام ﴿ورفع بعضهم درجات﴾ يعني محمداً ﷺ رفع الله منصبه ومرتبته على كافة سائر الأنبياء بما فضله عليهم من الآيات البينات والمعجزات الباهرات فما أوتي نبي من الأنبياء آية أو معجزة إلاّ أوتي نبينا محمد ﷺ مثل ذلك وفضل محمد ﷺ على غيره من الأنبياء بآيات ومعجزات أخر مثل انشقاق القمر بإشارته وحنين الجذع الذي حن عند مفارقته وتسليم الحجر والشجر عليه وكلام البهائم له شاهدة برسالته ونبع الماء من بين أصابعه وغير ذلك من الآيات والمعجزات التي لا تحصى كثرة، وأعظمها وأظهرها معجزة وآية القرآن العظيم الذي عجز أهل الأرض عن معارضته والإتيان بمثله فهو معجزة باقية إلي يوم القيامة (ق) عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «ما من نبي من الأنبياء إلاّ وقد أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إلي فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة» (ق) عن جابر قال قال رسول الله ﷺ: «أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل، وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي، وأعطيت الشفاعة وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة» (م) عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «فضلت على الأنبياء بست أعطيت جوامع الكلم ونصرت بالرعب، وأحلت لي الغنائم وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً وأرسلت إلى الخلائق كافة وختم بي النبيون» فإن قلت لم ذكره على سبيل الرمز والإشارة ولم يصرح باسمه ﷺ؟ قلت: في هذا الإبهام والرمز من تفخيم فضله وإعلاء قدره ﷺ ما لا يخفى لما فيه من الشهادة بأنه العلم الذي لا يشتبه ولا يلتبس فهو كما يقول الرجل وقد فعل شيئاً فعله بعضكم أو أحدكم ويريد نفسه فيكون أفخم من التصريح به كما سئل الخطيئة: من أشعر الناس؟ قال زهير والنابغة. ثم قال ولو شئت لذكرت الثالث أراد نفسه وقوله تعالى: ﴿وآتينا عيسى ابن مريم البينات﴾ يعني الحجج والأدلة الباهرة والمعجزات على نبوته مثل إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى ﴿وأيدناه بروح القدس﴾ أي وقويناه بجبريل عليه السلام فكان معه إلى أن رفعه إلى عنان السماء السابعة. فإن قلت لم خص موسى وعيسى

تلك الآية، وفُضّل على غيره بآيات مثل انشقاق القمر بإشارته، وحنين الجذع على مفارقته، وتسليم الحجر والشجر عليه، وكلام البهائم والشهادة برسالته، ونبع الماء من بين أصابعه، وغير ذلك من المعجزات والآيات التي لا تُحصى، وأظهرها القرآن الذي عجز أهل السماء والأرض عن الإتيان بمثله. أخبرنا أبو بكر يعقوب بن أحمد بن محمد بن علي الصيرفي، أنا أبو الحسن محمد بن أحمد المخلدي، أخبرنا أبو العباس بن محمد بن إسحق الثقفي، أنا قتيبة بن سعيد أنا الليث بن سعد، عن سعيد بن أبي سعيد عن أبيه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ما من نبيّ من الأنبياء إلاّ وقد أُعطي من الآيات ما آمن على مثله البشر، وإنما كان الذي أُوتيته وحياً أوحاه الله تعالى إليّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة»، أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل، أنا محمد بن سنان أخبرنا هشيم أناسيا، أنا يزيد الفقير أنا جابر بن عبد الله أن النبي ﷺ قال: «أُعطيت خمساً لم يُعطهنّ أحدٌ قبلي: نصرتُ بالرعب مسيرةَ شهر، وجُعلت لي الأرضُ مسجداً وطهوراً، فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصلِ، وأُحلّتْ لي الغنائم ولم تحلّ لأحدٍ من قبلي، وأُعطيتُ الشفاعة، وكان النبي يُبعث إلى قومه خاصةً وبُعثتُ إلى الناسِ عامّةً»، أخبرنا أبو عبد الله محمد بن الفضل الخرقي أنا أبو الحسن علي بن عبد الله الطيسفوني، أنا عبد الله بن عمر الجوهري أنا أحمد بن

بالذكر من بين سائر الأنبياء. قلت لما أوتيا من الآيات العظيمة والمعجزات الباهرة ولقد بين الله تعالى وجه التفضيل حيث جعل التكليم من الفضل وهو آية عظيمة وتأييد عيسى بروح القدس آية عظيمة أيضاً فلما أوتي موسى وعيسى من الآيات العظيمة خصا بالذكر في باب التفضيل فعلى هذا كل من كان من الأنبياء أعظم آيات وأكثر معجزات كان أفضل ولهذا أحرز نبينا ﷺ قصبات السبق في الفضل لأنه أعظم الأنبياء آيات وأكثرهم معجزات فهو أفضلهم ﷺ وعليهم أجمعين ﴿**ولو شاء الله**﴾ أي ولو أراد الله وأصل المشيئة الإرادة ﴿**ما اقتتل الذين من بعدهم**﴾ يعني بعد الرسل الذين وصفهم الله ﴿**من بعد ما جاءتهم البينات**﴾ أي الدلالات الواضحات من الله بما فيه مزدجر لمن هداه الله تعالى ووفقه ﴿**ولكن اختلفوا**﴾ يعني اختلف هؤلاء الذين من بعد الرسل ﴿**فمنهم من آمن**﴾ أي ثبت على إيمانه بالله ورسوله بفضل الله ﴿**ومنهم من كفر**﴾ أي ومنهم من تعمد الكفر بعد قيام الحجة وبعثة الرسل ﴿**ولو شاء الله ما اقتتلوا**﴾ أي ولو أراد الله أن يحجزهم عن الاقتتال والاختلاف لحجزهم عن ذلك ﴿**ولكن الله يفعل ما يريد**﴾ يعني أنه تعالى يوفق من يشاء لطاعته والإيمان به فضلاً منه ورحمة ويخذل من يشاء عدلاً منه لا اعتراض عليه في ملكه وفعله. سأل رجل عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه عن القدر فقال يا أمير المؤمنين أخبرني عن القدر فقال طريق مظلم فلا تسلكه فأعاد السؤال فقال بحر عميق فلا تلجه فأعاد السؤال فقال: سر الله قد خفي عليك فلا تفتشه. قوله عز وجل: .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خُلَّةٞ وَلَا شَفَٰعَةٞۗ وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٥٤﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾

﴿**يا أيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم**﴾ قيل أراد به الزكاة الواجبة وقيل أراد به صدقة التطوع والإنفاق في وجوه الخير ﴿**من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه**﴾ أي لا فدية فيه وإنما سماه بيعاً لأن الفداء شراء النفس من الهلاك، والمعنى قدموا لأنفسكم اليوم من أموالكم من قبل أن يأتي يوم لا تجارة فيه فيكسب الإنسان ما يفتدي به من

علي الكشمهيني، أنا علي بن حجر أنا إسماعيل بن جعفر أنا العلاء بن عبد الرحمن، عن أبيه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «فُضلْتُ على الأنبياء بستٍّ، أُوتيتُ جَوامِعَ الكَلِم، ونُصرتُ بالرُّعْب، وأُحلّتْ لي الغنائم، وجُعلتْ لي الأرض مسجداً، وأُرسلتُ إلى الخلق كافّة، وخُتم بي النبيّون». قوله تعالى: ﴿ **وآتينا عيسى ابن مريم البيّنات وأيّدناه بروح القُدس، ولو شاء الله ما اقتتل الذين من بعدهم** ﴾، أي: من بعد الرّسل، ﴿ **من بعد ما جاءتهم البيّنات ولكن اختلفوا فمنهم مَن آمن** ﴾، ثبت على إيمانه بفضل الله، ﴿ **ومنهم مَن كفر** ﴾، يخذلانه، ﴿ **ولو شاء الله ما اقتتلوا** ﴾، أعاده تأكيداً، ﴿ **ولكن الله يفعل ما يريد** ﴾، يُوفّق مَنْ يشاء فضلاً ويُخذل مَن يشاء عدلاً، سأل رجلٌ عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه فقال: يا أمير المؤمنين أخبرني عن القدر، فقال: هو طريق مظلم فلا تسلكه، فأعاد السؤال، فقال: بحر عميق فلا تلِجْه، فأعاد السؤال، فقال: سرّ الله في الأرض قد خفي عليك فلا تفتشه.

قوله تعالى: ﴿ **يا أيها الذين آمنوا أنفقوا ممّا رزقناكم** ﴾، قال السدي: أراد به الزكاة المفروضة، وقال غيره: أراد به صدقة التطوّع والنفقة في الخير، ﴿ **من قبلِ أنْ يأتيَ يومٌ لا بيعٌ فيه** ﴾ أي: لا فداء فيه، سُمّي بيعاً لأن الفداء شراء نفسه، ﴿ **ولا خلّة** ﴾، ولا صداقة ﴿ **ولا شفاعة** ﴾، إلّا بإذن الله، قرأ ابن كثير وأهل البصرة كلها بالنصب،

العذاب ﴿ولا خلة﴾ أي ولا مودة ولا صداقة ﴿ولا شفاعة﴾ وظاهر هذا يقتضي نفي الخلة والشفاعة وقد دلت النصوص على ثبوت المودة والشفاعة، بين المؤمنين فيكون هذا عاماً مخصوصاً ﴿والكافرون هم الظالمون﴾ لأنهم وضعوا العبادة في غير موضعها. قوله عز وجل: ﴿الله لا إله إلاّ هو الحي القيوم﴾.

فصل: في فضل هذه الآية الكريمة

عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لكل شيء سنام وإن سنام القرآن البقرة وفيها آية هي سيدة آي القرآن آية الكرسي» أخرجه الترمذي. قوله: إن لكل شيء سناماً. سنام كل شيء أعلاه تشبيهاً بسنام البعير والمراد منه تعظيم هذه السورة والسيد الفاضل في قومه والشريف والكريم وأصله من ساد يسود وقوله هي سيدة أي القرآن أي أفضله. (م) عن أبي بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: «يا أبا المنذر أتدري أي آية من كتاب الله معك أعظم؟ قلت: ﴿الله لا إله إلاّ هو الحي القيوم﴾ فضرب في صدري وقال: ليهنك العلم يا أبا المنذر» عن واثلة بن الأسقع: «أن النبي ﷺ جاءهم في صفة المهاجرين فسأله إنسان أي آية في القرآن أعظم؟ فقال رسول الله ﷺ ﴿الله لا إله إلاّ هو الحي القيوم﴾ أخرجه أبو داود. وقال العلماء: إنما تميزت آية الكرسي بكونها أعظم آية في القرآن لما جمعت من أصول الأسماء والصفات من الإلهية والوحدانية والحياة والعلم والقومية والملك والقدرة والإرادة، فهذه أصول الأسماء والصفات، وذلك لأن الله تعالى أعظم مذكور فما كان ذكراً له من توحيد وتعظيم كان أعظم الأذكار وفي هذا الحديث حجة لمن يقول بجواز تفضيل بعض القرآن على بعض وتفضيله على سائر كتب الله المنزلة، ومنع من جواز تفضيل بعض القرآن على بعض جماعة منهم أبو الحسن الأشعري وأبو بكر الباقلاني قالا لأن تفضيل بعضه على بعض يقتضي نقص المفضول، وليس في كلام الله عز وجل نقص وتأول هؤلاء ما ورد من إطلاق لفظ أعظم وأفضل على بعض الآيات أو السور بمعنى عظيم وفاضل، ومن أجاز تفضيل بعض القرآن على بعض من العلماء

وكذلك في قوله تعالى: ﴿ لا بيعٌ فيه ولا خِلال ﴾ [إبراهيم: ٣١] وفي قوله تعالى: ﴿ لا لغوٌ فيها ولا تأثيم ﴾ [الطور: ٢٣]، وقرأ الآخرون كلها بالرفع والتنوين، ﴿ والكافرون هم الظالمون ﴾، لأنهم وضعوا العبادة في غير موضعها.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ الله لا إله إلاّ هو الحيّ القيّوم ﴾، أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي، أخبرنا أبو منصور محمد بن سمعان أخبرنا أبو جعفر محمد بن أحمد بن عبد الجبّار الزياتي، أنا حميد بن زنجويه أنا ابن أبي شيبة، أنا عبد الأعلى عن الجريري عن أبي السبيل عن عبد الله بن رباح الأنصاري عن أُبيّ بن كعب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يا أبا المنذر أيُّ آية من كتاب الله أعظم»؟ قلتُ: الله لا إله إلاّ هو الحيّ القيّوم، قال: فضرب في صدري ثم قال: «لِيُهْنِكَ العلمُ يا با المنذر، ثم قال: والذي نفس محمد بيده إنَّ لهذه الآية لساناً وشفتين تُقدّس المَلِكَ عند ساق العرش». أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: وكّلني رسول الله ﷺ بحفظ زكاة رمضان، فأتاني آتٍ فجعل يحثو من الطعام فأخذته فقلت: لأرفعنّك إلى رسول الله ﷺ، قال: إني محتاج ولي عيال ولي حاجة شديدة، قال: فخلّيت سبيله فأصبحتُ فقال رسول الله ﷺ: «يا أبا هريرة ما فعل أسيرك البارحة»؟ قلت: يا رسول الله شكا حاجةً شديدةً وعيالاً فرحمته فخلّيت سبيله، قال: «أما إنه قد كذبك وسيعود»، فعرفت أنه سيعود لقول رسول الله ﷺ، فرصدته فجاء يحثو من الطعام فأخذته، فقلت: لأرفعنّك إلى رسول الله ﷺ، قال: دعني فإني محتاج ولي عيال ولا أعود فرحمته فخلّيت سبيله، فأصبحت فقال لي رسول الله ﷺ: «يا أبا هريرة ما فعل أسيرك البارحة»؟ قلت: يا رسول الله شكا حاجة شديدة وعيالاً فرحمته وخلّيت سبيله،

والمتكلمين قالوا: هذا التفضيل راجع إلى عظم أجر القارىء أو جزيل ثوابه وقول: إن هذه الآية أو هذه السورة أعظم أو أفضل بمعنى أن الثواب المتعلق بها أكثر وهذا هو المختار وهو معنى الحديث والله أعلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ حين يصبح آية الكرسي وآيتين من أول حم تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم حفظ يومه ذلك حتى يمسي ومن قرأها حين يمسي حفظ ليلته تلك حتى يصبح» أخرجه الترمذي وقال حديث غريب. وأما التفسير فقوله عز وجل: ﴿الله لا إله إلاّ هو﴾ نفي الإلهية عن كل ما سواه وأثبت الإلهية له سبحانه وتعالى فهو كقولك لا كريم إلاّ زيد فإنه أبلغ من قولك زيد كريم الحي يعني الباقي على الأبد الدائم بلا زوال، والحي في صفة الله تعالى وهو الذي لم يزل موجوداً وبالحياة موصوفاً لم تحدث له الحياة بعد موت ولا يعتريه الموت بعد حياة، وسائر الأحياء سواء يعتريهم الموت والعدم فكل شيء هالك إلاّ وجهه سبحانه وتعالى. القيوم قال مجاهد: القيوم القائم على كل شيء وتأويله أنه تعالى قائم بتدبير خلقه في إيجادهم وأرزاقهم وجميع ما يحتاجون إليه وقيل وهو القائم الدائم بلا زوال الموجود الذي يمتنع عليه التغير وقيل هو القائم على كل نفس بما كسبت والقيوم فيعول من القيام وهو نعت للقائم على الشيء ﴿لا تأخذه سنة ولا نوم﴾ السنة ما يتقدم النوم من الفتور الذي يسمى نعاساً وهو النوم الخفيف والوسنان بين النائم واليقظان والنوم هو الثقل المزيل للعقل والقوة. وقيل: السنة في الرأس والنعاس في العين والنوم في القلب فالسنة هي أول النوم والنوم هو غشية ثقيلة تقع على القلب تمنع المعرفة بالأشياء والمعنى لا تأخذه سنة فضلاً عن أن يأخذه نوم لأن النوم والسهو والغفلة محال على الله تعالى لأن هذه الأشياء عبارة عن عدم العلم وذلك نقص وآفة والله تعالى منزه عن النقص والآفات، وأن ذلك تغير والله تعالى منزه عن التغير، (م) عن أبي موسى الأشعري قال: «قام فينا رسول الله ﷺ خطيباً بخمس كلمات فقال إن الله عز وجل لا ينام ولا ينبغي له أن ينام يخفض القسط ويرفعه، يرفع إليه عمل الليل قبل النهار، وعمل النهار قبل عمل الليل حجابه النور». وفي رواية: «النار لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه».

قال: «أما إنه قد كذبك وسيعود»، فرصدته الثالثة فجاء يحثو من الطعام فأخذته فقلت: لأرفعنّك إلى رسول الله ﷺ وهذا آخر ثلاث مرات أنك تزعم لا تعود ثم تعود، قال: دعني أعلّمك كلمات ينفعك الله بها، قلت: ما هي؟ قال: إذا أويتَ إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي ﴿ الله لا إله إلاّ هو الحيّ القيّوم ﴾ حتى تختم الآية فإنك لن يزال عليك من الله حافظ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح فخلّيت سبيله فأصبحت، فقال لي رسول الله ﷺ: «ما فعل أسيرك البارحة»؟ قلت: يا رسول الله زعم أنه يعلّمني كلمات ينفعني الله بها فخلّيت سبيله، قال: «وما هي»؟ قال لي: إذا أويتَ إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي من أولها حتى تختم الآية ﴿ الله لا إله إلاّ هو الحيّ القيّوم ﴾، وقال: لن يزال عليه من الله حافظ ولا يقربك شيطان حتى تصبح، وكانوا أحرص الناس على الخير، فقال النبي ﷺ: «أما إنه قد صدقك وهو كذوب، تعلم مَن تخاطب منذ ثلاث ليالٍ يا أبا هريرة»؟ قلت: لا، قال: «ذاك شيطان» أخبرنا عبد الواحد المليحي أخبرنا أبو منصور السمعاني، أخبرنا أبو جعفر الزياتي أخبرنا حميد بن زنجويه أخبرنا يحيىٰ، أخبرنا أبو معاوية عن عبد الرحمن بن أبي بكر هو المليكي، عن زرارة بن مصعب عن أبي سلمة بن عبد الرحمن، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن قرأ حين يصبح آية الكرسي وآيتين من أول ﴿ حمٓ تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم ﴾ [غافر: ١] حُفظ في يومه ذلك حتى يُمسي! ومَن قرأهما حين يُمسي حفظ في ليلته تلك حتى يُصبح» قوله عزّ وجلّ: ﴿ الله ﴾ رفع بالابتداء وخبره في ﴿ لا إله إلاّ هو الحيّ ﴾، الباقي الدائم على الأبد وهو مَن له الحياة، والحياة صفة الله تعالى القيّوم، قرأ عمرو بن مسعود (القيـام) وقرأ علقمة (القيـم) وكلها

شرح ما يتعلق بلفظ هذا الحديث منقول من شرح مسلم للشيخ محيي الدين النووي قوله ﷺ: «إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام» فمعناه الإخبار أنه سبحانه وتعالى لا ينام وأنه مستحيل في حقه لأن النوم انغمار وغلبة على العقل يسقط به الإحساس والله تعالى منزه عن ذلك وقوله: «يخفض القسط ويرفعه» أراد بالقسط الميزان الذي يقع به العدل ومعناه أن الله تعالى يخفض الميزان ويرفعه بما يوزن فيه من أعمال العباد المرتفعة إليه وقيل أراد بالقسط الرزق الذي هو قسط كل مخلوق ومعنى يخفض يقبض ويضيق على من يشاء ويرفعه أي يوسعه على من يشاء وقوله: «يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار» يعني أن الحفظة من الملائكة يصعدون بأعمال العباد في الليل بعد انقضائه في أول النهار، ويصعدون بأعمال النهار بعد انقضائه في أول الليل قوله: «حجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه» سبحات بضم السين المهملة والباء الموحدة تحت وبضم التاء في آخره جمع سبحة، ومعنى سبحات وجهه نوره وجلاله وبهاؤه والحجاب أصله في اللغة المنع وحقيقة الحجاب إنما تكون للأجسام المحدودة والله تعالى منزه عن الجسم والحد، فالمراد به هنا الشيء المانع من الرؤية، وسمي ذلك الشيء المانع نوراً أو ناراً لأنهما يمنعان من الإدراك في العادة، والمراد بالوجه الذات، والمراد بما انتهى إليه بصره من خلقه جميع المخلوقات لأن بصره سبحانه وتعالى محيط بجميع الكائنات ولفظة من في قوله من خلقه لبيان الجنس لا للتبعيض ومعنى الحديث لو زال المانع وهو الحجاب المسمى نوراً أو ناراً وتجلى لخلقه لأحرق جلال ذاته جميع مخلوقاته هذا آخر كلام للشيخ على هذا الحديث والله أعلم. وروى الطبري بسنده عن ابن عباس في قوله: ﴿لا تأخذه سنة ولا نوم﴾ إن موسى عليه السلام سأل الملائكة هل ينام الله تعالى؟ فأوحى الله تعالى إلى الملائكة وأمرهم أن يؤرقوه ثلاثاً فلا يتركوه ينام ففعلوا ثم أعطوه قارورتين فأمسكهما ثم تركوه وحذروه أن يكسرهما فجعل ينعس وينتبه وهما في يده في كل يد واحدة حتى نعس نعسة فضرب إحداهما بالأخرى فكسرهما قال معمر إنما هو مثل ضربة الله تعالى له يقول فكذلك السموات والأرض، ورواه عن أبي هريرة مرفوعاً قال سمعت رسول الله ﷺ يحكي عن موسى على المنبر قال: «وقع في نفس موسى هل ينام الله» وذكر نحو حديث ابن عباس قال بعض العلماء: إن صح هذا الحديث فيحمل على أن هذا السؤال كان من جهال قوم موسى كطلب الرؤية

لغات بمعنى واحد قال مجاهد: القَيّوم القائم على كل شيء، قال الكلبي: القائم على كل نفس، وقيل: هو القائم بالأمور، وقال أبو عبيدة الذي لا يزول: ﴿لا تأخذه سِنَة ولا نوم له﴾، السِّنَةُ النعاس، وهو النوم الخفيف، والوَسْنَانُ بين النائم واليقظان، يقال منه وَسِنَ يَسِنُ يَسِنُ وَسَناً وسِنةً، والنوم هو: الثقل المُزيل للقوة والعقل، قال المفضل الضبّي: السِّنَةُ في الرأس، والنوم: في القلب، فالسنة أول النوم وهو النعاس، وقيل: السِّنة في الرأس والنعاس في العين، والنوم في القلب، فهو غشية ثقيلة تقع على القلب تمنع المعرفة بالأشياء، نفى الله تعالى عن نفسه النوم لأنه آفة وهو منزّه عن الآفات، ولأنه تَغيّر ولا يجوز عليه التغيّر. أخبرنا أحمد بن إبراهيم الشريحي، أخبرنا أبو إسحق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي، أخبرنا عبد الله بن حامد أخبرنا محمد بن جعفر، أخبرنا علي بن حرب أخبرنا أبو معاوية أخبرنا الأعمش، عن عمرو بن مرة عن أبي عبيدة عن أبي موسى قال: قام فينا رسول الله ﷺ بخمس كلمات فقال: «إنّ الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينامَ ولكنّه يخفضُ القسطَ ويرفعُ إليه عملَ الليل قبلَ عملِ النهار وعملَ النهار قبلَ عملِ الليل، حجابُه النّورُ لو كشفه لأحرقتْ سُبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه»، ورواه المسعودي عن عمرو بن مرّة وقال: «حجابه النار». ﴿له ما في السموات وما في الأرض﴾، ملكاً وخلقاً، ﴿مَنْ ذَا الذي يَشْفَعُ عنده إلاّ بإذنه﴾، بأمره، ﴿يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم﴾، قال مجاهد وعطاء والسدي: ما بين أيديهم من أمر الدنيا وما خلفهم من أمر الآخرة، وقال الكلبي: ما بين أيديهم، يعني: الآخرة لأنهم

من موسى لأن الأنبياء عليهم السلام هم أعلم بالله من غيرهم فلا يجوز أن ينسب لموسى مثل هذا السؤال والله تعالى أعلم.

قوله تعالى: ﴿**له ما في السموات وما في الأرض**﴾ يعني أن الله تعالى مالك جميع ذلك بغير شريك ولا منازع وهو خالقهم وهم عبيده وفي ملكه. فإن قلت لم قال له ما في السموات ولم يقل من في السموات؟ قلت: لما كان المراد إضافة كل ما سواه إليه من الخلق والملك وكان الغالب فيهم من لا يعقل أجرى الغالب مجرى الكل فعبر عنه بلفظ ما ﴿**من ذا الذي يشفع عنده إلّا بإذنه**﴾ أي بأمره وهذا استفهام إنكاري والمعنى لا يشفع عنده أحد إلّا بأمره وإرادته، وذاك لأن المشركين زعموا أن الأصنام تشفع لهم فأخبر أنه لا شفاعة لأحد عنده إلّا ما استثناه بقوله ﴿**إلّا بإذنه**﴾ يريد بذلك شفاعة النبي ﷺ وشفاعة بعض الأنبياء والملائكة وشفاعة المؤمنين بعضهم لبعض ﴿**يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم**﴾ يعني ما بين أيديهم من الدنيا وما خلفهم من الآخرة وقيل بعكسه لأنهم يقدمون على الآخرة ويخلفون الدنيا وراء ظهورهم وقيل يعلم ما كان قبلهم وما كان بعدهم وقيل يعلم ما قدموه بين أيديهم من خير أو شر وما خلفهم مما هم فاعلوه والمقصود من هذا أنه سبحانه وتعالى عالم بجميع المعلومات لا يخفى عليه شيء من أحوال جميع خلقه ﴿**ولا يحيطون بشيء من علمه**﴾ يقال: أحاط بالشيء إذا علمه وهو أن يعلم وجوده وجنسه وقدره وحقيقته، فإذا علمه ووقف عليه وجمعه في قلبه فقد أحاط به والمراد بالعلم المعلوم والمعنى أن أحداً لا يحيط بمعلومات الله تعالى: ﴿**إلّا بما شاء**﴾ يعني أن يطلعهم عليه وهم من الأنبياء والرسل ليكون ما يطلعهم عليه من علم غيبه دليلاً على نبوتهم كما قال تعالى: «فلا يظهر على غيبه أحداً إلّا من ارتضى من رسول» ﴿**وسع كرسيه السموات والأرض**﴾ يقال فلان وسع الشيء سعة إذا احتمله وأطاقه وأمكنه القيام به وأصل الكرسي في اللغة من تركب الشيء بعضه على بعض ومنه الكراسة لتركب بعض أوراقها على بعض والكرسي في العرف اسم لما يقعد عليه سمي به لتركب خشباته بعضها على بعض. واختلفوا في المراد بالكرسي هنا على أربعة أقوال: أحدها أن الكرسي هو العرش نفسه قال الحسن لأن العرش والكرسي اسم للسرير الذي يصح التمكن عليه. القول الثاني أن الكرسي غير العرش وهو أمامه وهو فوق السموات السبع ودون العرش قال السدي إن السموات والأرض في جوف

يقدّمون عليها، وما خلفهم من الدنيا لأنهم يخلّفونها وراء ظهورهم، وقال ابن جريج: **ما بين أيديهم**: ما مضى **أمامهم، وما خلفهم**: ما يكون بعدهم، وقال مقاتل: ما بين أيديهم ما كان قبل الملائكة وما خلفهم، أي: ما كان **بعد خلقهم**، وقيل: ما بين أيديهم أي: ما قدّموه من خير وشر، وما خلفهم ما هم فاعلوه، ﴿ **ولا يُحيطون بشيءٍ من علمه** ﴾، أي: من علم الله، ﴿ **إلّا بما شاء** ﴾، أن يُطلعهم عليه، يعني: لا يحيطون بشيءٍ من علم الغيب إلّا بما شاء مما أخبر به الرسل، كما قال الله تعالى: ﴿ فلا يُظهر على غيبه أحداً إلّا مَن ارتضى من رسول ﴾ [الجنّ: ٢٦ و٢٧]، قوله تعالى: ﴿ **وَسِعَ كُرْسِيُّه السمواتِ والأرضَ** ﴾، أي: ملأ وأحاط به، واختلفوا في **الكرسي**، فقال الحسن: هو العرش نفسه، وقال أبو هريرة رضي الله عنه: الكرسي: موضوع أمام العرش، ومعنى قوله: ﴿ **وسع كرسيه السماوات والأرض** ﴾ أي: سعته مثل سعة السموات والأرض، وفي الأخبار: «إن السموات والأرضَ في جنب الكرسي، كحلقة في فلاة، والكرسي في جنب العرش، كحلقة في فلاة». ويُروى عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن السموات السبع والأرضين السبع في الكرسي كدارهم سبعة ألقيت في ترس، وقال عليّ ومقاتل: كلّ قائمة من الكرسي طولها مثل السموات السبع والأرضين السبع، وهو بين يدي العرش، ويحمل الكرسي أربعة أملاك، لكل ملك أربعة وجوه، وأقدامهم في الصخرة التي تحت الأرض السابعة السفلى مسيرة خمسمائة عام. ملكٌ على صورة سيد البشر آدم عليه السلام، وهو يسأل للآدميين الرزق والمطر من السنة إلى

الكرسي كحلقة ملقاة في فلاة والكرسي في جنب العرش كحلقة في فلاة وعن ابن عباس أن السموات السبع في الكرسي كدراهم سبعة ألقيت في ترس وقيل إن كل قائمة من قوائم الكرسي طولها مثل السموات والأرض وهو بين يدي العرش ويحمل الكرسي أربعة أملاك لكل ملك أربعة وجوه وأقدامهم على الصخرة التي تحت الأرض السابعة السفلى: ملك على صورة أبي البشر آدم وهو يسأل الرزق والمطر لبني آدم من السنة إلى السنة، وملك على صورة النسر وهو يسأل الرزق للطير من السنة إلى السنة، وملك على صورة الثور وهو يسأل الرزق للأنعام من السنة إلى السنة وملك على صورة السبع وهو يسأل الرزق للوحوش من السنة إلى السنة. وفي بعض الأخبار أن بين حملة العرش وحملة الكرسي سبعين حجاباً من ظلمة وسبعين حجاباً من نور غلظ كل حجاب مسيرة خمسمائة عام لولا ذلك لاحترقت حملة الكرسي من نور حملة العرش. القول الثالث: إن الكرسي هو الاسم الأعظم لأن العلم يعتمد عليه. كما أن الكرسي يعتمد عليه قال ابن عباس كرسيه علمه. القول الرابع: المراد بالكرسي الملك والسلطان والقدرة لأن الكرسي موضع الملك والسلطان فلا يبعد أن يكنى عن الملك بالكرسي على سبيل المجاز ﴿ولا يؤوده﴾ أي لا يثقله ولا يجهده ولا يشق عليه ﴿حفظهما﴾ أي حفظ السموات والأرض ﴿وهو العلي﴾ أي الرفيع فوق خلقه الذي ليس فوقه شيء فيما يجب له أن يوصف به من معاني الجلال والكمال فهو العلي بالإطلاق المتعالي عن الأشباه والأنداد والأضداد وقيل العلي بالملك والسلطنة والقهر فلا أعلى منه أحد وقيل معنى العلو في صفة الله تعالى منقول إلى اقتداره وقهره واستحقاق صفات المدح جميعها على كل وجه وقيل معناه أنه يعلو أن يحيط به وصف الواصفين ﴿العظيم﴾ يعني أنه ذو العظمة والكبرياء الذي لا شيء أعظم منه. وقال ابن عباس: العظيم الذي قد كمل في عظمته وقيل العظيم هو ذو العظمة والجلال والكمال وهو في صفة الله تعالى ينصرف إلى عظم الشأن وجلالة القدر دون العظم الذي هو من نعوت الأجسام. قوله عز وجل: .

﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٢٥٦﴾

﴿لا إكراه في الدين﴾ سبب نزول هذه الآية فيما يروى عن ابن عباس قال: كانت المرأة من الأنصار تكون مقلاة وهي التي لا يعيش لها ولد فكانت تنذر لئن عاش لها ولد، لتهودنه فإذا عاش جعلته في اليهود فجاء الإسلام

السنة، وملكٌ على صورة سيِّد الأنعام وهو الثور، وهو يسأل للأنعام الرزق من السنة إلى السنة، وعلى وجه غضاضةٌ منذ عُبد العجل، وملكٌ على صورة سيد السِّباع، وهو الأسد يسأل للسِّباع الرِّزق من السنة إلى السنة، وملكٌ على صورة سيد الطير، وهو النسر يسأل الرزق للطير من السنة إلى السنة. وفي بعض الأخبار أن ما بين حَمَلَة العرش وحَمَلَة الكرسي سبعين حجاباً من ظلمة وسبعين حجاباً من نور، غِلْظُ كل حجاب مسيرة خمسمائة عام، لولا ذلك لاحترقت حَمَلَة الكرسي من نور حَمَلَة العرش. ورَوى سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: أراد بالكرسي عمله، وهو قول مجاهد، ومنه قيل لصحيفة العلم كرّاسة، وقيل: كرسيه ملكه وسلطانه، والعرب تسمّي الملك القديم: كرسياً. ﴿ ولا يَؤُدُه ﴾، أي: لا يُثقله ولا يَشقّ عليه، يقال: آدني الشيءُ أي أثقلني، ﴿ حِفْظُهما ﴾ أي: حفظ السموات والأرض، ﴿ وهو العليّ ﴾: الرفيع فوق خلقه، والمتعالي عن الأشياء والأنداد، وقيل: العليّ بالملك والسلطنة، ﴿ العظيم ﴾: الكبير الذي لا شيء أعظم منه.

قوله تعالى: ﴿ لا إكْرَاهَ في الدين ﴾، قال سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما: كانت المرأة من الأنصار تكون مقلاة، والمقلاة من النساء التي لا يعيش لها ولد، وكانت تنذر لئن عاش لها ولد لَتهوِّدَنّه فإذا عاش

وفيهم منهم، فلما أجليت بنو النضير كان فيهم عدد من أولاد الأنصار فأرادت الأنصار استردادهم وقالوا هم أبناؤنا وإخواننا فنزلت الآية ﴿لا إكراه في الدين﴾. فقال رسول الله ﷺ: قد خير أصحابكم فإن اختاروكم فهم منكم، وإن اختاروهم فأجلوهم معهم وقيل: كان لرجل من الأنصار. من بني سالم بن عوف يقال له أبو الحصين ابنان متنصران قبل مبعث النبي ﷺ ثم قدما المدينة في نفر من النصارى يحملون الزيت فلزمهما أبوهما وقال لا أدعكما حتى تسلما فاختصموا إلى النبي ﷺ وقال: يا رسول الله أيدخل بعضي النار وأنا انظر فأنزل الله تعالى ﴿لا إكراه في الدين﴾ فخلى سبيلهما وقيل نزلت في أهل الكتاب إذا قبلوا بذل الجزية لم يكرهوا على الإسلام وذلك أن العرب كانت أمة أمية ولم يكن لهم كتاب يرجعون إليه فلم يقبل منهم إلاّ الإسلام أو القتل ونزل في أهل الكتاب لا إكراه في الدين يعني إذا قبلوا الجزية فمن أعطى الجزية منهم لم يكره على الإسلام فعلى هذا القول تكون الآية محكمة ليست بمنسوخة وقيل: بل الآية منسوخة وكان ذلك في ابتداء الإسلام قبل أن يؤمروا بالقتال ثم نسخت بآية القتال وهو قول ابن مسعود وقال الزهري سألت زيد بن أسلم عن قول الله تعالى لا إكراه في الدين قال كان رسول الله ﷺ بمكة عشر سنين لا يكره أحداً في الدين فأبى المشركون إلاّ أن يقاتلوه فاستأذن الله في قتالهم فأذن له ومعنى لا إكراه في الدين أي دين الإسلام ليس فيه إكراه عيله ﴿قد تبين الرشد من الغي﴾ يعني ظهر ووضح وتميز الحق من الباطل والإيمان من الكفر والهدى من الضلالة بكثرة الآيات والبراهين الدالة على صحته ﴿فمن يكفر بالطاغوت﴾ يعني الشيطان، وقيل: هو الساحر والكاهن، وقيل هو كل ما عبد من دون الله تعالى، وقيل: كل ما يطغي الإنسان فهو طاغوت فاعول من الطغيان ﴿ويؤمن بالله﴾ أي ويصدق بالله أنه ربه ومعبوده من دون كل شيء كان يعبده وفيه إشارة إلى أنه لا بد للكافر أن يتوب أولاً عن الكفر ويتبرأ منه ثم يؤمن بعد ذلك بالله فمن فعل ذلك صح إيمانه وهو قوله تعالى: ﴿فقد استمسك بالعروة الوثقى﴾ أي فقد تمسك واعتصم بالعقد الوثيق المحكم في الدين والوثقى تأنيث الأوثق وقيل العروة الوثقى السبب الذي يوصل إلى رضا الله تعالى وهو دين الإسلام ﴿لا انفصام لها﴾ أي لا انقطاع لها حتى تؤديه إلى الجنة والمعنى أن المتمسك بالدين الصحيح الذي هو دين الإسلام كالمتمسك بالشيء

ولدها جعلته في اليهود، فجاء الإسلام وفيهم منهم، فلما أجليت بنو النضير كان فيهم عدد من أولاد الأنصار فأرادت الأنصار استردادهم، وقالوا: هم أبناؤنا وإخواننا، فنزلت هذه الآية ﴿ لا إكراه في الدين ﴾، فقال رسول الله ﷺ: «قد خُيِّر أصحابكم فإنِ اختاروكم فهم منكم وإنِ اختارهم فأجلوهم معهم». وقال مجاهد: كان ناسٌ مسترضَعين في اليهود من الأوس فلما أمر النبي ﷺ بإجلاء بني النضير، قال الذين كانوا مسترضعين فيهم: لنذهبنّ معهم ولندينَنّ بدينهم، فمنعهم أهلوهم، فنزلت ﴿ لا إكراه في الدين ﴾، وقال مسروق: كان لرجل من الأنصار من بني سالم بن عوف ابنان متنصران قبلِ مبعث النبي ﷺ، ثم قَدِمَا المدينة في نفر من النصارى يحملون الطعام، فلزمهما أبوهما وقال: لا أدعكما حتى تُسلِما، فتخاصما إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله أيدخل بعضي النار وأنا أنظر؟ فأنزل الله تعالى: ﴿ لا إكراه في الدين ﴾ فخلّى سبيلهما، وقال قتادة وعطاء: نزلت في أهل الكتاب إذا قبلوا الجزية، وذلك أن العرب كانت أمّة أُمّيّة لم يكن لهم كتاب فلم يُقبلُ منهم إلاّ الإسلام، فلما أسلموا طوعاً أو كرهاً أنزل الله تعالى: ﴿ لا إكراه في الدين ﴾ فأمر بقتال أهل الكتاب إلى أن يسلموا أو يُقِرّوا بالجزية، فمَن أعطى منهم الجزية لم يكره على الإسلام. وقيل: كان هذا في الابتداء قبل أن يُؤمر بالقتال، فصارت منسوخة بآية السيف، وهو قول ابن مسعود رضي الله عنه، ﴿ قد تبيّن الرشدُ من الغيّ ﴾، أي: الإيمان من الكفر والحق من الباطل، ﴿ فمَن يكفر بالطاغوت ﴾، يعني: بالشيطان، وقيل: كل ما عُبِدَ من دون الله تعالى فهو طاغوت، وقيل: ما يُطغي الإنسان، فاعول، من الطغيان زيدتِ التاء فيه بدلاً من لام الفعل كقولهم: حانوت وتابوت، فالتاء فيها مبدل من هاء التأنيث،

الوثيق الذي لا يمكن كسره ولا انقطاعه ﴿والله سميع﴾ يعني أنه تعالى يسمع قول من كفر بالطاغوت وأتى بالشهادتين ﴿عليم﴾ بما في قلبه من الإيمان وقيل معناه سميع لدعائك إياهم إلى الإسلام عليم بحرصك على إسلامهم. قوله عز وجل:.

ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِۦمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾

﴿الله ولي الذين آمنوا﴾ أي ناصرهم ومعينهم وقيل محبهم ومتولي أمورهم فلا يكلهم إلى غيره وقيل هو متولي هدايتهم ﴿يخرجهم من الظلمات إلى النور﴾ أي من الكفر إلى الإيمان وكل ما في القرآن من ذكر الظلمات والنور، فالمراد به الكفر والإيمان غير الذي في سورة الأنعام وهو قوله تعالى وجعل الظلمات والنور، فالمراد به الليل والنهار وإنما سمي الكفر ظلمة لالتباس طريقه ولأن الظلمة تحجب الأبصار عن إدراك الحقائق فكذلك الكفر يحجب القلوب عن إدراك حقائق الإيمان وسمي الإسلام نوراً لوضوح طريقه وبيان أدلته ﴿والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت﴾ يعني كعب بن الأشرف وحيي بن أخطب وسائر رؤوس الضلالة ﴿يخرجونهم من النور إلى الظلمات﴾ أي من الهدى إلى الضلالة. فإن قلت: كيف قال يخرجونهم من النور إلى الظلمات وهم كفار لم يكونوا في نور قط؟ قلت: هم اليهود كانوا موقنين بمحمد ﷺ وصحة نبوته قبل أن يبعث لما يجدون في كتبهم من نعته وصفته فلما بعث كفروا به وجحدوا نبوته وقيل: هو على العموم في حق جميع الكفار سمي منع الطاغوت إياهم عن الدخول فيه إخراجاً من الإيمان بمعنى صدهم الطاغوت عنه وحرمهم خيره وإن لم يكونوا دخلوا فيه قط فهو كقول الرجل لأبيه أخرجتني عن مالك إذا أوصى به لغيره في حياته وحرمه منه وكقول الله تعالى إخباراً عن يوسف

﴿ ويؤمن بالله فقدِ استمسك بالعُروة الوثقى ﴾، أي: تمسك واعتصم بالعقد الوثيق المحكم في الدين، والوثقى: تأنيث الأوثق، وقيل: العروة الوثقى السبب الذي يُوصل إلى رضا الله تعالى، ﴿ لا انْفِصَامَ لها ﴾: لا انقطاع لها، ﴿ والله سميع ﴾: لدعائك إيّاهم إلى الإسلام، ﴿ عليم ﴾: بحرصك على إيمانهم.

قوله تعالى: ﴿ اللَّهُ وليُّ الذين آمنُوا ﴾: ناصرهم ومُعينهم، وقيل: مُحبّهم، وقيل: متولّي أمورهم لا يكلهم إلى غيره، وقال الحسن وليّ هدايتهم، ﴿ يُخرجهم من الظلماتِ إلى النور ﴾، أي: من الكفر إلى الإيمان، قال الواقدي: كلّ ما في القرآن من الظلمات والنور فالمراد منه: الكفر والإيمان غير التي في قوله تعالى: ﴿ وجعل الظلمات والنور ﴾ [الأنعام: ١] فالمراد منه: الليل والنهار، سُمّي الكفر: ظُلمة لالتباس طريقه، وسُمّي الإسلام نوراً لوضوح طريقه. ﴿ والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت ﴾، قال مقاتل: يعني: كعب بن الأشرف وحييّ بن أخطب وسائر رؤوس الضلالة، ﴿ يخرجونهم من النور إلى الظلمات ﴾، يدعونهم من النور إلى الظلمات، والطاغوت يكون مذكراً ومُؤنثاً وواحداً وجمعاً قال تعالى في المذكر والواحد: ﴿ يُريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أُمروا أن يكفروا به ﴾ [النساء: ٦٠]، وقال في المؤنث: ﴿ والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها ﴾ [الزمر: ١٧]، وقال في الجمع: ﴿ يُخرجونَهم من النور إلى الظلمات ﴾، فإن قيل: كيف يخرجونهم من النور إلى

عليه السلام: «إني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله» ولم يكن قط في ملتهم ﴿أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ يعني الكفار والطاغوت أهل النار الذين يخلدون فيها دون غيرهم.

قوله عز وجل: ﴿ألم تر إلى الذي حاجَّ إبراهيم في ربه﴾ يعني هل انتهى إليك يا محمد خبر الذي خاصم إبراهيم وجادله لأن ألم تر كلمة يوقف بها المخاطب على تعجب منها ولفظها استفهام كما يقال ألم تر إلى فلان كيف يصنع معناه هل رأيت فلاناً في صنعه والذي حاج إبراهيم هو نمرود بن كنعان الجبار وهو أول من وضع التاج على رأسه وتجبر في الأرض وادعى الربوبية ﴿أن آتاه الله الملك﴾ أي لأن آتاه الله الملك فطغى وتجبر بسببه وكانت تلك المحاجة من بطر الملك وطغيانه قال مجاهد ملك الأرض أربعة مؤمنان وكافران فأما المؤمنان فسليمان بن داود وذو القرنين، وأما الكافران فنمرود، وبختنصر. واختلفوا في وقت هذه المحاجة فقيل: لما كسر إبراهيم الأصنام سجنه نمرود ثم أخرجه ليحرقه فقال له: من ربك الذي تدعونا إليه؟ قال إبراهيم ربي الذي يحيي ويميت وقيل: كان هذا بعد إلقائه في النار وذلك أن الناس قحطوا على عهد نمرود، وكان الناس يمتارون من عنده الطعام فكان إذا أتاه أحد يمتار سأله من ربك؟ فيقول أنت فيميره فخرج إبراهيم عليه السلام إليه يمتار لأهله الطعام فأتاه فقال له من ربك قال ربي الذي يحيي ويميت قال أنا أحيي وأميت قال إبراهيم: «فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذي كفر» فرده بغير طعام فرجع إبراهيم إلى أهله فمر على كثيب رمل أعفر فأخذ منه تطيباً لقلوب أهله إذا دخل عليهم فلما أتى أهله وضع متاعه ثم نام فقامت زوجته سارة إلى رحله ففتحته فإذا هو

الظلمات وهم كفّار لم يكونوا في نور قطّ؟ قيل: هم اليهود وكانوا مؤمنين بمحمد ﷺ قبل أن يُبعثَ لِما يجدون في كتبهم من نعمته، فلما بُعث كفروا به، وقيل: هو على العموم في حق جميع الكفّار، قالوا: منعهم إياهم من الدخول فيه: إخراجٌ، كما يقول الرجل لأبيه أخرجتني من مالك، ولم يكن فيه، كما قال الله تعالى إخباراً عن يوسف عليه السلام: ﴿ إني تركتُ مِلّةَ قومٍ لا يُؤمنون بالله ﴾ [يوسف: ٣٧]، ولم يكن قطّ في ملّتهم، ﴿ أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾.

قوله تعالى: ﴿ ألم ترَ إلى الذي حاجّ إبراهيم في ربّه ﴾، معناه: هل انتهى إليك يا محمد خبر الذي حاجّ إبراهيم، أي خاصم وجادل، وهو نمرود، وهو أول مَن وضع التاج على رأسه وتجبّر في الأرض وادّعى الربوبية؟ ﴿ أنْ آتاهُ اللّهُ المُلك ﴾ أي: لأن آتاه الله الملك فطغى أي: كانت تلك المحاجّة من بَطَرِ الملك وطغيانه، قال مجاهد: ملَكَ الأرضَ أربعةٌ: مؤمنان وكافران، فأما المؤمنان: فسليمان وذو القرنين، وأما الكافران: فنمرود وبختنصر، واختلفوا في وقت هذه المناظرة، قال مقاتل: لمّا كسر إبراهيم الأصنام سجنه نمرود، ثم أخرجه ليحرقه بالنار، فقال له: مَن ربّك الذي تدعونا إليه؟ فقال: ﴿ ربّي الذي يُحيي ويُميت ﴾، وقال آخرون: كان هذا بعد إلقائه في النار وذلك أن الناس قُحِطوا على عهد نمرود، وكان الناس يمتارون من عنده الطعام، فكان إذا أتاه الرجل في طلب الطعام سأله مَن ربّك فإن قال: أنت، باع منه الطعام، فأتاه إبراهيم فيمَن أتاه، فقال له نمرود: مَن ربّك؟ قال: ﴿ ربّي الذي يُحيي ويُميت ﴾ فاشتغل بالمحاجّة ولم يعطه شيئاً، فرجع إبراهيم فمرّ على كثيب من رمل أعفر فأخذ منه تطيباً لقلوب أهله إذا دخل عليهم، فلما أتى أهله ووضع متاعه نام فقامت امرأته إلى متاعه ففتحته فإذا هو أجود طعام رأته، فصنعت له منه فقرّبته، فقال: من أين هذا؟ قالت: من الطعام الذي جئت به، فعرف أن الله رزقه فحمد الله، قال الله تعالى: ﴿ إذْ قال إبراهيمُ ربيَ الذي يُحيي ويُميت ﴾، وهذا جواب سؤال غير مذكور تقديره: قال له مَن ربّك؟ قال إبراهيم: ﴿ ربّي الذي يُحيي ويُميت ﴾ قرأ حمزة ﴿ ربي الذي يُحيي ويُميت ﴾ بإسكان الياء

طعام أجود ما رآه أحد فصنعت منه خبزاً فلما انتبه قربته إليه فقال لها إبراهيم من أين هذا؟ وكان عهد أهله وليس عندهم طعام فقالت من الطعام الذي جئت به فعلم إبراهيم أن الله قد رزقه فحمد الله تعالى: ثم إن الله تعالى بعث إلى نمرود الجبار ملكاً فقال له إن ربك يقول لك أن آمن بي وأتركك في ملكك قال وهل رب غيري فجاءه الثانية فقال له مثل ذلك ثم أتاه الثالثة فرد عليه مثل ذلك فقال له الملك أجمع جموعك فجمع الجبار جموعه فأمر الله الملك ففتح عليه باباً من البعوض حتى سترت الشمس فلم يروها فبعثها الله عليهم فأكلت لحومهم وشربت دماءهم فلم يبق إلّا العظام ونمرود ينظر ولم يصبه شيء من ذلك ثم بعث الله عليه بعوضة فدخلت في منخره فمكثت في رأسه أربعمائة سنة يضرب رأسه بالمطارق وكان أرحم الناس به من يجمع له يديه ثم يضرب بهما رأسه فكان كذلك يعذب أربعمائة سنة مدة ملكه حتى أماته الله عز وجل: **﴿إذ قال إبراهيم ربي الذي يحيي ويميت﴾** هذا جواب سؤال غير مذكور تقديره قال له نمرود من ربك قال إبراهيم ربي الذي يحيي ويميت **﴿قال﴾** يعني قال نمرود **﴿أنا أحيي وأميت﴾** قال أكثر المفسرين دعا نمرود برجلين فقتل أحدهما واستحيا الآخر فجعل ترك القتل إحياء فانتقل إبراهيم ﷺ إلى حجة أخرى لا عجزاً عن نصر حجته الأولى فإنها كانت لازمة لأنه أراد بالإحياء إحياء الميت فكان لإبراهيم أن يقول لنمرود فأحيي من أمت إن كنت صادقاً ولكن انتقل إلى حجة أخرى أوضح من الأولى لما رأى من قصور فهم نمرود وضعف رأيه فإنه عارض الفعل بمثله ونسي اختلاف الفعلين **﴿قال إبراهيم فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذي كفر﴾** يعني تحير نمرود ودهش وانقطعت حجته ولم يرجع إليه شيئاً وعرف أنه لا يطيق ذلك. فإن قلت كيف بهت الذي كفر وكان يمكنه أن يقول لإبراهيم سل أنت ربك حتى يأتي بها من المغرب. قلت إنما لم يقله لأنه خاف أنه لو سأل ذلك دعا إبراهيم ربه فكان ذلك زيادة في فضيحة نمرود وانقطاعه وقيل إن الله تعالى صرفه عن تلك المعارضة إظهاراً للحجة عليه ومعجزة لإبراهيم ﷺ وهو الصحيح **﴿والله لا يهدي القوم الظالمين﴾** يعني لا يرشدهم إلى حجة يدحضون بها حجج أهل الحق عند المحاجة والمخاصمة وعنى بالظالمين نمرود. قول عز وجل: .

وكذلك **﴿ حرّم ربّي الفواحش ﴾** [الأعراف: ٣٣]، و**﴿ عن آياتي الذين يتكبرون ﴾** [الأعراف: ١٤٦]، و**﴿ قل لعبادي الذين ﴾** [إبراهيم: ٣١]، و**﴿ آتاني الكتاب ﴾** [مريم: ٣٠]، و**﴿ مسّني الضرّ ﴾** [الأنبياء: ٨٣]، و**﴿ عبادي الصالحون ﴾** [الأنبياء: ١٠٥]، و**﴿عبادي الشكور ﴾**[سبأ: ١٣] و**﴿ مسّني الشيطان ﴾** [صٓ: ٤١]، و**﴿ إن أرادني الله﴾** [الزّمر: ٣٨]، و**﴿ إن أهلكني الله ﴾** [الملك: ٢٨]، أسكن الياء فيهنّ حمزة، ووافق ابن عامر والكسائي في **﴿ لعبادي الذين آمنوا ﴾** [إبراهيم: ٣١]، وابن عامر **﴿ آياتي ﴾**[الأعراف:١٤٦]، وفتحها الآخرون، **﴿ قال ﴾** رجلاً نمرود **﴿ أنا أُحيي وأُميت ﴾**، قرأ أهل المدينة **﴿ أنا ﴾** بإثبات الألف والمدّ في الوصل إذا تلتها ألف مفتوحة أو مضمومة، والباقون بحذف الألف، ووقفوا جميعاً بالألف، قال أكثر المفسّرين: دعا نمرود برجلين فقتل أحداهما واستحيا الآخر فجعل القتلَ إماتةً، وتَرْكَ القتل إحياءً، فانتقل إبراهيم إلى حجّة أُخرى ليعجزه، فإن حجّته كانت لازمة لأنه أراد بالإحياء إحياء الميت فكان له أن يقول فأُحيي مَن أمتّ إن كنت صادقاً، فانتقل إلى حُجّة أخرى أوضح من الأولى **﴿ قال إبراهيم فإنّ الله يأتي بالشمس مِنَ المشرق فأتِ بها من المغرب فبُهتَ الذي كفر ﴾**، أي: تحيّر ودُهش وانقطعتْ حُجّته، فإن قيل: كيف بُهت وكان يمكنه أن يُعارض إبراهيم فيقول له: سَلْ أنت ربّك حتى يأتي بها من المغرب، قيل: إنما لم يقله لأنه خاف أن لو سأل ذلك، دعا إبراهيم ربه فكان زيادة في فضيحته وانقطاعه، والصحيح أن الله صرفه عن تلك المعارضة إظهاراً للحجّة عليه أو معجزة لإبراهيم عليه السلام، **﴿ والله لا يهدي القوم الظالمين ﴾**.

﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾﴾

﴿أو كالذي مر على قرية﴾ هذه معطوفة على الآية التي قبلها والمعنى ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم أو كالذي مر على قرية فيكون هذا عطفاً على المعنى وقيل تقديره هل رأيت كالذي حاج إبراهيم وهل رأيت كالذي مر على قرية وقيل الكاف زائدة التقدير ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم أو إلى الذي مر على قرية واختلفوا في ذلك المار فروى عن مجاهد أنه كان كافراً شك في البعث وهذا قول ضعيف لقوله تعالى: ﴿قال كم لبثت﴾ والله تعالى لا يخاطب الكافر ولقوله تعالى: ﴿ولنجعلك آية للناس﴾ وهذا اللفظ لا يستعمل في حق الكافر وإنما يستعمل في حق الأنبياء وقال قتادة وعكرمة والضحاك والسدي هو عزيز بن شرخيا وقال وهب بن منبه هو أرمياء بن حلقيا من سبط هارون وهو الخضر ومقصود القصة تعريف منكري البعث قدرة الله تعالى على إحياء خلقه بعد إماتتهم لا تعريف اسم ذلك المار على القرية فجائز أن يكون ذلك المار هو عزيز وجائز أن يكون أرمياء وفي هذه القصة دلالة عظيمة بنبوة نبينا محمد ﷺ لأنه أخبر اليهود بما يجدونه في كتبهم ويعرفونه وهو أمي لم يقرأ الكتب القديمة واختلفوا في تلك القرية فقيل هي بيت المقدس وذلك لما خربها بختنصر والمراد بالإحياء هنا عمارتها وقيل هي القرية التي أهلك الله أهلها الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف وقيل وهي دير سابر آباد وقيل سلماباد وقيل هي دير هرقل وقيل قرية العنب هي على فرسخين من بيت المقدس وقوله هي دير سابر أباد موضع كان بفارس وسلماباد محلة أو

قوله تعالى: ﴿ أو كالذي مرّ على قرية ﴾، وهذه الآية مَسُوقَةٌ على الآية الأولى، تقديره: ألم ترَ إلى الذي حاجّ إبراهيم في ربّه، وهل رأيت كالذي مرّ على قرية؟ وقيل: تقديره: هل رأيت كالذي حاجّ إبراهيم في ربّه؟ وهل رأيت كالذي مرّ على قرية؟ واختلفوا في ذلك المارّ، فقال قتادة وعكرمة والضحّاك: هو عزير بن شرخيا، وقال وهب بن منبه: هو أرميا بن سلقيا، وكان من سبط هارون وهو الخضر، وقال مجاهد: هو كافر شكّ في البعث، واختلفوا في تلك القرية فقال وهب وعكرمة وقتادة: هي بيت المقدس، وقال الضحّاك: هي الأرض المقدسة، وقال الكلبي: هي دير سابر أباد، وقال السدي: مسلم أباد، وقيل: دير هرقل، وقيل: هي الأرض التي أهلك الله فيها الذين خرجوا من ديارهم وهم أُلوف، وقيل: هي قرية العنب وهي على فرسخين من بيت المقدس، ﴿ وهي خاوية ﴾: ساقطة، يقال: خوِي البيت بكسر الواو يخوي، خوى مقصوراً إذا سقط وخوى البيت بالفتح خواءً ممدوداً إذا خلا، ﴿ على عروشها ﴾: سقوفها، واحدها عرش، وقيل: كل بناء عرش، ومعناه: أن السقوف سقطت ثم وقعت الحيطان عليها، ﴿ قال أنّى يُحيـي هذه الله بعد موتها ﴾؟ وكان السبب في ذلك على ما روى محمد بن إسحق عن وهب بن منبه: أنّ الله تعالى بعث أرمياء إلى ناشية بن أموص ملك بني إسرائيل ليسدّده في ملكه، ويأتيه بالخير من الله عزّ وجلّ، فعظمت الأحداث في بني إسرائيل، وركبوا المعاصي فأوحى الله تعالى إلى أرمياء أنْ ذكر قومك نِعَمِي وعَرِّفهم أحداثهم وادْعُهمْ إليّ، فقال أرمياء: إني ضعيفٌ إن لم تقوّني، عاجزٌ إنْ لم تبلّغني، مخذولٌ إنْ لم تنصرني، فقال الله عزّ وجلّ: أنا ألهمك، فقام أرمياء فيهم ولم يدرِ ما يقول، فألهمه الله في الوقت خُطبةً بليغةً طويلةً بيّن لهم فيْها ثوابَ الطاعة وعقابَ المعصية، وقال في آخرها عن الله تعالى: وإني أحلف بعزّتي لأُقيّضَنّ لهم فتنةً

قرية من نواحي جرجان وقيل: أيضاً من نواحي همدان ودير هرقل بكسر أوله وراء ساكنة وقاف مكسورة دير مشهور بين البصرة وعسكر مكرم. وقيل: هو موضع الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف فأماتهم الله تعالى ثم أحياهم لحزقيل كما تقدم ويقال إن المراد بقوله تعالى: **﴿أو كالذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها﴾** هي التي عندها أحيا الله حمار عزير **﴿وهي خاوية على عروشها﴾** أي ساقطة على سقوفها وذلك أن السقوف سقطت أولاً وقفت الحيطان عليها بعد ذلك **﴿قال﴾** يعني ذلك المار **﴿أنى يحيي هذه الله بعد موتها﴾** فمن قال إن ذلك المار كان كافراً وهو ضعيف إنما حمله على الشك في قدرة الله ومن قال كان نبياً حمله على سبيل الاستبعاد بحسب مجاري العرف والعادة لا على سبيل الإنكار لقدرة الله تعالى أو كان المقصود منه طلب زيادة الدلائل لأجل التأكيد كما قال إبراهيم عليه السلام: «رب أرني كيف تحيي الموتى» ومعنى **﴿أنى يحيي هذه الله﴾** من أين يحيي هذه القرية والمراد بالإحياء عمارتها فأحب الله أن يريه آية في نفسه وفي إحياء تلك القرية. وكان سبب القصة في ذلك ما روي عن وهب بن منبه أن الله تعالى بعث أرمياء إلى ناشية بن أموص ملك بني إسرائيل ليسدده ويأتيه بالخبر من الله تعالى فعظمت الأحداث في بني إسرائيل وركبوا المعاصي فأوحى الله تعالى إلى أرمياء أن ذكر قومك نعمي عليهم وعرفهم أحداثهم وادعهم إلي فقال أرمياء يا رب إني ضعيف إن لم تقوني عاجز إن لم تبلغني مخذول إن لم تنصرني فقال الله تعالى: إني ألهمك فقام أرمياء فيهم ولم يدر ما يقول، فألهمه الله تعالى في الوقت خطبة بليغة طويلة بين لهم فيها ثواب الطاعة وعقاب المعصية وقال في آخرها عن الله عز وجل إني أحلف بعزتي لأقيضن لهم فتنة يتحير فيها الحكيم ولأسلطن عليهم جباراً فارسياً ألبسه الهيبة وأنزع من صدره الرحمة يتبعه عدد مثل سواد

يتحيّر فيها الحكيم، ولأسلطنَّ عليهم جبّاراً فارسياً ألبسه الهيبةَ وأنزعُ من صدره الرحمةَ يتبعه عددٌ مثل سواد الليل المظلم، ثم أوحى الله إلى أرمياء: إني مهلك بني إسرائيل، ويافث من أهل بابيل، وهم من ولد يافث بن نوح عليه السلام، فلما سمع أرمياء ذلك صاح وبكى وشقّ ثيابه ونبذَ الرمادَ على رأسه، فلما سمع الله تضرعَه وبكاءَه ناداه يا أرمياء أشقّ عليك ما أوحيت إليك؟ قال: نعم يا رب، أهْلِكْني قبل أن أرى في بني إسرائيل ما لا أُسرّ به، فقال الله تعالى: وعزّتي لا أهلك بني إسرائيل حتى يكون الأمر في ذلك من قبلك، ففرح أرمياء بذلك وطابت نفسه، فقال: لا والذي بعث موسى بالحق لا أرضى بهلاك بني إسرائيل، ثم أتى الملِكُ فأخبره بذلك وكان مَلِكاً صالحاً فاستبشر وفرح، فقال: إن يُعذّبنا ربُّنا فبذنوب كثيرة، وإن عفا عنّا فبرحمته، ثم إنهم لبثوا بَعْدَ الوحي ثلاث سنين لم يزدادُوا إلاّ معصيةً وتمادياً في الشرّ، وذلك حين اقتراب هلاكُهم فقل الوحي، ودعاهم الملِكُ إلى التوبة فلم يفعلوا فسلّط الله عليهم بختنصّر فخرج في ستمائة ألف راية يريد أهل بيت المقدس، فلما فصل سائراً أتى الملِكَ الخبرُ فقال لأرمياء: أين ما زعمت أنّ الله أوحى إليك، فقال أرمياء: إن الله لا يخلف الميعاد، وأنا به واثق، فلما قَرُبَ الأجل بعث الله إلى أرمياء ملَكاً قد تمثّل له رجلاً من بني إسرائيل، فقال له أرمياء: مَن أنت؟ قال: أنا رجل من بني إسرائيل أتيتك أستفتيك في أهل رحمي، وصلت أرحامهم ولم آتِ إليهم إلاّ حُسناً ولا يزيدهم إكرامي إيّاهم إلاّ إسخاطاً لي، فأفتني فيهم، قال: أحسنْ فيما بينك وبين الله وصلهم وأبشر بخير، فانصرف الملَكُ فمكث أياماً ثم أقبل إليه في صورة ذلك الرجل، فقعد بين يديه، فقال له أرمياء: مَنْ أنت؟ قال: أنا الرجل الذي أتيتك أستفتيك في شأن أهلي، فقال له أرمياء: أمَا طهرت أخلاقهم لك بعد؟ قال: يا نبيّ الله والذي بعثك بالحق ما أعلم كرامة يأتيها أحد من الناس إلاّ رَحِمه إلاّ قدّمتها إليهم وأفضل، فقال له النبيّ أرمياء عليه السلام: ارجع فأحسن إليهم واسألِ اللّهَ الذي يُصلح عباده الصالحين أن يُصلحهم، فانصرف الملَكُ، فمكث أياماً وقد نزل بختنصّر وجنوده حول بيت المقدس بأكثر من الجراد ففزع منهم بنو إسرائيل، فقال ملكهم لأرمياء: يا نبيّ الله أين ما وعدك الله؟ قال: إني

الليل المظلم ثم أوحى الله تعالى إليه إني مهلك بني إسرائيل بيافث ويافث هم أهل بابل وهم من ولد يافث بن نوح فلما سمع أرمياء ذلك صاح وبكى وشق ثيابه ونبذ الرماد على رأسه فلما رأى الله تضرعه وبكاءه ناداه يا أرمياء أشق عليك ما أوحيت إليك قال نعم يا رب أهلكني قبل أن أرى في بني إسرائيل مالاً أسربه فقال الله عز وجل: وعزتي وجلالي لا أهلك بني إسرائيل حتى يكون الأمر في ذلك من قبلك ففرح أرمياء بذلك وطابت نفسه وقال: لا والذي بعث موسى بالحق لا أرضى بهلاك بني إسرائيل، ثم أتى الملك فأخبره بذلك وكان ملكاً صالحاً فاستبشر وفرح وقال إن يعذبنا ربنا فبذنوبنا وإن يعف عنا فبرحمته ثم إنهم مكثوا بعد ذلك الوحي ثلاث سنين لم يزدادوا إلاّ معصية وتمادياً في الشر فقل الوحي وذلك حين اقترب هلاكهم فدعاهم الملك إلى التوبة فلم يفعلوا فسلط الله عليهم بختنصر البابلي فخرج في ستمائة ألف راية يريد أهل بيت المقدس فلما فصل سائراً وأتى الخبر إلى ملك بني إسرائيل قال لأرمياء: أين ما زعمت أن الله تعالى أوحى إليك فقال أرمياء: إن الله لا يخلف الميعاد وأنا به واثق فلما قرب الأجل بعث الله تعالى إلى أرمياء ملكاً قد تمثل له في صورة رجل من بني إسرائيل فقال له أرمياء من أنت قال أنا رجل من بني إسرائيل أتيتك أستفتيك في أهل رحمي وصلت أرحامهم ولم آت إليهم إلاّ حسناً ولا يزيدهم إكرامي إياهم إلاّ سخطاً لي فأفتني فيهم فقال أرمياء: أحسن فيما بينك وبين الله وصلهم وأبشر بخير فانصرف الملك فمكث أياماً ثم أقبل إليه في صورة ذلك الرجل فقعد بين يديه فقال له أرمياء من أنت قال أنا الرجل الذي أتيتك أستفتيك في شأن أهلي فقال له أرمياء أما طهرت أخلاقهم بعدلك فيهم فقال يا نبي الله والذي بعثك بالحق نبياً ما أعلم كرامة يأتيها أحد من الناس إلى رحمه إلاّ قدمتها إليهم وأفضل فقال أرمياء: ارجع إليهم فأحسن إليهم

بربّي واثق، ثم أقبل المَلَكُ إلى أرمياء وهو قاعد على جدار بيت المقدس يضحك ويستبشر بنصر ربّه الذي وعده، فقعد بين يديه فقال له أرمياء: مَن أنت؟ فقال: أنا الذي أتيتك في شأن أهلي مرتين، فقال النبي: ألم يأنِ لهم أن يفيقوا من الذي هم فيه؟ فقال المَلَكُ يا نبيّ الله كل شيء كان يصيبني منهم قبل اليوم كنت أصبر عليه، فاليوم رأيتهم في عمل لا يُرضي الله، فقال النبي على أيّ عملٍ رأيتهم؟ قال: على عمل عظيم من سخط الله، فغضبتُ لله وأتيتك لأخبرك، وإني أسألك بالله الذي بعثك بالحق نبيّاً إلاّ ما دعوتَ اللَّهَ عليهم لَيُهلِكَهم، فقال أرمياء: يا مالك السموات والأرض إن كانوا على حق وصواب فأبقهم، وإن كانوا على عمل لا ترضاه فأهلكهم، فلما خرجتِ الكلمةُ مِنْ فِيْ أرمياء أرسل الله صاعقة من السماء في بيت المقدس، فالتهب مكان القربان وخُسف بسبعة أبواب من أبوابها، فلما رأى ذلك أرمياء صاح وشقّ ثيابه ونبذ الرماد على رأسه، وقال: يا مالك السموات والأرض أين ميعادك الذي وعدتني به، فنودي أنه لم يصيبهم ما أصابهم إلاّ بفتياك ودعائك، فاستيقن النبيّ عليه السلام أنها فتياه وأن ذلك السائل كان رسول ربّه، فطار أرمياء حتى خالط الوحوش، ودخل بختنصّر وجنوده بيت المقدس ووطىء الشام وقتل بني إسرائيل حتى أفناهم وخرّب بيت المقدس، ثم أمر جنوده أن يملأ كل رجل منهم ترسه تراباً فيقذفه في بيت المقدس ففعلوا حتى ملؤوه، ثم أمرهم أن يجمعوا مَن كان في بلدان بيت المقدس، فاجتمع عندهم صغيرهم وكبيرهم من بني إسرائيل، فاختار منهم سبعين ألف صبي فقسمهم بين الملوك الذين كانوا معه، فأصاب كل رجل منهم أربعة غلمة، وكان من أولئك الغلمان دانيال وحنانيا، وفرّق مَن بقي من بني إسرائيل ثلاث فِرَق فثلثاً قتلهم وثلثاً سباهم وثلثاً أقرّهم بالشام، وكانت هذه الواقعة الأولى التي أنزلها الله في بني إسرائيل بظلمهم فلما ولّى عنهم بختنصّر راجعاً إلى بابل ومعه سبايا بني إسرائيل أقبل أرمياء على حماره، ومعه عصير عنب في ركوة وسلّة تين حتى غشي إيلياء، فلما وقف عليها ورأى خرابها قال: ﴿ أنّى يُحيي هذه الله بعد موتها ﴾ وقال الذي قال: إن المارّ كان عزيراً وإن بختنصّر لمّا خرّب بيت المقدس وقَدِمَ بسبي بني إسرائيل ببابل كان فيهم عزيرٌ ودانيال وسبعة آلاف من أهل بيت داود، فلما

واسأل الله الذي يصلح عباده الصالحين أن يصلحهم فقام الملك فمكث أياماً ثم إن بختنصر نزل بجنوده بيت المقدس ففزع منهم بنو إسرائيل فقال ملكهم لأرمياء يا نبي الله أين ما وعدك الله فقال إني بربي واثق ثم أقبل ذلك الملك إلى أرمياء وهو قاعد على جدار بيت المقدس يضحك ويستبشر بنصر ربه الذي وعده فقعد بين يديه فقال له أرمياء من أنت قال أنا الذي جئتك في شأن أهلي مرتين فقال أرمياء: أما آن لهم أن يفيقوا من الذي هم فيه فقال الملك يا نبي الله إن كل شيء كان يصيبني منهم قبل اليوم كنت أصبر عليه فاليوم رأيتهم على عمل لا يرضي الله تعالى فقال له أرمياء: على أي عمل رأيتهم؟ قال على عمل عظيم يسخط الله تعالى فغضبت لله عز وجل فأتيتك لأخبرك وأنا أسألك بالله الذي بعثك بالحق أن تدعو الله عليهم ليهلكوا فقال أرمياء: يا مالك السموات والأرض يا ذا الجلال والإكرام إن كانوا على حق وصواب فأبقهم وإن كانوا على عمل لا ترضاه فأهلكهم فما خرجت الكلمة من فيه حتى أرسل الله عز وجل صاعقة من السماء على بيت المقدس فالتهب مكان القربان وأحرقت سبعة أبواب من أبوابه، فلما رأى ذلك أرمياء صاح وشق ثيابه ونبذ الرماد على رأسه وقال يا مالك السموات والأرض أين ميعادك الذي وعدتني به فنودي أنهم لم يصبهم ما أصابهم إلاّ بفتياك ودعائك عليهم، فاستيقن أرمياء أنها فتياه وأن ذلك السائل كان رسولاً من الله تعالى إليه فخرج أرمياء حتى خالط الوحوش ودخل بختنصر وجنوده بيت المقدس ووطىء الشام، وقتل بني إسرائيل حتى أفناهم وخرب بيت المقدس وأمر جنوده أن يملأ كل رجل منهم ترسه تراباً ويقذفه في بيت المقدس ففعلوا ذلك حتى ملؤوه ثم أمرهم أن يجمعوا من كان بقي في بلدان بيت المقدس فاجتمع عنده من كان بقي من بني إسرائيل من صغير وكبير فاختار منهم سبعين ألف صبي فقسمهم بين الملوك الذين كانوا معه فأصاب كل رجل منهم أربعة غلمة. وكان في أولئك الغلمان دانيال عليه السلام وحنانيا وعزير، وفرق من بقي من بني إسرائيل ثلاث فرق فثلثاً قتلهم وثلثاً سباهم وثلثاً أقرهم بالشام فكانت هذه الوقعة الأولى التي أنزلها الله ببني إسرائيل بظلمهم فلما ولى بختنصر راجعاً إلى بابل ومعه سبايا بني إسرائيل أقبل أرمياء على حمار له ومعه عصير

نجا عزير من بابل ارتحل على حمار له حتى نزل دير هرقل على شطّ دجلة، فطاف في القرية فلم يرَ فيها أحداً وعامّة شجرها حاصل، فأكل من الفاكهة واعتصر من العنب فشرب منه وجعل فضل الفاكهة في سلّة وفضل العصير في زقّ، فلما رأى خراب القرية وهلاكَ أهلِها قال: ﴿ **أنّى يُحيـي هذه الله بعد موتها** ﴾، قالها تعجباً لا شكّاً في البعث. رجعنا إلى حديث وهب، قال: ثم ربط أرمياء حماره بحبل جديد فألقى الله تعالى عليه النوم فلما نام نزع الله منه الروح مائة عام، وأمات حماره، وعصيرُه وتينه عنده فأعمى الله عنه العيون فلم يره أحد، وذلك ضحى ومنع الله السباع والطير لحمه فلما مضى من موته سبعون سنة أرسل الله مَلَكاً إلى مَلِكٍ من ملوك فارس يقال له نوشك، فقال: إن الله يأمرك أن تنفر بقومك فتعمّر بيت المقدس وإيلياء حتى يعود أعمر ما كان، فانتدب الملك بألف قهرمان مع كل قهرمان ثلاثمائة ألف عامل وجعلوا يعمّرونه، فأهلك الله بختنصّر ببعوضة دخلت دماغه، ونجا الله مَن بقِي من بني إسرائيل، ولم يمت ببابل أحد وردّهم جميعاً إلى بيت المقدس ونواحيه وعمّروها ثلاثين سنة، وكثُروا حتى عادوا على أحسن ما كانوا عليه، فلما مضت المائة أحيا الله مِنْهُ عَيْنَيْهِ وسائر جسده ميت ثم أحيا جسده وهو ينظر إليه، ثم نظر إلى حماره فإذا عظامه متفرّقة بيضٌ تلوح، فسمع صوتاً من السماء: أيتها العظام البالية إن الله يأمرك أن تجتمعي فاجتمع بعضها إلى بعض واتصل بعضها ببعض، ثم نُودي أن الله يأمرك أن تكتسي لحماً وجلداً فكانت كذلك، ثم نُودي أن الله يأمرك أن تحيا فقام بإذن الله ونهق، وعمّر اللّهُ أرمياء فهو الذي يُرى في الفلوات، فذلك قوله تعالى: ﴿ **فأماته الله مائة عام ثم بعثه** ﴾، أي: أحياه، ﴿ **قال كم لبثت** ﴾، أي: كم مكثت؟ يقال: لما أحياه الله بعث إليه ملكاً فسأله: كم لبثت ﴿ **قال لبثت يوماً** ﴾، وذلك أن الله تعالى أماته ضُحىً في أول النهار وأحياه بعد

عنب في ركوة وسلة تين حتى غشي إيليا وهي أرض بيت المقدس فلما رأى خرابها قال: أنى يحيـي هذه الله بعد موتها. ومن قال: إن المار كان عزيراً قال: إن بختنصر لما خرب بيت المقدس بسبايا بني إسرائيل وكان فيهم عزيز ودانيال وسبعة آلاف من أهل بيت داود، فلما نجا عزير من بابل ارتحل على حمار حتى نزل دير هرقل على شط دجلة فطاف بالقرية فلم ير أحداً وعامة شجرها حامل فأكل من الفاكهة واعتصر من العنب فشرب منه وجعل فضل الفاكهة في سلة وفضل العصير في زق، ولما رأى خراب القرية وهلاك أهلها قال أنى يحيي هذه الله بعد موتها وإنما قال ذلك تعجباً لا شكاً في البعث. ورجعنا إلى حديث وهب قال ثم إن أرمياء ربط حماره بحبل جديد وألقى الله تعالى عليه النوم فلما نام ونزع الله منه الروح فمات مائة عام وأمات حماره وبقي عصيره وتينه عنده وأعمى الله عنه العيون فلم يره أحد وذلك ضحى ومنع لحمه من السباع والطير، فلما مضى من وقت موته مدة سبعين سنة أرسل الله تعالى ملكاً إلى ملك من ملوك فارس يقال له نوشك وقال له: إن الله يأمرك أن تنفر بقومك فتعمر بيت المقدس وإيليا حتى يعود أعمر ما كان فانتدب الملك ألف قهرمان مع كل قهرمان ثلاثمائة ألف عامل وجعلوا يعمرونه وأهلك الله بختنصر ببعوضة دخلت في دماغه ونجى الله من بقي من بني إسرائيل وردهم جميعاً إلى بيت المقدس ونواحيها فعمروها ثلاثين سنة وكثروا كأحسن ما كانوا، فلما مضت المائة أحيا الله منه عينيه وسائر جسده ميت ثم أحيا الله جسده وهو ينظر ثم نظر إلى حماره فإذا عظامه تلوح بيض متفرقة فسمع صوتاً من السماء أيتها العظام البالية إن الله يأمرك أن تجتمعي فاجتمع بعضها إلى بعض، ثم نودي إن الله يأمرك أن تكتسي لحماً وجلداً فكان كذلك، ثم نودي إن الله يأمرك أن تحيي فقام الحمار بإذن الله ثم نهق وعمر الله أرمياء فهو يدور في الفلوات فذلك قوله تعالى: ﴿**فأماته الله مائة عام**﴾ أصل العام من العوم وهو السباحة سميت السنة عاماً لأن الشمس تعوم في جميع بروجها ﴿**ثم بعثه**﴾ أي ثم أحياه وأصله من بعثت الناقة إذا أقمتها من مكانها ﴿**قال كم لبثت**﴾ يعني قال الله تعالى له كم قدر الزمان الذي مكثت فيه ميتاً قبل أن أبعثك من مكانك حياً؟ ويقال إن الله تعالى لما أحياه بعث إليه ملكاً

مائة عام في آخر النهار قبل غيبوبة الشمس، فقال: كم لبثت؟ قال: لبثت يوماً وهو يرى أن الشمس قد غربت، ثم التفت فرأى بقية من الشمس، فقال: ﴿ **أو بعض يوم** ﴾، بل بعض يوم، ﴿ **قال** ﴾ له الملك: ﴿ **بل لبثت مائة عام فانظر إلى طعامك** ﴾، يعني: التين، ﴿ **وشرابك** ﴾، يعني: العصير، ﴿ **لم يتسنّه** ﴾، أي: لم يتغيّر، فكان التين كأنه قُطف من ساعته، والعصير كأنه عُصر من ساعته، قال الكسائي: كأنه لم تأتِ عليه السنون، وقرأ حمزة والكسائي ويعقوب ﴿ **لم يتسنّ** ﴾ بحذف الهاء في الوصل، وكذلك ﴿ فبهداهم اقتده ﴾ [الأنعام: ٩٠] وقرأ الآخرون بالهاء فيهما وصلاً ووقفاً، فمَن أسقط الهاء في الوصل جعل الهاء صلةً زائدةً، وقال: أصله يتسنّى، فحذف الياء بالجزم وأبدل منه هاء في الوقف، وقال أبو عمرو: هو من التسنّن، بنونين، وهو التغيّر، كقوله تعالى: ﴿ من حمأ مسنون ﴾ [الحجر: ٢٦ و٢٨ و٣٣]، أي: متغيّر، فعوّضت من أحد النون ياء، كقوله تعالى: ﴿ ثم ذهب إلى أهله يتمطّى ﴾ [القيامة: ٣٣]، أي: يتمطط، وقوله: ﴿ وقد خاب من دسّاها ﴾ [الشمس: ١٠]، وأصله: دسَسَها، ومَن أثبت الهاء في الحالين جعل الهاء أصلية لاَمَ الفعل، وهذا على قول مَن جعل أصل السنة السنهة، وتصغيرها سُنيهة، والفعل من المسانهة، وإنما قال: ﴿ **لم يتسنه** ﴾ ولم يثنه مع أنه أخبر عن شيئين ردّاً للمتغيّر إلى أقرب اللفظين به، وهو الشراب، واكتفى بذكر أحد المذكورين، لأنه في معنى الآخر، ﴿ **وانظر إلى حمارك** ﴾، فنظر فإذا هو عظام بيض، فركّب الله تعالى العظام بعضها على بعض فكساه اللحمَ والجلدَ وأحياه وهو ينظر، ﴿ **ولنجعلك آية للناس** ﴾، قيل: الواو زائدة مقحمة، وقال الفرّاء: أُدخلت الواو فيه دلالةً على أنها شرط لفعل بعدها معناه: ولنجعلك آيةً: عبرةً ودلالةً على البعث بعد الموت، قاله أكثر المفسّرين، وقال الضحّاك وغيره:

فسأله كم لبثت ﴿قال﴾ يعني ذلك المبعوث بعد مماته ﴿لبثت يوماً﴾ وذلك أن الله تعالى أماته ضحى في أول النهار وأحياه بعد مائة سنة في آخر النهار قبل أن تغيب الشمس فقال لبثت يوماً وهو يرى أن الشمس قد غابت ثم التفت فرأى بقية من الشمس فقال: ﴿أو بعض يوم قال﴾ يعني قال الله له، وقيل قال الملك له ﴿بل لبثت مائة عام فانظر إلى طعامك﴾ يعني التين الذي كان معه قبل موته ﴿وشرابك﴾ يعني العصير ﴿لم يتسنه﴾ يعني لم تغيره السنون التي أتت عليه فكان التين كأنه قد قطف من ساعته والعصير كأنه قد عصر من ساعته لم يتغير ولم ينتن ﴿وانظر إلى حمارك﴾ أي وانظر إلى إحياء حمارك فنظر فإذا هو عظام بيض فركب الله تعالى العظام بعضها على بعض ثم كساه اللحم والجلد وأحياه وهو ينظر ﴿ولنجعلك آية للناس﴾ قيل الواو زائدة مقحمة وقيل: دخول الواو فيه دلالة على أنها شرط لفعل بعدها والمعنى وفعلنا ما فعلنا من الإماتة والإحياء لنجعلك آية للناس يعني عبرة ودلالة على البعث بعد الموت. وقال أكثر المفسرين وقيل: إنه عاد إلى القرية وهو شاب أسود الرأس واللحية وأولاده وأولاد أولاده شيوخ وعجائز شمط فكان ذلك آية للناس ﴿وانظر إلى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحماً﴾ قرىء بالراء ومعناه كيف نحييها يقال أنشر الله الميت إنشاراً يعني أحياه وقرىء بالزاي ومعناه: كيف نرفعها من الأرض ونردها إلى مكانها من الجسد، وتركيب بعضها على بعض وإنشاز الشيء رفعه وانزعاجه يقال: نشزته فنشز أي رفعته فارتفع واختلفوا في معنى الآية فقال الأكثرون إنه أراد عظام الحمار قيل إن الله تعالى أحيا عزيراً أو أرمياً على اختلاف القولين فيه ثم قال: له: انظر إلى حمارك قد هلك وبليت عظامه، فنظر وبعث الله ريحاً فجاءت بعظام الحمار من كل سهل وجبل، فاجتمعت فركب بعضها على بعض حتى الكسرة من العظم رجعت إلى موضعها فصار حماراً من عظام ليس عليه لحم، ولا فيه دم ثم كسا الله تلك العظام اللحم والعروق والدم، فصار حماراً ذا لحم ودم لا روح فيه، ثم بعث الله ملكاً فأقبل إليه يمشي حتى أخذ بمنخر الحمار فنفخ فيه الروح فقام الحمار حياً بإذن الله تعالى، ، ثم نهق وقيل: أراد بالعظام عظام هذا الرجل نفسه وذلك أن الله تعالى أماته ثم بعثه ولم يمت حماره. ثم قيل: له انظر إلى حمارك فنظر فرأى حماره حياً قائماً كهيئته يوم ربطه لم يطعم ولم يشرب مائة عام ونظر إلى الرمة في عنقه جديدة لم تتغير ثم قيل له: انظر إلى العظام كيف ننشزها وذلك أن الله أول ما أحيا منه عينيه فنظر فرأى سائر جسده

إنه عاد إلى قريته شاباً وأولاده وأولاد أولاده شيوخ وعجائز، وهو أسود الرأس واللحية، قوله تعالى: ﴿ وانظر إلى العظام كيف نُنْشِزُها ﴾، قرأ أهل الحجاز والبصرة: (ننشـرها) بالراء، معناه: نحييها، يقال: أنشر الله الميت إنشاراً وأنشره نشوراً، قال الله تعالى: ﴿ ثم إذا شاء أنشره ﴾ [عبس: ٢٢]، وقال في اللازم: ﴿ وإليه النشور ﴾ [الملك: ١٥]، وقال الآخرون بالزاي، أي نرفعها من الأرض ونركّب بعضها على بعض، وإنشاز الشيء: رفعه وإزعاجه، قال: أنشزته فنشـز. أي: رفعته فارتفع، واختلفوا في معنى الآية، فقال الأكثرون: أراد به عظام حماره، وقال السدي: إن الله تعالى أحيا عُزيراً، ثم قال له: انظر إلى حمارك قد هلك وبليت عظامه، فبعث الله تعالى ريحاً فجاءت بعظام الحمار من كل سهل وجبل، وقد ذهبت بها الطير والسباع، فاجتمعت فركّب بعضها في بعض وهو ينظر فصار حماراً من عظام ليس فيـه لحـم ولا دم، ﴿ ثم نَكْسُوها لحماً ﴾، ثم كسى العظام لحماً فصار حماراً لا روح فيه، ثم أقبل ملك يمشي حتى أخذ بمنخر الحمار فنفخ فيه، فقام الحمار ونهق بإذن الله، وقال قوم: أراد به عظام هذا الرجل، ذلك أن الله تعالى لم يُمِت حماره بل أماته هو، فأحيا الله عينيه، ورأسه وسائر جسده ميت، ثم قال: انظر إلى حمارك فنظر فرأى حماره قائماً واقفاً كهيئة يوم ربطه حيّاً لم يُطعم ولم يشرب مائة عام، ونظر إلى الرمّة في عنقه جديدة لم تتغيّر، وتقدير لآية وانظر إلى مارك وانظر إلى عظامك كيف ننشزها، وهذا قول قتادة عن كعب والضحّاك عن ابن عباس رضي الله عنهما، والسدي عن مجاهد عن ابن عباس رضي الله عنهما: لمّا أحيا الله

ميتاً وفي الآية تقديم وتأخير تقديره وانظر إلى حمارك وانظر إلى العظام كيف ننشزها، ولنجعلك آية للناس وعن ابن عباس وغيره من المفسرين لما أحيا الله عزيراً بعد ما أماته سنة ركب حماره حتى أتى إلى محلته فأنكره الناس، وأنكر منازله فانطلق على وهم حتى أتى منزله فإذا بعجوز عمياء مقعدة قد أتى عليها مائة وعشرون سنة، وكانت أمة لهم ولما خرج عزير عنهم كانت بنت عشرين سنة، وكانت قد عرفته وعقلته فقال لها عزير: يا هذه هذا منزل عزير فقالت: نعم وبكت وقالت ما رأيت أحداً يذكر عزيراً منذ كذا وكذا؛ فقال: أنا عزير فقالت: سبحان الله إن عزيراً فقدناه من مائة سنة ولم نسمع له بذكر فقال: إني عزير إن الله تعالى أماتني مائة سنة ثم أحياني فقالت: إن عزيراً كان رجلاً مجاب الدعوة وكان يدعو للمريض وصاحب البلايا بالعافية فادع الله أن يرد علي بصري حتى أراك فإن كنت عزيراً عرفتك فدعا ربه ومسح بيده على عينيها فصحتا وأخذ بيدها وقال لها: قومي بإذن الله تعالى فأطلق الله رجليها فقامت صحيحة، فنظرت إليه وقالت: أشهد أنك عزير وانطلقت إلى بني إسرائيل وهم في أنديتهم ومجالسهم وابن لعزير شيخ ابن مائة سنة وثمانية عشرة سنة، وبنو بنيه شيوخ فنادت هذا عزير قد جاءكم، فكذبوها فقالت: أنا فلانة مولاتكم فدعا عزير ربه فرد عليَّ بصري وأطلق رجلي، وزعم أن الله تعالى قد أماته مائة سنة ثم بعثه قال: فنهض الناس إليه، وقال ابنه: كان لأبي شامة سوداء مثل الهلال بين كتفيه فكشف عن كتفيه فنظر إليها فرآها فعرف أنه عزير، وقيل: لما رجع عزير إلى قريته وقد أحرق بختنصر التوراة ولم يكن من الله عهد بين الخلائق بكى عزير على التوراة فأتاه ملك بإناء فيه ماء فسقاه من ذلك الماء فثبتت التوراة في صدره فرجع إلى بني إسرائيل وقد علمه الله التوراة، وبعثه نبياً فقال أنا عزير: فلم يصدقوه فقال إني عزير وقد بعثني الله إليكم لأجدد لكم توراتكم، قالوا: فاملها علينا فأملاها عليهم من ظهر قلبه فقالوا: ما جعل الله التوراة في قلب رجل بعد ما ذهبت إلّا أنه ابنه فقالوا: عزير ابن الله وستأتي القصة في سورة التوبة إن شاء الله تعالى. وقوله تعالى: ﴿فلما تبين له﴾

تعالى عُزيراً بعدما أماته مائة سنة ركب حماره حتى أتى محلته فأنكره الناس وأنكر منازله، فانطلق على وَهْمٍ حتى أتى منزله فإذا هو بعجوز عمياء مقعدة قد أتى عليها مائة وعشرون سنة كانت عرفته وعقلته، فقال لها عزير: يا هذه هذا منزل عُزير؟ قالت: نعم هذا منزل عُزير وبكيت، وقالت: ما رأيت أحداً من كذا وكذا سنة تذكر عُزيراً، قال: فإنّي أنا عُزير، قالت: سبحان الله فإنّ عُزيراً قد فقدناه مِنْ مائة سنة لم نسمع له بذكر، قال: فإنّي أنا عُزير كان الله أماتني مائة سنة ثم بعثني، قالت: فإن عُزيراً كان رجلاً مستجاب الدعوة ويدعو للمريض ولصاحب البلاء بالعافية، فادعُ الله أن يردّ لي بصري حتى أراك، فإن كنت عُزيراً عرفتُك، فدعا ربَّه ومسح بيده على عينيها فصحّتا وأخذ بيدها، وقال: قومي بإذن الله تعالى، فأطلق الله رجليها فقامت صحيحةً فنظرتْ إليه فقالت: أشهد أنك عُزيرٌ، فانطلقتْ إلى بني إسرائيل، وهم في أنديتهم ومجالسهم، وابن لعُزير شيخ كبير ابن مائة سنة وثمانية عشرة سنة، وبنو بنيه شيوخ في المجلس، فنادت هذا عُزير قد جاءكم فكذّبوها، فقالت: أنا فلانة مولاتكم، دعا لي ربَّه فردّ عليّ بصري وأطلق رجلي، وزعم أن الله كان أماته مائة سنة ثم بعثه، فنهض الناس فأقبلوا إليه فقال ولده: كان لأبي شامة سوداء مثل الهلال بين كتفيه، فكشف عن كتفيه فإذا هو عُزير، وقال السدي والكلبي: لمّا رجع عُزير إلى قومه، وقد أحرق بختنصّر التوراة ولم يكن من الله عهد بين الخلق فبكى عُزير على التوراة، فأتاه ملك بإناء فيه ماء فسقاه من ذلك الماء فمثلت التوراة في صدره فرجع إلى بني إسرائيل وقد علّمه الله التوراة، وبعثه نبيّاً فقال: أنا عُزير فلم يصدّقوه، فقال: إني عُزير قد بعثني الله إليكم لأجدِّد لكم توراتكم، قالوا: أَمْلِها علينا فأملاها عليهم عن ظهر قلبه، فقالوا: ما جعل الله التوراة في صدر رجل بعدما ذهبت إلّا أنه ابنه، فقالوا: عُزير ابن الله وستأتي القصة في سورة براءة إن شاء الله تعالى، ﴿ فلمّا تبيّن له ﴾ ذلك عَياناً، ﴿ قال أعلم ﴾، قرأ حمزة والكسائي مجزوماً

يعني فلما اتضح له عياناً ما كان ينكره من إحياء القرية ورآه عياناً في نفسه ﴿قال أعلم﴾ قرىء مجزوماً موصولاً على الأمر يعني قال الله له أعلم وقرىء أعلم على قطع الألف، ورفع الميم على الخبر عن الذي قال أنى يحيي هذه الله بعد موتها والمعنى فلما تبين له ورأى ذلك عياناً قال: أعلم ﴿أن الله على كل شيء قدير﴾ يعني الإماتة والإحياء.

وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾

قوله عز وجل: ﴿وإذ قال إبراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى﴾ اختلفوا في سبب هذا السؤال من إبراهيم عليه السلام فقيل: إنه مر على دابة ميتة وهي جيفة حمار وقيل: بل كانت حوتاً ميتاً وقيل: كان رجلاً ميتاً بساحل البحر وقيل: بحر طبرية فرآها وقد توزعها دواب البحر والبر. فإذا مد البحر جاءت الحيتان فأكلت منها وإذا جزر البحر جاءت السباع فأكلت منها. فإذا ذهبت السباع جاءت الطير فأكلت منها فلما رأى إبراهيم ذلك تعجب منها. وقال: يا رب إني قد علمت إنك لتجمعها من بطون السباع وحواصل الطير وأجواف الدواب فأرني كيف تحييها لأعاين ذلك، فأزداد يقيناً فعاتبه الله تعالى: ﴿قال أولم تؤمن﴾ يعني أ لم تصدق ﴿قال بلى﴾ يا رب قد علمت وآمنت ﴿ولكن ليطمئن قلبي﴾ أي ليسكن قلبي عند المعاينة أراد إبراهيم عليه السلام أن يصير له علم اليقين عين اليقين لأن الخبر ليس كالمعاينة وقيل لما رأى الجيفة على البحر وقد تناولتها السباع والطير ودواب البحر تفكر كيف يجتمع ما تفرق من تلك الجيفة وتطلعت نفسه إلى مشاهدة ميت يحييه ربه، ولم يكن إبراهيم عليه السلام شاكاً في إحياء الله الموتى ولا دافعاً له ولكنه أحب أن يرى ذلك عياناً كما أن المؤمنين يحبون أن يروا نبيهم محمداً ﷺ، ويحبون رؤية الله تعالى في الجنة ويطلبونها، ويسألونه في دعائهم مع الإيمان بصحة ذلك وزوال

موصولاً على الأمر على معنى قال الله تعالى له: اعلم، وقرأ الآخرون ﴿ أعلم ﴾ بقطع الألف ورفع الميم على الخبر عن عُزير أنه قال لما رأى ذلك: أعلم، ﴿ أن الله على كل شيء قدير ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وإذْ قال إبراهيمُ ربِّ أرني كيف تُحيي الموتى ﴾، قال الحسن وقتادة وعطاء الخراساني والضحاك وابن جريج: كان سبب هذا السؤال من إبراهيم عليه السلام أنه مرّ على دابّة ميتة، قال ابن جريج: كانت جيفة حمار بساحل البحر، قال عطاء: في بحيرة طبرية، قالوا: فرآها وقد توزّعتها دوابّ البحر والبرّ، فكان إذا مدّ البحر جاءت الحيتان ودوابّ البحر فأكلت منها، فما وقع منها يصير في البحر، فإذا جَزَرَ البحرُ ورجع جاءت السِّباع فأكلن منها فما سقط منها يصير تراباً، فإذا ذهبت السِّباع جاءت الطير فأكلت منها فما سقط منها قطعتْه الريح في الهواء، فلما رأى ذلك إبراهيم عليه السلام تعجّب منها وقال: يا ربّ قد علمتُ أنك لتجمعنها من بطون السِّباع وحواصل الطير وأجواف دوابّ البحر، فأرِني كيف تُحييها لأُعاين فأزدادَ يقيناً فعاتبه الله تعالى، ﴿قال أوَ لم تُؤمن قال بلى﴾ يا ربِّ علِمْت وآمنت، ﴿ولكنْ ليطمئنَّ قلبي﴾، أي: ليسكن قلبي إلى المعاينة والمشاهدة، أراد أن يصير له علمُ اليقين، عينَ اليقين، لأن الخبر ليس كالمعاينة، وقيل: كان سبب هذا السؤال من إبراهيم أنه لمّا احتجّ على نمرود فقال: ربّي الذي يُحيي ويُميت، قال نمرود: أنا أُحيي وأُميت، فقتل أحدَ الرجلين وأطلق الآخرَ، فقال إبراهيم: إن الله تبارك وتعالى يقصد إلى جسد ميت فيحييه، فقال له نمرود: أنت عاينته فلم يقدر أن يقول نعم، فانتقل إلى حجّة أخرى، ثم سأله ربّه أن يُريه إحياءَ الموتى، قال: أوَلمْ تُؤمن؟ قال: بلى، ولكن ليطمئن قلبي بقوة حجّتي،

الشك عنهم فكذلك أحب إبراهيم أن يصير الخبر له عياناً، وقيل: كان سبب هذا السؤال من إبراهيم أنه لما احتج على نمرود فقال إبراهيم: ربي الذي يحيي ويميت فقال نمرود: أنا أحيي وأميت فقتل أحد الرجلين وأطلق الآخر فقال إبراهيم: إن الله تعالى يقصد إلى جسد ميت فيحييه فقال له نمرود أنت عاينته فلم يقدر إبراهيم أن يقول: نعم فانتقل إلى حجة أخرى ثم سأل إبراهيم ربه أن يريه كيف يحيي الموتى؟ قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي بقوة حجتي فإذا قيل: أنت عاينته فأقول نعم وقال سعيد بن جبير لما اتخذ الله إبراهيم خليلاً سأل ملك الموت ربه أن يأذن له فيبشر إبراهيم بذلك فأذن له، فأتى إبراهيم ولم يكن في الدار فدخل داره وكان إبراهيم من أغير الناس وكان إذا خرج أغلق بابه فلما جاء، وجد في الدار رجلاً فثار إليه ليأخذه وقال له. من أذن لك أن تدخل داري فقال: أذن لي رب الدار فقال: إبراهيم صدقت وعرف أنه ملك فقال له: من أنت قال: أنا ملك الموت جئتك أبشرك أن الله قد اتخذك خليلاً فحمد الله عز وجل وقال له: ما علامة ذلك قال: أن يجيب الله دعاءك ويحيي الموتى بسؤالك فحينئذٍ قال إبراهيم: رب أرني كيف تحيي الموتى قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي بأنك اتخذتني خليلاً، وتجيبني إذا دعوتك وتعطيني إذا سألتك (ق) عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «نحن أحق بالشك من إبراهيم إذ قال رب أرني كيف تحيي الموتى. قال: أولم تؤمن؟ قال: بلى ولكن ليطمئن قلبي ويرحم الله لوطاً لقد كان يأوي إلى ركن شديد ولو لبثت في السجن ما لبث يوسف لأجبت الداعي».

(القول على معنى الحديث) وما يتعلق به اختلف العلماء في قوله ﷺ: «نحن أحق بالشك من إبراهيم» على أقوال كثيرة فأحسنها وأصحها ما نقل المزني وغيره من العلماء أن الشك مستحيل في حق إبراهيم فإن الشك في إحياء الموتى لو كان متطرقاً إلى الأنبياء لكنت أنا أحق به من إبراهيم ولقد علمتم أني لم أشك فاعلموا أن إبراهيم لم يشك وإنما خص إبراهيم بالذكر لكون الآية قد يسبق إلى بعض الأذهان الفاسدة منها احتمال الشك فنفى ذلك عنه، وقال الخطابي: ليس في قوله نحن أحق بالشك من إبراهيم؛ اعتراف بالشك على نفسه، ولا على إبراهيم

فإذا قيل أنت عاينته فأقول نعم قد عاينته، وقال سعيد بن جبير: لمّا اتّخذ الله تعالى إبراهيم خليلاً، سأل مَلكُ الموت ربَّه أن يأذن له فيبشِّر إبراهيم بذلك، فأذن له، فأتى إبراهيمَ ولم يكن في الدار فدخل داره، وكان إبراهيم عليه السلام أغير الناس، إذا خرج أغلق بابه، فلمّا جاء وجد في داره رجلاً فثار عليه ليأخذه وقال له: مَن أذِنَ لك أن تدخل داري؟ فقال: أذِنَ لي ربُّ هذه الدار، فقال إبراهيم: صدقتَ، وعرف أنه مَلَك، فقال: مَن أنت؟ قال: أنا ملَك الموت، جئتُ أُبشّرك بأنّ الله تعالى قد اتّخذك خليلاً، فحمد الله عزّ وجلّ، قال: فما علامة ذلك؟ قال: أن يجيب الله دعاءك ويحيي اللهُ الموتى بسؤالك، فحينئذ قال إبراهيم: ربِّ أرني كيف تُحيي الموتى، قال: أوَلم تؤمن؟ قال: بلى ولكن ليطمئن قلبي إنك اتخذتني خليلاً وتجيبني إذا دعوتك. أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي، أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي أخبرنا محمد بن يوسف، أخبرنا محمد بن إسماعيل أخبرنا أحمد بن صالح، أنا ابن وهب أخبرنا يونس عن ابن شهاب، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن وسعيد بن المسيّب عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: «نحن أحقّ بالشك من إبراهيم، إذْ قال ربِّ أرِني كيف تحيي الموتى؟ قال: أوَلم تؤمن؟ قال: بلى، ولكن ليطمئن قلبي، ورحم الله لوطاً لقد كان يأوي إلى ركن شديد، ولو لبثت في السجن طول ما لبث يوسف لأجبت الداعي»، وأخرج مسلم بن الحجّاج هذا الحديث عن حرملة بن يحيىٰ عن وهب بهذا الإسناد مثله، وقال: «نحن أحقّ بالشك من إبراهيم ﴿ **إذ قال ربِّ أرِني كيف تُحيي الموتى** ﴾ حكى محمد بن إسحق بن خزيمة عن أبي إبراهيم إسماعيل بن يحيىٰ المزني أنه قال على هذا الحديث: لم يشك النبي ﷺ ولا إبراهيم في أن الله قادر على أن يحيي الموتى، وإنما شكا في أنه هل يجيبهما إلى

لكن فيه نفي الشك عنهما يقول: إذا لم أشك أنا في قدرة الله تعالى على إحياء الموتى فإبراهيم أولى بأن لا يشك وقال ذلك على سبيل التواضع والهضم من النفس وكذلك قوله: لو لبثت في السجن ما لبث يوسف لأجبت الداعي وفيه الإعلام بأن المسألة من إبراهيم لم تعرض من جهة الشك لكن من قبل زيادة العلم بالبيان، والعيان يفيد من المعرفة، والطمأنينة ما لا يفيد الاستدلال وقيل: لما نزلت هذه الآية قال: قوم: شك إبراهيم ولم يشك نبينا ﷺ فقال رسول الله ﷺ: نحن أحق بالشك من إبراهيم ومعناه أن هذا الذي تظنونه شكاً أنا أولى به فإنه ليس بشك، وإنما هو طلب لمزيد اليقين وإنما رجح إبراهيم ﷺ على نفسه ﷺ تواضعاً منه وأدباً، أو قبل أن يعلم أنه ﷺ خير ولد آدم وأما تفسير الآية فقوله تعالى: وإذ قال إبراهيم: أي واذكر يا محمد، إذ قال: إبراهيم، وقيل: إنه معطوف على قوله: «ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه» والتقدير ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه ألم تر إذ قال إبراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى، قال يعني قال الله إبراهيم: «أولم تؤمن» الألف في أولم تؤمن من ألف إثبات وإيجاب كقول جرير: ألستم خير من ركب المطايا. أي ألستم كذلك والمعنى أو لست قد آمنت وصدقت أني أحيي الموتى قال بلى قد آمنت وصدقت ولكن ليطمئن قلبي يعني سألتك ذلك إرداة طمأنينة القلب وزيادة اليقين وقوة الحجة وقال ابن عباس: معناه ولكن لأرى من آياتك وأعلم أنك قد أجبتني ﴿**قال فخذ أربعة من الطير**﴾ قيل أخذ طاووساً وديكاً وحمامة وغراباً وقيل نسراً بدل الحمامة. فإن قلت لم خص الطير من جملة الحيوانات بهذه الحالة. قلت لأن الطير صفته الطيران في السماء والارتفاع في الهواء، وكانت همة إبراهيم عليه السلام كذلك وهو العلو في الوصول إلى الملكوت فكانت معجزته مشاكلة لهمته. فإن قلت: لم خص هذه الأربعة الأجناس من الطير بالأخذ. قلت فيه إشارة ففي الطاووس إشارة إلى ما في الإنسان من حب الزينة، والجاه وفي النسر إشارة إلى شدة الشغف بالأكل وفي الديك إشارة إلى شدة الشغف بحب النكاح وفي الغراب إشارة إلى شدة الحرص، ففي هذه الطيور

ما سألا، وقال أبو سليمان الخطابي: ليس في قوله: «نحن أحقّ بالشك من إبراهيم» اعتراف بالشك على نفسه ولا على إبراهيم لكن فيه نفي الشك عنهما بقول: إذا لم أشك أنا في قدرة الله تعالى على إحياء الموتى فإبراهيم أولى بأن لا يشك، وقال ذلك على سبيل التواضع والهضم من النفس، وكذلك قوله: «لو لبثت في السجن طول ما لبث يوسف لأجبت الداعي»، وفيه الإعلام أن المسألة من إبراهيم عليه لم تعرض من جهة الشك، ولكن من قِبَل زيادة العلم بالعيان، فإن العيان يفيد من المعرفة والطمأنينة ما لا يفيده الاستدلال، وقيل: لمّا نزلت هذه الآية قال قوم: شكّ إبراهيم ولم يشكّ نبيّاً! فقال رسول الله ﷺ هذا القول تواضعاً منه وتقديماً لإبراهيم على نفسه، قوله: أَوَلَمْ تؤمن؟ معناه: قد آمنتَ فلِمَ تسأل؟ شهد له بالإيمان، كقول جرير:

ألستم خيرَ مَن ركب المطايا ... وأندى العالمين بطول راح

يعني أنتم كذلك ولكن ليطمئن قلبي بزيادة اليقين. ﴿ قال فخذ أربعة من الطير ﴾، قال مجاهد وعطاء وابن جريج: أخذ طاوساً وديكاً وحمامةً وغُراباً، وحُكي عن ابن عباس رضي الله عنه: ونسراً بدل الحمامة، وقال عطاء الخراساني: أوحى إليه أنْ خذْ بطّةً خضراءَ وغُراباً أسود وحمامةً بيضاءَ وديكاً أحمر، ﴿ فصُرْهُنّ إليك ﴾، قرأ أبو جعفر وحمزة ﴿ فصرهنّ إليك ﴾ بكسر الصاد، أي: قطعهنّ ومزّقهنّ، يقال: صار يصير صيراً، إذا قُطع، وانصار الشيء انصياراً إذا انقطع، قال الفرّاء: هو مقلوب من صَرَيْت أصْرِي صرياً، إذا قَطعت، وقرأ الآخرون ﴿ فصرهنّ ﴾ بضم الصاد، ومعناه: أملهنّ إليك ووجههنّ يقال صرت الشيء أُصوّره، إذا أَمَلْته، ورجلٌ أصور إذا كان مائل العنق، وقال عطاء معناه: اجمعْهنّ واضْمُمهنّ إليك، يقال: صار يصور صوراً إذا اجتمع، ومنه قيل

مشابهة لما في الإنسان من حب هذه الأوصاف وفيه إشارة إلى أن الإنسان إذا ترك هذه الشهوات الذميمة لحق أعلى الدرجات في الجنة، وفاز بنيل السعادات ﴿فصرهن﴾ قرىء بكسر الصاد ومعناه قطعهن ومزقهن وقرىء بضم الصاد ومعناه أملهن ﴿إليك﴾ ووجههن وقيل: معناه اجمعهن واضممهن إليك فمن فسره بالإمالة والضم قال فيه إضمار ومعناه فصرهن إليك ثم قطعهن فحذف اكتفاء بقوله: ﴿ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً﴾ لأنه يدل عليه قال المفسرون: أمر الله تعالى إبراهيم ﷺ أن يذبح تلك الطيور وينتف ريشها وأن يخلط ريشها ولحمها ودمها بعضه ببعض ففعل ثم أمره أن يجعل على كل جبل منهن جزءاً. واختلفوا في عدد الأجزاء والجبال فقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أمر أن يجعل كل طائر أربعة أجزاء وأن يجعلها أربعة أجبل على كل جبل ربعاً من كل طائر، قيل: جبل على جهة الشرق وجبل على جهة الغرب، وجبل على جهة الشمال وجبل على جهة الجنوب وقيل جزأه سبعة أجزاء ووضعها على سبعة أجبل وأمسك رؤوسهن بيده ثم دعاهن فقال: تعالين بإذن الله تعالى: فجعلت كل قطرة من دم طائر تطير إلى القطرة الأخرى، وكل ريشة تطير إلى الريشة الأخرى وكل عظم يطير إلى العظم الآخر وكل بضعة تطير إلى البضعة الأخرى، وإبراهيم ينظر حتى لقيت كل جثة بعضها ببعض في السماء بغير رؤوس ثم أقبلن سعياً إلى رؤوسهن كلما جاء طائر مال برأسه فإن كان رأسه دنا منه وإن لم يكن تأخر عنه حتى التقى كل طائر برأسه فذلك قوله تعالى: ﴿ثم ادعهن يأتينك سعياً﴾ وقيل: المراد بالسعي الإسراع والعدو وقيل المشي، والحكمة في سعي الطيور إليه دون الطيران، لأن ذلك أبعد من الشبهة لأنها لو طارت لتوهم متوهم أنها غير تلك الطيور أو أن أرجلها غير سليمة، فنفى الله تعالى هذه الشبهة بقوله: ﴿يأتينك سعياً﴾ وقيل: المراد بالسعي المشي والمراد بالمشي الطيران وفيه ضعف لأنه لا يقال: للطائر إذا طار سعى وقيل السعي هو الحركة الشديدة ﴿واعلم أن الله عزيز﴾ يعني أنه تعالى غالب على جميع الأشياء لا يعجزه شيء ﴿حكيم﴾ يعني في جميع أموره. قوله عز وجل: .

لجماعة النحل: صُور، من فسّره بالإمالة والضم قال: فيه إضمار معناه: فصرهنّ إليك ثم قطّعهنّ، فحذفه اكتفاءً بقوله: ثم اجعل على كل جبل منهنّ جُزءاً لأنه يدلّ عليه، وقال أبو عبيدة: فصرهنّ معناه قطّعهنّ أيضاً، والصور: القطع، قوله تعالى: ﴿ ثم اجعلْ على كل جبل منهنّ جُزءاً ﴾، قرأ عاصم برواية أبي بكر ﴿ جزءاً ﴾ مثقلاً مهموزاً، والآخرون بالتخفيف والهمزة، وقرأ أبو جعفر مشدّداً الزاي بلا همز، وأراد بعض الجبال، قال المفسّرون: أمر الله إبراهيم أن يذبح تلك الطيور، وينتف ريشها ويقطعها ويخلط ريشها ودماءها ولحومها بعضها ببعض، ففعل ثم أمره أن يجعل أجزاءها على الجبال واختلفوا في عدد الأجزاء والجبال، فقال ابن عباس رضي الله عنهما وقتادة: أمر أن يجعل كل طائر أربعة أجزاء، ويجعلها على أربعة أجبل، على كل جبل رُبعاً من كل طائر، وقيل: جبل على جانب الشرق وجبل على جانب الغرب وجبل على الشمال وجبل على الجنوب، وقال ابن جريج والسدي: جزّأها سبعة أجزاء ووضعها على سبعة أجبل وأمسك رؤوسهنّ، ثم دعاهنّ فقال: تعالين بإذن الله، فجعلت كل قطرة من دم طائر تطير إلى القطرة الأخرى وكل ريشة تطير إلى الريشة الأخرى وكل عظم يصير إلى العظم الآخر وكل بضعة تصير إلى الأخرى، وإبراهيم ينظر حتى لقيت كل جثّة بعضها بعضاً في الهواء بغير رأس، ثم أقبلن إلى رؤوسهنّ سعياً فكلما جاء طائر مال برأسه، فإن كان رأسه دنا منه، وإن لم يكن تأخر حتى التقى كل طائر برأسه. فذلك قوله تعالى: ﴿ ثم ادعهنّ يأتينك سعياً ﴾، قيل: المراد بالسعي الإسراع والعدو، وقيل: المراد به المشي دون الطير، كما قال الله تعالى: ﴿ فاسعوا إلى ذكر الله ﴾ [الجمعة: ٩] أي: فامضوا، والحكمة في المشي دون الطيران كونه أبعد من الشُّبْهَةِ لأنها لو طارت لتوهّم متوهّم أنها غير تلك الطير، وإن أرجلها غير سليمة والله أعلم، وقيل: السعي بمعنى: الطيران، ﴿ واعلم أن الله عزيز حكيم ﴾.

مَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى ۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾

﴿**مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله**﴾ قيل أراد به الإنفاق في الجهاد وقيل هو الإنفاق في جميع أبواب الخير ووجوه البر فيدخل فيه الواجب والتطوع، وفيه إضمار تقديره مثل صدقات الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ﴿**كمثل حبة**﴾ أي كمثل زارع حبة ﴿**أنبتت**﴾ يعني أخرجت تلك الحبة ﴿**سبع سنابل**﴾ جمع سنبلة ﴿**في كل سنبلة مائة حبة**﴾. فإن قلت فهل رأيت سنبلة فيها مائة حبة حتى يضرب المثل بها. قلت: ذلك غير مستحيل وما لا يكون مستحيلاً فضرب المثل به جائز وإن لم يوجد والمعنى في كل سنبلة مائة حبة إن جعل الله ذلك فيها، وقيل هو موجود في الدخن، وقيل: إن المقصود من الآية أنه إذا علم الإنسان الطالب للزيادة والربح أنه إذا بذر حبة واحدة أخرجت له سبعمائة حبة ما كان ينبغي له ترك ذلك، ولا التقصير فيه فكذلك ينبغي لمن طلب الأجر عند الله في الآخرة أن لا يترك الإنفاق في **سبيل** الله، إذا علم أنه يحصل له بالواحد عشرة ومائة وسبعمائة﴿**والله يضاعف لمن يشاء**﴾ يعني أنه تعالى يضاعف هذه المضاعفة لمن يشاء وقيل معناه يضاعف على هذا ويزيد لمن يشاء من سبع إلى سبعين إلى سبعمائة إلى ما يشاء من الأضعاف مما لا يعلمه إلاّ الله ﴿**والله واسع**﴾ أي غني يعطي عن سعة، وقيل واسع القدرة على المجازاة وعلى الجود والإفضال ﴿**عليم**﴾ يعني بنية من ينفق في سبيله، وقيل عليم بمقادير الإنفاق وبما يستحق المنفق من الجزاء والثواب عليه. قوله عز وجل: ﴿**الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله**﴾ قيل: نزلت في عثمان بن عفان وعبدالرحمن بن عوف، أما عثمان فجهز المسلمين في غزوة تبوك بألف بعير بأقتابها وأحلاسها فنزلت هذه الآية وقال عبدالرحمن بن سمر «وجاء عثمان بألف دينار في جيش العسرة فصبها في حجر النبي ﷺ فرأيته يدخل يده فيها ويقلبها ويقول ما ضر عثمان ما عمل بعد اليوم فأنزل الله تعالى: ﴿**الذين ينفقون أموالهم في سيل الله**﴾ وأما عبدالرحمن فجاء بأربعة آلاف درهم صدقة إلى رسول الله ﷺ وقال: كان عندي ثمانية آلاف فأمسكت لنفسي ولعيالي أربعة آلاف وأربعة آلاف أخرجتها لربي عز وجل فقال رسول الله ﷺ بارك الله لك فيما أمسكت وفيما أعطيت»، والمعنى الذين يعينون المجاهدين في سبيل الله بالإنفاق عليهم في حوائجهم ومؤنتهم ﴿**ثم لا يتبعون ما أنفقوا منّاً ولا أذى**﴾ أي لا يتبع نفقته التي أنفقها عليهم بالمن والأذى وهو أن يمن عليه بعطائه

قوله تعالى: ﴿ **مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله** ﴾، فيه إضمار تقديره: مثل صدقات الذين ينفقون أموالهم، ﴿ **كمثلِ** ﴾، زارع ﴿ **حبةٍ** ﴾، وأراد بسبيل الله: الجهاد، وقيل: جميع أبواب الخير، ﴿ **أنبتتْ** ﴾: أخرجت، ﴿ **سبعَ سنابل** ﴾، جمع: سُنبلة، ﴿ **في كل سُنبلة مائة حبّة** ﴾، فإن قيل: فما رأينا سنبلة فيها مائة حبّة فكيف ضرب المثل به؟ قيل: ذلك متصوّر غير مستحيل وما لا يكون مستحيلاً جاز ضرب المثل به، وإن لم يوجد معناه في كل سنبلة مائة حبّة، إن جعل الله فيها، وقيل: هو موجود في الدخن، وقيل: معناه أنها إن بُذرتْ أنبتت مائة حبة، فما حدث من البذر الذي كان فيها كان مضاعفاً إليها، وكذلك تأوّله الضحّاك فقال: كل سُنبلة أنبتت مائة حبة. ﴿ **والله يضاعف لمَن يشاء** ﴾، قيل: معناه يضاعف هذه المضاعفة لمَن يشاء، وقيل: معناه يضاعف على هذا ويزيد لمَن يشاء ما بين سبع إلى سبعين إلى سبعمائة إلى ما شاء الله من الأضعاف مما لا يعلمه إلاّ الله، ﴿ **والله واسع** ﴾، غنيّ يُعطي عن سَعَة، ﴿ **عليم** ﴾ بنيّة مَن ينفق ماله.

قوله تعالى: ﴿ **الذين يُنفقون أموالهم في سبيل الله** ﴾، قال الكلبي: نزلت هذه الآية في عثمان بن عفّان

فيقول: قد أعطيتك كذا وكذا فيعدد نعمه عليه فيكدرها عليه والأذى هو أن يعيره فيقول: كم تسأل وأنت فقير أبداً وقد بليت بك وأراحني الله منك وأمثال ذلك. والمن في اللغة الإنعام، والمنة النعمة الثقيلة يقال: من فلان على فلان إذا أثقله بالنعمة ويكون ذلك بالقول: أيضاً ومنه قول الشاعر:

فمنـــي علينـــا بـــالسـلام فـــإنمـــا كـــلامـــك يـــاقـــوت ودر منظـــم

ومن المن بالقول ما هو مستقبح بين الناس، مثل أن يمن على الإنسان بما أعطاه، قال عبدالرحمن بن يزيد كان أبي يقول إذا أعطيت رجلاً شيئاً ورأيت أن سلامك يثقل عليه فلا تسلم عليه والعرب تمدح بترك المن وكتم النعمة وتذم على إظهارها والمن بها قال قائلهم في المدح بترك المن:

زاد معـــروفـــك عنـــدي عظمـــاً أنـــه عنـــدك مستـــور حقيـــر
تتنـــاســـاه كـــأن لـــم تـــأتـــه وهـــو فـــي العـــالـــم مشهـــور كبيـــر

وقال قائلهم يذم المنان بالعطاء:

أتيـــت قليـــلاً ثـــم أســـرعـــت منـــة فنيلـــك ممنـــون لـــذاك قليـــل

وأما الأذى فهو ما يصل إلى الإنسان من ضرر بقول أو فعل. إذا عرفت هذا فنقول المن هو إظهار المعروف إلى الناس، والمن عليهم به والأذى هو أن يشكو منهم بسبب ما أعطاهم فحرم الله تعالى على عباده المن بالمعروف والأذى فيه وذم فاعله. فإن قلت: قد وصف الله تعالى نفسه بالمنان فما لفرق. قلت المنان في صفة الله تعالى معناه المتفضل فمن الله إفضال على عباده وإحسانه إليهم فجميع ما هم فيه منة منه سبحانه وتعالى ومن العباد تعيير وتكدير فظهر الفرق بينهما. وقوله تعالى: ﴿**لهم أجرهم**﴾ يعني ثوابهم ﴿**عند ربهم**﴾ يعني فى الآخرة ﴿**ولا خوف عليهم**﴾ يعني يوم القيامة ﴿**ولا هم يحزنون**﴾ يعني على ما خلفوا من الدنيا.

۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ

وعبد الرحمن بن عوف رضي الله تعالى عنهما، جاء عبد الرحمن بأربعة آلاف درهم صدقةً إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله كان عندي ثمانية آلاف فأمسكت منها لنفسي وعيالي أربعة آلاف درهم وأربعة آلاف أقرضتها ربّي، فقال له رسول الله ﷺ: «بارك الله فيما أمسكتَ لك، وفيما أعطيتَ»، وأما عثمان فجهّز جيش المسلمين في غزوة تبوك بألف بعير بأقتابها وأحلاسها فنزلت فيهما هذه الآية، وقال عبد الرحمن بن سَمُرة: جاء عثمان رضي الله عنه بألف دينار في جيش العُسرة فصبّها في حجر رسول الله ﷺ فرأيت النبيّ ﷺ يدخل فيها يده ويقلّبها ويقول: «ما ضرَّ ابن عفّان ما عمل بعد اليوم»، فأنزل الله تعالى الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله: في طاعة الله، ﴿ **ثم لا يُتبعون ما أنفقوا مَنّاً** ﴾ وهو أن يمنّ عليه بعطائه، فيقول: أعطيتك كذا، ويَعُدّ نِعَمَه عليه فيكدّرها عليه ﴿ **ولا أذى** ﴾، هو أن يُعيّره فيقول: إلى كم تسأل وكم تؤذيني؟ وقيل: من الأذى: وهو أن يذكر إنفاقه عليه عند مَن لا يحبّ وُقوفَه عليه، وقال سفيان: مَنّاً ولا أذى، هو: أن يقول قد أعطيتك فما شكرت. قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم كان أبي يقول: إذا أعطيت رجلاً شيئاً ورأيتَ أنّ سلامك يثقل عليك فكُفّ سلامك عنه، فحظّر الله على عباده المَنَّ بالصنيعة، واختصّ به صفةً لنفسه، لأنه من العباد تعيير وتكدير، ومن الله إفضال وتذكير، ﴿ **لهم أجرهم** ﴾، أي: ثوابهم، ﴿ **عند ربّهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون** ﴾.

عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦٤﴾

﴿قول معروف﴾ أي كلام حسن ورد جميل على الفقير السائل وقيل: عدة حسنة توعده بها، وقيل: دعاء صالح تدعو له بظهر الغيب ﴿ومغفرة﴾ أي تستر عليه خلته وفقره ولا تهتك ستره وقيل هو أن يتجاوز عن الفقير إذا استطال عليه حالة رده ﴿خير من صدقة﴾ يعني هذا القول المعروف والمغفرة خير من الصدقة التي تدفعها إلى الفقير ﴿يتبعها أذى﴾ وهو أن يعطي الفقير الصدقة ويمن عليه بها ويعيره بقول أو يؤذيه بفعل ﴿والله غني﴾ أي مستغن عن صدقة العباد والغنى الكامل الغني الذي لا يحتاج إلى أحد وليس كذلك إلاّ الله تعالى ﴿حليم﴾ يعني أنه تعالى حليم لا يعجل بالعقوبة على من يمن على عباده ويؤذي بصدقته. قوله عز وجل: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم﴾ يعني أجور صدقاتكم ﴿بالمن والأذى﴾ يعني على السائل الفقير، وقال ابن عباس بالمن على الله تعالى والأذى لصاحبها ثم ضرب الله تعالى لذلك مثلاً فقال تعالى ﴿كالذي﴾ أي كإبطال الذي ﴿ينفق ماله رئاء الناس﴾ أي مراءاة لهم وسمعة ليروا نفقته ويقولوا: إنه سخي كريم ﴿ولا يؤمن بالله واليوم الآخر﴾ يعني أن الرياء

﴿ قول معروف ﴾، أي: كلامٌ حسن وردٌّ على السائل جميل، وقيل: عدّة حسنة، وقال الكلبي: دعاء صالح يدعو لأخيه بظهر الغيب، وقال الضحّاك: نزلت في إصلاح ذات البين، ﴿ ومغفرة ﴾، أي: تستر عليه خِلّته ولا تهتك عليه سِتْرَه، وقال الكلبي والضحاك: يتجاوز عن ظالمه، وقيل: يتجاوز عن الفقير إذا استطال عليه عند ردّه، ﴿ خير من صدقة ﴾ يدفعها إليه، ﴿ يتبعها أذى ﴾، أي: منّ وتعيير للسائل أو قول يؤذيه، ﴿ والله غني ﴾، أي مُستغنٍ عن صدقة العباد، ﴿ حليم ﴾ لا يُعجّل بالعقوبة على مَن يَمنُّ ويُؤذي بالصدقة.

قوله تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تُبطلوا صدقاتكم ﴾، أي: أُجور صدقاتكم، ﴿ بالمَنِّ ﴾، على السائل، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: بالمنّ على الله تعالى، ﴿ والأذى ﴾، لصاحبها ثم ضرب لذلك مثلاً فقال: ﴿ كالذي يُنفق ماله ﴾، أي: كإبطال الذي ينفق ماله ﴿ رِئاءَ الناس ﴾، أي: مراآةً وسُمعةً ليروا نفقته ويقولوا: إنه كريم سخي، ﴿ ولا يؤمن بالله واليوم الآخر ﴾، يريد أن الرياءَ يُبطل الصدقة، ولا تكون النفقة مع الرياء من فعل المؤمنين، وهذا للمنافقين لأن الكافر معلن بكفره غير مرائي، ﴿ فمثله ﴾، أي: مثل هذا المرائي، ﴿ كمثل صفوان ﴾، وهو الحجر الأملس، وهو واحد وجمع، فمَن جعله جمعاً فواحده صفوانة، ومَن جعله واحداً فجمعه صفيّ، ﴿ عليه ﴾، أي على الصفوان، ﴿ تراب فأصابه وابل ﴾، وهو المطر الشديد العظيم القطر، ﴿ فتركه صلداً ﴾، أي: أملس، والصلد: الحجر الصلب الأملس الذي لا شيء عليه، فهذا مثل ضربه الله تعالى لنفقة المنافق والمرائي والمؤمن الذي يمنّ بصدقته ويؤذي، ويُري الناسَ في الظاهر أن لهؤلاء أعمالاً كما يُري الترابُ على هذا الصفوَان، فإذا كان يوم القيامة بطل كله واضمحلّ لأنه لم يكن لله، كما أذهب الوابل ما على الصفوان من التراب فتركه صلداً ﴿ لا يقدرون على شيء مما كسبوا ﴾، أي: على ثواب شيء مما كسبوا وعملوا في الدنيا، ﴿ والله لا يهدي القوم الكافرين ﴾، أخبرنا أبو عبد الله محمد بن الفضل الخرقي، أخبرنا أبو الحسن الطيسفوني أخبرنا عبد الله بن عمر الجوهري، أخبرنا أحمد بن علي الكشمهيني أخبرنا علي بن حجر أخبرنا إسماعيل بن جعفر، أخبرنا عمرو بن أبي عمرو مولى المطّلب عن عاصم بن عمر، عن محمود بن لبيد أن النبيّ ﷺ قال: «إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر»، قالوا: يا رسول الله وما الشرك الأصغر؟ قال: «الرياء، يقول الله لهم يوم

يبطل الصدقة ولا تكون النفقة مع الرياء من فعل المؤمنين لكن من فعل المنافقين لأن الكافر معلن بكفره غير مراء به ﴿فمثله﴾ أي مثل هذا المرائي بصدقته وسائر أعماله ﴿كمثل صفوان﴾ هو الحجر الأملس الصلب وهو واحد وجمع فمن جعله جمعاً قال واحده صفوانه ومن جعله واحداً قال جمعه صفي ﴿عليه تراب﴾ أي على ذلك الصفوان تراب ﴿فأصابه وابل﴾ يعني المطر الشديد العظيم القطر ﴿فتركه صلداً﴾ يعني ترك المطر ذلك الصفوان صلداً أملس لا شيء عليه من ذلك التراب، فهذا مثل ضربه الله تعالى لنفقة المنافق والمرائي والمؤمن المنان بصدقته يؤذي الناس يرى الناس أن لهؤلاء أعمالاً في الظاهر، كما يرى التراب على الصفوان فإذا جاء المطر أذهبه وأزاله وكذلك حال هؤلاء يوم القيامة، تبطل أعمالهم وتضمحل لأنها لم تكن لله تعالى كما أذهب الوابل ما على الصفوان من التراب ﴿لا يقدرون على شيء مما كسبوا﴾ أي لا يقدرون على ثواب شيء مما عملوا في الدنيا ﴿والله لا يهدي القوم الكافرين﴾ يعني الذين سبق في علمه أنهم يموتون على الكفر. روى البغوي بسنده عن محمود بن لبيد أن رسول الله ﷺ قال: «إنما أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر قالوا: يا رسول الله وما الشرك الأصغر قال: الرياء يقال لهم يوم تجازى العباد بأعمالهم اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤون في الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم جزاء» (م) عن أبي هريرة قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال الله تبارك وتعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه». قوله عز وجل:

﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ

يجازي العباد بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤون في الدنيا، فانظروا هل تجدون عندهم جزاء». أخبرنا أبو بكر محمد بن عبد الله بن أبي توبة، أخبرنا أبو طاهر محمد بن أحمد الحارثي، أخبرنا أبو الحسن محمد بن يعقوب الكسائي. أخبرنا عبد الله بن محمد بن محمود، أخبرنا إبراهيم بن عبد الله الخلال، أخبرنا عبد الله بن المبارك، عن حيوة بن شريح أخبرني الوليد بن أبي الوليد أبو عثمان المدائني، أن عقبة بن مسلم حدّثه أن أبا سفيان الأصبحي حدّثه، أنه دخل المدينة فإذا هو برجل قد اجتمع عليه الناس، فقال: مَن هذا؟ قالوا: أبو هريرة، فدنوتُ منه حتى قعدت بين يديه وهو يحدّث الناس، فلما سكت وخلا، قلت له: أنشدك الله بحقي لَمَا حدّثتني حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ، فقال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله إذا كان يوم القيامة ينزل إلى العباد ليقضي بينهم وكل أمة جاثية، فأول مَن يدعونه رجلٌ جمع القرآن، ورجلٌ قُتل في سبيل الله، ورجلٌ كثيرُ المال، فيقول الله للقارىء: ألم أعلمك ما أنزلت على رسولي؟ فقال: بلى يا ربّ، فماذا عملت؟ قال: كنت أقوم به آناء الليل وآناء النهار، فيقول الله له: كذبت، وتقول له الملائكة: كذبت، ويقول الله تعالى: بل أردت أن يُقال فلان قارىء فقد قيل ذلك، ويُؤتى بصاحب المال فيقول الله له: ألم أُوسع عليك حتى لم أدعك تحتاج إلى أحد؟ قال: بلى يا رب، قال: فما عملت فيما آتيتك؟ قال: كنت أصل الرحم وأتصدّق فيقول الله له: كذبت، وتقول الملائكة: كذبت، ويقول الله تعالى: بل أردت أن يُقال فلان جواد فقد قيل ذلك، ويُؤتى بالذي قُتل في سبيل الله فيقول الله له: فبماذا قُتلت؟ فيقول: يا ربّ أمرت بالجهاد في سبيلك، فقاتلتُ حتى قُتلت، فيقول الله: كذبت، وتقول الملائكة: كذبت، ويقول الله تعالى: بل أردت أن يُقال فلان جريء فقد قيل ذلك، ثم ضرب رسول الله ﷺ على ركبتي فقال: يا أبا هريرة أولئك الثلاثة أول خلقٍ تُسعّر بهم النار يوم القيامة».

ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾

﴿**ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله**﴾ أي طلب رضا الله ﴿**وتثبيتاً من أنفسهم**﴾ يعني على الإنفاق في طاعة الله تعالى وتصديقاً بثوابه، وقيل: معناه إن أنفسهم موقنة مصدقة بوعد الله إياها فيما أنفقت وقيل: إحساناً وقيل تصديقاً والمعنى أنهم يخرجون زكاة أموالهم، وينفقون أموالهم في سائر وجوه البر والطاعات طيبة أنفسهم بما أنفقوا على يقين بثواب الله وتصديق بوعده يعلمون أن ما أنفقوا خير لهم مما تركوا وقيل معناه على يقين بإخلاف الله عليهم وقيل: معناه أنهم يتثبتون في الموضع الذي يضعون فيه صدقاتهم قيل: كان الرجل إذا هم بصدقة تثبت فإن كانت لله خالصة أمضاها، وإن خالطه شك أو رياء أمسك ﴿**كمثل جنة**﴾ أي بستان قال الفراء إذا كان في البستان نخل فهو جنة وإن كان فيه كرم فهو فردوس ﴿**بربوة**﴾ هي المكان المرتفع عن الأرض المستوي لأن ما ارتفع من الأرض عن مسيل الماء والأودية كان ثمرها أحسن وأزكى إذا كان لها من الماء ما يرويها وقيل: هي الأرض المستوية الجيدة الطيبة إذا أصابها المطر انتفخت وربت فإذا كانت الأرض بهذه الصفة كثر ريعها وحملت أشجارها ﴿**أصابها وابل**﴾ وهو المطر الكثير الشديد قال بعضهم:

مـا روضـة مـن ريـاض الحـزن معشبـة ... خضـراء جـاد عليهـا وابـل هطـل

أراد بالحزن ما غلظ وارتفع من الأرض ﴿**فآتت أكلها ضعفين**﴾ أي فأعطت ثمرتها مثلين قيل إنها حملت في سنة من الريع ما يحمله غيرها في سنتين وقيل أضعفت فحملت في السنة مرتين ﴿**فإن لم يصبها وابل فطل**﴾ أي طش وهو المطر الخفيف الضعيف، والمعنى إن لم يكن أصابها وابل وأصابها طل فتلك حال هذه الجنة في تضاعف ثمرها فإنها لا تنقص بالطل عن مقدار ثمرها بالوابل وهذا مثل ضربه الله تعالى: لعمل المؤمن المخلص

قوله تعالى: ﴿ **ومثلُ الذينَ ينفقُون أموالَهمُ ابتغاءَ مَرضاتِ الله** ﴾، أي: طلب رضا الله تعالى، ﴿ **وتثبيتاً من أنفسهم** ﴾، قال قتادة: احتساباً، وقال الشعبي والكلبي تصديقاً من أنفسهم، أي يُخرجون الزكاة طيبة بها أنفسهم على يقين بالثواب، وتصديق بوعد الله، ويعلمون أنّ ما أخرجوا خيرٌ لهم مما تركوا، وقيل: على يقين بأخلاف الله عليهم وقال عطاء ومجاهد: يثبتون، أي: يضعون أموالهم، قال الحسن: كان الرجل إذا همّ بصدقة يثبت، فإن كان لله أمضى، وإن كان يخالطه شك أمسك، وعلى هذا القول يكون التثبيت بمعنى التثبّت، كقوله تعالى: ﴿ وتبتل إليه تبتيلاً ﴾ [المزّمّل: ٨] أي: تبتلاً. ﴿ **كمثل جنّة** ﴾، أي بستان، قال المبرّد والفرّاء: إذا كان في البستان نخل فهو جنة وإن كان فيه كرم فهو فردوس، ﴿ **بربوة** ﴾، قرأ ابن عامر وعاصم ﴿ بـربـوة ﴾ و﴿ إلى ربـوة ﴾ [المؤمنون: ٥٠] بفتح الراء، وقرأ الآخرون بضمّها، وهي المكان المرتفع المستوي الذي تجري فيه الأنهار فلا يعلوه الماء ولا يعلو عن الماء، وإنما جعلها بربوة لأن النبات عليها أحسن وأزكى، ﴿ **أصابها وابل** ﴾ مطر شديد كثير، ﴿ **فآتت أُكلها** ﴾، ثمرها قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بالتخفيف، وقرأ الباقون بالتثقيل، وزاد نافع وابن كثير تخفيف «أكلـه» و«الأكـل» وخفّف أبو عمرو «رسلنا، ورسلكم، ورسلهم، وسبلنا» ﴿ **ضعفين** ﴾، أي: أضعفت في الحمل، قال عطاء: حملتْ في سنة من الريع ما يحمل غيرها في سنتين، وقال عكرمة: حملت في السنة مرتين، ﴿ **فإن لم يُصبْها وابلٌ فطل** ﴾، أي: فطشٌ وهو المطر الضعيف الخفيف، ويكون دائماً، قال السدي: هو الندى، وهذا مَثَلٌ ضربه الله تعالى لعمل المؤمن المخلص، فيقول: كما أن هذه الجنة تُربع في كل حال ولا تُخلف سواء قلَّ المطرُ أو كثُر، كذلك يُضعِّف الله صدقة المؤمن المخلص الذي لا يَمنّ ولا يُؤذي سواء قلّت نفقته أو

في إنفاقه وسائر أعماله، يقول الله تعالى كما أن هذه الجنة تريع وتزكو في كل حال ولا تخلف سواء كان المطر قليلاً أو كثيراً فكذلك يضعف الله صدقة المؤمن المخلص في صدقته وإنفاقه الذي لا يمن ولا يؤذي سواه قلت نفقته أو كثرت ﴿**والله بما تعملون بصير**﴾ يعني أن الله تعالى لا تخفى عليه نفقة المخلص في صدقته الذي لا يمن بها ولا يؤذي والذي يمن بصدقته ويؤذي قوله عز وجل: ﴿**أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب**﴾ هذه متصلة بما قبلها وهو قوله تعالى. لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى أيود يعني أيحب أحدكم أن تكون له جنة أي بستان من نخيل وأعناب إنما خصهما بالذكر لأنهما أشرف الفواكه وأحسنها ولما فيهما من الغذاء والتفكه ﴿**تجري من تحتها الأنهار**﴾ يعني أن جري الأنهار فيها من تمام حسنها، وسبب لزيادة ثمرها ﴿**له فيها من كل الثمرات**﴾ لأن ذلك من تمام كمال البستان وحسنه ﴿**وأصابه الكبر**﴾ يعني صاحب هذه الجنة كثرت جهات حاجاته ولم يكن له كسب غيرها فحينئذٍ يكون في غاية الاحتياج إلى تلك الجنة فإن قلت: كيف عطف وأصابه الكبر على أيود، وكيف يجوز عطف الماضي على المستقبل قلت فيه وجهان أحدهما أن يكون له جنة حال ما أصابه الكبر والوجه الثاني أنه عطف على المعنى، فكأنه قيل أيود أحدكم لو كانت له جنة وأصابه الكبر ﴿**وله ذرية ضعفاء**﴾ يعني له أولاد صغار عجزت عن الحركة بسبب الضعف والصغر ﴿**فأصابها**﴾ يعني أصاب تلك الجنة ﴿**إعصار فيه نار فاحترقت**﴾ الإعصار ريح ترتفع إلى السماء وتستدير كأنها عمود وهذا مثل ضربه الله تعالى لعمل المنافق والمرائي يقول مثل عمل المنافق والمرائي بعمله في حسنه كحسن جنة ينتفع بها صاحبها فلما كبر وضعف وصار له أولاد ضعاف أصاب جنته إعصار فيه نار فأحرقها وهو أحوج ما يكون إليها فحصل في قلبه من الغم والحسرة ما لا يعلمه إلاّ الله تعالى لكبره وضعفه وضعف أولاده فهو لا يجد ما يعود به على أولاده، وهم لا يجدون ما يعودون به عليه فبقوا جميعاً متحيرين عجزة لا حيلة بأيديهم، فكذلك حال من أتى يوم القيامة بأعمال حسنة ولم يقصد بها وجه الله تعالى، فيبطلها الله تعالى، وهو في غاية الحاجة إليها حين لا مستعتب له ولا توبة. وقال عبيد بن عمير: قال عمر يوماً لأصحاب رسول الله ﷺ فيمن ترون نزلت هذه الآية ﴿**أيود أحدكم**﴾ قالوا: الله أعلم فغضب عمر وقل قولوا نعلم أو لا نعلم فقال ابن عباس في نفسي منها شيء يا أمير المؤمنين فقال عمر قل يا ابن أخي ولا تحقرن نفسك فقال ضرب الله

كثُرت، وذلك أن الطلّ إذا كان يدوم يعمل عمل الوابل الشديد، ﴿ **والله بما تعملون بصير** ﴾.

﴿ **أيودّ أحدُكم أن تكونَ له جنةٌ من نخيلٍ وأعنابٍ تجري من تحتها الأنهار** ﴾، هذه الآية متّصلة بقوله تعالى: ﴿ **يا أيّها الذين آمنوا لا تُبطلوا صدقاتكم بالمنّ والأذى أيودّ** ﴾ يعني: أيُحبّ أحدكم أن تكون له جنة؟ أي: بستان، من نخيل وأعناب تجري من تحتها الأنهار؟ ﴿ **له فيها من كلّ الثمرات، وأصابه الكِبَر وله ذرّيّة ضعفاء** ﴾، أولاد صغار ضِعاف عَجَزة، ﴿ **فأصابها إعصار** ﴾، وهو الريح العاصف التي ترتفع إلى السماء كأنها عمود وجمعه أعاصير، ﴿ **فيه نار فاحترقت** ﴾ هذا مثل ضربه الله لعمل المنافق والمرائي، يقول: عمله في حسنه كحسن الجنة ينتفع به كما ينتفع صاحب الجنة بالجنة، فإذا كبر أو ضعف وصار له أولاد ضِعاف وأصاب جنته إعصار فيه نار فاحترقت، فصار أحوج ما يكون إليها وضعُف عن إصلاحها الكِبَر وضعف أولاده عن إصلاحها لصغرهم، ولم يجد هو ما يعود به على أولاده ولا أولاده مـا يعودون به عليه، فبقوا جميعاً متحيّرين عجزة لا حيلة بأيديهم، كذلك يُبطل الله عمل هذا المنافق والمُرائي حين لا مغيث لهما ولا توبة ولا إقالة، قال عبيد بن عمير قال عمر رضي الله عنه يوماً لأصحاب النبي ﷺ فيمن ترون هذه الآية نزلت: ﴿ **أيودّ أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب** ﴾؟ قالوا: الله أعلم فغضب عمر رضي الله عنه، فقال: قولوا نعلم أو لا نعلم، فقال ابن عباس رضي الله عنهما في نفسي منها شيء يا أمير المؤمنين، فقال عمر رضي الله عنه: ابن أخي قلْ ولا تحقر نفسك، قال ابن عباس رضي الله عنهما:

مثلاً لعمل قال لأي عمل قال لرجل غني يعمل بطاعة الله ثم بعث الله له الشيطان فعمل بالمعاصي حتى أحرق أعماله كلها ﴿كذلك يبين الله لكم الآيات﴾ يعني كما بين الله تعالى لكم أمر النفقة المقبولة، وغير المقبولة كذلك يبين الله لكم من الآيات سوى ذلك ﴿لعلكم تتفكرون﴾ أي فتتعظوا وقال ابن عباس: لعلكم تتفكرون يعني في زوال الدنيا وإقبال الآخرة. قوله عز وجل: .

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ ۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ٢٦٧﴾

﴿يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم﴾ أي من خيار ما كسبتم وجيده وقيل: من حلالات ما كسبتم بالتجارة والصناعة وفيه دليل على إباحة الكسب وأنه ينقسم إلى طيب وخبيث. عن خولة الأنصارية قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن هذا المال خضر حلو من أصابه بحق بورك له فيه، ورب متخوض فيما شاءت نفسه من مال الله ورسوله ليس له يوم القيامة إلاّ النار» أخرجه الترمذي. المتخوض الذي يأخذ المال من غير وجهه كما يخوض الإنسان في الماء يميناً وشمالاً (خ) عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يأتي على الناس زمان لا يبالي المرء ما أخذ منه أمن حلال أم من حرام» (خ) عن المقدام أن رسول الله ﷺ قال: «ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده وإن نبي الله داود كان يأكل من عمل يده» عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال: «إن أطيب ما أكلتم من كسبكم، وإن أولادكم من كسبكم» أخرجه الترمذي والنسائي. واختلفوا في المراد بقوله تعالى: ﴿انفقوا﴾ فقيل: المراد به الزكاة المفروضة لأن الأمر للوجوب والزكاة واجبة فوجب صرف الآية إليها وقيل: المراد به صدقة التطوع وقيل: إنه يتناول الفرض والنفل جميعاً لأن المفهوم من هذا الأمر ترجيح جانب الفعل على الترك وهذا المفهوم قدر مشترك بين الفرض والنفل فوجب أن يدخل تحت هذا الأمر فعلى القول الأول أن المراد من هذا الإنفاق هو الزكاة يتفرع عليه مسائل:

ضُربتْ مثلاً لعمل، فقال عمر رضي الله عنه: أيّ عمل؟ فقال ابن عباس رضي الله عنهما: لعمل منافقٍ ومُراءٍ، قال عمر رضي الله عنه: لأي رجل؟ قال: لرجل غنيّ يعمل بطاعة الله بعث الله له الشيطان فعمل بالمعاصي حتى أحرق أعماله، ﴿ كذلك يبيّن الله لكم الآياتِ لعلّكم تتفكّرون ﴾.

﴿ يا أيّها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ﴾: من خيار، قال ابن مسعود رضي الله عنه ومجاهد: من حلالات ماكسبتم ﴾، بالتجارة والصناعة وفيه دلالة على إباحة الكسب، وأنه ينقسم إلى طيب وخبيث، أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي، أخبرنا أبو منصور محمد بن سمعان، أخبرنا أبو جعفر الزياتي، أخبرنا حميد بن زنجويه أخبرنا يعلى بن عبيد، أخبرنا الأعمش عن إبراهيم عن الأسود عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «إن أطيب ما يأكل الرجل من كسبه، وإن ولده من كسبه»، أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي، أخبرنا أبو منصور السمعاني أخبرنا أبو جعفر الزياتي، أخبرنا حميد بن زنجويه أخبرنا عبد الله بن صالح، أخبرنا أبو معاوية بن صالح عن بحير بن سعيد، عن خالد بن معدان عن المقدام بن معد يكرب، أنه حدّثه عن النبي ﷺ أنه قال: ما أكل أحدٌ طعاماً قطّ خيراً من أن يأكل من عمل يده، وكان داود لا يأكل إلاّ من عمل يده»، أخبرنا أبو القاسم يحيىٰ بن علي بن محمد الكشمهيني، أخبرنا نجاح بن يزيد المحاربي بالكوفة، أخبرنا أبو جعفر محمد بن علي بن دحيم الشيباني، أخبرنا أحمد بن حازم أخبرنا يحيىٰ بن عبيد، أخبرنا أبّان بن إسحق عن الصباح بن محمد بن مرّة الهمذاني، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: لا يكتسب عبد مالاً حراماً فيتصدّق منه

المسألة الأولى: ظاهر الآية يدل على وجوب الزكاة في كل مال يكتسبه الإنسان فيدخل فيه زكاة الذهب والفضة والنعم وعروض التجارة، لأن ذلك يوصف بأنه مكتسب وذهب جمهور العلماء إلى وجوب الزكاة في مال التجارة وقال داود الظاهري: لا تجب الزكاة بحكم التجارة في العروض إلاّ أن ينوي به التجارة في حال تملكه، ودليل الجمهور ما روي عن سمرة بن جندب قال: «كان رسول الله ﷺ يأمرنا بإخراج الصدقة من الذي يعد للبيع» أخرجه أبو داود وعن أبي عمرو بن خماس أن أباه قال: مررت بعمر بن الخطاب وعلى عنقي أدمة أحملها فقال عمر ألا تؤدي زكاتك يا خماس فقلت مالي غير هذا واهب في القرظ قال: ذاك مال فضع فوضعها فحسبها فأخذ منها الزكاة فإذا حال الحول على عروض التجارة قوم فإن بلغ قيمته عشرين ديناراً أو مائتي درهم أخرج منه ربع العشر.

المسألة الثانية: في قوله تعالى: ﴿**ومما أخرجنا لكم من الأرض**﴾ ظاهر الآية يدل على وجوب الزكاة في كل ما خرج من الأرض من النبات مما يزرع الآدميون، لكن جمهور العلماء خصصوا هذا العموم فأوجبوا الزكاة في النخيل، والكروم وفيما يقتات ويدخر من الحبوب وأوجب أبو حنيفة الزكاة في كل ما يقصد من نبات الأرض، كالفواكه والبقول والخضراوات كالبطيخ والقثاء والخيار ونحو ذلك، دليل الجمهور ما روي عن معاذ: «أنه كتب إلى النبي ﷺ يسأله عن الخضراوات وهي البقول فقال: ليس فيها شيء» أخرجه الترمذي. وقال هذا الحديث ليس بصحيح وليس يصح عن النبي ﷺ في هذا الباب شيء وإنما يروى هذا عن موسى بن طلحة عن النبي ﷺ، مرسلاً والعمل على هذا عند أهل العلم أنه ليس في الخضراوات صدقة. قلت وحديث موسى بن طلحة أخرجه الشيخ مجد الدين أبو البركات عبدالسلام بن عبدالله بن تيمية الحراني في أحكامه عن عطاء بن السائب قال: «أراد عبدالله بن المغيرة أن يأخذ من أرض موسى بن طلحة من الخضراوات صدقة فقال له: موسى بن طلحة: ليس ذلك

فيقبل الله منه، ولا ينفق منه فيبارك له فيه، ولا يتركه خلف ظهره إلاّ كان زاده إلى النار، إن الله لا يمحو السيىء بالسيىء، ولكن يمحو السيىء بالحسن، إن الخبيث لا يمحو الخبيث». والزكاة واجبة في مال التجارة عند أكثر أهل العلم، فبعد الحول يقوِّم العَروض فيُخرج من قيمتها رُبع العُشر إذا كان قيمتها عشرون ديناراً أو مائتي درهم، قاله سَمُرَة بن جندب: كان رسول الله ﷺ يأمرنا أن نُخرِج الصدقة من الذي نعدّه للبيع، وعن أبي عمرو بن حِماس أن أباه قال: مررتُ بعمر بن الخطاب رضي الله عنه وعلى عُنقي أدمة أحملها، فقال عمر: ألا تؤدّي زكاتك يا حِماس؟ فقلت: ما لي غير هذا، وأهب في القرظ، فقال: ذاك مال فضع فوضعتها فحسبها فأخذ منها الزكاة. قوله تعالى: ﴿ ومما أخرجنا لكم من الأرض ﴾، قيل: هذا أمرٌ بإخراج العُشور من الثمار والحبوب، واتفق أهل العلم على إيجاب العشر في النخيل والكروم، وفيما يُقتات من الحبوب إن كان مسقياً بماء السماء أو من نهر يجري الماء إليه من غير مؤنة وإن كان مَسْقياً بساقية أو بنضح ففيه نصف العُشر. أخبرنا عبد الواحد المليحي، أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف أخبرنا محمد بن إسماعيل أخبرنا سعيد بن أبي مريم، أخبرنا عبد الله بن وهب، أخبرني يونس بن زيد عن ابن شهاب، عن سالم بن عبد الله عن أبيه عن النبي ﷺ: «فيما سقت السماء والعيون أو كان عثرياً: العُشر، وفيما سيق بالنضح نصف العشر»، أخبرنا عبد الوهاب بن محمد الخطيب، أخبرنا عبد العزيز بن أحمد الخلال، أخبرنا أبو العباس الأصم، أخبرنا الربيع أخبرنا الشافعي أخبرنا عبد الله بن نافع، عن محمد بن صالح التمار عن ابن شهاب، عن سعيد بن المسيب عن عثمان بن أسيد أن رسول الله ﷺ قال في زكاة الكرم: «يُخرص كما يُخرص النخل ثم تُؤدّى زكاته زبيباً كما يؤدّي زكاة النخل ثمراً»، واختلف أهل العلم فيما سوى النخل والكروم، وفيما سوى ما يُقتات به من الحبوب، فذهب قوم إلى أنه لا عشر في شيء منها، وهو قول ابن أبي

لك إن رسول الله ﷺ كان يقول: ليس في ذلك صدقة» رواه الأثرم في سننه وهو أقوى المراسيل لاحتجاج من أرسله به وقال الزهري والأوزاعي ومالك تجب الزكاة في الزيتون، وتجب في الثمار عند بدو الصلاح وهو أن يحمر البسر ويصفر ووقت الإخراج بعد الاجتناء والجفاف، وفي الحبوب عند الاشتداد ووقت الإخراج بعد الدراس والتصفية.

المسألة الثالثة: يجب إخراج العشر فيما سقي بالمطر والأنهار والعيون ونصف العشر فيما سقي بنضح أو سانية، ويدل على ذلك ما روي عن ابن عمر أن النبي ﷺ قال: «فيما سقت السماء والعيون أو كان عثرياً العشر وما سقي بالنضح نصف العشر» أخرجه البخاري. ولأبي داود والنسائي قال: «فيما سقت السماء والأنهار والعيون أو كان بعلاً العشر وما سقي بالسواني والنضح نصف العشر» قال أبو داود البعل ما شرب بعروقه ولم يتعن في سقيه وقال وكيع: هو الذي ينبت من ماء السماء قوله: أو كان عثرياً أراد به القوي من الزرع وهو البعل وقد فسره في لفظ الحديث والنضح هو الاستقاء وكذلك السانية وهي الدابة التي يسقي عليها سواء كانت من الإبل أو البقر، ولا يجب العشر في السماء والزروع حتى تبلغ خمسة أو سق والوسق ستون صاعاً، وقال أبو حنيفة: يجب العشر في كل قليل أو كثير من الثمار والزروع واحتج الجمهور في إيجاب النصاب بما روي عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ أنه قال: «ليس فيما دون خمسة أوسق صدقة وليس فيما دون خمسة أواق صدقة، وليس فيما دون خمسة ذود صدقة» وفي رواية «ليس فيما دون خمسة أوساق من تمر أو حب صدقة» أخرجاه في الصحيحين، ومن قال: إن المراد بقوله تعالى: ﴿**أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض**﴾ صدقة التطوع احتج بما روي عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «ما من مسلم يغرس غرساً أو يزرع زرعاً فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلّا كان له به صدقة» أخرجاه في الصحيحين. وقوله تعالى: ﴿**ولا تيمموا الخبيث**﴾ أي ولا تقصدوا الخبيث يعني

ليلى والشافعي رضي الله عنه، وقال الزهري والأوزاعي ومالك رضي الله عنهم: يجب في الزيتون، وقال أبو حنيفة جميع البقول والخضراوات كالثمار إلّا الحشيش والحطب، وكل ثمرة أوجبنا فيها الزكاة فإنما يجب ببدو الصلاح ووقت الإخراج بعد الاجتناء والجفاف، وكل حبّ أو جبن فيه العشر، فوقت وجوبه اشتداد الحبّ، ووقت الإخراج بعد الدياسة والتنقية، ولا يجب العُشر في شيء منها حتى تبلغ خمسة أوْسُق عند أكثر أهل العلم، وعند أبي حنيفة رحمه الله يجب في كل قليل وكثير منها، واحتجّ مَنْ شرط النصاب بما أخبرنا أبو الحسن السرخسي، أخبرنا زاهر بن أحمد أخبرنا أبو إسحق الهاشمي، أخبرنا أبو مصعب، عن مالك عن محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي صعصعة المازني، عن أبيه عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ليس فيما دون خمسة أوْسُق من التمر صدقة، وليس فيما دون خمسة أواق من الوَرِق صدقة، وليس فيما دون خمس ذود من الإبل صدقة»، وروى يحيى بن عبادة عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «ليس في حبّ ولا تمر صدقة حتى تبلغ خمسة أوسق»، وقال قوم: الآية في صدقات التطوّع، أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي، أخبرنا أبو منصور السمعاني، أخبرنا أبو جعفر الزياتي، أخبرنا حميد بن زنجويه، أخبرنا يحيىٰ أخبرنا أبو عوانة، عن قتادة عن أنس بن مالك رضي الله عنهم قال: قال رسول الله ﷺ: «ما مِنْ مُؤمن يغرس غرساً أو يزرع زرعاً فيأكل منه إنسان أو طير أو بهيمة إلّا كان له صدقة». قوله تعالى: ﴿ **ولا تَيَمَّمُوا** ﴾، قرأ ابن عامر برواية البزّي بتشديد التاء في الوصل فيها وفي أخواتها، وهي إحدى وثلاثون موضعاً في القرآن، لأنه في الأصل تاءان أسقطت إحداهما، فردّ هو الساقطة وأدغم، وقرأ الآخرون بالتخفيف، ومعناه: لا تقصدوا، ﴿ **الخبيثَ منه تُنفقون** ﴾، رُوِيَ عن عدي بن ثابت عن البراء بن عازب قال: كانت الأنصار تخرج إذا كان جذاذ النخل أقناء من التمر والبُسْر فيعلقونه على حبل بين

الرديء من أموالكم ﴿**منه تنفقون**﴾ أي من الخبيث. عن البراء بن عازب في قوله تعالى: ﴿**ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون**﴾ قال: نزلت فينا معشر الأنصار، كنا أصحاب نخل فكان الرجل يأتي من نخله على قدر كثرته، وقلته: وكان الرجل يأتي بالقنو والقنوين فيعلقه في المسجد، وكان أهل الصفة ليس لهم طعام فكان أحدهم إذا جاع أتى القنو فضربه بعصا، فسقط البسر أو التمر فيأكل وكان ناس ممن لا يرغب في الخير، يأتي بالقنوفية الشيص والحشف، وبالقنو قد انكسر فيعلقه فأنزل الله تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ولستم بآخذيه إلّا أن تغمضوا فيه**﴾ قال: لو أن أحدكم أهدي إليه مثل ما أعطى لم يأخذه إلّا على إغماض وحياء قال: فكنا بعد ذلك يأتي أحدنا بصالح ما عنده أخرجه الترمذي. وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب وقيل كانوا يتصدقون بشرار ثمارهم ورذالة أموالهم، ويعزلون الجيد لأنفسهم فأنزل الله تعالى: ﴿**ولا تيمموا الخبيث**﴾ يعني الرديء منه تنفقون يعني تتصدقون ﴿**ولستم بآخذيه**﴾ يعني ذلك الشيء الخبيث الرديء ﴿**إلّا أن تغمضوا فيه**﴾ الإغماض في اللغة غض البصر، وإطباق الجفن والمراد به هنا التجويز والمساهلة، وذلك أن الإنسان إذا رأى ما يكره أغمض عينيه لئلا يرى ذلك قال ابن عباس: معناه لو أن لأحدكم على رجل حقاً فجاءه بهذا لم يأخذه إلّا وهو يرى أنه قد أغمض عن حقه وتركه وقال البراء: هو لو أهدى ذلك ما أخذتموه إلّا على استحياء من صاحبه وغيظ فكيف ترضون إلى ما لا ترضون لأنفسكم إذا كان المال كله جيداً فليس له إعطاء الرديء لأن أهل السهمان شركاء له فيما عنده، وإن كان كله رديئاً فلا بأس بإعطاء الرديء ﴿**واعلموا أن الله غني**﴾ يعني عن صدقاتكم لم يأمركم بالتصدق لعوز واحتياج إليها ﴿**حميد**﴾ أي محمود في أفعاله، وقيل: حميد بمعنى حامد أي أجركم على ما تفعلونه من الخير. قوله عز وجل: .

ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغۡفِرَةٗ مِّنۡهُ وَفَضۡلٗاۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ﴿٢٦٨﴾ يُؤۡتِي ٱلۡحِكۡمَةَ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُؤۡتَ ٱلۡحِكۡمَةَ فَقَدۡ أُوتِيَ خَيۡرٗا كَثِيرٗاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾

﴿**الشيطان يعدكم الفقر**﴾ أي يخوفكم الفقر يقال: وعدته خيراً ووعدته شراً وإذا لم يذكر الخير والشر يقال:

الأسطوانتين في مسجد رسول الله ﷺ فيأكل منه فقراء المهاجرين، فكان الرجل منهم يعلم فيدخل قِنْوَ الحَشَفِ وهو يظن أنه جائز عنه في كثرة ما يوضع من الأقناء، فنزل فيمن فعل ذلك، ولا تيمموا الخبيث، أي: الحَشَفَ والرديء، وقال الحسن ومجاهد والضحّاك: كانوا يتصدقون بشرار ثمارهم ورزالة أموالهم ويعملون الجيدَ ناحيةً لأنفسهم، فأنزل الله تعالى: ﴿ **ولا تيمموا الخبيث** ﴾ الرديء منه تنفقون، ﴿ **ولستم بآخذيه** ﴾، يعني: الخبيث، ﴿ **إلّا أن تُغمضوا فيه** ﴾، الإغماض: غضّ البصر، وأراد ههنا: التجويز والمساهلة، معناه: لو كان لأحدكم على رجل حق فجاءه بهذا لم يأخذه إلّا وهو يرى أنه قد أغمض له عن حقه وتركه، قال الحسن وقتادة: لو وجدتموه يُباع في السوق ما أخذتموه بسعر الجيد. ورُوِيَ عن البراء قال: لو أهدي ذلك لكم ما أخذتموه إلّا على استحياء من صاحبه وغيظ، فكيف ترضون لي ما لا ترضون لأنفسكم، هذا إذا كان المال كله جيداً فليس له إعطاء الرديء، لأن أهل السهمان شركاؤه فيما عنده، فإن كان كل ماله رديئاً فلا بأس بإعطاء الرديء، ﴿ **وٱعلموا أن الله غني** ﴾ عن صدقاتكم، ﴿ **حميد** ﴾، محمود في أفعاله.

﴿ **الشيطانُ يعِدُكُمُ الفقرَ** ﴾، أي: يُخوفكم بالفقر، ويُقال: وعدته خيراً ووعدته شرّاً، قال الله تعالى في

في الخير وعدته وفي الشر أوعدته والفقر سوء الحال، وقلة ذات اليد وأصله من كسر فقار الظهر ومعنى الآية أن الشيطان يخوفكم بالفقر، ويقول للرجل أمسك عليك مالك فإنك إذا تصدقت افتقرت ﴿**ويأمركم بالفحشاء**﴾ يعني يوسوس لكم ويحسن لكم، البخل ومنع الزكاة والصدقة قال الكلبي كل فحشاء في القرآن فهي الزنا إلاّ هذا الموضع وفي هذه الآية لطيفة وهي أن الشيطان يخوف الرجل أولاً بالفقر ثم يتوصل بهذا التخويف إلى أن يأمره بالفحشاء، وهي البخل وذلك لأن البخيل على صفة مذمومة عند كل أحد فلا يستطيع الشيطان أن يحسن له البخل إلاّ بتلك المقدمة وهي التخويف من الفقر، فلهذا قال تعالى: ﴿**الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه**﴾ يعني مغفرة لذنوبكم وستراً لكم ﴿**وفضلاً**﴾ يعني رزقاً وخلفاً. فالمغفرة إشارة إلى منافع الآخرة والفضل إشارة إلى منافع الدنيا، وما يحصل من الرزق والخلف. عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «إن للشيطان لمة بابن آدم وللملك لمة فأما لمة الشيطان فإيعاد بالشر، وتكذيب بالحق وأما لمة الملك فإيعاد بالخير وتصديق بالحق فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله تعالى فليحمد الله ومن وجد الأخرى فليتعوذ بالله من الشيطان ثم قرأ ﴿**الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء**﴾ أخرجه الترمذي. وقال هذا حديث حسن غريب قوله: إن للشيطان لمة بابن آدم اللمة الخطرة الواحدة من الإلمام وهو القرب من الشيء والمراد بهذه اللمة اللمة التي تقع في القلب من فعل خير أو شر والعزم فأما لمة الشيطان فوسوسة وأما لمة الملك فإلهام من الله تعالى ﴿**والله واسع**﴾ أي غني قادر على إغنائكم وإخلاف ما تنفقونه ﴿**عليم**﴾ يعني بما تنفقونه لا تخفى عليه خافية (ق) عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «ما من يوم يصبح فيه العباد إلاّ وملكان ينزلان يقول: أحدهما اللهم أعط منفقاً خلفاً ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكاً تلفاً» (ق) عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «قال الله تعالى أنفق ينفق عليك» وفي رواية «يد الله ملأى لا تغيضها نفقة سحاء الليل والنهار، وقال: أرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض فإنه لم يغض ما في يده» وفي رواية «فإنه لم يغض ما في يمينه، وكان عرشه على الماء وبيده الميزان يخفض ويرفع» وفي رواية وبيده الأخرى الفيض القبض يرفع ويخفض (ق) عن أسماء بنت بكر الصديق قالت: قال لي رسول الله ﷺ: «أنفقي ولا تحصي فيحصى عليك ولا توعي فيوعى عليك» قوله: ولا توعي أي لا تشحي فيشح الله عليك فيجازيك بالتقتير في رزقك ولا يخلف عليك ولا يبارك لك، والمعنى لا تجمعي وتمنعي بل أنفقي ولا تعدي ولا تشحي. قوله عز وجل: ﴿**يؤتي الحكمة من يشاء**﴾ قال ابن عباس: هي علم القرآن ناسخه ومنسوخه

الخير: ﴿ وعدكم الله مغانم كثيرة ﴾ [الفتح: ٢٠] وقال في الشرّ: ﴿ النار وعدها الله الذين كفروا ﴾ [الحج: ٧٢]، فإذا لم يذكر الخير والشرّ قلت في الخير: وعدته وفي الشر أوعدته، والفقر سوءُ الحال وقلّة ذات اليد، وأصله من كسر الفِقَار، ومعنى الآية: أن الشيطان يخوفكم بالفقر، ويقول للرجل: أمسك عليك مالك فإنك إذا تصدّقت به افتقرت، ﴿ ويأمرُكم بالفحشاء ﴾، أي: بالبخل ومنع الزكاة، وقال الكلبي: كل الفحشاء في القرآن فهو الزنا إلاّ هذا، ﴿ واللَّهُ يَعِدُكم مغفرةً منه وفَضْلاً ﴾، أي: لذنوبكم. ﴿ والله واسع ﴾، غني ﴿ عليم ﴾ أخبرنا حسّان بن سعيد المنيعي، أخبرنا أبو طاهر الزيادي، أخبرنا محمد بن الحسين القطّان، أخبرنا أحمد بن يوسف السلمي، أخبرنا عبد الرزّاق، أخبرنا معمر عن هشام، عن همّام بن منبّه قال: حدّثنا أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى يقول: ابن آدم أنفقْ أُنفقْ عليك»، وقال: قال رسول الله ﷺ: «يمينُ اللَّهِ ملأى لا تُغيضها نفقةٌ سحاء الليل والنهار، أرأيتم ما أنفق منذ خلق السمواتِ والأرض، فإنه لم يُغضْ ما في يمينه، قال: وعرشُه على الماء وبيده الأخرى القسط، يرفع ويخفض»، أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي، أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف، أخبرنا محمد بن إسماعيل، أخبرنا عبد الله بن سعيد، أخبرنا

ومحكمه ومتشابهه ومقدمه ومؤخره وحلاله وحرامه، وقال الضحاك: القرآن والفهم فيه وإنما قال: ذلك لتضمن القرآن الحكمة وقال في القرآن: مائة وتسع آيات ناسخة ومنسوخة وألف آية حلال وحرام لا يسع المؤمنين تركهن حتى يعلمونهن ولا يكونوا كأهل النهروان يعني الخوارج تأولوا آيات من القرآن في أهل القبلة وإنما نزلت في أهل الكتاب فجهلوا علمها فسفكوا بها الدماء، وانتهبوا الأموال وشهدوا على أهل السنة بالضلالة فعليكم بعلم القرآن فإنه من علم فيما نزل لم يختلف في شيء منه، وقيل: هي القرآن والعلم والفقه وقيل هي الإصابة في القول والفعل. وحاصل هذه الأقوال إلى شيئين: العلم والإصابة فيه، ومعرفة الأشياء بذواتها وأصل الحكمة المنع ومنه حكمة الدابة لأنها تمنعها قال الشاعر:

أبني حنيفة أحكموا سفهاءكم

أي امنعوا سفهاءكم، وقال السدي: الحكمة النبوة لأن النبي يحكم بين الناس فهو حاكم وقيل الحكمة الورع في دين الله لأن الورع يمنع صاحبه من أن يقع في الحرام، أو ما لا يجوز له فعله ﴿**ومن يؤت الحكمة**﴾ يعني ومن يؤته الله الحكمة ﴿**فقد أوتي خيراً كثيراً**﴾ تنكير تعظيم معناه فقد أوتي أي خير كثير. ﴿**وما يذكر إلاّ أولو الألباب**﴾ أي وما يتعظ بما وعظه الله إلاّ ذوو العقول الذين عقلوا عن الله أمره ونهيه. قوله عز وجل: .

وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ ۗ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٢٧٠﴾ إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَـٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾

﴿**وما أنفقتم من نفقة**﴾ يعني فيما فرضه الله عليكم من إعطاء زكاة وغيرها ﴿**أو نذرتم من نذر**﴾ يعني به ما

عبد الله بن نمير، أخبرنا هشام بن عروة عن فاطمة بنت المنذر عن أسماء أن رسول الله ﷺ قال لها: «أنفقي ولا تحصي، فيُحصي اللَّهُ عليك، ولا تُوعِي فيُوعِي اللَّهُ عليك».

قوله تعالى: ﴿ **يُؤتي الحكمةَ مَن يشاء** ﴾، قال السدي: هي النبوّة، وقال ابن عباس رضي الله عنهما وقتادة: عِلمُ القرآن ناسخه ومنسوخه ومحكمه ومتشابهه ومقدّمه ومؤخره وحلاله وحرامه وأمثاله، وقال الضحاك: القرآن والفهم فيه، وقال: في القرآن مائة وتسع آيات ناسخة ومنسوخة وألف آية حلال وحرام لا يسع المؤمنين تركهنّ حتى يتعلموهنّ، ولا يكونوا كأهل نهروان تأوّلوا آيات من القرآن في أهل القِبلة، وإنما أُنزلت في أهل الكتاب، جهلوا علمها فسفكوا بها الدماء وانتهبُوا الأموال، وشهدوا علينا بالضلالة، فعليكم بعلم القرآن فإنه مَن عَلم فيمَ أُنزل لم يختلف في شيء منه، وقال مجاهد: هي القرآن والعلم والفقه، وروى ابن أبي نجيح عنه: الإصابة في القول والفعل، وقال إبراهيم النخعي: معرفة معاني الأشياء وفهمها، ﴿ **ومَن يُؤت الحكمة** ﴾ ﴿ **مَنْ** ﴾ في محل الرفع على ما لم يُسمَّ فاعله، و﴿ **الحكمة** ﴾ خبره، وقرأ يعقوب يؤتي الحكمة بكسر التاء أي: مَن يؤته الله الحكمة، دليله قراءة الأعمش « ومَن يؤته الله » حُكي عن الحسن ﴿ **ومَن يؤتِ الحكمة** ﴾ قال: الورع في دين الله، ﴿ **فقد أُوتي خيراً كثيراً** ﴾، قال الحسن: مَن أُعطي القرآن فكأنّما أُدرجتِ النبوّةُ بين جنبيه إلاّ أنه لم يُوحَ إليه. ﴿ **وما يذّكّر** ﴾: يتّعظ، ﴿ **إلاّ أولوا الألباب** ﴾: ذوو العقول.

قوله تعالى: ﴿ **وما أنفقتم من نفقة** ﴾: فيما فرض الله عليكم، ﴿ **أو نذرتم من نذر** ﴾، أي: ما أوجبتموه أنتم

أوجبتموه على أنفسكم في طاعة الله فوفيتم به والنذر أن يوجب الإنسان على نفسه شيئاً ليس بواجب يقال نذرت لله نذراً وأصله من الخوف لأن الإنسان إنما يعقد على نفسه النذر من خوف التقصير في الأمر المهم، والنذر في الشرع على ضربين مفسر، وغير مفسر. فالمفسر أن يقول لله على صوم أو حج أو عتق أو صدقة فيلزمه الوفاء به، ولا يجزيه غيره وغير المفسر وهو أن يقول: نذرت لله لا أفعل كذا ثم يفعله أو يقول لله على نذر من غير تسمية شيء فيلزمه فيه كفارة يمين (خ) عن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من نذر أن يطيع الله فليطعه ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه» عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «من نذر نذراً لم يسمه فكفارته كفارة يمين ومن نذر نذراً في معصية فكفارته كفارة يمين ومن نذر نذراً لا يطيقه فكفارته كفارة يمين ومن نذر نذراً فأطاقه فليف به» أخرجه أبو داود عن عمران بن حصين قال: قال رسول الله ﷺ: «لا نذر في معصية ولا فيما لا يملك ابن آدم» أخرجه النسائي (ق) عن ابن عمر: «أن رسول الله ﷺ نهى عن النذر وقال إنه لا يأتي بخير وإنما يستخرج به من البخيل» (م) عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «إن النذر لا يقرب من ابن آدم شيئاً لم يكن الله قدره، ولكن النذر يوافق القدر فيخرج بذلك من البخيل ما لم يكن البخيل يريد أن يخرج» قال بعض العلماء: يحتمل أن يكون سبب النهي عن النذر كون الناذر يصير ملتزماً مالاً فيأتي به تكلفاً من غير نشاط أو يكون سببه كونه يأتي به على سبيل المعارضة عن الأمر الذي طلبه فينقص أجره، وشأن العبادة أن تكون متمحضة لله تعالى وقال بعضهم يحتمل أن يكون النهي لكونه قد يظن بعض الجهلة أن النظر يرد القدر أو يمنع من حصول المقدور فنهى عنه خوفاً من اعتقاد ذلك، وسياق الحديث يؤكد هذا، وقوله: في بعض روايات الحديث إنه لا يأتي بخير معناه أنه لا يرد شيئاً من القدر. وقوله: فيخرج بذلك من البخيل ما لم يكن البخيل يريد أن يخرج معناه أنه لا يأتي بهذه القربة تطوعاً محضاً مبتدأ وإنما يأتي بها في مقابلة شيء يريده كقوله إن شفى الله مريضي فللّه على كذا ونحو ذلك مما يحصل بالنذر والله أعلم، وقوله تعالى: ﴿فإن الله يعلمه﴾ أي يعلم ما أنفقتم ونذرتم فيجازيكم به وإنما قال: يعلمه ولم يقل يعلمهما لأنه رد الضمير على الآخر منهما فهو كقوله: ومن يكسب خطيئة أو إثماً ثم يرم به بريئاً وقيل: إن الكناية عادت على: «ما» في قوله وما أنفقتم لأنها اسم فهو كقوله: «وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به» ولم يقل بهما ﴿وما للظالمين﴾ يعني الواضعين الصدقة في غير موضعها وقيل: الذين يريدون

على أنفسكم في طاعة الله فوفّيتُم به، ﴿ فإن الله يعلمه ﴾، يحفظه حتى يجازيكم به، وإنما قال: ﴿ يعلمه ﴾ ولم يقل يعلمها، لأنه ردّه إلى الآخر منها، كقوله تعالى: ﴿ ومَن يكسبْ خطيئةً أو إثماً ثم يرمِ به بريئاً ﴾ [النساء: ١١٢] وإن شئتَ حملته على ﴿ ما ﴾ كقوله: ﴿ وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به ﴾ [البقرة: ٢٣١]، ولم يقل بهما، ﴿ وما للظالمين ﴾، الواضعين الصدقة في غير موضعها بالرياء ويتصدّقون من الحرام، ﴿ مِنْ أنصار ﴾، من أعوان أن يدفعون عذاب الله عنهم، وهي جمع نصير، مثل شريف وأشراف.

قوله تعالى: ﴿ إن تُبْدُوا الصدقاتِ ﴾، أي: تُظهروها، ﴿ فَنِعمَّا هي ﴾، أي: نعمت الخصلة هي، و﴿ ما ﴾ في محل الرفع، وهي في محل النصب، كما تقول: نعم الرجل رجلاً، فإذا عرفتَ رفعتَ فقلت: نِعْمَ الرجل زيد، وأصله نعم ما وصلت، قرأ أهل المدينة غير ورش وأبو عمر وأبو بكر ﴿ فنعمّا ﴾ بكسر النون وسكون العين، وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائي بفتح النون وكسر العين، وقرأ ابن كثير ونافع برواية ورش ويعقوب وحفص بكسرهما، وكلها لغات صحيحة، وكذلك في سورة النساء. و﴿ إنْ تُخْفوها ﴾، تُسرّوها، ﴿ وتُؤتوها الفقراء ﴾ أي: تؤتوها الفقراء

في السرّ، ﴿ فهو خيرٌ لكم ﴾ وأفضل وكل مقبول إذا كانت النيّة صادقة، ولكن صدقة السرّ أفضل، وفي الحديث: «صدقة السر تطفىء غضب الربّ». أخبرنا أبو الحسن السرخسي أخبرنا زاهر بن أحمد، أخبرنا أبو إسحق

بصدقاتهم الرياء والسمعة وقيل: هم الذين يتصدقون بالمال الحرام ﴿من أنصار﴾ أي من أعوان يدفعون عنهم عذاب الله تعالى، ففيه وعيد عظيم لكل ظالم قوله عز وجل: ﴿إن تبدوا الصدقات﴾ أي تظهروا الصدقات والصدقة ما يخرجه الإنسان من ماله على وجه القربة فيدخل فيه الزكاة الواجبة، وصدقة التطوع ﴿فنعمّا هي﴾ أي فنعمت الخصلة هي وقيل فنعم الشيء هي وقيل: معناه فنعم شيئاً إبداء الصدقات ﴿وإن تخفوها﴾ أي تسروا الصدقة ﴿وتؤتوها الفقراء﴾ أي وتعطوها الفقراء في السر ﴿فهو خير لكم﴾ يعني إخفاء الصدقة أفضل من العلانية وكل مقبول إذا كانت النية صادقة، واختلفوا في المراد بالصدقة المذكورة في الآية فقال الأكثرون المراد بها صدقة التطوع، واتفق العلماء على أن كتمان صدقة التطوع أفضل وإخفاؤها خير من إظهارها، لأن ذلك أبعد من الرياء وأقرب إلى الإخلاص، ولأن فيه بعداً عما تؤثره النفس من إظهار الصدقة، وفي صدقة السر أيضاً فائدة ترجع إلى الفقير الآخذ وهي أنه إذا أعطى في السر زال عنده الذل والانكسار وإذا أعطى في العلانية يحصل له الذل والانكسار ويدل على أن صدقة السر أفضل ما روي عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلّا ظله إمام عادل وشاب نشأ في طاعة الله تعالى ورجل قلبه معلق بالمسجد إذا خرج منه حتى يعود إليه ورجلان تحابا في الله تعالى اجتمعا على ذلك وافترقا عليه ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه من خشية الله تعالى ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه» أخرجاه في الصحيحين ووجه جواز إظهار الصدقة يكون ممن قد أمن على نفسه من مداخلة الرياء في عمله أو يكون ممن يقتدى به في أفعاله فإذا أظهر الصدقة تابعه غيره على ذلك، وأما الزكاة فإظهار إخراجها أفضل من كتمانها كالصلاة المكتوبة في الجماعة أفضل وصلاة التطوع في البيت أفضل ولكن في إظهار الزكاة نفي التهمة عن المزكي وقيل إن الآية واردة في زكاة الفرض، وكان إخفاؤها خيراً على عهد رسول الله ﷺ لأنهم كانوا لا يظنون بأحد أنه يمنع الزكاة، فأما اليوم في زماننا إظهار الزكاة أفضل حتى لا يساء الظن به وقيل إن الآية عامة في جميع الصدقات الواجبة والتطوع والإخفاء أفضل في كل صدقة من زكاة غيرها. وقوله تعالى: ﴿ونكفر عنكم من سيئاتكم﴾ قيل إن من صلة زائدة تقديره ونكفر عنكم سيئاتكم قال ابن عباس جميع سيئاتكم وقيل أدخل من للتبغيض ليكون العباد على وجل ولا يتكلوا والمعنى ونكفر عنكم الصغائر من سيئاتكم وأصل التكفير في اللغة التغطية والستر ﴿والله بما تعملون خبير﴾ يعني من إظهار الصدقات وإخفائها. قوله عز وجل: .

الهاشمي أخبرنا أبو مصعب، عن مالك عن حبيب بن عبد الرحمن عن حفص بن عاصم، عن أبي سعيد الخدري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «سبعةٌ يُظلّهم اللَّهُ في ظلّه يومَ لا ظلَّ إلّا ظلّه: إمامٌ عادلٌ وشابٌّ نشأ في عبادة الله تعالى، ورجلٌ قلبه معلّقٌ بالمسجد إذا خرجَ منه حتى يعودَ إليه، ورجلان تحابّا في الله اجتمعا على ذلك وافترقا عليه، ورجلٌ ذكر الله خالياً ففاضتْ عيناه، ورجلٌ دعتهُ امرأةٌ ذاتَ منصبٍ وجمال فقال إني أخاف اللَّهَ، ورجلٌ تصدّقَ بصدقةٍ فأخفاها حتى لا تعلمَ شمالهُ ما تُنفقُ يمينُه» وقيل: الآية في صدقة التطوع، أما الزكاة المفروضة فالإظهار فيها أفضل حتى يقتدي به الناس، كالصلاة المكتوبة في الجماعة أفضل، والنافلة في البيت أفضل، وقيل: الآية في الزكاة المفروضة كان الإخفاء فيها خيراً على عهد رسول الله ﷺ أما في زماننا فالإظهار أفضل حتى لا يُساء به الظن. قوله تعالى: ﴿ ويُكفّر عنكم من سيئاتكم ﴾، قرأ ابن كثير وأهل البصرة وأبو بكر بالنون ورفع الراء أي: ونحن نُكفّر، وقرأ ابن عامر وحفص بالياء ورفع الراء، أي: ويكفّر الله، وقرأ أهل المدينة وحمزة والكسائي بالنون والجزم نسقاً على الفاء التي في قوله: ﴿ فهو خير لكم ﴾ لأن موضعها جزم الجزاء، وقوله: ﴿ ومن سيئاتكم ﴾ قيل: ﴿ من ﴾ صلة، تقديره: نكفّر عنكم سيئاتكم، وقيل: هو للتحقيق والتبعيض، يعني: نكفّر الصغائر من الذنوب، ﴿ واللَّهُ بما تعملون خبير ﴾.

﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾﴾

﴿ليس عليك هداهم﴾ قيل سبب نزول هذه الآية: أن ناساً من المسلمين كان لهم قرابات وأصهار في اليهود وكانوا ينفعونهم وينفقون عليهم قبل أن يسلموا فلما أسلموا كرهوا أن ينفعوهم وأرادوا بذلك أن يسلموا وقيل كانوا يتصدقون على فقراء أهل المدينة فلما كثر المسلمون نهى رسول الله ﷺ عن التصدق على المشركين كي تحملهم الحاجة إلى الدخول في الإسلام لحرصه ﷺ على سلامهم فنزل ليس عليك هداهم ومعناه ليس عليك هداية من خالفك حتى تمنعهم الصدقة لأجل أن يدخلوا في الإسلام فحينئذٍ نتصدق عليهم فأعلمه الله تعالى أنه إنما بعث بشيراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه، فأما كونهم مهتدين فليس ذلك إليك ﴿ولكن الله يهدي من يشاء﴾ يعني أن الله تعالى يوفق من يشاء فيهديه إلى الإسلام وأراد بالهداية هنا هداية التوفيق وأما هداية البيان والدعوة فكانت على رسول الله ﷺ فلما نزلت هذه الآية أعطوهم وتصدقوا عليهم ﴿وما تنفقوا من خير﴾ أي من مال ﴿فلأنفسكم﴾ أي ما تفعلوا تنفعوا به أنفسكم ﴿وما تنفقون إلّا ابتغاء وجه الله﴾ ظاهره خبر ومعناه نهي أي ولا تنفقوا إلا ابتغاء وجه الله وقال الزجاج: هذا خاص للمؤمنين أعلمهم الله تعالى أنه قد علم أن مرادهم بنفقتهم ما عنده وقيل معناه لستم في صدقاتكم على أقاربكم من المشركين تقصدون إلّا وجه الله وقد علم هذا من قلوبكم فأنفقوا عليهم إذا كنتم إنما تبتغون بذلك وجه الله في صلة الرحم وسد خلة مضطر قال بعض العلماء: لو أنفقت على شر خلق الله لكان لك ثواب نفقتك وأجمع العلماء على أنه لا يجوز صرف الزكاة إلّا إلى المسلمين وهم أهل السهمان المذكورون في سورة التوبة، وجوز أبو حنيفة صرف صدقة الفطر إلى أهل الذمة، وخالفه سائر العلماء في ذلك فعلى هذا تكون الآية مختصة بصدقة التطوع أباح الله تعالى أن تصرف إلى فقراء المسلمين وفقراء أهل الذمة فأما زكاة الفرض فلا يجوز صرفها إلى أهل الذمة بحال ﴿وما تنفقوا من خير يوف إليكم﴾ أي يوفر لكم جزاؤه وقال ابن عباس: يجازيكم به يوم القيامة ومعناه يؤدي إليكم يوم القيامة ولهذا حسن إدخال إلى مع التوفية لأنها تضمنت معنى التأدية ﴿وأنتم لا تظلمون﴾ أي لا تنقصون شيئاً من ثواب أعمالكم. قوله عز وجل: .

﴿ ليسَ عليكَ هُدَاهم ﴾، قال الكلبي: سبب نزول هذه الآية أن ناساً من المسلمين كانت لهم قرابة وأصهار في اليهود، وكانوا ينفقون عليهم قبل أن يُسلموا، فلما أسلموا كرهوا أن ينفقوا عليهم، وأرادوهم على أن يسلموا، وقال سعيد بن جبير: كانوا يتصدقون على فقراء أهل الذمّة فلما كثر فقراء المسلمين نهى رسول الله ﷺ عن التصدّق على المشركين كي تحملهم الحاجة على الدخول في الإسلام، فنزل قوله: ﴿ ليس عليك هداهم ﴾، فتمنعهم الصدقة ليدخلوا في الإسلام حاجة منهم إليها، ﴿ ولكن الله يهدي مَن يشاء ﴾، وأراد به هداية التوفيق، أما هدي البيان والدعوة كان على عهد رسول الله ﷺ فأعطوهم بعد نزول الآية، ﴿ وما تنفقوا من خير ﴾، أي: مال، ﴿ فلأنفسكم ﴾، أي: تنفقونه لأنفسكم، ﴿ وما تُنفقون إلّا ابتغاء وجهِ الله ﴾، لفظة جحد ومعناه نهي، أي: لا تنفقوا إلّا ابتغاء وجه الله، ﴿ وما تنفقوا من خير ﴾، شرط كالأول، ولذلك حذف النون منهما، ﴿ يُوفَ إليكم ﴾، أي: يُوفَّر لكم جزاؤه، ومعناه: يؤدّي إليكم، ولذلك دخل فيه إلى، ﴿ وأنتم لا تظلمون ﴾، لا تنقصون من ثواب أعمالكم شيئاً، وهذا في صدقة التطوّع أباح الله تعالى أن توضع في أهل الإسلام وأهل الذمّة، فأما الصدقة المفروضة فلا يجوز وضعها إلّا في المسلمين، وهم أهل السهمان المذكورون في سورة التوبة.

﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾﴾

﴿للفقراء﴾ اختلفوا في موضع اللام في قوله للفقراء فقيل: هو مردود على موضع اللام من قوله فلأنفسكم فكأنه قال: وما تنفقوا من خير فللفقراء وإنما تنفقون لأنفسكم، وقيل معناه الصدقات التي سبق ذكرها الفقراء. وقيل خبر محذوف تقديره للفقراء الذين من صفتهم كذا وكذا حق واجب وهم فقراء المهاجرين كانوا نحو أربعمائة رجل لم يكن لهم بالمدينة مساكن ولا عشائر وكانوا يأوون إلى صفة في المسجد يتعلمون القرآن بالليل ويرضخون النوى بالنهار وكانوا يخرجون في كل سرية يبعثها رسول الله ﷺ وهم أصحاب الصفة فحث الله تعالى الناس على مواساتهم فكان من عنده فضل أتاهم به إذا أمسى وقوله: ﴿**الذين أحصروا في سبيل الله**﴾ يعني هم الذين حبسوا أنفسهم على الجهاد في سبيل الله وقيل: حبسوا أنفسهم على طاعة الله ﴿**لا يستطيعون ضرباً في الأرض**﴾ يعني لا يتفرغون للتجارة وطلب المعاش والكسب، وهم أهل الصفة الذين تقدم ذكرهم وقيل حبسهم الفقر والعدم عن الجهاد في سبيل الله، وقيل هم قوم أصابتهم جراحات في الجهاد مع رسول الله ﷺ فصاروا زمنى حصرهم المرض والزمانة عن الضرب في سبيل الله ﴿**يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف**﴾ أي يظن من لم يختبر حالهم أنهم أغنياء من التعفف وهو تفعل من العفة وهي ترك الشيء والكف عنه. يقال: تعفف إذا ترك السؤال ولزم القناعة والمعنى

قوله تعالى: ﴿ للفقراء الذين أُحصروا في سبيل الله ﴾ اختلفوا في موضع هذه اللام، قيل: هي مردودة على موضع اللام من قوله: ﴿ **فلأنفسكم** ﴾ كأنه قال: وما تنفقوا من خير فللفقراء، وإنما تنفقون لأنفسكم، وقيل: معناها الصدقات التي سبق ذكرها، وقيل: خبر محذوف تقديره: للفقراء الذين صفتُهم كذا حق واجب وهم للفقراء المهاجرين، كانوا نحواً من أربعمائة رجل لم يكن لهم مساكن بالمدينة ولا عشائر، وكانوا في المسجد يتعلمون القرآن ويرضخون النوى بالنهار، وكانوا يخرجون في كل سرية يبعثها رسول الله ﷺ، وهم أصحاب الصفة، فحثّ الله تعالى عليهم الناس فكان من عنده فضل أتاهم به إذا أمسى، ﴿ **الذين أُحصروا في سبيل الله** ﴾، فيه أقاويل، قال قتادة: هم هؤلاء حبسوا أنفسهم على الجهاد في سبيل الله، ﴿ **لا يستطيعون ضرباً في الأرض** ﴾، لا يتفرغون للتجارة وطلب المعاش، وهم أهل الصفة الذين ذكرناهم، وقيل: حبسوا أنفسهم على طاعة الله، وقيل: معناه حبسهم الفقر والعدم عن الجهاد في سبيل الله، وقيل: هؤلاء قوم أصابتهم جراحات مع رسول الله ﷺ في الجهاد في سبيل الله فصاروا زَمْنَى أحصرهم المرضُ والزَّمانةُ عن الضرب في سبيل الله للجهاد، وقيل: معناه: من كثرة ما جاهدوا صَارت الأرض كلها حرباً لهم فلا يستطيعون ضرباً في الأرض من كثرة أعدائهم، ﴿ **يحسبهم** ﴾، قرأ أبو جعفر وابن عامر وعاصم وحمزة ﴿ **يحسَبهم** ﴾ وبابه بفتح السين، وقرأ الآخرون بالكسر، ﴿ **الجاهل** ﴾، بحالهم، ﴿ **أغنياءَ مِنَ التعفّف** ﴾، أي: من تعفّفهم عن السؤال وقناعتهم يظن مَن لا يعرف حالهم أنهم أغنياء والتعفّف التفعّل من العفّة وهي الترك، يقال: عفّ عن الشيء إذا كفّ عنه وتعفّف إذا تكلّف في الإمساك، ﴿ **تعرفهم بسيماهم** ﴾، السيماء والسيمياء والسمة: العلامة التي يُعرَف بها الشيء، واختلفوا في معناها ههنا، فقال مجاهد: هي التخشّع والتواضع، وقال السدي: أثر الجهد من الحاجة والفقر، وقال الضحاك: صُفرة ألوانهم من الجوع والضرّ، وقيل: رثاثة ثيابهم، ﴿ **لا يسألون الناس إلحافاً** ﴾، قال عطاء: إذا كان عندهم غداء لا يسألون عشاء وإذا كان عندهم عشاء لا يسألون غداء، وقيل: معناه: لا يسألون الناس إلحافاً أصلاً، لأنه قال: ﴿ **من التعفّف** ﴾،

يظنهم من لم يعرف حالهم أغنياء لإظهارهم التجمل وتركهم المسألة ﴿تعرفهم بسيماهم﴾ السيماء والسيمياء والسمة العلامة التي يعرف بها الشيء واختلفوا في معناها فقيل: هي الخضوع والتواضع وقيل هي أثر الجهد من الحاجة والفقر وقيل: هي صفرة ألوانهم من الجوع ورثاثة ثيابهم من الضر ﴿لا يسألون الناس إلحافاً﴾ يعني إلحاحاً قيل: إذا كان عنده غداء لا يسأل عشاء وإذا كان عنده عشاء لا يسأل غداء وقيل لا يسألون الناس أصلاً لأنه قال يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف وهو ترك المسألة فعلم بذلك أنهم لا يسألون ألبتة ولأنه قال تعالى: ﴿تعرفهم بسيماهم﴾ ولو كانت المسألة من شأنهم لما كانت من معرفتهم بالعلامة حاجة فمعنى الآية ليس يصدر منهم سؤال حتى يقع فيهم إلحاف. فهم لا يسألون الناس إلحافاً ولا غير إلحاف (ق) عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «ليس الغني عن كثرة العرض ولكن الغنى غنى النفس» (ق) عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ليس المسكين الذي ترده اللقمة واللقمتان والتمرة والتمرتان ولكن المسكين الذي لا يجد غنى يغنيه ولا يفطن به فيتصدق عليه ولا يقوم فيسأل» الناس لفظ (خ) عن الزبير قال: قال رسول الله ﷺ: «لأن يأخذ أحدكم حبله ثم يأتي الجبل فيأتي بحزمة من حطب على ظهره فيبيعها خير له» من أن يسأل الناس أعطوه أم منعوه عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «من سأل الناس وله ما يغنيه جاء يوم القيامة ومسألته في وجهه خموش أو خدوش أو كدوح وقيل: يا رسول الله ما يغنيه؟ قال خمسون درهماً أو قيمتها من الذهب» أخرجه أبو داود والترمذي والنسائي عن أبي سعيد الخدري. قال: قال رسول الله ﷺ: «من سأل وله قيمة أوقية فقد ألحف» أخرجه أبو داود وقال: زاد هشام في حديثه وكانت

والتعفُّف: ترك السؤال، ولأنه قال تعرفهم بسيماهم، ولو كانت المسألة من شأنهم لما كانت إلى معرفتهم بالعلامة حاجة، فمعنى الآية: ليس لهم سؤال فيقع فيه إلحاف، والإلحافُ: الإلحاح واللجاج، أخبرنا الأستاذ الإمام أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري، أخبرنا أبو سعيد محمد بن إبراهيم بن إسماعيل، أخبرنا محمد بن يعقوب أخبرنا محمد بن عبد الله بن الحكم، أخبرنا أنس بن عياض عن هشام بن عروة، عن أبيه عن الزبير قال: قال رسول الله ﷺ: «لأن يأخذ أحدكم حَبْلَه فيذهب فيأتي بحزمة حطب على ظهره فيكفُّ اللَّهُ بها وجهه، خيرٌ له من أن يسألِ الناس أشياءهم أعطوه أو منعوه». أخبرنا أبو الحسن السرخسي، أخبرنا زاهر بن أحمد أخبرنا أبو إسحق الهاشمي، أخبرنا أبو مصعب عن مالك، عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ليس المسكين بهذا الطواف الذي يطوف على الناس تردّه اللقمة واللقمتان والتمرة والتمرتان» قالوا: فمَنِ المسكين يا رسول الله؟ قال: «الذي لا يجد غنىً فيُغنيه ولا يُفطن له فيتصدق عليه، ولا يقوم فيسأل الناس» ورُوِيَ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «مَنْ سأل وله أوقية أو عِدْلُها فقد سأل إلحافاً»، أخبرنا أبو سعيد عبد الله بن أحمد الظاهري، أخبرنا جدّي سهل بن عبد الصمد بن عبد الرحمن البزار، أخبرنا محمد بن زكريا بن غدافر، أخبرنا إسحق بن إبراهيم بن عباد الديري، أخبرنا عبد الرزاق، أخبرنا معمر عن هارون بن زيان، عن كنانة العدوي عن قبيصة بن مخارق، قال: إني تحمّلت بحمالة في قومي فأتيتُ النبي ﷺ فقلت: يا رسول الله إنّي تحمّلت بحمالة في قومي وأتيتك لتعينني فيها، قال: «بل نتحمّلها عنك يا قبيصة ونؤدّيها إليهم من الصدقة» ثم قال: «يا قبيصة إن المسألة قد حَرُمتْ إلاّ في إحدى ثلاث: رجل أصابته حاجة فاجتاحتْ مالَه فيسأل حتى يصيب قَواماً من عيشه ثم يُمسك، ورجل أصابته حاجة حتى يشهد له ثلاثة نفر من ذوي الحِجى من قومه لقد أصابتْ فلاناً فاقةٌ، أنّ المسألة قد حلّت له فيسأل حتى يصيب القَوام من العيش ثم يُمسك، ورجل تحمّل بحمالة فيسأل حتى إذا بلغ أمسك، وما كان غير ذلك فإنه سحتٌ يأكله صاحبه سَحتاً». أخبرنا أبو عثمان سعيد بن إسماعيل الضبّي، أخبرنا أبو محمد عبد الجبار بن محمد الجراحي، أخبرنا أبو العباس محمد بن أحمد المحبوبي، أخبرنا أبو عيسى محمد بن عيسى الترمذي، أخبرنا قتيبة، أخبرنا

الأوقية على عهد رسول الله ﷺ أربعين درهماً وفي رواية عطاء بن يسار من سأل منكم وله أوقية أو عدلها فقد سأل إلحافاً عن عبدالله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله ﷺ: «من سأل الناس وله أربعون درهماً فهو ملحف» أخرجه النسائي (م) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «من سأل الناس تكثراً فإنما يسأل جمراً فليستقل أو ليستكثر». وقوله تعالى: ﴿وما تنفقوا من خير فإن الله به عليم﴾ يعني أن الله تعالى يعلم مقادير الإنفاق ويجازي عليها ففيه حث على الصدقة والإنفاق في الطاعة. قوله عز وجل: .

﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾﴾

﴿الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سراً وعلانية﴾ قال ابن عباس في رواية عنه: نزلت هذه الآية في علي بن أبي طالب كانت عنده أربعة دراهم لا يملك غيرها فتصدق بدرهم ليلاً وبدرهم نهاراً وبدرهم سراً وبدرهم علانية وفي رواية عنه قال: «لما نزل للفقراء الذين أحصروا في سبيل الله» بعث عبدالرحمن بن عوف بدنانير كثيرة إلى أهل الصفة، وبعث علي بن أبي طالب في الليل بوسق من تمر فأنزل الله فيهما: ﴿الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار﴾ يعني بنفقة الليل نفقة علي وبالنهار نفقة عبدالرحمن وفي الآية إشارة إلى أن صدقة السر أفضل من صدقة العلانية لأنه تعالى قدم نفقة الليل على نفقة النهار وقدم السر على العلانية وقيل: نزلت الآية في الذين يربطون الخيل للجهاد في سبيل الله لأنهم يعلفونها بالليل والنهار وفي السر: والعلانية (خ) عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من احتبس فرساً في سبيل الله إيماناً واحتساباً وتصديقاً بوعده كان شبعه وريه وروثه وبوله في ميزانه يوم القيامة» يعني حسنات وقيل: إن الآية عامة في الذين ينفقون أموالهم في جميع الأوقات ويعمون بها

شريك عن حكيم بن جبير، عن محمد بن عبد الرحمن بن يزيد، عن أبيه عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن سأل الناس وله ما يغنيه جاء يوم القيامة ومسألته في وجهه خُمُوش أو خُدُوش أو كدوح»، قيل: يا رسول الله وما يغنيه؟ قال: «خمسون درهماً أو قيمتهما ذهباً»، قوله تعالى: ﴿ وما تُنفقوا من خير ﴾، من مال، ﴿ فإن الله به عليم ﴾، وعليه مُجازي.

﴿ الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرّاً وعلانية ﴾، رُوِيَ عن مجاهد عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: نزلت هذه الآية في عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، كانت عنده أربعة دراهم لا يملك غيرها، فتصدّق بدرهم ليلاً وبدرهم نهاراً وبدرهم سرّاً وبدرهم علانيةً. وعن الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهم قال: لمّا نزلت ﴿ للفقراء الذين أُحصروا في سبيل الله ﴾، بعث عبد الرحمن بن عوف بدنانير كثيرة إلى أصحاب الصفة، وبعث عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه في جوف الليل بوسق من تمر، فأنزل الله تعالى فيهما: ﴿ الذين يُنفقون أموالهم بالليل والنهار ﴾ الآية، عني بالنهار: علانيةَ صدقةِ عبد الرحمن بن عوف، وبالليل: سرَّ صدقةِ عليّ رضي الله عنه. وقال: أبو أمامة وأبو الدرداء ومكحول والأوزاعي: نزلت في الذين يرتبطون الخيل للجهاد فإنها تُعتلف ليلاً ونهاراً سرّاً وعلانيةً. أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي، أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف، أخبرنا محمد بن إسماعيل، أخبرنا عليّ بن جعفر، أخبرنا ابن المبارك، أخبرنا طلحة بن أبي سعيد قال: سمعت سعيد المقبري يحدّث أنه سمع أبا هريرة رضي الله عنه يقول: قال النبيّ ﷺ: «مَن احتبس فرساً في سبيل الله إيماناً بالله وتصديقاً بوعده فإن شِبَعَه وَرِيَّه ورَوْثَه وبولَه في ميزانه يوم القيامة»، وقوله تعالى: ﴿ فلهم أجرهم عند ربّهم ﴾،

أصحاب الحاجات والفاقات. ﴿فلهم أجرهم عند ربهم﴾ أي جزاء أعمالهم ﴿ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ يعني في الآخرة. قوله عز وجل: .

﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾﴾

﴿الذين يأكلون الربا﴾ أي يعاملون به وإنما خص الأكل لأنه معظم الأمر المقصود من المال لأن المال لا يؤكل إنما يصرف في المأكول ثم يؤكل فمنع الله التصرف في الربا بما ذكر فيه من الوعيد (م) عن جابر قال: «لعن رسول الله ﷺ آكل الربا ومؤكله وكاتبه وشاهديه وقال: هم سواء» وأصل الربا في اللغة الزيادة يقال ربا الشيء يربو إذا زاد وكثر فالربا الزيادة في المال ﴿لا يقومون﴾ يعني من قبورهم يوم القيامة ﴿إلّا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان﴾ أي يصرعه، وأصل الخبط الضرب والوطء وهو ضرب على غير استواء يقال ناقة خبوط للتي تضرب الأرض بقوائمها وتطأ الناس بأخفافها ومنه قولهم: يخبط خبط عشواء للرجل الذي يتصرف في الأمور على غير اهتداء وتمييز وتدبر، وتخبطه الشيطان إذا مسه بخبل وجنون ﴿من المس﴾ يعني من الجنون يقال: مس الرجل فهو ممسوس إذا كان به جنون، ومعنى الآية أن آكل الربا يبعث يوم القيامة مثل المصروع الذي لا يستطيع الحركة الصحيحة لأن الربا ربا في بطونهم حتى أثقلهم فلا يقدرون على الإسراع. قال سعيد بن جبير تلك علامة آكل الربا إذا استحله يوم القيامة وروى البغوي بسند الثعلبي عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ في قصة الإسراء قال: «فانطلق بي جبريل إلى رجال كثير كل رجل بطنه مثل البيت الضخم منضدين على سابلة آل فرعون وآل فرعون

قال الأخفش: جعل جواب الخبر بالفاء، لأن الذين بمعنى ﴿ من ﴾ وجوابها بالفاء في الخبر، أو معنى الآية: مَن أنفق كذا فله أجره عند ربّه، ﴿ ولا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون ﴾.

قوله تعالى: ﴿ الذين يأكلون الرِّبا ﴾، أي: الذين يعاملون به، وإنما خصّ الأكل لأنه معظم المقصود من المال ﴿ لا يقومون ﴾، يعني: يوم القيامة من قبورهم ﴿ إلّا كما يقومُ الذي يتخبَّطُه ﴾، أي يصرعه ﴿ الشيطان ﴾، أصل الخبط: الضرب والوطء وهو ضرب على غير استواء، يقال: ناقة خبوط للتي تطأ الناس وتضرب الأرض بقوائمها، ﴿ مِنَ المَسِّ ﴾، أي: الجنون، يقال: مُسّ الرجلُ فهو ممسوس إذا كان مجنوناً، ومعناه: أن آكل الربا يُبعث يوم القيامة كمثل المصروع. أخبرنا أبو سعيد أحمد بن إبراهيم الشريحي، أخبرنا أبو إسحق الثعلبي، أخبرنا عبد الله بن حامد، أخبرنا أحمد بن محمد بن يوسف، أخبرنا عبد الله بن يحيىٰ، أخبرنا يعقوب بن سفيان أخبرنا إسماعيل بن سالم، أخبرنا عباد بن عباد، عن أبي هارون العبدي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ في قصة الإسراء، قال: «فانطلق بي جبريل عليه السلام إلى رجال كثير كل رجل منهم بطنه مثل البيت الضخم منضّدين على سَابلة آل فرعون، وآل فرعون يُعرضون على النار غُدواً وعشياً، قال: فيُقبلون مثل الإبل المنهومة يخبطون الحجارة والشجرة لا يسمعون ولا يعقلون، فإذا أحسّ بهم أصحاب تلك البطون قاموا، فتميل بهم بطونهم فيُصرعون، ثم يقوم أحدهم فيميل به بطنُه فيصرع، فلا يستطيعون أن يبرحوا حتى يغشاهم آل فرعون فيَردّوهم مُقبلين ومُدبرين فذلك عذابهم في البرزخ بين الدنيا والآخرة، قال: وآل فرعون يقولون: اللّهم لا تقم الساعة أبداً، قال: يوم القيامة يُقال ادخلوا آل فرعون أشدّ العذاب، قلت: يا جبريل مَن هؤلاء؟ قال: هؤلاء

يعرضون على النار غدواً وعشياً قال فيقبلون مثل الإبل المنهومة يخبطون الحجارة والشجر لا يسمعون ولا يعقلون فإذا أحس بهم أصحاب تلك البطون قاموا فتميل بهم بطونهم فيصرعون ثم يقوم أحدهم فيميل به بطنه فيصرع فلا يستطيعون أن يبرحوا حتى يغشاهم آل فرعون فيردوهم مقبلين ومدبرين فذلك عذابهم في البرزخ بين الدنيا والآخرة، قال: وآل فرعون يقولون: اللهم لا تقم الساعة أبداً. قال: ويوم القيامة يقول أدخلوا آل فرعون أشد العذاب قلت: يا جبريل من هؤلاء؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون الربا لا يقومون إلاّ كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس». قوله: بطنه مثل البيت الضخم أي العظيم الكبير الغليظ، وقوله: منضدين أي موضوعين بعضهم على بعض والسابلة الطريق، وقوله مثل الإبل المنهومة، النهم بالتحريك إفراط في الشهوة بالطعام من الجوع. قوله عز وجل: ﴿**ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا**﴾ أي ذلك الذي نزل بهم من العذاب بقولهم هذا واستحلالهم إياه وذلك أن أهل الجاهلية كان أحدهم إذا حل ماله على غريمه يطالبه به فيقول الغريم لصاحب الحق زدني في الأجل حتى أزيدك في المال فيفعلان ذلك وكانوا يقولون: سواء علينا الزيادة في أول البيع بالربح أو عند المحل لأجل التأخير فكذبهم الله تعالى. ورد عليهم ذلك بقوله: ﴿**وأحل الله البيع وحرم الربا**﴾ يعني وأحل الله لكم الأرباح في التجارة بالبيع والشراء وحرم الربا الذي هو زيادة في المال لأجل تأخير الأجل وذلك لأن الله تعالى خلق الخلق فهم عبيده وهو مالكهم يحكم فيهم بما يشاء ويستعبدهم بما يريد ليس لأحد أن يعترض عليه في شيء مما حل أو حرم، وإنما على كافة الخلق الطاعة والتسليم لحكمه وأمره ونهيه. وذكر بعض العلماء الفرق بين البيع والربا فقال إذا باع ثوباً يساوي عشرة بعشرين فقد جعل ذات الثوب مقابلاً للعشرين فلما حصل التراضي على هذا التقابل صار كل واحد منهما مقابلاً للآخر في المالية عندهما فلم يكن أخذ من صاحبه شيئاً بغير عوض، أما إذا باع عشرة دراهم بعشرين فقد أخذ العشرة الزائدة بغير عوض ولا يمكن أن يقال: إن العوض هو الإمهال في مدة الأجل لأن الإمهال ليس مالاً أو شيئاً يشار إليه حتى يجعله عوضاً عن العشرة الزائدة فقد ظهر الفرق بين الصورتين.

فصل: في حكم الربا وفيه مسائل

المسألة الأولى: ذكروا في سبب تحريم الربا وجوهاً: أحدها: أن الربا يقتضي أخذ مال الغير بغير عوض،

﴿ **الذين يأكلون الربا لا يقومون إلاّ كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المسّ** ﴾ قوله تعالى: ﴿ **ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا** ﴾، أي: ذلك الذي نزل بهم لقولهم هذا واستحلالهم إياه وذلك أن أهل الجاهلية كان أحدهم إذا حلّ ماله على غريمه فطالبه فيقول الغريم لصاحب الحق: زدني في الأجل حتى أزيدك في المال، فيفعلان ذلك ويقولون: سواء علينا الزيادة في أول البيع بالربح أو عند المحل لأجل التأخير، فكذّبهم الله تعالى وقال: ﴿ **وأحلّ الله البيع وحرّم الربا** ﴾، واعلم أن الربا في اللغة، الزيادة، قال الله تعالى: ﴿ **وما آتيتم منْ رباً لِيَرْبُوَ في أموال الناس** ﴾ [الروم: ٣٩] أي: ليكثر فلا يربو عند الله، فطلب الزيادة بطريق التجارة غير حرام في الجملة، إنما المحرّم زيادة على صفة مخصوصة في مال مخصوص بيّنه رسول الله ﷺ فيما أخبرنا أبو الحسن عبد الوهاب بن محمد الخطيب، أخبرنا عبد العزيز بن أحمد الخلال، أخبرنا أبو العباس الأصم أخبرنا الربيع، أخبرنا الشافعي، أخبرنا عبد الوهاب، عن أيوب بن أبي تميمة عن محمد بن سيرين، عن مسلم بن يسار ورجل آخر، عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا تبيعوا الذهب بالذهب، ولا الوَرِق بالوَرِق، ولا البُرّ بالبُرّ، ولا الشعير بالشعير، ولا التمر بالتمر، ولا الملح بالملح، إلا سواءً بسواء عيناً بعين يداً بيد، ولكن بيعوا الذهب بالوَرِق والوَرِق بالذهب، والبُرّ بالشعير، والشعير بالبُرّ، والتمر يداً بيد كيف شئتم نقص أحدهما الملح أو التمر أو زاد

لأن من يبيع درهماً بدرهمين نقداً كان أو نسيئة فقد حصل له زيادة درهم من غير عوض فهو حرام. الوجه الثاني: إنما حرم عقد الربا لأنه يمنع الناس من الاشتغال بالتجارة لأن صاحب الدراهم إذا تمكن من عقد الربا خف عليه تحصيل الزيادة من غير تعب ولا مشقة، فيقضي ذلك إلى انقطاع منافع الناس بالتجارات وطلب الأرباح. الوجه الثالث: أن الربا هو سبب إلى انقطاع المعروف بين الناس من القرض، فلما حرم الربا طابت النفوس بقرض الدراهم للمحتاج واسترجاع مثله لطلب الأجر من الله تعالى. الوجه الرابع: أن تحريم الربا قد ثبت بالنص ولا يجب أن يكون حكم جميع التكاليف معلومة للخلق فوجب القطع بتحريم الربا وإن كنا لا نعلم وجه الحكمة في ذلك.

المسألة الثانية: اعلم أن الربا في اللغة هو الزيادة، وطلب الزيادة بطريق التجارة غير حرام فثبت أن الزيادة المحرمة هو الربا وهو على صفة مخصوصة في مال مخصوص بينه رسول الله ﷺ (ق) عن عمر بن الخطاب قال قال رسول الله ﷺ: «الذهب بالورق رباً إلاّ هاء وهاء والبر بالبر رباً إلاّ هاء وهاء والشعير بالشعير رباً إلاّ هاء وهاء والتمر بالتمر رباً إلاّ هاء وهاء». وفي رواية: «الورق بالورق رباً إلاّ هاء وهاء والذهب بالذهب رباً إلاّ هاء وهاء» (م) عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «الذهب بالذهب وزناً بوزن مثلاً بمثل والفضة بالفضة وزناً بوزن مثلاً بمثل فمن زاد واستزاد فقد أربى» وفي رواية: «التمر بالتمر والحنطة بالحنطة والشعير بالشعير والملح بالملح مثلاً بمثل يداً بيد، فمن زاد واستزاد فقد أربى إلاّ ما اختلفت ألوانه. (م) عن عبادة بن الصامت قال قال رسول الله ﷺ: «الذهب بالذهب والفضة بالفضة والبر وبالبر والشعير بالشعير والتمر بالتمر والملح بالملح مثلاً بمثل سواء بسواء يداً بيد، فإذا اختلفت هذه الأصناف فبيعوا كيف شئتم إذا كان يداً بيد» فنص رسول الله ﷺ على جريان الربا في هذه الستة أشياء وهي النقدان وأربعة أصناف من المطعومات وهي البر والشعير والتمر والملح، فذهب عامة أهل العلم إلى أن حكم الربا ثبت في هذه الأشياء لأوصاف فيها، فيعتدي إلى كل ما يوجد من تلك الأصناف فيه ثم اختلفوا في تلك الأوصاف فذهب قوم إلى أن المعنى في جميعها هو واحد وهو النفع فأثبتوا الربا

أحدهما، ومَن زاد أو استزاد فقدْ أرْبَى»، وروى هذا الحديث مطرف عن محمد بن سيرين عن مسلم بن يسار وعبد الله بن عتيك عن عبادة، فالنبيّ ﷺ نصّ على ستّة أشياء، وذهب عامّة أهل العلم إلى أن حكم الربا يثبت في هذه الأشياء الست بالأوصاف فيها فيتعدى إلى كل مال توجد فيه تلك الأوصاف، ثم اختلفوا في تلك الأوصاف، فذهب قوم إلى أن المعنى في جميعها واحد وهو النفع، وأثبتوا الربا في جميع الأموال وذهب الأكثرون إلى أن الربا يثبت في الدراهم والدنانير بوصف، وفي الأشياء المطعومة بوصف آخر، واختلفوا في ذلك الوصف، فقال قوم: ثبت في الدراهم والدنانير بوصف النقدية، وهو قول مالك والشافعي، وقال قوم: ثبت بعلّة الوزن، وهو قول أصحاب الرأي، وأثبتوا الربا في جميع الموزونات مثل الحديد والنحاس والقطن ونحوها، وأما الأشياء الأربعة فذهب قوم إلى أن الربا ثبت فيها بعلّة الكيل، وهو قول أصحاب الرأي، وأثبتوا الربا في جميع المكيلات مطعوماً كان أو غير مطعوم كالجَصّ والنُّورة ونحوهما، وذهب جماعة إلى أن العلّة فيها الطعم مع الكيل والوزن، فكل مطعوم وهو مكيل أو موزون يثبت فيه الربا، ولا يثبت فيما ليس بمكيل ولا موزون، وهو قول سعيد بن المسيب وقاله الشافعي رحمه الله في القديم، وقال في الجديد: يثبت فيها الربا بوصف الطعم، وأثبت الربا في جميع الأشياء المطعومة من الثمار والفواكه والبقول والأدوية مكيلة كانت أو موزونة، لِما رُوِيَ عن معمر بن عبد الله قال: كنت أسمع رسول الله ﷺ يقول: «الطعام بالطعام مثلاً بمثل»، فجملة مال الربا عند الشافعي ما كان ثماراً أو مطعوماً، والربا نوعان ربا الفضل وربا النَّسَاء، فإذا باع مال الربا بجنسه مثلاً بمثل بأن باع أحد النقدين بجنسه، أو باع مطعوماً

في جميع الأموال وذهب الأكثرون إلى أن الربا يثبت في الدراهم والدنانير بوصف وفي الأشياء المطعومة بوصف آخر، واختلفوا في ذلك الوصف فذهب الشافعي ومالك إلى أنه ثبت في الدراهم والدنانير بوصف النقدية وذهب أصحاب الرأي إلى أنه ثبت بعلة الوزن فأثبتوا الربا في جميع الموزونات مثل الحديد والنحاس والقطن ونحو ذلك، وأما الأربعة أشياء المطعومة فذهب أصحاب الرأي إلى أن الربا ثبت فيها بعلة الوزن والكيل فأثبتوا الربا في جميع المكيلات والموزونات مطعوماً كان أو غير مطعوم كالجص والنورة ونحوهما، وذهب جماعة إلى أن العلة فيها الطعم مع الكيل والوزن فكل مطعوم مكيل أو موزون يثبت فيه الربا ولا يثبت فيما سوى ذلك مما ليس بمكيل أو موزون وهو قول سعيد بن المسيب والشافعي في القديم. وقال في الجديد: ثبت الربا فيها بوصف الطعم فأثبت الربا في جميع الأشياء المطعومة من الثمار والفواكهة والبقول والأدوية مكيلة كانت أو موزونة لما روي عن معمر بن عبدالله أرسل غلامه بصاع قمح فقال: بعه ثم اشتر به شعيراً، فذهب الغلام فأخذ صاعاً وزيادة بعض من صاع فلما جاء معمراً أخبره بذلك. فقال له معمر: لم فعلت ذلك انطلق فرده ولا تأخذن إلا مثلاً بمثل فإني كنت أسمع رسول الله ﷺ يقول: «الطعام بالطعام مثلاً بمثل» وكان طعامنا الشعير قيل له: فإنه ليس بمثله فقال إني أخاف أن يضارع أخرجه مسلم فجملة مال الربا عند الشافعي ما كان ثمناً أو مطعوماً.

المسألة الثالثة: الربا نوعان ربا فضل وهو الزيادة وربا نسيئة وهو الأجل، فإن باع ما يدخل فيه الربا بجنسه إن باع أحد النقدين بجنسه كالذهب بالذهب أو المطعوم بجنسه كالحنطة بالحنطة ونحو ذلك فيشترط فيه التماثل والمساواة بمعيار الشرع فإن كان موزوناً كالدراهم والدنانير فيشترط فيه المساواة في الوزن وإن كان مكيلاً كالحنطة والشعير يشترط في بيعه بجنسه المساواة في الكيل، ويشترط التقابض في مجلس العقد فإن باع ما يدخل فيه الربا بغير جنسه ينظر فإن باع بما لا يوافقه في وصف الربا مثل إن باع مطعوماً بأحد النقدين فلا ربا فيه كما لو باعه بغير مال الربا فإن باعه بما لا يوافقه في الوصف لا في الجنس مثل أن باع الدراهم بالدنانير أو باع الحنطة بالشعير أو كان مطعوماً بمطعوم آخر من غير جنسه فلا يثبت فيه ربا التفاضل فيجوز بيعه متفاضلاً ويثبت فيه ربا النسيئة فيشترط في بيعه التقابض في المجلس لقوله ﷺ «إلاّ يداً بيد». وقوله «هاء وهاء» ففيه اشتراط التقابض في المجلس

بجنسه، كالحنطة بالحنطة ونحوها يثبت فيه كِلا نوعي الربا، حتى لا يجوز إلاّ متساويين في معيار الشرع، فإن كان موزوناً كالدراهم والدنانير فيشترط المساواة في الوزن، وإن كان مكيلاً كالحنطة والشعير بِيْعَ بجنسه، فيشترط المساواة في الكيل ويشترط التقابض في مجلس العقد، وإذا باع مال الربا بغير جنسه نُظر إن باع بما لا يوافقه في وصف الربا مثل: إن باع مطعوماً بأحد النقدين فلا رِبا فيه، كما لو باعه بغير مال الربا، وإن باعه بما يوافقه في الوصف مثل: إن باع الدراهم بالدنانير أو باع الحنطة بالشعير أو باع مطعوماً بمطعوم آخر من غير جنسه فلا يثبت فيه ربا الفضل حتى يجوز متفاضلاً أو جزافاً وثبت فيه ربا النسأ حتى يشترط التقابض في المجلس، وقول النبيّ ﷺ: «لا تبيعوا الذهب بالذهب»، إلى أن قال: «إلاّ سواء بسواء» فيه إيجاب المماثلة وتحريم الفضل عند اتفاق الجنس، وقوله: «عيناً بعين» فيه تحريم النسأ، وقوله: «يداً بيد كيف شئتم» فيه إطلاق التفاضل عند اختلاف الجنس مع إيجاب التقابض في المجلس، هذا في ربا المبايعة ومَن أقرض شيئاً بشرط أن يَردَّ عليه أفضل، فهو قرض منفعة، وكل قرض جر منفعةً فهو ربا. قوله تعالى: ﴿ فمَن جاءه موعظةٌ منْ ربّه ﴾: تذكير وتخويف، وإنما ذكر الفعل ردّاً إلى الوعظ، ﴿ فانتهى ﴾، عن أكل الربا، ﴿ فله ما سَلفَ ﴾، أي: ما مضى من ذنبه، قبل النهي مغفور له، ﴿ وأمره إلى الله ﴾، بعد النهي إن شاء عصمه حيث يثبت على الانتهاء، وإن شاء خذله حتى يعود، وقيل: أمْرُهُ إلى الله فيما يأمره وينهاه ويحلّ له ويحرّم عليه، وليس إليه من أمر نفسه شيء، ﴿ ومَن عاد ﴾، بعد التحريم إلى أكل الربا مستحلاً له،

وتحريم النسيئة وقوله ﷺ: «إلاّ سواء بسواء مثلاً بمثل» ففيه إيجاب المماثلة وتحريم التفاضل عند اتفاق الجنس وقوله ﷺ: «فإذا اختلفت هذه الأصناف فبيعوا كيف شئتم» ففيه إطلاق التبايع مع التفاضل عند اختلاف الجنس مع اشتراط التقابل في المجلس وهو قوله ﷺ: «إذا كان يداً بيد» والله أعلم.

المسألة الرابعة: في القرض وهو من أقرض شيئاً وشرط أن يرد عليه أفضل منه فهو قرض جر منفعة وكل قرض جر منفعة فهو ربا يدل عليه ما روي عن مالك قال: بلغني أن رجلاً أتى ابن عمر فقال إني أسلفت رجلاً سلفاً واشترطت عليه أفضل مما أسلفته، فقال عبدالله بن عمر: فذلك الربا أخرجه مالك في الموطأ. قال فإن لم يشترط فضلاً في وقت القرض فرد المستقرض أفضل مما أخذ جاز. ويدل على ذلك ما روي عن مجاهد أن ابن عمر استلف دراهم فقضى صاحبها خيراً منها فأبى أن يأخذها وقال هذه خير من دراهمي. فقال ابن عمر: قد علمت ولكن نفسي بذلك طيبة أخرجه مالك في الموطأ. وقوله تعالى: ﴿**فمن جاءه موعظة من ربه**﴾ أي تذكير وتخويف وإنما ذكر الفعل لأن تأنيثه غير حقيقي فجاز تذكيره وذلك لأن الوعظ والموعظة شيء واحد ﴿**فانتهى**﴾ أي عن أكل الربا ﴿**فله ما سلف**﴾ أي ما مضى من ذنبه قبل النهي مغفور له ﴿**وأمره إلى الله**﴾ يعني بعد النهي إن شاء عصمه حتى يثبت على الانتهاء وإن شاء خذله حتى يعود إلى أكل الربا وقيل معناه وأمره إلى الله فيما يأمره وينهاه ويحل له ويحرم عليه وليس إليه من أمر نفسه شيء. وقيل: إن الآية فيمن يعتقد تحريم أكل الربا ثم يأكله فأمره إلى الله تعالى إن شاء عفا عنه وإن شاء عذبه ﴿**ومن عاد**﴾ يعني إلى أكل الربا بعد التحريم مستحلاً له ﴿**فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون**﴾.

﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ٢٧٦﴾

قوله عز وجل: ﴿**يمحق الله الربا**﴾ أي ينقصه ويهلكه ويذهب ببركته قال ابن عباس لا يقبل الله منه صدقة ولا حجاً ولا جهاداً ولا صلة ﴿**ويربي الصدقات**﴾ أي يزيدها ويثمرها ويبارك فيها في الدنيا ويضاعف أجرها في الآخرة. (ق) عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما تصدق أحد بصدقة من كسب طيب ولا يقبل الله الطيب إلاّ أخذها الرحمن بيمينه وإن كانت تمرة فتربو في كف الرحمن حتى تكون أعظم من الجبل كما يربي أحدكم فلوه

﴿ **فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون** ﴾، أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي، أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف، أخبرنا محمد بن إسماعيل، أخبرنا محمد بن المثنى، حدّثني غندر أخبرنا شعبة عن عوف بن أبي جحيفة عن أبيه أنه قال: «**إن النبي ﷺ نهى عن ثمن الدم، وثمن الكلب، وكسْبِ البغي، ولعن آكل الربا ومُؤكله، والواشمة والمستوشمة، والمصوّر**». أخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر الجرجاني، أخبرنا الغافر بن محمد الفارسي، أخبرنا محمد بن عيسى الجلودي، أخبرنا إبراهيم بن محمد بن سفيان، أخبرنا مسلم بن الحجّاج، أخبرنا زاهر بن حرب أخبرنا هشيم، أخبرنا أبو الزبير عن جابر رضي الله عنه قال: «**لعن رسول الله ﷺ آكلَ الربا ومُؤكِلَه وكاتبَه وشاهدَيه، وقال: هم سواء**». أخبرنا أبو سعيد الشريحي، أخبرنا أبو إسحق الثعلبي، أنا أبو محمد المخلدي أنا أبو حامد بن الشرقي أخبرنا أحمد بن يوسف السلمي، أخبرنا النضر بن محمد، أخبرنا عكرمة بن عمّار، أخبرنا يحيىٰ هو ابن كثير قال: حدّثني أبو سلمة عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**الربا سبعون باباً أهونها عند الله عزّ وجلّ كالذي ينكح أمه**».

قوله تعالى: ﴿ **يمحق الله الربا** ﴾، أي: ينقصه ويهلكه ويذهب ببركته، وقال الضحّاك عن ابن عباس رضي الله عنهما: يمحق الله الربا. يعني: لا يقبل منه صدقةً ولا جهاداً ولا حجّاً ولا صِلةً، ﴿ **ويُربي الصدقات** ﴾، أي:

أو فصيله» لفظ مسلم والبخاري «من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب ولا يصعد إلى الله. وفي رواية ولا يقبل الله إلاّ الطيب فإن الله يقبلها بيمينه ثم يربيها لصاحبها كما يربي أحدكم فلوه حتى تكون مثل الجبل». ﴿**والله لا يحب كل كفار**﴾ يعني كل مصر على كفره مقيم عليه مستحل لأكل الربا ﴿**أثيم**﴾ يعني متمادياً في الإثم وفيه نهي عنه وأن من أكل الربا لا ينزجر عنه ولا يتركه وقيل يحتمل أن يكون الكفار راجعاً إلى مستحل الربا والأثيم راجعاً إلى من يفعله مع اعتقاد التحريم فتكون الآية جامعة للفريقين. قوله عز وجل: .

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾

﴿**إن الذين آمنوا**﴾ يعني صدقوا بالله ورسوله ﴿**وعملوا الصالحات**﴾ يعني التي أمرهم الله بها ﴿**وأقاموا الصلاة**﴾ يعني المفروضة بأركانها وحدودها في أوقاتها ﴿**وآتوا الزكاة**﴾ يعني المفروضة عليهم في أموالهم ﴿**لهم أجرهم عند ربهم**﴾ أي لهم ثواب أعمالهم في الآخرة ﴿**ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون**﴾ أي يوم القيامة. قوله عز وجل: ﴿**يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا**﴾ قيل: نزلت في العباس بن عبد المطلب وعثمان بن عفان وكانا قد أسلفا في التمر فلما كانا وقت الجذاذ قال صاحب التمر لهما: إن أنتما أخذتما حقكما لم يبق لي ما يكفي عيالي فهل لكما أن تأخذا النصف وتؤخرا النصف وأضعف لكما ففعلا فلما حل الأجل طلبا منه الزيادة فبلغ ذلك النبي ﷺ فنهاهما، وأنزل الله هذه الآية فسمعا وأطاعا وأخذا رؤوس أموالهما، وقيل نزلت في العباس وخالد بن الوليد وكانا شريكين في الجاهلية يسلفان في الربا إلى بني عمرو بن عمير ناس من ثقيف فجاء الإسلام ولهما أموال عظيمة في الربا فأنزل الله تعالى هذه الآية وقال النبي ﷺ في حجة الوداع: فيما رواه جابر من أفراد مسلم «ألا كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع ودماء الجاهلية موضوعة، وإن أول دم أضع من دمائنا دم ابن ربيعة بن الحارث كان مسترضعاً في بني سعد فقتله هذيل وربا الجاهلية موضوع. وأول ربا أضع ربا

يُثمّرها ويبارك فيها في الدنيا ويضاعف بها الأجر والثواب في العقبى، ﴿ **والله لا يحبُّ كلَّ كفّار** ﴾، بتحريم الربا، ﴿ **أثيم** ﴾، فاجر بأكله.

﴿ إنَّ الذين آمنوا وعمِلُوا الصالحاتِ وأقامُوا الصلاةَ وآتَوُا الزكاةَ لهم أجرُهم عند ربِّهم ولا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون.

قوله تعالى: ﴿ يا أيّها الذين آمنوا اتّقوا الله وذُروا ما بقي من الربا ﴾ قال عطاء وعكرمة: نزلت في العباس بن عبد المطّلب وعثمان بن عفّان رضي الله عنهما، وكانا قد أسلفا في التمر، فلما حضر الجذّاذ قال لهما صاحب التمر: إن أنتما أخذتما حقّكما لا يبقى لي ما يكفي عيالي، فهل لكما أن تأخذا النصف وتُؤخّرا النصف وأُضعف لكما ففعلا، فلما حلّ الأجل طلبا الزيادة فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فنهاهما، فأنزل الله تعالى هذه الآية فسمعَا وأطاعا وأخذا رُؤوسَ أموالهما. وقال السدي: نزلت في العباس وخالد بن الوليد وكانا شريكين في الجاهلية يُسْلِفَان في الربا إلى بني عمرو بن عمير، ناس من ثقيف، فجاء الإسلام ولهما أموال عظيمة في الربا، فأنزل تعالى هذه الآية فقال النبي ﷺ في حَجّة الوداع في خطبته يوم عَرَفَة: «ألا كلُّ شيءٍ من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع ودماء الجاهلية موضوعة، وإن أول دم أضع من دمائنا دم ابن ربيعة بن الحارث كان مسترضعاً في بني سعد فقتله هُزيل، وربا الجاهلية موضوعة كلُّها، وأول ربا أضع ربا العباس بن عبد المطلب، فإنها موضوعةٌ كلُّها». وقال مقاتل: نزلت في أربعة أخوة من ثقيف، مسعود وعبد ياليل وحبيب وربيعة، وهم بنو عمرو بن عمير بن عوف الثقفي، كانوا

العباس بن عبدالمطلب فإنه موضوع كله» وقيل: نزلت في أربعة إخوة من ثقيف وهم: مسعود وعبد ياليل وحبيب وربيعة بن عمرو بن عميرة بن عوف الثقفي كانوا يداينون بني المغيرة بن عبدالله بن عمير بن مخزوم، وكانوا يرابون فلما ظهر النبي ﷺ على الطائف أسلم هؤلاء الإخوة بنو عمرو الثقفي وطلبوا رباهم من بني المغيرة فقال بنو المغيرة: والله ما نعطي الربا في الإسلام وقد وضعه الله تعالى عن المؤمنين فاختصموا إلى عتاب بن أسيد وكان عامل رسول الله ﷺ على مكة فكتب عتاب إلى النبي ﷺ بقضية الفريقين وكان ذلك مالاً عظيماً فأنزل الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله﴾ أي خافوا الله فيما أمركم به وانتهوا عما نهاكم عنه، وذروا أي واتركوا ما بقي من الربا والمعنى واتركوا طلب ما بقي لكم ما فضل على رؤوس أموالكم ﴿إن كنتم مؤمنين﴾ يعني إن كنتم محققين لإيمانكم قولاً وفعلاً.

﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ۚ وَأَن تَصَدَّقُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾﴾

﴿فإن لم تفعلوا﴾ أي لم تتركوا ما بقي من الربا بعد تحريمه ﴿فأذنوا﴾ قرىء بكسر الذال والمد على وزن آمنوا ومعناه: فأعلموا غيركم أنه حرب لله ورسوله وقرىء فأذنوا بفتح الذال مع القصر ومعناه فاعلموا أنتم وأيقنوا ﴿بحرب من الله ورسوله﴾. قال ابن عباس يقال لآكل الربا يوم القيامة: خذ سلاحك للحرب. قال أهل المعاني: حرب الله النار وحرب رسوله السيف واختلفوا في معنى هذه المحاربة فقيل المراد بها المبالغة في الوعيد والتهديد دون نفس الحرب، وقيل: بل المراد منه نفس الحرب وذلك أن من أصر على أكل الربا وعلم به الإمام قبض عليه وأجرى فيه حكم الله من التعزير والحبس إلى أن تظهر منه التوبة وإن كان آكل الربا ذا شوكة وصاحب عسكر حاربه الإمام كما يحارب الفئة الباغية. قال ابن عباس: من كان مقيماً على أكل الربا لا ينزع عنه فحق على إمام المسلمين أن يستتيبه فإن نزع أي تاب وإلاّ ضرب عنقه ﴿وإن تبتم﴾ أي إن تركتم أكل الربا ورجعتم عنه ﴿فلكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون﴾ يعني لا تظلمون أنتم الغريم بطلب زيادة على رأس المال. ولا تظلمون أنتم بنقصان رأس المال فلما نزلت هذه الآية قال بنو عمرو الثقفي ومن كان يعامل بالربا من غيرهم بل نتوب إلى الله

يُداينون بني المغيرة بن عبد الله بن عمير بن مخزوم، وكانوا يُرابون فلما ظهر النبي ﷺ على الطائف أسلم هؤلاء الأخوة فطلبوا رباهم من بني المغيرة، فقال بنو المغيرة: والله ما نعطي الربا في الإسلام وقد وضعه الله تعالى عن المؤمنين، فاختصموا إلى عتّاب بن أسيد، وكان عاملَ رسول الله ﷺ على مكة، فكتب عتاب بن أسيد إلى النبي ﷺ بقصة الفريقين، وكان ذلك مالاً عظيماً، فأنزل الله تعالى: ﴿ يا أيّها الذين آمنوا اتقوا الله وذَرُوا ما بقِي مِنَ الرِبا إنْ كنتم مُؤمنين ﴾.

﴿ فإنْ لم تفعلوا ﴾، أي: إذا لم تذروا ما بقي من الربا، ﴿ فأذنوا بحربٍ مِنَ اللَّهِ ورسولهِ ﴾، قرأ حمزة وعاصم برواية أبي بكر « فآذِنوا » بالمدّ، على وزن آمنوا، أي: فأعلموا غيركم أنكم حرب لله ورسوله، وأصله من الأُذن، أي: وقعوا في الأذان، وقرأ الآخرون « فأذَنوا » مقصوراً بفتح الذال، أي: فاعلموا أنتم وأيقنوا بحرب من الله ورسوله، وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما: يقال لآكل الربا يوم القيامة خُذْ سلاحك للحرب، قال أهل المعاني: حرب الله النار، وحرب رسول الله السيف، ﴿ وإن تبتم ﴾، أي: تركتم استحلال الربا ورجعتم عنه، ﴿ فلكم رُؤوس أموالكم لا تَظلِمُون ﴾، بطلبِ الزيادة ﴿ ولا تُظلَمون ﴾، بالنقصان عن رأس المال، فلما

فإنه لا يدان لنا يعني لا قوة لنا بحرب الله ورسوله ورضوا برؤوس أموالهم. فشكا بنو المغيرة العسرة ومن كان عليه دين وقالوا: أخرونا إلى أن تدرك الغلات فأبوا أن يؤخروهم فأنزل الله عز وجل: ﴿**وإن كان ذو عسرة**﴾ يعني وإن كان الذي عليه الحق من غرمائكم معسراً والعسر نقيض اليسر وهو تعذر وجدان المال، وأعسر الرجل إذا أضاق ولم يجد ما يؤديه في دينه ﴿**فنظرة**﴾ أي فإمهال وتأخير ﴿**إلى ميسرة**﴾ أي إلى زمن اليسار وهو ضد الإعسار وهو وجدان المال الذي يؤديه في دينه واختلفوا في حكم الآية وهل الإنظار مختص بالربا أم هو عام في كل دين؟ على قولين: القول الأول وهو قول ابن عباس وشريح والضحاك والسدي إن الآية في الربا. وذكر عن شريح أن رجلاً خاصم رجلاً إليه فقضى عليه وأمر بحبسه فقال رجل: كان عند شريح إنه معسر والله تعالى يقول في كتابه: ﴿**وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة**﴾ فقال شريح إنما ذاك في الربا وإن الله تعالى قال في كتابه ﴿**إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل**﴾ ولا يأمرنا الله بشيء ثم يعذبنا عليه. والقول الثاني وهو قول مجاهد وجماعة من المفسرين أن حكم الآية عام في كل دين على معسر واحتجوا بأن الله تعالى قال: ﴿**وإن كان ذو عسرة**﴾ ولم يقل ذا عسرة ليكون الحكم عاماً في جميع المعسرين ﴿**وأن تصدقوا خير لكم**﴾ يعني وإن تصدقوا على المعسر بما عليه من الدين فتتركوا رؤوس أموالكم للمعسر خير لكم، وإنما جاز هذا الحذف للعلم به لأنه قد جرى ذكر المعسرين وذكر رأس المال فعلم أن التصدق راجع إليهما ﴿**إن كنتم تعلمون**﴾ يعني أن التصدق خير لكم وأفضل لأن فيه الثناء الجميل في الدنيا والثواب الجزيل في العقبى.

فصل: في ثواب إنظار المعسر والوضع عنه وتشديد أمر الدين والأمر بقضائه:

(م) عن أبي قتادة أنه طلب غريماً له فتوارى عنه ثم وجده فقال: إني معسر قال الله قال الله قال: فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من سره أن ينجيه الله من كرب القيامة فلينفس عن معسر أو يضع عنه». (م) عن أبي اليسر قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من أنظر معسراً أو وضع عنه أظله الله في ظله يوم لا ظل إلاّ ظله». (ق) عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «كان فيمن كان قبلكم تاجر يداين الناس فإن رأى معسراً قال لفتيانه: تجاوزوا عنه

نزلت الآية قال بنو عمرو الثقفي ومَن كان يعامل بالربا من غيرهم: بل نتوب إلى الله فإنه لا يَدَانِ لَنا بحرب الله ورسوله، فرضوا برأس المال فشكا بنو المغيرة العُسرة وقالوا: أخّرونا إلى أن تُدرك الغلّات فأبوا أن يُؤخّروا، فأنزل الله تعالى:

﴿ **وإنْ كـان ذُو عُسْـرة** ﴾، يعني: وإن كان الذي عليه الدِّين مُعْسَراً، رُفع الكلام باسم كان ولم يأت لها بخبر، وذلك جائز في النكرة تقول: إن كان رجلاً صالحاً فأكرمه، وقيل: كان بمعنى وقع، وحينئذ لا يحتاج إلى خبر، قرأ أبو جعفر عُسرة بضم السين، ﴿ **فَنَظِرةٌ** ﴾ أمرٌ في صيغة الخبر، تقديره: فعليه نظرة، ﴿ **إلى مَيْسَرة** ﴾، قرأ نافع ﴿ **ميسرة** ﴾ بضم السين، وقرأ الآخرون بفتحها، وقرأ مجاهد ﴿ **ميسرة** ﴾ بضم السين مضافاً، ومعناه: اليسار والسَّعة، ﴿ **وأن تَصَدَّقوا** ﴾، أي: تتركوا رؤوسَ أموالكم إلى المُعسر، ﴿ **خيرٌ لكم إن كنتم تعلمون** ﴾، قرأ عاصم تصدقوا بتخفيف الصاد، والاخرون بتشديدها، أخبرنا الإمام أبو علي الحسين بن محمد القاضي أخبرنا أبو الطيب سهل بن محمد بن سليمان أخبرنا أبو العباس إسماعيل بن عبد الله الميكالي، أخبرنا عبد الله بن أحمد بن موسى بن عيدان الحافظ، أخبرنا أبو طاهر أحمد بن عمرو بن السرح، أخبرنا ابن وهب عن جرير بن حازم، عن أيوب عن يحيىٰ بن كثير عن عبد الله بن أبي قتادة! عن أبيه أنه كان يطلب رجلاً بحق فاختبىء منه، فقال: ما حملك على ذلك؟ قال: العُسرة، فاستحلفه على ذلك فحلف فدعا بصكّه فأعطاه إياه، وقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَن

لعل الله أن يتجاوز عنا فتجاوز الله عنه» وعن أبي موسى أن رسول الله ﷺ قال: «إن أعظم الذنوب عند الله أن يلقاه به عبد بعد الكبائر التي نهى الله عنها أن يموت رجل وعليه دين لا يدع له قضاء» أخرجه أبو داود (خ) عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «من أخذ أموال الناس يريد أداءها أدى الله عز وجل عنه، ومن أخذ أموال الناس يريد إتلافها أتلفه الله»، (ق) عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «مطل الغني ظلم، زاد في رواية وإذا أتبع أحدكم على مليء فليتبع». (ق) عن كعب بن مالك أنه تقاضى ابن أبي حدرد ديناً كان له في عهد رسول الله ﷺ في المسجد فارتفعت أصواتهما حتى سمعها رسول الله ﷺ وهو في بيته فخرج إليهما حتى كشف سجف حجرته فنادى فقال: يا كعب قلت: لبيك يا رسول الله فأشار بيده أن ضع الشطر من دينك فقال كعب: قد فعلت يا رسول الله قال قم فاقضه. (ق) عن أبي هريرة قال: «كان لرجل على رسول الله ﷺ سن من الإبل فجاء يتقاضاه فقال: أعطوه فطلبوا سنة فلم يجدوا إلاّ سناً فوقها فقال: أعطوه فقال: أوفيتني وفاك الله فقال النبي ﷺ: إن خيركم أحسنكم قضاء وفي رواية أنه أغلظ لرسول الله ﷺ حين استقضاه حتى هم به بعض أصحابه فقال: دعوه فإن لصاحب الحق مقالاً ثم أمر له بأفضل من سنه». (م) عن أبي قتادة الأنصاري عن النبي ﷺ: «أنه قام فيهم فذكر لهم أن الجهاد في سبيل الله والإيمان بالله أفضل الأعمال فقام رجل فقال: يا رسول الله أرأيت إن قتلت في سبيل الله تكفر عني خطاياي؟ فقال له رسول الله ﷺ: نعم إن قتلت في سبيل الله وأنت صابر محتسب مقبل غير مدبر ثم قال رسول الله ﷺ كيف قلت قال أرأيت إن قتلت في سبيل الله أتكفر عني خطاياي؟ فقال رسول الله ﷺ نعم وأنت صابر

أنظر مُعسراً وَوَضَعَ عنه أنجاه الله من كرْب يوم القيامة»، أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي، أخبرنا أبو منصور محمد بن سمعان، أخبرنا أبو جعفر محمد بن أحمد بن عبد الجبّار الرياني، أخبرنا حميد بن زنجويه، أخبرنا عبيد الله بن موسى، أخبرنا إسرائيل عن منصور عن ربعي عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «إن الملائكة لَتَعلّقَتْ بروح رجل كان قبلكم»، فقالوا له: هل عملت خيراً قطّ؟ قال: «لا»، قالوا: تذكر، قال: «لا إلاّ أني رجل كنت أُداين الناسَ فكنتُ آمر فتياني أن يُنظروا المُوسر ويتجاوزوا عن المعسر»، قال الله تبارك وتعالى: «تجاوزوا عنه»، أخبرنا عبد الواحد بن المليحي، أخبرنا أبو منصور السمعاني، أخبرنا أبو جعفر الزياتي، أخبرنا حميد بن زنجويه، أخبرنا أحمد بن عبد الله، أخبرنا زائدة عن عبد الملك بن عمير، عن ربعي عن أبي اليسر قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «مَن أنظر مُعْسراً أو وضع عنه أظلّه الله في ظلّه يوم لا ظلّ إلاّ ظلّه».

فصل في الدَّين وحُسن قضائه وتشديد أمره

أخبرنا عبد الواحد المليحي، أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أخبرنا أحمد بن يوسف، أخبرنا محمد بن إسماعيل، أخبرنا أبو الوليد، أخبرنا شعبة، أخبرنا سلمة بن كهيل قال: سمعت أبا سلمة بمنىً يُحدّث عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رجلاً تقاضى رسول الله ﷺ، فأغلظ له، فهمَّ به أصحابه، فقال: «دعوه فإن لصاحب الحق مقالاً، واشتروا له بعيراً فأعطوه إيّاه»، قالوا: لا نجد إلاّ أفضل من سِنّه، قال: «اشتروه فأعطوه إيّاه، فإن خياركم أحسنكم قضاءً»، أخبرنا أبو الحسن السرخسي، أخبرنا زاهر بن أحمد السرخسي أخبرنا أبو إسحق الهاشمي، أخبرنا أبو مصعب عن مالك عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «مُطْلُ الغني ظلم، فإذا أُتبع أحدُكم على مليء فليتبعْ». أخبرنا عبد الوهاب بن محمد الخطيب، أخبرنا عبد العزيز بن أحمد الخلال، أخبرنا أبو العباس الأصم، أخبرنا الربيع، أخبرنا الشافعي، أخبرنا إبراهيم بن سعيد بن إبراهيم عن أبيه عن عمر بن أبي سلمة عن أبيه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «نفس المؤمن مُعلّقة بدَيْنه حتى

محتسب مقبل غير مدبر إلاّ الدين فإن جبريل قال لي ذلك» عن محمد بن جحش قال: «كنا جلوساً عند رسول الله ﷺ فرفع رأسه إلى السماء ثم وضع يده على جبهته ثم قال: سبحان الله ماذا نزل من التشديد فسكتنا وفزعنا. فلما كان من الغد سألته يا رسول الله: ما هذا التشديد الذي نزل فقال: والذي نفسي بيده لو أن رجلاً قتل في سبيل الله ثم أحيي ثم قتل ثم أحيي وعليه دين ما دخل الجنة حتى يقضي عنه دينه» أخرجه النسائي. قوله عز وجل: .

﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (٢٨١)

﴿**واتقوا**﴾ أي وخافوا ﴿**يوماً ترجعون فيه إلى الله**﴾ قرىء بفتح التاء أي تصيرون فيه إلى الله وقرىء بضم التاء وفتح الجيم أي تردون فيه إلى الله ﴿**ثم توفى كل نفس ما كسبت**﴾ يعني من خير أو شر ﴿**وهم لا يظلمون**﴾ أي في ذلك اليوم. وفي هذه الآية وعد شديد وزجر عظيم قال ابن عباس: هذه آخر آية نزلت على رسول الله ﷺ. فقال جبريل ضعها على رأس مائتين وثمانين من سورة البقرة وعاش بعدها رسول الله ﷺ أحداً وعشرين يوماً وقيل: تسع ليال وقيل سبعاً ومات ﷺ لليلتين خلتا من ربيع الأول في يوم الاثنين سنة إحدى عشرة من الهجرة. وروى الشعبي عن ابن عباس أن آخر آية نزلت آية الربا. قوله عز وجل: .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإِن كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَن تَضِلَّ

يُقضى عنه». أخبرنا أبو الحسن السرخسي، أخبرنا زاهر بن أحمد السرخسي، أخبرنا أبو إسحق الهاشمي، أخبرنا أبو مصعب عن مالك عن يحيـىٰ بن سعيد، عن سعيد بن أبي سعيد المَقْبُري عن عبد الله بن أبي قتادة الأنصاري عن أبيه أنه جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله أرأيتَ إن قتلتُ في سبيل الله صابراً محتسباً مقبلاً غير مُدبرٍ يُكفِّر اللَّهُ عن خطاياي؟ فقال رسول الله ﷺ: «نعم»، فلما أدبرَ ناداه رسول الله ﷺ، أو أمر به، فنُودي فقال رسول الله ﷺ: «كيف قلت»؟ فأعاد عليه قوله، فقال رسول الله ﷺ: «نعم إلاّ الدَّين، كذلك قال جبريل».

قوله تعالى: ﴿ **واتقوا يوماً تُرجعون فيه إلى الله** ﴾، قرأ أهل البصرة بفتح التاء، أي: تصيرون إلى الله، وقرأ الآخرون بضم التاء وفتح الجيم، أي: تُردّون إلى الله تعالى: ﴿ **ثم توفى كلُّ نفسٍ ما كسبتْ وهم لا يظلمون** ﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما: هذه آخر آية نزلت على رسول الله ﷺ، فقال له جبريل عليه السلام: ضعها على رأس مائتين وثمانين آية من سورة البقرة، وعاش بعدها رسول الله ﷺ واحداً وعشرين يوماً، وقال ابن جريج: تسع ليالٍ، وقال سعيد بن جبير: سبع ليالٍ، ومات يوم الاثنين لليلتين خلتا من شهر ربيع الأول حين زاغت الشمس سنة إحدى عشرة من الهجرة، قال الشعبي عن ابن عباس رضي الله عنهما: آخر آية نزلت على رسول الله ﷺ آية الربا.
قوله تعالى: ﴿ **يا أيّها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى** ﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما: لمّا حرّم الله الربا أباح السَّلم، وقال أشهد أن السَّلم المضمون إلى أجل مسمى قد أحلّه الله تعالى في كتابه وأذن فيه، ثم قرأ:

إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ ۚ وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُوا۟ ۚ وَلَا تَسْـَٔمُوٓا۟ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓا۟ ۖ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا ۗ وَأَشْهِدُوٓا۟ إِذَا تَبَايَعْتُمْ ۚ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ۚ وَإِن تَفْعَلُوا۟ فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾

﴿يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين﴾ قال ابن عباس لما حرم الربا أباح السلم وقال: أشهد أن السلف المضمون إلى أجل مسمى قد أحله الله في كتابه وأذن فيه. وقوله ﴿إذا تداينتم﴾ أي تعاملتم بالدين أو داين بعضكم بعضاً والتداين تفاعل من الدين يقال داينته إذا عاملته بالدين وإنما قال بدين بعد قوله: إذا تداينتم لأن المداينة قد تطلق على المجازاة وعلى المعطاة فقيده بالدين ليعرف المراد من اللفظ ويخلص أحد المعنين من الآخر. وقيل إنما قال بدين ليرجع الضمير إليه في قوله: فاكتبوه إذ لو لم يذكر ذلك لوجب أن يقال: فاكتبوا الدين فلا يحسن النظم بذلك وقيل إنما ذكره تأكيداً ﴿إلى أجل مسمى﴾ يعني إلى مدة معلومة الأول والآخر مثل السنة والشهر ولا يجوز إلى غير مدة معلومة كما لو قال إلى الحصاد أو نحوه والأجل يلزم في الثمن في البيع وفي السلم حتى لا يكون لصاحب الحق الطلب قبل محل الأجل بخلاف القرض فإنه لا يلزم فيه الأجل عند أكثر أهل العلم. (ق) عن ابن عباس قدم رسول الله ﷺ المدينة وهم يسلفون في التمر العام والعامين فقال لهم: «من أسلف في تمر ففي كيل معلوم أو وزن معلوم إلى أجل معلوم» وقوله تعالى: ﴿فاكتبوه﴾ أي اكتبوا الدين الذي تداينتم به بيعاً كان ذلك أو سلماً أو قرضاً واختلفوا في هذه الكتابة فقيل: هي واجبة وهو مذهب عطاء وابن جريج والنخعي واختاره محمد بن جرير الطبري وقيل الأمر محمول على الندب والاستحباب فإن ترك فلا بأس وهو قول جمهور العلماء وقيل بل كانت الكتابة والإشهاد والرهن فرضاً ثم نسخ بقوله تعالى: ﴿فإن أمن بعضكم بعضاً فليؤد الذي اؤتمن أمانته﴾ وهو قول الحسن والشعبي والحكم بن عيينة ثم بين الله تعالى كيفية الكتابة فقال تعالى: ﴿وليكتب بينكم كاتب﴾ أي

﴿ يا أيّها الذين آمنوا إذا تَدَايَنتُمْ بدينٍ إلى أجلٍ مسمى ﴾ ﴿ فاكتُبوه ﴾، قوله: ﴿ إذا تداينتم ﴾ أي: تعاملتم بالدين، يقال: داينته إذا عاملته بالدين، وإنما قال بدين بعد قوله: ﴿ إذا تداينتم ﴾ لأن المُداينة قد تكون مجازاة وقد تكون معاطاة فقيّده بالدين ليعرف المراد من اللفظ، وقيل: ذكره تأكيداً ﴿ إلى أجلٍ مسمى ﴾، الأجل: مدة معلومة الأول والآخر، والأجل يلزم في الثمن والمبيع في السَّلم حتى لا يكون لصاحب الحق الطلب قبل محِله، وفي القرض لا يلزم الأجل عند أكثر أهل العلم، ﴿ فاكتبوه ﴾ أي: اكتبوا الذي تداينتم به بيعاً كان أو سَلَماً أو قرضاً، واختلفوا في هذه الكتابة فقال بعضهم: هي واجبة، والأكثرون على أنه أمرُ استحباب، فإن تُرِك فلا بأس كقوله تعالى: ﴿ فإذا قُضيتِ الصلاةُ فانتشروا في الأرض ﴾ [الجمعة: ١٠] وقال بعضهم: كانت كتابة الدين والإشهاد والرهن فرضاً ثم نسخ الكلَّ بقوله: ﴿ فإن أَمِنَ بعضُكم بعضاً فليُؤدِّ الذي اؤتُمن أمانته ﴾ [البقرة: ٢٨٣] وهو قول الشعبي، ثم بيّن كيفية الكتابة فقال جلّ ذكره: ﴿ وليكتبْ بينكم كاتبٌ بالعدل ﴾، أي: ليكتبْ كتابَ الدين بين الطالب والمطلوب كاتبٌ بالعدل، أي: بالحق من غير زيادة ولا نقصان ولا تقديم أجل ولا تأخير، ﴿ ولا يأبَ ﴾، أي لا يمتنع، ﴿ كاتبٌ أنْ يكتبَ ﴾، واختلفوا في وجوب الكتابة على الكاتب وتحمّل الشهادة على الشهادة، فذهب قوم إلى وجوبها إذا طُولب، وهو قول مجاهد، وقال الحسن: يجب إذا لم يكن كاتب غيره، وقال قوم: هو على الندب والاستحباب، وقال الضحاك: كانت غريمة واجبة على الكاتب والشاهد، فنسخها قولُه

ليكتب الدين بين الطالب والمطلوب كاتب ﴿بالعدل﴾ أي بالحق من غير زيادة ولا نقصان ولا تقديم أجل ولا تأخيره قيل إن فائدة الكتابة هي حفظ المال من الجانبين لأن صاحب الدين إذا علم أن حقه مقيد بالكتابة تعذر عليه طلب زيادة أو تقديم المطالبة قبل حلول الأجل، ومن عليه الدين إذا عرف ذلك تعذر عليه الجحود أو النقص من أصل الدين الذي عليه، فلما كانت هذه الفائدة من الكتابة أمر الله تعالى بها ﴿ولا يأب﴾ أي ولا يمتنع ﴿كاتب أن يكتب﴾ واختلفوا في وجوب الكتابة على الكاتب وتحمل الشهادة على الشاهد فقيل بوجوبهما لأن ظاهر الكلام نهى عن الامتناع من الكتابة وإيجابها على كل كتاب فإذا طولب بالكتابة وتحمل الشهادة من هو من أهلهما وجب عليه ذلك. وقيل: هو من فرض الكفاية وهو قول الشعبي فإن لم يوجد إلّا واحد وجب عليه ذلك وقيل هو على الندب والاستحباب وذلك لأن الله تعالى لما علمه الكتابة وشرفه بها استحب له أن يكتب ليقضي حاجة أخيه المسلم ويشكر تلك النعمة التي أنعم الله بها عليه وقيل: كانت الكتابة وتحمل الشهادة واجبتين على الكاتب والشاهد ثم نسخهما الله تعالى بقوله: ﴿ولا يضار كاتب ولا شهيد﴾ ﴿كما علمه الله﴾ أي كما شرعه الله وأمر به ﴿فليكتب﴾ وذلك أن يكتب بحيث لا يزيد ولا ينقص ويكتب ما يصلح أن يكون حجة عند الحاجة ولا يخص أحد الخصمين بالاحتياط له دون الآخر، وأن يكون كل واحد منهما آمناً من أبطال حقه، وأن يكون ما يكتبه متفقاً عليه عند العلماء، وأن يحترز من الألفاظ التي يقع النزاع فيها وهذه الأمور لا تحصل إلّا لمن هو فقيه عالم باللغة ومذاهب العلماء. ﴿وليملل الذي عليه الحق﴾ يعني أن المطلوب الذي عليه الحق يقر على نفسه بلسانه ليعلم ما عليه من الحق فيذكر قدره وجنسه وصفة الأجل ونحو ذلك. والإملال والإملاء لغتان فصيحتان معناهما واحد ﴿وليتق الله﴾ ربه يعني المملي ﴿ولا يبخس﴾ أي ولا ينقص ﴿منه﴾ أي من الحق الذي وجب ﴿شيئاً فإن كان الذي عليه الحق سفيهاً﴾ أي جاهلاً بالإملاء وقيل هو الطفل الصغير. وقال الشافعي: السفيه هو المبذر المفسد لماله

تعالى: ﴿ لا يُضارَّ كاتبٌ ولا شهيد ﴾، ﴿ كما علَّمه الله ﴾ أي: كما شرعه الله وأمره، ﴿ فليكتبْ وليملل الذي عليه الحق ﴾، يعني: المطلوب يُقرّ على نفسه بلسانه ليعلم ما عليه، والإملال والإملاء لغتان فصيحتان معناهما واحد جاء بهما القرآن، فالإملال هنا، والإملاء قوله تعالى: ﴿ فهي تُملى عليه بكرةً وأصيلا ﴾ [الفرقان: ٥]، ﴿ وليتقِ اللَّهَ ربَّه ﴾، يعني: المملي، ﴿ ولا يبخس منه شيئاً ﴾ أي: ولا ينقص منه أي من الحق الذي عليه شيئاً، ﴿ فإن كان الذي عليه الحقُ سفيهاً ﴾، أي: جاهلاً بالإملاء، قاله مجاهد، وقال الضحاك والسدي: طفلاً صغيراً، وقال الشافعي: السفيه المبذرُ المفسدُ لمـاله أو في دينه، قوله: ﴿ أو ضعيفاً ﴾ أي: شيخاً كبيراً، وقيل: هو ضعيف العقل لعَتهٍ أو جنون، ﴿ أو لا يستطيع أن يُملَّ هو ﴾، لخرسٍ أو عمىً أو عُجمة أو حبسٍ أو غَيبةٍ لا يمكنه حصول الكتابة أو جهل بما لَه وعليه، ﴿ فليُمْللْ وليّه ﴾ أي قَيّمُه، ﴿ بالعدل ﴾ أي: بالصدق والحق، وقال ابن عباس رضي الله عنه ومقاتل: أراد بالولي صاحبَ الحق، يعني إن عجز مَن عليه الحق من الإملال ليُمللْ وليّ الحق وصاحب الدَّين بالعدل لأنه أعلم بالحق ﴿ واستشهدوا ﴾ أي: وأشهدوا، ﴿ شهيدين ﴾ أي: شاهدين ﴿ من رجالكم ﴾ يعني: الأحرار المسلمين دون العبيد والصبيان، وهو قول أكثر أهل العلم، وأجاز شُريح وابن سيرين شهادةَ العبيد، ﴿ فإن لم يكونا رجلين ﴾ أي: لم يكن الشاهدان رجلين، ﴿ فرجلٌ وامرأتان ﴾ أي: فليشهد رجل وامرأتان، وأجمع الفقهاء على أن شهادة النساء جائزة مع الرجال في الأموال حتى يثبت برجل وامرأتين، واختلفوا في غير الأموال، فذهب جماعة إلى أنه يجوز شهادتهنّ مع الرجال في غير العقوبات، وهو قول سفيان الثّوري وأصحاب الرأي، وذهب جماعة إلى أن غير المال لا يثبت إلّا برجلين عدلين، وذهب الشافعي رحمه الله إلى أن ما يطّلع عليه النساء غالباً كالولادة والرضاع والثيوبة والبكارة ونحوها يثبت بشهادة رجل وامرأتين، وبشهادة أربع نسوة، واتفقوا

ودينه ﴿أو ضعيفاً﴾ يعني شيخاً كبيراً وقيل: هو ضعيف العقل لعته أو جنون ﴿أو لا يستطيع أن يمل هو﴾ يعني لخرس أو عمى أو عجمة في كلامه أو حبس أو غيبة لا يمكنه الحضور عند الكاتب أو يجهل بماله، وعليه فهؤلاء كلهم لا يصح إقرارهم فلا بد من أن يقوم غيرهم مقامهم وهو قوله تعالى: ﴿فليملل وليه﴾ يعني ولي كل واحد من هؤلاء الثلاثة المحجور عليهم لأنه مقامه في صحة الإقرار. وقال ابن عباس: أراد بالولي صاحب الدين يعني إن عجز الذي عليه الحق عن الإملاء فليملل صاحب الحق لأنه أعلم بحقه ﴿بالعدل﴾ أي بالصدق ﴿واستشهدوا شهيدين﴾ يعني وأشهدوا على حقوقكم شهيدين لأن المقصود من الكتابة هو الإشهاد ﴿من رجالكم﴾ يعني من أهل ملتكم يعني من المسلمين الأحرار دون العبيد والصبيان وهذا قول أكثر أهل العلم. وأجاز شريح وابن سيرين شهادة العبيد وحجة هذا القول أن قوله من رجالكم عام يتناول العبيد وغيرهم وذلك لأن عقل الإنسان ودينه وعدالته تمنعه من الكذب، فإذا اجتمعت هذه الشرائط فيه كانت شهادته معتبرة. وحجة جمهور العلماء ولا يأب الشهداء إذا ما دعوا فهذا نص يقتضي أن من تحمل شهادة وجب عليه الأداء إذا ما طولب بها والعبد ليس كذلك فإن السيد إذا لم يأذن له في ذلك حرم عليه الذهاب إلى الشهادة فوجب أن لا يكون العبد من أهل الشهادة ﴿فإن لم يكونا رجلين﴾ أي فإن لم يكن الشاهدان رجلين ﴿فرجل وامرأتان﴾ أي فليشهد رجل وامرأتان، وأجمع الفقهاء على أن شهادة النساء مع الرجال جائزة في الأموال فيثبت الحق بشهادة رجل وامرأتين واختلفوا في غير الأموال فذهب سفيان الثوري وأصحاب الرأي إلى أنه يجوز شهادة النساء مع الرجال في سائر الحقوق غير العقوبات، وذهب جماعة إلى أن غير المال لا يثبت إلّا برجلين عدلين، وذهب الشافعي إلى أن ما يطلع عليه النساء غالباً كالولادة والرضاع والكبارة والثيوبة ونحوها تجوز شهادة رجل وامرأتين أو شهادة أربع نسوة. واتفقوا على أن شهادة النساء غير جائزة ولا مقبولة في العقوبات والحدود، وقوله تعالى: ﴿ممن ترضون من الشهداء﴾ يعني من كان مرضياً عندكم في دينه وأمانته والشرائط المعتبرة في العدالة. وقبول الشهادة عشرة وهي: الإسلام والحرية والعقل والبلوغ والعدالة والمروءة، وأن لا يجر بتلك الشهادة منفعة إلى نفسه ولا يدفع عنه بها مضرة، ولا يكون معروفاً بكثرة الغلط والسهو، وأن لا يكون بينه وبين من شهد عليه عداوة فشهادة الكافر مردودة لأن الكذاب لا

على أن شهادة النساء غير جائزة في العقوبات. قوله تعالى: ﴿ ممّن تَرضون من الشهداء ﴾ يعني: مَن كان مرضياً في ديانته وأمانته. وشرائطُ قبول الشهادة سبعة: الإسلام، والحرية، والعقل، والبلوغ. والعدالة، والمروءة، وانتفاء التهمة، فشهادة الكافر مردودة، لأن المعروفين بالكذب عند الناس لا تجوز شهادتهم، فالذي يكذب على الله تعالى أولى أن يكون مردود الشهادة، وجوّز أصحاب الرأي شهادة أهل الذمّة بعضهم على بعض، ولا تقبل شهادة العبيد، وأجازها شُريح وابن سيرين، وهو قول أنس بن مالك رضي الله عنه، ولا قول للمجنون حتى يكون له شهادة، ولا يجوز شهادة الصبيان، سُئل ابن عباس رضي الله عنه عن ذلك فقال: لا يجوز لأن الله تعالى يقول: ﴿ ممّن ترضون من الشهداء ﴾، والعدالة شرط، وهي أن يكون الشاهد مجتنباً للكبائر غير مُصرٍّ على الصغائر، والمروءة شرط، وهي ما يتصل بآداب النفس مما يعلم أن تاركه قليل الحياء، وهي حسن الهيئة والسيرة والعُشرة والصناعة، فإن كان الرجل يظهر من نفسه شيئاً مما يستحي أمثالُه من إظهاره في الأغلب يعلم به قلّة مروءته، وتردّ شهادته، وانتفاء التهمة شرط حتى لا تقبل شهادة العدو على العدو، وإن كان مقبول الشهادة على غيره لأنه متّهم في حق عدوّه، ولا تقبل شهادة الرجل لولده ووالده وإن كان مقبول الشهادة عليهما، ولا يقبل شهادة مَن يجرّ إلى نفسه بشهادته نفعاً، كالوارث يشهد على رجل يقتل مورثه، أو يدفع عن نفسه بشهادته ضرراً كالمشهود عليه يشهد بجرح مَن شهد عليه لتمكّن التّهمة في شهادته، أخبرنا أبو عبد الله محمد بن الحسين المروزي، أخبرنا أبو العباس أحمد بن محمد بن

تقبل شهادته. فالذي يكذب على الله أولى بأن ترد شهادته وجوز بعض أهل الرأي شهادة أهل الذمة بعضهم على بعض ولا تقبل شهادة العبيد وأجازها ابن شريح وابن سيرين وهو قول أنس ولا قول للمجنون معتبر حتى تصح شهادته. ولا تجوز شهادة الصبيان وسئل ابن عباس عن ذلك فقال: لا تجوز لأن الله تعالى قال: ﴿**ممن ترضون من الشهداء**﴾ والعدالة شرط وهو أن لا يكون الشاهد مقيماً على الكبائر مصراً على الصغائر والمروءة شرط وهي ما تتصل بآداب النفس مما يعلم أن تاركه قليل الحياء وهي حسن الهباة والسيرة والعشرة والصناعة، فإن كان الرجل يظهر في نفسه شيئاً مما يستحيي أمثاله من إظهاره في الأغلب علم بذلك قلة مروءته وترد شهادته وانتفاء التهمة شرط فلا تقبل شهادة العدو على عدوه وإن كان مقبول الشهادة على غيره، لأنه متهم في حق عدوه لا في حق غيره ولا تقبل شهادة الرجل لولده ووالده وتقبل شهادته عليهما ولا تقبل شهادة من يجر بشهادته إلى نفسه نفعاً عن عائشة قالت قال رسول الله ﷺ: «لا تجوز شهادة خائن ولا خائنة ولا مجلود حداً ولا ذي غمر على أخيه ولا مجرب شهادة ولا القانع أهل البيت لهم ولا ظنين في ولاء ولا قرابة». قال الفزاري: القانع التابع، أخرجه الترمذي. قوله: لا تجوز شهادة خائن أراد بالخيانة الخيانة في الدين والمال والأمانة فإن من ضيع شيئاً من أوامر الله أو ارتكب شيئاً مما نهى الله عنه لا يكون عدلاً. والغمر بكسر الغين الحقد والقانع هو السائل المستطعم وقيل: المنقطع إلى قوم يخدمهم فترد شهادته للتهمة في جر النفع إلى نفسه لأن التابع لأهل البيت ينتفع بما يصير إليهم والظنين بكسر الظاء المتهم. وقوله تعالى: ﴿**أن تضل إحداهما**﴾ أي تنسى إحدى المرأتين ﴿**فتذكر إحداهما الأخرى**﴾ لأن الغالب على طباع النساء النسيان فأقيمت المرأتان مقام الرجل الواحد حتى لو نسيت إحداهما تذكرها الأخرى فتقول حضرنا مجلس كذا وسمعنا كذا فيحصل بذلك الذكرى. وحكي عن سفيان بن عيينة أنه قال هو من الذكر أي تجعل إحداهما الأخرى ذكراً والمعنى أن شهادتهما تصيرا كشهادة ذكر، والقول الأول أصح لأنه معطوف على تضل وهو النسيان. وقوله تعالى: ﴿**ولا يأب الشهداء إذا ما دعوا**﴾ يعني إذا دعوا لتحمل الشهادة وسماهم شهداء لأنهم يكونون شهداء وهذا أمر إيجاب عند بعضهم. وقال قوم: يجب إذا لم يكن غيره فإن كان غيره فهو مخير، وقيل: هو أمر ندب فهو مخير في جميع الأحوال. وقال بعضهم هذا في إقامة الشهادة وأدائها. ومعنى الآية

سراج القطّان، أخبرنا أبو أحمد محمد بن قريش بن سليمان، أخبرنا علي بن عبد العزيز الملكي أخبرنا أبو عبيد القاسم بن سلام أخبرنا مروان الفزاري، عن شيخ من أهل الحيرة يقال له يزيد بن زياد عن الزهري عن عروة عن عائشة رضي الله عنها ترفعه: «لا يجوز شهادة خائن ولا خائنة، ولا ذي غمر على أخيه ولا ظنين في ولاء ولا قرابة، ولا القانع مع أهل البيت»، قوله تعالى: ﴿ **أن تضلَّ إحداهما** ﴾، قرأ حمزة ﴿ **أن تضلّ** ﴾ بكسر الألف، ﴿ **فتذكِّر** ﴾، برفع الراء، ومعناه الجزاء والابتداء، وموضع ﴿ **تضلّ** ﴾ جزم بالجزاء، إلّا أنه لا نسق بالتضعيف ﴿ **فتذكّر** ﴾ رفع، لأن ما بعد فاء الجزاء مبتدأ، وقراءة العامّة بفتح الألف ونصب الراء على الاتصال بالكلام الأول، و﴿ **تضل** ﴾ محله نصب بأن ﴿ **فتذكّر** ﴾ منسوق عليه، ومعنى الآية فرجل وامرأتان كي تذكّر ﴿ **إحداهما الأخرى** ﴾، ومعنى تضلّ أي: تنسى، يريد إذا نسيت إحداهما شهادتها فتذكّرها الأخرى، فتقول: ألسنا حضرنا مجلس كذا وسمعنا كذا؟ قرأ ابن كثير وأهل البصرة ﴿ **فتذكر** ﴾ مخففاً، وقرأ الباقون مشدّداً (وذكر) و(اذكر) بمعنى واحد، وهما متعديان، من الذكر الذي هو ضدّ النسيان، وحُكي عن سفيان بن عُيينة أنه قال: هو من الذكرِ أي: تجعل إحداهما الأخرى ذكراً، أي: تصير شهادتهما كشهادة ذكر، والأول أصحّ لأنه معطوف على النسيان: قوله تعالى: ﴿ **ولا يأبَ الشهداءُ إذا ما دُعوا** ﴾، قيل: أراد به إذا ما دُعوا لِتحمّل الشهادة، سمّاهم شهداءَ على معنى أنهم يكونون شهداء، وهو أمر إيجاب عند بعضهم، وقال قوم: تجب الإجابة إذا لم يكن غيرهم، فإن وُجد

ولا يأب الشهداء إذا ما دعوا الأداء الشهادة التي تحملوها. وقيل: الآية في الأمرين جميعاً يعني في التحمل والأداء والإقامة إذا كان عارفاً. وقيل الشاهد بالخيار ما لم يشهد فإذا شهد وجب عليه الأداء ﴿**ولا تسأموا**﴾ أي ولا تملوا ولا تضجروا ﴿**أن تكتبوه**﴾ الضمير راجع إلى الحق أو الدين ﴿**صغيراً**﴾ كان ﴿**أو كبيراً**﴾ يعني قليلاً كان الحق أو الدين أو كثيراً ﴿**إلى أجله**﴾ يعني إلى محل الحق والدين ﴿**ذلكم**﴾ يعني ذلك الكتاب ﴿**أقسط عند الله**﴾ يعني أعدل عند الله لأنه أمر به واتباع أمره أعدل من تركه، ﴿**وأقوم للشهادة**﴾ يعني أن الكتابة تذكر الشهود ﴿**وأدنى ألا ترتابوا**﴾ يعني وأحرى وأقرب إلى أن لا تشكوا في الشهادة ﴿**إلاّ أن تكون تجارة حاضرة**﴾ أي إلاّ أن تقع تجارة حاضرة يداً بيد ﴿**تديرونها بينكم**﴾ أي فيما بينكم ليس فيها أجل ﴿**فليس عليكم جناح**﴾ أي لا ضرر عليكم ﴿**أن لا تكتبوها**﴾ يعني التجارة الحاضرة، والتجارة تقليب الأموال وتصريفها لطلب النماء والزيادة بالأرباح، وإنما رخص الله تعالى في الكتابة والإشهاد في هذا النوع من التجارة لكثرة ما يجري بين الناس، فلو كلفوا فيها الكتابة والإشهاد لشق ذلك عليهم، ولأنه إذا أخذ كل واحد من المتبايعين حقه من صاحبه في ذلك المجلس لم يكن هناك خوف التجاحد فلا حاجة إلى الكتابة والإشهاد ﴿**وأشهدوا إذا تبايعتم**﴾ يعني فيما جرت العادة بالإشهاد فيه. واختلفوا في هذا الأمر فقيل هو للوجوب فيجب أن يشهد في صغير الحق وكبيره ونقده ونسيئته وقيل: هو أمر ندب واستحباب وهو قول الجمهور. وقيل إنه منسوخ بقوله: ﴿**فإن أمن بعضكم بعضاً فليؤد الذي ائتمن أمانته**﴾. وقوله تعالى: ﴿**ولا يضار كاتب ولا شهيد**﴾ هذا نهي عن المضارة وأصله يضارر بكسر الراء الأولى ومعناه لا يضار الكاتب فيأبى أن يكتب والشاهد فيأبى أن يشهد أو يضار الكاتب فيزيد أو ينقص أو يحرف ما أملي عليه فيضر صاحب الحق أو من عليه الحق، وكذلك الشاهد وقيل: أصله يضارر بفتح الراء الأولى ومعناه أن يدعو الرجل الكاتب والشاهد وهما

غيرهم فهم مخيّرون، وهو قول الحسن، وقال قوم: هو أمر ندب وهو مخيّر في جميع الأحوال وقال بعضهم؛ هذا في إقامة الشهادة وأدائها، فمعنى الآية: ولا يأبَ الشهداءُ إذا ما دعوا لأداء الشهادة التي تحمّلوها، وهو قول مجاهد وعطاء وعكرمة وسعيد بن جبير، وقال الشعبي: الشاهد بالخيار ما لم يُشهدْ، وقال الحسن: الآية في الأمر جميعاً في التحمّل والإقامة إذا كان فازعاً ﴿ **ولا تَسْأَمُوا** ﴾ أي: ولا تملّوا ﴿ **أن تكتبوه** ﴾، الهاء راجعة إلى الحق، ﴿ **صغيراً** ﴾ كان الحق، ﴿ **أو كبيراً** ﴾، قليلاً كان أو كثيراً، ﴿ **إلى أجله** ﴾، إلى محل الحق، ﴿ **ذلكم** ﴾أي: الكتاب، ﴿ **أقسط** ﴾، أعدل ﴿ **عند الله** ﴾، لأنه أمر به، واتّباع أمره أعدل من تركه، ﴿ **وأقوم للشهادة** ﴾، لأن الكتابة تُذكّر الشهود، ﴿ **وأدنى** ﴾ وأحرى وأقرب إلى، ﴿ **ألاّ ترتابوا** ﴾ تشكّوا في الشهادة، ﴿ **إلاّ أنْ تكونَ تجارةً حاضرةً** ﴾، قرأها عاصم بالنصب على خبر كان وأضمر الاسم مجازاً إلاّ أن تكون التجارة تجارةً أو المبايعة تجارةً، وقرأهما الباقون بالرفع، وله وجهان، أحدهما: أن يجعل الكون بمعنى الوقوع، معناه: إلاّ أن تقع تجارة، والثاني: أن يجعل الاسم في التجارة والخبر في الفعل، وهو قوله: ﴿ **تُديرونها بينكم** ﴾ تقديره: إلاّ أن تكون تجارة حاضرة دائرة بينكم، ومعنى الآية: إلاّ أن تكون تجارة حاضرة يداً بيدٍ تُديرونها بينكم ليس فيها أجل، ﴿ **فليسَ عليكم جُناحٌ أنْ لا تكتُبُوها** ﴾، يعني: التجارة. ﴿ **وأشهدوا إذا تبايعتم** ﴾، قال الضحاك: هو عزم من الله تعالى، والإشهاد واجب في صغير الحق وكبيره ونَقْدِهِ ونَسيئِهِ، وقال أبو سعيد الخدري رضي الله عنه: الأمر فيه إلى الأمانة كقوله تعالى: ﴿ **فإنْ أمِنَ بعضُكم بعضاً** ﴾ [البقرة: ٢٣٨]، الآية، وقال الآخرون: هو أمرُ ندب. قوله تعالى: ﴿ **ولا يُضارّ كاتبٌ ولا شهيد** ﴾، هذا نهي للغائب، وأصله: يضارر، فأدغمتْ إحدى الرائين في الأخرى ونُصبت، لحق التضعيف لالتقاء الساكنين، واختلفوا فيه، فمنهم مَن قال: أصله يضارر بكسر الراء الأولى، وجعل الفعل للكاتب والشهيد، معناه: لا يُضارر الكاتب فيأبى أن يكتب ولا الشهيد فيأبى أن يشهد، ولا يضارّ الكاتب فيزيد أو ينقص أو يحرّف ما أُملي

مشغولان فيقولان نحن على شغل مهم فاطلب غيرنا فيقول الداعي: إن الله أمركما أن تجيبا إذا دعيتما ويلح عليهما فيشغلهما عن حاجتهما فنهى عن مضارتهما، وأمر أن يطلب غيرهما ﴿وإن تفعلوا﴾ يعني ما نهيتم عنه من الضرار ﴿فإنه فسوق بكم﴾ أي معصية وخروج عن الأمر. ﴿واتقوا الله﴾ أي خافوا الله واحذروه فيما نهاكم عنه من المضارة وغيرها ﴿ويعلمكم الله﴾ يعني ما يكون إرشاداً لكم في أمر الدنيا، كما يعلمكم ما يكون إرشاداً لكم في أمر الدين ﴿والله بكل شيء عليم﴾ يعني أن الله تعالى عليم بجميع مصالح عباده لا يخفى عليه شيء من ذلك. قوله عز وجل:

﴿وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا۟ كَاتِبًا فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ ۖ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ ۗ وَلَا تَكْتُمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٣﴾﴾

﴿وإن كنتم على سفر﴾ أي في سفر ﴿ولم تجدوا كاتباً﴾ يعني ولم تجدوا آلات الكتابة ﴿فرهن﴾ جمع رهن وقرىء فرهان ﴿مقبوضة﴾ يعني فارتهنوا ممن تدينونه رهوناً مقبوضة لتكون وثيقة لكم بأموالكم، وأصل الرهن الدوام يقال: رهن الشيء إذا دام وثبت، والرهن ما وضع عند الإنسان مما ينوب مناب ما أخذ منه ديناً. فإن قلت: لم شرط الارتهان في السفر مع عدم الكاتب ولا يختص به سفر دون حضر وقد صح أن رسول الله ﷺ رهن درعه عند أبي الشحم اليهودي على طعام أخذه إلى أجل، ولم يكن ذلك في سفر ولا عند عدم كاتب. قلت ليس الغرض تجويز الارتهان في السفر خاصة دون الحضر، ولكن لما كان السفر مظنة لإعواز الكاتب. والإشهاد أمر الله تعالى به على سبيل الإرشاد إلى حفظ الأموال لمن كان على سفر بأن يقيم التوثيق بالارتهان مقام الكتابة والإشهاد. واتفق العلماء على جواز الرهن في الحضر والسفر جميعاً ومع وجود الكاتب وعدمه. وقال مجاهد: لا يجوز إلاّ في السفر عند عدم الكاتب لظاهر الآية وأجاب الجمهور عن ظاهر الآية أن الكلام إنما خرج على الأغلب لا على سبيل الشرط. واتفق العلماء على أن الرهن لا يتم إلاّ بالقبض وهو قوله تعالى: ﴿فرهن مقبوضة﴾ يعني ارتهنوا واقبضوا، لأن المقصود من الرهن هو استيثاق جانب صاحب الحق وذلك لا يتم إلاّ بالقبض فلو رهن ولم يسلم لم يجبر الراهن على التسليم، فإذا سلم الرهن لزم من جهته حتى لا يجوز له أن يسترجعه ما دام شيء من الحق باقياً قوله

عليه ولا الشهيد فيشهد بما لم يستشهد عليه وهذا قول طاوس والحسن وقتادة، وقال قوم: أصله يضارَّ بفتح الراء على الفعل المجهول، وجعلوا الكاتب والشهيد مفعولين، ومعناه: أن يدعو الرجل الكاتب أو الشاهد وهما على شغل مهم فيقولان نحن على شغل مهم فاطلب غيرنا، فيقول الداعي إن الله أمركُما أن تُجيبا ويَلِحّ عليهما فيشغلهما عن حاجتهما فنهى عن ذلك، وأمر بطلب غيرهما، ﴿ وإن تفعلوا ﴾ ما نهيتكم عنه من الضرار، ﴿ فإنه فُسوق بكم ﴾ أي: معصية وخروج عن الأمر، ﴿ واتقوا الله ويُعلمكم الله والله بكل شيء عليم ﴾.

﴿ وإنْ كنتم على سفرٍ ولم تجدوا كاتباً فرهانٌ مقبوضة ﴾، قرأ ابن كثير وأبو عمرو ﴿ فرهان ﴾ بضم الهاء والراء وقرأ الباقون ﴿ فرهان ﴾ وهو جمع: رهن، مثل: بغل وبغال وجبل وجبال، والرهن جمع الرهان: جمع الجمع، قاله الفرّاء والكسائي، وقال أبو عبيدة وغيره: هو جمع الرهن أيضاً مثل: سقف وسُقف، وقال أبو عمرو: وإنما قرأنا (فـرهن) ليكون فرقاً بينهما وبين رهان الخيل، وقال عكرمة: رُهْنٌ بضمّ الراء وسكون الهاء، والتخفيف والتثقيل في الرهن لغتان، مثل: كَتْبٌ وكُتبٌ ورَسْلٌ ورُسُل، ومعنى الآية: وإن كنتم على سفر ولم تجدوا كاتباً الآن فارتهنوا ممّن تداينونه رُهوناً لتكون وثيقة بأموالكم، واتفقوا على أن الرهن لا يتمّ إلاّ بالقبض، وقوله: فرهن مقبوضة، أي ارتهنوا واقبضوا حتى لو رهن ولم يسلّم فلا يجبر الراهن على التسليم، فإذا سلّم لزم من

تعالى: ﴿فإن أمن بعضكم بعضاً﴾ يعني فإن كان الذي عليه الحق أميناً عند صاحب الحق ولم يرتهن منه شيئاً لحسن ظنه به ﴿فليؤد الذي ائتمن أمانته﴾ يعني فليؤد المديون الذي عليه الحق الذي كان أميناً في ظن الدائن الذي هو صاحب الحق أمانته يعني حقه سمي الدين أمانة وإن كان مضموناً لائتمانه عليه حيث أمن من جحوده فلم يكتب ولم يشهد عليه ولم يأخذ منه رهناً حث المديون على أن يكون عند ظن الدائن الذي ائتمنه وأن يؤدي إليه حقه الذي ائتمنه عليه ولم يرتهن منه عليه شيئاً ثم زاد ذلك تأكيداً بقوله: ﴿وليتق الله ربه﴾ أي المديون في أداء الحق عند حلول الأجل من غير مماطلة ولا جحود بل يعامله المعاملة الحسنة كما أحسن ظنه فيه، ثم رجع إلى خطاب الشهود فقال تعالى: ﴿ولا تكتموا الشهادة﴾ يعني إذا دعيتم إلى إقامتها وأدائها وذلك لأن الشاهد متى امتنع من إقامة الشهادة وكتمها فقد أبطل بذلك حق صاحب الحق فلهذا نهى عن كتمان الشهادة وبالغ في الوعيد عليه فقال تعالى: ﴿ومن يكتمها﴾ يعني الشهادة ﴿فإنه آثم قلبه﴾ أي فاجر قلبه والآثم الفاجر، وإنما أضيف الإثم إلى القلب لأن الأفعال من الدواعي والصوارف إنما تحدث في القلب فلما كان الأمر كذلك أضيف الإثم إلى القلب قيل: ما أوعد الله على شيء كإيعاده عن كتمان الشهادة فإنه تعالى قال ﴿فإنه آثم قلبه﴾ وأراد به مسخ القلب نعوذ بالله من ذلك ﴿والله بما تعملون عليم﴾ يعني من بيان الشهادة وكتمانها ففيه وعيد وتحذير لمن كتم الشهادة ولم يظهرها.

قوله عز وجل: .

﴿لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۗ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٌ ٢٨٤﴾

﴿لله ما في السموات وما في الأرض﴾ ملكاً وأهلها له عبيد وهو مالكهم ﴿وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله﴾ وهذا يتناول حديث النفس والخواطر الفاسدة التي ترد على القلب ولا يتمكن من دفعها، والمؤاخذة بها تجري مجرى تكليف ما لا يطاق: وأجيب عن هذا بأن الخواطر الحاصلة في القلب على قسمين فمنها ما يوطن الإنسان نفسه عليه ويعزم على إظهاره إلى الوجود، فهذا مما يؤاخذ الإنسان به. والقسم الثاني ما يخطر بالبال ولا يمكن دفعه عن نفسه لكن يكره ولا يعزم على فعله ولا إظهاره إلى الوجود فهذا معفو عنه بدليل

جهة الراهن، حتى لا يجوز له أن يسترجِعَه ما دام شيء من الحق باقياً، ويجوز في الحَضَرِ الرهنُ مع وجود الكاتب، وقال مجاهد: لا يجوز الرهن إلّا في السفر عند عدم الكاتب لظاهر الآية، وعند الآخرين: خرج الكلام في الآية على الأعمّ الأغلب لا على سبيل الشرط، والدليل عليه ما رُوِيَ عن النبي ﷺ أنه رهن درعَه عند أبي الشحم اليهودي، ولم يكن ذلك في السفر ولا عند عدم كاتب. ﴿ فإنْ أَمِنَ بعضُكم بعضاً ﴾، وفي حرف أُبيّ (فإن ائتمن) يعني: فإن كان الذي عليه الحق أميناً عند صاحب الحق فلم يرتهن منه شيئاً لحُسن ظنه به ﴿ فليؤدِّ الذي ائتمن أمانته ﴾ أي: فليقضه على الأمانة، ﴿ وليتقِ اللَّهَ ربَّه ﴾ في أداء الحق، ثم رجع إلى خطاب الشهود فقال: ﴿ ولا تكتُموا الشهادة ﴾، إذا دُعيتم إلى إقامتها نهي عن كتمان الشهادة وأوعد عليه فقال: ﴿ ومَن يكتمها فإنه آثمٌ قلبه ﴾ أي: فاجرٌ قلبه، قيل: ما وعد على شيء كإيعاده على كتمان الشهادة قال: ﴿ فإنه آثم قلبه ﴾ وأراد به مسخ القلب نعوذُ بالله من ذلك، ﴿ والله بما تعملون ﴾ من بيان الشهادة وكتمانها، ﴿ عليم ﴾.

﴿ للّهِ ما في السموات وما في الأرض ﴾ ملكاً وأهلها له عبيدٌ وهو مالكهم، ﴿ وإن تُبدوا ما في أنفسكم أو تُخفوه يُحاسِبْكم به الله. فيغفرُ لمَن يشاءُ ويُعذّبُ مَنْ يشاءُ واللَّهُ على كل شيءٍ قدير ﴾، اختلف العلماء في هذه الآية فقال قوم: هي خاصّة ثم اختلفوا في وجه خصوصها، فقال بعضهم: هي متّصلة بالآية الأولى نزلت في كتمان

قوله تعالى: ﴿**لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت**﴾. وقال قوم: إن هذه الآية خاصة ثم اختلفوا في وجه تخصيصها فقال بعضهم: هي متصلة بالآية التي قبلها وإنما نزلت في كتمان الشهادة ومعنى الآية ﴿**وإن تبدوا ما في أنفسكم**﴾ أيها الشهود من كتمان الشهادة أي تخفوه أي تخفوا الكتمان يحاسبكم به الله وهذا ضعيف، لأن اللفظ هام وإن كان وارداً عقيب قضية فلم يلزم صرفه إليها. وقال بعضهم: إن الآية نزلت فيمن يتولى الكافرين من المؤمنين والمعنى: وإن تبدوا أي تظهروا ما في أنفسكم يعني من ولاية الكفار أو تخفوه فلا تظهروه يحاسبكم به الله. وذهب أكثر العلماء إلى أن الآية عامة ثم اختلفوا فقال قوم: هي منسوخة بالآية التي بعدها ويدل عليه ما روي عن أبي هريرة قال: لما نزلت على رسول الله ﷺ ﴿**لله ما في السموات وما في الأرض، وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه**﴾ الآية. اشتد ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ فأتوا رسول الله ﷺ ثم بركوا على الركب فقالوا: أي رسول الله كلفنا من الأعمال ما نطيق الصلاة والصيام والجهاد والصدقة وقد أنزلت عليك هذه الآية ولا نطيقها فقال رسول الله ﷺ: أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم سمعنا وعصبنا بل قول سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير فلما اقترأها القوم وذلت بها ألسنتهم أنزل الله تعالى في أثرها: ﴿**آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله، وقالوا: سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير**﴾ فلما فعلوا ذلك نسخها الله عز وجل فأنزل الله: ﴿**لا يكلف الله نفساً إلّا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ربنا**

الشهادة، معناه: وإن تبدوا ما في أنفسكم أيها الشهود من كتمان الشهادة أو تخفوا الكتمان يُحاسبكم به الله، وهو قول الشعبي وعكرمة، وقال بعضهم: نزلت فيمَن يتولى الكافرين من دون المؤمنين، يعني: وإن تعلنوا ما في أنفسكم من ولاية الكفّار أو تُسرّوه يحاسبكم به الله، وهو قول مقاتل، كما ذكر في قوله تعالى: ﴿ لا يتّخِذِ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ﴾ [آل عمران: ٢٨] إلى أن قال: ﴿ قلْ إنْ تخفوا ما في صدوركم أو تُبدوه يعلمْهُ الله ﴾ [آل عمران ٢٩]، وذهب الأكثرون إلى أن الآية عامّة ثم اختلفوا فيها فقال قوم: هي منسوخة بالآية التي بعدها، والدليل عليه ما أخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر الجرجاني، أخبرنا عبد الغافر بن محمد، أخبرنا محمد بن عيسى الجلودي، حدّثنا إبراهيم بن محمد بن سفيان أنا مسلم بن الحاج، حدّثني محمد بن المنهال الضرير وأُميّة بن بسطام العيشي اللفظ له قال: أخبرنا يزيد بن زريع أنا روح وهو ابن القاسم عن العلاء عن أبيه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: لمّا أنزل الله على رسوله ﷺ ﴿ **لله ما في السموات وما في الأرض وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله** ﴾ الآية قال: اشتد على أصحاب رسول الله ﷺ فأتوا رسول الله ﷺ ثم بركوا على الرّكب فقالوا ـ أي: لرسول الله ﷺ ـ كُلّفنا من الأعمال ما نطيق الصلاة والصيام والجهاد والصدقة، وقد أُنزلتْ عليك هذه الآية ولا نطيقها، قال رسول الله ﷺ: «أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين مِن قبلِكم سمعنا وعصينا؟ بل قولوا: سمعنا وأطعنا غفرانك ربّنا وإليك المصير»، فلما قرأها القوم وذلّت بها ألسنتهم أنزل الله في إثْرها ﴿ آمن الرسول بما أُنزل إليه من ربّه والمؤمنون كلٌّ آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نُفرّق بين أحد من رسله، وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانَك ربَّنا وإليك المصير ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، فلما فعلوا ذلك نسخها الله فأنزل الله ﴿ لا يُكلِّفُ اللَّهُ نفساً إلاّ وُسْعَها لهَا مَا كسبتْ وعليها ما اكْتَسَبَتْ ربَّنا لا تُؤاخذْنا إن نسينا أو أخطأنا ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، قال: «نعم»، ربّنا ولا تحْمِلْ علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلِنَا، قال: «نعم، ربّنا ولا تُحمّلْنَا مَا لاَ طَاقةَ لنا بهِ»، قال: «نعم، واعفُ عنّا واغفِرْ لنَا وارْحمنَا أنتَ مَوْلاَنَا فانْصُرنَا على القومِ الكافرين»، قال: «نعم». وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما بمعناه، وقال في كل ذلك: قد فعلتُ بدل قوله نعم، وهذا قول ابن مسعود وابن عباس رضي الله عنهما وابن عمر، وإليه ذهب محمد بن سيرين ومحمد بن كعب وقتادة والكلبي، أخبرنا

لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا﴾ قال نعم: «ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا» قال نعم ربنا: «ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به» قال نعم: «واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين» قال نعم أخرجه مسلم وله عن ابن عباس نحوه وفيه قد فعلت بدل نعم (ق) عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله تعالى تجاوز لأمتي ما حدثت به أنفسها ما لم يعملوا به أو يتكلموا به وفي رواية ما وسوست به صدورها» وقال قوم: إن الآية غير منسوخة لأن النسخ لا يرد إلّا على الأمر والنهي ولا يرد على الإخبار. وقول الله تعالى: **﴿يحاسبكم به الله﴾** خبر فلا يرد عليه النسخ ثم اختلفوا في تأويلها فقال قوم: قد أثبت الله تعالى للقلب كسباً فقال: بما كسبت قلوبكم وليس لله عبد أسر عملاً أو أعلنه من حركة جارحة أو همة قلب إلّا يعلمه الله ثم يخبره به ويحاسبه عليه ثم يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء، وقال آخرون في معنى الآية: إن الله تعالى يحاسب خلقه بجميع ما أبدوا من أعمالهم وأخفوه وعاقبهم عليه غير أن معاقبتهم على ما أخفوه أخف مما لم يعملوا به وهو ما يحدث لهم في الدنيا من النوائب والمصائب والأمور التي يحزنون عليها وهذا قول عائشة عن أمية إنها سألت عائشة عن قول الله عز وجل **﴿وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله﴾** وعن قوله **﴿من يعمل سوءاً يجز به﴾** فقالت: ما سألني عنها أحد منذ سألت رسول الله ﷺ فقال: هذه معاتبة الله العبد بما يصيبه من الحمى والنكبة حتى البضاعة يضعها في يد قميصه فيفقدها فيفزع لها، حتى أن العبد ليخرج من ذنوبه كما يخرج التبر الأحمر من الكير» أخرجه الترمذي، وقال: حديث حسن غريب. وله عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «إذا أراد الله بعبده الخير عجل له العقوبة في الدنيا، وإذا أراد الله بعبده الشر أمسك عليه بذنبه حتى يوافيه به يوم القيامة». وقال قوم في معنى الآية وإن تبدوا ما في أنفسكم يعني مما عزمتم عليه أو تخفوه أي ولا تبدوه وأنتم

الإمام أبو علي الحسين بن محمد القاضي، أخبرنا أبو محمد عبد الله بن يوسف الأصفهاني، أخبرنا أبو بكر أحمد بن إسحاق الفقيه، أخبرنا يعقوب بن يوسف القزويني، أخبرنا أبو القاسم بن الحكم المغربي، أخبرنا مسعد ابن كِدَام، عن قتادة عن زُرارة بن أوفى عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبيّ ﷺ قال: «إنّ الله تجاوز عن أُمتي ما وَسْوَسَتْ به أنفسَها ما لم يتكلموا أو يعملوا به»، وقال بعضهم: الآية غير منسوخة لأن النسخ لا يرد على الأخبار، إنما يرد على الأمر والنهي، وقوله: ﴿ يحاسبكم به الله ﴾ خبر لا يَرِدُ عليه النسخ، ثم اختلفوا في تأويلها فقال قوم: قد أثبت الله تعالى للقلب كسباً فقال: ﴿ بما كسبت قلوبكم ﴾ [البقرة: ٢٢٥] فليس لله عبدٌ أسرّ عملاً أو أعلنه من حركة من جوارحه أو هِمّة في قلبه إلّا يُخبره الله به ويُحاسبه عليه، ثم يغفر ما يشاء ويعذّب بما يشاء، وهذا معنى قول الحسن، يدلّ عليه قوله تعالى: ﴿ إن السمع والبصر والفؤاد كلُّ أولئك كان عنه مسؤولاً ﴾ [الإسراء: ٣٦] وقال الآخرون: معنى الآية، إن الله عزّ وجلّ يُحاسب خلقه بجميع ما أبدوا من أعمالهم أو أخفوه ويعاقبهم عليه، غير أن معاقبته على ما أخفوه ممّا لم يعملوه بما يحدث لهم في الدنيا من النوائب والمصائب، والأمور التي يحزنون عليها، وهذا قول عائشة رضي الله عنها، قالتْ: سألت رسول الله ﷺ عن هذه الآية فقال: «يا عائشة هذه معاتبة الله العبدَ بما يُصيبه من الحمى والنكبة حتى الشوكة والبِضاعة يضعها في كمّه فيفقدها، فيَرُوعُ لها، حتى إن المؤمن يخرج من ذنوبه كما يخرج التِّبر الأحمر من الكير». أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي، أخبرنا أبو منصور السمعاني، أخبرنا أبو جعفر الزياتي، أخبرنا حميد بن زنجويه، أخبرنا عبد الله بن الصالح، حدّثني الليث، حدّثني يزيد بن أبي حبيب عن سعيد بن سِنَان عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إذا أراد الله بعبده الخير عجّل له العقوبة في الدنيا، وإذا أراد الله بعبده الشر أمسك عليه بذنبه حتى يُوافيه به يوم القيامة». وقال بعضهم: وإن تبدوا ما في أنفسكم يعني: ما في قلوبكم مما عزمتم عليه أو تخفوه يحاسبكم به الله، ولا تبدوه وأنتم عازمون

عازمون عليه يحاسبكم به الله. فأما حديث النفس مما لم تعزموا عليه فإن ذلك مما لا يكلف الله نفساً إلّا وسعها ولا يؤاخذ به. قال عبدالله بن المبارك: قلت لسفيان: أيؤاخذ العبد بالهمة؟ فقال: إذا كانت عزماً أخذ بها وقيل معنى المحاسبة الإخبار والتعريف فيرجع معنى هذه المحاسبة إلى كونه تعالى عالماً بكل ما في الضمائر والسرائر مما ظهر وخفي ومعنى الآية: وإن تبدوا ما في أنفسكم فتعملوا به أو تخفوه مما أضمرتم ونويتم يحاسبكم به الله أي يخبركم به ويعرفكم إياه، ثم يغفر للمؤمنين إظهاراً لفضله ويعذب الكافرين إظهاراً لعدله. يروى عن ابن عباس ويدل عليه أنه قال: يحاسبكم به الله ولم يقل: يؤاخذكم به لأن المحاسبة غير المؤاخذة ويدل عليه أيضاً ما روي عن صفوان بن محرز المازني قال: بينما ابن عمر يطوف إذ عرض له رجل فقال: يا أبا عبدالرحمن أخبرني ما سمعت من رسول الله ﷺ في النجوى قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يدني المؤمن من ربه حتى يضع عليه كنفه فيقرره بذنوبه تعرف ذنب كذا وكذا فيقول: أعرف رب أعرف مرتين فيقول الله: سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم ثم تطوى صحيفة حسابه، وأما الآخرون وهم الكفار والمنافقون فينادى بهم على رؤوس الخلائق هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين» أخرجاه في الصحيحين. وقوله تعالى: ﴿**فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء**﴾ قال ابن عباس: يغفر لمن يشاء الذنب العظيم ويعذب من يشاء على الذنب الصغير لا يسأل عما يفعل وهم يسألون ﴿**والله على كل شيء قدير**﴾ يعني أنه تعالى قادر على كل شيء كامل القدرة فيغفر للمؤمنين فضلاً ويعذب الكافرين عدلاً. قوله عز وجل: .

عليه يحاسبكم به الله، فأمّا ما حدّثت به أنفسكم مما لم تعزموا فإن ذلك مما لا يُكلّف الله نفساً إلّا وسعها ولا يؤاخذكم به، دليله قوله تعالى: ﴿ لا يُؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ولكنْ يُؤاخذُكم بما كسبتْ قلوبُكم ﴾ [البقرة: ٢٢٥]، قال عبد الله بن المبارك: قلت لسفيان: أيؤاخذ الله العبدَ بالهِمّة؟ قال: إذا كان عَزِماً أُخذ بها، وقيل معنى المحاسبة: الإخبار والتعريف، ومعنى الآية: وإن تُبدوا ما في أنفسكم فتعملوا به أو تخفوه مما أضمرتم ونويتم، يُحاسِبْكم به الله ويُخبركم به ويُعرِفكم إياه، ثم يغفر للمؤمنين إظهاراً لفضله، ويُعذّب الكافرين إظهاراً لعدله، وهذا معنى قول الضحاك، ويُروى ذلك عن ابن عباس رضي الله عنهما، يدلّ عليه أنه قال: يُحاسبكم به الله، ولم يقل: يُؤاخذكم به، والمحاسبة غير المؤاخذة، والدليل عليه ما أخبرنا أبو طاهر محمد بن علي الزراد، أخبرنا أبو القاسم علي بن أحمد الخزاعي، أنا أبو سعيد الهيثم بن كليب، أنا عيسى بن أحمد العسقلاني، أنا يزيد بن هارون، أنا همّام بن يحيىٰ، عن قتادة عن صفوان بن محرز قال: كنت آخذاً بيد عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما فأتاه رجل فقال: كيف سمعتَ رسول الله ﷺ يقول في النَّجْوَى؟ فقال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إن الله تعالى يُدني المؤمنَ يومَ القيامةُ حتى يضعَ عليه كَنَفَه يَستُرُه مِنَ الناس فيقول: أيْ عبدي! أتعرفُ ذنبَ كذا وكذا؟ فيقول: نعم، أيْ ربِّ، ثم يقول: أيْ عبدي أتعرفُ ذنبَ كذا وكذا؟ فيقول: نعم، أيْ ربِّ حتى إذا قرّره بذنوبه ورأى في نفسه أنه قد هلك، قال: فإني سترتها عليك في الدنيا وقد غفرتُها لك اليوم، ثم يُعطي كتابَ حسناتِه، وأمّا الكافر والمنافق فيقول الأشهاد: هؤلاء الذين كذبوا على ربّهم ألا لعنة الله على الظالمين». قوله تعالى: ﴿ **فيغفر لمَن يشاء ويُعذّبُ مَنْ يشاء** ﴾ رفع الراء والباء أبو جعفر وابن عامر وعاصم ويعقوب، وجزمهما الآخرون فالرفع على الابتداء والجزم على النسق، روى طاوس عن ابن عباس رضي الله عنهما فيغفر لمَن يشاء الذنبَ العظيم ويُعذّب مَن يشاء على الذنبِ الصغير لا يَسأل عمّا يفعل وهم يُسألون ﴿ **والله على كل شيء قدير** ﴾.

﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ٢٨٥﴾

﴿آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه﴾ عن ابن عباس قال: لما نزلت هذه الآية وإن تبدوا ما في أنفسكم أوتخفوه يحاسبكم به الله دخل قلوبهم منها شيء لم يدخل من شيء فقالوا للنبي ﷺ فأنزل الله ﴿آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون﴾ الآية ﴿لا يكلف الله نفساً إلّا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا﴾ قال: قد فعلت ﴿ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا﴾ قال: قد فعلت ربنا ﴿ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين﴾ قال قد فعلت أخرجه الترمذي، وقال حديث حسن. قال الزجاج: لما ذكر الله في هذه السورة فرض الصلاة والزكاة والصوم والحج والطلاق والإيلاء والحيض والجهاد وأقاصيص الأنبياء وما ذكر من كلام الحكماء ختم السورة بذكر تصديق نبيه ﷺ والمؤمنين بحميع ذلك ومعنى آمن الرسول صدق الرسول يعني محمداً ﷺ والمعنى صدق الرسول أن هذا القرآن وجملة ما فيه من الشرائع والأحكام منزل من عند الله عز وجل: ﴿والمؤمنون﴾ أي وصدق المؤمنون بذلك أيضاً ﴿كل﴾ أي كل واحد من المؤمنين ﴿آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله﴾ فهذه أربع مراتب من أصول الإيمان وضرورياته، فأما الإيمان بالله فهو أن يؤمن بأن الله واحد أحد لا شريك له ولا نظير له ويؤمن بجميع أسمائه الحسنى وصفاته العليا وأنه حي عالم قادر على كل شيء، وأما الإيمان بالملائكة فهو أن يؤمن بوجودهم وأنهم معصومون مطهرون وأنهم السفرة الكرام البررة وأنهم الوسائط بين الله تعالى وبين رسله. وأما الإيمان بكتبه فهو أن يؤمن بأن الكتب المنزلة من عند الله هي وحي الله إلى رسله، وأنها حق وصدق من عند الله بغير شك ولا ارتياب، وأن القرآن لم يحرف ولم يبدل ولم يغير، وأنه مشتمل على المحكم والمتشابه، وأن محكمه يكشف عن متشابهه. وأما الإيمان بالرسل فهو أن يؤمن بأنهم رسل الله إلى عباده وأمناؤه على وحيه، وأنهم معصومون وأنهم أفضل الخلق، وأن بعضهم أفضل من بعض وقد أنكر بعضهم ذلك وتمسك بقوله تعالى: ﴿لا نفرق بين أحد من رسله﴾. وأجيب عنه بأن المقصود من هذا الكلام شيء آخر وهو إثبات نبوة الأنبياء والرد على اليهود والنصارى الذين يقرون بنبوة موسى وعيسى وينكرون نبوة محمد ﷺ وقد ثبت بالنص الصريح تفضيل بعض الأنبياء على بعض بقوله: «تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض» ومعنى قوله: ﴿لا نفرق بين أحد من رسله﴾ فنؤمن ببعض ونكفر ببعض كما فعلت اليهود والنصارى بل نؤمن بجميع رسله، وفي الآية إضمار تقديره وقالوا: يعني المؤمنين لا نفرق بين أحد من رسله ﴿وقالوا سمعنا وأطعنا﴾ يعني سمعنا قولك وأطعنا أمرك، والمعنى قال المؤمنون: سمعنا قول

قوله تعالى: ﴿ آمَن الرسولُ ﴾أي: صدق ﴿ بما أُنزل إليه مِنْ رَبِّه والمؤمنون كلٌّ آمن بالله ﴾، يعني: كلُّ واحدٍ منهم، ولذلك وحّد الفعل، ﴿ وملائكتِه وكتبِه ورسلِه ﴾ قرأ حمزة والكسائي « وكتابه » على الواحد يعني: القرآن، وقيل معناه: الجمع وإن ذُكر بلفظ التوحيد، كقوله تعالى: ﴿ فبعث الله النبيّين مبشّرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب ﴾ [البقرة: ٢١٣]، وقرأ الآخرون ﴿ وكتبه ﴾ بالجمع، كقوله تعالى: ﴿ وملائكته وكتبه ورسله ﴾ ﴿ لا نُفرّقُ بين أحدٍ من رسله ﴾ فنؤمن ببعض ونكفر ببعض كما فعلت اليهود والنصارى، وفيه إضمارٌ تقديره: يقولون لا نُفرّق، وقرأ يعقوب: لا يفرّق، بالياء فيكون خبراً عن الرسول، أو معناه: لا يُفرق الكل، وإنما قال: ﴿ بين أحد ﴾ ولم يقل بين آحاد، لأن الأحد يكون للواحد والجمع، قال الله تعالى: ﴿ فما منكم من أحدٍ عنه حاجزين ﴾ [الحاقة:٤٧]، ﴿ وقالوا سمعنا ﴾، قولك ﴿ وأطعنا ﴾ أمرك، رُوِيَ عن حكيم عن جابر رضي الله

ربنا فيما أمرنا به، وأطعناه فيما ألزمنا من فرائضه، واستعبدنا به من طاعته، وسلمنا له فيما أمرنا به ونهانا عنه، ﴿غفرانك ربنا﴾ أي نسألك غفرانك ربنا، أو يكون المعنى اغفر لنا غفرانك ربنا ﴿وإليك المصير﴾ يعني قالوا، إليك يا ربنا مرجعنا ومعادنا فاغفر ذنوبنا. روى البغوي بغير سند عن حكيم بن جابر: «أن جبريل عليه السلام قال للنبي ﷺ: إن الله عز وجل قد أثنى عليك وعلى أمتك فسل تعطه». قال بتلقين الله تعالى غفرانك ربنا وإليك المصير. قوله عز وجل: .

﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾﴾

﴿لا يكلف الله نفساً إلّا وسعها﴾ قيل: يحتمل أن يكون ابتداء خبر من الله تعالى ويحتمل أن يكون حكاية عن المؤمنين وفيه إضمار كأنه قال الله تعالى عنهم وقالوا: لا يكلف الله نفساً إلاّ وسعها يعني طاقتها والوسع اسم لما يسع الإنسان ولا يضيق عليه. قال ابن عباس وأكثر المفسرين إن هذه الآية نسخت حديث النفس والوسوسة وذلك أنه لما نزل وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه ضج المؤمنون منها وقالوا: يا رسول الله نتوب من عمل اليد والرجل واللسان فكيف نتوب من الوسوسة وحديث النفس؟ فنزلت هذا الآية. والمعنى أنكم لا تستطيعون أن تمتنعوا من الوسوسة وحديث النفس؟ كان ذلك ما لم تطيقوه وقال ابن عباس في رواية عنه: هم المؤمنون خاصة وسع الله عليهم أمر دينهم ولم يكلفهم ما لا يستطيعون. كما قال: **﴿يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر﴾** وقال تعالى: **﴿وما جعل عليكم في الدين من حرج﴾** وسئل سفيان بن عيينة عن قوله: **﴿لا يكلف الله نفساً إلّا وسعها﴾** قال: إلاّ يسرها ولم يكلفها فوق طاقتها وهذا قول حسن، لأن الوسع ما دون الطاقة وقيل معناه أن الله تعالى لا يكلف نفساً إلاّ وسعها فلا يتعبدها بما لا تطيق. **﴿لها ما كسبت﴾** يعني للنفس ما عملت من الخير فلها أجره وثوابه.

عنهما أنّ جبريل عليه السلام قال للنبيِّ ﷺ حين نزلت هذه الآية: إن الله قد أثنى عليك وعلى أمتك، فسلْ تعطَهُ، فسأل بتلقين الله تعالى فقال: ﴿ غفرانَك ﴾، وهو نصب على المصدر، أي: اغفر غفرانَك، أو على المفعول به، أي: نسألك غفرانك، ﴿ ربَّنا وإليك المصير ﴾.

﴿ لا يُكلِّفُ اللَّهُ نفساً إلّا وُسْعَها ﴾ ظاهر الآية قضاء لحاجته وفيها إضمار السؤال كأنه قال: وقالوا لا تُكلِّفْنا إلّا وُسعَنا، وأجاب، أي: لا يُكلِّفُ اللَّهُ نفساً إلّا وسعها أي: طاقتَها، والوُسْعُ: اسم لما يسع الإنسان، ولا يضيق عليه، واختلفوا في تأويله، فذهب ابن عباس رضي الله عنهُ وعطاء وأكثر المفسِّرين إلى أنه أراد به حديثَ النفس الذي ذُكر في قوله: ﴿ وإنْ تُبدوا ما في أنفسكم أو تُخفوه ﴾ كما ذكرنا، ورُوِيَ عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: هم المؤمنون خاصةً وسَّع عليهم أمرَ دينهم ولم يُكلِّفهم فيه إلّا ما يستطيعون، كما قال الله تعالى: ﴿ يُريد اللَّهُ بكم اليُسر ولا يُريد بكم العُسر ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وقال الله تعالى: ﴿ وما جعل عليكم في الدين من حرج ﴾ [الحج: ٧٨]، وسُئل سفيان بن عُيينة عن قوله عزّ وجلّ: ﴿ لا يكلّف الله نفساً إلّا وُسعها ﴾ قال: إلّا يُسرها ولم يُكلفها فوقَ طاقتها، وهذا قوله حسن، لأن الوُسْعَ ما دون الطاقة. قوله تعالى: ﴿ لها ما كسبتْ ﴾ أي للنفس ما عملت من الخير لها أجره وثوابه ﴿ وعليها ما اكتسبتْ ﴾ من الشر وعليها وزره ﴿ ربَّنا لا تُؤاخِذْنا ﴾ أي: لا تعاقبنا ﴿ إن نسينا ﴾، جعله بعضهم من النسيان الذي هو السهو، قال الكلبي: كانت بنو إسرائيل إذا نسوا شيئاً مما أمروا

﴿وعليها ما اكتسبت﴾ يعني من الشر عليها وزره وعقابه وقيل في معنى الآية: إن الله تعالى لا يؤاخذ أحداً بذنب غيره.

قوله عز وجل: ﴿ربنا لا تؤاخذنا﴾ وهذا تعليم من الله تعالى عباده المؤمنين كيف يدعونه ومعناه قولوا: ربنا لا تؤاخذنا أي لا تعاقبنا وإنما جاء بلفظ المفاعلة وهو فعل واحد لأن المسيء قد أمكن من نفسه وطرق السبيل إليها بفعله فكأنه أعدى عليه من يعاقبه بذنبه ويأخذه به. ﴿إن نسينا أو أخطأنا﴾ فيه وجهان: أحدهما أنه من النسيان الذي هو السهو وهو ضد التذكر قيل: كان بنو إسرائيل إذا نسوا شيئاً مما أمروا به أو أخطؤوا عجلت لهم العقوبة فيحرم عليهم شيء مما كان حلالاً لهم من مطعم أو مشرب على حسب ذلك الذنب، فأمر الله المؤمنين أن يسألوه ترك مؤاخذتهم بذلك. فإن قلت: أليس فعل الناسي في محل العفو بدليل قوله ﷺ: «رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه» فإذا كان النسيان في محل العفو قطعاً فما معنى العفو عنه بالدعاء؟ قلت: الجواب عنه من وجوه: الأول: أن النسيان على ضربين: أما الأول: فهو ما كان من العبد على وجه التضييع والتفريط، وهو ترك ما أمر بفعله كمن رأى على ثوبه دماً فأخر إزالته، عنه ثم نسي فصلى فيه، وهو على ثوبه فيعد مقصراً إذ كان يلزمه المبادرة إلى إزالته أما إذا لم يره فيعذر فيه وكذا لو ترك ما أمر بفعله على وجه السهو أو ارتكب منهياً عنه من غير قصد إليه كأكل آدم عليه السلام من الشجرة التي نهى عنها على وجه النسيان من غير عزم على المخالفة كما قال تعالى: ﴿ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي ولم نجد له عزماً﴾ فمثل هذا يجب أن يسأل الله تعالى أن يعفو له عن ذلك. وأما الضرب الثاني فهو كمن ترك صلاة ثم نسيها أو ترك دراسة القرآن بعد أن حفظه حتى نسيه فهذا لا يعذر بنسيانه وسهوه لأنه فرط فثبت أن النسيان على قسمين وإذا كان كذلك صح طلب العفو والغفران عن النسيان. الوجه الثاني من الجواب أن الصحابة رضي الله عنهم كانوا من المتقين لله حق تقانة فإن صدر منهم ما لا ينبغي فلا يكون إلا على سبيل السهو والنسيان فطلبهم العفو والغفران لما يقع منهم على سبيل السهو والنسيان إنما هو لشدة خوفهم وتقواهم. الوجه الثالث أن المقصود من هذا الدعاء هو التضرع والتذلل لله تعالى. وأما الخطأ في قوله أو أخطأنا فعلى وجهين أيضاً: أحدهما أن يأتي العبد ما نهي عنه بقصد وإرادة فذلك خطأ منه وهو به مأخوذ فيحسن طلب العفو والغفران لذلك الفعل الذي ارتكبه. الوجه الثاني أن يكون الخطأ على سبيل الجهل والظن لأن له فعله كمن ظن أن وقت الصلاة لم يدخل وهو في يوم غيم فأخرها حتى خرج وقتها فهذا من الخطأ الموضوع عن العبد.

به أو أخطؤوا عُجّلت لهم العقوبة فحرّم عليهم شيءٌ من مطعم أو مشرب على حسب ذلك الذنب، فأمر الله المؤمنين أن يسألوه ترك مؤاخذتهم بذلك، وقيل: هو من النسيان الذي هو الترك كقوله تعالى: ﴿ نسوا اللَّهَ فنسيهم ﴾ [التوبة: ٦٧]، قوله تعالى: ﴿ أو أخطأنا ﴾ قيل: معناه القصد والعمد، يقال: أخطأ فلان إذا تعمّد، قالَ اللَّهُ تعالى: ﴿ إنّ قتلَهم كان خِطئاً كبيراً ﴾ [الإسراء: ٣١]، قال عطاء: إن نسينا أو أخطأنا يعني: إن جهلنا أو تعمدنا، وجعله الأكثرون: من الخطأ الذي هو الجهل والسهو، لأنّ ما كان عمداً من الذنب فغير معفو عنه بل هو في مشيئة الله، والخطأ معفو عنه، قال النبيّ ﷺ: «رُفع عن أُمتي الخطأ والنسيان وما استُكرهوا عليه». قوله تعالى: ﴿ ربنا ولا تَحمِلْ علينا إصراً ﴾ أي عهداً ثقيلاً وميثاقاً لا نستطيع القيام به فتعذّبنا بنقضه وتركه، ﴿ كما حملته على الذين مِنْ قَبلِنَا ﴾، يعني: اليهود، فلم يقوموا به فعذّبتهم هذا قول مجاهد وعطاء وقتادة والسدي والكلبي وجماعة، يدلّ عليه قوله تعالى: ﴿ وأخذتم على ذلكم أصري ﴾ [آل عمران: ٨١] أي: عهدي، وقيل معناه: لا تُشدّدْ ولا تُغلظ الأمر علينا كما شدّدت على مَنْ قبلنا من اليهود، وذلك أن الله فرض عليهم خمسين صلاةً وأمرهم بأداء رُبع أموالهم من الزكاة ومَن أصاب ثوبَه نجاسةٌ قطعها، ومَن أصاب ذنباً أصبح ذنبه مكتوباً علي بابه، ونحوها من الأثقال

لكن طلب العفو والغفران لسبب تقصيره وقوله: ﴿**ربنا ولا تحمل علينا إصراً**﴾ يعني عهداً ثقيلاً وميثاقاً غليظاً فلا نستطيع القيام به فتعذبنا بنقضه وتركه ﴿**كما حملته على الذين من قبلنا**﴾ يعني اليهود فلم يقوموا به فعذبتهم عليه، وقيل معناه ولا تشدد علينا كما شددت على اليهود من قبلنا وذلك أن الله تعالى فرض عليهم خمسين صلاة وأمرهم بأداء ربع أموالهم زكاة ومن أصاب منهم ثوبه نجاسة قطعها ومن أصاب ذنباً أصبح وذنبه مكتوب على بابه. ونحو هذا من الأثقال والآصار التي كتبت عليهم فسأل المسلمون ربهم أن يصونهم عن أمثال هذه التغليظات والعهود الثقيلة وقد أجاب الله تعالى دعاءهم برحمته وخفف عنهم بفضله وكرمه فقال تعالى: ﴿وما جعل عليكم في الدين من حرج﴾ «وقيل الإصر ذنب لا توبة له فسأل المؤمنون ربهم أن يعصمهم من مثله ﴿**ربّنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به**﴾ يعني لا تكلفنا من الأعمال ما لا نطيق القيام به لثقل حمله علينا وتكليف ما لا يطاق على وجهين: أحدهما ما ليس في قدرة العبد احتماله كتكليف الأعمى النظر والزمن العدو فهذا النوع من التكليف الذي لا يكلف الله به عبده بحال. الوجه الثاني من تكليف ما لا يطاق هو ما في قدره العبد احتماله مع المشقة الشديدة والكلفة العظيمة كتكليف الأعمال الشاقة والفرائس الثقيلة كما كان في ابتداء الإسلام صلاة الليل واجبة ونحوه. فهذا الذي سأل المؤمنون ربهم لا يحملهم ما لا طاقة لهم به واستدل بهذه الآية من يقول إن تكليف ما لا يطاق جائز إذ لو لم يكن جائزاً لما حسن طلب تخفيفه بالدعاء من الله تعالى. وقيل في قوله ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به هو حديث النفس والوسوسة وقيل هيجان الغلمة وقيل هو الحب وقيل هو شماتة الأعداء وقيل: هو الفرقة والقطيعة وقيل هو مسخ القردة والخنازير نعوذ بالله من ذلك كله ﴿**واعف عنا**﴾ أي تجاوز عن ذنوبنا وامحها عنا ﴿**واغفر لنا**﴾ أي استر علينا ذنوبنا ولا تفضحنا ﴿**وارحمنا**﴾ أي تغمدنا برحمة تنجينا بها من عقابك فإنه ليس بناج من عقابك إلّا من رحمته. وقيل: إنا لا ننال العمل بطاعتك ولا نترك معصيتك إلّا برحمتك، وأصل الرحمة رقة تقتضي الإحسان إلى المرحوم وإذا وصف بها الله تعالى فليس يراد بها إلّا الإحسان المجرد والتفضل على العباد دون الرقة. وقيل: إن طلب العفو هو أن يسقط عنه عقاب ذنوبه، وطلب المغفرة هو أن يستر عليه صوناً له من الفضيحة كأن العبد يقول: أطلب منك العفو وإذا عفوت عني فاستره علي فإذا عفا الله تعالى عن العبد وستره طلب الرحمة التي هي الإنعام والإحسان ليفوز بالنعيم والثواب ﴿**أنت مولانا**﴾ أي ناصرنا وحافظنا وولينا ومتولي أمورنا ﴿**فانصرنا على القوم الكافرين**﴾ يعني الجاحدين الذين عبدوا غيرك وجحدوا وحدانيتك. قال ابن عباس في قوله غفرانك ربنا قال قد غفرت لكم.

والأغلال، وهذا معنى قول عثمان وعطاء ومالك بن أنس وأبي عبيدة وجماعة، يدلّ عليه قوله تعالى: ﴿ ويضع عنهم إصْرَهم والأغلالَ التي كانت عليهم ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، وقيل: الإصرُ ذنبٌ لا توبةَ له، معناه: اعصمنا من مثله، والأصل فيه العقل والأحكام. قوله تعالى: ﴿ **ربّنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به** ﴾ أي: لا تُكلّفنا من الأعمال ما لا نطيقه، وقيل: هو حديث النفس والوسوسة، حُكِي عن مكحول أنه قال: هو الغلمة، قيل: الغلمة شدّة الشهود، وعن إبراهيم قال: هو الحب، وعن محمد بن عبد الوهاب قال: العشق، وقال ابن جريج: وهو مسخ القردة والخنازير، وقيل: هو شماتة الأعداء، وقيل: هو الفرقة والقطيعة نعوذ بالله منها، قوله تعالى: ﴿ **واعْفُ عنّا** ﴾ أي: تجاوزْ وامحُ عنّا ذنوبنا، ﴿ **واغفر لنا** ﴾ أي: استر علينا ذنوبنا ولا تفضحنا ﴿ **وارْحمنَا** ﴾ فإننا لا ننال العمل إلّا بطاعتك ولا نترك معصيتك إلّا برحمتك، ﴿ **أنتَ مَوْلَانَا** ﴾ ناصرنا وحافظنا وولّينا، ﴿ **فانْصُرنَا على القوم الكافرين** ﴾. روى سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله عزّ وجلّ: ﴿ **غفرانك ربّنا** ﴾ قال الله تعالى: « قد غفرتُ لكم »، وفي قوله: ﴿ **لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا** ﴾ قال: لا أؤاخذكم، ﴿ **ربنا ولا تحمل علينا إصراً** ﴾ قال: لا أحمل عليكم إصراً ﴿ **ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به** ﴾ قال: لا أحملكم ﴿ **واعفُ عنّا** ﴾ إلى

وفي قوله: لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا قال لا أؤاخذكم ربنا ولا تحمل علينا إصراً قال: لا أحمل عليكم ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به. قال: لا أحملكم واعف عنا، واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين. قال قد عفوت عنكم وغفرت لكم ورحمتكم ونصرتكم على القوم الكافرين. كان معاذ إذا ختم سورة البقرة قال آمين. (م) عن عبدالله بن مسعود قال: لما أسري برسول الله ﷺ انتهى به إلى سدرة المنتهى وهي في السادسة وإليها ينتهي ما يعرج من الأرض فيقبض منها. وإليها ينتهي ما يهبط من فوقها فيقبض منها قال: ﴿إذ يغشى السدرة ما يغشى﴾ قال فراش من ذهب قال فأعطي رسول الله ﷺ ثلاثاً أعطي الصلوات الخمس وخواتيم سورة البقرة وغفر لمن لا يشرك بالله من أمته شيئاً من المقحمات. المقحمات: الذنوب العظام التي تولج مرتكبها النار وأصل الاقتحام الولوج. (ق) عن أبي مسعود الأنصاري قال قال رسول الله ﷺ: الآيتان من آخر سورة البقرة من قرأهما في ليلة كفتاه معناه كفتاه من كل ما يحذر من كل هامة وشيطان فلا يقربه تلك الليلة وقيل كفتاه عن قيام الليل. (م) عن ابن عباس قال بينا رسول الله ﷺ عنده جبريل عليه السلام إذ سمع نقيضاً من فوقه فرفع جبريل بصره إلى السماء فقال: هذا باب من السماء فتح اليوم لم يفتح قط إلّا اليوم فنزل منه ملك فقال: هذا ملك نزل من السماء إلى الأرض لم ينزل قط إلّا اليوم فسلم، وقال: أبشر بنورين أوتيتهما لم يؤتهما نبي قبلك فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة لن تقرأ بحرف منهما إلّا أعطيته عن النعمان بن بشير عن النبي ﷺ قال: إن الله كتب لنا كتاباً قبل أن يخلق السموات والأرض بألفي عام أنزل فيه آيتين ختم بهما سورة البقرة ولا يقرآن في دار ثلاث ليال فيقربها شيطان أخرجه الترمذي وقال: حديث غريب آخر تفسير سورة البقرة والله أعلم بمراده وأسرار كتابه.

آخره، قال: عفوتُ عنكم وغفرتُ لكم ورحمتُكم ونصرتُكم على القوم الكافرين. وكان معاذ بن جبل إذا ختم سورة البقرة قال: آمين. أخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر أنا عبد الغافر بن محمد أخبرنا محمد بن عيسى الجلودي أنا إبراهيم بن محمد بن سفيان أنا مسلم بن الحجاج أنا أبو بكر بن أبي شيبة أنا أبو أمامة حدّثني مالك بن مسعود عن الزبير بن عدي عن طلحة بن علي بن مصرف عن مُرّة عن عبد الله قال: (لمــا أُسري برسول الله ﷺ انتُهي به إلى سدرة المنتهى وهي في السماء السادسة إيها ينتهي ما يُعرج به من الأرض، فيقبض منها وإليها ينتهي ما يهبط فوقها فيقبض منها قال: «﴿ إذ يغشى السدرة ما يغشى ﴾ [النجم: ١٦]، قال: فراش من ذهب، قال: وأُعطي رسول الله ﷺ ثلاثاً: الصلوات الخمس، وأُعطي خواتيم سورة البقرة، وغُفر لمَن لا يشرك بالله من أُمته شيئاً من المقحمات). أخبرنا الإمام أبو علي الحسين بن محمد القاضي أنا أبو نعيم عبد الملك بن الحسين الإسفرايني أنا أبو عوانة يعقوب بن إسحاق الحافظ، أنا يونس وأحمد بن ثنان قال: ثنا سفيان بن عُيينة عن منصور عن إبراهيم بن عبد الرحمن بن يزيد عن ابن مسعود رضي الله عنهم قال: قال رسول الله ﷺ: «الآيتان من آخر سورة البقرة، مَن قرأهما في ليلة كفتاه، أي عن قيام الليل»، أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أبو المنصور السمعاني أنا أبو جعفر الزيّات أخبرنا حميد بن زنجويه أنا العلاء بن عبد الجبّار أنا حمّاد بن سلمة أخبرنا الأشعث بن عبد الرحمن الجرمي عن أبي قلابة عن أبي الأشعث الصنعاني عن النعمان بن بشير رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله تعالى كتب كتاباً قبل أن يخلق السموات والأرض بألفي عام، فأنزل منه آيتين ختم بهما سورة البقرة، فلا تُقرآن في ثلاثِ ليالٍ فيقربها الشيطان».

تفسير سورة آل عمران

مدنية وهي مائتا آية وثلاثة آلاف وأربع مائة وثمانون كلمة وأربعة عشر ألفاً وخمسمائة وعشرون حرفاً

بسم الله الرحمن الرحيم

الٓمٓ ﴿١﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ﴿٢﴾

قوله عز وجل: ﴿الٓمٓ الله لا إله إلاّ هو الحي القيوم﴾ قال المفسرون: نزلت هذه الآية في وفد نجران وكانوا ستين راكباً قدموا على رسول الله ﷺ وفيهم أربعة عشر رجلاً من أشرافهم منهم ثلاثة نفر إليهم يؤول أمرهم وهم العاقب واسمه عبدالمسيح وهو أمير القوم وصاحب مشورتهم الذي لا يصدرون إلاّ عن رأيه، والسيد واسمه الأيهم وهو ثمالهم القائم بمالهم وصاحب رحلهم الذي يقوم بأمر طعامهم وشرابهم وأبو حارثة بن علقمة وهو أسقفهم وحبرهم وكان ملوك الروم يكرمونه لما بلغهم عن علمه واجتهاده في دينه فدخلوا مسجد رسول الله ﷺ حين كان يصلي العصر وعليهم ثياب الحبرات جبب وأردية يقول من رآهم من أصحاب رسول الله ﷺ ما رأينا وفداً مثلهم وقد حانت صلاتهم فقاموا للصلاة في مسجد رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ دعوهم فصلوا إلى المشرق فلما فرغوا كلم السيد والعاقب رسول الله ﷺ فقال لهما رسول الله ﷺ أسلما قالا: قد أسلمنا قبلك. قال كذبتما يمنعكما من الإسلام دعواكما لله ولداً وعبادتكما الصليب وأكلكما الخنزير، قال إن لم يكن عيسى ولد الله فمن أبوه وخاصموه جميعاً في عيسى فقال النبي ﷺ: ألستم تعلمون أنه لا يكون ولد إلاّ وهو يشبه أباه قالوا بلى قال: ألستم

سُورَة آل عمران

قوله تعالى: ﴿ آلمٓ الله ﴾ قال الكلبي والربيع بن أنس وغيرهما: نزلت هذه الآية في وَفدِ نجران وكانوا ستّين راكباً قَدِموا على رسول الله ﷺ وفيه أربعة عشر رجلاً من أشرافهم، وفي الأربعة عشر ثلاثة نفر يؤول إليهم أمرهم، العاقب أمير القوم وصاحب مشورتهم الذي لا يصدرون إلاّ عن رأيه واسمه عبد المسيح، والسيد ثمالهم وصاحب رحلهم ومجتمعهم واسمه الأيهم، وأبو حارثة بن علقمة وهو أسقفهم وحَبْرهم، دخلوا مسجد رسول الله ﷺ حين صلّى العصر، عليهم ثياب الحبرات جبب وأردية في جمال رجال، وإذا بالحارث بن كعب يقول: ما رأينا وفداً مثلهم وقد حانت صلاتهم فقاموا للصلاة في مسجد رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ: «دعوهم» فصلّوا إلى المشرق، فتكلّم السيد والعاقب فقال لهما رسول الله ﷺ: «أسلما» قالا: قد أسلمنا قبلك، قال: «كذبتما يمنعكما من الإسلام ادّعاؤكما لله ولداً وعبادتكما للصليب وأكلكما الخنزير»، قالا: إن لم يكن ولداً لله فَمَن أبوه؟ وخاصموه جميعاً في عيسى، فقال لهم النبيّ ﷺ: «ألستم تعلمون أنه لا يكون ولد إلاّ وهو يشبه أباه»؟ قالوا: بلى، قال: «ألستم تعلمون أن ربّنا حيّ لا يموت وأن عيسى يأتي عليه الفناء»؟ قالوا: بلى، قال: «ألستم تعلمون أن ربّنا قيّم على كل شيء يحفظه ويرزقه»؟ قالوا: بلى، قال: «فهل يملك عيسى من ذلك شيئاً»؟ قالوا: لا، قال: «ألستم

تعلمون أن ربنا حي لا يموت وأن عيسى يأتي عليه الموت. قالوا: بلى قال: ألستم تعلمون أن ربنا قيم على كل شيء يحفظه ويرزقه. قالوا بلى قال: فهل يملك عيسى من ذلك شيئاً قالوا: لا قال ألستم تعلمون أن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء. قالوا بلى قال فهل يعلم عيسى من ذلك إلاّ ما علم قالوا لا. قال: ألستم تعلمون أن ربنا صور عيسى في الرحم كيف شاء وربنا لا يأكل ولا يشرب قالوا: بلى قال ألستم تعلمون أن عيسى حملته أمه كما تحمل المرأة ثم وضعته كما تضع المرأة ولدها ثم غذي كما يغذى الصبي ثم كان يطعم ويشرب ويحدث. قالوا: بلى قال: فكيف يكون إلهاً كما زعمتم فسكتوا. فأنزل الله صدر سورة آل عمران إلى بضع وثمانين آية منها زاد بعضهم. فقالوا يا محمد ألست تزعم أن عيسى كلمة الله وروح منه قال بلى قالوا حسبنا ثم أبوا إلاّ جحوداً فأنزل الله رداً عليهم ﴿الم الله لا إله إلاّ هو﴾ يعني إن كانت منازعتكم يا معشر النصارى في معرفة الإله فهو الله الذي لا إله إلاّ هو فكيف تثبتون له ولداً فبين تعالى أن أحداً لا يستحق العبادة سواه لأنه الواحد الأحد ليس معه إله ولا له ولد ثم أتبع ذلك بما يجري مجرى الدلالة عليه فقال تعالى: ﴿الحي القيوم﴾ أما الحي في صفة الله تعالى فهو الدائم الباقي الذي لا يصح عليه الموت. وأما القيوم فهو القائم بذاته والقائم بتدبير الخلق ومصالحهم فيما يحتاجون إليه في معاشهم ومعادهم.

﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٥﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦﴾﴾

﴿نزل عليك الكتاب﴾ يعني القرآن ﴿بالحق﴾ أي بالصدق والعدل ﴿مصدقاً لما بين يديه﴾ يعني لما قبله من الكتب في التوحيد والنبوات والأخبار وبعض الشرائع. وقوله ﴿لما بين يديه﴾ من مجاز الكلام وذلك أن ما بين يديه فهو أمامه فقيل لكل شيء تقدم على الشيء هو بين يديه لغاية ظهوره واشتهاره ﴿وأنزل التوراة والإنجيل من قبل﴾ أي من قبل القرآن. فإن قلت لم قيل نزل الكتاب وأنزل التوراة والإنجيل. قلت لأن القرآن نزل منجماً مفصلاً

تعلمون أن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء»؟ قالوا: بلى، قال: «فهل يعلم عيسى من ذلك إلاّ ما علم»؟ قالوا: لا، قال: «فإن ربّنا صوّر عيسى في الرحم كيف شاء، وربُّنا لا يأكل ولا يشرب»، قالوا: بلى، قال: «ألستم تعلمون أن عيسى حملته أُمه كما تحمل المرأة ثم وضعته كما تضع المرأة ولدها، ثم غُذّي كما يُغذى الصبي، ثم كان يطعم ويشرب ويحدث»؟ قالوا: بلى، قال: «فكيف يكون هذا كما زعمتم»؟ فسكتوا، فأنزل الله تعالى صدرَ سورة آل عمران وإلى بضع وثمانين آية منها،فقال عزّ مِنْ قائل: ﴿ الٓمٓ الله ﴾، مفتوح الميم موصول عند العامّة، وإنما فتح الميم لالتقاء الساكنين، حُرّك إلى أخفّ الحركات، وقرأ أبو يوسف ويعقوب بن خليفة الأعمش عن أبي بكر ﴿ الٓمٓ الله ﴾ مقطوعاً مسكّن الميم على نيّة الوقف، ثم قطع الهمزة للابتداء وأجراه على لغة مَن يقطع ألف الوصل، ﴿ لا إله إلاّ هو الحيّ القيّوم ﴾. قوله تعالى: ﴿ الله ﴾ ابتداء وما بعده خبره، و﴿ الحيّ القيّوم ﴾ نعتٌ له.

﴿ نزّلَ عليك الكتابَ ﴾ أي: القرآن، ﴿ بالحقّ ﴾، بالصدق، ﴿ مُصدِّقاً لِما بينَ يَدَيْهِ ﴾، لِما قبله من الكتب في التوحيد والنبوّة والأخبار وبعض الشرائع، ﴿ وأنزلَ التوراةَ والإنجيل ﴾.

﴿ مِنْ قَبل ﴾، وإنما قال: ﴿ وأنزل التوراة والإنجيل ﴾ لأن التوراةَ والإنجيلَ أُنزلا جملةً واحدةً، وقال في القرآن ﴿ نزّل ﴾ لأنه نزل مفصّلاً، والتنزيل: للتكثير، والتوراة، قال البصريون: أصلها وورية على وزن: فَوْعلة

في أوقات كثيرة ونزل هو للتكثير وأنزل التوراة والإنجيل جملة واحدة ﴿هدى للناس﴾ يعني أن إنزال التوراة والإنجيل قبل القرآن كان هدى للناس. فإن قلت كيف وصف القرآن في أول البقرة بأنه هدى للمتقين ووصف هنا التوراة والإنجيل بأنهما هدى للناس. قلت إنما وصف القرآن بأنه هدى للمتقين لأنهم هم الذين انتفعوا به وتبعوه ووصف هنا التوراة والإنجيل بأنهما هدى للناس لأن المناظرة كانت مع نصارى نجران وهم يعتقدون صحة التوراة والإنجيل فلهذا السبب قال هنا ﴿هدى للناس﴾ وقيل إن قوله هدى للناس يعود إلى الكتب الثلاثة يعني القرآن المتقدم ذكره والتوراة والإنجيل وإنما وصف هذه الكتب بأنها هدى للناس لما فيها من الشرائع والأحكام ﴿وأنزل الفرقان﴾ يعني الفارق بين الحق والباطل قيل أراد به القرآن وإنما أعاد ذكره تعظيماً لشأنه ومد حاله لكونه فارقاً بين الحق والباطل وقيل إنما أعاد ذكره ليبين أنه تعالى أنزله بعد التوراة والإنجيل ليجعله فارقاً بين ما اختلف فيه اليهود والنصارى في أمر عيسى عليه السلام وقيل المراد به الكتب الثلاثة لأنها كلها هدى للناس ومفرقة بين الحلال والحرام والحق والباطل. وقال السدي: في الآية تقديم وتأخير تقديره وأنزل التوراة والإنجيل والفرقان هدى للناس ﴿إن الذين كفروا بآيات الله﴾ يعني الكتب المنزلة وغيرها قيل أراد بهم نصارى وفد نجران كفروا بالقرآن وبمحمد ﷺ وقيل إن خصوص السبت لا يمنع عموم اللفظ فهو يتناول كل من كفر بشيء من آيات الله تعالى: ﴿لهم عذاب شديد والله عزيز﴾ أي غالب لا يغلب ﴿ذو انتقام﴾ يعني ممن كفر به والانتقام المبالغة في العقوبة. قوله عز و جل: ﴿إن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء﴾ أي لا يخفى عليه شيء من أمر العالم وهو المطلع على أحوالهم فقوله:

إن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء إشارة إلى كمال علمه المتعلق بجميع المعلومات ﴿هو الذي يصوركم في الأرحام﴾ التصوير جعل الشيء على صورة والصورة هيئة يكون عليها الشيء بالتأليف والأرحام جمع رحم ﴿كيف يشاء﴾ يعني الصور المختلفة المتفاوتة في الحلقة ذكراً أو أنثى أبيض أو أسود حسناً أو قبيحاً كاملاً أو ناقصاً والمعنى أنه الذي يصوركم في ظلمات الأرحام صوراً مختلفة في الشكل والطبع واللون وذلك من نطفة. (ق) عن عبدالله بن مسعود قال حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق إن خلق أحدكم يجمع في بطن

مثل دوخلة وحَوْقَلة فحوّلت الواو الأولى تاء وجعلت الياء المفتوحة ألفاً فصارت توراة، ثم كتبت بالياء على أصل الكلمة، وقال الكوفيون: أصلها تفعلة مثل توصية وتوفية، فقُلبت ألفاً على لغة طيء، فإنهم يقولون للجارية جاراة، وللناصية ناصاة، وأصلها من قولهم. ورى الزند إذا خرجت ناره وأوريته أنا، قال الله تعالى: ﴿ أفرأيتم النار التي تُورون ﴾ [الواقعة: ٧١] فسمّى التوراة لأنها نور وضياء، قال الله تعالى: ﴿ وضياء وذكرى للمتقين ﴾ [الأنبياء: ٤٨]، وقيل: هي من التورية وهي كتمان السر والتعريض بغيره، وكان في التوراة معاريض من غير تصريح، والإنجيل: أفعيل من النجل وهو الخروج، ومنه سمّي الولد نجلاً لخروجه، فسُمّي الإنجيل به لأن الله تعالى أخرج به دارساً من الحق عافياً ويقال: هو من النجل وهو سَعَة العين، سُمّي به لأنه أُنزلَ سعةً لهم ونوراً، وقيل: التوراة بالعبرانية توروتور، معناه: الشريعة، والإنجيل بالسريانية: أنقليون، ومعناه الإكليل. قوله تعالى: ﴿ هُدىً للناس ﴾، هادياً لمَن تَبِعَه، ولم يثنّه لأنه مصدر، ﴿ وأنزلَ الفُرْقَانَ ﴾ المفرّق بين الحق والباطل، وقال السدي: في الآية تقديم وتأخير، تقديرها: وأنزل التوراة والإنجيل والفرقان هدىً للناس، قوله تعالى: ﴿ إن الذينَ كفرُوا بآياتِ اللَّهِ لهمْ عذابٌ شديدٌ واللَّهُ عزيزٌ ذُو انْتِقَام ﴾.

﴿ إنّ اللَّهَ لا يخفَى عليه شيء في الأرض ولا في السماء ﴾.

﴿ هو الذين يُصوّركم في الأرحام كيف يشاء ﴾، من الصور المختلفة ذكراً أو أُنثى أبيضَ أو أسودَ حسناً أو

أمه أربعين يوماً ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يبعث إليه ملك بأربع كلمات يكتب رزقه وأجله وعمله شقي أو سعيد، ثم ينفخ فيه الروح فوالله الذي لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلاّ ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلاّ ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها». (ق) عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: «وكل الله بالرحم ملكاً فيقول: أي رب نطفة أي رب علقة أي رب مضغة فإذا أراد الله أن يقضي خلقها قال: يا رب أذكر أم أنثى أشقي أم سعيد فما الرزق فما الأجل؟ فكتب له ذلك في بطن أمه» وقيل إن الآية واردة في الرد على النصارى وذلك أن عيسى عليه السلام كان يخبر ببعض الغيب فيقول: أكلت في دارك كذا صنعت كذا وإنه أحيا الموتى وأبرأ الأكمه والأبرص وخلق من الطين طيراً فادعت النصارى فيه الإلهية وقالوا: ما قدر على ذلك إلاّ أنه إله فرد الله تعالى عليهم بذلك. وأخبر أن الإله المستحق لهذا الاسم هو الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء وأنه المصور في الأرحام كيف يشاء، وأن عيسى عليه السلام ممن صوره في الرحم فنبه بكونه مصور في الرحم على أنه عبد مخلوق كغيره وأنه يخفى عليه ما لا يخفى على الله عز وجل: ﴿**لا إله إلاّ هو العزيز الحكيم**﴾ وهذا أيضاً في الرد على النصارى حيث قالوا: عيسى ولد الله كأنه قال: كيف يكون ولد إله وقد صوره الله في الرحم. قوله عز وجل:

هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۗ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٧

﴿**هو الذي أنزل عليك الكتاب**﴾ يعني القرآن ﴿**منه آيات محكمات**﴾ يعني مبينات مفصلات أحكمت عبارتها

قبيحاً تامّاً أو ناقصاً. ﴿ **لا إله إلاّ هو العزيز الحكيم** ﴾، وهذا ردٌّ على وَفْدِ نجرانَ من النصارى حيث قالوا: عيسى ولد الله، وكأنه يقول: كيف يكون ولداً وقد صوّره الله تعالى في الرحم؟ أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أخبرنا أبو محمد عبد الرحيم بن أحمد بن محمد الأنصاري أنا أبو القاسم عبد الله بن محمد بن عبد العزيز البغوي أنا علي بن الجعد أنا أبو خيثمة زهير بن معاوية عن الأعمش عن زين بن وهب قال: سمعت عبد الله بن مسعود يقول: حدّثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق: «أن أحدكم يجمع في بطن أُمه أربعينَ يوماً نطفةً ثم يكونُ علقةً مثلَ ذلك، ثم يكونُ مضغةً مثل ذلك ثم يَبعثُ اللّهُ إليه الملكَ أو قال: يُبعث إليه الملَكُ بأربع كلمات، فيُكتبُ رزقُه وعملُه وأجلُه وشقيٌّ أو سعيد، قال: وإن أحدكم ليعملُ بعمل أهلِ الجنةِ حتى ما يكونَ بينهـا وبينه غير ذراعٍ فيسبق عليه الكتابُ فيعمل بِعملِ أهل النارِ فيَدْخُلها، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينها وبينه غير ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها». أخبرنا إسماعيل بن عبد القادر الجرجاني أنا عبد الغافر بن محمد الفارسي أنا أبو أحمد محمد بن عيسى الجلودي أنا أبو إسحق إبراهيم بن محمد بن سفيان أنا مسلم بن الحجّاج أنا محمد بن عبد الله بن نمير ثنا سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار عن أبي الطفيل عن حذيفة بن أسيد يبلغ به النبي ﷺ قال: «يدخل الملك على النطفة بعدما تستقر في الرحم بأربعين أو خمسة وأربعين ليلة، فيقول: يا رب أشقي أم سعيد؟ فيكتب ذلك فيقول: يا رب أذكرٌ أم أُنثى؟ فيكتبان، ويُكتبُ عملُه وأجلُه ورزقُه ثم تُطوى الصحف، فلا يُزاد فيها ولا يُنقص».

قوله تعالى: ﴿ **هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آياتٌ محكمات** ﴾ مبيّنات مفصّلات سمّيت محكمات من

من احتمال التأويل والاشتباه سميت محكمة من الإحكام كأنه تعالى أحكمها فمنع الخلق من التصرف فيها لظهورها ووضوح معناها ﴿هن أم الكتاب﴾ يعني هن أصل الكتاب الذي يعول عليه في الأحكام، ويعمل به في الحلال والحرام فإن قلت: كيف قال هن أم الكتاب ولم يقل أمهات الكتاب؟ قلت: لأن الآيات في اجتماعها وتكاملها كالآية الواحدة وكلام الله كله شيء واحد. وقيل: إن كل آية منهن أم الكتاب كما قال وجلعنا ابن مريم وأمه آية يعني أن كل واحد منهما آية ﴿وأخر﴾ جمع أخرى ﴿متشابهات﴾ يعني أن لفظه يشبه لفظ غيره ومعناه يخالف معناه. فإن قلت: قد جعله هنا محكماً ومتشابهاً وجعله في موضع آخر كله محكماً فقال في أول هود ﴿الر كتاب أحكمت آياته﴾ وجعله في موضع آخر كله متشابهاً. فقال تعالى في الزمر: ﴿الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً﴾ فكيف الجمع بين هذه الآيات. قلت: حيث جعله كله محكماً أراد أنه كله حق وصدق ليس فيه عبث ولا هزل وحيث جعله كله متشابهاً أراد أن بعضه يشبه بعضاً في الحسن والحق والصدق، وحيث جعله هنا بعضه محكماً وبعضه متشابهاً فقد اختلفت عبارات العلماء فيه فقال ابن عباس: المحكمات الثلاث آيات التي في آخر سورة الأنعام وهي قوله تعالى: ﴿قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم﴾ ونظيرها في بني إسرائيل ﴿وقضى ربك أن لا تعبدوا إلّا إياه الآيات﴾. وعنه أن الآيات المحكمة هي الناسخ والمتشابهات هي الآيات المنسوخة وبه قال ابن مسعود وقتادة والسدي وقيل إن المحكمات ما فيه أحكام الحلال والحرام والمتشابهات ما سوى ذلك يشبه بعضه بعضاً ويصدق بعضه بعضاً وقيل: إن المحكمات ما طلع الله عباده على معناه والمتشابه ما استأثر الله بعلمه فلا سبيل لأحد إلى معرفته نحو الخبر عن أشراط الساعة مثل الدجال ويأجوج ومأجوج ونزول عيسى عليه السلام وطلوع الشمس من مغربها وفناء الدنيا وقيام الساعة فجميع هذا مما استأثر الله بعلمه وقيل: إن المحكم ما لا يحتمل من التأويل إلّا وجهاً واحداً والمتشابه ما يحتمل أوجهاً وروي ذلك عن الشافعي وقيل إن المحكم سائر القرآن والمتشابه هي الحروف المقطعة في أوائل السور. قال ابن عباس إن رهطاً من اليهود منهم حيي بن أخطب وكعب بن الأشرف ونظراؤهما أتوا النبي ﷺ فقال له حيي بلغنا: أنك أنزل عليك الم فأنشدك الله أأنزل عليك قال

الإحكام كأنه أحكمها فمنع الخلق من التصرّف فيها لظهورها ووضوح معناها، ﴿ هُنَّ أُمُّ الكتاب ﴾، أي: أصله الذي يعوّل عليه في الأحكام، وإنما قال: هنّ أم الكتاب، ولم يقل: أُمهات الكتاب لأن الآيات كلها في تكاملها واجتماعها كالآية الواحدة، وكلام الله تعالى واحد، وقيل معناه: كل آية منهنّ أُمُّ الكتاب، كما قال: ﴿ وجعلنا ابنَ مريمَ وأُمَّه آيةً ﴾ [المؤمنون: ٥٠] أي: كل واحد منهما آية، ﴿ وأُخَر ﴾، جمع أُخرى، ولم يصرفه لأنه معدول عن الآخر مثل: عُمر وزُفر، ﴿ مُتَشَابهات ﴾، فإن قيل: كيف فرّق ههنا بين المُحكم والمُتشابه وقد جعل الله كلَّ القرآن محكماً في مواضع أُخر فقال: ﴿ آلر كتابٌ أُحكمتْ آياتُه ﴾ [هود: ١] وجعل كلَّه متشابهاً فقال: ﴿ الله نزّلَ أحسنَ الحديثِ كتاباً متشابهاً ﴾ [الزمر: ٢٣]؟ قيل: حيث جعل الكل محكماً أراد أنّ الكل حقٌّ ليس فيه عَبَثٌ ولا هَزْلٌ، وحيث جعل الكلَّ متشابهاً أراد أن بعضه يُشبه بعضاً في الحق والصدق وفي الحُسن، وجعل ههنا بعضه محكماً وبعضه متشابهاً. واختلف العلماء فيهما فقال ابن عباس رضي الله عنهما: المُحكمات هنّ الآيات الثلاث في سورة الأنعام: ﴿ قلْ تعالَوا أتلُ ما حرّم ربُّكم عليكم ﴾ [الأنعام: ١٥١]، ونظيرها في بني إسرائيل: ﴿ وقضى ربُّك ألاّ تعبدُوا إلاّ إيّاه ﴾ [الإسراء: ٢٣]، الآيات. وعنه أنه قال: المتشابهات حروف التهجّي في أوائل السور. وقال مجاهد وعكرمة: المحكم ما فيه من الحلال والحرام، وما سوى ذلك متشابه يُشبه بعضه بعضاً في الحق ويُصدّق بعضه بعضاً، كقوله تعالى: ﴿ وما يُضلّ به إلاّ الفاسقين ﴾ [البقرة: ٢٦]، ﴿ ويجعل الرِّجْسَ على الذين لا يُؤمنون ﴾ [الأنعام: ١٢٥]، وقال قتادة والضحاك والسدي: المحكم الناسخ الذي يُعمل به، والمتشابه المنسوخ

نعم. قال: إن كان ذلك حقاً فإني أعلم مدة ملك أمتك هي إحدى وسبعون سنة فهل أنزل عليك غيرها؟ قال: نعم آلمص قال: فهذه أكثر هي إحدى وستون ومائة فهل أنزل عليك غيرها؟ قال نعم آلر قال: هذه أكثر هي مائتان وإحدى وثلاثون سنة فهل من غيرها؟ قال: نعم آلمرقال هذه أكثر هي مائتان وإحدى وسبعون سنة. وقد اختلط علينا فلا ندري أبكثيره نأخذ أم بقليله ونحن ممن لا يؤمن بهذا. فأنزل الله هذه الآية قوله تعالى. **﴿فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه﴾** وقيل: إن المحكم ما لم تتكرر ألفاظه والمتشابه ما تكررت ألفاظه وقيل: إن المحكم ما استقل بنفسه ولم يحتج إلى بيان. والمتشابه ما احتاج إلى بيان وقيل: إن المحكم هو الأمر والنهي والوعد والوعيد والمتشابه هو القصص والأمثال. فإن قلت: إنما نزل القرآن لبيان الدين وإرشاد العباد وهدايتهم فما فائدة المتشابه وهلا كان كله محكماً؟ قلت: ذكر العلماء عن هذا السؤال أجوبة أحدها. أن القرآن أنزل بألفاظ العرب ولغاتهم وكلام العرب على ضربين أحدهما: الإيجاز للاختصار والموجز الذي لا يخفى على سامعه لا يحتمل غير ظاهره، والإطالة لبيان المراد والتوكيد. الضرب الثاني: المجاز والكنايات والإشارات والتلويحات وإغماض بعض المعاني، وهذا الضرب هو المستحسن عند العرب والبديع في كلامهم فأنزل الله تعالى القرآن على هذين الضربين ليتحقق عجزهم عن الإتيان بمثله فكأنه قال: عارضوه بأي الضربين شئتم، ولو نزل كله محكماً واضحاً لقالوا: هلا أنزل بالضرب المستحسن عند الجواب الثاني أن الله تعالى أنزل المتشابه لفائدة عظيمة، وهي أن يشتغل أهل العلم والنظر بردهم المتشابه إلى المحكم فيطول بذلك فكرهم ويتصل بالبحث عن معانيه اهتمامهم فيثابون على تعبهم كما أثبتوا على عباداتهم. ولو أنزل القرآن كله محكماً لاستوى في معرفته العالم والجاهل ولم يفضل العالم على غيره ولماتت الخواطر وخمدت الفكرة، ومع الغموض تقع الحاجة إلى الفكرة والحيلة إلى استخراج المعاني. وقد قيل في عيب الغنى إنه يورث البلادة وفي فضيلة الفقر إنه يورث الفطنة. وقيل: إنه يبعث على الحيلة لأنه إذا احتاج احتال. الجواب الثالث: أن أهل كل علم يجعلون في علومهم معاني غامضة ومسائل دقيقة ليختبروا بذلك أذهان المتعلمين منهم على انتزاع الجواب لأنهم إذ قدروا على انتزاع المعاني الغامضة كانوا على الواضح أقدر، فلما كان ذلك حسناً عند العلماء جاز أن يكون ما أنزل الله تعالى من المتشابه على هذا النحو.

الذي يُؤمن به ولا يعمل به. وروى عليّ بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: محكمات القرآن: ناسخه، وحلاله، وحرامه، وحدوده، وفرائضه، وما يُؤمن به، ويعمل به والمتشابهات: منسوخه، ومُقدَّمه، ومُؤخره، وأمثاله، وأقسامه، وما يُؤمَن به ولا يعمل به. وقيل: المحكمات ما أوقف اللَّهُ الخلقَ على معناه، والمتشابه ما استأثر الله تعالى بعلمه، ولا سبيل لأحدٍ إلى علمه، نحو الخبر عن أشراط الساعة، وخروج الدجّال ونزول عيسى عليه السلام، وطلوع الشمس من مغربها، وقيام الساعة، وفناء الدنيا. قال أحمد بن جعفر بن الزبير: المحكم ما لا يحتمل من التأويل غير وجه واحد، والمتشابه ما يحتمل أوجهاً. وقيل: المحكم ما يُعرف معناه وتكون حجّته واضحةً، ودلائله لائحةً لا يُشتبه، والمتشابه هو الذي يُدرك علمه بالنظر، ولا يعرف العوام تفصيل الحق فيه من الباطل. وقال بعضهم: المحكم ما يستقل بنفسه في المعنى، والمتشابه ما لا يستقل بنفسه إلّا بردّه إلى غيره. قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما في رواية بَاذَان: المتشابه حروف التهجّي في أوائل السور، وذلك أن رهطاً من اليهود منهم حُيي بن أخطب وكعب بن الأشرف ونظراؤهما أتوا النبي ﷺ فقال له حيي: بلغنا أنه أنزل عليك ﴿آلم﴾ [آل عمران: ١] ننشدك الله أأنزلت عليك؟ قال: نعم، قال: فإن كان ذلك حقاً فإني أعلم مدّة مُلك أُمتك هي إحدى وسبعون سنة، فهل أنزل غيرها؟ قال: نعم ﴿آلمَصّ﴾ [الأعراف: ١]، قال: فهذه أكثر، هي إحدى وسبعون ومائة سنة، قال: فهل غيرها؟ قال: نعم ﴿آلر﴾ [هود: ١، يوسف: ١، إبراهيم: ١ الحجر: ١]، قال: هذه أكثر هي مائتان وإحدى وسبعون سنة، فهل غيرها؟ قال: نعم ﴿آلمَر﴾ [الرعد: ١]، قال: هذه أكثر هي مائتان وإحدى

الجواب الرابع: ان الله تعالى أنزل المتشابه في كتابه مختبراً به عباده ليقف المؤمن عنده ويرد علمه إلى عالمه فيعظم بذلك ثوابه، ويرتاب به المنافق فيداخله الزيغ فيستحق بذلك العقوبة كما ابتلى بنو إسرائيل بالنهر والله أعلم بمراده. وقوله تعالى: **﴿فأما الذين في قلوبهم زيغ﴾** أي ميل عن الحق وقيل: الزيغ الشك واختلفوا في المعنى بهم والمشار إليهم فقيل هم وفد نجران الذين خاصموا رسول الله ﷺ في عيسى عليه السلام وقالوا: ألست تزعم أن عيسى روح الله وكلمته؟ قال: بلى قالوا: حسبنا فأنزل الله هذه الآية. وقيل: هم اليهود لأنهم طلبوا معرفة مدة بقاء هذه الأمة واستخراجه بحساب الجميل من الحروف المقطعة في أوائل السور. وقيل: هم المنافقون وقيل: هم الخوارج وكان قتادة يقول: إن لم يكونوا الحرورية والسبئية فلا أدري من هم. وقيل هم جميع المبتدعة **﴿فيتبعون ما تشابه منه﴾** يعني يحيلون المحكم على المتشابه والمتشابه على المحكم، ويقولون: ما بال هذه الآية عمل بها كذا وكذا ثم نسخت. وقيل كل من احتج لباطله بالمتشابه فهو المعنى بهذه الآية. (ق) عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: «تلا رسول الله ﷺ: **﴿هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات ـ إلى ـ وما يذكر إلاّ أولو الألباب﴾** فقال: إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سماهم الله فاحذروهم» وقوله تعالى: **﴿ابتغاء الفتنة﴾** أي طلب الشرك والكفر. وقيل: طلب الشبهات واللبس ليضلوا بها جهالهم وقيل: طلب إفساد ذات البين **﴿وابتغاء تأويله﴾** أي تفسيره. وأصل التأويل في اللغة: المرجع والمصير تقول: آل الأمر إلى كذا إذا رجع إليه وتسمى العاقبة تأويلاً لأن الأمر يصير إليه. قال ابن عباس في قوله: وابتغاء تأويله أي طلب بقاء ملك محمد ﷺ وقيل: المراد بهم الكفار طلبوا متى يبعثون وكيف أحياهم بعد الموت وقيل هو طلب تفسير المتشابه وعلمه **﴿وما يعلم تأويله إلاّ الله﴾** يعني تأويل المتشابه وقيل: لا يعلم انقضاء ملك هذه الأمة إلاّ الله تعالى لأن انقضاء ملكها مع

وسبعون سنة، ولقد خلطت علينا فلا ندري أبكثيره نأخذ أم بقليله، ونحن ممّن لا يؤمن بهذا، فأنزل الله تعالى: **﴿ هو الذي أنزلَ عليكَ الكتابَ منه آياتٌ محكماتٌ هُنَّ أمُّ الكتابِ وأُخَرُ مُتشابهات، فأمّا الذين في قلوبهم زيغٌ ﴾** أي: ميل عن الحق، وقيل: شك، **﴿ فيتّبِعُونَ ما تشابه منه ﴾**، واختلفوا في المعنى بهذه الآية، قال الربيع: هم وفد نجران إن خاصمُوا النبيّ ﷺ في عيسى عليه السلام، وقالوا له: ألستَ تزعم أنه كلمة الله ورُوح منه؟ قال: بلى، قالوا: حسبنا ذلك، فأنزل الله هذه الآية. وقال الكلبي: هم اليهود طلبوا علم أجل هذه الأمة واستخراجه بحساب الجُمل. وقال ابن جريج: هم المنافقون. وقال الحسن: هم الخوارج. وكان قتادة إذا قرأ هذه الآية **﴿ فأمّا الذين في قلوبهم زَيغٌ ﴾** قال: إن لم يكونوا الحرورية والسبئية فلا أدري مَن هم؟ وقيل: هم جميع المبتدعة. أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي، أنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، أنا محمد بن إسماعيل، أنا عبد الله بن مسلمة أنا يزيد بن إبراهيم التستري عن ابن أبي مُليكة عن القاسم بن محمد عن عائشة رضي الله عنها قالت: تلا رسول الله ﷺ هذه الآية: **﴿ هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هنّ أمّ الكتاب وأُخر متشابهات ﴾** إلى قوله: **﴿ أُولوا الألباب ﴾**، قالت: قال رسول الله ﷺ: «فإذا رأيتَ الذين يتّبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمّى الله فاحذروهم» قوله تعالى: **﴿ ابْتغَاء الفتنة ﴾**: طلبُ الشرك، قاله الربيع والسدي، وقال مجاهد: ابتغاء الشبهات واللّبْس ليضلّوا بها جهّالَهم، **﴿ وابْتغاءَ تأويله ﴾**: تفسيره وعِلْمه، دليله قوله تعالى: **﴿ سأنبّئك بتأويل مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عليه صبراً ﴾** [الكهف: ٧٨]، وقيل: ابتغاء عاقبته، وطلب أجل هذه الأمة من حساب الجُمل، دليله قوله تعالى: **﴿ ذلك خيرٌ وأحسنُ تأويلاً ﴾** [النساء: ٥٩، الإسراء: ٣٥] أي: عاقبة. قوله تعالى: **﴿ وما يعلم تأويلَه إلاّ اللّهُ، والراسِخُون في العلم ﴾**، اختلف العلماء في نظم هذه الآية فقال قوم: الواو في قوله: **﴿ والراسخون ﴾** واو العطف، يعني: أن تأويل المتشابه يعلمه الله ويعلمه الراسخون في العلم وهم مع

قيام الساعة. ولا يعلم ذلك إلاّ الله وقيل: يجوز أن يكون للقرآن تأويل استأثر الله بعلمه ولم يطلع عليه أحداً من خلقه كعلم قيام الساعة ووقت طلوع الشمس من مغربها، وخروج الدجال، ونزول عيسى ابن مريم، وعلم الحروف المقطعة، وأشباه ذلك مما استأثر الله بعلمه فالإيمان به واجب وحقائق علومه مفوضة إلى الله تعالى، وهذا قول أكثر المفسرين وهو مذهب ابن مسعود وابن عباس في رواية عنه، وأبي بن كعب وعائشة وأكثر التابعين فعلى هذا القول تم الكلام عند قوله: ﴿**إلاّ الله**﴾ فيوقف عليه ثم ابتدأ فقال عز من قائل ﴿**والراسخون في العلم**﴾ أي الثابتون في العلم وهم الذين أتقنوا علمهم بحيث لا يدخل في علمهم شك ﴿**يقولون آمنا به**﴾ قال ابن عباس: سماهم راسخين في العلم بقولهم آمنا به فرسوخهم في العلم هو الإيمان به. وقال عمر بن عبدالعزيز في هذه الآية انتهى علم الراسخين في العلم بتأويل القرآن إلى أن قالوا آمنا به ﴿**كل من عند ربنا**﴾ يعني المحكم والمتشابه والناسخ والمنسوخ وما علمنا منه وما لم نعلم ونحن معتبدون في المتشابه بالإيمان به، ونكل معرفته إلى الله تعالى. وفي المحكم يجب علينا الإيمان به والعمل بمقتضاه. وروي عن ابن عباس أنه قال تفسير القرآن على أربعة أوجه فمنه تفسير لا يسع أحداً جهله، وتفسير تعرفه العرب بألسنتها، وتفسير تعلمه العلماء، وتفسير لا يعلمه إلاّ الله. وقيل: إن الواو في قوله والراسخون في العلم واو عطف يعني أن تأويل المتشابه يعلمه الله ويعلمه الراسخون في العلم وهم مع علمهم يقولون آمنا به. روي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنه أنه كان يقول: أنا من الراسخين في العلم وعن مجاهد عنه أنا ممن يعلم تأويله. ووجه هذا القول أن الله تعالى أنزل كتابه لينتفع به عباده ولا يجوز أن يكون في القرآن شيء لا يعرفه أحد من الأمة وفي المراد بالراسخين في العلم هنا قولان أحدهما: أنهم مؤمنوا أهل الكتاب مثل عبدالله بن سلام وأصحابه دليله قوله تعالى: ﴿**لكن الراسخون في العلم منهم**﴾. والقول الثاني:

علمهم: ﴿ **يقولون آمنّا به** ﴾، وهذا قول مجاهد والربيع، وعلى هذا يكون قوله: ﴿ **يقولون** ﴾ حالاً معناه: والراسخون في العلم مع علمهم قائلين آمنّا به، هذا كقوله تعالى: ﴿ ما أفاء اللَّهُ على رسولهِ من أهلِ القُرى فللّه وللرسول ولذي القربى ﴾ [الحشر: ٧] ثم قال: ﴿ للفقراء المهاجرين الذين أُخرجوا منْ ديارهم ﴾ [الحشر: ٨] إلى أن قال: ﴿ والذين تبوّؤا الدارَ والإيمانَ مِنْ قبلهم ﴾ [الحشر: ٩] ثم قال: ﴿ والذين جاؤوا من بعدهم ﴾ [الحشر: ١٠]، وهذا عطف على ما سبق، ثم قال: ﴿ يقولون ربَّنا اغفِرْ لنا ﴾ [الحشر: ١٠] يعني: هم مع استحقاقهم للفيء يقولون: ربَّنا اغفرْ لنا، أي: قائلين على الحال، ورُوِيَ عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه كان يقول في هذه الآية: إنّا من الراسخين في العلم، وقال مجاهد: إنّا ممّن يعلم تأويله، وذهب الأكثرون إلى أن الواو في قوله: ﴿ **والراسخون** ﴾ واو الاستئناف وتمَّ الكلامُ عند قوله: ﴿ **وما يعلم تأويلَه إلاّ الله** ﴾ وهو قول أُبيّ بن كعب وعائشة وعُروة بن الزبير رضي الله عنهم، ورواية طاوس عن ابن عباس رضي الله عنهما، وبه قال الحسن وأكثر التابعين، واختاره الكسائي والفرّاءُ والأخفش، وقالوا: لا يعلم تأويل المتشابه إلاّ الله، ويجوز أن يكون في القرآن تأويلٌ استأثر الله بعلمه ولم يُطلعْ عليه أحداً من خلقه، كما استأثر بعلم الساعة، ووقت طلوع الشمس من مغربها، وخروج الدجّال، ونزول عيسى عليه الصلاة والسلام، ونحوها. والخلقُ مُتعبِّدُون في المتشابه بالإيمان به، وفي المحكم بالإيمان به والعمل، ومما يصدق ذلك قراءة عبدالله (إنْ تأويلُه إلاّ عند الله، والراسخون في العلم يقولون آمنّا)، وفي حرف أُبيّ (ويقول الراسخون في العلم آمنّا به)، وقال عمر بن عبد العزيز في هذه الآية: انتهى علم الراسخين في العلم بتأويل القرآن إلى أن قالوا: آمنّا به كلٌّ من عند ربنا. وهذا القول أقيس في العربية وأشبه بظاهر الآية. قوله تعالى: ﴿ **والراسخون في العلم** ﴾ أي: الداخلون في العلم هم الذين أتقنوا علمهم بحيث لا يدخل في معرفتهم شك، وأصله من رسوخ الشيء في الشيء وهو ثبوته، يقال: رسخ الإيمان في قلب فلان،

أن الراسخين هم العلماء العاملون بعلمهم. سئل أنس بن مالك عن الراسخين في العلم فقال: العالم العامل بما علم المتبع له وقيل، الراسخ في العلم من وجد في علمه أربعة أشياء التقوى فيما بينه وبين الله تعالى، والتواضع فيما بينه وبين الناس، والزهد فيما بينه وبين الدنيا، والمجاهدة فيما بينه وبين النفس ﴿وما يذكر إلاّ أولو الألباب﴾ أي وما يتعظ بما في القرآن إلاّ ذوو العقول وهذا ثناء من الله عز وجل على الذين قالوا آمنا به كل من عند ربنا.

قوله عز وجل: .

رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴿٨﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَٰئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ ﴿١٠﴾ كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١١﴾

﴿ربنا لا تزغ قلوبنا﴾ أي ويقول الراسخون في العلم: ربنا لا تزغ قلوبنا أي لا تملها عن الحق والهدى كما أزغت قلوب الذين في قلوبهم زيغ ﴿بعد إذ هديتنا﴾ أي وفقتنا لدينك والإيمان بالمحكم والمتشابه من كتابك ﴿وهب لنا من لدنك رحمة﴾ أي أعطنا توفيقاً وتثبيتاً للذي نحن عليه من الإيمان والهدى وقيل: هب لنا تجاوزاً ومغفرة ﴿إنك أنت الوهاب﴾ الهبة العطية الخالية عن الأعواض والأغراض والوهاب في صفة الله تعالى أنه يعطي كل أحد على قدر استحقاقه. (م) عن عبدالله بن عمرو بن العاص أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «قلوب بني آدم كلها بين أصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرفه حيث يشاء» ثم قال رسول الله ﷺ: «اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك» هذا من أحاديث الصفات وللعلماء فيه قولان أحدهما: الإيمان به وإمراره كما جاء، من غير تعرض لتأويل ولا تكييف ولا لمعرفة معناه بل نؤمن به كما جاء وأنه حق ونكل علمه إلى مراد الله ورسوله ﷺ

يرسخ رسخاً ورُسوخاً، وقيل: الراسخون في العلم مؤمنوا أهل الكتاب مثل عبد الله بن سلام وأصحابه، دليله قوله تعالى: ﴿ لكن الراسخون في العلم منهم ﴾ [النساء: ١٦٢]، يعني: الدارسون علم التوراة والإنجيل، وسُئل مالك بن أنس رضي الله عنه عن الراسخين في العلم، قال: العالِمُ العامِلُ بما عَلِمَ المتَّبعُ لِما عَلِم. وقيل: الراسخ في العلم مَنْ وُجِدَ في علمه أربعة أشياء: التقوى بينه وبين الله، والتواضع بينه وبين الخلق، والزهد بينه وبين الدنيا، والمجاهدة بينه وبين نفسه. وقال ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد والسدي: بقولهم آمنّا به سمّاهم الله تعالى راسخين في العلم، فرسوخهم في العلم قولهم آمنّا به، أي: بالمتشابه، ﴿ **كلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنا** ﴾: المحكم والمتشابه والناسخ والمنسوخ، وما علمنا وما لم نعلم، ﴿ **وما يذّكرُ** ﴾: ما يتّعظ بما في القرآن ﴿ **إلاّ أُولوا الألباب** ﴾، ذَوُو العقول.

قوله تعالى: ﴿ **ربَّنا لا تزغْ قُلوبَنا** ﴾، أي: ويقول الراسخون ربّنا لا تُزغْ قلوبنا، أي: لا تُملْها عن الحق والهدى كما أزغْت قلوبَ الذين في قلوبهم زيغ، ﴿ **بعدَ إذْ هَديتَنا** ﴾، وفّقتنا لدينِكَ والإيمان بالمُحكم والمُتشابه من كتابك، ﴿ **وهبْ لنَا مِنْ لَدُنْكَ** ﴾: أعطِنَا من عندك، ﴿ **رحمةً** ﴾، تَوْثيقاً وتثبيتاً للذي نحن عليه من الإيمان والهُدَى. وقال الضحاك: تجاوزاً ومغفرةً، ﴿ **إنّك أنْتَ الوهّاب** ﴾. أخبرنا أبو الفرج المظفر بن إسماعيل التميمي، أنا أبو القاسم حمزة بن يوسف السُهمي أنا أبو القاسم أحمْد بن عدي الحافظ، أنا أبو بكر بن عبد الرحمن بن القاسم القرشي، يُعرف بابن الروّاس الكبير بدمشق، أنا أبو مسهر عبد الأعلى بن مسهر الغساني أنا صدقة، أنا ابن

هذا القول هو مذهب أهل السنة من سلف الأمة وخلفها من أهل الحديث وغيرهم. والقول الثاني إنه يتأول بحسب ما يليق به وأن ظاهره غير مراد قال تعالى: ﴿**ليس كمثله شيء**﴾ فعلى هذا المراد هو المجاز كما يقال فلان في قبضتي وفي كفي يريد أنه تحت قدرته وفي تصرفه إلاّ أنه حال في كفه فمعنى الحديث أنه سبحانه وتعالى متصرف في قلوب عباده وغيرها كيف شاء لا يمتنع عليه منها شيء ولا يفوته ما أراد منها كما لا يمتنع على الإنسان ما بين أصبعيه فخاطب رسول الله ﷺ أصحابه بما يفهمونه ويعلمونه من أنفسهم، وإنما ثنى لفظ الأصبعين والقدرة واحدة لأنه جرى على المعهود من التمثيل بحسب ما اعتادوه وإن كان غير مقصود به التثنية أو الجمع، وهذا مذهب جمهور المتكلمين وغيرهم من المتأخرين. وإنما خص القلوب بالذكر لفائدة وهي أن الله تعالى جعل القلوب، محلاً للخواطر والإرادات والنيات وهي مقدمات الأفعال ثم جعل سائر الجوارح تابعة للقلوب في الحركات والسكنات والله أعلم. قوله عز وجل: ﴿**ربنا إنك جامع الناس ليوم لا ريب فيه**﴾ أي ليوم القضاء. وقيل: اللام بمعنى في أي يوم لا ريب فيه أي لا شك فيه أنه كائن وهو يوم القيامة ﴿**إن الله لا يخلف الميعاد**﴾ هذا من بقية دعاء الراسخين في العلم، وذلك أنهم طلبوا من الله تعالى أن يصرف قلوبهم عن الزيغ وأن يخصهم بالهداية والرحمة وذلك من مصالح الدين والدنيا ثم إنهم اتبعوا ذلك بقولهم: ﴿**ربنا إنك جامع الناس ليوم لا ريب فيه**﴾ ومعناه إنا نعلم أنك جامع الناس للجزاء في يوم القيامة، ونعلم أن وعدك حق، وأنك لا تخلف الميعاد فمن أزغت قلبه فهو هالك، ومن مننت عليه بالهداية والرحمة فهو ناج من العذاب سعيد. قوله عز وجل: ﴿**إن الذين كفروا**﴾ يعني برسول الله ﷺ قال ابن عباس: هم قريظة والنضير ﴿**لن تغني**﴾ أي لن تنفع ولن تدفع ﴿**عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً**﴾ أي من عذاب الله شيئاً وقيل: من بمعنى عند أي عند الله شيئاً ﴿**وأولئك هم وقود النار كدأب آل فرعون**﴾ قال ابن عباس: كفعل آل فرعون وصنيعهم في الكفر. وقيل: كسنة آل فرعون وقيل كعادة آل فرعون والمعنى أن عادة هؤلاء الكفار في تكذيب رسول الله ﷺ وجحود الحق كعادة آل فرعون فإنهم كذبوا موسى وصدقوا

عبد الرحمن بن جابر حدّثني بشر بن عُبيد الله قال: سمعت أبا إدريس الخَوْلاني يقول: حدّثني النواس بن سمعان الكلابي قال: قال رسول الله ﷺ: «ما مِنْ قلبٍ إلاّ وهو بين أصبعينِ من أصابعِ الرحمن، إذا شاء أن يزيغه أزاغه، وإن شاء أن يقيمه أقامه» وكان رسول الله ﷺ يقول: «اللّهمَّ يا مُقلِّبَ القُلوبِ ثبِّتْ قلوبَنا على دينك»، والميزان بيد الرحمن يرفع قوماً ويضع آخرين إلى يوم القيامة. أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحي، حدّثنا أبو بكر أحمد بن الحسن الحيري أنا حاجب بن أحمد الطوسي أنا عبد الرحيم بن منيب أنا يزيد بن هارون، أنا سعيد بن أياس الحميري عن غنيم بن قيس، عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَثَلُ القلبِ كريشة بأرضٍ فلاةٍ تُقلِّبها الرياحُ ظهراً لبطن».

قوله تعالى: ﴿ **ربّنا إنك جامعُ الناسِ ليوم** ﴾ أي: لانقضاء يوم، وقيل: اللاّم بمعنى: في يوم، ﴿ **لا رَيْبَ فيه** ﴾ أي: لا شك فيه، وهو يوم القيامة، ﴿ **إنّ اللّهَ لا يُخلف الميعاد** ﴾، وهو مِفْعال، من الوَعْد.

قوله تعالى: ﴿ **إنّ الذين كفرُوا لنْ تُغنيَ** ﴾: لن تنفع ولن تدفع، ﴿ **عنهم أموالُهم ولا أولادُهم مِنَ الله** ﴾، قال الكلبي: من عذاب الله، وقال أبو عُبيدة: من بمعنى عند، أي: عند الله ﴿ **شيئاً وأولئك هم وَقُودُ النّار** ﴾.

﴿ **كَدَأْبِ آلِ فِرعَون** ﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما وعكرمة ومجاهد: كفعل آل فرعون وصنيعهم في الكفر والتكذيب. وقال عطاء والكسائي وأبو عبيدة: كسُنّة آل فرعون. وقال الأخفش: كأمْرِ آل فرعون وشأنهم. وقال النّضر بن شُميل: كعادة آل فرعون، يريد عادة هؤلاء الكفّار في تكذيب الرُّسل وجحودِ الحق كعادة آل فرعون، ﴿ **والذين مِنْ قَبْلِهم** ﴾: كفّار الأمم الماضية مثل عاد وثمود وغيرهم، ﴿ **كذّبُوا بآياتِنا فأخذَهُمُ الله** ﴾،

فرعون ﴿والذين من قبلهم﴾ يعني كفار الأمم الماضية مثل عاد وثمود وغيرهم ﴿كذبوا بآياتنا﴾ يعني لما جاءتهم بها الرسل ﴿فأخذهم الله بذنوبهم﴾ أي فعاقبهم الله بسبب تكذيبهم ﴿والله شديد العقاب﴾ وقيل في معنى الآية: إن الذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم عند حلول النقمة والعقوبة مثل آل فرعون وكفار الأمم الخالية فأخذناهم فلم تغن عنهم أموالهم ولا أولادهم. قوله عز وجل:

﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (١٢) قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ ۚ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ (١٣)﴾

﴿قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون﴾ قرىء بالتاء والياء فيهما فمن قرأ بالياء المنقوطة تحت فمعناه بلغهم يا محمد أنهم سيغلبون ويحشرون، ومن قرأ التاء المنقوطة فوق فمعناه قل لهم: ستغلبون وتحشرون ﴿إلى جهنم﴾ قيل: أراد بالذين كفروا مشركي قريش والمعنى قل لكفار مكة: ستغلبون يوم بدر وتحشرون في الآخرة إلى جهنم فلما نزلت هذه الآية قال لهم النبي ﷺ يوم بدر: إن الله غالبكم وحاشركم إلى جهنم وقيل: إن أبا سفيان جمع جماعة من قومه بعد وقعة بدر فأنزل الله تعالى هذه الآية. وقيل: إن هذه الآية نزلت في اليهود. وقال ابن عباس: إن يهود المدينة قالوا لما هزم رسول الله ﷺ المشركين يوم بدر، هذا والله النبي الذي بشر به موسى لا ترد له راية وأرادوا إتباعه ثم قال بعضهم لبعض: لا تعجلوا حتى تنظروا واقعة أخرى. فلما كان يوم أحد ونكب أصحاب رسول الله ﷺ شكواً وغلب عليهم الشقاء فلم يسلموا، وكان بينهم وبين رسول الله ﷺ عهد إلى مدة فنقضوا العهد وانطلق كعب بن الأشرف في ستين راكباً إلى مكة ليستفزهم فأجمعوا أمرهم على قتال رسول الله ﷺ فأنزل الله تعالى هذه الآية. وقال ابن عباس وغيره: لما أصاب رسول الله ﷺ قريشاً يوم بدر ورجع إلى المدينة جمع اليهود في سوق بني قينقاع وقال: يا معشر اليهود احذروا من الله مثل ما أنزل بقريش يوم بدر، وأسلموا قبل أن ينزل لكم

فعاقبهم الله، ﴿ بِذُنُوبهم ﴾، وقيل: نظم الآية: إنَّ الذين كفروا لَنْ تغني عنهم أموالهم ولا أولادُهم عند حلول النِّقمة والعقوبة، مثل آل فرعون وكفّار الأمم الخالية، أخذناهم فلن تُغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من عذاب الله شيئاً، ﴿ واللَّهُ شديدُ العقاب ﴾.

قوله تعالى: ﴿ قل للذين كفروا سَتُغلَبُون وتُحشَرُون إلى جهنم ﴾، قرأ حمزة والكسائي بالياء فيهما، أي: أنهم يُغلبون ويُحشرون، وقرأ الآخرون بالتاء فيهما على الخطاب، أي: قل لهم إنّكم ستُغلبون وتُحشرون، قال مُقاتل: أراد مشركي مكة، معناه: قل لكفّار مكة ستُغلبون يومَ بدرٍ وتُحشرون إلى جهنم في الآخرة، فلمّا نزلت هذه الآية قال لهم النبي ﷺ: يوم بدر: «إنّ الله غالبُكم وحاشرُكم إلى جهنم»، وقال بعضهم: المراد بهذه الآية اليهود، وقال الكلبي: عن ابن صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن يهود أهل المدينة قالوا لمّا هَزم رسول الله ﷺ المشركين يومَ بدر: هذا والله النبي الذي بُشّرنا به وسُمي، لا تُردّ له راية، وأرادوا اتّباعه، ثم قال بعضهم لبعض: لا تعجلوا حتى تنظروا إلى وقعة أخرى، فلما كان يوم أُحد ونكب أصحاب رسول الله ﷺ، شكّوا، فغلب عليهم الشقاء، فلم يُسلموا، وقد كان بينهم وبين رسول الله ﷺ عهدٌ إلى مدة فنقضوا ذلك العهد، وانطلق كعب بن الأشرف في ستّين راكباً إلى مكة يستفزّهم، فأجمعوا أمرهم على قتال رسول الله ﷺ، فأنزل الله تعالى فيهم هذه الآية. وقال محمد بن إسحق عن رجاله، ورواه سعيد بن جبير وعكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما أيضاً: أنه لمّا

ما نزل بهم فقد عرفتم إني نبي مرسل تجدون ذلك في كتابكم فقالوا: يا محمد لا يغرنك أنك لقيت قوماً أغماراً لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة وإنا الله لو قاتلناك لعرفت إنا نحن الناس. فأنزل الله عز وجل ﴿**قل للذين كفروا**﴾ يعني من اليهود ﴿**ستغلبون**﴾ أي ستهزمون ﴿**وتحشرون**﴾ يعني في الآخرة إلى جهنم ﴿**وبئس المهاد**﴾ أي الفراش والمعنى: بئس ما مهد لهم في النار. قوله عز وجل: ﴿**قد كان لكم آية في فئتين التقتا**﴾ قيل: الخطاب للمؤمنين يروى ذلك عن ابن مسعود والحسن. وقيل: هو خطاب لكفار مكة فيكون عطفاً على الذي قبله فيخرج على قول ابن عباس (١). وقيل: هو خطاب لليهود قاله ابن جرير. فإن قلت: لم قال قد كان لكم آية ولم يقل قد كانت لأن الآية مؤنثة؟ قلت: كل ما ليس بمؤنث حقيقي يجوز تذكيره وقيل: إنه رد المعنى إلى البيان فمعناه قد كان لكم بيان فذهب إلى المعنى وترك اللفظ. وقال الفراء: إنما ذكر لأنه حالت الصفة بين الفعل والاسم المؤنث فذكر الفعل وكل ما جاء من هذا فهذا وجهه ومعنى الآية قد كان لكم آية أي عبرة ودلالة على صدق ما أقول إنكم ستغلبون في فئتين أي فرقتين وأصلها في الحرب لأن بعضهم يفيء إلى بعض أي يرجع ﴿**التقتا**﴾ يعني يوم بدر ﴿**فئة تقاتل في سبيل الله**﴾ أي في طاعة الله وهم رسول الله ﷺ وأصحابه وكانوا ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً سبعة وسبعون رجلاً من المهاجرين ومائتان وستة وثلاثون رجلاً من الأنصار، وكان صاحب راية المهاجرين علي بن أبي طالب وصاحب راية الأنصار سعد بن عبادة وكان فيهم سبعون بعيراً وفرسان وكان معهم من السلاح ستة أذرع وثمانية سيوف. وقوله تعالى: ﴿**وأخرى كافرة**﴾ أي وفرقة أخرى كافرة وهم مشركو مكة وكانوا تسعمائة وخمسين رجلاً من المقاتلة وكان رأسهم عتبة بن ربيعة بن عبد شمس، وكان فيهم مائة فرس وكانت وقعة بدر أول مشهد شهده رسول الله ﷺ بعد الهجرة وقوله تعالى: ﴿**يرونهم مثليهم**﴾ قرىء بالتاء يعني ترون أهل مكة ضعفي المسلمين يا معشر اليهود وذلك أن جماعة من اليهود كانوا قد حضروا قتال بدر لينظروا على من تكون الدائرة ولمن النصر فرأوا المشركين مثلي عدد المسلمين، ورأوا النصر للمسلمين فكان ذلك معجزة. وقرىء يرونهم بالياء واختلفوا في

أصاب رسول الله ﷺ قريشاً ببدر ورجع إلى المدينة، جمع اليهود في سوق بني قينقاع، وقال: «يا معشر اليهود احذروا من الله مثل ما نزل بقريش يوم بدر، وأسلِمُوا قبل أن ينزِلَ بكم مثل ما نزل بِهِم، فقد عرفتم أني نبيٌّ مُرسل، تجدون ذلك في كتابكم»، فقالوا: يا محمد لا يغرَّنْك أنك لقيت قوماً أغماراً لا عِلمَ لهم بالحرب فأصبت منهم فرصةً إنّا والله لو قاتلناكَ لعرفتَ أنّا نحن الناس. فأنزل الله تعالى: ﴿ **قلْ للذين كفرُوا** ﴾ - يعني: اليهود ﴿ **ستُغلبون** ﴾ تُهزمون في الدنيا في قتالكم محمداً ﴿ **وتُحشرون** ﴾ في الآخرة ﴿ **إلى جهنم** ﴾، ﴿ **وبِئْسَ المِهَاد** ﴾ أي: الفراش، أي: بئس ما مُهِّد لهم، يعني: النار.

قوله تعالى: ﴿ **قدْ كانَ لكم آيةٌ** ﴾، ولم يقل كانتْ، والآية مؤنثة لأنه ردّها إلى البيان، أي: قد كان بيان، فذهب إلى المعنى، وقال الفرّاء: إنما ذكر لأنه حالت الصفة بين الفعل والاسم المؤنث فذكر الفعل، وكل ما جاء من هذا النحو فهذا وجهه، فمعنى الآية: ﴿ **قد كان لكم آية** ﴾ أي: عبرة ودَلَالة على صدق ما أقول إنكم ستُغلبون، ﴿ **في فئتين** ﴾: فرقتين، وأصلها أفيءُ الحرب، لأن بعضهم يفيء إلى بعض، ﴿ **التَقَتَا** ﴾، يوم بدر، ﴿ **فِئةٌ تقاتِلُ في سبيل الله** ﴾، طاعة الله، وهم رسول الله ﷺ وأصحابه وهم كانوا ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً، سبعة وسبعون رجلاً من المهاجرين ومائتان وستّة وثلاثون رجلاً من الأنصار، وصاحب راية المهاجرين عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، وصاحب رايةَ الأنصار سعد بن عبادة، وكان فيهم سبعون بعيراً وفرسَان فرسٌ للمقداد بن عمرو، وفرس لمرثد بن أبي مرثد، وأكثرهم رَجّالة وكان معهم من السلاح ستّة أدرع وثمانية سيوف. قوله تعالى: ﴿ **وأخرى كافرةٌ** ﴾ أي: فرقة أخرى كافرة، وهم مشركوا مكة وكانوا تسعمائة وخمسين رجلاً من المقاتلة، يرأسهم عُتبة بن

وجه قراءة الياء فجعل بعضهم الرؤية للمسلمين ثم له تأويلان أحدهما: يرى المسلمون المشركين مثليهم كما هم. فإن قلت: كيف قال مثليهم وإنما كانوا ثلاثة أمثالهم. قلت: هذا مثل قول الرجل وعنده درهم أنا محتاج إلى مثلي هذا الدرهم يعني إلى مثليه سواه فيكون ثلاثة دراهم ووجه آخر وهو أن يكون الله تعالى أظهر للمسلمين من عدد المشركين القدر الذي يعلم المؤمنون أنهم يغلبونهم لإزالة الخوف من قلوبهم، وهذا التأويل الثاني هو الأصح قلل الله المشركون في أعين المسلمين حتى رأوهم مثليهم. فإن قلت كيف الجمع بين قوله تعالى ﴿**يرونهم مثليهم**﴾ وبين قوله: ﴿**وإذ يريكموهم إذا التقيتم في أعينكم قليلاً ويقللكم في أعينهم**﴾ وكيف يقال: إن المشركين استكثروا المسلمين أو المسلمين استكثروا المشركين، وإن الفئتين تساويا في استقلال إحداهما الأخرى. قلت: إن التقليل والتكثير كانا في حالتين مختلفتين فإن قيل: إن الفئة الرائية هم المسلمون فإنهم رأوا عدد المشركين عند بداية القتال على ما هم عليه. ثم قلل الله المشركين في أعين المسلمين حتى اجترؤوا عليهم فصبروا على قتالهم بذلك السبب. قال ابن مسعود: نظرنا إلى المشركين فرأيناهم يضعفون علينا، ثم نظرنا فاهم فما رأيناهم يزيدون علينا رجلاً واحداً. وفي رواية أخرى عنه قال: لقد قللوا في أعيننا حتى قلت لرجل إلى جنبي: تراهم سبعين؟ قال: أراهم مائة قال فأسرنا منهم رجلاً فقلنا: كم كنتم قال: ألفاً وإن قلنا إن الفئة الرائية هم المشركون على قول بعضهم إن الرؤية راجعة إلى المشركين يعني رأى المشركون المسلمين مثليهم فقلل الله المسلمين في أعين المشركين في أول القتال ليجترئوا عليهم ولا ينصرفوا، فلما أخذوا في القتال كثر الله المسلمين في أعين المشركين ليجبنوا فيكون ذلك سبب خذلانهم، وقد روي أن المشركين لما أسروا يوم بدر قالوا للمسلمين: كم كنتم قالوا: كنا ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً قالوا: يعني المشركين ما كنا نراكم إلاّ تضعفون علينا فكان في وقعة بدر أحوال في التكثير والتقليل وما ذلك إلاّ إظهاراً للقدرة التامة وقوله تعالى: ﴿**رأي العين**﴾ أي في رأي العين ﴿**والله يؤيد**﴾ أي يقوي﴿**بنصره من يشاء إن في ذلك**﴾ يعني الذي ذكر من النصرة. وقيل رؤية الجيش مثليهم ﴿**لعبرة**﴾ أي لآية والعبرة الدلالة الموصلة إلى اليقين المؤدية إلى العلم وأصلها من العبور كأنه طريق يعبرونه فيوصلهم إلى مرادهم.

ربيعة بن عبد شمس وفيهم مائة فرس، وكانت حرب بدر أول مشهد شهده رسول الله ﷺ، ﴿ يرونَهم مِثْلَيهم ﴾، قرأ أهل المدينة ويعقوب بالتاء، يعني: ترون يا معشر اليهود أهل مكة مثل عدد المسلمين، وذلك أن جماعة من اليهود كانوا حضروا قتال بدر لينظروا على مَنْ تكون الدائرة فرأوا المشركين مِثْلَي عدد المسلمين ورأوا النصر مع ذلك للمسلمين، فكان ذلك معجزةً وآيةً، وقرأ الآخرون بالياء، واختلفوا في وجهه، فجعل بعضهم الرؤيةَ للمسلمين، ثم له تأويلان، أحدهما: يرى المسلمون المشركين مثليهم كما هم، فإن قيل: كيف قال: ﴿ مثليهم ﴾ وهم كانوا هم ثلاثة أمثال؟ قيل: هذا مثل قول الرجل وعنده درهم: أنا أحتاج إلى مثلي هذا الدرهم، يعني: إلى مثليه سواء، فيكون ثلاثة دراهم. والتأويل الثاني وهو الأصح: كان المسلمون يرون المشركين مثلي عدد أنفسهم قلّلهم الله تعالى في أعينهم حتى رأوهم ستمائة وستة وعشرين، ثم قلّلهم الله في أعينهم في حالة أُخرى، حتى رأوهم مثل عدد أنفسهم. قال ابن مسعود رضي الله عنه: نظرنا إلى المشركين فرأيناهم يضعفون علينا، ثم نظرنا إليهم فما رأيناهم يزيدون رجلاً واحداً، ثم قلّلهم الله تعالى أيضاً في أعينهم حتى رأوهم عدداً يسيراً أقلّ من أنفسهم، قال ابن مسعود رضي الله عنه حتى قلتُ لرجل إلى جنبي: تراهم سبعين؟ قال: أراهم مائة. وقال بعضهم: الرؤية راجعة إلى المشركين، يعني: يرى المشركون المسلمين مثليهم، قلّلهم الله قبل القتال في أعين المشركين ليجترىء المشركون عليهم، ولا ينصرفوا، فلما أخذوا في القتال كثّرهم في أعين المشركين، ليَجْبُنوا، وقلّلهم في أعين المؤمنين ليجترؤوا، فذلك قوله تعالى: ﴿ وإذْ يُريكُمُوهم ـ إذ التقيتم ـ في أعينكم قليلاً ويُقلّلكم في أعينهم ﴾

وقيل: العبرة هي التي يعبر منها من منزلة الجهل إلى منزلة العلم ﴿لأولي الأبصار﴾ لذوي العقول والبصائر. قوله عز وجل: .

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ۝١٤﴾

﴿زين للناس﴾ قال أهل السنة: المزين هو الله تعالى لأنه تعالى خالق الجميع أفعال العباد ولأن الله تعالى خلق جميع ملاذ الدنيا وأباحها لعبيده وإباحتها للعبد تزيين لها قال الله تعالى: ﴿هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً﴾ وقال تعالى: ﴿قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق﴾ وقال الله تعالى: ﴿إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها﴾ وقال تعالى: ﴿وكلوا مما رزقكم الله حلالاً طيباً﴾ وكل ذلك يدل على أن المزين هو الله تعالى. ومما يؤيد ذلك قراءة مجاهد زين بفتح الزاي على تسمية الفاعل وقال الحسن: المزين هو الشيطان وهو قول طائفة من المعتزلة ويدل على ذلك أن الله تعالى زهد في هذه الأشياء بأن أعلم عباده زوالها. ولأن الله تعالى أطلق حب الشهوات فيدخل فيه الشهوات المحرمة، والمزين لذلك هو الشيطان، ولأن الله تعالى ذكر هذه الأشياء في معرض الذم للدنيا ويدل عليه آخر الآية وهو قوله تعالى ﴿والله عنده حسن المآب﴾. ونقل عن أبي علي الجبائي من المعتزلة أن كل ما كان حراماً كان المزين له هو الشيطان، وكل ما كان مباحاً كان المزين له هو الله تعالى، والصحيح ما ذهب إليه أهل السنة لأن الله تعالى خالق كل شيء ولا شريك له في ملكه. وقوله تعالى: ﴿حب الشهوات﴾ يعني المشتهيات لأن الشهوة توقان النفس إلى الشيء المشتهى ﴿من النساء﴾ إنما بدأ بذكر النساء لأن الالتذاذ بهن أكثر، والاستئناس بهن أتم، ولأنهن حبائل الشيطان وأقرب إلى الافتتان ﴿والبنين﴾ إنما خص البنين بالذكر لأن حب الولد الذكر أكثر من حب الأنثى ووجه حبه ظاهر لأنه يتكثر به ويعضده ويقوم مقامه. وقد جعل الله تعالى في قلب الإنسان حب الزوجة والولد لحكمة بالغة وهي بقاء التوالد ولو زالت تلك المحبة لما حصل ذلك ﴿والقناطير المقنطرة﴾ جمع قنطار وسمي قنطاراً من الإحكام والعقد يقال: قنطرته إذا أحكمته ومنه القنطرة المحكمة الطاق واختلفوا في القنطار هل محدود أو غير محدود؟ على قولين أحدهما: أنه محدود ثم اختلفوا في حده فروي عن معاذ بن جبل أن القنطار ألف ومائتا أوقية. وقال ابن عباس: ألف ومائتا مثقال وعنه أنه اثنا عشر ألف درهم أو ألف دينار دية أحدكم وبه قال الحسن: وقال سعيد بن جبير: هو مائة ألف ومائة من ومائة رطل ومائة مثقال ومائة درهم. ولقد جاء الإسلام يوم جاء وبمكة مائة رجل قد قنطروا، وقال سعيد بن المسيب وقتادة:

[الأنفال: ٤٤]. قوله تعالى: ﴿ رَأْيَ العين ﴾ أي: في رأي العين، نُصب بنزع حرف الصفة، ﴿ والله يُؤيِّد بنصره مَنْ يشاء إنّ في ذلك ﴾، الذي ذكرتُ، ﴿ لعبرةً لأُولي الأبصار ﴾، لذوي العقول، وقيل: لمَن أبصر الجَمعين.

قوله تعالى: ﴿ زُيِّنَ للنّاسِ حُبُّ الشهواتِ ﴾، جمع شهوة، وهي ما تدعو النفس إليه، ﴿ مِنَ النِّساءِ ﴾، بدأ بهنّ لأنهنّ حبائل الشيطان، ﴿ والبنين والقناطير ﴾، جمع قنطار، واختلفوا فيه، فقال الربيع بن أنس: القنطار المال الكثير بعضه على بعض، وقال معاذ بن جبل رضي الله عنه: القنطار ألف ومائتا أوقية، لكل أوقية أربعونَ درهماً. وقال ابن عباس رضي الله عنهما والضحّاك: ألف ومائتا مِثْقال، وعنهما رواية أُخرى: اثنا عشر ألفِ درهم وألف دينار، ديّةُ أحدكم. وعن الحسن قال: القنطار ديّة أحدكم، وقال سعيد بن جبير وعكرمة: هو مائة ألف ومائة من ومائة رطل ومائة مثقال ومائة درهم، ولقد جاء الإسلام وبمكة مائة رجل قد قنطروا. وقال سعيد بن المسيب وقتادة: ثمانون ألفاً، وقال مجاهد: سبعون ألفاً. وعن السدي قال: أربعة آلاف مثقال، وقال الحكم: القنطار ما بين السماء

هو ثمانون ألفاً وقال مجاهد: سبعون ألفاً. وقال السدي: هو أربعة آلاف مثقال والقول الثاني: إن القنطار ليس بمحدود. وقال الربيع بن أنس: القنطار مال الكثير بعضه على بعض وروي عن أبي عبيدة أنه حكي عن العرب أن القنطار وزن لا يحد وهو اختيار ابن جرير الطبري وغيره. وقال الحاكم القنطار ما بين السماء والأرض من مال. وقال أبو نصرة: القنطار ملء مسك ثور ذهباً أو فضة وقال القنطار من المال ما فيه عبور الحياة تشبيهاً بعبور القنطرة المقنطرة أي المجموعة وقيل: المضاعفة لأن القناطير جمع وأقله ثلاثة والمقنطرة المضاعفة أن تكون ستة أو تسعة وقيل المقنطرة المسكوكة المنقوشة ﴿**من الذهب والفضة**﴾ إنما بدأ بهما من بين سائر أصناف الأموال لأنهما قيم الأشياء وإنما كانا محبوبين لأن المالك لهما مالك قادر على ما يريده وهي صفة كمال وهي محبوبة. وقيل سمي الذهب ذهباً لأنه يذهب ولا يبقى والفضة لأنها تنفض أي تتفرق ﴿**والخيل المسومة**﴾ الخيل جمع لا واحد له من لفظه كالقوم والرهط سميت الأفراس خيلاً لاختيالها في مشيتها. وقيل: لأن **الخيل** لا يركبها أحد إلّا وجد في نفسه مخيلة عجباً واختلفوا في معنى المسومة على ثلاثة أقوال القول الأول: إنها الراعية يقال أممت الدابة وسومتها إذا أرسلتها المرعى والمقصود أنها إذا رعت زاد حسنها والقول الثاني أنها من السمة وهي العلامة ثم القائلون بهذا القول اختلفوا في تلك العلامة فقيل: الثالث هي الغرة والتحجيل التي تكون في الخيل وقيل: هي الخيل البلق وقيل: هي المعلمة بالكي. والقول الثالث: إنها المضمرة الحسان وتسويمها حسنها ﴿**والأنعام**﴾ جمع نعم وهي الإبل والبقر والغنم ولا يقال للجنس الواحد منها إلّا للإبل خاصة فإنه غلب عليها ﴿**والحرث**﴾ يعني الزرع ﴿**ذلك**﴾ يعني ذلك الذي ذكر من هذه الأصناف ﴿**متاع الحياة الدنيا**﴾ أي الذي يستمتع به في الحياة الدنيا وهي زائلة فانية يشير إلى أن الحياة الدنيا متاع يفني ﴿**والله عنده حسن المآب**﴾ أي المرجع، فيه إشارة إلى التزهيد في الدنيا والترغيب في الآخرة. وقيل: فيه إشارة إلى أن من أتاه الله الدنيا كان الواجب عليه أن يصرفها فيما يكون فيه صلاحه في الآخرة لأنها السعادة القصوى. قوله عز وجل: .

۞ **قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿١٥﴾**

﴿**قل أؤنبئكم**﴾ أي أخبركم ﴿**بخير من ذلكم**﴾ يعني الذي ذكر من متاع الدنيا ﴿**للذين اتقوا**﴾ قال ابن عباس

والأرض من مال، وقال أبو نصرة: ملءُ مَسْكِ ثورٍ ذهباً أو فضةً. وسُمّي قنطاراً من الإحكام، يقال: قنطرتُ الشيءَ إذا أحكمته، ومنه سُمِّيت القنطرة. قوله تعالى: ﴿ **المُقَنْطَرةِ** ﴾، قال الضحاك: المُحصّنة المُحكمة. وقال قتادة: هي الكثيرة المنضّدة بعضها فوق بعض. وقال يمان: هي المدفونة. وقال السدي: هي المضروبة المنقوشة حتى صارت دراهم ودنانير. وقال الفرّاء: المضعّفة. فالقناطير ثلاثة، والمقنطرة تسعة، ﴿ **مِنَ الذهبِ والفِضّة** ﴾، قيل: سُمّي الذهب ذهباً لأنه يذهب ولا يبقى، والفضة فضةً لأنها تنفض، أي: تتفرق، ﴿ **والخَيْلِ المُسَوَّمَةِ** ﴾: الخيل جمعٌ لا واحد له من لفظه، وَاحدُها فرس، كالقوم والنساء ونحوهما، و﴿ **المُسوّمة** ﴾ قال مجاهد: هي المُطهمة الحِسان. وقال عكرمة: تسويمها حُسنها، وقال سعيد بن جبير: هي الراعية، يقال: أسامَ الخيلَ وسَوّمها، وقال الحسن وأبو عبدة: هل المعلّمة من السيماء العلامة، ثم منهم مَن قال: سيماها الشبه واللون، وهو قول قتادة، وقيل: الكَي، ﴿ **والأنعَامِ** ﴾، جمع النَّعم، وهي الإبل والبقر والغنم، جمعٌ لا واحدَ له من لفظه، ﴿ **والحَرْثِ** ﴾ يعني: الزرع، ﴿ **ذلك** ﴾، الذي ذكرتُ، ﴿ **متاعُ الحياةِ الدنيا** ﴾، يشير إلى أنها متاع يفنَى، ﴿ **والله عنده حُسنُ المآب** ﴾ أي: المرجع، فيه إشارة إلى التزهيد في الدنيا والترغيب في الآخرة.

قوله تعالى: ﴿ **قلْ أؤُنَبّئكم** ﴾ أي: أخبركم ﴿ **بخيرٍ من ذلكم للذين اتّقَوْا عند ربّهم جنّاتٌ تجري مِنْ تَحْتِها**

في رواية عنه يريد المهاجرين والأنصار. أراد أن يعرفهم ويشوقهم إلى الآخرة قال العلماء: ويدخل في هذا الخطاب كل من اتقى الشرك ﴿عند ربهم﴾ معناه أن الله تعالى أخبر أن ما عنده خير مما كان في الدنيا وإن كان محبوباً فحثهم على ترك ما يحبون لما يرجون ثم فسر لك الخير فقال تعالى: ﴿**جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله**﴾. (ق) عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: إن الله عز وجل يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة فيقولون: لبيك ربنا وسعديك والخير كله في يديك، فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: يا رب وما لنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك: فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك؟ فيقولون: وأي شيء أفضل من ذلك فيقول، أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً وقيل: إن العبد إذا علم أن الله تعالى قد رضي عنه كان أتم لسروره وأعظم لفرحه ﴿**والله بصير بالعباد**﴾ يعني أن الله تعالى عالم بمن يؤثر ما عنده ممن يؤثر شهوات الدنيا فيجازى كلاًّ على عمله فيثبت ويعاقب على قدر الأعمال. وقيل: إن الله تعالى بصير بالذين اتقوا فلذلك أعدلهم الجنات. قوله عز وجل: .

ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلصَّـٰبِرِينَ وَٱلصَّـٰدِقِينَ وَٱلْقَـٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾

﴿**الذين يقولون ربنا إننا آمنا**﴾ أي صدقنا ﴿**فاغفر لنا ذنوبنا**﴾ أي استر علينا وتجاوز عنا ﴿**وقنا عذاب النار**﴾. قوله عز وجل: ﴿**الصابرين**﴾ يعني على أداء الواجبات وعن المحرمات والمنهيات، وفي البأساء والضراء وحين البأس. وقيل: الصابرين على دينهم وما أصابهم ﴿**والصادقين**﴾ يعني في إيمانهم. وقال قتادة: هم قوم صدقت نياتهم واستقامت ألسنتهم وقلوبهم في السر والعلانية والصدق يكون في القول والأفعال والنية، فأما صدق القول فهو مجانبة الكذب والصدق في الفعل هو عدم الانصراف عنه قبل إتمامه، والصدق في النية العزم على الفعل حتى يبلغه. ﴿**والقانتين**﴾ يعني المطيعين لله وقيل لهم المصلون، وهو عبارة عن دوام الطاعة والمواظبة عليها ﴿**والمنفقين**﴾ يعني أموالهم في طاعة الله تعالى، ويدخل فيه نفقة الرجل على نفسه وعلى أهله وأقاربه وصلة رحمه، والزكاة والنفقة في جميع القربات ﴿**والمستغفرين بالأسحار**﴾ يعني المصلين بالسحر وهو الوقت بعد ظلمة الليل إلى طلوع الفجر، وقيل كانوا يصلون بالليل حتى إذا كان وقت السحر أخذوا في الدعاء والاستغفار فكان هذا دأبهم في ليلهم. قال نافع: كان ابن عمر يحيي الليل ثم يقول: يا نافع أسحرنا؟ فأقول: لا فيعاود الصلاة فإذا قلت

الأنهارُ خالدين فيها وأزواجٌ مطهرةٌ ورِضْوانٌ مِنَ الله﴾، قرأ العامّة بكسر الراء، وروى أبو بكر عن عاصم بضمّ الراء، وهما لغتان كالعِدوان والعُدوان. أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا يحيىٰ بن سليمان حدّثني ابن وهب حدّثني مالك عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «إن الله تبارك وتعالى يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة، فيقولون: لبّيك يا ربنا وسَعْدَيْكَ والخيرُ في يديك، فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: يا ربِّ وما لنا لا نرضَى وقد أعطيتنا ما لم تُعطِ أحداً من خلقك، فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك؟ فيقولون يا ربِّ وأيُّ شيء أفضلُ من ذلك؟ فيقول أُحِلُّ عليكم رِضْواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً». قوله تعالى: ﴿ **واللّهُ بصيرٌ بالعباد** ﴾.

﴿ **الذين يقولُون** ﴾، إن شئتَ جعلتَ محل ﴿ الذين ﴾ خفضاً ردّاً على قوله: ﴿ **للذين اتقوا** ﴾ وإن شئتَ جعلتَه رفعاً على الابتداء، ويُحتمل أن يكون نصباً تقديره: أعني الذين يقولون: ﴿ **ربّنا إنّنا آمنّا** ﴾، صدقنا،

نعم قعد يستغفر ويدعو حتى يصلي الصبح. (ق) عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ: «قال: ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى الثلث الأخير فيقول: من يدعوني فأستجيب له من يسألني فأعطيه من يستغفرني فأغفر له. وفي لفظ مسلم فيقول: أنا الملك أنا الملك من ذا الذي يدعوني الحديث وله في رواية أخرى فيقول: هل من سائل؟ فيعطى هل من داع فيستجاب له؟ هل من مستغفر فيغفر له حتى ينفجر الصبح»؟ هذا الحديث من أحاديث الصفات وللعلماء فيه وفي أمثاله مذهبان معروفان مذهب السلف الإيمان به وإجراؤه على ظاهره ونفي الكيفية عنه، والمذهب الثاني هو مذهب من يتأول أحاديث الصفات. قال أبو سليمان الخطابي: إنما ينكر هذا الحديث من يقيس الأمور على ما يشاهده من النزول الذي هو تدل من أعلى إلى أسفل، وانتقال من فوق إلى تحت وهذا صفة الأجسام، فأما نزول من لا تستولي عليه صفات الأجسام فإن هذه المعاني غير متوهمة فيه، وإنما هو خبر عن قدرته ورأفته بعباده وعطفه عليهم واستجابته دعاءهم، ومغفرته لهم يفعل ما يشاء لا يتوجه على صفاته كيفية ولا على أفعاله كمية سبحانه ليس كمثله دعاءهم، ومغفرته لهم يفعل ما يشاء لا يتوجه على صفاته كيفية ولا على أفعاله كمية سبحانه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير. وقيل في قوله: والمستغفرين بالأسحار وصف الله تعالى هؤلاء بما وصف ثم بين أنهم مع ذلك لشدة خوفهم ووجلهم أنهم يستغفرون بالأسحار. وروي أن لقمان قال لابنه: يا بني لا تكن أعجز من الديك فإنه يصوت بالأسحار وأنت نائم على فراشك. وقيل: هم الذين يصلون صلاة الصبح في جماعة فعلى هذا القول إنما سميت الصلاة استغفاراً لأنهم طلبوا بفعلها المغفرة.

قوله عز وجل: ﴿**شهد الله أنه لا إله إلا هو**﴾ قيل سبب نزول الآية أن حبرين من أحبار الشام قدما على النبي ﷺ فلما أبصرا المدينة قال أحدهما لصاحبه: ما أشبه هذه المدينة بصفة مدينة النبي ﷺ الذي يخرج في آخر الزمان، فلما دخلا على النبي ﷺ عرفاه بالصفة فقالا له: أنت محمد؟ قال: نعم، قالا وأنت أحمد؟ قال: نعم. قالا فإنا نسألك عن شيء: فإن أنت أخبرتنا به آمنا بك وصدقناك قال: اسألاني قالا: فأخبرنا عن أعظم شهادة في كتاب الله عز وجل، فأنزل الله هذه الآية فأسلم الحبران. وقيل: إن هذه الآية نزلت في نصارى نجران فيما ادعوا في عيسى عليه السلام فقوله تعالى: **شهد الله** يعني بيّن الله وأظهر لأن معنى الشهادة تبيين وإظهار. وقيل: معنى شهد الله حكم الله وقضى. وقيل: معناه أعلم الله أنه لا إله إلاّ هو وذلك بيان الدلائل لما أمكن التوصل إلى معرفة الوحدانية، فهو تعالى أرشد عباده إلى معرفة توحيده بما بين من عجائب مصنوعاته وغرائب مبتدعاته سئل بعض

﴿ **فاغْفِرْ لنَا دُنُوبَنا** ﴾ استرها علينا وتجاوزْ عنّا، ﴿ **وقِنَا عذَابَ النّار** ﴾.

﴿ **الصابرين والصادقين** ﴾، إن شئتَ نصبتَها على المدح، وإن شئتَ خفضتَها على النعت، يعني: الصابرين في أداء الأوامر، وعن ارتكاب النهي، وعن البأساء والضرّاء وحين البأس والصادقين في إيمانهم، قال قتادة: هم قوم صدقتْ نيّاتُهم واستقامتْ قلوبُهم وألسنتُهم فصدقوا في السر والعلانية، ﴿ **والقانتين** ﴾، المطيعين المصلّين، ﴿ **والمنفقين** ﴾ أموالهم في طاعة الله، ﴿ **والمستغفرين بالأسحار** ﴾، قال مجاهد وقتادة والكلبي: يعني المصلّين بالأسحار وعن زيد بن أسلم أنه قال: هم الذين يُصلّون الصبح في الجماعة، وقيل: بالسحر لقربه من الصبح، وقال الحسن: مدّوا الصلاة إلى السحر، ثم استغفروا، وقال نافع: كان ابن عمر رضي الله عنهما يُحيي الليل، ثم يقول: يا نافع أسَحِرنا؟ فأقول: لا، فيعاود الصلاة، فإذا قلت: نعم، قعد وأخذ يستغفر الله ويدعو حتى يُصبح. أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أخبرنا أبو محمد بن الحسن بن أحمد المخلدي حدّثنا أبو العباس محمد بن إسحق السراج، أنا قتيبة أنا يعقوب بن عبد الله عن سهيل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ينزلُ اللّهُ إلى السماء الدنيا كلَّ ليلةٍ حينَ يبقَى الثلثُ الأخير، فيقول: أنا الملك مَن ذَا الذي يدعُوني

الأعراب ما الدليل على وجود الصانع؟ فقال: إن البعرة تدل على البعير، وآثار القدم تدل على المسير فهيكل علوي بهذه اللطافة ومركز سفلي بهذه الكثافة أما يدلان على وجود الصانع الخبير. قال ابن عباس: خلق الله تعالى الأرواح قبل الأجساد بأربعة آلاف سنة، وخلق الأرزاق قبل الأرواح بأربعة آلاف سنة، فشهد لنفسه بنفسه قبل أن خلق الخلق حين كان ولم تكن سماء ولا أرض ولا بر ولا بحر، فقال تعالى: شهد الله أنه لا إله إلا هو ﴿**والملائكة**﴾ أي وشهد الملائكة فمعنى شهادة الله تعالى الإخبار والإعلام ومعنى شهادة الملائكة والمؤمنين الإقرار والاعتراف بأنه لا إله إلاّ هو، ولما كان كل واحد من هذين الأمرين يسمى شهادة حسن إطلاق لفظ الشهادة عليهما ﴿**وأولو العلم**﴾ أي وشهد أولوا العلم بأنه لا إله إلا هو، واختلفوا في أولي العلم فقيل: هم الأنبياء عليهم السلام لأنهم أعلم الخلق بالله تعالى وقيل: هم علماء أصحاب رسول الله ﷺ من المهاجرين والأنصار وقيل: هم علماء مؤمني أهل الكتاب مثل عبدالله بن سلام وأصحابه، وقيل: هم علماء جميع المؤمنين ﴿**قائماً بالقسط**﴾ أي بالعدل نصب على الحال والقطع أو المدح ومعناه أنه تعالى قائم بتدبير خلقه كما يقال: فلان قائم بأمر فلان يعني أنه مدبر له ومتعهد لأسبابه، وفلان قائم بحق فلان، أي أنه مجاز له فالله مدبر أمر خلقه وقائم بأرزاقهم ومجاز لهم بأعمالهم ﴿**لا إله إلا هو**﴾ إنما كرره للتأكيد، وقيل إن الأول وصف وتوحيد والثاني رسم وتعليم أي قولوا لا إله إلاّ هو. وقيل فائدة تكرارها الإعلام بأن هذه الكلمة أعظم الكلام وأشرفه فيه حث للعباد على تكريرها والاشتغال بها، فإنه من اشتغل بها فقد اشتغل بأفضل العبادات ﴿**العزيز**﴾ أي الغالب الذي لا يقهر ﴿**الحكيم**﴾ يعني في جميع أفعاله ﴿**إن الدين عند الله الإسلام**﴾ يعني أن الدين المرضي عند الله هو الإسلام كما قال تعالى: ﴿ورضيت لكم ٱلإسلام ديناً﴾ وفيه رد على اليهود والنصارى وذلك لما ادعت اليهود أنه لا دين أفضل من اليهودية، وادعت النصارى أنه لا دين أفضل من النصرانية رد الله عليهم ذلك فقال: إن الدين عند الله الإسلام. وقرىء أن الدين بفتح الهمزة رداً على أن الأولى والمعنى شهد الله أنه لا إله إلاّ هو، وشهد أن الدين عند الله الإسلام، وأصل الدين في اللغة الجزاء. يقال كما تدين تدان ثم صار اسماً للملة والشريعة، ومعناه الانقياد للطاعة والشريعة، قال الزجاج الدين اسم لجميع ما تعبد الله به خلقه وأمرهم بالإقامة عليه، والإسلام هو الدخول في السلم وهو الاستسلام والانقياد والدخول في الطاعة. وروى البغوي بسند الثعلبي عن غالب القطان قال: أتيت الكوفة في تجارةٍ فنزلت

فأستجيب له، مَن ذا الذي يسألني فأُعطيه، مَن ذا الذي يستغفرني فأغْفُر له»، وحُكي عن الحسن: أن لقمان قال لابنه: يا بني لا تكن أعجز من هذا الدِّيك يصوِّت بالأسحار، وأنت نائم على فراشك.

قوله تعالى: ﴿ **شهد الله أنه لا إلَه إلاّ هو** ﴾، قيل: نزلت هذه الآية في نصارى نجران. وقال الكلبي: قَدِمَ حَبْران من أحبار الشام على النبي ﷺ فلما أبصرَ المدينةَ قال أحدهما لصاحبه: ما أشبه هذه المدينة بصفة مدينة النبي ﷺ الذي يخرج في آخر الزمان، فلما دخلا عليه عرفاه بالصفة، فقالا له: أنت محمد؟ قال: نعم، قالا له: وأنت أحمد؟ قال: أنا محمد وأحمد، قالا له: فإنّا نسألك عن شيء فإن أخبرتنا به آمنّا بكَ وصدّقناكَ، فقال: نعم، قالا: فأخبرنا عن أعظم شهادة في كتاب الله عزّ وجلّ، فأنزل الله تعالى هذه الآية، فأسلم الرجلان. قوله: ﴿ **شهد الله** ﴾ أي بيّن اللّهُ، لأن الشهادة تبيينٌ، وقال مجاهد: حَكَمَ الله، وقيل: عَلِمَ الله أنه لا إلَه إلاّ هو. قال ابن عباس رضي الله عنهما: خلق الله الأرواح قبل الأجساد بأربعة آلاف سنة، وخلق الأرزاق قبل الأرواح بأربعة آلاف سنة، فشهد بنفسه قبل أن يخلق الخلق حين كان ولم تكن سماء ولا أرض ولا برّ ولا بحر، فقال: ﴿ **شهد الله أنه لا إلَه إلاّ هو** ﴾، وقوله: ﴿ **والملائكة** ﴾، أي: وشهدتِ الملائكة، قيل: معنى شهادة الله: الإخبار والإعلام، ومعنى شهادة الملائكة والمؤمنين الإقرار، ﴿ **وأُولوا العلم** ﴾، يعني: الأنبياء عليهم السلام، وقال ابن كيسان: يعني المهاجرين

قريباً من الأعمش فكنت أختلف إليه فلما كان ذات ليلة أردت أن أنحدر إلى البصرة قام من الليل يتهجد فمر بهذه الآية ﴿شهد الله أنه لا إله إلاّ هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط لا إله إلاّ هو العزيز الحكيم﴾ قال الأعمش: وأنا أشهد بما شهد الله به وأستودع الله هذه الشهادة وهي لي عند الله وديعة إن الدين عند الله الإسلام قالها مراراً. قلت: سمع فيها شيئاً فصليت الصبح معه وودعته ثم قلت له: إني سمعتك ترددهما فما بلغك فيها؟ قال: والله لا أحدثك فيها إلى سنة فكتبت على بابه ذلك اليوم وأقمت سنة، فلما مضت السنة قلت: يا أبا محمد قد مضت السنة فقال: حدثني أبو وائل عن عبدالله قال: قال رسول الله ﷺ: يجاء بصاحبها يوم القيامة. فيقول الله عز وجل: إن لعبدي هذا عندي عهداً وأنا أحق من وفى بالعهد أدخلوا عبدي الجنة. قوله عز وجل: .

﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾﴾

﴿**وما اختلف الذين أوتوا الكتاب**﴾ قال الكلبي: نزلت في اليهود والنصارى حين تركوا الإسلام والمعنى: وما اختلف الذين أوتوا الكتاب في نبوة محمد ﷺ ﴿**إلا من بعد ما جاءهم العلم**﴾ يعني بيان نعته وصفته في كتبهم. وقال الربيع: إن موسى عليه السلام لما حضره الموت دعا سبعين رجلاً من خيار بني إسرائيل وأودعهم التوراة واستخلف يوشع بن نون، فلما مضي القرن الأول والثاني والثالث وقعت الفرقة والاختلاف، بينهم، وهم الذين

والأنصار. وقال مقاتل: علماء مؤمني أهل الكتاب، عبد الله بن سلام وأصحابه. قال السدي والكلبي: يعني جميع علماء المؤمنين. ﴿ **قائماً بالقسط** ﴾ أي: بالعدل، ونظم الآية: شهد الله قائماً بالقسط، نصبٌ على الحال، وقيل: نصب على القطع، ومعنى قوله: ﴿ **قائماً بالقسط** ﴾ أي: قائماً بتدبير الخلق، كما يقال: فلان قائم بأمر فلان أي: مدبّرٌ له ومتعهد لأسبابه، وفلان قائم بحق فلان أي: مجازٍ له، فالله تعالى مدبرٌ ورازقٌ ومجازٍ بالأعمال، ﴿ **لا إلّه إلاّ هو العزيز الحكيم** ﴾.

﴿ **إن الدِّينَ عندَ اللّهِ الإسلام** ﴾، يعني: الدين المَرضي الصحيح، كما قال: ﴿ ورضيتُ لكم الإسلام ديناً ﴾ [المائدة: ٣]، وقال: ﴿ ومَن يبتغِ غيرَ الإسلام دِيناً فلنْ يُقبل منه ﴾ [آل عمران: ٨٥] وفتح الكسائي الألف من (**أن الـدين**) ردّاً على أن الأولى، تقديره: شهد الله أنه لا إلّه إلاّ هو وشهد أن الدين عند الله الإسلام، أو شهد الله **أن** الدين عند الله الإسلام بأنه لا إلّه إلاّ هو، وكسر الباقون الألف على الابتداء، والإسلام: هو الدخول في السِّلم، وهو الانقياد والطاعة، يقال: أسلم، أي: دخل في السلم، واستسلم، قال قتادة في قوله تعالى: ﴿ **إنّ الدّين عندَ اللّهِ الإسلام** ﴾، قال: شهادة أن لا إلّه إلاّ الله والإقرار بما جاء من عند الله تعالى وهو دين الله الذي شرع لنفسه وبعث به رسله ودلّ عليه أولياءه، فلا يقبل غيره، ولا يُجزي إلاّ به أخبرنا أبو سعيد الشريحي أنا أبو إسحق الثعلبي، أنا أبو عمر الفراوي أنا أبو موسى عمران بن موسى، أنا الحسن بن سفيان أنا عمّار بن عمرو بن المختار، حدّثني أبي عن غالب القطّان، قال: أتيت الكوفة في تجارة فنزلت قريباً من الأعمش، وكنت أختلف إليه، فلما كنت ذات ليلة أردت أن أتحدّر إلى البصرة، فإذا الأعمش قائم من الليل يتهجّد فمرّ بهذه الآية ﴿**شهد الله أنه لا إلّه إلاّ هو والملائكة وأُولوا العلم قائماً بالقسط لا إلّه إلاّ هو العزيز الحكيم** ﴾، ثم قال الأعمش: وأنا أشهدُ بما شهدَ اللّهُ به، وأستودعُ اللّهَ هذه الشهادةَ وهي لي عند الله وديعة، إن الدين عند الله الإسلام، قالها مراراً. قلت: لقد سمع فيها شيئاً، فصلّيت الصبح معه وودعته، ثم قال: قلت: إني سمعتك تقرأ آية تردِّدها، فما بلغك فيها؟ قال

أوتوا الكتاب وهم من أبناء الملوك السبعين حتى أهرقوا الدماء ووقع الشر والاختلاف، وذلك بعد ما جاءهم العلم يعني بيان ما في التوراة من الأحكام ﴿بغياً بينهم﴾ أي طلباً بينهم للملك والرياسة فسلط الله عليهم الجبابرة. وقيل: نزلت في نصارى نجران ومعناه وما اختلف الذين أوتوا الكتاب يعني الإنجيل واختلافهم كان في أمر عيسى عليه الصلاة والسلام، وما ادعوا فيه من الإلهية إلا من بعد ما جاءهم العلم. يعني بأن الله تعالى واحد أحد وأن عيسى عبده ورسوله بغياً بينهم يعني المعاداة والمخالفة. ﴿ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب﴾ فيه وعيد وتهديد لمن أصر على الكفر من اليهود والنصارى الذين جحدوا نبوة محمد ﷺ قوله عز وجل:

فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْۚ فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ ٱهْتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠﴾

﴿فإن حاجوك﴾ أي خاصموك يا محمد في الدين، وذلك أن اليهود والنصارى قالوا: لسنا على ما سميتنا به يا محمد إنما اليهودية والنصرانية نسب والدين هو الإسلام ونحن عليه فأمر الله عز وجل نبيه محمداً ﷺ أن يحتج عليهم بأنه اتبع أمر الله الذي هم يقرون به بقوله: ﴿فقل أسلمت وجهي لله﴾أي انقدت له بقلبي ولساني وجميع جوارحي، وإنما خص الوجه بالذكر لأنه أشرف جوارح الإنسان الظاهرة إذا خضع وجهه لشيء فقد خضع له سائر جوارحه وقيل: أراد بالوجه العمل أي خلصت عملي لله وقصدت بعبادتي الله ﴿ومن اتبعن﴾ يعني ومن أسلم كما

لي: أوَمَا بلغك ما فيها؟ قلتُ: أنا عندكَ منذُ سنتين لم تحدّثني، قال: والله لا أحدّثك بها إلى سنة، فكتبتُ على بابه ذلك اليوم، وأقمتُ سنةً فلما مضت السنة قلت: يا أبا محمد مضت السنة، قال: حدّثني أبو وائل عن عبد الله بن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «يُجاء بصاحبها يوم القيامة فيقول الله: إن لعبدي هذا عندي عهداً وأنا أحقّ مَنْ وَفّى بالعهد، أدْخِلُوا عبدي الجنة». قوله تعالى: ﴿ **وما اختلفَ الذي أُوتوا الكتابَ** ﴾، قال الكلبي: نزلت في اليهود والنصارى حين تركوا الإسلام، أي: وما اختلف الذين أُوتوا الكتاب في نبوّة محمد ﷺ ﴿ **إلّا من بعد ما جاءَهم العلم** ﴾ يعني: بيان نعته في كتبهم، وقال الربيع بن أنس: إن موسى عليه السلام لمّا حضره الموت دعا سبعين رجلاً من أحبار بني إسرائيل فاستودعهم التوراة واستخلف يُوشع بن نون، فلما مضى القرن الأول والثاني والثالث وقعت الفرقة بينهم وهم الذين أُوتوا الكتاب من أبناء أولئك السبعين، حتى أهرقوا بينهم الدماء، ووقع الشرّ والاختلاف وذلك من بعد ما جاءهم العلم يعني بيان ما في التوراة، ﴿ **بغياً بينهم** ﴾ أي: طلباً للملك والرياسة فسلّط الله عليهم الجبابرة، وقال محمد بن جعفر بن الزبير: نزلت في نصارى نجران ومعناها: وما اختلف الذين أُوتوا الكتاب، يعني: الإنجيل في أمر عيسى عليه السلام، وفرّقوا القول فيه، إلّا من بعد ما جاءهم العلم بأن الله واحد، وأن عيسى عبده ورسوله، بغياً بينهم أي: للمعاداة والمخالفة، ﴿ **ومَنْ يكفرْ بآياتِ اللّهِ فإنّ اللّهَ سريعُ الحساب** ﴾.

قوله تعالى: ﴿ **فإن حاجُّوكَ** ﴾ أي: خاصموك يا محمد في الدين، وذلك أن اليهود والنصارى قالوا: ألسنا ما سمّيتنا به يا محمد إنما اليهودية والنصرانية نسب، والدين هو الإسلام ونحن عليه؟ فقال الله تعالى: ﴿ **فقلْ أسلمتُ وجهيَ لله** ﴾ أي: انقدْتُ لله وحده بقلبي ولساني وجميع جوارحي، وإنما خصّ الوجه لأنه أكرم الجوارح للإنسان، وفيه بهاؤه فإذا خضع وجهه للشيء فقد خضع له جميع جوارحه. وقال الفرّاء: معناه أخلصتُ عملي لله، ﴿ **ومَنِ اتّبعنِ** ﴾ أي: ومَن اتّبعني فأسلم كما أسلمتُ، وأثبت نافع وأبو عمرو الياء في قوله تعالى: ﴿ **اتّبعني** ﴾ على الأصل

أسلمت أنا ﴿وقل للذين أوتوا الكتاب﴾ يعني اليهود والنصارى ﴿والأميين﴾ يعني مشركي العرب ﴿أأسلمتم﴾ لفظه استفهام ومعناه أمر أي أسلموا ﴿فإن أسلموا فقد اهتدوا﴾ يعني إلى الفوز والنجاة في الآخرة، فلما قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية على أهل الكتاب قالوا: قد أسلمنا فقال لليهود: أتشهدون أن موسى كليم الله وعبده ورسوله فقالوا: معاذ الله وقال للنصارى: أتشهدون أن عيسى كلمة الله وعبده ورسوله فقالوا: معاذ الله أن يكون عيسى عبداً قال الله تعالى: ﴿وإن تولوا﴾ أي أعرضوا ﴿فإنّما عليك البلاغ﴾ يعني تبليغ الرسالة. وليس عليك هدايتهم واختلف علماء الناسخ والمنسوخ في الآية فذهب طائفة إلى أنها محكمة، والمراد بها تسلية النبي ﷺ لأنه كان يحرص على إيمانهم ويتألم لتركهم الإجابة، وذهب طائفة إلى أنها منسوخة بآية السيف لأن المراد بها الاقتصار على التبليغ وهذا منسوخ بآية السيف ﴿والله بصير بالعباد﴾ يعني أنه تعالى عالم بمن يؤمن وبمن لا يؤمن.

قوله عز وجل: .

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٢﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾

﴿إن الذين يكفرون بآيات الله﴾ يعني يجحدون القرآن وينكرونه وهم اليهود والنصارى ﴿ويقتلون النبيين بغير حق ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس﴾ كان أنبياء بني إسرائيل يأتيهم الوحي ولم يكن يأتيهم كتاب لأنهم كانوا ملتزمين بأحكام التوراة، فكانوا يذكرون قومهم فيقتلونهم فيقوم رجال ممن آمن بهم وصدقهم فيذكرونهم ويأمرونهم بالمعروف وينهونهم عن المنكر فيقتلونهم أيضاً، فهم الذين يأمرون بالقسط يعني بالعدل من الناس.

روى البغوي بسند الثعلبي عن أبي عبيدة بن الجراح قال: قلت: يا رسول الله أي الناس أشد عذاباً يوم القيامة؟ «قال رجل: قتل نبياً أو رجلاً أمر بالمعروف ونهى عن المنكر ثم قرأ رسول الله ﷺ ﴿ويقتلون النبيين بغير حق

وحذفه الآخرون على الخطأ لأنهما في المصحف بغير ياء، وقوله: ﴿ وقلْ للذين أُوتوا الكتابَ والأمّيين ﴾، يعني: العرب ﴿ أأسلمتم ﴾، لفظه استفهام ومعناه أمرٌ أي: وأسلموا، كما قال: ﴿ فهلْ أنتم منتهون ﴾ [المائدة: ٩١] أي: انتهوا، ﴿ فإن أسلمُوا فقدِ اهتدَوا ﴾، فقرأ رسول الله ﷺ هذه الآية فقال أهلُ الكتاب: أسلمنا، فقال لليهود: أتشهدون أن عُزيراً عبدُه ورسوله؟ فقالوا: معاذ الله أن يكون عُزير عليه السلام عبداً، وقال للنصارى: أتشهدون أن عيسى كلمةُ الله وعبدُه ورسوله؟ قالوا: معاذ الله أن يكون عيسى عبداً، فقال الله عزّ وجلّ: ﴿ وإنْ تولَّوا فإنّما عليكَ البلاغ ﴾ أي: تبليغ الرسالة، وليس عليك الهداية، ﴿ واللَّهُ بصيرٌ بالعباد ﴾، عالم بمَنْ يُؤمن وبمَن لا يؤمن.

قوله تعالى: ﴿ إنّ الذين يكفرُون بآياتِ الله ﴾، يجحدون بآيات الله، يعني: القرآن، وهم اليهود والنصارى، ﴿ ويقتُلونَ النبيّين بغيرِ حقٍّ ويقتلون الذينَ يأمرونَ بالقِسْطِ مِنَ الناس ﴾، قرأ حمزة (ويقاتلون الذين يأمرون) بألف، قال ابن جريج: كان الوحي يأتي على أنبياء بني إسرائيل ولم يكن يأتيهم كتابُ الله فيذكرون قومهم فيقتلون أنبياءهم، فيقوم رجال ممّن تبعهم وصدقهم فيذكرون قومهم فيقتلون أيضاً فهم الذين يأمرون بالقسط من الناس. أخبرنا أبو سعيد الشريحي أنا أبو إسحق الثعلبي، أنا أبو عبد الله الحسين بن محمد فنجويه الدِّينوري، أنا أبو نصر منصور بن جعفر النهاوندي، أنا أحمد بن يحيىٰ بن الجارود أنا محمد بن عمرو بن حيّان أنا محمد بن

ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس﴾ إلى أن انتهى إلى قوله **﴿وما لهم من ناصرين﴾** ثم قال رسول الله ﷺ: يا أبا عبيدة قتلت بنو إسرائيل ثلاثة وأربعين نبياً من أول النهار في ساعة واحدة، فقام مائة واثنا عشر رجلاً من عباد بني إسرائيل فأمروا من قتلهم بالمعروف ونهوهم عن المنكر فقتلوهم جميعاً من آخر النهار في ذلك اليوم فهم الذين ذكرهم الله في كتابه وأنزل الآية فيهم» **﴿فبشرهم بعذابٍ أليم﴾** إنما دخلت الفاء في قوله فبشرهم مع أنه خبر إن لأنه في معنى الجزاء والتقدير من كفر فبشرهم بعذاب أليم يوم القيامة، وهذا محمول على الاستعارة وهو أن إنذار الكفار بالعذاب قام مقام بشرى المحسنين بالثواب، وفي هذه الآية توبيخ لليهود الذين كانوا في زمن رسول الله ﷺ وإن كان أسلافهم الذين قتلوا الأنبياء لأنهم رضوا بفعلهم **﴿أولئك الذين حبطت﴾**أي بطلت **﴿أعمالهم في الدنيا والآخرة﴾** وبطلان العمل هو أن لا يقبل في الدنيا ولا يجازى عليه في الآخرة **﴿وما لهم من ناصرين﴾** يعني يمنعونهم من العذاب. قوله عز وجل: **﴿ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب﴾** أنزلت في اليهود **﴿يدعون إلى كتاب الله﴾** يعني القرآن، وذلك أن اليهود دعوا إلى حكم القرآن فأعرضوا عنه. قال ابن عباس: إن الله جعل القرآن حكماً فيما بينهم وبين رسول الله ﷺ، فحكم القرآن على اليهود والنصارى أنهم على غير الهدى فأعرضوا عنه. وروي عن ابن عباس أيضاً أن رسول الله ﷺ دخل بيت المدارس على جماعة من اليهود فدعاهم إلى الله عز وجل فقال له نعيم بن عمرو والحارث بن زيد على أي دين أنت يا محمد؟ فقال: على ملة إبراهيم. قال: إن إبراهيم كان يهودياً فقال رسول الله ﷺ: هلموا إلى التوراة فهي بيننا وبينكم فأبيا عليه فأنزل الله

حمير أنا أبو الحسن مولى بني أسد عن مكحول عن قُبيصة بن ذؤيب الخُزاعي عن أبي عُبيدة بن الجراح رضي الله عنه قال: قلت لرسول الله ﷺ أيُّ الناسِ أشدُّ عذاباً يوم القيامة؟ قال: «رجل قتل نبيّاً أو رجلاً أمر بالمعروف ونهى عن المنكر، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿ ويقتلون النبيين بغير حق ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس ﴾، إلى أن انتهى إلى قوله: ﴿ وما لهم من ناصرين ﴾، ثم قال رسول الله ﷺ: يـا أبا عبيدة قتلت بنو إسرائيل ثلاثةً وأربعين نبيّاً في أول النهار في ساعة واحـدة، فقام مائة واثنا عشر رجلاً من عُبّادِ بني إسرائيل فأمروا مَن قتلوهم بالمعروف ونهوهم عن المنكر، فقتلوهم جميعاً في آخر النهار في ذلك اليـوم، فهم الذين ذكرهم الله في كتابه وأنزل الآية فيهم، ﴿ فبشّرهم ﴾، أخبرهم ﴿ بعذابٍ أليم ﴾، وَجِيْعٍ»، وإنما أدخل الفاء على الباء في خبر ﴿ إن ﴾ لتضمّن الذين معنى الشرط والجزاء، لأن تقديره: الذين يكفرون ويقتلون فبشّرهم، لأنه لا يقال: إن زيد فقائم.

﴿ أولئك الذين حبطتْ أعمالُهم في الدنيا والآخرةِ وما لهمْ مِنْ ناصرين ﴾، وبطلان العمل في الدنيا أن لا يقبل وفي الآخرة أن لا يُجازَى عليه.

قوله تعالى: ﴿ ألَمْ تَرَ إلى الذينَ أُوتوا نَصيباً مِنَ الكتاب ﴾، يعني: اليهود، ﴿ يُدْعَونَ إلى كتاب الله ﴾، اختلفوا في هذا الكتاب، فقال قتادة: هم اليهودُ دُعوا إلى حُكم القرآن فأعرضوا عنه، وروى الضحّاك عن ابن عباس رضي الله عنهما في هذه الآية: إن الله تعالى جعل القرآن حُكماً فيما بينهم وبين رسول الله ﷺ فحكم القرآن على اليهود والنصارى: أنهم على غير الهدى، فأعرضُوا عنه، وقال الآخرون: هو التوراة. وروى سعيد بن جبير وعكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: دخل رسول الله ﷺ بيت المدارس على جماعة من اليهود فدعاهم إلى الله عزّ وجلّ، فقال له نُعيم بن عمرو والحارث بن زيد: على أيِّ دين أنت يا محمد؟ فقال: على مِلّة إبراهيم، فقالا: إن إبراهيم كان يهودياً، فقال رسول الله ﷺ: «فهلمّوا إلى التوراة، فهي بيننا وبينكم»، فأبيا عليه، فأنزل الله تعالى هذه الآية. وروى الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رجلاً وامرأة من أهل خيبر زنيا،

الآية. فعلى هذا القول يكون المراد بكتاب الله التوراة. وروي عنه أيضاً أن رجلاً وامرأة من أهل خيبر زنيا وكان في كتابهم الرجم فكرهوا رجمهما لشرفهما فيهم فرفعوا أمرهما إلى رسول الله ﷺ ورجوا أن تكون عنده رخصة فحكم عليهما بالرجم. فقال النعمان بن أوفى وبحري بن عمرو: جرت عليهما يا محمد وليس عليهما الرجم. فقال رسول الله ﷺ: «بيني وبينكم التوراة» فقالوا: قد أنصفت. فقال من أعلمكم بالتوراة؟ فقالوا رجل أعور يقال له عبدالله بن صوريا يسكن فدك فأرسلوا إليه فقدم المدينة وكان جبريل قد وصفه للنبي ﷺ فقال له رسول الله ﷺ: أأنت ابن صوريا؟ قال: نعم قال: أنت أعلم اليهود بالتوراة. قال: كذلك يزعمون. فدعا رسول الله ﷺ بالتوراة وقال له: اقرأ فقرأ فلما أتى على آية الرجم وضع يده عليها وقرأ ما بعدها فقال عبدالله بن سلام: يا رسول الله قد جاوزها ثم قام ورفع كفه عنها وقرأها على رسول الله ﷺ وعلى اليهود وفيها: أن المحصن والمحصنة إذا زنيا وقامت عليهما البينة رجماً، وإن كانت المرأة حبلى تربص بها حتى تضع ما في بطنها، فأمر رسول الله ﷺ باليهوديين فرجما فغضبت اليهود لذلك فأنزل الله عز وجل: ﴿**ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب**﴾ يعني علمهم الذي علموه من التوراة يدعون إلى كتاب الله يعني القرآن أو التوراة على اختلاف الروايتين ﴿**ليحكم بينهم**﴾ أي ليقضي بينهم وإضافة الحكم إلى الكتاب هو على سبيل المجاز ﴿**ثم يتولى فريق منهم**﴾ يعني الرؤساء والعلماء ﴿**وهم معرضون**﴾ يعني عن الحق وقيل الذين تولوا هم العلماء، والذين أعرضوا هم الأتباع.

ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۖ وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾

﴿**ذلك بأنهم**﴾ يعني ذلك التولي والإعراض إنما حصل بسبب أنهم ﴿**قالوا لن تمسنا النار إلا أياماً معدودات**﴾ تقدم تفسيره في سورة البقرة ﴿**وغرّهم**﴾ أي وأطمعهم ﴿**في دينهم ما كانوا يفترون**﴾ أي يحلفون ويكذبون قيل: هو

وكان في كتابهم الرجم فكرهُوا رَجمهما لشرفهما فيهم، فرفعوا أمرهم إلى رسول الله ﷺ ورجوا أن يكون عنده رخصة، فحكم عليهما بالرجم، فقال له النعمان بن أوفى وبحري بن عمرو: جِرْتَ عليهما يا محمد ليس عليهما الرجم، فقال رسول الله ﷺ: «بيني وبينكما التوراة»، فقالوا: قد أنصفتنا، قال: «فمَن أعلمكم بالتوراة»؟ قالوا: رجل أعور يسكنُ فِدْك يقال له ابن صوريا، فأرسلوا إليه فقَدِمَ المدينة وكان جبريل قد وصفه لرسول الله ﷺ فقال له رسول الله ﷺ: «أنت ابن صوريا»، قال: نعم، قال: «أنت أعلم اليهود»؟ قال: كذلك يزعمون، قال: فدعا رسول الله ﷺ بشيء من التوراة فقال له: «اقرأ»، فلما أتى على آية الرجم وضع كفّه عليها، وقرأ ما بعدها على رسول الله ﷺ، فقال عبد الله بن سلام: يا رسول الله قد جاوزها، فقام فرفع كفّه عنها، ثم قرأ على رسول الله ﷺ وعلى اليهود بأن المحصن والمحصنة إذا زنيا وقامت عليهما البيّنة رُجمَا، وإن كانت امرأة حُبلى تربص حتى تضع ما في بطنها، فأمر رسول الله ﷺ باليهوديين فرُجما فغضب اليهود لذلك وانصرفوا، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿ **أَلَمْ تَرَ إلى الذين أُوتوا نصيباً من الكتاب** ﴾ التوراة (حظّاً من الكتاب) ﴿**يُدعون إلى كتاب الله**﴾﴿ **ليحكم بينهم ثم يتولّى فريقٌ منهم وهمْ مُعرِضون** ﴾.

﴿ **ذلك بأنهم قالوا لَنْ تَمسّنا النارُ إلاّ أياماً معدوداتٍ، وغرّهم في دينهم** ﴾، والغرور: هو الأطماع فيما لا

قولهم نحن أبناء الله وأحباؤه وقيل: هو قولهم: لن تمسنا النار إلاّ أياماً معدودات وقيل غرهم قولهم نحن على الحق وأنتم على الباطل ﴿فكيف إذا جمعناهم﴾ أي فكيف يكون حالهم إذا جمعناهم ﴿ليوم﴾ أي في يوم ﴿لا ريب فيه ووفيت كل نفس ما كسبت﴾ أي لا شك فيه أنه كائن وواقع وهو يوم القيامة، وفيه تهديد لهم واستعظام لما أعد لهم في ذلك اليوم، وأنهم يقعون فيما لا حيلة لهم فيه وإن ما حدثوا به أنفسهم وسهلوه عليها تعلل بباطل وطمع فيما لا يكون ولا يحصل لهم. قيل: إن أول راية ترفع لأهل الموقف من رايات الكفار راية اليهود تفضحهم على رؤوس الأشهاد ثم يؤمر بهم إلى النار ﴿وهم لا يظلمون﴾ أي لا ينقص من حسناتهم إن كانت لهم حسنة ولا يزاد على سيئاتهم. قوله عز وجل: ﴿قل اللّهم مالك الملك﴾ قال قتادة: ذكر لنا أن نبي الله ﷺ دعا ربه عز وجل أن يجعل ملك فارس والروم في أمته فأنزل الله هذه الآية. وقال ابن عباس: لما فتح رسول الله ﷺ مكة وعد أمته ملك فارس والروم، فقال المنافقون واليهود: هيهات هيهات من أين لمحمد ملك فارس والروم وهم أعز وأمنع من ذلك ألم يكف محمداً مكة والمدينة حتى طمع في ملك فارس والروم؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية. وقيل: إن اليهود قالوا: والله لا نطيع رجلاً جاء ينقل النبوة من بني إسرائيل إلى غيرهم فنزلت هذه الآية ﴿قل اللّهم﴾ معناه يا الله لما حذف حرف النداء زيد الميم في آخره. وقيل: إن الميم فيه معنى آخر وهو يا الله أمنا بخير أي اقصدنا مالك الملك أي مالك العباد وما ملكوا. وقيل: مالك السموات والأرض، وقيل معناه بيده الملك يؤتيه من يشاء وقيل: معناه مالك الملوك ووارثهم يوم لا يدعي الملك أحد غيره. وفي بعض كتب الله المنزلة أنا الله ملك الملوك ومالك الملك قلوب الملوك ونواصيهم بيدي، فإن العباد أطاعوني جعلتهم عليهم رحمة، وإن هم عصوني جعلتهم عليهم عقوبة فلا تشتغلوا بسب الملوك ولكن توبوا إلى أعطفهم عليكم. وقيل: الملك هو القدرة والمالك هو القادر. والمعنى أنه تعالى قادر على كل شيء، وملك على كل مالك، ومملوك وقادر ومقدور. وقيل: معناه مالك الملك أي جنس الملك يتصرف فيه كيف يشاء ﴿تؤتي الملك من تشاء﴾ يعني النبوة لأنها أعظم مراتب الملك، وذلك لأن النبي ﷺ

يحصل منه شيء، ﴿ ما كانوا يَفْتَرُون ﴾، والافتراء: اختلاق الكذب.

قوله تعالى: ﴿ فكيف إذا جمعناهم ﴾، أي: فكيف حالهم أو كيف يصنعون إذا جمعناهم، ﴿ ليومٍ لا ريبَ فيه ﴾، وهو يوم القيامة ﴿ ووُفّيت ﴾، وفرت ﴿ كلُّ نفسٍ ما كَسَبتْ ﴾ أي: جزاء ما كَسَبتْ من خير أو شر ﴿ وهم لا يُظلمون ﴾ أي: لا ينقص من حسناتهم ولا يُزاد على سيئاتهم.

قوله تعالى: ﴿ قلِ اللّهمّ مالِكَ المُلك ﴾، قال قتادة: ذكر لنا أن النبي ﷺ سأل ربّه أن يجعل مُلك فارس والروم في أمته فأنزل الله تعالى هذه الآية، وقال ابن عباس رضي الله عنـه وأنس بن مالك رضي الله عنه: لما فتح رسول الله ﷺ مكة وَعَدَ أمته مُلك فارس والروم، قال المنافقون واليهود: هيهات هيهات من أين لمحمد ﷺ مُلك فارس والروم؟ وهم أعزّ وأمنع من ذلك، ألم يكفِ محمداً مكة والمدينة حتى طمع في مُلك فارس والروم، فأنزل الله تعالى هذه الآية: ﴿ قلِ اللّهمّ ﴾ قيل: معناه يا الله، فلما حُذف حرف النداء زيد الميم في آخره، وقال قوم: للميم فيه معنى، ومعناها اللّهمَّ أمِنّا بخير، أي: أقصدنا، حذف منه حرف النداء، كقولهم هَلُمَّ إلينا، كان أصله هلْ أُمَّ إلينا، ثم كثرت في الكلام فحذفت الهمزة استخفافاً وربما خفّفوا أيضاً فقالوا: لا هُمّ، قوله: ﴿ مالك الملك ﴾، يعني: يا مالك الملك، أي: مالك العباد ومَا مَلَكُوا، وقيل: يا ملك السموات والأرض، وقال الله تعالى في بعض الكتب: «أنا الله مَلِكُ الملوك ومَالِكُ الملوك قُلوب المُلوك ونواصيهم بيدي، فإنِ العباد أطاعوني جعلتهم عليهم رحمةً وإن عصوني جعلتهم عليهم عقوبة، فلا تشتغلوا بسبِّ الملوك، ولكن توبوا إليَّ أعطّفهم عليكم». قوله تعالى: ﴿ تُؤتي المُلكَ مَن تشاء ﴾، قال مجاهد وسعيد بن جبير: يعني مُلك النبوّة، وقال الكلبي: تُؤتي المُلكَ مَن

له الأمر على بواطن الخلق وظواهرهم، والملك ليس له الأمر إلّا على ظواهر بعض الخلق وهو من يطيعه منهم وطاعة النبي واجبة على الكافة ﴿وتنزع الملك ممن تشاء﴾ يعني بذلك نزع النبوة من بني إسرائيل وإيتاءها محمداً ﷺ فإنه لا نبي بعده ولم يشركه في نبوته ورسالته أحد، وقيل: تؤتي الملك من تشاء يعني محمداً ﷺ وأصحابه وتنزع الملك ممن تشاء، يعني من أبي جهل وصناديد قريش وقيل تؤتي الملك من تشاء يعني أمة محمد ﷺ وتنزع الملك ممن تشاء يعني فارس والروم. وقيل: تؤتي الملك من تشاء يعني آدم وذريته وتنزع الملك ممن تشاء يعني إبليس وجنوده الذين كانوا في الأرض قبل آدم. ﴿وتعز من تشاء﴾ يعني محمداً ﷺ بالنبوة والرسالة ﴿وتذل من تشاء﴾ يعني اليهود بأخذ الجزية منهم ونزع النبوة عنهم، وقيل: تعز المهاجرين والأنصار، وتذل فارس والروم، وقيل: تعز من تشاء يعني محمداً وأصحابه دخلوا مكة في عشرة آلاف ظاهرين عليها، وتذل من تشاء يعني أبا جهل وأضرابه حين قتلوا وألقوا في قليب بدر يوم بدر، وقيل: تعز من تشاء بالطاعة وتذل من تشاء بالمعصية، وقيل: تعز من تشاء بالغنى وتذل من تشاء بالفقر، وقيل: تعز من تشاء بالقناعة والرضا، وتذل من تشاء بالحرص والطمع ﴿بيدك الخير﴾ يعني النصر والغنيمة. وقيل: الألف واللام تفيد العموم والمعنى بيدك كل الخيرات. فإن قلت: كيف قال بيدك الخير دون الشر. قلت: لأن الكلام إنما وقع في الخير الذي يسوقه الله تعالى إلى عباده المؤمنين وهو الذي أنكرته اليهود والمنافقون فقال: بيدك الخير تؤتيه أولياءك على رغم أعدائك. وقيل: إن قوله بيدك الخير لا ينافي أن يكون بيد غيره، فيكون المعنى بيدك الخير وبيدك ما سواه إلا أنه خص الخير بالذكر لأنه المنتفع به والمرغوب فيه. ﴿إنك على كل شيء قدير﴾ يعني من إيتاء الملك من تشاء، وإعزاز من تشاء وإذلال من تشاء.

﴿تُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۖ وَتُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَتُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّۖ وَتَرۡزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ٢٧﴾

قوله تعالى: ﴿تولج اللّيل في النهار﴾ الآية. لما ذكر الله تعالى أنه مالك الملك أردفه بذكر قدرته الباهرة في حال الليل والنهار، وفي المعاقبة بينهما وحال إخراج الحي من الميت ثم عطف عليه أنه يرزق من يشاء بغير

تشاء محمداً وأصحابه، ﴿ وتَنْزِعُ المُلكَ ممّن تشاء ﴾ أبي جهل وصناديد قريش، وقيل: تُؤتي المُلكَ مَن تشاء: العرب، وتنزع الملك ممّن تشاء: فارس والروم، وقال السدي: تُؤتي المُلكَ مَن تشاء، آتى الله الأنبياء عليهم السلام المُلكَ وأمر العباد بطاعتهم، وتَنْزِعُ المُلكَ ممّن تشاء، نزعه من الجبّارين، وأمر العباد بخلافهم، وقيل: تؤتي المُلكَ مَن تشاء: آدم وولده، وتنزع المُلكَ ممّن تشاء: إبليس وجنوده، وقوله تعالى: ﴿ وتُعِزُّ مَن تشاء وتُذِلُّ مَن تشاء ﴾، قال عطاء: تُعزّ مَن تشاء المهاجرين والأنصار، وتُذلّ مَن تشاء: فارس والروم، وقيل: تُعزّ مَن تشاء محمداً ﷺ وأصحابه، حتى دخلوا مكة في عشرة آلاف ظاهرين عليها، وتُذلّ مَن تشاء أبا جهل وأصحابه، حتى جُزّتْ رؤوسهم وأُلقوا في القليب، وقيل: تُعزّ مَن تشاء: بالإيمان والهداية. وتُذلّ مَن تشاء: بالكفر والضلالة، وقيل: تُعزّ مَن تشاء بالطاعة، وتُذلّ مَن تشاء بالمعصية، وقيل تُعزّ مَن تشاء بالنصر، وتُذلّ مَن تشاء بالقهر، وقيل: تُعزّ مَن تشاء بالغنى، وتُذلّ مَن تشاء بالفقر، وقيل: تُعزّ مَن تشاء بالقناعة والرضى، وتُذلّ مَن تشاء بالحرص والطمع، ﴿ بيَدِكَ الخير ﴾ أي: بيدك الخيرُ والشرّ فاكتفى بذكر أحدهما. قال تعالى: ﴿ سرابيل تقيكم الحرَّ ﴾ [النحل: ٨١] أي: الحرّ والبرد، فاكتفى بذكر أحدهما. ﴿ إنّكَ على كلِّ شيءٍ قدير ﴾.

قوله تعالى: ﴿ تُولج الليل في النهار ﴾، أي: تدخل الليل في النهار، حتى يكون النهار خمسَ عشرة ساعةً والليل تسعَ ساعات، ﴿ وتُولج النهارَ في الليل ﴾، حتى يكون الليلُ خمسَ عشرة ساعةً، والنهارُ تسعَ ساعات، فما

حساب، وفي ذلك دلالة على أن من قدر على تلك الأفعال العظيمة المحيرة لذوي الأفهام والعقول، فهو قادر أن ينزع الملك من فارس والروم واليهود ويذلهم ويؤتيه العرب ويعزهم فقوله تعالى: ﴿**تولج الليل في النهار**﴾ يعني تدخل الليل في النهار وهو أن تجعل الليل قصيراً وما نقص منه زائداً في النهار حتى يكون النهار خمس عشرة ساعة ذلك غاية طول النهار، ويكون الليل تسع ساعات وذلك غاية قصر الليل. ﴿**وتولج النهار في الليل**﴾ حتى يكون الليل خمس عشرة ساعة وذلك غاية طوله، ويكون النهار تسع ساعات وذلك غاية قصره. وقيل: المراد أنه تعالى يأتي بسواد الليل عقيب ضوء النهار، ويأتي بضوء النهار بعد ظلمة الليل والقول الأول أصح وأقرب إلى معنى الآية لأنه إذا نقص الليل كان ذلك القدر زيادة في النهار وبالعكس وهو معنى الولوج. ﴿**وتخرج الحي من الميت وتخرج الميت من الحي**﴾ وهو أنه تعالى يخرج الإنسان الحي من النطفة وهي ميتة، ويخرج النطفة من الإنسان ويخرج الفرخ وهو حي من البيضة وهي ميتة وبالعكس، وكذلك سائر الحيوان. وقيل: يخرج النبات الغض الأخضر من الحب اليابس، ويخرج النخلة من النواة وبالعكس. وقيل: معناه أنه تعالى يخرج المؤمن من الكافر والكافر من المؤمن لأن المؤمن حي الفؤاد، والكافر ميته ﴿**وترزق من تشاء بغير حساب**﴾ يعني من غير تضييق ولا تقتير، بل تبسط الرزق لمن تشاء وتوسعه عليه. قوله عز وجل: ﴿**لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين**﴾ قال ابن عباس: كان الحجاج بن عمرو وابن أبي الحقيق وقيس بن زيد يبطنون بنفرٍ من الأنصار ليفتنوهم عن دينهم فقال رفاعة بن المنذر وعبدالله بن جبير وسعيد بن خيثمة لأولئك النفر: اجتنبوا هؤلاء اليهود لا يفتنونكم عن دينكم، فأبى أولئك النفر إلا مباطنتهم فأنزل الله تعالى هذه الآية. وقيل: نزلت في حاطب بن أبي بلتعة وغيره ممن كان يظهر المودة لكفار مكة. وقيل: نزلت في عبدالله بن أبي وأصحابه كانوا يتولون المشركون واليهود ويأتونهم بالأخبار ويرجون أن يكون لهم الظفر على رسول الله ﷺ، فأنزل الله تعالى هذه الآية ونهى المؤمنين عن مثل ذلك.

نقص من أحدهما زاد في الآخر، ﴿ **وتُخرج الحيَّ من الميتِ وتُخرج الميتَ من الحي** ﴾، قرأ أهل المدينة وحمزة والكسائي وحفص عن عاصم ﴿ **الميت** ﴾ بتشديد الياء ههنا وفي [الأنعام: ٩٥] و[يُونس: ٣١] و[الروم: ١٩] وفي قوله: ﴿ لبلد ميت ﴾ [الأعراف: ٥٧] وفي قوله: ﴿ إلى بلد ميت ﴾ [فاطر: ٩] زاد نافع ﴿ أو مَن كان ميتاً فأحييناه ﴾ [الأنعام: ١٢٢] و﴿ لحم أخيه ميتاً ﴾ [الحجرات: ١٢] و﴿ الأرض الميتة أحييناها ﴾ [يّس: ٣٣] فشدّدها، والآخرون يُخففونها، وشدّد يعقوب ﴿ **يُخرج الحيّ من الميت** ﴾ و﴿ لحم أخيه ميتاً ﴾ [الحجرات: ١٢] قال ابن مسعود وسعيد بن جبير ومجاهد وقتادة: معنى الآية يُخرج الحيوان من النطفة وهي ميتة، ويخرج النطفة من الحيوان، وقال عكرمة والكلبي: تخرج الحيّ من الميت، أي: الفرخ من البيضة وتُخرج البيض من الطير، وقال الحسن وعطاء: يخرج المؤمن من الكافر ويخرج الكافر من المؤمن، والمؤمنُ حيّ الفؤاد والكافر ميتُ الفؤاد، قال الله تعالى: ﴿ أو مَن كان ميتاً فأحييناه ﴾ [الأنعام: ١٢٢] وقال الزجّاج: يُخرج النبات الغَضّ الطري من الحبّ اليابس، ويُخرج الحبّ اليابس من النبات الحيّ النامي. ﴿ **وترزق مَن تشاء بغير حساب** ﴾ من غير تضييق ولا تقتير. أخبرنا أبو القاسم عبد الله بن محمد الحنفي، أنا أبو بكر أحمد بن الحسن الحيري، أنا أبو جعفر عبد الله بن إسماعيل بن إبراهيم الهاشمي، أنا محمد بن علي بن زيد الصائغ، أنا محمد بن أزهر، أنا الحارث بن عمير، أنا جعفر بن محمد عن أبيه عن جدّه عن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ فاتحة الكتاب وآية الكرسي والآيتين من آل عمران ﴿ **شهد الله** ﴾ إلى قوله: ﴿ إن الدين عند الله الإسلام ﴾، ﴿**وقل اللّهمَّ مالك الملك**﴾ إلى قوله: ﴿ **بغير حساب** ﴾ مشفعّات معلّقات بالعرش ما بينهنّ وبين الله عزّ وجلّ حجاب، قلن: يا ربّ تُهبطنا إلى أرضك وإلى مَن يعصيك؟ قال الله عزّ وجلّ: بي حلفت لا يقرأكُنّ أحد من عبادي دُبُرَ كلّ صلاةٍ إلاّ

وقيل: إن عبادة بن الصامت كان له حلفاء من اليهود فقال يوم الأحزاب: يا رسول الله إن معي خمسمائة من اليهود وقد رأيت أن أستظهر بهم على العدو فنزلت هذه الآية. وقوله:.

﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ۗ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (٢٨)﴾

﴿**لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء**﴾ يعني أنصاراً وأعواناً من دون المؤمنين يعني من غير المؤمنين، والمعنى لا يجعل المؤمن ولايته لمن هو غير مؤمن نهى الله المؤمنين أن يوالوا الكفار أو يلاطفوهم لقرابة بينهم أو محبة أو معاشرة، والمحبة في الله والبغض في الله باب عظيم وأصل من أصول الإيمان ﴿**ومن يفعل ذلك**﴾ يعني موالاة الكفار من نقل الأخبار إليهم وإظهار عورة المسلمين أو يودهم ويحبهم ﴿**فليس من الله في شيء**﴾ أي فليس من دين الله في شيء. وقيل: معناه فليس من ولاية الله في شيء وهذا أمر معقول من أن ولاية المولى معاداة أعدائه وموالاة الله وموالاة الكفار ضدان لا يجتمعان ﴿**إلا أن تتقوا منهم تقاة**﴾ أي إلاّ أن تخافوا منهم مخافة. ومعنى الآية أن الله نهى المؤمنين عن موالاة الكفار ومداهنتهم ومباطنتهم إلاّ أن يكون الكفار غالبين ظاهرين، أو يكون المؤمن في قوم كفاراً فيداهنهم بلسانه وقلبه مطمئن بالإيمان دفعاً عن نفسه من غير أن يستحل دماً حراماً أو مالاً حراماً أو غير ذلك من المحرمات، أو يظهر الكفار على عورة المسلمين، والتقية لا تكون إلا مع خوف القتل مع سلامة النية قال الله تعالى: ﴿**إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان**﴾ ثم هذه التقية رخصة فلو صبر على إظهار إيمانه حتى قتل كان له بذلك أجر عظيم، وأنكر قوم التقية اليوم وقالوا: إنما كانت التقية في جدة الإسلام قبل استحكام الدين وقوة المسلمين، فأما اليوم فقد أعز الله الإسلام والمسلمين فليس لأهل الإسلام أن يتقوا من عدوهم. قال يحيى البكاء:

جعلت الجنّة مثواه على ما كان فيه وأسكنته في حظيرة القدس، ونظرت إليه بعيني المكنونة، وقضيتُ له كلَّ يوم سبعين حاجة أدناها المغفرة، وأعذتُه من كل عدو وحاسد، ونصرتُه عليهم». رواه الحارث بن عمر وهو ضعيف.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ **لا يتخذِ المؤمنونَ الكافرين أولياءَ من دونِ المؤمنين** ﴾، قال ابن عباس رضي الله عنه: كان الحجّاج بن عمرو وابن أبي الحقيق وقيس بن زيد يبطنون بنفر من الأنصار ليفتنوهم عن دينهم، فقال رفاعة بن المنذر وعبد الله بن جبير وسعيد بن خيثمة لأولئك النفر: اجتنبوا هؤلاء اليهود لا يفتنونكم عن دينكم، فأبى أولئك النفر إلاّ مباطنتهم، فأنزل الله تعالى هذه الآية، وقال مقاتل: نزلت في حاطب بن أبي بلتعة وغيره، وكانوا يُظهِرون المودّة لكفّار مكة، وقال الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما: نزلت في المنافقين: عبد الله بن أبي وأصحابه كانوا يتولّون اليهودَ والمشركين ويأتونهم بالأخبار، ويرجون أن يكون لهم الظفر على رسول الله ﷺ، فأنزل الله هذه الآية ونهى المؤمنين عن مثل فعلهم، قوله تعالى: ﴿ **ومَنْ يفعلْ ذلك** ﴾ أي: مُوالاَةِ الكُفّارِ في نقل الأخبار إليهم وإظهارهم على عَوْرَةِ المسلمين، ﴿ **فليسَ مِنَ الله في شيء** ﴾ أي: ليس من دين الله في شيء، ثم استثنى فقال: ﴿ **إلاّ أن تتقوا منهم تُقاة** ﴾ يعني: إلاّ أن تخافوا منهم مخافة، قرأ مجاهد ويعقوب (تقيــة) على وزن بقية لأنهم كتبوها بالياء، ولم يكتبوها بالألف: مثل حصاة ونواة، وهي مصدر يقال: تقيت تقاة وتقى تقية وتقوى، فإذا قلت: اتقيت كان المصدر الاتقاء وإنما قال تتقوا من الاتقاء، ثم قال: تقاة ولم يقل: اتقاءً لأن معنى اللفظين إذا كان واحداً يجوز إخراج مصدر أحدهما على لفظ الآخر، كقوله تعالى: ﴿ وتبتل إليه تبتيلاً ﴾ [المزمّل: ٨] ومعنى الآية: إن الله تعالى نهى المؤمنين عن موالاة الكفّار ومداهنتهم ومباطنتهم، إلاّ أن يكون الكفار غالبين ظاهرين أو يكون المؤمن، في قوم كفّار يخافهم فيداريهم باللسان، وقلبُه مطمئن بالإيمان دفعاً عن نفسه من

قلت لسعيد بن جبير في أيام الحجاج: إن الحسن يقول: التقية باللسان والقلب مطمئن بالإيمان فقال سعيد: ليس في الأمان تقية إنما التقية في الحرب. وقيل: إنما تجوز التقية لصون النفس عن الضرر لأن دفع الضرر عن النفس واجب بقدر الإمكان ﴿ويحذركم الله نفسه﴾ أي ويخوفكم الله أن تعصوه بأن ترتكبوا المنهي أو تخالفوا المأمور به أو توالوا الكفار فتستحقوا عقابه على ذلك كله. ﴿وإلى الله المصير﴾ يعني أن الله يحذركم عقابه إذا صرتم إليه في الآخرة. قوله عز وجل:

﴿قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٣٠﴾﴾

﴿قل إن تخفوا ما في صدوركم﴾ يعني ما في قلوبكم من موالاة الكفار ومودتهم وإنما ذكر الصدر لأنه وعاء القلب ﴿أو تبدوه﴾ يعني تبدوا مودة الكفار قولاً وفعلاً وقيل معناه إن تخفوا ما في قلوبكم من تكذيب رسول الله ﷺ أو تبدوه أي تظهروه بالحرب والمقاتلة له ﴿يعلمه الله﴾ أي يحفظه عليكم ويجازيكم به، ﴿ويعلم ما في السموات وما في الأرض﴾ يعني أنه تعالى إذا كان لا يخفى عليه شيء في السموات ولا في الأرض فكيف يخفى عليه حالكم وموالاتكم الكفار وميلكم إليهم بقلوبكم ﴿والله على كل شيء قدير، يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً﴾ يعني تجد كل نفس جزاء ما عملت محضراً يوم القيامة لم ينقص ولم يبخس منه شيء، ﴿وما عملت من سوء﴾ أي تجد ما عملت من الخير محضراً فتسر به وما عملت من سوء ﴿تود﴾ أي تتمنى ﴿لو أن بينها وبينه﴾ أي وبين ما عملت من السوء ﴿أمداً بعيداً﴾ أي مكاناً بعيداً قيل: كما بين المشرق والمغرب والأمد

غير أن يستحلّ دماً حراماً أو مالاً حراماً أو يظهر الكفّار على عورة المسلمين، والتقية لا تكون إلّا مع خوف القتل وسلامة النيّة، قال الله تعالى: إلّا مَن أُكره وقلبه مطمئن بالإيمان ثم هذا رخصة، فلو صبر حتى قُتل فله أجرٌ عظيم، وأنكر قوم التقية اليوم وقال معاذ بن جبل ومجاهد: كان في جِدّةِ الإسلام قبل استحكام الدين وقوة المسلمين، فأما اليوم فقد أعزّ الله الإسلام فليس ينبغي لأهل الإسلام أن يتّقوا من عدوهم، وقال يحيىٰ البكاء: قلت لسعيد بن جبير في أيام الحجاج إن الحسن كان يقول لكم: تقية باللسان والقلب مطمئن بالإيمان، فقال سعيد: ليس في الإسلام تقية، إنما التقية في أهل الحرب، ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَه ﴾ أي: يُخوفكم الله عقوبَته على مُوالاة الكفّار وارتكاب المنهي ومخالفة المأمور، ﴿ وإلى الله المصير ﴾.

﴿ قل إن تُخفوا ما في صدوركم ﴾، قلوبكم من مودّة الكفّار، ﴿ أو تُبدوه ﴾ من موالاتهم، قولاً وفعلاً، ﴿ يَعْلَمْه الله ﴾، قال الكلبي: إن تُسروا ما في قلوبكم لرسول الله ﷺ من التكذيب، أو تُظهروه بحربِهِ وقتاله، يَعْلَمْهُ اللَّهُ ويحفظه عليكم حتى يجازيكم به، ثم قال: ﴿ ويعلمُ ما في السمواتِ وما في الأرض ﴾، يعني: إذا كان لا يخفَى عليه شيءٌ في السموات ولا في الأرضِ؟ فكيف يخفى عليه مُوالاتكم الكفّار وميلكم إليهم بالقلب؟ ﴿ واللَّهُ على كلِّ شيءٍ قدير ﴾.

قوله تعالى: ﴿ يومَ تجِدُ كلُّ نفسٍ ﴾ نصب ﴿ يوم ﴾ بنزع حرف الصفة أي: في يوم، وقيل: بإضمار فعل أي اذكروا واتقوا يومَ تجدُ كلُّ نفس، ﴿ ما عملتْ من خيرٍ محضراً ﴾ لم يبخس منه شيء كما قال الله تعالى: ﴿ ووَجدوا ما عملوا حاضراً ﴾ [الكهف: ٤٩] ﴿ وما عملتْ من سُوء ﴾ جعل بعضهم خيراً في موضع النصب، أي

الأجل والغاية، وقيل معناه تود أنها لم تعمله ويكون بينها وبينه أمد بعيد ﴿ويحذركم الله نفسه﴾ إنما كرره لتأكيد الوعيد ﴿والله رؤوف بالعباد﴾ قيل: معناه أنه رؤوف بهم حيث حذرهم نفسه وعرفهم كمال قدرته وعلمه، وأنه يمهل ولا يهمل. وقيل: معناه أنه رؤوف بالعباد حيث أمهلهم للتوبة ولتدارك العمل الصالح. وقيل: إنه تعالى لما قال: ويحذركم الله نفسه وهو وعيد أتبعه بقوله والله رؤوف بالعباد، وهو وعد ليعلم العبد المؤمن أن رحمته ووعده غلبت وعيده وسخطه. قوله عز وجل: .

﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾

﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله﴾ نزلت في اليهود والنصارى حيث قالوا: نحن أبناء الله وأحباؤه فنزلت هذه الآية، فعرضها رسول الله ﷺ عليهم فلم يقبلوها. وقال ابن عباس: وقف رسول الله ﷺ على قريش وهم في المسجد الحرام وقد نصبوا أصنامهم وعلقوا عليها بيض النعام وجعلوا في آذانها الشنوف وهم يسجدون لها فقال: يا معشر قريش والله لقد خالفتم ملة أبيكم إبراهيم وإسماعيل فقالت قريش: إنما نعبدها حباً لله لتقربنا إلى الله زلفى فنزلت هذه الآية. وقيل: إن نصارى نجران قالوا: إنما نقول هذا القول في عيسى حباً لله وتعظيماً له فأنزل الله ﴿قل يا محمد إن كنتم تحبون الله﴾ فيما تزعمون فاتبعوني يحببكم الله لأنه قد ثبتت نبوة محمد ﷺ بالدلائل الظاهرة والمعجزات الباهرة فوجب على كافة الخلق متابعته. والمعنى قل: إن كنتم صادقين في ادعاء محبة الله فكونوا منقادين لأوامره مطيعين له فاتبعوني، فإن اتباعي من محبة الله تعالى وطاعته. وقال العلماء: إن محبة العبد لله عبارة عن إعظامه وإجلاله وإيثار طاعته واتباع أمره ومجانبة نهيه، ومحبة الله للعبد ثناؤه عليه ورضاه عنه وثوابه له وعفوه عنه فذلك قوله تعالى: ﴿ويغفر لكم ذنوبكم﴾ يعني أن من غفر له فقد أزال عنه العذاب ﴿والله غفور رحيم﴾ يعني أنه تعالى يغفر ذنوب من أحبه ويرحمه بفضله وكرمه، ولما نزلت هذه الآية قال

تجدُ محضراً ما عملتْ من الخير والشر، فَتُسَرُّ بما عملت من الخير، وجعل بعضهم خيراً مستأنفاً، ودليل هذا التأويل قراءة ابن مسعود رضي الله عنهما ﴿ وما عملتْ من سوء ودّتْ لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً ﴾ قوله تعالى: ﴿ تودّ لو أن بينها ﴾ أي: بين النفس ﴿ وبينه ﴾ يعني وبين السوء ﴿ أمداً بعيداً ﴾ قال السدي: مكاناً بعيداً، وقال مقاتل: كما بين المشرق والمغرب والأمد والأجل، والغاية التي ينتهي إليها، وقال الحسن: يسرّ أحدُهم أن لا يلقى عملَه أبداً وقيل: يودّ أنه لم يَعْملْه ﴿ ويحذركم اللّهُ نفسَه واللّهُ رءوفٌ بالعباد ﴾.

﴿ قلْ إن كنتم تُحبّون اللّهَ فاتّبِعُوني يُحْبِبْكُم اللّهُ ﴾، نزلت في اليهود والنصارى حيث قالوا: نحن أبناء الله وأحباؤه، وقال الضحّاك عن ابن عباس رضي الله عنهما: (وقف النبي ﷺ على قريش وهم في المسجد الحرام وقد نصبوا أصنامهم وعلّقوا عليها بَيْضَ النّعام وجعلوا في آذانها الشُّنُوف وهم يسجدون لها، فقال: والله يا معشر قريش لقد خالفتم مِلّةَ أبيكم إبراهيم وإسماعيل، فقالت له قريش: إنما نعبدها حبّاً لله ليُقرّبونا إلى الله زُلْفى)، فقال الله تعالى: قلْ لهم يا محمد إنْ كنتم تُحبّون اللّهَ وتعبدون الأصنام ليُقرِّبوكم إليه، فاتّبِعُوني يُحببكم الله، فأنا رسوله إليكم وحجّته عليكم، اتبعوا شريعتي وسُنّتي يُحببكم الله، فحبُّ المؤمنين لله اتّباعهم أمرَه وإيثار طاعتَه، وابتغاء مرضاته؛ وحبُّ الله للمؤمنين ثناؤه عليهم وثوابه لهم وعفوه عنهم، فذلك قوله تعالى: ﴿ ويغفر لكم ذنوبَكم والله غفور رحيم ﴾، قيل: لمّا نزلت هذه الآية قال عبد الله بن أُبي لأصحابه: إن محمداً يجعل طاعته كطاعة الله ويأمرنا أن نُحبّه كما أحبّتِ النصارى عيسى ابنَ مريم، فنزل قوله تعالى:

عبدالله بن أبي ابن سلول رأس المنافقين لأصحابه: إن محمداً يجعل طاعته كطاعة الله ويأمرنا أن نحبه كما أحبت النصارى عيسى ابن مريم فأنزل الله عز وجل: ﴿قل أطيعوا الله والرسول﴾ يعني أن طاعة الله متعلقة بطاعة رسول الله ﷺ فإن طاعته لا تتم مع عصيان رسول الله ﷺ ولهذا قال الشافعي رضي الله عنه: كل أمر أو نهي ثبت عن رسول الله ﷺ جرى ذلك في الفريضة واللزوم مجرى ما أمر الله به في كتابه أو نهى عنه، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: فإن طاعتكم لمحمد ﷺ طاعتكم لي، فأمّا أن تطيعوني وتعصوا محمداً فلن أقبل منكم. ﴿فإن تولوا﴾ أي أعرضوا عن طاعة الله ورسوله ﴿فإن الله لا يحب الكافرين﴾ أي لا يرضى فعلهم ولا يغفر لهم. (خ) عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كل أمتي يدخلون الجنة إلّا من أبى قالوا: ومن يأبى؟ قال: من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبى». (ق) عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من أطاعني فقد أطاع الله ومن عصاني فقد عصى الله، ومن يطع الأمير فقد أطاعني، ومن يعص الأمير فقد عصاني». قوله عز وجل:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾

﴿إن الله اصطفى آدم ونوحاً﴾ قال ابن عباس: قالت اليهود: نحن من أبناء إبراهيم وإسحاق ويعقوب ونحن على دينهم فأنزل الله هذه الآية. والمعنى أن الله اصطفى هؤلاء بالإسلام وأنتم يا معشر اليهود على غير دين الإسلام. ومعنى اصطفى اختار من الصفوة وهي الخالص من كل شيء آدم هو أبو البشر عليه السلام ونوحاً هو نوح بن لامك بن متوشلخ بن أخنوخ وهو إدريس عليه السلام. وحكى ابن الجوزي في تفسيره عن أبي سليمان الدمشقي أن اسم نوح السكن وإنما سمي نوحاً لكثرة نوحه على نفسه ﴿وآل إبراهيم﴾ قيل: أراد بآل إبراهيم

﴿ قلْ أطيعوا اللّهَ والرسولَ فإن تولّوا ﴾: أعرضوا عن طاعتهما، ﴿ فإن اللّهَ لا يُحبُّ الكافرين ﴾، لا يرضى فعلَهم ولا يغفرُ لهم. أخبرنا عبد الواحد المليحي، أنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل، أنا محمد بن سنان أنا فليح أنا هلال بن علي عن عطاء بن يسار عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «كلُّ من أمتي يدخلون الجنة إلاّ مَن أبَى»، قالوا: ومَن يأبَى؟ قال: «مَن أطاعني دخل الجنة، ومَن عصاني فقد أبى»، أخبرنا عبد الواحد المليحي، أنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، أنا محمد بن إسماعيل، أنا محمد بن عبادة، أنا يزيد، أنا سليمان بن حيان وأثنى عليه، أنا سعيد بن ميناء قال: حدّثنا أو سمعت جابر بن عبد الله يقول: جاءت ملائكة إلى النبي ﷺ وهو نائم فقال بعضهم: إنه نائم، وقال بعضهم: إن العين نائمة والقلب يقظان، فقالوا: إن لصاحبكم هذا مثلاً فاضربُوا له مثلاً، فقالوا: مثله كمثل رجل بنَى داراً وجعل فيها مأدبة وبعث داعياً، فمَن أجاب الداعي دخل الدارَ وأكلَ من المأْدُبة، ومَن لم يُجبِ الداعي لم يدخلِ الدارَ ولم يأكلْ من المأدبة، فقالوا: أوّلوها يفقّها فقال بعضهم: إنه نائم، وقال بعضهم: إن العين نائمة والقلب يقظان، فقالوا: أمّا الدار: الجنة، وأمّا الداعي: محمد ﷺ، فمَن أطاع محمداً فقد أطاع الله، ومَن عصى محمداً فقد عصى الله، ومحمدٌ ﷺ فرّق بين الناس.

قوله تعالى: ﴿ إنّ الله اصطفى آدمَ ونوحاً ﴾ الآية، قال ابن عباس رضي الله عنهما: قالت اليهود نحن من أبناء إبراهيم وإسحق ويعقوب، ونحن على دينهم، فأنزل الله تعالى هذه الآية، يعني: إن الله اصطفى هؤلاء بالإسلام، وأنتم على غير دين الإسلام. اصطفى: اختار، افتعل من الصفوة، وهي الخالص من كل شيء، آدم أبا البشر ونوحاً، ﴿ وآل إبراهيم وآلَ عمران ﴾، قيل: أراد بآلِ إبراهيم وآلِ عمران إبراهيم عليه السلام وعمران

إبراهيم نفسه، وقيل آل إبراهيم إسماعيل وإسحاق ويعقوب وذلك أن الله تعالى جعل إبراهيم أصلاً لشعبتين فجعل إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام أصلاً للعرب ومحمد ﷺ منهم فهو داخل في هذا الاصطفاء، وجعل إسحاق أصلاً لبني إسرائيل، وجعل فيهم النبوة والملك إلى زمن نبينا محمد ﷺ ثم جمع له ولأمته النبوة والملك إلى يوم القيامة. وقيل: أراد بآل إبراهيم من كان على دينه ﴿وآل عمران﴾ واختلفوا في عمران هذا فقيل: هو عمران بن يصهر بن قاهث بن لاوي بن يعقوب وهو والد موسى وهارون فيكون آل عمران موسى وهارون أو نفسه، وقيل: هو عمران بن آشيم بن آمون وقيل: ابن ماتان وهو من ولد سليمان بن داود عليهما السلام وعمران هذا هو والد مريم وابنها عيسى فعلى هذا يكون المراد بآل عمران مريم وابنها عيسى عليه السلام، وإنما خص هؤلاء بالذكر لأن الأنبياء والرسل من نسلهم ﴿على العالمين﴾ أي اختارهم واصطفاهم على العالمين بما خصهم من النبوة والرسالة ﴿ذرية﴾ أي اصطفى ذرية وأصلها من ذرأ بمعنى خلق وقيل: من الذر لأن الله تعالى استخرجهم من ظهر آدم كالذر وإنما سمي الآباء والأبناء ذرية لأن الله خلق بعضهم من بعض، فالأبناء من ذرية الآباء والآباء من ذرية آدم وهو ممن ذرأه الله تعالى أي خلقه ﴿بعضها من بعض﴾ أي بعضها من ولد بعض وقيل: بعضها من بعض في التناصر والتعاضد وقيل: بعضها على دين بعض ﴿والله سميع عليم﴾ يعني أن الله تعالى سميع لأقوال العباد عليم بنياتهم وإنما يصطفي لنبوته ورسالته من يعلم استقامته قولاً وفعلاً.

قوله عز وجل: ﴿إذ قالت امرأة عمران﴾ هي حنة بنت فاقوذا أم مريم وعمران هو عمران بن ماثان وقيل: ابن أشيم وليس بعمران أبي موسى لأن بينهما ألفاً وثمانمائة سنة، وكان بنو ماثان رؤوس بني إسرائيل في ذلك الزمن وأحبارهم وملوكهم ﴿رب إني نذرت لك ما في بطني محرراً﴾ أي جعلت الحمل الذي في بطني نذراً محرراً مني لك، والنذر ما يوجبه الإنسان على نفسه، والمعنى محرراً أي عتيقاً خالصاً مفرغاً لعبادة الله وخدمة الكنيسة لا أشغله بشيء من أمور الدنيا. قيل: كان المحرر عندهم إذا حرر جعل في الكنيسة فيقوم عليها ويخدمها ولا يبرح

أنفسهما، كقوله تعالى: ﴿ وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون ﴾ [البقرة: ٢٤٨]، يعني: موسى وهارون، وقال آخرون: آل إبراهيم: إسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط، وكان محمد ﷺ من آل إبراهيم عليه السلام، وأما آل عمران فقد قال مقاتل: هو عمران بن يصهر بن فاهث بن لاوى بن يعقوب عليه السلام، وآله: موسى وهارون، وقال الحسن ووهب: هو عمران بن أشهم بن عمون من ولد سليمان بن داود عليهما السلام، وآله: مريم وعيسى، وقيل: عمران بن ماثان، وإنما خُصّ هؤلاء بالذكر لأن الأنبياء والرّسل كلهم من نسلهم، ﴿ على العالمين ﴾.

﴿ ذُريةً ﴾، اشتقاقها من ذرا بمعنى خلق، وقيل: من الذر لأنه استخرجهم من صلب آدم كالذر، ويسمى الأولاد والآباء ذريّة، فالأولادُ ذُريّة، لأنه ذراهم، والآباء ذُريّة لأنه ذرا الأبناء منهم، قال الله تعالى: ﴿ وآية لهم أنّا حملنا ذُريَّتهم ﴾ [يس: ٤١] أي: آباءهم، ﴿ ذريّة ﴾ نُصب على معنى: واصطفى ذريةً ﴿ بعضُها من بعضٍ ﴾ أي: بعضها من ولدِ بعض، وقيل: بعضها من بعض في التناصر، وقيل: بعضها على دين بعض، ﴿ والله سميع عليم ﴾.

﴿ إذْ قالتِ امرأة عِمْرَان ﴾، وهي حنّة بنت فاقوذا أم مريم، وعمران: هو عمران بن ماثان، وليس بعمران أبي موسى عليه السلام، لأن بينهما ألفاً وثمانمائة سنة، وقيل كان بين إبراهيم وموسى عليهما السلام ألف سنة، وبين موسى وعيسى عليهما السلام ألفا سنة، وكان بنو ماثان رؤوس بني إسرائيل وأحبارهم وملوكهم، وقيل: عمران بن أشهم، قوله تعالى: ﴿ ربِّ إنّي نذرتُ لكَ ما في بطني مُحَرَراً ﴾ أي: جعلتُ لك الذي في بطني مَحرراً نذراً منّي

مقيماً فيها حتى يبلغ الحلم ثم يخير فإن أحب أقام فيها، وإن أحب ذهب حيث شاء، فإن اختار الخروج بعد أن اختار الإقامة في الكنيسة لم يكن له ذلك، ولم يكن أحد من أنبياء بني إسرائيل ومن علمائهم إلا ومن أولاده محرر لخدمة بيت المقدس، ولم يكن يحرر إلاّ الغلمان ولا تصلح الجارية لخدمة بيت المقدس لما يصيبها من الحيض والأذى فحررت أم مريم ما في بطنها، وكانت القصة في ذلك على ما ذكره أصحاب السير والأخبار أن زكريا وعمران تزوجا أختين فكانت إيشاع بنت فاقوذا وهي أم يحيى عند زكريا، وكانت حنة بنت فاقوذا أخت إيشاع عند عمران وهي أم مريم، وكان قد أمسك عن حنة الولد حتى أيست وكبرت وكانوا أهل بيت صالحين وهم من الله بمكان، فبينما هي في ظل شجرة إذ بصرت بطائر يطعم فرخاً فتحركت نفسها بذلك للولد، فدعت الله أن يهب لها ولداً وقالت: اللّهم لك علي إن رزقتني ولداً أن أتصدق به على بيت المقدس، فيكون من سدنته وخدمه فلما حملت بمريم حررت ما في بطنها ولم تعلم ما هو فقال لها زوجها: ويحك ما صنعت أرأيت إن كان ما في بطنك أنثى فلا تصلح لذلك فوقعا جميعاً في هم شديد من أجل ذلك. فمات عمران قبل أن تضع حنة حملها ثم قال تعالى حاكياً عنها ﴿فتقبل مني﴾ يعني فتقبل نذري، والتقبل أخذ الشيء على الرضا وأصله من المقابلة لأنه يقابل بالجزاء وهذا سؤال من لا يريد بما فعله إلاّ الطلب لرضا الله تعالى والإخلاص في دعائه وعبادته ﴿إنك أنت السميع﴾ يعني لتضرعي ودعائي ﴿العليم﴾ يعني بنيتي وما في ضميري. قوله عز وجل: .

﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ٣٦﴾

﴿فلما وضعتها﴾ أي ولدت حملها وإنما قال: وضعتها لأنه كان في علم الله أنها جارية وكانت حنة ترجو أن يكون غلاماً ﴿قالت﴾ يعني حنة ﴿رب إني وضعتها أنثى﴾ تريد بذلك اعتذار إلى الله من إطلاقها النذر المتقدم

لك، ﴿ فتقبلْ منّي إنّك أنتَ السميعُ العليمُ ﴾ والنذر ما يُوجِبُهُ الإنسان على نفسه محرراً أي: عتيقاً خالصاً لله مفرّغاً لعبادة الله ولخدمة الكنيسة، لا أشغله بشيء من الدنيا، وكل ما أُخلص فهو محرّر، يقال: حرّرتُ العبد إذا أعتقتُه وخلّصتُه من الرقّ، قال الكلبي ومحمد بن إسحق وغيرهما: كان المحرّر إذا حُرّر جعل في الكنيسة يقوم عليها ويكتنسها ويخدمها ولا يبرحها حتى يبلغ الحلم، ثم يخيّر إن أحبّ أقام فيه وإن أحبّ ذهب حيث شاء، وإن أراد أن يخرج بعد التخيير لم يكن له ذلك، ولم يكن أحد من الأنبياء والعلماء إلاّ من نسله محرّر لبيت المقدس، ولم يكن محرّراً إلاّ الغلمان ولا تصلُح له الجارية، لما يُصيبها من الحيض والأذى، فحررتْ أم مريم ما في بطنها وكانت القصة في ذلك أن زكريا وعمران تزوّجا أُختين، وكانتْ إيشاع بنت فاقوذا أُمّ يحيـىٰ عند زكريا، وكانت حنّة بنت فاقوذا أُم مريم عند عمران، وكان قد أُمسك عن حنّة الولدُ حتى أسنّتْ وكانوا أهل بيت من الله بمكان، فبينما هي في ظل شجرة بصرت بطائر يُطعم فرخاً فتحرّكتْ بذلك نفسُها للولد، فدعتِ اللّهَ أن يهب لها ولداً وقالت: اللّهمّ لك عليّ إنْ رزقتني ولداً أن أتصدّق به على بيت المقدس، فيكون من سَدَنته وخَدَمه، فحملتْ بمريم فحرّرت ما في بطنها، ولم تعلم ما هو، فقال لها زوجهـا: ويحك مـا صنعت؟ أرأيت إن كان مـا في بطنـك أُنثى تصلح لذلـك؟ فوقعـا جميعاً في همّ من ذلك، فهلك عمران وحنّةُ حامل بمريم.

﴿ فلما وضعتْها ﴾ أي: ولدتها، إذا هي جارية، والهاء في قوله: ﴿ وضعتْها ﴾ راجعة إلى النذيرةِ لا إلى ﴿ ما ﴾ ولذلك أنّث، ﴿ قالتْ ﴾ حنّة وكانت ترجو أن يكون غلاماً، ﴿ ربِّ إنّي وضعتُها أُنثى ﴾ اعتذاراً إلى الله عزّ.

فذكرت ذلك على سبيل الاعتذار لا على سبيل الإعلام، لأن الله تعالى عالم بما في بطنها قبل أن تضعه ﴿والله أعلم بما وضعت﴾ قرىء بجزم التاء إخباراً عن الله تعالى والمعنى أنه تعالى قال: والله أعلم بالشيء الذي وضعت. وقرىء وضعت برفع التاء وهو من كلام أم مريم على تقدير أنها لما قالت رب: إني وضعتها أنثى خافت أن تكون أخبرت الله بذلك فأزالت هذه الشبهة بقولها والله أعلم بما وضعت ﴿وليس الذكر كالأنثى﴾ يعني في خدمة الكنيسة والعباد الذين فيها، وفي الكلام تقديم وتأخير تقديره وليس الأنثى كالذكر، والمراد منه تفضيل الذكر على الأنثى لأن الذكر يصلح للخدمة للكنيسة ولا تصلح الأنثى لذلك لضعفها، وما يحصل لها من الحيض لأنها عورة ولا يجوز لها الحضور مع الرجال. وقيل: في معنى الآية: إن المراد منها هو تفضيل هذه الأنثى على الذكر كأنها قالت: كان الذكر مطلوبي لخدمة المسجد وهذه الأنثى هي موهوبة لله تعالى، وليس الذكر التي طلبت كالأنثى التي هي موهبة لله تعالى وكانت مريم من أجمل النساء وأفضلهن في وقتها ﴿وإني سميتها مريم﴾ يعني العابدة والخادمة وهو بلغتهم أرادت بهذه التسمية أن يفضلها الله على إناث الدنيا ﴿وإني أعيذها بك وذريتها﴾ أي أمنعها وأجيرها بك وذريتها ﴿من الشيطان الرجيم﴾ يعني اللعين الطريد وذلك أن حنة أم مريم لما فاتها ما كانت تطلب من أن يكون ولدها ذكراً، فإذا هي أنثى تضرعت إلى الله تعالى أن يحفظها ويعصمها من الشيطان الرجيم، وأن يجعلها من الصالحات العابدات. (ق) عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من بني آدم من مولود إلّا نخسه الشيطان حين يولد فيستهل صارخاً من نخسه إياه إلّا مريم وابنها». ثم يقول أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم «وإني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم». وللبخاري عنه قال: كل ابن آدم يطعن الشيطان في جنبيه بأصبعيه حين يولد غير عيسى ابن مريم ذهب ليطعن فطعن في الحجاب. قوله عز وجل:

فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾

﴿فتقبلها ربها بقبول حسن﴾ يعني أن الله تعالى تقبل مريم من حنة مكان الذكر المحرر بمعنى قبل ورضي.

وجلّ، ﴿ واللَّهُ أعلم بما وضعتْ ﴾، بجزم التاء إخباراً عن الله تعالى عزّ وجلّ، وهي قراءة العامّة وقرأ ابن عامر وأبو بكر ويعقوب ﴿ وضعت ﴾ برفع التاء جعلوها من كلام أم مريم، ﴿ وليسَ الذكرُ كالأُنثى ﴾، في خدمة الكنيسة والعبّاد الذين فيها لِلِينها وضعْفها وما يعتريها من الحيض والنفاس، ﴿ وإنّي سمّيتها مريم ﴾، وهي بلغتهم العابدة والخادمة، وكانت مريم من أجمل النساء في وقتها وأفضلهنّ، ﴿ وإني أُعيذها ﴾ أمنعها وأُجيرها، ﴿ بكَ وذريّتَها ﴾ أولادَها ﴿ مِنَ الشيطانِ الرجيم ﴾، والشيطان الطريد اللعين والرجيم المُرمَى بالشهب، أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا أبو اليمان أنا شعيب، عن الزهري حدّثني سعيد بن المسيب قال: قال أبو هريرة رضي الله عنه سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من بني آدم من مولودٍ إلّا يَمسُّه الشيطانُ حين يُولد، فيستهلّ الصبي صارخاً من الشيطان، غير مريم وابنها»، ثم يقول أبو هريرة رضي الله عنه «وإني أُعيذها بك وذريّتَها من الشيطان الرجيم»، أخبرنا عبد الواحد المليحي، أنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، أنا محمد بن إسماعيل، أنا أبو اليمان أنا شعيب عن أبي الزِّنَاد عن الأعرج عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كل بني آدمَ يطعن الشيطانُ في جنبه بأصبعه حين يُولد غير عيسى ابن مريم، ذهب يطعنُ فطعنَ في الحجاب».

قوله: ﴿ فتقبّلها ربُّها بِقبُولٍ حَسَنٍ ﴾ أي: قَبِلَ اللَّهُ مريم من حنّة، مكان المحرّر، وتقبّل بمعنى: قَبِل ورضي،

قال الزجاج: الأصل في العربية تقبلها بتقبل ولكن قبول محمول على قبلها قبولاً كما يقال: قبلت الشيء قبولاً إذا رضيته. وقال أبو عمر: ليس في المصادر فعول بفتح الفاء إلّا هذا ولم أسمع فيه الضم. قيل معنى التقبل والقبول واحد وهما سواء وهو أن يرى الشيء ويأخذه. وقيل معنى التكفل في التربية والقيام بشأنها، وإنما قال بقبول للجمع بين الأمرين يعني التقبل الذي بمعنى التكفل والقبول الذي بمعنى الرضا ﴿وأنبتها نباتاً حسناً﴾ معناه وأنبتها فنبتت هي نباتاً حسناً قال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿فتقبلها ربها بقبول حسن﴾ أي سلك بها طريق السعداء: «وأنبتها نباتاً حسناً» يعني سوى خلقها من غير زيادة ولا نقصان، فكانت تنبت في اليوم ما ينبت المولود في عام ﴿وكفلها زكريا﴾ قال أهل الأخبار: لما ولدت حنة مريم أخذتها فلفتها في خرقة وحملتها إلى المسجد ووضعتها عند الأحبار أبناء هارون وهم يومئذٍ يلون من بيت المقدس ما تلي الحجبة من الكعبة، وقالت: دونكم النذيرة فتنافس فيها الأحبار لأنها بنت إمامهم وصاحب قربانهم قال زكريا: أنا أحق بها لأن خالتها عندي فقالت له الأحبار لو تركت لأحق الناس بها لتركت لأمها التي ولدتها ولكنا نفترع عليها فتكون عند من خرج سهمه بها، فانطلقوا وكانوا تسعة وعشرين رجلاً إلى نهر جارٍ قيل: هو الأردن فألقوا أقلامهم في الماء على أن من ثبت قلمه في الماء وصعد فهو أولى بها من غيره وكان على كل قلم مكتوب اسم واحد منهم وقيل بل كانوا يكتبون التوراة فألقوا أقلامهم التي كانت بأيديهم فارتفع قلم زكريا فوق الماء ووقف وانحدرت أقلامهم ثم رسبت في النهر. وقيل جري قلم زكريا مصعداً إلى أعلى وجرت أقلامهم مع جري الماء إلى أسفل فسهمهم زكريا وقرعهم، وكان زكريا رأس الأحبار ونبهم فذلك قوله تعالى: وكفلها زكريا قرىء بتشديد الفاء ومعناه وضمنها الله زكريا وضمها إليه بالقرعة. وقرىء بتخفيف الفاء ومعناه ضمها زكريا إلى نفسه بالقرعة وقام بأمرها وهو زكريا بن أذن بن مسلم بن صدوق من أولاد سليمان بن داود عليهما السلام، فلما ضم زكريا مريم إلى نفسه بنى لها بيتاً واسترضع لها المراضع وقيل:

والقَبُول: مصدر قَبِل يَقْبَل قَبُولاً، مثل الولوغ والوزوغ، ولم يأتِ غير هذه الثلاثة، وقيل: معنى التقبّل: التكفّل في التربية والقيام بشأنها، ﴿ وأنبتها نباتاً حسناً ﴾، معناه: وأنبتها فنبتتْ نباتاً حسناً، وقيل: هذا مصدر على غير الصدر، أي المصدر، وكذلك قوله: ﴿ فتقبلها ربّها بقبول حسن ﴾، ومثله سائغ كقوله: تكلمت كلاماً. وقال جرير عن الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما: فتقبلها ربُّها بقبول حسن، أي: سلك بها طريق السُّعداء، وأنبتها نباتاً حسناً يعني: سوّى خلقها من غير زيادة ولا نقصان، فكانت تنبتُ في اليوم ما ينبت المولود في العام، ﴿ وكَفّلَها زكريا ﴾، قال أهل الأخبار: أخذت حنّة مريم حين ولدتْها، فلفّتها في خرقة وحملتها إلى المسجد فوضعتها عند الأحبار أبناء هارون، وهم يومئذ يلون من بيت المقدس ما يلي الحجبةُ من الكعبة، فقالت لهم: دونكم هذه النذيرة، فتنافس فيها الأحبار لأنها كانت بنت إمامهم وصاحب قُربانهم، فقال لهم زكريا: أنا أحقّكم بها، عندي خالتُها، فقالتْ له الأحبار: لا تفعل ذلك فإنها لو تركت لأحقّ الناس بها لتُركت لأمها التي ولدتها. لكنّا نقترع عليها فتكون عند مَن خرج سهمه، فانطلقوا وكانوا تسعة وعشرين رجلاً إلى نهر جارٍ، قال السدي: هو نهر الأردن، فألقوا أقلامهم في الماء على أن مَن ثبت قلمه في الماء وصعد فهو أَوْلى بها، وقيل: كان على كل قلم اسم واحد منهم، وقيل كانوا يكتبون التوراة فألقوا أقلامهم التي كانت بأيديهم في الماء فارتدّ قلم زكريا، فارتفع فوق الماء وانحدرت أقلامهم ورسبت في النهر، قاله محمد بن إسحق وجماعة، وقيل: جرى قلم زكريا مصعداً إلى أعلى الماء وجرت أقلامهم بجري الماء، وقال السدي وجماعة: بل ثبت قلم زكريا وقام فوق الماء كأنه في طين، وجرت أقلامهم في جرية الماء، فسهمَهم وقرعَهم زكريا، وكان رأسَ الأحبار ونبيّهم، فذلك قوله تعالى: ﴿ وكفّلها زكريا ﴾، قرأ حمزة وعاصم والكسائي ﴿ كفّلها ﴾ بتشديد الفاء، فيكون زكريا في محل النصب أي: ضمنها الله وضمّها إليه بالقرعة،

ضمها إلى خالتها أم يحيى حتى إذا شبت وبلغت مبلغ النساء بني لها محراباً في المسجد وجعل بابه في وسطه ولا يرقى إليه إلّا بسلم ولا يصعد إليها غيره. وكان يأتيها بطعامها وشرابها كل يوم فذلك قوله تعالى: ﴿**كلما دخل عليها زكريا المحراب**﴾ يعني الغرفة والمحراب أشرف المجالس ومقدمها، وكذلك هو من المسجد وقيل: المحراب ما يرقى إليه بدرج. وقيل كان زكريا يغلق عليها سبعة أبواب فإذا دخل عليها المحراب ﴿**وجد عندها رزقاً**﴾ يعني فاكهة في غير وقتها فكان يجد عندها فاكهة الشتاء في الصيف وفاكهة الصيف في الشتاء ﴿**قال**﴾ يعني زكريا ﴿**يا مريم أنى لك هذا**﴾ أي من أين لك هذه الفاكهة ﴿**قالت**﴾ يعني مريم مجيبة لزكريا ﴿**هو من عند الله**﴾ يعني من الجنة. وقيل: إن مريم من حين ولدت لم تلقم ثدياً بل كان يأتيها رزقها من الجنة فيقول زكريا: يا مريم أنى لك هذا فتقول هو من عند الله تكلمت وهي صغيرة في المهد كما تكلم ولدها عيسى عليه السلام وهو صغير في المهد. وقال محمد بن إسحاق: أصابت بني إسرائيل أزمة وهي على ذلك من حالها حتى ضعف زكريا عن حملها وكفالتها فخرج على بني إسرائيل فقال: يا بني إسرائيل تعلمون والله لقد كبرت سني وضعفت عن حمل بنت عمران فأيكم يكفلها بعدي: فقالوا: والله لقد جهدنا وأصابنا من السنة ما ترى فتدافعوها بينهم ثم لم يجدوا من حملها بداً فتقارعوا عليها بالأقلام فخرج السهم لرجل نجار يقال له يوسف بن يعقوب وكان ابن عم لمريم فحملها فعرفت مريم في وجهه شدة ذلك عليه. فقالت: يا يوسف أحسن بالله الظن فإن الله سيرزقنا، فصار يوسف يرزق لمكانها منه فكان يأتيها كل يوم من كسبه بما يصلحها إذا أدخله عليها في المحراب أنماه الله وزاده فيدخل زكريا عليها فيقول: يا مريم أنى لك هذا فتقول: هو من عند الله ﴿**إن الله يرزق من يشاء بغير حساب**﴾ وهذا يحتمل أن يكون من تمام كلام مريم أو ابتداء كلام من الله عز وجل ومعناه أن الله تعالى يرزق من يشاء بغير تقدير لكثرته أو من غير سبب، وفي هذه الآية دليل على جواز كرامات الأولياء وظهور خوارق العادات على أيديهم قال أهل

وقرأ الآخرون بتخفيف فيكون زكريا في محل الرفع، أي: ضمّها زكريا إلى نفسه وقام بأمرها، وهو زكريا بن أذن بن مسلم بن صدوق من أولاد سليمان بن داود عليهما السلام، وقرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم ﴿ **زكريا** ﴾ مقصوراً، والآخرون يمدّونه، فلما ضمّ زكريا مريمَ إلى نفسه بنَى لها بيتاً واسترضع لها، وقال محمد بن إسحق ضمّها إلى خالتها أم يحيى حتى إذا شبّتْ وبلغت مبلغ النساء، بنَى لها محراباً في المسجد وجعل بابه في وسطها لا يرقى إليها إلّا بالسلّم مثل باب الكعبة لا يصعد إليها غيره، وكان يأتيها بطعامها وشرابها ودُهنها كل يوم، ﴿ **كلّما دخلَ عليها زكريا المحرابَ** ﴾، وأراد بالمحراب الغُرفة، والمحراب أشرف المجالس ومقدمها، وكذلك هو من المسجد، ويقال للمسجد أيضاً محراب، وقال المبرّد لا يكون المحراب إلّا أن يُرتقى إليه بدرجة، وقال الربيع بن أنس: كان زكريا إذا خرج يُغلق عليها سبعة أبواب، فإذا دخل عليها فتحها، ﴿ **وجدَ عِنْدَها رِزْقاً** ﴾ أي: فاكهة في غير حينها فاكهة الصيف في الشتاء، وفاكهة الشتاء في الصيف، ﴿ **قال يا مريم أنّى لكِ هذا** ﴾، قال أبو عُبيدة معناه: من أين لكِ هذا، وأنكر بعضهم عليه وقال: معناه من أيِّ جهة لك هذا لأن ﴿ **أنّى** ﴾ للسؤال عن الجهة، ﴿ **وأين** ﴾للسؤال عن المكان، ﴿ **قالتْ هو من عند الله** ﴾، أي: من قطف الجنة، وقال أبو الحسن: إن مريم من حين ولدت لم تَلْقَمْ ثديها قطّ بل كان يأتيها رزقها من الجنة، فيقول لها زكريا أنّى لكِ هذا؟ فتقول: ﴿ **هو من عند الله** ﴾، تكلمتْ وهي صغيرة، ﴿ **إنّ الله يرزقُ مَن يشاءُ بغير حساب** ﴾، قال محمد بن إسحق: ثم أصابت بني إسرائيل ازمة، وهي على ذلك من حالها حتى ضعُفَ زكريا عن حملها، فخرج على بني إسرائيل فقال: يا بني إسرائيل تعلمون والله لقد كبرتْ سنّي وضعفتُ عن حمل مريم بنت عمران، فأيّكم يكفلها بعدي؟ فقالوا: والله لقد جهدنا وأصابنا من السنة ما ترى فتدافعوها بينهم ثم لم يجدوا من حملها بُدّاً فتقارعوا عليها بالأقلام، فخرج السهم

الأخبار: فلما رأى زكريا ذلك قال: إن الذي قدر على أن يأتي مريم بالفاكهة في غير وقتها وحينها من غير سبب لقادر أن يصلح زوجي ويهب لي ولداً في غير حينه مع الكبر وطمع في الولد. وذلك أن أهل بيته كانوا قد انقرضوا، وكان زكريا قد كبر وشاخ وأيس من الولد فذلك قوله عز وجل: .

﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ۝٣٨﴾

﴿**هنالك دعا زكريا ربه**﴾ يعني أنه عليه السلام دخل محرابه وأغلق الأبواب وسأل ربه الولد ﴿**قال رب هب لي من لدنك ذرية طيبة**﴾ يعني أنه قال: يا رب أعطني من عندك ولداً مباركاً تقياً صالحاً رضياً والذرية تطلق على الواحد والجمع والذكر والأنثى والمراد هنا الواحد وإنما قال طيبة لتأنيث لفظ الذرية ﴿**إنك سميع الدعاء**﴾ أي سامعه ومجيبه. قوله عز وجل: .

﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٣٩﴾

﴿**فنادته الملائكة**﴾ يعني جبريل عليه السلام، وإنما أخبر عنه بلفظ الجمع تعظيماً لشأنه ولأنه رئيس الملائكة، وقل أن يبعث إلا ومعه جمع من الملائكة فجري ذلك على مجرى العادة ﴿**وهو قائم يصلي في المحراب**﴾ أي في المسجد وذلك أن زكريا عليه السلام كان الخبر الكبير الذي يقرب القربان ويفتح لهم الباب فلا يدخلون حتى يأذن لهم في الدخول، فبينما هو قائم يصلي في محرابه عند المذبح والناس ينتظرون أن يأذن في

على رجل نجّار من بني إسرائيل، يقال له: يوسف بن يعقوب، وكان ابن عمّ مريم، فحملها فعرفت مريم في وجهه شدّة مؤنة ذلك عليه، فقالت له: يا يوسف أحسنْ بالله الظن فإن الله سيرزقنا، فجعل يوسف يُرزق بمكانها منه فيأتيها كل يوم من كسبه بما يصلحها فإذا أدخله عليها في الكنيسة أنماه الله فيدخل عليها زكريا فيرى عندها فضلاً من الرزق ليس بقدر ما يأتيها به يوسف، فيقول: ﴿ يا مريم أنى لكِ هذا ﴾؟ ﴿ قالت هو من عند الله إنّ الله يرْزق مَن يشاء بغير حساب ﴾، قال أهل الأخبار: فلما رأى ذلك زكريا قال: إن الذي قدر على أن يأتي مريم بالفاكهة في غير حينها من غير سبب لقادر على أن يصلح زوجتي ويهب لي ولداً في غير حينه على الكبر، فطمع في الولد وذلك أن أهل بيته كانوا قد انقرضوا، وكان زكريا قد شاخ وأيس من الولد.

قال الله تعالى: ﴿ هُنالِكَ ﴾، أي: عند ذلك. ﴿ دعا زكريا ربَّه ﴾، فدخل المحراب وغلّق الأبواب وناجى ربَّه ﴿ قال ربِّ ﴾ أي: يا رب، ﴿ هبْ لي ﴾ أعطني ﴿ من لدُنْكَ ﴾ أي: من عندك، ﴿ ذريةً طيبةً ﴾ أي: ولداً مباركاً تقياً صالحاً رضيّاً، والذرية تكون واحداً أو جمعاً ذكراً أو أُنثى، وهو ههنا واحد بدليل قوله عزّ وجلّ: ﴿ فهبْ لي من لدُنك ولياً ﴾ [مريم: ٥]، وإنما قال: طيبة لتأنيث لفظ الذرية، ﴿ إنك سميعُ الدعاء ﴾ أي: سامعُه، وقيل: مُجيبه، كقوله تعالى: ﴿ إني آمنت بربكم فاسمعون ﴾ [يس: ٢٥] أي: فأجيبوني.

﴿ فنادتْه الملائكةُ ﴾، قرأ حمزة والكسائي فناداه بالياء، والآخرون بالتاء لتأنيث لفظ الملائكة، وللجمع مع أن الذكور إذا تقدم فعلهم وهم جماعة كان التأنيث فيهم أحسن، كقوله تعالى: ﴿ قالتِ الأعراب ﴾ [الحجرات: ١٤]، وعن إبراهيم قال: كان عبد الله بن مسعود رضي الله عنهما: يذكر الملائكة في القرآن، قال أبو عبيدة: إنما نرى عبد الله اختار ذلك خلافاً للمشركين في قولهم: الملائكة بنات الله تعالى: وروى الشعبي: أن ابن مسعود رضي الله عنه قال: إذا اختلفتم في التاء والياء فاجعلوها ياء، وذكِّروا القرآن، وأراد بالملائكة ههنا جبريل

الدخول إذا هو برجل شاب عليه ثياب بيض ففزع زكريا منه فناداه جبريل عليه السلام يا زكريا ﴿إن الله يبشرك بيحيى﴾ أي بولد اسمه يحيى قال ابن عباس: سمي يحيى لأن الله تعالى أحيا به عقر أمه وقيل: لأن الله تعالى أحيا قلبه بالإيمان وقيل لأن الله تعالى أحياه بالطاعة حتى لم يهم بمعصية قط ﴿مصدقاً بكلمة من الله﴾ يعني عيسى ابن مريم وإنما سمي عيسى عليه السلام كلمة لأن الله تعالى قال له: كن فكان من غير أب دلالة على كمال القدرة فوقع عليه اسم الكلمة لأنه بها كان. وقيل سمي كلمة لأن عيسى عليه السلام كان يرشد الخلق إلى الحقائق والأسرار ويهتدى به كما يهتدى بكلام الله تعالى فسمي كلمة بهذا الاعتبار. وقيل سمي كلمة لأن الله تعالى بشر به مريم على لسان جبريل عليه السلام: وقيل لأن الله تعالى أخبر الأنبياء الذين قبله في كتبه المنزّلة عليهم أنه يخلق نبياً من غير واسطة أب، فلما جاء قيل: هذا هو تلك الكلمة يعني الوعد الذي وعد أنه يخلقه كذلك، وكان يحيى أول من آمن بعيسى وصدقه، وكان يحيى أكبر من عيسى بستة أشهر وكانا ابني خالة وقتل يحيى قبل أن يرفع عيسى عليه السلام. وقيل: إن أم يحيى لقيت أم عيسى وهما حاملتان فقالت أم يحيى لأم عيسى: يا مريم أشعرت أني حامل فقالت مريم: وأنا أيضاً حامل فقالت أم يحيى: يا مريم إني لأجد ما في بطني يسجد لما في بطنك فذلك قوله: مصدقاً بكلمة من الله يعني أن يحيى آمن بعيسى وصدق به ﴿وسيداً﴾ من ساد يسود. والسيد هو الرئيس الذي يتبع وينتهي إلى قوله. وكان يحيى عليه السلام سيد المؤمنين ورئيسهم في الدين والعلم والحلم. وقيل: السيد هو

عليه السلام وحده، كقوله تعالى: ﴿ ينزل الملائكة ﴾ [النحل: ٢] يعني جبريل بالروح والوحي، ويجوز في العربية أن يخبر عن الواحد بلفظ الجمع، كقولهم: سمعت هذا الخبر من الناس، وإنما سمع من واحد، نظيره قوله تعالى: ﴿ الذين قال لهم الناس ﴾ [آل عمران: ١٧٣] يعني: نعيم بن مسعود. ﴿ إنّ الناس ﴾ [آل عمران: ١٧٣] يعني: أبا سفيان بن حرب، وقال المفضل بن سلمة: إذا كان القائل رئيساً يجوز الإخبار عنه بالجمع، لاجتماع أصحابه معه، وكان جبريل عليه السلام رئيس الملائكة، وقلّ ما يبعث إلاّ ومعه جمع، فجرى على ذلك، قوله تعالى: ﴿ وهو قائمٌ يصلّي في المحراب ﴾ أي: في المسجد، وذلك أن زكريا كان الحَبر الكبير الذي يُقرّب القربان فيفتح باب المذبح، فلا يدخلون حتى يأذن لهم في الدخول، فبينما هو قائم يصلّي في المحراب، يعني: في المسجد عند المذبح يصلّي والناس ينتظرون أن يأذن لهم في الدخول، فإذا هو برجل شاب عليه ثياب بيض تلمع ففزع منه، فناداه وهو جبريل عليه السلام: يا زكريا ﴿ أنَّ اللَّهَ يُبشّرُكَ ﴾ قرأ ابن عامر وحمزة « إنَّ الله » بكسر الألف على إضمار القول، تقديره: فنادته الملائكة فقالت: إن الله، وقرأ الآخرون بالفتح بإيقاع النداء عليه كأنه قال فنادته الملائكة بأن الله يبشّرك، قرأ حمزة ﴿ يبشرك ﴾ وبابه بالتخفيف كل القرآن إلاّ قوله: ﴿ فبِمَ تبشّرون ﴾ [الحجر: ٥٤] فإنهم اتفقوا على تشديدها، ووافقه الكسائي ههنا في الموضعين وفي ﴿ سبحان ﴾ [الإسراء: ٩] و﴿ الكهف ﴾ [آية: ٢] و﴿ حمٓعٓسٓقٓ ﴾ [الشورى: ٢٣] ووافق ابن كثير وأبو عمرو في ﴿ حمٓعٓسٓقٓ ﴾ [الشورى: ٢٣] والباقون بالتشديد، فمَن قرأ بالتشديد فهو من بشر يبشّر تبشيراً، وهو أعْربُ اللغات وأفصحها، دليل التشديد قوله تعالى: ﴿ فبشّر عبادي ﴾ [الزمَر: ١٧] و﴿ بشّرناه بإسحاق ﴾ [الصّافّات: ١١٢] قالوا: ﴿ بشّرناك بالحق ﴾ [الحجر: ٥٥] وغيرها من الآيات، ومَن خفّف فهو من بَشَر يبشُر وهي لغةُ تُهامة، وقراءة ابن مسعود رضي الله عنه: ﴿ بيحيىٰ ﴾، هو الاسم لا يجرّ لمعرفته، وللزائد في أوله، ومثل: يزيد ويعمر، وجمعه يحيون مثل موسون وعيسون، واختلفوا في أنه لِمَ سُمي يحيىٰ، فقال ابن عباس رضي الله عنهما لأن الله أحيا به عقر أمه، قال قتادة: لأن الله تعالى أحيا به قلبه بالإيمان، وقيل: سُمّي يحيىٰ لأنه استشهد، والشهداء أحياء، وقيل: معناه يموت، وقيل: لأن الله تعالى أحياه بالطاعة حتى لم يعصَ ولم يهمّ بمعصية، ﴿ مُصدّقاً ﴾ نصب على

الحسن الخلق وقيل: هو الذي يطيع ربه وقيل: هو الفقيه العالم وقيل: سيداً في العلم والعبادة والورع وقال السيد هو الحليم الذي لا يغضبه شيء وقيل: السيد هو الذي يفوق في جميع خصال الخير. وقيل: هو السخي قال رسول الله ﷺ: «من سيدكم يا بني سلمة؟ قالوا: جد بن قيس على أنا نبخله قال وأي داء أدوأ من البخل لكن سيدكم عمرو بن الجموح» ﴿وحصوراً﴾ قال ابن عباس وغيره من المفسرين: الحصور الذي لا يأتي النساء ولا يقربهن فعلى هذا هو فعول بمعنى فاعل يعني أنه حصر نفسه عن الشهوات وأصله من الحصر وهو الحبس: وقيل: هو العنين وقيل هو الفقير الذي لا مال له فيكون الحصور بمعنى المحصور يعني الممنوع من النساء. قال سعيد بن المسيب: كان له مثل هدبة الثوب وقد تزوج مع ذلك ليغض بصره وفيه قول آخر: وهو أن الحصور هو الممتنع عن الوطء مع القدرة عليه، وإنما تركه للعفة والزهد فيه وهذا القول هو الصحيح وهو قول جماعة من المحققين وهو أليق بمنصب الأنبياء لأن الكلام إنما خرج مخرج المدح والثناء وذكر صفة النقص في معرض المدح لا يجوز، وأيضاً فإن منصب النبوة يجل من أن يضاف إلى أحد منهم نقص أو آفة، فحمل الكلام على منع النفس من الوطء مع القدرة عليه أولى من حمله على ترك الوطء مع العجز عنه ﴿ونبياً من الصالحين﴾ يعني أنه من أولاد الأنبياء الصالحين. قوله عز وجل: .

الحال، ﴿ بكلمةٍ مِنَ الله ﴾ يعني: عيسى عليه السلام، سُمّي عيسى كلمة الله لأن الله تعالى قال له: كن من غير أب فكان، فوقع عليه اسم الكلمة، وقيل: سُمّي كلمة لأنه يُهتدى به كما يُهتدى بكلام الله تعالى، وقيل: هي بشارة الله تعالى لمريم بعيسى عليه السلام، بكلامه على لسان جبريل عليه السلام، وقيل: لأن الله تعالى أخبر الأنبياء بكلامه في كتبه على أنه يخلق نبيّاً بلا أب، فسمّاه كلمة لحصوله بذلك الوعد، وكان يحيىٰ عليه السلام أول مَن آمن بعيسى عليه السلام وصدّقه، وكان يحيىٰ عليه السلام أكبر من عيسى بستة أشهر وكانا ابني خالة، ثم قُتل يحيىٰ قبل أن يرفع عيسى عليه السلام، وقال أبو عبيدة: بكلمة من الله، أي: بكتاب من الله وآياته، تقول العرب: أنشدني كلمةَ فلان، أي: قصديته: قوله تعالى: ﴿ وسيّداً ﴾ هو فعيل من ساد يسود، وهو الرئيس الذي يتبع وينتهي إلى قوله، قال المفضل: أراد سيّداً في الدين، قال الضحاك: السيد: الحسنُ الخلق، قال سعيد بن جبير: السيد الذي يطيع ربّه عزّ وجلّ، وقال سعيد بن المسيب: السيد الفقيه العالم، وقال قتادة: سيد في العِلم والعبادة والورع، وقيل: الحليم الذي لا يغضبه شيء، قال مجاهد: الكريم على الله تعالى، وقيل: السيد التقي قاله الضحاك، قال سفيان الثّوري: الذي لا يحسد، وقيل: الذي يفوق قومه في جميع خصال الخير، وقيل: هو القانع بما قسم الله له، وقيل: هو السخي، قال رسول الله ﷺ: «مَن سيّدكم يا بني سلمة»؟ قالوا: جدّ بن قيس على أنّا نبخـله، قال: «وأيّ داء أدوأ من البخل، لكن سيدكم عمرو بن الجموح». قوله تعالى: ﴿ وحصُوراً ونبيّاً من الصالحين ﴾، والحصُور: أصله من الحصْر وهو الحبس، والحصور في قول ابن مسعود وابن عباس وسعيد بن جبير وقتادة رضي الله عنهم، وعطاء والحسن الذي لا يأتي النساء ولا يقربهنّ، وهو على هذا القول: فعول بمعنى فاعل، يعني: أنه يحصر نفسه عن الشهوات، وقال سعيد بن المسيب، هو العنين الذي لا ماء له فيكون الحصور بمعنى المحصور، يعني: الممنوع من النساء، قال سعيد بن المسيب: كان له مثل هدبة الثوب، وقد تزوج مع ذلك ليكون أغضّ لبصره، وفيه قول آخر: أن الحصور الممتنع من الوطء مع القدرة عليه، واختار قوم هذا القول لوجهين أحدهما لأن الكلام خرج مخرج الثناء، وهذا أقرب إلى استحقاق الثناء، والثاني أنه أبعد من إلحاق الآفة بالأنبياء.

﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِى عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾﴾

﴿قال﴾ يعني زكريا **﴿رب﴾** أي يا رب قيل خطاب مع جبريل لأن الآية المتقدمة دلت على أن الذين نادوهم الملائكة فعلى هذا القول يكون الرب هنا بمعنى السيد والمربي أي يا سيدي، وقيل: إنه خطاب مع الله تعالى فيكون الرب بمعنى المالك، وذلك أن الملائكة لما بشروه بالولد تعجب ورجع في إزالة ذلك التعجب إلى الله تعالى فقال رب **﴿أنى يكون لي غلام﴾** يعني من أين يكون وكيف يكون لي غلام **﴿وقد بلغني الكبر﴾** قيل: هو من المقلوب ومعناه وقد بلغت الكبر وشخت. وقيل: معناه وقد نالني الكبر وأدركني الضعف. فإن قلت كيف أنكر زكريا الولد مع تبشير الملائكة إياه به وما معنى هذه المراجعة، ولم تعجب من ذلك بعد وعد الله إياه به أكان شاكاً في وعد الله أو في قدرته؟ قلت: لم يشك زكريا عليه السلام في وعد الله وفي قدرته إنما قال ذلك على سبيل الاستفهام والاستعلام والمعنى من أي جهه بكون لي الولد أيكون بإزالة العقر عن زوجتي ورد شبابي علي؟ أو يكون ونحن على حالنا من الكبر والضعف؟ فأجابه بقوله **﴿كذلك الله يفعل ما يشاء﴾** وقال عكرمة والسدي: لما سمع زكريا نداء الملائكة جاءه الشيطان وقال: يا زكريا إن الصوت الذي سمعت ليس هو من الله تعالى، وإنما هو من الشيطان، ولو كان من الله تعالى لأوحاه إليك كما يوحي إليك في سائر الأمور: فقال ذلك زكريا دفعاً للوسوسة واعترض على الجواب بأنه لا يجوز أن يشتبه على الأنبياء كلام الملائكة بكلام الشيطان، إذ لو جوزنا ذلك لارتفع الوثوق بأخبارهم عن الوحي السماوي، وأجيب عن هذا الاعتراض بأنه لما دلت الدلائل على صدق الأنبياء فيم يخبرون به عن الله تعالى بواسطة الملك، فلا مدخل للشيطان فيه وذلك فيما يتعلق بالدين والشرائع، فأما ما يتعلق بمصالح الدنيا وبالولد فقد يحتمل فيه حصول الوسوسة فسأل زكريا ذلك لنزول هذه الوسوسة من خاطره. قال الكلبي: كان زكريا يوم بشر بالولد ابن اثنين وتسعين سنة. وقيل: ابن تسع وتسعين سنة وقال ابن عباس في رواية الضحاك: كان ابن مائة وعشرين سنة وكانت امرأته بنت ثمان وتسعين سنة فذلك قوله تعالى: **﴿وامرأتي عاقر﴾** أي عقيم لا تلد **﴿قال كذلك الله يفعل ما يشاء﴾** يعني أنه تعالى قادر على هبة الولد على الكبر يفعل ما يشاء لا يعجزه شيء. قوله عز وجل: .

قوله تعالى: ﴿ قال ربِّ ﴾ أي: يا سيدي، قال لجبريل عليه السلام، هذا قول الكلبي وجماعة، وقيل: **قاله الله عزّ وجلّ ﴿ أنّى يكون ﴾** يعني: أين يكون، **﴿ لي غلامٌ ﴾** أي: أين **﴿ وقد بلَغني الكِبَرُ ﴾**، هذا من المقلوب، أي: وقد بلغت الكبر وشخت، كما تقول: بلغني الجهد، أي: أنا في الجهد، وقيل: معناه وقد نالني الكِبَرُ وأدركني وأضعفني، قال الكلبي: كان زكريا يوم بُشّر بالولد ابن اثنتين وتسعين سنة، وقيل: ابن تسع وتسعين سنة، **وقال الضحاك** عن ابن عباس رضي الله عنهما: كان ابن عشرين ومائة سنة، وكانت امرأة بنت ثمان وتسعين سنة، فذلك قوله تعالى: **﴿ وامرأتي عاقرٌ ﴾** أي: عقيم لا تلد، ويقال: رجل عاقر وامرأة عاقر، وقد عقُر بضم القاف يعقر عقراً وعقارة، **﴿ قال كذلِكَ اللَّهُ يفعلُ ما يشاء ﴾**، فإن قيل: لِمَ قال: زكريا بعدما وعده الله تعالى: **﴿ أنّى يكون لي غلام ﴾** أكان شاكّاً في وعد الله وفي قدرته، قيل: إنّ زكريا لمّا سمع النداء من الملائكة جاءه **الشيطان فقال: يا** زكريا إن الصوت الذي كنت تسمعه ليس من الله إنما هو من الشيطان، ولو كان من الله لأوحاه إليك كما يُوحى إليك في سائر الأحوال، فقال ذلك دفعاً للوسوسة، قال عكرمة والسدي: وجواب آخر وهو أنه لم يشكّ في وعد الله إنما شكّ في كيفيته، أي: كيف ذلك أتجعلني وامرأتي شابّين، أم ترزقنا ولداً على الكِبَر منّا أم ترزقني من امرأة أُخرى؟ قاله مستفهماً لا شاكّاً هذا قول الحسن.

قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةًۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًاۗ وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٤١﴾ وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾

﴿**قال**﴾ يعني زكريا يا ﴿**رب اجعل لي آية**﴾ أي علامة أعلم بها وقت حمل امرأتي فأزيد في العبادة والشكر لك ﴿**قال آيتك**﴾ أي علامتك على الذي طلبت معرفة علمه ﴿**أن لا تكلم الناس**﴾ أي لا تقدر على تكليم الناس ﴿**ثلاثة أيام**﴾ أي مدة ثلاثة أيام بلياليها. قال جمهور المفسرين: عقد لسانه عن تكليم الناس ثلاثة أيام مع إبقائه على قدرة التسبيح والذكر ولذلك قال في آخر الآية ﴿**واذكر ربك كثيراً وسبح بالعشي والإبكار**﴾ يعني في أيام منعك من تكليم الناس وهذه من الآيات الباهرة والمعجزات الظاهرة لأن قدرته على التسبيح والذكر مع عجزه عن تكليم الناس بأمور الدنيا. وذلك مع صحة الجسم وسلامة الجوارح من أعظم المعجزات، وإنما منع من الكلام مع الناس ليخلص في هذه الأيام لعبادة الله تعالى وذكره ولا يشغل لسانه بشيء آخر توقيراً منه على قضاء حق هذه النعمة الجسيمة وشكراً لله على إجابته فيما طلب الآية من أجله، وأن يكون ذلك دليلاً على وجود الحمل ليتم سروره بذلك وقال قتادة: إنما أمسك لسانه عن الكلام عقوبة لسؤاله الآية بعد مشافهة الملائكة إياه ببشارة الولد فلم يقدر على الكلام ﴿**ثلاثة أيام إلاّ رمزاً**﴾ يعني الإشارة والإشارة قد تكون باليد وبالعين وبالإيماء بالرأس وكانت إشارته بالأصبع المسبحة. وقيل: الرمز قد يكون باللسان من غير تبين كلام وهو الصوت الخفي شبه الهمس وقيل: أراد به صوم ثلاثة أيام لأنهم كانوا إذا صاموا لم يتكلموا والقول الأول أصح لموافقة أهل اللغة عليه ﴿**واذكر ربك كثيراً**﴾ وذلك لما منعه الله من الكلام في تلك المدة أمره بالذكر فقال: واذكر ربك كثيراً فإنك لا تمنع من ذلك ولا يحال بينك وبينه ﴿**وسبح**﴾ أي وعظم ربك ونزهه عن النقائص وقيل: وصل لربك وسميت الصلاة تسبيحاً لأن فيها تنزيهاً للرب سبحانه وتعالى ﴿**بالعشي والإبكار**﴾ فأما العشي فهو ما بين زوال الشمس إلى غروبها، ومنه سميت صلاتاً الظهر والعصر صلاتي العشي والإبكار هو ما بين طلوع الفجر إلى الضحى. قوله عز وجل: ﴿**وإذ قالت**

قوله تعالى: ﴿ **قال ربِّ اجْعلْ لي آيةً** ﴾ أي: علامةً أعلم بها وقت حمل امرأتي فأزيد في العبادة شكراً لك، ﴿ **قال آيتكَ أنْ لا تُكلِّم الناسَ** ﴾ أي: تكفّ عن الكلام، ﴿ **ثلاثةَ أيام** ﴾، وتقبل بكليّتك على عبادتي لا أنه يُحبس لسانه عن الكلام، ولكنه نُهي عن الكلام، وهو صحيح سَوي كما قال في سورة مريم [١٠]: ﴿ **ألاّ تُكلّم الناسَ ثلاثَ ليالٍ سَويّاً** ﴾ يدلّ على قوله تعالى: ﴿ **وسبِّح بالعشي والإبكار** ﴾ فأمره بالذكر ونهاه عن كلام الناس، وقال أكثر المفسّرين: عُقل لسانه عن الكلام مع الناس ثلاثة أيام، وقال قتادة: أمسك لسانه عن الكلام عقوبةً لسؤالِهِ الآية، بعد مُشافهة الملائكة إيّاه، فلم يقدر على الكلام ثلاثة أيام. وقوله: ﴿ **إلاّ رمزاً** ﴾ أي: إشارةً والإشارة قد تكون باللسان وبالعين واليد، وكانت إشارته بالأصبع المسبّحة، قال الفرّاء: قد يكون الرمز باللسان من غير أن يُبيّن، وهو الصوت الخفي شبه الهمس، وقال عطاء: أراد به صوم ثلاثة أيام لأنهم كانوا إذا صاموا لم يتكلموا إلاّ رمزاً، ﴿ **واذكرْ ربَّك كثيراً وسبّح بالعشي والإبكار** ﴾، قيل: المراد بالتسبيح: الصلاة والعشي ما بين زوال الشمس إلى غروب الشمس، ومنه سمّيت صلاة الظهر والعصر صلاتي العشي، والإبكار، ما بين صلاة الفجر إلى الضحى.

قوله تعالى: ﴿ **وإذْ قالت الملائكة** ﴾ يعني: جبريل، ﴿ **يا مريمُ إنّ اللّهَ اصطفاكِ** ﴾، اختارك، ﴿ **وطهّركِ** ﴾، قيل: من مسيس الرجال، وقيل: من الحيض والنفاس، قال السدي: كانت مريم لا تحيض، وقيل:

الملائكة﴾ يعني جبريل عليه السلام **﴿يا مريم إن الله اصطفاك﴾** أي واختارك **﴿وطهرك﴾** يعني من مسيس الرجال. وقيل: من الحيض والنفاس. وكانت مريم لا تحيض وقيل: من الذنوب **﴿واصطفاك﴾** أي واختارك **﴿على نساء العالمين﴾** أي على عالمي زمانها وقيل: على جميع نساء العالمين. فإن قلت هل فرق بين الاصطفاء الأول والثاني؟ قلت: ذكر العلماء في معناهما وجوهاً يتحصل منها الفرق فقيل في معنى الاصطفاء الأول إن الله تعالى اختار مريم وقبلها منذورة محررة ولم تحرر قبلها أنثى ولم يجعل ذلك لغيرها من النساء وأن الله بعث إليها رزقها من عنده وكفلها زكريا ومعنى الإصطفاء الثاني أن الله تعالى وهب لها عيسى من غير أب وأسمعها كلام الملائكة ولم يحصل ذلك لغيرها من النساء (ق) عن علي بن أبي طالب قال: سمعت رسول الله ﷺ: يقول: خير نسائها مريم بنت عمران وخير نسائها خديجة بنت خويلد» قال أبو كريب: وأشار وكيع إلى السماء والأرض قيل: أراد وكيع بهذه الإشارة تفسير الضمير في قوله خير نسائها ومعناه أنهما خير كل النساء بين السماء والأرض قال الشيخ محيي الدين النووي: والأظهر أن معناه أن كل واحدة مهما خير نساء الأرض في عصرها، وأما التفضيل بينهما فمسكوت عنه. (ق) عن أبي موسى أن رسول الله ﷺ قال: «كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلاّ مريم بنت عمران وآسية امرأة فرعون وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام» قال العلماء معناه أن الثريد من كل طعام أفضل من المرق وثريد اللحم أفضل من مرقه بلا ثريد، وثريد ما لا لحم فيه أفضل من مرقه من غير ثريد وفضل عائشة على النساء كزيادة فضل الثريد على غيره. وليس في هذا تصريح بتفضيلها على مريم وآسية لاحتمال أن المراد تفضيلها على نساء هذه الأمة عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «حسبك من نساء العالمين مريم بنت عمران وخديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد وآسية امرأة فرعون» أخرجه الترمذي. قوله عز وجل:

يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾

﴿يا مريم اقنتي لربك﴾ أي قالت الملائكة لها شفاهاً أطيعي ربك وقيل: معناه أطيلي القيام في الصلاة لربك.

من الذنوب، **﴿ واصطفاكِ على نساءِ العالمين ﴾**، قيل: على عالمي زمانها، وقيل: على جميع نساء العالمين في أنها ولدت بلا أب ولم يكن ذلك لأحد من النساء، وقيل: بالتحرير في المسجد ولم تحرّر أُنثى. أخبرنا عبد الواحد المليحي، أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف، أخبرنا محمد بن إسماعيل، أخبرنا أحمد بن رجاء، أخبرنا النضر عن هشام، أخبرني أبي قال: سمعت عبد الله بن جعفر قال: سمعت علياً رضي الله عنه يقول: سمعت النبي ﷺ يقول: «خير نسائها مريم بنت عمران، وخير نسائها خديجة» رضي الله عنهما ورواه وكيع وأبو معاوية عن هشام بن عروة وأشار وكيع إلى السماء والأرض. أخبرنا عبد الواحد المليحي، أخبرنا عبد الله النعيمي، أخبرنا محمد بن إسماعيل، أخبرنا آدم أنا شعبة عن عروة بن مرّة عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «كَمُلَ من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلاّ مريم بنت عمران وآسية امرأة فرعون، وفضلُ عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام». أخبرنا أبو بكر سعيد بن عبد الله بن أحمد الطاهري أخبرنا جدّي عبد الرحمن بن عبد الصمد البزار، أخبرنا محمد بن زكريا العذافري أخبرنا إسحق الديري أخبرنا عبد الرزاق، أخبرنا معمر عن قتادة عن أنس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «حسبك من نساء العالمين: مريم بنت عمران، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد ﷺ، وآسية امرأة فرعون».

قوله تعالى: **﴿ يا مريم اقنتي لربك ﴾**، قالت لها الملائكة شِفَاهاً أي: أطيعي ربّك وقال مجاهد: أطيلي

قال الأوزاعي: لما قالت الملائكة لها ذلك قامت حتى تورمت قدماها وسالت دماً وقيحاً وحكي عن مجاهد نحوه ﴿**واسجدي واركعي مع الراكعين**﴾ إنما قدم السجود على الركوع لأن الواو لا تقتضي الترتيب إنما هي للجمع كأنه قيل لها: افعلي الركوع والسجود وقيل: إنما قدم السجود على الركوع لأنه كان كذلك في شريعتهم. وقال ابن الأنباري: أمرها أمراً عاماً وحضها على فعل الخير فكأنه قال: استعملي السجود في حال والركوع في حال ولم يرد تقديم السجود على الركوع بل أراد العموم بالأمر على اختلاف الحالين. وإنما قال: اركعي مع الراكعين ولم يقل: مع الراكعات لأن لفظ الراكعين أعم فيدخل فيه الرجال والنساء، والصلاة مع الرجال أفضل وأتم. وقيل: معناه افعلي كفعل الراكعين وقيل: المراد به الصلاة في جماعة أي صلى مع المصلين في جماعة. قوله عز وجل: ﴿**ذلك من أنباء الغيب**﴾ يقول الله عز وجل لمحمد ﷺ بذلك الذي ذكرت لك من حديث زكريا ويحيى ومريم وعيسى عليهم السلام من أخبار الغيب ﴿**نوحيه إليك**﴾ أي نلقيه إليك يا محمد لأنه لا يمكنك أن تعلم أخبار الأمم الماضين إلّا بوحي منا إليك وإنما قال نوحيه لأنه رد الضمير إلى ذلك فلذلك يذكر اللفظ ﴿**وما كنت**﴾ يعني يا محمد ﴿**لديهم**﴾ هنالك عندهم ﴿**إذ يلقون أقلامهم**﴾ يعني التي كانوا يكتبون بها في الماء لأجل الاقتراع ﴿**أيهم يكفل مريم**﴾ يعني يربيها ويقوم بمصالحها قيل سبب منازعتهم في كفالة مريم حتى اقترعوا على ذلك أنها كانت بنت عمران وكان رئيسهم وكبيرهم فلأجل ذلك رغبوا في كفالتها وقيل: لأن مريم حررت لعبادة الله وخدمة المسجد وكان أبوها قد مات فلأجل ذلك رغبوا في كفالتها ﴿**وما كنت لديهم إذ يختصمون**﴾ يعني في كفالتها وتربيتها قوله عز وجل: ﴿**إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمةٍ منه**﴾ معناه وما كنت لديهم يا محمد إذ يختصمون وما كنت لديهم إذ قالت الملائكة يعني جبريل عليه السلام: يا مريم إن الله يبشرك والبشارة إخبار المرء بما يسره من خير بكلمة منه يعني برسالة من الله وخير من عنده فهو كقول القائل ألقى إليّ فلان كلمة سرني بها وأخبرني خيراً فرحت به. ومعنى الآية إذ قالت الملائكة لمريم: يا مريم إن الله يبشرك ببشرى من عنده وهي ولد يولد لك من غير بعل ولا فحل وذلك الولد ﴿**اسمه المسيح عيسى ابن مريم**﴾ وقال قتادة في قوله تعالى ﴿**بكلمة منه**﴾ هو قوله تعالى: كن فسماه الله كلمة لأنه كان عن الكلمة التي هي كن كما يقال لما قدر الله من شيء هذا قدر الله وقضاء الله يعني أن هذا الأمر عن قدره وقضائه حدث. وقال ابن عباس: الكلمة هي عيسى عليه السلام وإنما سمي كلمة لأنه وجد عن الكلمة التي هي كن. فإن قلت إن كل مخلوق إنما يوجد بواسطة الكلمة التي هي كن فلم خص عيسى عليه السلام بهذا الاسم وسماه كلمة دون غيره؟. قلت: إن كل مخلوق وإن وجد حدوثه وخلقه بواسطة الكلمة إلّا أن هذا السبب ما هو المتعارف، ولما كان حدوث عيسى عليه السلام بمجرد الكلمة من غير واسطة أخرى فلا جرم كان إضافة حدوثه إلى الكلمة أتم وأكمل وبهذا التأويل حسن أن يسمى عيسى عليه السلام نفس الكلمة لأنه حدث عنها، فإن قلت الضمير في قوله اسم عائد إلى الكلمة وهي مؤنثة فلم ذكر الضمير؟ قلت: لأن المسمى بها مذكر

القيام في الصلاة لربك، والقنوت: الطاعة، وقيل: القنوت طول القيام، قال الأوزاعي: لمّا قالت لها الملائكة ذلك قامت في الصلاة حتى ورمتْ قدمَاهَا وسالتْ دماً وقيحاً ﴿ **واسجدِي واركعِي** ﴾، قيل: إنما قدّم السجود على الركوع لأنه كان كذلك في شريعتهم، وقيل: بل كان الركوع قبل السجود في الشرائع كلها، وليس الواو للترتيب بل للجمع، يجوز أن يقول الرجل: رأيت زيداً وعمراً وإن كان قد رأى عمراً قبل زيد، ﴿ **مع الراكعين** ﴾، ولم يقل مع الراكعات ليكون أعمّ وأشمل، فإنه يدخل فيه الرجال والنساء، وقيل: معناه مع المصلّين في الجماعة.

قوله تعالى: ﴿ **ذلكَ من أنباءِ الغيب نوحيه إليك** ﴾، يقول لمحمد ﷺ: ذلك الذي ذكرتُ من حديث زكريا ويحيىٰ ومريم وعيسى، على نبيّنا وعليهم السلام، من أنباء الغيب، أي: من أخبار الغيب نُوحيه إليك ردَّ الكناية

فلهذا ذكر الضمير. فإن قلت لم قال اسمه المسيح عيسى ابن مريم وهذه ثلاثة الاسم منها واحد وهو عيسى، وأما المسيح فلقب وابن مريم صفة. قلت: الضمير في قوله اسمه يرجع إلى عيسى وللمسمى علامة يعرف بها ويتميز عن غيره فكأنه قال الذي يعرف به ويتميز عن سواه هو مجموع هذه الثلاثة واختلفوا لم سمي عيسى عليه السلام مسيحاً وهل هو اسم مشتق أو موضوع؟ فقيل: إنه موضوع واسمه بالعبرانية مشيحا فغيرته العرب وأصل عيسى أيشوع كما قالوا موسى وأصله موشى أو ميشى وقال الأكثرون: إنه اسم مشتق ثم ذكروا فيه وجوهاً قال ابن عباس: سمي عيسى مسيحاً لأنه ما مسح ذا عاهة إلاّ برأ منها وقيل لأنه مسح بالبركة وقيل: لأنه مسح من الأقذار وطهر من الذنوب، وقيل: إنه خرج من بطن أمه ممسوحاً بالدهن. وقيل: لأن جبريل عليه السلام مسحه بجناحه حتى لا يكون للشيطان عليه سبيل. وقيل: لأنه كان يسيح في الأرض ولا يقيم بمكان فكأنه يمسح الأرض أي يقطعها مساحة فعلى هذا القول تكون الميم زائدة وقيل سمي مسيحاً لأنه كان مسيح القدمين لا أخمص له وسمي الدجال مسيحاً لأنه ممسوح إحدى العينين وقيل: المسيح هو الصديق وبه سمي عيسى عليه السلام وقد يكون المسيح بمعنى الكذاب وبه سمي الدجال فعلى هذا تكون هذه الكلمة من الأضداد. وقوله تعالى: ﴿وجيهاً﴾ أي شريفاً رفيعاً ذا جاه وقدر ﴿في الدنيا والآخرة﴾ أما وجاهته في الدنيا فبسبب النبوة وأنه كان يبرىء الأكمه والأبرص ويحيي الموتى وأما وجاهته في الآخرة فبسبب علو مرتبته عند الله وهو قوله تعالى: ﴿ومن المقربين﴾ يعني عند الله يوم القيامة لأن لأهل الجنة منازل ودرجات ومنازل الأنبياء ودرجاتهم أعلى من سواهم وقيل: فيه تنبيه على علو منزلته وأنه رفعه إلى السماء.

وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾

﴿يكلم الناس في المهد﴾ يعني ويكلم الناس صغيراً وهو في المهد وذلك قبل أوان الكلام ووقته والكلام الذي تكلم به هو ما ذكره الله عنه في سورة مريم وهو قوله: ﴿إني عبد الله آتاني الكتاب﴾ الآية. وتكلم ببراءة أمه

إلى ذلك فلذلك ذكره، ﴿ وما كنتَ ﴾، يا محمد، ﴿ لديهم إذْ يُلقون أقلامَهم ﴾، سهامهم في الماء للاقتراع، ﴿ أيهم يكْفُلُ مريم ﴾ يحضنها ويربِّيها، ﴿ وما كنتَ لديهم إذْ يختصمون ﴾، في كفالتها.

قوله تعالى: ﴿ إذْ قالتِ الملائكةُ يا مريمُ إنّ اللّهَ يُبشّركِ بكلمةٍ منه اسمُهُ المسيحُ عيسى ابنُ مريمَ ﴾، إنما قال اسمه، وردّ الكناية إلى عيسى، واختلفوا في أنه لِمَ سُمّي مسيحاً، فمنهم مَن قال: هو فعيل بمعنى المفعول يعني: أنه مُسح من الأقذار وطُهِّر من الذنوب، وقيل: لأنه مسح بالبركة، وقيل: لأنه خرج من بطن أمه ممسوحاً بالدهن، وقيل: مسحه جبريل بجناحه حتى لم يكن للشيطان عليه سبيل، وقيل: لأنه كان مسيح القدم لا أخمص له، وسمّي الدجال مسيحاً لأنه كان ممسوح إحدى العينين، وقال بعضهم هو فعيل بمعنى الفاعل، مثل عليم وعالم، قال ابن عباس رضي الله عنهما: سُمّي عيسى عليه السلام مسيحاً لأنه ما مسح ذَا عَاهةٍ إلاّ برأ، وقيل: سُمّي بذلك لأنه كان يسيح في الأرض ولا يقيم في مكان، وعلى هذا القول تكون الميم فيه زائدة، وقال إبراهيم النخعي: المسيح الصديق، ويكون المسيح بمعنى: الكذاب، وبه سُمّي الدجال. والحرف من الأضداد، ﴿ وجيهاً ﴾ أي شريفاً رفيعاً ذَا جاهٍ وقدر، ﴿ في الدنيا والآخرة ومن المقرّبين ﴾، عند الله.

﴿ ويُكلّم الناسَ في المهد ﴾ صغيراً قبل أوانِ الكلام، كما ذكره في سورة مريم، ﴿ قال إني عبد الله آتانيَ

مما رماها به أهل الفرية من القذف. ويحكى أن مريم قالت كنت إذا خلوت أنا وعيسى حدثني وحدثته فإذا شغلني عنه إنسان سبح وهو في بطني وأنا أسمع ولما تكلم ببراءة أمه سكت بعد ذلك فلم يتكلم إلاّ في الوقت الذي يتكلم فيه الصغير قال ابن عباس: تكلم عيسى ساعة ثم سكت ثم لم يتكلم حتى بلغ مبلغ النطق ﴿**وكهلاً**﴾ يعني ويكلم الناس في حال الكهولة والكهل في اللغة هو الذي اجتمعت قوته وكمل شبابه والكهل عند العرب الذي جاوز الثلاثين وقيل: هو الذي وخطه الشيب، وهو السن الذي يستحكم فيه العقل وتتنبأ فيه الأنبياء. قال ابن قتيبة: لما كان لعيسى ثلاثون سنة أرسله الله تعالى فمكث في رسالته ثلاثين شهراً ثم رفعه الله تعالى وقال وهب بن منبه: جاءه الوحي على رأس ثلاثين سنة فمكث في نبوته ثلاث سنين ثم رفعه الله فمعنى الآية أنه يكلم الناس وهو في المهد ببراءة أمه وهي معجزة عظيمة، ويكلم الناس في حال الكهولة بالدعوة والرسالة وقيل: فيه بشارة لمريم أخبرها بأنه يبقى حتى يكتهل وقيل: فيه أخبار بأنه يتغير من حال إلى حال ولو كان إلهاً كما زعمت النصارى لم يدخل عليه التغيير ففيه رد على النصارى الذين يدعون فيه الألوهية. وقال الحسن بن الفضل: وكهلاً يعني ويكلم الناس كهلاً بعد نزوله من السماء وفي هذه نص على أنه سينزل من السماء إلى الأرض ويقتل الدجال. وقال مجاهد: الكهل الحكيم والعرب تمدح الكهولة لأنها الحالة الوسطى في احتناك السن واستحكام العقل وجودة الرأي والتجربة ﴿**ومن الصالحين**﴾ يعني أنه من العباد الصالحين مثل إبراهيم وإسحاق ويعقوب وموسى وغيرهم من الأنبياء وإنما ختم أوصاف عيسى عليه السلام بكونه من الصالحين بعد ما وصفه بالأوصاف العظيمة. لأن الصلاح من أعظم المراتب وأشرف المقامات لأنه لا يسمى المرء صالحاً حتى يكون مواظباً على النهج الأصلح والطريق الأكمل في جميع أقواله وأفعاله. فلما وصفه الله تعالى بكونه وجيهاً في الدنيا والآخرة ومن المقربين وأنه يكلم الناس في المهد وكهلاً أردفه بقوله ومن الصالحين ليكمل له أعلى الدرجات وأشرف المقامات. قوله عز وجل: ﴿**قالت**﴾ يعني مريم ﴿**رب**﴾ يعني يا سيدي تقوله لجبريل لما بشرها بالولد وقيل تقوله لله عز وجل: ﴿**أنى يكون لي ولد**﴾ أي من أين يكون لي ولد ﴿**ولم يمسني بشر**﴾ أو لم يصبني رجل وإنما قالت ذلك تعجباً لا شكاً في قدرة الله تعالى إذ لم تكن العادة جرت أن يولد ولد من غير أب ﴿**قال كذلك الله يخلق ما يشاء**﴾ يعني هكذا يخلق الله منك ولداً من غير أن يمسك بشر فيجعله آية للناس وعبرة فإنه يخلق ما يشاء ويصنع ما يريد وهو قوله ﴿**إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون**﴾ يعني كما يريد ﴿**ويعلمه الكتاب**﴾ يعني الكتابة والخط باليد ﴿**والحكمة**﴾ يعني العلم والسنة

الكتاب ﴾ [مريم: ٣٠] الآية، حُكي عن مجاهد قال: قالت مريم: كنت إذا خلوتُ أنا وعيسى عليه السلام حدّثني وحدّثته، فإذا شغلني عنه إنسان سبّح في بطني وأنا أسمع قوله، ﴿ **وكهلاً** ﴾، قال مقاتل: يعني إذا اجتمعت قوته قبل أن يرفع إلى السماء، وقال الحسين بن الفضل: وكهلاً بعد نزوله من السماء، وقيل: أخبرها أنه يبقى حتى يكتهل وكلامه بعد الكهولة إخبار عن الأشياء المعجزة، وقيل: وكهلاً نبيّاً بشّرها بنبوّة عيسى عليه السلام، وكلامه في المهد معجزة وفي الكهولة دعوة، وقال مجاهد: وكهلاً أي: حليماً، والعرب تمدح الكهولة، لأنها الحالة الوسطى في احتناك السنّ واستحكام العقل وجودة الرأي والتجربة، ﴿ **ومنَ الصالحين** ﴾، أي: هو من العباد الصالحين.

﴿ **قالتْ ربِّ** ﴾ يا سيدي، تقوله لجبريل، وقيل: تقول لله عزّ وجلّ، ﴿ **أنّى يكون لي ولدٌ ولم يَمْسَسْني بشرٌ** ﴾ ولم يصبني رجل، قالت ذلك تعجباً إذ لم تكن جرت العادة بأن يولد ولد لا أب له، ﴿ **قال كذلكِ اللّهُ يخلقُ ما يشاءُ إذا قَضَى أمراً** ﴾، أراد كون الشيء، ﴿ **فإنّما يقول له كن فيكون** ﴾، كما يُريد، قوله تعالى: ﴿ **ويعلمهُ الكتابَ** ﴾، قرأ أهل المدينة وعاصم ويعقوب بالياء لقوله تعالى: ﴿ **كذلك الله يخلق ما يشاء** ﴾، وقيل: ردّه على قوله: ﴿ **إنّ الله يُبشّرك** ﴾.

وأحكام الشرائع ﴿والتوراة﴾ يعني التي أنزلت على موسى ﴿والإنجيل﴾ يعني الذي أنزل عليه وهذا إخبار من الله تعالى لمريم ما هو فاعل بالولد الذي بشرها به من الكرامة وعلو المنزلة.

﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدۡ جِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ وَأُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأۡكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٤٩﴾

﴿ورسولاً إلى بني إسرائيل﴾ أي ونجعله رسولاً إلى بني إسرائيل وكان أول أنبياء بني إسرائيل يوسف بن يعقوب وآخرهم عيسى ابن مريم عليه السلام فلما بعث إليهم قال ﴿أني قد جئتكم بآية من ربكم﴾ يعني بعلامة من ربكم على صدق قولي وإنما قال بآية وقد جاء بآيات كثيرة لأن الكل دل على شيء واحد وهو صدقه في الرسالة، فلما قال ذلك عيسى لبني إسرائيل قالوا: ما هذه الآية؟ قال ﴿أني أخلق﴾ أي أصور وأقدر ﴿لكم من الطين كهيئة الطير﴾ والهيئة الصورة المهيأة من قولهم هيأت الشيء إذا قدرته وأصلحته ﴿فأنفخ فيه﴾ أي في الطين المهيأ المصور ﴿فيكون طيراً﴾ قرىء بلفظ الجمع لأن الطير اسم جنس يقع على الواحد والاثنين والجمع. وقرىء فيكون طائراً على التوحيد على معنى يكون ما أنفخ فيه طائراً أو ما أخلقه يكون طائراً وقيل إنه لم يخلق غير الخفاش وهو الذي يطير في الليل، وإنما خص الخفاش لأنه من أكمل الطير خلقاً وذلك لأنه يطير بلا ريش وله أسنان ويقال: إن الأنثى منه لها ثدي وتحيض ذكروا أن عيسى عليه السلام لما ادّعى النبوة وأظهر لهم المعجزات أخذوا يتعنتون عليه فطلبوا منه أن يخلق لهم خفاشاً فأخذ طيناً وصوره كهيئة الخفاش، ثم نفخ فيه فإذا هو طير يطير بين السماء والأرض قال وهب: كان يطير ما دام الناس ينظرون إليه فإذا غاب عنهم سقط ميتاً ليتميز فعل المخلوق من فعل الخالق وهو الله تعالى، وليعلم أن الكمال لله تعالى: ﴿بإذن الله﴾ معناه بتكوين الله وتخليقه والمعنى إني أعمل هذا التصوير أنا، فأما خلق الحياة فيه فهو من الله تعالى على سبيل إظهار المعجزة على يد عيسى عليه السلام ﴿وأبرىء الأكمه والأبرص﴾ أي وأشفي الأكمه والأبرص وأصحهما، واختلفوا في الأكمه فقال ابن عباس: هو الذي ولد أعمى وقيل: هو الأعمى وإن كانّ أبصر وقيل: هو الأعشى وهو الذي يبصر بالليل، والأبرص هو الذي به وضح

﴿ ويعلمه ﴾، وقرأ الآخرون بالنون على التعظيم، كقوله تعالى: ﴿ ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك ﴾ [آل عمران: ٤٤]، قوله: ﴿ الكتاب ﴾ أي: الكتابة والخط، ﴿ والحِكمةَ ﴾، العلم والفقه ﴿ والتوراةَ والإنجيلَ ﴾ علّمه الله التوراة والإنجيل.

﴿ ورَسُولاً ﴾ أي: ونجعله رسولاً ﴿ إلى بني إسرائيل ﴾، قيل: كان رسولاً في حال الصبا، وقيل: إنما كان رسولاً بعد البلوغ، وكان أول أنبياء بني إسرائيل يوسف وآخرهم عيسى عليهما السلام، فلما بعث قال: ﴿ أنّي ﴾، قال الكسائي إنما فتح لأنه أوقع الرسالة عليه، وقيل: معناه بأني ﴿ قد جئتُكم بآية ﴾، علامة، ﴿ منْ ربِّكم ﴾، تصدق قولي، وإنما قال بآية وقد أُتي بآيات لأن الكل دلّ على شيء واحد وهو صدقه في الرسالة، فلما قال ذلك عيسى عليه السلام لبني إسرائيل قالوا: وما هي قال: ﴿ أنّي ﴾، قرأ نافع بكسر الألف على الاستئناف، وقرأ الباقون بالفتح على معنى بأنّي ﴿ أخلقُ ﴾ أي: أصوّر وأقدّر، ﴿ لكم منَ الطينِ كهيئةِ الطير ﴾، قرأ أبو جعفر (كهيئة الطائر)، ههنا وفي المائدة [١١٠]، والهيئة الصورة المهيأة من قولهم: هيّأتُ الشيءَ إذا قدّرتُه وأصلحتُه، ﴿فأنفخُ فيه﴾، أي: في الطير ﴿ فيكونُ طيراً بإذنِ الله ﴾، قراءة الأكثرين بالجمع، لأنه خلق طيراً كثيراً، وقرأ أهل المدينة ويعقوب

وكان الغالب على زمان عيسى عليه السلام الطب فأراهم المعجزة من جنس ذلك إلّا أنه ليس في علم الطب إبراء الأكمه والأبرص فكان ذلك معجزة له ودليلاً على صدقه. وقال وهب: ربما اجتمع على عيسى عليه السلام من المرضى في اليوم الواحد نحو خمسين ألفاً فمن أطاق أن يمشي إليه مشى، ومن لم يطق مشى عيسى عليه السلام إليه وكان يداويهم بالدعاء على شرط الإيمان برسالته ﴿وأحيي الموتى بإذن الله﴾ قال ابن عباس: قد أحيا أربعة أنفس عازر وابن العجوز وابنة العاشر وسام بن نوح وكلهم بقي وولد له إلّا سام بن نوح فأما عازر فكان صديقاً لعيسى عليه السلام فأرسلت إليه أخت عازر إن أخاك عازر يموت وكان بينهما مسيرة ثلاثة أيام فأتاه عيسى وأصحابه فوجدوه قد مات منذ ثلاثة أيام فقال لأخته: انطلقي بنا إلى قبره فانطلقت بهم إلى قبره فدعا الله عيسى فقام عازر حياً بإذن الله تعالى فخرج من قبره وعاش وولد له. وأما ابن العجوز فإنه مر به وهو ميت على عيسى عليه السلام يحمل على السرير فدعا الله عيسى فجلس على سريره ونزل عن أعناق الرجال ولبس ثيابه وأتى أهله وولد له، وأما ابنة العاشر فكان أبوها يأخذ العشور من الناس وماتت بالأمس فدعا الله عيسى فأحياها بدعوته فعاشت وولد لها، وأما سام بن نوح فإن عيسى جاء إلى قبره ودعا الله باسمه الأعظم فخرج من قبره وقد شاب نصف رأسه خوفاً من قيام الساعة ولم يكونوا يشيبون في ذلك الزمان فقال: قد قامت الساعة فقال عيسى عليه السلام: لا ولكن دعوتك باسم الله الأعظم ثم قال له: مت فقال: بشرط أن يعيذني الله من سكرات الموت مرة أخرى فدعا الله عيسى ففعل ﴿وأنبئكم﴾ يعني وأخبركم ﴿بما تأكلون﴾ أي مما لم أعاينه ﴿وما تدخرون في

﴿فيكون طائراً﴾ على الواحد ههنا وفي سورة المائدة [١١٠]، ذهبوا إلى نوع واحد من الطير، لأنه لم يخلق غير الخفاش، وإنما خصّ الخفاش لأنه أكمل الطير خلقاً لأن له ثدياً وأسناناً، وهي تحيض، قال وهب: كان يطير ما دام الناس ينظرون إليه فإذا غاب عن أعينهم سقط ميّتاً ليتميز فعل الخلق من فعل الخالق، وليعلم أن الكمال لله عزّ وجلّ، قوله تعالى: ﴿ وأبرىء الأكمهَ والأبرصَ ﴾، أي: أشفيهما وأصححهما، واختلفوا في الأكمه قال ابن عباس رضي الله عنهما وقتادة: هو الذي ولد أعمى، وقال الحسن والسدي: هو الأعمى، وقال عكرمة: هو الأعمش، وقال مجاهد: هو الذي يبصر بالنهار ولا يبصر بالليل، والأبرص هو الذي به وضح، وإنما خصّ هذين لأنهما داءان عياءان وكان الغالب في زمن عيسى عليه السلام الطب، فأراهم الله المعجزة من جنس ذلك، قال وهب: ربما اجتمع على عيسى عليه السلام من المرضى في اليوم الواحد خمسون ألفاً مَن أطاق منهم أن يبلغه بلغه، ومَن لم يطق مشى إليه عيسى، وكان يداويهم بالدعاء على شرط الإيمان، قوله تعالى: ﴿ وأحيي الموتَى بإذنِ الله ﴾، قال ابن عباس: قد أحيا أربعة أنفس عازر وابن العجوز وابنة العاشر وسام بن نوح، فأمّا عازر فكان صديقاً له فأرسلت أُخته إلى عيسى عليه السلام أنّ أخاك عازر يموت وكان بينه وبينه مسيرة ثلاثة أيام فأتاه هو وأصحابه فوجدوه وقد مات منذ ثلاثة أيام، فقال لأُخته انطلقي بنا إلى قبره، فانطلقت معهم إلى قبره، فدعا الله تعالى فقام عازرُ وَدَكه بقطرٍ فخرج من قبره وبقي وولد له، وأما ابن العجوز فإنه مُرّ به ميتاً على عيسى عليه السلام على سرير يُحمل فدعا الله عيسى فجلس على سريره ونزل عن أعناق الرجال ولبس ثيابه وحمل السرير على عنقه ورجع إلى أهله فبقي وولد له، وأما ابنة العاشر فكان والدها رجلاً يأخذ العشور، ماتت له بنت بالأمس فدعا الله عزّ وجلّ فأحياها، وبقيت وولدت، وأما سام بن نوح عليه السلام فإن عيسى عليه السلام جاء إلى قبره فدعا باسم الله الأعظم فخرج من قبره، وقد شاب نصف رأسه خوفاً من قيام الساعة، ولم يكونوا يشيبون في ذلك الزمان، فقال: قد قامت القيامة؟ قال: لا ولكن دعوتُك باسم الله الأعظم، ثم قال له: مُتْ، قال: بشرط أن يُعيذني الله من سكرات الموت، فدعا الله ففعل. قوله تعالى: ﴿ وأُنَبِّئُكُمْ ﴾ أخبركم، ﴿ بمـا تأكلون ﴾، ممـا لم أُعاينـه، ﴿ ومـا

بيوتكم﴾ أي وما ترفعونه فتخبؤونه في بيوتكم لتأكلوه فيما بعد ذلك، قيل: كان عيسى عليه السلام يخبر الرجل بما أكل البارحة وبما يأكله اليوم وبما يدخره للعشاء. وقيل كان في الكتاب يحدث الغلمان بما يصنع آباؤهم ويقول للغلام: انطلق فقد أكل أهلك كذا وكذا وقد رفعوا لك كذا فينطلق الصبي فيبكي على أهله حتى يعطوه ذلك الشيء فيقولون من أخبرك بهذا؟ فيقول عيسى فحبسوا صبيانهم عنه وقالوا: لا تقعدوا مع ذلك الساحر وجمعوهم في بيت فجاء عيسى يطلبهم فقالوا: ليسوا هنا فقال: وما في البيت؟ قالوا خنازير فقال كذلك يكونون. ففتحوا عليهم الباب فإذا هم خنازير ففشا ذلك في بني إسرائيل وظهر فهموا به فخافت عليه أمه فحملته على حمار لها وخرجت هاربة إلى مصر. وقال قتادة: إنما كان هذا في نزول المائدة وكان خواناً ينزل عليهم أينما كانوا فيه من طعام الجنة وأمروا أن لا يخونوا ولا يدخروا الغد فخانوا وادخروا، فكان عيسى عليه السلام يخبرهم بما أكلوا من المائدة وما أدخروا منها فمسخهم الله خنازير وفي هذا دليل قاطع على صحة نبوة عيسى عليه السلام ومعجزة عظيمة له، وهي إخباره عن المغيبات مع ما تقدم له من الآيات الباهرات من إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله تعالى وإخباره عن الغيوب بإعلام الله إياه ذلك وهذا مما لا سبيل لأحد من البشر عليه إلّا الأنبياء عليهم السلام، فإن قلت قد يخبر المنجم والكاهن عن مثل ذلك فما الفرق؟. قلت: إن المنجم والكاهن لا بد لكل واحد منهما من مقدمات يرجع إليها ويعتمد في أخباره عليها، أما المنجم فإنه يستعين على ذلك بواسطة معرفة الكواكب وامتزاجاتها أو بواسطة حساب الرمل أو نحو ذلك وقد يخطىء في كثير مما يخبر به، وأما الكاهن فإنه يستعين برائد من الجن وقد يخطىء أيضاً في كثير مما يخبر به وأما أخبار الأنبياء عليهم السلام عن المغيبات فليس إلّا بالوحي السماوي وهو من الله تعالى وليس ذلك باستعانة بواسطة حساب ولا غيره فحصل الفرق ﴿إن في ذلك﴾ يعني الذي تقدم ذكره من خلق الطير من الطين بإذن الله وإبراء والأكمه والأبرص والإخبار عن المغيبات ﴿لآية لكم﴾ أي لعبرة ودلالة على صدق أني رسول من الله إليكم ﴿إن كنتم مؤمنين﴾ يعني مصدقين بذلك.

﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ۗ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾﴾

﴿ومصدقاً﴾ قيل: إنه عطف على قوله ورسولاً وقيل إنه عطف على أني قد ﴿جئتكم بآية من ربكم﴾ والمعنى

تدّخِرُون﴾، ترفعونه، **﴿في بُيوتِكم﴾**، حتى تأكلوه، وقيل: كان يخبر الرجل بما أكل البارحة وبما يأكل اليوم وبما ادّخره للعشاء، وقال السدي: كان عيسى عليه السلام في الكتاب يحدّث الغلمان بما يصنع آباؤهم، ويقول للغلام: انطلق فقد أكل أهلك كذا وكذا ورفعوا لك كذا وكذا، فينطلق الصبي إلى أهله ويبكي عليهم حتى يعطوه ذلك الشيء، فيقولون: مَن أخبرك بهذا؟ فيقول: عيسى عليه السلام، فحبسوا صبيانهم عنه، وقالوا: لا تلعبوا مع هذا الساحر فجمعوهم في بيت، فجاء عيسى عليه السلام يطلبهم فقالوا ليسوا ههنا، فقال: فما في هذا البيت قالوا خنازير، قال عيسى: كذلك يكونون، ففتحوا عليهم فإذا هم خنازير، ففشا ذلك في بني إسرائيل فهمّت به بنو إسرائيل فلما خافت عليه أُمه حملته على حمار لها وخرجت هاربة إلى مصر، وقال قتادة: إنما كان هذا في المائدة، وكانت خواناً ينزل عليهم أينما كانوا كالمنّ والسلوى، وأمروا أن لا يخونوا ولا يخبئوا للغد فخانوا وخبؤوا للغد، فجعل عيسى يخبرهم بما أكلوا من المائدة وبما ادّخروا منها، فمسخهم الله خنازير. قوله تعالى: **﴿ إنّ في ذلك ﴾**، الذي ذكرت، **﴿ لآية لكم إن كنتم مؤمنين ﴾**.

﴿ ومُصدقاً ﴾ عطف على قوله: **﴿ ورسولاً ﴾ ﴿ لِما بين يديّ من التوراةِ ولأُحِلَّ لكم بعضَ الذي حُرِّم**

وجئتكم مصدقاً ﴿لما بين يدي من التوراة﴾ وذلك لأن الأنبياء عليهم السلام يصدق بعضهم بعضاً فكل واحد منهم يصدق الذي قبله ويصدق بما أنزل الله من الكتب والشرائع والأحكام فلهذا قال عيسى عليه السلام مصدقاً لما بين يدي من التوراة ﴿ولأحلّ لكم بعض الذي حرم عليكم﴾ قال وهب بن منبه: أن عيسى كان على شريعة موسى عليهما السلام وكان يسبت ويستقبل بيت المقدس وقال لبني إسرائيل: إني لم أدعكم إلى خلاف حرف مما في التوراة إلاّ لأحل لكم بعض الذي حرم عليكم وأضع عنكم الآصار وذلك أن الله تعالى كان قد حرم على اليهود بعض الأشياء عقوبة لهم على بعض ما صدر منهم من الخيانات كما قال تعالى: ﴿فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم﴾ فبقي ذلك التحريم مستمراً على اليهود إلى أن جاء عيسى عليه السلام فرفع عنهم تلك التشديدات التي كانت عليهم وقال قتادة: كان الذي جاء به عيسى الين من الذي جاء به موسى وكان قد حرم عليهم فيما جاء به موسى لحوم الإبل والثروب والشحوم وأشياء من الطير والحيتان زاد بعضهم فجاءهم عيسى بالتخفيف وأحلها لهم وقال آخرون إن عيسى عليه السلام رفع كثيراً من أحكام التوراة ورفع السبت ووضع الأحد وكان ذلك كله بأمر الله فكان ذلك ناسخاً لتلك الأحكام والشرائع والناسخ والمنسوخ حق وصدق ﴿وجئتكم بآية من ربكم﴾ أي بحجة واضحة شاهدة على صحة رسالتي ثم خوفهم بقوله ﴿فاتقوا الله﴾ يعني يا معشر بني إسرائيل فيما أمركم به ونهاكم عنه ﴿وأطيعون﴾ يعني فيما أدعوكم إليه لأن طاعة الرسول من توابع تقوى الله وما أدعوكم إليه هو قولي ﴿إن الله ربي وربكم فاعبدوه﴾ لأن جميع الرسل كانوا على دين واحد وهو التوحيد ولم يختلفوا في الله تعالى وفي هذه الآية حجة بالغة على نصارى وفد نجران ومن قال بقولهم من سائر النصارى بإخبار الله عن عيسى عليه السلام أنه كان بريئاً مما نسبه إليه النصارى وأنه كان عبدالله وخصه بنبوته ورسالته ثم ختم ذلك بقوله: ﴿هذا صراط مستقيم﴾ يعني التوحيد. قوله عز وجل:

﴿۞ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾﴾

﴿فلما أحس عيسى منهم الكفر﴾ أي وجد وعرف وقيل: رأى والإحساس عبارة عن وجدان الشيء بالحاسة والمعنى أنهم تكلموا بكلمة الكفر فأحس ذلك عيسى منهم وعرف إصرارهم عليه وعزمهم على قتله.

ذكر سبب القصة:

قال أهل الأخبار والسير: لما بعث الله عيسى إلى بني إسرائيل وأمره بإظهار رسالته والدعاء إليه نفوه

عليكم﴾، من اللحوم والشحوم، وقال أبو عبيدة: أراد بالبعض الكل، يعني: كل الذي حُرِّم عليكم، وقد ذُكر البعضُ ويُراد به الكل، كقول لبيد:

تـراك أمكـنـة إذا لـم أرضـهـا أو يـرتبط بعض النفوس حمـامهـا

يعني: كل النفوس. قوله تعالى: ﴿ وجئتكم بآيةٍ منْ ربِّكم ﴾ يعني: ما ذكر من الآيات، وإنما وحّدها لأنها كلها جنس واحد في الدلالة على رسالته، ﴿ فاتَّقُوا اللَّهَ وأطيعون ﴾.

﴿ إنّ اللَّهَ ربّي وربُّكم فاعبدُوه هذا صراطٌ مستقيم ﴾.

﴿ فلمّا أحسّ عيسى ﴾ أي: وجد، قاله الفرّاء، وقال أبو عبيدة: عرف، وقال مقاتل: رأى، ﴿ منهمُ الكفرَ ﴾

وأخرجوه من بينهم، فخرج هو وأمه يسيحان في الأرض فنزلا في قرية على رجل فأضافهما وأحسن إليهما وكان لتلك القرية ملك جبار معتد فجاء ذلك الرجل في بعض الأيام وهو مهموم حزين فدخل منزله عند امرأته فقالت مريم: ما شأن زوجك أراه كئيباً حزيناً فقالت: لا تسأليني فقالت مريم: أخبريني لعل الله أن يفرج كربته قالت المرأة: إن لنا ملكاً جباراً وقد جعل على كل رجل منا يوماً يطعمه فيه هو وجنوده ويسقيهم الخمر وإن لم يفعل ذلك عاقبه واليوم نوبتنا وليس عندنا سعة لذلك فقالت لها قولي له: لا يهتم لذلك فأنا آمر ابني أن يدعو له فيكفي ذلك ثم قالت مريم لعيسى في ذلك فقال عيسى: إن فعلت ذلك وقع شر فقالت مريم: لا نبالي فإنه قد أحسن إلينا وأكرمنا فقال عيسى: قولي له إذا قرب ذلك الوقت فاملأ قدورك وخوابيك ماء ثم أعلمني، ففعل الرجل ذلك ثم دعا الله عيسى عليه السلام فتحول ماء القدور مرقاً ولحماً وماء الخوابي خمراً لم تر الناس مثله، فلما جاء الملك وأكل من ذلك الطعام وشرب من ذلك الخمر قال من أين لك هذا الخمر؟ فقال الرجل: هو من أرض كذا فقال الملك: إن خمري من تلك الأرض وليست مثل هذه فقال: هي من أرض أخرى فلما رآه الملك اختلط شدد عليه فقال الرجل: أنا أخبرك أن عندي غلاماً لا يسأل الله شيئاً إلاّ أعطاه إياه، وأنه دعا الله تعالى فجعل الماء خمراً وكان للملك ابن يريد أن يستخلفه في ملكه وقد مات قبل ذلك بأيام وكان يحبه حباً شديداً فقال الملك: إن رجلاً دعا الله تعالى حتى صار الماء خمراً بدعوته ليستجيبن له في إحياء بني فطلب عيسى وكلمه في ذلك فقال له عيسى لا تفعل فإنه إن عاش وقع شر فقال الملك: لا أبالي أليس أراه فقال: عيسى: إن أنا أحييته تتركني أنا وأمي نذهب حيث

وأرادوا قتله استنصر عليهم، ﴿ قال مَنْ أنصاري إلى الله ﴾، وقال السدي: كان سبب ذلك أن عيسى عليه السلام لمّا بعثه الله تعالى إلى بني إسرائيل وأمره بالدعوة نفتهُ بنو إسرائيل وأخرجوه، فخرج هو وأمه يُسبّحان في الأرض، فنزل في قرية على رجل فأضافهما وأحسن إليهما وكان لتلك المدينة جبّار متعدٍّ فجاء ذلك الرجل يوماً مهتمّاً حزيناً فدخل منزله ومريم عند امرأته، فقالت لها مريم: ما شأن زوجك أراه كئيباً، قالت: لا تسأليني، قالت: أخبريني لعلّ الله يفرج كربتَه، قالت: إن لنا ملكاً يجعل على كل رجل منّا يوماً أن يطعمه وجنوده ويسقيهم الخمر، فإن لم يفعل عاقبه، واليوم نوبتنا وليس لذلك عندنا سعة، قالت: فقولي له لا تهتم فإني آمر ابني فيدعو له فيكفي ذلك، فقالت مريم لعيسى عليه السلام في ذلك، فقال عيسى: إن فعلت ذلك وقع شرٌّ قالت: فلا نبالي فإنه قد أحسن إلينا وأكرمنا، فقالَ عيسى عليه السلام: فقولي له إذا اقترب ذلك فاملأ قدورك وخوابيك ماء، ثم أعلمني، ففعل ذلك، فدعا الله تعالى عيسى عليه السلام فتحوّل ماء القدر مرقاً ولحماً وماء الخوابي خمراً لم يرَ الناسُ مثله قطّ، فلما جاء الملك أكل فلما شرب الخمر قال: من أين هذا الخمر؟ قال: من أرض كذا، قال الملك: فإن خمري من تلك الأرض وليست مثل هذه، قال: هي من أرض أخرى، فلما خلط على الملك شدّد عليه، قال: فأنا أخبرك عندي غلام لا يسأل الله شيئاً إلاّ أعطاه إيّاه، وأنه دعا الله فجعل الماء خمراً ومرقاً ولحماً، وكان للملك ابن يريد أن يستخلفه فمات قبل ذلك بأيام، وكان أحبَّ الخلق إليه فقال: إن رجلاً دعا الله حتى جعل الماء خمراً ليُجاء به إليّ حتى يُحيي ابني، فدعا عيسى فكلّمه في ذلك، فقال عيسى: لا تفعل فإنه إن عاش وقع شرٌّ، قال الملك: لا أُبالي أليس أراه حيّاً؟ فقال عيسى: إن أحييته تتركوني وأُمي نذهب حيث نشاء؟ قال: نعم، فدعا اللَّهَ فعاشَ الغلامُ فلما رآه أهلُ مملكته قد عاش تبادرُوا إلى السلاح، وقالوا: أكلنا هذا حتى إذا دنا موته يريد أن يستخلف علينا ابنه، فيأكلنا كما أكل أبوه، فاقتتلوا فذهب عيسى وأمه فمرّ بالحواريين وهم يصطادون السمك، فقال: ما تصنعون فقالوا: نصطاد السمك، قال: أفلا تمشون حتى نصطاد الناس، قالوا: مَن أنت؟ قال: عيسى ابن مريم عبد الله ورسوله، ﴿ مَن أنصاري إلى الله ﴾، فآمنوا به وانطلقوا معه، قوله تعالى: ﴿ مَن أنصاري إلى الله ﴾ قال السدي وابن جريج:

نشاء؟ قال: نعم فدعا الله عيسى فعاش الغلام فلما رآه أهل مملكة الرجل فقد عاش فبادروا إلى السلاح وقالوا: قد أكلنا هذا الملك حتى إذا دنا أجله يريد أن يستخلف علينا ابنه ليأكلنا كما أكلنا أبوه فقاتلوه وظهر أثر عيسى فقصدوا قتله وكفروا به وقيل: إن اليهود كانوا عارفين بأنه المسيح المبشر به في التوراة وأنه ينسخ دينهم فلما أظهر عيسى الدعوة اشتد ذلك عليهم فأخذوا فى أذاه وطلبوا قتله وكفروا به فاستنصر عليهم كما أخبر الله عز وجل عنه بقوله ﴿قال﴾ يعني عيسى عليه السلام ﴿من أنصاري إلى الله﴾ أي مع الله وقيل: معناه إلى أن أبين أمر الله وأظهر دينه وقيل: إلى بمعنى في أي في ذات الله وسبيله وقيل: إلى في موضعها والمعنى من يضم نصرته إلى نصرة الله لي ﴿قال الحواريون نحن أنصار الله﴾ وذلك أن عيسى عليه السلام لما دعا بني إسرائيل إلى الله تعالى وتمردوا عليه وكفروا به خرج يسيح في الأرض فمر بجماعة يصطادون السمك، وكانوا اثنى عشر ورئيسهم شمعون ويعقوب فقال عيسى عليه السلام: ما تصنعون؟ قالوا: نصيد السمك قال: أفلا تمشون حتى نصيد الناس قالوا: ومن أنت؟ قال أنا عيسى ابن مريم عبدالله ورسوله فسألوه آية تدلهم على صدقه وكان شمعون قد رمي بشبكته في الماء فدعا الله عيسى فاجتمع في تلك الشبكة من السمك ما كادت تتمزق من كثرته فاستعانوا بأهل سفينة أخرى وملؤوا السفينتين من السمك فعند ذلك آمنوا به وانطلقوا معه واختلف في الحواريين فقيل: كانوا يصطادون السمك فلما آمنوا بعيسى صاروا يصطادون الناس ويهدونهم إلى الدين، سموا حواريين لبياض ثيابهم يقال: حورت الشيء بمعنى بيضته: وقيل: كانوا قصارين سموا بذلك لأنهم كانوا يحورون الثياب أي يبيضونها. وقيل: إن مريم سلمت عيسى إلى أعمال شتى فكان آخر من سلمته إليه الحواريين وكانوا قصارين وصباغين فدفعته إلى رئيسهم ليتعلم منه فاجتمع عنده ثياب وعرض له سفر فقال لعيسى: إنك قد تعلمت هذه الصنعة وأنا خارج إلى السفر ولا أرجع إلى عشرة أيام وهذه ثياب مختلفة الألوان، وقد علمت كل واحد منها بخيط على اللون الذي يصبغ به فأريد أن تفرغ منها وقت وقدومي. وخرج المعلم إلى سفره فطبخ عيسى حباً واحداً على لون واحد وأدخل فيه جميع الثياب وقال؟ كوني

مع الله تعالى، تقول العرب: الذَّودُ إلى الذَودِ أبل، أي: مع الذود، كما قال الله تعالى: ﴿ ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم ﴾ [النساء: ٢] أي: مع أموالكم، وقال الحسن وأبو عبيدة: ﴿ إلى ﴾ بمعنى في أي: من أعواني في الله، أي: في ذات الله، وسبيله، وقيل: ﴿ إلى ﴾ في موضعها معناه: مَن يضمّ نُصرته إلى نُصرة الله لي، واختلفوا في الحواريين، قال مجاهد والسدي: كانوا صيادين يصطادون السمك، سُمّوا حواريين لبياض ثيابهم، وقيل: كانوا ملاّحين، وقال الحسن: كانوا قصّارين، سُمّوا بذلك لأنهم كانوا يُحوِّرون الثياب، أي: يبيّضونها، وقال عطاء: سلّمت مريم عيسى عليه السلام إلى أعمال شتى، فكان آخر ما دفعته إلى الحواريين وكانوا قصّارين وصبّاغين، فدفعته إلى رئيسهم ليتعلّم منه فاجتمع عنده ثياب، وعرض له سفر فقال لعيسى: إنك قد تعلّمت هذه الحِرفَة وأنا خارج في سفر لا أرجع إلى عشرة أيام، وهذه ثياب مختلفة الألوان وقد علّمت كل واحد منها بخيط على اللون الذي يُصبغ به، فأحبّ أن تكون فارغاً منها وقت قدومي، وخرج فطبخ عيسى حبّاً واحداً على لون واحد وأدخل جميع الثياب، وقال لها: كوني بإذن الله على ما أُريد منك، فقدِمَ الحواري والثياب كلها في الحبّ فقال: ما فعلت؟ فقال: فرغت قال: أين هي؟ قال: في الحبّ، قال: كلها؟ قال: نعم، قال: لقد أفسدت تلك الثياب، قال: قم فانظر، فأخرج عيسى ثوباً أحمر وثوباً أصفر وثوباً أخضر إلى أن أخرجها على الألوان التي أرادها، فجعل الحواري يتعجب ويعلم أن ذلك من الله، فقال الناس: تعالوا فانظروا، فآمن به هو وأصحابه، فهم الحواريون، وقال الضحاك: سُمّوا حواريين لصفاء قلوبهم، وقال ابن المبارك: سُمّوا به لِما عليهم من أثر العبادة ونُورها، وأصل الحور عند العرب: شدّة البياض، يقال: رجل أحور وامرأة حوراء أي: شديدة بياض العين، وقال الكلبي وعكرمة:

بإذن الله على ما أريد منك ثم قدم الحواري والثياب كلها في الحب فقال لعيسى: ما فعلت؟ قال قد فرغت منها قال وأين هي؟ قال في الحب قال كلها: قال: نعم قال لقد أفسدت علي الثياب قال عيسى: لا ولكن قم فانظر وقام عيسى وأخرج ثوباً أحمر وثوباً أخضر وثوباً أصفر وثوباً أسود حتى أخرجها كلها على الألوان التي يريد الحواري فجعل الحواري يتعجب من ذلك وعلم أن ذلك من الله تعالى فقال للناس: تعالوا فانظروا فآمن به هو وأصحابه وهم الحواريون. وقيل: سموا حواريين لصفاء قلوبهم ولما ظهر عليهم من أثر العبادة ونورها وقيل: الحواريون الأصفياء وكانوا أصفياء عيسى وخاصته وقيل: الحواريون هم الخلفاء وقيل: هم الوزراء وكانوا خلفاء عيسى ووزراؤه وقيل: الحواريون هم الأنصار والحواري الناصر والحواري الرجل الذي يستعان به (ق) عن جابر بن عبدالله قال: ندب النبي ﷺ الناس يوم الخندق فانتدب الزبير ثم ندبهم فانتدب الزبير ثم ندبهم فانتدب الزبير فقال النبي ﷺ إن لكل نبي حوارياً وحواريي الزبير قال الحواريون: نحن أنصار الله يعني أنصار دين الله ورسوله وأعوانه ﴿آمنا بالله﴾ أي صدقنا بأن الله ربنا ورب كل شيء ﴿واشهد﴾ يعني أنت يا عيسى ﴿بأنا مسلمون﴾ قيل: معناه واشهد بأنا منقادون لما تريد من نصرك والذب عنك ومستسلمون لأمر الله عز وجل وقيل: هو إقرار منهم بأن دينهم الإسلام وأنه دين عيسى وكل الأنبياء قبله لا اليهودية والنصرانية.

﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾﴾

﴿ربنا آمنا بما أنزلت﴾ يعني قال الحواريون بعد إشهاد عيسى عليهم بأنهم مسلمون ربنا آمنا بما أنزلت يعني بكتابك الذي أنزلته على عيسى عليه السلام ﴿واتبعنا الرسول﴾ يعني عيسى ﴿فاكتبنا مع الشاهدين﴾ يعني الذين شهدوا لأنبيائك بالصدق واتبعوا أمرك ونهيك فأثبت أسماءنا مع أسمائهم واجعلنا في عدادهم ومعهم فيما تكرمهم به وهذا يقتضي أن يكون للشاهدين الذين سألوا الحواريون أن يكونوا معهم مزيد فضل عليهم فلهذا قال ابن عباس

الحواريون هم الأصفياء، وهم كانوا أصفياء عيسى عليه السلام، وكانوا اثني عشر رجلاً، وقال رَوحُ بن أبي القاسم: سألت قتادة عن الحواريين، قال: هم الذين تصلح لهم الخلافة، وعنه أيضاً أنه قال: الحواريون هم الوزراء، وقال الحسن: الحواريون الأنصار، والحواري الناصر، والحواري في كلام العرب خاصة: الرجل الذي يستعين به فيما ينوبه، أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف أخبرنا محمد بن إسماعيل أخبرنا الحميدي أخبرنا سفيان أخبرنا محمد بن المنكدر قال سمعت جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، يقول: ندب رسول الله ﷺ الناسَ يوم الخندق، فانتدب الزبير، ثم ندبهم، فانتدب الزبير، فقال النبي ﷺ: «إن لكل نبي حوارياً، وحواريّي الزبير»، قال سفيان: الحواري: الناصر، قال معمر قال قتادة: إن الحواريين كلهم من قريش، أبو بكر وعمر وعثمان وعليّ وحمزة وجعفر وأبو عُبيدة بن الجراح وعثمان بن مظعون وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص وطلحة بن عبيد الله والزبير بن العوّام رضي الله عنهم أجمعين، ﴿ قال الحواريُّونَ نحنُ أنصارُ الله ﴾، أعوان دين الله ورسوله ﴿ آمنّا بالله واشهدْ ﴾، يا عيسى، ﴿ بأنّا مسلمون ﴾.

﴿ ربّنا آمنّا بما أنزلتَ ﴾، من كتابك، ﴿ واتّبعنا الرسولَ ﴾، عيسى، ﴿ فاكتبنا مع الشاهدين ﴾، الذين شهدوا لأنبيائك بالصدق، وقال عطاء مع النبيّين لأن كل نبي شاهد أمته، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: مع محمد ﷺ وأمته، لأنهم يشهدون للرسل بالبلاغ.

قوله تعالى: ﴿ ومكرُوا ﴾ يعني: كفّار بني إسرائيل الذي أحسّ عيسى منهم الكفر، دبّروا في قتل عيسى

في قوله: فاكتبنا مع الشاهدين أي مع محمد ﷺ وأمته لأنهم المخصوصون بتلك الفضيلة فإنهم يشهدون للرسل بالبلاغ وقيل: مع الشاهدين يعني النبيين لأن كل نبي شاهد على أمته قوله عز وجل: ﴿ومكروا﴾ يعني كفار بني إسرائيل الذين أحس عيسى منهم الكفر وأصل المكر صرف الغير عما يقصده بضرب من الحيلة وقيل: هو السعي بالفساد في الخفية فأما مكرهم بعيسى فإنهم دبروا في قتله وهموا به وذاك أن عيسى عليه السلام بعد أن أخرجه قومه هو وأمه رجع مع الحواريين وصاح فيهم بالدعوة وأظهر رسالته إليهم فهموا بقتله والفتك به فلذلك مكرهم والمكر من الخلق الخبيث والخديعة والحيلة ﴿ومكر الله﴾ أي جازاهم على مكرهم فسمي الجزاء باسم الابتداء لأنه في مقابلته وقيل: مكر الله استدراج العبد وأخذه بغتة من حيث لا يحتسب ومكر الله في هذه الآية خاصة هو إلقاء الشبه على صاحبهم الذي دلهم على عيسى حين أرادوا قتله حتى قتل قال ابن عباس أن عيسى عليه السلام استقبل رهطاً من اليهود فلما رأوه قالوا: قد جاء الساحر ابن الساحر والفاعل ابن الفاعلة فقذفوه وأمه، فلما سمع عيسى ذلك دعا عليهم ولعنهم فمسخوا خنازير فلما رأى ذلك يهوداً رأس اليهود وملكهم فزع لذلك وخاف دعوته فاجتمعت كلمة اليهود على قتل عيسى وساروا إليه ليقتلوه فبعث الله عز وجل جبريل فأدخله خوخة في سقفها روزنة فرفعه الله من تلك الروزنة وأمر يهودا ملك اليهود رجلاً من أصحابه يقال له ططيانوس أن يدخل الخوخة فيقتله ظنوا أنه عيسى فأخذوه وقتلوه وصلبوه. وقال وهب بن منبه: إن اليهود طرقوا عيسى في بعض الليل ونصبوا له خشبة ليصلبوه عليها فأظلمت الأرض وأرسل الله عز وجل الملائكة فحالت بينهم وبينه فجمع عيسى عليه السلام الحواريين تلك الليلة وأوصاهم وقال: ليكفر بي أحدكم قبل أن يصيح الديك ويبيعني بدراهم يسيرة فخرجوا وتفرقوا وكانت اليهود تطلبه فأتى أحد الحواريين إلى اليهود وقال: ما تجعلون لي إن دللتكم على المسيح فجعلوا

عليه السلام، بعد إخراج قومه إياه وأمه عاد إليهم مع الحواريين، وصاح فيهم بالدعوة فهمّوا بقتله وتواطئوا على الفتك به فذلك مكرهم، قال الله تعالى: ﴿ومكرَ اللّهُ واللّهُ خير الماكرين﴾، فالمكر من المخلوقين الخبث والخديعة والحيلة، والمكر من الله استدراج العبد وأخذه بغتةً من حيث لا يعلم، كما قال ﴿سنستدرجهم من حيث لا يعلمون﴾ [الأعراف: ١٨٢، القلم: ٤٤]، وقال الزجّاج: مكر الله عزّ وجلّ مُجازَاتُهم على مكرهم، فسُمّي الجزاء باسم الابتداء لأنه في مقابلته، كقوله تعالى: ﴿الله يستهزيء بهم﴾ [البقرة: ١٥] ﴿وهو خادعهم﴾ [النساء: ١٤٢] ومكر الله تعالى خاصة بهم في هذه الآية وهو إلقاؤه الشبه على صاحبهم الذي أراد قتل عيسى عليه السلام، حتى قُتل، قال الكلبي: عن أبي صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن عيسى استقبل رهطاً من اليهود فلما رأوه قالوا: قد جاء الساحر ابن الساحرة والفاعل ابن الفاعلة، وقذفوه وأمه فلما سمع ذلك عيسى عليه السلام منهم دعا عليهم، ولعنهم فمسخهم الله خنازير، فلما رأى ذلك يهوذا رأس اليهود وأميرهم، فزع لذلك وخاف دعوته، فاجتمعت كلمة اليهود على قتل عيسى عليه السلام، وساروا ليقتلوه فبعث الله جبريل فأدخله في خوخة في سقفها روزنة فرفعه إلى السماء من تلك الروزنة، فأمر يهوذا رأسُ اليهود رجلاً من أصحابه يقال له: ططيانوس أن يدخل الخوخة ويقتله، فلما دخل غرفته لم يرَ عيسى فأبطأ عليهم فظنوا أنه يُقاتله فيها فألقى الله عليه شبه عيسى عليه السلام، فلما خرج ظنّوا أنه عيسى عليه السلام فقتلوه وصلبوه، قال وهب: طرقوا عيسى في بعض الليل ونصبوا خشبة ليصلبوه، فأظلمت الأرَض فأرسل الله الملائكة فحالت بينهم وبينه، فجمع عيسى الحواريين تلك الليلة وأوصاهم ثم قال: ليكفرن بي أحدكم قبل أن يصيح الديك ويبيعني بدراهم يسيرة، فخرجوا وتفرقوا، وكلّفت اليهود تطلبه فأتى أحد الحواريين إلى اليهود فقال لهم: ما تجعلون لي إن دللتكم على المسيح؟ فجعلوا له ثلاثين درهماً، فأخذها ودلّهم عليه، ولمّا دخل البيت ألقى الله عليه شبه عيسى، ورفع عيسى وأخذ الذي دلّهم عليه، فقال: أنا

له ثلاثين درهماً فأخذها ودلهم عليه، فلما دخل البيت الذي فيه المسيح ألقى الله شبه عيسى عليه ورفع الله عيسى عليه السلام وأخذ الذي دل عليه فقال: أنا الذي دللتكم عليه فلم يلتفتوا إلى قوله فقتلوه وصلبوه وهم يظنون أنه عيسى فلما صلب الذي ألقي عليه شبه عيسى جاءت مريم وامرأة أخرى كان عيسى دعا لها فأبرأها الله من الجنون بدعوته فجعلتا تبكيان عند المصلوب فجاءهما عيسى عليه السلام وقال: على من تبكيان إن الله عز وجل قد رفعني ولم يصبني إلاّ خيرٌ وهذا شيء شبه لهم فلما كان بعد سبعة أيام قال الله تعالى لعيسى أهبط إلى مريم المجدلانية وهو اسم موضع نسبت إليه فإنه لم يبك عليك أحد بكاءها، ولم يحزن عليك أحد حزنها ثم لتجمع لك الحواريين فبثهم في الأرض دعاة إلى الله عز وجل فأهبطه الله عز وجل إليها فاشتعل الجبل نوراً حين هبط فجمعت له الحواريين فبثهم دعاة في الأرض ثم رفعه الله فتلك الليلة التي تدخن فيها النصارى فلما أصبح الحواريون تكلم كل واحد منهم بلغة من أرسله عيسى إليهم فذلك قوله تعالى: ﴿ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين﴾ يعني وهو أفضل المجازين بالسيئة العقوبة. وقال السدي: إن اليهود حبست عيسى عليه السلام في بيت ومعه عشرة من الحواريين فدخل عليهم رجل منهم كان قد نافق ألقى عليه شبه فأخذ وقتل وصلب وقال قتادة ذكر لنا أن نبي الله عيسى عليه السلام قال لأصحابه أيكم يقذف عليه شبهي فإنه مقتول فقال رجل منهم: أنا يا نبي الله فقتل ذلك الرجل ومنع الله عيسى ورفعه إليه وكساه الريش وألبسه النور وقطع عنه لذة الطعم والمشرب وطار مع الملائكة فهو معهم حول العرش وصار إنسياً ملكياً أرضياً سماوياً. قال أهل التاريخ: حملت مريم بعيسى ولها ثلاث عشرة سنة وولدته ببيت لحم من أرض أوري شلم لمضي خمس وستين سنة من غلبة الإسكندر على أرض بابل، وأوحى الله إلى عيسى على رأس ثلاثين سنة ورفعه الله من بيت المقدس ليلة القدر من رمضان وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة فكانت نبوته ثلاث سنين وعاشت أمه مريم بعد رفعه ست سنين. قوله عز وجل: .

الذي دللتكم عليه، فلم يلتفتوا إلى قوله، وقتلوه وصلبوه وهم يظنون أنه عيسى، فلما صُلب شبه عيسى جاءت مريم وامرأة كان عيسى دعا لها فأبرأها الله من الجنون تبكيان عند المصلوب، فجاءهما عيسى عليه السلام فقال: اهبط لهما فقال: علامَ تبكيان إن الله قد رفعني ولم يصبني إلاّ خيرٌ، وإن هذا شيء مُشبّه لهم. فلما كان بعد سبعة أيام قال الله عزّ وجلّ لعيسى عليه السلام: اهبط على مريم المجدلانية اسم موضع في جبلها فإنه لم يبكِ أحد عليك بكاءها، ولم يحزن عليك أحد حزنها، وليجتمع لك الحواريون فبثّهم في الأرض دعاة إلى الله عزّ وجلّ فأهبطه الله عليها فاشتعل الجبل حين هبط نوراً فجُمعت له الحواريون فبثّهم في الأرض دعاةً ثم رفعه الله عزّ وجلّ إليه وتلك الليلة هي التي تُدخن فيها النصارى، فلما أصبح الحواريون حدّث كل واحد منهم بلغة مَن أرسله عيسى إليهم، فذلك قوله تعالى: ﴿ ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين ﴾، وقال السدي: إن اليهود حبسوا عيسى في بيت وعشرة من الحواريين، فدخل عليهم رجل منهم ليقتله فألقى الله عليه شبَهَه، وقال قتادة: ذكر لنا أن نبيّ الله عيسى عليه السلام قال لأصحابه: أيّكم يقذف عليه شبهي فإنه مقتول، فقال رجل من القوم: أنا يا نبيّ الله، فقُتل ذلك الرجل، ومنع الله عيسى عليه السلام، ورفعه إليه وكساه الريش وألبسه النور وقطع عنه لذّة المطعم والمشرب، وطار مع الملائكة فهو معهم حول العرش، وصار إنسيّاً ملكياً سمائياً أرضياً، قال أهل التاريخ: حملت مريم بعيسى ولها ثلاث عشرة سنة، وولدت عيسى ببيت لحم من أرض أورى شلم لمضي خمس وستّين سنة من غلبة الإسكندر على أرض بابل، فأوحى الله إليه على رأس ثلاثين سنة، ورفعه الله من بيت المقدس ليلة القدر من شهر رمضان وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة، فكانت نبوّته ثلاث سنين، وعاشت أُمه مريم بعد رفعه ستّ سنين، فتوفيت مريم عليها السلام وهي بنت اثنين وخمسين سنة.

﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾﴾

﴿إذ قال الله يا عيسى إني متوفيك ورافعك إلي﴾ اختلفوا في معنى التوفي هنا على طريقين: فالطريق الأول أن الآية على ظاهرها من غير تقديم ولا تأخير وذكروا في معناها وجوهاً: الأول: معناه أني قابضك ورافعك إلي من غير موت من قولهم توفيت الشيء واستوفيته إذا أخذته وقبضته تاماً، والمقصود منه هنا أن لا يصل أعداؤه من اليهود إليه بقتل ولا غيره. الوجه الثاني: أن المراد بالتوفي النوم ومنه قوله عز وجل: ﴿الله يتوفى الأنفس حين موتها﴾ والتي لم تمت في منامها فجعل النوم وفاة، وكان عيسى قد نام فرفعه الله وهو نائم لئلا يلحقه خوف، فمعنى الآية أني منيمك ورافعك إلى الوجه الثالث أن المراد بالتوفي حقيقة الموت، قال ابن عباس: معناه أني مميتك قال وهب بن منبه: إن الله توفى عيسى ثلاث ساعات من النهار ثم أحياه ثم رفعه إليه وقيل: إن النصارى يزعمون أن الله توفاه سبع ساعات من النهار ثم أحياه ورفعه إليه. الوجه الرابع: أن الواو في قوله ورافعك إلي لا تفيد الترتيب والآية تدل على أن الله تعالى يفعل به ما ذكر فأما كيف يفعل؟ ومتى يفعل؟ فالأمر فيه موقوف على الدليل. وقد ثبت في الحديث أن عيسى سينزل ويقتل الدجال وسنذكره إن شاء الله تعالى. الوجه الخامس: قال أبو بكر الواسطي: معناه أني متوفيك عن شهواتك وعن حظوظ نفسك ورافعك إلي ذلك أن عيسى عليه السلام لما رفع إلى السماء صارت حالته حالة الملائكة في زوال الشهوة. الوجه السادس: أن معنى التوفي أخذ الشيء وافياً ولما علم الله تعالى أن من الناس من يخطر بباله أن الذي رفعه الله إليه هو روحه دون جسده كما زعمت النصارى أن المسيح رفع لاهوته يعني روحه وبقي في الأرض ناسوته يعني جسده فرد الله عليهم بقوله إني متوفيك ورافعك إلي فأخبر الله تعالى أنه رفع بتمامه إلى السماء بروحه وجسده جميعاً. الطريق الثاني: أن في الآية تقديماً وتأخيراً تقديره أني رافعك إلي ومطهرك من الذين كفروا ومتوفيك بعد إنزالك إلى الأرض وقيل: لبعضهم هل تجد نزول عيسى إلى الأرض في القرآن؟ قال: نعم قوله تعالى وكهلاً وذلك لأنه لم يكتهل في الدنيا وإنما معناه وكهلاً بعد نزوله من السماء. (ق) عن أبي هريرة أنه قال: قال رسول الله ﷺ والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً عدلاً مقسطاً فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويفيض المال حتى لا يقبله أحد زاد وفي رواية حتى

﴿إِذْ قال اللَّهُ يا عيسى إني مُتَوَفِّيكَ ورافِعُكَ إليّ﴾، اختلفوا في بعض التوفّي ههنا، قال الحسن والكلبي وابن جريج: إني قابضك ورافعك في الدنيا إليّ من غير موت، يدلّ عليه قوله تعالى: ﴿فلما توفيتني﴾ [المائدة: ١١٧] أي: قبضتني إلى السماء وأنا حيّ، لأن قومه إنما تنصروا بعد رفعه لا بعد موته، فعلى هذا للتوفّي تأويلان أحدهما إني رافعك إليّ وافياً لم ينالوا منك شيئاً، من قولهم: توفيت من كذا وكذا وأستوفيه إذا أخذته تامّاً، والآخر: إني متسلمك، من قولهم توفيت منه كذا، أي: تسلمته، وقال الربيع بن أنس: المراد بالتوفّي النوم، وكان عيسى قد نام فرفعه الله نائماً إلى السماء، معناه إني مُنَيِّمُك ورافعك إليّ، كما قال الله تعالى: ﴿وهو الذي يتوفّاكم بالليل﴾ [الأنعام: ٦٠] أي: يُنيمكم بالليل، وقال بعضهم: المراد بالتوفّي الموت، وروى علي بن طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما أنّ معناه: إني مميتك يدلّ عليه قوله تعالى: ﴿قل يتوفاكم ملك الموت﴾ [السجدة: ١١]، فعلى هذا له تأويلان أحدهما ما قاله وهب: توفى الله عيسى ثلاث ساعات من النهار ثم أحياه ثم رفعه إليه، وقال محمد بن إسحق: إن النصارى يزعمون أن الله تعالى توفّاه سبع ساعات من النهار، ثم أحياه ورفعه إليه، والآخر: ما قاله الضحّاك وجماعة: أنّ في هذه الآية تقديماً وتأخيراً معناه: إني رافعك إليّ ومطهّرك من الذين

تكون السجدة الواحدة خير من الدنيا وما فيها ثم يقول أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم وإن من أهل الكتاب إلاّ ليؤمنن به قبل موته وفي رواية كيف أنتم إذا نزل ابن مريم فيكم وإمامكم منكم. وفي رواية فأمكم منكم قال ابن أبي ذؤيب: تدري ما أمكم منكم؟ قلت فأخبرني قال فأمكم كتاب ربكم عز وجل وبسنة نبيكم ﷺ وفي إفراد مسلم من حديث النواس بن سمعان قال: فبينما هما إذ بعث الله المسيح ابن مريم عليه السلام فينزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: ليس بيني وبينه يعني عيسى نبي وإنه نازل فإذا رأيتموه فاعرفوه فإنه رجل مربوع إلى الحمرة والبياض ينزل بين ممضرتين كأن رأسه يقطر وإن لم يصبه بلل فيقاتل الناس على الإسلام، فيدق الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويهلك الله الملل في زمانه كلها إلاّ الإسلام ويهلك المسيح الدجال ثم يمكث في الأرض أربعين سنة ثم يتوفى ويصلي عليه المسلمون أخرجه أبو داود ونقل بعضهم أن عيسى عليه السلام يدفن في حجرة رسول الله ﷺ فيقوم أبو بكر وعمر يوم القيامة بين نبيين محمد وعيسى عليهما السلام.
قوله عز وجل: ﴿**ومطهرك من الذين كفروا**﴾ يعني مخرجك من بينهم ومنجيك منهم ﴿**وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة**﴾ يعني وجاعل الذين اتبعوك في التوحيد وصدقوا قولك وهم أهل الإسلام من أمة محمد ﷺ فوق الذين كفروا بالعز والنصر والغلبة بالحجة الظاهرة. وقيل: هم الحواريين الذين اتبعوا عيسى على دينه وقيل: هم النصارى فهم فوق اليهود وذلك لأن ملك اليهود قد ذهب ولم يبق لهم مملكة وملك النصارى باق فعلى هذا القول يكون الاتباع بمعنى المحبة والادعاء لا اتباع الدين لأن النصارى وإن أظهروا متابعة عيسى عليه السلام فهم أشد مخالفة له وذلك أن عيسى عليه السلام لم يرض بما هم عليه من الشرك، والقول الأول هو الأصح لأن الذين اتبعوه هم الذين شهدوا له بأنه عبدالله ورسوله وكلمته وهم المسلمون وملكهم باق إلى يوم القيامة ﴿**ثم إليَّ مرجعكم**﴾ يعني يقول الله عز وجل: إلي مرجع الفريقين في الآخرة الذين اتبعوا عيسى وصدقوا به والذين كفروا به ﴿**فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون**﴾ يعني من الحق في أمر عيسى ثم بين ذلك الحكم فقال تعالى: .

كفروا ومتوفّيك بعد إنزالك من السماء، أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي، أخبرنا عبد الرحمن بن أبي شريح أخبرنا أبو القاسم عبد الله بن محمد بن عبد العزيز البغوي أخبرنا علي بن الجعد أخبرنا عبد العزيز بن عبد الله بن أبي سلمة الماجشون عن ابن شهاب عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «والذي نفس محمد بيده ليُوشِكَنّ أن ينزل فيكم ابنُ مريم حَكَماً عدْلاً، يكسرُ الصليبَ ويقتلُ الخنزير، ويضع الجزيةَ، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد حتى تكون السجدة خير من الدنيا وما عليها»، ويروى عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ في نزول عيسى عليه السلام قال: «وتهلك في زمانه المِلَل كلها إلاّ الإسلام، ويهلك الدجّال فيمكث في الأرض أربعين سنة ثم يتوفّى فيصلي عليه المسلمون»، وقيل للحسين بن الفضل: هل تجد نزول عيسى في القرآن؟ قال: نعم، قوله ﴿ **وكهلاً** ﴾ وهو لم يكتهل في الدنيا وإنما معناه ﴿ **وكهلاً** ﴾ بعد نزوله من السماء، قوله تعالى: ﴿ **ومُطَهِّرُكَ من الذين كفروا** ﴾ أي مُخرِجك من بينهم ومنجيك منهم، ﴿ **وجاعلُ الذين اتّبعُوكَ فوق الذين كفرُوا إلى يوم القيامة** ﴾، قال قتادة والربيع والشعبي ومقاتل والكلبي: هم أهل الإسلام الذين صدقوه واتبعوا دينه في التوحيد من أمة محمد ﷺ، فهو فوق الذين كفروا ظاهرين قاهرين بالعزّة والمنعة والحجّة، وقال الضحاك: يعني الحواريين فوق الذين كفروا، وقيل: هم أهل الروم، وقيل: أراد بهم النصارى، أي: فهم فوق اليهود إلى يوم القيامة، فإن اليهود قد ذهب ملكهم، وملك النصارى دائم إلى قريب من قيام الساعة، فعلى هذا يكون الاتباع بمعنى الادّعاء والمحبّة، لا اتّباع الدين، ﴿ **ثم إليّ مرجِعُكم** ﴾، في الآخرة، ﴿ **فأحْكُمُ بينكم فيما كنتم فيه تختلفون** ﴾، من الدين وأمر عيسى.

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٧﴾ ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْءَايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾﴾

﴿**فأما الذين كفروا**﴾ الذين جحدوا نبوة عيسى وخالفوا ملته وقالوا فيه ما قالوا من الباطل ووصفوه بما لا ينبغي من سائر اليهود والنصارى ﴿**فأعذبهم عذاباً شديداً في الدنيا**﴾ يعني بالقتل والسبي والذلة وأخذ الجزية منهم ﴿**والآخرة**﴾ أي وأعذبهم في الآخرة بالنار ﴿**وما لهم من ناصرين**﴾ يعني ما نعين يمنعونهم من عذابنا ﴿**وأما الذين آمنوا**﴾ يعني بعيسى عليه السلام وصدقوا بنبوته وأنه عبدالله ورسوله وكلمته ﴿**وعملوا الصالحات**﴾ يعني عملوا بما فرضت عليهم وشرعت لهم ﴿**فيوفيهم أجورهم**﴾ يعني جزاء أعمالهم لا ينقص منه شيء ﴿**والله لا يحب الظالمين**﴾ أي لا يحب من ظلم غيره حقاً له أو وضع شيئاً في غير موضعه والمعنى أنه تعالى لا يرحمهم ولا يثني عليهم بجميل ثم قال تعالى: ﴿**ذلك**﴾ يعني الذي ذكرته لك من أخبار عيسى وأمه مريم والحواريين وغير ذلك من القصص ﴿**نتلوه عليك**﴾ أي نخبرك به يا محمد على لسان جبريل، وإنما أضاف ما يتلوه جبريل عليه السلام إلى نفسه سبحانه تعالى لأنه من عنده وبأمره من غير تفاوت أصلاً فأضافه إليه ﴿**من الآيات**﴾ يعني من القرآن وقيل الآيات يعني العلامات الدالة على نبوتك يا محمد لأنها أخبار لا يعلمها إلاّ من يقرأ ويكتب أو نبي يوحى إليه وأنت أمي لا تقرأ ولا تكتب فثبت أن ذلك من الوحي السماوي الذي أنزل عليك ﴿**والذكر الحكيم**﴾ أي المحكم الممنوع من الباطل قيل المراد من الذكر الحكيم القرآن لأنه حاكم يستفاد منه. جميع الأحكام وقيل: الذكر الحكيم هو اللوح المحفوظ الذي منه تنزلت جميع كتب الله على رسله وهو لوح من درة بيضاء معلق بالعرش.

قوله عز وجل: ﴿**إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب**﴾ الآية. أجمع أهل التفسير أن هذه الآية نزلت في محاجة نصارى وفد نجران قال ابن عباس: إن رهطاً من أهل نجران قدموا على النبي ﷺ: كان فيهم السيد والعاقب فقالوا للنبي ﷺ: ما شأنك تذكر صاحبنا فقال من هو؟ قالوا: عيسى تزعم أنه عبدالله فقال النبي ﷺ أجل إنه عبدالله فقالوا له: فهل رأيت له مثلاً أو أنبئت به؟ ثم خرجوا من عنده فجاءه جبريل عليه السلام فقال: قل لهم إذا أتوك إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب وقيل أن النبي ﷺ قال لهم: إنه عبدالله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول فغضبوا وقالوا: يا محمد هل رأيت إنساناً قط من غير أب؟ فأنزل الله تعالى:

﴿ **فأمّا الذين كفروا فأُعَذِّبُهُم عذاباً شديداً في الدنيا** ﴾، بالقتل والسبي والجزية والذِّلّة، ﴿ **والآخرة** ﴾، أي: وفي الآخرة بالنار، ﴿ **وما لهمْ من ناصرين** ﴾.

﴿ **وأمّا الذين آمنوا وعمِلُوا الصالحاتِ فيُوفِّيهم أُجورَهم** ﴾، قرأ ورش والحسن وحفص بالياء، والباقون بالنون أي: يوفِّيهم أجور أعمالهم، ﴿ **واللّهُ لا يُحبُّ الظالمين** ﴾، أي: لا يرحم الكافرين ولا يثني عليهم بالجميل.

﴿ **ذلك** ﴾ أي: هذا الذي ذكرته لك من الخبر عن عيسى ومريم والحواريين ﴿ **نَتْلوه عليك** ﴾، يعني: نخبرك به بتلاوة جبريل عليك، ﴿ **من الآياتِ والذكرِ الحكيم** ﴾، يعني القرآن والذكر ذي الحكمة، وقال مقاتل: الذكر الحكيم، أي: المحكم الممنوع من الباطل، وقيل: الذكر الحكيم: وهو اللوح المحفوظ، وهو معلّق

﴿إن مثل عيسى عند الله﴾ أي في الخلق والإنشاء في كونه خلقه من غير أب كمثل آدم في كونه خلقه من تراب من غير أب وأم، ومعنى الآية أن صفة خلق عيسى من غير أب كصفة آدم في كونه خلقه من تراب لا من أب وأم، فمن أقر بأن الله خلق آدم من التراب اليابس وهو أبلغ في القدرة، فلم لا يقر بأن الله خلق عيسى من مريم من غير أب بل الشأن في خلق آدم أعجب وأغرب وتم الكلام عند قوله كمثل آدم لأنه تشبيه كامل ثم قال تعالى: خلقه من تراب فهو خير مستأنف على جهة التفسير لحال خلق آدم في كونه خلقه من تراب أي قدره جسداً من طين ﴿ثم قال له كن﴾ أي أنشأه خلقاً بالكلمة، وكذلك عيسى أنشأه خلقاً بالكلمة فعلى هذا القول ذكروا في الآية إشكالاً وهو أنه تعالى قال: خلقه من تراب ثم قال له: كن فهذا يقتضي أن يكون خلق آدم متقدماً على قوله كن ولا تكوين بعد الخلق. وأجيب عن هذا الإشكال بأن الله تعالى أخبر بأنه خلقه من تراب لا من ذكر وأنثى ثم ابتدأ خبراً آخر. فقال: إني أخبركم أيضاً أني قلت له كن فكان من غير ترتيب في الخلق كما يكون في الولادة، ويحتمل أن يكون المراد أنه تعالى خلقه جسداً من تراب ثم قال له: كن بشراً فكان يصح النظم وقيل: الضمير في قوله كن يرجع إلى عيسى عليه السلام وعلى هذا إشكال في الآية. فإن قلت: كيف شبه عيسى عليه السلام بآدم عليه السلام وقد وجد عيسى من غير أب ووجد آدم من غير أب ولا أم. قلت: هو مثله في أحد الطرفين فلا يمنع اختصاصه دونه بالطرف الآخر من تشبيهه به، لأن المماثلة مشاركة في بعض الأوصاف ولأنه شبه به في أنه وجد وجوداً خارجاً عن العادة المستمرة وهما في ذلك نظيران لأن الوجود من غير أب وأم أغرب في العادة من الوجود من غير أب، فشبه الغريب بالأغرب ليكون أقطع للخصم وأحسم لمادة شبهته إذا نظر فيما هو أغرب مما استغربه. وحكي أن بعض العلماء أسر في بعض بلاد الروم فقال لهم: لم تعبدون عيسى؟ قالوا: لأنه لا أب له قال: فآدم أولى لأنه لا أب له ولا أم قالوا: وكان يحيـي الموتى فقال: حزقيل أولى لأن عيسى أحيا أربعة نفر وأحيا حزقيل أربعة آلاف: قالوا: وكان يبرىء الأكمه والأبرص قال: فجرجيس أولى لأنه طبخ وأحرق ثم قام سليماً وقوله كن ﴿فيكون﴾ قال ابن عباس: معناه كن فكان فأريد بالمستقبل الماضي وقيل: معناه ثم قال له: كن وأعلم يا محمد أن قال له ربك كن فإنه يكون لا محالة.

ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا

بالعرش من درّة بيضاء، وقيل: من الآيات التي من العلامات الدالّة على نبوّتك لأنها أخبار لا يعلمها إلّا قارىء كتاب الله أو مَن يُوحى إليه وأنت أُمّي لا تقرأ.

﴿ إنَّ مثلَ عيسى عندَ اللَّهِ كمثلِ آدمَ ﴾ الآية نزلت في وفد نجران، وذلك أنهم قالوا لرسول الله ﷺ: ما لك تشتم صاحبنا، قال: «وما أقول»؟ قالـوا تقول: إنه عبد الله، قال: «أجل هو عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول»، فغضبوا وقالوا: هل رأيت إنساناً قطّ من غير أب، فأنزل الله تعالى هذه الآية: ﴿ إنَّ مثلَ عيسى عندَ الله ﴾ في كونه خلقه من غير أب كمثل آدم، لأنه خُلق من غير أب وأم، ﴿ خلقه مِنْ تُرابٍ ثمَّ قالَ لَه ﴾، يعني: لعيسى عليه السلام، ﴿ كُنْ فيكون ﴾، يعني: فكان، فإن قيل: ما معنى قوله ﴿ خلقه من تراب، ثم قال له كن فيكون ﴾ خلقاً، ولا تكوين بعد الخلق، قيل: معناه خلقه ثم أخبركم أني قلت له كن فكان من غير ترتيب في الخلق كما يكون في الولادة، وهو مثل قول الرجل: أعطيتُك اليوم درهماً ثم أعطيتك أمس درهماً أي: ثم أخبرك أني أعطيتُك أمس درهماً، وفيما سبق من التمثيل دليل على جواز القياس، لأن القياس هو ردّ فرع إلى أصل بنوع شبه، وقد ردّ الله تعالى خلق عيسى إلى آدم عليهم السلام بنوع شبه.

﴿وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴿٦١﴾﴾

﴿**الحق من ربك**﴾ الذي أخبرتك به من تمثيل عيسى بآدم هو الحق من ربك ﴿**فلا تكن من الممترين**﴾ أي من الشاكين إن ذلك كذلك وهذا خطاب للنبي ﷺ والمراد به أمته لأنه ﷺ لم يشك قط فهو كقوله تعالى: ﴿**يا أيها النبي إذا طلقتم النساء**﴾ والمعنى فلا تكن من الممترين يا أيها السامع كائناً من كان لهذا التمثيل والبرهان الذي ذكر فهو من باب التهيج لزيادة الثبات والطمأنينة.

قوله عزّ وجلّ: ﴿**فمن حاجك فيه**﴾ أي فمن جادل لك في عيسى وقيل في الحق ﴿**من بعد ما جاءك من العلم**﴾ يعني بأن عيسى عبدالله ورسوله ﴿**فقل تعالوا**﴾ أي هلموا والمراد منه المجيء وأصله من العلو بالرأي والعزم كما تقول تعال نتفكر هذه المسألة ﴿**ندع أبناءنا وأبناءكم**﴾ أي يدع كل منا ومنكم إبناءه ﴿**ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم**﴾ قيل: أراد بالأبناء الحسن والحسين وبالنساء فاطمة وبالنفس ﷺ وعلياً رضي الله عنه وقيل هو على العموم لجماعة أهل الدين ﴿**ثم نبتهل**﴾ قال ابن عباس: نتضرع في الدعاء وقيل: معناه نجتهد ونبالغ في الدعاء. وقيل: معناه نلتعن والابتهال الالتعان يقال عليه بهلة الله أي لعنة الله ﴿**فنجعل لعنة الله على الكاذبين**﴾ يعني منا ومنكم في أمر عيسى قال المفسرون: لما قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية على وفد نجران ودعاهم إلى المباهلة قالوا: حتى نرجع وننظر في أمرنا ثم نأتيك غداً فلما خلا بعضهم ببعض قالوا للعاقب: وكان كبيرهم وصاحب رأيهم ما ترى يا عبد المسيح قال لقد عرفتم يا معشر النصارى أن محمداً نبي مرسل، ولئن فعلتم ذلك لتهلكن فإن أبيتم إلاّ الإقامة على ما أنتم عليه من القول في صاحبكم فوادعوا الرجل وانصرفوا إلى بلادكم فأتوا رسول الله ﷺ وقد احتضن الحسين وأخذ بيد الحسن وفاطمة تمشي خلفه وعلي يمشي خلفها والنبي ﷺ يقول لهم: إذا دعوت فأمنوا فلما رآهم أسقف نجران قال: يا معشر النصارى إني لأرى وجوهاً لو سألوا الله أن يزيل أهله لأزاله من مكانه فلا تبتهلوا فتهلكوا، ولا يبقى على وجه الأرض نصراني إلى يوم القيامة فقالوا: يا أبا القاسم قد رأينا أن لا نباهلك وأن نتركك على دينك وتتركنا على ديننا فقال لهم رسول الله ﷺ: فإن أبيتم المباهلة فأسلموا يكن لكم ما للمسلمين وعليكم ما عليهم فأبوا ذلك. فقال: إني أناجز فقالوا ما لنا بحرب العرب طاقة ولكنا نصالحك على ما لا تغزونا ولا تخيفنا ولا تردنا عن ديننا وأن نؤدي إليك في كل سنة ألفي حلة ألف في صفر وألف في رجب زاد في

قوله تعالى: ﴿ الحقُّ من ربِّك ﴾ أي: هو الحق، وقيل: جاءك الحق من ربك، **﴿ فلا تكنْ منَ المُمْتَرِين ﴾** أي: الشاكين، الخطاب للنبي ﷺ والمراد أمته.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ فمَن حاجّك فيه ﴾ أي: جادلك في أمر عيسى وفي الحق، **﴿ من بعدِ ما جاءَكَ مِنَ العلم ﴾**، بأنّ عيس عبد الله ورسوله، **﴿ فقل تعالَوا ﴾**، أصله تعاليوا تفاعلوا من العلو فاستثقلت الضمة على الياء فحُذفت، قال الفرّاء: بمعنى تعال كأنه يقول ارتفع، **﴿ نَدْعُ ﴾** جُزم لجواب الأمر، وعلامة الجزم سقوط الواو، **﴿ أبناءَنا وأبناءَكم ونساءَنا ونساءَكم وأنفسَنا وأنفسَكم ﴾**، قيل: أبناءنا الحسنَ والحسين، ونساءنا فاطمة وأنفسَنا عنى نفسَه وعليّاً رضي الله عنه، والعرب تسمّي ابن عمّ الرجل نفسه، كما قال الله تعالى: **﴿ ولا تلمزوا أنفسكم ﴾** [الحجرات: ١١] يُريد إخوانكم، وقيل: هو على العموم لجماعة أهل الدين، **﴿ ثم نَبْتَهِلْ ﴾**، قال ابن عباس رضي الله عنهما: أي نتضرّع في الدعاء، وقال الكلبي: نجتهد ونبالغ في الدعاء، وقال الكسائي وأبو عبيدة: نبتهل، والابتهال الإلْتعان، يقال عليه بهلة الله، أي: لعنته **﴿ فنجعلْ لَعنةَ اللّهِ على الكاذبين ﴾**، منّا ومنكم في أمر عيسى، فلما قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية على وفد نجران ودعاهم إلى المباهلة، قالوا: حتى نرجع وننظر في أمرنا

رواية وثلاثاً وثلاثين درعاً عادية وثلاثة وثلاثين بعيراً وأربعاً وثلاثين فرساً غازية فصالحهم رسول الله ﷺ على ذلك وقال: والذي نفسي بيده إن العذاب تدلى على أهل نجران ولو تلاعنوا لمسخوا قردة وخنازير ولاضطرم عليهم الوادي ناراً ولاستأصل الله نجران وأهله حتى الطير على الشجر ولما حال الحول على النصارى كلهم حتى هلكوا».

فإن قلت ما كان دعاؤه إلى المباهلة إلاّ لتبيين الصادق من الكاذب منه ومن خصمه وذلك يختص به وبمن يباهله فما معنى ضم الأبناء والنساء في المباهلة. قلت ذلك آكد في الدلالة على ثقته بحاله واستيقانه بصدقه حيث استجرأ على تعريض أعزته وأفلاذ كبده وأحب الناس إليه، فلذلك ضمهم في المباهلة، ولم يقتصر على تعريض نفسه لذلك وعلى ثقته بكذب خصمه حتى يهلك خصمه مع أحبته وأعزته هلاك استئصال إن تمت المباهلة، وإنما خص الأبناء والنساء لأنهم أعز الأهل وألصقهم بالقلب وربما فداهم الرجل بنفسه، وحارب دونهم حتى يقتل وإنما قدمهم في الذكر على النفس لينبه بذلك على لطف مكانهم وقرب منزلتهم، وفيه دليل قاطع وبرهان واضح على صحة نبوة محمد ﷺ لأنه لم يرو أحد من موافق ومخالف أنهم أجابوا إلى المباهلة لأنهم عرفوا صحة نبوته وما يدل عليها في كتبهم. قوله تعالى: .

﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا ٱشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾

﴿**إن هذا**﴾ يعني الذي قص عليك يا محمد من خبر عيسى عليه السلام وأنه عبدالله ورسوله ﴿**لهو القصص الحق**﴾ وأصله من القصص وهو تتبع الأثر والقصص الخبر الذي تتتابع فيه المعاني ﴿**وما من إله إلاّ الله**﴾ إنما دخلت من لتوكيد النفي والمعنى أن عيسى ليس بإله كما زعمت النصارى ففيه رد عليهم ونفي جميع من ادّعى من

ثم نأتيك غداً فخلا بعضهم ببعض فقالوا: للعاقب وكان ذا رأيهم، يا عبد المسيح ما ترى قال: والله لقد عرفتم يا معشر النصارى أن محمداً نبيّ مرسل والله ما لاعــن قوم نبيّاً قطّ فعَاش كبيرُهم ونبت صغيرهم، ولئن فعلتم ذلك لتُهلَكنّ فإن أبيتم إلاّ الإقامة على ما أنتم عليه من القول في صاحبكم فوادِعوا الرجل وانصرفوا إلى بلادكم، فأتوا رسول الله ﷺ وقد غدا رسول الله ﷺ محتضناً للحسين آخذاً بيد الحسن وفاطمة تمشي خلفه وعليّ خلفها، وهو يقول لهم: «إذا أنا دعوت فأمّنُوا» فقال أُسقف نجران: يا معشر النصارى إني لأرى وجوهاً لو سألوا الله أن يزيل جبلاً من مكانه لأزاله، فلا تبتهلوا فتهلكوا ولا يبقى على وجه الأرض نصراني إلى يوم القيامة، فقالوا: يا أبا القاسم قد رأينا أنْ لا نلاعنَك وأن نتركَك على دينكَ ونثبتُ على ديننا، فقال رسول الله ﷺ: «فإن أبيتم المباهلة فأسلموا، يكن لكم ما للمسلمين وعليكم ما عليهم، فأبوا فقال: فإني أنابذكم، فقالوا: ما لنا بحرب العرب طاقة، ولكنّا نصالحك على أن لا تغزونا ولا تخفينا، ولا تردّنا عن ديننا، أن نؤدّي إليك كل عام ألفي حُلّة ألفاً في صفر وألفاً في رجب، فصالحهم رسول الله ﷺ على ذلك، وقال والذي نفسي بيده إن العذاب قدْ تدلّى على أهل نجران، ولو تلاعنُوا لمُسخوا قردةً وخنازيرَ ولاضْطرمَ عليهم الوادي ناراً ولاستأصل الله نجران، وأهله حتى الطير على الشجر، ولَمَا حالَ الحولُ على النصارى كلهم حتى هلكوا».

قال الله تعالى: ﴿ إنّ هذا لهوَ القَصَصُ الحق ﴾ النبأ الحق، ﴿ وما من إلَه إلاّ الله ﴾، و﴿ من ﴾ صلة تقديره: وما إلَه إلاّ الله، ﴿ وإنّ اللّهَ لهوَ العزيزُ الحكيم ﴾.

المشركين أنهم آلهة وإثبات الإلهية لله تعالى وحده لا شريك له في الإلهية ﴿وإن الله لهو العزيز﴾ أي الغالب المنتقم ممن عصاه وخالف أمره وادّعى معه إلهاً آخر ﴿الحكيم﴾ يعني في تدبيره وفيه رد على النصارى لأن عيسى لم يكن كذلك ﴿فإن تولوا﴾ يعني فإن أعرضوا عن الإيمان ولم يقبلوه ﴿فإن الله عليم بالمفسدين﴾ أي الذين يعبدون غير الله ويدعون الناس إلى عبادة غيره وفيه وعيد وتهديد لهم. قوله لهم. قوله عز وجل: ﴿قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم﴾ قال المفسرون: لما قدم وفد نجران المدينة اجتمعوا باليهود واختصموا في إبراهيم ﷺ فزعمت النصارى أنه كان نصرانياً وهم على دينه وأولى الناس به وقالت اليهود: بل كان يهودياً وهم على دينه وأولى الناس به فقال رسول الله ﷺ: كلا الفريقين بريء من إبراهيم ودينه بل كان حنيفاً مسلماً وأنا على دينه فاتبعوا دينه الإسلام فقالت اليهود: ما تريد إلاّ أن نتخذك ربما كما اتخذت النصارى عيسى رباً. وقالت النصارى: يا محمد ما تريد إلاّ أن نقول فيك ما قالت اليهود في عزير فأنزل الله عز و جل: ﴿قل يا أهل الكتاب تعالوا أي هلموا﴾ إلى كلمة يعني فيها إنصاف ولا ميل فيها لأحد على صاحبه، والعرب تسمي كل قصة أو قصيدة لها أول وآخر وشرح كلمة سواء أي عدل لا يختلف فيها التوراة والإنجيل والقرآن وتفسير الكلمة قوله: ﴿أن لا نعبد إلاّ الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله﴾ وذلك أن النصارى عبدوا غير الله وهو المسيح وأشركوا به وهو قولهم أب وابن وروح القدس فجعلوا الواحد ثلاثة واتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله وذلك أنهم يطيعونهم فيما يأمرونهم به من الشرك ويسجدون لهم فهذا معنى اتخاذ بعضهم بعضاً أرباباً من دون الله، فثبت أن النصارى قد جمعوا بين هذه الثلاثة أشياء ومعنى الآية قل: يا محمد لليهود والنصارى هلموا إلى أمر عدل نصف وهو أن لا نقول عزير ابن الله ولا نقول المسيح ابن الله لأن كل واحد منهما بشر مخلوق مثلنا ولا نطيع أحبارنا ورهباننا فيما أحدثوا من التحريم والتحليل من غير رجوع إلى ما شرع ولا يسجد بعضنا لبعض لأن السجود لغير الله

﴿ فإن تَوَلَّوا ﴾، أعرضوا عن الإيمان ﴿ فإنّ الله عليمٌ بالمفسدين ﴾، الذين يعبدون غير الله ويدعون الناس إلى عبادة غير الله.

﴿ قل يا أهل الكتاب تعالَوا إلى كلمةٍ سَواءٍ بينَنا وبينَكم ﴾ الآية، قال المفسّرون: قَدِمَ وفد نجران المدينة فالتقوا مع اليهود فاختصموا في إبراهيم عليه السلام فزعمت النصارى أنه كان نصرانياً وهم على دينه، وأولى الناس به، وقالت اليهود: بل كان يهودياً وهم على دينه وأولى الناس به، فقال لهم رسول الله ﷺ كِلَا الفريقين بريءٌ من إبراهيمَ ودينِهِ، بل كان حنيفاً مُسلماً وأنا على دينه وأولى الناس به، فاتّبعوا دينه الإسلام، فقالت اليهود: يا محمد ما تريد إلّا أن نتخذك ربّاً كما اتخذت النصارى عيسى ربّاً؟ وقالت النصارى: يا محمد ما تريد إلّا أن نقول فيك ما قالت اليهود في عزير، فأنزل الله تعالى: ﴿ قل يا أهلَ الكتاب تعالَوا إلى كلمةٍ ﴾ والعربُ تُسمّي كلَّ قِصَّةٍ لها شرح ﴿ كلمة ﴾ ومنه سمّيت القصيدة كلمـــة سواء عدل بيننا وبينكم مستوية أي أمر مُسْتَوٍ، يقال دعا فلان إلى السواء، أي إلى النَّصَفَة، وسواء كل شيء وسطه، ومنه قوله تعالى: ﴿ فرآه في سواءِ الجحيم ﴾ [الصّافّات: ٥٥] وإنما قيل: «للنَّصَفَةِ سواء» لأن أعدل الأمور أفضلها وأوسطها، سواء نعت لكلمة إلّا أنه مصدر، والمصدر لا يثنى ولا يجمع ولا يؤنّث، فإذا فُتحت السين مددت، وإذا كُسرت أو ضُمّت قُصرت، كقوله تعالى: ﴿ مكاناً سُوى ﴾ [طه: ٥٨]، ثم فسر الكلمة فقال: ﴿ أنْ لا نعبدَ إلاّ الله ﴾ ومحل ﴿ أن ﴾ رفع على إضمار ﴿ هي ﴾، وقال الزجّاج: رفع بالابتداء، وقيل: محله نصب بنزع حرف الصلة، معناه بأن لا نعبد إلاّ الله، وقيل: محله خفض بدلاً من الكلمة؛ أي: تعالوا إلى كلمة أنْ لا نعبد إلاّ اللَّهَ، ﴿ولا نُشْرِكَ بـه شيئاً ولا يتّخِـذَ بعضُنا بعضـاً أرْبَابـاً من دون الله﴾ كما فعلت اليهود والنصارى، قال الله تعالى: ﴿ اتخذوا أحبارهم ورُهبانهم أرباباً من دون الله ﴾ [التوبة: ٣١]،

حرام فلا نسجد لغير الله وقيل: معناه ولا نطيع أحداً في معصية الله ﴿فإن تولوا﴾ يعني فإن أعرضوا عما أمرتهم به ﴿فقولوا﴾ أنتم لهؤلاء ﴿اشهدوا بأنا مسلمون﴾ أي مخلصون بالتوحيد لله والعبادة له. (ق) عن ابن عباس أن أبا سفيان أخبره أن هرقل أرسل إليه في ركب من قريش وكانوا تجاراً بالشام في المدة التي كان رسول الله ﷺ ماد فيها أبا سفيان وكفار قريش فأتوه وهو بإيلياء فدعاهم في مجلسه وحوله عظماء الروم ثم دعا بكتاب رسول الله ﷺ الذي بعث به مع دحية الكلبي إلى عظيم بصرى فدفعه إلى هرقل فقرأه فإذا فيه بسم الله الرحمن الرحيم من محمد بن عبدالله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم سلام على من اتبع الهدى، أما بعد فإني أدعوك بدعاية الإسلام اسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين فإن توليت فإنما عليك إثم اليرسيين، ويا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلّا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله، فإن تولوا فقولوا أشهدوا بأنا مسلمون لفظ الحديث أحد روايات البخاري، وقد أخرجه بأطول من هذا وفيه زيادة قوله اليريسيين وفي رواية الأريسيين والأريس الأكار وهو الزراع والفلاح وقيل: هم أتباع عبدالله بن أريس رجل كان في الزمن الأول بعثه الله فخالفه قومه وقيل هم الأروسيون وهم نصارى أتباع عبدالله بن أروس وهم الأروسة. وقيل: هم الأريسون بضم الهمزة وهم الملوك الذين يخالفون أنبياءهم وقيل: هم المتبخترون وقيل: هم اليهود والنصارى الذين صددتهم عن الإسلام واتبعوك على كفرك. قوله عز وجل:

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ٦٥ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجۡتُمۡ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٦٦﴾

﴿يا أهل الكتاب لم تحاجون في إبراهيم﴾ قال ابن عباس: اجتمع عند النبي ﷺ نصارى نجران وأحبار اليهود فتنازعوا عنده فقالت الأحبار: ما كان إبراهيم إلّا يهودياً. وقالت النصارى ما كان إبراهيم إلّا نصرانياً فأنزل الله فيهم يا أهل الكتاب لم تحاجون في إبراهيم؟ ﴿وما أنزلت التوراة والإنجيل إلّا من بعده﴾ ومعنى الآية اليهود والنصارى

وقال عكرمة هو سجود بعضهم لبعض أي لا نسجد لغير الله، وقيل: معناه لا نطيع أحداً في معصية الله ﴿ فإنْ تولّوا فقولُوا اشهدُوا ﴾ أي: فقولوا أنتم يا أمة محمد ﷺ لهم: اشهدوا ﴿ بأنّا مُسلمون ﴾ مُخلِصون بالتوحيد، أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي أخبرنا يوسف أخبرنا محمد بن إسماعيل أخبرنا أبو اليمان الحكم بن نافع، أخبرنا شُعيب عن الزهري أخبرنا عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود أن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: أخبره أن أبا سفيان بن حرب أخبره أن هرقل أرسل إليه في ركب من قريش، وكانوا تجّاراً بالشام في المدة التي كان رسول الله مادّ فيها أبا سفيان وكفّار قريش فأتوه وهو بإيليا فدعاهم في مجلسه، وحوله عظماء الروم ثم دعا بكتاب رسول الله ﷺ الذي بعث به مع دحية بن خليفة الكلبي وأمره أن يدفعه إلى عظيم بصرى، فدفعه إلى هرقل فقرأه فإذا فيه بسم الله الرحمن الرحيم من محمد بن عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم سلامٌ على مَن اتّبع الهدى أما بعد، فإني أدْعوكَ بدعاية الإسلام أسلم تَسْلَم أسلم يؤتِكَ اللّهُ أجرَك مرتين فإن تولّيتَ فإنّما عليك إثم الأريسين و﴿ يا أهلَ الكتابِ تعالَوا إلى كلمةٍ سَواءٍ بينَنا وبينكم أنْ لا نعبدَ إلّا الله ولا نشركَ به شيئاً ولا يَتخِذَ بعضُنا بعضاً أرباباً من دون الله فإنْ تولّوا فقُولوا اشهدُوا بأنّا مسلمون ﴾.

قوله تعالى: ﴿ يا أهل الكتابِ لِمَ تُحاجّون في إبراهيم ﴾ تزعمون أنه كان على دينكم، وإنما دينكم اليهودية

لما اختصموا عند رسول الله ﷺ في شأن إبراهيم عليه السلام وادّعت كل طائفة أنه كان منهم وعلى دينهم فبرأ الله عز وجل إبراهيم مما ادعوا فيه وأخبر أن اليهودية والنصرانية إنما حدثا بعد نزول التوراة والإنجيل وإنما نزلا بعد إبراهيم بزمان طويل فكان بين إبراهيم وبين موسى ونزول التوراة عليه خمسمائة سنة وخمسة وسبعون سنة وبين موسى وعيسى ألف وستمائة واثنتان وثلاثون سنة. وقال ابن إسحاق: كان بين إبراهيم وموسى خمسمائة سنة وخمس وستون سنة وبين موسى وعيسى ألف سنة وتسعمائة وعشرون سنة وأورد على هذا التأويل أن الإسلام أيضاً إنما حدث بعد إبراهيم وموسى وعيسى بزمان طويل، وكذلك إنزال القرآن إنما نزل بعد التوراة والإنجيل فكيف يصح ما ادعيتم في إبراهيم أنه كان حنيفاً مسلماً وأجيب عنه بأن الله عز وجل أخبر في القرآن بأن إبراهيم كان حنيفاً مسلماً وليس في التوراة والإنجيل أن إبراهيم كان يهودياً أو نصرانياً فصح وثبت ما ادعاه المسلمون وبطل ما ادعاه اليهود والنصارى. وهو قوله تعالى ﴿**أفلا تعقلون**﴾ يعني بطلان قولكم يا معشر اليهود والنصارى حتى لا تجادلوا مثل هذا الجدال المحال ﴿**ها أنتم هؤلاء**﴾ ها للتنبيه وهو موضع النداء يعني يا هؤلاء والمراد بهم أهل الكتابين يعني يا معشر اليهود والنصارى ﴿**حاججتم**﴾ أي جادلتم وخاصمتم ﴿**فيما لكم به علم**﴾ يعني فيما وجدتم في كتبكم وأنزل عليكم بيانه في أمر موسى وعيسى، وادعيتم أنكم على دينهما وقد أنزلت التوراة والإنجيل عليكم ﴿**فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم**﴾ يعني أنه ليس في كتابكم أن إبراهيم كان يهودياً أو نصرانياً ﴿**والله يعلم**﴾ يعني ما كان إبراهيم عليه من الدين ﴿**وأنتم لا تعلمون**﴾ يعني ذلك والمعنى وأنتم جاهلون بما تقولون في إبراهيم ثم برأه الله عز وجل عما قالوا فيه واعلمهم أن إبراهيم بريء من دينهم. فقال تعالى:

مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾

﴿**ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً**﴾ يعني لم يكن كما ادعوه فيه، ثم وصفه بما كان عليه من الدين فقال تعالى: ﴿**ولكن كان حنيفاً مسلماً**﴾ يعني مائلاً عن الأديان إلى الدين المستقيم وهو الإسلام وقيل: الحنيف الذي يوجد ويختتن ويضحي ويستقبل الكعبة في صلاته وهو أحسن الأديان وأسهلها وأحبها إلى الله عز وجل ﴿**وما كان**

والنصرانية وقد حدثت اليهودية بعد نزولِ التوراة، والنصرانية بعد نزول الإنجيل، ﴿ **وما أنزلت التوراةُ والإنجيلُ إلاّ من بعده** ﴾، أي: بعد إبراهيم بزمان طويل وكان بين إبراهيم وموسى ألف سنة وبين موسى وعيسى ألفا سنة ﴿ **أفلا تعقلون** ﴾ بطلان قولكم.

قوله تعالى: ﴿ **ها أنتم** ﴾ بتليين الهمزة، حيث كان مدني، وأبو عمرو والباقون بالهمزة واختلفوا في أصله، فقال بعضهم: أصله أنتم، وهاء تنبيه، وقال الأخفش: أصله أأنتم، فقلبت الهمزة الأولى هاء كقولهم: هرقت الماء وأرقت، ﴿ **هؤلاء** ﴾ أصله أولاء دخلت عليه هاء التنبيه، وهو موضع النداء يعني: يا هؤلاء أنتم، ﴿ **حَاجَجْتم فيما لكم بِهِ علمٌ فلِمَ تُحاجّون فيما ليسَ لكم به علم** ﴾، يعني في أمر موسى وعيسى، وادّعيتُم أنكم على دينهما، وقد أنزلت التوراة والإنجيل عليكم، فلِمَ تُحاجّون فيما ليسَ لكمْ به عِلمٌ وليس في كتابكم أنه كان يهودياً أو نصرانياً، وقيل: حاججتم فيما لكم به علم يعني: في أمر محمد ﷺ، لأنهم وجدوا نعته في كتابهم، فجادلوا فيه بالباطل، فَلِمَ تُحاجّون في إبراهيم، وليس في كتابكم ولا عِلمَ لكم به، ﴿ **والله يعلم وأنتم لا تعلمون** ﴾، ثم برّأ الله تعالى إبراهيم عمّا قالوا، فقال:

﴿ **ما كانَ إبراهيمُ يهودياً ولا نصرانياً ولكنْ كانَ حنيفاً مسلماً وما كانَ منَ المشركين** ﴾، والحنيف المائل عن

من المشركين﴾ يعني الذين يعبدون الأصنام وقيل: فيه تعريض بكون النصارى مشركين لقولهم بإلهية المسيح وعبادتهم له. قوله عز وجل: ﴿إن أولى الناس بإبراهيم﴾ يعني أخصهم به وأقربهم منه ﴿للذين اتبعوه﴾ يعني الذين كانوا في زمانه وآمنوا به واتبعوا شريعته ﴿وهذا النبي﴾ يعني محمداً ﷺ ﴿والذين آمنوا﴾ يعني هذه الأمة الإسلامية ﴿والله ولي المؤمنين﴾ يعني بالنصر والمعونة عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: إن لكل نبي ولاة من النبيين وإن وليي أبي وخليل ربي إبراهيم ثم قرأ ﴿إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه﴾ وهذا النبي والذين آمنوا والله ولي المؤمنين أخرجه الترمذي وروى الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس ورواه محمد بن إسحاق عن ابن شهاب بإسناده حديث هجرة الحبشة قال: لما هاجر جعفر بن أبي طالب وأناس من أصحاب النبي ﷺ إلى أرض الحبشة واستقرت بهم الدار وهاجر النبي ﷺ إلى المدينة وكان من أمر بدر وما كان اجتمعت قريش في دار الندوة وقالوا: إن لنا في الذين عند النجاشي من أصحاب محمد ﷺ ثأراً ممن قتل منكم ببدر فاجمعوا مالاً وأهدوه إلى النجاشي لعله يدفع إليكم من عنده من قومكم ولينتدب لذلك رجلان من ذوي رأيكم فبعثوا عمرو بن العاص وعمارة بن أبي معيط معهما الهدايا الأدم وغيره فركبا البحر حتى أتيا الحبشة فلما دخلا على النجاشي سجدا له وسلما عليه وقالا له إن قومنا لك ناصحون شاكرون ولأصحابك محبون، وإنهم بعثونا إليك لنحذرك هؤلاء الذين قدموا عليك لأنهم قوم رجل كذاب خرج يزعم أنه رسول الله ولم يتابعه أحد منا إلاّ السفهاء وإنا كنا قد ضيقنا عليهم الأمر وألجأناهم إلى شعب بأرضنا لا يدخل عليهم أحد ولا يخرج منهم أحد فقتلهم الجوع والعطش، فلما اشتد عليه الأمر بعث إليك ابن عمه ليفسد عليك دينك وملكك ورعيتك فاحذرهم وادفعم إلينا لنكفيكم. قال: وآية ذلك أنهم إذا دخلوا

الأديان إلى الدين المستقيم، وقيل: الحنيف الذي يُوحّدُ ويحجُّ ويُضحي ويختتنُ ويستقبلُ الكعبةَ وهو أسهل الأديان وأحبّها إلى الله عزّ وجلّ.

قوله تعالى: ﴿ إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتّبعوه ﴾ أي: مَن اتّبعه في زمانه وملّته بعده، ﴿ وهذا النبي ﴾ يعني محمداً ﷺ، ﴿ والذين آمنوا ﴾ يعني: من هذه الأمة ﴿ واللّهُ وليُّ المؤمنين ﴾، روى الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس، ورواه محمد بن إسحق عن ابن شهاب بإسناده حديث هجرة الحبشة لمّا هاجر جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه وأُناس مِن أصحاب رسول الله ﷺ إلى الحبشة واستقرّت بهم الدار وهاجر النبي ﷺ إلى المدينة، وكان من أمر بدر ما كان، اجتمعت قريش في دار الندوة، وقالوا: إن لنا في الذين هم عند النجاشي من أصحاب محمد ﷺ ثأراً ممّن قتل منكم ببدر، فاجمعوا مالاً واهدوه إلى النجاشي لعلّه يدفع إليكم من عنده من قومكم، ولينتدب لذلك رجلان من ذَوِي رأيكم، فبعثوا عمرو بن العاص وعمارة بن الوليد أو عمارة بن أبي مُعيط مع الهدايا الأُدْم وغيره، فركبا البحر وأتيا الحبشة، فلما دخلا على النجاشي سجدا وسلّما عليه وقالا له: إن قومنا لك ناصحون شاكرون ولأصحابك محبّون، وإنهم بعثونا إليك لنحذّرك هؤلاء الذين قَدِمـوا عليك لأنهم قوم رجل كذاب خرج فينا يزعم أنه رسول الله ولم يتابعه أحد منّا إلاّ السفهاء وإنّا كنّا قد ضيّقنا عليهم الأمر وألجأناهم إلى شعب بأرضنا لا يدخل عليهم أحد ولا يخرج منهم أحد فقتلهم الجوع والعطش، فلما اشتدّ عليهم الأمر بعث إليك ابن عمّه ليفسد عليك دينك وملكك ورعيّتك، فاحذرهم وادفعهم إلينا لنكفيكهم، وقالا: وآية ذلك أنهم إذا دخلوا عليك لا يسجدون لك ولا يحيّونك بالتحية التي يحيّيك بها الناس رغبة عن دينك وسنّتك، قال: فدعاهم النجاشي، فلما حضروا صاح جعفر بالباب يستأذن عليك حزب الله، فقال النجاشي: مُروا هذا الصائح فليُعِدْ كلامه، ففعل جعفر، فقال النجاشي: نعم فليدخلوا بأمان الله وذمّته، فنظر عمرو بن العاص إلى صاحبه فقال: ألا تسمع كيف يرطنون بحزب الله، وما أجابهم به النجاشي، فساءهما ذلك، ثم دخلوا عليه فلم يسجدوا له، فقال عمرو بن العاص: ألا

عليك لا يسجدون لك ولا يحيونك بالتحية التي يحييك بها الناس رغبة عن دينك وسنتك قال: فدعاهم النجاشي فلما حضروا صاح جعفر بالباب يستأذن عليك حزب الله تعالى فقال النجاشي: مروا هذا الصائح فليعد كلامه ففعل جعفر فقال النجاشي: نعم فليدخلوا بأمان الله وذمته فنظر عمرو إلى صاحبه فقال: ألا تسمع كيف يرطنون بحزب الله وما أجابهم به الملك فساءهما ذلك ثم دخلوا عليه فلم يسجدوا له فقال عمرو بن العاص: ألا ترى أنهم يستكبرون أن يسجدوا لك فقال لهما النجاشي: ما منعكم أن تسجدوا لي وتحيوني بالتحية التي يحييني بها من أتاني من الآفاق نسجد لله الذي خلقك وملكك إنما كانت تلك التحية لنا ونحن نعبد الأوثان فبعث الله فينا نبياً صادقاً فأمرنا بالتحية التي رضيها الله وهي السلام تحية أهل الجنة، فعرف النجاشي أن ذلك حق وأنه في التوراة والإنجيل. قال: أيكم الهاتف يستأذن عليك حزب الله؟ قال جعفر أنا قال فتكلم؛ قال: إنك ملك من ملوك الأرض من أهل الكتاب ولا يصلح عندك كثرة الكلام ولا الظلم وإنما أحب أن أجيب عن أصحابي فمر هذين الرجلين فليتكلم أحدهما ولينصت الآخر فتسمع محاورتنا فقال عمرو لجعفر تكلم فقال جعفر للنجاشي: سل هذين الرجلين أعبيد نحن أم أحرار؟ فإن كنا عبيداً قد أبقنا من أربابنا فردنا عليهم فقال النجاشي أعبيد هم أم أحرار؟ فقال بل أحرار كرام فقال النجاشي: نجوا من العبودية فقال جعفر: سلهما هل أرقنا دماً بغير حق فيقتص منا فقال عمرو: لا ولا قطرة قال جعفر: سلهما هل أخذنا أموال الناس بغير حق فعلينا قضاؤها قال النجاشي: إن كان قنطاراً فعلي قضاؤه فقال عمرو: لا ولا قيراط فقال النجاشي: فما تطلبون منهم قال كنا وإياهم على دين واحد وأمر واحد على دين آبائنا فتركوا ذلك وابتعوا غيره فبعثنا قومنا لتدفعهم إلينا فقال النجاشي: وما هذا الدين الذي كنتم عليه والدين الذي اتبعوه فقال جعفر: أما الدين الذي كنا عليه فهو دين الشيطان كنا نكفر بالله ونعبد الحجارة، وأما الذي تحولنا إليه فهو دين الله الإسلام جاءنا به من عند الله رسول، وكتاب مثل كتاب ابن مريم موافقاً له فقال النجاشي: يا جعفر تكلمت بأمر عظيم فعلى رسلك ثم أمر النجاشي بضرب الناقوس فضرب فاجتمع إليه كل قسيس

ترى أنهم يستكبرون أن يسجدوا لك، فقال لهم النجاشي ما منعكم أن تسجدوا إليّ وتحيّوني بالتحية التي يُحييني بها مَن أتاني من الآفاق، قالوا: نسجد لله الذي خلقك ومُلْكَكَ، وإنما كانت تلك التحية لنا ونحن نعبد الأوثان، فبعث الله فينا نبيّاً صادقاً وأمرنا بالتحية التي رضيها الله وهي السلام، تحية أهل الجنة، فعرف النجاشي أن ذلك حق، وأنه في التوراة والإنجيل، قال: أيّكم الهاتف يستأذن عليك حزب الله، قال جعفر: أنا، قال: فتكلمْ، قال: إنّك ملكٌ من ملوك أهل الأرض، ومن أهل الكتاب، ولا يصلح عندك كثرة الكلام ولا الظلم، وأنا أحبّ أن أُجيب عن أصحابي، فمرْ هذين الرجلين فليتكلمْ أحدهما ولينْصُتِ الآخر، فتسمع محاورتَنا، فقال عمرو لجعفر: تكلم، فقال جعفر للنجاشي: سَل هذين الرجلين أعبيد نحن أم أحرار كرام، فإن كنّا عبيداً أبِقْنَا من أربابنا فارْدُدْنا إليهم، فقال النجاشي: أعبيد هم أم أحرار؟ فقال عمرو: بل أحرار كرام، فقال النجاشي: نجوا من العبودية، ثم قال جعفر: سَلْ هل أهرقنا دماً بغير حق فيُقتصّ منّا؟ فقال عمرو: لا ولا قطرة، فقال جعفر: سلهما هل أخذنا أموال الناس بغير حق فعلينا قضاؤها؟ قال النجاشي: إن كان قنطاراً فعليّ قضاؤه، فقال عمرو: لا ولا قيراطاً، قال النجاشي: فما تطلبون منهم؟ قال عمرو: كنّا وهم على دين واحد وأمر واحد، على دين آبائنا فتركوا ذلك واتّبعوا غيره، فبعثنا إليك قومهم لتدفعهم إلينا، فقال النجاشي: ما هذا الدين الذي كنتم عليه والدين الذي اتّبعوه أصدقني؟ فقال جعفر: أمّا الدين الذي كنّا عليه فتركناه فهو دين الشيطان كنّا نكفر بالله ونعبد الحجارة، وأمّا الذي تحوّلنا إليه فدين الله الإسلام جاءنا به من الله رسول وكتاب مثل كتاب عيسى ابن مريم، موافقاً له، فقال النجاشي: يا جعفر لقد تكلمت بأمر عظيم فعلى رَسْلك، ثم أمر النجاشي فضرب بالناقوس فاجتمع عليه كل قسيس وراهب فلما اجتمعوا

وراهب، فلما اجتمعوا عنده قال النجاشي: أنشدكم الله الذي أنزل الإنجيل على عيسى هل تجدون بين عيسى وبين يوم القيامة نبياً مرسلاً قالوا: اللهم نعم قد بشرنا به عيسى فقال: من آمن به فقد آمن بي ومن كفر به فقد كفر بي. فقال النجاشي لجعفر: ماذا يقول لكم هذا الرجل وما يأمركم به وما ينهاكم عنه؟ فقال يقرأ علينا كتاب الله ويأمرنا بالمعروف وينهانا عن المنكر ويأمرنا بحسن الجوار وصلة الرحم وبر اليتيم، ويأمرنا أن نعبد الله وحده لا شريك له فقال له: اقرأ علي مما يقرأ عليكم فقرأ عليه سورة العنكبوت والروم ففاضت عينا النجاشي وأصحابه من الدمع وقالوا: زدنا من هذا الحديث الطيب فقرأ عليهم سورة الكهف فأراد عمرو أن يغضب النجاشي فقال: إنهم يشتمون عيسى وأمه فقال النجاشي: فما تقولون في عيسى وأمه فقرأ عليهم سورة مريم فلما أتى على ذكر مريم وعيسى رفع النجاشي من سواكه قدر ما بقذى العين وقال: والله ما زاد المسيح على ما تقولون هذا. ثم أقبل على جعفر وأصحابه فقال: اذهبوا فأنتم سيوم بأرضي يقول آمنون من سبكم أو أذاكم غرم ثم قال: أبشروا ولا تخافوا فلا دهورة اليوم على حزب إبراهيم فقال عمرو: يا نجاشي ومن حزب إبراهيم؟ قال: هؤلاء الرهط وصاحبهم الذي جاؤوا من عنده ومن اتبعهم فأنكر ذلك المشركون وادعوا دين إبراهيم ثم رد النجاشي على عمرو وصاحبه المال الذي حملوه وقال: إنما هديتكم إلى رشوة فاقبضوها فإن الله ملكني ولم يأخذ مني رشوة قال جعفر: فانصرفنا فكنا في خير جوار وأنزل الله عز وجل في ذلك اليوم على رسول الله ﷺ في خصومتهم في إبراهيم وهو في المدينة: **﴿إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي، والذين آمنوا والله ولي المؤمنين﴾**. قوله تعالى: .

وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ

عنده قال النجاشي: أنشدكم اللَّهَ الذي أنزل الإنجيل على عيسى هل تجدون بين عيسى وبين يوم القيامة نبي مرسل فقالوا: اللّهمّ نعم قد بشّرنا به عيسى، وقال: مَن آمن به فقد آمن بي ومَن كفر به فقد كفر بي، فقال النجاشي لجعفر: ماذا يقول لكم هذا الرجل؟ وما يأمركم به؟ وما ينهاكم عنه؟ فقال: يقرأ علينا كتاب الله، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويأمرنا بحُسن الجِوار وصلة الرحم، وبرِّ اليتيم، ويأمرنا بأن نعبد الله وحده لا شريك له، فقال: اقرأ عليّ مما يقرأ عليكم، فقرأ عليهم سورة العنكبوت والروم، ففاضت عينا النجاشي وأصحابه من الدمع، وقالوا: زدنا يا جعفر من هذا الحديث الطيب، فقرأ عليهم سورة الكهف، فأراد عمرو أن يُغضب النجاشي، فقال: إنهم يشتمون عيسى وأُمه، فقال النجاشي، ما تقولون في عيسى وأُمه؟ فقرأ جعفر عليهم سورة مريم، فلما أتى على ذكر مريم وعيسى عليهما السلام رفع النجاشي نفثة من سواكه قدر ما يقذي العين، فقال: والله ما زاد المسيح على ما تقولون مثل هذا، ثم أقبل على جعفر وأصحابه فقال: اذهبوا فأنتم سيوم بأرضي، يقول: آمنون من سبّكم أو آذاكم غُرِّم، ثم قال: أبشروا ولا تخافوا فلا دَهْوَرة اليوم على حزب إبراهيم، قال عمرو: يا نجاشي ومن حزب إبراهيم؟ قال: هؤلاء الرهط وصاحبهم الذي جاؤوا من عنده ومَن تبعهم، فأنكر ذلك المشركون وادّعوا دين إبراهيم، ثم ردّ النجاشي على عمرو وصاحبه المالَ الذي حمَلوه، وقال: إنما هديتكم إليّ رشوة فاقبضوها، فإن الله ملّكني ولم يأخذ منّي رشوة، قال جعفر: فانصرفنا فكنّا في خير دار وأكرم جوار، وأنزل الله تعالى في ذلك اليوم على رسول الله ﷺ في خصومتهم في إبراهيم، وهو بالمدينة **﴿ إنّ أوْلَى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه، وهذا النبيّ والذين آمنوا والله وليّ المؤمنين ﴾**.

ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾

﴿ودت طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم﴾ نزلت في معاذ بن جبل، وحذيفة بن اليمان، وعمار بن ياسر حين دعاهم اليهود إلى دينهم، فنزلت فيهم ودت طائفة أي تمنت جماعة من أهل الكتاب يعني اليهود لو يضلونكم يعني عن دينكم ويردونكم إلى الكفر ﴿وما يضلون إلاّ أنفسهم﴾ لأن المؤمنين لا يقبلون قولهم فيحصل عليهم الإثم بتمنيهم إضلال المؤمنين ﴿وما يشعرون﴾ يعني أن وبال الإضلال يعود عليهم لأن العذاب يضاعف لهم بسبب ضلالهم وتمني إضلال المسلمين وما يقدرون على ذلك إنما يضلون أمثالهم وأتباعهم وأشياعهم ﴿يا أهل الكتاب﴾ الخطاب لليهود ﴿لم تكفرون بآيات الله﴾ يعني القرآن. وقيل المراد بآيات الله الواردة في التوراة والإنجيل من نعت محمد ﷺ وصفته وسبب كفرهم بالتوراة والإنجيل على هذا القول هو تحريفهم وتبديلهم ما فيها من بيان نعت محمد ﷺ وصفته والبشارة بنبوته لأنهم ينكرون ذلك، ﴿وأنتم تشهدون﴾ يعني أن نعته وصفته مذكور في التوراة والإنجيل، وذلك أن أحبار اليهود كانوا يكتمون الناس نعته وصفته فإذا خلا بعضهم ببعض أظهروا ذلك فيما بينهم وشهدوا أنه حق يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل، وذلك أن علماء اليهود والنصارى كانوا يعلمون بقلوبهم أن محمداً ﷺ رسول من عند الله وأن دينه حق، وكانوا ينكرون ذلك بألسنتهم وكانوا يجتهدون في إلقاء الشبهات والتشكيكات، وذلك أن الساعي في إخفاء الحق لا يقدر على ذلك إلاّ بهذه الأمور فقوله تعالى: ﴿لم تلبسون الحق بالباطل﴾ معناه تحريف التوراة وتبديلها فيخلطون المحرف الذي كتبوه بأيديهم بالحق المنزل وقيل هو خلط الإسلام باليهودية والنصرانية وذلك أنهم تواطؤوا على إظهار الإسلام في أول النهار والرجوع عنه في آخره، والمراد بذلك تشكيك الناس وقيل إنهم كانوا يقولون: إن محمداً ﷺ معترف بصحة نبوة موسى وإنه حق ثم إن التوراة دالة على أن شرع موسى لا ينسخ فهذا من تلبيساتهم على الناس ﴿وتكتمون الحق﴾ يعني نعت محمد ﷺ وصفته في التوراة ﴿وأنتم تعلمون﴾ يعني أنه رسول من عند الله وأن دينه حق وإنما كتمتم الحق عناداً وحسداً وأنتم تعلمون ما تستحقون على كتمان الحق من العقاب. قوله عز وجل: ﴿وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره﴾ وهذا نوع آخر من تلبيسات اليهود، وقيل تواطأ اثنا عشر حبراً من يهود خيبر وقرى عرينة فقال بعضهم لبعض: ادخلوا في دين محمد أول النهار باللسان دون اعتقاد القلب ثم اكفروا آخر النهار وقولوا: إنا نظرنا في كتبنا وشاورنا علماءنا فوجدنا أن محمداً ليس هو بذلك المنعوت وظهر لنا كذبه فإذا فعلتكم

قوله عزّ وجلّ: ﴿ ودّتْ طائفةٌ من أهل الكتاب ﴾، نزلت في معاذ بن جبل وحذيفة بن اليمان وعمّار بن ياسر حين دعاهم اليهود إلى دينهم، فنزلت ﴿ ودّتْ طائفة ﴾ أي: تمنّت جماعة من أهل الكتاب يعني اليهود، ﴿ لو يُضلّونَكم ﴾ يستزيلونكم عن دينكم ويردّونكم إلى الكفر، ﴿ وما يُضلّون إلاّ أنفسهم وما يشعُرون ﴾.

﴿ يا أهلَ الكتابِ لِمَ تكفرونَ بآياتِ الله ﴾ يعني: القرآن وبيان نعت محمد ﷺ، ﴿ وأنتم تشهدون ﴾ أن نعته في التوراة والإنجيل مذكور.

﴿ يا أهلَ الكتابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الحقَّ بالباطل ﴾ تُخلطون الإسلام باليهودية والنصرانية، وقيل: لِمَ تخلطون الإيمان بعيسى عليه السلام وهو الحق، بالكفر بمحمد ﷺ، وهو الباطل. وقيل: لِمَ تخلطون التوراة التي أنزلت على موسى بالباطل الذي حرّفتموه وكتبتموه بأيديكم، ﴿ وتكتُمونَ الحقَّ وأنتم تعلمون ﴾ أن محمداً ﷺ ودينه حق.

ذلك شك أصحاب محمد في دينه واتهموه وقالوا: إنهم أهل الكتاب وأعلم به منا فيرجعون عن دينهم وقيل: هذا في شأن القبلة وذلك أنه لما صرفت إلى الكعبة شق ذلك على اليهود فقال كعب بن الأشرف لأصحابه آمنوا بالذي أنزل على محمد في أمر الكعبة وصلوا إليها أول النهار ثم اكفروا وارجعوا إلى قبلتكم آخر النهار لعلهم يرجعون فيقولون: هؤلاء أهل كتاب وهم أعلم فيرجعون إلى قبلتنا فأطلع الله رسوله ﷺ على سرهم وأنزل هذه الآية، ووجه النهار أوله والوجه مستقبل كل شيء لأنه أول ما يواجه منه وأنشدوا في معناه.

من كان مسروراً بمقتل مالك فليأت نسوتنا بوجه نهار

وقوله ﴿لعلهم يرجعون﴾ يعني عنه أي إنا ألقينا هذه الشبهة لعلهم يشكون في دينهم فيرجعون عنه ولما دبروا هذه الحيلة أخبر الله تعالى نبيه ﷺ بها فلم تتم لهم ولم يحصل لها أثر في قلوب المؤمنين ولولا هذا الإعلام من الله تعالى لكان ربما أثر ذلك في قلوب بعض من كان في إيمانه ضعف قوله تعالى:

﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾

﴿ولا تؤمنوا إلّا لمن تبع دينكم﴾ هذا متصل بالأول وهو من قول اليهود يقول بعضهم لبعض ولا تؤمنوا أي ولا تصدقوا إلّا لمن تبع دينكم أي وافق ملتكم التي أنتم عليها وهي اليهودية. واللام في لمن صلة كقوله ردف لكم أي ردفكم ﴿قل إن الهدى هدى الله﴾ أي إن الدين دين الله والبيان بيانه، وهذا خبر من الله تعالى ثم اختلفوا فيه فمنهم من قال: هذا كلام معترض بين كلامين وما بعده متصل بالكلام الأول وهو إخبار عن قول اليهود بعضهم لبعض ومعنى الآية ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم ولا تؤمنوا أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم من العلم والحكمة والكتاب والآيات من فلق البحر وإنزال المن والسلوى عليكم وغير ذلك من الكرامات، ولا تؤمنوا أن يحاجوكم عند ربكم لأنكم أصح ديناً منهم فلما أخبر الله تعالى عن اليهود بذلك قال في أثناء ذلك قل إن الهدى هدى الله،

﴿ وقالتْ طائفةٌ من أهل الكتاب آمنوا ﴾ الآية، قال الحسن وقتادة والسدي: تواطأ اثنا عشر حَبْراً من يهود خيبر وقرى عرينة، وقال بعضهم لبعض: ادخلوا في دين محمد ﷺ أول النهار باللسان دون الاعتقاد ثم اكفروا آخر النهار وقولوا: إنّا نظرنا في كتبنا وشاورنا علماءنا فوجدنا محمداً ﷺ ليس هو بذلك المنعوت وظهر لنا كذبه، فإذا فعلتم ذلك شكّ أصحابه في دينهم واتّهموه، فقالوا إنهم أهل كتاب وهم أعلم منّا به فيرجعون عن دينهم. وقال مجاهد ومقاتل والكلبي: هذا في شأن القِبلة لمّا صُرِفت إلى الكعبة شقّ ذلك على اليهود، فقال كعب بن الأشرف لأصحابه: آمنوا بالذي أُنزل على محمد من أمر الكعبة وصلّوا إليها أول النهار، ثم اكفروا وارجعوا إلى قِبلتكم آخر النهار لعلّهم يقولون هؤلاء أهل الكتاب وهم أعلم فيرجعون إلى قِبلتنا، فأطلع الله تعالى رسوله على سرّهم وأنزل: **﴿ وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا ﴾ ﴿ بالذي أُنزل على الذين آمنوا وجه النهار ﴾** أوله، سُمّي وجهاً لأنه أحسنه وأول ما يواجه الناظر فيراه، **﴿ واكفروا آخره لعلّهم يَرْجِعُون ﴾**، فيشكّون ويرجعون عن دينهم.

﴿ وَلا تُؤمنوا إلّا لمَن تَبِعَ دينَكم ﴾، هذا متصل بالأول من قول اليهود بعضهم لبعض، ولا تُؤمنوا أي: ولا تصدقوا إلّا لمَن تبع دينكم، أي: وافق ملّتكم، واللام في ﴿ لمَن ﴾ صلة أي: لا تصدقوا إلّا لمَن تبع دينكم اليهودية، كقوله تعالى: ﴿ قلْ عسى أن يكونَ رَدِفَ لكم ﴾ [النمل: ٧٢] أي: ردفكم. **﴿ قلْ إن الهدى هدى الله ﴾**، هذا خبر من الله تعالى أن البيان بيانه، ثم اختلفوا فيه فمنهم مَن قال: هذا كلام معترض بين كلامين وما

والمعنى أن الذي أنتم عليه إنما صار ديناً بحكم الله وأمره فإذا أمر بدين آخر وجب اتباعه والانقياد لحكمه لأنه هو الذي هدى إليه وأمر به وقيل: معناه قل لهم: يا محمد إن الهدى هدى الله وقد جئتكم به ولن ينفعكم في دفعه هذا الكيد الضعيف وقرأ الحسن والأعمش إن يؤتى بكسر الألف فيكون قول اليهود تاماً عند قوله إلّا لمن تبع دينكم وما بعده من قول الله تعالى والمعنى قل يا محمد إن الهدى هدى الله ﴿أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم﴾ وتكون أن معنى الجحد أي ما يؤتى أحد مثل ما أوتيتم يا أمة محمد من الدين والهدى ﴿أو يحاجوكم عند ربكم﴾ يعني إلّا أن يحاجوكم أي اليهود بالباطل فيقولوا: نحن أفضل منكم وقوله عند ربكم أي عند فعل ربكم وقيل: أوفي قوله أو يحاجوكم بمعنى حتى ومعنى الآية ما أعطى الله أحداً مثل ما أعطيتم يا أمة محمد من الدين والحجة حتى يحاجوكم عند ربكم وقرأ ابن كثير آن يؤتى بالمد على الاستفهام، وحينئذٍ يكون في الكلام اختصار تقديره أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم يا معشر اليهودمن الكتاب والحكمة فتحسدونه ولا تؤمنون به هذا قول قتادة والربيع قالا: هذا من قول الله تعالى قل يا محمد إن الهدى هدى الله ألأن أنزل كتاباً مثل كتابكم وبعث نبياً مثل نبيكم حسدتموه وكفرتم به قل إن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء. وقوله: أو يحاجوكم على هذه القراءة رجوع إلى خطاب المؤمنين وتكون أو بمعنى إن لأنهما حرفا شرط وجزاء يوضع أحدهما موضع الآخر. والمعنى وأن يحاجوكم يا معشر المؤمنين عند ربكم قل: يا محمد إن الهدى هدى الله ونحن عليه ويحتمل أن يكون الجميع خطاباً للمؤمنين ويكون نظم الآية أن يؤتَى أحد مثل ما أوتيتم يا معشر المؤمنين، فإن حسدوكم فقل إن الفضل بيدالله، فإن حاجوكم فقل إن الهدى هدى الله ويحتمل أن يكون الخبر عن اليهود قد تم عند قوله لعلهم يرجعون وقوله: ولا تؤمنوا من كلام الله تعالى ثبت به قلوب المؤمنين لئلا يشكوا عند تلبس اليهود وتزويرهم في دينهم يقول الله عز وجل: ولا تصدقوا يا معشر المؤمنين

بعده متصل بالكلام الأول إخبار عن قول اليهود لبعض، ومعناه: ولا تؤمنوا إلّا لِمَن تبع دينكم ولا تؤمنوا أن يؤتى أحد مثل ما أُوتيتم من العلم والكتاب والحكمة والآيات من المنّ والسلوى وفلق البحر وغيرها من الكرامات، ولا تؤمنوا أن يحاجّوكم عند ربكم لأنكم أصحّ ديناً منهم، وهذا معنى قول مجاهد، وقيل: إن اليهود قالت لسفلتهم، ولا تؤمنوا إلّا لمَن تبع دينكم، ﴿ أن يُؤتى أحدٌ مثلَ ما أُوتيتم ﴾ من العلم، أي لئلا يُؤتى أحد، و﴿ لا ﴾ فيه مضمرة، كقوله تعالى: ﴿ يُبيّن اللَّهُ لكم أن تضلّوا ﴾ [النساء: ١٧٦] أي: لئلا تضلّوا، يقولون: لا تصدقوهم لئلا يعلموا مثل ما علمتم فيكون لكم الفضل عليهم في العلم، أو لئلا يحاجّوكم عند ربكم فيقولوا عرفتم أن ديننا حق، وهذا معنى قول ابن جريج، وقرأ الحسن والأعمش (إن يؤتـى) بكسـر الألف، فيكون قول اليهود تامّاً عند قوله: إلّا لمَن تبع دينكم، وما بعده من قول الله تعالى، يقول: قلْ يا محمد ﴿ إن الهدى هدى الله ﴾ أن يُؤتى ﴿ أن ﴾ بمعنى: الجحد، أي: ما يُؤتى أحد مثل ما أُوتيتم يا أمة محمد ﷺ، ﴿ أو يُحاجّوكم عند ربكم ﴾ يعني: إلّا أن يجادلكم اليهود بالباطل فيقولوا: نحن أفضل منكم، فقوله عزّ وجلّ: ﴿ عند ربكم ﴾، أي: عند فعل ربكم بكم، وهذا معنى قول سعيد بن جبير والحسن والكلبي ومقاتل، وقال الفرّاء ويجوز أن يكون ﴿ أو ﴾ بمعنى حتى كما يُقال: تعلق به أو يُعطيك حقك، ومعنى الآية: ما أُعطي أحدٌ مثلَ ما أُعطيتم يا أمة محمد من الدين والحجّة حتى يحاجّوكم عند ربكم! وقرأ ابن كثير « آن يُـؤتى » بالمدّ على الاستفهام، وحينئذ يكون فيه اختصار تقديره: أن يُؤتى أحد مثل ما أُوتيتم يا معشر اليهود من الكتاب والحكمة تحسدونه ولا تؤمنون به، هذا قول قتادة والربيع، قالا: هذا من قول الله تعالى، يقول: قل لهم يا محمد إن الهدى هدى الله بأن أُنزل كتاباً مثل كتابكم وبعث نبيّاً حسدتموه وكفرتم به، ﴿ قل إنّ الفضلَ بيد الله يُؤتيهِ مَنْ يشاءُ واللَّهُ واسعٌ عليم ﴾، قوله: ﴿ أو يحاجّوكم ﴾ على هذه القراءة رجوع إلى خطاب المؤمنين، وتكون (أو) بمعنـى (أن) لأنهما حرفا شرط وجزاء يوضع أحدهما موضع الآخر،

إلّا لمن تبع دينكم ولا تصدقوا أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم من الدين والفضل ولا تصدقوا أن يحاجوكم عند ربكم أو يقدروا على ذلك فإن الهدى هدى الله، وإن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم. فتكون الآية كلها خطاباً للمؤمنين عند تلبيس اليهود لئلا يرتابوا ولا يشكوا وقوله تعالى: ﴿قل إن الفضل﴾ يعني قل لهم يا محمد إن التوفيق للإيمان والهداية للإسلام ﴿بيد الله﴾ أي أنه مالك له وقادر عليه دونكم ودون سائر خلقه ﴿يؤتيه من يشاء﴾ يعني الفضل الذي هو دين الإسلام يعطيه من يشاء من عباده ويوفق له من أراد من خلقه وفيه تكذيب لليهود في قولهم أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم فقال الله تعالى رداً عليهم قل لهم ليس ذلك إليهم وإنما الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء وأصل الفضل في اللغة الزيادة وأكثر ما يستعمل في زيادة الإحسان والفاضل الزائد على غيره في خصال الخير ﴿والله واسع﴾ أي ذو سعة يتفضل على من يشاء ﴿عليم﴾ أي بمن يتفضل عليه وهو للفضل أهل.

﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ ۞ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾

﴿يختص برحمته﴾ يعني بنبوته ورسالته وقيل بدينه الذي هو الإسلام وقيل بالقرآن ﴿من يشاء﴾ يعني من خلقه وفيه دليل على أن النبوة لا تحصل إلّا بالاختصاص والتفضل لا بالاستحقاق لأنه تعالى جعلها من باب الاختصاص وللفاعل أن يفعل ما يشاء إلى من يشاء بغير استحقاق ﴿والله ذو الفضل العظيم﴾ قوله عز وجل: ﴿ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك﴾ الآية نزلت في اليهود أخبر الله عز وجل أن فيهم أمانة وخيانة وقسمهم قسمين، والقنطار عبارة عن المال الكثير والدينار عبارة عن المال القليل يقول منهم من يؤد الأمانة وإن كثرت مثل عبدالله بن سلام وأصحابه ومنهم من لا يؤديها وإن قلت: وهم كفار أهل

أي: وإن يُحاجّوكم يا معشر المؤمنين عند ربكم، فقل يا محمد إن الهدى هدى الله ونحن عليه، ويجوز أن يكون الجميع خطاباً للمؤمنين، ويكون نظم الآية: أن يُؤتى أحدٌ مثل ما أُوتيتم يا معشر المؤمنين حسدوكم، فقل: إن الفضل بيد الله، وإن حاجّوكم، فقل: ﴿ إن الهدى هدى الله ﴾، ويجوز أن يكون الخبر عن اليهود قد تمّ عند قوله: ﴿ لعلّهم يرجعون ﴾ وقوله تعالى: ﴿ ولا تؤمنوا ﴾ من كلام الله يثبت به قلوب المؤمنين لئلا يشكّوا عند تلبيس اليهود وتزويرهم في دينهم، ويقول: لا تصدقوا يا معشر المؤمنين إلّا لمَن اتّبع دينكم، ولا [illegible]دقوا أن يُؤتى أحد مثل ما أُوتيتم من العلم والدين والفضل، ولا تصدقوا أن يحاجّوكم في دينكم عند ربكم أي: يقدروا على ذلك، فإن الهدى هدى الله، وإن الفضل بيد الله يُؤتيه مَن يشاء والله واسع عليم، فتكون الآية كلها خطاب الله للمؤمنين عند تلبيس اليهود لئلا يرتابوا.

قوله: ﴿ يختصّ برحمته ﴾ أي: بنبوّته ﴿ مَن يشاءُ واللّهُ ذو الفضلِ العظيم ﴾.

قوله تعالى: ﴿ ومن أهل الكتابِ مَنْ إنْ تأمَنْهُ بقنطار يؤدِّهِ إليك ﴾ الآية، نزلت في اليهود أخبر الله تعالى أن فيهم أمانة وخيانة، والقنطار عبارة عن المال الكثير، والدينار عبارة عن المال القليل، يقول: منهم مَن يؤدّي الأمانة وإن كثرتْ، ومنهم مَن لا يؤدّيها وإن قلّتْ، قال مقاتل: ﴿ ومِنْ أهل الكتاب مَنْ إن تأمنه بقنطار يؤدِّهِ إليك ﴾ هم مؤمنوا أهل الكتاب، كعبد الله بن سلّام وأصحابه، ﴿ ومنهم مَنْ إنْ تأمنه بدينارٍ لا يُؤدِّه إليك ﴾ يعني: كفّار اليهود، ككعب بن الأشرف وأصحابه، وقال جويبر عن الضحاك عن ابن عباس في قوله عزّ وجلّ: ﴿ ومِنْ أهل الكتاب مَنْ

الكتاب مثل كعب بن الأشرف وأصحابه قال ابن عباس في هذه الآية: أودع رجل من قريش عبدالله بن سلام ألفاً ومائتي أوقية من ذهب فأداها إليه فذلك قوله تعالى: ﴿**ومن أهل الكتاب من أن تأمنه بقنطار يؤده إليك ومنهم من أن تأمنه بدينار لا يؤده إليك**﴾ يعني فنحاص بن عازوراء استودعه رجل من قريش ديناراً فخانه وجحده ولم يؤده إليه. وقيل: أهل الأمانة هم النصارى، وأهل الخيانة هم اليهود لأن مذهبهم أن يحل قتل من خالفهم في أمر الدين وأخذ ماله بأي طريق كان ﴿**إلاّ ما دمت عليه قائماً**﴾ قال ابن عباس: يريد تقوم عليه وتطالبه بالإلحاح والخصومة والملازمة وقيل: معناه إلاّ مدة دوامك عليه يا صاحب الحق قائماً على رأسه متوكلاً عليه بالمطالبة له والتعنيف بالرفع إلى الحاكم وإقامة البينة عليه. وقيل أراد أنه إن أودعته شيئاً ثم استرجعته منه في الحال وأنت قائم على رأسه لم تفارقه رده عليك. وإن أخرت استرجاع ما أودعته وأنكره ولم يرده عليك ﴿**ذلك**﴾ أي سبب ذلك الاستحلال والخيانة ﴿**بأنهم قالوا**﴾ يعني اليهود ﴿**ليس علينا في الأميين سبيل**﴾ يعني أنهم يقولون ليس علينا إثم ولا حرج في أخذ مال العرب وذلك أن اليهود قالوا: أموال العرب حلال لنا إنهم ليسوا على ديننا ولا حرمة لهم في كتابنا وكانوا يستحلون ظلم من خالفهم في دينهم وقيل: إن اليهود قالوا نحن أبناء الله وأحباؤه والخلق لنا عبيد فلا سبيل علينا إذا أكلنا أموال عبيدنا وقيل إنهم قالوا: إن الأموال كلها كانت لنا فما في يد العرب فهو لنا، وإنما هم ظلمونا وغصبوها منا فلا سبيل علينا في أخذها منهم بأي طريق كان وقيل إن اليهود كانوا يبايعون رجالاً من المسلمين في الجاهلية. فلما أسلموا تقاضوهم بقية أموالهم فقالوا: ليس لكم علينا حق ولا عندنا قضاء لأنكم تركتم دينكم وانقطع العهد بيننا وبينكم، وادعوا أنهم وجدوا ذلك في كتابهم فأكذبهم الله تعالى فقال ﴿**ويقولون على الله الكذب**﴾ يعين اليهود ﴿**وهم يعلمون**﴾ يعني أنهم كاذبون ثم إنه تعالى رد على اليهود قولهم فقال: .

إنْ تأمنه بقنطار يؤدِّهِ إليك ﴾ يعني: عبد الله بن سلام، أودعه رجل ألفاً ومائتي أوقية من ذهب فأدّاها إليه، ﴿ **ومنهم مَنْ إنْ تأمنه بدينارٍ لا يُؤدِّهِ إليك** ﴾ يعني: فنحاص بن عازُوراء، استودعه رجل من قريش ديناراً فخانه، قوله: ﴿ **يؤدِّهِ إليك** ﴾ قرأ أبو عمرو وأبو بكر وحمزة ﴿ **يُؤدِّه** ﴾ و﴿ **لا يُؤدِّهِ** ﴾ و﴿ **نُصْلهِ** ﴾ [النساء: ١١٥] و﴿ **نُؤتِه** ﴾ [آل عمران: ١٤٥، الشورى: ٢٠] و﴿ **نُولهِ** ﴾ [النساء: ١١٥] ساكنة الهاء، وقرأ أبو جعفر وقالـون ويعقوب بالاختلاس كسراً، والباقون بالإشباع كسراً، فمَن سكّن الهاءَ قال: لأنها وضعت في موضع الجزم وهو الياء الذاهبة، ومَن اختلس فاكتفى بالكسرة عن الياء، ومَن أشبع فعلى الأصل، لأن الأصل في الهاء الإشباع، ﴿ **إلا ما دُمْتَ عليه قائماً** ﴾، قال ابن عباس مُلِحّاً، يريد يقوم عليه يطالبه بالإلحاح، وقال الضحاك: مواظباً أي تُواظب عليه بالاقتضاء، وقيل: أراد أودعته ثم استرجعته وأنت قائم على رأسه ولم تفارقه ردّه إليك، فإن فارقته وأخّرته أنكره ولم يؤدِّهِ، ﴿ **ذلك** ﴾ أي: ذلك الاستحلال والخيانة، ﴿ **بأنهم قالوا ليسَ علينا في الأُمّيين سبيل** ﴾ أي: في مال العرب إثم وحَرَج، كقوله تعالى: ﴿ **ما على المحسنين من سبيل** ﴾ [التوبة: ٩١]، وذلك بأن اليهود قالوا: أموال العرب حلال لنا، لأنهم ليسوا على ديننا ولا حُرمة لهم في كتابنا، وكانوا يستحلّون ظلم مَن خالفهم في دينهم، وقال الكلبي: قالت اليهود إن الأموال كلها كانتْ لنا فيما في يد العرب منها فهو لنا، وإنما ظلمونا وغصبونا فلا سبيل علينا في أخذنا إياه منهم، وقال الحسن وابن جريج ومقاتل: بايع اليهود رجالاً من المسلمين في الجاهلية فلما أسلموا تقاضوهم بقية أموالهم فقالوا: ليس لكم علينا حق، ولا عندنا قضاء لأنكم تركتم دينكم وانقطع العهد بيننا وبينكم، وادّعوا أنهم وجدوا ذلك في كتبهم، فكذّبهم اللّهُ عزّ وجلّ وقال عزّ من قائل: ﴿ **ويقولون على الله الكذِبَ وهم يعلمون** ﴾، ثم قال ردّاً عليهم:

﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾﴾

﴿بلى﴾ أي ليس الأمر كما قالوا بل عليهم سبيل ولفظة بلى لمجرد نفي ما قبلها فعلى هذا يحسن الوقوف عليها ثم يبتدىء من أوفى أي ولكن ﴿من أوفى بعهده﴾ أي بعهد الله الذي عهد إليه في التوراة من الإيمان بمحمد ﷺ وبالقرآن الذي أنزل عليه وبأداء الأمانة إلى من ائتمنه عليها وقيل الهاء في قوله بعهده راجعة إلى الموفى ﴿واتقى﴾ يعني الكفر والخيانة ونقض العهد ﴿فإن الله يحب المتقين﴾ يعني الذين يتقون الشرك. (ق) عن عبدالله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كان فيه خصلة منهن كان فيه خصلة من النفاق حتى يدعها إذا ائتمن خان، وإذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر وإذا خاصم فجر، وفي رواية إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر. قوله عز وجل: ﴿إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً﴾ قال عكرمة نزلت هذه الآية في أحبار اليهود ورؤسائهم أبي رافع وكنانة بن أبي الحقيق وكعب بن الأشرف وحيي بن أخطب الذين كتموا ما عهد الله إليهم في التوراة في شأن محمد ﷺ فبدلوه وكتبوا بأيديهم غيره وحلفوا أنه من عند الله لئلا تفوتهم الرشا والمآكل التي كانوا يأخذونها من أتباعهم وسفلتهم وقيل نزلت في ادعاء اليهود الذين قالوا: إنه ليس علينا في الأميين سبيل وكتبوا ذلك بأيديهم وحلفوا أنه من عند الله وقيل نزلت في الأشعث بن قيس وخصم له. (ق) عن عبدالله بن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: «من حلف على مال امرىء مسلم بغير حقه لقي الله وهو عليه غضبان» قال عبدالله: ثم قرأ علينا رسول الله ﷺ مصداقة من كتاب الله عز وجل: ﴿إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً﴾ إلى آخر الآية وفي رواية: «قال من حلف على يمين صبر يقتطع بها

﴿ بلى ﴾ أي: ليس كما قالوا بل عليهم سبيل، ثم ابتدأ فقال: ﴿ مَنْ أَوْفَى ﴾ أي: ولكن مَن أوفى ﴿ بعهده ﴾ أي: بعهد الله الذي عهد إليه في التوراة من الإيمان بمحمد ﷺ والقرآن وأداء الأمانة، وقيل: الهاء في عهده راجعة إلى الموفّي ﴿ واتقى ﴾ الكفرَ والخيانةَ ونقضَ العهد، ﴿ فإنّ اللّهَ يحبُّ المتّقين ﴾، أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا قبيصة بن عقبة أنا سفيان عن الأعمش عن عبد الله بن مُرّة عن مسروق عن عبد الله بن عمر أن النبي ﷺ قال: «أربع مَن كنّ فيه كان منافقاً خالصاً ومَن كانتْ فيه خَصْلةٌ منهنّ كانتْ فيه خصلةٌ من النفاق حتى يدعها: إذا ائتُمن خان وإذا حدّث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر».

قوله تعالى: ﴿ إنّ الذين يَشْتَرُون بعهدِ اللّهِ وأيمانهم ثمناً قليلاً ﴾ قال عكرمة: نزلت في رؤوس اليهود كتموا ما عهِد الله إليهم في التوراة في شأن محمد ﷺ وبدّلوه وكتبوا بأيديهم غيره وحلفوا أنه من عند الله لئلا يفوتهم المآكل والرِّشا التي كانت لهم من أتباعهم. أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا موسى بن إسماعيل أنا أبو عُوانة عن الأعمش عن أبي وائل عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن حلف عليّ يمينِ صَبْرٍ يقتطع بها مالَ امْرِىءٍ مسلم لقيَ اللّهَ يومَ القيامةِ وهو عليه غضبان»، فأنزل الله تعالى تصديق ذلك ﴿ إنّ الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً ﴾ إلى آخر الآية، فدخل الأشعث بن قيس، فقال: ما يحدّثكم أبو عبد الرحمن؟ فقالوا: كذا وكذا، فقال: فيّ أنزلتْ كانتْ لي بئرٌ في أرض

مال امرىء مسلم لقي الله وهو عليه غضبان فأنزل الله تصديق ذلك ﴿إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً﴾ الآية. فدخل الأشعث بن قيس الكندي فقال: ما يحدثكم أبو عبد الرحمن قلنا كذا وكذا فقال صدق فيَّ نزلت كان بيني وبين رجل خصومة في بئر فاختصمنا إلى رسول الله ﷺ: فقال رسول الله ﷺ: شاهداك أو يمينه قلت إنه إذا يحلف لا يبالي فقال رسول الله ﷺ: من حلف على يمين صبر يقتطع بها مال امرىء مسلم هو فيها فاجر لقي الله وهو عليه غضبان». ونزلت ﴿إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً﴾ إلى آخر الآية. وأخرجه الترمذي وأبو داود وقالا: إن الحكومة كانت بين الأشعث وبين رجل يهودي. وقيل نزلت هذه الآية في رجل أقام سلعة في السوق فحلف لقد أعطى بها ما لم يعطه. (خ) عن عبدالله بن أبي أوفى: «أن رجل أقام سلعة وهو في السوق فحلف بالله لقد أعطى بها ما لم يعطه ليوقع فيها رجلاً من المسلمين فنزلت ﴿إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً﴾ إلى آخر الآية. وقيل الأقرب حمل الآية على الكل فقوله تعالى ﴿إن الذين يشترون بعهد الله﴾ يدخل فيه جميع ما أمر الله به ويدخل فيه العهود والمواثيق المأخوذة من جهة الرسل ويدخل فيه ما يلزم الرجل نفسه من عهد وميثاق فكل ذلك من عهد الله الذي يجب الوفاء به. ومعنى إن الذين يشترون يستبدلون بعهد الله يعني الأمانة وأيمانهم يعني الكاذبة ثمناً قليلاً يعني شيئاً يسيراً من حطام الدنيا، وذلك لأن المشتري يأخذ شيئاً ويعطي شيئاً فكل

ابن عمّ لي فأتيت رسول الله ﷺ فحدّثته، فقال: «هاتِ بيِّنَتكَ أو يمينه»، قلت: إذاً يحلِفُ عليها يا رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: «مَن حلف على يمين صَبْرٍ وهو فيها فاجرٌ يقتطع بها مالَ امْرىءٍ مسلم لقيَ اللَّهَ يوم القيامة وهو عليه غضبان». أخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر أنا عبد الغافر بن محمد الفارسي أنا محمد بن عيسى الجلودي، أنا إبراهيم بن محمد بن سفيان أنا مسلم بن الحجّاج أنا قتيبة بن سعيد أنا أبو الأحوص عن سماك بن حرب عن علقمة بن وائل بن حجر، عن أبيه قال: جاء رجل من حضرموت ورجل من كِنْدة إلى النبي، فقال الحضرمي: يا رسول الله إن هذا قد غلبني على أرضٍ لي كانتْ لأبي، فقال الكندي: هي أرض في يدي أزرعها ليس له فيها حق، فقال النبي ﷺ للحضرمي: «ألك بيِّنة»؟ قال: لا، قال: «فلك يمينه» قال: يا رسول الله إن الرجل فاجرٌ لا يُبالي على ما يحلف عليه، قال: «ليس لك منه إلاّ ذلك»، فانطلق ليحلف له، فلما أدبر قال رسول الله ﷺ: «أمَا لئِنْ حَلَفَ على مالهِ ليأكله ظلماً ليَلْقَيَنَّ اللَّهَ وهو عنه مُعْرِض»، ورواه عبد الملك بن عُمير عن علقمة، وقال هو امرؤ القيس بن عابس الكندي وخصمه ربيعة بن عبدان، وروى: لمّا همّ أن يحلف نزلت هذه الآية فامتنع امرؤ القيس أن يحلف. وأقرَّ لخصمه بحقه ودفعه إليه. أخبرنا أبو الحسن محمد بن محمد السرخسي، أخبرنا زاهر بن أحمد السرخسي، أنا أبو مصعب عن مالك عن العلاء بن عبد الرحمن عن سعيد بن كعب عن أخيه عبد الله بن كعب بن مالك عن أبي أمامة أنّ رسول الله ﷺ قال: «مَن اقتطع حقَّ امرىءٍ مسلم بيمينه حرّم الله عليه الجنّة وأوجب له النار»، قالوا: وإن كان شيئاً يسيراً يا رسول الله؟ قال: «وإن كان قضيباً من أراك» قالها ثلاث مرات. أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا عمرو بن محمد أنا هشيم بن محمد أنا العوّام بن حوشب عن إبراهيم بن عبد الرحمن عن عبد الله بن أبي أوفى أنّ رجلاً أقام سلعة وهو في السوق فحلف بالله لقد أُعطي بها ما لم يعطِ، ليُوقع فيها رجلاً من المسلمين، فنزلت: ﴿ إنّ الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً ﴾، قوله تعالى: ﴿ إنّ الذين يشترون ﴾ أي: يستبدلون بعهد الله، وأراد الأمانة، وأيمانهم الكاذبة ثمناً قليلاً أي: شيئاً قليلاً من حطام الدنيا، ﴿ أولئك لا خَلاقَ لهم ﴾، لا نصيب لهم ﴿ في الآخرة ﴾، ونعيمها، ﴿ ولا يُكلمهُم الله ﴾ كلاماً ينفعهم ويُسرّهم، وقيل: هو بمعنى الغضب، كما يقول الرجل: إني لا أُكلّم فلاناً إذا كان غضب عليه، ﴿ ولا ينظرُ إليهم يومَ القيامة ﴾ أي: لا يرحمهم ولا

واحد من يعطي، والمأخوذ ثمناً للآخر فهذا معنى الشراء ﴿أولئك﴾ يعني من هذه صفتهم ﴿لا خلاق لهم في الآخرة﴾ أي لا نصيب لهم في الآخرة ونعيمها وجميع منافعها ﴿ولا يكلمهم الله﴾ يعني كلاماً يسرهم به أو ينفعهم. وقيل: هو بمعنى الغضب ﴿ولا ينظر إليهم يوم القيامة﴾ أي لا يرحمهم ولا يحسن إليهم ولا ينيلهم خيراً ﴿ولا يزكيهم﴾ أي ولا يطهرهم من الذنوب ولا يثني عليهم بجميل ﴿ولهم عذاب أليم﴾ يعني في الآخرة. (ق) عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم: رجل حلف على سلعة لقد أعطي بها أكثر مما أعطي وهو كاذب، ورجل حلف على يمين كاذبة بعد العصر ليقتطع بها مال امرىء مسلم، ورجل منع فضل ماله فيقول الله له اليوم أمنعك فضلي كما منعت فضل ما لم تعمل يداك»، (م) عن أبي ذر قال قال رسول الله ﷺ: ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم قال: فقرأها رسول الله ﷺ ثلاث مرات فقلت: خابوا وخسروا من هم يا رسول الله؟ قال المسبل والمنان والمنفق سلعته بالحلف الكاذب «وللنسائي» المنان بما أعطى والمسبل إزاره والمنفق سلعته بالحلف الكاذب. (م) عن أبي أمامة أن رسول الله ﷺ قال: «من اقتطع حق امرىء مسلم بيمينه حرم الله عليه الجنة وأوجب له ا لنار فقالوا: يا رسول الله وإن كان شيئاً يسيراً قال وإن كان قضيباً من أراك» قوله عز وجل:

﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾﴾

﴿وإن منهم﴾ يعني من اليهود ﴿لفريقاً﴾ يعني طائفة وجماعة وهم كعب بن الأشرف ومالك بن الصيف وحيي بن أخطب وأبو ياسر وشعبة بن عمرو الشاعر ﴿يلوون﴾ أي يعطفون ويميلون، وأصل اللي الفتل من قولك

يُحسن إليهم ولا يُنيلهم خيراً، ﴿ ولا يُزكّيهم ﴾، أي: لا يُثني عليهم بالجميل ولا يُطهرهم من الذنوب، ﴿ ولهم عذاب أليم ﴾، أخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر أنا عبد الغفار بن محمد الفارسي، أنا محمد بن عيسى الجلودي أنا إبراهيم بن محمد أنا سفيان أنا مسلم بن الحجّاج أنا محمد بن جعفر عن شعبة عن علي بن مُدرك عن أبي زرعة عن خرشة بن الحرّ عن أبي ذر رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «ثلاثة لا يُكلمهم الله يومَ القيامة ولا ينظر إليهم ولا يُزكّيهم ولهم عذابٌ أليم» قال: قرأها رسول الله ﷺ ثلاثَ مرات، فقال أبو ذر: خابوا وخسروا مَنْ هم يا رسول الله؟ قال: «المُسبل والمنّان والمنفق سلعته بالحَلِفِ الكاذب»، في رواية «المسبل إزاره»، أخبرنا الإمام أبو علي الحسين بن محمد القاضي أنا أسيد أبو الحسن محمد بن الحسين العلوي، أنا أبو نصر محمد بن حمدويه المروزي أنا سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار عن أبي صالح عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «ثلاثة لا يُكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يُزكّيهم ولهم عذاب أليم، رجل حلف يميناً على مال مسلم فاقتطعه، ورجل حلف على يمين كاذبة بعد صلاة العصر أنه أُعطي بسلعته أكثر مما أعطى وهو كاذب، ورجل منع فضل مالِه، فإن الله تعالى يقول اليوم أمنعك فضل ما لم تعمل يداك».

قوله تعالى: ﴿ وإنّ منهم لفريقاً ﴾ يعني: من أهل الكتاب لفريقاً أي: طائفة، وهم كعب بن الأشرف ومالك بن الصيف وحيّ بن أخطب وأبو ياسر وشعبة بن عمرو الشاعر، ﴿ يَلْوُونَ ألسنَتهم بالكتاب ﴾ أي: يعطفون

لويت يده إذا فتلتها ﴿ألسنتهم بالكتاب﴾ يعني بالتحريف والتغيير والتبديل وتحريف الكلام تقليبه عن وجهه لأن المحرف يلوي لسانه عن سنن الصواب بما يأتي به من عند نفسه قال الواحدي: ويحتمل أن يكون المعنى يلوون بألسنتهم الكتاب لأنهم يحرفون الكتاب عما هو عليه بألسنتهم فيأتون به على القلب ونقل الإمام فخر الدين عن القفال قال يلوون ألسنتهم معناه أن يعمدوا إلى اللفظة فيحرفونها في حركات الإعراب تحريفاً يتغير به المعنى وهذا كثير في لسان العرب فلا يبعد مثله في العبرانية فلما فعلوا ذلك في الآيات الدالة على نبوة محمد ﷺ من التوراة كان ذلك هو المراد من قوله يلوون ألسنتهم بالكتاب وقيل إنهم غير واصفة النبي ﷺ من التوراة وبدلوها، وآية الرجم وغير ذلك مما بدلوا وغيروا ﴿لتحسبوه من الكتاب﴾ يعني لتظنوا أن الذي حرفوه وبدلوه من الكتاب الذي أنزله الله أنبيائه ﴿وما هو من الكتاب﴾ يعني ذلك الذي يزعمون أنه من الكتاب ما هو منه ﴿ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله﴾ يعني الذي يقولونه ويغيرونه، وإنما كرر هذا بلفظين مختلفين مع اتحاد المعنى لأجل التأكيد ﴿ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون﴾ يعني أنهم كاذبون. وقال ابن عباس: إن الآية نزلت في اليهود والنصارى جميعاً وذلك أنهم حرفوا التوراة والإنجيل وألحقوا في كتاب الله ما ليس فيه. قوله عز وجل: ﴿ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة﴾ قيل إن نصارى نجران قالوا إن عيسى أمرهم أن يتخذوه رباً فقال الله تعالى رداً عليهم: ما كان لبشر يعني عيسى عليه السلام أن يؤتيه الله الكتاب يعني الإنجيل. وقال ابن عباس في قوله تعالى ما كان لبشر يعني محمداً ﷺ أن يؤتيه الله الكتاب يعني القرآن وذلك أن أبا رافع من اليهود والسيد من نصارى نجران قالا: يا محمد تريد أن نعبدك ونتخذك رباً؟ قال معاذ الله أن آمر بعبادة غير الله وما بذلك أمرني الله، وما بذلك بعثني فأنزل الله هذه الآية ما كان لبشر أي ما ينبغي لبشر وهو جميع بني آدم لا واحد له من لفظه كالقوم والرهط ويوضع موضع الواحد والجمع أن يؤتيه الله الكتاب والحكم يعني الفهم والعلم، وقيل هو إمضاء الحكم من الله تعالى والنبوة يعني المنزلة الرفيعة ﴿ثم يقول للناس كونوا عباداً لي من دون الله﴾ ومعنى الآية أنه لا يجتمع لرجل نبوة مع القول للناس كونوا عباداً لي من دون الله وكيف يدعو الناس إلى عبادة نفسه دون الله وقد أتاه الله ما أتاه من الكتاب والحكم والنبوة وذلك أن الأنبياء موصون بصفات لا يحصل معها ادعاء الإلهية والربوبية منها إن الله تعالى

ألسنتهم بالتحريف والتغيير، وهو ما غيّروا من صفة النبي ﷺ وآية الرجم وغير ذلك، يُقال: لَوَى لسانه عن كذا أي: غيّره، ﴿ **لِتَحْسَبُوه** ﴾ أي: لتظنوا ما حرّفوا ﴿ **مِنَ الكتاب** ﴾، الذي أنزله الله تعالى، ﴿ **وما هو مِنَ الكتابِ ويقولونَ هو مِنْ عندِ اللَّهِ وما هو مِنْ عندِ الله ويقولون على الله الكذب** ﴾ عمداً، ﴿ **وهم يعلمون** ﴾، أنهم كاذبون، وقال الضحاك عن ابن عباس: إن الآية نزلت في اليهود والنصارى جميعاً وذلك أنهم حرّفوا التوراة والإنجيل وألحقوا بكتاب الله ما ليس منه.

قوله تعالى: ﴿ **ما كان لبشر أنْ يُؤتِيه الله الكتاب** ﴾ الآية، قال مقاتل والضحاك: ما كان لبشر يعني: عيسى عليه السلام، وذلك أن نصارى نجران كانوا يقولون: إن عيسى أمرهم أن يتّخذوه ربّاً فقال تعالى: ﴿ **ما كان لبشر** ﴾ يعني: عيسى ﴿ **أن يُؤتيَه الله الكتاب** ﴾ أي الإنجيل، وقال ابن عباس وعطاء: ﴿ **ما كان لبشر** ﴾ يعني محمداً ﴿ **أن يُؤتيَه اللَّهُ الكتاب** ﴾ أي القرآن، وذلك أن أبا رافع القرظي من اليهود، والرئيس من نصارى أهل نجران قالا: يا محمد تريد أن نعبدك ونتخذك ربّاً فقال: معاذ الله أن آمر بعبادة غير الله، وما بذلك أمرني الله، وما بذلك بعثني، فأنزل الله تعالى هذه الآية: ﴿ **ما كان لبشـر** ﴾ أي ما ينبغي لبشر، كقوله تعالى: ﴿ ما يكون لنا أن نتكلم بهذا ﴾ [النور: ١٦] أي ما ينبغي لنا، والبشر: جميع بني آدمَ لا واحد له من لفظه، كالقوم والجيش، ويوضع موضع الواحد والجمع، ﴿ **أن يُؤتيَه الله الكتاب والحكم** ﴾، الفهم والعلم، وقيل: إمضاء الحكم عن الله عزّ وجلّ،

أتاهم الكتب السماوية، ومنها إيتاء النبوة ولا يكون إلاّ بعد كمال العلم وكل هذه تمنع من هذه الدعوى ﴿**ولكن كونوا ربانيين**﴾ يعني ولكن يقول لهم كونوا ربانيين فأضمر القول على حسب مذهب العرب في جواز الإضمار إذا كان في الكلام ما يدل عليه، واختلفوا في معنى الرباني فقال ابن عباس: معناه كونوا فقهاء علماء وعنه كونوا فقهاء معلمين وقيل معناه حكماء حكماء، وقيل الرباني الذي يربي الناس بصغار العلم وكباره وقيل الرباني العالم الذي يعمل بعلمه، وقيل الرباني العالم بالحلال والحرام والأمر والنهي وقيل الرباني الذي جمع بين علم البصيرة والعلم بسياسة الناس، ولما مات ابن عباس رضي الله عنهما قال محمد بن الحنفية: اليوم مات رباني هذه الأمة قال سيبويه: الرباني المنسوب إلى الرب بمعنى كونه عالماً به ومواظباً على طاعته وزيادة الألف والنون فيه للدلالة على كمال هذه الصفة وقال المبرد: الربانيون أرباب العلم واحدهم ربان وهو الذي يربى العلم ويربي الناس أي يعلمهم وينصحهم والألف والنون للمبالغة فعلى قول سيبويه الرباني منسوب إلى الرب على معنى التخصيص بمعرفة الرب وطاعته، وعلى قول المبرد الرباني مأخوذ من التربية. وقيل الربانيون هم ولاة الأمر والعلماء وهما الفريقان اللذان يطاعان ومعنى الآية على هذا التأويل لا أدعوكم إلى أن تكونوا عباداً لي ولكن أدعوكم إلى أن تكونوا ملوكاً وعلماء ومعلمين الناس الخير ومواظبين على طاعة الله وعبادته. وقال أبو عبيدة: أحسب أن هذه الكلمة ليست عربية إنما هي عبرانية أو سريانية وسواء كانت عربية أو عبرانية فهي تدل على الذي علم وعمل بما علم وعلم الناس طريق الخير. وقوله تعالى: ﴿**بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون**﴾ أي كونوا ربانيين بسبب كونكم عالمين ومعلمين وبسبب دراستكم الكتاب، فدلت الآية على أن العلم والتعليم والدراسة توجب كون الإنسان ربانياً فمن اشتغل بالعلم والتعليم لا لهذا المقصود ضاع علمه وخاب سعيه. قوله عز وجل: .

وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ

﴿ **والنبوّة** ﴾، المنزلة الرفيعة بالإنباء، ﴿ **ثم يقول للناس كونوا عباداً لي مِنْ دُونِ اللَّهِ ولكنْ كُونُوا** ﴾ أي: ولكن يقول كونُوا، ﴿ **رَبّانيين** ﴾، اختلفوا فيه، قال علي وابن عباس والحسن: كونوا فقهاء علماء، وقال قتادة: حكماء وعلماء، وقال سعيد بن جبير: العالم الذي يعمل بعلمه، وعن سعيد بن جبير عن ابن عباس: فقهاء مُعلّمين، وقيل: الربّاني الذي يُربّي الناس بصغار العلم قبل كباره، وقال عطاء: حكماء وعلماء ونُصحاء لله في خلقه، قال أبو عبيدة: سمعت رجلاً عالماً يقول: الرباني العالم بالحلال والحرام والأمر والنهي العارف بأنباء الأمة ما كان وما يكون، وقيل: الربانيون فوق الأحبار، والأحبار فوق العلماء، والربانيون الذين جمعوا مع العلم البصائر بسياسة الناس، قال المؤرِّج: كونوا ربّانيين تدينون لربكم، من الربوبية، كان في الأصل ربّي فأدخلت الألف للتفخيم، ثم أُدخلت النون لسكون الألف، كما قيل: صنعاني وبهراني، وقال المبرّد: هم أرباب العلم سُمّوا به لأنهم يربّون العلم، ويقومون به ويربّون المتعلمين بصغار العلوم قبل كبارها، وكل مَن قام بإصلاح الشيء وإتمامه فقد ربَّه يُربه، واحدُها: ربّان كما قالوا: ريّان وعطشان وشبعان وغرثان، ثم ضُمّت إليه ياء النسبة، كما يقال: الحياني ورقباني، وحُكي عن علي رضي الله عنه أنه قال: هو الذي يُربّي علمه بعمله، قال محمد بن الحنفية يوم مات ابن عباس: اليوم مات ربّاني هذه الأمة، ﴿ **بما كنتم** ﴾ أي: بما أنتم كقوله تعالى: ﴿ **مَن كان فِي المهدِ صبيّاً** ﴾ [مريم: ٢٩]، أي: مَن هو في المهد ﴿ **تُعلِّمُون الكتابَ** ﴾، قرأ ابن عامر وعاصم والكسائي ﴿ **تعلِّمُون** ﴾ بالتشديد من التعليم، وقرأ الآخرون (تعلَمُـون) بالتخفيف من العلم، كقوله: ﴿ **وبما كنتم تَدْرُسُون** ﴾ أي: تقرؤون.

﴿وَلَتَنصُرُنَّهُۥۚ قَالَ ءَأَقۡرَرۡتُمۡ وَأَخَذۡتُمۡ عَلَىٰ ذَٰلِكُمۡ إِصۡرِيۖ قَالُوٓاْ أَقۡرَرۡنَاۚ قَالَ فَٱشۡهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ٨١﴾

﴿ولا يأمركم﴾ قرىء بنصب الراء عطفاً على قوله ثم يقول: فيكون مردوداً على البشر وقيل على إضمار أن أي ولا أن يأمركم، وقرىء برفع الراء على الاستئناف وهو ظاهر ومعناه ولا يأمركم الله وقيل لا يأمركم محمد ﷺ وقيل ولا يأمركم عيسى وقيل ولا يأمركم الأنبياء ﴿أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً﴾ يعني كفعل قريش والصابئين حيث قالوا الملائكة بنات الله وكفعل اليهود والنصارى حيث قالوا في المسيح والعزير ما قالوا وإنما خص الملائكة والنبيين بالذكر لأن الذين وصفوا بعبادة غيرالله عز وجل من أهل الكتاب لم يحك عنهم إلّا عبادة الملائكة وعبادة المسيح وعزير، فلهذا المعنى خصهم بالذكر ﴿أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون﴾ إنما قاله على طريق التعجب والإنكار، يعني لا يقول هذا ولا يفعله.

قوله عز وجل: ﴿وإذ أخذ الله ميثاق النبيين﴾ قال الزجاج: موضع إذ نصب والمعنى واذكر في أقاصيصك إذ أخذ الله. وقال الطبري: معناه واذكروا يا أهل الكتاب إذ أخذ الله يعني حين أخذ الله ميثاق النبيين. وأصل الميثاق في اللغة عقد يؤكد بيمين، ومعنى ميثاق النبيين ما وثقوا به على أنفسهم من طاعة الله فيما أمرهم به ونهاهم عنه وذكروا في معنى أخذ الميثاق وجهين: أحدهما: أنه مأخوذ من الأنبياء. والثاني: أنه مأخوذ لهم من غيرهم فلهذا السبب اختلفوا في المعنى بهذه الآية، فذهب قوم إلى أن الله تعالى أخذ الميثاق من النبيين خاصة قبل أن يبلغوا كتاب الله ورسالاته إلى عباده أن يصدق بعضهم بعضاً، وأخذ العهد على كل نبي أن يؤمن بمن يأتي بعده من الأنبياء وينصره إن أدركه وإن لم يدركه أن يأمر قومه بنصرته إن أدركوه فأخذ الميثاق من موسى أن يؤمن بعيسى، ومن عيسى أن يؤمن بمحمد ﷺ وعليهم أجمعين. وهذا قول سعيد بن جبير والحسن وطاوس وقيل: إنما أخذ الميثاق من النبيين في أمر محمد ﷺ خاصة وهو قول علي وابن عباس وقتادة والسدي فعلى هذا القول اختلفوا، فقيل إنما أخذ الله الميثاق على أهل الكتاب الذين أرسل إليهم النبيين ويدل عليه قوله ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه وإنما كان محمد ﷺ مبعوثاً إلى أهل الكتاب دون النبيين، وإنما أطلق هذا اللفظ عليهم لأنهم كانوا يقولون نحن أولى بالنبوة من محمد لأنا أهل كتاب والنبيون منا، وقيل أخذ الله الميثاق على النبيين وأممهم

قوله: ﴿ ولا يأمُرَكم ﴾، قرأ ابن عامر وحمزة ويعقوب بنصب الراء عطفاً على قوله: ثم يقول: فيكون مردوداً على البشر، أي: ولا يأمرَ ذلك البشر، وقيل: على إضمار ﴿ أن ﴾ أي: ولا أن يأمرَكم ذلك البشر، وقرأ الباقون بالرفع على الاستئناف، معناه: ولا يأمُركم الله، وقال ابن جريج وجماعة: ولا يأمُركم محمد، ﴿ أن تَتَّخِذُوا الملائكة والنَّبيينَ أرْبَاباً ﴾، كفعل قريش والصابئين حيث قالوا: الملائكة بنات الله واليهود والنصارى حيث قالوا في المسيح وعُزير ما قالوا، ﴿ أيأمُركم بالكفر بعد إذ أنتم مُسلمون ﴾، قالوا له على طريق التعجّب والإنكار، يعني: لا يقوله هذا.

قوله عزّ وجلّ: ﴿وإذْ أخذَ اللَّهُ ميثاقَ النّبيين لما آتيتُكم مِنْ كتابٍ وحِكمةٍ﴾ قرأ حمزة ﴿لما﴾ بكسر اللام، وقرأ الآخرون بفتحها، فمَن كسر اللام فهي لامُ الإضافة دخلت على ما الموصولة، ومعناه: إن الذي يريد للذي آتيتكم، أي: أخذ ميثاق النبيين لأجل الذي آتاهم من الكتاب والحكمة وأنهم أصحاب الشرائع، ومَن فتح اللام فمعناه: للذي آتيتكم، بمعنى الخبر، وقيل: بمعنى الجزاء، أي: لئن آتيتكم ومهما آتيتكم، وجواب الجزاء، قوله: ﴿ لَتُؤْمِنُنَّ به ﴾ قوله: ﴿ لما آتيتكم ﴾ قرأ نافع وأهل المدينة (آتيناكم) على التعظيم كما قال: ﴿ وآتينا داوود زبوراً﴾ [النساء: ١٦٣] ﴿ وآتيناه الحكم صبياً ﴾ [مريم: ١٢] وقرأ الآخرون بالتاء لموافقة الخط، ولقوله: ﴿ وإنّا معكم ﴾ واختلفوا في المعنى بهذه الآية فذهب قوم إلى أن الله تعالى أخذ الميثاق على النبيّين خاصةً أن

جميعاً في أمر محمد ﷺ فاكتفى بذكر الأنبياء لأن العهد مع المتبوع عهد مع الأتباع وهو قول ابن عباس قال علي بن أبي طالب: ما بعث الله نبياً آدم فمن بعده إلا أخذ عليه العهد في أمر محمد ﷺ وأخذ هو العهد على قومه ليؤمنن به ولئن بعث وهم أحياء لينصرنه وقيل إن المراد من الآية أن الأنبياء كانوا يأخذون العهد والميثاق على أممهم بأنه إذا بعث محمداً ﷺ أن يؤمنوا به وينصروه وهذا قول كثير من المفسرين وقوله ﴿لما آتيتكم من كتاب وحكمة﴾ قرىء بفتح اللام من لما وبكسرها مع التخفيف في القراءتين فمن قرأ بفتح اللام قال: معنى الآية وإذ أخذ الله ميثاق النبيين من أجل الذي آتاهم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول يعني ذكر محمد ﷺ في التوراة لتؤمنن به للذي عندكم في التوراة من ذكره ومن قرأ بكسر اللام جعل قوله لتؤمنن به من أخذ الميثاق كما يقال أخذت ميثاقك لتفعلن لأن أخذ الميثاق بمنزلة الاستحلاف فكان معنى الآية وإذ استحلف الله النبيين للذي أتاهم من كتاب وحكمة متى جاءهم رسول مصدق لما معهم ليؤمنن به ولينصرنه وقوله ﴿ثم جاءكم رسول﴾ يعني محمداً ﷺ ﴿مصدق لما معكم﴾ وذلك أن الله وصفه في كتب الأنبياء المتقدمة وشرح فيها أحواله فإذا جاءت صفاته وأحواله مطابقة في كتبهم المنزلة فقد صار مصدقاً لها فيجب الإيمان به والانقياد لقوله ولام قوله ﴿لتؤمنن به﴾ لام القسم تقديره والله لتؤمنن به ﴿ولتنصرنه﴾ قال البغوي: قال الله عز وجل للأنبياء حين استخرج الذرية من صلب آدم والأنبياء فيهم كالمصابيح أخذ عليهم الميثاق في أمر محمد ﷺ ﴿أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصري﴾ الآية. وقال الإمام فخرالدين الرازي: يحتمل أن يكون هذا الميثاق ما قرر في عقولهم من الدلائل الدالة على أن الانقياد من الله واجب، فإذا جاء رسول وظهرت المعجزات الدالة على صدقه، فإذا أخبرهم بعد ذلك أن الله أمر الخلق بالإيمان به عرفوا عند ذلك وجوبه بتقرير هذا الدليل في عقولهم فهذا هو المراد من الميثاق ﴿قال أأقررتم﴾ يعني قال الله تعالى: أأقررتم فإن فسرنا أن أخذ الميثاق كان من النبيين؛ كان معناه قال الله تعالى للنبيين: أأقررتم بالإيمان به والنصر له وإن فسرنا بأن أخذ الميثاق كان على الأمم كان معناه قال كل نبي لأمته أأقررتم وذلك لأنه تعالى أضاف أخذ الميثاق إلى نفسه وإن كان النبييون أخذوه على الأمم فلذلك طلب هذا الإقرار وأضافه إلى نفسه وإن وقع من الأنبياء والمقصود أن الأنبياء بالغوا في إثبات هذا الميثاق وتأكيده على الأمم وطالبوهم بالقبول وأكدوا ذلك بالإشهاد ﴿وأخذتم على ذلكم إصري﴾ أي عهدي والإصر العهد الثقيل وقيل سمي العهد إصراً لأنه مما يؤصر أي

يُبلّغوا كتاب الله ورسالته إلى عباده، وأن يُصدّق بعضهم بعضاً وأخذ العهود على كل نبي أن يُؤمن بمَن يأتي بعده من الأنبياء، وينصره إن أدركه، فإن لم يدركه أن يأمر قومَه بنصرته إن أدركه، فأخذ الميثاق من موسى أن يؤمن بعيسى، ومن عيسى أن يؤمن بمحمد ﷺ، وقال الآخرون: بما أخذ الله الميثاق منهم في أمر محمد ﷺ، فعلى هذا اختلفوا فمنهم مَن قال: إنما أخذ الميثاق على أهل الكتاب الذين أرسل منهم النبيّين، وهذا قول مجاهد والربيع، ألا ترى إلى قوله: ﴿ثم جاءكم رسولٌ مصدّق لما معكم لتُؤمننّ به ولتنصرنّه﴾، وإنما كان محمد ﷺ مبعوثاً إلى أهل الكتاب دون النبيّين يدلّ عليه أن في قراءة عبد الله بن مسعود وأُبيّ بن كعب ﴿وإذْ أخذ الله ميثاق الذين أُوتوا الكتاب﴾ [آل عمران: ١٨٧]، وإنّما القراءة المعروفة ﴿وإذْ أخذ الله ميثاق النبيين﴾ فأراد: أن الله أخذ ميثاق النبيّين أن يأخذوا الميثاق إلى أُممهم أن يُؤمنوا بمحمد ﷺ ويُصدّقوه وينصروه، إن أدركوه، وقال بعضهم: أراد أخذ الله الميثاق على النبيّين، وأممهم جميعاً في أمر محمد ﷺ، فاكتفى بذكر الأنبياء لأن العهد على المتبوع عهد على الأتباع، وهذا معنى قول ابن عباس، وقال عليّ بن أبي طالب: لم يبعث الله نبيّاً آدمَ فمن بعده إلاّ أخذ عليه الميثاق والعهد في أمر محمد، وأخذ العهد على قومه ليؤمننّ به، ولئن بُعث وهم أحياء لينصرنّه، قوله: ﴿ثم جاءَكم رسولٌ مصدقٌ لِمَا معكم﴾، يعني: محمداً ﷺ، ﴿لَتُؤْمِنُنّ به ولَتَنْصُرنّه قال﴾، يقول الله تعالى للأنبياء حين استخرج

يشد ويعقد. ﴿قالوا أقررنا﴾ أي قال النبيون: أقررنا بما ألزمتنا من الإيمان برسلك الذين ترسلهم مصدقين لما معنا من كتبك ﴿قال فاشهدوا﴾ يعني قال الله عز وجل للنبيين: فاشهدوا يعني أنتم على أنفسكم وقيل: على أممكم وأتباعكم الذين أخذتم عليهم الميثاق وقيل: قال الله للملائكة فاشهدوا فهو كناية عن غير مذكور، وقيل: معناه فاعلموا وبينوا لأن أصل الشهادة العلم والبيان ﴿وأنا معكم من الشاهدين﴾ يعني قال الله يا معشر الأنبياء وأنا معكم من الشاهدين عليكم وعلى أتباعكم أو قال للملائكة وأنا معكم من الشاهدين عليهم.

فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾ أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾

﴿فمن تولى﴾ أي أعرض عن الإيمان بمحمد ﷺ ونصرته ﴿بعد ذلك﴾ الإقرار ﴿فأولئك هم الفاسقون﴾ أي الخارجون عن الإيمان والطاعة. قوله عز وجل: ﴿أفغير دين الله يبغون﴾ وذلك أن أهل الكتاب اختلفوا فادعى كل فريق منهم أنه على دين إبراهيم عليه السلام فاختصموا إلى النبي ﷺ فقال لهم رسول الله ﷺ: كلا الفريقين بريء من دين إبراهيم فغضبوا وقالوا: لا نرضى بقضائك ولا نأخذ بدينك فأنزل الله أفغير دين الله؛ الهمزة للاستفهام والمراد منه الإنكار والتوبيخ يعني أفبعد أخذ الميثاق عليهم ووضوح الدلائل لهم أن دين إبراهيم هو دين الله الإسلام. تبغون قرىء بالتاء على خطاب الحاضر أي أفغير دين الله تطلبون يا معشر اليهود والنصارى وقرى بالياء على الغيبة رداً على قوله فمن تولى بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون ﴿وله أسلم﴾ أي خضع وانقاد ﴿من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً﴾ الطوع الانقياد والاتباع بسهولة والكره ما كان من ذلك بمشقة وإباء من النفس. واختلفوا في معنى قوله طوعاً وكرهاً فقيل: أسلم أهل السموات طوعاً وأسلم بعض أهل الأرض طوعاً وبعضهم

الذريّة من صلب آدم عليه السلام والأنبياء فيهم كالمصابيح والسُّرج، وأخذ عليهم الميثاق في أمر محمد ﷺ، ﴿ أأقررْتُم وأخذتُم على ذلكم إصري ﴾، أي: قبلتم على ذلكم عهدي، والإصر: العهد الثقيل، ﴿ قالوا أقررنا قال ﴾، الله تعالى: ﴿ فاشهدوا ﴾ أي: فاشهدوا أنتم على أنفسكم وعلى أتباعكم، ﴿ وأنا معكم من الشاهدين ﴾، عليكم وعليهم، وقال ابن عباس: فاشهدوا، أي: فاعلموا، وقال سعيد بن المسيب: قال الله تعالى للملائكة فاشهدوا عليهم كنايةً عن غير مذكور.

﴿ فمَنْ تولّى بعد ذلك ﴾، الإقرار، ﴿ فأولئك هم الفاسقون ﴾، العاصون الخارجون عن الإيمان.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ أفغيرَ دِيْنِ اللّهِ يَبْغُون ﴾، وذلك أنّ أهل الكتاب اختلفوا فادّعى كل واحد أنه على دين إبراهيم عليه السلام واختصموا إلى رسول الله ﷺ فقال النبيّ ﷺ: «كِلاَ الفريقين بريء من دين إبراهيم عليه السلام»، فغضبوا وقالوا: لا نرضى بقضائك ولا نأخذ بدينك، فأنزل الله تعالى: ﴿ أفغير دينِ الله يبغون ﴾، قرأ أهل البصرة وحفص عن عاصم ﴿ يبغون ﴾ بالياء لقوله تعالى: ﴿ وأولئك هم الفاسقون ﴾، وقرأ الآخرون بالتاء لقوله تعالى: ﴿ لما آتيتكم ﴾، ﴿ وله أسلم ﴾، خضع وانقاد، ﴿ مَنْ في السمواتِ والأرض طَوْعاً وكَرْهاً ﴾، فالطوع: الانقياد والاتباع بسهولة، والكره: ما كان بمشقّة وإباءٍ من النفس، واختلفوا في قوله﴿ طوعاً وكرهاً ﴾ قال الحسن: أسلم أهل السموات طوعاً وأسلم مَن في الأرض بعضهم طوعاً وبعضهم كرهاً خوفاً من السيف والسبي، وقال مجاهد: طوعاً المؤمن، وكرهاً ذلك الكافر، بدليل: ﴿ ولله يسجدُ مَنْ في السموات والأرض طوعاً وكرهاً وظلالهم بالغدو والآصال ﴾ [الرعد: ١٥]، وقيل: هذا يوم الميثاق حين قال لهم: ﴿ ألست بربكم قالوا بلى ﴾

كرهاً من خوف القتل والسبي، وقيل: أسلم المؤمن طوعاً وانقاد الكافر كرهاً، وقيل هذا في يوم أخذ الميثاق حين قال: ألست بربكم؟ قالوا: بلى فمن سبقت له السعادة قال ذلك طوعاً، ومن سبقت له الشقاوة قال ذلك كرهاً. وقيل: أسلم المؤمن طوعاً فنفعه إسلامه يوم القيامة والكافر يسلم كرهاً عند الموت في وقت اليأس فلم ينفعه ذلك في القيامة وقيل إنه لا سبيل لأحد من الخلق إلى الامتناع على الله في مراده فأما المسلم فينقاد لله فيما أمره أو نهاه عنه طوعاً وأما الكافر فينقاد لله كرهاً في جميع ما يقتضي عليه ولا يمكنه دفع قضائه وقدره عنه ﴿وإليه ترجعون﴾ قرىء بالتاء والياء والمعنى أن مرجع الخلق كلهم إلى الله يوم القيامة ففيه وعيد عظيم لمن خالفه في الدنيا. قوله عز وجل: .

﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾﴾

﴿قل آمنا بالله﴾ لما ذكر الله عز وجل في الآية المتقدمة أخذ الميثاق على الأنبياء في تصديق الرسول الذي يأتي مصدقاً لما معهم بين في هذه الآية أن من صفة محمد ﷺ مصدقاً لما معهم فقال تعالى: قل آمنا بالله وإنما وحد الضمير في قوله قل وجمع في قوله آمنا بالله لأنه إنما خاطبه بلفظ الواحد ليدل هذا الكلام على أنه لا يبلغ هذا التكليف عن الله تعالى إلى الخلق إلا هو. ثم قال: آمنا بالله تنبيهاً على أنه حين قال هذا القول وافقه أصحابه فحسن الجمع في قوله آمنا، ومعنى الآية: قل يا محمد صدقنا بالله أنه ربنا وإلهنا لا إله غيره ولا رب سواه وإنما قدم الإيمان بالله على غيره لأنه الأصل ﴿**وما أنزل علينا**﴾ يعني وقل يا محمد وصدقنا أيضاً بما أنزل علينا من وحيه وتنزيله وإنما قدم ذكر القرآن لأنه أشرف الكتب وأنه لم يحرف ولم يبدل وغيره حرف وبدل ﴿**وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى**﴾ إنما خص هؤلاء الأنبياء بالذكر لأن أهل الكتاب يعترفون بوجودهم ولم يختلفوا في نبوتهم، والأسباط هم أولاد يعقوب الاثنا عشر وكانوا أنبياء ثم جمع جميع الأنبياء فقال ﴿**والنبيون**﴾ أي وما أوتي النبيون ﴿**من ربهم لا نفرق بين أحد منهم**﴾ وذلك أن أهل الكتاب

[الأعراف: ١٧٢]، فقال بعضهم: طوعاً وبعضهم: كرهاً، وقال: قتادة المؤمن مَن أسلم طوعاً فنفعه الإيمان، والكافر أسلم كرهاً في وقت اليأس فلم ينفعه الإسلام، قال الله تعالى: ﴿ فلم يكُ ينفعُهم إيمانُهم لمّا رأوا بأسَنا ﴾ [غافر: ٨٥]، وقال الشعبي: هو استعاذتهم به عند اضطرارهم، كما قال الله تعالى: ﴿ فإذا ركِبُوا في الفلك دعوا اللَّهَ مخلصين له الدِّين ﴾ [العنكبوت: ٦٥] وقال الكلبي: طوعاً الذي وُلد في الإسلام، وكرهاً الذين أُجبروا على الإسلام ممّن يُسبى منهم فيُجاء بهم في السلاسل، ﴿ وإليه يرجعون ﴾، قرأ بالياء حفص عن عاصم ويعقوب كما قرأ ﴿ يبغون ﴾ بالياء وقرأ الآخرون بالتاء فيهما إلاّ أبو عمرو فإنه قرأ ﴿ يبغون ﴾ بالياء و (ترجعون) بالتاء، قال: لأن الأولى خاصّ والثاني عامّ، لأن مرجع جميع الخلق إلى الله عزّ وجلّ.

قوله تعالى: ﴿ **قلْ آمنّا بالله وما أُنزل علينا وما أُنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط، وما أُوتي موسى وعيسى والنبيُّون مِن ربِّهم لا نُفرِّقُ بين أحدٍ منهم ونحن له مسلمون** ﴾، ذكر المِلَل والأديان واضطراب الناس فيها، ثم أمر رسول الله ﷺ أن يقول: آمنّا بالله الآية.

يؤمنون ببعض النبيين ويكفرون ببعض فأمر الله عز وجل نبيه محمداً ﷺ أن يخبر عن نفسه وعن أمته أنه يؤمن بجميع الأنبياء. فإن قلت: لم عدي أنزل في «هذه الآية بحرف الاستعلاء وفيما تقدم من مثلها في البقرة بحرف الانتهاء». قلت لوجود المعنيين جميعاً لأن الوحي ينزل من فوق وينتهي إلى الرسل فجاء تارة بأحد المعنيين وتارة بالمعنى الآخر ﴿ونحن له مسلمون﴾ أي موحدون مخلصون أنفسنا له لا نجعل له شريكاً في عبادتنا. قوله عز وجل: ﴿ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه﴾ يعني أن الدين المقبول عند الله هو دين الإسلام وأن كل دين سواه غير مقبول عنده لأن الدين الصحيح ما يأمر الله به ويرضى عن فاعله ويثيبه عليه ﴿وهو في الآخرة من الخاسرين﴾ يعني الذين وقعوا في الخسارة وهو حرمان الثواب وحصول العقاب وروى ابن جرير الطبري عن عكرمة: في قوله: ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه قالت اليهود فنحن مسلمون فقال الله عز وجل لنبيه محمد ﷺ قل لهم ولله على الناس حج البيت فلم يحجوا. قوله عز وجل: ﴿كيف يهدي الله قوماً كفروا بعد إيمانهم﴾ نزلت في اثني عشر رجلاً ارتدوا عن الإسلام وخرجوا من المدينة وأتوا مكة كفاراً منهم الحارث بن سويد الأنصاري وطعمة بن أبيرق وحجوج بن الأسلت. وقال ابن عباس: نزلت في اليهود والنصارى وذلك أن اليهود كانوا قبل مبعث النبي ﷺ يستفتحون به على الكفار ويقرون به ويقولون: قد أظل زمان نبي مبعوث فلما بعث محمد ﷺ كفروا به بغياً وحسداً ومعنى كيف يهدي الله كيف يرشد الله للصواب ويوفق للإيمان قوماً كفروا أي جحدوا نبوة محمد ﷺ بعد إيمانهم أي تصديقهم إياه وإقرارهم به وبما جاء به من عند ربه ﴿وشهدوا أن الرسول حق﴾ يعني وبعد أن أقروا وشهدوا أن محمداً رسول الله إلى خلقه وأنه حق وصدق ﴿وجاءهم البينات﴾ يعني الحجج والبراهين والمعجزات الدالة على صحة نبوته التي بمثلها ثبتت النبوة ﴿والله لا يهدي القوم الظالمين﴾ أي لايوفقهم إلى الحق والصواب لما سبق في علمه تعالى أنهم ظالمون وقيل لا يهديهم في الآخرة إلى الجنة والثواب. فإن قلت: كيف قال في أول الآية كيف يهدي الله قوماً كفروا وقال في آخرها والله لا يهدي القوم الظالمين وهذا تكرار؟ قلت: ليس فيه تكرار لأن قوله كيف يهدي الله قوماً كفروا إنما هو مختص بأولئك المرتدين عن الإسلام ثم إنه تعالى عمم ذلك الحكم في آخر الآية فقال: ﴿والله لا يهدي القوم الظالمين﴾ يعني جميع الكفار المرتدين عن الإسلام والكافر الأصلي وإنما سمي الكافر ظالماً لأنه وضع العبادة في غير موضعها.

أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمۡ أَنَّ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةَ ٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا لَّن تُقۡبَلَ تَوۡبَتُهُمۡ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴿٩٠﴾

﴿أولئك جزاؤهم﴾ يعني الذين كفروا بعد إيمانهم ﴿أن عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين خالدين

قوله: ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غيرَ الإسلام دِيناً فلنْ يُقبلَ منهُ ﴾، نزلت في اثني عشر رجلاً ارتدّوا عن الإسلام وخرجوا من المدينة وأتوا مكة كفّاراً، منهم الحارث بن سويد الأنصاري، فنزلت فيهم ﴿ وَمَنْ يبتغِ غيرَ الإسلام ديناً فلنْ يُقبلَ منه وهو في الآخرةِ من الخاسرين ﴾.

﴿ كيف يَهدي اللّهُ قوماً كفروا بعد إيمانهم ﴾، لفظة استفهام ومعناه جحد، أي: لا يهتدي الله، وقيل معناه: كيف يهديهم اللّهُ في الآخرة إلى الجنة والثواب ﴿ وشهدوا أن الرسولَ حقٌّ وجاءَهُم البيناتُ واللّهُ لا يهدي القومَ الظالمين ﴾.

﴿ أولئكَ جزاؤُهم أنّ عليهم لعنةَ اللّهِ والملائكةِ والناسِ أجمعين ﴾.

فيها﴾ أي في عذاب اللعنة وقد تقدم تفسير هذه الآية في سورة البقرة **﴿لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون﴾** أي لا يؤخرون عن وقت العذاب لا يؤخر عنهم من وقت إلى وقت ثم استثنى سبحانه وتعالى فقال: **﴿إلاّ الذين تابوا من بعد ذلك﴾** يعني من بعد ارتدادهم وكفرهم وذلك أن الحارث بن سويد الأنصاري لما لحق بالكفار ندم على ذلك فأرسل إلى قومه أن سلوا رسول الله ﷺ هل لي من توبة؟ ففعلوا ذلك فأنزل الله تعالى إلاّ الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا الله فبعث بها إليه أخوه الجلاس مع رجل من قومه، فأقبل إلى المدينة تائباً وقبل رسول الله ﷺ توبته وحسن إسلامه **﴿وأصلحوا﴾** أي وضموا إلى التوبة الأعمال الصالحة فبيَّن أن التوبة وحدها لا تكفي حتى يضاف إليها العمل الصالح. وقيل: معناه وأصلحوا باطنهم مع الحق بالمراقبات وظاهرهم مع الخلق بالعبادات والطاعات **﴿فإن الله غفور رحيم﴾** أي غفور لقبائحهم في الدنيا بالستر رحيم في الآخرة بالعفو وقيل: غفور بإزالة العذاب رحيم بإعطاء الثواب. قوله عز وجل: **﴿إن الذين كفروا بعد إيمانهم ثم ازدادوا كفراً لن تقبل توبتهم﴾** نزلت في اليهود وذلك أنهم كفروا بعيسى والإنجيل بعد إيمانهم بموسى وغيره من أنبيائهم ثم ازدادوا كفراً يعني كفرهم بمحمد ﷺ والقرآن، وقيل نزلت في اليهود والنصارى وذلك أنهم كفروا بمحمد ﷺ لما رأوه بعد إيمانهم به قبل مبعثه لما ثبت عندهم من نعته وصفته في كتبهم ثم ازدادوا كفواً يعني ذنوباً في حال كفرهم. وقيل نزلت في جميع الكفار وذلك أنهم أشركوا بالله بعد إقرارهم بأن الله خالقهم ثم ازدادوا كفراً يعني بإقامتهم على كفرهم حتى هلكوا عليه، وقيل زيادة كفرهم هو قولهم نتربص بمحمد ريب المنون وقيل نزلت في أحد عشر رجلاً من أصحاب الحارث بن سويد الذين ارتدوا عن الإسلام فلما رجع الحارث إلى الإسلام أقاموا على كفرهم بمكة وقالوا: نقيم على الكفر ما بدا لنا ومتى أردنا الرجعة ينزل فينا مثل ما نزل في الحارث فلما فتح رسول الله ﷺ مكة فمن دخل منهم في الإسلام قبلت توبته ونزل فيمن مات منهم على كفره: **﴿إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار﴾** الآية. فإن قلت قد وعد الله قبول التوبة ممن تاب فما يعني قوله لن تقبل توبتهم؟ قلت اختلف المفسرون في معنى قوله: لن تقبل توبتهم فقال الحسن وعطاء وقتادة والسدي: لن تقبل توبتهم حين يحضرهم الموت وهو وقت الحشرجة لأن الله تعالى قال: ﴿وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن﴾ فإن الذي يموت على الكفر لا تقبل توبته كأنه قال إن اليهود أو الكفار أو المرتدين الذين فعلوا ما فعلوا ثم ماتوا على ذلك لن تقبل توبتهم وقال ابن عباس: إنهم الذين ارتدوا وعزموا على إظهار التوبة لستر أحوالهم والكفر في ضمائرهم وقال

﴿ خالدين فيها لا يُخفَّفُ عنهمُ العذابُ ولا هم يُنْظَرُون ﴾، وذلك أن الحارث بن سويد لمّا لحق بالكفّار ندم فأرسل إلى قومه أن سلوا رسولَ الله ﷺ هل لي من توبة ففعلوا ذلك، فأنزل الله تعالى:

﴿ إلاّ الذينَ تابُوا مِنْ بعدِ ذَلِكَ وأصلَحُوا فإنَّ اللَّهَ غَفورٌ رحيم ﴾، لِما كان منه، فحملها إليه رجل من قومه وقرأها عليه فقال الحارث: إنك والله فيما علمت لصدوق وأن رسول الله ﷺ لأصدق منك وإن الله عزّ وجلّ لأصدق الثلاثة، فرجع الحارث إلى المدينة وأسلم وحَسُنَ إسلامه.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ إن الذين كفروا بعد إيمانهم ثم ازدادُوا كفراً ﴾ قال قتادة والحسن: نزلت في اليهود كفروا بعيسى عليه السلام والإنجيل بعد إيمانهم بأنبيائهم ثم ازدادوا كفراً بمحمد ﷺ والقرآن، وقال أبو العالية: نزلت في اليهود والنصارى كفروا بمحمد ﷺ لمّا رأوه بعد إيمانهم بنعته وصفته في كتبهم، ثم ازدادُوا كفراً، يعني: ذنوباً في حال كفرهم، قال مجاهد: نزلت في جميع الكفّار أشركوا بعد إقرارهم بأن الله خالقهم، ثم ازدادُوا كفراً أي: أقاموا على كفرهم حتى هلكوا عليه، قال الحسن: ثم ازدادُوا كفراً كلما نزلت آية كفروا بها، فازدادُوا كفراً وقيل: ثم ازدادُوا كفراً بقولهم: نتربص بمحمد ريبَ المنون، قال الكلبي: نزلت في أحد عشر من أصحاب الحارث بن

أبو العالية: هم قوم تابوا من ذنوب عملوها في حال للشرك ولم يتوبوا من الشرك فإن توبتهم في حال الشرك، غير مقبولة. وقال مجاهد: لن تقبل توبتهم إذا ماتوا على الكفر وقال ابن جرير الطبري: معنى لن تقبل توبتهم أي مما ازدادوا من الكفر على كفرهم بعد إيمانهم لا من كفرهم لأن الله تعالى لما وعد أن يقبل التوبة عن عباده وأنه قابل توبة كل تائب من كل ذنب لقوله تعالى: ﴿إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم﴾ علم أن المعنى الذي لا تقبل التوبة منه غير المعنى الذي تقبل التوبة منه فعلى هذا فالذي لا تقبل التوبة منه هو الازدياد على الكفر بعد الكفر لا يقبل الله منه توبة ما أقام على كفره لأن الله تعالى لا يقبل عمل مشرك ما أقام على شركه، فإذا تاب من شركه وكفره وأصلح فإن الله كما وصف نفسه غفور رحيم. وقوله تعالى: ﴿وأولئك هم الضالون﴾ يعني هؤلاء الذين كفروا بعد إيمانهم ثم ازدادوا كفراً وهم الذين ضلوا عن سبيل الحق وأخطؤوا منهاجه. قوله عزّ وجلّ: .

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٩١﴾ لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾﴾

﴿إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار﴾ قال ابن عباس: لما فتح رسول الله ﷺ مكة دخل من كان من أصحاب الحارث بن سويد حياً في الإسلام فنزلت هذه الآية فيمن مات منهم على الكفر، وقيل نزلت فيمن مات كافراً من جميع أصناف اليهود والنصارى وعبدة الأصنام، فالآية عامة في جميع من مات على الكفر ﴿فلن يقبل أحدهم ملء الأرض ذهباً﴾ أي قدر ما يملأ الأرض من شرقها إلى غربها ﴿ولو افتدى به﴾ قيل معناه لو افتدى به والواو زائدة مقحمة وقيل الواو على حالها وفائدتها أنها للعطف والتقدير لو تقرب إلى الله بملء الأرض ذهباً وقد مات على كفره لم ينفعه ذلك وكذا لو افتدى من العذاب بملء الأرض ذهباً لن يقبل منه، وهذا آكد في التغليظ لأنه تصريح بنفي القبول من جميع الوجوه. فإن قلت الكافر لا يملك شيئاً في الآخرة فما وجه قوله فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهباً؟ قلت: الكلام ورد على سبيل الفرض والتقدير والمعنى لو أن للكافر قدر ملء الأرض ذهباً يوم القيامة لبذله في تخليص نفسه من العذاب ولكن لا يقدر على شيء من ذلك وقيل معناه لو أن الكافر أنفق في الدنيا

سويد، لمّا رجع الحارث إلى الإسلام أقاموا هم على الكفر بمكة وقالوا نقيم على الكفر ما بدَا لنَا فمتى أردنا الرجعة نزل فينا ما نزل في الحارث، فلما افتتح رسول الله ﷺ مكة فمَن دخل منهم في الإسلام قُبلت توبتُه، ونزل فيمَن مات منهم كافراً ﴿ إنَّ الذين كفروا وماتوا وهم كفّار ﴾ [البقرة: ١٦١، آل عمران: ٩١] الآية، فإن قيل: قد وعد الله قبول توبة مَن تاب، فما معنى قوله: ﴿ لن تُقبل توبتُهم وأولئك هم الضالّون ﴾، قيل: لن تُقبل توبتُهم إذا رجعوا في حال المعاينة، كما قال: ﴿ وليستِ التوبةُ للذين يعملون السيئات حتى إذا حضرَ أحدَهم الموتُ قال إنّي تُبتُ الآن ﴾ [النساء: ١٨]، وقيل: هذا في أصحاب الحارث بن سويد حيث أعرضوا عن الإسلام، وقالوا نتربص بمحمد ريبَ المنون، فإن ساعده الزمان نرجع إلى دينه، لن تُقبل توبتُهم، لن يقبل ذلك لأنهم متربصون غير محققين، وأولئك هم الضالّون.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ إنّ الذين كفرُوا وماتُوا وهم كفارٌ فلن يُقبل من أحدهم ملءُ الأرض ﴾، أي: قدرَ ما يملأ الأرض من شرقها إلى غربها، ﴿ ذهباً ﴾، نصب على التفسير، كقولهم: عشرون درهماً. ﴿ وَلَوِ افْتَدَى به ﴾، قيل: معناه لو افتدى به، والواو زائدة مقحمة، ﴿ أولئك لهم عذابٌ أليمٌ وما لهم منْ ناصرين ﴾. أخبرنا

ملء الأرض ذهباً ثم مات على كفره لم ينفعه ذلك لأن الطاعة مع الكفر غير مقبولة ﴿أولئك﴾ إشارة إلى من مات على الكفر ﴿لهم عذاب أليم وما لهم من ناصرين﴾ يعني مانعين يمنعونهم من العذاب (ق) عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال يقول الله عز وجل لأهون أهل النار عذاباً يوم القيامة لو أن لك ما في الأرض من شيء أكنت تفتدي به؟ فيقول: نعم فيقول أردت منك أهون من هذا وأنت في صلب آدم أن لا تشرك بي شيئاً فأبيت إلا الشرك لفظ مسلم. قوله عز وجل: ﴿لن تنالوا البر﴾ قال ابن عباس: يعني الجنة، وقيل: البر هو التقوى، وقيل هو الطاعة وقيل معناه لن تنالوا حقيقة البر ولن تكونوا أبرار حتى تنفقوا مما تحبون وقيل معناه لن تنالوا بر الله وهو ثوابه وأصل البر التوسع في فعل الخير يقال بر العبد ربه أي توسع في طاعته فالبر من الله الثواب ومن العبد الطاعة وقد يستعمل في الصدق وحسن الخلق لأنهما من الخير المتوسع فيه (ق) عن عبدالله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الصدق يهدي إلى البر وإن البر يهدي إلى الجنة وأن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقاً، وإن الكذب يهدي إلى الفجور وإن الفجور يهدي إلى النار وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذاباً».

(م) عن النواس بن سمعان قال: سألت رسول الله ﷺ عن البر والإثم فقال: البر حسن الخلق والإثم ما حاك في صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس منك فعلى هذا يكون المعنى عليكم بالأعمال الصالحة حتى تكونوا أبراراً وتدخلوا في زمرة الأبرار ومن قال إن لفظ البر هو الجنة فقال معنى الآية لن تنالوا ثواب البر المؤدي إلى الجنة ﴿حتى تنفقوا مما تحبون﴾ يعني من جيد أموالكم أنفسها عندكم قال الله تعالى: ﴿ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون﴾ وقيل هو أن تنفق من مالك ما أنت محتاج إليه قال الله تعالى: ﴿ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة﴾ (ق) عن أبي هريرة قال: أتى رسول الله ﷺ رجل فقال: يا رسول الله أي الصدقة أفضل؟ قال: إن تصدق وأنت صحيح شحيح تخشى الفقر وتأمل الغنى، ولا تهمل حتى إذا بلغت الحلقوم قلت لفلان كذا ولفلان كذا إلاّ وقد كان، واختلفوا في هذا الإنفاق قال ابن عباس: هو الزكاة المفروضة والمعنى لن تنالوا حتى تخرجوا زكاة أموالكم فعلى هذا القول قيل إن الآية منسوخة بآية الزكاة وفيه بعداً لأنه ترغيب في إخراج الزكاة وقال ابن عمر: المراد بها سائر الصدقات وقال الحسن: كل شيء أنفقه المسلم من مالك مما يبتغي به وجه الله ويطلب ثوابه حتى التمرة فإنه يدخل في قوله: لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون (ق) عن أنس بن مالك قال: كان أبو طلحة أكثر الأنصار بالمدينة مالاً وكان أحب أمواله إليه بيرحا وكانت مستقبلة المسجد وكان رسول الله ﷺ يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب

عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا محمد بن بشار أخبرنا شعبة عن أبي عمران قال: سمعتُ أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال: «يقول الله لأهونِ أهلِ النار عذاباً يوم القيامة: أرأيتَ لو أنّ لكَ ما في الأرض جميعاً من شيء أكنتَ تفدي به؟ فيقول: نعم، فيقول: أردتُ منك أهونَ من ذلك وأنت صلب آدم أن لا تشرك بي شيئاً فأبيت إلاّ أن تشرك بي».

قوله تعالى: ﴿ لَنْ تَنالُوا البِرَّ ﴾ يعني: الجنة، قاله ابن عباس وابن مسعود ومجاهد، وقال مقاتل بن حيّان: التقوى، وقيل: الطاعة، وقيل: الخير، وقال الحسن: لن تكونوا أبراراً، أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا أبو بكر أحمد بن الحسن الحيري، أنا حاجب بن أحمد الطوسي أخبرنا محمد بن حماد الصالحي قال: أخبرنا أبو معاوية عن الأعمش عن شقيق عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «عليكم بالصدقِ، فإنّ الصدق يهدي إلى البِرِّ، وإنّ البرَّ يهدي إلى الجنة، وما يزالُ الرجلُ يصدقُ ويتحرّى الصدقَ حتى يُكتبَ عندَ اللّهِ صديقاً، وإياكم والكذبَ فإنّ الكذبَ يهدي إلى الفجورِ، والفجورُ يهدي إلى النار، وما يزالُ الرجلُ يكذبُ ويتحرّى الكذبَ حتى يُكتبَ عند الله كذاباً». قوله تعالى: ﴿ حتى تنفقوا مما تُحبّون ﴾ أي: من أحبِّ أموالِكم إليكم، روى الضحاك عن ابن عباس: أن المراد منه أداء الزكاة، وقال مجاهد والكلبي: هذه الآية نسختها آية الزكاة، وقال الحسن: كل إنفاق يبتغي به

قال أنس: فلما نزلت هذه الآية ﴿لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون﴾ قام أبو طلحة إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إن الله تعالى يقول في كتابة ﴿لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون﴾ وإن أحب أموالي إلي بيرحا وإنها صدقة لله عز وجل أرجو برها وذخرها عند الله فضعها يا رسول الله حيث شئت فقال رسول الله ﷺ: «بخ بخ ذلك مال رابح» أو قال ذلك مال رابح أرى أن تجعلها في الأقربين فقال أبو طلحة: افعل يا رسول الله فقسمها أبو طلحة في أقاربه وبني عمه قوله بخ بخ هي كلمة تقال عند المدح والرضا وتكريرها للمبالغة وهي مبنية على السكون فإذا وصلت جرب ونونت فقلت: بخ بخ قوله: مال رابح أي ذو ربح وفي الرواية الأخرى ذلك مال رايح بالياء معناه يروح عليك نفعه وثوابه وبيرحا اسم موضع بالمدينة وهو حائط كان لأبي طلحة. وروي عن مجاهد قال: كتب عمر بن الخطاب إلى أبي موسى الأشعري أن يبتاع له جارية من سبي جلولاء يوم فتحت فلما جاءت أعجبته فقال عمر إن الله عزّ وجلّ يقول لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون فأعتقها عمر وعن حمزة بن عبدالله بن عمر أن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما خطرت على قلبه هذه الآية: ﴿لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون﴾ قال عبدالله فذكرت ما أعطاني الله تعالى فما كان شيء أحب إليّ من فلانة فقلت هي حرة لوجه الله تعالى قال ولولا أني لا أعود في شيء جعلته لله لنكحتها وعن عمرو بن دينار قال لما نزلت هذه الآية لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون جاء زيد بن حارثة بفرس يقال لها سيل كان يحبها إلى رسول الله ﷺ فقال: تصدق بهذه يا رسول الله فأعطاها رسول الله ﷺ أسامة بن زيد بن حارثة فقال يا رسول الله إنما أردت أن أتصدق بها فقال رسول الله ﷺ: قد قبلت صدقتك وفي رواية كأن زيداً أوجد في نفسه فلما رأى ذلك منه النبي ﷺ قال: أما إن الله قد قبلها وروى أن أبا ذر نزل به ضيف فقال للراعي: ائتني بخير إبلي فجاء بناقة مهزولة فقال للراعي خنتني فقال الراعي وجدت خير الإبل فحلها فذكرت يوماً حاجتكم إليه فقال: إن يوم حاجتي إليه ليوم أوضع في حفرتي وقوله تعالى: ﴿وما تنفقوا من شيء﴾ يعني من أي شيء كان من طيب تحبونه أو من خبيث تكرهونه ﴿فإن الله به عليم﴾ أي يعلمه ويجازيكم به.

قوله عز وجل: .

المسلمُ وجهَ الله حتى الثمرة ينال به هذا البرَّ، وقال عطاء: لن تنالوا البرَّ أي: شرفَ الدين والتقوى حتى تتصدقُوا وأنتم أصحّاء أشحّاء، أخبرنا أبو الحسن السرخسي أنا زاهر بن أحمد أنا أبو إسحق الهاشمي، أنا أبو مصعب عن مالك عن إسحق بن عبد الله بن أبي طلحة أنه سمع أنس بن مالك يقول: (كان أبو طلحة الأنصاري أكثر الأنصار بالمدينة مالاً وكان أحبَّ ماله إليه بيرحا، وكانت مستقبلة المسجد، وكان رسول الله ﷺ يدخلها ويشرب من ماءٍ فيها طيب، قال أنس: فلما نزلت هذه الآية ﴿ لن تنالوا البرَّ حتى تُنفقوا ممّا تُحبّون ﴾ قام أبو طلحة إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إن الله تعالى يقول في كتابه: ﴿ لن تنالوا البرِّ حتى تُنفقوا ممّا تُحبّون ﴾ وإنّ أحبَّ أموالي إليَّ بيرحا، وإنها صدقة لله أرجو بِرَّها وذُخرَها عند الله، فضعها يا رسول الله حيث شئت، فقال رسول الله ﷺ: «بخٍ بخٍ ذلك مالٌ رابح». أو قال: «ذلك مال رابح وقد سمعتُ ما قلتَ فيها، وإني أرى أن تجعلها في الأقربين»، فقال أبو طلحة أفعلُ يا رسول الله فقسّمها أبو طلحة في أقاربه وبني عمّــه. ورُوِيَ عن مجاهد قال: كتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى أبي موسى الأشعري أن يبتاع له جارية من سبي جلولاء يوم فُتحتْ فدعا بها فأعجبته، فقال عمر: إن الله عزّ وجلّ يقول: ﴿ لن تنالوا البرّ حتى تنفقوا ممّا تُحبّون ﴾ فأعتقها عمر. وعن حمزة بن عبد الله بن عمر قال: خطرتْ على قلب عبد الله بن عمر هذه الآية ﴿ لنْ تنالوا البرَّ حتى تُنفقوا ممّا تُحبّون ﴾ قال ابن عمر: فذكرتُ ما أعطاني الله عزّ وجلّ، فما كان شيء أعجب إليّ من فلانة، هي حرّةٌ لوجه الله تعالى، قال: ولولا أنني لا أعود في شيء جعلته لله لنكحتها، ﴿ وما تُنفقوا من شيء فإنّ اللَّهَ به عليم ﴾، أي: يعلمه ويجازي به.

﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ التَّوْرَىٰةُ ۗ قُلْ فَأْتُوا۟ بِالتَّوْرَىٰةِ فَاتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾﴾

﴿كل الطعام كان حلاً لبني إسرائيل إلاّ ما حرم الله على نفسه من قبل أن تنزل التوراة﴾ سبب نزول هذه الآية أن اليهود قالوا للنبي ﷺ: إنك تزعم أنك على ملة إبراهيم وكان إبراهيم لا يأكل لحوم الإبل وألبانها وأنت تأكل ذلك كله فلست على ملته فقال النبي ﷺ: كان ذلك حلالاً لإبراهيم قالوا كل ما نحرمه اليوم كان ذلك حراماً على نوح وإبراهيم حتى انتهى إلينا فأنزل الله عز وجل كل الطعام كان حلاً لبني إسرائيل إلاّ ما حرم إسرائيل على نفسه وهو يعقوب من قبل أن ينزل التوراة يعني ليس الأمر على ما تدعيه اليهود من تحريم لحوم الإبل على إبراهيم بل كان ذلك حلالاً على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب، وإنما حرمه يعقوب بسبب من الأسباب وبقيت تلك الحرمة في أولاده فأنكر اليهود ذلك فأمرهم رسول الله ﷺ بإحضار التوراة وطلب منهم أن يستخرجوا منها أن ذلك كان حراماً على إبراهيم، فعجزوا عن ذلك وافتضحوا وبأن كذبهم فيما ادعوا من حرمة هذه الأشياء على إبراهيم وقيل: إن اليهود أنكروا شرع محمد ﷺ وادعوا أن النسخ غير جائز، فأبطل الله ذلك عليهم وأخبر أن كل الطعام كان حلاً لبني إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل على نفسه فذلك الذي حرمه على نفسه كان حلالاً ثم صار حراماً عليه وعلى أولاده فقد حصل النسخ وبطل قول اليهود بأن النسخ غير جائز، فأنكرت اليهود ذلك وقالوا: بل كان ذلك حراماً من زمن آدم إلى هذا الوقت فألزمهم رسول الله ﷺ بإحضار التوراة وقال: إن التوراة ناطقة بأن بعض أنواع الطعام إنما حرم بسبب أن إسرائيل حرمه على نفسه فخاف اليهود من الفضيحة وامتنعوا من إحضار التوراة فحصل بذلك كذبهم وأنهم ينسبون إلى التوراة ما ليس فيها وبطل قولهم بأن النسخ غير جائز، وفي هذا دليل على صحة نبوة محمد ﷺ وذلك أنه ﷺ كان رجلاً أمياً لم يقرأ الكتب ولم يعرف ما في التوراة، فلما أخبر أن ذلك ليس في التوراة علم أن الذي أخبر به ﷺ وحي من الله تعالى وقوله تعالى: كل الطعام يعني كل أنواع الطعام أو سائر المطعومات كان حلاً أي حلالاً لبني إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل على نفسه إسرائيل هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام، واختلفوا في الذي حرم يعقوب على نفسه قيل حرم لحوم الإبل وألبانها وروى الطبري بسنده عن ابن عباس: أن عصابة من اليهود حضرت رسول الله ﷺ فقالوا: يا أبا القاسم أخبرنا أي الطعام حرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة فقال رسول الله ﷺ أنشدكم بالله الذي أنزل التوراة على موسى هل

قوله تعالى: ﴿كلُّ الطعامِ كان حِلاً لبني إسرائيل إلاّ ما حرَّمَ إسرائيلُ على نفسهِ مِنْ قَبلِ أن تُنزَّلَ التوراةُ﴾ سبب نزول هذه الآية: أن اليهود قالوا لرسول الله ﷺ: إنك تزعم أنك على مِلّة إبراهيم وكان إبراهيم لا يأكل لُحوم الإبل وألبانها وأنت تأكلها، فلستَ على مِلّته، فقال رسول الله ﷺ: «كان ذلك حلالاً لإبراهيم عليه السلام»، فقالوا: كلُّ ما نحرِّمُه اليومَ كان ذلك حراماً على نوح وإبراهيم حتى انتهى إلينا، فأنزل الله تعالى هذه الآية: ﴿كلُّ الطعام كان حِلاً لبني إسرائيل﴾، يريد: سِوَى الميتة والدم، فإنه لم يكن حلالاً قطّ، إلاّ ما حرّم إسرائيل على نفسه وهو يعقوب عليه السلام من قبل أن تنزل التوراة، يعني: ليس الأمر على ما قالوا من حرمة لحوم الإبل وألبانها على إبراهيم، بل كان الكلُّ حلالاً له ولبني إسرائيل، وإنما حرّمها إسرائيل على نفسه قبل نزول التوراة، يعني: ليست في التوراة حرمتُها، واختلفوا في الطعام الذي حرّمه يعقوب على نفسه وفي سببه، قال أبو العالية وعطاء ومقاتل والكلبي: كان ذلك الطعام لحمان: الإبل وألبانها، ورُوِيَ أن يعقوب مرض مرضاً شديداً فطال سُقْمُه فنذر لئن عافاه الله من سقمه ليُحرِمَنَّ أحبَّ الطعام والشراب إليه، وكان أحبَّ الطعام إليه لحم الإبل وأحبَّ الشراب إليه ألبانها،

تعلمون أن إسرائيل يعقوب مرض مرضاً شديداً فطال سقمه منه فنذر لله نذراً لئن عافاه الله من سقمه ليحرمنَّ أحب الطعام والشراب إليه، وكان أحب الطعام إليه لحم الإبل، وأحب الشراب إليه ألبانها؟ فقالوا: اللّهم نعم. وقال ابن عباس: هي العروق وكان سبب ذلك أنه اشتكى عرق النسا وكان أصل وجعه فيما روي عن الضحاك أن يعقوب كان نذر لئن وهب الله له اثني عشر ولداً وأتى بيت المقدس صحيحاً أن يذبح أحدهم. وفي رواية آخرهم فتلقاه ملك من الملائكة وقال: يا يعقوب إنك رجل قوي فهل لك في الصراع؟ فعالجه فلم يصرع أحدهما صاحبه فغمزه الملك غمزة فعرض له عرق النسا من ذلك ثم قال أما إني لو شئت أن أصرعك لفعلت ولكن غمزتك هذه الغمزة لأنك قد نذرت إن أتيت بيت المقدس صحيحاً ذبحت آخر ولدك، فجعل الله لك بهذه الغمزة من ذلك مخرجاً، فلما قدم يعقوب بيت المقدس أراد ذبح ولده ونسي ما قال له الملك فأتاه الملك وقال له: إنما غمزتك للمخرج وقد وفي نذرك فلا سبيل لك إلى ذبح ولدك. وقال ابن عباس في آخرين أقبل يعقوب من حران يريد بيت المقدس حين هرب من أخيه العيص، وكان يعقوب رجلاً بطشاً قوياً فلقيه ملك في صورة رجل فظن يعقوب أنه لص فعالجه أن يصرعه فغمز الملك فخذ يعقوب وصعد إلى السماء ويعقوب ينظر فهاج به عرق النسا ولقي منه شدة فكان لا ينام الليل من الوجع ويبيت وله رغاء أي صياح، فحلف يعقوب لئن شفاه الله أن لا يأكل عرقاً ولا طعاماً فيه عرق فحرمه على نفسه فكان بنوه بعد ذلك يتبعون العروق ويخرجونها من اللحم ولا يأكلونها، وقيل لما أصاب يعقوب ذلك وصف له الأطبار أن يجتنب لحوم الإبل فحرمها يعقوب على نفسه، وقيل إنما حرم يعقوب لحوم الجزور تعبداً لله تعالى وسأل ربه أن تنجز فحرمه الله على ولده وهو ظاهر الآية لأن الله تعالى قال: كل الطعام كان حلاً لبني إسرائيل، ثم استثنى ما حرم إسرائيل على نفسه فوجب بحكم الاستثناء أن يكون ذلك حراماً على بني إسرائيل أما قوله من قبل أن تنزل التوراة فمعناه أن قبل إنزال التوراة كان كل أنواع الطعام حلالاً لبني إسرائيل سوى ما حرمه

فحرّمهما، وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة والسدي والضحاك: هي العروق، وكان السبب في ذلك أنه اشتكى عرق النَّسا وكان أصل وجعه، فيما روى جُويبر عن الضحّاك: أن يعقوب كان نذر إن وهبه الله اثني عشر ولداً وأتى من بيت المقدس صحيحاً أن يذبح آخرهم، فتلقّاه ملَك من الملائكة، فقال: يا يعقوب إنك رجل قوي فهل لك في الصراع فصارعه فلم يصرعْ واحدٌ منهما صاحبَه، فغمزه الملَك غمزة فعرض له عرق النسا من ذلك، ثم قال له الملَك: أمَا أني لو شئت أن أصرعك لفعلت ولكن غمزتك هذه الغمزة لأنك كنت نذرت إن أتيت بيت المقدس صحيحاً ذبحت آخر ولدك، فجعل الله لك بهذه الغمزة من ذلك مخرجاً، فلما قَدِمَها يعقوب أراد ذبح ولده ونسي ما قاله له الملك، فأتاه الملَكُ وقال: إنما غمزتك للمخرج وقد وُفي نذرُك فلا سبيل لك إلى ولدك، وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة والسدي: أقبل يعقوب من حرّان يريد بيت المقدس حين هرب من أخيه عيصو، وكان رجلاً بطشاً قوياً فلقيه ملك فظن يعقوب أنه لص فعالجه أن يصرعه، فغمز الملك فخذ يعقوب، ثم صعد إلى السماء ويعقوب عليه السلام ينظر إليه، فهاج به عرق النسا ولقي من ذلك بلاءً وشدّةً، وكان لا ينام بالليل من الوجع، ويبيت وله زقاء، أي: صياح، فحلف يعقوب لئن شفاه الله أن لا يأكل عرقاً ولا طعاماً فيه عرق، فحرّمه على نفسه فكان بنوه بعد ذلك يتبعون العروق ويخرجونها من اللحم، وروى جُويبر عن الضحاك عن ابن عباس: لمّا أصاب يعقوب عرق النسا وصف له الأطباء أن يجتنب لحم الإبل فحرّمها يعقوب على نفسه، وقال الحسن: حرّم إسرائيل على نفسه لحم الجزور تعبّداً لله تعالى: فسأل ربَّه أن يُجيز له ذلك فحرّمها الله على ولده، ثم اختلفوا في هذا الطعام المحرّم على بني إسرائيل بعد نزول التوراة، فقال السدي: حرّم الله عليهم في التوراة ما كانوا يحرّمونه قبل نزولها، وقال عطية: إنما كان محرّماً عليهم بتحريم إسرائيل فإنه قد قال: إن عافاني الله لا آكله ولا يأكله ولدٌ لي ولم يكن محرّماً

إسرائيل على نفسه أما بعد نزول التوراة فقد حرم الله تعالى عليهم أشياء كثيرة من أنواع الطعام ثم اختلفوا في حال هذا الطعام المحرم على بني إسرائيل بعد نزول التوراة فقال السدي: حرم الله عليهم في التوراة ما كانوا حرموه على أنفسهم قبل نزولها وقال عطية: إنما كان حراماً عليهم بتحريم إسرائيل فإنه قال: إن عافاني الله تعالى لا يأكله ولد لي ولم يكن ذلك محرماً عليهم في التوراة وقال الكلبي: لم يحرمه الله في التوراة وإنما حرم عليهم بعد نزول التوراة لظلمهم كما قال تعالى: ﴿فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلّت لهم﴾ وقال تعالى: وعلى الذين هادوا حرمنا إلى أن قال ذلك جزيناهم ببغيهم ﴿وإنا لصادقون﴾ فكانت بنو إسرائيل إذا أصابوا ذنباً عظيماً حرم الله عليهم طعاماً طيباً أو صب عليهم رجزاً وهو الموت. وقال الضحاك: لم يكن شيء من ذلك حراماً عليهم ولا حرمه الله في التوراة، وإنما حرموه على أنفسهم اتباعاً لأبيهم ثم أضافوا تحريمه لله عز وجل فكذبهم الله تعالى فقال الله تعالى: ﴿قل فأتوا بالتوراة﴾ يعني قل لهم يا محمد فأتوا بالتوراة ﴿فاتلوها﴾ أي فاقرؤوها وما فيها حتى يتبين أن الأمر كما قلتم ﴿إن كنتم صادقين﴾ يعني فيما ادعيتم فلم يأتوا بها وخافوا الفضيحة فقال تعالى: .

﴿فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩٤﴾ قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ ۗ فَٱتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾﴾

﴿فمن افترى على الله الكذب﴾ الافتراء اختلاق الكذب والافتراء الكذب والقذف والإفساد وأصله من فري الأديم إذا قطعه لأن الكاذب يقطع القول من غير حقيقة له في الوجود ﴿من بعد ذلك﴾ أي من بعد ظهور الحجة بأن التحريم إنما كان من جهة يعقوب ولم يكن محرماً قبله ﴿فأولئك هم الظالمون﴾ أي هم المستحقون للعذاب لأن كفرهم ظلم منهم لأنفسهم ولمن أضلوه عن الدين من بعدهم وهذا رد على اليهود وتكذيب لهم حيث أرادوا براءة ساحتهم فيما بقي عليهم مما نطق به القرآن من تعديد مساويهم التي كانوا يرتكبونها ﴿قل صدق الله﴾ يعني قل صدق الله يا محمد فيما أخبر أن ذلك النوع من الطعام صار حراماً على إسرائيل وأولاده بعد أن كان حلالاً لهم فصح القول بالنسخ، وبطل قول اليهود وقيل معناه صدق الله في قوله أن لحوم الإبل وألبانها كانت محللة لإبراهيم عليه السلام، وإنما حرمت على بني إسرائيل بسبب تحريمها إسرائيل على نفسه وقيل صدق الله في أن سائر الأطعمة كانت محللة على بني إسرائيل وإنما حرمت على اليهود جزاء على قبائح أفعالهم ففيه تعريض بكذب اليهود والمعنى ثبت أن الله تعالى صادق فيما أنزل وأخبر وأنتم كاذبون يا معشر اليهود ﴿فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفاً﴾ أي اتبعوا ما يدعوكم إليه محمد ﷺ من ملة إبراهيم وهي الإسلام وهو الدين الصحيح وهو الذي عليه محمد ومن آمن معه وإنما دعاهم إلى ملة إبراهيم لأنها ملة محمد ﷺ ﴿وما كان من المشركين﴾ أي لم يدع مع الله إلّهاً آخر ولا عبداً سواه.

عليهم في التوراة، وقال الكلبي: لم يحرّمه الله عليهم في التوراة وإنما حُرّم عليهم بعد التوراة بظلمهم، كما قال الله تعالى: ﴿ فبظلمٍ مِنَ الذين هادُوا حرّمنا عليهم طيبات أُحِلّتْ لهم ﴾ [النساء: ١٦٠] وقال الله تعالى: ﴿ وعلى الذين هادُوا حرّمنا كلَّ ذي ظفر﴾ [الأنعام: ١٤٦]، إلى أن قال: ﴿ذلك جزيناهم ببغيهم وإنّا لصادقون﴾ [الأنعام: ١٤٦]، وكانت بنو إسرائيل إذا أصابوا ذنباً عظيماً حرّم الله عليهم طعاماً طيباً أو صبّ عليهم رِجْزاً وهو الموت، وقال الضحّاك: لم يكن شيء من ذلك حراماً عليهم ولا حرّمه الله في التوراة، وإنما حرّموه على أنفسهم اتّباعاً لأبيهم، ثم أضافوا تحريمه إلى الله، فكذّبهم الله عزّ وجلّ، فقال: ﴿ قلْ ﴾ يا محمد ﴿ فأتوا بالتوراة فاتلُوها ﴾، حتى يتبيّن لكم أنه كما قلتُ، ﴿ إن كنتم صادقين ﴾، فلم يأتوا، فقال الله عزّ وجلّ:

﴿ فمَنِ افترَى على اللّهِ الكذبَ مِنْ بعدِ ذلكَ فأولئكَ همُ الظالمون ﴾.

قوله عز وجل: ﴿**إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة**﴾ سبب نزول هذه الآية أن اليهود قالوا للمسلمين بيت المقدس قبلتنا وهو أفضل من الكعبة وأقدم وهو مهاجر الأنبياء وقبلتهم وأرض المحشر. وقال المسلمون: بل الكعبة أفضل فأنزل الله هذه الآية، وقيل لما ادعت اليهود والنصارى أنهم على ملة إبراهيم أكذبهم الله تعالى وأخبر أن إبراهيم كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين وأمرهم باتباعه فقال تعالى في الآية المتقدمة: ﴿**فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفاً**﴾ وكان من أعظم شعائر ملة إبراهيم الحج إلى الكعبة ذكر في هذه الآية فضيلة البيت ليفرع عليها إيجاب الحج وقوله: إن أول بيت وضع للناس الأول هو الفرد السابق المتقدم على ما سواه وقيل هو اسم للشيء الذي يوجد ابتداء سواء حصل عقبه شيء آخر، أو لم يحصل والمعنى أن أول بيت وضع للناس أي وضعه الله موضعاً للطاعات والعبادات وقبلة للصلاة وموضعاً للحج وللطواف تزداد فيه الخيرات وثواب الطاعات وكونه وضع للناس يعني يشترك فيه جميع الناس كما قال تعالى: ﴿**سواء العاكف فيه والباد**﴾. فإن قلت: كيف أضافه إلى نفسه مرة في قوله وطهر بيتي وأضافه للناس أخرى بقوله وضع للناس. قلت: أما إضافته إلى نفسه فعلى سبيل التشريف والتعظيم له كقوله ناقة الله، وأما إضافته إلى الناس فلأنه يشترك فيه جميع الناس لأنه موضع حجهم وقبلة صلاتهم للذي ببكة. قيل هي مكة نفسه والعرب تعاقب بين الباء والميم فيقولون ضربة لازب لازم وقيل بكة اسم لموضع البيت ومكة اسم للبلد وفي اشتقاق بكة وجهان: أحدهما: أنه من البك الذي هو عبارة عن الدفع يقال بكة يبكه إذا دفعه وزاحمه ولهذا قال سعيد بن جبير: سميت بكة لأن الناس يتباكون فيها أي يزدحمون في الطواف وهو قول محمد بن علي الباقر ومجاهد وقتادة. الوجه الثاني سميت بكة لأنها تبك أعناق الجبابرة أي تدقها ولم يقصدها جبار بسوء إلا قصمه الله تعالى وهذا قول عبدالله بن الزبير، وأما مكة فسميت بذلك لقلة مائها من قول العرب مك الفصيل ضرع أمه وامتكه إذا مص كل ما فيه من اللبن، وقيل لأنها تمك الذنوب أي تزيلها وسميت مكة أم رحم لأن الرحمة تنزل بها، والحاطمة لأنها تحطم من استخف بحرمتها، أو لأن الناس يحطم بعضهم بعضاً من الزحمة، وسميت أم القرى لأنها أصل كل بلدة ومن تحتها دحيت الأرض، واختلف العلماء في كون البيت أول بيت وضع للناس على قولين: أحدهما أنه أول في الوضع والبناء قال مجاهد: خلق الله هذا البيت قبل أن يخلق شيئاً من الأرضين وفي رواية عنه إن الله خلق موضع البيت قبل أن يخلق شيئاً من الأرض بألفي عام، وقيل هو أول بيت ظهر على وجه الماء عند خلق السموات والأرض خلقه قبل الأرض بألفي عام وكان زبدة بيضاء على وجه الماء فدحيت الأرض من تحته. وهذا قول ابن عمر ومجاهد وقتادة والسدي. وقيل هو أول بيت بني على الأرض. وروي عن علي بن الحسين بن علي رضي الله عنهم أن الله تعالى وضع تحت العرش بيتاً وهو البيت المعمور وأمر الملائكة أن يطوفوا به ثم أمر الملائكة الذين في الأرض أن يبنوا بيتاً في الأرض على مثاله وقدره فبنوا هذا البيت واسمه الضراح، وأمر من في الأرض أن يطوفوا به كما يطوف أهل السماء بالبيت المعمور وروي أن الملائكة بنوه قبل خلق آدم بألفي عام وكانوا يحجونه فلما حجه آدم قالت له الملائكة بر حجك يا آدم لقد حججنا هذا البيت قبلك بألفي عام وقال ابن عباس: هو أول بيت بناه آدم في الأرض قيل إن آدم لما أهبط إلى الأرض استوحش وشكا الوحشة فأمره الله تعالى ببناء الكعبة فبناها وطاف بها وبقي ذلك البناء إلى زمان نوح عليه السلام فلما كان الطوفان رفع الله البيت إلى السماء وبقي موضع البيت أكمة بيضاء إلى أن بعث الله إبراهيم عليه السلام فأمره ببنائه. القول

﴿ **قل صدق الله فاتَّبِعُوا مِلَّةَ إبراهيمَ حنيفاً وما كانَ مِنَ المشركين** ﴾، وإنما دعاهم إلى اتّباع ملّة إبراهيم لأن في اتّباع ملّة إبراهيم اتّباعه ﷺ.

قوله تعالى: ﴿ **إنّ أولَ بيتٍ وُضع لِلنّاسِ لَلّذِي بِبَكّةَ مباركاً** ﴾، سبب نزول هذه الآية أن اليهود قالوا

الثاني، أن المراد من الأولية كون هذا أول بيت وضع للناس مباركاً ويدل عليه سياق الآية وهو قوله تعالى: ﴿للذي ببكة مباركاً﴾ وروي أن رجلاً قام إلى علي بن أبي طالب فقال: ألا تخبرني عن البيت أهو أول بيت وضع في الأرض؟ قال: لا قد كان قبله بيوت ولكنه أول بيت وضع الناس مباركاً وهدى وفيه مقام إبراهيم ومن دخل كان آمناً وقال الحسن: وهو أول مسجد عبد الله فيه، وقال مطرف: هو أول بيت وضع للعبادة. وقال الضحاك: هو أول بيت وضع فيه البركة، وأول بيت وضع للناس يحج إليه، وأول بيت جعل قبلة للناس. (ق) عن أبي ذر قال: «سألت رسول الله ﷺ عن أول مسجد وضع في الأرض قال: المسجد الحرام قلت: ثم أي؟ قال المسجد الأقصى قلت: كم بينهما؟ قال أربعون عاماً ثم الأرض لك مسجداً فحيثما أدركت الصلاة فصلّ» زاد البخاري فإن الفضل فيه وقوله ﴿مباركاً﴾ يعني ذا بركة وأصل البركة النمو والزيادة، وقيل هو ثبوت الخير الإلهي فيه وقيل هو أول بيت خص بالبركة وزيادة الخير وقيل لأن الطاعات وسائر العبادات تتضاعف ويزداد ثوابها عنده (ق) عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «صلاة في مسجدي هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه من المساجد إلا المسجد الحرام» ﴿وهدى للعالمين﴾ يعني أنه قبلة للمؤمنين يهتدون به إلى جهة صلاتهم. وقيل لأن فيه دلالة على وجود الصانع المختار لما فيه من الآيات التي لا يقدر عليها غيره. وقيل هو هدي للعالمين إلى الجنة لأن من قصده بأن صلّى إليه أو حجه فقد أوجب الله تعالى له الجنة برحمته. قوله تعالى: .

﴿فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ مَّقَامُ إِبۡرَٰهِيمَۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنٗاۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗاۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٩٧﴾

﴿فيه آيات بينات﴾ أي فيه دلالات واضحات على حرمته ومزيد فضله، ثم اختلفوا في تفسير تلك الآيات فقيل هي قوله مقام إبراهيم ومن دخله كان آمناً، وقيل الآيات غير مذكورة وهي ما يدل على فضل هذا البيت منها أن الطير لا يطير فوق الكعبة في الهواء بل ينحرف عنها إذا وصل إليها يميناً وشمالاً، ومنها أن الوحوش لا تؤذي بعضها في الحرم حتى الكلاب لا تهيج الظباء ولا تصطادها، ومنها أن الطير إذا مرض منه شيء استشفى بالكعبة ومنها تعجيل العقوبة لمن انتهك حرمة البيت وما قصده جبار بسوء إلا أهلكه الله كما أهلك أصحاب الفيل وغيرهم، ومن الآيات التي فيه الحجر الأسود والملتزم والحطيم وزمزم ومشاعر الحج التي فيه كلها من الآيات، ومنها أن الآمر ببناء هذا البيت هو الجليل والمهندس له جبريل، والباني هو إبراهيم الخليل، والمساعد في بنيانه هو إسماعيل فهذه فضيلة عظيمة لهذا البيت. قوله تعالى: ﴿مقام إبراهيم﴾ يعني الحجر الذي كان يقوم عليه عند بناء البيت وكان فيه أثر قدمي إبراهيم فاندرس من كثرة المسح بالأيدي ﴿ومن دخله كان آمناً﴾ قيل لما كانت الآيات المذكورة عقيب قوله: إن أول بيت وضع للناس موجودة في جميع الحرم، علم أن المراد بقوله ومن دخله كان آمناً

للمسلمين: بيت المقدس قِبلتنا وهو أفضل من الكعبة وأقدم وهو مَهاجر الأنبياء، وقال المسلمون في الكعبة أفضل، فأنزل الله تعالى هذه الآية: ﴿ إنّ أول بيتٍ وُضعَ للنّاسِ للذي ببكّة مباركاً وهُدىً للعالمين ﴾.

﴿ فيه آياتٌ بيّناتٌ مقامُ إبراهيم، ومَنْ دخله كان آمناً ﴾، وليس شيء من هذه الفضائل لبيت المقدس، واختلف العلماء في قوله تعالى: ﴿ إن أول بيت وُضع للناسِ للذي ببكّة ﴾، فقال بعضهم: هو أول بيت ظهر على وجه الماء عند خلق السماء والأرض، خلقه قبل الأرض بألفي عام، وكان زبدةً بيضاءَ على الماء فدُحيت الأرض من تحته، هذا قول عبد الله بن عمر ومجاهد وقتادة والسدي، وقال بعضهم: هو أول بيت بُنِيَ في الأرض، رُوِيَ عن علي بن الحسين: أن الله تعالى وضع تحت العرش بيتاً وهو البيت المعمور فأمر الملائكة أن يطوفُوا به، ثم أمر الملائكة الذين هم سكان الأرض أن يبنوا في الأرض بيتاً على مثاله وقدره، فبنوه واسمه الضراح، وأمر مَنْ في

جميع الحرم ويدل عليه أيضاً دعوة إبراهيم حيث قال رب اجعل هذا البلد آمناً يعني من أن يهاج فيه وكانت العرب يقتل بعضهم بعضاً ويغير بعضهم على بعض وكان من دخل الحرم آمن من القتل والغارة وهو المراد من حكم الآية على قول أكثر المفسرين قال الله تعالى: **﴿أولم يروا أنا جعلنا حرماً آمنا ويتخطف الناس من حولهم﴾** وقيل في معنى الآية ومن دخله عام عمرة القضاء مع رسول الله ﷺ كان آمناً، وقيل هو خبر بمعنى الأمر تقديره ومن دخله فأمنوه وهو قول ابن عباس حتى ذهب أبو حنيفة إلى أن من وجب عليه القتل قصاصاً كان أو أحداً فالتجأ إلى الحرم فإنه لا يستوفى منه القصاص أو الحد في الحرم لكنه لا يطعم ولا يبايع ولا يشارى ولا يكلم ويضيق عليهم حتى يخرج من الحرم فيقام عليه الحد خارج الحرم. وقال الشافعي: إذا وجب عليه القصاص خارج الحرم ثم لجأ إلى الحزم استوفي منه في الحرم. وأجمعوا على أنه لو قتل في الحرم أو سرق أو زنى فإنه يستوفى منه الحد في الحرم عقوبة له، وقيل في معنى الآية ومن دخله معظماً له متقرباً بذلك إلى الله تعالى كان آمناً من العذاب يوم القيامة وقيل ومن دخله كان آمناً من الذنوب التي اكتسبها قبل ذلك. قوله عز وجل: **﴿ولله على الناس حج البيت﴾** أي ولله على الناس فرض حج البيت والحج أحد أركان الإسلام. (ق) عن ابن عمر قال قال رسول الله ﷺ: «بني الإسلام على خمس شهادة أن لا إله إلّا الله وأن محمداً رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، والحج وصوم رمضان» فعد النبي ﷺ الحج من أركان الإسلام الخمسة و «من استطاع إليه سبيلاً» يعني وفرض الحج واجب على ما استطاع من أهل التكليف ووجد السبيل إلى حج البيت الحرام.

فصل في فضل البيت والحج والعمرة:

(ق) عن أبي ذر قال قال رسول الله ﷺ: «إن أول بيت وضع للناس مباركاً يصلي فيه الكعبة قلت ثم أي؟ قال: المسجد الأقصى قلت كم بينهما؟ قال أربعون عاماً». عن ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ: «نزل الحجر

الأرض أن يطوفوا به كما يطوف أهل السماء بالبيت المعمور، ورُوِيَ أن الملائكة بنوه قبل خلق آدم بألفي عام، فكانوا يحجّونه، فلما حجّه آدم قالت الملائكة: بِرَّ حجّك يا آدم، حججنا هذا البيت قبلك بألفي عام، ويُروى عن ابن عباس أنه قال: أراد به أنه أول بيت بناه آدم في الأرض، وقيل: هو أول بيت مبارك وُضع هدىً للناس يُعبد اللَّهُ فيه ويحجّ إليه، وقيل: هو أول بيت جعل قِبلةً للناس، وقال الحسن والكلبي: معناه أن أول مسجدٍ ومُتَعبّدٍ وُضع للناس، يُروى ذلك عن عليّ بن أبي طالب، قال الضحّاك: أول بيت وُضع فيه البركة، وقيل: أول بيت وُضع للناس يُعبد الله فيه، كما قال الله تعالى: ﴿ في بيوت أذِنَ اللَّهُ أن تُرفع ﴾ [النور: ٣٦] يعني المساجد، أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن إسماعيل أخبرنا عبد الواحد أنا الأعمش أخبرنا إبراهيم بن يزيد التيمي عن أبيه قال: سمعتُ أبا ذرّ يقول: قلت يا رسول الله أيُّ مسجد وُضع في الأرض أولاً؟ قال: «المسجد الحرام»، قلت: ثم أيّ؟ قال: «المسجد الأقصى»، قلت: كم كان بينهما؟ قال: «أربعون سنة»، ثم قال: «أينما أدركتْكَ الصلاةُ بعدُ فصلِّ فإن الفضل فيه»، قوله تعالى: ﴿ لَلّذِي ببكّة ﴾ قال جماعة: هي مكة نفسها، وهو قول الضحاك، والعرب تعاقبت بين الباء والميم، فتقول: سبد رأسه وسمده، وضربة لازبِ ولازم، وقال الآخرون: بكة موضع البيت في مكة، ومكة اسم البلد كله، وقيل: بكة موضع البيت والمطاف، سمِّيت بكة: لأن الناس يتباكون فيها، أي يزدحمون يبكِ بعضُهم بعضاً ويمرّ بعضهم بين يدي بعض، وقال عبد الله بن الزبير: سُمّيت بكة لأنها تبكِ أعناق الجبابرة، أي تدقّها فلم يقصدها جبّار بسوء إلّا قصمه الله، وأما مكة سُمّيت بذلك لقلّة مائها، من قول العرب: مَكَّ الفصيل ضِرْعَ أمه وأمتكه إذا امتصّ كلّ ما فيه من اللبن، وتدعى أُم رحم لأن الرحمة تنزل بها، ﴿ مباركاً ﴾ نصب على الحال، أي: ذا بركة وهدىً للعالمين، لأنه قِبلة للمؤمنين فيه آيات بيّنات، قرأ ابن عباس.

الأسود من الجنة وهو أشد بياضاً من اللبن وإنما سودته خطايا بني آدم» أخرجه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح وله عنه قال قال رسول الله ﷺ في الحجر: «والله ليبعثنه الله يوم القيامة وله عينان يبصر بهما ولسان ينطق به يشهد على من استلمه بحق» وله عن عبدالله بن عمرو بن العاص قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الركن والمقام ياقوتتان من ياقوت الجنة طمس الله نورهما ولو لم يطمس نورهما لأضاءتا ما بين المشرق والمغرب». قال الترمذي: وهذا يروي عن ابن عمر موقوفاً (ق) عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لا تشد الرحال إلّا إلى ثلاثة مساجد المسجد الحرام ومسجد الرسول والمسجد الأقصى» (ق) عن أبي سعيد الخدري أن النبي عليه السلام قال: «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد مسجدي هذا والمسجد الحرام والمسجد الأقصى». (م) عن أبي هريرة قال: خطبنا رسول الله ﷺ فقال: «أيها الناس قد فرض عليكم الحج فحجوا، فقال له رجل: في كل عام يا رسول الله فسكت حتى قالها ثلاثاً فقال رسول الله ﷺ: لو قلت نعم لوجبت ولما استطعتم» عن ابن عمر قال: «جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله ما يوجب الحج؟ قال الزاد والراحلة» أخرجه الترمذي وقال حديث حسن وإبراهيم بن يزيد الجوزي المكي قد تكلم فيه بعض أهل العلم من قبل حفظه. (ق) عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة» وفي رواية سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من حج لله عز وجل وفي لفظ من حج هذا البيت فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه» أخرجه الترمذي وقال: «غفر له ما تقدم من ذنبه» وعن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: «تابعوا بين الحج والعمرة فإنهما ينفيان الذنوب والفقر كما ينفي الكير خبث الحديد والذهب والفضة وليس لحجة مبرورة ثواب إلّا الجنة. وما من مؤمن يظل يومه محرماً إلا غابت الشمس بذنوبه» أخرجه الترمذي وقال حديث حسن غريب وله عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من مسلم لبى إلا بلي ما عن يمينه وشماله من حجر أو شجر أو مدر حتى تنقطع الأرض من ها هنا وها هنا وقال الترمذي: هذا حديث غريب وله عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «من طاف بالبيت خمسين مرة خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه» قال الترمذي: هذا حديث غريب.

﴿ آية بيّنة ﴾ على الواحد، وأراد مقام إبراهيم وحده، وقرأ الآخرون آيات بيّنات، بالجمع، فذكر منها مقام إبراهيم وهو الحجر الذي قام عليه إبراهيم، وكان أثر قدميه فيه فاندرس من كثرة المسح بالأيدي، ومن تلك الآيات في البيت الحجر الأسود والحطيم وزمزم والمشاعر كلها، وقيل: مقام إبراهيم جميع الحرم، ومن الآيات في البيت أن الطير تطير فلا تعلو فوقه، وأن الجارحة إذا قصدت صيداً فإذا دخل الصيدُ الحرم كفّتْ عنه، وإنه يلد صدر إليه الأنبياء والمرسلون والأولياء والأبرار وإن الطاعة والصدقة فيها تُضاعف بمائة ألف، أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي، أنا أبو محمد بن الحسن بن أحمد المخلدي، أخبرنا أبو العباس محمد بن إسحق السرّاج، أخبرنا أبو مصعب أحمد بن أبي بكر الزهري أنا مالك بن أنس عن زيد بن رباح أخبرنا عبد الله بن عبد الله الأعز عن أبي عبد الله الأعمش عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «صلاة في مسجدي هذا أفضل من ألف صلاة، فيما سواه إلّا المسجد الحرام». قوله عزّ وجلّ: ﴿ ومَنْ دَخَله كان آمناً ﴾ من أن يهاج فيه، وذلك بدعاء إبراهيم عليه السلام حيث قال: ربّ اجعلْ هذا البلد آمناً، وكانت العرب في الجاهلية يقتل بعضهم بعضاً ويُغير بعضهم على بعض ومَن دخل الحرم أمن من القتل والغارة، وهو المراد من الآية على قول الحسن وقتادة وأكثر المفسّرين، قال الله تعالى: ﴿أوَلَمْ يرَوْا أنّا جعلنا حرماً آمناً ويُتخطّفُ الناسُ من حَوْلهم ﴾ [العنكبوت: ٦٧]، وقيل: المراد به أن مَن دخله عام عمرة القضاء مع رسول الله ﷺ كان آمناً، كما قال تعالى: ﴿ لتدخُلنّ المسجدَ الحرام إن شاء الله آمنين ﴾ [الفتح: ٢٧] وقيل: هو خبر بمعنى الأمر تقديره: ومَن دخله فأمِّنوه، كقوله تعالى: ﴿ فلا رفثَ ولا فسوقَ ولا جدالَ

فصل: في أحكام تتعلق بالحج

قال العلماء: الحج واجب على كل مسلم وهو أحد أركان الإسلام الخمسة. ولوجوب الحج خمس شرائط: الإسلام والبلوغ والعقل والحرية والاستطاعة، ولا يجب على الكافر والمجنون، ولو حجا لم يصح لأن الكافر ليس من أهل القربة ولا حكم لقول المجنون ولا يجب على الصبي والعبد ولو حج صبي يعقل، أو حج عبد صح حجهما تطوعا، ولا يسقط الفرض فإذا بلغ الصبي وعتق العبد واجتمع فيهما شرائط الحج وجب عليهما أن يحجا ثانياً، ولا يجب على غير المستطيع لقوله تعالى: ﴿ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً﴾ فلو تكلف غير المستطيع الحج وحج صح حجه وسقط عنه فرض حجة الإسلام والاستطاعة نوعان: أحدهما: أن يكون مستطيعاً بنفسه، والآخر أن يكون مستطيعاً بغيره فأما المستطيع بنفسه فهو أن يكون قوياً قادراً على الذهاب ووجد الزاد والراحلة لما تقدم من حديث ابن عمر في الزاد والراحلة قال ابن المنذر، وحديث الزاد والراحلة لا يثبت لأنه ليس بمتصل وإنما المرفوع ما رواه إبراهيم بن يزيد عن محمد بن عباد عن ابن عمر عن النبي ﷺ وإبراهيم متروك الحديث قال يحيى بن معين: إبراهيم ليس بثقة قال ابن المنذر: واختلف العلماء في قوله تعالى: من استطاع إليه سبيلاً فقالت طائفة الآية على العموم إذ لا نعلم خبراً ثابتاً عن النبي ﷺ ولا إجماعاً لأهل العلم يوجب أن نستثني من ظاهر الآية بعضاً فعلى كل مستطيع الحج يجد إليه السبيل بأي وجه كانت الاستطاعة الحج على ظاهر الآية قال: وروينا عن عكرمة أنه قال: الاستطاعة الصحة، وقال الضحاك: إذا كان شاباً صحيحاً فليؤجر نفسه بأكله وعقبه حتى يقضي نسكه وقال مالك الاستطاعة على إطاقة الناس الرجل يجد الزاد والراحلة ولا يقدر على المشي وآخر يقدر على المشي على رجليه وقالت طائفة: الاستطاعة الزاد والراحلة كذلك قال الحسن وسعيد بن جبير ومجاهد وأحمد بن حنبل واحتجوا بحديث ابن عمر المتقدم. وقال الشافعي: الاستطاعة وجهان:

في الحج ﴾ [البقرة: ١٩٧]، أي: لا ترفثوا ولا تفسقوا، حتى ذهب بعض أهل العلم إلى أن مَن وجب عليه القتل قصاصاً أو حدّاً فالْتجأ إلى الحرم فلا يُستوفَى منه فيه، ولكنّه لا يُطعم ولا يُبايع ولا يُشاري حتى يخرج منه، فيقتل، قاله ابن عباس، وبه قال أبو حنيفة وذهب قوم إلى أن القتل الواجب بالشرع يُستوفى فيه أما إذا ارتكب الجريمة في الحرم فيستوفَى فيه عقوبته بالاتفاق، وقيل: معناه ومَن دخله معظّماً له متقرّباً إلى الله عزّ وجلّ كان آمناً يوم القيامة من العذاب، قوله عزّ وجلّ: ﴿ ولِلَّهِ على الناسِ حجُّ البيتَ من استطاعَ إليه سبيلاً ﴾، أي: ولله فرضٌ واجبٌ على الناسِ حجُّ البيت، قرأ أبو جعفر وحمزة والكسائي وحفص ﴿ حِجُّ البيت ﴾ بكسر الحاء في هذا الحرف خاصّةً، وقرأ الآخرون بفتح الحاء، وهي لغة أهل الحجاز، وهما لغتان فصيحتان ومعناهما واحد، والحج أحد أركان الإسلام. أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أنا محمد بن يوسف أخبرنا محمد بن إسماعيل أنا عبد الله بن موسى أنا حنظلة بن أبي سفيان عن عكرمة بن خالد عن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «بُني الإسلام على خمسٍ شهادة أن لا إله إلّا الله وأن محمداً رسولُ الله، وإقامِ الصلاةَ، وإيتاءِ الزكاةَ، وصومِ رمضانَ، والحجِّ»، قال أهل العلم: ولِوُجوب الحج خمسُ شرائط الإسلام والعقل والبلوغ والحرية والاستطاعة، فلا يجب على الكافر ولا على المجنون، ولا حجّا بأنفسهما لا يصحّ لأن الكافر ليس من أهل القربة ولا حكم لفعل المجنون ولا يجب على الصبي ولا على العبد، ولو حجّ صبي يعقل، أو عبد يصحّ حجّهما تطوعاً ولكن لا يسقط به فرض الإسلام عنهما فلو بلغ الصبي، أو أُعتق العبد بعدما حجّ واجتمع في حقه شرائط وجوب الحج، عليه أن يحجّ ثانياً ولا يجب على غير المستطيع، لقوله تعالى: ﴿ مَن استطاع إليه سبيلاً ﴾ غير أنه لو تكلّف فحجّ يسقط عنه فرض الإسلام، والاستطاعة نوعان، أحدهما: أن يكون قادراً مستطيعاً بنفسه، والآخر: أن يكون

أحدهما أن يكون الرجل مستطيعاً ببدنه واجداً من ماله ما يبلغه الحج فتكون استطاعته تامة فعليه فرض الحج. والثاني: لا يقدر أن يثبت على الراحلة وهو قادر على من يطيعه إذا أمره أن يحج عنه، أو قادر على مال ويجد من يستأجره فيحج عنه فيكون هذا ممن لزمه فرض الحج. أما حكم الزاد والراحلة فهو أن يجد راحلة تصلح له ووجد من الزاد ما يكفيه لذهابه ورجوعه فاضلاً عن نفقته ونفقة من تلزمه نفقتهم وكسوتهم وعن دين إن كان عليه ووجد رفقة يخرجون في وقت جرت العادة بخروج أهل البلد في ذلك الوقت، فإن خرجوا قبله أو أخروا الخروج إلى وقت لا يصلون إلّا بقطع أكثر من مرحلة لا يلزمه الخروج معهم. ويشترط أن يكون الطريق آمناً فإن كان فيه خوف من عدو مسلم أو كافر أو رصدي يطلب الخفارة لا يلزمه. ويشترط أن تكون منازل الماء مأهولة معمورة يجد فيها ما جرت العادة بوجوده من الماء والزاد فإن تفرق أهلها بجدب أو غارت مياهها فلا يلزمه الخروج ولو لم يجد الراحلة وهو قادر على المشي أو لم يجد الزاد وهو قادر على الاكتساب لا يلزمه الحج عند من جعل وجدان الزاد والراحلة شرطاً لوجوب الحج ويستحب له أن يفعل ذلك ويلزمه الحج عند مالك. وأما المستطيع بغيره فهو أن يكون الرجل عاجزاً بنفسه بأن كان زمناً أو به مرض لا يرجى برؤه وله مال يمكنه أن يستأجر من يحج عنه فيجب عليه أن يستأجر من يحج عنه وإن لم يكن له مال وبذل له ولده أو أجنبي الطاعة في أن يحج عنه لزمه الحج إن كان يعتمد على صدقه لأن وجوب الحج متعلق بالاستطاعة. وعند أبي حنيفة لا يجب الحج ببذل الطاعة وعند مالك لا يجب على من غصب ماله وحجة من أوجب الحج ببذله الطاعة. ما روي عن ابن عباس قال: «كان الفضل بن عباس رديف رسول الله ﷺ فجاءته امرأة من خثعم تستفتيه فجعل الفضل ينظر إليها وتنظر إليه فجعل رسول الله ﷺ يصرف وجه الفضل إلى الشق الآخر قالت: يا رسول الله إن فريضة الله على عباده في الحجه أدركت أبي شيخاً كبيراً لا يستطيع أن يثبت على الراحلة أفأحج عنه قال: نعم وذلك في حجة الوداع» أخرجاه في الصحيحين.

مستطيعاً بغيره، أما الاستطاعة بنفسه، فأن يكون قادراً بنفسه على الذهاب ووَجَد الزادَ والراحلة، أخبرنا عبد الوهاب بن محمد الكسائي الخطيب ثنا عبد العزيز بن أحمد الخلال ثنا أبو العباس الأصم أخبرنا الربيع بن سليمان أخبرنا الشافعي أخبرنا سعيد بن سالم عن إبراهيم بن يزيد عن محمد عباد بـن جعفر قال: قعدنا إلى عبد الله بن عمر فسمعته يقول: سأل رجل رسول الله ﷺ فقال: ما الحاج؟ قال: «الشعث الثفل»، فقام رجل آخر فقال: يا رسول الله: أيّ الحجّ أفضل؟ قال: «العجُّ والثج»، فقام رجل آخر فقال: يا رسول الله ما السبيل؟ قال: «زادٌ وراحلة»، وتفصيله: أن يجدَ راحلةً تصلح لمثله، ووجدَ الزادَ للذهاب والرجوع، فاضلاً عن نفقة عياله ومَن تلزمه نفقتهم وكسوتهم لذهابه ورجوعه، وعن دَيْن يكون عليه، ووجد رفقة يخرجُون في وقت جرت عادة أهل بلده بالخروج في ذلك الوقت، فإن خرجوا قبله أو أخَّروا الخروج إلى وقت لا يصلون إلّا أن يقطعوا كل يوم أكثر من مرحلة لا يلزمهم الخروج في ذلك الوقت، ويشترط أن يكون الطريق آمناً فإن كان فيه خوف من عدوٍّ مسلمٍ أو كافرٍ أو رَصْديً يطلب شيئاً لا يلزمه، ويُشترط أن تكون المنازل معمورة يجد الزاد والماء، فإن كان زمانَ جُدوبةٍ تُفرّق أهلها أو غارتْ مياهها، فلا يلزمه الحج، ولو لم يجد الراحلة لكنه قادر على المشي أو لم يجد الزاد ولكن يمكنه أن يكتسب في الطريق لا يلزمه الحج، ويستحبّ لو فعل، وعند مالك يلزمه، أمّا الاستطاعة بالغير فهي أن يكون الرجل عاجزاً بنفسه، بأن كان زَمِناً أو به مرض غير مرجو الزوال، لكن له مال يمكّنه أن يستأجر به مَن يحجّ عنه، يجب عليه أن يستأجر، أو لم يكن له مال بل بذلَ له ولدهُ أو أجنبيُّ الطاعةَ في أن يحجّ عنه، يلزمه أن يأمره إذا كان يعتمدُ صِدقَه، لأن وجوب الحجّ يتعلق بالاستطاعة، ويقال في العُرْف: فلان مستطيع لبناء دار وإن كان لا يفعله بنفسه، وإنما يفعله بماله وبأعوانه، وعند أبي حنيفة لا يجب الحج ببذل الطاعة، وعند مالك لا يجب على المغصوب في

قوله تعالى: ﴿ومن كفر فإن الله غني عن العالمين﴾ يعني ومن جحد ما ألزمه الله من فرض حج بيته وكفر به فإن الله غني عنه وعن حجه وعمله وعن جميع خلقه وقيل نزلت فيمن وجد ما يحج ثم مات ولم يحج فهو كفر به لما روي عن علي بن أبي طالب قال: قال رسول الله ﷺ: «من ملك زاداً أو راحلة تبلغه إلى بيت الله ولم يحج فلا عليه أن يموت يهودياً أو نصرانياً وذلك أن الله تعالى يقول ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً» أخرجه الترمذي وقال: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلاّ من هذا الوجه. وفي إسناده مقال وهلال بن عبدالله مجهول والحارث يضعف في الحديث وقيل هو الذي إن حج لم يره براً وإن قعد لم يره إثماً، وقيل نزلت في اليهود وغيرهم من أصحاب الملل حيث قالوا: إنا مسلمون فنزلت ولله على الناس حج البيت فلم يحجوا. وقالوا: الحج إلى مكة غير واجب وكفروا به فنزلت ومن كفر فإن الله غني عن العالمين. فعلى هذه الأقوال تكون هذه الآية متعلقة بما قبلها وقيل إنه كلام مستأنف ومعناه ومن كفر بالله واليوم الآخر فإن الله غني عن العالمين. وقوله عز وجل:

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ۝٩٨ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ۝٩٩ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ۝١٠٠﴾

﴿قل يا أهل الكتاب﴾ قيل الخطاب لعلماء أهل الكتاب الذين علموا صحة نبوة محمد ﷺ وقيل الخطاب لجميع أهل الكتاب اليهود والنصارى الذين أنكروا نبوته ﴿لم تكفرون بآيات الله﴾ يعني الآيات الدالة على نبوة محمد ﷺ أنه حق وصدق والمعنى لم تكفرون بآيات الله التي دلتكم على صدق نبوة محمد ﷺ وقيل المراد بآيات الله القرآن ومحمد ﷺ ﴿والله شهيد على ما تعملون﴾ أي والله شهيد على أعمالكم فيجازيكم عليها ﴿قل يا أهل الكتاب لم تصدون عن سبيل الله من آمن﴾، يعني لم تصرفون عن دين الله من آمن وكان صدهم عن سبيل الله بالقاء

المال، وحُجَّةُ مَن أوجبه ما أخبرنا أبو الحسن السرخسي أخبرنا زاهر بن أحمد أخبرنا أبو إسحق الهاشمي، أخبرنا أبو مصعب عن مالك عن ابن شهاب عن سليمان بن يسار عن عبد الله بن عباس أنه قال: كان الفضل بن عباس رديف رسول الله ﷺ فجاءته امرأة من خَثْعَم تستفتيه، فجعل الفضل ينظر إليها وتنظر إليه فجعل رسول الله ﷺ يصرف وجه الفضل إلى الشقّ الآخر، فقالت: يا رسول الله إن فريضة الله على عباده في الحج، أدركت أبي شيخاً كبيراً لا يستطيع أن يثبت على الراحلة، أفأحجّ عنه؟ قال: «نعم». قوله تعالى: ﴿ ومَنْ كفرَ فإنَّ اللَّهَ غنيٌّ عنِ العَالَمِين ﴾، قال ابن عباس والحسن وعطاء: جَحَدَ فَرْضَ الحج، وقال مجاهد: مَن كفر بالله واليوم الآخر، وقال سعيد بن المسيب: نزلت في اليهود حيث قالوا: الحج إلى مكة غير واجب، وقال السدي: هو مَن وجد ما يحجّ به ثم لمْ يحجّ حتى مات فهو كفرٌ به، أخبرنا أبو سعيد أحمد بن إبراهيم الشريحي أنا أبو إسحق الثعلبي، أخبرنا أبو الحسن الكلماني أخبرنا أبو بكر محمد بنِ عمرو، أخبرنا سهيل بن عمارة أخبرنا يزيد بن هارون أخبرنا شريك عن ليث عن عبد الرحمن بن سابط عن أبي أُمامة أن النبي ﷺ قال: «مَن لم تَحْبِسْه حاجةٌ ظاهرة أو مرض حابس أو سلطان جائر، ولم يحجَّ فليمتْ إنْ شاء يهودياً وإنْ شاء نصرانياً».

قوله تعالى: ﴿ قلْ يا أهل الكتاب لِمَ تكفرون بآياتِ اللَّهِ واللَّهُ شهيدٌ على ما تعملون ﴾.

﴿ قلْ يا أهلَ الكتابِ لِمَ تصدّون عن سبيلِ الله ﴾ أي: لِمَ تصرفون عن دين الله، ﴿ مَنْ آمنَ تَبْغُونَها ﴾ تطلبونها، ﴿ عِوَجاً ﴾ زيغاً وميلاً، يعني: لِمَ تصدّون عن سبيل الله باغين لها عوجاً؟ قال أبو عبيدة: العِوج

الشبهة والشكوك وذلك بإنكارهم صفة محمد ﷺ في كتبهم ﴿تبغونها عوجاً﴾، يعني زيغاً وميلاً عن الحق والعوج بالكسر الزيغ والميل عن الاستواء في الدين والقول والعمل وكل ما لا يرى فأما الشيء الذي يرى كالحائط والقناة ونحو ذلك يقال فيه عوج بفتح العين والهاء في قوله تبغونها عائدة على السبيل والمعنى لم تطلبون الزيغ والميل في سبيل الله بإلقاء الشبه في قلوب الضعفاء ﴿وأنتم شهداء﴾ قال ابن عباس: يعني وأنتم شهداء أن نعت محمد ﷺ وصفته مكتوب في التوراة، وأن دين الله الذي لا يقبل غيره هو الإسلام وقيل معناه وأنتم تشهدون المعجزات التي تظهر على يد محمد ﷺ الدالة على نبوته ﴿وما الله بغافل عما تعملون﴾ فيه وعيد وتهديد لهم وذلك أنهم كانوا يجتهدون ويحتالون بإلقاء الشبهة في قلوب الناس ليصدوهم عن سبيل الله والتصديق بمحمد ﷺ فلذلك قال الله تعالى: ﴿وما الله بغافل عما تعملون﴾ .

قوله عز وجل: ﴿يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب﴾ الآية قال زيد بن أسلم: مر شاس بن قيس اليهودي وكان شيخاً عظيم الكفر شديد الطعن على المسلمين فمر بنفر من الأوس والخزرج وهم في مجلس يتحدثون فيه فغاظه ما رأى من ألفتهم وصلاح ذات بينهم في الإسلام بعد الذي كان بينهم من العداوة في الجاهلية وقال: قد اجتمع ملأ بني قيلة بهذه البلاد والله ما لنا معهم إذا اجتمعوا من قرار فأمر شاباً من اليهود كان معه فقال له اعمد إليهم واجلس معهم ثم ذكرهم يوم بعاث وما كان قبله وأنشدهم بعض ما كانوا يتقاولون فيه من الأشعار وكان يوم بعاث يوماً اقتتلت فيه الأوس والخزرج وكان الظفر فيه للأوس على الخزرج ففعل فتكلم القوم عند ذلك وتنازعوا وتفاخروا حتى تواثب رجلان من الحيين على الركب وهما أوس بن قيظي أحد بني حارثة من الأوس وجبار بن صخر أحد بني سلمة من الخزرج فتقاولا فقال أحدهما لصاحبه: إن شئتم والله رددناها الآن جذعة وغضب الفريقان جميعاً وقالا قد فعلنا السلاح السلاح موعدكم الظاهر وهي الحرة فخرجوا إليها وانضمت الأوس والخزرج بعضهم إلى بعض على دعواهم في الجاهلية فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فخرج إليهم فيمن معه من المهاجرين حتى جاءهم فقال: يا معشر المسلمين أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد إذ أكرمكم الله بالإسلام

ـ بالكسر ـ في الدينِ والقولِ والعملِ، والعَوَجُ ـ بالفتح ـ في الجدار، وكل شخص قائم، ﴿ وأنتم شهداءُ وما الله بغافلٍ عمّا تعملون ﴾، أن في التوراة مكتوباً نعت محمد ﷺ وإن دين الله الذي لا يقبل غيره هو الإسلام.

﴿ يا أيها الذين آمنوا إنْ تُطيعوا فريقاً من الذين أُوتوا الكتاب ﴾، قال زيد بن أسلم: إن مرشاسَ بنَ قيسٍ اليهودي وكان شيخاً عظيم الكفر شديد الطعن على المسلمين، فمرّ على نفر من الأوس والخزرج في مجلس جمعهم يتحدثون، فغاظه ما رأى من ألفتهم وصلاح ذات بينهم في الإسلام بعد الذي كان بينهم في الجاهلية من العداوة، وقال: قد اجتمع ملأ بني قيلة بهذه البلاد لا والله ما لنا معهم إذا اجتمعوا بها من قرار، فأمر شابّاً من اليهود كان معه فقال: اعمد إليهم واجلس معهم ثم ذكرهم يومَ بُعاثٍ وما كان قبله، وأنشدهم بعض ما كانوا تقاولوا فيه من الأشعار، وكان بُعاث يوماً اقتتلت فيه الأوس مع الخزرج، وكان الظفر فيه لـلأوس على الخزرج، ففعـل وتكلم فتكلم القوم عند ذلك فتنازعوا وتفاخروا حتى تواثب رجلان من الحيّين على الركب، أوس بن قبطي أحد بني حارثة من الأوس وجبّار بن صخر أحد بني سلمة من الخزرج، فتقاولا ثم قال أحدهما لصاحبه: إن شئتم والله رددتها الآن جذعة، وغضب الفريقان جميعاً وقالا: قد فعلنا السلاحَ السلاحَ موعدكم الظاهرة، وهي الحرّة فخرجوا جميعاً إليها وانضمّت الأوس والخزرج بعضهم إلى بعض على دعواهم التي كانوا عليها في الجاهلية، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فخرج إليهم فيمن معه من المهاجرين حتى جاءهم، فقال ﷺ: «يا معشر المسلمين أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد إذْ أكرمكم الله بالإسلام، وقطع به عنكم أمرَ الجاهلية، وألّف بينكم؟ ترجعون إلى ما كنتم عليه كفّاراً،

وقطع عنكم أمر الجاهلية وألف بينكم ترجعون إلى ما كنتم عليه كفاراً؟ الله الله. فعرف القوم أنها نزعة من الشيطان وكيد من عدوهم، فألقوا السلاح من أيديهم وبكوا واعتنق بعضهم بعضاً ثم انصرفوا مع رسول الله ﷺ سامعين مطيعين قال جابر: فما رأيت يوماً أقبح أولاً وأحسن آخراً من ذلك اليوم فأنزل الله عز وجل: ﴿**يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب**﴾ يعني شاساً اليهودي وأصحابه ﴿**يردوكم بعد إيمانكم كافرين**﴾ والكفر يوجب الهلاك في الدنيا بوقوع العداوة والبغضاء وهيجان الفتنة والحرب وسفك الدماء وفي الآخرة النار ثم قال تعالى:

﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾

﴿**وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله**﴾ وكلمة كيف كلمة تعجب والتعجب إنما يليق بمن لا يعلم السبب وذلك على الله محال، فالمراد منه المنع والتغليظ وذلك لأن تلاوة آيات الله وهي القرآن حالاً بعد حال وكون رسول الله ﷺ فيكم يرشدكم إلى مصالحكم وذلك يمنع من وقوع الكفر فكان وقوع الكفر منهم بعيداً على هذا الوجه قال قتادة: في هذه الآية علمان بينان كتاب الله تعالى ونبي الله ﷺ أما نبي الله فقد مضى، وأما كتاب الله تعالى فقد أبقاه الله بين أظهركم رحمة منه ونعمة. (م) عن زيد بن أرقم قال: قام رسول الله ﷺ يوماً فينا خطيباً بماء يدعى خمّاً بين مكة والمدينة فحمد الله وأثنى عليه ووعظ الناس وذكر، ثم قال: «أما بعد ألا أيها الناس إنما أنا بشر يوشك أن يأتيني رسول ربي فأجيب، وإني تارك فيكم ثقلين أولهما كتاب الله فيه الهدى والنور فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به، فحث على كتاب الله ورغب فيه ثم قال وأهل بيتي أذكركم الله في أهل بيتي وقوله تعالى: ﴿**ومن يعتصم بالله**﴾ أي يمتنع بالله ويستمسك بدينه وطاعته وأصل العصمة الامتناع من الوقوع في آفة، وفيه حث لهم في الالتجاء إلى الله تعالى في دفع شر الكفار عنهم ﴿**فقد هدي إلى صراط مستقيم**﴾ أي إلى طريق واضح وهو طريق الحق المؤدي إلى الجنة. قوله عز وجل: ﴿**يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته**﴾. قال مقاتل بن حيان: كان بين الأوس والخزرج عداوة في الجاهلية وقتال فلما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة أصلح بينهم

اللَّهَ اللَّهَ!! فعرف القوم أنها نزغةٌ من الشيطان وكيدٌ من عدوّهم، فألقوا السلاحَ وبكوا وعانق بعضهم بعضاً، ثم انصرفوا مع رسول الله ﷺ سامعين مطيعين، فأنزل الله تعالى هذه الآية: ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إن تُطيعوا فريقاً من الذين أُوتوا الكتابَ** ﴾ يعني: مرشاساً وأصحابه، ﴿ **يردُّوكم بعدَ إيمانِكم كافِرين** ﴾ قال جابر: فما رأيت قطّ يوماً أقبح، أولا أحسن آخراً من ذلك اليوم، ثم قال الله تعالى على وجه التعجب:

﴿ **وكيفَ تكفُرون** ﴾ يعني: ولِمَ تكفرون؟ ﴿ **وأنتم تُتلى عليكم آياتُ الله** ﴾، القرآن، ﴿ **وفيكم رسوله** ﴾، محمد ﷺ، قال قتادة: في هذه الآية علمان بيّنان: كتابُ الله ونبيُّ الله، أمّا نبيّ الله فقد مضى، وأمّا كتاب الله فقد أبقاه بين أظهركم رحمةً من الله ونعمة. أخبرنا أبو سعيد أحمد بن محمد بن العباس الحميدي أخبرنا أبو عبيد الله محمد بن عبد الله الحافظ أنا أبو الفضل الحسن بن يعقوب بن يوسف العدل أخبرنا أبو أحمد محمد بن عبد الوهاب العبدي أنا أبو جعفر بن عوف أخبرنا أبو حيّان يحيىٰ بن سعيد بن حبّان عن يزيد بن حيّان قال: سمعت زيد بن أرقم قال: «قام فينا رسول الله ﷺ ذات يوم خطيباً، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أمّا بعد أيها الناس إنما أنا بشر يُوشك أن يأتيني رسول ربّي فأُجيبه وأنا تارك فيكم الثقلين أولهما: كتابَ الله فيه الهُدى والنور، فخذُوا بكتاب الله واستمسِكوا به، فحثّ على كتاب الله ورغّب فيه، ثم قال: وأهلَ بيتي، أذكرُكُمُ اللَّهَ في أهل بيتي، أذكرُكم اللَّهَ في

فافتخر بعد ذلك منهم رجلان وهما ثعلبة بن غنم من الأوس وأسعد بن زرارة من الخزرج. فقال الأوسي: منا خزيمة بن ثابت ذو الشهادتين ومنا حنظلة غسيل الملائكة ومنا عاصم بن ثابت بن أفلح حمي الدبر ومنا سعد بن معاذ الذي اهتز عرش الرحمن له ورضى الله بحكمه في بني قريظة وقال الخزرجي: منا أربعة أحكموا القرآن أبي بن كعب ومعاذ بن جبل وزيد بن ثابت وأبو زيد ومنا سعد بن عبادة خطيب الأنصار ورئيسهم فجرى الحديث بينهما فغضبا وأنشدا الأشعار وتفاخرا فجاء الأوس والخزرج ومعهم السلاح فأتاهم النبي ﷺ فأصلح بينهم فأنزل الله عز وجل هذه الآية: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته﴾ قال ابن عباس: هو أن يطاع فلا يعصى ويشكر فلا يكفر ويذكر فلا ينسى. وقال مجاهد: هو أن تجاهدوا في الله حق جهاده ولا تأخذكم في الله لومة لائم وتقوموا لله بالقسط ولو على أنفسكم وآبائكم وأبنائكم وعن أنس قال: لا يتقي الله عبد حق تقاته حتى يخزن لسانه، وقيل حق تقاته يعني واجب تقواه وهو القيام بالواجب واجتناب المحارم. واختلف العلماء في هذا القدر من هذه الآية هل هو منسوخ أم لا على قولين أحدهما أنه منسوخ وذلك أنه لما نزلت هذه الآية شق ذلك على المسلمين وقالوا: يا رسول الله ومن يقوى على هذا؟ فأنزل الله تعالى الناسخ وهو قوله تعالى في سورة التغابن: ﴿فاتقوا الله ما استطعتم﴾ وهذا قول ابن عباس وسعيد بن جبير وقتادة وابن زيد والسدي. والقول الثاني أنها محكمة غير منسوخة وهو رواية عن ابن عباس أيضاً وبه قال طاوس: وموجب هذا الاختلاف يرجع إلى معنى الآية فمن قال إنها منسوخة قال حق تقاته هو أن يأتي العبد بكل ما يجب لله ويستحقه فهذا يعجز العبد عن الوفاء به فتحصيله ممتنع ومن قال بأنها محكمة قال: إن حق تقاته أداء ما يلزم العبد على قدر طاقته فكان قوله تعالى اتقوا الله ما استطعتم مفسراً لحق تقاته لا ناسخاً ولا مخصصاً فمن اتقى الله ما استطاع فقد اتقاه حق تقواه وقيل معنى حق تقاته كما يجب أن يتقي وذلك بأن يجتنب جميع معاصيه، وقيل في معنى قول ابن عباس هو أن يطاع فلا يعصى هذا صحيح والذي يصدر من العبد على سبيل السهو والنسيان غير قادح فيه لأن التكليف في تلك الحال مرفوع عنه وكذلك قوله: وأن يشكر فلا يكفر فواجب على العبد حضور ما أنعم الله به عليه بالبال، وأما عند السهو فلا يجب عليه. وكذلك قوله وأن يذكر فلا ينسى فإن هذا إنما يجب عند الدعاء والعبادة لا عند السهو والنسيان.

أهل بيتي» قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ يَعْتَصِمْ باللَّهِ ﴾ أي: يمتنع بالله ويستمسك بدينه وطاعته، **﴿ فقد هُدِيَ إلى صراطٍ مستقيم ﴾**، طريق واضح، وقال ابن جريج ومَن يعتصم بالله أي: يُؤمن بالله، وأصل العصمة: المنع، فكل مانع شيئاً فهو عاصم له.

قوله تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتَّقُوا اللَّهَ حقَّ تُقاته ﴾، قال مقاتل بن حيان: كان بين الأوس والخزرج عداوة في الجاهلية وقتال حتى هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة، فأصلح بينهم فافتخر بعده منهم رجلان: ثعلبة بن غنم من الأوس وأسعد بن زرارة من الخزرج، فقال الأوسي: منّا خزيمة بن ثابت ذو الشهادتين، ومنّا حنظلة غسيل الملائكة، ومنّا عاصم بن ثابت بن أفلح حمي الدبر، ومنّا سعد بن معاذ الذي اهتزّ عرش الرحمن له ورضي الله بحُكمه في بني قريظة، وقال الخزرجي: منّا أربعة أحكموا القرآن: أُبي بن كعب، ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، وأبو زيد، ومنّا سعد بن عبادة خطيب الأنصار ورئيسهم، فجرى الحديث بينهما فغضبَا وأنشدَا الأشعار وتفاخرَا، فجاء الأوس والخزرج ومعهم السلاح، فأتاهم النبي ﷺ، فأنزل الله تعالى هذه الآية: **﴿ يا أيّها الذين آمنوا اتَّقُوا اللَّهَ حقَّ تُقاتِه ﴾** وقال عبد الله بن مسعود وابن عباس: هو أن يُطاعَ فلا يُعصى، وقال مجاهد: أن تُجاهدوا في سبيل الله حق جهاده ولا تأخذكم في الله لَوْمَةُ لائم، وتقومُوا لله بالقسط ولو على أنفسكم وآبائكم وأبنائكم. وعن أنس أنه قال: لا يتّقي اللَّهَ عبدٌ حقَّ تُقاته حتى يُخزن لسانه، قال أهل التفسير: لمّا نزلت هذه الآية شقَّ ذلك عليهم، فقالوا:

وقوله تعالى: ﴿ولا تموتن إلاّ وأنتم مسلمون﴾ لفظ النهي واقع على الموت والمعنى واقع على الأمر بالإقامة على الإسلام، والمعنى كونوا على الإسلام فإذا ورد عليكم الموت صادفكم على ذلك. وقيل هذا في الحقيقة نهي عن ترك الإسلام المعنى لا تتركوا الإسلام فإن الموت لا بد منه فمتى جاءكم صادفكم وأنتم على الإسلام لأنه لما كان يمكنكم الثبات على الإسلام حتى إذا أتاهم الموت أتاهم وهم على الإسلام صار الموت على الإسلام بمنزلة ما قد دخل في إمكانهم، وقيل معناه ولا تموتن إلاّ وأنتم مسلمون مخلصون مفوضون إلى الله أموركم تحسنون الظن به عزّ وجلّ. عن ابن عباس: «أن رسول الله ﷺ قرأ هذه الآية: اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون فقال: لو أن قطرة من الزقوم قطرت في دار الدنيا لأفسدت على أهل الأرض معايشهم فكيف بمن تكون طعامه» أخرجه الترمذي وقال حديث حسن صحيح. قوله عز وجل:

﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝١٠٣﴾

﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً﴾ أي تمسكوا بحبل الله والحبل هو السبب الذي يتوصل به إلى البغية وسمي الإيمان حبلاً لأنه سبب يتوصل به إلى زوال الخوف وقيل حبل الله هو السبب الذي به يتوصل إليه فعلى هذا اختلفوا في معنى الآية فقال ابن عباس: معناه تمسكوا بدين الله لأنه سبب يوصل إليه، وقيل حبل الله هو القرآن لأنه أيضاً سبب يوصل إليه. وفي أفراد مسلم من حديث زيد بن أرقم أن رسول الله ﷺ قال: «ألا وإني تارك فيكم ثقلين أحدهما كتاب الله هو حبل الله من اتبعه كان على الهدى ومن تركه كان على ضلالة» الحديث عن ابن مسعود عن النبي ﷺ قال: «إن هذا القرآن هو حبل الله المتين وهو النور المبين والشفاء النافع عصمة لمن تمسك به» وذكره البغوي بغير سند وقال ابن مسعود: هو الجماعة وقال عليكم بالجماعة فإنها حبل الله الذي أمر به وإن ما تكرهون في الجماعة والطاعة خير مما تحبون في الفرقة وقيل بحبل الله يعني بأمر الله وطاعته ﴿ولا تفرقوا﴾ يعني كما تفرقت اليهود والنصارى وقيل ولا تفرقوا يعني كما كنتم متفرقين في الجاهلية متدابرين يعادي بعضكم بعضاً ويقتل

يا رسول الله ومَنْ يقوَى على هذا، فأنزل الله تعالى: ﴿ فاتَّقُوا اللَّهَ ما استطعتم ﴾ [التغابن: ١٦] فَنَسختْ هذه الآية، وقال مقاتل: ليس في آل عمران من المنسوخ إلاّ هذه الآية ﴿ ولا تَمُوتُنَّ إلاّ وأنتمْ مُسلمون ﴾ أي: مؤمنون، وقيل: مخلصون مفوّضون أموركم إلى الله عزّ وجلّ، وقال الفضيل: مُحسنون الظنَّ بالله. أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أبو بكر العبدوسي أخبرنا أبو بكر بن محمد بن حمدون بن خالد بن يزيد أخبرنا سليمان بن يوسف أخبرنا وهب بن جرير أنا شعبة عن الأعمش عن مجاهد عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «يا أيها الناس اتقوا اللَّهَ حقَّ تقاتِه فلو أنّ قطرةً من الزَّقُوم قُطرتْ على الأرض لأمرَّتْ على أهل الدنيا معيشتهم، فكيفَ بمنْ هو طعامُه وليسَ له طعامٌ غيره»؟

قوله عزّ وجلّ: ﴿ واعْتَصِمُوا بحبلِ اللَّهِ جميعاً ﴾، الحبل: السبب الذي يُتوصّل به إلى البُغية، وسُمّي الإيمان حبلاً لأنه سببٌ يتوصلُ به إلى زوال الخوف، واختلفوا في معناه ههنا، قال ابن عباس: معناه تمسكوا بدين الله، وقال ابن مسعود: هو الجماعة، وقال: عليكم بالجماعة فإنها حبل الله الذي أمر به، وإن ما تكرهون في الجماعة والطاعة خيرٌ ممّا تُحبّون في الفرقة. وقال مجاهد وعطاء: بعهد الله، وقال قتادة والسدي: هو القرآن، ورُوِيَ عن ابن مسعود عن النبي ﷺ قال: «إنّ هذا القرآنَ هو حبلُ اللّهِ المتين، وهو النورُ المبين، والشفاءُ النافع،

بعضكم بعضاً. قيل معناه لا تحدثوا ما يكون عنه التفرق ويزول معه الاجتماع والألفة التي أنتم عليها ففيه النهي عن التفرق والاختلاف والأمر بالاتفاق والاجتماع لأن الحق لا يكون إلا واحداً وما عداه يكون جهلاً وضلالاً وإذا كان كذلك وجب النهي عن الاختلاف في الدين وعن الفرقة لأن كل ذلك كان عادة أهل الجاهلية فنهوا عنه وروى البغوي بسنده عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله يرضى لكم ثلاثاً ويسخط لكم ثلاثاً يرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً، وأن تناصحوا من ولى الله أمركم، ويسخط لكم ثلاثاً قيل وقال وإضاعة المال وكثرة السؤال».

قوله تعالى: ﴿واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً﴾ قال محمد بن إسحاق وغيره من أهل الأخبار كان الأوس والخزرج أخوين لأب وأم فوقعت بينهما عداوة قتيل ثم تطاولت تلك العداوة والحروب بينهم مائة وعشرين سنة إلى أن أطفأ الله ذلك بالإسلام وألف بينهم بنبيه محمد ﷺ. وسبب ذلك أن سويد بن الصامت أخابني عمرو بن عوف وكان شريفاً يسميه قومه الكامل لجلده ونسبه قدم مكة حاجاً أو معتمراً وكان رسول الله ﷺ قد بعث وأمر بالدعوة فتصدى له النبي حين سمع به ودعاه إلى الله عز وجل وإلى الإسلام فقال له سويد فلعل الذي معك مثل الذي معي فقال له رسول الله ﷺ وما الذي معك؟ قال مجلد لقمان يعني حكمة لقمان فقال له رسول الله ﷺ أعرضها علي فعرضها عليه فقال: إن هذا الكلام حسن ومعي أفضل من هذا قرآن أنزل الله عز وجل على نوراً وهدى فتلا عليه القرآن ودعاه إلى الإسلام فلم يبعد منه وقال: إن هذا القول قول حسن ثم انصرف إلى المدينة فلم يلبث أن قتله الخزرج يوم بعاث وإن قومه يقولون: قد قتل وهو مسلم. ثم قدم أبو الحيس أنس بن رافع ومعه فتية من بني عبد الأشهل فيهم إياس بن معاذ يلتمسون الحلف من قريش على قومهم من الخزرج فلما سمع بهم رسول الله ﷺ أتاهم وجلس إليهم وقال لهم: هل لكم إلى خير مما جئتم له قالوا وما هو؟ قال أنا رسول الله قد بعثني الله إلى العباد أدعوهم إلى أن لا يشركوا بالله شيئاً وأنزل على

وعصمةٌ الله لمَن تمسّك به، ونجاةٌ لمَن تبعه»، وقال مقاتل بن حيان: بحبل الله أي: بأمر الله وطاعته، ﴿ ولا تفرّقُوا ﴾، كما افترقتِ اليهود والنصارى، أخبرنا أبو الحسن السرخسي أنا زاهر بن أحمد أخبرنا أبو إسحق الهاشمي أخبرنا أبو مصعب عن مالك عن سهيل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إنّ الله تعالى يرضَى لكم ثلاثاً، يرضَى لكم أن تعبدوه ولا تُشركوا به شيئاً، وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً، وأن تُناصِحُوا مَن وَلّى اللّهُ أمركم، ويسخط لكم ثلاثاً: قِيْلَ وقالَ، وإضاعةَ المال، وكثرةَ السؤال». قوله تعالى: ﴿ واذْكُروا نِعمةَ اللّهِ عليكم إذْ كنتم أعداءً فألّفَ بين قُلوبِكم ﴾ قال محمد بن إسحق بن يسار وغيره من أهلِ الأخبار: كانت الأوس والخزرج أخوين لأب وأم فوقعتْ بينهما عداوةٌ بسبب قتيل قُتل بينهم، فتطاولت تلك العداوةُ والحربُ بينهم عشرين ومائة سنة إلى أن أطفأ الله عزّ وجلّ ذلك بالإسلام، وألّف بينهم برسوله محمد ﷺ، وكان سبب ألفتهم أن سويد بن الصامت أخا بني عمرو بن عوف وكان شريفاً يسمّيه قومه الكامل لجلَدِهِ ونسبه، وقَدِمَ مكة حاجّاً أو معتمراً، وكان رسول الله ﷺ قد بُعث وأُمر بالدعوة، فتصدّى له حين سمع به ودعاه إلى الله عزّ وجلّ وإلى الإسلام، فقال له سويد: فلعلّ الذي معك مثل الذي معي، فقال له رسول الله ﷺ: «وما الذي معك»؟ فقال: مُجلّد لقمان، يعني: حكمته، فقال له رسول الله ﷺ: «اعرضها عليّ» فعرضها، فقال: «إن هذا كلام حسن، ومعي أفضل من هذا، قرآنٌ أنزله الله عليّ نوراً وهدىً»، فتلا عليه القرآن ودعاه إلى الإسلام، فلم يَبْعُدْ منه ولم ينفرْ وسُرّ بذلك، وقال: إن هذا القول حسن، ثم انصرف إلى المدينة فلم يلبث أن قتله الخزرج قبل يوم بُعاث، فإنّ قومه ليقولون: إنه قد قتل وهو مسلم، ثم قَدِمَ أبو الجيسر أنس بن رافع، ومعه فئة من بني الأشهل فيهم إياس بن

الكتاب ثم ذكر الإسلام وتلا عليهم القرآن. قال إياس بن معاذ وكان غلاماً حدثاً أي قوم هذا والله خير مما جئتم له فأخذ أبو الحيس حفنة من البطحاء فضرب بها وجه إياس وقال: دعنا منك فلعمري لقد جئنا لغير هذا فصمت إياس وقام رسول الله ﷺ عنهم وانصرفوا إلى المدينة فكانت وقعة بعاث بين الأوس والخزرج فلم يلبث إياس بن معاذ أن هلك، فلما أراد الله عز وجل إظهار دينه وإعزاز نبيه ﷺ خرج رسول الله ﷺ في الموسم الذي لقي فيه النفر من الأنصار فعرض نفسه على القبائل من العرب كما كان يصنع في كل موسم فلقي عند العقبة رهطاً من الخزرج أراد الله بهم خيراً وهم ستة نفر أسعد بن زرارة وعوف بن الحارث وهو ابن عفراء ورافع بن مالك العجلاني وقطبة بن عامر بن خريدة وعقبة بن عامر بن بابي وجابر بن عبدالله رضي الله عنهم فقال لهم رسول الله ﷺ من أنتم قالوا نفر من الخزرج قال أمن موالي اليهود قالوا نعم قال: أفلا تجلسون حتى أكلمكم قالوا: بلى، فجلسوا معه فدعاهم إلى الله عز وجل وعرض عليهم الإسلام وتلا عليهم القرآن. قال: وكان مما صنع الله لهم به في الإسلام أن يهود كانوا معهم ببلادهم وكانوا أهل كتاب وعلم وهم أهل أوثان وشرك وكانوا إذا كان بينهم شيء قالوا: إن نبياً الآن مبعوث قد أظل زمانه سنتبعه ونقتلكم معه قتل عاد وإرم فلما كلم رسول الله ﷺ أولئك النفر ودعاهم إلى الله عز وجل قال بعضهم لبعض: يا قوم تعلمون والله أنه النبي الذي توعدكم به يهود فلا يسبقنكم إليه فأجابوه وصدقوه وأسلموا معه وقالوا إنا تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم فعسى الله أن يجمعهم بك وسنقدم عليهم وندعوهم إلى أمرك، فإن يجمعهم الله عليك فلا رجل أعز منك ثم انصرفوا عن رسول الله ﷺ راجعين إلى بلادهم فلما قدموا المدينة ذكروا لهم رسول الله ﷺ ودعوهم إلى الإسلام حتى فشا فيهم فلم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكر

معاذ يلتمسون الحِلْفَ من قريش على قوم من الخزرج، فلما سمع بهم رسول الله ﷺ أتاهم فجلس إليهم، وقال: «هل لكم إلى خيرٍ ممّا جِئْتُمْ له»؟ قالوا: وما ذلك؟ قال: «أنا رسول الله بعثني إلى العباد أدعوهم إلى أنْ لا يُشركوا بالله شيئاً، وأنزل الله عليّ الكتاب»، ثم ذكر لهم الإسلام وتلا عليهم القرآن فقال إياس بن معاذ وكان غلاماً حدثاً: أيْ قومِ هذا والله خيرٌ ممّا جئتم له، فأخذ أبو الجيسر حفنة من البطحاء فضرب بها وجه إياس وقال: دعْنَا منك فلعمري لقد جئنا لغير هذا، فصمت إياس وقام رسول الله ﷺ عنهم، وانصرفوا إلى المدينة، وكانت وقعة بُعاث بين الأوس والخزرج، ثم لم يلبث إياس بن معاذ أن هلك، فلما أراد الله عزّ وجلّ إظهار دينه وإعزازَ نبيّه خرج رسول الله ﷺ في الموسم الذي لقي فيه النفر من الأنصار ويُعرض نفسه على قبائل العرب كما كان يصنع في كل موسم، فلقي عند العقبة رهطاً من الخزرج أراد الله بهم خيراً، وهم ستة نفر: أسعد بن زرارة، وعوف بن الحارث وهو ابن عفراء، ورافع بن مالك العجلاني، وقطبة بن عامر بن خريدة، وعقبة بن عامر بن باني، وجابر بن عبد الله، فقال لهم رسول الله ﷺ: «مَنْ أنتم»؟ قالوا: نفرٌ من الخزرج، قال: «أمن موالي يهود»؟ قالوا: نعم، قال: «أفلا تجلسون حتى أُكلّمكم»؟ قالوا: بلى، فجلسوا معه فدعاهم إلى الله عزّ وجلّ وعرضَ عليهم الإسلام وتلا عليهم القرآن، قالوا: وكان مما صنع الله لهم به في الإسلام أن يهود كان معهم ببلادهم، وكانوا أهل أوثان وشرك، وكانوا إذا كان منهم شيء قالوا: إنّ نبياً الآن مبعوثٌ قد أظلّ زمانه، نتّبعه ونقتلكم معه قتل عاد وإرَم، فلمّا كلّم رسول الله ﷺ أولئك النفر ودعاهم إلى الله عزّ وجلّ قال بعضهم لبعض: يا قوم تعلمون والله إنه النبي الذي توعّدكم به يهود، فلا يسبقنّكم إليه، فأجابوه وصدّقوه وأسلموا، وقالوا: إنّا قد تركنا قومَنا ولا قوم بينهم من العداوة والشرّ ما بينهم، وعسى الله أن يجمعهم بك، وسنقدم عليهم فندعوهم إلى أمرك، فإن جمعهم الله عليك فلا رجل أعزّ منك، ثم انصرفوا عن رسول الله ﷺ راجعين إلى بلادهم قد آمنوا به ﷺ، فلما قَدِموا المدينة ذَكَرُوا لهم رسولَ الله ﷺ ودعوهم إلى الإسلام، حتى فشا فيهم فلم يبقَ دارٌ من دُور الأنصار إلّا وفيها ذكـرٌ من رسول الله ﷺ، حتى إذا كان العام المقبل

رسول الله ﷺ حتى إذا كان العام المقبل وافى الموسم من الأنصار اثنا عشر رجلاً وهم أسعد بن زرارة وعوف ومعاذ ابنا عفراء ورافع بن مالك العجلاني وذكوان بن عبدالقيس وعبادة بن الصامت وزيد بن ثعلبة وعباس بن عبادة وعقبة بن عامر وقطبة بن عامر فهؤلاء خزرجيون وأبو الهيثم بن التيهان وعويم بن ساعدة من الأوس فلقوه بالعقبة وهي العقبة الأولى فبايعوا رسول الله ﷺ على بيعة النساء على أن لا يشركن بالله شيئاً ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ولا يعصينك في معروف الآية فإن وفيتم فلكم الجنة وإن غشيتم شيئاً من ذلك فأخذتم بحده في الدنيا فهو كفارة وإن ستر عليكم فأمركم إلى الله عز وجل إن شاء عذبكم وإن شاء غفر لكم قال وذلك قبل أن يفرض الحرب، قال: فلما انصرف القوم بعث معهم مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف وأمره أن يقرئهم القرآن ويعلمهم الإسلام ويفقههم في الدين وكان يسمى مصعب بالمدينة المقرىء، وكان منزله على أسعد بن زرارة ثم إن أسعد بن زرارة خرج ومصعب فدخل به حائطاً من حوائط بني ظفر فجلسا في الحائط واجتمع إليهما رجال ممن أسلم فقال سعد بن معاذ لأسيد بن حضير انطلق إلى هذين الرجلين اللذين أتيا دارنا ليسفها ضعفاءنا فازجرهما فإن أسعد بن خالتي ولولا ذلك لكفيتكه، وكان سعد بن معاذ وأسيد بن حضير سيدي قومهما من بني عبد الأشهل وهما بعد مشركان فأخذ أسيد بن حضير حربته ثم أقبل إلى مصعب: وأسعد وهما جالسان في الحائط فلما رآه أسعد بن زرارة قال لمصعب هذا سيد قومه قد جاءك فاصدق الله فيه قال مصعب إن يجلس أكلمه فلما وقف عليهما متشتماً وقال ما جاء بكما إلينا تسفهان ضعفاءنا اعتزلا إن كانت لكما في أنفسكما حاجة قال له مصعب أو تجلس فتسمع فإن رضيت أمراً قبلته وإن كرهته كف عنك ما تكره؟ قال: أنصفت ثم ركز حربته وجلس إليهما فكلمه مصعب بالإسلام وقرأ عليه القرآن قال والله لعرفنا الإسلام في وجهه قبل أن يتكلم من إشراقه وتسهله ثم قال ما أحسن هذا وأجمله كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا في هذا الدين

أتى الموسم من الأنصار اثنا عشر رجلاً وهم: أسعد بن زرارة، وعوف ومعاذ ابنا عفراء، ورافع بن مالك العجلاني، وذكوان بن عبد القيس، وعبادة بن الصامت، ويزيد بن ثعلبة، وعباس بن عبادة، وعقبة بن عامر، وقطبة بن عامر، وهؤلاء خزرجيّون، وأبو الهيثم بن التيهان وعويم بن ساعدة من الأوس، فلقوه بالعقبة وهي بيعة العقبة الأولى، فبايعوا رسول الله ﷺ على بيعة النساء، على أن لا يُشركوا بالله شيئاً ولا يسرقوا ولا يزنوا، إلى آخر الآية، فإن وفّيتم فلكم الجنة، وإن غشيتم شيئاً من ذلك فأُخذتم بحدّه في الدنيا فهو كفّارةٌ له، وإن ستر عليكم فأمركم إلى الله إن شاء عذّبكم وإن شاء غفر لكم، قال: وذلك قبل أن يُفرض عليهم الحرب، قال: فلمّا انصرف القوم بعث معهم رسول الله ﷺ مُصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف، وأمرَهُ أن يقرئهم القرآن ويُعلّمهم الإسلام ويُفقهَهم في الدين، وكان مُصعب يُسمى بالمدينة المقرىء، وكان منزله على أسعد بن زرارة، ثم إن أسعد بن زرارة خرج بمصعب فدخل به حائطاً من حوائط بني ظفر، فجلسا في الحائط واجتمع إليهما رجال ممّن أسلم، فقال سعد بن معاذ لأسيد بن حُضير: انطلق إلى هذين الرجلين اللذين قد أتيَا دارَنا ليسفّها ضعفاءَنا فازجرهما، فإن أسعد بن زرارة ابن خالتي ولولا ذاك لكفيتكه، وكان سعد بن معاذ وأُسيد بن حضير سَيِّدَيْ قومهما من بني عبد الأشهل وهما مشركان، فأخذ أُسيد بن حضير حربته ثم أقبل إلى مصعب وأسعد وهما جالسان في الحائط، فلما رآه أسعد بن زرارة قال لمصعب: هذا والله سيد قومه قد جاءك، فأصدِقِ اللّهَ فيه، قال مصعب: إنْ يجلسْ أكلِّمْهُ، قال: فوقف عليهما متشتّماً، فقال: ما جاء بكم إلينا تسفهان ضعفاءنا؟ اعتزلا إن كانت لكما في أنفسكما حاجة، فقال له مصعب: أوَ تجلس فتسمع؟ فإن رضيت أمراً قبلته وإن كرهته كُفّ عنك ما تكره، قال: أنصفتَ، ثم ركَز حربته وجلس إليهما، فكلّمه مصعب بالإسلام وقرأ عليه القرآن، والله لَعَرفنَا في وجهه الإسلام قبل أن يتكلم في إشراق

قالا تغتسل وتطهر ثوبك وتشهد شهادة الحق ثم تصلي ركعتين فقام واغتسل وطهر ثوبه وشهد شهادة الحق ثم صلى ركعتين ثم قال: إن ورائي رجلاً إن تبعكما لم يتخلف عنه أحد من قومه وسأرسله إليكما الآن سعد بن معاذ ثم أخذ حربته فانصرف إلى سعد وقومه وهم جلوس في ناديهم فلما نظر سعد إلى أسيد مقبلاً قال أحلف بالله لقد جاءكم أسيد بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم فلما وقف أسيد على النادي قال له سعد ما فعلت قال كلمت الرجلين فوالله ما رأيت بهما بأساً وقد نهيتهما فقال: لا نفعل إلا ما أحببت وقد حدثت أن بني حارثة خرجوا إلى أسعد بن زرارة ليقتلوه وذلك أنهم عرفوا أنه ابن خالتك ليحقروك فقام سعد مغضباً للذي ذكره من بني حارثة فأخذ الحربة ثم قال والله ما أراك أغنيت شيئاً فانصرف إليهما فلما رآهما مطمئنين عرف أن أسيداً إنما أراد أن يسمع منهما فوقف عليهما متشتماً ثم قال لأسعد بن زرارة: لولا ما بيني وبينك من القرابة ما رمت هذا مني تغشانا في دارنا بما نكره وقد كان قال أسعد لمصعب: جاءك والله سيد قومه إن يتبعك لم يخالفك أحد منهم، فقال له مصعب: أو تقعد فتسمع فإن رضيت أمراً ورغبت فيه قبلته وإن كرهته عَزلنا عنك ما تكره فقال سعد: أنصفت ثم ركزا الحربة وجلس فعرض عليه مصعب الإسلام وقرأ عليه القرآن قالا فعرفنا والله الإسلام في وجهه قبل أن يتكلم من إشراق وجهه وتسهله ثم قال: كيف تصنعون إذا أسلمتم ودخلتم في هذا الدين؟ قالا: تغتسل وتطهر ثوبك ثم تشهد شهادة الحق ثم تصلّي ركعتين. فقام واغتسل وطهر ثوبه وشهد شهادة الحق وركع ركعتين ثم أخذ حربته وأقبل عامداً إلى نادي قومه ومعه أسيد بن حضير فلما رأوه مقبلاً قالوا نحلف بالله لقد رجع سعد إليكم بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم فلما وقف عليهم قال: يا بني عبد الأشهل كيف تعلمون أمري فيكم قالوا سيدنا وأفضلنا رأياً وأيمننا نقيبة. قال: فإن كان رجالكم ونسائكم عليّ حرام حتى تؤمنوا بالله ورسوله قال فما أمسى في دار بني الأشهل رجل ولا

وجهه وتسهّله، ثم قال: ما أحسن هذا وأجمله! كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا في هذا الدين؟ قالا له: تغتسلُ وتُطهِّرُ ثوبَك ثم تشهد شهادة الحق، ثم تصلّي ركعتين، فقام واغتسل وطهّر ثوبه، وشهد شهادة الحق ثم قام وركع ركعتين، ثم قال لهما: إنّ ورائي رجلاً إن اتّبعكما لم يتخلّف عنه أحد من قومه سأرسله إليكما الآن هو سعد بن معاذ، ثم أخذ حربته فانصرف إلى سعد وقومه، وهم جلوس في ناديهم، فلما نظر إليه سعد بن معاذ مقبلاً قال: أحلف بالله لقد جاءكم أسيد بغير الوجه الذي ذهب من عندكم، فلما وقف على النادي قال: قال له سعد: ما فعلت؟ قال: كلّمتُ الرجلين فوالله ما رأيتُ بهما بأساً وقد نهيتُهما، فقالا: فافعل ما أحببت وقد حُدّثتُ أن بني حارثة خرجوا إلى أسعد بن زُرارة ليقتلوه، وذلك أنهم عرفوا أنه ابن خالتك ليخفروك فقام سعد مغضباً مبادراً للذي ذكره له من بني حارثة، فأخذ الحربة، ثم قال: والله ما أراك أغنيت شيئاً فلما رآهما مطمئنين عرف أن أسيداً إنما أراد أن يسمع منهما فوقف عليهما متشتماً، ثم قال لأسعد بن زرارة: لولا ما بيني وبينك من القرابة ما رمت هذا منّي تغشانا في دارنا بما نكره، فقال أسعد لمصعب: جاءك والله سيد قومه، وإن اتبعك لم يخالفك منهم أحد فقال مصعب: أَوَ تقعد فتسمع فإن رضيتَ أمراً ورغبتَ فيه قبلتَه، وإن كرهته عَزلنا عنك ما تكره، قال سعد أنصفت، ثم ركَزَ الحربة فجلس، فعرض عليه الإسلام وقرأ عليه القرآن، قالا: فعرفنا والله في وجهه الإسلام قبل أن يتكلم في إشراقه وتسهيله، ثم قال لهما: كيف تصنعون إذا أنتم أسلمتم ودخلتم في هذا الدين؟ قالا له: تغتسل وتطهر ثوبك، ثم تشهد شهادة الحق ثم تصلّي ركعتين، فقام واغتسل وطهّر ثوبه ثم تشهَّد شهادة الحق وركع ركعتين، ثم أخذ حربته فأقبل عامداً إلى نادي قومه ومعه أسيد بن حضير، فلما رآه قومه مقبلاً قالوا: نحلف بالله لقد رجع إليكم سعد بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم، فلما وقف عليهم قال: يا بني عبد الأشهل كيف تعلمون أمري فيكم؟ قالوا: سيدنا وأفضلنا رأياً وأيمننا نقيبةً قال: فإن كلام رجالكم ونسائكم عليّ حرام حتى تؤمنوا بالله ورسوله، قال: فما أمسى في

امرأة إلا مسلم ومسلمة ورجع أسعد بن زرارة ومصعب بن عمير إلى منزل أسعد فأقام عنده يدعو الناس إلى الإسلام حتى لم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رجال ونساء مسلمون ومسلمات إلاّ ما كان من دار أمية بن زيد وخطمة ووائل ووافق ذلك أنه كان فيهم أبو قيس بن الأسلت الشاعر وكانوا يسمعون منه ويطيعونه فوقف بهم عن الإسلام حتى هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة ومضى بدر وأحد والخندق قالوا ثم إن مصعب بن عمير رجع إلى مكة وخرج معه من الأنصار المسلمين سبعون رجلاً مع حجاج قومهم من أهل الشرك حتى قدموا مكة فوعدوا رسول الله ﷺ العقبة من أوسط أيام التشريق وهي بيعة العقبة الثانية قال كعب ابن مالك وكان قد شهد ذلك فلما فرغنا من الحج وكانت الليلة التي واعدنا رسول الله ﷺ ومعنا عبدالله بن عمرو بن حرام أبو جابر أخبرناه وكنا نكتم من معنا من المشركين من قومنا أمرنا فكلمناه وقلنا: يا أبا جابر إنك سيد من ساداتنا وشريف من أشرافنا، وإنا نرغب بك عما أنت فيه أن تكون حطباً للنار غداً ودعوناه إلى الإسلام فأسلم فأخبرناه بميعاد رسول الله ﷺ فشهد معنا العقبة وكان نقيباً فبتنا تلك الليلة مع قومنا في رحالنا حتى إذا مضى ثلث الليل خرجنا لميعاد رسول الله ﷺ نتسلل مستخفين تسلل القطا حتى اجتمعنا في الشعب عند العقبة ونحن سبعون رجلاً ومعنا امرأتان من نسائنا نسيبة بنت كعب أم عمارة إحدى نساء بني النجار وأسماء بنت عمرو بن عدي أم منيع إحدى نساء بني سلمة فاجتمعنا بالشعب ننتظر رسول الله ﷺ حتى جاءنا ومعه عمه العباس ابن عبدالمطلب وهو يومئذ على دين قومه إلا أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه ويتوقف له فلما جلسنا كان أول من تكلم العباس بن عبدالمطلب فقال: يا معشر الخزرج وكانت العرب يسمون هذا الحي من الأنصار الخزرج خزرجها وأوسها إن محمداً منا حيث قد علمتم وقد منعناه عن قومنا ممن هو على مثل رأينا وهو في عز من قومه ومنعة في بلده وإنه قد أبى إلا الانقطاع إليكم واللحوق

الدار لبني عبد الأشهل رجلٌ ولا امرأةٌ إلاّ مسلم أو مسلمة، ورجع أسعد بن زرارة ومصعب إلى منزل أسعد بن زرارة، فأقام عنده يدعو الناس إلى الإسلام حتى لم يبق دار من دور الأنصار إلاّ وفيها رجال ونساء مسلمون إلاّ ما كان من دار بني أمية بن زيد وخطمة ووائلاً وواقف، وذلك أنه كان فيهم أبو قيس بن الأسلت الشاعر، وكانوا يسمعون منه ويطيعونه فوقف بهم عن الإسلام حتى هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة، ومضى بدرٌ وأُحُد والخندق، قال: ثم إن مصعب بن عمير رجع إلى مكة وخرج معه من الأنصار من المسلمين سبعون رجلاً مع حجّاجِ قومهم من أهل الشرك حتى قَدِموا مكة فواعدُوا رسولَ الله ﷺ العقبة من أوسط أيام التشريق وهي بيعة العقبة الثانية قال كعب بن مالك: وكان قد شهد ذلك فلما فرغنا من الحج، وكانت تلك الليلة التي واعدنا فيها رسول الله ﷺ، ومعنا عبد الله بن عمرو بن حرام أبو جابر أخبرناه وكنّا نكتم عمّن معنا من المشركين من قومنا أمرنا فكلّمناه، وقلنا له: يا أبا جابر إنك سيد من ساداتنا وشريف من أشرافنا وإنّا نرغب بك عمّا أنت فيه أن تكون حطباً للنار غداً، ودعوناه إلى الإسلام فأسلم، وأخبرناه بميعاد رسول الله ﷺ فشهد معنا العقبة، وكان نقيباً، فبتنا تلك الليلة مع قومنا في رحالنا حتى إذا مضى ثلث الليل خرجنا لميعاد رسول الله ﷺ نتسلّل مستخفين تسلّل القطا، حتى اجتمعنا في الشِّعب عند العقبة، ونحن سبعون رجلاً ومعنا امرأتان من نسائنا نسيبة بنت كعب بن عمارة إحدى نساء بني النجار، وأسماء بنت عمرو بن عدي أم منيع إحدى نساء بني سلمة، فاجتمعنا بالشعب ننتظر رسول الله ﷺ، حتى جاءنا ومعه عمّه العباس بن عبد المطّلب، وهو يومئذٍ على دين قومه إلاّ أنه أحبَّ أن يحضر أمر ابن أخيه، ويتوثق له، فلما جلسنا كان أول مَن تكلم العباس بن عبد المطلب، فقال: يا معشر الخزرج وكانت العرب إنما يسمّون هذا الحي من الأنصار خزرجها وأوسها أن محمداً ﷺ منّا حيث قد علمتم، وقد منعناه من قومنا ممّن هو على مثل رأينا وهو في عزٍّ من قومه ومنعة في بلده، وأنه قد أبى إلاّ الانقطاع إليكم واللحوق بكم، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه

بكم، فإن كنتم ترون أنكم وافون بما دعوتموه إليه ومانعوه ممن خالفه فأنتم وما تحملتم به من ذلك، وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج إليكم فمن الآن فدعوه فإنه في عزو ومنعة قال فقلنا: قد سمعنا ما قلت فتكلم يا رسول الله وخذ لنفسك ولربك ما شئت فتكلم رسول الله ﷺ فتلا القرآن ودعا إلى الله عز وجل ورغب في الإسلام ثم قال أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم ونساءكم وأبناءكم قال فأخذ البراء بن معرور بيده ثم قال والذي بعثك بالحق نبيّاً لنمعنك مما نمنع منه أزرنا فبايعنا يا رسول الله فنحن أهل الحرب وأهل الحلقة ورثناهما كابراً عن كابر فاعترض القول والبراء يكلم رسول الله ﷺ أبو الهيثم بن التيهان فقال: يا رسول الله إن بيننا وبين الناس حبالاً يعني عهوداً وإنا قاطعوها فهل عسيت إن فعلنا ذلك ثم أظهرك أن ترجع إلى قومك وتدعنا فتبسم رسول الله ﷺ ثم قال: بل الدم الدم والهدم الهدم أنتم مني وأنا منكم أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم وقال رسول الله ﷺ: أخرجوا إلى مننكم اثني عشر نقيباً كفلاء على قومهم بما فيهم ككفالة الحواريين لعيسى ابن مريم فأخرجوا اثني عشر نقيباً تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس قال عاصم بن عمرو بن قتادة إن القوم لما اجتمعوا لبيعة رسول الله ﷺ قال العباس بن عبادة بن نضلة الأنصاري: يا معشر الخزرج هل تدرون علام تبايعون هذا الرجل إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود، فإن كنتم ترون أنكم إذا نهكت أموالكم مصيبة وأشرافكم قتلاً أسلمتموه فمن الآن فهو والله خزي في الدنيا والآخرة وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه على نهكة الأموال وقتل الأشراف فخذوه فهو والله خير الدنيا والآخرة. قالوا فإنا نأخذ على مصيبة الأموال وقتل الأشراف فما لنا بذلك يا رسول الله إن نحن وفينا قال الجنة قالوا ابسط يدك فبسط يده فبايعوه وأول من ضرب على يده البراء بن معرور ثم تتابع القوم قال فلما بايعنا رسول الله ﷺ صرخ الشيطان من رأس العقبة بأنفذ صوت ما سمعته قط يا أهل الحباحب هل لكم في مذمم والصباة معه قد اجتمعوا على حربكم فقال رسول الله ﷺ: هذا عدو الله هذا أزب العقبة يعني

إليه ومانعوه ممّن خالفه، فأنتم وما تحمّلتم من ذلك، وإن كنتم ترون أنكم مُسْلِمُوه وخاذلوه بعد الخروج إليكم فمن الآن فدعوه، فإنه في عزٍّ ومِنعةٍ، قال: فقلنا قد سمعنا ما قلت: فتكلَّمْ يا رسول الله وخذْ لنفسك ولربِّك ما شئت، قال: فتكلّم رسول الله ﷺ فتلا القرآن ودعا إلى الله تعالى ورغب في الإسلام، ثم قال: أُبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسَكم ونساءَكم وأبناءَكم، قال: فأخذ البراء بن مَعْرُور بِيَدِهِ ثم قال: والذي بعثك بالحق نبيّاً لنمنعك مما نمنع منه أُزُرَنا فبايِعْنَا يا رسول الله، فنحن أهل الحرب وأهل الحلقة ورثناها كابراً عن كابر، قال فاعترض القول والبراء يكلّم رسول الله ﷺ أبو الهيثم بن التيهان، فقال: يا رسول الله إن بيننا وبين الناس حَبالاً يعني العهود، وإنّا قاطعوها فهل عسيتَ إن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا، فتبسّم رسولُ الله ﷺ، ثم قال: «لا بل الأبدَ الأبدَ الدمَ الدمَ والهدمَ الهدمَ، أنتم منّي وأنا منكم أُحاربُ مَن حاربتم وأُسالم مَن سالمتم»، وقال رسول الله ﷺ: «أخرجوا إليّ منكم اثني عشر نقيباً كفلاءَ على قومهم بما فيهم، ككفالة الحواريين لعيسى ابن مريم»، فأخرجوا اثني عشر نقيباً تسعةً من الخزرج وثلاثةً من الأوس، قال عاصم بن عمرو بن قتادة: إن القوم لمّا اجتمعوا لبيعة رسول الله ﷺ قال العباس بن عُبادة بن نضلة الأنصاري: يا معشر الخزرج هل تدرون علامَ ما تبايعون هذا الرجل؟ إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود، فإن كنتم ترون أنكم إذا أُنهكت أموالُكم مصيبةً وأشرافكم قتلاً أسلمتموه، فمِنَ الآن فهو والله إن فعلتم خِزْيٌ في الدنيا والآخرة، وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دَعوتُموه إليه على نهك الأموال وقتل الأشراف فخذوهُ فهو والله خير في الدنيا والآخرة، قالوا: فإنّا نأخذه على مصيبة الأموال وقتل الأشراف، قالوا: فما لنا بذلك يا رسول الله إن نحن وفَّينا؟ قال: «الجنة»، قال: ابسطْ يدَكَ فبسطَ يده فبايعوه، وأول مَن ضرب على يده البراء بن مَعْرُور، ثم تتابع القوم، فلما بايعنا رسول الله ﷺ صرخ الشيطان من رأس العقبة

شيطان العقبة اسمع أي عدو الله أما والله لأفرغن لك ثم قال رسول الله ﷺ: انفضوا إلى رحالكم فقال العباس بن عبادة بن نضلة والذي بعثك بالحق لئن شئت لنميلن على أهل منى بأسيافنا فقال رسول الله ﷺ: لم نؤمر بذلك ولكن ارجعوا إلى رحالكم فرجعنا إلى مضاجعنا فنمنا عليها حتى أصبحنا فلما أصبحنا غدت علينا جلة قريش حتى جاؤونا في منازلنا فقالوا: يا معشر الخزرج بلغنا أنكم جئتم صاحبنا هذا تستخرجونه من بين أظهرنا وتبايعونه على حربنا وإنه والله ماحي من العرب أبغض إلينا أن تنشب الحرب بيننا وبينه منكم قال فانبعث من هناك من مشركي قومنا يحلفون بالله ما كان من هذا شيء وما علمناه وصدقوا لم يعلموا به وبعضنا ينظر إلى بعض وقام القوم وفيهم الحارث بن هشام بن المغيرة المخزومي وعليه نعلان جديدتان قال: فقلت له كلمة كأني أريد أن أشرك القوم بها فيما قالوه يا أبا جابر أما تستطيع أن تتخذ وأنت سيد من ساداتنا مثل نعلي هذا الفتى من قريش قال فسمعها الحارث فخلعهما من رجليه ورمى بهما إليّ وقال والله لتنتعلنهما قال أبو جابر مه والله أحفظت الفتى فاردد إليه نعليه قال فقلت لا أردهما قال: والله يا أبا صالح لئن صدق الفأل لأسلبنه قال: ثم انصرف الأنصار إلى المدينة وقد شدوا العقد فلما قدموها أظهروا الإسلام بها وبلغ ذلك قريشاً فآذوا أصحاب رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ لأصحابه: «إن الله قد جعل لكم إخواناً وداراً تأمنون فيها» فأمرهم بالهجرة إلى المدينة واللحوق بإخوانهم من الأنصار فأول من هاجر إلى المدينة أبو سلمة بن عبدالأسد المخزومي ثم عامر بن ربيعة ثم عبدالله بن جحش ثم تتابعوا أصحاب رسول الله ﷺ أرسالاً إلى المدينة ثم هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة فجمع الله عز وجل أهل المدينة أوسها وخزرجها بالإسلام، وأصلح ذات بينهم بنبيه عليه الصلاة والسلام وأنزل الله عز وجل: ﴿واذكروا﴾ يعني يا معشر الأنصار ﴿نعمة الله عليكم﴾ يعني بالإسلام ﴿إذ كنتم أعداء﴾ يعني قبل الإسلام ﴿فألف بين قلوبكم﴾ يعني بالإسلام

صوتاً ما سمعتُه قطّ: يا أهل الحباحب أهل لكم في مذمّم والصباة قد اجتمعوا على حربكم، فقال رسول الله ﷺ: «هذا عدوّ الله هذا أزبّ العقبة، اسمع أي عدوّ الله أما والله لأفرغنّ لك»، ثم قال رسول الله ﷺ: «ارفضوا إلى رحالكم»، فقال العباس بن عبادة بن نضلة: والذي بعثك بالحق لئن شئت لَيُملْنَ غداً على أهل منىً بأسيافنا، فقال رسول الله ﷺ: «لم نُؤمر بذلك ولكن ارجعوا إلى رحالكم»، قال: فرجعنا إلى مضاجِعنا فنمنا عليها حتى أصبحنا فلما أصبحنا غدتْ علينا جِلّةُ قريش حتى جاؤونا في منازلنا، فقالوا: يا معشر الخزرج بلغنا أنكم جئتم صاحبنا هذا تستخرجونه من بين أظهرنا وتبايعونه على حربنا، فإنه والله ما حيٌّ من العرب أبغض إلينا أن ينشب بالحرب بيننا وبينهم منكم، قال: فانبعث مِنْ هناك مَنْ مشركي قومنا يحلفون لهم بالله ما كان من هذا شيء وما علمناه، وصدّقوا لم يعلمُوا وبعضُنا ينظر إلى بعض، وقام القوم وفيهم الحارث بن هشام بن المغيرة المخزومي وعليه نعلان جديدان، قال: فقلت له كلمة كأني أُريد أن أُشرِك القوم بها فيما قالوا: يا أبا جابر أما تستطيع أن تتخذ وأنت سيد من سادتنا مثل نعلي هذا الفتى من قريش، قال: فسمعها الحارث فخلعهما من رجليه ثم رمى بهما إليّ فقال: والله لتنعلنّهما، قال: يقول أبو جابر رضي الله عنه: مه والله لقد أحفظت الفتى فارددْ إليه نعله، قال: لا أردّهما، قال: والله يا أبا صالح والله لئن صدق الفأل لأسلبنّه، قال: ثم انصرف الأنصار إلى المدينة وقد شدّدوا العقد، فلما قَدِموها أظهروا الإسلام بها وبلغ ذلك قريشاً فآذوا أصحاب رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ لأصحابه: «إن الله تعالى قد جعل لكم إخواناً وداراً تأمنون فيها» وأمرهم بالهجرة إلى المدينة واللحوق بإخوانهم من الأنصار، فأول مَن هاجر إلى المدينة أبو سلمة بن عبد الأسد المخزومي، ثم عامر بن ربيعة ثم عبد الله بن جحش ثم تتابع أصحاب رسول الله ﷺ أرْسالاً إلى المدينة فجمع الله أهلَ المدينة أوسَها وخزرَجها بالإسلام وأصلح ذات بينهم بنبيّه محمد ﷺ، قال الله تعالى: ﴿ واذكروا نعمةَ اللّهِ عليكم ﴾ يا معشر الأنصار ﴿ إذْ كنتم أعداءً ﴾ قبل الإسلام ﴿ فألّف بين

وبنبيّه عليه الصلاة والسلام فأصبحتم بنعمته إخواناً يعني فصرتم برحمته وبدينه الإسلام إخواناً في الدين والولاية بعد العداوة ﴿وكنتم﴾ يا معشر الأوس والخزرج ﴿على شفا حفرة من النار﴾ يعني على طرف حفرة مثل شفا البئر ليس بينكم وبين الوقوع في النار إلا أن تموتوا على كفركم ﴿فأنقذكم منها﴾ أي فخلصكم بالإيمان من الوقوع في النار ﴿كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون﴾.

﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر﴾ اللام في قوله ولتكن لام الأمر أي لتكن منكم أمة دعاة إلى الخير، وقيل إن كلمة من في قوله منكم للتبيين لا للتبعيض وذلك لأن الله عز وجل أوجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على كل الأمة في قوله تعالى: ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر﴾ فيجب على كل مكلف الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إما بيده أو بلسانه أو بقلبه (م) عن أبي سعيد الخدري قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان» فعلى هذا يكون معنى الآية كونوا أمة دعاة إلى الخير آمرين بالمعروف ناهين عن المنكر ومن قال بهذا القول يقول: إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض كفاية إذا قام به واحد سقط الفرض عن الباقين، وقيل إن من هنا للتبعيض وذلك لأن في الأمة من لا يقدر على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لعجز وضعف فحسن إدخال لفظ من في قوله ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير وقيل إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إنما يختص بالعلماء وولاة الأمر فعلى هذا يكون المعنى ليكن بعضكم آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر. (خ) عن النعمان بن بشير عن النبي ﷺ قال: «مثل القائم في حدود الله والواقع فيها

﴿قلوبكم﴾ بالإسلام، ﴿فأصبحتم﴾، أي فصرتم، ﴿بنعمتِهِ﴾، برحمته وبدينه الإسلام، ﴿إخواناً﴾ في الدِّين والولاية بينكم. ﴿وكنتم﴾ يا معشر الأوس والخزرج ﴿على شَفَا حُفرةٍ من النار﴾، أي على طرف حفرة مثل شفا البئر، معناه: وكنتم على طرف حفرة من النار ليس بينكم وبين الوقوع فيها إلّا أن تموتوا على كفركم، ﴿فأنقذكم﴾ الله ﴿منها﴾ بالإيمان، ﴿كذلك يُبيِّن اللَّهُ لكم آياتِهِ لعلّكم تهتدون﴾.

﴿ولْتَكُنْ مِنكم أُمّةٌ﴾، أي: ولتكونوا أمةً، ﴿مِنْ﴾ صلة ليست للتبعيض، كقوله تعالى: ﴿فاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأوثان﴾ [الحج: ٣٠] لم يُرِدْ اجتناب بعضَ الأوثان بل أراد فاجتنبوا الأوثان، واللام في قوله: ﴿ولتكن﴾ لام الأمر، ﴿يدعُون إلى الخير﴾، إلى الإسلام، ﴿ويأمُرون بالمعروفِ وينهونَ عنِ المنكرِ وأولئك هم المفلحون﴾. أخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر قال: أنا عبد الغافر بن محمد قال: أخبرنا محمد بن عيسى الجلودي أخبرنا إبراهيم بن محمد بن سفيان ثنا مسلم بن الحجّاج حدّثنا أبو بكر محمد بن أبي شيبة أخبرنا وكيع عن سفيان عن قيس بن مسلم عن طارق بن شهاب قال: قال أبو سعيد رضي الله عنهما سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ رأى منكم منكراً فليغيّره بيده فإن لم يستطع فَبِلِسَانِه فإن لم يستطعْ فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان»، أخبرنا أبو عبد الله محمد بن الفضل الخرقي قال: أخبرنا أبو الحسن الطيسفوني أخبرنا عبد الله بن عمرو الجوهري أخبرنا أحمد بن علي الكشمهيني أخبرنا علي بن حجر أخبرنا إسماعيل بن جعفر أنا عمرو بن أبي عمرو عن عبد الله بن عبد الرحمن الأشهل عن حذيفة أن النبي ﷺ قال: «والذي نفسي بيده لتأمُرنّ بالمعروف ولتنهونّ عن المنكر أو ليوشِكَنّ اللَّهُ أن يبعث عليكم عذاباً من عنده ثم لَتدعُنّه فلا يُستجاب لكم»، أخبرنا الإمام أبو علي الحسين بن محمد القاضي أخبرنا أبو طاهر محمد بن محمد بن محمش الزيادي أخبرنا أبو بكر محمد بن الحسين القطّان أنا علي بن الحسين

كمثل قوم استهموا على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها فكان الذي في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقاً ولم نؤذ من فوقنا فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً وإن أخذوا على أيديهم نجوا جميعاً» والخير المذكور في الآية هو كل شيء يرغب فيه من الأفعال الحسنة وقيل: هو هنا كناية عن الإسلام والمعنى لتكن أمة أي جماعة دعاة إلى الإسلام وإلى كل فعل حسن يستحسن في الشرع والعقل وقيل الدعوة إلى فعل الخير يندرج تحتها نوعان: أحدهما: الترغيب في فعل ما ينبغي وهو الأمر بالمعروف. والثاني: الترغيب في ترك ما لا ينبغي وهو النهي عن المنكر فذكر الحسن أولاً وهو الخير ثم أتبعه بنوعيه مبالغة في البيان والمعروف اسم لكل فعل يعرف بالعقل والشرع حسنه والمنكر ضد ذلك وهو ما عرف بالعقل والشرع قبحه وقوله تعالى: ﴿وأولئك هم المفلحون﴾ تقدم تسيره. قوله عز وجل:

وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾

﴿ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا﴾ يعني ولا تكونوا يا معشر المؤمنين كالذين تفرقوا يعني أهل الكتاب وهم اليهود والنصارى في قول أكثر المفسرين واختلفوا في دين الله وأمره ونهيه، وقيل تفرقوا واختلفوا بمعنى واحد وإنما ذكرهما للتأكيد وقيل تفرقوا بسبب العداوة واتباع الهوى واختلفوا في دين الله فصاروا فرقاً مختلفين قال الربيع في هذه الآية: هم أهل الكتاب نهى الله أهل الإسلام أن يتفرقوا أو يختلفوا كما تفرق واختلف أهل الكتاب. وقال ابن عباس: أمر الله المؤمنين بالجماعة ونهاهم عن الاختلاف والفرقة وأخبرهم إنما هلك من كان قبلهم بالمراء والخصومات في الدين. وقال بعضهم: هم المبتدعة من هذه الأمة وقال أبو أمامة: هم الحرورية: قال عبدالله بن شداد: وقف أبو أمامة وأنا معه على رؤوس الحرورية على درج جامع دمشق فذرفت عيناه ثم قال: كلاب أهل النار

الدراوردي أخبرنا أبو النعمان أخبرنا عبد العزيز بن مسلم المقسميلي أنا إسماعيل بن أبي خالد عن قيس بن أبي حازم قال: سمعت أبا بكر الصديق رضي الله عنه يقول: يا أيها الناس إنكم تقرؤون هذه الآية: ﴿ يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضرُّكم مَنْ ضلَّ إذا اهتديتم ﴾ [المائدة: ١٠٥]، وإني سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إن الناس إذا رأوا منكراً فلم يغيّروه يوشك أن يعمهم الله تعالى بعقابه»، أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا عمرو بن حفص بن غياث أخبرنا أبي أنا الأعمش حدّثني الشعبي أنه سمع النعمان بن بشير رضي الله عنه يقول: قال النبي ﷺ: «مثل المداهن في حدود الله تعالى والواقع فيها، كمثل قوم اسْتَهَمُوا على سفينة فصار بعضهم في أسفلها وصار بعضهم في أعلاها، فكان الذي في أسفلها يمرّ بالماء على الذين في أعلاها فتأذّوا به فأخذ فأساً فجعل ينقر أسفل السفينة، فأتوه فقالوا: ما لك؟ قال: تأذّيتم به ولا بدّ لي من الماء، فإن أخذوا على يديه أنجوه وأنجوا أنفسهم وإن تركوه أهلكوه وأهلكوا أنفسهم».

قوله تعالى: ﴿ ولا تكوُنوا كالذين تفرّقوا واختلفوا من بعد ما جاءَهُم البيّناتُ ﴾، قال أكثر المفسّرين: هم اليهود والنصارى، وقال بعضهم: المبتدعة من هذه الأمة، وقال أبو أمامة رضي الله عنه: هم الحرورية بالشام. قال عبد الله بن شداد: وقف أبو أمامة وأنا معه على رأس الحرورية بالشام فقال: هم كلاب النار، كانوا مؤمنين فكفروا بعدَ إيمانهم، ثم قرأ ﴿ ولا تكونُوا كالذين تفرّقُوا واختلفُوا مِنْ بعدِ ما جاءَهُم البيناتُ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ أكفرتمْ بعدَ إيمانكم ﴾، أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحي أنا أبو الحسن بن بشران أخبرنا إسماعيل بن محمد الصفار حدّثنا أحمد بن منصور الرمادي حدّثنا عبد الرزّاق أخبرنا معمر عن عبد الملك بن عمير عن عبد الله بن الزبير أن

وكانوا مؤمنين فكفروا بعد إيمانهم، شر قتيل تحت أديم السماء، وخير قتيل تحت أديم السماء الذين قتلهم هؤلاء قلت فما شأنك دمعت عيناك قال رحمة لهم كانوا من أهل الإسلام فكفروا بعد إيمانهم ثم أخذ بيدي وقال: إن بأرضي منهم كثير وفي رواية ثم قرأ بعد قوله: ﴿فكفروا بعد إيمانهم ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا﴾ إلى قوله: ﴿أكفرتم بعد إيمانكم﴾ ورواه الترمذي عن أبي غالب قال رأى أبو أمامة: رؤوساً منصوبة على درج دمشق فقال أبو أمامة كلاب أهل النار شر قتلي تحت أديم السماء خير قتلي من قتلوه ثم قرأ: ﴿يوم تبيض وجوه وتسود وجوه﴾ إلى آخر الآية قلت لأبي أمامة: أنت سمعته من رسول الله ﷺ. قال: لو لم أسمعه إلا مرة أو مرتين أو ثلاث مرات أو أربع مرات حتى عد سبعاً ما حدثتكموه وقال فيه هذا حسن وقوله تعالى: ﴿من بعد ما جاءهم البينات﴾ يعني الحجج الواضحات فعلموها ثم خالفوها وإنما قال جاءهم ولم يقل جاءتهم لجواز حذف علامة التأنيث من الفعل في التقديم تشبيهاً بعلامة التثنية والجمع ﴿وأولئك لهم عذاب عظيم﴾ يعني لهؤلاء الذين تفرقوا واختلفوا لهم عذاب عظيم في الآخرة وفيه زجر عظيم للمؤمنين عن التفرق والخلاف عن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: «من فارق الجماعة شبراً فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه أخرجه أبو داود. أراد بربقة الإسلام عقد الإسلام وأصله أن الربق حبل فيه عدة عرا يشد بها الغنم الواحدة من العري ربقة. وروى البغوي بسنده عن عمر بن الخطاب أن رسول الله ﷺ قال: «من سره أن يسكن بحبوحة الجنة فعليه بالجماعة فإن الشيطان مع الفذ وهو من الاثنين أبعد» بحبوحة الجنة وسطها والفذ هو الواحد. قوله عز وجل: ﴿يوم تبيض وجوه وتسود وجوه﴾ يعني اذكروا يوم تبيض وجوه المؤمنين وتسود وجوه الكافرين، وقيل تبيض وجوه أهل السنة وتسود وجوه أهل البدعة، وقيل تبيض وجوه المخلصين وتسود وجوه المنافقين وفي بياض الوجوه وسوادها قولان: أحدهما، إن البياض كناية عن الفرح والسرور والسواد كناية عن الغم والحزن، وهذا مجاز مستعمل يقال لمن نال بغيته وظفر بمطلوبه ابيضّ وجهه يعني من السرور والفرح ولمن ناله مكروه اسود وجهه وأريد لونه يعني من الحزن والغم قال الله تعالى: ﴿وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً﴾ يعني من الحزن فعلى هذا بياض الوجوه إشراقها وسرورها

عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: إن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ سَرّه أن يسكن بحبوحة الجنّة فعليه بالجماعة، فإن الشيطان مع الفذّ، وهو من الاثنين أبعد»، قوله تعالى: ﴿ وأولئك لهم عذابٌ عظيم ﴾.

﴿ يومَ تبيضُّ وُجوهٌ وتَسْوَدُّ وُجُوه ﴾، ﴿ يومَ ﴾ نصبٌ على الظرف، أي: في يوم، وانتصاب الظرف على التشبيه بالمفعول، يريد: تبيض وجوه المؤمنين وتسودّ وجوه الكافرين، وقيل: تبيض وجوه المخلصين وتسودّ وجوه المنافقين، وعن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قرأ هذه الآية قال: تبيضّ وجوه أهل السُّنّة وتسودّ وجوه أهل البدعة، قال الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس: إذا كان يوم القيامة رُفع لكل قوم ما كانوا يعبدونه، فيسعَى كل قوم إلى ما كانوا يعبدونه، وهو قوله تعالى: ﴿ نولهِ ما تولّى ﴾ [النساء: ١١٥] فإذا انتهوا إليه حزنوا فتسودُّ وجوههم من الحزن، وبقي أهل القِبلة واليهود والنصارى لم يعرفوا شيئاً مما رُفع لهم، فيأتيهم اللّهُ فيسجد له مَن كان يسجد في الدنيا مطيعاً مؤمناً ويبقى أهل الكتاب والمنافقون لا يستطيعون السجود، ثم يؤذن لهم فيرفعون رؤوسهم ووجوه المؤمنين مثل الثلج بياضاً والمنافقون أهل الكتاب إذا نظروا إلى وجوه المؤمنين حزنوا حُزناً شديداً فاسودّتْ وجوهُهم، فيقولون: ربنا ما لنا مسودّة وجوهنا فوالله ما كنّا مشركين؟ فيقول الله للملائكة: « انظروا كيف كذبوا على أنفسهم »، قال أهل المعاني: بياض الوجوه إشراقها واسْتِبشَارُها وسُرورها بعملِها وبثوابِ الله، واسْوِدَادُها حُزنها وكآبتهَا وَكُسوفها بعملها وبعذاب الله، يدلّ عليه قوله تعالى: ﴿ للذين أحسنُوا الحسنى وزيادة ولا يرهقُ وجوهَهم قترٌ ولا ذِلّة ﴾ [يونس: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿ والذين كسبوا السيئات جزاءُ سيئةٍ بمثلها وترهقُهم

واستبشارها بعملها، وذلك أن المؤمن إذا ورد القيامة على ما قدم من خير وعمل صالح استبشر بثواب الله ونعمه عليه فإذا كان كذلك وسم وجهه ببياض اللون وإشراقه واستنارته وابيضت صحيفته وأشرقت وسعى النور بين يديه وعن يمينه وشماله. وأما الكافر والظالم إذا ورد القيامة على ما قدم من قبيح عمل وسيئات حزن واغتم لعلمه بعذاب الله فإذا كان كذلك وسم وجهه بسواد اللون وكمودته واسودت صحيفته وأظلمت وأحاطت به الظلمة من كل جانب نعوذ بفضل الله وسعة رحمته من الظلمات يوم القيامة والقول الثاني بياض الوجوه وسوادها حقيقة تحصل في الوجه فيبيض وجه المؤمن ويكسى نوراً ويسود وجه الكافر ويكسى ظلمة لأن لفظ البياض والسواد حقيقة فيهما والحكمة في بياض الوجوه وسوادها أن أهل الموقف إذا رأوا بياض وجه المؤمن عرفوا أنه من أهل السعادة وإذا رأوا سواد وجه الكافر عرفوا أنه من أهل الشقاوة ﴿**فأما الذين اسودت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون**﴾ أي فيقال لهم أكفرتم والهمزة للتوبيخ والتقريع. فإن قلت كيف قال أكفرتم بعد إيمانكم وهم لم يكونوا مؤمنين فمن المراد بهؤلاء الذين كفروا بعد إيمانهم. قلت اختلف العلماء في ذلك فروى عن أبيّ بن كعب أنه قال: أراد به الإيمان يوم أخذ الميثاق حين قال لهم ألست بربكم؟ قالوا بلى فآمن الكل، فكل من كفر في الدنيا فقد كفر بعد الإيمان، وقال الحسن: هم المنافقون وذلك أنهم تكلموا بالإيمان بألسنتهم وأنكروه بقلوبهم. وقال عكرمة: هم أهل الكتاب وذلك أنهم آمنوا بمحمد ﷺ قبل مبعثه فلما بعث أنكروه وكفروا به وقيل هم الذين ارتدوا زمن أبي بكر الصديق رضي الله عنه وهم أهل الردة (ق) عن ابن مسعود قال قال رسول الله ﷺ: «أنا فرطكم على الحوض وليرفعن إليّ رجال منكم حتى إذا أهويت إليهم لأنا لهم اختلجوا دوني فأقول أي رب أصحابي فيقول إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك» (ق) عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: «ليردنَّ عليَّ الحوض رجال ممن صاحبني حتى إذا رفعوا إليّ اختلجوا دوني فلأقولن أي رب أصحابي أصحابي فيقال لي لا تدري ما أحدثوا بعدك» زاد في رواية فأقول: «سحقاً لمن بدل بعدي» (ق) عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «يرد على يوم القيامة رهط من أصحابي أو قال من أمتي فيجلون عن الحوض فأقول يا رب أصحابي فيقول: إنه لا علم لك بما أحدثوا بعدك إنهم ارتدوا على أدبارهم القهقهرى» وقيل هم الخوارج الذين خرجوا على عليّ بن أبي طالب وقتلهم وهم الحرورية. (م) عن زيد بن وهب أنه كان في الجيش الذين كانوا مع علي لما ساروا إلى الخوارج فقال عليّ: أيها الناس إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يخرج قوم من أمتي يقرؤون القرآن ليس قراءتكم إلى قراءتهم بشيء ولا صلاتكم إلى صلاتهم بشيء، ولا صيامكم إلى صيامهم بشيء يقرءون القرآن يحسبون أنه لهم وهو عليهم لا تجاوز صلاتهم تراقيهم يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية» وفي رواية سويد بن غفلة عنه يقرؤون القرآن لا يجاوز

ذِلّة ﴾ [يونس: ٢٧] وقال: ﴿ وجوهٌ يومئذٍ ناضرةٌ إلى ربِّها ناظرةٌ ووجوهٌ يومئذٍ باسِرَةٌ ﴾ [القيامة: ٢٢ و٢٣ و٢٤] وقال: ﴿ وجوهٌ يومئذٍ مُسْفِرةٌ ضاحكةٌ مستبشرةٌ ووجوهٌ يومئذٍ عليها غَبَرة ﴾ [عبس: ٣٨ و٣٩ و٤٠]، ﴿ **فأما الّذين اسْوَدّتْ وجوهُهم أكفرتم بعدَ إيمانِكم** ﴾، معناه: يقال لهم أكفرتم بعد إيمانكم، ﴿ **فذُوقُوا العذابَ بما كنتم تكفُرون** ﴾، فإن قيلَ: كيف قال أكفرتم بعد إيمانكم، وهم لم يكونوا مؤمنين؟ قيل: حُكي عن أُبيّ بن كعب أنه قال: أراد به الإيمان يوم الميثاق، حين قال لهم ربّهم: ألستُ بربكم؟ قالوا: بلى، يقول: أكفرتم بعد إيمانكم يوم الميثاق. وقال الحسن: هم المنافقون تكلموا بالإيمان بألسنتهم، وأنكروا بقلوبهم، وقال عكرمة إنهم أهل الكتاب آمنوا بأنبيائهم وبمحمد ﷺ قبل أن يُبعث، فلما بُعث كفروا به، وقال قوم: هم من أهل قبلتنا، وقال أبو أُمامة: هم الخوارج، وقال قتادة: هم أهل البدع، أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا سعيد بن أبي مريم عن نافع بن عُمر حدّثني ابن أبي مُلَيْكة عن أسماء بنت أبي بكر، قالت: قال رسول الله ﷺ: «إني على الحوض حتى أنظر مَنْ يردُ عليّ منكم، وسيُؤخذ ناسٌ دُوني،

إيمانهم حناجرهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية فأينما لقيتموهم فاقتلوهم فإن في قتلهم أجراً لمن قتلهم عند الله يوم القيامة (ق) عن بشير بن عمرو. قال: قلت لسهل بن حنيف هل سمعت رسول الله ﷺ يقول في الخوارج شيئاً قال: سمعته يقول وأهوى بيده إلى العراق «ويخرج منهم قوم يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم يمرقون من الإسلام مروق السهم من الرمية» وقيل هم أهل البدع والأهواء من هذه الأمة كالقدرية ونحوهم ومن قال بهذا القول يقول كفرهم بعد إيمانهم هو خروجهم من الجماعة ومفارقتهم في الاعتقاد. (م) عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «بادروا بالأعمال فتناً كقطع الليل المظلم يصبح الرجل مؤمناً ويمسي كافراً ويمسي مؤمناً، ويصبح كافراً يبيع دينه بعرض من الدنيا». وقال الحارث الأعور: سمعت علي بن أبي طالب رضي الله عنه يقول: على المنبر إن الرجل ليخرج من أهله فما يؤوب إليهم حتى يعمل عملاً يستوجب به الجنة وإن الرجل ليخرج من أهله فما يعود إليهم حتى يعمل عملاً يستوجب به النار ثم قرأ ﴿يوم تبيض وجوه﴾ الآية ثم نادى هم الذين كفروا بعد الإيمان ورب الكعبة. وقوله تعالى:.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٠٧﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٨﴾﴾

﴿وأما الذين ابيضت وجوههم﴾ يعني المؤمنين المطيعين لله عز وجل ﴿ففي رحمة الله﴾ يعني ففي جنة الله وإنما سميت الجنة رحمة لأنها دار رحمة وفيه إشارة إلى أن العبد وإن عمل بالطاعات لا يدخل الجنة إلا برحمة الله تعالى ﴿هم فيها خالدون﴾ قيل: إنما كرر كلمة في لأن في كل واحدة منهن معنى غير الأخرى المعنى أنهم في رحمة الله وأنهم في الرحمة خالدون ﴿تلك آيات الله﴾ يعني القرآن وقيل هذه الآيات التي تقدمت ﴿نتلوها عليك بالحق﴾ أي بالمعنى الحق لأن المتلو حق ﴿وما الله يريد ظلماً للعالمين﴾ يعني لا يعاقب أحداً بغير جرم واستحقاق للعقوبة وإنما ذكر الظلم هنا لأنه قد تقدم ذكر العقوبة في قوله فأما الذين اسودّت وجوههم إلى قوله فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون أخبر أنهم إنما وقعوا فيما وقعوا فيه بسبب أفعالهم المنكرة وأنه لا يظلم أحداً من خلقه.

فأقول: يا ربِّ منّي ومن أمتي، فقال: هلْ شعرتَ بما عملوا بعدك؟ فوالله ما برِحُوا يرجعون على أعقابهم»، وقال الحارث الأعور: سمعت علياً رضي الله عنه على المنبر يقول: إن الرجل ليخرج من أهله فما يعود إليهم حتى يعمل عملاً يستوجب به الجنة، وإن الرجل ليخرِج من أهله فما يؤب إليهم حتى يعمل عملاً يستوجِب به النار، ثم قرأ ﴿ يومَ تبيضُ وجوهٌ وتسودُّ وجوهٌ ﴾ الآية، ثم نادى: هم الذين كفروا بعد الإيمان وربِّ الكعبة. أخبرنا أبو عبد الله محمد بن الفضل الخرقي أخبرنا أبو الحسن الطيسفوني أنا عبد الله بن عمر الجوهري أخبرنا أحمد بن علي الكشمهيني أنا علي بن حجر أنا إسماعيل بن جعفر عن العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «بادرُوا بالأعمال فتناً كقطع الليل المظلم يُصبح الرجل مؤمناً ويُمسي كافراً ويُمسي مؤمناً ويُصبح كافراً، يبيعُ دِينَه بعَرَضٍ من الدنيا».

قوله تعالى: ﴿ وأمّا الذينَ ابيضتْ وُجُوهُهُم ﴾، هؤلاء أهل الطاعة، ﴿ ففي رحمةِ الله ﴾، ففي جنة الله. ﴿ هم فيها خالدون ﴾.

﴿ تلك آياتُ الله نتلوها عليكَ بالحقِّ وما الله يُرِيْدُ ظلماً للعالمين ﴾.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿١٠٩﴾ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١٠﴾﴾

﴿ولله ما في السموات وما في الأرض﴾ لما ذكر الله أنه لا يريد ظلماً للعالمين لأنه لا حاجة به إلى الظلم، وذلك أن الظالم إنما يظلم غيره ليزداد مالاً أو عزاً أو سلطاناً أو يتم نقصاً فيه بما يظلم به غيره ولما كان الله عز وجل مستغنياً عن ذلك، وله صفة الكمال أخبر أن له ما في السموات وما في الأرض وأن جميع ما فيهما ملكه وأهلهما عبيده، وإذا كان كذلك يستحيل في حقه سبحانه وتعالى أن يظلم أحداً من خلقه لأنهم عبيده، وفي قبضته ثم قال: ﴿وإلى الله ترجع الأمور﴾ يعني وإليه مصير جميع الخلائق المؤمن والكافر والطائع والعاصي فيجازي الكل على قدر استحقاقهم ولا يظلم أحداً منهم.

قوله عز وجل: ﴿كنتم خير أمة﴾ سبب نزول هذه الآية أن مالك بن الصيف ووهب بن يهودا اليهوديين قالا لعبدالله بن مسعود وأبي بن كعب ومعاذ بن جبل وسالم مولى حذيفة: نحن أفضل منكم وديننا خير من دينكم الذي تدعوننا إليه فأنزل الله هذه الآية واختلف في لفظة كان فقيل هي بمعنى الحدوث والوقوع والمعنى حدثتم ووجدتم وخلقتم خير أمة وقيل كان هنا ناقصة وهي عبارة عن وجود الشيء في زمان ماض ولا تدل على انقطاع طارىء بدليل قوله: ﴿وكان الله غفوراً رحيماً﴾ فعلى هذا التقدير يكون المعنى: كنتم في علم الله خير أمة وقيل كنتم مذكورين في الأمم الماضية بأنكم خير أمة، وقيل كنتم في اللوح المحفوظ موصوفين بأنكم خير أمة وقيل معناه كنتم منذ آمنتم خير أمة وقيل قوله خير أمة تابع لقوله: ﴿فأما الذين ابيضّت وجوههم﴾ والتقدير أنه يقال لهم عند دخول الجنة: كنتم في دنياكم خير أمة فلهذا استحققتم ما أنتم فيه من بياض الوجوه والنعم المقيم، وقيل كنتم بمعنى أنتم وقيل يحتمل أن يكون كان بمعنى صار فمعنى قوله كنتم أي صرتم خير أمة. فأما المخاطبون بهذا من هم ففيه خلاف قال ابن عباس في قوله كنتم خير أمة هم الذين هاجروا مع رسول الله ﷺ وروى ابن جرير عن عمر بن الخطاب قال لو شاء الله تعالى لقال: أنتم فكنا كلنا ولكن في خاصة من أصحاب رسول الله ﷺ ومن صنع مثل ما صنعتم كانوا خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وقال الضحاك: هم أصحاب رسول الله ﷺ يعني به كانوا هم الرواة الدعاة الذين أمر الله عز وجل المسلمين باتباعهم وطاعتهم. (ق) عن

﴿ ولِلّهِ مَا في السّمواتِ ومَا في الأرض، وإلى اللّهِ تُرْجَعُ الأمُورُ ﴾.

﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمّةٍ أُخْرِجَتْ للنّاسِ ﴾ قال عكرمة ومقاتل: نزلت في ابن مسعود وأُبيّ بن كعب ومعاذ بن جبل وسالم مولى أبي حُذيفة، رضي الله عنهم، وذلك أنّ مالك بن الصيف ووهب بن يهود اليهوديين قالا لهم: نحن أفضل منكم وديننا خير مما تدعونَنا إليه، فأنزل الله تعالى هذه الآية، ورَوى سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما **﴿ كنتم خيرَ أُمّةٍ أخرجتْ للناس ﴾** هم الذين هاجروا مع النبي ﷺ إلى المدينة، وقال جُويبر عن الضحاك: هم أصحاب محمد ﷺ خاصة الرواة والدّعاة الذين أمر الله المسلمين بطاعتهم. ورَوى عمر بن الخطاب قال: كنتم خيرَ أمةٍ أخرجتْ للناس تكون لأوّلنا ولا تكون لآخرنا. أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أبو محمد عبد الرحمن بن شريح أنا أبو القاسم البغوي أنا علي بن الجعد أخبرنا شُعبة عن أبي حمزة قال: سمعت زهدم بن مضرب بن عمران بن حُصين رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «خيرُ أُمتي قرني ثم الذين يلونهم، ثم الذين

عمران بن حصين أن رسول الله ﷺ قال: «خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم قال عمران: فلا أدري أذكر بعد قرنه قرنين أو ثلاثة ثم إن بعدهم قوماً يشهدون ولا يستشهدون ويخونون ولا يؤتمنون وينذرون ولا يوفون ويظهر فيهم السمن» زاد في رواية: «ويحلفون ولا يستحلفون». (ق) عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: «خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ثم يجيء قوم تسبق شهادة أحدهم يمينه ويمينه شهادته» قوله: «خير الناس قرني» يعني أصحابي والقرن أهل كل زمان مأخوذ من الاقتران فكأنه الزمان الزمان الذي يقترن فيه أهل ذلك الزمان في أعمارهم وأحوالهم، وقيل القرن أربعون سنة وقيل ثمانون وقيل مائة. (ق) عن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله ﷺ: «لا تسبوا أصحابي فلو أن أحداً أنفق مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه» النصيف النصف. وقال ابن عباس في رواية عطاء في قوله: كنتم خير أمة هم أمة محمد ﷺ قال الزّجاج قوله كنتم خير أمة الخطاب فيه مع أصحاب رسول الله ﷺ ولكنه عام في كل أمة ونظيره قوله: «كتب عليكم الصيام، كتب عليكم القصاص» فإن كل ذلك خطاب مع الحاضرين بحسب اللفظ، ولكنه عام في حق الكل كذا ههنا عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده أنه سمع النبي ﷺ يقول في قوله تعالى: ﴿**كنتم خير أمة أخرجت للناس**﴾ قال أنتم الأمة تتمون سبعين أمة أنتم خيرها وأكرمها على الله تعالى أخرجه الترمذي وقال حديث حسن وأصل الأمة الجماعة المجتمعة على الشيء. وأمة محمد ﷺ هم الجماعة الموصوفين بالإيمان بالله عز وجل وبمحمد ﷺ (خ) عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى. قالوا: ومن يأبى؟ قال من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبى» عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله لا يجمع أمتي أو قال أمة محمد ﷺ على ضلالة ويد الله على الجماعة ومن شذ شذ في النار» أخرجه الترمذي عن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أمتي أمة مرحومة ليس عليها عذاب في الآخرة عذابها في الدنيا الفتن والزلازل والقتل» أخرجه أبو داود عن أنس قال قال رسول الله ﷺ: «مثل أمتي كمثل المطر لا يدري آخره خير أم أوله» أخرجه الترمذي وله عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «أهل الجنة عشرون ومائة صف، ثمانون من هذه الأمة، وأربعون من سائر الأمم» وله عن ابن عمر قال قال رسول الله ﷺ: «باب أمتي الذي يدخلون منه الجنة عرضه مسيرة الراكب المسرع المجد ثلاثاً ثم إنهم يتضاغطون عليه حتى تكاد مناكبهم تزول» قال الترمذي سألت محمداً يعني البخاري عن هذا الحديث فلم يعرفه وقال لخالد بن أبي بكر مناكير عن سالم بن عبدالله زاد غيره في الحديث وهم شركاء الناس في سائر الأبواب عن

يلونهم». قال عمران: لا أدري أذكر النبي ﷺ بعد قرنه مرتين أو ثلاثاً، ثم إنّ بعدهم قوماً يخوّنون ولا يُؤتمنون ويشهدون ولا يُستشهدون، وينذرون ولا يُوفون، ويظهر فيهم السِّمَن وبهذا الإسناد عن علي بن الجعد أخبرنا شعبة وأبو معاوية عن الأعمش عن ذكوان عن أبي سعيد عن النبي ﷺ قال: «لا تسبّوا أصحابي، فوالذي نفسي بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أُحدٍ ذهباً ما بلغ مُدّ أحدِهم ولا نَصِيفَه»، وقال الآخرون: جميع المؤمنين من هذه الأمة، وقوله ﴿ كنتم ﴾ أي: أنتم، كقوله تعالى: ﴿ واذكروا إذْ كنتم قليلاً ﴾ [الأعراف: ٨٦]، وقال في موضع آخر: ﴿ واذكُروا إذْ أنتم قليل ﴾ [الأنفال: ٢٦]، وقيل: معناه كنتم خير أُمة عند الله في اللوح المحفوظ، وقال قوم: قوله: ﴿ للناس ﴾ صلةُ قولِهِ خير أمة، أي: أنتم خير أمة للناس. قال أبو هريرة معناه: كنتم خيرَ النّاسِ لِلنّاسِ، تجيئون بهم في السلاسل فتُدخلونهَم في الإسلام، قال قتادة: هم أمة محمد ﷺ لم يُؤمَرْ نبي بعده بالقتال، فهم يقاتلون الكفّار فيُدخلونهم في دينهم، فهم خير أُمّة للناس، وقيل: للناس صلة قوله أُخرِجتْ معناه: ما أخرجَ اللّهُ للناس أُمّةً خيراً من أمة محمد ﷺ أخبرنا أبو سعيد الشريحي أنا أبو إسحق الثعلبي أنا أبو عبد الله الحسين بن محمد الحافظ أخبرنا أبو علي الحسين بن محمد بن حبيش المقري أنا علي بن زنجويه أخبرنا سلمة بن شبيب أنا عبد الرازق أنا

أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «من أمتي من يشفع في الفئام من الناس ومنهم من يشفع في القبيلة ومنهم من يشفع للعصبة من يشفع للواحد» أخرجه الترمذي (خ) عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: «ليدخلن الجنة من أمتي سبعون ألفاً أو سبعمائة ألف سماطين متماسكين آخذ بعضهم ببعض حتى يدخل أولهم وآخرهم الجنة وجوههم على صورة القمر ليلة البدر» عن أبي أمامة قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «وعدني ربي أن يدخل من أمتي الجنة سبعون ألفاً لا حساب عليهم ولا عذاب ومع كل ألف سبعون ألفاً وثلاث حثيات من حثيات ربي» أخرجه الترمذي. وروى البغوي بإسناد الثعلبي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «إن الجنة حرمت على الأنبياء كلهم حتى أدخلها وحرمت على الأمم حتى تدخلها أمتي» وقوله تعالى: ﴿**أخرجت للناس**﴾ معناه كنتم خير الأمم المخرجة للناس في جميع الأعصار ومعنى أخرجت أظهرت للناس حتى تميزت وعرفت وقيل معناه كنتم للناس خير أمة أخرجت (خ) عن أبي هريرة قال: ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس﴾ قال: خير الناس للناس تأتون بهم في السلاسل في أعناقهم حتى يدخلوا في الإسلام، وقيل أخرجت صلة والتقدير كنتم خير أمة للناس وقيل معناه ما أخرج للناس أمة خير من أمة محمد ﷺ: ﴿**تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر**﴾ هذا كلام مستأنف والمقصود منه بيان علة تلك الخيرية وكونهم خير أمة كما تقول: زيد كريم **يطعم** الناس ويكسوهم ويقوم بمصالحهم. والمعروف هو التوحيد، والمنكر هو الشرك، والمعنى تأمرون الناس بقول لا إله إلا الله وتنهونهم عن الشرك ﴿**وتؤمنون بالله**﴾ أي وتصدقون بالله وتخلصون له التوحيد والعبادة. فإن قلت لم قدم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على الإيمان بالله في الذكر مع أن الإيمان يلزم أن يكون مقدماً على كل الطاعات والعبادات؟. قلت الإيمان بالله أمر يشترك فيه جميع الأمم المؤمنة وإنما فضلت هذه الأمة الإسلامية بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على سائر الأمم، وإذا كان كذلك كان المؤثر في هذه الخيرية هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأما الإيمان بالله فهو شرط في هذا الحكم لأنه ما لم يوجد الإيمان لم يضر شيء من الطاعات مقبولاً فثبت أن الموجب لهذه الخيرية لهذه الأمة هو كونهم آمرين بالمعروف ناهين عن المنكر، فلهذا السبب حسن تقديم ذكر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على ذكر الإيمان وقوله تعالى: ﴿**ولو آمن أهل الكتاب**﴾ يعني ولو آمن اليهود والنصارى بمحمد ﷺ وبالدين الذي جاء به ﴿**لكان خيراً لهم**﴾ يعني مما هم عليه من اليهودية والنصرانية وإنما حملهم على ذلك حب الرياسة واستتباع العوام ولو أنهم آمنوا لحصلت لهم الرياسة في الدنيا، والثواب

معمر عن بهز بنِ حكيم عن أبيه عن جدّه أنه سمع النبي ﷺ يقول في قوله تعالى: ﴿ كنتم خيرَ أُمة أُخرجت للنّاس ﴾ قال: «إنكم تنمُون سبعين أُمة أنتم خيرُها وأكرمُها على الله عزّ وجلّ»، أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا معشر بن إبراهيم بن محمد الفيركي أخبرنا أبو عبد الله محمد بن زكريا بن يحيـىٰ أخبرنا أبو الصلت أخبرنا حمّاد بن زيد أخبرنا علي بن زيد عن أبا نَضْرة عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال: «ألا وإنّ هذه الأمة تُوفّي سبعين أمة هي أخْيَرُها وأكرمُها على الله عزّ وجلّ»، أخبرنا أبو سعيد الشريحي أنا أبو إسحق الثعلبي، أخبرنا أبو عبد الله الحسين بن محمد أنا الفضل بن الفضل أخبرنا خليفة الفضل بن الحباب قـال عبد الرحمن يعني ابن المبارك أخبرنا حمّاد بن يحيـىٰ الأشج أنا ثابت البناني عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مثل أمتي مثل المطر لا يُدرى أولُه خيرٌ أمْ آخره». أخبرنا أبو سعيد الشريحي أنا أبو إسحق الثعلبي أنا أبو محمد المخلدي أخبرنا أبو نعيم عبد الملك بن محمد بن عدي أخبرنا محمد بن عيسى التنيسي أخبرنا عمر بن أبي سلمة أخبرنا صدقة بن عبد الله عن زهير محمد بن عبد الله بن عبد الله بن عقيل عن الزهري عن سعيد بن المسيب عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «إن الجنة حُرّمتْ على الأنبياء كلهم حتى أدخلها، وحُرّمتْ على الأمم كلهم

العظيم في الآخرة وهو دخول الجنة ﴿منهم﴾ يعني من أهل الكتاب ﴿المؤمنون﴾ يعني عبدالله بن سلام وأصحابه الذين أسلموا من اليهود والنجاشي وأصحابه الذين أسلموا من النصارى ﴿وأكثرهم الفاسقون﴾ أي المتمردون في الكفر، وقيل إن الكافر قد يكون عدلاً في دينه وهؤلاء مع كفرهم فاسقون. قوله عز وجل: .

لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾

﴿لن يضروكم إلا أذى﴾ سبب نزول هذه الآية أن رؤساء اليهود عمدوا إلى من آمن منهم مثل عبدالله بن سلام وأصحابه فآذوهم لإسلامهم فأنزل الله تعالى ﴿لن يضروكم إلا أذى﴾ يعني لن يضركم أيها المؤمنون هؤلاء اليهود إلا أذى يعني باللسان من طعنهم في دينكم أو تهديد أو إلقاء شبهة وتشكيك في القلوب وكل ذلك يوجب الأذى والغم ﴿وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار﴾ يعني منهزمين مخذولين ﴿ثم لا ينصرون﴾ يعني لا يكون لهم النصر عليكم بل تنصرون عليهم وفيه تثبيت لمن أسلم من أهل الكتاب لأنهم كانوا يؤذونهم بالقول ويهددونهم ويوبخونهم فأعلمهم الله تعالى أنهم لا يقدرون أن يجاوزوا الأذى بالقول إلى غيره من الضرر ثم وعدهم الغلبة والانتقام منهم وأن عاقبتهم الخذلان والذل فقال تعالى: ﴿ضربت عليهم الذلة﴾ يعني جعلت الذلة ملصقة بهم كالشيء يضرب على الشيء فيلتصق به، والمراد بالذلة قتلهم وسبيهم وغنيمة أموالهم وقيل الذلة ضرب الجزية عليهم لأنهم ذلة وصغار وقيل ذلتهم أنك لا ترى في اليهود ملكاً قاهراً ولا رئيساً معتبراً بل مستضعفون في جميع البلاد ﴿أينما ثقفوا﴾ أي حيثما وجدوا وصودفوا ﴿إلا بحبل من الله﴾ يعني إلا بعهد من الله وهو أن يسلموا فتزول عنهم الذلة ﴿وحبل من الناس﴾ يعني المؤمنين ببذل الجزية والمعنى ضربت عليهم الذلة في عامة الأحوال إلا في حال اعتصامهم بحبل الله وحبل الناس وهو ذمة الله وعهده وذمة المسلمين وعهدهم لا عزلهم إلا هذه الواحدة وهي التجاؤهم إلى الذمة لما قبلوه من بذل الجزية. وإنما سمي العهد حبلاً لأنه سبب يوصل إلي الأمن وزال الخوف ﴿وباؤوا بغضب من الله﴾ يعني رجعوا بغضب من الله واستوجبوه وقيل أصله من البواء وهو المكان والمعنى أنهم مكثوا في غضب من الله وحلوا فيه ﴿وضربت عليهم المسكنة﴾ يعني كما يضرب البيت على أهله فهم ساكنون في

حتى تدخلها أمتي»، أخبرنا أبو سعيد الشريحي قال: أخبرنا أبو إسحق الثعلبي أنا أبو عبد الله الحسين بن محمد أخبرنا أبو القاسم عمر بن محمد بن عبد الله بن حاتم الترمذي أخبرنا جدّي لأبي محمد بن عبد الله بن مرزوق أنا عقاب بن مسلم أنا عبد العزيز بن مسلم أخبرنا أبو سنان يعني ضرار بن مرّة عن محارب بن دثار عن عبد الله بن بريدة عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «أهلُ الجنةِ عشرونَ ومائةُ صف ثمانون من هذه الأمة»، قوله تعالى: ﴿ **تأمرونَ بالمعرُوفِ وتنهونَ عن المنكرِ وتُؤمنونَ بالله، ولو آمنَ أهلُ الكتابِ لكانَ خيراً لهمْ مِنهُمُ المؤمنونَ وأكثرُهم الفاسقُون** ﴾ أي: الكافرون.

قوله تعالى: ﴿ **لَنْ يضرُّوكم إلا أذىً** ﴾، قال مقاتل: إن رؤوس اليهود عمدُوا إلى مَنْ آمن منهم كعبد الله بن سلام وأصحابه، فآذوهم فأنزل الله تعالى هذه الآية، لن يضرّكم أيها المؤمنون هؤلاء اليهود إلّا أذىً باللسان وَعيداً وطغياناً، وقيل كلمة كفر تتأذّون بها ﴿ **وإن يُقاتلوكُم يُولّوكم الأدبار** ﴾، منهزمين، ﴿ **ثم لا يُنصرُون** ﴾، بل يكون لكم النصر.

المسكنة غير خارجين منها قال الحسن المسكنة هي الجزية، وذلك لأن الله تعالى أخرج المسكنة عن الاستثناء، وذلك يدل على أنها باقية عليهم والباقي عليهم هو الجزية فدل على أن المسكنة هي الجزية، وقيل المراد بالمسكنة هو أن اليهودي يظهر من نفسه الفقر وإن كان غنياً موسراً ﴿ذلك﴾ إشارة إلى ما ذكر من ضرب الذلة والمسكنة والبوء بالغضب ﴿بأنهم﴾ أي بسبب أنهم ﴿كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون﴾ أي ذلك الذي نزل بهم بسبب عصيانهم لله عز وجل وتعديهم لحدوده فنزل بهم ما نزل قوله عز وجل:

﴿لَيْسُوا سَوَآءً مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾

﴿ليسوا سواء﴾ قال ابن عباس: لما أسلم عبدالله بن سلام وأصحابه قالت أحبار اليهود ما آمن محمد ﷺ إلا شرارنا ولولا ذلك ما تركوا دين آبائهم فأنزل الله تعالى هذه الآية وفي قوله: ﴿ليسوا سواء﴾ قولان أحدهما أنه كلام تام يوقف عليه والمعنى أهل الكتاب الذي سبق ذكرهم منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون ليسوا سواء، وقيل معناه لا يستوي اليهود وأمة محمد ﷺ القائمة بأمر الله الثابتة على الحق. والقول الثاني أن قوله: ﴿ليسوا سواء﴾ متعلق بما بعده ولا يوقف عليه وقوله: ﴿من أهل الكتاب أمة قائمة﴾ فيه اختصار وإضمار والتقدير ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة ومنهم أمة مذمومة غير قائمة فترك ذكر الأمة الأخرى اكتفاء بذكر أحد الفريقين وهذا على مذهب العرب أن ذكر أحد الضدين يغني عن ذكر الآخر قال أبو ذؤيب:

دعـانـي إليهـا القلـب إنـي امـرؤ لهـا   مطيـع فـلا أدري أرشـد طـلابهـا

أراد أم غير رشد فاكتفى بذكر أحد الرشدين دون الآخر. وقال الزّجاج: لا حاجة إلى إضمار الأمة المذمومة لأنه قد جرى ذكر أهل الكتاب بقوله: كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق فأعلم الله أن منهم أمة قائمة فلا حاجة بنا إلى أن نقول وأمة غير قائمة إنما ابتدأ بذكر فعل الأكثر منهم وهو الكفر والمشاقة، ثم ذكر من كان

﴿ ضُربتْ عليهمُ الذِّلةُ أينما ثُقِفُوا ﴾، حيثُ ما وُجدوا ﴿ إلّا بحبلٍ منَ اللَّهِ ﴾ يعني: أينما وُجدوا استُضعفُوا وقُتِلوا أو سُبُوا فلا يأمنُون إلّا بحبلٍ: عهدٍ منَ الله تعالى بأن يُسلمُوا، ﴿ وحَبلٍ منَ النّاسِ ﴾ من المؤمنين ببذلِ جزيةٍ أو أمانٍ، يعني: إلّا أنْ يُعصمُوا بحبل الله فيأمنوا، قوله تعالى: ﴿ وباؤوا بغضبٍ من الله ﴾، رجعوا به، ﴿ وضُربتْ عليهم المَسْكَنةُ ذلك بأنّهم كانوا يكفُرون بآياتِ اللَّهِ ويقتُلونَ الأنبياءَ بغيرِ حقٍ ذلكَ بما عَصَوا وكانُوا يعتدُون ﴾.

قوله تعالى: ﴿ ليسُوا سَواءً مِنْ أهلِ الكتابِ أمةٌ قائمة ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما ومقاتل: لمّا آمن عبد الله بن سلام وأصحابه، قالت أحبار اليهود: ما آمن بمحمد ﷺ إلّا شرارُنا ولولا ذلك لما تركوا دين آبائهم، فأنزل الله تعالى هذه الآية، واختلفوا في وجهها فقال قوم: فيه اختصار تقديره: ليسوا سواء من أهل الكتاب أمةٌ قائمة وأخرى غير قائمة، فتركَ الأخرى اكتفاءً بذكر أحد الفريقين، وقال الآخرون: تمام الكلام عند قوله: ﴿ ليسوا سواءٍ ﴾ وهو وقف لأنه قد جرى ذكر الفريقين من أهل الكتاب في قوله تعالى: ﴿ منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون ﴾ ثم قال: ﴿ ليسوا سواءً ﴾ يعني: المؤمنين والفاسقين، ثم وصف الفاسقين، فقال: ﴿ لن يضرّوكم إلّا أذىً ﴾ ووصف المؤمنين بقوله: ﴿ أمةٌ قائمةٌ ﴾ وقيل: قوله: ﴿ من أهل الكتاب ﴾ ابتداء كلام آخر، لأن ذكر

مبايناً لهم في فعلهم فقال: «ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة» قال ابن عباس: قائمة أي مهدية قائمة على أمر الله تعالى لم يضعوه ولم يتركوه، وقيل قائمة أي عادلة وقيل قائمة على كتاب الله عز وجل وحدوده وقيل: قائمة في الصلاة ﴿يتلون آيات الله﴾ أي يقرؤون كتاب الله عز وجل: ﴿آناء الليل﴾ يعني ساعاته ﴿وهم يسجدون﴾ يعني يصلون، عبر بالسجود عن الصلاة لأن التلاوة لا تكون في السجود وقيل: هي صلاة التهجد بالليل وقيل هي صلاة العشاء لأن اليهود لا يصلونها وقيل يحتمل أنه أراد بالسجود الخضوع والخشوع لأن العرب تسمي الخشوع سجوداً وقال عطاء في قوله تعالى: ﴿ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة﴾ يريد أربعين رجلاً من أهل نجران من العرب واثنين وثلاثين من الحبشة وثمانية من الروم كانوا على دين عيسى عليه الصلاة والسلام وصدقوا بمحمد ﷺ وآمنوا به وكانوا عدة نفر من الأنصار منهم أسعد بن زرارة والبراء بن معرور ومحمد بن مسلمة وأبو قيس صرمة بن أنس كانوا قبل الإسلام موحدين يغتسلون من الجنابة ويقومون بما عرفوا من شرائع الحنيفية حتى جاءهم الله عز وجل بالنبي ﷺ فآمنوا به وصدقوه، ثم وصفهم الله تعالى بصفات ما كانت في اليهود فقال: ﴿يؤمنون بالله واليوم الآخر﴾ وذلك لأن إيمان أهل الكتاب فيه شرك ويصفون اليوم الآخر بغير ما يصفه المؤمنون، وقيل إن الإيمان بالله يستلزم الإيمان بجميع أنبيائه ورسله واليهود يؤمنون ببعض الأنبياء ويكفرون ببعض والإيمان باليوم الآخر يستلزم الحذر من فعل المعاصي واليهود لا يحترزون منها فلم يحصل الإيمان الخالص بالله واليوم الآخر ﴿ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر﴾ يعني غير مداهنين كما يداهن اليهود بعضهم بعضاً. وقيل يأمرون بالمعروف يعني بتوحيد الله تعالى والإيمان بمحمد ﷺ وينهون عن المنكر يعني عن الشرك وعن كتم صفة محمد ﷺ ﴿ويسارعون في الخيرات﴾ أي يبادرون إليها خوف الفوت وذلك أن من رغب في أمر سارع إليه وقام به غير متوان عنه وقيل يسارعون في الخيرات غير متثاقلين ولا كسالي ﴿وأولئك﴾ إشارة إلى الموصوفين بما وصفوا به ﴿من الصالحين﴾ أي من جملة الصالحين الذين صلحت أحوالهم عند الله عز وجل ورضي عنهم واستحقوا ثناءه عليهم، وذلك لأن الصلاح ضد الفساد فإذا حصل الصلاح للإنسان فقد حصل له أعلى الدرجات وأكمل المقامات وقيل يحتمل أن يراد بالصالحين المسملون والمعنى أولئك الذين تقدم وصفهم من جملة المسلمين. قوله عز وجل: .

الفريقين قد جرى، ثم قال: ليس هذان الفريقان سواءً، ثم ابتدأ فقال: من أهل الكتاب، قال ابن مسعود رضي الله عنه: لا يستوي اليهود وأمة محمد ﷺ القائمة بأمر الله الثابتة على الحق المستقيمة، وقوله تعالى: ﴿ أمة قائمة ﴾ قال ابن عباس: أي مهتدية قائمة على أمر الله لم يضيِّعُوه ولم يتركوه. وقال مجاهد: عادلة. وقال السدي: مطيعة قائمة على كتاب الله وحده. وقيل: قائمة في الصلاة. وقيل: الأمة الطريقة. ومعنى الآية: أي ذَوُوا أُمةٍ، أي: ذَوُوا طريقةٍ مستقيمة. ﴿ يتلُونَ آياتِ الله ﴾، يقرؤون كتابَ الله، وقال مجاهد: يتبعون ﴿ آناء الليل ﴾، ساعاته، واحدها: أَنى وآناء، مثل نحى وأنحاء، وأَنَى وآناء مثل: مَعًى وأمعاء، وأَنَى مثل منا وأمناء، ﴿ وهم يسجدون ﴾ أي: يصلّون، لأن التلاوة لا تكون في السجود. واختلفوا في معناها، فقال بعضهم: هي قيام الليل، وقال ابن مسعود صلاة العتمة يصلّونها ولا يصلّيها مَن سواهم من أهل الكتاب، وقال عطاء: ﴿ ليسوا سواءً منْ أهلِ الكتابِ أمةٌ قائمة ﴾ الآية يريد: أربعين رجلاً من أهل نجران من العرب واثنين وثلاثين من الحبشة وثمانية من الروم كانوا على دين عيسى وصدّقوا محمداً ﷺ، وكان من الأنصار منهم عدّة قبل قدوم النبي ﷺ، منهم أسعد بن زرارة والبراء بن مَعْرُور ومحمد بن سلمة وأبو قيس بن صرمة بن أنس، كانوا موحدين يغتسلون من الجنابة ويقومون بما عرفوا من شرائع الحنيفية حتى جاءهم الله تعالى بالنبي ﷺ فصدقوه ونصروه.

قوله تعالى: ﴿ يُؤمنونَ باللهِ واليومِ الآخرِ ويأمرُونَ بالمعروفِ وينْهَونَ عن المنكر ويُسارعُون في الخيراتِ وأولئكَ منَ الصالحين ﴾.

وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١٦﴾ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾

﴿وما يفعلوا من خير فلن يكفروه﴾ قرىء بالياء لأن الكلام متصل بما قبله من ذكر مؤمني أهل الكتاب وذلك أن اليهود لما قالوا لعبدالله بن سلام وأصحابه إنكم خسر ثم بسبب هذا الدين الذي دخلتم فيه فأخبر الله تعالى أنهم فازوا بالدرجات العلى وما فعلوه مكن خير يجازيهم به ولا يمنع من خصوص السبب عموم الحكم فيدخل فيه كل فاعل للخير وقرىء بالتاء على أنه ابتداء كلام وهو خطاب لجميع المؤمنين ويدخل فيه مؤمنوا أهل الكتاب أيضاً ومعنى الآية وما تفعلوا من خير أيها المؤمنون فلن تكفروه أي فلن تعدموا ثوابه ولن تجرموه أو تمنعوه بل يشكره لكم ويجازيكم به ﴿والله عليم بالمتقين﴾ فيه بشارة للمتقين بجزيل الثواب ودلالة على أنه لا يفوز عنده إلا أهل الإيمان والتقوى. قوله عز وجل: ﴿إن الذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً﴾ قال ابن عباس: يريد بني قريظة والنضير وذلك أن رؤساء اليهود مالوا إلى تحصيل الأموال في معاداة رسول الله ﷺ، وإنما كان مقصودهم بمعاداته تحصيل الرياسة والأموال فقال الله عز وجل: ﴿لن تغني عنهم أموالهم﴾ وقيل: نزلت في مشركي قريش فإن أبا جهل كان كثير الافتخار بالأموال وأنفق أبو سفيان مالاً كثيراً في يومي بدر وأحد على المشركين وقيل: إن الآية عامة في جميع الكفار لأن اللفظ عام ولا دليل يوجب التخصيص فوجب إجراء اللفظ على عمومه ومعنى الآية: ﴿إن الذين كفروا لن تغني﴾ أي تذفع أموالهم بالفدية لو افتدوا بها من عذاب الله ولا أولادهم بالنصر وإنما خص الأموال والأولاد بالذكر لأن الإنسان يدفع عن نفسه تارة بالفداء بالمال وتارة بالاستعانة بالأولاد فأعلم الله تعالى أن الكافر لا ينفعه شيء من ذلك في الآخرة ولا مخلص له من عذاب الله وهو قوله: ﴿وأولئك أصحاب النار هم خالدون﴾ لا يخرجون منها ولا يفارقونها قوله عز وجل: ﴿مثل ما ينفقون في هذه الحياة الدنيا﴾ قيل أراد نفقة أبي سفيان وأصحابه ببدر وأحد في معاداة رسول الله ﷺ وقيل أراد نفقة اليهود على علمائهم ورؤسائهم وقيل: أراد نفقات جميع الكفار وصدقاتهم في الدنيا وقيل: أراد نفقة المرائي الذي لا يريد بما ينفق وجه الله تعالى وذلك لأن إنفاقهم المال إما أن يكون لمنافع الدنيا أو لمنافع الآخرة فإن كان لمنافع الدنيا لم يبق له أثر في الآخرة في حق المسلم فضلاً عن الكافر وإن كان لمنافع الآخرة كمن يتصدق ويعمل أعمال البر فإن

﴿ وما يفعلوا من خيرٍ فلنْ يُكفَرُوه ﴾، قرأ حمزة والكسائي وحفص بالياء فيهما إخبار عن الأمة القائمة، وقرأ الآخرون بالتاء فيهما، لقوله: ﴿ كنتم خير أمة ﴾، وأبو عمرو يَرى القراءتين جميعاً، ومعنى هذه الآية: وما تفعلوا من خير فلن تُعدموا ثوابَه بل يشكر لكم وتُجازون عليه، ﴿ والله عليم بالمتّقين ﴾، بالمؤمنين.

﴿ إنَّ الذينَ كفرُوا لنْ تُغنيَ عنهم أموالُهم ولا أولادُهم منَ اللّهِ شيئاً ﴾، أي: لا تدفع أموالهم بالفدية وأولادهم بالنصرة من الله شيئاً، أي: من عذاب الله، وخصّهما بالذكر لأن الإنسان يدفع عن نفسه تارة بفداء المال وتارة بالاستعانة بالأولاد. ﴿ وأولئكَ أصحابُ النارِ هُمْ فيها خالدُون ﴾، وإنّما جعلهم من أصحابهم لأنهم أهلها لا يخرجون منها ولا يُفارقونها، كصاحب الرجل لا يفارقه.

كان كافراً فإن الكفر محبط لجميع أعمال البر فلا ينتفع بما أنفق في الدنيا لأجل الآخرة وكذلك المرائي الذي لا يريد بما أنفق وجه الله تعالى فإنه لا ينتفع بنفقته في الآخرة ثم ضرب لذلك الإنفاق مثلاً فقال تعالى: ﴿**كمثل ريح فيها صر**﴾ فيه وجهان: أحدهما وهو قول أكثر المفسرين، وأهل اللغة إن الصر البرد الشديد وبه قال ابن عباس وقتادة والسدي وابن زيد: والوجه الثاني أن الصر هو السموم الحارة التي تقتل وهو رواية عن ابن عباس وبه قال ابن الأنباري من أهل اللغة وعلى الوجهين فالتشبيه صحيح والمقصود منه حاصل لأنها سواء كان فيها برد فهي مهلكة أو حر فهي مهلكة أيضاً ﴿**أصابت**﴾ يعني الريح التي فيها صر ﴿**حرث قوم**﴾ أي زرع قوم ﴿**ظلموا أنفسهم**﴾ يعني بالكفر والمعاصي ومنع حق الله فيه ﴿**فأهلكته**﴾ يعني فأهلكت الريح الزرع ومعنى الآية مثل نفقات الكفار في ذهابها وقت الحاجة إليها كمثل زرع أصابته ريح باردة فأهلكته أو نار فأحرقته فلم ينتفع به أصحابه. فإن قلت الغرض تشبيه ما أنفقوا وأبطال ثوابه وعدم الانتفاع به الحرث الذي هلك بالريح فكيف شبهه بالريح المهلكة للحرث؟ قلت هو من التشبيه المركب وهو ما حصلت فيه المشابهة بين ما هو المقصود من الجملتين وإن لم تحصل المشابهة بين أجزاء الجملتين فعلى هذا زال الإشكال ومن التشبيه ما حصلت فيه المشابهة بين المقصود من الجملتين وبين أجزاء كل واحدة منهما فإن جعلنا هذا المثل من هذا القسم ففيه وجهان: أحدهما أن يكون التقدير مثل الكفر في إهلاك ما ينفقون كمثل الريح المهلكة للحرث. الوجه الثاني مثل ما ينفقون كمثل مهلك الريح وهو الحرث والمقصود من ضرب هذا المثل هو تشبيه ما ينفقون بشيء يذهب بالكلية ولا يبقى منه شيء. وقوله تعالى: ﴿**وما ظلمهم الله**﴾ يعني بأن لم يقبل نفقاتهم ﴿**ولكن أنفسهم يظلمون**﴾ يعني أنهم عصوا الله فاستحقوا عقابه فأبطل نفقاتهم وأهلك حرثهم وقيل ظلموا أنفسهم حيث لم يأتوا بنفقاتهم مستحقة للقبول. قوله عز وجل: ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة**﴾ الآية قال ابن عباس: كان رجال من المسلمين يواصلون اليهود لما بينهم من القرابة والصداقة والحلف والجوار والرضاع فأنزل الله عز وجل هذه الآية ونهاهم عن مباطنتهم خوف الفتنة عليهم ويدل على صحة هذا القول أن الآيات المتقدمة فيها ذكر اليهود فتكون هذه الآية كذلك، وقيل كان قوم من المؤمنين يصافون المنافقين ويفشون إليهم الأسرار ويطلعونهم على الأحوال الخفية فنهاهم الله عن ذلك وحجة هذا القول أن

﴿ **مثلُ ما يُنفقُون في هذه الحياة الدنيا** ﴾، قيل: أراد نفقات أبي سفيان وأصحابه ببدرٍ وأُحد على عداوة رسول الله ﷺ، وقال مقاتل: أراد نفقة اليهود على علمائهم، قال مجاهد: يعني جميع نفقات الكفّار في الدنيا وصدقاتهم، وقيل: أراد إنفاق المرائي الذي لا يبتغي به وجهَ الله تعالى، ﴿ **كمثلِ ريحٍ فيها صِرٌّ** ﴾، حُكي عن ابن عباس رضي الله عنهما: أنها السَّموم الحارّة التي تقتل، وقيل: فيها صِرٌّ أي: صوت، وأكثر المفسّرين قالوا: فيها برد شديد، ﴿ **أصابتْ حرثَ قومٍ** ﴾ زرعَ قوم، ﴿ **ظلمُوا أنفسَهم** ﴾، بالكفر والمعصية ومنع حق الله تعالى، ﴿ **فأهلكته** ﴾، فمعنى الآية: مثل نفقات الكفّار وذهابها وقت الحاجة إليها كمثل زرع أصابته ريح باردة فأهلكته أو نار فأحرقته فلم ينتفع أصحابه منه بشيء، ﴿ **وما ظلمهم اللَّهُ** ﴾، بذلك، ﴿ **ولكن أنفسَهم يظلمون** ﴾، بالكفر والمعصية.

قوله تعالى: ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تَتّخِذُوا بطانةً من دُونِكم** ﴾ الآية، قال ابن عباس رضي الله عنهما: كان رجال من المسلمين يواصلون اليهود لِما بينهم من القرابة والصداقة والحلف والجوار والرضاع، فأنزل الله تعالى هذه الآية ينهاهم عن مباطنتهم خوف الفتنة عليهم، وقال مجاهد: نزلت في قوم من المؤمنين كانوا يصافُون المنافقين فنهاهم الله تعالى عن ذلك، فقال: ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تَتّخِذُوا بطانةً من دونكم** ﴾ أي: أولياء أصفياء من غير أهل ملّتكم، وبطانة الرجل: خاصته، تشبيهاً ببطانة الثوب التي تلي بطنه، لأنهم يستبطنون أمرَه ويطّلعون منه على

الله ذكر في سياق هذه الآية قوله: ﴿وإذا لقوكم قالوا آمناً وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ﴾ وهذه صفة المنافقين لا صفة اليهود وقيل المراد بهذه جميع أصناف الكفار، ويدل على صحة هذا القول معنى الآية لأن الله تعالى قال لا تتخذوا بطانة من دونكم فمنع المؤمنين أن يتخذوا بطانة من دون المؤمنين فيكون ذلك نهياً عن جميع الكفار والبطانة خاصة الرجل المطلع على سره واشتقاقه من بطانة الثوب بدلالة قولهم لبست فلاناً إذا اختصصته، ويقال فلان شعاري ودثاري والشعار الذي يلي الجسد وكذلك البطانة والحاصل أن الذي يخصه الإنسان بمزيد القرب يسمي بطانة لأنه يستبطن أمره ويطلع منه على ما لا يطلع عليه غيره ﴿من دونكم﴾ قبل من صلة زائدة والتقدير لا تتخذوا بطانة دونكم، وقيل من للتبيين أي لا تتخذوا بطانة من دون أهل ملتكم والمعنى لا تتخذوا أولياء ولا أصفياء من غير أهل ملتكم ثم بين سبحانه وتعالى علة النهي عن مباطنتهم فقال تعالى: ﴿لا يألونكم خبالاً﴾ يعني لا يقصرون ولا يتركون جهدهم فيما يورثكم الشر والفساد وهو الخبال لأن أصل الخبال الفساد والضرر الذي يلحق الإنسان فيورثه نقصان العقل ﴿ودوا ما عنتم﴾ أي يودون عنتكم وهو ما يشق عليكم من الضرر والشر والهلاك والعنت المشقة ﴿قد بدت البغضاء من أفواههم﴾ أي ظهرت العداوة من أفواههم بالشتيمة والوقيعة بين المسلمين وقيل هو إطلاع المشركين على أسرار المؤمنين ﴿وما تخفي صدورهم﴾ يعني من العداوة والغيظ ﴿أكبر﴾ أي أعظم مما يظهرونه ﴿قد بينا لكم الآيات﴾ يعني الدالة على وجوب الإخلاص في الدين من موالاة المؤمنين ومعادة الكافرين ﴿إن كنتم تعقلون﴾ يعني ما بين لكم فتتعظون به. قوله تعالى: .

هَٰٓأَنتُمۡ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمۡ وَلَا يُحِبُّونَكُمۡ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ عَضُّواْ عَلَيۡكُمُ
ٱلۡأَنَامِلَ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۚ قُلۡ مُوتُواْ بِغَيۡظِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِن تَمۡسَسۡكُمۡ حَسَنَةٞ تَسُؤۡهُمۡ وَإِن تُصِبۡكُمۡ
سَيِّئَةٞ يَفۡرَحُواْ بِهَاۖ وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـًٔاۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ﴿١٢٠﴾

﴿ها أنتم﴾ ها للتنبيه وأنتم كناية للمخاطبين من الذكور ﴿أولاء﴾ اسم للمشار إليهم في قوله ﴿تحبونهم﴾ والمعنى أنتم إليها المؤمنون تحبون هؤلاء اليهود الذين نهيتكم عن مباطنتهم للأسباب التي بينكم وبينهم من القرابة والرضاع والمصاهرة والحلف ﴿ولا يحبونكم﴾ يعني اليهود لما بينكم وبينهم من المخالفة في الدين، وقيل تحبونهم يعني تريدون لهم الإسلام وهو خير الأشياء ولا يحبونكم لأنهم يريدون لكم الكفر وهو شر الأشياء لأن فيه هلاك الأبد وقيل هم المنافقون تحبونهم لما أظهروا من الإيمان وأنتم لا تعلمون ما في قلوبهم ولا يحبونكم لأن

ما لا يطّلع عليه غيرُهم، ثم بيّن العلّة في النهي عن مباطنتهم فقال جلّ ذكره ﴿ لا يألُونكم خَبالاً ﴾، أي: لا يقصرون ولا يتركون جهدهم فيما يُورثكم الشرَّ والفساد، والخَبالُ: الشرُّ والفساد، ونصب ﴿ خبالاً ﴾ على المفعول الثاني، لأن ﴿ يألو ﴾ يتعدّى إلى مفعولين، وقيل: بنزع الخافض، أي بالخبال، كما يقال أوجعته ضرباً، ﴿ وَدُّوا ما عَنِتُّم ﴾، أي يَودُّون ما يشقّ عليكم من الضرِ والشر والهلاك، والعنت المشقة، ﴿ قدْ بدتِ البَغْضاءُ ﴾ أي: البغض، معناه ظهرتْ أمارة العداوة، ﴿ من أفواهِهم ﴾، بالشتيمة والوقيعة في المسلمين، وقيل: باطّلاع المشركين على أسرار المسلمين، ﴿ وما تُخفي صدورُهم ﴾، من العداوة والغيظ، ﴿ أكبر ﴾، أعظم، ﴿ قد بيَّنّا لكم الآياتِ إنْ كنتم تعقلون ﴾.

﴿ ها أنتم ﴾ ها تنبيه وأنتم كناية للمخاطبين من الذكور، ﴿ أُولاءِ ﴾ اسم للمشار إليه، يريد أنتم أيها المؤمنون، ﴿ تُحبّونَهم ﴾ أي: تحبّون هؤلاء اليهود الذين نهيتكم عن مباطنتهم للأسباب التي بينكم من القرابة والرضاع والمصاهرة، ﴿ ولا يُحبّونكم ﴾، لما بينكم من مخالفة الدين، وقال مقاتل هم المنافقون يحبّهم المؤمنون

الكفر ثابت في قلوبهم وقيل تحبونهم وذلك بأن تفشوا إليهم أسراركم ولا يحبونكم أي لا يفعلون مثل ذلك معكم ﴿**وتؤمنون بالكتاب كله**﴾ يعني وهم لا يؤمنون وإنما ذكر الكتاب بلفظ الواحد والمراد به الجمع لأنه ذهب به إلى الجنس كقولهم كثر الدرهم في أيدي الناس والمعنى أنكم تؤمنون بالكتب كلها وهم لا يؤمنون بشيء من كتابكم ﴿**وإذا لقوكم قالوا آمنا**﴾ يعني أن الذين وصفهم في هذه الآية بهذه الصفات إذا لقوا المؤمنين قالوا آمنا كإيمانكم وصدقنا كتصديقكم وهذه صفة المنافقين وقيل هم اليهود ﴿**وإذا خلوا**﴾ أي خلا بعضهم إلى بعض ﴿**عضوا عليكم الأنامل من الغيظ**﴾ الأنامل جمع أنملة وهي طرف الأصبع والمعنى أنه إذا خلا بعضهم ببعض أظهروا العداوة وشدة الغيظ، على المؤمنين لما يرون من ائتلافهم واجتماع كلمتهم وصلاح ذات بينهم وعض الأنامل عبارة عن شدة الغيظ وهذا من مجاز الأمثال وإن لم يكن هناك عض كما يقال عض يده من الغيظ والغضب ﴿**قل موتوا بغيظكم**﴾ هذا دعاء عليهم أن يزداد غيظهم حتى يهلكوا به وذلك لما يرون من قوة الإسلام وعزة أهله ومالهم في ذلك من الذل والخزي والمعنى ابقوا إلى الممات بغيظكم ﴿**إن الله عليم بذات الصدور**﴾ يعني به الخواطر القائمة بالقلب والدواعي والصوارف الموجودة فيه وهي لكونها حالة في القلب منتسبة إليه كنى عنها بذات الصدور والمعنى أنه تعالى عالم بكل ما يحصل في قلوبكم من الخواطر فأخبرهم أنه عليم بما يسرونه من عض الأنامل غيظاً إذا خلوا وأنه عليم بما هو أخفى منه وهو ما يسرونه في قلوبهم. قوله عز وجل: ﴿**إن تمسسكم**﴾ أي تصبكم أيها المؤمنون وأصل المس باليد ثم يسمى كل ما يصل إلى شيء ماساً له على سبيل التشبيه كما يقال مسه نصب وتعب أي أصابه ﴿**حسنة**﴾ المراد بالحسنة هنا منافع الدنيا مثل ظهوركم على عدوكم وإصابتكم غنيمة منهم وتتابع الناس في الدخول في دينكم وخصب في معايشكم ﴿**تسؤهم**﴾ أي تحزنهم وتغمهم والسوء ضد الحسنى ﴿**وإن تصبكم سيئة**﴾ أي مساءة من إخفاق سرية لكم أو إصابة عدو منكم أو اختلاف يقع بينكم أو غدر ونكبة ومكروه يصيبكم ﴿**يفرحوا بها**﴾ أي بما أصابكم من ذلك المكروه ﴿**وإن تصبروا**﴾ يعني على أذاهم وقيل إن تصبروا على طاعة الله وما ينالكم فيها من شدة ﴿**وتتقوا**﴾ أي تخالفوا ربكم وقيل وتتقوا ما نهاكم عنه وتتوكلوا عليه ﴿**لا يضركم**﴾ أي لا ينقصكم ﴿**كيدهم**﴾ أي عداوتهم ومكرهم ﴿**شيئاً**﴾ أي لأنكم في عناية الله وحفظه ﴿**إن الله بما يعملون**﴾ قرىء بالياء على

لِما أظهروا من الإيمان، ولا يعلمون ما في قلوبهم، ﴿ **وتُؤمنون بالكتاب كله** ﴾، يعني: بالكتب كلها وهم لا يؤمنون بكتابكم، ﴿ **وإذا لَقُوكُم قالوا آمنّا، وإذا خَلَوْا** ﴾، وكان بعضهم مع بعض ﴿ **عَضُّوا عليكم الأناملَ مِنَ الغيظ** ﴾، يعني: أطراف الأصابع واحدتها أنملة بضم الميم وفتحها، من الغيظ لما يرون من ائتلاف المؤمنين واجتماع كلمتهم، وعضّ الأنامل عبارة عن شدّة الغيظ وهذا من مجاز الأمثال، وإن لم يكن ثم عضّ ﴿ **قلْ مُوتُوا بغيظكم** ﴾، أي: ابقوا إلى الممات بغيظكم، ﴿ **إن اللَّهَ عليمٌ بذاتِ الصدور** ﴾، أي: بما في القلوب من خير وشر.

قوله تعالى: ﴿ **إن تَمْسَسْكُم** ﴾ أي: تُصبكم أيها المؤمنون ﴿ **حسنةٌ** ﴾ بظهوركم على عدوكم وغنيمة تنالونها منهم، وتتابع الناس في الدخول في دينكم، وخصب في معايشكم ﴿ **تسؤهم** ﴾، تُحزنهم، ﴿ **وإن تُصِبكم سيئة** ﴾، مساءةٌ بإخفاق سرية لكم أو إصابة عدوٍّ منكم، واختلاف يكون بينكم أو جدبٍ أو نكبة، ﴿ **يَفْرَحُوا بها وإن تَصبرُوا** ﴾، على أذاهم ﴿ **وتتقوا** ﴾، تخافوا ربكم ﴿ **لا يضرُّكم** ﴾، أي: لا ينقصكم، ﴿ **كيدُهم شيئاً** ﴾، قرأ ابن عامر وابن كثير ونافع وأهل البصرة ﴿ **لا يضرْكم** ﴾ بكسر الضاد خفيفة، يقال: ضار يضير ضيراً، وهو جزم على جواب الجزاء، وقرأ الباقون بضمّ الضاد وتشديد الراء من ضرّ يضرّ ضرّاً، مثل ردّ يردّ ردّاً وفي رفعه وجهان. أحدهما: أنه أراد الجزم، وأصله يضرركم فأدغمت الراء في الراء، ونُقلت ضمة الراء الأولى الضاد وضمّت الثانية

الغيبة والمعنى أنه عالم بما يعملون من عداوتكم وأذاكم فيعاقبهم عليه وقرىء بالتاء على خطاب الحاضر والمعنى أنه عالم بما تعملون أيها المؤمنون من الصبر والتقوى فيجازيكم عليه ﴿**محيط**﴾ أي عالم بجميع ذلك حافظ لا يعزب عنه شيء منه. قوله عز وجل:

﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ١٢١﴾

﴿**وإذا غدوت من أهلك تبوّىء المؤمنين مقاعد للقتال**﴾ قال جمهور المفسرين إن هذا كان في يوم أحد وهو قول عبدالرحمن بن عوف وابن مسعود وابن عباس والزهري وقتادة والسدي والربيع وابن إسحاق، وقال الحسن ومجاهد ومقاتل: إنه يوم الأحزاب ونقل عن الحسن أيضاً أنه يوم بدر قال ابن جرير الطبري الأول أصح لقوله تعالى: ﴿**إذ همّت طائفتان منكم أن تفشلا**﴾ وقد اتفق العلماء أن ذلك كان يوم أحد قال مجاهد والكلبي والواقدي غدا رسول الله ﷺ من منزل عائشة فمشى على رجليه إلى أحد فجعل يصف أصحابه للقتال كما يقوم القدح قال محمد بن إسحاق والسدي عن رجالهما إن المشركين نزلوا بأحد يوم الأربعاء فلما سمع رسول الله ﷺ بنزولهم استشار أصحابه ودعا عبدالله بن أبي ابن سلول ولم يدعه قط قبلها فاستشاره فقال عبدالله بن أبيّ وأكثر الأنصار يا رسول الله أقم بالمدينة ولا تخرج إليه فوالله ما خرجنا منها إلى عدو قط إلا أصاب منا ولا دخلها علينا إلا أصبنا منه فكيف وأنت فينا فدعهم يا رسول الله، فإن أقاموا أقاموا بشر مجلس وإن دخلوا قاتلتهم الرجال في وجوههم ورماهم النساء والصبيان بالحجارة من فوقهم وإن رجعوا رجعوا خائبين فأعجب رسول الله ﷺ هذا الرأي وقال بعض أصحابه يا رسول الله اخرج بنا إلى هذه الأكلب لئلا يروا أنا جبنا عنهم وضعفنا وخفناهم فقال رسول الله ﷺ إني قد رأيت في منامي بقراً فأولتها خيراً ورأيت في ذباب سيفي ثلماً فأولتها هزيمة ورأيت أني أدخلت يدي في درع حصينة فأولتها المدينة فإن رأيتم أن تقيموا بالمدينة وتدعوهم فإن أقاموا أقاموا بشر وإن دخلوا علينا المدينة قاتلناهم فيها وكان رسول الله ﷺ يعجبه أن يدخلوا عليه المدينة فيقاتلهم في الأزقة فقال رجال من المسلمين ممن فاتهم يوم بدر وأكرمهم الله بالشهادة يوم أحد أخرج بنا إلى أعدائنا، فلم يزالوا برسول الله ﷺ من حبهم للقاء القوم حتى دخل رسول الله ﷺ منزله ولبس لأمته فلما رأوه قد لبس السلاح ندموا وقال بئس ما صنعنا نشير على رسول الله ﷺ والوحي يأتيه فقاموا واعتذروا إليه وقالوا: يا رسول الله اصنع ما شئت فقال رسول الله ﷺ: لا ينبغي

اتباعاً، والثاني: أن يكون لا بمعنى ليس ويضمر فيه الفاء، تقديره: وإن تصبروا وتتقوا فليس يضرّكم كيدهم شيئاً، ﴿ **إنّ الله بما يعملُون مُحيط** ﴾، أي: عالم.

قوله تعالى: ﴿ **وإذْ غدوتَ من أهلك تبوّىءُ المؤمنين مقاعدَ للقتال** ﴾، قال الحسن: هو يوم بدر، وقال مقاتل: يوم الأحزاب، وقال سائر المفسرين: هو يوم أُحد، وقال مجاهد والكلبي والواقدي: غدا رسول الله ﷺ من منزل عائشة رضي الله عنها يمشي على رجليه إلى أُحُد فجعل يصف أصحابه للقتال كما يقوم القدح، قال محمد بن إسحق والسدي عن رجالهما: إن المشركين نزلوا بأُحُد يوم الأربعاء فلما سمع رسول الله ﷺ بنزولهم استشار أصحابه ودعا عبد الله بن أُبيّ ابن سلول ولم يدعُهُ قطّ قبلها فاستشاره، فقال عبد الله بن أُبيّ وأكثر الأنصار: يا رسول الله أقم بالمدينة لا تخرج إليهم فوالله ما خرجنا إلى عدو قطّ إلاّ أصاب منّا ولا دخلها علينا إلاّ أصبنا منه، فكيف وأنت فينا فدعهم يا رسول الله فإن أقاموا أقاموا بشرِّ مجلس، وإن دخلوا قاتلهم الرجال في وجوههم ورماهم النساء والصبيان بالحجارة من فوق، وإن رجعوا رجعوا خائبين فأعجب رسول الله ﷺ هذا الرأي، وقال بعض أصحابه: يا رسول الله اخرج بنا إلى هذه الأكلب، لا يرون أنّا جُبنّا عنهم وضَعُفْنَا، وقال رسول الله ﷺ: «إني رأيت في منامي

لنبي أن يلبس لأمته فيضعها حتى يقاتل وكان قد قام المشركون بأحد يوم الأربعاء والخميس وخرج رسول الله ﷺ يوم الجمعة بعد ما صلى بأصحابه الجمعة، وكان قد مات في ذلك اليوم رجل من الأنصار فصلى عليه ثم خرج عليهم فأصبح بالشعب من أحد يوم السبت للنصف من شوال سنة ثلاث من الهجرة. وقيل كان نزوله في جانب الوادي وجعل ظهره وأصحابه إلى أحد وأمر عبدالله بن جبير على الرماة. وقال ادفعوا عنا بالنبل حتى لا يأتونا من ورائنا وقال رسول الله ﷺ اثبتوا في هذا المقام فإذا عاينوكم ولوا الأدبار فلا تطلبوا المدبرين ولا تخرجوا من هذا المقام ولما خالف رسول الله ﷺ رأى عبدالله بن أبي ابن سلول شق عليه ذلك وقال لأصحابه أطاع الولدان وعصاني ثم قال لأصحابه إن محمداً إنما يظفر بعدوه بكم وقد وعد أصحابه أن أعداءهم إذا عاينوهم انهزموا فإذا رأيتم أعداءهم فانهزموا أنتم فيتبعونكم فيصير الأمر إلى خلاف ما قاله محمد لأصحابه فلما التقى الجمعان وكان عسكر المسلمين ألفا وكان المشركون ثلاثة آلاف انخذل عبدالله بن أبي ابن سلول بثلاثمائة من أصحابه من المنافقين وبقي مع رسول الله ﷺ نحو سبعمائة من أصحابه فقواهم الله تعالى وثبتهم حتى هزموا المشركين. فلما رأى المؤمنون انهزام المشركين طمعوا في أن تكون هذه الواقعة كوقعة بدر فطلبوا المدبرين وخالفوا أمر رسول الله ﷺ فأراد الله أن يقطعهم عن هذا الفعل لئلا يقدموا على مثله من مخالفة رسول الله ﷺ وليعلموا أن ظفرهم يوم بدر إنما كان ببركة طاعة الله وطاعة رسوله. ثم إن الله تعالى نزع الرعب من قلوب المشركين فكروا راجعين على المسلمين فانهزم المسلمون وبقي رسول الله ﷺ في جماعة من أصحابه منهم أبو بكر وعلي والعباس وطلحة وسعد وكسرت رباعية رسول الله ﷺ وشج وجهه يومئذ وكان من أمر غزو أُحد ما كان فذلك قوله تعالى: ﴿**وإذ غدوت من أهلك**﴾ أي واذكر إذ غدوت من أهلك يعني منزل عائشة ففيه منقبة عظيمة لعائشة رضي الله عنها لقوله من أهلك فنص الله تعالى على أنها من أهله تبوىء المؤمنين أي تنزل المؤمنين مقاعد للقتال أي مواضع ومواطن للقتال. وقيل تتخذ عسكراً للقتال ﴿**والله سميع**﴾ يعني لأقوالكم ﴿**عليم**﴾ يعني بنياتكم وضمائركم. قوله عز وجل:

﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ﴾

بقراً مذبوحة، فأوّلتُها خيراً، ورأيتُ في ذُباب سيفي ثَلْماً فأوّلتها هزيمةً، ورأيت أني أدخلت يدي في درع حصينة فأولتها المدينة، فإن رأيتم أن تقيموا بالمدينة»، وكان يعجبه أن يدخلوا عليهم بالمدينة فيقاتلوا في الأزقّة، فقال رجل من المسلمين ممّن فاتهم يوم بدر وأكرمهم الله بالشهادة يوم أُحُد: اخرج بنا إلى أعدائنا فلم يزالوا برسول الله ﷺ من حبّهم للقاء القوم حتى دخل رسول الله ﷺ، فلبس لأمَته فلمّا رأوه قد لبس السلاح ندِمُوا، وقالوا بئس ما صنعنا نشير على رسول الله ﷺ والوحي يأتيه، فقاموا واعتذروا إليه وقالوا: اصنع ما رأيتَ، فقال ﷺ: «لا ينبغي لنبي أن يلبس لأمَته فيضعها حتى يقاتل»، وكان قد أقام المشركون بأُحد يوم الأربعاء والخميس، فراح رسول الله ﷺ يوم الجمعة بعدما صلّى بأصحابه الجمعة وقد مات في ذلك اليوم رجل من الأنصار فصلّى عليه رسول الله ﷺ، ثم خرج إليهم، فأصبح بالشّعب من أُحُد يوم السبت للنصف من شوّال سنة ثلاثٍ من الهجرة، فكان من حرب أُحُد ما كان، فذلك قوله تعالى: ﴿ **وإذْ غدوتَ من أهلك تبوىءُ** ﴾ تنزل المؤمنين ﴿ **مقاعدَ للقتال** ﴾ أي: مواطن، ومواضع للقتال، يقال: بوّأتُ القوم إذا وطنتُهم، وتبوؤا هم إذا توطؤوا، قال الله تعالى: ﴿ ولقد بوّأنا بني إسرائيل مُبوّأ صدق ﴾ [يونس: ٩٣]، وقال: ﴿ أن تبوّآ لقومكما بمصر بيوتاً ﴾ [يونس: ٨٧] وقيل: تتخذ معسكراً، ﴿ **واللّهُ سميعٌ عليم** ﴾.

مِّنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَـٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَـٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾

﴿إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا﴾ أي تجبنا وتضعفا عن القتال والطائفتان بنو سلمة من الخزرج وبنو حارثة من الأوس كان جناحي العسكر وذلك أن رسول الله ﷺ خرج إلى أحد مع ألف رجل، وقيل في تسعمائة وخمسين رجلاً وكان المشركون ثلاثة آلاف رجل فلما بلغوا الشوط انخذل عبدالله بن أبي بثلث الناس ورجع في ثلاثمائة وقال علام نقتل أنفسنا وأولادنا فتبعه أبو جابر السلمي وقال أنشدكم الله في نبيكم وأنفسكم فقال عبدالله بن أبي لو نعلم قتالاً لاتبعناكم وهمّت الطائفتان بالانصراف مع عبدالله بن أبي فعصمهم الله فثبتوا ومضوا مع رسول الله ﷺ قال ابن عباس: أضمروا أن يرجعوا فعزم الله لهم على الرشد فثبتوا فذكرهم الله عظيم نعمته عليهم فقال: إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا ﴿والله وليهما﴾ أي ناصرهما وحافظهما ومتولي أمرهما بالتوفيق والعصمة. فإن قلت الهم العزم على فعل الشيء والآية تدل على أن الطائفتين قد عزمتا على الفشل وترك القتال وذلك معصية فكيف مدحهما الله تعالى بقوله والله وليهما. قلت الهم قد يراد به العزم وقد يراد به حديث النفس وإذا كان كذلك فحمل الهم على حديث النفس هنا أولى والله تعالى لا يؤاخذ بحديث النفس ويعضده قول ابن عباس إنهم أضمروا أن يرجعوا فلما عزم الله لهم على الرشد وثبتوا مع رسول الله ﷺ مدحهم الله تعالى بقوله والله وليهما (ق) عن جابر قال: نزلت فينا: ﴿إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا والله وليهما﴾ قال نحن الطائفتان بنو حارثة وبنو سلمة وما يسرني أنها لم تنزل لقول الله والله وليهما ففيه الاستبشار بما حصل لهم من الشرف العظيم، وإنزاله فيهم آياته ناطقة مفصحة بأن الله وليهم وأن تلك الهمة التي هموها ما أخرجتهم من ولاية الله تعالى. وقوله تعالى: ﴿وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾ التوكل تفعل من وكل أمره إلى غيره إذا اعتمد عليه في كفايته والقيام به، وقيل التوكل هو العجز والاعتماد على الغير وقيل هو تفويض الأمر إلى الله تعالى ثقة بحسن تدبيره فأمر الله عباده المؤمنين أن لا يتوكلوا إلاّ عليه وأن لا يفوضوا أمرهم إلاّ إليه.

قوله عز وجل: ﴿ولقد نصركم الله ببدر﴾ بدر اسم موضع بين مكة والمدينة معروف وقيل هو اسم لبئر هناك وكانت البئر لرجل يقال له بدر فسميت به. ذكر الله المؤمنين منته عليهم بالنصر يوم بدر ﴿وأنتم أذلة﴾ جمع ذليل

﴿ إِذْ همَّتْ طائفتانِ منكم أنْ تفشَلا ﴾ أي: تَجْبُنا وتضْعُفا وتتخلّفا، والطائفتان بنو سلمة من الخزرج وبنو حارثة من الأوس، وكانا جناحي العسكر، وذلك أن رسول الله ﷺ خرج إلى أُحُد في ألف رجل، وقيل: في تسعمائة وخمسين رجلاً، فلما بلغوا الشوط اتخذ عبد الله بن أُبي بثلث الناس ورجع في ثلاث مائة وقال علامَ نقتل أنفسَنا وأولادَنا؟ فتبعهم أبو جابر السلمي فقال: أنشدكم بالله في نبيّكم وفي أنفسكم، فقال عبد الله بن أُبيّ: لو نعلم قتالاً لاتّبعناكم، وهمّتْ بنو سلمة وبنو حارثة بالانصراف مع عبد الله بن أُبيّ، فعصمهم الله فلم ينصرفوا فذكرهم الله عظيمَ نعمتِه، فقال عزّ وجلّ: ﴿ إِذْ همَّتْ طائفتان منْكم أن تَفْشَلا والله وليُّهما ﴾ ناصرهما وحافظهما، ﴿ وعلى اللّهِ فليتوكَّلِ المؤمنون ﴾، أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أخبرنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل أنا محمد بن يوسف عن ابن عيينة عن عمر عن جابر قال: نزلت هذه الآية فينا ﴿ إِذْ همَّتْ طائفتان منكم أن تفشلا والله وليّهما ﴾ بنو سلمة وبنو حارثة، وما أُحبّ أنها لم تنزل، واللّهُ يقول: ﴿ والله وليُّهما ﴾.

قوله تعالى: ﴿ ولقدْ نَصَركُمُ اللّهُ بِبَدْرٍ ﴾، وبدر موضع بين مكة والمدينة وهو اسم لموضع، وعليه الأكثرون،

وهو جمع قلة وأراد به قلة العدد فإن المسلمين كانوا ثلاثمائة وبضعة عشر وفي رواية وثلاثة عشر رجلاً والمراد بذلتهم ضعف الحال وقلة السلاح والمركوب والمال وعدم القدرة على مقاومة العدو وذلك أنهم خرجوا على مواضح وكان النفر منهم يتعقب على البعير الواحد. وكان أكثرهم رجالة ولم يكن معهم إلاّ فرس واحد وكان عدوهم من كفار قريش في حال الكثرة زهاء ألف مقاتل ومعهم مائة فرس وكان معهم السلاح والشوكة فنصر الله المؤمنين مع قلتهم على عدوهم مع كثرتهم ﴿**فاتقوا الله**﴾ يعني في الثبات مع رسول الله ﷺ: ﴿**لعلكم تشكرون**﴾ يعني بتقواكم ما أنعم به عليكم من نصرته. قوله عز وجل: ﴿**إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين**﴾ اختلف المفسرون في أن هذا الوعد بإنزال الملائكة هل حصل يوم بدر أو يوم أحد على قولين أحدهما أنه كان يوم بدر. قال قتادة: كان هذا يوم بدر أمدهم الله بألف من الملائكة كما قال: إن تستغيثون ربكم فاستجاب لكم: «أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين» ثم صاروا ثلاثة آلاف ثم صاروا خمسة آلاف كما ذكر ههنا ﴿**بلى إن تصبروا واتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة**﴾ فصبروا يوم بدر وتقوا فأمدهم الله بخمسة آلاف كما وعد. قال ابن عباس: لم تقاتل الملائكة في معركة إلاّ يوم بدر وفيما سوى ذلك يشهدون القتال ولا يقاتلون إنما يكونون عدداً أو مدداً، وقال الحسن: هؤلاء الخمسة آلاف ردء للمؤمنين إلى يوم القيامة، وقال الشعبي: بلغ رسول الله ﷺ والمسلمين يوم بدر أن كرز بن جابر المحاربي يريد أن يمد المشركين فشق ذلك عليهم فأنزل الله تعالى ألن يكفيكم إلى قوله مسومين فبلغ كرزاً الهزيمة فرجع ولم يأتهم ولم يمدهم فلم يمدهم الله أيضاً بالخمسة آلاف وكانوا قد أمدوا بألف من الملائكة، وفي صحيح البخاري من حديث ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال يوم بدر: «هذا جبريل آخذ برأس فرسه عليه أداة الحرب» واحتج لصحة هذا القول أيضاً بأن الله تعالى قال قبل هذه الآية ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة وظاهر هذا يقتضي أن الله نصرهم حين قال النبي ﷺ للمؤمنين: ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف ولأن العدد والعدد كانت يوم بدر قليلة وكان الاحتياج إلى الإمداد أكثر. القول الثاني إن هذا الوعد بإنزال الملائكة كان يوم أحد وهو قول عكرمة والضحاك ومقاتل. قال عمير بن إسحاق: لما كان يوم أحد انجلى القوم عن رسول الله ﷺ وبقي سعد بن مالك يرمي وفتى شاب يتنبل له كلما فني النبل أتاه به فنثره وقال ارم أبا إسحاق ارم أبا إسحاق مرتين فلما انجلت المعركة سئل عن ذلك الرجل

وقيل: اسم لبئر هناك، وقيل: كانت بدر بئراً لرجل يقال له بدر، قاله الشعبي، وأنكر الآخرون عليه، يذكر الله تعالى في هذه الآية مِنَّتَهُ عليهم بالنصرة يومَ بدر، ﴿ **وأنتم أذلّة** ﴾، جمع: ذليل، وأراد به قلّة العدد فإنهم كانوا ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً فنصرهم الله مع قلّة عَدَدِهم وعُدَدِهم، ﴿ **فاتّقوا اللّهَ لعلّكم تشكرون** ﴾.

﴿ **إذْ تقولُ للمؤمنين ألنْ يكفِيَكُم أن يُمِدَّكُم ربُّكم** ﴾، اختلفوا في هذه الآية فقال قتادة: كان يوم بدر أمدّهم الله تعالى بألفٍ من الملائكة كما قال: ﴿ فاستجابَ ربُّكم أني مُمِدُّكم بألف من الملائكة ﴾ [الأنفال: ٩]، ثم صاروا ثلاثة آلاف ثم صاروا خمسة آلاف كما ذكر ههنا، ﴿ **بثلاثةِ آلافٍ من الملائكةِ مُنْزَلِين** ﴾.

﴿ **بلَى إنْ تصبرُوا وتتقُوا ويأتُوكم مِنْ فَورِهم هذا يُمدِدْكُم ربُّكم بخمسةِ آلافٍ مَنَ الملائكةِ مُسَوِّمِين** ﴾ فصبروا يوم بدر واتقوا فأمدّهم الله بخمسة آلاف من الملائكة كما وعد، قال الحسن: وهؤلاء الخمسة آلاف رِدْءُ المؤمنين إلى يوم القيامة، قال ابن عباس ومجاهد: لم تقاتل الملائكة في المعركة إلاّ يوم بدر، فيما سوى ذلك يشهدون القتال ولا يقاتلون، وإنما يكون عدداً ومَدداً، قال محمد بن إسحق: لمّا كان يوم أُحُد انجلى القوم عن رسول الله ﷺ وبقي سعد بن مالك يرمي، وفتىً شابٌّ يتنبل له كلما فني النبل أتاه به فنثره، فقال إرم يا أبا إسحق مرتين، فلما انجلتِ المعركة سئل عن ذلك الرجل فلم يعرفه أحد، أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا

فلم يعرف (ق) عن سعد بن أبي وقاص قال: «رأيت عن يمين رسول الله ﷺ وعن شماله يوم أحد رجلين عليهما ثياب بيض يقاتلان عنه كأشد القتال ما رأيتهما قبل، ولا بعد يعني جبريل وميكائيل» واحتج لصحة هذا القول بأن المدد كان يوم بدر بألف من الملائكة كما نص عليه في سورة الإنفاق ولم يكن بثلاثة آلاف ولا بخمسة آلاف كما هنا وأيضاً أن الكفار كانوا يوم بدر ألفاً أو ما يقرب منهم وكان المسلمون على الثلث من ذلك فإنهم كانوا ثلاثمائة وبضعة عشر فأنزل الله يوم بدر ألفاً من الملائكة في مقابلة عدد الكفار فوقع النصر يومئذٍ للمسلمين والهزيمة للكفار، وكان عدد المسلمين يوم أحد ألفاً وعدد الكفار ثلاثة آلاف فناسب أن يكون المدد يومئذٍ للمسلمين ثلاثة آلاف من الملائكة ليكون ذلك مقابلاً لعدد الكفار كما في يوم بدر. وأجيب عن الاحتجاج الأول لهذا القول بأن الله تعالى أمدهم يوم بدر بألف كما ذكر في سورة الأنفال ثم لما سمع أصحاب رسول الله ﷺ بإمداد كرز لكفار قريش شق عليهم وعدوا بأن يمدوا بثلاثة آلاف وبخمسة آلاف لتقوى قلوبهم بذلك. وأجيب عن الثاني وهو أن الكفار كانوا يوم بدر ألفاً فأنزل الله ألفاً وفي يوم أحد كانوا ثلاثة آلاف فأنزل الله ثلاثة آلاف بأن هذا تقريب حسن ولله أن يزيد ما شاء في أي وقت شاء ولهذا قال عكرمة في قوله تعالى: ﴿**بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا**﴾ قال يوم بدر قال ولم يصبروا ولم يتقوا يوم أحد فلم يمدوا ولو أمدوا لم يهزموا يومئذٍ وقيل لم يصبروا ولم يتقوا إلاّ في يوم الأحزاب فأمدهم الله بالملائكة حتى حاصروا قريظة (ق) عن عائشة رضي الله عنها قالت: «لما رجع رسول الله ﷺ من الخندق ووضع السلاح واغتسل أتاه جبريل فقال: قد وضعت السلاح والله ما وضعناه اخرج إليهم قال: فإلى أين؟ قال ههنا وأشار إلى بني قريظة فخرج النبي ﷺ» (ق) عن أنس رضي الله عنه قال: «كأني أنظر إلى الغبار ساطعاً في زقاق بني غنم موكب جبريل عليه السلام حين سار رسول الله ﷺ إلى بني قريظة وقال عبدالله بن أبي أوفى كنا محاصرين قريظة والنضير ما شاء الله فلم يفتح علينا فرجعنا فدعا رسول الله ﷺ بغسل فهو يغسل رأسه إذ جاءه جبريل عليه السلام فقال: أوضعتم أسلحتكم ولم تضع الملائكة أوزارها فدعا رسول الله ﷺ بخرقة فلف بها رأسه ولم يغسله ثم نادى فينا فقمنا حتى أتينا قريظة والنضير فيومئذٍ أمدنا الله تعالى بثلاثة آلاف من الملائكة ففتح لنا فتحاً يسيراً» وقال ابن جرير الطبري: وأولى الأقوال بالصواب أن الله تعالى أخبر عن نبيه ﷺ أنه قال للمؤمنين: «ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة» فوعدهم بثلاثة آلاف من الملائكة مدداً لهم ثم

أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا عبد العزيز بن عبد الله أنا إبراهيم بن سعد عن أبيه عن جدّه عن سعد بن أبي وقّاص قال: رأيت رسول الله ﷺ يوم أُحد ومعه رجلان يقاتلان عنه عليهما ثياب بيض كأشدّ القتال ما رأيتهما قبل ولا بعد. رواه مسلم عن أبي بكر بن أبي شيبة، قال أخبرنا محمد بن بشر وأبو أسامة عن مسعرٍ عن سعد بن إبراهيم عن أبيه عن سعد يعني ابن أبي وقاص قال: رأيت عن يمين رسول الله ﷺ وعن شماله يوم أحد رجلين عليهما ثياب بيض ما رأيتهما قبل ولا بعد، يعني: جبريل وميكائيل، وقال الشعبي: بلغ رسول الله ﷺ يوم بدر: أن كرز بن جابر المحاربي يريد أن يمدّ المشركين فشقّ ذلك عليهم، فأنزل الله تعالى: ﴿ ألَنْ يكفيَكم أنْ يُمدّكم ﴾ إلى قوله: ﴿ مُسَوِّمين ﴾ فبلغ كرزاً الهزيمةُ فرجع فلم يأتِهِمْ ولم يَمُدَّهم، فلم يمدّهم الله أيضاً بالخمسة آلاف، وكانوا قَدِمُوا بألف، وقال الآخرون: إنما وعد الله تعالى المسلمين يوم بدر إن صبروا على طاعته واتقوا محارمه أن يمدّهم أيضاً في حروبهم كلِّها، فلم يصبروا إلاّ يومَ الأحزاب، فأمدّهم حين حاصروا قُريظة والنضير، قال عبد الله بن أبي أوفى: كنّا محاصري قريظة والنضير ما شاء الله فلم يُفتح علينا فرجعنا فدعا رسول الله ﷺ بِغَسْلٍ فهو يغسل رأسه إذْ جاءه جبريل عليه السلام، فقال: وضعتم أسلحتكم ولم تضعِ الملائكة أوزارها؟ فدعا رسول الله ﷺ بخرقة فلفّ بها رأسه ولم يغسله، ثم نادى فينا فقمنا حتى أتينا قريظة والنضير، فيومئذ أمدّنا الله

وعدهم بخمسة آلاف إن صبروا لأعدائهم واتقوا ولا دلالة في الآية على أنهم أمدوا بهم ولا على أنهم لم يمدوا بهم فقد يجوز أن الله أمدهم وقد يجوز أن لا يكون أمدهم ولا يثبت ذلك إلّا بنص تقوم به الحجة في ذلك. وقد ثبت بنص القرآن أنهم أمدوا يوم بدر بألف من الملائكة كما في سورة الأنفال وأما يوم أحد فالدلالة على أنهم لم يمدوا أبين منها بأنهم أمدوا وذلك أنهم لو أمدوا لم ينهزموا ولم ينل منهم ما نيل منهم. فإن قلت فما تصنع بحديث سعد بن أبي وقاص المتقدم في يوم أحد وأنه رأى ملكين عن يمين النبي ﷺ وشماله قلت إنما كان ذلك للنبي ﷺ خاصة لأنه صبر ولم ينهزم كما انهزم أصحابه يوم أحد. وأما التفسير فقوله تعالى: إذ تقول للمؤمنين فعلى قول من قال: إن هذا كان يوم بدر. قال نظم الآية ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة إذ تقول للمؤمنين ومن قال هذا يوم أحد يقول نظم الآية أن الله ذكر قصة أحد ثم أتبعه بقوله: «ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة» فكذلك هو قادر أن ينصركم في سائر المواطن ثم رجع إلى قصة أحد فقال تعالى: ﴿**إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم**﴾ ومعنى الكفاية هو سد الخلة والقيام بالأمر مع بلوغ المراد أن يمدكم ربكم. الإمداد إعانة الجيش فما كان على جهة القوة والإعانة يقال أمده إمداداً وما كان على جهة الزيادة يقال. فيه مده مداً، وقيل المد في الشر والإمداد في الخير بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين إنما وعدهم الله بنزول الملائكة لتقوى قلوبهم ويثقوا بنصر الله ويعزموا على الثبات. بلى تصديق لوعد الله أي بلى نمدكم وقيل بلى إيجاب لما بعد ألن يعني يكفيكم الإمداد بهم فأوجب الكفاية أن تصبروا أي على لقاء عدوكم وتتقوا يعني معصية الله ومخالفة نبيه ﷺ ويأتوكم يعني المشركين من فورهم هذا قال ابن عباس: ابتداء الأمر يوجد فيه ثم يوصل بآخر فمن قال معنى من فورهم من وجههم أراد ابتداء مخرجهم يوم بدر. ومن قال معناه من غضبهم أراد ابتداء غضبهم لقتلاهم يوم بدر لأنهم رجعوا للحرب يوم أحد من غضبهم يوم بدر. يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة لم يرد خمسة آلاف سوى الثلاثة المتقدمة بل أراد معهم فمن قال إن هذا الإمداد كان يوم بدر قال: إن الله تعالى أمدهم بألف فلما سمعوا أن كرز بن جابر المحاربي يريد أن يمد المشركين فشق على المسلمين ذلك قال النبي ﷺ للمسلمين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم الآية على تقدير أن يجيء للمشركين المدد، فلما لم يمدوا لم يمد الله المسلمين بغير ألف وروى ابن الجوزي في تفسيره عن جبير بن مطعم عن علي بن أبي طالب قال: بينا أنا امتح من قليب بدر جاءت ريح شديدة لم أرَ أشد منها ثم جاءت ريح شديدة لم أرَ أشد منها إلّا التي قبلها ثم جاءت ريح شديدة لم أر أشد منها إلا التي كانت قبلها فكانت الريح الأولى جبريل نزل في ألفين من الملائكة وكانوا بين يدي النبي ﷺ وكانت الريح الثانية ميكائيل نزل في ألفين من الملائكة وكانوا عن يمين

تعالى بثلاثة آلاف من الملائكة، ففتح لنا فتحاً يسيراً، وقال الضحاك وعكرمة: كان هذا يوم أُحُد وَعَدهم الله المَدَد إن صبَرُوا فلم يصبروا فلم يُمدّوا، قوله تعالى: ﴿ **أن يُمدّكم ربّكم** ﴾ الإمداد: إعانة الجيش، وقيل: ما كان على جهة القوة والإعانة، يقال فيه: أمدّه إمداداً، وما كان على جهة الزيادة، ويقال فيه: مدّه مَدَداً، منه قوله تعالى: ﴿ والبحرُ يمدُّه ﴾ [لقمان: ٢٧] وقيل: المدّ في الشر، والإمداد في الخير، يدلّ عليه قوله تعالى: ﴿ ويَمُدُّهم في طُغيَانِهم ﴾ [البقرة: ١٥] ﴿ ونَمُدّ له من العذاب مدّاً ﴾ [مريم: ٧٩] وقال في الخير: ﴿ أني مُمدّكم بألفٍ منَ الملائكةِ ﴾ [الأنفال: ٩] منزَلين، وقال: ﴿ وأمددناكم بأموالٍ وبنين ﴾ [الإسراء: ٦] قوله تعالى: ﴿ **بثلاثة آلافٍ من الملائكة مُنزَلِين** ﴾ قرأ ابن عامر تشديد الزاي على التكثير لقوله تعالى: ﴿ ولو أننا نزّلنا إليهم الملائكة ﴾ [الأنعام: ١١١]، وقرأ الآخرون بالتخفيف دليله قوله تعالى: ﴿ لولا أنزل علينا الملائكة ﴾ [الفرقان: ٢١] وقوله: ﴿ وأنزلَ جنوداً لم تروها ﴾ [التوبة: ٢٦]، ثم قال: ﴿ **بلى** ﴾ نُمدّكم ﴿ **إن تصبرُوا** ﴾ لعدوّكم ﴿ **وتتقوا** ﴾ مخالفة نبيّكم ﴿ **ويأتوكم** ﴾ يعني المشركين ﴿ **من فورهم هذا** ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما وقتادة والحسن وأكثر

رسول الله ﷺ والريح الثالثة إسرافيل نزل في ألف من الملائكة عن يسار رسول الله ﷺ وكنت عن يساره وهزم الله أعداءه ومن الناس من ضم العدد القليل إلى الكثير. فقال لأن الله تعالى ذكر الألف في سورة الأنفال وذكر هنا ثلاثة آلاف وخمسة آلاف فيكون المجموع تسعة آلاف، وإن جعلناه على غزوة أحد فيكون المجموع ثمانية آلاف لأنه ليس فيها ذكر الألف المفردة ﴿مسومين﴾ قرىء بفتح الواو وبكسرها فمن فتح الواو أراد أن الله سومهم ومعناه معلمين قد سوموا فيهم مسومون والسومة والسيما العلامة وهذه العلامة يعلمها الفارس يوم اللقاء ليعرف بها قال عنترة:

فتعرفوني أنني أنا ذلكم شاكي سلاح في الحوادث معلم

ومن كسر الواو نسب الفعل إلى الملائكة والمعنى أنهم أعلموا أنفسهم بعلامات مخصوصة أو أعلموا خيلهم واختلفوا في تلك العلامة فقال عروة بن الزبير: كانت الملائكة على خيل بلق وعليهم عمائم صفر. وقال علي وابن عباس: كان عليهم عمائم بيض قد أرسلوها بين أكتافهم وقال هشام بن عروة والكلبي: كانت عليهم عمائم صفر مرخاة على أكتافهم، وقال قتادة والضحاك: كانوا قد أعلموا بالعهن يعني بالصوف المصبوغ في نواصي خيلهم وأذنابها وروي أن النبي ﷺ قال لأصحابه يوم بدر: «تسوموا فإن الملائكة قد تسومت بالصوف الأبيض في قلانسهم ومغافرهم» ذكره البغوي بغير سند وقيل كانت عمامة الزبير يوم بدر صفراء فنزلت الملائكة كذلك وقيل كانوا قد سوموا أنفسهم بسيما القتال. قوله تعالى: .

﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا۟ خَآئِبِينَ ﴿١٢٧﴾ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾﴾

﴿وما جعله الله﴾ يعني هذا الوعد والمدد ﴿إلّا بشرى لكم﴾ يعني بشارة بأنكم تنصرون فتستبشرون به ﴿ولتطمئن﴾ أي ولتسكن ﴿قلوبكم به﴾ أي فلا تجزع من كثرة عدوكم وقلة عددكم ﴿وما النصر إلّا من عند الله﴾ يعني لا تحيلوا النصر على الملائكة والجند وكثرة العدد، فإن النصر من عند الله لا من عند غيره والغرض أن يكون توكلهم على الله لا على الملائكة الذين أمدوا بهم وفيه تنبيه على الإعراض عن الأسباب والإقبال على مسبب

المفسّرين: من وجههم هذا، وقال مجاهد والضحّاك: من غضبهم هذا لأنهم إنما رجعوا للحرب يوم أُحُد من غضبهم ليوم بدر، ﴿ يُمْدِدْكم ربُّكم بخمسةِ آلافٍ مِنَ الملائكة ﴾ لم يرد خمسة آلاف سوى ما ذكر من ثلاثة آلاف، بل أراد معهم، وقوله: ﴿ مُسَوِّمِين ﴾ أي: معلمين، قرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم بكسر الواو، وقرأ الآخرون بفتحها، فمَن كسر الواو فأراد أنهم سَوّموا خيلهم، ومَن فتحها أراد به أنفسهم، والتسويم: الإعلام من السومة وهي العلامة، واختلفوا في تلك العلامة، فقال عروة بن الزبير، كانت الملائكة على خيل بُلق عليهم عمائم صُفر، وقال علي وابن عباس رضي الله عنهم: عمائم بيض قد أرسلوها بين أكتافهم، وقال هشام بن عروة والكلبي: عليهم عمائم صفر مرخاة على أكتافهم، وقال الضحاك وقتادة: كانوا قد أعلموا بالعهن في نواصي الخيل وأذنابها، ورُوِيَ أن النبي ﷺ قال لأصحابه يوم بدر: «تسوّمُوا فإنّ الملائكةَ قد تسوّمتْ بالصوفِ الأبيضِ في قلانسهم ومغافرهم».

قوله تعالى: ﴿ وما جعله الله ﴾ يعني هذا الوعد والمدد، ﴿ إلّا بُشْرَى لكم ﴾ أي: بشارة لتستبشروا به ﴿ ولتطمئنَّ ﴾ ولتسكن ﴿ قلوبُكم به ﴾ فلا تجزعوا من كثرة عدوّكم وقلّة عددكم، ﴿ وما النصرُ إلّا من عند الله

الأسباب ﴿العزيز الحكيم﴾ يعني فاستعينوا به وتوكلوا عليه لأن العز وهو كمال القدرة والقوة والحكم وهو كمال العلم فلا تخفى عليه مصالح عباده ﴿ليقطع طرفاً من الذين كفروا﴾ هذا متعلق بقوله ولقد نصركم الله ببدر، والمعنى أن المقصود من نصركم ببدر ليقطع طرفاً أي ليهلك طائفة من الذين كفروا وقيل معناه ليهدم ركناً من أركان الشرك بالقتل والأسر فقتل يوم بدر من قادتهم وساداتهم سبعون وأسر سبعون ومن حمل الآية على غزوة أحد قال: قد قتل منهم ستة عشر وكان النصر فيه للمسلمين حتى خالفوا أمر رسول الله ﷺ ﴿أو يكبتهم﴾ أصل الكبت في اللغة صرع الشيء على وجهه والمعنى أنه يصرعهم على وجوههم والمراد منه القتل والهزيمة أو الإهلاك أو اللعن والخزي ﴿فينقلبوا خائبين﴾ أي بالخيبة لم ينالوا شيئاً من الذي أملوه من الظفر بكم.

قوله عز وجل: ﴿ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم﴾ اختلف في سبب نزول هذه الآية. فقيل: إنها نزلت في أهل بئر معونة وهم سبعون رجلاً من القراء بعثهم رسول الله ﷺ إلى بئر معونة وهي بين مكة وعسفان وأرض هذيل وذلك في صفر سنة أربع من الهجرة على رأس أربعة أشهر من أحد بعثهم ليعلموا الناس القرآن والعلم وأمر عليهم المنذر بن عمرو فقتلهم عامر بن الطفيل فوجد رسول الله ﷺ من ذلك وجداً شديداً وقنت شهراً في الصلوات كلها يدعو على جماعة من تلك القبائل باللعن (خ) عن ابن عمر أنه سمع رسول الله ﷺ إذا رفع رأسه من الركوع في الركعة الأخيرة من الفجر يقول: اللّهم العن فلاناً وفلاناً وفلاناً بعدما يقول سمع الله لمن حمده ربنا لك الحمد فأنزل الله تعالى عليه ليس لك من الأمر شيء إلى قوله فإنهم ظالمون (ق) عن أبي هريرة قال: «لما رفع رسول الله ﷺ رأسه من الركعة الثانية قال: اللّهم أنج الوليد بن الوليد وسلمة بن هشام وعياش بن أبي ربيعة والمستضعفين بمكة «اللهم اشدد وطأتك على مضر اللهم أجعلها عليهم سنين كسني يوسف» زاد في رواية: «اللهم العن فلاناً وفلاناً لأحياء من العرب حتى أنزل الله تعالى ليس لك من الأمر شيء الآية سماهم في رواية يونس اللهم

العزيز الحكيم ﴾ يعني: لا تحيلوا بالنصر على الملائكة والجند، فإن النصر من الله تعالى فاستعينوا به وتوكلوا عليه، لأن العزَّ والحُكم له.

قوله تعالى: **﴿ ليقطعَ طرفاً منَ الذين كفرُوا ﴾**، يقول لقد نصركم الله ليقطع طرفاً أي: لكي يهلك طائفة من الذين كفروا، وقال السدي: معناه ليهدم ركناً من أركان الشرك بالقتل والأسر، فقُتل من قادتهم وسادتهم يوم بدر سبعون وأُسر سبعون، ومَن حملَ الآيةَ على حرب أُحُد فقد قُتل منهم يومئذ ستة عشر وكان النصر للمسلمين حين خالفوا أمر الرسول ﷺ فانقلب عليهم، **﴿ أو يَكْبِتَهم ﴾** قال الكلبي: يهزمهم، وقال يمان: يصرعهم لوجوههم، قال السدي: يلعنهم، وقال أبو عُبيدة: يهلكهم، وقيل: يحزنهم، والمكبوت: الحزين، وقيل: يكبدهم أي: يصيب الحزن والغيظ أكبادهم، والتاء والدال يتعاقبان كما يقال سبت رأسه وسبده إذا حلقه، وقيل: يكبتهم بالخيبة، **﴿ فينقلِبُوا خائبين ﴾**، لم ينالوا شيئاً مما كانوا يرجون من الظفر بكم.

قوله تعالى: **﴿ ليس لكَ مِنَ الأمرِ شيء ﴾** الآية، اختلفوا في سبب نزول هذه الآية فقال قوم: نزلت في أهل بئر معونة وهم سبعون رجلاً من القرّاء بعثهم رسول الله ﷺ إلى أهل بئر معونة في صفر سنة أربع من الهجرة على رأس أربعة أشهر من أُحد ليُعلِّموا الناس القرآن والعلمَ أميرهم المنذر بن عمرو، فقتلهم عامر بن الطفيل، فوَجَدَ رسول الله ﷺ من ذلك وَجْداً شديداً، وقنت شهراً في الصلوات كلها يدعو على جماعة من تلك القبائل باللّعن والسّنين، فنزلت: **﴿ ليسَ لكَ منَ الأمرِ شيء ﴾**، أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أخبرنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أخبرنا حبّان بن موسى أخبرنا عبد الله يعني ابن المبارك

العن رعلاً وذكوان وعصية عصت الله ورسوله قال ثم بلغنا أنه ترك ذلك لما أنزل الله ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم، فإنهم ظالمون وقيل إنها نزلت يوم أحد ثم اختلفوا في سببها فقيل: إن عتبة بن أبي وقاص شج وجه رسول الله ﷺ وكسر رباعيته. (ق) عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ كسرت رباعيته وشج في رأسه فجعل يسلت الدم عنه ويقول: «كيف يفلح قوم شجوا نبيهم وكسروا رباعيته وهو يدعوهم إلى الله فأنزل الله تعالى: ﴿ليس لك من الأمر شيء﴾.

وقيل أراد النبي ﷺ أن يدعو عليهم بالاستئصال فنزلت هذه الآية وذلك لعلمه أن أكثرهم يسلمون وقيل إن النبي ﷺ لما وقف على عمه حمزة ورأى ما صنعوا به من المثلة أراد أن يدعو عليهم فنزلت هذه الآية. وقال العلماء: وهذه الأشياء كلها محتملة فلا يبعد حمل الآية في النزول على كلها ومعنى الآية ليس لك من أمر مصالح عبادي شيء الاّ ما أوحى إليك، فإن الله تعالى هو مالك أمرهم فإمّا أن يتوب عليهم ويهديهم فيسلموا أو يهلكهم ويعذبهم إن أصروا على الكفر. وقيل ليس لك مسألة هلاكهم والدعاء عليهم لأنه تعالى أعلم بمصالحهم فربما تاب على من يشاء منهم وقيل معناه ليس لك من أمر خلقي شيء إلاّ ما وافق أمري إنما أنت عبد مبعوث لإنذارهم ومجاهدتهم، وقيل إن قوله أو يتوب عليهم معطوف على قوله ليقطع طرفاً وقوله ليس لك من الأمر شيء كلام معترض بين المعطوف والمعطوف عليه والتقدير ليقطع طرفاً من الذين كفروا أو يكبتهم أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون ليس لك من الأمر شيء بل الأمر أمري في ذلك كله. قال بعض العلماء: والحكمة في منعه ﷺ من الدعاء عليهم ولعنهم أن الله تعالى علم من حال بعض الكفار أنه سيسلم فيتوب عليهم أو سيولد من بعضهم ولد يكون مسلماً براً تقياً فلأجل هذا المعنى منعه الله تعالى من الدعاء عليهم لأن دعوته ﷺ مجابة. فلو دعا عليهم بالهلاك هلكوا جميعاً لكن اقتضت حكمة الله وما سبق في علمه إبقاءهم ليتوب على بعضهم وسيخرج من بعضهم

أخبرنا معمر عن الزهري قال: حدّثني سالم عن أبيه أنه سمع رسول الله ﷺ إذا رفع رأسه من الركوع في الركعة الأخيرة من الفجر يقول: «اللّهمَّ العن فلاناً وفلاناً وفلاناً، بعد ما يقول: سمع الله لمَن حمده ربّنا لـك الحمد»، فأنزل الله تعالى ﴿ **ليس لك من الأمر شيء** ﴾ ﴿ **أو يتوبَ عليهم أو يعذبَهم فإنّهم ظالمون** ﴾، وقال قوم: نزلت يوم أُحُد، أخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر أنا عبد الغافر بن محمد أخبرنا محمد بن عيسى الجلودي أخبرنا إبراهيم بن محمد بن سفيان أخبرنا مسلم بن الحجّاج أخبرنا عبد الله بن مسلم بن قعنب أخبرنا حمّاد بن سلمة عن ثابت عن أنس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ كُسرت رُباعيتُه يوم أُحد وشُجَّ في رأسه، فجعل يسلتُ الدمُ عنه ويقول: «كيفَ يُفلحُ قومٌ شجّوا رأسَ نبيّهم وكسروا رُباعيته، وهو يدعُوهم إلى الله عزّ وجلّ»؟. فأنزل الله تعالى: ﴿ **ليسَ لكَ من الأمرِ شيء** ﴾، وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ يوم أُحُد: «اللّهمَّ العن الحارث بن هشام، اللّهمَّ العن صفوان بن أُمية»، فنزلت: ﴿ **ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم** ﴾ فأسلموا وحَسُن إسلامُهم، وقال سعيد بن المسيب ومحمد بن إسحق لمّا رأى رسول الله ﷺ والمسلمون يوم أُحُد ما أصابهم من جدع الآذان والأنوف وقطع المذاكير، قالوا لئن أدَالَنا اللَّهُ تعالى منهم لنفعلنّ مثل ما فعلوا، ولنمثلنّ مثلة لم يمثلها أحدٌ من العرب بأحد، فأنزل الله تعالى هذه الآية، وقيل: أراد النبيّ ﷺ أن يدعو عليهم بالاستئصال، فنزلت هذه الآية، وذلك لعلمه فيهم بأن كثيراً منهم يسلمون. قوله تعالى: ﴿ **ليسَ لكَ منَ الأمر شيء** ﴾ أي: ليس إليك، فاللاّم بمعنى ﴿ **إلى** ﴾ كقوله تعالى: ﴿ **ربَّنا إننا سمعنا منادياً يُنادي للإيمان** ﴾ [آل عمران: ١٩٣]، أي: إلى الإيمان، وقوله تعالى: ﴿ **أو يتوبَ عليهم** ﴾، قال بعضهم: معناه حتى يتوب عليهم، أو: إلاّ أن يتوب عليهم،

ذرية صالحة مؤمنة، ويهلك بعضهم بالقتل والموت وهو قوله أو يعذبهم فيحتمل أن يكون المراد بعذابهم في الدنيا وهو القتل والأسر وفي الآخرة وهو عذاب النار ﴿فإنهم ظالمون﴾ هو كالتعليل لعذابهم والمعنى إنما يعذبهم لأنهم ظالمون ثم قال تعالى:.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٢٩﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾﴾

﴿**ولله ما في السموات وما في الأرض**﴾ هذا تأكيد لما قبله من قوله ليس لك من الأمر شيء. والمعنى إنما يكون لمن له ما في السموات وما في الأرض وليس ذلك إلاّ الله تعالى وليس لأحد معه أمر ﴿**يغفر لمن يشاء**﴾ بفضله ورحمته ﴿**ويعذب من يشاء**﴾ بعدله يحكم فيهم بما يشاء لا منازع له في حكمه ولا معارض له في فعله ﴿**والله غفور رحيم**﴾ يعني أنه تعالى يستر ذنوب عباده ويغفرها لهم ويرحمهم بترك العقوبة عنهم عاجلاً، وإنما يفعل ذلك على سبيل التفضل والإحسان إلى عباده لا على سبيل الوجوب عليه، لأنه تعالى لو أدخل جميع خلقه الجنة لكان ذلك برحمته ولو أدخل جميع خلقه النار كان ذلك بعدله لكن جانب المغفرة والرحمة غالب.

قوله عز وجل: ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة**﴾ أراد به ما كانوا يفعلونه في الجاهلية عند حلول الدين من زيادة المال وتأخير الأجل كان الرجل في الجاهلية إذا كان له على إنسان دين فإذا جاء الأجل ولم يكن للمديون ما يؤدي قال له صاحب الدين: زدني في المال حتى أزيدك في الأجل فربما فعلوا ذلك مراراً فيصير الدين أضعافاً مضاعفة فنهى الله عز وجل عن ذلك، وحرم أصل الربا ومضاعفته ﴿**واتقوا الله**﴾ يعني في أكل الربا فلا تأكلوه ﴿**لعلكم تفلحون**﴾ أي لكي تسعدوا بثوابه في الآخرة لأن الفلاح يتوقف على التقوى فلو أكل ولم يتق لم يحصل الفلاح، وفيه دليل على أن أكل الربا من الكبائر ولهذا أعقبه بقوله تعالى:.

﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿١٣١﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾ ۞ وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾﴾

﴿**واتقوا النار التي أعدت للكافرين**﴾ يعني واتقوا أيها المؤمنون أن تستحلوا شيئاً مما حرم الله. فإن من استحل شيئاً مما حرم الله فهو كافر بالإجماع ويستحق النار بذلك قال ابن عباس: هذا تهديد للمؤمنين أن يستحلوا

وقيل: هو نسق على قوله: ﴿ **ليقطعَ طَرفاً** ﴾، وقوله: ﴿ **ليس لك من الأمر شيء** ﴾ اعتراض بين الكلامين، ونظم الآية: ليقطعَ طرفاً من الذين كفروا أو يكبتَهم أو يتوبَ عليهم أو يعذبَهم فإنهم ظالمون، ليس لك من الأمر شيء، بل الأمرُ أمري في ذلك كله.

ثم قال: ﴿ **ولله ما في السمواتِ وما فِي الأرضِ يغفرُ لِمَنْ يشاءُ ويعذبُ مَنْ يشاءُ واللّهُ غفورٌ رحيم** ﴾.

﴿ **يا أيّها الذين آمنوا لاَ تأكلُوا الرِّبا أضعافاً مضاعَفة** ﴾، أراد به ما كانوا يفعلونه عند طول أجَل الدَّين من زيادةِ المال وتأخير الطلب، ﴿ **واتقُوا الله** ﴾ في أمرِ الرِّبَا فلا تأكلوه، ﴿ **لعلّكم تفلحون** ﴾.

ثم خوّفهم فقال: ﴿ **واتَّقُوا النارَ التي أُعدّتْ للكافرين** ﴾.

ما حرم الله عليهم من الربا وغيره مما أوجب الله فيه النار قال بعضهم: إن هذه الآية أخوف آية في القرآن حيث أوعد الله المؤمنين بالنار المعدة للكافرين إن لم يتقوه يجتنبوا محارمه. وقال الواحدي: في هذه الآية تقوية لرجاء المؤمنين رحمة من الله تعالى لأنه قال أعدت للكافرين فجعلها معدة للكافرين دون المؤمنين ﴿**وأطيعوا الله**﴾ يعني فيما أمركم به أو نهاكم عنه من أكل الربا وغيره ﴿**والرسول**﴾ أي وأطيعوا الرسول أيضاً فإن طاعته طاعة الله قال محمد بن إسحاق في هذه الآية معاتبة للذين عصوا رسول الله ﷺ يوم أحد ﴿**لعلكم ترحمون**﴾ أي لكي ترحموا وما تعذبوا إذا أطعتم الله ورسوله فإن طاعة الله مع معصية رسوله ليست بطاعة.

قوله عز وجل: ﴿**وسارعوا إلى مغفرة من ربكم**﴾ يعني وبادروا وسابقوا إلى ما يوجب المغفرة من ربكم وهي الأعمال الصالحة المأمور بفعلها قال ابن عباس: إلى الإسلام ووجهه أن الله تعالى ذكر المغفرة على سبيل التنكير والمراد منه المغفرة العظيمة وذلك لا يحصل إلاّ بسبب الإسلام لأنه يجب ما قبله وعن ابن عباس أيضاً إلى التوبة لأن التوبة من الذنوب توجب المغفرة وقال علي بن أبي طالب: إلى داء الفرائض لأن اللفظ مطلق فيعم الكل وكذا وجه من قال إلى جميع الطاعات وروي عن أنس بن مالك وسعيد بن جبير أنها التكبيرة الأولى يعني تكبيرة الإحرام وقيل إلى الإخلاص في الأعمال لأن المقصود من جميع العبادات هو الإخلاص وقيل إلى الهجرة وقيل إلى الجهاد ﴿**وجنة**﴾ أي وسارعوا إلى جنة وإنما فصل بين المغفرة والجنة لأن المغفرة هي إزالة العقاب والجنة هي حصول الثواب وقيل إشعاراً بأنه لا بد من المسارعة إلى التوبة الموجبة للمغفرة وذلك بترك المنهيات والمسارعة إلى الأعمال الصالحة المؤدية إلى الجنة ﴿**عرضها**﴾ أي عرض الجنة ﴿**السموات والأرض**﴾ يعني كعرض السموات والأرض لأن نفس السموات والأرض ليس عرضاً للجنة والمراد سعتها وإنما خص العرض للمبالغة لأن الطول في العادة يكون أكثر من العرض يقول هذه صفة عرضها فكيف بطولها، والمراد وصف الجنة بالسعة والبسط فشبهت بأوسع شيء علمه الناس وذلك أنه لو جعلت السموات والأرض طبقاً طبقاً ثم وصل البعض بالبعض حتى يكون طبقاً واحداً كان ذلك مثل عرض الجنة فأما طولها فلا يعلمه إلاّ الله تعالى. وقيل المراد بالعرض السعة كما تقول العرب بلاد عريضة أي واسعة عظيمة قال الشاعر:

كأن بلاد الله وهي عريضة ... على الخائف المطلوب كفة حابل

﴿ **وأطيعوا اللَّهَ والرسولَ لعلّكم تُرحمُون** ﴾، لكي تُرحموا.

﴿ **وسارِعُوا** ﴾ قرأ أهل المدينة والشام سارعوا بلا واو، ﴿ **إلى مغفرةٍ منْ ربكم** ﴾، بادروا وسابقوا إلى الأعمال التي تُوجب المغفرة، قال ابن عباس رضي الله عنهما: إلى الإسلام، ورُوِيَ عنه: إلى التوبة، وبه قال عكرمة، وقال عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه: إلى أداء الفرائض، وقال أبو العالية: إلى الهجرة، وقال الضحاك: إلى الجهاد، وقال مقاتل: إلى الأعمال الصالحة. ورُوِيَ عن أنس بن مالك أنها التكبيرة الأولى، ﴿ **وجنّةٍ** ﴾ أي وإلى جنّةٍ ﴿ **عَرضُها السماوات والأرض** ﴾، أي: عرضها كعرض السماوات والأرض، كما قال الله عزّ وجلّ: ﴿ وجنّة عرضها كعرض السماءِ والأرض ﴾ [الحديد: ٢١] أي: سعتها، وإنما ذكر العرض على المبالغة لأن طول كل شيء في الأكثر والأغلب أكثر من عرضه، يقول: هذه صفة عَرْضِها فكيفَ طُولها؟ قال الزهري: إنما وصف عرضَها فأمّا طولها فلا يعلمه إلاّ الله، وهذا على التمثيل لا أنها كالسماوات والأرض لا غير معناه، كعرض السماوات السبع والأرضين السبع عند ظنكم، كقوله تعالى: ﴿ خالدين فيها ما دامتِ السمواتُ والأرضُ ﴾ [هود: ١٠٧] يعني: عند ظنكم وإلاّ فهما زائلتان، ورُوِيَ عن طارق عن ابن شهاب أن ناساً من اليهود

والأصل فيه أن ما اتسع عرضه لم يضق ولم يدق وما ضاق عرضه دق فجعل العرض كناية عن السعة. وروي أن هرقل أرسل إلى النبي ﷺ: إنك كتبت تدعوني إلى جنة عرضها السموات والأرض فأين النار؟ فقال رسول الله ﷺ سبحان الله فأين الليل إذا جاء النهار قيل معناه والله أعلم بذلك أنه إذا دار الفلك حصل النهار في جانب والليل في ضد ذلك الجانب فكذلك الجنة في جهة العلو والنار في جهة السفل. وروى طارق بن شهاب أن ناساً من اليهود سألوا عمر بن الخطاب رضي الله عنه وعنده أصحابه فقالوا: أرأيتم قولكم وجنة عرضها السموات والأرض. فأين النار؟ فقال عمر بن الخطاب أرأيتم إذا جاء الليل فأين يكون النهار وإذا جاء النهار فأين يكون الليل فقالوا إنها لمثلها في التوراة ومعناه حيث يشاء الله تعالى. فإن قلت قال الله تعالى: ﴿**وفي السماء رزقكم وما توعدون**﴾ وأراد بالذي وعدنا به الجنة ومذهب أهل السنة أنها في السموات وإذا كانت الجنة في السموات فكيف يكون عرضها السموات والأرض قلت المراد من قولنا إنها في السموات إنها فوق السموات وتحت العرش كما سئل أنس بن مالك عن الجنة أفي السماء هي أم في الأرض؟ فقال: أي أرض وسماء تسع الجنة قيل له: فأين هي؟ قال فوق السموات تحت العرش وقد وصف رسول الله ﷺ الفردوس فقال وسقفها عرش الرحمن وقال قتادة: كانوا يرون أن الجنة فوق السموات السبع وأن جهنم تحت الأرضين السبع وقيل: إن باب الجنة في السماء وعرضها كعرض السموات والأرض ﴿**أعدت للمتقين**﴾ أي هيئت للمتقين وفيه دليل على أن الجنة والنار مخلوقتان الآن.

قوله عز وجل: ﴿**الذين ينفقون في السراء والضراء**﴾ يعني في العسر واليسر لا يتركون الإنفاق في كلتا الحالتين في الغنى والفقر والرخاء والشدة ولا في حال فرح وسرور ولا في حال محنة وبلاء. وسواء كان الواحد منهم في عرس أو في حبس فإنهم لا يدعون الإحسان إلى الناس فأول ما ذكر الله من أخلاقهم الموجبة للجنة السخاء لأنه أشق على النفس. وكانت الحاجة إلى إخراج المال في ذلك الوقت أعظم الأحوال للحاجة إليه في مجاهدة الأعداء ومواساة الفقراء من المسلمين عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «السخي قريب من الله قريب من الناس قريب من الجنة بعيد من النار والبخيل بعيد من الله بعيد من الناس بعيد من الجنة قريب من النار ولجاهل سخي أحب إلى الله تعالى من عابد بخيل» أخرجه الترمذي (ق) عن أبي هريرة أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «مثل البخيل والمنفق كمثل رجلين عليهما جنتان من حديد من ثديهما إلى تراقيهما فأما المنفق فلا ينفق إلاّ سبغت أو وفت على جلده حتى تخفي ثيابه وتعفو أثره، وأما البخيل فلا يريد أن ينفق شيئاً إلاّ لزقت كل حلقة مكانها فهو يوسعها فلا تتسع» الجنة الدرع من الحديد (ق) عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «ما من يوم يصبح العباد فيه إلاّ وملكان ينزلان فيقول أحدهما اللّهم أعط منفقاً خلفاً ويقول الآخر اللهم أعط ممسكاً تلفاً» (ق) عنه أن

سألوا عمر بن الخطاب وعنده أصحابه رضي الله عنهم، قالوا: أرأيتم قولَهُ: ﴿ وجنّة عرضُها السماوات والأرض ﴾ فأين النار؟ فقال عمر: أفرأيتم إذا جاء الليل أين يكون النهار، وإذا جاء النهار أين يكون الليل؟ فقالوا: إنها لمثلها في التوراة، ومعناه أنه حيث يشاء الله، فإن قيل: قد قال الله تعالى: ﴿ وفي السماءِ رِزْقُكم وما تُوعَدُون ﴾ [الذاريات: ٢٢] وأراد بالذي وعدَنَا: الجنة فإذا كانتِ الجنةُ في السماء فكيف يكون عرضُها السماوات والأرض؟ قيل: إن باب الجنة في السماء وعرضها السماوات والأرض، كما أخبر، وسُئل أنس بن مالك رضي الله عنه عن الجنة: أفي السماء أم في الأرض؟ فقال: أيّ أرض وسماء تسع الجنة؟ فقيل: أين هي؟ قال: فوق السماواتِ السبعِ تحتَ العرش. قال قتادة: كانوا يرون الجنة فوق السماوات السبع تحت العرش، وأن جهنم تحتَ الأرضين السبع. ﴿ أُعدَّتْ للمُتَّقِين ﴾.

﴿ الذينَ يُنفقون في السرّاء والضرّاء ﴾، أي: في اليُسر والعُسر، فأول ما ذكر من أخلاقهم الموجبة للجنة ذكرَ

رسول الله ﷺ قال: «قال الله تبارك وتعالى أنفق ينفق عليك» (ق) عنه قال قال رسول الله ﷺ: «من أنفق زوجين في سبيل الله دعاه خزنة الجنة كل خزنة باب أي قل هلم فقال أبو بكر: فقال يا رسول الله ذاك الذي لا توي عليه قال رسول الله ﷺ إني لأرجو أن تكون منهم» قوله أي فل يعني يا فلان وليس بترخيم والتوي الهلاك يعني ذاك الذي لا هلاك عليه.

وقوله تعالى: ﴿والكاظمين الغيظ﴾ يعني والجارعين الغيظ عند امتلاء نفوسهم منه والكظم حبس الشيء عند امتلائه وكظم الغيظ هو أن يمتلىء غيظاً فيرده في جوفه ولا يظهره بقول ولا فعل ويصبر عليه ويسكت عنه ومعنى الآية أنهم يكفون غيظهم عن الإمضاء ويردون غيظهم في أجوافهم وهذا الوصف من أقسام الصبر والحلم عن سهل بن معاذ عن أنس الجهني عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال: «من كظم غيظاً وهو يستطيع أن ينفذه دعاه الله تعالى يوم القيامة على رؤوس الخلائق حتى يخيره في أي الجورشاء» أخرجه الترمذي وأبو داود (ق) عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «ليس الشديد بالصرعة إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب» وروي عن عائشة رضي الله تعالى عنها أن خادماً لها غاظها فقالت لله در التقوى ما تركت لذي غيظ شفاء ﴿والعافين عن الناس﴾ يعني إذا جنى عليهم أحد لم يؤاخذوه فتكون الآية على العموم وقيل أراد بالناس المماليك لسوء أدب يقع منهم، فتكون على الخصوص وقيل يعفون عمن ظلمهم وأساء إليهم وهو قريب من القول الأول ﴿والله يحب المحسنين﴾ يحتمل أن تكون اللام للجنس فيتناول كل محسن ويحتمل أن تكون للعهد فتكون إشارة إلى المذكورين في الآية والإحسان إلى الغير إنما يكون بإيصال النفع إليه وبدفع الضرر عنه وقيل الإحسان أن تحسن لمن أساء إليك فإن الإحسان إلى المحسن متاجرة. وقيل المحسن هو الذي يعم بإحسانه كل أحد كالشمس والمطر والريح، وقيل الإحسان وقت الإمكان وليس عليك في كل وقت إحسان. وقيل الإحسان هذه الخصال المذكورة في هذه الآية فمن فعلها فهو محسن. ولما كانت هذه الخصال إحساناً إلى الغير ذكر الله ثوابها بقوله والله يحب المحسنين فإن محبة الله تعالى للعبد أعظم درجات الثواب. قوله عز وجل:.

السَّخَاوَةَ. أخبرنا أبو سعيد الشِريحي أخبرنا أبو إسحق الثعلبي أخبرنا أبو عمر الفراتي أخبرنا أبو العباس أحمد بن إسماعيل العنبري أخبرنا أبو عبد الله بن حازم البغوي بمكة أخبرنا أبو صالح بن أيوب الهاشمي أخبرنا إبراهيم بن سعد أخبرنا سعيد بن محمد عن يحيىٰ بن سعيد عن الأعرج عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «السخي قريبٌ منَ اللَّهِ قريبٌ منَ الجنةِ قريبٌ من النَّاس، بعيدٌ منَ النَّار، والبخيلُ بعيدٌ من اللَّهِ بعيدٌ منَ الجنةِ بعيدٌ منَ الناسِ قريبٌ من النَّار، والجاهلُ سخي أحبُّ إلى الله من عابد بخيل». ﴿والكاظِمينَ الغَيْظَ﴾ أي: الجارعين الغيظَ عند امتلاء نفوسهم منه، والكظم: حبس الشيء عند امتلائه، وكظم الغيظ أن يمتلىء غيظاً فيردّه في جوفه ولا يُظهره. ومنه قوله تعالى: ﴿ إِذِ القلوب لدَى الحناجرِ كاظمين ﴾ [غافر: ١٨]، أخبرنا أبو سعيد الشريحي أخبرنا أبو إسحق الثعلبي أخبرنا أبو عمرو الفراتي أخبرنا أبو محمد الحسن بن محمد الإسفرايني أخبرنا أبو عبد الله بن محمد زكريا العلاني أخبرنا رَوح بن عبد المؤمن أخبرنا أبو عبد الرحمن المُقْري أخبرنا سعيد بن أبي أيوب قال: حدّثني أبو مرحوم عن سهل بن معاذ بن أنس عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ كظمَ غيظاً وهو يقدرُ على أن ينفذَه دعاهُ اللَّهُ يومَ القيامةِ على رُؤوسِ الخلائقِ حتى يخيّره من أيّ الحُورِ شاء»، ﴿ والعَافِينَ عَنِ النَاسِ ﴾، قال الكلبي عن المملوكين سوء الأدب، وقال زيد بن أسلم ومقاتل: عمّن ظلمهم وأساءَ إليهم، ﴿ واللَّهُ يُحبُّ المُحسنِينَ ﴾، عن الثّوري: الإحسان أن تُحسن إلى المسيء، فإنّ الإحسان إلى المُحسِن تجارة.

﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ١٣٥﴾

﴿والذين إذا فعلوا فاحشة﴾ قال ابن مسعود رضي الله عنه قال المؤمنون للنبي ﷺ يا رسول الله كانت بنو إسرائيل أكرم على الله منا كان أحدهم إذا أذنب ذنباً أصبحت كفارة ذنبه مكتوبة على عتبة بابه اجدع أنفك أو أذنك افعل كذا فسكت رسول الله ﷺ فأنزل الله هذه الآية وروى عطاء عن ابن عباس أنها نزلت في تيهان التمار أتته امرأة حسناء تبتاع منه تمراً فقال لها: إن هذا التمر ليس بجيد وفي البيت أجود منه فذهب بها إلى بيته فضمها إلى نفسه وقبلها فقالت له: اتق الله فتركها وندم على ذلك. فأتى النبي ﷺ وذكر له ذلك فنزلت هذه الآية في رواية أبي صالح عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ آخى بين رجلين أحدهما أنصاري والآخر ثقفي، فخرج الثقفي في غزوة واستخلف أخاه الأنصاري على أهله فاشترى لهم ذات يوم لحماً فلما أرادت المرأة أن تأخذه منه دخل على أثرها وقبل يدها ثم ندم وانصرف ووضع التراب على رأسه وهام على وجهه فلما رجع الثقفي لم يستقبله الأنصاري فسأل امرأته عن حاله فقالت: لا أكثر الله في الإخوان مثله وذكرت له الحال والأنصاري يسيح في الجبال تائباً مستغفراً، فطلبه الثقفي حتى وجده فأتى به إلى أبي بكر رجاء أن يجد عنده راحة وفرجاً فقال الأنصاري: هلكت وذكر القصة فقال أبو بكر: ويحك أما علمت أن الله تعالى يغار للغازي ما لا يغار للمقيم ثم لقيا عمر فقال لهما: مثل ذلك فأتيا النبي ﷺ فقال لهما مثل مقالتهما فأنزل الله عز وجل: ﴿والذين إذا فعلوا فاحشة﴾ يعني فعلة فاحشة خارجة عما أذن الله فيه والفاحشة ما عظم قبحه من الأفعال والأقوال وأصل الفحش القبح والخروج عن الحد، قال جابر: الفاحشة الزنا.

وقوله تعالى: ﴿أو ظلموا أنفسهم﴾ ظلم النفس هو ما دون الزنا مثل القبلة والمعانقه واللمس والنظر وقيل الفاحشة الكبيرة وظلم النفس هي الصغيرة وقيل الفاحشة مما يكون فعله كاملاً في القبح وظلم النفس هو أي ذنب

قوله تعالى: ﴿ والذينَ إذا فعلُوا فَاحِشَةً ﴾ قال ابن مسعود: قال المؤمنون: يا رسول الله كانت بنو إسرائيل أكرم على الله منّا، كان أحدهمْ إذا أذنب وكفّارة ذنبه مكتوبةٌ في عَتَبةِ بابهِ، اجدعْ أنفك أو أُذنك، افعل كذا وكذا، فسكت رسول الله ﷺ، فأنزل الله تعالى هذه الآية، وقال عطاء: نزلت في تيهان التمار وكنيته أبو معبد أتته امرأة حسناء، تبتاع منه تمراً فقال لها: إن هذا التمر ليس بجيد، وفي البيت أجود منه، فذهب بها إلى بيته فضمّها إلى نفسه وقبّلها، فقالتْ له: اتّقِ الله، فتركها وندم على ذلك، فأتى النبيّ ﷺ، وذكر ذلك له، فنزلتْ هذه الآية، وقال مقاتل والكلبي: آخى رسول الله ﷺ بين رجلين أحدهما من الأنصار والآخرة من ثقيف فخرج الثقفي في غزاة فاستخلف الأنصاريَّ على أهله فاشترى لهم اللحم ذات يوم، فلما أرادت المرأة أن تأخذ منه دخل على أثَرِها وقبّل يدها، ثم ندم وانصرف ووضع التراب على رأسه وهام على وجهه، فلما رجع الثقفي لم يستقبله الأنصاري فسأل امرأته عن حاله، فقالت: لا أكثر الله في الإخوان مثله ووصفت له الحال، والأنصاري يسيح في الجبال تائباً مستغفراً، فطلبه الثقفي حتى وجده فأتى به أبا بكر رجاء أن يجد عنده راحة وفرجاً فقال الأنصاري: هلكتُ، وذكر القصة، فقال له أبو بكر: ويحك أما علمت أن الله تعالى يغار للغازي ما لا يغار للمقيم، ثم أتيا عمر رضي الله عنه فقال مثل ذلك، فأتيا النبيَّ ﷺ فقال له مثل مقالتهما، فأنزل الله تعالى هذه الآية ﴿ والذينَ إذا فعلُوا فاحِشةً ﴾ يعني: قبيحة خارجة عمّا أذن الله تعالى فيه، وأصل الفحش القبح والخروج عن الحدّ، قال جابر: الفاحشة الزنا، ﴿ أو ظلمُوا أنفسَهم ﴾، ما دون الزنا من القُبلة والمعانقة والنظر واللمس، وقال مقاتل والكلبي: الفاحشة ما دون

كان ﴿ذكروا الله﴾ يعني ذكروا وعيد الله وعقابه وأن الله يسألهم عن ذلك يوم الفزع الأكبر وقيل ذكروا جلال الله الموجب للحياء منه. وقيل ذكروا لله باللسان عند الذنوب وهو قوله تعالى: ﴿فاستغفروا لذنوبهم﴾ يعني لأجل ذنوبهم فتابوا منها واقلعوا عنها نادمين على فعلها عازمين أن لا يعودوا إليها وهذه شروط صحة التوبة المقبولة ﴿ومن يغفر الذنوب إلاّ الله﴾ وصف نفسه بسعة الرحمة وقرب المغفرة وأن التائب من الذنب عنده كمن لا ذنب له، وأنه لا مفزع للمذنبين إلاّ إلى فضله وكرمه وإحسانه وعفوه ورحمته وفيه تنبيه على أن العبد لا يطلب المغفرة إلاّ منه وأنه القادر على عقاب المذنب وكذلك هو القادر على إزالة ذلك العقاب عنه فثبت أنه لا يجوز طلب المغفرة إلاّ منه ﴿ولم يصروا على ما فعلوا﴾ يعني ولم يقيموا على الذنوب ولم يثبتوا عليها ولكن تابوا منها وأنابوا واستغفروا قيل الإصرار هو ترك الاستغفار عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ما أصر من استغفر ولو عاد في اليوم سبعين مرة» أخرجه أبو داود وقال: حديث حسن غريب وعنده عوض ولو عاد ولو فعل ﴿وهم يعلمون﴾ قال ابن عباس: وهم يعلمون أنها معصية وأن لهم رباً يغفرها وقيل وهم يعلمون أن الإصرار ضار وقيل معناه وهم يعلمون أن الله يملك مغفرة الذنب وقيل وهم يعلمون أن الله لا يتعاظمه العفو عن الذنوب وإن كثرت وقيل معناه وهم يعلمون أنهم إن استغفروه غفر لهم قال ثابت البناني بلغني أن إبليس بكى حين نزلت هذه الآية والذين إذا فعلوا فاحشة إلى آخرها.

فصل: في فضل الاستغفار

عن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه أنه قال: إني كنت إذا سمعت حديثاً من رسول الله ﷺ نفعني الله منه ما شاء أن ينفعني. وإذا حدثني أحد من الصحابة استحلفته فإذا حلف لي صدقته وإنه حدثني أبو بكر وصدق أبو بكر أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «ما من عبد مؤمن أو قال ما من رجل يذنب ذنباً فيقوم فيتطهر ثم يصلي ركعتين ثم يستغفر الله إلاّ غفر الله له ثم قرأ هذه الآية ﴿والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله﴾ إلى آخر الآية» أخرجه الترمذي أبو داود والترمذي وقال هذا حديث قد رواه غير واحد عن عثمان بن المغيرة فرفعوه ورواه مسعر وسفيان عن عثمان بن المغيرة فوقفاه ولم يرفعاه ولا يعرف لأسماء إلاّ هذا الحديث عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «من لزم الاستغفار جعل الله له من كل ضيق مخرجاً ومن كل هم فرجاً ورزقه من حيث لا يحتسب» أخرجه أبو داود (م) عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون فيغفر لهم (ق) عنه عن النبي ﷺ فيما يحكى عن ربه تبارك وتعالى قال: «إذا أذنب عبد ذنباً فقال: اللّهم اغفر لي ذنبي قال تبارك وتعالى أذنب عبدي ذنباً علم أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ بالذنب ثم عاد فأذنب فقال: أي رب اغفر لي ذنبي فقال تبارك وتعالى: إن عبدي أذنب ذنباً فعلم أن به رباً يغفر الذنب ويأخذ بالذنب ثم عاد فقال: أي رب اغفر لي ذنبي فقال تبارك وتعالى: أذنب عبدي ذنباً فعلم أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ بالذنب. وفي رواية اعمل ما شئت قد غفرت لك» قال عبد الأعلى لا أدري أقال في الثالثة أو الرابعة أعمل ما شئت عن أنس قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال الله تبارك وتعالى يا ابن آدم إنك ما دعوتني

الزنا من قبلة أو لمسة أو نظرة فيما لا يحلّ، أو ظلموا أنفسهم بالمعصية، وقيل: فعلوا فاحشة الكبائر، أو ظلموا أنفسهم بالصغائر، وقيل: فعلوا فاحشة فعلاً أو ظلموا أنفسهم قولاً، ﴿ ذكرُوا اللَّهَ ﴾ أي: ذكروا وعيد الله، والله سائلهم، وقال مقاتل بن حيان: ذكروا الله باللسان عند الذنوب، ﴿ فاستغفرُوا لذنُوبهم ومَنْ يغفرُ الذنوبَ إلاّ اللَّهُ ﴾ أي: وهل يغفر الذنوب إلاّ الله، ﴿ ولم يُصِرُّوا على ما فعلُوا ﴾ أي: لم يُقيموا ولم يثبتوا عليه، ولكن تابوا وأنابوا واستغفروا، وأصل الإصرار: الثبات على الشيء، قال الحسن: إتيان العبد ذنباً عمداً إصرارٌ حتى يتوب. وقال

ورجوتني غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك ولا أبالي يا ابن آدم وأتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة» أخرجه الترمذي وقال حديث حسن عنان السماء بفتح العين قيل هو السحاب وقيل هو ما عن لك منها أي ما ظهر لك منها وقراب الأرض بضم القاف وروي بكسرها والضم أشهر وهو ما يقارب ملأها عن ابن مسعود قال قال رسول الله ﷺ: «من قال أستغفر الله العظيم الذي لا إله إلاّ هو الحي القيوم وأتوب إليه غفرت ذنوبه وإن كان قد فر من الزحف» أخرجه أبو داود والترمذي والحاكم قال حديث حسن صحيح على شرط البخاري ومسلم عن أبي الدرداء قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كل ذنب عسى الله أن يغفره أو قال عسى أن يغفره الله إلاّ من مات مشركاً ومن قتل مؤمناً متعمداً» أخرجه أبو داود ا هـ. قوله عز وجل: .

﴿أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَجَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ١٣٦﴾

﴿أولئك﴾ إشارة إلى من تقدم ذكره في قوله تعالى: ﴿والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم﴾ الآية ﴿جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجري من تحتها الأنهار﴾ معنى الآية أن المطلوب بالتوبة أمران أحدهما الأمن

السدي: الإصرار: السكوت وترك الاستغفار. أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أخبرنا أبو منصور السمعاني أخبرنا أبو جعفر الزياتي أخبرنا حميد بن زنجويه أنا يحيىٰ بن يحيىٰ أنا عبد الحميد بن عبد الرحمن عن عثمان بن واقد العمري عن أبي نصرة قال: لقيت مولىً لأبي بكر رضي الله عنه فقلتُ له: أَسَمِعْتَ من أبي بكر شيئاً؟ قال: نعم سمعتُه يقول: قال رسول الله ﷺ: «ما أصرَّ مَنِ استغفر، وإنْ عاد في اليوم سبعين مرّة». ﴿ وهم يعلمُون ﴾، قال ابن عباس والحسن ومقاتل والكلبي: وهم يعلمون أنها معصية، وقيل: وهم يعلمون أن الإصرار ضارٌ، وقال الضحاك: وهم يعلمون أن الله يملك مغفرة الذنوب، وقال الحسن بن الفضل: أن لهم ربّاً يغفر الذنوب، وقيل: وهم يعلمون أنّ الله لا يتعاظمه العفو عن الذنوب وإن كثُرت، وقيل: وهم يعلمون أنهم إن استغفرُوا غَفَرَ لهم.

﴿ أولئكَ جزاؤُهمْ مغفرةٌ منْ ربِّهم وجنّاتٌ تجْرِي مِنْ تَحتِها الأنهارُ خالدينَ فيها ونِعْمَ أجرُ العامِلين ﴾، ثوابُ المطيعين. أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أبو منصور السمعاني أخبرنا أبو جعفر الزيات أنـا حميد بن زنجويه أنا عفّان بن مسلم أنا أبو عوانة أنا عثمان بن المغيرة عن علي بن ربيعة الأسدي عن أسماء بن الحكم الفزاري قال: سمعت علياً رضي الله عنه يقول: إني كنت رجلاً إذا سمعتُ من رسول الله ﷺ حديثاً ينفعني الله منه بما شاء أن ينفعني، وإذا حدّثني أحد من أصحابه استحلفته فإذا حلف لي صدّقته، وإنه حدّثني أبو بكر وصدق أبو بكر أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «مَا مِنْ عبدٍ مُؤمنٍ يُذنبُ ذنباً فيُحسنُ الطّهورَ ثم يقومُ فيصلّي ثم يستغفرُ اللّهَ إلاّ غفَرَ اللّهُ له»، ورواه أبو عيسى عن قتيبة عن أبي عُوانةَ وزاد: ثم قرأ: ﴿ والذين إذا فعلُوا فاحشةً أو ظلَمُوا أنفسَهم ﴾ [آل عمران: ١٣٥] الآية. أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أبو منصور السمعاني أنا أبو جعفر الزياتي أنا حميد بن زنجويه أنا هشام بن عبدالملك أخبرنا همّام عن إسحق عن عبد الله بن أبي طلحة قال: كان قاضٍ بالمدينة يقال له عبد الرحمن بن أبي عَمْرة وسمعتُه يقول: سمعتُ أبا هريرة يقول: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «إنّ عبداً أذنب ذنباً فقال: أيْ ربِّ أذنبتُ ذنباً فاغفرْهُ لي، قال: فقال له ربُّه عزّ وجلّ: عَلِمَ عَبدي أنّ له ربّاً يَغْفِرُ الذنبَ ويأخذُ به،

من العقاب وإليه الإشارة بقوله مغفرة من ربهم والثاني إيصال الثواب وإليه الإشارة بقوله وجنات تجري من تحتها الأنهار أي ذلك لهم ذخر لا يبخس وأجر لا يوكس ﴿خالدين فيها﴾ أي في الجنات ﴿ونعم أجر العاملين﴾ أي ونعم ثواب المطيعين يعني الجنة. قوله عز وجل:

﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾﴾

﴿قد خلت من قبلكم سنن﴾ يعني قد انقضت من قبلكم سنة الله في الأمم الماضية بالهلاك والاستئصال لأنهم خالفوا الأنبياء والرسل للحرص على الدنيا وطلب لذاتها والبقاء فيها فانقرضوا ولم يبق منهم أحد وقيل في معنى السنة الطريقة المستقيمة والمثال المتبع. لكل أمة سنة ومنهاج إذا اتبعوه رضي الله عنهم بذلك. وقيل سنن أي شرائع وقيل سنن أي أمم والسنة الأمة ومعنى الآية قد مضت وسلفت مني سنن فيمن كان قبلكم من الأمم الماضية الكافرة بإمهالي واستدراجي إياهم حتى يبلغ الكتاب أجله فيهم الذي أجلته لإهلاكهم ﴿فسيروا في الأرض﴾ أمر ندب لا على سبيل الوجوب بل المقصود تعرف أحوال الماضين بقوله ﴿فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين﴾ فرغب أمة محمد ﷺ في تأمل أحوال الأمم الماضية ليصير ذلك داعياً لهم إلى الإيمان بالله ورسوله والإعراض عن الدنيا ولذاتها. وفيه أيضاً زجر للكافر عن كفره لأنه إذا تأمل أحوال الكفار وإهلاكهم صار ذلك داعياً إلى الإيمان لأن النظر إلى آثار المتقدمين له أثر في النفس كما قيل:

إن آثـــارنـــا تـــدل علينـــا فـــانظـــروا بعـــدنـــا إلـــى الآثـــار

غفرتُ لعبدي، ثم مكث ما شاء الله، ثم أذنبَ ذنباً آخر فقال: ربِّ أذنبتُ ذنباً فاغفرْهُ لي، فقال ربّه عزّ وجلّ: عَلِمَ عَبدي أنّ له ربّاً يَغْفِرُ الذنبَ ويأخذُ بهِ قدْ غَفَرْتُ لعبدي فليفعلْ ما شاء»، أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أبو منصور السمعاني أنا أبو جعفر الزياتي أنا حميد بن زنجويه أخبرنا النعمان السدوسي أخبرنا المهدي بن ميمون أخبرنا غيلان بن جرير عن شهر بن حَوْشَب عن مَعْدِي كرب عن أبي ذرٍّ رضي الله عنه عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربّه تبارك وتعالى: «قال يا ابنَ آدمَ إنّكَ ما دعوتَني ورَجَوْتَني غفرتُ لكَ على ما كان منك، ابنَ آدمَ إنّك إنْ لقيتني بقُرَابِ الأرضِ خطايَا لقيتُكَ بقُرَابِها مغفرةً بعد أنْ لا تُشْرِكْ بي شيئاً، ابنَ آدمَ إنّك إن تُذْنِبْ حتى تبلغَ ذنوبُكَ عنانَ السماء ثم تستغفرني أغفرُ لك»، أخبرنا عبد الواحد المليحي أخبرنا أبو الحسن محمد بن الحسين الحسيني أنا عبد الله بن محمود بن محمود بن حسن الشرقي أنا أبو الأزهر أحمد بن الأزهر أخبرنا إبراهيم بن الحكم بن أبَان حدّثني أبي عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ قال: قال الله تعالى: «مَنْ علمَ أني ذُو قُدْرةٍ على مغفرةِ الذنوب ما لم يُشركْ بي شيئاً». قال ثابت البناني: بلغني أن إبليس بكى حين نزلت هذه الآية ﴿ والذين إذا فعلوا فاحشة ﴾ إلى آخرها.

قوله تعالى: ﴿ قدْ خَلَتْ مِنْ قَبلِكُم سُنَنٌ ﴾، قال عطاء: شرائع، وقال الكلبي: مضتْ لكل أمة سُنّة ومنهاج إذا اتبعوها رضي الله عنهم، وقال مجاهد: قد خلت من قبلكم سُننٌ بالهَلاكِ فيمن كذّب قبلكم، وقيل: سُننٌ أي: أُمَمٌ، والسّنّةُ: الأمّةُ، قال الشاعر:

ما عاينَ الناسُ من فضلٍ كفضلِكم ولا رأوا مثلكم في سـالف السّنَنِ

وقيل معناه: أهل السنن، والسنة: الطريقة المتّبعة في الخير والشر، يقال: سنّ فلانٌ سُنّةً حسنةً، وسُنّةً سيئةً

وفي هذه الآية تسلية لأصحاب رسول الله ﷺ وما جرى لهم في غزوة أحد يقول فإني إنما أمهلت الكفار حتى يبلغ الكتاب أجله فيهم الذي أجلته لهم في إهلاكهم ونصر محمد ﷺ وأوليائه وهلاك أعدائه. قوله عز وجل:.

﴿هذا﴾ يعني القرآن وقيل هو اسم إشارة إلى ما تقدم من أمره ونهيه ووعده ووعيده ﴿بيان الناس﴾ يعني عامة ﴿وهدى﴾ يعني من الضلالة ﴿وموعظة للمتقين﴾ يعني خاصة وقيل في الفرق بين البيان والهدى والموعظة لأن العطف يقتضي المغايرة والبيان هو الدلالة التي تفيد إزالة الشبهة بعد أن كانت حاصلة والهدى هو طريق الرشد المأمور بسلوكه دون طريق الغي، والموعظة هي الكلام الذي يفيد الزجر عما لا ينبغي في طريق الدين. فالحاصل أن البيان جنس تحته نوعان أحدهما الكلام الهادي إلى ما ينبغي في الدين وهو الهدى والثاني الكلام الزاجر عما لا ينبغي في الدين وهو الموعظة وإنما خصص المتقين بالهدى والموعظة لأنهم المنتفعون بهما دون غيرهم.

وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾

قوله عز وجل: ﴿ولا تهنوا ولا تحزنوا﴾ نزلت يوم أحد حين أمر النبي ﷺ أصحابه بطلب القوم مع ما أصابهم من الجراح فاشتد ذلك على المسلمين فأنزل الله تعالى هذه الآية وحث فيها أصحاب النبي ﷺ على الجهاد على ما أصابهم من الجراح والقتل. وكان قد قتل يوم أحد من الأنصار سبعون رجلاً ومن المهاجرين خمسة رجال منهم حمزة بن عبدالمطلب عم رسول الله ﷺ ومصعب بن عمير. ومعنى الآية ولا تهنوا أي ولا تضعفوا عن الجهاد ولا تحزنوا يعني على من قتل منكم لأنهم في الجنة ﴿وأنتم الأعلون﴾ يعني بالنصر والغلبة عليهم وأن العاقبة لكم وقال ابن عباس: انهزم أصحاب رسول الله ﷺ في الشعب فأقبل خالد بن الوليد في خيل المشركين يريد أن يعلو عليهم الجبل. فقال رسول الله ﷺ: «اللهم لا يعلوه علينا اللهم لا قوة لنا إلاّ بك» فثاب نفر من المسلمين رماة فصعدوا الجبل ورموا خيل المشركين حتى انهزموا وعلا المسلمون الجبل فذلك قوله تعالى: ﴿وأنتم الأعلون﴾ وقيل وأنتم الأعلون لأن حالكم خير من حالهم لأن قتلاكم في الجنة وقتلاهم في النار وأنتم تقاتلون على الحق

إذا عمل عملاً اقْتُدِي به فيهِ مِنْ خيرٍ وشر، ومعنى الآية: قد مضتْ وسلفتْ منّي سننٌ فيمن كان قبلكم من الأُمم الماضيةِ الكافرة، بإمهالي واستدراجي إيّاهم حتى يبلغ الكتاب فيهم أجلي الذي أجّلته لإهلاكهم، وإدَالةُ أنبيائي عليهم. ﴿ فسيرُوا في الأرض فانظرُوا كيفَ كانَ عاقبةُ المُكذِّبين ﴾، أي: آخرنا من المكذبين، وهذا في حرب أُحُد، يقول الله عزّ وجلّ: فأنا أُمهلهم وأستدرجُهم حتى يبلغ أجلي الذي أجّلته في نصرة النبي ﷺ وأوليائه وإهلاك أعدائه.

﴿ هذا ﴾ أي: هذا القرآن، ﴿ بيانٌ للناس ﴾، عامّة، ﴿ وهُدىً ﴾، من الضلالة، ﴿ وموعظةٌ للمتّقين ﴾، خاصة.

قوله تعالى: ﴿ ولا تَهِنُوا ولا تحزنُوا ﴾، هذا حثٌّ لأصحاب النبي ﷺ على الجهاد والصبر على ما أصابهم من القتل والجرح يوم أُحد، يقول الله تعالى: ولا تهِنُوا أي: لا تضْعُفوا ولا تجبُنوا عن جهاد أعدائكم بما نالكم من القتل والجرح، وكان قد قُتل يومئذٍ من المهاجرين خمسة منهم: حمزةُ بن عبد المطلب ومُصعبُ بن عُمير، وقُتل من الأنصار سبعون رجلًا، ﴿ ولا تحزنوا ﴾ أي: على ما فاتَكُم، ﴿ وأنْتُمُ الأعْلَوْنَ ﴾ بأن يكون لكم العاقبةُ بالنصر

وهم يقاتلون على الباطل. وقيل وأنتم الأعلون في العاقبة لأنكم تظفرون بهم وتستولون عليهم ﴿إن كنتم مؤمنين﴾ أي إذ كنتم مؤمنين وقيل معناه إن كنتم مصدقين بأن ناصركم هو الله تعالى فصدقوا بذلك فإنه حق وصدق.

وقوله تعالى: ﴿إن يمسكم قرح﴾ قرىء بضم القاف وبفتحها وهما لغتان ومعناهما واحد وقيل إنه بالفتح مصدر وبالضم اسم وقيل إنه بالفتح اسم للجراحة وبالضم ألم للجراحة الآية خطاب للمسلمين حين انصرفوا من أحد مع الحزن والكآبة يقول: إن يمسسكم أيها المسلمون قرح يوم أحد ﴿فقد مس القوم﴾ يعني في يوم بدر وقيل إن الكفار قد نالهم يوم أحد مثل ما نالكم من الجراح والقتل فقد قتل منهم نيف وعشرون رجلاً وكثرت الجراحات فيهم ﴿وتلك الأيام نداولها بين الناس﴾ المداولة نقل الشيء من واحد إلى آخر يقال تداولته الأيدي إذا انتقل من واحد إلى آخر ويقال الدنيا دول أي تنتقل من قوم إلى آخرين ثم منهم إلى غيرهم والمعنى أن أيام الدنيا هي دول بين الناس فيوم لهؤلاء ويوم لهؤلاء فكانت الدولة للمسلمين على المشركين في يوم بدر حتى قتلوا منهم سبعين رجلاً وأسروا سبعين وأديل المشركون من المسلمين يوم أحد حتى جرحوا منهم سبعين وقتلوا خمساً وسبعين (خ) عن البراء بن عازب قال: جعل النبي ﷺ على الرجالة يوم أحد وكانوا خمسين رجلاً وهم الرماة عبدالله بن جبير. فقال: إن رأيتمونا تخطفنا الطير فلا تبرحوا من مكانكم هذا حتى أرسل إليكم وإن رأيتمونا هزمنا القوم ووطئناهم فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم فهزمهم الله. قال: فأنا والله رأيت النساء يشتددن قد بدت خلاخلهن وأسوقهن رافعات ثيابهن فقال أصحاب عبدالله بن جبير الغنيمة أي قوم الغنيمة ظهر أصحابكم فما تنتظرون؟ فقال عبدالله بن جبير أنسيتم ما قال لكم رسول الله ﷺ؟ فقالوا: والله لنأتين الناس فلنصيبن من الغنيمة فلما أتوهم صرفت وجوههم فأقبلوا منهزمين فذلك قوله والرسول يدعوكم في أخراكم فلم يبق مع النبي ﷺ غير اثني عشر رجلاً فأصابوا منا سبعين رجلاً وكان النبي ﷺ قد أصاب من المشركين يوم بدر أربعين ومائة: سبعين أسيراً وسبعين قتيلاً فقال أبو سفيان أفي القوم محمد؟ ثلاث مرات فنهاهم النبي ﷺ أن يجيبوه ثم قال أفي القوم ابن أبي قحافة؟ ثلاث مرات ثم قال أفي القوم عمر بن الخطاب؟ ثلاث مرات ثم رجع إلى أصحابه فقال أما هؤلاء فقد قتلوا فما ملك عمر نفسه فقال كذبت والله يا عدو الله إن الذي عددت لأحياء كلهم وقد بقي لك ما يسوءك قال يوم بيوم بدر والحرب سجال إنكم ستجدون في القوم مثله لم آمر بها ولم تسؤني ثم أخذ يرتجز اعل هبل اعل هبل فقال النبي ﷺ ألا تجيبوه؟

والظفر على أعدائكم، ﴿ إنْ كنتُمْ مُؤمنين ﴾ يعني: إذْ كنتم، أي: لأنكم مؤمنون، قال ابن عباس رضي الله عنهما: انهزم أصحاب رسول الله ﷺ في الشّعب فأقبل خالد بن الوليد بخيل المشركين يريد أن يعلو عليهم الجبل، فقال النبي ﷺ: «اللّهمَّ لا يعلوه علينا، اللّهمَّ لا قوّةَ لنا إلّا بك»، وثاب نفرٌ من المسلمين رماةٌ فصعدُوا الجبل ورموا خيل المشركين حتى هزموها، فذلك قوله تعالى: ﴿ وأنتم الأعلون ﴾ وقال الكلبي: نزلت هذه الآية بعد يوم أُحد حين أمر النبي ﷺ أصحابه بطلب القوم بعدما أصابهم من الحرج، فاشتدّ ذلك على المسلمين فأنزل الله تعالى هذه الآية، دليله قوله تعالى: ﴿ ولا تَهِنُوا في ابتغاء القوم ﴾ [النساء: ١٠٤].

﴿ إنْ يَمْسَسْكُم قرحٌ ﴾ قرأ حمزة والكسائي وأبو بكر ﴿ قرح ﴾ بضم القاف حيث جاء، وقرأ الآخرون بالفتح وهما لغتان معناهما واحد كالجُهد والجَهد، وقال الفرّاء: بالفتح اسم للجراحة، وبالضم اسم لألم الجراحة، هذا خطاب مع المسلمين حيث انصرفوا من أُحُد مع الكآبة والحزن، يقول الله تعالى: ﴿ إن يَمْسَسْكم قرحٌ ﴾، يوم أُحُد، ﴿ فقدْ مسَّ القومَ قرحٌ مِثْلُه ﴾، يوم بدر، ﴿ وتِلْكَ الأيامُ نُداولُها بينَ النّاس ﴾، فيومٌ لهم ويومٌ عليهم، أُديل المسلمون من المشركين يوم بدر حتى قتلوا منهم سبعين وأَسَرُوا سبعين، وأُديل المشركون من المسلمين يوم أُحُد حتى جرحوا منهم سبعين وقتلوا خمساً وسبعين. أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا محمد بن عبد الله النعيمي

فقالوا: يا رسول الله ما نقول؟ قال قولوا الله أعلى وأجل قال أبو سفيان. إن لنا عزى ولا عزى لكم فقال النبي ﷺ ألا تجيبوه قالوا يا رسول الله ما نقول قال قولوا الله مولانا ولا مولى لكم. قال البغوي وقد روي هذا المعنى عن ابن عباس وفي حديثه قال أبو سفيان يوم بيوم وإن الأيام دول والحرب سجال فقال عمر لا سواء قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار قال الزجاج الدولة تكون للمسلمين على الكفار لقوله تعالى وإن جندنا لهم الغالبون فكانت يوم أحد للكفار على المسلمين لمخالفتهم أمر رسول الله ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿وليعلم الله الذين آمنوا﴾ يعني إنما جعل الدولة للكفار على المسلمين ليميز المؤمن المخلص ممن يرتد عن الدين إذا أصابته نكبة وشدة وقيل معناه وليعلم الله الذين آمنوا بما يظهر من صبرهم على جهاد عدوهم أي ليعرفهم بأعيانهم إلاّ أن السبب العلم وهو ظهور الصبر حذف هنا وقيل معناه ليعلم الله ذلك واقعاً منهم لأن الله تعالى يعلم الشيء قبل وجوده ولا يحتاج إلى سبب حتى يعلم والمعنى ليقع ما علمه عياناً ومشاهدة للناس والمجازاة إنما تقع على الواقع دون المعلوم الذي لم يوجد وقيل معناه ليعلم أولياء الله فأضاف علمهم إلى نفسه تفخيماً. وقيل معناه ليحكم الله بالامتياز بين المؤمن والمنافق فوضع العلم موضع الحكم لأن الحكم لا يحصل إلاّ بعد العلم ﴿ويتخذ منكم شهداء﴾ يعني وليكرم قوماً منكم بالشهادة ممن أراد أن يكرمهم بها وذلك لأن قوماً من المسلمين فاتهم يوم بدر وكانوا يتمنون لقاء العدو وأن يكون لهم يوم كيوم بدر فيقاتلون فيه العدو ويلتمسون فيه الشهادة والشهداء جمع شهيد وهو من قتل من المسلمين بسيف الكفار في المعركة واختلفوا في معنى الشهيد فقيل الشهيد الحي لقوله تعالى بل أحياء عند ربهم يرزقون فأرواحهم حية حضرت دار السلام وشهدتها وأرواح غيرهم لا تشهدها وقيل سمي شهيداً لأن الله تعالى شهد له بالجنة. وقيل سموا شهداء لأنهم يشهدون يوم القيامة مع الأنبياء

أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أخبرنا عمرو بن خالد أنا زهير أخبرنا أبو إسحق قال: سمعت البراء بن عازب يحدّث قال: جعل النبي ﷺ على الرّجّالة يوم أُحد وكانوا خمسين رجلاً عبدَ الله بن جُبير، فقال: «إن رأيتمونا تخطفنا الطير فلا تَبْرَحُوا مكانَكُم هذا حتى أُرسلَ إليكم وإنْ رأيتُمونَا هزمْنَا القومَ وأوطأناهم فلا تبرحُوا حتى أُرسل إليكم»، فهزمُوهم، قال: فإنّا واللّهِ رأيتُ النساءَ يشتددن قد بدت خلاخلهنّ وأسوقهنّ رافعات ثيابهنّ، فقال أصحاب عبد الله بن جُبير: الغنيمة، أيْ قوم الغنيمة، ظهر أصحابكم فما تنتظرون؟ فقال عبد الله بن جُبير: أنسيتم ما قال لكم رسول الله ﷺ؟ قالوا: والله لنأتينّ الناسَ فلنصيبنّ من الغنيمة، فلما أتوهم صُرِفتْ وجُوهُهم فأقبلوا منهزمين. فذلك قوله: ﴿ والرسول يدعوكم في أُخراكم ﴾ [آل عمران: ١٥٣]، فلم يبقَ مع النبي ﷺ غير اثني عشر رجلاً فأصابوا منّا سبعين، وكان النبي ﷺ وأصحابه أصابوا من المشركين يوم بدر مائة وأربعين، سبعين أسيراً وسبعين قتيلاً، فقال أبو سفيان: أفي القوم محمد ثلاث مرات، فنهاهم النبيّ ﷺ أن يجيبوه، ثم قال: أفي القوم ابن أبي قحافة ثلاث مرات، ثم قال: أفي القوم ابن الخطاب ثلاث مرات، ثم رجع إلى أصحابه، فقال: أمّا هؤلاء فقد قُتلوا، فما مَلَك عمرُ نفسَه، فقال: كذبت والله يا عدو الله، إن الذين عددت لأحياء كلهم، وقد بقي لك ما يسوءُك، فقال: يوم بيوم بدر، والحرب سِجَال، إنكم ستجدون في القوم مُثلةً لم آمر بها ولم تسؤني، ثم أخذ يرتجز: أُعل هُبَلَ أُعل هُبَل، فقال النبي ﷺ: «ألاَ تُجيبوه»؟ قالوا: يا رسول الله ما نقول؟ قال: «قولوا اللّهُ أعلى وأجلّ»، قال: إن لنا العُزَى ولا عُزَى لكم، فقال النبي ﷺ: «ألاَ تُجيبوه»؟ قالوا: يا رسول الله ما نقول؟ قال: «قولوا الله مولانا ولا مولى لكم»، ورُوِيَ هذا المعنى عن ابن عباس رضي الله عنهما وفي حديثه قال أبو سفيان: يومٌ بيوم وإن الأيام دُول والحرب سِجال، فقال عمر رضي الله عنه: لا سَواء، قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار. قال الزجّاج: الدولة تكون للمسلمين على الكفّار، لقوله تعالى: ﴿ وإن جندَنا لَهُمُ الغالِبُون ﴾ [الصّافّات: ١٧٣]، وكانت يوم أُحد للكفّار

والصديقين على الأمم لأن الشهادة تكون للأفضل فالأفضل من الأمة لأن منصب الشهادة منصب عظيم ودرجة عالية ﴿والله لا يحب الظالمين﴾ يعني المشركين وقيل هم الذين ظلموا أنفسهم بالمعاصي وقيل هم المنافقون الذين يظهرون الإيمان بألسنتهم ويسرون الكفر، والمعنى والله لا يحب من لا يكون ثابتاً على الإيمان صابراً على الجهاد.

وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾

﴿**وليمحص الله الذين آمنوا**﴾ أي وليطهرهم من ذنوبهم ويزيلها عنهم وأصل المحص في اللغة التنقية والإزالة ﴿**ويمحق الكافرين**﴾ أي يفنيهم ويهلكهم ومعنى الآية إن قتلكم الكافرون فهو شهادة وتطهير لكم وإن قتلتموهم أنتم فهو محقهم واستئصالهم.

قوله عز وجل: ﴿**أم حسبتم**﴾ أي بل حسبتم وظننتم والمراد به الإنكار والمعنى لا تحسبوا أيها المؤمنون ﴿**أن تدخلوا الجنة**﴾ وتنالوا كرامتي وثوابي ﴿**ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم**﴾ قال الإمام فخر الدين الرازي: ظاهر الآية يدل على وقوع النفي على العلم والمراد وقوعه على نفي المعلوم والتقدير: أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يصدر الجهاد عنكم وتقديره إن العلم متعلق بالمعلوم كما هو عليه فلما حصلت هذه المطابقة لا جرم حسن إقامة كل واحد منهما مقام الآخر وقال الواحدي النفي في الآية واقع على العلم والمعنى على الجهاد دون العلم وذلك لما فيه من الإيجاز في انتفاء جهاد لو كان لعلمه والتقدير: ولما يكن المعلوم من الجهاد الذي أوجب عليكم فجرى النفي على العلم للإيجاز على سبيل التوسع في الكلام إذ المعنى مفهوم من غير إخلال. وقال الزجاج: المعنى ولما يقع العلم بالجهاد والعلم بصبر الصابرين أي ولما يعلم الله ذلك واقعاً منكم لأنه يعلمه غيباً وإنما يجازيهم على عملهم وقال الطبري يقول ولما يتبين لعبادي المؤمنين المجاهد منكم على ما أمرته به ﴿**ويعلم الصابرين**﴾ يعني في الحرب وعلى ما نالهم في ذات الله عز وجل من جراح وألم ومكروه وفي هذه الآية معاتبة لمن انهزم يوم أحد والمعنى أم حسبتم أيها المهزومون أن تدخلوا الجنة كما دخلها الذين قتلوا وبذلوا مهجهم لربهم عز وجل وصبروا على ألم الجراح والضرب وثبتوا لعدوهم من غير أن تسلكوا طريقهم وتصبروا صبرهم.

قوله تعالى: ﴿**ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه**﴾ قال ابن عباس: لما أخبر الله عز وجل المؤمنين على لسان نبيه ﷺ بما فعل بشهدائهم يوم بدر من الكرامة رغبوا في ذلك فتمنّوا قتالاً يستشهدون فيه فيلحقون

على المسلمين لمخالفتهم أمر رسول الله ﷺ. قوله تعالى: ﴿ ولِيَعْلَمَ اللَّهُ الذين آمَنُوا ﴾ يعني: إنما كانت هذه المُداولة ليعلم؛ أي: ليرى اللَّهُ الذين آمنوا فيمِيز المؤمن من المنافق، ﴿ ويتّخِذَ منكم شُهداءَ ﴾، يُكرِّم أقواماً بالشهادة، ﴿ واللَّهُ لا يُحبُّ الظالمين ﴾.

﴿ وليُمحّصَ اللَّهُ الذينَ آمَنُوا ﴾ أي: يُطهركم من الذنوب، ﴿ ويَمْحَقَ الكافرين ﴾، يُفنيهم ويُهلكهم، معناه: أنهم إن قتلوكم فهو تطهيرٌ لكم، وإن قتلتموهم فهو محقُهم واستئصالُهم.

﴿ أمْ حَسِبْتُم ﴾ أي: أحسبتم؟ ﴿ أنْ تدخلُوا الجنةَ ولمّا يعلمَ اللَّهُ ﴾ أي: ولم يعلمِ اللَّهُ، ﴿ الذينَ جاهدُوا مِنكُمْ ويعلمَ الصابرين ﴾.

﴿ ولقدْ كنتمْ تَمنَّوْنَ الموتَ مِنْ قبلِ أنْ تَلْقَوْهُ ﴾، وذلك أن قوماً منَ المسلمين تمنَّوا يوماً كيوم بدر ليقاتلوا

بإخوانهم فأراهم الله يوم أحد فلم يلبثوا أن انهزموا إلاّ من شاء الله منهم فأنزل الله هذه الآية وقيل إن قوماً من المسلمين تمنّوا يوماً كيوم بدر ليقاتلوا فيه ويستشهدوا فأراهم الله يوم أحد ومعنى قوله له تمنون الموت أي تطلبون أسباب الموت وهوالقتال والجهاد من قبل أن تلقوه أي من قبل أن تلقوا يوم أحد ﴿فقد رأيتموه﴾ يعني رأيتم ما كنتم تتمنّون والهاء في رأيتموه عائدة على الموت أي رأيتم أسبابه معاينين له شاهدين قتل من قتل من إخوانكم بين أيديكم ﴿وأنتم تنظرون﴾ قيل ذكره تأكيداً. وقال الزجاج: معناه فقد رأيتموه وأنتم بصراء كما تقول: رأيت كذا وكذا وليس في عينك علة أي رأيته رؤية حقيقية وقيل: معناه وأنتم تنظرون ما تمنيتم فلم انهزمتم. قوله عز وجل: .

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔاۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ١٤٤﴾

﴿وما محمد إلاّ رسول قد خلت من قبله الرسل﴾ قال أهل المغازي خرج رسول الله ﷺ حتى نزل بالشعب من أحد في سبعمائة رجل وجعل عبدالله بن جبير على الرجالة وكانوا خمسين رجلاً وقال: «أقيموا بأصل الجبل وانضحوا عنا بالنبل حتى لا يأتونا من خلفنا فإن كانت لنا أو علينا لا تبرحوا من مكانكم حتى أرسل إليكم فأنا لن نزال غالبين ما ثبتم مكانكم» وكانت قريش على ميمنتهم خالد بن الوليد وعلى ميسرتهم عكرمة بن أبي جهل ومعهم النساء يضربن بالدفوف وينشدن الأشعار فقاتلوا حتى حميت الحرب وحمل النبي ﷺ وأصحابه على المشركين فهزموهم وكان النبي ﷺ قد أخذ سيفاً وقال: «من يأخذ هذا السيف بحقه ويضرب به العدو حتى يثخن» فأخذه أبو دجانة سماك بن خرشة الأنصاري فلما أخذه اعتم بعمامة حمراء وجعل يتبختر في مشيته فقال رسول الله ﷺ: «إنها لمشية يبغضها الله تعالى ورسوله إلاّ في هذا الموضع» فلما نظرت الرماة إلى المشركين وقد انكشفوا ورأوا أصحابهم ينهبون الغنيمة أقبلوا يريدون النهب، فلما رأى خالد بن الوليد قلة الرماة واشتغال المسلمين بالغنيمة ورأى ظهورهم خالية صاح في خيله وحمل على أصحاب رسول الله ﷺ فهزموهم ورمى عبدالله بن قميئة رسول الله ﷺ بحجر فكسر أنفه ورباعيته وشجه في وجهه فأثقله وتفرق عنه أصحابه ونهض رسول الله ﷺ إلى

ويستشهدُوا فأراهم اللَّهُ يوم أحد، وقوله: ﴿ تمنَّون الموتَ ﴾ أي: سببَ الموت وهو الجهاد من قبل أن تلقوه، ﴿ فقدْ رأيتُموه ﴾ يعني: أسبابه، ﴿ وأنتُم تنظرُونَ ﴾، فإن قيل: ما معنى قوله: ﴿ وأنتم تنظرون ﴾، بعد قوله: ﴿ فقد رأيتُموه ﴾؟ قيل: ذكره تأكيداً، وقيل: الرؤية قد تكون بمعنى العلم، فقال: ﴿ وأنتم تنظرون ﴾ ليعلم، أن المراد بالرؤية النظر، وقيل: معناه وأنتم تنظرون إلى محمد ﷺ.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ وما محمدٌ إلاّ رسولٌ قدْ خلَتْ منْ قبلِهِ الرُّسلُ ﴾، قال أصحاب المغازي: خرج رسول الله ﷺ حتى نزل بالشّعب من أُحُد في سبعمائة رجل، وجعل عبد الله بن جُبير وهو أخو خَوات بن جبير على الرّجالة، وكانوا خمسين رجلاً، وقال: أقيموا بأصل الجبل وانضحوا عنّا بالنبل لا يأتونا من خلفنا، فإن كانت لنا أو علينا فلا تبرحوا مكانكم حتى أُرسل إليكم وإنّا لن نزال غالبين ما ثبتم مكانكم فجاءت قريشٍ وعلى ميمنتهم خالد بن الوليد وعلى ميسرتهم عكرمة بن أبي جهلٍ ومعهم النساء يضربن بالدفوف ويقلن الأشعار فقاتلوا حتى حميت الحرب فأخذ رسول الله ﷺ سيفاً فقال: «مَن يأخذ هذا السيف بحقه ويضرب به العدو حتى يُثخن»؟ فأخذه أبو دجانة سماك بن خرشة الأنصاري، فلما أخذه اعتمّ بعمامة حمراء وجعل يتبختر فقال رسول الله ﷺ: «إنّها لَمشيةٌ

صخرة ليعلوها فلم يستطع وكان قد ظاهر بين درعين فجلس تحته طلحة فنهض حتى استوى على الصخرة فقال رسول الله ﷺ: «أوجب طلحة» ووقعت هند والنسوة معها يمثلن بالقتلى من أصحاب رسول الله ﷺ يجدعن الآذان والأنوف حتى اتخذت من ذلك قلائد وأعطتها وحشياً وبقرت عن كبد حمزة رضي الله تعالى عنه وكان قد قتل يومئذٍ فأخذت منها قطعة فلاكتها فلم تسغها فلفظتها وأقبل عبدالله بن قميئة يريد قتل رسول الله ﷺ فذب عنه مصعب بن عمير رضي الله عنه وهو يومئذٍ صاحب راية رسول الله ﷺ فقتله ابن قميئة وهو يرى أنه قتل رسول الله ﷺ فرجع وقال: إني قد قتلت محمداً وصاح صارخاً ألا إن محمداً قد قتل ويقال إن الصارخ إبليس اللعين فانكفأ الناس وجعل رسول الله ﷺ يقول: «إليّ عباد الله إليّ عباد الله» فاجتمع إليه ثلاثون رجلاً فحموه حتى كشفوا عنه المشركين ورمى سعد بن أبي وقاص حتى اندقت سية قوسه ونثل له رسول الله ﷺ كنانته وقال: «ارم فداك أبي وأمي» وكان أبو طلحة رجلاً رامياً شديد النزع كسر يومئذٍ قوسين أو ثلاثة وكان الرجل يمر معه جعبة النبل فيقول: «انثرها لأبي طلحة» وكان إذا رمى تشرف رسول الله ﷺ ينظر موضع نبله وأصيبت يد طلحة بن عبيدالله فيبست حين وقى بها رسول الله ﷺ وأصيبت عين قتادة بن النعمان يومئذٍ حتى وقعت على وجنته فردها رسول الله ﷺ فعادت أحسن ما كانت فلما انصرف رسول الله ﷺ أدركه أبي بن خلف الجمحي وهو يقول لانجوت إن نجوت فقال: القوم يا رسول الله ألا تعطف عليه رجل منا؟ فقال رسول الله ﷺ: «دعوه» حتى إذا دنا منه وكان أبي قبل ذلك يلقى رسول الله ﷺ فيقول عندي رمكة أعلفها كل يوم فرق ذرة أقتلك عليها فقال رسول الله ﷺ: «بل أنا أقتلك إن شاء الله» فلما دنا منه تناول رسول الله ﷺ الحربة من الحارث بن الصمة ثم استقبله وطعنه في عنقه وخدشه خدشه فسقط عن فرسه وهو يخور كما يخور الثور ويقول قتلني محمد. فاحتمله أصحابه وقالوا ليس عليك بأس بل لو كانت هذه الطعنة بربيعة ومضر لقتلتهم أليس قال لي أنا أقتلك؟ فلو بزق عليّ بعد تلك المقالة لقتلني بها فلم يلبث بعد ذلك إلّا يوماً حتى مات بموضع يقال له سرف (خ) عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «اشتد غضب الله

يبغضها الله تعالى إلّا في هذا الموضع»، ففلق به هام المشركين، وحمل النبي ﷺ وأصحابه على المشركين فهزموهم، وروينا عن البراء بن عازب قال: فأنا والله رأيت النساء يشتددن قد بدت خَلاخِلهنّ وأسوقهنّ رافعاتٍ ثيابهنّ فقال أصحاب عبد الله بن جبير: الغنيمةَ والله لنأتينّ الناس ولَنُصيبنّ من الغنيمة، فلما أتوهم صرفت وجوههم، قال الزبير بن العوّام: فرأيت هنداً وصَوَاحِبًا هارباتٍ مصعدات في الجبل، باديات خدّامهنّ ما دون أخذهنّ شيء، فلما نظرت الرمات إلى القوم قد انكشفوا ورأوا أصحابهم ينتهبون الغنيمة أقبلوا يريدون النهب، فلما رأى خالد بن الوليد قلّة الرماة واشتغال المسلمين بالغنيمة، ورأى ظهورهم خالية صاح في خيله من المشركين، ثم حمل على أصحاب النبي ﷺ من خلفهم فهزموهم وقتلوهم، ورمى عبد الله بن قميئة رسول الله ﷺ بحجر فكسر أنفه، ورُباعيته وشجّه في وجهه فأثقله وتفرّق عنه أصحابه ونهض رسول الله ﷺ إلى صخرة يعلوها، وكان قد ظاهر بين درعين، فلم يستطع فجلس تحته طلحة حتى استوى عليها، فقال رسول الله ﷺ: «أَوْجَبَ طلحةُ» ووقعت هند والنسوة معها يمثلن بالقتلى من أصحاب رسول الله ﷺ يجدعن الآذانَ والأنوفَ حتى اتخذت هند من ذلك قلائد، وأعطتْها وحشيّاً وبقرتْ عن كبدة حمزة ولَاكَتْها فلم تستطع أن تُسيغها فلفظتها، وأقبل عبد الله بن قميئة يريد قتل النبي ﷺ فَذَبَّ عنه مُصعب بن عمير ـ وهو صاحب راية رسول الله ﷺ ـ عن رسول الله ﷺ فقتله ابن قميئة، وهو يرى أنه قتل رسول الله ﷺ، فرجع إلى المشركين وقال: إني قتلت محمداً وصاح صارخ ألَا إنّ محمداً قد قُتل، ويقال: إن ذلك الصارخ إبليس لعنة الله عليه، فانكفأ الناس، وجعل رسول الله ﷺ يدعو الناس: «إليّ عبادَ الله إليّ عبادَ الله»، فاجتمع إليه ثلاثون رجلاً فحمُوه حتى كشفوا عنه المشركين، ورمى سعد بن أبي وقاص حتى اندقتْ سية

على من قتله نبي في سبيل الله اشتد غضب الله على قوم أدموا وجه نبي الله» قالوا وفشا في الناس أن محمداً ﷺ قد قُتِلَ فقال: بعض المسلمين ليت لنا رسولاً إلى عبدالله بن أبي فيأخذ لنا أماناً من أبي سفيان وجلس بعض الصحابة وألقوا ما بأيديهم وقال أناس من المنافقين إن كان محمد قد قتل فألحقوا بدينكم الأول وقال أنس بن النضر عم أنس بن مالك: يا قوم إن كان محمد قد قتل فإن رب محمد لم يقتل وما تصنعون بالحياة بعد رسول الله ﷺ فقاتلوا على ما قاتل عليه وموتوا على ما مات عليه ثم قال: اللهم إني أعتذر إليك مما يقول هؤلاء ـ يعني المسلمين ـ وأبرأ إليك مما جاء به هؤلاء يعني المشركين ثم شد بسيفه فقاتل حتى قتل. ثم إن رسول الله ﷺ انطلق إلى الصخرة وهو يدعو الناس فأول من عرف رسول الله ﷺ كعب بن مالك قال قد عرفت عينيه تزهران تحت المغفر فناديت بأعلى صوتي يا معشر المسلمين أبشروا هذا رسول الله ﷺ فأشار إلي أن أسكت فانحازت إليه طائفة من أصحابه فلامهم النبي ﷺ على الفرار فقالوا يا رسول الله فديناك بآبائنا وأمهاتنا أتانا الخبر بأنك قد قتلت فرعبت قلوبنا فولّينا مدبرين فأنزل الله عز وجل: ﴿**وما محمد إلّا رسول قد خلت من قبله الرسل**﴾ ومعنى الآية فسيخلو محمد كما خلت الرسل من قبله فكما أن أتباعهم بقوا متمسكين بدينهم بعد خلو أنبيائهم فعليكم أنتم أن تتمسكوا بدينه بعد خلوه لأن الغرض من بعث الرسول تبليغ الرسالة وإلزام الحجة لا وجوده بين ظهراني قومه ومحمد اسم علم لرسول الله ﷺ وفيه إشارة إلى وصفه بذلك وتخصيصه بمعناه وهو الذي كثرت خصاله المحمودة والمستحق جميع المحامد لأنه الكامل في نفسه ﷺ فأكرم الله عز وجل نبيه ﷺ فسماه باسمين مشتقين من اسمه المحمود سبحانه

قوسه، ونثل له رسول الله ﷺ كنانته، وقال له: «ارمِ فداك أبي وأمي»، وكان أبو طلحة رجلاً شديد النّزع كسر يومئذٍ قوسين أو ثلاثاً، وكان الرجل يمرّ بجعبة من النبل فيقول: انثرْها لأبي طلحة، وكان إذا رمى استشرف النبي ﷺ لينظر إلى موضع نبله، وأُصيبت يَدُ طلحة بن عبيد الله فيبست حين وقَى بها رسول الله ﷺ، وأُصيبت عينُ قتادة بن النعمان يومئذٍ حين وقعت على وجنته، فردّها رسول الله ﷺ مكانها، فعادت كأحسن ما كانت، فلما انصرف رسول الله ﷺ أدركه أُبي بن خلف الجمحي، وهو يقول: لا نجوتُ إن نجوتَ، فقال القوم: يا رسول الله لا يعطف عليه رجل منّا؟ فقال ﷺ: «دعوه» حتى إذا دَنَى منه، وكان أُبيّ قبل ذلك يلقى رسول الله ﷺ فيقول: عندي رمكة أعلفها كل يوم فَرْقَ ذُرة أقتُلُكَ عليها، فقال رسول الله ﷺ: «بل أنا أقتُلك إن شاء الله»، فلما دنا منه تناول رسول الله ﷺ الحِربة من الحارث بن الصمّة ثم استقبله فطعنه في عنقه، فخدشه خدشةً فتدهدأ عن فرسه وهو يخور كما يخور الثور، ويقول: قتلني محمد، فحمله أصحابه وقالوا: ليس عليك بأس، قال: بلى لو كانت هذه الطعنة بربيعة ومُضر لقتلتهم، أليس قال لي: أقتلك؟ فلو بزق عليّ بعد تلك المقالة لقتلني، فلم يلبث إلّا يوماً حتى مات بموضع يقال له سرف. أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن إسماعيل أنا عمرو بن علي أنا أبو عاصم عن ابن جريج عن عمرو بن دينار عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: اشتدّ غضبُ الله على مَن قتله نبي واشتدّ غضبُ الله على مَن دَمي وجه رسول الله ﷺ، قالوا: وفشا في الناس أن محمداً قُتل فقال بعض المسلمين: ليتَ رسولاً إلى عبد الله بن أُبي فيأخذ لنا أماناً من أبي سفيان، وبعض الصحابة جلسوا وألقوا ما بأيديهم من الأسلحة، وقال أُناس من أهل النفاق: إن كان محمداً قُتل فالحقوا بدينكم الأول، فقال أنس بن النضر عمُّ أنس بن مالك: يا قوم إن كان قد قُتل محمد فإن ربَّ محمد لم يُقتل وما تصنعون بالحياة بعد رسول الله ﷺ؟ فقاتلوا على ما قاتل عليه رسول الله ﷺ ومُوتُوا على ما مات عليه رسول الله ﷺ، ثم قال: اللّهمَّ إني أعتذر إليك مما يقول هؤلاء يعني المسلمين، وأبرأ إليك مما جاء به هؤلاء يعني المنافقين، ثم شدّ بسيفه فقاتل حتى قُتل، ثم إن رسول الله ﷺ انطلق إلى الصخرة وهو يدعو الناس، فأول مَن عرف رسول الله ﷺ كعب بن مالك، قال عرفت عينيه تحت

وتعالى فسماه محمداً وأحمد وفي ذلك يقول حسان بن ثابت:

ألـــم تـــر أن الله أرســـل عبـــده ببـــرهـــانـــه والله أعلـــى وأمجـــد
أغـــر عليـــه للنبـــوة خـــاتـــم مـــن الله مشهـــور يلـــوح ويشهـــد
وشـــق لـــه مـــن اسمـــه ليجلـــه فـــذو العـرش مـــن محمـــود وهـــذا محمـــد

(ق) عن جبير بن مطعم قال قال رسول الله ﷺ: «لي خمسة أسماء أنا محمد وأنا أحمد وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي وأنا العاقب» والعاقب الذي ليس بعده نبي وسماه الله رؤوفاً رحيماً (م) عن أبي موسى الأشعري قال كان رسول الله ﷺ يسمي لنا نفسه أسماء فقال: «أنا محمد وأنا أحمد وأنا المقفى ونبي التوبة ونبي الرحمة» قوله المقفى هو آخر الأنبياء الذي لا نبي بعده والرسول هو المرسل ويكون بمعنى الرسالة والمراد به هنا المرسل بدليل قوله تعالى: ﴿**وإنك لمن المرسلين**﴾ ﴿**أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم**﴾ يعني أتنقلبون على أعقابكم إن مات محمد أو قتل وترجعون إلى دينكم الأول يقال لكل من رجع إلى ما كان عليه رجع وراءه ونكص على عقبيه وحاصل الكلام إن الله تعالى بيّن أن موت محمد ﷺ أو قتله لا يوجب ضعفاً في دينه ولا الرجوع عنه بدليل موت سائر الأنبياء قبله وأن أتباعهم ثبتوا على دين أنبيائهم بعد موتهم ﴿**ومن ينقلب على عقبيه**﴾ يعني فيرتد عن دينه ويرجع إلى الكفر ﴿**فلن يضر الله شيئاً**﴾ يعني بارتداده لأن الله تعالى لا يضره كفر الكافرين لأنه تعالى غني عن العالمين وإنما يضر المرتد والكافر نفسه ﴿**وسيجزي الله الشاكرين**﴾ يعني الثابتين على دينهم الذين لم ينقلبوا عنه لأنهم شكروا نعمة الله عليهم بالإسلام وثباتهم عليه فسماهم الله شاكرين لما فعلوا والمعنى وسيثيب الله من شكره على توفيقه وهدايته وروى ابن جبير عن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه في قوله: ﴿وسيجزي الله الشاكرين﴾ قال الثابتين على دينهم أبا بكر وأصحابه وكان علي يقول أبو بكر أمين الشاكرين وأمين أخبار الله وكان أشكرهم وأحبهم إلى الله تعالى. قوله عز وجل:

وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْءَاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِىٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ

المغفر تزهران فناديت بأعلى صوتي: يا معشر المسلمين أبشروا هذا رسول الله ﷺ، فأشار إليّ أنِ اسكتْ، فانحازت إليه طائفة من أصحابه، فلامهم النبي ﷺ على الفِرار، فقالوا: يا نبيّ الله فديناك بآبائِنا وأُمهاتِنا، أتَانا الخبرُ بأنك قد قُتلت، فرُعبت قلوبُنا فولّينا مدبرين، فأنزل الله تعالى: ﴿ **وما محمدٌ إلاّ رسولٌ قد خلتْ من قبله الرُّسل** ﴾، ومحمدٌ هو المستغرق لجميع المحامد، لأنّ الحمد لا يستوجبه إلاّ الكامل، والتحميد فوق الحمد، فلا يستحقّه إلاّ المستولي على الأمر في الكمال، وأكرم اللّهُ نبيَّه وصفيَّه باسمين مشتقين من اسمه جلّ جلاله (محمد وأحمد)، وفيه يقول حسّان بن ثابت:

ألَمْ تـرَ أن الـلّهَ أرسـل عـبـدَه ببـرهـانـه واللّهُ أعـلى وأمجـدُ
وشـقّ لـه مـن اسـمـه لِـيُـجلَّه فذو العرشِ محمـودٌ وهذا محمـد

قوله تعالى: ﴿ **أفإنْ ماتَ أو قُتل انقلبتُم على أعقابِكم** ﴾ أي: رَجعتُم إلى دينكم الأول، ﴿ **ومَنْ ينقلبْ على عقبيه** ﴾، ويرتدّ عن دينه، ﴿ **فلنْ يَضرَّ اللّهَ شيئاً** ﴾، بارتدادِه وإنّما ضرَّ نفسه، ﴿ **وسيجزي اللّهُ الشاكرين** ﴾.

أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾

﴿وما كان لنفس أن تموت إلاّ بإذن الله﴾ أي بأمر الله وقضائه وقدره وعلمه وذلك أن الله تعالى يأمر ملك الموت بقبض الأرواح فلا يموت أحد إلاّ بإذن الله تعالى وأمره والمراد من الآية تحريض المؤمنين على الجهاد وتشجيعهم على لقاء العدو بإعلامهم بأن الجبن لا ينفع وأن الحذر لا يدفع المقدور وأن أحداً لا يموت قبل أجله وإن خاض المهالك واقتحم المعارك وإذا جاء الأجل لم يدفع الموت بحيلة فلا فائدة في الخوف والجبن. وفي الآية أيضاً ذكر حفظ الله رسوله ﷺ عند غلبة العدو وتخليصه منهم عند التفافهم عليه وإسلام أصحابه له فأنجاه الله تعالى من عدوه سالماً مسلماً لم يضره شيء ﴿كتاباً مؤجلاً﴾ يعني مؤقتاً له أجل معلوم لا يتقدم ولا يتأخر. والمعنى أن الله تعالى كتب لكل نفس أجلاً لا يقدر أحد على تغييره أو تقديمه أو تأخيره وقيل الكتاب هو اللوح المحفوظ لأن فيه آجال جميع الخلق ﴿ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها﴾ يعني من يرد بعمله وطاعته الدنيا ويعمل لها نؤته منها ما يكون جزاء لعمله والمعنى نؤته منها ما نشاء على ما قدرناه له نزلت في الذين تركوا المركز يوم أحد وطلبوا الغنيمة ﴿ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها﴾ يعني من يرد بعمله الآخرة نؤته ثوابه فيها نزلت في الذين ثبتوا مع رسول الله ﷺ يوم أحد. واعلم أن هذه الآية وإن نزلت في الجهاد خاصة لكنها عامة في جميع الأعمال ذلك لأن الأصل في ذلك كله يرجع إلى نية العبد فإن كان يريد بعمله الدنيا فليس له جزاء إلاّ فيها وكذلك من أراد بعمله الدار الآخرة فجزاؤه أيضاً فيها (ق) عن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنما الأعمال بالنيات» وفي رواية «بالنية وإنما لكل امرىء ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها»، وفي رواية «ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه» وروى البغوي بسنده عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «من كانت نيته طلب الآخرة جعل الله غناه في قلبه وجمع له شمله وأتته الدنيا راغمة وما كانت نيته طلب الدنيا جعل الله الفقر بن عينيه وشتت عليه أمره ولا يأتيه منها إلاّ ما كتب الله له».

وقوله تعالى: ﴿وسنجزي الشاكرين﴾ يعني المؤمنين المطيعين الذين لم يشغلهم شيء عن الجهاد ولم يريدوا بأعمالهم إلاّ الله تعالى والدار الآخرة.

﴿ وما كان لنفسٍ أنْ تموتَ ﴾، قال الأخفش: اللام في ﴿ لِنفس ﴾ منقولة من تموت تقديره: وما كان نفس لتموت، ﴿ إلاّ بإذنِ اللَّهِ ﴾، بقضائه وقدره، وقيل: بعلمه، وقيل: بأمره، ﴿ كتاباً مؤجَّلاً ﴾ أي: كتَبَ لكل نفس أجلاً لا يقدر أحدٌ على تغييره وتأخيره، ونصب ﴿ كتاباً ﴾ على المصدر، أي: كتب كتاباً، ﴿ وَمَنْ يُردْ ثوابَ الدنيا نُؤتِهِ منها ﴾ يعني: مَن يُرِد بطاعته الدنيا ويعمل لها نُؤتِه منها ما يكون جزاءً لعمله، يريد نُؤتِه منها ما يشاء مما قدّرناه له، كما قال: ﴿ مَن كان يريد العاجلة عجّلْنا له فيها ما نشاءُ لِمَنْ نُريد ﴾ [الإسراء: ١٨]، نزلتْ في الذين تركوا المركزَ يومَ أحد طلباً للغنيمة، ﴿ ومَنْ يُردْ ثوابَ الآخرةِ نُؤتِهِ منها ﴾، أي أراد بعمله الآخرةَ، قيل: أراد الذين ثبتوا مع أميرهم عبد الله بن جبير حتى قُتلوا، ﴿ وسنجزي الشاكرين ﴾، أي: المؤمنين المطيعين. أخبرنا أبو الحسن عبد الرحمن بن محمد الداوردي أخبرنا أبو الحسن أحمد بن موسى بن الصلت أنا أبو إسحق إبراهيم عبد الصمد الهاشمي أنا أبو يحيىٰ محمد بن عبد الله بن يزيد بن عبد الرحمن بن المقرىء أنا أبي أنا الربيع بن صبيح عن يزيد الرقاشي عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «مَن كانت نيّتُه طلبَ الآخرة جعل اللَّهُ غناه في قلبه وجمع له شمله وأتته الدنيا وهي راغمة، ومَن كانت نيّته طلب الدنيا جعل الله الفقرَ بين عينيه وشتّتَ عليه أمرَه، ولا

قوله عز وجل: ﴿وكأين من نبي﴾ أي وكم من نبي ﴿قتل معه﴾ وقرىء قاتل معه فمن قرأ قتل بضم القاف فله أوجه: أحدها أن يكون القتل راجعاً على النبي وحده فعلى هذا يكون الوقف على قتل لأنه كلام تام وفيه إضمار تقديره قتل ومعه ربيون كثير. ويكون معناه قتل حال ما كان معه ربيون كثير والمعنى أن كثيراً من الأنبياء قتلوا والذين بقوا بعدهم ما وهنوا في دينهم وما استكانوا بل استمروا على جهاد عدوهم ونصرة دينهم فكان ينبغي لكم أن تكونوا مثلهم. الوجه الثاني أن القتل نال النبي ومن معه من الربيين ويكون المراد البعض ويكون قوله: «فما وهنوا» راجعاً إلى الباقين والمعنى وكأيّن من نبي قتل وبعض من كان معه فما ضعف الباقون لقتل من قتل من إخوانهم بل مضوا على جهاد عدوهم فكان ينبغي لكم أن تكونوا كذلك. الوجه الثالث أن يكون القتل نال الربيين لا النبي والمعنى وكأيٍّ من نبي قتل من كان معه وعلى دينه ربيون كثير ومن قرأ قاتل معه ربيون كثير فالمعنى وكأيٍّ من نبي قاتل معه العدد الكثير من أصحابه فأصابهم من عدوهم قروح وجراحات فما وهنوا لما أصابهم بل استمروا على جهاد عدوهم لأن الذي أصابهم إنما هو في سبيل الله وطاعته وإقامة دينه ونصرة نبيه فكان ينبغي لكم أن تفعلوا مثل ذلك يا أمة محمد، وحجة هذه القراءة ما روي عن سعيد بن جبير أنه قال ما سمعنا أن نبياً قُتِلَ في القتال وقوله ﴿ربيون كثير﴾ قال ابن عباس جموع كثيرة وقيل الربيون الألوف وقيل الربية الواحدة عشرة آلاف وقيل ألف وقيل ربيون يعني فقهاء علماء وقيل الربيون هم الأتباع ﴿فما وهنوا﴾ أي فما جبنوا عن الجهاد في سبيل الله ﴿لما أصابهم

يأتيه منها إلّا ما كتب الله له»، أخبرنا أبو طاهر محمد بن علي بن أبي توبة الزرّاد أخبرنا أبو بكر محمد بن إدريس بن محمد الجرجاني وأبو أحمد محمد بن أحمد بن علي المعلّم الهروي قالا أخبرنا أبو الحسن علي بن عيسى الماليني أخبرنا أبو العباس الحسن بن سفيان النسوي أخبرنا حسان بن موسى وعبد الله بن أسماء ابن أخي جويرية بن أسماء قال أخبرنا عبد الله بن المبارك عن يحيى بن سعيد عن محمد بن إبراهيم التيمي عن علقمة بن وقاص الليثي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّما الأعمال بالنيّات وإنّما لكل امرىءٍ ما نوى، فمَن كانتْ هجرتُه إلى اللّهِ ورسولِهِ فهجرتُه إلى الله ورسوله، ومَن كانتْ هجرتُه إلى دنيا يُصيبها أو امرأة يتزوّجها فهجرتُه إلى ما هاجر إليه».

قوله تعالى: ﴿ وكأيّنْ مِنْ نَبي قاتلَ معه ربِّيُّونَ كثير ﴾، قرأ ابن كثير «وكـائن» بالمدّ والهمزة على وزن كاعن، وبتليين الهمزة أبو جعفر، وقرأ الآخرون ﴿ وكأيّن ﴾ بالهمزة والتشديد على وزن كعين، ومعناه: وكم، وهي كاف التشبيه ضُمّت إلى أي الاستفهامية، ولم يقع التنوين صورةً في الخطّ إلّا في هذا الحرف خاصة، ويقف بعض القرّاء على ﴿ وكأيّن ﴾ بلا نونٍ، والأكثرون على الوقف بالنون، قوله: ﴿ قاتل ﴾ قرأ ابن كثير ونافع وأهل البصرة بضم القاف، وقرأ الآخرون ﴿ قاتل ﴾ فمَن قرأ ﴿ قاتل ﴾ فلقوله: ﴿ فما وهنوا ﴾ ويستحيل وصفهم بأنهم لم يهنوا بعدما قُتلوا، لقول سعيد بن جبير: ما سمعنا أن نبيّاً قُتل في القتال، ولأنّ ﴿ قاتل ﴾ أعمّ، قال أبو عبيدة: إن الله تعالى إذا حمد من قاتل كان من قُتل داخلاً فيه، وإذا حمد من قُتل لم يدخل فيه غيرهم، فكان ﴿ قاتل ﴾ أعمّ، ومَن قرأ «قُتـل» فله ثلاثة أوجه، أحدها: أن يكون القتل راجعاً إلى النبي وحده، فيكون تمام الكلام عند قوله: «قتـل»، ويكون في الآية إضمار معناه: ومعه ربيون كثير، كما يقال: قتل فلان معه جيش كثير، أي: ومعه، والوجه الثاني: أن يكون القتل نال النبي ومَن معه من الربيين، ويكون المراد: بعض مَن معه، تقول العرب: قتلنا بني فلان، وإنما قتلوا بعضَهم، ويكون قوله: ﴿ فما وَهَنُوا ﴾ راجعاً إلى الباقين، والوجه الثالث: أن يكون القتل للربيين لا غير، وقوله: ﴿ رِبِّيُّونَ كثيرٌ ﴾، قال ابن عباس ومجاهد وقتادة: جموع كثيرة، وقال ابن مسعود: الربيون الألوف، وقال الكلبي الرِّبِّيَّةُ الواحدة: عشرة آلاف، وقال الضحاك: الربية الواحدة: ألف، وقال الحسن: فقهاء

في سبيل الله وما ضعفوا﴾ يعني عن مجاهدة عدوهم بما نالهم من ألم الجراح وقتل الأصحاب ﴿وما استكانوا﴾ يعني وما استسلموا وما خضعوا لعدوهم ولكنهم صبروا على أمر ربهم وطاعة نبيهم وجهاد عدوهم وهذا تعريض بما أصابهم يوم أحد من الوهن والانكسار عند الارجاف بقتل رسول الله ﷺ وضعفهم عن مجاهدة المشركين واستكانتهم لهم حين أرادوا أن يعتضدوا بالمنافق عبدالله بن أبي في طلب الأمان من أبي سفيان والمقصود من الآية حكاية ما جرى لسائر الأنبياء وأتباعهم لتقتدي هذه الأمة بهم وترغيب الذين كانوا مع رسول الله ﷺ في الجهاد ﴿والله يحب الصابرين﴾ يعني في الجهاد، والمعنى أن من صبر على تحمل الشدائد في طلب الآخرة ولم يظهر الجزع والعجز فإن الله تعالى يحبه ومحبة الله تعالى للعبد عبارة عن إرادة إكرامه وإعزازه وإيصال الثواب له وإدخاله الجنة مع أوليائه وأصفيائه ثم قال تعالى:.

وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَـٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾

﴿وما كان قولهم﴾ يعني قول الربيين ﴿إلاّ أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا﴾ فيدخل فيه جميع الصغائر والكبائر ﴿وإسرافنا في أمرنا﴾ يعني ما أسرفنا فيه فتخطّينا إلى العظام من الذنوب لأن الإسراف الإفراط في الشيء ومجاوزة الحد فيه فيكون المعنى اغفر لنا ذنوبنا الصغائر منها والكبائر ﴿وثبت أقدامنا﴾ لكي لا نزلّ عند لقاء العدو وذلك يكون بإزالة الخوف والرعب من قلوبهم ﴿وانصرنا على القوم الكافرين﴾ لأن النصر على الأعداء لا يكون إلاّ من عند الله. بين الله تعالى أنهم كانوا مستعدين عند لقاء العدو بالدعاء والتضرع وطلب الإعانة والنصر من الله تعالى والغرض منه أن يقتدي بهم في هذه الطريقة الحسنة أمة محمد ﷺ يقول هلا فعلتم مثل ما فعلوا وقلتم مثل ما قالوا ﴿فآتاهم الله ثواب الدنيا﴾ يعني النصر والغنيمة وقهر الأعداء، والثناء الجميل وغفران الذنوب والخطايا ﴿وحسن ثواب الآخرة﴾ يعني الجنة وما فيها من النعيم المقيم وإنما خص ثواب الآخرة بالحسن تنبيهاً على إجلاله وعظمته، لأنه غير زائل ولم يشب بتنغيص ولم يصف ثواب الدنيا بالحسن لقلته ولأنه سريع الزوال مع ما يشوبه من التنغيص

علماء، وقيل: هم الأتباع، والربانيون والربيون الولاة والرعية، وقيل: منسوب إلى الرب وهم الذين يعبدون الرب، ﴿ فما وَهَنُوا ﴾ أي: فما جَبُنُوا، ﴿ لِما أصابَهُمْ في سبيلِ اللَّهِ وما ضَعُفُوا ﴾، عن الجهاد بما نَالهم من ألمِ الجراح، وقَتْلِ الأصحاب. ﴿ وما استكانوا ﴾، قال مقاتل: وما استسلموا وما خضعوا لعدوّهم، وقال السدي: وما ذلّوا، وقال عطاء: وما تضرّعوا، وقال أبو العالية: وما جبنوا ولكن صبروا على أمرِ رَبّهم وطاعة نبيّهم وجهاد عدوّهم، ﴿ والله يحبُّ الصابرين ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وما كان قولَهم ﴾، نصب على خبر كان، والاسم في أن قالوا، ومعناه: وما كان قولهم عند قتل نبيّهم، ﴿ إلاّ أنْ قالوا ربّنا اغفرْ لنا ذنوبنا ﴾ أي: الصغائر، ﴿ وإسرافَنَا في أمرنا ﴾، أي: الكبائر، ﴿ وثبّتْ أقدامَنا ﴾، كي لا تـزول، ﴿ وانْصُرْنا على القومِ الكافرين ﴾، فيقول فهلاّ فعلتم وقلتم مثل ذلك يا أصحاب محمد ﷺ.

﴿ فآتاهمُ اللَّهَ ثوابَ الدنيا ﴾، النصرة والغنيمة، ﴿ وحُسنَ ثوابِ الآخرة ﴾، أي الأجر والجنة، ﴿ والله يُحبّ المحسنين ﴾.

﴿والله يحب المحسنين﴾ يعني الذين يفعلون مثل ما فعل هؤلاء وهذا تعليم من الله تعالى لعباده المؤمنين أن يقولوا مثل هذا عند لقاء العدو وفيه دقيقة لطيفة وهي أنهم لما اعترفوا بذنوبهم وكونهم مسيئين سماهم الله تعالى محسنين.

قوله عز وجل: ﴿يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا الذين كفروا﴾ يعني اليهود والنصارى، وقيل المنافقين وذلك في قولهم للمؤمنين عند الهزيمة يوم أحد ارجعوا إلى إخوانكم وادخلوا في دينهم. وقيل معناه أن تطيعوهم فيما يأمرونكم به من ترك الجهاد ﴿يردوكم على أعقابكم﴾ يعني يرجعوكم إلى أمركم الأول وهو الكفر والشرك بالله بعد الإيمان به لأن قبول قولهم في الدعوة إلى الكفر كفر ﴿فتنقلبوا خاسرين﴾ يعني مغبونين في الدنيا والآخرة أما خسار الدنيا فهو طاعة الكفار والتذلل للأعداء وأما خسار الآخرة فهو دخول النار وحرمان دار القرار.

بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّـٰصِرِينَ ﴿١٥٠﴾ سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ بِمَآ
أَشْرَكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًا ۖ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۚ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٥١﴾ وَلَقَدْ
صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَـٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم
مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ ثُمَّ
صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾

﴿بل الله مولاكم﴾ أي وليكم وناصركم وحافظكم فاستعينوا به ﴿وهو خير الناصرين﴾ يعني أنه تعالى قادر على نصركم والمعنى أنكم إنما تطيعون الكفار لينصروكم ويعينوكم وهم عاجزون عن نصر أنفسهم فضلاً عن غيرهم فاطلبوا النصر من الله تعالى فهو خير الناصرين.

قوله عز وجل: ﴿سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب﴾ وذلك أن أبا سفيان ومن معه ارتحلوا يوم أحد متوجهين إلى مكة، فلما بلغوا بعض الطريق ندموا وقالوا بئس ما صنعنا قتلناهم حتى إذا لم يبق منهم إلاّ الشريد تركناهم ارجعوا إليهم فاستأصلوهم فلما عزموا على ذلك ألقى الله في قلوبهم الرعب، يعني الخوف الشديد حتى رجعوا عما هموا به فعلى هذا القول يكون الوعد بإلقاء الرعب في قلوب الكفار مخصوصاً بيوم أحد وقيل إنه عام وإن كان السبب خاصاً لقوله ﷺ: «نصرت بالرعب مسيرة شهر» فكأنه قال سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب منكم حتى تقهروهم ويظهر دينكم على سائر الأديان وقد فعل الله ذلك بفضله وكرمه حتى صار دين الإسلام ظاهراً

قوله تعالى: ﴿ يا أيّها الذين آمنوا إنْ تُطيعوا الذين كفرُوا ﴾، يعني: اليهود والنصارى، وقال عليّ رضي الله عنه، يعني: المنافقين في قولهم: للمؤمنين عند الهزيمة: ارجعوا إلى إخوانكم وادخلوا في دينهم، ﴿ يردُّوكم على أعقابكم ﴾، يُرجعوكم إلى أول أمركم مِنَ الشرك بالله، ﴿ فتنقلبُوا خاسرين ﴾، مغبونين.

ثم قال: ﴿ بل اللَّهُ مَوْلاكُم ﴾، ناصرُكم وحافظُكم على دينكم الإسلام، ﴿ وهو خيرُ النّاصرين ﴾.

﴿ سنُلْقِي في قلوبِ الذين كفرُوا الرُّعبَ ﴾ وذلك أنّ أبا سفيان والمشركين لمّا ارتحلوا يوم أُحُد متوجهين نحو مكة انطلقوا حتى إذا بلغوا بعض الطريق، ندموا وقالوا: بئس ما صنعنا قتلناهم حتى إذا لم يبقَ منهم إلاّ الشريد تركناهم، ارجعوا فاسْتَأْصِلُوهم، فلمّا عزموا على ذلك قذف الله في قلوبهم الرُّعب، حتى رجعوا عمّا همُّوا به، فذلك قوله تعالى سنُلْقي أي: سنقذف في قلوب الذين كفروا الرعب، الخوف، قرأ أبو جعفر وابن عامر والكسائي

على جميع الأديان والملل كما قال الله تعالى ليظهره على الدين كله ﴿**بما أشركوا بالله**﴾ يعني إنما كان إلقاء الرعب في قلوبهم بسبب إشراكهم بالله ﴿**ما لم ينزل به سلطاناً**﴾ يعني حجة وبرهاناً وسميت الحجة سلطاناً لأن السلطان مشتق من السليط وهو ما يستصبح به وقيل السلطان القوة والقدرة وسميت الحجة سلطاناً لقوتها على دفع الباطل ﴿**ومأواهم النار**﴾ لما بين الله تعالى حال الكفار في الدنيا وهو إلقاء الرعب والخوف في قلوبهم بين حالهم في الآخرة فقال تعالى: ﴿**ومأواهم النار**﴾ أي مسكنهم ﴿**وبئس مثوى الظالمين**﴾ أي المسكن الذي يستقرون به ويقيمون فيه وكلمة بئس تستعمل في جميع المذام والمعنى وبئس مقام الظالمين الذين ظلموا أنفسهم باكتساب ما أوجب لهم عذاب النار والإقامة فيها.

قوله عز وجل: ﴿**ولقد صدقكم الله وعده**﴾ قال محمد بن كعب القرظي: لما رجع رسول الله ﷺ وأصحابه من أحد إلى المدينة وقد أصابهم ما أصابهم قال ناس من الصحابة من أين أصابنا هذا وقد وعدنا الله النصر فأنزل الله تعالى: ﴿**ولقد صدقكم الله وعده**﴾ يعني بالنصر والظفر وذلك أن الظفر كان للمسلمين في الابتداء وقيل إن الله وعد المؤمنين النصر بأحد فنصرهم فلما خالفوا أمر رسول الله ﷺ وطلبوا الغنيمة هزموا ﴿**إذ تحسونهم**﴾ يعني إذ تقتلون الكفار قتلاً ذريعاً وقيل معنى تحسونهم تستأصلونهم بالقتل ﴿**بإذنه**﴾ يعني بعلم الله وأمره وقيل بقضاء الله وقدره ﴿**حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتم**﴾ قال الفراء فيه تقديم وتأخير تقديره حتى إذا تنازعتم في الأمر وعصيتم فشلتم. وقيل معناه ولقد صدقكم الله وعده بالنصر إلى أن كان منكم الفشل والتنازع والمعصية وقيل فيه معنى الشرط وجوابه محذوف تقديره حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتم منعكم الله النصر ومعنى فشلتم ضعفتم والفشل الضعف مع جبن ومعنى التنازع الاختلاف وكان اختلافهم وتنازعهم أن الرماة الذين كانوا مع عبدالله بن جبير لما انهزم المشركون قال بعضهم لبعض أي قوم ما نصنع بمقامنا ها هنا وقد انهزم المشركون ثم أقبلوا على الغنيمة، وقال بعضهم لبعض لا تجاوزوا أمر رسول الله ﷺ وثبت عبدالله بن جبير أمير القوم في نفر يسير دون العشرة ممن كان معه فلما رأى خالد بن الوليد وعكرمة بن أبي جهل ذلك حملوا على الرماة الذين ثبتوا مع عبدالله بن جبير وأصحابه وأقبلوا على المسلمين وتحولت الريح دبوراً بعد ما كانت صباً، وانقضت صفوف

ويعقوب ﴿ **الرعب** ﴾ بضم العين، وقرأ الآخرون بسكونها، ﴿ **بما أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً** ﴾ حُجةً وبُرهاناً، ﴿ **ومأوَاهُمُ النارَ وبئسَ مثوَى الظالمين** ﴾، مقام الكافرين.

قوله تعالى: ﴿ **ولقد صَدَقكم اللَّهُ وَعْدَه** ﴾ قال محمد بن كعب القرظي: لمّا رجع رسول الله ﷺ وأصحابه إلى المدينة من أُحد، قد أصابهم ما أصابهم، قال ناس من أصحابه: من أين أصابنا هذا؟ وقد وعدنا الله النصر، فأنزل الله تعالى: ﴿ **ولقد صدَقَكم الله وَعْدَهُ** ﴾ بالنصر والظفر، وذلك أن الظفر كان للمسلمين في الابتداء، ﴿ **إذْ تَحُسُّونَهم بإذنه** ﴾، وذلك أن رسول الله ﷺ جعل أحداً خلف ظهره واستقبل المدينة وجعل عينين وهو جبل عن يساره وأقام عليه الرماة وأمّر عليهم عبد الله بن جُبير، وقال لهم: احموا ظهورنا فإن رأيتمونا قد غَنِمْنَا فلا تُشْرِكُونا وإن رأيتمونا نُقتل فلا تَنْصُرونا، وأقبل المشركون فأخذوا في القتال فجعل الرماة يرشقون خيل المشركين بالنبل، والمسلمون يضربونهم بالسيوف، حتى ولّوا هاربين فذلك قوله تعالى: ﴿ **إذ تَحسُّونَهم بإذنه** ﴾ أي تقتلونهم قتلاً ذريعاً بقضاء الله، قال أبو عبيدة: الحِسُّ: الاستئصال بالقتل، ﴿ **حتى إذا فَشِلْتُم** ﴾ أي: إن جَبنتُم، وقيل: معناه فلما فشلتم، ﴿ **وتنازعتُم في الأمر وعَصَيْتُم** ﴾، فالواو زائدة في ﴿ **وتنازعتم** ﴾ يعني: إذا فشلتم تنازعتم، وقيل: فيه تقديم وتأخير، تقديره: حتى إذا تنازعتم في الأمر وعصيتم فَشِلْتُم، ومعنى التنازع الاختلاف، وكان اختلافهم أنّ الرماة اختلفوا حين انهزم المشركون، فقال بعضهم: انهزم القوم فما مقامنا؟ وأقبلوا على الغنيمة، وقال بعضهم: لا

المسلمين واختلطوا فجعلوا يقتلون على غير شعار يضرب بعضهم بعضاً وما يشعرون بذلك من الدهش ونادى إبليس أن محمداً قد قتل فكان ذلك سبب هزيمة المسلمين وقوله: وعصيتم يعني أمر رسول الله ﷺ فيما أمركم به من لزوم المركز ﴿**من بعد ما أراكم ما تحبون**﴾ من النصر والظفر والغنيمة يا معشر المسلمين ﴿**منكم من يريد الدنيا**﴾ يعني الذين تركوا المركز وأقبلوا على النهب ﴿**ومنكم من يريد الآخرة**﴾ يعني الذين ثبتوا مع أميرهم عبدالله بن جبير حتى قتلوا قاله عبدالله بن مسعود ما شعرت أن أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ يريد الدنيا حتى كان يوم أحد نزلت هذه الآية ﴿**ثم صرفكم عنهم**﴾ يعني يا معشر المسلمين يعني عن المشركين بالهزيمة ﴿**ليبتليكم**﴾ يعني ليمتحنكم وقيل لينزل عليكم البلاء لتتوبوا إليه وتستغفروه وقيل معناه ليختبركم وهو أعلم ليتميز المؤمن من المنافق ومن يريد الدنيا ممن يريد الآخرة ﴿**ولقد عفا عنكم**﴾ يعني ولقد عفا الله عنكم أيها المخالفون أمر رسول الله ﷺ فلم يستأصلكم بعد المخالفة والمعصية وقيل: عفا عن عقوبتكم أيها المخالفون ﴿**والله ذو فضل على المؤمنين**﴾ وهذا من تمام نعمه على عباده المؤمنين لأنه نصرهم أولاً ثم عفا عن المذنبين منهم ثانياً لأنه ذو الفضل والطول والإحسان. وفي الآية دليل على أن صاحب الكبيرة مؤمن وأن الله تعالى يعفو عنه بفضله وكرمه إن شاء لأنه سماهم مؤمنين مع ما ارتكبوه من مخالفة أمر رسول الله ﷺ وهي كبيرة وعفا عنهم بعد ذلك. قوله عز وجل: .

﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾﴾

﴿**إذ تصعدون**﴾ قيل هو متعلق بما قبله والتقدير ولقد عفا عنكم إذ تصعدون لأن عفوه عنهم لا بد وأن يتعلق بأمر اقترفوه وذلك الأمر هو ما بينه بقوله إذ تصعدون يعني هاربين في الجبل. وقيل هو ابتداء كلام لا تعلق له بما قبله والمعنى اذكروا إذ تصعدون قراءة الجمهور بضم التاء وكسر العين من الإصعاد وهو الذهاب في الأرض

تجاوزوا أمرَ رسول الله ﷺ، وثبت عبد الله بن جُبير في نفر يسير دون العشرة، فلما رأى خالد بن الوليد وعكرمة بن أبي جهل ذلك حملوا على الرماة فقتلوا عبد الله بن جبير وأصحابه، وأقبلوا على المسلمين وجاءت الريح فصارت دبوراً بعد ما كانتْ صَبّاً، وانقضت صفوف المسلمين واختلطوا فجعلوا يقتلون على غير شعار يضرب بعضهم بعضاً ما يشعرون من الدهش، ونادى إبليس أن محمداً قد قُتل، فكان ذلك سبب هزيمة المسلمين. قوله تعالى: ﴿ **وعصيتُم** ﴾ يعني: الرسولَ ﷺ وخالفتُم أمره، ﴿ **منْ بعدِ ما أراكم** ﴾، الله ﴿ **ما تُحبّون** ﴾ يا معشر المسلمين من الظفر والغنيمة، ﴿ **منكم مَنْ يُريدُ الدنيا** ﴾، يعني: الذين تركوا المركز وأقبلوا على النهب، ﴿ **ومنكم مَنْ يُريد الآخرة** ﴾، يعني: الذين ثبتُوا مع عبد الله بن جُبير حتى قُتلوا، قال عبد الله بن مسعود: ما شعرتُ أحداً من أصحاب النبي ﷺ يُريد الدنيا حتى كان يوم أُحد، ونزلت هذه الآية ﴿ **ثم صَرفكم عنهم** ﴾، أي: ردّكم عنهم بالهزيمة، ﴿ **لِيبْتَلِيكم** ﴾، ليمتحنكم، وقيل: لِيُنزل البلاء عليكم ﴿ **ولقد عفا عنكم** ﴾، فلم يستأصلكم بعد المعصية والمخالفة منكم لأمر نبيّكم، ﴿ **واللَّهُ ذو فضلٍ على المؤمنين** ﴾.

﴿ **إذْ تُصْعِدُون** ﴾ يعني: ولقد عفا عنكم إذ تُصعِدُون هاربين، وقرأ أبو عبد الرحمن السُّلمي والحسن وقتادة « تَصعَدون » بفتح التاء والعين، والقراءة المعروفة بضم التاء وكسر العين، والإصعاد: السير في مستوى الأرض، والصعود: الارتفاع على الجبال والسطوح، قال أبو حاتم: يقال أصعدتَ إذا مضيتَ حيال وجهك، وصعدتَ إذا

والإبعاد فيها وقرأ الحسن تصعدون بفتح التاء من الصعود وهو الارتقاء من أسفل إلى أعلى كالصعود على الجبل وعلى السلم ونحوه، وللمفسرين في معنى الآية قولان أحدهما أنه صعودهم في الجبل عند الهزيمة والثاني أنه الإبعاد في الأرض في حال الهزيمة ووقت الهرب ﴿**ولا تلوون على أحد**﴾ أي لا تعرجون ولا تقيمون على أحد ولا يلتفت بعضكم إلى بعض من شدة الهرب ﴿**والرسول يدعوكم في أخراكم**﴾ أي في آخركم ومن ورائكم يقول إليَّ عباد الله أنا رسول الله مَنْ كَرَّ أَيْ رَجِعَ فله الجنة﴿**فأثابكم غما بغم**﴾ يعني فجزاكم بفراركم عن نبيكم ﷺ وفشلكم عن عدوكم غماً بغم فسمَّى العقوبة التي عاقبهم بها ثواباً على سبيل المجاز لأن لفظ الثواب لا يستعمل في الأغلب إلّا في الخير وقد يجوز استعماله في الشر لأنه مأخوذ من ثاب إذا رجع فأصل الثواب كل ما يعود إلى الفاعل من جزاء فعله سواء كان خيراً أو شراً فمتى حملنا الثواب على أصل اللغة كان الكلام صحيحاً ومتى حملناه على الأغلب كان على سبيل المجاز فهو كقول الشاعر:

أخـــاف زيـــاداً أن يكـــون عطـــاؤه أداهـــم ســـوداً أو محـــدرجـــة سمـــرا

فجعل العطاء مكان العقاب لأن الأداهم السود هي القيود الثقال والمحدرجة هي السياط والباء في قوله غماً بغم بمعنى مع أو بمعنى على لأن حروف الجر ينوب بعضها عن بعض. وقيل الباء على بابها والمعنى غما متصلاً بغم واختلفوا في معنى الغمين فقيل الغم الأول هو ما فاتهم من الظفر والغنيمة والغم الثاني هو ما نالهم من القتل والهزيمة وقيل الغم الأول ما أصابهم من القتل والجراح والغم الثاني هو ما سمعوا بأن محمداً ﷺ قد قتل فأنساهم غمهم. وقيل الغم الأول هو أنهم غموا رسول الله ﷺ بمخالفة أمره فجزاهم الله بذلك الغم القتل والهزيمة. وقيل إن غمهم الأول بسبب إشراف خالد بن الوليد مع خيل المشركين عليهم والغم الثاني حين أشرف أبو سفيان عليهم. وذلك أن أبا سفيان وأصحابه وقفوا بباب الشعب فلما نظر المسلمون إليهم غمهم ذلك وظنوا أنهم يميلون عليهم فيقتلونهم فأغمهم ذلك. قوله تعالى: ﴿**لكيلا**﴾ في لفظة لا قولان: أحدهما أنها باقية على أصلها ومعناها النفي

ارتقيتَ في جبل أو غيره، وقال المبرِّد: أصعد إذا أبعد في الذهاب، وكلتا القراءتين صواب فقد كان يومئذ من المنهزمين مُصعد وصاعد، وقال المفضل: صعد وأصعد بمعنى واحد، ﴿ **ولا تَلْوُونَ على أحد** ﴾ أي: لا تعرجون ولا تقيمون على أحد، لا يلتفت بعضكم إلى بعض، ﴿ **والرسولُ يدعوكُمْ في أُخراكم** ﴾ أي: في آخركم ومن ورائكم إليَّ عبادَ الله أنا رسول الله مَن يكرُّ فله الجنة، ﴿ **فأثابكم** ﴾، فجازاكم، جعل الإثابة بمعنى العقاب، وأصلها في الحسنات لأنه وضعها موضع الثواب، كقوله تعالى: ﴿ **فبشّرهم بعذاب أليم** ﴾ [آل عمران: ٢١، التوبة: ٣٤، الانشقاق: ٢٤] جعل البشارة في العذاب، ومعناه: جعل مكان الثواب الذين كنتم ترجون ﴿ **غمّاً بغم** ﴾، وقيل: الباء بمعنى على، أي: غمّاً على غمٍّ، وقيل: غمّاً متصلاً بغمٍّ، فالغمُّ الأول: ما فاتهم من الظفر والغنيمة، والغمّ الثاني: ما نالوا من القتل والهزيمة، وقيل: الغمّ الأول ما أصابهم من القتل والجراح، والغمّ الثاني: أن محمداً ﷺ قد قُتل فأنساهم الغمَّ الأول، وقيل: الغمّ الأول: إشراف خالد بن الوليد عليهم بخيل المشركين، والغمّ الثاني: حين أشرف عليهم أبو سفيان، وذلك أن رسول الله ﷺ انطلق يومئذ يدعو الناس حتى انتهى إلى أصحاب الصخرة، فلما رأوه وضع رجل سهماً في قوسه فأراد أن يرميه، فقال أنا رسول الله، ففرحوا حين وجدوا رسولَ الله، وفرح النبي ﷺ حين رأى أنّ في أصحابه مَن يمتنع به، فأقبلوا يذكرون الفتح وما فاتهم منه، ويذكرون أصحابهم الذين قُتلوا فأقبل أبو سفيان وأصحابه، حتى وقفوا بباب الشعب، فلما نظر المسلمون إليهم همّهمْ ذلك وظنوا أنهم يميلون عليهم فيقتلونهم فأنساهم هذا ما نالهم، فقال رسول الله ﷺ: «ليس لهم أن يعلونا اللّهمَّ إن تقتل هذه العصابة لا تُعبد في الأرض»، ثم ندب أصحابه فرموهم بالحجارة حتى أنزلوهم، وقيل: إنهم

هذا يكون الكلام متصلاً بقوله ولقد عفا عنكم والمعنى ولقد عفا عنكم لكيلا ﴿**تحزنوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم**﴾ لأن عفوه يذهب كل هم وحزن وقيل معناه فأثابكم غماً أنساكم الحزن على ما فاتكم ولا ما أصابكم وقد روي أنهم لما سمعوا بأن النبي ﷺ قد قتل نسوا ما أصابهم وما فاتهم والقول الثاني أن لفظة لا صلة ومعنى الكلام لكي تحزنوا على ما فاتكم وأصابكم عقوبة لكم على مخالفتكم. قال ابن عباس: الذي فاتهم الغنيمة والذي أصابهم القتل والهزيمة ﴿**والله خبير بما تعملون**﴾ أي هو عالم بجميع أعمالكم خيرها وشرها فيجازيكم عليها. قوله عز وجل: .

ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾

﴿**ثم أنزل عليكم**﴾ يا معشر المسلمين ﴿**من بعد الغم**﴾ الذي أصابكم ﴿**أمنة نعاساً**﴾ يعني أمناً والأمنة والأمن واحد وقيل الأمن يكون مع زوال الخوف والأمنة مع بقاء سبب الخوف. وكان سبب الخوف يعد باقياً، والنعاس أخف من النوم والمعنى أعقبكم بما نالكم من الخوف والرعب أن أمّنكم أمناً تنامون معه لأن الخائف لا يكاد ينام فأمّنهم بعد خوفهم ﴿**يغشى طائفة منكم**﴾ قال ابن عباس: أمّنهم يومئذٍ بنعاس يغشاهم وإنما ينعس من يأمن والخائف لا ينام (خ) عن أنس عن أبي طلحة قال: كنت فيمن يغشاهم النعاس يوم أحد حتى سقط سيفي من يدي مراراً يسقط وآخذه ويسقط فآخذه. وأخرجه الترمذي عنه قال: غشينا النعاس ونحن في مصافنا يوم أحد وذكر نحو رواية البخاري وزاد والطائفة الأخرى المنافقون ليس لهم هم إلا أنفسهم أجبن قوم وأرعبه وأخذ له للحق. وفي رواية أخرى له قال رفعت رأسي يوم أحد فجعلت أراهم وما منهم يومئذ أحد إلا يميد تحت حجفته من النعاس فذلك قوله تعالى ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاساً. وقال الزبير بن العوام لقد رأيتني مع رسول الله ﷺ حين اشتد علينا الخوف أرسل الله تعالى علينا النوم والله إني لأسمع قول معتب بن قشير والنعاس يغشاني ما أسمعه إلا

غمّوا الرسولَ بمخالفة أمره، فجازاهم الله بذلك الغمِّ غمَّ القتل والهزيمة، قوله تعالى: ﴿ **لِكَيْلَا تحزنُوا على ما فاتكم** ﴾، من الفتح والغنيمة، ﴿ **ولاَ ما أصَابكم** ﴾ أي: ولاَ على ما أصابكم من القتل والهزيمة، ﴿ **واللَّهُ خبيرٌ بما تعملُون** ﴾.

﴿ **ثم أنْزَل عليكم** ﴾، يا معشر المسلمين، ﴿ **منْ بعدِ الغمِّ أَمَنَةً** ﴾ يعني: أمناً، والأمنُ الأَمَنَةُ بمعنى واحد، وقيل: الأمنُ يكون مع زوال سبب الخوف، والأَمَنَةُ مع بقاء سبب الخوف، وكان سبب الخوف هنا قائماً، ﴿ **نُعاساً** ﴾، بدل من الأَمَنة ﴿ **يَغْشَى طَائِفةً منْكُم** ﴾ قرأ حمزة والكسائي (تَغْشَـى) بالتـاء ردّاً إلى الأَمَنة، وقرأ الآخرون بالياء ردّاً إلى النُّعاس، قال ابن عباس رضي الله عنهما: أمّنهم يومئذ بنُعاس يغشاهم، وإنّما ينعس مَن يأمن، والخائف لا ينام، أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أخبرنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أخبرنا إسماعيل أخبرنا إسحق بن إبراهيم بن عبد الرحمن أنا حسن بن محمد أخبرنا شيبان عن قتادة أخبرنا أنس أن أبا طلحة قال: غَشِيَنَا النّعاسُ ونحن في مصافّنا يوم أُحُد، قال: فجعل سيفي يسقط من يدي وآخذه، وقال ثابت عن أنس عن أبي طلحة قال: رفعت رأسي يوم أُحُد فجعلتُ ما أرى أحداً من القوم إلاّ وهو يميل

كالحلم يقول لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلناها هنا فقوله تعالى: ﴿**يغشى طائفة منكم**﴾ يعني المؤمنين ﴿**وطائفة قد أهمّتهم أنفسهم**﴾ يعني المنافقين أراد الله يميز المؤمنين من المنافقين فأوقع النعاس على المؤمنين حتى أمنوا ولم يوقع النعاس على المنافقين فبقوا في الخوف. وفي إلقاء النعاس على المؤمنين دون المنافقين آية عظيمة ومعجزة باهرة لأن النعاس كان سبب أمن المؤمنين وعدم النعاس عن المنافقين كان سبب خوفهم وهو قوله تعالى: ﴿**وطائفة قد أهمتهم أنفسهم**﴾ يعني حملتهم أنفسهم على الهم لأن أسباب الخوف وهي قصد الأعداء كانت حاصلة عندهم ﴿**يظنون بالله غير الحق**﴾ يعني يظنون أن الله لا ينصر محمداً وأصحابه وقيل إن محمداً ﷺ قد قتل وإن أمره يضمحل والمعنى يظنون بالله غير الظن الحق الذي يجب أن يظن به ﴿**ظن الجاهلية**﴾ أي كظن أهل الجاهلية ﴿**يقولون**﴾ يعني المنافقين ﴿**هل لنا**﴾ أي مالنا ﴿**من الأمر شيء**﴾ وذلك أنه لما شاور النبي ﷺ عبدالله بن أبيّ ابن سلول رأس المنافقين في هذه الواقعة وأشار عليه أن لا يخرج من المدينة فلما خالفه النبي ﷺ وخرج وقتل من قتل قيل لعبدالله بن أبيّ قد قتل بنو الخزرج قال هل لنا من الأمر شيء وهو استفهام على سبيل الإنكار أي مالنا أمر يطاع. وقيل المراد بالأمر النصر والظفر يعني ما لنا من هذا الذي يعدنا محمد به من النصر والظفر من شيء إنما هو للمشركين ﴿**قل**﴾ **يا محمد** لهؤلاء المنافقين ﴿**إن الأمر كله لله**﴾ يعني النصر والظفر والقضاء والقدر كله لله وبيده يصرفه كيف يشاء ويدبره كيف أحب ﴿**يخفون في أنفسهم ما لا يبدون لك**﴾ يعني من الكفر والشك في وعد الله عز وجل وقيل يخفون الندم على خروجهم مع المسلمين وقيل الذي أخفوه وهو قوله تعالى حكاية عنهم: ﴿**يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ها هنا**﴾ وذلك أن المنافقين قال بعضهم لبعض لو كان لنا عقول لم نخرج مع محمد إلى قتال أهل مكة ولم تقتل رؤساؤنا. وقيل كانوا يقولون لو كنا على الحق ما قتلنا هاهنا. وعن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿**يظنون بالله غير الحق**﴾ يعني التكذيب بالقدر وهو قولهم: «لو كان لنا من الأمر شيء ما **قتلنا** ههنا» قيل إن الذي قال هل لنا من الأمر من شيء هو عبدالله بن أبيّ ابن سلول المنافق والذي قال لو كان لنا من الأمر شيء هو معتب بن قشير ﴿**قل**﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المنافقين ﴿**لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل**﴾ أي قضى عليهم القتل وقدر عليهم ﴿**إلى مضاجعهم**﴾ يعني مصارعهم التي يصرعون بها وقت القتل ومعنى الآية أن الحذر لا ينفع مع القدر والتدبير لا يقاوم. التقدير فالذين قدر عليهم القتل وقضاه وحكم به عليهم لا بد وأن يقتلوا والمعنى لو جلستم في بيوتكم لخرج منها ولظهر الذين قضى الله عليهم بالقتل وقضاه إلى حيث يقتلون فيه

تحت جُحفتِه من النّعاس، وقال عبد الله بن الزبير عن أبيه الزبير بن العوّام لقد رأيتني مع رسول الله ﷺ حين اشتدّ علينا الحرب، أرسل الله علينا النوم، والله إني لأسمع قول معتب بن قشير والنعاس يغشاني ما أسمعه إلّا كالحلم، يقول: لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ههنا، فذلك قوله تعالى: ﴿ يغشى طائفةً منكم ﴾ يعني: المؤمنين، ﴿ وطائفةٌ قدْ أهَمّتْهُمْ أنفُسُهم ﴾، يعني: المنافقين: قيل: أراد تمييز المنافقين من المؤمنين، فأوقع النّعاسَ على المؤمنين حتى أمِنُوا، ولم يُوقع على المنافقين، فبقوا في الخوف قد أهمّتْهم أنفُسهم، أي: حملتهم على الهَمِّ يقال: أمرٌ مهمٌّ ﴿ يظنُّونَ باللهِ غيرَ الحقِّ ﴾ أي: لا ينصر محمداً، وقيل: ظنوا أن محمداً ﷺ قد قُتل، ﴿ ظنَّ الجاهِليَّةِ ﴾ أي: كظنّ أهل الجاهلية والشرك، ﴿ يقولُونَ هلْ لنَا ﴾، ﴿ ما لنا ﴾ لفظةُ استفهام ومعناه: جُحْدٌ، ﴿ مِنَ الأمْرِ مِنْ شَيء ﴾ يعني: النصر، ﴿ قلْ إنَّ الأمرَ كلَّه للَّهِ ﴾، قرأ أهل البصرة برفع اللام على الابتداء وخبره في ﴿ لله ﴾ وقرأ الآخرون بالنصب على البدل، وقيل: على النعت، ﴿ يُخفُون في أنفسِهم ما لاَ يُبدونَ لكَ يقولُون لو كانَ لنَا مِنَ الأمرِ شيءُ ما قُتِلْنَا هَهُنَا ﴾، وذلك أن المنافقين، قال بعضهم لبعض: لو كان لنا عقول لم نخرج مع محمدٍ إلى قتال أهل مكة ولم يُقتل رؤساؤنا، وقيل: لو كنّا على الحق ما قُتلنا ههنا، قال الضحاك عن ابن عباس

﴿وليبتلي الله ما في صدوركم﴾ أي وليختبر ما في صدوركم ليعلّمه مشاهدةً، كما علمه غيباً لأن المجازاة إنما تقع على ما علمه مشاهدة وقيل معناه ليعاملكم معاملة المبتلي المختبر لكم وقيل معناه ليبتلي أولياء الله ما في صدوركم فأضاف الابتلاء إليه تعظيماً لشأن أوليائه المؤمنين ﴿وليمحص الله ما في قلوبكم﴾ قال قتادة أي يطهرها من الشك والارتياب بما يريكم من عجائب صنعه في إلقاء الأمنة وصرف العدو وإظهار سرائر المنافقين فعلى هذا يكون الخطاب للمؤمنين خاصة. وقيل معناه وليبين ويظهر ما في قلوبكم يعني من الاعتقاد لله ولرسوله وللمؤمنين من العداوة فعلى هذا يكون الخطاب للمنافقين خاصة ﴿والله عليم بذات الصدور﴾ يعني بالأشياء الموجودة في الصدور وهي الأسرار والضمائر لأنه عالم بجميع المعلومات. قوله عز وجل:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُواْ فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُواْ غُزًّى لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ وَٱللَّهُ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾﴾

﴿إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان﴾ أي انهزموا وهربوا منكم يا معشر المسلمين فهو خطاب لمن كان مع النبي ﷺ من المؤمنين يوم أحد بأحد وكان قد انهزم أكثر المسلمين ولم يبق مع النبي ﷺ إلا ثلاثة عشر رجلاً وقيل أربعة عشر من المهاجرين سبعة ومن الأنصار سبعة، فمن المهاجرين أبو بكر وعمر وعلي وطلحة بن عبيدالله وعبدالرحمن بن عوف والزبير وسعد بن أبي وقاص رضي الله عنهم ﴿إنما استزلهم الشيطان﴾ أي طلب زلتهم كما يقال استعجله أي طلب عجلته وقيل حملهم على الزلة وهي الخطيئة وذلك بإلقاء الوسوسة في قلوبهم لا أنه أمرهم بها ﴿ببعض ما كسبوا﴾ يعني بمعصيتهم النبي ﷺ وتركهم المركز. وقيل استزلهم الشيطان بتذكير خطايا سبقت لهم فكرهوا أن يقتلوا قبل إخلاص التوبة منها وهذا اختيار الزجاج لأنه قال لم يتولوا على جهة المعاندة ولا على الفرار من الزحف رغبة في الدنيا وإنما ذكرهم الشيطان خطايا سلفت لهم فكرهوا إلقاء الله إلا على حالة يرضاها ﴿ولقد عفا الله عنهم﴾ يعني ولقد تجاوز الله عن الذين تولّوا يوم التقى الجمعان فلم يعاقبهم بذلك وغفر لهم وقيل إن عثمان عوتب في هزيمة يوم أحد فقال إن ذلك وإن كان خطأ لكن الله قد عفا عنه وقرأ هذه الآية ﴿إن الله غفور﴾

رضي الله عنهما: يظنون بالله غيرَ الحق ظنَّ الجاهلية، يعني: التكذيب بالقدر، وهو قولهم: ﴿ لو كان لنا من الأمر شيءٌ ما قُتلنا ههنا ﴾، ﴿قلْ لو كنتُم في بُيوتِكم لبرزَ الذينَ كُتبَ﴾، قُضِيَ، ﴿ عليهمُ القَتْلُ إلى مَضاجِعِهِمْ ﴾، مصارعهم، ﴿ ولِيَبْتَلِيَ اللَّهُ ﴾، وليمتحن الله، ﴿ ما في صُدورِكم وليُمحِّصَ ﴾، يُخرج ويُظهر ﴿ ما في قلوبِكم، واللَّهُ عليمٌ بذاتِ الصُّدور ﴾، بما في القلوب من خير وشر.

﴿ إنّ الذينَ تولّوا ﴾، انهزموا، ﴿ منكم ﴾، يا معشرَ المسلمين، ﴿ يوم الْتَقى الجمعَان ﴾، جمع المسلمين وجمع المشركين يوم أُحد، وكان قد انهزم أكثر المسلمين ولم يبقَ مع النبي ﷺ إلّا ثلاثة عشر رجلًا ستّة من المهاجرين: وهم أبو بكر وعمر وعليّ وطلحة وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقّاص رضي الله عنهم، قوله تعالى: ﴿ إنّما استزلَّهم الشيطانُ ﴾ أي: طلب زلّتهم، كما يقال: استعجلت فلاناً إذا طلبت عجلته، وقيل: حملُهم الزلّةَ وهي الخطيئة، وقيل: أزلَّ واستزلَّ بمعنى واحد، ﴿ ببعضِ ما كَسَبُوا ﴾، أي: بشُؤْمِ ذُنوبهم، قال بعضهم: بتركهم المركز، وقال الحسن: ما كسبوا هو قبولهم من الشيطان ما وسوس إليهم من الهزيمة، ﴿ ولقدْ عفَا اللَّهُ عنهم إن اللَّهَ غفورٌ حليم ﴾.

يعني لمن تاب وأناب ﴿حليم﴾ لا يعجل العقوبة ولا يستأصلهم بالقتل. قوله عز وجل: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا﴾ يعني المنافقين عبدالله بن أبيّ وأصحابه ﴿وقالوا لإخوانهم﴾ يعني في النفاق والكفر وقيل لإخوانهم في النسب وكانوا مسلمين ﴿إذا ضربوا في الأرض﴾ يعني إذا سافروا في الأرض لتجارة وغيرها ﴿أو كانوا غزى﴾ جمع غاز أي غزاة، في الكلام حذف دل المعنى على ذلك الحذف وهو إذا ضربوا في الأرض فماتوا أو كانوا غزى فقتلوا ﴿لو كانوا عندنا﴾ يعني مقيمين ﴿ما ماتوا وما قتلوا ليجعل الله ذلك﴾ يعني قولهم وظنهم ﴿حسرة في قلوبهم﴾ يعني غما وتأسفاً ﴿والله يحيي ويميت﴾ هذا رد لقول المنافقين لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا والمعنى أن الأمر بيد الله وأن المحيي والمميت هو الله تعالى فقد يحيي المسافر والغازي ويميت المقيم والقاعد عن الغزو كما يشاء فكيف ينفع الجلوس في البيت وهل يحمي أحد من الموت ﴿والله بما تعملون بصير﴾ يعني أنه تعالى مطلع على ما تعملون من خير أو شر فيجازيكم به فاتقوه ولا تكونوا مثل المنافقين لأن مقصدهم تنفير المؤمنين عن الجهاد بقولهم لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا فإن الله تعالى هو المحيي المميت، فمن قدر له البقاء لم يقتل في الجهاد ومن قدر له الموت لم يبق وإن أقام ببيته عند أهله فلا تقولوا أنتم أيها المؤمنون لمن يريد الخروج إلى الجهاد لا تخرج فتقتل فلان يموت في الجهاد فيستوجب الثواب فإن ذلك خير له من أن يموت في بيته بلا فائدة. وإليه الإشارة بقوله تعالى: .

وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾ وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾

﴿ولئن قتلتم في سبيل الله أو متم لمغفرة من الله ورحمة﴾ يعني في العاقبة ﴿خير مما تجمعون﴾ يعني من الغنائم والمعنى ولئن تم عليكم ما تخافونه من القتل في سبيل الله أو الهلاك بالموت فإن ما تنالونه من المغفرة والرحمة بالموت والقتل في سبيل الله خير مما تجمعون من الدنيا ومنافعها لو لم تموتوا ﴿ولئن متم أو قتلتم لإلى الله تحشرون﴾ يعني لإلى الله الرحيم الواسع الرحمة والمغفرة المثيب العظيم الثواب تحشرون في الآخرة فيجازيكم

﴿ يا أيّها الذين آمنوا لا تكونُوا كالذينَ كفرُوا ﴾، يعني: المنافقين عبد الله بن أُبي وأصحابه، ﴿ وقالُوا لإخوانِهم ﴾، في النفاق والكفر، وقيل: في النسب، ﴿ إذا ضَرَبُوا في الأرض ﴾ أي: سافروا فيها لتجارة أو غيرها، ﴿ أو كانُوا غُزّىً ﴾ أي: غُزاةً جمعُ غازٍ فَقُتلُوا، ﴿ لو كانُوا عِنْدَنا مَا مَاتُوا وما قُتلُوا لِيَجْعَلَ اللّهُ ذلكَ ﴾ يعني: قولهم وظنهم، ﴿ حَسْرَةً في قلُوبِهِمْ واللّهُ يُحيي ويُميتُ واللّهُ بما تعملُونَ بصيرٌ ﴾ قرأ ابن كثير وحمزة والكسائي (يعملون) بالياء، وقرأ الآخرون بالتاء.

﴿ ولئن قُتلتُم في سبيلِ اللّهِ أو مُتُّمْ ﴾، قرأ نافع وحمزة والكسائي ﴿ مُتُّمْ ﴾ بكسر الميم، وقرأ الآخرون بالضم، فمَن ضمّه فهو من مات يموت، كقولك: مَن قال يقول قلت، بضم القاف، ومن كسره فهو من مات يمات، كقولك من خاف يخاف خِفتُ، ﴿ لمغفرةٌ منَ اللّهِ ﴾، في العاقبة، ﴿ ورحمةٌ خيرٌ مما يجمعُون ﴾، من الغنائم، قراءة العامّة ﴿ يجمعون ﴾ بالتاء، لقوله: ﴿ ولئنْ قُتلتم ﴾ وقرأ حفص عن عاصم ﴿ يجمعون ﴾ بالياء، يعني: خيرٌ مما يجمع الناس.

﴿ ولئنْ مُتّم أو قُتلتُم لإلى اللّهِ تُحشَرُون ﴾، في العاقبة.

بأعمالكم. وقد قسم بعض مقامات العبودية ثلاثة أقسام فمن عبدالله خوفاً من ناره أمنه الله مما يخاف وإليه الإشارة بقوله تعالى لمغفرة من الله ومن عبد الله تعالى شوقاً إلى جنته أناله ما يرجو. وإليه الإشارة بقوله تعالى لمغفرة من الله ومن عبد الله تعالى شوقاً إلى جنته أناله ما يرجو وإليه الإشارة بقوله تعالى ورحمة لأن الرحمة من أسماء الجنة ومن عبد الله شوقاً إلى وجهه الكريم لا يريد غيره فهذا هو العبد المخلص الذي يتجلّى له الحق سبحانه وتعالى في دار كرامته. وإليه الإشارة بقوله لإلى الله تحشرون. قوله عز وجل: ﴿فبما رحمة من الله لنت لهم﴾ أي فبرحمة من الله وما صلة لنت لهم أي سهلت لهم أخلاقك وكثرة احتمالك ولم تسرع إليهم بتعنيف على ما كان يوم أحد منهم ومعنى فبما رحمة من الله هو توفيق الله عز وجل نبيه محمداً ﷺ للرفق والتلطف بهم وإن الله تعالى ألقى في قلب نبيه ﷺ داعية الرحمة واللطف حتى فعل ذلك معهم ﴿ولو كنت فظاً﴾ يعني جافياً ﴿غليظ القلب﴾ يعني قاسي القلب سيىء الخلق قليل الاحتمال ﴿لانفضوا من حولك﴾ أي لنفروا عنك وتفرقوا حتى لا يبقى منهم أحد عندك ﴿فاعف عنهم﴾ أي تجاوز عن زلاتهم وما أتوا يوم أحد ﴿واستغفر لهم﴾ أي واسأل الله المغفرة لهم حتى يشفعك فيهم وقيل فاعف عنهم فيما يختص بك واستغفر لهم فيما يختص بحقوق الله وذلك من تمام الشفقة عليهم ﴿وشاورهم في الأمر﴾ أي استخرج آراءهم واعلم ما عندهم. واختلف العلماء في المعنى الذي من أجله أمر الله عز وجل نبيه ﷺ بالمشاورة لهم مع كمال عقله وجزالة رأيه ونزول الوحي عليه ووجوب طاعته وعلى كافة الخلق فيما أحبوا أو كرهوا. فقيل هو عام مخصوص والمعنى وشاورهم فيما ليس عندك من الله فيه عهد وذلك في أمر الحرب ونحوه من أمور الدنيا لتستظهر برأيهم فيما تشاورهم فيه. وقيل أمر الله عز وجل نبيه ﷺ بمشاورتهم تطييباً لقلوبهم فإن ذلك أعطف لهم عليه وأذهب لأضغانهم فإن سادات العرب كانوا إذا لم يشاوروا في الأمور شق ذلك عليهم. وقال الحسن قد علم الله تعالى أن ما به إلى مشاورتهم حاجة ولكن أراد أن يستن به من بعده من أمته، وقيل إنما أمر بمشاورتهم ليعلم مقادير عقولهم وأفهامهم لا ليستفيد منهم رأياً وروى البغوي بسنده عن عائشة أنها قالت ما رأيت رجلاً أكثر استشارة للرجال من رسول الله ﷺ اتفق العلماء على أن كل ما نزل فيه وحي من الله تعالى لم يجز لرسول الله ﷺ. أن يشاور فيه الأمة وإنما أمر أن يشاور فيما سوى ذلك من أمر الدنيا ومصالح الحرب ونحو ذلك وقيل أن يشاورهم في أمر الدين والدنيا فيما لم ينزل عليه فيه شيء لأن النبي ﷺ شاورهم في أسارى بدر وهو من أمر الدين قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: الاستشارة عين الهداية وقد خاطر من استغنى برأيه والتدبر قبل العمل يؤمنك من الندم. وقال بعض الحكماء ما استنبط الصواب بمثل المشاورة ومن فوائد المشاورة أنه قد يعزم

قوله تعالى: ﴿ فَبِما رحمةٍ منَ اللَّهِ ﴾ أي: فبرحمةٍ من الله، و﴿ ما ﴾ صلة، كقوله: ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِمْ ﴾ [المائدة: ١٣]، ﴿ لِنْتَ لَهُم ﴾ أي: سَهُلَتْ لهم أخلاقُك، وكثرةُ احتمالك، ولم تُسرعْ إليهم بالغضب فيما كان منهم يوم أُحُد، ﴿ ولو كنتَ فَظّاً ﴾ يعني: جافياً سيِّء الخُلُق قليل الاحتمال، ﴿ غليظَ القلب ﴾، قال الكلبي: فَظّاً في القول غليظ القلب في الفعل، ﴿ لانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ﴾، أي: نفرُوا وتفرّقُوا عنك، يقال: فضضتُهم فانفضُّوا، أي: فرّقتُهم فتفرّقُوا ﴿ فاعْفُ عنهم ﴾، تجاوزْ عنهم ما أتوا يوم أُحد، ﴿ واستغفرْ لهم ﴾ حتى أشفّعَكَ فيهم، ﴿ وشاوِرْهم في الأمر ﴾ أي: استخرج آراءهم واعلم ما عندهم، من قول العرب: شُرتُ الدابة، وشَورتُها، إذا استخرجتُ جريَها، وشرتُ العسلَ وأشرتُه إذا أخذتُه من موضعه، واستخرجتُه، واختلفوا في المعنى الذي لأجله أمر الله نبيّه ﷺ بالمشاورة مع كمال عقله وجزالة رأيه ونزول الوحي عليه، ووجوب طاعته على الخلق فيما أحبُّوا أو كرِهُوا، فقال بعضهم: هو خاص في المعنى، أي: وشاورهم فيما ليس عندك فيه من الله تعالى عهد، وقال الكلبي: يعني ناظِرْهم في لقاء العدو ومكايد الحرب عند الغزو، وقال مقاتل وقتادة: أمر الله تعالى بمشاورتهم تطييباً

الإنسان على أمر فيشاور فيه فيتبين له الصواب في قول غيره فيعلم بذلك عجز نفسه عن الإحاطة بفنون المصالح ومنها أنه إذا لم ينجح أمره علم أن امتناع النجاح محض قدر فلم يلم نفسه وقال بعضهم في مدح المشاورة:

وشـاور إذا شـاورت كـل مهـذب لبيـب أخـي حـزم لتـرشـد فـي الأمـر
ولا تـك ممـن يستبـد بـرأيـه فتعجـز أو لا تستـريـح مـن الفكـر
ألـم تـر أن الله قـال لعبـده وشـاورهـم فـي الأمـر حتمـاً بـلا نكـر

قوله تعالى: ﴿**فإذا عزمت**﴾ يعني على المشاورة ﴿**فتوكل على الله**﴾ أي فاستعن بالله في أمورك كلها وثق به ولا تعتمد إلا عليه فإنه ولي الإعانة والعصمة والتسديد والمقصود أن لا يكون للعبد اعتماد على شيء إلا على الله تعالى في جميع أموره وأن المشاورة لا تنافي التوكل ﴿**إن الله يحب المتوكلين**﴾ يعني المتوكلين عليه في جميع أمورهم. قوله عز وجل: .

إِن يَنصُرۡكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمۡۖ وَإِن يَخۡذُلۡكُمۡ فَمَن ذَا ٱلَّذِي يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعۡدِهِۦۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿١٦٠﴾ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّۚ وَمَن يَغۡلُلۡ يَأۡتِ بِمَا غَلَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴿١٦١﴾

﴿**إن ينصركم الله**﴾ يعني إن يعنكم الله بنصره ويمنعكم من عدوكم كما فعل يوم بدر ﴿**فلا غالب لكم**﴾ يعني من الناس لأن الله تعالى هو المتولي نصركم ﴿**وإن يخذلكم**﴾ كما فعل يوم أحد فلم ينصركم ووكلكم إلى أنفسكم لمخالفتكم أمره وأمر رسوله ﷺ ﴿**فمن ذا الذي ينصركم من بعده**﴾ أي من بعد خذلانه ﴿**وعلى الله فليتوكل المؤمنون**﴾ لا على غيره لأن الأمر كله لله ولا راد لقضائه ولا دافع لحكمه فيجب أن يتوكل العبد في كل الأمور على الله تعالى لا على غيره. وقيل التوكل أن لا تعصي الله من أجل رزقك ولا تطلب لنفسك ناصراً غيره ولا لعملك شاهداً سواه (م) عن عمران بن حصين قال: قال رسول الله ﷺ: «يدخل الجنة من أمتي سبعون ألفاً بغير حساب قالوا ومن هم يا رسول الله قال هم الذين لا يكتوون ولا يسترقون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون، فقام

لقلوبهم، فإن ذلك أعطف لهم عليه وأذهب لأضغانهم، فإن سادات العرب كانوا إذا لم يشاوروا في الأمر شقّ ذلك عليهم، وقال الحسن: قد علم الله عزّ وجلّ أنه ما به إلى مشاورتهم حاجة ولكنه أراد أن يستنّ به مَن بعده، أخبرنا أبو طاهر المطهر بن علي بن عبيد الله الفارسي قال: أخبرنا أبو ذر محمد بن إبراهيم بن علي الصالحاني أخبرنا عبد الله بن محمد بن جعفر أخبرنا علي بن العباس المقانعي أخبرنا أحمد بن ماهان أخبرني أبي أخبرنا طاهر بن زيد عن عقيل عن الزهري عن عروة عن عائشة رضي الله عنها قالت: ما رأيتُ رجلاً أكثر استشارة للرجال من رسول الله ﷺ، ﴿ **فإذا عَزَمْتَ فتوكلْ على الله** ﴾ لا على مشاورتهم، أي: قُمْ بأمر الله وثقْ به واستعنه، ﴿ **إنّ اللّهَ يحبُّ المتوكّلين** ﴾.

﴿ **إنْ ينصرْكُمُ اللّهُ** ﴾، يُعينُكم الله ويمنعكم من عدوكم، ﴿ **فلا غالبَ لكم** ﴾، مثل يوم بدر، ﴿ **وإنْ يَخذُلْكُمْ** ﴾ يترككم فلم ينصرْكم كما كان بأُحد، والخذلان: القعودُ عن النُّصرة، والإسلامُ للهلَكة، ﴿ **فمنْ ذَا الذي يَنْصُرُكم مِنْ بعدِهِ** ﴾، أي: من بعد خذلانه، ﴿ **وعلى اللّهِ فليَتَوَكّلِ المؤمنُون** ﴾، قيل: التوكل أنْ لا تعصي الله من أجل رزقك، وقيل: أن لا تطلب لنفسك ناصراً غير الله ولا لرزقك خازناً غيره ولا لعملك شاهداً غيره، أخبرنا الأستاذ الإمام أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري أخبرنا أبو عبد الله الحسين بن شجاع البزار ببغداد أخبرنا

عكاشة بن محصن فقال: يا رسول الله ادع الله أن يجعلني منهم فقال أنت منهم فقام آخر فقال يا نبي الله ادع الله أن يجعلني منهم فقال سبقك بها عكاشة» عن عمر بن الخطاب قال: قال رسول الله ﷺ: «لو أنكم تتوكلون على الله حقّ توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً» أخرجه الترمذي وقال حديث حسن. قوله عز وجل: ﴿وما كان لنبي أن يغل﴾ قال ابن عباس نزلت هذه الآية وما كان لنبي أن يغل في قطيفة حمراء فقدت يوم بدر فقال بعض القوم لعل رسول الله ﷺ أخذها فأنزل الله تعالى هذه الآية إلى آخرها. أخرجه أبو داود والترمذي وقال حديث حسن غريب وروي عن الضحاك قال بعث رسول الله ﷺ طلائع فغنم النبي ﷺ فلم يقسم الطلائع فأنزل الله تعالى وما كان لنبي أن يغل وروى ابن جرير الطبري عن ابن عباس في قوله تعالى وما كان لنبي أن يغل يقول ما كان لنبي أن يقسم إلى طائفة من المؤمنين ويترك طائفة ويجور في القسم ولكن يقسم بالعدل ويأخذ فيه بأمر الله ويحكم فيه بما أنزل الله يقول ما كان الله ليجعل نبياً يغل من أصحابه فإذا فعل ذلك النبي استنوا به وقال مقاتل والكلبي نزلت في غنائم أحد حين ترك الرماة المركز للغنيمة. وقالوا نخشى أن يقول النبي ﷺ: من أخذ شيئاً فهو له وأن لا تقسم الغنائم كما لم تقسم يوم بدر فتركوا المركز ووقعوا في الغنائم فقال لهم النبي ﷺ: ألم أعهد إليكم أن لا تتركوا المركز حتى يأتيكم أمري قالوا تركنا بقية إخواننا وقوفاً فقال النبي ﷺ بل ظننتم أنا نغل فلا نقسم فأنزل الله هذه الآية وقال قتادة ذكر لنا أنها نزلت في طائفة غلت من أصحابه وقيل إن الأقوياء ألحوا عليه يسألونه من المغنم فأنزل الله تعالى ﴿وما كان لنبي أن يغل﴾ يعني فيعطي قوماً ويمنع آخرين بل عليه أن يقسم بينهم بالسوية وقال محمد بن كعب القرظي ومحمد بن إسحاق بن يسار هذا في شأن الوحي يقول وما كان لنبي أن يكتم شيئاً من الوحي رغبة أو رهبة أو مداهنة والغلول هو الخيانة. وأصله أخذ الشيء في خفية يقال غل فلان يغل قرىء بفتح الياء وضم الغين أي وما كان لنبي أن يخون لأن النبوة والخيانة لا يجتمعان لأن منصب النبوة أعظم المناصب وأشرفها وأعلاها لا تليق به الخيانة لأنها في نهاية الدناءة والخسة والجمع بين الضدين محال فثبت بذلك أن النبي ﷺ لم يخن أمته في شيء لا من الغنائم، ولا من الوحي. وقيل المراد به الأمة لأنه قد ثبت براءة ساحة النبي ﷺ من الغلول والخيانة فدل ذلك على أن المراد بالغلول غيره وقيل اللام فيه منقولة معناه ما كان النبي ليغل على نفي الغلول عن الأنبياء

أبو بكر محمد بن جعفر بن محمد الهيثم الأنباري أخبرنا محمد بن أبي العوّام أخبرنا وهب بن جرير أخبرنا هشام بن حسان عن الحسن عن عمران بن حصين رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يدخل سبعون ألفاً من أمتي الجنة بغير حساب» قيل: يا رسول الله مَنْ هُم؟ قال: «هم الذين لا يُكثرون ولا يَسْتَرقُون ولا يتطيّرون وعلى ربّهم يتوكلون»، فقال عُكاشة بن محصن: يا رسول الله أدعُ اللَّهَ لي أن يجعلني منهم، قال: «أنت منهم» ثم قام رجل آخر فقال: يا رسول الله أدعُ اللَّهَ أن يجعلني منهم، فقال: «سبقكَ بها عكاشة» أخبرنا أبو بكر محمد بن عبد الله بن أبي توبة قال أخبر محمد بن أحمد بن الحارث أخبرنا محمد بن يعقوب الكسائي أخبرنا عبد الله بن محمود أخبرنا إبراهيم بن محمد الخلال أنا عبد الله بن المبارك عن حياة بن شُريح حدّثني بكر بن عمرو عن عبد الله بن هبيرة أنه سمع أبا تميم الجيشاني يقول: سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لو أنكم تتوكّلون على الله حقَّ توكّله لرزقَكَمْ كما يرزقُ الطيرَ تغدو خِماصَاً وتروحُ بِطَاناً».

قوله عزّ وجلّ: ﴿ وما كانَ لِنَبيٍّ أَنْ يَغُلَّ ﴾ الآية، قال عكرمة ومقسم عن ابن عباس رضي الله عنهما: إنّ هذه الآية نزلت في قطيفة حمراء فُقدتْ يوم بدر، فقال بعض الناس أخذها رسول الله ﷺ، وقال الكلبي ومقاتل: نزلت في غنائم أُحُد حين ترك الرماة المركز للغنيمة، وقالوا: نخشى أن يقول النبي ﷺ مَن أخذ شيئاً فهو له وأن لا يقسم الغنائم كما لم يقسمها يوم بدر، فتركوا المركز ووقعوا في الغنائم، فقال النبي ﷺ: «لم أعهد إليكم أن لا تتركوا

وقيل معناه ما كان لنبي الغلول أراد ما غل نبي قط فنفى عن الأنبياء: الغلول وقيل معناه وما كان يحل لنبي الغلول وإذا لم يحل له لم يفعله وحجة هذه القراءة أنهم نسبوا النبي ﷺ إلى الغلول. في بعض الروايات فبين الله تعالى بهذه الآية أن هذه الخصلة لا تليق به ونفى عنه ذلك بقوله وما كان لنبي أن يغل وقرىء يغل بضم الياء وفتح الغين ولها معنيان أحدهما أن يكون من الغلول أيضاً ومعناه وما كان لنبي أن يخان أي تخونه أمته والثاني أن يكون من الإغلال ومعناه وما كان لنبي أن يخون أي ينسب إلى الخيانة ﴿**ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة**﴾ يعني بالشيء الذي غله بعينه يحمله على ظهره يوم القيامة ليزداد فضيحة بما يحمله يوم القيامة وقيل يمثل ذلك الشيء في النار ثم يقال له انزل فخذه فينزل فيحمله على ظهره فإذا بلغ موضعه وقع ذلك الشيء في النار فيكلف أن ينزل إليه ليخرجنه يفعل به ذلك ما شاء الله وقيل معناه أنه يأتي بإثم ما غله فيجازى به يوم القيامة وهو قوله تعالى: ﴿**ثم توفى كل نفس ما كسبت**﴾ يعني من خير أو شر والمعنى أن كل كاسب خيراً كان ذلك الكسب أو شراً فهو مجزى به يوم القيامة وهو في جزاء عمله ﴿**وهم لا يظلمون**﴾ يعني بل يعدل بينهم يوم القيامة في الجزاء فيجازى كل على عمله.

فصل في ذكر أحاديث وردت في الغلول ووعيد الغال

وقد تقدم أن أصل الغلول هو أخذ الشيء في خفية وأنه الخيانة إلا أنه قد صار في العرف مخصوصاً بالخيانة في الغنيمة وبهذا وردت الأحاديث (ق) عن أبي هريرة قال: قام فينا رسول الله ﷺ ذات يوم فذكر الغلول فعظمه وعظم أمره حتى قال: لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته بعير له رغاء يقول يا رسول الله أغثني وأقول لا أملك لك شيئاً قد أبلغتك. لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته فرس له حمحمة فيقول يا رسول الله أغثني فأقول لا أملك لك شيئاً قد أبلغتك. لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته شاة لها ثغاء يقول يا رسول الله أغثني فأقول لا أملك لك شيئاً قد أبلغتك لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته نفس لها صياح فيقول يا رسول الله أغثني فأقول لا أملك لك شيئاً قد أبلغتك لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة وعلى رقبته رقاع تخفق فيقول يا رسول الله أغثني فأقول لا أملك لك شيئاً قد أبلغتك لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته صامت

المركزَ حتى يأتيَكم أمري»؟ قالوا: تركنا بقية إخواننا وقوفاً، فقال النبي ﷺ: «بل ظننتم أنّا نَغُلّ ولا نُقسم»، فأنزل الله تعالى هذه الآية، وقال قتادة: ذُكر لنا أنها نزلت في طائفة غَلّت من أصحابه، وقيل: إن الأقوياء ألحّوا عليه يسألونه من المغنم، فأنزل الله تعالى: ﴿ **وما كان لنبي أن يَغُلّ** ﴾ فيُعطي قوماً ويمنع آخرين بل عليه أن يقسم بينهم بالسويّة، وقال محمد بن إسحق: هذا في الوحي، يقول: ما كان لنبي أن يكتم شيئاً من الوحي رغبة أو رهبة أو مداهنة، قوله تعالى: ﴿ **وما كان لنبي أن يَغُلَّ** ﴾، قرأ ابن كثير وأهل البصرة وعاصم ﴿ **يغل** ﴾ بفتح الياء وضمّ الغين، معناه: أن يخون، والمراد منه الأمة، وقيل: اللام فيه منقولة، معناه: ما كان النبي لِيَغُل، وقيل: معناه ما كان يظن به ذلك ولا يأتي به، وقرأ الآخرون بضمّ الياء وفتح الغين، وله وجهان، أحدهما: أن تكون من الغلول أيضاً، أي: ما كان لنبي أن يُخان، يعني: أن تخونه أُمّتُه، والوجه الآخر: أن يكون من الإغلال، معناه: ما كان لنبي أن يَغُل: أن يخون، أي: يُنسب إلى الخيانة، ﴿ **ومَن يَغْلُلْ يأتِ بما غَلَّ يومَ القيامة** ﴾، قال الكلبي: يمثل له ذلك الشيء في النار ثم يقال له: انزلْ فخذْه فينزل فيحمله على ظهره فإذا بلغ موضعه وقع إلى النار، ثم يُكلّف أن ينزل إليه، فيخرجه فيفعل ذلك به، أخبرنا أبو الحسن محمد بن محمد السرخسي أخبرنا زاهر بن أحمد الفقيه أخبرنا أبو إسحق إبراهيم بن عبد الصمد الهاشمي أخبرنا أبو مصعب عن مالك عن ثور بن زيد الديلي عن أبي الغيث مولى بن مطيع عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ عام خيبر فلم نغنم ذهباً ولا فضةً إلّا الأموال والثياب والمتاع، قال فوجّه رسول الله ﷺ نحو وادي القرى، وكان رفاعة بن زيد وهب لرسول الله ﷺ

فيقول يا رسول الله أغثني فأقول لا أملك لك شيئاً قد أبلغتك لفظ مسلم. الرغاء صوت البعير والثغاء صوت الشاة والرقاع الثياب والصامت الذهب والفضة (ق) عن أبي هريرة قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى خيبر ففتح الله علينا فلم نغنم ذهباً ولا ورقاً غنمنا المتاع والطعام والثياب ثم انطلقنا إلى الوادي يعني وادي القرى ومع رسول الله ﷺ عبد له وهبه له رجل من جذام يدعى رفاعة بن زيد من بني الضبيب فلما نزلنا الوادي قام عبد رسول الله ﷺ يحل رحله فرمى بسهم فكان فيه حتفه فقلنا هنيئاً له شملته الشهادة يا رسول الله فقال رسول الله ﷺ: كلا والذي نفس محمد بيده إن الشملة لتلتهب عليه ناراً أخذها من الغنائم يوم خيبر لم تصبها المقاسم قال ففزع الناس فجاء رجل بشراك أو شراكين فقال: أصبتها يوم خيبر فقال رسول الله ﷺ شراك من نارٍ أو شراكان من نار وفي رواية نحوه وفيه ومعه عبد يقال له مدعم أهداه له أحد بني الضبيب وفيه إذ جاءه سهم عائر إشراك سير النعل الذي يكون على ظهر القدم ومثله شسع النعل والسهم العائر هو السهم الذي لا يدرى من رماه(خ) عن عبدالله بن عمرو بن العاص قال كان على ثقل رسول الله ﷺ: رجل يقال له كركرة فمات فقال رسول الله ﷺ هو في النار فذهبوا ينظرون إليه فوجدوا عباءة قد غلها عن زيد بن خالد الجهني أن رجلاً من أصحاب النبي ﷺ توفي فذكروه لرسول الله ﷺ فقال صلّوا على صاحبكم فتغيرت وجوه الناس لذلك فقال أن صاحبكم غل في سبيل الله ففتشنا متاعه فوجدنا خرزاً من خرز اليهود لا يساوي درهمين. أخرجه أبو داود والنسائي عن عمر بن الخطاب أن رسول الله ﷺ قال من غل فاحرقوا متاعه واضربوه. أخرجه أبو داود والترمذي عن عبدالله بن عمرو بن العاص أن رسول الله ﷺ وأبا بكر وعمر أحرقوا متاع الغال وضربوه زاد في رواية ومنعوه سهمه أخرجه أبو داود. قوله تعالى: .

عبداً أسود يقال له مدعم، قال فخرجنا حتى إذا كنّا بوادي القرى فبينا مدعم يحطّ رحلاً لرسول الله ﷺ إذ جاءه سهم عائر فجاءه فأصابه فقتله، فقال الناس: هنيئاً له الجنّة، فقال رسول الله ﷺ: «كلا والذي نفسي بيده إن الشملة التي أخذها يوم خيبر من الغنائم لم تُصِبها المقاسم، تشتعل ناراً»، فلما سمع ذلك الناس جاء رجل بِشَراكٍ أو شِراكين إلى النبي ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «شراك من نار أو شراكان من نار»، أخبرنا أبو الحسن السرخسي أنا زاهر بن أحمد أخبرنا إسحق الهاشمي أخبرنا أبو مصعب عن مالك عن يحيىٰ بن سعيد عن محمد بن يحيىٰ بن حيان عن أبي عمرة الأنصاري عن زيد بن خالد الجهني قال: إن رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ تُوفي يوم خيبر فذُكر لرسول الله ﷺ قال: «صلّوا على صاحبكم» فتغيرت وجوه الناس لذلك فزعم زيد أن رسول الله ﷺ قال: «إن صاحبكم قد غلّ في سبيل الله» قال: ففتشنا متاعه فوجدنا خرزاً من خرز اليهود لا يساوي درهمين. أخبرنا عبد الوهاب بن محمد الخطيب المروزي أنا عبد العزيز بن أحمد الخلال أنا أبو العباس الأصم أنا الربيع بن سليمان أخبرنا الشافعي أخبرنا سفيان بن الزهري عن عروة بن الزبير عن أبي حميد الساعدي قال: استعمل النبي ﷺ رجلاً من الأزد يُقال له ابن اللتبية على الصدقة فلما قَدِمَ قال: هذا لكم وهذا أُهدي لي، فقام النبي ﷺ على المنبر فقال: «ما بال العامل نبعثه على بعض أعمالنا فيقــول هذا لكم وهذا أُهدي لي، فهلّا جلسَ في بيتِ أمه أوْ في بيت أبيه فينظر أيُهدَى إليه أم لا، والذي نفسي بيده لا يأخذ أحد منه شيئاً إلّا جاء به يوم القيامة يحمله على رقبته إن كان بعيراً له رُغاء أو بقرة لها خُوار أو شاة لها تبعر»، ثم رفع يده حتى رأينا عفرة أبطيه، ثم قال: «اللّهمَّ هلْ بلغتُ» ثلاثاً. وروى قيس بن أبي حازم عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: بعثني رسول الله ﷺ إلى اليمن فقال: «لا تصيبنّ شيئاً إلّا بإذني فإنه غلول، ومَن يَغْلُلْ يأتِ بما غَلّ يوم القيامة». ورُوِيَ عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إذا وجدتُم الرجلَ قد غَلّ فاحرقُوا متَاعَه واضربُوه» ورُوِيَ عن عمرو بن شُعيب عن أبيه عن جدّه رضي الله عنه: «أنّ رسولَ الله ﷺ وأبا بكر وعمراً حرقُوا متاعَ الغالّ وضربوه». قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ تُوفَّى كُلُّ نفسٍ ما كَسبتْ وهُمْ لا يُظلمون ﴾.

أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُۚ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾ هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِۗ
وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولٗا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ
وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾ أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم
مُّصِيبَةٞ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٞ ﴿١٦٥﴾

﴿أفمن اتبع رضوان الله﴾ يعني فترك الغلول فلم يغل ﴿كمن باء﴾ أي رجع ﴿بسخط من الله﴾ يعني بغضب من الله والمعنى فغل والسخط الغضب الشديد المفضي للعقوبة وهو من الله إنزال العقوبة بمن سخط عليه وقيل في معنى الآية أن النبي ﷺ لما أمر المسلمين باتباعه والخروج معه يوم أحد اتبعه المؤمنون وتخلف عنه جماعة من جماعة المنافقين فأخبرنا الله تعالى بحال من اتبعه بقوله ﴿أفمن اتبع رضوان الله﴾ وبحال من تخلف عنه بقوله: ﴿كمن باء بسخط من الله﴾ ﴿ومأواه جهنم وبئس المصير﴾ يعني الغال أو المتخلف عن النبي ﷺ ﴿هم درجات عند الله والله بصير بما يعملون﴾ يعني هم ذوو درجات عند الله قال ابن عباس: يعني من اتبع رضوان الله ومن باء بسخط من الله مختلفو المنازل عند الله فلمن اتبع رضوان الله الثواب العظيم ولمن باء بسخط من الله ليسوا سواء بل هم درجات عند الله على حسب أعمالهم. وقيل الضمير في قوله هم درجات عائد على قوله أفمن اتبع رضوان الله فقط لأن الغالب في العرف استعمال الدرجات لأهل الثواب والدركات لأهل النار ولأن الله وصف من باء بسخط من الله إن مأواه جهنم وبئس المصير فدل على أن الضمير في قوله هم درجات عند الله عند راجع للأول وفيه تحريض على العمل بطاعته وتحذير عن العمل بمعاصيه. قوله عز وجل: ﴿لقد منّ الله على المؤمنين﴾ يعني أحسن إليهم وتفضل عليهم والمنة النعمة العظيمة وذلك في الحقيقة لا يكون إلا من الله ومنه قوله تعالى لقد منّ الله على المؤمنين ﴿إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم﴾ يعني من جنسهم عربياً مثلهم ولد ببلدهم ونشأ بينهم يعرفون نسبه وليس حي من أحياء العرب إلا وقد ولده وله فيهم نسب. إلا بني تغلب فإنهم كانوا نصارى وقد ثبتوا على النصرانية فطهر الله رسول الله ﷺ من أن يكون له فيهم نسب وقيل أراد بالمؤمنين جميع المؤمنين ومعنى قوله تعالى من أنفسهم أي بالإيمان والشفقة لا بالنسب ومن جنسهم ليس بملك ولا أحد من غير بني آدم وقيل من أنفسهم يعني أنه من ولد إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليهما السلام ووجه المنّة والإنعام على المؤمنين ببعث الرسول ﷺ لكونه داعياً لهم إلى ما يخلصهم من العذاب الأليم ويوصلهم إلى الثواب في جنات النعيم وكونه من أنفسهم ومن جنسهم لأنه إذا كان اللسان واحداً سهل الأخذ عنه فيما يجب عليهم، وكانوا واقفين على جميع أحواله وأفعاله يعرفون صدقه

﴿ أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ الله ﴾، فترك الغلول، ﴿ كمَنْ باءَ بِسَخَطٍ منَ الله ﴾، فعل، ﴿ ومَأْوَاهُ جهنَّمُ وبِئْسَ المصير ﴾.

﴿هُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ اللَّهِ﴾ يعني:: ذُو درجات عند الله، قال ابن عباس رضي الله عنهما: يعني مَنِ اتَّبَعَ رضوانَ الله ومَن باءَ بسخَطٍ مِنَ الله مُختلفُوا المنازل عند الله، فلمن اتّبع رضوانَ الله الثوابُ العظيم، ولِمَن باء بسخط من الله العذابُ الأليم. ﴿ واللَّهُ بصيرٌ بما يعملون ﴾.

﴿ لقدْ منَّ اللَّهُ على المؤمنين إذْ بعثَ فيهم رسولاً من أنفسهم ﴾، قيل: أراد به العرب لأنه ليس حيٌّ من أحياء العرب إلّا وله فيهم من نسب إلّا بني تغلب، دليله قوله تعالى: ﴿ هو الذي بعثَ في الأُميين رسولاً منهم ﴾ [الجمعة: ٢] وقال الآخرون: أراد به جميع المؤمنين، ومعنى قوله تعالى: ﴿ من أنفسهم ﴾ أي: بالإيمان والشفقة

وأمانته فكان ذلك أقرب إلى تصديقه والوثوق به، وفي كونه من أنفسهم شرف لهم وكان فيما خطب به أبو طالب حين زوج رسول الله ﷺ خديجة بنت خويلد رضي الله تعالى عنها وقد حضر ذلك بنو هاشم ورؤساء مضر قوله الحمد لله الذي جعلنا من ذرية إبراهيم وزرع إسماعيل وضئضىء معد وعنصر مضر وجعلنا سدنة بيته وسواس حرمه وجعل لنا بيتاً محجوباً وحرماً آمنا وجعلنا الحكام على الناس وإن ابني هذا محمد بن عبدالله لا يوزن به فتى إلا رجح وهو الله بعد هذا له نبأ عظيم وخطب جليل. وقيل في وجه المنّة ببعثة الرسول ﷺ أن الخلق جبلوا على الجهل ونقصان العقل وقلة الفهم وعدم الدراية فمنّ الله تعالى على خلقه وأنعم عليهم وأحسن إليهم بأن بعث فيهم رسولاً من أنفسهم أنقذهم به من الضلالة وبصرهم به من الجهالة وهداهم به إلى صراط مستقيم وإنما خص المؤمنين بالذكر لأنهم هم المنتفعون بما جاء به دون غيرهم ﴿**يتلو عليهم آياته**﴾ يعني يقرأ عليهم كتابه الذي أنزل عليه بعد أن كانوا أهل جاهلية لم يطرق أسماعهم شيء من الوحي السماوي ﴿**ويزكيهم**﴾ أي ويطهرهم من دنس الكفر ونجاسة المحرمات والخبائث ﴿**ويعلمهم الكتاب والحكمة**﴾ يعني القرآن والسنّة التي سنها لهم على لسان نبيّه ﷺ ﴿**وإن كانوا من قبل**﴾ يعني من قبل بعثة الرسول ﷺ ﴿**لفي ضلال مبين**﴾ يعني لفي جهالة وحيرة عن الهدى عمياً لا يعرفون معروفاً ولا ينكرون منكراً فهداهم الله بنبيّه ﷺ. قوله تعالى: ﴿**أو لما أصابتكم مصيبة**﴾ يعني ما أصابهم يوم أحد ﴿**قد أصبتم مثليها**﴾ يعني ببدر وذلك أن المشركين قتلوا من المسلمين يوم أحد سبعين وقتل المسلمون من المشركين يوم بدر سبعين وأسروا سبعين وقيل إن المسلمين هزموا المشركين يوم بدر وهزموهم في أول الأمر يوم أحد ولما عصوا الله ورسوله هزمهم المشركون فحصل انهزام المشركين مرتين وانهزام المسلمين مرة واحدة ﴿**قلتم أنّى هذا**﴾ أي من أين لنا هذا القتل والهزيمة ونحن المسلمون ورسول الله ﷺ فينا وهو استفهام إنكار ﴿**قل هو من عند أنفسكم**﴾ يعني إنما وقعتم فيما وقعتم فيه بشؤم ذنوبكم وهو مخالفتكم أمر رسول الله ﷺ وذلك أنه ﷺ اختار الإقامة في المدينة على الخروج إلى العدو واختاروا هم الخروج إليه وأيضاً أمر الرماة بالإقامة في الموضع الذي عينه لهم فخالفوا وتركوا المركز لأجل الغنيمة فكان ذلك سبب القتل والهزيمة. وروى عبيدة السلماني عن علي بن أبي طالب قال جاء جبريل إلى النبي ﷺ فقال إن الله قد كره ما صنع قومك في أخذهم الفداء من الأسارى وقد أمرك أن تخيرهم بين أن يضربوا أعناق الأسارى وبين أن يأخذوا الفداء على أن يقتل منهم عدتهم فذكر رسول الله ﷺ للناس فقالوا يا رسول الله عشائرنا وإخواننا بل نأخذ فداءهم فنتقوى به على قتال عدونا ويستشهد منا عدتهم فقتل منهم يوم أحد سبعون عدد أسارى أهل بدر لم يسنده البغوي وأسنده ابن جرير الطبري فذلك معنى قوله ﴿**قل هو من عند أنفسكم**﴾ يعني بأخذكم الفداء واختياركم القتل لأنفسكم ﴿**إن الله على كل شيء**

لا بالنسب، دليله قوله تعالى: ﴿ لقد جاءكم رسولٌ من أنفسِكم ﴾ [التوبة: ١٢٨]، ﴿ **يتلُو عليهم آياتِه ويُزكّيهم ويُعلّمهمُ الكتابَ والحِكْمةَ وإنْ كانُوا** ﴾، وقد كانوا، ﴿ **مِنْ قَبْلُ** ﴾ أي: من قبل بعثه ﴿ **لفي ضلالٍ مبين** ﴾.

﴿ **أوَ لمّا** ﴾ أي: حين ﴿ **أصابتْكم مُصيبةٌ** ﴾، بأحد، ﴿ **قدْ أصبتم مِثْليْها** ﴾، ببدر، وذلك أن المشركين قتلوا من المسلمين يوم أُحد سبعين وقتل المسلمون منهم ببدر سبعين وأسروا سبعين، ﴿ **قُلْتُم أنَّى هذا** ﴾، من أين لنا هذا القتلُ والهزيمةُ ونحن مسلمونَ ورسول الله ﷺ فينا؟ ﴿ **قلْ هوَ مِنْ عندِ أنفسِكم** ﴾، روى عبيدة السلماني عن عليّ رضي الله عنه قال: جاء جبريل إلى النبي ﷺ فقال: إن الله قد كرِهَ ما صنعَ قومُك في أَخْذِهِمْ الفداء من الأسارى، وقد أمرك أن تخيّرهم بين أن يقدّموا فتُضرب أعناقهم، وبين أن يأخذوا الفِداءَ على أن يُقتل منهم عدّتهم، فذكر ذلك رسول الله ﷺ للنّاس فقالوا: يا رسول الله عشائرنا وإخواننا، لا بلْ تأخذْ منهم فداءهم، فنقوى به على قتال عدوّنا ويستشهد منّا عِدّتُهم، فقُتل منهم يوم أُحد سبعون عددَ أسارَى أهل بدر، فهذا معنى قوله تعالى: ﴿ **قلْ**

قدير﴾ يعني من نصركم مع الطاعة وترك نصركم مع المخالفة. قوله عز وجل: .

وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ وَقِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدۡفَعُواْۖ قَالُواْ لَوۡ نَعۡلَمُ قِتَالٗا لَّٱتَّبَعۡنَٰكُمۡۗ هُمۡ لِلۡكُفۡرِ يَوۡمَئِذٍ أَقۡرَبُ مِنۡهُمۡ لِلۡإِيمَٰنِۚ يَقُولُونَ بِأَفۡوَٰهِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡۗ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يَكۡتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ وَقَعَدُواْ لَوۡ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْۗ قُلۡ فَٱدۡرَءُواْ عَنۡ أَنفُسِكُمُ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٦٨﴾ وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢاۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ ﴿١٦٩﴾

﴿**وما أصابكم**﴾ يعني من القتل والجراح والهزيمة ﴿**يوم التقى الجمعان**﴾ يعني جمع المؤمنين وجمع المشركين وذلك بأحد يوم أحد ﴿**فبإذن الله**﴾ يعني فبعلمه وقضائه وقدره وحكمه وفيه تسلية للمؤمنين بما حصل لهم يوم أحد من القتل والهزيمة ولا تقع التسلية إلا إذا علموا أن ذلك كان واقعاً بقضاء الله وقدره فحينئذٍ يرضون بما قضى الله عليهم ﴿**وليعلم المؤمنين وليعلم الذين نافقوا**﴾ أي ليظهر إيمان المؤمنين بثبوتهم على مالهم ويظهر نفاق المنافقين بقلة صبرهم على ما نزل بهم فالمراد من العلم المعلوم والتقدير ليتبين المؤمن من المنافق وليتميز أحدهما من الآخر والمنافق هو الذي أظهر الإيمان بلسانه وأضمر خلافه واشتقاقه من النفق وهو السرب في الأرض النافذ، ومنه نافقاً اليربوع لأن له حجراً في الأرض له بابان إذا طلب من أحدهما خرج من الآخر فكذلك المنافق صنع له طريقين أحدهما إظهار الإيمان بلسانه والآخر إضمار الكفر بقلبه من أيهما طلب خرج من الآخر. وقيل لأنه دخل في الإيمان من باب وخرج من باب آخر والنفاق اسم إسلامي لم تك العرب تعرفه قبل الإسلام ﴿**وقيل لهم تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا**﴾ المقول له عبدالله بن أبي ابن سلول المنافق وأصحابه وذلك أن رسول الله ﷺ لما خرج إلى أحد في ألف رجل حتى إذا كان بالشوط بين أحد والمدينة انخذل عبدالله بن أبي ابن سلول بثلث الناس وقال ما ندري علام نقتل أنفسنا فرجع بمن معه من المنافقين فتبعهم جابر بن عبدالله بن عمر بن حرام الأنصاري أخو بني سلمة وهو يقول: يا قوم أذكركم الله أن تخذلوا نبيكم عند حضور عدوه فذلك قوله تعالى وقيل لهم يعني المنافقين عبدالله بن أبي ابن سلول وأصحابه تعالوا قاتلوا في سبيل الله أي لأجل دين الله وطاعته أو ادفعوا يعني عن أموالكم وأهليكم وقيل معناه تعالوا كثروا سواد المسلمين إن لم تقاتلوا ليكون ذلك دفعاً وقمعاً

﴿ **هُو مِنْ عندِ أنفسكم** ﴾ أي: بأخذكم الفداء واختياركم القتل، ﴿ **إنّ اللّهَ على كلِّ شيءٍ قديرٌ** ﴾.

﴿ **ومَا أصابَكم يومَ الْتَقَى الجمعان** ﴾، بأحد من القتل والجرح والهزيمة، ﴿ **فبإذْنِ الله** ﴾، أي: بقضاء الله وقدره، ﴿ **وليَعْلَم المؤمنين** ﴾، أي: وليُميّز، وقيل ليَرى.

﴿ **وليعلمَ الذين نَافَقُوا وقِيلَ تعالَوا قاتلُوا في سبيلِ الله** ﴾، أي: لأجل دين الله وطاعته، ﴿ **أوِ ادْفعُوا** ﴾، عن أهلكم وحريمكم، وقال السدي: أي: كثّروا سوادَ المسلمين واربطوا إن لم تُقاتلوا يكونُ ذلك دفعاً وقمعاً للعدو، ﴿ **قالوا لو نعلمُ قِتَالاً لاتّبعناكم** ﴾، وهو عبد الله بن سلام وأصحابه الذين انصرفوا عن أُحُد وكانوا ثلاثمائة، قال الله تعالى: ﴿ **هم للكفر يومئذٍ أقربُ** ﴾ أي: إلى الكفر يومئذ أقربُ ﴿ **منهم للإيمان** ﴾ أي: إلى الإيمان، ﴿ **يقولون بأفواهِهم** ﴾، يعني: كلمة الإيمان ﴿ **ما ليسَ في قلوبهمْ واللّهُ أعلمُ بما يكتُمون** ﴾.

﴿ **الذينَ قالُوا لإخوانِهمْ** ﴾، في النّسب لا في الدين وهم شهداء أُحُد ﴿ **وقعدُوا** ﴾ يعني: قعد هؤلاء

للعدو ﴿**قالوا**﴾ يعني المنافقين ﴿**لو نعلم قتالاً لاتبعناكم**﴾ أي لو نعلم أن اليوم يجري فيه قتال لاتبعناكم ولم نرجع ولو علموا ما تبعوهم. وقيل معناه لو نحسن قتالاً لاتبعناكم ﴿**هم للكفر**﴾ يعني المنافقين إلى الكفر ﴿**يومئذٍ أقرب منهم للإيمان**﴾ أي الإيمان وإنما قال تعالى يومئذ لأنهم قبل ذلك اليوم لم يظهروا ما أظهروه من المعاندة والرجوع عن المسلمين وقولهم لو لم نعلم قتالاً لاتبعناكم وإنما كانوا قبل ذلك يظهرون كلمة الإسلام ويخفون الكفر ﴿**يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم**﴾ يعني يظهرون بألسنتهم الإيمان وليس هو في قلوبهم إنما في قلوبهم الكفر والنفاق وهذه صفة المنافقين لا صفة المؤمنين لأن صفة المؤمن المخلص موطأة القلب للسان على شيء واحد وهو التوحيد ﴿**والله أعلم بما يكتمون**﴾ يعني من النفاق ﴿**الذين قالوا لإخوانهم**﴾ نزلت في عبدالله بن أبي المنافق وأصحابه وفي المراد بإخوانهم قولان: أحدهما أن المراد بإخوانهم الذين استشهدوا بأحد فيكون إخوانهم في النسب لا في الدين والقول الثاني إن المراد بإخوانهم المنافقون فعلى القول الأول يكون معنى الآية الذين قالوا في إخوانهم أو عن إخوانهم الذين قتلوا بأحد لو أطاعونا ما قتلوا لأنهم بعد أن قتلوا لا يخاطبون وعلى القول الثاني يكون معنى الآية الذين قالوا وهم عبدالله بن أبيّ وأصحابه لإخوانهم يعني في النفاق ﴿**وقعدوا**﴾ يعني عن الجهاد ﴿**لو أطاعونا**﴾ يعني هؤلاء الذين خرجوا مع رسول الله ﷺ لو أطاعونا يعني في القعود عن رسول الله ﷺ أو الانصراف عنه ﴿**ما قتلوا**﴾ يومئذٍ فرد الله تعالى عليهم بقوله ﴿**قل**﴾ يعني قل لهم يا محمد ﴿**فادرؤوا**﴾ أي فادفعوا ﴿**عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين**﴾ يعني أن الحذر لا ينفع من القدر وفي الآية دليل على أن المقتول يموت بأجله خلافاً لمن يزعم أن القتل قطع على المقتول أجله ﴿**ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً**﴾ قيل نزلت في شهداء بدر وكانوا أربعة عشر رجلاً ستة من المهاجرين وثمانية من الأنصار. وقال أكثر المفسرين إنها نزلت في

القائلون عن الجهاد ﴿ **لو أطاعُونا** ﴾، وانصرفوا عن محمد ﷺ وقعدوا في بُيوتهم ﴿ **ما قُتِلُوا قُلْ** ﴾، لهم يا محمد، ﴿ **فادْرَأُوا** ﴾، فادفعوا، ﴿ **عنْ أنفسِكُم الموتَ إن كنتُم صادقين** ﴾، أن الحذرَ يُغني عن القدر.

قوله تعالى: ﴿ **ولا تحسبنّ الذينَ قُتِلُوا في سبيلِ اللّهِ أمواتاً** ﴾ الآية: قيل: نزلت في شهداء بدر وكانوا أربعة عشر رجلًا ثمانية من الأنصار وستّة من المهاجرين، وقال الآخرون: نزلت في شهداء أُحُد وكانوا سبعين رجلًا أربعة من المهاجرين حمزة بن عبد المطلب ومصعب بن عمير وعثمان بن شماس وعبد الله بن جحش وسائرهم من الأنصار، أخبرنا أحمد بن عبد الصالحي أخبرنا أبو بكر أحمد بن الحسن الحيري أنا حاجب بن أحمد الطوسي أنا محمد بن حماد أنا أبو معاوية عن الأعمش عن عبد الله بن مرّة عن مسروق قال: سألنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنهما عن هذه الآية: ﴿ **ولا تحسبنّ الذين قُتلوا في سبيلِ الله أمواتاً بل أحياءٌ عندَ ربِّهم يُرزقون** ﴾ الآية، قال: إنّا قد سألنا عن ذلك رسولَ الله ﷺ فقال: «أرواحُهم كطير خضر» ويُروى «في جوفِ طيرٍ خضرٍ لها قناديلُ معلقة بالعرش تسرحُ من الجنّة حيثُ شاءتْ ثم تأوي إلى تلك القناديل، فاطّلع إليهم ربُّهم اطّلاعةً فقال: هل تشتهون شيئاً؟ قالوا: أيّ شيء نشتهي ونحنُ نسرحُ من الجنة حيث شئنا، ففعل ذلك بهم ثلاث مرات فلما رأوا أنهم لم يُتركوا من أن يسألوا قالوا: يا ربّ نُريد أن تردَّ أرواحنا في أجسادنا حتى نُقتل في سبيلك مرة أخرى، فلمّا رأى أنهم لا يسألون إلاّ هذا تُركوا». أخبرنا أبو سعيد الشريحي أنا أبو إسحق الثعلبي أنا عبد الله بن حامد أخبرنا أحمد بن محمد بن شاذان أنا جسعويه أنا صالح بن محمد أنا سليمان بن عمرو عن إسماعيل بن أُمية عن عطاء بن أبي رباح عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: إنّ رسول الله ﷺ قال لأصحابه: «إنّه لمّا أُصيب إخوانُكم يوم أُحُد جعل الله عزّ وجلّ أرواحَهم في أجوافِ طيرٍ خُضرٍ ترِد أنهارَ الجنةِ تأكلُ من ثمارها وتسرح من الجنة حيثُ شاءتْ وتأوي إلى قناديلَ من ذهب معلّقة في ظل العرش، فلما وجدوا لهيب مَأكلهم ومَشربهم ومَقيلهم ورأوا مَا أعدَّ الله لهم من

شهداء أحد ويدل على ذلك ما روي عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه إنه لما أصيب إخوانكم بأحد جعل الله أرواحهم في جوف طير خضر ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها وتأوي إلى قناديل من ذهب معقلة في ظل العرش فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم ومقيلهم. قالوا من يبلغ أخواننا عنا أننا أحياء في الجنة لئلا يزهدوا في الجنة ولا ينكلوا عن الحرب فقال الله تعالى أنا أبلغهم عنكم فأنزل الله: ﴿**ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون**﴾ إلى آخر الآية أخرجه أبو داود (م) عن مسروق قال سألنا عبدالله عن هذه الآية: ﴿**ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون**﴾ فقال أما إنا قد سألنا عن ذلك رسول الله ﷺ فقال أرواحهم في جوف طير خضر لها قناديل معلقة بالعرش تسرح من الجنة حيث شاءت ثم تأوي إلى تلك القناديل فأطلع إليهم ربهم إطلاعه فقال: هل تشتهون شيئاً قالوا أي شيء نشتهي ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا ففعل ذلك بهم ثلاث مرات فلما رأوا أنهم لن يتركوا من أن يسألوا قالوا يا رب نريد أن ترد أرواحنا في أجسادنا حتى نقتل في سبيلك مرة أخرى فلما رأى أن ليس لهم حاجة تركوا.

(ذكر ما يتعلق بهذا الحديث) قول مسروق سألنا عبدالله كذا جاء عبدالله غير منسوب وقد نسبه بعض الناس فقال عبدالله بن عمر قد ذكره أبو مسعود الدمشقي والحميدي في مسنده عن عبدالله بن مسعود وهو الصحيح وهذا الحديث مرفوع لقوله أما إنا قد سألنا عن ذلك فقال يعني النبي ﷺ وفي الحديث دليل عن أن الجنة مخلوقة الآن خلافاً للمعتزلة لقوله ﷺ تسرح من الجنة حيث شاءت وهو مذهب أهل السنة وفيه دليل على أن الأرواح باقية لا تفنى بفناء الجسد لأن المحسن ينعم ويجازى بالثواب وأن المسيء يعذب ويجازى بالعقاب قبل يوم القيامة وهو مذهب أهل السنة أيضاً قوله أرواحهم في جوف طير خضر أي يجعل الله أرواح الشهداء في جوف طير خضر وهذا ليس ببعيد لا سيما مع القول بأن الأرواح أجسام لطيفة. وقيل إن المنعم والمعذب من الأرواح والأجساد جزء من الجسد تبقى فيه الروح وهو الذي يتلذذ بالنعيم ويتألم بالعذاب فغير مستحيل أن يصور الله تعالى ذلك الجزء طائراً ويجعل في جوف طير فتسرح في الجنة وتأوي إلى تلك القناديل وقد تعلق بهذا الحديث من يقول بالتناسخ من المبتدعة ويقول بانتقال الأرواح وتنعيمها في الصور الحسان المرفهة وتعذيبها في الصور القبيحة المسخرة ويزعمون أن هذا هو الثواب والعقاب وهذا ضلال بيّن وقول سخيف وبدعة باطلة لما في هذا القول من إبطال ما جاءت به

الكرامة، قالوا: يا ليت قومنا يعلمون ما نحنُ فيه من النّعيم وما يصنعُ اللّهُ بنا كي يرغبوا في الجهاد، ولا يتّكلُوا عنه، فقال الله عزّ وجلّ: أنا مخبرٌ عنكم ومبلغٌ إخوانَكم ففرِحوا بذلك واستبشروا، فأنزل الله تعالى ﴿ **ولا تحسبنَّ الذينَ قُتِلُوا في سبيلِ اللّهِ أمواتاً** ﴾ إلى قوله: ﴿ **لا يُضيعُ أجرَ المؤمنين** ﴾» وسمعتُ عبد الواحد بن أحمد المليحي قال: سمعتُ الحسن بن أحمد القتيبي قال: سمعتُ محمد بن عبد الله بن يوسف قال: سمعتُ محمد بن إسماعيل البكري قال: سمعتُ يحيىٰ بن حبيب بن عرين قال: سمعتُ موسى بن إبراهيم قال: سمعتُ طلحة بن خراش قال: سمعتُ جابر بن عبد الله رضي الله عنهما يقول: لقيني رسول الله ﷺ فقال لي: «يا جابر ما لي أراك منكسراً»؟ قلتُ: يا رسول الله استشهد أبي وترك عيالاً وديناً، قال: «أفلا أُبشرك بما لقي اللّهُ به أباكَ»؟ قلت: بلى يا رسول الله، قال: «ما كلّم اللّهُ تعالى أحداً قطّ إلاّ من وراء حجاب، وإنه أحيا أباك فكلّمه كفاحاً، قال: يا عبدي تمنَّ عليّ أعطِك، قال: يا ربِّ أحيني فأُقتل فيك الثانية، قال الرب تبارك وتعالى: إنه قد سبق منّي أنّهم لا يرجعون، فأنزلت فيهم ﴿ **ولا تحسبنّ الذينَ قتلوا في سبيلِ الله أمواتاً** ﴾». أخبرنا أبو عبد الله محمد بن الخرقي أنا أبو الحسن الطيسفوني أنا عبد الله بن عمر الجوهري أنا أحمد بن علي الكشمهيني أنا علي بن حجر أنا إسماعيل بن جعفر أنا حميد عن أنس رضي الله عنهم قال: قال رسول الله ﷺ: «ما منْ عبدٍ يموتُ له عندَ اللّهِ خيرٌ يحبُّ أن يرجع إلى

الشرائع من الحشر والنشر والمعاد والجنة والنار وقد جاء في بعض روايات هذا الحديث ما يرد عليهم وهو قوله حتى يرجعه الله إلى جسده يوم يبعثه يعني يحيي جميع جسده يوم يبعثه وهو يوم القيامة والله أعلم. عن جابر قال لقيني رسول الله ﷺ وأنا مهتم فقال ما لي أراك منكسراً قلت يا رسول الله استشهد أبي يوم أحد وترك عيالاً وديناً فقال ألا أبشرك بما لقي الله به أباك قلت بلى قال ما كلم الله أحداً قط إلا من وراء حجاب وإنه أحيا أباك وكلمه كفاحاً وقال يا عبدي تمنّ علي أعطك قال: يا رب تحييني فأقتل ثانية قال سبحانه إنه قد سبق مني أنهم لا يرجعون فنزلت: ﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله﴾ الآية أخرجه الترمذي وقال حديث حسن غريب وقيل إن الآية نزلت في شهداء بئر معونة وهي بئر بين مكة وعسفان وأرض هذيل قال محمد بن إسحاق عن أشياخه من أهل العلم قالوا: قدم أبو براء عامر بن مالك بن جعفر ملاعب الأسنة وكان سيد بني عامر بن صعصعة على رسول الله ﷺ وأهدى له هدية فأبى رسول الله ﷺ أن يقبلها وقال إني لا أقبل هدية مشرك ثم عرض عليه الإسلام وأخبره بما له فيه وما أعد الله للمؤمنين وقرأ عليه القرآن فلم يسلم ولم يبعد وقال يا محمد إن الذي تدعو إليه حسن جميل فلو بعثت رجالاً من أصحابك إلى أهل نجد يدعونهم إلى أمرك رجوت أن يستجيبوا لك فقال رسول الله ﷺ إني أخشى عليهم أهل نجد فقال أبو براء نالهم جار فأبعثهم فليدعوا الناس إلى أمرك فبعث رسول الله ﷺ المنذر بن عمرو أخا بني ساعدة في سبعين رجلاً من خيار المسلمين. وكان يقال لهم القراء منهم الحارث بن الصمة وحرام بن ملحان وعروة بن أسماء بن الصلت ونافع بن يزيد بن ورقاء الخزاعي وعامر بن فهيرة مولى أبي بكر. وذلك في سفر سنة أربع من الهجرة بعد أحد بأربعة أشهر فساروا حتى نزلوا بئر معونة وهي أرض بين أرض بني عامر وحرة بني سليم فلما نزلوها قال بعضهم لبعض أيكم يبلغ رسالة رسول الله ﷺ أهل هذا الماء فقال حرام بن ملحان: أنا فخرج بكتاب رسول الله ﷺ إلى عامر بن الطفيل وكان على ذلك الماء فلما أتاهم حرام بن ملحان: لم ينظر عامر بن الطفيل في كتاب رسول الله ﷺ فقال حرام بن ملحان يا أهل بئر معونة إني رسول رسول الله إليكم وإني أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله فآمنوا بالله ورسوله فخرج إليه رجل من كسر البيت برمح فضربه به في جنبه حتى خرج من الشق الآخر فقال: الله أكبر فزت ورب الكعبة ثم استصرخ عامر بن الطفيل بني عامر على المسلمين فأبوا أن يجيبوه إلى ما دعاهم إليه وقالوا لا نخفر أبا براء فقد عقد لهم عقداً وجواراً فاستصرخ

الدنيا، وأنّ له الدنيا وما فيها، إلاّ الشهيدُ لِما يَرَى من فضلِ الشهادة، فإنه يحبُّ أن يرجعَ إلى الدنيا فيُقتل مرةً أخرى»، وقال قوم: نزلت هذه الآية في شهداء بئر معونة، وكان سبب ذلك على ما روى محمد بن إسحق عن أبيه إسحق بن يسار عن المغيرة بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام وعبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم وعن حميد الطويل عن أنس بن مالك وغيرهم من أهل العلم قال: قَدِمَ أبو براء عامر بن مالك بن جعفر مَلاعِبَ الأسنّة وكان سيد بني عامر بن صعصعة، على رسول الله ﷺ المدينة وأهدى إليه هدية، فأبى رسول الله ﷺ أن يقبلها، وقال: «لا أقبل هدية مشرك، فأسلمْ إنْ أردتَ أن أقبل هديتَك»؟ ثم عرض عليه الإسلام، وأخبره بما له فيه وما أعدّ الله للمؤمنين، وقرأ عليه القرآن فلم يُسلم، ولم يبعد وقال: يا محمد إن الذي تدعو إليه حسنٌ جميل فلو بعثت رجالاً من أصحابك إلى أهل نجد فدعوهم إلى أمرك رجوتُ أن يستجيبُوا لك، فقال رسول الله ﷺ: «إني أخشى عليهم أهلَ نجد»، فقال أبو البراء: أنا لهم جارٍ فابعثهم فليدعوا الناسَ إلى أمرك، فبعث رسول الله ﷺ المنذر بن عمر وأخا بني ساعدة في سبعين رجلاً من خيار المسلمين منهم الحارث بن الصمّة وحرام بن ملحان وعروة بن أسماء بن الصلت السلمي ونافع بن يزيد بن ورقاء الخزاعي وعامر بن فهيرة مولى أبي بكر رضي الله عنه، وذلك في صفر سنة أربع من الهجرة على رأس أربعة أشهر من أُحُد فساروا حتى نزلوا بئر معونة وهي أرض بين

عليهم قبائل بني سليم عصية ورعلا وذكوان فأجابوه فخرجوا حتى غشوا القوم فأحاطوا بهم في رحالهم فلما رأوهم أخذوا السيوف فقاتلوهم حتى قتلوا عن آخرهم إلا كعب بن زيد فإنهم تركوه وبه رمق فارتث بين القتلى فعاش حتى قتل يوم الخندق وكان في سرح القوم عمرو بن أمية الضمري ورجل من الأنصار أحد بني عمرو بن عوف فلم يعلمها بمصاب أصحابهما إلا الطير تحوم على العسكر فقالا: والله إن لهذا الطير لشأناً فأقبلا لينظرا فإذا القوم في دمائهم وإذا الخيل التي أصابتهم واقفة فقال الأنصاري لعمرو بن أمية ماذا ترى قال نلحق برسول الله ﷺ ونخبره فقال الأنصاري لكن لا أرغب عن موطن قتل فيه المنذر بن عمرو ثم قاتل القوم حتى قتل وأخذ عمرو بن أمية الضمري أسيراً فلما أخبرهم أنه من مضر أطلقه عامر بن الطفيل وجز ناصيته وأعتقه عن رقبة زعم أنها كانت على أمة فقدم عمرو بن أمية على رسول الله ﷺ وأخبره الخبر فقال رسول الله ﷺ: هذا عمل أبي براء وقد كنت لهذا كارهاً متخوفاً فبلغ ذلك أبا براء فشق عليه أخفار عامر بن الطفيل إياه وما أصاب رسول الله ﷺ بسببه وجواره. وكان فيمن أصيب عامر بن فهيرة مولى أبي بكر الصديق فروى محمد بن أسحاق عن هشام بن عروة عن أبيه أن عامر بن الطفيل كان يقول من الرجل منهم لما قتل رأيته رفع بين السماء والأرض حتى رأيت السماء من دونه قالوا هو عامر بن فهيرة قالوا: وبلغ ربيعة بن أبي براء أن عامر بن الطفيل أخفر ذمة أبيه فحمل على عامر بن الطفيل فطعنه فخر عن فرسه.

قلت وذكر ابن الأثير الجزري في كتاب جامع الأصول له في قسم الأسماء في ترجمة عامر بن الطفيل أن عامر بن الطفيل قدم على النبي ﷺ وهو ابن بضع وثمانين سنة ولم يسلم وعاد من عنده فخرج له خراج في أصل أذنه أخذه منه مثل النار فاشتد عليه ومات منه (ق) عن أنس قال: بعث رسول الله ﷺ أقواماً من بني سليم إلى بني عامر في سبعين وفي رواية أن رسول الله ﷺ بعث خاله أخاً لأم سليم واسمه حرام في سبعين راكباً فلما قدموا قال لهم خالي أتقدمكم فإن أمنوني حتى أبلغهم عن رسول الله ﷺ وإلاّ كنتم مني قريباً فتقدم فأمنوه فبينما هو يحدثهم عن رسول الله ﷺ إذ أمنوا إلى رجل منهم فطعنه فأنفذه فقال: الله أكبر فزت ورب الكعبة ثم مالوا على بقية أصحابه فقتلوهم إلاّ رجلاً أعرج صعد الجبل قال همام وأراه آخر معه فأخبر جبريل عليه السلام النبي ﷺ إنهم قد لقوا ربهم

أرضي بني عامر وحرّة بني سليم فلما نزلوها، قال بعضهم لبعض: أيّكم يبلغ رسالة رسول الله ﷺ أهل هذا الماء؟ فقال حرام بن ملحان: أنا. فخرج بكتاب رسول الله ﷺ إلى عامر بن الطفيل، وكان على ذلك الماء فلما أتاهم حرام بن ملحان لم ينظر عامر بن الطفيل في كتاب رسول الله ﷺ، فقال حرام بن ملحان: يا أهل بئر معونة إني رسول رسول الله إليكم إني أشهد أن لا إلّه إلاّ الله وأن محمداً عبده ورسوله، فآمِنُوا بالله ورسولِهِ، فخرج إليه رجل من كسر البيت برمحٍ فضربَ به في جنبه حتى خرج من الشقّ الآخر، فقال: الله أكبر فزتُ وربِّ الكعبة، ثم استصرخ عامر بن الطفيل بني عامر على المسلمين فأبوا إلى أن يجيبوه إلى ما دعاهم إليه وقـالوا: لن نُخفرَ أبا بـراء قد عقـد لهم عقداً وجواراً ثم استصرخ عليهم قبائل من بني سلمة عصية ورِعْلاً وذكوان فأجابوه فخرجوا حتى غشوا القومَ فأحاطوا بهم في رحالهم، فلمّا رأوهم أخذُوا السيوف فقاتلوهم حتى قُتِلُوا من عند آخرهم إلاّ كعب بن زيد فإنهم تركوه وبه رمق فارْتُثَّ بين القتلى، فضلّوه فيهم فعاش حتى قُتل يوم الخندق، وكان في سرح القوم عمرو بن أُميّة الضمري ورجل من الأنصار أحد بني عمرو بن عوف فلمم ينبهّهما بمصاب أصحابهما إلاّ الطير تحوم على المعسكر! فقالا: والله إن لهذا الطير لشأناً فأقبلا لينظرا فإذا القوم في دمائهم وإذا الخيل التي أصابتهم واقفة، فقال الأنصاري لعمرو بن أميّة: ماذا ترى؟ قال: أرى أن نلحق برسول الله ﷺ فنخبره، فقال الأنصاري: الله أكبر لكني ما كنت لأرغب بنفسي عن موطن قُتل فيه المنذر بن عمرو، ثم قاتل القومَ حتى قُتل، وأخذوا عمرو بن أمية أسيراً فلما

فرضي عنهم وأرضاهم. قال فكنا نقرأ أن بلغوا قومنا إن قد لقينا ربنا فرضي عنا وأرضانا ثم نسخ بعد فدعا عليهم أربعين صباحاً على رعل وذكوان وبني عصية الذين عصوا الله ورسوله وفي رواية إن رعلاً وذكوان وبني لحيان استمدوا رسول الله ﷺ فأمدهم بسبعين رجلاً من الأنصار كنا نسميهم القراء في زمانهم كانوا يحتطبون بالنهار ويصلون بالليل حتى إذا كان ببئر معونة قتلوهم وغدروا بهم فبلغ ذلك النبي ﷺ فقنت عليهم شهراً يدعو في الصبح على أحياء من العرب على رعل وذكوان وعصية وبني لحيان قال أنس: فقرأنا فيهم قرآناً ثم إن ذلك رفع بلغوا قومنا إن قد لقينا ربنا فرضي عنا وأرضانا ولمسلم قال: جاء ناس إلى النبي ﷺ فسألوه أن أبعث معنا رجالاً يعلموننا القرآن والسنة فبعث إليهم سبعين رجلاً من الأنصار وذكر نحو ما تقدم وقيل إن أولياء الشهداء وأهليهم كانوا إذا أصابتهم نعمة وخير تحسروا على الشهداء وقالوا نحن في النعمة والرخاء وآباؤنا وأبناؤنا وإخواننا في القبور فأنزل الله تعالى هذه الآية تطييباً لقلوبهم وتنفيساً عنهم وإخباراً عن حال قتلاهم فقال تعالى: **﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله﴾** أي ولا تظنن الخطاب لرسول الله ﷺ ولكل أحد من أمته والمعنى لا يظن ظان إن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً يعني كأموات غيرهم ممن لم يقتل في سبيل الله **﴿بل أحياء﴾** أي بل هم أحياء وظاهر الآية يدل على كون من قتل في سبيل الله حياً فأما أن يكون المراد أنهم سيصيرون أحياء في الآخرة أو يكون المراد إنهم أحياء في الحال وعلى تقدير أنهم أحياء في الحال يكون المراد إثبات الحياة الروحانية أو إثبات الحياة الجثمانية. فهذه ثلاثة أوجه في معنى احتمال الحياة فمن قال بالوجه الأول هو أنهم سيصيرون أحياء في الآخرة قال معنى الآية بل هم أحياء في الذكر: وأنهم يذكرون بخير أعمالهم وأنهم استشهدوا في سبيل الله وقيل بل هم أحياء في الدين وهذا القول ليس بصواب لأن الله تعالى أثبت لهم الحياة في الحال بقوله بل أحياء يعني في حال ما يقتلون فإنهم يحيون وهو الاحتمال الثاني. واختلفوا في معنى هذه الحياة هل هي للروح أو للجسم والروح معاً فمن أثبت الحياة للروح دون الجسم يقال يدل على ذلك قوله ﷺ أرواح الشهداء في حواصل طير خضر فخص الأرواح دون الأجساد وقال بعض المفسرين إنّ أرواح الشهداء تركع وتسجد كل ليلة تحت العرش إلى يوم القيامة. ومن أثبت الحياة الروح والجسم معاً قال: يدل عليه سياق الآية وهو قوله عند ربهم يرزقون فأخبر الله سبحانه وتعالى أنهم يرزقون ويأكلون

أخبرهم أنه من مُضر أطلقه عامر بن الطفيل، وجزَّ ناصيتَه وأعتقه عن رقبة زعم أنها كانت على أُمّه، فقَدِم عمرو بن أميّة على رسول الله ﷺ وأخبره الخبر، فقال رسول الله ﷺ: «هذا عمل أبي براء قد كنتُ لهذا كارهاً متخوفاً»، فبلغ ذلك أبا براء فشقّ عليه إخفارُ عامر إيّاه، وما أصاب رسول الله ﷺ بسببه وجواره، وكان فيمن أُصيب عامر بن فهيرة، فروى محمد بن إسحق عن هشام بن عروة عن أبيه أن عامر بن الطفيل كان يقول: مَنِ الرجلُ منهم لمّا قتل رأيته رُفع بين السماء والأرض حتى رأيت السماء من دُونِه؟ قالوا: هو عامر بن فهيرة، ثم بعد ذلك حمل ربيعة بن أبي براء على عامر بن الطفيل فطعنه على فرسه فقتله. أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا عبد الأعلى بن حمّاد أنا يزيد بن زريع أنا سعيد عن قتادة عن أنس بن مالك أن رِعْلاً وذكوان وعصية وبني لحيان استمدّوا رسول الله ﷺ على عدوّهم فأمدّهم بسبعين من الأنصار كنّا نسمّيهم القرّاء في زمانهم، كانوا يحتطبون بالنهار ويصلّون بالليل، حتى كانوا ببئر معونة قَتَلُوهم وغدرُوا بهم، فبلغ النبي ﷺ فقنتَ شهراً يدعو في الصبح على أحياء من العرب على رِعْلٍ وذكوان وعصية وبني لحيان، قال أنس رضي الله عنه: فقرأنا فيهم قرآناً، ثم إنّ ذلك رُفع: بلّغُوا عنّا قومَنا إنّا لقينا ربنا فرضي عنّا وأرضانا، ثم نُسخت فرفع بعدما قرأناه زماناً وأنزل الله تعالى: ﴿ **ولا تحسبنّ الذينَ قُتِلُوا في سبيلِ اللّهِ أمواتاً** ﴾ الآية، وقيل: إن أولياء الشهداء كانوا أصابتهم نعمة تحسّروا على الشهداء، وقالوا: نحن في النعمة وآباؤنا وأبناؤنا وإخواننا في القبور،

ويتنعمون كالأحياء وقيل إن الشهيد لا يبلى في قبره ولا تأكله الأرض كغيره. وروي أنه لما أراد معاوية أن يجري الماء على قبور الشهداء أمر أن ينادي من كان له قتيل فليخرجه وليحوله من هذا الموضع قال جابر: فخرجنا إليهم فأخرجناهم رطاب الأبدان فأصابت المسحاة أصبع رجل منهم فأنبعث دماً وذكر البغوي بغير سند عن عبيدالله بن عمير قال مر رسول الله ﷺ حين انصرف من أحد على مصعب بن عمير وهو مقتول فوقف عليه ودعا له ثم قرأ: ﴿من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه﴾ ثم قال رسول الله ﷺ: «أشهد أن هؤلاء شهداء عند الله يوم القيامة فأتوهم وزوروهم وسلموا عليهم فالذي نفسي بيده لا يسلم عليهم أحد إلى يوم القيامة إلّا ردوا عليه» وقوله تعالى: ﴿عند ربهم﴾ يعني في محل كرامته وفضله ﴿يرزقون﴾ يعني من ثمار الجنة وتحفها.

﴿فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ١٧٠﴾

﴿فرحين بما آتاهم الله من فضله﴾ يعني بما أعطاهم من الثواب والكرامة والإحسان والإفضال في دار النعيم ﴿ويستبشرون﴾ أي يفرحون والاستبشار هو الفرح والسرور الذي يحصل للإنسان عند البشارة ﴿بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم﴾ يعني من إخوانهم الذين تركوهم أحياء في الدنيا على منهج الإيمان والجهاد لعلمهم بأنهم إذا استشهدوا سألوا الله عز وجل أن يخبر إخوانهم بما نالوا من الخير والكرامة ليرغبوا في الجهاد فأخبرهم الله عز وجل إني قد أنزلت على نبيّ محمد ﷺ وأخبرته بحالكم وما صرتم إليه من الكرامة وأن محمداً ﷺ قد أخبر إخوانكم بذلك ففرحوا بذلك واستبشروا ﴿أن لا خوف عليهم﴾ يعني في الآخرة ﴿ولاهم يحزنون﴾ يعني على ما فاتهم من نعيم الدنيا.

﴿۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ١٧١ ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ١٧٢﴾

﴿يستبشرون بنعمة من الله وفضل﴾ لمّا بيّن الله تعالى أن الشهداء يستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم في خلفهم

فأنزل الله تعالى تنفيساً عنهم وإخباراً عن حال قَتْلاهم: ﴿ ولا تحسبنّ ﴾ ولا تظننّ ﴿ الذين قُتلوا في سبيلِ الله ﴾ قرأ ابن عامر (قُتّلوا) بالتشديد، والآخرون بالتخفيف ﴿ أمواتاً ﴾ كأموات مَن لم يُقتلْ في سبيلِ الله ﴿ بلْ أحياءٌ عندَ ربِّهم ﴾، قيل أحياء في الدِّين، وقيل: في الذكر، وقيل: لأنهم يرزقون ويأكلون ويتمتعون كالأحياء، وقيل: لأن أرواحهم تركع وتسجد كل ليلة تحت العرش إلى يوم القيامة، وقيل: لأن الشهيد لا يبلى في القبر، ولا تأكله الأرض، وقال عبيدة بن عمير: مرَّ رسول الله ﷺ حين انصرف من أُحُد على مصعب بن عمير وهو مقتول فوقف عليه ودعا له ثم قرأ ﴿ منَ المؤمنين رجالٌ صدقُوا ما عاهدُوا اللَّهَ عليه ﴾ [الأحزاب: ٢٣]، ثم قال رسول الله ﷺ: «أشهد أن هؤلاء شهداء عند الله يوم القيامة، ألا فأتُوهمْ وزُرُوهم وسلِّموا عليهم، فوالذي نفسي بيده لا يُسلم عليهم أحد إلى يوم القيامة إلاّ ردّوا عليه». ﴿ يُرزَقُون ﴾، من ثمار الجنة وتُحفها.

﴿ فرحينَ بما آتاهُم اللَّهُ منْ فضْلِه ﴾، رزقه وثوابه، ﴿ ويستبشرون ﴾، ويفرحون، ﴿ بالَّذين لم يلحقُوا بهم مِنْ خلفهم ﴾، من إخوانهم الذين تركوهم أحياءً في الدنيا على مناهج الإيمان والجهاد لعلمهم أنهم إذا استشهدوا ولحقُوا بهم ونالُوا من الكرامة ما نالوا، فهم لذلك مستبشرُون، ﴿ أنْ لَا خوفٌ عليهمْ ولا هُمْ يحزنُون ﴾.

﴿ يستبشرُون بنعمةٍ منَ اللَّهِ وفَضْلٍ وأنَّ اللَّهَ ﴾ أي: وبأن الله، وقرأ الكسائي بكسر الألف على الاستئناف،

ذكر أنهم أيضاً يستبشرون لأنفسهم بما رزقوا من النعيم والفضل فالاستبشار الأول كان لغيرهم والاستبشار الثاني لأنفسهم خاصة ﴿وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين﴾ يعني كما أنه تعالى لا يضيع أجر المجاهدين والشهداء كذلك لا يضيع أجر المؤمنين.

فصل في فضل الجهاد في سبيل الله

(ق) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: تضمن الله لمن خرج في سبيله لا يخرجه إلّا جهاد في سبيل وإيمان بي وتصديق برسلي فهو على ضامن أن أدخله الجنة أو أرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه نائلاً ما نال من أجر أو غنيمة. والذي نفس محمد بيده ما من كلم يكلم في سبيل الله إلّا جاء يوم القيامة كهيئته حين يكلم لونه لون دم وريحه ريح مسك. والذي نفس محمد بيده لولا أن يشق على المسلمين ما قعدت خلاف سرية تغزو في سبيل الله أبداً ولكن لا أجد سعة فأحملهم ولا يجدون سعة ويشق عليهم أن يتخلفوا عني. والذي نفس محمد بيده لوددت أني أغزو في سبيل الله فأقتل ثم اغزوا فأقتل لفظ (ق) عن أنس أن رسول الله ﷺ قال لغدوة في سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها (ق) عن سهل بن سعد أن رسول الله ﷺ قال: رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها وموضع سوط أحدكم في الجنة خير من الدنيا وما عليها. عن فضالة بن عبيد أن رسول الله ﷺ قال: كل ميت يختم على عمله إلّا المرابط في سبيل الله فإنه ينمى له عمله إلى يوم القيامة ويأمن من فتنة القبر أخرجه أبو داود والترمذي عن معاذ بن جبل أنه سمع رسول الله ﷺ يقول من قاتل في سبيل الله فواق ناقة وجبت له الجنة ومن سأل الله القتل في سبيل الله صادقاً من نفسه ثم مات أو قتل كان له أجر شهيد، ومن جرح جرحاً في سبيل الله أو نكب نكبة فإنها تجيء يوم القيامة كأغزر ما كانت لونها لون الزعفران وريحها ريح المسك ومن خرج به خراج في سبيل الله فإن عليه طابع الشهداء. أخرجه أبو داود والنسائي وأخرجه الترمذي مفرقاً في موضعين (ق) عن أبي سعيد قال: أتى رجل رسول الله ﷺ فقال: أي الناس أفضل؟ قال: مؤمن مجاهد بنفسه وماله في سبيل الله قال ثم من قال رجل في شعب من الشعاب يعبد الله وفي رواية يتقي الله ويدع الناس من شره (خ) عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: من احتبس فرساً في سبيل الله إيماناً واحتساباً وتصديقاً فإن شبعه وريه وروثه وبوله في ميزانه يوم القيامة يعني حسنات (ق) عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: ما أحد يدخل الجنة فيحب أن يرجع إلى الدنيا وله ما على الأرض من شيء إلّا الشهيد يتمنى أن يرجع إلى الدنيا فيقتل عشر مرات لما يرى من الكرامة وفي رواية لما يرى من فضل الشهادة (م) عن عبدالله بن عمرو بن العاص أن رسول الله ﷺ قال يغفر للشهيد كل ذنب إلى الدين عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: ما يجد الشهيد من مس القتل إلّا كما يجد

﴿ لا يُضيعُ أجرَ المؤمنين ﴾، أخبرنا أبو الحسن السرخسي أنا زاهر بن أحمد أبو إسحق الهاشمي أنا أبو مصعب عن مالك عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة رضي الله عنه أنّ رسول الله ﷺ قال: «تَكَفَّلَ اللَّهُ لِمَنْ جاهَدَ في سبيله لا يُخرجُه من بيتِه إلّا الجهادُ في سبيلِه وتصديقُ كلمتِه، أنْ يُدخلَه أو يُرجعَه إلى مسكنِه الذي خرجَ منه مع ما نال من أجرٍ أو غنيمة»، وقال: «والذي نفسي بيده لا يُكْلَمُ أحدٌ في سبيل الله والله أعلم بمَن يُكلم في سبيلِه إلّا جاء يوم القيامةِ وجُرحه يثعَبُ دماً اللونُ لونُ الدمِ والريحُ ريحُ المسك»، أخبرنا الإمام أبو علي الحسن بن محمد القاضي أنا أبو طاهر محمد بن محمد بن محمش الزيادي أنا أبو بكر محمد بن الحسين القطان أنا علي بن الحسن الدرابجردي أنا عبد الله بن يزيد المقري أنا سعيد حدّثني محمد بن عجلان عن القعقاع بن حكيم عن أبي صالح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الشهيدُ لا يجدُ ألَمَ القتلِ إلّا كما يجدُ أحدُكم ألَمَ القَرْصَة».

أحدكم من القرصة أخرجه الترمذي؛ وللنسائي نحوه عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ يشفع الشهيد في سبعين من أهل بيته أخرجه أبو داود: قوله عز وجل: ﴿**الذين استجابوا لله والرسول**﴾ الآية قال أكثر المفسرين أن أبا سفيان وأصحابه لمّا انصرفوا من أحد فبلغوا الروحاء ندموا على انصرافهم وتلاوموا فقالوا: لا محمداً قتلتم ولا الكواعب أردفتم قتلتموهم حتى إذا لم يبق إلاّ الشريد تركتوهم ارجعوا فاستأصلوهم فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فأراد أن يرهب العدو ويريهم من نفسه وأصحابه قوة فندب أصحابه للخروج في طلب أبي سفيان فانتدب عصابة منهم مع ما بهم من ألم الجراح والقرح الذي أصابهم يوم أحد وناد مناد رسول الله ﷺ ألا لا يخرجن معنا أحد إلاّ من حضرنا بالأمس فكلمه جابر بن عبدالله فقال: يا رسول الله إن أبي كان خلفني على أخوات لي سبع وقال لي بني إنه لا ينبغي لي ولا لك أن نترك هؤلاء النسوة ولا رجل فيهن ولست بالذي أوثرك على نفسي بالجهاد مع رسول الله ﷺ فتخلف على أخواتك فتخلفت عليهن فأذن له رسول الله ﷺ فخرج معه وإنما خرج رسول الله ﷺ مرهباً للعدو وليبلغهم أنه خرج في طلبهم فيظنوا به قوة وأن الذي أصابهم لم يوهنهم فينصرفوا فخرج رسول الله ﷺ ومعه أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير وسعد وسعيد وعبدالرحمن بن عوف وأبو عبيدة بن الجراح وعبدالله بن مسعود وحذيفة بن اليمان في سبعين رجلاً من أصحابه حتى بلغوا حمراء الأسد وهي من المدينة على ثمانية أميال، (ق) عن عائشة في قوله الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح، الذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم. قالت لعروة: يا ابن أختي كان أبواك منهم الزبير وأبو بكر لما أصاب نبي الله ﷺ ما أصاب يوم أحد وانصرف المشركون خاف أن يرجعوا فقال من يذهب في أثرهم فانتدب منهم سبعون رجلاً كان فيهم أبو بكر والزبير قال: فمر برسول الله ﷺ الخزاعي بحمراء الأسد كانت خزاعة مسلمهم وكافرهم عيبة رسول الله ﷺ بتهامة صفقتهم معه لا يخفون عنه شيئاً كان بها ومعبد يومئذٍ مشرك فقال يا محمد والله لقد عز علينا ما أصابك في

قوله تعالى: ﴿ **الذينَ استجابُوا للّهِ والرَّسولِ** ﴾ الآية، وذلك أن أبا سفيان وأصحابه لمّا انصرفوا من أُحُد فبلغوا الروحاء ندموا على انصرافهم وتلاوموا وقالوا: لا محمداً قتلتم ولا الكواعب أردفتم، قتلتموهم حتى إذا لم يبقَ إلاّ الشريد تركتموه؟ ارجعوا فاستأصلوهم، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فأراد أن يُرهب العدو، ويُريهم من نفسه وأصحابه قوةً فندب أصحابَه للخروج في طلب أبي سفيان، فانتدب عصابةٌ منهم مع ما بهم من الجرح والقرح الذي أصابهم يوم أُحُد ونادَى منادي رسول الله ﷺ: ألاَ لَا يخرجنّ معنا أحدٌ إلاّ مَن حضرَ يومنا بالأمس، فكلّمه جابر بن عبد الله، فقال: يا رسول الله إنّ أبي كان قد خلفني على أخوات لي سبع، وقال لي: يا بني إنه لا ينبغي لي ولا لك أن تترك هؤلاء النسوة لا رجل فيهنّ، ولستُ بالذي أُوثرك على نفسي في الجهاد مع رسول الله ﷺ، فتخلّفْ على أخواتك، فتخلّفتُ عليهم، فأذنَ له رسول الله ﷺ فخرج معه، وإنّما خرج رسول الله ﷺ مُرْهباً للعدو، وليبلغهم أنه خرج في طلبهم فيظنّوا أن بهم قوة وأن الذي أصابهم لم يُوهنهم فينصرفوا، فخرج رسول الله ﷺ ومعه أبو بكر وعمر وعثمان وعليّ وطلحة والزبير وسعد وسعيد وعبد الرحمن بن عوف وعبد الله بن مسعود وحذيفة بن اليمان وأبو عبيدة بن الجراح في سبعين رجلاً رضي الله عنهم حتى بلغوا حمراءَ الأسد، وهي من المدينة على ثمانية أميال، فروى عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت لعبد الله بن الزبير: يا ابن أُختي أما والله إنّ أباكَ وجدَّك تعني أبا بكر، والزبير لَمِنَ الذين قال الله عزّ وجلّ فيهم: ﴿ **الذين استجابوا للّهِ والرسول مِنْ بعدِ ما أصابَهُم القَرْحُ** ﴾، فمرّ برسول الله ﷺ معبد الخزاعي بحمراء الأسد وكانت خزاعة مُسلمهم وكافرهم عيبةَ نصحِ رسول الله ﷺ عليهم بتهامة، صفقتُهم معه لا يُخفونَ عنه شيئاً، وكان معبد يومئذ مشركاً فقال: يا محمد والله لقد عزّ علينا ما أصابك في أصحابك، ولوددنا أن الله تعالى كان أعفاك منهم، ثم خرج من عند رسول الله ﷺ، حتى لقي أبا سفيان ومَن معه

أصحابك ولوددنا أن الله كان قد أعفاك فيهم. ثم خرج معبد من عند رسول الله ﷺ حتى لقي أبا سفيان ومن معه بالروحاء وقد أجمعوا على الرجعة إلى رسول الله ﷺ وقالوا قد أصبنا جل أصحابه وقادتهم لنكرن على بقيتهم ولنفرغن منهم فلما رأى أبو سفيان معبداً قال له: ما وراءك يا معبد قال محمد قد خرج في أصحابه يطلبكم في جمع لم أر مثله قد يتحرقون عليكم تحرقاً وقد اجتمع معه من كان تخلف عنه في يومكم وندموا على صنيعهم، وفيهم من الحنق عليكم شيء لم أر مثله قط قال أبو سفيان: ويلك ما تقول؟ قال: والله ما أراك ترحل حتى ترى نواصي الخيل قال فوالله لقد أجمعنا الكرة عليهم لنستأصل بقيتهم فقال والله إني أنهاك عن ذلك فوالله لقد حملني ما رأيت على إن قلت أبياتاً قال وما قلت قال قلت:

كـادت تهـدي مـن الأصـوات راحلتـي ... إذ سـالـت الأرض بـالجـرد الأبـابيـل

تـردى بـأسـد كـرام لا تـنـابلـة ... عنـد اللقـاء ولا ميـل معـازيـل

فقلـت ويـل ابـن حـرب مـن لقـائكمـو ... إذا تغطغطـت البطحـاء بـالخيـل

إنـي نـذيـر لأهـل السبـل ضـاحيـة ... لكـل ذي أربـة منهـم ومعقـول

مـن جيـش أحمـد لا وحـش يقـابلـه ... وليـس يـوصـف مـا أنـذرت بـالفيـل

قالوا فثنى ذلك أبا سفيان ومن معه ومر ركب من عبد القيس فقال: أين تريدون؟ قالوا نريد المدينة لأجل الميرة قال: فهل أنتم مبلغون عنا محمداً رسالة وأحمل لكم إبلكم زبيباً بعكاظ إذا وفيتموها قالوا: نعم إذا وافيتموه فأخبروه إنا أجمعنا السير إليه وإلى أصحابه لنستأصل بقيتهم وانصرف أبو سفيان إلى مكة ومر الركب برسول الله ﷺ وهو بحمراء الأسد فأخبروه بالذي قال أبو سفيان فقال رسول الله ﷺ وأصحابه: حسبنا الله ونعم الوكيل. ثم انصرف رسول الله ﷺ راجعاً إلى المدينة بعد ثالثة وقال مجاهد وعكرمة نزلت هذه الآية في غزوة بدر

بالروحاء قد أجمعوا الرجعة إلى رسول الله ﷺ، وقالوا: قد أصبنا جُلّة أصحابه وقادتهم لنكرنّ على بقيتهم، فلنفرغنّ منهم، فلمّا رأى أبو سفيان معبداً قال له: ما وراءك يا معبد؟ قال: محمد قد خرج مع أصحابه يطلبكم في جمع لم أرَ مثله قطّ، يتحرّقون عليكم تحرّقاً، قد اجتمع معه مَن كان تخلّف عنه في يومكم ونَدِمُوا على صنيعهم، وفيهم من الحنق عليكم شيءٌ لم أرَ مثله قطّ، قال: ويلك ما تقول؟ قال: والله ما أراك ترحل حتى ترى نواصي الخيل، قال: فوالله لقد أجمعنا الكرّة عليهم، لنستأصلَ بقيّتَهم، قال: فإني والله أنهاك عن ذلك، فوالله لقد حملني ما رأيتُ على أن قلت فيه أبياتاً:

كـادت تهدّ من الأصوات راحلتي ... إذ سالت الأرض بالجراد الأبابيـل

فذكر أبياتاً فردّ ذلك أبا سفيان ومَن معه، ومرّ به ركب من عبد القيس، فقال: أين تريدون؟ قالوا نريد المدينة، قال: ولمَ يقولوا نريد الميرة، قال: فهل أنتم مبلِّغون عنّي محمداً رسالةً وأحمل لكم إبلكم هذه زبيباً بعكاظ غداً إذا وافيتمونا؟ قالوا: نعم، قال: فإذا جئتموه فأخبروه أنّا قد أجمعنا السير إليه وإلى أصحابه لنستأصل بقيتهم، وانصرف أبو سفيان إلى مكة، ومرّ الركب برسول الله ﷺ وهم بحمراء الأسد فأخبروه بالذي قاله أبو سفيان، فقال رسول الله ﷺ وأصحابه: «حَسْبُنَا اللَّهَ ونِعْمَ الوكيل»، ثم انصرف رسول الله ﷺ إلى المدينة بعد الثالثة. هذا قول أكثر المفسرين. وقال مجاهد وعكرمة: نزلت هذه الآية في غزوة بدر الصغرَى، وذلك أن أبا سفيان يوم أُحُد حين أراد أن ينصرف قال: يا محمد بيننا وبينك موسم بدر الصغرى لقابل إن شئت، فقال رسول الله ﷺ: «ذلك بيننا وبينك إن شاء الله» فلما كان العام المقبل خرج أبو سفيان في أهل مكة حتى نزل مجنّة من ناحية مرّ الظهران، ثم ألقى الله

الصغرى وذلك أن أبا سفيان يوم أحد حين أراد أن ينصرف قال يا محمد موعد ما بيننا وبينك موسم بدر الصغرى لقابل إن شئت فقال رسول الله ﷺ ذلك بيننا وبينك إن شاء الله فلما كان العام المقبل خرج أبو سفيان في أهل مكة حتى نزل بمجنة من ناحية مر الظهران ثم ألقي الله الرعب في قلبه فبدى له الرجوع فلقي نعيم بن مسعود الأشجعي وقد قدم معتمراً فقال له أبو سفيان: يا نعيم إني قد واعدت محمداً وأصحابه أن نلتقي بموسم الصغرى وهذا عام جدب ولا يصلحنا إلّا عام نرعى فيه الشجر ونشرب اللبن، وقد بدا لي أن لا أخرج إليها وأكره أن يخرج محمد ولا أخرج أنا فيزيدهم ذلك جراءة ولا أن يكون الخلف من قبلهم أحب إلي من أن يكون من قبلي فألحق بالمدينة فثبطهم وأعلمهم أنا في جمع كثير لا طاقة لهم بنا ولك عندي عشرة من الإبل أضعها لك على يد سهيل بن عمرو ويضمنها لك قال وجاء سهيل فقال له نعيم: يا أبا يزيد أتضمن لي هذه القلائص وانطلق إلى محمد فأثبته قال: نعم، قال: فخرج نعيم حتى أتى المدينة فوجد الناس يتجهزون لميعاد أبي سفيان فقال نعيم: أين تريدون؟ قالوا: واعدنا أبا سفيان أن نلتقي بموسم بدر الصغرى فقال نعيم بئس الرأي رأيتم أتوكم في دياركم وقراركم فلم يفلت منكم إلّا الشريد أفتريدون أن تخرجوا إليهم وقد جمعوا لكم عند الموسم والله لا يفلت منكم أحد فكره أصحاب رسول الله ﷺ الخروج فقال رسول الله ﷺ: والذي نفسي بيده لأخرجن ولو وحدي فأما الجبان فإنه رجع وأما الشجاع فإنه تأهب للقتال وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل فخرج رسول الله ﷺ في أصحابه حتى وافوا بدر الصغرى وكانوا يلقون المشركين فيسألونهم عن قريش فيقولون قد جمعوا لكم يريدون بذلك أن يرعبوا المسلمين فيقول المؤمنون حسبنا الله ونعم الوكيل. حتى بلغوا بدرالصغرى وكانت موضع سوق لهم في الجاهلية يجتمعون إليها كل عام ثمانية أيام فأقام رسول الله ﷺ ببدر ينتظر أبا سفيان وقد انصرف أبا سفيان من مجنة إلى مكة فلم يلق رسول الله ﷺ وأصحابه أحداً من المشركين ووافوا السوق وكان معهم تجارات ونفقات فباعوا فأصابوا بالدرهم

الرعب في قلبه فبدا له الرجوع فلقي نعيم بن مسعود الأشجعي وقد قَدِمَ معتمراً فقال له أبو سفيان: يا نعيم إني واعدتُ محمداً وأصحابه أن نلتقي بموسم بدر الصغرى، وإنّ هذه عام جدب ولا يُصلحنا إلّا عام نرعى فيه الشجر ونشرب فيه اللبن، وقد بدا لي أن لا أخرج إليها، وأكره أن يخرج محمد ولا أخرج أنا فيزيدهم ذلك جراةً ولأن يكون الخلف من قبلهم أحبّ إليّ من أن يكون من قبلي، فالحق بالمدينة فثبطهم وأعلمهم أني في جمع كثير لا طاقة لهم بنا، ولك عندي عشرة من الإبل أضعها لك على يدي سهيل بن عمرو ويضمنها، قال: فجاء سهيل فقال له نعيم يا أبا يزيد: أتضمن لي من هذه القلائص من أبي سفيان وأنطلق إلي محمد وأثبّطه؟ قال: نعم، فخرج نعيم حتى أتى المدينة فوجد الناس يتجهزون لميعاد أبي سفيان فقال: أين تريدون؟ فقالوا: واعدنا أبا سفيان أن نلتقي بموسم بدر الصغرى، قال: بئس الرأي رأيكم أتوكم في دياركم وقرارِكم فلم يفلت منكم إلّا الشريد، أفتريدون أن تخرجوا وقد جمعوا لكم عند الموسم، والله لا يفلت منكم أحد، فكره أصحاب رسول الله ﷺ الخروج، فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفسُ محمدٍ بيده لأخرجنّ ولو وحدي، فأمّا الجبان فإنه رجع، وأمّا الشجاع فإنه تأهب للقتال، وقال: حسبُنا اللَّهُ ونِعمَ الوكيل»، فخرج رسول الله ﷺ في أصحابه حتى وافوا بدراً الصغرى، فجعلوا يلقون المشركين ويسألونهم عن قريش فيقولون قد جمعوا لكم يريدون أن يُرعبوا المسلمين فيقول المؤمنون: حسبنا اللَّهُ ونعم الوكيل، حتى بلغوا بدراً وكانت موضع سوق لهم في الجاهلية يجتمعون إليها في كل عام ثمانية أيام، فأقام رسول الله ﷺ ببدر ينتظر أبا سفيان وقد انصرف أبو سفيان من مجنّة إلى مكة، فلم يلقَ رسول الله ﷺ وأصحابه أحداً من المشركين، ووافقوا السوق وكانت معهم تجارات ونفقات فباعوا وأصابوا بالدرهم درهمين، فانصرفوا إلى المدينة سالمين غانمين، فذلك قوله تعالى: ﴿ الذينَ استجابُوا للَّهِ والرسولِ ﴾ أي أجابوا، ومحل ﴿ الذينَ ﴾

درهمين وانصرفوا إلى المدينة سالمين غانمين فذلك قوله تعالى الذين استجابوا لله والرسول أي أجابوا الله وأطاعوه في جميع أوامره وأطاعوا الرسول أيضاً ﴿من بعدما أصابهم القرح﴾ يعني من بعد ما نالهم من ألم الجراح ﴿للذين أحسنو منهم واتقوا﴾ يعني أحسنوا بطاعة رسول الله ﷺ وأجابوه إلى الغزو واتقوا معصيته والتخلف عنه ﴿أجر عظيم﴾ يعني لهم ثواب جزيل وهو الجنة. قوله عز وجل:.

﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾﴾

﴿الذين قال لهم الناس﴾ هذه الآية متعلقة بالآية التي قبلها لأن المراد بالذين من تقدم ذكره وهم الذين استجابوا لله والرسول وفي المراد بالناس وجوه أحدها: أنه نعيم بن مسعود الأشجعي فيكون اللفظ عاماً أريد به الخاص وإنما جاز إطلاق لفظ الناس على الإنسان الواحد لأن ذلك الواحد إذا فعل فعلاً أو قال قولاً ورضي به غيره حسن إضافة ذلك الفعل والقول إلى الجماعة وإن كان الفاعل واحداً فهو كقوله تعالى: ﴿وإذا قتلتم نفساً﴾ والقاتل واحد والوجه الثاني أن المراد بالناس الركب من عبد القيس قاله ابن عباس ومحمد بن إسحاق. الوجه الثالث أن المراد بالناس المنافقون وذلك أنهم لما رأوا النبي ﷺ يتجهز لميعاد أبي سفيان نهوا أصحابه عن الخروج معه وقالوا لهم أن القوم قد أتوكم في دياركم فقتلوا الأكثر منكم فإن خرجتم إليهم لم يبق أحد منكم ﴿إن الناس﴾ يعني أبا سفيان وأصحابه من رؤساء المشركين ﴿قد جمعوا لكم﴾ يعني الجموع الكثيرة لأن العرب تسمى الجيش جمعاً ويجمعونه جموعاً ﴿فاخشوهم﴾ أي فخافوهم واحذروهم فإنه لا طاقة لكم بهم ﴿فزادهم إيماناً﴾ يعني فزاد المسلمين ذلك التخويف تصديقاً ويقيناً وقوة في دينهم وثبوتاً على نصر نبيهم ﷺ وفي هذه الآية دليل لمن يقول بزيادة الإيمان ونقصانه لأن الله تعالى نص على وقوع الزيادة في الإيمان ﴿وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل﴾ أي كافينا الله هو الذي يكفينا أمرهم فهو كقول امرىء القيس. وحسبك من غني شبع. وروي أي يكفيك الشبع والري ونعم الوكيل يعني ونعم الموكول إليه في الأمور كلها وقيل الوكيل هو الكافي يكفينا الله ونعم الكافي هو. وقيل الوكيل هو الكفيل ووكيل الرجل في ماله هو الذي كفله وقام به والوكيل في صفة الله تعالى هو الكفيل بأرزاق العباد ومصالحهم وأنه الذي يستقل بأمورهم كلها (خ) عن ابن عباس قال في قوله تعالى: ﴿إن الناس قد جمعوا لكم﴾ إلى قوله ﴿وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل﴾ قالها إبراهيم حين ألقي في النار وقالها محمد ﷺ حين قال لهم الناس

خفض على صفة المؤمنين تقديره: إنّ الله لا يُضيع أجرَ المؤمنين المستجيبين الذين استجابوا لله والرسول، ﴿ مِنْ بعدِ ما أصابَهم القَرْح ﴾، أي: نالهم الجرح، وتمّ الكلام ههنا ثم ابتدأ فقال: ﴿ للذينَ أحسَنُوا مِنهم ﴾ بطاعة رسول الله ﷺ وإجابته إلى الغزو، ﴿ واتقوا ﴾، معصيته ﴿ أجر عظيم ﴾.

﴿ الذينَ قالَ لهمُ النّاسُ ﴾ ومحل ﴿ الذين ﴾ خفض أيضاً مردودٌ على الذين الأول وأراد بالناس: نعيم بن مسعود، في قول مجاهد وعكرمة فهو من العام الذي أُريد به الخاصّ كقوله تعالى: ﴿ أم يحسدون الناس ﴾ [النساء: ٥٤] يعني: محمداً ﷺ وحده، وقال محمد بن إسحق وجماعة: أراد بالناس الركب من عبدِ القيس، ﴿ إنّ الناسَ قد جمعُوا لكم ﴾، يعني أبا سفيان وأصحابه، ﴿ فاخْشَوْهم ﴾، فخافوهم واحذروهم، فإنه لا طاقة لكم بهم، ﴿ فزادهم إيماناً ﴾ تصديقاً ويقيناً وقوله: ﴿ وقالوا حسبُنا الله ﴾ أي: كافينا الله، ﴿ ونِعْمَ الوكيل ﴾، أي: الموكَّل إليه الأمور، فعيل بمعنى مفعول، أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي أخبرنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أخبرنا محمد بن يونس أخبرنا أبو بكر عن أبي حصين عن أبي

إن الناس قد جمعوا لكم. قوله تعالى: ﴿فانقلبوا﴾ أي فانصرفوا ورجعوا بعد خروجهم والمعنى وخرجوا فانقلبوا فحذف الخروج لأن الانقلاب يدل عليه ﴿بنعمة من الله﴾ أي بعافية لم يلقوا عدواً ﴿وفضل﴾ أي تجارة وربح وهو ما أصابوا في سوق بدر من الربح وقيل النعمة منافع الدنيا والفضل ثواب الآخرة ﴿لم يمسسهم سوء﴾ أي لم يصيبهم أذى ولا مكروه من قتل وجراح ﴿واتبعوا رضوان الله﴾ يعني في طاعة الله وطاعة رسوله وقيل إنهم قالوا هل يكون هذا غزواً فأعطاهم الله ثواب الغزو ورضي عنهم بمجرد خروجهم مع رسول الله ﷺ ﴿والله ذو فضل عظيم﴾ يعني أنه تعالى تفضل عليهم بالتوفيق لما فعلوا وقيل تفضل عليهم بإلقاء الرعب في قلوب المشركين حتى رجعوا قوله عز وجل:

﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾﴾

﴿وإنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه﴾ يعني إنما ذلكم المخوف والمثبط هو الشيطان يخوف بالوسوسة بأن ألقى ذلك في أفواههم ليرهبوا المؤمنين ويخوفوهم ويجبنوهم قوله أولياءه يعني الشيطان يخوفكم يا معشر المؤمنين بأوليائه. وقيل معناه أولياءه في صدوركم لتخافوهم وقيل معناه يخوف أولياءه المنافقين ليقعدوا عن قتال المشركين وأولياء الشيطان هم الكفار والمنافقون الذين يطيعونه ويؤثرون أمره وأولياء الله هم المؤمنون الذين لا يخافون الشيطان إذا خوفهم ولا يطيعونه إذا أمرهم ﴿فلا تخافوهم﴾ يعني فلا تخافوا أولياء الشيطان ولا تقعدوا عن قتلهم ولا تجبنوا عنهم ﴿وخافون﴾ أي فجاهدوا في سبيلي مع رسولي فإني وليكم وناصركم ﴿إن كنتم مؤمنين﴾ أي مصدقين بوعدي إني متكفل لكم بالنصر والظفر. قوله تعالى: ﴿ولا يحزنك الذين يسارعون في الكفر﴾ قيل هم كفار قريش وقيل هم المنافقون ورؤساء اليهود وقيل هم قوم ارتدوا عن الإسلام والمعنى ولا يحزنك يا محمد من

الضحى عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ﴿ حسبُنا الله ونعم الوكيل ﴾ كلمة قالها إبراهيم حين أُلقي في النار وقالها محمد ﷺ حين قال لهم الناس: ﴿ إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل ﴾.

﴿ فانقلبُوا ﴾، فانصرفوا، ﴿ بنعمةٍ منَ الله ﴾ بعافية لم يلقوا عدوًّا ﴿ وفضلٍ ﴾ تجارة وربح وهو ما أصابوا في السوق ﴿ لم يَمْسَسْهُمْ سُوء ﴾ لم يصبهم أذى ولا مكروه، ﴿ واتبعوا رِضْوانَ الله ﴾ في طاعة الله وطاعة رسوله، وذلك أنهم قالوا: هل يكون هذا غزو فأعطاهم الله ثواب الغزو ورضي عنهم، ﴿ والله ذُو فضل عظيم ﴾.

قوله تعالى: ﴿ إنّما ذلكم الشيطان ﴾، يعني: ذلك الذي قال لكم: ﴿ إنّ النّاسَ قد جمعُوا لكم فاخشوهم ﴾، من فعل الشيطانِ أُلقي في أفواههم لترهبوهم وتجبُنوا عنهم، ﴿ يُخوِّف أولياءَه ﴾، أي يخوفكم بأوليائه، وكذلك هو في قراءة أُبيّ بن كعب يعني: يخوّف المؤمنين بالكافرين، قال السدي: يعظّم أولياءَهُ في صدورهم ليخافوهم، يدلّ عليه قراءة عبد الله بن مسعود « يخوفكم أولياءه »، ﴿ فلا تَخافُوهم وخافُونِ ﴾، في ترك أمري ﴿ إنْ كنتُمْ مؤمنين ﴾، مصدقين بوعدي لأني متكفّل لكم بالنصر والظفر.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ ولا يَحْزُنْك ﴾، قرأ نافع ﴿ يحزنك ﴾ بضم الياء وكسر الزاي، وكذلك في جميع القرآن إلاّ

يسارع في الكفر ويجمع الجموع لمحاربتك فإن هذا المقصود لا يحصل له وقيل مسارعتهم في الكفر ومظاهرتهم الكفار على النبي ﷺ والمعنى يسارعون في نصرة الكفر فلا يحزنك فعلهم فإنك منصور عليهم ﴿**إنهم لن يضروا الله شيئاً**﴾ يعني بمسارعتهم في الكفر إنما يضرون أنفسهم بذلك وقيل معناه لن يضروا أولياء الله شيئاً ﴿**يريد الله ألا يجعل لهم حظاً في الآخرة**﴾ يعني لا يجعل لهم نصيباً في ثواب الآخرة فلذلك خذلهم حتى سارعوا في الكفر. وفي الآية دليل على أن الخير والشرّ بإرادة الله تعالى وفيه رد على القدرية والمعتزلة ﴿**ولهم عذاب عظيم**﴾ يعني في الآخرة ﴿**إن الذين اشتروا الكفر بالإيمان**﴾ يعني المنافقين آمنوا ثم كفروا والمعنى أنهم استبدلوا الكفر بالإيمان فكأنهم أعطوا الإيمان وأخذوا الكفر كما يفعل المشتري من إعطاء شيء وأخذ غيره بدلاً عنه ﴿**لن يضروا الله شيئاً**﴾ يعني باستبدالهم الكفر بالإيمان وإنما ضروا أنفسهم بذلك ﴿**ولهم عذاب أليم**﴾ يعني في الآخرة.

قوله عز وجل: ﴿**ولا يحسبن الذين كفروا**﴾ قرىء تحسبن بالتاء والياء فمن قرأ بالتاء فمعناه ولا تحسبن يا محمد إملاءنا للكفار خير لأنفسهم ومن قرأ بالياء قال: معناه ولا يحسبن الكفار إملاءنا لهم خيراً نزلت في مشركي مكة وقيل نزلت في يهود بني قريظة والنضير ﴿**أنما نملي لهم**﴾ الإملاء الإمهال والتأخير وأصله من الملوءة وهي المدة من الزمان والمعنى ولا يظنن الذين كفروا إن أمهالنا إياهم بطول العمر والإنساء في الأجل ﴿**خير لأنفسهم**﴾ ثم قال تعالى: ﴿**إنما نملي لهم**﴾ ليزدادوا إثماً يعني إنما نمهلهم ونؤخر في آجالهم ليزدادوا إثماً ﴿**ولهم عذاب مهين**﴾ يعني في الآخرة روى البغوي بسنده عن عبدالرحمن بن أبي بكر عن أبيه قال سئل رسول الله ﷺ أيّ الناس خير؟ قال: من طال عمره وحسن عمله قيل فأيّ الناس شرّ؟ قال: من طال عمره وساء عمله وروى ابن جرير الطبري بسنده عن الأسود قال: قال عبدالله: ما من نفس برة ولا فاجرة إلاّ والموت خير لها. وقرأ: ﴿**ولا يحسبن الذين كفروا أنما إثماً لهم خير لأنفسهم إنما نملي لهم ليزدادوا إثماً**﴾ وقرأ ﴿نزلاً من عند الله وما عند الله خير للأبرار﴾ وقال ابن الأنباري قال جماعة من أهل العلم أنزل الله عز وجل هذه الآية في قوم يعاندون الحق سبق في علمه أنهم لا يؤمنون فقال إنما نملي لهم ليزدادوا إثماً بمعاندتهم الحق وخلافهم الرسول وقد قال رسول الله ﷺ إذا

قوله: ﴿ لا يحزنُهم الفزعُ الأكبر ﴾ [الأنبياء: ١٠٣]، ضدّه أبو جعفر، وهما لغتان: حزن يحزن وأحزن يحزن، إلاّ أن اللغة الغالبة حزن يحزن، ﴿ **الذينَ يُسارِعُونَ في الكفرِ** ﴾، قال الضحاك: هم كفّار قريش، وقال غيره: المنافقون يسارعون في الكفر بمظاهرة الكفّار. ﴿ **إنّهم لنْ يَضُرّوا اللّهَ شيئاً** ﴾، بمسارعتهم في الكفر، ﴿ **يُريدُ اللّهُ ألاّ يجعلَ لهم حظاً في الآخرة** ﴾، نصيباً في ثواب الآخرة، فلذلك خَذَلهم حتى سارعوا في الكفر، ﴿ **ولهم عذابٌ عظيم** ﴾.

﴿ **إنّ الذينَ اشترَوا** ﴾، استبدلوا ﴿ **الكفرَ بالإيمان لنْ يَضُرّوا اللّهَ شيئاً** ﴾، بمسارعتهم في الكفر وإنّما يضرّون أنفسهم، ﴿ **ولهم عذابٌ أليم** ﴾.

﴿ **ولا يحسبنّ الذين كفرُوا** ﴾، قرأ حمزة هذا والذي بعده بالتاء فيهما، وقرأ الآخرون بالياء، فمَن قرأ بالياء « **فالذين** » في محل الرفع على الفاعل وتقديره: لا يحسبنّ الكفّار إملاءَنا لهم خيراً، ومَن قرأ بالتاء يعني: ولا تحسبنّ يا محمد الذينَ كفروا، وإنّما نصب على البدل من الذين، ﴿ **أنما نُملي لهم خيرٌ لأنفسهم** ﴾، والإملاء الإمهال والتأخير، يقال: عشتُ طويلاً وتمليّتُ حيناً، ومنه قوله تعالى: ﴿ **واهجرني مليّاً** ﴾ [مريم: ٤٦] أي: حيناً طويلاً، ثم ابتدأ فقال: ﴿ **إنما نُملي لهم** ﴾، نمهلهم ﴿ **ليزدَادُوا إثماً ولهمْ عذابٌ مُهينٌ** ﴾، قال مقاتل: نزلت في مشركي مكة، وقال عطاء: في قريظة والنضير، أخبرنا عبد الرحمن بن عبد الله القفّال أنا أبو منصور أحمد بن

رأيت الله يعطي على المعاصي فإن ذلك استدراج من الله لخلقه ثم تلا هذه الآية وقال الزجاج هؤلاء قوم أعلم الله نبيه ﷺ أنهم لا يؤمنون أبداً وأن نفاقهم يزيدهم كفراً وإثماً وهذه الآية حجة ظاهرة على القدرية حيث أخبر الله تعالى أنه يطيل أعمار قوم ويمهلهم ليزدادوا كفراً وإثماً وغياً. قوله تعالى:.

﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾﴾

﴿ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب﴾ اختلف العلماء في سبب نزول هذه الآية فقال الكلبي قالت قريش يا محمد تزعم أن من خالفك فهو في النار والله عليه غضبان وإن من أطاعك وتبعك على دينك فهو في الجنة والله عنه راض فأخبرنا بمن يؤمن بك ومن لا يؤمن بك فأنزل الله تعالى هذه الآية وقال السدي قال رسول الله ﷺ: «عرضت على أمتي في صورها في الطين كما عرضت على آدم وأعلمت من يؤمن بي ومن يكفر بي» فبلغ ذلك المنافقين فقالوا استهزاء زعم محمداً أنه يعلم من يؤمن به ومن يكفر ممن لم يخلق بعد ونحن معه وما يعرفنا فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقام على المنبر فحمد الله تعالى وأثنى عليه ثم قال: ما بال أقوام طعنوا في علمي لا تسألوني عن شيء فيما بينكم وبين الساعة إلّا نبأتكم به فقام عبدالله بن حذافة السهمي فقال من أبي يا رسول الله فقال حذافة فقام عمر فقال يا رسول الله رضينا بالله رباً وبالإسلام ديناً وبالقرآن إماماً وبك نبيّاً فاعفُ عنا عفا الله عنك فقال النبي ﷺ فهل أنتم منتهون فهل أنتم منتهون ثم نزل عن المنبر فأنزل الله هذه الآية. وقيل إن المؤمنين سألوا أن يعطوا آية يفرقون بها بين المؤمن والكافر فنزلت هذه الآية وقيل إن قوماً من المنافقين ادعوا أن إيمانهم كإيمان المؤمنين فأظهر الله نفاقهم يوم أحد وأنزل هذه الآية واختلفوا في معنى الآية وحكمها فقال ابن عباس وأكثر المفسرين الخطاب للكفار والمنافقين والمعنى ما كان ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه يا معشر الكفار والمنافقين من الكفر والنفاق حتى يميز الخبيث من الطيب وقيل الخطاب للمؤمنين والمعنى ما كان الله

الفضل البروجردي أنا أبو أحمد بكر بن محمد بن حمدان الصيرفي أنا محمد بن يونس أنا أبو داود الطيالسي أنا شعبة عن علي بن زيد عن عبد الرحمن بن أبي بكر عن أبيه قال: سُئل رسول الله ﷺ أيّ الناس خير؟ قال: «مَن طالَ عمرُه وحَسُن عملُه»، قيل: فأيّ الناس شر؟ قال: مَن طالَ عمرُه وساءَ عملُه».

قوله تعالى: ﴿ما كانَ اللّهُ ليذرَ المؤمنينَ على ما أنتُم عليه حتى يَميزَ الخبيثَ من الطيب﴾، اختلفوا فيها، فقال الكلبي: قالت قريش: يا محمد تزعم أن مَن خالفكَ فهو في النار واللّهُ عليه غضبان، وأن مَن اتّبعكَ على دينك فهو في الجنة، والله عنه راضٍ، فأخبرنا بمَن يُؤمن بك وبمَن لا يؤمن بك، فأنزل الله تعالى هذه الآية: وقال السدي: قال رسول الله ﷺ: «عُرضتْ عليّ أُمتي في صورها في الطين كما عُرضتْ على آدم، وأُعلمتُ مَن يؤمن بي ومَن يكفر بي»، فبلغ ذلك المنافقين، فقالوا استهزاءً: زعم محمد أنه يعلم مَن يؤمن به ومَن يكفر ممّن لم يخلق بعد، ونحن معه وما يعرفنا، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فقام على المنبر فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «ما بال أقوام طعنُوا في علمي لا تسألوني عن شيء فيما بينكم وبين الساعة إلاّ أنبأتكم به»، فقام عبد الله بن حُذافة السهمي، فقال: مَنْ أبي يا رسول الله؟ قال: حذافة، فقام عمر فقال: يا رسول الله رضينا بالله ربّاً وبالإسلام ديناً وبالقرآن إماماً وبك نبيّاً فاعفُ عنّا عفا الله عنك، فقال النبي ﷺ: «فهل أنتم منتهون»؟ ثم نزل عن المنبر، فأنزل الله تعالى هذه الآية. واختلفوا في حكم الآية ونظمها، فقال ابن عباس رضي الله عنهما والضحاك ومقاتل والكلبي وأكثر المفسرين: الخطاب للكفّار والمنافقين، يعني: ﴿ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه﴾ يا معشر الكفّار

ليذركم يا معشر المؤمنين على ما أنتم عليه من اختلاط المؤمن بالمنافق والتباس بعضهم ببعض حتى يميز الخبيث من الطيب يعني المنافق من المؤمن الخالص فيميز الله المؤمنين من المنافقين يوم أحد فأظهر المنافقون النفاق وتخلفوا عن رسول الله ﷺ وقيل: إنما حصل التمييز يوم أحد بإلقاء الجميع في الخوف والقتل والهزيمة فمن كان مؤمناً ثبت على إيمانه وتصديقه ولم يتزلزل ومن كان منافقاً ظهر نفاقه وكفره وقيل في معنى الآية حتى يميز المؤمن من الكافر بالجهاد والهجرة. وقيل في معنى الآية ما كان الله ليذر المؤمنين في أصلاب الرجال المشركين وأرحام النساء المشركات. والمعنى ما كان الله ليدع أولادكم الذين جرى لهم الحكم بالإيمان على ما أنتم عليه من الشرك حتى يميز الخبيث من الطيب يعني يفرق بينكم وبين من في أصلابكم وأرحام نسائكم من المؤمنين فيحكم لأهل الإيمان بالجنة ولأهل الشرك والكفر والنفاق بالنار ﴿**وما كان الله ليطلعكم على الغيب**﴾ الخطاب في قوله ليطلعكم لكفار قريش الذين قالوا يا محمد أخبرنا عمن يؤمن بك ومن لا يؤمن والمعنى وما كان الله ليبين لكم أيها الكفار المؤمن من الكافر فيقول فلان مؤمن وفلان كافر أو منافق لأنه لا يعلم الغيب أحد غيره وإن سنة الله جارية أنه لا يطلع على غيبة أحاد الناس فلا سبيل إلى معرفة المؤمن من الكافر والمنافق إلاّ بالامتحان بالآفات والمصائب فيتميز المؤمن المخلص بثباته على إيمانه ويتزلزل المنافق عن المحن والبلايا. وقيل في معنى الآية وما كان الله ليطلع محمداً على الغيب فيخبركم بالمؤمن من الكافر ﴿**ولكن الله يجتبي من رسله من يشاء**﴾ يعني ولكن الله يصطفي ويختار من رسله من يشاء فيطلعه على ما يشاء من غيبه ﴿**فآمنوا بالله ورسله**﴾ يعني أنه لما قالت الدلائل على صحة نبوة محمد ﷺ فلم يبق إلاّ الإيمان بالله ورسوله محمد ﷺ وإنما قال ورسله على الجمع ولم يقل ورسوله على التوحيد لقوله ولكن الله يجتبي من رسله من يشاء ولأنه إذا أقر بجميع الرسل كان مقراً بأحدهم وهذه صفة المؤمنين لأنهم آمنوا بجميع الرسل ﴿**وإن تؤمنوا وتتقوا**﴾ يعني وأن تصدقوا أجتبيته برسالتي وأطلعته على ما أشاء من غيبي وأعلمته بالمنافق منكم والمؤمن المخلص وتتقوا ربكم فيما أمركم به ونهاكم عنه ﴿**فلكم أجر عظيم**﴾ يعني فلكم بأيمانكم واتقائكم ثواب جزيل وهو الجنة. قوله عز وجل: .

والمنافقين من الكفر والنفاق ﴿ **حتى يميزَ الخبيثَ من الطيب** ﴾، وقال قوم: الخطاب للمؤمنين الذين أخبر عنهم، معناه: ما كانَ الله ليذركم يا معشر المؤمنين على ما أنتم عليه من التباس المؤمن بالمنافق، فرجع من الخبر إلى الخطاب ﴿ **حتى يميزَ الخبيثَ من الطيب** ﴾، وقرأ حمزة والكسائي ويعقوب بضمّ الياء وتشديدها وكذلك التي في الأنفال، وقرأ الباقون بالتخفيف، يقال: ماز الشيء يميزُه ميزاً وميّزه تمييزاً إذا فرّقه فامتاز، وإنما هو بنفسه، قال أبو معاذ: إذا فرّقت بين شيئين، قلت: مزت ميزاً، فإذا كانت أشياء، قلت: ميّزتها تمييزاً، وكذلك إذا جعلت الشيء الواحد شيئين قلت: فَرَقتَ بالتخفيف، ومنه فرقت الشعر، فإن جعلته أشياء، قلت: فرّقته تفريقاً، ومعنى الآية: حتى يميزَ المنافق من المخلص، فميّز اللّهُ المؤمنين من المنافقين يوم أُحد حيثُ أظهروا النفاق فتخلّفوا عن رسول الله ﷺ، وقال قتادة: حتى يميز الكافر من المؤمن بالهجرة والجهاد، وقال الضحاك: ﴿ **ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه** ﴾ في أصلاب الرجال وأرحام النساء يا معشر المنافقين والمشركين حتى يفرّق بينكم وبين مَن في أصلابكم وأرحام نسائكم من المؤمنين، وقيل: ﴿ **حتى يميز الخبيثَ** ﴾ وهو المذنب ﴿ **من الطيب** ﴾ وهو المؤمن، يعني: حتى تحطّ الأوزار عن المؤمن بما يصيبه من نكبة ومحنة ومصيبة، ﴿ **وما كانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكم على الغيب** ﴾، لأنه لا يعلم الغيبَ أحدٌ غير الله، ﴿ **ولكنّ الله يَجتبي مِن رُسله مَنْ يشاءُ** ﴾ فيُطلعه على بعض علم الغيب، نظيره قوله تعالى: ﴿ عالمُ الغيبِ فلا يُظهر على غيبه أحداً إلاّ مَنِ ارتضَى منْ رَسولٍ ﴾ [الجنّ: ٢٦]، وقال السدي: معناه وما كان الله ليطلع محمداً ﷺ على الغيب ولكن الله اجتباه، ﴿ **فآمِنُوا باللَّهِ وإنْ تُؤْمِنُوا وتتَّقُوا فلكم أجرٌ عظيم** ﴾.

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ١٨٠﴾

﴿ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم﴾ يعني ولا يحسبن الذين يبخلون البخل خيراً لهم ﴿بل هو﴾ يعني البخل ﴿شر لهم﴾ والبخل هو إمساك المقتنيات عما لا يستحق حبسها عنه والبخيل هو الذي يكثر منه البخل والآية دالة على ذم البخل عن عبدالله بن عمر قال: خطب رسول الله ﷺ فقال: إياكم والشح فإنما هلك من كان قبلكم بالشح. أمرهم بالبخل فبخلوا وأمرهم بالفجور ففجروا أخرجه أبو داود عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ خصلتان لا يجتمعان في مؤمن: البخل وسوء الخلق أخرجه الترمذي وقال حديث حسن غريب واختلف العلماء فيمن نزلت هذه الآية فقال عبدالله بن مسعود وأبو هريرة وابن عباس في رواية أبي صالح عنه والشعبي ومجاهد نزلت هذه الآية في الذين يبخلون أن يؤدوا زكاة أموالهم ووجه هذا القول أن أكثر العلماء ذهبوا إلى أن البخل عبارة عن منع الواجب وأن من منع التطوع لا يكون بخيلاً ويدل عليه الوعيد الشديد في سياق الآية. وهو قوله تعالى سيطوقون ما بخلوا به وهذا لا يكون إلاّ في ترك الواجب لا في التطوع وقال ابن عباس في رواية عطية عنه وابن جريج عن مجاهد أنها نزلت في أحبار اليهود الذين كتموا صفة محمد ﷺ ونبوته وهذا القول هو اختيار الزجاج ووجه هذا القول أن البخل عبارة عن منع الخير والنفع ويدخل فيه العلم كما يقال بخل فلان بعلمه وصحح الطبري القول الأول واختاره وقوله ﴿سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة﴾ أي سيلزمون وبال ما بخلوا به إلزام الطوق فإن حملنا معنى الآية على منع الزكاة والبخل بها فقد قال ابن مسعود وابن عباس يجعل ما منعه من الزكاة حية تطوق في عنقه يوم القيامة تنهشه من فرقه إلى قدمه ويدل على صحة هذا التأويل ما روي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من آتاه الله مالاً فلم يود زكاته مثل له يوم القيام شجاع أقرع له زبيبتان يطوقه يوم القيامة ثم أخذ بلهزمتيه يعني شدقيه ثم يقول: أنا مالك أنا كنزك ثم تلا ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله» الآية أخرجه البخاري قوله زبيبتان قيل هما النكتتان السوداوان فوق عيني الحية وقيل هما نقطتان يكتنفان فاها وقيل هما زبيبتان في شدقيها وقد جاء في الحديث تفسير لهزمتيه بأنهما شدقاه وقيل إنهما مضغتان في أصل الحنك وقيل هما منحنى اللحيين أسفل من الأذنين وكله متقارب. (ق) عن أبي ذر قال: انتهيت إلى النبي ﷺ وهو جالس في ظل الكعبة فلما رآني قال: هم الأخسرون ورب الكعبة قال: فجئت حتى جلست فلم أتقار أن قمت فقلت يا رسول الله فداك أبي وأمي من هم؟ قال هم الأكثرون أموالاً إلاّ من قال هكذا وهكذا وهكذا من بين يديه ومن خلفه

﴿ ولا يحسبنّ الذين يبخلون بما آتاهم اللَّهُ من فضْلِهِ هو خيراً لهم ﴾، أي: ولا يحسبنّ الباخلون البخل خيراً لهم، ﴿ بلْ هو ﴾، يعني: البخل، ﴿ شرٌّ لهم سَيُطَوَّقُونَ ﴾، أي: سوف يطوقون، ﴿ ما بَخِلُوا به يومَ القيامة ﴾، يعني: يجعل ما منعه من الزكاة حيَّةً تُطوّق في عنقه يوم القيامة تنهشه من فوقه إلى قدمه، هذا قول ابن مسعود وابن عباس وأبي وائل والشعبي والسدي: أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا علي بن عبد الله المديني أنا هاشم بن قاسم أخبرنا عبد الرحمن بن دينار عن أبي صالح السمان عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن آتاه اللَّهُ مالاً فلم يؤدِّ زكاتهُ مُثّل له يوم القيامة شجاعاً أقرعَ له زبيبتان، يُطوِّقه يوم القيامة فيأخذ بلهزمتيه، يعني شدقيه، ثم يقول: أنا مالك أنا كنزك، ثم تلا: ﴿ ولا يحسبنّ الذين يبخلُون ﴾ الآية». أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا عمرو بن حفص بمن غياث أنا أبي أنا الأعمش عن المعرور بن سويد عن أبي ذر

وعن يمينه وعن شماله وقيل ما هم ما من صاحب إبل ولا بقر ولا غنم لا يؤدي زكاتها إلاّ جاءت يوم القيامة أعظم ما كانت وأسمنه تنطحه بقرونها وتطؤه بأظلافها كلما نفذت أخراها عادت عليه أولاها حتى يقضي بين الناس لفظ مسلم وفرقه البخاري، بمعناه في موضعين. وقيل في معنى الآية أنه يجعل في أعناقهم أطواق من النار وقيل يكلفون يوم القيامة أن يأتوا بما بخلوا به من أموالهم في الدنيا وإن حملنا تفسير البخل على البخل بالعلم وكتمانه فقد قال ابن عباس في قوله سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة أي يحملون وزره وإثمه فيكون على طريق التمثيل كما يقال قلدتك هذا الأمر وجعلته في عنقك وقيل يجعل في رقابهم طوق من نار ويدل عليه ما روي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ من سئل علماً يعلمه فكتمه ألجم بلجام من نار أخرجه الترمذي وفي رواية أبي داود من سئل عن علم فكتمه ألجمه الله بلجام من نار يوم القيامة قيل في معنى الحديث إنهم لما سألوا عن العلم فكتموه ولم ينطقوا به بألسنتهم ولم يخرجوه من أفواههم عوضوا عن ذلك بلجام من نار في أفواههم عقوبة لهم والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿ولله ميراث السموات والأرض﴾ يعني أنه سبحانه وتعالى الباقي الدائم بعد فناء خلقه وزوال أملاكهم فيموتون وتبقى أملاكهم فيرثها سبحانه والمقصود من الآية أنه يبطل ملك جميع المالكين ويبقى الملك لله تعالى وقيل في معنى الآية وله ما فيهما مما يتوارثه أهلهما من مال وعلم وغير ذلك فما لهؤلاء البخلاء يبخلون عليه بملكه ولا ينفقونه في سبيله ﴿والله بما تعملون خبير﴾ قرىء يعملون الياء على الغيبة على طريقة الالتفات وهي أبلغ في الوعيد والمعنى والله بما يعملون يعني البخلاء من منعهم الحقوق خبير فيجازيهم عليه وقرىء بالتاء على خطاب الحاضرين قوله عز وجل: .

﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ۘ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾﴾

﴿لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء﴾ قال الحسن وقتادة لما نزلت هذه الآية من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً قالت اليهود إن الله فقير يستقرض منا ونحن أغنياء وذكر الحسن أن القائل هذه المقالة هو حيي بن أخطب وقال عكرمة والسدي ومقاتل ومحمد بن إسحاق كتب النبي ﷺ مع أبي بكر الصديق إلى يهود بني

رضي الله عنه قال: انتهيت إليه يعني النبي ﷺ فقال: «والذي نفسي بيده أو والذي لا إله غيره أو كما حلف، ما من رجلٍ يكون له إبل أو بقر أو غنم لا يُؤدي حقّها إلاّ أُتي بها يوم القيامة أعظم ما يكون وأسمنه، تطؤه بأخفافها وتنطحهُ بقرونِها كلّما جاوزتْ أُخراها رُدّتْ عليه أولاها حتى يُقضَى بين النّاس»، قال إبراهيم النخعي: معنى الآية يجعل يوم القيامة في أعناقهم طوقاً من النار، قال مجاهد: يُكلفون يوم القيامة أن يأتوا بما بخلوا به في الدنيا من أموالهم. وروى عطية عن ابن عباس: أن هذه الآية نزلت في أحبار اليهود الذين كتمُوا صفة محمد ﷺ ونبوّته، وأراد بالبخل كتمان العلم كما قال الله عــزّ وجــلّ: ﴿ الذين يبخلونَ ويأمُرون الناسَ بالبخلِ ويكتُمون ما آتاهُم اللّهُ من فضْله ﴾ [النساء: ٣٧] ومعنى قوله: ﴿ سيُطوقونَ ما بخلُوا به يومَ القيامة ﴾ أي: يحملون وزرَه وإثمَه، كقوله تعالى: ﴿ يحملون أوزارَهم على ظُهورهم ﴾ [الأنعام: ٣١]. ﴿ وللّهِ ميراثُ السمواتِ والأرضِ ﴾، يعني: أنه الباقي الدائم بعد فناء خلقه وزوال أملاكهم فيموتون ويرثهم، نظيره قوله تعالى: ﴿ إنّا نحنُ نرثُ الأرضَ ومَن عليها ﴾ [مريم: ٤٠]، ﴿ واللّهُ بما تعملون خبير ﴾، قرأ أهل البصرة ومكة بالياء، وقرأ الآخرون بالتاء.

قوله تعالى: ﴿ لقدْ سمعَ اللّهُ قولَ الذينَ قالوا إنّ اللّهَ فقيرٌ ونحنُ أغنياء ﴾، قال الحسن ومجاهد: لمّا نزلت: ﴿ مَنْ ذَا الذي يُقرضُ اللّهَ قرْضاً حسناً ﴾ [البقرة: ٢٤٥، الحديد: ١١] قالت اليهود: إن الله فقير يستقرض منّا

قينقاع يدعوهم إلى الإسلام وإلى إقام الصلاة وإيتاء الزكاة وأن يقرضوا الله قرضاً حسناً فدخل أبو بكر ذات يوم بيت مدراسهم فوجد ناساً كثيراً قد اجتمعوا على فنحاص بن عازوراء وكان من علمائهم ومعه حبر آخر يقال له أسبيع فقال أبو بكر لفنحاص: اتق الله وأسلم فوالله إنك لتعلم أن محمداً رسول الله ﷺ قد جاءكم بالحق من عند الله تجدونه مكتوباً عندكم في التوراة فآمن وصدق وأقرض الله قرضاً حسناً يدخلك الجنة ويضاعف لك الثواب. فقال فنحاص: يا أبا بكر تزعم أن ربنا يستقرض أموالنا وما يستقرض إلاّ الفقير من الغني فإن كان ما تقول حقاً فإن الله إذاً فقير ونحن أغنياء فغضب أبو بكر وضرب وجه فنحاص ضربة شديدة وقال والذي نفسي بيده لولا العهد الذي بيننا وبينكم لضربت عنقك يا عدو الله فذهب فنحاص إلى رسول الله ﷺ وقال: يا محمد انظر ما صنع بي صاحبك فقال رسول الله ﷺ لأبي بكر ما حملك على ما صنعت فقال يا رسول الله إن هذا عدو الله قال قولاً عظيماً زعم أن الله فقير وأنهم أغنياء فغضبت لله وضربت وجهه فجحد ذلك فنحاص فأنزل الله تصديقاً لأبي بكر وتكذيباً لفنحاص ورداً عليهم: ﴿**لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء**﴾ وهذه المقالة وإن كانت قد صدرت من واحد من اليهود لكنهم يرضون بمقالته هذه فنسبت إلى جميعهم ولا يخلوا أن يكونوا قالوا هذه المقالة عن اعتقاد لذلك القول أو قالوها استهزاء وأيهما كان فهذه المقالة عظيمة القبح لا تصدر عن عاقل وإنما صدرت عن كافر متمرد في كفره وضلاله ﴿**سنكتب ما قالوا**﴾ يعني قولهم إن الله فقير ونحن أغنياء لأن ذلك كذب وافتراء والمعنى سنحفظ عليهم ما قالوا وقيل: سنثبت ذلك القول في صحائف أعمالهم التي تكتبها الحفظة عليهم حتى يوافوا بها يوم القيامة فهو وعيد وتهديد لهم ﴿**وقتلهم الأنبياء بغير حق**﴾ قيل معناه سنكتب ما قال هؤلاء اليهود ونكتب ما فعله أسلافهم فنجازي كلا الفريقين بما هو أهله وإنما نسب قتل الأنبياء إلى اليهود الذين كانوا في زمن النبي ﷺ وإنما فعله أسلافهم وأوائلهم لأنهم رضوا بفعلهم فنسب إليهم. وقيل في معنى الآية سنكتب على هؤلاء ما قالوا بأنفسهم ونكتب عليهم أيضاً رضاهم بقتل آبائهم الأنبياء والفائدة في ضم قتلهم الأنبياء إلى ما وصفوا الله تعالى بالفقر الإعلام بذلك أنهما أخوان في العظم وإن هذا القول منهم ليس بأول ما ارتكبوه من العظائم وأنهم أصلاء في الكفر والجهل والضلال ولهم في ذلك سوابق، وأن من قتل الأنبياء لا يبعد منه الإجتراء على مثل هذا القول العظيم الفحش والقبح ﴿**ونقول**﴾ يعني لهؤلاء الذين قالوا هذه المقالة ﴿**ذوقوا عذاب الحريق**﴾ أي ننتقم منهم بأن نقول

ونحن أغنياء، وذكر الحسن: أن قائل هذا الكلام حييّ بن أخطب، وقال عكرمة والسدي ومقاتل ومحمد بن إسحق: كتب النبي ﷺ مع أبي بكر رضي الله عنه إلى يهود بني قينقاع يدعوهم إلى الإسلام أو إلى إقامَ الصلاة وإيتاء الزكاة وأن يقرضوا الله قرضاً حسناً، فدخل أبو بكر رضي الله عنه ذات يوم بيت مدارسهم فوجد ناساً كثيراً من اليهود قد اجتمعوا إلى رجل منهم، يقال له فنحاص بن عازوراء وكان من علمائهم، ومعه حبر آخر يقال له أسبيع فقال أبو بكر لفنحاص: اتّق الله وأسلم فوالله إنك لتعلم أن محمداً رسول الله قد جاءكم بالحق من عند الله تجدونه مكتوباً عندكم في التوراة، فآمنْ وصدّقْ وأقرضِ اللَّهَ قرضاً حسناً يُدخِلْكَ الجنة، ويضاعفْ لك الثوابَ، فقال فنحاص: يا أبا بكر تزعم أن ربَّنا يستقرضُ أموالنا وما يستقرض إلاّ الفقير من الغني؟ فإن كان ما تقول حقاً فإن الله إذاً الفقير ونحن أغنيـاء، وأنه ينهاكم عن الربا ويعطينا، ولو كان غنياً ما أعطانا الربا، فغضب أبو بكر رضي الله عنه وضرب وجه فنحاص ضربةً شديدةً، وقال: والذي نفسي بيده لولا العهد الذي بيننا وبينك لضربتُ عُنقَكَ يا عدوَّ الله، فذهب فنحاص إلى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد انظر ما صنع بي صاحبك، فقال رسول الله ﷺ لأبي بكر رضي الله عنه: «ما حملك على ما صنعت»؟ فقال: يا رسول الله إن عدوّ الله قال قولاً عظيماً زعم أن اللَّهَ فقيرٌ وأنهم أغنياء، فغضبتُ لله فضربت وجهه، فجحد ذلك فنحاص، فأنزل الله تعالى تكذيباً ورداً على فنحاص وتصديقاً لأبي بكر رضي الله عنه: ﴿ ولقد سمعَ اللَّهُ قولَ الذينَ قالوا إنّ الله فقيرٌ ونحنُ أغنياء ﴾، ﴿سنكتُبُ ما قالُوا﴾، من الإفك

لهم يوم القيامة ذوقوا عذاب الحريق كما أذقتم المسلمين الغصص في الدنيا ﴿ذلك﴾ أي ذلك العذاب المحرق جزاء فعلكم حيث وصفتم الله بالفقر وأقدمتم على قتل الأنبياء ﴿بما قدمت أيديكم﴾ إنما ذكر الأيدي على سبيل المجاز لأن الفاعل هو الإنسان لا اليد إلاّ أن اليد لما كانت آلة الفعل حسن إسناد الفعل إليها ولأن أكثر الأعمال يكون باليد فجعل كل عمل كالواقع بالأيدي على سبيل التغليب ﴿وأن الله ليس بظلام للعبيد﴾ فيعذب بغير ذنب بل هو سبحانه وتعالى عادل ومن العدل أن يعاقب المسيء ويثبت المحسن. قوله عز وجل:

﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ ۗ قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٨٣﴾ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾﴾

﴿الذين قالوا إن الله عهد إلينا﴾ قال الكلبي نزلت في كعب بن الأشرف ومالك بن صيفي ووهب بن يهوذا وزيد بن تابوت وفنحاص بن عازوراء وحيي بن أخطب من اليهود أتوا النبي ﷺ فقالوا يا محمد تزعم أن الله بعثك إلينا رسولاً وأنزل عليك كتاباً وإن الله عهد إلينا في التوراة أن لا نؤمن لرسول يزعم أنه جاء من عند الله حتى يأتينا بقربان تأكله النار فإن جئتنا به صدقناك فأنزل الله تعالى ﴿الذين قالوا﴾ يعني قد سمع الله قول الذين ﴿إن الله عهد إلينا﴾ يعني أمرنا وأوصانا في كتبه ﴿أن لا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار﴾ يعني فيكون ذلك دليلاً على صدقه. وذكر الواحدي عن السدي أنه قال إن الله تعالى أمر بني إسرائيل في التوراة من جاءكم يزعم أنه رسول الله فلا تصدقوه حتى يأتيكم بقربان تأكله النار. حتى يأتيكم المسيح ومحمد فإذا أتياكم فآمنوا بهما فإنهما يأتيان بغير قربان. زاد غير الواحدي عنه قال: وكانت هذه العادة باقية فيهم إلى مبعث المسيح عليه السلام ثم ارتفعت وزالت وقيل إن ادعاء هذا الشرط كذب على التوراة وهو من كذب اليهود وتحريفهم ويدل على ذلك أن المقصود في الدلالة على صدق النبي هو ظهور المعجزة الخارقة للعادة فأي معجزة أتى بها النبي قبلت منه وكانت دليلاً على

والفرية على الله فنجازيهم به، وقال مقاتل: سنحفظ عليهم، وقال الواقدي: سنأمر الحَفَظَة بالكتابة، نظيره قوله تعالى: ﴿ وإنّا له كاتبون ﴾ [الأنبياء: ٩٤]، ﴿ وقَتْلَهُمُ الأنبياءَ بغيرِ حقٍّ ونقولُ ذُوقُوا عذابَ الحريق ﴾، قرأ حمزة «سيكتب» بضم الياء، ﴿ وقتلهم ﴾ برفع اللام ﴿ ويقول ﴾ بالياء، و﴿ ذُوقُوا عذابَ الحريق ﴾ أي: النار، وهو بمعنى المحرق، كما يقال: ﴿ لهم عذاب أليم ﴾ [التوبة: ٦١، إبراهيم: ٢٢، النور: ١٩] إلى آخره، أي: مؤلم.

﴿ ذلك بما قدّمتْ أيديكم وأنّ اللّهَ ليسَ بظلّامٍ للعبيد ﴾، فيُعذّب بغير ذنب.

قوله تعالى: ﴿ الذينَ قالوا إنّ اللّهَ عهدَ إلينا ﴾، الآية: قال الكلبي: نزلت في كعب بن الأشرف ومالك بن الصيف ووهب بن يهوذا وزيد بن التابوت وفنحاص بن عازوراء وحيي بن أخطب أتوا النبي ﷺ فقالوا: يا محمد تزعم أن الله تعالى بعثك إلينا رسولاً وأنزل عليك الكتاب وأن الله تعالى قد عهد إلينا في التوراة ﴿ أنْ لا نُؤمنَ لرسول ﴾، يزعم أنه من عند الله، ﴿ حتى يأتينا بقربانٍ تأكُله النار ﴾، فإن جئتنا به صدّقناك؛ فأنزل الله تعالى: ﴿ الذين قالوا ﴾ أي: سمع الله قول الذين قالوا: ومحل ﴿ الذين ﴾ خفض ردّاً على ﴿ الذين ﴾ الأول، ﴿ إنّ الله

صدقه. وقد أتى النبي ﷺ بالمعجزات الباهرات الدالة على صدقه فوجب على كافة الخلق اتباعه وتصديقه والقربان كل ما يتقرب به العبد إلى الله عز وجل من أعمال البر من نسك وصدقة وذبح وكل عمل صالح، ويدل على ذلك قوله ﷺ الصوم جنة والصلاة قربان يعني أنها مما يتقرب بها إلى الله عز وجل. وكانت القرابين والغنائم لا تحل لبني إسرائيل وكانوا إذا قربوا قرباناً أو غنموا غنيمة جمعوا ذلك وجاءت نار بيضاء من السماء لا دخان لها ولها دوي حفيف فتأكل ذلك القربان أو الغنمية وتحرقه فيكون ذلك دليلاً وعلامه على القبول وإذا لم يقبل بقي على حاله ولم تنزل نار. وقال عطاء كانت بنو إسرائيل يذبحون لله فيأخذون الثروب وأطايب اللحم فيضعونها في وسط بيت والسقف مكشوف فيقوم نبيهم عليه السلام في البيت ويناجي ربه عز وجل وبنو إسرائيل خارجون حول البيت فتنزل نار بيضاء لها دوي وحفيف ولا دخان لها فتأكل ذلك القربان ثم قال الله عز وجل مجيباً عن هذه الشبهة التي ذكرها هؤلاء اليهود وإقامة للحجة عليهم ﴿قل﴾ يعني قل يا محمد لهؤلاء اليهود ﴿قد جاءكم﴾ يا معشر اليهود ﴿رسل من قبلي﴾ يعني مثل زكريا ويحيى وعيسى عليهم السلام ﴿بالبينات﴾ يعني بالدلات الواضحات الدالة على صدقهم ﴿وبالذي قلتم﴾ يعني ما طلبوا من القربان ﴿فلم قتلتموهم﴾ عني فلم قتلتم الأنبياء الذين أوتوا بنا طلبتمم منهم مثل زكريا ويحيى وسائر من قتلوا من الأنبياء وأراد بذلك فعل أسلافهم وإنما خاطب بذلك اليهود الذين كانوا في زمن النبي ﷺ لأنهم كانوا راضين بفعل أسلافهم ﴿إن كنتم صادقين﴾ يعني في دعواكم ومعناه تكذيبهم إياك يا محمد مع علمهم بصدقك كقتل آبائهم الأنبياء مع إتيانهم بالقربان ثم قال تعالى مسلياً لنبيه ﷺ ﴿فإن كذبوك﴾ يعني هؤلاء اليهود ﴿فقد كذب رسل من قبلك﴾ يعني مثل نوح وهود وصالح وإبراهيم وغيرهم من الرسل ﴿جاؤوا بالبينات﴾ يعني بالدلالات الواضحات والمعجزات الباهرات ﴿والزبر﴾ أي الكتب واحدها زبور وكل كتاب فيه حكمة فهو زبور وأصله من الزبر وهو الزجر وسمي الكتاب الذي فيه الحكمة زبوراً لأنه يزبر عن الباطل ويدعو إلى الحق ﴿والكتاب المنير﴾ أي الواضح المضيء وإنما عطف الكتاب المنير على الزبر لشرفه وفضله وقيل أراد بالزبر الصحف وبالكتاب المنير التوراة والإنجيل.

قوله عز وجل: ﴿كل نفس ذائقة الموت﴾ يعني أن كل نفس مخلوقة ذائقة الموت ولا بد لها منه. قيل لما

﴿عهدَ إلينا﴾ أي: أمرنا وأوصانا في كتبه أن لا نؤمن برسول، أي: لا نصدق رسولاً يزعم أنه جاء من عند الله حتى يأتينا بقربان تأكله النار فيكون دليلاً على صدقه، والقربان: كل ما يُتقرّب به العبد إلى الله تعالى من نسيكةٍ وصدقةٍ وعملٍ صالح، وهو فعلان من القربة، وكانت القرابين والغنائم لا تحلّ لبني إسرائيل، وكانوا إذا قرّبوا قرباناً أو غنمُوا غنيمة جاءت نارٌ بيضاء من السماء لا دخان لها، ولها دويّ وحفيف، فتأكله وتحرق ذلك القربان وتلك الغنيمة فيكون ذلك علامة القبول، وإذا لم يُقبل بقيت على حالها، وقال السدي: إنّ الله تعالى أمر بني إسرائيل مَن جاءكم يزعم أنه رسول الله فلا تصدّقوه حتى يأتيكم بقربان تأكله النار حتى يأتيكم المسيح ومحمد، فإذا أتياكم فآمنوا بهما، فإنهما يأتيان بغير قربان، قال الله تعالى إقامة للحجّة عليهم، ﴿ قلْ ﴾، يا محمد، ﴿ قدْ جاءَكم ﴾، يا معشر اليهود، ﴿ رُسلٌ من قبلي بالبيّنات وبالذي قُلتُمْ ﴾، من القربان ﴿ فلِمَ قتلتموهم ﴾؟ يعني: زكريا ويحيىٰ وسائر مَن قُتِلوا من الأنبياء، وأراد بذلك أسلافهم فخاطبهم بذلك لأنهم رضوا بفعل أسلافهم ﴿ إنْ كنتم صادقين ﴾، معناه تعذيبُهم إيّاك مع علمهم بصدقك، كقتل آبائهم الأنبياء، مع الإتيان بالقربان والمعجزات، ثم قال معزّياً لنبيّه ﷺ:

﴿ فإنْ كذّبُوك فقد كُذِّبتْ رُسلٌ من قبلك جاءُوا بالبيّناتِ والزُّبُرِ ﴾، قرأ ابن عامر « وبالزبر » أي: بالكتب المزبورة، يعني: المكتوبة، واحدها مثل: رسول ورُسل، ﴿ والكتابِ المنير ﴾، الواضح المضيء.

نزل ﴿قل يتوفاكم ملك الموت﴾ يا رسول الله إنما نزلت في بني آدم فأين ذكر الموت للجن والأنعام والوحوش والطير؟ فنزلت هذه الآية وقيل لما خلق الله آدم عليه السلام اشتكت الأرض إلى ربها عز وجل مما أخذ منها فوعدها أن يرد فيها ما أخذ منها فما أحد يموت إلاّ ويدفن في التربة التي خلق منها. فإن قلت الحور والولدان نفوس مخلوقة في الجنة لا تذوق الموت فما حكم لفظ كل في قوله كل نفس ذائقة الموت؟ قلت لفظة كل لا تقتضي الشمول والإحاطة بدليل قوله تعالى وأوتيت من كل شيء ولم تؤت ملك سليمان فتكون الآية من العام المخصوص ويحتمل أن يكون المراد بهم المكلفين بدليل سياق الآية وهو قوله تعالى: **﴿وإنما توفون أجوركم﴾** يعني توفون جزاء أعمالكم **﴿يوم القيامة﴾** إن كان خيراً فخير وإن كان شراً فشر **﴿فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز﴾** يعني فمن نجا وأبعد من النار وأدخل الجنة فقد ظفر بالنجاة ونجا من الخوف **﴿وما الحياة الدنيا إلاّ متاع الغرور﴾** يعني أن العيش في هذه الدار الفانية يغر الإنسان بما يمنيه من طول البقاء وسينقطع عن قريب فوصفت بأنها متاع الغرور لأنها تغر ببذل المحبوب. وتخيل للإنسان أنه يدوم وليس بدائم والمتاع كل ما استمتع به الإنسان من مال وغيره وقيل المتاع كالفارس والقدر والقصعة ونحوها والغرور ما يغر الإنسان مما لا يدوم وقيل الغرور الباطل. ومعنى الآية أن منفعة الإنسان بالدنيا كمنفعته بهذه الأشياء التي يستمتع بها ثم تزول عن قريب. وقيل متاع متروك يوشك أن يضمحل ويزول فخذوا من هذا المتاع واعملوا فيه بطاعة الله ما استطعتم. قال سعيد بن جبير هي متاع الغرور لمن لم يشتغل بطلب الآخرة فأما من اشتغل بطلب الآخرة فهي له متاع وبلاغ إلى ما هو خير منها (ق) عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ قال الله عز وجل: «أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر» واقرؤوا إن شئتم فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين. زاد الترمذي: «وفي الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها» واقرؤوا إن شئتم: «وظل ممدود ولموضع سوط في الجنة خير من الدنيا وما فيها» واقرؤوا إن شئتم: ﴿فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز وما الحياة الدنيا إلاّ متاع الغرور﴾. قوله عز وجل: .

قوله عزّ وجلّ: **﴿ كلُّ نفسٍ ﴾**، منفوسة، **﴿ ذائقةُ الموتِ ﴾**، وفي الحديث: «لمّا خلق الله تعالى آدم اشتكت الأرض إلى ربِّها لمّا أخذ منها، فوعدَها أن يردّ فيها ما أخذ منها، فما من أحد إلاّ ويدفن في التربة التي خُلق منها»، **﴿ وإنّما تُوفون أجورَكم ﴾**، توفون جزاء أعمالكم، **﴿ يوم القيامة ﴾** إنْ خيراً فخير وإنْ شرّاً فشر، **﴿ فمَن زُحزح ﴾**، نُحّي وأُزيل، **﴿ عن النارِ وأُدخلَ الجنةَ فقدْ فازَ وما الحياة الدنيا إلاّ متاعُ الغُرور ﴾**، يعني منفعة ومتعة كالفأس والقدر والقصعة، ثم يزول ولا يبقى، وقال الحسن: كخضرة النبات ولعب البنات لا حاصل له، قال قتادة: هي متاع متروكة يوشك أن تضمحل بأهلها، فخذوا من هذا المتاع بطاعة الله ما استطعتم، والغرور الباطل، أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحي أخبرنا أبو بكر أحمد بن الحسين الحيري أنا حاجب بن أحمد الطوسي أخبرنا محمد بن إسماعيل بن يحيىٰ أخبرنا يزيد بن هارون أخبرنا محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يقولُ اللّهُ تعالى أعددتُ لعبادي الصالحين ما لا عينٌ رأتْ ولا أُذن سمعتْ ولا خطر على قلبِ بشر»، واقرؤوا إن شئتم ﴿ فلا تعلمُ نفسٌ ما أُخفيَ لهمْ منْ قُرّةِ أعْيُنٍ جزاءً بما كانوا يعملون ﴾ [السجدة: ١٧]، وإنّ في الجنة لشجرة يسير الراكب في ظلّها مائة عام لا يقطعها، واقرؤوا إن شئتم: ﴿ وظلٍ ممدُود ﴾ [الواقعة: ٣٠] ولموضعُ سَوطٍ في الجنة خيرٌ من الدنيا وما عليها، واقرؤوا إن شئتم **﴿ فمنْ زُحزِحَ عن النارِ وأُدخلَ الجنّةَ فقدْ فازَ ومَا الحياة الدنيا إلاّ متاعُ الغُرور ﴾**.

﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾﴾

﴿لتبلون﴾ اللام لام القسم تقديره والله لتبلون أي لتختبرن فتوقع عليكم المحن ليعلم المؤمن من غيره والاختبار طلب المعرفة ليعرف الجيد من الرديء وذلك في وصف الله محال لأن الله تعالى عالم بحقائق الأشياء كلها قبل أن يخلقها فعلى هذا يكون معنى الاختبار في وصف الله تعالى أنه يعامل العبد معاملة المختبر ﴿في أموالكم﴾ يعني بالابتلاء في الأموال بالنقصان منها وقيل بأداء ما فرض فيها من الحقوق ﴿وأنفسكم﴾ يعني بالمصائب والأمراض والقتل وفقد الأقارب والعشائر خوطب بهذه الآية المسلمون ليوطنوا أنفسهم على احتمال الأذى وما سيلقون من الشدائد والمصائب ليصبروا على ذلك حتى إذ لقوها لقوها وهم مستعدون بالصبر لها لا يرهقهم ما يرهق غيرهم ممن تصيبه الشدة بغتة فينكرها ويشمئز منها ﴿ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيراً﴾ قال عكرمة نزلت في أبي بكر الصديق وفنحاص بن عازوراء وذلك أن النبي ﷺ بعث أبا بكر إلى فنحاص سيد بني قينقاع يستمده وكتب إليه معه كتاباً وقال لأبي بكر: لا تفتأتن علي بشيء حتى ترجع فجاء أبو بكر وهو متوشح بالسيف إلى فنحاص وأعطاه الكتاب فلما قرأه قال فنحاص قد احتاج ربك حتى نمده فهم أبو بكر أن يضربه بالسيف ثم ذكر قول النبي ﷺ لا تفتأتن علي بشيء حتى ترجع فنزلت الآية وقال الزهري نزلت هذه الآية في النبي ﷺ وكعب بن الأشرف اليهودي وذلك أنه كان يهجو النبي ﷺ ويسب المسلمين ويحرض المشركين على قتالهم في شعره. (ق) عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «من لكعب بن الأشرف فإنه قد آذى الله ورسوله قال محمد بن مسلمة أتحب أن أقتله قال نعم قال ائذن لي فالأقل قال فأتاه فقال له وذكر ما بينهم وقال إن هذا الرجل قد أراد الصدقة وقد عنانا فلما سمعه قال وأيضاً والله لتملنه قال إنا قد ابتعناه ونكره الآن أن ندعه حتى ننظر إلى أي شيء يصير أمره قال: وقد أردت أن تسلفني سلفاً قال فما ترهنني أترهنني نساءكم؟ قال أنت أجمل العرب أنرهنك نساءنا قال له ترهنون أولادكم قال يسب ابن أحدنا فيقال رهن في وسقين من تمر ولكن نرهنك اللأمة يعني السلاح قال: نعم. وواعده أن يأتيه بالحارث وأبي عيسى بن جبر وعباد بن بشر قال فجاؤا

﴿ لَتُبلونّ في أموالِكم وأنفسكم ﴾ الآية، قال عكرمة ومقاتل والكلبي وابن جريج: نزلت الآية في أبي بكر وفنحاص بن عازوراء، وذلك أن النبي ﷺ بعث أبا بكر إلى فنحاص بن عازوراء سيد بني قينقاع ليستمدّه، وكتب إليه كتاباً وقال لأبي بكر رضي الله عنه: «لا تفتأتن عليّ بشيء حتى ترجع»، فجاء أبو بكر رضي الله عنه وهو متوشّح بالسيف فأعطاه الكتاب، فلما قرأه قال: قد احتاج ربُّك إلى أن نمدّه، فهمّ أبو بكر رضي الله عنه أن يضربه بالسيف، ثم ذكر قول النبي ﷺ: «لا تفتأتنّ عليّ بشيء حتى ترجع»، فكفّ فنزلت هذه الآية، وقال الزهري: نزلت في كعب بن الأشرف فإنه كان يهجُو رسولَ الله ﷺ ويسبّ المسلمين، ويحرّض المشركين على النبيّ ﷺ وأصحابه، في شعره ويسبّ نساء المسلمين، فقال النبي ﷺ: «مَنْ لي بابن الأشرف فإنه قد آذى الله ورسوله»؟ فقال محمد بن مسلمة الأنصاري: أنا لك يا رسول الله، أنا أقتله، قال: «فافعلْ إن قدرت على ذلك»، فرجع محمد بن مسلمة فمكث ثلاثاً لا يطعم ولا يشرب إلّا ما تعلق به نفسه، فذُكر ذلك لرسول الله ﷺ فدعاه، وقال له: «لِمَ تركتَ الطعامَ والشراب»؟ قال: يا رسول الله قلت قولاً ولا أدري هل أفِي به أم لا، فقال: «إنما عليك الجهد»، فقال: يا رسول الله إنه لا بدّ لنا من أن نقول فيك، قال: «قولوا ما بدا لكم وأنتم في حلٍّ من ذلك»، فاجتمع في قتله محمد بن سلمة وسَلْكانُ بنُ سلام وأبو نائلة، وكان أخا كعب من الرضاعة، وعباد بن بشر والحارث بن أوس وأبو

فدعوه ليلاً إليهم قالت امرأته إني لأسمع صوتاً كأنه صوت دم قال إنما هو محمد ورضيعي أبو نائلة أن الكريم لو دعي إلى طعنة ليلاً لأجاب قال محمد: إني إذا جاء فسوف أمد يدي إلى رأسه فإذا استمكنت منه فدونكم قال فلما نزل نزل وهو متوشح فقالوا: نجد منك ريح الطيب قال: نعم تحتي فلانة أعطر نساء العرب قال فتأذن لي أن أشم منه قال نعم فتناول فشم ثم قال: أتأذن لي أن أعود فاستمكن من رأسه ثم قال دونكم فقتلوه. زاد في رواية ثم أتوا النبي ﷺ فأخبروه وزاد أصحاب السير والمغازي فاختلف عليهم أسيافهم فلم تغن شيئاً قال محمد بن مسلمة فذكرت مغولاً في سيفي فأخذته وقد صاح عدو الله صيحة لم يبق حولنا إلاّ وأوقدت عليه نار قال فوضعته في ثندوته ثم تحاملت عليه حتى بلغت عانته ووقع عدو الله وقد أصيب الحارث بن أوس بجرح في رأسه أصابه بعض أسيافنا فخرجنا وقد أبطأ علينا صاحبنا الحارث ونزفه الدم فوقفنا له ساعة حتى أتانا يتبع آثارنا فحملناه وجئنا به رسول الله ﷺ آخر الليل وهو قائم يصلي فسلمنا عليه فخرج علينا فأخبرناه بقتل كعب بن الأشرف وجئنا برأسه إليه وتفل على جرح صاحبنا فرجعنا إلى أهلنا وأصبحنا وقد خافت اليهود وقعتنا بعدو الله فقال رسول الله ﷺ من

عيسى بن جُبير، فمشى معهم رسول الله ﷺ إلى بقيع الغرقد ثم وجّههم، وقال: «انطلقوا على اسم الله اللّهمّ أعنهم»، ثم رجع رسول الله ﷺ، وذلك في ليلة مقمرة فأقبلوا حتى أنهوا إلى حصنه فقدّموا أبا نائلة فجاءه فتحدّث معه ساعة وتناشد الشعر، وكان أبو نائلة يقول الشعر، ثم قال: ويحك يا ابن الأشرف إني قد جئتك لحاجة أريد ذكرها لك فاكتُمْ عليّ، قال: أفعل، قال: كان قدوم هذا الرجل بلادَنا بلاءً، عادتْنا العربُ ورمونا عن قوس واحدة، وانقطعت عنّا السُّبُل حتى ضاعت العيال وجهدت الأنفس، فقال كعب: أنا ابن الأشرف أمَا والله لقد كنت أخبرتك يا ابن سلامة أن الأمر سيصير إلى هذا، فقال أبو نائلة: إن معي أصحاباً أردنا أن تبيعنا طعامَك ونُرهنك ونوثّق لك وتحسن في ذلك، قال: أترهنوني أبناءكم، قال: إنّا نستحي إن يُعيرَ أبناؤنا فيقال هذا رهينة وسوق، وهذا رهينة وسقين، قال: ترهنوني نساءكم، قالوا: كيف نرهنُكَ نساءنا وأنت أجمل العرب ولا نأمنك، وأية امرأة تمنع منك لجمالك، ولكنّا نرهنك الحلقة، يعني: السلاح، وقد علمت حاجتنا إلى السلاح، قال: نعم، وأراد أبو نائلة أن لا ينكر السلاح إذا رآه فوعده أن يأتيه فرجع أبو نائلة إلى أصحابه فأخبرهم خبره، فأقبلوا حتى انتهوا إلى حصنه ليلاً، فهتف به أبو نائلة وكان حديث عهد بعرس فوثب من ملحفته فقالت امرأتُه: أسمع صوتاً يقطر منه الدم، وإنك رجل محارب، وإن صاحب المحــرب لا ينزل في مثل هذه الساعة فكلّمهم من فوق الحصن، فقال: إنما هو أخي محمد بن مسلمة ورضيعي أبو نائلة وإن هؤلاء لو وجدوني نائماً لأيقظوني، وإن الكريم إذا دعي إلى طعنة بليل أجاب، فنزل إليهم فتحدّثوا معه ساعة ثم قالوا: يا ابن الأشرف هلْ لك إلى أن تتماشى إلى شعب العجود نتحدث فيه بقية ليلتنا هذه؟ قال: إن شئتم؟ فخرجوا يتماشون، وكان أبو نائلة قال: لأصحابه إني نائل شعره فأشمّه فإذا رأيتموني استمكنت من رأسه فدونكم فاضربوه، ثم إنه شَام يدَه في فودِ رَأسه ثم شمّ يدَه، فقال: ما رأيت كالليلةِ طيبَ عروس قطّ، قال: إنه طيب أُم فلان يعني امرأته، ثم مشى ساعة ثم عاد لمثلها حتى اطمأن ثم مشى ساعة فعاد لمثلها ثم أخذ بفودِ رَأسه حتى استمكن ثم قال: اضربُوا عدوَّ الله فاختلفت عليه أسيافهم فلم تغنِ شيئاً، قال محمد بن مسلمة فذكرتُ مغولاً في سيفي فأخذته، وقد صاح عدوّ الله صيحةً لم يبقَ حَوْلَنا حصنٌ إلاّ أُوقدت عليه نار، قال: فوضعته في ثندوته ثم تحاملت عليه حتى بلغت عانته، ووقع عدوّ الله وقد أُصيب الحارث بن أوس بجرحٍ في رأسه أصابه بعض أسيافنا، قال: فخرجنا وقد أبطأ علينا صاحبنا الحارث بن أوس بجرح في رأسه ونزفه الدم، ثم وقفنا لهِ ساعة ثم أتانا يتبع آثارَنا فاحتملناه فجئنا به رسول الله ﷺ آخر الليل وهو قائم يصلّي فسلّمنا عليه فخرج إلينا فأخبرناه بقتل كعب وجئنا برأسه إليه، وتفل على جُرح صاحبنا، فرجعنا إلى أهلنا فأصبحنا وقد خافت

ظفرتم به من رجال اليهود فاقتلوه وأنزل الله عز وجل في شأن الأشرف اليهودي ﴿لتبلون في أموالكم وأنفسكم ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم﴾ يعني اليهود والنصارى ﴿ومن الذين أشركوا﴾ يعني مشركي العرب ﴿أذى كثيراً﴾ يعني بالأذى قول اليهود إن الله فقير ونحن أغنياء وما أشبه ذلك من افترائهم وكذبهم على الله ورسوله وما كان كعب بن الأشرف يهجو به النبي ﷺ والمسلمين فهذا هو الأذى الكثير ﴿وإن تصبروا وتتقوا﴾ الخطاب لرسول الله ﷺ وللمسلمين يعني وإن تصبروا على أذاهم وتتقوا فيما أمركم به ونهاكم عنه لأن الصبر عبارة عن احتمال الأذى والمكروه والتقوى عبارة عن الاحتراز عما لا ينبغي ﴿فإن ذلك من عزم الأمور﴾ أي من صواب التدبير الذي لا شك أن الرشد فيه ولا ينبغي لعاقل تركه وأصله من قولك عزمت عليك أن تفعل كذا أي ألزمتك أن تفعله لا محالة ولا تتركه وقيل معناه فإن ذلك مما قد عزم عليكم فعله أي ألزمتم الأخذ به. قوله تعالى:.

﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾﴾

﴿وإذ أخذ الله﴾ أي واذكر يا محمد وقت إذ أخذ الله ﴿ميثاق الذين أوتوا الكتاب﴾ يعني اليهود والنصارى، والمراد منهم العلماء خاصة وقيل المراد بالذين أوتوا الكتاب العلماء والأحبار من اليهود خاصة وأخذ الميثاق هو التوكيد والإلزام لبيان ما أوتوه من الكتاب وهو قوله تعالى: ﴿لتبيننه للناس﴾ يعني لتبينن ما في الكتاب ولتظهرنه للناس حتى يعلموه وذلك أن الله أوجب على علماء التوراة والإنجيل أن يشرحوا للناس ما في هذين الكتابين من الدلائل الدالة على نبوة محمد ﷺ ﴿ولا تكتمونه﴾ يعني ولا تخفون ذلك عن الناس ﴿فنبذوه﴾ يعني الكتاب وقيل

اليهود وقعتنا بعدوّ الله، فقال رسول الله ﷺ: «مَن ظفرتم به من رجال اليهود فاقتلوه»، فوثب محيصة بن مسعود على سُفينة رجل من تجّار اليهود كان يلابسهم ويبايعهم فقتله، وكان حويصة بن مسعود إذْ ذاك لم يُسلمْ وكان أسنّ من محيصة فلما قتله، جعل حريصة يضربه ويقول: أيْ عدو الله قتلته أمَا والله لرُبَّ شحم في بطنك من ماله، قال محيصة: والله لو أمرني بقتلك مَن أمرني بقتله لضربت عنقك، قال: لو أمرك محمد بقتلي لقتلتني؟! قال: نعم، والله إن ديناً بلغ بك هذا العجب؟! فأسلم حويصة، فأنزل الله تعالى في شأن كعب: ﴿ لَتُبْلَوُنّ ﴾ لتختبرنّ، اللام للتأكيد، وفيه معنى القسم، والنون لتأكيد القسم ﴿ في أموالكم ﴾ بالجوائح والعاهات والخسران ﴿وأنفسكم﴾ بالأمراض، وقيل: بمصائب الأقارب والعشائر، قال عطاء: هم المهاجرون أخذ المشركون أموالهم ورِبَاعَهم وعذّبُوهم، وقال الحسن: هو ما فرض عليهم من أموالهم وأنفسهم من الحقوق، كالصلاة والصيام والحج والجهاد والزكاة، ﴿ ولتسمعُنّ منَ الذينَ أُوتوا الكتابَ من قبلِكُم ﴾ يعني: اليهود والنصارى، ﴿ ومنَ الذينَ أشركوا ﴾، يعني: مشركي العرب، ﴿ أذىً كثيراً وإن تَصْبِرُوا ﴾ على أذاهم ﴿ وتَتّقُوا ﴾، الله، ﴿ فإنّ ذلكَ مِنْ عَزمِ الأمور ﴾، من حق الأمور وخيرها، وقال عطاء: من حقيقة الإيمان.

﴿ وإذْ أخذ اللّهُ ميثاقَ الذينَ أُوتُوا الكتاب لَتُبيّننّه للناس ولا تكتمُونه ﴾، قرأ ابن كثير وأهل البصرة وأبو بكر بالياء فيهما، لقوله تعالى: ﴿ فنبذوه وراءَ ظُهورهم ﴾، وقرأ الآخرون بالتاء فيها على إضمار القول، ﴿ فنبذُوه وراءَ ظُهورِهم ﴾، أي: طرحوه وضيّعوه وتركوا العمل به، ﴿ واشتروا به ثمناً قليلاً ﴾، يعني: المآكل والرِّشا، ﴿ فبئسَ ما يشترُون ﴾، قال قتادة: هذا ميثاق أخذه الله تعالى على أهل العلم فمَن عَلِمَ شيئاً فلْيُعلّمه، وإيّاكم وكتمان العلم

الميثاق ﴿وراء ظهورهم﴾ أي فطرحوه وضيعوه وتركوا العمل به ﴿واشتروا به ثمناً قليلاً﴾ يعني المآكل والرشا التي كانوا يأخذونها من عوامهم وسفلتهم ﴿فبئس ما يشترون﴾ ذمهم الله تعالى على فعلهم ذلك. واعلم أن ظاهر هذه الآية وإن كان مخصوصاً بعلماء أهل الكتاب وهم اليهود والنصارى فلا يبعد أن يدخل فيه علماء هذه الأمة الإسلامية لأنهم أهل كتاب وهو القرآن وهو أشرف الكتب. قال قتادة: هذا ميثاق أخذه الله تعالى على أهل العلم فمن علم شيئاً فليعلمه وإياكم وكتمان العلم فإنه هلكة وقال أيضاً مثل علم لا يقال به كمثل كنز لا ينفق منه ومثل حكمة لا تخرج كمثل صنم لا يأكل ولا يشرب وقال أيضاً طوبي لعالم ناطق ومستمع واع هذا علم علماً فبذله وهذا سمع خيراً فقبله ووعاه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ من سئل علماً يعلمه فكتمه ألجم «بلجام من نار» أخرجه الترمذي. ولأبي داود «من سئل عن علم فكتمه ألجمه الله بلجام من نار يوم القيامة». وقال أبو هريرة لولا ما أخذ الله عز وجل على أهل الكتاب ما حدثتكم بشيء ثم تلا هذه الآية ﴿وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب﴾ الآية وقال الحسن بن عمارة أتيت الزهري بعد أن ترك الحديث فألفيته على بابه فقلت أريد أن تحدثني، فقال: أما علمت أني قد تركت الحديث فقلت: إما أن تحدثني وإما أن أحدثك قال: حدثني فقلت: حدثني الحكم بن عيينة عن يحيى بن الخراز قال سمعت علي بن أبي طالب رضي الله عنه يقول: ما أخذ الله على أهل الجهل أن يتعلموا حتى أخذ على أهل العلم أن يعلموا قال: فحدثني أربعين حديثاً.

قوله عز وجل: ﴿لا تحسبن الذين يفرحون﴾ قرىء بالتاء على الخطاب أي لا تحسبن يا محمد الفارحين الذين يفرحون، وقرىء بالياء على الغيبة يعني ولا يحسبن الفارحون والمعنى لا يحسبن الذين يفرحون فرحهم منجياً لهم من العذاب نزلت هذه الآية في المنافقين (ق) عن أبي سعيد الخدري أن رجالاً من المنافقين على عهد رسول الله ﷺ كان إذا خرج رسول الله ﷺ إلى الغزو تخلفوا عنه وفرحوا بمقعدهم خلاف رسول الله ﷺ فإذا قدم رسول الله ﷺ اعتذروا إليه وحلفوا له وأحبوا أن يحمدوا بما لم يفعلوا ﴿لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا﴾ الآية وقيل نزلت في اليهود (ق) عن حميد بن عبدالرحمن بن عوف أن مروان قال اذهب يا رافع لبوابه إلى ابن عباس

فإنه هلكة، وقال أبو هريرة رضي الله تعالى عنه: لولا ما أخذ الله على أهل الكتاب ما حدّثتكم بشيء، ثم تلا هذه الآية ﴿ وإذْ أخذ الله ميثاقَ الذين أُوتوا الكتابَ ﴾ حدّثنا أبو الفضل زياد بن محمد الحنفي أخبرنا أبو معاذ الشاه بن عبد الرحمن أخبرنا أبو بكر عمر بن سهل وإسماعيل الدينوري أخبرنا أحمد بن محمد بن عيسى البرني أخبرنا أبو حذيفة موسى بن مسعود أخبرنا إبراهيم بن طهمان عن سماك بن حرب عن عطاء بن أبي رباح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن سُئِلَ عن علم عَلِمَه وكتمه أُلْجِمَ يومَ القيامة بلجامٍ من نار»، وقال الحسن بن عمارة: أتيت الزهري بعد أن ترك الحديث فألفيته على بابه، فقلت: أوَ رأيتَ أن تحدّثني؟ فقال: أمَا علمتَ أني قد تركتُ الحديث؟ فقلت: إمّا أن تحدّثني وإما أن أُحدّثك، فقال: حدّثني، فقلت: حدّثني الحكم بن عيينة عن يحيىٰ بن الخراز قال: سمعتُ عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه يقول: ما أخذ الله على أهل الجهل أن يَتعلّموا حتى يأخذ على أهل العلم أن يُعلّموا، قال: فحدّثني أربعين حديثاً.

﴿ لا تحسبنّ الذين يفرحُون بِمَا أَتوا ﴾ الآية، قرأ عاصم وحمزة والكسائي ﴿ لا تحسبنّ ﴾ بالتاء، أي: لا تحسبنّ يا محمد الفارِحين، وقرأ الآخرون بالياء « لا يحسبنّ » الفارِحُون في فرحَهم مُنجياً لهم من العذاب، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو « فلا يحسبنّهم » بالياء وضمّ بالياء خبراً عن الفارحين، أي فلا يحسبنّ أنفسهم، وقرأ الآخرون بالتاء وفتح الباء، أي: فلا تحسبنّهم يا محمد، وأعاد قوله: ﴿ فلا تحسبنّهم ﴾ تأكيداً، وفي حرف عبد الله بن مسعود « ولا يحسبنّ الذينَ يفرحُون بما أُتوا ويُحبّون أن يُحمدوا بما لم يفعلُوا بمفازةٍ من العذاب» من غير تكرار،

فقل لئن كان كل امرىء مما فرح بما أتى وأحب أن يحمد بما لم يفعل لنعذبن أجمعون. قال ابن عباس: مالكم. ولهذه الآية إنما نزلت هذه الآية في أهل الكتاب ثم تلا ابن عباس: ﴿**وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس**﴾ الآية وتلا ابن عباس: ﴿**لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا**﴾ وقال ابن عباس سألهم رسول ﷺ عن شيء فكتموه إياه وأخبروه بغيره فخرجوا وقد أروه أن قد أخبروه بما سألهم عنه واستحمدوا إليه بذلك وفرحوا بما أتوا من كتمانهم إياه ما سألهم عنه ﴿**بما أتوا**﴾ يعني يفرحون بما فعلوا ﴿**ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا**﴾ أي ويحبون أن يحمدهم الناس على شيء لم يفعلوه قيل عنى بذلك قوماً من أحبار اليهود كانوا يفرحون بأضلالهم الناس ونسبة الناس إياهم إلى العلم قال ابن عباس: ﴿**وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب إلى قوله ولهم عذاب أليم**﴾ يعني فنحاص وأسبيع وأشباههما من الأحبار الذين يفرحون بما يصيبون من الدنيا على ما زينوا للناس من الضلالة ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا أي بقول الناس لهم علماء وليسوا بأهل علم. وقيل هم اليهود فرحوا باجتماع كلمتهم على تكذيب محمد ﷺ. وذلك أنهم كتبوا إلى يهود العراق والشام واليمن ومن يبلغهم كتابهم من اليهود في الأرض كلها أن محمداً ليس بنبي فاثبتوا على دينكم فاجتمعت كلمتهم على الكفر ففرحوا بذلك، وقالوا: نحن أهل الصوم والصلاة وأحبوا أن يحمدوا على ذلك. وقيل فرحوا بما أتوا من تبديلهم التوراة وأحبوا أن يحمدهم الناس على ذلك. وقيل أن يهود خيبر أتت إلى النبي ﷺ فقالوا نحن نعرفك ونصدقك وقالوا لأصحابه نحن على رأيكم نحن لكم ردء وليس ذلك في قلوبهم وأحبوا أن يحمدهم النبي ﷺ والمسلمون على ذلك ﴿**فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب**﴾ أي فلا تظنهم بمنجاة من العذاب الذي أعده الله لهم في الدنيا من القتل والأسر وضرب الجزية والذلة والصغار ﴿**ولهم عذاب أليم**﴾ يعني في الآخرة وهذه الآية وإن كانت

واختلفوا فيمن نزلت هذه الآية، أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا سعيد بن أبي مريم أنا محمد بن جعفر حدّثني زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد الخدري أن رجالاً من المنافقين على عهد رسول الله ﷺ كانوا إذا خرج رسول الله ﷺ إلى الغزو وتخلّفوا عنه وفرحوا بمقعدهم خلاف رسول الله ﷺ فإذا قَدِمَ رسول الله ﷺ اعتذروا إليه وحلفوا، وأحبّوا أن يُحمدوا بما لم يفعلوا، فنزل ﴿ **لا تحسبنّ الذينَ يفرحُون بما أتوا** ﴾ الآية، وأخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا إبراهيم بن موسى أنا هشام أنّ ابن جريج أخبرهم قال: أخبرني ابن أبي مليكة أن علقمة بن وقاص أخبره أن مروان قال لبوّابه: اذهب يا رافع إلى ابن عباس رضي الله عنهما فقل له: لئن كان كل امرىءٍ فرح بما أُوتي وأحبّ أن يحمده بما لم يفعل معذّباً لنعذبنّ أجمعون، فقال ابن عباس: ما لكم ولهذه إنّما دعا النبيّ ﷺ يهود فسألهم عن شيء فكتموه إيّاه فأخبروه بغيره فأروه أن قد استَحمدوا إليه بما أخبروه عنه فيما سألهم، وفرحوا بما أتوا من كتمانهم، ثم قرأ ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ **وإذْ أخذَ اللّهُ ميثاقَ الذينَ أوتُوا الكتابَ** ﴾ كذلك إلى قوله: ﴿ **يفرحون بما أتـوا ويُحبّون أن يُحمدوا بما لم يفعلُوا** ﴾، قال عكرمة: نزلت في فنحاص وأُسبيع وغيرهما من الأحبار يفرحون بإضلالهم الناس بنسبة الناس إيّاهم إلى العلم وليسوا بأهل العلم، وقال مجاهد: هم اليهود فرحوا بإعجاب الناس بتبديلهم الكتاب وحمدهم إيّاهم عليه، وقال سعيد بن جبير: هم اليهود فرحوا بما أعطى الله آل إبراهيم وهم برآء من ذلك، وقال قتادة ومقاتل: أتت يهودُ خيبر نبيّ الله ﷺ فقالوا: نحن نعرفك ونصدقك وإنّا على رأيك ونحن لك ردء، وليس ذلك في قلوبهم، فلما خرجوا قال لهم المسلمون: ما صنعتم؟ قالوا: عرفناه وصدقناه، فقال لهم المسلمون: أحسنتم هكذا فافعلوا، فحمدهم ودعوا لهم، فأنزل الله تعالى هذه الآية، وقال: ﴿ **يفرحون بما أتوا** ﴾ قال الفرّاء بما فعلوا، كما قال تعالى: ﴿ لقد جئت

قد نزلت في اليهود أو المنافقين خاصة فإن حكمها عام في كل من أحب أن يحمد بما لم يفعل من الخير والصلاح أو ينسب إلى العلم وليس هو كذلك. قوله عز وجل:.

وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾

﴿ولله ملك السموات والأرض﴾ يعني أنه تعالى مالك لما فيهما جميعاً يتصرف فيه كيف يشاء وفيه تكذيب لمن قال إن الله فقير ونحن أغنياء يقول الله عز وجل: إن من له جميع ما حوته السموات والأرض من شيء كيف يكون فقيراً ﴿والله على كل شيء قدير﴾ يعني أنه تعالى قادر على تعجيل العقوبة لهم على ذلك القول لكنه تفضل على خلقه بإمهالهم. قوله عز وجل:.

﴿إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب﴾ قال ابن عباس إن أهل مكة سألوا النبي ﷺ أن يأتيهم بآية فنزلت هذه الآية والمعنى تفكروا واعتبروا أيها الناس فيما خلقته وأنشأته من السموات والأرض لمعاشكم وأرزاقكم وفيما عقبت من ذلك بين الليل والنهار، واختلافهما في الطول والقصر، فجعلتهما يختلفان ويعتقبان عليكم لكي تتصرفوا فيهما لمعاشكم تطلبون أرزاقكم في النهار وتسكنون في الليل لراحة أجسادكم، فاعتبروا وتفكروا يا أولي الألباب يعني يا ذوي العقول الصافية. يعني الذين يفتحون بصائرهم للنظر والاستدلال. والاعتبار لا ينظرون إليهما نظر البهائم غافلين عما فيهما من عجائب مخلوقاته وغرائب مبتدعاته (ق) عن ابن عباس أنه بات عند ميمونة أم المؤمنين وهي خالته قال: فقلت: لأنظرن إلى صلاة رسول الله ﷺ فطرحت لرسول الله ﷺ وسادة فاضطجعت في عرض الوسادة واضطجع رسول الله ﷺ وأهله في طولها فنام رسول الله ﷺ حتى انتصف الليل أو قبله بقليل أو بعده بقليل ثم استيقظ رسول الله ﷺ فجعل يمسح النوم عن وجهه بيده ثم قرأ العشر آيات الخواتيم من سورة آل عمران. ثم قام إلى شن معلقة فتوضأ منها فأحسن وضوءه ثم قام يصلي. قال عبدالله بن عباس فقمت فصنعت مثل ما صنع ثم ذهبت فقمت إلى جنبه فوضع رسول الله ﷺ يده اليمنى إلى رأسي وأخذ بأذني ففتلها فصلى ركعتين ثم ركعتين ثم ركعتين ثم ركعتين ثم أوتر ثم اضطجع حتى جاء المؤذن فقام فصلى

شيئاً فرياً﴾ [مريم: ٢٧] أي: فعلت، ﴿ويُحبّون أن يُحمدُوا بما لم يفعلُوا فلا تحسبنّهم بمفازة﴾، بمنجاة، ﴿منَ العذابِ ولهم عذابٌ أليم﴾.

﴿وللهِ مُلكَ السمواتِ والأرض﴾، يصرّفها كيف يشاء، ﴿واللّهُ على كل شيءٍ قدير﴾.

﴿إنّ في خلقِ السمواتِ والأرض واختلافِ الليلِ والنهارِ لآيات لأُولي الألباب﴾، أخبرنا الإمام أبو علي الحسين بن محمد القاضي أنا أبو نعيم عبد الملك بن الحسين الإسفرايني أنا أبو عوانة يعقوب بن إسحق الحافظ أنا أحمد بن عبد الجبار أنا ابن فضيل عن حصين بن عبد الرحمن عن حبيب بن أبي ثابت عن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس عن أبيه عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أنه رَقَدَ عند رسول الله ﷺ فرآه استيقظ فتسوّك ثم توضأ وهو يقول: ﴿إنّ في خلقِ السمواتِ والأرض﴾ حتى ختم السورة، ثم قام فصلّى ركعتين فأطال فيهما القيام والركوع والسجود، ثم انصرف فنام حتى نفخ ثم فعل ذلك ثلاثَ مرات ست ركعات كل ذلك يستاك، ثم يتوضأ ثمّ يقرأ هؤلاء الآيات، ثم أوتر بثلاث ركعات ثم أتاه المؤذّن فخرج إلى الصلاة وهو يقول: «اللّهمّ اجعلْ في بصري نوراً وفي سمعي نوراً وفي لساني نوراً واجعل من خلفي نوراً ومن أمامي نوراً واجعل من فوقي نوراً ومن تحتي نوراً، اللّهمّ أعطني نوراً» ورواه كريب عن ابن عباس رضي الله عنهما، وزاد: «اللّهمّ اجعل في قلبي نوراً وفي بصري نوراً

ركعتين خفيفتين ثم خرج فصلى الصبح وفي رواية فقمت عن يساره فأخذني فجعلني عن يمينه وفي رواية قال بت في بيت خالتي ميمونة فتحدث رسول الله ﷺ مع أهله ساعة ثم رقد فلما كان ثلث الليل الأخير قعد فنظر إلى السماء فقال: ﴿إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب﴾ ذكره. قوله تعالى:.

﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾﴾

﴿الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم﴾ قال علي بن أبي طالب وابن مسعود وابن عباس وقتادة هذا في الصلاة. يعني الذين يصلون قياماً فإن عجزوا فقعوداً فإن عجزوا فعلى جنوبهم والمعنى أنهم لا يتركون الصلاة في حال من الأحوال بل يصلون في كل حال (خ) عن عمران بن حصين قال كانت بي بواسير فسألت النبي ﷺ عن الصلاة فقال: «صل قائماً فإن لم تستطع فقاعداً فإن لم تستطع فعلى جنب» أخرجه الترمذي. وقال فيه سألته عن صلاة المريض وذكر نحوه قال الشافعي رضي الله عنه إذا صلى المريض مضطجعاً وجب عليه أن يصلي على جنب ويومىء برأسه إيماء. وقال أبو حنيفة رحمه الله تعالى: بل يصلي مستلقياً على ظهره فإن وجد خفة قعد وحجة الشافعي ظاهر الآية وهو قوله تعالى وعلى جنوبهم وقوله ﷺ لعمران بن حصين فإن لم تستطع فعلى جنب فنص على الجنب دون غيره. وقال أكثر المفسرين المراد به المداومة على الذكر في غالب الأحوال لأن الإنسان قل أن يخلو من إحدى هذه الثلاث حالات وهي: القيام والقعود وكونه نائماً على جنبه (م) عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يذكر الله عز وجل في كل أحيانه وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من قعد مقعداً لم يذكر الله فيه كانت عليه من الله ترة ومن اضطجع مضطجعاً لا يذكر الله فيه كانت عليه من الله ترة وما مشى أحد ممشى لا يذكر الله فيه إلاّ كانت عليه من الله ترة» أخرجه أبو داود والترة النقص وقيل هي هنا التبعة.

وقوله تعالى: ﴿ويتفكرون في خلق السموات والأرض﴾ أصل الفكر إعمال الخاطر في الشيء وتردد القلب في ذلك الشيء وهو قوة متطرفة للعلم إلى المعلوم والتفكر جريان تلك القوة بحسب نظر العقل. ولا يمكن التفكر إلاّ فيما له صورة في القلب ولهذا قيل تفكروا في آلاء الله ولا تفكروا في الله إذ الله منزه أن يوصف بصورة. فلذلك

وفي سمعي نوراً وعن يميني نوراً وعن يساري نوراً»، قوله تعالى: ﴿ لآياتٍ لأُولي الألباب ﴾ ذوي العقول، ثم وصفهم فقال:

﴿ الذينَ يذكُرونَ اللَّهَ قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ﴾، قال عليّ بن أبي طالب وابن عباس رضي الله عنهم والنخعي وقتادة: هذا في الصلاة يصلّي قائماً فإن لم يستطع قاعداً فإن لم يستطع فعلى جنب. أخبرنا أبو عثمان سعيد بن إسماعيل الضبي أخبرنا أبو محمد عبد الجبار بن محمد الجراحي أنا أبو العباس محمد بن أحمد المحبوبي أخبرنا أبوعيسى محمد بن عيسى الترمذي أنا هنّاد أنا وكيع عن إبراهيم بن طهمان عن حسين المعلّم عن عبد الله بن زيدة عن عمران بن حصين قال سألت رسول الله ﷺ عن صلاة المريض، فقال: «صلِّ قائماً فإن لم تستطع فقاعداً فإن لم تستطع فعلى جنب»، وقال سائر المفسّرين أراد به المداومة على الذكر في عموم الأحوال لأن الإنسان قلّ ما يخلو من إحدى هذه الحالات الثلاث، نظيره في قوله تعالى: ﴿ فإذا قضيتم الصلاة فاذكروا الله قياماً

أخبر عن عباده الصالحين بأنهم يتفكرون في خلق السموات والأرض وما أبدع الله فيهما من عجائب مصنوعاته وغرائب مبتدعاته ليدلهم ذلك على كمال قدرة الصانع سبحانه وتعالى ويعلموا أن لهما خالقاً قادراً مدبراً حكيماً لأن عظم آثاره وأفعاله تدل على عظم خالقها سبحانه وتعالى كما قيل:

وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

وقيل: إن الفكر مقلوب عن الفرك لأن الفكر مستعمل في المعاني وهو فرك الأمور وبحثها طلباً للوصول إلى حقيقتها. وقيل الفكرة تذهب الغفلة وتحدث للقلب الخشية كما يحدث الماء للزرع النماء وما جليت القلوب بمثل الأحزان، ولا استنارت بمثل الفكرة ﴿ربنا﴾ أي ويقولون ربنا وقيل معناه ويتفكرون في خلق السموات والأرض قائلين ربنا ﴿ما خلقت هذا باطلاً﴾ يعني وهزلاً بل خلقته دليلاً على وحدانيتك وكمال قدرتك ﴿سبحانك﴾ تنزيهاً لك عن أن تخلق شيئاً عبثاً لغير حكمة ﴿فقنا عذاب النار﴾ يعني إنا قد صدقنا بوحدانيتك وإن لك جنة وناراً فقنا عذاب النار والمقصود من قوله سبحانك فقنا عذاب النار تعليم عباده كيفية الدعاء ويدل عليه قوله فقنا عذاب النار ﴿ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته﴾ أي أهنته وأذللته وقيل أهلكته وقيل فضحته وأبلغت في إيذائه والخزي ضرب من الاستخفاف أو انكسار يلحق الإنسان وهو الحياء المفرط. فإن قلت قد تمسكت المعتزلة بهذه الآية وقالوا قد أخبرنا الله أنه لا يخزي الله النبي والذين آمنوا معه فوجب أن كل من يدخل النار لا يكون مؤمناً لقوله إنك من تدخل النار فقد أخزيته والمؤمن لا يخزي. قلت قد ذكر العلماء في الجواب وجوهاً أحدها ما روي عن أنس في تفسير قوله تعالى إنك من تدخل النار فقد أخزيته قال من يخلده وروي نحوه عن سعيد بن المسيب قال هي خاصة لمن لا يخرج منها وهذا الجواب إنما يصح على مذهب أهل السنة الذين يرون إخراج الموحدين من النار أما على مذهب المعتزلة فلا يصح هذا الجواب لأن مذهبهم أن الفاسق مخلد في النار فهو داخل في قوله تعالى فقد أخزيته، الوجه الثاني في الجواب أن المدخل في النار مخزي في حال دخوله وإن كانت عاقبته أن يخرج منها ومعنى الآية على هذا فقد أخزيته بدخوله فيها وتعذيبه بها ويدل على صحة هذا المعنى ما روي عن عمرو بن دينار قال قدم علينا جابر بن عبدالله في عمرة فانتهيت إليه أنا وعطاء فسألته عن هذه الآية: ﴿ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته﴾ فقال وما أخزاه حين أحرقه بالنار إن دون ذا لخزيا. وهذا الوجه هو اختيار ابن جرير الطبري لأن من أدخل النار فقد أخزي بدخوله إياها وإن أخرج منها وذلك الخزي هو هتك المخزي وفضيحته. وقال ابن الأنباري حمل الآية على العموم أولى من نقلها إلى الخصوص إذ لا دليل عليه، الوجه الثالث في الجواب ما قاله أهل المعاني وهو أن الخزي يحتمل معاني منها الإهانة والإهلاك والإبعاد. وهذا للكفار ومنها الإخجال يقال خزي خزاية إذا استحى وإذا عمل عملاً يستحيي منه ويخجل فيكون خزي المؤمن الذي يدخل النار الحياء من المؤمنين بدخوله النار إلى أن يخرج منها. وخزي الكافر الهلاك بالخلود في النار وحاصل هذا الجواب أن لفظ الإخزاء مشترك بين التخجيل والإهلاك. واللفظ المشترك لا يمكن حمله في طرفي النفي والإثبات على معنييه جميعاً وهذا

وقعوداً وعلى جنوبكم ﴾ [النساء: ١٠٣]، ﴿ ويتفكَّرُون في خلق السمواتِ والأرض ﴾، وما أبدع فيهما ليَدُلَّهم ذلك على قدرة الله ويعرفوا أن لها صانعاً قادراً مدبّراً حكيماً، قال ابن عوان: الفكرة تذهب الغفلة وتحدث للقلب الخشية كما يحدث الماء للزرع النماء وما جليت القلوب بمثل الأحزان، ولا استنارت بمثل الفكرة، ﴿ ربَّنا ﴾ أي: ويقولون ربّنا ﴿ ما خلقت هذا ﴾ ردّه إلى الخلق فلذلك لم يقل هذه، ﴿ باطلاً ﴾، أي: عبثاً وهزلاً بل خلقته لأمر عظيم، وانتصب ﴿ باطلاً ﴾ بنزع الخافض، أي: بالباطل، ﴿ سبحانَك فقِنا عذابَ النارِ ﴾.

﴿ رَبَّنا إنَّك مَن تُدخل النارَ فقد أخزيته ﴾، أي: أهنته، وقيل: أهلكته، وقيل: فضحتَه، لقوله تعالى: ﴿ ولا

يسقط الاستدلال، الوجه الرابع في الجواب وهو الذي اختاره الفخر الرازي وصححه أن قوله تعالى: ﴿يوم لا يخزي الله النبي والذين آمنوا معه﴾ لا يقتضي نفي الإخزاء مطلقاً وإنما يقتضي أن لا يحصل الإخزاء حال ما يكونون مع النبي وهذا النفي لا يناقضه إثبات الإخزاء في الجملة لاحتمال أن يحصل ذلك الإثبات في وقت آخر والله أعلم وقوله تعالى ﴿وما للظالمين﴾ يعني المشركين الذين وضعوا العبادة في غير موضعها ﴿من أنصار﴾ يعني ينصرونهم يوم القيامة ويمنعونهم من العذاب. قوله عز وجل:.

﴿رَبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَـٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَـٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَـٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾﴾

﴿ربنا إننا سمعنا منادياً ينادي للإيمان﴾ قال ابن عباس وأكثر المفسرين المنادي هو محمد ﷺ ويدل على صحة هذا قوله تعالى: ﴿ادع إلى سبيل ربك بالحكمة﴾ وقوله: ﴿وداعياً إلى الله بإذنه﴾ وقال محمد بن كعب القرظي المنادي هو القرآن قال إذ ليس كل أحد لقي النبي ﷺ ووجه هذا لقول أن كل أحد يسمع القرآن ويفهمه فإذا وفقه الله تعالى للإيمان به فقد فاز به. وذلك لأن القرآن مشتمل على الرشد والهدى وأنواع الدلائل الدالة على الوحدانية فصار كالداعي إليها واللام في للإيمان بمعنى إلى يعني ينادي إلى الإيمان ﴿أن آمنوا بربكم فآمنا﴾ أي فصدقنا ﴿ربنا فاغفر لنا ذنوبنا﴾ أي كبائر ذنوبنا ﴿وكفر عنا سيئاتنا﴾ أي صغائر ذنوبنا وقيل إن الغفر هو الستر والتغطية وكذلك التفكير فهماً بمعنى واحد وإنما ذكرهما للتأكيد لأن الإلحاح في الدعاء والمبالغة فيه مندوب إليه وقيل معناه اغفر لنا ما تقدم من ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا في المستقبل وقيل يريد بالغفران ما يزول بالتوبة من الذنوب وبالتكفير ما يكفر بالطاعات من الذنوب ﴿وتوفنا مع الأبرار﴾ يعني في جملتهم وزمرتهم والأبرار هم الأنبياء والصالحون والمعنى توفنا على مثل أعمالهم حتى نكون في درجتهم يوم القيامة وقيل توفنا في جملة أتباعهم

تَخزونِ في ضيفي ﴾ [هود: ٧٨] فإن قيل: قد قال الله تعالى: ﴿ يوم لا يخزي اللَّهُ النبيَّ والذين آمنوا معه ﴾ [التحريم: ٨]، ومن أهل الإيمان مَن يدخل النار، وقد قال: ﴿ إنك مَنْ تُدخلِ النارَ فقدْ أخزيته ﴾، فكيف الجمع؟ قيل: قال أنس وقتادة معناه: إنك مَن تخلّده في النار فقد أخزيته، وقال سعيد بن المسيب هذه خاصّة لِمَن لا يخرج منها، فقد روى أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «إن اللَّهَ يدخل قوماً النارَ ثم يخرُجون منها». ﴿ وما للظالمينَ من أنصار ﴾.

﴿ ربَّنا إنَّنا سمعنَا مُنَادياً ﴾ يعني: محمداً ﷺ، قاله ابن مسعود وابن عباس رضي الله عنهما، وأكثر الناس، وقال القرظي: يعني القرآن، فليس كل واحد يلقى النبي ﷺ، ﴿ يُنادي للإيمان ﴾، إلى الإيمان، ﴿ أنْ آمنُوا بربِّكم فآمنّا فاغفرْ لنا ذُنُوبَنا وكفِّرْ عنّا سيئاتنا وتوفّنا مع الأبرار ﴾، أي: في جملة الأبرار.

﴿ ربَّنا وآتِنا مَا وعدْتَنا على رُسلك ﴾، أي: على ألسِنَةِ رُسلك، ﴿ ولا تُخزنا ﴾، ولا تُعذبنا ولا تهلكنا ولا تفضحنا ولا تُهنّا، ﴿ يومَ القيامةِ إنّك لا تُخلفُ الميعاد ﴾، فإن قيل: ما وجه قولهم: ﴿ ربّنا وآتنا ما وعدتنا على

وأشياعهم ﴿ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك﴾ يعني على ألسنة رسلك وقيل معناه وآتنا ما وعدتنا على تصديق رسلك. فإن قلت كيف سألوا الله إنجاز ما وعد والله لا يخلف الميعاد. قلت معناه أنهم طلبوا من الله تعالى التوفيق فيما يحفظ عليهم أسباب إنجاز الميعاد. وقيل هو من باب اللجأ إلى الله تعالى والتذلل له وإظهار الخضوع والعبودية. كما أن الأنبياء عليهم السلام يستغفرون الله مع علمهم أنهم مغفور لهم يقصدون بذلك التذلل لربهم سبحانه وتعالى والتضرع إليه واللجأ إليه الذي هو سيما العبودية. وقيل معناه ربنا واجعلنا ممن يستحق ثوابك وتؤتيهم ما وعدتهم على ألسنة رسلك لأنهم لم يتيقنوا استحقاقهم لتلك الكرامة فسألوه أن يجعلهم مستحقين لها. وقيل إنما سألوه تعجيل ما وعدهم من النصر على الأعداء وقالوا قد علمنا أنك لا تخلف الميعاد ولكن لا صبر لنا على حلمك فعجل هلاكهم وانصرنا عليهم ﴿ولا تخزنا يوم القيامة﴾ يعني ولا تهلكنا ولا تفضحنا ولا تهنا في ذلك اليوم فإن قلت قوله وآتنا ما وعدتنا على رسلك يدل على طلب الثواب ومتى حصل الثواب اندفع العقاب لا محالة فما معنى قوله ولا تخزنا وهو طلب دفع العقاب عنهم قلت المقصود من الآية طلب التوفيق على الطاعة والعصمة عن فعل المعصية كأنهم قالوا وفقنا للطاعات وإذا وفقنا لها فاعصمنا عن فعل ما يبطلها ويوقعنا في الخزي وهو الهلاك ويحتمل أن يكون قوله ولا تخزنا يوم القيامة سبباً لقوله تعالى: ﴿وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون﴾ فإنه ربما يظن الإنسان أنه على عمل صالح فإذا كان يوم القيامة ظهر أنه على غير ما يظن فيحصل الخجل والحسرة والندامة في موقف القيامة فسألوا الله تعالى أن يزيل ذلك عنهم فقالوا ﴿ولا تخزنا يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد﴾.

قوله تعالى: ﴿فاستجاب لهم ربهم﴾ يعني أجاب دعاءهم وأعطاهم ما سألوه ﴿أني﴾ أي وقال لهم أني ﴿لا أضيع عمل عامل منكم﴾ يعني لا أحبط عملكم أيها المؤمنون بل أثيبكم عليه ﴿من ذكر أو أنثى﴾ يعني لا أضيع عمل عامل منكم ذكراً كان أو أنثى عن أم سلمة قالت قلت يا رسول الله ما أسمع الله تعالى ذكر النساء في الهجرة بشيء فأنزل الله تعالى: ﴿أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض ـ إلى ـ والله عنده حسن الثواب﴾ أخرجه الترمذي وغيره.

وقوله تعالى: ﴿بعضكم من بعض﴾ يعني في الدين والنصرة والموالاة. وقيل كلكم من آدم وحواء وقيل بمعنى الكاف أي بعضكم كبعض في الثواب على الطاعة والعقاب على المعصية فهو كما يقال: فلان يعني على خلقي وسيرتي وقيل إن الرجال والنساء في الطاعة على شكل واحد ﴿فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأوذوا في سبيلي﴾ يعني المهاجرين الذين هجروا أوطانهم وأهليهم وأذاهم المشركون بسبب إسلامهم ومتابعتهم

رسلك ﴾، وقد علموا أن الله لا يُخلف الميعاد؟ قيل: لفظه دعاء ومعناه خبر، أي: لتؤتينا ما وعدتنا على رُسلك، تقديره: **﴿ فاغفر لنَا ذنوبَنا وكفرْ عنّا سيئاتِنا ﴾ ﴿ ولا تُخزنا يوم القيامة ﴾**، لِتُؤتِيَنَا ما وعدتَنا على رُسلك من الفضلِ والرحمة، وقيل: معناه ربّنا واجعلنا ممّن يستحقّون ثوابَك وتؤتيهم ما وعدتهم على ألسِنَةِ رُسلك لأنهم لم يتيقنوا استحقاقهم لتلك الكرامة، فسألوه أن يجعلهم مستحقّين لها، وقيل: إنما سألوه تعجيل ما وعدهم من النصر على الأعداء، وقالوا: قد عَلِمنَا أنك لا تخلف وعدك من النصر، ولكن لا صبرَ لنا على حُلمك فعجِّل خزيهم وانصرنا عليهم.

قوله تعالى: **﴿ فاستجابَ لهم ربُهم أنّي ﴾** أي: بأني، **﴿ لا أُضيع ﴾**، لا أُحبط، **﴿ عملَ عاملٍ منكم ﴾**، أيها المؤمنون **﴿ من ذكر أو أنثى ﴾** قال مجاهد: قالت أم سلمة يا رسول الله إني أسمع الله يذكر كتاب الله وسُنّة رسول الله ﷺ الـرجال في الهجرة ولا يذكر النساء، فأنزل الله تعالى في هذه الآية، **﴿ بعضكم منْ بعضٍ ﴾**، قال

رسول الله ﷺ فخرجوا مهاجرين إلى الله ورسوله وتركوا أوطانهم وعشائرهم لله ورسوله ومعنى ﴿**في سبيلي**﴾ في طاعتي وديني وابتغاء مرضاتي وهم المهاجرون الذين أخرجهم المشركون من مكة فهاجر طائفة إلى الحبشة وطائفة إلى المدينة قبل هجرة رسول الله ﷺ وبعد هجرته فلما استقر رسول الله ﷺ في المدينة رجع إليه من كان هاجر إلى الحبشة من المسلمين ﴿**وقاتلوا وقتلوا**﴾ يعني وقاتلوا العدو واستشهدوا في جهاد الكفار ﴿**لأكفرن عنهم سيئاتهم**﴾ يعني لأمحون عنهم ذنوبهم ولأغفرنها لهم ﴿**ولأدخلنهم جنات تجري من تحتها الأنهار ثواباً من عند الله**﴾ يعني ذلك الذي أعطاهم من تكفير سيئاتهم وإدخالهم الجنة ثواباً من فضل الله وإحسانه إليهم ﴿**والله عنده حسن الثواب**﴾ وهذا تأكيد لكون ذلك الثواب الذي أعطاهم من فضله وكرمه لأنه جواد كريم روى ابن جرير الطبري بسنده عن عبدالله بن عمرو بن العاص قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن أول ثلة تدخل الجنة فقراء المهاجرين الذين يتقى بهم المكاره إذا أمروا سمعوا وأطاعوا وإن كانت لرجل منهم حاجة إلى سلطان لم تقض له حتى يموت وهي في صدره. فإن الله عز وجل يدعو يوم القيامة الجنة فتأتي بزخرفها وزينتها فيقول أين عبادي الذين قاتلوا في سبيلي وقتلوا وأوذوا في سبيلي وجاهدوا في سبيلي، ادخلوا الجنة فيدخلونها بغير عذاب ولا حساب وتأتي الملائكة فيسجدون ويقولون: ربنا نحن نسبح لك الليل والنهار ونقدس لك؛ من هؤلاء الذين آثرتهم علينا؟ فيقول الرب عز وجل: هؤلاء عبادي الذين قاتلوا في سبيلي وأوذوا في سبيلي فتدخل الملائكة عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار. قال بعضهم في هذه الآية تعليم من الله تعالى لعباده كيف يدعى وكيف يبتهل إليه ويتضرع وتكرير ربنا من باب الابتهال وإعلام بما يوجب حسن الإجابة. وقال جعفر الصادق من حزبه أمر فقال خمس مرات: ربنا نجّاه الله تعالى مما يخاف وأعطاه ما أراد وقرأ هذه الآية وقال الحسن حكى الله عنهم أنهم قالوا خمس مرات ربنا ثم أخبر أنه استجاب لهم.

لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾

قوله عز وجل: ﴿**لا يغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد**﴾ نزلت في المشركين وذلك أنهم كانوا في رخاء ولين من العيش يتجرون ويتنعمون فقال بعض المؤمنين: إن أعداء الله فيما نرى من الخير ونحن في الجهد فأنزل

الكلبي: في الدين والنصرة والموالاة، وقيل: كلكم من آدم وحوّاء، وقال الضحاك: رجالكم شكل نسائكم ونساؤكم شكل رجالكم في الطاعة، كما قال: ﴿ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض ﴾ [التوبة: ٧١]، ﴿ **فالذين هاجرُوا وأُخرجوا من دِيارِهم وأُوذُوا في سبيلي** ﴾، أي: في طاعتي وديني، وهم المهاجرون الذين أخرجهم المشركون من مكة، ﴿ **وقاتَلوا وقُتِلوا** ﴾، قرأ ابن عامر وابن كثير ﴿ **قتلوا** ﴾ بالتشديد، وقال الحسن: يعني أنهم قطعوا في المعركة، والآخرون بالتخفيف، وقرأ أكثر القرّاء: ﴿ **وقاتلوا وقُتلوا** ﴾ يريد أنهم قاتلوا العا.و ثم أنهم قُتلوا، وقرأ حمزة والكسائي « قتـلوا وقاتـلوا » وله وجهان، أحدهما: معناه وقاتل مَن بقي منهم، ومعنى قوله: ﴿ **وقتلوا** ﴾ أي: قُتل بعضُهم، تقول العرب: قتلنا بني فلان وإنما قتلوا بعضهم، والوجه الآخر ﴿ **وقتلوا** ﴾ وقد قاتلوا، ﴿ **لأكفرنّ عنهمْ سيئاتِهم ولأُدخلنّهم جنّاتٍ تجري من تحتها الأنهار ثواباً من عندِ الله** ﴾، نصب على القطع قاله الكسائي، وقال المبرّد: مصدر، أي: لأثيبنّهم ثواباً، ﴿ **واللّـهُ عنده حُسنُ الثواب** ﴾.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ **لا يَغُرَّنّكَ تقلبُ الذينَ كفرُوا في البِلادِ** ﴾، نزلت في المشركين، وذلك أنهم كانوا في رخاء ولين من العيش يتجرون ويتنعمُون، فقال بعض المؤمنين: إن أعداء الله تعالى فيما نَرى من الخير، ونحن في

الله تعالى هذه الآية لا يغرنك الخطاب لرسول الله ﷺ والمراد به غيره من الأمة لأنه ﷺ لم يغتر قط والمعنى لا يغرنك أيها السامع تقلب الذين كفروا في البلاد يعني ضربهم في الأرض وتصرفهم في البلاد للتجارات وطلب الأرباح والمكاسب ﴿متاع قليل﴾ أي ذلك متاع قليل وبلغة فانية ونعمة زائلة ﴿ثم مأواهم﴾ يعني مصيرهم في الآخرة ﴿جهنم وبئس المهاد﴾ أي وبئس الفراش هي: قوله تعالى: ﴿ولكن الذين اتقوا ربهم﴾ فيما أمرهم به من العمل بطاعته واتباع مرضاته واجتناب ما نهاهم عنه من معاصيه ﴿لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها نزلاً﴾ أي جزاء وثواباً والنزل ما يهيأ للضيف عند قدومه ﴿من عند الله﴾ يعني من فضل الله وكرمه وإحسانه ﴿وما عند الله﴾ يعني من الخير والكرامة والنعيم الدائم الذي لا ينقطع ﴿خير للأبرار﴾ يعني ذلك الفضل والنعمة التي أعدها الله للمطيعين الأبرار خير مما يتقلّب فيه هؤلاء الكفار من نعيم الدنيا ومتاعها فإنه قليل زائل (ق) عن عمر بن الخطاب قال: جئت رسول الله ﷺ فإذا هو في مشربة وإنه لعلى حصير ما بينه وبينه شيء وتحت رأسه وسادة من أدم حشوها ليف وعند رجليه قرظ مصبور وعند رأسه أهب معلقة فرأيت أثر الحصير في جنبه فبكيت فقال: ما يبكيك؟ قلت: يا رسول الله إن كسرى وقيصر فيما هم وأنت رسول الله فقال أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة. لفظ البخاري المشربة الغرفة والعلية والمشارب العلالي. قوله عز وجل: .

﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ۝١٩٩ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝٢٠٠﴾

﴿وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم﴾ قال ابن عباس نزلت في النجاشي ملك الحبشة واسمه أصحمة ومعناه بالعربية عطية وذلك إنه لما مات نعاه جبريل عليه السلام لرسول الله ﷺ في اليوم

الجهد؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية ﴿ لا يَغُرَّنَّك تقلُّبُ الذين كفروا في البلاد﴾، وضربهم في الأرض وتصرفهم في البلاد للتجارات وأنواع المكاسب، فالخطاب للنبي ﷺ والمراد منه غيره.

﴿ متاعٌ قليل ﴾، أي: هو متاع قليل، بُلْغَةٌ فانية ومُتْعَةٌ زائلة، ﴿ ثم مأواهُم ﴾، مصيرُهم، ﴿ جهنمُ وبئسَ المهاد ﴾، الفِراش.

﴿ لكنِ الذينَ اتَّقَوا ربَّهم لهم جناتٌ تجري من تحتِها الأنهارُ خالدينَ فيها نُزلاً ﴾، جزاءً وثواباً، ﴿ منْ عندِ الله ﴾، نصب على التفسير، وقيل: جعل ذلك نُزلاً، ﴿ وما عندَ اللَّهِ خيرٌ للأبرار ﴾، من متاع الدنيا أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا عبد العزيز بن عبد الله أنا سليمان بن بلال عن يحيىٰ بن سعيد عن عبيد بن جبير أنه سمع ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: جئت فإذا رسول الله ﷺ في مشربة وإنه لعلى حصير ما بينه وبينه شيء، وتحت رأسه وسادة من أَدْم حشوها ليف، وإن عند رجليه قرظاً مصبوراً وعند رأسه أُهب معلقة فرأيت أثر الحصير في جنبه، فبكيتُ فقال: «ما يُبكيك»؟ فقلت: يا رسول الله إنّ كسرى وقيصر فيما هما فيه وأنت رسول الله؟ فقال: «أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة»؟.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ وإنَّ منْ أهلِ الكتابِ لَمَنْ يُؤمنُ بالله ﴾ الآية، قال ابن عباس وجابر وأنس وقتادة: نزلت في النجاشي ملك الحبشة، واسمه أصحمة وهو بالعربية عطية، وذلك أنه لمّا مات نعاه جبريل عليه السلام لرسول

الذي مات فيه فقال رسول الله ﷺ لأصحابه اخرجوا فصلوا على أخ لكم مات بغير أرضكم النجاشي. فخرج إلى البقيع وكشف له إلى أرض الحبشة فأبصر سرير النجاشي فصلى عليه وكبر أربع تكبيرات واستغفر له فقال المنافقون انظروا إلى هذا يصلي على علج حبشي نصراني لم يره قط وليس على دينه فأنزل الله تعالى هذه الآية وقيل نزلت في أربعين رجلاً من أهل نجران واثنين وثلاثين من الحبشة وثمانية من الروم كانوا على دين عيسى عليه السلام فآمنوا بالنبي ﷺ وصدقوه. وقيل نزلت في عبدالله بن سلام وأصحابه الذين آمنوا بالنبي ﷺ وقيل نزلت في جميع مؤمني أهل الكتاب وهذا القول أولى لأنه لما ذكر أحوال الكفار وأحوال أهل الكتاب وأن مصيرهم إلى النار ذكر حال من آمن من أهل الكتاب وأن مصيرهم إلى الجنة فقال تعالى: ﴿**وإن من أهل الكتاب**﴾ يعني بعض اليهود والنصارى أهل التوراة والإنجيل لمن يؤمن بالله يعني من يقر بوحدانية الله وما أنزل إليكم يعني ويؤمن بما أنزل إليكم أيها المؤمنون يعني القرآن وما أنزل إليهم يعني من الكتب المنزلة مثل التوراة والإنجيل والزبور ﴿**خاشعين لله**﴾ يعني خاضعين لله متواضعين له غير مستكبرين ﴿**لا يشترون بآيات الله ثمناً قليلاً**﴾ يعني لا يغيرون كتبهم ولا يحرفونها ولا يكتمون صفة محمد ﷺ لأجل الرياسة والمآكل والرشى كما يفعله غيرهم من رؤساء اليهود ﴿**أولئك**﴾ إشارة إلى أن من هذه صفته من أهل الكتاب ﴿**لهم أجرهم عند ربهم**﴾ يعني لهم ثواب أعمالهم التي عملوها لله ذلك الثواب لهم ذخر عند الله يوفيه إليهم يوم القيامة ﴿**إن الله سريع الحساب**﴾ يعني إنه تعالى عالم بجميع المعلومات لا يخفى عليه شيء من أعمال عباده فيجازي كل أحد على قدر عمله لأنه سريع الحساب قوله تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا اصبروا**﴾ يعني على دينكم الذي أنتم عليه ولا تدعوه لشدة ولا لغيرها وأصل الصبر حبس النفس عما لا يقتضيه شرع ولا عقل. والصبر لفظ عام تحته أنواع من المعاني قال بعض الحكماء: الصبر على ثلاثة أقسام ترك الشكوى وقبول القضاء وصدق الرضا. وقيل في معنى الآية اصبروا على طاعة الله وقيل على أداء الفرائض وقيل على تلاوة القرآن وقيل اصبروا على أمر الله وقيل اصبروا على البلاء وقيل اصبروا على الجهاد وقيل اصبروا على أحكام الكتاب والسنة ﴿**وصابروا**﴾ يعني الكفار والأعداء وجاهدوهم. ﴿**ورابطوا**﴾ يعني وداوموا على جهاد المشركين

الله ﷺ في اليوم الذي مات فيه، فقال رسول الله ﷺ لأصحابه أخرجوا فصلّوا على أخٍ لكم مات بغير أرضكم، النجاشي، فخرج إلى البقيع وكشف له إلى أرض الحبشة فأبصر سريرَ النجاشي وصلّى عليه وكبّر أربع تكبيرات، واستغفر له، فقال المنافقون: انظروا إلى هذا يصلّي على عِلْجٍ حبشيٍ نصراني لَم يره قطّ، وليس على دينه، فأنزل الله تعالى هذه الآية، وقال عطاء: نزلت في أهل نجران أربعين رجلاً اثنان وثلاثون من أرض الحبشة وثمانية من الروم، كانوا على دين عيسى عليه السلام، فآمنوا بالنبي ﷺ، وقال ابن جريج: نزلت في عبد الله بن سلامٍ وأصحابه، وقال مجاهد: نزلت في مؤمني أهل الكتاب كلهم، ﴿ وإنّ منْ أهلِ الكتاب لمنْ يُؤمنُ بالله﴾، ﴿وما أُنزلَ إليكم ﴾، يعني: القرآن، ﴿ وما أُنزل إليهم ﴾، يعني: التوراة والإنجيل، ﴿ خاشعينَ للّهِ ﴾ خاضعينَ مُتواضعينَ لله، ﴿ لا يشترون بآياتِ الله ثمناً قليلاً ﴾، يعني: لا يُحرّفون كُتبَهم ولا يكتُمون صفة محمد ﷺ لأجل الرياسة والمآكلة، كفعل غيرهم من رؤساء اليهود، ﴿ أولئك لهم أجرُهم عندَ ربِّهم إنّ اللّهَ سريعُ الحساب ﴾.

﴿ ﴿ يا أيّها الذينَ آمنُوا اصْبِرُوا وصَابِرُوا ورَابِطُوا ﴾، قال الحسن: اصبروا على دينكم ولا تَدَعُوه لشدّةٍ ولا رخاء، وقال قتادة: اصبروا على طاعة الله، وقال الضحاك ومقاتل بن سليمان: على أمر الله، وقال مقاتل بن حيان: على أداء فرائض الله تعالى، وقال زيد بن أسلم: على الجهاد، وقال الكلبي: على البلاء، وصابروا يعني: على قتال الكفّار، ورابطوا يعني: المشركين، قال أبو عبيدة: أي دافعوا وأثبتوا، والربطُ الشدُّ، وأصل الرباط أن يربط خيولهم، وهؤلاء خيولهم، ثم قيل: ذلك لكم مقيم في ثغرٍ يدفعُ عمّن وراءه، وإن لم يكن له مركب، أخبرنا

واثبتوا عليه. وأصل المرابطة أن يربط هؤلاء خيولهم. وهؤلاء خيولهم، بحيث يكون كل من الخصمين مستعداً لقتال الآخر. ثم قيل لكل مقيم بثغر يدفع عمن وراءه مرابط، وإن لم يكن له مركب مربوط (ق) عن سهل بن سعد أن رسول الله ﷺ قال: «رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها وموضع سوط أحدكم من الجنة خير من الدنيا وما عليها والروحة يروحها العبد في سبيل الله والغدوة خير من الدنيا وما عليها». (م) عن سلمان الخير قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه، وإن مات فيه جرى عليه عمله الذي كان يعمله، وأجري عليه رزقه وأمن الفتان» وقيل المراد بالمرابطة انتظار الصلاة بعد الصلاة قال أبو سلمة بن عبدالرحمن: لم يكن في زمن النبي ﷺ غزو يرابط فيه ولكنه انتظار الصلاة خلف الصلاة ويدل على صحة هذا التأويل ما روي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا ويرفع به الدرجات قالوا بلى يا رسول الله قال إسباغ الوضوء على المكاره وكثرة الخطا إلى المساجد وانتظار الصلاة بعد الصلاة. فذلكم الرباط فذلكم الرباط» أخرجه مسلم ﴿**واتقوا الله لعلكم تفلحون**﴾ قال محمد بن كعب القرظي يقول الله عز وجل: ﴿**واتقوا الله فيما بيني وبينكم لعلكم تفلحون**﴾ غداً إذا لقيتموني وقال أهل المعاني في معنى هذه الآية يا أيها الذين آمنوا اصبروا على بلائي وصابروا على نعمائي ورابطوا على مجاهدة أعدائي واتقوا محبة سوائي لعلكم تفلحون بلقائي وقيل اصبروا على النعماء وصابروا على البأساء والضراء ورابطوا في دار الأعداء واتقوا إله الأرض والسماء لعلكم تفلحون في دار البقاء وقيل اصبروا على الدنيا ومحنها رجاء السلامة وصابروا عند القتال بالثبات والاستقامة ورابطوا على مجاهدة النفس اللوامة واتقوا الندامة لعلكم تفلحون غداً في دار الكرامة والله أعلم بمراده وأسرار كتابه.

عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا عبد الله بن بشير أنه سمع أبا النصر أنا عبد الرحمن بن عبد الله بن دينار عن أبي حازم عن سهل بن سعد الساعدي أن رسول الله ﷺ قال: «رِباطُ يومٍ في سبيلِ اللَّهِ خيرٌ من الدنيا وما فيها وما عليها، وموضعُ سَوطِ أحدكم من الجنة خيرٌ من الدنيا وما عليها، ولروحة يروحها العبد في سبيل الله خيرٌ من الدنيا وما عليها». أخبرنا أبو الحسن علي بن يوسف الجويني أخبرنا أبو محمد محمد بن علي بن محمد بن شريك الشافعي أنا يونس بن عبد الأعلى أنا ابن وهب أخبرني عبد الرحمن بن الحارث، أنا أبو عبيدة بن عقبة أنا شرحبيل بن السمط أنا سلمان الخير أنّ رسول الله ﷺ قال: «مَن رابط يوماً وليلة في سبيلِ الله كان له أجرُ صيام شهرٍ مقيمٍ، ومَن مات مرابطاً جرَى له مثل ذلك الأجر، وأُجْرِي عليه من الرزق، وأمن من الفتّان»، وقال أبو سلمة بن عبد الرحمن: لم يكن في زمان النبي ﷺ غزوٌ يُرابط فيه، ولكنه انتظار الصلاة بعد الصلاة، ودليل هذا التأويل ما أخبرنا أبو الحسن محمد بن محمد السرخسي أنا زاهر بن أحمد الفقيه أنا أبو إسحق إبراهيم بن عبد الصمد الهاشمي أنا أبو مصعب أنا مالك أخبرنا العلاء بن عبد الرحمن، عن أبيه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ألاَ أُخبركم بما يمحو اللَّهُ الخطايا ويرفع به الدرجات؟ إسباغُ الوضوء على المكاره، وكثرةُ الخُطا إلى المساجد، وانتظارُ الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرباط فذلكم الرباط» ﴿ **واتقُوا اللَّهَ لعلّكُم تُفلحُون** ﴾، قال بعض أرباب اللسان: اصبُروا على النعماء وصابرُوا على البأساء والضرَّاء ورابطوا في دار الأعداء واتقوا إلّه الأرض والسماء لعلكم تُفلحون في دار البقاء.

تفسير سورة النساء

مدنية وهي مائة وخمس وسبعون آية وثلاثة آلاف وخمس وأربعون كلمة وستة عشر ألف حرف وثلاثون حرفاً

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾

قوله عز وجل: ﴿يا أيها الناس﴾ خطاب للكافة فهو كقوله يا بني آدم ﴿اتقوا ربكم﴾ أي احذروا أمر ربكم أن تخالفوه فيما أمركم به أو نهاكم عنه ثم وصف نفسه بكمال القدرة فقال تعالى ﴿الذي خلقكم من نفس واحدة﴾ يعني من أصل واحد وهو آدم أبو البشر عليه السلام وإنما أنث الوصف على لفظ النفس وإن كان المراد به الذكر فهو كما قال بعضهم:

أبـــوك خليفـــة ولـــدتـــه أخـــرى   وأنـــــت خليفـــــة ذاك الكمـــــال

فإنما قال ولدته أخرى لتأنيث ﴿وخلق منها زوجها﴾ يعني حواء وذلك أن الله تعالى لما خلق آدم عليه السلام ألقى عليه النوم ثم خلق حواء من ضلع من أضلاعه اليسرى، وهو قصير. فلما استيقظ رآها جالسة عند رأسه فقال لها: من أنت؟ قالت: امرأة قال: لماذا خلقت قالت خلقت لتسكن إليّ فمال إليها وألفها لأنها خلقت منه واختلفوا في أي وقت خلقت حواء. فقال كعب الأحبار ووهب وابن إسحاق خلقت قبل دخوله الجنة وقال ابن مسعود وابن عباس إنما خلقت في الجنة بعد دخوله إياها ﴿وبث منهما﴾ يعني نشر وأظهر من آدم وحواء ﴿رجالاً كثيراً ونساء﴾ إنما وصف الرجال بالكثرة دون النساء لأن حال الرجال أتم وأكمل وهذا كالتنبيه عن أن اللائق بحال الرجال الظهور والاستشهار وبحال النساء الاختفاء والخمول ﴿واتقوا الله الذي تساءلون به﴾ إنما كرر التقوى للتأكيد وأنه أهل أن يتقى والتساؤل بالله هو كقولك أسألك بالله واحلف عليك بالله واستشفع إليك بالله ﴿والأرحام﴾ قرىء بفتح الميم ومعناه واتقوا الأرحام أن تقطعوها وقرىء بكسر الميم فهو كقولك سألتك بالله وبالرحم وناشدتك بالله وبالرحم لأن العرب كان من عادتهم أن يقولوا ذلك والرحم القرابة. وإنما استعير اسم الرحم للقرابة لأنهم خرجوا من رحم واحدة وقيل هو مشتق من الرحمة لأن القرابة يتراحمون ويعطف بعضهم على بعض. وفي الآية دليل على تعظيم

سُورَةُ النِّسَاءِ

قوله تعالى: ﴿ يا أيّها الناسُ اتّقُوا ربَّكم الذي خلقكمْ مِنْ نَفسٍ واحدةٍ ﴾، يعني: آدم عليه السلام، ﴿ وخلق منها زوجَها ﴾، يعني: حوّاء، ﴿ وبثّ منهما ﴾، نشر وأظهر، ﴿ رجالاً كثيراً ونساءً واتقوا اللَّهَ الذي تَسَاءَلُونَ بِهِ ﴾، أي: تتساءلون به، قرأ أهل الكوفة بتخفيف السين على حذف إحدى التاءين، كقوله تعالى: ﴿ ولا

حق الرحم والنهي عن قطعها ويدل على ذلك أيضاً الأحاديث الواردة في ذلك (ق) عن عائشة قالت قال رسول الله ﷺ الرحم معلقة بالعرش تقول من وصلني وصله الله ومن قطعني قطعه الله (ق) عن أنس أن رسول الله ﷺ قال من سره أن يبسط عليه من رزقه وينسأ في أنزه فليصل رحمه قوله وينسأ في أثره أي يؤخر له في أجله. (ق) عن جبير بن مطعم أن رسول الله ﷺ قال «لا يدخل الجنة قاطع» قال سفيان في روايته يعني قاطع رحم وعن الحسن قال من سألك بالله فأعطه ومن سألك بالرحم فأعطه وعن ابن عباس قال: الرحم معلقة بالعرش فإذا أتاها الواصل بشت به وكلمته وإذا أتاها القاطع احتجبت عنه ﴿إن الله كان عليكم رقيباً﴾ يعني حافظاً والرقيب في صفة الله تعالى هو الذي لا يغفل عما خلق فليحقه نقص ويدخل عليه خلل وقيل هو الحافظ الذي لا يغيب عنه شيء من أمر خلقه فبيّن بقوله: ﴿إن الله كان عليكم رقيباً﴾ إنه يعلم السر وأخفى، وإذا كان كذلك فهو جدير بأن يخاف ويتقى. قوله عز وجل: .

﴿وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴿٢﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُوا۟ ﴿٣﴾﴾

﴿وآتوا اليتامى أموالهم﴾ نزلت في رجل من غطفان كان معه مال كثير لابن أخ له يتيم كان في حجره فلما بلغ اليتيم طلب المال الذي له فمنعه عمه فترافعا إلى النبي ﷺ فنزلت هذه الآية فلما سمعها العم قال: «أطعنا الله وأطعنا الرسول نعوذ بالله من الحوب الكبير ودفع إلى اليتيم ماله فقال النبي ﷺ: من يوق شح نفسه ويطع ربه هكذا. فإنه يحل داره يعني جنته فلما قبض الصبي أنفقه في سبيل الله فقال النبي ﷺ: ثبت الأجر وبقي الوزر فقالوا كيف ثبت الأجر وبقي الوزر؟ قال ثبت الأجر للغلام وبقي الوزر على أبيه. والخطاب في قوله تعالى ﴿وآتوا﴾ للأولياء والأوصياء واليتامى جمع يتيم وهو الصبي الذي مات أبوه واليتيم في اللغة الانفراد ومن الدرة اليتيمة لانفرادها واسم اليتيم يقع على الصغير والكبير لغة لبقاء معنى الانفراد عن الآباء لكن في العرف اختص اسم اليتيم بمن لم يبلغ مبلغ الرجال. فإذا بلغ الصبي وصار يستغني بنفسه عن غيره زال عنه اسم اليتم وسئل ابن عباس اليتيم متى ينقطع عنه اسم اليتم؟ قال إذا أونس منه الرشد وإنما سماهم يتامى بعد البلوغ على مقتضى اللغة أو لقرب عهدهم باليتم وإن كان قد زال عنهم بالبلوغ وقيل المراد باليتامى الصغار الذين لم يبلغوا والمعنى **﴿وآتوا اليتامى**

تَعاوَنوا﴾ [المائدة: ٢]، ﴿ **والأرْحامَ** ﴾، قراءة العامّة بالنصب، أي: واتقوا الأرحام أن تقطعوها، وقرأ حمزة بالخفض، أي: به وبالأرحام كما يقال: سألتُك بالله و الأرحام، والقراءة الأولى أفصح لأن العربَ لا تكاد تنسّق بظاهر على مُكنّى إلّا بعد أن تعيد الخافض فتقول: مررتُ به وبزيد، إلّا أنه جائز مع قلّته، ﴿ **إنّ اللّهَ كان عليكم رقيباً** ﴾، أي: حافظاً.

قوله تعالى: ﴿ **وآتُوا اليتامَى أموالَهم** ﴾، قال مقاتل والكلبي: نزلت في رجل من غطفان كان معه مال كثير لابن أخ يتيم، فلمّا بلغَ اليتيمُ طلبَ المالَ فمنعه عمّه فترافَعا إلى النبي ﷺ، فنزلت هذه الآية، فلما سمع العمُّ قال: أطعنا الله وأطعنا الرسول نعوذُ بالله من الحَوْبِ الكبير، فدفع إليه ماله فقال النبي ﷺ: «مَن يُوقَ شُحَّ نفسه ويُطعْ ربَّه هكذا فإنه يَحِلُّ دارَه»، يعني: جنته، فلما قبض الفتَى ماله أنفقه في سبيل الله، فقال النبي ﷺ: «ثبت الأجر وبقيَ الوزرُ» فقالوا: كيف بقي الوزرُ؟ فقال: «ثبت الأجر للغلام وبقي الوزرَ على والده»، وقوله: ﴿ **وآتُوا** ﴾ خطاب للأولياء والأوصياء، واليتامى: جمع يتيم، واليتيم: اسم لصغيرٍ لا أبَ له ولا جدّ، وإنما يدفع المال إليهم بعد

أموالهم﴾ بعد البلوغ وتحقق الرشد وقيل معناه وآتوا اليتامى الصغار ما يحتجون إليه من نفقة وكسوة والقول الأول هو الصحيح إذا المراد باليتامى البالغون لأنه لا يجوز دفع المال إلى اليتيم إلا بعد البلوغ وتحقق الرشد **﴿ولا تتبدلوا﴾** أي ولا تستبدلوا **﴿الخبيث بالطيب﴾** يعني الخبيث الذي هو حرام عليكم بالحلال من أموالكم واختلفوا في هذا التبديل فقال سعيد بن المسيب والنخعي والزهري والسدي كان أولياء اليتامى يأخذون الجيد من مال اليتيم ويجعلون مكانه الرديء، فربما كان أحدهم يأخذ الشاة السمينة ويجعل مكانها الهزيلة ويأخذ الدرهم الجيد ويجعل مكانه الزيف ويقول شاة بشاة ودرهم بدرهم فذلك تبديلهم فنهوا عنه وقال عطاء هو الربح في مال اليتيم وهو صغير لا علم له بذلك. وقيل إنه ليس بإبدال حقيقة. وإنما هو أخذه مستهلكاً وذلك أن أهل الجاهلية كانوا لا يورثون النساء والصغار وإنما كان يأخذ الميراث الأكابر من الرجال وقيل هو أكل مال اليتيم عوضاً عن أكل أموالهم فنهوا عن ذلك **﴿ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم﴾** يعني مع أموالكم وقيل معناه ولا تضموا أموالهم إلى أموالكم في الإنفاق واعلم أن الله تعالى نهى عن أكل مال اليتيم وأراد به جميع التصرفات المهلكة للمال وإنما ذكر الأكل لأنه معظم المقصود **﴿إنه كان حوباً كبيراً﴾** يعني أن أكل مال اليتيم من غير حق إثم عظيم والحوب الإثم. قوله عز وجل: **﴿وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى﴾** يعني وإن خفتم يا أولياء اليتامى أن لا تعدلوا فيهن إذا نكحتموهن فانكحوا غيرهن من الغرائب (ق) عن عروة أنه سأل عائشة رضي الله تعالى عنهما عن قوله تعالى: **﴿وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء ـ إلى قوله ـ أو ما ملكت أيمانكم﴾** قالت يا ابن أختي هذه اليتيمة تكون في حجر وليها فيرغب في جمالها ومالها ويريد أن ينتقص صداقها فنهوا عن نكاحهن إلا أن يقسطوا لهن في إكمال الصداق وأمروا بنكاح من سواهن قالت عائشة رضي الله عنها فاستفتى الناس رسول الله ﷺ بعد ذلك فأنزل الله عز وجل **﴿ويستفتونك في النساء ـ إلى ـ وترغبون أن تنكحوهن﴾** فبيّن الله لهم هذه الآية أن اليتيمة إذا

البلوغ، وسمّاهم يتامى ههنا على معنى أنهم كانوا يتامى، **﴿ولا تتبدّلوا﴾**، لا تستبدلوا، **﴿الخبيثَ بالطيب﴾**، أي: مالهُم الذي هو حرام عليكم بالحلال من أموالكم، واختلفوا في هذا التبديل، قال سعيد بن المسيب والنخعي والزهري والسدي: كان أولياء اليتامى يأخذون الجيد من مال اليتيم ويجعلـون مكانه الرديء، فربّما كان أحد يأخذ الشاة السمينة من مال اليتيم ويجعل مكانها المهزولة، ويأخذ الدرهمَ الجيد ويجعل مكانه الزيف، ويقول: درهمٌ بدرهم، فنُهوا عن ذلك، وقيل: كان أهل الجاهلية لا يُورِّثون النساء والصبيان ويأخذ الأكبرُ الميراثَ، فنصيبه من الميراث طيب، وهذا الذي يأخذه من نصيب غيره خبيث، وقال مجاهد: لا تتعجّلِ الرزقَ الحرام قبل أن يأتيك الحلال. **﴿ولا تأكلوا أموالَهم إلى أموالِكم﴾**، أي: مع أموالكم، كقوله تعالى: **﴿مَن أنصاري إلى الله﴾** [آل عمران: ٥٢، الصَّف: ١٤] أي: مع الله، **﴿إنه كان حَوْباً كبيراً﴾**، إثماً عظيماً.

وقوله تعالى: **﴿وإن خفتم ألاّ تُقسطوا في اليتامَى فانكِحُوا مَا طَابَ لكم مِنَ النساءِ مثنَى وثُلاثَ ورُباعَ﴾**، اختلفوا في تأويلهم، فقال بعضهم: معناه إن خفتم يا أولياء اليتامى أن لا تعدلوا فيهنّ إذا نكحتموهنّ فانكِحُوا غيرَهنّ من الغرائب مثنَى وثُلاثَ ورُباعَ. أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا أبو اليمان أنا شعيب عن الزهري قال: كان عروة بن الزبير يحدّث أنه سأل عائشة رضي الله عنها **﴿وإن خفتم ألاّ تُقسِطُوا في اليتامى فانِكحُوا ما طابَ لكم منَ النساء﴾** قالت هي اليتيمة تكون في حجر وليّها فيرغب في جمالها ومالها ويريد أن يتزوجَها بأدنى من سنة نسائها، فنُهوا عن نكاحهنّ إلاّ أن يقسطوا لهنّ في إكمال الصداق، وأُمروا بنكاح مَن سواهنّ من النساء، قالت عائشة رضي الله عنها: ثم استفتى الناسُ رسولَ الله ﷺ، فأنزل الله تعالى: **﴿ويستفتونك في النساء قل اللَّهُ يُفتيكم فيهنّ﴾** إلى قوله تعالى:

كانت ذات جمال ومال رغبوا في نكاحها ولم يلحقوها بسنتها في إكمال الصداق وإن كانت مرغوبة عنها في قلة المال والجمال تركوها والتمسوا غيرها من النساء قال فكلما يتركونها حين يرغبونها عنها فليس لهم أن ينكحوها إذا رغبوا فيها إلا أن يقسطوا لها ويعطوها حقها الأوفى من الصداق. وقال الحسن كان الرجل من أهل المدينة تكون عنده الأيتام وفيهن من يحل له نكاحها فيتزوجها لأجل مالها وهي لا تعجبه كراهية أن يدخل غريب فيشاركه في مالها ثم يسيء صحبتها ويتربص بها إلى أن تموت فيورثها فعاب الله ذلك عليهم وأنزل هذه الآية. وقال عكرمة في روايته عن ابن عباس كان الرجل من قريش يتزوج العشر من النساء أو أكثر فإذا صار معدماً من نساء مال إلى مال يتيمته التي في حجره فأنفقه فقيل لهم: لا تزيدوا على أربع حتى لا يحوجكم إلى أخذ مال اليتامى وقيل كانوا يتحرجون عن أموال اليتامى ويترخصون في النساء فيتزوجون ما شاؤوا فربما عدلوا وربما لم يعدلوا فلما أنزل الله تعالى في أموال اليتامى ﴿**وآتوا اليتامى أموالهم**﴾ أنزل هذه الآية ﴿**وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى**﴾ يقول فكلما خفتم ألا تقسطوا في اليتامى فكذلك خافوا في النساء ألا تعدلوا فيهن فلا تتزوجوا أكثر مما يمكنكم القيام بحقهن، لأن النساء في الضعف كاليتامى. وهذا قول سعيد بن جبير وقتادة والضحاك والسدي: ثم رخص الله تعالى في نكاح أربع فقال تعالى: ﴿**فانكحوا ما طاب لكم من النساء**﴾ يعني ما حل لكم من النساء واستدلت الظاهرية بهذه الآية على وجوب النكاح قالوا لأن قوله فانكحوا أمر والأمر للوجوب. وأجيب عنه بأن قوله تعالى فانكحوا إنما هو بيان لما يحل من العدد في النكاح وتمسك الشافعي في بيان أن النكاح ليس بواجب بقوله ﴿ومن لم يستطع منكم طولاً أن ينكح﴾ إلى قوله ﴿**ذلك لمن خشي العنت منكم وأن تصبروا خير لكم**﴾ الآية فحكم في هذه السورة بأن ترك النكاح خير من فعله وذلك يدل على أنه ليس بواجب ولا مندوب وقوله تعالى: ﴿**مثنى وثلاث ورباع**﴾ معناه اثنين اثنين وثلاثاً ثلاثاً وأربعاً أربعاً وهو غير منصرف لأنه اجتمع فيه أمران: العدل والوصف والواو بمعنى أو في

﴿ وترغَبُونَ أنْ تنكحوهنّ ﴾ [النساء: ١٢٧] فبيّن الله تعالى في هذه الآية أن اليتيمة إذا كانت ذات جمال أو مال، رَغِبُوا في نكاحها ولم يلحقوها بسنتها بإكمال الصداق، وإذا كانت مرغوبة عنها في قلّة المال والجمال تركوها والتمسوا غيرها من النساء، قال: فكما يتركونها حين يرغبون عنها فليس لهم أن ينكحوها إذا رغبوا فيها إلّا أن يُقسطوا لها الأوْفَى من الصداق ويُعطوها حقَّها، قال الحسن: كان الرجل من أهل الجاهلية تكون عنده الأيتام وفيهنّ مَن يحلّ له نكاحها فيتزوجها لأجْلِ مالها وهي لا تعجبه كراهية أن يُدخل غريبٌ فيشاركه في مالها، ثم يسيء صحبتها ويتربص أن تموت ويرثها، فعاب الله تعالى ذلك، وأنزل الله هذه الآية، وقال عكرمة: كان الرجل من قريش يتزوج العشر من النساء والأكثر فإذا صار معدماً من مؤمنِ نسائه مالَ إلى مالِ يتيمته التي في حجره فأنفقه، فقيل لهم: لا تزيدوا على أربع حتى لا يحوجكم إلى أخذ أموال اليتامى، وهذه رواية طاوس عن ابن عباس رضي الله عنهما، وقال بعضهم: كانوا يتحرّجون عن أموال اليتامى ويترخصون في النساء، فيتزوجون ما شاؤوا وربما عدلوا وربما لم يعدلوا، فلما أنزل الله تعالى في أموال اليتامى ﴿ **وآتُوا اليتامى أموالَهم** ﴾ أنزل هذه الآية ﴿ **وإن خِفتُم ألّا تُقسطوا في اليتامى** ﴾، يقول كما خفتم أن لا تُقسطوا في اليتامى فكذلك خافوا في النساء أن لا تعدلوا فيهنّ فلا تتزوجوا أكثر مما يُمكنكم القيام بحقوقهنّ، لأن النساء في الضعف كاليتامى، وهذا قول سعيد بن جبير وقتادة والضحاك والسدي، ثم رُخّص في نكاح أربع فقال: ﴿ **فانكِحُوا ما طابَ لكم من النساء مثنى وثُلَاثَ ورُباعَ فإن خِفتُم ألّا تِعدِلُوا فواحدةً** ﴾، وقال مجاهد: معناه إن تحرّجتم منْ وِلاية اليتامَى وأموالِهم إيماناً فكذلك تحرّجوا من الزنا فانكحوا النساء الحلال نكاحاً طيباً ثم بيّن لهم عدداً، وكانوا يتزوجون ما شاؤوا من غير عدد، فنزل قوله تعالى: ﴿ **فانكِحُوا ما طابَ لكم منَ النساءِ** ﴾ أي: مَنْ طَابَ كقوله تعالى: ﴿ والسماء وما بناها ﴾ [الشمس: ٥]،

هذا الفصل لأنه لما كانت أو بمنزلة واو النسق جاز أن تكون الواو بمنزلة أو. وقيل إن الواو أفادت أنه يجوز لكل أحد أن يختار لنفسه قسماً من هذه الأقسام بحسب حاله فإن قدر على نكاح اثنتين فاثنتان. وإن قدر على ثلاث فثلاث وإن قدر على أربع فأربع إلا أنه يضم عدداً وأجمعت الأمة على أنه لا يجوز لأحد أن يزيد على أربع نسوة وأن الزيادة على أربع من خصائص رسول الله ﷺ التي لا يشاركه فيها أحد من الأمة ويدل على أن الزيادة على أربع غير جائزة وأنها حرام ما روي عن الحارث بن قيس أو قيس بن الحارث قال: أسلمت وعندي ثمان نسوة فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فقال اختر منهن أربعاً. أخرجه أبو داود. عن ابن عمران غيلان بن سلمة الثقفي أسلم وله عشر نسوة في الجاهلية فأسلمن معه فأمره رسول الله ﷺ أن يختار منهن أربعاً. أخرجه الترمذي قال العلماء: فيجوز للحر أن يجمع بين أربع نسوة حرائر ولا يجوز للعبد أن ينكح أكثر من امرأتين وهو قول أكثر العلماء لأنه خطاب لمن ولي وملك وذلك للأحرار دون العبيد. وقال مالك في إحدى الروايتين عنه وربيعة: يجوز للعبد أن يتزوج بأربع نسوة واستدل بهذه الآية وأجاب الشافعي بأن هذه الآية مختصة بالأحرار ويدل عليه آخر الآية وهو قوله: ﴿**فإن خفتم**﴾ ألّا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم أو العبد لا يملك شيئاً فثبت بذلك أن المراد من حكم الآية الأحرار دون العبيد. وقوله تعالى: ﴿**فإن خفتم**﴾يعني فإن خشيتم وقيل فإن علمتم ﴿**ألا تعدلوا**﴾ يعني بين الأزواج الأربع ﴿**فواحدة**﴾ يعني فانكحوا واحدة ﴿**أو ما ملكت أيمانكم**﴾ يعني وما ملكتم من السراري لأنه لا يلزم فيهن من الحقوق مثل ما يلزم في الحرائر ولا قسم لهن ﴿**ذلك أدنى**﴾ أي أقرب ﴿**أن لا تعولوا**﴾ معناه أقرب من أن لا تعولوا فحذف لفظة من لدلالة الكلام عليه ومعنى أن لا تعولوا أي لا تميلوا ولا تجوروا وهو قول أكثر المفسرين لأن أصل العول الميل يقال: عال الميزان إذا مال وقيل معناه لا تجاوزوا ما فرض الله عليكم ومنه عول الفرائض إذا جاوزت سهامها وقيل معناه ذلك أدنى أن لا تضلوا. وقال الشافعي رحمه الله تعالى معناه أن لا تكثر عيالكم وقد أنكر على الشافعي من ليس له إحاطة بلغة العرب. فقال إنما يقال من كثرة العيال أعال الرجل يعيل إعالة إذا كثر عياله. قال وهذا من خطأ الشافعي لأنه انفرد به ولم يوافقه عليه أحد وإنما قال هذه المقالة من أنكر على الشافعي وخطأه من

وقوله تعالى: ﴿ قال فرعونُ ومَا ربُّ العالمين ﴾ [الشعراء: ٢٣] والعرب تضع (مـن) و(مـا) كل واحدة موضع الأخرى، كقوله تعالى: ﴿ فمنهم مَن يمشي على بطنه ومنهم مَن يمشي على رجلين ﴾ [النور: ٤٥]، وطابَ أي: حلّ لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع، معدولات عن اثنين وثلاث وأربع، ولذلك لا يصرفنَ، وإن الواو بمعنى أو، للتخيير، كقوله تعالى: ﴿ أن تقُومُوا لله مثنى وفُرادى ﴾ [سبأ: ٤٦] وقوله تعالى: ﴿ أُولي أجنحة مثنَى وثُلاثَ ورُباع ﴾ [فاطر: ١] وهذا إجماع أن أحداً من الأمة لا يجوز له أن يزيد على أربع نسوة، وكانت الزيادة من خصائص النبي ﷺ لا مشاركة معه لأحد من الأمة فيها، ورُوِيَ أن قيس بن الحارث كان تحته ثمان نسوة فلما نزلت هذه الآية قال له رسول الله ﷺ: «طلّق أربعاً وأمسك أربعاً» فجعل يقول للمرأة التي لم تلد يا فلانة أدبري والتي قد ولدت يا فلانة أقبلي. ورُوِيَ أن غَيلان بن سلمة الثقفي أسلم وعنده عشر نسوة فقال له النبي ﷺ: «أمسك أربعاً وفارق سائرهنّ». وإذا جمع الحرُّ بينَ أربع نسوة حرائر فإنه يجوز، فأمّا العبد فلا يجوز له أن ينكح أكثر من امرأتين عند أكثر أهل العلم لِما أخبرنا عبد الوهاب بن أحمد الخطيب أنا عبد العزيز أحمد الخلال أنا أبو العباس الأصم أنا الربيع أنا الشافعي أنا سفيان عن محمد بن عبد الرحمن مولى أبي طلحة عن سليمان بن يسار عن عبد الله بن عتبة عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: ينكح العبد امرأتين ويطلق طلقتين وتعتدّ الأمة بحيضتين، فإن لم تكن تحيض فبشهرين أو شهر ونصف. وقال ربيعة: يجوز للعبد أن ينكح أربع نسوة كالحرّ. ﴿ فإن خِفتُم ﴾، خشيتُم، وقيل: علمتم، ﴿ ألاّ تعدِلُوا ﴾، بين الأزواج الأربع، ﴿ فواحدةً ﴾ أي: فانكِحُوا واحـدةً. وقرأ أبـو جعفر

غير علم له بلغة العرب فقد روى الأزهري في كتابه تهذيب اللغة عن عبدالرحمن بن زيد بن أسلم في قوله الفصحاء ألا تعولوا أي لا تكثر عيالكم. وروى الأزهري عن الكسائي قال عال الرجل إذا افتقر وأعال إذا كثر عياله قال ومن العرب الفصحاء من يقول عال يعول إذا كثر عياله قال الأزهري وهذا يقوي قول الشافعي لأن الكسائي لا يحكي عن العرب إلا ما حفظه وضبطه وقول الشافعي نفسه حجة لأنه عربي فصيح والذي اعترض عليه وخطأه عجل ولم يتثبت فيما قال ولا ينبغي للحضري أن يعجل إلى إنكار ما لا يحفظه من لغات العرب هذا آخر كلام الأزهري. وبسط الإمام فخرالدين الرازي في هذا الموضع من تفسيره ورد على أبي بكر الرازي ثم قال الطعن لا يصدر إلا عن كثرة الغباوة وقلة المعرفة. وحكى البغوي عن أبي حاتم قال كان الشافعي أعلم بلسان العرب منا ولعله لغة ويقال هي لغة حمير وقرأ طلحة بن مصرف ألا تعيلوا بضم التاء وهو حجة للشافعي.

﴿وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا ﴿٤﴾﴾

﴿وآتوا النساء صدقاتهن﴾ قال الكلبي وجماعة هذا خطاب للأولياء قال أبو صالح كان الرجل إذا تزوج أيمة أخذ صداقها دونها فنهاهم الله عن ذلك. وقيل إن ولي المرأة كان إذا زوجها فإن كانت معهم في العشيرة لم يعطها من مهرها لا قليلاً ولا كثيراً، وإن كان زوجها غريباً حملوها إليه على بعير ولا يعطيها من مهرها غير ذلك فنهاهم الله عن ذلك وأمرهم أن يدفعوا الحق إلى أهله. وقال الحضرمي كان أولياء النساء يعطي هذا أخته على أن يعطيه الآخر أخته ولا مهر بينهما وهذا هو الشغار فنهاهم الله عن ذلك وأمرهم بتسمية المهر في العقد (ق) عن ابن عمر أن النبي ﷺ نهى عن الشغار في العقد والشغار أن يزوج الرجل ابنته على أن يزوجه الرجل ابنته وليس بينهما صداق. وقيل الخطاب للأزواج وهذا أصح وهو قول الأكثرين لأن الخطاب فيما قبل مع الناكحين وهم الأزواج أمرهم الله تعالى بإيتان نسائهم الصداق والصداق المهور واحدها صدقة بفتح الصاد وضم الدال **﴿نحلة﴾** يعني فريضة مسماة وقيل عطية وهبة. وقيل نحلة يعني عن طيب نفس وأصل النحلة العطية على سبيل التبرع وهي أخص من الهبة

﴿ فواحدة ﴾ بالرفع، **﴿ أو ما ملَكتْ أيمانُكم ﴾**، يعني: السراري لأنه لا يلزم فيهنّ من الحقوق ما يلزم في الحرائر، ولا قَسْم لهنّ ولا وقف في عددهنّ، وذكر الأيْمَان بيانٌ تقديره: أو ما ملكتم، وقال بعض أهل المعاني: أو ما ملكت أيمانُكم، أي: ما ينفذ فيه أقسامكم، جعله من يمين الحلف، لا يمين الجارحة، **﴿ ذلك أدْنَى ﴾**، أقرب، **﴿ أنْ لا تَعُولُوا ﴾** أي: لَا تَجُورُوا ولا تميلوا، يقال: ميزان عائل، أي: جائر مائل، هذا قول أكثر المفسرين، وقال مجاهد: أنْ لا تضلّوا، وقال الفرّاء: أنْ لا تجاوزوا ما فرض الله عليكم، وأصل العول: المجاوزة، ومنه عَوْلُ الفرائض، وقال الشافعيُ رحمه الله: أنْ لا تَكْثُر عيالُكم، وما قاله أحد، إنما يقال: أعالَ يعيل إعالة إذا كثر عياله. وقال أبو حاتم: كان الشافعي رضي الله عنه أعلم بلسان العرب منّا فله بُلْغَةٌ، ويقال: هي لغة حمير، وقرأ طلحة بن مصرف (أنْ لا تعيـلو) وهي حجة لقول الشافعي رضوان الله عليه.

﴿ وآتوا النّساءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً ﴾، قال الكلبي ومجاهد: هذا الخطاب للأولياء، وذلك أنَّ وَلِيّ المرأة كان إذا تزوجها فإن كانت معهم في العشيرة لم يعطها من مهرها قليلاً ولا كثيراً، وإن كان زوجها غريباً حملوها إليه على بعير ولم يعطوها من مهرها غير ذلك، فنهاهم عن ذلك وأمرهم أن يدفعوا الحق إلى أهله. قال الحضرمي: وكان أولياء النساء يُعطي هذا أُختَه على أن يعطيه الآخرُ أخته، ولا مهر بينهما، فنُهوا عن ذلك وأُمروا بتسميةِ المهر في العقد.
أخبرنا أبو الحسن السرخسي أنا زاهر بن أحمد أنا أبو إسحق الهاشمي أنا أبو مصعب عن مالك بن نافع عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ «نهى عنِ الشِّغَار»، والشغار: أن يُزَوِّج الرجل ابنته على أن يزوجه الآخر ابنته، وليس بينهما صداق، وقال الآخرون: الخطاب للأزواج أُمروا بإيتاء نسائهم الصداق، وهذا أصحّ، لأن

وسمي الصداق نحلة من حيث إنه لا يجب في مقابلته غير التمتع دون عرض مالي (ق) عن عقبة بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: «أحق الشروط أن توفوا بها ما استحللتم به الفروج». وقوله تعالى: ﴿فإن طبن﴾ يعني النساء المتزوجات ﴿لكم﴾ يعني للأزواج ﴿عن شيء منه﴾ يعني من الصداق ومن هنا لبيان الجنس لا للتبعيض لأنها لو وهبت المرأة لزوجها جميع صداقها جاز ﴿نفساً﴾ نصب على التمييز والمعنى فإن طابت نفوسهن عن شيء من ذلك الصداق المبين فوهبن ذلك لكم فنقل الفعل من النفوس إلى أصحابها فخرجت النفس مفسراً فلذلك وحد النفس وقيل لفظه واحد ومعناه الجمع ﴿فكلوه﴾ يعني ما وهبنه لكم ﴿هنيئاً مريئاً﴾ يعني طيباً سائغاً وقيل الهنيء الطيب المساغ الذي لا ينغصه شيء والمريء المحمود العاقبة وفي الآية دليل على إباحة هبة المرأة صداقها وأنها تملكه ولا حق للولي فيه. قوله تعالى: .

﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۝٥﴾

﴿ولا تؤتوا السفهاء أموالكم﴾ اختلفوا في هؤلاء السفهاء من هم فقيل هم النساء نهى الله الرجال أن يؤتوا النساء أموالهم سواء كن أزواجاً أو بنات أو أمهات وقيل هم الأولاد خاصة يقول لا تعط ولدك السفيه مالك الذي هو قيامك فيفسده عليك وقيل امرأتك وابنك السفيه. قال ابن عباس لا تعمد إلى مالك الذي خولك الله وجعله لك معيشة فتعطيه امرأتك وابنك فيكونوا هم الذين يقومون عليك ثم تنظر إلى ما بين أيديهم أمسك مالك وأصلحه وكن أنت الذي تنفق عليهم في رزقهم ومؤنتهم. وقال الكلبي: إذا علم الرجل إن امرأته سفيهة مفسدة وإن ولده سفيه مفسد لا ينبغي له أن يسلط واحداً منهما على ماله فيفسده. وقال سعيد بن جبير هو مال اليتيم يكون عندك يقول لا تؤته إياه وأنفق عليه منه حتى يبلغ وإنما أضاف المال إلى الأولياء لأنهم قوامها ومدبروها. وأصل السفه الخفة واستعمل في خفة النفس لنقصان العقل في الأمور الدنيوية والدينية والسفيه المستحق الحجر هو الذي يكون مبذراً

الخطاب فيما قبلُ مع الناكحين، والصَّدُقات: المهور، واحدها صدقة، نحلةً قال قتادة: فريضةً، وقال ابن جريج: فريضة مسمّاة، قال أبو عبيدة: ولا تكون النحلة إلّا مسماةً معلومة، وقال الكلبي: عطية وهبة، وقال أبو عبيدة: عن طيب نفس، وقال الزجّاج: تديّناً، أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا عبد الله بن يوسف أخبرنا الليث حدّثني يزيد بن أبي حبيب عن أبي الخير عن عقبة بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: «أحقُّ الشروطِ أن تُوفوا به ما اسْتحللتمْ به الفروج»، ﴿ فإنْ طِبْنَ لكم عنْ شيءٍ منهُ نَفْساً ﴾، يعني: فإن طابت نفوسُهنّ بشيء من ذلك فوهبنَ منكم، فنقل الفعل من النفوس إلى أصحابها فخرجت النفس مفسّرة، فلذلك وحّد النفس، كما قال الله تعالى: ﴿ وضاق بهم ذرعاً ﴾ [هود: ٧٧، العنكبوت: ٣٣] وقُرىء: ﴿ عيناً ﴾ وقيل: لفظها واحد ومعناها جمع، ﴿ فكُلُوه هنِيئاً مَرِيئاً ﴾، سائغاً طيباً، يقال هنأني الطعام يهنئني بفتح النون في الماضي وكسرها في الغابر، وقيل: الهنيء: الطيب المساغ الذي لا ينغصه شيء، والمريء: المحمود العاقبة التامّ الهضم الذي لا يضرّ، قرأ أبو جعفر « هنيّاً مريّاً » بتشديد الياء فيهما من غير همزة، وكذلك « بري » « بريون » « وبرياً » « وكهية » والآخرون يهمزونها.

قوله تعالى: ﴿ ولا تُؤْتُوا السُّفَهاءَ أموالَكُمُ التي جعلَ اللَّهُ لكم قياماً ﴾، اختلفوا في هؤلاء السفهاء فقال قوم: هم النساء، وقال الضحاك: النساء من أسفه السفهاء، وقال مجاهد: نهى الرجال أن يُؤتوا النساء أموالهم وهنّ سفهاء سواءٌ كنَّ أزواجاً أو بناتٍ أو أُمهات، وقال الآخرون: هم الأولاد، قال الزهري: يقول لا تعطِ ولدكَ السفيه مالك الذي هو قيامك بعد الله تعالى فيفسده، وقال بعضهم: هم النساء والصبيان، وقال الحسن: هي امرأتك السفيهة وابنتك السفيهة، وقال ابن عباس: لا تعمد إلى مالك الذي خوّلك الله وجعله لك معيشة فتعطيه امرأتك

في ماله ومفسداً في دينه فلا يجوز لوليه أن يدفع إليه ماله. وقيل إن السفه المذكور في هذه الآية ليس هو صفة ذم لهؤلاء وإنما سموا سفهاء لخفة عقولهم ونقصان تمييزهم وضعفهم عن القيام بحفظ المال فقوله تعالى: ﴿**ولا تؤتوا السفهاء**﴾ يعني الجهال بموضع الحق أموالكم ﴿**التي جعل الله لكم قياماً**﴾ يعني قوام معايشكم يقول المال هو قوام الناس وقوام معايشهم كن أنت قيم أهلك أنفق عليهم ولا تؤت مالك امرأتك وولدك فيكونوا هم الذين يقومون عليك. ولما كان المال سبباً للقيام بالمعاش سمي به إطلاقاً لاسم المسبب على السبب على سبيل المبالغة لأنه به يقام الحج والجهاد وأعمال البر وفكاك الرقاب من النار ﴿**وارزقوهم فيها**﴾ أي أطعموهم ﴿**واكسوهم**﴾ يعني لمن يجب عليكم رزقه وكسوته لما نهى الله عن إيتاء المال للسفيه أمر أن يجري رزقه وكسوته وإنما قال: وارزقوهم فيها ولم يقل منها لأنه أراد اجعلوا لهم فيها رزقاً والرزق من الله تعالى هو العطية من غير حد ولا قطع ومعنى الرزق من العباد هو الأجر الموظف المعلوم لوقت معلوم محدود ﴿**وقولوا لهم قولاً معروفاً**﴾ يعني قولاً جميلاً لأن القول الجميل يؤثر في القلب ويزيل السفه وقيل معناه عدوهم عدة جميلة من البر والصلة. قال عطاء يقول: إذا ربحت أعطيتك وإن غنمت قسمت لك حظاً وقيل معناه الدعاء أي ادعوا لهم. قال ابن زيد إن لم يكن ممن تجب عليك نفقته فقل له عافانا الله وإياك بارك الله فيك. وقيل معناه قولوا لهم قولاً تطيب به أنفسهم وهو أن يقول الولي لليتيم السفيه: مالك عندي وأنا أمين عليه فإذا بلغت ورشدت أعطيتك مالك. وقال الزجاج معناه علموهم مع إطعامكم وكسوتكم إياهم أمر دينهم مما يتعلق بالعلم والعمل. قوله عز وجل:

﴿وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَـٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا۟ ۚ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ فَأَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٦﴾﴾

﴿**وابتلوا اليتامى**﴾ الآية نزلت في ثابت بن رفاعة وفي عمه وذلك أن رفاعة مات وترك ابنه ثابتاً وهو صغير

وبنيك فيكونوا هم الذين يقومون عليك، ثم تنظر إلى ما في أيديهم، ولكن أمسك مالك وأصلحه وكن أنتَ الذي تُنفق عليهم في رزقهم ومُؤنتهم، قال الكلبي: إذا علم الرجل أنّ امرأته سفيهة مفسدة وأن ولده سفيه مفسد فلا ينبغي له أن يُسلّط واحداً منهما على ماله فيفسده. وقال سعيد بن جبير وعكرمة: هو مال اليتيم يكون عندك، يقول: لا تؤته إيّاه وأنفقه عليه حتى يبلغ، وإنّما أضاف إلى الأولياء فقال: ﴿ **أموالكم** ﴾ لأنهم قوامها ومدبّروها، والسفيه الذي لا يجوز لوليّه أن يؤتيه ماله هو المستحق الحِجْرَ عليه، وهو أن يكون مبذّراً في ماله أو مفسداً في دينه، فقال جلّ ذكره: ﴿ **ولا تؤتوا السفهاء** ﴾، أي: الجهّال بموضع الحق أموالكم التي جعل الله لكم قياماً، قرأ نافع وابن عامر (قيَماً) بلا ألف، وقرأ الآخرون ﴿ **قياماً** ﴾ وأصله: قواماً، فانقلبت الواو ياءً لانكسار ما قبلها، وهو ملاك الأمر وما يقوم به الأمر. وأراد ههنا قِوام عيشكم الذي تعيشون به. قال الضحاك: به يُقام الحج والجهاد وأعمال البرّ وبه فكاك الرقاب من النار. ﴿ **وارْزُقُوهم فيها** ﴾ أي: أطعموهم، ﴿ **واكسوهم** ﴾، لمَن يجب عليكم رزقه ومؤنته، وإنما قال: ﴿ **فيها** ﴾ ولم يقل: منها، لأنه أراد أنهم جعلوا لهم فيها رزقاً فإن الرزق من الله العطيةُ من غيّ حدٍّ، ومن العباد أجرٌ موقتٌ محدود. ﴿ **وقُولُوا لهم قولاً معروفاً** ﴾ عدّة جميلة، وقال عطاء: إذا ربحتُ أعطيتُك وإن غنمتُ فلك فيه حظٌ، وقيل: هو الدعاء، وقال ابن زيد: إن لم يكن ممّن يجب عليك نفقته، فقلْ له: عافانا الله وإيّاك بارك الله فيك، وقيل: قولاً تطيبُ به أنفسُهم.

قوله تعالى: ﴿ **وابْتَلُوا اليتامَى** ﴾، الآية نزلت في ثابت بن رفاعة وفي عمّه، وذلك أن رفاعة توفي وترك ابنه

فجاء عمه إلى النبي ﷺ وقال له إن ابن أخي يتيم في حجري فما يحل لي من ماله ومتى أدفع إليه ماله؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية ﴿وابتلوا اليتامى﴾ يعني اختبروهم في عقولهم وأديانهم وحقوق أموالهم ﴿حتى إذا بلغوا النكاح﴾ أي مبلغ الرجال والنساء ﴿فإن آنستم﴾ أي أبصرتم وعرفتم ﴿منهم رشداً﴾ يعني عقلاً وصلاحاً في الدين وحفظاً للمال وعلماً بما يصلحه.

فصل في أحكام تتعلق بالحجر وفيه مسائل

المسألة الأولى: الابتلاء يختلف باختلاف أحوال اليتامى فإن كان ممن يتصرف بالبيع والشراء في الأسواق يدفع إليه شيئاً يسيراً من المال، وينظر في تصرفه وإن كان ممن لا يتصرف في الأسواق فيختبر بنفقته على أهله وعبيده وإجرائه وتصرفه في أموال داره، وتختبر المرأة في أمر بيتها وحفظ متاعها وغزلها واستغزالها فإذا رأى حسن تدبير اليتيم وحسن تصرفه في الأمور مرار أو غلب على الظن رشده دفع إليه ماله بعد بلوغه ولا يدفع إليه ماله وإن كان شيخاً يغلب عليه السفه حتى يؤنس منه الرشد.

المسألة الثانية: قال الإمام أبو حنيفة: تصرفات الصبي العاقل المميز بإذن الولي صحيحة. وقال الشافعي هي غير صحيحة. واحتج أبو حنيفة على قوله بهذه الآية وذلك لأن قوله تعالى وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح يقتضي أن هذا الابتلاء إنما يحصل قبل البلوغ والمراد من هذا الابتلاء اختبار حاله في جميع تصرفاته فثبت أن قوله وابتلوا اليتامى أمر للأولياء بالإذن لهم في البيع والشراء قبل البلوغ أجاب الشافعي بأن قال ليس المراد وابتلوا اليتامى الإذن لهم في التصرف حال الصغر بدليل قوله فإن آنستم منهم رشداً ﴿فادفعوا إليهم أموالهم﴾ وإنما تدفع إليهم أموالهم بعد البلوغ وإيناس الرشد فثبت بموجب هذه الآية أنه لا يدفع إليه ماله حال الصغر فوجب أن لا يصح تصرفه حال الصغر وإنما المراد من الابتلاء هو اختبار عقله واستكشاف حاله في معرفة المصالح والمفاسد.

المسألة الثالثة: في بيان البلوغ وذلك بأربعة أشياء اثنان يشترك فيهما الرجال والنساء. واثنان يختصان بالنساء أما اللذان يشترك فيهما الرجال والنساء فأحدهما بالسن فإذا استكمل المولود خمس عشرة سنة. حكم ببلوغه غلاماً

ثابتاً وهو صغير، فجاء عمّه إلى النبي ﷺ وقال: إن ابن أخي يتيم في حجري، فما يحلّ لي من ماله ومتى أدفع إليه ماله؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية ﴿ وابْتَلُوا اليتامَى ﴾ أي: اختبروهم في عقولهم وأديانِهم وحفظِهم أموالَهم، ﴿ حتى إذا بلغُوا النكاحَ ﴾، أي: مبلغ الرجال والنساء، ﴿ فإن أنستم ﴾، أبصرتم، ﴿ منهم رُشداً ﴾، فقال المفسرون يعني: عقلاً وصلاحاً في الدين وحفظاً للمال وعلماً بما يصلحه. وقال سعيد بن جبير ومجاهد والشعبي: لا يدفع إليه ماله وإن كان شيخاً حتى يؤنس منه رشده، والابتلاء يختلف باختلاف أحوالهم فإن كان ممّن يتصرّف في السوق فيدفع الولي إليه شيئاً يسيراً من المال وينظر في تصرفه وإن كان ممّن لا يتصرف في السوق فيختبره في نفقة داره، والإنفاق على عبيده وأُجرائه، وتُختبر المرأةُ في أمر بيتها وحفظ متاعها وغزلها واستغزالها، فإذا رأى حُسنَ تدبير، وتصْرِفُه في الأمور مراراً يغلب على القلب رشده، دفعَ المالَ إليه. واعلمْ أن الله تعالى علّق زوال الحَجْرِ عن الصغير وجواز دفع المال إليه بشيئين: بالبلوغ والرُّشد، والبلوغ يكون بأحد أشياء أربعة، اثنان يشترك فيهما الرجال والنساء، واثنان مختصّان بالنساء، أحدهما السن، والثاني الاحتلام، أمّا السن فقد استكمل المولود خمس عشرة سنة حكم ببلوغه غلاماً كان أو جارية، لما أخبرنا عبد الوهاب بن محمد الخطيب أنا عبد العزيز بن أحمد الخلال أنا أبو العباس الأصم أنا الربيع أنا الشافعي أخبرنا سفيان عن عُيينة عن عبد الله بن عمر عن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: عُرضتُ على رسول الله ﷺ عام أُحُد وأنا ابنُ أربعةَ عشرة سنة، فردّني، ثم عُرضتُ عليه عام الخندق

كان أو جارية. ويدل عليه ما روى عن ابن عمر قال: عرضت على رسول الله ﷺ عام أحد وأنا ابن أربع عشرة سنة فردني. ثم عرضت عليه عام الخندق وأنا ابن خمس عشرة سنة فأجازني. أخرجاه في الصحيحين وهذا قول أكثر أهل العلم. وقال أبو حنيفة بلوغ الجارية باستكمال سبع عشرة سنة وبلوغ الغلام باستكمال ثماني عشرة سنة والثاني الاحتلام وهو إنزال المني الدافق سواء أنزل باحتلام أو جماع فإذا وجد ذلك من الصبي أو الجارية حكم ببلوغه لقوله تعالى ﴿**وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم**﴾ ولقوله ﷺ لمعاذ: خذ من كل حالم ديناراً أما نبات الشعر الخشن حول الفرج فهو يدل على البلوغ في أولاد المشركين لما روى عن عطية القرظي قال: كنت من سبي قريظة فكانوا ينظرون فمن أنبت الشعر قتل ومن لم ينبت لم يقتل. فكنت ممن لم ينبت وهل يكون ذلك علامة عن البلوغ في أولاد المسلمين؟ فيه قولان: أحدهما أنه يكون بلوغاً كما في أولاد المشركين والثاني لا يكون ذلك بلوغاً في حق أولاد المسلمين لأنه يمكن الوقوف على مواليد أولاد المسلمين والرجوع إلى قول آبائهم بخلاف الكفار فإنه لا يوقف على مواليدهم ولا يقبل في ذلك قول آبائهم لكفرهم فجعل الإنبات الذي هو أمارة البلوغ بلوغاً في حقهم. وأما الذي يختص بالنساء فهو الحيض والحبل فإذا حاضت الجارية بعد استكمال تسع سنين حكم ببلوغها وكذلك إذا ولدت حكم ببلوغها قبل الوضع بستة أشهر لأنها أقل مدة الحمل.

المسألة الرابعة: في بيان الرشد وهو أن يكون مصلحاً في دينه وماله فالصلاح في الدين هو اجتناب الفواحش والمعاصي التي تسقط بها العدالة والصلاح في المال هو أن لا يكون مبذراً والتبذير أن ينفق ماله فيما لا يكون فيه محمدة دنيوية ولا مثوبة أخروية أو لا يحسن التصرف فيغبن في البيع والشراء. فإذا بلغ الصبي وهو مفسد لماله ودينه لم ينفك عنه الحجر ولا ينفذ تصرفه في ماله. وبه قال الشافعي وقال أبو حنيفة إذا كان مصلحاً لماله زال عنه الحجر وإن كان مفسداً لدينه وإذا كان لما له مفسداً لا يدفع إليه المال حتى يبلغ خمسة وعشرين سنة غير أنه ينفذ تصرفه قبله والقرآن حجة الشافعي في استدامة الحجر عليه لأن الله تعالى قال ﴿**فإن آنستم منهم رشداً فادفعوا إليهم أموالهم**﴾ أمر بدفع المال بعد البلوغ وإيناس الرشد والفاسق لا يكون رشيداً وبعد بلوغه خمساً وعشرين سنة وهو مفسد لماله بالإنفاق غير رشيد فوجب أن لا يجوز دفع المال إليه كما قبل بلوغ هذا السن.

وأنا ابن خمس عشرة سنة فأجازني، قال نافع: فحدّثتُ بهذا الحديث عمر بن عبد العزيز، فقال: هذا فرق ما بين المقاتلة والذريّة، وكتب أن يفرض لابن خمس عشرة سنة المقاتلة، ومَن لم يبلغها في الذرية. وهذا قول أكثر أهل العلم. وقال أبو حنيفة رحمه الله تعالى: بلوغ الجارية باستكمال سبعَ عشرة، وبلوغ الغلام باستكمال ثمان عشرة سنة، وأمّا الاحتلام فنعني به نزول المني سواء كان بالاحتلام أو بالجماع، أو غيرهما، فإذا وجدت ذلك بعد استكمال تسع سنين من أيّهما كان حُكم ببلوغه، لقوله تعالى: ﴿ وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم فليستأذِنُوا ﴾ [النور: ٥٩] وقال النبي ﷺ لمعاذٍ في الجزية حين بعثه إلى اليمن: «خُذْ من كل حالم ديناراً» وإما الإنبات، وهو نبات الشعر الخشن حول الفرج، فهو بلوغ في أولاد المشركين، لِمَا رُوِيَ عن عطية القرظي قال: كنتُ من سبي قريظة، فكانوا ينظرون فمَن أنبت الشعر قُتل، ومَن لم ينبت لم يقتل، فكنت ممّن لم ينبت، وهل يكون لذلك بلوغاً في أولاد المسلمين؟ فيه قولان، أحدهما: يكون بلوغاً كما في أولاد الكفّار، والثاني: لا يكون بلوغاً لأنه يمكن الوقوف على مواليد المسلمين بالرجوع إلى آبائهم، وفي الكفّار لا يوقف على مواليدهم، ولا يقبل قول آبائهم فيه لكفرهم، فجعل الإنبات فيه لكفرهم، فجعل الإنبات الذي هو أمارة البلوغ بلوغاً في حقهم، أما ما يختص بالنساء فالحيض والحبل، فإذا حاضت المرأة بعد استكمال تسع سنين يُحكم ببلوغها، وكذلك إذا ولدت يحكم ببلوغها قبل الوضع بستة أشهر لأنها أقلّ مدة الحمل، وأمّا الرشد: فهو أن يكون مصلحاً في دينه وماله، والصلاح في الدين

المسألة الخامسة: إذا بلغ الصبي أو الجارية وأونس منه الرشد زال عنه الحجر ودفع إليه ماله سواء تزوج أو لم يتزوج وقال مالك إن كانت امرأة لا يدفع إليها المال ما لم تتزوج فإذا تزوجت دفع إليها مالها ولا ينفذ تصرفها إلا بإذن الزوج ما لم تكبر وتجرب.

المسألة السادسة: إذا بلغ الصبي رشيداً زال عنه الحجر فلو عاد سفيهاً ينظر فإن كان مبذراً لماله حجر عليه وإن كان مفسداً في دينه فعلى وجهين: إحدهما أن يعاد عليه الحجر كما يستدام إذا بلغ وهو بهذه الصفة. والثاني لا يحجر عليه لأن حكم الدوام أقوى من حكم الابتداء. وعند أبي حنيفة لا حجر على الحر العاقل البالغ بحال والدليل على إثبات الحجر من اتفاق الصحابة ما روي عن هشام بن عروة عن أبيه أن عبدالله بن جعفر ابتاع أرضاً سبخة بستين ألف درهم فقال علي: لآتين عثمان ولأحجرن عليك فأتى ابن جعفر الزبير فأعلمه بذلك فقال الزبير أنا شريكك في بيعك فأتى علي عثمان فقال احجر على هذا فقال الزبير أنا شريكه فقال عثمان كيف أحجر على رجل في بيع شريكه فيه الزبير فكان اتفاقاً منهم على جواز الحجر حتى حتى احتال الزبير لدفعه وقوله تعالى: ﴿**ولا تأكلوها إسرافاً**﴾ الخطاب للأولياء يعني يا معشر الأولياء لا تأكلوا أموال اليتامى بغير حق ﴿**وبداراً أن يكبروا**﴾ يعني لا تبادروا كبرهم ورشدهم فتفرطوا في إنفاقها وتقولون ننفق كما نشتهي قبل أن يكبروا فيلزمكم تسليمها إليهم. ثم بيّن تعالى حال الأولياء وقسمهم قسمين فقال تعالى: ﴿**ومن كان غنياً فليستعفف**﴾ أي فليمتنع من أكل مال اليتيم

هو أن يكون مجتنباً عن الفواحش والمعاصي التي تسقط العدالة، والصلاح في المال هو أن لا يكون مبذّراً، والتبذير: هو أن ينفق ماله فيما لا يكون فيه محمدة دنيويّة ولا مثوبة أُخرويّة، أو لا يُحسن التصرفَ فيها، فيغبن في البيوع فإذا بلغ الصبي وهو مفسد في دينه وغير مصلح لماله، دام الحَجْر عليه، ولا يدفع إليه المال ولا ينفذ تصرّفه، وعند أبي حنيفة رضي الله عنه إذا كان مصلحاً لماله زال الحجر عنه وإن كان مفسداً في دينه، وإذا كان مفسداً لمالِه قال: لا يدفع إليه المال حتى يبلغ خمساً وعشرين سنة، غير أن تصرّفه يكون نافذاً قبله، والقرآن حجّة لمَن استدام الحجر عليه، لأنّ الله تعالى قال: ﴿ **حتى إذا بلغُوا النكاحَ فإن آنستم منهم رشداً فادْفَعُوا إليهم أموالهم** ﴾، أمر بدفع المال إليهم بعد البلوغ وإيناس الرشد، والفاسق لا يكون رشيداً وبعد بلوغه خمساً وعشرين سنة وهو مفسد لماله بالاتفاق غير رشيد، فوجب أن لا يجوز دفع المال إليه كما قبل بلوغ هذا السن، وإذا بلغ وأُونس منه الرشدُ زال الحجر عنه، ودفع إليه المال رجلاً كان أو امرأة تزوج أو لم يتزوج، وعند مالك رحمه الله تعالى: إن كانت امرأة لا يدفع المال إليها ما لم تتزوج، فإذا تزوجت دفع إليها، ولكن لا ينفذ تصرفها إلاّ بإذن الزوج، ما لم تكبر وتُجرَّب، وإذا بلغ الصبي رشيداً وزال الحجر عنه ثم عاد سفيهاً نُظر فإن عاد مبذّراً لماله حُجِرَ عليه، وإن عاد مفسداً في دينه فعلى وجهين، أحدهما: يُعاد الحِجْرُ عليه كما يستدام الحجر عليه إذا بلغ بهذه الصفة، والثاني: لا يُعاد لأن حكم الدوام أقوى من حكم الابتداء، وعند أبي حنيفة رحمه الله تعالى: لا حجر على الحرِّ العاقل البالغ بحال، والدليل على إثبات الحجر من اتفاق الصحابة رضي الله عنهم، ما رُوِيَ عن هشام بن عروة عن أبيه أن عبد الله بن جعفر ابتاع أرضاً سبخة بستّين ألف درهم، فقال عليٌّ: لآتينّ عثمان فلأحجرنّ عليك فأتى ابنُ جعفر الزبيرَ فأعلمه بذلك، فقال الزبير: أنا شريكه، فقال عثمان: كيف أحجر على رجل في بيع شريكه فيه الزبير، فكان ذلك اتفاقاً منهم على جواز الحجر حتى احتال الزبير في دفعه. قوله تعالى: ﴿ **ولا تأكُلُوها** ﴾، يا معشر الأولياء ﴿ **إسْرَافاً** ﴾، بغير حق، ﴿ **وبِدَاراً** ﴾ أي: مبادرة، ﴿ **أنْ يَكْبَرُوا** ﴾ و﴿ **أن** ﴾ في محل النصب، يعني: لا تبادروا كِبَرَهم ورُشدَهم حذراً من أن يبلغوا فيلزمكم تسليمها إليهم، ثم بيّن ما يحلّ لهم من مالهم فقال: ﴿ **ومَنْ كانَ غنيّاً فليستعففْ** ﴾، أي: ليمتنع من مال اليتيم فلا يرزؤه قليلاً ولا كثيراً، والعفّة الامتناع مما لا يحلّ، ﴿ **ومَن كان فقيراً** ﴾ محتاجاً إلى مال اليتيم

ولا يرزأه قليلاً ولا كثيراً ﴿ومن كان فقيراً﴾ يعني محتاجاً إلى مال اليتيم وهو يحفظه ﴿فليأكل بالمعروف﴾ روى أبو داود عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال: إني فقير وليس لي ولي يتيم فقال كل من مال يتيمك غير مسرف ولا مبذر ولا متأثل. واختلف العلماء في حكم هذه الآية فروي عن عمر وابن عباس وابن جبير وأبي العالية وعبيدة السلماني وأبي وائل ومجاهد ومقاتل أنه يأخذ من مال اليتيم على وجه القرض. واختلفوا في أنه هل يلزمه القضاء فذهب قوم إلى أنه يلزمه القضاء إذا أيسر وهو المراد من قوله تعالى فليأكل بالمعروف والمعروف القرض أي يستقرض من مال اليتيم إذا احتاج إليه، فإذا أيسر قضاه وهو قول مجاهد وسعيد بن جبير قال عمر بن الخطاب: إني أنزلت نفسي من مال الله بمنزلة مال اليتيم إن استغنيت استعففت وإن افتقرت أكلت بالمعروف فإذا أيسرت قضيت. وقال قوم لا ضمان عليه ولا قضاء بل يكون ما يأكله كالأجرة له على عمله وهو قول الحسن والشعبي والنخغي وقتادة قال الشعبي لا يأكله إلا أن يضطر إليه كما يضطر إلى الميتة ثم القائلون بجواز الأكل من مال اليتيم اختلفوا في قوله فليأكل بالمعروف. فقال عطاء وعكرمة يأكل بأطراف أصابعه ولا يسرف ولا يكتسي منه ولا يلبس الكتان ولا الحلل لكن يأكل ما يسد به الجوع ويلبس ما يستر به العورة. وقال الحسن يأكل من تمر نخله ولبن مواشيه بالمعروف ولا قضاء عليه فأما الذهب والفضة فلا يأخذ منه شيئاً فإن أخذ وجب عليه رده. وقال الكلبي المعروف هو ركوب الدابة وخدمة الخادم، وليس له أن يأكل من ماله شيئاً وروي أن رجلاً قال لابن عباس إن لي يتيماً وإن له إبلاً أفأشرب من لبن إبله فقال ابن عباس إن كنت تبغي ضالة إبل وتهنأ جرباها وتليط حوضها وتسقيها يوم ورودها فاشرب غير مضر نسل ولا ناهك في الحلب وقال قوم المعروف أن يأخذ من ماله بقدر قيامه وأجرة عمله ولا قضاء عليه وهو قول عائشة وجماعة من أهل العلم وقوله تعالى: ﴿فإذا دفعتم إليهم أموالهم فأشهدوا عليهم﴾ هذا أمر إرشاد وليس بواجب أمر الله تعالى الولي بالإشهاد على دفع المال

وهو يحفظه ويتعهده، ﴿ فلْيأكلْ بالمعروف ﴾، أخبرنا محمد بن الحسن المروزي أخبرنا أبو سهل محمد بن عمر السنجري أخبرنا الإمام أبو سليمان الخطابي أخبرنا أبو بكر داسة التمار أخبرنا أبو داود السجستاني أخبرنا حميد بن مسعدة أن خالد بن الحارث حدّثهم أخبرنا حسين يعني المعلّم عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه رضي الله عنهم أن رجلاً أتى رسول الله ﷺ فقال: إني فقير وليس لي شيء ولي يتيم، فقال: «كُلْ من مال يتيمك غير مسرفٍ ولا مبذرٍ ولا متأثل». واختلفوا في أنه هل يلزمه القضاء، فذهب بعضهم إلى أن يقضي إذا أيسر وهو المراد من قوله: ﴿ فليأكُلْ بالمعروف ﴾، فالمعروف القرض، أي: يستقرض من مال اليتيم إذا احتاج إليه، فإذا أيسر قضاه، وهو قول مجاهد وسعيد بن جبير، قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: إني أنزلت نفسي من مال الله تعالى بمنزلة مال اليتيم: إن استغنيت استعففت وإن افتقرت أكلت بالمعروف، فإذا أيسرتُ قضيت. وقال الشعبي: لا يأكله إلّا أن يضطر إليه كما يضطر إلى الميتة، وقال قوم: لا قضاء عليه، ثم اختلفوا في كيفية هذا الأكل بالمعروف، فقال عطاء وعكرمة: يأكل بأطراف أصابعه، ولا يسرف ولا يكتسي منه، وقال النخعي: لا يلبس الكتّان ولا الحُلل، ولكن ما سدّ الجوعةَ ووَارَى العورةَ، وقال الحسن وجماعة: يأكل من تمرِ نخيله ولبن مواشيه بالمعروف ولا قضاء عليه، فأما الذهب والفضة فلا؛ فإن أخذ شيئاً منه فعليه ردُّه، وقال الكلبي: المعروف ركوب الدابّة وخدمة الخادم، وليس له أن يأكل من ماله شيئاً، أخبرنا أبو إسحق السرخسي أخبرنا زاهر بن أحمد أنا أبو إسحق الهاشمي، أنا أبو مصعب عن مالك عن يحيىٰ بن سعيد أنه قال سمعت القاسم بن محمد يقول: جاء رجل إلى ابن عباس رضي الله عنهما قال: إنّ لي يتيماً وإن له إبلاً أفأشرب من لبن إبله؟ فقال: إن كنت تبغي ضالّة إبله وتهنا جَرْبَاها وتليطُ حوضَها وتسقيها يوم وُرودِها فاشرب غير مُضرٍّ بنسلٍ ولا نَاهِكٍ في الحَلْب، وقال بعضهم: والمعروف أن يأخذ ماله بقدر قيامه وأجرة

إلى اليتيم بعد البلوغ لتزول عنه التهمة وتنقطع الخصومة لأنه إذا كانت عليه بينة كان أبعد من أن يدعى عدم القبض وتظهر بذلك أمانة الوصي وتسقط عنه اليمين عند إنكار اليتيم القبض ﴿**وكفى بالله حسيباً**﴾ يعني محاسباً ومجازياً وشاهداً به قوله تعالى: .

﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ۝٧﴾

﴿**للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون**﴾ نزلت هذه الآية في أوس بن ثابت الأنصاري توفي وترك امرأته ويقال لها أم كحة وثلاث بنات منها فقام رجلان هما ابن عم الميت ووصياه يقال لهما سويد وعرفجة فأخذا ماله ولم يعطيا امرأته ولا بناته شيئاً من ماله. وذلك أنهم كانوا في الجاهلية لا يورثون النساء ولا الصغير من الذكور وإنما كانوا يورثون الرجال يقولون لا يعطى الإرث إلاّ من قاتل وحاز الغنيمة وحمى الحوزة فجاءت أم كحة امرأة أوس إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله مات أوس بن ثابت وترك ثلاثة بنات وأنا امرأته وليس عندي ما أنفق عليهن وقد ترك أبوهن مالاً حسناً وهو عند سويد وعرفجة ولم يعطياني ولا بناته منه شيئاً وهن في حجري ولا يطعمن ولا يسقين فدعاهما رسول الله ﷺ فقالا: يا رسول الله إن ولدها لا يركبن فرساً ولا يحملن كلاً ولا ينكبن عدواً فأنزل الله هذه الآية وبين أن الإرث ليس مختصاً بالرجال بل هو أمر يشترك فيه الرجال والنساء. فقال تعالى للرجال يعني الذكور من أولاد الميت وعصبته نصيب أي حظ مما ترك الوالدان والأقربون يعني من لميراث ﴿**وللنساء نصيب**﴾ يعني وللإناث من أولاد الميت حظ ﴿**مما ترك الوالدان والأقربون مما قل منه أو كثر**﴾ يعني من المال المخلف عن الميت ﴿**نصيباً مفروضاً**﴾ يعني معلوماً والفرض ما فرضه الله تعالى وهو آكد من الواجب فلما نزلت هذه الآية مجملة ولم يبين كم هو النصيب أرسل رسول الله ﷺ إلى سويد وعرفجة لا تفرقا من المال شيئاً فإن الله تعالى قد جعل لبناته نصيباً مما ترك ولم يبين كم هو حتى أنظر ما ينزل فيهن فأنزل الله تعالى: ﴿يوصيكم الله في

عمله، ولا قضاء عليه، وهو قول عائشة وجماعة من أهل العلم. ﴿ **فإذا دفعتُم إليهم أموالَهم فأشْهِدُوا عليهم** ﴾، هذا أمرٌ وإرشاد، وليس بواجب، أمر الولي بالإشهاد على دفع المال إلى اليتيم بعدما بلغ لتزول عنه التهمة وتنقطع الخصومة، ﴿ **وكفَى باللَّهِ حَسِيبَاً** ﴾ محاسباً ومجازياً وشاهداً.

قوله تعالى: ﴿ **للرِّجَالِ نصيبٌ مما ترك الوالدان والأقربون** ﴾ الآية، نزلت في أوس بن ثابت الأنصاري توفي وترك امرأةً يقال لها أُمّ كُجّة وثلاث بنات له منها، فقام رجلان هما ابنا عمّ الميت ووَصِيّاه، سويدٌ وعُرْفُجة، فأخذا ماله ولم يعطيا امرأته ولا بناته شيئاً، وكانوا في الجاهلية لا يُورِّثون النساء ولا الصغير، وإن كان الصغير ذكراً وإنّما كانوا يورِّثون الرجال، ويقولون: لا نعطي إلاّ من قاتل وحاز الغنيمة، فجاءت أُمّ كُجّة فقالت: يا رسول الله إن أوس بن ثابت مات وترك عليّ ثلاث بنات وأنا امرأته، وليس عندي ما أُنفق عليهنّ، وقد ترك أبوهنّ مالاً حسناً، وهو عند سويد وعرفجة، ولم يعطياني ولا بناتي شيئاً وهنّ في حِجْري، لا يطعِمنَ ولا يسقِين، فدعاهما رسول الله ﷺ، فقالا: يا رسول الله ولدها لا يركب فرساً ولا يحمل كلأً ولا يَنْكَأُ عدوّاً، فأنزل الله عزّ وجلّ ﴿ **للرجال** ﴾ يعني: للذكور من أولاد الميت وأقربائه ﴿ **نصيب** ﴾ حظٌ ﴿ **مما ترك الوالدان والأقربون** ﴾ من الميراث، ﴿ **وللنساء** ﴾، وللإناث منهم، ﴿ **نصيبٌ مما تركَ الوالدان والأقرَبُون ممّا قَلَّ منه** ﴾، أي: من المال، ﴿ **أو كَثُرَ** ﴾ منه ﴿ **نصيباً مفروضاً** ﴾، نصب على القطع، وقيل: جعل ذلك نصيب فأثبت لهنّ الميراث، ولم يبيّن كم هو، فأرسل رسول الله ﷺ إلى سُويد وعُرفجة: لا تفرقا من مال أوس بن ثابت شيئاً فإن الله تعالى جعل لبناته نصيباً مما ترك، ولم يُبيّن

أولادكم﴾ الآية فلما نزلت أرسل رسول الله ﷺ إلى سويد وعرفجة أن ادفعا إلى أم كحة الثمن مما ترك وإلى بناته الثلثين ولكما باقي المال. قوله عز وجل:

﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُوا الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٨﴾﴾

﴿**وإذا حضر القسمة**﴾ يعني قسمة الميراث فعلى هذا القول يكون الخطاب للوارثين ﴿**أولو القربى**﴾ يعني القرابة الذين لا يرثون ﴿**واليتامى والمساكين**﴾ إنما قدم اليتامى لشدة ضعفهم وحاجتهم ﴿**فارزقوهم منه**﴾ أي فارضخوا لهم من المال قبل القسمة. واختلف العلماء في حكم هذه الآية فقال قوم هذه الآية منسوخة بآية المواريث وهذا قبل نزول آية المواريث فلما نزلت آية المواريث جعلت لأهلها ونسخت هذه الآية وهي رواية مجاهد عن ابن عباس وقول سعيد بن المسيب وعكرمة والضحاك وقتادة وقال قوم هي محكمة غير منسوخة. وهي الرواية الأخرى عن ابن عباس وهو قول أبي موسى الأشعري والحسن وأبي العالية والشعبي وعطاء بن أبي رباح وسعيد بن جبير ومجاهد والنخعي والزهري ثم اختلف العلماء بعد القول بأنها محكمة هل هذا الأمر أمر وجوب أو ندب على قولين: أحدهما أنه واجب فقيل إن كان لوارث كبيراً وجب عليه أن يرضخ لمن حضر القسمة شيئاً من المال بقدر تطيب به نفسه وإن الوارث صغيراً وجب على الولي أن يعتذر إليهم ويقول إني لا أملك هذا المال وهو لهؤلاء الضعفاء. قال ابن عباس إن كان الورثة كباراً رضخوا لهم وإن كان الورثة صغاراً اعتذر إليهم فيقول الولي أو الوصي إني لا أملك هذا المال وإنما هو للصغار ولو كان لي منه شيء لأعطيتكم وإن يكبروا فسيعرفوا حقكم هذا هو القول المعروف وقال بعضهم: هذا حق واجب في مال الصغار والكبار فإن كان الورثة كباراً تولوا إعطاءهم بأنفسهم وإن كانوا صغاراً أعطى وليهم. وروى محمد بن سيرين أن عبيدة السلماني قسم أموال أيتام فأمر بشاة فذبحت وصنعت طعاماً لأجل هذه الآية وقال لولا هذه الآية لكان هذا من مالي، وقال الحسن والنخعي هذا الرضخ

كم هو حتى أنظر ما ينزل فيهنّ، فأنزل الله تعالى: ﴿ يُوصيكُمُ اللَّهُ في أولادِكم ﴾ [النساء: ١١]. فلمّا نزلت أرسل رسول الله إلى سُويد وعُرفجة «أنِ ادفعا إلى أمّ كُجّة الثُّمن وإلى بناته الثلثين، ولكما باقي المال».

قوله تعالى: ﴿ **وإذا حضرَ القسمةَ** ﴾، يعني: قِسمةَ المواريث، ﴿ **أولوا القُربَى** ﴾، الذين لا يرِثُون، ﴿ **واليتامى والمساكين فارْزُقُوهُمْ مِنْهُ** ﴾، أي: فارضخوا لهم من المال قبل القسمة، ﴿ **وقُولوا لهم قولاً معروفاً** ﴾، اختلف العلماء في حكم هذه الآية، فقال قوم: هي منسوخة، وقال سعيد بن جبير والضحاك: كانت هذه قبل آية الميراث، فجعلت المواريث لأهلها، ونسخت هذه الآية، وقال الآخرون: هي محكمة، وهو قول ابن عباس والشعبي والنخعي والزهري، وقال مجاهد: هي واجبة على أهل الميراث ما طابت به أنفسهم، وقال الحسن: كانوا يعطون التابوت والأواني ورثّ الثياب والمتاع والشيء الذي يستحيا من قسمته، وإن كان بعض الورثة طفلاً فقد اختلفوا فيه، فقال ابن عباس رضي الله عنهما وغيره: إن كانت الورثة كباراً رضخوا لهم، وإن كانت صغاراً اعتذروا إليهم، فيقول الولي والوصي: إني لا أملك هذا المال إنما هو للصغار، ولو كان لي منه شيء لأعطيتُكم، وإن يكبروا فسيعرفون حقوقكم، هذا هو القول بالمعروف، وقال بعضهم ذلك حق واجب في أموال الصغار والكبار، فإن كانوا كباراً تولّوا إعطاءَهم، وإن كانوا صغاراً أعطَى وليّهم. روى محمد بن سيرين أن عبيدة السلماني قسم أموال أيتام فأمر بشاة فذبحت فصنع طعاماً لأجل هذه الآية، وقال: لولا هذه الآية لكان هذا من مالي. وقال قتادة عن يحيى بن معمر: ثلاث آيات محكمات مدنيات تركهنّ الناس، هذه الآية وآية الاستئذان: ﴿ يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم ﴾ [النور: ٥٨] الآية، وقوله تعالى: ﴿ يا أيها الناس إنّا خلقناكم من ذكرٍ

مختص بقسمة الأعيان فإذا آل الأمر إلى قسمة الأرضين والرقيق وما أشبه ذلك فقولوا لهم قولاً معروفاً وقيل كانوا يعطون التابوت والأواني ورث الثياب والمتاع الذي يستحي من قسمته والقول الثاني إن هذا الأمر ندب واستحباب لا على سبيل الفرض والإيجاب وهذا القول هو الأصح الذي عليه العمل اليوم واحتجوا لهذا القول بأنه لو كان لهؤلاء حق معين لبينه الله تعالى كما بين سائر الحقوق فحيث لم يبين علمنا أن ذلك غير واجب وقيل في معنى الآية أن المراد بالقسمة الوصية فإذا حضر الوصية من لا يرث من الأقرباء واليتامى والمساكين أمر الله الوصي أن يجعل لهم نصيباً من تلك الوصية ويقول لهم مع ذلك قولاً معروفاً وقوله: ﴿وقولوا لهم قولاً معروفاً﴾ هو أن لا يتبع العطية بالمن والأذى. قوله تعالى:

﴿وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾﴾

﴿وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافاً﴾ يعني أولاداً صغاراً ﴿خافوا عليهم﴾ يعني الفقر قيل هذا خطاب للذين يجلسون عند المريض وقد حضره الموت فيقول له انظر لنفسك فإن أولادك وورثتك لا يغنون عنك شيئاً قدم لنفسك أعتق وتصدق وأعط فلا يزالون به حتى يأتي على عامة ماله فنهاهم الله عن ذلك وأمرهم بأن يأمروه بالنظر لولده ولا يزيد على الثلث في وصيته ولا يجحف. والمعنى كما أنكم تكرهون بقاء أولادكم في الضعف والجوع من غير مال فاخشوا الله ولا تحملوا المريض على أن يحرم أولاده الصغار من ماله وحاصل هذا الكلام كما أنك لا ترضى مثل هذا الفعل لنفسك فلا ترضه لأخيك المسلم. وكما أنه لو كان هذا القائل هو الموصي لسره أن يحثه من يحضره على حفظ ماله لولده ولا يدعهم عالة يتكففون الناس مع ضعفهم وعجزهم. وقيل هو الرجل يحضره الموت ويريد أن يوصي بشيء فيقول له من حضره من الرجال اتق الله وامسك أموالك لولدك فيمنعونه من الوصية لأقاربه المحتاجين وقيل الآية يحتمل أن تكون خطاباً لمن حضر أجله ويكون المقصود نهيه عن تكثير الوصية لئلا تبقى ورثته فقراء ضعافاً ضائعين بعد موته. ثم إن كانت هذه الآية نزلت قبل تقدير الثلث كان المراد منها أن لا يجعل الوصية مستغرقة للتركة وإن كانت قد نزلت بعد تقدير الثلث كان المراد منها أن يوصي بالثلث أو بأقل منه إذا خاف على ورثته كما روى عن كثير من الصحابة أنهم أوصوا بالقليل لأجل ذلك وكانوا يقولون الخمس في الوصية أفضل من الربع والربع أفضل من الثلث. وقد ورد في الصحيح الثلث والثلث كثير لأن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس يعني يسألونهم بأكفهم وقيل هو خطاب لأولياء اليتامى والمعنى وليخش من خاف على ولده من بعد موته أن يضيع مال اليتيم الضعيف الذي هو ذرية غيره إذا كان في

وأنثى﴾ [الحجرات: ١٣] الآية، وقال بعضهم: وهو أولى الأقاويل: إن هذا على الندب والاستحباب، لا على الحتم والإيجاب.

قوله تعالى: ﴿وليخشَ الذينَ لو تَركُوا مِنْ خلْفِهم ذُرِيَّةً ضِعافاً﴾، أولاداً صغاراً، ﴿خافوا عليهم﴾، الفقر، هذا في الرجل يحضره الموت، فيقول مَن بحضرته: انظر لنفسك فإن أولادك وورثتك لا يغنون عنك شيئاً، قدّم لنفسك، اعتقْ وتصدقْ وأعطِ فلاناً كذا وفلاناً كذا، حتى يأتي على عامّة ماله، فنهاهم الله تعالى عن ذلك، وأمرهم أن يأمروه أن ينظر لولده ولا يزيد في وصيته على الثلث، ولا يُجحف بورثته كما أنه لو كان هذا القائل هو الموصي لسرّه أن يحثّه مَن بحضرته على حفظ ماله لولده، ولا يدعهم عالةً مع ضعفهم وعجزهم. وقال الكلبي: هذا الخطاب لوُلاة اليتامى يقول: مَن كان في حجره يتيم فليحسنْ إليه وليأتِ في حقه ما يجب أن يفعل بذريته من بعده،

حجره والمقصود من الآية أن من كان في حجره يتيم فليحسن إليه وليه أو وصيه وليفعل به ما يحب أن يفعل بأولاده من بعده ﴿فليتقوا الله﴾ يعني في الأمر الذي تقدم ذكره ﴿وليقولوا قولاً سديداً﴾ يعني عدلاً وصواباً فالقول السديد من الجالسين عند المريض هو أن يأمروه أن يتصدق بدون الثلث ويترك الباقي لولده ورثته وأن لا يحيف في وصيته. والقول السديد من الأوصياء وأولياء اليتامى أن يكلموهم كما يكلمون أولادهم ولا يؤذوهم بقول ولا فعل قوله عز وجل: ﴿إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً﴾ قال مقاتل وابن حبان نزلت في رجل من غطفان يقال له مرثد بن زيد ولي مال يتيم وكان اليتيم ابن أخيه فأكله فأنزل الله هذه الآية ﴿إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً﴾ يعني حراماً بغير حق ﴿إنما يأكلون في بطونهم ناراً﴾ يعني سيأكلون يوم القيامة فسمي الذين يأكلون ناراً بما يؤول إليه أمرهم يوم القيامة. قال السدي يبعث آكل مال اليتيم ظلماً يوم القيامة ولهب النار يخرج من فيه ومن مسامعه وأذنيه وعينيه وأنفه يعرفه من رآه بآكل مال اليتيم. وفي حديث أبي سعيد الخدري قال حدثني النبي ﷺ عن ليلة أسري به قال نظرت فإذا أنا بقوم لهم مشافر كمشافر الإبل وقد وكل بهم من يأخذ بمشافرهم ثم يجعل في أفواههم صخراً من نار يخرج من أسافلهم قلت يا جبريل من هؤلاء قال: هؤلاء الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً. وقيل إنما ذكر أكل النار على سبيل التمثيل والتوسع في الكلام والمراد أن أكل مال اليتيم ظلماً يفضي به إلى النار وإنما خص الأكل بالذكر وإن كان المراد سائر أنواع الإتلافات وجميع التصرفات الرديئة المتلفة للمال لأن الضرر يحصل بكل ذلك لليتيم. فعبر عن جميع ذلك بالأكل لأنه معظم المقصود وإنما ذكر البطون للتأكيد فهو كقولك رأيت بعيني وسمعت بأذني ﴿وسيصلون سعيراً﴾ يعني بأكلهم أموال اليتامى ظلماً والسعير النار الموقدة المسعرة. ولما نزلت هذه الآية ثقل ذلك على الناس واحترزوا من مخالطة اليتامى وأموالهم بالكلية فشق ذلك على اليتامى فنزل قوله تعالى: ﴿وإن تخالطوهم فإخوانكم﴾ وقد توهم بعضهم أن قوله وإن تخالطوهم ناسخ لهذه الآية وهذا غلط ممن توهمه لأن هذه الآية واردة في المنع من أكل أموال اليتامى ظلماً وهذا لا يصير منسوخاً لأن أكل مال اليتيم بغير حق من أعظم الآثام وقوله: وإن تخالطوهم فإخوانكم وارد على سبيل الإصلاح في أموال اليتامى والأحسان إليهم وهو من أعظم القرب. قوله تعالى: .

﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوْلَٰدِكُمْۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَۖ﴾

قوله تعالى: ﴿ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وليقُولُوا قَوْلاً سَديداً ﴾، أي: عدلاً، والسديد: العدل، والصواب من القول، وهو أن يأمره بأن يتصدق بما دون الثُّلث ويخلِّف الباقي لورثته.

قوله تعالى: ﴿ إنَّ الذينَ يأكلُون أموالَ اليتامَى ظُلماً ﴾، قال مقاتل بن حيان: نزلت في رجل من بني غطفان، يقال له مرثد بن زيد وَلي مالَ ابن أخيه وهو يتيم صغير فأكله، فأنزل الله تعالى فيه ﴿ إن الذينَ يأكُلونَ أموالَ اليتامَى ظلماً ﴾ أي: حراماً بغير حق، ﴿ إنّما يأكُلون في بطونهم ناراً ﴾، أخبر عن ماله، أي عاقبته تكون كذلك، ﴿ وسَيَصْلَونَ سعيراً ﴾، قراءة العامّة بفتح الياء، أي: يدخلونه، يقال: صَلَى النار يصلوها صلياً وصلاءً، قال الله تعالى: ﴿ إلاّ مَنْ هوَ صَالِ الجحيم ﴾ [الصّافّات: ١٦٣]، وقرأ ابن عامر وأبو بكر بضمّ الياء، أي: يدخلون النار ويحرقون، نظيره قوله تعالى: ﴿ فسوف نُصلِيْهِ ناراً ﴾ [النساء: ٣٠] ﴿ سأصليه سقر ﴾ [المدّثر: ٢٦] وفي الحديث قال النبي ﷺ: «رأيتُ ليلة أُسري بي قوماً لهم مشافر كمشافر الإبل، إحداهما قالصة على مِنخَريه والأخرى على بطنه، وخَزَنَة النار يلقمونهم جمر جهنم وصخرها، فقلت: يا جبريل مَن هؤلاء؟ قال: الذين يأكلون أموالَ اليتامَى ظلماً».

وَإِن كَانَتْ وَٰحِدَةً فَلَهَا ٱلنِّصْفُ ۚ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌ ۚ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ ۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ ۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِى بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ۗ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا ۚ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١﴾

﴿يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين﴾ اختلف العلماء في سبب نزول هذه الآية فروي عن جابر قال مرضت فأتاني رسول الله ﷺ يعودني وأبو بكر وهما يمشيان فوجداني أغمي عليّ فتوضأ رسول الله ﷺ ثم صب وضوءه عليّ فأفقت فإذا النبي ﷺ جالس فقلت يا رسول الله كيف أصنع في مالي كيف أقضي في مالي فلم يجبني بشيء حتى نزلت آية الميراث، وفي رواية فقلت لا يرثني إلا كلالة فكيف الميراث؟ فنزلت آية الفرائض وفي رواية أخرى فنزلت: ﴿يوصيكم الله في أولادكم﴾ وفي رواية أخرى فلم يرد على شيئاً حتى نزلت آية الميراث يستفتونك قل الله يفتيكم أخرجه البخاري ومسلم وقال مقاتل والكلبي: نزلت في أم كحة امرأة أوس بن ثابت وبناته. وقال عطاء نزلت في سعد بن الربيع النقيب استشهد يوم أحد وترك بنتين وامرأة وأخاً (ق) عن جابر رضي الله عنه قال جاءت امرأة سعد بن الربيع بابنتيها من سعد إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله هاتان ابنتا سعد بن الربيع قتل أبوهما معك يوم أحد شهيداً وأن عمهما أخذ مالهما فلم يدع لهما مالاً ولا ينكحان إلا ولهما مال قال: يقضي الله في ذلك فنزلت آية الميراث فبعث رسول الله ﷺ إلى عمهما فقال أعطِ ابنتي سعد الثلثين وأعطِ أمهما الثمن وما بقي فهو لك أخرجه الترمذي. وقال السدي: كان أهل الجاهلية لا يورثون الجواري ولا الضعفاء من الغلماء لا يرث الرجل من ولده إلا من أطاق القتال فمات عبدالرحمن أخو حسان الشاعر وترك امرأة وخمس بنات فجاء الورثة وأخذوا ماله فشكت امرأته إلى النبي ﷺ فأنزل الله تعالى هذه الآية الكريمة وقبل الشروع في تفسير هذه الآية الكريمة. نقدم فصولاً تتضمن أحكام الفرائض وأصول قواعدها.

فصل في الحث على تعليم الفرائض

اعلم أن الفرائض من أعظم العلوم قدراً وأشرفها ذخراً وأفضلها ذكراً وهي ركن من أركان الشريعة وفرع من

قوله تعالى: ﴿ يُوصِيكُمُ اللَّهُ في أولادكم للذكر مثلُ حظِّ الأُنثيين ﴾ الآية، اعلم أن الوراثة كانت في الجاهلية بالذكورة والقوة فكانوا يُورِّثون الرجال دون النساء والصبيان، فأبطل اللَّهُ ذلك بقوله: ﴿ للرجال نصيبٌ مما ترك الوالدان والأقربون ﴾ الآية، وكانت أيضاً في الجاهلية وابتداء الإسلام بالمحالفة، قال الله تعالى: ﴿ والذين عقدت أيمانكم فآتُوهم نصيبَهم ﴾ [النساء: ٣٣] ثم صارت الوراثة بالهجرة، قال الله تعالى: ﴿ والذين آمنوا ولم يهاجُروا ما لكم منْ وِلايتهمْ من شيء حتى يُهاجروا ﴾ [الأنفال: ٧٢] فنسخ ذلك كله وصارت الوراثة بأحد الأمور الثلاثة بالنسب والنكاح أو الولاء، والمعنيُّ بالنسب أن القرابة يرث بعضهم من بعض، لقوله تعالى: ﴿ وأُولوا الأرحامِ بعضُهم أولى ببعضٍ في كتابِ الله ﴾ [الأنفال: ٧٥]، والمعنيّ بالنكاح: أن أحد الزوجين يرث صاحبه، وبالولاء: أن المُعْتِق وعصباتُه يرثون المُعْتَق، فنذكر بعون الله تعالى فصلاً وجيزاً في بيان مَن يرث من الأقارب.
وكيفية توريث الورثة فنقول: إذا مات ميّتٌ وله مال فيُبدأ بتجهيزه ثم بقضاءِ ديونه ثم بإنفاذ وصاياه فما فضَلَ يُقسم بين الورثة على ثلاثة أقسام منهم، مَن يرث بالفرض مَن يرث بالتعصيب، ومنهم مَن يرث بهما جميعاً، فمَن يرث بالنكاح لا يرث إلّا بالفرض، ومَن يرث بالولاء لا يرث إلّا بالتعصيب، فأمّا مَن يرث بالقرابة فمنهم مَن يرث بالفرض كالبنات والأخوات والأمهات والجدّات، وأولاد الأم، ومنهم مَن يرث بالتعصيب كالبنين والإخوة وبني الأعمام،

فروعها في الحقيقة اشتغل الصدر الأول من الصحابة بتحصيلها وتكلموا في فروعها وأصولها ويكفي في فضلها أن الله عز وجل تولى قسمتها بنفسه وأنزلها في كتابه مبينة من محل قدسه وقد حث رسول الله ﷺ على تعليمها فيما رواه أبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «تعلموا الفرائض والقرآن وعلموا الناس فإني مقبوض» أخرجه الترمذي وقال فيه اضطراب وأخرجه أحمد بن حنبل وزاد فيه فإني امرؤ مقبوض والعلم مرفوع ويوشك أن يختلف اثنان في الفريضة فلا يجدان أحداً يخبرهما. عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «تعلموا الفرائض وعلموها فإنه نصف العلم» وهو أول علم ينسى وهو أول شيء ينزع من أمتي أخرجه ابن ماجه والدارقطني.

فصل في بيان أحكام الفرائض

إذا مات الميت وله مال يبدأ بتجهيزه من ماله ثم تقضي ديونه إن كان عليه دين ثم تنفذ وصاياه وما فضل بعد ذلك من ماله يقسم بين ورثته والوارثون من الرجال عشرة: الابن وابن الابن وإن سفل الأب والجد وإن علا والأخ سواء كان لأب وأم أو لأب أو لأم وابن الأخ للأب والأم أو للأب وإن سفل والعم للأب والأم أو للأب وابناهما وإن سفلوا والزوج والمعتق. والوارثات من النساء سبع: البنت وبنت الابن وإن سفلت. والأم والجدة وإن علت. والأخت من كل الجهات. والزوجة والمعتقة وستة من هؤلاء لا يلحقهم حجب الحرمان بالغير وهم: الأبوان والوالدان والزوجان لأنه ليس بينهم وبين الميت واسطة ثم الورثة ثلاثة أصناف: صنف يرث بالفرض المجرد وهم الزوجان والبنات والأخوات والأمهات والجدات وأولاد الأم وصنف يرث بالتعصيب وهم: البنون والإخوة وبنوهم والأعمام وبنوهم وصنف يرث بالتعصيب تارة وبالفرض أخرى وهما: الأب والجد فيرث بالتعصيب إذا لم يكن للميت ولد فإن كان له ابن ورث الأب بالفرض السدس وإن كانت بنت ورث السدس بالفرض وأخذ الباقي بالتعصيب والعصبة اسم لمن يأخذ جميع المال إذا انفرد ويأخذ ما فضل عن أصحاب الفرائض.

وبنيهم ومَن يرث بهما كالأب يرث بالتعصيب إذا لم يكن للميت ولد، فإن كان للميت ولد ابن فيرث الأب بالفرض السدس، وإن كان للميت بنت فيرث الأب السدس بالفرض ويأخذ الباقي بعد نصيب البنت بالتعصيب، وكذلك الجدّ، وصاحب التعصيب مَن يأخذ جميع المال عن الانفراد ويأخذ ما فضل عن أصحاب الفرائض، وجملة الوَرَثة سبعة عشر: عشرة من الرجال وسبع من النساء، فمن الرجال الابن وابن الابن وإن سفل والأب والجدّ أبو الأب وإن علا، والأخ سواء كان لأب وأم أو لأب أو لأم، وابن الأخ للأم أو للأب وإن سفل والعمّ للأب والأم أو للأب وأبناؤهما وإن سفلوا، والزوج ومولى العتاق، ومن النساء البنت وبنت الابن وإن سفلت، والجدّة أم الأم وأم الأب، والأخت سواء كانت لأب وأم أو لأب أو لأم، والزوجة ومولاة العتاق، وستّة من هؤلاء لا يلحقهم حجب الحرمان بالغير: الأبوان والولدان، والزوجان، لأنه ليس بينهم وبين الميت واسطة، والأسباب التي توجب حرمان الميراث أربعة: اختلاف الدين والرقّ والقتل وعمي الموت، ونعني باختلاف الدين أن الكافر لا يرث المسلم والمسلم لا يرث الكافر، لما أخبرنا عبد الوهاب بن محمد الكسائي الخطيب أنا عبد العزيز بن أحمد الخلال أنا أبو العباس الأصم أخبرنا الشافعي أنا ابن عيينة عن الزهري عن علي بن حسين عن عمرو بن عثمان عن أسامة بن زيد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا يرث المسلمُ الكافرَ ولا الكافرُ المسلمَ». فأما الكافر فيرث بعضهم من بعض مع اختلافَ مِلَلهم، لأن الكفر كله ملّة واحدة، لقوله تعالى: ﴿ والذين كفروا بعضُهم أولياءُ بعض ﴾ [الأنفال: ٧٣]، وذهب بعضهم إلى أن اختلاف المِلَل في الكفر يمنع التوارث حتى لا يرث اليهودي النصراني ولا النصراني المجوسي، وإليه ذهب الزهري والأوزاعي وأحمد وإسحق لقول النبي ﷺ: «لا يتوارث أهل ملّتين شتّى»، وتأوّله

فصل

وأسباب الإرث ثلاثة: نسب ونكاح وولاء فالنسب القرابة يرث بعضهم بعضاً والنكاح هو أن يرث أحد الزوجين من صاحبه بسبب النكاح والولاء هو أن المعتق وعصباته يرثون المعتق والأسباب التي تمنع الميراث أربعة: اختلاف الدين فالكافر لا يرث المسلم ولا المسلم يرث الكافر لما روي من أسامة بن زيد أن رسول الله ﷺ قال: لا يرث المسلم الكافر ولا الكافر المسلم. أخرجاه في الصحيحين. فأما الكفار فيرث بعضهم بعضاً مع اختلاف مللهم وأديانهم لأن الكفر كله ملة واحدة وذهب بعضهم إلى أن اختلاف الملل والكفر يمنع التوارث أيضاً حتى لا يرث اليهودي من النصراني ولا النصراني من المجوسي وإلى هذا ذهب الزهري والأوزاعي وأحمد وإسحاق لما روي عن جابر أن رسول الله ﷺ قال لا توارث بين أهل ملتين أخرجه الترمذي وقال حديث غريب. عن عبدالله بن عمرو بن العاص أن رسول الله ﷺ قال: «لا يتوارث أهل ملتين شتى» أخرجه أبو داود وحمله الآخرون على الإسلام والكفر لأن الكفر عندهم ملة واحدة فتوريث بعضهم من بعض لا يكون فيه إثبات التوارث بين ملتين شتى والرق يمنع الإرث لأن الرقيق ملك ولا ملك له فلا يرث ولا يورث والقتل يمنع الإرث عمداً كان القتل أو خطأ لما روي عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «القاتل لا يرث» أخرجه الترمذي وقال: هذا حديث لا يصح والذي عليه العمل عند أهل العلم أن القاتل لا يرث سواء كان القتل عمداً أو خطأ. وقال بعضهم إذا كان القتل خطأ فإنه يرث وهو قول مالك وعمى الموت وهو أن يخفى موت المتوارثين وذلك بأن غرقاً أو انهدم عليهما بناء فلم يدر أيهما سبق موته فلا يرث أحدهما الآخر بل يكون إرث كل واحد منهما لما كانت حياته يقيناً بعد موته من ورثته.

فصل: السهام المحدودة

والسهام المحدودة في الفرائض المذكورة في كتاب الله عز وجل ستة: النصف والربع والثمن والثلثان والثلث والسدس فالنصف فرض خمسة: فرض الزوج عند عدم الولد وفرض البنت الواحدة للصلب أو بنت الابن عند عدم

الآخرون على الإسلام مع الكفر، وأمّا الكفر فكله ملة واحدة فتوريث بعضهم من بعض لا يكون فيه إثبات التوارث بين أهل ملّتين شتّى، والرقيق لا يرث أحداً ولا يرثه أحد لأنه لا ملك له، لا فرق فيه بين القِن والمدبَّر والمكاتَب وأمّ الولد، والقتل يمنع الميراث عمداً كان أو خطأ لِما رُوِيَ عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «القاتل لا يرث»، ونعني بعمَى الموت أن المتوارِثَين إذا عمى موتهما بأن غرقا في ماء أو انهدم عليهما بناء فلم يدرِ أيّهما سبق موته فلا يورث أحدهما من الآخر بل ميراث كل واحد منهما لمَن كان حياته يقيناً بعد موته من ورثته. والسهام المحدودة في الفرائض ستّة: النصف والربع والثُمن والثلثان والثلث والسدس، فالنصف فرض ثلاثة: فرض الزوج عند عدم الولد وفرض البنت الواحدة للصّلب أو لبنت الابن عند عدم ولد الصلب، وفرض الأخت الواحدة للأب والأم أو للأب إذا لم يكن لولد لأب وأم، والربع فرض اثنين: فرض الزوج إذا كان للميت ولد وفرض الزوجة إذا لم يكن للميت ولد، والثمن: فرض الزوجة إذا كان للميت ولد، والثلثان فرض البنتين للصلب فصاعداً ولبنتي الابن فصاعداً عند عدم ولد الصلب، وفرض الأختين لأب وأم أو للأب فصاعداً، والثلث فرض ثلاثة: فرض الأم إذا لم يكن للميت ولد، والاثنان من الأخوة والأخوات، إلّا في مسألتين: أحدهما زوج وأبوان، والثانية زوجة وأبوان، فإن للأم فيهما ثلث ما بقي بعد نصيب الزوج أو الزوجة، وفرض الاثنين فصاعداً من أولاد الأم، ذكَرُهُم وأنثاهم فيه سواء، وفرض الجدّ مع الإخوة إذ لم يكن في المسْألة صاحب فرض، وكان الثلث خيراً للجدّ من المقاسمة مع الإخوة. وأمّا السدس ففرض سبعة: فرض الأب إذا كان للميت ولد، وفرض الأم إذا كان للميت ولد، واثنان من

بنت الصلب وفرض الأخت الواحدة للأب والأم وفرض الأخت الواحدة للأب والأم وفرض الأخت الواحدة للأب إذا لم يكن ولد لأب وأم والربع فرض الزوج من الولد وفرض الزوجة مع عدم الولد والثمن فرض الزوجة مع الولد والثلثان فرض البنتين فصاعداً أو بنات الابن عند عدم بنات الصلب وفرض الأختين فصاعداً للأب والأم أو للأب والثلث فرض ثلاثة: فرض الأم إذا لم يكن للميت ولد ولا اثنان من الإخوة والأخوات إلّا في مسألتين: إحداهما زوج وأبوان والأخرى زوجة وأبوان فإن للأم فيهما ثلث الباقي بعد نصيب الزوج أو الزوجة وفرض الاثنين فصاعداً من أولاد الأم ذكرهم وأنثاهم فيه سواء وفرض الجد مع الإخوة إذا لم يكن في المسألة صاحب فرض وكان الثلث للجد خيراً من المقاسمة مع الإخوة والسدس فرض سبعة: فرض الأب إذا كان للميت ولد وفرض الأم إذا كان للميت ولد أو ولد ابن أو اثنان من الإخوة والأخوات وفرض الجد إذا كان للميت ولد ومع الإخوة إذا كان في المسألة صاحب فرض وكان السدس خير للجد من المقاسمة مع الإخوة وفرض الجدة والجدات، وفرض الواحد من أولاد الأم ذكراً كان أو أنثى وفرض بنات الابن مع بنت الصلب تكملة الثلثين وفرض الأخوات للأب مع الأخت للأب والأم تكملة الثلثين (ق) عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: ألحقوا الفرائض بأهلها فما بقي فهو لأولى رجل ذكر (خ) عن ابن عباس قال كان المال للولد والوصية للوالدين فنسخ الله من ذلك ما أحب فجعل للذكر مثل حظ الأنثيين وجعل للأبوين لكل واحد منهما السدس والثلث وجعل للمرأة الثمن والربع وللزوج الشطر والربع اهـ.

فصل

روي عن زيد بن ثابت قال: ولد الأبناء بمنزلة الأبناء إذا لم يكن دونهن ابن ذكرهم كذكرهم وأنثاهم كأنثاهم يرثون ويحجبون كما يحجبون ولا يرث ولد ابن مع ابن ذكر فإن ترك ابنة وابن ابن ذكر كان للبنت النصف ولابن الابن ما بقي لقوله ﷺ: «ألحقوا الفرائض بأهلها فما بقي فهو لأولى رجل ذكر» ففي هذا الحديث دليل على أن بعض الورثة يحجب البعض والحجب حجبان: حجب نقصان وحجب حرمان. أما الأول وهو حجب النقصان فهو أن الولد وولد الابن يحجب الزوج من النصف إلى الربع والزوجة من الربع إلى الثمن والأم من الثلث إلى السدس وكذلك الاثنان من الإخوة والأخوات يحجبون الأم من الثلث إلى السدس. وأما الثاني وهو حجب

الإخوة والأخوات، وفرض الجدّ إذا كان للميت ولد ومع الإخوة والأخوات إذا كان في المسألة صاحب فرض، وكان السدس خيراً للجدّ من المقاسمة مع الأخوة، وفرض الجدّة والجدّات وفرض الواحد من أولاد الأم ذكراً كان أو أنثى، وفرض بنات الابن إذا كان للميت بنت واحدة للصلب تكملة للثلثين، وفرض الأخوات للأب إذا كان للميت أخت واحدة لأب وأم تكملة للثلثين. أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أخبرنا مسلم بن إبراهيم أنا وهيب بن طاوس عن أبيه عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «ألحقوا الفرائض بأهلها فما بقي فهو لأوْلَى رجلٍ ذكر»، وفي الحديث دليل على أن بعض الورثة يحجب البعض، والحجب نوعان حجب نقصان وحجب حرمان، فأما حجب النقصان فهو أن الولد أو ولد الابن يحجب الزوج من النصف إلى الربع والزوجة من الربع إلى الثمن، والأم من الثلث إلى السدس، وكذلك الاثنان فصاعداً من الإخوة يحجبون الأم من الثلث إلى السدس. وحجب الحرمان هو أن الأم تُسقط الجدّات كلهنّ وأولاد الأم وهم الأخوة والأخوات للأم يسقطون بأربعة: بالأب والجدّ وإن علا، وبالولد وولد الابن وإن سفل، وأولاد الأب والأم يسقطون بثلاثة بالأب والابن وابن الابن وإن سفلوا، ولا يسقطون بالجدّ على مذهب زيد بن ثابت، وهو قول عمر وعثمان وعلي وابن مسعود رضي الله عنهم، وبه قال مالك والشافعي والأوزاعي وأحمد

الحرمان فهو أن الأم تسقط الجدات وأولاد الأم وهم الإخوة للأم يسقطون بأربعة بالأب والجد وإن علا وبالولد وولد الابن وأولاد الأب والأم وهم الإخوة للأب والأم يسقطون بثلاثة بالأب والابن وابن الابن وإن سفلوا ولا يسقطون بالجد على مذهب زيد بن ثابت. وهو قول عمر وعثمان وعلي وابن مسعود وبه قال مالك والأوزاعي والشافعي وأحمد وأولاد الأب يسقطون بهؤلاء الثلاثة وبالأخ للأب والأم وذهب قوم إلى أن الإخوة يسقطون جميعاً بالجد كما يسقطون بالأب. وهو قول أبي بكر الصديق وابن عباس ومعاذ وأبي الدرداء وعائشة. وبه قال الحسن وعطاء وطاوس وأبو حنيفة والأقرب من العصبات يسقط الأبعد منهم فأقربهم الابن ثم ابن الابن وإن سفل ثم الأب ثم الجد وإن علا فإن كان مع الجد أحد من الإخوة والأخوات للأب والأم أو للأب يشتركان في الميراث فإن لم يكن جد فالأخ للأب والأم ثم الأخ للأب ثم بنو الإخوة يقدم أقربهم سواء كان لأب وأم أو لأب فإن استويا في الدرجة فالذي هو لأب وأم ثم العم لأب وأم ثم بنوهم على ترتيب بني الإخوة ثم عم الأب ثم عم الجد على الترتيب فإن لم يكن أحد من عصابات النسب وعلى الميت، ولا فالميراث للمعتق فإن لم يكن حياً فلعصبات المعتق وأربعة من الذكور يعصبون الإناث: الابن وابن الابن والأخ للأب والأم والأخ للأب فلو مات عن ابن وبنت أو عن أخ وأخت لأب وأم أو لأب يكون المال. بينهما للذكر مثل حظ الأنثيين ولا يفرض للبنت والأخت، وكذلك ابن الابن يعصب من في درجته من الإناث ومن فوقه إذا لم يأخذ من الثلثين شيئاً حتى لو مات عن بنتين وبنت ابن فللبنتين الثلثان ولا شيء لبنت الابن فإن كان في درجتها ابن ابن أو أسفل منها ابن ابن ابن كان الباقي بينهما للذكر مثل حظ الأنثيين والأخت للأب والأم أو للأب تكون مع البنت عصبة حتى لو مات عن بنت وأخت كان للبنت النصف والباقي وهو النصف للأخت ولو مات عن بنتين وأخت كان للبنتين الثلثان والباقي للأخت ويدل على ذلك ما روي عن هزيل بن شرحبيل قال سئل أبو موسى عن ابنة وابنة ابن أخت فقال: للابنة النصف وللأخت النصف وائت ابن مسعود. فسئل ابن مسعود وأخبر بقول أبي موسى فقال ابن مسعود: لقد ضللت وما أنا من المهتدين ثم قال اقضي فيها بقضاء رسول الله ﷺ للابنة النصف ولابنة الابن السدس تكملة الثلثين وما بقي فللأخت فأخبر أبو موسى بقول ابن مسعود فقال لا تسألوني ما دام هذا الحبر فيكم أخرجه البخاري. وأما تفسير فقوله تعالى

وإسحق رحمهم الله. وأولاد الأب يسقطون بهؤلاء الثلاثة وبالأخ للأب والأم، وذهب قوم إلى أن الإخوة جميعاً يسقطون بالجدّ كما يسقطون بالأب، وهو قول أبي بكر الصدّيق وابن عباس ومعاذ وأبي الدرداء وعائشة رضي الله عنهم، وبه قال الحسن وعطاء وطاوس وأبو حنيفة رحمهم الله، وأقرب العصبات يسقط الأبعد من العصوبة، وأقربهم الابن ثم ابن الابن وإن سفل، ثم الأب ثم الجدّ أو الأب وإن علا، فإن كان مع الجدّ أحد من الإخوة والأخوات للأب والأم أو للأب فيشتركان في الميراث، فإن لم يكن جدّ فالأخ للأب والأم ثم الأخ للأب ثم بنو الإخوة يقدّم أقربهم سواء كان لأب وأم أو لأب، فإن استويا في الدرجة فالذي هو لأب وأم أولى ثم العمّ للأب والأم ثم العمّ للأب ثم بنوهم على ترتيب بني الإخوة، ثم عمّ الأب ثم عمّ الجدّ على هذا الترتيب، فإن لم يكن أحد من عصبات النسب وعلى الميت ولاء فالميراث للمعتق، فإن لم يكن حيّاً فلعصبات المعتق وأربعة من الذكور يعصبون الإناث، الابن وابن الابن والأخ للأب والأم والأخ للأب حتى لو ماتت عن ابن وبنت أو عن أخ وأُخت لأب وأم أو لأب فإنه يكون المال بينهما للذكر مثل حظّ الأُنثيين، ولا يفرض للبنت والأُخت وكذلك ابن الابن يعصب مَن في درجته من الإناث، ومن فوقه إذا لم تأخذ من الثلثين شيئاً حتى لو مات عن بنتين وبنت ابن فللبنتين الثلثان ولا شيء لبنت الابن، فإن كان في درجتها ابن ابن أو أسفل منها ابن ابن ابن كان الباقي بينهما للذكر مثل حظّ الأُنثيين، والأُخت للأب والأُم أو للأب تكون عصبة مع البنت حتى لو مـات عن بنت وأُخت كان النصف للبنت والبـاقي للأُخت،

يوصيكم الله أي يعهد إليكم ويفرض عليكم في أولادكم يعني في أمر من أولادكم إذا متم والوصية من الله إيجاب وإنما بدأ الله تعالى يذكر ميراث الأولاد لأن تعلق قلب الإنسان بولده أشد من تعلقه بغيره فلهذا قدم الله ذكر ميراثهم للذكر مثل حظ الأنثيين يعني أن الولد الذكر له من الميراث ضعفا سهام الأنثى فللذكر سهمان وللأنثى سهم فلو حصل مع الأولاد غيرهم من الورثة من أهل الفروض كالأبوين أخذوا فروضهم وما بقي بعد ذلك كان بين الأولاد للذكر مثل حظ الانثيين ﴿**فإن كن**﴾ يعني المتروكات من الأولاد ﴿**نساء فوق اثنتين**﴾ يعني بنتين فصاعداً ﴿**فلهن ثلثاً ما ترك**﴾ وأجمعت الأمة على أن للبنتين الثلثين إلاّ ما روي عن ابن عباس أنه ذهب إلى ظاهر الآية وقال: الثلثان فرض الثلاث من البنات لأن الله تعالى قال: ﴿فإن كن نساء فوق اثنتين فلهن ثلثا ما ترك﴾ فجعل الثلثين للنساء إذا زدن على الثنتين. وعنده أن فرض الثنتين النصف كفرض الواحدة وأجيب عنه بوجوده فيها حجة لمذهب الجمهور أيضاً: الوجه الأول أن الله تعالى قال: ﴿**وإن كانت واحدة فلها النصف فجعل للواحدة**﴾ وذلك ينفي حصول النصف نصيباً للبنتين. الوجه الثاني في الآية تقديماً وتأخيراً والتقدير: فإن كن نساء اثنتين فما فوقهما فلهن الثلثان. الوجه الثالث أن لفظة فوق ها هنا صلة والتقدير فإن كن نساء اثنتين فهو كقوله: «فاضربوا فوق الأعناق» يعني فاضربوا الأعناق وإنما سمى الاثنتين نساء بلفظ الجمع، لأن العرب تطلق على الاثنين جماعة بدليل قوله تعالى: ﴿**فقد صغت قلوبكما**﴾. الوجه الرابع قال علماء الجمهور: وإنما أعطينا البنتين الثلثين بتأويل القرآن لأن الله تعالى جعل للبنت الواحدة النصف بقوله تعالى: ﴿**وإن كانت فلها النصف**﴾ وجعل للأخت الواحدة النصف بقوله: «إن امرؤ هلك ليس له ولد وله أخت فلها نصف ما ترك» ثم جعل للأختين الثلثين بقوله: «فإن كانتا اثنتين فلهما الثلثان» فلما جعل للأختين الثلثين علمنا أن للبنتين الثلثين قياساً على الأختين. الوجه الخامس أن النبي ﷺ قضى بالثلثين لابنتي سعد بن الربيع وهذا نص واضح في المسألة.

قوله تعالى: ﴿**وإن كانت واحدة**﴾ يعني البنت واحدة ﴿**فلها النصف**﴾ يعني فرضاً لها ﴿**ولأبويه**﴾ يعني أبوي الميت كناية عن غير مذكور وهما والداه ﴿**لكل واحد منهما السدس مما ترك إن كان له ولد**﴾ يعني أن للأب والأم مع وجود الولد أو ولد الابن لكل واحد منهما سدس الميراث. واعلم أن اسم الولد يقع على الذكر والأنثى فإذا

فلو مات عن بنتين وأخت فللبنتين الثلثان والباقي للأخت، والدليل عليه ما أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبدالله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا آدم أنا شعبة أنا أبو قيس قال: سمعت هزيل بن شرحبيل قال: سُئِلَ أبو موسى عن ابنة وبنت ابن وأخت فقال: للبنت النصف وللأخت النصف، وائتِ ابنَ مسعود فسيتابعني فسُئِلَ ابن مسعود وأُخبر بقول أبي موسى فقال: لقد ضللت إذاً وما أنا من المهتدين أقضي فيها بما قضى به رسول الله ﷺ: للبنت النصف ولابنة الابن السدس تكملة الثلثين وما بقي فللأخت، فأتينا أبا موسى فأخبرناه بقول ابن مسعود رضي الله عنه، فقال: لا تسألوني ما دام هذا الحَبر فيكم، رجعنا إلى تفسير الآية. فاختلفوا في سبب نزولها. أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أخبرنا أبو الوليد أنا شعبة عن محمد بن المنكدر قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يعودني وأنا مريض لا أعقل فتوضأ وصبّ عليّ من وضوئه فعقلت، فقلت: يا رسول الله لِمَنِ الميراث إنّما يرثني كلالة؟ فنزلت آية الفرائض. وقال مقاتل والكلبي: نزلت في أم كُجّة امرأة أوس بن ثابت وبناته، وقال عطاء: استشهد سعد بن الربيع النقيب يوم أُحُد وترك امرأة وبنتين وأخاً، فأخذ الأخ المال فأتت امرأة سعد إلى رسول الله ﷺ بابنتي سعد فقالت: يا رسول الله إن هاتين ابنتا سعد وإنّ سعداً قُتل يوم أُحُد شهيداً، وإن عمّهما أخذ مالهما ولا تنكحان إلاّ ولهما مال، فقال رسول الله ﷺ: «ارجعي فلعلّ الله سيقضي في ذلك»، فنزل ﴿ يوصيكم الله ﴾ إلى آخرها، فدعا رسول الله ﷺ عمّهما فقال له: «أعطِ ابنتي سعد

مات الميت وترك أبوين وولداً ذكراً واحداً كان أو أكثر أو ترك بنات فإن للأم السدس بالفرض وللأب السدس مع الولد الذكر بالفرض ومع البنات له السدس بالتعصيب وهو الباقي من التركة وله مع البنت الواحدة السدس بالفرض والباقي بالتعصيب ﴿فإن لم يكن له ولد﴾ يعني للميت ﴿وورثه أبواه فلأمه الثلث﴾ يعني أن الميت إذا مات عن أبوين وليس له وارث سواهما فإن الأم تأخذ الثلث بالفرض ويأخذ الأب باقي المال بالفرض والتعصيب. فيكون المال بينهما أثلاثاً للذكر مثل حظ الانثيين فإن كان مع الأبوين أحد الزوجين فيفرض للأم ثلث الباقي بعد نصيب الزوج أو الزوجة ﴿فإن كان له﴾ يعني للميت ﴿إخوة﴾ يعني ذكوراً أو إناثاً ﴿فلأمه السدس﴾ يعني لأم الميت سدس للتركة إذا كان معها أب وأجمع العلماء على أن الثلاثة يحجبون الأم من الثلث إلى السدس وأن الأخ الواحد والأخت الواحدة لا تحجب الأم من الثلث إلى السدس. واختلفوا في الأخوين فالأكثرون من الصحابة يقولون الأخوين يحجبان الأم من الثلث إلى السدس وهذا قول عمر وعثمان وعلي وزيد بن ثابت والجمهور. وقال ابن عباس: لا تحجب الإخوة الأم من الثلث إلى السدس إلّا أن يكونوا ثلاثة. قال ابن عباس لعثمان: لم صار الأخوان يردان الأم من الثلث إلى السدس، وإنما قال الله تعالى: ﴿فإن كان له إخوة﴾ والأخوان في لسان قومك ليسا بأخوة فقال عثمان: يا بني إن قومك حجبوها بأخوين ولا أستطيع نقد أمر قد كان قبلي وإنما نشأ هذا الاختلاف لأنهم اختلفوا في أقل الجمع وفيه قولان: أحدهما أن أقل الجمع اثنان وهو قول أبي بكر الباقلاني. وحجة هذا القول أنك إذا جمعت واحد إلى واحداً فهما جماعة لأن أصل الجمع ضم شيء. وقال ابن الأنباري: التثنية عند العرب أول الجمع ومشهور في كلامهم إيقاع الجمع على التثنية فمن ذلك قوله تعالى: ﴿وكنا لحكمهم شاهدين﴾ وهما داود وسليمان عليهما السلام ومنه قوله تعالى: ﴿فقد صغت قلوبكما﴾ يريد قلباكما. والقول الثاني أن أقل الجمع ثلاثة وهو قول الجمهور العلماء وهو الأصح. إنما حجب العلماء الأم بالأخوين لدليل اتفقوا عليه وهو أن لفظ الاخوة يطلق على الأخوين فما زاد وذلك جائز في اللغة كما تقدم ثم إن الإخوة إذا حجبوا الأم من الثلث إلى السدس فإنهم لا يرثون شيئاً البتة بل يأخذ الأب الباقي كرجل مات عن أبوين وأخوين فإن للأم السدس والباقي وهو خمسة أسداس للأب سدس بالفريضة والباقي بالتعصيب قال قتادة: وإنما حجب الأخوة الأم من غير أن يرثوا مع الأب شيئاً معونة للأب لأنه يقوم بشأنهم وينفق عليهم دون الأم ﴿من بعد وصية يوصي بها أو دين﴾ يعني أن هذه الأنصباء والسهام إنما تقسيم بعد قضاء الدين وإنفاذ وصية الميت في ثلثه وذكر الوصية مقدم على الدين في اللفظ

الثلثين وأمهما الثُّمن وما بقي فهو لك»، فهو أول ميراث قُسّم في الإسلام. قوله عزّ وجلّ: ﴿ يُوصيكمُ اللَّهُ في أولادكم ﴾ أي: يعهد إليكم ويفرض عليكم في أولادكم، أي: في أمر أولادكم إذا متّم، للذكر مثلُ حظّ الأنثيين. ﴿ فإنْ كنّ ﴾، يعني: المتروكات من الأولاد، ﴿ نساءً فوقَ اثنتين ﴾، أي: اثنتين فصاعداً ﴿ فوق ﴾ صلة، كقوله تعالى: ﴿ فاضربُوا فوق الأعناق ﴾ [الأنفال: ١٢]، ﴿ فلهنّ ثُلثَا ما تركَ وإن كانت ﴾، يعني: البنت، ﴿ واحدةً ﴾، قراءة العامّة على خبر كان، رفعَها أهل المدينة على معنى إن وقعت واحدة، ﴿ فلها النصفُ ولأبويه ﴾، يعني لأبوي الميت كناية عن غير مذكور، ﴿ لكل واحد منهما السدس مما ترك إن كان له ولد ﴾، أراد أن الأب والأم يكون لكل واحد منهما سدس الميراث عند وجود الولد أو ولد الابن، والأب يكون صاحب فرض ﴿ فإنْ لم يكنْ له ولدٌ وورِثَه أبواه فلأمّه الثُلثُ ﴾، قرأ حمزة والكسائي ﴿ فلأمه ﴾ بكسر الهمزة استقلالاً للضمة بعد الكسرة، وقرأ الآخرون بالضمّ على الأصل ﴿ فإن كانَ له إخوةٌ ﴾، اثنان أو أكثر ذكوراً وإناثاً ﴿ فلأمّه السدس ﴾، والباقي يكون للأب إن كان معها أب، والإخوة لا ميراثَ لهم مع الأب، ولكنهم يحجبون الأم من الثلث إلى السدس، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: لا يحجب الإخوة الأم من الثلث إلى السدس إلّا أن يكونوا

لا في الحكم لأن لفظه أو لا توجب الترتيب. وإنما هي لأحد الشيئين كأنه قال من بعد أحد هذين مفرداً أو مضموماً إلى الآخر قال علي رضي الله عنه: إنكم تقرؤون الوصية قبل الدين. وبدأ رسول الله ﷺ بالدين قبل الوصية وهذا إجماع على أن الدين مقدم على الوصية والإرث مؤخر عنهما لأن الدين حق على الميت والوصية حق له وهما يتقدمان على حق الورثة.

قوله تعالى: ﴿**آباؤكم وأبناؤكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعاً**﴾ قيل هذا كلام معترض بين ذكر الوارثين وأنصبائهم وبين قوله فريضة من الله ولا تعلق لمعناه بمعنى الآية ومعنى هذا الكلام في قول ابن عباس: إن الله عز وجل يشفع المؤمنين بعضهم في بعض فأطوعكم لله من الآباء والأبناء أرفعكم درجة، فإن كان الوالد أرفع درجة من ولده رفع الله درجة ولده إليه وإن كان الولد أرفع درجة من والديه رفع الله إليه لتقر بذلك أعينهم فقال تعالى: ﴿**لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعاً**﴾ لأن أحدهما لا يعرف منفعة صاحبه له في الجنة وسبقه إلى منزلة عالية تكون سبباً لرفعته إليها، وقيل إن هذا الكلام ليس معترضاً بينهما ومعناه متعلق بمعنى الآية يقول آباؤكم وأبناؤكم يعني الذين يرثونكم أيهم أقرب لكم نفعاً أي لا تعلمون أيهم أنفع لكم في الدين والدنيا. فمنكم من يظن أن الأب أنفع له فيكون الابن أنفع له ومنكم من يظن أن الابن أنفع له فيكون الأب أنفع له ولكن الله هو الذي دبر أمركم على ما فيه المصلحة لكم فاتبعوه ولو وكل ذلك إليكم لم تعلموا أيهم أنفع لكم فتعطون من لا يستحق ما لا يستحق من الميراث وتمنعون منم يستحق الميراث ﴿**فريضة من الله**﴾ يعني ما قدر من المواريث لأهلها فريضة واجبة ﴿**إن الله كان عليماً حكيماً**﴾ يعني كان عليماً بالأشياء قبل خلقها حكيماً فيما قدر من الفرائض وفرض من الأحكام، وقيل معناه عليماً بخلقه قبل أن يخلقهم حكيماً حيث فرض للصغار مع الكبار ولم يخص الكبار بالميراث كما كانت العرب تفعل وفي معنى لفظة كان ثلاثة أقوال: أحدها أن الله تعالى كان عليماً بالأشياء قبل خلقها ولم يزل كذلك، الثاني حكى الزّجاج عن سيبويه أنه قال: إن القوم لما شاهدوا علماً وحكمة ومغفرة وفضلاً قيل لهم إن الله كان

ثلاثة لأن الله تعالى قال: ﴿ **فإن كان له إخوة فلأُمه السدس** ﴾، ولا يقال للاثنين إخوة، فنقول اسم الجمع قد يقع على التثنية لأن الجمع ضمّ شيء إلى شيء فهو موجود في الاثنين كما قال الله تعالى: ﴿ **فقدْ صغتْ قلوبُكما** ﴾ [التحريم: ٤] ذكر القلب بلفظ الجمع، وأضافه إلى اثنين، قوله تعالى: ﴿ **مِنْ بعدِ وصيةٍ يُوصي بها أو دين** ﴾، قرأ ابن كثير وابن عامر وأبو بكر ﴿ **يوصي** ﴾ بفتح الصاد على ما لم يسمّ فاعله، وكذلك الثانية ووافق حفص في الثانية، وقرأ الآخرون بكسر الصاد لأنه جرى ذكر الميت من قبل، بدليل قوله تعالى: ﴿ **يُوصين** ﴾، و﴿ **توصون** ﴾ قال عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه: إنكم تقرؤون الوصية قبل الدَّين، وبدأ رسول الله ﷺ بالدَّين قبل الوصية، وهذا إجماعٌ أن الدين مُقدّم على الوصية. ومعنى الآية الجمع لا الترتيب، وبيان أن الميراث مؤخّر عن الدين والوصية جميعاً، من بعد وصية إن كانت أو دين إن كان، والإرث مؤخّر عن كل واحد منهما، ﴿ **آباؤكم وأبناؤكم** ﴾، يعني: الذين يرثونكم آباؤكم وأبناؤكم، ﴿ **لا تدرُونَ أيُّهم أقربُ لكم نفعاً** ﴾، أي: لا تعلمون أنهم أنفع لكم في الدين والدنيا فمنكم مَن يظن أن الأب أنفع له، فيكون الابن أنفع له، ومنكم مَن يظن أن الابن أنفع له فيكون الأب أنفع له، وأنا العالمُ بمَن هو أنفع لكم، وقد دبَّر أمركم على ما فيه المصلحة فاتبعوه، وقال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: أطوعكم لله عزّ وجلّ من الآباء والأبناء أرفعكم درجة يوم القيامة، والله تعالى يُشفِّع المؤمنين بعضهم في بعض، فإن كان الوالد أرفع درجة يوم القيامة في الجنة رفع إليه ولده وإن كان الولد أرفع درجة رفع إليه والده لتقرّ بذلك أعينهم، ﴿ **فريضةً مِنَ اللّهِ** ﴾، أي: ما قدّر الله من المواريث، ﴿ **إنّ اللّهَ كانَ عليماً** ﴾، بأمور العباد، ﴿ **حكيماً** ﴾، بنصب الأحكام.

كذلك ولم يزل الله على ما شاهدتم. الثالث قال الخليل الخبر عن الله عزّ وجلّ بمثل هذه الأشياء كالخبر بالحال والاستقبال لأن صفات الله تعالى لا يجوز عليها الزوال والتقلب. قوله عز وجل:

﴿ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم مِّنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِن كَانُوٓا أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَآءُ فِى الثُّلُثِ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَآرٍّ وَصِيَّةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿١٢﴾

﴿**ولكم نصف ما ترك أزواجكم إن لم يكن لهن ولد فإن كان لهن ولد فلكم الربع مما تركن من بعد وصية يوصين بها أو دين**﴾ هذا ميراث الأزواج من الزوجات. وقال تعالى في ميراث الزوجات من الأزواج ﴿**ولهن**﴾ يعني للزوجات ﴿**الربع مما تركتم إن لم يكن لكم ولد فإن كان لكم ولد فلهن الثمن مما تركتم من بعد وصية توصون بها أو دين**﴾ لما جعل الله في الموجب النسبي حظ الرجل مثل حظ الأنثيين جعل الله في الموجب السبي للرجل مثل حظ الأنثيين واعلم أن الواحدة من النساء لها الربع أو الثمن وكذلك لو كن أربع زوجات فإنهن يشتركن في الربع أو الثمن واسم الولد يطلق على الذكر والأنثى. ولا فرق بين الولد وولد الابن وولد البنت في ذلك وسواء كان الولد للرجل من الزوجة أو من غيرها.

قوله تعالى: ﴿**وإن كان رجل يورث كلالة أو امرأة**﴾ تقدير الآية وإن كان رجل أو امرأة يورث كلالة واختلفوا في الكلالة فذهب أكثر الصحابة إلى أن الكلالة من لا ولد له ولا والد روى الشعبي قال: سئل أبو بكر الصديق عن الكلالة فقال: سأقول فيها قولاً برأيي فإن كان صواباً فمن الله وإن كان خطأ فمني ومن الشيطان أراه ما خلا الوالد والولد فلما استخلف عمر قال: إني لا أستحيي من الله أن أرد شيئاً قاله أبو بكر وهذا قول علي وابن مسعود وزيد بن ثابت وإحدى الروايتين عن عمر وابن عباس وهذا القول هو الصحيح المختار ويدل على صحته أن اشتقاق الكلالة من كلت الرحم بين فلان وفلان إذا تباعدت القرابة بينهم فسميت القرابة البعيدة كلالة من هذا الوجه، وقيل

قوله تعالى: ﴿ **ولكم نصفُ ما ترك أزواجُكم إن لم يكنْ لهنّ ولدٌ فإن كان لهنّ ولدٌ فلكم الرُّبعُ مما تركنَ من بعدِ وصِيَّةٍ يُوصِينَ بها أو دَيْنٍ** ﴾، هـذا ميراث الأزواج، ﴿ **ولهنَّ الرُّبعُ** ﴾، يعني: الزوجات الرّبع، ﴿ **مما تركتم إنْ لم يكنْ لكم ولدٌ فإن كان لكم ولدٌ فلهنّ الثُّمن مما تركتُم مِنْ بعدِ وصِيَّةٍ تُوصُونَ بها أو دَيْنٍ** ﴾، هذا ميراث الزوجات وإذا كان للرجل أربع نسوة فهنّ يشتركنَ في الرّبع والثّمن. قوله تعالى: ﴿ **وإن كان رجلٌ يُورَثُ كَلاَلَةً أو امرأةٌ** ﴾ تُورث كلالة، ونظم الآية: وإن كان رجل أو امرأة يُورث كلالةً وهو نصب على المصدر، وقيل: على خبر ما لم يُسمَّ فاعلُه، وتقديره: وإن كان رجل يورث ماله كلالة، واختلفوا في الكلالة فذهب أكثر الصحابة إلى أن الكلالة مَنْ لاَ وَلَد له ولاَ وَالِدَ له. ورُوِيَ عن الشعبي قال: سُئِلَ أبو بكر رضي الله عنه عن الكلالة فقال: إني سأقول فيها برأيي فإن كان صواباً فمن الله وإن كان خطأً فمنّي ومن الشيطان، أراه ما خلا الوالد والولد، فلما استخلف عمر رضي الله عنهما قال: إني لأستحيي من الله أن أردَّ شيئاً قاله أبو بكر رضي الله عنه، وذهب طاوس إلى أن الكلالة مَنْ لا ولد له، وهو إحدى الروايتين عن ابن عباس رضي الله عنهما، وآخر القولين عن عمر رضي الله عنه، واحتجَّ

إن الكلالة في أصل اللغة عبارة عن الإحاطة ومنه الإكليل لإحاطته بالرأس. فمن عد الوالد والولد من القرابة إنما سموا كلالة لأنهم كالدائرة المحيطة بالإنسان أما نسبة الولادة فليست كذلك لأن فيها تنوع البعض عن البعض وتولد البعض من البعض فهو كالشيء الواحد الذي يتزايد على نسق واحد. فأما القرابة المغايرة لقرابة الولادة وهم الإخوة والأخوات والأعمام والعمات وغيرهم فإنما محصل نسبهم اتصال إحاطة بالمنسوب إليه فثبت بذلك أن الكلالة عبارة عمن عدا الوالد والولد والرواية الأخرى عن عمر وابن عباس أن الكلالة من لا ولد له. وبه قال طاوس واحتج لهذا القول بقوله تعالى: ﴿قل الله يفتيكم في الكلالة إن امرؤ هلك ليس له ولد﴾ وبيانه عند عامة العلماء مأخوذ من حديث جابر بن عبدالله لأن الآية نزلت فيه ولم يكن له يوم نزولها أب ولا ابن لأن أباه قتل يوم أحد وآية الكلالة نزلت في آخر عمر النبي ﷺ فصار شأن جابر بياناً لمراد الآية التي نزلت في آخر السورة لنزولها فيه واختلفوا في أن الكلالة اسم لمن؟ فمنهم من قال هو اسم للميت، وهو قول علي بن أبي طالب وابن مسعود وابن عباس لأنه مات عن ذهاب طرفيه فكل عمود نسبه وقيل هو اسم للحي من الورثة وهو قول أبي بكر الصديق. وعليه جمهور العلماء الذين قالوا: إن الكلالة من دون الوالد والولد ويدل عليه حديث لجابر إنما يرثني كلالة أي يرثني ورثة ليسوا بولد ولا والد فإن كان المراد بالكلالة الميت الموروث فالمراد يرثه غير الوالد والولد. وإن كان المراد الوارثين فهم غير الوالد والولد وقال ابن زيد: الكلالة الذي لا ولد له ولا والد والحي والميت كلهم كلالة هذا يرث بالكلالة وهذا يورث بالكلالة. وقال أبو الخير: سأل رجل عقبة عن الكلالة فقال ألا تعجبون من هذا يسألني عن الكلالة وما أعضل بأصحاب النبي ﷺ شيء ما أعضلت بهم الكلالة (ق) عن عمر قال: ثلاث وددت أن رسول الله ﷺ كان عهد إلينا فيهن عهد انتهى إليه الجد والكلالة وأبواب من أبواب الربا وهذا طرف حديث ذكر في الخمر (ق) عن معدان بن أبي طلحة قال خطب عمر بن الخطاب: فقال إني لا أدع بعدي شيئاً أهم عندي من الكلالة ما راجعت رسول الله ﷺ في شيء ما راجعته في الكلالة، وما أغلظ لي في شيء ما أغلظ في الكلالة حتى طعن بأصبعيه في صدري وقال: يا عمر ألا يكفيك آية الصيف التي في آخر سورة النساء وإني إن أعش أقض فيها بقضية يقضي بها من يقرأ القرآن ومن لا يقرأ القرآن. لفظ مسلم قوله: ألا يكفيك آية الصيف أراد أن الله عز وجل أنزل في الكلالة آيتين: إحداهما في الشتاء وهي التي في أول سورة النساء والآية الأخرى في الصيف وهي التي في آخر السورة وفيها من البيان ما ليس في آية الشتاء فلذلك أحاله عليها.

وقوله تعالى: ﴿**وله أخ أو أخت فلكل واحد منهما السدس**﴾ أراد به الأخ والأخت للأم باتفاق العلماء وقرأ سعد بن أبي وقاص وله أخ أو أخت من أم. فأن قلت إن الله تعالى قال وإن كان رجل يورث كلالة أو امرأة ثم قال

مَن ذهب إلى هذا بقول الله تعالى: ﴿ قلِ اللَّهُ يُفتيكم في الكَلَالةِ إنِ امرؤ هَلَكَ ليسَ له ولدٌ ﴾ [النساء: ١٧٦]، وبيانه عند العامّة مأخوذٌ من حديثِ جابر بن عبد الله، لأن الآية نزلت فيه ولم يكن له يوم نزولها أب ولا ابن، لأن أباه عبد الله بن حزام قُتل يوم أُحُد، وآية الكلالة نزلتْ في آخر عمر النبي ﷺ، فصار شأن جابر بياناً لمراد الآية لنزولها فيه، واختلفوا في أن الكَلالة اسم لمَن؟ فمنهم مَن قال: اسم للميت، وهو قول علي وابن مسعود رضي الله عنهما، لأنه مات عن ذهاب طرفيه، فكلٌّ عمود نسبه، ومنه مَن قال: اسم للورثة، وهو قول سعيد بنُ جبير، لأنهم يتكللون الميت من جوانبه، وليس في عمود نسبه أحدٌ، كالإكليل يحيط بالرأس ووسط الرأس منه خالٍ، وعليه يدلّ حديث جابر رضي الله عنه حيث قال: إنما يرثني كلالة، أي: يرثني ورثة ليسوا بولدٍ ولا والدٍ، وقال النضر بن شميل: الكلالة اسم للمال، وقال أبو الخير: سأل رجل عُقبة عن الكلالة فقال: ألا تعجبون من هذا يسألني عن الكلالة، وما أعضل بأصحاب النبي ﷺ ما أعضلت بهم الكلالة، وقال عمر رضي الله عنه: ثلاث لا يكون النبي ﷺ بينهنّ لنا

تعالى وله أخ فذكر الرجل ولم يذكر المرأة فما السبب فيه. قلت هذا على عادة العرب فإنهم إذا ذكروا اسمين ثم أخبروا عنهما وكان في الحكم سواء ربما أضافوا أحدهما إلى الآخر وربما أضافوا إليهما فهو كقوله تعالى واستعينوا بالصبر والصلاة، ثم قال تعالى وإنها لكبيرة وقال الفراء إذا جاء حرفان بمعنى واحد جاز إسناد التفسير إلى أيهما أريد ويجوز إسناده إليهما أيضاً ﴿فإن كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء في الثلث﴾ وهذا إجماع العلماء أن أولاد الأم إذا كانوا اثنين فصاعداً يشتركون في الثلث ذكرهم وأنثاهم فيه سواء قال أبو بكر الصديق في خطبته: إلّا أن الآية التي أنزل الله في أول سورة النساء من شأن الفرائض أنزلها في الولد والوالد والأم والآية الثانية في الزوج والزوجة والإخوة من الأم والآية الثالثة التي ختم الله بها سورة النساء في الإخوة والأخوات من الأب والأم والآية التي ختم بها سورة الأنفال أنزلها الله في أولي الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله.

وقوله تعالى: ﴿من بعد وصية يوصي بها أو دين﴾ تقدم تفسيره وبقي شيء من الأحكام يذكر هنا وذلك أن ظاهر الآية يدل على جواز الوصية بكل المال وببعضه وفي معنى الآية ما روي عن نافع عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «ما حق امرىء مسلم له شيء يوصي به» وفي رواية له شيء يريد أن يوصى به أن يبيت ليلتين وفي رواية ثلاث ليال إلّا ووصيته مكتوبة عنده. قال نافع: سمعت عبدالله بن عمر يقول ما مرت علي ليلة منذ سمعت رسول الله ﷺ يقول ذلك إلّا وعندي وصيتي مكتوبة أخرجاه في الصحيحين، ففي ظاهر الآية والحديث ما يدل على إطلاق الوصية لكن ورد في السنة ما يدل على تقييد هذا المطلق وتخصيصه وهو قوله ﷺ في حديث سعد بن أبي وقاص قال: الثلث والثلث كثير إنك إن تذر ورثتك أغنياء أخير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس أخرجاه في الصحيحين. ففي هذا الحديث دليل على أن الوصية لا تجوز بأكثر من الثلث وأن النقصان عن الثلث جائز ولا تجوز الوصية لوارث ويدل عليه ما روي عن عمرو بن خارجة قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله عزّ وجلّ أعطى كل ذي حق حقه فلا وصية لوارث والولد للفراش وللعاهر الحجر» أخرجه الترمذي والنسائي عن أبي أمامة قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن الله أعطى كل ذي حق حقه فلا وصية لوارث أخرجه أبو داود.

وقوله تعالى: ﴿غير مضار﴾ يعني غير مدخل الضرر على الورثة بمجاوزة الثلث في الوصية وهو أن يوصي بأكثر من الثلث وقيل هو أن يوصي بدين ليس عليه أو يقر بماله أو أكثر ماله لأجنبي ويترك ورثته عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: إن الرجل ليعمل والمرأة بطاعة الله ستين سنة ثم يحضرهما الموت فيضاران في الوصية فتجب لهما النار، ثم قرأ أبو هريرة من بعد وصية يوصي بها أو دين إلى قوله وذلك هو الفوز العظيم أخرجه أبو داود والترمذي. وقال قتادة: كره الله تعالى الضّرار في الحياة وعند الموت فنهى عنه وقدم فيه وقيل: إن الإضرار في

أحبُّ إلينا من الدنيا وما فيها: الكلالة والخلافة وأبواب الزنا، وقال معد بن طلحة: خطب عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: إني لا أدع بعدي شيئاً أهم عندي من الكلالة، ما راجعتُ رسول الله ﷺ في شيء ما راجعتُه في الكلالة، وما أغلظ في شيء ما أغلظ لي في الكلالة، حتى طعن بأصبعه في صدري فقال: يا عمر ألَا تكفيك آية الصيف التي في آخر سورة النساء، وإني إن أعشْ أقضِ بقضية يقضي بها مَن يقرأ القرآن ومَن لا يقرأ، وقوله: ألَا تكفيكَ آيةُ الصيف؟ أراد: أن الله عزّ وجلّ أنزل في الكلالة آيتين إحداهما في الشتاء وهي التي في أول سورة النساء والأخرى في الصيف، وهي التي في آخرها، وفيها من البيان ما ليس في آية الشتاء، فلذلك أحاله عليها، قوله تعالى: ﴿ وله أخٌ أو أختٌ فلكلِّ واحدٍ منهما السُّدسُ ﴾، أراد به الأخَ والأختَ من الأم بالاتفاق، قرأ سعد بن أبي وقاص (ولـه أخ أو أُخـت من أم) ولم يقلْ لهما مع ذكر الرجل والمرأة من قبل، على عادة العرب إذا ذكرت اسمين ثم أخبرت عنهما، وكانا في الحكم سواءً ربّما أضافت إلى أحدهما، وربّما أضافت إليهما، كقوله تعالى:

الوصية من الكبائر لأن مخالفة أمر الله عز وجل كبيرة وقد نهى الله عن الإضرار في الوصية فدل على أن ذلك من الكبائر، واعلم أن الأولى بالإنسان أن ينظر عند الموت في قدر ما يخلف من المال ومن يخلف من الورثة ثم يجعل وصيته بحسب ذلك فإن كان ماله قليلاً، وفي الورثة كثرة فالأولى به أن لا يوصي بشيء لقوله ﷺ لسعد بن أبي وقاص: «إنك إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس» وإن كان في المال كثرة أوصى بحسب المال وبحسب الورثة وحاجتهم بعده في القلة والكثرة.

وقوله تعالى: ﴿وصية من الله﴾ أي فريضة من الله وقيل عهداً من الله إليكم فيما يجب لكم من ميراث من مات منكم ﴿والله عليم﴾ يعني أنه عالم بمصالح عباده ومضارهم وبما يفرض عليهم من الأحكام وقيل عليم بمن يجور في وصيته وبمن لا يجور ﴿حليم﴾ يعني أنه تعالى ذو حلم وذو أناة في ترك العقوبة عمن جار في وصيته وقال أبو سليمان الخطابي: الحليم ذو الصفح والأناة الذي لا يستفزه غضب ولا يستخفه جهل جاهل والحليم هو الصفوح مع القدرة المتأني الذي لا يعجل بالعقوبة. قوله عز وجل: .

تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾ وَٱلَّٰتِى يَأْتِينَ ٱلْفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ فَٱسْتَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْۖ فَإِن شَهِدُوا۟ فَأَمْسِكُوهُنَّ فِى ٱلْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴿١٥﴾

﴿تلك حدود الله﴾ يعني الأحكام التي تقدم ذكرها في هذه السورة من مال اليتامى والوصايا والأنكحة والمواريث وإنما سماها حدوداً لأن الشرائع كالحدود المضروبة للمكلفين فلا يجوز لهم أن يتجاوزوها وقال ابن عباس يريد ما حد الله من فرائضه ﴿ومن يطع الله ورسوله﴾ يعني في شأن المواريث ورضي بما قسم الله له وحكم عليه ﴿يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك الفوز العظيم ومن يعص الله ورسوله﴾ يعني في شأن

﴿ واستعينُوا بالصبرِ والصلاةِ وإنّها لكبيرة ﴾ [البقرة: ٤٥]، ﴿ **فإن كانُوا أكثرَ من ذلك فهم شركاءُ في الثُلث** ﴾، فيه إجماع أن الأم إذا كانوا اثنين فصاعداً يشتركون في الثلث ذكرُهم وأُنثاهم، قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه في خطبته: ألا إن الآية التي أنزل الله تعالى في أول سورة النساء في بيان الفرائض أنزلها في الولد والوالد والأم، والآية الثانية في الزوج والزوجة والإخوة والأخوات من الأم، والآية التي ختم بها سورة النساء في الإخوة والأخوات من الأب والأم، والآية التي ختم بها سورة الأنفال أنزلها في أُولي الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله، ﴿ **مِنْ بعدِ وَصِيةٍ يُوصي بها أو دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍ** ﴾ أي: غير مُدخلِ الضررَ على الورثة بمجاوزة الثلث في الوصية، فإن الحسن هو أن يوصي بدين ليس عليه، ﴿ **وصيةً مِنَ اللهِ واللّهُ عليمٌ حليم** ﴾، قال قتادة: كره الله الضِرارَ في الحياة وعند الموت، ونهى عنه وقدّم فيه.

﴿ **تلكَ حُدودُ اللّهِ** ﴾، يعني: ما ذكر من الفرائض المحدودة، ﴿ **ومَنْ يُطعِ اللّهَ ورسولَه يُدْخِلْهُ جنّاتٍ تجري من تحتِها الأنهار خالدين فيها وذلكَ الفوزُ العظيم** ﴾.

﴿ **ومَنْ يَعصِ اللّهَ ورسولَه ويَتَعدَّ حدودَهُ يُدخلْه ناراً خالداً فيها وله عذابٌ مُهين** ﴾، قرأ أهل المدينة وابن عامر « نُدخله جنّات، ونُدخله ناراً »، وفي قوله تعالى: ﴿ ندخله ﴾ [الفتح: ١٧] و﴿ نعذّبه ﴾ [الفتح: ١٧] وفي

المواريث ولم يرض بقسمة الله ورسوله ﴿**ويتعد حدوده**﴾ يعني ويتجاوز ما أمر الله تعالى به ﴿**يدخله ناراً خالداً فيها وله عذاب مهين**﴾ فإن قلت كيف قطع للعاصي بالخلود في النار في هذه الآية وهل فيها دليل للمعتزلة على قولهم إن العصاة والفساق من أهل الإيمان يخلدون في النار. قلت قال الضحاك المعصية هنا الشرك وروى عكرمة عن ابن عباس في معنى الآية من لم يرض بقسمة الله ويتعد ما قال الله يدخله ناراً وقال الكلبي: يكفر بقسمة المواريث ويتعد حدود الله استحلالاً إذا ثبت ذلك فمن رد حكم الله ولم يرض بقسمته كفر بذلك وإذا كفر كان حكمه حكم الكفار في الخلود في النار إذا لم يتب قبل وفاته إذا مات وهو مصر على ذلك كان مخلداً في النار بكفره فلا دليل في الآية للمعتزلة والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿**واللاتي**﴾ هو جمع التي وهي كلمة يخبر بها عن المؤنثة خاصة ﴿**يأتين الفاحشة**﴾ يعني يفعلن الفاحشة يقال أتيت أمراً قبيحاً إذا فعلته والفاحشة في اللغة الفعلة القبيحة، وقيل الفاحشة عبارة عن كل فعل أو قول يعظم قبحه في النفوس ويقبح ذكره في الألسنة حتى يبلغ الغاية في جنسه وذلك مخصوص بشهوة الفرج الحرام ولذلك أجمعوا على أن الفاحشة ها هنا هي الزنا وإنما سمي الزنى فاحشة لزيادة قبحه ﴿**من نسائكم**﴾ قيل هن الزوجات وقيل المراد بهن جنس النساء ﴿**فاستشهدوا عليهن أربعة منكم**﴾ يعني من المسلمين وهذا خطاب للأزواج أي اطلبوا أربعة من الشهود ليشهدوا عليهن وقيل هو خطاب للحكام أي استمعوا شهادة أربع عليهن. ويشترط في هذه الشهادة العدالة والذكورة قال عمر بن الخطاب: إنما جعل الله الشهود أربعة ستراً يستركم به دون فواحشكم ﴿**فإن شهدوا**﴾ يعني الشهود بالزنا ﴿**فأمسكوهن في البيوت**﴾ أي فاحبسوهن في البيوت والحكمة في حبسهن أن المرأة إنما تقع في الزنى عند الخروج والبروز للرجال فإذا حبست في البيت لم تقدر على الزنى ﴿**حتى يتوفاهن الموت**﴾ يعني تتوفاهن ملائكة الموت عند انقضاء آجالهن ﴿**أو يجعل الله لهن سبيلاً**﴾ وهذا الحكم كان في أول الإسلام قبل نزول الحدود كانت المرأة إذا زنت حبست في البيت حتى تموت ثم نسخ الحبس بالحدود وجعل الله لهن سبيلاً (م) عن عبادة بن الصامت قال: «كان نبي الله ﷺ إذا أنزل عليه حكم كرب لذلك وتربد وجهه فأنزل الله عليه ذات يوم فبقي كذلك فلما سري عنه قال: خذوا عني قد جعل الله لهن سبيلاً البكر بالبكر جلد مائة ونفي سنة والثيب بالثيب جلد مائة والرجم».

فصل

اتفق العلماء على أن هذه الآية منسوخة ثم اختلفوا في ناسخها فذهب بعضهم إلى أن ناسخها هو حديث عبادة بن الصامت المتقدم وهذا على مذهب من يرى نسخ القرآن بالسنة وذهب بعضهم إلى أن الآية الحد التي في

قوله تعالى؛ ﴿ نكفّر ﴾ [التغابن: ٩] و﴿ ندخله ﴾ [التغابن: ٩] وفي **قوله تعالى: ﴿ ندخله ﴾** [الطلاق: ١١] بالنون فيهنّ، وقرأ الآخرون بالياء.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ واللاتي يأتينَ الفاحشةَ ﴾، يعني: الزنا، **﴿ من نسائِكم فاستشهدُوا عليهنّ أربعةً منكم ﴾**، يعني: من المسلمين، وهذا خطاب للحكّام، أي: فاطلبوا عليهنّ أربعةً من الشهود، فيه بيان أن الزنا لا يثبت إلّا بأربعة من الشهود. **﴿ فإنْ شهدُوا فأمسكُوهنّ ﴾**، فاحبسوهنّ، **﴿ في البيوتِ حتى يتوفّاهُنّ الموتُ أو يجعلَ اللّهُ لهنّ سبيلاً ﴾**، وهذا كان في أول الإسلام قبل نزول الحدود، وكان المرأة إذا زنت حُبست في البيوت حتى تموت، ثم نسخ ذلك في حق البكر بالجلد والتنريب، وفي حق الثيّب بالجلد والرجم. أخبرنا عبد الوهاب بن محمد الخطيب أخبرنا عبد العزيز بن أحمد الخلال أنا أبو العباس الأصم أنا الربيع أخبرنا الشافعي رضي الله عنه أخبرنا عبد الوهاب عن يونس عن الحسن عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «خُذوا عنّي خُذوا عنّي:

سورة النور وقيل إن هذه الآية منسوخة الصامت المتقدم وهذا على مذهب من يرى نسخ القرآن بالسنة بالحديث والحديث منسوخ بآية الجلد وقال أبو سلمان الخطابي: لم يحصل النسخ في هذه الآية ولا في الحديث وذلك لأن قوله تعالى: ﴿**فأمسكوهن في البيوت حتى يتوفاهن الموت أو يجعل الله لهن سبيلاً**﴾ يدل على إمساكهن في البيوت ممدوداً إلى غاية أن يجعل الله لهن سبيلاً وأن ذلك السبيل كان مجملاً فلما قال ﷺ: «خذوا عني قد جعل الله لهن سبيلاً» الحديث صار هذا الحديث بياناً لتلك الآية المجملة لا ناسخاً لها. وأجمع العلماء على جلد البكر الزاني مائة ورجم المحصن وهو الذي اجتمع فيه أربعة أوصاف البلوغ والعقل والحرية والإصابة في نكاح صحيح وهو الثيب واختلفوا في جلد الثيب ورجمه فذهب طائفة إلى أنه يجب الجمع بينهما وبه قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه. والحسن وإسحاق بن راهويه وداود وأهل الظاهر وروي عن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه: أنه جلد شراحة الهمدانية يوم الخميس ورجمها يوم الجمعة. وقال: جلدتها بكتاب الله ورجمتها بسنة رسول الله ﷺ. وقال جماهير العلماء الواجب على المحصن الزاني الرجم وحده لأن النبي ﷺ رجم ماعزاً والغامدية ولم يجلدهما. وأما تغريب البكر والزاني ونفيه سنة فمذهب الشافعي وجماهير العلماء وجوب ذلك وقال أبو حنيفة وحماد لا يقضى بالنفي أحد إلاّ أن يراه الحاكم تعزيراً، وقال مالك والأوزاعي: لا نفي على النساء ويروى مثله عن علي قال لأن المرأة عورة وفي نفيها تضييع لها وتعريض للفتنة وحجة الشافعي وجماهير العلماء ظاهر حديث عبادة بن الصامت وهو قوله ﷺ: «البكر بالبكر جلد مائة ونفي سنة» وروى نافع عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ ضرب وغرب وأن أبا بكر ضرب وغرب وأن عمر ضرب وغرب وإن كان الزاني عبداً فعليه جلد خمسين وفي تغريبه قولين. فإن قلنا إنه يغرب ففيه قولان أصحهما أنه يغرب نصف سنة قياساً على حده وإن كان الزاني مجنوناً أو أنه يغرب ففيه قولان: أصحهما أنه يغرب نصف سنة قياساً على حده وإن كان الزاني مجنوناً أو غير بالغ فلا جلد عليه.

﴿وَٱلَّذَانِ يَأْتِيَـٰنِهَا مِنكُمْ فَـَٔاذُوهُمَا ۖ فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿١٦﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿**واللذان**﴾ هو تثنية الذي ﴿**يأتيانها**﴾ يعني يأتيان الفاحشة ﴿**منكم**﴾ يعني من رجالكم

قد جعل الله لهنَّ سبيلاً، البكرُ بالبكر جلد مائة وتغريب عام، والثيّب بالثيّب جلد مائة والرجم»، قال الشافعي رضي الله عنه: وقد حدّثني الثقة أن الحسن كان يدخل بينه وبين عبادة حطان الرقاشي، فلا أدري أدخله عبد الوهاب فنزل عن كتابي أمْ لَا. قال شيخنا الإمام: الحديث صحيح رواه مسلم بن الحجّاج عن محمد بن المثنى عن عبد الأعلى عن سعيد عن قتادة عن الحسن عن حطّان بن عبد الله عن عبادة، ثم نُسخ الجلد في حق الثيّب وبقي الرجم عند أكثر أهل العلم، وذهب طائفة إلى أنه يجمع بينهما. رُوِيَ عن عليّ رضي الله عنه: أنه جَلَدَ شراحةَ الهمدانية يوم الخميس مائة ثم رجمها يوم الجمعة، وقال: جلدتها بكتاب الله ورجمتها بسُنّة رسول الله ﷺ. وعامّة العلماء على أن الثيّب لا يجلد مع الرجم لأن النبي ﷺ رجم ماعزاً والغامدية ولم يجلدهما. وعند أبي حنيفة رضي الله عنه: التغريب أيضاً منسوخ في حق البكر، وأكثر أهل العلم على أنه ثابت، روى نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبيّ ﷺ ضَرَبَ وغَرّبَ، وأن أبا بكر رضي الله عنه ضَربَ وغَرّبَ، وأن عمر رضي الله عنه ضَرَبَ وغرّبَ، واختلفوا في أن الإمساك في البيت كان حدّاً فنسخ أم كان حبساً ليظهر الحدّ، على قولين.

قوله تعالى: ﴿ واللذانِ يأتيانها منكم ﴾، يعني الرجل والمرأة، والهاء راجعة إلى الفاحشة، قرأ ابن كثير

ونسائكم وقيل هما البكران اللذان لم يحصنا وهما غير المعنيين بالآية الأولى وقيل المراد بمن ذكر في الأولى النساء وهذه للرجال لأن الله تعالى حكم في الآية الأولى بالحبس في البيت على النساء وهو اللائق بحالهن لأن المرأة إنما تفعل الفاحشة عند الخروج فإذا حبست في البيت انقطعت مادة المعصية، وأما الرجل فلا يمكن حبسه في البيت لأنه يحتاج إلى الخروج في إصلاح معاشه واكتساب قوت عياله فجعلت عقوبة الرجل الزاني الأذية بالقول والفعل ﴿فآذوهما﴾ يعني عيروهما بالقول باللسان وهو أن يقال له أما خفت الله أما استحيت من الله حين زنيت وقال ابن عباس: سبوهما واشتموهما وفي رواية عنه قال: هو باللسان واليد يؤذي بالتعيير ويضرب بالنعال ﴿فإن تابا﴾ يعني من الفاحشة ﴿وأصلحا﴾ يعني العمل فيما يأتي ﴿فأعرضوا عنهما﴾ أي اتركوهما ولا تؤذوهما ﴿إن الله كان تواباً رحيماً﴾ يعني أنه تعالى يعود على عبده بفضله ومغفرته ورحمته إذا تاب إليه وهذا الحكم كان في ابتداء الإسلام كان حد الزاني الأذى بالتوبيخ والتعيير بالقول باللسان فلما نزلت الحدود وثبتت الأحكام نسخ ذلك

«اللذان، واللذين، وهاتان، وهذان» مشدّدة النون التأكيد، ووافقه أهل البصرة في (فذانك) والآخرون بالتخفيف، قال أبو عبيدة: خصّ أبو عمرو (فذانك) بالتشديد لقلّة الحروف في الاسم ﴿فآذوهما﴾ قال عطاء وقتادة: يعني فعيّروهما باللسان: أَمَا خِفْتَ اللَّهَ؟ أما استحيتَ من الله حيث زنيت؟ قال ابن عباس رضي الله عنهما: سُبوهُمَا واشتموهما، قال ابن عباس، هو باللسان واليد يُؤذي بالتعيير وضرب النعال، فإن قيل: ذَكَرَ الحبسَ في الآية الأولى وذَكر في هذه الآية الإيذاءَ، فكيف وجه الجمع؟ قيل: الآية الأولى في النساء وهذه في الرجال، وهو قول مجاهد، وقيل: الآية الأولى في الثيّب وهذه في البكر، ﴿فإنْ تَابَا﴾، من الفاحشة ﴿وأَصْلَحَا﴾، العمل فيما بعد، ﴿فأعرِضُوا عنهما﴾، فلا تُؤذُوهما، ﴿إن الله كان توّاباً رحيماً﴾، وهذا كله كان قبل نزول الحدود، فنُسخت بالجلد والرجم، والجلد في القرآن قال الله تعالى: ﴿الزانيةُ والزاني فاجْلِدُوا كلَّ واحدٍ منهما مائةَ جلدة﴾ [النور: ٢] والرجم في السنة. أخبرنا أبو الحسن محمد بن محمد السرخسي أخبرنا أبو علي زاهر بن أحمد السرخسي أنا أبو إسحق إبراهيم بن عبد الصمد الهاشمي أخبرنا أبو مصعب عن مالك عن ابن شهاب عن عبيد الله بن عتبة بن مسعود عن أبي هريرة وزيد بن خالد الجهني رضي الله عنهما أنهما أخبراه أنّ رجلين اختصما إلى رسول الله ﷺ فقال أحدهما: اقضِ يا رسول الله بيننا بكتابِ الله، وقال الآخر وكان أفقههما: أجلْ يا رسول الله فاقضِ بيننا بكتابِ الله، وائذن لي أن أتكلم، قال: «تكلم»، قال: إن ابني كان عسيفاً، أي: أجيراً على هذا، فزنى بامرأته فأخبروني أن على ابني الرجم، فافتديتُ منه بمائة شاة وبجارية لي، ثم إني سألت أهل العلم فأخبروني أن على ابني جلد مائة وتغريب عام، وإنما الرجم على امرأته، فقال رسول الله ﷺ: «أما والذي نفسي بيده لأقضينَّ بينكما بكتاب الله، أمَّا غَنَمُك وجاريتُك فردٌّ عليك، وأمّا ابنُك فعليه جلد مائة وتغريب عام، واغد يا أنيس على امرأة هذا، أي: أمر أنيساً الأسلمي أن يأتي امرأة الآخر فإن اعترفت فارجمها»، فغدَا عليها فاعترفتْ، فرجمها. أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا عبد العزيز بن عبد الله حدّثني إبراهيم بن سعد عن صالح عن ابن شهاب عن عبيد بن عبد الله بن عتبة بن مسعود عن ابن عباس قال: قال عمر رضي الله عنه: إن الله تعالى بعث محمداً ﷺ بالحق وأنزل عليه الكتاب، فكان مما أنزل الله تعالى آية الرجم فقرأناها وعقلناها ووعيناها، رجم رسول الله ﷺ، ورجمنا بعده، وأخشى إن طال بالناس زمان أن يقول قائل: واللّهِ ما نجدُ آيةَ الرجم في كتاب الله تعالى، فيضلّوا بترك فريضة أنزلها الله تعالى في كتابه، والرجم في كتاب الله تعالى حق على مَن زنى إذا أُحصن من الرجال والنساء، إذا قامت البيّنة أو كان الحبل أو الاعتراف. وجملة حدّ الزنا أن الزاني إذا كان محصناً وهو الذي اجتمعت فيه أربعة أوصاف: العقل والبلوغ والحرية

الأذى بالآية التي في سورة النور وهي قوله تعالى: ﴿الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله﴾ الآية فثبت الجلد على البكر بنص الكتاب وثبت الرجم على الثيب المحصن بسنة رسول الله ﷺ فقد أصح أن رسول الله ﷺ رجم ماعزاً وكان قد أحصن وسواء في هذا الحكم المسلم واليهودي لأنه ثبت في الصحيح أن النبي ﷺ رجم يهوديين زنيا وكانا قد أحصنا وقال أبو حنيفة: لا رجم على اليهودي لأن المشرك ليس بمحصن وأجيب عنه بأن المراد بهذا الإحصان إحصان العفاف لا إحصان الفرج. قوله تعالى:.

﴿إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ١٧﴾

﴿إنما التوبة على الله﴾ يعني التوبة التي يقبلها الله تعالى فيكون على بمعنى عند وقيل على بمعنى من أي من الله وقال أهل المعاني إن الله تعالى وعد قبول التوبة من المؤمنين في قوله كتب ربكم على نفسه الرحمة وإذا وعد الله شيئاً أنجز ميعاده وصدق فيه فمعنى قوله على الله أوجب على نفسه من إيجاب أحد عليه لأنه تعالى يفعل ما يريد ﴿للذين يعلمون السوء﴾ يعني الذنوب والمعاصي سميت سوءاً لسوء عاقبتها إذا لم يتب منها ﴿بجهالة﴾ قال قتادة أجمع أصحاب رسول الله ﷺ على أن كل شيء عصى الله به فهو جهالة عمداً كان أو غيرهن وكل من عصى الله فهو جاهل. وقال ابن عباس: من عمل السوء فهو جاهل من جهالته عمل السوء فكل من عصى الله سمي جاهلاً وسمي فعله جهالة وإنما سمي من عصى الله جاهلاً لأنه لم يستعمل ما معه من العلم بالثواب والعقاب وإذا لم يستعمل ذلك سمي جاهلاً بهذا الاعتبار وقيل معنى الجهالة أن يأتي الإنسان بالذنب مع العلم بأنه ذنب لكنه يجهل عقوبته وقيل معنى الجهالة هو اختيار اللذة الفانية على اللذة الباقية ﴿ثم يتوبون من قريب﴾ يعني يتوبون بعد الإقلاع عن الذنب بزمان قريب لئلا يعد في زمرة المصرين وقيل القريب أن يتوب في صحته قبل مرض موته وقيل قبل موته وقيل قبل معاينة ملك الموت ومعاينة أهوال الموت وإنما سميت هذه المدة قريبة لأن كل ما هو آت قريب وفيه تنبيه

والإصابة بالنكاح الصحيح، فحدّه الرجم مسلماً كان أو ذمياً وهو المراد من الثيّب المذكور في الحديث، وذهب أصحاب الرأي إلى أن الإسلام من شرائط الإحصان، ولا يرجم الذمّي، وقد صحّ عن رسول الله ﷺ أنه رجم يهوديين زنيا، وكانا قد أحصنا، وإن كان الزاني غير محصن بأن لم تجتمع فيه هذه الأوصاف نظر إن كان غير بالغ أو كان مجنوناً فلا حدّ عليه، وإن كان حرّاً عاقلاً بالغاً غير أنه لم يُحصن بنكاح صحيح فعليه جلد مائة وتغريب عام، وإن كان عبداً فعليه جلد خمسين وفي تغريبه قولان، إن قلنا يغرب فيه قولان، أصحّهما نصف سنة كما يجلد خمسين على نصف حدِّ الحُرِّ.

قوله تعالى: ﴿ إنما التوبةُ على اللَّهِ ﴾ قال الحسن: يعني التوبة التي يقبلها، فيكون على بمعنى عند، وقيل: من الله، ﴿ للذينَ يعملُون السوءَ بجهالةٍ ﴾، قال قتادة: جمع أصحاب رسول الله ﷺ على أنّ كل ما عُصي به اللَّهُ فهو جهالة عمداً كان أو لم يكن، وكلّ مَن عَصَى اللَّهَ فهو جاهلٌ. وقال مجاهد: المراد من الآية: العمد، قال الكلبي: لم يجهل أنه ذنب لكنه جهل عقوبته، وقيل: معنى الجهالة: اختيارُهم اللذّة الفانية على اللذّة الباقية. ﴿ ثم يَتُوبُون مِنْ قريبٍ ﴾، قيل: معناه قبل أن يحيط السوء بحسناته فيحبطها، وقال السدي والكلبي: القريب أن يتوب في صحته قبل مرض موته، وقال عكرمة: قبل الموت، وقال الضحاك: قبل مُعاينة مَلَكِ الموت، أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا عبد الرحمن بن أبي شريح أنا أبو القاسم عبد الله بن محمد بن عبد العزيز البغوي أنا علي بن الجعد أنا ابن ثوبان وهو عبد الرحمن بن ثابت بن ثوبان عن أبيه عن مكحول عن جبير بن نغير عن

على أن عمر الإنسان وإن طال فهو قليل وأن الإنسان يتوقع في كل ساعة ولحظة نزول الموت به عن ابن عمر أن النبي ﷺ قال: إن الله تعالى يقبل توبة العبد ما لم يغرغر أخرجه الترمذي. الغرغرة أن يجعل المشروب في فم المريض فيردده في الحلق ولا يصل إليه ولا يقدر على بلعه وذلك عند بلوغ الروح إلى الحلقوم. وروى البغوي بسنده عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: «إن الشيطان قال وعزتك يا رب لا أبرح أغوي عبادك ما دامت أرواحهم في أجسادهم» فقال الرب تبارك وتعالى: وعزتي وجلالي وارتفاعي في مكاني لا أزال أغفر لهم ما استغفروني وقيل في معنى الآية إن القريب هو أن يتوب الإنسان قبل أن يحيط السوء بحسناته فيحبطها **﴿فأولئك يتوب الله عليهم﴾** يعني يقبل توبتهم **﴿وكان الله عليماً حكيماً﴾** قال ابن عباس: علم ما في قلوب عباده المؤمنين من التصديق واليقين فحكم بالتوبة قبل الموت ولو بقدر فواق ناقة وقيل في معنى الآية علم أنه إنما أتى بتلك المعصية باستيلاء الشهوة والجهالة عليه فحكم بالتوبة لمن تاب عنها وأناب عن قريب. قوله عز وجل: .

وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا۟ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا ۖ وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا۟ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَـٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾

﴿وليست التوبة للذين يعملون السيئات﴾ قال ابن عباس: يريد الشرك وقال أبو العالية وسعيد بن جبير: هم المنافقون وقال سفيان الثوري هم المسلمون ألا ترى أنه قال ولا الذين يموتوا وهم كفار **﴿حتى إذا حضر أحدهم الموت﴾** يعني وقع في النزاع وعاين ملائكة الموت وهو حالة السوق حين تساق الروح للخروج من جسده **﴿قال إني تبت الآن﴾** قال المحققون قرب الموت لا يمنع من قبول التوبة بل المانع من قبولها مشاهدة الأحوال التي لا يمكن معها الرجوع إلى الدنيا بحال ولذلك لم تقبل توبة فرعون ولا إيمانه وهو قوله تعالى: حتى إذا أدركه الغرق. قال: آمنت أنه لا إله إلاّ الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين الآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين ويدل على ذلك أيضاً قوله تعالى: **﴿فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا﴾** فإن قلت قد تعلقت الوعيدية بهذه الآية

عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «إن الله تعالى يقبل توبة العبد ما لم يُغرْغر» أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أبو منصور محمد بن محمد بن سمعان أنا أبو جعفر بن محمد بن أحمد بن عبد الجبّار الزياتي أنا حميد بن زنجويه أنا أبو الأسود أنا ابن لهيعة عن درّاج عن أبي الهيثم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «إنّ الشيطان قال: وعزّتك يا ربّ لا أبرح أُغوي عبادك ما دامتْ أرواحهم في أجسادهم، فقال الرب: وعزّتي وجلالي وارتفاع مكاني لا أزال أغفر لهم ما استغفروني». قوله تعالى: **﴿ فأولئك يتوبُ اللّهُ عليهم وكانَ الله عليماً حكيماً ﴾**.

﴿ وليستِ التوبةُ للذينَ يعملون السيئاتِ﴾، يعني: المعاصي **﴿ حتى إذا حضر أحدَهم الموتُ ﴾**، ووقع في النزع، **﴿ قال إني تُبْتُ الآن ﴾**، وهي حالة السَّوق حتى يُساق بروحه، لا يُقبل من كافر إيمانٌ ولا من عاصٍ توبة، قال الله تعالى: **﴿ فلم يكُ ينفعهم إيمانُهم لمّا رأوا بأسَنا ﴾** [غافر: ٨٥]، ولذلك لم ينفع إيمان فرعون حين أدركه الغرق. **﴿ ولا الذينَ يموتُون وهم كفّارٌ أولئك أعتدنا ﴾**، أي: هيّأنا وأعددنا، **﴿ لهم عذاباً أليماً ﴾**.

﴿ يا أيّها الذينَ آمنُوا لا يحلُّ لكم أن ترثُوا النِّساءَ كَرْهاً ﴾، نزلت في أهل المدينة كانوا في الجاهلية وفي أول

وقالوا أخبر الله تعالى إن عصاة المؤمنين إذا أهملوا أمرهم إلى انقضاء آجالهم حصلوا على عذاب الآخرة مع الكفار لأن الله تعالى جمعهم في قوله أولئك اعتدنا لهم عذاباً أليماً، وأيضاً أنه تعالى أخبر أنه لا توبة لهم عند معاينة الموت وأسبابه. قلت ليس الأمر على ما زعموا فقد روي عن ابن عباس في قوله وليست التوبة للذين يعملون السيئات يريد الشرك وقال سعيد بن جبير: نزلت الآية الأولى في المؤمنين يعني قوله: إنما التوبة على الله والوسطى في المنافقين يعني قوله وليست التوبة والأخرى في الكافرين يعني قوله ولا الذين يموتون وهم كفار وإذا كانت الآية نازلة في المنافقين والكفار فلا وجه لحملها على المؤمنين وعلى تقدير أن تكون الآية نازلة فى عصاة المؤمنين فقد روي عن ابن عباس في قوله تعالى: وليست التوبة للذين يعملون السيئات الآية، ثم أنزل الله تعالى بعد ذلك إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء فحرم الله المغفرة على من مات وهو كافر وارجأ أهل التوحيد إلى مشيئته ولم يؤيسهم من المغفرة فعلى هذا القول تكون الآية منسوخة في حق المؤمنين.

وقوله تعالى: ﴿**ولا الذين يموتون وهم كفار**﴾ معناه لا توبة للكفار إذا ماتوا على كفرهم وإنما لم تقبل توبتهم في الآخرة لرفع التكليف في الآخرة ومعاينة ما وعدوا به من العقاب ﴿**أولئك أعتدنا لهم**﴾ أي هيأنا لهم ﴿**عذاباً أليماً**﴾ قوله عز وجل: ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرهاً**﴾ نزلت في أهل المدينة وذلك أنهم كانوا في الجاهلية في أول الإسلام إذا مات الرجل وخلف امرأة جاء ابنه من غيرها أو قريبة من ذوي عصبته، فألقى ثوبه على تلك المرأة أو على خبائها فصار أحق بها من نفسها ومن غيره فإن شاء تزوجها بغير صداق إلاّ الصداق الأول الذي أصدقها الميت وإن شاء زوجها غيره وأخذ هو صداقها وإن شاء عضلها ومنعها من الأزواج يضارها بذلك لتفتدي منه بما ورثت من الميت أو تموت هي فيرثها فإن ذهبت المرأة إلى أهلها قبل أن يلقي عليها ولي زوجها ثوبه كانت أحق بنفسها وكانوا على ذلك حتى توفي أبو قيس بن الأسلت الأنصاري وترك امرأته كبيشة بنت معن الأنصارية فقام ابن له من غيرها يقال له حصن، وقيل اسمه قيس بن أبي قيس فطرح ثوبه عليها فورث نكاحها ثم تركها فلم ينفق عليها يضارها بذلك لتفتدي منه فأتت كبيشة رسول الله ﷺ فقالت له: يا رسول الله إن أبا قيس توفي وورث نكاحي ابنه فلا هو ينفق عليّ ولا هو يدخل بي ولا يخلي سبيلي، فقال اقعدي في بيتك حتى يأتي أمر الله فيك فأنزل الله عز وجل: ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرهاً**﴾ يعني ميراث نكاح النساء وقيل في معناه أن ترثوا أموالهن كرهاً يعني وهن كارهات ﴿**ولا تعضلوهن**﴾ أي ولا تمنعوهن من الأزواج وأصل العضل المنع ﴿**لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن**﴾ يعني لتضجر فتفتدي ببعض مالها قيل هو خطاب للأزواج قال ابن عباس: هذا في الرجل تكون له امرأة وهو كاره لها ولصحبتها ولها عليه مهر فيضارها لتفتدي منه وترد إليه ما

الإسلام، إذا مات الرجل وله امرأة جاء ابنه من غيرها أو قريبه من ذوي عصبته فألقى ثوبَه علىٰ تلك المرأة أو على خبائها فصار أحقّ بها من نفسها ومن غيره، فإن شاء تزوّجها بغير صداق إلاّ الصداق الأول الذي أصدقها الميت، وإن شاء زوّجها غيره وأخذ صداقها، وإن شاء عضلها ومنعها من الأزواج يضارّها لتفتدي منه بما ورثته من الميت أو تموت هي فيرثها فإن ذهبت المرأة قبل أن يلقي عليها وليّ زوجها ثوبَه فهي أحقّ بنفسها، فكانوا على هذا حتى توفي أبو قيس بن الأسلت الأنصاري وترك امرأتَه كبيشة بنت معن الأنصارية، فقام ابن له من غيرها يقال له حصن، وقال مقاتل بن حيان: اسمه قيس بن أبي قيس، فطرح ثوبه عليها فورث نكاحها، ثم تركها فلم يقربها ولم ينفق عليها يضارّها لتفتدي منه، فأتت كبيشةُ رسولَ الله ﷺ فقالت: يا رسول الله إن أبا قيس توفي ووَرِثَ نكاحي ابنه فلا ينفق عليّ ولا يدخل بي ولا يخلي سبيلي، فقال: «اقعدي في بيتك حتى يأتيَ فيك أمرُ الله»، فأنزل الله تعالى هذه الآية: ﴿ **يا أيّها الذينَ آمنُوا لا يحلُّ لكم أن ترثُوا النساءَ كَرْهاً** ﴾، قرأ حمزة والكسائي بالضم، لغتان، قال الفرَّاء: الكره

ساق إليها من المهر فنهى الله عن ذلك وقيل كان الرجل يطلق امرأته ثم يراجعها ثم يطلقها يضارها بذلك فنهوا عن ذلك وهو خطاب لأولياء الميت فنهاهم الله عن عضل المرأة ثم قال تعالى: ﴿**إلاّ أن يأتين بفاحشة مبينة**﴾ يعني فحينئذٍ يحل لكم إضرارهن ليفتدين منكم واختلفوا في الفاحشة المبينة فقيل هي النشوز وسوء الخلق وإيذاء الزوج وأهله، وقيل الفاحشة هي الزنى يعني أن المرأة إذا نشزت أو زنت حلّ للزوج أن يسألها الخلع وقيل كانت المرأة إذا أصابت فاحشة أخذ منها زوجها ما ساق إليها وأخرجها فنسخ الله ذلك بالحدود ﴿**وعاشروهن بالمعروف**﴾ قيل هو راجع للكلام الذي قبله والمعنى وآتوا النساء صدقاتهن نحلة وعاشروهن بالمعروف هو الإجمال في القول والمبيت والنفقة وقيل هو أن تصنع لها كما تحب أن تصنع لك ﴿**فإن كرهتموهن**﴾ يعني فإن كرهتم عشرتهن وصحبتهن وآثرتم فراقهن ﴿**فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً**﴾ قال ابن عباس: ربما رزق منها ولداً صالحاً فجعل الله في ولدها خيراً كثيراً فتنقلب تلك الكراهة محبة والنفرة رغبة، وقيل في الآية ندب إلى إمساك المرأة مع والكراهية لها لأنه إذا كره صحبتها وتحمل ذلك المكروه طلباً للثواب وأنفق عليها وأحسن هو صحبتها استحق الثناء الجميل في الدنيا والثواب الجزيل في العقبى وقيل في معنى الآية إنكم إن كرهتموهن ورغبتم في فراقهن فربما جعل الله في تلك المفارقة لهن خيراً كثيراً وذلك بأن تخلص من هذا الزوج الكاره لها وتتزوج غيره خيراً منه. قوله عز وجل: .

وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾ وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَـٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾

﴿**وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج**﴾ الخطاب للرجال وأراد بالزوج الزوجة قال المفسرون: لما ذكر الله في الآية الأولى مضارة الزوجات إذا أتين بفاحشة وهي إما النشوز أو الزنا بيّن في هذه الآية تحريم المضارة إن لم

بالفتح ما أكره عليه، وبالضم ما كان من قِبَلِ نفسه من المشقّة، ﴿ **ولا تَعْضُلُوهنّ لتذهبُوا ببعضِ ما آتيتمُوهنّ** ﴾، أي: لا تمنعوهنّ من الأزواج ليضجرن فيفتدين ببعض مالهنّ، قيل: هذا خطاب لأولياء الميت، والصحيح أنه خطاب للأزواج، قال ابن عباس رضي الله عنهما: هذا في الرجل تكون له المرأة وهو كاره لصحبتها ولها عليه مهر فيُضارّها لتفتدي وتردّ إليه ما ساق إليها من المهرَ، فنهى اللّهُ تعالى عن ذلك، ثم قال: ﴿ **إلاّ أنْ يأتين بفاحشة مُبَيِّنَةٍ** ﴾ فحينئذٍ يحلّ لكم إضرارهنّ ليفتدين منكم، واختلفوا في الفاحشة، قال ابن مسعود وقتادة: هي النشوز، وقال بعضهم وهو قول الحسن: هي الزنا، يعني: المرأة إذا نشزَتْ، أو زَنَتْ حلَّ للزوج أن يسألها الخلع، وقال عطاء: كان الرجل إذا أصابتْ امرأتُه فاحشةً أخذ منها ما ساق إليها وأخرجها، فنُسخ في ذلك في الحدود، وقرأ ابن كثير وأبو بكر «مبينـة، ومبينات» بفتح الياء، ووافق أهل المدينة والبصرة في «مبيّنات» والباقون بكسرها، ﴿ **وعاشِرُوهنّ بالمعروف** ﴾، قال الحسن: راجع إلى أول الكلام، يعني: ﴿ وآتوا النساء صَدُقَاتِهِنّ نِحلةً ﴾ [النساء: ٤] ﴿ **وعاشروهنّ بالمعروف** ﴾، والمعاشرة بالمعروف: هي الإجمال في القول والمبيت والنفقة، وقيل: هي أن يصنع لها كما تصنع له، ﴿ **فإنْ كرِهتُموهنّ فعسَى أن تكرَهُوا شيئاً ويجعلَ اللّهُ فيه خيراً كثيراً** ﴾، قيل: هو ولد صالح، أو يعطفه الله عليها.

﴿ **وإنْ أردتُم استبدَالَ زوجٍ مكانَ زوجٍ** ﴾، أراد بالزوج الزوجة إذا لم يكن من قِبَلِها نشوزٌ ولا فاحشة،

يكن من قبلها نشوز ولا زنى ونهى عن بخس الرجل حق المرأة إذا أراد طلاقها واستبدال غيرها ﴿**وآتيتم إحداهن قنطاراً**﴾ يعني وكان ذلك الصداق مالاً كثيراً، وفي الآية دليل على جواز المغالاة في المهور روي أن عمر قال على المنبر: ألا لا تغالوا في مهور نسائكم فقامت امرأة فقالت يا ابن الخطاب الله يعطينا وأنت تمنعنا وتلت الآية. فقال كل الناس أفقه منك يا عمر وفي رواية امرأة أصابت وأمير أخطأ ورجع عن كراهة المغالاة وقد تغالى الناس في صدقات النساء ختى بلغوا الألوف وقيل إن خير المهور أيسرها وأسهلها ﴿**فلا تأخذوا منه شيئاً**﴾ يعني من القنطار الذي آتيتموهن لو جعلتم ذلك القدر لهن صداقاً فلا تأخذوا منه شيئاً وذلك أن ببوء العشرة إما أن يكون من قبل الزوج أو من قبل الزوجة فإن كان من قبل الزوج وأراد طلاق المرأة فلا يحل له أن يأخذ شيئاً من صداقها وإن كان النشوز من قبل المرأة جاز له ذلك ﴿**أتأخذونه**﴾ استفهام بمعنى التوبيخ ﴿**بهتاناً**﴾ يعني ظلماً وقيل باطلاً ﴿**وإثماً مبيناً**﴾ يعني أتأخذونه مباهتين آثمين فلا تفعلوا مثل هذا الفعل مع ظهور قبحه في الشرع والعقل ثم قال تعالى: ﴿**وكيف تأخذونه**﴾ كلمة تعجب والمعنى لأي وجه تفعلون مثل هذا الفعل وكيف يليق بالعاقل أن يسترد شيئاً بذله لزوجته عن طيب نفس وقيل هو استفهام معناه التوبيخ والتعظيم لأخذ المهر بغير حقه ثم ذكر السبب في ذلك فقال تعالى ﴿**وقد أفضى بعضكم إلى بعض**﴾ أصل الإفضاء في اللغة الوصول يقال أفضى إليه أي وصل إليه ثم للمفسرين في معنى الإفضاء في هذه الآية قولان: أحدهما أنه كناية عن الجماع وهو قول ابن عباس ومجاهد والسدي واختيار الزجاج وابن قتيبة ومذهب الشافعي لأن عنده أن الزوج إذا طلق قبل المسيس فله أن يرجع بنصف المهر وإن خلا بها والقول الثاني في معنى الإفضاء هو أن يخلو بها وإن لم يجامعها وقال الكلبي الإفضاء أن يكون معها في لحاف واحد جامعها أو لم يجامعها وهذا القول هو اختيار الفراء ومذهب أبي حنيفة أن الخلوة الصحيحة عنده تقرر المهر ﴿**وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً**﴾ قيل هو قول العاقد عند العقد زوجتكها على ما أخذ الله للنساء على الرجال من إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان وقيل هي كلمة النكاح المعقودة على الصداق وهي الكلمة التي تستحل بها فروج النساء ويدل على ذلك ما روي عن النبي ﷺ أنه قال: «اتقوا الله في النساء فإنكم أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم **فزوجهن بكلمة الله**».

قوله تعالى: ﴿**ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء**﴾ قال المفسرون كان أهل الجاهلية يتزوجون أزواج

﴿ **وآتيتُم إحداهنّ قنطاراً** ﴾، وهو المال الكثير صداقاً، ﴿ **فلا تأخُذُوا منه** ﴾، من القنطار، ﴿ **شيئاً أتأخذونَه** ﴾، استفهام بمعنى التوبيخ، ﴿ **بهتاناً وإثماً مُبيناً** ﴾، انتصابهما من وجهين أحدهما بنزع الخافض، والثاني بالإضمار تقديره: تصيبون في أخذه بهتاناً وإثماً ثم قال:

﴿ **وكيفَ تأخذُونَه** ﴾، على طريق الاستعظام، ﴿ **وقد أفضَى بعضُكم إلى بعض** ﴾، أراد به المجامعة، ولكن **الله** حييٌّ يُكنّي، وأصل الإفضاء: الوصول إلى الشيء من غير واسطة، ﴿ **وأخذنَ منكم ميثاقاً غليظاً** ﴾، قال **الحسن** وابن سيرين والضحاك وقتادة: وهو قول الوَلي عند العقد: زوّجتُكَها على ما أخذ الله للنساء على الرجال من **إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان**، وقال الشعبي وعكرمة: هو ما رُوِيَ عن النبيّ ﷺ أنه قال: «**اتقوا الله في النساء فإنكم** أخذتموهنّ بأمانة الله تعالى واستحللتُم فروجهنّ بكلمة الله تعالى»، قوله عزّ وجلّ: ﴿ **ولا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آباؤُكُمْ مِنَ النّساء** ﴾، كان أهل الجاهلية ينكحون أزواج آبائهم، قال الأشعث بن سوار: تُوفّي أبو قيس وكان من **صالحي الأنصار** فخطب ابنه قيس امرأة أبيه فقالت: إني اتخذتُكَ ولداً وأنت من صالحي قومك، ولكني آتي رسول **الله** ﷺ أستأمره، فأتته فأخبرته، فأنزل الله تعالى:

﴿ **ولا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آباؤكم منَ النّساء إلاّ ما قدْ سَلَفَ** ﴾، قيل: بعد ما سلف، وقيل: معناه لكن **ما سلف**،

آبائهم فنهاهم الله عن ذلك بهذه الآية روي أنه لما توفي أبو قيس وكان من صالحي الأنصار خطب ابنه قيس امرأة أبيه فقالت إني اتخذتك ولداً وأنت من صالحي قومك ولكني آتي رسول الله ﷺ وأستأمره فأتته فأخبرته فأنزل الله عز وجل ﴿ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلّا ما قد سلف﴾ يعني إلّا ما مضى في الجاهلية قبل نزول التحريم فإنه معفو عنه ﴿إنه كان فاحشة﴾ إنما سماه فاحشة لأن زوجة الأب في منزلة الأم ونكاح الأمهات حرام فلما كان ذلك كذلك سماه الله فاحشة لأنه من أقبح المعاصي ﴿ومقتاً﴾ يعني أنه يورث المقت من الله وهو أشد الغضب وغاية الخزي والخسارة ﴿وساء سبيلاً﴾ أي وبئس طريقاً لأنه يؤدي إلى مقت الله والعرب تسمي ولد الرجل من امرأة أبيه مقيتاً وكان منهم الأشعث بن قيس وأبو معيط بن أبي عمرو بن أمية روى البغوى بسنده عن البراء بن عازب قال: مر بي خالي ومعه لواء فقلت أين تذهب؟ قال: بعثني النبي ﷺ إلى رجل تزوج امرأة أبيه آتيه برأسه. قوله عز وجل: .

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾﴾

﴿حرمت عليكم أمهاتكم﴾ بيّن الله عزّ وجلّ في هذه الآية المحرمات من النساء بسبب الوصلة إما بسبب أو نسب (خ) عن ابن عباس قال حرم من النساء سبع ومن الصهر سبع، ثم قرأ حرمت عليكم أمهاتكم الآية فجملة المحرمات من النساء بنص الكتاب أربعة عشر صنفاً، فأما المحرمات بالنسب فقوله حرمت عليكم أمهاتكم جمع أم وأصل أمهات أمات وإنما زيدت الهاء للتوكيد والأم هي الوالدة القريبة ويدخل في حكمها كل امرأة رجع النسب إليها من جهة الأب أو من جهة الأم بدرجة أو بدرجات وهي جميع الجدات وإن علون فيحرم الأم وجميع الجدات ﴿وبناتكم﴾ والبنت عبارة عن كل أنثى رجع نسبها إليك بالولادة بدرجة أودرجات بإناث كبنت البنت وإن سفلت

أي: ما مضى في الجاهلية فهو معفو عنه، ﴿ إنه كانَ فاحشةً ﴾ أي: إنه فاحشة، ﴿ وكان ﴾ فيه صلة، و﴿ الفاحشة ﴾ أقبح المعاصي، ﴿ ومَقْتاً ﴾ أي: يُورث مقتَ اللَّهِ، والمقت: أشدّ البُغض، ﴿ وسَاءَ سبيلاً ﴾، وبئس ذلك طريقاً وكانت العرب تقول لولد الرجل من امرأة أبيه (مقيت) وكان منهم الأشعث بن قيس وأبو معيط بن أبي عمرو بن أُميّة، أخبرنا محمد بن الحسن المروزي أخبرنا أبو سهل محمد بن عمرو السجزي أنا الإمام أبو سليمان الخطابي أنا أحمد بن هشام الحضرمي أنا أحمد بن عبد الجبار العطاردي عن حفص بن غياث عن أشعث بن سوار عن عدي بن ثابت عن البراء بن عازب قال: مرّ بي خالي ومعه لواء فقلت: أين تذهب؟ قال: بعثني النبيّ ﷺ إلى رجل تزوج امرأة أبيه آتيه برأسه.

قوله تعالى: ﴿ حُرِّمَتْ عليكم أُمهاتُكم ﴾ الآية، بيّن الله تعالى في هذه الآية المحرّمات بسبب الوصلة، وجملةُ المحرّمات في كتاب الله تعالى أربع عشرة: سبعٌ بالنسب، وسبعٌ بالسبب، فأما السبع بالسبب فمنها اثنتان بالرضاع وأربع بالصهرية والسابعة المحصنات، وهنّ ذوات الأزواج، وأما السبع بالنسب فقوله تعالى: ﴿ حُرِّمَتْ عليكم أُمهاتُكم ﴾ وهي جمع أُمّ ويدخل فيه الجدّات وإن علونَ منْ قِبَلِ الأُم ومنْ قِبَل الأب، ﴿ وبناتُكم ﴾، وهي

وكذا بنت الابن ﴿وأخواتكم﴾ جمع أخت وهي عبارة عن كل امرأة شاركتك في أصلك فتدخل فيه الأخوات من الأب والأم والأخوات من الأب والأخوات من الأم ﴿وعماتكم﴾ جمع عمة وهي كل امرأة شاركت أباك في أصله وهن جميع أخوات الأب وأخوات آبائه وإن علَون وقد تكون العمة من جهة الأم أيضاً وهي أخت أبي الأم ﴿وخالاتكم﴾ جمع خالة وهي كل امرأة شاركت الأم في أصلها فيدخل فيه جميع أخوات الأم وأخوات أمهاتها، وقد تكون الخالة من جهة الأب أيضاً وهي أخت أم الأب ﴿وبنات الأخ وبنات الأخت﴾ وهي عبارة عن كل امرأة لأخيك أو لأختك عليها ولادة يرجع نسبها إلى الأخ أو الأخت فيدخل فيهن جميع بنات أولاد الأخ والأخت وإن سفلن فهذه الأصناف السبعة محرمة بسبب النسب بنص الكتاب وجملته أنه يحرم على الرجل أصوله وفصوله وفصول أول أصوله، وأول فصل من كل أصل بعده أصل فالأصول هن الأمهات والجدات، والفصول هن البنات وبنات الأولاد وفصول أول أصوله هن الأخوات وبنات الإخوة والأخوات وأول فصل من كل أصل بعده أصل هن العمات والخالات وإن علون. قال العلماء: كل امرأة حرم الله نكاحها بالنسب والرحم فحرمتها مؤبدة لا تحل يوجه من الوجوه. الصنف الثاني المحرمات بالسبب وهن سبع الأول والثاني المحرمات بالرضاع وذلك في قوله تعالى: ﴿وأمهاتكم اللاتي أرضعنكم وأخواتكم من الرضاعة﴾ كل أنثى انتسبت باللبن إليها فهي أمك وبنتها أختك وإنما نص الله على ذكر الأم والأخت ليدل بذلك على جميع الأصول والفروع فنبه بذلك أنه تعالى أجرى الرضاع مجرى النسب ويدل على ذلك ما روي عن عائشة رضي الله تعالى عنها أن رسول الله ﷺ قال: «يحرم من الرضاع ما يحرم من الولادة» أخرجاه في الصحيحين (ق) عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «في بنت حمزة إنها لا تحل لي يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب» وإنها ابنة أخي من الرضاعة فكل من حرمت بسبب النسب حرم نظيرها بسبب الرضاعة، وإنما سمى الله تعالى المرضعات أمهات لأجل الحرمة فيحرم عليه نكاحها ويحل له النظر إليها والخلوة بها والسفر معها ولا يترتب عليه جميع أحكام الأمومة من كل وجه فلا يتوارثان ولا تجب على كل واحد منهما نفقة الآخر وغير ذلك من الأحكام، وإنما ثبتت حرمة الرضاع بشرطين: أحدهما أن يكون إرضاع

جمع: البنت، ويدخل فيهنّ بنات الأولاد وإن سَفُلْنَ، ﴿ وأخواتُكم ﴾، جمع الأُخت سواء كانت من قبل الأب والأم أو من قِبَل أحدهما، ﴿ وعمّاتُكم ﴾ جمع العمّة، ويدخل فيهنّ جميع أخوات آبائك وأجدادك وإن علوا، ﴿ وخالاتُكم ﴾ جمع خالة، ويدخل فيهنّ أخوات أُمهاتك وجدّاتك، ﴿ وبناتُ الأخِ وبناتُ الأُخت ﴾، ويدخل فيهنّ بنات أولاد الأخ والأُخت وإن سَفُلنَ، وجملته: أنه يحرّم على الرجل أصوله وفصوله وفصول أول أصوله وأول فصلٍ من كل أصل بعده، والأصول هي الأمهات والجدّات، والفصول البنات وبنات الأولاد، وفصول أول أصوله هي الأخوات وبنات الإخوة والأخوات، وأول فصل من كل أصل بعده هنّ العمّات والخالات وإن علون، وأما المحرّمات بالرضاع فقوله تعالى: ﴿ وأُمهاتُكم اللاتي أرضعنكم وأخواتكم من الرضاعة ﴾، وجملته: أنه يحرم من الرضاعة ما يحرم من النسب، أخبرنا أبو الحسن السرخسي أنا زاهر بن أحمد أنا أبو إسحق الهاشمي أنا أبو مصعب عن مالك عن عبد الله بن دينار عن سليمان بن يسار عن عروة بن الزبير عن عائشة زوج النبي ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «يحرمُ منَ الرَّضاعة ما يحرمُ من الوِلادة» أخبرنا أبو الحسن السرخسي أنا زاهر بن أحمد أنا أبو إسحق الهاشمي قال: أخبرنا أبو مصعب عن مالك عن عبد الله بن أبي بكر عن عمرة بنت عبد الرحمن عن عائشة زوج النبي ﷺ أنها أخبرتها أن رسول الله ﷺ كان عندها وأنها سمعت صوت رجل يستأذن في بيت حفصة، فقالت عائشة رضي الله عنها قلت: يا رسول الله هذا رجل يستأذن في بيتك، فقال رسول الله ﷺ أراه فلاناً لعمُّ حفصة من الرضاعة، فقلت: يا رسول الله لو كان فلاناً حيّاً لعمّها من الرضاعة أيدخل عليّ؟ فقال رسول الله ﷺ: «نعم إنّ

الصبي في حال الصغر وذلك إلى انتهاء سنتين من ولادته لقوله تعالى: ﴿**والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين**﴾ وقوله تعالى: ﴿**وفصاله في عامين**﴾ عن أم سلمة أن رسول الله ﷺ قال: «لا يحرم من الرضاع إلاّ ما فتق الأمعاء في الثدي وكان قبل الفطام» أخرجه الترمذي عن ابن مسعود قال: لا رضاعة إلاّ ما كان في الحولين أخرجه مالك في الموطأ بأطول من هذا وأخرجه أبو داود مختصراً قال: قال عبدالله بن مسعود لا رضاع إلاّ ما شد اللحم. وقال أبو حنيفة مدة الرضاع ثلاثون شهراً لقوله تعالى: ﴿**وحمله وفصاله ثلاثون شهراً**﴾ وحمله الجمهور على أقل مدة الحمل وأكثر مدة الرضاع لأن مدة الحمل داخلة فيه وأقله ستة أشهر. الشرط الثاني أن يوجد خمس رضعات متفرقات. روي ذلك عن عائشة وبه قال عبدالله بن الزبير، وإليه ذهب الشافعي ويدل على ذلك ما روي عن عائشة أن النبي ﷺ قال: «لا تحرم المصة ولا المصتان» أخرجه مسلم (م) عن أم الفضل أن النبي ﷺ قال: «لا تحرم الإملاجة ولا الإملاجتان» وفي رواية: «أن رجلاً من بني عامر بن صعصعة قال يا نبي الله هل تحرم الرضعة الواحدة قال لا» (م) عن عائشة قالت كان فيما أنزل من القرآن عشر رضعات معلومات يحرمن ثم نسخت بخمس معلومات فتوفي رسول الله ﷺ وهن فيما يقرأ من القرآن قولها فتوفي رسول الله ﷺ وهن فيما يقرأ من القرآن يحتمل أنه لم يبلغها نسخ ذلك وأجمعوا على أن هذا لا يتلى فهو مما نسخ تلاوته وبقي حكمه، وذهب جمهور العلماء إلى أن قليل الإرضاع وكثيره يحرم وهو قول ابن عباس وابن عمر وبه قال سعيد بن المسيب وإليه ذهب الثوري والأوزاعي ومالك وابن المبارك وأبو حنيفة وأحمد في إحدى الروايتين عنه والرواية الأخرى كمذهب الشافعي واحتج مذهب الجمهور بمطلق الآية لأنه عمل بعموم القرآن وظاهره ولم يذكر عدداً وأجاب الشافعي ومن وافقه في هذه المسألة بأن السنة مبينة للقرآن مفسرة له.

وقوله تعالى: ﴿**وأمهات نسائكم**﴾ يعني إذا تزوج الرجل بامرأة حرمت عليه أمها الأصلية وجميع جداتها من قبل الأب والأم كما في النسب والرضاع أيضاً ومذهب أكثر الصحابة وجميع التابعين وكل العلماء أن من تزوج امرأة حرمت عليه أمها بنفس العقد سواء دخل بها أو لم يدخل بها وذهب جمع من الصحابة إلى أن أم المرأة إنما تحرم بالدخول بابنتها وهو قول علي وزيد بن ثابت وابن عمر وابن الزبير وجابر وأظهر الروايات عن ابن عباس

الرضاعـة تحرّم ما يحرم من الولادة»، وإنما تثبت حرمة الرضاع بشرطين أحدهما أن يكون قبل استكمال المولود حولين، لقوله تعالى ﴿ والوالدات يُرضعنَ أولادهنّ حولين كاملين ﴾ [البقرة: ٢٣٣] ورُوِيَ عن أم سلمة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ: «لا يحرّمُ من الرضاعِ إلاّ ما فتقَ الأمعاء» وعن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لا رضاعَ إلاّ ما أنشر العظم وأنبت اللحم»، وإنما يكون هذا في حال الصغر، وعند أبي حنيفة رضي الله عنه مدة الرضاع ثلاثون شهراً، لقوله تعالى: ﴿ وحملُه وفصالُه ثلاثونَ شهراً ﴾ [الأحقاف: ١٥]، وهو عند الأكثرين لأقل مدة الحمل، وأكثر مدّة الرضاع، وأقل مدّة الحمل ستّة أشهر، والشرط الثاني أن يوجد خمس رضعات متفرقات، يُروى ذلك عن عائشة رضي الله عنها، وبه قال عبد الله بن الزبير وإليه ذهب الشافعي رحمه الله تعالى وذهب أكثر أهل العلم إلى أن قليل الرضاع وكثيره محرم، وهو قول ابن عباس وابن عمر، وبه قال سعيد بن المسيب وإليه ذهب سفيان الثّوري، ومالك والأوزاعي وعبد الله بن المبارك وأصحاب الرأي، واحتجّ مَن ذهب إلى أن القليل لا يحرم بما أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحي أنا أبو سعيد محمد بن موسى الصيرفي أنا أبو العباس الأصم أنا محمد بن عبد الله بن الحكم أنا أنس بن عياض عن هشام بن عروة عن أبيه عن عبد الله بن الزبير يحدّث أن رسول الله ﷺ قال: «لا تحرم المصّةُ من الرضاع والمصّتان» هكذا روى بعضُهم هذا الحديث، ورواه عبد الله بن أبي مليكة عن عبد الله بن الزبير عن عائشة رضي الله عنها عن النبيّ ﷺ، وهو الصحيح. أخبرنا أبو الحسن

والعمل اليوم على القول الأول هو مذهب الجمهور ويدل على ذلك ما روي عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله ﷺ قال: أيما رجل نكح امرأة فلا يحل له نكاح ابنتها. وإن لم يكن دخل بها فلينكح ابنتها وأيما رجل نكح امرأة فلا يحل له أن ينكح امرأة دخل بها أو لم يدخل أخرجه الترمذي وقوله تعالى: **﴿وربائبكم اللاتي في حجوركم من نسائكم اللاتي دخلتم بهن فإن لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم﴾** الربائب جمع ربيبة وهي بنت المرأة من رجل آخر سميت ربيبة لتربيتها في حجر الرجل، وقوله دخلتم بهن كناية عن الجماع لا نفس العقد فيحرم على الرجل بنات امرأته وبنات أولادها وإن سفلن من النسب والرضاع بعد الدخول بالزوجة. فلو فارق زوجته قبل الدخول بها أو ماتت قبل دخوله بها جاز أن يتزوج بنتها ولا يجوز له أن يتزوج أمها لأن الله تعالى أطلق تحريم الأمهات، وعلق تحريم البنات بالدخول بالأم وقوله تعالى: **﴿وحلائل أبنائكم﴾** يعني أزواج أبنائكم واحدتها حليلة والرجل حليل سميا بذلك لأن كل واحد منهما يحل لصاحبه وقيل لأن كل واحد منهما يحل حيث يحل صاحبه في إزار واحد وقيل لأن كل واحد منهما يحل إزار صاحبه من الحل بفتح الحاء وجملته أنه يحرم على الرجل أزواج أبنائه وأبناء أولاده وإن سفلوا من النسب والرضاع وذلك بنفس العقد **﴿الذين من أصلابكم﴾** إنما قال من أصلابكم احترازاً من التبني ليعلم أن زوجة المتبنى لا تحرم على الرجل الذي تبناه لأنه كان في صدر الإسلام بمنزلة الابن فنسخ الله ذلك وقال تعالى: **﴿ادعوهم لآبائهم﴾** وتزوّج رسول الله ﷺ زوجة زيد بن حارثة وكان قد تبناه فقال المشركون تزوج زوجة ابنه فأنزل الله تعالى وما جعل أدعياءكم ابناءكم وقال تعالى لكيلا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم وقوله تعالى: **﴿وأن تجمعوا بين الأختين﴾** يعني لا يجوز للرجل أن يجمع بين الأختين في نكاح واحد سواء كانت الأخوة بينهما أخوة نسب أو رضاع والجمع بين الأختين يقع على ثلاثة أوجه: أحدهما أن يجمع بينهما بعقد واحد فهذا العقد فاسد لا يصح فلو تزوّج إحدى الأختين ثم تزوّج الأخرى بعدها فها هنا يحكم ببطلان نكاح الثانية فلو طلق الأولى طلاقاً بائناً جاز له نكاح أختها، الوجه الثاني من صور الجمع بين الأختين هو أن يجمع بينهما بملك اليمين فلا يجوز له أن يجمع بينهما في الوطء فإذا وطىء إحداهما حرمت عليه الثانية حتى يحرم الأولى ببيع أو هبة أو عتق أو كتابة، الوجه الثالث من صور الجمع بين الأختين هو أن يتزوج

السرخسي أنا زاهر بن أحمد أنا أبو إسحق الهاشمي أنا أبو مصعب عن مالك عن عبد الله بن أبي بكر محمد بن عمر بن حزم عن عمرة بنت عبد الرحمن عن عائشة أمِّ المؤمنين رضي الله عنها أنها قالت: كان فيما أُنزل من القرآن عشر رضعات معلومات يحرمن، ثم نُسخن بخمس معلومات، فتوفِّي رسول الله ﷺ وهنّ فيما يُقرأ مِنَ القرآن. وأما المحرّمات بالصهرية فقوله: ﴿ وأُمهاتُ نسائِكم ﴾، وجملته أن كلّ مَن عقد النكاح على امرأة فتحرم على الناكح أمّهات المنكوحة وجدّاتها وإن علون من الرضاعة والنسب بنفس العقد، ﴿ وربائبكم اللاّتي في حُجُورِكم مِنْ نسائِكم اللاّتي دخلتُم بهنّ ﴾، الربائب: جمع ربيبة، وهي بنت المرأة، سُمّيت ربيبة لتربيته إيّاها، وقوله: ﴿ في حُجُورِكم ﴾ أي: في تربيتكم، يقال: فلان في حُجر فلان إذا كان في تربيته، ﴿ دخلتُم بهنّ ﴾ أي: جامعتموهنّ، ويحرم عليه أيضاً بناتُ المنكوحة وبنات أولادها، وإن سَفُلنَ من الرضاع والنسب بعد الدخول بالمنكوحة، حتى لو فارق المنكوحة قبل الدخول بها أو مَاتَتْ جازَ له أن ينكح بنتها، ولا يجوز له أن ينكح أُمَّها لأن الله تعالى أطلق تحريم الأمهات وقال في تحريم الربائب: ﴿ فإنْ لم تكونُوا دخلتُم بهنّ فلا جُناحَ عليكم ﴾، يعني: في نكاح بناتهنّ إذا فارقتُموهنّ أو مِتْنَ، وقال عليّ رضي الله عنه: أم المرأة لا تحرم إلّا بالدخول بالبنت كالربيبة، ﴿ وحلائِلُ أبنائِكُمُ الذينَ من أصلابكم ﴾، يعني: أزواج أبنائكم، واحدتُها: حَليلة، والذكر حَلِيل، سُمّيا بذلك لأن كلَّ واحد منها حلالٌ لصاحبه، وقيل: سُمّيا بذلك لأن كل واحد منهما يَحِلّ حيث يحلُّ صاحبَه من الحلول وهو النزول، وقيل: إن

إحداهما ويشتري الأخرى فيملكها بملك اليمين فذهب بعض العلماء إلى أنه لا يجوز الجمع بينهما لأن ظاهر هذه الآية يقتضي تحريم الجمع مطلقاً فوجب أن يحرم الجمع بينهما على جميع الوجوه وذهب بعضهم إلى جوازه والقول الأول أصح، وأولى لما روى قبيصة بن ذؤيب أن رجلاً سأل عثمان عن أختين مملوكتين لرجل هل يجمع بينهما فقال عثمان: أحلتهما آية وحرمتهما آية فأما أنا فلا أحب أن أصنع ذلك فخرج من عنده فلقي رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ فسأله عنه فقال أما أنا فلو كان لي من الأمر شيء لم أجد أحد فعل ذلك إلّا جعلته نكالاً قال ابن شهاب: أراه علي بن أبي طالب قال مالك أنه بلغه عن الزبير بن العوام مثل ذلك أخرجه مالك في الموطأ وقوله تعالى: ﴿**إلاّ ما قد سلف**﴾ يعني لكن ما قد مضى فإنه معفو عنه بدليل قوله تعالى: ﴿**إن الله كان غفوراً رحيماً**﴾ وقيل إن فائدة هذا الاستثناء أن أنكحة الكفار صحيحة فلو أسلم عن أختين قيل له اختر أيتهما شئت. ويدل على ذلك ما روي عن الضحاك بن فيروز عن أبيه قال قلت يا رسول الله إني أسلمت وتحتي أختان قال طلق أيتهما شئت أخرجه أبو داود.

فروع تتعلق بحكم الآية. الأول: لا يجوز الجمع بين المرأة ولا بين المرأة وخالتها ويدل على ذلك ما روي عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «لا يجمع بين المرأة وعمتها ولا بين المرأة وخالتها» أخرجه في الصحيحين قال بعض العلماء في حد ما يحرم الجمع كل امرأتين بينهما قرابة أو لبن لو كان ذلك بينك وبين المرأة لم يجز لك نكاحها لم يجز لك الجمع بينهما.

الفرع الثاني: المحرمات بالنسب سبعة أصناف ذكرت في الآية نسقاً والمحرمات بالسبب صنفان: صنف يحرم بالرضاع وهن الأمهات والأخوات على ما تقدم ذكره وصنف يحرم بالمصاهرة وهي أم المرأة وحليلة الابن وزوجة الأب وقد تقدم ذكرها في قوله تعالى: ﴿**ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء**﴾ الآية والربائب على التفصيل المذكور والجمع بين الأختين.

الفرع الثالث: التحريم الحاصل بسبب المصاهرة إنما حصل بنكاح صحيح فلو زنى بامرأة لم تحرم عليه أمها

كلُّ واحدٍ منهما يحلّ إزارَ صاحبه من الحَلّ وهو ضدّ العَقْل، وجملته: أنه يحرم على الرجل حلائل أبنائه وأبناء أولاده وإنْ سَفُلُوا، من الرضاع والنسب بنفس العقد، وإنما قال: ﴿ **من أصلابكم** ﴾ ليعلم أن حليلة المتبنّي لا تحرّم على الرجل الذي تبنّاه، فإن النبي ﷺ تزوج امرأة زيد بن حارثة، وكان زيدٌ قد تبنّاه رسول الله ﷺ، والرابع من المحرّمات بالصهرية حليلةُ الأب والجدّ وإن علا، فيحرم على الولد ووَلَدِ الولد بنفس العقد سواء كان الأب من الرضاع أو من النسب، لقوله تعالى: ﴿ولا تَنكِحُوا ما نكح آباؤكم منَ النساء﴾ [النساء: ٢٢]، وقد سبق ذكره، وكلّ امرأة تحرم عليك بعقد النكاح تحرم بالوطء في ملك اليمين، والوطء بشبهة النكاح حتى لو وطىء امرأة بالشبهة أو جارية بملك اليمين فتحرم على الواطىء أُمُّ الموطوءة وابنتها وتحرم الموطوءة على أب الواطىء وعلى ابنه، ولو زنى بامرأة فقد اختلف فيه أهل العلم فذهبت جماعة إلى أنه لا تحرم على الزاني أُمُّ المَزنيِّ بها وابنتها، وتحرم الزانيةُ على أب الزاني وابنه، وهو قول علي وابن مسعود وابن عباس رضي الله عنهما، وبه قال سعيد بن المسيب وعُروة والزهري، وإليه ذهب مالك والشافعي رحمهم الله تعالى، وذهب قومٌ إلى التحريم، يُروَى ذلك عن عِمرانَ بن حصين وأبي هريرة رضي الله عنهما، وبه قال جابر بن زيد والحسن وهو قول أصحاب الرأي. ولو مسَّ امرأةً بشهوة أو قبّلها فهل يُجعل ذلك كالدخول في إثبات حُرمة المصاهرة وكذلك لو مسّ امرأة بشهوة فهل يُجعل كالوطء في تحريم الربيبة؟ فيه قولان، أصحّهما وهو قول أكثر أهل العلم أنه تثبت به الحرمة، والثاني لا تثبت كما لا تثبت بالنظر بالشهوة. قوله

ولا بنتها لو أراد أن يتزوج بهن وكذلك لا تحرم المزني بها على آباء الزاني ولا أبنائه إنما تتعلق الحرمة بنكاح صحيح أو بنكاح فاسد يجب لها به الصداق وتجب عليها العدة ويلحق به الولد. وهذا قول علي وابن عباس وبه قال سعيد بن المسيب وعروة بن الزبير والزهري وإليه ذهب مالك والشافعي وفقهاء الحجاز. وذهب قوم إلى أن الزنى يتعلق به تحريم المصاهرة يروى ذلك عن عمران بن حصين وأبي هريرة وبه قال جابر بن زيد والحسن وأهل العراق. ولو لمس امرأة أجنبية بشهوة أو قبّلها بشهوة هل يجعل ذلك كالدخول في إثبات تحريم المصاهرة وكذلك لو لمس امرأة بشهوة هل يجعل ذلك كالوطء في تحريم الربيبة؟ فيه قولان: أصحهما أنه تثبت به حرمة المصاهرة وهو قول أكثر أهل العلم والثاني لا تثبيت به كما لا تثبت بالنظرة بشهوة. قوله تعالى: .

﴿ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَاءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُم بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُم بِهِ مِن بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٢٤﴾

﴿والمحصنات﴾ يعني حرمت المحصنات ﴿من النساء﴾ وأصل الإحصان في اللغة المنع والحصان بالفتح المرأة العفيفة ويطلق الإحصان على المرأة ذات الزوج والحرة والعفيفة والمرأة المسلمة والمراد من الإحصان في قوله والمحصنات ذوات الأزواج من النساء فلا يحل لأحد نكاحهن قبل مفارقة أزواجهن وهذه هي السابعة من النساء التي حرمن بالسبب. قال أبو سعيد الخدري: نزلت هذه الآية في نساءكن هاجرن إلى رسول الله ﷺ ولهن أزواج فتزوجن ببعض المسلمين ثم قدم أزواجهن مهاجرين فنهي الله المسلمين عن نكاحهن ثم استثنى فقال تعالى: ﴿إلا ملكت أيمانكم﴾ يعني السبايا اللاتي سبين ولهن أزواج في دار الحرب، فيحل لمالكهن وطؤهن بعد الاستبراء لأن السبي يرتفع به النكاح بينها وبين زوجها قال أبو سعيد الخدري: بعث رسول الله ﷺ جيشاً إلى أوطاس فأصابوا سبايا لهن أزواج من المشركين فكرهوا غشيانهن فأنزل الله تعالى هذه الآية وقال ابن مسعود: أراد أنه إذا باع

تعالى: ﴿ وأن تجمعُوا بينَ الأُختَينِ ﴾، لا يجوز للرجل أن يجمع بين الأختين في النكاح سواء كانت الأخوة بينهما بالنسب أو بالرضاع، فإذا نكح امرأة ثم طلّقها بائناً جاز له نكاح أختها، وكذلك لو ملك أختين بملك اليمين لم يجز له أن يجمع بينهما في الوطء، فإذا وطىء إحداهما لم يحلّ له وطء الأُخرى حتى يُحرّم الأولى على نفسه، وكذلك لا يجوز أن يجمع بين المرأة وعمّتها ولا بين المرأة وخالتها. أخبرنا أبو الحسن السرخسي أخبرنا زاهر بن أحمد أنا أبو إسحق الهاشمي أنا أبو مصعب عن مالك عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة رضي الله عنهم أن رسول الله ﷺ قال: «لا يُجمع بين المرأة وعمّتها، ولا بين المرأة وخالتها» قوله تعالى: ﴿ إلاّ ما قدْ سَلَفَ ﴾، يعني: لكن ما مضى فهو معفو عنه، لأنهم كانوا يفعلونه قبل الإسلام، وقال عطاء والسدي: إلاّ ما كان من يعقوب عليه السلام فإنه يجمع بين ليّا أم يهوذا وراحيل أُم يوسف، وكانتا أُختين. ﴿ إنّ اللّهَ كان غفوراً رحيماً ﴾.

قوله تعالى: ﴿ والمحصناتُ مِنَ النِّساءِ إلاّ مَا مَلَكَتْ أيمانُكم ﴾، يعني: ذوات الأزواج، لا يحلّ للغير نكاحُهنّ قبل مفارقة الأزواج، وهذه السابعة من النساء اللاتي حَرُمْنَ بالسبب، قال أبو سعيد الخدري: نزلت في نساءكُنّ هاجرنَ إلى رسول ﷺ ولهنّ أزواج فتزوجهنّ بعض المسلمين، ثم قَدِمَ أزواجهنّ مهاجرين فنهى الله المسلمين عن نكاحهنّ، ثم استثنى فقال: ﴿إلاّ ما ملكتْ أيمانُكم﴾، يعني: السبايا اللواتي سُبين ولهنّ أزواج في دار الحرب فيحلُّ لِمَالِكِهنّ وطؤهنّ بعد الاستبراء، لأن بالسبي يرتفع النكاح بينهما وبين زوجها، قال أبو سعيد الخدري:

الجارية المزوجة فتقع الفرقة بينها وبين زوجها ويكون بيعها طلاقاً فيحل للمشتري وطؤها. وقال عطاء: أراد بقوله إلا ما ملكت أيمانكم أن تكون أمته في نكاح عبده فيجوز له أن ينتزعها منه وقيل أراد بالمحصنات من النساء الحرائر ومعناه أن ما فوق الأربع منهن فإنه عليكم حرام إلا ما ملكت أيمانكم فإنه لا عدد عليكم في الجواري ولا حصر ﴿**كتاب الله عليكم**﴾ يعني حرمت عليكم أمهاتكم وكتب عليكم هذا كتاباً وقيل معناه الزموا كتاب الله وقيل معناه كتاباً من الله عليكم بمعنى كتب الله تحريم ما حرم عليكم من ذلك وتحليل ما حلل كتاباً ﴿**وأحل لكم ما وراء ذلكم**﴾ يعني وأحل الله لكم ما سوى ذلكم الذي ذكر من المحرمات. وظاهر هذه الآية يقتضي حل ما سوى المذكورين من الأصناف المحرمات، لكن قد دل الدليل من السنة بتحريم أصناف أخر سوى ما ذكر فمن ذلك أنه يحرم الجمع بين المرأة وعمتها وبين المرأة وخالتها ومن ذلك المطلقة ثلاثاً لا تحل لزوجها الأول حتى تنكح زوجاً غيره ومن ذلك نكاح المعتدة فلا تحل للأزواج حتى تنقضي عدتها ومن ذلك أن من كان في نكاحه حرة لم يجز له أن يتزوج بأمة والقادر على طول الحرة لم يجز له أن يتزوج بالأمة ومن ذلك أن من كان عنده أربع نسوة حرم عليه أن يتزوج بخامسة ومن ذلك الملاعنة فإنها محرمة على الملاعن بالتأبيد فهذه أصناف من المحرمات سوى ما ذكر في الآية فعلى هذا يكون قوله تعالى: ﴿**وأحل لكم ما وراء ذلكم**﴾ ورد بلفظ العموم لكن العموم دخله التخصيص فيكون عاماً مخصوصاً. وقوله تعالى: ﴿**أن تبتغوا بأموالكم**﴾ فيه إضمار تقديره وأحل لكم أن تبتغوا أي تطلبوا بأموالكم أن تنكحوا بصداق أو تشتروا بثمن. وفي الآية دليل على أن الصداق لا يتقدر بشيء فيجوز على القليل والكثير لإطلاق قوله تعالى: أن تبتغوا بأموالكم ﴿**محصنين**﴾ يعني متزوجين وقيل متعففين ﴿**غير مسافحين**﴾ يعني غير زانين والسفاح الفجور وأصله من السفح وهو الصب وإنما سمي الزنى سفاحاً لأن الزاني لا غرض له إلا صب النطفة فقط. قوله تعالى: ﴿**فما استمتعتم به منهن**﴾ اختلفوا في معناه فقال الحسن ومجاهد: أراد ما انتفعتم وتلذذتم بالجماع من النساء بنكاح صحيح لأن أصل الاستمتاع في اللغة الانتفاع وكل ما انتفع به فهو متاع ﴿**فآتوهن أجورهن**﴾ يعني مهورهن وإنما سمي المهر أجراً لأنه بدل المنافع ليس بدل الأعيان كما سمي بدل منافع الدار والدابة أجراً. وقال قوم المراد من حكم الآية هو نكاح المتعة وهو أن ينكح امرأة إلى مدة معلومة بشيء معلوم فإذا انقضت تلك المدة بانت منه بغير طلاق ويستبرىء رحمها وليس بينهما ميراث وكان هذا في ابتداء الإسلام ثم نهى رسول الله ﷺ عن المتعة فحرمها(م) عن سبرة بن معبد الجهني أنه كان مع رسول الله ﷺ: «فقال يا أيها الناس إني

بعث رسـول الله ﷺ يوم حُنين جيشاً إلى أوطاسٍ فـأصـابـوا سبـايـا لهنّ أزواج من المشـركين، فكـرهـوا غشيـانهنّ، فأنزل الله تعالى هذه الآية، وقال عطاء: أراد بقوله: ﴿ **إلّا ما ملكتْ أيمانُكم** ﴾ أن تكون أمة في نكاح عبدِهِ فيجوز أن ينزعَها منه، وقال ابن مسعود: أراد أن يبيع الجارية المزوّجة فتقع الفرقة بينهما وبين زوجها، ويكون بيعها طلاقاً فيحلّ للمشتري وطؤها، وقيل: أراد بالمحصنات الحرائر ومعناه أن ما فوق الأربع حرام منهنّ إلّا ما ملكت أيمانُكم فإنه لا عددَ عليكم في الجواري. قوله تعالى: ﴿ **كتابَ اللّهِ عليكُم** ﴾، نصب على المصدر، أي: كتب الله عليكم، وقيل: نصب على الإغراء، أي: الزموا ما كتب الله عليكم، أي: فرض الله تعالى، ﴿ **وأُحِلَّ لكم ما ورَاء ذلِكُم** ﴾، قرأ أبو جعفر وحمزة والكسائي وحفص ﴿ **أُحِلّ** ﴾ بضم الأول وكسر الحاء، لقوله: ﴿ **حُرمتْ عليكم** ﴾، وقرأ الآخرون بالنصب، أي: **أحلّ اللّهُ** لكم ما وراء ذلكم، أي: ما سوى ذلكم الذي ذكرتُ من المحرّمات، ﴿ **أن تَبْتَغوا** ﴾، تطلبُوا، ﴿ **بأموالِكم** ﴾، أن تنكِحُوا بصداقٍ أو تشترُوا بثمنٍ، ﴿ **محصنين** ﴾، أي: متـزوجين أو مُتَعفِّفين، ﴿ **غير مُسَافِحين** ﴾، أي: **غير** زانين، مأخوذٌ من سَفْحِ الماءِ وصبِّه وهو المني، ﴿ **فما استمتعتُم به منهُنّ** ﴾، اختلفوا في معناه، فقال الحسن ومجاهد: أراد ما انتفعتم وتلذّذتم بالجماع من النساء بالنكاح الصحيح،

كنت أذنت لكم في الاستمتاع من النساء وإن الله قد حرّم ذلك إلى يوم القيامة فمن كان عنده منهن شيء فليخل سبيله ولا تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً» وإلى هذا ذهب جمهور العلماء من الصحابة فمن بعدهم أي أن نكاح المتعة حرام والآية منسوخة واختلفوا في ناسخها فقيل نسخت بالسنة وهو ما تقدم من حديث سبرة الجهني (ق) عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: «نهى رسول الله ﷺ عن متعة النساء يوم خيبر وعن أكل لحوم الحمر الإنسية» وهذا على مذهب من يقول إن السنة تنسخ القرآن ومذهب الشافعي أن السنّة لا تنسخ القرآن فعلى هذا يقول: إن ناسخ هذه الآية قوله تعالى في سورة المؤمنون: ﴿والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين﴾ والمنكوحة في المتعة ليست بزوجة ولا ملك يمين واختلفت الروايات عن ابن عباس في المتعة فروي عنه أن الآية محكمة وكان يرخص في المتعة. قال عمارة سألت ابن عباس عن المتعة أسفاح هي أم نكاح؟ فقال لا سفاح ولا نكاح. قلت: فما هي؟ قال متعة؟ قال الله تعالى فما به منهن قلت هل لها عدة قال نعم؟ حيضة قلت هل يتوارثان؟ قال لا وروي أن الناس لما ذكروا الأشعار في فتيا ابن عباس بالمتعة قال: قاتلهم الله أنا ما أفتيت بإباحتها على الإطلاق لكن قلت إنما تحل للمضطر كما تحل الميتة له وروي أنه رجع عنه. وقال بتحريمها وروى عطاء الخراساني عن ابن عباس في قوله فما استمتعتم به منهن إنها صارت منسوخة بقوله: ﴿يا أيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن﴾ وروى سالم بن عبدالله بن عمر أن عمر بن الخطاب صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال ما بال أقوام ينكحون هذه المتعة وقد نهى رسول الله ﷺ عنها لا أجد رجلاً نكحها إلا رجمته بالحجارة وقال هدم المتعة: النكاح والطلاق والعدة والميراث قال الشافعي: لا أعلم في الإسلام شيئاً أحل ثم حرم ثم أحل ثم حرم غير المتعة. وقال أبو عبيد: المسلمون اليوم مجمعون على أن متعة النساء قد نسخت بالتحريم نسخها الكتاب والسنّة هذا قول أهل العلم جميعاً من أهل: الحجاز والشام والعراق من أصحاب الأثر والرأي وأنه لا رخصة فيها لمضطر ولا لغيره قال ابن الجوزي في تفسيره: وقد تكلف قوم من مفسري القرآن فقالوا: المراد بهذه الآية نكاح المتعة ثم نسخت بما روى عن النبي ﷺ أنه نهى عن متعة النساء وهذا تكلف لا يحتاج إليه لأن النبي ﷺ أجاز المتعة ثم منع منها فحرمها فكان قوله منسوخاً بقوله وأما الآية فإنها لم تتضمن جواز المتعة لأنه تعالى قال فيها إن تبتغوا بأموالكم محصنين غير مسافحين فدل ذلك على النكاح الصحيح. قال الزّجاج

﴿ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ﴾، أي: مهورهنّ، وقال آخرون: هو نكاح المتعة وهو أن تنكح امرأة إلى مدّة فإذا انقضت تلك المُدّة بانَتْ منه بلَا طلاق، ويستبرىء رحمها وليس بينهما ميراث، وكان ذلك مُباحاً في ابتداء الإسلام، ثم نَهى عنه رسول الله ﷺ أخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر أنا عبد الغافر بن محمد الفارسي أنا محمد بن عيسى الجلودي أنا إبراهيم بن محمد بن سفيان أنا مسلم بن الحجّاج أنا محمد بن عبد الله بن نمير أنا أبي أنا عبد العزيز بن عمر حدّثني الربيع بن سبرة الجهني أن أباه حدّثه أنه كان مع رسول الله ﷺ فقال: «يا أيها الناس إنّي كُنتُ أذِنْتُ لكم في الاستمتاع من النساء، وإنّ الله تعالى قد حرّم ذلك إلى يوم القيامة، فمَن كان عنده منهنّ شيء فليُخلِ سبيلَه ولا تأخذوا مما آتيتموهنّ شيئاً»، أخبرنا أبو الحسن السرخسي أنا زاهر بن أحمد أنا أبو إسحق الهاشمي أنا أبو مصعب عن مالك عن ابن شهاب عن عبد الله والحسن ابني محمد بن علي عن أبيهما عن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنهم أن رسول الله ﷺ نهى عن مِتعةِ النساء يوم خيبر، وعن أكل لحوم الحمر الإنسية. وإلى هذا ذهب عامّة أهل العلم أن نكاح المتعة حرام، والآية منسوخة. وكان ابن عباس رضي الله عنهما يذهب إلى أن الآية محكمة، وترخّص في نكاح المتعة. رُوِيَ عن أبي نضرة قال: سألت ابن عباس رضي الله عنهما عن المتعة، فقال: أمَا تقرأ في سورة النساء: ﴿ فما استمتعتُمْ بِهِ مِنْهُنّ إلى أجلٍ مُسمّى ﴾؟ قلت: لا أقرأها هكذا، قال ابن عباس: هكذا أنزل الله،

ومعنى قوله فما استمتعتم به منهن فما نكحتموه على الشرائط التي جرت وهو قوله محصنين غير مسافحين أي عاقدين التزويج. وقال ابن جرير الطبري: أولى التأويلين في ذلك بالصواب تأويل من تأوله فما نكحتموه منهن فجامعتموهن فآتوهن أجورهن لقيام الحجة بتحريم الله تعالى متعة النساء على لسان رسول الله ﷺ فقوله تعالى: **﴿فآتوهن أجورهن﴾** يعني مهورهن **﴿فريضة﴾** يعني لازمة وواجبة **﴿ولا جناح عليكم فيما تراضيتم به من بعد الفريضة﴾** اختلفوا فيه فمن حمل ما قبله على نكاح المتعة قال: أراد إنهما إذا عقد عقداً إلى أجل على مال فإذا تم الأجل فإن شاءت المرأة زادت في الأجل وزاد الرجل في الأجر، وإن لم يتراضيا فارقها وقد تقدم أن ذلك كان جائزاً ثم نسخ وحرم ومن حمل الآية على الاستمتاع بالنكاح الصحيح. قال المراد بقوله ولا جناح عليكم فيما تراضيتم به يعني من الإبراء من المهر والافتداء والاعتياض. وقال الزّجاج معناه لا جناح عليكم أن تهب المرأة للزوج مهرها وأن يهب الرجل للمرأة التي لم يدخل بها نصف المهر الذي لا يجب عليه **﴿إن الله كان عليماً﴾** يعني بما يصلحكم أيها الناس في مناكحكم وغيرها من سائر أموركم **﴿حكيماً﴾** يعني فيما دبر لكم من التدبير وفيما يأمركم به وينهاكم عنه ولا يدخل حكمه خلل ولا زلل.

فصل في قدر الصداق وما يستحب منه

اعلم أنه لا تقدير لأكثر الصداق لقوله تعالى: ﴿وآتيتم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً﴾ والمستحب أن لا يغالى فيه قال عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه: ألا لا تغالوا في صدقة النساء فإنها لو كانت مكرمة في الدنيا وتقوى عند الله لكان أولاكم بها نبي الله ﷺ ما علمت رسول الله ﷺ نكح شيئاً من نسائه ولا أنكح شيئاً من بناته على أكثر من اثنتي عشرة أوقية أخرجه الترمذي ولأبي داود نحوه (م) عن أبي سلمة قال: سألت عائشة زوج النبي ﷺ كم كان صداق رسول الله ﷺ؟ قالت: كان صداقه لأزواجه اثنتي عشر أوقية ونشا قالت: أتدري ما النش؟

ثلاث مرات. وقيل: إنّ ابن عباس رضي الله عنهما رجع عن ذلك، وروَى سالم عن عبد الله بن عمر أن عمر بن الخطاب صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه، وقال: ما بال رجال ينكحون هذه المتعة؟ وقد نهى رسول الله ﷺ عنها، لا أجدُ رجلاً نكحها إلّا رجمتُه بالحجارة، وقال: هدمَ المتعةَ النكاحُ والطلاقُ والعِدّةُ والميراثُ. قال الربيع بن سليمان: سمعتُ الشافعي رضي الله عنه يقول: لا أعلم في الإسلام شيئاً أُحلّ ثم حُرّم ثم أُحلّ ثم حُرّم غيرُ المتعة. قوله تعالى: **﴿ فآتُوهنَّ أُجورَهنَّ ﴾** أي: مُهورَهنّ، **﴿ فريضةً ولا جُناحَ عليكم فيما تراضيتُم بهِ مِنْ بعدِ الفَريضةَ ﴾**، فمَن حلّ ما قبله على نكاح المتعة أرادوا أنهما إذا عَقَدَ إلى أجلٍ بمالٍ فإذا تمَّ الأجل فإن شاءت المرأة زادتْ في الأجل وزاد الرجل في المال، وإن لم يتراضيا فارقها، ومَن حمل الآية على الاستمتاع بالنكاح الصحيح. قال المراد بقوله: **﴿ ولا جُناحَ عليكم فيما تراضيتُم به ﴾** من الإبراء عن المهر والافتداء والاعتياض، **﴿ إنَّ اللَّهَ كان عليماً حكيماً ﴾**.

فصل في قدر الصداق وفيما يُستحبّ منه

اعلم أنه لا تقدير لأكثر الصداق لقوله تعالى: ﴿ وآتيتم إحداهُنّ قِنْطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً ﴾ [النساء: ٢٠] والمستحب أن لا يُغالى فيه، قال عمر بن الخطاب: ألا لا تغالوا في صدقة النساء فإنها لو كانت مُكْرمةً في الدنيا وتقوىً عند الله لكان أولاكم بها نبيُّ الله ﷺ ما علمتُ رسولَ الله ﷺ نكح شيئاً من نسائه ولا أنكح شيئاً من بناته على أكثر من اثنتي عشرة أُوقية. أخبرنا أبو الحسن السرخسي أنا زاهر بن أحمد أنا جعفر بن محمد المفلس أنا هارون بن إسحق أنا يحيىٰ بن محمد الحارثي أنا عبد العزيز بن محمد عن يزيد بن عبد الله بن الهادي عن

قلت: لا قالت: نصف أوقية فذلك خمسمائة درهم واختلف العلماء في أقل الصداق فذهب جماعة إلى أنه لا تقدير لأقله بل كل ما جاز أن يكون مبيعاً أو ثمناً جاز أن يكون صداقاً وهو قول ربيعة وسفيان الثوري والشافعي وأحمد وإسحاق وقال قوم يتقدر الصداق بنصاب السرقة وهو قول مالك وأبي حنيفة. غير أن نصاب السرقة عند مالك ثلاث دراهم وعند أبي حنيفة عشرة دراهم والدليل على أن الصداق لا يتقدر ما روي عن سهل بن سعد الساعدي قال: جاءت امرأة إلى النبي ﷺ فقالت يا رسول الله قد وهبت نفسي لك فنظر إليها رسول الله ﷺ فصعد النظر فيها وصوبه ثم طأطأ رسول الله ﷺ رأسه فلما رأت المرأة أنه لم يقض فيها شيئاً جلست فقام رجل من أصحابه فقال يا رسول الله إن لم تكن لك بها حاجة فزوجنيها فقال فهل عندك من شيء؟ فقال لا والله يا رسول الله فقال اذهب إلى أهلك فانظر هل تجد شيئاً؟ فذهب ثم رجع فقال: لا والله ما وجدت شيئاً فقال رسول الله ﷺ: «انظر ولو خاتماً من حديد» فذهب ثم رجع فقال لا والله يا رسول الله ولا خاتماً من حديد ولكن إزاري هذا. قال سهل ما له رداء فلها نصفه فقال رسول الله ﷺ: «ما تصنع بإزارك إن لبسته لم يكن عليها منه شيء وإن لبسته لم يكن عليك منه شيء» فجلس الرجل حتى إذا طال مجلسه قام فرآه النبي ﷺ مولياً فأمر به فدعا له فلما جاء قال ماذا معك من القرآن قال معي سورة كذا وسورة كذا عددها قال تقرأهن عن ظهر قلب قال نعم قال: اذهب فقد ملكتكها بما معك من القرآن وفي رواية فقد زوجتكها تعلمها من القرآن وفي رواية فقد أنكحناكها بما معك من القرآن. أخرجاه في الصحيحين وهذا لفظ الحميدي. ففي هذا الحديث دليل على أنه لا تقدير لأقل الصداق لأنه هل تجد شيئاً فهذا يدل على جواز أي شيء كان من المال ثم قال ولو خاتماً من حديد ولا قيمة له إلا القليل التافه وفيه دليل على أنه يجوز أن يجعل تعليم القرآن صداقاً وهو قول الشافعي ومنعه أصحاب الرأي عن أن رسول الله ﷺ قال: من

محمد بن إبراهيم عن أبي سلمة قال: سألت عائشة رضي الله عنها كم كان صداق النبي ﷺ لأزواجه؟ قالت: كان صداقه لأزواجه اثنتي عشرة أُوقية ونش، قالت: أتدري ما النش؟ قلت: لا، قالت: نصف أُوقية، فتلك خمسمائة درهم، هذا صداق النبي ﷺ لأزواجه. أمّا أقلّ الصداق فقد اختلفوا فيه، فذهب جماعة إلى أنه لا تقدير لأقلّه بل ما جاز أن يكون مبيعاً أو ثمناً جاز أن يكون صداقاً، وهو قول ربيعة وسفيان الثّوري والشافعي وأحمد وإسحق، قال عمر بن الخطاب: ثلاث قبضات زبيب مهر، وقال سعيد بن المسيب: لو أصدقها سوطاً جاز، وقال قوم: يتقدّر بنصاب السرقة، وهو قول مالك وأبي حنيفة، غير أن نصاب السرقة عند مالك ثلاثة دراهم وعند أبي حنيفة عشرة دراهم، والدليل على أنه لا يتقدّر ما أخبرنا أبو الحسن السرخسي قال: أخبرنا زاهر بن أحمد أخبرنا أبو إسحق الهاشمي أنا أبو مصعب عن مالك عن أبي حازم عن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ جاءته امرأة فقالت: يا رسول الله إنّي وهبت نفسي لك، فقامت طويلاً فقام رجل فقال: يا رسول الله زوّجنيْها إن لم تكن لك فيها حاجة، فقال رسول الله ﷺ: «هل عندكَ من شيءٍ تصدقُها»؟ قال: ما عندي إلاّ إزاري هذا، قال رسول الله ﷺ: «إن أعطيتها إيّاه جلست لا إزار لك، فالتمسْ شيئاً»، فقال: ما أجده، فقال: «فالتمسْ ولو خَاتماً من حديد»، فالتمس فلم يجد شيئاً، فقال رسول الله ﷺ: «هلْ معك من القرآن شيء»؟ قال: نعم سورة كذا وسورة كذا، فقال النبي ﷺ: «قد زوّجتُها بما معك من القرآن» وفيه دليل على أن لا تقدير لأقل الصداق، لأنه قال: «التمس شيئاً» وهذا يدلّ على جواز أيّ شيءٍ كانَ من المال، وقال: «ولو خاتماً من حديد»، ولا قيمة لخاتم الحديد إلاّ القليل التافه، وفي الحديث دليل على أنه يجوز تعليم القرآن صداقاً وهو قول الشافعي رحمه الله، وذهب بعض أهل العلم إلى أنه لا يجوز وهو قول أصحاب الرأي، وكل عمل جاز الاستئجار عليه من البناء والخياطة وغير ذلك من الأعمال جاز أن يجعل صداقاً، ولم يُجوّز أبو حنيفة رضي الله عنه أن يجعل منفعة الحرّ صداقاً، والحديث حجّة

أعطى في صداق امرأة ملء كفيه سويقاً أو تمراً فقد استحل. أخرجه أبو داود عن عبدالله بن عامر عن أبيه أن امرأة من بني فزارة تزوجت على نعلين فقال لها رسول الله ﷺ أرضيت من نفسك ومالك بنعلين قالت نعم فأجازه أخرجه الترمذي وقال عمر بن الخطاب: ثلاث قبضات من زبيب مهر. قوله عز وجل: .

وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُم ۚ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ ۚ فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ ۚ وَأَن تَصْبِرُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٥﴾

﴿ومن لم يستطع منكم طولاً﴾ يعني فضلاً وسعة وإنما سمي الغني طولاً لأنه ينال به من المراد ما لا ينال مع الفقر والطول هنا كناية عما يصرف إلى المهر والنفقة ﴿أن ينكح المحصنات﴾ يعني الحرائر ﴿المؤمنات فمن ما ملكت أيمانكم﴾ يعني جارية أخيك المؤمن فإن الإنسان لا يجوز له أن يتزوج بجارية نفسه ﴿من فتياتكم المؤمنات﴾ المعنى من لم يقدر على مهر الحرة المؤمنة فليتزوج الأمة المؤمنة والفتيات الجواري المملوكات جمع فتاة يقال للأمة فتاة والعبد فتى. وفي الآية دليل على أنه لا يجوز للحر نكاح الأمة إلا بشرطين: أحدهما أن لا يجد مهر حرة لأنه جرت العادة في الإماء بتخفيف مهورهن ونفقتهن وسبب ذلك اشتغالهن بخدمة ساداتهن. والشرط الثاني وهو خوف العنت على نفسه وهو قوله تعالى ذلك لمن خشي العنت منكم. قال ابن عباس: هو الزنا وهذا قول جابر وابن عباس وسعيد بن جبير وطاوس ومسروق ومكحول وعمرو بن دينار وإليه ذهب مالك والشافعي وأحمد. وروي عن علي والحسن البصري وابن المسيب ومجاهد والزهري أنه يجوز للحر أن ينكح الأمة وإن كان موسراً وهو مذهب أبي حنيفة إلا أن يكون في نكاح حرة والسبب في منع الحر من نكاح الأمة إلا عند خوف العنة إن الولد يتبع الأم في الرق والحرية، وإذا كانت الأم رقيقة كان الولد رقيقاً وذلك نقص في حق الحر وفي حق ولده ولأن حق السيد أعظم من حق الزوج فربما احتاج الزوج إليها فلا يجد إليها سبيلاً لأن للسيد حبسها لخدمته ولأن مهرها ملك السيد فلا تقدر على هبته من زوجها ولا أن تبرئه منه بخلاف الحرة فلهذا السبب منع الله من نكاح الأمة

لِمَن جوَّزه بعدما أخبر الله تعالى عن شعيب عليه السلام حيث زوّج ابنته من موسى عليه السلام على العمل، فقال: ﴿ إنّي أُريد أن أُنكِحَكَ إحدَى ابنتيَّ هاتينِ على أن تَأجُرَني ثمانيَ حِجَجٍ ﴾ [القصص: ٢٧].

قوله تعالى: ﴿ **ومَنْ لمْ يستطعْ منكم طَوْلاً** ﴾، أي: فضلاً وسعةً، ﴿ **أنْ ينكِحَ المحصناتِ** ﴾، الحرائر ﴿ **المؤمناتِ** ﴾، قرأ الكسائي ﴿ **المحصنات** ﴾ بكسر الصاد حيث كان، إلّا قوله في هذه السورة والمحصنات من النساء، وقرأ الآخرون بفتح جميعها، ﴿ **فمما ملكتْ أيمانُكم منْ فتياتِكم** ﴾، إمائِكم، ﴿ **المؤمناتِ** ﴾، أي: مَن لم يقدر على مهر الحرّة المؤمنة، فليتزوج الأمةَ المؤمنة، وفيه دليل على أنه لا يجوز للحرّ نكاح الأمة إلّا بشرطين، أحدهما: أن لا يجدَ مهرَ حرّةٍ، والثاني أن يكون خائفاً على نفسه من العنت، وهو الزنا، لقوله تعالى في آخر الآية: ﴿ **ذلك لمَن خشيَ العنتَ منكم** ﴾، وهو قول جابر رضي الله عنه، وبه قال طاوس وعمرو بن دينار، وإليه ذهب مالك والشافعي وجوّز أصحاب الرأي للحرّ نكاح الأمة إلّا أن تكون في نكاحه حرّة، أمّا العبد فيجوز له نكاح الأمة وإن كان في نكاحه حرّة أو أمة، وعند أبي حنيفة رضي الله عنه لا يجوز إذا كانتْ تحته حرّة، كما يقول في الحرّ،

إلا على سبيل الرخصة والاضطرار ويجوز للعبد نكاح الأمة وإن كان في نكاحه حرة. وعند أبي حنيفة لا يجوز له إذا كانت تحته حرة كما يقول في الحر وفي الآية دليل على أنه لا يجوز للمسلم حراً كان أو عبداً نكاح الأمة الكتابية لقوله تعالى: ﴿**من فتياتكم المؤمنات**﴾ يفيد جواز نكاح الأمة المؤمنة دون الكتابية لأن فيها نوعين من النقص وهما: الرق والكفر بخلاف الأمة المؤمنة لأن فيها نقصاً واحداً وهو الرق وهذا قول مجاهد والحسن وإليه ذهب مالك والشافعي وقال أبو حنيفة: يجوز التزويج بالأمة الكتابية وبالاتفاق يجوز وطء الأمة الكتابية بملك اليمين وقوله تعالى: ﴿**والله أعلم بأيمانكم**﴾ قال الزّجاج أي اعملوا على الظاهر في الإيمان فإنكم متعبدون بما ظهر والله يتولى السرائر والحقائق وقيل معناه لا تتعرضوا للباطن في الإيمان وخذوا بالظاهر فإن الله أعلم بإيمانكم ﴿**بعضكم من بعض**﴾ يعني أنكم كلكم من نفس واحدة فلا تستنكفوا من نكاح الإماء عند الضرورة وإنما قيل لهم ذلك لأن العرب كانت تفتخر بالأنساب والأحساب ويسمون ابن الأمة الهجين فأعلم الله تعالى أن ذلك أمر لا يلتفت إليه فلا يتداخلنكم شموخ وأنفة من التزويج بالإماء، فإنكم متساوون في النسب إلى آدم وقيل إن معناه إن دينكم واحد وهو الإيمان وأنتم مشتركون فيه فمتى وقع لأحدكم الضرورة جاز له أن يتزوج بالأمة عند خوف العنت. وقال ابن عباس: يريد أن المؤمنين بعضهم أكفاء بعض ﴿**فانكحوهن بإذن أهلهن**﴾ يعني اخطبوا الإماء إلى ساداتهن واتفق العلماء على أن نكاح الأمة بغير إذن سيدها باطل لأن الله تعالى جعل إذن السيد شرطاً في جواز نكاح الأمة ﴿**وآتوهن أجورهن**﴾ يعني مهورهن ﴿**بالمعروف**﴾ يعني من غير مطل ولا ضرار. وقيل معناه وآتوهن مهور أمثالهن وأجمعوا على أن المهر للسيد لأنه ملكه وإنما أضيف إيتاء المهر إلى الإماء لأنه ثمن بضعهن ﴿**محصنات**﴾ يعني عفائف ﴿**غير مسافحات**﴾ يعني غير زانيات ﴿**ولا متخذات أخدان**﴾ جمع خدن وهو الصاحب الذي يكون معك في كل أمر ظاهر وباطن وأكثر ما يستعمل فيمن يصاحب بشهوة يقال خدن المرأة وخدينها يعني حبها الذي يزني بها في السر. قال الحسن: المسافحة هي التي كل من دعاها تبعته وذات الأخدان هي التي تختص بواحد ولا تزني مع غيره وكانت العرب في الجاهلية تحرم الأولى وتجوز الثانية فلما كان الفرق معتبراً عندهم لا جرم أن الله تعالى أفرد كل واحد من هذين القسمين بالذكر ونص على تحريمهما معاً ﴿**فإذا أحصن**﴾ قرىء بفتح الألف والصاد ومعناه حفظن فروجهن، وقيل معناه أسلمن وقرأ حفص بضم الألف وكسر الصاد ومعناه زوجن ﴿**فإن أتين بفاحشة**﴾ يعني بزنى ﴿**فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب**﴾ يعني فعلى الإماء اللاتي زنين نصف ما على الحرائر الأبكار إذا زنين من الجلد ويجلد العبد للزنا إذا زنا خمسين جلدة ولا فرق بين المملوك

وفي الآية دليل على أنه لا يجوز للمسلم نكاح الأمة الكتابية لأنه قال: ﴿ **فمما ملكتْ أيمانُكم من فتياتِكم المؤمنات** ﴾، جوّز نكاح الأمة بشرط أن تكون مؤمنة، وقال في موضع آخر: ﴿ وطعامُ الذين أُوتُوا الكتابَ حِلٌّ لكم وطعامُكم حِلٌّ لهم والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أُوتُوا الكتاب ﴾ [المائدة: ٥] أي: الحرائر جوّز نكاح الكتابية، بشرط أن تكون حرّة، وجوّز أصحاب الرأي للمسلم نكاح الأمة الكتابية، وبالاتفاق يجوز وطؤها بملك اليمين ﴿ **واللَّهُ أعلمُ بإيمانِكم** ﴾، أي: لا تتعرضوا للباطن في الإيمان وخُذوا بالظاهر فإنّ اللَّهَ أعلمُ بإيمانكم، ﴿ **بعضُكم من بعض** ﴾، قيل: بعضكم إخوة لبعض، وقيل: كلكم من نفس واحدة فلا تستنكِفُوا من نكاح الإماء، ﴿ **فانْكِحُوهنَّ** ﴾، يعني: الإماء ﴿ **بإذنِ أهلِهِنّ** ﴾، أي: مواليهنّ، ﴿ **وآتُوهنّ أجورَهُنّ** ﴾، مهورهنّ، ﴿ **بالمعرُوفِ** ﴾ من غير مُطل وضرار، ﴿ **مُحصنات** ﴾، عفائف بالنكاح، ﴿ **غيرَ مسافحات** ﴾، أي: غيرِ زَانيات، ﴿ **ولا مُتَّخِذَاتِ أخْدَانٍ** ﴾، أي: أحباب تزنون بهنّ في السرّ، قال الحسن: المسافحة هي أن كل مَن دعاها تبعتْه، وذات خدن أي: تختصّ بواحد لا تزني إلاّ معه، والعرب كانت تحرّم الأولى وتجوّز الثانية، ﴿ **فإذا أُحْصِنَّ** ﴾، قرأ حمزة والكسائي وأبو بكر بفتح الألف والصاد، أي: حفِظنَ فروجهنّ، وقال ابن مسعود: أسلمنَ، وقرأ الآخرون:

المتزوج وغير المتزوج فإنه يجلد خمسين ولا رجم عليه هذا قول أكثر العلماء ويروى عن ابن عباس وقال طاوس: أنه لا حد على من لم يتزوج من المماليك إذا زنى لأن الله تعالى قال فإذا أحصن والذي لم يتزوج ليس بمحصن وأجيب عنه بأن معنى الإحصان عند الأكثرين الإسلام، وإن كان المراد منه التزويج فليس المراد منه أن التزويج شرط لوجوب الحد عليه بل المراد منه التنبيه على أن المملوك وإن كان محصناً فلا رجم عليه إنما حده الجلد، بخلاف الحر فحد الأمة ثابت بهذه الآية وبيان أنه بالجلد لا بالرجم ثابت بالحديث وهو ما روي عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا زنت أمة أحدكم فتبين زناها فليجلدها الحد ولا يثرب عليها ثم إن زنت فليجلدها الحد ولا يثرب عليها ثم إن زنت الثالثة فتبين زناها فليبعها ولو بحبل من شعر» أخرجاه في الصحيحين قوله ولا يثرب عليها أي لا يعيرها والتثريب التأبين والتعيير والاستقصاء في اللوم قال الشيخ محيي الدين النواوي: وهذا البيع المأمور به في الحديث مستحب وليس بواجب عندنا وعند الجمهور وقال داود وأهل الظاهر هو واجب وفيه جواز بيع الشيء الثمين بالثمن الحقير وهذا البيع المأمور به يلزم صاحبه أن يبين حالها للمشتري لأنه عيب والإخبار بالعيب واجب. فإن قيل كيف يكره شيئاً ويرتضيه لأخيه المسلم. فالجواب لعلها تستعف عند المشتري بأن يعفها بنفسه أو يصونها بهيبته أو بالإحسان إليها أو يزوجها أو غير ذلك والله أعلم. ﴿**ذلك**﴾ إشار إلى نكاح الأمة ﴿**لمن خشي العنت منكم**﴾ يعني الزنى والمعنى ذلك لمن خاف أن تحمله شدة الشبق والغلمة وشدة الشهوة على الزنى وإنما سمي الزنى بالعنت لما يعقبه من المشقة وهي شدة العزوبة فأباح الله تعالى نكاح الأمة بثلاثة شروط: عدم القدرة على نكاح الحرة وخوف العنت وكون الأمة مؤمنة ﴿**وأن تصبروا**﴾ يعني عن نكاح الإماء متعففين ﴿**خير لكم**﴾ يعني كيلا يكون الولد عبداً رقيقاً ﴿**والله غفور رحيم**﴾ وهذا كالتوليد لما تقدم يعني أنه تعالى غفر لكم ورحمكم حيث أباح لكم ما أنتم محتاجون إليه قوله تعالى: .

﴿ **أحصنّ** ﴾ بضم الألف وكسر الصاد، أي: تزويجهنّ، ﴿ **فإن أتينَ بفاحشةٍ** ﴾، يعني: الزنا، ﴿ **فعليهنّ نصفُ ما على المحصنات** ﴾، أي: ما على الحرائر الأبكار إذا زنين، ﴿ **من العذاب** ﴾، يعني: الحدّ فيُجلد الرقيق إذا زنى خمسين جلدة، وهل يُغرّب؟ فيه قولان، فإن قلنا يُغرّب فيغرّب نصف سنة على القول الأصح ولا رجم على العبد، رُوِيَ عن عبد الله بن عباس بن أبي ربيعة قال: أمرني عمر بن الخطاب رضي الله عنه في فئة من قريش فجلدنا وَلَائِدَ الإماء خمسين في الزنا، ولا فرق في حدّ المملوك بين مَن تزوج أو لم يتزوج عند أكثر أهل العلم، وذهب بعضهم إلى أنه لا حدّ على مَن يتزوج من المماليك إذا زنى، لأن الله تعالى قال: ﴿ **فإذا أُحصنّ فإن آتينَ بفاحشةٍ فعليهنّ نصفُ ما على المحصناتِ من العذاب** ﴾، ورُوِيَ ذلك عن ابن عباس رضي الله عنهما، وبه قال طاوس، ومعنى الإحصان عند الآخرين الإسلام، وإن كان المراد منه التزويج فليس المراد منه أن التزويج شرط لوجوب الحدّ عليه، بل المراد منه التنبيه على أن المملوك وإن كان محصناً بالتزويج فلا رَجْمَ عليه، إنّما حدّه الجلد بخلاف الحرّ، فحدّ الأمة ثابت بهذه الآية، وبيان أنها تجلد في الحدّ هو ما أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا عبد العزيز بن عبد الله حدّثني الليث عن سعيد يعني المقبري عن أبيه عن أبي هريرة رضي الله عنهم قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «إذا زنت أمةُ أحدِكم فتبينَ زناها فيجلدْها الحدّ ولا يثرب عليها، ثم إن زنت فليجلدها الحدّ ولا يثرب عليها، ثم إن زنت الثالثة فتبيّن زناها فليبعْها ولو بحبلٍ من شعر». قوله تعالى: ﴿ **ذلك** ﴾، يعني: نكاح الأمة عند عدم الطَّول، ﴿ **لِمَنْ خَشيَ العَنتَ منكم** ﴾، يعني: الزنا، يريد المشقةَ بغلبة الشهوة، ﴿ **وأنْ تصبرُوا** ﴾، عن نكاح الإماء متعففين، ﴿ **خيرٌ لكم** ﴾، لئلا يُخلق الولد رقيقاً ﴿ **واللَّهُ غفورٌ رحيم** ﴾.

يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ
حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ
ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم
بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾

﴿يريد الله ليبين لكم﴾ اللام في قوله ليبين معناه أن يبين وقيل معناه يريد إنزال هذه الآيات من أجل أن يبين لكم دينكم ويوضح لكم شرعكم ومصالح أموركم وقيل يبين لكم ما يقربكم منه وقيل يبين أن الصبر على نكاح الإماء خير لكم ﴿ويهديكم﴾ أي ويرشدكم ﴿سنن الذين من قبلكم﴾ أي شرائع من قبلكم في تحريم الأمهات والبنات والأخوات فإنها كانت محرمة على من قبلكم وقيل معناه يرشدكم إلى ما لكم فيه مصلحة كما بينه لمن كان قبلكم، وقيل معناه ويهديكم إلى الملة الحنيفية وهي ملة إبراهيم عليه السلام و﴿يتوب عليكم﴾ يعني ويتجاوز عنكم ما أصبتم قبل أن يبين لكم ويرجع بكم عن المعصية التي كنتم عليها إلى طاعته، وقيل لما بين لنا أمر الشرائع والمصالح وأرشدنا إلى طاعته فربما وقع منا تقصير وتفريط فيما أمر به وبينه فلا جرم أنه تعالى قال ويتوب عليكم ﴿والله عليم﴾ يعني بمصالح عباده في أمر دينهم ودنياهم ﴿حكيم﴾ يعني فيما دبر من أمورهم. ﴿والله يريد أن يتوب عليكم﴾ قال ابن عباس معناه يريد أن يخرجكم من كل ما يكره إلى ما يحب ويرضى. وقيل معناه يدلكم على ما يكون سبباً لتوبتكم التي يغفر لكم بها ما سلف من ذنوبكم وقيل معناه إن وقع منكم تقصير في دينه فيتوب عليكم ويغفر لكم ﴿ويريد الذين يتبعون الشهوات﴾ قيل هم اليهود والنصارى وقيل هم اليهود خاصة لأنهم يقولون إن نكاح بنت الأخت من الأب حلال. وقيل هم المجوس لأنهم يستحلون نكاح الأخوات وبنات الإخوة فلما حرمهن الله قالوا إنكم تحلون بنت الخالة وبنت العمة والخالة والعمة عليكم فانكحوا بنات الأخ والأخت فنزلت هذه الآية. وقيل هم الزناة يريدون أن تكونوا مثلهم ﴿أن تميلوا﴾ يعني عن الحق وقصد السبيل بالمعصية ﴿ميلاً عظيماً﴾ يعني بإتيانكم ما حرم الله عليكم ﴿يريد الله أن يخفف عنكم﴾ يعني ليسهل عليكم أحكام الشرائع فهو عام في كل أحكام الشرع وجميع ما يسره لنا وسهله علينا إحساناً منه إلينا وتفضلاً ولطفاً علينا، ولم يثقل التكاليف علينا كما ثقلها

قوله تعالى: ﴿ يُريدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لكم ﴾، أي: أن يبيّن لكم، كقوله تعالى: ﴿ وأُمرتُ لأعدلَ بينكم ﴾ [الشورى: ١٥] أي: أن أعدل، وقوله: ﴿ وأُمرنا لِنُسلمَ لربِّ العالمين ﴾ [الأنعام: ٧١]، وقال في موضع آخر ﴿ وأُمرتُ أن أسلم ﴾ [غافر: ٦٦]، ومعنى الآية: يريد الله أن يبيّن لكم، أي: يوضح لكم شرائع دينكم ومصالح أموركم، قال عطاء: يبيّن لكم ما يقرّبكم منه، قال الكلبي: يبيّن لكم أن الصبر عن نكاح الإماء خير لكم، ﴿ ويَهْدِيَكم ﴾، ويرشدكم، ﴿ سُنَنَ ﴾، شرائع، ﴿ الذينَ من قبلكم ﴾، في تحريم الأمهات والبنات والأخوات، فإنها كانت محرمة على مَن قبلكم، وقيل: ويهديكم الملّة الحنيفية وهي ملّة إبراهيم عليه السلام، ﴿ ويتوبَ عليكم ﴾، ويتجاوز عنكم ما أصبتم قبل أن يبيّن لكم، وقيل: يرجع بكم من المعصية التي كنتم عليها إلى طاعته، وقيل: يوفّقكم التوبة ﴿ واللَّهُ عليم ﴾ بمصالح عباده في أمر دينهم ودنياهم، ﴿ حكيم ﴾، فيما دبّر من أمورهم.

﴿ والله يُريد أن يتوبَ عليكم ﴾، إن وقع منكم تقصير في أمر دينكم ﴿ ويُريدُ الذينَ يَتبعُون الشهواتِ أن تميلوا ﴾، عن الحق، ﴿ ميلاً عظيماً ﴾ بإتيانكم ما حرّم عليكم، واختلفوا في الموصوفين باتّباع الشهوات، فقال السدي: هم اليهود والنصارى، وقال بعضهم: هم المجوس لأنهم يُحلّون نكاح الأخوات وبنات الأخ والأخت،

على بني إسرائيل فهو كقوله تعالى يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر وقوله تعالى: ﴿**وما جعل عليكم في الدين من حرج**﴾ وكما روي عن النبي ﷺ أنه قال بعثت بالحنيفية السهلة السمحة. وقوله تعالى: ﴿**وخلق الإنسان ضعيفاً**﴾ يعني في قلة الصبر عن النساء فلا صبر له عنهن وقيل إنه لضعفه يستميله هواه فهو ضعيف العزم عن قهر الهوى وقيل هو ضعيف في أصل الخلقة لأنه خلق من ماء مهين. قوله عز وجل: ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل**﴾ يعني بالحرام الذي لا يحل في الشرع كالربا والقمار والغصب والسرقة والخيانة وشهادة الزور وأخذ المال باليمين الكاذبة ونحو ذلك. وإنما خص الأكل بالذكر ونهى عنه تنبيهاً على غيره من جميع التصرفات الواقعة على وجه الباطل لأن معظم المقصود من المال الأكل، وقيل يدخل فيه أكل ماله نفسه بالباطل ومال غيره أما أكل ماله بالباطل فهو إنفاقه في المعاصي، وأما أكل مال غيره فقد تقدم معناه وقيل يدخل في أكل المال الباطل جميع العقود الفاسدة. وقوله تعالى: ﴿**إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم**﴾ هذا الاستثناء منقطع لأن التجارة عن تراض ليست من جنس أكل المال بالباطل فكان إلا ها هنا بمعنى لكن يحل أكله بالتجارة عن تراض يعني بطيبة نفس كل واحد منكم. وقيل هو أن يخير كل واحد من المتبايعين صاحبه بعد البيع فيلزم وإلاّ فلهما الخيار ما لم يتفرقا لما روي عن ابن عمران أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا تبايع الرجلان فكل واحد منهما بالخيار ما لم يتفرقا وكانا جميعاً أو يخير أحدهما الآخر فإن خير أحدهما الآخر فتبايعا على ذلك فقد وجب البيع وإن تفرقا بعد أن تبايعا ولم يترك واحد منهما البيع فقد وجب البيع**» أخرجاه في الصحيحين. وقوله تعالى: ﴿**ولا تقتلوا أنفسكم**﴾ أي لا يقتل بعضكم بعضاً وإنما قال أنفسكم لأنهم أهل دين واحد فهم كنفس واحدة وصح عن النبي ﷺ أنه قال في حجة الوداع «**ألا لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض**» وقيل إن هذا نهي للإنسان عن قتل نفسه (ق) عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**من تردى من جبل فقتل نفسه فهو في نار جهنم يتردى فيها خالداً مخلداً فيها أبداً ومن تحسى سماً فقتل نفسه فسمه في يده يتحساه في نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً ومن قتل نفسه بحديدة فحديدته في يده يتوجأ بها في بطنه في نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً**» قوله يتردى التردي هو

وقال مجاهد: هم الزناة يريدون أن تميلوا عن الحق فتزنون كما يزنون، وقيل: هم كما يزنون، وقيل: هم جميع أهل الباطل.

﴿ **يريدُ اللَّهُ أن يُخفّف عنكم** ﴾، يسهلَ عليكم في أحكام الشرع، وقد سهل كما قال جلّ ذكره: ﴿ **ويضع عنهم إصرهم** ﴾ وقال النبي ﷺ: «بعثتُ بالدين الحنيفية السمحة السهلة»، ﴿ **وخُلِقَ الإنسانُ ضعيفاً** ﴾، قال طاووس والكلبي وغيرهما في أمر النساء: لا يصبر عنهنّ، وقال ابن كيسان: ﴿ **خلق الإنسان ضعيفاً** ﴾ يستميله هواه وشهوته، وقال الحسن: هو أنه خلق من ماء مهين، بيانه قوله تعالى: ﴿ **اللَّهُ الذي خلقكمْ مِنْ ضَعفٍ** ﴾ [الروم: ٥٤].

قوله تعالى: ﴿ **يا أيّها الذينَ آمنُوا لا تأكلُوا أموالَكُمْ بينكم بالباطِل** ﴾، بالحرام، يعني: بالربا والقمار والغصب والسرقة والخيانة ونحوها، وقيل: هو العقود الفاسدة ﴿ **إلاّ أنْ تكونَ تجارةً** ﴾، قرأ أهل الكوفة ﴿ **تجارةً** ﴾ نصب على خبر كان، أيّ إلاّ أن تكون الأموال تجارة، وقرأ الآخرون بالرفع، أي: إلاّ أن تقع تجارة، ﴿ **عن تَراضٍ منكم** ﴾، أي بطيبة نفس كل واحد منكم، وقيل: هو أن يجيز كل واحد من المتبايعين صاحبه بعد البيع، فيلزم وإلاّ فلهما الخيار ما لم يتفرقا لِمَا أخبرنا أبو الحسن السرخسي أخبرنا زاهر بن أحمد أنا أبو إسحق الهاشمي أنا أبو مصعب عن مالك عن نافع عن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «المتبايعان كلُّ واحد منهما بالخيار على صاحبه، ما لم يتفرقا إلاّ بيع الخيار»، ﴿ **ولا تقتلُوا أنفسَكم** ﴾، قال أبو عبيدة: أي لا تُهلكوها، كما قال: ﴿ **ولا**

الوقوع من موضع عال إلى أسفل قوله يتوجأ يقال وجأته بالسكين إذا ضربته بها وهو يتوجأ أي يضرب بها نفسه (ق) عن جندب عن رسول الله ﷺ قال كان برجل جراح فقتل نفسه فقال الله تبارك وتعالى: بدرني عبدي بنفسه حرمت عليه الجنة. وفي رواية قال: كان فيمن كان قبلكم رجل به جرح فجزع فأخذ سكيناً فحزبها يده فما رقأ الدم حتى مات فقال الله تعالى: بادرني عبدي بنفسه حرمت عليه الجنة وقيل في معنى قتل الإنسان نفسه أن لا يفعل شيئاً يستحق به القتل مثل أن يقتل فيقتل به فيكون هو الذي تسبب في قتل نفسه، وقيل معناه ولا تقتلوا أنفسكم بأكل المال بالباطل وقيل معناه ولا تهلكوا أنفسكم بأن تعملوا عملاً ربما أدى إلى قتلها ﴿إن الله كان بكم رحيماً﴾ يعني أنه تعالى من رحمته بكم نهاكم عن كل شيء تستوجبون به مشقة أو محنة وقيل إنه تعالى أمر بني إسرائيل بقتل أنفسهم ليكون ذلك توبة لهم وكان بكم يا أمة محمد رحيماً حيث لم يكلفكم تلك التكاليف الشاقة الصعبة.

وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾

﴿ومن يفعل ذلك﴾ يعني ما سبق ذكره من قتل النفس المحرمة لأن الضمير يعود إلى أقرب المذكورات وقيل: إنه يعود إلى قتل النفس وأكل المال بالباطل لأنهما مذكوران في آية واحدة وقيل إنه يعود إلى كل ما نهى الله عنه من أول السورة إلى هنا ﴿عدواناً وظلماً﴾ يعني يتجاوز الحد فيضع الشيء في غير موضعه فلذلك قيده بالعدوان والظلم لأنه قد يكون القتل بحق، وهو القصاص وكذلك قد يكون أخذ المال بحق فلهذا السبب قيده بالوعيد وما كان على وجه العدوان والظلم وهو قوله تعالى: ﴿فسوف نصليه ناراً﴾ أي ندخله في الآخرة ناراً يصلى فيها ﴿وكان ذلك على الله يسيراً﴾ أي هيناً لأنه تعالى قادراً على ما يريد. قوله عز وجل: ﴿إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه﴾ اجتناب الشيء المباعدة عنه وتركه جانباً والكبيرة ما كبر وعظم من الذنوب وعظمت عقوبته وقبل ذكر التفسير نذكر

تُلقوا بأيديكم إلى التَّهلُكَة ﴾ [البقرة: ١٩٥]، وقيل: لا تقتلوا أنفسكم بأكل المال بالباطل، وقيل: أرادَ به قتلَ المسلم نفسه، أخبرنا عبد الوهاب بن محمد الخطيب أنا عبد العزيز بن أحمد الخلال أنا أبو العباس الأصم أنا الربيع أنا الشافعي أنا ابن عيينة عن أيوب عن أبي قلابة عن ثابت بن الضحاك أن رسول الله ﷺ قال: «مَن قتلَ نفسه بشيء في الدنيا عُذِّب به يوم القيامة»، حدّثنا أبو الفضل زياد بن محمد الحنفي أخبرنا أبو معاذ عبد الرحمن المزني أنا أبو إسحق إبراهيم بن حمّاد القاضي أنا أبو موسى الزمن أنا وهب بن جرير أخبرنا أبي قال سمعتِ الحسن: أخبرنا جندب بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «جُرِحَ رجلٌ فيمن كان قبلكم فألِمَ ألماً شديداً ولم يبرأ فجزع منه، فأخذ سكّيناً فحزَّ بها يده فما رقأ الدمُ حتى مات، فقال اللَّهُ عزّ وجلّ: بادرني عبدي بنفسِه حرمتُ عليه الجنة». وقال الحسن: ﴿ لا تقتلوا أنفسكم ﴾ يعني: إخوانَكم، أي: لا يقتل بعضُكم بعضاً، ﴿ إن اللَّهَ كانَ بكمْ رَحيماً ﴾، أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا سليمان بن حرب أنا شعبة عن علي بن مدرك قال: سمعت أبا زرعة بن عمر بن جرير عن جدّه قال: قال لي رسول الله ﷺ في حجة الوداع: «استنصبِ الناسَ» ثم قال: «لا ترجعنَّ بعدي كفّاراً يضربُ بعضُكم رقابَ بعض».

﴿ ومَن يفعلْ ذلِك ﴾، يعني: ما سبق ذكره من المحرّمات، ﴿ عُدْوَاناً وظُلماً ﴾، فالعدوان مجاوزة الحدّ، والظلـم وضع الشيء في غير موضعه، ﴿ فسوفَ نُصليهِ ﴾، نُدخله في الآخرة، ﴿ ناراً ﴾، يُصلى فيها، ﴿ وكانَ ذلكَ على اللَّهِ يسيراً ﴾، هيّناً.

قوله تعالى: ﴿ إنْ تجتنبُوا كبائِرَ ما تُنهونَ عنه ﴾، اختلفوا في الكبائر التي جعل الله اجتنابَها تكفيراً للصغائر،

الأحاديث الواردة في الكبائر فمن ذلك ما روي عن أبي بكرة قال كنا عند رسول الله ﷺ فقال: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ثلاثاً قلنا بلى يا رسول الله قال: الإشراك بالله وعقوق الوالدين ألا وشهادة الزور وقول الزور وكان متكئاً فجلس فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت» أخرجاه في الصحيحين (ق) عن أنس بن مالك قال: «ذكر لنا رسول الله ﷺ الكبائر فقال: الشرك بالله وعقوق الوالدين وقتل النفس وقال ألا أنبئكم بأكبر الكبائر قول الزور أو قال شهادة الزور» (ق) عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «اجتنبوا السبع الموبقات» قيل يا رسول الله وما هن؟ قال: «الشرك بالله والسحر وقتل النفس التي حرم الله إلّا بالحق وأكل مال اليتيم والزنى والتولي يوم الزحف وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات» (خ) عن ابن مسعود قال: سألت رسول الله ﷺ أي الذنب أعظم عند الله؟ قال: «أن تجعل لله نداً وهو خلقك قلت إن ذلك لعظيم ثم أي قال أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك قلت ثم أي قال تزاني بحيلة جارك» (ق) عن عبدالله بن عمرو بن العاص أن النبي ﷺ قال: «الكبائر: الإشراك بالله وعقوق الوالدين وقتل النفس واليمين الغموس» وفي رواية أن أعرابياً جاء إلى النبي ﷺ فقال يا رسول الله ما الكبائر؟ قال: «الإشراك بالله قال ثم ماذا قال اليمين الغموس قلت وما اليمين الغموس قال الذي يقتطع مال امرىء مسلم بيمين هو فيها كاذب» (ق) عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن من الكبائر شتم الرجل والديه قالوا: وهل يشتم الرجل والديه؟ قال نعم: يسب الرجل أبا الرجل أو أمه: فيسب أباه أو أمه» وفي رواية من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه وذكر

أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا محمد بن مقاتل أنا النضر أخبرنا شعبة أنا فراس قال: سمعت الشعبي عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «الكبائر: الإشراكُ بالله، وعقوقُ الوالدين، وقتلُ النفس، واليمينُ الغَمُوس»، أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن إسماعيل أنا مسدد أنا بشر بن الفضل أنا الجريري عن عبد الرحمن بن أبي بكرة عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر»؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «الإشراكُ بالله عزّ وجلّ، وعقوقُ الوالدين، وجلسَ وكان متّكئاً فقال: ألا وقولُ الزُور، فما زال يُكرّرُها حتى قلنا ليتَه سكت»، أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحي أنا أبو سعيد محمد بن موسى الصيرفي أنا أبو عبد الله محمد بن عبد الله الصفار أنا أحمد بن عيسى البرني أنا محمد بن كثير أنا سفيان الثوري عن الأعمش ومنصور، وواصل الأحدب عن أبي وائل عن عمرو بن شرحبيل عن عبد الله رضي الله عنهما قال: قلتُ يا رسول الله أيُّ الذنب أكبر عند الله؟ قال: «أن تدعوَ للَّهِ نِدّاً وهو خلقك»، قلتُ: ثم أيُّ؟ قال: «أن تقتل ولدكَ خشيةَ أن يطعم معك»، قلتُ: ثم أيُّ؟ قال: «أن تزني بحليلة جارك»، فأنزل الله تعالى تصديقها: ﴿ والذينَ لا يدعونَ مع الله إلَهاً آخرَ ولا يقتلُونَ النفسَ التي حرَّمَ اللَّهُ إلّا بالحقِّ ولا يزنون ﴾ [الفرقان: ٦٨] الآية. أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا عبد العزيز بن عبد الله حدّثني سليمان عن ثور بن زيد عن أبي الغيث أنا أبو هريرة عن النبي ﷺ قال: «اجتنبوا السّبع المُوبقات»، قالوا: يا رسول الله وما هنّ؟ قال: «الشركُ بالله والسّحرُ وقتلُ النفس التي حرَّم الله إلّا بالحق، وأكل الرِّبا وأكل مال اليتيم، والتولّي يومَ الزحف، وقذفُ المحصنات المؤمنات الغافلات»، وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: أكبر الكبائر: الإشراكُ بالله والأمنُ من مكر الله والقنوطُ من رحمة الله واليأسُ من رَوحِ الله. أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا عبد الرحمن بن أبي شريح أنا أبو القاسم عبد الله بن محمد البغوي أنا علي بن الجعد أنا شعبة عن سعيد بن إبراهيم قال: سمعتُ حميد بن عبد الرحمن يحدّث عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «من الكبائر أن يسبَّ الرجلُ والديه»، قالوا: يا رسول الله وكيف يسبّ الرجل والديه؟ قال: «نعم يسبُّ الرجلُ أبا الرجلِ فَيسبُّ أباه ويسبُّ أُمه». وعن سعيد بن

الحديث. وقال عبدالله بن مسعود: أكبر الكبائر الإشراك بالله والأمن من مكر الله والقنوط من رحمة الله واليأس من روح الله وعند سعيد بن جبير أن رجلاً سأل ابن عباس عن الكبائر أسبع هي قال هي إلى السبعمائة أقرب وفي رواية إلى السبعين أقرب إلا أنه لا كبيرة مع استغفار ولا صغيرة مع إصرار وقال كل شيء عصي الله به فهو كبيرة فمن عمل شيئاً منها فليستغفر الله فإن الله لا يخلد في النار من هذه الأمة إلا من كان راجعاً عن الإسلام أو جاحداً فريضة أو مكذباً بقدر وقال علي بن أبي طالب: كل ذنب ختمه الله بنار أو غضب أو لعنة أو عذاب فهو كبيرة. وقال سفيان الثوري: الكبائر ما كان فيه المظالم فيما بينك وبين العباد والصغائر ما كان بينك وبين الله تعالى لأن الله تعالى كريم يغفر ويعفو واحتج لذلك بما روي عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «ينادي مناد من بطنان العرش يوم القيامة يا أمة محمد إن الله قد عفا عنكم جميعاً المؤمنين والمؤمنات تواهبوا المظالم وأدخلوا الجنة برحمتي» وقال مالك بن مغول: الكبائر ذنوب أهل البدع والسيئات ذنوب أهل السنة، وقيل الكبائر ذنوب العمد والسيئات الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه وحديث النفس المرفوع عن هذه الأمة وقال السّدي: الكبائر ما نهى الله عنه من الذنوب والسيئات مقدماتها وتوابعها للتي يقع فيها الصالح والفاسق مثل النظرة واللمسة والقبلة وأشباه ذلك (ق) عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال كتب على ابن آدم نصيبه من الزنى مدرك ذلك لا محالة العينان زناهما النظر والأذنان زناهما الاستماع، واللسان زناه الكلام واليد زناها البطش والرجل زناها الخطأ والقلب يهوى ويتمنى

جبير: أن رجلاً سأل ابن عباس رضي الله عنهما عن الكبائر: أسبع هي؟ قال: هي إلى السبعمائة أقرب إلّا أنه لا كبيرةَ مع الاستغفار ولا صغيرةَ مع الإصرار، وقال: كل شيء عُصيَ اللَّهُ به فهو كبيرة، فمَن عمل شيئاً منها فليستغفرْ فإنّ الله لا يُخلّد في النار من هذه الأمة إلّا راجعاً عن الإسلام أو جاحداً فريضة أو مكذّباً بقدر. وقال عبد الله بن مسعود: ما نهى الله تعالى عنه في هذه السورة إلى قوله: ﴿ إنْ تجتنبُوا كبائِرَ ما تُنهَونَ عنه ﴾، فهو كبيرة، وقال عليّ بن أبي طالب: هي كل ذنب ختمه الله بنارٍ أو غضبٍ أو لعنةٍ أو عذابٍ. وقال الضحاك: ما أوعد الله عليه حدّاً في الدنيا أو عذاباً في الآخرة. وقال الحسن بن الفضل: ما سمّاه الله في القرآن كبيراً أو عظيماً نحو قوله تعالى: ﴿ إنه كان حَوْباً كبيراً ﴾ [النساء: ٢]، ﴿ إنّ قتلَهم كان خطئاً كبيراً ﴾ [الإسراء: ٣]، ﴿ إنّ الشّركَ لظلمٌ عظيم ﴾ [لقمان: ١٣]، ﴿ إنّ كيدَكُنّ عظيم ﴾ [يوسف: ٢٨]، ﴿ سُبحانَكَ هذا بهتانٌ عظيم ﴾ [النور: ١٦]، ﴿ إنّ ذلكم كان عند الله عظيماً ﴾ [الأحزاب: ٥٣]، قال سفيان الثّوري: الكبائر ما كان فيه المظالم بينك وبين عباد الله تعالى، والصغائر ما كان بينك وبين الله تعالى، لأنّ الله كريمٌ يعفو، واحتجّ بما أخبرنا الشيخ أبو القاسم عبد الله بن علي الكرماني أنا أبو طاهر محمد بن محمش الزيادي أنا أبو جعفر محمد بن أحمد بن سعيد أنا الحسن بن داود البلخي أنا يزيد بن هارون أنا حميد الطويل عن أنس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «ينادي منادي من بطنان العرش يوم القيامة: يا أمّة محمد إنّ الله عزّ وجلّ قد عفَا عنكم جميعاً المؤمنين والمؤمنات، تواهبُوا المظالم وادخلوا الجنة برحمتي»، وقال مالك بن مغول: الكبائر ذنوب أهل البدع، والسيئات ذنوب أهل السُّنّة، وقيل: الكبائر ذنوب العمد والسيئات الخطأ والنسيان وما أكره عليه، وحديث النفس المرفوع عن هذه الأمة، وقيل: الكبائر ذنوب المستحلّين مثل ذنب إبليس والصغائر ذنوب المستغفرين مثل ذنب آدم عليه السلام، وقال السدي: الكبائر ما نهى الله عنه من الذنوب الكبائر، والسيئات مقدِّمَاتُها وتوابعها مما يجمع فيه الصالح والفاسق، مثل النظرة واللمسة والقبلة وأشباهها. قال النبيّ ﷺ: «العينان تزنيان، واليدان تزنيان، والرجلان تزنيان، ويُصدِّقُ ذلك الفرجُ أو يكذبه»، وقيل: الكبائر ما يستحقره العباد، والصغائر ما يستعظمونه فيخافون مواقعته، كما أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا الوليد أنا مهدي بن ميمون بن غيلان عن

ويصدق ذلك الفرج أو يكذبه لفظ مسلم، وقيل الكبائر الشرك وما يؤدي إليه وما دونه فهو من السيئات فقد ثبت بما تقدم من الأدلة أن من الذنوب كبائر وصغائر وإلى هذا ذهب الجمهور من السلف والخلف. وثبت بدلائل الكتاب والسنة وإذا ثبت انقسام المعاصي إلى صغائر وكبائر فقوله تعالى: إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه هي كل ذنب عظم قبحه وعظمت عقوبته إما في الدنيا بالحدود وإما في الآخرة بالعذاب عليه ﴿**نكفر عنكم سيئاتكم**﴾ يعني نسترها عليكم حتى تصير بمنزلة ما لم يعمل لأن أصل التكفير الستر والتغطية فصغار الذنوب تكفر بالحسنات ولا تكفر كبارها إلا بالتوبة والإقلاع عنها كما ورد في الصحيح عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة كفارات لما بينهن» زاد في رواية ما لم تغش الكبائر وزاد في رواية أخرى ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن إذا اجتنب الكبائر أخرجه مسلم. وقوله تعالى: ﴿**وندخلكم مدخلاً كريماً**﴾ يعني حسناً شريفاً وهو الجنة والمعنى إذا اجتنبتم الكبائر وأتيتم الطاعات ندخلكم مدخلاً تكرمون فيه. قوله عز وجل: .

﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ ۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ ۚ وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٣٢﴾﴾

﴿**ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض**﴾ أصل التمني إرادة الشيء وتشهي حصول ذلك الأمر المرغوب فيه ومنه حديث النفس بما يكون وبما لا يكون وقيل التمني تقدير الشيء في النفس وتصويره فيها وذلك قد يكون عن تخمين وظن، وقد يكون عن رؤية وأكثر التمني تصور ما لا حقيقة له وقيل التمني عبارة عن إرادة ما يعلم أو يظن أنه لا يكون، عن مجاهد عن أم سلمة قالت: قلت يا رسول الله يغزوا الرجال ولا تغزوا النساء وإنما لنا نصف الميراث فأنزل الله تعالى ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض قال مجاهد: وأنزل إن المسلمين والمسلمات وكانت أم سلمة أول ظعينة قدمت المدينة مهاجرة أخرجه الترمذي. وقال هذا حديث مرسل وقيل لما جعل الله للذكر مثل حظ الأنثيين من الميراث قالت النساء نحن أحق وأحوج إلى الزيادة من الرجال لأنا ضعيفات وهم أقوى وأقدر على طلب المعاش منا فأنزل الله تعالى هذه الآية وقيل لما نزل قوله للذكر مثل حظ الأنثيين قالت للرجال إنا لنرجو أن نفضل على النساء في الحسنات في الآخرة فيكون لنا أجرنا على ضعف أجر النساء كما فضلنا

أنس قال: إنّكم لتعملون أعمالاً هي أدقّ في أعينكم من الشعر، إنْ كنّا نعدّهم على عهد الله رسول الله ﷺ من الموبقات، وقيل: الكبائر الشرك، وما يؤدّي إليه، وما دون الشرك فهو من السيئات، قال الله تعالى: ﴿ إنّ اللّهَ لا يغفرُ أنْ يُشركَ به ويغفرَ ما دُونَ ذلكَ لمَنْ يشاء ﴾ [النساء: ٤٨ و١١٦]. ﴿ **نُكفِّرْ عنكم سيئاتِكم** ﴾ أي: من الصلاةِ إلى الصلاة ومنَ الجمعة إلى الجمعة ومن رَمضان إلى رمضان. أخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر أنا عبد الغافر بن محمد أنا محمد بن عيسى الجلودي أنا إبراهيم بن محمد بن سفيان أنا مسلم بن الحجّاج حدّثني هارون بن سعيد الأيلي أنا ابن وهب عن أبي صخر أن عمر بن إسحق مولى زائدة حدّثه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ يقول: «الصلواتُ الخمسُ والجمعةُ إلى الجمعةِ، ورمضانُ إلى رمضان، مُكفّراتٌ لِمَا بينهم ما اجتُنب الكبائر». قوله تعالى: ﴿ **ونُدْخِلْكُمْ مُدْخلاً كريماً** ﴾، أي: حسناً وهو الجنة، قرأ أهل المدينة (مَدخلاً) بفتح الميم ههنا وفي الحج، وهو موضع الدخول، وقرأ الباقون بالضم على المصدر بمعنى الإدخال.

قوله تعالى: ﴿ **ولا تَتَمنَّوا ما فضّلَ اللّهُ به بعضَكم على بعض** ﴾ الآية، قال مجاهد: قالتْ أُم سلمة: يا رسول الله إنّ الرجال يغزون ولا نغزوا ولهم ضِعفُ ما لنا مِنَ الميراث، فلو كنّا رجالاً غزونا كما غزوا وأخذنا من الميراث مثل ما أخذوا. فنزلت هذه الآية. وقيل: لمّا جعل الله عزّ وجلّ للذّكر مثلُ حظ الأُنثيين في الميراث، قالت النساء:

عليهن في الميراث، وقالت النساء إنا لنرجو أن يكون الوزر علينا نصف ما على الرجال كما لنا في الميراث النصف من نصيبهم. فنزلت هذه الآية والتمني على قسمين: أحدهما أن يتمنى الإنسان أن يحصل له مال غيره مع زوال تلك النعمة عن ذلك الغير فهذا القسم هو الحسد وهو مذموم لأن الله تعالى يفيض نعمه على من يشاء من عباده وهذا الحاسد يعترض على الله تعالى فيما فعل وربما اعتقد في نفسه أنه أحق بتلك النعمة من ذلك الإنسان أيضاً فهذا اعتراض على الله أيضاً وهو مذموم. القسم الثاني أن يتمنى مثل مال غيره ولا يحب أن يزول ذلك المال عن الغير وهذا هو الغبطة وهذا ليس بمذموم. ومن الناس من منع منه أيضاً قال لأن تلك النعمة ربما كانت مفسدة في حقه في الدين والدنيا. قال الحسن: لا تتمنى مال فلان ولا تدري لعل هلاكك في ذلك المال فيعلم العبد أن الله عزّ وجلّ أعلم بمصالح عباده فليرضَ بقضائه ولتكن أمنيته الزيادة من عمل الآخرة وليقل: اللّهم اعطني ما يكون صلاحاً في ديني ودنياي ومعادي. وقوله تعالى: ﴿**للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن**﴾ قال ابن عباس: يعني مما ترك الوالدان والأقربون من الميراث يقول للذكر مثل حظ الأنثيين وقيل هذا الاكتساب في الآخرة يعني أن الرجال والنساء في الأجر في الآخرة سواء لأن الحسنة بعشر أمثالها والسيئة بمثلها يستوي في ذلك الرجال والنساء وإن فضل الرجال في الدنيا على النساء وقيل للرجال نصيب مما اكتسبوا من أمر الجهاد وللنساء نصيب مما اكتسبن يعني من طاعة الأزواج وحفظ الفروج ﴿**واسألوا الله من فضله**﴾ قال ابن عباس: يعني من رزقه وقيل من عبادته وهو سؤال التوفيق للعبادة وقيل لم يأمر الله عباده بالمسألة إلا ليعطيهم وفيه تنبيه على أن العبد لا يعين شيئاً في الدعاء والطلب لكن يطلب من فضل الله ما يكون سبباً لصلاح دينه ودنياه وآخرته وقيل لما تمنى النساء أن يكن رجالاً وأن يكون لهن مثل ما للرجال نهاهن الله عن ذلك وأمرهن أن يسألوه من فضله فإنه أعلم بمصالح عباده ﴿**إن الله كان بكل شيء عليماً**﴾ يعني أنه تعالى عليم بما يكون صلاحاً للسائلين فليقتصر السائل على المجمل في الطلب فإن الله تعالى عليم بما يصلحه فلا يتمنى غير الذي قدر له. قوله تعالى:.

نحنْ أحقُّ وأحوج إلى الزيادة من الرجال، لأنّا ضعيفات وهم أقوى وأقدر على طلب المعاش، فأنزل الله تعالى: ﴿ **ولا تتمنّوا ما فضّلَ اللّهُ به بعضَكم على بعض** ﴾، وقال قتادة والسدي لمّا أنزل الله قوله: ﴿ للذكر مثلُ حظّ الأنثيين ﴾ [النساء: ١١] قال الرجل إنّا لنرجو أن نُفضل على النساء بحسناتنا في الآخرة فيكون أجرُنا على الضعف من أجر النساء كما فُضّلنا عليهنّ في الميراث فقال الله تعالى: ﴿ **للرجال نصيبٌ مما اكتسبُوا** ﴾ من الأجْر ﴿ **وللنّساء نصيبٌ مما اكتسبن** ﴾ معناه: أن الرجال والنساء في الأجْر في الآخرة سواء، وذلك أن الحسنة تكون بعشرة أمثالها يستوي فيها الرجال والنساء، وإنّ فضّل الرجال في الدنيا على النساء، وقيل: معناه للرجال نصيب مما اكتسبُوا من أمر الجهاد وللنساء نصيب مما اكتسبن من طاعة الأزواج وحفظ الفروج. قوله تعالى: ﴿ **واسألُوا اللّهَ مِنْ فضله** ﴾، قرأ ابن كثير والكسائي «وسلوا، وسل، وفسل» إذا كان قبل السين واو أو فاء بغير همز، ونقل حركة الهمزة إلى السين، والباقون بسكون السين مهموزاً. فنهى الله تعالى عن التمنّي لِما فيه من دواعي الحسد، والحسد أن يتمنى الرجل زوالَ النعمة عن صاحبه سواء تمنّاها لنفسه أمْ لا، وهو حرام، والغِبطة، أن يتمنى لنفسه مثل ما لصاحبه وهو جائز. قال الكلبي: لا يتمنى الرجلُ مالَ أخيه ولا امرأته ولا خادمه، ولكن ليقل اللّهمَّ ارزقني مثله، وهو كذلك في التوراة وذلك في القرآن. وقوله: ﴿ **واسألوا الله من فضله** ﴾ أي: من رزقه، قال سعيد بن جبير: من عبادته، فهو سؤال التوفيق للعبادة، قال سفيان بن عيينة: لم يأمرْ بالمسألة إلاّ ليُعطي. ﴿ **إنّ اللّهَ كان بكل شيءٍ عليماً** ﴾.

﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِيَ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ ۚ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا (٣٣)﴾

﴿ولكل﴾ يعني من الرجال والنساء ﴿جعلنا موالي﴾ يعني ورثة من بني عم وإخوة سائر العصبات ﴿مما ترك﴾ يعني يرثون مما ترك ﴿الوالدان والأقربون﴾ من ميراثهم فعلى هذا الوالدان والأقربون هم المورثون وقيل معناه ولكل جعلنا موالي أي ورثة مما ترك وتكون ما بمعنى يعني من من تركهم الميت ثم فسر الموالي فقال الوالدان والأقربون هم الوارثون. والمعنى ولكل شخص جعلنا ورثة ممن تركهم وهم والداه وأقربوه والقول الأول أصح لأنه مروي عن ابن عباس وغيره ﴿والذين عاقدت أيمانكم﴾ وقرىء عقدت بغير ألف مع التخفيف والمعاقدة المحالفة والمعاهدة والأيمان جمع يمين يحتمل أن يراد بها القسم أو اليد أو هما جميعاً وذلك أنهم كانوا إذا تحالفوا أخذ كل واحد منهم بيد صاحبه وتحالفوا على الوفاء بالعهد والتمسك بذلك العقد. وكان الرجل يحالف الرجل في الجاهلية ويعاقده فيقول دمي دمك، وهدمي هدمك، وثأري ثأرك وحربي حربك، وسلمي سلمك ترثني وأرثك وتطلب بي وأطلب بك وتعقل عني وأعقل عنك فيكون لكل واحد من الحليفين السدس في مال الآخر وكان الحكم ثابتاً في الجاهلية وابتداء الإسلام فذلك قوله تعالى:

﴿فآتوهم نصيبهم﴾ يعني أعطوهم حظهم من الميراث ثم نسخ الله هذا الحكم بقوله وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله. وقال ابن عباس: نزلت هذه الآية في الذين آخى بينهم رسول الله ﷺ من المهاجرين والأنصار لما قدموا المدينة وكانوا يتوارثون بتلك المؤاخاة دون النسب والرحم، فلما نزلت ولكل جعلنا موالي مما ترك الوالدان نسختها ثم قال والذين عاقدت أيمانكم من النصر والرفادة والنصيحة وقد ذهب الميراث ويوصي له وفي رواية أخرى عنه. قال والذين عاقدت أيمانكم فآتوهم نصيبهم كان الرجل يحالف الرجل ليس بينهما نسب فيرث أحدهما كالآخر فنسخ ذلك بسورة الأنفال فقال ﴿وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله﴾ وقال سعيد بن المسيب: كانوا يتوارثون بالتبني بهذه الآية ثم نسخ ذلك وذهب قوم إلى أن الآية ليست بمنسوخة بل حكمها باقٍ والمراد بقوله والذين عاقدت أيمانكم الحلفاء والمراد من قوله فآتوهم نصيبهم يعني من النصرة والنصيحة والموافاة والمصافاة ونحو ذلك فعلى هذا لا تكون منسوخة وقيل نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق عن داود بن الحصين قال: كنت أقرأ على أم سعد بنت الربيع وكانت يتيمة في حجر أبي بكر الصديق، فقرأت والذين عاقدت

﴿ ولكلٍّ جعلنا مَوالِيَ ﴾ أي: ولكل واحد من الرجال والنساء جعلنا موالي، أي: عصبة يُعطون ﴿ ممّا ترك الوالدانِ والأقربُون ﴾، الوالدان والأقربون هم المورثـون، وقيل: معناه ولكلٍّ جعلنا موالي أي: ورثة ممّا ترك أي: من الذين تركوهم ويكون ﴿ ما ﴾ بمعنى (من)، ثم فسّر (الموالي) فقال: الوالدانِ والأقربون، أي: هم الوالدان والأقربون، فعلى هذا القول: الوالدان والأقربون هم الوارثون، ﴿ والذينَ عَقَدَتْ أيمانُكم ﴾، قرأ أهل الكوفة ﴿ عقدت ﴾ بلا ألف، أي: عقدت لهم أيمانكم، وقرأ الآخرون « عاقدت أيمانكم » والمعاقدة: المحالفة والمعاهدة، والأيمان جمع يمين، من اليد والقسم، وذلك أنهم كانوا عند المخالفة يأخذ بعضُهم بيد بعض على الوفاء والتمسّك بالعهد. ومحالفتُهم أن الرجل كان في الجاهلية يعاقد الرجل فيقول: دمي دمك وثأري ثأرك وحربي حربك وسِلْمِي سِلْمُك وترثني وأرثك وتطلب بي وأطلب بك وتَعْقِلُ عنّي وأعقل عَنْك فيكون للحليف السدس من مال الحليف، وكان ذلك في ابتداء الإسلام فذلك قوله تعالى: ﴿ فآتوهم نصيبَهم ﴾ أي: أعطوهم حظَّهم من الميراث، ثم نُسخ ذلك بقوله تعالى: ﴿ وأُولُوا الأرحام بعضُهم أوْلَى ببعضٍ في كتابِ الله ﴾ [الأنفال: ٧٥]، وقال

أيمانكم فقالت: لا تقرأ والذين عقدت أيمانكم إنما نزلت في أبي بكر وابنه عبد الرحمن حين أبى الإسلام فحلف أبو بكر أن لا يورثه فلما أسلم أمره الله أن يؤتيه نصيبه أخرجه أبو داود على هذا فلا نسخ أيضاً فمن قال إن حكم الآية باق قال: إنما كانت المعاقدة في الجاهلية على النصرة لا غير والإسلام لم يغير ذلك ويدل عليه ما روي عن جبير بن مطعم قال: قال رسول الله ﷺ: «لا حلف في الإسلام وأيما حلف كان في الجاهلية لم يزده الإسلام إلا شدة» أخرجه مسلم. وقوله تعالى: ﴿**إن الله كان على كل شيء شهيداً**﴾ قال عطاء: يريد أنه لم يغب عنه علم ما خلق وبرأ فعلى هذا الشهيد بمعنى الشاهد والمراد منه علمه بجميع الأشياء وقيل الشهيد على الخلق يوم القيامة بكل ما عملوه فعلى هذا الشاهد بمعنى المخبر وفيه وعد للطائعين ووعيد للعصاة المخالفين. قوله عز وجل:.

﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ ۚ وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ ۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴿٣٤﴾﴾

﴿**الرجال قوامون على النساء**﴾ نزلت في سعد بن الربيع وكان من النقباء وفي امرأته حبيبة بنت زيد بن أبي زهير، ويقال امرأته بنت محمد بن مسلمة وذلك أنها نشزت عليه فلطمها فانطلق أبوها معها إلى رسول الله ﷺ فقال أفرشته كريمتي فلطمها فقال النبي ﷺ لتقتص من زوجها فانصرفت مع أبيها لتقتص منه فقال النبي ﷺ ارجعوا هذا جبريل أتاني فأنزل الله تعالى هذه الآية فقال النبي ﷺ أردنا أمراً وأراد الله أمراً والذي أراد الله خير ورفع القصاص فقوله تعالى: ﴿**الرجال قوامون على النساء**﴾ أي متسلطون على تأديب النساء والأخذ على أيديهن قال ابن عباس: أمروا عليهن فعلى المرأة أن تطيع زوجها في طاعة الله والقوام هو القائم بالمصالح والتدبير والتأديب فالرجل يقوم بأمر المرأة ويجتهد في حفظها ولما أثبت القيام للرجال على النساء بيّن السبب في ذلك فقال تعالى: ﴿**بما فضل الله**

إبراهيم ومجاهد: أراد فآتوهم نصيبهم من النصر والرفد ولا ميراث لهم، وعلى هذا تكون هذه الآية غير منسوخة لقوله تعالى: ﴿ **أوفوا بالعقود** ﴾ [المائدة: ١] وقال رسول الله ﷺ في خطبة يوم فتح مكة: «لا تحدثون حِلْفاً في الإسلام، وما كان من حلف في الجاهلية فتمسّكوا فيه فإنّه لم يزدْه الإسلام إلاّ شِدّة». وقال ابن عباس رضي الله عنهما: أنزلت هذه الآية في الذين آخى بينهم رسول الله ﷺ من المهاجرين والأنصار حين قَدِمُوا المدينة وكانوا يتوارثون بتلك المؤاخاة دون الرحم، فلمّا نزلت ﴿ **ولكلٍّ جعلنا موَالِيَ** ﴾ نسخت، ثم قال: ﴿ **والذين عَقَدَتْ أيمانُكم فآتوهم نصيبَهم** ﴾ من النصر والرفادة والنصيحة، وقد ذهب الميراث فيوصي له. وقال سعيد بن المسيب: كانوا يتوارثون بالتبنّي وهذه الآية فيه ثم نُسخ. ﴿ **إنّ اللّهَ كان على كل شيءٍ شهيداً** ﴾.

﴿ **الرِّجالُ قوّامُونَ على النّساء** ﴾، الآية نزلت في سعد بن الربيع وكان من النقباء وفي امرأته حبيبة بنت زيد بن أبي زهير، قاله مقاتل، وقال الكلبي: امرأته حبيبة بنت محمد بن مسلمة وذلك أنها نشزت عليه فلطمها، فانطلق أبوها معها إلى النبي ﷺ فقال: أفرشتُه كريمتي فلطمها، فقال النبي ﷺ: «لتقتصّ من زوجها»، فانصرفت مع أبيها لتقتصّ منه فجاء جبريل عليه السلام فقال النبيّ ﷺ: «ارجعوا هذا جبريل أتاني بشيء»، فأنزل الله هذه الآية، فقال النبي ﷺ: «أردنا أمراً وأراد الله أمراً، والذي أراد الله خير»، ورفع القِصَاصَ. قوله تعالى: ﴿ **الرّجالُ قوّامُون على النساء** ﴾ أي: مُسلّطون على تأديبهنّ، والقوّام والقيّم بمعنى واحد، والقوّام أبلغ وهو القائم بالمصالح والتدبير والتأديب، ﴿ **بما فضّلَ اللّهُ بعضهم على بعضٍ** ﴾، يعني: فضّل الرجال على النساء بزيادة العقل والدين

بعضهم على بعض﴾ يعني أن الله تعالى فضل الرجال على النساء بأمور منها زيادة العقل والدين والولاية والشهادة والجهاد والجمعة والجماعات وبالإمامة لأن منهم الأنبياء والخلفاء والأئمة ومنها أن الرجل يتزوج بأربع نسوة ولا يجوز للمرأة غير زوج واحد ومنها زيادة النصيب في الميراث والتعصيب في الميراث وبيده الطلاق والنكاح والرجعة وإليه الانتساب فكل هذا يدل على فضل الرجل على النساء ثم قال تعالى: ﴿وبما أنفقوا من أموالهم﴾ يعني وبما أعطوا من مهور النساء والنفقة عليهن عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لو كنت آمراً أحداً أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها» أخرجه الترمذي ﴿فالصالحات﴾ يعني المحسنات العاملات بالخير ﴿قانتات﴾ أي مطيعات لأزواجهن وقيل مطيعات لله ﴿حافظات للغيب﴾ لفروجهن في غيبة أزواجهن لئلا يلحق الزوج العار بسبب زناها ويلحق به الولد الذي هو من غيره وقيل معناه حفظ سر زوجها وحفظ ماله وما يجب على المرأة من حفظ متاع البيت في غيبة زوجها عن أبي هريرة قال قيل يا رسول الله أي النساء خير قال التي تسره إذا نظر إليها وتطيعه إذا أمر ولا تخالفه في نفسها ولا مالها بما يكره أخرجه النسائي ورواه البغوي بسند الثعلبي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «خير النساء امرأة إذا نظرت إليها سرتك وإذا أمرتها أطاعتك وإذا غبت عنها حفظتك في مالها ونفسها» ثم تلا: ﴿الرجال قوامون على النساء﴾ الآية. وقوله تعالى: ﴿بما حفظ الله﴾ يعني بما حفظهن الله حين أوصى بهن الأزواج وأمرهم بأداء المهر والنفقة إليهن (ق) عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «استوصوا بالنساء خيراً فإن المرأة خلقت من ضلع أعوج وإن أعوج ما في الضلع أعلاه فإن ذهبت تقيمه كسرته وإن تركته لم يزل أعوج فاستوصوا بالنساء» وقيل في معنى الآية بما حفظهن الله وعصمهن ووفقهن لحفظ الغيب وقيل بما حفظ الله من حقوقهن على أزواجهن حيث أمرهم بعدل فيهن وإمساكهن بمعروف أو تسريحهن بإحسان ﴿واللاتي تخافون﴾ أي تعلمون وقيل تظنون ﴿نشوزهن﴾ أي شرورهن وأصل النشوز الارتفاع ونشوز المرأة هو بغضها لزوجها ورفع نفسها عن طاعته والتكبر عليه وقيل دلالات النشوز قد تكون بالقول والفعل. فالقول مثل إن كانت تلبيه إذا دعاها وتخضع له إذا خاطبها والفعل مثل إن كانت تقوم له إذا دخل عليها وتسرع إلى أمره إذا أمرها فإذا خالفت هذه الأحوال بأن رفعت صوتها عليه أو لم تجبه إذا دعاها ولم تبادر إلى أمره إذا أمرها دل ذلك على نشوزها على زوجها ﴿فعظوهن﴾ يعني إذا ظهر منهن أمارات النشوز فعظوهن بالتخويف بالقول وهو أن يقول لها اتقي الله وخافيه فإن لي عليك حقاً وارجعي عما أنت عليه، واعلمي أن طاعتي فرض عليك ونحو ذلك فإن أصرت على ذلك هجرها في المضجع وهو قوله تعالى: ﴿واهجروهن في المضاجع﴾ يعني إن لم ينزعن عن ذلك بالقول فاهجروهن في المضاجع. قال ابن عباس: هو أن يوليها ظهره في الفراش ولا يكلمها وقيل هو أن يعتزل عنها إلى فراش آخر ﴿واضربوهن﴾ يعني إن لم ينزعن بالهجران فاضربوهن يعني ضرباً غير مبرح ولا شائن

والولاية، وقيل: بالشهادة لقوله تعالى: ﴿ فإن لم يكونا رجلين فرجلٌ وامرأتان ﴾ [البقرة: ٢٨٢] وقيل: بالجهاد، وقيل: بالعبادات من الجمعة والجماعة، وقيل: هو أنّ الرجل ينكح أربعاً ولا يحلّ للمرأة إلّا زوج واحد، وقيل: بأن الطلاق بيده، وقيل: بالميراث، وقيل: بالدِّيَة، وقيل: بالنبوّة، ﴿ وبما أنفقوا منْ أموالِهم ﴾، يعني: إعطاء المهر والنفقة، أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحي أخبرنا أبو سعيد محمد بن موسى الصيرفي قال: أخبرنا أبو عبد الله محمد بن عبد الله الصفار أنا أحمد بن محمد بن عيسى البرني أنا أبو حذيفة أنا سفيان عن الأعمش عن أبي ظبيان عن معاذ بن جبل رضي اللَّهُ عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لو أمرتُ أحداً أن يسجد لأحدٍ لأمرتُ المرأةَ أن تسجدَ لزوجها» قوله تعالى: ﴿ فالصالحاتُ قانتاتٌ ﴾، أي: مطيعات ﴿ حافظاتٌ للغيب ﴾، أي: حافظات للفروج في غيبة الأزواج، وقيل: حافظات لسرِّهم ﴿ بما حفظ الله ﴾، قرأ أبو جعفر ﴿ بما حفظ اللهَ ﴾ بالنصب، أي: يحفظن الله في الطاعة، وقراءة العامّة بالرفع، أي: بما حفظهنّ الله بإيصاء الأزواج بحقهنّ وأمرهم بأداء المهر والنفقة.

قيل هو أن يضربها بالسواك ونحوه. وقال الشافعي: الضرب مباح وتركه أفضل عن عمرو بن الأحوص أنه سمع رسول الله ﷺ في حجة الوداع يقول بعد أن حمد الله وأثنى عليه وذكر ووعظ فذكر في الحديث قصة فقال: «ألا فاستوصوا بالنساء خيراً فإنما هن عوان عندكم ليس تملكون منهن شيئاً غير ذلك إلا أن تأتين بفاحشة مبينة فإن فعلن فاهجروهن في المضاجع واضربوهن ضرباً غير مبرح فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً» أخرجه الترمذي بزيادة فيه قوله عوان جمع عانية أي أسيرة شبه المرأة ودخولها تحت حكم زوجها بالأسير والضرب المبرح الشديد الشاق. وقوله: ﴿فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً﴾ أي لا تطلبوا عليهن طريقة تحتجون بها عليهن إذا قمن بواجب حقكم عن حكيم بن معاوية عن أبيه. قال: قلت يا رسول الله ما حق زوجة أحدنا عليه قال: «أن تطعمها إذا طعمت وتكسوها إذا اكتسبت ولا تضرب الوجه ولا تقبح ولا تهجر إلا في البيت» أخرجه أبو داود قوله ولا تقبح أي لا تقل قبحك الله (ق) عن عبدالله بن زمعة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يجلد أحدكم امرأته جلد العبد ثم لعله يجامعها أو قال يضاجعها من آخر اليوم» عن إياس بن عبدالله بن أبي ذئاب قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تضربوا النساء» فجاء عمر إلى رسول الله ﷺ فقال: «زبرت النساء على أزواجهن» فرخص في ضربهن فأطاف بآل رسول الله ﷺ نساء كثيرون يشكون أزواجهن فقال رسول الله ﷺ: «لقد طاف بآل محمد نساء كثير يشكون أزواجهن ليس أولئك بخياركم» أخرجه أبو داود. إياس بن عبدالله هذا قد اختلف في صحبته وقال البخاري لا يعرف له صحبة قوله زبرت يقال زبرت المرأة على زوجها نشزت واجترأت عليه وأطاف بالشيء أحاط به. ففي هذه الأحاديث دليل على أن الأولى ترك الضرب للنساء فإن احتاج إلى ضربها لتأديب فلا يضربها ضرباً شديداً وليكن ذلك مفرقاً ولا يوالي بالضرب على موضع واحد من بدنها وليتق الوجه لأنه يجمع المحاسن ولا يبلغ بالضرب عشرة أسواط وقيل ينبغي أن يكون الضرب بالمنديل واليد ولا يضرب بالسوط والعصا وبالجملة فالتخفيف بأبلغ شيء أولى في هذا الباب واختلف العلماء فقال بعضهم حكم الآية مشروع على الترتيب فإن ظاهر اللفظ وإن دل على الجمع إلا أن مجرى الآية يدل على الترتيب قال علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه: يعظها بلسانه فإن انتهت فلا سبيل له عليها، فإن أبت هجر مضجعها فإن أبت ضربها فإن لم تتعظ بالضرب بعث الحكم. وقال الآخرون هذا الترتيب مراعى عند خوف النشوز أما عند تحقق النشوز فلا بأس بالجمع بين الكل وقيل له أن يعظها عند خوف النشوز وهل له أن يهجرها فيه احتمال ذلك وله عند ظهور النشوز أن يعظها وأن يهجرها أو يضربها عن عمر رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لا يُسأل الرجل فيم ضرب امرأته» أخرجه أبو داود (ق) عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا دعا الرجل امرأته إلى فراشه فأبت أن تجيء فبات غضبان عليها لعنتها الملائكة حتى تصبح» وفي رواية أن رسول الله ﷺ قال: «والذي نفسي بيدَهَ ما من رجل يدعو امرأته إلى فراشه فتأبى عليه إلاّ كان الذي في السماء

وقيل: حافظات للغيب بحفظ الله، أخبرنا أبو سعيد الشريحي أنا أبو إسحاق الثعلبي أنا أبو عبدالله بن فنجويه أخبرنا عمر بن الخطاب أنا محمد بن إسحق المسوحي أنا الحارث بن عبد الله أنا أبو معشر عن سعيد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «خيرُ النساءِ امرأةٌ إنْ نظرتَ إليها سرّتْكَ وإنْ أمرتَها أطاعتْكَ وإذا غِبْت عنها حفظتْكَ في مالها ونفسِها»، ثم تلا: ﴿ الرِّجال قوّامونَ على النساء ﴾ الآية. ﴿ واللاّتي تخافُون نُشوزَهنّ ﴾، عصيانهنّ، وأصل النشوز: التكبّر والارتفاع، ومنه النشز للموضع المرتفع، ﴿ فعِظُوهُنّ ﴾، بالتخويف من الله والوعظ بالقول، ﴿ واهْجُرُوهُنّ ﴾، يعني: إن لم ينزِعْنَ عن ذلك بالقول فاهْجُروهنّ ﴿ في المَضَاجعِ ﴾، قال ابن عباس: يوليهـا ظهره في الفراش ولا يكلّمها، وقال غيره: يعتزل عنها إلى فراش آخر، ﴿ واضْرِبُوهـنّ ﴾ يعني: إنْ لم ينزعْنَ من الهجرانِ فاضربُوهنّ ضرباً غير مُبرّح ولا شائن، وقال عطاء: ضرباً بالسِواك وقد جاء في الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «حقُّ المرأةِ أن تُطعمَها إذا طَعِمتَ وتكسوَها إذا اكتسيتَ ولا تضربِ الوجهَ ولا تُقبّحْ ولا تهجرْ إلاّ

ساخطاً عليها حتى يرضى عنها» وفي رواية: «إذا باتت مهاجرة فراش زوجها لعنتها الملائكة حتى تصبح وفي أخرى» حتى ترجع عن طلق بن علي أن رسول الله ﷺ قال: «إذا دعا الرجل امرأته إلى حاجته فلتأته وإن كانت على التنور» أخرجه الترمذي وله عن معاذ بن جبل أن رسول الله ﷺ قال: «لا تؤذي امرأة زوجها في الدنيا إلا قالت زوجته من الحور العين لا تؤذيه قاتلك الله فإنما هو دخيل عندك يوشك أن يفارقك إلينا» وله عن أم سلمة قالت قال رسول الله ﷺ: «أيما امرأة ماتت وزوجها راض عنها دخلت الجنة» وقوله تعالى: ﴿فإن أطعنكم﴾ يعني فإن رجعن عن النشوز إلى طاعتكم عند هذا التأديب فلا تبغوا عليهن سبيلاً يعني فلا تطلبوا عليهن الضرب والهجران على سبيل التعنت والإيذاء، وقيل معناه أزيلوا عنهن التعرض بالأذى والتوبيخ ولا تجنوا عليهن الذنوب وقيل معناه لا تكلفوهن محبتكم فإن القلب ليس بأيديهن ﴿إن الله كان علياً كبيراً﴾ العلي الكبير في صفة الله تعالى معناه الرفيع الذي يعلو عن وصف الواصفين ومعرفة العارفين العلي بالإطلاق الذي يستحق جميع صفات المدح والتكبير هو المستغني عن غيره وذلك هو الله تعالى الموصوف بالجلال والعظمة والكبرياء وكبر الشأن الذي يصغر كل أحد لكبريائه وعظمته تعالى، والمعنى إن الله متعال من أن يكلف عباده ما لا يطيقونه. وقيل إن النساء وإن ضعفن عن دفع ظلم الرجال عنهن فإن الله علي كبير قادر على أن ينتصف لهن ممن ظلمهن من الرجال وقيل معناه أن الله مع علوه وكبريائه يقبل توبة العاصي إذا تاب ويغفر له فإذا تابت المرأة من نشوزها، فالأولى بكم أن تقبلوا توبتها وتتركوا معاتبتها واعلموا أن قدرته عليكم أعظم من قدرتكم على من تحت أيديكم فأنتم أحق بالعفو عمن جنى عليكم. قوله تعالى: .

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُواْ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴿٣٥﴾﴾

﴿وإن خفتم﴾ يعني وإن علمتم وتيقنتم وقيل معناه الظن أي ظننتم ﴿شقاق بينهما﴾ يعني بين الزوجين وأصل الشقاق المخالفة وكون كل واحد من المتخالفين في شق غير شق صاحبه أو يكون أصله من شق العصا وهو أن يقول كل واحد من الزوجين ما يشق على صاحبه سماعه، وذلك أنه إذا ظهر بين الزوجين شقاق ومخالفة واشتبه حالهما ولم يفعل الزوج الصلح ولا الصفح ولا الفرقة وكذلك الزوجة لا تؤدي الحق ولا الفدية وخرجا إلى ما لا

في البيت». ﴿ فإنْ أطعنكم فلا تَبْغُوا عليهنّ سبيلاً ﴾، أي: لا تجنُوا عليهنّ الذنوبَ، وقال ابن عُيينة: لا تكلّفوهنّ محبتَكم فإنّ القلبَ ليس بأيديهنّ. ﴿ إنّ اللّهَ كانَ علياً كبيراً ﴾، متعالياً من أن يُكلِّفَ العبادَ ما لا يُطيقونه، وظاهر الآية يدلّ على أنّ الزوجَ يجمع عليها بين الوعظ والهجران والضرب، فذهب بعضهم إلى ظاهرها وقال: إذا ظهر النشوز جمع بين هذه الأفعال، وحمل الخوف في قوله: ﴿ واللاّتي تخافونَ نُشوزهنّ ﴾، على العلم كقوله تعالى: ﴿ فمنْ خافَ من مُوصٍ جنفاً ﴾ [البقرة: ١٨٢] أي: علم، ومنهم منْ حملَ الخوفَ على الخشية لا على حقيقة العلم، كقوله تعالى: ﴿ وإمّا تَخافنّ من قومٍ خيانةً ﴾ [الانفال: ٥٨]، وقال: هذه الأفعال على ترتيب الجرائم، فإن خافَ نُشوزَها بأن ظهرتْ أمارتُه منها مِنَ المُخاشنةِ وسُوءِ الخُلق وَعَظَها، فإن أبدتِ النشوزَ هجَرَها، فإن أصرّتْ على ذلك ضَرَبها.

قوله تعالى: ﴿ وإنْ خِفتُمْ شِقاقَ بَيْنِهِمَا ﴾، يعني: خلافاً بين الزوجين، والخوفُ بمعنى اليقين، وقيل: هو بمعنى الظنّ يعني: إن ظننتم شقاقَ بينهما، وجملتُه أنه إذا ظهر بين الزوجين شقاقٌ واشتبه حالهما فلم يفعل الزوج الصفح ولا الفرقة ولا المرأة تأدية الحق ولا الفدية وخرجا إلى مَا لَا يحلّ قولاً وفعلاً بعث الإمام حكماً من أهله إليه

يحل قولاً وفعلاً. قوله تعالى: ﴿فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها﴾ اختلفوا في المخاطبين بهذا ومن المأمور ببعثة الحكمين، فقيل المخاطب بذلك هو الإمام أو نائبه لأن تنفيذ الأحكام الشرعية إليه وقيل المخاطب بذلك كل أحد من صالحي الأمة لأن قوله تعالى فابعثوا خطاب الجمع وليس حمله على البعض أولى من حمله على البعض أولى من حمله على البقية فوجب حمله على الكل فعلى هذا يجب أن يكون أمراً لآحاد الأمة سواء وجد الإمام أو لم يوجد. فللصالحين أن يبعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها، وأيضاً فهذا يجري مجرى دفع الضرر فلكل واحد أن يقول به وقيل وهو خطاب للزوجين فإذا حصل بينهما شقاق بعثا حكمين حكماً من أهله وحكماً من أهلها ﴿إن يريدا إصلاحاً﴾ يعني الحكمين وقيل الزوجين ﴿يوفق الله بينهما﴾ يعني بالصلاح والألفة روى الشافعي بسنده عن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه أنه جاءه رجل وامرأة ومع كل واحد منهما فئام من الناس فقال: علام شأن هذين؟ قالوا: وقع بينهما شقاق قال علي فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها ثم قال للحكمين تدريان ما عليكما؟ عليكما إن رأيتما أن تجمعا جمعتما وإن رأيتما أن تفرقا فرقتما فقالت المرأة رضيت بكتاب الله بما علي فيه ولي وقال الرجل أما الفرقة فلا قال علي كذبت والله حتى تقر بمثل ما أقرت به. قال الشافعي: والمستحب أن يبعث الحاكم عدلين ويجعلهما حكمين والأولى أن يكون واحد من أهله وواحد من أهلها لأن أقاربهما أعرف بحالهما من الأجانب وأشد طلباً للإصلاح فإن كانا أجنبيين جاز وفائدة الحكمين أن كل واحد منهما يخلو بصاحبه ويستكشف حقيقة الحال ليعرف أن رغبته في الإقامة على النكاح أو في المفارقة ثم يجتمعان فيفعلان ما هو الصواب من اتفاق أو طلاق أو خلع والحكمان وكيلان للزوجين وهل يجوز تنفيذ أمر يلزم الزوجين دون رضاهما وإذنهما في ذلك مثل أن يطلق حكم الرجل أو يفتدي حكم المرأة بشيء من مالها، فللشافعي في ذلك قولان: أحدهما أنه لا يجوز إلا برضاهما وليس الحكم الزوج أن يطلق إلا بإذنه ولا لحكم المرأة أن يختلع بشيء من مالها إلا بإذنها وهو مذهب أبي حنيفة وأحمد لأن علياً توقف حين لم يرضَ الزوج وذلك حين قال أما الفرقة فلا فقال له علي كذبت حتى تقر بمثل ما أقرت به فثبت أن تنفيذ الأمر موقوف على إقراره ورضاها ومعنى قول علي للزوج كذبت أي لست بمنصف في دعواك حيث لم تقر بمثل ما أقرت به من الرضا بحكم كتاب الله لها وعليها والقول الثاني إنه يجوز بعث الحكمين دون رضاهما ويجوز لحكم الزوج أن يطلق دون رضاه ولحكم

وحكماً من أهلها إليها رجلين حرّين عدلين ليستطلع كلُّ واحد من الحكمين رأي مَن بُعث إليه إن كانت رغبتُه في الصلح أو في الفُرقة ثم يجتمع الحكمان فينفذان ما يجتمع عليه رأيُهما من الصلاح، فذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿ فابْعَثُوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها إنْ يُريدا إصلاحاً ﴾، يعني: الحكمين، ﴿ يُوفِّقِ اللَّهُ بينهما ﴾، يعني: بين الزوجين، وقيل: بين الحكمين، ﴿ إنّ اللَّهَ كان عليماً خبيراً ﴾. أخبرنا عبد الوهاب محمد الخطيب أنا عبد العزيز بن أحمد الخلال أنا أبو العباس الأصم أنا الربيع أنا الشافعي أنا الثقفي عن أيوب عن ابن سيرين عن عبيدة أنه قال في هذه الآية ﴿ وإنْ خِفْتُم شِقَاقَ بَيْنِهِما فابعثُوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها ﴾، قال: جاء رجل وامرأة إلى عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه ومع كل واحد منهما قومٌ من الناس، فأمرهم عليّ رضي الله عنه فبعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها ثم قال للحكمين: تدرِيَان ما عليكما؟ إنْ رأيتما أن تجمعا جمعتُما وإن رأيتم أن تُفرِّقَا فرّقتُما، قالتِ المرأة رضيتُ بكتاب الله بما عليّ فيه ولي، فقال الرجل: أمّا الفُرقة فلَا، فقال عليٌّ رضي الله عنه: كذبتَ والله حتى تُقرَّ بمثل الذي أقرّتْ به. واختلف القول في جواز بعث الحكمين من غير رضا الزوجين، وأصحّ القولين أنه لا يجوز إلّا برضاهما، وليس لِحَكَمِ الزوج أن يُطلّق إلّا بإذنه، ولا لِحَكَمِ المرأة أن يخلع على ما لها إلّا بإذنها، وهو قول أصحاب الرأي لأنّ علياً رضي الله عنه، حين قال الرجل: أمّا الفُرقة فلَا، قال: كذبتَ حتى

الزوجة أن يختلع دون رضاها إذا رأيا الصلاح في ذلك كالحاكم يحكم بين الخصمين وإن لم يكن على وفق مرادهما وبه قال مالك: ومن قال بهذا القول قال ليس المراد من قول علي للزوج حتى تقر أن رضاه شرط بل معناه أن المرأة لما رضيت بما في كتاب الله تعالى. فقال الرجل أما الفرقة فلا يعني ليست الفرقة في كتاب الله فقال له علي: كذبت حتى أنكرت أن تكون الفرقة في كتاب الله، بل هي في كتاب الله فإن قوله تعالى يوفق الله بينهما يشتمل على الفراق وعلى غيره لأن التوفيق أن يخرج كل واحد منهما من الإثم والوزر ويكون تارة ذلك بالفراق وتارة بصلاح حاليهما في الوصلة. وقوله تعالى: ﴿إن الله كان عليماً خبيراً﴾ يعني أن الله تعالى يعلم كيف يوفق بين المختلفين ويجمع بين المتفرقين وفيه وعيد شديد للزوجين والحكمين إن سلكوا غير طريق الحق. قوله عز وجل:.

﴿ وَٱعْبُدُوا ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾

﴿واعبدوا الله﴾ يعني وحدوه وأطيعوه وعبادة الله تعالى عبارة عن كل فعل يأتي به العبد لمجرد الله تعالى ويدخل فيه جميع أعمال القلوب وأعمال الجوارح ﴿ولا تشركوا به شيئاً﴾ يعني وأخلصوا له في العبادة ولا تجعلوا له في الربوبية والعبادة شريكاً لأن من عبد مع الله غيره أو أراد بعمله غير الله فقد أشرك به ولا يكون مخلصاً (ق) عن معاذ بن جبل قال: كنت رديف رسول الله ﷺ على حمار يقال له عفير أو اسمه يعفور فقال: يا معاذ هل تدري ما حق الله على عباده وما حق العباد على الله؟ قلت: الله ورسوله أعلم قال: فإن حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً وحق العباد على الله أن لا يعذب من لا يشرك به شيئاً فقلت يا رسول الله أفلا أبشر الناس قال لا تبشرهم فيتكلوا» قوله هل تدري ما حق الله على عباده معناه ما يستحقه مما أوجبه وجعله متحتماً عليهم ثم فسر

تُقرّ بمثل الذي أقرّتْ به. فثبت أن تنفيذ الأمر موقوف على إقراره ورضاها. والقول الثاني: يجوز بعث الحكمين دون رضاهما، فيجوز لِحَكَمِ الزوج أن يُطلّق دُون رضاه ولِحَكَمِ المرأة أن يختلع دون رضاها، إذا رأيا الصلاح، كالحاكم يحكم بين الخصمين وإن لم يكن على وِفْق مُرادِهما، وبه قال مالك، ومَن قال بهذا قال: ليس المراد من قول عليّ رضي الله عنه للرجل حتى تُقرّ، أنّ رضاه شرط بل معناه أن المرأة لمّا رضيتْ بما في كتاب الله فقال الرجل: أمّا الفُرقة فلا، يعني: الفرقة ليست في كتاب الله، فقال عليّ: كذبتَ، حيث أنكرتَ أنّ الفرقة في كتاب الله، بل هي في كتـــاب، فإن قوله تعالى: ﴿ يُوفّقِ اللّهُ بينهما ﴾ يشتمل على الفُراق وغيره لأن التوفيق أن يخرج كل واحد منهما من الوِزْرِ وذلك تارةً يكون بالفُراق وتارةً بصلاح حالهما في الوصلة.

قوله تعالى: ﴿ واعْبُدُوا اللّهَ ﴾ أي: وحّدوه وأطيعوه، ﴿ ولا تُشْرِكُوا بهِ شَيْئاً ﴾ أخبرنا أبو حامد أحمد بن عبد الله الصالحي أنا أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الله بن بشران أنا علي أبو إسماعيل محمد بن محمد الصفار أنا أحمد بن منصور الرمادي أنا عبد الرزاق أنا معمر عن أبي إسحق عن عمرو بن ميمون الأزدي عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: كنت رديف النبي ﷺ فقال: «هل تدري يا معاذ ما حقُّ الله على الناس»؟ قال: قلت: اللّهُ ورسولُه أعلم، قال: «حقُّه عليهم أن يعبدوه ولا يُشركُوا به شيئاً، أتدري يا معاذ ما حقُّ الناس على الله إذا فعلُوا ذلك»؟ قلتُ: اللّهُ ورسولُه أعلم، قال: «فإنّ حقَّ الناس على الله أن لا يعذّبهم»، قال: قلتُ: يا رسول الله أفلا

ذلك الحق بقوله أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً وقوله وما حق العباد على الله إنما قال حقهم على سبيل المقابلة لحقه عليهم لا لأنهم يستحقون عليه شيئاً ويجوز أن يكون من قول الرجل لصاحبه حقك عليّ واجب أي متأكد قيامي به. وقوله أفلا أبشر الناس إلخ إنما قال لا تبشرهم فيتكلوا. لأنه ﷺ رأى ذلك أصلح لهم وأحرى أن لا يتكلوا على هذه البشارة ويتركوا العمل الذي ترفع لهم به الدرجات في الجنة. وقوله تعالى: **﴿وبالوالدين إحساناً﴾** تقديره وأحسنوا بالوالدين إحساناً يعني برّاً بهما واعطفا عليهما وإنما قرن بر الوالدين بعبادته وتوحيده لتأكد حقهما على الولد. واعلم أن الإحسان بالوالدين هو أن يقوم بخدمتها ولا يرفع صوته عليهما ويسعى في تحصيل مرادهما والإنفاق عليهما بقدر القدرة (ق) عن أبي هريرة قال: «جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله من أحق الناس بحسن صحابتي؟ قال أمك قال ثم من؟ قال ثم أمك؟ قال ثم من؟ قال ثم أمك؟ قال ثم من؟ قال ثم أبوك» وفي رواية قال: «أمك ثم أمك ثم أباك ثم أدناك فأدناك قوله ثم أباك فيه حذف تقديره ثم بر أباك» (م) عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «رغم أنفه رغم أنفه رغم أنفه قيل من يا رسول الله؟ قال من أدرك والديه عند الكبر أو أحدهما ثم لم يدخل الجنة». قوله تعالى: **﴿وبذي القربى﴾** أي وأحسنوا إلى ذي القرابة وهو ذوو رحمه من قبل أبيه وأمه (ق) عن أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من سره أن يبسط له في رزقه وينسأ له في أثره فليصل رحمه» قوله ينسأ له في أثره يعني يؤخر له في أجله وعمره. وقوله تعالى: **﴿واليتامى والمساكين﴾** أي وأحسنوا إلى اليتامى وإنما أمر بالإحسان إليهم لأن اليتيم مخصوص بنوعين من العجز والصغر وعدم المشفق والمسكين هو الذي ركبه ذل الفاقة والفقر فتمسكن لذلك (خ) عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا وكافل اليتيم في الجنة» هكذا وأشار بالسبابة والوسطى وفرج بينهما شيئاً عن أبي هريرة عن النبي ﷺ: «قال الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله وأحسبه قال وكالقائم الذي لا يفتر وكالصائم الذي لا يفطر» وقوله تعالى: **﴿والجار ذي القربى والجار الجنب﴾** أي وأحسنوا إلى الجار ذي القربى

أُبشِّر الناسَ؟ قال: «دعهم يعملون». قوله تعالى: **﴿ وبالوالدين إحساناً ﴾**، برّاً بهما وعطفاً عليهما، **﴿ وبذي القُرْبَى ﴾** أي: أحسنُوا بذي القربى، **﴿ واليتامَى والمساكينِ ﴾**، أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا عمرو بن زرارة أنا عبد العزيز بن أبي حازم عن أبيه عن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا وكافلُ اليتيم في الجنّةِ هكـذا، وأشار بالسَّبابة والوُسْطَى وفرّج بينهما شيئاً». أخبرنا محمد بن يعقوب الكسائي أنا عبد الله بن محمود أنا إبراهيم بن عبد الله الخلال أنا عبد الله بن مبارك عن يحيـىٰ بن أيوب عن عبد الله بن زحر عن علي بن يزيد عن القاسم عن أبي أمامة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «مَنْ مَسَحَ رأسَ يتيم لم يمسحه إلاّ للّهِ كان له بكل شَعْرَةٍ تَمُرُّ عليها يَدُهُ حسنات، ومَن أحسن إلى يتيمة أو يتيمٍ عنده كنت أنا وهو في الجنة كَهاتين وَقَرَنَ أُصبعيه». قوله تعالى: **﴿ والجارِ ذِي القُربَى ﴾** أي: ذِي القَرابة، **﴿ والجارِ الجُنُبِ ﴾**، أي: البعيد الذي ليس بينك وبينه قرابة. أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أبو عبد الرحمن بن أبي شريح أنا أبو القاسم عبد الله بن محمد بن عبد العزيز البغوي أنا عبد الله بن الجعد أنا شعبة عن أبي عمران الجوني قال: سمعت طلحة قال: قالت عائشة رضي الله عنها: يا رسول الله إن لي جارين فإلى أيِّهما أهدي؟ قال: «إلى أقربهما منك باباً». أخبرنا الأستاذ الإمام أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري أنا أبو نعيم عبد الملك بن الحسن الإسفرايني أنا أبو عوانة يعقوب بن إسحق أنا يزيد بن سنان أخبرنا عثمان بن عمر أخبرنا أبو عامر الخراز عن أبي عمران الجوني عن عبد الله بن الصامت عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تحقرنّ منَ المعروفِ شيئاً ولو أن تلقَى أخاك بوجهٍ طَلْقٍ، وإذا طَبخْتَ مرقةً فأكثرْ ماءَها

وهو الذي قرب جواره منك والجار الجنب هو الذي بعد جواره عنك وقيل الجار ذو القربى هو القريب والجار الجنب هو الأجنبي الذي ليس بينك وبينه قرابة: (ق) عن ابن عمر رضي الله تعالى عنه قال قال رسول الله ﷺ: «ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه» وعن عائشة مثله (خ) عن عائشة رضي الله عنها قالت: «قلت يا رسول الله إن لي جارين فإلى أيهما أهدي قال إلى أقربهما باباً منك» (م) عن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: «يا أبا ذر إذا طبخت مرقة فأكثر ماءها وتعاهد جيرانك» وفي رواية قال أوصاني خليلي ﷺ: «قال إذا طبخت مرقة فأكثر ماءها ثم انظر إلى أهل البيت من جيرانك فأصبهم منها بمعروف» (ق) عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «والله لا يؤمن والله لا يؤمن والله لا يؤمن قيل من يا رسول الله؟ قال الذي لا يأمن جاره بوائقه» ولمسلم «لا يدخل الجنة من لا يأمن جاره بوائقه» البوائق الغوائل والشرور (ق) عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يا نساء المؤمنات لا تحقرن جارة لجارتها ولو فرسن شاة» معناه ولو أن تهدي إليها فرسن شاة وهو الظلف وأراد به الشيء الحقير (ق) عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت». وقوله تعالى: ﴿**والصاحب بالجنب**﴾ قال ابن عباس هو الرفيق في السفر وقيل هي المرأة تكون معك إلى جنبك وقيل هو الذي يصحبك رجاء نفعك. عن عبدالله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «خير الأصحاب عند الله تعالى خيرهم لصاحبه وخير الجيران عند الله تعالى خيرهم لجاره» أخرجه الترمذي وقال حديث حسن وقوله تعالى: ﴿**وابن السبيل**﴾ يعني المسافر المجتاز بك الذي قد انقطع به وقال الأكثرون المراد بابن السبيل الضيف يمر بك فتكرمه وتحسن إليه (ق) عن أبي شريح خويلد بن عمرو العدوي قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه جائزته قالوا وما جائزته يا رسول الله؟ قال: «يومه وليلته والضيافة ثلاثة أيام فما كان وراء ذلك فهو صدقة عليه» وقال: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت» زاد في رواية ولا يحل لرجل مسلم أن يقيم عند أخيه حتى يؤثمه. قال: يا رسول الله وكيف يؤثمه؟ قال يقيم عنده ولا شيء عنده يقريه به» قوله جائزته يومه وليلته الجائزة العطية أي يقري الضيف ثلاثة أيام ثم يعطيه ما يجوز به من منهل إلى منهل وقيل هو أن يكرم الضيف فإذا

واغرفْ لجيرانِكَ منها»، أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا محمد بن منهال أنا يزيد بن زريع أنا عمرو بن محمد عن أبيه عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «ما زالَ جبريلُ يُوصيني بالجارِ حتى ظننتُ أنه سَيُوَرِّثُه». قوله تعالى: ﴿ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ ﴾ يعني: الرفيق في السفر، قال ابن عباس رضي الله عنهما وجماعةٌ وعكرمة وقتادة، وقال عليّ وعبد الله والنخعي: هو المرأة تكون معه إلى جنبه، وقال ابن جريج وابن زيد: هو الذي يصحبك رجاء نَفْعِكَ، ﴿ وَابْنِ السبيلِ ﴾، قيل: هو المسافر لأنه مُلازمٌ السبيل، والأكثرون: على أنه الضيف، أخبرنا الأستاذ الإمام أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري أنا أبو نعيم عبد الملك بن الحسن الإسفرايني أنا أبو عوانة يعقوب بن إسحق أنا شُعيب عمرو الدمشقي أخبرنا سفيان بن عُيينة عن عمرو بن دينار أنه سمع نافعَ بن جُبير عن أبي شُريح الخزاعي أنّ النبي ﷺ قال: «مَن كان يُؤمنُ بالله واليوم الآخر فليُحسنْ إلى جاره، ومَن كانَ يُؤمنُ باللّهِ واليومِ الآخرِ فليُكرمْ ضيفَه، ومَن كان يُؤمنُ بالله واليوم الآخر فليَقُلْ خيراً أو ليصمتْ»، أخبرنا أبو الحسن السرخسي أنا زاهر بن أحمد أنا أبو إسحق الهاشمي أنا مصعب عن مالك عن سعيد بن أبي سعيد المقبري عن أبي شريح الكعبي أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ كانَ يُؤمنُ باللّهِ واليومِ الآخر فليُكرمْ جارَه، ومَنْ كانَ يؤمنُ باللّهِ واليومِ الآخرِ فليقلْ خيراً أو ليصمتْ، ومَن كَانَ يؤمنُ باللّهِ واليومِ الآخر فليُكرمْ ضيفَهُ، جائزتُه يومٌ وليلة، والضيافة ثلاثةُ أيام، وما كان بعد ذلك فهو

سافر أعطاه ما يكفيه يوماً وليلة حتى يصل إلى موضع آخر وقوله أن يقيم عند أخيه حتى يؤثمه أي يوقعه في الإثم لأنه إذا أقام عنده ولم يقرِه أثم بذلك. وقوله تعالى: ﴿وما ملكت أيمانكم﴾ يعني المماليك فأحسنوا إليهم والإحسان إليهم أن لا يكلفهم ما لا يطيقون ولا يؤذيهم بالكلام الخشن وأن يعطيهم من الطعام والكسوة ما يحتاجون إليه بقدر الكفاية عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا يدخل الجنة سيىء الملكة» أخرجه الترمذي عن رافع بن مكيث أن النبي ﷺ قال: «حسن الملكة نماء وسوء الخلق شؤم» أخرجه أبو داود وله عن علي بن أبي طالب قال كان آخر كلام رسول الله ﷺ: «الصلاة الصلاة اتقوا الله فيما ملكت أيمانكم» (ق) عن المعرور بن سويد قال رأيت أبا ذر وعليه حلة وعلى غلامه حلة مثلها فسألته عن ذلك فذكر أنه سابّ رجلاً على عهد رسول الله ﷺ فعيره بأمه فأتى الرجل النبي ﷺ فذكر ذلك له فقال له النبي ﷺ: «إنك امرؤ فيك جاهلية قلت على ساعتي هذه من كبر السن قال نعم هم إخوانكم وخولكم جعلهم الله تحت أيديكم فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل ويلبسه مما يلبس ولا تكلفوهم ما يغلبهم فإن كلفتموهم فأعينوهم عليه». وقوله تعالى: ﴿إن الله لا يحب من كان مختالاً﴾ المختال المتكبر العظيم في نفسه الذي لا يقوم بحقوق الناس (فخوراً) الفخور هو الذي يفتخر على الناس ويعدد مناقبه تكبراً وتطاولاً على من دونه، وقيل هو الذي يفتخر على عباد الله بما أعطاه الله من نعمه ولا يشكره عليها وإنما ختم الله هذه الآية بهذين الوصفين المذمومين لأن المختال الفخور يأنف من أقاربه الفقراء ومن جيرانه الضعفاء فلا يحسن إليهم ولا يلوي بنظره عليهم ولأن المختال هو المتكبر ومن كان متكبراً فلا يقوم بحقوق الناس (ق) عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «لا ينظر الله تعالى يوم القيامة إلى من جر ثوبه خيلاء» (ق) عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا ينظر الله يوم القيامة إلى من جر إزاره بطراً» (ق) عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: «بينما رجل يمشي في حلة تعجبه نفسه

صدقة، ولا يحلُّ أن يثوي ـ أي: أن يقيم ـ عنده حتى يُحْرِجَه». قوله تعالى: ﴿ وما ملكت أيمانُكم ﴾. أي: المماليك أحسنوا إليهم، أخبرنا محمد بن الحسن المروزي أخبرنا أبو العباس الطحان أنا أبو أحمد محمد بن قريش أنا علي بن عبد العزيز المكّي أنا أبو عبيدة القاسم بن سلام أنا يزيد عن همّام عن قتادة عن صالح أبي الخليل عن سُفينة عن أم سلمة رضي الله عنها عن النبي ﷺ أنه كان يقول في مرض موته: «الصلاةَ ومَا مَلَكَتْ أيمانُكم»، فجعل يتكلم وما يفيض بها لسانه. أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أخبرنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا عمرو بن حفص أنا أبي أنا الأعمش عن المعرور عن أبي ذر رضي الله عنه قال: رأيت أبا ذرٍّ وعليه بُرْدٌ وعلى غلامه بُرْدٌ، فقلتُ: لو أخذت هذا فلبسته كانا حُلّةً وأعطيته ثوباً آخر، فقال: كان بيني وبين رجل كلام وكانت أمه أعجمية فنِلْتُ منها فذكرني إلى النبي ﷺ، فقال لي سابيتَ فلاناً؟ قلتُ: نعم، قال: أفتلت أمه؟ قلت: نعم، قال: إنّك امرؤٌ فيكَ جاهلية، قلتُ على ساعتي: هذه من كبر السن، قال: نعم هم إخوانكم جعلهم الله تحت أيديكم، فمَن جعل الله أخاه تحت يده فليطعمْهُ ممّا يأكل وليلبِسْهُ مما يلبس ولا يُكلّفْهُ من العمل ما يغلبه، فإن كلّفه ما يُغلبه فليُعِنْهُ عليه). أخبرنا الإمام أبو علي الحسن بن محمد القاضي أنا أبو طاهر الزيادي أخبرنا أبو بكر محمد بن عمرو بن حفص التاجر أنا سهل بن عمّار أنا يزيد بن هارون أخبرنا صدقة بن موسى عن فرقد السنجي عن مرّة الطيب عن أبي بكر رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لا يدخل الجنّة سَيىءُ المَلَكَةِ».

﴿ إنّ اللّهَ لا يُحبُّ مَنْ كانَ مُخْتالاً فَخُوراً ﴾، المختال: المتكبّر، والفَخُور: الذي يفخر على الناس بغير الحق تكبّراً، ذكر هذا بَعدَمَا ذكر من الحقوق، لأن المتكبّر يمنع الحق تكبّراً، أخبرنا حسّان بن سعيد المنيعي أنا أبو طاهر الزيادي أنا محمد بن الحسن القطّان أنا أحمد بن يوسف السلمي أنا عبد الرزاق أنا معمر عن همّام بن منبّه أنا أبو

مرجل جمته يختال في مشيته إذ خسف الله به فهو يتجلجل إلى يوم القيامة» (خ) عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «بينما رجل ممن كان قبلكم يجر إزاره من الخيلاء خسف به فهو يتجلجل في الأرض إلى يوم القيامة (ق)» عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الفخر والخيلاء في الفدادين من أهل الوبر والسكينة في أهل الغنم الفدادون هم الفلاحون والحراثون وأصحاب الإبل والبقر المستكبرون منهما المتكبرون على الناس بهما» قوله عز وجل: .

﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٣٧﴾﴾

﴿الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل﴾ نزلت في اليهود الذين بخلوا ببيان صفة محمد ﷺ فكتموها وعلى هذا يكون المراد بالبخل كتمان العلم وقال ابن عباس نزلت في كردم بن زيد ويحيى بن أخطب ورفاعة بن زيد بن التابوت وأسامة بن حبيب ونافع بن أبي نافع ويحيى بن عمر وكانوا يأتون رجالاً من الأنصار ويخاطبونهم يقولون لهم لا تنفقوا أموالكم فإنا نخشى عليكم الفقر ولا تدرون ما يكون فأنزل الله عز وجل هذه الآية وقيل يحتمل أن يكون المراد بالبخل كتمان العلم ومنع المال لأن البخل في كلام العرب منع السائل من فضل ما لديه وإمساك المقتنيات وفي الشرع البخل عبارة عن إمساك الواجب ومنعه، وإذا كان ذلك أمكن حمله على منع المال ومنع العلم ﴿ويكتمون ما آتاهم الله من فضله﴾ يعني اليهود كتموا صفة محمد ﷺ وما عندهم من العلم وقيل هم الأغنياء الذين كتموا الغنى وأظهروا الفقر وبخلوا بالمال ﴿وأعتدنا للكافرين﴾ يعني الجاحدين نعمة الله عليهم ﴿عذاباً مهيناً﴾ يعني في الآخرة عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «خصلتان لا يجتمعان في مؤمن: البخل وسوء الخلق» أخرجه الترمذي وقال حديث غريب قوله عز وجل: .

﴿وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۗ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَـٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا ﴿٣٨﴾ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴿٣٩﴾﴾

هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «بينما رجل يتبختر في بُردَين وقد أعجبتُه نفسُه خَسَفَ اللَّهُ به الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة». أخبرنا أبو الحسن السرخسي أنا زاهر بن أحمد أنا أبو إسحق الهاشمي أنا أبو مُصعب عن مالك عن نافع عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ جرَّ ثوبَه خُيلاءً لا ينظرُ اللَّهُ إليه يومَ القيامة».

﴿ الذينَ يبخلُون ﴾، البخل في كلام العرب: منع السائل من فضل ما لديه، وفي الشرع: منع الواجب، ﴿ ويأمرُونَ الناسَ بالبخلِ ﴾، قرأ حمزة والكسائي ﴿ بالبخل ﴾ بفتح الباء والخاء، وكذلك في سورة الحديد، وقرأ الآخرون بضم الباء وسكون الخاء، نزلتْ في اليهود بخلوا ببيان صفة محمد ﷺ وكتموها، وقال سعيد بن جبير: هذا في كتمان العلم، وقال ابن عباس رضي الله عنهما وابن زيد: نزلت في كردم بن زيد وحيي بن أخطب ورفاعة بن زيد بن التابوت وأُسامة بن حبيب ونافع بن أبي نافع وبحر بن عمرو كانوا يأتون رجالاً من الأنصار ويخالطونهم فيقولون لا تنفقوا أموالكم فإنّا نخشى عليكم الفقر ولا تدرون ما يكون فأنزل الله تعالى هذه الآية: ﴿ ويكتمُون ما آتاهم اللَّهُ منْ فضْلِهِ ﴾، يعني: المال، وقيل: يبخلون بالصدقة ﴿ وأعْتَدنا للكافرينَ عذاباً مُهيناً ﴾.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمٗا ٤٠﴾

﴿**والذين ينفقون أموالهم رئاء الناس**﴾ يعني للفخار والسمعة وليقال ما أسخاهم وما أجودهم لا يريدون بما أنفقوا وجه الله تعالى (م) عن أبي هريرة قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال الله تبارك وتعالى: «أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملاً أشرك معي فيه غيري تركته وشركه» نزلت هذه الآية في اليهود وقيل في المنافقين لأن الرياء ضرب من النفاق، وقيل نزلت في مشركي مكة المنفقين أموالهم في عداوة رسول الله ﷺ ﴿**ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر**﴾ يعني ولا يصدقون بتوحيد الله ولا بالمعاد الذي فيه جزاء الأعمال أنه كائن ﴿**ومن يكن الشيطان له قريناً فساء قريناً**﴾ يعني من يكن الشيطان صاحبه وخليله فبئس الصاحب وبئس الخليل الشيطان، وإنما اتصل الكلام هنا بذكر الشيطان تقريعاً لهم على طاعة الشيطان. والمعنى من يكن عمله بما سول له الشيطان فبئس العمل عمله وقيل هذا في الآخرة يجعل الله الشياطين قرناءهم في النار يقرن مع كل كافر شيطان في سلسلة من النار ثم وبخهم الله تعالى وعيرهم على ترك الإيمان فقال تعالى: ﴿**وماذا عليهم**﴾ يعني وأي شيء عليهم وأي وبال وتبعة تلحقهم ﴿**لو آمنوا بالله واليوم الآخر وأنفقوا مما رزقهم الله**﴾ أي أي وبال عليهم في الإيمان بالله والإنفاق في سبيله وابتغاء مرضاته ﴿**وكان الله بهم عليماً**﴾ يعني لا يخفى عليه شيء من أعمال هؤلاء الذين ينفقون أموالهم لأجل الرياء والسمعة ففيه وعيد وتهديد لهم. قوله عز وجل: ﴿**إن الله لا يظلم مثقال ذرة**﴾ نظم الكلام وماذا عليهم لو آمنوا وأنفقوا فإن الله لا يظلم ولا يبخس ولا ينقص أحداً من ثواب عمله مثقال ذرة يعني وزن ذرة. وقال ابن عباس: الذرة رأس نملة حمراء وقيل الذرة كل جزء من أجزاء الهباء الذي يكون في الكوة إذا كان فيها ضوء الشمس لا وزن لها وهذا مثل ضربه الله تعالى لأقل الأشياء والمعنى أن الله تعالى لا يظلم أحداً شيئاً من قليل ولا كثير فخرج الكلام على أصغر شيء يعرفه الناس ﴿**وإن تك حسنة يضاعفها**﴾ يعني الحسنة بعشر أمثالها وقيل هذا عند الحساب فمن بقي له من الحسنات مثقال ذرة ضاعفها الله له إلى سبعمائة وإلى أجر عظيم. قال قتادة: لأن

﴿ **والذينَ يُنفقُونَ أموالَهم رئاءَ الناسِ ولا يُؤمنونَ باللَّهِ ولا باليومِ الآخرِ** ﴾، محل ﴿ **الذين** ﴾ نصب على عطف على الذين الأول، وقيل: خفض عطف على قوله: و﴿ **أعتدنا للكافرين** ﴾ نزلتْ في اليهود، وقال السدي: في المنافقين، وقيل: مشركي مكة المنفقين على عَدَاوَةِ الرسول ﷺ. ﴿ **ومَنْ يكنِ الشيطانُ له قريناً** ﴾، صاحباً وخليلاً ﴿ **فساءَ قريناً** ﴾، أي: فبئس الشيطان قريناً وهو نصب على التفسير، وقيل: على القطع بإلغاء الألف واللام كما تقول: نعم رجلا عبد الله، وكما قال تعالى: ﴿ بئس للظالمين بدلاً ﴾ [الكهف: ٥٠] ﴿ وساءَ مثلاً ﴾ [الأعراف: ١٧٧].

﴿ **وماذا عليهم** ﴾، أي: ما الذي عليهم وأيّ شيء عليهم؟ ﴿ **لو آمنو باللَّهِ واليومِ الآخر وأنفقوا ممّا رزقَهمُ اللَّهُ وكانَ اللَّهُ بهم عليماً** ﴾.

﴿ **إنّ اللَّهَ لا يظلمُ مِثقالَ ذَرّةٍ** ﴾، ونظمه: وماذا عليهم لو آمنوا بالله واليوم الآخر وأنفقوا فإن الله لا يظلمَ أي: لا يبخس ولا ينقص أحداً من ثوابِ عملِه مِثقالَ ذرّة، والذرّة: هي النملة الحمراء الصغيرة، وقيل: الذرّ أجزاء الهباء في الكونِ وكل جزء منها ذرّة ولا يكون لها وزن، وهذا مثل يريد أن الله لا يظلم شيئاً كما قاله في آية أُخرى إن الله لا يظلم الناس شيئاً. أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحي أنا أبوعمر بكر بن محمد المزني أنا أبو بكر محمد بن عبد الله الحفيد أنا الحسين بن الفضل البجلي أنا عفّان أنا همّام أنا قتادة عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إنّ اللَّهَ لا يظلمُ مُؤمناً حسنةً يُعطَى بها في الدنيا ويُجزَى بها في الآخرة»، قال: «وأمّا الكافر فيطعم بحسناته في الدنيا

تفضل حسناتي على سيئاتي بمثقال ذرة أحب إليّ من الدنيا وما فيها (م) عن أنس بن مالك في قوله تعالى: إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله لا يظلم مؤمناً حسنة يعطي بها في الدنيا ويجزي بها في الآخرة: «وأما الكافر فيعطى بحسنات قد عمل بها في الدنيا حتى إذا أفضى إلى الآخرة لم تكن له حسنة يجزى بها» عن عبدالله بن عمرو بن العاص أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله تعالى سيخلص رجلاً من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة فينشر له تسعة وتسعون سجلاً كل سجل مثل مد البصر ثم يقول أتنكر من هذا شيئاً أظلمك كتبتي الحافظون؟ فيقول لا يا رب فيقول أفلك عذر؟ فيقول لا يا رب فيقول تعالى: بلى إن لك عندنا حسنة فإنه لا ظلم عليك اليوم فيخرج بطاقة فيها أشهد أن لا إله إلاّ الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله فيقول احضر وزنك فيقول يا رب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟ فقال فإنك لا تظلم فتوضع السجلات في كفة والبطاقة في كفة فطاشت السجلات وثقلت البطاقة ولا يثقل مع اسم الله شيء» أخرجه الترمذي (ق) عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «ثم يضرب الجسر على جهنم وتحل الشفاعة ويقولون اللهم سلّم سلّم قيل يا رسول الله وما الجسر قال دحض مزلة فيه خطاطيف وكلاليب وحسكة تكون بنجد فيها شويكة يقال لها السعدان فيمر المؤمنون كطرف العين وكالبرق وكالريح وكالطير وكأجاويد الخيل والركاب فناج مسلم ومخدوش مرسل ومكدوش في نار جهنم حتى إذا خلص المؤمنون من النار فوالذي نفسي بيده ما من أحد منكم بأشد منا شدة لله في استقصاء الحق من المؤمنين لله يوم القيامة لإخوانهم الذين في النار» وفي رواية فما أنتم بأشد مناشدة في الحق قد تبين لكم من المؤمنين يومئذ للجبار إذا رأوا أنهم قد نجوا في إخوانهم يقولون ربنا كانوا يصومون معنا ويصلّون ويحجّون. فيقال لهم أخرجوا من عرفتم فتحرم صورهم على النار فيخرجون خلقاً كثيراً قد أخذت النار إلى نصف ساقيه وإلى ركبتيه ثم يقولون ربنا ما بقي فيها أحد ممن أمرتنا به فيقول ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال ذرة من خير فأخرجوه فيخرجون خلقاً كثيراً ثم يقولون ربنا لم نذر فيها أحداً ممن أمرتنا به ثم يقول ارجعوا فمن وجدتم في

حتى إذا أفضى إلى الآخرة لم يكن له حسنة يُعطَى بها خيراً». أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أبو الطيب الربيع بن محمد بن أحمد بن حاتم البزار الطوسي أنا أحمد بن محمد بن الحسن بن محمد بن يحيىٰ حدّثهم، أخبرنا عبد الرزّاق ح وأخبرنا أبو سعيد عبد الله بن أحمد الطاهري أخبرنا جدّي أبو سهل عبد الصمد بن عبد الرحمن البزار أنا أبو بكر محمد بن زكريا العذافيري أخبرنا إسحق بن إبراهيم الدبري أنا عبد الرزّاق أنا معمر عن يزيد بن أسلم عن عطاءِ بن يسار عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا خَلَصَ المؤمنون مِنَ النار وأمِنُوا فما مجادلة أحدكم لصاحبه في الحق يكون له في الدنيا بأشد مجادلة من المؤمنين لربِّهم في إخوانهم الذين أدخلوا النار، قال: يقولون ربَّنا إخواننا كانوا يُصلّون معنا ويصُومون معنا ويحجُّون معنا فأدخلتَهُمُ النارَ، قال: فيقول اللَّهُ لهم: اذهبُوا فأخرجُوا مَنْ عَرَفْتُم منهم فيأتونهم فيعرفونهم بصورهم لا تأكل النارُ صورَهم فمنهم مَن أخذتْهُ النارُ إلى أنصافِ ساقيه ومنهم مَن أخذتْه إلى كعبيهِ فيُخرجونهم، فيقولون: ربّنا قد أخرجنا مَن أمرتنا، قال: ثم يقول: ثم أخرجوا مَن كان في قلبه وَزْنُ دينار من الإيمان، ثم مَنْ كان في قلبه وزنُ نصفِ دينار، حتى يقول: مَن كان في قلبه مثقالَ ذرّةٍ مِنْ خير»، قال أبو سعيد رضي الله عنه: مَن لم يُصدّق هذا فليقرأ هذه الآية: ﴿ **إنّ اللّهَ لا يظلمُ مِثْقَالَ ذَرّةٍ وإنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا ويُؤتِ مِنْ لَدُنْهُ أجراً عظيماً** ﴾، قال: فيقولون ربَّنا أخْرجْنَا مَنْ أمرتنا فلم يبقَ في النار أحدٌ فيه خير، ثم يقول الله عزّ وجلّ: شُفعتِ الملائكةُ، وشُفعَ النبيّون، وشُفع المؤمنون، وبقي أرحمُ الراحمين، قال: فيقبض قبضةً من النار، أو قال: قبضتين من النار فيُخرج منها قوماً لم يعملوا لله خيراً قطُّ قدِ احْترقُوا حتى صاروا حُمماً فيُؤتَى بهم إلى ماءِ الحياة فيُصبّ عليهم فينبتُون كما تنبتُ الحبَّةُ في حَميلِ السيل، قال: فتخرج

قلبه مثقال نصف دينار من خير فأخرجوه. فيخرجون خلقاً كثيراً ثم يقولون ربنا لم نذر فيها ممن أمرتنا أحداً ثم يقول ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال ذرة من خير فأخرجوه فيخرجون خلقاً كثيراً ثم يقولون ربنا لم نذر فيها خيراً وكان أبو سعيد يقول: إن لم تصدقوني بهذا الحديث فاقرؤوا إن شئتم إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً فيقول الله تبارك وتعالى شفعت الملائكة وشفع النبيون وشفع المؤمنون ولم يبق إلا أرحم الراحمين فيقبض قبضة من النار فيخرج منها قوماً لم يعملوا خيراً قط قد عادوا حمماً فيلقيهم في نهر في أفواه الجنة يقال له نهر الحياة فيخرجون كما تخرج الحبة في حميل السيل ألا ترونها تكون إلى الحجر أو إلى الشجر ما يكون إلى الشمس أصيفر وأخيضر وما يكون منها إلى الظل يكون أبيض فقالوا: يا رسول الله كأنك كنت ترعى بالبادية قال فيخرجون كاللؤلؤ في رقابهم الخواتم يعرفهم أهل الجنة هؤلاء عتقاء الله الذين أدخلهم الله الجنة بغير عمل عملوه ولا خير قدموه. ثم يقول ادخلوا الجنة فما رأيتموه فهو لكم فيقولون ربنا أعطيتنا ما لم تعط أحداً من العالمين فيقول لكم عندي أفضل من هذا فيقولون ربنا أي شيء أفضل من هذا؟ فيقول رضاي فلا أسخط عليكم بعده أبداً لفظ مسلم وهو بعض حديث. وقال بعضهم هذه الآية واردة في الخصوم ويدل عليه ما روي عن عبدالله بن مسعود قال: إذا كان يوم القيامة جمع الله الأولين والآخرين ثم نادى مناد من عند الله إلا من كان يطلب مظلمة فليجيء إلى حقه فليأخذه قال فيفرح المرء أن يكون له الحق على والده أو ولده أو زوجته أو أخيه منه وإن كان صغيراً ومصداق ذلك في كتاب الله تعالى قوله تعالى: ﴿فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون﴾ ويؤتى بالعبد وينادي مناد على رؤوس الأولين والآخرين هذا فلان ابن فلان من كان له عليه حق فليأت إلى حقه ثم يقال له آت هؤلاء حقوقهم فيقول أي رب من أين وقد ذهبت الدنيا؟ فيقول الله تبارك وتعالى لملائكته انظروا في أعماله الصالحات فأعطوهم منها فإن بقي مثقال ذرة من حسنة قالت الملائكة يا ربنا وهو أعلم بذلك أعطينا كل ذي حق حقه وبقي له مثقال ذرة من حسنة فيقول للملائكة ضعفوها لعبدي وأدخلوه بفضل رحمتي الجنة

أجسادهم مثل اللؤلؤ في أعناقهم الخاتم مكتوب فيه: هؤلاء عُتقاءُ الله فيُقال لهم: ادْخُلوا الجنَّةَ فما تمنيتم أو رأيتم من شيء فهو لكم، قال: فيقولون: ربَّنا أعطيتنا ما لم تُعطِ أحداً من العالمين، قال: فيقول: فإن عندي لكم أفضل منه، فيقولون: ربَّنا وما أفضل من ذلك؟ فيقول: «رضاي عنكم فلا أسخط عليكم أبداً». أخبرنا أبو بكر محمد بن عبد الله بن أبي توبة أنا محمد بن أحمد بن الحرث أنا محمد بن يعقوب الكسائي أنا عبد الله بن محمود أنا إبراهيم بن عبد الله بن الخلال أنا عبد الله بن المبارك عن ليث بن سعد حدّثني عامر بن يحيىٰ عن أبي عبد الرحمن المعافري ثم الجيلي قال: سمعت عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما يقول: قال رسول الله ﷺ: «إنّ اللّهَ يستخلص رجلاً من أُمتي على رُؤوس الخلائق يوم القيامة فينشرُ عليه تسعةً وتسعين سجلاً كل سجل مثل مدِّ البصر، ثم يقول الله: أتنكر من هذا شيئاً؟ أظَلَمَكَ كتبتي الحافظُون؟ فيقول: لا يا رب، فيقول: أَفَلَكَ عذرٌ أو حسنةٌ؟ فبُهتَ الرجل، قال: لا يا ربِّ، فيقول: بلى إنّ لك عندنا حسنة وإنه لا ظلم عليك اليوم، فتُخرج له بِطاقةٌ فيها أشهد أن لا إلّه إلّا الله وأنّ محمداً عبدُه ورسولُه، فيقول: أحضرْ وَزْنَكَ، فيقول: يا ربِّ ما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟! فيقول: إنّك لا تظلم، قال: فتُوضع السجلاتُ في كفةٍ والبطاقةُ في كفّةٍ فطاشَتِ السجلاتُ وثَقُلتِ البطاقةُ، قال: فلا يثقل مع اسم الله شيء». وقال قومٌ: هذا في الخصوم. ورُوِيَ عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: إذا كان يوم القيامة جمع الله الأوّلين والآخرين ثم نادى مُنادٍ ألا مَن كان يطلب مظلمة فليجيء إلى حقه فليأخذه، فيفرح المرء أن يكون له الحقّ على والده أو ولده أو زوجته أو أخيه، فليأخذ منه وإن كان صغيراً، ومصداق ذلك في كتاب الله تعالى: ﴿فإذا نُفخ في الصور فلا أنسابَ بينهمْ يومئذٍ ولا يتساءلون﴾

ومصداق ذلك في كتاب الله: ﴿إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً﴾ أي الجنة وإن كان عبداً شقياً قالت الملائكة إلهنا فنيت حسناته وبقي طالبون كثير فيقول الله تبارك وتعالى: «**خذوا من سيئاتهم فأضيفوها إلى سيئاته ثم اكتبوا له كتاباً إلى النار**» أخرجه البغوي بغير سند عن ابن مسعود موقوفاً عليه. وأسنده ابن جرير الطبري عن ابن مسعود فمعنى الآية على هذا التأويل إن الله لا يظلم مثقال ذرة للخصم على خصمه بل يأخذها له منه ولا يظلم مثقال ذرة تبقى له بل يثيبه عليها ويضاعفها له فذلك قوله تعالى: ﴿**وإن تك حسنة يضاعفها**﴾ أي يجعلها أضعافاً كثيرة ﴿**ويؤت من لدنه**﴾ يعني من عنده ﴿**أجراً عظيماً**﴾ يعني الجنة والمعنى ويعطى من عنده أجراً عظيماً يعني عوضاً من حسنة وذلك العوض هو الجنة وقال أبو هريرة: إذا قال الله عزّ وجلّ أجراً عظيماً فمن يقدر قدره قوله تعالى: .

فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾

﴿**فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد**﴾ يعني فكيف يكون حال هؤلاء المشركين والمنافقين يوم القيامة إذا جئنا من كل أمة **بشهيد**. قال ابن عباس: يريد بنبيها والمعنى أنه يؤتى بنبي كل أمة يشهد عليها ولها ﴿**وجئنا بك**﴾ يا محمد ﴿**على هؤلاء شهيداً**﴾ يعني تشهد على هؤلاء الذين سمعوا القرآن وخوطبوا به بما عملوا (ق) عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «اقرأ على القرآن» فقلت يا رسول الله أقرأ عليك وعليك أنزل؟ قال إني أحب أن أسمعه من غيري قال فقرأت عليه سورة النساء حتى جئت إلى هذه الآية فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على

[المؤمنون: ١٠١]، ويُؤتَى بالعبدِ فينادي مُنادٍ على رؤوس الأولين والآخرين: هذا فلان ابن فلان فمَن كان له عليه حق فليأتِ إلى حقّه فيأخذه، ويُقال آتِ هؤلاء حقُوقَهم، فيقول: يا ربِّ من أين وقد ذهبت الدنيا، فيقول الله عزّ وجلّ لملائكته انظروا في أعماله الصالحة فأعطوهم منها فإنْ بقي مثقال ذرّة من حسنة قالت الملائكة: يا ربَّنا بقي له مثقال ذرّة من حسنة، فيقول: ضعّفُوها لعبدي وأدخلوه بفضل رحمتي الجنة. ومصداق ذلك في كتاب الله تعالى: ﴿ **إن الله لا يظلمُ مِثْقالَ ذرّة، وإنْ تَكُ حَسَنَةً يضاعفْها** ﴾، وإن كان عبداً شقياً قالتِ الملائكة: إلَهنا فنيت حسناتُه وبقي طالبون، فيقولُ الله عزّ وجلّ: خُذوا من سيئاتِهم فأضيفُوها إلى سيآته، ثم صُكُّوا له صكّاً إلى النار. فمعنى الآية على هذا التأويل: أن الله لا يظلم مثقال ذرّة للخصم على الخصم بل أخذ له منه ولا يظلم مثقال ذرّة تبقى له بل يثيبه عليها ويُضَعّفها له، فذاك قوله تعالى: ﴿ **وإنْ تَكُ حَسَنَةً يُضاعِفْهَا** ﴾، قرأ أهل الحجاز ﴿ **حسنة** ﴾ بالرفع، أي: وإنْ تُوجد حسنةٌ، وقرأ الآخرون بالنصب على معنى: وإنْ تَكُ زَنَةُ الذرّةِ حَسَنَةً يُضاعِفْها، أي: يجعلها أضعافاً كثيرة. ﴿ **ويُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أجراً عظيماً** ﴾، قال أبو هريرة رضي الله عنه: إذا قال الله تعالى أجراً عظيماً فمَن يقدر قدره؟.

قوله تعالى: ﴿ **فكيفَ إذا جِئْنَا مِنْ كلِّ أُمةٍ بشهيدٍ** ﴾، أي: فكيف الحال وكيف يصنعون إذا جئنا من كل أمّة بشهيد، يعني: بنبيِّها يشهد عليهم بما عملوا، ﴿ **وجِئْنَا بِكَ** ﴾، يا محمد، ﴿ **على هؤلاء شهيداً** ﴾ شاهداً يشهد على جميع الأمة على مَن رآه ومَن لم يره. أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا محمد بن يوسف أنا سفيان عن الأعمش عن إبراهيم عن عبيدة عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إقرأ عليّ»، قلتُ: يا رسول الله أأقرأ عليكَ وعليكَ أنزل؟ قال: نعم، فقرأتُ سورةَ النساء حتى إذا أتيتُ هذه الآية ﴿ **فكيفَ إذا جئنا مِنْ كلِّ أُمّةٍ بِشهيدٍ وجِئْنَا بِكَ على هؤلاءِ**

هؤلاء شهيداً قال حسبك الآن قال فالتفت إليه فإذا عيناه تذرفان زاد مسلم شهيداً مادمت فيهم أو قال ما كنت فيهم شك أحد رواته. وقوله تعالى: ﴿يومئذ﴾ يعني يوم القيامة ﴿يود﴾ أي يتمنى ﴿الذين كفروا﴾ يعني جحدوا وحدانية الله تعالى ﴿وعصوا الرسول﴾ يعني فيما أمرهم به من توحيد الله عز وجل ﴿لو تسوى بهم الأرض﴾ يعني لو صاروا فيها وسويت عليهم وقيل إنهم ودوا أن لن يبعثوا لأنهم إنما كانوا في الأرض وهي مستوية عليهم. وقال الكلبي: يقول الله تعالى للبهائم والوحوش والطيور والسباع كوني تراباً فتسوى بهن الأرض فعند ذلك يتمنى الكافر أن لو يكون تراباً ﴿ولا يكتمون الله حديثاً﴾ قال ابن عباس: في رواية عطاء ودوا لو تسوى بهم الأرض وأنهم لم يكونوا كتموا أمر محمد ﷺ ولا كفروا به ولا نافقوه فعلى هذا القول يكون الكتمان ما كتموا في الدنيا من صفة محمد ﷺ ونعته وهو كلام متصل بما قبله وقيل هو كلام مستأنف قال سعيد بن جبير سأل رجل ابن عباس فقال إني أجد في

شهيداً ﴾ قال: «حَسْبُكَ الآن» فالتفتُ إليه فإذا عيناه تذرفان.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ **يَوْمَئِذٍ** ﴾، يوم القيامة، ﴿ **يَوَدُّ الذينَ كفرُوا وعَصَوُا الرّسولَ لَو تُسَوّى بهمُ الأرضُ** ﴾، قرأ أهل المدينة وابن عامر ﴿ **تسوى** ﴾ بفتح التاء وتشديد السين على معنى تتسوّى، فأدغمت التاء الثانية في السين، وقرأ حمزة والكسائي بفتح التاء وتخفيف السين على حذف تاء التفعّل كقوله تعالى: ﴿ لا تَكَلَّمُ نفسٌ إلاّ بإذنه ﴾ [هود: ١٠٥]، وقرأ الآخرون بضم التاء وتخفيف السين على المجهول، أي: لو سُوّيتْ بهمُ الأرضُ وصاروا هم والأرض شيئاً واحداً. قال قتادة وأبو عبيدة: يعني لو تخرقت الأرض فساخوا فيها وعادوا إليها كما خرجوا عنها ثم تسوّى بهم، أي: عليهم الأرض، وقيل: وَدُّوا لو أنهم لم يُبعثوا لأنهم إنما نُقلوا من التراب، وكانت الأرض مستويةً عليهم، وقال الكلبي: يقول الله عزّ وجلّ للبهائم والوحوش والطيور والسِّباع: كُونُوا تُراباً فتسوّى بهم الأرض، فعند ذلك يتمنّى الكافر أن لو كان تراباً كما قال الله تعالى: ﴿ ويقولُ الكافرُ يا ليتني كنتُ تُراباً ﴾ [النبأ: ٤٠]. ﴿ **ولا يكتُمونَ اللَّهَ حديثاً** ﴾ قال عطاء: وَدُّوا لو تُسوّى بهم الأرضُ وأنهم لم يكونُوا كَتَمُوا أمرَ محمدٍ ﷺ ولا نَعْتِه. وقال الآخرون: بل هو كلامٌ مستأنف، يعني: ولا يكتمون اللَّهَ حديثاً لأن ما عملوه لا يخفَى على الله ولا يقدرون على كتمانه. وقال الكلبي وجماعة: ﴿ **ولا يكتمون الله حديثاً** ﴾ لأن جوارحَهم تشهدُ عليهم. وقال سعيد بن جُبير: قال رجل لابن عباس رضي الله عنهما: إني أجد في القرآن أشياء تختلف عليّ، قال: هاتِ ما اختلفَ عليك، قال: ﴿ فَلَا أنسابَ بينهمْ يومئذٍ ولا يتساءَلُون ﴾ [المؤمنون: ١٠١]، ﴿ وأقبل بعضُهم على بعض يتساءَلُون ﴾ [الصّافّات: ٢٧، الطور: ٢٥]، ﴿ ولا يكتُمونَ اللَّهَ حديثاً ﴾، وقال: ﴿ واللَّهِ ربّنا ما كنّا مشركين ﴾ [الأنعام: ٢٣]، فقد كَتَمُوا، وقال ﴿ أمِ السماءُ بناها ﴾ [النازعات: ٢٧]، إلى قوله تعالى: ﴿ والأرض بعد ذلك دحاها ﴾ [النازعات: ٣٠]، وذكر خلق السماء قبل الأرض، ثم قال: ﴿ إنّكم لتكفُرون بالذي خلق الأرض في يومين ﴾، إلى قوله: ﴿ طائعين ﴾ [فصّلت: ٩ ـ ١١] فذكر في هذه خلق الأرض قبل السماء، وقال: ﴿ وكانَ اللَّهُ غفوراً رحيماً ﴾ [الفتح: ١٤، النساء: ١٠٠، الأحزاب: ٥ و٥٠ و٥٩ و٧٣] ﴿ وكانَ اللَّهُ عزيزاً حكيماً ﴾ [النساء: ١٥٨ و١٦٥، الفتح: ٧ و١٩] فكأنه كان ثم مضى؟ فقال ابن عباس رضي الله عنهما: فلا أنساب في النفخة الأولى قال الله تعالى: ﴿ ونُفخَ في الصورِ فَصَعِقَ مَنْ في السمواتِ ومَنْ في الأرضِ إلاّ مَنْ شاءَ اللَّهُ ﴾ [الزّمر: ٦٨]، فلا أنسابَ عند ذلك ولا يتساءَلون، ثم في النفخة الآخرة أقبل بعضُهم على بعضٍ يتساءَلون، وأمّا قوله: ﴿ ما كنّا مشركين ولا يكتُمونَ اللَّهَ حديثاً ﴾ [النساء: ٤٢]، فإن الله يغفر لأهل الإخلاص ذُنوبَهم، فيقول المشركون: تعالوا نَقُلْ لم نكن مشركين، فيَخْتِمُ على أفواههم وتنطق أيديهم فعند ذلك عُرف أن اللَّهَ لا يُكتم

القرآن أشياء تختلف علي قال: هات ما يختلف عليك قال منها قوله تعالى ﴿ولا يكتمون الله حديثاً﴾ ومنها قوله تعالى ﴿والله ربنا ما كنا مشركين﴾ فقد كتموا فقال يغفر الله تعالى لأهل الإسلام ذنوبهم ويدخلهم الجنة فيقول المشركون تعالوا نقول ما كنا مشركين فيقولون والله ربنا ما كنا مشركين رجاء أن يغفر لهم، فيختم على أفواههم وتنطق أيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون فعند ذلك عرفوا أن الله لا يكتم حديثاً وعنده يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الأرض فلا يختلف عليك القرآن فإن كلاً من عند الله. وقال الحسن: إنها مواطن، ففي موطن لا يتكلمون ولا تسمع إلا همساً وفي موطن يتكلمون ويكذبون ويقولون ﴿والله ربنا ما كنا مشركين﴾ وما كنا نعمل من سوء في موطن يعترفون على أنفسهم وهو قوله تعالى فاعترفوا بذنبهم وفي موطن لا يتساءلون وفي موطن يسألون الرجعة وآخر تلك المواطن أن يختم على أفواههم وتتكلم جوارحهم فهو قوله تعالى ولا يكتمون الله حديثاً. قوله عز وجل: .

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغۡتَسِلُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٣﴾﴾

﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى﴾ جمع سكران ﴿حتى تعلموا ما تقولون﴾ سبب نزول هذه الآية ما روي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال صنع لنا ابن عوف طعاماً فدعانا فأكلنا وسقانا خمراً قبل تحريم الخمر فأخذت منا وحضرت الصلاة فقدموني فقرأت: قل يا أيّها الكافرون أعبد ما تعبدون ونحن نعبد ما تعبدون قال فخلطت فنزلت ﴿لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون﴾ أخرجه الترمذي وقال حديث حسن غريب وأخرجه أبو داود ولفظه أن رجلاً من الأنصار دعاه وعبدالرحمن بن عوف فسقاهما قبل أن تحرم الخمر فحضرت الصلاة فأمَّهم علي في المغرب فقرأ قل يا أيها الكافرون فخلط فيها فنزلت الآية: ﴿لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون﴾ وروى ابن جرير الطبري عن ابن عباس أن رجالاً كانوا يأتون الصلاة

حديثاً، وعنده ﴿ يَوَدُّ الذينَ كفرُوا وعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الأرضُ ﴾، و﴿ خلقَ الأرضَ في يومين ﴾ [فصّلت: ٩]، ثم خلقَ السماءَ ثمّ استوى إلى السماءِ فسوّاهنّ في يومين آخَرين، ودحوُها: أنْ أخرجَ منها الماءَ والمرعَى وخَلقَ الجِبالَ الآكَامَ وما بينهما في يومَين آخرَين، ثم دَحا الأرضَ في يومَين فخُلقتِ الأرضُ وما فيها من شيء في أربعة أيام، وخُلقتِ السمواتُ في يومَين، ﴿ وكانَ اللَّهُ غفوراً رحيماً ﴾ [الفتح: ١٤، النساء: ١٠٠، الأحزاب: ٥ و٥٠ و٥٩ و٧٣]، أي: لم يزلْ كذلك، فلا يختلفُ عليكَ القرآنُ فإن كلًّا منْ عند الله. وقال الحسن: إنها مواطن، ففي موطن لا يتكلمون ولا تسمع إلّا همساً، وفي موضع يتكلمون ويكْذِبُون ويقولون ما كنّا مشركين وما كنّا نعمل في سوءٍ، وفي موطن يعترفُون على أنفسهم وهو قوله: ﴿ فاعترفُوا بذنبِهم ﴾ [الملك: ١١] وفي موطن لا يتساءَلُون، وفي موطن يتساءَلُون الرجعة، وآخرُ تلك المواطن أن يُختم على أفواهِهم وتتكلّم جوارِحُهم، وهو قوله تعالى: ﴿ ولا يكتمون اللَّهَ حديثاً ﴾.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ يا أيُّها الذينَ آمنوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وأنتُم سُكارَى ﴾ الآية، والمراد من السُّكرِ: السُكرُ من الخمر عند الأكثرين، وذلك أنّ عبدَ الرحمن بنَ عوف رضي الله عنه صنَع طَعاماً ودَعَا ناساً من أصحاب النبي ﷺ وأتاهم بخمر فشربوها قبل تحريم الخمر وسَكِرُوا فحضرتْ صلاة المغرب فقدّمُوا رجلًا ليصلّي بهم فقرأ ﴿ قلْ يا أيها الكافرون ﴾ [الكافرون: ١] أعبد ما تعبدون، بحذف ﴿ لا ﴾ هكذا إلى آخر السورة، فأنزل الله تعالى هذه

وهم سكارى قبل أن تحرم الخمر فقال الله عز وجل: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى﴾ الآية فعلى هذا ففي المراد بالصلاة قولان: أحدهما أنه نفس الصلاة ذات الركوع والسجود وهو قول الأكثرين المعنى لا تصلّوا وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون. والقول الثاني إن المراد بالصلاة موضع الصلاة وهو المسجد وإطلاق لفظ الصلاة على المسجد محتمل فيكون من باب حذف المضاف. والمعنى لا تقربوا مواضع الصلاة وأنتم سكارى وحذف المضاف جائز سائغ. ويدل عليه قوله تعالى لهدمت صوامع وبيع وصلوات والمراد بالصلوات موضاعها فثبت أن إطلاق لفظ الصلاة والمراد موضعها جائز. واعلم أن هذا النهي عن قربان الصلاة في حالة السكر إنما كان قبل تحريم الخمر فكانوا يشربونها في غير أوقات الصلاة ثم نزل تحريم الخمر بعد ذلك ونسخت هذه الآية وقال الضحاك المراد بالسكر سكر النوم يعني لا تقربوا الصلاة عند غلبة النوم ويدل عليه ما روي عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: «إذا نعس أحدكم وهو يصلي فليرقد حتى يذهب عنه النوم فإن أحدكم إذا صلّى وهو ناعس لا يدري لعله يذهب يستغفر ربه فيسب نفسه» أخرجاه في الصحيحين. وقوله تعالى: ﴿ولا جنباً﴾ يعني ولا تقربوا الصلاة وأنتم جنب والجنب يستوي فيه الواحد والجمع والمذكر والمؤنث لأنه اسم جرى مجرى المصدر الذي هو الإجناب وأصل الجنابة البعد سمي الذي أصابته الجنابة جنباً لأنه يتجنب الصلاة والمسجد وقيل لمجانبته الناس حتى يغتسل ﴿إلّا عابري سبيل﴾ العابر هاهنا فاعل من العبور وهو قطع الطريق من هذا الجانب إلى الجانب الآخر واختلف العلماء في معنى قوله إلا عابري سبيل على قولين: أحدهما إن المراد بالعبور هو العبور في المسجد وذلك أن قوماً من الأنصار كانت أبوابهم في المسجد فتصيبهم الجنابة ولا ماء عندهم ولا ممر لهم إلّا في المسجد فرخص لهم العبور فيه فعلى هذا القول يكون المراد بالصلاة موضع الصلاة والمعنى لا تقربوا المسجد وأنتم جنب إلا مجتازين فيه للخروج منه أو للدخول فيه مثل أن يكون قد نام في المسجد فأجنب فيجب الخروج منه أو يكون الماء في المسجد فيدخل إليه أو يكون طريقه عليه فيمر فيه من غير إقامة وهذا قول ابن مسعود وأنس بن مالك والحسن وسعيد بن المسيب وعكرمة وعطاء الخرساني والنخعي والزهري وإليه ذهب الشافعي وأحمد. القول الثاني أن المراد من قوله إلّا عابري سبيل المسافرون والمعنى لا تقربوا الصلاة وأنتم جنب إلا أن تكونوا مسافرين

الآية، وكانوا بعد نزول هذه الآية يجتنبون السكر أوقات الصلاة حتى نزل تحريم الخمر. وقال الضحّاك بنُ مزاحم: أراد به سكر النوم، نهى عن الصلاة عند غلبة النوم، أخبرنا أبو الحسن السرخسي أنا زاهر بن أحمد أنا أبو القاسم جعفر بن محمد بن المفلس أنا هارون بن إسحاق الهمذاني أخبرنا عبدة بن سليمان عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها قالتْ: قال رسول الله ﷺ: «إذا نَعِسَ أحدُكم وهو يصلّي فليرقُدْ حتى يذهب عنه النومُ فإنّ أحدَكم إذا صلّى وهو ينعسُ لعلّه يذهبُ يستغفرُ فيسبُّ نفسَه». قوله تعالى: ﴿ حتى تعلمُوا ما تقولُونَ ولا جُنُباً ﴾، نصبٌ على الحال، يعني: ولا تقربُوا الصلاةَ جُنُبٌ، يقال: رجلٌ جنبٌ وامرأةٌ جنبٌ، ورجالٌ جنبٌ ونساءٌ جنبٌ، وأصلُ الجُنُبِ: البُعْد، وسُمّي جنباً لأنه يتجنّب موضعَ الصلاة، أو لمجانبتِه الناسَ وبُعدِهِ منهم، حتّى يغتسلَ. قوله تعالى: ﴿ إلّا عابري سبيلٍ حتّى تَغْتَسِلُوا ﴾، اختلفوا في معناه فقالوا: إلّا أن تكونوا مسافرين ولا تجدون الماء فتيمّموا، منعَ الجنب من الصلاة حتى يغتسل إلّا أن يكون في سفر ولا يجد ماء فيصلّي بالتيمّم، وهذا قول علي وابن عباس وسعيد بن جبير ومجاهد رضي الله عنهم، وقال الآخرون: بل المراد من الصلاة موضع الصلاة، كقوله تعالى: ﴿ وبِيَعٌ وصَلَوات ﴾ [الحج: ٤٠] ومعناه: لا تقربُوا المسجدَ وأنتم جُنبٌ إلّا مجتازين فيه للخروج منه، مثل أن ينام في المسجد فيجنب أو يصيبه جنابة والماء في المسجد أو يكون طريقه عليه، فيمرّ به ولا يقيم وهذا قول عبد الله بن مسعود وسعيد بن المسيب والضحاك والحسن وعكرمة والنخعي والزهري، وذلك أنّ قوماً من الأنصار

ولم تجدوا الماء فتيمموا فمنع الجنب من الصلاة حتى يغتسل إلا أن يكون في سفر ولا ماء معه فيتيمم ويصلّي إلى أن يجد الماء فيغتسل وهذا قول علي وابن عباس وسعيد بن جبير ومجاهد وقتادة فمن جعل عابري السبيل المسافرين منه الجنب من العبور في المسجد وهو مذهب أبي حنيفة. وصحح ابن جرير الطبري الواحدي القول الأول ويدل على صحته وجهان: أحدهما أن المسافر الجنب لا تصح صلاته بدون التيمم ولم يذكر التيمم هاهنا فيحتاج إلى إضمار شيئين: عدم الماء وذكر التيمم وعلى القول الأول لا يحتاج إلى إضمار شيء. الوجه الثاني أن الله تعالى ذكر حكم السفر وعدم الماء وجواز التيمم بعد هذا فلا يحل هذا على حكم معاد في الآية ويدل على أن جميع القراء استحسنوا الوقف على قوله: ﴿حتى تغتسلوا﴾ يعني إلى أن تغتسلوا وفيه دليل على أن حكم الجنابة باقٍ على الجنب إلى غاية هي الاغتسال.

فصل في أحكام تتعلق بالآية

اختلف العلماء في العبور في المسجد فأباحه قوم على الإطلاق وهو قول الحسن وبه قال مالك والشافعي ومنعه بعضهم على الإطلاق وهو قول أصحاب الرأي. وقال قوم يتيمم للعبور في المسجد واختلف العلماء في المكث في المسجد أيضاً للجنب فمنعه أكثر أهل العلم وقالوا لا يجوز للجنب المكث في المسجد بحال لما روي عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: جاء رسول الله ﷺ ووجوه بيوت أصحابه شارعة في المسجد فقال: وجهوا هذه البيوت عن المسجد ثم دخل رسول الله ﷺ ولم يصنع القوم شيئاً رجاء أن تنزل لهم رخصة فخرج إليهم بعد. فقال وجهوا هذه البيوت عن المسجد فإني لا أحل لحائض ولا جنب أخرجه أبو داود وجوز أحمد المكث في المسجد بشرط الوضوء به. قال المزني من أصحاب الشافعي وأجاب أحمد عن حديث عائشة بأنه في رواته مجهول. وقال عبد الحق لا يثبت من قبل إسناده وأستدل أحمد لمذهبه بما روي عن عطاء بن يسار قال رأيت رجالاً من أصحاب رسول الله ﷺ يجلسون في المسجد وهم مجنبون إذا توضؤوا وضوء الصلاة أخرجه سعيد بن منصور في مسنده واحتج لمذهب الجمهور بعموم الآية وبما روي عن أم سلمة قالت دخل رسول الله ﷺ صرحة هذا المسجد فنادى بأعلى صوته أن المسجد لا يحل لجنب ولا حائض أخرجه ابن ماجه ويحرم على الجنب أيضاً الطواف وقراءة القرآن كما يحرم عليه فعل الصلاة ويدل على ذلك أيضاً ما روي عن علي بن أبي طالب قال كان رسول الله ﷺ يقضي حاجته ثم يخرج فيقرأ القرآن ويأكل معنا اللحم ولا يحجبه وربما قال ولا يحجزه من القرآن

كانت أبوابُهم في المسجد فتصيبهم الجنابة ولاَ مَاءَ عندهم ولا ممرَّ لهم إلاّ في المسجد، فرُخّص لهم في العُبور، واختلف أهل العلم فيه فأباح بعضهم المرورَ فيه على الإطلاق، وهو قول الحسن وبه قال مالك والشافعي رحمهم الله، ومنع بعضهم على الإطلاق وهو قول أصحاب الرأي، وقال بعضهم: يتيمّم للمرور فيه، أما المُكث فلا يجوز عند أكثر أهل العلم لِمَا روينا عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «وجِّهُوا هذه البيوت عن المسجد فإنّي لا أُحِلُّ المسجدَ لحائضٍ ولا جنب»، وجوّز أحمد المكث فيه وضعّف الحديث لأنّ راويه مجهول، وبه قال المزني، ولا يجوز للجنب الطوافُ كما لا يجوز له الصلاةُ ولا يجوز له قراءةُ القرآن، أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا عبد الرحمن بن أبي شُريح أنا أبو القاسم البغوي أنا علي بن الجعد أنا شعبة أخبرني عمر بن مرّة قال سمعت عبد الله بنَ سلمة يقول: دخلتُ على عليّ رضي الله عنه فقال: كان رسول الله ﷺ يقضي الحاجةَ ويأكلُ معنا اللّحم ويقرأُ القرآنَ وكان لا يَحْجُبُه أو لا يحجزه عن القرآن شيء إلاّ الجنابة. وغسل الجنابة يجب بأحد الأمرين إما بنزول المني أو بالتقاء الختانين وهو تغييب الحشفة في الفرج وإن لم ينزل، وكان الحكم في الابتداء أنّ

شيء ليس الجنابة أخرجه أبو داود والنسائي والترمذي ولفظه كان يقرأ القرآن على كل حال ما لم يكن جنباً وقال حديث حسن صحيح عن ابن عمر قال قال رسول الله ﷺ: «لا يقرأ الجنب ولا الحائض ولا النفساء من القرآن شيئاً» أخرجه الدارقطني ويجب الغسل بأحد شيئين: بإنزال المني وهو الماء الدافق أو بإيلاج الحشفة في الفرج وإن لم ينزل ويدل على ذلك ما روي عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت سئل رسول الله ﷺ عن الرجل يجد البلل ولا يذكر احتلاماً قال يغتسل وعن الوجه يرى أنه احتلم ولا يجد بللاً. قال لا غسل عليه قالت أم سلمة والمرأة ترى ذلك أعليها غسل؟ قال نعم؟ أخرجه أبو داود والترمذي (ق) عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إذا جلس بين شعبها الأربع ثم جهدها فقد وجب الغسل» زاد في رواية وإن لم ينزل.

وقوله تعالى: ﴿وإن كنتم مرضى﴾ جمع مريض وأراد به المرض الذي يضر معه إمساس الماء مثل الجدري وإحراق النار ونحو ذلك وإن كان على بعض مع وجود الماء وإن كان بعض أعضائه من استعمال الماء التلف أو زيادة الوجع فإنه يتيمم ويصلي مع وجود الماء وإن كان بعض أعضائه صحيحاً وبعضها جريحاً غسل الصحيح وتيمم للجريح في الوجه واليدين لما روي عن جابر قال: خرجنا في سفرنا فأصاب رجلاً منا حجراً فشجه في رأسه ثم احتلم فسأل أصحابه هل تجدون لي رخصة في التيمم؟ فقالوا ما نجد لك رخصة وأنت تقدر على الماء فاغتسل فمات فلما قدمنا على رسول الله ﷺ أخبر بذلك فقال: قتلوه قتلهم الله ألا سألوا إذا لم يعلموا فإنما شفاء العي السؤال إنما كان يكفيه أن يتيمم ويعصر أو قال يعصب شك الراوي على جرحه خرقة ثم يمسح عليه ويغسل سائر جسده أخرجه أبو داود والدارقطني ولم يجوز أصحاب الرأي الجمع بين الغسل والتيمم قالوا إذا كان أكثر أعضائه أو بدنه صحيحاً غسل الصحيح ولا يتيمم عليه وإن كان الأكثر جريحاً اقتصر على التيمم والحديث حجة لمن أوجب الجمع بين الغسل والتيمم.

قوله تعالى: ﴿أو على سفر﴾ يعني أو كنتم مسافرين وأراد به السفر الطويل والقصير وعدم الماء فإنه يتيمم ويصلي ولا إعادة عليه لما روي عن أبي ذر قال: «اجتمعت غنيمة عند رسول الله ﷺ فقال أبا ذر ابد فيها فبدوت إلى الربذة فكانت تصيبني الجنابة فأمكث الخمس والست فأتيت رسول الله ﷺ فقال أبو ذر فسكت فقال ثكلتك أمك يا أبا ذر لأمك الويل فدعا بجارية سوداء فجاءت بعس فيه ماء فسترتني بثوب واستترت بالراحلة فاغتسلت، فكأني ألقيت عني جبلاً. فقال الصعيد الطيب: وضوء المسلم ولو إلى عشر سنين فإذا وجدت الماء فأمسه جلدك

مَن جامع امرأته فأكسل لا يجب عليه الغسل ثم صار منسوخاً ـ أخبرنا عبد الوهاب بن محمد الخطيب أنا عبد العزيز بن أحمد الخلال أنا أبو العباس الأصم أنا الربيع أنا الشافعي أنا سفيان عن علي بن زيد عن سعيد بن المسيب أنا أبو موسى الأشعري سأل عائشة رضي الله عنها عن التقاء الختانين فقالت عائشة: قال رسول الله ﷺ: «إذا التقى الختانان، أو مَسّ الختانُ الختانَ فقد وجب الغسل». قوله تعالى: ﴿ وإنْ كنْتُمْ مرضَى ﴾، جمع مريض، وأراد به مرضاً يضرّه إمساسُ الماء مثل الجدري ونحوه، أو كان على موضعِ الطهارة جراحة يخاف من استعمال الماء فيها التّلفَ أو زيادةَ الوجع، فإنه يصلّي بالتيمّم وإن كان الماء موجوداً وإن كان بعض أعضاء طهارته صحيحاً والبعض جريحاً غسل الصحيح منها وتيمّم للجريحِ، لِما أخبرنا أبو طاهر عمر بن عبد العزيز الغاشاني أنا أبو عمر القاسم بن جعفر الهاشمي أنا أبو علي محمد بن أحمد بن عمر واللؤلؤي أنا داود سليمان بن الأشعث السجستاني أنا موسى بن عبد الرحمن الأنطاكي أنا محمد بن سلمة عن الزبير بن حزيق عن جابر بن عبد الله قال: خرجنا في سفر فأصاب رجلاً منّا حجرٌ فشجّه في رأسه، فاحتلم فسأل أصحابه: هلْ تجدون لي رخصة في اليتيم؟ قالوا: ما نجد لك رخصة وأنت تقدر على الماء، فاغتسل فمات، فلمّا قَدِمنا على النبي ﷺ أُخبر بذلك قال: «قتلوه قتلهم الله، ألا

فإن ذلك خير أخرجه أبو داود العس قدح من فخار يجعل فيه الماء للوضوء والاغتسال. أما إذا لم يكن الرجل مريضاً ولا على سفر وعدم الماء في موضع لا يعدم فيه غالباً فإنه يتيمم ويصلي ثم يعيد إذا وجد الماء وقدر عليه وبه قال الشافعي وقال مالك والأوزاعي لا إعادة عليه وقال أبو حنيفة يؤخر الصلاة حتى يجد الماء.

وقوله تعالى: ﴿**أو جاء أحد منكم من الغائط**﴾ **الغائط** المكان المطمئن من الأرض وجمعه الغيطان وكانت عادة العرب إتيان الغائط للحدث فكنوا به عن الحدث وذلك أن الرجل منهم كان إذا أراد قضاء الحاجة طلب غائطاً من الأرض يعني مكاناً منخفضاً من الأرض يحجبه عن أعين الناس فسمي الحدث بهذا الاسم فهو من باب تسمية الشيء باسم مكانه. وقوله تعالى ﴿**أو لامستم النساء**﴾ قرىء هنا وفي سورة المائدة لامستم النساء ولمستم بغير ألف واختلف العلماء في معنى الملامسة على قولين أحدهما أنه الجماع وهو قول علي وابن عباس والحسن ومجاهد وقتادة ووجه هذا القول أن الله تعالى كنى باللمس عن الجماع لأن اللمس يوصل إليه. قال ابن عباس إن الله حيي كريم يكني عن الجماع بالملامسة، والقول الثاني إن المراد باللمس هنا التقاء البشرتين سواء كان بجماع أو بغير جماع وهو قول ابن مسعود وابن عمر والشعبي والنخعي ووجه هذا القول إن اللمس حقيقة في اللمس باليد فأما حمله على الجماع فمجاز والأصل حمل الكلام على الحقيقة لا على المجاز. وأما قراءة من قرأ أو لامستم فالملامسة مفاعلة والأصل حمل الكلام على الحقيقية لا على الإطلاق لأنه قد ورد في الحديث النهي عن بيع الملامسة قال أبو عبيدة في معناها هي أن يقول: إذا لمست ثوبي أو لمست ثوبك فقد وجب البيع فالملامسة في الحديث بمعنى اللمس باليد وإذا كانت مستعملة في غير المجامعة لم يدل قوله تعالى: ﴿**أو لامستم النساء**﴾ على صريح الجماع بل حمل على الأصل الموضوع له وهو اللمس باليد.

فصل في أحكام تتعلق بالآية وفيه مسائل

المسألة الأولى: إذا أفضى الرجل بشيء من بدنه إلى شيء من بدن المرأة ولا حائل بينهما انتقض وضوءهما وهو قول ابن مسعود وابن عمر وبه قال الزهري والأوزاعي والشافعي لما روي الشافعي بسنده عن ابن عمر أنه قال

سألوا إذا لم يعلموا فإنّما شفاء العِيِّ السؤال إنّما كان يكفيه أن يتيمّم ويعصر أو يعصب ـ شك الراوي ـ على جرحه خرقة ثم يمسح عليها ويغسل سائر جسده» ولم يجوّز أصحاب الرأي الجمع بين التيمّم والغسل، وقالوا: إن كان أكثر أعضائه صحيحاً غسل الصحيح ولا يتيمّم عليه، وإنْ كان الأكثر جريحاً اقتصر على التيمّم. والحديث حجّة لمَن أوجب الجمعَ بينهما. قوله تعالى: ﴿ أو علَى سَفَرٍ ﴾، أراد أنه إذا كان في سفر طويلاً كان أو قصيراً، وعُدم الماءُ فإنه يصلّي بالتيمّم ولا إعادة عليه، لِمَا رُوِيَ عن أبي ذر قال: قال النبي ﷺ: «إنّ الصّعيدَ الطّيبَ وضوءُ المسلم وإنْ لم يجدِ الماءَ عَشْرَ سنين، فإذا وَجَدَ الماءَ فليمسّه بَشَرَهُ فإن ذلك خير»، أمّا إذا لم يكن الرجل مريضاً ولا في سفر لكنّه عُدِمَ الماءَ في موضع لا يُعدم فيه الماءُ غالباً بأن كان في قرية انقطع ماؤُها فإنه يصلّي بالتيمّم ثم يُعيد إذا قدر على الماء عند الشافعي وعند مالك والأوزاعي لا إعادة عليه، وعند أبي حنيفة رضي الله عنهما يؤخّر الصلاة حتى يجد الماء. قوله تعالى: ﴿ أو جَاءَ أحدُ مِنْكُمْ مِنَ الغائط ﴾، أراد به إذا أحدث، والغائط اسم للمطمئن من الأرض، وكانت عادة العرب إتيان الغائط للحدث فكُنّي عن الحدث بالغائط، ﴿ أوْ لَامَسْتُمُ النّساءَ ﴾، قرأ حمزة والكسائي « لَمَسْتُم » ههنا وفي المائدة، وقرأ الباقون ﴿ لَامَسْتُمُ النِّساء ﴾ واختلفوا في معنى اللّمس والمُلامسة، فقال قوم: هو المجامعة، وهو قول ابن عباس والحسن ومجاهد وقتادة، وكنّي باللّمس عن الجماع لأنّ الجماع لا يحصل إلّا باللّمس، وقال قوم: هما التقاء البشرتين سواء كان بجماع أو غير جماع، وهو قول ابن مسعود وابن عمرو الشعبي والنخعي، واختلف الفقهاء في حكم هذه الآية، فذهب جماعة إلى أنه إذا أفضى الرجل بشيء من بدنه إلى

قبلة الرجل امرأته وجسها بيده من الملامسة فمن قبّل امرأته أو جسها بيده فعليه الوضوء أخرجه مالك في الموطأ قال الشافعي: وبلغنا عن ابن المسعود مثله وقال مالك والليث بن سعد وأحمد وإسحاق إذا كان اللمس بشهوة انتقض الوضوء وإن لم يكن بشهوة فلا ويدل عليه ما روي عن عائشة رضي الله تعال عنها: «أن رسول الله ﷺ قبل امرأة من نسائه ثم خرج إلى الصلاة ولم يتوضأ» قال عروة ومن هي إلاّ لا أنت فضحكت أخرجه أبو داود وأجيب عن هذا الحديث بأنه ليس بثابت قال الترمذي إنه لا يصلح إسناده بحال وسمعت محمد بن إسماعيل يضعف هذا الحديث وقال حبيب بن ثابت لم يسمع من عروة وضعف يحيى بن سعيد القطان هذا الحديث وقال هو شبه لا شيء وفيه ضعف من وجه آخر وهو أن عروة هذا ليس بعروة بن الزبير ابن أخت عائشة إنما هو شيخ مجهول قال البيهقي يعرف بعروة المزني وإنما المحفوظ عن عائشة: «أن النبي ﷺ كان يقبل وهو صائم» كذا رواه الثقات عن عائشة وقال أبو حنيفة لا ينتقض الوضوء باللمس إلاّ أن يحدث الانتشار وقال قوم لا ينتقض بحال وهو قول ابن عباس وبه قال الحسن والثوري واحتج من لم يوجب الوضوء باللمس بما روي عن عائشة أنها قالت: «كنت أنام بين يدي رسول الله ﷺ ورجلاي في قبلته فإذا سجد غمزني فقبضت رجلي فإذا قام بسطتهما والبيوت يومئذٍ ليس فيها مصابيح» أخرجاه في الصحيحين وأجاب من أوجب الوضوء باللمس عن هذا الحديث بأنه يحتمل أن يكون غمزه لها على حائل.

المسألة الثانية: اختلف قول الشافعي في لمس المحرم كالأم والبنت والأخت أو أجنبية صغيرة فأصح القولين عنه أنه لا ينتقض الوضوء به والثاني أنه ينتقض الوضوء به ومأخذ القولين عند أصحاب الشافعي التردد بين التعلق بعموم الآية في قوله: «أو لامستم النساء» أو النظر إلى المعنى في النقض باللمس وهو تحرك الشهوة فإن أخذنا بعموم الآية فينتقض الوضوء بلمس المحارم وإن أخذنا بالمعنى فلا ينتقض وفي الملموس قولان والملموس هو الذي لا فعل منه في المباشرة رجلاً كان أو امرأة واللامس هو الفاعل اللمس وإن لم يقصد المباشرة فأحد القولين إنه ينتقض وضوء اللامس والملموس لعموم الآية لأنه لمس وقع بين الرجل والمرأة فينتقض وضوءهما معاً والقول الثاني إنه ينتقض وضوء اللامس دون الملموس لما روي عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: «فقدت

شيء من بدن المرأة ولا حائل بينهما، ينتقض وضوءهما، وهو قول ابن مسعود وابن عمر رضي الله عنهما، وبه قال الزهري والأوزاعي والشافعي رضي الله عنهم، وقال مالك والليثُ بن سعد وأحمد وإسحق: إن كان اللّمس بشهوة نقض الطهر، وإن لم يكن بشهوة فلا ينتقض، وقال قوم: لا ينتقض الوضوءُ باللّمس بحال، وهو قول ابن عباس وبه قال الحسن والثّوري، وقال أبو حنيفة رضي الله عنه: لا ينتقض إلّا إذا حدثَ الانتشارُ، واحتجّ مَن لم يوجب الوضوءَ باللّمس بما أخبرنا أبو الحسن السرخسي أنا زاهر بن أحمد أنا أبو إسحق الهاشمي أنا أبو مصعب عن مالك عن أبي النضر مولى عمر بن عبد الله عن أبي سلمة بن عبد الرحمن عن عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ أنّها قالت: كنتُ أنام بين يدي رسول الله ﷺ ورجلاي في قِبلته فإذا سجد غمزني فقبضتُ رجلي وإذا قام بسطتُهما، قالت والبيوت يومئذٍ ليس فيها مصابيح، أخبرنا أبو الحسن السرخسي أنا زاهر بن أحمد أنا أبو إسحق الهاشمي أنا أبو مصعب عن مالك عن يحيىٰ بن مسعود عن محمد بن إبراهيم بن الحرث التيمي أن عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ قالت: كنتُ نائمةً إلى جنب رسول الله ﷺ ففقدته من الليل فلمستُه بيدي فوقعتْ يدي على قدميه وهو ساجد وهو يقول: «أعوذُ برضاكَ من سخطك وبمعافاتِك من عقوبتك وأعوذ بك منك لا أُحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك». واختلف قول الشافعي رضي الله عنه فيما لو لمس امرأة من محارمه كالأم والبنت والأُخت أو لمس أجنبية صغيرة، أصحّ القولين أنه لا ينتقض الوضوء لأنها ليست بمحل الشهوة كما لو لمس رجلاً، واختلف في

رسول الله ﷺ ليلة من الفراش فالتمسته فوضعت يدي على أخمص قدميه وهو ساجد وهما منصوبتان وهو يقول: اللّهم إني أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك وأعوذ بك منك لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك» أخرجه مسلم فلو انتقض وضوءه ﷺ لقطع الصلاة ولو لمس شعر امرأة أو سنها أو ظفرها فلا وضوء عليه.

المسألة الثالثة في الحدث: وهو الخارج من السبيلين عيناً كالبول والغائط أو أثراً كالريح ونحوها فإذا حصل شيء من ذلك فلا تصح صلاته ما لم يتوضأ أو يتيمم عند عدم الماء لما روي عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يقبل الله صلاة أحدكم إذا أحدث حتى يتوضأ» فقال رجل من أهل حضرموت ما الحدث يا أبا هريرة؟ قال فساء أو ضراط أخرجاه في الصحيحين أما خروج النجاسة من غير السبيلين كالفصد والحجامة والرعاف والقيء ونحوها فذهب قوم إلى أنه لا وضوء من خروج هذه الأشياء يروى ذلك عن ابن عمر وابن عباس وبه قال عطاء وطاوس والحسن وابن المسيب وإليه ذهب مالك والشافعي لما روي عن أنس قال: «احتجم رسول الله ﷺ فصلى ولم يتوضأ ولم يزد على غسل محاجمه» أخرجه الدارقطني وذهب قوم إلى إيجاب الوضوء من ذلك منهم سفيان الثوري وابن المبارك وأصحاب الرأي وأحمد وإسحاق واتفق هؤلاء على أن خروج القليل منه لا ينقض الوضوء ويدل على انتقاض الوضوء بخروج هذه الأشياء ما روي عن معدان بن أبي طلحة عن أبي الدرداء: «أن النبي ﷺ قاء فتوضأ قال معدان فلقيت ثوبان في مسجد دمشق فذكرت له ذلك فقال صدق أنا صببت له وضوءه» أخرجه الترمذي وقال هو أصح شيء في هذا الباب.

المسألة الرابعة: من نواقض الوضوء زوال العقل بجنون أو إغماء أو نوم لما روي عن علي قال قال رسول الله ﷺ: «العين وكاء السه فمن نام فليتوضأ» أخرجه أبو داود وابن ماجه ويستثنى من ذلك النوم اليسير قاعداً

قوله في انتقاض وضوء الملموس على قولين، أحدهما: ينتقض لاشتراكهما في الالتذاذ كما يجب الغسل عليهما بالجماع، والثاني: لا ينتقض لحديث عائشة رضي الله عنها حيث قالت: فوقعتْ يدي على قدميه وهو ساجد، ولو لمس شعر امرأةٍ أو سِنّها أو ظفرها لم ينتقض وضوءه عنده، واعلم أن المُحدِثَ لا تصحّ صلاتُه ما لم يتوضأ إذا وجد الماء أو يتيمّم إذا لم يجد الماء. أخبرنا حسان بن سعيد المنيعي أخبرنا أبو طاهر الزيادي أنا أبو بكر محمد بن الحسين القطّان أنا أحمد بن يوسف السلمي أنا عبد الرزاق أنا معمر عن همّام بن منبه أنا أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تُقبل صلاةُ أحدكم إذا أحدث حتى يتوضأ»، والحدَثُ هو خروج الخارج من أحد الفرجين عَيْناً كان أو أثراً، أو الغلبة على العقل بجنون أو إغماء على أي حال كان، وأمّا النوم فمذهب الشافعي رضي الله عنه أنه يوجب الوضوء إلاّ أن ينام قاعداً متمكّناً فلا وضوء عليه، لِمَا أخبرنا عبد الوهاب بن محمد الخطيب أخبرنا عبد العزيز الخلال أنا أبو العباس الأصم أخبرنا الربيع أنا الشافعي أنا الثقة عن حميد الطويل عن أنس رضي الله عنهما قال: كان أصحاب رسول الله ﷺ ينتظرون العِشَاءَ فينامُون، أحسبُه قال قعوداً حتى تَخْفِقَ رؤُوسُهم ثم يُصلّون ولا يتوضئون، وذهب قوم إلى أن النوم يُوجب الوضوءَ بكل حال وهو قول أبي هريرة رضي الله عنه وعائشة رضي الله عنها، وبه قال الحسن وإسحق والمُزَني، وذهب قوم إلى أنه لو نام قائماً أو قاعداً أو ساجداً فلا وضوء عليه حتى ينام مضطجعاً وبه قال الثّوري وابن المبارك وأصحاب الرأي واختلفوا في مسّ الفرج من نفسه أو من غيره فذهب جماعة إلى أنه يُوجبُ الوضوءَ وهو قول عمر وابن عباس وسعد بن أبي وقاص وأبي هريرة وعائشة رضي الله عنها، وبه قال سعيد بن المسيب وسليمان بن يسار، وعروة بن الزبير وإليه ذهب الأوزاعي والشافعي، وأحمد وإسحق، وكذلك المرأة تَمَسُّ فرجَها، غير أن الشافعي رضي الله عنه يقول لا ينتقض إلا أن تلمس ببطن الكفّ أو

مفضياً بمحل الحدث إلى الأرض ويدل على ذلك ما روي عن أنس. قال: كان أصحاب رسول الله ﷺ ينتظرون العشاء الأخيرة حتى تخفق رؤوسهم ثم يصلون ولا يتوضؤون أخرجه أبو داود وذهب قوم إلى أن النوم لا ينقض الوضوء بكل حال وهو قول أبي هريرة وعائشة وبه قال الحسن وإسحاق والمزني وذهب قوم إلى أنه لو نام قائماً أو قاعداً أو ساجداً وهو في الصلاة فلا وضوء عليه حتى يضطجع وبه قال سفيان الثوري وابن المبارك وأصحاب الرأي لما روي عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال: «ليس على من نام ساجداً وضوء حتى يضطجع فإذا اضطجع استرخت مفاصله» أخرجه أحمد بن حنبل وضعف بعضهم هذا الحديث.

المسألة الخامسة: من نواقض الوضوء مس الفرج من نفسه أو غيره فذهب قوم إلى أنه يوجب الوضوء وهو قول عمر وابن عمر وابن عباس وسعد بن أبي وقاص وأبي هريرة وعائشة وبه قال سعيد بن المسيب وسليمان بن يسار وإليه ذهب الأوزاعي والشافعي وأحمد وإسحاق غير أن الشافعي قال: ينتقض الوضوء إذا لمس ببطن الكف والرجل والمرأة في ذلك سواء ويدل على ذلك ما روي عن بسرة بنت صفوان أن رسول الله ﷺ قال: «من مس ذكره فلا يصلِّ حتى يتوضأ» أخرجه الترمذي وقال حديث صحيح ولأبي داود والنسائي نحوه وعن أم حبيبة قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من مس فرجه فليتوضأ» أخرجه ابن ماجه وصححه أحمد وأبو زرعة وعن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «من أفضى بيده إلى ذكره وليس دونه ستر فقد وجب عليه الوضوء» أخرجه أحمد بن حنبل وذهب قوم إلى أن مس الذكر لا يوجب الوضوء وهو قول علي وابن مسعود وأبي الدرداء وحذيفة وبه قال الحسن وإليه ذهب الثوري وابن المبارك وأصحاب الرأي واحتجوا بما روي عن طلق بن علي قال قدمنا على رسول الله ﷺ فجاءه رجل كأنه بدوي فقال: «يا نبي الله ما ترى في مس الرجل ذكره بعدما توضأ قال هل هو إلّا مضغة أو قال بضعة منه؟» أخرجه أبو داود والترمذي والنسائي نحوه بمعناه وأجاب من أوجب الوضوء على من مس الذكر عن

بطون الأصابع، واحتجّوا بما أخبرنا أبو الحسن السرخسي أنا زاهر بن أحمد أخبرنا أبو إسحق الهاشمي أنا أبو مصعب عن مالك عن عبد الله بن أبي بكر محمد بن عمرو بن حزم أنه سمع عروة بن الزبير يقول: دخلتُ على مروان بن الحكم فذكرنا ما يكون منه الوضوء، فقال مروان: مِنْ مَسِّ الذكر الوضوء، فقال عروة: ما علمتُ ذلك، فقال مروان: أخبرتني بُسرةُ بنت صفوان أنها سمعت رسولَ الله ﷺ يقول: «إذا مسّ أحدكم ذكره فليتوضأ»، وذهب جماعة إلى أنه لا يُوجب الوضوء، رُوِيَ ذلك عن علي وابن مسعود وأبي الدرداء وحذيفة وبه قال الحسن وإليه ذهب الثّوري وابن المبارك وأصحاب الرأي، واحتجّوا بما رُوِيَ عن طلق بن علي رضي الله عنه أن النبي ﷺ سُئِلَ عن مسِّ الرجلِ ذكرَه، فقال: «هلْ هو إلاّ بضعةٌ منك»؟ ويُروى «هل هو إلا بضعة أو مضغة منه»، ومَن أوجب الوضوء منه قال: هذا منسوخ بحديث بُسرة لأن أبا هريرة يروي أيضاً: أنّ الوضوء من مسِّ الذكر، وهو متأخر الإسلام، وكان قدوم طلق بن عليّ على رسول الله ﷺ أول زمن الهجرة حين كان يبني المسجد. واختلفوا في خروج النجاسة من غير الفرجين بالفصد والحجامة وغيرهما من القيء ونحوه، فذهب جماعة إلى أنه لا يُوجب الوضوءَ، رُوِيَ ذلك عن عبد الله بن عمر وعبد الله بن عباس، وبه قال عطاء وطاوس والحسن وسعيد بن المسيب وإليه ذهب مالك والشافعي وذهبت جماعة إلى إيجاب الوضوء بالقيء والرعاف والفَصْد والحِجَامة منهم سفيان الثّوري وابن المبارك وأصحاب الرأي وأحمد وإسحاق، واتفقوا على أن القليل منه وخروج الريح من غير السبيلين لا يُوجبُ الوضوءَ، ولو أوجبَ الوضوءَ كثيرُهُ لأوجب قليلُه الوضوءَ كالفرج، ﴿ فلم تجدُوا ماءً فتيمّمُوا ﴾، اعلم أن التيمّم من خصائص هذه الأمة، روَى حُذيفةُ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «فُضِّلْنَا على الناس بثلاثٍ: جُعلتْ صفوفُنا كصُفوف الملائكة، وجُعلتْ لنا الأرض كلها مسجداً وجُعلتْ تُربتُها لنا طهوراً إذا لم نجدِ الماء»، وكان بدء التيمّم ما أخبرنا أبو الحسن

حديث طلق بن علي بأن قدومه على رسول الله ﷺ كان في أول الهجرة وهو يبني المسجد وأبو هريرة من آخرهم إسلاماً. وقد روي انتقاض الوضوء بمس الذكر فصار حديث أبي هريرة ناسخاً لحديث طلق بن علي وأيضاً فإن حديث طلق يرويه عنه ابنه قيس بن طلق وهو ليس بالقوي عند أهل الحديث.

وقوله تعالى: ﴿فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيداً طيباً﴾ اعلم أن التيمم من خصائص هذه الأمة خصها الله تعالى به ليسهل عليهم أسباب العبادة ويدل على ذلك ما روي عن حذيفة قال: قال رسول الله ﷺ: «فضلنا على الناس بثلاث جعلت صفوفنا كصفوف الملائكة وجعلت لنا الأرض كلها مسجداً وجعلت تربتها لنا طهوراً إذا لم نجد الماء» أخرجه مسلم وكان سبب بدء التيمم ما روي عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: «خرجنا مع رسول الله ﷺ في بعض أسفاره حتى إذا كنا بالبيداء أو بذات الجيش انقطع عقد لي فأقام رسول الله ﷺ على التماسه وأقام الناس معه وليسوا على ماء وليس معهم ماء فأتى الناس إلى أبي بكر الصديق فقالوا: ألا ترى إلى ما صنعت برسول الله ﷺ وبالناس معه وليسوا على ماء وليس معهم ماء فجاء أبو بكر ورسول الله ﷺ واضع رأسه على فخذي قد نام فقال حبست رسول الله ﷺ والناس وليسوا على ماء وليس معهم ماء قالت عائشة فعاتبني أبو بكر وقال ما شاء الله أن يقول وجعل يطعن بيده في خاصرتي فلا يمنعني من التحرك إلّا مكان رسول الله ﷺ على فخذي فنام رسول الله ﷺ حتى أصبح على غير ماء فأنزل الله عز وجل آية التيمم فتيمموا فقال أسيد بن حضير وهو أحد النقباء ما هي بأول بركتكم يا آل أبي بكر قالت عائشة فبعثنا البعير الذي كنت عليه فوجدنا العقد تحته» أخرجاه في الصحيحين قولها بالبيداء البيداء: المفازة والقفر وكل صحراء فهي بيداء وجمعها بيد وذات الجيش اسم لموضع وهو على بريد من المدينة وقولها فبعثنا البعير أي أثرناه قوله تعالى: ﴿فلم تجدوا ماء﴾ هو معطوف على ما قبله والمعنى أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فطلبتم الماء لتطهروا به فلم تجدوه يعني فأعوزكم فلم تجدوه بثمن ولا بغير ثمن لأن المحدث مأمور بالتطهر بالماء فإذا أعوزه الماء عدل عنه إلى التيمم بعد طلب الماء. قال الشافعي: إذا دخل وقت الصلاة طلب الماء فإن لم يجده تيمم وصلى ثم إذا دخل وقت الصلاة الثانية وجب

محمد بن محمد السرخسي أخبرنا أبو علي زاهر بن أحمد السرخسي أخبرنا أبو إسحق إبراهيم بن عبد الصمد الهاشمي أخبرنا أبو مصعب عن مالك عن عبد الرحمن بن القاسم عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ قالت: خرجنا مع رسول الله ﷺ في بعض أسفاره حتى إذا كنّا بالبيداء أو بذات الجيش انقطع عقد لي فأقام رسول الله ﷺ على الْتِمَاسِه وأقام الناس معه، وليسوا على ماء وليس معهم ماء فأتى النّاسُ أبا بكر رضي الله عنه فقالوا ألا ترى ما صنعت عائشة أقامت برسول الله ﷺ وبالناس ومعه، وليسوا على ماء وليس معهم ماء، فجاء أبو بكر رضي الله عنه ورسول الله ﷺ واضع رأسه على فخذي قد نام فقال: أحبستِ رسولَ الله ﷺ والناسَ وليسوا على ماء وليس معهم ماء، قالت: فعاتبني أبو بكر رضي الله عنه وقال ما شاء الله أن يقول، وجعل يطعن بيده في خاصرتي فلا يمنعني من التحرّك إلّا مكان رسول الله ﷺ على فخذي، فقام رسول الله ﷺ حين أصبح على غير ماء، فأنزل الله تعالى آية التيمّم ﴿ فتيمّموا ﴾ فقال أسيد بن حضير وهو أحد النقباء: ما هي بأول بركتكم يا آلَ أبا بكر، قالت عائشة رضي الله عنها، فبعثنا البعيرَ الذي كنت عليه فوجدنا العقدَ تحتَهُ. وأخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا عبيد بن إسماعيل أنا أبو أسامة عن هشام عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها: أنها استعارتْ من أسماءَ قِلادةً فهلكت، فأرسل رسول الله ﷺ ناساً من أصحابه في طلبها فأدركتْهم الصلاةُ فصلّوا بغير وضوء، فلما أتوا النبي ﷺ شكوا ذلك إليه فنزلت آية التيمّم. فقال أُسيد بن حضير: جزاكَ اللَّهُ خيراً فوالله ما نزل بك أمر قطّ إلّا جعل الله لك منه مخرجاً وجعل للمسلمين فيه بركة،

عليه الطلب مرة أخرى. وقال أبو حنيفة: لا يجب عليه الطلب للصلاة الثانية حجة الشافعي قوله تعالى فلم تجدوا ماء فعدم الوجدان مشعر بسبق الطلب فلا بد في كل مرة من سبق الطلب وأجمعوا على أنه لو وجد الماء لكنه يحتاج إليه لعطشه أو عطش حيوان محترم فإنه يجوز له التيمم مع وجدان ذلك الماء وقوله تعالى: ﴿فتيمموا صعيداً طيباً﴾ أصل التيمم في اللغة القصد يقال تيممت فلاناً إذا قصدته وهو في الشرع عبارة عن أفعال مخصوصة عند عدم الماء لتأدية الصلاة واختلفوا في الصعيد الطيب فقال قتادة الصعيد الأرض التي ليس فيها شجر ولا نبات. وقال ابن زيد الصعيد: المستوي من الأرض وكذلك قال الليث: الصعيد الأرض المستوية التي لا شيء فيها. وقال الفراء: الصعيد هو التراب وكذلك قال أبو عبيد في قوله ﷺ: «إياكم والقعود بالصعدات» قال الصعدات الطرق مأخوذ من الصعيد وهوالتراب وقيل الصعيد وجه الأرض البارز وهو اختيار الزجاج قال: الصعيد وجه الأرض ولا تبال أكان في الموضع تراب أو لا لأن الصعيد ليس هو التراب إنما هو وجه الأرض ونقل الربيع عن الشافعي في تفسير الصعيد قال: لا يقع اسم الصعيد إلّا على تراب ذي غبار فأما البطحاء الغليظة والرقيقة فلا يقع عليها اسم الصعيد فإن خالطه تراب أو مدر يكون له غبار كالذي خالطه هوالصعيد قال ولا يتيمم بنورة ولا كحل ولا زرنيخ كل هذا حجارة هذا كلام الشافعي في تفسير الصعيد وهو القدوة في اللغة وقوله في ذلك حجة وقد وافقه على ذلك الفراء وأبو عبيدة في أنه التراب وجميع الأقوال في الصعيد صحيحه في اللغة لكن المراد به هنا التراب وقد قال ابن عباس في قوله صعيداً هو التراب. واختلف أهل العلم فيما يجوز به التيمم فذهب الشافعي إلى أنه يختص بما وقع عليه اسم التراب مما له غبار يعلق بالوجه واليدين لأن النبي ﷺ قال: «جعلت لي الأرض مسجداً وترابها طهوراً» فخص التراب بالطهور ولأن الله تعالى وصف الصعيد بالطيب والطيب من الأرض هو الذي ينبت فيها بدليل قوله والبلد الطيب يخرج نباته فعلى هذا ما لا ينبت ليس بطيب ولنا أيضاً قوله تعالى في سورة المائدة فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه وكلمة من للتبعيض هنا ولا يتأتى ذلك في الصخر الذي لا تراب عليه وأيضاً فإنه يقال للغبار صعيد لأنه مأخوذ من الصعود وهو الارتفاع ولا يكون ذلك في الصخر وما أشبهه. وذهب أبو حنيفة ومالك

﴿ فتيمّمُوا ﴾، أي: اقْصُدُوا، ﴿ صعيداً طيباً ﴾، أي: تراباً طيباً طاهراً نظيفاً، قال ابن عباس رضي الله عنهما: الصعيدُ هو التراب، واختلف أهل العلم فيما يجوز به التيمّم، فذهب الشافعي رحمه الله تعالى إلى أنه يختصّ بما يقع عليه اسم التراب مما يعلق باليد منه غبار، لأن النبي ﷺ قال: «وجُعلتْ تُربتُها لنا طهوراً»، وجوّز أصحاب الرأي التيمّم بالزرنيخ والجصّ والنُّوْرة وغيرها من طبقات الأرض، حتى قالوا: لو ضرب يديه على صخرة لا غبار عليها أو على التراب ثم نفخ فيه حتى زال التراب كله فمسح به وجهه ويديه صحّ تيمُّمُه، وقالوا: الصعيد وجهُ الأرض، لِما رُوي عن جابر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «جُعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً» وهذا مجمل، وحديث حذيفة في تخصيص التراب مفسَّر والمفسَّر من الحديث يقضي على المُجمل، وجوّز بعضهم بكل ما هو متصل بالأرض من شجر ونبات، ونحوهما وقال: إن الصعيد اسم لِما تصاعد على وجه الأرض، والقصد إلى التراب، شرطٌ لصحة التيمّم، لأنّ اللَّهَ تعالى قال: ﴿ فتيمَّمُوا ﴾، والتيمّم: القصد، حتى لو وقف في مهبّ الريح فأصابَ الغبارُ وجهَهُ ونوَى لم يصحّ. قوله تعالى: ﴿ فامْسَحُوا بِوُجُوهِكُم وأيْدِيكُمْ إنّ اللَّهَ كانَ عفوّاً غفوراً ﴾، اعلم أن مسح الوجه واليدين واجب في التيمّم، واختلفوا في كيفيته فذهب أكثر أهل العلم إلى أنه يمسح الوجه واليدين مع المِرفقين، بضربتين يضرب كفّيه على التراب فيَمسح بهما جميع وجهه، ولا يجب إيصال التراب إلى ما تحت الشعور، ثم يضرب ضربةً أخرى فيمسح يديه إلى المِرفقين، لِما أخبرنا عبد الوهاب بن محمد بن الخطيب أنا عبد العزيز بن أحمد الخلال أنا أبو العباس الأصم أنا الربيع أنا الشافعي أنا إبراهيم بن محمد عن أبي الحُويرث عن

إلى أنه يجوز التيمم بكل ما هو من جنس الأرض كالرمل والجص والنورة والزرنيخ ونحو ذلك حتى لو ضرب يده على صخرة ملساء لا غبار عليها صح تيممه عندهم واحتج أبو حنيفة ومن وافقه بظاهر الآية قالوا لأن التيمم هو القصد والصعيد اسم لما تصاعد من الأرض فقوله تعالى فتيمموا صعيداً طيباً أي اقصدوا أرضاً فوجب أن يكون هذا القدر كافياً وأجيب عنه بما تقدم من الدليل في قوله منه وإن لفظة من تكون للتبعيض قالوا ولما روي عن جابر أن النبي ﷺ قال: «وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً» وأجيب عنه بأن هذا مجمل يفسره ما تقدم من حديث حذيفة في تخصيص التراب والمفسر يقضي على المجمل وجوز بعضهم التيمم بكل ما هو متصل بالأرض من شجر ونبات ومدر ونحو ذلك قالوا لأن اسم الصعيد يقع على ما تصاعد على الأرض وأجيب عنه بما تقدم من الأدلة.

وقوله تعالى: ﴿فامسحوا بوجوهكم وأيديكم﴾ الوجه الممسوح في التيمم هو المجدود في الوضوء واختلف العلماء فيما يجب مسحه من اليد فذهب أكثر أهل العلم منهم ابن عمر وابنه سالم والحسن وهو مذهب أبي حنيفة والشافعي أنه يمسح الوجه واليدين إلى المرفقين بضربتين وصورة ذلك أن يضرب كفيه على التراب ويمسح بهما وجهه ولا يجب إيصال التراب إلى منابت الشعور ثم يضرب ضربة أخرى ويفرق أصابعه فيمسح يديه إلى المرفقين ويدل على ذلك ما روي عن جابر عن النبي ﷺ: «التيمم ضربتان ضربة للوجه وضربة لليدين إلى المرفقين» رواه البيهقي ولم يضعفه وروي الشافعي عن إبراهيم بن محمد عن أبي الحويرث عن الأعرج عن ابن الصمة قال مررت على النبي ﷺ وهو يبول فسلمت عليه فلم يرد عليّ حتى قام إلى الجدار فحته بعصا كانت معه ثم وضع يده على الجدار فمسح وجهه وذراعيه ثم رد على هذا حديث منقطع لأن الأعرج وهو عبدالرحمن بن هرمز لم يسمع هذا من ابن الصمة وإنما سمعه من عمير مولى ابن عباس عن ابن الصمة وكذا هو مخرج في الصحيحين عن عمير مولى ابن عباس قال دخلنا على أبي جهيم بن الحارث فقال أبو جهيم أقبل رسول الله ﷺ من نحو بئر جمل فلقيه رجل فسلم عليه فلم يرد النبي ﷺ حتى أقبل على الجدار فوضع يده على الحائط فمسح بوجهه ويديه ثم رد عليه السلام. ولأبي داود عن نافع قال انطلقت مع ابن عمر في حاجة إلى ابن عباس فلما أن قضى حاجته فكان من حديثه يومئذٍ أن قال مر رجل في سكة من سكك المدينة فلقي رسول الله ﷺ قد خرج من غائط أو بول فسلم عليه الرجل فلم يرد عليه حتى إذا كاد الرجل أن يتوارى في السكة ضرب رسول الله ﷺ بيده على حائط ومسح بها وجهه ثم ضرب

الأعرج عن أبي الصمّة قال: مررتُ على النبي ﷺ وهو يبول فسلّمت عليه فلم يرد عليّ حتى قام إلى جدار فحتّه بعصاً كانت معه، ثم وضع يديه على الجدار فمسح وجهه وذراعيه ثم ردّ عليّ السلام. ففيه دليلٌ على وجوب مسح اليدين إلى المِرفقين كما يجب غسلهما في الوضوء إلى المرفقين، ودليلٌ على أن التيمّم لا يصحّ ما لم يعلق باليد غبار التراب، لأن النبي ﷺ حتَّ الجدارَ بالعصا، ولو كان مجرد الضرب كافياً لما كان حَتّه، وذهب الزهري إلى أنه يمسح اليدين إلى المنكبين، لِما رُوِيَ عن عمّار أنه قال: تَيمّمْنَا إلى المناكب. وذلك حكاية فعله لم ينقله عن النبي ﷺ، كما رُوِيَ أنه قال: أجنبتُ فتمكّعتُ في التراب، فلمّا سأل النبيَّ ﷺ أمره بالوجه والكفّين. وذهب جماعة إلى أن التيمّم ضربة واحدة للوجه والكفّين وهو قول علي وابن عباس رضي الله عنهم، وبه قال الشعبي وعطاء بن أبي رباح ومكحول، وإليه ذهب الأوزاعي وأحمد وإسحق، واحتجّوا بما أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا آدم أنا شعبة أخبرنا الحكم عن ذر عن سعيد بن عبد الرحمن بن أبزي عن أبيه قال جاء رجل إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: إني أجنبتُ فلم أصب الماء، فقال عمّار بن ياسر لعمر بن الخطاب: أمــا تذكر أنّا كنّا في سفر أنا وأنتَ فأمّا أنتَ فلم تصلِ وأمّا أنا فتمكّعتُ فصليتُ فذكرتُ ذلك للنبي ﷺ فقال النبي ﷺ: «إنّما كان يكفيك هكذا، فضرب النبي ﷺ بكفّيه الأرضَ

ضربة أخرى فمسح بها ذراعيه ثم رد عليه السلام وقال: لم يمنعني إن أرد عليك أولاً إلاّ أني لم أكن على طهر وفي رواية فمسح ذراعيه إلى المرفقين فهذا أجود ما في هذا الباب. فإن البيهقي أشار إلى صحة إسناده وفيه دليل على الحكمين يعني مسح الوجه واليدين بضربتين وإيصال المسح إلى المرفقين وفيه دليل على أن التيمم لا يصح ما لم يعلق بالوجه واليدين غبار التراب لأن النبي ﷺ حت الجدار بالعصى ولو كان مجرد الضرب كافياً لما كان حته. ذهب الزهري أنه يمسح اليد إلى المنكبين ويدل على ذلك ما روي عن عمار بن ياسر قال تمسحوا وهم مع رسول الله ﷺ بالصعيد لصلاة الفجر بأكفهم الصعيد ثم مسحوا بوجوههم مسحة واحدة ثم عادوا فضربوا بأكفهم الصعيد مرة أخرى فمسحوا بأيديهم. كلها إلى المناكب والإباط ثم بطون أيديهم أخرجه أبو داود وذهب جماعة إلى أن التيمم ضربة واحدة للوجه والكفين وهو قول علي وابن عباس وبه قال الشعبي وعطاء ومكحول وإليه ذهب الأوزاعي ومالك وأحمد وداود الظاهري واحتجوا بما روي عن عمار بن ياسر قال: بعثني النبي ﷺ في حاجة فأجنبت فلم أجد الماء فتمرغت في الصعيد كما تمرغ الدابة ثم أتيت النبي ﷺ فذكرت ذلك له فقال إنما يكفيك أن تقول بيديك هكذا ثم ضرب بيديه الأرض واحدة ثم مسح الشمال على اليمين وظاهر كفيه، وباطنهما ووجهه وفي رواية أن تقول هكذا وضرب بيديه الأرض فنفض يديه فمسح وجهه وكفيه أخرجاه في الصحيحين وجملته أن اليد اسم لهذه الجارحة وحدها عند بعض أهل اللغة من أطراف الأنامل إلى الكوع وهذا هو المقطوع في حد السرقة. وقال أبو إسحاق الزّجاج: حدها من أطراف الأنامل إلى الكتف فمن ذهب إلى أن الممسوح في التيمم هو الكف. قال إن حد اليد هو المقطوع في حد السرقة ومن ذهب إلى أن الممسوح في التيمم إلى المناكب والأباط نظر إلى أن مسمى اليد يطلق على جميعها ومن ذهب إلى أن الممسوح في التيمم إلى المرفقين قال إن التيمم بدل عن الوضوء واليد المغسولة في الوضوء هي الممسوحة في التيمم فيحمل المطلق الذي في قوله تعالى فامسحوا بوجوهكم وأيديكم على المقيد الذي في قوله تعالى في آية الوضوء فأغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق وأجاب من ذهب إلى هذا عن حديث عمار بأن المراد منه بيان صورة الضرب وليس المراد منه جميع ما يحصل به التيمم.

ونفخَ فيهما، ثم مسحَ وجهَهُ وكفّيه»، وقال محمد بن إسماعيل أنا محمد بن كثير عن شعبة بإسناده: فقال عمّار لعمر رضي الله عنه: تمكعتُ فأتيتُ النبيَّ ﷺ فقال: «يكفيك الوجه والكفّان»، وفي الحديث دليل على أن الجنب إذا لم يجد الماء يصلي بالتيمّم، وكذا الحائض والنفساء إذا طَهُرَتَا وعُدِمَتَا الماء. وذهب عمر وابن مسعود رضي الله عنهما إلى أن الجنب لا يصلّي بالتيمّم بل يؤخر الصلاة إلى أن يجد الماء فيغتسل، وحملا قوله تعالى: ﴿أو لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾ على اللمس باليد دون الجماع، وحديث عمّار رضي الله عنه حجّة، وكان عمر نسي ما ذَكَرَ له عمّارٌ فلم يقنع بقوله. ورُوِيَ أن ابن مسعود رضي الله عنه رجع عن قوله وجوّز التيمّم للجنب والدليل عليه أيضاً ما أخبرنا عبد الوهاب بن محمد الخطيب أنا عبد العزيز بن أحمد الخلال أنا أبو العباس الأصم أنا الربيع أنا الشافعي أنا إبراهيم بن محمد بن عياد بن منصور عن أبي رجاء العطاردي عن عمران بن حصين رضي الله عنهم أن النبي ﷺ أمر رجلًا كان جنباً أن يتيمّم ثم يصلّي فإذا وجدَ الماءَ اغتسلَ. وأخبرنا عمر بن عبد العزيز أنا أبو القاسم بن جعفر الهاشمي أنا أبو علي اللؤلؤي أنا أبو داود السجستاني أنا مسدد أنا خالد الواسطي عن خالد الحذاء عن أبي عمرو عن بجدان عن أبي ذر رضي الله عنهم قال: اجتمعت غنيمةٌ من الصدقة عند رسول الله ﷺ فقال: «يا أبا ذر ابدأ» فيها فبدوت إلى الربذة وكانت تصيبني الجنابة فأمكث الخمس والستّ، فأتيت رسولَ الله ﷺ فقال: «أبا ذر»، فسكتُّ، فقال: «ثكلتك أمك يا أبا ذر لأمك الويل»، فدعا بجارية سوداء فجاءت بعس فيه ماء فسترتني بثوب واستترت بالراحلة فاغتسلتُ فكأني ألقيت عنّي جبلًا، فقال: «الصعيدُ الطيبُ وضوءُ المسلم ولو إلى عشر سنين، فإذا وجدت

فصل

وأركان التيمم خمسة: الأول تراب طاهر خالص له غبار يعلق بالوجه واليدين ويجوز بالرمل إذا كان عليه غبار. الثاني قصد الصعيد فلو تعرض لمهب الريح لم يكفه ولو يممه غيره بإذنه مع عجزه جاز وإن كان قادراً فوجهان. الثالث نقل التراب إلى الوجه واليدين. الرابع نية استباحة الصلاة فلو نوى رفع الحدث لم يصح وأكمله أن ينوي استباحة الفرض والنفل. الخامس مسح الوجه واليدين إلى المرفقين بضربتين والترتيب ولا يصح التيمم لصلاة إلّا بعد دخول وقتها ولا يجوز الجمع بين صلاتي فرض بتيمم واحد وهو قول علي وابن عباس وابن عمر وبه قال الشعبي والنخعي وقتادة وإليه ذهب مالك والشافعي وأحمد وإسحاق وذهب جماعة إلى أن التيمم كالوضوء فيجوز تقديمه إلى الوقت ويجوز أن يصلي به ما شاء من الفرائض ما لم يحدث وهو قول سعيد بن المسيب والحسن والزهري والثوري وأصحاب الرأي واتفقوا على أنه يجوز أن يصلي بتيمم واحد ما شاء من النوافل قبل الفرض وبعده إلى أن يدخل وقت الصلاة الأخرى، وأن يقرأ القرآن إن كان جنباً ويشترط طلب الماء في السفر بأن يطلبه في رحله وعند رفقائه وإن كان في صحراء ولا حائل دون نظره حواليه، وإن كان دون نظره حائل قريب من تل أو جدار أو نحوه عدل عنه لأن الله تعالى قال فلم تجدوا ماء فتيمموا ولا يقال لم يجد إلّا لمن طلب ولا يشترط طلب عند أبي حنيفة فإن رأى الماء ولا يقدر عليه لمانع من عدو أو سبع يمنعه من الذهاب إليه أو كان الماء في بئر وليس معه آلة الاستقاء فهو كالعادم فيتيمم ويصلي ولا إعادة عليه والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿إن الله كان عفواً﴾ يعني يتجاوز عن ذنوب عباده ويعفو ويصفح عنهم ﴿غفوراً﴾ ستوراً على عباده يغفر الذنوب ويسترها وفيه تنبيه على أن الله تعالى رخص لعباده أمر العبادة ويسرها عليهم لأن من كانت عادته أن يغفر الذنوب ويعفو عنها كان أولى بأن يرخص للعاجزين أمر العبادة قوله عز وجل: .

الماءَ فأمسّه جلدك فإنّ ذلك خير»، ومسحَ الوجهَ واليدينِ في التيمم، تارة يكون بدلاً عن غسل بعض أعضاء الطهارة بأن يكونَ على بعض أعضاء طهارته جراحةٌ لا يمكنه غسلِ محلها فعليه أن يتيمّم بدلاً عن غسله، ولا يصحّ التيمّم لصلاة الوقت إلّا بعد دخول الوقت، ولا يجوز أن يجمع بين فريضتين بتيمّم واحد لأن الله تعالى قال: ﴿ إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم ﴾ [المائدة: ٦] إلى أن قال: ﴿ فلم تجدوا ماءً فتيمَّمُوا ﴾، ظاهر الآية يدلّ على وجوب الوضوء أو التيمّم إذا لم يجد الماء عند كل صلاة، إلّا أن الدليل قدْ قامَ في الوضوءِ فإن النبيَّ ﷺ صلّى يوم فتح مكة الصلواتِ بوضوءٍ واحد، فبقي التيمّم على ظاهره، وهذا قول عليّ وابن عباس وابن عمر رضي الله عنهم، وبه قال الشعبي والنخعي وقتادة وإليه ذهب مالك والشافعي وأحمد وإسحق، وذهب جماعة إلى أن التيمّم كالطهارة بالماء يجوز تقديمه على وقت الصلاة، ويجوز أن يصلّي به ما شاء من الفرائض ما لم يُحدث، وهو قول سعيد بن المسيب والحسن والزهري والثّوري وأصحاب الرأي، واتفقوا على أنه يجوز أن يصلّي بتيمّم واحد مع الفريضة ما شاء من النوافل قبل الفريضة وبعدها، وأن يقرأ القرآن إن كان جنباً، وإن كان تيمّمه بعذر السفر وعدم الماء فيشترط طلب الماءَ وهو أن يطلبه في رحله ومن رفقائه، وإن كان في صحراء ولا حائل دون نظر ينظر حَوَالَيْه، وإن كان دون نظره حائل قريب من تل أو جدار عدل عنه لأن الله تعالى قال: ﴿ فلم تجدُوا ماءً فتيمَّمُوا ﴾، ولا يُقال: لم يجد إلّا لمَن طلب، وعند أبي حنيفة رضي الله عنه طلب الماء ليس بشرط فإن رأى الماءَ ولكنه بينه وبين الماء حائل من عدو أو سبع يمنعه من الذهاب إليه أو كان الماء في البئر وليست معه آلة الاستقاء، فهو كالمعدوم يصلّي بالتيمم ولا إعادة عليه.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا السَّبِيلَ ﴿٤٤﴾﴾

﴿ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب﴾ نزلت في يهود المدينة وقال ابن عباس نزلت في رفاعة بن زيد ومالك بن دخشم اليهوديين كانا إذا تكلم رسول الله ﷺ لويا ألسنتهما وعاباه فأنزل الله تعالى ألم تر يعني ألم ينته علمك يا محمد إلى هؤلاء الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يعني أعطوا حظاً من علم التوراة وذلك أنهم عرفوا نبوة موسى من التوراة وأنكروا نبوة محمد ﷺ منها فلذلك أتى بمن التي هي للتبعيض وقيل إنهم علموا التوراة ولم يؤتوا العمل بها ﴿يشترون الضلالة﴾ يؤثرون تكذيب محمد ﷺ ليأخذوا بذلك الرشا وتحصل لهم الرياسة وإنما ذكر بلفظ الشراء لأنه استبدال شيء بشيء وقيل فيه إضمار يعني يستبدلون الضلالة بالهدى ﴿ويريدون﴾ يعني اليهود ﴿أن تضلوا السبيل﴾ يعني عن السبيل والمعنى أنهم يتوصلون إلى إضلال المؤمنين والتلبيس عليهم لكي يجتنبوا الإسلام.

﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٤٧﴾﴾

﴿والله أعلم بأعدائكم﴾ يعني أنه سبحانه وتعالى أعلم بكنه ما في قلوب اليهود من العداوة والبغضاء لكم يا معشر المؤمنين فلا تنصحوهم فإنهم أعداؤكم ﴿وكفى بالله ولياً﴾ يعني متولياً أمركم والقائم به ومن كان الله تعالى وليه لم يضره أحد ﴿وكفى بالله نصيراً﴾ يعني ينصركم عليهم فثقوا بولايته ونصره.

وقوله تعالى: ﴿من الذين هادوا﴾ قيل هو بيان للذين أوتوا نصيباً من الكتاب والتقدير ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب من الذين هادوا وقيل هو متعلق بما قبله والتقدير وكفى بالله نصيراً من الذين هادوا وقيل هو ابتداء الكلام وفيه حذف تقديره من الذين هادوا قوم ﴿يحرفون الكلم﴾ أي يزيلونه ويغيرونه ويبدلونه ﴿عن مواضعه﴾ يعني يغيرون صفة محمد ﷺ من التوراة وقال ابن عباس: كانت اليهود يأتون رسول الله ﷺ فيسألونه عن الأمر فيخبرهم به فيرى أنهم يأخذون بقوله فإذا خرجوا من عنده حرفوا كلامه، وقيل المراد بالتحريف إلقاء الشبهة

قوله عزّ وجلّ: ﴿ أَلَمْ تَرَ إلى الذينَ أُوتُوا نصيباً مِنَ الكتابِ ﴾، يعني: يهود المدينة، قال ابن عباس رضي الله عنهما: نزلت في رفاعة بن زيد ومالك بن دخشم، كانا إذا تكلّم رسول الله ﷺ لَوَيَا لسانَهُمَا وعابَاهُ فأنزل الله تعالى هذه الآية، ﴿ يَشْتَرُون ﴾، يستبدلون، ﴿ الضّلالَة ﴾، يعني: بالهدى، ﴿ ويُرِيدُون أنْ تَضِلّوا السبيلَ ﴾ أي: عن السبيل يا معشر المؤمنين.

﴿ واللَّهُ أعلم بأعدائِكُم ﴾، منكم، فلا تستنصِحُوهم فإنهم أعداؤكم، ﴿ وكفَى بالله وليّاً وكفَى بالله نصيراً ﴾، قال الزجّاج: اكتفُوا بالله وليّاً واكتفُوا بالله نصيراً.

﴿ مِنَ الذين هَادُوا ﴾، قيل: هي متصلة بقوله: ﴿ ألم ترَ إلى الذينَ أُوتُوا نصيباً مِنَ الكتاب ﴾ ﴿ مِنَ الذين

الباطلة والتأويلات الفاسدة وهو تحريف اللفظ عن معناه الحق إلى معنى الباطل ﴿**ويقولون سمعنا وعصينا**﴾ يعني سمعنا قولك وعصينا أمرك وذلك أنهم كانوا إذا أمرهم النبي ﷺ بأمر قالوا في الظاهر سمعنا وقالوا في الباطن: عصينا وقيل إنهم كانوا يظهرون ذلك القول عناداً واستخفافاً ﴿**واسمع غير مسمع**﴾ هذه كلمة تحتمل المدح والذم فأما معناها في المدح اسمع غير مسمع مكروهاً. وأما معناها في الذم فإنهم كانوا يقولون اسمع منا ولا نسمع منك. وقيل إنهم كانوا يقولون للنبي ﷺ اسمع ثم يقولون في أنفسهم لا سمعت وقيل معناه غير مقبول منك ما تدعو إليه وقيل معناه غير مسمع جواباً يوافقك ولا كلاماً ترتضيه ﴿**وراعنا**﴾ أي ويقولون راعنا يريدون بذلك نسبته إلى الرعونة وقيل معناه أرعنا سمعك أي اصرف سمعك إلى كلامنا وأنصت إلى قولنا ومثل هذا لا يخاطب به الأنبياء بل إنما يخاطبون بالإجلال والتعظيم والتبجيل والتفخيم ﴿**ليّاً بألسنتهم وطعناً في الدين**﴾ أصله لويا لأنه من لويت الشيء إذا فتلته والمعنى أنهم يفتلون الحق فيجعلونه باطلاً لأن راعنا من المراعاة فيجعلونه من الرعونة. وكانوا يقولون لأصحابهم إنما نشتمه ولا يعرف ولو كان نبياً لعرف ذلك فأظهره الله تعالى على خبث ضمائرهم وما في قلوبهم من العداوة والبغضاء ثم قال تعالى: ﴿**ولو أنهم قالوا سمعنا وأطعنا**﴾ يعني ولو أنهم قالوا بدل سمعنا وعصينا سمعنا وأطعنا ﴿**واسمع**﴾ يعني بدل قولهم لا سمعت ﴿**وانظرنا**﴾ يعني بدل قولهم راعنا أي انظر إلينا ﴿**لكان خيراً لهم**﴾ يعني عبدالله ﴿**وأقوم**﴾ يعني أعدل وأصوب ﴿**ولكن لعنهم الله**﴾ يعني طردهم وأبعدهم من رحمته ﴿**بكفرهم**﴾ يعني بمحمد ﷺ: ﴿**فلا يؤمنون إلاّ قليلاً**﴾ يعني فلا يؤمن من اليهود إلاّ نفر قليل مثل عبدالله بن سلام وأصحابه وقيل أراد بذلك القليل هو اعترافهم بأن الله خلقهم ورزقهم.

قوله تعالى: ﴿**يا أيها الذين أوتوا الكتاب**﴾ خطاب لليهود ﴿**آمنوا بما نزلنا**﴾ يعني القرآن ﴿**مصدقاً لما معكم**﴾ يعني التوراة وذلك أن النبي ﷺ كلم أحبار اليهود عبدالله بن صوريا وكعب بن الأشرف فقال يا معشر «اليهود اتقوا الله وأسلموا فوالله إنكم لتعلمون أن الذي جئتكم به لحق» قالوا ما نعرف ذلك وأصروا على الكفر فأنزل الله هذه الآية وأمرهم بالإيمان وقرن بهذا الأمر الوعيد الشديد فقال تعالى: ﴿**من قبل أن نطمس وجوهاً**﴾ أصل الطمس إزالة الأثر بالمحو وذكروا في المراد بالطمس ها هنا وجهين: أحدهما أن يحمل على حقيقته والثاني أن يحمل على مجازه أما من حمله على الحقيقة فقال هو محو تخطيط صور الوجوه قال ابن عباس يجعلها كخف البعير وقيل نعيمها فيكون المراد بالوجه العين ﴿**فنردها على أدبارها**﴾ يعني نجعلها على هيئة أدبارها وهي الاقفاء

هادوا ﴾ وقيل: هي مستأنفة، معناه: من الذين هادُوا مَنْ يُحرّفون، كقوله تعالى: ﴿ **وَمَا مِنَّا إلاّ له مقامٌ معلوم** ﴾ [الصَّافّات: ١٦٤] أي: مَنْ له منزلة معلومة، يُريدُ فريقٌ، ﴿ **يُحرِّفُون الكَلِمَ** ﴾، يُغيِّرُونَ الكَلِمَ ﴿ **عَنْ مَوَاضِعِه** ﴾، يعني: صفة محمد ﷺ، قال ابن عباس رضي الله عنهما: كانت اليهود يأتون رسولَ الله ﷺ ويسألونه عن الأمر فيُخبرهم فيرى أنهم يأخذون بقوله فإذا انصرفُوا من عنده حرَّفُوا كلامَه، ﴿ **ويقولونَ سمعنَا** ﴾، قولَكَ، ﴿ **وعصينا** ﴾، أمركَ، ﴿ **واسْمَعْ غيرَ مُسْمَعٍ** ﴾ أي: اسمعْ منّا ولا نسمع منك، ﴿ **غير مسمعٍ** ﴾ أي: غير مقبول منك، وقيل: كانوا يقولون للنبي ﷺ: اسمعْ، ثم يقولونَ في أنفسهم: لا سمعت، ﴿ **ورَاعِنَا** ﴾ أي: ويقولون راعِنَا يُريدُونَ به النسبة إلى الرُّعونة، ﴿ **لَيّاً بألسنتهمْ** ﴾، تحريفاً، ﴿ **وطعْناً** ﴾، قدحاً ﴿ **في الدين** ﴾، لأن قولهم: راعِنَا منَ المُراعاة، وهم يُحرّفونه، يُريدون به الرُّعونة، ﴿ **ولو أنهم قالُوا سمعنَا وأطعنَا واسْمَعْ وانْظُرْنَا** ﴾، أي: انظر إلينا مكان قولهم رَاعِنا، ﴿ **لكانَ خيراً لهم وأقوم** ﴾، أي أعدل وأصوب، ﴿ **ولكنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بكفرِهم فلا يُؤمنُون إلاّ قليلاً** ﴾ إلاّ نفراً قليلاً منهم وهو عبد الله بن سلام ومَن أسلم معه منهم.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ **يا أيّها الذين أُوتُوا الكتابَ** ﴾، يُخاطب اليهود، ﴿ **آمِنُوا بما نزّلنا** ﴾، يعني: القرآن،

وقيل نديرها فنجعل الوجوه إلى خلف والأقفاء إلى قدام وإنما جعل الله هذا عقوبة لهم لما فيه من تشويه الخلقة والمثلة والفضيحة، وعند هذا يحصل لهم الغم وتكثر الحسرات فعلى هذا يكون هذا الوعيد مختصاً بيوم القيامة. وأما من حمل الطمس على المجاز فقال المراد به نطمسها عن الهدى فنردها على أدبارها يعني على ضلالتها وقيل المراد بالطمس طمس القلب والبصيرة فنردها على أدبارها يعني بتغيير أحوالهم فنلبسهم الصغار والذلة بعد العز وقيل المراد بالطمس محو آثارهم من المدينة وردهم إلى أذرعات وأريحاء من أرض الشام من حيث جاؤوا وهو إجلاء بني النضير فإن قلت قد أوعدهم وهددهم بطمس الوجوه إن لم يؤمنوا ولم يؤمنوا فلم يفعل بهم ذلك قلت هذا الإشكال إنما يرد على من فسر الطمس بتغيير الوجوه ومحو تخطيطها وحمله على الحقيقة والجواب عنه إن هذا مشروط بعدم الإيمان وقد آمن منهم ناس فرفع عن الباقين. وروي أن عبدالله بن سلام لما سمع هذه الآية جاء إلى النبي ﷺ قبل أن يأتي أهله فأسلم وقال: يا رسول الله ما كنت أرى أن أصل إليك حتى يحول وجهي إلى قفاي وكذلك روي عن كعب الأحبار أنه لما سمع هذه الآية في خلافة عمر بن الخطاب أسلم. وقال يا رب أسلمت مخافة أن يصيبني وعيد هذه الآية فكان هذا الوعيد مشروطاً بأن لا يؤمن أحد منهم وهذا الشرط لم يوجد لأنه آمن منهم جمع كثير في زمن النبي ﷺ كعبدالله بن سلام وأصحابه ففات الشرط لفوات المشروط وقيل إن الطمس باق في اليهود فيكون فيهم طمس ومسخ قبل يوم القيامة وقيل إنه تعالى جعل الوعيد بأحد شيئين إما بالطمس أو باللعنة وهو قوله تعالى: ﴿**أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت**﴾ أي نجعلهم قردة كما فعلنا بأوائلهم وفي المراد من لعنهم الطرد والإبعاد من الرحمة والكناية في نلعنهم تعود إلى المخاطبين في قوله تعالى: ﴿**يا أيها الذين أوتوا الكتاب**﴾ وهذا على طريقة الالتفات كما في قوله تعالى: ﴿**حتى إذا كنتم في الفلك**﴾ وجرين بهم بريح طيبة وقد يحتمل أن يكون معناه من قبل أن نطمس وجوهاً فنردها ونلعن أصحاب الوجوه فنجعل الكناية في قوله أو نلعنهم عن ذكر أصحاب الوجوه إذا كان في الكلام دلالة عليهم.

﴿ **مُصدِّقاً لِمَا معكم** ﴾، يعني: التوراة، وذلك أنّ النبيّ ﷺ كلّم أحبار اليهود عبد الله بن صوريا وكعب بن الأشرف، فقال: «يا معشر اليهود اتقوا اللّهَ وأسلموا فوالله إنّكم لتعلمون أنّ الذي جِئْتُكم به لحق»، قالوا: ما نعرف ذلك، وأصرّوا على الكفر، وأُنزلت هذه الآية: ﴿ **مِنْ قَبلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهاً** ﴾، قال ابن عباس: نجعلها كخفّ البعير، وقال قتادة والضحاك: نُعميها، والمراد بالوجه العين، ﴿ **فَنَرُدَّها على أَدْبارِهَا** ﴾، أي: نطمسُ الوجوه فنردّها على القفا، وقيل: نجعل الوجوه منابت الشعر كوجوه القردة، لأن منابت شعور الآدميين في أدبارهم دون وجوههم، وقيل: معناه نمحو آثارها وما فيها من أنف وعين وفم وحاجب ونجعلها كالأقفاء، وقيل: نجعل عينيه على القفا فيمشي قهقرى، رُوِيَ أن عبد الله بن سلام رضي الله عنه لمّا سَمِعَ هذه الآية جاء إلى النبي ﷺ قبل أن يأتي أهله ويده على وجهه، وأسلم وقال: يا رسول الله ما كنت أرى أن أصل إليك حتى يتحوّل وجهي في قفاي، وكذلك كعب الأحبار لمّا سمع هذه الآية أسلم في زمن عمر رضي الله عنه، فقال: يا رب آمنتُ، يا رب أسلمتُ مخافة أن يصيبَهُ وَعِيدُ هذه الآية. فإن قيل: قد أوعدهم الله بالطمس إن لم يُؤمنوا ثم لم يؤمنوا ولم يُفعل بهم ذلك؟ قيل: هذا الوعيد باقٍ، ويكون طمس ومسخ في اليهودية قبل قيام الساعة، وقيل: هذا كان وعيد بشرط فلما أسلم عبد الله بن سلام وأصحابه دفع ذلك عن الباقين، وقيل: أراد به في القيامة، وقال مجاهد أراد بقوله: ﴿ **نَطْمِسُ وُجُوهاً** ﴾ أي: نتركهم في الضلالة فيكون المراد طمس وجه القلب، والردّ عن بصائر الهدى على أدبارها في الكفر والضلالة، وأصل الطمس: المحو والإفساد والتحويل، وقال ابن زيد: نمحُو آثارَهم من وجوههم ونواصيهم التي هم بها فنردّها على أدبارها حتى يعودوا إلى حيث جاؤوا منه وهو الشام، وقال: قد مضى ذلك وتأوله في إجلاء بني النضير إلى

وقوله تعالى: ﴿وكان أمر الله مفعولاً﴾ يعني لا بد وأن يقع بهم ذلك إن لم يؤمنوا فلا راد لحكمه ولا ناقض لأمره على معنى أنه لا يمتنع عليه شيء يريد أن يفعله وقيل معناه وكان مأمور الله مفعولاً والأمر هنا في موضع المأمور سمي أمراً لأنه عن أمره كان. قوله عز وجل:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾﴾

﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾ قال ابن جرير الطبري معناه يا أيها الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا فإن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء. فعلى هذا يكون في الآية دلالة على أن اليهودي يسمى مشركاً في عرف الشرع وقيل إن الآية نزلت في وحشي وأصحابه، وذلك لما قتل حمزة رضي الله عنه ورجع إلي مكة ندم هو وأصحابه فكتبوا إلى رسول الله ﷺ إنا ندمنا على ما صنعنا وأنه ليس يمنعنا عن الإسلام إلاّ أنا سمعناك بمكة تقول والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر إلى آخر الآيات وقد دعونا مع الله إلهاً آخر وقتلنا النفس التي حرم الله وزنينا فلولا هذه الآيات لاتبعناك فنزلت ﴿إلاّ من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً﴾ الآيتين فبعث بهما رسول الله ﷺ إليهم فلما قرؤوهما كتبوا إليه إن هذا شرط شديد ونخاف أن لا نعمل عملاً صالحاً فنزلت إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء فبعث إليهم فبعثوا إنا نخاف أن لا نكون من أهل المشيئة فنزلت ﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم﴾ الآية فبعث بها إليهم فدخلوا في الإسلام ورجعوا إلى النبي ﷺ فقبل منهم ثم قال لوحشي أخبرني كيف قتلت حمزة؟ فلما أخبره قال ويحك غيب وجهك عني فلحق بالشام فكان به إلى أن مات وقيل لما نزلت ﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم﴾ الآية قام رجل فقال: يا رسول الله والشرك؟ فسكت ثم قام إليه مرتين أو ثلاثاً فنزلت هذه الآية ومعنى الآية أن الله لا يغفر لمشرك مات على شركه ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء يعني ويغفر ما دون الشرك لمن يشاء من أصحاب الذنوب والآثام. ففي الآية دليل على أن صاحب الكبيرة إذا مات من غير توبة فإنه في خطر المشيئة إن شاء عفا عنه وأدخله الجنة بمنه وكرمه

أذرعاتٍ وأريحاء من الشام ﴿ أو نَلْعَنَهم كما لَعَنَّا أصحابَ السَّبْتِ ﴾، فنجعلهم قردة وخنازير، ﴿ وكانَ أمرُ اللَّهِ مفعولاً ﴾.

﴿ إنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشرَكَ بِهِ ﴾، قال الكلبي: نزلت في وحشي بن حرب وأصحابه وذلك أنه لمّا قتل حمزة كان قد جعل له على قتله أنْ يُعتق فلم يُوفَ له بذلك، فلما قَدِمَ مكة ندم على صنيعه هو وأصحابه فكتبوا إلى رسول الله ﷺ أنّا قد نَدِمنا على الذي صنعنا وأنه ليس يمنعنا عن الإسلام إلاّ أنا سمعناك تقول وأنت بمكة ﴿ والذينَ لا يدعُون معَ اللَّهِ إلَهاً آخر ﴾ [الفرقان: ٦٨]، الآيات وقد دعونا مع الله إلَهاً آخر وقتلنا النفس التي حرّم الله وزنينا، فلولا هذه الآيات لاتّبعناك، فنزلت: ﴿ إلاّ مَنْ تابَ وآمنَ وعملَ عملاً صالحاً ﴾ [الفرقان: ٧٠] الآيتين، فبعث بهما رسول الله ﷺ إليهم فلمّا قرؤوا كتبُوا إليه: إن هذا شرط شديد نخاف أن لا نعمل صالحاً، فنزل: ﴿ إنّ اللَّهَ لا يغفرُ أنْ يُشْرَكَ بهِ ﴾ ﴿ ويغفرُ ما دونَ ذلكَ لمَنْ يشاءُ ﴾، فبعث بها إليهم فبعثوا إليه: إنّا نخاف أن لا نكون من أهل المشيئة فنزلت: ﴿ قلْ يا عباديَ الذينَ أسرَفُوا على أنفسهم لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحمةِ الله ﴾ [الزّمر: ٥٣]، فبعث بها إليهم فدخلوا في الإسلام ورجعوا إلى النبي ﷺ فقبل منهم، ثم قال لوحشي: أخبرني كيف قتلتَ حمزة؟ فلمّا أخبره قال: «ويحك غيّب وجهك عنّي»، فلحق وحشي بالشام فكان بها إلى أن مات، وقال أبو مجلز عن ابن عمر رضي الله عنه لمّا نزل: ﴿ قلْ يا عباديَ الذين أسرَفُوا على أنفسهم ﴾ [الزمر: ٥٣]، الآية قام رجل فقال: والشرك يا رسول الله، فسكتَ ثم قام إليه مرتين أو ثلاثاً فنزلت ﴿ إنّ اللَّهَ لا يغفرُ أنْ يُشرَكَ به ﴾ وقال مُطرف بن عبد الله بن الشخير: قال ابن

وإن شاء عذبه بالنار ثم أدخله الجنة برحمته وإحسانه لأن الله تعالى وعد المغفرة لما دون الشرك فإن مات على الشرك فهو مخلد في النار لقوله إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء وفي الآية رد على المعتزلة والقدرية حيث قالوا: لا يجوز في الحكمة أن يغفر لصاحب كبيرة وعند أهل السنة أن الله تعالى يفعل ما يشاء لا مكره له ولا حجر عليه ويدل على ذلك أيضاً ما روي عن ابن عمر قال كنا على عهد رسول الله ﷺ إذا مات الرجل على كبيرة شهدنا أنه من أهل النار حتى نزلت هذه الآية: ﴿**إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء**﴾ فأمسكنا عن الشهادة. وقال ابن عباس لعمر بن الخطاب يا أمير المؤمنين الرجل يعمل من الصالحات لم يدع من الخير شيئاً إلاّ عمله غير أنه مشرك قال عمر هو في النار فقال ابن عباس الرجل لم يدع شيئاً من الشر إلاّ عمله غير أنه لم يشرك بالله شيئاً فقال عمر: الله أعلم قال ابن عباس: إني لأرجو له كما أنه لا ينفع مع الشرك عمل كذلك لا يضر مع التوحيد ذنب فسكت عمر. عن علي بن أبي طالب قال: ما في القرآن أحب إلي من هذه الآية إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء أخرجه الترمذي وقال حديث حسن غريب (م) عن جابر قال جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال يا رسول الله ما الموجبتان؟ قال من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة ومن مات يشرك به دخل النار.

وقوله تعالى: ﴿**ومن يشرك بالله**﴾ يعني يجعل معه شريكاً غيره ﴿**فقد افترى**﴾ أي اختلق ﴿**إثماً عظيماً**﴾ يعني ذنباً عظيماً غير مغفور إن مات عليه. قوله عز وجل:.

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٠﴾

﴿**ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم**﴾ نزلت في رجال من اليهود أتوا بأطفالهم إلى رسول الله ﷺ فقالوا: يا محمد هل على هؤلاء من ذنب؟ قال: لا قالوا: ما نحن إلاّ كهيئتهم ما عملناه بالنهار يكفر عنا بالليل وما عملناه

عمر رضي الله عنه: كنّا على عهد محمد رسول الله ﷺ إذا مات الرجل على كبيرة شهدنا أنه من أهل النار حتى نزلت هذه الآية ﴿ **إنّ اللّهَ لا يغفرُ أنْ يُشْرَكَ بهِ ويغفرُ ما دُونَ ذلكَ لمَنْ يشاء** ﴾ فأمسكنا عن الشهادات. حُكي عن علي رضي الله عنه أن أرجى آية في القرآن قوله: ﴿ **ويغفرُ ما دونَ ذلكَ لمَنْ يشاء** ﴾. ﴿ **ومَنْ يُشْرِكْ باللّهِ فَقَدِ افْتَرى** ﴾، اختلق، ﴿ **إثماً عظيماً** ﴾، أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحي أنا أحمد بن الحسن الحيري أخبرنا حاجب بن أحمد الطوسي أنا محمد بن حماد أنا أبو معاوية عن الأعمش عن أبي سفيان عن جابر قال: أتى النبيَّ ﷺ رجلٌ فقال: يا رسول الله ما الموجبتان؟ قال: «مَنْ ماتَ لا يُشركُ باللّهِ شيئاً دخل الجنة، ومَنْ ماتَ يشركُ باللّهِ شيئاً دخل النار» أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أخبرنا أبو معمر أنا عبد الوارث عن حسين يعني المعلم عن عبد الله بن بريدة عن يحيىٰ بن يَعْمُر حدّثه أن أبا الأسود الديلي حدّثه أن أبا ذر حدّثه قال: أتيتُ النبيَّ ﷺ وعليه ثوبٌ أبيض وهو نائم ثم أتيته وقد استيقظ، فقال: «ما مِنْ عبدٍ قال: لا إله إلاّ الله، ثم مات على ذلك إلاّ دخل الجنة» قلتُ: وإنْ زنى وإنْ سرق؟ قال: «وإنْ زنى وإنْ سرق»، قلتُ: وإن زنى وإن سرق؟ قال: «وإنْ زنى وإنْ سرق»، قلتُ: وإن زنى وإن سرق؟ قال: «وإنْ زنى وإنْ سرق على رَغْمِ أنفِ أبي ذر»، وكان أبو ذر إذا حدّث بهذا قال: وإنْ رغم أنف أبي ذر.

قوله تعالى: ﴿ **أَلَمْ تَرَ إلى الذينَ يُزَكُّونَ أنفسَهم** ﴾ الآية، قال الكلبي: نزلت في رجال من اليهود منهم

بالليل يكفر عنا بالنهار فأنزل الله تعالى هذه الآية وقيل نزلت في اليهود والنصارى حين قالوا نحن أبناء الله وأحباؤه وقولهم لن يدخل الجنة إلاّ من كان هوداً أو نصارى والتزكية هنا عبارة عن مدح الإنسان نفسه الصلاح والدين منه تزكية الشاهد حتى يصير عدلاً قال الله تعالى: ﴿فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى﴾ وذلك لأن التزكية متعلقة بالتقوى وهي صفة في الباطن فلا يعلم حقيقتها إلاّ الله تعالى فلا تصلح التزكية إلاّ من عند الله تعالى فلهذا قال الله تعالى: ﴿بل الله يزكي من يشاء﴾ ويدخل في هذا المعنى كل من ذكر نفسه بصلاح أو وصفها بزكاء العمل أو بزيادة الطاعة والتقوى أو بزيادة الزلفى عند الله تعالى فهذه الأشياء لا يعلمها إلاّ الله تعالى فلهذا قال: ﴿فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى﴾ ومعنى يزكون أنفسهم يزعمون أنهم أزكياء لأنهم برؤوا أنفسهم من الذنوب قال تعالى رداً عليهم: ﴿بل الله يزكي من يشاء﴾ فيجعله زاكياً ﴿ولا يظلمون فتيلاً﴾ يعني أن الذين يزكون أنفسهم يعاقبون على تلك التزكية من غير ظلم وقيل معناه إن الذين زكاهم الله لا ينقصون من ثواب طاعتهم شيئاً والفتيل المفتول وسمي ما يكون في شق النواة فتيلاً لكونه على هيئته وقيل الفتيل هو ما تفتله بين أصابعك من وسخ وغيره ويضرب به المثل في الشيء الحقير الذي لا قيمة له ﴿انظر﴾ الخطاب للنبي ﷺ انظر يا محمد إلى هؤلاء اليهود ﴿كيف يفترون على الله الكذب﴾ يعني قولهم أنهم لا ذنوب لهم وتزكيتهم أنفسهم ﴿وكفى به﴾ أي بذلك الكذب ﴿إثماً مبيناً﴾ قوله عز وجل:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾﴾

﴿ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت﴾ نزلت في كعب بن الأشرف وسبعين راكباً من اليهود قدموا مكة بعد وقعة أحد ليحالفوا قريشاً على النبي ﷺ وينقضوا العهد الذي بينهم وبين رسول الله ﷺ فنزل كعب بن الأشرف على أبي سفيان فأحسن مثواه ونزل باقي اليهود على قريش في دورهم أهل

بحري بن عمر والنعمان بن أوفى ومرحب بن زيد، أتوا بأطفالهم إلى النبي ﷺ فقالوا: يا محمد هل على هؤلاء من ذنب؟ فقال: «لا»، قالوا: وما نحن إلا كهيئتهم، ما عَمِلْنَا بالنهار يُكفَّر عنَّا بالليل، وما عملنا بالليل يكفَّر عنَّا بالنهار، فأنزل الله تعالى هذه الآية. وقال مجاهد وعكرمة: كانوا يُقدِّمون أطفالهم في الصلاة يزعمون أنهم لا ذنوب لهم فتلك التزكية، وقال الحسن والضحاك وقتادة ومقاتل: نزلت في اليهود والنصارى حين قالوا: نحن أنصار الله وأحباؤه، ﴿ وقالوا لن يدخل الجنة إلاّ مَن كان هوداً أو نصارى ﴾ [البقرة: ١١١]، وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: هو تزكية بعضهم لبعض، رُوِيَ عن طارق بن شهاب عن ابن مسعود قال: إن الرجل ليغدو من بيته ومعه دِينُه فيأتي الرجل لا يملك له ولا لنفسه ضرّاً ولا نفعاً فيقول: والله إنك كيتَ وكيتَ!! ويرجع إلى بيته وما معه من دِينِهِ شيء، ثم قرأ: ﴿ أَلَمْ تَرَ إلى الذين يُزَكُّون أنفسَهم ﴾، الآية. قوله تعالى: ﴿ بلِ اللَّهُ يُزكّي ﴾ أي: يُطهّر ويُبرّىء من الذنوب ويُصلح، ﴿ مَنْ يشاءُ ولا يُظلمون فتيلا ﴾ وهو اسمٌ لِمَا في شِقّ النَّواة، والقطمير اسم للقشرة التي على النَّواة، والنقير اسم للنقرة التي على ظهر النَّواة، وقيل: الفتيل من الفتل وهو ما يجعل بين الأصبعين من الوسخ عند الفتل.

قوله تعالى: ﴿ انظرْ ﴾، يا محمد، ﴿ كيفَ يفتَرُونَ على الله ﴾، يختلقون على الله، ﴿ الكذبَ ﴾، في تغييرهم كتابه، ﴿ وكفَى بِهِ ﴾، بالكذب ﴿ إثماً مبيناً ﴾.

قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إلى الذينَ أُوتوا نَصِيْبَاً مِنَ الكتابِ يُؤمنونَ بالجِبْتِ والطَّاغُوتِ ﴾، اختلفوا فيهما فقال

مكة أنتم فقال لهم أهل كتاب ومحمد صاحب كتاب ولا نأمن أن يكون هذا مكراً منكم فإن أردتم أن نخرج معكم فاسجدوا إلى هذين الصنمين ففعلوا ذلك فذلك قوله تعالى: ﴿**يؤمنون بالجبت والطاغوت**﴾ ثم قال كعب بن الأشرف لأهل مكة ليجيء منكم ثلاثون رجلاً ومنا ثلاثون فنلزق أكبادنا بالكعبة فنعاهد رب هذا البيت لنجهدن على قتال محمد ففعلوا ثم قال أبو سفيان لكعب بن الأشرف إنك امرؤ تقرأ الكتاب وتعلم ونحن أميون لا نعلم فأينا أهدي سبيلاً نحن أم محمد؟ قال كعب اعرض علي دينكم فقال أبو سفيان نحن ننحر للحجيج الكوماء ونسقيهم الماء ونقري الضيف ونفك العاني ونصل الرحم ونعمر بيت ربنا ونطوف به ونحن أهل الحرم ومحمد فارق دين آبائه وقطع الرحم وفارق الحرم وديننا القديم ودين محمد الحديث فقال كعب أنتم والله أهدى سبيلاً مما عليه محمد فأنزل الله تعالى ألم تر يعني يا محمد إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يعني كعب بن الأشرف وأصحابه اليهود يؤمنون بالجبت والطاغوت يعني سجودهم للصنمين واختلف العلماء فيهما الجبت والطاغوت كل معبود دون الله تعالى، وقيل هما صنمان كانا لقريش وهما اللذان سجد اليهود لهما لمرضاة قريش وقيل الجبت اسم للأصنام والطاغوت شياطين الأصنام ولكل صنم شيطان يعبر فيها ويكلم الناس فيغترون بذلك وقيل الجبت الكاهن والطاغوت الساحر عن قطن بن قبيصة عن أبيه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «العيافة والطيرة والطرق من الجبت» أخرجه أبو داود وقال الطرق الزجر والعيافة الخط وقيل العيافة هي زجر الطير وذلك أن أهل الجاهلية كان أحدهم إذا خرج لأمر زجر طيراً فإذا أخذ ذات اليمين مضى في حاجته وإذا أخذ ذات الشمال رجع فنهوا عن ذلك والطرق هو ضرب الحجارة والحصا على طريق الكهانة فنهوا عنه والطيرة هو أن يتطير بالشيء فيرى الشؤم فيه

عكرمة: هما صنمان كان المشركون يعبدونهما من دون الله، وقال أبو عبيدة: هما كل معبودٍ يُعبد من دون الله. قال الله تعالى: ﴿ أنِ اعْبُدوا اللَّهَ واجتنبوا الطَّاغُوتَ ﴾ [النحل: ٣٦]، وقال عمر: الجِبْتُ: السحر، والطاغُوت: الشيطان. وهو قول الشعبي ومجاهد. وقيل: الجبتُ: الأوثان، والطاغوت: شياطين الأوثان. ولكل صنمٍ شيطان، يُعبِّر عنه، فيغترُّ به الناس. وقال محمد بن سيرين ومكحول: الجبتُ: الكاهن، والطاغوتُ: الساحر. وقال سعيد بن جبير وأبو العالية: الجبتُ: الساحر بلسان الحبشة، والطاغوتُ: الكاهن. ورُوِيَ عن عكرمة: الجبتُ بلسان الحبشة: شيطان. وقال الضحاك: الجبتُ: حُييُّ بن أخطب، والطاغوتُ: كعب بن الأشرف. دليله قوله تعالى: ﴿ يُريدُون أن يتحاكمُوا إلى الطاغُوت ﴾ [النساء: ٦٠] أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحي أنا أبو الحسن بن بشران أنا إسماعيل بن محمد الصفار أنا أحمد بن منصور الرمادي أنا عبد الرزّاق أنا معمر عن عوف العبدي عن حيّان عن قطن بن قَبيصة عن أبيه أن النبي ﷺ قال: «العِيَافَةُ والطَّرْقُ والطِّيَرَةُ مِنَ الجِبْتِ». وقيل: الجبتُ كلُّ ما حرّم الله، والطاغوتُ كلُّ ما يُطغي الإنسان. ﴿ **ويقولونَ للذينَ كفرُوا هؤلاء أهدَى مِنَ الذين آمنُوا سَبيلاً** ﴾، قال المفسرون: خرج كعب بن الأشرف في سبعين راكباً من اليهود إلى مكة بعد وقعة أُحُد لِيُحالِفُوا قريشاً على رسول الله ﷺ وينقضوا العهد الذي كان بينهم وبين رسول الله ﷺ، فنزل كعب على أبي سفيان فأحسن مثواه، ونزلت اليهود في دُور قريش، فقال أهل مكة: إنكم أهل كتاب ومحمد صاحب كتاب ولا نأمَنُ أن يكون هذا مكراً منكم فإن أردتم أن نخرج معكم فاسجدوا لهذين الصنمين وآمنوا بهما ففعلوا ذلك، فذلك قوله تعالى: ﴿ **يُؤمنونَ بالجِبْتِ والطّاغُوت** ﴾ ثم قال كعب لأهل مكة: ليجيء منكم ثلاثون ومنّا ثلاثون فنلزق أكبادنا بالكعبة فنعاهِدُ ربَّ هذا البيت لنجهدنّ على قتال محمد ففعلوا، ثم قال أبو سفيان لكعب: إنّك امرؤٌ تقرأ الكتاب وتعلم ونحن أُمّيُّون لا نعلم، فأيّنا أهدَى طريقة، نحنُ أم محمد؟ قال كعب: اعرضُوا عليَّ دينكم، فقال أبو سفيان: نحن ننحر للحجيج الكوماء ونسقيهم الماء ونقري الضيف ونفكّ العاني ونصل الرحم ونُعمّر بيتَ ربِّنا ونطوف به ونحن أهل الحرم. ومحمد

والشر منه وقيل هو من التطير وهو زجر الطائر والخط هو ضرب الرمل لاستخراج الضمير وقيل الجبت كل ما حرم الله تعالى والطاغوت كل ما يطغى الإنسان وقيل الجبت هو حيي بن أخطب والطاغوت كعب بن الأشرف اليهوديان وكانا طاغية اليهود ﴿ويقولون﴾ يعني كعب بن الأشرف وأصحابه ﴿للذين كفروا﴾ يعني لكفار قريش ﴿هؤلاء﴾ يعني أنتم يا هؤلاء ﴿أهدى من الذين آمنوا سبيلاً﴾ يعني طريقاً.

أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ وَمَن يَلۡعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾ أَمۡ لَهُمۡ نَصِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُلۡكِ فَإِذٗا لَّا يُؤۡتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾ أَمۡ يَحۡسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۖ فَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ ءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَءَاتَيۡنَٰهُم مُّلۡكًا عَظِيمٗا ﴿٥٤﴾ فَمِنۡهُم مَّنۡ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنۡهُم مَّن صَدَّ عَنۡهُۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوۡفَ نُصۡلِيهِمۡ نَارٗا كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمٗا ﴿٥٦﴾

﴿أولئك الذين لعنهم الله﴾ يعني كعب بن الأشرف وأصحابه ﴿ومن يلعن الله﴾ يعني يطرده من رحمته ﴿فلن تجد له نصيراً﴾ يعني ينصره.

قوله تعالى: ﴿أم لهم نصيب من الملك﴾ هذا استفهام انكار يعني ليس لهم من الملك شيء البتة وذلك أن اليهود كانوا يقولون نحن أولى بالملك والنبوة فكيف نتبع العرب فأكذبهم الله تعالى وأبطل دعواهم ﴿فإذاً لا يؤتون الناس نقيراً﴾ هذا جواب وجزاء لمضمر تقديره ولئن كان لهم نصيب وحظ من الملك فلا يؤتون الناس منه نقيراً وصفهم بالبخل في هذه الآية ووصفهم بالجهل في الآية المتقدمة ووصفهم بالحسد في الآية الآتية. وهذه الخصال كلها مذمومة فكيف يدعون الملك وهي حاصلة فيهم والنقير التي تكون على ظهر النواة ومنها تنبت النخلة ويضرب به المثل في الشيء الحقير التافه الذي لا قيمة له.

قوله عز وجل: ﴿أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله﴾ أصل الحسد تمني زوال النعمة عمن هو مستحق لها وربما يكون ذلك مع سعي في زوالها وصف الله اليهود بشر خصلة وهي الحسد والمراد بالناس محمد ﷺ وحده وإنما جاز أن يقع عليه لفظ الجمع وهو واحد لأنه ﷺ اجتمع فيه من خصال الخير والبركة ما لا يجتمع مثله في جماعة ومن هذا القبيل يقال فلان أمة وحده يعني أن يقوم مقام أمة، وقيل المراد بالناس النبي ﷺ وأصحابه لأن لفظ الناس جمع وحمله على الجمع أولى والمراد بالفضل النبوة لأنها أعظم المناصب وأشرف

فارق دين آبائه وقطع الرحم وفارق الحرم، وديننا القديم ودينُ محمد الحديث، فقال كعب: أنتم والله أهدى سبيلاً مما عليه محمد وأصحابه، فأنزل الله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إلى الذينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الكتابِ ﴾، يعني: كعباً وأصحابه ﴿ يُؤمنون بالجِبْتِ والطاغوتِ ﴾، يعني: الصنمين ﴿ ويقولون للذين كفروا ﴾: أبي سفيان وأصحابه ﴿ هؤلاء أهدى من الذين آمنوا ﴾ بمحمد ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم سبيلاً وديناً.

﴿ أولئكَ الذينَ لعَنَهُم اللَّهُ ومَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فلنْ تجد له نصيراً ﴾.

﴿ أمْ لَهُمْ ﴾ يعني ألهم والميم صلة ﴿ نَصِيبٌ ﴾ حظ ﴿ مِنَ المُلْكِ ﴾ وهذا على جهة الإنكار، يعني: ليس لهم من الملك شيء، ولو كان لهم من الملك شيء، ﴿ فإذاً لا يُؤْتُونَ الناسَ نقيراً ﴾، لحسدهم وبخلهم، النقير: النقطة التي تكون في ظهر النَّواة ومنها تنبت النخلة، وقال أبو العالية: هو نقر الرجل الشيءَ بطرف أصبعه كما ينقر الدرهم.

المراتب، وقيل حسدوه على ما أحلّ الله له من النساء وكان له يومئذٍ تسع نسوة. فقالت اليهود لو كان نبياً لشغله أمر النبوة عن الاهتمام بأمر النساء فأكذبهم الله تعالى ورد عليهم بقوله ﴿فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة﴾ يعني أنه قد حصل في أولاد إبراهيم ﷺ جماعة كثيرون جمعوا بين الملك والنبوة مثل داود وسليمان عليهما السلام فلم يشغلهم الملك عن أمر النبوة والمعنى كيف يحسدون محمداً ﷺ على ما آتاه الله من فضله وقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وأنتم لا تحسدونهم. والمراد بالكتاب التوراة وبالحكمة النبوة ﴿وآتيناهم ملكاً عظيماً﴾ يعني فلم يشغلهم عن النبوة فمن فسر الفضل بكثرة النساء فسر الملك العظيم في حق داود وسليمان بكثرة النساء فإنه كان لداود مائة امرأة ولسليمان ألف امرأة ثلاثمائة حرة وسبعمائة سرية ولم يكن لرسول الله ﷺ يومئذٍ إلّا تسع نسوة ولما لم يكن ذلك مستبعداً في حقهم ولا نقصاً في نبوتهم فلا يكون مستبعداً في حق محمد ﷺ ولا نقصاً في نبوته ﴿فمنهم﴾ يعني من اليهود ﴿من آمن به﴾ أي بالنبي ﷺ وما أنزل الله إليه كعبد الله بن سلام وأصحابه ﴿ومنهم من صد عنه﴾ أي أعرض عنه ولم يؤمن به ﴿وكفى بجهنم سعيراً﴾ يعني وكفى في عذاب من لم يؤمن بالنبي ﷺ سعيراً.

قوله تعالى: ﴿إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم ناراً﴾ هذا وعيد من الله عزّ وجلّ للذين أقاموا على كفرهم وتكذيبهم بما أنزل الله عز وجل على محمد ﷺ من اليهود وغيرهم من سائر الكفار والمعنى إن الذين جحدوا ما أنزلت على رسولي محمد من آياتي الدالة على توحيدي وصدق رسولي محمد ﷺ سوف نصليهم ناراً أي ندخلهم ناراً نشويهم فيها: ﴿كلما نضجت جلودهم﴾ يعني احترقت ﴿بدلناهم جلوداً غيرها﴾ يعني غير الجلود

﴿ أَمْ يحسدُون النَّاسَ ﴾، يعني: اليهود، ويحسدون الناس قال قتادة: المراد بالناس العرب حسدهم اليهود على النُّبوّة، وما أكرمهم الله تعالى بمحمد ﷺ. وقيل: أراد محمداً ﷺ وأصحابه، وقال ابن عباس والحسن ومجاهد وجماعة: المراد بالناس رسول الله ﷺ وحده، حسدوه على ما أحلَّ الله له من النّساء، وقالوا: ما له هَمٌّ إلاّ النكاح، وهو المراد من قوله: ﴿ على مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾، وقيل: حسدوه على النُّبوّة وهو المراد من الفضل المذكور في الآية: ﴿ فقدْ آتينَا آلَ إبراهيمَ الكتابَ والحِكْمَةَ ﴾، أراد بآل إبراهيم داود وسليمان وبالكتاب ما أنزل الله إليهم وبالحكمة النُّبوّة ﴿ وآتيناهمْ مُلكاً عظيماً ﴾ فمَنْ فسّر الفضلَ بكثرة النساء فسّر المُلكَ العظيم في حق داود وسليمان عليهما السلام بكثرة النساء، فإنه كان لسليمان ألف امرأة ثلاثمائة حرّة وسبعمائة سَريّة، وكان لداود مائة امرأة، ولم يكن يومئذ لرسول الله ﷺ إلاّ تسع نسوة، فلما قال لهم ذلك سكتوا.

قال الله تعالى: ﴿ فمنهم مَنْ آمنَ بِهِ ﴾، يعني: بمحمدٍ ﷺ، وهم عبد الله بن سلام وأصحابه، ﴿ ومنهمْ مَنْ صَدَّ عنه ﴾، أعرضَ عنه ولم يُؤمن به، ﴿ وكفَى بجهنّم سَعِيراً ﴾، وُقوداً، وقيل: المُلك العظيم: مُلك سليمان. وقال السدي: الهاء في قوله: (مَـن آمن به وصدّ عنـه) راجعة إلى إبراهيم، وذلك أن إبراهيم زرع ذات سنة، وزرعَ الناسُ فهلكَ زرعُ الناس وزكا زرع إبراهيم عليه السلام، فاحتاج إليه الناس فكان يقول: مَن آمن بي أعطيته فمَن آمن به أعطاه، ومَن لم يؤمن به منعه.

قوله تعالى: ﴿ إنّ الذين كفرُوا بآياتِنا سوفَ نُصليهمْ ناراً ﴾، نُدخلهم ناراً، ﴿ كلّما نَضِجَتْ ﴾، احترقت، ﴿ جلودُهم بدّلنَاهم جلوداً غيرَها ﴾، غير الجلود المحترقة، قال ابن عباس رضي الله عنهما: يُبدَّلون جلوداً بيضاً كأمثال القراطيس. ورُوِيَ أنّ هذه الآية قُرِئتْ عند عمر رضي الله عنه، فقال عمر رضي الله عنه للقارىء: أعدها فأعادها، وكان عنده معاذ بن جبل، فقال معاذ: عندي تفسيرها تُبدّل في كل ساعة مائة مرة، فقال عمر رضي الله

المحترقة قال ابن عباس: يبدلون جلوداً بيضاء كأمثال القراطيس. وروي أن هذه الآية قرئت عند عمر بن الخطاب فقال عمر للقارىء: أعدها فأعادها وكان عنده معاذ بن جبل فقال معاذ: عندي تفسيرها تبدل في كل ساعة مائة مرة فقال عمر: هكذا سمعت رسول الله ﷺ ذكره البغوي بغير سند وقال الحسن تأكلهم النار في كل يوم سبعين ألف مرة (ق) عن أبي هريرة يرفعه ما بين منكبي الكافر في النار مسيرة ثلاثة أيام للراكب المسرع (م) عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ضرس الكافر أو قال ناب الكافر مثل أحد وغلظ جلده مسيرة ثلاثة أيام». فإن قلت كيف تعذب جلود لم تكن في الدنيا ولم تعص؟ قلت يعاد الجلد الأول في كل مرة وإنما قال جلوداً غيرها لتبديل صفتها كما تقول صغت من خاتمي خاتماً غيره، فالثاني هو الأول غير أن الصناعة بدلت الصفة وقيل إن العذاب للجملة الحساسة وهي النفس التي عصت فإن كان كذلك فغير مستحيل إن الله يخلق للكافر في كل ساعة من الجلود ما لا يحصى لتحترق ويصل ألمها وقيل المراد بالجلود السرابيل وهو قوله: ﴿سرابيلهم من قطران﴾ والمعنى كلما نضجت سرابيلهم واحترقت بدلناهم سرابيل من قطران غيرها لأن الجلود لو احترقت لفنيت وفي فنائها راحتها وقد أخبر الله عنهم أنهم لا يموتون فيها ولا يخفف عنهم من عذابها ولأن الجلد أحد أجزاء الجسم فثبت أن التبديل إنما هو للسرابيل وقيل يبدل الجلد من نفس الكافر فيخرج من لحمه جلداً وقيل إن الله تعالى يلبس أهل النار جلوداً لا تألم لتكون زيادة في عذابهم كلما احترق جلد بدلهم جلداً غيره.

وقوله تعالى: ﴿ليذوقوا العذاب﴾ أي إنما فعلنا بهم ذلك ليجدوا ألم العذاب وكربه وشدته وإنما أتى بلفظ الذوق مع ما ينالهم من عظم العذاب الذي نالوه إخباراً بأن إحساسهم به في كل حال فإحساس الذائق في تجديد وجدان الذوق من غير نقصان في الإحساس ﴿إن الله كان عزيزاً﴾ يعني في انتقامه ممن ينتقم من خلقه لا يغلبه شيء ولا يمتنع عليه أحد ﴿حكيماً﴾ يعني في تدبيره وقضائه وأنه لا يفعل إلّا ما هو الصواب.

عنه: هكذا سمعت رسول الله ﷺ؟ قال الحسن: تأكلهم النار كلّ يوم سبعين ألف مرة كلّما أكلتهم قيل لهم عُودُوا فيعودون كما كانوا. أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا معاذ بن أسيد أنا الفضل بن موسى أنا الفضيل عن أبي حازم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: ما بين مَنْكِبَي الكافر مسيرة ثلاثة أيام للراكب المسرع. أخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر أنا عبد الغافر بن محمد بن عيسى الجلودي أنا إبراهيم بن محمد بن سفيان أنا مسلم بن الحجّاج أنا شُريح بن يُونس أنا حُميد بن عبد الرحمن عن الحسن بن صالح عن هارون بن سعد عن أبي حازم عن أبي هريرة رضي الله عنهم قال: قال رسول الله ﷺ: «ضُرْسُ الكافر أو نابُ الكافر مثل أُحُد، وغِلظُ جلده مسيرة ثلاثة أيام». فإن قيل: كيف تُعذّب جلود لم تكن في الدنيا ولم تعصه؟ قيل: يُعاد الجلد الأول في كلّ مرّة. وإنما قال: ﴿ جلوداً غيرَها ﴾ لتبديل صفتها، كما تقول: صنعتُ من خاتمي خاتماً غيره، فالخاتم الثاني هو الأول إلّا أن الصناعة والصفة تبدّلت، وكمَن يترك أخاه صحيحاً ثم بعد مرة يراه مريضاً دَنِفَاً فيقول: أنا غيرُ الذي عهدتَ، وهو عين الأول، إلّا أن صفته تغيّرت. وقال السدي: يُبدّل الجلدُ جلداً غيره من لحم الكافر ثم يُسادُ الجلد لحماً ثم يُخرج من اللحم جلداً آخر. وقيل: يُعذّب الشخص في الجلد لا الجلد، بدليل أنه قال: ﴿ لِيَذُوقُوا العذابَ ﴾ ولم يقل: لتذوق. وقال عبد العزيز بن يحيىٰ: إنّ الله عزّ وجلّ يُلبس أهلَ النار جلوداً لا تألم، فيكون زيادةُ عذابٍ عليهم، كلّما احترق جلدٌ بدّلهم جلداً غيره، كما قال: ﴿ سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرَانٍ ﴾ [إبراهيم: ٥٠] فالسرابيل تُؤلمهم وهي لا تألم. قوله تعالى: ﴿ لِيَذُوقُوا العذابَ إنّ اللّهَ كانَ عزيزاً حكيماً ﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ لَّهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ وَنُدۡخِلُهُمۡ ظِلّٗا ظَلِيلًا ٥٧ ۞إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا ٥٨﴾

﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم﴾ يعني سوف ندخلهم يوم القيامة **﴿جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها﴾** يعني باقين فيها **﴿أبداً﴾** يعني ذلك الخلود بغير نهاية ولا انقطاع **﴿لهم فيها﴾** يعني في الجنات **﴿أزواج مطهرة﴾** يعني مطهرات من الحيض والنفاس وسائر أقذار الدنيا **﴿وندخلهم ظلاً ظليلاً﴾** كنيناً ذلك الظل لا تنسخه الشمس ولا يؤذيهم فيه حر ولا برد وذلك الظل هو ظل الجنة. فإن قلت إذا لم يكن في الجنة شمس يؤذي حرها فما فائدة وصفها بالظل الظليل؟ قلت إنما خاطبهم بما يعقلون ويعرفون وذلك لأن بلاد العرب في غاية الحرارة فكان الظل عندهم من أعظم أسباب الراحة واللذة فهو كقوله ولهم رزقهم فيها بكرة وعشياً.

قوله عز وجل: **﴿إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها﴾** قال البغوي نزلت في عثمان بن طلحة الحجبي من بني عبد الدار وكان سادن الكعبة فلما دخل النبي ﷺ مكة يوم الفتح أغلق عثمان باب البيت وصعد السطح فطلب رسول الله ﷺ المفتاح فقيل له: إنه مع عثمان فطلب منه رسول الله المفتاح فأبى وقال لو علمت إنه رسول الله لم أمنعه المفتاح فلوى علي بن أبي طالب يده وأخذ منه المفتاح وفتح الباب ودخل رسول الله ﷺ البيت وصلى فيه ركعتين فلما خرج سأله العباس أن يعطيه المفتاح وأن يجمع له بين السقاية والسدانة فأنزل الله هذه الآية فأمر رسول الله ﷺ علياً أن يرد المفتاح إلى عثمان ويعتذر إليه ففعل ذلك فقال له عثمان: أكرهت ثم جئت ترفق فقال علي لقد أنزل الله عز وجل في شأنك قرآناً وقرأ عليه الآية فقال عثمان: أشهد أن لا إله إلاّ الله وأن محمداً رسول الله فأسلم فكان المفتاح معه إلى أن مات فدفعه إلى أخيه شيبة فالمفتاح والسدانة في أولادهم إلى يوم القيامة. قلت وفيما ذكره البغوي رحمه الله من إسلام عثمان بن طلحة يوم الفتح ومنعه المفتاح وقوله لو أعلم أنه رسول الله لم أمنعه المفتاح نظر والصحيح ما حكاه أبو عمر بن عبدالبر وابن منده وابن الأثير أن عثمان بن طلحة هاجر إلى المدينة في هدنة الحديبية سنة ثمان مع خالد بن الوليد ولقيهما عمرو بن العاص مقبلاً من عند النجاشي فرافقهما وهاجر معهما فلما رآهم النبي ﷺ: قال رمتكم مكة بأفلاذ كبدها يعني أنهم وجوه أهل مكة فأسلموا وسلم عثمان بن طلحة المفتاح للنبي ﷺ يوم الفتح فرده النبي ﷺ إليه وقال خذوها يا بني طلحة خالدة مخلدة لا ينزعها منكم إلاّ ظالم ولم يذكروا سؤال العباس السدانة والله أعلم. وثبت في الصحيحين من حديث ابن عمر أقبل النبي ﷺ عام الفتح وهو مردف أسامة على القصواء ومعه بلال وعثمان حتى أناخ عند البيت ثم قال لعثمان ائتنا بالمفتاح فجاءه بالمفتاح ففتح الباب. وذكر الحديث وذكر ابن الجوزي في تفسير هذه الآية من رواية أبي صالح عن

﴿ والذينَ آمنُوا وعَمِلُوا الصَّالحاتِ سَنُدْخِلُهُم جنّاتٍ تَجْرِي من تَحْتِها الأنهار خَالِدِينَ فيها أبداً لهُمْ فيها أزواجٌ مُطهَّرةٌ ونُدْخِلُهُمْ ظِلاً ظليلاً ﴾، كنيناً لا تنسخه الشمس ولا يُؤذيهم حرٌّ ولا بردٌ.

قوله تعالى: **﴿ إنّ اللَّهَ يأمرُكم أنْ تُؤدُّوا الأماناتِ إلى أهلِها ﴾**، نزلت في عثمان بن طلحة الحجبي من بني عبد الدار، وكان سَادِنَ الكعبة، فلما دخل النبي ﷺ مكة يوم الفتح أغلق عثمان بابَ البيت وصَعَدَ السطح فطلبَ رسولُ الله ﷺ المفتاحَ، فقيل: إنه مع عثمان فطلبه منه رسول الله ﷺ فأبى، وقال: لو علمتُ أنه رسول الله لم أمنع المفتاح فَلَوَى عليٌّ رضي الله عنه يَدَهُ فأخذ منه المفتاحَ وفتحَ البابَ فدخلَ رسول الله ﷺ البيتَ وصلّى فيه ركعتين،

ابن عباس قال: إن النبي ﷺ لما فتح مكة طلب مفتاح البيت من عثمان بن طلحة فذهب ليعطيه إياه فقال العباس بأبي أنت وأمي اجمعه إلي مع السقاية فكف عثمان يده مخافة أن يعطيه العباس فقال النبي ﷺ: هات المفتاح فأعاد العباس قوله وكف عثمان يده فقال النبي ﷺ هات المفتاح أن كنت تؤمن بالله واليوم الآخر فقال هاكه يا رسول الله بأمانة الله فأخذ المفتاح الباب ونزل جبريل بهذه الآية فدعا عثمان ودفعه إليه ففي هذه الرواية أيضاً ما يدل على تقدم إسلام عثمان بن طلحة على فتح مكة. لأن قوله ﷺ لعثمان إن كنت تؤمن بالله واليوم الآخر يدل على ذلك فعلى هذا القول يكون الخطاب في قوله إن الله يأمركم للنبي ﷺ وهو أن الله أمره أن يرد مفتاح البيت إلى عثمان بن طلحة. وقيل الخطاب في قوله إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها لولاة أمور المسلمين من الأمراء والحكام وغيرهم ويدل على ذلك سياق الآية وهو قوله وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ومعنى الآية إن الله يأمركم يا ولاة الأمور أن تؤدوا ما ائتمنتم عليه من أمور رعيتكم وأن توفوهم حقوقهم وأن تعدلوا بينهم. وقيل إن الآية عامة في جميع الأمانات ولا يمتنع من خصوص السبب عموم الحكم فيدخل في ذلك جميع الأمانات التي حملها الإنسان ويقسم ذلك إلى ثلاثة أقسام: القسم الأول رعاية الأمانة في عبادة الله عز وجل وهو فعل المأمورات وترك المنهيات قال ابن مسعود الأمانة لازمة في كل شيء حتى في الوضوء والغسل من الجنابة والصلاة والزكاة والصوم وسائر أنواع العبادات. القسم الثاني هو رعاية الأمانة مع نفسه وهو ما أنعم الله به عليه من سائر أعضائه فأمانة اللسان حفظه من الكذب والغيبة والنميمة ونحو ذلك وأمانة العين غضها عن المحارم وأمانة السمع أن لا يشغله بسماع شيء من اللهو والفحش والأكاذيب ونحوه ثم سائر الأعضاء على نحو ذلك. القسم الثالث هو رعاية أمانة العبد مع سائر عباد الله تعالى فيجب عليه رد الودائع والعواري إلى أربابها الذين ائتمنوه عليها ولا يخونهم فيها عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أد الأمانة إلى من ائتمنك ولا تخن من خانك» أخرجه أبو داود والترمذي وقال حديث حسن غريب ويدخل في ذلك وفاء الكيل والميزان فلا يطفف فيهما ويدخل في ذلك أيضاً عدل الأمراء والملوك في الرعية ونصح العلماء للعامة فكل هذه الأشياء من الأمانة التي أمر الله عز وجل بأدائها إلى أهلها وروى البغوي بسنده عن أنس قال قلما خطبنا رسول الله ﷺ إلا قال: «لا إيمان لمن لا أمانة له ولا دين لمن لا عهد له».

وقوله تعالى: ﴿وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل﴾ يعني وإن الله يأمركم أن تحكموا بين الناس بالعدل فيجب على الحاكم أن يأخذ الحق ممن وجب عليه لمن وجب له وأصل العدل هو المساواة في الأشياء فكل ما خرج عن الظلم والاعتداء سمي عدلاً قال بعض العلماء ينبغي للقاضي أن يسوي بين الخصمين في خمسة أشياء في

فلمّا خرج سأله العباس المفتاح أن يعطيه ويجمع له بين السِّقاية والسِّدَانة، فأنزل الله تعالى هذه الآية فأمر رسول الله ﷺ أن يردَّ المفتاحَ إلى عثمان ويعتذر إليه، ففعل ذلك عليٌّ رضي الله عنه، فقال له عثمان: أكرهت وآذيت ثم جئت ترفق، فقال علي: لقد أنزل الله تعالى في شأنك قرآناً، وقرأ عليه الآية، فقال عثمان: أشهد أن لا إلّه إلّا الله وأشهد أنّ محمداً رسول الله، وكان المفتاح معه فلمّا مات دفعه إلى أخيه شيبة، فالمفتاح والسدانة في أولادهم إلى يوم القيامة. وقيل: المراد من الآية جميع الأمانات. أخبرنا أبو طاهر محمد بن علي الزاد أنا أبو بكر محمد بن إدريس الجرجاني وأبو أحمد بن محمد بن أحمد المعلم الهروي قال: أنا أبو الحسن علي بن عيسى المساليني أنا الحسن بن سفيان النسوي أنا شيبان بن أبي شيبة أخبرنا أبو هلال عن قتادة عن أنس رضي الله عنه قال: فلمّا خطَبنا رسولُ الله ﷺ قال: «ألاَ لا إيمانَ لمَنْ لا أمانةَ له ولا دينَ لمَنْ لا عهدَ له». قوله تعالى: ﴿ وإذا حكَمتُم بينَ الناسِ أنْ تحكمُوا بالعدلِ ﴾، أي: بالقسط، ﴿ إنّ اللّهَ نِعِمّا ﴾ أي: نعم الشيء الذي ﴿ يَعِظُكُمْ بِهِ إنّ اللّهَ كانَ سميعاً بصيراً ﴾. أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أبو منصور محمد بن محمد بن سمعان أنا أبو جعفر محمد بن

الدخول عليه والجلوس بين يديه والإقبال عليهما والاستماع منهما والحكم بالحق فيما لهما وعليهما وحاصل الأمر فيه أن يكون مقصود الحاكم بحكمه إيصال الحق إلى مستحقه وأن لا يمتزج ذلك بغرض آخر (م) عن عبدالله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله ﷺ: «إن المقسطين عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن وكلتا يديه يمين الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا» عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «أحب الناس إلى الله يوم القيامة وأدناهم عنده مجلساً إمام عادل وأبغض الناس إلى الله وأبعدهم منه مجلساً إمام جائر» أخرجه الترمذي.

وقوله تعالى: ﴿إن الله نعما يعظكم به﴾ أي نعم الشيء الذي يعظكم به وهو أداء الأمانات والحكم بالعدل ﴿إن الله كان سميعاً بصيراً﴾ يعني أنه تعالى سميع لما تقولون وبصير بما تفعلون فإذا حكمتم فهو يسمع حكمكم وإذا أديتم الأمانة فهو يبصر فعلكم. قوله عز وجل:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ٥٩﴾

﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم﴾ (ق) عن ابن عباس قال لما نزل قوله: «أطيعوا الله وأطيعوا الرسول الله وأولي الأمر منكم» الآية قال نزلت في عبدالله بن حذافة بن قيس بن عدي السهمي إذ بعثه رسول الله ﷺ في سرية وقال السدي نزلت في خالد بن الوليد وذلك أنه بعثه رسول الله ﷺ على سرية وفيها عمار بن ياسر فلما قربوا من القوم هربوا منهم وجاء رجل إلى عمار قد أسلم فأمنه عمار فرجع الرجل فجاء خالد فأخذ مال الرجل فقال عمار إني قد أمنته وقد أسلم فقال خالد أتجير علي وأنا الأمير فتنازعا وقدما على رسول الله ﷺ فأجاز أمان عمار ونهاه أن يجير الثانية على أمير فأنزل الله تعالى أطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم وأصل الطاعة الانقياد وهو امتثال الأمر فطاعة الله عز وجل امتثال أمره فيما أمر والانقياد لذلك الأمر وطاعة الله

أحمد بن عبد الجبّار الزياتي أنا حميد بن زنجويه أنا ابن عبّاد بن عيينة عن عمرو بن دينار عن عمرو بن أوس أنه سمع عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه يرفعه إلى النبي ﷺ قال: «المُقسطون عند الله على منابرَ من نُور على يمين الرحمن، وكِلتَا يديهِ يمين، هم الذين يَعْدِلُون في حكمهم وأهليهم ومَا وُلّوا» أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا عبد الرحمن بن أبي شريح أنا القاسم عبد الله بن محمد بن عبد العزيز البغوي أنا علي بن الجعد أنا فضيل بن مرزوق عن عطية عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ أحبَّ الناسِ إلى اللّهِ يومَ القيامةِ وأقربُهم منه مجلساً إمامٌ عادلٌ، وإنّ أبغضَ الناسِ إلى اللّهِ يومَ القيامةِ وأشدَّهم عذاباً إمامٌ جائرٌ».

قوله تعالى: ﴿ يا أيّها الذينَ آمنوا أطِيعُوا اللّهَ وأطيعُوا الرّسُولَ وأُولي الأمرِ مِنْكُم ﴾، اختلفوا في ﴿ أُولي الأمر ﴾، قال ابن عباس وجابر رضي الله عنهم: هم الفقهاء والعلماء الذين يعلّمون الناس معالِمَ دينهم، وهو قول الحسن والضحاك ومجاهد، ودليلُه قوله تعالى: ﴿ ولو رَدُّوهُ إلى الرسولِ وإلى أُولي الأمر منهم لَعَلِمَهُ الذينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ منهم ﴾ [النساء: ٨٣] وقال أبو هريرة: هم الأمراء والولاة، وقال عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه: حقٌّ على الإمام أن يحكم بما أنزل الله ويؤدّي الأمانة فإذا فعل ذلك فحقٌّ على الرعيّة أن يسمعوا ويُطيعوا. أخبرنا أبو علي حسّان بن سعد المنيعي أنا أبو طاهر محمد بن محمش الزيادي أنا أبو بكر محمد بن الحسين القطّان أنا أحمد بن يوسف السلمي أنا عبد الرزّاق أنا معمر عن همّام بن منبّه أنا أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول

واجبة على كافة الخلق. وكذا طاعة رسوله ﷺ واجبة أيضاً لقوله تعالى وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول فأوجب طاعة رسوله ﷺ على الخلق واختلف العلماء في أولي الأمر الذين أوجب طاعتهم بقوله وأولي الأمر منكم. يعني وأطيعوا أولي الأمر منكم قال ابن عباس وجابرهم الفقهاء والعلماء الذين يعلمون معالم الناس دينهم وهو قول الحسن والضحاك ومجاهد وقال أبو هريرة الأمراء والولاة. وهي رواية عن ابن عباس أيضاً قال علي بن أبي طالب حق على الإمام أن يحكم بما أنزل الله ويؤدي الأمانة فإذا فعل ذلك فحق على الرعية أن يسمعوا ويطيعوا (ق) عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من أطاعني فقد أطاع الله ومن عصاني فقد عصى الله ومن يطع الأمير فقد أطاعني ومن يعص الأمير فقد عصاني» (ق) عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب أو كره إلّا إن يؤمر بمعصية الله فإن أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة» (خ) عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: اسمعوا وأطيعوا وإن استعمل عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة ما أقام فيكم كتاب الله» وقال ميمون بن مهران هم أمراء السرايا والبعوث وهي رواية عن ابن العباس أيضاً ووجه هذا القول أن الآية نازلة فيهم. وقال عكرمة: أراد بأولي الأمر. أبا بكر وعمر لما روي عن حذيفة قال: قال رسول الله ﷺ: «إني لا أدري ما بقائي فيكم فاقتدوا باللذين من بعدي أبي بكر وعمر» أخرجه الترمذي وقيل هم جميع الصحابة لما روي عن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم» أخرجه رزين في كتابه وروى البغوي بسنده عن

الله ﷺ: «مَن أطاعني فقد أطاعَ الله، ومَن عصاني فقد عصى الله، ومَن يطعِ الأميرَ فقد أطاعني، ومَنْ يعصِ الأميرَ فقد عصاني» أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أخبرنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا مسدد أنا يحيىٰ بن سعيد عن عبيد الله حدّثني نافع عن عبد الله رضي الله عنهم عن النبي ﷺ قال: «السمعُ والطاعةُ على المرءِ المسلم فيما أحبَّ وكَرِه، ما لم يُؤمَرْ بمعصية، فإذا أُمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة». أخبرنا أبو الحسن عبد الرحمن محمد الراودي أنا أبو الحسن أحمد بن محمد بن موسى بن الصلت أنا أبو إسحق إبراهيم بن عبد الصمد الهاشمي أنا أبو مصعب عن مالك بن أنس عن يحيى بن سعيد أخبرنا عبادة بن الوليد بن عبادة أن أباه أخبره عن عبادة بن الصامت قال: «بايعنا رسولَ الله ﷺ على السمعِ والطاعةِ في العُسر واليُسرِ والمَنْشَطِ والمَكْرَه، وعلى أَثَرَةٍ علينا وعلى أنْ لا نُنازِعَ الأمر أهله وعلى أن نقول بالحق أينما كنّا لا نخاف في اللّهِ لَوْمَةَ لائمٍ». أخبرنا أبو عبد الله عبد الرحمن بن عبيد الله بن أحمد القفّال أنا أبو منصور أحمد بن الفضل البروجردي أنا أبو بكر بن محمد بن همدان الصيرفي أنا محمد بن يوسف الكديمي قال: أخبرنا أبو داود الطيالسي عن شعبة عن أبي التياح عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال لأبي ذر: «اسمعْ وأطعْ ولو لعبدٍ حبشي كان رأسه زبيبة». أخبرنا أبو عثمان سعيد بن إسماعيل الضبّي أنا أبو محمد عبد الجبّار بن محمد الجراحي أنا أبو العباس أنا محمد بن أحمد المحبوبي أنا أبو عيسى الترمذي أنا موسى بن عبد الرحمن الكندي أنا زيد بن الحباب أنا معاوية بن صالح حدّثني سليم بن عامر قال: سمعتُ أبا أمامة رضي الله عنه يقول: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يخطب في حَجّةِ الوَدَاع فقال: «اتقُوا اللّهَ وصِلُوا رحمَكم وصُومُوا شهرَكم وأدُّوا زكاةَ أموالكم وأطيعوا إذا أمركم تدخلُوا جنّةَ ربِّكُم».

وقيل: المراد أمراء السرايا، أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا صدقة بن الفضل أنا حجّاج بن محمد عن يعلى بن مسلم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ أطيعُوا اللّهَ والرسولَ وأُولي الأمر منكم ﴾، قال: نزلتْ في عُبيد الله بن حُذافة بن قيس بن عدي إذْ بعثه النبي ﷺ في سرية. وقال عكرمة: أراد بأُولي الأمر أبا بكر وعمر رضي الله عنهما. حدّثنا أبو المظفر محمد بن أحمد التهمي أنا أبو محمد عبد الرحمن عثمان بن القاسم أخبرنا خيثمة بن سليمان بن حيدرة الأطرابلسي

الحسن قال إن رسول الله ﷺ قال: «مثل أصحابي في أمتي كالملح في الطعام لا يصلح الطعام إلاّ بالملح» قال الحسن قد ذهب ملحنا فكيف نصلح قال الطبري وأولى الأقوال بالصواب قول من قال هم الأمراء والولاة لصحة الأخبار عن رسول الله ﷺ بالأمر بطاعة الأئمة والولاة فيما كان لله عز وجل طاعة وللمسلمين مصلحة وقال الزّجاج: وجملة أولي الأمر من يقوم بشأن المسلمين في أمر دينهم وجميع ما أدى إليه صلاحهم قال العلماء طاعة الإمام واجبة على الرعية ما دام على الطاعة فإذا زال عن الكتاب والسنة فلا طاعة له وإنما تجب طاعته فيما وافق الحق.

وقوله تعالى: ﴿فإن تنازعتم في شيء﴾ يعني اختلفتم في شيء من أمر دينكم والتنازع اختلاف الآراء وأصله من انتزاع الحجة وهو أن كل واحد من المتنازعين ينزع الحجة لنفسه ﴿فردوه إلى الله والرسول﴾ أي ردوا ذلك الأمر الذي تنازعتم فيه إلى كتاب الله عز وجل وإلى رسوله ﷺ ما دام حياً وبعد وفاته فردوه إلى سنته والرد إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ واجب إن وجد ذلك الحكم في كتاب الله أخذ به فإن لم يوجد في كتاب الله ففي سنة رسوله ﷺ فإن لم يوجد في السنة فسبيله الاجتهاد وقيل الرد إلى الله ورسوله أن يقول لما لا يعلم الله ورسوله أعلم ﴿إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر﴾ يعني افعلوا ذلك الذي أمرتكم به إن كنتم تؤمنون بالله وإن طاعته واجبة عليكم وتؤمنون بالميعاد الذي فيه جزاء الأعمال قال العلماء في الآية دليل على أن من لا يعتقد وجوب طاعة الله وطاعة الرسول ومتابعة السنة والحكم بالأحاديث الواردة عن النبي ﷺ لا يكون مؤمناً بالله وباليوم الآخر ﴿ذلك خير﴾ يعني رد الحكم إلى الله ورسوله خير ﴿وأحسن تأويلاً﴾ يعني وأحمد عاقبة وقيل معناه ذلك أي ردكم ما اختلفتم فيه إلى الله ورسوله أحسن تأويلاً منكم له وأعظم أجراً. قوله عز وجل: .

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِۦ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾

﴿ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت

أنا عمرو بن أبي غرزة بالكوفة أخبرنا ثابت بن موسى العابد عن سفيان بن عُيينة عن عبد الملك بن عمير عن ربعي عن حذيفة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إني لا أدري ما بقائي فيكم فاقْتَدُوا باللّذينَ مِن بعدي أبي بكرٍ وعمر»، رضي الله عنهما، وقال عطاء: هم المهاجرون والأنصار والتابعون لهم بإحسان بدليل قوله تعالى: ﴿ والسابقون الأوّلون من المهاجرين والأنصار ﴾ [التوبة: ١٠٠] الآية. أخبرنا أبو بكر محمد بن عبد الله بن أبي توبة أنا أبو طاهر محمد بن أحمد بن الحارث أنا محمد بن يعقوب الكسائي قال: أخبرنا عبد الله بن محمود أنا أبو إسحق إبراهيم بن عبد الله الخلال أنا عبد الله بن المبارك عن إسماعيل المكّي عن الحسن عن أنس بن مالك رضي الله عنهم قال: قال رسول الله ﷺ: «مثلُ أصحابي في أمتي كالملحِ في الطعامِ لا يَصْلُح الطعامُ إلّا بالملح». قال الحسن: قد ذهب مِلْحُنَا فكيف نصلح. قوله عزّ وجلّ: ﴿ فإنْ تَنَازَعْتُم ﴾، أي: اختلفتم، ﴿ في شيء ﴾ في أمر دينكم، والتنازع: اختلاف الآراء وأصله من النزع فكان المتنازعان يتجاذبان ويتمانعان، ﴿ فَرُدُّوهُ إلى اللّهِ والرَّسُولِ ﴾، أي: إلى كتاب الله وإلى رسوله ما دام حيّاً وبعد وفاته إلى سُنّته، والردّ إلى الكتاب والسُّنّة واجبٌ إن وُجد فيهما، فإن لم يُوجد فسبيله الاجتهاد. وقيل: الردُّ إلى الله تعالى والرسول أن يقول لِمَا لَا يعلم: اللّهُ ورسولُه أعلم. ﴿ إنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ باللّهِ واليومِ الآخر ذلك ﴾، أي: الردُّ إلى الله والرسول، ﴿ خيرٌ وأحسنُ تأْوِيلاً ﴾، أي: أحسنُ مآلاً وعاقبة.

قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إلى الذينَ يزعُمُون أنهم آمنُوا بما أُنزل إليك وما أُنزِلَ مِنْ قبلك يُريدونَ أن يَتحاكَمُوا

وقد أمروا أن يكفروا به﴾ قال ابن عباس: نزلت في رجل من المنافقين يقال له بشر كان بينه وبين يهودي خصومة فقال اليهودي ننطلق إلى محمد وقال المنافق بل ننطلق إلى كعب بن الأشرف وهو الذي سماه الله الطاغوت فأبى اليهودي أن يخاصمه إلاّ إلى رسول الله ﷺ فلما رأى المنافق ذلك أتى معه إلى رسول الله ﷺ فقضى رسول الله ﷺ لليهودي. فلما خرجا من عنده لزمه المنافق وقال انطلق بنا إلى عمر فأتيا عمر فقال اليهودي اختصمت أنا وهذا إلى محمد فقضى لي عليه فلم يرض بقضائه وزعم أنه مخاصمي إليك فقال عمر للمنافق أكذلك قال؟ قال نعم فقال لهما عمر: رويداً حتى أخرج إليكما فدخل عمر البيت وأخذ السيف واشتمل عليه ثم خرج فضرب به المنافق حتى برد وقال: هكذا أقضي بين من لم يرض بقضاء الله وقضاء رسوله فنزلت هذه الآية وقال جبريل إن عمر فرق بين الحق والباطل فسمي الفاروق. وقال السدي كان ناس من اليهود قد أسلموا ونافق بعضهم وكانت قريظة والنضير في الجاهلية وكانت قريظة حلفاء الخزرج والنضير حلفاء الأوس وكان إذا قتل رجل من بني قريظة رجلاً من بني النضير قتل به أو أخذت ديته مائة وسق من تمر، وإذا قتل رجل من بني النضير رجلاً من قريظة لم يقتل به وأعطى ديته ستين وسقاً فلما جاء الإسلام وهاجر النبي ﷺ إلى المدينة قتل رجل من النضير رجلاً من قريظة فاختصموا في ذلك فقال بنو النضير كنا وأنتم قد اصطلحنا على أن نقتل منكم ولا تقتلوا منا وديتنا مائة وسق وديتكم ستون وسقاً فنحن نعطيكم ذلك فقالت الخزرج هذا شيء كنتم فعلتموه في الجاهلية لكثرتكم وقلتنا فقهرتمونا على ذلك، فاليوم نحن إخوة في الدين فلا فضل لكم علينا فقال المنافقون منهم ننطلق إلى أبي بردة الكاهن الأسلمي وقال المسلمون من الفريقين بل ننطلق إلى النبي ﷺ فأبى المنافقون وانطلقوا إلى أبي بردة الكاهن ليحكم بينهم فقال أطعموا اللقمة يعني الخطر فقالوا لك عشرة أوسق فقال لا بل مائة وسق ديتي فأبوا أن يعطوه إلاّ عشرة أوسق وأبى أن يحكم بينهم

إلى الطَّاغُوتِ﴾ الآية قال: الشعبي: كان بين رجل من اليهود ورجل من المنافقين خصومة فقال اليهودي: نتحاكم إلى محمد لأنه عُرف أنه لا يأخذ الرشوة ولا يميل في الحكم، وقال المنافق: نتحاكم إلى اليهود لعلمه أنهم يأخذون الرشوة ويميلون في الحكم، فاتفقا على أن يأتيا كاهناً في جُهينة فيتحاكما إليه، فنزلت هذه الآية. قال جابر: كانت الطواغيت التي يتحاكمون إليها واحداً في جُهينة وواحداً في أسلم، وفي كل حيّ واحد كهان، وقال الكلبي عن أبي صالح وابن عباس: نزلت في رجل من المنافقين يقال له بشر، كان بينه وبين يهودي خصومة فقال اليهودي: ننطلق إلى محمد، وقال المنافق: بل إلى كعب بن الأشرف، وهو الذي سمّاه الله الطاغوت، فأبى اليهودي أن يخاصمه إلاّ إلى رسول الله ﷺ، فلما رأى المنافق ذلك أتى معه إلى رسول الله ﷺ فقضى رسول الله ﷺ لليهودي، فلما خرجا من عنده لزمه المنافق وقال: انطلق بنا إلى عمر رضي الله عنه فأتيا عمر فقال اليهودي: اختصمتُ أنا وهذا إلى محمد فقضى لي عليه فلم يرضَ بقضائه وزعم أنه يخاصم إليك، فقال عمر رضي الله عنه للمنافق: أكذلك؟ قال: نعم، قال لهما: رويدكما حتى أخرج إليكما فدخل عمر البيت وأخذ السيف واشتمل عليه ثم خرج فضرب به المنافق حتى برد، وقال: هكذا أقضي بين مَن لم يرضَ بقضاءِ اللَّهِ وقضاءِ رسولِهِ. فنزلت هذه الآية. وقال جبريل: إن عمر رضي الله عنه فرّق بين الحق والباطل، فسُمّيَ الفاروق. وقال السدي: كان ناس من اليهود أسلموا ونافق بعضُهم وكانت قريظة والنضير في الجاهلية إذا قتل رجل من بني قريظة رجلاً من بني النضير قتل به أو أخذ ديّته مائة وسق من تمر، وإذا قتل رجلٌ من بني النضير رجلاً من قريظة لم يقتل به وأُعطي ديّته ستّين وسقاً، وكانت النضير وهم حلفاء الأوس أشرف وأكثر من قريظة وهم حلفاء الخزرج، فلما جاء الله بالإسلام وهاجر النبي ﷺ إلى المدينة، قتل رجل من النضير رجلاً من قريظة فاختصموا في ذلك، فقالت بنو النضير: كنّا وأنتم قد اصطلحنا على أن نقتل منكم ولا تقتلون منّا، وديتُكم ستّون وِسْقاً وديّتُنا مائة وِسْق، فنحن نعطيكم ذلك، فقالت الخزرج: هذا

فأنزل الله عز وجل آيتي القصاص وأنزل هذه الآية: ﴿ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك﴾ الزعم والزعم بضم الزاي وفتحها لغتان وأكثر ما يستعمل الزعم بمعنى القول الذي لا يتحقق. وقيل هو حكاية قول يكون مظنة للكذب ولذلك قيل زعم مطية الكذب والمراد به في هذه الآية الكذب لأن الآية نازلة في المنافقين وظاهر الآية يدل على أنها نازلة في الذين نافقوا من مؤمني أهل الكتاب ويدل عليه قوله آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يرون أن يتحاكموا إلى الطاغوت يعني كعب بن الأشرف في قول ابن عباس سماه الله طاغوتاً لإفراطه في الطغيان وعداوة رسول الله ﷺ. وقيل هو أبو بردة الكاهن في قول السدي وقد أمروا أن يكفروا به يعني بالطاغوت لأن الكفر بالطاغوت إيمانن بالله عز وجل: ﴿ويريد الشيطان أن يضلهم﴾ يعني عن طريق الهدى والحق ﴿ضلالاً بعيداً﴾.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَـٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَـٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾﴾

﴿وإذا قيل لهم﴾ يعني للمنافقين ﴿تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول﴾ يعني هلموا إلى حكم الله الذي أنزله في كتابه وإلى الرسول ليحكم بينكم به ﴿رأيت المنافقين يصدون عنك صدوداً﴾ يعني يعرضون عنك وعن حكمك إعراضاً وأي إعراض وإنما أعرض المنافقون عن حكم رسول الله ﷺ لأنهم علموا أنه ﷺ كان يحكم بينهم بالحق الصريح ولا يقبل الرشا.

قوله عز وجل: ﴿فكيف إذا أصابتهم مصيبة﴾ يعني فكيف حال هؤلاء المنافقين وكيف يصنعون إذا أصابتهم مصيبة يعجزون عنها ﴿بما قدمت أيديهم﴾ يعني تصيبهم عقوبة بسبب ما قدمت أيديهم وهو التحاكم إلى غير رسول الله ﷺ وهذا وعيد لهم على سوء صنيعهم ورضاهم بحكم الطاغوت دون حكم رسول الله ﷺ وقيل المصيبة

شيء كنتم فعلتموه في الجاهلية لكثرتكم وقِلّتنا فقهرتُمونا، ونحن وأنتم اليوم إخوة وديننا ودينكم واحد فلا فضل لكم علينا، فقال المنافقون منهم: انطلقوا إلى أبي بردة الكاهن الأسلمي، وقال المسلمون من الفريقين: لا بلْ إلى النبي ﷺ وأبى المنافقون وانطلقوا إلى أبي بردة ليحكم بينهم، فقال: أعظموا اللقمة، يعني: الخطر، فقالوا: لك عشرة أوسق، قال: لا بل مائة وِسق ديتي، فأبوا أن يعطوه إلاّ عشرة أوسق وأبى أن يحكم بينهم، فأنزل الله تعالى آيتي القصاص، وهذه الآية: ﴿ أَلَمْ تَرَ إلى الذينَ يزعمُون أنهم آمنوا بما أُنزِلَ إليكَ وما أُنزلَ من قبلكَ يُريدونَ أن يتحاكمُوا إلى الطاغُوتِ ﴾ يعني إلى: أبي بردة الكاهن أو كعب بن الأشرف، ﴿ وقد أُمروا أن يكفرُوا به، ويُريدُ الشيطانُ أنْ يضلّهم ضلالاً بعيداً ﴾.

﴿ وإذا قيلَ لهمْ تعالَوا إلى ما أنزَلَ اللّهُ وإلى الرسولِ رأيتَ المنافقينَ يصدُّون عنك صُدُوداً ﴾ أي: يُعرضون عنكَ إعراضاً.

﴿ فكيفَ إذا أصابَتْهم مُصيبةٌ ﴾، هذا وعيد، أي: فكيف يصنعون إذا أصابتهم مصيبة، ﴿ بما قَدَّمَتْ أيديهمْ ﴾، يعني: عقوبةَ صدودِهم، وقيل: هي كل مُصيبة تُصيب جميع المنافقين في الدنيا والآخرة، وتمّ الكلام هنا، ثم عاد الكلام إلى ما سبق، يُخبر عن فعلهم فقال: ﴿ ثم جاؤُوكَ ﴾، يعني: يتحاكمون إلى الطاغوت، ﴿ ثم جاؤوك ﴾ أي: يجيئونك يحلفون، وقيل: أراد بالمصيبة قتل عمر رضي الله عنه المنافق، ثم جاؤوا يطلبون دِيَته،

هي قتل عمر لذلك المنافق وقيل هي كل مصيبة تصيب في الدنيا والآخرة ﴿ثم جاؤوك﴾ يعني المنافقين حين تصيبهم المصائب يعتذرون إليك ﴿يحلفون بالله إن أردنا﴾ أي ما أردنا بتحاكمنا إلى غيرك ﴿إلاّ إحساناً﴾ يعني في التحاكم إلى غيرك لا إساءة ﴿وتوفيقاً﴾ يعني بين الخصمين لا مخالفة لك في حكمك وقيل جاء أولياء المنافق الذي قتله عمر يطلبون ديته وقالوا ما أردنا بالتحاكم إلى عمر إلاّ أن يحسن إلى صاحبنا في حكمه ويوفق بينه وبين خصمه، وما خطر ببالنا أنه يحكم بما حكم به من قتل صاحبنا في حكمه ويوفق بينه وبين خصمه وما خطر ببالنا أنه يحكم بما حكم به من قتل صاحبنا فأهدر الله ذلك المنافق.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَعِظۡهُمۡ وَقُل لَّهُمۡ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَوۡلَۢا
بَلِيغٗا ﴿٦٣﴾ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ جَآءُوكَ
فَٱسۡتَغۡفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡتَغۡفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابٗا رَّحِيمٗا ﴿٦٤﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ
يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا ﴿٦٥﴾﴾

﴿أولئك الذين يعلم الله ما في قلوبهم﴾ يعني من النفاق ﴿فأعرض عنهم﴾ يعني عن عقوبتهم وقيل عن قبول عذرهم ﴿وعظهم﴾ يعني باللسان والمراد زجرهم بالوعظ عن النفاق والكفر والكذب وتخويفهم بعذاب الآخرة ﴿وقل لهم في أنفسهم قولاً بليغاً﴾ يعني بليغاً يؤثر في قلوبهم موقعه وهو التخويف بالله عز وجل وقيل هو أن يوعدهم بالقتل إن لم يتوبوا من النفاق. وقيل هو أن يقول إن أظهرتم ما في قلوبكم من النفاق قتلتم لأن هذا القول يبلغ في نفوسهم كل مبلغ وقيل معناه فأعرض عنهم في الملأ وقل لهم في أنفسهم إذا خلوت بهم قولاً بليغاً أي أغلظ لهم في القول خالياً بهم ليس معهم غيرهم مساراً لهم بالنصيحة لأنها في السر أنجع. وقيل هذا الإعراض منسوخ بآية القتال وقد تكلم العلماء في حد البلاغة فقال بعضهم البلاغة إيصال المعنى إلى الفهم في أحسن صورة من اللفظ وقيل البلاغة حسن العبارة مع صحة المعنى وقيل البلاغة سرعة الإيجاز مع الإفهام وحسن التصرف من غير إدجار. وقيل أحسن الكلام ما قلت ألفاظه وكثرت معانيه وقيل خير الكلام ما شوق أوله إلى سماع آخره وقيل لا يستحق الكلام اسم البلاغة إلاّ إذا طابق لفظه معناه ومعناه لفظه ولم يكن لفظه إلى السمع أسبق من معناه إلى القلب. وقيل المراد بالقول البليغ في الآية أن يكون حسن الألفاظ حسن المعاني مشتملاً على الترغيب والترهيب

﴿ يَحْلِفُون بالله إنْ أَرَدْنَا ﴾، ما أردنا بالعُدول عنه في المحاكمة أو بالترافع إلى عمر، ﴿ إلاّ إحْسَاناً وتوفيقاً ﴾، قال الكلبي: إلاّ إحساناً في القول، وتوفيقاً: صواباً، وقال ابن كيسان: حقاً وعدلاً، نظيره: ﴿ لَيَحْلِفُنَّ إنْ أردْنَا إلاّ الحُسنى ﴾ [التوبة: ١٠٧]، وقيل: هو إحسان بعضهم إلى بعض، وقيل: هو تقريب الأمر من الحق، لا القضاء على أمر الحكم، والتوفيق: هو موافقة الحق، وقيل: هو التأليف والجمع بين الخصمين.

﴿ أولئك الذينَ يعلمُ اللّهُ ما في قلوبِهمْ ﴾، مِنَ النفاق، أي: علم أنّ ما في قلوبهم خلاف ما في ألسنتِهم، ﴿فأعرضْ عنهم﴾، أي: عن عُقوبتهم. وقيل: هو التخويف بالله، وقيل: أن يُوعدهم بالقتل إن لم يتوبوا، قال الحسن: القول البليغ أن يقول لهم: إن أظهرتم ما في قلوبكم من النفاق قُتلتم لأنه يبلغ من نفوسكم كل مبلغ، وقال الضحاك: ﴿ فأعرضْ عنهم وعِظْهم ﴾ في الملأ ﴿ وقلْ لهم في أنفسهم قولاً بليغاً ﴾ في السرّ والخلاء، وقال: قيل هذا منسوخ بآية القتال.

والإعذار والإنظار والوعد والوعيد بالثواب والعقاب، فإن الكلام إذا كان كذلك عظم وقعه في القلوب وأثر في النفوس.

قوله تعالى: ﴿**وما أرسلنا من رسول**﴾ قال الزجاج لفظه من هنا صلة مؤكدة والمعنى وما أرسلنا رسولاً ﴿**إلا ليطاع بإذن الله**﴾ يعني بأمر الله والمعنى إنما وجبت طاعة الرسول بأمر الله لأن الله أذن في ذلك وأمر به وقيل معناه بعلم الله وقضائه أي طاعته تكون بإذن الله لأنه أذن فيه فتكون طاعة الرسول طاعة الله ومعصيته معصية الله والمعنى وما أرسلنا من رسول إلا فرضت طاعته على من أرسلته إليهم وأنت يا محمد من الرسل الذين فرضت طاعتهم على من أرسلوا إليهم ففيه توبيخ وتقريع للمنافقين الذين تركوا حكم رسول الله ﷺ ورضوا بحكم الطاغوت ﴿**ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم**﴾ يعني الذين تحاكموا إلى الطاغوت ظلموا أنفسهم بالتحاكم إليه ﴿**جاؤوك**﴾ يعني جاؤوك تائبين من النفاق والتحاكم إلى الطاغوت متنصلين مما ارتكبوا من المخالفة ﴿**فاستغفروا الله**﴾ يعني من ذلك الذنب بالإخلاص وبالغوا في الاعتذار إليك من إيذائك برد حكمك والتحاكم إلى غيرك ﴿**واستغفر لهم الرسول**﴾ يعني من مخالفته والتحاكم إلى غيره وإنما قال واستغفر لهم الرسول ولم يقل واستغفرت لهم إجلالاً لرسول الله ﷺ وتفخيماً له وتعظيماً لاستغفاره وأنهم إذا جاؤوه فقد جاؤوا من خصه الله برسالته وجعله سفيراً بينه وبين خلقه ومن كان كذلك فإن الله تعالى لا يرد شفاعته فلهذا السبب عدل إلى طريقة الالتفات من لفظ الخطاب إلى لفظ الغيبة ﴿**لوجدوا الله تواباً رحيماً**﴾ يعني لو أنهم تابوا من ذنوبهم ونفاقهم واستغفرت لهم لعلموا أن الله يتوب عليهم ويتجاوز عنهم ويرحمهم. قوله عز وجل: ﴿**فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم**﴾ نزلت هذه الآية في الزبير بن العوام ورجل من الأنصار (ق) عن عروة بن الزبير عن أبيه أن رجلاً من الأنصار خاصم الزبير في شراج الحرة التي يسقون بها النخل فقال الأنصاري: سرح الماء يمر فأبى عليه فاختصما عند رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ للزبير: «اسق يا زبير ثم أرسل إلى جارك» فغضب الأنصاري ثم قال يا رسول الله إن كان ابن عمتك فتلون وجه رسول الله ﷺ ثم قال للزبير اسق يا زبير ثم احبس الماء حتى يرجع إلى الجدر. فقال الزبير والله إني لأحسب هذه الآية نزلت في ذلك: ﴿**فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم**﴾ زاد البخاري فاستوعى رسول الله ﷺ حينئذٍ للزبير حقه وكان رسول الله ﷺ قبل ذلك قد أشار على الزبير رأياً أي أراد سعة له وللأنصاري فلما أحفظ الأنصاري رسول الله ﷺ استوعى رسول الله ﷺ للزبير حقه في صريح الحكم قال الزبير والله ما أحسب

قوله عزّ وجلّ: ﴿ وما أرسَلْنَا مِنْ رسولٍ إلاّ لِيُطاعَ بإذنِ الله ﴾، أي: بأمر الله لأنّ طاعة الرسول وجبت بأمر الله، قال الزجّاج: ليطاع بإذن الله لأنّ الله قد أذن فيه وأمر به، وقيل: إلاّ لِيُطاع كلام تام كافٍ، بإذن الله تعالى أي: بعلم الله وقضائه، أي: وقوعُ طاعته يكون بإذن الله، ﴿ ولو أنهم إذْ ظَلَمُوا أنفسَهم ﴾، لتحاكمهم إلى الطّاغوت ﴿ جاؤُوكَ فاستغفرُوا اللّهَ واستغفرَ لهمُ الرسولُ لَوَجَدُوا اللّهَ توّاباً رحيماً ﴾.

قوله تعالى: ﴿ فَلاَ وربِّكَ لا يُؤمنُونَ حتى يُحكِّمُوك ﴾، الآية. أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا أبو اليمان أنا شعيب عن الزهري أخبرني عروة بن الزبير: أنَّ الزبير رضي الله عنه كان يحدّث أنه خاصم رجلاً من الأنصار قد شهد بدراً إلى رسول الله ﷺ في شراج مِنَ الحرّة كانا يسقيان به، كلاهما فقال رسول الله ﷺ للزبير: اسقِ يا زبير، ثم أرسل إلى جارك، فغضب الأنصاري، ثم قال: يا رسول الله أن كان ابن عمّتك؟ فتلوّن وجهُ رسول الله ﷺ، ثم قال للزبير: «اسقِ ثم احبسِ الماءَ حتى يرجع إلى الجدر»، فاستوعى رسول الله ﷺ حينئذ للزبير حقَّه، وكان رسول الله ﷺ أشار على الزبير رأياً، أي: أراد سعة له وللأنصار، فلمّا أَحْفَظَ الأنصاريُ رسولَ الله ﷺ استوعى للزبير حقّه في صريح الحكم. قال

هذه الآية نزلت إلا في ذلك. قوله في شراج الحرة الشراج مسايل الماء التي تكون من الجبل وتنزل إلى السهل الواحدة شرجة بسكون الراء والحرة الأرض الحمراء المتلبسة بالحجارة السود وقوله فتلون وجه رسول الله ﷺ يعني تغير وقوله فلما أحفظ أي أغضب رسول الله ﷺ وقوله حتى يرجع إلى الجدر هو بفتح الجيم يعني أصل الجدار وقوله فاستدعى له أي استوفى له حقه في صريح الحكم. وهو أن من كان أرضه أقرب إلى فم الوادي فهو أولى بأول الوادي وحقه تمام السقي فرسول الله ﷺ أذن للزبير في السقي على وجه المسامحة فلما أبى خصمه ذلك ولم يعترف بما أشار به رسول الله ﷺ من المسامحة لأجله أمر الزبير باستيفاء حقه على التمام وحمل خصمه على مر الحق. فعلى هذا القول تكون الآية مستأنفة لا تعلق لها بما قبلها قال البغوي: وروي أنهما لما خرجا مرا على المقداد فقال لمن كان القضاء قال الأنصاري لابن عمته ولوى شدقه ففطن له يهودي كان مع المقداد فقال قاتل الله هؤلاء يشهدون أنه رسول الله ثم يتهمونه في قضاء يقضي بينهم وايم الله لقد أذنبنا ذنباً مرة في حياة موسى فدعا موسى إلى التوبة منه فقال فاقتلوا أنفسكم ففعلنا فبلغ قتلانا سبعين ألفاً في طاعة ربنا حتى رضي عنا. فقال ثابت بن قيس بن شماس: أما والله إن الله ليعلم مني الصدق ولو أمرني محمد أن أقتل نفسي لفعلت. وقال مجاهد والشعبي نزلت هذه الآية في بشر المنافق واليهودي اللذين اختصما إلى الطاغوت. وعلى هذا القول تكون الآية متصلة بما قبلها فلا وربك معناه فوربك فعلى هذا تكون لا مزيدة لتأكيد معنى القسم. وقيل إن لا رد لكلام سبق كأنه قال ليس الأمر كما يزعمون أنهم آمنوا وهم يخالفون حكمك ثم استأنف القسم فقال تعالى فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم يعني فيما اختلفوا فيه من الأمور وأشكل عليهم حكمه وقيل فيما التبس عليهم يقال شاجره في الأمر إذا نازعه فيه وأصله التداخل والاختلاط وشجر الكلام إذا دخل بعضه في بعض واختلط ﴿ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت﴾ يعني ضيقاً مما قضيت وقيل شكاً فيما قضيت بل يرضوا بقضائك ﴿ويسلموا تسليماً﴾ يعني وينقادوا لأمرك انقياداً أو لا يعارضونك في شيء من أمرك وقيل معناه يسلموا ما تنازعوا فيه لحكمك قوله عز وجل: .

عروة: قال الزبير: والله ما أحسب هذه الآية إلّا نزلت في ذلك ﴿ فَلَا وربِّك لا يُؤمنونَ حتّى يحكِّمُوكَ فيما شَجَرَ بينهم ﴾ الآية. ورُوِيَ أن الأنصاري الذي خاصم الزبير كان اسمه حاطب بن أبي بلتعة فلما خَرَجَا مرَّ على المقداد فقال: لمَن كان القضاء، فقال الأنصاري: قضَى لابن عمّته ولَوَى شدقيه ففطن له يهودي كان مع المقداد، فقال: قاتل الله هؤلاء يشهدون أنه رسول الله ثم يتّهمونه في قضاءٍ يقضي بينهم، وأيْمُ الله لقد أذنبنا ذنباً مرّة في حياة موسى عليه السلام فدعاني موسى إلى التوبة منه، فقال: اقتلوا أنفسكم ففعلنا فبلغ قتلانا سبعين ألفاً في طاعة ربنا حتى رضي عنّا، فقال ثابت بن قيس بن شماس: أمَا والله إنّ الله ليعلم منّي الصدقَ ولو أمرني محمد أن أقتل نفسي لفعلت، فأنزل الله في شأن حاطب بن أبي بلتعة: ﴿ فلَا وربِّكَ لا يُؤمنونَ حتى يُحكِّمُوكَ ﴾، وقال مجاهد والشعبي: نزلت في بِشْر المنافق واليهودي اللّـذين اختصما إلى عمر رضي الله عنه. قوله تعالى: ﴿ فـلا ﴾ أي: ليس الأمر كما يزعمون أنهم مؤمنون ثمّ لا يرضون بحكمك، ثم استأنف القَسَم ﴿ وربِّك لا يُؤمنُون ﴾ ويجوز أن يكـون ﴿ لا ﴾ في قولـه: ﴿ فلا ﴾ صلة، كمـا في قولـه: ﴿ فلا أقسم ﴾ [الـواقعة: ٧٥، الحـاقـة: ٣٨، المعارج: ٤٠، التكوير: ١٥، الانشقاق: ١٦]، ﴿حتى يُحكِّمُوك﴾: أي يجعلوك حكماً، ﴿فيمَا شَجَرَ بينهمْ﴾، أي: اختلف واختلط من أمورهم والْتَبَس عليهم حُكمه، ومنه الشجر لالْتِفَافِ أغصانه بعضها ببعض، ﴿ ثم لا يجدُوا في أنفسِهم حرجاً ﴾، قال مجاهد: شكّاً، وقال غيره: ضِيقاً، ﴿ ممّا قَضَيتَ ﴾، قال الضحاك: إنّما، أي: يأثمون بإنكارهم ما قضيت، ﴿ ويُسلِّمُوا تسليماً ﴾ أي: ينقادوا لأمرك انقياداً.

وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾

﴿ولو أنا كتبنا عليهم﴾ أي فرضنا وأوجبنا عليهم الضمير في عليهم يعود على المنافقين وقيل يعود الضمير على الكافة فيدخل فيه المنافق وغيره ﴿أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم﴾ يعني كما كتبنا على بني إسرائيل القتل والخروج من مصر ﴿ما فعلوه إلاّ قليل منهم﴾ معناه لم يفعله إلا القليل منهم نزلت في ثابت بن قيس بن شماس وذلك أن رجلاً من اليهود قال: والله لقد كتب الله علينا القتل والخروج ففعلنا فقال ثابت: والله لو كتب الله علينا ذلك لفعلنا وهو من القليل الذي استثنى الله وقيل لما نزلت هذه الآية قال عمر وعمار بن ياسر وابن مسعود وناس من أصحاب رسول الله ﷺ وهم القليل الذين ذكرهم الله والله لو أمرنا لفعلنا والحمد لله الذي عافانا فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: «إن من أمتي لرجالاً الإيمان في قلوبهم أثبت من الجبال الرواسي» ومن قال إن الضمير في عليهم يعود إلى المنافقين قال معنى ما فعلوه إلا قليل منهم يعني رياء وسمعة والمعنى إن ما كتبنا عليهم إلا طاعة رسول الله ﷺ والرضا بحكمه ولو أنا كتبنا عليهم القتل والخروج من الدور والوطن ما كان فعله إلا نفر يسير منهم وقرىء ﴿إلا قليلاً منهم﴾ بالنصب وتقديره إلا أن يكون قليلاً منهم ﴿ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به﴾ يعني ولو أنهم فعلوا ما كلفوا به من طاعة الرسول الله ﷺ والرضا بحكمه ﴿لكان خيراً لهم﴾ يعني في الدنيا والآخرة وإنما سمي ذلك التكليف وعظاً لأن أوامر الله تعالى وتكاليفه مقرونة بالوعد والوعيد والثواب والعقاب وما كان كذلك يسمى وعظاً ﴿وأشد تثبيتاً﴾ يعني تحقيقاً وتصديقاً لإيمانهم، والمعنى أن ذلك أقرب إلى إثبات إيمانهم وتصديقهم ﴿وإذاً لآتيناهم من لدنّا أجراً عظيماً﴾ يعني ثواباً وافراً جزيلاً وإذا جواب لسؤال مقدر كأنه قيل ماذا يكون من هذا الخير والتثبيت قال هو أن نؤتيهم من لدنا أجراً عظيماً ﴿ولهديناهم صراطاً مستقيماً﴾ قال ابن عباس معناه ولأرشدناهم إلى دين مستقيم يعني دين الإسلام وقيل معناه ولهديناهم إلى الأعمال الصالحة التي تؤدي إلى المستقيم وهو

قوله تعالى: ﴿ ولو أنّا كتبْنَا ﴾ أي: فرضنا وأوجبنا، ﴿ عليهم أنِ اقتلُوا أنفسَكم ﴾، كما أمرنا بني إسرائيل ﴿ أوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكم ﴾، كما أمرنا بني إسرائيل بالخروج من مصر، ﴿ ما فعلوه ﴾، معناه: ما كتبنا عليهم إلاّ طاعة الرسول والرضَى بحكمه، ولو كتبْنَا عليهم القتلَ والخروجَ عن الدُّور ما كان يفعله، ﴿ إلا قليل منهم ﴾، نزلت في ثابت بن قيس وهو من القليل الذي استثنى الله. قال الحسن ومقاتل لمّا نزلت هذه الآية قال عمر وعمّار بن ياسر وعبد الله بن مسعود وناس من أصحاب النبي ﷺ وهم القليل: والله لو أمرنا لفعلنا والحمد لله الذي عافانا، فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: «إنّ من أُمتي لرجالاً الإيمانُ في قلوبهم أثبت من الجبال الرواسي»، قرأ ابن عامر وأهل الشام (إلاّ قليلاً) بالنصب على الاستثناء، وكذلك هو في مصحف أهل الشام، وقيل: فيه إضمار، تقديره: إلاّ أن يكون قليلاً منهم، وقرأ الآخرون قليل بالرفع على الضمير الفاعل في قوله: ﴿ فعلوه ﴾ تقديره: إلاّ نفر قليل فعلوه، ﴿ ولو أنّهم فعلُوا ما يُوعَظُون بِهِ ﴾، يُؤمرون به من طاعة الرسول والرضى بحكمه، ﴿ لكانَ خيراً لهم وأشدَّ تثبيتاً ﴾، تحقيقاً أو تصديقاً لإيمانهم.

﴿ وإذاً لأتيناهمْ مِنْ لدنّا أجراً عظيماً ﴾، ثواباً وَافِراً.

﴿ وَلَهديناهُمْ صِرَاطاً مُستقيماً ﴾، أي: إلى الصراط المستقيم.

الصراط الذي يمر عليه المؤمنون إلى الجنة لأن الله تعالى ذكر الأجر العظيم أولاً ثم ذكر الصراط المستقيم بعده لأنه هو المؤدي إلى الجنة. قوله عز وجل: .

﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾﴾

﴿ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم﴾ الآية نزلت في ثوبان مولى رسول الله ﷺ كان شديد الحب لرسول الله ﷺ قليل الصبر عنه فأتاه ذات يوم وقد تغير لونه يعرف الحزن في وجهه، فقال له رسول الله ﷺ: ما غير لونك فقال يا رسول الله ما بي مرض ولا وجع غير أني إذا لم أرك استوحشت وحشة شديدة حتى ألقاك. ثم إني إذا ذكرت الآخرة أخاف أن لا أراك لأنك ترفع إلى عليين مع النبيين وإني أخاف إن دخلت الجنة كنت في منزلة هي أدنى من منزلتك وإن لم أدخل الجنة لا أراك أبداً فنزلت هذه الآية وقيل إن بعض أصحاب النبي ﷺ قال: كيف يكون الحال وأنت يا رسول الله في الدرجات العلى ونحن أسفل منك فكيف نراك؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية: **﴿ ومن يطع الله﴾** يعني في أداء الفرائض واجتناب النواهي **﴿والرسول﴾** أي ويطع الرسول في السنن التي سنها فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم يعني بالهداية والتوفيق في الدنيا وبدخول الجنة في الآخرة **﴿من النبيين)﴾** يعني أن المطيعين مع النبيين في الجنة لا تفوتهم رؤية الأنبياء في الجنة ومجالستهم لأنهم يكونون في درجتهم في الجنة لأن ذلك يقتضي التسوية في الدرجة بين الفاضل والمفضول **﴿والصديقين﴾** الصدّيق الكثير الصدق فعيل من الصدق والصديقون هم أتباع الرسل الذين اتبعوهم على مناهجهم بعدهم حتى لحقوا بهم وقيل الصديق هو الذي صدق بكل الدين حتى لا يخالطه فيه شك والمراد بالصديقين في هذه الآية أفاضل أصحاب رسول الله ﷺ كأبي بكر فإنه هو الذي سمي بالصديق من هذه الأمة وهو أفضل أتباع الرسل **﴿والشهداء﴾** هم الذين استشهدوا في سبيل الله وقيل هم الذين استشهدوا يوم أُحد **﴿والصالحين﴾** جمع صالح وهو الذي استوت سريرته وعلانيته في الخير. وقيل الصالح من اعتقاده صواب وعمله في سنة وطاعة وقيل المراد بالنبيين هنا محمد ﷺ

قوله تعالى: **﴿ ومَنْ يُطعِ اللَّهَ والرسولَ فأولئكَ معَ الذينَ أنعمَ اللَّهُ عليهمْ مِنَ النَّبيِّين ﴾** الآية، نزلتْ في ثوبان مولى رسول الله ﷺ، وكان شديد الحب لرسول الله ﷺ قليل الصبر عنه، فأتاه ذات يوم قد تغيّر لونه يعرف الحزن في وجهه، فقال رسول الله ﷺ: «ما غيّر لونك»؟ فقال: يا رسول الله ما بي مرض ولا وجع غير أني إن لم أرَكَ اسْتَوْحَشْتُ وحشةً شديدة حتى ألقاك، ثم ذكرتُ الآخرة فأخاف أن لا أراك لأنّكَ تُرفع مع النبيّين، وإنّي إن دخلت الجنة كنتُ في منزلة أدنى من منزلتك، وإن لم أدخل الجنة لا أراك أبداً، فنزلت هذه الآية. وقال قتادة: قال بعض أصحاب النبي ﷺ: كيف يكون الحال في الجنة وأنتَ في الدرجات العُلى ونحن أسفل منك؟ وكيف نراك؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية: **﴿ ومَنْ يُطعِ اللَّهَ ﴾** في أداء الفرائض، **﴿ والرسول ﴾** في السُّنن **﴿ فأولئك مع الذينَ أنعمَ اللَّهُ عليهم من النبيين ﴾** أي لا تفوتهم رؤية الأنبياء ومجالستهم لأنهم يرفعون إلى درجة الأنبياء، **﴿ والصدّيقين ﴾**، وهم أفاضل أصحاب النبي ﷺ، والصدّيق المبالغ في الصدق، **﴿ والشهداء ﴾**، قيل: هم الذين استشهدوا في يوم أُحُد، وقيل: الذين استشهدوا في سبيل الله، وقال عكرمة: النبيّون ههنا محمد ﷺ، والصدّيق أبو بكر، والشهداء عمر وعثمان وعليّ رضي الله عنهم، **﴿ والصالحين ﴾**، سائر الصحابة رضي الله عنهم، **﴿ وحَسُنَ أولئكَ رَفِيقاً ﴾**، يعني: رفقاء الجنة، والعرب تضع الواحد موضع الجمع، كقوله تعالى: **﴿ ثم نُخرجُكم طِفْلاً ﴾** [الحج: ٥] أي: أطفالاً **﴿ ويُولّون الدُّبر ﴾** [القمر: ٤٥] أي: الأدبار. أخبرنا عبد الواحد بن

وبالصديقين أبو بكر وبالشهداء عمر وعثمان وعلي وبالصالحين سائر الصحابة ﴿وحسن أولئك﴾ يعني المشار إليهم وهم النبيون والصديقون والشهداء والصالحون وفيه معنى التعجب كأنه قال وما أحسن أولئك ﴿رفيقاً﴾ يعني في الجنة والرفيق الصاحب سمي رفيقاً لارتفاقك به وبصحبته وإنما وحد الرفيق وهو صفة الجمع لأن العرب تعبر به عن الواحد والجمع وقيل معناه وحسن كل واحد من أولئك رفيقاً (ق) عن أنس أن رجلاً سأل النبي ﷺ عن الساعة: فقال متى الساعة قال: «وما أعددت لها قال لا شيء إلا أني أحب الله ورسوله فقال أنت مع من أحببت» قال أنس فما فرحنا بشيء أشد فرحاً بقول النبي ﷺ أنت مع من أحببت قال أنس: فأنا أحب النبي وأبا بكر وعمر وأرجو أن أكون معهم بحبي إياهم وإن لم أعمل بأعمالهم. وقوله تعالى: ﴿ذلك﴾ إشارة إلى ما تقدم ذكره من وصف الثواب ﴿الفضل من الله﴾ يعني الذي أعطى الله المطيعين من الأجر العظيم ﴿وكفى بالله عليماً﴾ يعني بجزاء من أطاعه وقيل معناه وكفى بالله عليماً بعباده فهو يوفقهم لطاعته وفيه دليل على أنهم لم ينالوا تلك الدرجة بطاعتهم بل إنما نالوها بفضل الله تعالى ورحمته ويدل عليه ما روي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لن يدخل أحداً منكم عمله الجنة قالوا ولا أنت يا رسول الله قال ولا أنا إلا أن يتغمدني الله منه بفضل ورحمة» لفظ البخاري ولمسلم نحوه. قوله عز وجل: .

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ خُذُوا۟ حِذْرَكُمْ فَٱنفِرُوا۟ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُوا۟ جَمِيعًا ﴿٧١﴾ وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَـٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَىَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾ وَلَئِنْ أَصَـٰبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ يَـٰلَيْتَنِى كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾ ۞ فَلْيُقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾﴾

﴿يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم﴾ الحذر احتراز من مخوف والمعنى احذروا واحترزوا من عدوكم. ولا تمكنوه من أنفسكم وقيل المراد بالحذر هنا السلاح يعني خذوا سلاحكم وعدتكم لقتال عدوكم وإنما سمي السلاح

أحمد المليحي أنا أبو محمد الحسن بن أحمد المخلدي أنا أبو العباس السراج أنا قتيبة بن سعد أنا حمّاد بن زيد عن ثابت عن أنس أن رجلاً قال: يا رسول الله الرجل يحبّ قوماً ولم يلحق بهم؟ فقال النبي ﷺ: «المرءُ مَعَ مَنْ أحبَّ». أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحي وأبو عمرو ومحمد بن عبد الرحمن النسوي قالا: أخبرنا أحمد بن الحسن الحيري أنا أبو عباس الأصم أنا أبو يحيىٰ زكريا بن يحيىٰ المروزي أنا سفيان بن عُيينة عن الزهري عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رجل: يا رسول الله متى الساعة؟ قال: «ومَا أعددت لها»؟ قال: لا شيء إلاّ أني أحبّ اللّه ورسولَه قال: «فأنت مع مَن أحببت».

﴿ ذلكَ الفضلُ من اللّهِ وكفَى باللّهِ عليماً ﴾ أي: بثواب الآخرة، وقيل: مَن أطاع رسول الله وأحبَّه، وفيه بيان أنهم لن ينالوا تلك الدرجة بطاعتهم، وإنّما نالُوها بفضل الله عزّ وجلّ. أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحي أنا أبو بكر أحمد بن الحسن الحيري أنا حاجب بن أحمد الطوسي أنا عبد الرحيم بن منيب أنا يعلى بن عبيد عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «قارِبُوا وسَدِّدُوا واعلمُوا أنه لا ينجو أحدٌ منكم بِعَمَلِهِ»، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا إلا أن يتغمدنيَ اللّهُ بفضلٍ منه ورحمة».

قوله تعالى: ﴿ يا أَيّها الذينَ آمنُوا خُذُوا حِذْرَكم ﴾، من عدوِّكم، أي: من عِدّتِكم وآلتِكم من السلاح،

حذراً لأن به يتقى ويحذر. وقيل معناه احذروا عدوكم ولقائل أن يقول إذا كان المقدور كائناً فما يمنع الحذر فالجواب عنه بأنه لما كان الكل بقضاء الله وقدره كان الأمر بأخذ الحذر من قضاء الله وقدره ﴿**فانفروا ثبات**﴾ أي اخرجوا سرايا متفرقين سرية بعد سرية ﴿**أو انفروا جميعاً**﴾ يعني أو اخرجوا جميعاً كلكم مع نبيكم ﷺ إلى جهاد عدوكم ﴿**وإن منكم لمن ليبطئن**﴾ نزلت في المنافقين. وإنما قال منكم لاجتماعهم مع أهل الإيمان في الجنسية والنسب وإظهار كلمة الإسلام لا في حقيقة الإيمان والمعنى وإن منكم لمن ليتأخرن وليتثاقلن عن الجهاد وهو عبدالله بن أبي ابن سلول المنافق وكان رأس المنافقين ﴿**فإن أصابتكم مصيبة**﴾ أي قتل وهزيمة ﴿**قال**﴾ يعني هذا المنافق ﴿**قد أنعم الله علي**﴾ يعني بالقعود ﴿**إذا لم أكن معهم**﴾ يعني مع المؤمنين ﴿**شهيداً**﴾ يعني حاضر الوقعة فيصيبني ما أصابهم ﴿**ولئن أصابكم فضل من الله**﴾ أي فتح وغنيمة ﴿**ليقولن**﴾ يعني هذا المنافق ﴿**كأن لم تكن بينكم وبينه مودة**﴾ أي معرفة ومودة في الدين والمعنى كأنه ليس من أهل دينكم وذلك أن المنافقين كانوا يوادّون المؤمنين في الظاهر ﴿**يا ليتني كنت معهم**﴾ في تلك الغزوة التي غنم فيها المؤمنون ﴿**فأفوز فوزاً عظيماً**﴾ أي فآخذ نصيباً وافراً من الغنيمة.

قوله عز وجل: ﴿**فليقاتل في سبيل الله**﴾ هذا خطاب للمنافق أي فليخلص الإيمان وليقاتل في سبيل الله وقيل هو خطاب للمؤمنين المخلصين أي فليقاتل المؤمنون في سبيل الله ﴿**الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة**﴾ أي يبيعون يقال شريت بمعنى بعت لأنه استبدال عوض بعوض. والمعنى فليقاتل المؤمنون الكافرين الذين يبيعون حياتهم في

والحذَرُ والحِذْرُ واحد كالمَثَلِ والمِثْلِ والشَّبَهِ والشِّبْهِ، ﴿ **فانْفِرُوا** ﴾ اخْرُجُوا ﴿ **ثُبَاتٍ** ﴾ أي: سرايا متفرقين سريّة بعد سريّة، **والثبات جماعات في تفرقة واحدتها ثبة،** ﴿ **أوِ انْفِرُوا جميعاً** ﴾ أي: مجتمعين كلكم مع النبي ﷺ.

قوله تعالى: ﴿ **وإنْ مِنكُم لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ** ﴾، نزلت في المنافقين، وإنما قال: ﴿ **منكم** ﴾ لاجتماعهم مع أهل **الإيمان في الجنسيةِ** والنسبِ وإظهارِ الإسلام، **لا** في حقيقة الإيمان، ﴿ **لَيُبطئنَّ** ﴾ أي: ليتأخرنَّ، وليتثاقلنَّ عن **الجهاد،** وهوعبد الله بن أُبي المنافق، **واللام في** ﴿ **لَيُبَطِّئَنَّ** ﴾ لام القسم، والتبطئة: التأخر عن الأمر، يقال: ما أبطأ بك؟ **أي:** ما أخَّرك عنّا؟ ويقال: إبطاء وبطأ يبطيء تبطئة. ﴿ **فإنْ أصابَتْكُمْ مُصيبةٌ** ﴾ أي: قتلٌ وهزيمة، ﴿ **قالَ قدْ أنعمَ اللّهُ عليّ** ﴾ بالقُعود، ﴿ **إذْ لم أكن معهم شهيداً** ﴾، أي: حاضراً في تلك الغزاة فيصيبني ما أصابهم.

﴿ **ولَئِنْ أصابَكُم فَضْلٌ مِنَ الله** ﴾، فتحٌ وغنيمة، ﴿ **لَيَقُولَنَّ** ﴾ هذا المنافق، وفيه تقديم وتأخير، وقوله: ﴿ **كأنْ لم تكن بينَكُم وبينَهُ مَوَدَّةٌ** ﴾ **متّصل بقوله:** ﴿ **فإنْ أصابَتْكم مصيبةٌ** ﴾ تقديره: فإن أصابتكم مصيبة قال: قد أنعم الله **عليّ إذ لم أكن معهم شهيداً،** ﴿ **كأنْ لمْ تكنْ بينَكُمْ وبينَهُ مَوَدَّةٌ** ﴾ أي: معرفة، قرأ ابن كثير وحفص ويعقوب ﴿ **تكن** ﴾ بالتاء، والباقون بالياء، أي: ولئن أصابكم فضلٌ من الله لَيَقُولَنّ: ﴿ **يا ليتني كنتُ معهمْ** ﴾ **في تلك الغزاة،** ﴿ **فأفوزَ فوزاً عظيماً** ﴾، **أي:** آخذ نصيباً وافراً من الغنيمة، وقوله: ﴿ **فأفوز** ﴾ نصب على جواب التمنّي **بالفاء، كما تقول:** وددت أن **أقوم** فيتبعني الناس.

قوله تعالى: ﴿ **فَلْيُقَاتِلْ في سبيلِ اللّهِ الّذِينَ يَشْرُونَ الحياةَ الدّنيا بالآخِرة** ﴾، قيل: نزلت في المنافقين، **ومعنى يشرون أي:** يشترون، يعني الذين يختارون الدنيا على الآخرة، معناه: آمنوا ثم قاتلوا، وقيل: نزلت في المؤمنين المخلصين، معناه فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون أي: يبيعُون الحياة الدنيا بالآخرة ويختارُون الآخرة ﴿ **ومَنْ يُقاتِلْ في سبيلِ الله فَيُقْتَل** ﴾، يعني يستشهد، ﴿ **أو يَغْلِبْ** ﴾، يظفر، ﴿**فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ**﴾، في كِلا الوجهين ﴿ **أجْراً عظيماً** ﴾، ويدغم أبو عمرو والكسائي الباء في الفاء حيث كَانَ أخبرنا أبو الحسن محمد بن محمد

الدنيا بثواب الآخرة وما وعد الله فيها لأهل الإيمان والطاعة وقيل معناه فليقاتل في سبيل الله المؤمنون الذين يبيعون الحياة الدنيا ويختارون الآخرة وثوابها على الدنيا الفانية ﴿ومن يقاتل في سبيل الله فيقتل﴾ أي فيستشهد ﴿أو يغلب﴾ يعني يظفر بعدوه من الكفار ﴿فسوف نؤتيه﴾ يعني في كلا الحالتين الشهادة أو الظفر نؤتيه فيهما ﴿أجراً عظيماً﴾ يعني ثواباً وافراً (ق) عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «تضمن الله لمن خرج في سبيله لا يخرجه إلا جهاد في سبيلي وإيمان بي وتصديق برسلي فهو علي ضامن أن أدخله الجنة أو أرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه نائلاً ما نال من أجرٍ أو غنيمةٍ» لفظ مسلم. قوله عز وجل: .

﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾﴾

﴿وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله﴾ قال المفسرون: هذا حض من الله على الجهاد في سبيله لاستنقاذ المؤمنين المستضعفين من أيدي الكفار وفيه دليل على أن الجهاد واجب والمعنى لا عذر لكم في ترك الجهاد وقد بلغ حال المستضعفين ما بلغ من الضعف والأذى ﴿والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان﴾ قال ابن عباس يريد أن قوماً من المؤمنين استضعفوا فحبسوا وعذبوا وقيل كان هؤلاء بمكة يلقون من المشركين أذى شديداً. وكان أهل مكة قد اجتهدوا أن يفتنوا قوماً من المؤمنين عن دينهم بالأذى لهم وكانوا مستضعفين في أيديهم ولم يكن لهم بمكة قوة يمتنعون بها من المشركين فعلى هذا يكون معنى الآية: وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله وفي خلاص المستضعفين. وقال ابن عباس معناه وعن المستضعفين لأن المراد صرف الأذى عنهم (خ) عن ابن عباس في قوله: ﴿وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين﴾ الآية. قال كنت أنا وأمي من المستضعفين وفي رواية ابن أبي مليكة قال تلا ابن عباس ﴿إلاّ المستضعفين من الرجال والنساء والولدان﴾ قال كنت أنا وأمي ممن عذر الله أنا من الولدان وأمي من النساء فعلى هذه الرواية الثانية من حديث ابن عباس يكون معنى والمستضعفين إلا المستضعفين

السرخسي أنا زاهر بن أحمد أخبرنا أبو إسحق الهاشمي أنا أبو مصعب عن مالك عن أبي الزِّناد عن الأعرج عن أبي هريرة أنّ رسول الله ﷺ قال: «تكفّلَ اللّهُ لمنْ جاهدَ في سبيلِ اللّهِ لا يُخرجُهُ من بيتِهِ إلاّ الجهادُ في سبيلِ وتصديقِ كلمتِهِ أن يُدخلَه الجنّةَ أو يرجعَه إلى مسكنِهِ الذي خرجَ منه معَ ما نالَ من أجرٍ أو غنيمة» أخبرنا أبو عبد الله محمد بن الفضل الخرقي أنا أبو الحسن علي بن عبد الله الطيسفوني أنا أبو عبد الرحمن عبد الله بن عمر الجوهري أنا أحمد بن علي الكشمهيني أنا علي بن حجر أنا إسماعيل بن جعفر أنا محمد بن عمرو بن علقمة عن أبي سلمة عن أبي هريرة رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «مثلُ المجاهدِ في سبيلِ اللّهِ كمثلِ القانتِ الصائمِ الذي لا يفترُ من صلاةٍ ولا صيامٍ حتى يُرجعَه اللّهُ إلى أهلِهِ بما يرجعُه من غنيمةٍ وأجرٍ، أو يتوفّاه فيُدخله الجنةَ».

قوله تعالى: ﴿ وما لكم لا تقاتلون ﴾ لا تجاهدون ﴿ في سبيل الله ﴾، في طاعة الله، يعاتبهم على ترك الجهاد، ﴿ والمُسْتَضْعَفِينَ ﴾ أي: عن المستضعفين، وقال ابن شهاب: في سبيل المستضعفين لتخليصهم، وقيل: في تخليص المستضعفين من أيدي المشركين، وكان بمكة جماعة، ﴿ مِنَ الرجالِ والنِّساءِ والوِلْدَانِ ﴾، يلقون من المشركين أذىً كثيراً، ﴿ الذينَ ﴾ يَدْعُون و﴿ يقُولُون ربَّنا أخرِجْنَا مِنْ هذهِ القريةِ الظَّالِمِ أهْلُها ﴾، يعني: مكة، الظالم أي: المشرك، أهلها يعني القرية التي من صفتها أن أهلها مشركين، وإنما خفض ﴿ الظالم ﴾ لأنه نعتٌ للأهل، فلما عاد الأهل إلى القرية صار الفعل لها، كما يقال مررت برجل حسنة عينه. ﴿ واجعلْ لنا مِنْ لَدُنْكَ

من الرجال والنساء والولدان فإنهم ممن عذر الله في ترك القتال والولدان جمع وليد وهو الصبي الصغير ﴿الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية﴾ يعني مكة ﴿الظالم أهلها﴾ يعني الظالم أهلها أنفسهم بالشرك لقوله تعالى: ﴿إن الشرك لظلم عظيم﴾ وذلك أن المستضعفين لما منعهم المشركون من الهجرة من مكة إلى المدينة دعوا الله عز وجل فقالوا ربنا أخرجنا من هذه القرية يعني مكة الظالم أهلها بالشرك ﴿واجعل لنا من لدنك ولياً﴾ يعني ولياً يلي أمرنا ﴿واجعل لنا من لدنك نصيراً﴾ يعني يبصرنا ويمنعنا من العدو فاستجاب الله دعاءهم وجعل لهم من لدنه خير ولي وخير ناصر وهو محمد رسول الله ﷺ فتولى أمرهم ونصرهم واستنقذهم من أيدي المشركين يوم فتح مكة واستعمل عليهم عتاب بن أسيد وكان ابن ثمان عشرة سنة فكان ينصر المظلومين على الظالمين ويأخذ للضعيف من القوي.

قوله عز وجل: ﴿الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله﴾ يعني في طاعة الله وإعلاء كلمته وابتغاء مرضاته ﴿والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت﴾ يعني في طاعة الشيطان ﴿فقاتلوا أولياء الشيطان﴾ أي فقاتلوا أيها المؤمنون حزب الشيطان وجنوده وهم الكفار ﴿إن كيد الشيطان كان ضعيفاً﴾ الكيد السعي في الفساد على جهة الاحتيال ويعني بكيده ما كاد المؤمنين به من تخويفه أولياءه الكفار يوم بدر وكونه ضعيفاً لأنه خذل أولياءه الكفار لما رأى الملائكة قد نزلت يوم بدر وكان النصر لأولياء الله وحزبه على أولياء الشيطان وإدخال كان في قوله ضعيفاً لتأكيد ضعف كيد الشيطان. قوله عز وجل:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾ أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ۗ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾﴾

﴿ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة﴾ قال الكلبي نزلت في عبد الرحمن بن عوف الزهري والمقداد بن الأسود الكندي وقدامة بن مظعون الجمحي وسعد بن أبي وقاص وجماعة من أصحاب

﴿ وَلِيّاً ﴾، أي: مَن يلي أمرنا لَدُنْك، ﴿ واجعلْ لنا مِنْ لَدُنْكَ نصيراً ﴾، أي: مَن يمنع العدوَّ عنّا، فاستجاب الله دعوتهم، فلما فتح رسول الله ﷺ مكة ولّى عليهم عتاب بن أسيد وجعله الله لهم نصيراً ينصف المؤمنين المظلومين من الظالمين.

قوله تعالى: ﴿ الّذِينَ آمنُوا يُقاتِلُونَ في سبيلِ اللّهِ ﴾، أي: في طاعته، ﴿ والّذِينَ كفرُوا يُقاتِلُون في سبيلِ الطّاغُوت ﴾ أي: في طاعة الشيطان، ﴿ فَقَاتِلُوا ﴾ أيها المؤمنون ﴿ أوْلِيَاءَ الشّيطان ﴾ أي: حِزبَه وجنودَه الكفّار، ﴿ إنّ كَيْدَ الشّيطان ﴾، مَكْرَه، ﴿ كانَ ضعيفاً ﴾، كما فعل يوم بدر لمّا رأى الملائكة خاف أن يأخذوه فهرب وخذلهم.

قوله تعالى: ﴿ ألَمْ تَرَ إلى الّذينَ قِيلَ لَهمْ كُفُّوا أيْدِيَكُم ﴾، الآية، قال الكلبي: نزلت في عبد الرحمن بن عوف الزهري، والمقداد بن الأسود الكندي، وقدامة بن مظعون الجمحي، وسعد بن أبي وقاص، وجماعة كانوا

النبي ﷺ كانوا يلقون من المشركين أذى كثيراً بمكة قبل أن يهاجروا فكانوا يقولون يا رسول الله ائذن لنا في قتالهم فإنهم قد آذونا فيقول لهم رسول الله ﷺ: «كفوا أيديكم فإني لم أومر بقتالهم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة» يعني قيل لهم كفوا أيديكم عن قتالهم وأدوا ما افترض عليكم من الصلاة والزكاة وفيه دليل على أن فرض الصلاة والزكاة كان قبل فرض الجهاد ﴿فلما كتب عليهم القتال﴾ أي فرض عليهم جهاد المشركين وأمروا بالخروج إلى بدر ﴿إذا فريق منهم﴾ يعني إذا جماعة من الذين سألوا أن يفرض عليهم الجهاد ﴿يخشون الناس﴾ يعني يخافون مشركي مكة ﴿كخشية الله أو أشد خشية﴾ أو بمعنى الواو يعني وأشد خشية ﴿وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال﴾ يعني لمَ فرضت علينا الجهاد ﴿لولا أخرتنا إلى أجل قريب﴾ يعني هلاّ تركتنا ولم تفرض علينا القتال حتى نموت بآجالنا والقائلون لهذا القول هم المنافقون لأن هذا القول لا يليق بالمؤمنين وقيل قاله بعض المؤمنين وإنما قالوا ذلك خوفاً وجبناً لا اعتقاداً ثم إنهم تابوا من هذا القول ﴿قل﴾ أي قل لهم يا محمد ﴿متاع الدنيا قليل﴾ يعني أن منفعتها والاستمتاع بالدنيا قليل لأنه فان زائل ﴿والآخرة﴾ يعني وثواب الآخرة ﴿خير لمن اتقى﴾ يعني اتقى الشرك ومعصية الرسول ﷺ ﴿ولا تظلمون فتيلاً﴾ أي ولا تنقصون من أجوركم قدر فتيل (م) عن المستورد بن شداد قال: قال رسول الله ﷺ: «ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم أصبعه هذه وأشار يعني بالسبابة في اليم فلينظر بم ترجع».

قوله عز وجل: ﴿أينما تكونوا يدرككم الموت﴾ نزلت في المنافقين الذين قالوا في قتلى أحد لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا فرد الله عليهم بهذه الآية وقيل نزلت في الذين قالوا ربنا لم كتبت علينا القتال فرد الله عليهم بقوله تعالى: ﴿أينما تكونوا يدرككم الموت﴾ يعني ينزل بكم الموت فبيّن تعالى أنه لا خلاص لهم من الموت وإذا كان

يلقون من المشركين بمكة أذىً كثيراً قبل أن يهاجروا، ويقولون: يا رسول الله إئذنْ لنَا في قتالهم فإنهم قد آذَونَا، فيقول لهم رسول الله ﷺ: «﴿ كُفّوا أيديَكم ﴾ فإني لم أُومر بقتالهم»، ﴿ وأقيمُوا الصلاةَ وآتُوا الزكاةَ ﴾، فلمّا هاجرُوا إلى المدينة وأمرهم الله بقتال المشركين شقّ ذلك على بعضهم، قال الله تعالى: ﴿ فلمَّا كُتِبَ ﴾ فُرِضَ، ﴿ عليهمُ القتالُ إذا فريقٌ مِنهمْ يَخْشَونَ الناسَ ﴾، يعني: يخشون مشركي مكة، ﴿ كَخَشْيَةِ الله ﴾ أي: كخشيتهم من الله، ﴿ أو أشدَّ ﴾ أكبر، ﴿ خَشْيَةً ﴾، وقيل: معناه وأشدّ خشية، ﴿ وقالُوا ربَّنا لِمَ كَتَبْتَ علينَا القتال ﴾، الجهادَ، ﴿ لَوْلاَ ﴾، هلاّ، ﴿ أخرتَنا إلى أجلٍ قريبٍ ﴾، يعني: الموت، أي: هلاّ تركتَنا حتى نموت بآجالنا؟ واختلفُوا في هؤلاء الذين قالوا ذلك، فقيل: قاله قوم من المنافقين لأن قوله: ﴿ لِمَ كَتَبْتَ علينا القتالَ ﴾، لا يليق بالمؤمنين، وقيل: قاله جماعة من المؤمنين لم يكونوا راسخين في العلم قالوه خوفاً وجبناً لا اعتقاداً ثم تابُوا، وأهل الإيمان يتفاضلون في الإيمان، وقيل: هم قوم كانوا مؤمنين فلمّا فرض عليهم القتال نافقوا من الجبن وتخلّفوا عن الجهاد، ﴿ قلْ ﴾: يا محمد، ﴿ متاعُ الدنيا ﴾ أي: منفعتها والاستمتاع بها ﴿ قليلٌ والآخرةُ ﴾، أفضل، ﴿ لمَنِ اتَّقَى ﴾، الشركَ ومعصيةَ الرسول، ﴿ ولا تُظْلَمُونَ فتيلاً ﴾، قرأ ابن كثير وأبو جعفر وحمزة والكسائي بالياء والباقون تظلمون بالتاء. أخبرنا أبو صالح أحمد بن عبد الملك المؤذن أخبرنا أبو إسحق إبراهيم بن معاوية الصيدلاني أخبرنا الأصم أنا عبد الله بن محمد بن شاكر أنا محمد بن بشر العبدي أنا مُسْعَرُ بن كِدَام عن إسماعيل بن أبي خالد عن قيس بن أبي حازم حدّثني المستورد بن شدّاد قال: قال رسول الله ﷺ: «ما الدنيا في الآخرة إلّا مثل ما يجعل أحدكم أصبعه في اليمّ فلينظر بِمَ يرجع».

قوله عزّ وجلّ: ﴿ أَيْنما تكونُوا يُدْرِكْكُم الموتُ ﴾ أي: ينزل بكم الموت، نزلت في المنافقين الذين قالوا في قتلى أُحُد: لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا فردَّ اللَّهُ عليهم بقوله: ﴿ أينما تكونُوا يُدْرِكْكُم الموت ﴾ ﴿ ولو كنتُم في بُروجٍ مُشَيَّدَةٍ ﴾، والبروج: الحصون والقلاع، والمشيّدة: المرفوعة المطوّلة، قال قتادة: معناه في قصورٍ محصنة،

لا بد لهم من الموت كان القتل في القتال في سبيل الله وجهاد أعدائه أفضل من الموت على الفراش لأن الجهاد موت تحصل به سعادة الآخرة ثم بيّن تعالى أنه لا بد لهم من الموت وأنه لا ينجي منه شيء بقوله: **﴿ولو كنتم في بروج مشيدة﴾** البروج في كلام العرب الحصون والقلاع والمشيدة المرفوعة المطولة وقيل هي المطلية بالشيد وهو الجص **﴿إن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله﴾** نزلت في المنافقين واليهود وذلك أن المدينة كانت ذات خير وأرزاق ونعم عند مقدم النبي ﷺ فلما ظهر نفاق المنافقين وعناد اليهود أمسك الله عنهم بعض الإمساك فقال المنافقون واليهود ما زلنا نعرف النقص في ثمارنا ومزارعنا منذ قدم علينا هذا الرجل وأصحابه. فقال الله تعالى وإن تصبهم يعني المنافقين واليهود حسنة أي خصب في الثمار ورخص في السعر يقولوا هذه من عند الله يعني من قبل الله **﴿وإن تصبهم سيئة﴾** أي جدب في الثمار وغلاء في السعر **﴿يقولوا هذه من عندك﴾** يعني من شؤم محمد وأصحابه وقيل المراد بالحسنة الظفر والغنيمة يوم بدر وبالسيئة القتل والهزيمة يوم أُحد ومعنى من عندك أنت الذي حملتنا عليه يا محمد فعلى هذا القول يكون هذا إخباراً عن المنافقين خاصة **﴿قل﴾** أي قل لهم يا محمد **﴿كلّ من عند الله﴾** يعني الحسنة والسيئة والخصب والجدب والغنيمة والهزيمة والظفر والقتل فأما الحسنة فإنعام من الله وأما السيئة فابتلاء منه **﴿فمال هؤلاء القوم﴾** أي فما شأن هؤلاء القوم المنافقين واليهود الذين قالوا ما قالوا **﴿لا يكادون يفقهون حديثاً﴾** يعني لا يفقهون معاني القرآن وأن الأشياء كلها من الله عز وجل خيرها وشرها. قوله تعالى: .

﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾﴾

﴿ما أصابك من حسنة﴾ يعني من خير ونعمة **﴿فمن الله﴾** يعني من فضل الله عليك يتفضل به إحساناً منه إليك **﴿وما أصابك من سيئة﴾** يعني من شدة ومكروه ومشقة وأذى **﴿فمن نفسك﴾** يعني فمن قبل نفسك وبذنب اكتسبته نفسك استوجبت ذلك به وفي المخاطب بهذا الكلام قولان: أحدهما أنه عام وتقديره ما أصابك أيها الإنسان والثاني أنه خطاب للنبي ﷺ والمراد به من غيره من الأمة والنبي ﷺ بريء لأن الله عز وجل قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر وقد عصمه من حين البعثة فهو معصوم فيما يستقبل حتى يموت ويدل على أن المراد بهذا الخطاب

وقال عكرمة: مُجَصَّصة، والشّيد: الجص، **﴿ وإنْ تُصبهم حسنةٌ ﴾**، نزلت في اليهود والمنافقين، وذلك أنهم قالوا لمّا قَدِمَ رسول الله ﷺ المدينة: ما زِلْنَا نعرف النقص في ثمارنا ومزارعنا منذ قَدِمَ علينا هذا الرجل وأصحابه، قال الله تعالى: **﴿ وإن تُصبهم ﴾** يعني: اليهود حسنة أي خصب ورخص في السعر، **﴿ يقولُوا هذهِ منْ عندِ الله ﴾**، لنا، **﴿ وإنْ تصبهم سيئةٌ ﴾** يعني: الجدب وغلاء الأسعار **﴿ يقولُوا هذهِ من عندك ﴾** أي: من شؤم محمد وأصحابه، وقيل: المراد بالحسنة الظفر والغنيمة يوم بدر، وبالسيئة القتل والهزيمة يوم أُحُد، يقولون هذه من عندك أي: أنت الذي حملتنا عليه يا محمد، فعلى هذا يكون هذا من قول المنافقين، **﴿ قلْ ﴾**، لهم يا محمد، **﴿ كلٌّ من عند الله ﴾**، أي: الحسنة والسيئة كلها من عند الله، ثم عيّرهم بالجهل فقال: **﴿ فمالِ هؤلاءِ القَوْمِ ﴾** يعني: المنافقين واليهود، **﴿ لَا يكادُونَ يفقهُون حديثاً ﴾** أي: لا يفقهون قولاً، وقيل: الحديث ههنا هو القرآن أي: لا يفقهون معاني القرآن، قوله: **﴿ فمالِ هؤلاء ﴾** قال الفرّاء: كثرت في الكلام هذه الكلمة حتى توهّمُوا أنّ اللاّم متصلة بها وأنّهما حرف واحد، ففصلوا اللاّم بما بعدها في بعضه، ووصلوها في بعضه، والقراءة الاتصال، ولا يجوز الوقف على اللام لأنها لام خافضة.

قوله عزّ وجلّ: **﴿ ما أصابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ ﴾**، خير ونعمة **﴿ فمِنَ اللّهِ وما أصابَكَ منْ سيئةٍ ﴾**، بليّةٍ أو أمر تكرهه، **﴿ فمِنْ نَفْسِك ﴾**، أي: بذنوبك، والخطاب للنبي ﷺ المراد غيره، نظيره قوله تعالى: ﴿ وما أصابكُم مِنْ

غيره قوله عز وجل: ﴿يا أيها النبي إذا طلقتم النساء﴾ خاطبه وحده ثم جمع الكل بقوله إذا طلقتم النساء فمعنى قوله فمن نفسك أي عقوبة لذنبك يا ابن آدم كذا قاله قتادة. وقال الكلبي: ما أصابك من خير فالله هداك له وأعانك فيه وما أصابك من أمر تكرهه فبذنبك عقوبة لذلك الذنب وقد تعلق بظاهر هذه الآية القدرية وقالوا نفى الله السيئة عن نفسه ونسبها إلى الإنسان بقوله وما أصابك من سيئة فمن نفسك ولا متعلق لهم بها لأنه ليس المراد من الآية حسنة الكسب من الطاعات ولا السيئة المكتسبة من فعل المعاصي بل المراد من الحسنة والسيئة في هذه الآية ما يصيب الإنسان من النعم والمحن وذلك ليس من فعل العبد لأنه لا يقال في الطاعة والمعصية أصابني وإنما يقال أصبتها. ويقال في النعم والمحن أصابني بدليل أنه لم يذكر عليه ثواباً ولا عقاباً فهو كقوله تعالى: ﴿فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه﴾ ولما ذكر الله حسنات الكسب وسيئاته وعد عليها بالثواب والعقاب فقال تعالى: ﴿من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها﴾ فبطل بهذا قول القدرية وقال بعضهم لو كانت الآية على ما يقول أهل القدر لقال ما أصبت من حسنة وما أصبت من سيئة ولم يقل ما أصابك لأن العادة جرت بقول الإنسان أصابني خير أو مكروه وأصبت حسنة أو سيئة وقيل في معنى الآية ما أصابك من حسنة أي النصر والظفر يوم بدر فمن الله أي من فضل الله، وما أصابك من سيئة أي من قتل وهزيمة يوم أُحد فمن نفسك يعنى فبذنوب أصحابك وهو مخالفتهم إياك. فإن قلت كيف وجه الجمع بين قوله تعالى قل كل من عند الله وبين قوله وما أصابك من سيئة فمن نفسك فأضاف السيئة إلى فعل العبد في هذه الآية. قلت أما إضافة الأشياء كلها إلى الله تعالى في قوله: ﴿قل كل من عند الله﴾ فعلى الحقيقة لأن الله تعالى وهو خالقها وموجدها وأما إضافة السيئة إلى فعل العبد فعلى المجاز تقديره وما أصابك من سيئة فمن الله بذنب نفسك عقوبة لك وقيل السيئة إلى فعل العبد على سبيل الأدب فهو كقوله تعالى: ﴿وإذا مرضت فهو يشفين﴾ فأضاف المرض إلى نفسه على طريق الأدب ولا يشك عاقل أن المرض هو الله تعالى وقيل هذه متصلة بما قبلها وفيه إضمار وتقديم وتأخير تقديره فمال هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً ويقولون ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك قل كل من عند الله وقال ابن الأنباري في معنى الآية ما أصابك الله به من حسنة وما أصابك به من سيئة فالفعلان

مصيبةٍ فبما كسبتْ أيديكم ﴾ [الشورى: ٣٠] وتعلّق أهل القدر بظاهر هذه الآية، فقالوا: نفى اللّهُ تعالى السيئةَ عن نفسه ونسبها إلى العبد، فقال: ﴿ وما أصابك من سيئة فمن نفسك ﴾، ولا متعلّق لهم فيه، لأنه ليس المراد من الآية حسنات الكسب ولا سيئاته من الطاعات والمعاصي، بل المراد منهم ما يُصيبهم من النِّعم والمِحن، وذلك ليس من فعلهم بدليل أنه نسبها إلى غيرهم ولم ينسبها إليهم، فقال: ﴿ ما أصابك ﴾ ولا يقال في الطاعة والمعصية أصابني، إنّما يقال: أصبتها، ويقال في المِحَن: أصابني، بدليل أنه لم يذكر عليه ثواباً ولا عقاباً، فهو كقوله تعالى: ﴿ فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وإن تصبهم سيئة يطيّروا بموسى ومَن معه ﴾ [الأعراف: ١٣١]، فلما ذكر حسنات الكسب وسيئاته نسبها إليه، ووعد عليها الثواب والعقاب، فقال: ﴿ مَنْ جاءَ بالحسنةِ فلَهُ عَشْرُ أمثالِها ومَنْ جاءَ بالسيئةِ فلا يُجزَى إلاّ مثلَها ﴾ [الأنعام: ١٦٠]، وقيل: معنى الآية: ما أصابك من حسنة من النصر والظفر يوم بدر فمن الله، أي: من فضل الله، وما أصابك من سيئة من القتل والهزيمة يوم أُحُد فمن نفسك، أي: يعني فبذنوب أصحابك، وهو مخالفتهم لك، فإن قيل: كيف وَجْهُ الجمع بين قوله: ﴿ قلْ كلٌّ من عند الله ﴾ وبين قوله: ﴿ فمن نفسك ﴾؟ قيل: قوله: ﴿ قلْ كلٌّ من عند الله ﴾ أي: الخصبُ والجَدْبُ والنصرُ والهزيمةُ كلُّها من عند الله، وقوله: ﴿ فمنْ نفسِك ﴾ أي: وما أصابك من سيئة من الله فبذنبِ نفسِكَ عقوبةً لك، كما قال الله تعالى: ﴿ وما أَصَابَكُم مِنْ مُصيبةٍ فبما كَسَبَتْ أيديكم ﴾ [الشورى: ٣٠]، يدلّ عليها ما روَى مجاهد عن ابن عباس رضي

راجعان إلى الله تعالى. قوله تعالى: ﴿وأرسلناك للناس رسولاً﴾ يعني وأرسلناك يا محمد إلى كافة الناس رسولاً لتبلغهم رسالتي وما أرسلتك به ولست رسولاً إلى العرب خاصة كما قال بعض اليهود بل أنا رسول إلى الخلق كافة العرب وغيرهم ﴿وكفى بالله شهيداً﴾ يعني على إرسالك للناس كافة فما ينبغي لأحد أن يخرج عن طاعتك واتباعك، وقيل معناه وكفى بالله شهيداً على تبليغك ما أرسلت به إلى الناس وقيل معناه وكفى بالله شهيداً على أن الحسنة والسيئة من الله قوله عز وجل: .

﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا۟ مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ ۖ وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ ۖ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾﴾

﴿من يطع الرسول فقد أطاع الله﴾ سبب نزول هذه الآية أن النبي ﷺ قال: «من أطاعني فقد أطاع الله ومن أحبني فقد أحب الله» فقال بعض المنافقين ما يريد هذا الرجل إلا أن نتخذه رباً كما اتخذت النصارى عيسى ابن مريم رباً فأنزل الله هذه من يطع الرسول يعني فيما أمر به ونهى عنه فقد أطاع الله يعني أن طاعة الرسول ﷺ طاعة الله تعالى لأنه هو أمر بها. وقال الحسن جعل الله طاعة رسوله ﷺ طاعته وقامت به الحجة على المسلمين. وقال الشافعي: إن كل فريضة فرضها الله في كتابه كالحج والصلاة والزكاة لولا بيان رسول الله ﷺ لها ما كنا نعرف كيف نأتيها ولا كان يمكننا أداء شيء من العبادات وإذا كان الرسول ﷺ بهذه المنزلة الشريفة كانت طاعته على الحقيقة طاعة الله ﴿ومن تولى﴾ أي أعرض عن طاعته ﴿فما أرسلناك عليهم حفيظاً﴾ يعني حافظاً تحفظ أعمالهم عليهم بل كل أمرهم إلى الله قال المفسرون وكان هذا قبل أن يؤمر بالقتال ثم نسخ ذلك بآية القتال قوله تعالى: ﴿ويقولون طاعة﴾ نزلت في المنافقين وذلك أن المنافقين كانوا يقولون باللسان لرسول الله ﷺ آمنا بك وصدقناك فمرنا فأمرك طاعة أي أمرنا وشأننا طاعة ﴿فإذا برزوا من عندك﴾ أي خرجوا من عندك ﴿بيت طائفة منهم غير الذي تقول﴾ التبييت كل أمر يفعل بالليل يقال هذا أمر مبيت إذا دبر بليل وقضي بليل فقد بيت والمعنى أنهم قالوا وقدروا أمرا بالليل غير الذي أعطوك بالنهار من الطاعة وقيل معنى بيت غير وبدل طائفة منهم غير الذي تقول يعني غير الذي

الله عنهما: أنه قرأ ﴿ وما أصابَكَ من سيئةٍ فمنْ نفسِك ﴾ وأنَا كتبتُها عليك. وقال بعضهم: هذه الآية متصلة بما قبلها، والقول فيه مضمر تقديره: فمالِ هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً، يقولون: ﴿ ما أصابك من حسنة فمن الله، وما أصابك من سيئة فمن نفسك ﴾، قــلْ كلٌ من عنــد الله. ﴿ وأرْسَلنَاكَ ﴾، يا محمد، ﴿ للنّاسِ رسولاً وكفَى باللّهِ شهيداً ﴾، على إرسالك وصدقك، وقيل: كفَى بالله شهيداً على أن الحسنة والسيئة كلها من الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿ مَنْ يُطعِ الرسولَ فقدْ أطاعَ الله ﴾، وذلك أن النبي ﷺ كان يقول: «مَنْ أطاعني فقدْ أطاعَ اللّهَ ومَن أحبّني فقدْ أحبَّ الله» فقال بعض المنافقين: ما يريد هذا الرجل إلاّ أن نتخذه ربّاً كما اتخذتِ النصارى عيسى ابن مريم ربّاً، فأنزل الله تعالى: ﴿ مَنْ يُطعِ الرسولَ فقد أطاعَ الله ﴾ أي: مَن يُطعِ الرسول فيما أُمر به فقد أطاع الله، ﴿ ومَنْ تولّى ﴾، عن طاعته، ﴿ فما أرسلناك ﴾، يا محمد، ﴿ عليهم حفيظاً ﴾، أي: حافظاً ورقيباً على كل أمورهم، وقيل: نسخ الله عزّ وجلّ هذا بآية السيف، وأمره بقتال مَن خالف الله ورسوله.

﴿ ويقولُونَ طاعةٌ ﴾، يعني: المنافقين يقول باللسان للرسول ﷺ: إنّا آمنّا بك فمرنا فأمرك طاعة، قال النحويون: أي أمرُنا وشأنُنا أن نطيعك، ﴿ فإذا بَرَزُوا ﴾، خرجُوا، ﴿ من عندك بيت طائفة منهم غيرَ الذي

عهدت إليهم فعلى هذا يكون التبييت بمعنى التبديل وإنما خص طائفة من المنافقين بالتبييت في قوله منهم. وكلمة من للتبعيض لأنه تعالى علم أن منهم من يبقى على كفره ونفاقه ومنهم من يرجع عنه ويتوب فخص من يصر على النفاق والذكر وقيل إن طائفة منهم اجتمعوا في الليل وبيتوا ذلك القول فخصهم بالذكر ﴿والله يكتب﴾ أي يثبت ويحفظ عليهم ﴿ما يبيتون﴾ يعني ما يزورون ويغيرون ويقدرون وقال ابن عباس يكتب ما يسرون من النفاق ﴿فأعرض عنهم﴾ أي لا تعاقبهم يا محمد ولا تحدث نفسك بالانتقام منهم وخلهم في ضلالتهم فأنا منتقم منهم وقيل لا تغتر بإسلامهم ﴿وتوكل على الله﴾ أي فوض أمرك إلى الله في شأنهم فإن الله يكفيك أمرهم وينتقم لك منهم ﴿وكفى بالله وكيلاً﴾ يعني ناصراً لك عليهم قوله عز وجل:

أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾

﴿أفلا يتدبرون القرآن﴾ أصل التدبر النظر في عواقب الأمور والتفكر في أدبارها ثم استعمل في كل تفكر وتأمل. يقال تدبرت الشيء أي نظرت في عاقبته ومعنى تدبر القرآن تأمل معانيه وتفكر في حكمه وتبصر ما فيه من الآيات. قال ابن عباس: أفلا يتدبرون القرآن فيتفكرون فيه فيرون تصديق بعضه لبعض وما فيه من المواعظ والذكر والأمر والنهي وأن أحداً من الخلق لا يقدر عليه قال العلماء إن الله تعالى احتج بالقرآن والتدبر فيه على صحة نبوة محمد لله والحجة في ذلك من ثلاثة أوجه أحدها فصاحته التي عجز الخلائق عن الإتيان بمثلها في أسلوبه. الثاني إخباره عن الغيوب وهو ما يطلع الله تعالى نبيه ﷺ على أحوال المنافقين وما يخفونه من مكرهم وكيدهم فيفضحهم بذلك وغير ذلك من الاخبار عن أحوال الأولين وأخبارهم وما يأتي في المستقبل من أمور الغيب التي لا يعلمها إلا الله تعالى. الثالث سلامته من الاختلاف والتناقض وهو المراد بقوله تعالى: ﴿ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً﴾ قال ابن عباس يعني تفاوتاً وتناقضاً وفي رواية عنه لو كان من عند مخلوق لكان فيه كذب واختلاف وقيل معناه لوجدوا في إخباره عن الغيب بما يكون وبما قد كان اختلافاً كثيراً لأن الغيب لا يعلمه إلا الله تعالى. وإذا كان كذلك ثبت أنه من عند الله وأنه ليس فيه اختلاف ولا تناقض وقيل لو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً من حيث البلاغة والفصاحة والمعنى لو كان من عند مخلوق لكان على قياس الكلام المخلوق بعضه فصيح بليغ حسن وبعضه مردود ركيك فاسد فلما كان القرآن جميعه على منهاج واحد في الفصاحة والبلاغة ثبت أنه

تقول ﴾، قال قتادة والكلبي: بيّت أي: غيّر وبدّل الذي عَهِدَ إليهم النبي ﷺ، ويكون التبييت بمعنى التبديل، وقال أبو عبيدة والقتيبي: معناه قالوا وقدرُوا ليلاً غير ما أعطوك نهاراً وكل ما قدر بليل فهو مبيت، وقال أبو الحسن الأخفش: تقول العرب للشيء إذا قُدِّرَ: بُيِّتَ، يُشبّهونه بتقدير بيوت الشعر، ﴿ والله يَكْتُبُ ﴾ أي: يُثبتُ ويحفظ، ﴿ ما يُبيّتون ﴾، ما يُزوّرون ويُغيّرون ويُقدّرون، وقال الضحاك عن ابن عباس: يعني ما يُسرّون من النفاق، ﴿ فأعرضْ عنهم ﴾، يا محمد ولا تعاقبهم، وقيل: لا تُخبرْ بأسمائهم، مُنع الرسول ﷺ من الأخبار بأسماء المنافقين، ﴿ وتوكّلْ على اللهِ وكفَى باللهِ وكيلاً ﴾، أي: اتخذوه وكيلاً وكفى بالله وكيلاً وناصراً.

قوله تعالى: ﴿ أفلا يتدبَّرُونَ القرآنَ ﴾، يعني: أفلا يتفكّرون في القرآن، والتدبّر هو النظر في آخر الأمر، ودُبر كلِّ شيءٍ آخره. ﴿ ولو كانَ منْ عندِ غيرِ اللهِ لوجدُوا فيهِ اختلافاً كثيراً ﴾، أي تفاوتاً وتناقضاً كثيراً، قاله ابن

من عند الله والمعنى أفلا يتفكرون في القرآن فيعرفوا بعدم التناقض فيه وصدق ما يخبر به عن الغيوب أنه كلام الله عزّ وجلّ وأن ما يكون من عند غير الله لا يخلو عن تناقض واختلاف فلما كان القرآن ليس فيه تناقض واختلاف علم أنه من عند قادر على ما لا يقدر غيره عالم بما لا يعلمه سواه.

قوله تعالى: ﴿وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به﴾ وذلك أن النبي ﷺ كان يبعث البعوث والسرايا فإذا غلبوا أو غلبوا بادر المنافقون يستخبرون عن حالهم ثم يشيعونه ويتحدثون به قبل أن يحدث به رسول الله ﷺ فيضعفون به قلوب المؤمنين فأنزل الله تعالى هذه الآية: ﴿وإذا جاءهم﴾ يعني المنافقين أمر من الأمن يعني جاءهم خبر بفتح وغنيمة أو الخوف يعني القتل والهزيمة أذاعوا به أي أفشوا ذلك الخبر وأشاعوه بين الناس يقال أذاع السر وأذاع به إذا أشاعه وأظهره قال الشاعر:

أذاع بـــه فـــي النـــاس حتـــى كـــأنـــه بعليـــــاء نـــــار أوقـــــدت بثقـــــوب

﴿ولو ردوه﴾ يعني الأمر الذي تحدثوا به ﴿إلى الرسول﴾ يعني أنهم لم يتحدثوا به حتى يكون رسول الله ﷺ هو الذي يتحدث به ويظهره ﴿وإلى أولي الأمر منهم﴾ يعني ذوي العقول والرأي والبصيرة بالأمور منهم وهم كبار الصحابة كأبي بكر وعمر وعثمان وعلي وقيل هم أمراء السرايا والبعوث وإنما قال منهم على حسب الظاهر ولأن المنافقين كانوا يظهرون الإيمان فلذا قال وإلى أولي الأمر منهم ﴿لعلمه الذين يستنبطونه منهم﴾ أي يستخرجون تدبيره بذكائهم وفطنتهم وتجاربهم ومعرفتهم بأمور الحرب وما ينبغي لها ومكايدها وهم العلماء الذين علموا ما ينبغي أن يكتم من الأمور وما ينبغي أن يذاع منها والنبط الماء الذي يخرج من البئر أول ما تحفر واستنباطه استخراجه فاستعير لما يخرجه الرجل بفضل ذكائه وصفاء ذهنه وفطنته من المعاني والتدبير فيما يعضل ويهم. ويقال استنبط الفقيه المسألة إذا استخرجها باجتهاده وفهمه وفي الآية دليل على جواز القياس وأن من العلم ما يدرك بالنص وهو الكتاب والسنة ومنه ما يدرك بالاستنباط وهو القياس عليهما ومعنى الآية ولو أن هؤلاء المنافقين والمذيعين ردوا الأمر من الأمن والخوف إلى رسول الله ﷺ وإلى أولي الأمر وطلبوا معرفة الحال فيه من جهتهم لعلموا حقيقة ذلك منهم وإنهم أولي بالبحث عنه فإنهم أعلم بما ينبغي أن يشاع أو يكتم. قوله تعالى: ﴿ولولا فضل الله عليكم ورحمته﴾ يعني ولولا فضل الله عليكم ببعثة محمد ﷺ وإنزال القرآن ورحمته بالتوفيق والهداية

عباس، وقيل: لو وجدوا فيه أي: في الإخبار عن الغيب بماكان وبما يكون اختلافاً كثيراً، أفلا يتفكّرون فيه فيعرفوا بعدم التناقض فيه وصدق ما يخبر أنه كلام الله تعالى لأن ما لا يكون من عند الله لا يخلو عن تناقض واختلاف.

قوله تعالى: ﴿ وإذا جاءَهمْ أمرٌ مِنَ الأمنِ أو الخَوْفِ أذاعُوا بهِ ﴾، وذلك أنّ النبي ﷺ كان يبعث السرايا فإذا غلبُوا أو غُلبُوا بادَرَ المنافقون يستخبرون عن حالهم، فيُفشون ويُحدِّثون به قبل أن يُحدِّثَ به رسول الله ﷺ فيُضعفون به قلوبَ المؤمنين فأنزل الله تعالى ﴿ وإذا جاءَهم ﴾ يعني: المنافقين ﴿ أمرٌ منَ الأمن ﴾ أي: الفتح والغنيمة أو الخوف والقتل والهزيمة ﴿ أذاعُوا به ﴾ أشاعوه وأفشوه، ﴿ ولو رَدُّوهُ إلى الرّسولِ ﴾ إلى رأيه ولم يحدّثوا به حتى يكونِ النبي ﷺ هو الذي يحدّث به، ﴿ وإلى أولي الأمرِ منهمْ ﴾، أي: ذوي الرأي من الصحابة مثل أبي بكر وعمر وعثمانِ وعلي رضي الله عنهم، ﴿ لَعَلِمَهُ الذينَ يستنبطُونَهُ منهمْ ﴾، أي: يستخرجونه وهم العلماء، أي: عَلِمُوا ما ينبغي أن يُكتم وما ينبغي أن يُفشى، والاستنباط: الاستخراج، يقال: استنبط الماءَ إذا استخرجه، وقال عكرمة: يستنبطونه أي: يحرصون عليه ويسألون عنه، وقال الضحاك: يتّبعونه، يريد الذين سمعوا تلك الأخبار من المؤمنين والمنافقين، لو ردّوه إلى الرسول ﷺ وإلى ذوي الرأي والعلم، لَعلمَه الذين يستنبطونه منهم، أي: يحبون

﴿لاتبعتم الشيطان﴾ يعني لبقيتم على الكفر والضلالة ﴿إلا قليلاً﴾ اختلف العلماء في هذا الاستثناء وإلى ماذا يرجع فقيل هو راجع إلى الإذاعة وهو قول ابن عباس والتقدير وإذا جاءهم أمر من الأمن أوالخوف أذاعوا به إلا قليلاً فأخرج بعض المنافقين والمؤمنين عن هذه الإذاعة لأنهم لم يذيعوا ما علموا من أمر السرايا. وهذا القول اختيار الفراء وابن جرير الطبري وقيل هو راجع إلى المستنبطين وهو قول الحسن وقتادة واختاره ابن قتيبة وتقديره لعلمه الذين يستنبطونه منهم إلا قليلاً فعلى هذين القولين في الآية تقديم وتأخير وقيل إنه راجع إلى اتباع الشيطان وهو قول الضحاك. واختاره الزجاج ومعلوم أن صرف الاستثناء إلى ما يليه ويتصل به أولى من صرفه إلى الشيء البعيد وتقديره ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان إلا قليلاً منكم وهم قوم آمنوا واهتدوا قبل مبعث النبي ﷺ وإنزال القرآن مثل زيد بن عمرو بن نفيل وورقة بن نوفل وقس بن ساعدة الايادي. قوله تعالى: .

﴿فَقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ ۚ وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ﴿٨٤﴾ مَّن يَشْفَعْ شَفَـٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَـٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا ﴿٨٥﴾﴾

﴿فقاتل في سبيل الله لا تكلف إلا نفسك﴾ نزلت في مواعدة رسول الله ﷺ أبا سفيان بن حرب وذلك أن رسول الله ﷺ واعده موسم بدر الصغرى بعد حرب أُحد وذلك في ذي القعدة فلما بلغ الميعاد دعا رسول الله ﷺ الناس إلى الخروج فكرهه بعضهم فأنزل الله هذه الآية فقاتل في سبيل الله يعني لا تدع جهاد العدو والانتصار للمستضعفين من المؤمنين لا تكلف إلا نفسك يعني لا تكلف فرض غيرك بل جاهد في سبيل الله ولو وحدك فإن الله ناصرك لا الجنود وقد وعدك النصر عليهم وهو لا يخلف الميعاد فخرج رسول الله ﷺ في سبعين راكباً إلى بدر الصغرى فكفاهم الله القتال ورجعوا سالمين وعاتب الله من تخلف عن رسول الله ﷺ بهذه الآية على ترك الجهاد والخروج معه. وفي الآية دليل على أن النبي ﷺ كان أشجع الناس وأعلمهم بأمور القتال ومكايده لأن الله تعالى أمره بالقتال وحده ولو لم يكن أشجع الناس لما أمره بذلك، ولقد اقتدى به أبو بكر الصديق في قتال أهل الردة من

أن يعلموه على حقيقته كما هو، ﴿ ولولا فضلُ اللهِ عليكم ورحمتُه لاتّبعتُمُ الشيطانَ ﴾، كلكم، ﴿ إلاّ قليلاً ﴾، فإن قيل: كيف استثنى القليل ولولا فضله لاتّبع الكل الشيطان؟ قيل: هو راجع إلى ما قبله، قيل: معناه أذاعوا به إلاّ قليلاً لم يفشه، وعني بالقليل المؤمنين، وهذا قول الكلبي واختيار الفرّاء، وقال: لأنّ عِلْمَ السرَّ إذا ظهرَ عَلِمَهُ المستنبطُ وغيرُه. والإذاعة قد تكون في بعضٍ دون بعض، وقيل: لعلمه الذين يستنبطونه منهم إلاّ قليلاً، ثم قوله: ﴿ ولولا فضلُ اللهِ عليكم ورحمتُه لاتّبعتم الشيطان ﴾ كلام تام، وقيل: فضلُ الله الإسلامُ، ورحمتُه القرآن، يقول لولا ذلك لاتّبعتم الشيطان إلاّ قليلاً وهم قوم اهتدوا قبل مجيء الرسول ﷺ ونزول القرآن، مثل زيد بن عمرو بن نفيل وورقة بن نوفل وجماعة سواهما، وفي الآية دليل على جواز القياس، فإن من العلم ما يُدرك بالتلاوة والرواية وهو النّص، ومنه ما يدرك بالاستنباط وهو القياس على المعاني المودعة في النصوص.

قوله تعالى: ﴿ فقاتلْ في سبيلِ اللّهِ لا تُكلّفُ إلاّ نَفْسَك ﴾، وذلك أن النبي ﷺ وَاعَدَ أبا سفيان بعد حرب أُحُد بموسم بدر الصغرى في ذي القعدة فلما بلغ الميعاد دعا الناس إلى الخروج فكرهه بعضهم، فأنزل الله عزّ وجلّ ﴿ فقاتلْ في سبيلِ الله لا تُكلّفْ إلاّ نفسَك ﴾ أي: لَا تدع جهاد العدو والاستنصار للمستضعفين من المؤمنين ولو وحدك، فإن الله قد وعدك النصرة وعاقبهم على ترك القتال، والفاء في قوله تعالى: ﴿ فقاتل ﴾ جواب عن قوله: ﴿ ومَن يقاتل في سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نُؤتيه أجْراً عظيماً ﴾ [النساء: ٧٤] فقاتِلْ، ﴿ وحرّضِ

بني حنيفة الذين منعوا الزكاة فعزم على الخروج إلى قتالهم ولو وحده ﴿وحرض المؤمنين﴾ يعني حضهم على الجهاد ورغبهم في الثواب وليس عليك في شأنهم إلا التحريض فحسب لا التعنيف بهم ﴿عسى الله﴾ أي لعل الله ﴿أن يكف بأس الذين كفروا﴾ يعني لعل الله أن يمنع بأس الكفار وشدتهم وقد فعل وذلك أن أبا سفيان بداله عن القتال فلم يخرج إلى الموعد ﴿والله أشد بأساً﴾ أي أعظم صولة ﴿وأشد تنكيلاً﴾ يعني وأشد عذاباً وعقوبة من غيره قوله عزّ وجلّ: ﴿من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها﴾ الشفاعة مأخوذة من الشفع وهو أن يصير الإنسان بنفسه شفيعاً لصاحب الحاجة حتى يجتمع معه على المسألة إلى المشفوع إليه فعلى هذا قيل إن المراد بالشفاعة المذكورة في الآية هي شفاعة الإنسان لغيره ليجلب له بشفاعته نفعاً أو يخلصه من بلاء نزل به. وقيل هي الإصلاح بين الناس وقيل معنى الآية من يصر شفعاً لوتر أصحابك يا محمد فيشفعهم في جهاد عدوهم يكن له نصيب منها أي حظ وافر من أجر شفاعته وهو ثواب الله وكرامته ﴿ومن يشفع شفاعة سيئة﴾ قيل هي النميمة ونقل الحديث لإيقاع العداوة بين الناس وقيل أراد بالشفاعة السيئة دعاء اليهود على المسلمين وقيل معناه من يشفع كفره بقتال المؤمنين ﴿يكن له كفل﴾ أي ضعف وقيل نصيب ﴿منها﴾ أي من وزرها ﴿وكان الله على كل شيء مقيتاً﴾ قال ابن عباس يعني مقتدراً أو مجازياً وأقات على الشيء قدر عليه قال الشاعر:

وذي ضغـــن كففـــت الشـــر عنـــه وكنـــت علـــى إســـاءتـــه مقيتـــا

يعني قادراً على الإساءة إليه وقيل معناه شاهداً أو حفيظاً على الأشياء (ق) عن أبي موسى قال كان رسول الله ﷺ جالساً فجاء رجل يسأل فأقبل علينا بوجهه وقال: «اشفعوا تؤجروا ويقضي الله على لسان رسوله ما شاء» وفي رواية كان إذا جاءه طالب حاجة أقبل على جلسائه وقال: «اشفعوا تؤجروا» وذكره. قوله عز وجل: .

المؤمنين ﴾، على القتال أي حضّهم على الجهاد ورغّبهم في الثواب، فخرج رسول الله ﷺ في سبعين راكباً فكفاهم الله القتال، فقال جلّ ذكره: ﴿ عسى اللَّهُ ﴾ أي: لعلّ الله، ﴿ أنْ يَكُفَّ بأسَ الذينَ كفرُوا ﴾، أي: قتال المشركين و﴿ عسى ﴾ من الله واجب، ﴿ واللَّهُ أشدُّ بأساً ﴾ أي: أشدّ صولة وأعظم سلطاناً، ﴿ وأشدُّ تنكيلاً ﴾ أي: عقوبة.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ مَنْ يشفعْ شفاعةً حسنةً يكنْ له نصيبٌ منها، ومَنْ يشفعْ شفاعةً سيئةً يكنْ له كِفْلٌ منها ﴾، أي: نصيب منها، قال ابن عباس رضي الله عنهما: الشفاعة الحسنة هي الإصلاح بين الناس، والشفاعة السيئة هي المشي بالنميمة بين الناس، وقيل: الشفاعة الحسنة هي حُسنُ القول في الناس ينال به الثوابَ والخير، والسيئة هي: الغيبة وإساءة القول في الناس ينال به الشر، وقوله: ﴿ كِفْلٌ منها ﴾ أي: من وزرها، وقال مجاهد: على شفاعة الناس بعضهم لبعض، ويُؤجر الشفيع على شفاعته وإن لم يُشفّع. أخبرنا أحمد بن عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا سفيان الثّوري عن أبي بردة أخبرني جدّي أبو بردة عن أبيه أبي موسى رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ إذا جاءه رجل يسأل أو طالب حاجة أقبل علينا بوجههِ، فقال: «اشفعُوا تُؤجروا ويقضي اللَّهُ على لسان رسوله ما شاء». قوله تعالى: ﴿ وكانَ اللَّهُ على كل شيءٍ مُقِيتاً ﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما: مقتدراً أو مجازياً قال الشاعر:

وذِي ضِغْنٍ كَـفـفـتُ الـنـفـسَ عنـهُ وكنتُ على إساءَتِـه مُقيتـاً

وقال مجاهد: شاهداً: وقال قتادة: حافظاً، وقيل: معناه على كل حيوان مقيتاً أي: يوصل القوت إليه، وجاء في الحديث «كفى بالمرءِ إثماً أن يضيّع مَن يَقُوتُ ويقِيْتُ».

﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۗ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾﴾

﴿وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها﴾ التحية تفعلة من حيا وأصلها من الحياة ثم جعل السلام تحية لكونه خارجاً عن حصول الحياة وسبب الحياة في الدنيا أو في الآخرة والتحية أن يقال حياك الله أي جعل لك حياة وذلك أخبار ثم يجعل دعاء وهذه اللفظة كانت العرب تقولها فلما جاء الإسلام بدل ذلك بالسلام وهو المراد به في الآية يعني إذا سلم عليكم المسلم فأجيبوه بأحسن مما سلم عليكم به وإنما اختير لفظ السلام على لفظة حياك الله لأنه أتم وأحسن وأكمل لأن معنى السلام السلامة من الآفات فإذا دعا الإنسان بطول الحياة بغير سلامة كانت حياته مذمومة منغصة. وإذا كان في حياته سليماً كان أتم وأكمل فلهذا السبب اختير لفظ السلام **﴿أو ردوها﴾** يعني أو ردوا عليه كما سلم عليكم **﴿إن الله كان على كل شيء حسيباً﴾** يعني محاسباً ومجازياً والمعنى أنه تعالى على كل شيء من رد السلام بمثله أو بأحسن منه مجاز.

فصل في فضل السلام والحث عليه

(ق) عن عبدالله بن عمرو بن العاص أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ: «أي الإسلام خير قال تطعم الطعام وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف» قوله أي الإسلام خير معناه أي خصال الإسلام خير (م) عن أبي هريرة قال رسول الله ﷺ: «لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا أولا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم أفشوا السلام بينكم» عن عبدالله بن سلام قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أيها الناس أفشوا السلام وأطعموا الطعام وصلّوا الأرحام وصلوا والناس نيام تدخلوا الجنة بسلام» أخرجه الترمذي وقال حديث صحيح عن أبي أمامة قال: أمرنا نبينا ﷺ أن نفشي السلام، أخرجه ابن ماجه.

فصل في أحكام تتعلق بالسلام وفيه مسائل

المسألة الأولى في كيفية السلام: (ق) عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «لما خلق الله تعالى آدم عليه السلام قال اذهب فسلم على أولئك نفر من الملائكة جلوس فاستمع ما يحيونك به فإنها تحيتك وتحية ذريتك فقال السلام عليكم فقالوا عليك السلام ورحمة الله فزادوه ورحمة الله قال العلماء يستحب لمن يبتدىء بالسلام أن يقول السلام عليكم ورحمة الله وبركاته فيأتي بضمير الجمع وإن كان المسلم عليه واحد ويقول المجيب وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته فيأتي بواو العطف في قوله وعليكم عن عمران بن حصين قال جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: السلام عليكم فرد عليه ثم جلس فقال رسول الله ﷺ: «عشر ثم جاء آخر فقال السلام عليكم ورحمة الله فرد عليه فجلس فقال عشرون فجاء آخر فقال السلام عليكم ورحمة الله وبركاته فرد عليه فجلس فقال ثلاثون» أخرجه الترمذي: وأبو داود وقال الترمذي حديث حسن وقيل إذا قال المسلم السلام عليكم فيقول المجيب وعليكم السلام ورحمة الله فيزيده ورحمة الله وإذا قال: السلام عليكم ورحمة الله فيقول وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، وإذا قال

قوله تعالى: ﴿ وإذا حُيِّيتُم بتحيةٍ فَحَيُّوا بأحْسَنَ منها أو رُدُّوها ﴾، التحية: دعاءٌ بطول الحياة، والمراد بالتحية هنا السلام، يقول: إذا سلّم عليكم مُسلِّم فأجيبُوا بأحسنَ منها أو رُدُّوها كما سلّم، فإذا قال: السلام عليكم، فقل: وعليكم السلامُ ورحمةُ الله، وإذا قال: السلام عليكم ورحمة الله، فقل: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، وإذا قال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، فردّ مثله، رُوِيَ أنّ رجلاً سلّم على ابن عباس رضي الله عنهما، قال:

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته فيرد عليه السلام بمثله ولا يزيد عليه وروي أن رجلاً سلم على ابن عباس فقال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ثم زاد شيئاً فقال ابن عباس أن السلام انتهى إلى البركة ويستحب للمسلم أن يرفع صوته بالسلام ليسمع المسلم عليه فيجيبه ويشترط أن يكون الرد على الفور فإن أخره ثم رد لم يعد جواباً وكان آثماً بترك الرد.

المسألة الثانية في حكم السلام: الابتداء بالسلام سنة مستحبة ليس بواجب وهو سنة على الكفاية فإن كانوا جماعة فسلم واحد منهم كفى عن جميعهم ولو سلم كلهم كان أفضل وأكمل قال القاضي حسين: من أصحاب الشافعي ليس لنا سنة على الكفاية إلّا هذا وفيه نظر لأن تشميت العاطس سنة على الكفاية أيضاً كالسلام. ولو دخل على جماعة في بيت أو مجلس أو مسجد وجب عليه أن يسلم على الحاضرين لقوله ﷺ: «أفشوا السلام» والأمر للوجوب أو يكون ذلك سنة متأكدة لأن السلام من شعار أهل الإسلام فيجب إظهاره أو يتأكد استحبابه أما الرد على المسلم فقد أجمع العلماء على وجوبه ويدل عليه قوله تعالى: ﴿**وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها**﴾ والأمر للوجوب لأن في ترك الرد إهانة للمسلم فيجب ترك الإهانة فإن كان المسلم عليه واحداً وجب عليه الرد وإذا كانوا جماعة كان رد السلام في حقهم فرض كفاية فلو رد واحد منهم سقط فرض الرد عن الباقين وإن تركوه كلهم أثموا. عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «يجزي عن الجماعة إذا مروا أن يسلم أحدهم ويجزي عن الجلوس أن يرد أحدهم» أخرجه أبو داود.

المسألة الثالثة في آداب السلام: السنة أن يسلم الراكب على الماشي والماشي على القاعد والقليل على الكثير والصغير على الكبير (ق) عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «يسلم الراكب على الماشي والماشي على القاعد والقليل على الكثير» وفي رواية للبخاري قال: «يسلّم الصغير على الكبير، والمار على القاعد والقليل على الكثير» وإذا تلاقى رجلان فالمبتدىء بالسلام هو الأفضل لما روي عن أبي أمامة الباهلي قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أولى الناس بالله عز وجل من بدأهم بالسلام» أخرجه أبو داود والترمذي ولفظه قال قيل يا رسول الله الرجلان يلتقيان أيهما يبدأ بالسلام قال: «أولاهما بالله» قال الترمذي حديث حسن ويستحب أن يبدأ بالسلام قبل الكلام والحاجة والسنة إذا مر بجماعة صبيان صغار أن يسلم عليهم لما روي عن أنس أنه مر على صبيان فسلم عليهم وقال كان رسول الله ﷺ يفعله أخرجاه في الصحيحين وفي رواية لأبي داود أن النبي ﷺ مر على غلمان يلعبون فسلم عليهم وأما السلام على النساء فإن كن جمعاً جالسات في مسجد أو موضع فيستحب أن يسلّم عليهن إذا لم

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، ثم زاد شيئاً، فقال ابن عباس: إنّ السلام ينتهي إلى البركة. ورُوِيَ عن **عمران بن حُصين**: **أنّ رجلاً جاءَ إلى النبي ﷺ فقال**: السلام عليكم، فردّ عليه، ثمّ جلس، فقال النبي ﷺ: **«عَشْرٌ» ثمّ جاء آخرُ فقال**: السلام عليكم ورحمة الله، **فردّ عليه فجلس، فقال**: «عشرُون» ثم جاء آخرُ فقال: **السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، فردّ عليه فجلس، فقال**: «ثلاثون»، واعلمْ أنّ السلام سُنّة وردُّ السلام فريضة، **وهو فرض على الكفاية فإذا سلّم واحدٌ من جماعة كان كافياً في السُّنّة، وإذا سلّم واحدٌ على جماعة وردَّ واحدٌ سقط الغرض عن جميعهم، أخبرنا الإمام أبو علي الحسين بن محمد القاضي أنا أبو طاهر محمد بن محمد بن محمش الزيادي أنا أبو بكر محمد بن عمر بن حفص التاجر أنا إبراهيم بن عبد الله بن عمر بن بكر الكوفي أنا وكيع عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة رضي الله عنهم قال: قال رسول الله ﷺ**: «والذي نفسي بيده لا تَدْخُلُوا الجنَّةَ حتى تُؤمنُوا ولا تُؤمنُوا حتى تحابّوا، أوَلاَ أدلّكم على شيء إذا فعلتمُوه تحاببتم؟ أفشُوا السلام بينكم»، **أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا قتيبة أنا**

يخف على نفسه أو عليهن فتنة لما روي عن أسماء بنت يزيد قالت مر علينا رسول الله ﷺ في نسوة فسلّم علينا أخرجه أبو داود وفي رواية الترمذي أن رسول الله ﷺ مر في المسجد يوماً وعصبة من النساء قعود فألوى بيده للتسليم قال الترمذي حديث حسن وإذا مر على امرأة مفردة أجنبية فإن كانت جميلة فلا يسلم عليها ولو سلم فلا ترد هي عليه لأنه لم يستحق الرد وإن كانت عجوزاً لا يخاف عليه ولا عليها الفتنة سلم عليها وترد هي عليه وحكم النساء مع النساء كحكم الرجال مع الرجال في السلام فيسلم بعضهن على بعض.

المسألة الرابعة في الأحوال التي يكره السلام فيها: فمن ذلك الذي يبول أو يتغوط أو يجامع ونحو ذلك لا يسلم عليه فلو سلم فلا يستحق المسلّم جواباً لما روي عن ابن عمر: «أن رجلاً مر ورسول الله ﷺ يبول فسلم عليه فلم يرد عليه» أخرجه مسلم قال الترمذي إنما يكره إذا كان على الغائط أو البول ويكره التسليم على من في الحمام وقيل إن كانوا متزرين بالمآزر سلم عليهم وإلّا فلا، ويكره التسليم على النائم والناعس والمصلي والمؤذن والتالي في حال الصلاة والأذان والتلاوة ويكره الابتداء بالسلام في حال الخطبة لأن الجالسين مأمورون بالإنصات للخطبة ويكره أن يبدأ المبتدع بالتسليم عليه وكذلك المعلن بفسق وكذلك الظلمة ونحوهم فلا يسلم على هؤلاء.

المسألة الخامسة في حكم السلام على أهل الذمة: اليهود والنصارى: اختلف العلماء فيه فذهب أكثرهم إلى أنه لا يجوز ابتداؤهم بالسلام. وقال بعضهم إنه ليس بحرام بل هو مكروه كراهة تنزيه ويدل على ذلك ما روي عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لا تبدؤوا اليهود ولا النصارى بالسلام وإذا لقيتم أحدهم في طريق فاضطروه إلى أضيقه» أخرجه مسلم وإذا سلم يهودي أو نصراني على مسلم فيرد عليه ويقول عليك بغير واو العطف، لما روي عن أنس أن يهودياً أتى على رسول الله ﷺ وأصحابه فقال السلام عليكم فرد عليه القول فقال رسول الله ﷺ: «هل تدرون ما قال؟ قالوا الله ورسوله أعلم سلم يا نبي الله قال لا ولكنه قال كذا وكذا ردوه على فردوه فقال: قلت السلام عليكم قال: نعم يا نبي الله فقال ﷺ عند ذلك إذا سلم عليكم أحد من أهل الكتاب فقولوا عليك أي عليك ما قلت» أخرجه الترمذي فلو أتى بواو العطف وميم الجمع فقال عليكم جاز لأنا نجاب عليهم في الدعاء ولا يجابون علينا ويدل على ذلك ما روي عن جابر أن رسول الله ﷺ مر عليه ناس من اليهود، فقالوا السام عليك يا أبا القاسم فقال: «وعليكم» فقالت عائشة وغضبت ألم تسمع ما قالوا؟ قال بلى قد سمعت فرددت عليهم وأنا نجاب عليهم ولا يجيبون علينا أخرجه مسلم وإذا مر المسلم على جماعة فيهم مسلمون ويهود ونصارى يسلم عليهم ويقصد بتسليمه المسلمين لما روي عن أسامة بن زيد أن رسول الله ﷺ مر على مجلس فيه أخلاط من المسلمين واليهود فسلم عليهم أخرجه الترمذي.

قوله عز وجل: ﴿الله لا إله إلّا هو ليجمعنكم﴾ هذه لام القسم تقديره والله الذي لا إله إلّا هو ليجمعنكم الله

الليث عن يزيد بن أبي حبيب عن أبي الخير عن عبد الله بن عمر أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ: أيُّ الإسلام خير؟ قال: «أنْ تُطعمَ الطعامَ وتقرأ السلامَ على مَنْ عرفتَ ومَنْ لم تعرفْ». ومعنى قوله: أيُّ الإسلام خير، يريد أيُّ خصال الإسلام خير، وقيل: ﴿ فحيُّوا بأحسنَ منها ﴾، معناه أي إذا كان الذي سلّم مسلماً، ﴿ أو رُدُّوها ﴾ بمثلها إذا لم يكن مسلماً. أخبرنا أبو الحسن السرخسي أنا زاهر بن أحمد أنا أبو إسحق الهاشمي أنا أبو مصعب عن مالك عن عبد الله بن يسار عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهم قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا سلّم عليكم اليهودُ فإنما يقول أحدهم: السَّامُ عليك، فقلْ وعليك»، قوله تعالى: ﴿ إن الله كانَ على كل شيءٍ حسيباً ﴾ أي: على كل شيءٍ من رَدِّ السلام بمثله أو بأحسن منه، حسيباً أي: محاسباً مجازياً، وقال مجاهد: حفيظاً، وقال أبو عبيدة: كافياً، يقال: حسبي هذا أي كفاني.

في الموت وفي القبور ﴿إلى يوم القيامة﴾ يعني إلى يوم الحشر والبعث سميت القيامة لقيام الناس من قبورهم بعد الموت وقيل لقيامهم للحساب نزلت هذه الآية في منكري البعث ﴿لا ريب فيه﴾ يعني لا شك في ذلك اليوم أنه كائن ﴿ومن أصدق من الله حديثاً﴾ يعني لا أحد أصدق من الله فإنه لا يخلف الميعاد ولا يجوز عليه الكذب والمعنى أن القيامة كائنة لا شك فيها ولا ريب. قوله عز وجل:

﴿فَمَا لَكُمْ فِي ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُواْ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿٨٨﴾﴾

﴿فما لكم في المنافقين فئتين﴾ اختلفوا في سبب نزول هذه الآية فقيل نزلت في الذين تخلفوا يوم أحد من المنافقين فلما رجعوا قال بعض أصحاب رسول الله ﷺ لرسول الله ﷺ أقتلهم يا رسول الله فإنهم منافقون وقال بعضهم أعف عنهم فإنهم قد تكلموا بكلمة الإسلام (ق) عن زيد بن ثابت قال لما خرج رسول الله ﷺ إلى أُحد رجع ناس ممن خرج معه فكان أصحاب رسول الله ﷺ فيهم فئتين قالت فرقة نقتلهم وقالت فرقة لا نقتلهم فنزلت فما لكم في المنافقين فئتين فقال رسول الله ﷺ إنها طيبة تنفي الرجال كما ينفي الكير خبث الحديد وقيل نزلت في قوم خرجوا إلى المدينة وأسلموا ثم استأذنوا رسول الله ﷺ في الخروج إلى مكة ليأتوا ببضائع لهم يتجرون فيها فخرجوا وأقاموا بمكة فاختلف المسلمون فيهم فقائل يقول هم منافقون وقائل يقول هم مؤمنون وقيل نزلت في ناس من قريش قدموا المدينة وأسلموا ثم ندموا على ذلك فخرجوا كهيئة المتنزهين فلما بعدوا عن المدينة كتبوا إلى رسول الله ﷺ: إنا على الذي فارقناك عليه من الإيمان ولكنا اجتوينا المدينة واشتقنا إلى أرضنا ثم إنهم خرجوا في تجارة إلى الشأم فبلغ ذلك المسلمين فقال بعضهم تخرج إليهم ونقتلهم ونأخذ ما معهم لأنهم رغبوا في ديننا وقالت طائفة منهم كيف تقتلون قوماً على دينكم وإن لم يذروا ديارهم. وكان هذا بعين رسول الله ﷺ وهو ساكت لا ينهي أحد الفريقين فنزلت هذه الآية وقيل نزلت في قوم أسلموا بمكة ولم يهاجروا وكانوا يظاهرون المشركين وقيل نزلت

قوله تعالى: ﴿ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاّ هو لَيَجْمَعَنّكُم ﴾، اللام، لامُ القسم تقديره: واللهِ ليجمعنّكم في الموت وفي القبور، ﴿ إلى يوم القيامةِ ﴾، وسُمّيت القيامةُ قيامةً لأنّ الناس يقومُون من قبورهم، قال الله تعالى: ﴿ يوم يخرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ سِرَاعاً ﴾ [المعارج: ٤٣] وقيل: لقيامهم إلى الحساب، قال الله تعالى: ﴿ يومَ يقومُ النّاسُ لربِّ العالمين ﴾ [المطفّفين: ٦]، ﴿ لاَ رَيْبَ فيهِ، ومَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللّهِ حَدِيثاً ﴾ أي: قولاً ووَعْداً، وقرأ حمزة والكسائي ﴿ أَصْدَق ﴾، وكلُّ صَادٍ سَاكنة بعدها دالٌ بإشمام الزاي.

﴿ فَمَا لَكُم في المُنَافِقِينَ فِئَتَينِ ﴾ اختلفوا في سبب نُزُولها فقال قوم: نزلت في الذين تخلّفُوا يوم أُحُد من المنافقين، فلمّا رجعُوا قال بعضُ الصحابة رضي الله عنهم لرسول الله ﷺ: اقتلهم فإنّهم منافقون، وقال بعضهم: اعف عنهم فإنهم تكلّموا بالإسلام. أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا أبو الوليد أنا شعبة عن عدي بن ثابت قال: سمعت عبد الله بن يزيد يحدّث عن زيد بن ثابت قال: لمّا خرج النبيّ ﷺ إلى أُحُد رجع ناسٌ ممّن خرج معه وكان أصحاب النبيّ ﷺ فرقتين فرقة تقول نقاتلهم وفرقة تقول لا نقاتلهم، فنزلت: ﴿ فما لكم في المنافقين فئتين واللّهُ أرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا ﴾، وقال: «إنها طِيبةُ تَنفي الذنوبَ كما تنفي النّارُ خَبَثَ الفِضّة». وقال مجاهد: قوم خرجوا إلى المدينة وأسلموا ثم ارتدُّوا واستأذنُوا رسول الله ﷺ إلى مكة ليأتوا ببضائع لهم يتّجِرُون فيها فخرجوا وأقاموا بمكة، فاختلف المسلمون فيهم، فقائل يقول: هم منافقون، وقائل يقول: هم مؤمنون، وقال بعضهم: نزلت في ناسٍ من قريش قَدِمُوا المدينة وأسلموا ثم نَدِمُوا على

في عبدالله بن أبي ابن سلول المنافق لما تكلم في حديث الإفك. ومعنى الآية فما لكم يا معشر المؤمنين في المنافقين فئتين أي صرتم في أمرهم فرقتين فرقة تذب عنهم وفرقة تباينهم وتعاديهم فنهى الله الفرقة الذين يذبون عنهم وأمر المؤمنين جميعاً أن يكونوا على منهاج واحد في التباين لهم والتبرىء منهم ثم أخبر عن كفرهم بقوله ﴿**والله أركسهم**﴾ يعني نكسهم في كفرهم وارتدادهم وردهم إلى أحكام الكفار ﴿**بما كسبوا**﴾ أي بسبب ما اكتسبوا من أعمالهم الخبيثة وقيل بما أظهروا من الأرتداد بعدما كانوا على النفاق ﴿**أتريدون أن تهدوا من أضل الله**﴾ هذا خطاب للفئة التي دافعت عن المنافقين والمعنى أتبتغون أيها المؤمنون هداية هؤلاء المنافقين الذين أصلهم الله عن الهدى ﴿**ومن يضلل الله**﴾ يعني عن الهدى ﴿**فلن تجد له سبيلاً**﴾ يعني فلن تجد له طريقاً تهديه فيها إلى الحق والهدى. قوله تعالى: .

وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءً فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَٰتِلُوكُمْ أَوْ يُقَٰتِلُواْ قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَٰتَلُوكُمْ فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْاْ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿٩٠﴾

﴿**ودوا**﴾ يعني تمنى أولئك الذين رجعوا عن الإيمان إلى الإرتداد والكفر ﴿**لو تكفرون**﴾ يعني تكفرون أنتم يا معشر المؤمنين ﴿**كما كفروا فتكونون سواء**﴾ في الكفر ﴿**فلا تتخذوا منهم أولياء**﴾ يعني من الكفار منع المؤمنين من موالاتهم ﴿**حتى يهاجروا**﴾ يعني يسلموا أو يهاجروا ﴿**في سبيل الله**﴾ معكم وهي هجرة أخرى والهجرة على ثلاثة أوجه: الأولى هجرة المؤمنين في أول الإسلام من مكة إلى المدينة. الثانية هجرة المؤمنين وهي الخروج مع رسول الله ﷺ في سبيل الله مخلصين صابرين محتبسين كما حكي الله عنهم وفي هذه الآية منع المؤمنين من موالاة المنافقين حتى يهاجروا والهجرة الثالثة هجرة المؤمنين ما نهي الله عنه بقوله ﴿**فإن تولوا**﴾ يعني فإن أعرضوا عن ا

ذلك فخرجوا كهيئة المتنزهين حتى تباعدوا من المدينة فكتبُوا إلى رسول الله ﷺ: إنّا على الذي فارقناك عليه من الإيمان ولكنّا اجْتَوَيْنَا المدينة واشتقنا إلى أرضنا، ثم إنهم خرجوا في تجارة لهم نحو الشام فبلغ ذلك المسلمين، فقال بعضهم: نخرج إليهم فنقتلهم ونأخذ ما معهم لأنهم رغِبُوا عن ديننا، وقالت طائفة: كيف تقتلون قوماً على دينكم إن لم يذَرُوا دِيَارَهم، وكان هذا بعين النبي ﷺ وهو سَاكِتٌ لا ينهَى واحداً من الفريقين، فنزلت هذه الآية، وقال بعضهم: هم قوم أسلموا بمكة ثم لم يهاجروا وكانوا يظاهرون المشركين، فنزلت: ﴿ **فما لكم** ﴾ يا معشر المؤمنين ﴿ **في المنافقين فئتين** ﴾ أي: صرتم فيهم فئتين، أي: فرقتين، ﴿ **واللَّهُ أَرْكَسَهُمْ** ﴾ أي: نكَّسهم وردَّهم إلى الكفر، ﴿ **بِمَا كَسَبُوا** ﴾ بأعمالهم غير الزاكية ﴿ **أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهدُوا** ﴾، أي: أنْ تُرشِدُوا ﴿ **مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ** ﴾، وقيل: معناه أتقولُون أنّ هؤلاء مهتدون وقد أضلَّهم الله، ﴿ **وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ** ﴾ أي: وكما كفرُوا يُضلِلِ اللَّهُ عن الهدى، ﴿ **فلنْ تَجِدَ لَهُ سبيلاً** ﴾ أي: طريقاً إلى الحق.

قوله تعالى: ﴿ **وَدُّوا** ﴾، تمنُّوا، يعني أولئك الذين رجعوا عن الدين تمنّوا ﴿ **لو تَكْفُرُونَ كما كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً** ﴾، في الكفر، وقوله: ﴿ **فتكونون** ﴾ لم يُرِدْ به جواب التمنّي لأن جواب التمنّي بالفاء منصوب، إنّما أراد النسق، أي: وَدُّوا لو تكفرونَ ووَدُّوا لو تكونونَ سواءً، مثل قوله: ﴿ **وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فيُدْهِنُون** ﴾ [القلم: ٩] أي: وَدُّوا لو تُدْهِنُ وَوَدُّوا لَوْ تُدهنون، ﴿ **فَلَا تَتَّخِذُوا منهم أولياءَ** ﴾، منعَ عن موالاتهم، ﴿ **حتى يُهاجِرُوا في سبيلِ اللَّهِ** ﴾،

لإسلام والهجرة واختاروا الإقامة على الكفر **﴿فخذوهم﴾** الخطاب للمؤمنين أي خذوهم أيها المؤمنون **﴿واقتلوهم حيث وجدتموهم﴾** يعني إن وجدتموهم في الحل والحرم **﴿ولا تتخذوا منهم ولياً﴾** يعني في هذه الحالة **﴿ولا نصيراً﴾** يعني ينصركم على أعدائكم لأنهم أعداء ثم استثنى الله عز وجل طائفة منهم فقال تعالى: **﴿إلاّ الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق﴾** هذا الاستثناء يرجع إلى القتل لا إلى الموالاة الكفار والمنافقين لا تجوز بحال ومعنى يصلون ينتسبون إليهم أو ينتمون إليهم أو يدخلون معهم بالحلف والجوار. وقال ابن عباس يريد يلجؤون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق أي عهد وهم الأسلميون وذلك أن رسول الله ﷺ وادع هلال بن عويمر الأسلمي عند خروجه إلى مكة على أن لا يعينه ولا يعين عليه ومن وصل إلى هلال من قومه وغيرهم ولجأ إليه فلهم الجوار مثل ما لهلال. وفي رواية عن ابن عباس قال: أراد بالقوم الذي بينكم وبينهم ميثاق بني بكر بن مناة كانوا في الصلح والهدنة. وقيل هم خزاعة والمعنى أن من دخل في عهد من كان داخلاً في عهدكم فهم أيضاً داخلون في عهدكم **﴿أو جاؤوكم حصرت صدورهم﴾** يحتمل أن يكون عطفاً على الذين وتقديره إلاّ الذين يتصلون بالمعاهدين أو يتصلون بالذين حصرت صدورهم فلا تقتلوهم وقيل يحتمل أن يكون عطفاً على صفة قوم تقديره إلاّ الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم عهد أو يصلون إلى قوم حصرت صدورهم فلا تقتلوهم ومعنى حصرت أي ضاقت صدورهم عن المقاتلة فلا يريدون قتالكم لأنكم مسلمون ولا يريدون قتالهم لأنهم أقاربهم وهم بنو مدلج وكانوا عاهدوا أن لا يقاتلوا المسلمين وعاهدوا قريشاً أن لا يقاتلوهم **﴿أن يقاتلوكم﴾** يعني ضاقت صدورهم عن قتالكم للعهد الذي بينكم وبينهم **﴿أو يقاتلوا قومهم﴾** يعني من آمن منهم وقيل معناه أنهم لا يقاتلونكم مع قومهم ولا يقاتلون قومهم معكم فقد ضاقت صدورهم لذلك عن قتالكم والقتال معكم وهم قوم هلال الأسلميون وبنو بكر نهى الله عن قتال هؤلاء المرتدين إذا اتصلوا بأهل عهد المسلمين لأن من انضم إلى قوم ذوي عهد فله حكمهم في حقن الدم وذلك

معكم، قال عكرمة: هي هجرة أُخرى والهجرة على ثلاثة أوجه هجرة المؤمنين في أوّل الإسلام، وهي قوله تعالى: **﴿ للفقراء المهاجرين ﴾** [الحشر: ٨] وقوله: ﴿ ومَنْ يخرجْ من بيته مُهاجراً إلى الله ورسوله ﴾ [النساء: ١٠٠]، **ونحوهما من الآيات،** وهجرة المؤمنين: وهي الخروج في سبيل الله مع رسول الله ﷺ صابرين محتبسين، كما **حُكِي ههنا،** وفي هذه الآية مَنَعَ موالاة المؤمنين من موالاة المنافقين حتى يُهاجروا في سبيل الله، وهجرة سائر **المؤمنين ما نهى الله عنه وهي ما قال النبي ﷺ: «المهاجرُ مَن هَجَرَ ما نَهى اللّهُ عنه».** قوله تعالى: **﴿ فإنْ تَوَلَّوا ﴾، أعرضوا عن التوحيد والهجرة، ﴿ فخُذوهم ﴾،** أي: خذوهم أسارى، ومنه يقال للأسير أخِيذ، **﴿ واقْتُلُوهُمْ حيثُ وَجَدْتُموهمْ ﴾** في الحِلّ والحَرَمِ، **﴿ ولا تَتَّخِذُوا منهمْ وَلِيّاً ولا نصيراً ﴾،** ثم استثنى طائفةً منهم فقال:

﴿ إلاّ الذينَ يَصِلُون إلى قومٍ ﴾ وهذا الاستثناء يرجع إلى القتل لاَ إلى الموالاة، لأنّ موالاة الكفّار والمنافقين **لا تجوز بحال،** ومعنى **﴿ يَصِلُون ﴾** أي: ينتسبون إليهم ويتصلون بهم ويدخلون فيهم بالحِلْفِ والجوار، وقال ابن **عباس رضي الله عنهما** يريدون ويلجأون إلى قوم، **﴿ بينَكُمْ وبينَهُمْ مِيثَاقٌ ﴾** أي: عهد، وهم الأسلميون، وذلك أن **رسول الله ﷺ وَادَعَ** هلالَ بن عويمر الأسلمي قبل خروجه إلى مكة على أن لا يعينه ولا يُعين عليه، ومَن وصل إلى **هلال من قومه وغيرهم** ولجأ إليه فلهم من الجوار مثل ما لهلال، وقال الضّحاك عن ابن عباس: أراد بالقوم الذين بينكم وبينهم ميثاق بني بكر بن زيد بن مَنَاة كانوا في الصلح والهدنة، وقال مقاتل: هم خُزاعة، وقوله: **﴿ أو جاءُوكم ﴾** أي: يتصلون بقوم جاؤوكم، **﴿ حَصِرَت صُدُورُهم ﴾** أي: ضاقتْ صدورُهم، قرأ الحسن ويعقوب **« حصرةً »** منصوبة منوّنة أي: ضيقة صدورهم، يعني القوم الذين جاؤوكم وهم بنو مدلج، كانوا عاهدوا قريشاً أن لا يقاتلوا المسلمين وعاهدوا قريشاً أن لا يقاتلوهم، حَصِرتْ: ضاقت صدورهم، **﴿ أن يُقاتِلُوكم ﴾** أي: عن قتالكم

أن الله تعالى أوجب قتال الكفار إلاّ من كان معاهداً أو لجأ إلى معاهد أو ترك القتال لأنه لا يجوز قتل هؤلاء وعلى هذا القول فالقول بالنسخ لازم لأن الكافر وإن ترك القتال فقتاله جائز وقال جماعة من المفسرين معاهدة المشركين وموادعتهم في هذه الآية منسوخة بآية السيف وذلك لأن الله تعالى لما أعز الإسلام وأهله أمر أن لا يقبل من مشركي العرب إلاّ الإسلام أو القتل ﴿ولو شاء الله لسلطهم عليكم فلقاتلوكم﴾ يذكر الله تعالى منته على المسلمين بكف بأس المعاهدين وذلك لما ألقى الله الرعب في قلوبهم وكفهم عن قتالكم ومعنى التسليط هنا تقوية قلوبهم على قتال المسلمين ولكن قذف الله الرعب في قلوبهم وكفهم عن المسلمين ﴿فإن اعتزلوكم﴾ يعني فإن اعتزلوكم عن قتالكم ﴿فلم يقاتلوكم﴾: ويقال فلم يقاتلوكم يوم فتح مكة مع قومهم ﴿وألقوا إليكم السلم﴾ يعني الانقياد والصلح فانقادوا واستسلموا ﴿فما جعل الله لكم عليهم سبيلاً﴾ يعني بالقتل والقتال قال بعض المفسرين هذا منسوخ بآية القتال وهي قوله تعالى: ﴿اقتلوا المشركين حيث وجدتموهم﴾ وقال بعضهم هي غير منسوخة لأنا إذا حملناها على المعاهدين فكيف يمكن أن يقال إنها منسوخة. قوله عز وجل: .

سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُواْ قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوٓاْ إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُواْ فِيهَاۚ فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓاْ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْۚ وَأُوْلَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿٩١﴾

﴿ستجدون آخرين﴾ قال ابن عباس: هم أسد وغطفان كانوا من حاضري المدينة فتكلموا بكلمة الإسلام رياء وهم غير مسلمين وكان الرجل منهم يقول له قومه بماذا آمنت يقول آمنت بهذا القرد والعقوب والخنفساء وإذا لقوا أصحاب رسول الله ﷺ قالوا لهم إنا على دينكم يريدون بذلك الأمن من الفريقين وفي رواية أخرى عن ابن عباس إنها نزلت في بني عبد الدار وكانوا بهذه الصفة ﴿يريدون أن يأمنوكم﴾ يعني يريدون بإظهار الإيمان أن يأمنوكم فلا

للعهد الذي بينكم، ﴿ أو يقاتِلُوا قومَهم ﴾، يعني: مَن أمِنَ منهم، ويجوز أن يكون معناه أنهم لا يقاتلونكم مع قومهم ولا يقاتلون قومهم معكم، يعني قريشاً قد ضاقت صُدُورُهم لذلك، وقال بعضهم: أو بمعنى الواو، كأنه يقول: إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق أو جاؤوكم حَصِرَتْ صدورُهم، أي: حصرت صدورهم عن قتالهم والقتال معكم، وهم قوم هلال الأسلميون وبنو بكر، نهَى اللَّهُ سبحانه عن قتال هؤلاء المرتدّين إذا اتصلوا بأهل عهدٍ للمسلمين، لأنّ مَن انضمّ إلى قوم ذوي عهدٍ فله حكمهم في حقن الدماء. قوله تعالى: ﴿ ولو شَاءَ اللَّهُ لسلّطَهُمْ عليكم فَلَقَاتَلُوكُمْ ﴾، يذكر مِنّتَهُ على المسلمين بكفّ بأسِ المعاهدين، يقول: إن ضيق صدورهم عن قتالكم لمّا ألقى الله في قلوبهم من الرعب وكفّهم عن قتالكم، ولو شاء الله لسلّطهم عليكم فَلَقَاتلوكم مع قومهم، ﴿ فإنِ اعْتَزَلُوكم ﴾ أي: اعتزلوا قتالَكم، ﴿ فلم يُقاتِلُوكم ﴾، ومَن اتصل بهم، ويقال: يوم فتح مكة يقاتلوكم مع قومهم، ﴿ وألقوا إليكُمُ السَّلَم ﴾، أي: الصلح فانقادُوا واستسلموا ﴿ فما جعلَ اللَّهُ لكم عليهم سبيلاً ﴾ أي: طريقاً بالقتل والقتال.

قوله تعالى: ﴿ سَتَجِدُون آخَرين ﴾ قال الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما: هم أسد وغَطَفَان كانوا حاضري المدينة تكلموا بالإسلام رياءً وهم غير مسلمين، وكان الرجل منهم يقول له قومه: بماذا أسلمت؟ فيقول: آمنت بهذا القرد وبهذا العقرب والخنفساء، وإذا لقوا أصحاب النبي ﷺ قالوا: إنّا على دينكم، يريدون بذلك الأمنَ في الفريقين، وقال الضحاك عن ابن عباس: هم بنو عبد الدار كانوا بهذه الصفة، ﴿ يُرِيدُون

تتعرضوا لهم ﴿ويأمنوا قومهم﴾ يعني بإظهار الكفر لهم فلا يتعرضوا لهم ﴿كلما ردوا إلى الفتنة﴾ يعني كلما دعوا إلى الشرك ﴿أركسوا فيها﴾ رجعوا إلى الشرك وقادوا إليه منكوسين على رؤوسهم فيه ﴿فإن لم يعتزلوكم﴾ يعني فإن لم يكفوا عن قتالكم حتى يسيروا إلى مكة ﴿ويلقوا إليكم السلم ويكفوا أيديهم﴾ أي ولم يلقوا الصلح ولم يكفوا عن قتالكم ﴿فخذوهم﴾ يعني أسرى ﴿واقتلوهم حيث ثقفتموهم﴾ يعني حيث أدركتموهم ﴿وأولئكم﴾ يعني أهل هذه الصفة ﴿جعلنا لكم عليهم سلطاناً مبيناً﴾ يعني حجة ظاهرة بالقتل والقتال وقيل الحجة الواضحة هي ظهور عداوتهم وانكشاف حالهم بالكفر والعداوة. قوله تعالى: .

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٢﴾﴾

﴿وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمناً إلّا خطأ﴾ الآية نزلت في عياش بن أبي ربيعة المخزومي وذلك أنه أتى رسول الله ﷺ وهو بمكة قبل الهجرة فأسلم ثم خاف أن يظهر إسلامه لأهله فخرج هارباً إلى المدينة وتحصن في أطم من أطامها والأطم الحصن فجزعت أمه لذلك جزعاً شديداً، وقالت لابنها الحارث وأبي جهل ابني هشام وهما أخوا عياش بن أبي ربيعة لأمه والله لا يظلني سقف ولا أذوق طعاماً ولا شراباً حتى تأتيان به فخرجا في طلبه وخرج معهما الحارث بن زيد بن أبي أنيسة حتى أتوا المدينة فأتوا عياشاً وهو في الأطم فقالوا: أنزل فإن أمك لم يؤوها سقف بعدك وقد حلفت لا تأكل ولا تشرب حتى ترجع إليها ولك عهد تالله علينا أن لا نكرهك على شيء يحول بينك وبين دينك. فلما ذكروا له جزع أمه وأوثقوه بنسعة وجلده كل واحد منهم مائة جلدة ثم قدموا به على أمه فلما أتاها قالت لا أحلك من وثاقك حتى تكفر بالذي آمنت به ثم تركوه موثقاً في الشمس ما شاء الله فأعطاهم الذي أرادوا فأتاه الحارث بن زيد فقال: يا عياش أهذا الذي كنت عليه لئن كان هدى لقد تركت الهدى ولئن كان ضلالة لقد كنت عليها فغضب عياش من مقالته وقال والله لألقاك خالياً إلّا قتلتك ثم إن عياشاً أسلم بعد ذلك وهاجر وأسلم الحارث بن زيد من بعده وهاجر إلى رسول الله ﷺ وليس عياش حاضراً يومئذٍ ولم يشعر بإسلامه فبينا عياش

﴿أنْ يأمنُوكم﴾، فلا تتعرضوا لهم، ﴿ويأمَنُوا قومَهم﴾، فلا يتعرضوا لهم، ﴿كلَّما رُدُّوا إلى الفِتْنَةِ﴾ أي: دُعُوا إلى الشرك، ﴿أُرْكِسُوا فيها﴾، أي: رجعوا وعادوا إلى الشرك، ﴿فإنْ لم يعْتزِلُوكم﴾ أي: فإن لم يكفُّوا عن قتالكم حتى تسيروا إلى مكة، ﴿ويُلْقُوا إليكم السَّلَم﴾ أي: المفادة والصلح، ﴿ويَكُفُّوا أيديَهُمْ﴾، ولم يقبضوا أيديهم عن قتالكم، ﴿فَخُذُوهُمْ﴾، أسراء، ﴿واقْتُلوهم حيثُ ثَقِفْتُمُوهم﴾ أي: وجدتموهم، ﴿وأولئِكُمْ﴾ أي: أهل هذه الصفة، ﴿جَعلْنَا لكُمْ عليهم سُلْطاناً مُبيناً﴾ أي: حُجَّةً بيِّنةً ظاهرة بالقتل والقتال.

قوله تعالى: ﴿وما كانَ لمؤمنٍ أن يَقْتُلَ مؤمناً﴾، الآية نزلت في عياش بن أبي ربيعة المخزومي وذلك أنه أتى رسول الله ﷺ بمكة قبل الهجرة فأسلم ثم خاف أن يُظهر إسلامَه لأهله فخرج هارباً إلى المدينة، وتحصّن في أطم من آطامها، فجزعت أمه لذلك جزعاً شديداً وقالت لابنها الحارث وأبي جهل بن هشام وهما أخواه لأمه: والله لا يظِلّني سقف ولا أذوق طعاماً ولا شراباً حتى تأتوني به، فخرجا في طلبه وخرج معهما الحارث بن زيد بن أبي أنيسة حتى أتوا المدينة، فأتوا عياشاً وهو في الأطم، قالا له: إنزل فإنّ أمّك لم يُؤوها سقفَ بيت بعدك، وقد حلفت

يسير بظهر قباء إذ لقي الحارث فقتله فقال لهم ناس: ويحك يا عياش أي شيء صنعت إنه قد أسلم فرجع عياش إلى رسول الله ﷺ وقال يا رسول الله إنه كان من أمري وأمر الحارث ما قد علمت وإني لم أشعر بإسلامه حتى قتلته فنزل وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمناً إلا خطأ ومعنى الآية وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمناً ألبته وما كان له سبب جواز قتله وقيل معناه ما كان له ذلك فيما أتاه من ربه وعهد إليه ففيه تحريم قتل المؤمن من كل وجه وقوله تعالى إلاّ خطأ استثناء منقطع معناه لكن إن وقع خطأ فتحرير رقبة. وقيل معناه ما كان لمؤمن أن يقتل مؤمناً البتة إلاّ أن يخطىء المؤمن فكفارة خطئه ما ذكر من بعد والخطأ فعل الشيء من غير قصد وتعمد **﴿ومن قتل مؤمناً خطأ فتحرير رقبة مؤمنة﴾** يعني فعليه إعتاق رقبة مؤمنة كفارة **﴿ودية مسلمة إلى أهله﴾** أي وعليه دية كاملة مسلمة إلى أهل القتيل الذين يرثونه **﴿إلاّ أن يصدقوا﴾** يعني إلاّ أن يتصدق أهل القتيل على القاتل بالدية ويعفو عنه **﴿فإن كان﴾** يعني المقتول **﴿من قوم عدو لكم وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة﴾** أراد أنه إذا كان رجل مسلم في دار الحرب وهو منفرد مع قوم كفار فقتله من لم يعلم بإسلامه فلا دية عليه الكفارة وقيل المراد منه إنه إذا كان المقتول مسلماً في دار الإسلام وهو من نسب قوم كفار وأهله الذين يرثونه في دار الحرب وهم حرب للمسلمين ففيه الكفارة ولا دية لأهله وكان الحارث بن زيد من قوم كفار حرب للمسلمين فكان فيه الكفارة تحرير رقبة مؤمنة دون الدية لأنه لم يكن بين قومه وبين المسلمين عهد **﴿وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق﴾** أي عهد **﴿فدية مسلمة إلى أهله وتحرير رقبة مؤمنة﴾** يعني أنه إذا كان المقتول كافراً معاهداً أو ذمياً فتجب فيه الدية والكفارة **﴿فمن لم يجد الرقبة﴾** فصيام شهرين متتابعين أي فعليه صيام شهرين متتابعين بدلاً عن الرقبة **﴿توبة من الله﴾** يعني جعل الله ذلك توبة لقاتل الخطأ **﴿وكان الله عليماً﴾** يعني بمن قتل خطأ **﴿حكيماً﴾** يعني فيما حكم به عليه من الدية والكفارة.

فصل في أحكام تتعلق بالآية وفيه مسائل

المسألة الأولى: في بيان صفة القتل: قال الشافعي: القتل على ثلاثة أقسام: عمد وشبه عمد وخطأ، أما العمد المحض فهو أن يقصد قتل إنسان بما يقتل به غالباً فقتل به ففيه القصاص عند وجود التكافؤ أو دية حالة

ألاّ تأكل طعاماً ولا تشرب شراباً حتى ترجع إليها ولك عهد الله علينا أن لا نكرهك على شيء ولا نحول بينك وبين دينك، فلما ذكروا له جزع أُمه وأوثقوا له بالله نزل إليهم فأخرجوه من المدينة ثم أوثقوه بنسعةٍ فجلده كل واحد منهم مائة جلدة، ثم قَدِمُوا به على أمّه فلما أتاها قالت: والله لا أُحِلّكَ من وثاقك حتى تكفر بالذي آمنت به، ثم تركوه موثقاً مطروحاً في الشمس ما شاء الله فأعطاهم الذي أرادوا فأتاهم الحارث بن زيد فقال: يا عياش أهذا الذي كنت عليه فوالله لئن كان هُدىً لقد تركت الهدى، ولئن كان ضلالة لقد كنت عليها، فغضب عياش من مقالته، وقال: والله لا ألقاك خالياً أبداً إلاّ قتلتك، ثم إن عياشاً أسلم بعد ذلك وهاجر ثم أسلم الحارث بن زيد بعده وهاجر إلى رسول الله ﷺ وليس عياش حاضراً يومئذ ولم يشعر بإسلامه فبينما عياش يسير بظهر قباء إذْ لقي الحارثَ فقتله، فقال الناس: ويحك أيّ شيء قد صنعت؟! إنه قد أسلم، فرجع عياش لرسول الله ﷺ وقال: يا رسول الله قد كان من أمري وأمر الحارث ما قد علمت، وإني لم أشعر بإسلامه حتى قتلته، فنزل: **﴿وَمَا كَانَ لِمُؤمنٍ أنْ يقتلَ مؤمناً إلاّ خطأً﴾**، وهذا نهيٌ عن قتل المؤمن، كقوله تعالى: ﴿ وما كان لكم أن تُؤْذُوا رسولَ الله ﴾ [الأحزاب: ٥٣]، **﴿ إلاّ خطأً ﴾**، استثناء منقطع مَعناه: لكنْ إنْ وقعَ خطأ، **﴿ وَمَنْ قَتَلَ مؤمناً خطأً فتحريرُ رقبةٍ مُؤمنةً ﴾** أي: فعليه إعتاق رقبة مؤمنة كفّارة، **﴿ ودِيَةٌ مُسلّمة ﴾**، كاملة، **﴿ إلى أهْلِهِ ﴾** أي: إلى أهل القتيل الذين يرثونه، **﴿ إلاّ أنْ يَصّدَّقُوا ﴾** أي: يتصدقوا بالدية فيعفوا ويتركوا الدية، **﴿ فإنْ كانَ مِنْ قومٍ عدوٍّ لكُمْ وهو مؤمنٌ فتحريرُ رقبةٍ مُؤْمنةٍ ﴾**، أراد به

مغلظة في مال القاتل. وأما شبه العمد فهو أن يقصد ضرب إنسان بما لا يقتل بمثله غالباً مثل أن ضربه بعصا خفيفة أو رماه بحجر صغير فمات فلا قصاص عليه وتجب عليه دية مغلظة على عائلته مؤجلة إلى ثلاث سنين. وأما الخطأ المحض فهو أن لا يقصد قتله بل قصد شيئاً آخر فأصابه فمات منه فلا قصاص عليه وتجب فيه دية مخففة على عاقلته مؤجلاً إلى ثلاث سنين ومن صور قتل الخطأ أن يقصد رمي مشرك أو كافر فيصيب مسلماً أو يقصد قتل إنسان يظنه مشركاً بأن كان عليه لباس المشركين أو شعارهم فالصورة الأولى خطأ في الفعل والثانية خطأ في القصد.

المسألة الثانية: في حكم الديات: فدية الحر المسلم مئة من الإبل فإذا عدمت الإبل فتجب قيمتها من الدراهم أو الدنانير في قول وفي قول بدل مقدر وهو ألف دينار أو أثنا ألف درهم ويدل على ذلك ما روي عن عبدالله بن عمرو بن العاص. قال كانت الدية على عهد رسول الله ﷺ ثمانمائة دينار أو ثمانية آلاف درهم قال وكانت دية أهل الكتاب يومئذٍ على النصف من دية المسلم فكانت كذلك حتى استخلف عمر فقام خطيباً فقال إن الإبل قد غلت ففرضها عمر على أهل الذهب ألف دينار وعلى أهل الورق اثني عشر ألف درهم وعلى أهل البقر مائتي بقرة وعلى أهل الشاء ألفي شاة وعلى أهل الحلل مائتي حلة قال: وترك دية أهل الكتاب فلم يرفعها فيما رفع من الدية أخرجه أبو داود فذهب قوم إلى أن الواجب في الدية مائة من الإبل وألف دينار أو اثنا عشر ألف درهم وهو قول عروة بن الزبير والحسن البصري وبه قال والشافعي وذهب قوم إلى أنها من الإبل أو ألف دينار أو عشرة آلاف درهم وهو قول سفيان الثوري وأصحاب الرأي ودية المرأة نصف دية الذكر الحر ودية أهل الذمة والعهد ثلث دية المسلم إن كان كتابياً وإن كان مجوسياً فخمس الثلث ثمانمائة درهم وهو قول سعيد بن المسيب. وإليه ذهب

إذا كان الرجل مسلماً في دار الحرب منفرداً مع الكفّار فقتله مَن لم يعلم بإسلامه فلا دية عليه، وعليه الكفّارة، وقيل: المراد منه إذا كان المقتول مسلماً في دار الإسلام وهو من نَسَبِ قوم كفّار، وقرابتُهُ فِي دار الحرب حربٌ للمسلمين ففيه الكفّارة ولا دية لأهله، وكان الحارث بن زيد من قوم كفّار حرب للمسلمين وكان فيه تحرير رقبة ولم يكن فيه دية لأنه لم يكن بين قومه وبين المسلمين عهد. قوله تعالى: ﴿ **وإنْ كانَ مِنْ قومٍ بينَكم وبينَهمْ مِيثاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلّمَةٌ إلى أهلِهِ وتحريرُ رقبةٍ مُؤمنةٍ** ﴾ أراد به إذا كان المقتول كافراً ذمّياً أو معاهداً فيجب فيه الدية والكفّارة، والكفّارة تكون بإعتاق رقبة مؤمنة سواء كان المقتول مسلماً أو معاهداً رجلاً كان أو امرأةً حرّاً كان أو عبداً وتكون في مال القاتل، ﴿ **فمَنْ لم يجدْ فصيامُ شهرينِ متتابعين** ﴾، والقاتل إن كان واجداً للرقبة أو قادراً على تحصيلها بوجود ثمنها فاضلاً عن نفقته ونفقة عياله وحاجته من مسكن ونحوه فعليه الإعتاق، ولا يجوز أن ينتقل إلى الصوم فإن عجز عن تحصيلها فعليه صومُ شهرين متتابعين، فإن أفطر يوماً متعمّداً في خلال الشهرين أو نسي النيّة ونوى صوماً آخر وجب عليه استئناف الشهرين، وإن فَصَلَ يوماً بعُذرِ مرضٍ أو سفر فهل ينقطع التتابع؟ اختلف أهل العلم فيه، فمنهم مَن قال: ينقطع وعليه استئناف الشهرين، وهو قول النخعي وأظهر قولِ الشافعي رضي الله عنه لأنه أفطر مختاراً، ومنهم مَن قال: لا ينقطع وعليه أن يبني، وهو قول سعيد بن المسيب والحسن والشعبي، ولو حاضت المرأة في خلال الشهرين أفطرت أيام الحيض ولا ينقطع التتابع، فإذا طَهُرتْ بَنَتْ على ما أصابت، لأنه أمرٌ مكتوب على النساء لا يمكنهنّ الاحتراز عنه، فإن عجز عن الصوم فهل يخرج عنه بإطعام ستّين مسكيناً، فيه قولان، أحدهما: يخرج كما في كفّارة الظهار، والثاني لا يخرج لأن الشرع لم يذكر له بدلاً فقال: ﴿ **فصيام شهرين متتابعين** ﴾.
﴿ **تَوبةً مِنَ اللّهِ** ﴾ أي: جعل الله ذلك توبة القاتل الخطأ ﴿ **وكانَ اللّهُ عليماً** ﴾، بمَن قتل خطأً ﴿ **حكيماً** ﴾ فيما حكم به عليكم، أمّا الكلام في بيان الدية فاعلم أن القتل على ثلاثة أنواع: عمد محض وشبه عمد وخطأ محض،

الشافعي وذهب قوم إلى أن دية الذمي والمعاهد مثل دية المسلم روي ذلك عن ابن مسعود وهو قول سفيان الثوري وأصحاب الرأي وقال قوم دية الذمي نصف دية المسلم وهو قول عمر بن عبدالعزيز وبه قال مالك وأحمد والأصل في ذلك ما روي عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله ﷺ قال: دية المعاهد نصف دية الحر أخرجه أبو داود وعنه أن النبي ﷺ قال عقل أهل الذمة نصف عقل المسلمين وهم اليهود والنصارى أخرجه النسائي فمن ذهب إلى أن دية أهل الذمة ثلث دية المسلم أجاب عن هذا الحديث بأن الأصل في ذلك كان النصف ثم رفعت زمن عمر دية المسلم، ولم ترفع دية الذمي فبقيت على أصلها وهو قدر الثلث من دية المسلمين والدية في قتل العمد وشبه العمد مغلظة فتجب ثلاثون حقة وثلاثون جذعة وأربعون في بطونها أولادها. وهذا قول عمر وزيد بن ثابت وبه قال عطاء وإليه ذهب الشافعي لما روي عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله ﷺ قال من قتل متعمداً دفع إلى أولياء المقتول فإن شاؤوا قتلوا وإن شاؤوا أخذوا الدية وهي وثلاثون حقه ثلاثون جذعة وأربعون خلفة وما صولحوا عليه فهو لهم وذلك لتشديد العقل. أخرجه الترمذي وقال حديث حسن غريب وعن عقبة بن أوس عن رجل من أصحاب النبي ﷺ قال خطب النبي ﷺ يوم الفتح فقال: «ألا وإن قتيل العمد بالسوط والعصا والحجر مائة من الإبل أربعون ثنية إلى بازل عامها كلهن خلفة» وفي رواية أخرى ألا إن كل قتيل خطأ العمد أو شبه العمد قتيل السوط والعصا مائة من الإبل فيها أربعون في بطونها أولادها أخرجه النسائي وذهب قوم إلى أن الدية المغلظة أرباع خمس وعشرون بنت مخاض وخمس وعشرون بنت لبون وخمس عشرون حقة وخمس وعشرون جذعة وهذا قول الزهري وربيعة وإليه ذهب مالك وأحمد وأصحاب الرأي. وأما دية الخطأ فمخففة وهي أخماس بالاتفاق غير أنهم اختلفوا في تقسيمها فذهب قوم إلى أنها عشرون بنت مخاض وعشرون بنت لبون

أما المحض فهو: أن يقصد قتل إنسان بما يقصد به القتل غالباً فقتله ففيه القصاص عند وجود التكافؤ، أو دِيةٌ مغلّظة في مال القاتل حالة، وشبه العمد أن يقصد ضربه بما لا يموت مثله من ذلك الضرب غالباً، بأن ضربه بعصاً خفيفةً، أو حجرٍ صغير ضربةً أو ضربتين، فمات فلا قصاص فيه، بل يجب فيه دِيةٌ مغلّظة على عاقلته مؤجّلةً إلى ثلاث سنين، والخطأ المحض هو: أن لا قصد قتله بل يقصد شيئاً آخر فأصابه فمات منه فلا قصاص فيه، بل تجب ديةٌ مخفّضة على عاقلته مؤجّلة إلى ثلاث سنين وتجب الكفّارة في ماله في الأنواع كلها، وعند أبي حنيفة رضي الله عنه قتل العمل لا يوجِب الكفّارة لأنه كبيرة كسائر الكبائر، ودِيَةُ الحرّ المسلم مائة من الإبل فإذا عُدِمَت الإبل وجبت قيمتها من الدراهم أو الدنانير في قول، وفي قول يجب بدل مقدّر منها وهو ألف دينار، أو اثني عشر ألف درهم، لِما رُوِيَ عن عمر رضي الله عنه فرض الدية على أهل الذهب ألف دينار، وعلى أهل الورق اثني عشر ألف درهم، وذهب قوم إلى أن الواجب في الدية مائة من الإبل، أو ألف دينار أو اثنا عشر ألف درهم، وهو قول عروة بن الزبير والحسن البصري رضي الله عنهما، وبه قال مالك وذهب قوم إلى أنها مائة من الإبل أو ألف دينار، أو عشرة آلاف درهم، وهو قول سفيان الثّوري وأصحاب الرأي، ودية المرأة نصف دية الرجل، ودية أهل الذمّة والعهد ثُلثُ دِيَةِ المسلم إن كان كتابياً وإن كان مجوسياً فخُمْسُ الدِّيَةِ، ورُوِيَ عن عمر رضي الله عنه أنه قال: دِيَةُ اليهودي والنصراني أربعة آلاف درهم، ودية المجوسي ثمانمائة درهم، وهو قول سعيد بن المسيب والحسن وإليه ذهب الشافعي رضي الله عنه، وذهب قوم إلى أن دِيَة الذمّي والمعاهد مثل دِيَةِ المسلم، رُوِيَ ذلك عن ابن مسعود رضي الله عنه وهو قول سفيان الثّوري وأصحاب الرأي، وقال قوم: دِيَةُ الذميّ نصف دية المسلم وهو قول عمر بن عبد العزيز، وبه قال مالك وأحمد رحمهما الله، والدية في العمد المحض وشبه العمد مغلّظة بالسِّن فيجب ثلاثون حُقّة وثلاثون جَذَعة وأربعون خَلِفَة في بطونها أولادها، وهو قول عمر بن الخطاب وزيد بن ثابت رضي الله عنهما،

وعشرون ابن لبون وعشرون حقة وعشرون جذعة وهذا قول عمر بن عبدالعزيز وسليمان بن يسار والزهري وربيعة وبه قال مالك والشافعي وأبدل قوم أبناء اللبون ببنات المخاض يرون ذلك عن ابن مسعود وبه قال أحمد وأصحاب الرأي والدية في قتل الخطأ وشبه العمد على العاقلة وهم العصبيات من الذكور ولا يجب على الجاني منها شيء لأن النبي ﷺ أوجبها على العاقلة ودية الأعضاء والأطراف حكمها مبين في كتب الفقه ودية أعضاء المرأة على النصف من دية أعضاء الرجل والله أعلم.

المسألة الثالثة: في حكم الكفارة: الكفارة إعتاق رقبة مؤمنة وتجب في مال القاتل سواء كان المقتول مسلماً أو معاهداً رجلاً كان أو امرأة حراً كان أو عبداً فمن لم يجد الرقبة فعليه صيام شهرين متتابعين فالقاتل إن كان واجداً للرقبة أو قادراً على تحصيلها بوجود الثمن فاضلاً عن نفقته ونفقة عياله وحاجته من مسكن ونحوه فعليه الإعتاق. ولا يجوز له أن ينتقل إلى الصوم فمن عجز عن الرقبة أو عن تحصيل ثمنها فعليه صوم شهرين متتابعين فإن أفطر يوماً متعمداً في خلال الشهرين أو نسي النية أو نوى صوماً آخر وجب عليه استئناف الشهرين وإن أفطر يوماً بعذر مرض أو سفر هل ينقطع التابع؟ اختلف العلماء فيه فمنهم من قال ينقطع التتابع وعليه استئناف الشهرين وهو قول النخعي وأظهر قولي الشافعي لأنه أفطر مختاراً. ومنهم من قال لا ينقطع التتابع وعليه أن يبني وهو قول سعيد بن المسيب والحسن والشعبي ولو حاضت المرأة في خلال الشهرين فطرت أيام الحيض ولا ينقطع التتابع فإذا طهرت بنت لأنه أمر كتبه الله على النساء ولا يمكن الاحتراز عنه فإن عجز عن الصوم فهل ينتقل عنه إلى الإطعام فيطعم ستين مسكيناً ففيه قولان: أحدهما أنه ينتقل إلى الإطعام كما في كفارة الظهار. والثاني لا ينتقل لأن الله تعالى لم يذكر له بدلاً فقال فصيام شهرين متتابعين توبة من الله فنص على الصوم وجعل ذلك عقوبة لقتل الخطأ والله أعلم.

قوله عز وجل:

﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾﴾

﴿ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم﴾ نزلت في مقيس بن صبابة الكناني وكان قد أسلم هو وأخوه هشام

وبه قال عطاء: وإليه ذهب الشافعي رضي الله عنه، لِما أخبرنا عبد الوهاب بن محمد الخطيب أنا عبد العزيز بن أحمد الخلال أنا أبو العباس الأصم أنا الربيع أنا الشافعي رضي الله عنه أنا ابن عيينة عن علي بن زيد بن جدعان عن القاسم بن ربيعة عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «ألاَ إنّ في قتل العمد الخطأ بالسَّوط والعصا مائة من الإبلِ مُغلّظة، منها أربعون خَلِفَة في بطونها أولادها»، وذهب قوم إلى أن الدِّية المغلّظة أرباعٌ: خمسٌ وعشرون بنت مخاض، وخمسٌ وعشرون بنت لبون، وخمسٌ وعشرون حُقّة، وخمسٌ وعشرون جَذَعة، وهو قول الزهري وربيعة وبه قال مالك وأحمد وأصحاب الرأي، وأمّا دِيَةُ الخطأ فمخفّفة، وهي أخماسٌ بالاتفاق، غير أنهم اختلفوا في تقسيمها، فذهب قوم إلى أنها عشرون بنت مخاض، وعشرون بنت لَبُون، وعشرون ابن لَبون، وعشرون حُقّة، وعشرون جَذَعة، وهو قول عمر بن عبد العزيز وسليمان بن يسار والزهري وربيعة، وبه قال مالك والشافعي رحمهم الله، وأبدل قوم بني اللّبون ببنات المخاض، يُروى عن ابن مسعود رضي الله عنه وبه قال أحمد وأصحاب الرأي ودية الأطراف على هذا التقدير، ودية المرأة فيها على النصف من دية الرجل والدية في قتل الخطأ وشبه العمد على العاقلة وهم عصبات القاتل من الذكور ولا يجب على الجاني منها شيء لأن النبي ﷺ أَوْجَبَها على العاقلة.

قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ يقتلْ مؤمناً متعمداً ﴾ الآية، نزلت في مقيس بن صبابة الكندي، وكان قد أسلم هو وأخوه

فوجد أخاه هشاماً قتيلاً في بني النجار فأتى رسول الله ﷺ فذكر له ذلك فأرسل رسول الله ﷺ رجلاً من بني فهر إلى بني النجار أن رسول الله ﷺ يأمركم إن علمتم قاتل هشام بن صبابة أن تدفعوه إلى أخيه مقيس فيتقص منه وأنت لم تعلموه ادفعوا إليه ديته فبلغهم الفهري ذلك فقالوا سمعاً وطاعة لله ولرسوله ما نعلم له قاتلاً ولكن نؤدي إليه ديته فأعطوه مائة من الإبل فانصرفا راجعين نحو المدينة فأتى الشيطان مقيساً فوسوس إليه فقال له: تقبل دية أخيك لتكون عليك سبة أقتل الفهري الذي معك فتكون نفس مكان نفس وفضل الدية فتغفل الفهري فرماه بصخرة فقتله ثم ركب بعيراً من الإبل وساق بقيتها راجعاً إلى مكة كافراً وقال في ذلك:

قتلت بـه فهـراً وحملـت عقلـه ... سـراة بنـي النجـار أربـاب قـارع

وأدركـت ثـأري واضطجعـت مـوسـداً ... وكنـيـت إلـى الأصنـام أول راجـع

فنزلت فيه ومن يقتل مؤمناً متعمداً يعني قاصداً لقتله فجزاؤه جهنم ﴿خالداً فيها﴾ يعني بكفره وارتداده وهو الذي استثناه النبي ﷺ يوم فتح مكة عمن أمنه من أهلها فقتل وهو متعلق بأستار الكعبة ﴿وغضب الله عليه﴾ يعني لأجل كفره وقتله المؤمن متعمداً ﴿ولعنه﴾ يعني وطرده عن رحمته ﴿وأعد له عذاباً عظيماً﴾ اختلف العلماء في حكم هذه الآية هل هي منسوخة أم لا؟ وهل لمن قتل مؤمناً متعمداً توبة؟ أم لا فروي عن سعيد بن جبير قال قالت لابن عباس ألمن قتل مؤمناً متعمداً من توبة قال لا؟ فتاوت عليه الآية التي في الفرقان والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر: «ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلّا بالحق» إلى آخر الآية قال هذه آية مكية نسختها آية مدنية، ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم وفي رواية قال اختلف أهل الكوفة في قتل المؤمن فرحلت إلى ابن عباس قال نزلت في آخر ما نزل ولم ينسخها شيء وفي رواية أخرى. قال ابن عباس: نزلت هذه الآية بالمدينة والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر إلى قوله مهاناً فقال المشركون وما يعني عنا الإسلام وقد عدلنا بالله وقد قتلنا النفس التي حرم الله وأتينا الفواحش فأنزل الله تعال: ﴿إلّا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً﴾ إلى آخر الآية زاد في رواية فأما من دخل في الإسلام وعقله ثم قتل فلا توبة له أخرجاه في الصحيحين. وروي عن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه أنه ناظر ابن عباس في هذه الآية فقال من أين لك أنها محكمة؟ فقال ابن عباس تكاثف الوعيد فيها وقال ابن مسعود

هشام فوجد أخاه هشام قتيلاً في بني النجار فأتى رسول الله ﷺ فذكر له ذلك فأرسل له رسول الله ﷺ معه رجلاً من بني فِهر إلى بني النجار أن رسول الله ﷺ يأمركم إن علمتم قاتل هشام بن صبابة أن تدفعوه إلى مقيس فيقتصّ منه وإن لم تعلموا أن تدفعوا إليه دِيَتَه، فأبلغهم الفهري ذلك فقالوا: سمعاً وطاعةً لله ولرسوله، والله ما نعلم له قاتلاً ولكنّا نُؤدّي ديته فأعطوه مائة من الإبل، ثم انصرفا راجعين نحو المدينة فيأتي الشيطان مقيساً فوسوس إليه، فقال: تقبل دية أخيك فتكون عليك مسبّة، قتل الذي معك فتكون نفس مكان نفس وفضل الدية، فتغفل الفهري فرماه بصخرة فقتله، ثم ركب بعيراً وساق بقيتها راجعاً إلى مكة كافراً فنزل فيه: ﴿ ومَنْ يَقْتُلْ مؤمناً متعمداً ﴾ ﴿ فجزاؤُهُ جهنَّمُ خالداً فيها ﴾، بكفرِهِ وارتدادِهِ، هو الذي استثناه النبي ﷺ يوم فتح مكة، عمّن أمَّنَهُ فقُتل وهو متعلق بأستار الكعبة، قوله تعالى: ﴿ وغَضِبَ اللَّهُ عليهِ ولعَنَهُ ﴾ أي: طرده عن الرحمة، ﴿ وأعدّ له عذاباً عظيماً ﴾، اختلفوا في حكم هذه الآية فحُكِيَ عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن قاتل المؤمن عمداً لا توبةَ له، فقيل له: أليس قد قال الله في سورة الفرقان: ﴿ ولا تقتلُوا النفسَ التي حرَّمَ اللَّهُ إلاّ بالحقّ ﴾ [الفرقان: ٦٨] إلى أن قال: ﴿ ومَنْ يفعلْ ذلك يلقَ أثاماً يُضاعفْ له العذابُ يومَ القيامة ويَخْلُدْ فيه مُهاناً إلاّ مَنْ تابَ ﴾ [الفرقان: ٦٩ و٧٠]، فقال: كانت هذه في الجاهلية وذلك أن أناساً من أهل الشرك كانوا قد قتلوا وزنوا فأتوا رسول الله ﷺ فقالوا: إنّ الذي تدعو إليه لَحَسَنٌ، ويخبرنا أن لمّا عملنا كفّارة، فنزلت ﴿ والذينَ لا يدعُونَ معَ اللهِ إلَهاً آخر ﴾ إلى قوله: ﴿ إلّا مَنْ تابَ وآمن ﴾

إنها محكمة وما تزداد إلّا شدة وعن خارجة بن زيد قال سمعت زبيد بن ثابت يقول أنزلت هذه الآية ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها بعد التي في الفرقان والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله بالحق بستة أشهر. أخرجه أبو داود والنسائي وزاد النسائي في رواية أشهر بثمانية أشهر. وقال زيد بن ثابت لما نزلت هذه الآية التي في الفرقان والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر عجبنا من لينها فلبثنا سبعة أشهر ثم نزلت الغليظة بعد اللينة فنسخت اللينة وأراد بالغليظة هذه الآية التي في سورة النساء وباللينة آية الفرقان. وذهب الأكثرون من علماء السلف والخلف إلى أن هذه الآية منسوخة واختلفوا في ناسخها. فقال بعضهم نسختها التي في الفرقان وليس هذا القول بالقوي لأن آية الفرقان نزلت قبل آية النساء والمتقدم لا ينسخ المتأخر وذهب جمهور من قال بالنسخ إلى أن ناسخها الآية التي في النساء أيضاً وهي قوله تعالى: ﴿**إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء**﴾ وأجاب من ذهب إلى أنها منسوخة عن حديث ابن عباس المتقدم المخرج في الصحيحين بأن هذه الآية خبر عن وقوع العذاب بمن فعل ذلك الأمر المذكور في الآية والنسخ لا يدخل الإخبار ولئن سلمنا أنه يدخلها النسخ لكن الجمع بين الآيتين ممكن، بحيث لا يكون بينهما تعارض، وذلك بأن يحمل مطلق آية النساء على تقييد آية الفرقان فيكون المعنى فجزاؤه جهنم إلّا من تاب وقال بعضهم ما ورد عن ابن عباس إنما هو على سبيل التشديد والمبالغة في الزجر عن القتل فهو كما روي عن سفيان بن عيينة أنه قال إن لم يقتل يقال له لا توبة لك وإن قتل ثم ندم وجاء تائباً يقال له لك توبة وقيل إنه قد روي عن ابن عباس مثله وروي عنه أيضاً أن توبته تقبل وهو قول أهل السنة ويدل عليه الكتاب والسنة. أما الكتاب فقوله تعالى: ﴿**وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً**﴾ ثم اهتدى وقوله إن الله يغفر الذنوب جميعاً وأما السنة فما روي عن جابر بن عبدالله قال جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال يا رسول الله ما الموجبتان؟ قال: «من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة ومن مات يشرك به شيئاً دخل النار» أخرجه مسلم (ق) عن عبادة بن الصامت قال كنا مع رسول الله ﷺ فقال تبايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئاً ولا تسرقوا ولا تزنوا ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلّا بالحق وفي رواية ولا تقتلوا أولادكم ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم ولا تعصوني في معروف فمن وفى منكم فأجره على الله ومن أصاب شيئاً من ذلك فستره الله عليه فأمره إلى الله إن شاء عفا عنه وإن شاء عذبه فبايعناه على ذلك.

[الفرقان: ٦٨ ـ ٧٠]، فهذه لأولئك وأمّا التي في النساء فالرجل إذا عرف الإسلام وشرائعه ثم قتل مسلماً معتمداً فجزاؤه جهنم، وقال زيد بن ثابت: لمّا نزلت التي في الفرقان ﴿والـذينَ لا يدعُـونَ مـعَ اللَّهِ إلٰهـاً آخر﴾ [الفرقان: ٦٨ ـ ٧٠]، عجبنا من لينها فلبثنا سبعة أشهر ثم نزلت الغليظة بعد اللّينة فنسخت اللّينة، وأراد بالغليظة الآية، وباللّينة آية الفرقان، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: تلك آية مكية وهذه مدنية ولم ينسخها شيء، والذي عليه الأكثرون، وهو مذهب أهل السُّنّة أن قاتل المسلم عمداً توبته مقبولة لقوله تعالى: ﴿ وإني لغفّارٌ لمَنْ تابَ وآمنَ وعمـلَ صالحـاً ﴾ [طه: ٨٢] وقـال: ﴿ إنّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أنْ يُشْـرَكَ به ويَغْفِـرُ مَـا دُونَ ذلـكَ لمَنْ يشـاء ﴾ [النساء: ٤٨ و١١٦]، وما رُوِيَ عن ابن عباس رضي الله عنهما فهو تشديد ومبالغة في الزجر عن القتل، كما رُوِيَ عن سفيان بن عُيينة أنه قال: إنْ لم يَقْتُلْ يُقال له: لا توبةَ لك، وإنْ قَتَلَ ثم جاء يُقال لك توبة. ويُروَى مثله عن ابن عباس رضي الله عنهما، وليس في الآية متعلّق لمَن يقول بالتخليد في النار بارتكاب الكبائر، لأن الآية نزلت في قاتل وهو كافر، وهو مقيس بن صبابة، وقيل: إنه وعيد لمَن قتل مؤمناً مُستحلاً لقتله بسبب إيمانه، ومَن استحلّ قتل أهل الإيمان لإيمانهم كان كافراً مخلداً في النار، وقيل: قوله تعالى: ﴿ فجزاؤه جهنّمُ خالداً فيها ﴾ معناه هي جزاؤه إن جازاه، ولكنه إن شاء عذّبه وإن شاء غفر له بكرمه، فإنه وَعَدَ أنْ يغفر لمَن يشاء، حكي أن عمرو بن عبيد جاء إلى

فصل

وقد تعلقت المعتزلة والوعيدية بهذه الآية لصحة مذهبهم على أن الفاسق يخلد في النار وأجاب علماء بأن الآية نزلت في كافر قتل مسلماً وهو مقيس بن صبابة فتكون الآية على هذا مخصوصة. وقيل هذا الوعيد لمن قتل مسلماً مستحلاً لقتله ومن استحل قتل مسلم كان كافراً وهو مخلد في النار بسبب كفره وعن أبي مجلز في قوله تعالى ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم. قال: هي جزاؤه فإن شاء الله أن يتجاوز عن جزائه فعل أخرجه أبو داود. وقيل إن الخلود لا يقتضي التأبيد بل معناه دوام الحالة التي هو عليها ويدل عليه قول العرب للأيام خوالد وذلك لطول مكثها لا لدوام بقائها وإذا ذكر الخلود في حق الكفار قرنه بذكر التأبيد كقوله خالدين فيها أبداً فإذا قرن الخلود بهذه اللفظة علم أن المراد منه الدوام الذي لا ينقطع إذا ثبت هذا كان معنى الخلود المذكور في الآية أن الله تعالى يعذب قاتل المؤمن عمداً في النار إلى حيث يشاء الله ثم يخرجه منها بفضل رحمته كرمه. فإنه قد ثبت في أحاديث الشفاعة الصحيحة إخراج جميع الموحدين من النار وقيل إن قاتل المؤمن عمداً عدوانا إذا تاب قبلت توبته بدليل قوله تعالى: ﴿**ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء**﴾ ولأن الكفر أعظم من هذا القتل وتوبة الكافر من كفره مقبولة بدليل قوله: قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف وإذا كانت التوبة من الكفر مقبولة فلأن تقبل من القاتل أولى والله أعلم. قوله عز وجل: .

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٩٤﴾

﴿**يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله فتبينوا**﴾ الآية قال ابن عباس: نزلت في رجل من بني مرة بن عوف يقال له مرداس بن نهيك وكان من أهل فدك لم يسلم من قومه غيره فسمعوا بسرية لرسول الله ﷺ تريدهم

أبي عمرو بن العلاء فقال له: هل يُخلف اللَّهُ وعدَه؟ فقال: لا، فقال: أليس قد قال الله تعالى ﴿ **ومَنْ يقتلْ مؤمناً متعمِداً فجزاؤُه جهنَّمُ خالداً فيها** ﴾ فقال أبو عمرو بن العلاء: من العجم أتيت يا أبا عثمان إن العرب لا تعدّ الإخلاف في الوعيد خلفاً وذمّاً وإنما تعدّ إخلاف الوعد خلفاً وذمّاً وأنشد:

وإني وإنْ وعدتُه أو وعدتُه ... لمخلفُ إيعادي ومنجزُ موعدي

والدليل على أن غيرَ الشرك لا يوجب التخليد في النار ما روينا أن النبي ﷺ قال: «مَن مات لا يُشرك بالله شيئاً دخل الجنة»، أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا أبو اليمن أنا شعيب عن الزهري قال أخبرني أبو إدريس عائذ الله بن عبد الله أن عبادة بن الصامت رضي الله عنه وكان شهد يوم بدر وهو أحد النقباء ليلة العقبة أن رسول الله ﷺ قال وحوله عصابة من أصحابه: «بايعوني على أن لا تُشرِكوا بالله شيئاً ولا تسرِقُوا ولا تزنُوا ولا تقتلُوا أولادَكم ولا تأتوا ببهتانٍ تفترونَهُ بينَ أيديكُم وأرجلِكم ولا تعصُوا في معْروفٍ فمَنْ وفَّى منكم فأجرُه على الله، ومَن أصاب من ذلك شيئاً فعُوقِبَ في الدنيا فهو كفّارة له، ومَن أصاب من ذلك شيئاً ثم ستره الله عليه، فهو إلى الله إن شاءَ عفا عنه وإن شاء عاقبه»، فبايعناه على ذلك.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ **يا أيها الذينَ آمَنُوا إذا ضربْتُـمْ في سبيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا** ﴾ الآية، قال الكلبي عن أبي صالح

وكان على السرية رجل يقال له غالب بن فضالة الليثي فهربوا منه، وأقام ذلك الرجل المسلم فلما رأى الخيل خاف أن لا يكونوا مسلمين فألجأ غنمه إلى عاقول من الجبل وصعد هو الجبل، فلما تلاحقت الخيل سمعهم يكبرون فعرف أنهم من رسول الله ﷺ فكبر ونزل وهو يقول لا إله إلاّ الله محمد ﷺ السلام عليكم فتغشاه أسامة بن زيد بسيفه فقتله واستاق غنمه ثم رجعوا إلى رسول الله ﷺ فأخبروه الخبر فوجد رسول الله ﷺ من ذلك وجداً شديداً، وكان قد سبقهم الخبر فقال رسول الله ﷺ أقتلتموه إرادة ما معه؟ ثم قرأ رسول الله ﷺ على أسامة بن زيد هذه الآية فقال أسامة استغفر لي يا رسول الله فقال كيف أنت بلا إله إلاّ الله؟ يقولها ثلاث مرات قال أسامة فما زال رسول الله ﷺ يكررها حتى وددت أني لم أكن أسلمت إلاّ يومئذٍ ثم استغفر له رسول الله ﷺ وقال: أعتق رقبة وروى أبو ظبيان عن أسامة قال: قلت يا رسول الله إنما قالها خوفاً من السلاح فقال أفلا شققت عن قلبه حتى تعلم أقالها خوفاً أم لا؟ وفي رواية عن ابن عباس قال مر رجل من بني سليم على نفر من أصحاب رسول الله ﷺ ومعه غنم فسلم عليهم، فقالوا إنما سلم عليكم ليتعوذ منكم فقاموا إليه فقتلوه وأخذوا غنمه فأتوا بها رسول الله ﷺ فأنزل الله عز وجل هذه الآية: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله﴾ يعني إذا سافرتم إلى الجهاد فتبينوا من البيان يقال تبينت الأمر إذا تأملته قبل الإقدام عليه وقرىء فتثبتوا من التثبت وهو خلاف العجلة والمعنى فقفوا وتثبتوا حتى تعرفوا المؤمن من الكافر وتعرفوا حقيقة الأمر الذي تقدمون عليه ﴿ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام﴾ يعني التحية يعني لا تقوموا لمن حياكم بهذه التحية أنه إنما قالها تعوذا فتقدموا عليه بالسيف لتأخذوا ماله ولكن كفوا عنه وأقبلوا منه ما أظهره لكم وقرىء السلم بفتح السين من غير ألف ومعناه الاستسلام والانقياد أي استسلم وانقاد لكم وقال لا إله إلاّ الله محمد رسول الله وقيل السلام والسلم بمعنى واحد أي لا تقولوا لمن سلم عليكم ﴿لست مؤمناً﴾ يعني لست من أهل الإيمان فتقتلوه بذلك قال العلماء: إذا رأى الغزاة في بلد أو قرية أو حي من العرب شعار الإسلام يجب أن يكفوا عنهم ولا يغيروا عليهم لما روي عن عصام المزني قال كان رسول الله ﷺ إذا بعث جيشاً أو

عن ابن عباس رضي الله عنهما: نزلت هذه الآية في رجل من بني مرّة بن عوف يقال له مرادس بن نهيك، وكان من أهل فدك مسلماً لم يُسلم من قومه غيره، فسمعُوا بسريةٍ لرسول الله ﷺ تريدهم، وكان على السريّة رجل يُقالُ له غالب بن فُضالة الليثي، فهربُوا وأقام الرجل لأنه كان على دين المسلمين، فلما رأى الخيل خاف أن يكونوا من غير أصحاب النبي ﷺ فألْجأ غنمه إلى عاقُول من الجبل، وصعد هو إلى الجبل فلما تلاحقتِ الخيلُ سمعهم يكبّرون، فلمّا سمع التكبير عرف أنهم من أصحاب النبي ﷺ فكبّر ونزل وهو يقول لا إله إلاّ الله محمد رسول الله السلام عليكم فتغشاه أسامة بن زيد بسيفه فقتله واستاق غنمه ثم رجعوا إلى رسول الله ﷺ فأخبروه فوجد رسول الله ﷺ من ذلك وَجْداً شديداً وكان قدْ سبقهم قبل ذلك الخبر، قال رسول الله ﷺ: «أقتلتموه إرادةَ مَا مَعَهُ»؟ ثم قرأ هذه الآية على أُسامة بن زيد، فقال: يا رسول الله استغفر لي فقال فكيف بلا إله إلاّ الله؟ قالها رسول الله ﷺ ثلاث مرات، قال أسامة: فما زال رسول الله ﷺ يعيدها حتى وَدَدْتُ أني لم أكن أسلمت إلا يومئذ، ثم إن رسول الله ﷺ استغفرَ لي بعد ثلاث مرّات، وقال: «اعتقْ رقبةً»، وروَى أبو ظبيان عن أسامة رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله إنّما قال خوفاً من السلاح، قال: «أفلا شققتَ عن قلبه حتى تعلم أقالها خوفاً أم لا»؟ وقال عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: مرَّ رجلٌ من بني سليم على نفر من أصحاب النبي ﷺ ومعه غنم له فسلّم عليهم، قالوا: ما سلّم عليكم إلاّ ليتعوّذ منكم فقاموا وقتلُوه وأخذوا غنمه فأتوا بها إلى رسول الله ﷺ فأنزل اللّهُ تعالى هذه الآية: ﴿ يا أيّها الذين آمنوا إذا ضَرَبْتُم في سبيلِ اللّهِ ﴾، يعني إذا سافرتم في سبيل الله، يعني: الجهاد، ﴿ فَتَبيَّنُوا ﴾ قرأ حمزة والكسائي ههنا في موضعين وفي سورة الحجرات بالتاء والثاء من التثبيت، أي: قفوا حتى تعرفوا المؤمنَ من

سرية يقول لهم إذا رأيتم مسجداً أو سمعتم مؤذناً فلا تقتلوا أحداً أخرجه أبو داود والترمذي: وقال أكثر الفقهاء لو قال اليهودي أو النصراني أنا مؤمن لا يحكم بأيمانه لأنه يدعي أن الذي هو عليه إيمان ولو قال لا إله إلاّ الله محمد رسول الله فعند بعض العلماء لا يحكم حتى يتبرأ من دينه الذي كان عليه ويعترف أنه دين باطل وذلك لأن بعض اليهود يزعم أن محمداً رسول إلى العرب خاصة لا أنه رسول إلى كافة الخلق؛ فإذا اعترف أنه رسول إلى كافة الخلق وأن كان عليه من التهود أو التنصر باطل صح إسلامه وحكم بصحته وقوله تعالى: ﴿**تبتغون عرض الحياة الدنيا**﴾ يعني تطلبون الغنيمة التي هي من حطام الدنيا سريعة النفاد والذهاب وعرض الدنيا منافعها ومتاعها ﴿**فعند الله مغانم كثيرة**﴾ أي غنائم كثيرة من رزقه يغنمكوها يغنيكم بها عن قتل من يظهر الإسلام ويتعوذ به. وقيل معناه فعند الله ثواب كثير لمن اتقي قتل المؤمن ﴿**كذلك كنتم من قبل**﴾ يعني كما كان هذا الذي ألقى إليكم السلام فقلتم له لست مؤمناً فقتلتموه كنتم أنتم من قبل يعني من قبل أن يعز الله دينه كنتم تستخفون أنتم بدينكم كما استخفى هذا الذي قتلتموه بدينه من قومه حذراً على نفسه منهم، وقيل معناه كذلك كنتم تأمنون في قومكم بهذه الكلمة فلا تحقروا من قالها ولا تقتلوه وقيل معناه كذلك كنتم من قبل مشركين ﴿**فمن الله عليكم**﴾ يعني بالإسلام والهداية فلا تقتلوا من قال لا إله إلاّ الله وقيل معناه من عليكم بإعلان الإسلام بعد الإختفاء، وقيل من عليكم بالتوبة ﴿**فتبينوا**﴾ أي ولا تعجلوا بقتل مؤمن وهو تأكيد للأمر بالتبين ﴿**إن الله كان بما تعملون خبيراً**﴾ يعني فلا تتهاونوا في القتل وكونوا متحرزين من ذلك محتاطين فيه. قوله عز وجل:.

لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا (٩٥)

﴿**لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم**﴾ الآية (خ)

الكافر، وقرأ الآخرون بالياء والنون من التبيّن، يقال: تبينتُ الأمرَ إذا تأملته، ﴿ **ولا تقولُوا لِمَنْ ألقَى إليكُمُ السّلامَ** ﴾ هكذا قرأ أهل المدينة وابن عامر وحمزة، أي: المعاذة وهو قول «لا إلَه إلاّ الله محمد رسول الله»، وقرأ الآخرون السلام وهو السلام الذي هو تحية المسلمين لأنه كان قد سلّم عليهم، وقيل: السلّم والسلام واحد، أي: لا تقولوا لمَن سلّم عليكم لستَ مؤمناً، فذلك قوله تعالى: ﴿ **لستَ مؤمناً تَبْتَغُونَ عَرَضَ الحياةِ الدنيا** ﴾، يعني: تطلبون الغُنم والغنيمة، و﴿ **عرضَ الحياة الدنيا** ﴾ منافعها ومتاعها، ﴿ **فعندَ اللّهِ مغانِمُ** ﴾، أي غنائم، ﴿ **كثيرةٌ** ﴾، وقيل: ثوابٌ كثير لمَن اتّقَى قتلَ المؤمن، ﴿ **كذلك كنتمْ مِنْ قَبْلُ** ﴾، قال سعيد بن جبير: كذلك كنتم تكتُمون إيمانكم من المشركين ﴿ **فَمَنَّ اللّهُ عليكم** ﴾، بإظهار الإسلام، وقال قتادة: كنتم ضلاّلاً من قبل فمنَّ الله عليكم بالهداية، وقيل معناه: كذلك كنتم من قبل تأمنُون في قومكم بلا إلّه إلاّ الله قبل الهجرة فلا تخيفوا مَن قالها فمنَّ الله عليكم بالهجرة، ﴿**فَتَبَيَّنُوا**﴾ أنْ تقتلوا مؤمناً، ﴿**إنّ اللّهَ كان بما تعملونَ خبيراً** ﴾، قلتُ: إذا رأى الغزاةُ في بلد أو قرية شعارَ الإسلام فعليهم أن يكفُّوا عنهم، فإنّ النبي ﷺ كان إذا غزا قوماً فإن سمع أذاناً كفّ عنهم، وإن لم يسمع أغار عليهم. أخبرنا عبد الوهاب بن محمد الخطيب أنا عبد العزيز بن أحمد الخلال أنا أبو العباس الأصم أنا الربيع أنا الشافعي أنا سفيان عن عبد الملك بن نوفل بن مساحق عن ابن عصام عن أبيه أنّ النبي ﷺ كان إذا بعثَ سريةً قال: «إذا رأيتم مسجداً أو سمعتم أذاناً فلا تقتلُوا أحداً».

قوله تعالى: ﴿ **لا يَسْتَوِي القاعِدُونَ مِنَ المؤمنينَ** ﴾ الآية، أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن

عن زيد بن ثابت قال: «أملى عليّ النبي ﷺ»: ﴿**لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم**﴾ فجاءه ابن أم مكتوم وهو يمليها عليّ فقال: والله يا رسول الله لو أستطيع الجهاد لجاهدت وكان أعمى فأنزل الله عز وجل على رسوله ﷺ وفخذه على فخذي فثقلت على حتى خفت أن ترض فخذي ثم سري عنه فأنزل الله عز وجل غير أولى الضرر (ق) عن البراء بن عازب: ﴿لما نزلت لا يستوى القاعدون من المؤمنين﴾ دعا رسول الله ﷺ زيداً فجاء بكتف فكتبها وشكا ابن أم مكتوم ضرارته فنزلت لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر» وفي رواية أخرى: «لما نزلت لا يستوى القاعدون من المؤمنين قال النبي ﷺ ادعوا فلاناً فجاءه ومعه الدواة واللوح والكتف فقال اكتب لا يستوي القاعدون من المؤمنين والمجاهدون في سبيل الله وخلف النبي ﷺ ابن أم مكتوم فقال يا رسول الله أنا ضرير فنزلت مكانها لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون في سبيل الله هذه الرواية الثانية أخرجها ابن الأثير في كتابه جامع الأصول، وأضافها إلى البخاري ومسلم ولم أجدها في كتاب الجمع بين الصحيحين للحميدي. وفي هذه الآية فضل الجهاد في سبيل الله والحث عليه فقوله تعالى: ﴿**لا يستوي القاعدون من المؤمنين**﴾ يعني لا يعدل المختلفون عن الجهاد في سبيل الله من المؤمنين المجاهدين في سبيل الله غير أولى الضرر يعني أولى الزمانة والضعف في البدن والبصر فإنهم يساوون المجاهدين لأن العذر أقعدهم عن الجهاد(م) عن جابر قال: «كنا مع رسول الله ﷺ في غزاة فقال رسول الله ﷺ إن بالمدينة رجالاً ماسرتم مسيراً ولا قطعتم وادياً إلّا كانوا معكم حبسهم المرض» (خ) عن أنس قال: «رجعنا من غزوة تبوك مع النبي ﷺ فقال إن أقواماً خلفنا بالمدينة ما سلكنا شعباً ولا وادياً إلّا وهم معنا حبسهم العذر» (خ) عن ابن عباس قال لا يستوي القاعدون من المؤمنين عن بدر والخارجون إليها.

وقوله تعالى: ﴿**فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة**﴾ يعني فضيلة في الآخرة قال

عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل ثنا عبد العزيز بن عبد الله ثنا إبراهيم بن سعد الزهري حدّثني صالح بن كيسان عن ابن شهاب عن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه أنه قال: رأيتُ مروان بن الحكم جالساً في المسجد فأقبلتُ حتى جلست إلى جنبه، فأخبرنا أن زيد بن ثابت رضي الله عنه أخبره أن رسول الله ﷺ أملَى عليه ﴿ **لَا يستوي القاعدونَ مِنَ المؤمنينَ والمجاهدون في سبيلِ الله** ﴾، قال: فجاء ابنُ أم مكتوم وهو يُمْلِيها عليَّ، فقال: يا رسول الله لو أستطيعُ الجهادَ لجاهدتُ، وكان رجلاً أعمى، فأنزل الله تعالى عليه وفخذُهُ على فخذي، فثقلتْ عليَّ حتى خفتُ أن ترضَّ فخذي، ثم سرَى عنه فأنزل الله ﴿**غيرُ أُولي الضَّـرَرِ**﴾ فهذه الآيـة في فضل الجهاد والحثِّ عليه، فقال: ﴿ **لا يستوي القاعدونَ مِنَ المؤمِنينَ** ﴾ عن الجهاد ﴿ **غيرُ أُولِي الضَّررِ** ﴾، قرأ أهل المدينة وابن عامر والكسائي بنصب الراء، أي: إلّا أُولي الضَّرر، وقرأ الآخرون برفع الراء على نعتِ ﴿ **القاعدين** ﴾ يُريدُ: لا يستوي القاعدون الذين هم غيرُ أُولي الضرر، أي: غير أُولي الزَّمَانَةِ والضّعف في البدن والبصر، ﴿ **والمجاهدُون في سبيلِ اللّهِ بأموالِهم وأنفسهم** ﴾، أي: ليس المؤمنون القاعدون عن الجهاد من غير عذر والمؤمنون والمجاهدون سواء، غير أُولي الضرر فإنهم يساوون المجاهدين، لأن العذر أقعدهم. أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحي أنا أبو بكر أحمد بن الحسن الحيري أنا حاجب بن أحمد الطوسي أنا عبد الرحيم بن منيب أنا يزيد بن هارون أخبرنا حميد الطويل عن أنس رضي الله عنه أنّ رسول الله ﷺ لمّا رجع من غزوة تبوك، فَدَنَا من المدينة فقال: «إنّ في المدينة لأقواماً ما سِرْتُم من مسيرٍ ولا قطعتم من وَادٍ إلّا كانوا معكم فيه»، قالوا: يا رسول الله وهم بالمدينة؟ قال: «نعم وهم بالمدينة حبسهم العذر»، وروَى القاسم عن ابن عباس قال: ﴿ **لا يستوي القاعدون من المؤمنين** ﴾ عن بدر والخارجون إلى بدر، قوله تعالى: ﴿ **فَضَّلَ اللَّهُ المجاهدينَ بأموالِهِمْ وأنفسهِمْ على**

ابن عباس: أراد بالقاعدين هنا أولي الضرر فضل الله المجاهدين على أولي الضرر درجة لأن المجاهد باشر الجهاد بنفسه وماله مع النية وأولو الضرر كانت لهم نية ولم يباشروا الجهاد فنزلوا عن المجاهدين درجة ﴿وكلاً﴾ يعني كلاً من المجاهدين والقاعدين ﴿وعد الله الحسنى﴾ يعني الجنة بإيمانهم ﴿وفضل الله المجاهدين﴾ يعني في سبيل الله ﴿على القاعدين﴾ يعني الذين لا عذر لهم ولا ضرر ﴿أجراً عظيماً﴾ يعني ثواباً جزيلاً. ثم فسر ذلك الأجر العظيم فقال تعالى: .

﴿دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾﴾

﴿درجات منه﴾ قال قتادة: كان يقال للإسلام درجة والهجرة في الإسلام درجة الجهاد في الهجرة درجة والقتل في الجهاد درجة، وقال ابن زيد الدرجات هي سبع وهي التي ذكرها الله في سورة براءة حين قال: ﴿ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة في سبيل الله﴾ إلى قوله: ﴿ولا يقطعون وادياً إلاّ كتب الله لهم﴾ وقال ابن محيريز الدرجات سبعون درجة ما بين كل درجتين حضر الفرس الجواد المضمر سبعين سنة (م) عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: «من رضي بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولاً وجبت له الجنة فتعجب لها أبو سعيد فقال أعدها علي يا رسول الله فأعادها عليه ثم قال وأخرى يرفع الله بها العبد مائة درجة في الجنة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض قال وما هي يا رسول الله؟ قال الجهاد في سبيل الله» (خ) عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من آمن بالله ورسوله وأقام الصلاة وآتى الزكاة وصام رمضان وحج كان حقاً على الله أن يدخله الجنة جاهد في سبيل الله أو جلس في أرضه التي ولد فيها فقالوا أولاً نبشر الناس بقولك؟ فقال إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيل الله ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس الأعلى فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة وفوقه عرش الرحمن ومنه تفجر أنهار الجنة» فإن قلت قد ذكر الله عز وجل في الآية الأولى درجة واحدة وذكر في هذه الآية درجات فما وجه الحكمة في ذلك؟ قلت أما الدرجة الأولى فلتفضيل المجاهدين على القاعدين بوجود الضرر والعذر. وأما الثانية فلتفضيل المجاهدين على القاعدين من غير

القاعدينَ دَرَجَةً ﴾، أي: فضيلةً، وقيل: أراد بالقاعد هاهنا أُولي الضرر، فضّل اللّهُ المجاهدين عليهم درجةً لأن المجاهد باشر الجهاد مع النيَّة وأُولي الضَّرر كانتْ لهم نيةٌ ولكنّهم لم يباشروا، فنزلوا عنهم بدرجة، **﴿ وكلاًّ وَعَدَ اللّهُ الحُسْنَى ﴾**، يعني: الجنة بإيمانهم، وقال مقاتل: يعني المجاهد والقاعد المعذُور، **﴿ وفَضّلَ اللّهُ المجاهدينَ على القاعدينَ أجراً عظيماً ﴾** يعني: على القاعدين من غير عذر.

﴿ درجاتٍ منه ومغفرةً ورحمةً وكانَ اللّهُ غفوراً رحيماً ﴾، قال ابن محيريز في الآية: هي سبعون درجةً ما بين كل درجتين عَدْوُ الفرس الجواد المضمر، وسبعون خريفاً، وقيل: الدرجات هي الإسلام والجهاد والهجرة والشهادة فازَ بها المجاهدون، أخبرنا أبو الحسن علي بن يوسف الجويني أنا أبو محمد محمد بن علي بن محمد شريك الشافعي أنا عبد الله بن مسلم أبو بكر الجورندي أنا يونس بن عبد الأعلى أنا ابن وهب حدّثني أبو هانىء الخولاني عن أبي عبد الرحمن الجبلي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يا أبا سعيد مَنْ رضيَ بالله ربّاً وبالإسلام ديناً وبمحمد نبيّاً وجبتْ له الجنة» قال: فعجب لها أبو سعيد فقال: أعدْهَا عليّ يا رسولَ الله، فأعادَها عليه، ثم قال: «وأُخْرَى يرفع الله بها العبد مائة درجة في الجنة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض» قال: وما هي يا رسول الله؟ قال: «الجهادُ في سبيل الله ثلاثاً». أخبرنا الإمام أبو علي الحسين بن محمد القاضي أنا أبو القاسم إبراهيم بن محمد بن علي التياه أنا أبي أنا أبو الحسن علي بن أحمد بن صالح المطرز

ضرر ولا عذر فضلوا عليهم بدرجات كثيرة وقيل يحتمل أن تكون الدرجة الأولى درجة المدح والتعظيم والدرجات درجات الجنة ومنازلها كما في الحديث والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿ومغفرة﴾ يعني لذنوبهم يسترها ويصفح عنها ﴿ورحمة﴾ يعني رأفة بهم ﴿وكان الله غفوراً﴾ يعني لذنوب عباده المؤمنين رحيماً يعني بهم يتفضل عليهم برحمته ومغفرته عن ابن عمر عن النبي ﷺ فيما يحكي عن ربه عز وجل قال: قال: **«أيما عبد من عبادي خرج مجاهداً في سبيل الله ابتغاء مرضاتي ضمنت له إن أرجعته أرجعته بما أصاب من أجر أو غنيمة وإن قبضته غفرت له ورحمته»** أخرجه النسائي.

فصل

اعلم أن الجهاد ينقسم إلى: فرض عين وفرض كفاية، ففرض العين أن يدخل العدو دار قوم من المؤمنين وبلادهم فيجب على كل مكلف من الرجال ممن لا عذر له ولا ضرر به من أهل تلك البلدة الخروج إلى عدوهم دفعاً عن أنفسهم وعن أهليهم وجيرانهم وسواء في ذلك الحر والعبد والغني والفقير فيجب على الكافة وهو في حق من بعد عنهم من المسلمين فرض كفاية فإن لم تقع الكفاية بمن نزل بهم العدو فتجب مساعدتهم على من قرب منهم من المسلمين أو بعد عنهم، وإن وقعت الكفاية بالمنزول بهم فلا فرض على الأبعدين إلا على طريق الاختيار ولا يدخل في هذا الفرض يعني فرض الكفاية الفقراء والعبيد، وإذا كان الكفار قادرين في بلادهم فعلى الإمام أن لا يخلي كل سنة من غزاة يغزوهم فيها إما بنفسه أو سراياه حتى لا يبطل الجهاد والاختبار. والمطيق الجهاد مع وقوع الكفاية بغيره لا يقعد عنه ولكن لا يفرض عليه لأن الله تعالى وعد المجاهدين والقاعدين الثواب بقوله: ﴿وكلاً وعد الله الحسنى﴾ ولو كان فرضاً على الكافة لاستحق القاعدون عن الجهاد العقاب لا الثواب والله أعلم. قوله تعالى: .

أنا محمد بن يحيىٰ أنا شريح بن النعمان أنا فليح عن هلال بن علي عن عطاء بن يسار عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ آمَنَ باللَّهِ ورسولِهِ وأقامَ الصلاةَ وصامَ رمضانَ كانَ حقّاً على اللَّهِ عزَّ وجلَّ أن يُدخلَهُ الجنَّةَ جاهدَ في سبيل الله أو جلسَ في أرضه التي وُلد فيها»، قالوا: يا رسول الله أفلا نُنذر الناسَ بذلك؟ قال: «إن في الجنّة مائة درجة أعدّها اللَّهُ للمجاهدين في سبيله ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض، فإذا سألتُمُ اللَّهَ فاسألوه الفِرْدَوسَ فإنه أوسط الجنّةِ وأعلى الجنّةِ وفوق عرش الرحمن، ومنه تفجّر أنهار الجنة»، واعلمْ أن الجهاد في الجملة فرضٌ غيرَ أنه ينقسم إلى فرض العين وفرض الكفاية، ففرض العين أن يدخل الكفّار دارَ قوم من المؤمنين فيجب على كل مكلّف من الرجال ممّن لا عذر له من أهل تلك البلدة الخروجَ إلى عدوّهم حرّاً كان أو عبداً غنيّاً كان أو فقيراً، دفعاً عن أنفسهم وعن جيرانهم، وهو في حق من بعد منهم من المسلمين فرض على الكفاية، فإن لم يقع الكفاية بمَن نزل بهم يجب على مَن بعد منهم من المسلمين عونُهم، وإن وقعت الكفاية بالنازلين بهم فلا فرض على الأبعدين إلّا على طريق الاختيار، ولا يدخل في هذا القسم العبيد والفقراء، ومن هذا القبيل أن يكون الكفّار قادرين في بلادهم، فعلى الإمام أن لا يخلي كلَّ سنة عن غزوة يغزوها بنفسه أو بسراياه حتى لا يكون الجهاد معطّلاً، والاختيار للمطيق الاجتهاد مع وقوع الكفاية بغيره أنْ لا يقعد عن الجهاد، ولكنْ لا يُفترض لأنّ الله تعالى وعد المجاهدين والقاعدين الثوابَ في هذه الآية فقال: ﴿ وكلاً وعد الله الحسنى ﴾ [النساء: ٩٥]، فلو كان فرضاً على الكافّة لاستحقَّ القاعد العقابَ لا الثواب.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾﴾

﴿إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم﴾ الآية نزلت في أناس تكلموا بالإسلام ولم يهاجروا منهم قيس بن الفاكه بن المغيرة وقيس بن الوليد بن المغيرة وأشباههما فلما خرج المشركون إلى بدر خرجوا معهم فقتلوا مع الكفار فأنزل الله تعالى هذه الآية ﴿إن الذين توفاهم الملائكة﴾ يعني ملك الموت وأعوانه وهم ستة: ثلاثة منهم يلون قبض أرواح المؤمنين وثلاثة يلون قبض أرواح الكفار. وقيل أراد به ملك الموت وحده وإنما ذكره بلفظ الجمع على سبيل التعظيم كما يخاطب الواحد بلفظ الجمع وفي التوفي هنا قولان: أحدهما أنه قبض أرواحهم. الثاني حشرهم إلى النار فعلى القول الثاني يكون المراد بالملائكة الزبانية الذين يلون تعذيب الكفار «ظالمي أنفسهم» يعني بالشرك وقيل بالمقام في دار الشرك وذلك لأن الله تعالى لم يقبل الإسلام من أحد بعد هجرة النبي ﷺ حتى يهاجر إليه ثم نسخ ذلك بعد فتح مكة بقوله ﷺ: «لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية» أخرجاه في الصحيحين وقيل ظالمي أنفسهم بخروجهم مع المشركين يوم بدر وتكثير سوادهم حتى قتلوا معهم فضربت الملائكة وجوههم وأدبارهم ﴿قالوا فيم كنتم﴾ سؤال توبيخ وتقريع يعني قالت الملائكة: لهؤلاء الذين قتلوا في أي الفريقين كنتم أفي فريق المسلمين أم في فريق المشركين فاعتذروا بالضعف عن مقاومة المشركين وهو قوله تعالى إخباراً عنهم: ﴿قالوا كنا مستضعفين﴾ يعني عاجزين ﴿في الأرض﴾ يعني في أرض مكة ﴿قالوا﴾ يعني قال لهم الملائكة ﴿ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها﴾ يعني إلى المدينة وتخرجوا من بين أظهر المشركين فأكذبهم الله في قولهم كنا مستضعفين وأعلمنا بكذبهم ﴿فأولئك﴾ يعني من هذه صفتهم ﴿مأواهم﴾ يعني منزلهم ﴿جهنم وساءت مصيراً﴾ يعني بئس المصير مصيرهم إلى جهنم ثم استثنى أهل الهذر ومن علم ضعفه منهم فقال تعالى: ﴿إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة﴾ يعني لا يقدرون على حيلة ولا نفقة ولا قوة

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الذينَ تَوَفَّاهُمُ الملائكةُ ظالمي أنفسِهِمْ ﴾ الآية، نزلت في ناس من أهل مكة تكلَّمُوا بالإسلام ولم يهاجروا، منهم: قيس بن الفاكه بن المغيرة وقيس بن الوليد بن المغيرة وأشباههما، فلما خرج المشركون إلى بدر خرجوا معهم فقتلوا مع الكفّار فقال الله تعالى: ﴿ إنَّ الذين توفَّاهُم الملائكةُ ﴾، أراد به ملك الموت وأعوانه أو أراد ملك الموت وحده، كما قال تعالى: ﴿ قلْ يتوفَّاكُمْ مَلَكُ الموتِ الذي وُكِّلَ بكم ﴾ [السجدة: ١١]، والعرب قد تخاطب الواحد بلفظ الجمع ﴿ ظالمي أنفسهم ﴾، بالشرك، وهو نصب على الحال أي: في حال ظلمهم، قيل: أي المقام في دار الشرك لأن الله تعالى لم يقبل الإسلام بعد هجرة النبي ﷺ إلّا بالهجرة، ثم نسخ بعد فتح مكة فقال النبيّ ﷺ: «لا هجرة بعد الفتح»، وهؤلاء قُتلوا يومَ بدرٍ وضربتِ الملائكةُ وجوهَهم وأدبارهم، وقالوا لهم: فيما كنتم؟ فذلك قوله تعالى: ﴿ قالُوا فِيمَ كنتم ﴾ أي: في ماذا كنتم أو في أي الفريقين كنتم؟ أفي المسلمين؟ أم في المشركين؟ سؤال توبيخ وتعيير فاعتذروا بالضعف عن مقاومة أهلِ الشرك، ﴿ قالُوا كنّا مُسْتَضْعَفِينَ ﴾، عاجزين: ﴿ في الأرض ﴾، يعني أرض مكة، ﴿ قالوا ألَمْ تكنْ أرضُ اللَّهِ واسعةً فتُهاجِرُوا فيها ﴾؟ يعني إلى المدينة وتخرجوا من مكة من بين أهل الشرك؟ فأكذبهم الله تعالى وأعلمنا بكذبهم، وقال: ﴿ فأولئك مَأْوَاهُمْ ﴾، منزلهم ﴿ جهنَّمُ وساءتْ مصيراً ﴾، أي: بئس المصير إلى جهنم، ثم استثنى أهل العذر منهم، فقال: ﴿ إلّا المستضعفينَ مِنَ الرجالِ والنساءِ والولدانِ لا يستطيعونَ حِيلَةً ﴾ لا يقدرون على حيلة ولا على

لهم على الخروج من مكة ﴿ولا يهتدون سبيلاً﴾ يعني ولا يعرفون طريقاً يسلكونه من مكة إلى المدينة.

﴿فَأُولَٰئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾ ۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾﴾

﴿فأولئك﴾ يعني المستضعفين وأهل الأعذار ﴿عسى الله أن يعفو عنهم﴾ يعني يتجاوز عنهم بفضله وإحسانه وعسى من الله واجب لأنه إطماع وترج والله تعالى إذا أطمع عبداً وصله ﴿وكان الله عفواً غفوراً﴾ قال ابن عباس كنت أنا وأمي ممن عذر الله يعني من المستضعفين؛ وكان رسول الله ﷺ يدعو لهؤلاء المستضعفين في الصلاة (ق) عن أبي هريرة قال لما رفع رسول الله ﷺ رأسه من الركعة الثانية قال: اللهم أنج الوليد بن الوليد وسلمة بن هشام وعياش بن أبي ربيعة والمستضعفين بمكة، اللهم اشدد وطأتك على مضر اللهم اجعلها عليهم سنين كسني يوسف. قوله عز وجل: ﴿ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراغماً كثيراً وسعة﴾ قال الزجاج معنى مراغماً مهاجراً يعني يجد في الأرض مهاجراً يعني أن المهاجر لقومه والمراغم لها بمنزلة واحدة. وإن اختلف اللفظان وهو مأخوذ من الرغام وهو التراب يقال رغم أنفه إذا التصق بالتراب وذلك لأن الأنف عضو شريف والتراب ذليل حقير فجعلوا قولهم رغم أنفه كناية عن حصول الذل له ويقال راغمت فلاناً بمعنى هجرته وعاديته ولم أبال به رغم أنفه ويقوي ذلك قول بعض أهل اللغة هو الخروج من بلاد العدو برغم أنفه. وقيل معناه أن الرجل إذا خرج عن قومه خرج مراغماً لهم أي مغاضباً لهم ومقاطعاً وقال الفراء المراغم المضطرب والمذهب في الأرض وأنشد الزجاج في المعنى:

إلى بلد غير داني المحل بعيد المراغم والمضطرب

فعلى هذا يكون معنى الآية يجد مذهباً يذهب إليه إذا رأى ما يكرهه هذا قول أهل اللغة في معنى المراغمة. وقال ابن عباس: يجد متحولاً يتحول إليه من أرض إلى أرض، وقال مجاهد يجد متزحزحاً عما يكره وقيل يجد منقلباً ينقلب إليه وقيل المراغمة والمهاجرة واحدة يقال: راغمت قومي أي هاجرتهم وسميت المهاجرة مراغمة لأنه

نفقة ولا على قوة الخروج منها، ﴿ ولا يهتدونَ سبيلاً ﴾، أي: لا يعرفون طريقاً إلى الخروج. وقال مجاهد: لا يعرفون طريق المدينة.

﴿ فأولئكَ عَسَى اللَّهُ أنْ يعفوَ عنهمْ ﴾، يتجاوز عنهم، وعَسَى منَ اللَّهِ واجبٌ، لأنه للاطماع، والله تعالى إذا أطمع عبداً وصله إليه، **﴿ وكانَ اللَّهُ عَفُوّاً غفوراً ﴾**، قال ابن عباس رضي الله عنهما: كنتُ أنا وأُمي ممّن عذر الله، يعني المستضعفين، وكان رسول الله ﷺ يدعو لهؤلاء المستضعفين في الصلاة. أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا معاذ بن فضالة أنا هشام عن يحيىٰ هو ابن أبي كثير عن أبي سلمة عن أبي هريرة رضي الله عنه «أنّ النبي ﷺ كان إذا أراد أن يدعو على أحدٍ قَنَتَ بعد الركوع، فربما قال: سمع الله لمَن حمده ربّنا لك الحمد في الركعة الآخرة من صلاة العشاء: اللّهمَّ أنجِ عياشَ بن أبي ربيعة اللّهمَّ أنجِ الوليدَ اللّهمَّ أنجِ سلمةَ بن هشام اللّهمَّ أنجِ المستضعفين من المؤمنين، اللّهمَّ اشْدُدْ وطأتَكَ على مضر، اللّهمَّ اجعلها سنين كسني يوسف، يجهر بذلك».

يهاجر قومه برغمهم. وقوله وسعة يعني في الرزق. وقيل يجد سعة من الضلالة إلى الهدى وقيل يجد سعة في الأرض التي يهاجر إليها قال ابن عباس: لما نزلت الآية التي قبل هذه سمعها رجل من بني ليث شيخ كبير مريض يقال له جندع بن ضمرة فقال: والله ما أنا ممن استثنى الله عز وجل وإني لأجد حيلة ولي من المال ما يبلغني إلى المدينة وأبعد منها والله لا أبيت الليلة بمكة أخرجوني فخرجوا به يحملونه على سرير حتى أتوا به النعيم فأدركه الموت فصفق بيمينه على شماله ثم قال: اللهم هذه لك وهذه لرسولك أبايعك على ما بايعك رسولك ثم مات فبلغ خبره أصحاب رسول الله ﷺ فقالوا لو وافى المدينة لكان أتم وأوفى أجراً وضحك المشركون وقالوا ما أدرك ما طلب فأنزل الله عز وجل: ﴿**ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت**﴾ يعني قبل بلوغه إلى مهاجره ﴿**فقد وقع أجره على الله**﴾ يعني فقد وجب أجر هجرته على الله بإيجابه على نفسه بحكم الوعد والتفضل والكرم لا وجوب استحقاق وتحتم قال بعض العلماء ويدخل في حكم الآية من قصد فعل طاعة من الطاعات ثم عجز عن إتمامها كتب الله له ثواب تلك الطاعة كاملاً وقال بعضهم إنما يكتب له أجر ذلك القدر الذي عمل وأتى به، أما تمام الأجر فلا والقول الأول أصح لأن الآية إنما نزلت في معرض الترغيب في الهجرة وأن من قصدها ولم يبلغها بل مات دونها فقد حصل له ثواب الهجرة كاملاً فكذلك كل من قصد فعل طاعة ولم يقدر على إتمامها كتب الله له ثوابها كاملاً ﴿**وكان الله غفوراً رحيماً**﴾ يعني ويغفر الله له ما كان منه من القعود قبل الهجرة إلى أن خرج مهاجراً. قوله عز وجل: .

وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُوا۟ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿١٠١﴾

﴿**وإذا ضربتم في الأرض**﴾ يعني إذا سافرتم فيها ﴿**فليس عليكم جناح**﴾ أي حرج وإثم ﴿**أن تقصروا من الصلاة**﴾ يعني من أربع ركعات إلى ركعتين وذلك في صلاة الظهر والعصر والعشاء، وأصل القصر في اللغة التضييق وقيل هو ضم الشيء إلى أصله. وفسر ابن الجوزي القصر بالنقص ولم أره لأحد من أهل التفسير واللغة وقيل

قوله تعالى: ﴿ **وَمَنْ يُهاجِرْ في سبيلِ اللَّهِ يَجِدْ في الأرضِ مُراغَماً كثيراً وسَعَةً** ﴾، قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿ **مُراغَماً** ﴾ أي: مُتَحوَّلاً يتحوّل إليه، وقال مجاهد: متزحزحاً عمَّا يكره، وقال أبو عبيدة: المُراغم: المُهاجر، يُقال: راغمت قومي وهاجرتهم، وهو المُضْطَرَبُ والمَذْهَبُ، قيل: سُمّيت المهاجرة مراغمة لأن مَن يهاجر يراغم قومه وسَعَة أي: في الرزق، وقيل: سعة من الضلالة إلى الهُدَى، ورُوِي أنه لما نزلت هذه الآية سمعها رجل من بني ليث شيخ كبير مريض يقال له جندع بن ضمرة، فقال: والله ما أنا ممّن استثنى الله عزّ وجلّ وإني لأجد حيلة، ولي من المال ما يبلغني المدينة وأبعد منها، والله لا أبيت الليلة بمكة، أخرجوني فخرجوا به يحملونه على سرير حتى أتوا به التنعيم فأدركه الموت، فصفَقَ بيمينه على شماله ثم قال: اللّهمّ هذه لك وهذه لرسولك أُبايعك على ما بايعك عليه رسولك، فمات فبلغ خبرُه أصحاب رسول الله ﷺ، فقالوا: لو وَافَى المدينة لكان أتمّ وأوفَى أجراً، وضحك المشركون وقالوا: ما أدراك هذا ما طلب، فأنزل الله: ﴿ **وَمَنْ يَخْرُجُ مِنْ بيته مُهاجراً إلى اللَّهِ ورَسُولِهِ ثمّ يُدرِكْهُ الموتُ** ﴾ أي: قبل بلوغه إلى مهاجره، ﴿ **فقدْ وَقَعَ** ﴾ أي: وجب ﴿ **أجره على اللَّهِ** ﴾، بإيجابه على نفسه فضْلاً منه. ﴿ **وكانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً** ﴾.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ **وإذا ضَرَبْتُمْ في الأرضِ** ﴾ أي: سافرتم، ﴿ **فليسَ عليكم جُناحٌ** ﴾، أي: حرج وإثم ﴿ **أن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلاةِ** ﴾، يعني من أربعة ركعات إلى ركعتين، وذلك في صلاة الظهر والعصر والعشاء، ﴿ **إنْ خِفْتُمْ**

معنى قصر الصلاة جعلها قصيرة بترك بعض ركعاتها أو بعض أركانها ترخيصاً ولهذا السبب ذكروا في تفسير قصر الصلاة المذكورة في الآية قولين: أحدهما أنه في عدد الركعات وهو رد الصلاة الرباعية إلى ركعتين والقول الثاني أن المراد بالقصر إدخال التخفيف في أدائها وهو أن يكتفي بالإيماء والإشارة عن الركوع والسجود. والقول الأول أصح ويدل عليه لفظة من في قوله أن تقصروا من الصلاة ولفظة من هنا للتبعيض وذلك يوجب جواز الاقتصار على بعض الصلاة فثبت بهذا أن تفسير القصر بإسقاط بعض ركعات الصلاة أولى ﴿إن خفتم أن يفتنكم﴾ يعني يغتالكم ويقتلكم في الصلاة ﴿الذين كفروا﴾ ذهب داود الظاهري إلى أن جواز القصر مخصوص بحال الخوف واستدل على صحة مذهبه بقوله تعالى: ﴿إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا﴾ ولأن عدم الشرط يقتضي عدم المشروط فعلى هذا لا يجوز القصر عند الأمن ولا يجوز رفع هذا الشرط بخبر الآحاد لأنه يقتضي نسخ القرآن بخبر واحد، وذهب جمهور أهل العلم إلى أن القصر في حال الأمن في السفر جائز ويدل عليه ما روي عن يعلى بن أمية. قال: قلت لعمر بن الخطاب ليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا فقد أمن الناس فقال عجبت مما عجبت منه فسألت رسول الله ﷺ عن ذلك فقال: «صدقة تصدق الله بها عليكم فاقبلوا صدقته» أخرجه مسلم وعن عبدالله بن خالد بن أسيد أنه قال لابن عمر كيف تقصرون الصلاة وإنما قال الله تعالى ليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا فقال ابن عمر يا ابن أخي: «إن رسول الله ﷺ أتانا ونحن في ضلال فعلمنا فكان فيما علمنا أن أمرنا أن نصلي ركعتين في السفر». أخرجه النسائي وعن ابن عباس أن رسول الله ﷺ خرج من المدينة إلى مكة لا يخاف إلا رب العالمين فصلى ركعتين أخرجه الترمذي والنسائي وأجاب الجمهور عن قوله تعالى إن خفتم أن كلمة إن تفيد حصول الشرط ولا يلزم عند عدم الشرط عدم المشروط فقوله تعالى: ﴿إن خفتم﴾ يقتضي أن عند عدم الخوف لا تحصل رخصة القصر. وإذا كان كذلك كانت الآية ساكتة عن حال الأمن فإثبات الرخصة حال الأمن بخبر الواحد يكون إثباتاً لحكم سكت عنه القرآن وذلك غير ممتنع إنما الممتنع إثبات الحكم بخبر الواحد على خلاف ما دل عليه القرآن. فإن قلت إذا كان هذا الحكم ثابتاً في حال الأمن والخوف؛ فما فائدة تقييده بحال الخوف؟ قلت إنما نزلت الآية على غالب أسفار النبي ﷺ وأكثرها لم يخل عن خوف العدو فذكر الله عز وجل هذا الشرط من حيث إنه الأغلب في الوقوع. وقوله تعالى: ﴿إن الكافرين كانوا لكم عدواً مبيناً﴾ أي ظاهر العداوة فلعلمي بهذا رخصت لكم في قصر الصلاة لئلا يجدوا إلى قتلكم واغتيالكم سبيلاً وإنما قال عدواً ولم يقل أعداء لأنه يستوي فيه الواحد والجمع.

أن يفتنكم ﴾ أي: يغتالُكم ويقتلُكم ﴿ الذينَ كَفَرُوا ﴾، في الصلاة، نظيره قوله تعالى: ﴿ على خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وملئِهِمْ أن يَفْتِنَهُمْ ﴾ [يونس: ٨٣]، أي: يقتلهم. ﴿ إنّ الكافرين كانُوا لكم عدوّاً مُبيناً ﴾ أي: ظاهر العداوة، اعلم أن قصر الصلاة في السفر جائز بإجماع الأمة، واختلفوا في جواز الإتمام فذهب أكثرهم إلى أن القصر واجب، وهو قول عمر وعلي وابن عمر وجابر وابن عباس رضي الله عنهما، وبه قال الحسن وعمر بن عبد العزيز وقتادة وهو قول مالك وأصحاب الرأي، لِمَا رُوِيَ عن عائشة رضي الله عنها أنها قالتْ: فرضَ اللَّهُ الصلاةَ حينَ فرضَها ركعتين في الحضر والسفر، فأُقرّتْ صلاة السفر وزيد في صلاة الحضر. وذهب قوم إلى جواز الإتمام، رُوِيَ ذلك عن عثمان وسعد بن أبي وقاص رضي الله عنهما، وبه قال الشافعي رضي الله عنه، إنْ شاءَ أتمَّ هو وإن شاءَ قصرَ، والقصرُ أفضل، أخبرنا الإمام عبد الوهاب بن محمد الخطيب أنا عبد العزيز بن أحمد الخلال أنا أبو العباس الأصم أنا الربيع أنا الشافعي أنا إبراهيم بن محمد عن طلحة بن عمرو عن عطاء بن أبي رباح عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالتْ: كل ذلك قد فعل رسول الله ﷺ قصرَ الصلاةَ وأتمَّ، وظاهر القرآن يدلّ على ذلك لأنّ الله تعالى قال:

فصل في أحكام تتعلق بالآية وفيه مسائل

المسألة الأولى: في حكم القصر قصر الصلاة في حالة السفر جائز بإجماع الأمة وإنما اختلفوا في جواز الإتمام في حال السفر فذهب أكثر العلماء إلى أن القصر واجب في السفر وهو قول عمر وعلي وابن عمر وجابر وابن عباس وبه قال الحسن وعمر بن عبدالعزيز وقتادة وهو قول مالك وأبي حنيفة ويدل عليه ما روي عن عائشة قالت فرض الله الصلاة حين فرضها ركعتين ثم أتمها في الحضر وأقرت صلاة السفر على الفريضة الأولى. وفي رواية أخرى قالت: فرض الله الصلاة حين فرضها ركعتين ركعتين في الحضر والسفر فأقرت صلاة السفر وزيد في صلاة الحضر أخرجاه في الصحيحين وذهب قوم إلى جواز الإتمام في السفر، ولكن القصر أفضل يروى ذلك عن عثمان وسعد بن أبي وقاص وإليه ذهب الشافعي وأحمد وهو رواية عن مالك أيضاً. ويدل على ذلك ما روى البغوي بسند الشافعي عن عائشة قالت: كل ذلك قد فعل رسول الله ﷺ قصر وأتم وعن عائشة أنها اعتمرت مع رسول الله ﷺ من المدينة إلى مكة حتى إذا قدمت مكة قالت يا رسول الله بأبي أنت وأمي قصرت وأتممت وصمت وأفطرت؟ قال أحسنت يا عائشة وما عاب عليّ أخرجه النسائي وظاهر القرآن يدل على ذلك لأن الله تعالى قال فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة ولفظة ولا جناح إنما تستعمل في الرخصة لا فيما يكون حتماً، وأجيب عن حديث عائشة فرض الله الصلاة ركعتين بأن معناه فرضت ركعتين أولاً وزيد في صلاة الحضر ركعتان على سبيل التحتم وأقرت صلاة السفر على جواز الاقتصار عليها وثبت جواز الإتمام بدليل آخر فوجب المصير إليه ليمكن الجمع بين الأحاديث ودلائل الشرع.

المسألة الثانية: اختلف في صلاة المسافر إذا صلى ركعتين ركعتين هل هي مقصورة أم غير مقصورة فذهب قوم إلى أنها غير مقصورة وإنما فرض صلاة المسافر ركعتان تمام غير قصر يروى ذلك عن ابن عباس وابن عمر وجابر بن عبدالله وإليه ذهب سعيد بن جبير والسدي وأبو حنيفة فعلى هذا يكون معنى القصر المذكور في الآية هو تخفيف ركوعها وسجودها. وقد تقدم الجواب عنه وذهب قوم إلى أنها مقصورة وليست بأصل، وهو قول مجاهد وطاوس، وإليه ذهب الشافعي وأحمد.

المسألة الثالثة: ذهب الشافعي ومالك وأحمد والجمهور، إلى أنه يجوز القصر في كل سفر مباح وشرط

﴿ فليسَ عليكم جُناحٌ أن تَقْصُروا مِنَ الصلاة ﴾، ولفظ ﴿ لا جُناح ﴾ إنّما يُستعمل في الرخص لا فيما يكون حتْماً، فظاهر الآية يُوجب أن القصر لا يجوز إلاّ عند الخوف، وليس الأمر على ذلك، إنّما نزلت الآية على غالب أسفار النبي ﷺ، وأكثرها لم يخلُ عن خوف العدو، والقصر جائز في السفر في حال الأمن عند عامّة أهل العلم، والدليل عليه ما أخبرنا عبد الوهاب بن محمد الخطيب أنا عبد العزيز بن أحمد الخلال أنا أبو العباس الأصم أنا الربيع أنا الشافعي أنا مسلم بن خالد وعبد المجيد بن عبد العزيز بن أبي داود عن ابن جريج أخبرني عبد الرحمن بن عبد الله بن أبي عمّار عن عبد الله بن باباه عن يعلى بن أُميّة، قال: قلت لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: إنّما قال الله تعالى: ﴿ أنْ تَقْصُروا مِنَ الصلاة إنْ خِفْتُمْ أن يفتنكُم الذين كَفَرُوا ﴾، وقد أَمِنَ الناس، فقال عمر رضي الله عنه: عجِبتُ مما عجِبتَ منه، فسألتُ رسول الله ﷺ فقال: «صدقة تصدّق الله بها عليكم، فاقبلوا صدقته»، أخبرنا عبد الوهاب بن محمد الخطيب أنا عبد العزيز بن أحمد الخلال أنا أبو العباس الأصم أنا الربيع أنا الشافعي أنا عبد الوهاب عن أيوب السختياني عن محمد بن سيرين عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: سافر رسول الله ﷺ بين مكة والمدينة آمناً لا يخاف الله، فصلّى ركعتين. وذهب قوم إلى أنّ ركعتي المسافر ليستا بقصر إنّما القصر أن يصلّي

بعضهم كونه سفر حج أو عمرة أو جهاد أو سفر طاعة، ولا يجوز القصر في سفر المعصية، وقال أبو حنيفة والثوري يجوز ذلك.

المسألة الرابعة: اختلف العلماء في مسافة القصر فقال داود وأهل الظاهر يجوز القصر في قصير السفر وطويله وروي ذلك عن أنس أيضاً وقال عمرو بن دينار قال لي جابر بن زيد أقصر بعرفة. وأما عامة أهل العلم فإنهم لا يجوزون القصر في السفر القصير واختلفوا في حد الطويل الذي يجوز فيه القصر. فقال الأوزاعي مسيرة يوم وكان ابن عمرو وابن عباس يقصران ويفطران في مسيرة أربعة برد هي ستة عشر فرسخاً وإليه ذهب مالك وأحمد وإسحاق وقول الحسن والزهري قريب من ذلك فإنهما قالا مسيرة يومين، وإليه ذهب الشافعي فقال مسيرة ليلتين قاصدتين ستة عشر فرسخاً كل فرسخ ثلاثة أميال فتكون ثمانية وأربعين ميلاً بالهاشمي والميل ستة آلاف ذراع والذراع أربعة وعشرون أصبعاً معترضة معتدلة والأصبع ست شعيرات معترضات معتدلات، وقال الثوري وأبو حنيفة وأهل الكوفة لا قصر في أقل من ثلاثة أيام.

فصل

قيل قوله تعالى: ﴿**إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا**﴾ كلام متصل بما بعده منفصل عما قبله وتقديره وإن خفتم روي عن أبي أيوب الأنصاري أنه قال نزل قوله تعالى: ﴿**فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة**﴾ هذا القدر ثم بعد حول سألوا رسول الله ﷺ عن صلاة الخوف فنزل: ﴿**إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا إن الكافرين كانوا لكم عدواً مبيناً وإذا كنت فيهم**﴾ الآية ومثل هذا في القرآن كثير يجيء الخبر بتمامه ثم ينسق عليه خبر آخر هو في الظاهر كالمتصل به وهو منفصل عنه. قوله عز وجل:

وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُواْ

ركعة واحدة في الخوف، يُروى ذلك عن جابر رضي الله عنه وهو قول عطاء وطاوس والحسن ومجاهد، وجعلوا شرط الخوف المذكور في الآية باقياً وذهب أكثر أهل العلم إلى أن الاقتصار على ركعة واحدة لا يجوز خائفاً كان أو آمناً، واختلف أهل العلم في مسافة القصر، فقالت طائفة: يجوز القصر في السفر الطويل والقصير، رُوِيَ ذلك عن أنس رضي الله عنه، وقال عمرو بن دينار: قال لي جابر بن زيد أقصرْ بعَرَفَة، أمّا عامّة الفقهاء فلا يُجوّزون القصر في السفر القصير، واختلف في حدّ ما يجوز به القصر، فقال الأوزاعي: مسيرة يوم، وكان ابن عمر وابن عباس رضي الله عنهم يقصران ويفطران في أربعة بُـرُدٍ، وهي ستّة عشر فرسخاً، وإليه ذهب مالك وأحمد وإسحق وهو قول الحسن والزهري قريب من ذلك، فإنّهما قالا: مسيرة يومين، وإليه ذهب الشافعي رضي الله عنه، قال: مسيرة ليلتين قاصدتين، وقال في موضع: ستّة وأربعون ميلاً بالهاشمي، وقال سفيان الثّوري وأصحاب الرأي: مسيرة ثلاثة أيام، وقيل: قوله: ﴿ إنْ خِفْتُمْ أن يَفْتِنَكُم الذينَ كفرُوا ﴾ [النساء: ١٠١] متصل بما بعده من صلاة الخوف منفصل عمّا قبله، رُوِيَ عن أبي أيوب الأنصاري أنه قال: نزل قوله: ﴿ فليسَ عليكم جُناحٌ أنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصلاة ﴾ [النساء: ١٠١] هذا القدر، ثم بعد حَوْلٍ سألُوا رسولَ الله ﷺ عن صلاة الخوف فنزل: ﴿ إنْ خِفْتُم أن يَفْتِنَكُمْ الذينَ كفرُوا، إنّ الكافرينَ كانُوا لكم عدوّاً مبيناً ﴾ [النساء: ١٠١] ﴿ وإذا كُنْتَ فيهم ﴾ الآية. ومثله في القرآن كثير أن يجيء الخبر بتمامه ثم يُنسّق عليه خبرٌ آخر، وهو في الظاهر كالمتصل به، وهو منفصل عنه، كقوله تعالى: ﴿ الآنَ حَصْحَصَ الحقُّ أنَا رَاوَدْتُهُ عنْ نفسِه وإنّه لَمِنَ الصّادقين ﴾ [يوسف: ٥١]، وهذه حكاية عن امرأة العزيز، وقوله: ﴿ ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب ﴾ [يوسف: ٥٢] إخبار عن يوسف عليه السلام.

فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰ أَن تَضَعُواْ أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾

﴿وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة﴾ الآية روي عن ابن عباس وجابر أن المشركين لما رأوا رسول الله ﷺ وأصحابه قاموا إلى الظهر يصلون جميعاً ندموا أن لا كانوا أكبوا عليهم فقال بعضهم لبعض دعوهم فإن لهم بعدها صلاة هي أحب إليهم من آبائهم وأمهاتهم يعني صلاة العصر فإذا قاموا إليها فشدوا عليهم فاقتلوهم فنزل جبريل عليه السلام فقال يا محمد إنها صلاة الخوف وإن الله عز وجل يقول وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة فعلمه صلاة الخوف وروي عن أبي عياش الزرقي في سبب نزول هذه الآية. قال: كنا مع رسول الله ﷺ بعسفان وعلى المشركين خالد بن الوليد فصلّينا الظهر فقال المشركون لقد أصبنا غرة وفي رواية غفلة ولو حملنا عليهم وهم في الصلاة فنزلت الآية بين الظهر والعصر قوله تعالى: ﴿وإذا كنت فيهم﴾ هذا الخطاب للنبي ﷺ يعني وإذا كنت يا محمد في أصحابك وشهدت معهم القتال فأقمت لهم الصلاة ﴿فلتقم طائفة منهم معك﴾ يعني إذا حان وقت الصلاة وأقمتها لأصحابك فاجعلهم فرقتين فلتقف فرقة منهم معك فتصلّي بهم ﴿وليأخذوا أسلحتهم﴾ اختلفوا في هؤلاء الذين أمرهم الله بأخذ السلاح فقيل أراد بهم الذين قاموا معه إلى الصلاة فإنهم يأخذون أسلحتهم في الصلاة، فعلى هذا القول إنما يأخذون من السلاح ما لا يشغلهم عن الصلاة ولا يؤذى به من إلى جنبه كالسيف والخنجر وذلك لأنه أقرب إلى الاحتياط وأمنع للعدو من الإقدام عليهم فإن كان السلاح يشغل بحركته وثقله عن الصلاة كالترس الكبير أو يؤذي مَن إلى جنبه كالرمح فلا يأخذه. وقيل أراد بهم الطائفة الذين بقوا في وجه العدو فإنهم يأخذون

قوله تعالى: ﴿ وإذا كُنْتَ فيهم فأقَمْتَ لَهُم الصلاةَ ﴾ روَى الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس وجابر رضي الله عنهم أن المشركين لمّا رأوا رسولَ الله ﷺ وأصحابَه قامُوا إلى الظهر يُصلّون جميعاً ندموا إلّا كانوا أكبُّوا عليهم، فقال بعضهم لبعض: دعوهم فإن لهم بعدها صلاة هي أحبّ إليهم من آبائهم وأبنائهم يعني صلاة العصر، فإذا قاموا فيها فشدُّوا عليهم فاقتلوهم، فنزل جبريل عليه السلام فقال: يا محمد إنها صلاة الخوف وإن الله عزّ وجلّ يقول: ﴿ وإذا كنتَ فيهم فأقمتَ لهم الصلاةَ ﴾ فعلّمه صلاة الخوف، وجملته أن العدو إذا كانوا في معسكرهم في غير ناحية القِبلة فيجعل الإمام القومَ فرقتين فتقف طائفة وِجَاهَ العدو تحرسُهم، ويشرع الإمام مع طائفة في الصلاة، فإذا صلّى بهم ركعة قام وثبت قائماً حتى أتمّوا صلاتهم، وذهبوا إلى وِجاهَ العدوِ ثم أتت الطائفة الثانية فصلّى بهم الركعة الثانية، وثبت جالساً حتى أتمّوا لأنفسهم الصلاة، ثم يُسلّم بهم، وهذه رواية سهل بن أبي حثمة رضي الله عنه أن النبي ﷺ صلّى كذلك بذات الرِّقاع، وإليه ذهب مالك والشافعي وأحمد وإسحق. أنا أبو الحسن السرخسي أخبرنا زاهر بن أحمد أنا أبو إسحق الهاشمي أنا أبو مصعب عن مالك عن زيد بن رومان عن صالح بن خوات عمّن صلّى مع النبي ﷺ يوم ذات الرِّقاع صلاة الخوف: أنّ طائفة صفّت معه صفّت طائفة وِجاهَ العدو فصلّى بالتي معه ركعة ثم ثبت قائماً فأتمّوا لأنفسهم، ثم انصرفُوا فصفّوا وِجَاهَ العدو وجاءتِ الطائفةُ الأخرى فصلّى بهم الركعة التي بقيت من صلاته، ثم ثبت جالساً وأتمّوا لأنفسهم ثم سلّم بهم. قال مالك: وذلك أحسن ما سمعت في صلاة الخوف، وأخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا مسداد أنا

أسلحتهم للحراسة وقيل يحتمل أن يكون أمراً للفريقين بحمل السلاح لأن ذلك أقرب إلى الاحتياط **﴿فإذا سجدوا فليكونوا من ورائكم﴾** يعني إذا صلّى الذين معك وفرغوا من الصلاة فليكونوا من ورائكم يعني فلينصرفوا إلى المكان الذي هو في وجه العدو وللحراسة **﴿ولتأت طائفة أخرى لم يصلوا﴾** يعني ولتأت الطائفة التي كان في وجه العدو **﴿فليصلّوا معك﴾** الركعة الثانية التي بقيت عليك ويتموا بقية صلاتهم **﴿وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم﴾** يعني أن الله تعالى جعل الحذر وهو التحرز والتيقظ آلة يستعملها الغازي في دفع العدو فلذلك جعله مأخوذاً مع السلاح. فإن قلت لم ذكر في أول الآية الأسلحة فقط وذكر هنا الحذر والأسلحة. قلت لأن العدو قلما يتنبه للمسلمين في أول الصلاة بل يظنون كونهم قائمين في المحاربة والمقاتلة فإذا قاموا على الركعة الثانية ظهر للكفار أن المسلمين في الصلاة فحينئذٍ ينتهزون الفرصة في الإقدام على المسلمين فلا جرم أن الله تعالى أمرهم في هذا الموضع بزيادة الحذر من الكفار مع أخذ الأسلحة **﴿ود الذين كفروا﴾** يعني تمنى الكفار **﴿لو تغفلون﴾** يعني لو وجدوكم غافلين **﴿عن أسلحتكم وأمتعتكم﴾** يعني حوائجكم التي بها بلاغكم في أسفاركم فتسهون عنها **﴿فيميلون عليكم ميلة واحدة﴾** يعني فيقصدونكم ويحملون عليكم حملة واحدة وأنتم مشتغلون بصلاتكم عن أسلحتكم وأمتعتكم فيصيبون منكم غرة فيقتلونكم.

فصل في أحكام تتعلق بالآية وصفة صلاة الخوف وفيه مسائل

المسألة الأولى: قال أبو يوسف والحسن بن زياد من أصحاب أبي حنيفة صلاة الخوف كانت خاصة بالنبي ﷺ فلا يجوز لغيره بعده فعلها، وقال المزني من أصحاب الشافعي كانت ثابتة ثم نسخت واحتجوا لصحة هذا القول بأن الله تعالى خاطب نبيّه ﷺ فقال تعالى: **﴿وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة﴾** وظاهر هذا يدل على أن إقامة الصلاة مشروطة بكون النبي ﷺ فيهم فدل على تخصيصه بها ولأن كلمة إذا تفيد الشرط وذهب جمهور العلماء والفقهاء إلى أن هذا الحكم لما ثبت في حق النبي ﷺ بحكم هذه الآية وجب أن يثبت في حق غيره من أمته

يحيىٰ عن شعبة عن عبد الرحمن بن القاسم عن أبيه عن صالح بن خوات عن سهل بن أبي حَثْمة رضي الله عنهم عن النبي ﷺ بهذا. وذهب قوم إلى أن الإمام إذا قام إلى الركعة الثانية تذهب الطائفة الأولى في خلال الصلاة إلى وِجَاهَ العدو وتأتي الطائفة الثانية فيُصلّي بهم الركعة الثانية ويسلّم وهم لا يسلّمون بل يذهبون إلى وجاه العدو، وتعود الطائفة الأولى فتتمُّ صلاتَها، ثم تعود الطائفة الثانية فتتمُّ صلاتَها، وهذه رواية عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ كذلك. وهو قول أصحاب الرأي، أخبرنا أبو عثمان سعيد بن إسماعيل الضبي أنا أبو محمد عبد الجبار بن محمد الجراحي أنا أبو العباس محمد بن أحمد المحبوبي أنا أبو عيسى الترمذي أنا محمد بن عبد الملك بن أبي الشوارب أنا يزيد بن زريع أنا معمر عن الزهري عن سالم عن أبيه أن النبي ﷺ صلّى صلاة الخوف بإحدى الطائفتين ركعة والطائفة الأخرى مواجهة العدو، ثم انصرفوا فقاموا في مقام أولئك وجاء أولئك فصلّى بهم ركعة أُخرى ثم سلّم بهم، فقام هؤلاء فصلّوا ركعتهم. وكلتا الروايتين صحيحة فذهب قوم إلى أن هذا مع الاختلاف المُباح، وذهب الشافعي رضي الله عنه إلى حديث سهل بن أبي حَثْمة لأنه أشدّ موافقة لظاهر القرآن وأحوط للصلاة وأبلغ في حراسة العدو، وذلك لأن الله تعالى قال: **﴿ فإذا سجدوا فليكونُوا من ورائكم ﴾** أي: إذا صلّوا، ثم قال: **﴿ ولتَأْتِ طائفةٌ أُخرى لم يُصلُّوا ﴾**، وهذا يدلّ على أن الطائفة الأولى قد صلّوا، وقال: **﴿ فليُصلّوا معكَ ﴾**، ومقتضاه أن يصلّوا تمام الصلاة، فظاهره يدلّ أن كل طائفة تفارق الإمام بعد تمام الصلاة، والاحتياط لأمر الصلاة من حيث أنه لا يكثر فيها العمل والذهاب والمجيء، والاحتياط لأمر الحرب من حيث إنهم إذ لم يكونوا في الصلاة

لقوله تعالى: ﴿فاتبعوه﴾ ولقوله ﷺ: «صلّوا كما رأيتموني أصلّي» ولأن ذلك إجماع الصحابة على فعلها وقد روي عن علي بن أبي طالب أنه صلّى صلاة الخوف بأصحابه ليلة الهرير وكذلك أبو موسى صلّى بأصحابه بطبرستان وليس لهؤلاء مخالف من الصحابة وأجيب عن قوله تعالى: ﴿وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة﴾ بأن هذا وإن كان قد خوطب به النبي ﷺ فإن سائر أمته داخلون في هذا الحكم فهو كقوله: ﴿يا أيها النبي إذا طلقتم النساء﴾ إلا أن يرد نص بتخصيصه ﷺ بحكم دون أمته كقوله تعالى: ﴿خالصة لك من دون المؤمنين﴾ ونظير قوله ﴿وإذا كنت فيهم﴾ قوله: ﴿خذ من أموالهم صدقة﴾ وإذا كان هو المخاطب بها وقد ثبت حكم أخذ الزكاة لمن بعده من الأئمة كان كذلك قوله وإذا كنت فيهم وأجيب عن لفظة إذا: بأن مقتضاه الثبوت عند الثبوت وأما العدم عند العدم فغير مسلم.

المسألة الثانية: قال الخطابي: صلاة الخوف أنواع صلاها النبي ﷺ في أيام مختلفة وأشكال متباينة يتحرى في ذلك كله ما هو الأحوط للصلاة وأبلغ في الحراسة فهي مع اختلاف صورها متفقة المعنى فمن أنواع صلاة الخوف ما إذا كان العدو في غير جهة القبلة. فرق الإمام أصحابه فرقتين فتقف طائفة وجاه العدو فتحرس ويصلّي بالطائفة الأخرى ركعة فإذا قام إلى الثانية أتموا لأنفسهم وذهبوا إلى وجاه العدو فيحرسون وتأتي الطائفة الثانية التي كانت تحرس فيصلّي بهم الركعة الثانية ويثبت جالساً في التشهد حتى يتموا لأنفسهم الصلاة ثم يسلم بهم ويدل على ذلك ما روي عن يزيد بن رومان عن صالح بن خوات عمن صلّى مع النبي ﷺ يوم ذات الرقاع صلاة الخوف أن طائفة صفت معه وجاه العدو فصلّى بالتي معه ركعة ثم ثبت قائماً وأتموا لأنفسهم، ثم انصرفوا وجاه العدو وجاءت الطائفة الأخرى فصلى بهم الركعة التي بقيت من صلاته ثم ثبت جالساً فأتموا لأنفسهم ثم سلم بهم أخرجاه في الصحيحين الذي صلى مع النبي ﷺ هو سهل بن أبي حثمة وقد أخرجاه من رواية أخرى عنه أن النبي ﷺ صلّى بأصحابه وذكر نحوه وهذا هو مختار الشافعي لأنه أشد موافقة لظاهر القرآن وأحوط للصلاة وأبلغ في حراسة العدو، وأما كونه أشد موافقة لظاهر القرآن فإن قوله ولتأت طائفة أخرى لم يصلوا فليصلوا معك يدل على أن

كان أمكن للحرب والضرب والهرب إن احتاجوا إليه، ولو صلّى الإمام أربع ركعات بكل طائفة ركعتين جاز. أنا الإمام أبو علي الحسين بن محمد القاضي أنا أبو نعيم عبد الملك بن الحسين الإسفرايني أنا أبو عوانة يعقوب بن إسحق الحافظ قال أنا الصاغاني أنا عفّان بن مسلم ثنا أبان العطّار عن يحيىٰ بن أبي كثير عن أبي سلمة عن جابر بن عبد الله قال: أقبلنا مع رسول الله ﷺ حتى إذا كنّا بذات الرِّقاع وكنّا إذا أتينا على شجرة ظليلة تركناها لرسول الله ﷺ، قال: فجاء رجل من المشركين وسيف رسول الله ﷺ معلّق بشجرة فأخذ سيفَ نبي الله ﷺ فاخترطه فقال لرسول الله ﷺ: أتخافني؟ قال: «لا». قال: فمَن يمنعك منّي؟ قال: «الله يمنعني منك»، قال: فتهدّده أصحاب رسول الله ﷺ، قال: فأغمد السيف وعلّقه فنُودي بالصلاة، قال: فصلّى بطائفة ركعتين ثم تأخروا فصلّى بالطائفة الأخرى ركعتين، قال: فكانت لرسول الله ﷺ أربع ركعات وللقوم ركعتان، أخبرنا عبد الوهاب بن الخطيب أنا عبد العزيز بن أحمد الخلال أنا أبو العباس الأصم أنا الربيع أنا الشافعي أخبرني الثقة بن علية أو غيره عن يونس عن الحسن عن جابر رضي الله عنهم أن النبي ﷺ كان يصلّي بالناس صلاة الظهر صلاة الخوف ببطن نخل، فصلّى بطائفة ركعتين ثم سلّم، ثم جاءت طائفة أخرى فصلّى بهم ركعتين ثم سلّم. ورُوِيَ عن حذيفة رضي الله عنه عن النبي ﷺ في صلاة الخوف أنه صلّى بهؤلاء ركعة وبهؤلاء ركعة ولم يقضوا، ورواه زيد بن ثابت وقال: كانت للقوم ركعة واحدة وللنبي ﷺ ركعتان، وتأوّله قوم على صلاة شدّة الخوف، وقالوا: الفرض في هذه الحالة ركعة واحدة، وأكثر أهل العلم على أن الخوف لا ينقص عدد الركعات وإن كان العدو في ناحية القِبلة في مستوى إن حملوا عليهم

الطائفة الأولى قد صلّت قوله فليصلّوا معك ظاهره يدل على أن جميع صلاة الطائفة الثانية حصلت مع الإمام وكونها أحوط لأمر الصلاة من حيث إنه لا يكثر فيها العمل من المجيء والذهاب وكونها أحوط لأمر الحرب والحراسة من حيث إنه إذا لم يكونوا في الصلاة كان أمكن للحراسة والكر والفر والهرب إن احتاجوا إليه وذهب قوم إلى أن الطائفة الأولى تصلي مع الإمام ركعة ثم تذهب إلى وجه العدو فتحرس وهم في صلاتهم ثم تأتي الطائفة الثانية فتصلي مع الإمام الركعة الثانية ويسلم الإمام ولا يسلمون هم بل يذهبون إلى وجه العدو، وترجع الطائفة الأولى إلى موضع الإمام فتقضي بقية صلاتها ثم تذهب ثم تأتي الطائفة الثانية إلى موضع الإمام فتقضي بقية صلاتها يروى ذلك عن ابن مسعود وهو مذهب أبي حنيفة ويدل على ذلك ما روي عن ابن عمر قال ﷺ صلاة الخوف قال فكبّر فصلّى خلفه طائفة منا وطائفة مواجهة للعدو فركع بهم رسول الله ﷺ ركعة وسجد سجدتين ثم انصرفوا ولم يسلموا وأقبلوا على العدو فصفوا مكانهم وجاءت الطائفة الأخرى فصفوا خلف رسول الله ﷺ فصلّى بهم ركعة وسجدتين ثم سلّم رسول الله ﷺ وقد تم ركعتين وأربع سجدات ثم قامت الطائفتان فصلّى كل إنسان منهم لنفسه ركعة وسجدتين. أخرجه النسائي قال أبو بكر السني سمع الزهري من ابن عمر ولم يسمع هذا منه والذي أخرجاه في الصحيحين عن ابن عمر قال: صلّى النبي ﷺ صلاة الخوف بإحدى الطائفتين ركعة والطائفة الأخرى مواجهة العدو ثم انصرفوا وقاموا في مقام أصحابهم مقبلين على العدو وجاء أولئك فصلّى بهم رسول الله ﷺ ركعة ثم قضى هؤلاء ركعة وهؤلاء ركعة وفي رواية أخرى قال: صلّى رسول الله ﷺ صلاة الخوف في بعض أيامه فقامت طائفة معه وطائفة بإزاء العدو فصلّى بالذين معه ركعة. وجاء الآخرون فصلى بهم ركعة وقضت الطائفتان ركعة ركعة وبهذه الرواية المخرجة في الصحيحين أخذ الأوزاعي وأشهب المالكي وهو جائز عند الشافعي أيضاً ثم قيل إن الطائفتين قضوا ركعتهم الباقية معاً وقيل متفرقين وهو الصحيح والفرق بين الروايتين أن الطائفة الأولى أدركت أول الصلاة وهي في حكم من خلف الإمام. وأما الطائفة الثانية فلم تدرك أول الصلاة والمسبوق فيما يقضي كالمنفرد في حكم صلاته.

رأوهم صلّى الإمام بهم جميعاً وحرسوا في السجود، كما أخبرنا الإمام أبو علي الحسين بن محمد القاضي أنا أبو نعيم الإسفرايني أنا أبو عوانة الحافظ أنا عمّار أنا يزيد بن هارون أخبرنا عبد الملك بن أبي سليمان عن عطاء عن جابر رضي الله عنهما قال: صلّى رسول الله ﷺ صلاة الخوف فصففنا خلفه صفّين، والعدو بيننا وبين القبلة فكبّر النبي ﷺ وكبّرنا جميعاً ثم ركع وركعنا جميعاً ثم رفع رأسه من الركوع ورفعنا جميعاً، ثم انحدر بالسجود والصفّ الذي يليه الذي كان مؤخراً في الركعة الأولى، فقام الصفّ المؤخّر في نحو العدو فلما قضى رسول الله ﷺ السجود والصفّ الذي يليه انحدر الصفّ المؤخّر بالسجود، ثم قاموا ثم تقدّم الصفّ المؤخّر، وتأخر المقدّم ثم ركع النبي ﷺ وركعنا جميعاً، ثم رفع رأسه من الركوع ورفعنا جميعاً، ثم انحدر بالسجود والصفّ الذي يليه الذي كان مؤخراً في الركعة الأولى، وقام الصفّ المؤخّر في نحر العدو، فلما قضى رسول الله ﷺ السجود والصفّ الذي يليه انحدر الصف المؤخر بالسجود فسجدوا، ثم سلّم النبي ﷺ وسلّمنا جميعاً قال جابر رضي الله عنه: كما يصنع حرسكم هؤلاء بأمرائكم. واعلم أنّ صلاة الخوف جائزة بعد الرسول ﷺ. عند عامّة أهل العلم. ويُحكى عن بعضهم عدم الجواز ولا وجه له، وقال الإمام أحمد بن حنبل رحمة الله عليه: كلّ حديث رُوِيَ في أبواب صلاة الخوف فالعمل به جائز، رُوِيَ فيها ستّة أوجه أو سبعة أوجه، وقال مجاهد في سبب نزول هذه الآية عن ابن عياش الزرقي قال: كنّا مع رسول الله ﷺ بعسفان وعلى المشركين خالد بن الوليد فصلّينا الظهر، فقال المشركون: لقد أصبنا غرّة لو حملنا عليهم وهم في الصلاة فنزلت الآية بعد الظهر والعصر، قوله تعالى: ﴿ وإذا كنتَ فيهم ﴾ أي:

المسألة الثالثة: فيما إذا كان العدو في ناحية القبلة وصورة هذا الصلاة ما روي عن جابر بن عبدالله قال: شهدت مع رسول الله ﷺ صلاة الخوف فصففنا صفين خلف رسول الله ﷺ والعدو بيننا وبين القبلة فكبّر النبي ﷺ وكبّرنا جميعاً ثم ركع وركعنا جميعاً ثم رفع رأسه من الركوع ورفعنا جميعاً ثم انحدر بالسجود والصف الذي يليه وقام الصف المؤخر في نحو العدو فلما قضى رسول الله ﷺ السجود وقام الصف الذي يليه انحدر الصف المؤخر بالسجود وقاموا ثم تقدم الصف المؤخر وتأخر الصف المقدم ثم ركع النبي ﷺ وركعنا جميعاً ثم رفع رأسه من الركوع ورفعنا جميعاً ثم انحدر بالسجود والصف الذي يليه الذي كان مؤخراً في الركعة الأولى فقام الصف المؤخر في نحر العدو فلما قضى النبي ﷺ السجود والصف الذي يليه انحدر الصف المؤخر بالسجود فسجدوا ثم سلم النبي ﷺ وسلّمنا جميعاً قال جابر كما يصنع حرسكم هؤلاء بأمرائهم أخرجه مسلم بتمامه وأخرجه البخاري طرفاً منه أنه صلّى صلاة الخوف مع النبي ﷺ في الغزوة السابقة غزوة ذات الرقاع. وبهذا الحديث أخذ الشافعي ومن وافقه فيما إذا كان العدو في جهة القبلة.

المسألة الرابعة: إذا اشتد الحرب والتحم القتال صلّوا رجالاً وركباناً يؤمنون بالركوع والسجود إلى أي جهة كانت هذا مذهب الشافعي ومذهب أبي حنيفة أنهم لا يصلّون في هذه الحالة فإذا أمنوا قضوا ما فاتهم من الصلاة ولصلاة الخوف صور أخر مذكورة في كتب الفقه وليس هذا موضعها والله أعلم.

وقوله تعالى: **﴿ولا جناح عليكم﴾** أي ولا إثم ولا حرج عليكم **﴿إن كان بكم أذى من مطر أو كنتم مرضى أن تضعوا أسلحتكم﴾** قال ابن عباس: رخص الله لهم في وضع السلاح في حال المطر وحال المرض لأن السلاح يثقل حمله في هاتين الحالتين **﴿وخذوا حذركم﴾** يعني راقبوا عدوكم ولا تغفلوا عنه أمرهم الله بالتحفظ والتحرز والاحتياط لئلا يتجرأ العدو عليهم قال ابن عباس: نزلت في النبي ﷺ وذلك أنه غزا بني محارب وبني أنمار فنزلوا ولا يرون من العدو أحداً فوضع الناس السلاح فخرج رسول الله ﷺ لحاجة حتى قطع الوادي والسماء ترش بالمطر فسال الوادي فحال السيل بين رسول الله ﷺ وبين أصحابه فجلس تحت شجرة فبصر به غورث بن الحارث المحاربي

شهيداً معهم فأقمت لهم الصلاة، ﴿ فَلْتَقُمْ طائفةٌ منهمْ معكَ ﴾، أي: فلتقف، كقوله تعالى: ﴿ وإذا أظلمَ عليهمْ قامُوا ﴾ [البقرة: ٢٠] أي: وقفُوا، ﴿ وليأخذوا أسلحتَهمْ ﴾، واختلفوا في الذين يأخذون أسلحتهم، فقال بعضهم: أراد هؤلاء الذينَ وقفوا مع الإمام يُصلّون ويأخذون الأسلحة والصلاة، فعلى هذا إنما يأخذه إذا كان لا يشغله عن الصلاة، فلا يُؤذي مَنْ يجنبه، فإذا شغلته حركته وثقّلتْهُ عن الصلاة كالجعبة والترس الكبير أو كان يؤذي من جنبه، كالرمح فلا يأخذه، وقيل: وليأخذوا أسلحتهم أي: الباقون الذين قاموا في وجه العدو، ﴿ فإذا سجدُوا ﴾، أي: صلّوا، ﴿ فليكونُوا مِنْ وَرائِكمْ ﴾، يُريد مكان الذين هم وِجاهَ العدو، ﴿ ولتَأْتِ طائفَةٌ أخرى لم يُصلّوا ﴾، وهم الذين كانوا في وجه العدو، ﴿ فَلْيُصَلّوا معكَ وليأخذُوا حِذْرَهم وأسلحتهم ﴾، قيل: هؤلاء الذين أتَوا، وقيل: هم الذين صلّوا، ﴿ وَدَّ الذينَ كفرُوا ﴾، يتمنّى الكفّار، ﴿ لو تَغْفُلُونَ ﴾ أي: لو وجدُوكم غافلين، ﴿ عنْ أسلحتِكُم وأمتعتِكم فَيَميلُونَ عليكُمْ مَيْلَةً واحدةً ﴾، فيقصدونَكم ويحملون عليكم حملةً واحدة، ﴿ ولا جُناحَ عليكم إنْ كانَ بكم أذىً مِنْ مَطَرٍ أو كنْتُمْ مَرْضَى أنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُم ﴾، رخّص في وضع السلاح في حال المطر والمرض، لأن السلاح يثقل حمله في هاتين الحالتين، ﴿ وخُذُوا حِذْرَكم ﴾، أي: رَاقِبُوا العدو كيلا يتغفلوكم، والحذر ما يُتّقَى به من العدو، وقال الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما: نزلت في رسول الله ﷺ، وذلك أنه غزا محارباً وبنى أنماراً فنزلوا ولا يرون من العدو أحداً فوضع الناس أسلحتهم، وخرج رسول الله ﷺ لحاجة له قد وضع سلاحه حتى قطع الوادي والسماء ترشّ، فَحَالَ الوادي بين رسول الله ﷺ وبين أصحابه فجلس رسول الله ﷺ في

فقال: قتلني الله إن لم أقتله ثم انحدر من الجبل ومعه السيف ولم يشعر به رسول الله ﷺ إلا وهو قائم على رأسه وقد سل السيف من غمده وقال يا محمد من يمنعك مني الآن؟ فقال رسول الله ﷺ: «الله عز وجل» ثم قال اللهم اكفني غورث بن الحارث بما شئت فاهوى غورث بالسيف ليضرب رسول الله ﷺ به فأكب لوجهه من زلخة زلخها فندر السيف من يده فقام رسول الله ﷺ فأخذ السيف ثم قال يا غورث من يمنعك مني الآن؟ فقال لا أحد فقال أتشهد أن لا إله إلاّ الله وأن محمداً عبده ورسوله وأعطيك سيفك فقال: لا ولكن أشهد أن لا أقاتلك أبداً ولا أعين عليك عدواً فأعطاه رسول الله ﷺ سيفه فقال غورث لأنت خير مني فقال النبي ﷺ أجل أنا أحق بذلك منك فرجع غورث إلى أصحابه فقالوا له: ويلك يا غورث ما منعك منه فقال والله لقد أهويت إليه بالسيف لأضربه به فوالله ما أدري من زلخني بين كتفي فخررت لوجهي وذكر حاله لهم مع رسول الله ﷺ قال: وسكن الوادي فقطع رسول الله ﷺ الوادي إلى أصحابه وأخبرهم الخبر وقرأ هذه الآية: ﴿**ولا جناح عليكم إن كان بكم أذى من مطر أو كنتم مرضى**﴾ قال ابن عباس: كان عبدالرحمن بن عوف جريحاً فنزلت فيه أن تضعوا أسلحتكم وخذوا حذركم يعني من عدوكم ﴿**إن الله أعد للكافرين عذاباً مهيناً**﴾ يعني يهانون به. قوله عز وجل: .

﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ۚ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾﴾

﴿**فإذا قضيتم الصلاة**﴾ يعني فإذا فرغتم من صلاة الخوف ﴿**فاذكروا الله**﴾ يعني بالتسبيح والتحميد والتهليل والتكبير وأثنوا على الله في جميع أحوالكم ﴿**قياماً وقعوداً وعلى جنوبكم**﴾ فإن ما أنتم عليه من الخوف جدير بالمواظبة على ذكر الله عز وجل والتضرع إليه (ق) عن عائشة قالت كان رسول الله ﷺ يذكر الله في كل أحيانه وقيل المراد بالذكر الصلاة يعني فصلّوا لله قياماً يعني في حال الصحة وقعوداً في حال المرض وعلى جنوبكم يعني في

ظل شجرة فبصرَ بِهِ عورث بن الحارث المحاربي فقال: قتلني الله إن لم أقتله، ثم انحدر من الجبل ومعه السيف فلم يشعر به رسول الله ﷺ إلاّ وهو قائم على رأسه ومعه السيف قد سَلّه من غِمْدِهِ فقال: يا محمد مَن يعصمك منّي الآن؟ فقال رسول الله ﷺ: «الله»، ثم قال: اللّهمَّ اكفني غورث بن الحارث بما شئتَ»، ثم أهوى بالسيف إلى رسول الله ﷺ ليضربه فانكبَّ لوجهِهِ مِن زَلْخةٍ زُلخَها بين كتفيه، وندر سيفه فقام رسول الله ﷺ فأخذه ثم قال: «يا غورث مَن يمنعك منّي الآن»؟ قال: لا أحد، قال: «تشهد أن لا إلّه إلاّ الله وأن محمداً عبده ورسوله وأُعطيكَ سيفكَ»؟ قال: لا ولكن أشهد أن لا أقاتلك أبداً ولا أُعين عليك عدوّاً فأعطاه رسول الله ﷺ سيفه، فقال غورث: والله لأنت خير منّي، فقال النبي ﷺ: «أجلْ أنا أحقّ بذلك منك»، فرجع غورث إلى أصحابه فقالوا: ويلك ما منعك منه؟ قال: لقد أهويتُ إليه بالسيف لأضربه فوالله ما أدري مَن زلخني بين كتفي فخررت لوجهي، وذكر حاله قال: وسكن الوادي فقطع رسول الله ﷺ الوادي أصحابه فأخبرهم الخبر وقرأ عليهم هذه الآية: ﴿ **ولا جُنَاحَ عليكم إنْ كانَ بكم أذىً مِن مطر أو كنتُمْ مرضَى أن تضعُوا أسلحتَكم وخذُوا حِذرَكم** ﴾ أي: من عدوِّكم، وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس في هذه الآية كان عبد الرحمن بن عوف جريحاً: ﴿ **إنّ الله أعدّ للكافرين عذاباً مهيناً** ﴾، يُهانُون فيه، والجُنَاح: الإثم، من جنحت إذا عدلت عن القصد.

﴿ **فإذا قَضَيْتُمُ الصلاةَ** ﴾، يعني: صلاة الخوف، أي: فرغتم منها، ﴿ **فاذكُروا الله** ﴾ أي صلُّوا للّهِ ﴿ **قياماً** ﴾ في حال الصحة، ﴿ **وقعُوداً** ﴾، في حال المرض، ﴿ **وعلى جُنُوبِكم** ﴾، عند الجرح والزمانة، وقيل: اذكرُوا اللَّهَ بالتسبيح والتحميد والتهليل والتمجيد، على كل حال، أخبرنا عمرو بن عبد العزيز الكاشاني أنا القاسم بن جعفر الهاشمي أنا أبو علي محمد بن أحمد اللؤلؤي أنا أبو داود السجستاني أنا محمد بن العلاء أنا ابن أبي زائدة عن أبيه

حال الزمانة والجراح ﴿فإذا اطمأننتم﴾ يعني فإذا أمنتم وسكنت قلوبكم. وأصل الطمأنينة سكون القلب ﴿**فأقيموا الصلاة**﴾ يعني فأتموها أربعاً فعلى هذا يكون المراد بالطمأنينة ترك السفر والمعنى فإذا صرتم مقيمين في أوطانكم فأقيموا الصلاة تامة أربعاً من غير قصر. وقيل معناه فأقيموا الصلاة بإتمام ركوعها وسجودها فعلى هذا يكون المراد بالطمأنينة سكون القلب عن الاضطراب والأمن بعد الخوف ﴿**إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً**﴾ يعني فرضاً موقتاً والكتاب هنا بمعنى المكتوب يعني مكتوبة موقتة في أوقات محدودة فلا يجوز إخراجها عن أوقاتها على أي حال كان من خوف أو أمن وقيل معناه فرضاً واجباً مقدراً في الحضر أربع ركعات وفي السفر ركعتين.

قوله تعالى: .

وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾

﴿**ولا تهنوا في ابتغاء القوم**﴾ سبب نزول هذه الآية أن أبا سفيان وأصحابه لما رجعوا يوم أحد بعث النبي ﷺ

عن خالد بن سلمة عن الزهري عن عُروة عن عائشة رضي الله عنها قالتْ: كان رسول الله ﷺ يذكرُ اللَّهَ على كل أحيانه. ﴿ **فإذا اطمَأْنَنْتُمْ** ﴾ أي: سكنتم وأمنتم، ﴿ **فأقِيمُوا الصلاةَ** ﴾ أي: أتمّوها أربعاً بأركانها، ﴿ **إنّ الصلاةَ كانَتْ على المؤمنينَ كتاباً مَوْقُوتاً** ﴾، قيل: واجباً مفروضاً مقدّراً في الحضر أربع ركعات وفي السفر ركعتان، وقال مجاهد: أي فرضاً مؤقتاً وقّتَه اللَّهُ عليهم، وقد جاء بيان أوقات الصلاة في الحديث، أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحي أنا أبو بكر أحمد بن الحسن الحيري أنا حاجب بن أحمد الطوسي أنا أبو بكر عبد الله بن هاشم حدّثنا وكيع أنا سفيان عن عبد الرحمن بن الحارث عن عياش بن أبي ربيعة الزرقي عن حكم بن أبي حكيم عن عبادِ بن حنيف عن نافع بن أبي جبير بن مطعم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «أمّني جبريلُ عليه السلام عند باب البيتِ مرتين فصلّى بي الظهر حين زالتِ الشمسُ وكانتْ بقدرِ الشِّراك، وصلّى بي العصر حين صار ظلُّ كلِّ شيء مثله، وصلّي بي المغرب حين أفطر الصائم، وصلّى بي العشاءَ حينَ غابَ الشّفقُ، وصلّى بي الفجرَ حين حَرُمَ الطعامُ والشرابُ على الصائم، فلمّا كانَ الغدُ صلّي بي الظهرَ حين كان ظِلُّ كلِّ شيءٍ مثله، وصلّى بي العصرَ حين كان ظِلّ كلّ شيء مثليه، وصلّي بي المغربَ حين أفطرَ الصائم، وصلّي بي العشاء حين ذهبِ ثلث الليل الأول، وصلّي بي الفجرَ حين أسفر، ثم التفتَ إليّ وقال: يا محمد هذا وقتُ الأنبياء من قبلك، والوقتُ ما بين هذين الوقتين» أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحي أنا أبو بكر بن الحسن الحيري أنا وكيع أنا حاجب بن أحمد ثنا عبد الله بن هشام ثنا وكيع ثنا بدر بن عثمان ثنا أبو بكر بن أبي موسى الأشعري عن أبيه رضي الله عنه عن النبي ﷺ أن سائلاً أتاه فسأله عن مواقيت الصلاة، قال: فلم يردّ عليه شيئاً ثم أمر بلالاً فأذّن ثم أمره فأقام الصلاةَ حين انشقّ الفجرُ فصلّى، ثم أمره فأقام الظهرَ، والقائل يقول: قد زالت الشمس أو لم تزل، وهو كان أعلم منهم، ثم أمره فأقام العصرَ والشمسُ مرتفعةٌ بيضاء نقية، ثم أمره فأقام المغربَ حين غابت الشمس، ثم أمره فأقام العشاء حين سقط الشفق، قال: وصلّى الفجرَ من الغد، والقائل يقول: طلعتِ الشمسُ أو لم تطلع، وصلّى الظهر قريباً من وقت العصر بالأمس وصلّى العصر والقائل يقول قد احمرّتِ الشمسُ وصلّى المغربَ قبلَ أن يغيبَ الشفقُ، وصلّى العشاء بعدما ذهب ثلث الليل الأول، ثم قال: أين السائل عن وقت الصلاة؟ فقال الرجل: أنا يا رسولَ الله، قال: «ما بين هذين الوقتين وقت».

قوله تعالى: ﴿ **ولا تَهِنُوا في ابْتِغَاءِ القَومِ** ﴾ الآية، سبب نزولها أن أبا سفيان رضي الله عنه وأصحابه لمّا

في آثارهم فشكوا من ألم الجراحات فقال الله تعالى ولا تهنوا يعني ولا تضعفوا، ولا تتوانوا في ابتغاء القوم يعني في طلب أبي سفيان وأصحابه ثم أورد عليهم الحجة في ذلك وألزمهم بها فقال تعالى: ﴿إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون﴾ يعني أن حصول الألم قدر مشترك بينكم وبينهم وليس ما تكابدون من الوجع وألم الجراح مختصاً لكم بل هم كذلك فإذا لم يكن الألم مانعاً لهم عن قتالكم فكيف يكون مانعاً لكم عن قتالهم وكيف لا تصبرون مثل صبرهم مع أنكم أولى بالصبر منهم لأنكم مقرون بالحشر والنشر والثواب والعقاب والمشركون لا يقرون بذلك كله فأنتم أيها المؤمنون أولى بالجهاد منهم وهو قوله تعالى: ﴿وترجون من الله ما لا يرجون﴾ يعني وتأملون من الله من الثواب في الآخرة ما لا يرجعون وقيل ترجون النصر والظفر في الدنيا وإظهار دينكم على الأديان كلها ﴿وكان الله عليماً حكيماً﴾ يعني أنه تعالى لا يأمركم بشيء إلا وهو يعلم أنه مصلحة لكم. قوله عز وجل:

﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ وَلَا تَكُن لِّلۡخَآئِنِينَ خَصِيمٗا ﴿١٠٥﴾ وَٱسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿١٠٦﴾﴾

﴿إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق﴾ قال ابن عباس نزلت هذه الآية في رجل من الأنصار يقال له طعمة بن إبيرق من بني ظفر بن الحارث سرق درعاً من جار له يقال له قتادة بن النعمان وكانت الدرع في جراب فيه دقيق فجعل الدقيق ينتثر من خرق في الجراب حتى انتهى إلى داره ثم خبأها عند رجل من اليهود يقال له زيد بن السمين فالتمست الدرع عند طعمة فحلف بالله ما أخذها وما له بها من علم فقال أصحاب الدرع: لقد رأينا أثر الدقيق حتى دخل داره فلما حلف تركوه واتبعوا أثر الدقيق إلى منزل اليهودي فأخذوه فقال اليهودي: دفعها إلي طعمة بن أبيرق زاد في الكشاف وشهد له جماعة من اليهود. قال البغوي: وجاء بنو ظفر قوم طعمة إلى رسول الله ﷺ وسألوه أن يجادل عن صاحبهم طعمة فهم رسول الله ﷺ أن يعاقب اليهودي وأن يقطع يده فأنزل الله هذه الآية وقيل إن زيد بن السمين أودع الدرع عند طعمة فجحده طعمة الله فأنزل هذه الآية: ﴿إنا أنزلنا إليك﴾ يعني يا محمد الكتاب يعني القرآن بالحق يعني بالصدق وبالأمر والنهي والفصل ﴿لتحكم بين الناس بما أراك الله﴾ يعني بما علمك الله وأوحى إليك وإنما سمي العلم اليقيني رؤية لأنه جرى مجرى الرؤية في قوة الظهور روي عن عمر أنه قال لا يقولن أحدكم قضيت بما أراني الله فإن الله لم يجعل ذلك إلا لنبيه ﷺ ولكن ليجهد رأيه لأن الرأي من رسول الله ﷺ كان مصيباً، لأن الله تعالى كان يريه إياه وإن رأي أحدنا يكون ظناً ولا يكون علماً قال المحققون دلت هذه الآية على أن

رجعوا يوم أُحُد بعث رسول الله ﷺ طائفة في آثارهم فشكوا ألمَ الجراحات، فقال الله تعالى: ﴿ ولا تَهِنُوا في ابْتِغاءِ القوم ﴾ أي: تضعفُوا في ابتغاء القوم في طلب القوم أبي سفيان وأصحابه، ﴿ إنْ تَكُونُوا تألَمُونَ ﴾، تتوجّعُون مِنَ الجراح، ﴿ فإنّهم يألَمُون ﴾، أي: يتوجّعُون، يعني الكفّار، ﴿ كما تألَمُون وتَرْجُونَ مِنَ الله مَا لَا يرجُون ﴾، أي: وأنتم مع ذلك تأملون من الأجر والثواب في الآخرة والنصر في الدنيا ما لا يرجون، وقال بعض المفسّرين: المراد بالرجاء الخوف، لأن كل راجٍ خائف أن لا يدركه مأموله، ومعنى الآية: ترجون من الله أي: وتخافون من الله أي: تخافون من عذاب الله ما لا يخافون، قال الفرّاء رحمه الله: ولا يكون الرجاء بمعنى الخوف إلّا مع الجدّ، كقوله تعالى: ﴿ قلْ للذين آمنوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لا يَرْجُونَ أيامَ الله ﴾ [الجاثية: ١٤] أي: لا يخافونه، وقال تعالى: ﴿ ما لَكُم لَا تَرْجُونَ للَّهِ وَقَاراً ﴾ [نوح: ١٣] أي: لَا تَخَافُونَ للَّهِ عظمتَه، ولا يجوز رجوتُك بمعنى: خفتُكَ ولا خفتُك، وأنتَ تريدُ رَجْوَتَكَ ﴿ وكانَ اللَّهُ عليماً حكيماً ﴾.

قوله تعالى: ﴿ إنّا أنزلنا إليك الكتابَ بالحقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ الناسِ بما أَرَاكَ اللَّهُ ﴾ الآية، روى الكلبي عن أبي

رسول الله ﷺ ما كان يحكم إلا بالوحي الإلهي والنص المنزل عليه ﴿ولا تكن﴾ يعني يا محمد ﴿للخائنين خصيماً﴾ يعني ولا تكن لأجل الخائنين وهم قوم طعمة تخاصم عنهم وتجادل عن طعمة مدافعاً عنه ومعيناً له ﴿واستغفر الله﴾ يعني مما هممت به من معاقبة اليهودي وقيل من جدالك عن طعمة ﴿إن الله كان غفوراً﴾ يعني لذنوب عباده يسترها عليهم ويغفرها لهم ﴿رحيماً﴾ يعني بعباده المؤمنين.

فصل

وقد تمسك بهذه الآية من يرى جواز صدور الذنب من الأنبياء وقالوا لو لم يقع من الرسول ﷺ ذنب لما أُمر بالاستغفار والجواب عما تمسكوا به من وجوه: أحدها أن رسول الله ﷺ لم يفعل المنهي عنه في قوله ولا تكن للخائنين خصماً ولم يخاصم عن طعمة لما سأله قومه أن يذب عنه أن يلحق السرقة باليهودي فتوقف رسول الله ﷺ عن ذلك وانتظر ما يأتيه من الوحي السماوي والأمر الإلهي فنزلت هذه الآية وأعلم رسول الله ﷺ بأن طعمة كذاب وأن اليهودي بريء من السرقة. وإنما مال ﷺ إلى نصرة طعمة وهمّ بذلك بسبب أنه في الظاهر من المسلمين فأمره الله بالاستغفار لهذا القدر. الوجه الثاني أن قوم طعمة لما شهدوا عند رسول الله ﷺ ببراءة طعمة من السرقة ولم يظهر في الحال لرسول الله ﷺ ما يوجب القدح في شهادتهم همّ بأن يقضي على اليهودي بالسرقة فلما أطلعه الله على كذب قوم طعمة عرف أنه لو وقع ذلك الأمر لكان خطأ في نفس الأمر فأمره الله بالاستغفار منه وإن كان معذوراً. الوجه الثالث يحتمل أن الله تعالى أمره بالاستغفار لقوم طعمة لذبهم عن طعمة فإن استغفاره ﷺ يحتمل أن يكون لذنب قد سبق قبل النبوة وأن يكون لذنوب أمته. الوجه الرابع أن درجة النبي ﷺ أعلى الدرجات ومنصبه أشرف المناصب فلعلو درجته وشرف منصبه وكمال معرفته بالله عز وجل فما يقع منه على وجه التأويل أو السهو أو أمر من أمور الدنيا فإنه ذنب بالنسبة إلى منصبه ﷺ كما قيل حسنات الأبرار سيئآت المقربين. وذلك بالنسبة إلى منازلهم ودرجاتهم والله أعلم. قوله تعالى: .

صالح عن ابن عباس قال: نزلت هذه الآية في رجل من الأنصار يقال له طعمة بن أبيرق من بني ظفر بن الحارث سرَق درعاً من جارٍ له يقال له قتادة بن النعمان، وكانت الدرع في جِراب له فيه دقيق فجعل الدقيق ينتثر من خرق في الجراب حتى انتهى إلى الدار، ثم خبأها عند رجل من اليهود، يُقال له زيد بن السمين، فالتُمستِ الدرع عند طعمة فحلف بالله ما أخذها وما له بها من علم، فقال أصحاب الدرع: لقد رأينا أثر الدقيق حتى دخل داره، فلما حلف تركوه واتبعوا أثر الدقيق إلى منزل اليهودي فأخذوه منه، فقال اليهودي دفعها إليّ طعمة بن أبيرق، فجاء بنو ظفر وهم قوم طعمة إلى رسول الله ﷺ وسألوه أن يُجادل عن صاحبهم، وقالوا له: إنك إن لم تفعل افتضح صاحبنا، فهمَّ رسول الله ﷺ أن يُعاقب اليهودي. ويُروى عن ابن عباس رضي الله عنهما في رواية أخرى أن طعمة سرق الدرع في جراب فيه نخالة فخرق الجراب حتى كان يتناثر منه النخالة طول الطريق فجاء به إلى دار زيد السمين وتركه على بابه، وحمل الدرع إلى بيته، فلما أصبح صاحب الدرع جاء على أثر النخالة إلى دار زيد السمين فأخذه وحمله إلى النبي ﷺ، فهمّ النبي ﷺ أن يقطع يد زيد اليهودي. وقال مقاتل: إنّ زيداً السمين أودع درعاً عن طعمة فجحدها طعمة فأنزل الله تعالى هذه الآية فقال: ﴿ إنّا أنزلنا إليكَ الكتابَ بالحق ﴾ بالأمر والنهي والفصل، ﴿ لِتحكمَ بينَ الناسِ بما أراكَ اللَّهُ ﴾ بما علّمكَ اللَّهُ وأوحى إليك، ﴿ ولا تَكُنْ للخائنينَ ﴾، طعمة، ﴿ خصيماً ﴾، مُعيناً مدافعاً عنه.

﴿ واسْتَغفِرِ اللَّهَ ﴾، ممّا هممتَ به من معاقبة اليهودي، وقال مقاتل: واستغفرِ الله من جِدَالِكَ عن طعمة ﴿ إنّ اللَّهَ كانَ غفوراً رحِيماً ﴾.

وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿١٠٩﴾ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾

﴿ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم﴾ يعني ولا تجادل يا محمد عن الذين يظلمون أنفسهم بالخيانة وهم طعمة ومن عاونه وذب عنه من قومهم وإنما سماهم خائنين لأن من أقدم على ذنب فقد خان نفسه لأنه أوقعها في العذاب وحرمها من الثواب ولهذا قيل لمن ظلم غيره إنما ظلم نفسه وقيل المراد بهذا الجمع كل من خان خيانة أي فلا تخاصم الخائن ولا تجادل عنه **﴿إن الله لا يحب من كان خواناً أثيماً﴾** يعني خواناً بسرقة الدرع أثيماً برميه اليهودي وهو بريء وإنما قال تعالى خواناً أثيماً على المبالغة لأنه تعالى علم من طعمة الإفراط في الخيانة وركوب المآثم. ويدل على ذلك أنه لما نزل فيه القرآن لحق مكة مرتداً عن دينه ثم عدا على الحجاج بن علاط فنقب عليه بيته فسقط عليه حجر من الحائط فلما أصبحوا أخرجوه من مكة فلقي ركباً فعرض لهم. وقال ابن السبيل ومنقطع به فحملوه حتى إذا جن عليه الليل عدا عليهم فسرقهم ثم انطلق فركبوا في طلبه فأدركوه فرموه بالحجارة حتى مات، ومن كانت هذه حاله كان كثير الخيانة والإثم فلذلك وصفه الله تعالى بالمبالغة في الخيانة والإثم قال بعضهم إذا عثرت من رجل على سيئة فاعلم أن لها أخوات. ويروى عن عمر أنه أمر بقطع يد سارق فجاءت أمه تبكي وتقول هذه أول سرقة سرقها فاعف عنه يا أمير المؤمنين فقال كذبت إن الله لا يؤاخذ عبده في أول مرة.

قوله عز وجل: **﴿يستخفون من الناس﴾** يعني يستترون حياء من الناس يريد بذلك بني ظفر بن الحارث وهم قوم طعمة بن أبيرق **﴿ولا يستخفون من الله﴾** يعني ولا يستترون من الله ولا يستحيون منه وأصل الاستخفاء الاستتار وإنما فسر الاستخفاء بالاستحياء على المعنى لأن الاستحياء من الناس يوجب الاستتار منهم **﴿وهو معهم﴾** يعني والله معهم بالعلم والقدرة ولا يخفى عليه شيء من حالهم لأنه تعالى لا تخفى عليه خافية. وكفى بذلك زجراً للإنسان عن ارتكاب الذنوب **﴿إذ يبيتون ما لا يرضى من القول﴾** يعني يضمرون ويقدرون ويزورون في أذهانهم. وأصل التبييت تدبير الفعل بالليل وذلك أن قوم طعمة قالوا فيما بينهم: نرفع الأمر إلى النبي ﷺ فإنه يسمع قول

﴿ولا تُجَادِلْ﴾، لا تُخاصم، **﴿عنِ الّذينَ يَخْتَانُونَ أنْفُسَهمْ﴾**، أي: يظلمون أنفسهم بالخيانة والسرقة، **﴿إنّ اللّهَ لا يُحبُّ مَنْ كانَ خَوّاناً﴾**، خائناً، **﴿أثيماً﴾**، بسرقة الدرع، أثيماً في رميه اليهودي، قيل: إنه خطاب مع النبي ﷺ، والمُرادُ به غيره، كقوله تعالى: ﴿فإنْ كنتَ في شكٍّ ممّا أنزلنا إليك﴾ [يونس: ٩٤]، والاستغفار في حق الأنبياء بعد النبوّة على أحد الوجوه الثلاثة إمّا لذنبٍ تقدّم على النبوّة أو لذنوب أُمته وقرابته، أو لمباحٍ جاء الشرع بتحريمه فيتركه بالاستغفار، فالاستغفار يكون معناه السمع والطاعة لحكم الشرع.

﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النّاسِ﴾، أي: يستترون ويستحيون من الناس، يريد بني ظفر بن الحارث، **﴿ولا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللّهِ﴾** أي: لا يستترون ولا يستحيون من الله، **﴿وهوَ معهمْ إذْ يُبيّتُونَ﴾**، يتقولون ويُؤلّفون، والتبييت: تدبير الفعل ليلاً، **﴿ما لا يَرْضَى مِنَ القول﴾**، وذلك أن قوم طعمة قالوا فيما بينهم: نرفع الأمر إلى النبي ﷺ فإنه يسمع قوله ويمينه لأنه مسلم ولا يسمع من اليهودي فإنه كافر، فلم يرضَ الله ذلك منهم، **﴿وكانَ اللّهُ بما يعملونَ محيطاً﴾**، ثم يقول لقوم طعمة:

طعمة ويقبل يمينه لأنه مسلم ولا يسمع قول اليهودي لأنه كافر فلم يرض الله تعالى بذلك منهم فأطلع نبيه ﷺ على سرهم وما هموا به ﴿وكان الله بما يعملون محيطاً﴾ يعني أنه تعالى لا يخفى عليه شيء من أسرار عباده وهو مطلع عليهم محيط بهم لا تخفى عليه خافية ﴿ها أنتم هؤلاء﴾ ها للتنبيه يعني يا هؤلاء الذين هو خطاب لقوم من المؤمنين كانوا يذبون عن طعمة وعن قومه ﴿جادلتم عنهم﴾ يعني خاصمتم عنهم بسبب أنهم كانوا يرونهم في الظاهر مسلمين وأصل الجدال شدة الفتل لأن كل واحد من الخصمين يريد أن يفتل صاحبه عما هو عليه والمعنى هبوا إنكم خاصمتم وجادلتم عن طعمة وقومه في الحياة الدنيا وقيل هو خطاب لقوم طعمة وفي قراءة ابن مسعود: جادلتم عنه والمعنى هبوا أنكم خاصمتم عن طعمة في الحياة الدنيا ﴿فمن يجادل الله عنهم يوم القيامة﴾ يعني إذا أخذه بعذابه فهو استفهام بمعنى التوبيخ والتقريع: ﴿أمن يكون عليهم وكيلاً﴾ يعني محافظاً ومحامياً عنهم من بأس الله إذا نزل بهم. قوله تعالى: ﴿ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه﴾ نزلت هذه الآية في ترغيب طعمة في التوبة وعرضها عليه. وقيل نزلت في قومه الذين جادلوا عنه وقيل هي عامة في كل مسيء ومذنب لأن خصوص السبب لا يمنع من إطلاق الحكم ومعنى الآية ومن يعمل سوءاً يسيء به غيره كما فعل طعمة بالسرقة من قتادة وإنما خص ما يتعدى إلى الغير باسم السوء لأن ذلك يكون في الأكثر إيصالاً للضرر إلى الغير أو يظلم نفسه يعني فيما يختص به من الحلف الكاذب ونحو ذلك. وقيل معناه ومن يعمل سوءاً أي قبيحاً أو يظلم نفسه يرميه البريء وقيل السوء كل ما يأثم به الإنسان والظلم هو الشرك فما دونه ﴿ثم يستغفر الله﴾ يعني من ذنوبه ﴿يجد الله غفوراً رحيماً﴾ ففي هذه الآية دليل على حكمين: أحدهما أن التوبة مقبولة عن جميع الذنوب الكبائر والصغائر لأن قوله ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه عم الكل. والحكم الثاني أن ظاهر الآية يقتضي أن مجرد الاستغفار كاف. وقال بعضهم إنه مقيد بالتوبة لأنه لا ينفع الاستغفار مع الإصرار على الذنوب.

وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾

﴿ومن يكسب إثماً﴾ يعني ومن يعمل ذنباً يأثم به ﴿فإنما يكسبه على نفسه﴾ يعني إنما يعود وبال كسبه عليه

﴿ ها أنْتم هؤلاءِ ﴾ أي: يا هؤلاء، ﴿ جَادَلْتُمْ ﴾، أي: خاصمتم، ﴿ عنهمْ ﴾ يعني: عن طعمة، وفي قراءة أُبيّ بن كعب عنه ﴿ في الحياة الدنيا ﴾، والجدال: شدّة المخاصمة من الجدل، وهو شدّة القتل، فهو يريد قتل الخصم عن مذهبه بطريق الحجّاج، وقيل: الجدال من الجدالة، وهي الأرض، فكان كل واحد من الخصمين يروم قهرَ صاحبه وصرعه على الجدالة، ﴿ فمَنْ يُجادِلُ اللَّهَ عنهمْ ﴾، يعني: عن طعمة، ﴿ يَوْمَ القيامةِ ﴾ إذا أخذه الله بعذابه، ﴿ أمْ مَنْ يكون عليهم وكيلاً ﴾، كفيلاً، أي: من الذي يذب عنهم، ويتولى أمرهم يوم القيامة، ثم استأنف فقال:

﴿ ومَنْ يعملْ سوءاً ﴾، يعني السرقة، ﴿ أو يَظْلِمْ نفسَه ﴾، برميه البريء، وقيل: ومَنْ يعمل سوءاً أي: شِرْكاً أو يظلم نفسَه: يعني: إثماً دُونَ الشِّرك، ﴿ ثمّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ ﴾، أي: يتبْ إليه ويستغفرْهُ، ﴿ يَجِدِ اللَّهَ غفُوراً رحيماً ﴾، يعرضُ التوبة على طعمة في هذه الآية.

﴿ ومَنْ يكسبْ إثماً ﴾، يعني: يمين طعمة بالباطل، أي: ما سرقته إنّما سرقه اليهود ﴿ فإنّما يكسِبُهُ على

والكسب عبارة عما يفيد جر منفعة أو دفع مضرة فكأنه تعالى يقول يا أيها الإنسان إن الذنب الذي ارتكبته إنما عادت مضرته عليك فإني منزه عن الضر والنفع فأكثر من الاستغفار ولا تيأس من قبول التوبة فإني لغفار لمن تاب وهذه الآية نزلت في طعمة أيضاً ﴿وكان الله عليماً﴾ يعني بسارق الدرع ﴿حكيماً﴾ يعني إذا حكم عليه بالقطع وقيل معناه عليها بما في قلب عبده عند إقدامه على التوبة حكيماً تقتضي حكمته أن يتجاوز عن التائب ويغفر له ويقبل توبته ﴿ومن يكسب خطيئة أو إثماً﴾ قيل إن الخطيئة هي الصغيرة منم الذنوب والإثم هو الكبيرة وقيل الخطيئة هي الذنب المختص بفاعله والإثم الذنب المتعدي إلى الغير وقيل إن الخطيئة هي سرقة الدرع والإثم هو يمينه الكاذبة ﴿ثم يرم به بريئاً﴾ يعني ثم يقذف بما جناه بريئاً منه وهو نسبة السرقة إلى اليهود ولم يسرق. فإن قلت الخطيئة والإثم اثنان فكيف وحد الضمير في قوله ثم يرم به. قلت معناه ثم يرم بأحد هذين المذكورين بريئاً وقيل معناه ثم يرم بهما فاكتفى بأحدهما عن الآخر وقيل إنه يعود الضمير إلى الإثم وحده لأنه أقرب مذكور وقيل إن الضمير يعود إلى الكسب ومعناه ثم يرم بما سكب بريئاً ﴿فقد احتمل بهتاناً﴾ البهتان من البهت وهو الكذب الذي يتحير في عظمه ﴿وإثماً مبيناً﴾ يعني ذنباً بيناً لأنه بكسب الإثم آثم وبرميه البريء باهت فقد جمع بين الأمرين. قوله عز وجل: ﴿ولولا فضل الله عليك ورحمته﴾ هذه الآية متعلقة بقصة طعمة بن أبيرق وقومه حيث لبسوا على رسول الله ﷺ أمر صاحبهم. فقوله تعالى فلولا فضل الله عليك يعني يا محمد بالنبوة ورحمته يعني بالعصمة وما أوحى إليك من الاطلاع على أسرارهم فهو خطاب للنبي ﷺ ﴿لهمت طائفة منهم﴾ يعني من بني ظفر وهم قوم طعمة ﴿أن يضلوك﴾ يعني عن القضاء بالحق وتوخي طريق العدل وقيل معناه يخطئوك في الحكم ويلبسوا عليك الأمر حتى تدفع عن طعمة وذلك لأن قوم طعمة عرفوا أنه سارق ثم سألوا النبي ﷺ أن يدفع عنه وينزهه عن السرقة ويرمي بها اليهودي ﴿وما يضلون إلاّ أنفسهم﴾ يعني أن وبال ذلك يرجع عليهم بسبب تعاونهم على الإثم وبشهادتهم له أنه بريء فهم لما قدموا على ذلك رجع وباله عليهم ﴿وما يضرونك من شيء﴾ يعني أنهم وإن سعوا في إلقائك في الباطل فأنت ما وقعت فيه لأنك بنيت الأمر على ظاهر الحال وما خطر ببالك أن الأمر على خلاف ذلك وقيل معناه وما يضرونك من شيء في المستقبل فوعده الله إدامة العصمة وإنه لا يضره أحد ﴿وأنزل الله عليك الكتاب﴾ يعني القرآن ﴿والحكمة﴾ يعني القضاء بما يعني وأوجب بهما بناء الحكم على الظاهر فكيف يضرونك بإلقائك في الشبهات ﴿وعلمك ما لم تكن تعلم﴾ يعني من أحكام الشرع وأمور الدين وقيل علمك من علم الغيب ما لم تكن تعلم وقيل معناه وعلمك من خفيات الأمور وأطلعك على ضمائر القلوب وعلمك من أحوال المنافقين وكيدهم ما لم تكن تعلم ﴿وكان فضل الله عليك عظيماً﴾ يعني ولم يزل فضل الله عليك يا محمد عظيماً فاشكره على ما أولاك من إحسانه ومن عليك بنبوته وعلمك ما أنزل عليك من كتابه وحكمته وعصمك ممن حاول إضلالك فإن الله هو

نفسِهِ ﴾، فإنّما يضرُّ به نفسَه، ﴿ وكانَ اللّهُ عليماً ﴾، بسارق الدرع ﴿ حكيماً ﴾، حَكَمَ بالقطع على السارق.

﴿ ومَنْ يَكْسِبْ خَطِيْئَةً ﴾ أي: سرقة الدرع، ﴿ أو إثماً ﴾ بيمينه الكاذبة، ﴿ ثمّ يرمِ بهِ ﴾ أي: يقذفُ بمَا جَنَى ﴿ بَرِيْئاً ﴾ منه وهو نسبة السرقة إلى اليهود ﴿ فقدِ احتملَ بُهتاناً ﴾ البهتان: هو البهت، وهو الكذب الذي يُتحيَّر في عِظَمِه، ﴿ وإثماً مُبيناً ﴾ أي: ذنباً بيِّناً، وقوله: ﴿ ثمّ يرمِ به ﴾ ولم يقلْ بهما بعد ذكر الخطيئة والإثم، ردَّ الكناية إلى الإثم أو جعل الخطيئة والإثم كالشيء الواحد.

قوله تعالى: ﴿ ولولا فَضْلُ اللّهِ عليكَ ورحمتُه ﴾، يقول للنبي ﷺ: ﴿ لَهَمَّتْ ﴾، لقدْ هَمّتْ أي: أضمرت، ﴿ طائفةٌ منهمْ ﴾، يعني: قوم طعمة، ﴿ أن يُضلّوك ﴾ يخطئوك في الحكم ويلبسوا عليك الأمر حتى تدافع عن طعمة، ﴿ وما يُضلّون إلاّ أنفسَهم ﴾، يعني يرجع وَبَالُهُ عليها، ﴿ وما يضرُّونَك من شيء ﴾، يُريد أن ضرره يرجع

الذي تولاك بفضله وشملك بإحسانه وكفاك غائلة من أرادك بسوء ففي هذه الآية تنبيه من الله عز وجل لنبيه محمد ﷺ على ما حباه من ألطافه وما شمله من فضله وإحسانه ليقوم بواجب حقه. قوله تعالى: .

﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (١١٤)

﴿لا خير في كثير من نجواهم﴾ يعني من نجوى قوم طعمة وقيل هي عامة في جميع ما يتناجى الناس به والنجوى هي الإسرار في التدبير وقيل النجوى ما تفرد بتدبيره قوم سراً كان ذلك أو جهراً وناجيته ساررته وأصله أن يخلو في نجوة من الأرض وقيل أصله من النجي والمعنى لا خير في كثير مما يدبرونه ويتناجون فيه **﴿إلّا من أمر بصدقة﴾** يعني إلّا في نجوى من أمر بصدقة وقيل معناه لا خير فيما يتناجى فيه الناس ويخوضون فيه من الحديث إلّا فيما كان من أعمال الخير وقيل هو استثناء منقطع تقديره لكن من أمر بصدقة وحث عليها **﴿أو معروف﴾** يعني أو أمر بطاعة الله وما يجيزه الشرع وأعمال البر كلها معروف لأن العقول تعرفها **﴿أو إصلاح بين الناس﴾** يعني الإصلاح يبن المتباينين والمتخاصمين ليتراجعا إلى ما كانا فيه من الألفة والاجتماع على ما أذن الله فيه وأمر به. عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة قالوا بلى يا رسول الله قال إصلاح ذات البين وإن فساد ذات البين هي الحالقة» أخرجه الترمذي وأبو داود وقال الترمذي ويروى عن النبي ﷺ أنه قال: «هي الحالقة لا أقول تحلق الشعر ولكن تحلق الدين» (خ) عن سهل بن سعد أن أهل قباء اقتتلوا حتى تراموا بالحجارة فأخبر رسول الله ﷺ فقال: «اذهبوا بنا نصلح بينهم» (ق) عن أم مكتوم بنت عقبة بن أبي معيط قالت سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ليس الكذاب الذي يصلح بين اثنين أو قال بين الناس فيقول خيراً أو ينمى خيراً» زاد مسلم في رواية قالت ولم أسمعه يرخص في شيء مما يقول الناس إلّا فيما في ثلاث: يعني الحرب

إليهم، **﴿ وأنزل الله عليك الكتاب ﴾**، يعني: القرآن، **﴿ والحكمة ﴾**، يعني: القضاء بالوحي **﴿ وعلّمَكَ ما لَمْ تكنْ تَعْلَم ﴾** من الأحكام، وقيل: من علم الغيب، **﴿ وكانَ فَضْلُ اللّهِ عليكَ عظيماً ﴾**.

قوله تعالى: **﴿ لَا خَيْرَ في كثيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ ﴾**، يعني: قوم طعمة، وقال مجاهد: الآيـة عامّةٌ في حق جميع الناس، والنّجوى: هي الإسرار في التدبير، وقيل: النجوى ما يتفرّد بتدبيره قوم سرّاً كان أو جهراً، فمعنى الآية: لا خيرَ في كثيرٍ ممّا يدبّرونه بينهم، **﴿ إلّا مَنْ أمرَ بصدقةٍ ﴾** أي: إلّا في نجوى من أمر بصدقة، فالنّجوى يكون متصلاً، قيل: النجوى هَا هُنَا: الرجال المتناجون كما قال الله تعالى: **﴿ وإذْ هم نجوى ﴾** [الإسراء: ٤٧] **﴿ إلّا مَنْ أمرَ بصدقة ﴾**، وقيل: هذا استثناء منقطع، يعني: لكن من أمر بصدقة، أي: حثّ عليها، **﴿ أو مَعْرُوفٍ ﴾**، أي: بطاعة الله وما يعرفه الشرع، وأعمالُ البرّ كلُّها معروف، لأنّ العقول تعرفها، **﴿ أو إصْلَاحٍ بينَ الناس ﴾**، أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحي أنا أبو بكر بن أحمد الحسن الحيري أنا حاجب بن أحمد الطوسي أنا محمد بن حمّاد أنا أبو معاوية عن الأعمش عن عمرو بن مرّة عن سالم هو ابن أبي الجعد عن أُمّ الدرداء رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «ألا أخبرُكم بأفضلَ من درجة الصيام والصدقة والصلاة»؟ قال: قلنا بلى، قال: «إصلاحُ ذاتِ البين، وإن إفساد ذات البين هي الحالقة»، أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحي أنا أبو الحسين علي بن محمد بن عبد الله بن بشران أنا إسماعيل بن محمد الصفار أنا أحمد بن منصور الرمادي ثنا عبد الرزاق ثنا معمر عن الزهري عن حميد بن عبد الرحمن عن أمه أُم مكتوم بنت عُقبة، وكانت من المهاجرات الأُوَل، قالت: سمعت رسول

والإصلاح بين الناس وحديث الرجل زوجته وحديث المرأة زوجها ﴿ومن يفعل ذلك﴾ يعني هذه الأشياء التي ذكرت ﴿ابتغاء مرضاة الله﴾ يعني طلب رضاه لأن الإنسان إذا فعل ذلك خالصاً لوجه الله نفعه وإن فعله رياء وسمعة لم ينفعه ذلك لقوله ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات» الحديث ﴿فسوف نؤتيه﴾ يعني في الآخرة إذا فعل ذلك ابتغاء مرضاة الله ﴿أجراً عظيماً﴾ لا حد له لأن الله سماه عظيماً وإذا كان كذلك فلا يعلم قدره إلّا الله قوله عز وجل: .

وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾

﴿ومن يشاقق الرسول﴾ نزلت في طعمة أيضاً وذلك أنه لما سرق وظهرت عليه السرقة خاف على نفسه القطع والفضيحة فهرب إلى مكة كافراً مرتداً عن الدين فأنزل الله عز وجل فيه: ﴿ومن يشاقق الرسول﴾ يعني يخالفه في التوحيد والإيمان وأصله من المشاقة وهي كون كل واحد منهما في شق غير شق الآخر ﴿من بعد ما تبين له الهدى﴾ أي وضح له التوحيد والحدود وظهر له صحة الإسلام وذلك لأن طعمة كان قد تبين له بما أنزل فيه وأظهر من سرقته ما يدل على صحة دين الإسلام فعادى الرسول ﷺ وأظهر الشقاق ورجع عن الإسلام ﴿ويتبع غير سبيل المؤمنين﴾ يعني ويتبع غير طريق المؤمنين وما هم عليه من الإيمان وتبيع عبادة الأوثان ﴿نوله ما تولى﴾ أي نكله في الآخرة إلى ما تولى في الدنيا ونتركه وما اختار لنفسه ﴿ونصله جهنم﴾ يعني ونلزمه جهنم وأصله من الصلي وهو لزوم النار وقت الاستدفاء ﴿وساءت مصيراً﴾ يعني وبئس المرجع إلى النار. روي أن الشافعي سئل عن آية من كتاب الله تدل على أن الإجماع حجة فقرأ القرآن ثلاثمائة مرة حتى استخرج هذه الآية وهي قوله تعالى: ﴿ويتبع غير سبيل المؤمنين﴾ وذلك لأن اتباع غير سبيل المؤمنين وهي مفارقة الجماعة حرام فوجب أن يكون اتباع سبيل المؤمنين ولزوم وجماعتهم واجباً وذلك لأن الله تعالى ألحق الوعيد بمن يشاقق الرسول ويتبع غير سبيل المؤمنين فثبت بهذا أن إجماع الأمة حجة.

قوله عز وجل: ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به﴾ نزلت في طعمة بن أبيرق أيضاً لكونه مات مشركاً وقال ابن عباس نزلت هذه الآية في شيخ من الأعراب جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: يا نبي الله أني شيخ منهمك في الذنوب غير أني لم أشرك بالله منذ عرفته وآمنت به ولم اتخذ منذ دونه ولياً ولم أواقع المعاصي جراءة على الله عز وجل وما

الله ﷺ يقول: «ليس الكذاب مَن أصلح بين الناس فقال خيراً أو نمى خيراً». قوله تعالى: ﴿ وَمَن يفعل ذلك ﴾ أي: هذه الأشياء التي ذكرها، ﴿ ابتغاءَ مرضاةِ الله ﴾، أي: طلبَ رضاه، ﴿ فسوفَ نُؤْتِيْهِ ﴾، في الآخرة، ﴿ أجْراً عظيماً ﴾، قرأ أبو عمرو وحمزة (يـؤتيه) بالياء، يعني: يؤتيه الله وقرأ الآخرون بالنون.

قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ يُشاقِقِ الرَّسُولَ ﴾، نزلت في طعمة بن أبيرق وذلك أنه لمّا ظهرت عليه السرقة خاف على نفسه من قطع اليَدِ والفضيحة، فهرب إلى مكة وارتدّ عن الدين، فقال تعالى: ﴿ وَمَنْ يُشاقِقِ الرسولَ ﴾، أي: يخالفه، ﴿ مِنْ بعدِ مَا تَبيّن له الهُدَى ﴾، من التوحيد والحدود، ﴿ ويَتّبِع غيرَ سبيلِ المؤمنين ﴾، أي: غير طريق المؤمنين، ﴿ نُولِّهِ مَا تَوَلّى ﴾، أي: نكله في الآخرة إلى ما تولّى في الدنيا، ﴿ ونُصْلِه جهنّمَ وساءتْ مصيراً ﴾، رُوِيَ أن طَعمة بن أبيرق نزل على رجل من بني سليم من أهلِ مكة يقال له الحجّاج بن علاط، فنقب بيته فسقط عليه حجر فلم يستطع أن يدخل ولا أن يخرج حتى أصبح، فأُخذ ليقتل، فقال بعضهم: دعوه فإنه قد لجأ إليكم

توهمت طرفة عين أني أعجز الله هرباً وإني لنادم تائب مستغفر فما حالي عند الله فأنزل الله هذه الآية: ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به﴾ فهذا نص صريح بأن الشرك غير مغفور إذا مات صاحبه عليه لأنه قد ثبت أن المشرك إذا تاب من شركه وآمن قبلت توبته وصح إيمانه وغفرت ذنوبه كلها التي عملها في حال الشرك ﴿ويغفر ما دون ذلك﴾ يعني ما دون الشرك ﴿لمن يشاء﴾ يعني لمن يشاء من أهل التوحيد قال العلماء لما أخبر الله أنه يغفر الشرك بالإيمان والتوبة علمنا أنه يغفر ما دون الشرك بالتوبة وهذه المشيئة فيمن لم يتب من ذنوبه من أهل التوحيد فإذا مات صاحب الكبيرة أو الصغيرة من غير توبة فهو على خطر المشيئة إن شاء غفر له وأدخله الجنة بفضله ورحمته وإن شاء عذبه ثم يدخله الجنة بعد ذلك ﴿ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالاً بعيداً﴾ يعني فقد ذهب عن طريق الهدى وحرم الخير كله إذا مات على شركه فإن قلت لم كررت هذه الآية بلفظ واحد في موضعين من هذه السورة وما فائدة ذلك. قلت فائدة ذلك التأكيد أو لأن الآية المتقدمة نزلت في سبب. ونزلت هذه الآية في سبب آخر وهو أن الآية المتقدمة[1] نزلت في سبب سرقة طعمة بن أبيرق ونزلت هذه الآية في سبب ارتداده وموته على الشرك. قوله عز وجل: .

﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾﴾

﴿إن يدعون من دونه إلاّ إناثاً﴾ نزلت في أهل مكة يعني ما يعبدون من دون الله إلاّ إناثاً لأن كل من عبد شيئاً فقد دعاه لحاجته وفي قوله إناثاً أقوال أحدها إنهم كانوا يسمون أصنامهم بأسماء الإناث فيقولون اللات والعزى ومناة قال الحسن كانوا يقولون لصنم كل قبيلة أنثى بني فلان والقول الثاني إناثاً يعني أمواتاً. قال الحسن: كل شيء لا روح فيه كالحجر والخشبة هو إناث قال الزجاج والموات كلها يخبر عنها كما يخبر من المؤنث تقول هذه الحجر تعجبني وهذه الدراهم تنفعني. ولأن الأنثى أنزل درجة من الذكر والميت أنزل درجة من الحي كما أن الموت أنزل من الحيوان وقد يطلق اسم الأنثى على الجمادات والقول الثالث إن بعضهم كان يعبد الملائكة ويقول هن بنات الله

فتركوه فأخرجوه من مكة، فخرج مع تجّار من قضاعة نحو الشام، فنزلوا منزلاً فسرق بعض متاعهم وهرب، فطلبوه وأخذوه ورموه بالحجارة، حتى قتلوه، فصار قبره تلك الحجارة، وقيل: إنه ركب سفينة إلى جدّة فسرق فيها كيساً فيه دنانير فأخذه، فأُلقي في البحر، وقيل: إنه نزل في حرّة بني سليم وكان يعبد صنماً إلى أن مات فأنزل الله تعالى فيه:

﴿ إنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أن يُشرَكَ بِهِ ويَغْفِرُ مَا دُونَ ذلكَ لمَنْ يَشاءُ ومَنْ يُشرِكْ باللَّهِ فقدْ ضلَّ ضلَالاً بعيداً ﴾ أي: ذهب عن الطريق وحُرم الخير كله، قال الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما: إنّ هذه الآية نزلتْ في شيخ من الأعراب جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: يا نبيَّ الله إني شيخ منهمك في الذنوب، إلاّ أنّي لم أُشرك بالله شيئاً منذ عرفتُه وآمنت به، ولم أتّخذ من دونه وَليّاً ولم أُواقع المعاصي جرأة على الله، وما توهمت طرفة عين أني أُعجز اللّهَ هرباً وإنّ لنادمٌ تائبٌ مستغفرٌ فماذا حالي؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية.

قوله تعالى: ﴿ إنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إلاّ إنَاثاً ﴾، نزلت في أهل مكة، أي: ما يعبدون، كقوله تعالى: ﴿ وقال ربُّكم ادْعُوني ﴾ [غافر: ٦٠] أي: اعبدوني، بدليل قوله تعالى: ﴿ إنّ الذين يستكبرون عن عبادتي ﴾

﴿وإن يدعون﴾ أي وما يعبدوا ﴿إلاّ شيطاناً مريداً﴾ قال ابن عباس: لكل صنم شيطان يدخل في جوفه ويتراءى للسدنة والكهنة ويكلمهم فلذلك قال الله تعالى: ﴿وإن يدعون إلاّ شيطاناً مريداً﴾ وقيل هو إبليس لأنه أغواهم وأغراهم على عبادتها وأطاعوه فجعلت طاعتهم له عبادة والمريد والمارد هو المتمرد العاتي الخارج عن الطاعة ﴿لعنه الله﴾ أي أبعده الله وطرده عن رحمته ﴿وقال﴾ يعني إبليس ﴿لأتخذن من عبادك نصيباً مفروضاً﴾ يعني حظاً مقدراً معلوماً فكل ما أطيع فيه إبليس فهو نصيبه ومفروضه وأصل الفرض القطع وهذا النصيب هم الذين يتبعون خطواته ويقبلون وساوسه ﴿ولأضلنهم﴾ عن طريق الحق والمراد به التزيين والوسوسة وإلاّ فليس إليه من الإضلال شيء. قال بعضهم لو كانت الضلالة إلى إبليس لأضل جميع الخلق ﴿ولأمنينهم﴾ قال ابن عباس يريد تسويف التوبة وتأخيرها وقال الكلبي أمنيهم أنه لا جنة ولا نار ولا بعث وقيل أمنيهم إدراك الجنة مع عمل المعاصي وقيل أزين لهم ركوب الأهواء والأهوال الداعية إلى العصيان وقيل أمنيهم طول البقاء في الدنيا ونعيمها ليؤثروها على الآخرة ﴿ولآمرنهم فليبتكن آذان الأنعام﴾ يعني يقطعونها ويشقونها وهي البحيرة. وذلك أنهم كانوا يشقون آذان الناقة إذا ولدت خمسة أبطن وجاء الخامس ذكراً وحرموا على أنفسهم الانتفاع بها ولا يردونها عن ماء ولا مرعى وسول لهم إبليس إن هذا قربة ﴿ولآمرنهم فليغيرن خلق الله﴾ قال ابن عباس يعني دين وتغيير دين الله هو تحليل الحرام وتحريم الحلال وقيل تغيير خلق الله هو تغيير الفطرة التي فطر الخلق عليها ويدل عليه قوله ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه» وقيل يحتمل أن يحمل هذا التغيير على تغيير أحوال تتعلق بظاهر الخلق مثل الوشم ووصل الشعر ويدل عليه ﷺ: «لعن الله الواشمات والمستوشمات والمتنمصات والمتفلجات للحسن المغيرات خلق الله» أخرجاه من رواية ابن مسعود ولهما عن أسماء قالت: «لعن النبي ﷺ الواصلة والمستوصلة» وقيل تغيير خلق الله هو الاختصاء وقطع الآذان حتى إن بعض العلماء حرمه. وكره أنس إخصاء الغنم وجوز بعض العلماء لأن فيه غرضاً ظاهراً (ق) عن سعد بن أبي وقاص قال لولا أن رسول الله ﷺ رد على عثمان بن مظعون التبتل لاختصينا. التبتل: هو ترك النكاح والانقطاع للعبادة عن نافع قال كان ابن عمر يكره الاختصاء ويقول إن فيه نماء الخلق أخرجه مالك في الموطأ ومعناه في ترك الاختصاء نماء الخلق يعني زيادتهم. وقال ابن زيد هو التخنث وهو أن يتشبه الرجل بالنساء في حركاتهن وكلامهن ولباسهن ونحو ذلك. وقيل تغيير خلق الله هو أن الله تعالى خلق البهائم والأنعام للركوب والأكل فحرموها على أنفسهم وخلق الشمس والقمر والنجوم والنار والأحجار

[غافر: ٦٠]، قوله: ﴿ من دونه ﴾ أي: من دون الله، ﴿ إلاّ إناثاً ﴾ أراد بالإناث الأوثان لأنهم كانوا يسمّونها باسم الإناث، فيقولون: اللاّت والعزّى ومناة، وكانوا يقولون لصنم كل قبيلة: أُنثى بني فلان فكان في كل واحدة منهنّ شيطان يتراءى للسدنة والكهنة ويكلمهم، ولذلك قال: ﴿ وإنْ يَدْعُون إلاّ شيطاناً مريداً ﴾، هذا قول أكثر المفسرين يدلّ على صحة التأويل: وأن المراد بالإناث الأوثان قراءة ابن عباس رضي الله عنه (إنْ يدعُـون من دونه إلاّ أنثـاً)، جمع الوثن فصيّر الواو همزة، وقال الحسن وقتادة: إلاّ إناثاً أي: مواتاً لا روح فيه، لأن أصنامهم كانت من الجمادات سمّاها إناثاً لأنه يخبر عن الموات، كما يخبر عن الإناث، ولأن الإناث أدون الجنسين كما أن الموات أرذل من الحيوان، وقال الضحّاك: أراد بالإناث الملائكة، وكان بعضهم يعبدون الملائكة ويقولون: الملائكة إناث، كما قال الله تعالى: ﴿ وجعلُوا الملائكةَ الذينَ هم عبادُ الرحمن إناثاً ﴾ [الزخرف: ١٩] ﴿ وإن يدعون إلاّ شيطاناً مريداً ﴾، أي: وما يعبدون إلاّ شيطاناً مريداً لأنهم إذا عبدُوا الأصنام فقد أطاعوا الشيطان، والمريد: المارد، وهو المتمرّد العاتي الخارج عن الطاعة، وأراد: إبليس.

﴿ لعنه اللّهُ ﴾، أي: أبعده الله من رحمته، ﴿ وقالَ ﴾، يعني: قال إبليس: ﴿ لأَتَّخِذَنَّ مِنْ عبادِكَ نصيباً

لمنفعة الناس فعبدوها من دون الله ﴿ومن يتخذ الشيطان ولياً من دون الله﴾ يعني يتخذه رباً يطيعه فيما يأمره به وقيل الولي من الموالاة وهو الناصر ﴿فقد خسر خسراناً مبيناً﴾ لأن طاعة الشيطان توصله إلى نار جهنم وهي غاية الخسران، بقي في الآية سؤالان: الأول قال لأتخذن من عبادك نصيباً مفروضاً والنصيب المفروض هو الشيء المقدر القليل وقال في موضع آخر لأحتنكن ذريته إلاّ قليلاً وقال: لأغوينهم أجمعين إلاّ عبادك منهم المخلصين. وهذا استثناء القليل من الكثير فكيف وجه الجمع فالجواب أن الكفار الذين هم حزب الشيطان وإن كانوا أكثر من المسلمين في العدد لكنهم أقل من المؤمنين في الفضل والشرف وعلو الدرجة عند الله والمؤمنون وإن كانوا أقل من الكفار لكنهم أكثر منهم لأن الفضل والشرف والسؤدد والغلبة في الدنيا وعلو الدرجة في الآخرة وأنشد بعضهم في هذا المعنى قال:

وهـــم الأقـــل إذا تعـــد عشيـــرة والأكثـــرون إذا يعـــد الســـؤدد

وقيل إن إبليس لما لم ينل من آدم ما أراد ورأى الجنة والنار وعلم أن لهذه أهلاً ولهذه أهلاً قال: لأتخذن من عبادك نصيباً مفروضاً يعني الذين هم أهل النار. السؤال الثاني: من أين لإبليس العلم بالعواقب حتى يقول ولأضلنهم ولأغوينهم ولأمنينهم ولآمرنهم، وقال في الاعراف ﴿ولا تجد أكثرهم شاكرين وقال في بني إسرائيل لأحتنكن ذريته إلا قليلاً﴾ فالجواب من ثلاثة أوجه: **أحدها**: أن إبليس ظن أن تقع منهم هذه الأمور التي يريدها منهم فحصل له ما ظنه ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿ولقد صدق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه﴾. **الوجه الثاني**: قال ابن الأنباري المعنى لأجتهدن ولأحرصن في ذلك أنه كان يعلم الغيب. **الوجه الثالث**: قال الماوردي من الجائز أن يكون قد علم ذلك من الملائكة بخبر من الله تعالى أن أكثر الخلائق لا يؤمنون وقوله تعالى: .

يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ

مفرُوضاً ﴾، أي: حقاً معلوماً، فما أُطيع فيه إبليس فهو مفروضه، وفي بعض التفاسير: من كل ألف واحدٌ لله تعالى وتسعمائة وتسعة وتسعون لإبليس، وأصل الفرض في اللغة: القطع، ومنه الفرصة في النهر وهي الثلمة تكون فيه، وفرض القوس والشرك: للشَّقِّ الذي يكون فيه الوتر والخيط الذي يشدّ به الشراك.

﴿ **ولأُضِلَّنَّهم** ﴾ يعني: عن الحق، أي: لأغوينّهم، بقوله إبليس، وأراد به التزيين، وإلاّ فليس إليه من الإضلال شيء، كما قال: ﴿ لأزيننّ لهم في الأرض ﴾ [الحجر: ٣٩] ﴿ **ولأُمَنِّيَنَّهُمْ** ﴾، قيل: أُمنِّينَّهم ركوبَ الأهواء، وقيل: أُمنّينّهم أنْ لا جَنَّةَ ولا نارَ ولا بعث، وقيل: أُمنّينّهم إدراك الآخرة مع ركوب المعاصي، ﴿ **ولآمرنّهم فَلَيُبَتِّكُنَّ آذانَ الأنعامِ ولآمُرنَّهم فَلَيُغيِّرُنَّ خلقَ اللّهِ** ﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما والحسن ومجاهد وقتادة وسعيد بن المسيب والضحاك: يعني دين الله، نظيره قوله تعالى: ﴿ لَا تَبْدِيلَ لخلقِ الله ﴾ [الروم: ٣٠] أي: لدين الله، يريد وضع الله في الدِّين بتحليل الحرام وتحريم الحلال، وقال عكرمة وجماعة من المفسرين: فليُغيِّرنَّ خلقَ الله بالخِصاء والوشم وقطع الآذان حتى حرّم بعضهم الخصاء وجوّزه بعضهم في البهائم، لأن فيه غرضاً ظاهراً، وقيل: تغيير خلق الله هو أن الله تعالى خلق الأنعام للركوب والأكل فحرّموها، وخلق الشمسَ والقمرَ والأحجار لمنفعة العباد فعبدوها من دون الله، ﴿ وَمَنْ يتّخِذِ الشّيطانَ ولياً من دُونِ الله ﴾ أي: ربّاً يطيعه، ﴿ فقدْ خَسِرَ خُسْرَاناً مُبيناً ﴾.

فِيهَآ أَبَدًاۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّاۚ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾

﴿يعدهم ويمنيهم﴾ يعني الشيطان يعد حزبه وأولياءه ويمنيهم فوعده وتمنيته إياهم ما يوقع في قلب الإنسان من طول العمر ونيل ما أراد من الدنيا ومن نعيمها ولذاتها وكل ذلك غرور فيجب على العاقل أن لا يلتفت إلى شيء منها فربما لم يطل عمره ولم يحصل له ما أراد منها ولئن طال عمره وحصل مقصوده فالموت وراءه ينغص عليه ما هو فيه وقيل يعدهم ويمنيهم بأن لا جنة ولا نار ولا بعث فاجتهدوا في تحصيل اللذات الدنيوية ﴿وما يعدهم الشيطان إلا غروراً﴾ يعني باطلاً وضلالاً ﴿أولئك﴾ يعني الذين اتخذوا الشيطان ولياً ﴿مأواهم جهنم﴾ يعني مرجعهم ومستقرهم جهنم ﴿ولا يجدون عنها﴾ يعني عن جهنم ﴿محيصاً﴾ يعني مفراً ومعدلاً يعني لا يعدلون عنها إلى غيرها ولا بد لهم من ورودها والخلد فيها ولما ذكر وعيد الكفار أتبعه بوعد المؤمنين فقال تعالى: ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار﴾ يعني من تحت المساكن والغرف ﴿خالدين فيها﴾ يعني في الجنات ﴿أبداً﴾ بلا انتهاء ولا غاية والأبد عبارة عن مدة الزمان الممتد الذي لا انقطاع له ولا يتجزأ كما يتجزأ غيره من الأزمنة لأنه لا يقال أبد كذا كما يقال زمن كذا وفي قوله: ﴿خالدين فيها أبداً﴾ دليل على أن الخلود لا يفيد التأبيد والدوام لأنه لو أفاد ذلك لزم التكرار وهو خلاف الأصل فعلم من ذلك أن الخلود عبارة عن طول الزمان لا على الدوام فلما أتبع الخلود بالأبد علم أنه يراد به الدوام الذي لا ينقطع. وقوله عز وجل: ﴿وعد الله حقاً﴾ يعني وعد الله ذلك الذي ذكر وعدا حقاً ﴿ومن أصدق من الله قيلاً﴾ يعني ليس أحد أصدق من الله وهو توكيد بليغ لقوله: ﴿وعد الله حقاً﴾ قوله تعالى: ﴿ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب﴾ الأمنية أفعولة من التمنية والتمني تقدير شيء في النفس وتصويره فيها والأمنية هي الصورة الحاصلة في النفس من تمنى الشيء إذا وقع في نفسه وأراده في المخاطب بقوله: ﴿ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب﴾ قولان: أحدهما أنه خطاب للمسلمين وأهل الكتاب اليهود والنصارى وذلك أنهم افتخروا فقال أهل الكتاب نبينا قبل نبيكم وكتابنا قبل كتابكم فنحن أولى

﴿ يَعِدُهُمْ ويُمَنِّيهِمْ ﴾ فوعدُهُ وتمنيتُهُ ما يُوقعه في قلب الإنسان من طول العمر ونيل الدنيا، وقد يكون بالتخويف بالفقر فيمنعه من الإنفاق وصلة الرحم كما قال الله تعالى: ﴿ الشيطانُ يَعِدُكم الفقرَ ﴾ [البقرة: ٢٦٨] ويُمنّيهم بأنْ لا بعثَ ولا جنَّةَ ولا نار ﴿ وما يَعِدُهُمُ الشيطانُ إلاّ غُروراً ﴾، أي: باطلاً.

﴿ أولئكَ مَأْوَاهُمْ جهنَّمُ ولا يَجِدُون عنها مَحِيْصاً ﴾، أي: مفرّاً ومعدِلاً عنها.

قوله تعالى: ﴿ والذينَ آمنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جنّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأنهار ﴾، أي: من تحت الغُرف والمساكن، ﴿ خالدين فيها أبداً وَعْدَ اللَّهِ حَقّاً وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قيلاً ﴾.

قوله تعالى: ﴿ ليسَ بأمانِيِّكُم ولا أمَانيِّ أهلِ الكِتَابِ ﴾، الآية. قال مسروق وقتادة والضحاك: أراد ليس أمانيكم أيها المسلمون ولا أماني أهل الكتاب يعني اليهود والنصارى، وذلك أنّهم افتخروا، فقال أهل الكتاب: نبيُّنا قبلَ نبيِّكم وكتابُنا قبل كتابِكم فنحن أَوْلَى بالله منكم، وقال المسلمون: نبيّنا خاتمُ الأنبياء وكتابُنا يقضي على الكتب، وقد آمنّا بكتابكم ولم تُؤمنوا بكتابنا فنحن أَوْلى. وقال مجاهد: أراد بقوله ﴿ ليسَ بأمانِيِّكم ﴾ يا مشركي أهل الكتاب، وذلك أنهم قالوا: لا بعثَ ولا حسابَ، وقال أهل الكتاب: ﴿ لن تمسّنا النّار إلاّ أياماً معدودة ﴾ [البقرة: ٨٠]، ﴿ ولن يدخل الجنّة إلاّ مَن كان هوداً أو نصارى ﴾ [البقرة: ١١١]، فأنزل الله تعالى: ﴿ ليسَ

بالله منكم. وقال المسلمون نبينا خاتم الأنبياء وكتابنا يقضي على الكتب وقد آمنا بكتابكم ولم تؤمنوا بكتابنا فنحن أولى بالله منكم. والقول الثاني أنه خطاب لمشركي مكة في قولهم لانبعث ولا نحاسب وخطاب لأهل الكتاب في قولهم لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة. والمعنى ليس الأمر بالأماني إنما الأمر بالعمل الصالح ﴿**من يعمل سوءاً يجز به**﴾ قال الضحاك يقول: ليس لكم ما تمنيتم وليس لأهل الكتاب ما تمنوا ولكن من عمل سوءاً يعني شركاً فمات عليه يجز به النار. وقال الحسن هذا في حق الكفار خاصة لأنهم يجازون بالعقاب على الصغير والكبير ولا يجزى المؤمن بسيىء عمله يوم القيامة ولكن يجزى بأحسن عمله ويتجاوز عن سيئاته ويدل على صحة هذا القول سياق الآية وهو قوله: ﴿**ولا يجد له من دون الله ولياً ولا نصيرا**﴾ وهذا هو الكافر، فأما المؤمن فله ولي ونصير. وقال آخرون هذه الآية في حق كل من عمل سوءاً من مسلم ونصراني وكافر. قال ابن عباس هي عامة في حق كل من عمل سوءاً يجز به إلا أن يتوب قبل أن يموت فيتوب الله عليه. وقال ابن عباس في رواية أبي صالح عنه لما نزلت هذه الآية شقت على المسلمين مشقة شديدة وقالوا يا رسول الله وأينا من لم يعمل سوءاً غيرك فكيف الجزاء؟ قال منه ما يكون في الدنيا فمن يعمل حسنة فله عشر حسنات ومن جوزي بالسيئة نقصت واحدة من عشر حسناته وبقيت له تسع حسنات فويل لمن غلبت آحاده أعشاره. وأما من كان جزاؤه في الآخرة فيقابل بين حسناته وسيئاته فيلقى مكان كل سيئة حسنة وينظر في الفضل فيعطى الجزاء في الجنة فيؤتى كل ذي فضل فضله ويدل على صحة هذا القول ما روي عن أبي هريرة قال لما نزلت ﴿**من يعمل سوءاً يجز به**﴾ بلغت من المسلمين مبلغاً شديداً قال رسول الله ﷺ: «قاربوا وسددوا ففي كل ما يصاب به المسلم كفارة حتى النكبة ينكبها والشوكة يشاكها» أخرجه مسلم وعن أبي بكر الصديق قال كنت عند رسول الله ﷺ فنزلت: ﴿**من يعمل سوءاً يجز به ولا يجد له من دون الله ولياً ولا نصيرا**﴾ فقال رسول الله ﷺ يا أبا بكر ألا أقرئك آية أنزلت عليّ قلت بلى يا رسول الله قال فأقرأنيها فلا أعلم إلا أني وجدت انقساماً في ظهري فتمطيت لها فقال رسول الله ﷺ ما شأنك يا أبا بكر؟ قلت يا رسول الله بأبي أنت وأمي وأينا لم يعمل سوءاً وإنا لمجزيون بأعمالنا فقال رسول الله ﷺ: «أما أنت يا أبا بكر والمؤمنون فتجزون بذلك في الدنيا حتى تلقوا الله وليس عليكم ذنوب. وأما الآخرون فيجتمع ذلك لهم حتى يجزوا به يوم القيامة» أخرجه الترمذي وقال حديث غريب وفي إسناده مقال وقد روي هذا الحديث من غير وجه عن أبي بكر وليس له

بأمانيِّكم ﴾ أي: ليس الأمر بالأماني وإنّما الأمر بالعمل الصالح، ﴿ مَنْ يَعملْ سُوْءاً يُجْزَ بهِ ﴾، قال ابن عباس وسعيد بن جبير وجماعة: الآية عامّة في حق كل عامل، وقال الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما: لمّا نزلت هذه الآية شقّتْ على المسلمين وقالوا: يا رسول الله وأيّنا لم يعمل سوءاً غيرك فكيف الجزاء؟ قال: «منه ما يكون في الدنيا، فمَنْ يعملْ حسنةً فله عشرُ حسنات، ومَنْ جُوزِيَ بالسيِّئة نقصتْ واحدةٌ من عشر، وبقيتْ له تسعُ حسنات، فويل لمَن غلبتْ آحادُه أعشارَه، وأمّا مَنْ يكون جزاؤه في الآخرة فليقابل بين حسناته وسيئاته، فيلقى مكان كل سيئة حسنة وينظر في الفضل، فيعطي الجزاءَ في الجنة فيؤتي كلَّ ذي فضلٍ فَضْلَه».

أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي ثنا أبو بكر محمد بن أحمد العدوسي ثنا أبو بكر أحمد بن سليمان الفقيه ببغداد ثنا يحيىٰ بن جعفر بن الزبرقان والحرث بن محمد قالا: ثنا روح هو ابن عبادة ثنا موسى بن عُبيدة أخبرني مولى بن سبَّاع قال: سمعت عبد الله بن عمر يحدّث عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال: كنتُ عندَ رسول الله ﷺ فأُنزلتْ عليه هذه الآية: ﴿ مَنْ يعملْ سوءاً يُجْزَ بهِ ﴾، ﴿ ولاَ يَجِدُ لهُ منْ دُونِ اللّهِ وَلِيّاً ولا نَصِيْراً ﴾، قال رسول الله ﷺ: «يا أبا بكر ألا أُقرئك آية أُنزلت عليّ»؟ قال: قلتُ: بلى، قال: فأقرئنيها، قال: ولا أعلم إلاّ أني وجدتُ انقصاماً في ظهري حتى تمطيت لها، فقال رسول الله ﷺ: «ما لك يا أبا بكر»؟ فقلتُ: يا رسول الله بأبي

إسناد صحيح وقوله: «ولا يجد له من دون الله ولياً ولا نصيراً» قال ابن عباس: يريد ولياً يمنعه ولا نصيراً ينصره فإن قلنا إن هذه الآية خاصة في حق الكفار فتأويلها ظاهر وإن قلنا إنها في حق كل عامل سوء من مسلم وكافر فإنه لا ولي لأحد من دون الله يوم القيامة ولا ناصر. فالمؤمنون لا ولي لهم غير الله وشفاعة الشافعين تكون بإذن الله فليس يمنع أحد أحداً عن الله وقوله تعالى:.

وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾

﴿ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن﴾ قال مسروق لما نزلت من يعمل سوءاً يجز به قال أهل الكتاب نحن وأنتم سواء فنزلت هذه الآية قال المفسرون بيّن الله تعالى بهذه الآية فضيلة المؤمنين على غيرهم ولفظة من في قوله من الصالحات للتبعيض، لأن أحداً لا يقدر أن يستوعب جميع الصالحات بالعمل فإذا عمل بعضها استحق الثواب ﴿فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيراً﴾ النقير نقرة في ظهر النواة ومنها تنبت النخلة قال ابن عباس يريد لا ينقصون قدر نقرة النواة وهذا على سبيل المبالغة في نفي الظلم ووعد بتوفية جزاء أعمالهم من غير نقصان قوله عز وجل:.

وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾

﴿ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن﴾ لما بيّن الله تعالى أن الجنة لمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن شرح الإيمان وبين فضله فقال تعالى: ﴿ومن أحسن ديناً﴾ يعني ومن أحكم ديناً والدين هو المشتمل على كمال العبودية والخضوع والانقياد لله عز وجل وهو الذي كان عليه إبراهيم ﷺ. واعلم أن دين الإسلام مبني على أمرين: أحدهما الاعتقاد وإليه الإشارة بقوله: ﴿أسلم وجهه لله﴾ يعني انقاد لله وخضع له في سره وعلانيته وقيل معناه أخلص طاعته لله وقيل فوض أمره إلى الله. الأمر الثاني من مباني الإسلام العمل وإليه الإشارة بقوله:

أنت وأمي وأيّنا لم يعملِ سوءاً؟ إنّا لمجزيُّون بكل سوء عملناه؟ فقال رسول الله ﷺ: «أمّا أنت يا أبا بكر وأصحابك المؤمنون فتجزون بذلك في الدنيا حتى تلقوا الله، وليستِ لكم ذنوب، وأمّا الآخرون فيُجمع ذلك لهم حتى يُجزوا يومَ القيامة».

قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالحاتِ مِنْ ذَكَرٍ أو أُنثى وهوَ مُؤْمِنٌ فأولئكَ يَدْخُلُونَ الجنَّةَ ولا يُظْلَمُونَ نَقِيْراً ﴾، أي: مقدار النقير، وهو النقرة التي تكون في ظهر النَّواة، قرأ ابن كثير وأبو جعفر وأهل البصرة وأبو بكر ﴿ يدخلون ﴾ بضم الياء وفتح الخاء ههنا وفي سورة مريم وحمّ المؤمن، زادَ أبو عمر ﴿يدخلونها﴾ في سورة [فاطر: ٣٣]، وقرأ الآخرون بفتح الياء وضم الخاء، وروى الأعمش عن أبي الضحى عن مسروق قال: لمّا نزلتْ ﴿ ليسَ بأمانيكم ولا أَمَاني أهلِ الكتابِ مَنْ يعملْ سُوءاً يُجْزَ بهِ ﴾ قال أهل الكتاب: نحنُ وأنتم سواء، فنزلت هذه الآية: ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصالحاتِ ﴾ الآية، ونزلت أيضاً:

﴿ ومَنْ أحسنُ دِيْناً﴾، أحكمُ ديناً ﴿ مِمَّنْ أَسْلَم وَجْهَهُ للَّهِ ﴾، أي: أخلص عمله لله، وقيل: فوّض أمرَه إلى الله، ﴿ وهوَ مُحْسِنٌ ﴾ أي: مُوحد، ﴿ واتَّبَعَ مِلَّةَ إبراهيمَ ﴾، يعني: دين إبراهيم عليه السلام، ﴿ حنيفاً ﴾ أي:

﴿وهو محسن﴾ يعني في عمله لله فيدخل فيه فعل الحسنات والمفروضات والطاعات وترك السيئات وقال ابن عباس في تفسير قوله: «وهو محسن» يريد وهو موحد لله عز وجل لا يشرك به شيئاً قال العلماء وإنما صار دين الإسلام أحسن الأديان لأن فيه طاعة الله ورضاه وهما أحسن الأعمال. وإنما خص الوجه بالذكر في قوله: ﴿أسلم وجهه لله﴾ لأنه أشرف الأعضاء فإذا انقاد الوجه لله وخضع له فقد انقاد لله جميع الأعضاء لأنها تابعة له ﴿واتبع ملة إبراهيم﴾ يعني دين إبراهيم عليه السلام ﴿حنيفاً﴾ يعني مسلماً مخلصاً والحنيف المائل ومعناه المائل عن الأديان كلها إلى الإسلام لأن كل ما سواه من الأديان باطل وحنيفاً يجوز أن يكون حالاً لإبراهيم ويجوز أن يكون حالاً للمتبع كما تقول رأيته راكباً. قال ابن عباس ومن دين إبراهيم عليه الصلاة والسلام إلى الكعبة والطواف ومناسك الحج والختان هونحو ذلك. فإن قلت ظاهر هذه الآية يقتضي أن شرع محمد ﷺ هو نفس شرع إبراهيم عليه السلام وعلى هذا لم يكن لمحمد ﷺ شرع يستقل به وليس الأمر كذلك فما الجواب؟ قلت إن شرع إبراهيم وملته داخلان في شرع محمد ﷺ وملته مع زيادات كثيرة حسنة خص الله بها محمداً ﷺ فمن اتبع ملة محمد ﷺ فقد اتبع ملة إبراهيم لأنها داخلة في ملة محمد ﷺ وشرع إبراهيم داخل في شرع محمد ﷺ وإنما قال تعالى: ﴿واتبع ملة إبراهيم﴾ لأن إبراهيم ﷺ كان يدعو إلى توحيد الله وعبادته ولهذا خصه بالذكر لأنه كان مقبولاً عند جميع الأمم فإن العرب كانوا يفتخرون بالانتساب إليه وكذا اليهود والنصارى. فإذا ثبت هذا وأن شرعه كان مقبولاً عند الأمم وأن شرع محمد ﷺ وملته هو شرع إبراهيم وملته لزم الخلق الدخول في دين محمد ﷺ وقبول شرعه وملته. وقوله تعالى: ﴿واتخذ الله إبراهيم خليلاً﴾ يعني صفياً والخلة صفاء المودة وقيل الخلة الافتقار والانقطاع فخليل الله المنقطع إليه وسمي إبراهيم خليلاً لأنه انقطع إلى الله في كل حال. وقيل الخلة الاختصاص والاصطفاء وسمي إبراهيم خليلاً لأنه والى في الله وعادى في الله وقيل لأنه تخلّق بأخلاق حسنة وخلالٍ كريمة وقيل الخليل المحب الذي ليس في محبته خلل وسمي إبراهيم خليل الله لأنه أحبه محبة كاملة ليس فيها نقص ولا خلل وأنشد في معنى الخلة التي هي بمعنى المحبة:

قد تخللت مسلك الروح مني ... وبه سمي الخليل خليلا

وقيل الخليل من الخلة بفتح الخاء وهي الحاجة سميت خلة للاختلال الذي يلحق الإنسان فيها وسمي إبراهيم خليلاً لأنه جعل فقره وفاقته وحاجته إلى الله تعالى. وخلة الله للعبد هي تمكينه من طاعته وعصمته وتوفيقه وستر خلله ونصره والثناء عليه فقد أثنى الله عز وجل على إبراهيم عليه السلام وجعله إماماً للناس يقتدى به.

مُسلماً مُخلصاً، قال ابن عباس رضي الله عنهما: ومن دين إبراهيم الصلاة إلى الكعبة والطواف بها ومناسك الحج، وإنّما خُصّ بها إبراهيم لأنه كان مقبولاً عند الأمم أجمع، وقيل: لأنه بُعث على ملّة إبراهيم وزيدت له أشياء. ﴿ واتَّخذ اللَّهُ إبراهيمَ خليلاً ﴾، صفيّاً، والخِلّة: صفاء المودّة، وقال الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما: كان إبراهيم عليه السلام أبا الضيفان، وكانَ منزله على ظهر الطَّريق يضيف مَن مرَّ به من الناس، فأصاب الناسَ سَنَةٌ فحُشروا إلى باب إبراهيم عليه السلام يطلبون الطعامَ وكانت الميرة كل سنة من صديق له بمصر، فبعث غلمانه بالإبل إلى الخليل الذي بمصر، فقال خليله لغلمانه: لو كان إبراهيم عليه السلام إنما يريده لنفسه لاحتمالنا ذلك له، فقد دخل علينا ما دخل على الناس من الشدّة، فرجع رُسل إبراهيم عليه السلام، فمرّوا ببطحاء سهلة فقالوا فيما بينهم: لو أنّا حملنا من هذه البطحاء ليرى الناس أنّا قد جئنا بميرة، فإنّا نستحي أن نمرّ بهم وإبلنا فارغة، فملؤوا تلك الغرائر سهلة، ثم أتوا إبراهيم فأعلموه وسارة نائمة، فاهتم إبراهيم لمكان الناس ببابه، فغلبته عيناه فنام واستيقظت سارة وقد ارتفع النهار، فقالت: سبحان الله ما جاء الغلمان؟ قالوا: بلى، قالت: فما جاؤوا بشيء؟

واختلفوا في السبب الذي من أجله اتخذ الله إبراهيم خليلاً فقال ابن عباس كان إبراهيم ﷺ أبا الضيفان وكان منزله على ظهر الطريق يضيف من مر به من الناس فأصاب الناس شدة قحط فقصد الناس باب إبراهيم يطلبون منه الطعام، وكانت الميرة تأتيه من صديق له بمصر فبعث إبراهيم غلمانه إلى خليله الذي بمصر فقال خليله لغلمان إبراهيم لو كان إبراهيم يريد إنماء الطعام لنفسه احتملنا ذلك له وقد دخل علينا مثل ما دخل على الناس من الشدة فرجع غلمان إبراهيم بغير طعام فمروا ببطحاء من الرمل سهلة فقالوا لو حملنا من هذه البطحاء ليرى الناس أنا قد جئنا بالميرة فإنا نستحي أن نمر بهم وإبلنا فارغة فملؤوا من ذلك الرمل الغرائر التي معهم ثم أتوا إلى أبراهيم ﷺ فأعلموه وسارة نائمة فاهتم لذلك ولمكان الناس ببابه فغلبته عيناه فنام واستيقظت سارة وقد ارتفع النهار فقالت سبحان الله ما جاء الغلمان قالوا بلى قالت فجاؤوا بشيء قالوا نعم فقامت إلى الغرائر ففتحتها فإذا هي ملأى بأجود دقيق يكون حواري فأمرت الخبازين فخبزوا وأطعموا الناس فاستيقظ إبراهيم فوجد ريح الطعام فقال يا سارة من أين لكم هذا؟ فقالت من عند خليلك المصري فقال هذا من عند خليلي الله قال فيومئذ اتخذه الله خليلاً وقيل لما أراه الله ملكوت السموات والأرض وحاج قومه في الله ودعاهم إلى توحيده ومنعهم من عبادة النجوم والشمس والقمر والأوثان وبذل نفسه للإلقاء في النيران وبذل ولده للقربان وماله للضيفان اتخذه الله خليلاً وجعله إماماً للناس يقتدى به وجعل النبوة فيه وفي ذريته وقيل إن إبراهيم عليه السلام لما كسر الأصنام وعادى قومه في الله عز وجل اتخذه الله خليلاً وقيل لما دخل عليه الملائكة فظنهم ضيفاً فقرب إليهم عجلاً مشوياً وقال كلوا على شرط أن تسموا الله في أوله وتحمدوه في آخره فقال جبريل أنت خليل الله فمن يومئذ سمي إبراهيم خليل الله (م) عن أنس قال: «جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال يا خير البرية فقال رسول الله ﷺ ذلك إبراهيم خليل الله».

فصل

وقد اتخذ الله محمداً ﷺ خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً فقد ثبت في الصحيحين عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ أنه قال: «لو كنت متخذاً خليلاً غير ربي لاتخذت أبا بكر خليلاً» وعن ابن مسعود عن النبي ﷺ: «لو كنت متخذاً خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً ولكنه أخي وصاحبي وقد اتخذ الله صاحبكم خليلاً» أخرجه مسلم؛ فقد ثبت بهذين الحديثين الخلة للنبي ﷺ وزاد على إبراهيم عليه السلام بالمحبة فمحمد ﷺ خليل الله وحبيبه فقد جاء في حديث عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال: «ألا وأنا حبيب الله ولا فخر» أخرجه الترمذي بأطول منه. قوله تعالى: .

وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٖ مُّحِيطٗا ﴿١٢٦﴾ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِۖ قُلِ

قالوا: بلى، فقامت إلى الغرائر ففتحتها فإذا هي ملأى بأجودِ دَقيق حَوَارٍ يكون، فأمرت الخبازين فخبزوا وأطعموا النّاسَ فاستيقظ إبراهيم فوجد ريح الطعام، فقال: يا سارة من أين هذا؟ قالت: من عند خليلك المصري، فقال: هذا من عند خليلي الله، قال: فيومئذٍ اتخذ الله إبراهيم خليلاً. قال الزجّاج: معنى الخليل الذي ليس في محبته خلل، والخلّة: الصداقة، فسُمّي خليلاً لأنّ الله أحبّه واصطفاه. وقيل: هو من الخلّة وهي الحاجة، سُمّي خليلاً، أي: فقيراً إلى الله لأنه لم يجعل فقره وفاقته إلاّ إلى الله عزّ وجلّ، والأول أصحّ لأن قوله: ﴿ **واتخذ اللَّهُ إبراهيمَ خليلاً** ﴾ يقتضي الخلّة من الجانبين، ولا يتصور الحاجة من الجانبين. ثنا أبو المظفر بن أحمد التيمي ثنا أبو محمد عبد الرحمن بن عثمان بن القاسم ثنا خيثمة بن سليمان بن حيضرة الأطرابلسي ثنا أبو قلابة الرقاشي ثنا بشر بن عمر ثنا شعبة عن أبي إسحق عن أبي الأحوص عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنهم قال: قال رسول الله ﷺ: «لو كُنتُ متّخذاً خليلاً لاتخذتُ أبا بكر خليلاً ولكنّه أخي وصاحبي، ولقد اتّخذ اللَّهُ صاحبَكم خليلاً».

ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ فِي يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ وَأَن تَقُومُوا۟ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا ﴿١٢٧﴾

﴿ولله ما في السموات وما في الأرض﴾ قال أهل المعاني: لما دعا الله الخلق إلى طاعته وعبادته والانقياد لأمره بيّن سعة ملكه ليرغب الخلق إليه بالطاعة له. وإنما قال ما في السموات وما في الأرض ولم يقل من لأنه ذهب به مذهب الجنس والذي يعقل إذا ذكر وأريد به الجنس ذكر بلفظة ما ﴿وكان الله بكل شيء محيطاً﴾ يعني عالماً علم إحاطة وهو العلم بالشيء من كل وجه حتى لا يشذ عنه نوع إلا علمه وقيل يجوز أن يكون معناه محيطاً بالقدرة عليه. قوله عز وجل: ﴿ويستفتونك في النساء قل الله يفتيكم فيهن﴾ الآية. قال ابن عباس: نزلت في بنات أم كحة وقد تقدمت قصتهن في أول السورة وقالت عائشة هي اليتيمة تكون في حجر الرجل وهو وليها فيرغب في نكاحها إذا كانت ذات جمال ومال بأقل من سنّة صداقها وإذا كانت غير مرغوب فيها لقلة الجمال والمال تركها، وفي رواية قالت هي اليتيمة تكون في حجر الرجل وقد شركته في ماله فيرغب عنها فلا يتزوجها لدمامتها ويكره أن يزوجها غيره فيدخل عليه ويشركه في ماله فيحبسها حتى تموت فنهاهم الله عن ذلك وأنزل هذه الآية فقال ويستفتونك يعني ويستخبرونك يا محمد في شأن النساء وحالهن والاستفتاء طلب الفتوى وهو إظهار ما أشكل من الأحكام الشرعية وكشفه وتبيينه قال المفسرون والذي استفتوه فيه هو ميراث النساء وذلك أنهم كانوا لا يورثون النساء ولا الصغار من الأولاد فلما نزلت آية الميراث قالوا: يا رسول الله كيف ترث المرأة والصغير؟ فأجابهم بهذه الآية: ﴿قل الله يفتيكم فيهن﴾ يعني قل يا محمد الله يفتيكم في شأن النساء وحالهن ﴿وما يتلى عليكم في الكتاب﴾ يعني يفتيك فيما يتلى عليكم والمعنى أن الله يفتيكم في النساء بما أنزل في كتابه عليكم وقيل المراد بالكتاب اللوح المحفوظ والغرض منه تعظيم حال هذه الآية التي تتلى عليكم وأنها في اللوح المحفوظ وأن العدل والإنصاف في حقوق اليتامى من أعظم الأمور عند الله تعالى التي تجب مراعاتها وأن المخل بها ظالم ﴿في يتامى النساء﴾ قيل معناه في النساء اليتامى وقيل في اليتامى أولاد النساء، لأن الآية نزلت في يتامى أم كحة ﴿اللاتي لا تؤتونهن ما كتب لهن﴾ يعني ما فرض لهن من الميراث وهذا على قول من يقول إن الآية نازلة في ميراث اليتامى والصغار وعلى القول الآخر معناه ما كتب لهن من الصداق ﴿وترغبون أن تنكحوهن﴾ يعني وترغبون في نكاحهن لمالهن

قوله عزّ وجلّ: ﴿ ولِلَّهِ مَا في السمٰواتِ ومَا في الأرضِ وكانَ اللَّهُ بكلِّ شيءٍ مُحيطاً ﴾ أي: أحاط علمهُ بجميع الأشياء.

قوله تعالى: ﴿ ويَسْتَفْتُونَكَ في النِّساءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُم فيهنّ ﴾، الآية. قال الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما: نزلت هذه الآية في بنات أم كُحّة وميراثهنّ عن أبيهنّ وقد مضت القصة في أول السورة، وقالت عائشة رضي الله عنها: هي اليتيمة تكون في حجر الرجل، وهو وليّها فيرغب في نكاحها إذا كانت ذات جمال ومال بأقل من سُنّة صَداقها، وإذا كانت مرغوبة عنها في قلّة المال والجمال تركها، وفي رواية هي اليتيمة تكون في حجر الرجل قد شركته في ماله فيرغب أن يتزوجها لدمامتها ويكره أن يزوّجها غيره فيدخل عليه في ماله فيحبسها حتى تموت فيرثها، فنهاهم الله عن ذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿ ويستفتونك ﴾ أي: يستخبرونك في النساء، ﴿ قل الله يُفتيكم فيهنّ ﴾، ﴿ وما يتلى عليكم في الكتاب ﴾، قيل: معناه ويفتيكم في ما يُتلى عليكم، وقيل: يريد الله أن

وجمالهن بأقل من صداقهن وقيل معناه وترغبون عن نكاحهن لقبحهن ودمامتهن وتمسكوهن رغبة في أموالهن (ق) عن عائشة قالت هذه اليتيمة تكون في حجر وليها فيرغب في جمالها ومالها ويريد أن ينقص صداقها فنهوا عن تكاحهن إلا أن يقسطوا لهن في إكمال الصداق وأمروا بنكاح من سواهن قالت عائشة رضي الله عنها فاستفتى الناس رسول الله ﷺ بعد ذلك فأنزل الله عز وجل: ﴿يستفتونك في النساء﴾ إلى قوله: ﴿وترغبون أن تنكحوهن﴾ فبين لهم أن اليتيمة إذا كانت ذات جمال ومال رغبوا في نكاحها ولم يلحقوها بسنتها في إكمال الصداق وإذا كانت مرغوبة عنها في قلة المال والجمال تركوها والتمسوا غيرها قال فكما يتركونها حين يرغبون عنها فليس لهم أن ينكحوها إذا رغبوا فيها إلا أن يقسطوا لها ويعطوها حقها الأوفى من الصداق. وقوله تعالى: ﴿والمستضعفين من الولدان﴾ يعني ويفتيكم في المستضعفين من الولدان وهم الصغار أن تعطوهم حقوقهم لأن العرب في الجاهلية كانوا لا يورثون الصغار أيضاً فنهاهم الله عن ذلك وأمرهم أن يعطوهم حقهم من الميراث ﴿وأن تقوموا لليتامى بالقسط﴾ يعني بالعدل في مهورهن ومواريثهن ﴿وما تفعلوا من خير فإن الله كان به عليماً﴾ يعني فيجازيكم عليه. قوله تعالى:

﴿وَإِنِ ٱمۡرَأَةٌ خَافَتۡ مِنۢ بَعۡلِهَا نُشُوزًا أَوۡ إِعۡرَاضٗا فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يُصۡلِحَا بَيۡنَهُمَا صُلۡحٗاۚ وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٞۗ وَأُحۡضِرَتِ ٱلۡأَنفُسُ ٱلشُّحَّۚ وَإِن تُحۡسِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ١٢٨﴾

﴿وإن امرأة خافت من بعلها نشوزاً أو إعراضاً﴾ (ق) عن عائشة في قوله تعالى: ﴿وإن امرأة خافت من بعلها نشوزاً أو إعراضاً﴾ قالت نزلت في المرأة تكون عند الرجل لا يستكثر منها فيريد طلاقها ويتزوج غيرها فتقول له امسكني لا تطلقني ثم تزوج غيري وأنت في حل من النفقة عليّ والقسمة لي قالت فذلك قوله تعالى: ﴿فلا جناح عليهما أن يصالحا بينهما صلحاً والصلح خير﴾ وقيل نزلت في عمرة بنت محمد بن مسلمة ويقال اسمها خولة وفي زوجها سعد بن الربيع ويقال له رافع بن خديج تزوجها وهي شابة فلما كبرت تزوج عليها امرأة أخرى شابة وآثرها عليها وجفا الأولى فأتت ابنة محمد بن مسلمة تشكو زوجها إلى رسول الله ﷺ فنزلت هذه الآية. وقيل كان رجل له امرأة قد كبرت وله منها أولاد فأراد أن يطلقها ويتزوج غيرها فقالت لا تطلقني ودعني أقوم على أولادي واقسم لي

يفتيكم فيهنّ وكتابه يفتيكم فيهنّ، وهو قوله عزّ وجلّ: ﴿ وآتُوا اليتامَى أموالَهم ﴾ [النساء: ٢]، قوله: ﴿ في يتامى النساء ﴾، هذا إضافة الشيء إلى نفسه لأنه أراد باليتامى النساء، ﴿ اللاتي لا تُؤتُونهنّ ﴾، أي: لا تعطونهنّ، ﴿ ما كتبَ لهنّ ﴾، من صداقهنّ، ﴿ وترغبون أن تَنْكِحُوهُنّ ﴾، أي في نِكَاحِهنّ لِمَالِهنّ وجمالِهنّ بأقل من صداقهنّ، وقال الحسن وجماعة أراد لا تؤتونهنّ حقّهنّ من الميراث لأنهم كانوا لا يرثون النساءَ، وترغبون أن تنكحوهنّ، أي: عن نكاحهنّ لدمامتهنّ، ﴿ والمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الولدانِ ﴾ يريد: ويفتيكم في المستضعفين من الولدان وهم الصغار، أن تعطوهم حُقوقهم لأنهم كانُوا لَا يُورِّثون الصغار، يريد ما يُتلى عليكم في باب اليتامى من قوله: ﴿ وآتُوا اليتَامَى أموالَهم ﴾ [النساء: ٢] يعني بإعطاء حقوق الصغار، ﴿ وأنْ تَقُومُوا لليَتَامَى بالقِسْطِ ﴾، أي: ويفتيكم في أنْ تقُوموا لليتامى بالقسط بالعدل في مُهورهنّ ومواريثهنّ، ﴿ وما تفعلُوا مِنْ خيرٍ فإنّ اللّهَ كانَ بهِ عليماً ﴾، يُجازيكم عليه.

قوله تعالى: ﴿ وإن امْرأةٌ خافتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزاً أو إعْرَاضاً ﴾ الآية، نزلت في عمرة ويُقال في خولة بنت محمد بن مسلمة، وفي زوجها سعد بن الربيع، ويقال رافع بن خديج تزوجها وهي شابّة فلما علاها الكِبَر تزوّج عليها امرأة شابّة، وآثرها عليها وجفا ابنة محمد بن مسلمة، فأتتْ رسولَ الله ﷺ فشكت إليه فنزلت فيها هذه الآية، وقال سعيد بن جبير: كان رجلٍ له امرأة قد كبرت وله منها أولاد فأراد أن يطلّقها ويتزوج عليها غيرها، فقالت: لا

كل شهرين إن شئت وإن شئت فلا تقسم لي فقال إن كان يصلح ذلك فهو أحب إليّ فأتى رسول الله ﷺ فذكر له ذلك فأنزل الله هذه الآية: ﴿**وإن امرأة خافت**﴾ يعني علمت وقيل ظنت وقيل بل المراد نفس الخوف لأن الخوف لا يحصل إلا عند ظهور الأمارات الدالة على وقوعه من بعلها يعني من زوجها. والبعل هو السيد وسمي الزوج بعلاً لأنه سيد المرأة. نشوزاً يعني بغضاً وقيل هو ترك مضاجعتها وأصله من النشز وهو المرتفع من الأرض والنشوز قد يكون من الزوجين وهو أن يكره كل واحد منهما صاحبه فنشوز الزوج هو أن يعرض عن المرأة. وهو قوله تعالى: ﴿**أو إعراضاً**﴾ يعني بوجهه عنها أو يعبس في وجهها أو يترك مضاجعتها أو يسيء عشرتها أو يشتغل بغيرها وقيل المراد من النشوز إظهار الخشونة في القول والفعل والمراد من الإعراض السكوت عن الخير والشر والإيذاء بل يعرض عنها بوجهه أو يشتغل بغيرها ﴿**فلا جناح عليهما**﴾ يعني فلا حرج ولا إثم على الزوج والمرأة ﴿**أن صح**﴾ من المصالحة، وقرىء أن يصلحا بضم الياء وكسر اللام من الإصلاح ﴿**بينهما صلحاً**﴾ يعني في القسمة والنفقة وهو أن يقول الزوج للمرأة: إنك قد كبرت ودخلت في السن، وأنا أريد أن أتزوج امرأة جميلة شابة أوثرها عليك في القسمة ليلاً ونهاراً فإن رضيت فأقيمي وإن كرهت ذلك فارقتك وخليت سبيلك فإن رضيت بذلك كانت هي المحسنة ولا تجبر على ذلك وإن لم ترض بدون حقها كان على الزوج أن يوفيها حقها من القسم والنفقة أو يسرحها بإحسان وإن أمسكها ووفاها حقها مع الكراهة لها كان هو المحسن قال ابن عباس: فإن صالحته على بعض حقها من القسمة والنفقة جاز وإن أنكرت ذلك بعد الصلح كان ذلك لها ولها حقها ﴿**والصلح خير**﴾ يعني إقامتها بعد تخييره إياها والمصالحة على ترك بعض حقها من القسم والنفقة خير من الفرقة عن ابن عباس قال: «خشيت سودة أن يطلقها رسول الله ﷺ فقالت لا تطلقني وأمسكني واجعل يومي لعائشة ففعل فنزلت ـ ﴿**فلا جناح عليهما أن يصالحا بينهما صلحاً والصلح خير**﴾ ـ فما اصطلحا عليه من شيء فهو جائز» أخرجه الترمذي وقال

تطلقني ودعني أقوم على أولادي وأقسِمْ لي من كل شهرين إن شئت، وإن شئت فلا تَقْسِم لي، فقال: إن كان يصلح ذلك فهو أحبّ إليّ فأتى رسولَ الله ﷺ فذكر له ذلك فأنزل الله تعالى: ﴿ **وإنِ امرأةٌ خافتْ** ﴾ أي علمتْ ﴿ **من بعلها** ﴾، أي: من زوجها ﴿ **نشوزاً** ﴾ أي: بُغضاً، قال الكلبي: يعني تركَ مضاجعتَها، أو إعراضاً بوجهه عنها وقلّة مجالستها، ﴿ **فلا جُناحَ عليهما** ﴾، أي: على الزوج والمرأة، ﴿ **أنْ يُصلحا** ﴾ أي: يتصالحا، وقرأ أهل الكوفة (أنْ يُصْلِحَا) من الإصلاح، ﴿ **بينهما صُلحاً** ﴾ يعني: في القِسْم والنفقة، وهو أن يقول الزوج لها، إنّك قد دخلت في السنّ وإني أُريد أن أتزوج امرأة شابّة جميلةٍ أوْثرها عليك في القسمة ليلاً ونهاراً فإن رضيتِ بهذا فأقيمي وإن كرهتِ خَلّيتُ سبيلك، فإن رضيتْ كانتْ هي المحسنة ولا تُجبر على ذلك، وإن لم ترضَ بدون حقها كان على الزوج أن يوفّيها حقّها من القِسْم والنفقة أو يسرّحها بإحسان، فإن أمسكها ووفّاها حقّها مع كراهية فهو مُحسن، وقال سليمان بن يسار في هذه الآية عن ابن عباس رضي الله عنهما: فإن صالحته عن بعض حقّها من القِسْم والنفقة فذلك جائز ما رضيت، فإن أنكرته بعد الصلح فذلك لها ولها حقها، وقال مقاتل بن حيان في هذه الآية: هو أن الرجل يكون تحته المرأة الكبيرة فيتزوج عليها الشابّة، فيقول للكبيرة: أعطيتُكِ من مالي نصيباً على أن أقسم لهذه الشابّة أكثر مما أقْسِمُ لك فترضَى بما اصطلحا عليه، فإن أبتْ أن ترضى فعليه أن يَعْدِلَ بينهما في القِسْم. وعن عليّ رضي الله عنه في هذه الآية قال: تكون المرأة عند الرجل فتنبُو عينُه عنها من دمامة أو كبر فتكره فرقته، فإن أعطته من مالها فهو له حلّ وإن أعطته من أيامها فهو حلٌّ له، ﴿ **والصُّلْحُ خَيْر** ﴾ يعني: إقامتها بعد تخييره إيّاها والمصالحة على ترك بعض حقّها من القسم والنفقة، خير من الفرقة كما يُروَى أنّ سودة رضي الله عنها كانت امرأة كبيرة وأراد النبي ﷺ أنْ يُفارقها، فقالتْ: لا تطلقني وكفاني أنْ أُبعث في نسائك وقد جعلتُ نوبتي لعائشة رضي الله عنها

حديث حسن غريب، فكان رسول الله ﷺ يقسم لعائشة يومين يومها ويوم سودة ﴿وأحضرت الأنفس الشح﴾ الشح أقبح البخل، وحقيقته الحرص على منع الخير، وإنما قال: وأحضرت الأنفس الشح لأنه كالأمر اللازم للنفوس لأنها مطبوعة عليه، ومعنى الآية أن كل واحد من الزوجين يشح بنصيبه من الآخر فالمرأة تشح على مكانها من زوجها والرجل يشح عليها بنفسه إذا كان غيرها أحب إليه منها ﴿وإن تحسنوا وتتقوا﴾ هذا خطاب للأزواج يعني وإن تحسنوا أيها الأزواج الصحبة والعشرة وتتقوا الله في حق المرأة فإنها أمانة عندكم وقيل معناه وإن تحسنوا بالإقامة معها على الكراهة وتقتوا ظلمها والجور عليها. ﴿فإن الله كان بما تعملون خبيراً﴾ يعني فيجازيكم بأعمالكم قوله عز وجل: .

وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ۖ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ ۚ وَإِن تُصْلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٢٩﴾ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾

﴿ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء﴾ يعني ولن تقدروا أن تسووا بين النساء في الحب وميل القلب لأن ذلك مما لا تقدرون عليه وليس من كسبكم ﴿ولو حرصتم﴾ يعني على العدل والتسوية بينهن وقيل معناه ولو حرصتم على ذلك ﴿فلا تميلوا كل الميل﴾ يعني إلى التي تحبونها في القسم والنفقة والمعنى أنكم لستم منهيين عن حصول التفاوت في الميل القلبي لأن ذلك خارج عن قدرتكم ووسعكم ولكنكم منهيون عن إظهار ذلك الميل في القول والفعل عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «من كانت له امرأتان فلم يعدل بينهما جاء يوم القيامة وشقه ساقط» أخرجه الترمذي وعند أبي داود «من كانت له امرأتان فمال إلى إحداهما جاء يوم القيامة وشقه مائل» وعن عائشة قالت «كان رسول الله ﷺ يقسم فيعدل فيقول اللهم هذا قسمي فيما أملك فلا تلمني فيما تملك ولا أملك يعني القلب» أخرجه أبو داود والترمذي والنسائي وقوله تعالى: ﴿فتذروها كالمعلقة﴾ يعني فتدعوا الأخرى التي لا تميلون إليها كالمعلقة لا أيماً ولا ذات بعل كالشيء المعلق لا هو في السماء ولا على الأرض. وقيل معناه فتذورها

فأمسكها رسول الله ﷺ، وكان يقسم لعائشة يومين يومها ويوم سودة رضي الله عنها. قوله تبارك وتعالى: ﴿ وأحضِرَتِ الأنفُسُ الشُّحَّ ﴾، يريد: شُحَّ كلٍّ واحد من الزوجين بنصيبه من الآخر، والشُّح: أقبح البخل، وحقيقتُه: الحرص على منع الخير، ﴿ وإنْ تُحْسِنُوا ﴾، أي: تصلحوا ﴿ وتَتقُوا ﴾، الجورَ، وقيل: هذا خطاب مع الأزواج، أي: وإنْ تُحسنوا بالإقامة معها على الكراهة وتتّقوا ظُلمَها ﴿ فإنّ اللّهَ كانَ بما تعملونَ خبيراً ﴾، فيجزيكم بأعمالكم.

قوله تعالى: ﴿ ولنْ تستطيعوا أنْ تعدِلُوا بينَ النِّساء ﴾، أي: لن تقدروا أن تُسووا بين النساء في الحب وميل القلب، ﴿ ولو حرصتُم ﴾ على العدل، ﴿ فلا تميلوا ﴾، أي: إلى التي تُحبّونها، ﴿ كلَّ الميلِ ﴾ في القِسْم والنَّفقة، أي: لا تُتبعُوا أهواءَكم أفعالَكم، ﴿ فَتَذَرُوها كالمُعَلّقةِ ﴾، أي فَتدعُوا الأخرى كالمعلّقة لا أيّماً ولا ذاتَ بعل. وقال قتادة: كالمحبوسة، وفي قراءة أُبيّ بن كعب: كأنها مسجونة. ورُوِيَ عن أبي قلابة أنّ النبي ﷺ كان يُقْسِمُ بين نسائه، فيعدل ويقول: «اللّهمَّ هذا قَسْمِي فيما أملك فلا تَلُمْنِي فيما تَمْلِكُ ولا أملك»، ورواه بعضهم عن أبي قلابة عن عبد الله بن يزيد عن عائشة رضي الله عنها مُتّصلاً. ورُوِيَ عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «مَنْ كانتْ له امرأتان فمالَ إلى إحداهما جاءَ يومَ القيامةِ وشَقُّه مائل». ﴿ وإنْ تُصْلِحُوا وتتّقُوا ﴾، الجورَ، ﴿ فإنَّ اللّهَ كانَ غفوراً رحيماً ﴾.

كالمسجونة لا هي مخلصة فتتزوج ولا هي ذات بعل فيحسن إليها ﴿**وإن تصلحوا**﴾ يعني بالعدل في القسم ﴿**وتتقوا**﴾ يعني الجور في القسم ﴿**فإن الله كان غفوراً**﴾ يعني لما حصل من الميل إلى بعضهن دون بعض ﴿**رحيماً**﴾ يعني بكم حيث لم يكلفكم ما لا تقدرون عليه ﴿**وإن يتفرقا**﴾ يعني إن لم يصطلحا وأرادا الفرقة ﴿**يغن الله كلاً من سعته**﴾ يعني من فضله ورزقه والمعنى يغني الزوج بامرأة أخرى والمرأة بزوج آخر. وقيل معناه يعوض الزوج بما يحب والمرأة بما تحب ويوسع عليهما وفي هذا تسلية لكل واحد من الزوجين بعد الطلاق ﴿**وكان الله واسعاً**﴾ يعني واسع الفضل والرحمة وقيل واسع القدرة والعلم والرزق وقيل هو الغني الذي وسع جميع مخلوقاته غناه ﴿**حكيماً**﴾ يعني فيما أمر به ونهى عنه.

فصل فيما يتعلق بحكم الآية

وجملته أن الرجل إذا كان تحته امرأتان أو أكثر يجب عليه التسوية بينهن في القسم فإن ترك التسوية بينهن في فعل القسم عصى الله عز وجل في ذلك وعليه القضاء للمظلومة والتسوية شرك في البيتوتة أما في الجماع فلا لأن ذلك يدور على النشاط وميل القلب وليس ذلك إليه ولو كان في نكاحه حرة وأمة قسم للحرة ليلتين وللأمة ليلة واحدة. وإذا تزوج جديدة على قديمات كن عنده فإنه يخص الجديدة بأن يبيت عندها سبع ليال إن كانت الجديدة بكراً وإن كانت ثيباً خصها بثلاث ليال ثم إنه يستأنف القسم ويسوي بينهن ولا يجب عليه قضاء عوض هذه الليالي للقديمات ويدل على ذلك ما روى أبو قلابة عن أنس قال: «من السنة إذا تزوج البكر على الثيب أقام عندها سبعاً وقسم وإذا تزوج الثيب أقام عندها ثلاثاً وقسم» قال أبو قلابة ولو شئت لقلت إن أنساً رفعه إلى النبي ﷺ أخرجاه في الصحيحين. وإذا سافر الرجل إلى سفر حاجة جاز له أن يحمل معه بعض نسائه بشرط أن يقرع بينهن ولا يجب عليه أن يقضي للباقيات عوض مدة سفره وإن طالت إذا لم يزد مقامه في البلد على مدة المسافرين ويدل على ذلك

﴿ **وإنْ يَتفرَّقَا** ﴾، يعني: الزوج والمرأة بالطلاق، ﴿ **يُغْنِ اللَّهُ كلاً مِنْ سَعَتِهِ** ﴾، من رزقه، يعني: المرأة بزوج آخر والزوج بامرأة أُخرى، ﴿ **وكَانَ اللَّهُ واسعاً حكيماً** ﴾، واسعَ الفضل والرحمة حكيماً فيما أمر به ونهى عنه، وجملةُ حُكم الآية: أنّ الرجل إذا كانت تحته امرأتان أو أكثر فإنه يجب عليه التسوية بينهنّ في القِسْم، فإن ترك التسوية بينهنّ في فعل القِسْم عصى الله تعالى، وعليه القضاء للمظلومة والتسوية شرط في البينونة، أما في الجماع فلا، لأنه يدور على النشاط وليس ذلك إليه ولو كانت في نكاحه حُرّةٌ وأَمَةٌ فإنه يبيت عند الحرّة ليلتين وعند الأمَةِ ليلة واحدة، وإذا تزوج جديدة على قديمات عنده يخصّ الجديد بأن يبيت عندها سبع ليالٍ على التوالِ إن كانت بكراً، وإن كانت ثيّباً فثلاث ليالٍ ثم يُسوّي بعد ذلك بين الكل، ولا يجب قضاء هذه الليالي للقديمات. أخبرنا عبد الواحد المليحي ثنا أحمد بن عبد الله النعيمي ثنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا يوسف بن راشد ثنا أبو أسامة ثنا سفيان الثّوري ثنا أيوب وخالد عن أبي قلابة عن أنس رضي الله عنه قال: مِنَ السُّنّة إذا تزوج البكر على الثيب أقام عندها سبعاً، ثم قَسَمَ وإذا تزوج الثيّب أقام عندها ثلاثاً، ثم قسم. قال أبو قلابة: ولو شئتُ لقلتُ: إن أنساً رفعه إلى النبي ﷺ. وإذا أراد الرجل سفرَ حَاجةٍ فيجوز له أن يحمل بعض نسائه مع نفسه بعد أن يُقرع بينهنّ فيه، ثم لا يجب عليه أن يقضي للباقيات مدة سفره، وإن طالت إذا لم يزد مقامه في بلده على مدة المسافرين، والدليل عليه ما أخبرنا عبد الوهاب بن محمد الخطيب ثنا عبد العزيز بن أحمد الخلال ثنا أبو العباس الأصم ثنا الربيع ثنا الشافعي ثنا عمّي محمد بن علي بن شافع عن ابن شهاب عن عبيد الله بن عبد الله عن عائشة زوج النبي ﷺ أنها قالت: «كان رسول الله ﷺ إذا أراد السفرَ أقرعَ بين نسائه فأيتهُنَّ خرج سهمُها خرج بها، أما إذا أراد سفر نقلة فليس له تخصيص بعضهنّ لا بالقرعة ولا بغيرها».

ما روى عن عائشة قالت: «كان رسول الله ﷺ إذا أراد سفراً أقرع بين نسائه فأيتهن خرج سهمها خرج بها معه». أخرجه البخاري مع زيادة فيه. وإذا أراد الرجل سفر نقلة وجب عليه أخذ نسائه معه. قوله تعالى: .

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾﴾

﴿**ولله ما في السموات وما في الأرض**﴾ يعني عبيداً وملكاً قال أهل المعاني لما ذكر الله تعالى أنه يغني من سعته وفضله أشار إلى ما يوجب الرغبة إليه في طلب الخير منه لأن من ملك السموات والأرض لا تفنى خزائنه ﴿**ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم**﴾ يعني من اليهود والنصارى وأصحاب الكتب القديمة ﴿**وإياكم**﴾ يعني ووصيناكم يا أهل القرآن في كتابكم ﴿**أن اتقوا الله**﴾ أي بأن تتقوا الله وهو أن توحدوه وتطيعوه وتحذروه ولا تخالفوا أمره والمعنى أن الأمر بتقوى الله شريعة قديمة أوصى الله بها جميع الأمم السالفة في كتبهم ﴿**وإن تكفروا**﴾ يعني وإن تجحدوا ما أوصاكم به ﴿**فإن لله ما في السموات وما في الأرض**﴾ يعني فإن لله ملائكة في السموات والأرض هم أطوع له منكم. وقيل معناه أن الله تعالى خالق السموات والأرض وما فيه ومالكهن، والمنعم عليهم بأصناف النعم ومن كان كذلك فحق لكل أحد أن يتقيه ويرجوه ﴿**وكان الله غنياً**﴾ يعني عن جميع خلقه غير محتاج إليهم ولا إلى طاعتهم ﴿**حميداً**﴾ يعني محموداً على نعمه عليهم ﴿**ولله ما في السموات وما في الأرض وكفى بالله وكيلاً**﴾ قال ابن عباس يعني شهيداً على أن له فيهن عبيداً وقيل معناه وكفى بالله دافعاً ومجيراً. فإن قلت ما الفائدة في تكرير قوله تعالى: ﴿**ولله ما في السموات وما في الأرض**﴾ قلت الفائدة في ذلك أن لكل آية معنى تخص به، أما الآية الأولى فمعناها فإن لله ما في السموات وما في الأرض وهو يوصيكم بتقوى الله فاقبلوا وصيته وقيل لما قال تعالى: ﴿**وإن يتفرقا يغن الله كلاً من سعته**﴾ بيّن أن له ما في السموات وما في الأرض وأنه قادر على إغناء جميع الخلائق وهو المستغني عنهم. وأما الآية الثانية فإنه تعالى قال: ﴿**وإن تكفروا فإن لله ما في السموات وما في الأرض**﴾ والمراد أنه تعالى منزه عن طاعات الطائعين وعن ذنوب المذنبين وأنه لا يزداد جلاله بالطاعات ولا ينقص بالمعاصي. وقيل لما بين أن له ما في السموات وما في الأرض وقال بعد ذلك: ﴿**وكان الله غنياً حميداً**﴾ فالمراد منه أنه تعالى هو الغني وله الملك فاطلبوا منه ما تطلبون فهو يعطيكم لأن له ما في السموات وما في الأرض. وأما

قوله تعالى: ﴿ **وللَّهِ مَا في السّمواتِ وما في الأرض** ﴾ عبيداً ومُلكاً ﴿ **ولقدْ وصّينا الذينَ أُوتُوا الكتابَ مِنْ قبلِكُمْ** ﴾، يعني: أهل التوراة والإنجيل وسائر الأمم المتقدمة في كتبهم، ﴿ **وإيّاكم** ﴾ يا أهل القرآن في القرآن، ﴿ **أنِ اتقُوا اللّهَ** ﴾ أي: وحّدُوا اللّهَ وأطيعوه، ﴿ **وإن تَكْفُرُوا** ﴾، بما أوصاكم الله به ﴿ **فإنّ للّهِ ما في السّمواتِ وما في الأرض** ﴾، قيل: فإن لله ملائكة في السمٰوات والأرض وهي أطوع له منكم، ﴿ **وكان اللّهُ غنياً** ﴾، عن جميع خلقه غير محتاج إلى طاعتهم، ﴿ **حميداً** ﴾ محموداً على نعمه.

﴿ **وللّهِ مَا في السمٰواتِ وما في الأرضِ وكفَى باللّهِ وكيلاً** ﴾، قال عكرمة عن ابن عباس: يعني شهيداً أن فيها عبيداً، وقيل: دافعاً ومُجيراً، فإن قيل: فأيّ فائدة في تكرار قوله تعالى: ﴿ **ولله ما في السمٰواتِ وما في الأرض** ﴾؟ قيل: لكلّ واحد منهما وجه، أمّا الأول: فمعناه لله ما في السمٰوات وما في الأرض وهو يُوصيكم بالتقوى فاقبلوا وصيّته، وأمّا الثاني فيقول: فإن لله ما في السمٰوات وما في الأرض وكان الله غنيّاً أي: هو الغني وله

الثالثة فقال تعالى: ﴿ولله ما في السموات وما في الأرض وكفى بالله وكيلا﴾ أي فتوكلوا عليه ولا تتوكلوا على غيره فإنه المالك لما في السموات والأرض. وقيل تكريرها تعديدها لما هو موجب تقواه لتتقوه وتطيعوه ولا تعصوه لأن التقوى والخشية أصل كل خير.

قوله عز وجل: ﴿إن يشأ يذهبكم أيها الناس﴾ قال ابن عباس: يريد المشركين والمنافقين ﴿ويأت بآخرين﴾ بغيركم هم خير منكم وأطوع له ففيه تهديد للكفار والمعنى أنه يهلككم أيها الكفار كما أهلك من كان قبلكم، إذ كفروا به وكذبوا رسله ﴿وكان الله على ما ذلك قديراً﴾ يعني وكان الله على ذلك الإهلاك وإعادة غيركم قادراً بليغاً في القدرة لا يمتنع عليه شيء أراده لم يزل ولا يزال موصوفاً بالقدرة على جميع الأشياء. قوله تعالى:

﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾﴾

﴿من كان يريد ثواب الدنيا﴾ يعني من كان يريد بعمله عرضاً من الدنيا نزلت في مشركي العرب وذلك أنهم كانوا يقرون بالله تعالى خالقهم ولا يقرون بالبعث يوم القيامة فكانوا يقربون إلى الله ليعطيهم من خير الدنيا ويصرف عنهم شرها وقيل نزلت في المنافقين لأنهم كانوا لا يصدقون بيوم القيامة، وإنما كانوا يطلبون بجهادهم مع رسول الله ﷺ عاجل الدنيا وهو ما ينالونه من الغنيمة ﴿فعند الله ثواب الدنيا والآخرة﴾ يعني الذين يطلبون بأعمالهم وجهادهم ثواب الدنيا وما ينالونه من الغنيمة مخطئون في قصدهم لأن الله عنده ثواب الدنيا وثواب الآخرة فلو كانوا عقلاء لطلبوا ثواب الآخرة حتى يحصل لهم ذلك ويحصل لهم ثواب الدنيا على سبيل التبعية والمعنى أن من أراد بعمله الدنيا آتاه الله منها ما أراد وصرف عنه من شرها ما أراد وليس له ثواب في الآخرة يجزى به، ومن أراد بعمله وجه الله وثواب الآخرة فعند الله ثواب الدنيا والآخرة يؤتيه من الدنيا ما قدر له ويجزيه في الآخرة خير الجزاء ﴿وكان الله سميعاً﴾ يعني لأقوالهم وما يسرونه من طلب ثواب الدنيا ﴿بصيراً﴾ يعني بنياتهم وما في نفوسهم وقيل بصيراً بمن يطلب الدنيا بعمله وبمن يطلب الآخرة بعمله. قوله عز وجل: ﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط

المُلك فاطلبوا منه ما تطلبون، وأمّا الثالث فيقول: ﴿ولله ما في السمٰوات وما في الأرض وكفَى بالله وكيلاً﴾ أي: له الملك فاتخذوه وكيلاً ولا تتوكلوا على غيره.

قوله تعالى: ﴿إنْ يَشأْ يُذْهِبْكُم﴾، يُهلككم ﴿أيها النَّاسُ﴾، يعني: الكفّار، ﴿ويأْتِ بآخَرِينَ﴾، يقول: بغيركم خير منكم وأطوع، ﴿وكانَ اللّهُ على ذلكَ قديراً﴾ قادراً.

﴿مَنْ كانَ يُريدُ ثَوابَ الدنيا فَعِنْدَ اللّهِ ثوابُ الدّنيا والآخِرَةِ﴾ يُريد مَن كان يريد بعمله عَرَضاً من الدنيا، ولا يريد بها اللّهَ عزّ وجلّ آتاه الله من عَرَضِ الدنيا أو دفع عنه فيها ما أراد الله، وليس له في الآخرة من ثواب، ومَن أراد بعمله ثواب الآخرة آتاه الله من الدنيا ما أحبّ وجزاه الجنة في الآخرة. قوله تعالى: ﴿وكانَ اللّهُ سميعاً بصيراً﴾.

﴿يا أيّها الذينَ آمنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بالقِسْطِ شُهداءَ للّهِ﴾، يعني: كونوا قائمين بالشهادة بالقسط، أي: بالعدل

شهداء لله﴾ قال السدي إن فقيراً وغنياً اختصما إلى النبي ﷺ فكان صغوه مع الفقير يرى أن الفقير لا يظلم الغني فأنزل الله هذه الآية وأمر بالقيام بالقسط مع الغني والفقير وقيل إن هذه الآية متعلقة بقصة طعمة بن أبيرق فهي خطاب لقومه الذين جادلوا عنه وشهدوا به بالباطل، فأمرهم الله تعالى أن يكونوا قائمين بالقسط شاهدين لله على كل حال ولو على أنفسهم وأقاربهم فقال تعالى: **﴿كونوا قوامين بالقسط﴾** القوام مبالغة في القيام بالعدل في جميع الشهادات واجتناب الجور فيها قال ابن عباس كونوا قوامين بالعدل في جميع الشهادات على من كانت شهداء لله يعني أقيموا شهادتكم لوجه الله كما أمركم فيها فيقول الحق في شهادته **﴿ولو على أنفسكم﴾** يعني ولو كانت الشهادة على أنفسكم أمر الله العبد أن يشهد على نفسه بالحق وهو أن يقر على نفسه وذلك الإقرار يسمى شهادة في كونه موجباً للحق عليه **﴿أو الوالدين والأقربين﴾** يعني ولو كانت الشهادة على الوالدين والأقربين من ذوي رحمه أو أقاربه والمعنى قولوا الحق ولو على أنفسكم أو على الوالدين أو الأقارب فأقيموا الشهادة عليهم لله تعالى ولا تحابوا غنياً لغناه ولا ترحموا فقيراً لفقره فذلك قوله تعالى: **﴿إن يكن﴾** يعني المشهود عليه **﴿غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما﴾** يعني منكم والمعنى كلوا أمرهم إلى الله تعالى فهوأ علم بهم وبحالهم وإنما قال بهما على التثنية لأن رد الضمير إلى المعنى دون اللفظ يعني فالله أولى بالغني والفقير **﴿فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا﴾** يعني فلا تتبعوا الهوى واتقوا الله أن تعدلوا عن الحق في أداء الشهادة وقيل معناه اتركوا متابعة الهوى حتى تصيروا موصوفين بصفة العدل، لأن العدل عبارة عن ترك متابعة الهوى **﴿وإن تلووا﴾** قرىء بواوين ومعناه أن يلوي الشاهد لسانه إلى غير الحق قال ابن عباس يلوي لسانه بغير الحق ولا يقيم الشهادة على وجهها **﴿أو تعرضوا﴾** يعني أو يعرض الشاهد عن الشهادة فيكتمها ولا يقيمها يقال لويته حقه إذا دفعته عنه ومطلته به، وقيل معناه وإن تلووا عن القيام بأداء الشهادة أو تعرضوا عنها فتتركوها وقيل معناه التحريف والتبديل في الشهادة من قولهم لويت الشيء إذا قبلته وقيل هو خطاب مع الحكام يقول وإن تلووا يعني تميلوا مع أحد الخصمين دون الآخر أو تعرضوا عنه بالكلية وقرىء تلوا بواو واحدة من الولاية فهو خطاب للحكام أيضاً ومعناه فلا تلوا أمور المسلمين وتضيعوهم أو تعرضوا عنهم **﴿فإن الله**

لله، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: كونوا قوّامين بالعدل في الشهادة على مَن كانت له، **﴿ ولو على أنفسِكُم أو الوَالِدَين والأقْرَبين ﴾ في الرحم**، أي: **قُولُوا الحقَّ** ولو على أنفسكم بالإقرار أو الوالدين والأقربين، **فأقيموها عليهم لله**، ولا **تُحابوا** غنياً لغناه ولا ترحموا فقيراً لفقره، فذلك قوله تعالى: **﴿ إنْ يكنْ غنيّاً أو فقيراً فاللَّهُ أوْلَى بهمَا ﴾**، **منكم، أي أقيموا على المشهُود عليه وإن كان غنياً** وللمشهود له **وإن كان فقيراً فالله أولى بهما منكم، أي كِلُوا أمرَهما إلى الله**. وقال الحسن: معناه الله أعلم بهما، **﴿ فلا تَتَّبِعُوا الهوَى أنْ تَعْدِلُوا ﴾**، أي ولا تجوروا وتميلوا إلى الباطل من الحق، وقيل: معناه لا تتبعوا الهوى لتعدلوا، أي: لتكونوا عادلين كما يقال: لا تتبع الهوى لترضي ربك. **﴿ وإنْ تَلْوُوا ﴾** أي: تحرفوا الشهادة لتبطلوا الحق **﴿ أو تعرضوا ﴾** عنها فتكتموها ولا تقيموها، ويقال: تلووا أي تدافعوا في إقامة الشهادة، يقال: **لَوَيْتَه** حقَّه إذا دفعتَه وأبطلتَه، وقيل: هذا خطاب مع الحكّام في **ليِّهم الأشداق**، يقول: وإن تلووا أي تميلوا إلى أحد الخصمين أو تعرضوا عنه، قرأ ابن عامر وحمزة «تلوا» بضم اللام، قيل: أصله تلووا، فحذفت إحدى الواوين تخفيفاً، وقيل: معناه وإن تلوا القيام بأداء الشهادة أو تعرضوا فتتركوا أداءَها **﴿ فإنّ اللَّهَ كانَ بما تعملونَ خبيراً ﴾**.

قوله تعالى: **﴿ يا أيّها الذينَ آمَنُوا آمِنوا باللَّهِ ورسولِهِ ﴾** الآية، قال الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس: نزلت هذه الآية في عبد الله بن سلام وأسد وأُسيد بني كعب، وثعلبة بن قيس وسلاّم بن أخت عبد الله بن سلاّم، وسلمة بن أخيه ويامين بن يامين فهؤلاء مُؤمنُوا أهل الكتاب أتَوْا رسولَ الله ﷺ، فقالوا: إنّا نُؤمن بك وبكتابك

كان بما تعملون خبيراً﴾ يعني أنه تعالى يجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته فيجازيكم بأعمالكم. قوله عز وجل: **﴿يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله﴾** قال ابن عباس نزلت في عبدالله بن سلام وأسد وأسيد ابني كعب وثعلبة بن قيس وسلام ابن أخت عبدالله بن سلام وسلمة ابن أخيه ويامين بن يامين فهؤلاء مؤمنو أهل الكتاب أتوا رسول الله ﷺ فقالوا إنا نؤمن بك وبكتابك وبموسى والتوراة وعزير ونكفر بما سوى ذلك من الكتب والرسل فقال لهم النبي ﷺ: «بل آمنوا بالله وبرسوله محمد والقرآن وبكل كتاب كان قبله» فأنزل الله هذه الآية: **﴿يا أيها الذين آمنوا﴾** يعني بمحمد والقرآن وبموسى والتوراة آمنوا بالله ورسوله اسم جنس يعني آمنوا بجميع رسله وقيل هو خطاب لأهل الكتاب جميعاً والمعنى يا أيها الذين آمنوا بموسى والتوراة وبعيسى والإنجيل آمنوا بمحمد والقرآن وقيل هو خطاب للمنافقين والمعنى يا أيها الذين آمنوا بألسنتهم ولم تؤمن قلوبهم آمنوا بقلوبكم حتى ينفعكم الإيمان لأن الإيمان باللسان لا ينفع من غير مواطأة القلب وقيل هو خطاب للمؤمنين والمعنى يا أيها الذين آمنوا في الماضي والحال آمنوا في المستقبل ودوموا واثبتوا على الإيمان والكتاب **﴿والكتاب الذي نزل على رسوله﴾** يعني القرآن **﴿والكتاب الذي أنزل من قبل﴾** يعني وآمنوا بالقرآن وبجميع الكتب الذي أنزلها على أنبيائه قبل القرآن فيكون الكتاب اسم جنس لجميع الكتب **﴿ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالاً بعيداً﴾** قوله عز وجل: .

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًۢا ﴿١٣٧﴾ بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾

﴿إن الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفراً﴾ قال ابن عباس نزلت في اليهود آمنوا بموسى ثم كفروا بعبادتهم العجل ثم بعد ذلك كفروا بعيسى والإنجيل ثم ازدادوا كفراً بمحمد ﷺ والقرآن وقيل إنهم آمنوا بموسى ثم كفروا بعده ثم آمنوا بداود ثم كفروا بعيسى ثم ازدادوا كفراً بمحمد ﷺ، وقيل نزلت في المنافقين وذلك

وبموسى والتوراة وعزير ونكفر بما سواه من الكتب والرُّسل، فقال النبي ﷺ: «بل آمِنُوا بالله ورسوله محمد ﷺ، والقرآن وبكل كتاب كان قبله»، فأنزل الله هذه الآية **﴿ يا أيها الذينَ آمَنُوا ﴾** بمحمدٍ ﷺ والقرآن وبموسى عليه السلام والتوراة **﴿ آمِنُوا باللَّهِ ورسولِهِ ﴾** محمد ﷺ، **﴿ والكتابِ الذي نَزّلَ على رسوله ﴾**، يعني القرآن، **﴿ والكتاب الذي أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ ﴾**، من التوراة والإنجيل والزبور وسائر الكتب، قرأ ابن كثير وابن عامر وأبو عمرو **﴿ نزّل وأنزل ﴾** بضمّ النون والألف، وقرأ الآخرون **﴿ نزّل وأنزل ﴾** بالفتح أي أنزل الله، **﴿ ومَنْ يكفُرْ باللَّهِ وملائكتِهِ وكتبِهِ ورُسلِهِ واليومِ الآخر فقدْ ضلَّ ضلالاً بعيداً ﴾**، فلما نزلت هذه الآية قالوا: فإنّا نؤمن بالله ورسوله والقرآن وبكل رسولٍ وكتاب كان قبل القرآن، والملائكة واليوم الآخر لا نُفرِّق بين أحد منهم ونحن له مسلمون، وقال الضحاك: أراد بهم اليهود والنصارى، وقيل: **﴿ يا أيّها الذين آمَنُوا ﴾** بموسى وعيسى **﴿ آمِنُوا ﴾** بمحمدٍ والقرآن، وقال مجاهد: أراد بهم المنافقين، يقول: **﴿ يا أيها الذين آمَنُوا ﴾** باللسان **﴿ آمِنُوا ﴾** بالقلب. وقال أبو العالية وجماعة: هذا خطاب للمؤمنين، يقول: **﴿ يا أيّها الذين آمَنُوا آمِنُوا ﴾** أي أقيمُوا وأثبتُوا على الإيمان، كما يُقال للقائم: قُمْ حتى أرجع إليك، أي اثبت قائماً، قيل: المراد به أهل الشرك، يعني **﴿ يا أيها الذين آمَنُوا ﴾** باللّاتِ والعُزى **﴿ آمِنُوا ﴾** بالله ورسوله.

قوله تعالى: **﴿ إنّ الذينَ آمَنُوا ثم كَفَرُوا ثمّ آمنُوا ثم كفروا ثم ازْدَادُوا كفراً ﴾**، قال قتادة: هم اليهود آمَنُوا بموسى ثم كفروا من بعد بعبادتهم العجل، ثم آمَنُوا بالتوراة ثم كفروا بعيسى عليه السلام، ثم ازْدَادُوا كفراً

أنهم آمنوا ثم كفروا بعد الإيمان ثم آمنوا يعني بألسنتهم وهو إظهارهم الإيمان لتجري عليهم أحكام المؤمنين ثم ازدادوا كفراً يعني بموتهم على الكفر. وقيل بذنوب أحدثوها في الكفر وقيل هم قوم آمنوا ثم ارتدوا إلى الكفر ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفراً يعني بموتهم عليه. وذلك لأن من تكرر منه الإيمان بعد الكفر والكفر بعد الإيمان مرات كثيرة يدل على أنه لا وقع للإيمان في قلبه، ومن كان كذلك لا يكون مؤمناً بالله إيماناً صحيحاً وازديادهم الكفر هو استهزاؤهم وتلاعبهم بالإيمان ومثل هذا المتلاعب بالدين هل تقبل توبته أم لا؟ حكي عن علي بن أبي طالب أنه قال لا تقبل توبته بل يقتل وذهب أكثر أهل العلم إلى أن توبته مقبولة. وقوله تعالى: ﴿**لم يكن الله ليغفر لهم**﴾ يعني ما أقاموا على الكفر وماتوا عليه وذلك لأن الله تعالى أخبر أنه يغفر الكفر إذا تاب منه بقوله قل للذين كفروا إن ينتهوا يعني عن الكفر يغفر لهم ما قد سلف يعني من كفرهم ﴿**ولا ليهديهم سبيلاً**﴾ يعني طريق هدى وقيل لا يجعلهم بكفرهم مهتدين. قوله تعالى: ﴿**بشر المنافقين بأن لهم عذاباً أليماً**﴾ يعني أخبرهم يا محمد وإنما وضع بشر مكان أخبر تهكماً بهم وقيل البشارة كل خبر تتغير به بشرة الوجه ساراً كان ذلك الخبر أو غير سار وقيل معناه اجعل موضع بشارتك لهم العذاب لأن العرب يقول تحيتك الضرب أي هذا بدل من تحيتك قال الشاعر:

وخيل قد دلفت لها بخيل ... تحية بينهم ضرب وجيع

﴿ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾ ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾

ثم وصف الله تعالى المنافقين فقال تعالى: ﴿**الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين**﴾ يعني يتخذون

بمحمد ﷺ. وقيل: هو في جميع أهل الكتاب آمَنُوا بنبيِّهم ثم كفَرُوا به، وآمَنُوا بالكتاب الذي نُزِّل عليه ثم كفروا به، وكفرهم به تركهم إيّاه ثم ازدادوا كفراً بمحمد ﷺ، وقيل: هذا في قوم مرتدّين آمنوا ثمّ ارتدّوا ثمّ آمنوا ثمّ ارتدّوا ثمّ آمنوا ثمّ ارتدّوا، ومثل هذا هلْ تُقبل توبته؟ حُكي عن علي رضي الله عنه أنه لا تقبل توبته بل يُقتل، لقوله تعالى: ﴿ **لم يكنِ اللّهُ ليغفرَ لهمْ** ﴾، وأكثر أهل العلم على قبول توبته، وقال مجاهد: ثم ازدادوا كفراً أي ماتوا عليه، ﴿ **لم يكنِ اللّهُ ليغفرَ لهم** ﴾، ما أقاموا على ذلك، ﴿ **ولاَ ليهديهم سَبيلاً** ﴾ أي طريقاً إلى الحق، فإن قيل: ما معنى قوله: ﴿ **لَمْ يكنِ اللّهُ لِيَغْفِرَ لهم** ﴾، ومعلوم أنه لا يغفر الشرك إن كان أول مرّة؟ قيل: معناه أن الكافر إذا أسلم أول مرّة ودام عليه يُغفر له كفرُه السابق، فإن أسلم ثم كفر ثم أسلم ثم كفر لا يُغفر له كفرُه السابق الذي كان، يُغفر له لو دَامْ على الإسلام.

﴿ **وبَشِّرِ المُنَافِقِينَ** ﴾، أخبرهم يا محمد، ﴿ **بأنّ لهم عذاباً أليماً** ﴾، والبشارة: كل خبر يتغيّر به بشرة الوجه سارّاً كان أو غير سارّ، وقال الزجّاج: معناه اجعل في موضع بشارتك لهم العذاب، كما تقول العرب: تحيَّتُك الضرب وعِتَابُك السيف، أي: بدلاً لك من التحية، ثم وصف المنافقين فقال:

﴿ **الذين يَتَّخِذُونَ الكافرينَ أولياء** ﴾، يعني: يتخذون اليهودَ أولياءَ وأنصاراً أو بطانة ﴿ **مِنْ دُونِ المؤمنين**

اليهود أولياء وأنصاراً وبطانة من دون المؤمنين وذلك أن المنافقين كانوا يقولون إن محمداً لا يتم أمره فيوالون اليهود فقال الله تعالى رداً على المنافقين: ﴿**أيبتغون عندهم العزة**﴾ يعني يطلبون من اليهود العزة والمعونة والظهور على محمد ﷺ وأصحابه ﴿**فإن العزة لله جميعاً**﴾ يعني فإن القوة والقدرة والغلبة لله جميعاً وهو الذي يعز أولياءه وأهل طاعته كما قال تعالى: ﴿ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين﴾ ﴿**وقد نزل عليكم**﴾ يا معشر المسلمين ﴿**في الكتاب**﴾ يعني القرآن ﴿**أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها**﴾ قال المفسرون الذي أنزل عليهم في النهي عن مجالستهم هو قوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره﴾ وهذا أنزله بمكة لأن المشركين كانوا يخوضون في القرآن ويستهزؤون به في مجالسهم ثم إن أحبار اليهود بالمدينة كانوا يفعلون مثل فعل المشركين وكان المنافقون يجلسون إليهم ويخوضون معهم في الاستهزاء بالقرآن فنهى الله المؤمنين عن القعود معهم بقوله: ﴿**فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره**﴾ يعني يأخذوا في حديث آخر غير الاستهزاء بالقرآن وبمحمد ﷺ قال ابن عباس دخل في هذه الآية كل محدث في الدين وكل مبتدع إلى يوم القيامة ﴿**إنكم إذاً مثلهم**﴾ يعني أنكم يا أيها الجالسون مع المستهزئين بآيات الله إذا رضيتم بذلك فأنتم وهم في الكفر سواء. قال العلماء وهذا يدل على أن من رضي بالكفر فهو كافر ومن رضي بمنكر أو خالط أهله كان في الإثم بمنزلتهم إذا رضي به وإن لم يباشره فإن جلس إليهم، ولم يرض بفعلهم بل كان ساخط له وإنما جلس على سبيل التقية والخوف فالأمر فيه أهون من المجالسة مع الرضا وإن جلس مع صاحب بدعة أو منكر ولم يخض في بدعته أو منكره فيجوز الجلوس معه مع الكراهة وقيل لا يجوز بحال والأول أصح ﴿**إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعاً**﴾ أي إنهم اجتمعوا في الدنيا على الاستهزاء بآيات الله وكذلك يجمعهم في عذاب جهنم يوم القيامة قوله عز وجل: ﴿**الذين يتربصون بكم**﴾ نزلت في المنافقين والمعنى ينتظرون ما يحدث بكم من خير أو شر ﴿**فإن كان لكم من فتح الله**﴾ أي ظفر على عدوكم، وغنيمة تنالونها منهم ﴿**قالوا**﴾ يعني المنافقين لكم ﴿**ألم نكن معكم**﴾ يعني في الوقعة والفتح فأعطونا من الغنيمة وقيل معناه ألم نكن على دينكم وفي الجهاد كنا معكم فاجعلوا لنا نصيباً من الغنيمة ﴿**وإن كان للكافرين نصيب**﴾ أي دولة وظهور على المسلمين

أَيَبْتَغُونَ عندَهُمُ العِزّةَ ﴾، أي: المعونة والظهور على محمد ﷺ وأصحابه: وقيل: أيطلبون عندهم القوة، ﴿ **فإنّ العِزّةَ** ﴾ أي: الغلبة والقوة والقدرة، ﴿ **للّهِ جميعاً** ﴾.

﴿ **وقَدْ نَزّلَ عليكم في الكتابِ** ﴾، قرأ عاصم ويعقوب ﴿ **نزل** ﴾ بفتح النون والزاي، أي: نزل الله، وقرأ الآخرون ﴿ **نزل** ﴾ بضم النون وكسر الزاي، أي: عليكم يا معشر المسلمين، ﴿ **أنْ إذا سمعتُم آياتِ اللّهِ** ﴾، يعني القرآن، ﴿ **يُكفرُ بها ويُستهزأ بها فلا تقعُدوا معهم** ﴾، يعني: مع الذين يستهزؤون، ﴿ **حتى يخُوضُوا في حديثٍ غيرِهِ** ﴾، أي: يأخذوا في حديث غير الاستهزاء بمحمد ﷺ والقرآن، وهذا إشارة إلى ما أنزل الله في سورة الأنعام ﴿ وإذا رأيتَ الذينَ يخُوضُونَ في آياتِنا فأعرِضْ عنهم حتى يخُوضُوا في حديثٍ غيرِهِ ﴾ [الأنعام: ٦٨]، وقال الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما: دخل في هذه الآية كلُّ مُحْدِثٍ في الدين وكلّ مُبتدع إلى يوم القيامة، ﴿ **إنّكم إذاً مِثْلُهُمْ** ﴾، أي: إن قعدتم عندهم وهم يخوضون ويستهزئون ورضيتم به فأنتم كفّار مثلهم، وإن خاضوا في حديث غيره فلا بأس بالقعود معهم مع الكراهة، وقال الحسن: لا يجوز القعود معهم وإن خاضوا في حديث غيره، لقوله تعالى: ﴿ وإمّا يُنْسِيَنّك الشيطانُ فلا تقعدْ بعدَ الذكرَى مع القومِ الظالمين ﴾ [الأنعام: ٦٨]، والأكثرون على الأول. وآية الأنعام مكيّة وهذه مدنية والمتأخر أوْلَى. قوله: ﴿ **إنّ اللّهَ جامعُ المنافقين والكافرين في جهنّم جميعاً** ﴾.

﴿قالوا﴾ يعني المنافقين للكفار ﴿ألم نستحوذ عليكم﴾ الاستحواذ هو الاستيلاء والغلبة يقال استحوذ فلان على فلان أي غلب عليه والمعنى أم نغلبكم ونتمكن منكم ومن قتالكم وأسركم ثم لم نفعل ذلك وقيل معناه ألم نغلبكم على رأيكم ﴿ونمنعكم من المؤمنين﴾ يعني في صلاتهم والدخول في دينهم وقيل معناه ألم ندفع المؤمنين بتخذيلهم عنكم ومراسلتنا إياكم بأخبارهم وأسرارهم فهاتوا نصيباً مما أصبتم منهم ومراد المنافقين إظهار المنة على الكفار. فإن قلت لمَ سمي ظفر المؤمنين فتحاً وسمي ظفر الكافرين نصيباً. قلت تعظيماً لشأن المؤمنين وتخسيساً لحظ الكافرين لأن ظفر المؤمنين أمر عظيم تفتح له أبواب السماء حتى ينزل النصر على المسلمين وأما ظفر الكفار فما هو إلا حظ دنيء ونصيب خسيس لا يبقى منه إلا ما نالوه ولهم في الآخرة العقوبة الشديدة على ذلك النصيب الذي نالوه من المسلمين ﴿فالله يحكم بينكم يوم القيامة﴾ يعني الفريقين فريق المؤمنين وفريق المنافقين والمعنى إنما وضع السيف عن المنافقين في الدنيا لا لأجل كرامتهم بل أخر عذابهم إلى يوم القيامة ﴿ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً﴾ فيه قولان: أحدهما وهو قول علي بن أبي طالب وابن عباس أن المراد به يوم القيامة بدليل أنه عطف على قوله فالله يحكم بينكم يوم القيامة روي أن رجلاً سأل علي بن أبي طالب عن هذه الآية: ﴿وأن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً﴾ وهم يقتلوننا فقال ولن يجعل الله للكافرين يوم القيامة على المؤمنين سبيلاً. والقول الثاني إن هذا في الدنيا والمعنى أن حجة المؤمنين غالبة في الدنيا على الكافرين وليس لأحد أن يغلبهم بالحجة وقيل معناه إن الله لم يجعل للكافرين على المؤمنين سبيلاً بأن يمحو دولة المؤمنين بالكلية حتى يستبيحوا بيضتهم فلا يبقى أحد من المؤمنين وقيل معناه إن الله لا يجعل للكافرين على المؤمنين سبيلاً بالشرع فإن شريعة الإسلام ظاهرة إلى يوم القيامة ويتفرع على ذلك مسائل من أحكام الفقه منها أن الكافر لا يرث المسلم ومنها أن الكافر إذا استولى على مال المسلم لم يملكه بدليل هذه الآية ومنها أن الكافر ليس له أن يشتري عبداً مسلماً ومنها أن المسلم لا يقتل بالذمي بدليل هذه الآية. قوله تعالى:.

إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ يُخَـٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَـٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَـٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَـٰٓؤُلَآءِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾

﴿ الذينَ يتربَّصُون بكم ﴾، ينتظرون بكم الدوائر، يعني: المنافقين، ﴿ فإن كانَ لكم فتحٌ مِنَ الله ﴾، يعني: ظفر وغنيمة، ﴿ قالوا ﴾، لكم ﴿ أَلَمْ نكنْ مَعَكُم ﴾، على دينكم في الجهاد كنّا معكم فاجعلوا لنا نصيباً من الغنيمة، ﴿ وإنْ كانَ للكافرينَ نصيبٌ ﴾، يعني دولة وظهور على المسلمين، ﴿ قالُوا ﴾، يعني: المنافقين للكافرين، ﴿ أَلَمْ نَسْتَحوِذْ عليكُم ﴾، والاستحواذ: هو الاستيلاء والغلبة، قال تعالى: ﴿ استحوذَ عليهمُ الشيطانُ ﴾ [المجادلة: ١٩] أي: استولى وغلب، يقول: ألم نخبركم بعورة محمد ﷺ وأصحابه ونُطلعكم على سرّهم؟ قال المبرِّد: يقول المنافقون للكفّار ألم نغلبكم على رأيكم ﴿ وَنَمْنَعْكُم ﴾، ونصرفكم، ﴿ مِنَ المؤمنينَ ﴾، أي: عن الدخول في جملتهم، وقيل: معناه ألم نستولِ عليكم بالنصرة لكم ونمنعكم من المؤمنين، أي: ندفع عنكم صولة المؤمنين بتخذيلهم عنكم ومراسلتنا إيّاكم بإخبارهم وأمورهم، ومُرادُ المنافقين بهذا الكلام إظهارُ المنّة على الكافرين ﴿ فاللَّهُ يحكمُ بينكم يومَ القيامة ﴾، يعني: بين أهل الإيمان وأهل النفاق، ﴿ ولنْ يجعلَ اللَّهُ للكافرينَ على المُؤمنينَ سبيلاً ﴾، قال عليٌّ: في الآخرة، وقال عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهم: أي حجة، وقيل: ظهوراً على أصحاب النبي ﷺ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾﴾

﴿إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم﴾ يعني يعاملون الله وهو يجازيهم على خداعهم وقيل معناه يخادعون رسول الله ﷺ لأنهم يظهرون له الإسلام ويبطنون له الكفر وهو خادعهم يعني والله مجازيهم بالعقاب وقيل إنهم يعطون نوراً يوم القيامة كما يعطى المؤمنون فيمضي المؤمنون بنورهم على الصراط ويطفأ نور المنافقين **﴿وإذا قاموا إلى الصلاة﴾** يعني المنافقين **﴿قاموا كسالى﴾** يعني متثاقلين وسبب هذا الكسل أنهم يتعبون بها لأنهم لا يريدون بفعلها ثواباً ولا يريدون بها وجه الله عز وجل ولا يخافون على تركها عقاباً لأن الداعي إلى فعلها خوف الناس فلذلك وقع فعلها على وجه الكسل والفتور **﴿يراؤون الناس﴾** يعني أنهم لا يقومون إلى الصلاة إلا لأجل الرياء والسمعة لا لأجل الدين ولا يرون أنها واجبة عليهم قال قتادة والله لولا الناس ما صلّى منافق **﴿ولا يذكرون الله إلا قليلاً﴾** قال ابن عباس إنما قال ذلك لأنهم يفعلونه رياء وسمعة ولو أرادوا بذلك القليل وجه الله لكان كثيراً وقيل لأن الله لم يقبله ولو قبله لكان كثيراً وقبل المراد بذكر الله الصلاة والمعنى أنهم لا يصلون إلا قليلاً لأنهم متى لم يكن معهم أحد من المؤمنين فلا يصلّون وإذا كانوا مع المؤمنين يتكلفون فعلها **﴿مذبذبين بين ذلك﴾** يعني متحيرين مترددين بين الكفر والإيمان لأنهم ليسوا مع المؤمنين المخلصين ولا مع المشركين المصرحين بالشرك وهو قوله تعالى: **﴿لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء﴾** يعني ليسوا من المؤمنين حتى يجب لهم ما يجب للمؤمنين وليسوا من الكفار فيؤخذ منهم ما يؤخذ من الكفار **﴿ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلاً﴾** يعني طريقاً إلى الهدى (ق) عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: «مثل المنافق كمثل الشاة العائرة بين الغنمين تعير إلى هذه مرة وإلى هذه مرة» قوله كمثل الشاة العائرة بالعين المهملة ومعناه المتحيرة المترددة لا تدري لأي الغنمين تتبع ومعنى تعير تتردد وتذهب يميناً وشمالاً مرة إلى هذه ومرة إلى هذه لا تدري إلى أين تذهب وهذا مثل المنافق مرة على المؤمنين ومرة مع الكافرين أو ظاهره مع المؤمنين وباطنه مع الكافرين. قوله عز وجل: **﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين﴾** لما ذم الله عز وجل المنافقين بقوله مذبذبين بين ذلك نهى الله المؤمنين أن يتخلقوا بأخلاق المنافقين يقول لا تولوا الكفار من دون أهل ملتكم ودينكم فتكونوا كمن أوجبت له النار من المنافقين والسبب في

﴿ إنّ المنافقينَ يُخادِعُونَ اللَّهَ وهو خَادِعُهم ﴾، أي يعاملونه معاملة المخادعين وهو خادِعهم، أي: مجازيهم على خِداعهم وذلك أنهم يعطون نوراً يوم القيامة كما للمؤمنين فيمضي المؤمنون بنورهم على الصراط، ويُطفأ نورُ المنافقين، **﴿ وإذا قامُوا إلى الصلاةِ ﴾**، يعني: المنافقين **﴿ قامُوا كُسَالَى ﴾** أي: متثاقلين لا يُريدون بها الله فإن رآهم أحد صلّوا وإلّا انصرفُوا فلا يُصلّون، **﴿ يُراؤُون النّاسَ ﴾** أي: يفعلون ذلك مراءاةً للناس لا اتّباعاً لأمر الله، **﴿ ولا يذكُرونَ اللَّهَ إلّا قليلاً ﴾**، قال ابن عباس رضي الله عنهما والحسن: إنّما قال ذلك لأنهم يفعلونها رياءً وسمعةً، ولو أرادوا بذلك القليلَ وجهَ اللَّهِ تعالى لكان كثيراً، وقال قتادة: إنّما قلَّ ذكرُ المنافقين لأن الله تعالى لم يقبله وكل ما قبل الله فهو كثير.

﴿ مُذَبْذِبينَ بينَ ذلكَ ﴾، أي: مترددين متحيّرين بين الكفر والإيمان، **﴿ لَا إلى هؤلاء ولَا إلى هؤلاءِ ﴾**، أي: ليسوا من المؤمنين فيجب لهم ما يجب للمؤمنين، وليسوا من الكفّار فيُؤخذ منهم ما يُؤخذ من الكفّار، **﴿ ومَن يُضْلِلِ اللَّهُ فلنْ تجدَ له سبيلاً ﴾**، أي: طريقاً إلى الهُدى، أخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر الجرجاني قال: أخبرنا عبد الغافر بن محمد الفارسي أنا محمد بن عيسى الجلودي أنا إبراهيم بن محمد بن سفيان أنا مسلم بن الحجّاج أنا

هذا النهي أن الأنصار بالمدينة كان لهم من يهود بني النضير وقريظة حلف ومودة ورضاع فقالوا يا رسول الله من نتولى؟ فقال: المهاجرين ﴿أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطاناً مبيناً﴾ يعني أتريدون أيها المتخذون الكفار أولياء أن تجعلوا لله عليكم حجة بينة باتخاذكم الكفار أولياء من دون المؤمنين فتستوجبوا بذلك النار ثم بيّن مقر النار من المنافقين فقال تعالى: .

إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾ ۞ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾

﴿إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار﴾ يعني في الطبق الذي في قعر جهنم والنار سبع دركات بعضها فوق بعض سميت طبقات جهنم دركات لأنها متداركة متتابعة. وقيل الدرك بيت مقفل عليهم تتوقد فيه النار من فوقهم ومن تحتهم وقيل هي توابيت من حديد مقفلة عليهم في النار. فإن قلت لم كان المنافق أشد عذاباً من الكافر؟ قلت إن المنافق مثل الكافر في الكفر وزيادة وهو أنه ضم إلى كفره نوعاً آخر من الكفر أخبث منه وهو الاستهزاء بالإسلام والمسلمين وإفشاء أسرار المسلمين ونقلها إلى الكفار. فلهذا السبب جعل الله عذاب المنافقين أشد عذاباً من الكفار والمنافق من أظهر الإيمان وأبطن الكفر وقيل هو الذي يصف الإسلام بلسانه ولا يعمل بشرائعه ولا يتقيد بقيوده ولا يدخل تحت أحكامه وأما تسمية من ارتكب ما يفسق به منافقاً فللتغليظ ومنه قوله ﷺ: «ثلاث من كنّ فيه فهو منافق وإن صام وصلّى وزعم أنه مسلم من إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا ائتمن خان» فإن هذه الخصال صفات المنافقين فمن فعلها فقد تشبه بالمنافقين. وقوله تعالى: ﴿ولن تجد لهم نصيراً﴾ يعني ولن تجد يا محمد لهؤلاء المنافقين ناصراً ينصرهم من عذاب الله إذا نزل بهم ثم استثنى الله عز وجل من تاب

محمد بن المثنى أنا عبد الوهاب يعني الثقفي أنا عبد الله بن عمر عن النبي ﷺ، قال: «مثل المنافق كمثل الشاة العائرة بين الغنمين، تعيرإلي هذه مرّة وإلى هذه مرّة».

قوله تعالى: ﴿ يا أَيُّها الذينَ آمنُوا لا تَتَّخِذوا الكافِرِينَ أوْلياءَ مِنْ دُونِ المُؤمنينَ ﴾، نهى الله المؤمنين عن موالاة الكفّار، وقال: ﴿ أتريدُونَ أنْ تجعلُوا للّهِ عليكم سلطاناً مبيناً ﴾ أي حجّةً بيّنةً في عذابكم، ثم ذكر منازل المنافقين، فقال جلّ ذكره:

﴿ إنّ المنافقينَ في الدَّرْكِ الأسْفَلِ مِنَ النّار ﴾، قرأ أهل الكوفة ﴿ في الدَّرْك ﴾ بسكون الراء والباقون بفتحها وهما لغتان كالظعْن والظعَن والنهْر والنهَر، قال ابن مسعود رضي الله عنه: ﴿ في الدَرك الأسفل ﴾ في توابيت من حديد مقفلة في النار، وقال أبو هريرة: بيت مقفل عليهم تتوقّد فيه النار من فوقهم ومن تحتهم، ﴿ ولنْ تَجِدَ لهم نصيراً ﴾ مانعاً من العذاب.

﴿ إلاّ الذينَ تابُوا ﴾ مِنَ النفاق وآمنوا ﴿ وأصْلَحُوا ﴾، عملهم ﴿ واعْتَصَمُوا بالله ﴾، وثقوا بالله ﴿ وأخلصُوا دينَهم لله ﴾، أراد الإخلاص بالقلب، لأن النفاق كفر القلب، فَزَوالُه يكون بإخلاص القلب، ﴿ فأولئكَ معَ المؤمنينَ ﴾ قال الفرّاء: من المؤمنين، ﴿ وسوفَ يؤتِ اللّهُ المؤمنين ﴾، في الآخرة، ﴿ أجراً عظيماً ﴾، يعني: الجنّة، وحذفتِ الياء ﴿ من يؤتِ ﴾ في الخط لسقوطها في اللفظ، وسقوطها في اللفظ لسكون اللاّم في ﴿ الله ﴾.

من المنافقين فقال تعالى: ﴿إلا الذين تابوا﴾ يعني من النفاق ﴿وأصلحوا﴾ يعني أصلحوا الأعمال فعملوا بما أمر الله به وأدوا فرائضه وانتهوا عما نهاهم عنه ﴿واعتصموا بالله﴾ يعني وتمسكوا بعهد الله ووثقوا به ﴿وأخلصوا دينهم لله﴾ يعني وأخلصوا طاعتهم وأعمالهم التي عملوها لله وأرادوه بها ولم يريدوا رياء ولا سمعة فهذه الأمور الأربعة إذا حصلت فقد كمل الإيمان فلذلك قال تعالى: ﴿فأولئك﴾ يعني التائبين من النفاق ﴿مع المؤمنين﴾ يعني في الجنة وقيل مع بمعنى من أي المؤمنين ﴿وسوف يؤت الله المؤمنين أجراً عظيماً﴾ يعني في الآخرة. قوله تعالى: ﴿ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم﴾ هذا استفهام تقرير معناه أنه تعالى لا يعذب الشاكر المؤمن فإن تعذيبه لا يزيد في ملكه وتركه عقوبته لا ينقص من سلطانه لأنه الغني الذي لا يحتاج إلى شيء من ذلك فإن عاقب أحداً فإنما يعاقبه لأمر أوجبه العدل والحكمة فإن قمتم بشكر نعمته وآمنتم به فقد أنقذتم أنفسكم من عذابه قال أهل المعاني فيه تقديم وتأخير تقديره إن آمنتم وشكرتم لأن الإيمان مقدم على سائر الطاعات ولأن الشكر لا ينفع مع عدم الإيمان ولأن الواو لا توجب الترتيب وقيل هو على أصله والمعنى أن العاقل ينظر بعين بصيرته أولاً إلى ما عليه من النعمة العظيمة في إيجاده وخلقه فيشكر على ذلك شكراً عظيماً مبهماً ثم إذا تمم النظر ثانياً انتهى به النظر إلى معرفة المنعم عليه فآمن به ثم شكره شكراً مفصلاً فكان ذلك الشكر المبهم مقدماً على الإيمان فلذلك قدم الشكر على الإيمان في الذكر ﴿وكان الله شاكراً﴾ يعني مثيباً عباده المؤمنين موفياً أجورهم والشكر من الله الرضا بالقليل من أعمال عباده واضعاف الثواب عليه وقيل لما أمر الله عباده بالشكر سمى الجزاء شكراً على سبيل الاستعارة فالمراد من الشاكر في صفة الله تعالى كونه مثيباً على الشكر ﴿عليماً﴾ يعني بحق شكركم، وإيمانكم فيجازيكم على ذلك. قوله عز وجل: ﴿لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم﴾ قال أهل المعاني يعني أنه تعالى لا يحب الجهر بالسوء ولا غير الجهر به أيضاً من القول يعني من القول القبيح إلا من ظلم قيل هو استثناء متصل والمعنى إلا جهر من ظلم وقيل هو استثناء منقطع ومعناه لكن المظلوم يجوز أن يجهر بظلم الظالم قال العلماء لا يجوز إظهار أحوال الناس المستورة المكتومة لأن ذلك يصير سبباً لوقوع الناس في الغيبة ووقوع ذلك الشخص في الريبة لكن من ظلم فيجوز له إظهار ظلمه فيقول سرق مني أو غصب ونحو ذلك. وإن شتم جاز له أن يشتم بمثله ولا يزيد شيئاً على ذلك ويدل على ذلك ما روي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «المستبان ما قالا فعلى الأول «وفي رواية» فعلى البادىء منهما حتى يعتدي المظلوم» أخرجه مسلم قال ابن عباس: لا يحب الله أن يدعو

قوله تعالى: ﴿ما يفعلُ اللَّهُ بعذابِكُمْ إنْ شَكَرْتُم﴾ أي: إن شكرتم نعماءَهُ ﴿وآمنتُم﴾ به، فيه تقديم وتأخير، تقديره: إن آمنتم وشكرتم، لأن الشكر لا ينفع مع عدم الإيمان، وهذا استفهام بمعنى التقرير معناه إنه لا يعذب المؤمن الشاكر، فإن تعذيبه عبادَهُ لا يزيد في ملكه، وتركه عقوبتهم على فعلهم لا يُنقِصُ من سلطانه، والشكرُ: ضدّ الكفر والكفر ستر النعمة، والشكر: إظهارُها، ﴿وكانَ اللَّهُ شاكراً عليماً﴾، فالشكر من الله تعالى هو الرضى بالقليل من عبادِهِ وإضعاف الثواب عليه، والشكر من العبد: الطاعة، ومن الله: الثواب.

قوله: ﴿لا يُحِبُّ اللَّهُ الجهرَ بالسوءِ مِنَ القولِ إلاّ مَنْ ظُلم﴾ يعني: لا يحبّ الله الجهر بالقبح من القول إلاّ من ظلم، فيجوز للمظلوم أن يخبر عن الظالم وأن يدعو عليه، قال الله تعالى: ﴿ولَمَن انتصرَ بعدَ ظلمِهِ فأولئك ما عليهم مِنْ سَبيل﴾ [الشورى: ٤١]، قال الحسن: دعاؤه عليه أن يقول: اللّهمّ أعنّي عليه اللّهمَّ استخرجْ حقّي منه، وقيل: إنْ شتم جاز أن يشتم بمثله لا يزيد عليه، أخبرنا أبو عبد الله الحرقي أنا أبو الحسن الطيسفوني أنا عبد الله بن عمر الجوهري أنا أحمد بن علي الكشمهيني أنا علي بن حجر أنا العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «المستبان ما قالا، فعلى البادىء منهما حتى يعتدي المظلوم»،

أحد إلا أن يكون مظلوماً فإنه قد أرخص له أن يدعو على من ظلمه وذلك قوله إلا من ظلم وإن صبر فهو خير له وقال الحسن البصري هو الرجل يظلم الرجل فلا يدع عليه ولكن ليقل: اللهم أعني عليه اللهم استخرج لي حقي، اللهم حل بيني وبين ما يريد ونحوه من الدعاء وقيل نزلت الآية في الضيف إذا نزل بقوم فلم يقروه ولم يحسنوا ضيافته فله أن يشكو ما صنع به قال مجاهد: هو الرجل ينزل بالرجل فلا يحسن ضيافته فيخرج من عنده فيقول أساء ضيافتي وقال مقاتل نزلت في أبي بكر الصديق وذلك أن رجلاً نال منه والنبي ﷺ حاضر فسكت عنه أبو بكر مراراً ثم رد عليه فقام النبي ﷺ فقال أبو بكر يا رسول الله شتمني فلم تقل له شيئاً حتى إذا رددت عليه قمت قال إن ملكاً كان يجيب عنك فلما رددت عليه ذهب الملك وجاء الشيطان فقمت ونزلت هذه الآية: ﴿**وكان الله سميعاً**﴾ يعني لدعاء المظلوم ﴿**عليماً**﴾ بما في قلبه فليتق الله ولا يقل إلا الحق. قوله تعالى:.

﴿إِن تُبْدُواْ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُواْ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾﴾

﴿**إن تبدوا خيراً**﴾ قال ابن عباس يريد من أعمال البر كالصيام والصدقة والضيافة والصلة. وقيل معناه إن تبدوا خيراً بدلاً من السوء ﴿**أو تخفوه**﴾ يعني تخفوا الخير فلم تظهروه وقيل معناه إن تبدوا حسنة فتعملوا بها تكتب لكم عشراً وإن هم بها ولم يعملها كتبت له واحدة وقيل إن جميع مقاصد الخيرات على كثرتها محصورة في قسمين أحدهما صدق النية مع الحق. والثاني التخلق مع الخلق فالذي يتعلق بالخلق ينحصر في قسمين: أيضاً وهما إيصال نفع إليهم في السر والعلانية وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿**إن تبدوا خيراً أو تخفوه**﴾ أو رفع ضر عنهم وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿**أو تعفوا عن سوء**﴾ فيدخل في هاتين الكلمتين جميع أعمال البر وجميع دفع الضر، وقيل المراد بالخير المال والمعنى إن تبدوا الصدقة فتعطوها الفقراء جهراً أو تخفوها فتعطوها سراً أو تعفوا عن مظلمة ﴿**فإن الله كان عفواً قديراً**﴾ يعني لم يزل ذا عفو مع قدرته على الانتقام فاعفوا أنتم عمن ظلمكم واقتدوا بسنّة الله عز وجل يعف عنكم يوم القيامة لأنه أهل للتجاوز والعفو عنكم وقيل معناه إن الله كان عفواً لمن عفا قديراً على إيصال الثواب إليه. قوله عز وجل: ﴿**إن الذين يكفرون بالله ورسله**﴾ نزلت في اليهود وذلك أنهم آمنوا بموسى والتوراة

وقال مجاهد هذا في الضيف إذا نزل بقوم فلم يقروه ولم يُحسنوا ضيافته فله أن يشكو ويذكر ما صُنع به. أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل أنا قتيبة بن سعيد أنا الليث عن يزيد بن أبي حبيب عن أبي الخير عن عقبة بن عامر أنه قال: قلنا يا رسول الله إنّك تبعثنا فننزل بقوم فلا يُقرُوْنا فما ترى؟ فقال لنا رسول الله ﷺ: «إنْ نزلتم بقوم فأُمِرُوا لكم بما ينبغي للضيف فاقبلوا فإن لم يفعلوا فخذُوا منهم حقَّ الضيف الذي ينبغي لهم»، وقرأ الضحاك بن مزاحم وزيد بن أسلم: ﴿ **إلاّ مَن ظَلم** ﴾ بفتح الظاء واللام، معناه: لكن الظالم أجهروا له بالسوء من القول، وقيل معناه: لا يحبّ الله الجهر بالسوء من القول لكن يجهره من ظلم، والقراءة الأولى هي المعروفة، ﴿ **وكانَ اللّهُ سميعاً** ﴾، لدعاء المظلوم، ﴿ **عليماً** ﴾، بعقاب الظالم.

قوله تعالى: ﴿ **إنْ تُبْدُوا خيراً** ﴾، يعني: حسنةً فيَعملُ بها كُتِبَتْ له عشراً، وإنْ همَّ بها ولم يعملْها كُتبتْ له حسنةٌ واحدة، وهو قوله: ﴿ **أو تُخْفُوه** ﴾، وقيل المراد من الخير: المال، يُريدُ: إنْ تُبدوا صدقةً تُعطونها جهراً أو

وكفروا بعيسى والإنجيل وبمحمد ﷺ والقرآن وقيل نزلت في اليهود والنصارى جميعاً وذلك أن اليهود آمنوا بموسى وكفروا بعيسى ومحمد والنصارى آمنوا بعيسى وكفروا بمحمد ﷺ وعليهم أجمعين ﴿ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض﴾ يعني ويريدون أن يفرقوا بين الإيمان بالله والإيمان برسله ولا يصح الإيمان مع التكذيب ببعض رسله ﴿ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلاً﴾ يعني بين الإيمان بالبعض دون البعض يتخذون مذهباً يذهبون إليه وديناً يدينون به ﴿أولئك﴾ يعني من هذه صفتهم ﴿هم الكافرون حقاً﴾ يعني يقيناً وإنما قال ذلك توكيداً لكفرهم لئلا يتوهم متوهم أن الإيمان ببعض الرسل يزيل اسم الكفر عنهم وليعلم أن الكفر ببعض الأنبياء كالكفر بكلهم لأن الدليل الذي يدل على نبوة البعض وهو المعجزة لزم منه أنه حيث وجدت المعجزة حصلت النبوة وقد وجدت المعجزة لجميع الأنبياء فلزم الإيمان بجميعهم ﴿وأعتدنا﴾ يعني وهيأنا ﴿للكافرين عذاباً مهيناً﴾ يعني يهانون فيه.

وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُولَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٥٢﴾ يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ الْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ السَّمَآءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ الْبَيِّنَٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٥٣﴾ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِى السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿١٥٤﴾ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾

﴿والذين آمنوا بالله ورسله﴾ يعني والذين صدقوا بوحدانية الله ونبوة جميع أنبيائه وأن جميع ما جاؤوا به من عند الله حق وصدق ﴿ولم يفرقوا بين أحد منهم﴾ يعني من الرسل بل آمنوا بجميعهم وهم المؤمنون ﴿أولئك﴾ يعني من هذه صفتهم ﴿سوف يؤتيهم أجورهم﴾ يعني جزاء إيمانهم بالله وبجميع كتبه ورسله ﴿وكان الله غفوراً رحيماً﴾ يعني أنه تعالى لما وعدهم بالثواب أخبرهم أنه يتجاوز عن سيئاتهم ويغفرها لهم ويرحمهم فهو كالترغيب لليهود والنصارى في الإيمان بمحمد ﷺ لأنهم إذا آمنوا غفر لهم ما كان منهم في حال الكفر. قوله تعالى: ﴿يسألك أهل

تخفوها فتعطوها سراً، ﴿ أو تَعْفُوا عَنْ سُوء ﴾، أي: عن مَظْلَمَةٍ، ﴿ فإنّ اللَّهَ كانَ عفُوّاً قديراً ﴾، فهو أولى بالتجاوز عنكم يوم القيامة.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ إنّ الذين يكفرُون بالله ورُسله ﴾ الآية: نزلت في اليهود وذلك أنهم آمنوا بموسى عليه السلام والتوراة وعُزير، وكفروا بعيسى والإنجيل وبمحمدٍ والقرآن، ﴿ ويُريدونَ أنْ يُفرِّقُوا بينَ اللَّهِ ورُسله ويقولُونَ نؤمنُ ببعضٍ ونكْفُرُ ببعضٍ ويُريدُون أنْ يتّخِذُوا بينَ ذلكَ سبيلاً ﴾، أي: ديناً بين اليهودية والإسلام ومذهباً يذهبون إليه.

﴿ أولئكَ هُمُ الكافرون حقاً ﴾، حقّق كفرهم ليعلم أن الكفر ببعضهم كالكفر بجميعهم ﴿ وأعْتَدْنَا للكافِرِينَ عَذاباً مُهيناً ﴾.

﴿ والَّذين آمَنُوا باللَّهِ ورُسُلهِ ﴾، كُلّهم ﴿ ولم يُفرِّقُوا بينَ أحدٍ منهمُ ﴾، يعني: بين الرُّسل وهم المؤمنون، يقولون: لا نُفرِّق بين أحدٍ من رسله، ﴿ أُولئكَ سوفَ يُؤْتِيهم أجورَهم ﴾، بإيمانهم بالله وكتبه ورسله، قرأ حفص

الكتاب أن تنزل عليهم كتاباً من السماء﴾ يعني يسألك يا محمد أهل الكتاب، وهم اليهود وذلك أن كعب بن الأشرف وفنحاص بن عازوراء من اليهود قالا لرسول الله ﷺ: إن كنت نبياً فأتنا بكتاب جملة واحدة من السماء كما أتى موسى بالتوراة وقيل: سألوا رسول الله ﷺ أن ينزل عليهم كتاباً مختصاً بهم وقيل سألوه أن ينزل عليهم كتاباً إلى فلان وكتاباً إلى فلان ليشهدا لك بأنك رسول الله وكان هذا السؤال من اليهود سؤال تعنت واقتراح لا سؤال استرشاد وانقياد والله تعالى لا ينزل الآيات على اقتراح العباد، ولأن معجزة النبي ﷺ كانت قد تقدمت وظهرت فكان طلب الزيادة من باب التعنت. وقوله تعالى: **﴿فقد سألوا موسى أكبر من ذلك﴾** يعني أعظم من الذي سألوك يا محمد ففيه تسلية للنبي ﷺ وتوبيخ وتقريع لليهود حيث سألوا رسول الله ﷺ سؤال تعنت والمعنى لا تعظمن عليك يا محمد مسألتهم ذلك فإنهم من فرط جهلهم واجترائهم على الله لو أتيتهم بكتاب من السماء لما آمنوا بك وإنما أسند السؤال إلى اليهود الذين كانوا في زمن النبي ﷺ وإن وجد هذا السؤال من آبائهم الذين كانوا في أيام موسى عليه السلام لأنهم كانوا على مذهبهم وراضين بسؤالهم ومشاكلين لهم في التعنت **﴿فقالوا﴾** يعني أسلاف هؤلاء اليهود **﴿أرنا الله جهرة﴾** يعني عياناً. والمعنى أرناه نره جهرة وذلك أن سبعين من بني إسرائيل خرجوا مع موسى عليه الصلاة والسلام إلى الجبل فقالوا ذلك وقد تقدمت القصة في سورة البقرة **﴿فأخذتهم الصاعقة بظلمهم﴾** يعني بسبب ظلمهم وسؤالهم الرؤية **﴿ثم اتخذوا العجل﴾** يعني إلهاً وهم الذين خلفهم موسى مع أخيه هارون حين خرج إلى ميقات ربه **﴿من بعد ما جاءتهم البينات﴾** يعني الدلالات الواضحات الدالة على صدق موسى وهي: العصا واليد وفلق البحر وغير ذلك من المعجزات الباهرة **﴿فعفونا عن ذلك﴾** يعني عن ذلك الذنب العظيم فلم نستأصل عبدة العجل. والمقصود من هذا تسلية النبي ﷺ والمعنى أن هؤلاء الذين يطلبون منك يا محمد أن تنزل عليهم كتاباً من السماء إنما يطلبونه عناداً ولجاجاً فاني قد أنزلت التوراة جملة واحدة على موسى وآتيته من المعجزات الباهرات والآيات البينات ما فيه كفاية ثم إنهم طلبوا الرؤية على سبيل العناد وعبدوا العجل وكل ذلك يدل على جهلهم وأنهم مجبولون على اللجاج والعناد. وفي قوله فعفونا عن ذلك استدعاء إلى التوبة. والمعنى أن أولئك الذين أجرموا لما تابوا عفونا عنهم فتوبوا أنتم نعف عنكم **﴿وآتينا موسى سلطاناً مبيناً﴾** يعني حجة واضحة تدل على صدقه وهي المعجزات الباهرات التي أعطاها الله عز وجل لموسى عليه السلام قوله عز وجل: **﴿ورفعنا فوقهم الطور بميثاقهم﴾** يعني ورفعنا فوقهم الجبل المسمى بالطور بسبب أخذ ميثاقهم وذلك أن بني إسرائيل امتنعوا من قبول التوراة والعمل بما فيها فرفع الله فوقهم الطور حتى أظلهم ليخافوا فلا ينقضوا العهد والميثاق **﴿وقلنا لهم﴾**

عن عاصم **﴿ يُؤتيهم ﴾** بالياء، أي: يؤتيهم الله، والباقون بالنون، **﴿ وكانَ اللَّهُ غفوراً رحيماً ﴾**.

قوله تعالى: **﴿ يسألُكَ أهلُ الكتابِ ﴾** الآية، وذلك أنّ كعب بن الأشرف وفنحاص بن عازوراء من اليهود قالا لرسول الله ﷺ: إنْ كنتَ نبيّاً فأتِنا بكتابٍ جملةً من السماء كما أتى به موسى عليه السلام، فأنزل الله عليه: **﴿ يسألك أهلُ الكتاب أن تُنَزِّلَ عليهم كتاباً مِنَ السماء ﴾**، وكان هذا السؤال منهم سؤال تحكّم واقتراح، لا سؤال انقياد، والله تعالى لا ينزل الآيات على اقتراح العباد. قوله: **﴿ فقدْ سَألُوا موسى أكبرَ مِنْ ذلك ﴾** أي: أعظم من ذلك، يعني: السبعين الذي خرج بهم موسى عليه السلام إلى الجبل، **﴿ فقالوا أرِنَا اللَّهَ جَهْرةً ﴾** أي: عياناً، قال أبو عُبيدة: معناه قالوا جهرة أرِنَا الله، **﴿ فأخذتْهُم الصَّاعِقَةُ بظُلْمِهم ثمّ اتّخذُوا العِجْل ﴾**، يعني إلَهاً، **﴿ مِنْ بعدِ مَا جاءَتْهُم البيِّناتُ فَعَفَوْنَا عنْ ذلكَ ﴾**، ولم نستأصلهم، قيل: هذا استدعاء إلى التوبة، معناه: أن أولئك الذين أجرموا تابوا فعفونا عنهم، فتُوبوا أنتم حتى نعفوَ عنكم، **﴿ وآتينا مُوسَى سُلطاناً مُبيناً ﴾**، أي: حجّةً بيّنةً من المعجزات، وهي الآيات التسع.

يعني والطور يظلهم ﴿ادخلوا الباب سجداً﴾ فخالفوا ودخلوا وهم يزحفون على أستاههم ﴿وقلنا لهم لا تعدوا في السبت﴾ يعني وقلنا لهم لا تجاوزوا في يوم السبت إلى ما لا يحل لكم فيه. وذلك أنهم نهوا أن يصطادوا السمك في يوم السبت فاعتدوا واصطادوا فيه، وقيل المراد به النهي عن العمل والكسب في يوم السبت ﴿وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً﴾ يعني وأخذنا منهم عهداً مؤكداً شديداً بأن يعملوا بما أمرهم الله به وأن ينتهوا عما نهاهم الله عنه ثم إنهم نقضوا ذلك الميثاق وهو قوله تعالى: ﴿فبما نقضهم ميثاقهم﴾ يعني فبنقضهم وما مزيدة للتوكيد والمعنى فبسبب نقضهم ميثاقهم لعناهم وسخطنا عليهم وفعلنا بهم ما فعلنا ﴿وكفرهم بآيات الله﴾ يعني وبجحودهم بآيات الله الدالة على صدق أنبيائه ﴿وقتلهم الأنبياء﴾ يعني بعد قيام الحجة والدلالة على صحة نبوتهم ﴿بغير حق﴾ يعني بغير استحقاق لذلك القتل ﴿وقولهم قلوبنا غلف﴾ يعني وبقولهم على قلوبنا أغطية وغشاوة فهي لا تفقه ما تقول جمع أغلف وقيل جمع غلاف يعني قلوبنا أوعية للعلم فلا حاجة بنا إلى ما تدعونا إليه فرد الله عليهم بقوله: ﴿بل طبع الله عليها بكفرهم﴾ يعني بل ختم الله على قلوبهم بسبب كفرهم ﴿فلا يؤمنون إلا قليلاً﴾ يعني إيمانهم بموسى والتوراة وكفرهم بما سواه من الأنبياء والكتب وقيل لا يؤمنون قليلاً ولا كثيراً وقيل المراد بالقليل هو عبدالله بن سلام وأصحابه والذين آمنوا من اليهود. قوله تعالى: .

﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾﴾

﴿وبكفرهم وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً﴾ يعني حين رموها بالزنا وذلك أنهم أنكروا قدرة الله تعالى على خلق الولد من غير أب ومنكر قدرة الله كافر. فالمراد بقوله وبكفرهم هو إنكارهم قدرة الله تعالى والمراد بقولهم على مريم بهتاناً عظيماً هو رميهم إياها بالزنا وإنما سماه بهتاناً عظيماً لأنه قد ظهر عند ولادة مريم من المعجزات ما يدل على براءتها من ذلك فلهذا السبب وصف الله قول اليهود على مريم بالبهتان العظيم.

قوله عز وجل: ﴿وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله﴾ ادعت اليهود أنهم قتلوا عيسى عليه السلام وصدقتهم النصارى على ذلك فكذبهم الله عز وجل جميعاً وردّ عليهم بقوله: ﴿وما قتلوه وما صلبوه﴾

﴿ ورَفَعْنَا فَوْقَهُم الطّورَ بميثاقِهِمْ وقلنا لهمُ ادْخُلُوا البَابَ سُجّداً وقُلْنَا لهمْ لاَ تَعْدُوا في السَّبْتِ ﴾ قرأ أهل المدينة بتشديد الدال وفتح العين نافع برواية ورش ويجزمها الآخرون، ومعناه: لا تعتدوا ولا تظلموا باصطياد الحيتان فيه، ﴿ وأخَذْنَا منهمْ مِيثاقاً غليظاً ﴾.

قوله تعالى: ﴿ فَبِمَا نقضهمْ مِيثاقَهم ﴾، أي: فبنقضهم، و﴿ ما ﴾ صلة كقوله تعالى: ﴿ فبما رحمةٍ من الله ﴾ [آل عمران: ٥٩]، ونحوها، ﴿ وكُفْرِهِمْ بآياتِ اللَّهِ وقَتْلِهمُ الأنبياءَ بغير حقٍّ وقولِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بلْ طَبَعَ اللَّهُ عليهَا بكفرِهِمْ ﴾، أي: ختم عليها، ﴿ فلا يُؤْمِنُونَ إلاّ قليلاً ﴾، يعني: ممّن كذّب الرُّسلَ لا ممّن طُبِعَ على قلبه، لأنّ مَن طبعَ اللَّهُ على قلبه لا يُؤمن أبداً، وأراد بالقليل: عبدَ الله بن سلام وأصحابه، وقيل: معناه لا يُؤمنون قليلاً ولا كثيراً.

﴿ وبكفرِهِمْ وقولِهِمْ على مريمَ بُهتاناً عظيماً ﴾، حين رموها بالزنا.

﴿ وقولِهِمْ إنّا قتلنا المسيحَ عيسَى ابنَ مريمَ رسولَ الله وما قَتَلُوهُ وما صَلَبُوه ولكنْ شُبِّهَ لهمْ ﴾ وذلك أنّ الله تعالى ألقى شَبهَ عيسى عليه السلام على الذي دلّ اليهودَ عليه، وقيل: إنهم حبسوا عيسى عليه السلام في بيت

وفي قول رسول الله قولان: أحدهما أنه من قول اليهود فيكون المعنى أنه رسول الله على زعمه. والقول الثاني أن من قول الله لا على وجه الحكاية عنهم وذلك أن الله تعالى أبدل ذكرهم في عيسى عليه السلام القول القبيح بالقول الحسن رفعاً لدرجته عما كانوا يذكرونه من القول القبيح.

وقوله تعالى: ﴿ولكن شبه لهم﴾ يعني ألقى شبه عيسى على غيره حتى قتل وصلب. واختلف العلماء في صفة التشبيه الذي شبه على اليهود في أمر عيسى عليه السلام. فروى الطبري بسنده عن وهب بن منبه أنه قال أتى اليهود عيسى ومعه سبعة عشر من الحواريين في بيت فأحاطوا بهم فلما دخلوا عليهم صورهم الله تعالى كلهم على صورة عيسى فقالوا لهم: سحرتمونا لتبرزن لنا عيسى أو لنقتلنكم جميعاً فقال عيسى لأصحابه من يشتري نفسه منكم اليوم بالجنة فقال رجل منهم أنا فخرج إليهم فقال: أنا عيسى وقد صوره الله تعالى على صورة عيسى فأخذوه وقتلوه وصلبوه فمن ثم شبه لهم وظنوا أنهم قد قتلوا عيسى وظنت النصارى مثل ذلك. ورفع الله عز وجل عيسى عليه السلام من يومه ذلك. وفي رواية أخرى عن وهب أن عيسى عليه السلام قال لأصحابه: ليكفرن بي أحدكم قبل أن يصيح الديك ثلاث مرات وليبيعني بدراهم يسيرة وليأكلن ثمني فخرجوا وتفرقوا وكانت اليهود تطلبه فأخذوا شمعون أحد الحواريين. فقالوا هذا من أصحاب عيسى فجحد وقال: ما أنا بصاحبه فتركوه ثم أخذوا آخر فجحد كذلك فلما أصبح أتى بعض الحواريين إلى اليهود وكان منافقاً فقال ما تجعلون لي إن أنا دللتكم على المسيح فجعلوا له ثلاثين درهماً فدلهم عليه فألقى الله شبه عيسى على ذلك المنافق الذي دل عليه فأخذوه فقتلوه وصلبوه وهم يظنون أنه عيسى. وقال قتادة إن أعداء الله اليهود زعموا أنهم قتلوا عيسى وصلبوه وذكر لنا أن نبي الله عيسى بن مريم عليه السلام قال لأصحابه أيكم يقذف عليه شبهي وله الجنة فانه مقتول فقال رجل منهم حبسوا عيسى في بيت وجعلوا عليه رقيباً يحفظه فألقى الله شبه عيسى على ذلك للرقيب فأخذ فقتل وصلب فرفع الله عز وجل عيسى في ذلك الوقت. قال الطبري وأولى الأقوال بالصواب ما ذكرنا عن وهب بن منبه من أن شبه عيسى ألقى على جميع من كان مع عيسى في البيت حين أحيط بي وبهم من غير مسألة عيسى إياهم ذلك ولكن ليخزي الله بذلك اليهود وينقذ به نبيه عيسى عليه السلام من كل مكروه أرادوه به من قتل وغيره وليبتلي الله من أراد ابتلاءه من عباده ويحتمل أن يكون ألقى شبهه على بعض أصحابه بعد ما تفرق عنه أصحابه ورفع الله عيسى عليه السلام. وبقي ذلك فأخذ وقتل وصلب وظن أصحابه واليهود أن الذي قتلوه وصلبوه هو عيسى لما رأوا من شبهه به وخفي أمر عيسى عليهم وكانت حقيقة ذلك الأمر عند الله فلذلك قال تعالى: ﴿وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم﴾ ﴿وإن الذين اختلفوا فيه﴾ يعني في قتل عيسى وهم اليهود ﴿لفي شك منه﴾ يعني من قتله وذلك أن اليهود قتلوا ذلك الشخص المشبه بعيسى وكان قد ألقي الشبه على وجه ذلك الشخص دون جسده فلما قتلوه نظروا إلى جسده فوجدوه غير جسد عيسى فقالوا: الوجه وجه عيسى والجسد جسد غيره فهذا هو اختلافهم فيه وقيل: إن اليهود لما حبسوا عيسى وأصحابه في البيت دخل عليه رجل منهم ليخرجه إليهم. فألقى الله شبه عيسى على ذلك الرجل فأخذ وقتل ورفع الله عز وجل عيسى إلى السماء وفقدوا صاحبهم فقالوا: إن كنا قتلنا المسيح فأين صاحبنا؟ وإن كنا قتلنا

وجعلوا عليه رقيباً فألقى الله تعالى شبه عيسى عليه السلام على الرقيب فقتلوه، وقيل غير ذلك، كما ذكرنا في سورة آل عمران. قوله تبارك وتعالى: ﴿ وإنَّ الذينَ اخْتَلَفُوا فيهِ ﴾، في قتله، ﴿ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ ﴾، أي: في قتله، قال الكلبي: اختلافهم فيه هو أن اليهود قالتْ نحْنُ قتلناه، وقالت طائفة من النصارى نحن قتلناه، وقالت طائفة منهم ما قتله هؤلاء ولا هؤلاء بل رفعه الله إلى السماء، ونحن ننظر إليه، وقيل: كان الله تعالى ألقى شَبه عيسى عليه السلام على وجه صطيافوس ولم يلقه على جسده، فاختلفوا فيه فقال بعضهم: قتلنا عيسى، فإن الوجه وجه عيسى عليه السلام وقال بعضهم: لم نقتله لأن جسده ليس جسد عيسى عليه السلام، فاختلفوا. قال السدي: اختلافهم من

صاحبنا فأين المسيح عيسى؟ فهذا هو اختلافهم فيه وقيل إن الذين اختلفوا فيه هم النصارى فبعضهم يقول إن القتل وقع على ناسوت عيسى دون لاهوته وبعضهم يقول وقع القتل عليهما جميعاً وبعضهم يقول رأيناه قتل وبعضهم يقول رأيناه رفع إلى السماء فهذا هو اختلافهم فيه قال الله تعالى: ﴿ما لهم به من علم﴾ يعني أنهم قتلوا من قتلوا على شك منهم فيه ولم يعرفوا حقيقة ذلك المقتول هل هو عيسى أو غيره ﴿إلّا اتباع الظن﴾ يعني لكن يتبعون الظن في قتله ظناً منهم أنه عيسى لا عن علم وحقيقة ﴿وما قتلوه يقيناً﴾ قال ابن عباس: يعني لم يقتلوا ظنهم يقيناً فعلى هذا القول تكون الهاء في قتلوه عائدة على الظن. والمعنى مما قتلوا ذلك الظن يقيناً ولم يزل ظنهم ولم يرتفع ما وقع لهم من الشبه في قتله فهو كقول العرب قتله علماً وقتله يقيناً يعني علمه علماً تاماً. وأصل ذلك أن القتل للشيء يكون عن قهر واستيلاء وغلبة وكمعنى الآية على هذا لم يكن علمهم بقتل عيسى علماً تاماً كاملاً إنما كان ظناً منهم إنهم قتلوه ولم يكن لذلك حقيقة. وقيل إن الهاء في قتلوه عائدة على عيسى والمعنى ما قتلوا المسيح يقيناً كما ادعوا أنهم قتلوه وقيل إن قوله يقيناً يرجع إلى ما بعده تقديره وما قتلوه ﴿بل رفعه الله إليه﴾ يقيناً والمعنى أنهم لم يقتلوا عيسى ولم يصلبوه ولكن الله عز وجل رفعه إليه وطهره من الذين كفروا وخلصه ممن أراده بسوء وقد تقدم كيف كان رفعه في سورة آل عمران بما فيه كفاية. وقوله تعالى: ﴿وكان الله عزيزاً﴾ يعني في اقتداره على من يشاء من عباده ﴿حكيماً﴾يعني في إنجاء عيسى عليه السلام وتخليصه من اليهود. وقيل عزيزاً يعني منيعاً منتقماً من اليهود فسلط عليهم ينطيونس بن اسبسيانوس الرومي فقتل منهم مقتلة عظيمة حكيماً حكم باللعنة والغضب على اليهود حيث ادعوا هذه الدعوى الكاذبة. قوله تعالى: .

﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾﴾

﴿وإن من أهل الكتاب﴾ يعني وما من أحد من أهل الكتاب ﴿إلّا ليؤمنن به﴾ يعني بعيسى عليه السلام وأنه عبدالله ورسوله وروحه وكلمته هذا قول ابن عباس وأكثر المفسرين وقال عكرمة في قوله إلّا ليؤمنن به يعني بمحمد ﷺ وهذا القول لا وجه له لأنه لم يجر للنبي ﷺ ذكر قبل هذه الآية حتى يرجع الضمير إليه وقول الأكثرين الأولى لأنه تقدم ذكر عيسى عليه السلام فكان عود الضمير إليه أولى ﴿قبل موته﴾ اختلف المفسرون في هذا الضمير إلى من يرجع؟ فقال ابن عباس وأكثر المفسرين إن الضمير يرجع إلى الكتابي والمعنى وما من أحد من أهل

حيث أنهم قالوا: إن كان هذا عيسى فأين صاحبنا؟ وإن كان هذا صاحبنا فأين عيسى؟ قال الله تعالى: ﴿ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلم ﴾، من حقيقة أنه قتل أو لم يُقتل، ﴿ إلاّ اتّباعَ الظَّنِّ ﴾، لكنهم يتبعون الظنّ في قتله، قال الله جلّ جلاله: ﴿ ومَا قتلُوه يقيناً ﴾، أي: ما قتلوا عيسى يقيناً.

﴿ بلْ رَفَعَهُ اللّهُ إليه ﴾، وقيل قوله: ﴿ يقيناً ﴾ ترجع إلى ما بعده وقوله: ﴿ وما قتلوه ﴾ كلام تامّ تقديره: بل رفعه الله إليه يقيناً، والهاء في ﴿ ما قتلوه ﴾ كناية عن عيسى عليه السلام، وقال الفرّاء رحمه الله: معناه وما قتلوا الذين ظنوا أنه عيسى يقيناً، ورُوِيَ عن ابن عباس رضي الله عنهما معناه: وما قتلوا ظنهم يقيناً، ﴿ وكانَ اللّهُ عزيزاً ﴾ منيعاً بالنقمة من اليهود، ﴿ حكيماً ﴾ حكم باللعنة والغضب عليهم، فسلّط عليهم ينطيونس بن إسبسيانوس الرومي فقتل منهم مقتلة عظيمة.

قوله تعالى: ﴿ وإنْ مِنْ أهلِ الكتابِ إلاّ لَيُؤمِنَنّ به قبل موتِهِ ﴾، أي: وما من أهل الكتاب إلاّ ليؤمننّ بعيسى عليه السلام، هذا قول أكثر المفسرين وأهل العلم، وقوله: ﴿ قبل موته ﴾ اختلفوا في هذه الكناية، فقال عكرمة

الكتاب إلاّ آمن بعيسى قبل موت ذلك الكتابي ولكن يكون ذلك الإيمان عند الحشرجة حين لا ينفعه إيمانه قال ابن عباس: معناه إذا وقع في اليأس حين لا ينفعه إيمانه سواء احترق أو تردى من شاهق أو سقط عليه جدار أو أكله سبع أو مات فجأة فقيل له أرأيت إن خر من فوق بيت قال: يتكلم به في الهواء فقيل له أرأيت إن ضربت عنقه قال يتلجلج به لسانه وقال شهر بن حوشب إن اليهودي إذا حضره الموت ضربت الملائكة بأجنحتها وجهه ودبره وقالوا يا عدو الله أتاك موسى نبياً فكذبت به فيقول آمنت إنه عبدالله ورسوله وتقول للنصراني أتاك عيسى نبياً فزعمت أنه الله وابن الله فيقول آمنت أنه عبدالله فأهل الكتابين يؤمنون به ولكن حيث لا ينفعهم ذلك الإيمان وذهب جماعة من أهل التفسير إلى أن الضمير يرجع إلى عيسى عليه السلام وهو رواية عن ابن عباس أيضاً والمعنى وما من أحد من أهل الكتاب إلاّ ليؤمنن بعيسى قبل موت عيسى وذلك عند نزوله من السماء في آخر الزمان فلا يبقى أحد من أهل الكتابين إلاّ آمن بعيسى حتى تكون الملة واحدة وهي ملة الإسلام قال عطاء إذا نزل عيسى إلى الأرض لا يبقى يهودي ولا نصراني ولا أحد يعبد غير الله إلاّ آمن بعيسى وأنه عبدالله وكلمته ويدل على صحة هذا القول ما روي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً مقسطاً فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويفيض المال حتى لا يقبله أحد» زاد في رواية: «حتى تكون السجدة الواحدة خيراً من الدنيا وما فيها» ثم يقول أبو هريرة: «اقرؤوا إن شئتم وإن من أهل الكتاب إلاّ ليؤمنن به قبل موته» الآية وفي رواية قال: قال رسول الله ﷺ: «والله لينزلن فيكم ابن مريم حكماً عادلاً فليكسرن الصليب وليقتلن الخنزير وليضعن الجزية وليتركن القلاص فلا يسعى عليها وليذهبن الشحناء والتباغض والتحاسد وليدعون إلى المال فلا يقبله أحد» أخرجاه في الصحيحين. ففي هذا الحديث دليل على أن عيسى ينزل في آخر الزمان في هذه الأمة ويحكم بشريعة محمد ﷺ وأنه لا ينزل نبياً برسالة مستقلة وشريعة ناسخة بل يكون حاكماً من حكام هذه الأمة وإماماً من أئمتهم لقوله ﷺ فيكسر الصليب يعني يكسره حقيقة ويبطل ما تزعمه النصارى من تعظيمه. وكذلك قتله الخنزير وقوله ويضع الجزية يعني لا يقبلها ممن بذلها من اليهود والنصارى. ولا يقبل من أحد إلاّ الإسلام أو القتل وعلى هذا قد يقال هذا خلاف منا هو حكم الشرع اليوم فإن الكتابي إذا بذل الجزية وجب قبولها منه ولم يجز قتله ولا إجباره على الإسلام والجواب أن هذا الحكم ليس مستمر إلى يوم القيامة بل هو مقيد بما قبل نزول عيسى عليه السلام وقد أخبر النبي ﷺ بنسخه وليس الناسخ هو عيسى عليه السلام يحكم بشريعة محمد ﷺ فدل على أن الامتناع من قبول الجزية في ذلك الوقت هو شرع نبينا محمد ﷺ والله أعلم. قال الزجاج هذا القول بعيد يعني قول من قال إن إيمان أهل الكتاب بعيسى إنما يكون عند نزوله في آخر الزمان قال لعموم قوله تعالى: ﴿وإن من أهل الكتاب إلاّ ليؤمنن به﴾ قال والذين يبقون يومئذٍ يعني عند نزوله شرذمة قليلة منهم وأجاب أصحاب هذا القول يعني

ومجاهد والضحاك والسدي: إنها كناية عن الكتابي، ومعناه: وما من أهل الكتاب أحد إلاّ ليؤمِننّ بعيسى عليه السلام قبل موته، إذا وقع في اليأس حين لا ينفعه إيمانُه سواء احترق أو غرق أو تردّى في بئر أو سقط عليه جدارٌ أو أكله سبعٌ أو مات فجأةً، وهذه رواية عن ابن طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهم. قال: فقيل لابن عباس رضي الله عنهما: أرأيتَ أن مَنْ خرَّ من فوق بيت؟ قال: يتكلم به في الهواء قال: فقيل أرأيت إن ضرب عُنُق أحدهم؟ قال: يتلجلج به لسانه، وذهب قومٌ إلى أن الهاء في ﴿ موته ﴾ كناية عن عيسى عليه السلام، معناه: وإنّ من أهل الكتاب إلاّ لَيُؤْمِنَنَّ بعيسى قبل موت عيسى عليه السلام، وذلك عند نزوله من السماء في آخر الزمان فلا يبقى أحدٌ إلاّ آمنَ به حتى تكون الملّة واحدة، ملّة الإسلام. وروينا عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «يُوشِكُ أنْ ينزلَ فيكم ابنُ مريمَ حكماً عدْلاً يكسرُ الصّليبَ، ويقتلُ الخنزيرَ، ويضعُ الجزية، ويفيضُ المالُ حتى لا يقبله أحدٌ، ويهلك في زمانه المِلَل كلُّها إلاّ الإسلام، ويقتلُ الدّجالَ فيمكثُ في الأرض أربعين سنة ثم يتوفّى ويُصلّي عليه

الذين يقولون إن إيمان أهل الكتاب بعيسى إنما يكون عند نزوله في آخر الزمان بأن هذا على العموم. ولكن المراد بهذا العموم الذين يشاهدون ذلك الوقت ويدركون نزوله فيؤمنون به ويكون معنى الآية وما من أحد، من أهل الكتاب أدرك ذلك الوقت إلّا آمن بعيسى عند نزوله من السماء وصحح الطبري هذا القول وقال عكرمة في معنى الآية وإن من أهل الكتاب إلّا ليؤمنن بمحمد ﷺ قبل موت الكتابي فلا يموت يهودي ولا نصراني حتى يؤمن بمحمد ﷺ وذلك عند الحشرجة حتى لا ينفعه إيمانه.

وقوله تعالى: ﴿ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً﴾ يعني يكون عيسى عليه السلام شاهداً على اليهود أنهم كذبوه وطعنوا فيه وعلى النصارى أنهم اتخذوه رباً وأشركوا به ويشهد على تصديق من صدقه منهم وآمن به قال قتادة معناه إنه يكون شهيداً يوم القيامة إنه قد بلغ رسالة ربه وأقر على نفسه بالعبودية.

قوله عز وجل: ﴿فبظلم من الذين هادوا﴾ يعني فبسبب ظلم منهم ﴿حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم﴾ يعني ما حرمنا عليم الطيبات التي كانت حلالاً لهم إلّا بظلم عظيم ارتكبوه وذلك الظلم هو ما ذكره من نقضهم الميثاق وما عدد عليهم من أنواع الكفر والكبائر العظيمة مثل قولهم اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة وكقولهم أرنا الله جهرة وكعبادتهم العجل فبسبب هذه الأمور حرم الله عليهم طيبات كانت حلالاً لهم وهي ما ذكره في سورة الأنعام في قوله: ﴿وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذي ظفر﴾ الآية وقال الطبري: في معنى الآية فحرمنا على اليهود الذين نقضوا ميثاقهم الذي واثقوا ربهم به وكفروا بآيات الله، وقالوا أنبيائهم وقالوا البهتان على مريم وفعلوا ما وصفهم الله به في كتابه طيبات من المآكل وغيرها التي كانت لهم حلالاً عقوبة لهم بظلمهم الذي أخبر الله عنهم في كتابه. وروي عن قتادة قال عوقب القوم بظلم ظلموه وبغي بغوة وحرمت عليهم أشياء ببغيهم وظلمهم. ونقل الواحدي وابن الجوزي عن مقاتل قال كان الله حرم على أهل التوراة أن يأكلوا الربا ونهاهم أن يأكلوا أموال الناس ظلماً فأكلوا الربا وأكلوا أموال الناس ظلماً بالباطل وصدوا عن دين الله وعن الإيمان بمحمد ﷺ فحرم الله عليهم عقوبة لهم ما ذكر في قوله: «وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذي ظفر» الآية قال الواحدي فأما وجه تحريم الطيبات عليهم كيف ومتى كان وعلى لسان من حرم عليهم فلم أجد فيه شيئاً انتهى إليه فتركه ولقد أنصف الواحدي فيما قال فإن هذه الآية في غاية الإشكال وبيانه إن الله تعالى لا يعاقب على ذنب قبل وقوعه وقد ذكر المفسرون في معنى الظلم المذكور في الآية ما تقدم ذكره وكلها ذنوب في المستقبل. فإن قلت علم الله وقوع هذه الذنوب منهم قبل وقوعها لحرم عليهم ما حرم من الطيبات التي كانت لهم حلالاً عقوبة لهم على ما سيقع منهم قلت جوابه ما تقدم وهو أن الله تعالى لا يعاقب على ذنب قبل وقوعه ولهذا لم يذكر الإمام فخر الدين في تفسير هذه الآية ما ذكره المفسرون بل

المسلمون»، وقال أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم: ﴿ وإنْ مِنْ أهلِ الكتابِ إلّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قبلَ موتِهِ ﴾، قبل موت عيسى ابن مريم، ثم يُعيدها أبو هريرة ثلاث مرات. ورُوِيَ عن عكرمة: أنّ الهاء في قوله: ﴿ ليؤمننّ به ﴾ كناية عن محمد ﷺ يقول: لا يموت كتابي حتى يؤمن بمحمد ﷺ، وقيل: هي راجعة إلى الله عزّ وجلّ يقول: وإنّ مِنْ أهل الكتاب إلّا ليؤمننّ بالله عزّ وجلّ، قبل موته عند المعاينة حين لا ينفعه إيمانُه. قوله تعالى: ﴿ ويومَ القيامةِ يكونُ ﴾، يعني: عيسى عليه السلام، ﴿ عليهِمْ شهيداً ﴾ أنّه قد بلّغهم رسالة ربه، وأقرّ بالعبودية على نفسه، كما قال تعالى مخبراً عنه: ﴿ وكنتُ عليهِم شهيداً ما دمتُ فيهم ﴾ [المائدة: ١١٧] وكلّ نبي شاهد على أمته قال الله تعالى: ﴿ فكيفَ إذا جِئْنَا مِنْ كلِّ أُمةٍ بشهيدٍ وجِئْنَا بِكَ على هؤلاءِ شَهيداً ﴾ [النساء: ٤١].

قوله عزّ وجلّ: ﴿ فَبِظُلْمٍ مِنَ الذينَ هادُوا ﴾، وهو ما تقدّم ذكره من نقضهم الميثاق وكفرهم بآيات الله وبُهتانهم على مريم، وقولهم: إنّا قتلنا المسيح ﴿ حَرَّمْنَا عليهمْ طَيباتٍ أُحِلّتْ لهمْ ﴾، وهي ما ذكر في سُورة

ذكر تفسيراً إجمالياً فقال أعلم أن أنواع الذنوب محصورة في نوعين: الظلم للخلق والإعراض عن الدين الحق، أما ظلم الخلق فإليه الإشارة بقوله ﴿وبصدهم عن سبيل الله كثيراً﴾.

﴿وَأَخْذِهِمُ الرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ النَّاسِ بِالْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾ لَّٰكِنِ الرَّٰسِخُونَ فِى الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ۚ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَوٰةَ ۚ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْءَاخِرِ أُو۟لَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٦٢﴾﴾

﴿وأخذهم الربا وقد نهوا عنه﴾ ثم إنهم مع ذلك في غاية الحرص على طلب المال فتارة يحصلونه بطريق الربا مع أنهم قد نهوا عنه وتارة يحصلونه بطريق الرشا وهو المراد بقوله ﴿وأكلهم أموال الناس بالباطل﴾ فهذه الأربعة هي الذنوب التي شدد عليهم بسببها في الدنيا والآخرة، أما التشديد في الدنيا فهو ما تقدم من تحريم الطيبات عليهم وأما التشديد في الآخرة فهو المراد بقوله تعالى: ﴿وأعتدنا للكافرين منهم عذاباً أليماً﴾ قال المفسرون: إنما قال منهم لأن الله علم أن قوماً منهم سيؤمنون فيأمنون من العذاب.

قوله تعالى: ﴿لكن الراسخون في العلم منهم﴾ يعني من اليهود وهذا استثناء استثنى الله عز وجل من آمن من أهل الكتاب ممن تقدم وصفهم وصفتهم في الآيات التي تقدمت فبين فيما تقدم حال كفار اليهود والجهال منهم وبين في هذه الآية حال من هداه لدينه منهم وأرشده للعمل بما علم فقال لكن الراسخون في العلم ولكن هنا بمعنى الاستدراك والاستثناء والراسخون في العلم الثابتون في العلم البالغون فيه أولو البصائر الثاقبة والعقول الصافية وهم عبدالله بن سلام وأصحابه الذين أسلموا من أهل الكتاب لأنهم رسخوا في العلم وعرفوا حقيقته فأوصلهم ذلك إلى الإيمان بمحمد ﷺ ﴿والمؤمنون﴾ يعني بالله ورسله ﴿يؤمنون بما أنزل إليك﴾ يعني بالقرآن الذي أنزل إليك ﴿وما أنزل من قبلك﴾ يعني ويؤمنون بسائر الكتاب التي أنزلها الله على أنبيائه من قبله يا محمد وفي المراد بالمؤمنين ها هنا قولان: أحدهما إنهم أهل الكتاب فيكون المعنى لكن الراسخون في العلم منهم وهم المؤمنون. والقول الثاني أنهم المهاجرون والأنصار من هذه الأمة فيكون قوله والمؤمنون ابتداء كلام مستأنف يؤمنون بما أنزل إليك ويعني أنهم يصدقون بالقرآن الذي أنزل إليك يا محمد وما أنزل من قبلك ﴿والمقيمين الصلاة﴾ اختلف العلماء في وجه نصبه فحكي عن عائشة وأبان بن عثمان أنه غلط من الكتاب ينبغي أن يكتب والمقيمون الصلاة. وقال عثمان بن عفان إن في المصحف لحناً ستقيمه العرب بألسنتهم فقيل له أفلا تغيره؟ فقال دعوه فإنه لا يحل حراماً ولا يحرم حلالاً وذهب عامة الصحابة وسائر العلماء من بعدهم إلى أنه لفظ صحيح ليس فيه من خطأ من كاتب ولا غيره وأجيب عما روي عن عثمان بن عفان وعن عائشة وأبان بن عثمان بأن هذا بعيد جداً لأن الذين جمعوا القرآن هم أهل اللغة والفصاحة والقدرة على ذلك فكيف يتركون في كتاب الله لحناً يصلحه غيرهم فلا ينبغي أن ينسب هذا

الأنعام، فقال: ﴿وعلى الذين هادوا حرّمنا كلَّ ذي ظفر﴾ [الأنعام: ١٤٦]، ونظم الآية: فبظلم من الذين هادوا وهو ما ذكرنا، ﴿وبِصَدِّهِمْ﴾، وبصرفهم أنفسَهم وغيرَهم، ﴿عَنْ سَبيلِ اللَّهِ كثيراً﴾، أي: عن دين الله صدّاً كثيراً.

﴿وأَخْذِهِمُ الرِّبا وقدْ نُهوا عنهُ﴾، في التوراة ﴿وأكلِهِمْ أموالَ النّاسِ بالبَاطِلِ﴾، من الرشا في الحكم، والمأكل التي يصيبونها من عوامِّهم، عاقبناهم بأنْ حرّمنا عليهم طيباتٍ، وكانُوا كلّما ارتكبوا كبيرةً حُرِّم عليهم شيءٌ من الطيبات التي كانت حلالاً لهم، قال الله تعالى: ﴿ذلكَ جَزَيْنَاهمْ بِبَغْيِهِمْ وإنّا لصادقون﴾ [الأنعام: ١٤٦]، ﴿وأَعْتَدْنَا للكافرينَ مِنهمْ عذاباً أليماً﴾.

إليهم. قال ابن الأنباري: ما روي عن عثمان لا يصلح لأنه غير متصل ومحال أن يؤخر عثمان شيئاً فاسداً ليصلحه غيره ولأن القرآن منقول بالتواتر عن رسول الله ﷺ فكيف يمكن ثبوت اللحن فيه؟ وقال الزمخشري في الكشاف ولا يلتفت إلى ما زعموا من قوع لحن في خط المصحف وربما التفت إليه من لم ينظر في الكتاب يعني كتاب سيبويه ولم يعرف مذاهب العرب وما لهم في النصب على الاختصاص والمدح من الافتنان وهو باب واسع قد ذكره سيبويه على أمثلة وشواهد وربما غبي عليه أن السابقين الأولين كانوا أبعد همة في الغيرة في الإسلام وذب الطاعن عنه من أن يتركوا في كتاب الله عز وجل ثلمة يسدها من بعدهم وخرقاً يرفؤه من يلحن بهم ثم اختلف العلماء في المقيمين الصلاة أهم الراسخون في العلم أم غيرهم؟ على قولين: أحدهما إنهم هم وإنما نصب على المدح والمعنى أذكر المقيمين الصلاة وهم المؤتون الزكاة قالوا والعرب تفعل ذلك في صفة الشيء الواحد ونعته وإذا تطاولت بمدح أو ذم فربما خالفوا بين إعراب أوله وأوسطه أحياناً ثم رجعوا بآخره إلى إعراب أوله وربما أجروا إعراب آخره على إعراب أوسطه وربما أجروا ذلك على نوع واحد من الإعراب واستشهدوا على معنى الآية:

لا يبعدن قومي الذين هم ... سم العداة وآفة الجزر
النازلين بكل معترك ... والطيبون معاقد الأزر

وهذا على معنى أذكر النازلين وهم الطيبون ومن هذا المعنى تقول جاءني قومك المطعمين وهم المعينون. والقول الثاني أن المقيمين الصلاة غير الراسخين في العلم وموضع والمقيمين الصلاة خفض بالعطف على قوله تعالى بما أنزل إليك فعلى هذا القول يكون معنى الآية: **﴿والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك والمقيمين الصلاة﴾** وهم الأنبياء لأنه لم يخل شرع أحد منهم عن إقامة الصلاة وقيل المراد بهم الملائكة لأنهم يسبحون الليل والنهار لا يفترون وصحح الزجاج القول الأول واختاره وصحح الطبري القول الثاني واختاره.

وقوله تعالى: **﴿والمؤتون الزكاة﴾** عطف على والمؤمنون لأنه من صفتهم **﴿والمؤمنون بالله واليوم الآخر﴾** يعني والمصدقون بوحدانية الله تعالى وبالبعث بعد الموت وبالثواب وبالعقاب **﴿أولئك﴾** يعني من هذه الأوصاف صفته **﴿سنؤتيهم أجراً عظيماً﴾** يعني سنعطيهم على ما كان منهم من طاعة الله وإتباع أمره ثواباً عظيماً وهو الجنة. قوله عز وجل: .

﴿ لكِنِ الرَّاسِخُونَ في العلمِ منهمْ ﴾، يعني: ليس كل أهل الكتاب بهذه الصفة، لكن الراسخون المبالغون في العلم منهم أُولوا البصائر، وأراد به الذين أَسْلَمُوا من علماء اليهودَ مثل عبد الله بن سلام وأصحابه، **﴿ والمُؤْمِنُونَ ﴾**، يعني: المهاجرون والأنصار، **﴿ يُؤْمِنُونَ بما أُنزلَ إليكَ ﴾**، يعني: القرآن، **﴿ وما أُنزلَ مِنْ قَبْلِكَ ﴾**، يعني: سائر الكتب المنزلة، **﴿ والمُقِيمِينَ الصلاةَ ﴾**، اختلفوا في وجه انتصابه، فحُكِي عن عائشة رضي الله عنها وأَبَان بن عثمان أنه غلط من الكاتب ينبغي أن يكتب والمقيمون الصلاة وكذلك قوله تعالى: ﴿ إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون ﴾ [المائدة: ٦٩]، وقوله: ﴿ إنّ هذان لساحران ﴾ [طه: ٦٣] قالوا: ذلك خطأ من الكاتب. وقال عثمان: إن في المصحف لحناً ستقيمه العربُ بألسنتها، فقيل له: ألاَ تغيّره؟ فقال: دعوه فإنه لا يُحلّ حراماً ولا يُحرّم حلالاً. وعامّة الصحابة وأهل العلم على أنه صحيح، واختلفوا فيه، قيل: هو نصب على المدح، وقيل: نصب على إضمار فعل تقديره: أعني المقيمين الصلاة وهم المؤتون الزكاة، وقيل: موضعه خفض، واختلفوا في وجهه، فقال بعضهم: معناه لكن الراسخون في العلم منهم ومن المقيمين الصلاة، وقيل: معناه يؤمنون بما أُنزل إليك وإلى المقيمين الصلاة، ثمّ قوله: **﴿ والمُؤْتُونَ الزكاةَ ﴾** رجوع إلى النسق الأوّل، **﴿ والمُؤْمِنُونَ باللهِ واليومِ الآخِرِ أُولئكَ سَنُؤْتِيْهِمْ أجراً عظيماً ﴾**، قرأ حمزة سيؤتيهم بالياء والباقون بالنون.

﴿۞ إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ١٦٣﴾

﴿إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده﴾ قال ابن عباس قال سكين وعدي بن زيد يا محمد ما نعلم أن الله أنزل على بشر من شيء من بعد موسى فأنزل الله هذه الآيات وقيل هو جواب لأهل الكتاب عن سؤالهم رسول الله ﷺ أن ينزل عليهم كتاباً من السماء جملة واحدة فأجاب الله عز وجل عن سؤالهم بهذه الآية فقال: إنا أوحينا إليك يا محمد كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده والمعنى إنكم يا معشر اليهود تقرون بنبوة نوح وبجميع الأنبياء المذكورين في هذه الآية وهم اثنا عشر نبياً والمعنى أن الله تعالى أوحى إلى هؤلاء الأنبياء وأنتم يا معشر اليهود معترفون بذلك وما أنزل الله على أحد من هؤلاء المذكورين كتاباً جملة واحدة مثل ما أنزل على موسى فلما لم يكن عدم إنزال الكتاب جملة واحدة على أحد هؤلاء الأنبياء قادحاً في نبوته فكذلك لم يكن إنزال القرآن على محمد ﷺ قادحاً في نبوته بل قد أنزل عليه كما أنزل عليهم. قال المفسرون وإنما بدأ الله عز وجل بذكر نوح عليه السلام لأنه أول نبي بعث بشريعة وأول نذير على الشرك وأنزل الله عز وجل عليه عشر صحائف وكان أول من عذبت أمته لردهم دعوته وأهلك أهل الأرض بدعائه وكان أبا البشر كآدم عليهما السلام وكان أطول الأنبياء عمراً عاش ألف سنة لم تنقص قوته ولم يشب ولم تنقص له سن وصبر على أذى قومه طول عمره ثم ذكر الله الأنبياء من بعده جملة بقوله تعالى: ﴿والنبيين من بعده﴾ ثم خص جماعة من الأنبياء بالذكر لشرفهم وفضلهم فقال ﴿وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط﴾ وهم أولاد يعقوب وكانوا اثني عشر ﴿وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داود زبوراً﴾ يعني وآتينا داود كتاباً مزبوراً يعني مكتوباً. وقيل: الزبور بالفتح اسم الكتاب الذي أنزل على داود وهو مائة وخمسون سورة ليس فيها حكم ولا حلال ولا حرام بل كلها تسبيح وتقديس وتمجيد وثناء على الله عز وجل ومواعظ وكان داود عليه السلام يخرج إلى البرية فيقوم ويقرأ الزبور وتقوم علماء بني إسرائيل خلفه ويقوم الناس خلف العلماء وتقوم الجن خلف الناس والشياطين خلف الجن وتجيء الدواب التي في

قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إليكَ﴾ هذا بناء على ما سبق من قوله: ﴿يسألـك أهل الكتـاب أن تُنزِّلَ عليهم كتـاباً مِنَ السماء﴾ [النساء: ١٥٣]، فلمّا ذكر الله عيوبهم وذنوبهم غضبوا وجحدوا كل ما أنزل الله عزّ وجلّ، وقالوا: ما أنـزل الله على بشر من شيء، فنزل: ﴿وما قَدَرُوا اللَّهَ حقَّ قَدْرِهِ إذ قالُوا ما أنـزل الله على بشرٍ مِنْ شيء﴾ [الأنعـام: ٩١] وأنزل: ﴿ إنّا أوحينا إليك ﴾، ﴿ كما أوحينا إلى نوح والنّبيينَ مِنْ بعدِهِ ﴾ فذكر عدّةً من الرُّسل الذين أوحى إليهم، وبدأ بذكر نوح عليه السلام لأنه كان أبا البشر مثل آدم عليه السلام، قال الله تعالى: ﴿ وجعلنا ذريّتَه هم الباقين ﴾ [الصّافّات: ٧٧] ولأنه أول نبي من أنبياء الشريعة، وأول نذير على الشرك، وأول مَن عذّبت أُمته لردِّهم دعوته، وأهلكَ أهلُ الأرض جميعاً بدعائه وكان أطول الأنبياء عمراً وجعلت معجزته في نفسه، لأنه عمّر ألف سنة فلم تسقط له سن ولم تشب له شعرة ولم ينتقص له قوّة، ولم يصبر نبي على أذَى قومه ما صبر هو على طول عمره. قوله تعالى: ﴿ وأوْحَيْنَا إلى إبراهيمَ وإسماعيل وإسحَق ويعقوبَ والأَسْبَاطِ ﴾، وهم أولاد يعقوب، ﴿ وعيسَى وأيوبَ ويُونُسَ وهارونَ وسليمانَ وآتَيْنا دَاوُدَ زَبُوراً ﴾، قرأ الأعمش وحمزة (زُبُـوراً) والزُّبور بضمّ الزاي حيث كان، بمعنى: جمع زَبور، أي آتينا داود كُتباً وصُحفاً مزبورةً، أي: مكتوبة، وقرأ الآخرون بفتح الزاي وهو اسم الكتاب الذي أنزل الله تعالى على داود عليه السلام، وكان فيه التحميد والتمجيد والثناء على الله عزّ وجلّ، وكان داودُ يبرزُ إلى البريّة فيقوم ويقرأ الزّبورَ ويقوم معه علماء بني إسرائيل، فيقومون خلفه ويقوم الناس خلف العلماء، ويقوم الجنّ

الجبال فيقمن بين يديه وترفرف الطير على رؤوس الناس وهم يستمعون لقراءة داود ويتعجبون منها فلما قارف الذنب. زال عنه ذلك وقيل له ذلك أنس الطاعة وهذا ذل المعصية (ق) عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «لو رأيتني البارحة وأنا أستمع لقراءتك لقد أعطيت مزماراً من مزامير آل داود» قال الحميدي زاد البرقاني قلت والله يا رسول الله لو علمت إنك تسمع لقراءتي لحبرتها لك تحبيراً، التحبير تحسين الصوت بالقراءة قال بعض العلماء إنما لم يذكر موسى في هذه الآية لأن الله أنزل عليه التوراة جملة واحدة وكان المقصود بذكر من ذكر من الأنبياء في الآية أنه لم ينزل على أحد منهم كتاباً جملة واحدة فلهذا لم يذكر موسى عليه السلام. قوله تعالى: .

﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾﴾

﴿ورسلاً قد قصصناهم عليك من قبل﴾ لما نزلت هذه الآية المتقدمة قالت اليهود ما لموسى لم يذكر؟ فأنزل الله هذه الآية وفيها ذكر موسى عليه السلام والمعنى وأوحينا إلى رسل قد قصصناهم عليك من قبل يعني سميناهم في القرآن وعرفناك أخبارهم وإلى من بعثوا وما ورد عليهم من قومهم ﴿ورسلاً لم نقصصهم عليك﴾ أي لم نسمهم لك ولم نعرفك أخبارهم قال أهل المعاني الذين نوه الله بذكرهم من الأنبياء يدل على تفضيلهم على من لم يذكر ولم يسم.

وقوله تعالى: ﴿وكلم الله موسى تكليماً﴾ يعني خاطبه مخاطبة من غير واسطة لأن تأكيد كلم بالمصدر يدل على تحقيق الكلام وأن موسى عليه السلام سمع كلام الله بلا شك لأن أفعال المجاز لا تؤكد بالمصادر فلا يقال أراد الحائط يسقط إرادة. وهذا رد على من يقول إن الله خلق كلاماً في محل فسمع موسى ذلك الكلام وقال الفراء العرب تسمى كل ما يوصل إلى الإنسان كلاماً بأي طريق وصل لكن لا تحققه بالمصدر وإذا حقق بالمصدر لم يكن إلا حقق بالمصدر لم يكن إلا حقيقة الكلام فدل قوله تعالى تكليماً على أن موسى قد سمع كلام الله حقيقة من غير واسطة. وروى الطبري بسنده من عدة طرق عن كعب الأحبار قال لما كلم الله موسى عليه السلام بالألسنة كلها قبل كلامه يعني كلام موسى بلسانه فجعل موسى يقول يا رب لا أفهم حتى كلمه بلسانه آخر الألسنة فقال: يا رب هكذا كلامك قال لو سمعت كلامي يعني على وجهه لم تك شيئاً قال موسى: يا رب هل في خلقك شيء يشبه كلامك قال لا وأقرب خلقي شبهاً بكلامي أشد ما سمع الناس من الصواعق قال بعض العلماء كما إن الله تعالى خص

خلف الناس، الأعظمُ فالأعظم، والشياطين خلف الجن وتجيء الدواب التي في الجبال فيقمن بين يديه تعجّباً لِمَا يسمعن منه، والطير ترفرف على رؤوسهم، فلما قارف الذنب لم يرَ ذلك، ونفروا من حوله، فقيل له ذاك أنس الطاعة، وهذه وَحْشَةُ المعصية. أخبرنا أبو سعيد الشريحي أخبرنا أبو إسحق الثعلبي أنا أبو بكر الجوزقي أنا أبو العباس الرعوف أنا يحيىٰ بن زكريا أنا الحسن بن حمّاد بن سعيد الأموي عن طلحة بنِ يحيىٰ عن أبي بردة بن أبي موسى عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «لو رأيتني البارحة وأنا أستمع لقراءتك لقد أُعطيتَ مِزْمَاراً من مَزَامِيرِ آلِ داود»، فقال: أمَا واللّهِ يا رسول الله لو علمتُ أنّك تستمعُ لحبرتُه تحبيراً. وكان عمر رضي الله عنه إذا رآه يقول ذكّرنا يا أبا موسى فيقرأ عنده.

قوله تعالى: ﴿ ورُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عليكَ مِنْ قَبْلُ ﴾، أي: وكما أوحينا إلى نوح وإلى الرسل، ﴿ رُسُلاً ﴾ نصب بنزع حرف الصفة، وقيل: معناه وقصصنا عليك رسلاً، وفي قراءة أُبيّ (ورسل قد قصصناهم عليك من

موسى عليه السلام بالتكليم وشرفه به ولم يكن ذلك قادحاً في نبوة غيره من الأنبياء فكذلك إنزال التوراة عليه جملة واحدة لم يكن قادحاً في نبوة من أنزل عليه كتابه متفرقاً من الأنبياء.

قوله عز وجل: ﴿رسلاً مبشرين ومنذرين﴾ يعني: «إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده» ومن أولئك النبيين أرسلت رسلاً إلى خلقي مبشرين من أطاعني واتبع أمري وصدق رسلي بالثواب الجزيل في الجنة ومنذرين من عصاني وخالف أمري وكذب رسلي بالعذاب الأليم في النار. وقيل هو جواب عن سؤال اليهود إنزال الكتاب جملة واحدة والمعنى أن المقصود من بعثة الرسول هو إرشاد الخلق إلى معرفة الله وتوحيده والإيمان به والاشتغال بعبادته وإنذار من خالف ذلك وهذا المقصود يحصل بإنزال الكتاب جملة واحدة وبإنزاله نجوماً متفرقة بل إنزاله متفرقاً أولى. وذلك أن النفوس قبل بعثة الرسل وإنزال الكتب عليهم لم تكن تعرف شيئاً من العبادات ولم تألفها فإذا نزل الكتاب جملة واحدة وفيه جميع التكاليف ربما حصل في بعض نفوس العباد نفور من تلك التكاليف وتثقل عليهم كما أخبر الله عن قوم موسى بقوله تعالى: ﴿وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة وظنوا أنه واقع بهم خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه﴾ فلم يقبلوا أحكام التوراة إلّا بعد شدة فلهذا السبب كان إنزال القرآن نجوماً متفرقة أولى.

وقوله تعالى: ﴿لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل﴾ يعني بعد إرسال الرسل وإنزال الكتاب والمعنى لئلا يحتج الناس على الله في ترك التوحيد والطاعة بعدم الرسل فيقولوا ما أرسلت إلينا رسولاً وما أنزلت علينا كتاباً ففيه دليل على أنه لو لم يبعث الرسل لكان للناس عليه حجة في ترك التوحيد والطاعة وفيه دليل على أن الله لا يعذب الخلق قبل بعثة الرسل كما قال تعالى: ﴿وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً﴾ وفيه دليل لمذهب أهل السنة على أن معرفة الله تعالى لا تثبت إلّا بالسمع لأن قوله: «لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل» يدل على أن قبل بعثة الرسل تكون لهم الحجة في ترك الطاعات والعبادات. فإن قلت كيف يكون للناس على الله حجة قبل الرسل والخلق محجوبون بما نصب من الأدلة التي النظر فيها موصل إلى معرفته ووحدانيته كما قيل:

وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

قلت الرسل منبهون من رقاد الغفلة والجهالة وباعثون الخلق إلى النظر في تلك الدلائل التي تدل على وحدانيته سبحانه وتعالى ومبينون لها وهم وسائط بين الله تعالى وخلقه ومبينون أحكام الله تعالى التي افترضها على عباده ومبلغون رسالته إليهم (ق) عن المغيرة بن شعبة قال: قال سعد بن عبادة لو رأيت رجلاً مع امرأتي لضربته بالسيف غير مصفح فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: «أتعجبون من غيرة سعد والله لأنا أغير منه والله أغير مني ومن

قبل)، ﴿ ورُسلاً لم نَقْصُصْهُمْ عليكَ وكلّمَ اللَّهُ موسَى تكليماً ﴾، قال الفرّاء: العرب تسمّي ما يُوصل إلى الإنسان كلاماً بأيّ طريق وصل، ولكن لا تحققه بالمصدر فإذا حُقّق بالمصدر ولم يكن إلّا حقيقة الكلام كالإرادة يُقال: أراد فلانٌ إرادةً، يُريد حقيقة الإرادة، ويقال: أراد الجدار، ولا يقال أراد الجدار إرادةً لأنه مجاز غير حقيقة.

قوله تعالى: ﴿ رُسلاً مُبَشِّرِينَ ومُنْذِرِينَ لِئَلّاَ يكونَ للنَّاسِ على اللَّهِ حُجَّةٌ بعدَ الرُّسلِ ﴾، فيقولوا: ما أرسلْتَ إلينا رسُولاً وما أنزلتَ إلينا كتاباً، وفيه دليل على أنّ الله تعالى لا يعذّب الخلق قبل بعثة الرسول، قال الله تعالى: ﴿ وما كُنّا مُعذِّبِينَ حتى نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ [الإسراء: ١٥]، ﴿ وكانَ اللَّهُ عزيزاً حكيماً ﴾ أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل ثنا موسى بن إسماعيل أنا أبو عوانة أنا عبد الملك عن وَرّاد كاتب المغيرة قال: قال سعد بن عُبادة رضي الله عنه: لو رأيتُ رجلاً مع امرأتي لضربتُه بالسيف

أجل غيرة الله حرم الله الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا أحد أحب إليه العذر من الله من أجل ذلك بعث المنذرين والمبشرين ولا أحد أحب إليه المدحة من الله، ومن أجل ذلك وعد الجنة» لفظ البخاري وفي لفظ مسلم ولا شخص أحب إليه العذر من الله ومن أجل ذلك بعث الله المرسلين مبشرين ومنذرين. وقوله تعالى: .

لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّوا۟ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٦٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَظَلَمُوا۟ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٦٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧٠﴾

﴿وكان الله عزيزاً﴾ يعني في انتقامه ممن خالف أمره وعصى رسله ﴿حكيماً﴾ يعني في إرساله الرسل قوله تعالى: ﴿لكن الله يشهد بما أنزل إليك﴾ قال ابن عباس دخل على رسول الله ﷺ جماعة من اليهود فقال لهم: «إني والله أعلم أنكم لتعلمن أني رسول الله» فقالوا ما نعلم ذلك فأنزل الله هذه الآية وفي رواية ابن عباس أن رؤساء مكة أتوا رسول الله ﷺ فقالوا: يا محمد إنا سألنا عنك اليهود وعن صفتك في كتابهم فزعموا أنهم لا يعرفونك فأنزل الله عز وجل لكن الله **يشهد** بما أنزل إليك يعني إن جحدك هؤلاء اليهود يا محمد وكفروا بما أوحينا إليك وقالوا: ما أنزل الله على بشر من شيء فقد كذبوا فيما ادعوا فإن الله **يشهد** لك بالنبوة ويشهد بما أنزل إليك من كتابه ووحيه. والمعنى أن اليهود وإن شهدوا أن القرآن لم ينزل عليك يا محمد لكن الله يشهد بأنه أنزل عليك وشهادة الله إنما عرفت بسبب أنه أنزل هذا القرآن البالغ في الفصاحة والبلاغة إلى حيث عجز الأولون والآخرون عن معارضته، والإيمان بمثله فكان ذلك معجزاً وإظهار المعجزة شهادة يكون المدعي صادقاً لا جرم قال الله تعالى لكن الله يشهد لك يا محمد بالنبوة بواسطة هذا القرآن الذي أنزله عليك ﴿أنزله بعلمه﴾ يعني أنه تعالى لما قال لكن الله يشهد بما أنزل إليك بين صفة ذلك الإنزال وهو أنه تعالى أنزله بعلم تام وحكمة بالغة وقيل معناه أنزله وهو عالم بأنك أهل لإنزاله عليك وأنك مبلغه إلى عباده وقيل معناه أنزله بما علم من مصالح عباده في إنزاله عليك ﴿والملائكة يشهدون﴾ يعني يشهدون بأن الله أنزله عليك ويشهدون بتصديقك وإنما عرفت شهادة الملائكة لأن الله تعالى إذا شهد بشيء شهدت الملائكة بذلك الشيء. وقد ثبت أن الله يشهد بأنه أنزله بعلمه فلذلك الملائكة يشهدون بذلك ﴿وكفى بالله شهيداً﴾ يعني وحسبك يا محمد أن الله يشهد لك وكفى بالله شهيداً وإن لم يشهد معه أحد غيره ففيه تسلية للنبي ﷺ عن شهادة أهل الكتاب له فإن الله يشهد له وملائكته كذلك.

قوله عز وجل: ﴿إن الذين كفروا﴾ يعني جحدوا نبوة محمد ﷺ وهم اليهود ﴿وصدوا عن سبيل الله﴾ يعني منعوا غيرهم عن الإيمان به بكتمان صفته وإلقاء الشبهات في قلوب الناس وهو قولهم لو كان محمد رسولاً لأتى

غير مُصْفِح، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: «أتعجبون من غيرة سعد؟ واللهِ لأنا أغْيَرُ منه، واللَّهُ أغيرُ منّي، ومن أجل غيرة الله حرّم الفواحشَ ما ظهرَ منها ومَا بَطنَ، ولا أحد أحبّ إليه العذر من الله، ومن أجل ذلك بعثَ المُنذرين والمُبشرين، ولا أحد أحبّ إليه المدحة من الله، ومن أجل ذلك وعد الله الجنّة».

قوله تعالى: ﴿ لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إليكَ ﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما أن رؤساَء مكة أتَوا رسولَ الله ﷺ فقالوا: يا محمد سألْنَا عنكَ اليهود وعن صفتك في كتابهم فزعمُوا أنهم لا يعرفونَكَ، ودخل عليه جماعة من

بكتاب من السماء جملة واحدة كما أتى موسى بالتوراة ﴿**قد ضلوا ضلالاً بعيداً**﴾ يعني عن طريق الهدى ﴿**إن الذين كفروا وظلموا**﴾ يعني كفروا بالله وظلموا محمداً ﷺ بكتمان صفته وظلموا غيرهم بإلقاء الشبهة في قلوبهم ﴿**لم يكن الله ليغفر لهم**﴾ يعني لمن علم منهم أنهم يموتون على الكفر وقيل معناه لم يكن الله ليستر عليهم قبائح أفعالهم بل يفضحهم في الدنيا ويعاقبهم عليها بالقتل والسبي والجلاء في الآخرة بالنار وهو قوله تعالى: ﴿**ولا ليهديهم طريقاً**﴾ يعني ينجون فيه من النار وقيل ولا ليهديهم طريقاً إلى الإسلام لأنه قد سبق في علمه أنهم لا يؤمنون ﴿**إلاّ طريق جهنم**﴾ يعني لكنه تعالى يهديهم إلى طريق يؤدي إلى جهنم وهي اليهودية لما سبق في علمه أنهم أهل لذلك ﴿**خالدين فيها**﴾ يعني في جهنم ﴿**أبداً وكان ذلك على الله يسيراً**﴾ يعني هيناً.

قوله عز وجل: ﴿**يا أيها الناس**﴾ هذا خطاب عام يدخل فيه جميع الكفار من اليهود والنصارى وعبادة الأصنام وغيرهم وقيل هو خطاب لمشركي العرب ﴿**قد جاءكم الرسول**﴾ يعني محمداً ﷺ ﴿**بالحق**﴾ يعني بدين الإسلام الذي ارتضاه الله لعباده وقيل جاء بالقرآن الذي هو الحق ﴿**من ربكم**﴾ يعني من عند ربكم ﴿**فآمنوا خيراً لكم**﴾ يعني فآمنوا بما جاءكم به محمد ﷺ يكن الإيمان بذلك خيراً لكم يعني من الكفر الذي أنتم عليه ﴿**وإن تكفروا**﴾ يعني وإن تجحدوا رسالة محمد ﷺ وتكذبوا بما جاءكم من الحق من ربكم ﴿**فإن لله ما في السموات والأرض**﴾ يعني فإن الله هو الغني عن إيمانكم لأن له ما في السموات والأرض ملكاً وعبيداً ومن كان كذلك لم يكن محتاجاً إلى شيء وأنه قادر على من يشاء ﴿**وكان الله عليماً**﴾ يعني بما يكون منكم لا يخفى عليه شيء من أعمال عباده فيجزي كل عامل بعمله ﴿**حكيماً**﴾ يعني في تكليفهم مع علمه بما يكون منكم. قوله عز وجل: .

يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا (١٧١)

﴿**يا أهل الكتاب**﴾ نزلت هذه الآية في النصارى وذلك أن الله تعالى لما أجاب عن شبه اليهود فيما تقدم من

اليهود فقال لهم: إنّي والله أعلم أنكم لتعلمنّ أنّي رسول الله، فقالوا: ما نعلم ذلك والله، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿ **لكِنِ اللَّهُ يشهدُ بِما أنزل إليكَ** ﴾ إن جحدوك وكذّبوك، ﴿ **أنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ والملائكةُ يشهدُونَ وكَفى باللَّهِ شهيداً** ﴾.

﴿ **إنّ الذينَ كفرُوا وصدُّوا عنْ سَبيلِ اللَّهِ** ﴾، بكتمانِ نَعْتِ محمد ﷺ، ﴿ **قدْ ضَلُّوا ضَلالاً بعيداً** ﴾.

﴿ **إنّ الذينَ كفرُوا وظلمُوا** ﴾، قيل: إنّما قال: ﴿ **وظلمُوا** ﴾ اتبع ظلمهم بكفرهم تأكيداً، وقيل: معناه كفروا بالله وظلموا محمداً ﷺ بكتمان نعته، ﴿ **لمْ يكنِ اللَّهُ ليغفرَ لهُمْ ولاَ ليهديَهُمْ طريقاً** ﴾، يعني: دين الإسلام.

﴿ **إلاّ طريقَ جهنّم** ﴾، يعني اليهودية، ﴿ **خالدينَ فيها أبداً وكانَ ذلكَ على اللَّهِ يَسِيْراً** ﴾، وهذا في حق مَن سبق حكمه فيهم أنهم لا يؤمنون.

﴿ **يا أيّها النّاسُ قدْ جاءَكُم الرسولُ بالحقِّ مِنْ رَبِّكم فآمِنُوا خيراً لكُم** ﴾، تقديره: فآمِنوا يكن الإيمان خيراً لكم، ﴿ **وإنْ تكفرُوا فإنّ للَّهِ ما في السمواتِ والأرضِ وكانَ اللَّهُ عليماً حكيماً** ﴾.

﴿ **يا أهلَ الكتابِ لا تَغْلُوا في دينِكُم** ﴾، نزلت في النصارى وهم أصناف أربعة اليعقوبية والملكانية

الآية اتبع ذلك بإبطال ما تعتقده النصارى وأصناف النصارى أربعة: اليعقوبية والملكانية والنسطورية والمرقوسية، فأما اليعقوبية والملكانية فقالوا في عيسى أنه الله وقالت النسطورية إنه ابن الله وقالت المرقوسية ثالث ثلاثة وقيل: إنهم يقولون إن عيسى جوهر واحد ثلاثة أقانيم أقنوم الأب وبأقنوم الابن وأقنوم روح القدس وأنهم يريدون بأقنوم الأب الذات وأقنوم الابن عيسى. وبأقنوم روح القدس الحياة الحالة فيه فتقديره عندهم الإله ثلاثة، وقيل إنهم يقولون في عيسى ناسوتية وألوهية فناسوتيته من قبل الأم وألوهيته من قبل الأب تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً يقال إن الذي أظهر هذا للنصارى رجل من اليهود يقال له بولص تنصر ودس هذا في دين النصارى ليضلهم بذلك. وستأتي قصته في سورة التوبة إن شاء الله تعالى وقيل يحتمل أن يكون المراد بأهل الكتاب اليهود والنصارى جميعاً. فإنهم غلوا في أمر عيسى عليه السلام. فأما اليهود فإنهم بالغوا في التقصير في أمره حتى حطوه عن منزلته حيث جعلوه مولوداً لغير رشدة وغلت النصارى في رفع عيسى عن منزلته ومقداره حيث جعلوه إلهاً فقال الله تعالى ردأ عليهم جميعاً يا أهل الكتاب ﴿**لا تغلوا في دينكم**﴾ وأصل الغلو مجاوزة الحد وهو في الدين حرام والمعنى لا تفرطوا في أمر عيسى ولا تحطوه عن منزلته ولا ترفعوه فوق قدره ومنزلته ﴿**ولا تقولوا على الله إلاّ الحق**﴾ يعني لا تقولوا إن له شريكاً وولداً وقيل معناه لا تصفوه بالحلول والاتحاد في بدن الإنسان ونزهوا الله تعالى عن ذلك، ولما منعهم الله من الغلو في دينهم أرشدهم إلى طريق الحق في أمر عيسى عليه السلام فقال تعالى: ﴿**إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله**﴾ يقول إنما المسيح هو عيسى ابن مريم ليس له نسب غير هذا وأنه رسول الله فمن زعم غير هذا فقد كفر وأشرك ﴿**وكلمته**﴾ هي قوله تعالى: ﴿كن فكان بشراً﴾ من غير أب ولا واسطة ﴿**ألقاها إلى مريم**﴾ يعني أوصلها إلى مريم ﴿**وروح منه**﴾ يعني أنه كسائر الأرواح التي خلقها الله تعالى وإنما أضافه إلى نفسه على سبيل التشريف والتكريم كما يقال بيت الله وناقة الله. وهذه نعمة من الله يعني أنه تفضل بها وقيل الروح هو الذي نفخ فيه جبريل في جيب درع مريم فحملت بإذن الله. وإنما أضافه إلى نفسه بقوله منه لأنه وجد بأمر الله قال

والنسطورية والمرقسية، فقالت اليعقوبية: عيسى هو الله، وكذلك الملكانية، وقالت النسطورية: عيسى هو ابن الله، وقالت المرقسية ثالث ثلاثة، فأنزل الله تعالى هذه الآية، ويقال الملكانية يقولون: عيسى هو الله، واليعقوبية يقولون: ابن الله والنسطورية يقولون: ثالث ثلاثة عليهم رجل من اليهود يقال له بولص، سيأتي في سورة التوبة إنْ شاء الله تعالى. وقال الحسن يجوز أن تكون نزلت في اليهود والنصارى فإنهم جميعاً غلوا في أمر عيسى، فاليهود بالتقصير، والنصارى مجاوزة بالحدّ، وأصل الغلو مجاوزة الحدّ، وهو في الدِّين حرام، قال الله تعالى: ﴿ **لا تَغْلُوا في دِينكُم** ﴾، لا تشدَّدُوا في دِينكم فتفترُوا على اللَّهِ الكذبَ ﴿ **ولا تَقُولُوا على اللَّهِ إلاّ الحقَّ** ﴾، لا تقولوا أنّ له شريكاً وولداً ﴿ **إنّما المسيحُ عيسَى ابنُ مريمَ رَسُولُ اللَّهِ وكلمتُهُ** ﴾، وهي قوله: ﴿ كُنْ ﴾ [مريم: ٣٥] فكان بشراً من غير أب، وقيل غيره، ﴿ **ألقاها إلى مريم** ﴾ أي أعلمها وأخبرها بها، كما يقال: ألقيتُ إليك كلمة حسنة، ﴿ **ورُوحٌ منهُ** ﴾، قيل: هو روح كسائر الأرواح إلاّ أن الله تعالى أضافه إلى نفسه تشريفاً، وقيل: الروح هو النفخ الذي نفخه جبريل عليه السلام في دِرْعِ مريم فحملتهُ بإذن الله تعالى، سُمّي النفخ روحاً لأنه ريح يخرج من الروح وأضافه إلى نفسه لأنه كان بأمره، وقيل: روح منه أي ورحمة، فكان عيسى عليه السلام رحمةً لمَن تبعه وآمن به، وقيل: الروح الوحي أوحى إلى مريم بالبشارة وإلى جبريل عليه السلام أن كُنْ فكان كما قال الله تعالى: ﴿ يُنَزِّلُ الملائكةَ بالرُّوحِ مِنْ أمرِهِ ﴾ [النحل: ٢] يعني: بالوحي، وقيل: أراد بالروح جبريل عليه السلام، معناه كلمته ألقاها إلى مريم، وألقاها أيضاً روح منه بأمره وهو جبريل عليه السلام، كما قال: ﴿ تنزّل الملائكةُ والرُّوح ﴾ [القدر: ٤]، يعني: جبريل فيها،

بعض المفسرين إن الله تعالى لما خلق أرواح البشر جعلها في صلب آدم عليه السلام، وأمسك عنده روح عيسى عليه السلام فلما أراد الله أن يخلقه أرسل بروحه مع جبريل إلى مريم فنفخ في جيب درعها فحملت بعيسى عليه السلام وقيل إن الروح والريح متقاربان في كلام العرب، فالروح عبارة عن نفخ جبريل عليه السلام وقوله منه يعني إن ذلك النفخ كان بأمره وإذنه وقيل أدخل النكرة في قوله وروح على سبيل التعظيم والمعنى روح وأي روح من الأرواح القدسية العالية المطهرة وقوله منه إضافته تلك الروح إلى نفسه لأجل التشريف والتكريم (ق) عن عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله ﷺ: «من شهد أن لا إله إلّا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله وأن عيسى عبده ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه والجنة والنار حق أدخله الله الجنة على ما كان من العمل».

وقوله تعالى: ﴿فآمنوا بالله ورسله﴾ يعني فصدقوا يا أهل الكتاب بوحدانية الله وأنه لا ولد له وصدقوا رسله فيما جاءكم به من عند الله وصدقوا بأن عيسى عليه السلام من رسل الله فآمنوا به ولا تجعلوه إله وقوله تعالى: ﴿ولا تقولوا ثلاثة﴾ يعني ولا تقولوا الآلهة ثلاثة وذلك أن النصارى يقولون أب وابن وروح القدس وقيل إنهم يقولون إن الله بالجوهر ثلاثة أقانيم وذلك أنهم أثبتوا ذاتاً موصوفة بصفات ثلاثة بدليل أنهم يجوزون على تلك الذات الحلول في عيسى وفي مريم فأثبتوا ذواتاً متعددة ثلاثة وهذا هو محض الكفر. فلهذا قال الله تعالى ولا تقولوا ثلاثة ﴿انتهوا خيراً لكم﴾ يعني يكون الانتهاء عن هذا القول خير لكم من القول بالتثليث ثم نزه الله تعالى نفسه عن قول النصارى بالتثليث فقال تعالى: ﴿إنما الله إله واحد﴾ ثم نزه نفسه عن الولد فقال ﴿سبحانه أن يكون له ولد﴾ يعني لا ينبغي أن يكون له ولد لأن الولد جزء من الأب وتعالى الله عن التجزئة، وعن صفات الحدوث ﴿له ما في السموات وما في الأرض﴾ يعني أنه تعالى له ملك السموات والأرض وما فيهما عبيده وملكه وعيسى ومريم من جملة من فيهما فهما عبيده وملكه فإذا كانا عبدين له فكيف يعقل مع هذا أن له ولداً أو زوجة تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً؟ وهذا بيان لتنزيهه مما نسب إليه من الولد والمعنى أن جميع ما في السموات والأرض خلقه وملكه فكيف يكون بعض ملكه جزء منه؟ لأن التجزئة إنما تصح في الأجسام والله تعالى منزه عن صفات الأعراض والأجسام ﴿وكفى بالله وكيلاً﴾ يعني أنه تعالى كاف في تدبير جميع خلقه فلا حاجة له إلى غيره، وكل الخلق محتاجون إليه وفقراء إليه وهو غني عنهم.

﴿لَن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن

وقال: ﴿ فأرسلنا إليها روحنا ﴾ [مريم: ١٧]، يعني: جبريل. أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف أخبرنا محمد بن إسماعيل أنا صدقة بن الفضل أنا الوليد عن الأوزاعي حدّثنا عمرو بن هانـي حدّثني جُنادة بن أمية عن عُبادة رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «مَنْ شَهِدَ أنْ لا إلَه إلاّ اللّهُ وحدَهُ لا شَرِيْكَ لهُ وأنَّ محمداً عبدُه ورسولُه وأنّ عيسى عبدُ الله ورسولُه وابنُ أَمتِهِ وكلمتُه ألقاها إلى مريمَ ورُوحٌ منه، والجنّةُ حقٌّ والنّارُ حقٌّ أدْخَلَهُ الجنّةَ على ما كانَ منَ العمل». ﴿ فآمِنُوا باللّهِ ورُسُلِهِ ولا تَقُولُوا ثَلاثَةٌ ﴾، أي: ولا تقولوا هم بثلاثة، وكانت النصارى تقول: أب وابن وروح القدس، ﴿ انْتَهُوا خيراً لكُم ﴾، تقديره: انتهوا يكنِ الانتهاءُ خيراً لكم، ﴿ إنّما اللّهُ إلَهٌ واحِدٌ سُبْحانَهُ أنْ يكونَ لهُ وَلَدٌ ﴾، واعلم أنّ التبنّي لا يجوز لله تعالى، لأنّ التبنّي إنّما يجوز لمَن يُتصوّر له ولد، ﴿ لهُ ما في السّمٰواتِ ومَا في الأرْضِ وكَفَى باللّهِ وَكِيْلاً ﴾.

فَضْلِهِۦ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا
وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ
وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾

وقوله تعالى: ﴿لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله﴾ وذلك أن وفد نجران قالوا يا محمد إنك تعيب صاحبنا فتقول إنه عبد الله فقال النبي ﷺ إنه ليس بعار على عيسى أن يكون عبد الله فنزلت لن يستنكف المسيح يعني لن يأنف ولن يتعظم والاستنكاف الاستكبار مع الأنفة يقال نكفت من كذا واستنكفت منه أي أنفت منه وأصله من نكفت الشيء نحيته ونكفت الدمع إذا نحيته بأصبعك من خدك والمعنى لن ينقبض ولن يمتنع ولن يأنف المسيح أن يكون عبدالله ﴿ولا الملائكة المقربون﴾ يعني ولن يستنكف الملائكة المقربون وهم حملة العرش والكروبيون وأفاضل الملائكة مثل: جبريل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل أن يكونوا عبيدالله لأنهم في ملكه ومن جملة خلقه وقيل لما ادّعت النصارى في عيسى أنه ابن الله وذلك لما رأوا منه خوارق العادات من إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص وغير ذلك من المعجزات، أجاب الله تعالى عن هذه الشبهات التي وقعت للنصارى بأن عيسى من شرف قدره وكرامته لن يستنكف أن يكون عبداً لله. وكذلك الملائكة المقربون فإنهم مع كرامتهم وعلو منزلتهم لن يستنكفوا أن يكونوا عبيداً لله وقد يستدل بهذه الآية من يقول بتفضيل الملائكة على البشر ووجه الدليل أن الله تعالى ارتقى من عيسى إلى الملائكة ولا يرتقي إلاّ من الأدنى إلى الأعلى ولا حجة لهم فيه والجواب عنه أن الله تعالى لم يقل ذلك رفعاً لمقامهم على مقام البشر بل قاله رداً على من يقول إن الملائكة بنات الله أو أنهم آلهة كما رد على النصارى قولهم إن المسيح ابن الله وقاله أيضاً رداً على النصارى فإنهم يقولون بتفضيل الملائكة يعني كما أن المسيح عبدالله فكذلك الملائكة عبيدالله. وقوله تعالى: ﴿ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر﴾ يعني ومن يتعظم عن عبادة الله ويأنف من التذلل لله والخضوع والطاعات من جميع خلقه ﴿فسيحشرهم إليه جميعاً﴾ يعني فسيبعثهم يوم القيامة لموعدهم الذي وعدهم حيث لا يملكون لأنفسهم شيئاً ﴿فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم﴾ يعني يوفيهم جزاء أعمالهم الصالحة ﴿ويزيدهم من فضله﴾ يعني ويزيدهم على ما أعطاهم من الثواب على أعمالهم الصالحة من التضعيف على ذلك ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ﴿وأما الذين استنكفوا واستكبروا﴾ يعني الذين أنفوا وتكبروا عن عبادة الله تعالى ﴿فيعذبهم عذاباً أليماً ولا يجدون لهم من دون الله﴾ يعني من سوى الله لأنفسهم ﴿ولياً﴾ يعني ينجيهم من عذابه ﴿ولا نصيراً﴾ يعني ولا ناصراً ينصرهم منه، ويدفع عنهم عقوبته بقي في الآية سؤال وهو أن التفصيل غير مطابق للمفصل لأن التفصيل اشتمل على ذكر فريقين:

قوله تعالى: ﴿ لَنْ يَسْتَنْكِفَ المَسِيحُ أَنْ يكُونَ عبداً للَّهِ ﴾، وذلك أنّ وفد نجران قالوا: يا محمد إنك تعيب صاحبنا فتقول: إنه عبد الله ورسوله، فقال النبي ﷺ: «إنّه ليس بعار لعيسى عليه السلام أن يكونَ عبدَ اللَّهِ»، فنزل: ﴿ لنْ يَسْتَنْكِفَ المسيحُ ﴾، لن يأنف ولن يتعظم، والاستنكاف: التكبّر مع الأَنفَة، ﴿ ولَا الملائِكَةُ المُقَرَّبُون ﴾، وهم حَمَلَة العرش، لا يأنفون أن يكونوا عبيداً لله، ويستدلّ بهذه الآية مَن يقول بتفضيل الملائكة على البشر، لأن الله تعالى ارتقى من عيسى إلى الملائكة ولا يُرتقى إلاّ إلى الأعلى، لا يقال: لا يستنكف فلان من كذا ولا عبده، إنّما يقال: فلان لا يستنكف من هذا ولا مولاه، ولا حجّة لهم فيه لأنه لم يقل ذلك رفعاً لمقامهم على مقام البشر، بل ردّاً على الذين يقولون الملائكة آلهة، كما ردّ على النصارى قولَهم المسيح ابن الله، وقال ردّاً على النصارى بزعمهم، فإنهم يقولون بتفضيل الملائكة. قوله تعالى: ﴿ ومَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إليهِ

وهو قوله: «فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات، فيوفيهم أجورهم وأما الذين استنكفوا واستكبروا» والمفصل اشتمل على ذكر فريق واحد وهو قوله: «ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر» والجواب أنه لا إشكال فيه فهو مثل قولك جمع الإمام الخوارج فمن لم يخرج عليه كساه وحمله ومن خرج عليه نكل به، وصحة ذلك لوجهين: أحدهما أنه حذف ذكر أحد الفريقين لدلالة التفصيل عليه لأن ذكر أحدهما يدل على ذكر الثاني، والوجه الثاني أن الإحسان إلى غيرهم مما يغمهم فكان داخلاً في جملة التنكيل بهم فكأنه قال ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فيعذبهم بالحسرة والغم إذا رأوا أجور المطيعين العاملين لله تعالى. قوله عز وجل: ﴿يا أيها الناس﴾ خطاب للكافة ﴿قد جاءكم برهان من ربكم﴾ يعني محمداً ﷺ وما جاء به من البينات من ربه عز وجل وإنما سماه برهاناً لما معه من المعجزات الباهرات التي تشهد بصدقه ولأن للبرهان دليل على إقامة الحق وإيصال الباطل والنبي ﷺ كان كذلك ولأنه تعالى جعله حجة قاطعة قطع به عذر جميع الخلائق ﴿وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً﴾ يعني القرآن وإنما سماه نوراً لأن به تتبين الأحكام كما تتبين الأشياء بالنور بعد الظلام ولأنه سبب لوقوع نور الإيمان في القلب فسماه نوراً لهذا المعنى ﴿فأما الذين آمنوا بالله﴾ يعني صدقوا بوحدانية الله وبما أرسل من رسول وأنزل من كتاب ﴿واعتصموا به﴾ يعني بالله في أن يثبتهم على الإيمان ويصونهم عن زيغ الشيطان، وقيل في معنى واعتصموا به أي وتمسكوا بالنور وهو القرآن الذي أنزله على نبيه محمد ﷺ ﴿فسيدخلهم في رحمة منه﴾ يعني فسيدخلهم في رحمته التي ينجيهم بها من أليم عذابه قال ابن عباس الرحمة الجنة ﴿وفضل﴾ يعني ما يتفضل به عليهم بعد إدخالهم الجنة مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ﴿ويهديهم إليه صراطاً مستقيماً﴾ يعني ويوفقهم لإصابة فضله الذي تفضل به عليهم ويسددهم لسلوك منهج من أنعم عليه من أهل طاعته ويرشدهم لدينه الذي ارتضاه لعباده وهو دين الإسلام. قوله تعالى: .

﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ ۚ إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ۚ وَإِن كَانُوٓا۟ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۗ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿١٧٦﴾﴾

﴿يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة﴾ نزلت في جابر بن عبدالله الأنصاري (ق) عن جابر بن عبدالله قال

جَميعاً ﴾، قيل: الاستنكاف هو التكبّر مع الأنفة، والاستكبار هو العلو والتكبّر من غير أَنَفَة.

﴿ فأمّا الذينَ آمَنوا وعَمِلُوا الصالحات فَيُوفِّيهم أُجُورَهُمْ ويَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ ﴾، من تضعيف ما لا عينٌ رأتْ ولا أُذُنٌ سمعتْ ولا خطرَ على قلب بشر، ﴿ وأَمّا الذينَ اسْتَنكفُوا واسْتَكْبَرُوا ﴾، عن عبادته، ﴿ فيُعذِّبُهم عذاباً أليماً ولا يَجِدُونَ لهمْ مِّنْ دُونِ اللّهِ وليّاً ولا نَصِيْراً ﴾.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ يا أيّها النّاسُ قَدْ جاءَكُم بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾، يعني: محمداً ﷺ، هذا قول أكثر المفسّرين، وقيل: هو القرآن، والبرهانُ: الحُجّة، ﴿ وأَنزَلْنا إليكُمْ نُوراً مُبيناً ﴾، بيّناً يعني القرآن.

﴿ فأمّا الذينَ آمَنُوا باللّهِ واعْتَصَمُوا بِهِ ﴾، امتنعوا به من زيغ الشيطان، ﴿ فَسَيُدْخِلُهُمْ في رَحْمَةٍ منهُ وفَضْلٍ ﴾، يعني الجنّة، ﴿ ويَهْدِيهِمْ إليهِ صِراطاً مُسْتقيماً ﴾.

قوله تعالى: ﴿ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللّهُ يُفْتِيكُمْ في الكَلاَلَةِ ﴾ نزلت في جابر بن عبد الله رضي الله عنه، قال:

مرضت فأتاني رسول الله ﷺ وأبو بكر يعوداني ماشيين فأغمي عليّ فتوضأ النبي ﷺ ثم صب علي من وضوئه فأفقت فإذا النبي ﷺ فقلت يا رسول الله كيف أصنع في مالي؟ كيف أقضي في مالي؟ فلم يرد عليّ شيئاً حتى نزلت آية الميراث: ﴿يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة﴾ وفي رواية فقلت يا رسول الله إنما يرثني كلالة فنزلت آية الميراث قال شعبة فقلت لمحمد بن المنكدر يستفتونك: ﴿قل الله يفتيكم في الكلالة﴾ قال هكذا نزلت وفي رواية للترمذي وكان لي تسع أخوات حتى نزلت آية الميراث: ﴿يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة﴾ ولأبي داود قال اشتكيت وعندي سبع أخوات فدخل على رسول الله ﷺ فنفخ في وجهي فأفقت فقلت يا رسول الله ألا أوصي لأخواتي بالثلثين؟ قال أحسن قلت بالشطر؟ قال أحسن ثم خرج وتركني فقال يا جابر لا أراك ميتاً من وجعك هذا وإن الله قد أنزل فبين الذي لأخواتك فجعل لهن الثلثين قال فكان جابر يقول أنزلت هذه الآية في: ﴿يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة﴾ وروى الطبري عن قتادة أن الصحابة أهمهم شأن الكلالة فسألوا عنها نبي الله ﷺ فأنزل الله هذه الآية وروى عن ابن سيرين قال نزلت: ﴿يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة﴾ والنبي ﷺ في مسير له وإلى جنبه حذيفة بن اليمان فبلغها النبي ﷺ حذيفة وبلغها حذيفة عمر بن الخطاب وهو يسير خلفه فلما استخلف عمر سأل حذيفة عنها ورجا أن يكون عنده تفسيرها، فقال له حذيفة والله لأنك لعاجز إن ظننت أن إمارتك تحملني أن أحدثك فيها ما لم أحدثك يومئذٍ فقال عمر لم أرد هذا رحمك الله. وأما التفسير فقوله تعالى: ﴿يستفتونك﴾ يعني يسألونك ويستخبرونك عن معنى الكلالة يا محمد قل: الله يفتيكم في الكلالة يعني أن الله هو يخبركم عما سألتم عنه من أمر الكلالة. وقد تقدم في أول السورة الكلام على معنى الكلالة من حيث الاشتقاق وغيره وأن اسم الكلالة يقع على الوارث وعلى الموروث فإن وقع على الوارث فهم من سوى الوالد والولد وإن وقع على الموروث فهو من مات ولا يرثه أحد الأبوين ولا أحد الأولاد.

قوله تعالى: ﴿إن امرؤ هلك﴾ يعني مات سمي الموت هلاكاً لأنه إعدام في الحقيقة ﴿ليس له ولد﴾ يعني ولا والد فاكتفى بذكر أحدهما عن الآخر ودل على المحذوف أن السؤال في الفتيا إنما كان في الكلالة وقد تقدم أن الكلالة من ليس له ولد ولا والد ﴿وله أخت﴾ يعني ولذلك الهالك أخت وأراد بالأخت من أبيه وأمه أو من أبيه ﴿فلها نصف ما ترك﴾ يعني فلأخت الميت نصف تركته وهو فرضها إذا انفردت وباقي المال لبيت المال إذا لم يكن للميت عصبة. وهذا مذهب زيد بن ثابت وبه قال الشافعي وعند أبي حنيفة وأهل العراق يرد الباقي عليها فإذا كان للميت بنت أخذت النصف بالفرض وتأخذ الأخت النصف الباقي بالتعصيب لا بالفرض لأن الأخوات مع البنات عصبة.

عادني رسول الله ﷺ وأنا مريض لا أعقل، وتوضأ وصبَّ عليَّ من وضوئه، فعلقتُ فقلتُ: يا رسول الله لِمَن الميراث إنهما يرثني كَلالة؟ فنزلت ﴿ يستفتُونَكَ قلِ اللّهُ يُفتيكُمْ في الكَلاَلَة ﴾، وقد ذُكر معنى الكلاَلَة وحكم الآية في أوّل السورة، وفي هذه الآية بيان حكم ميراث الأخوة للأب والأم وللأب، قوله: ﴿ يستفتونك ﴾ أي: يستخبرُونَكَ ويسألونَكَ، ﴿ قُلِ اللّهُ يُفتيكُمْ في الكَلاَلَة ﴾، ﴿ إنِ امْرُؤٌ هَلَكَ ليسَ لَهُ ولدٌ وله أُختٌ فلها نصفُ ما تركَ وهو يَرِثُها ﴾، يعني إذا ماتت الأُخت فجميع ميراثها للأخ، ﴿ إنْ لَمْ يكنْ لها وَلَدٌ ﴾ فإن كان لها ابنٌ فلا شيء للأخ، وإنْ كان ولدها أنثى فللأخ ما فَضُلَ عن فرض البنات، ﴿ فإنْ كَانَتَا اثنتين فلهُمَا الثلثانِ مِمّا تَركَ ﴾، أراد اثنتين فصاعداً وهو أنّ مَن مات وله أخوات فلهنّ الثلثان، ﴿ وإنْ كَانُوا إخوةً رِجَالاً ونِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنْثَيَيْنِ ﴾، ﴿ يُبَيِّنُ اللّهُ لكم أنْ تَضِلُّوا ﴾، قال الفرّاء رحمة الله عليه وأبو عبيدة: معناه أن لا تضلّوا، وقيل: معناه يبيّن اللّهُ لكم كراهة أن تضلّوا، ﴿ واللّهُ بكلِّ شيءٍ عليمٌ ﴾. أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا عبد الله بن رجاء أنا إسرائيل عن أبي إسحق عن

وقوله تعالى: ﴿وهو يرثها إن لم يكن لها ولد﴾ يعني أن الأخت إذا ماتت وتركت أخاً من الأب والأم أو من الأب فإنه يستغرق جميع ميراث الأخت إذا انفرد ولم يكن للأخت ولد وهذا أصل في جميع العصبات واستغراقهم جميع المال، فأما الأخ من الأم فإنه صاحب فرض لا يستغرق جميع المال وقد تقدم بيانه ﴿**فإن كانتا اثنتين فلهما الثلثان مما ترك**﴾ أراد بنتين فصاعداً وهو أن من مات وترك أختين أو أخوات فلهن الثلثان مما ترك الميت ﴿**وإن كانوا إخوة رجالاً ونساء فللذكر مثل حظ الأنثيين**﴾ يعني وإن كان المتروكون من الإخوة رجالاً ونساء فللذكر منهم نصيب اثنتين من الإخوة الإناث ﴿**يبين الله لكم أن تضلوا**﴾ يعني يبين الله لكم هذه الفرائض والأحكام لئلا تضلوا. وقيل معناه كراهية أن تضلوا وقيل بيّن الله الضلالة لتجتنبوها ﴿**والله بكل شيء عليم**﴾ يعني من مصالح عباده التي حكم بها من قسمة المواريث وبيان الأحكام وغير ذلك لأن علمه محيط بكل شيء (ق) عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال إن آخر سورة نزلت تامة سورة التوبة وإن آخر آية نزلت آية الكلالة وفي رواية لمسلم قال آخر آية نزلت يستفتونك وروي عن ابن عباس أن آخر سورة نزلت تامة سورة التوبة وأن آخر آية الكلالة وفي رواية لمسلم قال آخر آية نزلت آية الربا وآخر سورة نزلت إذا جاء نصر الله والفتح وروي عنه أن آخر آية نزلت ﴿واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله﴾ وروي أن النبي ﷺ عاش بعد نزول سورة النصر سنة ونزلت بعدها سورة براءة وهي آخر سورة نزلت كاملة فعاش بعدها ستة أشهر هكذا ذكره البغوي وفيه نظر لأنه قد ثبت في الصحيحين من حديث أبي بكر الصديق رضي الله عنه أن النبي ﷺ بعثه في الحجة التي أمره عليها قبل حجة الوداع في رهط يؤذن في الناس يوم النحر: ألا لا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان. ثم أردف النبي ﷺ بعلي بن أبي طالب فأمره أن يؤذن ببراءة قال أبو هريرة فأذن معنا في أهل منى ببراءة ألا لا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان. وكانت حجة أبي بكر هذه سنة تسع قبل حجة الوداع بسنة قال البغوي: ثم نزلت في طريق حجة الوداع ﴿يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة﴾ فسميت آية الصيف ثم نزلت وهو واقف بعرفة ﴿اليوم أكملت لكم دينكم﴾ فعاش بعدها أحداً وثمانين يوماً ثم نزلت آية الربا ثم نزلت: ﴿واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله﴾ عاش النبي ﷺ بعدها أحداً وعشرين يوماً. وهذا آخر تفسير سورة النساء والله أعلم بمراده وأسرار كتابه.

تم الجزء الأول من تفسير الخازن

ويليه الجزء الثاني

وأوله: تفسير سورة المائدة

البراء رضي الله عنهم قال: آخرُ سورةٍ نزلتْ كاملةً براءة، وآخر آية نزلت خاتمة سورة النساء ﴿ **يستفتونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفتيكُم في الكَلالة** ﴾. ورُوِيَ عن ابن عباس رضي الله عنهما أنّ آخر آية نزلتْ آيةُ الرِّبا، وآخر سورة نزلت ﴿ **إذا جاء نصر الله والفتح** ﴾ [النصر: ١]. ورُوِيَ عنه أن آخر آية نزلت قوله تعالى: ﴿ **واتقُوا يوماً تُرجَعُونَ فيهِ إلى اللَّهِ** ﴾ [البقرة: ٢٨١]. ورُوِيَ بعدما نزلت سورة النصر عاشَ النبي ﷺ عاماً، ونزلت بعدها سورة براءة وهي آخر سورة نزلت كاملةً فعاش النبي ﷺ بعدها ستّة أشهر، ثم نزلت في طريق حجّة الوداع ﴿ **يستفتونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفتيكُم في الكَلالة** ﴾ فسُمّيتْ آية الصَّيف، ثم نزلت وهو واقف بعَرَفَة: ﴿ **اليومَ أكملتُ لكمْ دِيْنَكُم وأتممتُ عَليكُم نِعْمَتِي** ﴾ [المائدة: ٣]، فعاش بعدها أحداً وثمانين يوماً، ثم نزلت آيات الرِّبا، ثم نزلت ﴿ **واتّقُوا يوماً تُرجَعُونَ فيهِ إلى اللَّهُ** ﴾ [البقرة: ٢٨١]، فعاش بعدها أحداً وعشرين يوماً.

بعونه تعالى تمّ الجزء الأول

ويليـه الجـزء الثاني

وأوله سورة المائدة

﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاس مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾
(قرآن كريم)

تفسير سورة المائدة

نزلت بالمدينة إلا قوله تعالى: ﴿**اليوم أكملت لكم دينكم**﴾ فإنها نزلت بعرفة في حجة الوداع والنبي ﷺ واقف بعرفة فقرأها النبي ﷺ في خطبته وقال «يا أيها الناس إن سورة المائدة من آخر القرآن نزولاً فأحلوا حلالها وحرموا حرامها». فإن قلت لما خص النبي ﷺ هذه السورة من بين سور القرآن بقوله فأحلوا حلالها وحرموا حرامها وكل سور القرآن يجب أن يحل حلالها ويحرم حرامها، قلت هو كذلك وإنما خص هذه السورة لزيادة الاعتناء بها فهو كقوله تعالى: ﴿**إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله يوم خلق السموات والأرض منها أربعة حرم ذلك الدين القيم فلا تظلموا فيهن أنفسكم**﴾ فأكد اجتناب الظلم في هذه الأربعة أشهر وإن كان لا يجوز الظلم في شيء من جميع أشهر السنة وإنما أفرد هذه الأربعة الأشهر بالذكر لزيادة الاعتناء بها، وقيل إنما خص النبي ﷺ هذه السورة لأن فيها ثمانية عشر حكماً لم تنزل في غيرها من سور القرآن.

قال البغوي روي عن ميسرة قال: إن الله تعالى أنزل في هذه السورة ثمانية عشر حكماً لم ينزلها في غيرها وهي قوله: ﴿**والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع إلا ما ذكيتم وما ذبح على النصب وأن تستقسموا بالأزلام وما علمتم من الجوارح مكلبين وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب**﴾ وتمام بيان الطهر في قوله: «إذا قمتم إلى الصلاة ـ والسارق والسارقة ـ ولا تقتلوا الصيد وأنتم حرم ـ ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام» وقوله: ﴿**شهادة بينكم إذا حضر أحدكم الموت**﴾.

سُوْرَة المَـائِدَةِ

مدنيّة كلها إلاّ قوله: ﴿ اليومَ أكملتُ لكم دينَكم ﴾ [٣] الآية، فإنها نزلت بعرفات، وهي مائة وعشرون آية.

بِسْـــمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

رُوِيَ عن أبي ميسرة قال: أنزل الله تعالى في هذه السورة ثمانية عشر حكماً لم يُنزلها في غيرها، قوله: ﴿ أُحلّت لكم بهيمة الأنعام ﴾ [١] وقوله: ﴿ والمنخنقةُ والموقوذةُ والمترديةُ والنطيحةُ وما أكلَ السَّبُعُ إلاّ ما ذكّيتم وما ذُبحَ على النُّصُبِ وأن تستقسموا بالأزْلَام وما علّمتم من الجوارح مُكلّبين تعلمونهنّ ﴾ [٣]، ﴿ وطعامُ الذين أوتوا الكتابَ حلٌّ لكم وطعامكم حِلٌّ لهم والمُحصناتُ من المؤمنات والمحصناتُ من الذين أُوتُوا الكتابَ من قبلِكمُ ﴾ [٥]، وتمام الطهور في قوله: ﴿ إذا قمْتُم إلى الصلاةِ ﴾ [٦]، ﴿ والسارقُ والسارقة ﴾ [٣٨]، ﴿ ولا تقتلوا الصيدَ وأنتم حُرُم ﴾ [٩٥] الآية، ﴿ وما جعلَ اللّهُ من بَحِيْرَةٍ ولا سَائِبَةٍ ولا وَصِيْلَةٍ ولا حَام ﴾ [١٠٣]، وقوله: ﴿ شهادةُ بينِكُم إذا حضرَ أحدَكُمُ الموتُ ﴾ [١٠٦].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ۚ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ ۗ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴿١﴾

قوله عز وجل: ﴿يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود﴾ يعني العهود قال الجماعة: واختلفوا في المراد بهذه العقود التي أمر الله تعالى بوفائها فقال ابن جريج: هذا خطاب لأهل الكتاب. والمعنى: يا أيها الذين آمنوا بالكتب المتقدمة، أوفوا بالعقود التي عهدتها إليكم في شأن محمد ﷺ والإيمان به. وقيل: هو خطاب للمؤمنين أمرهم بالوفاء بالعقود. قال ابن عباس: هي عهود الإيمان وما أخذه على عباده في القرآن فيما أحل وحرم. وقيل هي العقود التي كانت في الجاهلية كان يعاقد بعضهم بعضاً على النصرة والمؤازرة على من حاول ظلمه أو بغاه بسوء وذلك هو معنى الحلف الذي كانوا يتعاقدونه بينهم. قال قتادة: ذكر لنا أن النبي ﷺ كان يقول «أوفوا بعقد الجاهلية ولا تحدثوا عقداً في الإسلام».

وقيل: بل هي العقود التي يتعاقدها الناس بينهم وما يعقده الإنسان على نفسه. والعقود خمسة: عقد اليمين، وعقد النكاح، وعقد العهد، وعقد البيع، وعقد الشركة. زاد بعضهم: وعقد الحلف.

قال الطبري: وأولى الأقوال عندنا بالصواب ما قاله ابن عباس أن معناه أوفوا يا أيها المؤمنون بعقود الله التي أوجبها عليكم وعقدها فيما أحلَّ وحرم عليكم وألزمكم فرضه وبيَّن لكم حدوده وإنما قلنا إن هذا القول أولى بالصواب، لأن الله تعالى أتبعه بالبيان عما أحل لعباده وحرم عليهم فقال تعالى: ﴿أحلت لكم بهيمة الأنعام﴾ وهو خطاب للمؤمنين خاصة والبهيمة اسم لكل ذي أربع من الحيوان لكن خص في التعارف بما عدا السباع والضواري من الوحوش وإنما سميت بهيمة لأنها أبهمت عن العقل والتمييز. قال الزجاج: كل حي لا يميز فهو بهيمة. والأنعام: جمع النعم وهي الإبل والبقر والغنم ولا يدخل فيها ذوات الحافر في قول جميع أهل اللغة. واختلفوا في معنى الآية فقال الحسن وقتادة: بهيمة الأنعام، الإبل والبقر والغنم والمعز. وعلى هذا القول إنما أضاف البهيمة إلى الأنعام على جهة التوكيد. وقال الكلبي: بهيمة الأنعام وحشيّها كالظباء وبقر الوحش وحمر الوحش. وعلى هذا إنما أضاف البهيمة إلى الأنعام ليعرف جنس الأنعام وما أحل منها لأنه لو أفردها فقال البهيمة لدخل فيه ما يحل ويحرم من البهائم فلهذا قال تعالى: ﴿أحلت لكم بهيمة الأنعام﴾. وقال ابن عباس: هي الأجنَّة التي توجد ميتة في بطون أمهاتها إذا ذبحت أو نحرت. ذهب أكثر العلماء إلى تحليلها وهو مذهب الشافعي ويدل عليه ما روي عن أبي سعيد عن النبي ﷺ أنه قال في الجنين ذكاته ذكاة أمه أخرجه الترمذي وابن ماجه.

قوله تعالى: ﴿ يا أيها الذينَ آمنُوا أوْفُوا بالعُقود ﴾، أي بالعهود، قال الزجّاج: هي أوكد العهود، يقال: عاقدتُ فلاناً وعقدتُ عليه أي: ألزمتُه ذلك باستئناف، وأصله من عقد الشيء بغيره ووصله به، كما يُعقد الحبل بالحبل إذا وُصل، واختلفوا في هذه العقود، قال ابن جُريج: هذا خطاب لأهل الكتاب، يعني: يا أيّها الذين آمنُوا بالكتب المتقدمة أوْفُوا بالعهود التي عهدتُها إليكم في شأن محمد ﷺ، وهو قوله: ﴿ وإذْ أخذَ اللَّهُ ميثاقَ الذينَ أُوتوا الكتابَ لَتُبيننّه للناس ﴾ [آل عمران: ١٨٧]، وقال الآخرون: هو عامّ، قال قتادة: أراد بها الحلف الذي تعاقدوا عليه في الجاهلية، قال ابن مسعود رضي الله عنه: هي عهود الإيمان والقرآن، وقيل: هي العقود التي يتعاقدها الناس بينهم، ﴿ أُحلّتْ لكم بهيمةُ الأنعام ﴾، قال الحسن وقتادة: هي الأنعام كلّها، وهي الإبل والبقر والغنم، وأراد تحليل ما حرّم أهل الجاهلية على أنفسهم من الأنعام. وروى أبو ظبيان عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: بهيمة الأنعام هي الأجنّة، ومثله عن الشعبي قال: هي الأجنّة التي تُوجد ميتة في بطون أُمهاتها إذا ذُبحت أو نحرت،

وفي رواية أبي داود قال: «قلنا يا رسول الله ننحر النّاقة ونذبح البقرة والشاة ونجد في بطنها الجنين أنلقيه أم نأكله؟ قال: كلوه إن شئتم فإن ذكاته ذكاة أمه» وروى الطبري عن ابن عمر في قوله: أحلّت لكم بهيمة الأنعام، قال: ما في بطنها.

قال عطية العوفي: قلت إن خرج ميتاً آكله؟ قال: نعم هو بمنزلة رئتها وكبدها. وعن ابن عباس قال: الجنين من بهيمة الأنعام وعنه أن بقرة نحرت فوجد في بطنها جنين فأخذ ابن عباس بذنب الجنين. وقال: هذا من بهيمة الأنعام. وشرط بعضهم الإشعار وتمام الخلق. وقال ابن عمر: ذكاة ما في بطنها ذكاتها إذا تم خلقه ونبت شعره ومثله عن سعيد بن المسيب. وقال أبو حنيفة: لا يحل أكل الجنين إذا خرج ميتاً بعد ذكاة الأم.

وقوله تعالى: ﴿**إلا ما يتلى عليكم**﴾ يعني في القرآن تحريمه وأراد به قوله تعالى: ﴿حرمت عليكم الميتة﴾ إلى آخر الآية فهذا من المتلو علينا وهو ما استثنى الله عز وجل من بهيمة الأنعام ﴿**غير محلّي الصيد وأنتم حرم**﴾ يعني أحللت لكم الأنعام كلها والوحشية أيضاً من الظباء والبقر والحمر غير محلّي صيدها وأنتم محرمون في حال الإحرام فلا يجوز للمحرم أن يقتل صيداً في حال إحرامه ﴿**إن الله يحكم ما يريد**﴾ يعني أن الله يقضي في خلقه ما يشاء، من تحليل ما أراد تحليله وتحريم ما أراد تحريمه وفرض ما يشاء أن يفرضه عليهم من أحكامه وفرائضه مما فيه مصلحة لعباده.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحِلُّوا۟ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَلَا ٱلْهَدْىَ وَلَا ٱلْقَلَـٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًا ۚ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُوا۟ ۚ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا۟ ۘ وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝٢﴾

قوله تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله**﴾ نزلت في الحطم واسمه شريح بن هند بن ضبعة البكري

ذهب أكثر أهل العلم إلى تحليله، قال الشيخ رحمه الله تعالى: قرأتُ على أبي عبد الله محمد بن الفضل الخرقي فقلتُ: قرأ عليّ أبي سهلٍ محمدُ بن عمر بنُ طرفة الشجري وأنتَ حاضر، فقيل له: حدّثكم أبو سليمان الخطابي أنا أبو بكر ابن داسة أنا أبو داود السجستاني أنا مسدد أنا هشيم عن مخلد عن أبي الوداك عن أبي مسعود رضي الله عنهم قال قلنا: يا رسول الله ننحر الناقة ونذبح البقرة والشاة فنجد في بطنها الجنين، أنلقيه أم نأكله؟ فقال: «كلوه إنْ شئتُمْ فإنّ ذكاتَه ذكاةُ أمّه»، وروى أبو الزبير عن جابر عن رسول الله ﷺ قال: «ذكاة الجنين ذكاة أمّه» وشرط بعضهم الإشعار، قال ابن عمر: ذكاة ما في بطنها في ذكاتها إذا تَمَّ خلقُه ونبتَ شعرُه، ومثله عن سعيد بن المسيب، وعند أبي حنيفة رضي الله عنه لا يحلُّ أكل الجنين إذا خرج ميتاً بعد ذكاة الأم. وقال الكلبي: بهيمة الأنعام وحشها وهي الظباء وبقر الوحش وحُمر الوحش، سُمّيت بهيمةً لأنها أُبهمت عن التميز، وقيل: لأنها لا نطق لها، ﴿ إلّا ما يُتلَى عليكُم ﴾ أي: ما ذُكر في قوله: ﴿ حُرِّمَتْ عليكم الميتةُ ﴾ إلى قوله: ﴿ وما ذُبحَ على النُّصُب ﴾ [المائدة: ٣]، ﴿ غَيْرَ مُحلّي الصَّيْدِ ﴾، وهو نصب على الحال، أي: لا مُحلّي الصيد، ومعنى الآية: أُحلّتْ لكم بهيمةُ الأنعام كلّها إلّا ما كان منها وحشياً فإنه صيدٌ لا يحلّ لكم في حال الإحرام، فلذلك قوله تعالى: ﴿ وأنتم حُرمٌ إنّ الله يَحْكُمُ ما يُريد ﴾.

﴿ يا أيّها الذينَ آمنوا لا تُحِلّوا شَعَائِرَ اللّهِ ﴾، نزلت في الحطم واسمه شريح بن ضبيعة البكري، أتى المدينة

أتى المدينة وحده وخلف خيله خارج المدينة ودخل على النبي ﷺ فقال للنبي ﷺ: إلا ما، تدعو الناس فقال: إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة فقال حسن إلا أن لي أمراء لا أقطع أمراً دونهم ولعلي أسلم وآتي بهم فخرج من عنده وقد كان رسول الله ﷺ قال لأصحابه: يدخل عليكم رجل من ربيعة يتكلم بلسان شيطان فلما خرج شريح. قال النبي ﷺ: لقد دخل بوجه كافر وخرج بقفا غادر وما الرجل بمسلم، فمرَّ بسرح من سرح المدينة فاستاقه وانطلق به وهو يرتجز ويقول:

لقد لفَّها بالليل سواق حطم ... ليس براعي إبل ولا غنم
ولا بجزار على ظهر وضم ... باتوا نياماً وابن هند لم ينم
بات يقاسيها غلام كالزلم ... خدلج الساقين ممسوح القدم

فتبعوه فلم يدركوه فلما كان العام القابل، خرج شريح حاجًّاً مع حجاج بكر بن وائل من اليمامة ومعه تجارة عظيمة وقد قلد الهدي، فقال المسلمون: يا رسول الله هذا الحطم قد خرج حاجاً فخلِّ بيننا وبينه، فقال النبي ﷺ: إنه قد قلد الهدي. فقالوا: يا رسول الله هذا شيء كنا نفعله في الجاهلية فأبى النبي ﷺ فأنزل الله: ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله**﴾.

قال ابن عباس: هي المناسك كان المشركون يحجون ويهدون، فأراد المسلمون أن يغيروا عليهم فنهاهم الله عن ذلك.

وقيل: الشعائر، الهدايا المشعرة وإشعارها أن يطعن في صفحة سنام البعير بحديدة حتى يسيل دمه فيكون ذلك علامة أنها هدي وهو سنة في الإبل والبقر عون الغنم، ويدل عليه ما روي عن عائشة: «فتلت قلائد بدن النبي ﷺ ثم أشعرها وقلدها ثم بعث بها إلى البيت فما حرم عليه شيء كان له حلالاً» أخرجاه في الصحيحين (م).

عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ صلى الظهر بذي الحليفة ثم دعا بناقته فأشعرها في صفحة سنامها الأيمن وسلت الدم عنها وقلدها نعلين ثم ركب راحلته فلما استوت به على البيداء أهلَّ بالحج. وعند أبي حنيفة لا يجوز إشعار الهدي

وخلَّف خيله خارج المدينة، ودخل وحده على النبي ﷺ فقال له: إلامَ تدعُو الناسَ؟ فقال له: «إلى شهادة أنْ لا إلَه إلّا الله، وأنّ محمداً رسول الله، وإقامِ الصلاة وإيتاءِ الزكاة»، فقال: حسن، إلّا أن لي أُمراء لا أقطع أمراً دونهم، ولَعلّي أسلم وآتي بهم، وقد كان النبي ﷺ قال لأصحابه: «يدخل عليكم رجل من ربيعة يتكلم بلسان الشيطان»، ثم خرج شريح من عنده، فقال رسول الله ﷺ: «لقد دخل بوجه كافر وخرجَ بقفا غادرٍ وما الرجل بمسلم»، فمرّ بسرح المدينة فاستاقه وانطلق، فاتبعوه فلم يُدركوه، فلمّا كان العام القابل خرج حاجّاً في حجّاج بكر بن وائلٍ من اليمامة ومعه تجارة عظيمة، وقدْ قلّدُوا الهَدْيَ، فقال المسلمون للنبي ﷺ: هذا الحطم قد خرج حاجّاً فخلّ بيننا وبينه، فقال النبي ﷺ: «إنه قلّد الهَدْيَ»، فقالوا: يا رسول الله هذا شيء كنّا نفعله في الجاهلية، فأبى النبي ﷺ، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿ يا أيّها الذينَ آمنوا لا تُحلُّوا شعائرَ اللّهِ ﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد: هي مناسك الحج، وكان المشركون يحجّون ويهدون، فأرادَ المسلمون أن يُغِيْرُوا عليهم فنهاهم الله عن ذلك. وقال أبو عبيدة: شعائر الله هي الهدايا المُشْعَرة، والإشْعار من الشعار، وهي العلامة، وأشعارها، أعلامها بما يُعرَف أنها هَدْي، والإشعار ههنا: أن يطعن في صَحْفَةِ سنانِ البعير بحديدة حتى يسيلَ الدمُ، فيكون ذلك علامة أنها هَدْي، وهي سُنّة في الهدايا إذا كانت من الإبلِ، لِما أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا أبو نعيم أنا أفلح عن القاسم عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: فتلتُ قلائدَ بُدْنِ

بل قال يكره ذلك. وقال ابن عباس[1] في معنى الآية: لا تحلوا شعائر الله هي أن تصيد وأنت محرم. وقيل: شعائر الله شرائع الله ومعالم دينه، والمعنى: لا تحلوا شيئاً من فرائضه التي افترض عليكم واجتنبوا نواهيه التي نهى عنها **﴿ولا الشهر الحرام﴾** أي ولا تحلوا الشهر الحرام بالقتال فيه والشهر الحرام: هو الذي كانت العرب تعظمه وتحرم القتال في الجاهلية فيه، فلما جاء الإسلام، لم ينقض هذا الحكم، بل أكده. والمراد بالشهر الحرام هنا، ذو القعدة. وقيل: رجب. ذكرهما ابن جرير. وقيل: المراد بإحلال الشهر الحرام النسيء. قال مقاتل: كان جنادة بن عوف يقوم في سوق عكاظ، فيقول: إني قد أحللت كذا وحرمت كذا يعني به الأشهر فنهى الله عن ذلك وسيأتي تفسير النسيء في سورة براءة: **﴿ولا الهدي ولا القلائد﴾** الهدي ما يهدى إلى بيت الله من بعير أو بقرة أو شاة أو غير ذلك مما يتقرب به إلى الله تعالى، والقلائد جمع قلادة وهي التي تُشد في عنق البعير وغيره والمعنى: ولا الهدي ذوات القلائد. قال الشاعر:

حلفت برب مكة والمصلى وأعناق هدين مقلدات

فعلى هذا القول إنما عطف القلائد على الهدي مبالغة في التوصية لأنها من أشراف البدن المهداة والمعنى: ولا تستحلوا الهدي خصوصاً المقلدات منها. وقيل: أراد أصحاب القلائد وذلك أن العرب في الجاهلية كانوا إذا أرادوا الخروج من الحرم قلدوا أنفسهم وإبلهم من لحاء شجر الحرم فكانوا يأمنون بذلك فلا يتعرض لهم أحد، فنهى الله المؤمنين عن ذلك الفعل ونهاهم عن استحلال نزع شيء من شجر الحرم **﴿ولا آمّين البيت الحرام﴾** يعني ولا تستحلوا القاصدين إلى البيت الحرام وهو الكعبة شرَّفها الله وعظمها **﴿يبتغون﴾** يعني يطلبون **﴿فضلاً من ربهم﴾** يعني الرزق والأرباح في التجارة **﴿ورضواناً﴾** يعني ويطلبون رضا الله عنهم بزعمهم لأن الكافر لا حظ له في الرضوان لكن يظن أن فعله ذلك طلب الرضوان فيجوز أن يوصف به بناء على ظنه. وقيل إن المشركين كانوا يقصدون بحججهم ابتغاء رضوان الله وإن كاوا لا يغالونه فلا يبعد أن يحصل لهم بسبب ذلك القصد نوع من الحرمة وهو الأمن على أنفسهم. وقيل: كان المشركون يلتمسون في حجهم ما يصلح لهم دنياهم ومعاشهم. وقيل: ابتغاء الفضل هو للمؤمنين والمشركين عامة وابتغاء الرضوان للمؤمنين خاصة وذلك أنهم يحجون جميعاً.

النبي ﷺ بيدي، ثم قلّدها وأشعرَها وأهداها، فما حَرُمَ عليه شيء كان أُحِلّ له، وقاس الشافعي البقرَ على الإبل في الإشعار، وأمّا الغنم فلا تشعر بالجرح، فإنها لا تحتمل الجرح لضعفها، وعند أبي حنيفة رضي الله عنه لا يشعر الهدي، وقال عطية عن ابن عباس رضي الله عنهما: لا تُحِلّوا شعائرَ الله هي أن تَصِيْدَ وأنتَ محرمٌ، بدليل قوله تعالى: ﴿ وإذا حَلَلْتُم فاصطادُوا ﴾، وقال السدي: أراد حرم الله، وقيل: المراد منه النهي عن القتل في الحرم، وقال عطاء: شعائر الله حرمات الله واجتناب سخطه واتّباع الطاعة، قوله: ﴿ ولا الشَّهْرَ الحَرَامَ ﴾، أي: بالقتال فيه، وقال ابن زيد: هو النسيء، وذلك أنهم كانوا يُحِلّونه عاماً ويُحرّمُونه عاماً، ﴿ ولا الهَدْيَ ﴾، هو كل ما يُهدَى إلى بيت الله من بعير أو بقرة أو شاة، ﴿ ولا القَلائِدَ ﴾، أي: الهدايا المُقلّدة، يريد ذواتِ القلائد، وقال عطاء: أراد أصحاب القلائد، وذلك أنهم كانوا في الجاهلية إذا أرادوا الخروج من الحرم قلّدُوا أنفسهم وإبلهم بشيءٍ مِنْ لِحَاءِ شجرِ الحرم كيلا يُتعرّض لهم، فنهى الشرعُ عن استحلال شيء منها. وقال مطرف بن الشخير: هي القلائد نفسها وذلك أنّ المشركين كانوا يأخذون من لِحَاءِ شجر مكة ويتقلّدونها فنُهوا عن نزع شجرها. قوله تعالى: ﴿ ولا آمّينَ البيتَ الحرامَ ﴾، أي: قاصدين البيت الحرام، يعني: الكعبة فلا تتعرّضُوا لهم، ﴿ يَبْتَغُونَ ﴾ يطلبون ﴿ فَضْلاً مِنْ

---

(١) قوله وقال ابن عباس الخ كأن هذا قول ثان له رضي الله عنه إذ تقدم له غير هذا اهـ.

(فصل)

اختلف علماء الناسخ والمنسوخ في هذه الآية فقال قوم: هذه الآية منسوخة إلى هاهنا لأن قوله تعالى لا تحلوا شعائر الله ولا الشهر الحرام يقتضي حرمة القتل في الشهر الحرام وفي الحرم وذلك منسوخ بقوله تعالى: ﴿**اقتلوا المشركين حيث وجدتموهم**﴾ وقوله تعالى: ﴿**ولا آمين البيت الحرام**﴾ يقتضي حرمة منع المشركين عن البيت الحرام وذلك منسوخ بقوله تعالى: ﴿**فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا**﴾ فلا يجوز أن يحج مشرك ولا يأمن بالهدي والقلائد كافر وهذا قول ابن عباس ومجاهد والحسن وقتادة وأكثر المفسرين.

قال الشعبي: لم ينسخ من سورة المائدة إلا هذه الآية. وقيل: المنسوخ منها قوله ولا آمين البيت الحرام نسختها آية براءة ﴿**اقتلوا المشركين حيث وجدتموهم**﴾ وقوله: ﴿**فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم**﴾ هذا وقال ابن عباس: كان المؤمنون والمشركون يحجون البيت جميعاً فنهى الله المؤمنين أن يمنعوا أحداً أن يحج البيت أو يتعرضوا له من مؤمن أو كافر ثم أنزل الله بعد هذا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا وقال آخرون: لم ينسخ من ذلك شيء سوى القلائد التي كانت في الجاهلية يتقلدونها من لحاء شجر الحرم.

قال الواحدي: وذهب جماعة إلى أنه لا منسوخ في هذه السورة وأن هذه الآية محكمة قالوا ما ندبنا إلى أن نخيف من يقصد بيته من أهل شريعتنا في الشهر الحرام ولا في غيره وفصل الشهر الحرام عن غيره بالذكر تعظيماً وتفضيلاً وحرم علينا أخذ الهدي من المُهدين وصرفه عن بلوغ محله وحرم علينا القلائد التي كانوا يفعلونها في الجاهلية وهذا غير مقبول، والظاهر ما عليه جمهور العلماء من نسخ هذه الآية لإجماع العلماء، على أن الله عزَّ وجلَّ قد أحلَّ قتال أهل الشرك في الأشهر الحرم وغيرها.

وكذلك أجمعوا على أن المشرك لو قلد عنقه وذراعيه جميع لحاء الشجر لم يكن ذلك له أماناً من القتل إذا لم يكن قد تقدم له عهد ذمة أو أمان. وكذلك أجمعوا على منع من قصد البيت بحج أو عمرة من المشركين لقوله تعالى عمرة من المشركين لقوله تعالى: ﴿**إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا**﴾ والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿**وإذا حللتم**﴾ يعني من إحرامكم ﴿**فاصطادوا**﴾ هذا أمر إباحة، لأن الله حرم الصيد على المحرم حالة إحرامه بقوله تعالى: ﴿**غير محلّي الصيد وأنتم حرم**﴾ وإذا حلَّ من إحرامه بقوله وإذا حللتم فاصطادوا وإنما قلنا

رَبِّهم﴾، يعني الرزق بالتجارة، ﴿ **ورِضْواناً** ﴾ أي: على زعمهم، لأن الكافرين لا نصيب لهم في الرضوان، وقال قتادة: هو أن يصلح معايشهم في الدنيا ولا يعجّل لهم العقوبة فيها، وقيل: ابتغاء الفضل للمؤمنين والمشركين عامّة، وابتغاء الرضوان للمؤمنين خاصّة، لأنّ المسلمين والمشركين كانوا يحجُّون، وهذه الآية إلى ههنا منسوخة بقوله: ﴿ اقتُلوا المشركينَ حيثُ وَجَدْتُموهُم ﴾ [التوبة: ٥] وبقوله: ﴿ فلا يَقْرَبُوا المسجدَ الحرامَ بعدَ عامِهم هذا ﴾ [التوبة: ٢٨]، فلا يجوز أن يحجّ مشرك ولا يأمن كافر بالهدي والقلائد. قوله عزّ وجلّ: ﴿ **وإذا حَلَلْتُم** ﴾ أي: من إحرامكم، ﴿ **فاصْطَادُوا** ﴾، أمرُ إباحة، أباح للحلال أخذ الصيد، كقوله تعالى: ﴿ فإذا قُضِيَتِ الصلاةُ فانتشِرُوا في الأرض ﴾ [الجمعة: ١٠]، ﴿ **ولا يَجْرِمَنّكم** ﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما وقتادة: لا يحملنّكم، يقال: جرمني فلان على أن صنعتُ كذا، أي حملني، وقال الفرّاء: لا يكسبنّكم، يقال: جرمَ أي: كَسَبَ فلانٌ جريمة أهله، أي: كاسبهم، وقيل: لا يدعونكم، ﴿ **شَنَآنُ قومٍ** ﴾، أي: بغضُهم وعداوتهم، وهو مصدر شنْئت، قرأ ابن عامر وأبو بكر « شنْآنُ قوم » بسكون النون الأولى، وقرأ الآخرون بفتحها، وهما لغتان، والفتح أجود، لأنّ المصادر أكثرها فعلان، بفتح العين مثل الضربان والسيلان والنسلان ونحوها، ﴿ **أنْ صَدّوكم عنِ المسجدِ الحَرامِ** ﴾، قرأ

إنه أمر إباحة لأنه ليس واجباً على المحرم إذا حل من إحرامه أن يصطاد ومثله قوله تعالى: ﴿فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض﴾ معناه أنه قد أبيح لكم ذلك بعد الفراغ من الصلاة ﴿ولا يجرمنكم﴾.

قال ابن عباس: لا يحملنكم. وقيل: معناه لا يكسبنكم ولا يدعوكم ﴿شنآن قوم﴾ يعني بغض قوم وعداوتهم ﴿أن صدوكم﴾ يعني لأن صدوكم ﴿عن المسجد الحرام﴾ والمعنى: لا يحملنكم عداوة قوم على الاعتداء، لأن صدوكم عن المسجد الحرام، لأن هذه السورة نزلت بعد قصة الحديبية، فكان الصدّ قد تقدم ﴿أن تعتدوا﴾ عليهم يعني: بالقتل وأخذ المال ﴿وتعاونوا على البر والتقوى﴾ يعني ليعن بعضكم بعضاً على ما يكسب البر والتقوى قال ابن عباس: البر متابعة السنة ﴿ولا تعاونوا على الإثم والعدوان﴾ يعني ولا يعن بعضكم بعضاً على الإثم وهو الكفر والعدوان هو الظلم. وقيل: الإثم المعاصي، والعدوان البدعة (م) عن النواس بن سمعان، قال: سألت رسول الله ﷺ عن البر والإثم فقال: البر «حسن الخلق والإثم ما حاك في صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس» ﴿واتقوا الله﴾ أي احذروا الله أن تعتدوا ما أمركم به أو تجاوزوا إلى ما نهاكم عنه ﴿إن الله شديد العقاب﴾ يعني لمن خالف أمره ففيه وعيد وتهديد عظيم.

حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُواْ بِٱلْأَزْلَٰمِۚ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌۗ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِۚ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًاۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍۙ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣﴾

قوله عز وجل: ﴿حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير﴾ بيّن الله تعالى في أول السورة ما أحل لنا من بهيمة الأنعام بقوله أحلت لكم بهيمة الأنعام ثم إنه تعالى استثنى من ذلك بقوله: إلا ما يتلى عليكم. فذكر ذلك المستثنى بقوله حرمت عليكم الميتة فكل ما فارقته الروح مما يذبح بغير ذكاة فهو ميتة. وسبب تحريم الميتة، أن الدم لطيف جداً، فإذا مات الحيوان حتف أنفه احتبس ذلك الدم وبقي في العروق فيفسد ويحصل منه ضرر عظيم والدم هو

ابن كثير وأبو عمرو بكسر الألف على الاستئناف، وقرأ الآخرون بفتح الألف، أي: لأن صدّوكم، ومعنى الآية: ولا يحملنّكم عداوةُ قومٍ على الاعتداء لأنهم صدّوكم. وقال محمد بن جرير: لأن هذه السورة نزلت بعد قصة الحديبية، وكان الصدُّ قد تقدّم، ﴿ أنْ تعتدُوا ﴾، عليهم بالقتل وأخذ الأموال، ﴿ وتعاونُوا ﴾، أي: ليعنْ بعضكم بعضاً، ﴿ على البرِّ والتَّقْوَى ﴾، قيل: البرُّ متابعة الأمر، والتقوى مجانبة النهي، وقيل: البرّ: الإسلام، والتقوى: السنّة، ﴿ ولا تَعاوَنُوا على الإثْمِ والعُدْوَانِ ﴾، قيل: الإثم: الكفر، والعدوان: الظلم، وقيل: الإثم: المعصية، والعدوان: البدعة. أخبرنا أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري أنا أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد بن أبي طاهر الدقّاق ببغداد أخبرنا أبو الحسن علي بن محمد بن الزبير القريشي أنا الحسن علي بن عفّان أنا زيد بن الحباب عن معاوية بن صالح حدّثني عبد الرحمن بن جبير بن نغير ابن مالك الحضرمي عن أبيه عن النواس بن سمعان الأنصاري قال: سُئِلَ رسولُ الله ﷺ عن البرِّ والإثمِ، قال: «البِرُّ حُسْنُ الخُلقِ، والإثْمُ ما حَاكَ في نفسِكَ وكرهْتَ أنْ يطَّلعَ عليه النّاس». ﴿ واتَّقُوا اللَّهَ إنّ اللّهَ شديدُ العِقَابِ ﴾.

﴿ حُرِّمَتْ عليكم الميتةُ والدمُ ولحمُ الخنزيرِ وما أُهِلَّ لغيرِ اللّهِ بِهِ ﴾، أي: ما ذُكر على ذبحه غيرُ اسمِ الله

المسفوح الجاري، وكانت العرب في الجاهلية تجعل الدم في المصارين وتشويه وتأكله، فحرم الله ذلك كله. ولحم الخنزير، أراد به جميع أجزائه وأعضائه. وإنما خص اللحم بالذكر، لأنه المقصود بالأكل وقد تقدم في سورة البقرة أحكام هذه الثلاثة أشياء وما استثنى الشارع من الميتة والدم وهو السمك والجراد والكبد والطحال وذكرنا الدليل على إباحة ذلك واختلاف العلماء في ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وما أهلَّ لغير الله به﴾ يعني ما ذكر على ذبحه غير اسم الله وذلك أن العرب في الجاهلية كانوا يذكرون أسماء أصنامهم عند الذبح فحرم الله ذلك بهذه الآية وبقوله: ولا تأكلوا مما لا يذكر اسم الله عليه ﴿والمنخنقة﴾.

قال ابن عباس: كان أهل الجاهلية يخنقون الشاة حتى إذا ماتت أكلوها فحرم الله ذلك. والمنخنقة: جنس الميتة لأنها لما ماتت لم يسل دمها. والفرق بينهما، أن الميتة تموت بلا سبب أحد، والمنخنقة تموت بسبب الخنق. ﴿والموقوذة﴾: يعني المقتولة بالخشب. وكانت العرب في الجاهلية يضربون الشاة بالعصا حتى تموت ويأكلونها فحرَّم الله ذلك ﴿والمتردية﴾ يعني التي تتردى من مكان عالٍ فتموت أو في بئر فتموت. والتردي: هو السقوط من سطح أو من جبل ونحوه وهذه المتردية تلحق بالميتة فيحرم أكلها ويدخل في هذا الحكم إذا رمى بسهمه صيداً فتردى ذلك الصيد من جبل أو من مكان عال فمات فإنه يحرم أكله لأنه لا يعلم هل مات بالتردي أو بالسهم ﴿والنطيحة﴾ يعني التي تنطحها شاة أخرى حتى تموت وكانت العرب في الجاهلية تأكل ذلك، فحرمها الله تعالى لأنها في حكم الميتة. فأما الهاء في الكلمات التي تقدمت أعني المنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة، فإنما دخلت عليها، لأنها صفات لموصوف مؤنث وهو الشاة. كأنه قال: حرمت عليكم الشاة المنخنقة والموقوذة والمتردية. وخصت الشاة، لأنها من أعم ما يأكله الناس، والكلام إنما يخرج على الأعم الأغلب ثم يلحق به غيره.

فإن قلت: لمَ أثبتت الهاء في النطيحة مع أنها في الأصل منطوحة فعدلوا بها إلى النطيحة وفي مثل هذا الموضع تكون الهاء محذوفة تقول: كف خضيب وعين كحيل يعني كف مخضوبة وعين مكحولة. قلت: إنما تحذف الهاء من الفعيلة إذا كانت صفة لموصوف يتقدمها، فإذا لم يذكر الموصوف وذكرت الصفة وضعتها موضع الموصوف تقول:

تعالى: ﴿ والمُنْخَنِقَةُ ﴾، وهي التي تخنق فتموت، قال ابن عباس: كان أهل الجاهلية يخنقون الشاة حتى إذا ماتتْ أكلوها، ﴿ والمَوقُوذَةُ ﴾ هي المقتولة بالخشب، قال قتادة: كانوا يضربونها بالعصا فإذا ماتتْ أكلوها، ﴿ والمتردِّيَةُ ﴾، هي التي تتردّى من مكان عالٍ أو في بئر فتموت، ﴿ والنَّطِيحَةُ ﴾، هي التي تنطحها أخرى فتموت، وهاء التأنيث تدخل في الفعيل إذا كان بمعنى الفاعل، فإذا كان بمعنى المفعول استوى فيه المذكّر والمؤنث، نحو عينٌ كحيلٌ وكفٌّ خَضِيبٌ، فإذا حَذفْتَ الاسم وأفردتَ الصفةَ، أدخلوا الهاء فقالوا: رأينا كحيلة وخضيبة، وهنا أُدخل الهاء لأنه لم يتقدمها الاسم، فلو أسقط الهاء لم يُدْرَ أنها صفة مؤنث أم مذكّر، ومثله الذبيحة والنسيكة، وأكيلة السبع ﴿ ومَا اكَلَ السَّبُعُ ﴾، يريد ما بقي ممّا أكل السبع، وكان أهل الجاهلية يأكلونه، ﴿ إلاّ ما ذَكَّيْتُمْ ﴾، يعني: إلاّ ما أدركتم ذكاته من هذه الأشياء، وأصل التذكية الإتمام، يقال: ذكّيتُ النارَ إذا أتممتُ اشتعالها، والمراد هنا: إتمام فري الأوداج وإنهارُ الدم، قال النبي ﷺ: «ما أنْهرَ الدَّمَ وذُكِرَ اسمُ الله عليه فكُلْ غير السّن والظفر»، وأقل الذكاة في الحيوان المقدور عليه قطع المري والحُلقوم وكما له أن يقطع الودجين معهما، ويجوز بكل مُحدّد يقطع من حديد أو قصب أو زجاج أو حجر إلاّ السنّ والظفر، فنهَى النبي ﷺ عن الذبح بهما، وإنمـا يحلّ ما ذكّيته بعدما جرحَه السبعُ وأكل شيئاً منه إذا أدركته والحياةُ فيه مستقرةٌ فذبحته، فأمّا مَا صَار بجرح

رأيت قبيلة بني فلان بالهاء لأنك إن لم تدخل الهاء لم يعرف أرجل هو أم امرأة. فعلى هذا، إنما دخلت الهاء في النطيحة لأنها صفة لموصوف غير مذكور وهو الشاة.

وقال ابن السكيت: قد تأتي فعيلة بالهاء وهي في تأويل مفعول بها تخرج مخرج الأسماء ولا يذهب بها مذهب النعوت نحو النطيحة والذبيحة والفريسة وأكيلة السبع ومررت بقبيلة بني فلان. وقوله تعالى: ﴿وما أكل السبع﴾ قال قتادة: كان أهل الجاهلية إذا جرح السبع شيئاً فقتله أو أكل منه أكلوا ما بقي منه، فحرمه الله تعالى. والسبع اسم يقع على كل حيوان له ناب ويعدو على الناس والدواب فيفترس بنابه كالأسد والذئب والنمر والفهد ونحوه وفي الآية محذوف تقديره وما أكل السبع منه لأن ما أكله السبع فقد فقد فلا حكم له، إنما الحكم للباقي منه.

﴿إلا ما ذكيتم﴾ يعني إلا ما أدركتموه وقد بقيت فيه حياة مستقرة من هذه الأشياء المذكورة والظاهر أن هذا الاستثناء يرجع إلى جميع المحرمات المذكورة في الآية من قوله تعالى: والمنخنقة، إلى، وما أكل السبع. وهذا قول علي بن أبي طالب وابن عباس والحسن وقتادة.

قال ابن عباس: يقول الله تعالى ما أدركتم من هذا كله وفيه روح فاذبحوه فهو حلال. وقال الكلبي: هذا الاستثناء مما أكل السبع خاصة. والقول هو الأول وأما كيفية إدراكها، فقال أكثر أهل العلم من المفسرين: إن أدركت ذكاته بأن توجد له عين تطرف أو ذنب يتحرك فأكله جائز. قال ابن عباس: إذا طرفت بعينها أو ركضت برجلها أو تحركت فاذبح فهو حلال. وذهب بعض أهل العلم إلى أن السبع إذا جرح فأخرج الحشوة أو قطع لجوف قطعاً تيأس معه الحياة فلا ذكاة لأن ذلك وإن كان به حركة ورمق إلا أنه قد صار إلى حالة لا يؤثر في حياته الذبح وهو مذهب مالك واختاره الزجاج وابن الأنباري، لأن معنى التذكية أن يلحقها وفيها بقية تشخب معها الأوداج وتضطرب اضطراب المذبوح لوجود الحياة فيه قبل ذلك وإلا فهو كالميتة. وأصل الذكاة في اللغة تمام الشيء، فالمراد من التذكية، تمام قطع الأوداج وإنهار الدم ويدل عليه ما روي عن رافع بن خديج عن النبي ﷺ قال: ما أنهر الدم وذكر اسم الله عليه فكلوه ليس السن والظفر «وسأحدثكم عن ذلك، أما السن فعظم وأما الظفر فمدى الحبشة» أخرجاه في الصحيحين.

وأقل الذبح في الحيوان المقدور عليه قطع المريء والحلقوم وأكمله قطع الودجين مع ذلك والحلقوم بعد الفم،

السبع إلى حاله المذبوح، فهو في حكم الميتة، فلا يكون حلالاً وإن ذبحتَه، وكذلك المتردّية والنّطيحة إذا أدركتَها حيّةً قبل أن تصير إلى حالة المذبوح فذبحتها تكون حلالاً، ولو رمي إلى صيد في الهواء فأصابه فسقط على الأرض ومات كان حلالاً لأن الوقوع على الأرض من ضرورته، فإن سقط على جبل أو شجر ثم تردّى منه فمات فلا يحلّ، وهو من المتردية إلّا أن يكون السهم أصاب مذبحه في الهواء فيحلّ كيفَ مَا وقع، لأن الذبح قد حصل بإصابة السهم المَذْبَح، ﴿ وما ذُبِحَ على النُّصُب ﴾، قيل: النُّصب جمعٌ، واحده نصاب، وقيل: هو واحد وجمعه أنصاب مثل عنق وأعناق، وهو الشيء المنصوب، واختلفوا فيه، فقال مجاهد وقتادة: كانت حول البيت ثلاثمائة وستّون حجراً منصوبة، كان أهل الجاهلية يعبدونها ويُعظِّمونها ويذبحون لها، وليست هي بأصنام إنّما الأصنام هي المُصَوَّرة المنقوشة، وقال الآخرون: هي الأصنام المنصوبة، ومعناه: وما ذُبح على اسم النُّصبِ، قال ابن زيد: وما ذُبح على النصب وما أُهلّ لغير الله به: هما واحد، قال قطرب: على بمعنى اللام أي: وما ذُبح لأجل النُّصب، ﴿ وأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بالأَزْلَام ﴾، أي: وحرّم عليكم الاستقسام بالأزلام، والاستقسام هو طلب القسم، والحكم من الأزلام، والأزلام هي: القِداح التي لا ريش لها ولا نَصْل، وَاحِدُها: زَلْم، وزُلْم، بفتح الزاي وضمّها، كانت أزلامهم سبعة قداح مستوية من شوحط، يكون عند سَادِنِ الكعبة، مكتوبٌ على واحدٍ نعم، وعلى واحدٍ لا، وعلى واحدٍ منكم،

وهو موضع النفس والمريء مجرى الطعام والودجان عرقان يقطعان عند الذبح وأما آلة الذبح فكل ما أنهرا الدم وفرى الأوداج من حديد وغيره إلا السن والظفر لما تقدم من نهي النبي ﷺ عن ذلك.

قوله تعالى: ﴿وما ذبح على النصب﴾ يعني وحرم ما ذبح على النصب. والنصب يحتمل أن يكون جمعاً واحده نصاب وأن يكون واحداً وجمعه أنصاب وهو الشيء المنصوب. قيل: كان حول الكعبة ثلثمائة وستون حجراً منصوبة كان أهل الجاهلية يعبدونها ويعظمونها ويذبحون لها وليست هذه الحجارة بأصنام إنما الأصنام الصور المنقوشة. وقال ابن عباس: هي الأصنام المنصوبة. والمعنى: وما ذبح على اسم النصب أو لأجل النصب فهو حرام ﴿وإن تستقسموا بالأزلام﴾ يعني وحرم عليكم الاستقسام بالأزلام وهو طلب القسم والحكم من الأزلام وهي القداح وكانت أزلامهم سبع قداح مستوية مكتوب على واحد منها أمرني ربي وعلى واحد نهاني وعلى واحد منكم وعلى واحد من غيركم وعلى واحد ملصق وعلى واحد العقل وعلى واحد غفل أي ليس عليه شيء. وكانت العرب في الجاهلية، إذا أرادوا سفراً أو تجارة أو نكاحاً أو اختلفوا في نسب أو أمر قتيل أو تحمل عقل أو غير ذلك من الأمور العظام جاؤوا إلى هبل وكانت أعظم صنم لقريش، بمكة وجاؤوا بمائة درهم وأعطوها صاحب القداح حتى يجيلها لهم. فإن خرج أمرني ربي فعلوا ذلك الأمر وإن خرج نهاني ربي ولم يفعلوه وإن أجالوا على نسب فإن خرج منكم كان وسطاً فيهم وإن خرج من غيركم كان حلفاً فيهم وإن خرج ملصق كان على حاله وإن اختلفوا في العقل وهو الدية فمن خرج عليه قدح العقل تحمله وإن خرج الغفل أجابوا ثانياً حتى يخرج المكتوب عليه فنهاهم الله عن ذلك وحرمه وسماه فسقا. وقيل: الأزلام كعاب فارس والروم التي كانوا يقامرون بها. وقيل: كانت الأزلام للعرب. والكعاب للعجم وهي: النرد وكلها حرام لا يجوز اللعب بشيء منها.

عن قطن بن قبيصة عن أبيه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «العيافة والطيرة والطرق من الجبت» أخرجه أبو داود وقال: الطرق الزجر والعيافة الخط. وقيل: العيافة زجر الطير والطرق الضرب بالحصى والجبت كل ما عبد من دون الله عز وجل. وقيل: الجبت الكاهن. وروى البغوي بسند الثعلبي عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ «من تكهن أو استقسم بالأزلام أو تطيَّر طيرة ترده عن سفره لم ينظر إلى الدرجات العلى يوم القيامة وقوله تعالى: ﴿ذلكم فسق﴾ يعني ما ذكر من هذه المحرمات في هذه الآية لأن المعنى حرم عليكم تناول كذا وكذا فإنه فسق والفسق ما

وعلى واحدٍ من غيركم، وعلى واحدٍ مُلْصَق، وعلى واحدِ العقل، وواحدٍ غَفْل ليس عليه شيْء، فكانوا إذا أرادوا أمراً من سفر أو نكاح أو ختان أو غيره، أو تداوَرُوا في نسبٍ أو اختلفُوا في تحمّل عقلٍ جاؤوا إلى هُبَل وكان أعظم أصنام قريش بمكة وجاؤوا بمائة درهم أعطوها صاحب القداح حتى يُجِيلَ القِدَاحَ، ويقولون: يا إلَهنا إنّا أردنا كذا وكذا، فإن خرج نعم، فعلوا، وإن خرج لا، لم يفعلوا ذلك حولاً، ثمّ عادوا إلى القِدَاح ثانيةً، فإذا أجالوا على نسبٍ، فإن خرج منكم كان وسيطاً منهم، وإن خرج من غيركم كان حليفاً، وإن خرج ملصق كان على منزلته لا نسب له ولا حلف، وإذا اختلفوا في عقل فمَن خرج عليه قدح العقل حمله، وإن خرج الغفل أجالوا ثانياً حتى يخرج المكتوب، فنهى الله عزّ وجلّ عن ذلك وحرّمه، وقال: ﴿ ذَلِكُم فِسْقٌ ﴾ قال سعيد بن جبير: الأزلام حصى بيض كانوا يضربون بها، وقال مجاهد: هي كعاب فارس والروم التي يتقامرون بها، وقال الشعبي وغيره: الأزلام للعرب، والكعاب للعجم، وقال سفيان بن وكيع: هي الشطرنج، وروينا أن النبي ﷺ قال: «العِيَافَةُ والطَّرْقُ والطِّيَرَةُ مَنَ الجِبْتِ»، والمراد من الطَّرْقِ: الضَّرْبُ بالحصى، أخبرنا أبو سعيد الشريحي أخبرنا أبو إسحق الثعلبي أنا ابن فنجويه أنا فضل الكندي أخبرنا الحسن بـن داود الخشاب أنا سويد بن سعيد أنا أبو المختار عن عبد الملك بن عمير عن رجاء بن حيوة عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ تكهَّنَ أو اسْتَقْسَمَ أو تطيَّر طيرةً تردّه عن سفره لم ينظرْ إلى

يخرج من الحلال إلى الحرام وقيل إن الإشارة عائدة على الاستقسام بالأزلام والأول أصح ﴿**اليوم يئس الذين كفروا من دينكم**﴾ يعني يئسوا أن ترجعوا عن دينكم إلى دينهم كفاراً، وذلك أن الكفار كانوا يطمعون في أن يعود المسلمون إلى دينهم، فلما قوي الإسلام، أيسوا من ذلك وذلك هو اليوم الذي دخل فيه رسول الله ﷺ مكة عام حجة الوداع فعند ذلك يئس الكفار من بطلان دين الإسلام. وقيل: إن ذلك هو يوم عرفة فنزلت هذه الآية والنبي ﷺ واقف بعرفة.

وقيل: لم يرد يوماً بعينه وإنما المعنى الآن يئس الذين كفروا من دينكم فهو كما تقول: اليوم قد كبرت. تريد: الآن قد كبرت. وتقول: فلان كان يزورنا وهو اليوم يجفونا ولم ترد يوماً بعينه. يعني: وهو الآن يجفونا ولم تقصد به اليوم قال الشاعر:

فيوم علينا ويوم لنا ويوم نُساء ويوم نُسرّ

أراد فزمان علينا وزمان لنا ولم يقصد اليوم واحد معين ﴿**فلا تخشوهم**﴾ فلا تخافوا الكفار أيها المؤمنون الذين آمنوا أن يظهروا على دينكم فقد زال الخوف عنكم بإظهار دينكم ﴿**واخشونِ**﴾ أي وخافوا مخالفة أمري وأخلصوا الخشية لي.

قوله عز وجل: ﴿**اليوم أكملت لكم دينكم**﴾ نزلت هذه الآية في يوم الجمعة بعد العصر في يوم عرفة والنبي ﷺ واقف بعرفات على ناقته العضباء فكادت عضد الناقة تندق وبركت لثقل الوحي وذلك في حجة الوداع سنة عشر من الهجرة (ق).

عن طارق بن شهاب قال: جاء رجل من اليهود إلى عمر بن الخطاب فقال: يا أمير المؤمنين آية في كتابكم تقرؤونها لو علينا نزلت معشر اليهود لاتخذنا ذلك اليوم عيداً قال: فأي آية؟ قال: «اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً» فقال عمر: إني لأعلم اليوم الذي نزلت فيه والمكان الذي نزلت فيه نزلت على رسول الله ﷺ بعرفات في يوم الجمعة أشار عمر إلى ذلك اليوم يوم عيد لنا. وعن ابن عباس أنه قرأ ﴿**اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً**﴾ وعنده يهودي فقال: لو نزلت هذه الآية علينا لاتخذناها عيداً فقال ابن عباس: «فإنها نزلت في يوم عيدين في يوم جمعة ويوم عرفة» أخرجه الترمذي وقال: حديث حسن غريب.

الدرجات العُلى من الجنة يوم القيامة». ﴿ اليومَ يَئِسَ الذينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ ﴾، يعني: أنْ ترجِعُوا إلى دينهم كفّاراً، وذلك أن الكفّار كانوا يطْعَمُون في عَوْدِ المسلمين إلى دينهم فلما قَوِيَ الإسلام أيسوا، ويئس وأيس بمعنى واحد، ﴿ فلا تَخْشَوْهُمْ واخْشَوْنِ اليومَ أكملتُ لكُمْ دِينَكُم وأتْمَمْتُ عليكُم نِعْمَتِي ورضيتُ لكُمُ الإسلامَ ديناً ﴾، نزلت هذه الآية يوم الجمعة، يوم عرفة بعد العصر في حجة الوداع، والنبي ﷺ واقف بعرفات على ناقته العضبا، فكادت عضد الناقة تندقّ من ثقلها فبركت، أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل حدّثني الحسن بن الصباح سمع جعفر بن عون أنا أبو العميس أنا قيس بن مسلم عن طارق بن شهاب عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن رجلاً من اليهود قال له: يا أمير المؤمنين آية في كتابكم تقرؤونها، لو علينا معشر اليهود نزلتْ لاتّخذنا ذلك اليوم عيداً، قال: أيَّةُ آيةٍ؟ قال: «اليومَ أكملتُ لكم دينَكُم وأتممتُ عليكم نعمتي ورضيتُ لكم الإسلام ديناً» قال عمر: قد عرفنا ذلك اليوم والمكان الذي نزلت فيه على النبي ﷺ وهو قائم بعرفة يوم الجمعة، أشار عمر إلى أن ذلك اليوم كان عيداً لنا، قال ابن عباس: كان في ذلك اليوم خمسة أعياد: جمعة وعرفة وعيد اليهود والنصارى والمجوس، ولم تجتمع أهل المِلَل في يوم قبله ولا بعده، وروى

قال ابن عباس: كان في ذلك اليوم خمسة أعياد يوم جمعة، ويوم عرفة، وعيد لليهود، وعيد للنصارى، وعيد للمجوس. ولم تجتمع أعياد لأهل الملل في يوم واحد قبله ولا بعده.

وروي أنه لما نزلت هذه الآية، بكى عمر فقال له النبي ﷺ: «ما يبكيك يا عمر؟ فقال أبكاني أنا كنا في زيادة من ديننا. فأما إذا كمل فإنه لم يكمل شيء إلا نقص قال: صدقت» فكانت هذه الآية نعي رسول الله ﷺ عاش بعدها أحداً وثمانين يوماً ومات ﷺ يوم الإثنين لليلتين خلتا من ربيع الأول وقيل: لاثنتي عشر ليلة وهو الأصح سنة إحدى عشرة من الهجرة. وأما تفسير الآية فقوله تعالى: ﴿اليوم أكملت لكم دينكم﴾ يعني بالفرائض والسنن والحدود والأحكام والحلال والحرام ولم ينزل بعد هذه الآية حلال ولا حرام ولا شيء من الفرائض هذا معنى قول ابن عباس.

وقال سعيد بن جبير وقتادة: معنى أكملت لكم دينكم، أي حيث لم يحج معكم مشرك وخلا الموسم لرسول الله ﷺ وللمسلمين. وقيل: معناه أني أظهرت دينكم على الأديان وأمنتكم من عدوكم بأن كفيتكم ما كنتم تخافونه. وقيل: إكمال الدين لهذه الأمة أنه لا يزول ولا يُنسخ وإن شريعتهم باقية إلى يوم القيامة. وقيل: إكمال الدين لهذه الأمة أنهم آمنوا بكل نبي وكل كتاب ولم يكن هذا لغير هذه الأمة. وقال ابن الأنباري: اليوم أكملت شرائع الإسلام على غير نقصان كان قبل هذا الوقت وذلك أن الله تعالى كان يتعبد خلقه بالشيء في وقت ثم يزيد عليه في وقت آخر فيكون الوقت الأول تاماً في وقته، وكذلك الوقت الثاني تاماً في وقته فهو كما يقول القائل: عندي عشرة كاملة. ومعلوم أن العشرين أكمل منها والشرائع التي تعبد الله عز وجل بها عباده في الأوقات المختلفة مختلفة وكل شريعة منها كاملة في وقت التعبد بها فكمل الله عز وجل الشرائع في اليوم الذي ذكره وهو يوم عرفة ولم يوجب ذلك أن الدين كان ناقصاً في وقت من الأوقات ونقل الإمام فخر الدين الرازي عن القفال واختاره أن الدين ما كان ناقصاً البتة بل كان أبداً كاملاً كانت الشرائع النازلة من عند الله كافية في ذلك الوقت إلا أنه تعالى كان عالماً في أول وقت البعثة بأن ما هو كامل في هذا اليوم ليس بكامل في الغد لا يصالح فيه لا جرم كان ينسخ بعد الثبوت وكان يزيل بعد التحتم.

وأما في آخر زمان البعثة، فأنزل الله شريعة كاملة وحكم ببقائها إلى يوم القيامة، فالشرع أبداً كان كاملاً إلا أن الأول كمال إلى يوم مخصوص، والثاني كمال إلى يوم القيامة، فلأجل هذا المعنى قال: اليوم أكملت لكم دينكم. ثم قال تعالى: ﴿وأتممت عليكم نعمتي﴾ يعني بإكمال الدين والشريعة، لأنه لا نعمة أتم من الإسلام.

وقال ابن عباس: حكم لها بدخول الجنة. وقيل: معناه أنه تعالى أنجز لهم ما وعدهم في قوله ولأتم نعمتي

هارون بن عنترة عن أبيه قال: لمّا نزلتْ هذه الآية بكى عمر رضي الله عنه، فقال له النبي ﷺ: «ما يُبكيك يا عمر»؟ فقال: أبكاني أنّا كنّا في زيادة من ديننا، فأمّا إذا كمل فإنه لم يكن شيء إلّا نقص، قال: «صدقت». وكانت هذه الآية نعي النبي ﷺ وعاش بعدها إحدى وثمانين يوماً، ومات يوم الاثنين بعدما زاغت الشمس لليلتين خلتا من شهر ربيع الأول سنة إحدى عشرة من الهجرة، وقيل: تُوفي يوم الثاني عشر من شهر ربيع الأول وكانت هجرته في الثاني عشر من شهر ربيع الأول، أما تفسير الآية قوله عزّ وجلّ: ﴿ اليومَ أكملتُ لكم دينَكم ﴾ يعني: يوم نزول هذه الآية أكملت لكم دينكم، يعني الفرائض والسُّنن والحُدود والجهاد والأحكام والحلال والحرام، فلم ينزل بعد هذه الآية حلالٌ ولا حرام، ولا شيء من الفرائض والسُّنن والحدود والأحكام هذا معنى قول ابن عباس رضي الله عنهما، ويُروى عنه أن آية الرِّبا نزلت بعدها، وقال سعيد بن جبير وقتادة: أكملتُ لكم دينكم فلم يحجّ معكم مشرك، وقيل: أظهرت دينكم وأمّنْتُكم من العدو، وقوله عزّ وجلّ: ﴿ وأتممتُ عليكم نعمتي ﴾، يعني: وأنجزت وعدي في قوله: ﴿ ولأتمّ نعمتي عليكم ﴾ [البقرة: ١٥٠]، فكان من تمام نعمته أن دخلوا مكة آمنين وعليها ظاهرين، وحجُّوا

عليكم فكان من تمام النعمة أن دخلوا مكة آمنين وحجّوا مطمئنين لم يخالطهم أحد من المشركين ﴿**ورضيت لكم الإسلام ديناً**﴾ يعني واخترت لكم الإسلام ديناً من بين الأديان وقيل: معناه ورضيت لكم الإسلام لأمري والانقياد لطاعتي فيما شرعت لكم من الفرائض والأحكام والحدود ومعالم الدين الذي أكملته لكم وإنما قال تعالى: ﴿**ورضيت لكم الإسلام ديناً**﴾ يوم نزلت هذه الآية وإن كان الله تعالى لم يزل راضياً بدين الإسلام فيما مضى قبل نزول هذه الآية لأنه لم يزل يصرف نبيه رسول الله ﷺ وعباده المؤمنين من حال إلى حال وينقلهم من مرتبة إلى مرتبة أعلى منها حتى أكمل لهم شرائع الدين ومعالمه وبلغ بهم أقصى درجاته ومراتبه ثم أنزل عليهم هذه الآية: ورضيت لكم الإسلام ديناً، يعني بالصفة التي هو اليوم بها وهي نهاية الكمال وأنتم الآن عليه فالزموه ولا تفارقوه. روى البغوي بسنده عن جابر بن عبد الله قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول قال جبريل قال الله عز وجل: «هذا دين ارتضيته لنفسي ولن يصلحه إلا السخاء وحسن الخلق فأكرموه بهما ما صحبتموه» وروى الطبري عن قتادة قال: ذكر لنا أنه يمثل لكل أهل دين دينهم يوم القيامة فأما الإيمان فيبشر أصحابه وأهله ويعدهم في الخبر حتى يجيء الإسلام فيقول يا رب أنت السلام وأنا الإسلام فيقول إياك اليوم أقبل وبك اليوم أجزى. وقوله تعالى: ﴿**فمن اضطر في مخمصة غير متجانف لإثم**﴾ هذه الآية من تمام ما تقدم ذكره في المطاعم التي حرمها الله تعالى ومتصلة بها، والمعنى: أن المحرمات وإن كانت محرمة، إلا أنها قد تحل في حالة الاضطرار إليها. ومن قوله تعالى: ذلكم فسق، إلى هنا اعتراض وقع بين الكلامين والغرض منه تأكيد ما تقدم ذكره من معنى التحريم، لأن تحريم هذه الخبائث من جملة الدين الكامل والنعمة التامة والإسلام الذي هو المرضي عند الله.

ومعنى الآية: فمن اضطر أي أُجْهِدَ وأصيب بالضر الذي لا يمكنه معه الامتناع من أكل الميتة. وهو قوله تعالى: في مخمصة، يعني في مجاعة. والمخمصة: خلو البطن من الغذاء عند الجوع. غير متجانف لإثم: يعني غير مائل إلى إثم أو منحرف إليه. والمعنى: فمن اضطر إلى أكل الميتة أو إلى غيرها في المجاعة فليأكل غير متجانف لإثم وهو أن يأكل فوق الشبع. وقول فقهاء العراق. وقيل: معناه غير متعرض لمعصية في مقصد وهو قول فقهاء الحجاز ﴿**فإن الله غفور رحيم**﴾، يعني لمن أكل من الميتة في حال الجوع والاضطرار.

مطمئنين لم يخالطهم أحد من المشركين، ﴿ ورضيتُ لكم الإسلام ديناً ﴾، سمعتُ عبد الواحد قال: سمعت عبد الواحد المليحي قال: سمعت أبا محمد بن حاتم، قال: سمعت أبا بكر النيسابوري سمعت أبا بكر محمد بن الحسن بن المسيب المروزي، سمعت أبا حاتم محمد بن إدريس الحنظلي، سمعت عبد الملك بن مسلمة أنا مروان المصري سمعت إبراهيم بن أبي بكر بن المنكدر رضي الله عنه، سمعت عمّي محمد بن المنكدر سمعت جابر بن عبد الله يقول: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «قال جبريل قال الله تعالى: هذا دين ارتضيتُه لنفسي ولن يُصلِحَه إلّا السخاءُ وحُسْنُ الخُلق، فأكرمُوه بهما ما صحبتُمُوه». قوله عزّ وجلّ: ﴿ فَمَنِ اضْطُرَّ في مَخْمصَةٍ ﴾، أي: جهد في مجاعة، والمخمصة خلو البطن من الغذاء، يقال: رجل خميص البطن إذا كان طاوياً خاوياً، ﴿ غَيْرَ مُتَجانِفٍ لإثم ﴾ أي: مائل إلى إثم وهو أن يأكل فوق الشبع، وقال قتادة غير متعرّض لمعصية في مقصده، ﴿ فإنّ اللّهَ غفورٌ رحيم ﴾، وفيه إضمار، أي: فأكله فإنّ الله غفور رحيم، أخبرنا أبو عبد الله محمد بن الحسن المروزي أنا أبو العباس أحمد بن محمد بن سراج الطحّان أنا أبو أحمد محمد بن قريش بن سليمان أنا أبو الحسن علي بن عبد العزيز المكّي أنا أبو عبيدة القاسم بن سلام أنا محمد بن كثير عن الأوزاعي عن حسّان بن عطية عن أبي واقد الليثي قال رجل: يا رسول الله إنّا نكون بالأرض فتصيبُنا بها المخمصة فمتى تَحِلّ لنا الميتة؟ فقال: «ما لم تصطبحوا أو تغتبقوا أو تختفوا بها بقلاً فشأنكم بها».

﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْۖ قُلۡ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ وَمَا عَلَّمۡتُم مِّنَ ٱلۡجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُۖ فَكُلُواْ مِمَّآ أَمۡسَكۡنَ عَلَيۡكُمۡ وَٱذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهِۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ٤﴾

قوله عز وجل: ﴿**يسألونك ماذا أحل لهم**﴾ روى الطبري بسنده عن أبي رافع قال: «جاء جبريل إلى النبي ﷺ يستأذن عليه فأذن له فلم يدخل فقال: قد أذنَّا لك يا رسول الله قال أجل ولكنا لا ندخل بيتاً فيه كلب».

قال أبو رافع فأمرني أن أقتل كل كلب بالمدينة ففعلت حتى انتهيت إلى امرأة عندها كلب ينبح عليها فتركته رحمة لها ثم جئت إلى رسول الله ﷺ فأخبرته فأمرني بقتله فرجعت إلى الكلب فقتلته فجاؤوا إلى رسول الله ﷺ فقالوا يا رسول الله ما يحل لنا من هذه الأمة التي أمرت بقتلها قال فسكت رسول الله ﷺ فأنزل الله: ﴿**يسألونك ماذا أحل لهم قل أحلَّ لكم الطيبات وما علمتم من الجوارح مكلبين**﴾.

وروي عن عكرمة أن النبي ﷺ بعث أبا رافع في قتل الكلاب فقتل حتى بلغ العوالي فدخل عاصم وسعد بن أبي خيثمة وعويمر بن ساعدة على النبي ﷺ فقالوا: ماذا أحل لنا فنزلت: ﴿**يسألونك ماذا أحل لهم قل أحل لكم الطيبات وما علمتم من الجوارح مكلبين**﴾ قال ابن الجوزي: وأخرج حديث أبي رافع الحاكم في صحيحه قال البغوي: فلما نزلت هذه الآية أذن رسول الله ﷺ في اقتناء الكلاب التي ينتفع بها ونهى عن إمساك ما لا نفع فيه منها (ق) عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «من أمسك كلباً فإنه ينقص كل يوم من عمله قيراط إلا كلب حرث أو ماشية». ولمسلم أن رسول الله ﷺ قال «من اقتنى كلباً ليس بكلب صيد ولا ماشية ولا أرض فإنه ينقص من أجره قيراطان كل يوم» وقال سعيد بن جبير: نزلت هذه الآية في عدي بن حاتم وزيد بن المهلهل الطائيين وهو زيد الخيل الذي سماه رسول الله ﷺ زيد الخير قالا: يا رسول الله إنَّا قوم نصيد بالكلاب وبالبزاة فماذا يحل لنا فنزلت هذه الآية.

قال البغوي: وهذا القول أصح في سبب نزولها. وأما التفسير فقوله تعالى يسألونك يعني يسألك أصحابك يا محمد ما الذي أحل لهم أكله من المطاعم والمآكل كأنهم لما تلا عليهم من خبائث المآكل ما تلا سألوا عما أحل لهم ﴿**قل أحل لكم الطيبات**﴾ يعني قل لهم يا محمد أحل لكم الطيبات يعني: ما ذبح عن اسم الله عز وجل. وقيل: الطيبات كل ما تستطيبه العرب وتستلذه من غير أن يرد بتحريمه نص من كتاب أو سنة. واعلم: أن العبرة في الاستطابة والاستلذاذ بأهل المروءة والأخلاق الجميلة من العرب، فإن أهل البادية منهم يستطيبون أكل جميع الحيوانات فلا عبرة بهم لقوله تعالى: ﴿**ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث**﴾ فإن الخبيث غير مستطاب، فصارت هذه الآية

قوله: ﴿ يَسْئَلُونَكَ ماذا أُحِلّ لهم ﴾ الآية، قال سعيد بن جبير: نزلت هذه الآية في عديّ بن حاتم وزيد بن المهلهل الطائيّين وهو زيد الخيل الذي سمّاه رسول الله ﷺ زيد الخير، قالا يا رسول الله إنّا قوم نصيد بالكلاب والبزاة فماذا يحلّ لنا منها؟ فنزلت هذه الآية، وقيل: سبب نزولها أن النبي ﷺ لمّا أمر بقتل الكلاب قالوا: يا رسول الله ماذا يحلّ لنا من هذه الأمة التي أُمرت بقتلها؟ فنزلت هذه الآية، فلمّا نزلت أذِنَ رسول الله ﷺ في اقتناء الكلاب التي يُنتفع بها، ونهى عن إمساك مَا لَا نفعَ فيه منها، أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحي أنا أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الله بن بِشْرَان أنا إسماعيل بن محمد الصفار أنا أحمد بن منصور الزيادي أنا عبد الرزاق أنا معمر عن الزهري عن أبي سلمة عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «مَن اتخذ كلباً إلّا كلب ماشية أو صيد أو زرع انتقص من أجره كل يوم قيراط»، والأول أصح في سبب نزول الآية. ﴿ قُلْ أُحِلّ لكُمُ الطيباتُ ﴾، يعني: الذبائح على اسم الله تعالى، وقيل: كل ما تستطيبه العرب وتستلذّه من غير أنْ يرد بتحريمه نصّ من كتاب أو سُنّة

الكريمة نصاً فيما يحل ويحرم من الأطعمة. وقوله تعالى: ﴿وما علمتم من الجوارح مكلبين﴾ يعني وأحل صيد ما علمتم من الجوارح فحذف ذكر الصيد وهو مراد في الكلام لدلالة الباقي عليه ولأنهم سألوا عن الصيد وقيل: إن قوله وما علمتم من الجوارح ابتداء كلام خبره فكلوا مما أمسكن عليكم وعلى هذا القول يصح معنى الكلام من غير إضمار. والجوارح: جمع جارحة وهي الكواسب من: السباع والطير كالفهد والنمر والكلب والبازي والصقر والعقاب والشاهين والباشق من الطير مما يقبل التعليم سميت جوارح من الجرح لأنها تجرح الصيد عند إمساكه وقيل: سميت جوارح لأنها تكسب. والجوارح: الكواسب من جرح واجترح إذا اكتسب ومنه قوله تعالى: ﴿الذين اجترحوا السيئات﴾ يعني اكتسبوا وقوله ويعلم ما جرحتم بالنهار أي اكتسبتم مكلبين يعني معلمين.

والمكلب: هو الذي يغري الكلاب على الصيد. وقيل: هو مؤدِّب الجوارح ومعلمها وإنما اشتق له هذا الاسم من الكلب، لأنه أكثر احتياجاً إلى التعليم من غيره من الجوارح. (تعلمونهن) يعني تعلمون الجوارح الاصطياد ﴿مما علمكم الله﴾ يعني من العلم الذي علمكم الله، ففي الآية دليل على أنه لا يجوز صيد جارحة ما لم تكن معلمة. وصفة التعليم هو أن الرجل يعلم جارحة الصيد وذلك أن يوجد فيها أمور منها: أنه إذا أشليت[1] على الصيد استشلت وإذا زجرت انزجرت وإذا أخذت الصيد أمسكت ولم تأكل منها شيئاً ومنها أن لا ينفر منه إذا أراده وأن يجيبه إذا دعاه فهذا هو تعليم جميع الجوارح فإذا وجد ذلك منها مراراً كانت معلمة وأقلها ثلاث مرات فإنه يحل قتلها إذا جرحت بإرسال صاحبها (ق). عن عدي بن حاتم قال: سألت رسول الله ﷺ فقلت إنا قوم نصيد بهذه الكلاب؟ فقال «إذا أرسلت كلبك المعلم وذكرت اسم الله عليه فكل مما أمسك عليك إلا أن يأكل الكلب فلا تأكل فإني أخاف أن يكون إنما أمسك على نفسه وإن خالط كلاباً لم يذكر اسم الله عليه فأمسكن وقتلن فلا تأكل فإنما سميت على كلبك ولم تسم على غيره».

﴿ وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ ﴾، يعني: وأُحِلَّ لكم صيد ما علّمتم من الجوارح، واختلفوا في هذه الجوارح، فقال الضحاك والسدي: هي الكلاب دون غيرها، ولا يحلّ ما صاده غير الكلب إلاّ أن تُدرِكَ ذكاتَه، وهذا غير معمول به، بل عامّة أهل العلم على أنّ المراد من الجوارح الكواسب من سباع البهائم كالفهد والنمر والكلب ومن سِباع الطير كالبازي والعُقاب والصقر ونحوها ممّا يقبل التعليم، فيَحلّ صيدُ جميعها، سُمّيت جارحة: لجرحها أربابها أقواتهم من الصيد، أي: كسبها، يقال: فلان جارحة أهله، أي كاسبهم، ﴿ مُكَلِّبِينَ ﴾، والمُكلِّب الذي يغري الكلاب على الصيد، ويقال للذي يعلمها أيضاً: مُكلِّب، والكلاّب: صاحب الكلاب، ويقال للصائد بها أيضاً كلاّب، ونصبُ مكلّبين على الحال، أي: في حال تكليبكم هذه الجوارح أي إغرائكم إيّاها على الصيد، وذكر الكلاب لأنها أكثر وأعمّ، والمراد جميع جوارح الصيد، ﴿ تُعَلِّمُونَهُنَّ ﴾، تؤدّبونهنّ آدابَ أخذ الصيد، ﴿ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ ﴾، أي: من العلم الذي علّمكم الله، قال السدي: أي كما علّمكم الله، ﴿ من ﴾ بمعنى الكاف، ﴿ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عليكم واذْكُروا اسْمَ اللَّهِ عليهِ ﴾ أراد أن الجارحة المعلّمة إذا خرجتْ بإرسال صاحبها فأخذتِ الصيدَ وقتلته كان حلالاً، والتعليم هو أن يُوجَدَ فيها ثلاثةَ أشياء: إذا أُشليتْ استَشْلَتْ، وإذا زُجِرَتْ انزَجَرَتْ، وإذا أخذتِ الصيدَ أَمْسَكتْ ولم تأكل، وإذا وجد ذلك منه مراراً وأقلّها ثلاث مرات كانت معلّمة، يحلّ قتلها إذا خرجت بإرسال صاحبها، أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا موسى بن إسماعيل أنا ثابت بن زيد عن عاصم عن الشعبي عن عدي بن حاتم عن النبي ﷺ قال: «إذا أرسلتَ

---

(١) قوله إذا أشليت قال في الصحاح وقول الناس أشليت الكلب على الصيد خطأ وقال أبو زيد أشليت الكلب دعوته وقال ابن السكيت يقال أوسدت الكلب بالصيد وآسدته إذا أغريته به ولا يقال أشليته إنما الإشلاء الدعاء اهـ.

وفي رواية: فإنك لا تدري أيها قتل وسألته عن الصيد المعراض، فقال: إذا أصبت بحده فكل وإذا أصبت بعرضه فقتل فإنه وقيذ فلا تأكل وإذا رميت الصيد فوجدته بعد يوم أو يومين ليس به إلا أثر سهمك فكُلْ فإن وقع في المال فلا تأكل.

واختلف العلماء فيما إذا أخذت الكلاب الصيد وأكلت منه شيئاً فذهب أكثر أهل العلم إلى تحريمه ويروى ذلك عن ابن عباس وهو قول عطاء وطاوس الشعبي وبه قال الثوري وابن المبارك وأصحاب الرأي وهو أصح قول الشافعي ويدل عليه قوله ﷺ: وإن أكل فلا تأكل فإنما أمسك على نفسه ورخص بعضهم في أكله يروي ذلك عمر وسلمان الفارسي وسعد بن أبي وقاص وبه قال مالك لما روي عن أبي ثعلبة الخشني قال: قال رسول الله ﷺ في صيد الكلب «إذا أرسلت كلبك وذكرت اسم الله فكل وإن أكل منه» أخرجه أبو داود. وأما غير المعلم من الجوارح إذا أخذت صيداً أو المعلم إذا خرج بغير إرسال صاحبه فأخذ وقتل فإنه لا يحل إلا أن يدركه حياً فيذبحه فيحل (ق).

عن أبي ثعلبة الخشني قال: قلت يا رسول الله أنا بأرض قوم أهل كتاب أفنأكل في آنيتهم وبأرض صيد أصيد بقوسي وبكلبي الذي ليس بمعلم وبكلبي المعلم فما يصلح لي؟ قال: أما ما ذكرت من آنية أهل الكتاب فإن وجدتم غيرها فلا تأكلوا فيها وإن لم تجدوا غيرها فاغسلوها وكلوا فيها وما صدت بقوسك فذكرت اسم الله عليه فكل وما صدت بكلبك المعلم فذكرت اسم الله عليه فكل وما صدت بكلبك غير المعلم فأدركت ذكاته فكل.

وقوله تعالى: ﴿فكلوا مما أمسكن عليكم﴾ دخلت من في قوله مما للتبعيض لأنه إنما أحل أكل بعض الصيد وهو اللحم دون الفرث والدم. وقيل: من زائدة فهو كقوله تعالى: ﴿كلوا من ثمره إذا أثمر﴾ ﴿واذكروا اسم الله عليه﴾.

قال ابن عباس: يعني إذا أرسلت جارحك فقل بسم الله وإن نسيت فلا حرج. ومنه قوله ﷺ لعدي: «إذا أرسلت كلبك وذكرت اسم الله عليه فكل» فعلى هذا يكون الضمير في عليه عائد إلى ما علمتم من الجوارح أي سموا الله عليه عند إرساله. وقيل: الضمير عائد إلى ما أمسكن عليكم. والمعنى: سموا الله عليه إذا أدركتم ذكاته. وقيل: يحتمل أن

كلبَكَ المعلّم وسمّيتَ فأمسكَ وقتلَ فَكُلْ، وإن أكل فلا تأكل فإنّما أمسك على نفسه، وإذا خالط كلاباً لم يذكر اسم الله عليها فأمسكنَ وقتلنَ فلا تأكل فإنك لا تدري أيّها قتل، وإذا رميت الصيد فوجدته بعد يوم أو يومين ليس به إلاّ أثر سهمك فكُلْ وإن وقع في الماء فلا تأكل»، واختلفوا فيما إذا أخذت الصيد وأكلت منه شيئاً، فذهب أكثر أهل العلم إلى تحريمه، رُوِيَ ذلك عن ابن عباس، وهو قول عطاء وطاوس والشعبي، وبه قال الثّوري وابن المبارك وأصحاب الرأي وهو أصحّ قول الشافعي لقوله ﷺ: وإن أكل فلا تأكل فإنما أمسك على نفسه»، ورخّص بعضهم في أكله رُوِيَ ذلك عن ابن عمر وسلمان الفارسي وسعد بن أبي وقاص، وقال مالك: لِما رُوِيَ عن أبي ثعلبة الخشني قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أرسلتَ كلبكَ وذكرتَ اسمَ اللَّهِ تعالى فكُلْ وإن أكل منه»، وأمّا غير المعلم من الجوارح إذا أخذ صيداً أو المعلّم إذا جرح بغير إرسال صاحبه فأخذ وقتل فلا يكون حلالاً إلاّ أن يدركه صاحبه حيّاً فيذبحه، فيكون حلالاً، أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا عبد الله بن يزيد أنا حيوة أخبرني ربيعة بن يزيد الدمشقي عن أبي إدريس عن أبي ثعلبة الخشني قال: قلت: يا نبيّ الله إنّا بأرض قوم أهل كتاب أفنأكل في آنيتهم، وبأرضٍ صيدٌ أصيد بقوسي وبكلبي الذي ليس بمعلّم، وبكلبي المعلّم فما يصحّ لي؟ قال: «أمّا ما ذكرت من آنية أهل الكتاب فإنْ وجدتُم غيرَها فلا تأكلُوا فيها وإن لم تجدُوا فاغسلُوها وكلُوا فيها وما صِدْتَ بقوسك فذكرتَ اسمَ اللَّهِ عليه فكُلْ وما صِدْتَ بكلبك غير

يكون الضمير عائد إلى الأكل يعني واذكروا اسم الله عليه عند الأكل فعلى هذا تكون للتسمية شرطاً عند إرسال الجوارح وعند إرسال الذبيحة وعند الأكل وسيأتي بيان هذه المسألة[1] في سورة الأنعام عند قوله ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه ﴿واتقوا الله﴾ يعني واحذروا مخالفة الله يعني فيما أحل لكم وحرم عليكم ﴿إن الله سريع الحساب﴾ يعني إذا حاسب عباده يوم القيامة ففيه تخويف لمن خالف أمره وفعل ما نهاه عنه.

﴿ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٥﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿اليوم أحل لكم الطيبات﴾ إنما كرر إحلال الطيبات للتأكيد كأنه قال: اليوم أحل لكم الطيبات التي سألتم عنها ويحتمل أن يراد باليوم، اليوم الذي أنزلت فيه هذه الآية أو اليوم الذي تقدم ذكره في قوله: اليوم يئس الذي كفروا من دينكم اليوم أكملت لكم دينكم. ويكون الغرض من ذكر هذا الحكم، أنه تعالى قال: اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي، فبين أنه كما أكمل الدين وأتم النعمة، فكذلك أتم النعمة بإحلال الطيبات.

وقيل: ليس المراد باليوم يوماً معيناً وقد تقدم الكلام في ذلك اليوم وفي معنى الطيبات في الآية المتقدمة. وقوله تعالى: ﴿وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم﴾ يعني وذبائح أهل الكتاب حل لكم وهم اليهود والنصارى ومن دخل في دينهم من سائر الأمم قبل مبعث النبي ﷺ. فأما من دخل في دينهم بعد مبعث النبي ﷺ وهم متنصروا العرب من بني تغلب فلا تحل ذبيحته.

روي عن علي بن أبي طالب قال: لا تأكل من ذبائح نصارى العرب بني تغلب فإنهم لم يتمسكوا بشيء من النصرانية إلا بشرب الخمر. وبه قال ابن مسعود. ومذهب الشافعي: أن من دخل في دين أهل الكتاب بعد نزول القرآن، فإنه لا تحل ذبيحته.

المعلَّم فأدركتَ ذكاته فكُلْ». ﴿ واتقوا اللّهَ إنَّ اللّهَ سريعُ الحِسَاب ﴾، ففيه بيان أن ذكرَ اسمِ الله عزّ وجلّ على الذبيحة شرطٌ حالةَ ما يُذبح، وفي الصيد حالةَ ما يُرسِلُ الجارحةَ أو السهمَ، أخبرنا أبو الحسن علي بن عبد الرحمن بن محمد الداودي أنا أبو الحسن علي بن محمد بن إبراهيم بن الحسن بن علوية الجوهري قال: أنا أبو العباس محمد بن أحمد بن الأثرم المقري بالبصرة أنا عمر بن شيبة أنا أبي عدي عن سعيد عن قتادة عن أنس قال: ضحّى رسول الله ﷺ بكبشين أملحين أقرنين ذبحهما بيده وسمّى وكبّر، قال: رأيته واضعاً قدمه على صِفَاحِهِمَا ويذبحهما بيده ويقول: «بسم الله والله أكبر».

قوله عزّ وجلّ: ﴿ اليومَ أُحِلَّ لكُمُ الطَّيِّباتُ ﴾، يعني: الذبائح على اسم الله عزّ وجلّ: ﴿ وطعامُ الَّذينَ أُوتُوا الكتابَ حِلٌّ لكُمْ ﴾، يريد ذبائح اليهود والنصارى ومَن دخل في دينهم من سائر الأمم قبل مبعث محمد ﷺ حلالٌ لكم، فأمّا مَن دخل في دينهم بعد مبعث محمد ﷺ فلا تحلّ ذبيحتُه، ولو ذبح يهودي أو نصراني على اسم غير الله كالنصراني يذبح باسم المسيح فاختلفوا فيه، قال عمر: لا يحلّ وهو قول ربيعة، وذهب أكثر أهل العلم إلى أنه يحلّ وهو قول الشعبي وعطاء والزهري ومكحول، سُئِل الشعبي وعطاء عن النصراني يذبح باسم المسيح، قالا: يَحِلُّ فإن

---

(١) قوله وسيأتي بيان هذه المسألة الخ لم يتعرض لما ذكره هنا عند الآية الآتية في سورة الأنعام اهـ مصححه.

سئل ابن عباس عن ذبائح نصارى العرب فقال: لا بأس به. ثم قرأ: ومن يتولهم منكم، فإنه منهم وهذا قول الحسن وعطاء بن أبي رباح والشعبي وعكرمة وقتادة والزهري والحكم وحماد وهو مذهب أبي حنيفة ومالك وإحدى الروايتين عن أحمد والرواية الأخرى مثل هذا مذهب الشافعي.

وأجمعوا على تحريم ذبائح المجوس وسائر أهل الشرك من مشركي العرب وعبدة الأصنام ومن لا كتاب له، وأجمعوا على أن المراد بطعام الذين أوتوا الكتاب ذبائحهم خاصة لأن ما سوى الذبائح فهي محللة قبل أن كانت لأهل الكتاب وبعد أن صارت لهم فلا يبقى لتخصيصها بأهل الكتاب فائدة ولأن ما قبل هذه الآية في بيان حكم الصيد والذبائح فحمل هذه الآية عليه أولى ولأن سائر الطعام لا يختلف من تولاه من كتابي أو غيره، وإنما تختلف الذكاة، فلما خص أهل الكتاب بالذكر دل على أن المراد بطعامهم وذبائحهم واختلف العلماء فيما لو ذبح يهودي أو نصراني على غير اسم الله فقال ابن عمر: لا يحل ذلك وهو قول ربيعة وذهب أكثر أهل العلم إلى أنه يحل. سئل الشعبي وعطاء عن النصراني يذبح باسم المسيح فقال: يحل فإن الله قد أحل ذبائحهم وهو يعلم ما يقولون.

وقال الحسن: إذا ذبح اليهودي والنصراني وذكر غير اسم الله وأنت تسمع فلا تأكل وإذا غاب عنك فكل فقد أحله الله لك وقد زعم قوم أن هذه الآية اقتضت إباحة ذبائح أهل الكتاب مطلقاً وإن ذكروا غير اسم الله فيكون هذا ناسخاً لقوله تعالى: ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه، وليس الأمر كذلك ولا نسخ لأن الأصل أنهم يذكرون الله عند الذبح فيحمل أمرهم على هذا فإن تيقنا أنهم ذبحوا على غير اسم الله لم تأكل ولا وجه للنسخ.

وقوله تعالى: ﴿**وطعامكم حل لهم**﴾ يعني أن ذبائحنا لهم حلال وهذا يدل على أنهم مخاطبون بشريعتنا. وقال الزجاج: معناه ويحل لكم أن تطعموهم من طعامكم فجعل الخطاب للمؤمنين على معنى أن التحليل يعود إلى إطعامنا إياهم لا إليهم لأنه لا يمتنع أن يحرم الله تعالى أن تطعمهم من ذبائحنا. وقيل: إن الفائدة في ذكر ذلك أن إباحة المناكحة غير حاصلة من الجانبين وإباحة الذبائح كانت حاصلة من الجانبين لا جرم ذكر الله تعالى ذلك تنبيهاً على التمييز بين النوعين ثم قال تعالى: ﴿**والمحصنات من المؤمنات**﴾ قال مجاهد: هن الحرائر فعلى هذا القول لا تدخل الأمة المؤمنة في هذا التحليل ومن أجاز نكاحهن أجازه بشرطين: خوف العنت، وعدم طول الحرة.

وقال ابن عباس: المحصنات: العفائف. فعلى هذا القول لا يحل نكاح الزانية لأنها لم تدخل في هذا التحليل وأباح العلماء نكاحها إذا تابت وحسنت توبتها.

الله تعالى قد أحلَّ ذبائحهم وهو يعلم ما يقولون، وقال الحسن: إذا ذبح اليهودي أو النصراني فذكر اسم غير **الله** وأنت تسمع فلا تأكله فإذا غاب عنك فكُلْ فقد أحلّ لك، قوله عزّ وجلّ: ﴿ **وطَعَامُكُمْ حِلٌّ لهم** ﴾، فإن قيل: كيف شرع لهم حِلّ طعامنا وهم كفّار ليسوا من أهل الشرع؟ قال الزجّاج: معناه حلال لكم أن تطعموهم فيكون خطاب الحِلّ مع المسلمين، وقيل: لأنه ذكر عقيبه حكم النساء، ولم يذكر حِلَّ المسلمات لهم فكأنه قال حلالٌ لكم أن تطعموهم حرامٌ عليكم أن تُزوّجوهم، قوله عزّ وجلّ: ﴿ **والمُحصناتُ من المؤمناتِ والمُحصناتُ مِنَ الذين أُوتُوا الكتابَ مِنْ قبلِكم** ﴾، هذا راجع إلى الأول منقطع عن قوله: ﴿ **وطعامُكم حِلٌّ لهم** ﴾ اختلفوا في معنى ﴿ **المحصنات** ﴾ فذهب أكثر العلماء إلى أنّ المراد منهنّ الحرائر، وأجازوا نكاح كل حرّة مؤمنة كانت أو كتابية فاجرة كانت أو عفيفة، وهو قول مجاهد، وقال هؤلاء: لا يجوز للمسلم نكاح الأمة الكتابية لقوله تعالى: ﴿ **فمما ملكتْ أيمانُكم من فتياتِكم المُؤمنات** ﴾ [النساء: ٢٥] جوّز نكاح الأمة بشرط أن تكون الأمة مؤمنة، وجوّز أكثرُهم نكاح الأمة الكتابية الحربية، وقال ابن عباس: لا يجوز وقرأ ﴿ **قاتلُوا الذينَ لا يُؤمنُون بالله** ﴾ إلى قوله: ﴿ **حتى**

روى طارق بن شهاب أن رجلاً أراد أن يزوج أخته فقالت: إني أخشى أن أفضحك إني قد بغيت فأتى عمر فذكر ذلك له منها فقال: أليس قد تابت؟ قال: بلى. قال: فزوجها. وقيل: إنما خص المحصنات بالذكر وهن الحرائر أو العفائف ليحث المؤمنين على تخير النساء ليكون الولد كريم الأصل من الطرفين.

وقوله تعالى: ﴿**والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم**﴾ يعني وأحل لكم المحصنات من أهل الكتاب اليهود والنصارى. قال ابن عباس: يعني الحرائر من أهل الكتاب. وقال الحسن والشعبي والنخعي والضحاك: يريد العفائف من أهل الكتاب فعلى قول ابن عباس: لا يجوز التزوج بالأمة الكتابية وهو مذهب الشافعي قال: لأنه اجتمع في حقها نوعان من النقصان، الكفر، والرق. وعلى قول الحسن ومن وافقه، يجوز التزويج بالأمة الكتابية وهو مذهب أبي حنيفة لعموم هذه الآية. واختلف العلماء في حكم هذه المسألة فذهب جمهور الفقهاء إلى جواز التزويج بالذميات من اليهود والنصارى. روي أن عثمان بن عفان تزوج نائلة بنت الفرافصة على نسائه وهي نصرانية وأن طلحة بن عبيد الله تزوج يهودية وروي عن ابن عمر كراهية ذلك ويحتج بقوله تعالى: ﴿**ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن**﴾ وكان يقول: لا أعلم شركاً أعظم من قولها إن ربها عيسى وأجاب الجمهور عن قوله ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن بأنه عام خص بهذه الآية فأباح الله تعالى المحصنات من أهل الكتاب وحرم من سواهن من أهل الشرك وقال سعيد بن المسيب والحسن: يجوز التزويج بالذميات والحربيات من أهل الكتاب لعموم قوله تعالى: ﴿**والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم**﴾ وأجاب جمهور العلماء بأن ذلك مخصوص بالذميات دون الحربيات من أهل الكتاب.

قال ابن عباس: من نساء أهل الكتاب من تحل لنا ومنهن من لا تحل لنا. وقرأ: قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله إلى قوله حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون والمراد بهم أهل الذمة دون أهل الحرب من أهل الكتاب. وقوله تعالى: ﴿**إذا آتيتموهن أجورهن**﴾ يعني مهورهن وهو العوض الذي يبذله الزوج للمرأة ﴿**محصنين غير مسافحين**﴾ يعني متعففين بالتزوج غير زانين ﴿**ولا متخذي أخدان**﴾ يعني ولا منفردين ببغي واحدة قد خادنها وخادنته واتخذها لنفسه صديقة يفجر بها وحده حرم الله الجماع على جهة السفاح وهو الزنا واتخاذ الصديق وهو الخدن وأحله على جهة الإحصان وهو التزويج بعقد صحيح ﴿**ومن يكفر بالإيمان**﴾ يعني ومن يجحد ما أمر الله به من توحيده ونبوة محمد ﷺ وما جاء به من عند الله ﴿**فقد حبط عمله**﴾ يعني فقد بطل ثواب عمله الذي كان عمله في الدنيا وخاب وخسر في الدنيا والآخرة. وقيل في معنى الآية، ومن يكفر بشرائع الإيمان وتكاليفه فقد خاب وخسر وقال قتادة ذكر لنا إن ناساً من المسلمين قالوا: كيف نتزوج نساءهم؟ يعني نساء أهل الكتاب وهم على غير ديننا، فأنزل الله تعالى: ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله وهو في الآخرة من الخاسرين. وقيل: لما أباح الله تعالى نكاح الكتابيات، قلن فيما بينهن لولا أن الله قد رضي أعمالنا لم يُبِحْ للمؤمنين تزويجنا، فأنزل الله هذه الآية والمعنى أن تزوج المسلمين إياهن ليس بالذي

يُعطُوا الجزيةَ عن يَدٍ وهم صَاغِرُون ﴾ [التوبة: ٢٩]، فمَن أعطى الجزية حَلّ لنا نساؤه ومَن لم يعطِها فلا يحلّ لنا نساؤه، وذهب قوم إلى أن المراد من المحصنات في الآية: العفائف من الفريقين حرائر كنّ أو إماء وأجازوا نكاح الأمة الكتابية، وحرّموا البغايا من المؤمنات والكتابيات، وهو قول الحسن، وقال الشعبي: إحصان الكتابية أن تستعفّ من الزنا وتغتسل من الجنابة، ﴿ **إذا آتيتُموهُنّ أُجُورَهُنّ مُحصنينَ غيرَ مُسافِحِينَ** ﴾، غير مُعالنين بالزنا، ﴿ **ولا مُتّخِذِي أخْدَانٍ** ﴾، أي: غير مُسرِّين تسرّونهنّ بالزنا، قال الزجّاج: حرّم الله الجماع على جهة السفاح وعلى جهة اتخاذ الصديقة، وأحلّه على جهة الإحصان وهو التزوّج ﴿ **ومَن يكفرْ بالإيمانِ فقدْ حَبِطَ عملُه وهُوَ في الآخِرَةِ مِنَ الخَاسِرِينَ** ﴾، قال مقاتل بن حيّان: يقول ليس إحصان المسلمين إيّاهنّ بالذي يخرجهنّ من الكفر أو يغني

يخرجهن من الكفر. وقيل: إن أهل الكتاب وإن حصلت لهم في الدنيا فضيلة بإباحة ذبائحهم ونكاح نسائهم إلا أن ذلك غير حاصل لهم في الآخرة، لأن كل من كفر بالله وجحد نبوة محمد ﷺ، فقد حبط عمله وهو في الآخرة من الخاسرين.

وقيل: إن من أحل ما حرم الله أو حرم ما أحل الله أو جحد بشيء مما أنزل الله فقد كفر بالله وحبط عمله المتقدم ﴿وهو في الآخرة من الخاسرين﴾ إذا مات على ذلك وهذا الشرط لا بد منه لأنه إذا تاب وآمن قبل الموت قبلت توبته وصح إيمانه. قوله عز وجل:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ وَإِن كُنتُمۡ جُنُبٗا فَٱطَّهَّرُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُم مِّنۡهُۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٖ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمۡ وَلِيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٦﴾

﴿يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة﴾ يعني إذا أردتم القيام إلى الصلاة ومثله قوله تعالى: ﴿فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله﴾ أي: إذا أردت قراءة القرآن فاستعذ بالله ومثله من الكلام إذا أتجرت فأتجر في البر أي إذا أردت التجارة. وهذا القول يقتضي وجوب الوضوء عند كل صلاة وهو ظاهر الآية ومذهب داود الظاهري وذهب جمهور العلماء من الصحابة فمن بعدهم إلى أنه يجزىء عدة صلوات بوضوء واحد وأجيب عن ظاهر الآية بأن المعنى إذا قمتم إلى الصلاة وأنتم على غير طهر فحذف ذلك لدلالة المعنى عليه وهذا أحد اختصارات القرآن وهو كثير جداً ولأن النبي ﷺ جمع يوم الخندق بين أربع صلوات بوضوء واحد وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «لا يقبل الله صلاة أحدكم إذا أحدث حتى يتوضأ» أخرجاه في الصحيحين وقيل في معنى الآية: إذا قمتم إلى الصلاة من النوم وقيل: هو أمر ندب من قام إلى الصلاة أن يجدد لها طهارة وإن كان على طهر ويدل عليه ما روي عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «من توضأ على طهر كتب الله له عشر حسنات» أخرجه الترمذي. وقيل: هذا إعلام من الله إلى رسول الله ﷺ

عنهنّ شيئاً وهي للناس عامّة ﴿ وَمَنْ يكفرْ بالإيمانِ فقدْ حَبِط عملُه وهو في الآخرةِ مِنَ الخاسرين ﴾ قال ابن عباس ومجاهد في معنى قوله تعالى: ﴿ ومَنْ يكفرْ بالإيمان ﴾ أي: بالله الذي يجب الإيمانُ به، وقال الكلبي: بالإيمان أي: بكلمة التوحيد وهي شهادة أن لا إله إلاّ الله، وقال مقاتل: بما أُنزل على محمد ﷺ وهو القرآن، وقيل: مَن يكفر بالإيمان أي: يستحلّ الحرامَ ويحرّم الحلالَ فقد حَبِطَ عمله، وهو في الآخرة من الخاسرين قال ابن عباس: خسر الثواب.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ يا أيها الذينَ آمنُوا إذا قمتُم إلى الصّلاةِ ﴾، أي: إذا أردتُمُ القيامَ إلى الصلاةِ، كقوله تعالى: ﴿ فإذا قرأتَ القرآن فاستَعِذْ بالله ﴾ [النحل: ٩٨]، أي: إذا أردتَ القراءةَ، وظاهر الآية يقتضي وجوب الوضوء عند كلّ مرّة يريد القيام إلى الصلاة، لكن علمنا ببيان السُّنّة وفعل النبي ﷺ أنّ المرادَ من الآية: ﴿ إذا قمتُم إلى الصّلاة ﴾ وأنتم على غير طُهر، قال النبي ﷺ: «لا يقبلُ اللّهُ صلاةَ أحدكم إذا أحدث حتى يتوضأ»، وقد جمع النبي ﷺ يوم الخندق بين أربع صلوات بوضوء واحد، أخبرنا أبو القاسم عبد الله بن محمد الحنفي أنا أبو الحارث

أن لا وضوء عليه إلا إذا قام إلى الصلاة دون غيرها من الأعمال ويدل عليه ما روي عن ابن عباس «أن رسول الله ﷺ خرج يوماً من الخلاء فقدم إليه طعام فقالوا ألا نأتيك بوضوء فقال إنما أمرت بالوضوء إذا قمت إلى الصلاة» أخرجه مسلم. والقول الأول هو المختار في معنى الآية وفروض الوضوء المذكور في هذه الآية أربعة: الأول غسل الوجه وهو قوله تعالى: ﴿**فاغسلوا وجوهكم**﴾ واستدل الشافعي على وجوب النية عند غسل الوجه بهذه الآية وحجته أن الوضوء مأمور به وكل مأمور به يجب أن يكون منوياً ولما روي في الصحيحين من حديث عمر بن الخطاب أن النبي ﷺ «قال إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى». والوضوء من الأعمال فيجب أن يكون منوياً وإنما قلنا: إن الوضوء مأمور به وأنه من أعمال الدين لقوله تعالى: ﴿**وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين**﴾. والإخلاص، عبارة عن النية الخالصة ومتى كانت النية الخالصة، معتبرة كان أصل النية في جميع الأعمال التي يتقرب بها إلى الله تعالى معتبراً. واستدل أبو حنيفة لعدم وجوب النية في الوضوء بهذه الآية قال: إن النية ليست شرطاً لصحة الوضوء، لأن الله تعالى أوجب غسل الأعضاء الأربعة في هذه الآية ولم يوجب النية فيها، فإيجاب النية زيادة على النص والزيادة على النص نسخ ونسخ القرآن بخبر الواحد وبالقياس غير جائز. وأجيب عنه: بأنا إنما أوجبنا النية في الوضوء بدلالة القرآن وهو قوله تعالى: ﴿**وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين**﴾ وأما حد الوجه، فمن منابت شعر الرأس إلى منتهى الذقن طولاً ومن الأذن إلى الأذن عرضاً لأنه مأخوذ من المواجهة فيجب غسل جميع الوجه في الوضوء ويجب إيصال الماء إلى ما تحت الحاجبين وأهداب العينين والعذارين والشارب والعنفقة وإن كانت كثة. وأما اللحية فإن كانت كثة لا ترى البشرة من تحتها لا يجب غسل ما تحتها ويجب غسل ما تحت اللحية الخفيفة وهل يجب إمرار الماء على ظاهر ما نزل من اللحية عن الذقن؟ فيه قولان: أحدهما وبه قال أبو حنيفة، لا يجب لأن الشعر النازل عن حد الرأس لا يكون حكمه حكم الرأس في المسح فكذلك حكم الشعر النازل عن حد الوجه لا يجب غسله. والقول الثاني يجب إمرار الماء على ظاهره لأن الوجه مأخوذ من المواجهة فتدخل جميع اللحية في حكم الوجه. الفرض الثاني قوله تعالى: ﴿**وأيديكم إلى المرافق**﴾ يعني: واغسلوا أيديكم إلى المرافق والمِرافق بالكسر هو من الإنسان أعلى الذراع وأسفل العضد. وذهب جمهور العلماء إلى وجوب إدخال المرفقين في الغسل ونقل عن مالك والشافعي وزفر وأبي بكر بن داود الظاهري، أنه لا يجب إدخال المرفقين في الغسل واختاره ابن جرير الطبري. ونقل عن مالك: وقد سئل عن قول الله عز وجل: ﴿**فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق**﴾ فقال: الذي آمر به أن يبلغ المرفقين في الغسل لا يجاوزهما وحجة أصحاب هذا القول أن كلمة إلى لانتهاء الغاية وما يجعل غاية للحكم يكون خارجاً عنه كما في قوله

طاهر بن محمد الطاهري أنا أبو محمد الحسن بن محمد بن حكيم أنا أبو الموجة محمد بن عمرو بن الموجة أنا عبدان أنا سفيان عن علقمة بن مرثد عن سلمان بن بريدة عن أبيه أنّ النبي ﷺ صلّى يومَ فتحِ مكةَ الصلواتِ بوضوءٍ واحد، ومسح على خُفّيه. وقال زيد بن أسلم: معنى الآية إذا قمتم إلى الصلاة من النوم، وقال بعضهم: هو أمر على طريق النّدب، ندب مَن قام إلى الصلاة أن يجدّد لها طهارته وإن كان على طُهر، روى ابن عمر رضي الله عنهما أنّ النبي ﷺ قال: «مَنْ توضأ على طُهرٍ كتبَ اللّهُ له عشرَ حسناتٍ»، وروَى عبد الله بن حنظلة بن عامر «أن رسول الله ﷺ أمر بالوضوء عند كلِّ صلاةٍ طاهراً أو غير طاهر، فلمّا شقّ ذلك عليه أمر بالسِّواك لكلِّ صلاةٍ». وقال بعضهم: هذا إعلام من الله سبحانه وتعالى لرسول الله ﷺ أن لا وضوء عليه إلاّ إذا قام إلى الصلاةِ دون غيرها من الأعمال، فأذن له أن يفعل بعد الحدث ما بَدَا له من الأفعال غير الصلاة، أخبرنا أبو القاسم الحنفي أنا أبو الحارث الطاهري أنا الحسن بن محمد بن حكيم أنا أبو الموجة أنا صدقة أنا ابن عُيينة عن عمرو بن دينار سمع سعيد بن الحويرث سمع ابن عباس رضي الله عنهما يقول: كنّا عند النبي ﷺ فرجع من الغائط فأُتِيَ بطعامٍ فقيل له: ألا تتوضأ؟ فقال: «لم أصلِّ فأتوضأ». قوله عزّ وجلّ: ﴿ فاغْسِلُوا وُجُوهَكُم ﴾ وحدُّ الوجه من مَنَابِتِ شعر الرأس إلى

تعالى: ﴿ثم أتموا الصيام إلى الليل﴾ ولأن الحد لا يدخل في المحدود فوجب أن لا يجب غسل المرفقين في الوضوء وحجة الجمهور أن كلمة إلى هنا بمعنى مع ومنه قوله تعالى: ﴿ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم﴾ أي مع أموالكم ويعضده من السنة ما صح من حديث أبي هريرة أنه توضأ فغسل وجهه فأسبغ الوضوء ثم غسل اليمنى حتى أشرع في العضد ثم يده السرى حتى أشرع في العضد ثم قال: هكذا رأيت رسول الله ﷺ كان يتوضأ. والجواب عن الحجة المتقدمة إن الحد إذا كان من جنس المحدود دخل فيه كما في هذه الآية لأن المرفق من جنس اليد وإذا لم يكن من جنس المحدود لم يدخل فيه كما في قوله تعالى: ﴿ثم أتموا الصيام إلى الليل﴾ لأن النهار من غير جنس الليل فلا يدخل فيه. الفرض الثالث: قوله تعالى: ﴿وامسحوا برؤوسكم﴾ اختلف العلماء في القدر الذي يجب مسحه من الرأس فقال مالك يجب مسح جميعه وهو إحدى الروايتين عن أحمد والرواية الأخرى عنه أنه يجب مسح أكثره وقال أبو حنيفة: يجب مسح ربعه. وفي رواية أخرى عنه: يجب مسح قدر ثلاثة أصابع منه وقال الشافعي الواجب مسح ما ينطلق عليه اسم المسح والمراد إلصاق المسح بالرأس وماسح بعضه ومستوعبه بالمسح كلاهما ملصق للمسح بالرأس فأخذ مالك بالاحتياط فأوجب الاستيعاب وأخذ الشافعي باليقين فأوجب مسح ما يقع عليه اسم المسح وأخذ أبو حنيفة ببيان السنة وهو ما روي عن المغيرة بن شعبة أن النبي ﷺ توضأ فمسح بناصيته وعلى العمامة والخفين متفق عليه وقدر الناصية بربع الرأس. الفرض الرابع: قوله تعالى: ﴿وأرجلكم إلى الكعبين﴾ اختلف العلماء في هذا الحكم. وهل فرض الرجلين المسح أو الغسل؟ فروى عن ابن عباس أنه قال: الوضوء غسلتان ومسحتان. ويروى ذلك عن قتادة أيضاً. ويروى عن أنس أنه قال: نزل القرآن بالمسح والسنة بالغسل. وعن عكرمة قال: ليس في الرجلين إنما نزل فيهما المسح. وعن الشعبي أنه قال: إنما هو المسح عن الرجلين. ألا ترى إن ما كان عليه الغسل جعل عليه التيمم وما كان عليه المسح أهمل. ومذهب الإمامية من الشيعة: أن الواجب في الرجلين المسح.

وقال جمهور العلماء من الصحابة والتابعين فمن بعدهم والأئمة الأربعة وأصحابهم: إن فرض الرجلين هو

مُنتهى الذقن طولاً وما بين الأذنين عرضاً يجب غسل جميعه في الوضوء، ويجب أيضاً إيصالُ الماء إلى ما تحت الحاجبين وأهداب العينين والشارب والعذار أو العنفقة وإن كانت كثيفاً وأمّا العارض واللحية فإن كانت كثيفة لا تُرى البشرة من تحتها لا يجب غسل باطنها في الوضوء، بل يجب غسل ظاهرها وهل يجب إمرارُ الماء على ظاهر ما استرسل من اللحية عن الذقن؟ فيه قولان، أحدهما: لا يجب وبه قال أبو حنيفة رضي الله عنه لأن الشعر النازل عن حدّ الرأس لا يكون حكمه حكم الرأس في جواز المسح عليه، كذلك النازل عن حدّ الوجه لا يكون حكمه حكم الوجه في وجوب غسله، والقول الثاني: يجب إمرار الماء على ظاهره، لأن الله تعالى أمر بغسل الوجه، والوجه ما يقع به المواجهة من هذا العضو، ويقال في اللغة بقل وجه فلان وخرج وجهه: إذا نبتت لحيته. قوله تعالى: ﴿ وأيديَكم إلى المرافقِ ﴾، أي: مع المرافق، كما قال الله تعالى: ﴿ ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم ﴾ [النساء: ٢] أي: مع أموالكم، وقال: ﴿ مَن أنصاري إلى الله ﴾ [آل عمران: ٥٢، الصفّ: ١٤] أي: مع الله، وأكثر العلماء على أنه يجب غسل المرفقين، وفي الرِّجْل يجب غسل الكعبين، وقال الشعبي ومحمد بن جرير: لا يجب غسل المرفقين والكعبين في غسل اليد والرِّجْل لأن حرف إلى للغاية والحدّ، فلا يدخل في المحدود، قلنا: ليس هذا بحدّ ولكنه بمعنى مع كما ذكرنا، وقيل: الشيء إذا حدّ إلى جنسه يدخل فيه الغاية، وإذا حدّ إلى غير جنسه لا يدخل، كقوله تعالى: ﴿ ثم أتمُّوا الصيامَ إلى الليل ﴾ [البقرة: ١٨٧]، لم يدخل الليل فيه لأنه ليس من جنس النهار، قوله تعالى: ﴿ وامْسَحُوا برُءُوسِكُم ﴾، اختلف العلماء في قدر الواجب من مسح الرأس فقال مالك: يجب مسح جميع الرأس كما يجب مسح جميع الوجه في التيمّم، وقال أبو حنيفة: يجب مسح ربع الرأس، وعند

الغسل. وقال داود الظاهري: يجب الجمع بينهما. وقال الحسن البصري ومحمد بن جرير الطبري: المكلف مخير بين الغسل والمسح. وسبب هذا الاختلاف، اختلاف القراء في هذا الحرف. فقرأ نافع وابن عامر والكسائي وحفص عن عاصم: وأرجلكم بفتح اللام عطفاً على الغسل فيكون من المؤخر الذي معناه التقديم ويكون المعنى فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق وأرجلكم إلى الكعبين وامسحوا برؤوسكم. وقال أصحاب هذه القراءة: إنما أمر الله عباده بغسل الأرجل دون مسحها ويدل عليه أيضاً فعل النبي ﷺ وأصحابه والتابعين فمن بعدهم. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وحمزة وأبو بكر عن عاصم وأرجلكم بكسر اللام عطفاً على المسح. أما قراءة النصب فالمعنى فيها ظاهر لأنه عطف على المغسول لوجوب غسل الرجلين على مذهب الجمهور ولا يقدح فيه قول من خالف. وأما قراءة الكسر فقد اختلفوا في معناها والجواب عنها فقال أبو حاتم وابن الأنباري وأبو علي الكسر عطف على الممسوح، غير أن المراد بالمسح في الأرجل الغسل. وقال أبو زيد: المسح خفيف الغسل لقول العرب تمسحت للصلاة بمعنى توضأت لها وهات ما أتمسح به للصلاة بمعنى أتوضأ.

قال أبو حاتم: وذلك أن المتوضىء لا يرضى بصب الماء على أعضائه حتى يمسحها مع الغسل فسمي الغسل مسحاً بهذا الاعتبار فعلى هذا الرأس والرجل ممسوحاً إلا أن مسح الرأس أخف. والذي يدل على أن المراد بالمسح في الرجل الغسل ذكر التحديد وهو قوله تعالى: إلى الكعبين لأن التحديد إنما جاء في المغسول ولم يجىء في الممسوح فلما وقع التحديد مع المسح علم أنه في حكم الغسل. وقال جماعة من العلماء: إن الأرجل معطوفة على الرؤوس في الظاهر والمراد فيها الغسل لأنه قد ينسق بالشيء على غيره والحكم فيهما مختلف كما قال الشاعر:

يا ليت بعلك قد غدا ... متقلداً سيفاً ورمحا

والمعنى: وحاملاً رمحاً لأن الرمح لا يتقلد به وكذلك قول الآخرين. علفتها تبناً وماء بارداً. يعني وسقيتها ماء بارداً. وكذلك المعنى في الآية وامسحوا برؤوسكم واغسلوا أرجلكم فلما لم يذكر الغسل وعطفت الأرجل على الرؤوس في الظاهر اكتفى بقيام الدليل على أن الأرجل مغسولة من مفهوم الآية والأحاديث الصحيحة الواردة بغسل الرجلين في الوضوء. وأما من جعل كسر اللام في الأرجل على مجاورة اللفظ دون الحكم واستدل بقولهم: جحر

الشافعي رحمه الله: يجب قدرُ ما يُطلق عليه اسم المسح، واحتجّ مَن أجاز مسح بعض الرأس بما أخبرنا عبد الوهاب بن محمد الخطيب أنا عبد العزيز بن أحمد الخلال أنا أبو العباس الأصم أنا الربيع أنا الشافعي أنا يحيىٰ بن حسان عن حمّاد بن زيد وابن عليّة عن أيوب السختياني عن ابن سيرين عن عمرو بن وهب الثقفي عن المغيرة بن شعبة «أنّ النبي ﷺ توضأ فمسح بناصيته وعلى عمامته وخُفّيه»، فأجاز بعض أهل العلم المسح على العمامة بهذا الحديث وبه قال الأوزاعي وأحمد وإسحق ولم يُجوّز أكثر أهل العلم المسح على العمامة بدلاً من مسح الرأس، وقال: في حديث المغيرة أن فرض المسح سقط عنه بمسح الناصية، وفيه دليل على أن مسح جميع الرأس غير واجب. قوله عزّ وجلّ: ﴿ وأرْجُلَكُم إلى الكَعبينِ ﴾، قرأ نافع وابن عامر والكسائي ويعقوب وحفص «أرْجُلَكم» بنصب اللّام، وقرأ الآخرون «وأرْجُلِكم» بالخفض، فمَن قرأ «وأرجلكم» بالنصب فيكون عطفاً على قوله: ﴿ فاغسلوا وجوهكم وأيديكم ﴾ أي: واغسلوا أرجلكم، ومَن قرأ بالخفض فقد ذهب قليل من أهل العلم إلى أنه يمسح على الرجلين، ورُوِيَ عن ابن عباس أنه قال: الوضوء غسلتان ومسحتان، ويُروى ذلك عن عكرمة وقتادة، وقال الشعبي: نزل جبريل بالمسح وقال: ألا ترى المتيمّم يمسح ما كان غسلاً ويلغي ما كان مسحاً، وقال محمد بن جرير الطبري يتخيّر المتوضىء بين المسح على الخفّين وبين غسل الرجلين، وذهب جماعة أهل العلم من الصحابة والتابعين وغيرهم إلى وجوب غسل الرجلين، وقالوا: خفض اللّام في الأرجل على مجاورة

ضب خرب. وقال: الخرب نعت للجحر لا للضب وإنما أخذ إعراب الضب للمجاورة فليس يجيد لأن الكسر على المجاورة إنما يحمل لأجل الضرورة في الشعر أو يصار إليه حيث يحصل الأمن من الالتباس لأن الخرب لا يكون نعتاً للضب بل للجحر ولأن الكسر بالجوار إنما يكون بدون حرف العطف.

أما مع حرف العطف فلم تتكلم به العرب وقوله تعالى: ﴿إلى الكعبين﴾ فيه دليل قاطع على وجوب غسل الكعبين كما في وجوب غسل الرجلين كما في قوله تعالى: ﴿وأيديكم إلى المرافق﴾ والمعنى: واغسلوا أرجلكم مع الكعبين وقد تقدم اختلاف العلماء في ذلك عند قوله إلى المرافق، والكعبان: هما العظمان الناتئان عند مفصل الساق والقدم هذا قول جمهور العلماء من أهل الفقه واللغة وشذت الشيعة، ومن قال بمسح الرجلين. فقال: الكعب عبارة عن عظم مستدير على ظهر القدم ويدل على بطلان هذا القول أن الكعب لو كان على ما ذكره لكان في كل رجل كعب واحد فكان ينبغي أن يقال: وأرجلكم إلى الكعاب كما في قوله تعالى: ﴿وأيديكم إلى المرافق﴾ فلما قال إلى الكعبين علم أن لكل رجل كعبين فبطل ما قالوه وثبت قول الجمهور.

(فصل)

قد تقدم أن الفروض المذكورة في هذه الآية أربعة: وهي غسل الوجه وغسل اليدين إلى المرفقين ومسح الرأس وغسل الرجلين إلى الكعبين وقد تقدم استدلال الشافعي بهذه الآية على وجوب النية في الوضوء فصارت فرضاً خامساً. وذهب الشافعي ومالك وأحمد إلى وجوب الترتيب في الوضوء، وهو أن يغسل الأعضاء في الوضوء على الولاء كما ذكره الله في هذه الآية فيغسل أولاً وجهه ثم يده ثم يمسح رأسه ثم يغسل رجليه، فصار الترتيب فرضاً سادساً. وذهب أبو حنيفة، إلى أن الترتيب في الوضوء غير واجب احتج الشافعي على وجوب الترتيب بهذه الآية وذلك أن الله تعالى أمر بغسل الوجه ثم بغسل اليدين ثم بمسح الرأس ثم بغسل الرجلين فوجب أن يقع الفعل مرتباً كما أمر الله تعالى ولقوله ﷺ في حديث حجة الوداع «ابدأ بما بدأ الله به» وهذا الحديث، وإن ورد في قصة السعي بين الصفا والمروة، فإن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، ولأن أفعال النبي ﷺ في الوضوء ما وردت إلا مرتبة كما ورد في نص الآية ولم ينقل عنه ولا عن غيره من الصحابة أنه توضأ منكساً أو غير مرتب، فثبت أن ترتيب أفعال الوضوء كما مر الله تعالى ونص عليه في هذه الآية واجب واحتج. أبو حنيفة لمذهبه بهذه الآية أيضاً. وذلك أن الواو لا توجب الترتيب، فإذا قلنا بوجوب الترتيب صار ذلك زيادة على النص وذلك غير جائز وأجيب عنه بأنه لم ينقل عن النبي ﷺ أنه توضأ إلا مرتباً كما ذكر وبيان الكتاب إنما يؤخذ من السنة.

اللفظ لا على موافقة الحكم، كما قال تبارك وتعالى: ﴿ عذاب يوم أليم ﴾ [هود: ٢٦، الزخرف: ٦٥]، فالأليم صفة العذاب، ولكنه أخذ أعراب اليوم للمجاورة، وكقولهم: جُحْرُ ضبٍّ خربٍ، فالخراب نعت الجُحر، وأخذ أعراب الضبِّ للمجاورة، والدليل على وجوب غسل الرجلين ما أخبرنا أبو سعيد أحمد بن محمد بن العباس الحميدي الخطيب أنا أبو عبد الله الحافظ أنا أبو عبد الله محمد بن يعقوب أنا يحيىٰ بن محمد بن يحيىٰ أنا الحجبي ومسدد قال: أخبرنا أبو عوانة عن أبي بشرٍ عن يوسف بن ماهك عن عبد الله بن عمرو قال: تخلّف عنّا رسول الله ﷺ العلماء في سفر سافرناه فأدركنا وقد أرهقتنا الصلاةُ صلاة العصر، ونحن نتوضأ فجعلنا نمسح على أرجلنا فنادانا بأعلى صوته: «وَيلٌ للأعقابِ منَ النّار»، أخبرنا عبد الواحد المليحي أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا عبد الله أنا معمر حدّثني الزهري عن عطاء بن يزيد عن حمران مولى عثمان قال: رأيتُ عثمان رضي الله عنه توضأ فأفرغ على يديه ثلاثاً ثم تمضمض واستنشق، ثم غسل وجهه ثلاثاً، ثم غسل يده اليمنى إلى المِرفق ثلاثاً، ثم غسل يده اليسرى إلى المِرفق ثلاثاً، ثم مسح برأسه، ثم غسل رجله

(فصل في ذكر الأحاديث التي وردت في صفة الوضوء وفضله)

(ق) عن حمران مولى عثمان بن عفان «أن عثمان دعا بإناء فأفرغ على كفيه ثلاث مرات فغسلهما ثم أدخل يمينه في الإناء فمضمض واستنشق واستنثر ثم غسل وجهه ثلاثاً ويديه إلى المرفقين ثلاثاً ثم مسح برأسه ثم غسل رجليه ثلاث مرات إلى الكعبين ثم قال: رأيت رسول الله ﷺ توضأ نحو وضوئي هذا ثم قال: من توضأ نحو وضوئي هذا ثم صلى ركعتين لا يحدث فيهما نفسه غفر له ما تقدم من ذنبه» (ق).

عن عبد الله بن زيد بن عاصم الأنصاري «قيل له توضأ لنا وضوء رسول الله ﷺ فدعا بإناء فأفرغ منه على يديه ثلاثاً ثم أدخل يده فاستخرجها فغسل وجهه ثلاثاً ثم أدخل يده فاستخرجها فغسل يديه إلى المرفقين مرتين مرتين ثم أدخل يده فاستخرجها فمسح برأسه فأقبل بيديه وأدبر ثم غسل رجليه إلى الكعبين ثم قال هكذا كان وضوء رسول الله ﷺ» زاد في رواية بعد قوله: «فأقبل بيديه وأدبر بدأ بمقدم رأسه ثم ذهب بهما إلى قفاه ثم ردهما حتى رجع إلى المكان الذي بدأ منه».

عن عبد خير قال: أتانا علي كرم الله وجهه وقد صلى فدعا بطهور فقلنا ما يصنع بالطهور وقد صلى ما يريد إلا ليعلمنا فأتى بإناء فيه ماء وطست فأفرغ من الإناء على يمينه فغسل يده ثلاثاً ثم تمضمض واستنشق ثلاثاً فمضمض ونثر من كف يأخذ منه ثم غسل وجهه ثلاثاً وغسل يده اليمين ثلاثاً وغسل الشمال ثلاثاً ثم جعل يده في الإناء فمسح رأسه مرة واحدة ثم غسل رجله اليمنى ثلاثاً ورجله الشمال ثلاثاً ثم جعل يده في الإناء فمسح رأسه مرة واحدة ثم غسل رجله اليمنى ثلاثاً ورجله الشمال ثلاثاً ثم قال: «من سره أن يعلم وضوء رسول الله ﷺ فهو هذا» أخرجه أبو داود عن عبد الله بن عمرو بن العاص «أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال يا رسول الله كيف الطهور فدعا بماء في إناء فغسل كفيه ثلاثاً ثم غسل وجهه ثلاثاً ثم غسل ذراعيه ثلاثاً ثم مسح برأسه فأدخل اصبعيه السبابتين في أذنيه ومسح بإبهاميه على ظاهر أذنيه ثم غسل رجليه ثلاثاً ثلاثاً ثم قال: هكذا الوضوء فمن زاد على هذا أو نقص فقد أساء وظلم أو قال ظلم وأساء» أخرجه أبو داود.

وعن ابن عباس: «أن رسول الله ﷺ مسح برأسه وأذنيه ظاهرهما وباطنهما» أخرجه الترمذي وصححه (ق) عن

اليمنى ثلاثاً، ثم قال: رأيتُ رسولَ الله ﷺ توضأ نحو وُضوئي هذا، ثم قال: «مَن توضأ نحو وضوئي هذا ثم صلّى ركعتين لا يحدّثُ نفسَه فيهما بشيء غُفر له ما تقدّم من ذنبه». وقال بعضهم: أراد بقوله: ﴿ وأرجلكم ﴾ المسح على الخفّين كما رُوِيَ أنّ النبي ﷺ كان إذا ركع وضع يديه على ركبتيه، وليس المراد منه أنه لم يكن بينهما حائل، ويُقال: قبّلَ فلان رأس الأمير ويده، وإن كانت العمامة على رأسه ويده في كمّه. أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا أبو نعيم زكريا عن عامر عن عروة بن المغيرة عن أبيه رضي الله عنهما قال: كنتُ مع النبي ﷺ ذات ليلة في سفر فقال: «أمعك ماء»؟ فقلت: نعم، فنزل عن راحلته فمشى حتى توارى عنّي في سواد الليل، ثم جاء فأفرغتُ عليه من الإداوة فغسل وجهه ويديه وعليه جبّة من صوف فلم يستطع أن يُخرج ذراعيه منها حتى أخرجهما من أسفل الجبّة فغسل ذراعيه، ثم مسح برأسه، ثم أهويتُ لأنزع خفّيه فقال: «دعْهُما فإني أدخلتُهما طاهرتين»، فمسح عليهما. قوله تعالى: ﴿ إلى الكعبين ﴾ فالكعبان هما العظمان الناتئان من جانبي القدمين، وهما مجمع مفصل الساق والقدم، فيجب غسلهما مع القدمين كما ذكرنا في المِرفقين. وفرائضُ الوضوء غسل الأعضاء الثلاثة كما ذكر الله تعالى ومسح الرأس، واختلف أهل العلم في وجوب النيّة، فذهب أكثرهم إلى وجوبها لأن الوضوء عبادة فيفتقر إلى النيّة كسائر العبادات، وذهب

أبي هريرة أن النبي ﷺ رأى رجلاً لم يغسل عقبه فقال: «ويل للأعقاب من النار» (م) عن جابر قال: أخبرني عمر بن الخطاب «أن رجلاً توضأ فترك موضع ظفر على قدمه فأبصره النبي ﷺ فقال ارجع وأحسِن وضوءك قال فرجع فتوضأ ثم صلى» أخرجه مسلم عن خالد عن بعض أصحاب النبي ﷺ «أن النبي ﷺ رأى رجلاً يصلي وفي قدمه لمعة قدر الدرهم لم يصبها الماء فأمره النبي ﷺ أن يعيد الوضوء والصلاة» أخرجه أبو داود (ق) عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: تخلف عنا رسول الله ﷺ في سفرة سافرناها فأدركنا وقد أرهقتنا الصلاة ونحن نتوضأ فجعلنا نمسح على أرجلنا فنادانا بأعلى صوته: «ويل للأعقاب من النار مرتين أو ثلاثاً» عن ابن عباس «أن النبي ﷺ توضأ مرة» أخرجه البخاري عن أبي هريرة: «أن النبي ﷺ توضأ مرتين مرتين أخرجه أبو داود والترمذي. وقال وقد روي عن أبي هريرة: «أن النبي ﷺ توضأ ثلاثاً ثلاثاً» (م).

عن عقبة بن عامر قال: كانت علينا رعاية الإبل فجاءت نوبتي فروحتها بعشي فأدركت رسول الله ﷺ قائماً يحدث الناس فأدركت من قوله «ما من مسلم يتوضأ فيحسن وضوءه ثم يقوم فيصلي ركعتين مقبل عليهما بقلبه ووجهه إلا وجبت له الجنة» فقلت ما أجود هذا فإذا قائل بين يدي يقول التي قبلها أجود فنظرت فإذا عمر قال: إني قد رأيتك جئت آنفاً قال: «ما منكم من أحد يتوضأ فيبلغ أو فيسبغ الوضوء ثم يقول أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمد عبده ورسوله إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء» (م).

عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إذا توضأ العبد المسلم أو المؤمن فغسل وجهه خرج من وجهه كل خطيئة نظر إليها بعينيه مع الماء أو مع آخر قطر الماء فإذا غسل يديه خرج من يديه كل خطيئة كان بطشتها يداه مع الماء أو مع آخر قطر الماء فإذا غسل رجليه خرجت كل خطيئة مشتها رجلاه مع الماء أو مع آخر قطر الماء حتى يخرج نقياً من الذنوب» (ق) عن نعيم بن عبد الله المجمر عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال «إن أمتي يدعون يوم القيامة غراً محجلين من آثار الوضوء فمن استطاع منكم أن يطيل غرته فليفعل» وفي رواية قال: رأيت أبا هريرة يتوضأ فغسل وجهه فأسبغ

بعضهم إلى أنها غير واجبةٍ وهو قول الثَوري، واختلفوا في وجوب الترتيب وهو أن يغسل أعضاءه على الولاء كما ذكر الله تبارك وتعالى، فذهب جماعة إلى وجوبه وهو قول مالك والشافعي وأحمد وإسحق رحمهم الله. ويُروى ذلك عن أبي هريرة رضي الله عنه. واحتجّ الشافعي بقول الله تعالى: ﴿ إنّ الصّفا والمروةَ مِنْ شعائر الله ﴾ [البقرة: ١٥٨]، وبدأ النبي ﷺ بالصفا، وقال: «نبدأ بما بدأ الله به»، وكذلك ههنا بدأ الله تعالى بذكر غسل الوجه فيجب علينا أن نبدأ فعلاً بما بدأ الله تعالى بذكره، وذهب جماعة إلى أنّ الترتيب سُنّة، وقالوا: الواوات المذكورة في الآية للجمع لا للترتيب كما قال الله تعالى: ﴿ إنما الصدقات للفقراء والمساكين ﴾ [التوبة: ٦٠] الآية، واتفقوا على أنه لا تجب مراعاة الترتيب في صرف الصدقات إلى أهل السهمان، ومَن أوجب الترتيب أجاب بأنه لم يُنقل عن النبي ﷺ أنه راعى الترتيب بين أهل السهمان، وفي الوضوء لم ينقل أنه توضأ إلاّ مرتّباً كما ذكر الله تعالى، وبيان الكتاب يُؤخذ من السُّنّة كما قال الله تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا ﴾ [الحج: ٧٧] لَمّا قدم ذكر الركوع على السجود، ولم ينقل عن النبي ﷺ أنه فعل إلاّ كذلك فكان مراعاة الترتيب فيه واجبة، كذلك الترتيب هنا. قوله عزّ وجلّ: ﴿ وإنْ كنتم جنباً فاطّهرُوا ﴾، أي: اغتسلوا. أخبرنا أبو الحسن السرخسي أنا زاهر بن أحمد أنا أبو إسحق الهاشمي أنا أبو مصعب عن مالك عن هشام بن عروة عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ كان إذا اغتسل من الجنابة بدأ فغسل يديه، ثم توضأ كما يتوضأ للصلاة، ثم يُدخل أصابعه في الماء فيخلّل بها أصول شعره، ثم يصبُّ على رأسه ثلاث غرفات بيديه، ثم يفيض الماء على جلده كله. قوله تعالى: ﴿ وإنْ كنتُم مرضى أو على سفرٍ أو جاء أحدٌ منكم منَ الغائطِ أوْ لامستُمُ النِّساءَ فلمْ تَجدُوا ماءً فتيمّمُوا صعيداً طيباً فامسحُوا بوجوهِكم

الوضوء ثم غسل يده اليمنى حتى أشرع في العضد ثم غسل يده اليسرى حتى أشرع في العضد ثم مسح رأسه ثم غسل رجله اليمنى حتى أشرع في الساق ثم غسل رجله اليسرى حتى أشرع في الساق، ثم قال: هكذا رأيت رسول الله ﷺ يتوضأ وقال: قال رسول الله ﷺ «أنتم الغر المحجلون يوم القيامة من إسباغ الوضوء فمن استطاع منكم فليطل غرته وتحجيله».

وفي رواية لمسلم قال: سمعت خليلي رسول الله ﷺ «يقول تبلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء» عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال «من توضأ على طهر كتب الله له به عشر حسنات» أخرجه الترمذي.

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «لا صلاة لمن لا وضوء له ولا وضوء لمن لم يذكر اسم الله عليه» أخرجه أبو داود وابن ماجه. وقوله تعالى: ﴿وإن كنتم جنباً فاطهروا﴾ أي اغتسلوا أمر الله بالاغتسال من الجنابة وذلك يجب على الرجل والمرأة بأحد شيئين: إما بخروج المني على أي صفة كان من احتلام أو غيره أو بالتقاء الختانين وإن لم يكن معه إنزال فإذا حصل وجب الغسل (ق).

عن عائشة: «أن النبي ﷺ كان إذا اغتسل من الجنابة بدأ فغسل يديه ثم يفرغ بيمينه على شماله فيغسل فرجه ثم يتوضأ كما يتوضأ للصلاة ثم يدخل أصابعه في الماء يخلل بهما أصول شعره ثم يصب على رأسه ثلاث غرفات بيده ثم يفيض الماء على سائر جسده» أو قوله تعالى: ﴿وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيداً طيباً فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه﴾ فقد تقدم تفسيره وأحكامه في تفسير سورة النساء وفي قوله تعالى منه دليل على أنه يجب مسح الوجه واليدين بالصعيد وهو التراب. وقوله تعالى: ﴿ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج﴾ يعني من ضيق بما فرض عليكم من الوضوء والغسل والتيمم عند عدم الماء ﴿ولكن يريد ليطهركم﴾ يعني من الاحداث والذنوب والخطايا لأن الوضوء تكفير للذنوب ﴿لعلكم تشكرون﴾ يعني تشكرون

وأيديْكُمْ منه ﴾، فيه دليلٌ على أنّه يجب مسح الوجه واليدين بالصعيد وهو التراب، ﴿ ما يُريدُ اللَّهُ لِيجعلَ عليكم ﴾، بما فرض عليكم من الوضوء والغسل والتيمّم، ﴿ مِنْ حَرجٍ ﴾، ضيق، ﴿ ولكنْ يُريدُ لِيُطهرَكم ﴾، من الأحداث والجنابات والذنوب، ﴿ ولِيُتِمّ نِعْمَتَهُ عليكمْ لعلّكمْ تشكُرُون ﴾. قال محمد بن كعب القرظي: إتمام النعمة تكفير الخطايا بالوضوء كما قال الله تعالى: ﴿ ليغفرَ لكَ اللَّهُ ما تقدّمَ منْ ذنبكَ وما تأخر ﴾ [الفتح: ٢]، فجعل تمام نعمته غفران ذنوبه. أخبرنا عبد الوهاب بن محمد الخطيب أنا عبد العزيز بن أحمد الخلال أنا أبو العباس الأصم أنا الربيع أنا الشافعي أنا سفيان عن هشام بن عروة عن أبيه عن حمران: أنّ عثمان توضأ بالمقاعد ثلاثاً ثلاثاً ثم قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «مَن توضّأ وضوئي هذا خرجتْ خطاياه من وجهه ويديه ورجليه»، أخبرنا أبو الحسن السرخسي أنا زاهر بن أحمد أبو إسحق الهاشمي أنا أبو مصعب عن مالك عن هشام بن عروة عن أبيه عن حمران مولى عثمان: أنّ عثمان بن عفّان رضي الله عنه جلس على المقاعد يوماً فجاءه المؤذّن فآذنه بصلاة العصر فدعا بماء فتوضأ، ثم قال: والله لأحدّثنّكم حديثاً لولا آية في كتاب الله ما حدّثتكموه، ثم قال: إني سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «مامن امرىءٍ مسلمٍ يتوضأ فيُحسن وضوءه ثم يُصلّي الصلاةَ إلاّ غُفر له ما بينه وبين الصلاة الأخرى حتى يصلّيها» قال مالك: أراه يريد هذه الآية ﴿ أقمِ الصلاة لذكري ﴾ [طه: ١٧]، ورواه ابن شهاب. وقال عروة: الآية ﴿ إنّ الذين يكتمُون ما أنزلنا من البيّنات ﴾ [البقرة: ١٥٩]، أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا يحيىٰ بن بكير أنا الليث عن خالد عن سعيد بن أبي هلال عن نعيم المجمر قال: رقيت مع أبي هريرة رضي الله عنه على ظهر المسجد، فتوضأ قال: إني سمعتُ رسولَ الله ﷺ

نعمة الله عليكم بأن طهركم من الاحداث والذنوب وما جعل عليكم في الدين من حرج. قوله تعالى:

وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُم بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٩﴾

﴿واذكروا نعمة الله عليكم﴾ يعني: ما أنعم به عليكم من النعم كلها، لأن كثرة النعم وذكرها يوجب مزيد الشكر من المنعم عليه والاشتغال بطاعة المنعم بها والانقياد لأمره وهو الله تعالى: ﴿وميثاقه الذي واثقكم به﴾ يعني: واذكروا عهده الذي عاهدكم به أيها المؤمنون ﴿إذ قلتم سمعنا وأطعنا﴾ وذلك حين بايعوا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة فيما أحبوا وكرهوا وقيل الميثاق هو الذي أخذه عليهم في يوم ألست بربكم قالوا بلى: ﴿واتقوا الله﴾ يعني فيما أخذه عليكم من الميثاق فلا تنقضوه ﴿إن الله عليم بذات الصدور﴾ يعني إن الله تعالى عالم بما في قلوب عباده من خير وشر.

وقوله عز وجل: ﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله﴾ قال ابن عباس يريد أنهم يقومون لله بحقه ومعنى ذلك: هو أن يقوم لله بالحق في كل ما يلزمه القيام به من العمل بطاعته واجتناب نواهيه ﴿شهداء بالقسط﴾ يعني وتشهدون بالعدل يقول لا تحابِ في شهادتك أهل ودِّك وقرابتك ولا تمنع شهادتك أهل بغضك وأعداءك أقم شهادتك لهم وعليهم بالصدق والعدل.

﴿ولا يجرمنكم شنآن قوم﴾ ولا يحملنكم بغض قوم ﴿على ألا تعدلوا﴾ على ترك العدل فيهم لعدوانهم ﴿اعدلوا﴾ أمر الله بالعدل في كل أحد القريب والبعيد والصديق والعدو ﴿هو أقرب للتقوى﴾ أي العدل أقرب للتقوى ﴿واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون﴾ يعني: أن الله تعالى خبير بجميع أعمالكم مطلع عليها وخبير بمن عدل ومن لم يعدل.

قوله تعالى: ﴿وعد الله الذي آمنوا وعملوا الصالحات﴾ يعني عملوا بما واثقهم الله به وأوفوا بالعهود التي عاهدهم عليها ﴿لهم مغفرة وأجر عظيم﴾ هذا بيان للوعد كأنه لما تقدم ذكر الوعد فقيل: أي شيء هذا الوعد؟ فقال: لهم مغفرة وأجر عظيم وإذا وعدهم أنجز لهم الوعد فإنه تعالى لا يخلف الميعاد.

يقول: «إنّ أمتي يُدعون يومَ القيامة غُرّاً محجّلين من آثار الوضوء، فمَن استطاع أن يُطيل منكم غُرّتَه فليفعل».

قوله تعالى: ﴿ واذكُروا نعمةَ اللَّهِ عليكم ﴾، يعني: النّعم كلها، ﴿ وميثاقَهُ الذي واثَقَكُمْ به ﴾، عهده الذي عاهدكم به أيّها المؤمنون، ﴿ إذْ قلتُمْ سمعنا وأطعنا ﴾ وذلك حين بايعوا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة فيما أحبّوا وكرهوا، وهو قول أكثر المفسّرين، وقال مجاهد ومقاتل: يعني الميثاق الذي أخذ عليهم حين أخرجهم من صلب آدم عليه السلام، ﴿ واتَّقُوا اللَّهَ إنّ اللَّهَ عليمٌ بذاتِ الصُّدُور ﴾، بما في القلوب من خير وشر.

قوله تعالى: ﴿ يا أيّها الذين آمنُوا كونُوا قوّامين للّهِ شُهداءَ بالقِسْطِ ﴾، أي: كونُوا له قائمين بالعدل قوّالين بالصدق، أمرهم بالعدل والصدق في أعمالهم. وأقوالهم، ﴿ ولا يَجرِمَنّكم ﴾، ولا يحملنّكم، ﴿ شَنآنُ قومٍ ﴾، بغضُ قوم، ﴿ على أنْ لا تَعْدِلُوا ﴾، أي: على ترك العدل فيهم لعداوتهم. ثم قال: ﴿ اعْدِلُوا ﴾، يعني: في أوليائكم وأعدائكم، ﴿ هو أقربُ للتّقوى ﴾، يعني: إلى التقوى، ﴿ واتَّقُوا اللَّهَ إنّ اللَّهَ خبيرٌ بما تعملون ﴾.

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الذين آمنُوا وعملُوا الصالحاتِ لهم مغفرةٌ وأجْرٌ عظيم ﴾، وهذا في موضع النصب، لأن فعل الوعد واقع على المغفرة ورفعها على تقدير أي: وقال لهم مغفرة وأجر عظيم.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١٠﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾﴾

﴿والذين كفروا وكذبوا بآياتنا﴾ يعني: والذين جحدوا وحدانية الله ونقضوا عهوده ومواثيقه وكذبوا بما جاءت به الرسل من عنده **﴿أولئك﴾** يعني من هذه صفته **﴿أصحاب الجحيم﴾** هذه الآية نص قاطع في أن الخلود في النار ليس إلا للكفار لأن المصاحبة تقتضي الملازمة كما يقال: فلان صاحب فلان يعني الملازم له.

قوله عز وجل: **﴿يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم﴾** يعني: اذكروا نعمة الله عليكم بالدفع عنكم مع سائر نعمه التي أنعم بها عليكم ثم وصف تلك النعمة التي ذكرهم بها وأمرهم بالشكر عليها فقال تعالى: **﴿إذ هم قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم﴾** يعني بالقتل والبطش بكم فصرفهم عنكم وحال بينكم وبين ما أرادوه بكم.

اختلف أهل التفسير في سبب نزول هذه الآية وفي صفة هذه النعمة التي أمر الله تعالى أصحاب نبيه ﷺ بذكرها والشكر عليها، فقال قتادة: نزلت هذه الآية ورسول الله ﷺ ببطن نخلة حين أراد بنو ثعلبة وبنو محارب أن يفتكوا برسول الله ﷺ وبأصحابه إذا اشتغلوا بالصلاة فأطلع الله تعالى نبيه ﷺ على ذلك وأنزل صلاة الخوف. وقال الحسن: كان رسول الله ﷺ محاصراً غطفان بنخل فقال رجل من المشركين: هل لكم أن أقتل محمداً؟ قالوا: وكيف تقتله؟ قال: أفتك به. قالوا: وددنا أنك فعلت ذلك. فأتى النبي ﷺ والنبي ﷺ متقلد سيفه فقال: يا محمد أرني سيفك فأعطاه إياه فجعل الرجل يهز السيف وينظر إليه مرة وإلى النبي ﷺ مرة ثم قال: من يمنعك مني يا محمد؟ قال: الله. فتهدده أصحاب رسول الله ﷺ فأغمد السيف ومضى فأنزل الله هذه الآية. وقال مجاهد وعكرمة والكلبي: بعث رسول الله ﷺ المنذر بن عمرو الساعدي وهو أحد النقباء ليلة العقبة في ثلاثين راكباً من المهاجرين والأنصار إلى بني عامر بن صعصعة فخرجوا فلقوا عامر بن الطفيل على بئر معونة وهي من مياه بني عامر فاقتتلوا فقتل المنذر وأصحابه إلا ثلاثة نفر كانوا في طلب ضالة لهم: أحدهم عمرو بن أمية الضمري فلم يرعهم إلا الطير تحوم في السماء يسقط من بين مناقيرها علق الدم فقال أحد النفر الثلاثة: قتل أصحابنا. ثم تولى يشتد حتى لقي رجلاً من المشركين فاختلفا ضربتين فلما خالطته الضربة رفع رأسه إلى السماء وفتح عينيه فقال: الله أكبر الجنة ورب العالمين ورجع صاحباه فلقيا رجلين من بني سليم وكان بين النبي ﷺ وبين قومهما موادعة فانتسبا إلى بني عامر فقتلاهما وقدم قومهما إلى النبي ﷺ يطلبون

﴿ والذين كفروا وكذَبُوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم ﴾.

﴿ يا أيّها الذين آمنُوا اذكُروا نعمتَ اللّهِ عليكم ﴾، بالدفع عنكم، **﴿ إذْ هَمّ قومٌ أن يبسطُوا إليكم أيديَهم ﴾** بالقتل، وقال قتادة: نزلت هذه الآية ورسول الله ﷺ ببطن نخل فأراد بنو ثعلبة وبنو محارب أن يفتكوا به وبأصحابه إذا اشتغلوا بالصلاة فأطلع الله تبارك وتعالى نبيّه على ذلك، وأنزل الله صلاة الخوف، وقال الحسن: كان النبي ﷺ محاصراً غطفان بنخل، فقال رجل من المشركين: هل لكم في أن أقتل محمداً؟ قالوا: وكيف تقتله؟ قال: أفتك به، قالوا: وددنا أنك قد فعلت ذلك، فأتى النبيَّ ﷺ والنبيُّ ﷺ متقلّد سيفه، فقال: يا محمد أرِني سيفك فأعطاه إيّاه فجعل الرجل يهزّ السيف وينظر مرة إلى السيف ومرة إلى النبي ﷺ، وقال: مَن يمنعك منّي يا محمد؟ قال: «الله»، فتهدّده أصحاب رسول الله ﷺ فشام السيف ومضى، فأنزل الله تعالى هذه الآية، وقال مجاهد وعكرمة والكلبي وابن يسار عن رجاله: بعث رسول الله ﷺ المنذر بن عمرو الساعدي وهو أحد النقباء ليلة العقبة في ثلاثين راكباً من

الدية فخرج النبي ﷺ ومعه أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة وعبدالرحمن بن عوف حتى دخلوا على كعب بن الأشرف وبني النضير يستعينهم في عقلهما وكانوا قد عاهدوا النبي ﷺ على ترك القتال وعلى أن يعينوه في الديات. وقيل أراد أن يستقرض منهم دية رجلين فقالوا نعم يا أبا القاسم قد آن لك أن تأتينا وتسألنا حاجة اجلس حتى نطعمك ونعطيك الذي سألته فجلس رسول الله ﷺ وأصحابه فخلا بعض اليهود ببعض وقالوا: إنكم لم تجدوا محمداً أقرب منه الآن فمن يظهر منكم على هذا البيت فيطرح عليه صخرة فيريحنا منه فقال عمرو بن جحاش: أنا. فعمد إلى رحى عظيمة ليطرحها على النبي ﷺ فأمسك الله يده ونزل جبريل فأخبر النبي ﷺ بذلك، فخرج النبي ﷺ راجعاً إلى المدينة. قال: وخرج معه علي بن أبي طالب فقال النبي ﷺ لعلي لا تبرح مكانك حتى يخرج إليك أصحابي فمن خرج إليك منهم وسألك عني فقل توجه إلى المدينة ففعل ذلك حتى تناهوا إليه ثم اتبعوه إلى المدينة وأنزل الله عز وجل هذه الآية: **﴿يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ همَّ قوم﴾** يعني اليهود **﴿أن يبسطوا إليكم أيديهم﴾** يقال بسط يده إليه إذا بطش به وهو إذا مدها إلى المبطوش به ليقتله **﴿فكفَّ أيديهم عنكم﴾** يعني أنه تعالى منعهم مما أرادوه بكم **﴿واتقوا الله﴾** يعني فيما أمركم به ونهاكم عنه **﴿وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾** أمر الله تعالى المؤمنين بالتوكل عليه لأنه هو الكافي عباده جميع أمورهم فإذا فعلوا ذلك وتوكلوا عليه حفظهم ورعاهم ممن أرادهم بسوء كما كفَّ أيدي اليهود عنهم لما أرادوا أن يفتكوا بهم وهذه القصة أولى بالصواب لأنه عقب الآية بذم اليهود وذكر قبيح أفعالهم وخيانتهم وذلك قوله تعالى:

۞ وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ

المهاجرين والأنصار إلى بني عامر بن صعصعة فخرجوا فلقوا عامر بن الطفيل على بئر معونة وهي من مياه بني عامر واقتتلوا فقتل المنذر بن عمرو وأصحابه إلّا ثلاثة نفر كانوا في طلب ضالّة لهم أحدهم عمرو بن أمية الضمري فلم يرعهم إلّا الطير يحوم في السماء يسقط من بين خراطيمها علق الدم فقال أحد النفر: قتل أصحابنا ثم تولّى يشتدّ حتى لقي رجلاً فاختلفا ضربتين فلما خالطته الضربة رفع رأسه إلى السماء وفتح عينيه وقال الله أكبر الجنّة وربِّ العالمين، فرجع صاحباه فلقيا رجلين من بني سليم وكان بين النبي ﷺ وبين قومهما موادعة، فانتسبا لهما إلى بني عامر فقتلاهما وقَدِما قومهما إلى النبي ﷺ يطلبون الديّة فخرج ومعه أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة وعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهم، حتى دخلوا على كعب بن الأشرف وبني النضير يستعينهم في عقلهما، وكانوا قد عاهدوا النبي ﷺ على ترك القتال وعلى أن يعينوه في الديّات، قالوا: نعم يا أبا القاسم قد آن لك أن تأتينا وتسألنا حاجة اجلسْ حتى نطعمك ونعطيك الذي سألته، فجلس رسول الله ﷺ وأصحابه، فخلا بعضهم ببعض وقالوا: إنكم لن تجدوا محمداً أقرب منه الآن فَمَن يظهر على هذا البيت فيطرح عليه صخرة فيُريحنا منه؟ فقال عمر بن حجاش: أنا، فجاء إلى رُحى عظيمة ليطرحها عليه فأمسك الله تعالى يده وجاء جبريل وأخبره، فخرج النبي ﷺ راجعاً إلى المدينة ثم دعا عليّاً فقال: «لا تبرح مكانك فَمَن خرج عليك من أصحابي فسألك عنّي فقل: توجّه إلى المدينة»، ففعل ذلك عليّ رضي الله عنه حتى تناهوا إليه ثم تبعوه، فأنزل الله تعالى هذه الآية وقال: **﴿ فكفَّ أيديَهم عنكم واتّقوا اللَّهَ وعلى الله فليتوكلِ المؤمنون ﴾**.

ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٢﴾

﴿ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل﴾ لما ذكر الله في الآية المتقدمة بعض غدرات اليهود وما أرادوه من كيد رسول الله ﷺ وأصحابه أتبعه بذكر أسلافهم وما نقضوه من المواثيق والعهود ومعنى الآية أن الله أخذ ميثاقهم أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً وأن يعملوا بما في التوراة من الأحكام والتكاليف ﴿وبعثنا منهم اثني عشر نقيباً﴾ اختلف العلماء في معنى النقيب فقال ابن عباس: النقيب الضمين. وقال قتادة: هو الشهيد على قومه. وقيل: هو الأمين الكفيل. وقيل: هو الباحث عن القوم وعن أحوالهم.

(ذكر القصة في ذلك)

قال أصحاب الأخبار والسير: إن الله عز وجل وعد موسى عليه السلام أن يورثه وقومه الأرض المقدسة وكان يسكنها الكنعانيون الجبارون فأمر الله موسى أن يسير ببني إسرائيل إلى الأرض وقال: إني كتبتها لكم داراً وقراراً فاخرج إليها وجاهد من فيها من العدو فإني ناصرك عليهم وخذ من قومك اثني عشر نقيباً من كل سبط نقيباً يكون كفيلاً على قومه بالوفاء منهم على ما أمروا به فاختار موسى النقباء وسار ببني إسرائيل حتى قربوا من أريحاء وهي مدينة الجبارين فبعث هؤلاء النقباء يتجسسون له الأخبار ويعلمون علمها فلقيهم رجل من الجبارين يقال له، عوج بن عنق، وعنق: أمه، وهي إحدى بنات آدم عليه السلام. وكان طوله ثلاثة آلاف ذراع وثلثمائة وثلاثين ذراعاً وثلث ذراع هكذا نقله البغوي وفيه نظر لأن آدم عليه السلام كان طوله على ما ورد في الأحاديث الصحيحة ستين ذراعاً. قال: وكان عوج يحتجر بالسحاب ويشرب من مائه ويتناول الحوت من قعر البحر ويشويه في عين الشمس، ويروى أن الماء لما طبق على الأرض من جبل وغيره ما بلغ ركبتي عوج وقال لنوح عليه السلام: احملني معك في السفينة فقال نوح عليه السلام: اخرج عني ياعدو الله فإني لم أؤمر بك وعاش عوج ثلاثة آلاف سنة حتى أهلكه الله تعالى على يد موسى عليه السلام وذلك أنه اقتلع صخرة من الجبل على قدر عسكر موسى، وكان فرسخاً في فرسخ وحملها على رأسه ليطبقها عليهم فبعث الله الهدهد فنقب الصخرة وقورها بمنقاره فوقعت في عنقه فصرعته وأقبل موسى عليه السلام وهو مصروع فقتله قال، فلما لقي عوج النقباء أخذهم وجعلهم في حجزته وكان على رأسه حزمة حطب وانطلق بهم إلى امرأته وقال لها: انظري إلى هؤلاء الذين يريدون قتالنا وطرحهم بين يديها وقال لا أطحنهم برجلي؟ فقالت امرأته: بل خلِّ

﴿ ولقد أخذ اللَّهُ ميثاقَ بني إسرائيل وبعثنا منهم اثني عشرَ نقيباً ﴾، وذلك أنَّ الله عزّ وجلّ وعد موسى عليه السلام أن يورثه وقومه الأرض المقدسة وهي الشام، وكان يسكنها الكنعانيون الجبّارون، فلما استقرت لبني إسرائيل الدار بمصر أمرهم الله تعالى بالسير إلى أريحاء من أرض الشام وهي الأرض المقدسة، وكان لها ألف قرية في كل قرية ألف بستان، وقال: يا موسى إني كتبتها لكم داراً وقراراً فاخرج إليها وجاهد مَن فيها من العدو فإني ناصرك عليهم، وخذ من قومك اثني عشر نقيباً من كل سبط نقيباً يكون كفيلاً على قومه بالوفاء منهم على ما أُمروا به، فاختار موسى النقباء وسار موسى ببني إسرائيل حتى قربوا من أريحاء وهي مدينة الجبّارين فبعث هؤلاء النقباء يتجسّسون له الأخبار ويعلمون علمها، فلقيهم رجل من الجبّارين يقول له عوج بن عنق، وكان طوله ثلاثة آلاف وثلثمائة وثلاث وثلاثين ذراعاً وثلث ذراع، وكان يحتجر بالسحاب ويشرب منه ويتناول الحوت من قرار البحر فيشويه بعين الشمس يرفعه إليها ثم يأكله. ويُروى أن الماء في زمن نوح عليه السلام طبق ما على الأرض من جبل وما جاوز ركبتي عوج وعاش ثلاثة آلاف سنة حتى أهلكه الله على يدي موسى عليه السلام، وذلك أنه جاء وقلع صخرة من الجبل على قدر عسكر موسى عليه السلام، وكان فرسخاً في فرسخ، وحملها ليطبقها عليهم فبعث الله الهدهد فقوّر الصخرة

عنهم حتى يخبروا قومهم بما رأوا منك وقيل إنه جعلهم في كمه وأتى بهم إلى الملك فنثرهم بين يديه فقال لهم الملك ارجعوا إلى قومكم فأخبروهم بما رأيتم وكان مما رأوا أن العنقود العنب لا يحمله إلا خمسة أنفس منهم بينهم في خشبة ويدخل في شطر الرمانة إذا نزع منها حبسها خمسة أنفس فرجع النقباء وقال بعضهم لبعض: يا قوم إنكم إذا خبرتم بني إسرائيل خبر القوم رجعوا عن نبي الله موسى ولا يقاتلونهم معه اكتموا عن بني إسرائيل خبر القوم وأخبروا موسى وهارون بما رأيتم فيريان رأيهما وأخذ بعض النقباء على بعض الميثاق بذلك فلما رجعوا إلى بني إسرائيل نكثوا العهد والميثاق وأخبر كل رجل سبطه بما رأى إلا رجلان منهم وهم يوشع بن نون وكالب بن يوقنا فإنهم أوفيا بالعهود ولم ينكثا الميثاق فذلك قوله تعالى: ﴿**ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل وبعثنا منهم اثني عشر نقيباً**﴾ ﴿**وقال الله إني معكم**﴾ فيه حذف تقديره وقال للنقباء: إني معكم يعني بالنصر والمعونة. وقيل: هو خطاب لعامة بني إسرائيل: والقول الأول أولى لأن الضمير يعود إلى أقرب مذكور فكان عوده إلى النقباء أولى ثم ابتدأ الكلام فقال مخاطباً لبني إسرائيل: ﴿**لئن أقمتم الصلاة**﴾ هذه جملة شرطية والشرط مركب من خمسة أمور، وهي قوله: لئن أقمتم الصلاة ﴿**وآتيتم الزكاة وآمنتم برسلي وعزرتموهم وأقرضتم الله قرضاً حسناً**﴾ وجزاء الشرط قوله تعالى: ﴿**لأكفرنّ عنكم سيئاتكم**﴾ وذلك إشارة إلى إزالة العذاب. وقوله تعالى: ﴿**ولأدخلنكم جنات تجري من تحتها الأنهار**﴾ إشارة إلى إيصال الثواب ومعنى الآية لئن أقمتم الصلاة المكتوبة وآتيتم الزكاة المفروضة وآمنتم برسلي يعني جميع رسلي وإنما أخر ذكر الإيمان بالرسل لأن اليهود كانوا مقربين بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والإيمان ببعض الرسل فقال الله لهم إنه لا يتم لكم ذلك ولا يحصل المقصود إلا بالإيمان بجميع الرسل. وقوله تعالى: وعزرتموهم، يعني ونصرتموهم. وأصل التعزير في اللغة: الردع. فمعنى وعزرتموهم: ونصرتموهم بأن تردوا أعداءهم عنهم. وقيل: معناه وقرتموهم وعظتموهم. والقول هو الأول.

وأقرضتم الله قرضاً حسناً: يعني به الصدقات المندوبة لأن الزكاة تقدم ذكرها فلا فائدة في تفسير هذا الفرض بالزكاة. فإن قلت: كيف؟ قال: وأقرضتم الله قرضاً حسناً ولم يقل إقراضاً حسناً لأن مصدر أقرضتم الإقراض قلت: إن قوله قرضاً أخرج مصدراً من معناه لا من لفظه وذلك أن أقرض بمعنى قرض فكان معنى الكلام وأقرضتم الله فقرضتم قرضاً حسناً ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿**والله أنبتكم من الأرض نباتاً**﴾ إذ كان معناه فنبتم نباتاً وقوله ﴿**لأكفرن**

بمنقاره فوقعت في عنقه فصرعته، فأقبل موسى عليه السلام وهو مصروع فقتله، وكانت أُمه عنق إحدى بنات آدم وكان مجلسها جريباً من الأرض، فلما لقي عوج النقباء وعلى رأسه حزمة حطب أخذ الإثني عشر وجعلهم في حجزته وانطلق بهم إلى امرأته، وقال: انظري إلى هؤلاء الذين يزعمون أنهم يريدون قتالنا، وطرحهم بين يديها وقال: ألا أطحنهم برجلي؟ فقالت امرأته: لا بلْ خلِّ عنهم حتى يخبروا قومهم بما رأوا، ففعل ذلك. ورُوِيَ أنه جعلهم في كمّه وأتى بهم إلى الملك فنثرهم بين يديه، فقال الملك: ارجعوا فأخبروهم بما رأيتم، وكان لا يحمل عنقوداً من عنبهم إلاّ خمسة أنفس منهم في خشبة، ويدخل في شطر الرمانة إذا نزع منها حبّها خمسة أنفس، فرجع النقباء وجعلوا يتعرّفون أحوالهم، وقال بعضهم لبعض يا قوم: إنكم إن أخبرتم بني إسرائيل خبر القوم ارتدّوا عن نبيّ الله ولكن اكتموا، وأخبروا موسى وهارون فيريان رأيهما وأخذ بعضهم على بعض الميثاق بذلك، ثم أنهم نكثوا العهد وجعل كل واحد منهم ينهى سبطه عن قتالهم ويخبرهم بما رأى: إلاّ رجلان فذلك قوله تعالى: ﴿ **ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل وبعثنا منهم اثني عشر نقيباً** ﴾. ﴿ **وقال اللَّهُ إنّي معكم** ﴾، ناصركم على عدوكم، ثم ابتدأ الكلام فقال: ﴿ **لئن أقمتم الصلاة** ﴾، يا معشر بني إسرائيل، ﴿ **وآتيتُمُ الزكاة وآمنتم برسلي وعزرتموهم** ﴾، نصرتموهم، وقيل: وقّرتمـوهم وعظّمتموهم؛ ﴿ **وأقرضتُمُ اللَّهَ قرضاً حسناً** ﴾، قيل: هو إخراج الزكاة، وقيل: هو

عنكم سيئاتكم﴾ يعني إذا فعلتم سائر ما أمرتكم به لأمحونّ عنكم سيئآتكم وأغفرها لكم ولأدخلنكم جنات تجري من تحتها الأنهار ﴿فمن كفر بعد ذلك منكم﴾ يعني بعد أخذ العهد والميثاق ﴿فقد ضل سواء السبيل﴾ يعني فقد أخطأ الطريق المستقيم وهو طريق الدين الذي شرعه والهدى الذي أمر باتباعه قوله تعالى:

﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾ وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ فَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١٤﴾﴾

﴿فبما نقضهم ميثاقهم﴾ أي بسبب نقضهم الميثاق؛ وذلك أن بني إسرائيل نقضوا ميثاق الله وعهده بأن كذبوا الرسل الذين جاؤوا من بعد موسى وقتلوا أنبياء الله ونبذوا كتابه وضيَّعوا فرائضه ﴿لعناهم﴾ يعني جازيناهم على ذلك بأن أبعدناهم وطردناهم عن رحمتنا وأصل اللعنة الإبعاد عن الرحمة ﴿وجعلنا قلوبهم قاسية﴾ يعني غليظة يابسة لا تلين لأن القسوة خلاف اللين والرقة وقيل معناه إن قلوبهم ليست خالصة للإيمان بل إيمانهم مشوب بالكفر والنفاق ﴿يحرفون الكلم عن مواضعه﴾ يعني يغيرون حدود التوراة وأحكامها وقيل هو تبديلهم صفة محمد ﷺ ونعته من التوراة وقيل هو تحريفهم معاني الألفاظ بسوء التأويل ﴿ونسوا حظاً مما ذكروا به﴾ يعني وتركوا نصيب أنفسهم مما أمروا به من الإيمان يعني على معصية منهم وكانت خيانتهم نقض العهد ومظاهرتهم المشركين على حرب محمد ﷺ وهمهم بقتله وسمه ونحوها من خيانتهم التي ظهرت ﴿إلا قليلاً منهم﴾ يعني أنهم لم يخونوا ولم ينقضوا العهد وهم عبد الله بن سلام وأصحابه الذين أسلموا من أهل الكتاب ﴿فاعف عنهم واصفح﴾ أي فاعف عن زلاتهم يا محمد واصفح عن جرمهم ومؤاخذتهم وهذا الأمر بالعفو والصفح عن أهل الكتاب منسوخ بقوله تعالى: ﴿قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر﴾ الآية التي نزلت في سورة براءة قاله قتادة وقيل إنها غير منسوخة بل نزلت في قوم كان بينهم وبين النبي ﷺ عهد فغدروا ونقضوا ذلك العهد فأظهر الله تعالى نبيه ﷺ على ذلك وأنزل هذا الآية ولم تنسخ

النفقة على الأهل، ﴿ لأكفرنّ عنكم سيآتكم ﴾، لأمحونّ عنكم سيآتكم، ﴿ ولأدخلنّكم جنات تجري من تحتها الأنهار، فمَن كفر بعد ذلك منكم فقد ضلَّ سواءَ السبيل ﴾، أي: أخطأ قصد السبيل، يريد طريق الحق، وسواء كل شيء: وسطه.

﴿ فبما نقضهم ﴾ أي: فبنقضهم، و﴿ ما ﴾ صلة، ﴿ ميثاقهم ﴾، قال قتادة: نقضوه من وجوه لأنهم كذّبوا الرسل الذين جاؤوا بعد موسى وقتلوا أنبياء الله ونبذوا كتابه وضيّعوا فرائضه، ﴿ لعنّاهم ﴾، قال عطاء: أبعدناهم من رحمتنا، قال الحسن ومقاتل: عذّبناهم بالمسخ، ﴿ وجعلنا قلوبَهم قاسيةً ﴾، قرأ حمزة والكسائي قسية بتشديد الياء من غير ألف، وهما لغتان مثل الذاكية والذكية، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: قاسية أي يابسة، وقيل: غليظة لا تلين، وقيل معناه: إن قلوبهم ليست بخالصة للإيمان بل إيمانهم مشوب بالكفر والنفاق، ومنه الدراهم القاسية وهي الرديّـة المغشوشة. ﴿ يُحرّفون الكَلِمَ عن مواضعه ﴾، قيل: هو تبديلهم نعت النبي ﷺ، وقيل: تحريفهم بسوء التأويل، ﴿ ونَسُوا حظّاً ممّا ذُكِّرُوا به ﴾، أي: وتركوا نصيبَ أنفسهم مما أُمروا به من الإيمان بمحمد ﷺ وبيان نعته، ﴿ ولا تزال ﴾، يا محمد، ﴿ تطّلع على خائنةٍ منهم ﴾، أي: على خيانة، فاعلة بمعنى المصدر كالكاذبة واللاّغية، وقيل: هو بمعنى الفاعل والهاء للمبالغة مثل روّاية ونسّابة وعلاّمة وحسّابة، وقيل: على فرقة خائنة، قال

وذلك أن يجوز أن يعفو عن غدرة فعلوها ما لم ينصبوا حرباً ولم يمنعوا من أداء الجزية والصغار وعلى هذا القول بأنها غير منسوخة يكون معنى الآية فاعفُ عن مؤمنهم ولا تؤاخذهم بما سلف منهم قبل ذلك. وقيل: معناه فاعف عن صغائر زلاتهم ما داموا باقين على العهد ﴿إن الله يحب المحسنين﴾ يعني إذا عفوت عنهم فإنك تحسن والله يحب المحسنين قوله عز وجل: ﴿ومن الذين قالوا إنّا نصارى أخذنا ميثاقهم﴾ لما ذكر نقض اليهود الميثاق اتبعه بذكر نقض النصارى الميثاق وأن سبيل النصارى مثل سبيل اليهود في نقض العهد والميثاق وإنما قال تعالى: ﴿ومن الذين قالوا إنا نصارى﴾ ولم يقل من النصارى لأنهم الذين ابتدعوا هذا الاسم وسموا به أنفسهم لأن الله تعالى سماهم به أخذنا ميثاقهم يعني كتبنا عليهم في الإنجيل أن يؤمنوا بمحمد ﷺ ﴿فنسوا حظاً مما ذكروا به﴾ يعني فتركوا ما أمروا به من الإيمان بمحمد ﷺ ﴿فأغرينا﴾ يعني فألقينا وأوقعنا ﴿بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة﴾.

قال قتادة: لما تركوا العمل بكتاب الله وعصوا رسله وضيعوا فرائضه وعطلوا حدوده، ألقى الله العداوة والبغضاء بينهم. وقيل: العداوة والبغضاء هي الأهواء المختلفة وفي الهاء والميم من قوله بينهم قولان: أحدهما أن المراد بهم اليهود والنصارى فإن العداوة والبغضاء حاصلة بينهم إلى يوم القيامة. والقول الثاني أن المراد بهم فرق النصارى، فإن كل فرقة منهم تكفر الأخرى ﴿وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون﴾ يعني أن الله تعالى يخبرهم في الآخرة بأعمالهم التي عملوها في الدنيا ففيه وعيد وتهديد لهم. قوله تعالى:

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ١٥ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ١٦ لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَۚ قُلۡ فَمَن يَمۡلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔا إِنۡ أَرَادَ أَن يُهۡلِكَ ٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗاۗ وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَاۚ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٧﴾

﴿يا أهل الكتاب﴾ يعني اليهود والنصارى ﴿قد جاءكم رسولنا﴾ يعني محمد ﷺ ﴿يبين لكم كثيراً مما كنتم

ابن عباس رضي الله عنهما: على خائنة أي: على معصية، وكانت خيانتهم نقضهم العهد ومظاهرتهم المشركين على حرب رسول الله ﷺ وهمّهم بقتله وسمّه، ونحوهما من خياناتهم التي ظهرت منهم، ﴿ إلّا قليلاً منهم ﴾، لم يخونوا ولم ينقضوا العهد وهم الذين أسلموا من أهل الكتاب، ﴿ فاعفُ عنهم واصفح ﴾، أي: أعرض عنهم ولا تتعرّض لهم، ﴿ إنّ اللّهَ يحبُّ المحسنين ﴾، وهذا منسوخ بآية السيف.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ ومن الذين قالوا إنّا نصارى أخذنا ميثاقَهم ﴾، قيل: أراد بهم اليهود والنصارى فاكتفى بذكر أحدهما، والصحيح أن الآية في النصارى خاصة لأنه قد تقدّم ذكر اليهود، وقال الحسن: فيه دليل على أنهم نصارى بتسميتهم لا بتسمية الله تعالى، أخذنا ميثاقهم في التوحيد والنبوّة، ﴿ فَنَسُوا حظّاً ممّا ذُكِّروا به فأغرينا بينهُمُ العداوةَ والبغضاءَ إلى يوم القيامة ﴾، بالأهواء المختلفة والجدال في الدين، قال مجاهد وقتادة: يعني بين اليهود والنصارى، وقال الربيع: هم النصارى وحدهم صاروا فرقاً منهم اليعقوبية والنسطورية والملكانية وكل فرقة تكفّر الأخرى، ﴿ وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون ﴾ في الآخرة.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ يا أهلَ الكتاب ﴾، يريد يا أهل الكتابين، ﴿ قد جاءكم رسولُنا يبيّن لكم كثيراً ممّا كنتم

تخفون من الكتاب﴾ يعني أن محمداً ﷺ يظهر كثيراً مما أخفوا وكتموا من أحكام التوراة والإنجيل وذلك أنهم أخفوا آية الرجم وصفة محمد ﷺ وغير ذلك ثم إن رسول الله ﷺ بيَّن ذلك وأظهره وهذا معجزة النبي ﷺ لأنه لم يقرأ كتابهم ولم يعلم ما فيه فكان إظهاره ذلك معجزة له ﴿ويعفو عن كثير﴾ يعني مما يكتمونه فلا يتعرض له ولا يؤاخذهم به لأنه لا حاجة إلى إظهاره والفائدة في ذلك أنهم يعلمون كون النبي ﷺ عالماً بما يخفونه وهو معجزة له أيضاً فيكون ذلك داعياً لهم إلى الإيمان به ﴿وقد جاءكم من الله نور﴾ يعني محمداً ﷺ إنما سماه الله نوراً لأنه يهتدى به كما يهتدى بالنور في الظلام وقيل: النور هو الإسلام ﴿وكتاب مبين﴾ يعني القرآن﴿يهدي الله به﴾ يعني يهدي الله بالكتاب المبين ﴿من اتبع رضوانه﴾ أي اتبع ما رضيه الله وهو دين الإسلام لأنه مدحه وأثنى عليه ﴿سبل السلام﴾ قال ابن عباس: يريد دين الله وهو الإسلام فسبله دينه الذي شرع لعباده وبعث به رسله وأمر عباده باتباعه. وقيل: سبل السلامة طرق السلام. وقيل: سبل السلام دار السلام فيكون من باب حذف المضاف ﴿ويخرجهم من الظلمات إلى النور﴾ يعني من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان ﴿بإذنه﴾ يعني بتوفيقه وهدايته ﴿ويهديهم إلى صراط مستقيم﴾ يعني دين الإسلام قوله عز وجل﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم﴾. قال ابن عباس: هؤلاء نصارى نجران، فإنهم قالوا هذه المقالة وهو مذهب اليعقوبية والملكانية من النصارى لأنهم يقولون بالحلول وأن الله قد حل في بدن عيسى فلما كان اعتقادهم ذلك لا جرم حكم الله عليهم بالكفر ثم ذكر الله ما يدل على فساد مذهبهم فقال تعالى: ﴿قل﴾ يعني يا محمد لهؤلاء النصارى الذين يقولون هذه المقالة ﴿فمن يملك﴾ يعني يقدر أن يدفع ﴿من الله شيئاً﴾ يعني من أمر الله شيئاً ﴿إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه﴾ يعني يعدم المسيح وأمه ﴿ومن في الأرض جميعاً﴾ ووجه الاحتجـاج على النصارى بهذا أن المسيح لو كان إنما كما يقولون لقدر على دفع أمر الله إذا أراد إهلاكه وإهلاك أمه وغيرها ﴿ولله ملك السموات والأرض وما بينهما﴾ إنما قال وما بينهما ولم يقل وما بينهن لأنه أراد ما بين هذين النوعين أو الصنفين من الأشياء فإنها ملكه وأهلها عبيده وعيسى وأمه من جملة عبيده ﴿يخلق ما يشاء﴾ يعني من غير اعتراض عليه فيما يخلق لأنه خلق آدم من غير أب وأم وخلق عيسى من أم بلا أب وخلق سائر الخلق من أب وأم ﴿والله على كل شيء قدير﴾ يعني أن الله تعالى لا يعجزه شيء أراده فلا اعتراض لأحد من خلقه عليه قوله تعالى:

وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ

تخفون من الكتاب ﴾، أي: من التوراة والإنجيل مثل صفة محمد ﷺ وآية الرجم وغير ذلـك، **﴿ ويعفوا عن كثير ﴾**، أي: يعرض عن كثير مما أخفيتم فلا يتعرّض له ولا يؤاخذكم به، **﴿ قد جاءكم من الله نور ﴾**، يعني: محمداً ﷺ، وقيل: الإسلام، **﴿ وكتابٌ مبين ﴾**، أي: بيّن، وقيل: مبين وهو القرآن.

﴿ يهدي به الله مَن اتّبع رضوانَه ﴾، رضاه، **﴿ سُبلَ السلام ﴾**، قيل: السلام هو الله عزّ وجلّ وسبيله دينه الذي شرع لعباده، وبعث به رسله، وقيل: السلام هو السلامة، كاللذاذ واللذاذة بمعنى واحد، والمراد به طرق السلامة، **﴿ ويخرجُهم مِنَ الظلماتِ إلى النّور ﴾**، أي: من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان، **﴿ بإذنه ﴾**، بتوفيقه وهدايته، **﴿ ويهديهم إلى صراط مستقيم ﴾**، وهو الإسلام.

قوله تبارك وتعالى: **﴿ لقد كفر الذين قالوا إنّ اللّهَ هو المسيحُ ابنُ مريم ﴾**، وهم اليعقوبية من النصارى يقولون: المسيح هو الله تعالى، **﴿ قلْ فَمَنْ يملك من الله شيئاً ﴾**، أي: مَن يقدر أن يدفع من أمر الله شيئاً إذا قضاه؟ **﴿ إنْ أراد أن يُهلِكَ المسيحَ ابنَ مريمَ وأُمه ومَنْ في الأرض جميعاً ولِلّهِ مُلكُ السمٰواتِ والأرض وما بينهما يخلق ما يشاء واللّهُ على كلّ شيءٍ قدير ﴾**.

يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُوا۟ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٩﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾

﴿**وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه**﴾ قال ابن عباس: أتى رسول الله ﷺ عثمان وابن أصار وبحري بن عمرو وشاس بن عدي فكلموه وكلمهم رسول الله ﷺ ودعاهم إلى الله وحذرهم نقمته، فقالوا: ما تخوفنا يا محمد نحن أبناء الله وأحباؤه كقول النصارى، فأنزل الله عز وجل فيهم ﴿**وقالت اليهود والنصارى، نحن أبناء الله وأحباؤه**﴾ الآية. وسبب هذه المقالة ما حكاه السدي قال: أما اليهود فإنهم قالوا إن الله أوحى إلى إسرائيل إني أدخل من ولدك النار فيكونون فيها أربعين يوماً حتى تطهرهم وتأكل خطاياهم ثم ينادي منادٍ أن اخرجوا كل مختون من ولد إسرائيل فيخرجون فذلك قوله تعالى: لن تمسنا النار إلا أياماً معدودات. وأما النصارى، فإن فرقاً منهم يقولون المسيح ابن الله وكذبوا فيما قالوا على الله تعالى فأما وجه قول اليهود فإنهم يعنون أنه من عطفه عليهم كالأب الشفيق على الولد وأما وجه قول النصارى، فإنهم لما قالوا في المسيح أنه ابن الله وادعوا أنه منهم فكأنهم قالوا: نحن أبناء الله لهذا السبب. وقيل: إن اليهود إنما قالوا هذه المقالة من باب حذف المضاف والمعنى نحن أبناء رسول الله وأما النصارى فإنهم تأولوا قول المسيح أذهب إلى أبي وأبيكم. وقوله: إذا صليتم فقولوا يا أبانا الذي في السماء لنقدس اسمك فذهبوا إلى ظاهر هذه المقالة ولم يعلموا ما أراد المسيح عليه السلام إن صحت هذه المقالة عنه فإن تأويلها أنه في بره ورحمته وعطفه على عباده الصالحين كالأب الرحيم لولده وجملة الكلام في ذلك أن اليهود والنصارى كانوا يرون لأنفسهم فضلاً على من سواهم بسبب أسلافهم الأفاضل حتى انتهوا في تعظيم أنفسهم إلى أن قالوا: نحن أبناء الله وأحباؤه فأبطل الله عز وجل دعواهم وكذبهم فيما قالوا بقوله تعالى: ﴿**قل فلم يعذبكم بذنوبكم**﴾. معناه: إذا كان الأمر كما تزعمون فلمَ يعذبكم الله وأنتم قد أقررتم على أنفسكم أنه يعذبكم أربعين يوماً وهل رأيتم والداً يعذب ولده بالنار وهل تطيب نفس محب أن يعذب حبيبه في النار ﴿**بل أنتم بشر ممن خلق**﴾ يعني بل أنتم يا معشر اليهود والنصارى كسائر بني آدم مجزيون بالإساءة والإحسان.

قوله تعالى: ﴿**يغفر لمن يشاء**﴾ يعني لمن تاب من اليهود والنصرانية ﴿**ويعذب من يشاء**﴾ يعني من مات على اليهودية والنصرانية. وقيل: معناه يهدي من يشاء فيغفر له ويميت من يشاء على كفره فيعذبه ﴿**ولله ملك السموات والأرض وما بينهما**﴾. يعني: أنه تعالى يملك ذلك لا شريك له في ذلك فيعارضه وهو الذي يملك المغفرة لمن يشاء

﴿ وقالتِ اليهودُ والنصارى نحن أبناءُ الله وأحباؤه ﴾، قيل: أرادوا أن الله تعالى لنا كالأب في الحنوّ والعطف، ونحن كالأبناء له في القرب والمنزلة، وقال إبراهيم النخعي: إن اليهود وجدوا في التوراة يا أبناء أحباري فبدّلوا يا أبناء أبكاري فمن ذلك قالوا نحن أبناء الله، وقيل: معناه نحن أبناء الله يعني أبناء رسل الله. قوله تعالى: ﴿ قلْ فَلِمَ يعذِّبُكم بذنوبكم ﴾، يريد إن كان الأمر كما زعمتم أنكم أبناؤه وأحباؤه فإن الأب لا يعذب ولده، والحبيب لا يعذّب حبيبه، وأنتم مقرّون أنه معذّبكم؟ وقيل: فلم يعذّبكم أي: لِمَ عذّب من قبلكم بذنوبهم فمسخهم قردة وخنازير؟ ﴿ بل أنتم بشرٌ ممّن خلق ﴾، كسائر بني آدم مجزيّون بالإساءة والإحسان، ﴿ يغفر لِمَن يشاء ﴾ فضلاً، ﴿ ويعذّب مَن يشاء ﴾، عدلاً، ﴿ ولِلَّهِ مُلكُ السمٰواتِ والأرض وما بينهما وإليه المصير ﴾.

والتعذيب لمن يشاء وفيه دليل على أنه تعالى لا ولد له لأن من يملك السموات والأرض يستحيل أن يكون له شبيه من خلقه أو شريك في ملكه ﴿**وإليه المصير**﴾ يعني وإلى الله مرجع العباد في الآخرة فيجازيهم بأعمالهم. قوله تعالى: ﴿**يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل**﴾ قال ابن عباس: قال معاذ بن جبل وسعد بن عبادة وعقبة بن وهب لليهود: يا معشر اليهود اتقوا الله فوالله إنكم لتعلمون أنه رسول الله لقد كنتم تذكرونه لنا قبل مبعثه وتصفونه لنا بصفته، فقال رافع بن حريملة ووهب بن يهودا: ما قلنا ذلك لكم وما أنزل الله من كتاب بعد موسى ولا أرسل بشيراً ولا نذيراً بعده فأنزل الله هذه الآية يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يعني محمداً ﷺ يبين لكم يعني أحكام الدين والشرائع على فترة من الرسل قال ابن عباس: يعني على انقطاع من الرسل. واختلف العلماء في قدر مدة الفترة فروي عن سلمان قال: فترة ما بين عيسى ومحمد ﷺ ستمائة سنة أخرجه البخاري. وقال قتادة: كانت الفترة بين عيسى ومحمد ﷺ ستمائة سنة وما شاء الله من ذلك وعنه أنها خمسمائة سنة وستون سنة. وقال ابن السائب: خمسمائة وأربعون سنة. وقال الضحاك: إنها أربعمائة وبضع وثلاثون سنة. ونقل ابن الجوزي عن ابن عباس: على فترة من الرسل قال: على انقطاع منهم. قال: وكان بين ميلاد عيسى وميلاد محمد ﷺ خمسمائة سنة وتسعة وستون سنة وهي الفترة وكان بين عيسى ومحمد أربعة من الرسل فذلك قوله ﴿**إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث**﴾ قال: والرابع لا أدري من هو فكانت تلك السنون مائة وأربعاً وثلاثين سنة نبوة وسائرها فترة. قال أبو سليمان الدمشقي: والرابع والله أعلم خالد بن سنان الذي قال فيه رسول الله ﷺ: نبيٌّ ضيعَه قومه.

قال الإمام فخر الدين الرازي: والفائدة في بعثة محمد ﷺ عند فترة الرسل، هي أن التحريف والتغيير كان قد تطرف إلى الشرائع المتقدمة لتقادم عهدها وطول زمانها وسبب ذلك اختلاط الحق بالباطل والكذب بالصدق فصار ذلك عذراً ظاهراً في إعراض الخلق عن العبادات لأن لهم أن يقولوا إلهنا عرفنا أنه لا بد من عبادتك ولكنا ما عرفنا كيف نعبدك فبعث الله في هذا الوقت محمداً ﷺ لإزالة هذا الغذر فذلك قوله عز وجل: ﴿**أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير**﴾ يعني لئلا تقولوا وقيل معناه كراهية أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير في هذا الوقت ﴿**فقد جاءكم بشير ونذير**﴾ يعني فقد أرسلت إليكم محمداً ﷺ لإزالة هذا العذر ﴿**والله على كل شيء قدير**﴾ يعني أنه قادر على بعثة الرسل في وقت الحاجة إليهم. قوله عز وجل: ﴿**وإذ قال موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم**﴾ قال ابن عباس: اذكروا عافية الله. وقيل: معناه اذكروا أيادي الله عندكم وأيامه التي أنعم فيها عليكم قال الطبري: هذا تعريف من الله تعالى لنبيه محمد ﷺ بتمادي هؤلاء في الغي وبعدهم عن الحق وسوء اختيارهم لأنفسهم وشدة مخالفتهم لأنبيائهم مع كثرة نعم الله عليهم وتتابع أياديه وآلائه لديهم سلّى بذلك نبيه ﷺ عما نزل به من مقاساتهم ومعالجتهم في ذات الله عز وجل ﴿**إذ جعل فيكم أنبياء**﴾ يعني أن موسى عليه السلام ذكر قومه بني إسرائيل بأيام الله عندهم وبما أنعم به عليهم فقال اذكروا نعمة الله عليكم إذ فضلكم بأن جعل فيكم أنبياء. قال الكلبي: هم السبعون الذي اختارهم موسى من قومه

﴿ **يا أهلَ الكتابِ قدْ جاءَكُمْ رَسُولُنَا** ﴾، محمد ﷺ، ﴿ **يُبَيِّنُ لكم** ﴾ أعلام الهدى وشرائعَ الدين، ﴿ **على فترةٍ منَ الرُّسلِ** ﴾ أي انقطاع من الرسل واختلفوا في مدة الفترة بين عيسى عليه السلام ومحمد ﷺ، قال أبوعثمان النهدي: ستمائة سنة، وقال قتادة: خمسمائة وستّون سنة، وقال معمر والكلبي: خمسمائة وأربعون سنة، وسُمّيتْ فترة لأن الرسل كانت تترى بعد موسى عليه السلام من غير انقطاع إلى زمن عيسى عليه السلام، ولم يكن بعد عيسى عليه السلام سوى رسولنا ﷺ. ﴿ **أنْ تقولُوا** ﴾، كيلا تقولوا، ﴿ **ما جاءنا من بشيرٍ ولا نذير فقدْ جاءكم بشيرٌ ونذيرٌ والله على كلِّ شيءٍ قدير** ﴾.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ **وإذْ قال موسى لقومه يا قومِ اذْكُروا نعمةَ الله عليكم إذْ جعل فيكم أنبياء** ﴾، أي: منكم

وانطلق بهم إلى الجبل وأيضاً كان أنبياء بني إسرائيل من أولاد يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام وهؤلاء لا شك أنهم من أكابر الأنبياء وأولاد يعقوب وهم الأسباط أنبياء على قول الأكثرين وموسى وهارون عليهما السلام وأيضاً فإن الله تعالى أعلم موسى أنه يبعث من بعده في بني إسرائيل أنبياء فإنه لم يبعث في أمة ما بعث في بني إسرائيل من الأنبياء فكان هذا شرفاً عظيماً لهم ونعمة ظاهرة عليهم ﴿وجعلكم ملوكاً﴾ يعني: وجعلكم أحراراً تملكون أنفسكم بعد أن كنتم عبيداً في أيدي القبط. قال ابن عباس: يعني جعلكم أصحاب خدم وحشم. قال قتادة: كانوا أول من ملك الخدم ولم يكن لمن قبلهم خدم وروي عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال: كان بنو إسرائيل إذا كان لأحدهم خادم وامرأة ودابة يكتب ملكاً ذكره البغوي بغير سند وسأل رجل عبد الله بن عمرو بن العاص فقال ألسنا من فقراء المهاجرين فقال له عبد الله ألك امرأة تأوي إليها؟ قال نعم، قال: لك مسكن تسكنه؟ قال نعم، قال: أنت من الأغنياء، قال فإن لي خادماً قال فأنت من الملوك. وقال الضحاك: كانت منازلهم واسعة فيها مياه جارية ومن كان مسكنه واسعاً وفيه ماء جار فهو ملك ﴿وآتاكم ما لم يؤت أحداً من العالمين﴾ يعني من عالمي زمانكم يذكرهم ما أنعم الله به عليهم من فلق البحر لهم وإهلاك عدوهم وإنزال المن والسلوى عليهم وإخراج الماء من الحجر لهم وتظليل الغمام فوقهم إلى غير ذلك من النعم التي أنعم الله بها عليهم.

﴿يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم﴾ لما ذكر موسى قومه ما أنعم الله عليهم أمرهم بالخروج إلى جهاد عدوهم فقال: يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة المباركة. قال الكلبي: صعد إبراهيم عليه السلام جبل لبنان فقيل له انظر فما أدرك بصرك فهو مقدس وهو ميراث لذريتك والأرض هي الطور وما حوله. وقيل: هي أريحاء وفلسطين وبعض الأردن. وقيل: هي دمشق. وقيل: هي الشام، كلها. قال كعب الأحبار: ووجدت في كتاب الله المُنزل أن الشام كنز الله في أرضه وبها أكثر عباده التي كتب الله لكم يعني كتب الله في اللوح المحفوظ إنها لكم مساكن وقيل: فرض الله عليكم دخولها وأمركم بسكناها. وقيل: وهبها لكم.

أنبياء، ﴿ وجعلكم ملوكاً ﴾، أي: فيكم ملوكاً، قال ابن عباس رضي الله عنهما: يعني أصحاب خدم وحشم، قال قتادة: كانوا أول مَن ملك الخدم ولم يكن لمَن قبلهم خدم. ورُوِيَ عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «كان بنو إسرائيل إذا كان لأحدهم خادم وامرأة ودابّة يكتب ملكاً». وقال أبو عبد الرحمن السُلمي: سمعت عبدالله بن عمرو بن العاص، وسأله رجل فقال: ألسنا من فقراء المهاجرين؟ فقال له عبد الله: ألك امرأة تأوي إليها؟ قال: نعم. قال: ألك مسكن تسكنه؟ قال: نعم، قال: فأنت من الأغنياء، قال: فإنّ لي خادماً، قال: فأنت من الملوك. قال السدي: وجعلكم ملوكاً أحراراً تملكون أمر أنفسكم بعدما كنتم في أيدي القبط يستعبدونكم، وقال الضحّاك: كانت منازلهم واسعة فيها مياه جارية فمَن كان مسكنه واسعاً وفيه نهرٌ جارٍ فهو ملك ﴿ وآتاكم ما لم يُؤتِ أحداً من العالمين ﴾، يعني عالمي زمانكم، قال مجاهد: يعني المنّ والسّلوى والحَجَر وتظليل الغمام.

قوله تعالى: ﴿ يا قوم ادْخلُوا الأرض المقدسة التي كتبَ اللّهُ لكم ﴾، اختلفوا في الأرض المقدسة، قال مجاهد: هي الطور وما حوله، وقال الضحّاك: إيليا وبيت المقدس، وقال عكرمة والسدي: هي أريحاء، وقال الكلبي: هي دمشق وفلسطين وبعض الأردن ، وقال قتادة: هي الشام كلها، قال كعب: وجدت في كتاب الله

فإن قلت: كيف؟ قال الله تعالى: ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم. وقال فإنها محرمة عليهم وكيف الجمع بينهما؟ قلت فيه وجوه أحدها أنها كانت هبة من الله ثم حرمها عليهم بشؤم تمردهم وعصيانهم.

الوجه الثاني: أن اللفظ وإن كان عاماً لكن المراد منه الخصوص فصار كأنه مكتوب لبعضهم وحرام على بعضهم فإن يوشع بن نون وكالب بن يوفنا دخلاها وكانا ممن خوطب بهذا الخطاب.

الوجه الثالث: إن هذا الوعد كان مشروطاً بالطاعة فلما لم يوجد الشرط لم يوجد المشروط.

الوجه الرابع: أنه قال: إنها محرمة عليهم أربعين سنة فلما مضت الأربعون دخلوها وكانت مساكن لهم كما وعدهم الله تعالى: ﴿**ولا ترتدوا على أدباركم**﴾ يعني ولا ترجعوا القهقهرى مرتدّين على أعقابكم إلى ورائكم ولكن امضوا لأمر الله الذي أمركم به وإن فعلتم خلاف ما أمركم الله به ﴿**فتنقلبوا خاسرين**﴾ يعني فترجعوا خائبين لأنكم رددتم أمر الله قوله عز وجل: ﴿**قالوا**﴾ يعني قوم موسى ﴿**يا موسى إن فيها**﴾ يعني في الأرض المقدسة ﴿**قوماً جبارين**﴾ يعني قوماً عاتين لا طاقة لنا بهم ولا قوة لنا بقتالهم وسموا أولئك القوم جبارين لشدة بطشهم وعظم خلقهم وكانوا ذوي أجسام عظيمة وأشكال هائلة وهم العمالقة بقية قوم عاد وأصل الجبار في صفة الإنسان فعال من جبره على الأمر يعني أجبره عليه وهو العاتي الذي يجبر الناس على ما يريد وقيل إنه مأخوذ من قولهم نخلة جبارة إذاكانت طويلة مرتفعة لا تصل الأيدي إليها ويقال رجل جبار إذا كان طويلاً عظيماً قوياً تشبيهاً بالجبار من النخل ﴿**وإنا لن ندخلها**﴾ يعني أرض الجبارين التي أمرهم الله بدخولها ﴿**حتى يخرجوا منها**﴾ حتى يخرج الجبارون من الأرض المقدسة وإنما قالوا ذلك استبعاداً لخروج الجبارين من أرضهم ﴿**فإن يخرجوا منها فإنا داخلون**﴾ يعني إليها قال العلماء بالأخبار إن النقباء لما خرجوا يتجسسون الأخبار لموسى عليه السلام ورجعوا إليه وأخبروه خبر القوم وما عاينوه منهم. قال لهم موسى: لا تخبروا بني إسرائيل بهذا فيجبنوا ويضعفوا عن قتالهم. وقيل: إن النقباء الاثني عشر لما خرجوا من أرض الجبارين قال بعضهم لبعض: لا تخبروا بني إسرائيل بما رأيتم فلما رجعوا وأخبروا موسى أمرهم أن لا تخبروا بني إسرائيل بذلك فخالفوا أمره ونقضوا العهد وأخبر كل رجل النقباء سبطه بما رأى إلا يوشع بن نون وكالب فإنهما كتما

المنزل أن الشام كنز الله في أرضه وبها أكثر عباده. قوله عزّ وجلّ: ﴿ كتب الله لكم ﴾ يعني: كتب في اللوح المحفوظ أنها مساكن لكم، وقال ابن إسحق: وهبَ اللَّهُ لكم، وقيل: جعلها لكم، وقال السدي: أمركم الله بدخولها، وقال قتادة: أُمروا بها كما أُمروا بالصلاة، أي: فَرَضَ عليكم. ﴿ ولا ترتدّوا على أدبارِكم ﴾، أعقابكم بخلاف أمر الله، ﴿ فتنقلبُوا خاسِرين ﴾، قال الكلبي: صعد إبراهيم عليه السلام جبل لبنان فقيل له: أنظر فما أدركه بصرك فهو مقدّس وهو ميراث لذريتك.

﴿ قالوا يا موسى إنّ فيها قوماً جبّارين ﴾، وذلك أن النقباء الذين خرجوا يتجسّسون الأخبار لمّا رجعوا إلى موسى وأخبروه بما عاينوا، قال لهم موسى: اكتمُوا شأنهم ولا تخبروا به أحداً من أهل العسكر فيفشلوا، فأخبر كل رجل منهم قريبه وابن عمّه إلاّ رجلان وفيا بما قال لهما موسى، أحدهما يوشع بن نون بن أفرائيم بن يوسف عليهم السلام فتى موسى، والآخر كالب بن يوفنا ختن موسى عليه السلام على أُخته مريم بنت عمران، وكان من سبط يهود وهما النقباء فعلمت جماعة من بني إسرائيل ذلك ورفعوا أصواتهم بالبكاء وقالوا: يا ليتنا في أرض مصر، أو لَيْتَنا نموتُ في هذه البرية ولا يُدْخلنا الله أرضهم فتكون نساؤنا وأولادنا وأثقالنا غنيمةً لهم، وجعل الرجل يقول لصاحبه: تعال نجعل علينا رأساً وننصرف إلى مصر، فذلك قوله تعالى إخباراً عنهم: ﴿ قالوا يا موسى إنّ فيها قوماً جبارين وإنّا لنْ ندخلَها حتى يخرجُوا منها فإن يخرجُوا منها فإنّا داخلون ﴾، أصلُ الجبّار: المتعظّم الممتنع عن القهر،

ووفيا بالعهد فلما علم بنو إسرائيل بذلك وفشا ذلك فيهم رفعوا أصواتهم بالبكاء وقالوا: ليتنا متنا في أرض مصر ولا يدخلنا الله أرضهم فتكون نساؤنا وأولادنا وأموالنا غنيمة لهم. وجعل الرجل من بني إسرائيل يقول لصاحبه: تعالوا نجعل لنا رأساً وننصرف إلى مصر فلما قال بنو إسرائيل ذلك هموا بالانصراف إلى مصر خر موسى وهارون ساجدين وخرق يوشع وكالب ثيابهما وهما اللذان أخبرنا الله عنهما بقوله:

قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُواْ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي ٱلْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾

﴿**قال رجلان من الذين يخافون**﴾ يعني يخافون الله ويراقبونه ﴿**أنعم الله عليهما**﴾ يعني بالهداية والوفاء ﴿**ادخلوا عليهم الباب**﴾ يعني قال الرجلان، وهما يوشع بن نون وكالب بن يوفنا لبني إسرائيل، ادخلوا على الجبارين باب مدينتهم ﴿**فإذا دخلتموه فإنكم غالبون**﴾ لأن الله وعدكم بالنصر وأن الله ينجز لكم وعده ﴿**وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين**﴾ يعني يقول الرجلان لقوم موسى ثقوا بالله فإنه معكم وناصركم إن كنتم مصدقين بأن الله ناصركم لا يهولنكم عظم أجسامهم فإنا قد رأيناهم فكانت أجسامهم عظيمة وقلوبهم ضعيفة فلما قالا ذلك، أراد بنو إسرائيل أن يرجموهما بالحجارة وعصوا أمرهما، وقالوا: ما أخبرنا الله عنهم بقوله تعالى: ﴿**قالوا يا موسى إنا لن ندخلها أبداً**﴾ يعني: قال قوم موسى لموسى إنا لن ندخل مدينة الجبارين أبداً يعني مدة حياتنا ﴿**ما داموا فيها**﴾ يعني مقيمين فيها ﴿**فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون**﴾ إنما قالوا هذه المقالة لأن مذهب اليهود التجسيم فكانوا يجوزون الذهاب والمجيء على الله تعالى عن ذلك علواً كبيراً. قال بعض العلماء: إن كانوا قالوا هذا على وجه الذهاب من مكان إلى مكان فهو كفر وإن كانوا قالوه على وجه الخلاف لأمر الله وأمر نبيه فهو فسق، وقال بعضهم: إنما قالوه على وجه المجاز. والمعنى: اذهب أنت وربك معين لك لكن قوله: فقاتلا يفسد هذا التأويل. وقال بعضهم: إنما أرادوا بقولهم وربك أخاه هارون لأنه كان أكبر من موسى والأصح أنهم إنما قالوا ذلك جهلاً منهم بالله تعالى وصفاته ومنه قوله تعالى: ﴿**وما قدروا الله حق قدره**﴾ (خ).

عن ابن مسعود قال: شهدت من المقداد بن الأسود مشهداً لأن أكون أنا صاحبه أحب إليّ مما عدل به أتى النبي

يُقال: نخلة جبارة إذا كانت طويلة ممتنعة عن وصول الأيدي إليها، وسُمّي أولئك القوم جبّارين لامتناعهم بطولهم وقوة أجسادهم، وكانوا من العمالقة وبقية قوم عاد، فلما قال بنو إسرائيل ما قالوا وهمُّوا بالانصراف إلى مصر خرَّ موسى وهارون ساجدين، وخرق يوشع وكالب ثيابهما وهما اللذان أخبر الله تعالى عنهما في قوله:

﴿ قالَ رجلانِ منَ الذينَ يخافُون ﴾، أي: يخافون الله تعالى، قرأ سعيد بن جبير «يخــافون» بضمّ الياء، وقال: الرجلان كانا من الجبارين فأسلما واتّبعا موسى، ﴿ أنعم الله عليهما ﴾ بالتوفيق والعصمة قالا: ادْخُلوا عليهمُ الباب ﴾. يعني: قرية الجبّارين، ﴿ فإذا دخلتموه فإنّكم غالِبُون ﴾، لأن الله منجز وعده، وإنّا رأيناهم فكانت أجسامهم عظيمة وقلوبهم ضعيفة، فلا تخشوهم، ﴿ وعلى الله فتوكّلُوا إنْ كنتمْ مؤمنين ﴾، فأراد بنو إسرائيل أن يرجموهما بالحجارة وعصوهما.

ﷺ وهو يدعو على المشركين يوم بدر فقال يا رسول الله ألا لا نقول كما قالت بنو إسرائيل لموسى اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون ولكن امض ونحن معك فكأنه سرّي عن رسول الله ﷺ.

وفي رواية: لكنا نقاتل عن يمينك وعن شمالك ومن بين يديك ومن خلفك فرأيت رسول الله ﷺ أشرق وجهه وسرَّ. قوله تعالى: ﴿قال﴾ يعني موسى عليه السلام (رب) أي يا رب ﴿إني لا أملك إلا نفسي وأخي﴾ يعني إني لا أملك إلا نفسي وأخي لا يملك إلا نفسه وقيل معناه لا أملك إلا نفسي ونفس أخي لأنه كان يطيعه وإذا كان كذلك فقد ملكه وإنما قال موسى لا أملك إلا نفسي وأخي وإن كان معه في طاعته يوشع بن نون وكالب بن يوفنا لاختصاص هارون به ولمزيد الاعتناء بأخيه ويحتمل أن يكون معناه وأخي في الدين ومن كان على دينه وطاعته فهو أخوه في الدين فعلى هذا الاحتمال يدخل الرجلان في قوله وأخي ثم قال: ﴿فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين﴾ أي افصل وقيل احكم بيننا وبين القوم الفاسقين يعني الخارجين عن طاعتك وإنما قال موسى ذلك لأنه لما رأى بني إسرائيل وما فعلوه من مخالفة أمر الله وهمهم بيوشع وكالب غضب لذلك ودعا عليهم فأجاب الله تعالى دعاء موسى عليه السلام (قال) الله عز وجل: ﴿فإنها محرمة عليهم﴾ يعني فإن الأرض المقدسة محرمة عليهم ومعناه أن تلك البلدة محرمة عليهم أبداً ولم يرد تحريم تعبد وإنما أراد تحريم منع فأوحى الله تعالى إلى موسى «بي حلفت لأحرمن عليهم دخول الأرض المقدسة غير عبدي يوشع وكالب ولأتيهنهم في هذه البرية أربعين سنة مكان كل يوم من الأيام التي كانوا يتجسسون فيها سنة ولألقين جيفهم في هذه القفار وأما أبناؤهم الذين لم يعملوا الشر فيدخلونها» فذلك قوله تعالى فإنها يعني الأرض المقدسة محرمة عليهم. قال أكثر أهل العلم: هذا تحريم منع لا تحريم تعبُّد. وقيل: يحتمل أن يكون تحريم تعبد فيجوز أن يكون الله تعالى أمرهم بأن يمكثوا في تلك المفازة في الشدة والبلية عقاباً لهم على سوء صنيعهم (أربعين سنة) فمن قال إن الكلام ثم عند قوله فإنها محرمة عليهم قال أربعين سنة يتيهون في الأرض فأما الحرمة فإنها مؤبدة حتى يموتوا ويدخلها أبناؤهم. وقيل: معناه أن الأرض المقدسة محرمة عليهم أربعين سنة ثم يدخلونها وتفتح لم.

﴿ قالوا يا موسى إنَّا لنْ ندخلَها أبداً ما دامُوا فيها فاذْهَبْ أنتَ وربُّك فقاتلا إنَّا ههنا قاعدون ﴾، أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا أبو نعيم أنا إسرائيل عن مخارق عن طارق بن شهاب قال سمعت ابن مسعود يقول: لقد شهدت من المقداد بن الأسود مشهداً لأن أكون صاحبه أحبَّ إليّ مما عدل به، أتى النبيَّ ﷺ وهو يدعو على المشركين، فقال: لا نقول كما قال قوم موسى عليه السلام: ﴿ اذهبْ أنتَ وربُّك فقاتلا ﴾، ولكنّا نقاتل عن يمينك وعن شمالك وبين يديك ومن خلفك، فرأيتُ النبيَّ ﷺ أشرق وجهه وسرّه ما قال. فلما فعلت بنو إسرائيل ما فعلت من مخالفتهم أمر ربّهم وهمِّهم بيوشع وكالب غضب موسى عليه السلام ودعا عليهم.

﴿ قال ربِّ إني لا أملك إلّا نفسي وأخي ﴾، قيل: معناه لا يملك إلّا نفسه، وقيل: معناه لا يطيعني إلّا نفسي وأخي، ﴿ فافْرُقْ ﴾، فافصل، ﴿ بيننا ﴾، قيل: فاقضِ بيننا، ﴿ وبينَ القومِ الفاسقين ﴾، العاصين.

﴿ قال ﴾، الله تعالى ﴿ فإنّها محرّمةٌ عليهم ﴾، قيل: ههنا تمّ الكلام معناه تلك البلد محرّمة عليهم أبداً لم يرد به تحريم تعبد، وإنما أراد تحريم منع فأوحى الله تعالى إلى موسى لأحرّمنّ عليهم دخول الأرض المقدسة غير عبدي يوشع وكالب، ولأتيهنّهم في هذه البرية ﴿ أربعين سنة ﴾، مكان كل يوم من الأيام التي تجسّسوا فيها سنة ولألقينّ جيفهم في هذه القِفار وأمّا بنوهم الذين لم يعملوا الشرّ فيدخلونها، فذلك قوله تعالى: ﴿ فإنها محرّمة عليهم أربعين سنة ﴾، ﴿ يتيهون ﴾، يتحيرون، ﴿ في الأرض فلا تأسَ على القومِ الفاسقين ﴾، أي: لا تحزن على مثل هؤلاء القوم، فلبثوا أربعين سنة في ستّة فراسخ وهم ستمائة ألف مقاتل، وكانوا يسيرون كل يوم جادّين فإذا

وقوله تعالى: ﴿يتيهون في الأرض﴾ يعني يتحيرون فيها. يقال: تاه يتيه إذا تحير. واختلفوا في مقدار الأرض التي تاهوا فيها، فقيل: مقدار ستة فراسخ. وقيل: ستة فراسخ في اثني عشر فرسخاً. وقيل: تسع فراسخ في ثلاثين فرسخاً. وكان القوم ستمائة ألف مقاتل وكانوا يرحلون ويسيرون يومهم أجمع فإذا أمسوا إذا هم في الموضع الذي رحلوا منه وكان ذلك التيه عقوبة لنبي إسرائيل ما خلا موسى وهارون ويوشع وكالب فإن الله تعالى سهله عليهم وأعانهم عليه كما سهل على إبراهيم النار وجعلها برداً وسلاماً.

فإن قلت: كيف يعقل بقاء هذا الجمع العظيم في هذا المقدار الصغير من الأرض أربعين سنة بحيث لم يخرج منه أحد؟.

قلت: هذا من باب خوارق العادات. وخوارق العادات في أزمان الأنبياء غير مستبعدة، فإن الله على كل شيء قدير. وقيل: إن فسرنا ذلك التحريم بتحريم التعبد زال هذا الإشكال لاحتمال أن الله ما حرم عليهم الخورج من تلك الأرض بل أمر بالمكث أربعين سنة في المشقة والمحنة جزاء لهم على سوء صنيعهم ومخالفتهم أمر الله ولما حصل بنو إسرائيل في التيه شكوا إلى موسى عيه السلام حالهم فأنزل الله عليهم المن والسلوى وأُعطوا من الكسوة ما هي قائمة لهم فينشأ الناشيء منهم فتكون معه على مقداره وهيئته وسأل موسى ربه أن يسقيهم فأتى بحجر أبيض من جبل الطور فكان إذا نزل ضربه بعصاه فيخرج منه اثنتا عشرة عيناً لكل سبط منهم عين وأرسل الله عليهم الغمام يظلُّهم في التيه ومات في التيه كل من دخله ممن جاوز عشرين سنة غير يوشع بن نون وكالب بن يوفنا ولم يدخل أريحاء ممن قال: إنا لن ندخلها أبداً واختلفوا في أن موسى عليه السلام مات في التيه أم خرج منه فقيل: إن موسى وهارون ماتا في التيه جميعاً.

(قصة وفاة موسى وهارون عليهما السلام)

فأما هارون فإنه كان أكبر من موسى بسنة. قال السدي: أوحى الله عز وجل إلى موسى إني متوفى هارون فأت به جبل كذا وكذا فانطلق موسى وهارون نحو ذلك الجبل فإذا بشجرة لم ير مثلها وإذا ببيت مبني وفيه سرير عليه فراش وفيه رائحة طيبة فلما رأى هارون ذلك البيت أعجبه، وقال: يا موسى إني أحب أن أنام على هذا السرير. قال: نم. قال: إني أخاف أن يأتي رب هذا البيت فيغضب عليّ. قال: لا تخف إني أكفيك ربَّ هذا البيت فنم. قال: يا موسى

أمسوا كانوا في الموضع الذي ارتحلوا عنه، وقيل: إن موسى وهارون عليهما السلام لم يكونا فيهم، والأصح أنهما كانا فيهم ولم يكن لهما عقوبة إنما كانت العقوبة لأولئك القوم، ومات في التيه كلّ مَن دخلها ممّن جاوز عشرين سنة غير يوشع وكالب، ولم يدخل أريحاء أحد ممّن قالوا إنّا لن ندخلها أبداً فلما هلكوا وانقضت الأربعون سنة، ونشأت النواشيء من ذراريهم ساروا إلى حرب الجبّارين، واختلفوا فيمن تولّى تلك الحرب وعلى يدي مَن كان الفتح، فقال قوم: وإنما فتح موسى أريحاء وكان يوشع على مقدمته، فسار موسى عليه السلام إليهم فيمن بقي من بني إسرائيل، فدخلها يوشع فقاتل الجبابرة ثم دخلها موسى عليه السلام فأقام فيها ما شاء الله تعالى، ثم قبضه الله تعالى إليه، ولا يعلم قبره أحد، وهذا أصحّ الأقاويل لاتفاق العلماء أن عوج بن عنق قتله موسى عليه السلام. وقال الآخرون: إنما قاتل الجبّارين يوشع ولم يسر إليهم إلاّ بعد موت موسى عليه السلام، وقالوا: مات موسى وهارون جميعاً في التيه.

فصل في ذكر وفاة هارون

قال السدي: أوحى الله عزّ وجلّ إلى موسى أنّي متوفّي هارون فأتِ به جبل كذا وكذا، فانطلق موسى وهارون عليهما السلام نحو ذلك الجبل فإذا هما بشجرة لم يرَ مثلها وإذا ببيت مبني وفيه سرير عليه فرش وإذا فيه ريح طيبة،

فنم أنت معي فإن جاء رب هذا البيت غضب عليّ وعليك جميعاً. فلما ناما أخذ هارون الموت فلما وجد مسه قال: يا موسى خدعتني فلما قبض هارون رفع البيت والسرير إلى السماء وهارون عليه وذهبت الشجرة فرجع موسى إلى بني إسرائيل وليس هارون معه فقال بنو إسرائيل حسد موسى هارون فقتله لحبنا إياه. قال موسى: ويحكم إن هارون كان أخي أفترونني أقتله؟ فلما أكثروا عليه قام موسى فصلى ركعتين ثم دعا الله عز وجل فنزل السرير وعليه هارون فنظروا إليه وهو بين السماء والأرض فصدقوه ثم رفع.

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: صعد موسى عليه السلام وهارون إلى الجبل فمات هارون وبقي موسى فقال بنو إسرائيل لموسى: أنت قتلته وآذوه فأمر الله الملائكة فحملوه حتى مروا به على بني إسرائيل وتكلمت الملائكة بموته فصدقت بنو إسرائيل أنه مات وبرأ الله موسى مما قالوه ثم إن الملائكة حملوه ودفنوه ولم يطلع على موضع قبره أحد إلا الرخم فجعله الله أصم أبكم.

وأما وفاة موسى عليه السلام فقال ابن إسحاق كان صفي الله موسى عليه السلام قد كره الموت وأعظمه فأراد الله أن يحبب إليه الموت فنبأ يوشع بن نون فكان موسى يغدو ويروح إليه ويقول له يا نبي الله ما أحدث الله إليك فيقول له يوشع يا نبي الله ألم أصحبك كذا وكذا سنة فهل كنت أسألك عن شيء مما أحدث الله إليك حتى كنت أنت تبتدىء به وتذكره لي ولا يذكر له شيئاً فلما رأى موسى ذلك كره الحياة وأحب الموت (ق). عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أرسل ملك الموت إلى موسى فلما جاءه صكه ففقأ عينه فرجع إلى ربه فقال أرسلتني إلى عبد لا يريد الموت فرد الله إليه عينه وقال: ارجع إليه فقل له يضع يده على متن ثور فله بكل ما غطت يده من شعره سنة. قال: أي رب ثم مه قال: ثم الموت قال: فالآن فسأل الله أن يدنيه من الأرض المقدسة رمية بحجر قال رسول الله ﷺ: فلو كنت ثم لأريتكم قبره إلى جانب الطريق عند الكثيب الأحمر» وفي رواية لمسلم قال: جاء ملك الموت إلى موسى فقال: أجب ربك قال فلطم موسى عين ملك الموت ففقأها» ثم ذكر معنى ما تقدم قال الشيخ محيي الدين النووي. قال المازري: وقد أنكر بعض الملاحدة هذا الحديث وأنكر تصوره قالوا كيف يجوز على موسى فقء عين ملك الموت.

وأجاب عنه العلماء بأجوبة أحدها أنه لا يمتنع أن يكون الله قد أذن لموسى في هذه اللطمة ويكون ذلك امتحاناً للملطوم والله تعالى يفعل في خلقه ما يشاء ويمتحنهم بما أراد.

الثاني: أن موسى لم يعلم أنه ملك من عند الله وظن أنه رجل قصده يريد نفسه فدافعه عنها فأدت المدافعة إلى فقء عينه لأنه قصدها بالفقء وتؤيده رواية صكه وهذا جواب الإمام أبي بكر بن خزيمة وغيره من المتقدمين واختاره المازري والقاضي عياض. قالوا: وليس في الحديث تصريح بأنه قصد فقء عينه.

فلما نظر هارون إلى ذلك أعجبه، فقال: يا موسى إنّي أُحب أن أنام على هذا السرير قال: فنم عليه، فقال: إني أخاف أن يأتي ربُّ هذا البيت فيغضب عليّ، قال له موسى: لا ترهب إنّي أكفيك أمر ربِّ هذا البيت فنم، قال: يا موسى نمْ أنت معي فإن جاء ربُّ البيت غضب عليّ وعليك جميعاً فلما ناما أخذ هارون الموت فلما وجد مسّه قال: يا موسى خدعتني، فلما قبض رفع البيت وذهبت تلك الشجرة ورفع السرير به إلى السماء، فلما رجع موسى إلى بني إسرائيل وليس معه هارون قالوا: إن موسى قتل هارون وحسده لحبِّ بني إسرائيل له، فقال موسى عليه السلام: ويحكم كان أخي فكيف أقتله، فلما أكثروا عليه قام فصلّى ركعتين ثم دعا الله تعالى ونزل السرير حتى نظروا إليه بين السماء والأرض فصدقوه. وعن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه قال: صعد موسى وهارون عليهما السلام الجبل فمات هارون وبقي موسى، فقالت بنو إسرائيل لموسى عليه السلام أنت قتلته فآذوه فأمر الله الملائكة فحملوه حتى مرّوا به على بني إسرائيل وتكلمت الملائكة بموته حتى عرف بنو إسرائيل أنه قد مات، فبرّأه الله تعالى ممّا قالوا،

فإن قيل: فقد اعترف موسى حين جاء ثانياً بأنه ملك الموت. فالجواب، أنه أتاه في المرة الثانية بعلامة علم بها أنه ملك الموت فاستسلم له بخلاف المرة الأولى وأما سؤال موسى الإدناء من الأرض المقدسة فلشرفها وفضلها وفضل من بها من المدفونين من الأنبياء وغيرهم وفيه دليل على استحباب الدفن في المواضع الفاضلة والمواطن المباركة والقرب من مدافن الصالحين قال بعض العلماء وإنما سأل موسى الإدناء ولم يسأل نفس بيت المقدس لأنه خاف أن يكون قبره مشهوراً عندهم فيفتتن به الناس والله أعلم.

قال وهب بن منبه: خرج موسى لبعض حاجته فمر برهط من الملائكة وهم يحفرون قبراً لم ير شيئاً أحسن منه ولا مثل ما فيه من الخضرة والنضرة والبهجة، فقال لهم: يا ملائكة الله لمن تحفرون هذا القبر؟ فقالوا: لعبد كريم على ربه. فقال: إن هذا العبد من الله بمنزلة ما رأيت كاليوم قط. فقالت الملائكة: يا صفي الله تحب أن يكون لك؟ قال: وددت. قالوا: فانزل واضطجع فيه وتوجه إلى ربك فنزل واضطجع وتوجه إلى ربه عز وجل ثم تنفس أسهل تنفس فقبض الله روحه ثم سوت الملائكة عليه التراب. وقيل: إن ملك الموت أتاه بتفاحة من الجنة فشمها فقبض روحه وكان عمر موسى عليه السلام مائة سنة وعشرين سنة فلما مات موسى عليه السلام انقضت الأربعون سنة وبعث الله يوشع إلى بني إسرائيل فأخبرهم أن الله قد أمره بقتال الجبارين فصدقوه وتابعوه فتوجه ببني إسرائيل إلى أريحاء وهي مدينة الجبارين ومعه تابوت الميثاق فأحاط بمدينة أريحاء ستة أشهر فلما كان من السابع نفخوا في القرون وضجوا في الشعب ضجة واحدة فسقط سور المدينة فدخلوها وقاتلوا الجبارين وهزموهم وهجموا عليهم يقتلونهم فكانت العصابة من بني إسرائيل يجتمعون على عنق الرجل من الجبابرة يضربونها حتى يقطعونها وكان القتال والفتح يوم الجمعة فبقيت منهم بقية وكادت الشمس أن تغرب وتدخل ليلة السبت فقال: اللهم اردد علي الشمس وقال للشمس: إنك في طاعة الله وأنا في طاعة الله وسأل الشمس أن تقف والقمر أن يقف حتى ينتقم من أعداء الله قبل دخول السبت فرد الله عليه الشمس وزيد في النهار ساعة حتى قتلهم أجمعين وتتبع ملوك الشام فاستباح منهم أحداً وثلاثين ملكاً حتى غلب على جميع أرض الشام وصارت كلها لبني إسرائيل وفرق عماله نواحيها وجميع الغنائم فجاءت النار لتأكلها فلم تطعمها فقال: إن فيكم غلولاً فليبايعني من كل قبيلة رجل ففعلوا فلصقت يد رجل بيده. فقال: فيكم الغلول فجاؤوا برأس ثور من ذهب مكلل بالياقوت والجوهر قد غلّه رجل منهم فجعله في القربان وجعل الرجل معه فجاءت النار فأكلت الرجل والقربان.

ثم إن الملائكة حملوه ودفنوه فلم يطّلع على موضع قبره أحد إلّا الرخم فجعله الله أصم وأبكم، وقال عمر بن ميمون: مات هارون قبل موت موسى عليه السلام في التيه، وكانا قد خرجا إلى بعض الكهوف فمات هارون ودفنه موسى وانصرف إلى بني إسرائيل، فقالوا: قتلتَه لحبنا إيّاه، وكان محبّباً في بني إسرائيل، فتضرّع موسى عليه السلام إلى ربّه عزّ وجلّ فأوحى الله إليه أن انطلق بهم إلى قبره فإني باعثه، فانطلق بهم إلى قبره فناداه موسى فخرج من قبره ينفض رأسه، فقال: أنا قتلتُك؟ قال: لا ولكني متّ، قال فعد إلى مضجعك، وانصرفوا. وأمّا وفاة موسى عليه السلام قال ابن إسحاق: كان موسى عليه الصلاة والسلام قد كره الموت وأعظمه فأراد الله أن يحبّب إليه الموت، فنبّأ يوشع بن نون فكان يغدو ويروح عليه، قال: فيقول له موسى عليه السلام يا نبيّ الله ما أحدث الله إليك؟ فيقول له يوشع: يا نبيّ الله ألم أصحبك كذا وكذا سنة فهل كنتُ أسألك عن شيء مما أحدث الله إليك حتى تكون أنت الذي تبتدىء به وتذكره؟ ولا يذكر له شيئاً، فلما رأى ذلك كره موسى الحياة وأحبّ الموت. أخبرنا أبو علي حسان بن سعيد المنيعي أنا أبو طاهر محمد بن محمد بن محمش الزيادي أنا أبو بكر محمد بن الحسين القطّان أنا أحمد بن يوسف السلمي أنا عبد الرزّاق أنا معمر عن همّام بن منبه قال: أخبرنا أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال

وفي الحديث الصحيح ما يدل على صحة هذا أو هو ما روي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «غزا نبي من الأنبياء فقال لقومه لا يتبعني رجل ملك بضع امرأة وهو يريد أن يبني بها ولم يبن بها ولا أحد بنى بيوتاً ولم يرفع سقوفها ولا رجل اشترى غنماً أو خلفات وهو ينتظر أولادها فغزا فدنا من القرية صلاة العصر أو قريباً من ذلك فقال للشمس إنك مأمورة وأنا مأمور اللهم احبسها علينا فحبست حتى فتح الله عليه فجمع الغنائم فجاءت يعني النار لتأكلها فلم تطعمها فقال إن فيكم غلولاً فليبايعني من كل قبيلة رجل فلزقت يد رجل بيده فقال فيكم الغلول فجاؤوا برأس مثل رأس بقرة من الذهب فوضعها فجاءت النار فأكلتها» زاد في رواية: «فلم تحل الغنائم لأحد قبلنا ثم أحل الله لنا الغنائم لما رأى ضعفنا وعجزنا فأحلها لنا» أخرجه البخاري ومسلم.

شرح غريب هذا الحديث. قوله لا يتبعني رجل ملك بضع امرأة، البضع بضم الباء كناية عن فرج المرأة ولم يبن بها أي لم يدخل عليها، ولخلفات النوق الحوامل قوله للشمس إنك مأمورة وأنا مأمور اللهم احبسها علينا قال الشيخ محيي الدين قال القاضي عياض: اختلف الناس في حبس الشمس المذكور هنا فقيل: ردت إلى ورائها وقيل: وقفت ولم ترد وقيل: بطء حركتها وكل ذلك من معجزات النبوة قال ويقال إن الذي حبست عليه الشمس يوشع بن نون قال القاضي.

وقد روي أن نبينا محمداً ﷺ حبست له الشمس مرتين إحداهما يوم الخندق حين شغلوا عن صلاة العصر حتى غربت الشمس فردها الله عليه حتى صلى العصر ذكر، ذلك الطحاوي وقال: رواته ثقات. والثانية: صبيحة ليلة الإسراء حين انتظر العير لما أخبر بوصولها مع شروق الشمس ذكره يونس بن بكير في زياداته عن سيرة بن إسحاق.

وقال وهب: ثم مات يوشع بن نون ودفن في جبل أفراثيم وكان عمره مائة سنة وستاً وعشرين سنة وكان تدبيره أمر بني إسرائيل بعد موسى سبعاً وعشرين سنة. وقيل: إن الذي فتح أريحاء هو موسى عليه السلام وكان يوشع بن نون على مقدمته فسار إليهم بمن بقي من بني إسرائيل فدخلها يوشع وقاتل الجبابرة ثم دخلها موسى وأقام بها ما شاء الله تعالى ثم قبضه الله إليه ولا يعلم أحد قبره وهذا أصح الأقاويل لاتفاق العلماء أن موسى عليه السلام هو الذي قتل عوج بن عنق وهذا القول هو اختيار الطبري. ونقل عن السدي قال: غضب موسى على قومه فدعا عليهم فقال: رب

رسول الله ﷺ: «جاء ملكُ الموت إلى موسى بن عمران، فقال لـه أجب ربّك، قال: فلطم موسى عليه السلام عين ملك الموت ففقأها، قال: فرجع ملك الموت إلى الله تعالى فقال: إنك أرسلتني إلى عبدٍ لك لا يريد الموت وقد فقأ عيني قال: فردّ الله إليه عينه، وقال: ارجع إلى عبدي فقل له: الحياةَ تريد؟ فإن كنتَ تريد الحياة فضع يدك على متن ثور، فما وارتْ يدُك من شعرة فإنك تعيش بها سنة، قال: ثم مه؟ قال: ثم تموت، قال: فالآن من قريب، ربِّ أدنني من الأرض المقدسة رمية بحجر»، قال رسول الله ﷺ: «والله لو أني عنده لأريتكم قبره إلى جنب الطريق عند الكثيب الأحمر»، وقال وهب: خرج موسى لبعض حاجته فمرّ برهط من الملائكة يحفرون قبراً لم يرَ شيئاً قطّ أحسن منه ولا مثل ما فيه من الخضرة والنضرة والبهجة، فقال لهم: يا ملائكة الله لِمَ تحفرون هذا القبر؟ قال: لعبد كريم على ربّه، فقال: إن هذا العبدَ من الله له بمنزلة ما رأيت كاليوم مضجعاً قطّ، فقالت الملائكة: يا صفيّ الله تحبّ أن يكون لك؟ قال: وددت، قالوا: فانزل واضطجع فيه وتوجّه إلى ربّك، قال: فاضطجع فيه وتوجّه إلى ربّه ثم تنفس أسهل تنفّس فقبض الله تبارك وتعالى روحه، ثم سوّت عليه الملائكة. وقيل: ان ملك الموت أتاه بتفاحة من الجنة فشمّها فقبض روحه، وكان عُمر موسى مائة وعشرين سنة فلما مات موسى عليه السلام وانقضت الأربعون سنة بعث الله يوشع نبيّاً فأخبرهم أن الله قد أمره بقتال الجبابرة، فصدّقوه وتابعوه فتوجّه ببني إسرائيل إلى أريحاء ومعه تابوت الميثاق، فأحاط بمدينة أريحاء ستّة أشهر، فلما كان السابع نفخوا في القرون وضجّ الشعب ضجّة واحدة فسقط

إني لا أملك إلا نفسي وأخي الآية. فقال الله عز وجل: فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض فلما ضرب عليهم التيه ندم موسى وأتاه قومه الذين كانوا يطيعونه فقالوا له: ما صنعت بنا يا موسى فمكثوا في التيه فلما خرجوا منه رفع المن والسلوى والبقول والتقى موسى وعوج فنزا موسى في السماء عشر أذرع وكانت عصاه عشرة أذرع وكان طوله عشرة فأصاب كعب عوج فقتله. قال الطبري: ولو كان قتل موسى إياه قبل مصيره في التيه لم يجزع بنو إسرائيل لأنه كان من أعظم الجبارين. وروي عن نون قال: كان سرير عوج ثمانمائة ذراع. وقال: وإن أهل العلم بأخبار الأولين مجمعون على أن بلعم بن باعوراء كان ممن أعان الجبارين بالدعاء على موسى لأنه كان يعلم الاسم الأعظم فدعا عليه وسترد قصته في سورة الأعراف إن شاء الله تعالى وقوله تعالى: ﴿فلا تأس على القوم الفاسقين﴾ يعني: لا تحزن عليهم لأنهم أهل مخالفة وخروج عن الطاعة. وقيل: لما ندم موسى على ما دعاه على قومه أوحى الله إليه فلا تأس على القوم الفاسقين. قال الزجاج: وجائز أن يكون خطاباً لمحمد ﷺ أي: لا تحزن يا محمد على قوم لم يزل شأنهم المعاصي ومخالفة الرسل.

﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿واتل عليهم نبأ ابني آدم بالحق﴾ يعني اذكر لقومك وأخبرهم خبر ابني آدم وهما هابيل وقابيل في قول جمهور المفسرين ونقل عن الحسن والضحاك أن ابني آدم اللذين قربا القربان ما كانا ابني آدم لصلبه وإنما كانا رجلين من بني إسرائيل ويدل عليه قوله تعالى في آخر القصة ﴿من أجل ذلك كتبنا على بني إسرائيل أنه من قتل نفساً بغير نفس﴾ الآية والصحيح ما ذهب إليه جمهور المفسرين، لأن الله تعالى قال في آخر الآية: ﴿فبعث الله غراباً يبحث في الأرض﴾ لأن القاتل جهل ما يصنع بالمقتول حتى تعلّم من فعلِ الغراب بالحق أن أخبرهم خبراً ملتبساً بالحق

سور المدينة، ودخلوا فقاتلوا الجبّارين وهزموهم وهجموا عليهم يقتلونهم، وكانت العصابة من بني إسرائيل يجتمعون على عنق الرجل يضربونها حتى يقطعوها، فكان القتال يوم الجمعة فبقيت منهم بقية وكادت الشمس تغرب وتدخل ليلة السبت، فقال: اللّهمَّ أرددِ الشمسَ عليّ وقال للشمس: إنك في طاعة الله سبحانه وتعالى وأنا في طاعته فسأل الشمس أن تقف والقمر أن يقيم حتى ينتقم من أعداء الله تعالى قبل دخول السبت، فردّت عليه الشمس وزيدت في النهار ساعة حتى قتلتهم أجمعين، وتتبّع ملوك الشام فاستباح منهم أحداً وثلاثين ملكاً حتى غلب على جميع أرض الشام، وصارت الشام كلها لبني إسرائيل وفرّق عمّاله في نواحيها وجمع الغنائم، فلم تزل النار، فأوحى الله إلي يوشع أن فيها غلولاً فمرْهم فليبايعوك فبايعوه فالتصقت يد رجل منهم بيده فقال: هلمّ عندك فأتاه برأس ثور من ذهب مكلّل باليواقيت والجواهر كان قد غلّه، فجعله في القربان وجعل الرجل معه فجاءت النار فأكلت الرجل والقربان، ثم مات يوشع ودفن في جبل أفرائيم، وكان عمره مائة وستّاً وعشرين سنة، وتدبيره أمر بني إسرائيل من بعد موسى عليه السلام سبعاً وعشرين سنة.

قوله تعالى: ﴿ واتْلُ عليهمْ نبأ ابني آدم بالحق ﴾، وهما هابيل وقابيل، ويقال له قابين، ﴿ إذْ قرّبا قُرباناً ﴾، وكان سبب قربانهما على ما ذكره أهل العلم أن حوّاء كانت تلد لآدم عليه السلام في كل بطن غلاماً وجارية، وكان جميع ما ولدته أربعين ولداً في عشرين بطناً أولهم قابيل وتوأمته أقليما، وآخرهم عبـد المغيث وتوأمتـه أمة المغيث، ثم بارك الله عزّ وجلّ في نسل آدم عليه السلام، قال ابن عباس: لم يمت آدم حتى بلغ ولده وولد ولده أربعين ألفاً، واختلفوا في مولد قابيل وهابيل، فقال بعضهم: غشي آدم وحوّاء بعد مهبطهما إلى الأرض بمائة سنة، فولدت له

والصدق لأنه من عند الله وموافقاً لما في الكتب المتقدمة وهم يعلمون صحته ومقصود هذا الخبر هو تقبيح الحسد لأن المشركين وأهل الكتاب كانوا يحسدون رسول الله ﷺ ﴿إذا قربا قرباناً﴾ القربان اسم لما يتقرب به إلى الله عز وجل من صدقة أو ذبيحة أو غير ذلك مما يتقرب به.

(ذكر قصة القربان وسببه وقتل قابيل هابيل)

ذكر أهل العلم بالأخبار والسير أن حواء كانت تلد لآدم في كل بطن غلاماً وجارية فكان جميع ما ولدته أربعين ولداً في عشرين بطناً أولهم قابيل وتوأمته إقليما وآخرهم عبد المغيث وتوأمته أم المغيث ثم بارك الله في نسل آدم. قال ابن عباس: لم يمت آدم حتى بلغ ولده وولد ولده أربعين ألفاً واختلفوا في مولد قابيل وهابيل فقال بعضهم غشي آدم حواء بعد مهبطهما إلى الأرض بمائة سنة فولدت له قابيل وتوأمته إقليما في بطن ثم هابيل وتوأمته لبودا في بطن.

وقال محمد بن إسحاق عن بعض أهل العلم بالكتاب الأول: إن آدم كان يغشى حواء في الجنة قبل أن يصيب الخطيئة فحملت بقابيل وأخته فلم تجد عليهما وحماً ولا وصباً ولا طلقاً ولم تر دماً وقت الولادة فلما هبط إلى الأرض تغشاها فحملت بهابيل وتوأمته فوجدت عليهما الوحم والوصب والطلق والدم وكان إذا كبر أولاده زوج غلام هذا البطن جارية بطن أخرى وكان الرجل منهم يتزوج أية أخواته شاء غير توأمته التي ولدت معه لأنه لم يكن يومئذ نساء إلا أخواتهم فكبر قابيل وأخوه هابيل وكان بينهما سنتان، فلما بلغوا، أمر الله آدم أن يزوج قابيل لبودا أخت هابيل ويزوج هابيل إقليما. وكانت إقليما أحسن من لبودا، فذكر آدم ذلك لهما فرضي هابيل وسخط قابيل وقال: هي أختي وأنا أحق بها ونحن أولاد من الجنة وهما من أولاد الأرض. فقال أبوه آدم: إنها لا تحل لك. فأبى أن يقبل ذلك. وقال: إن الله لم يأمرك بهذا وإنما هو من رأيك فقال لهما آدم. قربا لله قرباناً فأيكما تقبل قربانه فهو أحق بها وكانت القرابين إذا كانت مقبولة نزلت من السماء نار بيضاء فأكلتها وإن لم تكن مقبولة لم تنزل النار بل تأكلها الطير والسباع. فخرجا من عند آدم ليقربا القربان وكان قابيل صاحب زرع فقرب صبرة من طعام رديء وأضمر في نفسه: لا أبالي أيتقبل مني أم لا لا يتزوج أختي أحد غيري وكان هابيل صاحب غنم فعدل إلى أحسن كبش في غنمه فقربه وأضمر في نفسه رضا الله فوضعا قربانهما على جبل ثم دعا آدم فنزلت النار من السماء فأكلت قربان هابيل ولم تأكل قربان قابيل فذلك قوله تعالى: ﴿فتقبل من أحدهما﴾ يعني هابيل ﴿ولم يتقبل من الآخر﴾ يعني قابيل فغضب قابيل إذ لم يتقبل قربانه فأضمر لأخيه الحسد إلى أن آتى آدم مكة لزيارة البيت وغاب عنهم فأتى قابيل وهابيل وهو في غنمه ﴿قال لأقتلنك قال﴾ قال

قابيل وتوأمته أقليما في بطن واحد، ثم هابيل وتوأمته لبودا في بطن، وقال محمد بن إسحق عن بعض أهل العلم بالكتاب الأول: ان آدم كان يغشى حوّاء في الجنة قبل أن يصيب الخطيئة، فحملت فيها بقابيل وتوأمته أقليما، فلم تجد عليهما وحماً ولا وصباً ولا طلقاً حتى ولدتهما، ولم ترَ معهما دماً فلما هبط إلى الأرض تغشاها فحملت بهابيل وتوأمته، فوجدت عليهما الوحم والوصب والطلق والدم، وكان آدمُ إذا شبّ أولاده يـزوّج غلام هذا البطن جارية بطن أخرى، فكان الرجل منهم يتزوّج أيّة أخواته شاء إلّا توأمته التي ولدت معه لأنه لم يكن يومئذ نساء إلّا أخواتهم، فلما ولد قابيل وتوأمته أقليما ثم هابيل وتوأمته لبودا، وكان بينهما سنتان في قول الكلبي وأدركوا، أمر الله تعالى آدم عليه السلام أن ينكح قابيل لبودا وينكح هابيل إقليما أُخت قابيل، وكانت أُخت قابيل أحسن من أُخت هابيل، فذكر ذلك آدم لولده فرضي هابيل وسخط قابيل، وقال: هي أُختي أنا أحقّ بها، ونحن من ولادة الجنة وهما من ولادة الأرض، فقال له أبوه: إنها لا تحلّ لك فأبى أن يقبل ذلك، وقال: إن الله لم يأمره بهذا وإنما هو من رأيه، فقال لهمـا آدم عليه السلام: فقرّبـا قرباناً فأيّكما يُقبل قربانه فهو أحقّ بها، وكانت القرابين إذا كانت مقبولة نزلت نار

هابيل ولم تقتلني؟ قال قابيل: لأن الله تقبّل قربانك وردّ قرباني وتريد أن تنكح أختي الحسناء وأنكح أختك الدميمة فيتحدث الناس بأنك خير مني ويفخر ولدك على ولدي فقال هابيل وما ذنبي ﴿إنما يتقبل الله من المتقين﴾ يعني أن حصول التقوى شرط في قبول الأعمال فلذلك كان أحد القربانين مقبولاً دون الآخر ولأن التقوى من أعمال القلوب وكان قد أضمر في قلبه الحسد لأخيه على تقبل قربانه وتوعّده بالقتل فقال له: إنما أوتيت من قبل نفسك لانسلاخها من لباس التقوى وإنما يتقبل الله من المتقين فأجابه بجواب مختصر. وقيل: يحتمل أن يكون خطاباً للنبي ﷺ فكأنه تعالى بين للنبي ﷺ أنه إنما لم يتقبل قربانه لأنه لم يكن متقياً وإنما يتقبل الله من المتقين ثم قال تعالى إخباراً عن هابيل.

﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾

﴿لئن بسطت إليَّ يدك﴾ يعني لئن مددت إلي يدك ﴿لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك﴾ يعني ما أنا بمنتصر لنفسي بل أستسلم لأمر الله. وقيل: معناه ما كنت بمبتدئك بالقتل وذلك أن الله كان قد حرم عليهم قتل نفس بغير نفس ظلماً. وقال مجاهد: كان قد كتب عليهم إذا أراد الرجل أن يقتل رجلاً تركه ولا يمتنع منه. وقيل: إن المقتول كان أقوى من القاتل وأبطش منه ولكنه تحرج عن قتل أخيه فاستسلم له خوفاً من الله فذلك قوله ﴿إني أخاف الله رب العالمين﴾ والمعنى إني أخاف الله في بسط يدي إليك إن أبسطها لقتلك أن يعاقبني على ذلك.

قوله عز وجل إخباراً عن هابيل ﴿إني أريد أن تبوء بإثمي وإثمك﴾ يعني ترجع بإثم قتلي إلى إثم معاصيك التي عملتها من قبل. فإن قلت: كيف؟ قال هابيل إني أريد وإرادة القتل والمعصية من الغير لا تجوز. قلت: أجاب ابن الأنباري عن هذا بأن قال: إن قابيل لما قال لأخيه هابيل لأقتلنك وعظه هابيل وذكره الله واستعطفه وقال لئن بسطت إليّ يدك الآية فلم يرجع فلما رآه هابيل قد صمم على القتل وأخذ له الحجارة ليرميه بها قال له هابيل عند ذلك إني أريد أن تبوء بإثمي وإثمك أي إذا قتلتني ولم يندفع قتلك إياي إلا بقتلي إياك فحينئذ يلزمك إثم قتلي إذا قتلتني فكان هذا

من السماء بيضاء فأكلتها، وإذا لم تكن مقبولة لم تنزل النار وأكلته الطير والسِّباع، فخرجا ليقرّبا قرباناً وكان قابيل صاحب زرع فقرّب صبرة من طعام من أردأ زرعه وأضمر في نفسه ما أُبالي يقبل منّي أو لا يتزوج أُختي أبداً، وكان هابيل صاحب غنم فعمد إلى أحسن كبش في غنمه فقرّب به وأضمر في نفسه رضا الله عزّ وجلّ فوضعا قربانهما على الجبل، ثم دعا آدم عليه السلام فنزلت نار من السماء وأكلت قربان هابيل ولم تأكل قربان قابيل، فذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿ فتُقبّل من أحدهما ﴾، يعني هابيل ﴿ ولم يُتَقَبَّلْ من الآخر ﴾، يعني: قابيل فنزلوا على الجبل وقد غضب قابيل لردّ قربانه وكان يضمر الحسد في نفسه إلى أن أتى آدم مكة لزيارة البيت، فلما غاب آدم أتى قابيل هابيل وهو في غنمه، ﴿ قال لأقتلنّك ﴾؟ قال: لأنّ الله تعالى قبل قربانك وردّ قرباني، وتنكح أُختي الحسناء وأنكح أُختك الدميمة، فيتحدّث الناس أنك خير منّي ويفتخر ولدك على ولدي، ﴿ قال ﴾، هابيل: وما ذنبي؟ ﴿ إنما يتقبّل اللّهُ منَ المتّقين ﴾.

﴿ لئنْ بسطت ﴾، أي: مددت، ﴿ إليّ يدَك لتقتلني ما أنا بباسطٍ يديَ إليك لأقتلك إني أخافُ اللّهَ ربَّ العالمين ﴾، قال عبد الله بن عمر: وأيم الله إن كان المقتول لأشدّ الرجلين ولكن منعه التحرّج أن يبسط إلى أخيه يده، وهذا في الشرع جائز لمَن أُريد قتله أن ينقاد ويستسلم طلباً للأجر كما فعل عثمان رضي الله عنه، قال مجاهد:

عدلاً من هابيل وإليه أشار الزجاج فقال: معناه إن قتلتني فما أنا مريد ذلك فهذه الإرادة منه بشرط أن يكون قاتلاً له والإنسان إذا تمنى أن يكون إثم دمه على قاتله لم يلم على ذلك وعلى هذا التأويل.

قال بعضهم: معناه إني أريد أن تبوء بعقاب إثمي وإثمك فحذف المضاف وما باء بإثم باءَ بعقاب ذلك الإثم ذكره الواحدي وقال الزمخشري: ليس ذلك بحقيقة الإرادة لكنه لما علم أنه يقتله لا محالة ووطن نفسه على الاستسلام للقتل طلباً للثواب فكأنه صار مريداً لقتله مجازاً وإن لم يكن مريداً حقيقة ﴿**فتكون من أصحاب النار**﴾ يعني الملازمين لها ﴿**وذلك جزاء الظالمين**﴾ يعني جهنم جزاء من قتل أخاه ظلماً.

قوله تعالى: ﴿**فطوعت له نفسه قتل أخيه**﴾ يعني زينت له وسهلت عليه القتل وذلك أن الإنسان إذا تصور أن قتل النفس من أكبر الكبائر صار ذلك صارفاً له عن القتل فلا يقدم عليه فإذا سهلت عليه نفسه هذا الفعل فعله بغير كلفة فهذا هو المراد من قوله تعالى: «فطوعت له نفسه قتل أخيه»﴿**فقتله**﴾.

قال ابن جريج: لما قصد قابيل قتل هابيل لم يدر كيف يقتله فتمثل له إبليس وقد أخذ طيراً فوضع رأسه على حجر ثم رضخه بحجر آخر وقابيل ينظر فعلمه القتل فرضخ قابيل رأس هابيل بين حجرين وهو مستسلم صابر وقيل بل اغتاله وهو نائم فقتله.

واختلف في موضع قتله فقال ابن عباس: على جبل ثور. وقيل: على عقبة حراء. وقيل: بالبصرة عند مسجدها الأعظم وكان عمر هابيل يوم قتل عشرين سنة.

وقوله تعالى: ﴿**فأصبح من الخاسرين**﴾ قال ابن عباس: خسر دنياه وآخرته أما دنياه فإسخاط والديه وبقي بلا أخ

كتب الله في ذلك الوقت إذا أراد رجل قتل رجل أن يمتنع ويصبر.

﴿ **إنّي أُريد أن تبوء** ﴾، ترجع، وقيل: تحمل، ﴿ **بإثمي وإثمك** ﴾، أي: بإثم قتلي إلى إثمك، أي: إثم معاصيك التي عملت من قبل، هذا قول أكثر المفسّرين. وروى ابن أبي نجيح عن مجاهد قال: معناه إني أريد أن يكون عليك خطيئتي التي عملتها أنا إذا قتلتني وإثمك فتبوء بخطيئتي ودمي جميعاً، وقيل: معناه أن ترجع بإثم قتلي وإثم معصيتك التي لم يتقبّل لأجلها قربانك، أو إثم حسدك، فإن قيل: كيف قال إني أريد أن تبوء بإثمي وإثمك، وإرادة القتل والمعصية لا تجوز؟ قيل: ذلك ليس بحقيقة إرادة ولكنه لمّا علم أنه يقتله لا محالة وطّن نفسه على الاستسلام طلباً للثواب فكأنه صار مريداً لقتله مجازاً، وإن لم يكن مريداً حقيقة، وقيل: معناه إني أُريد أن تبوء بعقاب قتلي فيكون إرادة صحيحة لأنها موافقة لحكم الله عزّ وجلّ فلا يكون هذا إرادة للقتل بل لموجب القتل من الإثم والعقاب، ﴿ **فتكونَ من أصحاب النار وذلك جزاءُ الظالمين** ﴾.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ **فطوّعتْ له نفسُه** ﴾، أي: طاوعته وشايعته وعاونته، ﴿ **قتلَ أخيه** ﴾، في قتل أخيه، وقال مجاهد: فشجعته، وقال قتادة: فزيّنتْ له نفسُه، وقال يمان: سهّلت له ذلك، أي: جعلته سهلاً، تقديره: صوّرت له نفسه أن قتل أخيه طوع له أي سهل عليه، فقتله فلما قصد قابيل قتله لم يدرِ كيف يقتله، قال ابن جريج: فتمثّل له إبليس وأخذ طيراً فوضع رأسه على حجر ثم شدخ رأسه بحجر آخر وقابيل ينظر إليه فعلّمه القتل، فرضخ قابيل رأس هابيل بين حجرين، قيل: قتل وهو مستسلم، وقيل: اغتاله وهو في النوم فشدخ رأسه فقتله، وذلك قوله تعالى: ﴿ **فقتله فأصبح من الخاسرين** ﴾، وكان لهابيل يوم قتل عشرون سنة، واختلفوا في موضع قتله، قال ابن عباس رضي الله عنهما: على جبل ثور، وقيل: عند عقبة حراء، فلما قتله تركه بالعراء ولم يدرِ ما يصنع به لأنه كان أول ميت على وجه الأرض من بني آدم، وقصدته السِّباع فحمله في جراب على ظهره أربعين يوماً، وقال ابن عباس:

وأما آخرته فأسخط ربه وصار إلى النار (ق) عن عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله ﷺ «لا تقتل نفس ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها لأنه أول من سن القتل».

﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ۝٣١﴾

قوله تعالى: ﴿فبعث الله غراباً يبحث في الأرض ليريه كيف يواري سوأة أخيه﴾ قال أصحاب الأخبار لما قتل قابيل هابيل تركه بالعراء ولم يدر ما يصنع به لأنه أول ميت من بني آدم على وجه الأرض فقصدته السباع لتأكله فحمله قابيل على ظهره في جراب أربعين يوماً. وقال ابن عباس: سنة حتى أروَحَ وأنتن فأراه الله أن يرى قابيل سنته في موتى بني آدم في الدفن فبعث الله غرابين فاقتتلا فقتل أحدهما الآخر فحفر له بمنقاره ورجليه حفيرة ثم ألقاه فيها وواراه بالتراب وقابيل ينظر فذلك قوله تعالى: ﴿فبعث الله غراباً يبحث في الأرض﴾ يعني يحفرها وينثر ترابها ليريه كيف يواري سوأة أخيه يعني ليري الله أو يري الغراب قابيل كيف يواري ويستر جيفة أخيه فلما رأى ذلك قابيل من فعل الغراب ﴿قال يا ويلتا﴾ أي لزمه الويل وحضره وهي كلمة تحسر وتلهف وتستعمل عند وقوع الداهية العظيمة وذلك أنه ما كان يعلم كيف يدفن المقتول فلما علم ذلك من فعل الغراب علم أن الغراب أكثر علماً منه وعلم أنه إنما ندم على قتل أخيه بسبب جهله وعدم معرفته فعند ذلك تلهف وتحسر على ما فعله فقال: يا ويلتا. وفيه اعتراف على نفسه باستحقاق العذاب ﴿أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب﴾ يعني مثل هذا الغراب الذي وارى الغراب الآخر ﴿فأواري سوأة أخي﴾ يعني فأستر جيفته وعورته عن الأعين ﴿فأصبح من النادمين﴾ يعني على حمله على ظهره مدة سنة لا على قتله. وقيل: إنه ندم على قتل أخيه لأنه لم ينتفع بقتله وسخط عليه أبواه وإخوته فندم لأجل ذلك لا لأجل أنه جنى جناية واقترف ذنباً عظيماً بقتله فلم يكن ندمه ندم توبة وخوف وإشفاق من فعله فلأجل ذلك لم ينفعه الندم، قال المطلب بن عبد الله بن حطب: لما قتل ابن آدم أخاه رجفت الأرض بمن عليها سبعة أيام وشربت دم المقتول كما تشرب الماء فناداه تعالى أين أخوك هابيل؟ فقال ما أدري ما كنت عليه رقيباً: فقال الله تعالى إن دم أخيك ليناديني من الأرض فلم قتلت أخاك؟ قال فأين دمه إن كنت قتلته! فحرم الله على الأرض يومئذ أن تشرب دماً بعده أبداً ويروى عن ابن عباس قال لما قتل قابيل هابيل كان آدم بمكة فاشتاكَ الشجر وتغيرت الأطعمة وحمضت الفواكه واغبرت الأرض فقال آدم: قد حدث في الأرض حدث، فأتى الهند فوجد قابيل قد قتل هابيل، وقيل: لما رجع آدم سأل قابيل عن

سنة حتى أروح، وعكفت عليه الطير والسِّباع تنتظر متى يرمي به فتأكله، فبعث الله غرابين فاقتتلا، فقتل أحدهما صاحبه ثم حفر له بمنقاره وبرجله حتى مكّن له ثم ألقاه في الحفرة وواراه، وقابيل ينظر إليه، فذلك قوله تعالى:

﴿ فبعث اللّهُ غراباً يبحث في الأرض ليريه كيف يُواري سوءةَ أخيه ﴾، فلما رأى قابيل ذلك ﴿ قال يا ويلتي أعَجَزْتُ أنْ أكونَ مثل هذا الغُرابِ فأُواري سوأةَ أخي ﴾، أي: جيفته، وقيل: عورته لأنه قد سلب ثيابه، ﴿ فأصبحَ منَ النَّادمين ﴾، على حمله على عاتقه لا على قتله، وقيل: على فراق أخيه، وقيل: ندم لقلّة النفع بقتله فإنه أسخط والديه، وما انتفع بقتله شيئاً ولم يكن ندمه على القتل وركوب الذنب، قال عبد المطّلب بن عبد الله بن حنطب: لمّا قتل ابن آدم أخاه وجفّت الأرض بما عليها سبعة أيام ثم شربت الأرض دمه كما يشرب الماء، فناداه آدم أين أخوك هابيل؟ قال: ما أدري ما كنت عليه رقيباً، فقال آدم: إن دم أخيك ليناديني من الأرض، فلِمَ قتلت أخاك؟ قال: فأين دمه إن كنتُ قتلتُه؟ فحرّم الله عزّ وجلّ على الأرض يومئذ أن تشرب دماً بعده أبداً، وقال مقاتل بن سليمان عن الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما: لمّا قتل قابيل هابيل وآدم عليه السلام بمكة اشتاك الشجر وتغيرت

أخيه، فقال: ما كنت عليه وكيلاً. فقال: بل قتلته ولذلك اسود جلدك. وقيل: إن آدم مكث بعد قتل هابيل مائة سنة لا يضحك وأنه رثاه بشعر فقال:

تغيــــرت البــــلاد ومــــن عليهــــا فــــوجــــه الأرض مغبــــرٌّ قبيــــحُ
تغيــــر كــــل ذي طعــــم ولــــون وقــــل بشــــاشــــة الــــوجــــه المليــــحُ

ويروى عن ابن عباس أنه قال: من قال إن آدم قال شعراً فقد كذب وأن محمداً ﷺ والأنبياء كلهم في النهي سواء ولكن لما قتل هابيل رثاه آدم وهو سرياني فلما قال آدم مرثيته قال لشيث: يا بني أنت وصيي احفظ هذا الكلام ليُتوارث فيرثي الناس عليه فلم يزل ينتقل حتى وصل إلى يعرب بن قحطان وكان يتكلم بالعربية والسريانية وهو أول من خط العربية وكان يقول الشعر فنظر في المرثية فرد المقدم إلى المؤخر والمؤخر إلى المقدم فوزنه شعراً وزاد فيه أبياتها منها:

ومــــا لــــي لا أجــــود بسكــــب دمــــع وهــــابيــــل تضمنــــه الضــــريــــحُ
أرى طــــول الحيــــاة علــــيّ غمــــاً فهــــل أنــــا مــــن حيــــاتــــي مستــــريــــحُ

قال الزمخشري: ويروى أنه رثاه بشعر وهو كذب بحت وما الشعر إلا منحول ملحون وقد صح أن الأنبياء عليهم السلام معصومون من الشعر. قال الإمام فخر الدين الرازي: ولقد صدق صاحب الكشاف فيما قال فإن ذلك الشعر في غاية الركاكة لا يليق إلا بالحمقى من المعلمين فكيف ينسب إلى من جعل الله علمه حجة على الملائكة؟.

قال أصحاب الأخبار: فلما مضى من عمر آدم مائة وثلاثون سنة وذلك بعد قتل هابيل بخمسين سنة ولدت له حواء شيثاً وتفسيره هبة الله يعني أنه خلف من هابيل وعلمه الله تعالى ساعات الليل والنهار وعلمه عبادة الخلق في كل

الأطعمة وحمضت الفواكه، وأمرّ الماء واغبرّت الأرض، فقال آدم عليه السلام: قد حدث في الأرض حدث فأتى الهند فإذا قابيل قد قتل هابيل فأنشأ يقول وهو أول مَن قال الشعر:

تـغـيـرتِ الـبـلادُ ومَـنْ عـلـيـهـا فـوجـه الأرض مـغـبـرٌّ قـبـيـح
تـغـيّـر كـل ذي طـعـم ولـون وقـلّ بشاشـةُ الـوجـه المليح

ورُوِيَ عن ميمون بن مهران عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: مَن قال إن آدم عليه السلام قال شعراً فقد كذب على الله ورسوله، فإن محمداً ﷺ والأنبياء كلهم عليهم السلام في النهي عن الشعر سواء، ولكن لمّا قتل قابيل هابيل رثاه آدم وهو سرياني، فلما قال آدم مرثيّته قال لشيث: يا بني إنك وصي احفظ هذا الكلام ليتوارث فيرقّ الناس عليه، فلم يزل ينقل حتى وصل إلى يعرب بن قحطان، وكان يتكلم بالعربية والسريانية وهو أول مَن خطّ بالعربية، وكان يقول الشعر فنظر في المرثية فردّ المقدّم إلى المؤخّر والمؤخّر إلى المقدّم، فوزنه شعراً وزاد فيه أبيات منها:

ومـا لي لا أجـود بسكب دمـع وهـابيـل تضمنـه الـضـريـح
أرى طـول الـحيـاة علـيّ غـمّـاً فهـل أنا من حيـاتي مستريـح

فلما مضى من عمر آدم عليه السلام مائة وثلاثون سنة، وذلك بعد قتل هابيل بخمس سنين ولدت له حوّاء شيثاً واسمه عبد الله، يعني إنه خلف من هابيل علّمه الله تعالى ساعات الليل والنهار، وعلّمه عبادة الخلق في كل ساعة منها، وأنزل عليه خمسين صحيفة فصار وصيّ آدم ووليّ عهده، وأما قابيل فقيل له: اذهب طريداً شريداً فزعاً

ساعة وأنزل عليه خمسين صحيفة وصار وصي آدم وولي عهده وأما قابيل فقيل له اذهب طريداً شريداً فزعاً مرعوباً لا تأمن من تراه فأخذ بيد أخته إقليما وهرب بها إلى عدن من أرض اليمن فأتاه إبليس وقال له إنما أكلت النار قربان هابيل لأنه كان يعبدها فانصب أنت ناراً تكون لك ولعقبك فبنى بيت النار فهو أول من عبد النار وكان قابيل لا يمر به أحد إلا رماه بالحجارة فأقبل ابن لقابيل أعمى ومعه ابنه فقال ابن الأعمى لأبيه هذا أبوك قابيل فرماه بحجارة فقتله فقال ابن الأعمى لأبيه قتلت أباك قابيل فرفع الأعمى يده ولطم ابنه فمات فقال الأعمى ويل لي قتلت أبي برميتي وقتلت ابني بلطمتي فلما مات قابيل علقت إحدى رجليه بفخذه وعلق بها فهو معلق بها إلى يوم القيامة ووجهه إلى الشمس حيث دارت وعليه حظيرة من نار في الصيف وحظيرة من ثلج في الشتاء فهو يعذب بذلك إلى يوم القيامة قالوا: واتخذ أولاد قابيل آلات للهو من الطبول والزمور والعيدان والطنابير وانهمكوا في اللهو وشرب الخمر وعبادة النار والفواحش حتى أغرقهم الله تعالى جميعاً بالطوفان في زمن نوح عليه السلام فلم يبق من ذرية قابيل أحد وأبقى الله ذرية شيث ونسله إلى يوم القيامة.

مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ (٣٢)

قوله تعالى: ﴿من أجل ذلك﴾ يعني بسبب ذلك القتل الذي حصل وقيل الأجل في اللغة الجناية يقال أجل عليهم شراً أي جنى عليهم شراً ﴿كتبنا﴾ أي فرضنا وأوجبنا ﴿على بني إسرائيل﴾ .

فإن قلت: من أجل ذلك معناه من أجل ما مر من قصة قابيل وهابيل كتبنا على بني إسرائيل. وهذا مشكل لأنه لا مناسبة بين واقعة قابيل وهابيل وبين وجوب القصاص على بني إسرائيل. قلت: قال بعضهم هو من تمام الكلام الذي قبله والمعنى فأصبح من النادمين من أجل ذلك أي من أجل أنه قتل هابيل ولم يواره. ويروى عن نافع أنه كان يقف

مرعوباً لا تأمن مـن تراه، فأخذ بيد أخته إقليما وهرب بها إلى عدن من أرض اليمن، فأتاه إبليس فقال له: إنما أكلت النار قربان هابيل لأنه كان يعبد النار فانصبْ أيضاً أنت ناراً تكون لك ولعقبك، فبنى بيتاً للنار فهو أول مَن عبد النار، وكان لا يمرّ به أحد من ولده إلاّ رماه، فأقبل ابن له أعمى ومعه ابن له، فقال ابنه: هذا أبوك قابيل، فرمى الأعمى أباه فقتله، فقال ابن الأعمى: قتلتَ أباك؟ فرفع يده ولطم ابنه، فمات فقال الأعمى: ويلٌ لي قتلت أبي برميتي وقتلت ابني بلطمتي، وقال مجاهد: فعلقت إحدى رجلي قابيل إلى فخذها وساقها وعلقت منها فهو معلّق إلى يوم القيامة ووجهه إلى الشمس ما دارت عليه في الصيف حظيرة من نار وفي الشتاء حظيرة من ثلج، قال: واتخذ أولاد قابيل آلات اللهو من اليراع والطبول والمزامير والعيدان والطنابير، وانهمكوا في اللهو وشرب الخمر وعبادة النار والزنا والفواحش حتى أغرقهم الله بالطوفان أيام نوح عليه السلام، وبقي نسل شيث. أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل أنا عمر بن حفص بن غياث ثنا أبي ثنا الأعمش حدّثني عبد الله بن مرّة عن مسروق عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تُقتل نفسٌ ظلماً إلاّ كان على ابن آدم الأول كِفْلٌ من دمها لأنه أوّل مَن سنّ القتل».

قوله عزّ وجلّ: ﴿ من أجل ذلك ﴾، قرأ أبو جعفر من أجل ذلك بكسر النون موصولاً وقراءة العامّة بجزم النون وفتح الهمزة مقطوعاً، أي: من جرّاء ذلكِ القاتل وجنايته، يقال: أجل يأجل أجلاً، إذا جنى، مثل أخذ يأخذ أخذاً،

على قوله من أجل ذلك ويجعله تمام الكلام الأول فعلى هذا يزول الإشكال. لكن جمهور المفسرين وأصحاب المعاني على أن قوله من أجل ذلك ابتداء كلام وليس يوقف عليه. فعلى هذا قال بعضهم: إن قوله من أجل ذلك ليس هو إشارة إلى قصة قابيل وهابيل، بل هو إشارة إلى ما مر ما ذكره في هذه القصة من أنواع المفاسد الحاصلة بسبب هذا القتل الحرام منها قوله ﴿**فأصبح من الخاسرين**﴾ وفيه إشارة إلى أنه حصلت له خسارة في الدين والدنيا والآخرة.

ومنها قوله: ﴿**فأصبح من النادمين**﴾ وفيه إشارة إلى أنه حظر في أنواع الندم والحسرة والحزن مع أنه لا دافع لذلك البتة فقوله من أجل ذلك كتبنا على بني إسرائيل أي من أجل ذلك الذي ذكرنا في أثناء القصة من أنواع المفاسد المتولدة من القتل العمد المحرم شرعنا القصاص على القاتل. فإن قلت: فعلى هذا تكون شريعة القصاص حكماً ثابتاً في جميع الأمم، فما الفائدة بتخصيصه ببني إسرائيل. قلت: إن وجوب القصاص وإن كان عامّاً في جميع الأديان والملل إلا أن التشديد المذكور هاهنا في حق بني إسرائيل غير ثابت في جميع الأديان والملل لأنه تعالى حكم في هذه الآية بأن من قتل نفساً فكأنما قتل الناس جميعاً ولا يشك أن المقصود منه المبالغة في عقاب قاتل النفس عدواناً وأن اليهود مع علمهم بهذه المبالغة العظيمة أقدموا على قتل الأنبياء والرسل وذلك يدل على قساوة قلوبهم وبعدهم عن الله عز وجل ولما كان الفرض من ذكر هذه القصة تسلية النبي ﷺ على ما أقدم عليه اليهود بالفتك بالنبي ﷺ وبأصحابه فتخصيص بني إسرائيل في هذه القصة بهذه المبالغة مناسب للكلام وتوكيد للمقصود والله أعلم بمراده.

قوله عز وجل: ﴿**أنه من قتل نفساً**﴾ يعني من قتل نفساً ظلماً ﴿**بغير نفس**﴾ يعني بغير قتل نفس لا على وجه الاقتصاص فيقاد من قاتل النفس على وجه العدوان المحرم ﴿**أو فساد في الأرض**﴾ هو عطف على بغير نفس يعني وبغير فساد في الأرض فيستحق به القتل لأن القتل على أسباب كثيرة منها القصاص وهو المراد من قوله: قتل نفساً بغير نفس. ومنها الشرك والكفر بعد الإيمان ومنها قطع الطريق ونحو ذلك وهو المراد من قوله أو فساد في الأرض ﴿**فكأنما قتل الناس جميعاً ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً**﴾ قال مجاهد: من قتل نفساً محرمة يصلى النار بقتلها كما يصلاها بقتل الناس جميعاً ومن سلم من قتلها فكأنما سلم من قتل الناس جميعاً. وقال ابن عباس: من قتل نبياً أو إمام عدل فكأنما قتل الناس جميعاً. ومن شد عضد نبي أو إمام عدل فكأنما أحيا الناس جميعاً. وقيل: معناه أن من قتل نفساً محرمة يجب عليه من القصاص مثل الذي يجب عليه لو قتل الناس جميعاً ومن أحياها يعني من غرق أو حرق أو وقوع في هلكة فكأنما أحيا الناس جميعاً يعني أن له من الثواب مثل ثواب من أحيا الناس جميعاً وقيل: معناه من استحل قتل مسلم بغير حقه فكأنما استحل قتل الناس جميعاً لأنهم لا يسلمون منه ومن تورع عن قتل مسلم فكأنما تورع عن قتل جميع الناس فقد سلموا منه قال أهل المعاني قوله ومن أحياها على المجاز لأن المحيي هو الله تعالى في الحقيقة فيكون المعنى ومن ناجاها من الهلاك فكأنما نجى جميع الناس منه. سئل الحسن عن هذه الآية أهي لنا كما كانت لبني إسرائيل فقال: أي والذي لا إله غيره ما كانت دماء بني إسرائيل أكرم على الله من دمائنا.

وقوله تعالى: ﴿**ولقد جاءتهم رسلنا بالبينات**﴾ يعني: ولقد جاءت بني إسرائيل رسلنا ببيان الأحكام والشرائع

﴿ **كتبنا على بني إسرائيل أنّه مَن قتل نفساً بغير نفس** ﴾، قتلها فيقاد منه، ﴿ **أو فسادٍ في الأرض** ﴾، يريد بغير نفس وبغير فساد في الأرض مَن كفر أو زنا أو قطع طريق، أو نحو ذلك ﴿ **فكأنّما قتلَ النّاسَ جميعاً** ﴾، اختلفوا في تأويله، قال ابن عباس رضي الله عنهما في رواية عكرمة: مَن قتل نبيّاً أو إمام عدل فكأنما قتل النّاسَ **جميعاً**، ومَن شدّ عضد نبيٍّ أو إمام عدل فكأنما أحيا النّاسَ جميعاً، قال مجاهد: مَن قتل نفساً محرّمة يصلى النار بقتلها، كما يصلى لو قتل الناس جميعاً، ومَن أحياها مَن سلم من قتلها فقد سلم من قتل الناس جميعاً، قال قتادة: أعظم الله أجرها وعظّم وزرها، معناه مَن استحلّ قتل مسلم بغير حقّه فكأنما قتل الناس جميعاً في الإثم لأنهم لا يسلمون منه،

والدلالات الواضحات ﴿ثم إن كثيراً منهم بعد ذلك﴾ يعني بعد مجيء الرسل وبعد ما كتبنا عليهم تحريم القتل ﴿في الأرض لمسرفون﴾ يعني بالقتل لا ينتهون عنه وقيل معناه لمجازون حد الحق وإنما قال تعالى وإن كثيراً منهم، لأنه تعالى علم أن منهم من يؤمن بالله ورسوله وهم قليل من كثير. قوله عز وجل: ﴿إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله﴾ قال ابن عباس نزلت في قوم من أهل الكتاب كان بينهم وبين رسول الله ﷺ عهد وميثاق فنقضوا العهد وأفسدوا في الأرض فخيَّر الله رسوله ﷺ إن يشأ يقتل وإن يشأ يصلب وإن يشأ يقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف وهذا قول الضحاك أيضاً.

وقال الكلبي: نزلت في قوم هلال بن عويمر وذلك أن النبي ﷺ وادع هلال بن عويمر وهو أبو بردة الأسلمي على أن لا يعينه ولا يعين عليه ومن مر بهلال إلى النبي ﷺ فهو آمن لا يهاج فمر قوم من بني كنانة يريدون الإسلام بقوم هلال ولم يكن هلال شاهداً فشدوا عليهم فقتلوهم وأخذوا أموالهم فنزل جبريل عليه السلام بالقضاء فيهم بهذه الآية. وقال سعيد بن جبير: نزلت هذه الآية في قوم من عرينة وعكل أتوا إلى رسول الله ﷺ وبايعوه على الإسلام وهم كذبة فاستوخموا المدينة، فبعثهم رسول الله ﷺ إلى إبل الصدقة فارتدوا وقتلوا الراعي واستاقوا الإبل (ق).

عن أنس بن مالك أن ناساً من عكل وعرينة قدموا على النبي ﷺ وتكلموا بالإسلام فقالوا: يا نبي الله إنا كنا أهل ضرع ولم نكن أهل ريف واستوخموا المدينة فأمر لهم النبي ﷺ بذود وراع وأمرهم أن يخرجوا فيه فيشربوا من ألبانها وأبوالها فانطلقوا حتى إذا كانوا ناحية الحرة كفروا بعد الإسلام وقتلوا راعي النبي ﷺ واستاقوا الذود، فبلغ ذلك النبي ﷺ فبعث الطلب في أثرهم فأمر بهم فسمروا أعينهم وقطعوا أيديهم وأرجلهم وتركوا في ناحية الحرة حتى ماتوا على حالهم. قال قتادة بلغنا أن رسول الله ﷺ كان بعد ذلك يحث على الصدقة وينهى عن المثلة. زاد في رواية قال قتادة: فحدثني ابن سيرين إن ذلك قبل إن تزول الحدود.

وفي رواية للبخاري أن ناساً من عرينة اجتووا المدينة فرخص لهم رسول الله ﷺ أن يأتوا إبل الصدقة فيشربوا من ألبانها وأبوالها فقتلوا الراعي واستاقوا الذود فأرسل رسول الله ﷺ فأتى بهم فقطع أيديهم وأرجلهم وسمر أعينهم وتركهم في الحرة يعضون الحجـارة. زاد في رواية: قال أبو قلابة وأي شيء أشد مما صنع هؤلاء ارتدوا عن الإسلام وقتلوا وسرقوا، وفي رواية أبي داود إن قوماً من عكل أو قال من عرينة قدموا على رسول الله ﷺ فاجتووا المدينة فأمر لهم النبي ﷺ بلقاح وأمرهم أن يشربوا من أبوالها وألبانها فانطلقوا فما صحوا قتلوا راعي رسول الله ﷺ واستاقوا النعم فبلغ رسول الله ﷺ خبرهم من أول النهار فأرسل في آثارهم فلما ارتفع النهار حتى جيء بهم فأمر بهم فقطعت أيديهم وأرجلهم وسمرت أعينهم وألقوا في الحرة يستسقون فلا يسقون قال أبو قلابة: فهؤلاء قوم سرقوا وقتلوا وكفروا بعد إيمانهم وحاربوا الله ورسوله زاد في رواية له وأنزل الله عز وجل:

﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ

﴿ ومَنْ أحياها ﴾، وتورّع عن قتلها، ﴿ فكأنما أحيا النّاس جميعاً ﴾، في الثواب لسلامتهم منه، قال الحسن فكأنما قتل النّاسَ جميعاً يعني أنه يجب عليه من القصاص بقتلها مثل الذي يجب عليه لو قتل النّاسَ جميعاً، ومَن أحياها أي عفا عمّن وجب عليه القصاص له فلم يقتله فكأنما أحيا الناس جميعاً، قال سليمان بن علي قلت للحسن: يا أبا سعيد أهي لنا كما كانت لبني إسرائيل؟ قال: إيْ والذي لا إلّه غيره ما كانت دماء بني إسرائيل أكرم على الله من دمائنا، ﴿ ولقدْ جاءتْهُم رُسلنا بالبيّنات ثم إنّ كثيراً منهم بعد ذلك في الأرض لمسرفون ﴾.

أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ ٱلْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾

﴿**إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يقتلوا**﴾ الآية.

شرح غريب هذا الحديث وحكمه قوله إنا كنا أهل ضرع يعني، أهل ماشية وبادية نعيش باللبن ولسنا من أهل المدن. والريف هو الأرض التي فيها زرع وخصب والجمع أرياف. قوله: استوخموا المدينة يعني أنها لم توافق مزاجهم وكذا قوله: ناجتووا المدينة وهو معناه والذود من الإبل ما بين الثلاثة إلى العشرة والحرة هي أرض ذات حجارة سود وهي هنا اسم لأرض بظاهر المدينة معروفة. وقوله: فسمر أعينهم، معناه أنه حمى مسامير الحديد وكحل بها أعينهم حتى ذهب بصرها. وقوله: وينهى عن المثلة، أن تقطع أطراف الحيوان وتشوه خلقته ومثلة القتيل أن يقطع أنفه وأذنيه ومذاكيره ونحو ذلك. واختلف العلماء في حكم هذا الحديث فقيل: هو منسوخ لنهي النبي ﷺ عن المثلة. وقيل: حكمه ثابت غير السمل والمثلة. وقيل: إن هذه الآية ناسخة لما فعله النبي ﷺ بهم. وقيل: كان ذلك قبل أن تنزل الحدود، فلما نزلت الحدود وجب الأخذ بها والعمل بمقتضاها. وقيل: نزلت هذه الآية معاتبة لرسول الله ﷺ وتعليماً من الله تعالى إياه عقوبتهم وما يجب عليهم فقال تعالى: ﴿**إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله**﴾ واعلم أن المحاربة لله غير ممكنة وفي معناها للعلماء قولان: **أحدهما** أن المحاربين لله هم المخالفون أمره الخارجون عن طاعته لأن كل من خالف أمر إنسان فهو حرب له فيكون المعنى يخالفون الله ورسوله ويعصون أمرهما.

والقول الثاني: معناه يحاربون أولياء الله وأولياء رسوله فهو من باب حذف المضاف ﴿**ويسعون في الأرض فساداً**﴾ يعني بحمل السلاح والخروج على الناس وقتل النفس وأخذ الأموال وقطع الطريق.

﴿**إنّما جزاءُ الذين يُحاربُون اللّهَ ورسولَهُ ويَسْعَوْنَ في الأرضِ فساداً**﴾، الآية قال الضحاك: نزلت في قوم من أهل الكتاب كان بينهم وبين رسول الله ﷺ عهد، فنقضوا العهد وقطعوا السبيل وأفسدوا في الأرض، وقال الكلبي: نزلت في قوم هلال بن عويمر، وذلك أن النبي ﷺ وَادع هلال بن عويمر وهو أبو بردة الأسلمي على أن لا يعينه ولا يعين عليه، ومَن مرّ بهلال بن عويمر إلى رسول الله ﷺ فهو آمن لا يهاج، فمرّ قوم من بني كنانة يريدون الإسلام بناس من أسلم من قوم هلال بن عويمر، ولم يكن هلال شاهداً فشدّوا عليهم فقتلوهم وأخذوا أموالهم فنزل جبريل عليه السلام بالقضاء فيهم، وقال سعيد بن جبير: نزلت في ناس من عرينة وعكل أتوا النبي ﷺ وبايعوه على الإسلام وهم كذبة فبعثهم النبي ﷺ إلى إبل الصدقة، فارتدّوا وقتلوا الراعي واستاقوا الإبل. أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا علي بن عبد الله ثنا الوليد بن مسلم ثنا الأوزاعي حدّثني يحيـىٰ بن أبي عمير حدّثني أبو قلابة الجرمي عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قَدِمَ على النبي ﷺ نفر من عكل فأسلموا واجتووا المدينة فأمرهم النبي ﷺ أن يأتوا إبل الصدقة فيشربوا من أبوالها وألبانها، ففعلوا فصحّوا فارتدّوا وقتلوا رعاتها واستاقوا الإبل، فبعث النبي ﷺ في آثارهم، فأُتي بهم فقطع أيديهم وأرجلهم وسمل أعينهم ثم لم يحسمهم حتى ماتوا، ورواه أيوب عن أبي قلابة عن أنس رضي الله عنه قال: فقطع أيديهم وأرجلهم ثم أمر بمسامير فكحّلهم بها وطرحهم بالحرّة يستسقون فما يسقون حتى ماتوا، قال أبو قلابة: قتلوا وسرقوا وحاربوا اللّهَ ورسولَه وسعوا في الأرض فساداً، واختلفوا في حكم هؤلاء العرنيين، فقال بعضهم: هي منسوخة لأن المثلة لا تجوز، وقال بعضهم: حكمه ثابت إلاّ السمل والمثلة، وروى قتادة عن ابن سيرين أن ذلك كان قبل أن ينزل الحدّ، وقال أبو الزناد: فلما فعل رسول الله ﷺ ذلك بهم أنزل الله الحدود ونهاه عن المثلة فلم

واختلفوا في حكم هؤلاء المحاربين الذين يستحقون هذا الحد فقال قوم: هم الذين يقطعون الطريق ويحملون السلاح والمكابرون في البلد وهذاقول الأوزاعي ومالك والليث بن سعد والشافعي وقال أبو حنيفة: المكابرون في الأمصار ليس لهم حكم المحاربين في استحقاق هذا الحد ثم ذكر الله تعالى عقوبة هؤلاء المحاربين وما يستحقونه فقال تعالى: ﴿**أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض**﴾ وللعلماء في لفظة أو المذكورة في هذه الآية قولان: أحدهما أنها للتخيير وهو قول ابن عباس في رواية عنه وبه قال الحسن وسعيد بن المسيب والنخعي ومجاهد، وهو أن الإمام مخير في أمر المحاربين فإن شاء قتل، وإن شاء صلب، وإن شاء قطع، وإن شاء نفى من الأرض كما هو ظاهر الآية. والقول الثاني: أن لفظة أو للبيان وليست للتخيير وهو الرواية الثانية عن ابن عباس وهو قول أكثر العلماء لأن الأحكام تختلف فترتبت هذه العقوبات على ترتيب الجرائم. وهذا كما روي عن ابن عباس في قطاع الطريق قال: إذا قتلوا وأخذوا المال قتلوا وصلبوا وإذا قتلوا لم يأخذوا المال قتلوا وإذا أخذوا المال ولم يقتلوا قطعت أيديهم وأرجلهم من خلاف وإذا أخافوا السبيل ولم يقتلوا ولم يأخذوا مالاً نفوا من الأرض، وهذا قول قتادة والأوزاعي والشافعي وأصحاب الرأي. واختلفوا في كيفية الصلب فقيل: يصلب حياً ثم يطعن في بطنه برمح حتى يموت. قال الشافعي: يقتل أولاً ويصلى عليه ثم يصلب. وإنما يجمع بين القتل والصلب إذا قتل وأخذ المال ويصلب على الطريق في ممر الناس ليكون ذلك زاجراً لغيره عن الإقدام على مثل هذه المعصية. واختلفوا في تفسير النفي من الأرض المذكور في الآية، فقيل: إن الإمام يطلبهم ففي كل بلد وجدوا نفوا عنه وهو قول سعيد بن جبير وعمر بن عبد العزيز. وقيل: يطلبون حتى تقام عليهم الحدود وهو قول ابن عباس والليث بن سعد والشافعي وقال أبو حنيفة وأهل الكوفة: النفي هو الحبس لأنه نفي من الأرض لأن المحبوس لا يرى أحداً من أحبابه ولا ينتفع بلذات الدنيا وطيباتها فهو منفي من الأرض في الحقيقة إلا من تلك البقعة الضيقة التي هو فيها.

يعد. وعن قتادة قال: بلغنا أن رسول الله ﷺ بعد ذلك كان يحث على الصدقة وينهى عن المثلة. وقال سليمان التيمي عن أنس: إنما سمل النبي ﷺ أعين أولئك لأنهم سملوا أعين الرّعاة. وقال الليث بن سعد: نزلت هذه الآية معاتبة لرسول الله ﷺ وتعليماً منه إيّاه عقوبتهم، وقال: إنما جزاؤهم هذا لاَ المثلة، ولذلك ما قام النبي ﷺ خطيباً إلاّ نهى عن المثلة، واختلفوا في المحاربين الذين يستحقّون هذا الحدّ، فقال قوم: هم الذين يقطعون الطريق ويحملون السلاح على المسلمين، والمكابرون في الأمصار، وهو قول الأوزاعي ومالك والليث بن سعد والشافعي رحمهم الله، وقال قوم: هم المكابرون في الأمصار ليس لهم حكم المحاربين في استحقاق هذا الحدّ، وهو قول أبي حنيفة رضي الله عنه، وعقوبة المحاربين ما ذكر الله سبحانه وتعالى. ﴿ **أن يُقتلوا أو يُصلبوا أو تُقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو يُنفوا من الأرض** ﴾، فذهب قوم إلى أن الإمام بالخيار في أمر المحاربين بين القتل والقطع والصلب، والنفي كما هو ظاهر الآية، وهو قول سعيد بن المسيب والحسن والنخعي ومجاهد، وذهب الأكثرون إلى أن هذه العقوبات على ترتيب الجرائم لا على التخيير، لِما أخبرنا عبد الوهاب بن محمد الخطيب أنا عبد العزيز بن أحمد الخلال أنا أبو العباس الأصم أنا الربيع أنا الشافعي أنا إبراهيم بن محمد عن صالح مولى التوأمة عن ابن عباس رضي الله عنهما في قطّاع الطريق إذا قتلوا وأخذوا المال قتلوا وصلبوا، وإذا قتلوا ولم يأخذوا المال قتلوا ولم يصلبوا، وإذا أخذوا المال ولم يقتلوا قطعت أيديهم وأرجلهم من خلاف، فإذا أخافوا السبيل ولم يأخذوا مالاً نُفُوا من الأرض، وهو قول قتادة والأوزاعي والشافعي وأصحاب الرأي رحمهم الله تعالى، وإذا قتل قاطع الطريق يُقتل حتماً حتى لا يسقط بعفو وليّ الدّم، وإذا أخذ من المال نصاباً وهو ربع دينار تقطع يده اليمنى ورجله اليسرى، وإذا قتل وأخذ المال يُقتل ويُصلب، واختلفوا في كيفيته فظاهر مذهب الشافعي رضي الله عنه أنه يقتل ثم يصلب،

قال مكحول: إن عمر بن الخطاب أول من حبس في السجون يعني من هذه الأمة وقال أحبسه حتى أعلم منه التوبة ولا أنفيه إلى بلد آخر فيؤذيهم ثم قال تعالى: ﴿ذلك﴾ يعني الذي ذكر في هذه الآية من الحدود ﴿لهم﴾ يعني للمحاربين ﴿خزي في الدنيا﴾ أي عذاب وهوان وفضيحة ﴿ولهم في الآخرة عذاب عظيم﴾ هذا الوعيد في حق الكفار الذين نزلت الآية فيهم، فأما من أجرى حكم الآية على المحاربين من المسلمين فينفي العذاب العظيم عنهم في الآخرة لأن المسلم إذا عوقب بجناية في الدنيا كانت عقوبته كفارة له وإن لم يعاقب في الدنيا فهو في خطر المشيئة، إن شاء عذبه بجنايته ثم يدخله الجنة، وإن شاء عفا عنه وأدخله الجنة هذا مذهب أهل السنة.

﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم﴾ يعني لكن الذين تابوا من شركهم وحربهم لله ورسوله ومن السعي في الأرض بالفساد من قبل أن تقدروا عليهم. يعني فلا سبيل لكم عليهم بشيء من العقوبات المذكورة في الآية المتقدمة ﴿فاعلموا أن الله غفور﴾ يعني لمن تاب من الشرك ﴿رحيم﴾ يعني به إذا رجع عما يسخط الله عز وجل وهذا قول معظم أهل التفسير أن المراد بهذا الاستثناء المشرك المحارب إذا آمن وأصلح قبل القدرة عليه سقط عنه جميع الحدود التي ذكرها الله تعالى في هذه الآية وأنه لا يطالب بشيء مما أصاب من مال أو دم. قال أبو إسحاق: جعل الله التوبة للكفار تدرأ عنهم الحدود التي وجبت عليهم في كفرهم ليكون ذلك داعياً لهم إلى الدخول في الإسلام، فهذا حكم المشرك المحارب إذا آمن وأصلح وكذلك لو آمن بعد القدرة عليه لم يطالب بشيء بالإجماع، وأما المسلم المحارب، إذا تاب واستأمن قبل القدرة عليه. فقال السدي: هو الكافر إذا آمن لم يطالب بشيء إلا إذا أصيب عنده مال بعينه فإنه يرده على أهله وهذا مذهب مالك والأوزاعي غير أن مالك قال يؤخذ بالدم إذا طلب به وليه، فأما ما أصاب من الدماء والأموال ولم يطلبها أولياؤها فلا يتبعه الإمام بشيء من ذلك وهذا حكم علي بن أبي طالب في حارثة بن زيد وكان قد خرج محارباً فتاب قبل أن يقدر عليه فآمنه علي على نفسه وكذلك جاء رجل من مراد

وقيل: يصلب حيّاً ثم يطعن حتى يموت مصلوباً، وهو قول الليث بن سعد، وقيل: يُصلب ثلاثة أيام حيّاً ثم ينزل فيقتل، وإذا أخاف السبيل ينفى واختلفوا في النفي، فذهب قوم إلى أن الإمام يطلبه ففي كل بلد يوجد ينفى، وهو قول سعيد بن جبير وعمر بن عبد العزيز، وقيل: يطلبون لتُقام عليهم الحدود، وهو قول ابن عباس والليث بن سعد، وبه قال الشافعي، وقال أهل الكوفة: النفي هو الحبس، وهو نفي من الأرض، وقال محمد بن جرير: ينفى من بلده إلى غيره ويُحبس في السجن في البلد الذي نُفي إليه حتى تظهر توبته، وقال مكحول: إن عمر بن الخطاب أول مَن حبس في السجون، وقال: أحبسه حتى أعلم منه التوبة، ولا أنفيه إلى بلد فيؤذيهم، ﴿ ذلك ﴾، الذي ذكرت من الحدّ، ﴿ لهم خزيٌ ﴾ عذاب وهوان وفضيحة، ﴿ في الدنيا ولهم في الآخرة عذابٌ عظيم ﴾.

﴿ إلّا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم فاعلموا أن اللّهَ غفورٌ رحيم ﴾، فمن ذهب إلى أن الآية نزلت في الكفّار، قال معناه: إلّا الذين تابوا من شركهم وسلموا قبل القدرة عليهم فلا سبيل عليهم بشيء من الحدود ولا تبعة عليهم فيما أصابوا في حال الكفر من دم أو مال، وأما المسلمون المحاربون فمَن تاب منهم قبل القدرة عليهم وهو قبل أن يظفر به الإمام تسقط عنه كل عقوبة وجبت حقاً لله، ولا يسقط ما كان من حقوق العباد فإن كان قد قتل في قطع الطريق يسقط عنه بالتوبة قبل القدرة عليه تحتّم القتل، ويبقى عليه القصاص لوليّ القتيل فإن شاء عفا عنه وإن شاء تاب واستوفى، وإن كان قد أخذ المال يسقط عنه القطع، وإن كان قد جمع بينهما يسقط عنه تحتّم القتل والصلب، ويجب ضمان المال وهو قول الشافعي رضي الله عنه، وقال بعضهم: إذا جاء تائباً قبل القدرة عليه لا

إلى أبي موسى الأشعري وهو على الكوفة في خلافة عثمان بعد ما صلى المكتوبة، فقال: يا أبا موسى هذا مقام العائذ بك أنا فلان بن فلان المرادي كنت قد حاربت الله ورسوله وسعيت في الأرض بالفساد وإني قد تبت من قبل أن يقدر عليّ. فقام أبو موسى فقال: هذا فلان المرادي وأنه كان حارب الله ورسوله وسعى في الأرض فساداً وأنه قد تاب من قبل أن يقدر عليه فلا يتعرض له أحد إلا بخير. وقال الشافعي: يسقط عنه بتوبته قبل القدرة عليه حد الله ولا يسقط عنه بها ما كان من حقوق بني آدم من قصاص أو مظلمة من مال أو غيره وأما إذا تاب بعد القدرة عليه فظاهر الآية أن التوبة لا تنفعه وتقام عليه الحدود وقال الشافعي: ويحتمل أن يسقط كل حد لله عز وجل بالتوبة.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُوا۟ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُوا۟ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٦﴾ يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٧﴾ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾

قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله﴾ أي خافوا الله بترك المنهيات ﴿وابتغوا إليه الوسيلة﴾ يعني واطلبوا إليه القرب بطاعته والعمل بما يرضي وإنما قلنا ذلك، لأن مجامع التكاليف محصورة في نوعين لا ثالث لهما. أحد النوعين: ترك المنهيات وإليه الإشارة بقوله: اتقوا الله. والثاني: التقرب إلى الله تعالى بالطاعات وإليه الإشارة بقوله: وابتغوا إليه الوسيلة والوسيلة فعيلة من وسل إليه إذا تقرب ومنه قول الشاعر:

إن الرجال لهـم إليـك وسيلـة

أي قربة. وقيل: معنى الوسيلة المحبة أي تحببوا إلى الله عز وجل ﴿وجاهدوا في سبيله﴾ أي وجاهدوا العدو في طاعته وابتغاء مرضاته ﴿لعلكم تفلحون﴾ يعني لكي تسعدوا بالخلود في جنته لأن الفلاح اسم جامع للخلاص من كل مكروه والفوز بكل محبوب قوله عز وجل: ﴿إن الذين كفروا لو أن لهم ما في الأرض جميعاً ومثله معه ليفتدوا به من عذاب يوم القيامة ما تقبل منهم﴾ يعني: أن الكافر لو ملك الدنيا ودنيا أخرى مثلها معها ثم فدى نفسه من العذاب يوم القيامة لم يقبل منه ذلك الفداء ﴿ولهم عذاب أليم﴾ المقصود من هذا أن العذاب لازم للكفار وأنه لا سبيل لهم إلا الخلاص منه بوجه من الوجوه (ق). عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ «يقول الله تبارك وتعالى لأهون أهل النار عذاباً لو كانت لك الدنيا كلها أكنت مفتدياً بها فيقول نعم فيقول قد أردت منك أيسر من هذا وأنت في صلب آدم أن لا تشرك

يكون لأحد عليه تبعة في دم ولا مال إلاّ أن يوجد معه مال بعينه فيردّه إلى صاحبه، ورُوِيَ عن علي رضي الله عنه في حارثة بن يزيد كان خرج محارباً فسفك الدماء وأخذ المال، ثم جاء تائباً قبل أن يقدر عليه فلم يجعل عليّ رضي الله عنه تَبِعَة، أما مَن تاب بعد القدرة عليه فلا يسقط عنه شيء منها، وقيل: كل عقوبة تجب حقاً لله عزّ وجلّ من عقوبات قطع الطريق وقطع السرقة وحدّ الزّنا والشرب تسقط بالتوبة بكل حال، والأكثرون على أنها لا تسقط.

﴿ يا أيّها الذين آمنوا اتّقوا اللّهَ وابْتَغُوا ﴾، اطلبوا، ﴿ إليه الوسيلة ﴾، أي: القربة، فعيلة مِنْ توسل إلى فلان بكذا، أي: تقرّب إليه وجمعها وسائل، ﴿ وجاهدُوا في سبيله لعلّكم تُفلحون ﴾.

﴿ إن الذين كفرُوا لَوْ أنّ لهم ما في الأرض جميعاً ومثله معه لِيَفْتَدُوا به من عذاب يوم القيامة ما تُقُبِّلَ

بي ولا أدخلك النار وأدخلك الجنة فأبيت إلا الشرك» هذا لفظ مسلم.

وفي رواية البخاري قال: يجاء بالكافر يوم القيامة فيقال له أرأيت لوكان لك ملء الأرض ذهباً أكنت تفتدي به فيقول نعم فيقال له لقد كنت سئلت ما هو أيسر من ذلك أن لا تشرك بي ﴿**يريدون أن يخرجوا من النار وما هم بخارجين منها**﴾ فيه وجهان: **أحدهما** أنهم يقصدون الخروج من النار ويطلبونه ولكن لا يستطيعون ذلك قيل إذا حملهم لهب النار إلى فوق طلبوا الخروج منها فلا يقدرون عليه.

والوجه الثاني: أنهم يتمنون الخروج من النار بقلوبهم ﴿**ولهم عذاب مقيم**﴾ يعني ولهم عذاب دائم ثابت لا يزول عنهم ولا ينتقل أبداً. قوله عز وجل: ﴿**والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما**﴾ قال ابن السائب نزلت في طعمة بن أبيرق وقدمنا قصته في سورة النساء وإنما سمي السارق سارق لأنه يأخذ الشيء الذي ليس له أخذه في خفاء ومنه استرق السمع مستخفياً والسارق هنا مرفوع بالابتداء لأنه لم يقصد واحد بعينه إنما هو كقولك من سرق فاقطع يده والمراد باليد المذكورة هنا اليمين. قاله الحسن والشعبي والسدي وكذلك هو في قراءة عبد الله بن مسعود: فاقطعوا أيمانهما. وإنما قال: أيديهما ولم يقل يديهما، لأنه أراد يميناً من هذا ويميناً من هذه فجمع فإنه ليس للإنسان إلا يمين واحدة وكل شيء موحد من أعضاء الإنسان إذا ذكر مضافاً إلى اثنين فصاعداً جمع والمراد باليد هنا الجارحة وحدها عند جمهور أهل اللغة من رؤوس الأصابع إلى الكوع فيجب قطعها في حد السرقة من الكوع. وقوله تعالى: ﴿**جزاء بما كسبا**﴾ يعني ذلك القطع جزاء على فعلهم ﴿**نكالاً من الله**﴾ يعني عقوبة من الله ﴿**والله عزيز**﴾ في انتقامه ممن عصاه ﴿**حكيم**﴾ يعني فيما أوجبه من قطع يد السارق.

(فصل في بيان حكم الآية: وفيه مسائل)

المسألة الأولى: اقتضت هذه وجوب القطع على كل سارق وقطع رسول الله ﷺ في السرقة (ق).

عن عائشة، أن قريشاً أهمهم شأن المخزومية التي سرقت فقالوا: من يكلم فيها رسول الله ﷺ: قالوا: ومن يجترىء عليه إلا أسامة بن زيد حب رسول الله ﷺ. فكلمه أسامة فقال رسول الله ﷺ: «أتشفع في حد من حدود الله؟ ثم قام فاختطب ثم قال: إنما هلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد وايم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها» وعن عائشة قالت: «أتي رسول الله ﷺ بسارق فقطعه فقالوا ما كنا نراك تبلغ به هذا قال لو كانت فاطمة لقطعتها» أخرجه النسائي (ق) عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ

منهم ﴾، أخبر أن الكافر لو ملك الدنيا كلها ومثلها معها ثم فدى بذلك نفسه من العذاب لم يقبل منه ذلك الفداء، ﴿ **ولهم عذابٌ أليم** ﴾.

﴿ **يُرِيدُونَ أن يخرجُوا من النار وما هُمْ بخارجين منها** ﴾، فيه وجهان أحدهما أنهم يقصدون ويطلبون المخرج منها، كما قال الله تعالى: ﴿ كلما أرادوا أن يخرجوا منها ﴾ [الحج: ٢٢، السجدة: ٢] والثاني أنهم يتمنّون ذلك بقلوبهم، كما قال الله تعالى إخباراً عنهم: ﴿ ربنا أخرجنا منها ﴾ [المؤمنون: ١٠٧]، ﴿ **ولهم عذابٌ مقيم** ﴾.

﴿ **والسارقُ والسارقةُ فاقطعوا أيديهما** ﴾، أراد به أيمانهما، وكذلك هو في مصحف عبد الله بن مسعود وجملة الحكم أن مَن سرق نصاباً من المال من حرز لا شبهة له فيه تقطع يده اليمنى من الكوع، ولا يجب القطع بسرقة ما دون النصاب عند أهل العلم، حكي عن ابن الزبير أنه كان يقطع في الشيء القليل، وعامّة العلماء على خلافه واختلفوا في القدر الذي يقطع فيه، فذهب أكثرهم إلى أنه لا يقطع في أقل من ربع دينارٍ، فإن سرق ربع دينار أو

قال: «لعن الله السارق يسرق البيضة فتقطع يده ويسرق الحبل فتقطع يده» قال الأعمش: يرون أنه بيض الحديد وأن من الحبال ما يساوي دراهم أخرجه البخاري ومسلم، أما السارق الذي يجب عليه القطع، فهو البالغ، العاقل، العالم بتحريم السرقة، فلو كان حديث عهد بالإسلام ولا يعلم أن السرقة حرام، فلا قطع عليه.

المسألة الثانية: اختلف العلماء في قدر النصاب الذي يقطع به فذهب أكثر العلماء إلى أنه ربع دينار فإن سرق ربع دينار أو متاعاً قيمته ربع دينار يقطع، وهذا قول أبي بكر وعمر وعثمان وعلي، وبه قال عمر بن العزيز والأوزاعي والشافعي. ويدل عليه ما روي عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال: «لا تقطع يد السارق إلا في ربع دينار فصاعداً» أخرجاه في الصحيحين وذهب مالك وأحمد وإسحاق إلى أنه ثلاثة دراهم أو قيمتها لما روي عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قطع سارقاً في مجن قيمته ثلاثة دراهم أخرجه الجماعة. المجن: الترس. ويروى عن أبي هريرة أن قدر النصاب الذي تقطع به اليد خمسة دراهم وبه قال ابن أبي ليلى لما روي عن أنس قال: قطع أبو بكر في مجن قيمته خمسة دراهم وفي رواية قطع رسول الله ﷺ أخرجه النسائي. وقال: الرواية الأولى، أصح. وذهب قوم إلى أنه لاقطع في أقل من دينار أو عشرة دراهم يروى ذلك عن ابن مسعود وإليه ذهب سفيان الثوري وأبو حنيفة لما روي عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ أول من قطع في مجن قيمته دينار أو عشرة دراهم أخرجه أبو داود فإذا سرق نصاباً من المال من حرز لا شبهة له فيه قطعت يده اليمنى من الكوع ولا يجب القطع بسرقة ما دون النصاب وقال ابن عباس وابن الزبير والحسن القدر غير معتبر فيجب القطع في القليل والكثير وكذا الحرز غير معتبر أيضاً عندهم وإليه ذهب داود الظاهري واحتجوا بعموم الآية فإن قوله تعالى: ﴿والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما﴾ يتناول القليل والكثير وسواء سرقه من حرز أو غير حرز.

المسألة الثالثة: الحرز، هو ما جعل للسكنى وحفظ الأموال كالدور والمضارب والخيم التي يسكنها الناس ويحفظون أمتعتهم فيها فكل حرز وإن لم يكن فيه حافظ ولا عنده وسواء سرق من ذلك وهو مفتوح الباب أو مغلق، فأما ما كان في غير بناء ولا خيمة فإنه ليس بحرز إلا أن يكون عنده من يحفظه أما نباش القبور، فإنه يقطع وهو قول مالك والشافعي وأحمد. وقال ابن أبي ليلى والثوري والأوزاعي وأبو حنيفة: لا قطع عليه، فإن سرق شيئاً من غير حرز كثمر من بستان لا حارس له أو حيوان في برية ولا راعي له أو متاع في بيت منقطع عن البيوت فلا قطع عليه. عن

متاعاً قيمته ربع دينار يقطع، وهو قول أبي بكر وعمر وعثمان وعليّ رضي الله تعالى عنهم، وبه قال عمر بن عبد العزيز والأوزاعي والشافعي، لِما أخبرنا عبد الوهاب بن محمد الخطيب أنا عبد العزيز بن أحمد الخلال أنا أبو العباس الأصم أنا الربيع أنا الشافعي أنا ابن عيينة عن ابن شهاب عن عروة عن عائشة رضي الله تعالى عنها أن رسول الله ﷺ قال: «القطع في ربع دينار فصاعداً»، أخبرنا أبو الحسن السرخسي أخبرنا زاهر بن أحمد أنا أبو إسحق الهاشمي أنا أبو مصعب عن مالك عن نافع عن عبد الله بن عمر رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قطع سارقاً في مِجَن قيمته ثلاثة دراهم، ورُوِيَ عن عثمان أنه قطع سارقاً في أترجة قوّمت بثلاثة دراهم من صرف اثني عشر درهماً بدينار، وهذا قول مالك رحمه الله تعالى أنه يقطع في ثلاثة دراهم، وذهب قوم إلى أنه لا تقطع في أقل من دينار أو عشرة دراهم، ويُروى ذلك عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه، وإليه ذهب سفيان الثّوري وأصحاب الرأي، وقال قوم: لا يقطع إلاّ في خمسة دراهم ويُروى ذلك عن أبي هريرة رضي الله عنه وبه قال ابن أبي ليلى، أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبدالله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا عمر بن حفص بن غياث أخبرني أبي أنا الأعمش قال: سمعت أبا صالح عن أبي هريرة عن النبيّ ﷺ قال: «لعن الله السارق يسرق البيضةَ فتقطع يده، ويسرق الحبلَ فتقطع يده»، وقال الأعمش: كانوا يرون أنه بيض الحديد والحبل، يرون أن منها ما

عبد الله بن عمرو بن العاص أن رسول الله ﷺ سئل عن الثمر المعلق فقال: من أصاب بفيه منه من ذي حاجة غير متخذ خبنة فلا شيء عليه أخرجه الترمذي وأبو داود والنسائي. وزاد فيه: ومن خرج بشيء منه فعليه غرامة مثله والعقوبة. ومن سرق منه شيئاً بعد أن يؤويه الجرين فبلغ ثمن المجن فعليه القطع ومن سرق دون ذلك فعليه غرامة مثله والعقوبة.

قوله: غير متخذ خبنة، الخبنة: بالخاء المعجمة وبعدها باء موحدة من تحت نون وهو ما يحمله الإنسان في حضنه. وقيل: وما يأخذه من خبنة ثوبه وهو ذيله وأسفله. والجرين: موضع التمر الذي يجفف فيه مثل البيدر للحنطة. وروى مالك في الموطأ، عن أبي حسين المكي أن رسول الله ﷺ قال: لاقطع في ثمر معلق ولا في حريسة الجبل فإذا آواه المراح أو الجرين فالقطع فيما بلغ ثمن المجن. هكذا رواه مالك منقطعاً. وهو رواية من حديث عبد الله بن عمرو المتقدم فإن هذه الرواية عن أبي حسين عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده وجده هو عبد الله بن عمرو بن العاص قوله: ولا في حريسة الجبل. من العلماء من يجعل الحريسة السرقة نفسها. يقال: حرس يحرس حرساً إذا سرق ومنهم من يجعلها المحروسة. ومعنى الحديث: أنه ليس فيما يحرس في الجبل إذا سرق قطع لأنه ليس بحرز. وقيل: حريسة الجبل هي الشاة التي يدركها الليل قبل أن تصل مأواها والمراح بضم الميم هو الموضع الذي تأوي إليه الماشية بالليل. عن جابر أن النبي ﷺ قال: ليس على خائن ولا منتهب ولا مختلس. قطع أخرجه الترمذي والنسائي.

المسألة الرابعة: إذا سرق مالاً له فيه شبهة كالولد يسرق من مال والده والوالد يسرق من مال ابنه أو العبد يسرق من مال سيده أو الشريك يسرق من مال شريكه فلا قطع على أحد من هؤلاء فيه.

المسألة الخامسة: إذا سرق أول مرة قطعت يده اليمنى من الكوع وإذا سرق ثانية قطعت رجله اليسرى من مفصل القدم واختلفوا فيما إذا سرق مرة ثالثة فذهب أكثرهم إلى أن تقطع يده اليسرى فإن سرق مرة رابعة قطعت رجله اليمنى ثم إذا سرق بعد ذلك يعذَّر ويحبس حتى تظهر توبته. يروى عن هذا عن أبي بكر وهو قول قتادة وبه قال مالك والشافعي لما روي عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «في السارق إن سرق فاقطعوا يده ثم إن سرق فاقطعوا يده ثم

يساوي ثلاثة دراهم، ويحتجّ بهذا الحديث مَن يرى القطع في الشيء القليل، وهو عند الأكثرين محمول على ما قاله الأعمش، لحديث عائشة رضي الله عنها وإذا سرق شيئاً من غير حرز كثمر في حائط لا حارس له أو حيوان في برية لا حافظ له، أو متاع في بيت منقطع عن البيوت لا قطع عليه. ورُوِيَ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا قطع في ثمر معلّق ولا في حريسة حبل» فإذا آواه المراح أو الجرين فالقطع فيما بلغ ثمن المجن، ورُوِيَ عن ابن جريج عن الزبير عن جابر رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «ليس على خائن أو منتهب ولا مختلس قطع»، وإذا سرق مالاً له فيه شبهة كالعبد يسرق من مال سيده أو الولد يسرق من مال والده أو الوالد يسرق من مال ولده أو أحد الشريكين يسرق من مال المشترك شيئاً لا قطع عليه، وإذا سرق السارق أول مرّة تقطع يده اليمنى من الكوع، ثم إذا سرق ثانياً تقطع رجله اليسرى من مِفصل القدم، واختلفوا فيما إذا سرق ثالثاً فذهب أكثرهم إلى أنه تُقطع يده اليسرى وإذا سرق رابعاً تُقطع رجله اليمنى، ثم إذا سرق بعده شيئاً يعزر ويحبس حتى تظهر توبته، وهو المروي عن أبي بكر الصدّيق رضي الله عنه وهو قول قتادة، وبه قال مالك والشافعي لِما رُوِيَ عن أبي سلمة عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال في السارق أنه سرق: «فاقطعوا يده، ثم إن سرق فاقطعوا رجله، ثم إن سرق فاقطعوا يده، ثم إن سرق فاقطعوا رجله» وذهب قوم إلى أنه إن سرق ثالثاً بعدما قطعت يده اليمنى ورجله اليسرى لا يقطع، بل يحبس، ورُوِيَ ذلك عن عليّ رضي الله عنه وقال: إني لأستحي أن لا أدع له يداً يستنجي بها ولا رجلاً يمشي بها،

إن سرق فاقطعوا رجله» ذكره البغوي بغير سند وذهب قوم إلى أنه« إن سرق بعد ما قطعت يده ورجله فلا قطع عليه بل يحبس» ويروى عن علي أنه قال: إني أستحي أن لا أدع له يداً يستنجي بها ولا رجلاً يمشي بها. وهذا قول الشعبي والنخعي والأوزاعي وبه قال أحمد وأصحاب الرأي. قوله تعالى:

فَمَن تَابَ مِنۢ بَعۡدِ ظُلۡمِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾ أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿٤٠﴾ ۞يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَلَمۡ تُؤۡمِن قُلُوبُهُمۡۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْۛ سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوۡمٍ ءَاخَرِينَ لَمۡ يَأۡتُوكَۖ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ مِنۢ بَعۡدِ مَوَاضِعِهِۦۖ يَقُولُونَ إِنۡ أُوتِيتُمۡ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمۡ تُؤۡتَوۡهُ فَٱحۡذَرُواْۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتۡنَتَهُۥ فَلَن تَمۡلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔاۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمۡۚ لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿٤١﴾

﴿فمن تاب من بعد ظلمه﴾ يعني من بعد ما ظلم نفسه بالسرقة ﴿وأصلح﴾ يعني وأصلح العمل في المستقبل ﴿فإن الله يتوب عليه﴾ يعني فإن الله يغفر له ويتجاوز عنه ﴿إن الله غفور﴾ يعني لمن تاب ﴿رحيم﴾ به.

(فصل)

وهذه التوبة مقبولة فيما بينه وبين الله. فأما القطع، فلا يسقط عنه بالتوبة عند أكثر العلماء لأن الحد جزاء عن الجناية. ولا بد من التوبة بعد القطع وتوبته الندم على ما مضى والعزم على تركه في المستقبل. عن أبي أمية المخزومي أن رسول الله ﷺ أتي بلصٍّ قد اعترف اعترافاً ولم يوجد معه متاع فقال له رسول الله: ﷺ ما أخالك سرقت. فقال: بلى فأعاد عليه مرتين أو ثلاثاً كل ذلك يعترف فأمر به فقطع. ثم جيء به فقال له رسول الله ﷺ: استغفر الله وتب إليه. فقال رجل: أستغفر الله وأتوب إليه فقال النبي ﷺ: اللهم تب عليه. أخرجه أبو داود والنسائي بمعناه وإذا قطع السارق يجب عليه غرم ما سرق من المال عند أكثر أهل العلم. وقال الثوري وأصحاب الرأي: لا غرم عليه فلو كان المسروق باقياً عنده يجب عليه أن يرده إلى صاحبه وتقطع يده لأن القطع حق الله والغرم حق الآدمي فلا يمتنع أحدهما بالآخر والله أعلم.

قوله عز وجل: ﴿ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض﴾ الخطاب للنبي ﷺ والمراد به جميع الناس وقيل

وهو قول الشعبي والنخعي، وبه قال الأوزاعي وأحمد وأصحاب الرأي. قوله تعالى: ﴿ جزاءً بما كسبَا ﴾، نصبٌ على الحال والقطع، ومثله: ﴿ نكالاً ﴾، أي: عقوبة، ﴿ من الله والله عزيزٌ حكيم ﴾.

﴿ فَمَنْ تابَ من بعدِ ظُلمه ﴾، أي: سرقته، ﴿ وأصلح ﴾ العمل، ﴿ فإنّ اللّهَ يتوبُ عليه إنّ الله غفورٌ رحيم ﴾، هذا فيما بينهم وبين الله تعالى، فأما القطع فلا يسقط عنه بالتوبة عند الأكثرين، قال مجاهد: السارق لا توبة له فإذا قطعتِ حصلت التوبة، والصحيح أن القطع للجزاء على الجناية، كما قال: ﴿ جزاءً بما كسبا ﴾، ولا بدّ من التوبة بعده، وتوبته الندم على ما مضى والعزم على تركه في المستقبل، وإذا قطع السارق يجب عليه غرم ما سرق من المال عند أكثر أهل العلم، وقال سفيان الثّوري وأصحاب الرأي: لا غرم عليه، وبالإتفاق إن كان

معناه، ألم تعلم أيها الإنسان فيكون الخطاب لكل فرد من الناس أن الله له ملك السموات والأرض، يعني أن الله مدبر أمره في السموات والأرض ومصرفه وخالق من فيها ومالكه لا يمتنع عليه شيء مما أراده فيهما لأن ذلك كله في ملكه وإليه أمره ﴿**يعذب من يشاء ويغفر لمن يشاء**﴾.

قال ابن عباس: يعذب من يشاء على الصغيرة ويغفر لمن يشاء على الكبيرة وقيل يعذب من يشاء على معصيته وكفره بالقتل والقطع وغير ذلك في الدنيا، ويغفر لمن يشاء بالتوبة عليه فينقذه من الهلكة والعذاب وإنما قدم التعذيب على المغفرة، لأنه في مقابلة قطع السرقة على التوبة. وهذه الآية فاضحة للقدرية والمعتزلة في قولهم بوجوب الرحمة للمطيع والعذاب للعاصي لأن الآية دالة على أن التعذيب والرحمة مفوضان إلى المشيئة والوجوب ينافي ذلك وجواب آخر وهو أنه تعالى أخبر أن له ملك السموات والأرض والمالك له أن يتصرف في ملكه كيف يشاء وأراد لا اعتراض لأحد عليه في ملكه يؤكد ذلك قوله ﴿**والله على كل شيء قدير**﴾ يعني أنه تعالى قادر على تعذيب من أراد تعذيبه من خلقه وغفران ذنوب من أراد إسعاده وإنقاذه من الهلكة من خلقه، لأن الخلق كلهم عبيده وفي ملكه.

قوله تعالى: ﴿**يا أيها الرسول**﴾ هذا خطاب للنبي ﷺ وهو خطاب تشريف وتكريم وتعظيم، وقد خاطبه الله عز وجل بيا أيها النبي في مواضع من كتابه وبيا أيها الرسول في موضعين: هذا أحدهما والآخر قوله تعالى: ﴿**يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك**﴾ . وقوله ﴿**لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر**﴾ يعني لا تهتم بموالاتهم الكفار ولا تبالِ بهم فإني ناصرك عليهم وكافيك شرهم ﴿**ومن الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم**﴾ يعني المنافقين لأنهم أظهروا الإيمان بالقول وكتموا الكفر وهذه صفة المنافقين ﴿**ومن الذين هادوا**﴾ أي وطائفة من اليهود قال الزجاج وهذا يحتمل وجهين: **أحدهما** أن الكلام تم عند قوله ومن الذين هادوا ثم ابتدأ الكلام بقوله: ﴿**سماعون للكذب**﴾ ويكون تقدير الكلام ﴿**ولا يحزنك الذين يسارعون في الكفر من المنافقين ومن الذين هادوا**﴾ ثم وصف الكل بكونهم سماعين للكذب.

والوجه الثاني: أن الكلام تم عند قوله ﴿**ولم تؤمن قلوبهم**﴾ ثم ابتدأ فقال تعالى: ﴿**ومن الذين هادوا سماعون للكذب**﴾ أي ومن ﴿**الذين هادوا قوم سماعون للكذب**﴾ والمعنى أنهم قائلون الكذب، أي يسمعون الكذب من رؤسائهم ويقبلونه منهم والسمع يستعمل والمراد منه القبول، كما تقول: لا تسمع من فلان أي، لا تقبل منه. وقيل: معناه سماعون لأجل أن يكذبوا عليك وذلك أنهم كانوا يسمعون من رسول الله ﷺ ثم يخرجون من عنده ويقولون

المسروق قائماً عنده يستردّه وتقطع يده لأن القطع حق الله تعالى والغرم حق العبد، فلا يمنع أحدهم الآخر، كاسترداد العين.

﴿ ألم تعلمْ أنّ اللّهَ له مُلكُ السمٰواتِ والأرض﴾، الخطاب مع النبي ﷺ والمراد به الجميع، وقيل: معناه ألم تعلم أيها الإنسان فيكون خطاباً لكل واحد من الناس، ﴿ يعذبُ مَنْ يشاء ويغفرُ لمنْ يشاء ﴾، قال السدي والكلبي: يعذِّب مَن يشاء مَن مات على كفره ويغفر لمَن يشاء مَن تاب من كفره، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: يعذب مَن يشاء على الصغيرة ويغفر لمَن يشاء على الكبيرة، ﴿ واللّهُ على كلِّ شيء قدير ﴾.

قوله تعالى: ﴿ يا أيّها الرسول لا يحزنْك الذينَ يُسارعونَ في الكفر ﴾، أي: في موالاة الكفّار فإنهم لم يعجزوا الله، ﴿ مِنَ الذين قالوا آمنّا بأفواههم ولم تُؤمنْ قلوبُهم ﴾، وهم المنافقون، ﴿ ومِنَ الذين هادُوا ﴾، يعني: اليهود، ﴿ سمّاعُون ﴾، أي: قوم سمّاعون، ﴿ للكذب ﴾، أي: قابلون للكذب، كقول المصلّي: سمع الله لمَن حمده، أي: قبل الله، وقيل: معناه: سمّاعون لأجل الكذب، أي يسمعون منك ليكذبوا عليك، وذلك

سمعنا منه كذا وكذا ولم يسمعوا ذلك منه بل كذبوا عليه. وقوله تعالى: ﴿سماعون﴾ يعني بني قريظة يعني أنهم جواسيس وعيون ﴿لقوم آخرين﴾ وهم أهل خيبر ﴿لم يأتوك﴾ يعني أهل خيبر لم يأتوك ولم يحضروا عندك يا محمد.

(ذكر القصة في ذلك)

قال علماء التفسير: إن رجلاً وامرأة من أشراف يهود خيبر زنيا وكانا محصنين وكان حدهما الرجم عندهم في حكم التوراة فكرهت اليهود رجمهما لشرفهما، فقالوا: إن هذا الرجل بيثرب يعنون محمداً ﷺ وليس في كتابه الرجم ولكن الضرب فأرسلوا إلى إخوانكم بني قريظة فإنهم جيرانه وصلح معه فليسألوه عن ذلك، فبعثوا رهطاً منهم مستخفين وقالوا لهم: اسألوا محمداً عن الزانيين إذا أحصنا ما حدهما؟ فإن أمركم بالحد فاقبلوا منه، وإن أمركم بالرجم فاحذروه ولا تقبلوا منه وأرسلوا معهم الزانيين. فقدم الرهط حتى نزلوا على بني قريظة والنضير وقالوا لهم: إنكم جيران هذا الرجل ومعه في بلده وقد حدث فينا حدث وذلك أن فلان وفلانة قد زنيا وقد أحصنا فنحب أن تسألوه عن قضائه في ذلك فقال لهم بنو قريظة والنضير إذاً والله يأمركم بما تكرهون ثم انطلق قوم منهم فيهم كعب بن الأشرف وكعب بن أسد وسعيد بن عمرو ومالك بن الصّيف وكنانة بن أبي الحقيق وغيرهم إلى رسول الله ﷺ وقالوا: يا محمد أخبرنا عن الزاني والزانية إذا أحصنا ما حدهما في كتابك؟ فقال هل ترضون بقضائي؟ قالوا: نعم فنزل جبريل عليه السلام بآية الرجم فأخبرهم بذلك فأبوا أن يأخذوا به فقال جبريل للنبي ﷺ: اجعل بينك وبينهم ابن صوريا، ووصفه لهم فقال لهم النبي ﷺ هل تعرفون شاباً أمرد أبيض أعور يسكن فدك يقال له ابن صوريا؟ قالوا نعم قال فأي رجل هو فيكم؟ فقالوا هو أعلم يهودي بقي على وجه الأرض بما أنزل الله على موسى عليه السلام في التوراة قال فأرسلوا إليه ففعلوا فلما جاء قال له النبي ﷺ أنت ابن صوريا؟ قال نعم، قال: أنت أعلم يهودي؟ قال كذلك يقولون فقال النبي ﷺ لليهود تجعلونه بيني وبينكم قالوا نعم فقال النبي ﷺ لابن صوريا: «ناشدتك بالله الذي لا إله إلا هو الذي أنزل التوراة على موسى وأخرجكم من مصر وفلق لكم البحر وأنجاكم وأغرق آل فرعون وبالذي ظلل عليكم الغمام وأنزل عليكم المن والسلوى وأنزل عليكم كتابه فيه حلاله وحرامه هل تجدون في كتابكم الرجم على المحصن؟» فقال ابن صوريا: اللهم نعم والذي ذكرتني به لولا خشيت أن ينزل علينا العذاب إن كذبت وغير ما اعترفت لك ولكن كيف هي في

أنهم كانوا يسمعون من الرسول ﷺ ثم يخرجون ويقولون سمعنا منه كذا ولم يسمعوا ذلك منه، ﴿سمّاعون لقومٍ آخرين لم يأتوك﴾، أي هم جواسيس، يعني: بني قريظة لقوم آخرين هم أهل خيبر، وذلك أن رجلاً وامرأةً من أشراف أهل خيبر زنيا وكانا محصنين، وكان حدّهما الرجم في التوراة فكرهت اليهود رجمهما لشرفهما، فقالوا: إن هذا الرجل الذي بيثرب ليس في كتابه الرجم ولكنه الضرب، فأرسلوا إلى إخوانكم بني قريظة فإنهم جيرانه وصلح له فليسألوه عن ذلك، فبعثوا رهطاً منهم مستخفين وقالوا لهم: سَلُوا محمداً عن الزانيين إذا أحصنا ما حدّهما؟ فإن أمركم بالجلد فاقبلوا منه، وإن أمركم بالرجم فاحذروا ولا تقبلوا منه، وأرسلوا معهم الزانيين فقَدِمَ الرهط حتى نزلوا على بني قريظة والنضير فقال لهم: إنكم جيران هذا الرجل ومعه في بلده وقد حدث فينا حدث فلان وفلانة قد فَجُرَا وقد أحصنا فنحبّ أن تسألوا لنا محمداً عن قضائه، فقالت لهم قريظة والنضير: إذاً والله يأمركم بما تكرهون، ثم انطلق قوم منهم كعب بن الأشرف وكعب بن أسد وسعيد بن عمرو ومالك بن الصيف وكنانة بن أبي الحقيق وغيرهم إلى رسول الله ﷺ، فقالوا: يا محمد أخبرنا عن الزاني والزانية إذا أحصنا ما حدُّهما في كتابك؟ فقال: هل ترضون بقضائي؟ قالوا: نعم، فنزل جبريل عليه السلام بالرجم فأخبرهم بذلك فأبوا أن يأخذوا به، فقال له جبريل عليه السلام: اجعل بينك وبينهم ابن صوريا ووصفه له، فقال له رسول الله ﷺ: «هل تعرفون شابّاً أمرد أعور يسكن فدك يقال له ابن صوريا؟ قالوا: نعم، قال: فأيّ رجل هو فيكم؟ فقالوا: هو أعلم يهودي بقي على وجه الأرض بما أنزل

كتابكم يا محمد؟ قال: إذا شهد أربعة رهط عدول أنه أدخله فيها كما يدخل الميل في المكحلة وجب عليهما الرجم. فقال ابن صوريا: والذي أنزل التوراة على موسى هكذا أنزل الله في التوراة على موسى فقال له النبي ﷺ: فما كان أول ما ترخصتم به في أمر الله تعالى؟ فقال ابن صوريا: كنا إذا أخذنا الشريف تركناه وإذا أخذنا الضعيف أقمنا عليه الحد فكثر الزنا في أشرافنا حتى زنى ابن عم ملك لنا فلم نرجمه ثم زنى رجل آخر في امرأة من قومه فأراد الملك رجمه فقام قومه دونه وقالوا والله لا ترجمه حتى ترجم فلاناً لابن عم الملك، فقلنا: تعالوا نجتمع فلنضع شيئاً دون الرجم يكون على الشريف والوضيع فوضعنا الجلد والتحميم وهو أن يجلد أربعين جلدة بحبل مطلي بقار ثم تسود وجوههما ثم يحملان على حمارين ووجوههما من قبل دبر الحمار ويطاف بهما فجعلوا ذلك مكان الرجم. فقالت اليهود لابن صوريا: ما أسرع ما أخبرته وما كنت لما أثنينا عليك بأهل ولكنك كنت غائباً فكرهنا أن نغتابك. فقال لهم ابن صوريا: إنه قد ناشدني بالتوراة ولولا خشيت أن ينزل علينا العذاب ما أخبرته. فأمر النبي ﷺ بهما فرجما عند باب المسجد وقال: «اللهم إني أول من أحيا أمرك إذ أماتوه» فأنزل الله هذه الآية (ق) عن ابن عمر قال إن اليهود جاؤوا إلى رسول الله ﷺ، فذكروا له أن امرأة منهم ورجلاً زنيا فقال لهم رسول الله ﷺ: ما تجدون في التوراة في شأن الرجم؟ فقالوا: نفضحهم ويجلدون فقال عبد الله بن سلام: كذبتم إن فيها الرجم فأتوا بالتوراة فنشروها فوضع أحدهم يده على آية الرجم فقرأ ما قبلها وما بعدها فقال له عبد الله بن سلام: ارفع يدك، فرفع يده فإذا فيها آية الرجم فقالوا: صدق يا محمد فيها آية الرجم فأمر بهما النبي ﷺ فرجما قال: فرأيت الرجل ينحني على المرأة يقيها الحجارة. وفي رواية أخرى لهما قال: «أتي النبي ﷺ برجل وامرأة من اليهود قد زنيا فقال لليهود ما تصنعون بهما قال نفحم وجوههما ونخزيهما قال فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين فجاؤوا بها فقال لرجل ممن يرضون أعور اقرأ فقرأ حتى انتهى إلى موضع منها فوضع يده عليها فقال ارفع يدك فرفع يده فإذا آية الرجم تلوح، فقال: يا محمد إن فيها الرجم ولكنا نتكاتمه بيننا فأمر بهما فرجما فرأيته يحنى» زاد في رواية أخرى: «فرجما قريباً موضع الجنائز قرب المسجد» (م) عن البراء بن عازب قال: «مر على رسول الله ﷺ بيهودي محمم مجلود فدعاهم فقال: هكذا تجدون حد الزاني في كتابكم؟ قالوا: نعم. فدعا رجلاً من علمائهم فقال أنشدك بالله الذي أنزل التوراة على موسى هكذا تجدون حد الزاني في كتابكم؟ قال: لا ولولا أنك نشدتني بهذا لم أخبرك بحد الرجم ولكنه كثر في أشرافنا فكنا إذا أخذنا الشريف تركناه

الله سبحانه وتعالى على موسى عليه السلام في التوراة، قال ﷺ: «أنت ابن صوريا»؟ قال: نعم، قال: «أنت أعلم اليهود»؟ قال: كذلك يزعمون، قال: «أتجعلونه بيني وبينكم»؟ قالوا: نعم، فقال له النبي ﷺ: «أنشدك بالله الذي لا إلّه إلّا هو الذي أنزل التوراة على موسى عليه السلام وأخرجكم من مصر، وفلق لكم البحر وأنجاكم وأغرق آل فرعون، والذي ظلّل عليكم الغمام وأنزل عليكم المنَّ والسلوى، وأنزل عليكم كتابه فيه حلاله وحرامه هل تجدون في كتابكم الرجم على مَن أحصن»؟، قال ابن صوريا: نعم والذي ذكرتني به لولا خشية أن تحرقني التوراة إن كذبت أو غيّرت ما اعْترفت لك، ولكن كيف هي في كتابك يا محمد؟ قال: «إذا شهد أربعة رهط عدول أنه قد أدخله فيها كما يدخل الميل في المكحلة وجب عليه الرجم»، فقال ابن صوريا: والذي أنزل التوراة على موسى هكذا أنزل الله عزّ وجلّ في التوراة على موسى عليه السلام، فقال له النبي ﷺ: «فماذا كان أول ما ترخصتم به أمْرَ الله»؟، قال: كنّا إذا أخذنا الشريف تركناه وإذا أخذنا الضعيف أقمنا عليه الحدّ، فكثر الزنا في أشرافنا حتى زنا ابن عمّ ملك لنا فلم نرجمه، ثم زنى رجل آخر في أُسوة من الناس فأراد ذلك الملك رجمه فقام دونه قومه، فقالوا: والله لا يرجم حتى يرجم فلان لابن عمّ الملك، فقلنا: تعالوا نجتمع فلنصنعْ شيئاً دون الرجم يكون على الوضيع والشريف، فوضعنا الجلدَ والتحميم، وهو أن يجلد أربعين جلدة بحبل مطلي بالقار ثم يسود وجهها، ثم يحملان على حمارين ووجوههما من قبل دبر الحمار ويُطاف بهما، فجعلوا هذا مكان الرجم، فقالت اليهود لابن صوريا: ما

وإذا أخذنا الضعيف أقمنا عليه الحد فقلنا تعالوا فلنجتمع على شيء نقيمه على الشريف والوضيع فجعلنا التحميم والجلد مكان الرجم فقال رسول الله ﷺ: اللهم إني أول من أحيا أمرك إذ أماتوه، فأمر به فرجم فأنزل الله: يا أيها الرسول» لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر، إلى قوله، إن أوتيم هذا فخذوه. يقول: ائتوا محمداً فإن أمركم بالتحميم والجلد فخذوه وإن أمركم بالرجم فاحذروه فأنزل الله تبارك وتعالى: «ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون» في الكفار كلها. التحميم هو تسويد الوجه بالحمم وهو الفحم وقوله ما تجدون في التوراة في شأن الرجم؟ قال العلماء: هذا السؤال من النبي ﷺ ليس لتقليدهم ولا لمعرفة الحكم منهم، وإنما هو لإلزامهم بما يعقدونه في كتابهم. ولعله ﷺ كان قد أوحى إليه أن الرجم في التوراة الموجودة في أيديهم لم يغيروه كما غيّروا شيئاً منها أو أخبروه بذلك من أسلم من أهل الكتاب وهو عبد الله بن سلام كما في حديث بن عمر المتفق عليه ولذلك لم يخف عليه ﷺ حين كتموه.

قوله تعالى: ﴿**يحرفون الكلم**﴾، يعني: يغيرون حدود الله التي أوجبها عليهم في التوراة وذلك أنهم بدلوا الرجم بالجلد والتحميم وقال الحسن إنهم يغيرون ما يسمعون من النبي ﷺ بالكذب عليه. وقال ابن جرير الطبري: يحرفون حكم الكلم فحذف ذكر الحكم لمعرفة السامعين به ﴿**من بعد مواضعه**﴾ يعني من بعد أن وضعه الله مواضعه وفرض فروضه وأحلّ حلاله وحرّم حرامه فإن قلت: قد قال الله عز وجل هنا يحرفون الكلم من بعد مواضعه. وقال في موضع آخر: يحرفون الكلم عن مواضعه فهل من فرق بينهما؟ قلت نعم بينهما فرق وذلك أنّا إذا فسرنا يحرفون الكلم عن مواضعه بالتأويلات الباطلة فيكون معنى قوله يحرفون الكلم عن مواضعه أنهم يذكرون التأويلات الفاسدة لتلك النصوص وليس فيه بيان أنهم يحرفون تلك اللفظة من الكتاب. وأما قوله يحرفون الكلم من بعد مواضعه ففيه دلالة على أنهم جمعوا بين الأمرين يعني أنهم كانوا يذكرون التأويلات الفاسدة وكانوا يحرفون اللفظة من الكتاب ففي قوله: يحرفون الكلم عن مواضعه إشارة إلى التأويل الباطل وفي قوله من بعد مواضعه إشارة إلى إخراجه من الكتاب بالكلية

أسرع ما أخبرته به، وما كنّا لمّا أثنينا عليك بأهل ولكنّك كنت غائباً فكرهنا أن نغتابك، فقال لهم: إنه قد أنشدني بالتوراة ولولا خشية التوراة أن تهلكني لما أخبرته به، فأمر بهما النبي ﷺ فرُجِما عند باب مسجده، وقال: «اللّهمّ إني أول مَن أحيا أمرك إذا أماتوه»، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿ **يا أيّها الرسولُ لا يحزُنْكَ الذين يُسارعون في الكفر** ﴾، أخبرنا أبو الحسن السرخسي أنا زاهر بن أحمد أنا أبو إسحق الهاشمي أنا أبو مصعب عن مالك عن نافع عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهم قال: إن اليهود جاؤوا إلى رسول الله ﷺ فذكروا له أنّ رجلاً منهم وامرأة زنيا، فقال لهم رسول الله ﷺ: «ما تجدون في التوراة في شأن الرجم»؟ فقالوا: نفضحهم ويُجلدون، قال عبد الله بن سلام: كذبتم إن فيها لآية الرجم، فأتوا بالتوارة فنشروها فوضع أحدهم يده على آية الرجم فقرأ ما قبلها وما بعدها، فقال له عبد الله: إرفع يدك، فرفع، يده فإذا فيها آية الرجم، قالوا: أصدق يا محمد فيها آية الرجم، فأمر بهما رسول الله ﷺ فرُجِمَا، فقال عبد الله بن عمر: فرأيت الرجل يحني على المرأة يقيها الحجارة. وقيل: سبب نزول هذه الآية القصاص، وذلك أنّ بني النضير كان لهم فضل على بني قريظة فقال بنو قريظة: يا محمد إخواننا بنو النضير وأبونا واحد وديننا واحد ونبيّنا واحد، وإذا قتلوا منّا قتيلاً لم يقيّدونا وأعطونا ديته سبعين وسقاً من تمر، وإذا قتلنا منهم قتلوا القاتل وأخذوا منّا الضعف مائة وأربعين وسقاً من تمر، وإن كان القتيل امرأة قتلوا بها الرجل منّا وبالرجل منهم الرجلين منّا، وبالعبد حرّاً منّا، وجراحتنا على التضعيف من جراحاتهم، فاقضِ بيننا وبينهم، فأنزل الله تعالى هذه الآية. والأول أصحّ لأن الآية في الرجم. قوله: ﴿ **ومن الذين هادوا سمّاعون للكذب** ﴾، قيل: اللام بمعنى إلى، وقيل: هي لام كي، أي يسمعون لكي يكذبوا عليك، واللام في قوله: ﴿ **لقوم** ﴾ أي: لأجل قوم

وقوله تعالى: ﴿يقولون﴾ يعني اليهود ﴿إن أوتيتم هذا فخذوه﴾ يعني إن أفتاكم محمد بالجلد والتحميم فاقبلوا منه ﴿وإن لم تؤتوه فاحذروا﴾ يعني وإن لم يفتكم بذلك وأفتاكم بالرجم فاحذروا أن تقبلوه ﴿ومن يرد الله فتنته﴾ يعني كفره وضلالته ﴿فلن تملك له من الله شيئاً﴾ يعني فلن تقدر على دفع أمر الله فيك ﴿أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم﴾ قال ابن عباس معناه أن يخلص نياتهم وقيل معناه لم يرد الله أن يهديهم وفي هذه الآية دلالة على أن الله تعالى لم يرد إسلام الكافر وإنه لم يطهر قلبه من الشك والشرك ولو فعل ذلك لآمن وهذه الآية من أشد الآيات على القدرية ﴿لهم في الدنيا خزي﴾ يعني للمنافقين واليهود أما خزي المنافقين، فبالفضيحة وهتك ستارهم بإظهار نفاقهم وكفرهم وأما خزي اليهود فبأخذ الجزية والقتل والسبي والإجلاء من أرض الحجاز إلى غيرها ﴿ولهم في الآخرة عذاب عظيم﴾ يعني الخلود في النار للمنافقين واليهود.

﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ ۚ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ۖ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا ۖ وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿سماعون للكذب أكّالون للسحت﴾ نزلت في حكام اليهود مثل كعب بن الأشرف ونظرائه كانوا يرتشون ويقضون لمن رشاهم قال الحسن: كان الحاكم منهم إذا أتاه أحدهم برشوة جعلها في كمه ثم يريها إياه ويتكلم بحاجته فيسمع منه ولا ينظر إلى خصمه فيسمع الكذب ويأكل الرشوة وهي السحت وأصل السحت الاستئصال يقال: سحته إذا استأصلته وسميت الرشوة في الحكم سحتاً، لأنها تستأصل دين المرتشي. والسحت كله حرام يحمل عليه شدة الشره وهو يرجع إلى الحرام الخسيس الذي لا تكون له بركة ولا لآخذه مروءة ويكون في حصوله عار بحيث يخفيه لا محالة ومعلوم أن حالة الرشوة كذلك فلذلك حرمت الرشوة على الحاكم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ: «لعن الراشي والمرتشي في الحكم». أخرجه الترمذي وأخرجه أبو داود عن عبد الله بن عمرو بن العاص. قال الحسن: إنما ذلك في الحاكم إذا رشوته ليحق لك باطلاً أو يبطل عنك حقاً وقال ابن مسعود: الرشوة في كل شيء فمن شفع شفاعة ليرد بها حقاً أو يدفع بها ظلماً فأهدى بها إليه فقبل فهو سحت. فقيل له: يا أبا عبد الرحمن ما كنا نرى ذلك إلا الأخذ على الحكم كفر قال الله تعالى: ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون.

قوله عز وجل: ﴿فإن جاؤوك﴾ يعني اليهود ﴿فاحكم بينهم أو أعرض عنهم وإن تعرض عنهم فلن يضروك شيئاً﴾ خيَّر الله رسوله ﷺ في الحكم بينهم فإن شاء حكم وإن شاء ترك قال الحسن ومجاهد والسدي نزلت في اليهوديين

آخرين لم يأتوك وهم أهل خيبر، ﴿ يُحرّفون الكَلِمَ ﴾، جمع كلمة، ﴿ مِنْ بَعْدِ مواضعِهِ ﴾، أي: من بعد وضعه مواضعه، وإنما ذكر الكناية ردّاً على لفظ الكَلِم، ﴿ يقولون إنْ أُوتيتُم هذا فخذُوه ﴾، أي: إن أفتاكم محمد ﷺ بالجلد والتحميم فاقبلوا، ﴿ وإنْ لم تُؤتوه فاحْذَرُوا ومَنْ يُرِدِ اللَّهُ فتنتَه ﴾، كفره وضلالته، قال الضحاك: هلاكه، وقال قتادة: عذابه، ﴿ فلَنْ تملك له منَ اللَّهِ شيئاً ﴾، فلن تقدر على دفع أمر الله، ﴿ أولئك الذين لم يردِ اللَّهُ أن يطهِّرَ قلوبَهم ﴾، وفيه ردٌّ على مَن ينكر القدر، ﴿ لهم في الدنيا خزيٌ ﴾ أي: للمنافقين واليهود، فخزي المنافقين الفضيحة وهتك الستر بإظهار نفاقهم، وخزيُ اليهود الجزية أو القتل أو السبي أو النفي، ورؤيتهم من محمد ﷺ وأصحابه فيهم ما يكرهون، ﴿ ولهم في الآخرة عذابٌ عظيم ﴾، الخلود في النار.

﴿ سمّاعون للكذب أكّالون للسُّحت ﴾، قرأ ابن كثير وأبو جعفر وأهل البصرة والكسائي « للسُّحُتِ » بضمّ الحاء، والآخرون بسكونها، وهو الحرام، وأصله الهلاك والشدّة، قال الله تعالى: ﴿ فيُسحتكم بعذاب ﴾ [طه: ٦١]، نزلت في حكم حكّام اليهود كعب بن الأشرف وأمثاله، كانوا يرتشون ويقضون لمَن رشاهم، قال

اللذين زنيا. وقال قتادة: نزلت في رجلين من قريظة والنضير قتل أحدهما الآخر. قال ابن زيد: كان حيي بن أخطب قد جعل للنضير ديتين وللقرظي دية واحدة لأنه كان من بني النضير فقالت قريظة: لا نرضى بحكم حيي ونتحاكم إلى محمد فأنزل الله هذه الآية يخير نبيه محمداً ﷺ في الحكم بينهم.

(فصل)

اختلف علماء التفسير في حكم هذه الآية على قولين: أحدهما أنها منسوخة وذلك أن أهل الكتاب كانوا إذا ترافعوا إلى النبي ﷺ كان مخيراً فإن شاء حكم بينهم وإن شاء عرض عنهم ثم نسخ ذلك بقوله «وأن احكم بينهم بما أنزل الله» فلزمه الحكم بينهم وزال التخير هذا القول مروي عن ابن عباس وعطاء ومجاهد وعكرمة والسدي. والقول الثاني: إنها محكمة وحكام المسلمين بالخيار إذا ترافعوا إليهم فإن شاؤوا حكموا بينهم وإن شاؤوا أعرضوا عنهم وهذا القول مروي عن الحسن والشعبي والنخعي والزهري وبه، قال أحمد: لأنه لا منافاة بين الآيتين.

أما قوله فاحكم بينهم أو أعرض عنهم ففيه التخيير بين الحكم والإعراض. وأما قوله «وأن احكم بينهم بما أنزل الله» ففيه كيفية الحكم إذا حكم بينهم قال الإمام فخر الدين الرازي: ومذهب الشافعي، إنه يجب على حاكم المسلمين أن يحكم بين أهل الكتاب إذا تحاكموا إليه لأن إمضاء حكم الإسلام صغاراً لهم. فأما المعاهدون الذين لهم مع المسلمين عهد إلى مدة فليس بواجب على الحاكم أن يحكم بينهم بل يتخير في ذلك وهو التخيير المذكور في هذه الآية مخصوص بالمعاهدين وأما إذا تحاكم مسلم وذمي وجب على الحاكم بينهم لا يختلف القول فيه لأنه لا يجوز للمسلم الانقياد لحكم أهل الذمة والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط﴾ يعني بالعدل والاحتياط ﴿إن الله يحب المقسطين﴾ يعني العادلين فيما ولوا وحكموا فيه (م) عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله ﷺ: «إن المقسطين عند الله

الحسن: كان الحاكم منهم إذا أتاه أحد برشوة جعلها في كمّه فيريها إيّاه ويتكلم بحاجته فيسمع منه ولا ينظر إلى خصمه، فيسمع الكذب ويأكل الرشوة، وعنه أيضاً قال: إنما ذلك في الحكم إذا رشوته ليحقّ لك باطلاً أو يبطل عنك حقك، فأما أن يعطي الرجل الوالي يخاف ظلمه ليدرأ به عن نفسه فلا بأس، فالسحت هو الرشوة في الحكم على قول الحسن ومقاتل وقتادة والضحاك، وقال ابن مسعود: هو الرشوة في كل شيء، قال ابن مسعود: مَن يشفع شفاعة ليردّ بها حقاً أو يدفع بها ظلماً فأُهدي له فقبل فهو سحت، فقيل له: يا أبا عبد الرحمن ما كنّا نرى ذلك إلا الأخذ على الحكم، فقال: الأخذ على الحكم كفر، قال الله تعالى: ﴿ ومَن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ﴾ [المائدة: ٤٤]، أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبد الرحمن بن أبي شريح أنا أبو القاسم البغوي ثنا علي بن الجعد أنا ابن أبي ذئب عن الحرث بن عبد الرحمن عن أبي سلمة بن عبد الرحمن عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «لعنةُ اللّهِ على الراشي والمرتشي». والسحت كل كسب لا يحلّ. قوله عزّ وجلّ: ﴿ فإن جاءُوك فاحكم بينهم أو أعرضْ عنهم وإن تُعرضْ عنهم فلنْ يضرّوك شيئاً ﴾، خيّر الله تعالى رسولَه ﷺ في الحكم بينهم إن شاء حكم وإن شاء ترك، واختلفوا في حكم الآية اليوم هل للحاكم الخيار في الحكم بين أهل الذمّة إذا تحاكم إلينا؟ فقال أكثر أهل العلم: هو حكم ثابت وليس في سورة المائدة حكم منسوخ، وحكّام المسلمين بالخيار في الحكم بين أهل الكتاب إن شاؤوا حكموا وإن شاؤوا لم يحكموا، وإن حكموا حكموا بحكم الإسلام، وهو قول النخعي والشعبي وعطاء وقتادة، وقال قوم: يجب على حاكم المسلمين أن يحكم بينهم. والآية منسوخة نسخها قوله تعالى: ﴿ وأنِ احكم بينهم بما أنزل الله ﴾ [المائدة: ٤٩]، وهو قول مجاهد وعكرمة،

على منابر من نور عن يمين الرحمن وكلتا يديه يمين الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا». هذا من أحاديث الصفات فمن العلماء من قال فيه وفي أمثاله: نؤمن بها ولا نتكلم في تأويلها ولا نعرف معناها لكن نعتقد أن ظاهرها غير مراد وأن لها معنى يليق بالله. هذا مذهب جماهير السلف وطوائف من المتكلمين. ومنهم من قال: إنها تؤول بتأويل يليق بها وهذا قول أكثر المتكلمين. فعلى هذا قال القاضي عياض: المراد بكونهم عن اليمين الحالة الحسنة والمنزلة الرفيعة والعرب تنسب الفعل المحمود والإحسان إلى اليمين وضده إلى اليسار قالوا واليمين مأخوذة من اليمن وقوله وكلتا يديه يمين مبني على أنه ليس المراد باليمين الجارحة تعالى الله عن ذلك فإنها مستحيلة في حقه تعالى وقوله ﴿وما ولوا﴾ بفتح الواو وضم اللام المخففة هكذا ذكره الشيخ محيي الدين في شرح مسلم. قال: ومعناه وما كانت له عليه ولاية وهذا الفضل لمن عدل فيما تقلده من الأحكام والله أعلم.

﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٤٣﴾

قوله تعالى: ﴿وكيف يحكمونك وعندهم التوراة﴾ هذا تعجيب من الله تعالى لنبيه محمد ﷺ في تحكيم اليهود إياه مع علمهم بما في التوراة تركهم قبول ذلك الحكم مع اعتقادهم صحته وعدولهم إلى حكم من يجحدون نبوته طلباً للرخصة لا جرم إن الله تعالى أظهر جهلهم وعنادهم لأنهم حكموا النبي ﷺ وسلم في أمر الزانيين ثم أعرضوا عن حكمه في الآية لتقريع اليهود والمعنى وكيف يجعلونك حكماً بينهم ويرضون بحكمك وعندهم التوراة ﴿فيها حكم الله﴾ يعني الرجم الذي تحاكموا إليك من أجله ﴿ثم يتولون من بعد ذلك﴾ يعني ثم يعرضون عن حكمك الموافق لما في كتابهم ﴿وما أولئك﴾ يعني اليهود ﴿بالمؤمنين﴾ يعني بكتابهم كما يزعمون. وقيل: معناه وما أولئك بالمصدقين.

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيْهِ شُهَدَآءَۚ فَلَا تَخْشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِۚ وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنًا قَلِيلًاۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ۝٤٤﴾

قوله عز وجل: ﴿إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور﴾ سبب نزول هذه الآية استفتاء اليهود رسول الله ﷺ في أمر الزانيين وقد سبق بيانه والهدى هو البيان لأن التوراة مبينة صحة نبوة محمد ﷺ ومبينة ما تحاكموا فيه والنور هو

ورُوِيَ ذلك عن ابن عباس، وقال: لم ينسخ من المائدة إلّا آيتان، قوله تعالى: ﴿ لا تُحلّوا شعائر الله ﴾ [المائدة: ٢]، نسخها قوله تعالى: ﴿ اقتلوا المشركين ﴾ [التوبة: ٥] وقوله: ﴿ **فإن جاءُوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم** ﴾، نسخها قوله تعالى: ﴿ وأن احكم بينهم بما أنزل الله ﴾ [المائدة: ٤٩] فأما إذا تحاكم إلينا مسلم وذمّي فيجب علينا الحكم بينهما لا يختلف القول فيه، لأنه لا يجوز للمسلم الانقياد لحكم أهل الذمّة. قوله: ﴿ **وإنْ حكمتَ فاحكمْ بينهم بالقسط** ﴾، أي: بالعدل، ﴿ **إنّ اللّهَ يحب المقسطين** ﴾ أي: العادلين، رُوِيَ عن النبي ﷺ أنه قال: «المقسطون عند الله على منابر من نور».

قوله تعالى: ﴿ **وكيف يُحكمونك وعندهم التوراة** ﴾، هذا تعجيب للنبي ﷺ، وفيه اختصار، أي: وكيف يجعلونك حكماً بينهم فيرضون بحكمك وعندهم التوراة؟ ﴿ **فيها حكم الله** ﴾، وهو الرجم، ﴿ **ثم يتولّون من بعد ذلك وما أُولئك بالمؤمنين** ﴾، أي بمصدّقين لك.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ **إنّا أنزلنا التوراة فيها هدىً ونورُ يحكم بها النبيّون الذين أسلموا** ﴾، أي: أسلموا وانقادوا

الكاشف للشبهات الموضح للمشكلات والتوراة كذلك. وقيل: الفرق بين الهدى والنور أن الهدى محمول على بيان الأحكام والشرائع والنور محمول على بيان أحكام التوحيد والنبوات والمعاد ﴿**يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا**﴾ أراد بالنبيين الذين بعثوا بعد موسى عليه السلام وذلك أن الله بعث في بني إسرائيل ألوفاً من الأنبياء وليس معهم كتاب إنما بعثوا بإقامة التوراة وأحكامها ومعنى أسلموا: أي انقادوا لأمر الله تعالى والعمل بكتابه وهذا على سبيل المدح لهم وفيه تعريض باليهود لأنهم بعدوا عن الإسلام الذي هو دين الأنبياء عليهم السلام وقال الحسن والزهري وعكرمة وقتادة والسدي: يحتمل أن يكون المراد بالنبيين الذين أسلموا هو محمد ﷺ وإنما ذكره بلفظ الجمع تعظيماً وتشريفاً له ﷺ لأن النبي ﷺ حكم على اليهود بالرجم وكان هذا الحكم في التوراة. قال ابن الأنباري هذا رد على اليهود والنصارى لأن الأنبياء عليهم السلام ما كانوا موصوفين باليهودية والنصرانية بل كانوا مسلمين لله تعالى منقادين لأمره ونهيه. للذين هادوا يعني لليهود يعني يحكم بالتوراة لهم وفيما بينهم ويحملهم على أحكامها كما فعل رسول الله ﷺ من حملهم على حكم الرجم كما هو في التوراة ولم يوافقهم على ما أرادوه من الجلد وقال الزجاج وجائز أن يكون المعنى على التقديم والتأخير على معنى: إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور للذين هادوا يحكم بها النبيون الذين أسلموا ﴿**والربانيون والأحبار**﴾ أما الربانيون فتقدم تفسيره في سورة آل عمران وأما الأحبار فقال ابن عباس: هم الفقهاء. وقيل: هم العلماء الأحبار واحده حبر بفتح الحاء وكسرها لغتان. وقال الفراء: إنما هو حبر بكسر الحاء وإنما سمي به لمكان الحبر الذي يكتب به وذلك لأنه صاحب كتاب. وقال أبو عبيد: إنما هو حَبر بفتح الحاء والحبر العالم لما يبقى من أثر علومه في قلوب الناس وأفعاله الحسنة التي يقتدى بها وجمعه أحبار ومنه كعب الأحبار. وقيل: الحبر الأثر المستحسن ومنه الحديث: يخرج من النار رجل قد ذهب حبره وسبره أي جماله وبهاؤه. وإنما سمي العالم حبراً لما عليه من أثر جمال العلم وهل فرق بين الربانيين والأحبار أم لا؟ فيه خلاف، فقيل: لا فرق. والربانيون، والأحبار بمعنى واحد وهم: العلماء والفقهاء. وقيل: الربانيون أعلى درجة من الأحبار لأن الله تعالى قدمهم في الذكر على الأحبار. وقيل: الربانيون هم الولاة. والحكام والأحبار هم العلماء. وقيل: الربانيون علماء النصارى، والأحبار: علماء اليهود. ومعنى الآية: يحكم بأحكام التوراة النبيون وكذلك يحكم بها الربانيون والأحبار. وقوله تعالى: ﴿**بما استحفظوا من كتاب الله**﴾ يعني بما استودعوا من كتاب الله. وقيل: هو أن يحفظوا كتاب الله فلا ينسوه وقيل هو أن يحفظوه فلا يضيعوا أحكامه وشرائعه. وقد أخذ الله على العلماء حفظ كتابه من هذين الوجهين معاً وذلك بأن يحفظوا كتاب الله في صدورهم ويدرسونه بألسنتهم لئلا ينسوه وأن لا يضيعوا أحكامه ولا يهملوا شرائعه فإذا فعلوا ذلك كانوا قائمين بحفظه ﴿**وكانوا عليه شهداء**﴾ يعني: أن هؤلاء النبيين والربانيين والأحبار كانوا شهداء على كتاب الله تعالى

لأمر الله تعالى، كما أخبر عن إبراهيم عليه السلام: ﴿ إذْ قال له ربّه أسلمْ قال أسلمتُ لربِّ العالمين ﴾ [البقرة: ١٣١]، وكما قال: ﴿ وله أسلم مَنْ في السمٰواتِ والأرض طوعاً وكرهاً ﴾ [آل عمران: ٨٣]، وأراد بهم النبيّين الذين بعثوا من بعد موسى عليه السلام ليحكموا بما في التوراة، وقد أسلموا لحكم التوراة وحكموا بها، فإن من النبيّين مَن لم يؤمر بحكم التوراة منهم عيسى عليه السلام، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ لكلٍّ جعلنا منكم شِرْعةً ومنهاجاً ﴾ [المائدة: ٤٨]، وقال الحسن والسدي: أراد به محمداً ﷺ حكم على اليهود بالرجم، ذكر بلفظ الجمع كما قال: ﴿ إن إبراهيم كان أمةً قانتاً ﴾ [النحل: ١٢٠]، وقوله تعالى: ﴿ للذين هادُوا ﴾، قيل: فيه تقديم وتأخير تقديره فيها هدىً ونور للذين هادوا ثم قال يحكم بها النبيّون الذين أسلموا والربانيّون، وقيل: هو على موضعه، ومعناه: يحكم بها النبيّون الذين أسلموا على الذين هادوا، كما قال: ﴿ وإنْ أسأْتُمْ فلها ﴾ [الإسراء: ٧]، أي: فعليها، وكما قال: ﴿ أولئك لهم اللعنةُ ﴾ [الرعد: ٢٥]، وقيل: فيه حذف كأنه قال: للذين هادوا وعلى الذين

ويعلمون أنه حق وصدق وأنه من عند الله ﴿فلا تخشوا الناس واخشون﴾ هذا خطاب لحكام اليهود الذين كانوا في زمان رسول الله ﷺ يعني لا تخافوا أحداً من الناس في إظهار صفة محمد ﷺ والعمل بالرجم واخشون يعني في كتمان ذلك ﴿ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً﴾ يعني ولا تستبدلوا بآيات الله وأحكامه ثمناً قليلاً يعني الرشوة في الأحكام والجاه عند الناس ورضاهم والمعنى كما نهيتكم عن تغير الأحكام لأجل خوف الناس كذلك أنهاكم عن التغيير والتبديل لأجل الطمع في المال والجاه وأخذ الرشوة فإن كل متاع الدنيا قليل ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون﴾ بمعنى: أن اليهود لما أنكروا حكم الله تعالى المنصوص عليه في التوراة وقالوا إنه غير واجب عليهم، فهم كافرون على الإطلاق بموسى والتوراة وبمحمد ﷺ والقرآن واختلف العلماء فيمن نزلت هذه الآيات الثلاث وهي قوله: ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون، ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون، ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون﴾ فقال جماعة من المفسرين: الآيات الثلاث نزلت في الكفار ومن غير حكم الله من اليهود، لأن المسلم وإن ارتكب كبيرة، لا يقال إنه كافر وهذا قول ابن عباس وقتادة والضحاك. ويدل على صحة هذا القول ما روي عن البراء بن عازب قال أنزل الله تبارك وتعالى: ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون، ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون، ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون﴾ في الكفار كلها أخرجه مسلم وعن ابن عباس قال ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون﴾ إلى قوله هم الفاسقون هذه الآيات الثلاث في اليهود خاصة قريظة والنضير أخرجه أبو داود. وقال مجاهد: في هذه الآيات الثلاث من ترك الحكم بما أنزل الله رداً لكتاب الله فهو كافر ظالم فاسق. وقال عكرمة ومن لم يحكم بما أنزل الله جاحداً به فقد كفر ومن أقر به ولم يحكم به فهو ظالم فاسق وهذا قول ابن عباس أيضاً واختار الزجاج لأنه قال: من زعم أنّ حكماً من أحكام الله تعالى التي أتانا بها الأنبياء باطل فهو كافر. وقال طاوس: قلت لابن عباس أكافر من لم يحكم بما أنزل الله؟ فقال: به كفر وليس بكفر ينقل عن الملة كمن كفر بالله وملائكته ورسله واليوم الآخر ونحو هذا روي عن عطاء. قال: هو كفر دون الكفر. وقال ابن مسعود والحسن والنخعي: هذه الآيات الثلاث عامة في اليهود وفي هذه الأمة فكل من ارتشى وبدل الحكم فحكم بغير حكم الله فقد كفر وظلم وفسق وإليه ذهب السدي لأنه ظاهر الخطاب. وقيل: هذا فيمن علم

هادوا فحذف أحدهما اختصاراً. ﴿ والرَّبَّانيُّون والأحبار ﴾، يعني العلماء، واحدها حبر، وحبر بفتح الحاء وكسرها، والكسر أفصح، وهو العالم المحكم في الشيء، قال الكسائي وأبو عبيدة: هو من الحبر الذي يكتب به وقال قطرب هو من الحبر الذي هو بمعنى الجمال بفتح الحاء وكسرها، وفي الحديث «يخرجُ مِنَ النَّار رجلٌ قد ذهبَ حِبرُه وسِبرُه»، أي: حُسنه وهيأته، ومنه التحبير وهو التحسين، فسمّى العالم حبراً لما عليه من جمال العلم وبهائه، وقيل: الربانيون ههنا من النصارى، والأحبار من اليهود، قوله عزّ وجلّ: ﴿ بما استحفظُوا منْ كتابِ الله ﴾، أي: استُودعوا من كتاب الله، ﴿ وكانوا عليه شهداء ﴾، أنه كذلك، ﴿ فلا تخشوا النّاسَ واخشونِ ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً ومَن لم يحكم بما أنزل الله فأُولئك هم الكافرون ﴾، قال قتادة والضحاك: نزلت هذه الآيات الثلاث في اليهود دون مَن أساء من هذه الأمة. رُوِيَ عن البراء بن عازب رضي الله عنه في قوله: ﴿ ومَنْ لم يحكم بما أنزل اللّهُ فأولئك هم الكافرون ﴾ والظالمون والفاسقون كلها في الكافرين، وقيل: هي على الناس كلهم، وقال ابن عباس وطاوس: ليس بكفر ينقل عن الملّة، بل إذا فعله فهو به كافر، وليس كمَن كفر بالله واليوم الآخر، قال عطاء: هو كفرٌ دُونَ كفرٍ، وظُلمٌ دون ظلم، وفسق دون فسق، وقال عكرمة معناه: ومَن لم يحكم بما أنزل الله جاحداً به فقد كفر، ومَن أقرّ به ولم يحكم به فهو ظالم فاسق. وسُئِلَ عبد العزيز بن يحيىٰ الكناني عن هذه الآيات، فقال: إنها تقع على جميع ما أنزل الله لا على بعضه، وكلّ مَن لم يحكم بجميع ما أنزل الله فهو كافر ظالم فاسق، فأمّا مَن حكم بما

نص حكم الله ثم رده عياناً عمداً وحكم بغيره وأما من خفي عليه النص أو أخطأ في التأويل فلا يدخل في هذا الوعيد والله أعلم بمراده.

﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس﴾ يعني: وفرضنا على بني إسرائيل في التوراة أن نفس القاتل بنفس المقتول وفاقاً فيقتل به وذلك أن الله تعالى حكم في التوراة أن على الزاني المحصن الرجم وأخبر أن اليهود بدّلوه وغيروه وأخبر أيضاً أن في التوراة أن النفس بالنفس وأن هؤلاء اليهود غيروا هذا الحكم وبدلوه ففضلوا بني النضير على بني قريظة فكان بنو النضير إذا قتلوا من بني قريظة أدوا إليهم نصف الدية وإذا قتل بنو قريظة من بني النضير أدوا إليهم الدية كاملة فغيروا حكم الله الذي أنزل في التوراة.

قال ابن عباس: أخبر الله بحكمه في التوراة وهو أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص. قال: فما لهم يخالفون فيقتلون النفسين بالنفس ويفقأون العينين بالعين. ومعنى الآية: أن قاتل النفس يقتل بها إذا تكافأ الدمان ومذهب الشافعي: أنه لا يقتل مسلم بكافر لما صح من حديث علي بن أبي طالب أن النبي ﷺ قال: «لا يقتل مسلم بكافر» الحديث أخرجاه في الصحيحين وقوله تعالى: ﴿والعين بالعين﴾ يعني تفقأ بها ﴿والأنف بالأنف﴾ يعني يجدع به ﴿والأذن بالأذن﴾ يعني تقطع بها ﴿والسن بالسن﴾ يعني تقلع بها وأما سائر الأطراف والأعضاء فيجري فيها القصاص كذلك، وقوله تعالى: ﴿والجروح قصاص﴾ يعني فيما يمكن أن يقتص منه وهذا تعميم بعد التخصيص، لأن الله تعالى ذكر النفس والعين والأنف والأذن فخص هذه الأربعة بالذكر ثم قال تعالى: والجروح قصاص، على سبيل العموم فيما يمكن أن يقتص منه كاليد والرجل والذكر والانثيين وغيرها وأما مالا يمكن القصاص فيه كرضّ في لحم أو كسر في عظم أو جراحة في بطن يخاف منها التلف فلا قصاص في ذلك وفيه الأرش والحكومة. واعلم أن هذه الآية دالة على أن هذا الحكم كان شرعاً في التوراة فمن قال شرع من قبلنا يلزمنا إلا ما نسخ منه بالتفصيل قال هذه الآية حجة في شرعنا ومن أنكره قال إنها ليست بحجة علينا وأصل هذه المسألة أن النبي ﷺ وأمته بعد البعثة هل هم متعبدون بشرع من تقدم من الأنبياء عليهم السلام؟ فنقل عن أصحاب أبي حنيفة وبعض

أنزل الله من التوحيد وترك الشرك، ثم لم يحكم ببعض ما أنزل الله من الشرائع لم يستوجب حكم هذه الآيات. وقال العلماء: هذا إذا ردّ نصّ حكمِ الله عياناً عمداً، فأمّا مَن خفي عليه أو أخطأ في تأويل فلا.

قوله تعالى: ﴿ وكتبنا عليهم فيها ﴾، أي: أوجبنا على بني إسرائيل في التوراة، ﴿ أنّ النفسَ بالنفس ﴾، يعني: من نفس القاتل بنفس المقتول وفاءً يقتل به، ﴿والعينَ بالعينِ﴾، تُفقأ بها، ﴿والأنفَ بالأنف﴾، يُجدع به، ﴿ والأذنَ بالأذن ﴾، تُقطع بها، قال ابن عباس: أخبر الله تعالى بحكمه في التوراة وهو: أن النفس بالنفس واحدة بواحدة إلى آخرها، فما بالهم يخالفون فيقتلون بالنفس النفسين، ويفقأون بالعين العينين، وخفّف نافع الأذن في جميع القرآن ونقلها الآخرون، ﴿ والسنّ بالسنّ ﴾، تقلع بها وسائر الجوارح قياس عليها في القصاص، ﴿ والجروحُ قصاص ﴾، فهذا تعميم بعد تخصيص، لأنه ذكر العين والأنف والأذن والسن، ثم قال: ﴿ والجروح قصاص﴾، أي فيما يمكن الاقتصاص منه كاليد والرجل واللسان ونحوها، وأمّا ما لا يمكن الاقتصاص منه من كسر

أصحاب الشافعي وعن أحمد في أحد الروايتين عنه أنه كان متعبداً بما صح من شرائع من قبله بطريق الوحي إليه لا من جهة كتبهم المبدلة ونقل أربابها واختار ابن الحاجب من المتأخرين هذا المذهب وهو أنه ﷺ كان بعد البعثة متعبداً بشرع من قبله فيما لم ينسخ من الأحكام الباقية قبل شريعته لكنه لم يعتبر فيه قيد الوحي وهو الحق وإلا لم يبق للنزاع معنى إذ لا ينكر أحد كون النبي ﷺ متعبداً بعد البعثة بما أوحى إليه سواء كان من شريعة من قبله أم لا وذهبت الأشاعرة والمعتزلة إلى المنع من ذلك وهو اختيار الآمدي من المتأخرين واحتج الأولون لصحة مذهبهم بأن الإجماع منعقد على صحة الاستدلال بقوله: ﴿وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس﴾ الآية مع أنه من شريعة من تقدم لأنه مذكور في التوراة. ومكتوب على بني إسرائيل: ولولا أنا متعبدون بشريعة من قبلنا لما صح هذا الاستدلال، وقوله تعالى: ﴿فمن تصدق به﴾ يعني بالقصاص فلم يقتص من الجاني ﴿فهو كفارة له﴾ في هاء له قولان: أحدهما أن الهاء في له كناية عن المجروح وولي المقتول وذلك أن المجروح أو ولي المقتول إذا تصدق بالقصاص كان ذلك كفارة لذنوبه وهذا قول ابن مسعود وعبد الله بن عمرو بن العاص والحسن ويدل عليه ما روي عن أبي الدرداء قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول «ما من رجل يصاب بشيء من جسده فيتصدق به إلا رفعه الله به درجة وحط عنه به خطيئة» أخرجه الترمذي. وعن أنس قال: «ما رأيت رسول الله ﷺ رفع إليه شيء فيه قصاص إلا أمر فيه بالعفو أخرجه أبو داود والنسائي».

والقول الثاني: أن الضمير في قوله له يعود إلى الجارح والقاتل يعني أن المجني عليه إذا عفا عن الجاني كان ذلك العفو كفارة لذنب الجاني لا يؤاخذ به في الآخرة وهذا قول ابن عباس ومجاهد ومقاتل كما أن القصاص كفارة له فأما أجر العافي، فعلى الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون﴾: يعني لأنفسهم حيث لم يحكموا بما أنزل الله عز وجل:

﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ

عظم أو جرح لحم كالجائفة ونحوها فلا قصاص فيه، لأنه لا يمكن الوقوف على نهايته، وقرأ الكسائي «والعين» وما بعدها بالرفع، وقرأ ابن كثير وابن عامر وأبو جعفر وأبو عمرو «والجروح» بالرفع فقط وقرأ الآخرون كلها بالنصب كالنفس. قوله تعالى: ﴿ فمَن تصدّق به ﴾، أي بالقصاص ﴿ فهو كفّارة له ﴾، قيل: الهاءِ في له كناية عن المجروح ووليّ القتيل، أي: كفّارة للمصدّق وهو قول عبد الله بن عمرو بن العاص والحسن والشعبي وقتادة، أخبرنا أبو سعيد أحمد بن إبراهيم الشريحي أنا أبو إسحق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي أنا عبد الله الحسين بن محمد الدينوري أنا عمر بن الخطاب أنا عبد الله بن الفضل أخبرنا أبو خيثمة أنا جرير عن مغيرة عن الشعبي عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ تصدّق من جسدهِ بشيءٍ كفَّرَ اللَّهُ عنه بقدره من ذنوبه» وقال جماعة: هي كناية عن الجارح والقاتل، يعني إذا عفا المُجنِي عليه من الجاني فعفوه كفّارة لذنب الجاني لا يُؤاخذ به في الآخرة، كما أن القصاص كفّارة له، فأما أجر العافي فعلى الله عزّ وجلّ، قال الله تعالى: ﴿ فمَن عفا وأصلح فأجره على الله ﴾ [الشورى: ٤٠]، رُوِيَ ذلك عن ابن عباس رضي الله عنهما، وهو قول إبراهيم ومجاهد وزيد بن أسلم، ﴿ ومَن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون ﴾.

ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾

قوله عز وجل: ﴿**وقفينا على آثارهم**﴾ يعني وعقبنا على آثار النبيين الذين أسلموا ﴿**بعيسى ابن مريم مصدقاً لما بين يديه من التوراة**﴾ يعني أن عيسى عليه السلام كان مصدقاً بأن التوراة منزلة من عند الله عزّ وجل وكان العمل بها واجباً قبل ورود النسخ عليها فإن عيسى عليه السلام نسخ بعض أحكام التوراة وخالفها ﴿**وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور**﴾ يعني فيه هدى من الجهالة وضياء من عمى البصيرة﴿**ومصدقاً لما بين يديه من التوراة**﴾ هذا ليس بتكرار للأول لأن في الأول الإخبار بأن عيسى مصدق لما بين يديه من التوراة. وفي الثاني: الإخبار بأن الإنجيل مصدق للتوراة، فظهر الفرق بين اللفظين وأنه ليس بتكرار ﴿**وهدى وموعظة للمتقين**﴾ إنما قال: وهدى مرة أخرى لأن الإنجيل يتضمن البشارة بمحمد ﷺ فيكون سبباً لاهتداء الناس إلى نبوة محمد ﷺ. وأما كون الإنجيل موعظة، فلما فيه من المواعظ البليغة والزواجر والأمثال وإنما خص المتقين بالذكر لأنهم هم الذين ينتفعون بالمواعظ.

قوله تعالى: ﴿**وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه**﴾ قال أهل المعاني: قوله وليحكم يحتمل وجهين: **أحدهما** أن يكون المعنى وقلنا ليحكم أهل الإنجيل، فيكون هذا إخباراً عما فرض عليهم في وقت إنزاله عليهم من الحكم بما تضمنه الإنجيل ثم حذف القول لأن ما قبله من قوله وكتبنا وقفينا يدل عليه وحذف القول كثير.

والوجه الثاني: أن يكون قوله وليحكم ابتداء وفيه أمر للنصارى بالحكم بما في كتابهم وهو الإنجيل.

فإن قلت فعلى هذا الوجه كيف جاز أن يؤمروا بالحكم بما في الإنجيل بعد نزول القرآن قلت: إن المراد بهذا الحكم الإيمان بمحمد ﷺ لأن ذكره في الإنجيل ووجوب التصديق بنبوته موجود فإذا آمنوا بمحمد ﷺ فقد حكموا بما في الإنجيل.

وقوله ﴿**ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون**﴾يعني: فأولئك هم الخارجون عن طاعة الله عز وجل.

قوله عز وجل: ﴿**وأنزلنا إليك الكتاب**﴾ الخطاب للنبي ﷺ يعني وأنزلنا إليك يا محمد القرآن ﴿**بالحق**﴾ يعني

﴿ وقفّينا على آثارهم ﴾، أي: على آثار النبيّين الذين أسلموا، **﴿ بعيسى ابن مريم مصدّقاً لِمَا بين يديه من التوراة وآتيناه الإنجيل فيه ﴾**، أي: في الإنجيل، **﴿ هدىً ونورٌ ومصدّقاً ﴾**، يعني الإنجيل، **﴿ لِما بين يديه من التوراة وهدىً وموعظةً للمتّقين ﴾**.

﴿ ولْيَحْكُمْ أهلُ الإنجيل بما أنزل الله فيه ﴾، قرأ الأعمش وحمزة «وليحكم» بكسر اللام ونصب الميم، أي: لكي يحكم، وقرأ الآخرون بسكون اللام وجزم الميم على الأمر، قال مقاتل بن حيان: أمر الله الربّانيين والأحبار أن يحكموا بما أنزل الله في التوراة، وأمر القسيسين والرهبان أن يحكموا بما في الإنجيل، فكفروا وقالوا عزير ابن الله والمسيح ابن الله، **﴿ ومَن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون ﴾**، الخارجون عن أمر الله عزّ وجلّ.

قوله سبحانه وتعالى: **﴿ وأنزلنا إليك ﴾**، يا محمد **﴿ الكتاب ﴾**، القرآن، **﴿ بالحقّ مصدّقاً لِما بين يديه من الكتاب ﴾**، أي: من الكتب المنزلة من قبل، **﴿ ومُهيمناً عليه ﴾**، روى الوالي عن ابن عباس رضي الله عنهما: أي

بالصدق الذي لا شك فيه أنه من عند الله ﴿مصدقاً لما بين يديه من الكتاب﴾ يعني أن يصدق جميع الكتب التي أنزلها الله على أنبيائه ﴿ومهيمناً عليه﴾ قال ابن عباس يعني شاهداً على الكتب التي قبله ومنه قول حسان:

إن الكتـــاب مهيمـــن لنبينـــا والحـــق يعـــرفـــه ذوو الألبـــاب

يريد أنه شاهد ومصدق لنبينا ﷺ وإنما كان القرآن مهيمناً على الكتب التي قبله لأنه الكتاب الذي لا ينسخ ولا يغير ولا يبدل. وإذا كان القرآن كانت شهادته على التوراة والإنجيل والزبور وجميع الكتب المنزلة حقاً وصدقاً. وقيل: المهيمن الأمين. وإنما كان القرآن أميناً على الكتب التي قبله فيما أخبر أهل الكتب عن كتبهم فإن قالوا ذلك في القرآن فقد صدقوا وإلا فلا ﴿فاحكم بينهم بما أنزل الله﴾ يعني: إذا ترافع أهل الكتاب إليك يا محمد فاحكم بينهم بالقرآن الذي أنزل الله إليك ﴿ولا تتبع أهواءهم﴾ يعني: ولا تتبع أهواء هؤلاء اليهود في الحكم وقال ابن عباس لا تأخذ بأهوائهم في جلد المحصن ﴿عما جاءك من الحق﴾ يعني ولا تنحرف عن الحق الذي جاءك من عند الله متبعاً أهواءهم، وقوله: ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق وإن كان خطاباً للنبي ﷺ لكن المراد به غيره لأنه ﷺ لم يتبع أهواءهم قط.

وقوله تعالى: ﴿لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً﴾ الخطاب في قوله منكم للأمم الثلاثة أمة موسى وأمة عيسى وأمة محمد ﷺ وعليهم أجمعين بدليل أن الله عز وجل قال قبل هذه ﴿إنما أنزلنا التوراة فيها هدى ونور﴾ ثم قال بعد ذلك ﴿وقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم﴾ ثم قال ﴿وأنزلنا إليك الكتاب﴾ ثم جمع فقال ﴿لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً﴾ والشرعة: الشريعة. يعني لكل أمة شريعة فللتوراة شريعة وللإنجيل شريعة وللقرآن شريعة والدين واحد وهو التوحيد. وأصل الشريعة من الشرع وهو البيان والإظهار فمعنى شرع بيَّن وأوضح. وقيل: هو من الشروع في الشيء. والشريعة في كلام العرب، المشرعة التي يشرعها الناس فيشربون ويسقون منها. وقيل: الشريعة الطريقة ثم استعير ذلك للطريقة الإلهية المؤدية إلى الدين والمنهاج الطريق الواضح وقال بعضهم الشريعة والمنهاج عبارتان عن معنى واحد والتكرير للتأكيد والمراد بهما: الدين وقال آخرون: بينهما فرق لطيف وهو أن الشريعة هي التي أمر الله بها عباده. والمنهاج: الطريق الواضح المؤدي إلى الشريعة.

قال ابن عباس: في قوله شرعة ومنهاجاً سنة وسبيلاً. وقال قتادة: سبيلاً وسنة فالسنن مختلفة للتوراة شريعة وللإنجيل شريعة وللقرآن شريعة يحل الله عز وجل فيها ما يشاء ويحرم ما يشاء ليعلم من يطيعه ممن يعصيه والدين الذي لا يقبل غيره هو التوحيد والإخلاص لله الذي جاءت به جميع الرسل عليهم السلام وقال علي بن أبي طالب: الإيمان منذ بعث آدم عليه السلام شهادة أن لا إله إلا الله والإقرار بما جاء من عند الله ولكل قوم شريعة ومنهاج. قال العلماء: وردت آيات دالة على عدم التباين في طريقة الأنبياء والرسل منها قوله: ﴿أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده﴾ ووردت آيات دالة على حصول التباين بينهم منها هذه الآية وهي قوله ﴿لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً﴾

شاهداً عليه، وهو قول مجاهد وقتادة والسدي والكسائي، قال حسان: إن الكتاب مهيمن لنبيّنا والحق يعرفه ذوو الألباب، يريد شاهداً ومصدّقاً، وقال عكرمة: دالاًّ، وقال سعيد بن جبير وأبو عبيدة: مؤتمناً عليه، وقال الحسن: أميناً، وقيل: أصله مؤيمن مفيعل من أمين، كما قالوا: مُبيطر من البيطار، فقلبت الهمزة هاء كما قالوا: أرقت الماء وهرقته، وإيهات وهيهات، ونحوها. ومعنى أمانة القرآن ما قال ابن جريج: القرآن أمين على ما قبله من الكتب، فما أخبر أهل الكتاب عن كتابهم فإن كان في القرآن فصدقوا وإلاّ فكذبوا، وقال سعيد بن المسيب والضحّاك قاضياً، وقال الخليل: رقيباً وحافظاً، والمعاني متقاربة، ومعنى الكل: أن الكل كتاب يشهد بصدق القرآن فهو كتاب الله تعالى وإلاّ فلا. ﴿ فاحكم ﴾، يا محمد، ﴿ بينهم ﴾، بين أهل الكتاب إذا ترافعوا إليك، ﴿ بما أنزل الله ﴾

وطريق الجمع بين هذه الآيات أن كل آية دلت على عدم التباين فهي دالة على أصول الدين من الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وكل ذلك جاءت به الرسل من عند الله ولم يختلفوا فيه.

وأما الآيات الدالة على حصول التباين بينهم، فمحمولة على الفروع، وما يتعلق بظواهر العبادات فجائز أن يتعبد الله عباده في كل وقت بما يشاء فهذه طريق الجمع بين هذه الآيات والله أعلم بأسرار كتابه واحتج بهذه من قال إن شرع من قبلنا لا يلزمنا لأن قوله لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً يدل على أن كل رسول جاء بشريعة خاصة فلا يلزم أمة رسول الاقتداء بشريعة رسول آخر ثم قال تعالى: ﴿**ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة**﴾ يعني جماعة متفقة على شريعة واحدة ودين واحد لا اختلاف فيه ﴿**ولكن ليبلوكم**﴾ يعني ولكن أراد أن يختبركم ﴿**فيما آتاكم**﴾ يعني من الشرائع المختلفة هل تعلمون بها أم لا؟ فيتبين بذلك المطيع من العاصي والموافق من المخالف ﴿**فاستبقوا الخيرات**﴾ هذا خطاب لأمة محمد ﷺ يعني فبادروا يا أمة محمد بالأعمال الصالحات التي تقربكم إلى الله تعالى ﴿**إلى الله مرجعكم جميعاً**﴾ يعني المطيع والعاصي والموافق والمخالف ﴿**فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون**﴾ يعني: فيخبركم في الآخرة بما كنتم فيه تختلفون من أمر الدين والدنيا. والمعنى: فيخبركم في الآخرة بما لا تشكون معه فيفصل بين المحق والمبطل والطائع والعاصي بالثواب والعقاب.

وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾

قوله تعالى: ﴿**وأن أحكم بينهم بما أنزل الله**﴾ قال ابن عباس: إن كعب بن أسيد وعبد الله بن صوريا وشاس بن قيس قال بعضهم لبعض: اذهبوا بنا إلى محمد لعلنا نفتنه عن دينه، فأتوه فقالوا: يا محمد قد عرفت أنّا أحبار اليهود وأشرافهم وسادتهم وأنّا إن اتبعناك اتبعتنا اليهود ولم يخالفونا وأن بيننا وبين قومنا خصومة فنتحاكم إليك فاقض لنا عليهم نؤمن بك ونصدقك فأبى رسول الله ﷺ، فأنزل الله هذه الآية ﴿**وأن احكم بينهم بما أنزل الله**﴾ يعني احكم بينهم يا محمد بالحكم الذي أنزله الله في كتابه ﴿**ولا تتبع أهواءهم**﴾ يعني فيما أمروك به.

قال العلماء: ليس في هذه الآية تكرار لما تقدم، وإنما أنزلت في حكمين مختلفين. أما الآية الأولى: فنزلت في شأن رجم المحصن وأن اليهود طلبوا منه أن يجلده وهذه الآية نزلت في شأن الدماء والديات حين تحاكموا إليه في

تعالى بالقرآن، ﴿ ولا تتبع أهواءهم عمّا جاءك من الحق ﴾، أي لا تعرض عمّا جاءك من الحق ولا تتبع أهواءهم، ﴿ لكلٍّ جعلنا منكم شُرعةً ومنهاجاً ﴾، قال ابن عباس والحسن ومجاهد: أي سبيلاً وسُنّةً، فالشرعة والمنهاج الطريق الواضح، وكلّ ما شرعت فيه فهو شريعة وشرعة، ومنه شرائع الإسلام لشروع أهلها فيها، وأراد بهذا أن الشرائع مختلفة، ولكل أهل ملّة شريعة، قال قتادة: الخطاب للأمم الثلاث أُمة موسى وأُمة عيسى وأُمة محمد ﷺ وعليهم أجمعين، فالتوراة شريعة والإنجيل شريعة والفرقان شريعة، والدين واحد وهو التوحيد. ﴿ ولو شاء الله لجعلكم أمةً واحدةً ﴾، أي: على ملّة واحدة، ﴿ ولكنْ ليبلوكم ﴾، ليختبركم، ﴿ فيما آتاكم ﴾، من الكتب وبيّن لكم من الشرائع فيبيّن المطيع من العاصي والموافق من المخالف، ﴿ فاستبقوا الخيرات ﴾، فبادروا إلى الأعمال الصالحة، ﴿ إلى اللهِ مَرْجِعُكم جميعاً فيُنبئكمْ بما كُنتُمْ فيهِ تختلفون ﴾.

قولـه عزّ وجلّ: ﴿ وأنِ احكمْ بينهمْ بما أنزل الله ﴾، إليك ﴿ ولا تتبعْ أهواءهم واحذرْهم أنْ يفتنُوكَ عن

أمر قتيل كان بينهم قال بعض العلماء هذه الآية ناسخة للتخيير في قوله: ﴿فاحكم بينهم أو أعرض عنهم﴾.

وقوله تعالى: ﴿واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك﴾ يعني: واحذر يا محمد هؤلاء اليهود الذين جاؤوا إليك أن يصرفوك ويصدوك بمكرهم وكيدهم فيحملوك على ترك العلم ببعض ما أنزل الله إليك في كتابه واتباع أهوائهم ﴿فإن تولوا﴾ يعني فإن أعرضوا عن الإيمان بك والرضا بالحكم بما أنزل الله عليك ﴿فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم﴾ يعني فاعلم يا محمد أن الله يريد أن يعجل لهم العقوبة في الدنيا ببعض ذنوبهم وإنما خص بعض الذنوب لأن الله جازاهم في الدنيا على بعض ذنوبهم بالقتل والسبي والجلاء وأخر مجازاتهم على باقي ذنوبهم إلى الآخرة ﴿وإن كثيراً من الناس لفاسقون﴾ يعني اليهود لأنهم ردوا حكم الله تعالى ﴿أفحكم الجاهلية يبغون﴾ يعني أفحكم الجاهلية يطلب هؤلاء اليهود قال ابن عباس: يعني بحكم الجاهلية ما كانوا عليه من الضلال والجور في الأحكام وتحريفهم إياها عما أمر الله به وقال مقاتل كانت بين بني النضير وقريظة دماء وهما حيان من اليهود وذلك قبل أن يبعث الله محمداً ﷺ فلما بعث وهاجر إلى المدينة تحاكموا إليه فقالت بنو قريظة بنو النضير إخواننا أبونا واحد وديننا واحد وكتابنا واحد فإن قتل بنو النضير منا قتيلاً أعطونا سبعين وسقاً من تمر وإن قتلنا منهم قتيلاً أخذوا منا مائة وأربعين وسقاً وأرش جراحتنا على النصف من جراحتهم فاقض بيننا وبينهم فقال رسول الله ﷺ: فإني أحكم أن دم القرظي وفاء من دم النضيري، ودم النضيري وفاء من دم القرظي ليس لأحدهما فضل على الآخر في دم ولا عقل ولا جراحة. فغضبت بنو النضير، وقالوا: لا نرضى بحكمك فإنك لنا عدو وإنك ما تألو في وضعنا وتصغيرنا. فأنزل الله: أفحكم الجاهلية يبغون. وقرىء بالتاء على الخطاب. والمعنى: قل لهم يا محمد أفحكم الجاهلية تبغون ﴿ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون﴾ يعني: أي حكم أحسن من حكم الله إن كنتم موقنين أنّ لكم رباً وأنه عدل في أحكامه.

۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمۡ يَقُولُونَ نَخۡشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٞۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَ بِٱلۡفَتۡحِ أَوۡ أَمۡرٖ مِّنۡ عِندِهِۦ فَيُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ نَٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾

قوله عز وجل: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء﴾ اختلف المفسرون في سبب نزول هذه الآية وإن كان حكمها عاماً لجميع المؤمنين، لأن خصوص السبب لا يمنع من عموم الحكم، فقال قوم: نزلت هذه

بعضِ ما أنزلَ اللّهُ إليك ﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما: قال كعب بن أسيد وعبد الله بن صوريا وشاس بن قيس من رؤوساء اليهود بعضهم لبعض: اذهبوا بنا إلى محمد لعلّنا نفتنه عن دينه، فأتوه فقالوا: يا محمد قد عرفت أنا أحبار اليهود وأشرافهم وإنّا إن اتّبعناك لم يخالفنا اليهود، وإن بيننا وبين الناس خصومات فنحاكمهم إليك فاقضِ لنا عليهم نؤمن بك، ويتبعنا غيرنا ولم يكن قصدهم الإيمان، وإنما كان قصدهم التلبيس ودعوته إلى الميل في الحكم فأنزل الله عزّ وجلّ الآية ﴿ فإنْ تولّوا ﴾، أي: أعرضوا عن الإيمان والحكم بالقرآن، ﴿ فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم ﴾، أي: فاعلم أن إعراضهم من أجل أن الله يريد أن يعجّل لهم العقوبة في الدنيا ببعض ذنوبهم، ﴿ وإن كثيراً من الناس ﴾، يعني اليهود، ﴿ لفاسقون ﴾.

﴿ أفحكمَ الجاهليةِ يَبْغُون ﴾ قرأ ابن عامر تبغون بالتاء وقرأ الآخرون بالياء، أي: يطلبون، ﴿ ومَن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون ﴾.

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهودَ والنصارى أولياء ﴾، اختلفوا في نزول هذه الآية وإن كان حكمها عامّاً

الآية في عبادة بن الصامت رضي الله عنه وعبد الله بن أبي سلول رأس المنافقين وذلك أنهما اختصما فقال عبادة إن لي أولياء من اليهود كثير عددهم شديدة شوكتهم وإني أبرأ إلى الله وإلى رسوله من ولايتهم ولا مولى لي إلا الله ورسوله فقال عبد الله بن أبيّ: لكني لا أبرأ من ولاية اليهود فإن أخاف الدوائر ولا بد لي منهم. فقال النبي ﷺ: يا أبا الحباب ما نفست به من ولاية اليهود على عبادة بن الصامت فهو لك دونه فقال: إذن أقبل فأنزل الله هذه الآية. وقال السدي: لما كانت وقعة أحد اشتد الأمر على طائفة من الناس وتخوفوا أن يدال عليهم الكفار فقال رجل من المسلمين: أنا ألحق بفلان اليهودي وآخذ منه أماناً إني أخاف أن يدال علينا اليهود. وقال رجل آخر: أنا ألحق بفلان النصراني من أهل الشام وآخذ منه أماناً. فأنزل الله هذه الآية ينهاهم عن موالاة اليهود والنصارى.

وقال عكرمة: نزل في أبي لبابة بن عبد المنذر لما بعثه النبي ﷺ إلى بني قريظة حين حاصرهم فاستشاروه في النزول وقالوا: ماذا يصنع بنا إذا نزلنا؟ فجعل اصبعه في حلقه أشار إلى أنه الذبح وأنه يقتلكم فأنزل الله ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء**﴾ فنهى الله المؤمنين جميعاً أن يتخذوا اليهود والنصارى أنصاراً وأعواناً على أهل الإيمان بالله ورسوله وأخبر أنه من اتخذهم أنصاراً وأعواناً وخلفاء من دون الله ورسوله والمؤمنين فإنه منهم وإن الله ورسوله والمؤمنين منه براء ﴿**بعضهم أولياء بعض**﴾ يعني أن بعض اليهود أنصار لبعض على المؤمنين وأن النصارى كذلك يد واحدة على من خالفهم في دينهم وملتهم ﴿**ومن يتولهم منكم فإنه منهم**﴾ يعني ومن يتولَّ اليهود والنصارى دون المؤمنين فينصرهم على المؤمنين فهو من أهل دينهم وملتهم لأنه لا يتولى مولى إلا وهو راض به وبدينه وإذا رضيه ورضي دينه صار منهم وهذا تعليم من الله تعالى وتشديد عظيم في مجانبة اليهود والنصارى وكل من خالف دين الإسلام ﴿**إن الله لا يهدي القوم الظالمين**﴾ يعني أن الله لا يوفق من وضع الولاية في غير موضعها فتول اليهود والنصارى مع علمه بعداوتهم لله ولرسوله وللمؤمنين، روي أن أبا موسى الأشعري قال: قلت لعمر بن الخطاب: إن لي كاتباً نصرانياً فقال: مالك وله قاتلك الله ألا اتخذت حنيفاً؟ يعني مسلماً أما سمعت قول الله عز وجل: ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض**﴾ قلت: له دينه ولي كتابته. فقال: لا أكرّمهم إذا أهانهم الله ولا أعزهم إذا أذلهم الله ولا أدنيهم إذا أبعدهم الله. قلت: إنه لا يتم أمر البصرة إلا به. فقال: مات النصراني والسلام يعني: هب أنه مات فما تصنع بعده فما تعمله بعد موته فاعمله الآن واستغنِ عنه بغيره من المسلمين.

لجميع المؤمنين فقال قوم نزلت في عبادة بن الصامت وعبد الله بن أُبيّ بن سلول، وذلك أنهما اختصما، فقال عبادة: إن لي أولياء من اليهود كثير عددهم شديدة شوكتهم، وإني أبرأ إلى الله وإلى رسوله من ولايتهم وولاية اليهود، ولا مولى لي إلاّ الله ورسوله، فقال عبد الله: لكني أبرأ من ولاية اليهود لأني أخاف الدوائر ولا بدّ لي منهم، فقال النبي ﷺ: «يا أبا الحباب ما نفست به من ولاية اليهود على عبادة بن الصامت فهو لك دونه»، قال: إذاً أقبل، فأنزل الله تعالى هذه الآية. قال السدي: لمّا كانت وقعة أُحُد اشتدت على طائفة من الناس وتخوّفوا أن يدلّ عليهم الكفّار فقال رجل من المسلمين: أنا ألحق بفلان اليهودي وآخذ منه أماناً إني أخاف أن يدال علينا اليهود، وقال رجل آخر: أما أنا فألحق بفلان النصراني من أهل الشام وآخذ منه أماناً، فأنزل الله تعالى هذه الآية ينهاهما، وقال عكرمة: نزلت في أبي لبابة بن عبد المنذر بعثه النبي ﷺ إلى بني قريظة حين حاصرهم، فاستشاروه في النزول، وقالوا: ماذا يصنع بنا إذا نزلنا؟، فجعل أصبعه على حلقه أنه الذبح، أي: يقتلكم فنزلت هذه الآية. ﴿ بعضُهم أولياءُ بعض ﴾، في العون والنصرة ويدهم واحدة على المسلمين، ﴿ ومَن يتولهم منكم ﴾، فيوفّقهم ويعينهم، ﴿ فإنه منهم إنّ الله لا يهدي القوم الظالمين ﴾.

قوله تعالى: ﴿فترى الذين في قلوبهم مرض﴾ يعني فترى يا محمد الذين في قلوبهم شك ونفاق ﴿يسارعون فيهم﴾ يعني يسارعون في مودة اليهود وموالاتهم ومناصحتهم لأنهم كانوا أهل ثروة ويسار فكانوا يغشونهم ويخالطونهم لأجل ذلك. نزلت في عبد الله بن أبي، المنافق وفي أصحابه من المنافقين ﴿يقولون﴾ يعني المنافقين ﴿نخشى أن تصيبنا دائرة﴾ الدائرة من دوائر الدهر كالدولة التي تدول والمعنى. يقول المنافقون: إنما نخالط اليهود لأنا نخشى أن يدور علينا الدهر بمكروه، ويعنون بذلك المكروه الهزيمة في الحرب والقحط والجدب والحوادث المخوفة. قال ابن عباس: معناه نخشى أن لا يتم أمر محمد فيدور علينا الأمر كما كان قبل محمد ﴿فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده﴾ قال المفسرون: عسى من الله واجب لأن الكريم إذا أطمع في خير فعله وهو بمنزلة الواعد لتعلق النفس به ورجائها له والمعنى فعسى الله أن يأتي بالفتح لرسوله محمد ﷺ على أعدائه وإظهار دينه على الأديان كلها وإظهار المسلمين على أعدائهم من الكفار واليهود والنصارى وقد فعل الله ذلك بمنّه وكرمه فأظهر دينه ونصر عبده. وقيل: أراد بالفتح فتح مكة. وقيل: فتح قرى اليهود مثل خيبر وفدك ونحوهما من بلادهم ﴿أوأمر من عنده﴾ يعني أنه تعالى يقطع أصل اليهود من أرض الحجاز ويخرجهم من بلادهم بلا كلفة وتعب ولا يكون للناس فيه فعل البتة كما ألقى في قلوبهم الرعب فأخلوا ديارهم وخربوها بأيديهم ورحلوا إلى الشام.

وقوله تعالى: ﴿فيصبحوا على ما أسروا في أنفسهم نادمين﴾ يعني فيصبح المنافقون الذين كانوا يوالون اليهود نادمين على ما حدثوا به أنفسهم أنّ أمر محمد لا يتم وقيل ندموا على دس الأخبار إلى اليهود.

وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَأَصْبَحُواْ خَٰسِرِينَ ﴿٥٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾

﴿ويقول الذين آمنوا﴾ يعني ويقول الذين آمنوا في وقت إظهار الله تعالى نفاق المنافقين ﴿أهؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم إنهم لمعكم﴾ وذلك أن المؤمنين كانوا يتعجبون من حال المنافقين عندما أظهروا الميل إلى موالاة اليهود والنصارى ويقولون إن المنافقين حلفوا بالله جهد أيمانهم إنهم لمعنا ومن أنصارنا والآن كيف صاروا موالين لأعدائنا من اليهود محبين للاختلاط بهم فبان كذب المنافقين في أيمانهم الباطلة ﴿حبطت أعمالهم﴾ أي بطل كل خير

﴿ فترى الذين في قلوبهم مرضٌ ﴾، أي: نفاق يعني عبد الله بن أُبيّ وأصحابه من المنافقين الذين يُوالون اليهود، ﴿ يُسارعون فيهم ﴾، في معونتهم وموالاتهم، ﴿ يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة ﴾، دولة، يعني: أن يدول الدهر دولته فنحتاج إلى نصرهم إيّانا، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: معناه نخشى أن لا يتمّ أمر محمد فيدور الأمر علينا، وقيل: نخشى أن يدور الدهر علينا بمكروه من جدب وقحْط ولا يعطونا الميرة والقرض، ﴿ فعسى اللَّهُ أن يأتي بالفتح ﴾، قال قتادة ومقاتل: بالقضاء الفصل من نصر محمد ﷺ على مَن خالفه، وقال الكلبي والسدي: فتح مكة، وقال الضحاك: فتح قرى اليهود مثل خيبر وفدك، ﴿ أو أمر من عنده ﴾، قيل: بإتمام أمر محمد ﷺ، وقيل: عذاب لهم، وقيل: إجلاء بني النضير، ﴿ فيُصبحوا ﴾، يعني هؤلاء المنافقون، ﴿ على ما أسرّوا في أنفسهم ﴾، من موالاة اليهود ودسّ الأخبار إليهم، ﴿ نادمين ﴾.

﴿ و ﴾، حينئذ، ﴿ يقولُ الذين آمنُوا ﴾، قرأ أهل الكوفة: (ويقـول) ، بالواو والرفع على الاستئناف وقرأ أهل البصرة بالواو ونصب اللام عطفاً على ﴿ أن يأتي ﴾ أي: وعسى أن يقول الذين آمنوا، وقرأ الآخرون بحذف

عملوه لأجل ما أظهروا من النفاق وموالاة اليهود ﴿فأصبحوا خاسرين﴾ يعني أنهم خسروا في الدنيا بافتضاحهم وخسروا في الآخرة بإحباط ثواب أعمالهم وحصلوا بالعذاب الدائم المقيم.

قوله عز وجل: ﴿يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه﴾ يعني من يرجع منكم عن دينه الحق الذي هو عليه وهو دين الإسلام فيبدله ويغيره بدخوله في الكفر بعد الإيمان فيختار: إما اليهودية أو النصرانية أو غير ذلك من أصناف الكفر فلن يضر الله شيئاً وإنما ضرَّ نفسه برجوعه عن الدين الصحيح الذي هو دين الإسلام قال الحسن: علم الله تعالى أن قوماً سيرجعون عن الإسلام بعد موت نبيهم ﷺ فأخبر أنه سيأتي بقوم يحبهم ويحبونه. وذكر صاحب الكشاف أن إحدى عشرة فرقة من العرب ارتدت ثلاث في زمن رسول الله ﷺ وهم: بنو مدلج ورئيسهم ذو الحمار وهو الأسود العنسي وكان كاهناً فتنبأ باليمن واستولى على بلاده وأخرج منها عمال رسول الله ﷺ فكتب رسول الله ﷺ إلى معاذ بن جبل وإلى سادات اليمن فأهلكه الله تعالى على يد فيروز الديلمي في بيته فقتله فأخبر رسول الله ﷺ المسلمين بقتله ليلة قتل فسرَّ المسلمون بذلك وقبض رسول الله ﷺ من الغد وأتى خبر قتله في آخر ربيع الأول. وبنو حنيفة وهم قوم مسيلمة الكذاب تنبأ وكتب إلى رسول الله ﷺ: من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله.

«أما بعد فإن الأرض نصفها لي ونصفها لك» فكتب إليه رسول الله ﷺ: «من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب. أما بعد فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين» وستأتي قصة قتله فيما بعد وبنو أسد وهم قوم طليحة بن خويلد تنبأ فبعث إليه رسول الله ﷺ خالد بن الوليد فقاتله فانهزم بعد القتال إلى الشام ثم أسلم بعد ذلك وحسن إسلامه وارتد سبع فرق في خلافة أبي بكر الصديق وهم فزارة قوم عيينة بن حصن الفزاري وغطفان قوم قرة بن سلمة القشيري وبنو سليم قوم الفجاءة بن عبد ياليل وبنو يربوع قوم مالك بن نويرة اليربوعي وبعض تميم قوم سجاح بنت المنذر المتنبئة التي زوجت نفسها من مسيلمة الكذاب. وكندة قوم الأشعث بن قيس الكندي وبنو بكر بن وائل قوم الحطم بن زيد فكفى الله أمرهم على يد أبي بكر الصديق رضي الله عنه وفرقة واحدة ارتدت في خلافة عمر بن الخطاب وهم غسان قوم جبلة بن الأيهم واختلف العلماء في المعنى بقوله تعالى: ﴿فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه﴾ فقال علي بن أبي طالب والحسن وقتادة هم أبو بكر وأصحابه الذين قاتلوا أهل الردة ومانعي الزكاة وذلك

الواو ورفع اللام، وكذلك هو في مصاحف أهل العالية، استغناء عن حرف العطف لملابسة هذه الآية بما قبلها، يعني يقول الذين آمنوا في وقت إظهار الله تعالى نفاق المنافقين، ﴿ أهؤلاء الذين أقسموا بالله ﴾، حلفوا بالله، ﴿ جهد أيمانهم ﴾، أي: حلفوا بأغلظ الأيمان، ﴿ إنّهم لَمَعَكُمْ ﴾، أي: إنهم لمؤمنون، يريد أن المؤمنين حينئذ يتعجبون من كذبهم وحلفهم بالباطل. قال الله تعالى: ﴿ حَبِطَتْ أعمالُهم ﴾، بطل كل خير عملوه، ﴿ فأصبحوا خاسرين ﴾، خسروا الدنيا بافتضاحهم، والآخرة بالعذاب وفَوَات الثواب.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ يا أَيُّها الذين آمنوا مَنْ يرتدَّ منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يُحبّهم ويُحبّونه ﴾، قرأ أهل المدينة والشام (يرتـدد) بدالين على إظهار التضعيف ﴿ عن دينه ﴾ فيرجع إلى الكفر، قال الحسن: علم الله تبارك وتعالى أن قوماً يرجعون عن الإسلام بعد موت نبيّهم ﷺ فأخبر أنه سيأتي بقوم يحبّهم الله ويحبّونه، واختلفوا في أولئك القوم مَن هم؟ قال عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه والحسن وقتادة: هم أبو بكر وأصحابه الذين قاتلوا أهل الردّة ومانِعي الزكاة، وذلك أن النبي ﷺ لَمّا قبض ارتدّ عامّة العرب إلى أهل مكة والمدينة والبحرين من عبد القيس، ومنع بعضهم الزكاة، وهمّ أبو بكر رضي الله عنه بقتالهم فكره ذلك أصحاب النبي ﷺ، وقال عمر رضي الله عنه: كيف نقاتل الناس وقد قال رسول الله ﷺ: «أُمرتُ أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلاّ الله فمَنْ قال لا إله إلاّ الله عصمَ منّي ماله ونفسه إلا بحقّه وحسابه على الله عزّ وجلّ»؟ فقال أبو بكر: والله لأقاتلنّ مَن فرّق بين

أن النبي ﷺ لما قبض ارتد عامة العرب[١] كما تقدم تفصيله إلا أهل المدينة وأهل مكة وأهل البحرين من بني عبد القيس فإنهم ثبتوا على الإسلام ونصر الله بهم الدين ولما ارتد مَن ارتد من العرب ومنعوا الزكاة همَّ أبو بكر بقتالهم وكره ذلك أصحاب رسول الله ﷺ وقال عمر: كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فمن قالها فقد عصم مني ماله ودمه إلا بحقه وحسابه على الله». فقال أبو بكر: والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة فإن الزكاة حق المال والله لو منعوني عناقاً أو قال عقالاً كانوا يؤدونها إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعها. وقال أنس بن مالك: كرهت الصحابة قتال مانعي الزكاة، وقالوا: هم أهل القبلة، فتقلد أبو بكر سيفه وخرج وحده فلم يجدوا بدّاً من الخروج على أثره، فقال ابن مسعود: كرهنا ذلك في الابتداء ثم حمدناه عليه في الانتهاء. وقال أبو بكر بن عياش: سمعت أبا حصين يقول: ما ولد بعد النبيين أفضل من أبي بكر الصديق لقد قام مقام نبي من الأنبياء في قتال أهل الردة وقالت عائشة: توفي رسول الله ﷺ وارتدت العرب واشرأبَّ النفاق ونزل بأبي بكر ما لو نزل بالجبال الراسيات لهاضها وبعث أبو بكر الصديق خالد بن الوليد في جيش كثير إلى بني حنيفة باليمامة وهم قوم مسيلمة الكذاب فأهلك الله مسيلمة على يد وحشي غلام مطعم بن عدي الذي قتل حمزة، فكان وحشي يقول: قتلت خير الناس في الجاهلية وشر الناس في الإسلام أراد بذلك وحشي أنه في حال الجاهلية قتل حمزة وهو خير الناس وفي حال إسلامه قتل مسيلمة الكذاب وهو شر الناس وقال قوم: المراد بقوله تعالى: ﴿**فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه**﴾ الأشعريون قوم أبي موسى الأشعري، روي عن عياض بن غنم الأشعري قال لما نزلت هذه الآية ﴿**فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه**﴾ قال رسول الله ﷺ: هم قوم هذا يعني أبا موسى الأشعري أخرجه الحاكم في المستدرك وقيل هم أهل اليمن (ق) عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «أتاكم أهل اليمن هم أرق أفئدة وألين قلوباً الإيمان يمان والحكمة يمانية».

الصلاة والزكاة، فإن الزكاة حق المال، ولله لو منعوني عناقاً كانوا يؤدّونها إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعها. قال أنس بن مالك رضي الله عنه: كرهت الصحابة قتال مانِعِي الزكاة، وقالوا: أهل القِبلة، فتقلّد أبو بكر سيفه وخرج وحده، فلم يجدوا بدّاً من الخروج على أثره، قال ابن مسعود: كرهنا ذلك في الابتداء ثم حمدناه عليه في الانتهاء، قال أبو بكر بن عياش: سمعت أبا حصين يقول: ما ولد بعد النبيّين مولود أفضل من أبي بكر رضي الله عنه، لقد قام مقام نبيٍّ من الأنبياء في قتال أهل الردّة، وقد كان قد ارتدّ في حياة النبي ﷺ ثلاث فِرَق منهم بنو مدلج ورئيسهم ذو الحمار عيهلة بن كعب العنسي، ويلقّب بالأسود، وكان كاهناً مشعبذاً فتنبأ باليمن واستولى على بلاده، فكتب رسول الله ﷺ إلى معاذ بن جبل ومَن معه من المسلمين، وأمرهم أن يحثّوا الناس على التمسّك بدينهم، وعلى النهوض إلى حزب الأسود، فقتله فيروز الديلمي على فراشه، قال ابن عمر رضي الله عنه فأتى الخبرُ النبيَّ ﷺ من السماء الليلة التي قُتل فيها، فقال رسول الله ﷺ: «قُتل الأسود البارحة قتله رجل مبارك»، قيل: ومَن هو؟ قال: «فيروز»، فبشّر النبي ﷺ أصحابه بهلاك الأسود، وقبض ﷺ من الغد؛ وأتى خبرُ مقتل العنسي المدينة في آخر شهر ربيع الأول بعدما خرج أُسامة وكان ذلك أول فتح. جاء أبو بكر رضي الله عنه والفرقة الثانية بنو حنيفة باليمامة ورئيسهم مسيلمة الكذّاب، وكان قد تنبأ في حياة رسول الله ﷺ في آخر سنة عشر، وزعم أنه أُشرك مع محمد ﷺ في النبوّة، وكتب إلى رسول الله ﷺ من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله، أما بعد فإن الأرض نصفها لي ونصفها لك، وبعث إليه مع رجلين من أصحابه، فقال لهما رسول الله ﷺ: «لولا أنّ الرُّسل لا تُقتل لضربت أعناقكما»، ثم أجاب: «من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذّاب، أمّا بعد فإن الأرضَ للّهِ يُورثُها مَنْ يشاءُ

---

(١) قوله «ارتد عامة العرب» الخ الذين تقدم ارتدادهم في زمن أبي بكر سبع فرق لا غير. اهـ.

وقال السدي: نزلت في الأنصار لأنهم هم الذين نصروا رسول الله ﷺ وأعانوه على إظهار الدين. وقيل: هم أحياء من أهل اليمن ألفان من النخع وخمسة آلاف من أهل كندة وبجيلة وثلاثة آلاف من أخلاط الناس جاهدوا في سبيل الله يوم القادسية في خلافة عمر، وعلى هذا التقدير، تكون هذه الآية إخباراً عن الغيب وقد وقع الخبر على وفقه بحمد الله تعالى فتكون هذه الآية معجزة.

وأما معنى المحبة، فيقال أحببت فلاناً بمعنى جعلت قلبي معرضاً بأن يحبه والمحبة إرادة ما تراه أو تظنه خيراً. ومحبة الله تعالى العبد، إنعامه عليه وتوفيقه وهدايته إلى طاعته والعمل بما يرضى به عنه وأن يثيبه أحسن الثواب على طاعته وأن يثني عليه ويرضى عنه ومحبة العبد لله عزّ وجل أن يسارع إلى طاعته وابتغاء مرضاته وأن لا يفعل ما يوجب سخطه وعقوبته وأن يتحبب بما يوجب له الزلفى لديه جعلنا الله ممن يحبهم ويحبونه بمنّه وكرمه.

وقوله تعالى: ﴿أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين﴾ هذه من صفات الذين اصطفاهم الله تعالى ووصفهم بقوله: يحبهم ويحبونه، يعني أنهم أرقاء رحماء لأهل دينهم وإخوانهم من المؤمنين ولم يرد ذل الهوان بل أراد لين جانبهم لإخوانهم المؤمنين وهم من رقتهم ورحمتهم ولين جانبهم أشداء أقوياء غلظاء على أعدائهم الكافرين.

قال علي بن أبي طالب: أذلة على المؤمنين يعني أهل رقة على أهل دينهم أعزة على الكافرين أهل غلظة على من خالفهم في دينهم. وقال ابن عباس: تراهم كالولد لوالده والعبد لسيده وهم في الغلظة على الكافرين كالسبع على فريسته. وقال ابن الأنباري: أثنى الله على المؤمنين بأنهم يتواضعون للمؤمنين إذا لقوهم ويعنفون الكافرين إذا لقوهم. وقيل: إن الذل بمعنى الشفقة والرحمة كأنه قال راحمين للمؤمنين مشفقين عليهم على وجه التذلل والتواضع وإنما أتى بلفظة على حتى يدل على علو منصبهم وفضلهم وشرفهم لا لأجل كونهم ذليلين في أنفسهم بل ذلك التذلل

من عباده، والعاقبةُ للمتّقين»، ومرض رسول الله ﷺ وتوفي، فبعث أبو بكر خالد بن الوليد إلى مسيلمة الكذّاب في جيش كثير حتى أهلكه الله على يدي وحشي، غلام مطعم بن عدي الذي قتل حمزة بن عبد المطّلب، بعد حرب شديد، وكان وحشي يقول: قتلتُ خيرَ الناس في الجاهلية وشرَّ الناس في الإسلام، والفرقة الثالثة بنو أسد ورئيسهم طليحة بن خويلد، وكان طليحة آخر مَن ارتدّ، وادّعى النبوّة في حياة النبي ﷺ، وأول مَن قُوتل بعد وفاة النبي ﷺ من أهل الردّة، فبعث أبو بكر خالد بن الوليد فهزمهم خالد بعد قتال شديد، وأفلت طليحة فمرّ على وجهه هارباً نحو الشام، ثم إنه أسلم بعد ذلك وحَسُنَ إسلامه. وارتدّ بعد وفاة النبي ﷺ في خلافة أبي بكر رضي الله عنه خلق كثير، حتى كفى الله المسلمين أمرهم ونصر دينه على يديّ أبي بكر رضي الله عنه، قالت عائشة: (توفي رسول الله ﷺ وارتدتِ العربُ واشرأبّ النفاق، ونزل بأبي بكر ما لو نزل بالجبال الراسيات لهاضها)، وقال قوم: المراد بقوله: ﴿ فسوف يأتي الله بقوم يُحبّهم ويُحبّونه ﴾ هم الأشعريون، رُوِيَ عن عياض بن غنم الأشعري قال: لمّا نزلت هذه الآية: ﴿ فسوف يأتي اللَّهُ بقوم يحبّهم ويحبّونه ﴾، قال رسول الله ﷺ: «هم قومُ هذا، وأشار إلى أبي موسى الأشعري» وكانوا من اليمن. أخبرنا أبو عبد الله محمد بن الفضل الخرقي أنا أبو الحسن الطيسفوني أنا أبو عبد الله عمر الجوهري أنا أحمد بن حجر أنا إسماعيل بن جعفر أنا محمد بن عمرو بن علقمة عن أبي موسى عن أبي هريرة رضي الله عنه أنّ رسول الله ﷺ قال: «أتاكم أهل اليمن هم أضعف قلوباً وأرقّ أفئدةً، الإيمانُ يمانٌ والحكمةُ يمانيةٌ». وقال الكلبي: هم أحياء من اليمن ألفان من النخع وخمسة آلاف من كندة وبجيلة، وثلاثة آلاف من أفناء الناس، فجاهدوا في سبيل الله يوم القادسية في أيام عمر رضي الله عنه. قوله عزّ وجلّ: ﴿ أذِلّةٍ على المؤمنين ﴾، يعني أرقّاء رحماء، لقوله عزّ وجلّ: ﴿ واخفضْ لهما جناحَ الذُّلِّ من الرحمةِ ﴾ [الإسراء: ٢٤]، ولم يرد به الهوان،

لأجل أنهم ضموا إلى علو منصبهم فضيلة التواضع ويدل على صحة هذا سياق الآية وهو قوله: ﴿أعزة على الكافرين﴾ يعني أنهم أشداء أقوياء في أنفسهم وعلى أعدائهم ﴿يجاهدون في سبيل الله﴾ يعني أنهم ينصرون دين الله ﴿ولا يخافون لومة لائم﴾ يعني لا يخافون عدل عادل في نصرهم الدين وذلك أن المنافقين كانوا يراقبون الكفار ويخافون لومهم فبين الله تعالى في هذه الآية أن من كان قوياً في الدين فإنه لا يخاف في نصره لدين الله بيده أو بلسانه لومة لائم وهذه صفة المؤمنين المخلصين إيمانهم لله تعالى (ق).

عن عبادة بن الصامت قال: بايعت رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في العسر واليسر والمنشط والمكره على أن لا ننازع الأمر أهله وعلى أن نقول بالحق أينما كنا لا نخاف في الله لومة لائم ثم قال تعالى: ﴿ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء﴾ ذلك إشارة إلى ما تقدم ذكره من وصفهم بمحبة الله ولين جانبهم للمؤمنين وشدتهم على الكافرين وأنهم يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم كل ذلك من فضل الله تعالى تفضل بهم عليهم ومن إحسانه إليهم ﴿والله واسع عليم﴾ يعني أنه تعالى واسع الفضل عليم بمن يستحقه.

إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾

قوله تعالى: ﴿إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا﴾ قال ابن عباس: نزلت هذه الآية في عبادة بن الصامت حين تبرأ من موالاة اليهود وقال: أوالي الله ورسوله والمؤمنين يعني أصحاب محمد ﷺ وقال جابر بن عبد الله: نزلت في عبد الله بن سلام وذلك أنه جاء إلى محمد ﷺ فقال يا رسول الله إن قومنا قريظة والنضير قد هجرونا وفارقونا وأقسموا أن لا يجالسونا، فنزلت هذه الآية، فقرأ: عليه رسول الله ﷺ فقال عبد الله بن سلام: رضينا بالله رباً وبرسوله نبياً وبالمؤمنين أولياء.

وقيل: الآية عامة في حق جميع المؤمنين لأن المؤمنين بعضهم أولياء بعض فعلى هذا يكون قوله تعالى:

بل أراد أنَّ جانبهم ليّن على المؤمنين. وقيل: هو الـذلُّ من قولهم دابّـة ذلول، يعني أنهم متـواضعون. قـال الله تعالى: ﴿ وعبادُ الرحمنِ الذينَ يمشونَ على الأرضِ هَوناً ﴾ [الفرقان: ٦٣]، ﴿ أعزَّةٍ على الكافرين ﴾، أي: أشدّاء غِلاظ على الكفّار يُعادونهم ويُغالبونهم، من قولهم: عزّه أي غلبه. قال عطاء: أذلّةٍ على المؤمنين: كالولد لوالده والعبد لسيده، أعزّةٍ على الكافرين: كالسبع على فريسته، نظيره قوله تعالى: ﴿ أشداءُ على الكفّارِ رُحماءُ بينهم ﴾ [الفتح: ٢٩]. ﴿ يُجاهدُون في سبيل الله ولا يخافُونَ لَوْمَةَ لائمٍ ﴾، يعني: لا يخافون في الله لومةَ الناس، وذلك أن المنافقين كانوا يراقبون الكفّار ويخافون لومهم، وروينا عن عبادة بن الصامت قال: بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة وأنْ نقومَ أو نقولَ بالحق حيث ما كنّا لا نخاف في الله لومةَ لائم. ﴿ ذلكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتيهِ مَنْ يشاء ﴾، أي محبتهم لله ولين جانبهم للمسلمين، وشدّتهم على الكافرين، من فضل الله عليهم، ﴿ واللَّهُ واسعٌ عليم ﴾.

﴿ إنّما وليُّكُمُ اللَّهُ ورسولُهُ والذينَ آمنُوا ﴾، رُوِيَ عن ابن عباس رضي الله عنهما أنها نزلت في عبادة بن الصامت وعبد الله بن أُبيّ بن سلول حين تبرأ عبادة من اليهود، وقال: أتولى الله ورسوله والذين آمنوا، فنزل فيهم من قوله: ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهودَ والنصارى أولياءَ ﴾ [المائدة: ٥١]، إلى قوله: ﴿ إنّما وليُّكُمُ الله ورسوله والذين آمنوا ﴾، يعني عبادة بن الصامت وأصحاب رسول الله ﷺ. وقال جابر بن عبد الله: جاء عبد الله بن

﴿الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون﴾ صفة لكل مؤمن ويكون المراد بذكر هذه الصفات تمييز المؤمنين عن المنافقين لأن المنافقين كانوا يدعون أنهم مؤمنون إلا أنهم لم يكونوا يداومون على فعل الصلاة والزكاة فوصف الله تعالى المؤمنين بأنهم يقيمون الصلاة يعني بتمام ركوعها وسجودها في مواقيتها ويؤتون الزكاة يعني ويؤدون زكاة أموالهم إذا وجبت عليهم.

أما قوله تعالى وهم راكعون فعلى هذا التفسير فيه وجوه:

أحدها: أن المراد من الركوع هنا الخضوع والمعنى أن المؤمنين يصلون ويزكون وهم منقادون خاضعون لأوامر الله ونواهيه.

الوجه الثاني: أن يكون المراد منه أن من شأنهم إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وإنما خص الركوع بالذكر تشريفاً له.

الوجه الثالث: قيل إن هذه الآية نزلت وهم ركوع. وقيل: نزلت في شخص معين وهو علي بن أبي طالب. قال السدي: مر بعلي سائل وهو راكع في المسجد فأعطاه خاتمه، فعلى هذا قال العلماء: العمل القليل في الصلاة لا يفسدها والقول بالعموم أولى وإن كان قد وافق وقت نزولها صدقة علي بن أبي طالب وهو راكع. ويدل على ذلك ما روي عن عبد الملك بن سليمان قال: سألت أبا جعفر محمد بن علي الباقر عن هذه الآية ﴿إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا﴾ من هم؟ فقال: المؤمنون، فقلت: إن ناساً يقولون هو علي، فقال: علي من الذين آمنوا.

وقوله تعالى: ﴿ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا﴾ يعني ومن يتول القيام بطاعة الله ونصر رسوله والمؤمنين. قال ابن عباس: يريد المهاجرين والأنصار ومن يأتي بعدهم ﴿فإن حزب الله﴾ يعني أنصار دين الله ﴿هم الغالبون﴾ لأن الله ناصرهم على عدوهم والحزب في اللغة أصحاب الرجل الذين يكونون معه على رأيه وهم القوم الذين يجتمعون لأمر حزبه يعني أهمه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمۡ هُزُوٗا وَلَعِبٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَٱلۡكُفَّارَ أَوۡلِيَآءَۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٥٧ وَإِذَا نَادَيۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوٗا وَلَعِبٗاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡقِلُونَ ٥٨ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ

سلام إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله إنّ قومنا قريظة والنضير قد هجرونا وفارقونا وأقسموا أن لا يجالسونا، فنزلت هذه الآية، فقرأها عليه رسولُ الله ﷺ، فقال: «يا رسول الله رضينا بالله وبرسوله وبالمؤمنين أولياء». وعلى هذا التأويل أراد بقوله: ﴿ وهم راكعون ﴾، صلاة التطوّع بالليل والنهار، وقال ابن عباس رضي الله عنهما، وقال السدي: قوله: ﴿ والذين آمنُوا الذين يُقيمون الصلاةَ ويُؤتونَ الزكاةَ وهم راكعُون ﴾، أراد به عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، مرّ به سائل وهو راكع في المسجد فأعطاه خاتمه، وقال جُويبر عن الضحّاك في قوله: ﴿ إنّما وليُّكم اللّهُ ورسولُه والذين آمنوا ﴾، قال: هم المؤمنون بعضهم أولياء بعض، وقال أبو جعفر محمد بن علي الباقر: ﴿ إنما وليُكُمُ اللّهُ ورسولُهُ والذينَ آمنوا ﴾، نزلت في المؤمنين، فقيل له: إنّ أُناساً يقولون إنها نزلت في عليّ رضي الله عنه، فقال: هو من المؤمنين.

﴿ ومَنْ يتولَّ اللّهَ ورسولَهُ والذينَ آمنُوا ﴾، يعني: يتولَّ القيام بطاعة الله ونصرة رسوله والمؤمنين، قال ابن عباس رضي الله عنهما: يريد المهاجرين والأنصار، ﴿ فإنّ حزبَ الله ﴾، يعني: أنصار دين الله، ﴿ هم الغالبون ﴾.

هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٥٩﴾

قوله عز وجل: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزواً ولعباً﴾ قال ابن عباس: كان رفاعة بن زيد بن التابوت وسويد بن الحارث قد أظهرا الإسلام ثم نافقا وكان رجال من المسلمين يوادونهما، فأنزل الله تعالى هذه الآية. ومعنى: اتخذوا دينكم هزواً ولعباً هو إظهارهم الإسلام بألسنتهم قولاً وهم على ذلك يبطنون الكفر ويسرونه ﴿من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم﴾ يعني اليهود ﴿والكفار﴾ يعني عبدة الأصنام وإنما فصل بين أهل الكتاب والكفار وإن كان أهل الكتاب من الكفر لأن كفر المشركين من عبدة الأصنام أغلظ وأفحش من كفر أهل الكتاب ﴿أولياء﴾ يعني لا تتخذوهم أولياء والمعنى أن أهل الكتاب والكفار اتخذوا دينكم يا معشر المؤمنين هزواً وسخرية فلا تتخذوهم أنتم أولياء وأنصاراً ﴿واتقوا الله إن كنتم مؤمنين﴾ يعني مؤمنين حقاً لأن المؤمن يأبى موالاة أعداء الله عز وجل.

قوله تعالى: ﴿وإذا ناديتم إلى الصلاة اتخذوها هزواً ولعباً﴾ قال الكلبي: كان منادي رسول الله ﷺ إذا نادى إلى الصلاة وقام المسلمون إليها، قالت اليهود: قد قاموا لا قاموا وصلوا لا صلوا ويضحكون على طريق الاستهزاء فأنزل الله هذه الآية. وقال السدي: نزلت هذه الآية في رجل من النصارى كان بالمدينة فكان إذا سمع المؤذن يقول أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله يقول حرق الكاذب فدخل خادمه ذات ليلة بنار وهو وأهله نيام فطارت منها شرارة فاحترق البيت واحترق هو وأهله. وقيل: إن الكفار والمنافقين كانوا إذا سمعوا حسدوا المسلمين على ذلك فدخلوا على رسول الله ﷺ وقالوا: يا محمد لقد أبدعت شيئاً لم يسمع بمثله فيما مضى من الأمم قبلك فإن كنت تدعي النبوة فقد خالفت الأنبياء قبلك ولو كان فيه خير لكان أولى الناس به الأنبياء فمن أين لك صياح كصياح العير فما أقبح هذا الصوت وما أسمج هذا الأمر؟ فأنزل الله عز وجل: ﴿ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله﴾ الآية وأنزل ﴿وإذا ناديتم إلى الصلاة اتخذوها هزواً ولعباً﴾ ﴿ذلك بأنهم قوم لا يعقلون﴾ يعني أن هزؤهم ولعبهم من أفعال السفهاء والجهال الذين لا عقل لهم.

قوله تعالى: ﴿قل يا أهل الكتاب﴾ الخطاب للنبي ﷺ يعني: قل يا محمد لهؤلاء اليهود والنصارى الذي اتخذوا

قوله عزّ وجلّ: ﴿ يا أيّها الذينَ آمنُوا لا تتخذوا الذينَ اتخذوا دينَكم هزواً ولعباً ﴾، الآية قال ابن عباس كان رفاعة بن زيد بن التابوت وسويد بن الحارث قد أظهرا الإسلام، ثم نافقا وكان رجال من المسلمين يوادّونهما، فأنزل الله عزَّ وجلَّ هذه الآية: **﴿ يا أَيّها الذين آمنُوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينَكم هُزواً ولعباً ﴾**، بإظهار ذلك بألسنتهم قولاً وهم مستبطنون الكفر، **﴿ من الذين أُوتُوا الكتابَ من قبلكم ﴾**، يعني: اليهود، **﴿ والكفّار ﴾**، قرأ أهل البصرة والكسائي «الكفّـار» بخفض الراء، يعني: ومن الكفّار، وقرأ الآخرون بالنصب، أي: لا تتخذوا الكفّار، **﴿ أولياءَ واتّقُوا اللّهَ إنْ كنتُمْ مؤمنين ﴾**.

﴿ وإذا ناديتُم إلى الصّلاةِ اتخذوها هُزُواً ولعباً ذلك بأنّهم قومٌ لا يعقلون ﴾، قال الكلبي: كان منادي رسول الله ﷺ إذا نادى إلى الصلاة وقام المسلمون إليها، قالت اليهود: قد قاموا لا قاموا، قاموا وصلّوا لا صلّوا، على طريق الاستهزاء، وضحكوا، فأنزل الله عزّ وجلّ هذه الآية. وقال السدي: نزلت في رجل من النصارى بالمدينة كان إذا سمع المؤذّن يقول: أشهدُ أنّ محمداً رسولُ الله، قال: حُرق الكاذبُ، فدخل خادمه ذات ليلة بنار هو وأهله نيام، فتطايرت منها شرارة فاحترق البيت واحترق هو وأهله. وقال الآخرون: إن الكفّار لمّا سمعوا الأذان حسدوا المسلمين فدخلوا على رسول الله ﷺ، وقالوا: يا محمد لقد أبدعت شيئاً لم نسمع به فيما مضى من الأمم فإن كنت

دينك هزواً ولعباً ﴿هل تنقمون منا﴾ وهذا على سبيل التعجب من فعل أهل الكتاب والمعنى هل تجدون علينا في الدين إلا الإيمان بالله وبما أنزل إلينا وبما أنزل على جميع الأنبياء من قبل وهذا ليس مما ينكر أو ينقم منه وهذا كما قال بعضهم:

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهن فلول من قراع الكتائب

يعني أنه ليس فيهم عيب إلا ذلك وهذا ليس بعيب بل هو مدح عظيم لهم. قال ابن عباس: أتى رسول الله ﷺ نفر من اليهود فيهم أبو ياسر بن أخطب ورافع بن أبي رافع وعازوراء وزيد وخالد وأزار بن أبي أزار وأشيع فسألوه عمن يؤمن به من الرسل فقال: أؤمن بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط ـ إلى قوله ـ ونحن له مسلمون الآية فلما ذكر عيسى جحدوا نبوته، وقالوا: والله لا نؤمن بمن آمن به، فأنزل الله هذه الآية. وقيل: إنهم قالوا والله ما نعلم أهل دين أقل حظاً في الدنيا والآخرة منكم ولا ديناً شراً من دينكم فأنزل الله هذه الآية ﴿قل يا أهل الكتاب هل تنقمون منا إلا أن آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل من قبل﴾ وهذا هو ديننا الحق وطريقنا المستقيم فلم تنقمونه علينا ﴿وأن أكثركم فاسقون﴾ يعني إنما كرهتم إيماننا ونقمتموه علينا مع علمكم بأننا على الحق بسبب فسقكم وإقامتكم على الدين الباطل لحب الرياسة وأخذ الأموال بالباطل وإنما قال أكثركم لأن الله يعلم أن من أهل الكتاب من يؤمن بالله وبرسوله. قوله عز وجل:

﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٦٠﴾ وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُوا۟ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا۟ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْتُمُونَ ﴿٦١﴾ وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾ لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾﴾

﴿قل هل أنبئكم بشرٍّ من ذلك﴾ هذا جواب لليهود لما قالوا ما نعرف ديناً شراً من دينكم. والمعنى: قل يا محمد

تدّعي النبوّة فقد خالفت فيما أحدثت الأنبياء قبلك ولو كان فيه خير لكان أولى الناس به الأنبياء، فمن أين لك صياح كصياح العير، فما أقبح من صوت وما أسمج من أمر، فأنزل الله تعالى هذه الآية: ﴿ ومنْ أحسنُ قولاً ممّن دعا إلى الله ﴾ [فصّلت: ٣٣]، الآية.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ قل يا أهلَ الكتابِ هل تَنْقِمُون منّا ﴾، الآية. قرأ الكسائي: «هـل تنقمـون»، بإدغام اللام في التاء، وكذلك يدغم لام هل في التاء والثاء والنون، ووافقه حمزة في التاء والثاء وأبو عمرو في ﴿ هلْ ترى ﴾ [الملك: ٣] في موضعين، قال ابن عباس: أتى النبيَّ ﷺ نفرٌ من اليهود، أبو ياسر بن أخطب ورافع بن أبي رافع وغيرهما، فسألوه عمّن يؤمن به من الرُّسل، فقال: «أؤمن بالله وما أُنزل إلينا وما أُنزل إلى إبراهيم وإسماعيل» إلى قوله: ﴿ ونحنُ له مسلمون ﴾ [البقرة: ١٣٣ و١٣٦، آل عمران: ٨٤]، فلما ذكر عيسى عليه السلام جحدوا نبوّته، وقالوا: والله ما نعلم أهل دين أقلّ حظ في الدنيا والآخرة منكم، ولا ديناً شرّاً من دينكم، فأنزل الله تعالى هذه الآية: ﴿ قل يا أهلَ الكتابِ هل تَنْقِمُون منّا ﴾ أي: تكرهون منّا، ﴿ إلّا أن آمنّا بالله وما أُنزل إلينا وما أُنزل منْ قبلُ وأنّ أكثرَكُمْ فاسقون ﴾، أي: هل تكرهون منّا إلّا إيماننا وفسقكم، أي: إنّما كرهتم إيماننا وأنتم تعلمون أنّا على حق، لأنكم فسقتم بأن أقمتم على دينكم لحبّ الرياسة وحبّ الأقوال. ثم قال:

﴿ قلْ ﴾، يا محمد، ﴿ هل أُنبئكم ﴾، أخبركم، ﴿ بشرٍّ منْ ذلك ﴾، الذي ذكرتم، يعني قولهم لم نرَ أهل

لهؤلاء اليهود الذين قالوا هذه المقالة هل أخبركم بشر من ذلك الذي ذكرتم ونقمتم علينا من إيماننا بالله وبما أنزل علينا ﴿مثوبة عند الله﴾ يعني جزاء.

فإن قلت: المثوبة مختصة بالإحسان لأنها في معنى الثواب، فكيف جاءت في الإساءة؟. قلت: وضعت المثوبة موضع العقوبة على طريقة قوله: تحية بينهم ضرب وجيع.

فإن قلت: هذا يقتضي أن الموصوفين بذلك الدين محكوم عليهم بالشر لأنه تعالى قال بشر من ذلك ومعلوم أن الأمر ليس كذلك فما جوابه؟. قلت: جوابه أن الكلام خرج على حسب قولهم واعتقادهم، فإن اليهود حكموا بأن اعتقاد ذلك الدين شر فقال لهم: هب أن الأمر كذلك لكن من لعنه الله وغضب عليه ومسخ صورته شر من ذلك.

وقوله تعالى: ﴿من لعنه الله﴾ معناه هل أنبئكم بمن لعنه الله أو هو من لعنه الله ومعنى لعنه الله: أبعده وطرده عن رحمته ﴿وغضب عليه﴾ يعني وانتقم منه لأن الغضب إرادة الانتقام من العصاة ﴿وجعل منهم القردة والخنازير﴾ يعني من اليهود من لعنه الله وغضب عليه ومنهم من جعلهم قردة وخنازير قال ابن عباس: إن الممسوخين كلاهما أصحاب السبت فشبانهم مسخوا قردة ومشايخهم مسخوا خنازير.

وقيل إن مسخ القردة كان من أصحاب السبت من اليهود ومسخ الخنازير كان في الذين كفروا بعد نزول المائدة في زمن عيسى عليه السلام ولما نزلت هذه الآية عيَّر المسلمون اليهود وقالوا لهم: يا إخوان القردة والخنازير وافتضحوا بذلك ﴿وعبد الطاغوت﴾ يعني: وجعل منهم عبد الطاغوت، يعني من أطاع الشيطان فيما سول له والطاغوت هو الشيطان. وقيل: هو العجل. وقيل: هو الكهان والأحبار. وجملته أن كل من أطاع أحداً في معصية الله فقد عبده وهو الطاغوت ﴿أولئك﴾ يعني الملعونين والمغضوب عليهم والممسوخين ﴿شرّ مكاناً﴾ يعني من غيرهم ونسب الشر إلى المكان والمراد به أهله فهو من باب الكناية وقيل: أراد أن مكانهم سقر ولا مكان أشد شراً منه ﴿وأضل عن سواء السبيل﴾ يعني وأخطأ عن قصد طريق الحق.

قوله تعالى: ﴿وإذا جاؤوكم قالوا آمنا﴾ قال قتادة: نزلت في أناس من اليهود دخلوا على رسول الله ﷺ فأخبروه أنهم مؤمنون راضون بالذي جاء به وهم متمسكون بضلالتهم وكفرهم فكان هؤلاء يظهرون الإيمان وهم في ذلك منافقون، فأخبر الله تعالى نبيه ﷺ بحالهم وشأنهم ﴿وقد دخلوا بالكفر وهم قد خرجوا به﴾ يعني: إنهم دخلوا كافرين

دين أقلّ حظّاً في الدنيا والآخرة منكم ولا ديناً شرّاً من دينكم، فذكر الجواب بلفظ الابتداء، وإن لم يكن الابتداء شرّاً لقوله تعالى: ﴿ أفأنبئكم بشرٍّ من ذلكم النار ﴾ [الحج: ٧٢]، ﴿ مثوبةً ﴾ ثواباً وجزاءً، نُصب على التفسير، ﴿ عندَ اللَّهِ مَنْ لعنَهُ اللَّهُ ﴾أي: هو من لعنه الله، ﴿ وغضبَ عليه ﴾، يعني: اليهود، ﴿ وجعلَ منهم القردةَ والخنازير ﴾، فالقردة أصحاب السبت، والخنازير كفّار مائدة عيسى عليه السلام. ورُوِيَ عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن الممسوخين كلاهما من أصحاب السبت فشبّانهم مُسخوا قردة ومشايخهم مسخوا خنازير. ﴿ وعبَدَ الطاغُوت ﴾، أي: جعل منهم مَن عبد الطاغوت، أي: أطاع الشيطان فيما سوّل له، وتصديقها، قراءة ابن مسعود: ومَن عبدوا الطاغوت، وقرأ حمزة «وعبـد» بضـم البـاء «الطـاغوت» بجرّ التاء، أراد العبد وهما لغتان عبْد بجزم الباء وعبُد بضم الباء، مثل سبْع وسبُع، وقيل: جمع العباد، وقرأ الحسن وعبد الطاغوت على الواحد، ﴿ أولئك شرٌّ مكاناً وأضلّ عنْ سواء السبيل ﴾، عن طريق الحق.

﴿ وإذا جاءُوكم قالوا ﴾، يعني: هؤلاء المنافقين، وقيل: هم الذين قالوا: ﴿ آمنوا بالذي أُنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره ﴾ [آل عمران: ٧٢]، دخلوا على النبي ﷺ وقالوا: ﴿ آمنّا ﴾، بك وصدّقناك فيما

وخرجوا كما دخلوا كافرين لم يتعلق بقلوبهم شيء من الإيمان فهم كافرون في حالتي الدخول والخروج ﴿والله أعلم بما كانوا يكتمون﴾ يعني من الكفر الذي في قلوبهم.

قوله عز وجل: ﴿وترى كثيراً منهم﴾ الخطاب للنبي ﷺ. وترى يا محمد كثيراً من اليهود وكلمة «من» يحتمل أن تكون للتبعيض. ولعل هذه الأفعال المذكورة في هذه الآية ما كان يفعلها كل اليهود فلذا قال تعالى: وترى كثيراً منهم ﴿يسارعون﴾. المسارعة في الشيء: المبادرة إليه بسرعة لكن لفظة المسارعة إنما تستعمل في الخير. ومنه قوله تعالى: يسارعون في الخيرات وضدها العجلة، وتقال في الشر في الأغلب وإنما ذكرت لفظة في قوله يسارعون ﴿في الإثم والعدوان وأكلهم السحت﴾ الفائدة وهي أنهم كانوا يقدمون على هذه المنكرات كأنهم محقون فيها. والإثم اسم جامع لجميع المعاصي والمنهيات فيدخل تحته العدوان وأكل السحت، فلهذا ذكر الله العدوان وأكل السحت بعد الإثم والمعاصي وقيل الإثم ما كتموه من التوراة والعدوان ما زادو فيها والسحت هو الرشا وما يأكلونه من غير وجهه ﴿لبئس ما كانوا يعملون﴾ يعني لبئس العمل كان هؤلاء اليهود يعملون وهو مسارعتهم إلى الإثم والعدوان وأكلهم السحت.

قوله تعالى: ﴿لولا﴾ يعني هلا وهي هنا بمعنى التحضيض والتوبيخ ﴿ينهاهم الربانيون والأحبار﴾ قال الحسن الربانيون علماء أهل الإنجيل والأحبار علماء أهل التوراة وقال غيره كلهم من اليهود لأنه متصل بذكرهم ﴿عن قولهم الإثم﴾ يعني الكذب ﴿وأكلهم السحت﴾ والمعنى هلا نهى الأحبار والرهبان، اليهود عن قولهم الإثم وأكلهم السحت ﴿لبئس ما كانوا يصنعون﴾ يعني الأحبار والرهبان إذا لم ينهوا غيرهم عن المعاصي. وهذا يدل على أن تارك النهي عن المنكر بمنزلة مرتكبه لأن الله تعالى ذمّ الفريقين في هذه الآية. قال ابن عباس: ما في القرآن أشد توبيخاً من هذه الآية. وقال الضحاك: ما في القرآن آية أخوف عندي منها.

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿وقالت اليهود يد الله مغلولة﴾ نزلت هذه الآية في فنحاص اليهودي. قال ابن عباس: إن الله قد بسط على اليهود حتى كانوا أكثر الناس أموالاً وأخصبهم ناحية فلما عصوا الله ومحمداً ﷺ وكذبوا به كف عنهم ما بسط عليهم من السعة.

فعند ذلك قال فنحاص: يد الله مغلولة يعني محبوسة مقبوضة عن الرزق والبذل والعطاء. فنسبوا الله تعالى إلى

قلت، وهم يُسرُّون الكفرَ، ﴿ وقدْ دخلُوا بالكفر وهُمْ قدْ خرجُوا به ﴾، يعني: دخلوا كافرين وخرجوا كافرين، ﴿ واللَّهُ أعلمُ بما كانُوا يكتمون ﴾.

﴿ وترَى كثيراً منهم ﴾، من اليهود ﴿ يُسارِعُون في الإثم والعُدْوَانِ ﴾، قيل: الإثم المعاصي والعدوان الظلم، وقيل: الإثم ما كتموا من التوراة، والعدوان ما زادوا فيها، ﴿ وأكلِهِمُ السُّحْتَ ﴾، الرِّشَا، ﴿ لبئْسَ ما كانُوا يعملون ﴾.

﴿ لَوْلاَ ﴾، هلاَّ، ﴿ ينهاهُم الرَّبانيُّونَ والأحبارُ ﴾، يعني: العلماء، قيل: الربانيون علماء النصارى والأحبار علماء اليهود، ﴿ عن قولهِمُ الإثمَ وأكلِهِمُ السُّحْتَ لبئسَ ما كانُوا يصنعُون ﴾.

﴿ وقالتِ اليهودُ يدُ اللَّهِ مغلولة ﴾، قال ابن عباس وعكرمة والضحّاك وقتادة: إنّ الله تعالى كان قد بسط على

البخل والقبض تعالى الله عن قولهم علوّاً كبيراً، ولما قال هذه المقالة الخبيثة فنحاص ولم ينهه بقية اليهود ورضوا بقوله، لا جرم لأن الله تعالى أشركهم معه في هذه المقالة فقال تعالى إخباراً عنهم: وقالت اليهود يد الله مغلولة. يعني نعمته مقبوضة عنا. وقيل: معناه يد الله مكفوفة عن عذابنا فليس يعذبنا إلا بقدر ما يبر به قسمه وذلك قدر ما عبد آباؤنا العجل.

والقول الأول أصح، لقوله تعالى: ينفق كيف يشاء. واعلم أن غل اليد وبسطها مجاز عن البخل والجود بدليل قوله تعالى لنبيه ﷺ ﴿**ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط**﴾ والسبب أن اليد آلة لكل الأعمال لا سيما لدفع المال وإنفاقه وإمساكه فأطلقوا اسم السبب على المسبب وأسندوا الجود والبخل إلى اليد مجازاً فقيل للجواد الكريم فياض اليد ومبسوط اليد وقيل للبخيل مقبوض اليد.

وقوله تعالى: ﴿**غلّت أيديهم ولعنوا بما قالوا**﴾ يعني: أمسكت أيديهم عن كل خير وطردوا عن رحمة الله.

قال الزجاج: رد الله عليهم فقال: أنا الجواد الكريم وهم البخلاء وأيديهم هي المغلولة الممسوكة. وقيل: هذا دعاء على اليهود علمنا الله كيف ندعو عليهم؟ فقال: غلت أيديهم أي في نار جهنم. فعلى هذا هو من الغل حقيقة أي شدت أيديهم إلى أعناقهم وطرحوا في النار جزاء لهم على هذا القول ومعنى لعنوا بما قالوا عذبوا بسبب ما قالوا فمن لعنتهم أنهم مسخوا في الدنيا قردة وخنازير وضربت عليهم الذلة والمسكنة والجزية وفي الآخرة لهم عذاب النار.

وقوله تعالى: ﴿**بل يداه مبسوطتان**﴾ يعني أنه تعالى جواد كريم ينفق كيف يشاء وهذا جواب لليهود ورد عليهم ما افتروه واختلقوه على الله تعالى عن قولهم علواً كبيراً وإنما أجيبوا بهذا الجواب على قدر كلامهم.

وأما الكلام في اليد فقد اختلف العلماء في معناها على قولين: أحدهما وهو مذهب جمهور السلف وعلماء أهل السنة وبعض المتكلمين أن يد الله صفة من صفات ذاته كالسمع والبصر والوجه فيجب علينا الإيمان بها والتسليم ونمرها كما جاءت في الكتاب والسنة بلا كيف ولا تشبيه ولا تعطيل قال الله تعالى ﴿**لما خلقت بيدي**﴾ وقال النبي ﷺ: «عن يمين الرحمن وكلتا يديه يمين».

والقول الثاني: قول جمهور المتكلمين وأهل التأويل، فإنهم قالوا اليد تذكر في اللغة على وجوه، أحدها: الجارحة وهي معلومة. وثانيهما: النعمة. يقال: لفلان عندي **يد** أشكره عليها. وثالثها: القدرة قال الله تعالى: ﴿**أولى الأيدي والأبصار**﴾ فسروه بذوي القوى والعقول لا يدلك بهذا الأمر والمعنى سلب كمال القدرة. ورابعها: الملك يقال هذه الضيعة في يد فلان أي في ملكه ومنه قوله تعالى ﴿**الذي بيده عقده النكاح**﴾ أي يملك ذلك، أما الجارحة فمنتفية في صفة الله عز وجل لأن العقل دل على أنه يمتنع أن تكون يد الله عبارة عن جسم مخصوص وعضو مركب من الأجزاء والأبعاض تعالى الله عن الجسمية والكيفية والتشبيه علواً كبيراً فامتنع بذلك أن تكون يد الله بمعنى الجارحة وأما سائر المعاني، التي فسرت اليد بها فحاصلة، لأن أكثر العلماء من المتكلمين زعموا أن اليد في حق الله عبارة عن القدرة وعن الملك وعن النعمة وهاهنا إشكالان:

اليهود حتى كانوا من أكثر الناس مالاً وأخصبهم ناحية فلما عصوا الله في محمد ﷺ وكذّبوا به كفّ الله عنهم ما بسط عليهم من السعة، فعند ذلك قال فنحاص بن عازوراء: يد الله مغلولة، أي: محبوسة مقبوضة من الرزق نسبوه إلى البخل، قيل: إنما قال هذه المقالة فنحاص، فلمّا لم ينهه الآخرون ورضوا بقوله أشركهم الله فيها. وقال الحسن: معناه يد الله مكفوفة عن عذابنا فليس يعذّبنا إلّا ما يبرّ به قسمه قدر ما عبد آباؤنا العجل. والأول أولى لقوله: ﴿ينفق كيف يشاء﴾. ﴿غُلّتْ أيديهم﴾، أي: أُمسكت أيديهم عن الخيرات. وقال الزجّاج: أجابهم الله تعالى فقال: أنا

أحدهما: أن اليد إذا فسرت بمعنى القدرة فقدرة الله واحدة ونص القرآن ناطق بإثبات اليدين في قوله تعالى بل يداه مبسوطتان وأجيب عن هذا الإشكال بأن اليهود لما جعلوا قولهم ﴿**يد الله مغلولة**﴾ كناية عن البخل أجيبوا على وفق كلامهم فقال: بل يداه مبسوطتان. أي ليس الأمر على ما وصفتموه من البخل بل هو جواد كريم على سبيل الكمال فإن من أعطى بيديه فقد أعطى عل أكمل الوجوه.

الإشكال الثاني: أن اليد إذا فسرت بالنعمة فنص القرآن ناطق بتثنية اليد ونعم الله غير محصورة ولا معدودة ومنه قوله تعالى: ﴿**وإن تعدوا نعمة الله لاتحصوها**﴾ وأجيب عن هذا الإشكال بأن التثنية بحسب الجنس ثم يدخل تحت كل واحد من الجنسين أنواع لا نهاية لها مثل: نعمة الدنيا ونعمة الدين ونعمة الظاهر ونعمة الباطن ونعمة النفع ونعمة الدفع. فالمراد بالتثنية، المبالغة في وصف النعمة. أجاب أصحاب القول عن هذا بأن قالوا: إن الله تعالى أخبر عن آدم أنه خلقه بيديه ولو كان معنى خلقه لآدم بقدرته أو بنعمته أو بملكه لم يكن لخصوصية آدم بذلك وجه مفهوم لأن جميع خلقه مخلوقون بقدرته وجميعهم في ملكه ومتقلبون في نعمه فلما خص الله آدم عليه السلام بقوله تعالى لما خلقت بيدي دون خلقه علم بذلك اختصاصه وتشريفه على غيره. ونقل الإمام فخر الدين الرازي عن أبي الحسن الأشعري قولاً: أن اليد صفة قائمة بذات الله وهي صفة سوى القدرة من شأنها التكوين على سبيل الاصطفاء قال والذي يدل عليه أنه تعالى جعل وقوع خلق آدم بيديه على سبيل الكرامة لآدم واصطفائه له فلو كانت اليد عبارة عن القدرة امتنع كون آدم مصطفى بذلك لأن ذلك حاصل في جميع المخلوقات فلا بد من إثبات صفة أخرى وراء القدرة يقع بها الخلق والتكوين على سبيل الاصطفاء هذا آخر كلامه. وأجيب عن قولهم: إن التثنية بحسب الجنس ثم يدخل تحت كل واحد من الجنسين أنواع كثيرة بأن الاسم إذا ثني لا يؤدي في كلام العرب إلا عن اثنين بأعيانهما دون الجمع ولا يؤدي عن الجنس أيضاً قالوا وخطأ في كلام العرب أن يقال ما أكثر الدرهمين في أيدي الناس بمعنى ما أكثر الدراهم في أيديهم لأن الدرهم إذا ثني لا يؤدي في كلام العرب إلا عن اثنين بأعيانهما ولكن الواحد يؤدي عن جنسه، كما تقول العرب: ما أكثر الدرهم في أيدي الناس. بمعنى ما أكثر الدراهم في أيديهم، لأن الواحد يؤدي عن الجمع فثبت بهذا البيان قول من قال: إن اليد صفة لله تعالى تليق بجلاله وإنها ليست بجارحة، كما نقول: المجسمة تعالى الله عن قولهم علّواً كبيراً ﴿**ينفق كيف يشاء**﴾ يعني أنه تعالى يرزق كما يريد ويختار فيوسع على من يشاء ويقتّر على من يشاء لا اعتراض عليه في ملكه ولا فيما يفعله (ق) عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: قال الله تبارك وتعالى لما أنفق عليك وقال يد الله ملأى لا تغيضها نفقة سحاء الليل والنهار أرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض فإنه لم ينقص ما بيده وكان عرشه على الماء وبيده الميزان يرفع ويخفض وهذا الحديث أيضاً أحد أحاديث الصفات فيجب الإيمان به وإمراره كما جاء من غير تشبيه ولا تكييف.

وقوله تعالى: ﴿**وليزيدن كثيراً منهم ما أنزل إليك من ربك طغياناً وكفراً**﴾ يعني كلما نزلت عليك آية من القرآن كفروا بها فازدادوا شدة في كفرهم وطغياناً مع طغيانهم والمراد بالكثير علماء اليهود وقيل إقامتهم على كفرهم زيادة منهم فيه ﴿**وألقينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة**﴾ يعني: ألقينا العداوة والبغضاء بين اليهود والنصارى.

الجواد وهم البخلاء وأيديهم هي المغلولة الممسكة. وقيل: هو من الغلّ في النار يوم القيامة، لقوله تعالى: ﴿ إذِ الأغلالُ في أعناقهم والسلاسل ﴾ [غافر: ٧١]. ﴿ ولُعِنُوا ﴾، عُذِّبوا، ﴿ بما قالوا ﴾، فمنْ لعنهم أنهم مُسخوا قردة وخنازير وضربت عليهم الذلّة والمسكنة في الدنيا وفي الآخرة بالنار، ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَان ﴾، ويدُ اللّهِ صفةٌ من صفات ذاتِه كالسمع، والبصر والوجه، وقال جلّ ذكره: ﴿ لما خلقتُ بيدي ﴾ [صَ: ٧٥]، وقال النبي ﷺ: «كلتا يديه يمين»، والله أعلم بصفاته، فعلى العباد فيها الإيمان والتسليم. وقال أئمة السلف من أهل السُّنّة في هذه

وقيل: ألقى ذلك بين طوائف اليهود، فجعلهم مختلفين في دينهم متعادين متباغضين إلى يوم القيامة، فإن بعض اليهود جبرية، وبعضهم قدرية، وبعضهم مشبهة وكذلك النصارى فرق كالملكانية، والنسطورية، واليعقوبية، والمارونية.

فإن قلت، فهذا المعنى أيضاً حاصل بين فرق المسلمين فكيف يكون ذلك عيباً على اليهود والنصارى حتى يذموا به. قلت: هذه البدع التي حصلت في المسلمين إنما حدثت بعد عصر النبي ﷺ وعصر الصحابة والتابعين.

أما في الصدر الأول، فلم يكن شيء من ذلك حاصلاً بينهم فحسن جعل ذلك عيباً على اليهود والنصارى في ذلك العصر الذي نزل فيه القرآن على رسول الله ﷺ ﴿كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله﴾ يعني كلما أفسد اليهود وخالفوا حكم الله يبعث الله عليهم من يهلكهم. أفسدوا فبعث الله عليهم بختنصر البابلي ثم أفسدوا فبعث الله عليهم طيطوس الرومي ثم أفسدوا فسلط الله عليهم المجوس وهم الفرس ثم أفسدوا. وقالوا: يد الله مغلولة فبعث الله المسلمين فلا تزال اليهود في ذلة أبداً وقال مجاهد: معنى الآية كلما مكروا في حرب محمد ﷺ أطفأه الله تعالى وقال السدي: كلما أجمعوا أمرهم على شيء ليفسدوا به أمر محمد ﷺ فرّقه الله تعالى وكلما أوقدوا ناراً في حرب محمد ﷺ أطفأها الله وأخمد نارهم وقذف في قلوبهم الرعب وقهرهم ونصر نبيه ودينه ﴿ويسعون في الأرض فساداً﴾ يعني ويجتهدون في دفع الإسلام ومحو ذكر محمد ﷺ من كتبهم. وقيل: إنهم يسعون بالمكر والكيدوالحيل وليس يقدرون على غير ذلك ﴿والله لا يحب المفسدين﴾ يعني أن الله لا يحب من كانت هذه صفته. قال قتادة: لا نلقى اليهود ببلدة إلا وجدتهم من أذل الناس فيها وهم أبغض خلق الله إليه.

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ولو أن أهل الكتاب آمنوا﴾ بمحمد ﷺ وصدقوه فيما جاء به ﴿واتقوا﴾ يعني اليهودية والنصرانية

الصفات: «أمرُّوها كما جاءت بلا كيف»، ﴿ يُنفقُ ﴾، يرزق، ﴿ كيفَ يشاء ولَيَزيدَنّ كثيراً منهمْ ما أُنزل إليك منْ ربِّكَ طُغياناً وكفراً ﴾، أي: كلما أنزل آية كفروا بها فازدادوا طغياناً وكفراً، وكفروا، ﴿ وألقينا بينهم العَدَاوَةَ والبغضاءَ ﴾، يعني: بين اليهود والنصارى، قاله الحسن ومجاهد: قيـل وبين طوائف اليهود جعلهم مختلفين في دينهم متباغضين ﴿ إلى يومِ القيامة كلّما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله ﴾، يعني: اليهود أفسدوا وخالفوا حكم التوراة، فبعث الله عليهم بختنصر، ثم أفسدوا فبعث الله عليهم طيطوس الرومي، ثم أفسدوا فسلّط الله عليهم المجوس، ثم أفسدوا فبعث الله عليهم المسلمين، وقيل: كلما أجمعوا أمرهم ليفسدوا أمر محمد ﷺ وأوقدوا نارَ المحاربة أطفأها الله، فردّهم وقهرهم ونصرَ نبيَّه ودينه، هذا معنى قول الحسن، وقال قتادة: هذا عامّ في كل حرب طلبته اليهود فلا تلقى اليهود في بلد إلاّ وجدتهم من أذلّ الناس، ﴿ ويسعون في الأرضِ فساداً واللَّهُ لا يحبُّ المفسدين ﴾.

﴿ ولو أنّ أهلَ الكتابِ آمنوا ﴾، بمحمد ﷺ، ﴿ واتّقَوْا ﴾، الكفرَ، ﴿ لكفَّرْنا عنهم سيئاتِهمْ ولأدْخَلْنَاهم جنّاتِ النّعيم ﴾.

﴿**لكفرنا عنهم سيئاتهم**﴾ يعني: لمحونا عنهم ذنوبهم التي عملوها قبل الإسلام لأن الإسلام يجب ما قبله ﴿**ولأدخلناهم جنات النعيم**﴾ يعني مع المسلمين يوم القيامة ﴿**ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل**﴾ يعني أقاموا أحكامهما بحدودهما وعملوا بما فيهما من الوفاء بالعهود والتصديق بمحمد ﷺ لأن نعته وصفته موجودان فيهما.

فإن قلت: كيف يأمر أهل الكتاب بإقامة التوراة والإنجيل مع أنهما نُسخا وبدلا. قلت: إنما أمرهم الله تعالى بإقامة ما فيهما من الإيمان بمحمد ﷺ واتباع شريعته وهذا غير منسوخ لأنه موافق لما في القرآن.

وقوله تعالى: ﴿**وما أنزل إليهم من ربهم**﴾ فيه قولان أحدهما أن المراد به كتب أنبيائهم القديمة مثل كتاب شعياء وكتاب أرمياء وزبور داود وفي هذا الكتب أيضاً ذكر محمد ﷺ فيكون المراد بإقامة هذه الكتب الإيمان بمحمد ﷺ.

والقول الثاني: أن المراد بما أنزل من ربهم هو القرآن لأنهم مأمورون بالإيمان به فكأنه نزل إليهم من ربهم ﴿**لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم**﴾ يعني أن اليهود لما أصروا على تكذيب محمد وثبتوا على كفرهم ويهوديتهم أصابهم الله بالقحط والشدة حتى بلغوا إلى حيث قالوا ﴿**يد الله مغلولة**﴾ فأخبر الله أنهم لو تركوا اليهودية والكفر الذي هم عليه لانقلبت تلك الشدة بالخصب والسعة وهو قوله تعالى: ﴿**لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم**﴾ قال ابن عباس: معناه لأنزلت عليهم المطر وأخرجت لهم النبات والمراد من ذلك توسعة الرزق عليهم ﴿**منهم أمة مقتصدة**﴾ أي عادلة. والاقتصاد: الاعتدال في العمل من غير غلو ولا تقصير. أصله من القصد، لأن من عرف مقصوداً طلبه من غير اعوجاج عنه. والمراد بالأمة المقتصدة: من آمن من أهل الكتاب مثل عبد الله بن سلام وأصحابه والنجاشي وأصحابه الذين أسلموا ﴿**وكثير منهم**﴾ يعني من أهل الكتاب الذين أقاموا على كفرهم مثل كعب بن الأشرف ورؤساء اليهود ﴿**ساء ما يعملون**﴾ يعني بئس ما يعملون من إقامتهم على كفرهم قال ابن عباس: عملوا بالقبيح مع التكذيب بالنبي ﷺ.

قوله عز وجل: ﴿**يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك**﴾ الآية روي عن الحسن أن الله تعالى لما بعث رسول الله ﷺ ضاق ذرعاً وعرف أن من الناس من يكذبه، فأنزل هذه الآية. وقيل: نزلت في عيب اليهود وذلك أن النبي ﷺ دعاهم إلى الإسلام فقالوا: أسلمنا قبلك وجعلوا يستهزئون به ويقولون: تريد أن نتخذك حناناً كما اتخذت النصارى عيسى حناناً، فلما رأى النبي ﷺ ذلك منهم، سكت، فأنزل الله هذه الآية وأمره بأن يقول لهم: ﴿**يا أهل الكتاب لستم على شيء**﴾ الآية.

وقيل: نزلت هذه الآية في أمر الجهاد وذلك أن المنافقين كرهوه فكان النبي ﷺ يمسك في بعض الأحايين عن الحث على الجهاد لما علم من كراهية بعضهم له فأنزل الله هذه الآية.

﴿ **ولو أنَّهم أقاموا التوراةَ والإنجيلَ** ﴾، يعني: أقاموا أحكامهما وحدودهما وعملوا بما فيهما، ﴿ **وما أنزل إليهم منْ ربِّهم** ﴾، يعني: القرآن، وقيل: كتب أنبياء بني إسرائيل، ﴿ **لأكلُوا مِنْ فَوقِهم ومِنْ تحتِ أرجلِهم** ﴾، قيل: من فوقهم هو المطر، ومن تحت أرجلهم نبات الأرض. قال ابن عباس رضي الله عنهما: لأنزلت عليهم القطر وأخرجتُ لهم من نبات الأرض. قال الفرّاء أراد به التوسعة في الرزق كما يقال فلان في الخير من قرنه إلى قدمه، نظيره قوله تعالى: ﴿ ولو أنَّ أهلَ القُرى آمنُوا واتَّقوا لفتحنا عليهم بركاتٍ منَ السماءِ والأرضِ ﴾ [الأعراف: ٩٦].

﴿ **منهم أمّةٌ مقتصدةٌ** ﴾، يعني: مؤمني أهل الكتاب، عبد الله بن سلام وأصحابه، مقتصدة أي عادلة غير غالية، ولا مقصرة جافية. ومعنى الاقتصاد في اللغة: الإعتدال في العمل من غير غلو ولا تقصير، ﴿ **وكثيرٌ منهم** ﴾، كعب بن الأشرف وأصحابه، ﴿ **ساءَ ما يعملُون** ﴾، بئس ما يعملون، بئس شيئاً عملهم، قال ابن عباس رضي الله عنهما: عملوا بالقبيح مع التكذيب بالنبي ﷺ.

وقيل: نزلت في قصة الرجم والقصاص وما سأل عنه اليهود ومعنى الآية يا أيها الرسول بلغ جميع ما أنزل إليك من ربك مجاهراً به ولا تراقبن أحداً ولا تترك شيئاً مما أنزل إليك من ربك وإن أخفيت شيئاً من ذلك في وقت من الأوقات فلما بلغت رسالته وهو قوله تعالى﴿**وإن لم تفعل فما بلغت رسالته**﴾ وقرىء رسالاته قال ابن عباس: يعني إن كتمت آية مما أنزل إليك من ربك لم تبلغ رسالتي يعني أنه ﷺ لو ترك إبلاغ البعض كان كمن لم يبلغ شيئاً مما أنزل الله إليه وحاشا رسول الله ﷺ أن يكتم شيئاً مما أوحي إليه. روى مسروق عن عائشة قالت من حدثك أن رسول الله ﷺ كتم شيئاً مما أنزل إليه فقد كذب؟ ثم قرأت ﴿**يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك**﴾ أخرجاه في الصحيحين بزيادة فيه.

وقوله تعالى: ﴿**والله يعصمك من الناس**﴾ يعني يحفظك يا محمد ويمنعك منهم والمراد بالناس هنا الكفار فإن قلت أليس قد شج رأسه وكسرت رباعيته يوم أحد وقد أوذي بضروب من الأذى فكيف يجمع بين ذلك وبين قوله والله يعصمك من الناس.

قلت: المراد منه أنه يعصمه من القتل فلا يقدر عليه أحد أراده بالقتل ويدل على صحة ذلك ما روي عن جابر أنه غزى مع رسول الله ﷺ قبل نجد فلما قفل رسول الله ﷺ قفل معه فأدركتهم القائلة في واد كثير العضاة فنزل رسول الله ﷺ وتفرق الناس يستظلون بالشجر فنزل رسول الله ﷺ تحت شجرة فعلق بها سيفه ونمنا معه نومة، فإذا رسول الله ﷺ يدعونا، وإذا عنده أعرابي فقال: إن هذا اخترط عليَّ سيفي وأنا نائم فاستيقظت وهو في يده صلتاً. فقال: من يمنعك مني؟ فقلت: الله ثلاثاً ولم يعاقبه وجلس.

وفي رواية أخرى «قال جابر كنا مع رسول الله ﷺ بذات الرقاع فإذا أتينا على شجرة ظليلة تركناها لرسول الله ﷺ

قوله عزّ وجلّ: ﴿يا أيّها الرسولُ بلّغْ ما أُنزل إليكَ منْ ربِّك﴾، رُوِيَ عن مسروق قال: قالت عائشة رضي الله عنها مَن حدّثك أن محمداً ﷺ كتم شيئاً مما أنزل الله فقد كذب، وهو يقول: ﴿ يا أيّها الرسولُ بلّغْ ما أُنزل إليك منْ ربّك ﴾ الآية. روى الحسن: أنّ الله تعالى لمّا بعث رسوله ضاق ذرعاً وعرف أنّ من الناس مَن يكذبه، فنزلت هذه الآية، نزلت في عيب اليهود، وذلك أن النبي ﷺ دعاهم إلى الإسلام، فقالوا أسلمنا قبلك وجعلوا يستهزؤون به، فيقولون له: تريد أن نتخذك حناناً كما اتخذت النصارى عيسى حناناً، فلما رأى النبي ﷺ ذلك سكت فنزلت هذه الآية، وأمره أن يقول لهم: ﴿ يا أهل الكتاب لستمْ على شيء ﴾ [المائدة: ٦٨] الآية. وقيل: بلّغ ما أُنزل إليك من الرجم والقصاص، نزلتْ في قصة اليهود، وقيل: نزلت في أمر زينب بنت جحش ونكاحها، وقيل: في الجهاد، وذلك أن المنافقين كرهوه، كما قال الله تعالى: ﴿ فإذا أُنزلت سورةٌ مُحكمةٌ وذُكرَ فيها القتالُ رأيتَ الذينَ في قلوبهم مرضٌ ينظرونَ إليكَ نظرَ المغشي عليه منَ الموتِ ﴾ [محمد: ٢٠]، كرهه بعض المؤمنين قال الله تعالى: ﴿ ألم ترَ إلى الذين قيل لهم كفُّوا أيديكم ﴾ [النساء: ٧٧] الآية. فكان النبي ﷺ يمسك في بعض الأحايين عن الحثّ على الجهادِ لما يعلم من كراهة بعضهم، فأنزل الله هذه الآية. قوله تعالى: ﴿ وإنْ لم تفعلْ فما بلغتَ رسالتَهُ ﴾، قرأ أهل المدينة والشام وأبو بكر ويعقوب (رسالاته)، على الجمع والباقون رسالته على التوحيد، ومعنى الآية: إن لم تبلّغ الجمع وتركت بعضه، فما بلغت شيئاً، أي: جرمك في ترك تبليغ البعض كجرمك في ترك تبليغ الكل، كقوله: ﴿ نُؤمنُ ببعضٍ ونكفرُ ببعضٍ ويريدونَ أنْ يتخذوا بين ذلك سبيلاً أولئك هم الكافرون حقاً ﴾ [النساء: ١٥٠ و١٥١]، أخبر أن كفرهم بالبعض محبط للإيعاب بالبعض، وقيل: بلّغْ ما أُنزل إليكَ أي: أظهر تبليغه، كقوله: ﴿ فاصدَعْ بما تُؤمرُ ﴾ [الحجر: ٩٤] وإن لم تفعلْ فإن لم تظهر تبليغه فما بلغت رسالته، أمره

فجاء رجل من المشركين وسيف رسول الله ﷺ معلق بالشجرة فاخترطه فقال تخافني؟. فقال: لا. فقال من يمنعك مني؟ قال: الله فتهدده أصحاب رسول الله ﷺ» أخرجاه في الصحيحين وزاد البخاري في رواية له: أن اسم ذلك الرجل غورث بن الحارث (ق).

عن عائشة رضي الله عنها قالت: «سهر رسول الله ﷺ مقدمه المدينة ليلة فقال: ليت رجلاً صالحاً من أصحابي يحرسني الليلة قال: فبينما نحن كذلك سمعنا خشخشة السلاح فقال من هذا؟ قال سعد بن أبي وقاص: فقال له رسول الله ﷺ ما جاء بك؟ فقال: وقع في نفسي خوف على رسول الله ﷺ فجئت أحرسه فدعا له رسول الله ﷺ ثم نام» وعن عائشة قالت «كان رسول الله ﷺ يحرس ليلاً حتى نزلت «والله يعصمك من الناس» فأخرج رسول الله من القبة فقال لهم أيها الناس انصرفوا فقد عصمني الله» أخرجه الترمذي. وقال: حديث غريب. وقيل في الجواب عن هذا: إن هذه الآية نزلت بعد ما شج رأسه في يوم أحد لأن سورة المائدة من آخر القرآن نزولاً وقوله ﴿إن الله لا يهدي القوم الكافرين﴾ قال ابن عباس: معناه لا يرشد من كذبك وأعرض عنك. وقال ابن جرير الطبري: معناه إن الله لا يوفق للرشد من حاد عن سبيل الحق وجار عن قصد السبيل وجحد ما جئت به من عند الله ولم ينته إلى أمر الله وطاعته فيما فرض عليه وأوجبه.

قوله تعالى: ﴿قل يا أهل الكتاب لستم على شيء﴾ يعني: قل يا محمد لهؤلاء اليهود والنصارى لستم على شيء من الدين الحق المرتضى عند الله ولستم على شيء مما تدعون أنكم عليه مما جاءكم به موسى عليه السلام يا معشر اليهود ولا مما جاءكم به عيسى يا معشر النصارى فإنكم أحدثتم وغيّرتم.

قال ابن عباس: «جاء رسول الله ﷺ رافع بن حارثة وسلام بن مشكم ومالك بن الصيف وراتع بن حرملة. قالوا يا محمد ألست تزعم أنك على ملة إبراهيم ودينه وتؤمن بما عندنا من التوراة وتشهد أنها حق، فقال رسول الله: ﷺ

بتبليغ ما أُنزل إليه مجاهراً محتسباً صابراً، غير خائف، فإن أخفيتَ منه شيئاً لخوفٍ يلحقك فما بلّغتَ رسالته، ﴿ والله يَعْصِمُكَ منَ النّاس ﴾، يحفظك ويمنعك من الناس، فإن قيل: أليس قد شجّ رأسه وكسرت رباعيته وأُوذي بضروب من الأذى؟ قيل: معناه يعصمك من القتل فلا يصلون إلى قتلك. وقيل: هذه الآية بعدما شجّ رأسه لأن سورة المائدة من آخر ما نزل من القرآن. وقيل: والله يخصّك بالعصمة من بين الناس، لأنّ النبي ﷺ معصوم، ﴿ إنّ اللّهَ لا يهدي القومَ الكافرين ﴾، أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا أبو اليمان أنا أبو شعيب عن الزهري أنا سنان بن أبي سنان الدولي وأبو سلمة بن عبد الرحمن أن جابر بن عبد الله أخبره أنه غزا مع رسول الله ﷺ قبل نجد، فلما قفل رسول الله ﷺ، قفل معه وأدركتهم القائلة في وادٍ كثير العضاة، فنزل رسول الله ﷺ وتفرّق الناس يستظلّون بالشجر، فنزل رسول الله ﷺ تحت شجرة وعلّق بها سيفه ونمنا نومة، فإذا رسول الله ﷺ يدعونا وإذا عنده أعرابي، فقال: «إنّ هذا اخترط سيفي وأنا نائم، فاستيقظت وهو في يده صَلْتاً، فقال: مَن يمنعك منّي؟ فقلت: الله ثلاثاً»، ولم يعاقبه وجلس. وروى محمد بن كعب القرظي عن أبي هريرة رضي الله عنه أن الأعرابي سَلّ سيفه وقال: مَن يمنعك منّي يا محمد قال: «الله»، فرعدتْ يدُ الأعرابي وسقط السيف من يده وجعل يضرب برأسه الشجرة حتى انتثر دماغه، فأنزل الله تعالى هذه الآية. أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل بن خليل أخبرنا علي بن مسهر أنا يحيىٰ بن سعيد أنا عبد الله بن عامر بن ربيعة قال: سمعت عائشة رضي الله عنها تقول: كان النبي ﷺ سـهر فلما قَدِمَ المدينة قال: «ليت رجلاً صالحاً من أصحابي يحرسني الليلة» إذا سمعنا صوت سلاح، فقال: «مَن هذا»؟ قال: أنا سعد بن أبي وقاص جئت لأحرسك ونام النبي ﷺ، وقال

بلى: ولكنكم أحدثتم وجحدتم ما فيها مما أخذ عليكم من الميثاق وكتمتم منها ما أمرتم أن تبينوه للناس فأنا بريء من إحداثكم. قالوا: فإنا نأخذ بما في أيدينا فإنا على الحق والهدى ولا نؤمن لك ولا نتبعك فأنزل الله:

قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾ وَحَسِبُوٓا۟ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٧١﴾

﴿**قل يا أهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليكم من ربكم**﴾ الآية وقد تقدم معنى إقامة التوراة والإنجيل وإنه يلزمهم العمل بما فيهما وهو الإيمان بمحمد ﷺ وقد تقدم تفسير ما أنزل إليكم من ربكم ﴿**وليزيدن كثيراً منهم ما أنزل إليك من ربك طغياناً وكفراً**﴾ وقوله تعالى ﴿**فلا تأسَ على القوم الكافرين**﴾ يعني فلا تحزن يا محمد على هؤلاء اليهود الذي جحدوا نبوتك ولم يؤمنوا بك فإنما يعود ضرر ذلك الكفر عليهم.

قوله عز وجل: ﴿**إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى**﴾ لما بين الله عز وجل أن أهل الكتاب ليسوا على شيء ما لم يؤمنوا، بين في هذه الآية أن هذا الحكم عام في كل أهل الملل وأنه لا يحصل لأحد منهم فضيلة ولا منقبة إلا إذا آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً يرضاه الله ومن العمل الصالح الإيمان بمحمد ﷺ لأنه لا يتم الإيمان إلا به وقد تقدم تفسير هذه الآية في سورة البقرة.

وقوله تعالى: ﴿**والصابئون**﴾ ظاهر الإعراب يقتضي أن يقال: والصابئين، وكذا قراءة أبيّ بن كعب وابن مسعود وابن كثير من السبعة. وقرأ الجمهور بالرفع. ومذهب الخليل وسيبويه أنه ارتفع الصابئون بالابتداء على نية التأخير كأنه قيل «إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون» والصابئون كذلك فحذف خبره والحكمة في عطف الصابئين على من قبلهم هي أن الصابئين أشد الفرق المذكورة في هذه الآية ضلالاً فكأنه قال: كل هؤلاء الفرق إذا آمنوا وأتوا بالعمل الصالح قبل الله توبتهم حتى الصابئون، فإنهم إذا آمنوا كانوا أيضاً كذلك، وإنما سموا صابئين، لأنهم صبئوا عن الأديان كلها، بمعنى: خرجوا

عبد الله بن شقيق عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان النبيّ ﷺ يُحرَس حتى نزلت هذه الآية: ﴿ **والله يعصمك من الناس** ﴾، فأخرج رسول الله ﷺ رأسه من القِبَّة فقال لهم: «أيها النّاس انصرفوا فقد عصمني الله سبحانه وتعالى».

قوله عزّ وجلّ: ﴿ **قلْ يا أهلَ الكتابِ لستُمْ على شيءٍ حتى تقيمُوا التوراةَ والإنجيلَ وما أُنزل إليكم منْ ربِّكم** ﴾، أي: تقيموا أحكامهما وما يجب عليكم فيهما، ﴿ **ولَيَزيدَنَّ كثيراً منهمْ ما أُنزل إليك منْ ربّك طُغياناً وكفراً فلا تأسَ** ﴾، فلا تحزن، ﴿ **على القومِ الكافرين** ﴾.

﴿ **إنَّ الذينَ آمنوا والذينَ هادُوا والصَّابئون والنّصارى** ﴾، وكان حقه: ﴿ **والصابئين** ﴾ وقد ذكرنا في سورة البقرة وجه ارتفاعه، وقال سيبويه: فيه تقديم وتأخير تقديره: إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى مَن آمن بالله إلى آخر الآية، والصابئون كذلك، قوله: ﴿ **إن الذين آمنوا** ﴾ أي: باللسان، وقوله: ﴿ **مَن آمن بالله** ﴾ أي: بالقلب،

لأنهم صبئوا إلى اتباع الهوى والشهوات في دينهم ولم يتبعوا ما جاءت به الرسل من عنده الله.

فإن قلت: قد قال الله تعالى في أول الآية إن الذين آمنوا ثم قال في آخر الآية فمن آمن فما فائدة هذا التكرار. قلت: فائدته أن المنافقين كانوا يظهرون الإسلام ويزعمون أنهم مؤمنون، ففي هذا التكرار إخراجهم من قبيل المؤمنين فيكون معنى إن الذين آمنوا أي بألسنتهم لا بقلوبهم. ثم قال: من آمن يعني من ثبت على إيمانه ورجع عن نفاقه منهم. وقيل: فيه فائدة أخرى وهي أن الإيمان يدخل تحته أقسام كثيرة وأشرفها الإيمان بالله واليوم الآخر ففائدة التكرار التنبيه على أشرف أقسام الإيمان هذان القسمان وفي قوله ﴿**من آمن بالله**﴾ حذف تقديره من آمن بالله ﴿**واليوم الآخر**﴾ منهم وإنما حسن هذا الحذف لكونه معلوماً عند السامعين ﴿**وعمل صالحاً**﴾ يعني وضم إلى إيمانه العمل الصالح وهو الذي يراد به وجه الله تعالى ﴿**فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون**﴾ يعني في الآخر. قوله عز وجل: ﴿**لقد أخذنا ميثاق بني إسرائيل**﴾ يعني أخذنا العهود عليهم في التوراة بأن يعملوا بما فيها من التوحيد والعمل بما أمرناهم به والانتهاء عما نهيناهم عنه ﴿**وأرسلنا إليهم رسلاً**﴾ يعني لبيان الشرائع والأحكام ﴿**كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم**﴾ يعني بما يخالف أهواءهم ويضاد شهواتهم من ميثاق التكليف والعمل بالشرائع ﴿**فريقاً كذبوا**﴾ يعني من الرسل الذين جاءتهم ﴿**وفريقاً يقتلون**﴾ يعني من الرسل فكان فيمن كذبوا عيسى ومحمد ﷺ وكان فيمن قتلوا زكريا ويحيى عليهما السلام وإنما فعلوا ذلك نقضاً للميثاق وجراءة على الله عز وجل ومخالفة لأمره.

قوله تعالى: ﴿**وحسبوا**﴾ يعني وظنّ هؤلاء الذين كذبوا الرسل وقتلوا الأنبياء ﴿**أن لا تكون فتنة**﴾ يعني أن لا يعذبهم الله ولا يبتليهم بذلك الفعل الذي فعلوه وإنما حملهم على هذا الظن الفاسد أنهم كانوا يعتقدون أن كل رسول جاءهم بشرع آخر غير شرعهم يجب عليهم تكذيبه وقتله. فلهذا السبب حسبوا أن لا يكون فعلهم ذلك فتنة يبتلون بها. وقيل: إنما قدموا على ذلك لاعتقادهم أن آباءهم وأسلافهم يدفعون عنهم العذاب في الآخرة ﴿**فعموا وصموا**﴾ يعني أنهم عموا عن الحق فلم يبصروه وصموا عنه فلم يسمعوه وهذا العمى هو كناية عن عمى البصيرة لا البصر وكذلك الصمم هو كناية عن منع نفوذ الحق إلى قلوبهم وسبب ذلك شدة جهلهم وقوة كفرهم وإعراضهم عن قبول الحق قال بعض المفسرين سبب هذا العمى والصمم عبادتهم العجل في زمن موسى عليه السلام ﴿**ثم تاب الله عليهم**﴾ يعني أنهم لما تابوا من عبادتهم العجل تاب الله عليهم ﴿**ثم عموا وصموا**﴾ يعني في زمان زكريا ويحيى وعيسى عليهم السلام لأنهم كذبوا عيسى وقتلوا زكريا ويحيى وقيل إن العمى والصمم الأول كان بعد موسى ثم تاب الله عليهم يعني ببعثه عيسى عليه السلام ثم عموا وصموا يعني بسبب الكفر بمحمد ﷺ ﴿**كثير منهم**﴾ من اليهود لأن بعضهم آمن بمحمد ﷺ

وقيل: الذين آمنوا على حقيقة الإيمان ﴿ مَنْ آمنَ باللَّهِ ﴾، أي ثبتَ على الإيمان، ﴿ واليومِ الآخرِ وعملَ صالحاً فلا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون ﴾.

قوله تعالى: **﴿ لقدْ أخذنا ميثاقَ بني إسرائيل ﴾ في التوحيد والنبوّة، ﴿ وأرسلنا إليهم رُسُلاً كلّما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسُهم فريقاً كذّبوا ﴾، عيسى ومحمداً صلوات الله وسلامه عليهما، ﴿ وفريقاً يقتلون ﴾، يحيىٰ وزكريا.**

﴿ وحَسِبُوا ﴾، ظنّوا، ﴿ أن لا تكونَ فتنة ﴾، أي: عذاب وقتل، وقيل: ابتلاء واختبار، أي: ظنّوا أن لا يُبتلوا ولا يُعذّبهم الله، قرأ أهل البصرة وحمزة والكسائي «تكون» برفع النون على معنى أنها لا تكون، ونصبها الآخرون كما لو لم يكن قبله لا، **﴿ فَعَمُوا ﴾**، عن الحق فلم يبصروه، **﴿ وصَمُّوا ﴾**، عنه فلم يسمعوه، يعني عموا وصمُّوا بعد موسى صلوات الله وسلامه عليه، **﴿ ثم تابَ اللَّهُ عليهم ﴾**، ببعث عيسى عليه السلام، **﴿ ثم عَمُوا وصمُّوا كثيرٌ منهم ﴾**، بالكفر بمحمد ﷺ، **﴿ واللَّهُ بصيرٌ بما يعملون ﴾**.

مثل عبد الله بن سلام وأصحابه ﴿والله بصير بما يعملون﴾ يعني من قتل الأنبياء وتكذيب الرسل.

لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٧٤﴾ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾

قوله عز وجل: ﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح بن مريم﴾ لما حكى الله عن اليهود ما حكاه من نقضهم الميثاق وقتلهم الأنبياء وتكذيبهم الرسل وغير ذلك شرع في الأخبار عن كفر النصارى وما هم عليه من فساد الاعتقاد فقال تعالى: ﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح بن مريم﴾ وهذا قول اليعقوبية والملكانية من النصارى لأنهم لا يقولون إن مريم ولدت إلهاً ولأنهم يقولون إن الإله جل وعلا حل في ذات عيسى واتحد به فصار إلهاً تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ﴿وقال المسيح يا بني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم﴾ يعني وقد كان المسيح قال هذا لبني إسرائيل عند مبعثه إليهم وهذا تنبيه على ما هو الحجة القاطعة على فساد قول النصارى ذلك لأنه عليه السلام لم يفرق بينه وبين غيره في العبودية والإقرار لله بالربوبية وإن دلائل الحدوث ظاهرة عليه ﴿أنه يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة﴾ يعني أنه من يجعل له شريكاً من خلقه فقد حرم الله عليه الجنة يعني إذا مات على شركه ﴿ومأواه النار﴾ يعني أنه يصير إلى النار في الآخرة ﴿وما للظالمين﴾ يعني وما للمشركين الذين ظلموا أنفسهم بالشرك ﴿من أنصار﴾ يعني ما لهم من أنصار ينصرونهم ويمنعونهم من العذاب يوم القيامة.

قوله تعالى: ﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة﴾ وهذا قول المرقوسية والنساورية من النصارى. ولتفسير قول النصارى طريقان: أحدهما وهو قول أكثر المفسرين إنهم أرادوا بهذه المقالة أن الله ومريم وعيسى آلهة ثلاثة وأن الإلهية مشتركة بينهم وأن كل واحد منهم إله ويبين ذلك قوله تعالى للمسيح: ﴿أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله﴾؟ فقوله ثالث ثلاثة فيه إضمار تقديره إن الله أحد ثلاثة آلهة أو واحد من ثلاثة آلهة. قال الواحدي: ولا يكفر من يقول إن الله ثالث ثلاثة ولم يرد به أنه ثالث ثلاثة آلهة لأنه ما من اثنين إلا والله ثالثهما بالعلم ويدل عليه قوله تعالى في سورة المجادلة ﴿ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم﴾ وقد قال النبي ﷺ: «يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟». والطريق الثاني: أن المتكلمين حكوا عن النصارى أنهم يقولون: إنه جوهر واحد ثلاثة أقانيم أب وابن وروح القدس وهذه الثلاثة إله واحد كما أن الشمس اسم يتناول القرص والشعاع والحرارة،

﴿ لقد كفرَ الذين قالوا إنّ اللَّهَ هو المسيحُ ابن مريمَ ﴾، وهم الملكانية واليعقوبية منهم، ﴿ وقال المسيحُ يا بني إسرائيل اعبدُوا اللَّهَ ربّي وربَّكم إنّه مَنْ يُشرِكْ باللَّهِ فقد حرّمَ اللَّهُ عليه الجنةَ ومأواهُ النارُ وما للظّالمين من أنصار ﴾.

﴿ لقد كفرَ الذين قالوا إنّ اللَّهَ ثالثُ ثلاثة ﴾، يعني: المرقوسية، وفيه إضمار معناه: ثالث ثلاثة الآلهة، لأنهم يقولون: الإلهية مشتركة بين الله تعالى ومريم وعيسى، وكل واحد من هؤلاء إله فهم ثلاثة آلهة، يبيّن هذا قوله عزّ وجلّ للمسيح: ﴿ أأنتَ قلتَ للنّاسِ اتخذوني وأُميَ إلَهين من دون الله ﴾ [المائدة: ١١٦]؟ ومَن قال: إن الله ثالث

وعنوا بالأب الذات وبالابن الكلمة وبالروح الحياة وأثبتوا الذات والكلمة والحياة قالوا إن الكلمة التي هي كلام الله اختلطت بجسد عيسى اختلاط الماء باللبن، وزعموا أن الأب إله والابن إله والروح إله والكل إله واحد واعلم أن هذا الكلام معلوم البطلان لبديهة العقل، فإن الثلاثة لا تكون واحداً والواحد لا يكون ثلاثة، ولا ترى في الدنيا مقالة أشد فساداً ولا أظهر بطلاناً من مقالة النصارى وعلى هذا أخبر الله عنهم في قوله ﴿**لقد كفرالذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة**﴾ فهذا معنى مذهبهم وإن لم يصرحوا بأنه واحد من ثلاثة آلهة فذلك لازم لهم وإنما يمتنعون من هذه العبارة لأنهم إذا قالوا: إن كل واحد من الأقانيم إله فقد جعلوه ثالث ثلاثة. وقولهم بعد هذا: هو إله واحد فيه مناقضة لما قالوا أولاً فهذا بيان فساد قول النصارى ثم رد الله عليهم فقال تعالى: ﴿**وما من إله إلا إله واحد**﴾ يعني أنه ليس في الوجود إله واحد موصوف بالوحدانية لا ثاني له ولا شريك له ولا والد له ولا ولد له ولا صاحبة له إلا الله تعالى: ﴿**وإن لم ينتهوا عما يقولون**﴾ يعني وإن لم ينته النصارى عن هذه المقالة الخبيثة ﴿**ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم**﴾ يعني ليصيبن الذين أقاموا على هذا القول الخبيث وهذا الدين الذي ليس بمرضي عذاب وجيع في الآخرة وإنما قال تعالى منهم لعلمه السابق أن من النصارى من سيؤمن ويخلص ويترك هذا القول ويعلم أنه فاسد ثم ندب سائر النصارى إلى التوبة من هذه المقالة الخبيثة فقال تعالى: ﴿**أفلا يتوبون إلى الله**﴾ يعني من قولهم بالتثليث ﴿**ويستغفرونه**﴾ وهذا استفهام بمعنى الأمر أي: توبوا إلى الله واستغفروه من هذا الذنب العظيم فإنه تعالى يغفر الذنوب ﴿**والله غفور**﴾ يعني لمن استغفره وتاب إليه ﴿**رحيم**﴾ به وبسائر خلقه.

قوله عز وجل: ﴿**ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل**﴾ يعني أن المسيح رسول من الله عز وجل ليس بإله كما أن الرسل الذين كانوا من قبله لم يكونوا آلهة وقد أتى عيسى عليه السلام بالمعجزات الدالة على صدقه كما أن الذين من قبله أتوا بالمعجزات الدالة على صدقهم ﴿**وأمه صديقة**﴾ يعني أنها كثيرة الصدق وقيل: سميت مريم صديقة، لأنها صدقت بآيات ربها وكتبه. وقوله تعالى: ﴿**كانا يأكلان الطعام**﴾ في احتجاج على فساد قول النصارى بإلهية المسيح. يعني: أن المسيح وأمه مريم كانا بشرين يأكلان الطعام ويعيشان به كسائر بني آدم، فكيف يكون إلهاً مَنْ يحتاج إلى الطعام ولا يعيش إلا به؟ وقيل: معناه أنه لو كان إلهاً كما يزعمون لدفع عن نفسه ألم الجوع وألم العطش ولم يوجد ذلك فكيف يكون إلهاً وقيل هذا كناية عن الحدث وذلك أن كل من أكل وشرب لا بد له من الغائط والبول ومن كانت هذه صفته فكيف يكون إلهاً؟

ثلاثة ولم يرد به الإلّهية لا يكفر، فإنّ الله يقول: ﴿ ما يكونُ من نجوى ثلاثةٍ إلّا هو رابعهم ﴾ [المجادلة: ٧]، وقال النبيّ ﷺ لأبي بكر رضي الله عنه: «ما ظنّك باثنين اللّهُ ثالثهما». ثم قال ردّاً عليهم: ﴿ **وما مِنْ إلَهٍ إلّا إلَهٌ واحدٌ وإنْ لم ينتهُوا عمّا يقولون لَيَمسَّنّ** ﴾، ليصيبنّ، ﴿ **الذين كفرُوا منهم عذابٌ أليم** ﴾، خصّ الذين كفروا لعلمه أنّ بعضهم يؤمنون.

﴿ **أفلا يتوبُونَ إلى الله ويستغفرونه** ﴾؟ قال الفرّاء: هذا أمر بلفظ الاستفهام كقوله تعالى: ﴿ **فهل أنتم منتهون** ﴾ [المائدة: ٩١]، أي: انتهوا، والمعنى: أن الله يأمركم بالتوبة والاستغفار من هذا الذنب العظيم، ﴿ **واللّهُ غفورٌ رحيم** ﴾.

﴿ **ما المسيحُ ابن مريمَ إلّا رسولٌ قد خلتْ** ﴾، مضت، ﴿ **من قبله الرُّسل** ﴾، أي: ليس هو بإلَه بل هو كالرُّسل الذين مضوا لم يكونوا آلهة، ﴿ **وأمّه صدّيقة** ﴾، أي: كثيرة الصدق. وقيل: سُمّيت صدّيقة لأنها صدّقت بآيات الله، كما قال عزّ وجلّ في وصفها: ﴿ **وصدّقت بكلمات ربّها** ﴾ [التحريم: ١٢]، ﴿ **كانا يأْكُلانِ الطّعَامَ** ﴾،

وبالجملة فإن فساد قول النصارى أظهر من أن يحتاج إلى إقامة دليل عليه ثم قال تعالى: ﴿انظر﴾ الخطاب للنبي ﷺ أي انظر يا محمد ﴿كيف نبين لهم الآيات﴾ يعني الدالة على بطلان قولهم ﴿ثم انظر أنى يؤفكون﴾ أي كيف يصرفون عن استماع الحق وقبوله.

﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾ قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قل أتعبدون من دون الله﴾ الخطاب للنبي ﷺ أي: قل يا محمد لهؤلاء النصارى أتعبدون من دون الله ﴿ما لا يملك لكم ضراً ولا نفعاً﴾ يعني لا يستطيع أن يضركم بمثل ما يضركم الله به من البلايا والمصائب في الأنفس والأموال ولا يقدر أن ينفعكم بمثل ما ينفعكم الله به من صحة الأبدان وسعة الأرزاق فإن الضار والنافع هو الله تعالى لا من تعبدون من دونه ومن لم يقدر على النفع والضر لا يكون إلهاً﴿والله هو السميع العليم﴾ يعني أنه تعالى سميع لأقوالكم وكفركم عليم بما في ضمائركم.

قوله عز وجل: ﴿قل يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم﴾. الغلوّ: مجاوزة الحد وذلك أن الحق بين طرفي الإفراط والتفريط فمجاوزة الحد والتقصير مذمومان في الدين ﴿غير الحق﴾ يعني: لا تغلوا في دينكم غلواً باطلاً غير الحق وذلك أنهم خالفوا الحق في دينهم ثم غلوا في الإصرار عليه وكلا الفريقين من اليهود والنصارى غلوا في عيسى عليه السلام، أما غلوّ اليهود فالتقصير في حقه حتى نسبوه إلى غير رشدة، وأما غلوّ النصارى فمجاوزة الحد في حقه حتى جعلوه إلههم وكلا الغلوين مذموم ﴿ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل﴾ الأهواء جمع هوى وهو ما تدعو شهوة النفس إليه، قال الشعبي: ما ذكر الله تعالى الهوى في القرآن إلا وذمه وقال أبو عبيدة: لم نجد الهوى يوضع إلا

أي: كانا يعيشان بالطعام والغذاء كسائر الآدميين، فكيف يكون إلَهاً مَن لا يقيمه إلاّ أكل الطعام؟ وقيل: هذا كناية عن الحدث، وذلك أن مَن أكل وشرب لا بدّ له من البول والغائط، ومَن هذه صفته كيف يكون إلَهاً؟ ثم قال: ﴿ أنظر كيفَ نبيِّنُ لهمُ الآياتِ ثم انظرْ أنّى يُؤفكون ﴾، أي يُصرفون عن الحق.

﴿ قلْ أتعبدُون مِن دونِ اللّهِ ما لا يملكُ لكمْ ضرّاً ولا نفعاً واللّهُ هو السميعُ العليم ﴾.

﴿ قلْ يا أهلَ الكتابِ لا تغلُوا في دينكم غيرَ الحق ﴾، أي: لا تتجاوزوا الحدّ والعلو والتقصير كل واحد منهما مذموم في الدين، وقوله: ﴿ غير الحق ﴾ أي: في دينكم المخالف للحق، وذلك أنهم خالفوا الحق في دينهم، ثم غلوا فيه بالإصرار عليه، ﴿ ولا تتبعوا أهواء قوم ﴾، والأهواء جمع الهوى وهو ما تدعو إليه شهوة النفس ﴿ قدْ ضلّوا من قبل ﴾، يعني: رؤوساء الضلالة من فريقي اليهود والنصارى، والخطاب للذين كانوا في عصر النبي ﷺ نهوا عن اتّباع أسلافهم فيما ابتدعوه بأهوائهم، ﴿ وأضلّوا كثيراً ﴾، يعني: مَن اتّبعهم على أهوائهم، ﴿ وضلّوا عنْ سَواءِ السبيل ﴾، عن قصد الطريق: أي: بالإضلال فالضلال الأول من الضلالة، والثاني بإضلال مَن اتّبعهم.

موضع الشر لأنه لا يقال فلان يهوى الخير إنما يقال فلان يحب الخير ويريده والخطاب في قوله ولا تتبعوا أهواء قوم لليهود والنصارى الذين كانوا في زمان رسول الله ﷺ نهوا عن اتباع أسلافهم فيما ابتدعوه من الضلالة بأهوائهم وهو المراد بقوله أهواء قوم قد ضلوا من قبل فبين الله تعالى أنهم كانوا على ضلاله **﴿وأضلوا كثيراً﴾** يعني من اتبعهم على ضلالتهم وأهوائهم **﴿وضلوا عن سواء السبيل﴾** يعني وأخطؤوا عن قصد طريق الحق.

قوله تعالى: **﴿لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود﴾** قال أكثر المفسرين: هم أصحاب السبت لما اعتدوا في السبت واصطادوا الحيتان فيه. قال داود عليه السلام: اللهم العنهم واجعلهم قردة فمسخوا قردة وستأتي قصتهم في سورة الأعراف **﴿وعيسى ابن مريم﴾** يعني وعلى لسان عيسى ابن مريم وهم كفار أصحاب المائدة لما أكلوا منها وادخروا ولم يؤمنوا قال عيسى عليه السلام اللهم العنهم واجعلهم خنازير فمسخوا خنازير وستأتي قصتهم.

وقال بعض العلماء: إن اليهود كانوا يفتخرون بآبائهم ويقولون نحن من أولاد الأنبياء عليهم السلام، فأخبر الله تعالى بأنهم ملعونون على ألسنة الأنبياء عليهم السلام. وقيل: إن داود وعيسى بشَّرا بمحمد ﷺ ولعنا من يكفر به **﴿ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون﴾** يعني ذلك اللعن بسبب عصيانهم واعتدائهم ثم فسر الاعتداء والمعصية فقال تعالى: **﴿كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه﴾** أي لا ينهى بعضهم بعضاً عن منكر. وقيل: معناه لا يتناهون عن معاودة منكر فعلوه ولا عن الإصرار عليه **﴿لبئس ما كانوا يفعلون﴾** اللام في لبئس لام القسم أي أقسم لبئس ما كانوا يفعلون يعني من ارتكاب المعاصي والعدوان. عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ إن أول ما دخل النقص على بني إسرائيل أنه كان الرجل يلقى الرجل فيقول يا هذا اتق الله ودع ما تصنع فإنه لا يحل لك ثم يلقاه من الغد وهو على حاله فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده فلما فعلوا ذلك، ضرب الله قلوب بعضهم ببعض ثم قال **﴿لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون ترى كثيراً منهم يتولون الذين كفروا لبئس ما قدمت لهم أنفسهم﴾** إلى قوله فاسقون ثم قال «كلا والله لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ثم لتأخذن على يد الظالم ولتأطرنه على الحق أطرا ولتقصرنه على الحق قصرا» زاد في رواية **﴿أوليضربن الله قلوب بعضكم ببعض ثم يلعنكم كما لعنهم﴾** أخرجه أبو داود وأخرجه الترمذي عنه فقال: قال رسول الله ﷺ: «لما وقعت بنو إسرائيل في المعاصي نهتهم علماؤهم فلم ينتهوا فجالسوهم في مجالسهم وآكلوهم وشاربوهم فضرب الله قلوب بعضهم ببعض ولعنهم على لسان داود وعيسى ابن مريم: **﴿ذلك بما**

﴿ لُعنَ الذينَ كفرُوا من بني إسرائيل على لسانِ داودَ ﴾، يعني: أهل أيلة لمّا اعتدوا في السبت، وقال داود عليه السلام: اللّهمَّ العنهم واجعلهم آية فمسخوا قردةً وخنازير، **﴿ وعيسى ابْنِ مريم ﴾**، أي: على لسان عيسى عليه السلام يعني كفّار أصحاب المائدة، لمّا لم يؤمنوا، قال عيسى: اللّهمَّ العنهم واجعلهم آية فمسخوا خنازير، **﴿ ذلك بما عَصَوْا وكانوا يعتدُون ﴾**.

﴿ كانوا لا يتناهَوْنَ عن منكرٍ فعلوه ﴾، أي: لا ينهى بعضهم بعضاً **﴿ لبئسَ ما كانُوا يفعلون ﴾**. أخبرنا أبو سعيد الشريحي أنا أبو إسحق الثعلبي أنا أبو الحسن محمد بن الحسين أنا أحمد بن محمد بن إسحق أنا أبو يعلى الموصلي أنا وهب بن بقية أنا خالد يعني ابن عبد الله الواسطي عن العلاء بن المسيب عن عمرو بن مرّة عن أبي عُبيدة عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كان فيمن كان قبلكم من بني إسرائيل إذا عمل العامل منهم الخطيئة نهاه الناهي تعذيراً فإذا كان من الغد جالسه وآكله وشاربه كأنه لم يره على الخطيئة بالأمس، فلما رأى الله تبارك وتعالى ذلك منهم ضرب قلوبَ بعضهم على بعض، وجعل منهم القردة والخنازير،

عصوا وكانوا يعتدون﴾ وجلس رسول الله ﷺ وكان متكئاً فقال «لا والذي نفسي بيده حتى تأطروهم على الحق أطرا» قال الترمذي: هذا الحديث حسن غريب قوله أكيله وشريبه وقعيده هو المؤاكل والمشارب والمقاعد فعيل بمعنى فاعل وقوله: لتأطرنه، الأطر العطف يعني لتعطفنه ولتردنه إلى الحق الذي خالفه والقصر والقهر على الشيء.

تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨١﴾ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾

قوله عز وجل: ﴿ترى كثيراً منهم﴾ يعني من اليهود مثل كعب بن الأشرف وأصحابه ﴿يتولون الذين كفروا﴾ يعني: يوالون المشركين من أهل مكة وذلك حين خرجوا إليهم ليجيشوا على رسول الله ﷺ.

وقال ابن عباس: معناه ترى كثيراً من المنافقين يتولون اليهود ﴿لبئس ما قدمت لهم أنفسهم﴾ يعني بئس ما قدموا من العمل لمعادهم في الآخرة ﴿أن سخط الله عليهم﴾ يعني بما فعلوا من موالاة الكفار ﴿وفي العذاب هم خالدون﴾ يعني في الآخرة ﴿ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي﴾ يعني ولو كان هؤلاء الذين يتولون الكفار يؤمنون بالله ويصدقون بمحمد ﷺ وأنه نبي مبعوث إلى كافة الخلق ﴿وما أنزل إليه﴾ يعني ويؤمنون بالقرآن الذي أنزل إليه من ربه ﴿ما اتخذوهم أولياء﴾ يعني ولكن أكثرهم خارجون عن طاعة الله وأمره وإنما قال كثيراً لأنه علم أن منهم من سيؤمن مثل عبد الله بن سلام وأصحابه.

قوله تعالى: ﴿لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا﴾ اللام في قوله لتجدن لام القسم تقديره والله يا محمد إنك لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا بك وصدقوك اليهود والذين أشركوا ووصف الله شدة عداوة اليهود وصعوبة إجابتهم إلى الحق وجعلهم قرناء المشركين عبدة الأصنام في العداوة للمؤمنين وذلك حسداً منهم للمؤمنين ﴿ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى﴾ ووصف لين عريكة النصارى وسهولة قبولهم الحق. قال بعضهم: مذهب اليهود أنه يجب عليهم إيصال الشر والأذى إلى من خالفهم في الدين بأي طريق كان مثل القتل ونهب المال بأنواع المكر والكيد والحيل، ومذهب النصارى خلاف اليهود، فإن الإيذاء في مذهبهم حرام، فحصل الفرق بين اليهود والنصارى. وقيل: إن اليهود مخصوصون بالحرص الشديد على الدنيا وطلب الرياسة ومن كان كذلك كان شديد العداوة لغيره.

ولعنهم على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عَصَوْا وكانوا يعتدون، والذي نفسي بيده لتأمرنّ بالمعروف ولتنهونّ عن المنكر، ولتأخذنّ على يَدِ السفيه ولتأطرنّه على الحق أطراً أو ليضربنّ اللّهُ قلوبَ بعضكم على بعض ويلعنكم كما لعنهم».

قوله تعالى: ﴿ ترى كثيراً منهم ﴾، قيل: من اليهود كعب بن الأشرف وأصحابه، ﴿ يتولّون الذين كفروا ﴾، مشركي مكة حين خرجوا إليهم يجيشون على النبي ﷺ، وقال ابن عباس ومجاهد والحسن: منهم يعني من المنافقين يتولّون اليهود، ﴿ لبئس ما قدّمت لهم أنفسهم ﴾، بئس ما قدّموا من العمل لمعادهم في الآخرة، ﴿ أنْ

وأما النصارى، فإن فيهم من هو معرض عن الدنيا ولذتها وترك طلب الرياسة ومن كان كذلك فإنه لا يحسد أحداً ولا يعاديه بل يكون لين العريكة في طلب الحق لهذا قال تعالى: ﴿ذلك بأن منهم﴾ يعني من النصارى ﴿قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون﴾ ولم يرد به كل النصارى فإن معظم النصارى في عداوة المسلمين كاليهود بل الآية نزلت فيمن آمن من النصارى مثل النجاشي وأصحابه. والقس والقسيس: اسم رئيس النصارى والجمع قسيسون. وقال قطرب: القس والقسيس العالم بلغة الروم. وهذا مما وقع الوفاق بين اللغتين يعني العربية والرومية. وأما الرهبان، فهو جمع راهب. وقيل: الرهبان واحد وجمعه رهابين وهم سكان الصوامع.

فإن قلت: كيف مدحهم الله بذلك مع قوله ﴿ورهبانية ابتدعوها﴾ قلت: إنما مدحهم الله في مقابلة ذم اليهود ووصفهم بشدة العداوة للمؤمنين ولا يلزم من هذا القدر أن يكون مدحاً على الإطلاق. وقيل: إنما مدح من آمن منهم بمحمد ﷺ فوصفهم بالتمسك بدين عيسى إلى أن بعث رسول الله ﷺ فآمنوا به واتبعوه فإن قلت: كفر النصارى أشد وأغلظ من كفر اليهود وأقبح فإن النصارى ينازعون في الإلهيات فيدعون أن لله ولداً واليهود ينازعون في النبوات فيقرون ببعض النبيين وينكرون بعضهم والأول أقبح فلم ذم اليهود ومدح النصارى؟ قلت: إنما هو مدح في مقابلة ذم وليس بمدح على الإطلاق وقد تقدم الفرق بين شدة عداوة اليهود ولين النصارى فلذلك ذم اليهود ومدح النصارى الذين آمنوا منهم. واختلف العلماء في من نزلت هذه الآية فقيل نزلت في النجاشي ملك الحبشة واسمه أصحمة وأصحابه الذين أسلموا معه.

(ذكر قصة الهجرة الأولى وسبب نزول هذه)

قال ابن عباس وغيره من المفسرين في قوله ﴿ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى﴾: إن قريشاً ائتمرت أن يفتنوا المؤمنين عن دينهم فوثبت كل قبيلة على من آمن منهم فأذوهم وعذبوهم فافتتن من افتتن منهم وعصم الله من شاء منهم ومنع الله رسوله محمداً ﷺ بعمه أبي طالب، فلما رأى رسول الله ﷺ ما نزل بأصحابه ولم يقدر أن يمنعهم من المشركين ولم يؤمر بعد بالجهاد، أمر أصحابه بالخروج إلى أرض الحبشة، وقال: إن بها ملكاً صالحاً لا يظلم ولا يظلم عنده أحد فاخرجوا إليه حتى يجعل الله للمسلمين فرجاً فخرج إليها أحد عشر رجلاً وأربع

سَخِطَ اللَّهُ عليهم ﴾، غضب الله عليهم، ﴿ وفي العذاب هم خالدون ﴾.

﴿ ولو كانوا يُؤمنون بالله والنبيِّ ﴾، محمد ﷺ، ﴿ وما أُنزل إليه ﴾، يعني القرآن، ﴿ ما اتخذوهم ﴾ يعني الكفّار، ﴿ أولياء ولكنّ كثيراً منهم فاسقون ﴾، أي خارجون عن أمر الله سبحانه وتعالى.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ لتجدنّ أشدَّ النَّاسِ عداوةً للذين آمنُوا اليهودَ والذينَ أشركوا ﴾، يعني: مشركي العرب، ﴿ ولتجدنّ أقربَهم مودّةً للذين آمنُوا الذينَ قالوا إنّا نصارى ﴾، لم يرد به جميع النصارى لأنهم في عداوتهم المسلمين كاليهود في قتلهم المسلمين، وأسرهم وتخريب بلادهم وهدم مساجدهم وإحراق مصاحفهم، لا ولا كرامة لهم، بل الآية فيمن أسلم منهم مثل النجاشي وأصحابه، وقيل: نزلت في جميع اليهود وجميع النصارى، لأن اليهود أقسى قلباً والنصارى ألين قلباً منهم، وكانوا أقلّ مظاهرة للمشركين من اليهود، قال أهل التفسير: ائتمرت قريش أن يفتنوا المؤمنين عن دينهم، فوثبت كل قبيلة على مَن فيها من المسلمين يُؤذونهم ويعذبونهم، فافتتن مَن افتتن، وعصم الله منهم مَن شاء، ومنع الله تعالى رسوله بعمّه أبي طالب، فلما رأى رسول الله ﷺ ما بأصحابه ولم يقدر على منعهم ولم يُؤمرْ بعدُ بالجهاد أمرهم بالخروج إلى أرض الحبشة، وقال: «إنّ بها ملكاً صالحاً لا يظلم ولا يُظلم عنده أحد، فاخْرُجُوا إليه حتى يجعل الله للمسلمين فرجاً» وأراد به النجاشي واسمه أصحمة وهو بالحبشة

نسوة سراً وهم: عثمان بن عفان وزوجته رقية بنت رسول الله ﷺ، والزبير بن العوام وعبد الله بن مسعود، وعبد الرحمن بن عوف، وأبو حذيفة بن عقبة وامرأته سهلة بنت سهل بن عمرو، ومصعب بن عمير، وأبو سلمة بن عبد الأسد وزوجته أم سلمة بنت أمية، وعثمان بن مظعون وعامر بن ربيعة وامرأته ليلى بنت أبي خيثمة، وحاطب بن عمرو وسهيل بن بيضاء، فخرجوا إلى البحر وأخذوا سفينة بنصف دينار إلى أرض الحبشة وذلك في رجب في السنة الخامسة من مبعث النبي ﷺ، وهذه الهجرة الأولى. ثم خرج بعدهم جعفر بن أبي طالب وتتابع المسلمون فكان جميع من هاجر إلى أرض الحبشة من المسلمين اثنين وثمانين رجلاً سوى النساء والصبيان، فلما علمت قريش بذلك وجهوا عمرو بن العاص وجماعة بهدايا إلى النجاشي وبطارقته ليردهم إليهم، فدخل إليه عمرو وقال له: أيها الملك إنه قد خرج فينا رجل سفَّه عقول قريش وأحلامها وزعم أنه نبي وأنه قد بعث إليك برهط من أصحابه ليفسدوا عليك قومك فأحببنا أن نأتيك ونخبرك خبرهم وأن قومهم يسألونك أن تردهم إليهم. فقال: حتى نسألهم فأمر بهم فأحضروا فلما أتوا باب النجاشي قالوا: يستأذن أولياء الله. فقال: ائذنوا لهم فمرحباً بأولياء الله. فلما دخلوا عليه سلموا، فقال الرهط من المشركين: أيها الملك ألا ترى أنا قد صدَقناك إنهم لم يحيوك بتحيتك التي تحيا بها؟ فقال لهم الملك: ما منعكم أن تحيوني بتحيتي؟ فقالوا له: إنا حييناك بتحية أهل الجنة وتحية الملائكة. فقال لهم النجاشي: ما يقول صاحبكم في عيسى وأمه؟ فقال جعفر بن أبي طالب: يقول هو عبد الله ورسوله وكلمة الله وروح منه ألقاها إلى مريم العذراء، ويقول في مريم إنها العذراء البتول. قال: فأخذ النجاشي عوداً من الأرض وقال: والله ما زال صاحبكم على ما قال عيسى قدر هذا العود. فكره المشركون قوله وتغيرت وجوههم. فقال: هل تعرفون شيئاً مما أُنزل على صاحبكم؟ قالوا: نعم. قال: اقرؤوا، فقرأ جعفر سورة مريم وهنالك قسيسون ورهبان وسائر النصارى فعرفوا ما قرأ فانحدرت دموعهم مما عرفوا من الحق فأنزل الله فيهم ﴿**ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون**﴾ إلى آخر الآيتين فقال النجاشي لجعفر وأصحابه؛ اذهبوا فأنتم سيوم بأرضي يعني أنكم آمنون فرجع عمرو وأصحابه خائبين وأقام المسلمون عند النجاشي بخير دار وخير جوار إلى أن هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة وعلا أمره وقهر أعداءه وذلك في سنة ست من الهجرة وكتب رسول الله ﷺ إلى النجاشي على يد عمرو بن أمية الضمري أن يزوجه أم حبيبة بنت أبي سفيان وكانت قد هاجرت مع زوجها ومات عنها فأرسل النجاشي جارية يقال لها أبرهة إلى أم حبيبة يخبرها

عطية، وإنما النجاشي اسم الملك، كقولهم قيصر وكسرى، فخرج إليها سرّاً أحد عشر رجلاً وأربع نسوة، وهم عثمان بن عفّان وامرأته رقية بنت رسول الله ﷺ، والزبير بن العوّام وعبد الله بن مسعود، وعبد الرحمن بن عوف وأبو حذيفة بن عتبة وامرأته سهلة بنت سهيل بن عمرو، ومصعب بن عمير وأبو سلمة بن عبد الأسد وامرأته أُم سلمة بنت أبي أُمية، وعثمان بن مظعون وعامر بن ربيعة وامرأته ليلى بنت أبي خيثمة، وحاطب بن عمرو وسهل بن بيضاء رضي الله عنهم، فخرجوا إلى البحر وأخذوا سفينة إلى أرض الحبشة بنصف دينار وذلك في رجب في السنة الخامسة من مبعث رسول الله ﷺ، وهذه الهجرة الأولى ثم خرج جعفر بن أبي طالب، وتتابع المسلمون إليها وكان جميع مَن هاجر إلى الحبشة من المسلمين اثنين وثمانين رجلاً سوى النساء والصبيان، فلما علمت قريش بذلك وجّهوا عمرو بن العاص وصاحبه بالهدايا إلى النجاشي وبطارقته ليردّوهم إليهم، فعصمه الله وذُكرت القصة في سورة آل عمران في قوله تعالى: ﴿إن أولى الناس بإبراهيم﴾ [آل عمران: ٦٨]، إلى آخر الآية، فلما انصرفا خائبين أقام المسلمون هناك بخير دار وأحسن جوار إلى أن هاجر رسول الله ﷺ، وعلا أمره وذلك في سنة ستٍّ من الهجرة كتب رسول الله ﷺ إلى النجاشي على يد عمرو بن أمية الضمري ليزوّجه أُم حبيبة بنت أبي سفيان، وكانت قد هاجرت إليه مع زوجها فمات زوجها، ويبعث إليه من عنده من المسلمين فأرسل النجاشي إلى أُم حبيبة جارية

أن رسول الله ﷺ قد خطبها فسرت بذلك وأعطت الجارية أوضاحاً كانت لها وأذنت لخالد بن سعيد في نكاحها فأنكحا رسول الله ﷺ على صداق مبلغه أربعمائة دينار وكان الخاطب لرسول الله ﷺ النجاشي فأرسل إليها بجميع الصداق على يد جاريته أبرهة فلما جاءتها بالدنانير وهبتها منها خمسين ديناراً فلم تأخذها. وقالت: إن الملك أمرني أن لا أخذ منك شيئاً. وقالت: أنا صاحبة دهن الملك وثيابه وقد صدقت بمحمد ﷺ وآمنت به وحاجتي إليك أن تقرئيه مني السلام. قالت: نعم. فقالت قد أمر الملك نساءه أن يبعثن إليك بما عندهن من دهن وعود وكان رسول الله ﷺ يراه عندها فلا ينكره. قالت أم حبيبة: فخرجنا إلى المدينة ورسول الله ﷺ يحاصر خيبر فخرج من خرج إليه ممن قدم من الحبشة وأقمت بالمدينة حتى قدم رسول الله ﷺ فكان يسألني عن النجاشي وقرأت عليه السلام من أبرهة جارية الملك فرد رسول الله ﷺ عليها السلام وأنزل الله عز وجل: ﴿**عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة**﴾ يعني أبا سفيان وذلك بتزوج رسول الله ﷺ أم حبيبة ولما بلغ أبا سفيان أن رسول الله ﷺ تزوج أم حبيبة قال ذلك الفحل لا يجدع أنفه. وبعث النجاشي بعد خروج جعفر وأصحابه إلى النبي ﷺ ابنه أزهى في ستين رجلاً من أصحابه وكتب إليه يا رسول الله إني أشهد أنك رسول الله صادقاً مصدقاً وقد بايعتك وبايعت ابن عمك جعفراً وأسلمت لله رب العالمين وقد بعثت إليك ابني أزهى وإن شئت أن آتيك بنفسي فعلت والسلام عليك يا رسول الله. فركبوا في سفينة في أثر جعفر حتى إذا كانوا في وسط البحر غرقوا ووافى جعفر وأصحابه رسول الله ﷺ وهو بخير ووافى مع جعفر سبعون رجلاً عليهم ثياب الصوف منهم اثنان وستون رجلاً من الحبشة وثمانية من الشام فقرأ عليهم رسول الله ﷺ يس إلى آخرها فبكى القوم حين سمعوا القرآن وآمنوا وقالوا: ما أشبه هذا بما كان ينزل على عيسى عليه السلام فأنزل الله هذه الآية فيهم وهي قول: ﴿**ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى**﴾ يعني: وفد النجاشي الذين قدموا مع جعفر وهم السبعون وكانوا من أصحاب الصوامع.

يقال لها أبرهة تخبرها بخطبة رسول الله ﷺ إيّاها، فأعطتها أوضاحاً لها سروراً بذلك، فأذنت خالد بن سعيد بن العاص حتى أنكحها على صداق أربعمائة دينار، وكان الخاطب لرسول الله ﷺ النجاشي رحمه الله فأنفذ إليها النجاشي أربعمائة دينار على يد أبرهة، فلما جاءتْها بها أعطتها خمسين ديناراً فردّته وقالت: أمرني الملك أن لا آخذ منك شيئاً، وقالت: أنا صاحبة دهن الملك وثيابه، وقد صدقتُ محمداً ﷺ وآمنتُ به، وحاجتي منك أن تُقرئيه منّي السلام، قالـت نعم: قالت أبرهة: وقد أمر الملك نساءه أن يبعثن إليك بما عندهنّ من عُودٍ وعنبر، فكان رسول الله ﷺ يراه عندها فلا ينكر، قالتْ أُم حبيبة فخرجنا إلى المدينة ورسول الله ﷺ بخيبر، فخرج مَن خرج إليه وأقمت بالمدينة حتى قَدِمَ النبي ﷺ فدخلت عليه وكان يسألني عن النجاشي فقرأت عليه من أبرهة السلام فردّ رسول الله ﷺ، وأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿ عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهمْ مودّة ﴾ [الممتحنة: ٧] يعني: أبا سفيان مودّة، يعني: بتزويج أُم حبيبة، ولما جاء أبا سفيان تزويج أُم حبيبة، قال: ذلك الفحل لا يُجدع أنفُه، وبعث النجاشي بعد قدوم جعفر إلى رسول الله ﷺ، ابنه أزهى بن أصحمة بن أبجر في ستّين رجلاً من الحبشة، وكتب إليه: يا رسول الله أشهد أنك رسول الله صادقاً مصدّقاً وقد بايعتك وبايعت ابن عمّك وأسلمت لله ربِّ العالمين، وقد بعثتُ إليك ابني أزهى، وإن شئت آتيك بنفسي فعلت والسلام عليك يا رسول الله، فركبوا سفينة في أثر جعفر وأصحابه حتى إذا كانوا في وسط البحر غرقوا، ووافى جعفر وأصحابه رسولَ الله ﷺ في سبعين رجلاً عليهم ثياب الصوف، منهم اثنان وستّون من الحبشة وثمانية من أهل الشام، فقرأ عليهم رسول الله ﷺ سورة يٰسٓ إلى آخرها، فبكوا حين سمعوا القرآن، وقالوا: آمنّا وقالوا ما أشبه هذا بما كان ينزل على عيسى عليه السلام، فأنزل الله سبحانه وتعالى هذه الآية: ﴿ ولتجدنّ أقربهم مودّة للذين آمنوا الذين قالوا إنّا نصارى ﴾، يعني: وفد النجاشي

وقيل: نزلت في ثمانين رجلاً أربعين من نصارى نجران من بني الحرث بن كعب واثنين وثلاثين من الحبشة وثمانية روميين من أهل الشام. وقال قتادة: نزلت في ناس من أهل الكتاب كانوا على شريعة من الحق بما جاء به عيسى عليه السلام فلما بعث محمد ﷺ آمنوا به وصدقوه فأثنى الله عليهم بقوله: ﴿ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون﴾ يعني لا يتعظمون عن الإيمان والإذعان للحق.

﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٨٦﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾

قوله عز وجل: ﴿وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول﴾ يعني: وإذا سمعوا القرآن الذي أنزل إلى الرسول محمد ﷺ ﴿ترى أعينهم تفيض من الدمع﴾ يقال: فاض الإناء إذا امتلأ حتى يخرج منه ما فيه. وصفهم الله تعالى بسيل الدمع عند البكاء ورقة القلب عن سماع القرآن. قال ابن عباس: يريد النجاشي وأصحابه لما قرأ عليهم جعفر بن أبي طالب سورة مريم. قال: فما زالوا يبكون حتى فرغ جعفر من القراءة ﴿مما عرفوا من الحق﴾ يعني الذي نزل على محمد ﷺ وهو الحق ﴿يقولون﴾ يعني القسيسين والرهبان الذين سمعوا القرآن من جعفر عند النجاشي ﴿ربنا آمنا﴾ يعني بالقرآن وشهدنا أنه حق وصدق ﴿فاكتبنا مع الشاهدين﴾ يعني مع أمة محمد ﷺ الذين يشهدون بالحق ﴿وما لنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق﴾ قال ابن عباس: لما رجع الوفد من عند رسول الله ﷺ لامهم قومهم على ترك دينهم. وقيل: إن اليهود عيروهم وقالوا تركتم دينكم فأجابوا بهذا الجواب. ومعنى الآية: ومالنا لا نؤمن بوحدانية الله وما جاءنا من

الذين قَدِموا مع جعفر وهم السبعون، وكانوا أصحاب الصوامع، وقال مقاتل والكلبي: كانوا أربعين رجلاً اثنان وثلاثون من الحبشة، وثمانية من أهل الشام، وقال عطاء: كانوا ثمانين رجلاً أربعون من أهل نجران من بني الحرث ابن كعب، واثنان وثلاثون من الحبشة وثمانية روميّون من أهل الشام، وقال قتادة: نزلت في ناس من أهل الكتاب كانوا على شريعة من الحق مما جاء به عيسى عليه السلام، فلما بعث الله محمداً ﷺ صدّقوه وآمنوا به فأثنى الله عزّ وجلّ بذلك عليهم. ﴿ ذلك بأنّ منهم قسيسين ﴾، أي علماء، قال قطرب: القس والقسيس العالِم بلغة الروم، ﴿ ورهباناً ﴾، الرهبان العباد أصحاب الصوامع واحدهم راهب، مثل فارس وفرسان، وراكب وركبان وقد يكون واحداً وجمعه رهابين، مثل قربان وقرابين، ﴿ وأنهم لا يستكبرُون ﴾، لا يتعظمون عن الإيمان والإذعان للحق.

﴿ وإذا سمعُوا ما أُنزل إلى الرسول ﴾، محمد ﷺ، ﴿ ترى أعينهم تفيض ﴾، تسيل، ﴿ من الدّمع ممّا عرفُوا من الحق ﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما في رواية عطاء: يريد النجاشي وأصحابه قرأ عليهم جعفر بالحبشة كهيعص [مريم: ١]، فما زالوا يبكون حتى فرغ جعفر من القراءة. ﴿يقولُون ربّنا آمنّا فاكتبْنا معَ الشاهدين﴾، يعني أُمة محمد ﷺ، دليله قوله تعالى: ﴿ لتكونُوا شهداءَ على النّاس ﴾ [البقرة: ١٤٣].

﴿ ومَا لَنا لا نُؤمنُ بالله وما جاءَنا من الحق ﴾، وذلك أن اليهود عيّروهم وقالوا لهم: لِمَ آمنتم؟ فأجابوهم بهذا، ﴿ ونطمع أن يُدخلنا ربُّنا مع القوم الصالحين ﴾، أي: في أمة محمد ﷺ، بيانه أن الأرض يرثها عبادي الصالحون.

الحق من عنده على لسان رسول الله ﷺ ﴿ونطمع﴾ يعني: ونرجو بذلك الإيمان ﴿أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين﴾ يعني مع أمة محمد ﷺ قوله تعالى: ﴿فأثابهم الله بما قالوا﴾ يعني بالتوحيد الذي قالوه وإنما علق الثواب وهو قوله تعالى: ﴿جنات تجري من تحتها الأنهار﴾ بمجرد القول لأنه قد سبق وصفهم بما يدل على إخلاصهم فيما قالوا وهو المعرفة والبكاء المؤذنان بحقيقة الإخلاص واستكانة القلب، لأن القول إذا اقترن بالمعرفة، فهو الإيمان الحقيقي الموعود عليه بالثواب. وقال ابن عباس: بما قالوا يريد سألوا يعني قولهم فاكتبنا مع الشاهدين ﴿خالدين فيها﴾ يعني في الجنات ﴿وذلك جزاء المحسنين﴾ يعني المؤمنين الموحدين المخلصين في إيمانهم ﴿والذين كفروا وكذبوا بآياتنا﴾ لما ذكر الله عز وجل الوعد لمؤمني أهل الكتاب وما أعدلهم من الجنات ذكر الوعيد لمن أقام منهم على كفره وتكذيبه وأطلق القول بذلك ليكون هذا الوعيد لهم ولمن جرى مجراهم في الكفر والتكذيب فقال والذين كفروا وكذبوا بآياتنا ﴿أولئك أصحاب الجحيم﴾ قوله عز وجل: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم﴾ قال علماء التفسير: إن النبي ﷺ ذكر الناس يوماً ووصف القيامة فرقَّ الناس وبكوا، فاجتمع عشرة من الصحابة في بيت عثمان بن مظعون الجمحي وهم: أبو بكر، وعلي بن أبي طالب، وعبد الله بن مسعود، وعبد الله بن عمر، وأبو ذر الغفاري، وسالم مولى أبي حذيفة، والمقداد بن الأسود، وسلمان الفارسي، ومعقل بن مقرن، وتشاوروا واتفقوا على أنهم يترهبون ويلبسون المسوح ويجبون مذاكيرهم ويصومون الدهر ويقومون الليل ولا ينامون على الفرش ولا يأكلون اللحم والودك ولا يقربون النساء ولا الطيب ويسيحون في الأرض. فبلغ ذلك النبي ﷺ، فأتى دار عثمان بن مظعون فلم يصادفه، فقال لامرأته: أحق ما بلغني عن زوجك وأصحابه؟ فكرهت أن تكذب وكرهت أن تبدي سر زوجها، فقالت: يا رسول الله إن كان قد أخبرك عثمان فقد صدق. فانصرف رسول الله ﷺ فلما جاء عثمان أخبرته بذلك فأتى هو وأصحابه العشرة إلى رسول الله ﷺ: فقال لهم رسول الله ﷺ «ألم أنبأ أنكم اتفقتم على كذا وكذا فقالوا بلى يا رسول الله وما أردنا إلا الخير فقال رسول الله ﷺ إني لم أؤمر بذلك، ثم قال رسول الله ﷺ: إن لأنفسكم عليكم حقاً فصوموا وأفطروا وقوموا وناموا فإني أقوم وأنام وأصوم وأفطر وآكل اللحم والدسم وآتي النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني ثم جمع الناس وخطبهم فقال: ما بال أقوام حرموا النساء والطعام والطيب وشهوات الدنيا فإني لست آمركم أن تكونوا قسيسين ورهباناً فإنه ليس في ديني ترك اللحم والنساء ولا اتخاذ الصوامع وإن سياحة أمتي الصوم ورهبانيتهم الجهاد، اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وحجوا واعتمروا وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وصوموا رمضان واستقيموا يستقم لكم فإنما هلك من كان قبلكم بالتشديد شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم فتلك بقاياهم في الديار والصوامع فأنزل الله عز وجل هذه الآية: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم﴾ يعني الطيبات اللذيذات التي تشتهيها الأنفس وتميل إليها القلوب من المطاعم الطيبة والمشارب اللذيذة فأعلم الله عز وجل بهذه الآية

﴿ فأثابهمُ اللَّهُ ﴾، أعطاهم الله، ﴿ بما قالوا جنّاتٍ تجري من تحتها الأنهارُ خالدين فيها ﴾، وإنّما أنجح قولهم وعلّق الثواب بالقول لاقترانه بالإخلاص، بدليل قوله: ﴿ وذلك جزاءُ المحسنين ﴾، يعني: الموحدين المؤمنين، وقوله: ﴿ ترى أعينَهم تفيضُ من الدمع ممّا عرفُوا منَ الحق ﴾، يدلّ على أن الإخلاص والمعرفة بالقلب مع القول يكون إيماناً.

﴿ والذين كفرُوا وكذّبُوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم ﴾.

قوله تعالى: ﴿ يا أيّها الذين آمنوا لا تحرّموا طيباتِ ما أحلَّ اللَّهُ لكم ﴾، الآية قال أهل التفسير: ذكر النبي ﷺ الناس يوماً ووصف القيامة فرقّ له الناس وبكوا فاجتمع عشرة من أصحابه في بيت عثمان بن مظعون الجمحي، وهم أبو بكر الصديق رضي الله عنه وعلي بن أبي طالب رضي الله عنه، وعبد الله بن مسعود وعبد الله بن

أن شريعة نبيه ﷺ غير ما عزموا عليه من ترك الطيبات وأنه لا ينبغي أن تجتنب الطيبات المباحات ومعنى: لا تحرموا، لا تعتقدوا تحريم الطيبات المباحات، فإن من اعتقد تحريم شيء أحله الله فقد كفر. أما ترك لذات الدنيا وشهواتها والانقطاع إلى الله والتفرغ لعبادته من غير إضرار بالنفس ولا تفويت حق الغير ففضيلة لا مانع منها بل مأمور بها.

وقوله تعالى: ﴿ولا تعتدوا﴾ يعني: ولا تجاوزوا الحلال إلى الحرام. وقيل: معناه ولا تجبوا أنفسكم فسمى جب المذاكير اعتداء وقيل معناه ولا تعتدوا بالإسراف في الطيبات ﴿إن الله لا يحب المعتدين﴾ يعني المجاوزين الحلال إلى الحرام.

﴿وَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿وكلوا مما رزقكم الله حلالاً طيباً﴾ يعني: وكلوا أيها المؤمنون من رزق الله الذي رزقكم وأحله

عمر، وأبو ذر الغفاري وسالم مولى أبي حذيفة، والمقداد بن الأسود وسلمان الفارسي، ومعقل بن مقرن رضي الله عنهم، وتشاوروا واتفقوا على أن يترهبوا ويلبسوا المسوح ويجبوا مذاكيرهم، ويصوموا الدهر، ويقوموا الليل ولا يناموا على الفرش، ولا يأكلوا اللحم والودك ولا يقربوا النساء والطيب ويسيحوا في الأرض فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فأتى دار عثمان بن مظعون فلم يصادفه فقال لامرأته أُم حكيم بنت أبي أُمية، واسمها الخولاء، وكانت عطارة: «أحقٌّ ما بلغني عن زوجك وأصحابه»؟ فكرهت أن تكذب رسول الله ﷺ وكرهت أن تبدي على زوجها، فقالت: يا رسول الله إن كان أخبرك عثمان فقد صدقك فانصرف رسول الله ﷺ، فلما دخل عثمان أخبرته بذلك فأتى رسولَ الله ﷺ هو وأصحابه، فقال لهم رسول الله ﷺ: «ألم أنبأ أنكم اتفقتم على كذا وكذا»؟ قالوا: بلى يا رسول الله، وما أردنا إلاّ الخير، فقال ﷺ: «إني لم أُومر بذلك»، ثم قال: «إنّ لأنفسكم عليكم حقاً فصوموا وأفطروا وقوموا وناموا، فإني أقوم وأنام وأصوم وأفطر، وآكل اللحم والدّسم وآتي النساء، فمَن رغب عن سُنّتي فليس منّي»، ثم جمع الناس وخطبهم فقال: «ما بال أقوام حرّموا النساء والطعام والطيب والنوم وشهوات النساء؟ أما إني فلستُ آمركم أن تكونوا قسّيسين ورهباناً فإنه ليس في ديني ترك اللحم والنساء، ولا اتخاذ الصوامع، وإن سياحة أُمتي الصوم ورهبانيتهم الجهاد، اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، وحجّوا واعتمروا وأقيموا الصلاة وآتُوا الزكاة، وصوموا رمضان واستقيموا يُستقمْ لكم، فإنّما هلك مَن كان قبلكم بالتشديد، شدّدوا على أنفسكم فشدّد الله عليهم، فأولئك بقاياهم في الديار والصوامع»، فأنزل الله عزّ وجلّ هذه الآية. أخبرنا أبو بكر محمد بن عبد الله بن أبي توبة أنا أبو طاهر محمد بن أحمد بن الحارث أنا أبو الحسن محمد بن يعقوب الكسائي أنا عبد الله بن محمود أنا إبراهيم بن عبد الله الخلال أنا عبد الله بن المبارك عن رشد بن سعد حدّثني أبو نعيم عن سعد بن مسعود أن عثمان بن مظعون رضي الله عنه أتى النبي ﷺ فقال: ائذنْ لنا في الاختصاء، فقال رسول الله ﷺ: «ليس منّا مَن خصي ولا مَن اختصى، خصاء أُمتي الصيام»، فقال: يا رسول الله ائذن لنا في السياحة، فقال: «إنّ سياحة أمتي الجهاد في سبيل الله»، فقال: يا رسول الله ائذن لنا في الترهّب، فقال: «إنّ ترهّب أمتي الجلوس في المساجد وانتظار الصلاة».

ورُوِيَ عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رجلاً قال: يا رسول الله إني أصبت من اللحم فانتشرت وأخذتني شهوة، فحرّمت اللحم، فأنزل الله تعالى: ﴿ يا أيّها الذينَ آمنُوا لا تُحرّموا طيباتِ ما أحلّ الله لكم ﴾، يعني: اللذّات التي تشتهيها النفوس، مما أحلّ الله لكم من المطاعم الطيبة والمشارب اللذيذة، ﴿ ولا تعتدُوا ﴾، ولا تجاوزوا الحلال إلى الحرام. وقيل: جبّ المذاكير ﴿ إنّ الله لا يحبُّ المعتدين ﴾.

﴿ وكلُوا ممّا رزقكم اللّهُ حلالاً طيباً ﴾، قال عبد الله بن المبارك: الحلال ما أخذته من وجهه، والطيب ما

لكم من المطاعم والمشارب. قال عبد الله بن المبارك: الحلال ما أخذته من وجهه، والطيب ما غذى وأنمى، فأما الجامد كالطين والتراب وما لا يغذي فمكروه إلا على وجه التداوي. وعن ابن عباس: أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال يا رسول الله إني إذا أصبت اللحم انتشرت للنساء وأخذتني شهوتي فحرمت عليَّ اللحم فأنزل الله: ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين وكلوا مما رزقكم الله حلالاً طيباً**﴾ أخرجه الترمذي وقال حديث حسن غريب وله عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ يحب الحلواء والعسل. وله عن أبي هريرة قال: أتي رسول الله ﷺ بلحم فرفع إليه الذراع وكانت تعجبه فنهش منها قالت عائشة: ما كان الذراع أحب إلى رسول الله ﷺ ولكن كان لا يجد اللحم إلا غباً وكان يعجل إليه الذراع لأنه أعجلها نضجاً أخرجه الترمذي.

وقوله تعالى: ﴿**واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون**﴾ هذا تأكيد للوصية بما أمر الله تعالى به وزاد التأكيد بقوله الذي أنتم به مؤمنون لأن الإيمان به يوجب التقوى في الانتهاء إلى أمر الله به وعما نهى عنه. وفي الآية دليل على أن الله عز وجل قد تكفل برزق كل أحد من عباده فإنه تعالى لو لم يتكفل بذلك لما قال وكلوا مما رزقكم الله وإذا تكفل برزق العبد وجب أن لا يبالغ في الطلب والحرص على الدنيا وأن يعول على ما وعده الله وتكفل به فإنه تعالى أكرم من أن يخلف الوعد.

لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾

قوله تعالى: ﴿**لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم**﴾ قال ابن عباس: «لما نزلت يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ـ قالوا يا رسول الله كيف نصنع بأيماننا التي حلفنا عليها وكانوا قد حلفوا على ما اتفقوا عليه فأنزل الله عز وجل هذه الآية لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم» وقد تقدم تفسير اللغو في الأيمان في سورة البقرة وقوله تعالى: ﴿**ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان**﴾ يعني ولكن يؤاخذكم بما تعمدتم وقصدتم به اليمين ومنه قول الفرزدق:

ولست بمأخوذ بلغو تقوله إذا لم تعمد عاقدات العزائم

وفي الآية حذف تقديره ولكن يؤاخذكم بما عقدتم إذا حنثتم فحذفه لأنه معلوم عند السامعين ﴿**فكفارته**﴾ يعني

غذّى وأنمى، فأما الجوامد كالطين والتراب وما لا يغذّي فمكروه إلّا على وجه التداوي، ﴿ **واتقوا الله الذي أنتمْ بهِ مُؤمنون** ﴾، أخبرنا أبو محمد عبد الله بن عبد الصمد الجوزجاني أنا أبو القاسم علي بن أحمد الخزاعي أنا أبو سعيد الهيثم بن كليب أنا أبو عيسى الترمذي أخبرنا أحمد بن إبراهيم الدورقي وسلمة بن شبيب ومحمود بن غيلان قالوا: أخبرنا أبو أسامة عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان النبي ﷺ يحبُّ الحلواءَ والعسلَ.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ **لا يُؤاخذكُم اللَّهُ باللّغو في أيمانِكم** ﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما: لمّا نزلت: ﴿ **لا تُحرّموا طيباتِ ما أحلّ اللّهُ لكم** ﴾ [المائدة: ٨٧]، قالوا: يا رسول الله كيف نصنع بأيماننا التي حلفنا عليها؟ وكانوا حلفوا على ما اتفقوا عليه، فأنزل الله: ﴿ **لا يُؤاخذُكُم اللّهُ باللّغو في أيمانِكُم** ﴾، ﴿ **ولكنْ يُؤاخذكم بما عقّدتم الأيمان** ﴾، قرأ حمزة والكسائي وأبو بكر (عقدتم) بالتخفيف، وقرأ ابن عامر «عاقدتم» بالألف وقرأ الآخرون «عقّدتم» بالتشديد، أي: وكّدتم، والمراد من الآية قصدتم وتعمّدتم، ﴿ **فكفّارته** ﴾، أي: كفّارة ما عقدتم

فكفارة إيمانكم التي عقدتموها إذا حنثتم ﴿إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم﴾ يعني من أقصد ذلك لأن من الناس من يسرف في إطعام أهله ومنهم من يقتر عليهم فأمر الله بالعدل في أداء الكفارة. وقيل: أراد بالأوسط في القيمة فلا يكون غالياً من أعلى الموجود ولا خسيس الثمن من أردأ الموجود بل الوسط في القيمة وقيل أراد بالأوسط الأفضل قال ابن عباس: كل شيء في كتاب الله أوسط فهو أفضل فعلى هذا يكون المعنى من خير ما تطعمون أهليكم وأفضله ﴿أو كسوتهم﴾ هو معطوف على محل أوسط أي كما تطعمون المساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم فكذلك فاكسوهم من أوسط الكسوة ﴿أو تحرير رقبة﴾ يعني عتق رقبة والمراد جملة الشخص.

(فصل في حكم الآية وفيه مسائل)

المسألة الأولى: في بيان الكفارة وهي أربعة أنواع:

النوع الأول: من الكفارة الإطعام فيجب إطعام عشرة مساكين واختلفوا في قدر ما يطعم لكل مسكين فذهب قوم إلى أنه يطعم لكل مسكين مد من الطعام بمد النبي ﷺ وهو رطل وثلث بالبغدادي من غالب قوت البلد وكذلك سائر الكفارات وهذا قول ابن عباس وابن عمر وزيد بن ثابت وبه قال سعيد بن المسيب والقاسم بن محمد وسليمان بن يسار وعطاء والحسن وإليه ذهب مالك والشافعي ويروى عن عمر وعلي وعائشة أنه يطعم لكل مسكين مدان من بر وهو نصف صاع وبه قال أهل العراق. وقال أبو حنيفة: إن أطعم من الحنطة فنصف صاع وإن أطعم من غيرها فصاع وهو قول الشعبي والنخعي وسعيد بن جبير ومجاهد. وقال أحمد بن حنبل: يطعم لكل مسكين مد من البر أو نصف صاع من غيرها مثل التمر والشعير: ومن شرط الإطعام تمليك الطعام للمساكين فلو عشاهم وغداهم لم يجزه وقال أبو حنيفة: يجزيه ذلك ولا يجوز إخراج القيمة في الكفارة كالدراهم والدنانير. وقال أبو حنيفة: يجوز ذلك ولا إخراج الدقيق والخبز في الكفارة بل يجب إخراج الحب، وجوّزه أبو حنيفة ولا يجوز صرف الكل إلى مسكين واحد في عشرة أيام.

النوع الثاني: من الكفارات الكسوة واختلف العلماء في قدرها فذهب قوم إلى أنه يكسو كل مسكين ثوباً واحداً مما يقع عليه اسم الكسوة إزار أو رداء أو قميص أو عمامة أو سراويل أو كساء ونحو ذلك وهذا قول ابن عباس والحسن ومجاهد وعطاء وطاوس وإليه ذهب الشافعي. وقال مالك: يجب أن يكسو كل مسكين ما تجوز به الصلاة فيكسو الرجل ثوباً والمرأة ثوبين درعاً وخماراً. وقال أحمد: للرجال ثوباً وللمرأة ثوبين درعاً وخماراً وهو أدنى ما يجزى في الصلاة وقال ابن عمر: يجب قميص وإزار ورداء. وقال أبو موسى الأشعري: يجب ثوبان وهو قول

الأيمان إذا حنثتم، ﴿ إطعامُ عشرةِ مساكين ﴾، واختلفوا في قدره فذهب قوم إلى أنه يُطعم كل مسكين مُدّاً من الطعام بمدّ النبي ﷺ، وهو رطل وثلث من غالب قوت البلد، وكذلك في جميع الكفّارات، وهو قول زيد بن ثابت وابن عباس وابن عمر، وبه قال سعيد بن المسيب والقاسم وسليمان بن يسار وعطاء والحسن، وقال أهل العراق: لكل مسكين مُدّانِ، وهو نصف صاع، يُروى ذلك عن عمر وعليّ رضي الله عنهما، وقال أبو حنيفة رضي الله عنه: إن أطعم من الحنطة فنصف صاع، وإن أطعم من غيرها فصاع، وهو قول الشعبي والنخعي وسعيد بن جبير ومجاهد والحَكم، ولو غدّاهم وعشّاهم لا يجوز، وجوّزه أبو حنيفة رضي الله عنه، ويُروى ذلك عن عليّ رضي الله عنه، ولا تجوز الدراهم والدنانير ولا الخبز ولا الدقيق، بل يجب إخراج الحبِّ إليهم، وجوّز أبو حنيفة رضي الله عنه كل ذلك، ولو صرف الكل إلى مسكين واحد لا يجوز، وجوّز أبو حنيفة أن يصرف طعام عشرة إلى مسكين واحد في عشرة أيام، ولا يجوز أن يُصرَف إلّا إلى مسلم حرٍّ محتاج، فإن صُرِفَ إلى ذمّي وجوّز أبو حنيفة رضي الله عنه صرفها إلى أهل الذمّة واتفقوا على أنّ صرف الزكاة إلى أهل الذمّة لا يجوز. قوله تعالى: ﴿ مِنْ أوسطِ ما تُطعمُون

سعيد بن المسيب وابن سيرين وقال إبراهيم النخعي: يجب ثوب جامع كالملحفة.

النوع الثالث: من الكفارات العتق فيجب إعتاق رقبة مؤمنة وكذلك يجب في جميع الكفارات وأجاز أبو حنيفة والثوري إعتاق الرقبة الكافرة في جميع الكفارات إلا كفارة القتل فإن الله قيد الرقبة بالإيمان في كفارة القتل ومذهب الشافعي أن المطلق يحمل على المقيد ولا يجوز إعتاق المرتد في الكفارات بالإجماع ويشترط أن تكون الرقبة سليمة الرق حتى لو أعتق في الكفارة مكاتباً أو أم ولد أو عبداً اشتراه بشرط العتق أو اشترى قريبه الذي يعتق عليه فكل هؤلاء لا يجزى في إعتاق الكفارة وجوز أصحاب الرأي عتق المكاتب في الكفارة إذا لم يؤد من نجوم الكتابة شيئاً وجوزوا عتق القريب في الكفارة ويشترط أن تكون الرقبة سليمة من كل عيب يضر بالعمل فلا يجزى مقطوع اليد أو الرجل ولا الأعمي ولا الزمن ولا المجنون المطبق ويجوز عتق الأعور والأصم ومقطوع الأذنين والأنف لأن هذه العيوب كلها لا تضر بالعمل وعند أبي حنيفة كل عيب يفوت جنساً من المنفعة يمنع الجواز فيجوز عتق مقطوع إحدى اليدين ولا يجوز عتق مقطوع الأذنين في الكفارة.

النوع الرابع: من الكفارات الصوم وهو قوله تعالى: ﴿**فمن لم يجد**﴾ يعني الكفارة ﴿**فصيام ثلاثة أيام**﴾ يعني فإذا عجز من لزمته كفارة اليمين عن الإطعام أو الكسوة أو العتق وجب عليه صيام ثلاثة أيام وهو قوله تعالى: فصيام ثلاثة أيام، يعني فعليه صيام ثلاثة أيام. قال الشافعي: إذا كان عنده قوته أو قوت عياله يومه وليلته وفضل ما يطعم عشرة مساكين لزمته الكفارة بالإطعام وإن لم يكن عنده هذا القدر جاز له الصيام. وقال أبو حنيفة: يجوز له الصيام إذا لم يكن عنده من المال ما تجب فيه الزكاة فجعل من لا زكاة عليه عادماً. وقال الحسن: إذا لم يجد درهمين صام. وقال سعيد بن جبير: ثلاثة دراهم. واختلفوا في وجوب التتابع في الصيام عن كفارة اليمين على قولين: أحدهما: أنه يجب التتابع فيه قياساً على كفارة الظهار والقتل وهو قول ابن عباس ومجاهد وطاوس وعطاء وقتادة وهو مذهب أبي

أهليكم﴾، أي: من خير قوت عيالكم، وقال عبيدة السلماني: الأوسط الخبز والخل، والأعلى الخبز واللحم، والأدنى الخبز البحت والكل مُجْزٍ، قوله تعالى: ﴿ **أو كِسْوَتُهُمْ** ﴾، كلّ مَن لزمته كفّارة اليمين فهو فيها مخيّر إن شاء أطعم عشرة من المساكين، وإنْ شاء كساهم، وإن شاء أعتق رقبة، فإن اختار الكسوة، فاختلفوا في قدرها، فذهب قوم إلى أنه يكسو كلّ مسكين ثوباً واحداً ممّا يقع عليه اسم الكسوة، إزار أو رِدَاء أو قميص أو عمامة أو كِسَاء أو نحوها، وهو قول ابن عباس والحسن ومجاهد وعطاء وطاوس، وإليه ذهب الشافعي رحمه الله تعالى، وقال مالك: يجب لكل إنسان ما تجوز فيه صلاته، فيكسو الرجال ثوباً واحداً والنساء ثوبين درعاً وخماراً، وقال سعيد بن المسيب لكل مسكين ثوبان، قوله عزّ وجلّ: ﴿ **أو تحرير رقبة** ﴾، وإذا اختار العتق يجب إعتاق رقبة مؤمنة، وكذلك جميع الكفّارات، مثل كفّارة القتل والظهار والجماع في نهار رمضان، يجب فيها إعتاق رقبة مؤمنة، وأجاز أبو حنيفة رضي الله عنه والثّوري رضي الله عنه إعتاق الرقبة الكافرة في جميعها إلاّ في كفّارة القتل، لأن الله تعالى قيّد الرقبة فيها بالإيمان، قلنا: المطلق يُحمل على المقيّد كما أن الله تعالى قيّد الشهادة بالعدالة في موضع فقال: ﴿ وأشهدوا ذوي عدلٍ منكم ﴾ [الطلاق: ٢]، وأطلق في موضع، فقال: ﴿ واستشهدُوا شهيدين منْ رجالكم﴾ [البقرة: ٢٨٢]، ثم العدالة شرط في جميعها حملاً للمطلق على المقيّد، كذلك هذا، ولا يجوز إعتاق المرتد بالاتفاق عن الكفّارة، ويُشترط أن يكون سليم الرقّ حتى لو أعتق عن كفّارته مُكاتباً أو أُم ولد أو عبداً اشتري بشرط العتق أو اشترى قريبه الذي يعتق عليه بنيّة الكفّارة، يُعتق ولكن لا يجوز عن الكفّارة، وجوّز أصحاب الرأي عتق المكاتب إذا لم يكن أدّى شيئاً من النجوم، وعتق القريب عن الكفّارة ويشترط أن تكون الرقبة سليمة من كل عيب يضرّ بالعمل ضرراً بيّناً حتى لا يجوز مقطوع إحدى اليدين، أو إحدى الرجلين، ولا الأعمى ولا الزّمِن ولا المجنون المطبق، ويجوز الأعور

حنيفة وأحمد وأحد قولي الشافعي والقول الثاني: لا يجب التتابع في كفارة اليمين فإن شاء تابع وإن شاء فرق والتتابع أفضل وبه قال الحسن ومالك وهذا القول الثاني للشافعي.

المسألة الثانية: كلمة أو للتخيير بين الإطعام والكسوة والعتق فإن شاء أطعم وإن شاء كسا وإن شاء أعتق فبأيها أخذ المكفر فقد أصاب وخرج عن العهدة.

المسألة الثالثة: لا يجوز صرف شيء من الكفارات إلا إلى مسلم حر محتاج فلو صرف إلى ذمي أو عبد أو غني لا يجزيه. وجوز أبو حنيفة صرفها إلى أهل الذمة واتفقوا على أن صرف الزكاة إلى أهل الذمة لا يجوز.

المسألة الرابعة: اختلفوا في تقديم الكفارة على الحنث فذهب قوم إلى جوازه لما روي عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «من حلف على يمينه فرأى خيراً منها فليكفر عن يمينه وليفعل الذي هو خير» أخرجه الترمذي (ق) عن عبد الرحمن بن سمرة. قال: قال رسول الله ﷺ «يا عبد الرحمن لا تسأل الأمارة فإنها إن أتتك عن مسألة وكلت إليها وإن أتتك من غير مسألة أعنت عليها وإذا حلفت على يمين فرأيت غيرها خيراً منها فأت الذي هو خير وكفِّر عن يمينك» وهذا قول عمر وابن عباس وعائشة وعامة الفقهاء وبه قال الحسن وابن سيرين وإليه ذهب مالك والأوزاعي والشافعي. إلا أن الشافعي قال: إن كفر بالصوم قبل الحنث لا يجوز لأنه بدني إنما يجوز الطعام أو الكسوة أوالعتق. وقال أبو حنيفة: لا يجوز تقديم الكفارة على الحنث وقوله ﴿ذلك﴾ إشارة إلى ما تقدم ذكره من الإطعام أو الكسوة أو العتق أو الصوم عند العجز ﴿كفارة أيمانكم إذا حلفتم﴾ يعني: وحنثتم، لأن الكفارة لا تجب بمجرد اليمين إنما تجب بالحنث بعد اليمين وفيه إشارة إلى تقديم الكفارة على اليمين لا يجوز، بل بعد اليمين وقبل الحنث كما تقدم ﴿واحفظوا أيمانكم﴾ يعني قللوا أيمانكم ففيه النهي عن كثرة الحلف ومنه قول الشاعر:

قليل الألايا حافظ ليمينه

والأصمّ ومقطوع الأذنين والأنف لأن هذه العيوب لا تضرّ بالعمل ضرراً بيّناً، وعند أبي حنيفة رضي الله عنه كلُّ عيب يفوّت جنساً من المنفعة يمتنع الجواز، حتى جوّز مقطوع إحدى اليدين، ولم يجوّز مقطوع الأذنين. قوله عزّ وجلّ: ﴿ فَمَنْ لم يجدْ فصيامُ ثلاثةِ أيام ﴾، إذا عجز الذي لزمته كفّارة اليمين عن الطعام والكسوة وتحرير الرقبة، يجب عليه صوم ثلاثة أيام، والعجز أن لا يفضل من ماله عن قوته وقوت عياله وحاجته ما يطعم أو يكسو أو يعتق فإنه يصوم ثلاثة أيام، وقال بعضهم: إذا ملك ما يمكنه الإطعام وإن لم يفضل عن كفايته فليس له الصيام، وهو قول الحسن وسعيد بن جبير، واختلفوا في وجوب التتابع في هذا الصوم، فذهب جماعة إلى أنه لا يجب فيه التتابع بل إن شاء تابع وإن شاء فرّق، والتتابع أفضل وهو أحد قولي الشافعي، وذهب قوم إلى أنه يجب فيه التتابع قياساً على كفّارة القتل والظهار، وهو قول الثّوري وأبي حنيفة، ويدلّ عليه قراءة ابن مسعود رضي الله عنه صيام ثلاثة أيام متتابعات. ﴿ ذلك ﴾، أي: ذلك الذي ذكرت، ﴿ كفّارة أيمانِكم إذا حلفتم ﴾، وحنثتم، فإن الكفّارة لا تجب إلّا بعد الحنث، واختلفوا في تقديم الكفّارة على الحنث، فذهب قوم إلى جوازه، لِما روينا أنّ النبي ﷺ قال: «مَنْ حلف على يمينٍ فرأى غيرَها خيراً منها فليُكفّر عن يمينه، وليفعلِ الذي هو خير». وهو قول عمر وابن عباس وعائشة رضي الله عنها وبه قال الحسن وابن سيرين، وإليه ذهب مالك والأوزاعي والشافعي، إلّا أن الشافعي يقول: إن كفّر بالصوم قبل الحنث لأنه يجوز لأنه بدني، إنما يجوز بالإطعام أو الكسوة أو العتق كما يجوز تقديم الزكاة على الحول، ولا يجوز تعجيل صوم رمضان قبل وقته، وذهب قوم إلى أنه لا يجوز تقديم الكفّارة على الحنث، وبه قال أبو حنيفة رضي الله عنه. قوله عزّ وجلّ: ﴿ واحْفَظُوا أيمانَكم ﴾، قيل: أراد به ترك الحلف، أي: لا تحلفوا،

وصفه بأنه لا يحلف وقيل في معنى الآية: واحفظوا أيمانكم عن الحنث إذا حلفتم لئلا تحتاجوا إلى التكفير وهذا إذا لم يحلف على ترك مندوب أو فعل مكروه فإن حلف على ذلك فالأفضل، بل الأولى أن يحنث نفسه ويكفر لما روي عن أبي موسى الأشعري أن رسول الله ﷺ قال: «إني والله إن شاء الله لا أحلف على يمين فأرى غيرها خير منها إلا كفرت عن يميني وأتيت الذي هو خير» أخرجاه في الصحيحين قوله تعالى: ﴿كذلك يبين الله لكم آياته﴾ يعني كما بيَّن لكم كفارة أيمانكم إذا حنثتم كذلك يبين لكم جميع ما تحتاجون إليه في أمر دينكم ﴿لعلكم تشكرون﴾ يعني نعمه التي أنعم بها عليكم أن بيَّن لكم آياته ومعالم شريعته قوله عز وجل:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾﴾

﴿يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس﴾ لما أنزل الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم﴾ وقوله: ﴿وكلوا مما رزقكم الله حلالاً طيباً﴾ وكانت الخمر والميسر مما يستطاب عندهم بين الله تعالى في هذه الآية أن الخمر والميسر غير داخلين في جملة الطيبات المحللات، بل هما من جملة المحرمات والخمر كل ما خامر العقل وغطاه والميسر القمار وقد تقدم تفسيرهما في سورة البقرة والأنصاب هي الحجارة التي كانوا ينصبونها للعبادة ويذبحون عندها والأزلام هي القداح التي كانوا يستقسمون بها وتقدم تفسير ذلك. والرجس في اللغة الشيء الخبيث المستقذر ﴿من عمل الشيطان﴾ يعني من تزيينه وإغوائه ودعائه إياكم إليها وليس المراد أنها من عمل يديه ﴿فاجتنبوه﴾ يعني كونوا جانباً منه والضمير في قوله فاجتنبوه عائد إلى الرجس لأنه اسم جامع للكل كأنه قال إن هذه الأربعة الأشياء كلها رجس فاجتنبوه ﴿لعلكم تفلحون﴾ يعني لكم لكي تدركوا الفلاح إذا اجتنبتم هذه المحرمات التي هي رجس قوله تعالى: ﴿إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر﴾ اختلفوا في سبب نزول هذه الآية فروى أبو ميسرة أن عمر بن الخطاب قال: اللهم بيِّن لنا في الخمر والميسر بياناً شافياً فنزلت الآية في سورة البقرة: ﴿يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير﴾ الآية فدعي عمر فقرئت عليه فقال: اللهم بيِّن لنا في الخمر والميسر بياناً شافياً فنزلت الآية التي في سورة النساء: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى﴾ فدعي عمر فقرئت عليه ثم قال: اللهم بين لنا في الخمر والميسر بياناً شافياً فنزلت الآية التي في المائدة ﴿إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر﴾ إلى قوله ﴿فهل أنتم منتهون﴾

وقيل: هو الأصح، أراد به: إذا حلفتم فلا تحنثوا، فالمراد منه حفظ اليمين عن الحنث هذا إذا لم يكن يمينه على ترك مندوب أو فعل مكروه، فإن حلف على فعل مكروه أو ترك مندوب، فالأفضل أن يُحنث نفسه ويُكفّر، لِما أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا حجّاج بن منهال أنا جرير بن حازم عن الحسن عن عبد الرحمن بن سمرة قال: قال النبي ﷺ: «يا عبد الرحمن بن سمرة لا تسأل الإمارة، فإنك إن أوتيتها عن مسألة وُكِلْتَ إليها، وإن أُوتيتها من غير مسألة أُعِنتَ عليها، وإذا حلفتَ على يمينَ فرأيت غيرَها خيراً منها فكفّر عن يمينك وأتِ الذي هو خير». ﴿ كذلك يُبيّنُ اللّهُ لكم آياتِه لعلّكم تشكرُون ﴾.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ يا أيّها الذين آمنوا إنّما الخمرُ والميسرُ ﴾، أي: القمار ﴿ والأنصابُ ﴾، يعني: الأوثان، سُمّيت بذلك لأنهم كانوا ينصبونها، واحدها نَصْب بفتح النون وسكون الصاد، ونُصب بضمّ النون مخفّفاً ومثقّلاً،

فدعي عمر فقرئت عليه فقال انتهينا انتهينا أخرجه الترمذي من طريقين. وقال رواية أبي ميسرة هذه أصح وأخرجه أبو داود والنسائي. وروى مصعب بن سعيد عن أبيه قال: صنع رجل من الأنصار طعاماً فدعانا فشربنا وذلك قبل أن تحرم زاد حتى انتشينا فتفاخرت الأنصار وقريش فقالت الأنصار نحن أفضل منكم فقال سعد بن أبي وقاص: المهاجرون خير منكم فأخذ رجل من الأنصار لحى جمل فضرب به أنف سعد ففزره فأتى سعد رسول الله ﷺ فأخبره فنزلت هذه الآية: ﴿**يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر**﴾ إلى قوله ﴿**فهل أنتم منتهون**﴾ وقال ابن عباس: نزل تحريم الخمر في قبيلتين من قبائل الأنصار شربوا حتى ثملوا وعبث بعضهم ببعض فلما صحوا جعل الرجل يرى الأثر بوجهه ولحيته فيقول فعل بي هذا فلان أخي وكانوا إخوة ليس في قلوبهم ضغائن فأنزل الله تعالى تحريم الخمر في هذه الآية ﴿**يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر**﴾ إلى قوله ﴿**فهل أنتم منتهون**﴾ وأما تفسير الآية فقوله تعالى إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر يعني إنما يزين لكم الشيطان شرب الخمر والقمار بالقداح وهو الميسر ويحسن ذلك لكم إرادة أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء بسبب شرب الخمر لأنها تزيل عقل شاربها فيتكلم بالفحش وربما أفضى ذلك إلى المقاتلة وذلك سبب إيقاع العداوة والبغضاء بين شاربيها.

وأما الميسر، فقال قتادة: كان الرجل في الجاهلية يقامر على أهله وماله فيقمر فيقعد حزيناً سليباً ينظر إلى ماله في يد غيره فيورثه ذلك العداوة والبغضاء فنهى الله عن ذلك وتقدم ما فيه والله أعلم بما يصلح خلقه فظهر بذلك أن الخمر والميسر سببان عظيمان في إيقاع العداوة والبغضاء بين الناس وهذا فيما يتعلق بأمر الدنيا وفيهما مفاسد تتعلق بأمر الدين وهي قوله تعالى: ﴿**ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة**﴾ لأن شرب الخمر يشغل عن ذكر الله وعن فعل الصلاة وكذلك القمار يشغل صاحبه عن ذكر الله وعن الصلاة.

فإن قلت: لم جمع الخمر والميسر مع الأنصاب والأزلام في الآية الأولى ثم أفرد الخمر والميسر في هذه الآية؟

قلت: لأن الخطاب مع المؤمنين بدليل قوله تعالى يا أيها الذين آمنوا والمقصود نهيهم عن شرب الخمر واللعب بالقمار وإنما ضم الأنصاب والأزلام إلى الخمر والميسر لتأكيد تحريم الخمر والميسر فلما كان المقصود من الآية النهي عن شرب الخمر والميسر لا جرم أفردهما بالذكر في آخر الآية والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿**فهل أنتم منتهون**﴾ لفظة استفهام ومعناه الأمر أي انتهوا وهذا من أبلغ ما ينهى به لأنه تعالى ذم الخمر والميسر وأظهر قبحهما للمخاطب كأنه قيل قد تدلى عليكم ما فيهما من أنواع الصوارف والموانع فهل أنتم منتهون مع هذه الأمور أم أنتم على ما كنتم عليه كأنكم لم توعَظوا ولم تنزجروا؟ وفي هذه الآية دليل على تحريم شرب الخمر لأن الله تعالى قرن الخمر والميسر بعبادة الأصنام وعدَّد أنواع الفساد الحاصلة بهما ووعد بالفلاح عند اجتنابهما وقال فهل أنتم منتهون ومعناه الأمر وقد صح من حديث عائشة أن النبي ﷺ قال: «كل شراب أسكر فهو حرام» أخرجاه في الصحيحين وزاد الترمذي وأبو داود: ما أسكر الفرق منه فملء الكف منه حرام. الفرق بالتحريك إناء يسع ستة

﴿ **والأزلامُ** ﴾، يعني: القِدَاح التي يستقسمون بها واحدها زلم وزلم، ﴿ **رِجْسٌ** ﴾، خبيث مستقذر، ﴿ **مِنْ عملِ الشيطان** ﴾، من تزيينه، ﴿ **فاجتنبُوه** ﴾، ردّ الكناية إلى الرجس، ﴿ **لعلّكم تُفلحون** ﴾.

﴿ **إنّما يُريد الشيطانُ أن يُوقع بينكمُ العداوةَ والبغضاءَ في الخمرِ والميسرِ** ﴾، أما العداوة في الخمر فإن الشاربين إذا سكروا عربدوا وتشاجروا، كما فعل الأنصاري الذي شجّ سعد بن أبي وقاص بلحى الجمل وأما العداوة في الميسر، قال قتادة: كان الرجل يقامر على الأهل والمال ثم يبقى حزيناً مسلوب الأهل والمال مغتاظاً على خرقائه، ﴿ **ويصدّكم عنْ ذكرِ اللّهِ وعَنِ الصّلاة** ﴾، وذلك أن مَن اشتغل بشرب الخمر والقمار ألهاه ذلك عن

عشر رطلاً، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ «من شرب الخمر لم تقبل له صلاة أربعين صباحاً فإن تاب تاب الله عليه فإن عاد لم يقبل الله له صلاة أربعين صباحاً فإن تاب تاب الله عليه فإن عاد لن يقبل الله له صلاة أربعين صباحاً فإن تاب تاب الله عليه فإن عاد الرابعة لم يقبل الله له أربعين صباحاً فإن تاب لم يتب الله عليه وسقاه الله من نهر الخبال» قالوا يا أبا عبد الرحمن وما نهر الخبال؟ قال: صديد أهل النار أخرجه الترمذي. وقال: حديث حسن وأخرجه النسائي وعنه قال: قال رسول الله ﷺ «لعن الله الخمر وشاربها وساقيها وبائعها ومبتاعها وعاصرها ومعتصرها وحاملها والمحمولة إليه» أخرجه أبو داود.

وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُوا۟ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَـٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٩٢﴾ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّأَحْسَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٤﴾

قوله عز وجل: ﴿**وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول**﴾ يعني، فيما أمركم به ونهاكم عنه ﴿**واحذروا**﴾ أي واحذروا مخالفة الله ومخالفة رسول الله ﷺ فيما أمركم به ونهاكم عنه ﴿**فإن توليتم**﴾ يعني فإن أعرضتم عما أمركم به ونهاكم عنه ﴿**فاعلموا أنما على رسولنا البلاغ المبين**﴾ وهذا وعيد وتهديد لمن أعرض عن أمر الله ونهيه كأنه قال فاعلموا أنكم بسبب توليكم وإعراضكم قد استحققتم العذاب والسخط.

قوله تعالى: ﴿**ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا**﴾ الآية عن البراء بن عازب قال: مات ناس من أصحاب النبي ﷺ وهم يشربون الخمر، فلما نزل تحريم الخمر قال ناس من أصحاب النبي ﷺ: كيف بأصحابنا الذين ماتوا وهم يشربونها؟ قال: فنزلت: ﴿**ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا**﴾ الآية أخرجه الترمذي. وقال حديث: حسن صحيح. عن ابن عباس قال: قالوا يا رسول الله أرأيت الذين ماتوا وهم يشربون الخمر لما نزل تحريم الخمر فنزلت: ﴿**ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا**﴾ الآية أخرجه الترمذي وقال: حديث حسن ومعنى الآية ﴿**ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا**﴾ أي لا حرج ولا إثم عليهم فيما شربوا من الخمر وأكلوا من مال القمار في وقت الإباحة قبل التحريم قال ابن قتيبة يقال: لم أطعم خبزاً ولا ماء ولا نوماً قال الشاعر:

فـإن شئـت حـرمـت النسـاء سـواكـم ... وإن شئـت لـم أطعـم نقـاخـاً ولا بـردا

ذكر الله، وشوّش عليه صلاته كما فعل بأضياف عبد الرحمن بن عوف، وتقدّم رجل ليصلّي بهم صلاة المغرب بعدما شربوا فقرأ ﴿ قلْ يا أيّها الكافرون ﴾ [الكافرون: ١]، أعبد، بحذف لا، ﴿ **فهلْ أنتمْ منتهون** ﴾؟ أي: انتهوا لفظة استفهام ومعناه أمر، كقوله تعالى: ﴿ **فهل** أنتم شاكرون ﴾ [الأنبياء: ٨٠]؟.

﴿ **وأطيعوا اللّهَ وأطيعوا الرسولَ واحذرُوا** ﴾، المحارم والمناهي، ﴿ **فإنْ توليتمْ فاعلمُوا أنما على رسولِنا البلاغُ المبين** ﴾، وفي وعيد شارب الخمر أخبرنا أبو القاسم عبد الرحمن بن محمد الفوراني أنا أبو الحسن علي بن عبد الله الطيسفوني ثنا أبو الحسن محمد بن محمود المحمودي أنا أبو العباس الماسرجسي بنيسابور أخبرنا إسحق بن إبراهيم الحنظلي أخبرنا صالح بن قدامة حدّثنا أخي عبد الملك بن قدامة عن عبد الله بن دينار عن ابن عمر عن رسول الله ﷺ: «كلُّ مُسكرٍ حرام، وإنْ حتماً على الله أن لا يشربه عبدٌ في الدنيا إلّا سقاه الله تعالى يوم

النقاخ الماء والبرد النوم ﴿إذا ما اتقوا﴾ يعني إذا ما اتقوا الشرك وقيل اتقوا ما حرم الله عليهم ﴿وآمنوا﴾ يعني بالله ورسوله ﴿وعملوا الصالحات﴾ أي وازدادوا من عمل الصالحات ﴿ثم اتقوا وآمنوا﴾ يعني اتقوا الخمر والميسر بعد التحريم فعلى هذا تكون الأولى إخباراً عن حال من مات وهو يشربها قبل التحريم أنه لا جناح عليه.

والثانية: خطاب لمن بقي بعد التحريم أمروا باتقائها والإيمان بتحريمها ﴿ثم اتقوا﴾ يعني ما حرم عليهم في المستقبل ﴿وأحسنوا﴾ يعني العمل. وقيل: المراد بالاتقاء الأول فعل التقوى وبالثاني المداومة عليها وبالثالث اتقاء الظلم مع ضم الإحسان إليه. وقيل: إن المقصود من التكرير التأكيد والمبالغة في الحث على الإيمان والتقوى وضم الإحسان إليهما ثم قال تعالى: ﴿والله يحب المحسنين﴾ يعني أنه تعالى يحب المتقربين إليه بالإيمان والأعمال الصالحة والتقوى والإحسان وهذا ثناء ومدح لهم على الإيمان والتقوى والإحسان لأن هذه المقامات من أشرف الدرجات وأعلاها (م) عن عبد الله بن مسعود قال: لما نزلت هذه الآية ﴿ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا﴾ إلى آخر الآية قال رسول الله ﷺ قيل لي: أنت منهم ومعناه، أن رسول الله ﷺ قيل له إن ابن مسعود منهم يعني من الذين آمنوا وعملوا الصالحات والتقوى والإحسان.

قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا ليبلونكم الله بشيء من الصيد﴾ نزلت هذه الآية عام الحديبية وكانوا محرمين، فابتلاهم الله بالصيد، فكانت الوحوش تغشى رحالهم من كثرتها فهمّوا بأخذها وصيدها فأنزل الله هذه الآية: ﴿يا أيها الذين آمنوا ليبلونكم الله﴾ الآية اللام في ليبلونكم لام القسم أي ليخبرن طاعتكم من معصيتكم والمعنى يعاملكم معاملة المختبر بشيء من الصيد يعني بصيد البر دون البحر. وقيل: أراد الصيد في حالة الإحرام دون الإحلال وإنما قال بشيء من الصيد ليعلم أنه ليس بفتنة من الفتن العظام التي نزل عندها أقدام الثابتين ويكون التكليف فيها صعباً شاقاً كالابتلاء ببذل الأموال والأرواح وإنما هو ابتلاء سهل كما ابتلي أصحاب السبت بصيد السمك فيه لكن الله عز وجل بفضله وكرمه عصم أمة محمد ﷺ فلم يصطادوا شيئاً في حالة الابتلاء ولم يعصم أصحاب السبت فمسخوا قردة وخنازير.

وقوله تعالى: ﴿تناله أيديكم﴾ يعني الفرخ والبيض وما لا يقدر أن يفر من صغار الصيد ﴿ورماحكم﴾ يعني كبار الصيد مثل حمر الوحش ونحوها. وقال ابن عباس: في قوله تناله أيديكم ورماحكم هو الضعيف من الصيد وصغيره

القيامة من طينة الخبال، هل تدرون ما طينة الخبال»؟ قال: «عرق أهل النار». وأخبرنا أبو الحسن السرخسي أنا زاهر بن أحمد أنا أبو إسحق الهاشمي أنا أبو مصعب عن مالك عن نافع عن عبد الله بن عمر أنّ النبي ﷺ قال: «مَنْ شربَ الخمرَ في الدنيا ثم لم يتبْ منها حُرِمْها في الآخرة». وأخبرنا أبو سعيد الشريحي أنا أبو إسحق الثعلبي أنا أحمد بن أُبيّ أخبرنا أبو العباس الأصم أنا محمد بن إسحق الصنعاني حدّثنا أبو نعيم حدّثنا عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز عن عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي من أهل مصر عن عبد الله بن عمر أنه قال: أشهد أني سمعتُ رسول الله ﷺ وهو يقول: «لعنَ اللّهُ الخمرَ وشارِبَها وساقيها وبائعَها ومُبتاعَها وعاصرَهَا ومُعتصرهَا وحاملَهـا والمحمولَة إليه وآكلَ ثمنها».

قوله عزّ وجلّ: ﴿ ليسَ على الذين آمنُوا وعمِلُوا الصالحاتِ جُناحٌ فيما طَعِمُوا ﴾، الآية، سبب نزول هذه الآية أنّ الصحابة رضوان الله عليهم قالوا لمّا نزل تحريم الخمر: يا رسول الله كيف بإخواننا الذين ماتوا وهم يشربون الخمر ويأكلون من مال الميسر؟ فأنزل الله تعالى: ﴿ ليسَ على الذينَ آمنوا وعملُوا الصالحاتِ جُناحٌ فيما طَعِمُوا ﴾، وشَرِبُوا من الخمر وأكلوا من مال الميسر، ﴿ إذا ما اتَّقَوْا ﴾، الشركَ، ﴿ وآمنُوا ﴾، وصدّقوا، ﴿ وعملُوا الصالحاتِ ثمّ اتّقوا ﴾، الخمر والميسرَ بعد تحريمهما، ﴿ وآمنُوا ثمّ اتّقوا ﴾، ما حرّم الله عليهم أكله وشربه،

يبتلي الله به عباده في إحرامهم حتى لو شاؤوا نالوه بأيديهم فنهاهم الله أن يقربوه ﴿ليعلم الله﴾ أي: ليرى الله فإنه قد علمه فهو مجاز لأنه تعالى عالم لم يزل والمعنى يعاملكم معاملة المختبر. وقيل: معناه ليظهر المعلوم وهو خوف الخائف وقيل هو من باب حذف المضاف والتقدير ليعلم أولياء الله ﴿من يخافه بالغيب﴾ يعني: من يخاف الله ولم يره فلا يصطاد في حالة الإحرام شيئاً بعد النهي ﴿فمن اعتدى بعد ذلك﴾ يعني فصاد في حالة الإحرام بعد النهي ﴿فله عذاب أليم﴾ يعني في الدنيا. قال ابن عباس: هو أن يوجع ظهره وبطنه جلداً وتسلب ثيابه وهذا قول أكثر المفسرين في معنى هذه الآية لأنه قد سمى الجلد عذاباً وهو قوله وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ (٩٥)﴾

وقوله عز وجل: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم﴾ جمع حرام. أي: لا تقتلوا الصيد وأنتم محرمون بالحج والعمرة وقيل المراد منه دخول الحرم. يقال: أحرم إذا عقد الإحرام، وأحرم: إذا دخل الحرم. وقيل: هما مرادان بالآية فلا يجوز قتل الصيد للمحرم ولا في الحرم نزلت هذه الآية في أبي اليسر شد على حمار وحش فقتله وهو محرم ثم صار هذا الحكم عاماً فلا يجوز قتل الصيد ولا التعرض له ما دام محرماً ولا في الحرم. والمراد بالصيد، كل حيوان متوحش مأكول اللحم وهذا قول الشافعي. وقال أبو حنيفة: هو كل حيوان متوحش سواء كان مأكولاً أو لم يكن فيجب عنده الضمان على من قتل سبعاً أو نمراً أو نحو ذلك واستثنى الشارع خمس فواسق فأجاز قتلهن (ق).

عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «خمس من الدواب ليس على المحرم في قتلهن جناح: الغراب، والحدأة،

﴿ وأحسنُوا واللَّهُ يحبُّ المحسنين ﴾، وقيل: معنى الأول إذ ما اتقوا الشرك، وآمنوا وصدقوا ثمّ اتقوا، أي: داوِمُوا على ذلك التقوى، وآمنوا وازْدادُوا إيماناً، ثم اتقوا المعاصي كلها وأحسنوا، وقيل: أي: اتقوا بالإحسان، وكلُّ محسن متّقٍ، والله يحبّ المحسنين.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ يا أيّها الذينَ آمنوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بشيءٍ من الصَّيدِ ﴾، الآية، نزلت عام الحديبية وكانوا محرمين ابتلاهم الله بالصيد، وكانت الوحوش تغشى رِحالهم من كثرتها فهمّوا بأخذها فنزلت: ﴿ يا أيّها الذينَ آمنوا لَيَبْلونَّكُمُ اللَّهُ ﴾ ليختبرنّكم الله، وفائدة البلوى إظهار المطيع من العاصي، وإلاّ فلا حاجة له إلى البلوى بشيء من الصيد، وإنما بعض، فقال: ﴿ بشيءٍ ﴾ لأنه ابتلاهم بصيد البرِّ خاصةً. ﴿ تناله أيديكم ﴾، يعني: الفرخ والبيض وما لا يقدر أن يفرّ من صغار الصيد، ﴿ ورماحُكم ﴾، يعني: الكبار من الصيد، ﴿ ليعلمَ اللَّهُ ﴾، ليرى الله، لأنه قد علمه، ﴿ مَنْ يخافه بالغيب ﴾، أي: يخاف الله ولم يره، كقوله تعالى: ﴿ الذين يخشون ربَّهم بالغيب ﴾ [الأنبياء: ٤٩، فاطر: ١٨، الملك: ١٢] أي: يخافه فلا يصطاد في حال الإحرام ﴿ فمَن اعتدَى بعدَ ذلك ﴾، أي: صاد بعد تحريمه، ﴿ فله عذاب أليم ﴾، رُوِيَ عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: يوجع ظهره وبطنه جلداً، ويُسلَب ثيابه.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ يا أيّها الذين آمنوا لا تقتلُوا الصّيد وأنتم حُرُم ﴾، أي: محرمون بالحج والعمرة، وهو جمع حرام، يقال: رجل حرام وامرأة حرام، وقد يكون من دخول الحرم، يقال: أحرم الرجل إذا عقد الإحرام، وأحرم

والعقرب، والفأرة، والكلب العقور» وفي رواية: «خمس لا جناح على من قتلهن في الحرم والإحرام» (ق). عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «خمس من الدواب كلهن فواسق يقتلن في الحرم: الغراب، والحدأة، والعقرب، والفأرة، والكلب العقور» ولمسلم «خمس فواسق يقتلن في الحل والحرم» وذكر نحوه. وفي رواية النسائي قال: «خمس يقتلن المحرم: الحية، والعقرب، والفأرة، والغراب الأبقع، والكلب العقور». قال ابن عيينة: الكلب العقور كل سبع ضار يعقر. وقاس الشافعي عليها جميع ما لا يؤكل لحمه، قال: لأن الحديث يشتمل على أشياء بعضها سباع ضارية وبعضها هوام قاتلة وبعضها طير لا يدخل في معنى السباع ولا في معنى الهوام وإنما هو حيوان مستخبث اللحم. وتحريم الأكل، يجمع الكل فاعتبره ورتب عليه الحكم. وذهب أصحاب الرأي إلى وجوب الجزاء في كل ما لا يؤكل لحمه إلا الأعيان المذكورة في الحديث وقاسوا عليها الذئب فلم يوجبوا فيه كفارة.

قوله تعالى: ﴿ومن قتله منكم متعمداً﴾ قال مجاهد والحسن وابن زيد: هو الذي يتعمد قتل الصيد مع نسيان الإحرام فعليه الجزاء.

أما إذا تعمد قتل الصيد ذكراً لإحرامه، فلا جزاء عليه لأنه أعظم من أن يكون له كفارة. وقال ابن عباس والجمهور: يحكم عليه بالجزاء وإن تعمد القتل مع ذكر الإحرام وهذا مذهب عامة الفقهاء، أما إذا قتل الصيد خطأ بأن قصد غيره بالرمي فأصابه، فهو كالعمد في وجوب الجزاء وهذا مذهب جمهور المفسرين والفقهاء قال الزهري: نزل القرآن بالعمد وجرت السنة في الخطأ يعني ألحقت المخطىء بالمتعمد في وجوب الجزاء وقال سعيد بن جبير: لا أرى في الخطأ شيئاً وهذا قول شاذ لا يؤخذ به ﴿فجزاء مثل ما قتل من النعم﴾ يعني فعليه جزاء من النعم مثل ما قتل والمثل والشبه واحد واختلفوا في هذه المماثلة أهي بالخلقة أم بالقيمة والذي عليه جمهور العلماء من الصحابة فمن بعدهم أن المماثلة في الخلقة معتبرة لأن ظاهر الآية يدل على ذلك وما لا مثل له فالقيمة، وقال أبو حنيفة: المثل الواجب في قتل الصيد هو القيمة لأن الصيد المقتول إذا لم يكن له مثل فإنه يضمن بالقيمة وهذا لا نزاع فيه فكان المراد بالمثل هو القيمة في هذه الصورة فوجب أن يكون في سائر الصور كذلك لأن اللفظ الواحد لا يجوز حمله إلا على معنى واحد وأجيب عنه بأن حقيقة المماثلة أمر معلوم فيجب رعايتها بأقصى الإمكان وإن لم تكن رعايتها إلا بالقيمة وجب الاكتفاء بها للضرورة وحجة الشافعي ومن وافقه في اعتبار المماثلة بالخلقة أن الصحابة حكموا في بلدان شتى وأزمان مختلفة بالمثل من النعم فحكموا في النعامة ببدنة وهي لا تساوي بدنة وحكموا في حمار الوحش ببقرة وهو لا يساوي

إذا دخل الحرم، نزلت في رجل يقال له أبو اليسر شدّ على حمارٍ وحشٍ وهو محرم فقتله، قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ قَتَلَه منكم متعمّداً ﴾، اختلفوا في هذا العمد فقال قوم: هو العمد لقتل الصيد مع نسيان الإحرام، أما إذا قتله عمداً وهو ذاكر لإحرامه فلا حكم عليه، وأمره إلى الله لأنه أعظم من أن يكون له كفّارة، هذا قول مجاهد والحسن، وقال الآخرون: هو أن يعمد المحرم قتل الصيد ذاكراً لإحرامه فعليه الكفّارة، واختلفوا فيما لو قتله خطأً، فذهب أكثر الفقهاء إلى أن العمد والخطأ سواء في لزوم الكفّارة، وقال الزهري: على المتعمّد بالكتاب وعلى المخطىء بالسُّنّة، وقال سعيد بن جبير: لا تجب كفّارة الصيد بقتل الخطأ، بل يختصّ بالعمد. قوله عزّ وجلّ: ﴿ فجزاءٌ مثلُ ﴾، قرأ أهل الكوفة ويعقوب «فجـزاء» منونٌ، ﴿ مثلُ ﴾، رفعٌ على البدل من الجزاء، وقرأ الآخرون بالإضافة (فجزاء مثل)، ﴿ ما قتلَ مِنَ النَّعَمِ ﴾، معناه أنه يجب عليه مثل ذلك الصيد من النَّعم، وأراد به ما يقرب من الصيد المقتول شبهاً من حيث الخلقة لا من حيث القيمة، ﴿ يحكمُ بهِ ذَوَا عدلٍ منكم ﴾، أي: يحكم بالجزاء رجلان عدلان، وينبغي أن يكونا فقيهين ينظران إلى أشبه الأشياء من النَّعم فيحكمان به، وممّن ذهب إلى إيجاب المثل من النَّعم عمر وعثمان وعلي وعبد الرحمن بن عوف وابن عمر وابن عباس، وغيرهم من الصحابة رضي الله

بقرة وكذا في الضبع بكبش فدل ذلك على أنهم إنما نظروا إلى ما يقرب من الصيد شبهاً من حيث الخلقة فحكموا به ولم يعتبروا القيمة فيجب في الظبي شاة وفي الأرنب سخل وفي الضب سخلة وفي اليربوع جفرة ويجب في الحمامة وكل ما عبَّ وهدر كالفواخت والقمري وذوات الأطواق شاة وما سواه من الطير ففيه القيمة في المكان الذي أصيب فيه. وروي عن عثمان وابن عباس أنهما حكما في حمام الحرم. وروي عن عمر أنه قضى في الضبع بكبش وفي الغزال بعنز وفي الأرنب بعناق وفي اليربوع بجفرة.

وقوله تعالى: ﴿**يحكم به ذوا عدل منكم**﴾ يعني يحكم بالجزاء في قتل الصيد رجلان صالحان عدلان من أهل ملتكم ودينكم وينبغي أن يكونا فقيهين فينظران إلى أشبه الأشياء به من النعم فيحكمان به.

قال ميمون بن مهران: جاء أعرابي إلى أبي بكر الصديق، فقال: إني أصبت من الصيد كذا وكذا فسأل أبو بكر أبي بن كعب، فقال الأعرابي: إني أتيتك أسألك وأنت تسأل غيرك، فقال أبو بكر: وما أنكرت من ذلك؟ قال الله تعالى: يحكم به ذوا عدل منكم فشاورت صاحبي فإذا اتفقنا على شيء أمرناك به وقوله تعالى: ﴿**هدياً بالغ الكعبة**﴾ يعني أن الكفارة هدي يساق إلى الكعبة وسميت الكعبة كعبة لارتفاعها والعرب تسمي كل بيت مرتفع كعبة. وإنما أريد الكعبة، كل الحرم لأن الذبح لا يقع في الكعبة وعندها ملاقياً لها إنما يقع في الحرم وهو المراد بالبلوغ فيذبح الهدي

عنهم، حكموا في بلدان مختلفة وأزمان شتّى بالمثل من النَّعم، فحكم حاكمهم في النعامة ببدنة وهي لا تساوي بدنة، وفي حمار الوحش ببقرة وهي لا تساوي بقرة، وفي الضبع بكبش وهي لا تساوي كبشاً، فدلّ أنهم نظروا إلى ما يقرب من الصيد شبهاً من حيث الخلقة، وتجب في الحمام شاة، وهو كل ما عبّ وهدر من الطير، كالفاختة والقمري والدبسي، ورُوِيَ عن عمر وعثمان وابن عباس رضي الله عنهم أنهم قضوا في حمام مكة بشاة، أخبرنا أبو الحسن السرخسي أخبرنا زاهر بن أحمد أنا أبو إسحاق الهاشمي أنا أبو مصعب عن مالك عن أبي الزبير المكّي عن جابر بن عبد الله أنّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه قضى في الضبع بكبش، وفي الغزال بعنز، وفي الأرنب بعناق، وفي اليربوع بجفرة، قوله تعالى: ﴿ **هدياً بالغَ الكعبة** ﴾، أي: يُهدي تلك الكفّارة إلى الكعبة، فيذبحها بمكة ويتصدّق بلحمها على مساكين الحرم، ﴿ **أو كفّارةٌ طعامُ مساكين أو عَدْلُ ذلك صياماً** ﴾، قال الفرّاء رحمه الله: **العِدْل بالكسر**: المثل من جنسه، والعَدْل بالفتح: المثل من غير جنسه، وأراد به أنه في جزاء الصيدِ مُخيّر بين أن يذبح المثل من النَّعم فيتصدّق بلحمه على مساكين الحرم، وبين أن يقوّم المثل دراهم، والدراهم طعاماً فيتصدّق بالطعام على مساكين الحرم، أو يصوم عن كل مَدٍّ من الطعام يوماً وله أن يصوم حيث شاء لأنه لا نفع فيه للمساكين.
وقال مالك: إن لم يخرج المثل يقوّم الصيد ثم يجعل القيمة طعاماً فيتصدّق به، أو يصوم، وقال أبو حنيفة رضي الله عنه: لا يجب المثل من النَّعم، بل يقوّم الصيد فإن شاء صرف تلك القيمة إلى شيء من النَّعم، وإن شاء إلى الطعام فتيصدّق به، وإن شاء صام عن كل نصف صاع من برٍّ أو صاع من شعير يوماً، وقال الشعبي والنخعي جزاء الصيد على الترتيب والآية حجّة لمَن ذهب إلى التخيير. قوله تعالى: ﴿ **ليذوقَ وَبَالَ أمره** ﴾، أي: جزاء معصيته، ﴿ **عفا اللَّهُ عمّا سَلَف** ﴾، يعني: قبل التحريم، ونزول الآية، قال السدي: عفا الله عمّا سلف في الجاهلية، ﴿ **ومَنْ عادَ فينتقِم اللَّهُ منه** ﴾، في الآخرة، ﴿ **واللَّهُ عزيزٌ ذو انتقام** ﴾، وإذا تكرّر من المحرم قتل الصيد فيتعدّد عليه الجزاء عند عامّة أهل العلم، قال ابن عباس رضي الله عنهما: إذا قتل المحرم صيداً متعمّداً يُسأل هل قتلت قبله شيئاً من الصيد؟ فإن قال: نعم لم يحكم عليه، وقيل له: اذهب ينتقم الله منك، وإن قال لم أقتل قبله شيئاً حكم عليه، فإن عاد بعد ذلك لم يحكم عليه، ولكن يُملأ ظهرُه وصدره ضرباً وجيعاً، وكذلك حَكَم رسول الله ﷺ في وج وهو وادٍ بالطائف، واختلفوا في المحرم هل يجوز له أكل لحم الصيد؟ فذهب قوم إلى أنه لا يحلّ له بحال، ويروى ذلك عن

بمكة ويتصدق به على مساكين الحرم هذا مذهب الشافعي وقال أبو حنيفة له أن يتصدق به حيث شاء إذا وصل الهدي إلى الكعبة ﴿أو كفارة طعام مساكين أو عدل ذلك صياماً﴾ ذهب الشافعي ومالك وأبو حنيفة إلى أن كلمة - أو - في هذه الآية للتخيير وقال أحمد وزفر من أصحاب أبي حنيفة إنها للترتيب وهما روايتان. عن ابن عباس قال الشافعي إذا قتل صيداً له مثل فهو مخير بين ثلاثة أشياء: إن شاء ذبح المثل من النعم وتصدق به على مساكين الحرم وإن شاء قوم المثل دراهم والدراهم طعاماً ثم يتصدق به على مساكين الحرم وإن شاء صام عن كل مد من الطعام يوماً. وقال أبو حنيفة: يصوم عن كل نصف صاع يوماً. وعن أحمد روايتان كالقولين وأصل هذه المسألة أنّ الصوم مقدر بطعام اليوم فعند الشافعي مقدر بالمد وعند أبي حنيفة مقدر بنصف صاع وله أن يصوم حيث شاء لأنه لا نفع فيه للمساكين وذهب جمهور الفقهاء إلى أن الخيار في تعيين أحد هذه الثلاثة الأشياء إلى قاتل الصيد الذي وجب عليه الكفارة لأن الله أوجب عليه أحد هذه الثلاثة على التخيير فوجب أن يكون هو المخير بين أيها شاء وقال محمد بن الحسن من أصحاب أبي حنيفة التخيير إلى الحكمين لأن الله تعالى قال: ﴿يحكم به ذوا عدل منكم﴾ ومن قال: إن كلمة أو للترتيب، قال: إن لم يجد الهدي اشترى طعاماً وتصدق به فإن كان معسراً صام وقال مالك: إن لم يخرج المثل من النعم يقوّم الصيد ثم يجعل القيمة طعاماً فيتصدق به أو يصوم. وقال أبو حنيفة: لا يجب المثل من النعم، بل يقوم الصيد فإن شاء صرف تلك القيمة إلى شيء من النعم وإن شاء إلى الطعام فيتصدق به وإن شاء صام عن كل نصف صاع من بر أو صاع من غيره يوماً واختلفوا في موضع التقويم فقال جمهور الفقهاء يقوم في المكان الذي قتل فيه الصيد. وقال الشعبي: يقوم بمكة بثمن مكة لأنه يصرف بها.

وقوله تعالى: ﴿ليذوق وبال أمره﴾ يعني جزاء ذنبه. والوبال في اللغة، الشيء الثقيل الذي يخاف ضرره. يقال: مرعى وبيل إذا كان فيه وخامة وإنما سمى ذلك الله وبالاً لأن إخراج الجزاء ثقيل على النفس لأن فيه تنقيصاً للمال وهو ثقيل على النفس وكذا الصوم أيضاً ثقيل على النفس لأن فيه إنهاك البدن ﴿عفا الله عما سلف﴾ يعني قبل التحريم ﴿ومن عاد﴾ يعني إلى قتل الصيد مرة ثانية ﴿فينتقم الله منه﴾ يعني في الآخرة والانتقام المبالغة في العقوبة وهذا الوعيد لا يمنع إيجاب الجزاء في المرة الثانية والثالثة فإذا تكرر من المحرم قتل الصيد تكرر عليه الجزاء وهذا قول جمهور العلماء

ابن عباس، وهو قول طاوس وبه قال سفيان الثوري، واحتجّوا بما أخبرنا أبو الحسن السرخسي أنا زاهر بن أحمد أنا أبو إسحاق الهاشمي أنا أبو مصعب عن مالك عن ابن شهاب عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود عن عبد الله بن عباس عن الصعب بن جثامة الليثي أنه أهدى لرسول الله ﷺ حماراً وحشياً، فردّه عليه رسول الله ﷺ، قال: فلما رأى رسول الله ﷺ ما في وجهي، قال: «إنّا لم نردّه عليك إلاّ أنّا حُرم». وذهب الأكثرون إلى أنه يجوز للمحرم أكله إذا لم يصطد بنفسه ولا اصطيد لأجله أو بإشارته، وهو قول عمر وعثمان وأبي هريرة، وبه قال عطاء ومجاهد وسعيد بن جبير، وهو مذهب مالك والشافعي وأحمد وإسحق وأصحاب الرأي، وإنما ردّ النبي ﷺ على الصعب بن جثامة لأنه ظن أنه صيد من أجله، والدليل على جوازه ما أخبرنا أبو الحسن السرخسي أنا زاهر بن أحمد أنا أبو إسحاق الهاشمي أنا أبو مصعب عن مالك عن أبي النضر مولى عمر بن عبيد الله التيمي عن نافع مولى أبي قتادة عن أبي قتادة بن ربعي الأنصاري رضي الله عنه أنه كان مع رسول الله ﷺ حتى كان ببعض طريق مكة، تخلّف مع أصحابه محرمين وهو غير محرم فرأى حماراً وحشياً فاستوى على فرسه وسأل أصحابه أن يناولوه سوطه فأبوا فسألهم رمحه فأبوا فأخذه ثم سدّ على الحمار فقتله، فأكل منه بعض أصحاب رسول الله ﷺ، وأبى بعضهم فلما أدركوا رسولَ الله ﷺ سألوه عن ذلك، فقال: «إنّما هي طعمة أطعمكموها الله تعالى»، أخبرنا عبد الوهاب بن محمد الخطيب أنا عبد العزيز بن أحمد الخلال أنا أبو العباس الأصم أخبرنا الربيع أنا الشافعي أنا إبراهيم بن محمد عن

وقد روي عن ابن عباس والنخعي وداود الظاهري أنه إذا قتل الصيد مرة ثانية فلا جزاء عليه لأنه وعد بالانتقام منه.

قال ابن عباس: إذا قتل المحرم صيداً متعمداً سئل هل قتل شيئاً من الصيد، فإن قال نعم، لم يحكم عليه. ويقال له: اذهب فينتقم الله منك وإن قال لم أقتل قبله شيئاً، حكم عليه، فإن عاد بعد ذلك لم يحكم عليه، ولكن يملأ ظهره وصدره ضرباً وكذلك حكم رسول الله ﷺ في صيدوج وهو واد بالطائف: ﴿والله عزيز ذو انتقام﴾ يعني ممن عصاه. وإذا أتلف المحرم شيئاً من الصيد الذي لا مثل له من النعم مثل البيض وطائر صغير دون الحمام ففيه القيمة فيقوّم ثم يشتري بقيمته طعاماً ويتصدق به على محاويج الحرم أو يصوم عن كل مد يوماً.

﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَـٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ ۖ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أحل لكم صيد البحر وطعامه﴾ المراد بالصيد ما صيد من البحر والمراد جميع المياه العذبة والمالحة.

فأما طعامه، فاختلفوا فيه فقيل: هو ما قذفه البحر ورمى به إلى الساحل يروى ذلك عن أبي بكر وعمر وابن عمر وأبي أيوب وقتادة وقيل: صيد البحر طريه وطعامه مالحه. يروى ذلك عن سعيد بن جبير وسعيد بن المسيب والسدي.

ويروى عن ابن عباس ومجاهد كالقولين وجملة حيوان الماء على قسمين: سمك وغير سمك فأما السمك فجميعه حلال على اختلاف أجناسه وأنواعه قال رسول الله ﷺ: «في البحر هو الطهور ماؤه الحل ميتته» أخرجه أبو داود والترمذي والنسائي ولا فرق بين أن يموت بسبب أو بغير سبب فيحل أكله وقال أبو حنيفة لا يحل إلا أن يموت بسبب وما عدا السمك فقسمان: قسم يعيش في البر والبحر كالضفدع والسرطان فلا يحل أكلهما وقال سفيان أرجو أن لا يكون بالسرطان بأس واختلفوا في الجراد فقيل هو من صيد البحر فيحل أكله للمحرم وذهب جمهور العلماء إلى أنه من صيد البر وأنه لا يحل للمحرم أكله في حال الإحرام فإن أصاب جرادة فعليه صدقة. قال عمر: في الجرادة تمرة.

عمرو بن أبي عمرو عن المطلب بن حنطب عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال: «لحم الصيد لكم في الإحرام حلال، ما لم تصيدوه أو يُصاد لكم»، قال أبو عيسى: المطّلب لا نعرف له سماعاً من جابر بن عبد الله رضي الله عنه. وإذا أتلف المحرم شيئاً من الصيد لا مثل له من النعم مثل بيض أو طائر دون الحمام ففيه قيمة يصرفها إلى الطعام، فيتصدّق به أو يصوم عن كل مُدّ يوماً، واختلفوا في الجراد فرخص فيه قوم للمحرم وقالوا: هو من صيد البحر، رُوِيَ ذلك عن كعب الأحبار، والأكثرون على أنها لا تحلّ، فإن أصابها فعليه صدقة، قال عمر: في الجراد تمرة، ورُوِيَ عنه وعن ابن عباس: قبضة من طعام.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ أُحلّ لكم صيدُ البحر وطعامُه متاعاً لكم وللسيّارة ﴾، والمراد بالبحر جميع المياه، قال عمر رضي الله عنه: (صيده ما اصطيد وطعامه ما رُمِيَ به). وعن ابن عباس وابن عمر وأبي هريرة: طعامه ما قذفه الماء إلى الساحل ميتاً. وقال قوم: هو المالح منه وهو قول سعيد بن جبير وعكرمة وسعيد بن المسيب وقتادة والنخعي، وقال مجاهد: صيده: طريُّه، وطعامه: مالحه، متاعاً لكم أي: منفعة لكم، وللسيارة يعني: المارّة. وجملة حيوانات الماء على قسمين: سمك وغيره، أمّا السمك فميتته حلال مع اختلاف أنواعها، قال النبي ﷺ: «أُحلّتْ لنا ميتتان: السمكُ والجراد»، فلا فرق بين أن يموت بسبب أو بغير سبب، وعند أبي حنيفة لا يحلّ إلّا أن يموت بسبب

وعنه وعن ابن عباس قبضة من طعام وكذلك طير الماء فهو من صيد البر أيضاً وقال أحمد: يؤكل كل ما في البحر إلا الضفدع والتمساح قال لأن التمساح يفترس ويأكل الناس. وقال ابن أبي ليلى ومالك يباح كل ما في البحر وذهب جماعة إلى أن ماله نظير من البر يؤكل فيؤكل نظيره من حيوان البحر مثل بقر الماء ونحوه ولا يؤكل ما لا يؤكل نظيره في البر مثل كلب الماء وخنزير الماء فلا يحل أكله.

قوله تعالى: ﴿متاعاً لكم وللسيارة﴾ يعني ينتفع به المقيمون والمسافرون فيتزودون منه.

قوله تعالى: ﴿وحرم عليكم صيد البر ما دمتم حرماً﴾ ذكر الله عز وجل تحريم الصيد على المحرم في ثلاثة مواضع من هذه السورة أحدها في أول السورة وهو قوله: غير محلِّي الصيدوأنتم حرم.

والثاني قوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم﴾ والثالث: هذه الآية وحرم عليكم صيد البر ما دمتم حرماً. كل ذلك لتأكيد تحريم قتل الصيد على المحرم واختلف العلماء هل يجوز للمحرم أن يأكل من لحم صيد صاده غيره فذهب قوم إلى أنه لا يحل ذلك بحال يروى ذلك عن ابن عباس وهو قول طاوس وإليه ذهب الثوري واحتجوا على ذلك بما روي عن الصعب بن جثامة الليثي أنه أهدى للنبي ﷺ حماراً وحشياً وهو بالأبواء أو بودان فرده عليه رسول الله ﷺ: فلما رأى ما في وجهه من الكراهة قال: إنا لم نرده عليك إلا أنّا حرم. أخرجاه في الصحيحين

من وقوع على حجر أو انحسار الماء منه ونحو ذلك، أمّا غير السمك فقسمان: قسم يعيش في البرّ كالضفدع والسرطان، فلا يحلّ أكله، وقسم يعيش في الماء ولا يعيش في البرّ إلّا عيش المذبوح، فاختلف القول فيه، فذهب قوم إلى أنه لا يحلّ شيء منها إلّا السمك، وهو قول أبي حنيفة رضي الله عنه وذهب قوم إلى أن ميت الماء كلها حلال، لأن كلّها سمك، وإن اختُلف صورتها، كالجريث يقال له حيّة الماء، وهو على شكل الحيّة وأكله مباح بالاتفاق، وهو قول عمر وأبي بكر وابن عباس وزيد بن ثابت وأبي هريرة، وبه قال شريح والحسن وعطاء، وهو قول مالك وظاهر مذهب الشافعي، وذهب قوم إلى أن ما له نظير بالبرّ يُؤكل، فميتته من حيوانات البحر حلال، مثل بقر الماء ونحوه، وما لا يؤكل نظيره في البرّ لا يحلّ ميتته من حيوانات البحر، مثل كلب الماء والخنزير والحمار ونحوها، وقال الأوزاعي كل شيء عيشه في الماء فهو حلال، قيل: فالتمساح؟ قال: نعم، وقال الشعبي: لو أن أهلي أكلوا الضفادع لأطعمتهم، وقال سفيان الثّوري: أرجو أن لا يكون بالسرطان بأساً. وظاهر الآية حجّة لمَن أباح جميع حيوانات البحر، وكذلك الحديث. أخبرنا أبو الحسن السرخسي أنا زاهر بن أحمد أنا أبو إسحق الهاشمي أنا أبو مصعب عن مالك عن صفوان بن سلمان عن سعيد بن سلمة من آل بني الأزرق أن المغيرة بن أبي بردة وهو من بني عبد الدار أخبره أنه سمع أبا هريرة رضي الله عنه يقول سأل رجل رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إنّا نركب في البحر ونحمل معنا القليل من الماء، فإن توضأنا به عطشنا، أفنتوضأ بماء البحر؟ فقال رسول الله ﷺ: «هو الطّهورُ ماؤُه الحِلّ ميتته». أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا مسدد أنا يحيىٰ عن ابن جريج أخبرني عمر أنه سمع جابراً رضي الله عنه يقول: غزوتُ جيش الخبط وأمر أبو عبيدة، فجعنا جوعاً شديداً فألقى البحر حوتاً لم نرَ مثله، يقال له العنبر، فأكلنا منه نصف شهر، فأخذ أبو عبيدة عظماً من عظامه، فمرّ الراكب تحته. وأخبرني أبو الزبير أنه سمع جابراً يقول: قال أبو عبيدة: كلوا فلما قَدِمنا المدينة ذكرنا ذلك للنبي ﷺ، فقال: «كلوا رزقاً أخرجه الله إليكم، أطعمونا إن كان معكم» فأتاه بعضُهم بشيء منه فأكلوه، قوله تعالى: ﴿ وحُرّم عليكم صيد البرّ ما دمتم حرماً واتقوا الله الذي إليه تُحشرُون ﴾، صيد البحر حلال للمحرم، كما هو حلال لغير المحرم، أما صيد البرّ فحرام على المحرم في الحرم، والصيد هو الحيوان الوحشي

وذهب جمهور العلماء إلى أنه يجوز للمحرم أن يأكل لحم الصيد إذا لم يصده بنفسه ولا صِيدَ له ولا بإشارته ولا أعان عليه.

وهذا قول عمر وعثمان وأبي هريرة وبه قال عطاء ومجاهد وسعيد بن جبير وهو مذهب مالك والشافعي وأحمد وأصحاب الرأي ويدل عليه ما روي عن أبي قتادة الأنصاري، قال: كنت جالساً مع رجال من أصحاب النبي ﷺ في منزل في طريق مكة ورسول الله ﷺ أمامنا والقوم محرمون وأنا غير محرم عام الحديبية، فأبصروا حماراً وحشياً وأنا مشغول أخصف نعلاً فلم يؤذنوا بي وأحبوا لو أني أبصرته فالتفتُّ، فأبصرته، فقمت إلى الفرس فأسرجته ثم ركبت ونسيت السوط والرمح فقلت لهم ناولوني السوط والرمح. قالوا: لا والله لا نعينك عليه، فغضبت ونزلت فأخذتهما ثم ركبت فشددت على الحمار فعقرته ثم جئت به وقد مات، فوقعوا فيه يأكلون. ثم إنهم شكّوا في أكلهم إياه وهم حرم فرحنا وخبأت العضد فأدركنا رسول الله ﷺ فسألته عن ذلك فقال: هل معكم منه شيء؟ فقلت نعم. فناولته العضد فأكل منها وهو محرم. وزاد في رواية: أن النبي ﷺ قال لهم: إنما هي طعمة أطعمكموها الله. وفي رواية: هو حلال فكلوه. وفي رواية قال لهم رسول الله ﷺ: هل منكم أحد أمره أن يحمل عليها أو أشار إليها قالوا: لا؟ قال: كلوا ما بقي من لحمها. أخرجاه في الصحيحين وأجاب أصحاب هذا المذهب عن حديث الصعب بن جثامة بأنه إنما رده النبي ﷺ لأنه ظن أنه إنما صيد لأجله والمحرم لا يأكل ما صيد لأجله ﴿واتقوا الله﴾ يعني فلا تستحلُّوا الصيد في حال الإحرام ولا في الحرم ثم حذرهم بقوله ﴿الذي إليه تحشرون﴾ يعني في الآخرة فيجازيكم بأعمالكم.

﴿ ۞ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَـٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَـٰٓئِدَ ۚ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٨﴾ ﴾

قوله عز وجل: ﴿جعل الله الكعبة البيت الحرام﴾ جعل بمعنى صبر. وقيل: معناه بيَّن وحكم. وقال مجاهد:

الذي يحلّ أكله، أمّا ما يحلّ أكله فلا يحرم بسبب الإحرام، ويحرم أخذه وقتله، ولا جزاء على مَن قتله إلّا المتولّد بين ما لا يؤكل لحمه وما يؤكل، كالمتولّد بين الذئب والظبي لا يحلّ أكله ويجب بقتله الجزاء على المحرم، لأن فيه جزاء من الصيد، أخبرنا أبو الحسن السرخسي أنا زهير بن أحمد أنا أبو إسحق الهاشمي أنا أبو مصعب عن مالك عن نافع عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «خمس من الدواب ليس على المحرم في قتلهنّ جُناح: الغراب والحدأة والعقرب والفأرة والكلب العقور»، ورُوِيَ عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «يقتلُ المحرمُ السبع العادي»، وعن أبي هريرة أنّ رسولَ الله ﷺ قال: «خمسٌ قتلهنّ حلال في الحرم: الحيّة والعقرب والحدأة والفأرة والكلب العقور»، وقال سفيان بن عيينة: الكلب العقور كل سبع، ومثله عن مالك رحمه الله، وذهب أصحاب الرأي إلى وجوب الجزاء في قتل ما لا يُؤكل لحمه، كالفهد والنمر والخنزير ونحوها إلّا الأعيان المذكورة في الخبر، وقاسوا عليها الذئب فلم يُوجبوا فيه الكفّارة، وقاس الشافعي رحمه الله عليها جميعَ ما لا يُؤكل لحمه لأن الحديث يشتمل على أعيانٍ بعضُها سباعٌ ضارية وبعضُها هوامٌ قاتلة وبعضُها طير لا يدخل في معنى السباع ولا هي من جملة الهوام، وإنما هي حيوان مستخبث اللحم، وتحريم الأكل يجمع الكل فاعتبره ورتّب الحكم عليه.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ جعلَ اللّهُ الكعبةَ البيتَ الحَرامَ ﴾، قال مجاهد: سمّيت كعبة لتربيعها والعرب تسمّي كل

سمي البيت كعبة لتربيعه. وقيل: لارتفاعه عن الأرض. وسمي البيت الحرام لأن الله حرمه وعظمه وشرفه وعظم حرمته وحرم أن يصطاد عنده وأن يختلى خلاه وأن يعضد شجره وأراد بالبيت الحرام، جميع الحرم لما صح من حديث ابن عباس أن النبي ﷺ خطب يوم فتح مكة فقال «إن هذا البلد حرمه الله تعالى يوم خلق السموات والأرض فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة لا يعضد شوكه ولا ينفر صيده ولا يلتقط لقطته إلا من عرفها ولا يختلى خلاه».

وقوله تعالى: ﴿**قياماً للناس**﴾ أصله قواماً لأنه سبب لقوام مصالح الناس في أمر دينهم ودنياهم وآخرتهم.

أما في أمر الدين فإنه به يقوم الحج وتتم المناسك، وأما في أمر الدنيا فإنه تجبى إليه ثمرات كل شيء ويأمنون فيه من النهب والغارة فلو لقي الرجل قاتل أبيه أو ابنه في الحرم لم يهجه، وأما في أمر الآخرة فإن البيت جعل لقيام المناسك عنده وجعلت تلك المناسك التي تقام عنده أسباباً لعلو الدرجات وتكفير الخطيئات وزيادة الكرامات والمثوبات فلما كانت الكعبة الشريفة سبباً لحصول هذه الأشياء كانت سبباً لقيام الناس ﴿**والشهر الحرام**﴾ يعني وجعل الشهر الحرام قياماً للناس وأراد بالشهر الحرام الأشهر الحرم الأربعة وهي: ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب الفرد يعني وكذلك جعل الأشهر الحرم يأمنون فيها من القتال وذلك أن العرب كان يقتل بعضهم بعضاً ويغير بعضهم على بعض وكانوا إذا دخلت الأشهر الحرم أمسكوا عن القتال والغارة فيها فكانوا يأمنون في الأشهر الحرم فكانت سبباً لقيام مصالح الناس. ﴿**والهدي والقلائد**﴾ يعني وكذلك جعل الهدي والقلائد سبباً لقيام مصالح الناس وذلك أنهم كانوا يأمنون بسوق الهدي إلى البيت الحرام على أنفسهم وكذلك كانوا يأمنون إذا قلدوا أنفسهم من لحاء شجر الحرام فلا يتعرض لهم أحد ﴿**ذلك لتعلموا أن الله يعلم ما في السموات وما في الأرض**﴾ يعني: أنه تعالى علم في الأزل بمصالح العباد وما يحتاجون إليه فجعل الكعبة البيت الحرام والشهر الحرام والهدي والقلائد يأمنون بها لأنه يعلم مصالح العباد كما يعلم ما في السموات وما في الأرض لأنه تعالى علم جميع المعلومات الكليات والجزئيات وهو قوله تعالى: ﴿**وأن الله بكل شيء عليم**﴾ يعني أنه تعالى لا تخفى عليه خافية ﴿**واعلموا أن الله شديد العقاب**﴾ يعني لمن انتهك محارمه واستحلها ﴿**وأن الله غفور رحيم**﴾ يعني لمن تاب وآمن ولما ذكر الله أنواع رحمته بعباده ذكر بعدها أنه

بيت مربّع كعبة، قال مقاتل: سُمّيت كعبة لانفرادها من البناء، وقيل: سمّيت كعبة لارتفاعها من الأرض، وأصلها من الخروج والارتفاع، وسمي الكعب كعباً لنتوئه، وخروجه من جانبي القدم، ومنه قيل للجارية إذا قاربت البلوغ وخرج ثديها: تكعّبت، وسمّي البيت الحرام لأن الله تعالى حرّمه وعظّم حُرمته. قال النبي ﷺ: «إنّ اللّهَ تعالى حرّم مكةَ يومَ خلقَ السمٰواتِ والأرض». ﴿ **قياماً للنّاس** ﴾، قرأ ابن عامر (قيماً) بلا ألف والآخرون قياماً بالألف، أي: قواماً لهم في أمرِ دينهم ودنياهم، أما الدين لأن به يقوم الحجّ والمناسك، وأما الدنيا فما يُجبى إليه من الثمرات، وكانوا يأمنون فيه من النهار والغارة فلا يتعرّض لهم أحد في الحرام، قال الله تعالى: ﴿ أَوَ لَمْ يروا أنّا جعلنا حرماً آمناً ويتخطّف النّاسُ منْ حولهم ﴾ [العنكبوت: ٦٧]؟ ﴿**والشهرَ الحرامَ**﴾، أراد به الأشهر الحرم، وهي ذو القعدة وذو الحجة والمحرّم ورجب، أراد أنه جعل الأشهر الحرم قياماً للنّاس يأمنون فيها القتال. ﴿ **والهدي والقلائد** ﴾، أراد أنهم كانوا يأمنون بتقليد الهدي، فذلك القوام فيه. ﴿ **ذلك لتعلمُوا أنّ الله يعلم ما في السمٰوات وما في الأرض وأنّ اللّهَ بكل شيءٍ عليم** ﴾، فإن قيل: أيّ اتصال لهذا الكلام بما قبله وقيل: أراد أن الله عزّ وجلّ جعل الكعبة قياماً للنّاس لأن الله تعالى يعلم صلاح العباد كما يعلم ما في السمٰوات وما في الأرض، وقال الزجّاج: قد سبق في هذه السورة الإخبار عن الغيوب والكشف عن الأسرار، مثل قوله: ﴿ سمّاعون للكذب سمّاعون لقوم آخرين﴾ [المائدة: ٤١]، ومثل إخباره بتحريفهم الكتب ونحو ذلك، فقوله: ﴿ **ذلك لتعلموا أنّ الله يعلم ما في السمٰواتِ وما في الأرض** ﴾ راجع إليه.

شديد العقاب لأن الإيمان لا يتم إلا بحصول الرجاء والخوف ثم ذكر بعده ما يدل على سعة رحمته وأنه غفور رحيم.

مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٩٩﴾ قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُوا۟ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾

قوله تعالى: ﴿**ما على الرسول إلا البلاغ**﴾ يعني ليس على رسولنا الذي أرسلناه إليكم إلا تبليغ ما أرسل به من الإنذار بما فيه قطع الحجج، ففي الآية تشديد عظيم في إيجاب القيامة بما أمر الله وأن الرسول ﷺ قد فرغ مما وجب عليه من التبليغ وقامت الحجة عليكم بذلك ولزمتكم الطاعة فلا عذر في التفريط ﴿**والله يعلم ما تبدون وما تكتمون**﴾ يعني أنه تعالى لا يخفى عليه شيء من أحوالكم ظاهراً وباطناً ﴿**قل لا يستوي الخبيث والطيب**﴾ يعني الحلال والحرام في الدرجة والرتبة ولا يعتد الرديء والجيد ولا المسلم والكافر ولا الصالح والطالح ﴿**ولو أعجبك كثرة الخبيث**﴾ يعني ولو سرك كثرة الخبيث لأن عاقبته عاقبة سوء. والمعنى: أن أهل الدنيا يعجبهم كثرة المال وزينة الدنيا وما عند الله خير وأبقى لأن زينة الدنيا ونعيمها يزول وما عند الله يدوم. وقال ابن الجوزي: روى جابر بن عبد الله أن رجلاً قال: يا رسول الله إن الخمر كانت تجارتي فهل ينفعني ذلك المال إن عملت فيه بطاعة الله؟ فقال النبي ﷺ: «إن الله طيب لا يقبل إلا الطيب» وقال مقاتل: نزلت في شريح بن ضبعة البكري وحجاج بن بكر وقد تقدمت القصة في أول السورة ﴿**فاتقوا الله**﴾ يعني فيما أمركم به أو نهاكم عنه ولا تعتدوه ﴿**يا أولي الألباب**﴾ يعني يا ذوي العقول السليمة ﴿**لعلكم تفلحون**﴾ قوله عز وجل: ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم**﴾ اختلفوا في سبب نزول هذه الآية فروي عن أنس بن مالك قال خطب رسول الله ﷺ خطبة ما سمعنا مثلها قط فقال ﴿**لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً**﴾ قال فغطى أصحاب رسول الله ﷺ وجوههم لهم حنين فقال رجل: من أبي؟ فقال فلان فنزلت هذه الآية ﴿**لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم**﴾ وفي رواية أخرى أن رسول الله ﷺ خرج حين زاغت الشمس

وقوله عزّ وجلّ: ﴿ **اعلموا أنّ اللّهَ شديدُ العقاب، وأنّ اللّهَ غفورٌ رحيم** ﴾.

﴿ **ما على الرسولِ إلّا البلاغ** ﴾ التبليغ، ﴿ **واللّهُ يعلم ما تُبدون وما تكتمون** ﴾.

﴿ **قلْ لا يستوي الخبيثُ والطيب** ﴾، أي: الحلال والحرام، ﴿ **ولو أعجبك** ﴾، سرّك، ﴿ **كثرةُ الخبيث** ﴾، نزلت في شريح بن ضبعة البكري، وحجّاج بن بكر بن وائل، ﴿ **فاتّقوا اللّهَ** ﴾، ولا تتعرضوا للحجّاج وإن كانوا مشركين، وقد مضت القصة في أول السورة، ﴿ **يا أُولي الألباب لعلّكم تفلحون** ﴾.

﴿ **يا أيها الذينَ آمنُوا لا تسألوا عن أشياء إنْ تُبْدَ لكم تسؤكم** ﴾، الآية. أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا حفص بن عمر أنا هشام عن قتادة عن أنس رضي الله عنه سألوا رسول الله ﷺ حتى أحفوه بالمسألة، فغضب فصعد المنبر فقال: «لا تسألوني اليوم عن شيء إلّا بيّنته لكم»، فجعلتُ أنظر يميناً وشمالاً فإذا كان رجل لافٌ رأسه في ثوبه يبكي، فإذا رجل كان إذا لَاحَى الرجالَ يُدعى لغير أبيه، فقال: يا رسول الله مَن أبي؟ قال «حذافة»: ثم أنشأ عمر فقال: رضينا بالله ربّاً وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ رسولاً، نعوذ بالله من الفتن، فقال رسول الله ﷺ: «ما رأيت في الخير والشرّ كاليوم قطّ، أن صُوّرتْ لي الجنةُ والنّارُ حتى رأيتهما وراء الحائط» وكان قتادة يذكر عند هذا الحديث هذه الآية ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إنْ تُبْدَ لكم تسؤكم** ﴾ قال يونس عن ابن شهاب: أخبرني عبيد الله بن عبد الله قال: قالت أم

فصلى الظهر فقام على المنبر فذكر الساعة فذكر فيها أموراً عظاماً ثم قال: من أحب أن يسألني عن شيء فليسأل، فلا تسألوني عن شيء إلا أخبرتكم به مادمت في مقامي فأكثر الناس البكاء وأكثر أن يقول سلوا فقام عبد الله بن حذافة السهمي فقال: من أبي؟ فقال: أبوك حذافة. ثم أكثر أن يقول سلوني فبرك عمر على ركبتيه فقال: «رضينا بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد نبياً» فسكت ثم قال: عرضت علي الجنة والنار أنفاً في عرض هذا الحائط فلم أر كاليوم في الخير والشر. قال ابن شهاب: فأخبرني عبيد الله بن عبد الله بن عتبة قال: قالت أم عبد الله بن حذافة لعبد الله بن حذافة ما سمعت بابن قط أعق منك أمنت أن تكون أمك قارفت بعض ما تقارف أهل الجاهلية فتفضحها عن أعين الناس؟ فقال عبد الله بن حذافة: لو ألحقني بعبد أسود للحقته زاد في رواية أخرى قال قتادة يذكر هذا الحديث عند هذه الآية ﴿**لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم**﴾ أخرجاه في الصحيحين (خ).

عن ابن عباس قال: كان قوم يسألون رسول الله ﷺ استهزاء فيقول الرجل: من أبي؟ ويقول الرجل: تضل ناقته أين ناقتي؟ فأنزل الله فيهم هذه الآية ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم**﴾ الآية كلها وقيل نزلت هذه الآية في شأن الحج عن علي بن أبي طالب قال لما نزلت ﴿**ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً**﴾ قالوا: يا رسول الله ﷺ في كل عام؟ فسكت فقالوا يا رسول الله في كل عام؟ قال: لا ولو قلت نعم لوجبت فأنزل الله عز وجل ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم**﴾ أخرجه الترمذي وقال حديث غريب (م).

عن أبي هريرة قال: خطبنا رسول الله فقال: يا أيها الناس قد فرض عليكم الحج فحجوا. فقال رجل: أفي كل عام؟ فسكت حتى قالها ثلاثاً ثم قال: ذروني ما تركتكم ولو قلت نعم لوجبت ولما استطعتم وإنما أهلك من كان قبلكم كثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم إذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم وإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه».

وروى مجاهد عن ابن عباس: لا تسألوا عن أشياء قال هي البحيرة والوصيلة والسائبة والحام ألا ترى أنه يقول بعد ذلك ما جعل الله من بحيرة ولا كذا ولا كذا وقال عكرمة: إنهم كانوا يسألون عن الآيات فنهوا عن ذلك ثم قال قد سألها قوم من قبلكم ثم أصبحوا بها كافرين ومعنى الآية ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء**﴾ جمع شيء ﴿**إن تبد لكم**﴾ أي تظهر لكم وتبن لكم ﴿**تسؤكم**﴾ يعني إن أمرتم بالعمل بها فإن من سأل عن الحج لم يأمن أن يؤمر به فلا يقدر عليه فيسوءه ذلك ومن سأل عن نسبه لم يأمن أن يلحقه النبي ﷺ بغير أبيه فيفتضح ويسوءه ذلك ﴿**وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبد لكم**﴾ معناه: إن صبرتم حتى ينزل القرآن بحكم من فرض أو نهي أو حكم وليس في ظاهره شرح ما تحتاجون إليه ومست حاجتكم إليه فإذا سألتم عنه فحينئذ يبدى لكم، ومثال هذا: أن الله عز وجل لما بيَّن عدة

عبد الله بن حذافة لعبد الله بن حذافة: ما سمعت بابن قطّ أعقّ منك، آمنت أن تكون أُمك قد فارقت بعض ما تفارقت نساء أهل الجاهلية فتفضحها على أعين الناس؟ قال عبد الله بن حذافة: والله لو ألحقني بعبد أسود للحقته.
ورُوِيَ عن عمر قال: يا رسول الله إنّا حديثو عهد بجاهلية فاعفُ عنّا يعفُ الله سبحانه وتعالى عنك، فسكن غضبه.
أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أخبرنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا الفضل بن سهل أخبرنا أبو النضر أنا أبو خيثمة أنا أبو جويرية عن ابن عباس قال: كان قوم يسألون رسول الله ﷺ استهزاء، فيقول الرجل: مَن أبي ويقول الرجل ضلّت ناقته أين ناقتي، فأنزل الله فيهم هذه الآية ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إنْ تُبْدَ لكم تسؤكم ﴾ حتى فرغ من الآية كلها. ورُوِيَ عن عليّ رضي الله عنه قال: لمّا نزلت: ﴿ ولِلَّهِ على النّاسِ حجُّ البيت ﴾ [آل عمران: ٩٧] قال رجل: يا رسول الله أفي كل عام فأعرض عنه فعاد مرتين أو ثلاثاً، فقال النبي ﷺ: «ما يُؤمنك أن أقول نعم؟ والله لو قلت نعم لوجبت، ولو وجبت ما استطعتم،

المطلقة والمتوفى عنها زوجها والحامل ولم يكن في عدد هؤلاء دليل على عدة التي ليست ذات قرء ولا حامل فسألوا عنها فأنزل الله عز وجل جوابهم في قوله ﴿واللائي يئسن من المحيض من نسائكم﴾ الآية ﴿عفا الله عنها﴾ يعني عن مسألتكم عن الأشياء التي سألتم عنها رسول الله ﷺ التي كره الله لكم السؤال عنها فلم يؤاخذكم بها ولم يعاقبكم عليها ﴿والله غفور﴾ يعني لمن تاب منكم ﴿حليم﴾ فلا يعجل بعقوبتكم. وقال عطاء: غفور يعني لما كان في الجاهلية. حليم: يعني عن عقابكم منذ آمنتم وصدقتم. وقال بعض العلماء: الأشياء التي يجوز السؤال عنها، هي ما يترتب عليها أمر الدين والدنيا من مصالح العباد وما عدا ذلك فلا يجوز السؤال عنه (ق).

عن سعد بن أبي وقاص أن رسول الله ﷺ قال: إن أعظم المسلمين في المسلمين جرماً من سأل عن شيء لم يحرم على الناس فحرم من أجل مسألته (ق).

عن المغيرة بن شعبة أنه كتب إلى معاوية أن النبي ﷺ «كان ينهى عن قيل وقال وإضاعة المال وكثرة السؤال» عن معاوية أن النبي ﷺ «نهى عن الأغلوطات» أخرجه أبو داود. والأغلوطات صعاب المسائل التي تزل فيها أقدام العلماء ويؤيد ذلك قول أبي هريرة: شرار الناس الذين يسألون عن شرار المسائل كي يغلطوا بها العلماء. عن سلمان قال سئل رسول الله ﷺ عن أشياء فقال «الحلال ما أحل الله في كتابه والحرام ما حرمه الله في كتابه وما سكت عنه فهو مما قد عفا عنه فلا تتكلفوا» وعن أبي ثعلبة الخشني أن رسول الله ﷺ قال «إن الله تعالى فرض فرائض فلا تضيعوها وحد حدوداً فلا تعتدوها وحرم أشياء فلا تقربوها وترك أشياء من غير نسيان فلا تبحثوا عنها» هذان الحديثان أخرجهما في جامع الأصول ولم يعزهما إلى الكتب الستة ثم قال تعالى:

قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا۟ بِهَا كَٰفِرِينَ ﴿١٠٢﴾ مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾

﴿قد سألها قوم من قبلكم ثم أصبحوا بها كافرين﴾ قال المفسرون: يعني قوم صالح سألوا الناقة ثم عقروها فأصبحوا بها كافرين، وقوم موسى قالوا: أرنا الله جهرة، فكان هذا السؤال وبالاً عليهم، وقوم عيسى، سألوا نزول المائدة عليهم ثم كذبوها. كأنه تعالى يقول: إن أولئك سألوا فلما أُعطوا سؤلهم كفروا به فلا تسألوا أنتم شيئاً فلعلكم إن أعطيتم سؤلكم ساءكم ذلك.

فاتركوني ما تركتكم فإنّما هلك مَن كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه»، فأنزل الله تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إنْ تُبْدَ لكم تَسُؤْكم ﴾ أي: إن تظهر لكم تسؤكم، أي: إن أُمرتم بالعمل بها فإن مَن سأل عن الحج لم يأمن أن يؤمر به في كل عام فيسوءه، ومَن سأل عن نسبه لم يأمن من أن يلحقه بغيره فيفتضح، وقال مجاهد: نزلت حين سألوا رسول الله ﷺ عن البحيرة والسائبة والوصيلة والحَام، ألا تراه ذكره بعد ذلك. ﴿ وإنْ تسألوا عنها حين يُنزّلُ القرآنُ تُبْدَ لكم ﴾، معناه صبرتم حتى ينزل القرآن بحكم من فرض أو نهي أو حكم، وليس في ظاهره شرح ما بكم إليه حاجة ومسّت حاجتكم إليه، فإذا سألتم عنها حينئذ تُبد لكم، ﴿ عفَا اللّهُ عنها والله غفورٌ حليم ﴾.

﴿ قدْ سألها قومٌ من قبلكم ﴾، كما سألت ثمود صالحاً الناقة وسأل قوم عيسى المائدة، ﴿ ثم أصبحوا بها كافرين ﴾، فأُهلكوا، قال أبو ثعلبة الخشني: إن الله فرض فرائض فلا تضيعوها ونهى عن أشيا فلا تنتهكوها وحدّ حدوداً فلا تعتدوها، وعفا عن أشياء من غير نسيان فلا تبحثوا عنها.

قوله تعالى: ﴿ما جعل الله﴾ أي ما أنزل الله ولا حكم به ولا شرعه ولا أمر به ﴿من بحيرة﴾ البحيرة: من البحر وهو الشق. يقال: بحر ناقته إذا شق أذنها فهي فعيلة بمعنى مفعولة ﴿ولا سائبة﴾ يعني المسيبة المخلاة ﴿ولا وصيلة﴾ الوصيلة: الشاة وكانت العرب في الجاهلية إذا ولدت لهم ذكراً أو أنثى قالوا وصلت أخاها ﴿ولا حام﴾ الحام: هو الفحل من الإبل يحمى ظهره فلا يركب ولا ينتفع به. قال ابن عباس: في بيان هذه الأوصاف، البحيرة: هي الناقة إذا ولدت خمسة أبطن لم يركبوها ولم يجزّوا وبرها ولم يمنعوها الماء والكلأ ثم نظروا إلى خامس ولدها فإن كان ذكراً نحروه وأكله الرجال والنساء وإن كانت أنثى شقوا أذنها وتركوها وحرموا على الناس منافعها. وكانت منافعها للرجال خاصة فإذا ماتت حلت الرجال والنساء. وقيل كانت الناقة إذا تابعت اثنتي عشرة سنة إناثاً سيبت فلم يركب ظهرها ولم يجز وبرها ولم يشرب لبنها إلا ضيف فما نتجت بعد ذلك من أنثى شق أذنها ثم سيب مع أمها ويفعل بها ما يفعل بأمها. وقيل: السائبة البعير الذي يسيب لآلهتهم وذلك أن الرجل من أهل الجاهلية كان إذا مرض أو غاب له قريب نذر، فقال: إنْ شفاني الله أو شفى الله مريضي أو قدم غائبي فناقتي هذه سائبة ثم يسيبها، فلا تحبس عن ماء ولا مرعى ولا يركبها أحد، فهي بمنزلة البحيرة والوصيلة من الغنم. كانت الشاة إذا ولدت سبعة أبطن نظروا فإن كان السابع ذكر ذبحوه وأكل منه الرجال والنساء وإن كانت أنثى تركوها في الغنم وإن كانت ولدت ذكراً وأنثى قالوا وصلت أخاها واستحيوا الذكر فلم يذبحوه من أجل الأنثى والحامي هو الفحل إذا ركب ولدولده. وقيل: هو الفحل إذا نتج من صلبه عشرة أبطن. قالوا: حمى ظهره فلا يركب ولا يحمل عليه ولا يمنع من ماء ولا مرعى فإذا مات أكله الرجال والنساء (ق) عن سعيد بن المسيب قال: البحيرة التي يمنع درها للطواغيت فلا يحلبها أحد من الناس والسائبة كانوا يسيبونها لآلهتهم لا يحمل عليها شيء. قال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ رأيت عمرو بن عامر الخزاعي يجر قصبه في النار.

﴿ ما جعلَ اللَّهُ منْ بَحِيرةٍ ﴾ أي: ما أنزل الله ولا أمرَ به، ﴿ ولا سائبةٍ ولا وَصِيلَةٍ ولا حَامٍ ﴾، قال ابن عباس في بيان هذه الأوضاع: البحيرة هي الناقة التي كانت إذا ولدت خمسة أبطن بحروا أُذنها، أي: شقّوها وتركوا الحمل عليها ولم يركبوها، ولم يجزّوا وَبَرها ولم يمنعوها الماء والكلأ، ثم نظروا إلى خامس ولدها فإن كان ذكراً نحروه وأكله الرجال والنساء، وإن كان أُنثى تحرّوا أُذنها، أي: شقّوها وتركوها، وحُرِّم على النساء لبنها ومنافعها، وكانت منافعها خاصّة للرجال، فإذا ماتت حلّت للرجال والنساء، وقيل: كانت الناقة إذا تابعت اثنتي عشرة سنة إناثاً سُيِّبت فلم يُركب ظهرُها ولم يُجزّ وبرُها ولم يُشرَب لبنُها إلاّ ضيف، فما نتجت بعد ذلك من أُنثى شقّ أُذنها ثم خلّى سبيلها مع أُمّها في الإبل، فلم يُركب ظهرُها ولم يُجزّ وَبرُها ولم يُشربْ لبنَها إلا ضيف، كما فعل بأُمها، فهي البحيرة بنت السائبة. وقال أبو عبيدة: السائبة البعير الذي يُسيّب، وذلك أن الرجل من أهل الجاهلية كان إذا مرض أو غاب له قريب نذر فقال إن شفاني الله تعالى أو شُفي مريضي أو عاد غائبي، فناقتي هذه سائبة، ثم يسيّبها فلا تحبس عن رعي ولا ماء ولا يركبها أحدٌ فكانت بمنزلة البحيرة، وقال علقمة: هي العبد يُسيّب على أن لا ولاء عليه ولا عقل ولا ميراث. وقال ﷺ: «إنّما الولاء لمَن أعتق»، والسائبة فاعلة بمعنى المفعولة، وهي المسيبة، كقوله تعالى: ﴿ ماءٌ دافق ﴾[الطارق: ٦] أي: مدفوق، ﴿ وعيشةٌ راضية ﴾ [الحاقة: ٢١، والقارعة: ٧]، وأمّا الوصيلة: فمن الغنم كانت الشاة إذا ولدت سبعة أبدن نظروا فإن كان السابع ذكراً ذبحوه، فأكل منه الرجال والنساء، وإن كانت أُنثى تركوها في الغنم وإن كان ذكراً وأُنثى استحيوا الذكر من أجل الأنثى، وقالوا: واصلت أخاها فلم يذبحوه، وكان لبن الأنثى حراماً على النساء، فإن مات منهما شيء أكله الرجال والنساء جميعاً. وأما الحَام: فهو الفحل إذا ركب ولد ولده، ويقال: إذا نتج من صلبه عشرة أبطن، قالوا: حُمي ظهرُه فلا يُركب ولا يُحمل عليه ولا يُمنع من كلأ ولا ماء، فإذا مات أكله الرجال والنساء. أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن

ولمسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ رأيت عمرو بن لحي بن قمعة بن خندف أخا بني كعب وهو يجر قصبه في النار (خ) عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ رأيت جهنم تحطم بعضها بعضاً ورأيت عمراً يجر قصبه وهو أول من سيب السوائب. القُصْب بضم القاف وسكون الصاد المهملة الأمعاء كانت الجاهلية تفعل هذا في جاهليتهم فلما بعث الله عز وجل نبيه ﷺ أبطل ذلك بقوله ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام يعني ما بحر الله من بحيرة ولا سيب من سائبة ولا وصل من وصيلة ولا حمى من حام ولا أذن فيه ولا أمر به ولكنكم أنتم فعلتم ذلك من عند أنفسكم (خ) عن ابن مسعود أن أهل الإسلام لا يسيبون وأن أهل الجاهلية كانوا يسيبون.

وقوله تعالى: ﴿ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب﴾ يعني بقولهم إن الله أمرنا بهم ﴿وأكثرهم لا يعقلون﴾ أراد بالأكثر الاتباع يعني أن الاتباع لا تعقل أن هذا كذب وافتراء من الرؤساء على الله عز وجل:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُوا۟ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾﴾

﴿وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول﴾ يعني: وإذا قيل لهؤلاء الذين بحروا البحائر وفعلوا هذه الأشياء أضافوها إلى الله كذباً تعالوا إلى ما أنزل الله يعني في كتابه وإلى الرسول يعني محمداً ﷺ الذي أنزل عليه كتابه ليبين لكم كذب ما تضيفونه إلى الله ويبين لكم الشرائع والأحكام وإن الذي تفعلونه ليس بشيء ﴿قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا﴾ يعني قد اكتفينا بما أخذنا عنهم من الدين ونحن لهم تبع قال الله رداً عليهم ﴿أو لو كان آباؤهم لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون﴾ يعني إنما يصح الاقتداء بالعالم المهتدي الذي يبني قوله على الحجة والبرهان والدليل وأن آباءهم ما كانوا كذلك فيصح اقتداؤهم بهم قوله عز وجل:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾﴾

﴿يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم﴾ قال بعض العلماء: هذا أمر من الله تعالى

يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا إبراهيم بن سعد عن صالح بن كيسان عن ابن شهاب عن سعيد بن المسيب قال: البحيرة التي يمنع درّها للطواغيت فلا يحلبها أحد من الناس، والسائبة كانوا يُسيّبونها لآلهتهم لا يحمل عليها شيء. قال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ: «رأيتُ عمرو بن عامر الخزاعي يجرّ قصبه في النار، وكان أول مَن سيّب السوائب». رَوى محمد بن إسحق عن محمد بن إبراهيم التيمي عن أبي صالح السمان عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ لأكتم بن جون الخزاعي: «يا أكتم رأيتُ عمرو بن لحي بن قمعة بن خندق يجرّ قصبه في النار فما رأيت من رجلٍ أشبه برجلٍ منك به ولا به منك»، وذلك أنه أول مَن غيّر دين إسماعيل ونصبَ الأوثان وبحرَ البحيرة وسيّب السائبة، ووصل الوصيلة وحمى الحامي، «فلقد رأيته في النار يؤذي أهل النار بريح قصبه»، فقال أكتم: أيضرّني شبه يا رسول الله؟ فقال: «لا إنك مؤمن وهو كافر». ﴿ ولكنّ الذينَ كفرُوا يفترونَ على اللّهِ الكذب ﴾، في قولهم الله أمرنا بها، ﴿ وأكثرهم لا يعقلون ﴾.

﴿ وإذا قيلَ لهمْ تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول ﴾، في تحليل الحرث والأنعام وبيان الشرائع والأحكام، ﴿ قالوا حسبنا ما وجدْنا عليه آباءَنا ﴾، من الذين قال الله تعالى: ﴿ أو لو كانَ آباؤُهم لا يعلمُون شيئاً ولا يهتدُون ﴾.

﴿ يا أيّها الذينَ آمنُوا عليكمْ أنفسَكُم لا يضرُكمْ مَنْ ضلّ إذا اهتديتُم ﴾ روينا عن أبي بكر الصديق رضي الله

ومعناه احفظوا أنفسكم من ملابسة الذنوب والإصرار على المعاصي لأنك إذا قلت عليك زيداً معناه الزم زيداً وقيل معناه عليكم أنفسكم فأصلحوها واعملوا في خلاصها من عذاب الله عز وجل. وانظروا لها ما يقربها من الله عز وجل. لا يضركم من ضل إذا اهتديتم، يعني لا يضركم كفر من كفر إذا كنتم مهتدين وأطعتم الله عز وجل فيما أمركم به ونهاكم عنه.

قال سعيد بن جبير ومجاهد: نزلت هذه الآية في أهل الكتاب اليهود والنصارى يعني عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل من أهل الكتاب فخذوا منهم الجزية واتركوهم. وقيل: لما قبلت الجزية من أهل الكتاب قال بعض الكفار: كيف تقبل الجزية من بعض دون بعض؟ فنزلت هذه الآية. وقيل: إن المؤمنين كان يشتد عليهم بقاء الكفار على كفرهم فقيل لهم: عليكم أنفسكم واجتهدوا في صلاحهم لا يضركم ضلال الضالين ولا جهل الجاهلين إذا كنتم مهتدين. فإن قلت هل يدل ظاهر هذه الآية على جواز ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

قلت: لا يدل على ذلك والذي عليه أكثر الناس أن المطيع لربه عزَّ وجل لا يكون مؤاخذاً بذنوب أصحاب المعاصي فأما وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فثابت بدليل الكتاب والسنة. عن قيس بن أبي حازم عن أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه أنه قال: أيها الناس إنكم تقرؤون هذه الآية **﴿يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضلَّ إذا اهتديتم﴾** ولا تضعونها موضعها ولا تدرون ما هي وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الناس إذا رأوا ظالماً فلم يأخذوا على يديه أو شك أن يعمهم الله بعقاب منه» أخرجه الترمذي وقال حديث حسن صحيح وأخرجه أبو داود زاد فيه: «ما من قوم يُعمل فيهم بالمعاصي ثم يقدرون على أن يغيروا ولا يغيروا إلا يوشك أن يعمهم الله بعقاب».

وقال قوم في معنى الآية عليكم أنفسكم إذا أمرتم بالمعروف ونهيتم عن المنكر فلم يقبل منكم قال ابن مسعود مروا بالمعروف وانهوا عن المنكر ما قبل منكم فإن رد عليكم فعليكم أنفسكم، ثم قال: إن القرآن نزل منه أي قد مضى تأويلهن قبل أن ينزلن ومنه أي وقع تأويلهن على عهد رسول الله ﷺ ومنه أي وقع تأويلهن بعد رسول الله ﷺ بيسير ومنه أي يقع تأويلهن في آخر الزمان ومنه أي يقع تأويلهن يوم القيامة وهو ما ذكر من الحساب والجنة والنار فما دامت قلوبكم وأهواؤكم واحدة لم تلبسوا شيعاً ولم يذق بعضكم بأس بعض فامروا بالمعروف وانهوا عن المنكر فإذا اختلفت قلوبكم وأهواؤكم وألبستم شيعاً وأذيق بعضكم بأس بعض فأمرؤ ونفسه فعند ذلك جاء تأويل هذه الآية. وقيل لابن عمر لو جلست في هذه الأيام فلم تأمر ولم تنه فإن الله يقول «عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم» فقال ابن عمر: إنها ليست لي ولا لأصحابي لأن رسول الله ﷺ قال ألا ليبلغ الشاهد الغائب فكنا نحن الشهود وأنت الغائب ولكن هذه الآية لأقوام يجيئون من بعدنا إن قالوا لم يقبل منهم. وعن أبي أمية الشعباني قال أتيت أبا ثعلبة الخشني

عنه أنه قال: يا أيها الناس إنكم تقرؤون هذه الآية: **﴿ يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسَكم لا يضرُّكم مَّنْ ضلّ إذا اهتديتم ﴾**، وتضعونها في غير موضعها ولا تدرون ما هي، وإني سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إنّ الناس إذا رأوا منكراً فلم يغيّروه يُوشك أن يعمهم الله تعالى بعقابه» وفي رواية «لتأمرُنَّ بالمعروف ولتنهونّ عن المنكر أو ليسلطنّ اللَّهُ سبحانه وتعالى عليكم شراركم فليسومونكم سوء العذاب، ثم ليدعون اللَّهَ عزّ وجلّ خيّارُكم فلا يُستجاب لكم»، قال أبو عبيدة: خاف الصديق أن يتأوّل الناس الآية غير متأوّلها فيدعوهم إلى ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فأعلمهم أنها ليست كذلك وأن الذي أذن الإمساك عن تغييره من المنكر، هو الشرك الذي ينطق به المعاهدون من أجل أنهم يتدينون به، وقد صُولحوا عليه، فأما الفسوق والعصيان والذنب من أهل الإسلام فلا يدخل فيه، وقال مجاهد وسعيد بن جبير: الآية في اليهود والنصارى، يعني: عليكم أنفسكم لا يضرّكم مَن ضلّ من

فقلت له: كيف نصنع بهذه الآية قال: أية آية قلت ﴿**يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم**﴾ قال: أما والله لقد سألت عنها خبيراً سألت عنها رسول الله ﷺ فقال «ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر حتى إذا رأيت شحاً مطاعاً وهوى متبعاً ودنيا مؤثرة وإعجاب كل ذي رأي برأيه فعليك بخاصة نفسك ودع العوام فإن من ورائكم أيام الصبر فمن صبر فيهن قبض على الجمر للعامل فيهن مثل أجر خمسين رجلاً يعملون مثل عملكم».

وفي رواية: «قيل: يا رسول الله أجر خمسين رجلاً منا أو منهم، قال: لا بل أجر خمسين منكم» أخرجه الترمذي وقال حديث حسن غريب وقيل في معنى الآية: إن العبد إذا عمل بطاعة الله واجتنب نواهيه لا يضره من ضل. وقال ابن عباس: قوله «عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم» يقول إذا ما العبد أطاعني فيما أمرته من الحلال والحرام فلا يضره من ضل بعده إذا عمل بما أمرته به وعن صفوان بن محرز قال: دخل عليَّ شاب من أصحاب الأهواء فذكر شيئاً من أمره فقلت له: ألا أدلك على خاصة الله التي خص بها أولياءه «يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم» وقال الحسن: لم يكن مؤمن فيما مضى ولا مؤمن فيما بقي إلا وإلى جانبه منافق يكره عمله. وقيل في معنى الآية: لا يضركم من كفر بالله وحاد عن قصد السبيل من أهل الكتاب إذا اهتديتم أنتم. قال سعيد بن جبير: نزلت هذه الآية في أهل الكتاب. وقال ابن زيد: كان الرجل إذا أسلم قالوا له سفهت آباءك وضللتهم وفعلت وفعلت وكان ينبغي لك أن تنصرهم وتفعل وتفعل فقال الله عز وجل: ﴿**يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم**﴾ قال الطبري: وأولى هذه الأقوال وأصح التأويلات عندنا في هذه الآية ما روي عن أبي بكر الصديق وهو العمل بطاعة الله وأداء ما لزم من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والأخذ على يد الظالم لأن الله تعالى يقول: ﴿وتعاونوا على البر والتقوى﴾ ومن التعاون على البر والتقوى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والأخذ على يد الظالم حتى يرجع عن ظلمه.

وقال عبد الله بن المبارك: هذه الآية أوكد آية في وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لأن الله تعالى قال: عليكم أنفسكم يعني أهل دينكم بأن يعظ بعضكم بعضاً ويرغبه في الخيرات وينفره عن القبائح والمكروهات والذي يؤكد ذلك أن معنى قوله: عليكم أنفسكم أي احفظوا أنفسكم وهذا أمر بأن نحفظ أنفسنا ولا يتم ذلك إلا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والله أعلم.

أهل الكتاب فخذوا منهم الجزية واتركوهم، وعن ابن عباس قال في هذه الآية: مُرُوا بالمعروف وانهوا عن المنكر ما قُبِلَ منكم فإن رُدَّ عليكم فعليكم أنفسكم، ثم قال: إن القرآن نزل منه، أي: قد مضى تأويلهنّ قبل أن ينزل، ومنه أي: وقع تأويلهنّ على عهد رسول الله ﷺ، ومنه أي وقع تأويلهنّ بعد رسول الله، ومنه أي تأويلهنّ في آخر الزمان، ومنه أي: يقع تأويلهنّ يوم القيامة ما ذكر من الحساب والجنّة والنار، فما دامت قلوبكم وأهواؤكم واحدة ولم تلبسوا شيعاً ولم يُذق بعضكم بأس بعض، فأمروا وانهوا، وإذا اختلفت القلوب والأهواء وأُلبستم شيعاً، وذاق بعضكم بأس بعض، فامرؤٌ ونفسُه، فعند ذلك جاء تأويل هذه الآية. أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا أبو جعفر أحمد بن محمد العنبري أخبرنا أبو عيسى بن نضر أنا عبد الله بن المبارك أنا عتبة بن أبي حكيم حدّثني عمرو بن جارية اللخمي أنا أبو أمية الشعباني قال: أتيت أبا ثعلبة الخشني فقلتُ: يا أبا ثعلبة كيف تصنع في هذه الآية؟ قال: أيّةُ آية؟ قلت: قول الله عزّ وجلّ: ﴿ **عليكم أنفسَكم لا يضرّكم مَنْ ضَلّ إذا اهتديتُم** ﴾، فقال: أمَا والله لقد سألت عنها خبيراً، سألتُ عنها رسولَ الله ﷺ فقال: «بل ائتمرُوا بالمعروف وتناهُوا عن المنكر حتى إذا رأيت شُحّاً مُطاعاً وهوىً متّبعاً ودنيا مؤثرة، وإعجاب كل ذي رأيٍ برأيه، ورأيتَ أمراً لا بدّ لك فعليك نفسك ودع أمر العوام، فإنّ وراءكم أيام الصبر، فمَن صبر فيهنّ قبض على الجمر، للعامل فيهنّ مثل أجر خمسين رجلاً يعملون

وقوله تعالى: ﴿إلى الله مرجعكم جميعاً﴾ يعني في الآخرة الطائع والعاصي والضال والمهتدي ﴿فينبئكم بما كنتم تعملون﴾ يعني فيخبركم بأعمالكم ويجزيكم عليها.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ حِينَ ٱلْوَصِيَّةِ ٱثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَأَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةُ ٱلْمَوْتِۚ تَحْبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعْدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِۦ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَلَا نَكْتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلْآثِمِينَ ﴿١٠٦﴾

قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا شهادة بينكم﴾ سبب نزول هذه الآية ما روي أن تميم بن أوس الداري، وعدي بن بداء، خرجا من المدينة في تجارة إلى الشام وهما نصرانيان ومعهما بديل مولى عمرو بن العاص وكان مسلماً فلما قدموا الشام مرض بديل فكتب كتاباً فيه جميع ما معه من المتاع وألقاه في متاعه ولم يخبر صاحبيه بذلك فلما اشتد وجعه أوصى إلى تميم وعدي وأمرهما أن يدفعا متاعه إلى أهله إذا رجعا إلى المدينة ومات بديل، ففتشا متاعه، فوجدا فيه إناء من فضة منقوشاً بالذهب فيه ثلثمائة مثقال فغيباه، ثم إنهما قضيا حاجتهما وانصرفا إلى المدينة فدفعا المتاع إلى أهل البيت ففتشوه فأصابوا الصحيفة وفيها تسمية ما كان معه فجاء أهل الميت إلى تميم وعدي فقالوا: هل باع صاحبنا شيئاً من متاعه قالا: لا. قالوا: فهل أتجر تجارة؟ قالا: لا. قالوا: فهل طال مرضه فأنفق شيئاً على نفسه قالا: لا. قالوا: إنا وجدنا في متاعه صحيفة فيها تسمية ما كان معه وإنا فقدنا إناء من فضة منقوشاً بالذهب فيه ثلثمائة مثقال فضة قالا: لا ندري إنما أوصى إلينا بشيء وأمرنا أن ندفعه إليكم فدفعناه ومَا لَنا علم بالإناء فاختصموا إلى النبي ﷺ فأصرا على الإنكار وحلفا فأنزل الله هذه الآية هذا قول المفسرين. وروى الترمذي عن ابن عباس عن تميم الداري في هذه الآية يا أيها الذين آمنوا شهادة بينكم إذا حضر أحدكم الموت قال تميم بريء الناس منها غيري وغير عدي بن بداء وكانا نصرانيين يختلفان إلى الشام بتجارتهما قبل الإسلام فأتيا إلى الشام بتجارتهما وقدم عليهما مولى لبني سهم يقال له بديل بن أبي مريم بتجارة ومعه جام من فضة يريد به الملك وهو أعظم تجارته فمرض فأوصى إليهما وأمرهما أن يبلغا ما ترك أهله قال تميم: ولما مات أخذنا ذلك الجام فبعناه بألف درهم ثم اقتسمناه أنا وعدي فلما أتينا أهله دفعنا إليهم ما كان معنا وفقد الجام فسألونا عنه فقلنا ما ترك غير هذا ولا دفع إلينا غيره قال تميم:

مثله»، قال ابن المبارك: وزادني غيره قالوا: يا رسول الله أجْر خمسين منهم؟ قال: «أجر خمسين منكم». وقيل: نزلت في أهل الأهواء، قال أبو جعفر الرازي: دخل على صفوان بن محرز شابٌّ من أهل الأهواء فذكر شيئاً من أمره، فقال صفوان ألا أدلّك على خاصّة الله التي خصّ بها أولياءه: ﴿ **يا أيّها الذينَ آمنُوا عليكم أنفسَكُم لا يضرّكم مَنْ ضلّ إذا اهتديتُم** ﴾. قوله عزّ وجلّ: ﴿ **إلى اللّهِ مرجعُكم جميعاً** ﴾، الضالّ والمهتدي، ﴿ **فينبّئكم بما كنتُم تعملُون** ﴾.

قوله تعالى: ﴿ **يا أيّها الذينَ آمنُوا شهادةُ بينكم** ﴾، سبب نزول هذه الآية ما رُوِيَ أن تميم بن أوس الداري وعدي بن زيد قد خرجا من المدينة للتجارة إلى أرض الشام وهما نصرانيان ومعهما بديل مولى عمرو بن العاص، وكان مسلماً فلما قَدِموا الشام مرض بديل، فكتب كتاباً فيه جميع ما معه من المتاع وألقاه في جوالقه ولم يخبر صاحبيه بذلك، فلما اشتدّ وجعه أوصى إلى تميم وعدي وأمرهم أن يدفعا متاعه إذا رجعا إلى أهله، ومات بديل ففتشا متاعه وأخذا منه إناءً من فضة منقوشاً بالذهب فيه ثلاثمائة مثقال فضة فغيباه، ثم قضيا حاجتهما فانصرفا إلى المدينة فدفعا المتاع إلى أهل البيت، ففتشوا وأصابوا الصحيفة فيها تسمية ما كان معه فجاؤوا تميماً وعدياً فقالوا: هل باع صاحبنا شيئاً من متاعه؟ قالا: لا، قالوا: فهل اتّجر تجارة؟ قالا: لا، قالوا: هل طال مرضه فأنفق على

فلما أسلمت بعد قدوم النبي ﷺ المدينة تأثمت من ذلك فأتيت أهله فأخبرتهم الخبر وأديت إليهم خمسمائة درهم وأخبرتهم أن عند صاحبي مثلها فأتوا به رسول الله ﷺ فسألهم البينة فلم يجدوا فأمرهم أن يستحلفوه بما يعظم على أهل دينه فحلف فأنزل الله ﴿**يا أيها الذين آمنوا شهادة بينكم إذا حضر أحدكم الموت**﴾ إلى قوله ﴿**أو يخافوا أن ترد أيمان بعد أيمانهم**﴾ فقام عمرو بن العاص ورجل آخر فحلفا فنزعت الخمسمائة درهم من عدي قال الترمذي: هذا حديث غريب وليس إسناده بصحيح.

وقد روي عن ابن عباس شيء من هذا على الاختصار من غير هذا الوجه قال ابن عباس: خرج رجل من بني سهم مع تميم الداري وعدي بن بداء فمات السهمي بأرض ليس فيها مسلم فلما قدما بتركته فقدوا جاماً من فضة مخوصاً بالذهب فأحلفهما رسول الله ﷺ ثم وجدوا الجام بمكة فقيل اشتريناه من تميم وعدي فقام رجلان من أولياء السهمي فحلفا بالله لشهادتنا أحق من شهادتهما وإن الجام لصاحبهم قال وفيهم نزلت هذه الآية: ﴿**يا أيها الذين آمنوا شهادة بينكم إذا حضر أحدكم الموت**﴾ أخرجه الترمذي وقال حديث حسن غريب وأخرج هذه الرواية الأخيرة البخاري في صحيحه فأما التفسير فقوله تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا شهادة بينكم**﴾ يعني ليشهد ما بينكم لأن الشهادة إنما يحتاج إليها عند وقوع التنازع والتشاجر ﴿**إذا حضر أحدكم الموت**﴾ يعني إذا قارب وقت حضور الموت ﴿**حين الوصية اثنان**﴾ لفظه خبر ومعناه الأمر يعني ليشهد اثنان منكم عند حضور الموت وأردتم الوصية ﴿**ذوا عدل منكم**﴾ يعني من أهل دينكم وملتكم يا معشر المؤمنين واختلفوا في هذين الاثنين فقيل هما الشاهدان اللذان يشهدان على وصية الموصي وقيل هما الوصيان لأن الآية نزلت فيهما ولأنه قال تعالى: ﴿**فيقسمان بالله**﴾ والشاهد لا يلزمه يمين وجعل الوصي اثنين تأكيداً فعلى هذا تكون الشهادة بمعنى الحضور كقولك: شهدت وصية فلان بمعنى حضرت ﴿**أو آخران من غيركم**﴾ يعني من غير أهل دينكم وملتكم وهذا قول ابن عباس وأبي موسى الأشعري وسعيد بن المسيب وابن جبير والنخعي والشعبي وابن سيرين وابن شريح وأكثر المفسرين. وقيل: معناه من غير عشيرتكم وقبيلتكم وهم مسلمون. واختلف العلماء في حكم هذه الآية فقال إبراهيم النخعي وجماعة: هي منسوخة كانت شهادة أهل الذمة

نفسه؟ قالا: لا، فقالوا: إنّا وجدنا في متاعه صحيفة فيها تسمية ما معه وإنّا قد فقدنا منها إناءً من فضة مموّهاً بالذهب فيه ثلاثمائة مثقال فضّة، قالا: ما ندري إنما أوصى لنا بشيء فأمرنا أن ندفعه إليكم فدفعناه وما لنا علم بالإناء، فاختصموا إلى النبي ﷺ فأصرّا على الإنكار، وحلفا فأنزل الله عزّ وجلّ هذه الآية ﴿ **يا أيّها الذين آمنوا شهادةُ بينكم إذا حضرَ أحدَكم الموتُ حينَ الوصيةِ اثنان** ﴾، أي: ليشهد اثنان، لفظه خبر ومعناه أمر، وقيل: إن معناه: أن الشهادة فيما بينكم على الوصية عند الموت اثنان، واختلفوا في هذين الاثنين، فقال قوم: هما الشاهدان اللذان يشهدان على وصيّة الموصي، وقال الآخرون: هما الوصيّان، لأن الآية نزلت فيهما ولأنه قال: ﴿ **تحبسونهما من بعد الصلاة فيقسمان** ﴾، ولا يلزم الشاهد يمين، وجعلُ الوصي اثنين تأكيد، فعلى هذا تكون الشهادة بمعنى الحضور، كقولك: شهدتُ وصيّة فلان، بمعنى حضرت، قال الله تعالى: ﴿ وليشهدْ عذابَهما طائفةٌ من المؤمنين ﴾ [النور: ٢]، يريد الحضور، ﴿ **ذَوَا عَدْلٍ** ﴾ أي: أمانة وعقل، ﴿ **منكم** ﴾، أي: من أهل دينكم يا معشر المؤمنين، ﴿ **أو آخَرَانِ من غيركم** ﴾، أي: من غير دينكم وملّتكم في قول أكثر المفسّرين، قاله ابن عباس وأبو موسى الأشعري، وهو قول سعيد بن المسيب وإبراهيم النخعي وسعيد بن جبير ومجاهد وعبيدة، ثم اختلف هؤلاء في حكم الآية فقال النخعي وجماعة: هي منسوخة وكانت شهادة أهل الذمّة مقبولة في الابتداء ثم نسخت، وذهب قوم إلى أنها ثابتة، وقالوا: إذا لم نجد مسلمين فنشهد كافرين، قال شريح: مَن كان بأرض غربة ولم يجد مسلماً يشهده على وصيّته فأشهد كافرين على أيّ دين كانا من دين أهل الكتاب أو عبدة الأوثان، فشهادتُهم جائزة، ولا يجوز

مقبولة في الابتداء ثم نسخت بقوله تعالى: ﴿**واستشهدوا شهيدين من رجالكم**﴾ لأن إجماع الأمة على أن شهادة الفاسق لا تجوز فشهادة الكفار وأهل الذمة لا تجوز بطريق الأولى وذهب قوم إلى أنها ثابتة لم تنسخ وهو قول ابن عباس وأبي موسى الأشعري وسعيد بن المسيب وابن جبير وابن سيرين وبه قال أحمد بن حنبل قالوا إذا لم يجد مسلمين يشهدان على وصيته وهو في أرض غربة فليشهد كافرين أو ذميين أو من أي دين كانا لأن هذا موضع ضرورة قال شريح: من كان بأرض غربة لم يجد مسلماً يشهد وصيته فليشهد كافرين على أي دين كانا من أهل الكتاب أو من عبدة الأصنام فشهادتهم جائزة في هذا الموضع ولا تجوز شهادة كافر على مسلم بحال إلا على وصيته في سفر لا يجد فيه مسلماً. عن الشعبي أن رجلاً من المسلمين حضرته الوفاة بدقوقا هذه ولم يجد أحداً من المسلمين حضر يشهده على وصيته فأشهد رجلين من أهل الكتاب فقدما الكوفة فأتيا أبا موسى فأخبراه وقدما بتركته ووصيته فقال أبو موسى هذا أمر لم يكن بعد الذي كان في عهد رسول الله ﷺ فأحلفهما بعد العصر بالله ما خانا ولا كذبا ولا بدلا ولا كتما ولا غيرا وأنها لوصيته الرجل وتركته فأمضى شهادتهما أخرجه أبو داود. وقال قوم في قوله ذوا عدل منكم يعني من عشيرتكم وحيكم أو آخران من غيركم من غير عشيرتكم وحيكم وأن الآية كلها في المسلمين وهذا قول الحسن والزهري وعكرمة وقالوا لا تجوز شهادة كافر في شيء من الأحكام وهذا مذهب الشافعي ومالك وأبي حنيفة غير أن أبا حنيفة أجاز شهادة أهل الذمة فيما بينهم بعضهم على بعض واحتج من قال بأن هذه الآية محكمة بأن سورة المائدة من آخر القرآن نزولاً وليس فيها منسوخ واحتج من أجاز شهادة غير المسلم في هذا الموضع بأن الله تعالى قال في أول الآية: ﴿**يا أيها الذين آمنوا**﴾ فعمَّ بهذا الخطاب جميع المؤمنين ثم قال بعده ﴿**ذوا عدل منكم أو آخران من غيركم**﴾ فعلم بذلك أنهما من غير المؤمنين، ولأن الآية دالة على وجوب الحلف على هذين الشاهدين وأجمع المسلمون على أن الشاهد المسلم لا يجب عليه يمين ولأن الميت إذا كان في أرض غربة ولم يجد مسلماً يشهده على وصيته ضاع ماله وربما كان عليه ديون أو عنده وديعة فيضيع ذلك كله وإذا كان ذلك كذلك احتاج إلى إشهاد من حضر من أهل الذمة وغيرهم من الكفار حتى لا يضيع ماله وتنفذ وصيته فهذا كالمضطر الذي أبيح له أكل الميتة في حال الاضطرار والضرورات قد تبيح شيئاً من المحظورات واحتج من منع ذلك بأن الله تعالى قال: ﴿**ممن ترضون من الشهداء**﴾ والكفار ليسوا مرضيين ولا عدولاً فشهادتهم غير مقبولة في حال من الأحوال.

وقوله تعالى: ﴿**إن أنتم ضربتم في الأرض**﴾ يعني: إن أنتم سافرتم في الأرض ﴿**فأصابتكم مصيبة الموت**﴾

شهادة كافر على مسلم إلّا على وصيّة في سفر، وعن الشعبي أن رجلاً من المسلمين حضرته الوفاة بدقوقا ولم يجد مسلماً يشهده على وصيّته فأشهد رجلين من أهل الكتاب، فقدِمَا الكوفة بتركته وأتا الأشعري فأخبراه بتَركَته ووصيّته، فقال الأشعري: هذا أمر لم يكن بعد الذي كان في عهد النبي ﷺ فأحلفهما، وأمضى شهادتهما، وقال آخرون: قوله: ﴿ **ذوا عدل منكم** ﴾ أي: من حيِّ الموصي أو آخران من غيرِ حيّكم وعشيرتكم، وهو قول الحسن والزهري وعكرمة، وقالوا: لا تجوز شهادة كافر في شيء من الأحكام، ﴿ **إن أنتم ضربتُم** ﴾، سرتُم وسافرتُم، ﴿ **في الأرضِ فأصابتْكُم مصيبةُ الموتِ** ﴾، فأوصيتُم إليهما ودفعتُم إليهما فاتهمتهما بعض الورثة وادّعوا عليهما خيانةً فالحكم فيه أنْ، ﴿ **تحْبِسُونَهُما** ﴾، أي: تستوقفونهما، ﴿ **من بعدِ الصّلاةِ** ﴾، أي: بعد الصلاة، و﴿ **من** ﴾ صلة يريد بعد صلاة العصر، هذا قول الشعبي والنخعي وسعيد بن جبير وقتادة وعامّة المفسّرين، لأن جميع أهل الأديان يعظّمون ذلك الوقت، ويجتنبون فيه الحلف الكاذب، وقال الحسن: أراد من بعد. صلاة العصر، وقال السدي: من بعد صلاة أهل دينهما وملّتهما لأنهما لا يُباليان بصلاة العصر، ﴿ **فيُقْسمان** ﴾، يحلفان، ﴿ **باللّهِ إنِ ارْتَبْتُم** ﴾، أي: شككتم ووقعت لكم الريبة في قول الشاهدين وصدقهما، أي: في قول اللذين ليسا من أهل ملّتكم، فإن كانا مسلمين فلا

يعني نزل بكم أسباب الموت فأوصيتم إليهما ودفعتم مالكم إليهما ﴿تحبسونهما﴾ يعني إن اتهمهما بعض الورثة وادعوا عليهما خيانة فالحكم فيه أن يوقفوهما ﴿من بعد الصلاة﴾ يعني من بعد صلاة العصر لأن جميع أهل الأديان يعظمون ذلك الوقت ويجتنبون فيه الحلف الكاذب وقيل من بعد صلاة أهل دينهم لأنهما إذا كانا كافرين لا يحترمان صلاة العصر ﴿فيقسمان بالله﴾ يعني فيحلفان بالله. قال الشافعي: الأيمان تغلظ في الدماء والطلاق والعتاق والمال إذا بلغ مائتي درهم بالزمان والمكان فيحلف بعد صلاة العصر إن كان بمكة بين الركن والمقام وإن كان بالمدينة فعند المنبر وإن كان في بيت المقدس فعند الصخرة وفي سائر البلاد في أشرف المساجد وأعظمها بها ﴿إن ارتبتم﴾ يعني إن شككتم أيها الورثة في قول الشاهدين وصدقهما، فحلّفوهما وهذا إذا كانا كافرين أما إذا كانا مسلمين فلا يمين عليهما لأن تحليف الشاهد المسلم غير مشروع ﴿لا نشتري به ثمناً﴾ يعني لا نبيع عهد الله بشيء من الدنيا ولا نحلف بالله كاذبين لأجل عوض نأخذه أو حق نجحده ﴿ولو كان ذا قربى﴾ يعني ولو كان المشهود له ذا قرابة منا وإنما خص القربى بالذكر لأن الميل إليهم أكثر من غيرهم ﴿ولا نكتم شهادة الله﴾ إنما أضاف الشهادة إليه لأنه أمر بإقامتها ونهى عن كتمانها ﴿إنا إذاً لمن الآثمين﴾ يعني إن كتمنا الشهادة أو خنّا فيها ولما نزلت هذه الآية صلى ﷺ العصر ودعا تميماً وعدياً وحلفهما عند المنبر بالله الذي لا إله إلا هو أنهما لم يخونا شيئاً مما دفع إليهما فحلفا على ذلك فخلى رسول الله ﷺ سبيلهما ثم ظهر الإناء من بعد ذلك قال ابن عباس وجد الإناء بمكة، فقالوا: اشتريناه من تميم وعدي. وقيل: لما طالت المدة أظهروه فبلغ ذلك بني سهم، فأتوهما في ذلك، فقالا: إنا كنا اشتريناه منه. فقالوا لهما: ألم تزعما أن صاحبنا لم يبع شيئاً من متاعه؟ قالا: لم يكن عندنا بينة فكرهنا أن نقر لكم به فكتمناه لذلك فرفعوهما إلى النبي ﷺ.

﴿فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْأَوْلَيَـٰنِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَـٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَـٰدَتِهِمَا وَمَا ٱعْتَدَيْنَآ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠٧﴾ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِٱلشَّهَـٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ أَوْ يَخَافُوٓا۟ أَن تُرَدَّ أَيْمَـٰنٌۢ بَعْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْمَعُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿١٠٨﴾﴾

﴿فإن عثر﴾ يعني فإن اطلع وظهر والعثور الهجوم على أمر لم يهجم عليه غيره وكل من اطلع على أمر كان قد

يمين عليهما، ﴿لا نشتري به ثمناً﴾، أي: لا نحلف بالله كاذبين على عوض نأخذه أو مال نذهب به أو حق نجحده، ﴿ولو كان ذا قُرْبى﴾، ولو كان المشهود له ذا قرابة منّا، ﴿ولا نَكْتُمُ شهادةَ اللَّهِ﴾ أضاف الشهادة إلى الله لأنه أمر بإقامتها ونهى عن كتمانها، وقرأ يعقوب (شـهادة)، بتنويـن، (آلله) ممدود، وجعل الاستفهام عوضاً عن حرف القسم، ويُروى عن أبي يعقوب (شـهادة) منوّنة (الله) بقطع الألف وكسر الهاء من غير استفهام على ابتداء اليمين، أي: والله، ﴿إنّا إذاً لَمِنَ الآثمين﴾، أي: إن كتمناها كنّا من الآثمين، فلما نزلت هذه الآية صلّى رسول الله ﷺ صلاة العصر ودعا تميماً وعديّاً فاستحلفهما عند المنبر بالله الذي لا إله إلّا هو أنهما لم يختانا شيئاً مما دُفع إليهما فحلفا على ذلك، وخلّى رسول الله ﷺ سبيلهما، ثم ظهر الإناء واختلفوا في كيفية ظهوره، فروى سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهم أنه وجد بمكة، فقالوا: إنّا اشتريناه من تميم وعدي، وقال الآخرون: لمّا طالت المدة أظهروه فبلغ ذلك بني سهم فأتوهما في ذلك، فقالا: إنّا كنّا قد اشتريناه منه فقالـوا لهما: ألم تزعما أن صاحبنا لم يَبِعْ شيئاً من متاعه؟ قالا: لم يكن عندنا بيّنة فكرهنا أن نقرّ لكم به فكتمناه لذلك، فرفعهما إلى رسول الله ﷺ فأنزل الله عزّ وجلّ:

﴿فإنْ عُثِرَ﴾، أي: اطّلع على خيانتهما، وأصل العثور: الوقوع على الشيء، ﴿على أنهما﴾، يعني: الوصيين ﴿استحقّا﴾، استوجبا، ﴿إثماً﴾، بخيانتهما وبأيمانهما الكاذبة، ﴿فآخَرانِ﴾، من أولياء الميت،

خفي عليه قيل له قد عثر عليه ﴿على أنهما استحقا إثماً﴾ يعني الوصيين ومعنى الآية فإن حصل العثور والوقوف على أن الوصيين كانا استوجبا الإثم بسبب خيانتهما وأيمانهما الكاذبة ﴿فآخران﴾ يعني من أولياء الميت وأقربائه ﴿يقومان مقامهما﴾ يعني مقام الوصيين في اليمين ﴿من الذين استحق عليهم﴾ يعني من الذين استحق عليهم الإثم وهم الورثة والمعنى إذا ظهرت خيانة الحالفين وبان كذبهما يقوم اثنان آخران من الذين جنى عليهم وهم أهل الميت وعشيرته ﴿الأوليان﴾ يعني بأمر الميت وهم أهله وعشيرته ﴿فيقسمان بالله﴾ يعني فيحلفان بالله ﴿لشهادتنا أحق من شهادتهما﴾ يعني أيماننا أحق وأصدق من أيمانهما ﴿وما اعتدينا﴾ يعني في أيماننا وقولنا إن شهادتنا أحق من شهادتهما ﴿إنا إذاً لمن الظالمين﴾ ولما نزلت هذه الآية قام عمرو بن العاص والمطلب بن أبي وداعة السهميان لو وهما من أهل الميت وحلفا بالله بعد العصر ودفع الإناء إليهما وإنما ردت اليمين على أولياء الميت لأن الوصيين ادعيا أن الميت باعهما الإناء وأنكر ورثة الميت ذلك ومثل هذا أن الوصي إذا أخذ شيء من مال الميت وقال: إنه أوصى له به وأنكر ذلك الورثة ردت اليمين عليه ولما أسلم تميم الداري بعد هذه القصة كان يقول صدق الله وصدق رسوله أنا أخذت الإناء فأنا أتوب إلى الله وأستغفره.

وقوله تعالى: ﴿ذلك أدنى أن يأتوا بالشهادة على وجهها﴾ يعني ذلك الذي حكمنا به من رد اليمين على أولياء الميت بعد أيمانهم أدنى، أي: أجدر وأحرى أن يأتوا بالشهادة على وجهها يعني أن يأتي الوصيان وسائر للناس بالشهادة على وجهها فلا يخونوا فيها﴿أو يخافوا أن ترد أيمان بعد أيمانهم﴾ أي وأقرب أن يخاف الوصيان أن ترد

﴿ يقومانِ مقامَهما ﴾، يعني: مقام الوصيَّين، ﴿ منَ الذينَ استحقّ ﴾، بضمّ التاء على المجهول، هذا قراءة العامّة، يعني: الذين استحقّ، ﴿ عليهم ﴾، أي فيهم ولأجلهم الإثم وهم ورثة الميت استحقّ الحالفان بسببهم الإثم و﴿ على ﴾ بمعنى في، كما قال الله على ملك سليمان، وقرأ حفص «اسـتحق» بفتح التاء والحاء، وهي قراءة علي والحسن، أي: حقّ ووجب عليهم الإثم، يقال: حقّ واستحقّ بمعنى واحد، ﴿ الأوْلَيَانِ ﴾، نعت للآخران، أي: فآخران الأوليان، وإنما جاز ذلك و﴿ الأوليان ﴾ معرفة والآخران نكرة لأنه لمّا وصف الآخران، فقال: ﴿ من الذين ﴾ صار كالمعرفة في المعنى، و﴿ الأوليان ﴾ تثنية الأولى، والأولى هو أقرب، وقرأ حمزة وأبو بكر عن عاصم ويعقوب (الأوليـن) بالجمع فيكون بدلاً من الذين، والمراد منهم أيضاً أولياء الميت، ومعنى الآية: إذا ظهرتْ خيانة الحالفين يقوم اثنان آخران من أقارب الميت، ﴿ فيُقسمان باللّهِ لَشَهادتُنَا أحقُّ من شهادتِهما ﴾، يعني: يميننا أحقّ من يمينهما، نظيره قوله تعالى في اللعان: ﴿ فشهادة أحدهم أربعُ شهادات بالله ﴾ [النور: ٦]، والمراد بها الأيمان، فهو كقول القائل: أشهد بالله، أي: أُقسم بالله، ﴿ وما اعْتَدَيْنَا ﴾، في أيماننا، وقولنا أنّ شهادتنا أحقّ من شهادتهما، ﴿ إنّا إذاً لمنَ الظالمين ﴾، فلما نزلت هذه الآية قام عمرو بن العاص والمطّلب بن أبي وداعة السهميان، فحلفا بالله بعد العصر فدفع الإناء إليهما وإلى أولياء الميت، وكان تميم الدّاري بعدما أسلم يقول: صدق الله ورسوله أنا أخذت الإناء، فأتوب إلى الله وأستغفره، وإنما انتقل اليمين إلى الأولياء لأن الوصيين ادّعيا أنهما ابتاعاه، والوصي إذا أخذ شيئاً من مال الميت وقال: إنه أوصى لي به حلف الوارث، إذا أنكر ذلك، وكذلك لو ادّعى رجل سلعة في يد رجل فاعترف ثم ادّعى أنه اشتراها من المدّعي، حلف المدّعي أنه لم يبعها منه. ويُروى عن ابن عباس رضي الله عنهما عن تميم الدّاري قال: كنّا بعنا الإناء بألف درهم فقسمتها أنا وعدي، فلما أسلمت تأثمت فأتيت موالي الميت فأخبرتهم أن عند صاحبي مثلها فأتوا به إلى رسول الله ﷺ، وحلف عمرو والمطّلب فنزعت الخمسمائة من عدي، ورددتُ أنا الخمسمائة. فذلك قوله تعالى:

﴿ ذلكَ أدْنَى أنْ يأتوا بالشهادةِ على وجهها ﴾، ذلك الذي حكمنا به من ردّ اليمين أجدر وأحرى أن يأتي

الأيمان على أولياء الميت فيحلفوا على خيانتهم وكذبهم فيفتضحوا ويغرّموا فربما لا يحلفون كاذبين إذاخافوا هذه الحكم ﴿واتقوا الله﴾ يعني وخافوا الله أن تحلفوا أيماناً كاذبة أو تخونوا أمانة ﴿واسمعوا﴾ يعني المواعظ والزواجر وقيل معناه واسمعوا سمع إجابة ﴿والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾ يعني: والله لا يرشد من كان على معصية وهذا تهديد وتخويف ووعيد لمن خالف حكم الله تعالى أو خان أمانته أو حلف أيماناً كاذبة وهذه الآية الكريمة من أصعب ما في القرآن من الآيات نظماً وإعراباً وحكماً والله أعلم بأسرار كتابه.

﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾

قوله عز وجل: ﴿يوم يجمع الله الرسل﴾ قال الزجاج هي متصلة بما قبلها تقديرها: واتقوا الله يوم يجمع الله الرسل، وقيل: تقدير: والله لا يهدي القوم الفاسقين يوم يجمع الله الرسل. أي لا يهديهم إلى الجنة في ذلك اليوم وهو يوم القيامة وقيل إنها منقطعة عما قبلها وتقديره اذكر يا محمد يوم يجمع الله الرسل ذلك يوم القيامة ﴿فيقول ماذا أجبتم﴾ يعني فيقول الله تبارك وتعالى للرسل ماذا أجابكم أممكم وما الذي رد عليكم قومكم حين دعوتموهم في دار الدنيا إلى توحيدي وطاعتي وفائدة هذا السؤال توبيخ أمم الأنبياء الذين كذبوهم ﴿قالوا﴾ يعني الرسل ﴿لا علم لنا﴾ قال ابن عباس: معناه لا علم لنا كعلمك فيهم لأنك تعلم ما أضمروا وما أظهروا ونحن لا نعلم إلا ما أظهروا فعلمك فيهم أنفذ من علمنا وأبلغ.

فعلى هذا القول، إنما نفوا العلم عن أنفسهم وإن كانوا علماء لأن علمهم صار كلاعلم عند علم الله.

وقال في رواية أخرى: معناه لا علم لنا إلا علم أنت أعلم به منا وهذا القول قريب من الأول. وقيل: معناه لا علم لنا بوجه الحكمة عن سؤالك إيانا عن أمر أنت أعلم به منا. وقيل: معناه لا حقيقة لعلمنا بعاقبة أمرهم لأنا كنا نعلم ما كان من أفعالهم وأقوالهم وقت حياتنا ولا نعلم ما كان منهم بعد وفاتنا ولا نعلم ما أحدثوا من بعدنا ومنه ما أخبر الله عن عيسى عليه السلام بقوله: «وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم» ومنه

الوصيّان بالشهادة على وجهها وسائر الناس أمثالهم، أي: أقرب إلى الإتيان بالشهادة على ما كانت، ﴿ أو يخافوا أنْ تُردّ أيمان بعد أيمانهم ﴾، أي: أقرب إلى أن يخافوا ردّ اليمين بعد يمينهم على المدّعين، فيحلفوا على خيانتهم وكذبهم فيفتضحوا ويغرموا فلا يحلفون كاذبين إذا خافوا هذا الحكم، ﴿ واتّقُوا اللّهَ ﴾، أن تحلفوا أيماناً كاذبة وتخونوا الأمانة، ﴿ واسمعُوا ﴾، الموعظة، ﴿ واللّهُ لا يهدي القومَ الفاسقين ﴾.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ يومَ يجمعُ اللّهُ الرُّسلَ ﴾، وهو يوم القيامة، ﴿ فيقولُ ﴾، لهم، ﴿ ماذا أجبتُم ﴾، أي: ما الذي أجابَتْكُم أُمّتُكم؟ ومَا الذي رُدّ عليكم قومُكم حين دعوتموهم إلى توحيدي وطاعتي؟ ﴿ قالوا ﴾، أي: فيقولون: ﴿ لا عِلْمَ لَنا ﴾، قال ابن عباس معناه: لا علم لنا إلّا العلم الذي أنت أعلم به منّا، وقيل: لا علم لنا بوجه الحكمة عن سؤالك إيّانا عن أمرٍ أنت أعلم به منّا، وقال ابن جريج: لا علم لنا بعاقبة أمرهم وبما أحدثوا من بعد، دليله أنه قال: ﴿ إنّكَ أنتَ علّامُ الغيوب ﴾، أي: أنتَ الذي تعلم ما غاب ونحن لا نعلم إلّا ما نشاهد، أخبرنا

ما روي عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: «ليردن على الحوض رجال ممن صاحبني حتى إذا رفعوا إليّ اختلجوا دوني فلأقولن أي رب أصحابي فيقال إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك» زاد في رواية «فأقول سحقاً لمن بدل بعدي» أخرجاه في الصحيحين وقال جمع من المفسرين إن للقيامة أهوالاً وزلازل تزول فيها القلوب عن مواضعها فيفزعون من هول ذلك ويذهلون عن الجواب ثم إذا ثابت إليهم عقولهم يشهدون على أممهم بالتبليغ.

وهذا فيه ضعف ونظر لأن الله تعالى قال في حق الأنبياء: «لا يحزنهم الفزع الأكبر»، وذكر الإمام فخر الدين الرازي وجهاً آخر وهو أن الرسل عليهم السلام لما علموا أن الله تعالى عالم لا يجهل وحليم لا يسفه وعادل لا يظلم علموا أن قولهم لا يفيد خيراً ولا يدفع شراً فرأوا أن الأدب في السكوت وفي تفويض الأمر إلى الله تعالى وعدله فقالوا لا علم لنا ﴿**إنك أنت علام الغيوب**﴾ يعني إنك تعلم ما غاب عنا من بواطن الأمور ونحن نعلم ما نشاهد ولا نعلم ما في البواطن. وقيل معناه إنك لا يخفى عليك ما عندنا من العلوم وأن الذي سألتنا عنه ليس بخاف عليك لأنك أنت علام الغيوب ومعناه العالم بأصناف المعلومات على تفاوتها ليس تخفى عليه خافية وبناء فعال بتاء التكثير ودلت الآية على جواز إطلاق العلام على الله تعالى كما يجوز إطلاق الخلاق عليه.

قوله عز وجل: ﴿**إذ قال الله يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتي عليك**﴾ قال بعضهم: إن إذ قال الله تعالى: يا عيسى صلة لماذا أجبتم ولما كان المراد بقوله للرسل ما أجبتم توبيخ الأمم ومن تمرد منهم على الله وكان أشد الأمم احتياجاً وافتقاراً إلى التوبيخ والملامة النصارى الذين يزعمون أنهم أتباع عيسى عليه السلام ووجه ذلك أن جميع الأمم إنما كان طعنهم في أنبيائهم بالتكذيب لهم وطعن هؤلاء النصارى تعدي إلى جلال الله تعالى حيث وصفوه بما لا يليق بجلاله من اتخاذ الزوجة والولد. ذكر الله في هذه الآية أنواع نعمه على عيسى عليه السلام التي تدل على أنه عبد وليس بإله والفائدة في ذكر هذه الحكاية تنبيه النصارى على قبح مقالتهم وفساد اعتقادهم وتوكيد الحجة عليهم. وقيل: فائدة ذلك إسماع الأمم يوم القيامة ما خص الله عيسى عليه السلام به من الكرامة. وقيل: موضع إذا رفع بالابتداء على القطع ومعناه اذكر إذ قال الله: يا عيسى وإنما خرج قوله: إذ قال الله على لفظ الماضي دون المستقبل لأنه ورد على سبيل حكاية الحال. وقيل: تقديره إذ يقول الله يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتي عليك لفظه واحد والمراد به الجمع لأن الله تعالى عدد نعمه عليه في هذه الآية والمراد من ذكرها شكرها ﴿**وعلى والدتك**﴾ يعني بنعمته على مريم عليها السلام أنه تعالى: ﴿أنبتها نباتاً حسناً وطهرها واصطفاها على نساء العالمين﴾.

ثم ذكر نعمه على عيسى عليه السلام فقال تعالى: ﴿**إذ أيدتك بروح القدس**﴾ يعني بجبريل عليه السلام لأن

عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا مسلم بن إبراهيم أنا وهيب أنا عبد العزيز عن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لَيَرِدَنَّ عليّ ناسٌ من أصحابي الحوضَ حتى إذا عرفتُهم اختلجوا دوني، فأقول: أصحابي، فيقال: لا تدري ما أحدثوا بعدك»، وقال ابن عباس والحسن ومجاهد والسدي: إن للقيامة أهوالاً وزلازل تزول فيها القلوب عن مواضعها، فينزعون من هول ذلك اليوم ويذهلون عن الجواب، ثم بعدما ثابت إليهم عقولهم ويشهدون على أُممهم.

قوله تعالى: ﴿ **إِذْ قال اللَّهُ يا عيسى ابْنَ مريمَ اذْكُرْ نعمتي عليك** ﴾، قال الحسن: ذكر النعمة شكرها، وأراد بقوله: ﴿ **نعمتي** ﴾، أي نعمي لفظة واحد ومعناه جمع، كقوله تعالى: ﴿ **وإنْ تَعُدّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحصُوها** ﴾ [إبراهيم: ٣٤، والنحل: ١٨]، ﴿ **وعلى والدتِكَ** ﴾، مريم ثم ذكر النِعَم فقال: ﴿ **إذ أَيّدتُك** ﴾، قوّيتك، ﴿ **برُوحِ القُدُس** ﴾، يعني جبريل عليه السلام، ﴿ **تكلّم النّاس** ﴾، يعني: وتكلم الناس، ﴿ **في المهدِ** ﴾، صبيّاً،

القدس هو الله تعالى وأضافه إليه على سبيل التشريف والتعظيم كإضافة بيت الله وناقة الله. وقيل: أراد بروح القدس الروح المطهرة لأن الأرواح تختلف باختلاف الماهية فمنها روح طاهرة مقدسة نورانية ومنها روح خبيثة كدرة ظلمانية فخصَّ الله عيسى بالروح المقدسة الطاهرة النورانية المشرفة ﴿تكلم الناس في المهد﴾ يعني تكلمهم طفلاً في حال الصغر ﴿وكهلاً﴾ يعني وفي حالة الكهولة من غير أن يتفاوت كلامك في هذين الوقتين وهذه معجزة عظيمة وخاصة شريفة ليست لأحد قبله. قال ابن عباس: أرسل الله عيسى عليه السلام وهو ابن ثلاثين سنة فمكث في رسالته ثلاثين شهراً ثم رفعه الله إليه ﴿وإذ علمتك الكتاب والحكمة﴾ يعني الكتابة وهي الخط والحكمة الفهم والاطلاع على أسرار العلوم ﴿والتوراة والإنجيل﴾ أي وعلمتك التوراة التي أنزلتها على موسى والإنجيل الذي أنزلته عليك ﴿وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذني﴾ يعني وإذ تجعل وتصور من الطين كصورة ﴿الطير بإذني﴾ ﴿فتنفخ فيها﴾ ذكر هنا فيها سورة آل عمران فيه يعني بالضمير في قوله فيها يعود إلى الهيئة بجعلها مصدراً كما يقع اسم الخلق على المخلوق وذلك لأن النفخ لا يكون في الهيئة إنما يكون في المهيأ وذي الهيئة ويجوز أن يعود الضمير إلى الطير لأنها مؤنثة قال الله تعالى: «أولم يروا إلى الطير فوقهم صافات».

وأما الضمير المذكور في آل عمران في قوله فيه فيعود إلى الكاف يعني في ذلك الشيء المماثل لهيئة الطير ﴿فتكون طيراً بإذني﴾ وإنما كرر قوله بإذني تأكيداً لكون ذلك الخلق واقعاً بقدرة الله تعالى وتخليقه لا بقدرة عيسى عليه السلام وتخليقه لأن المخلوق لا يخلق شيئاً إنما خالق الأشياء كلها هو الله تعالى لا خالق لها سواه وإنما كان الخلق لهذا الطير معجزة لعيسى عليه السلام أكرمه الله تعالى بها وكذا قوله تعالى: ﴿وتبرىء الأكمه والأبرص بإذني﴾ يعني وتشفي الأكمه وهو الأعمي المطموس البصر والأبرص معروف ظاهر ﴿وإذ تخرج الموتى﴾ يعني من قبورهم أحياء ﴿بإذني﴾ تفعل ذلك كله بدعائك والفاعل لهذه الأشياء كلها في الحقيقة هو الله تعالى لأنه هو المبرىء للأكمه والأبرص وهو محيي الموتى وهو على كل شيء قدير وإنما كانت هذه الأشياء معجزات لعيسى عليه السلام ووقعت بإذن الله تعالى وقدرته.

وقوله تعالى: ﴿وإذ كففت بني إسرائيل عنك﴾ يعني واذكر نعمتي عليك إذ كففت وصرفت عنك اليهود ومنعتك منهم حين أرادوا قتلك ﴿إذ جئتهم بالبينات﴾ يعني بالدلالات الواضحات والمعجزات الباهرات التي ذكرت في هذه الآية وذلك أن عيسى عليه السلام لما أتى بهذه المعجزات العجيبة الباهرة قصد اليهود قتله فخلصه الله منهم ورفعه إلى السماء ﴿فقال الذين كفروا منهم﴾ يعني فقال الذين استمروا على كفرهم من اليهود ولم يؤمنوا بهذه المعجزات ﴿إن هذا إلا سحر مبين﴾ يعني ما جاءهم به عيسى عليه السلام من المعجزات.

﴿ وكهلاً ﴾، نبيّاً قال ابن عباس: أرسله الله وهو ابن ثلاثين سنة، فمكث في رسالته ثلاثين شهراً ثم رفعه الله إليه، ﴿ وإذْ علّمتُكَ الكتابَ ﴾، يعني الخط، ﴿ والحكمةَ ﴾، يعني: العلم والفهم، ﴿ والتوراة والإنجيل وإذْ تخلق ﴾، تجعل وتصوّر، ﴿ منَ الطينِ كهيئة الطير ﴾، كصورة الطير، ﴿ بإذني فتنفخُ فيها فتكونُ طيراً ﴾ حيّاً يطير، ﴿ بإذني وتُبرئُ ﴾، وتصحّح، ﴿ الأكْمَهَ والأبْرَصَ بإذني وإذ تخرجُ الموتى ﴾، من قبورهم أحياء، ﴿ بإذني وإذْ كَفَفْتُ ﴾، منعت وصرفت، ﴿ بني إسرائيل ﴾، يعني اليهود، ﴿ عنك ﴾، حين همُّوا بقتلك، ﴿ إذْ جئتَهم بالبيّناتِ ﴾، يعني: بالدلالات الواضحات والمعجزات، وهي التي ذكرنا وسمِّيت بالبيّنات، لأنها مما يعجز عنها سائر الخلق الذين ليسوا بمرسلين، ﴿ فقالَ الذينَ كفرُوا منهمْ إنْ هذا ﴾، ما هذا، ﴿ إلّا سحرٌ مبين ﴾، يعني: ما جاءهم به من البيّنات، قرأ حمزة والكسائي «ساحر مبين» هاهنا وفي سورة هود [٧] والصفّ [٦]، فيكون راجعاً إلى عيسى عليه السلام، وفي هود يكون راجعاً إلى محمد ﷺ.

﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ (١١١) إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١١٢)﴾

قوله عز وجل: ﴿وإذ أوحيت إلى الحواريين﴾ يعني ألهمتهم وقذفت في قلوبهم فهو وحي إلهام كما أوحى إلى أم موسى وإلى النحل والحواريون هم أصحاب عيسى وخواصه ﴿أن آمنوا بي وبرسولي﴾ يعني عيسى عليه السلام ﴿قالوا آمنا واشهد بأننا مسلمون﴾ لما وفقهم الله للإيمان، قالوا: آمنا. وإنما قدم ذكر الإيمان على الإسلام، لأن الإيمان من أعمال القلوب والإسلام هو الانقياد والخضوع في الظاهر والمعنى أنهم آمنوا بقلوبهم وانقادوا بظواهرهم. قوله تعالى: ﴿إذ قال الحواريون يا عيسى ابن مريم هل يستطيع ربك﴾ قال المفسرون: هذا على المجاز ولا يجوز لأحد أن يتوهم على الحواريين أنهم شكُّوا في قدرة الله تعالى لكنه كما يقول الرجل لصاحبه هل تستطيع أن تقوم معي؟ مع علمه بأنه يقدر على القيام وإنما قصد بقوله هل تستطيع هل يسهل عليك وهل يخف أن تقوم معي فكذلك. معنى الآية: لأن الحواريين كانوا مؤمنين عارفين بالله عز وجل ومعترفين بكمال قدرته وإنما قالوا ذلك ليحصل لهم مزيد الطمأنينة كما قال إبراهيم عليه السلام ولكن ليطمئن قلبي. ولا شك أن مشاهدة هذه الآية العظيمة تورث مزيد الطمأنينة في القلب ولهذا السبب قالوا وتطمئن قلوبنا وقال بعضهم هو على ظاهره. وقال: غلط القوم وقالوا ذلك قبل استحكام الإيمان والمعرفة في قلوبهم وكانوا بشراً فقالوا هذه المقالة فرد الله عليهم عند غلطهم بقوله: ﴿اتقوا الله إن كنتم مؤمنين﴾ يعني اتقوا الله إن كنتم مؤمنين يعني اتقوا الله أن تشكوا في قدرة الله عز وجل والقول الأول أصح وقيل في معنى الآية: هل يقبل ربك دعاءك ويعطيك بإجابة دعائك وسؤالك إنزال المائدة، فقد ورد في الآثار: من أطاع الله أطاعه كل شيء ﴿أن ينزل علينا مائدة من السماء﴾ المائدة الخوان الذي عليه الطعام ولا يسمى مائدة إن لم يكن عليه

﴿وإذْ أوحيتُ إلى الحواريين﴾، ألهمتُهم وقذفت في قلوبهم، وقال أبو عبيدة يعني أمرت و﴿إلى﴾ صلة، والحواريون خواص أصحاب عيسى عليه السلام، ﴿أنْ آمنُوا بي وبرسولي﴾، عيسى، ﴿قالوا﴾ حين وفقتُهم ﴿آمنّا واشهد بأنّنا مسلمون﴾.

﴿إذْ قالَ الحواريونَ يا عيسى ابْنَ مريم هلْ يستطيعُ ربُّك﴾ قرأ الكسائي «هل تستطيع» بالتاء «ربَّك» بنصب الباء وهو قراءة علي وعائشة وابن عباس ومجاهد، أي: هل تستطيع أن تدعو وتسأل ربَّك، وقرأ الآخرون «يستطيع» بالياء و«ربُّك» برفع الباء، ولم يكونوا شاكين بقدرة الله عزّ وجلّ ولكن معناه هل ينزل ربُّك أم لا، كما يقال الرجل لصاحبه هل تستطيع أن تنهض معي وهو يعلم أنه يستطيع، وإنما يريد هل يفعل ذلك أم لا، وقيل: يستطيع بمعنى يطيع، يقال: أطاع واستطاع بمعنى واحد، كقوله: أجاب واستجاب، معناه: هل يعطيك ربُّك بإجابة سؤالك؟ وفي الآثار مَن أطاع الله أطاعه الله، وأجرى بعضهم على الظاهر، فقالوا: غلط القوم، وقالوه قبل استحكام المعرفة وكانوا بشراً، فقال لهم عيسى عليه السلام: عند الغلط استعظاماً لقولهم اتقوا الله إن كنتم مؤمنين، أي: لا تشكّوا في قدرته، ﴿أنْ ينزّل علينا مائدةً مِّنَ السماء﴾، المائدة الخوان الذي عليه الطعام، وهي فاعلة من: مادَهُ يميدُهُ إذا أعطاه وأطعمه، كقوله ماره يميره، وامتار افتعل منه، والمائدة هي الطعمة للآكلين، وسُمّي الطعام أيضاً مائدة على الجواز، لأنه يؤكل على المائدة، وقال أهل الكوفة: سُمّيت مائدة لأنها تميد بالآكلين، أي: تميل وقال أهل البصرة: فاعلة بمعنى المفعولة، يعني ميد بالآكلين إليها، كقوله تعالى: ﴿عيشة

طعام إنما يقال خوان أو طبق وأصلها من ماد يميد إذا تحرك كأنها تميد بما عليها من الطعام ﴿قال﴾ يعني عيسى مجيباً للحواريين ﴿اتقوا الله إن كنتم مؤمنين﴾ يعني اتقوا الله في هذا السؤال إن كنتم مؤمنين لأنه سؤال تعنت وقيل: أمرهم بالتقوى ليحصل لهم هذا السؤال ومعنى إن كنتم مؤمنين مصدقين فلا تشكوا في قدرة الله تعالى وقيل معناه اتقوا الله أن تسألوا شيئاً لم يسأله أحد من الأمم قبلكم فنهاهم عن اقتراح الآية بعد الإيمان.

قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١١٥﴾

﴿قالوا نريد أن نأكل منها﴾ يعني: قال الحواريون مجيبين لعيسى عليه السلام إنما نطلب نزول المائدة علينا لأن نأكل منها فإن الجوع قد غلب علينا. وقيل: معناه نريد أن نأكل منها للتبرك بها لا أكل حاجة ﴿وتطمئن قلوبنا﴾ يعني وتسكن قلوبنا ونستيقن قدرة الله تعالى لأنا، وإن علمنا قدرة الله بالدليل، فإذا شاهدنا نزول المائدة ازداد اليقين وقويت الطمأنينة ﴿ونعلم أن قد صدقتنا﴾ يعني: ونزداد إيماناً ويقيناً بأنك رسول الله ﴿ونكون عليها من الشاهدين﴾ يعني لله بالوحدانية ولك بالرسالة والنبوة. وقيل: معناه ونكون لك عليها من الشاهدين عند بني إسرائيل إذا رجعنا إليهم، فلما قالوا ذلك، أمرهم عيسى أن يصوموا ثلاثين يوماً وقال لهم: إنكم إذا صمتم ذلك وأفطرتم فلا تسألون الله شيئاً إلا أعطاكم، ففعلوا ذلك وسألوا نزول المائدة فعند ذلك ﴿قال عيسى ابن مريم اللهم﴾ قيل: إنه اغتسل ولبس المسح وصلى ركعتين وطأطأ رأسه وبكى ثم دعا فقال اللهم ﴿ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيداً لأولنا وآخرنا﴾ يعني عائدة من الله علينا وحجة وبرهاناً والعيد يوم السرور وأصله من عاد يعود إذا رجع والمعنى نتخذ ذلك اليوم الذي تنزل فيه المائدة عيداً لعظمه ونصلي فيه نحن ومن يجيء من بعدنا فنزلت في يوم الأحد فاتخذه النصارى عيداً. وقال ابن عباس: معناه يأكل منها أول الناس كما يأكل آخرهم ﴿وآية منك﴾ أي وتكون المائدة دلالة على قدرتك دلالة على قدرتك ووحدانيتك وحجة بصدق رسولك ﴿وارزقنا﴾ أي ارزقنا ذلك من عندك وقيل: ارزقنا الشكر على هذه النعمة ﴿وأنت خير الرازقين﴾ يعني وأنت خير من تفضل ورزق ﴿قال الله﴾ عز وجل مجيباً لعيسى ﴿إني منزلها عليكم﴾ يعني

راضية﴾ [الحاقة: ٢١، والقارعة: ٧] أي: مرضية: ﴿قال﴾، عيسى عليه السلام مجيباً لهم: ﴿اتقُوا اللَّهَ إنْ كنتُم مؤمنين﴾، فلا تشكّوا في قدرته، وقيل: اتقوا اللَّهَ أن تسألوه شيئاً لم يسأله الأمم قبلكم، فنهاهم عن اقتراح الآيات بعد الإيمان.

﴿قالوا نُريد﴾، أي: إنّما سألنا لأنّا نُريد، ﴿أنْ نأكل منها﴾، أكل تبرّك لا أكل حاجة فنستيقن قدرته، ﴿وتطمئنَّ﴾، وتسكن، ﴿قلوبُنا ونَعْلَمَ أنْ قَدْ صَدقتَنَا﴾، بأنّك رسول الله، أي: نزداد إيماناً ويقيناً، وقيل: إن عيسى عليه السلام أمرهم أن يصوموا ثلاثين يوماً فإذا فطروا لا يسألون اللَّهَ شيئاً إلّا أعطاهم، ففعلوا وسألوا المائدة، وقالوا: ونعلم أن قد صدقتنا في قولك، إنّا إذا صمنا ثلاثين يوماً لا نسأل الله تعالى شيئاً إلّا أعطانا، ﴿ونكونَ عليها منَ الشاهدين﴾، لله بالوحدانية والقدرة، ولك بالنبوّة والرسالة، وقيل: ونكون من الشاهدين لك عند بني إسرائيل إذا رجعنا إليهم.

﴿قال عيسى ابْنُ مريم﴾، عند ذلك، ﴿اللّهُمَّ ربّنا أنزل علينا مائدةً من السماء﴾، وقيل: إنه اغتسل ولبس

المائدة ﴿فمن يكفر بعد منكم﴾ يعني بعد نزول المائدة ﴿فإني أعذبه عذاباً﴾ يعني جنساً من العذاب ﴿لا أعذبه أحداً من العالمين﴾ يعني من عالمي زمانهم فجحدوا وكفروا بعد نزول المائدة فمسخوا خنازير. قال الزجاج: ويجوز أن يكون هذا العذاب معجلاً في الدنيا ويجوز أن يكون مؤخراً إلى الآخرة. قال عبد الله بن عمر: إن أشد الناس عذاباً يوم القيامة المنافقون ومن كفر من أصحاب المائدة وآل فرعون. واختلف العلماء في نزول المائدة فقال الحسن ومجاهد: لم تنزل المائدة لأن الله لما أوعدهم على كفرهم بالعذاب بعد نزول المائدة خافوا أن يكفر بعضهم فاستعفوا وقالوا: لا نريدها فلم تنزل عليهم فعلى هذا القول يكون معنى قوله تعالى: ﴿إني منزلها عليكم﴾ إن سألتم نزولها والصحيح الذي عليه جمهور العلماء والمفسرين أنها نزلت لأن الله تعالى قال: ﴿إني منزلها عليكم﴾ وهذا وعد من الله بإنزالها ولا خلف في خبره ووعده ولما روي عن عمار بن ياسر قال: قال رسول الله ﷺ أنزلت المائدة من السماء خبزاً ولحماً وأمروا أن لا يخونوا ولا يدخروا لغد فخانوا وادخروا ورفعوا لغد، فمسخوا قردة وخنازير أخرجه الترمذي. وقال قد روي عن عمار من غير طريق موقوفاً وهو أصح. وقال ابن عباس: إن عيسى عليه السلام قال لهم: صوموا ثلاثين يوماً ثم اسألوا الله ما شئتم يعطيكموه فصاموا فلما فرغوا قالوا يا عيسى إنا لو عملنا عملاً لأحد فقضينا عمله لأطعمنا وسألوا المائدة فأقبلت الملائكة بمائدة يحملونها عليها سبعة أرغفة وسبعة أحوات حتى وضعوها بين أيديهم فأكل منها آخر الناس كما أكل أولهم. وقال سلمان الفارسي: لما سأل الحواريون المائدة لبس عيسى صوفاً وبكى وقال: اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء الآية، فنزلت سفرة حمراء بين غمامتين غمامة من فوقها وغمامة من تحتها وهم ينظرون إليها وهي تهوي إليهم منقضّة حتى سقطت بين أيديهم فبكى عيسى عليه السلام وقال: اللهم اجعلني من الشاكرين

المسح وصلّى ركعتين وطأطأ رأسه وغضّ بصره وبكى، ثم قال: اللّهمّ ربّنا أنزل علينا مائدةً من السماء، ﴿ تكون لنا عيداً لأوّلنا وآخرنا ﴾، أي: عائدة من الله علينا حجّة وبرهاناً، والعيد: يوم السرور. سُمّي به للعود من الترح إلى الفرح، وهو اسم لما اعتدته ويعود إليك وسُمّي يوم الفطر والأضحى عيداً لأنهما يعودان في كل سنة، قال السدي: معناه نتخذ اليوم الذي أنزلتْ فيه عيداً لأوّلنا وآخرنا، أي: نعظّمه نحن ومَن بعدنا، وقال سفيان: نصلّي فيه، قوله: ﴿ لأوّلنا ﴾ أي: لأهل زماننا وآخرنا، أي: لمَن يجيء بعدنا، وقال ابن عباس: يأكل منها آخر الناس كما أكل منها أولهـم، ﴿ وآيةً منك ﴾، دلالة وحجّة، ﴿ وارزقْنا وأنْتَ خَيْرُ الرازقين ﴾.

﴿ قال الله ﴾ تعالى مجيباً لعيسى عليه السلام، ﴿ إني منزلها عليكم ﴾، يعني: المائدة وقرأ أهل المدينة وابن عامر وعاصم (منـزّلها) بالتشديد لأنها نزلت مرات والتفعيل يدلّ على التكرير مرة بعد أخرى وقرأ الآخرون بالتخفيف لقوله: أنزل علينا، ﴿ فمَن يكفرْ بعد منكم ﴾، أي: بعد نزول المائدة ﴿ فإني أُعذّبه عذاباً ﴾، أي: جنس عذاب، ﴿ لا أعذّبه أحداً من العالمين ﴾، يعني: عالمي زمانه فجحدوا وكفروا بعد نزول المائدة فمُسِخُوا قردة وخنازير، قال عبد الله بن عمر: إنّ أشدّ الناس عذاباً يوم القيامة المنافقون ومَن كفر من أصحاب المائدة وآل فرعون، واختلف العلماء في المائدة هل نزلت أم لا، فقال مجاهد والحسن لم تنزل فإن الله عزّ وجلّ لمّا أوعدهم على كفرهم بعد نزول المائدة خافوا أن يكفر بعضهم فاستعفوا، وقالوا: لا نريدها، فلم تنزل، وقوله: ﴿ إني منزلها عليكم ﴾، يعني: إن سألتم، والصحيح الذي عليه الأكثرون أنها نزلت لقوله تعالى: ﴿ إني منزّلها عليكم ﴾، ولا خلف في خبره لتواتر الأخبار فيه عن رسول الله ﷺ والصحابة والتابعين، واختلفوا في صفتها فروَى خلّاس بن عمرو عن عمّار بـن ياسر عن رسول الله ﷺ أنها نزلت خبزاً ولحماً، وقيل لهم: إنها مقيمة لكم ما لكم تخونوا وتخبـؤا فما مضى يومها حتى خانوا وخبـؤا فمسخوا قردة وخنازير، وقال ابن عباس رض الله عنهما: إن عيسى عليه السلام قال لهم: صُومُوا ثلاثين يوماً ثم سَلوا الله ما شئتُم يعطكموه، فصامُوا فلما فرغوا قالوا: يا عيسى

اللهم اجعلها رحمة ولا تجعلها عقوبة واليهود ينظرون إلى شيء لم ينظروا مثله ولم يجدوا ريحاً أطيب من ريحه فقال عيسى عليه السلام ليقم أحسنكم عملاً فليكشف عنها ويسمّ الله. فقال شمعون الصفار رأس الحواريين: أنت أولى بذلك منا. فقام عيسى عليه السلام فتوضأ وصلى صلاة طويلة وبكى بكاء كثيراً ثم كشف المنديل عنها وقال بسم الله خير الرازقين، فإذا هو بسمكة مشوية ليس فيها شوك ولا عليها فلوس تسيل من الدسم وعند رأسها ملح وعند ذنبها خل وحولها من ألوان البقول ما خلا الكراث، وإذا خمسة أرغفة على واحد منها زيتون، وعلى الثاني عسل، وعلى الثالث سمن، وعلى الرابع جبن، وعلى الخامس قديد. فقال شمعون: يا روح الله أمن طعام الدنيا هذا أم من طعام الجنة؟ فقال عيسى: ليس شيء مما ترون من طعام الدنيا ولا من طعام الجنة ولكنه شيء اخترعه الله بقدرته العالية. كلوا مما سألتم واشكروا يمددكم ويزدكم من فضله. فقالوا: يا روح الله كن أول من يأكل منها فقال عيسى: معاذ الله أن آكل منها يأكل منها من سألها، فخافوا أن يأكلوا منها فدعا لها أهل الفاقة والمرض والبرص والجذام والمقعدين فقال: كلوا من رزق الله لكم الشفاء ولغيركم البلاء، فأكلوا منها وهم ألف وثلثمائة رجل وامرأة من فقير ومريض وزمِن ومبتلى وصدروا عنها وهم شباع، وإذا السمكة بحالها حين أنزلت ثم طارت المائدة صعوداً وهم ينظرون إليها حتى توارت ولم يأكل منها مريض أو زَمِن أو مبتلى إلا عوفي ولا فقير إلا استغنى. وندم من لم يأكل منها.

وقيل: مكثت أربعين صباحاً تنزل ضحى فإذا نزلت اجتمع إليها الأغنياء والفقراء والصغار والكبار والرجال والنساء يأكلون منها ولا تزال منصوبة يؤكل منها حتى يفيء الفيء، فإذا فاء الفيء، طارت وهم ينظرون إليها حتى تتوارى عنهم وكانت تنزل غباً يوماً ويوماً لا تنزل فأوحى الله عز وجل إلى عيسى عليه السلام اجعل مائدتي ورزقي

إنّا لو عملنا لأحدهما فقضينا عمله لا أطعمنا وسألوا الله المائدة فأقبلت الملائكة بمائدة يحملونها، عليها سبعة أرغفة وسبعة أحوات حتى وضعتها بين أيديهم، فأكل منها آخر الناس كما أكل أولهم، قال كعب الأحبار: نزلت مائدة منكوسة تطير بها الملائكة بين السماء والأرض، عليها كل الطعام إلّا اللحم، وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس: أُنزل على المائدة كل شيء إلّا الخبز واللحم، قال قتادة: كان عليها ثمر من الجنة، وقال عطية العوفي: نزلت من السماء سمكة فيها طعم كل شيء، وقال الكلبي: كان عليها خبز ورز وبقل، وقال وهب بن منبّه: أنزل الله أقرصة من شعير وحيتاناً وكان قوم يأكلون ثم يخرجون ويجيء آخرون فيأكلون حتى أكلوا جميعُهم وفضل، وعن الكلبي ومقاتل: أنزل الله خبزاً وسمكاً وخمسة أرغفة فأكلوا ما شاء الله تعالى، والناس ألف ونيّف فلمّا رجعوا إلى قراهم، ونشروا الحديث ضحك منهم مَن لم يشهد قالوا: ويحكم إنما سحر أعينكم فمَن أراد الله به الخير ثبّته على بصيرته، ومَن أراد فتنته رجع إلى كفره، ومسخوا خنازير ليس فيهم صبي ولا امرأة، فمكثوا بذلك ثلاثة أيام ثم هلكوا، ولم يتوالدوا ولم يأكلوا ولم يشربوا، وكذلك كل ممسوخ، وقال قتادة: كانت تنزل عليهم بكرةً وعشياً حيث كانوا كالمنّ والسلوى لبني إسرائيل، وقال عطاء بن أبي رباح عن سلمان الفارسي لمّا سأل الحواريون المائدة لبس عيسى عليه السلام صوفاً وبكى، وقال: اللّهمّ أنزل علينا مائدة من السماء الآية فنزلت سفرة حمراء بين غمامتين غمامة من فوقها وغمامة من تحتها وهم ينظرون إليها وهي تهوى خافضة حتى سقطت بين أيديهم فبكى عيسى، وقال: اللّهمّ اجعلني من الشاكرين اللّهمّ اجعلها رحمة ولا تجعلها عقوبة، واليهود ينظرون إلى شيء لم يروا مثله قطّ ولم يجدوا ريحاً أطيب من ريحه، فقال عيسى عليه السلام: ليقم أحسنكم عملاً فيكشف عنها ويذكر اسم الله تعالى، فقال شمعون الصفّار رأس الحواريين: أنت أولى بذلك منّا فقام عيسى عليه السلام فتوضأ وصلّى صلاة طويلة وبكى كثيراً، ثم كشف المنديل عنها، وقال: بسم الله خير الرازقين فإذا هو سمكة مشويّة ليس عليها فلوسها ولا شوك عليها تسيل من الدّسم وعند رأسها ملح وعند ذنبها خلّ، وحولها من ألوان البقول ما خلا الكراث، وإذا خمسة أرغفة على واحد

للفقراء دون الأغنياء فعظم ذلك على الأغنياء حتى شكوا وشككوا الناس فيها وقالوا: ترون المائدة حقاً تنزل من السماء، فأوحى الله عز وجل إلى عيسى عليه السلام إني شرطت أن من كفر بعد نزولها عذبته عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين فقال عيسى عليه السلام عند ذلك «إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم» فمسخ الله منهم ثلثمائة وثلاثين رجلاً باتوا ليلتهم مع نسائهم على فرشهم ثم أصبحوا خنازير يسعون في الطرق يأكلون العذرة من الكناسات والحشوش فلما رأى الناس ذلك فزعموا إلى عيسى عليه السلام وبكوا ولما أبصرت الخنزير عيسى عليه السلام بكت وجعلت تطيف به وجعل عيسى عليه السلام يدعوهم بأسمائهم فيشيرون برؤوسهم ولا يقدرون على الكلام فعاشوا ثلاثة أيام ثم هلكوا. وقال كعب: أنزلت المائدة منكوسة تطير بها الملائكة بين السماء والأرض عليها كل شيء إلا اللحم وقال ابن عباس: أنزل على المائدة كل شيء إلا الخبز واللحم. وقال الكلبي: كان عليها خبز بر وبقل. وقال وهب بن منبه: أنزل الله أقرصة من شعير وحيتاناً فكان القوم يأكلون ويخرجون ثم يجيء آخرون فيأكلون حتى أكلوا بأجمعهم وفضل. وقال قتادة: كانت تنزل عليهم بكرة وعشياً حيث كانوا كالمن والسلوى لبني إسرائيل. وقال الكلبي ومقاتل: أنزل الله سمكاً وخمسة أرغفة فأكلوا منها ما شاء الله والناس ألف ونيف فلما رجعوا إلى قراهم ونشروا الحديث ضحك من لم يشهد منهم وقالوا ويحكم إنما سحر أعينكم فمن أراد الله به خيراً ثبته ومن أراد فتنته رجع إلى كفره فمسخوا خنازير وليس فيهم صبي ولا امرأة فمكثوا ثلاثة أيام ثم هلكوا ولم يتوالدوا ولم يأكلوا ولم يشربوا وكذلك كل ممسوخ.

﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا

زيتون، وعلى الثاني عسل، وعلى الثالث سمن، وعلى الرابع جبن، وعلى الخامس قديد، فقال شمعون: يا روح الله أمن طعام الدنيا هذا أم من طعام الآخرة؟ فقال: ليس شيء مما ترون من طعام الدنيا ولا من طعام الآخرة، ولكنه شيء افتعله الله تعالى بالقدرة الغالبة، كلوا مما سألتم يمددكم ويزيدكم من فضله، فقالوا: يا روح الله كن أول مَن يأكل منها، فقال عيسى عليه السلام: معاذ الله أن آكل منها ولكن يأكل منها مَن سألها فخافوا أن يأكلوا منها، فدعا لها عيسى أهل الفاقة والمرضى وأهل البرص والجذام والمقعدين والمبتلين، فقال: كلوا من رزق الله ولكم المهنأ ولغيركم البلاء، فأكلوا وصدر عنها ألف وثلثمائة رجل وامرأة من فقير ومريض وزَمِن ومُبتلى كلهم شبعان، وإذ السمكة بحالها حين نزلت، ثم طارت المائدة صُعُداً وهم ينظرون إليها حتى توارت بالحجاب، فلم يأكل منها زَمِن ولا مريض ولا مبتلي إلاّ عُوفِيَ ولا فقير إلاّ استغنى وندم مَن لم يأكل منها فلبثت أربعين صباحاً تنزل ضحى، فإذا نزلت اجتمعت الأغنياء والفقراء والصغار والكبار والرجال والنساء، ولا تزال منصوبة يؤكل منها حتى إذا فاء الفيء طارت صعداً وهم ينظرون إليها في ظلها حتى توارت عنهم، وكانت تنزل غبّاً تنزل يوماً ولا تنزل يوماً كناقة ثمود، فأوحى الله تعالى إلى عيسى عليه السلام: اجعل مائدتي ورزقي للفقراء دون الأغنياء، فعظم ذلك على الأغنياء حتى شكّوا وشكّكوا الناسَ فيها، وقالوا: أترون المائدة حقاً تنزل من السماء؟ فأوحى الله تعالى إلى عيسى عليه السلام إني شرطت أنّ مَن كفر بعد نزولها عذّبته عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين، فقال عيسى عليه السلام: ﴿إنْ تعذّبْهم فإنهم عبادك وإن تغفرْ لهم فإنّك أنت العزيز الحكيم﴾ [المائدة: ١١٨] فمسخ منها ثلاثمائة وثلاثة وثلاثون رجلاً باتوا من ليلتهم على فرشهم مع نسائهم فأصبحوا خنازير يسعون في الطرقات والكنّاسات، ويأكلون القذرة في الحشوش فلما رأى الناس ذلك فزعوا إلى عيسى عليه السلام وبكوا فلما أبصرت الخنازير عيسى عليه السلام بكت وجعلت تطيف بعيسى عليه السلام وجعل عيسى يدعوهم بأسمائهم فيشيرون برؤوسهم ويبكون ولا يقدرون على الكلام، فعاشوا ثلاثة أيام ثم هلكوا.

﴿يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ مَا لَيۡسَ لِي بِحَقٍّۚ إِن كُنتُ قُلۡتُهُۥ فَقَدۡ عَلِمۡتَهُۥۚ تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ١١٦﴾

قوله عز وجل: ﴿وإذا قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله﴾ الآية اختلف المفسرون في وقت هذا القول فقال السدي: قال الله لعيسى هذا القول حين رفعه إلى السماء بدليل أن حرف إذ يكون للماضي وقال سائر المفسرين: إنما يقول الله له هذا القول يوم القيامة بدليل قوله: ﴿يوم يجمع الله الرسل﴾ وذلك يوم القيامة وبدليل قوله ﴿هذا يوم ينفع الصادقين صدقهن﴾ وذلك يوم القيامة وأجيب عن حرف إذ بأنها قد تجيء بمعنى إذا كقوله ﴿ولو ترى إذا فزعوا﴾ يعني إذ فزعوا وقال الراجز ثم جزاك الله عني إذا جزى.

جنات عدن في السموات العلى ولفظ الآية في قوله: أأنت قلت للناس لفظ استفهام ومعناه الإنكار والتوبيخ لمن ادعى ذلك على عيسى عليه السلام من النصارى، لأن عيسى عليه السلام لم يقل هذه المقالة، فإن قلت إذا كان عيسى عليه السلام لم يقلها فما وجه هذا السؤال له مع علم الله بأنه لم يقله؟ قلت: وجه هذا السؤال تثبيت الحجة على قومه وإكذاب لهم في ادعائهم ذلك عليه وأنه أمرهم به فهو كما يقول القائل لآخر: أفعلت كذا؟ وهو يعلم أنه لم يفعله وإنما أراد تعظيم ذلك الفعل فنفى عن نفسه هذه المقالة. وقال: ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربي وربكم فاعترف بالعبودية وأنه ليس بإله كما زعمت وادعت فيه النصارى فإن قلت إن النصارى لم يقولوا بإلهية مريم، فكيف قال: اتخذوني وأمي إلهين من دون الله قلت إن النصارى لما ادعت في عيسى أنه إله ورأوا أن مريم ولدته لزمهم بهذه المقالة على سبيل التبعية وقوله تعالى إخباراً عن عيسى عليه السلام ﴿قال سبحانك﴾ يعني تنزيهاً لك عن النقائص وبراءة لك من العيوب قال أبو روق إذا سمع عيسى عليه السلام هذا الخطاب وهو قوله: ﴿أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله﴾ ارتعدت مفاصلة وانفجرت من أصل كل شعرة من جسده عين من دم وقال مجيباً لله تعالى سبحانك ﴿ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق﴾ أي كيف أقول هذا الكلام ولست بأهل ولست أستحق العبادة حتى ادعو الناس إليها ولما بيّن أنه ليس له أن يقول هذه المقالة وهذا المقام مقام التواضع والخشوع لعظمة الله تعالى شرع في بيان هل وقع ذلك منه أم لا؟ فقال: ﴿إن كنت قلته فقد علمته﴾ أسند العلم إلى الله تعالى وهذا هو غاية الأدب وإظهار المسكنة لعظمة الله تعالى وتفويض الأمر إلى علمه ثم قال ﴿تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما نفسك﴾ يعني تعلم

قوله عزّ وجلّ: ﴿ وإذْ قالَ اللّهُ يا عيسى ابْنَ مريمَ أأنتَ قلتَ للنّاس اتخذوني وأُميَ إلّهين مِنْ دُونِ الله ﴾ واختلفوا في أن هذا القول متى يكون، فقال السدي: قال الله تعالى هذا القول لعيسى عليه السلام حين رفعه إلى السماء لأن حرف ﴿ إذ ﴾ يكون للماضي، وقال سائر المفسّرين: إنما يقول الله له هذا القول يوم القيامة بدليل قوله من قبل: ﴿ يوم يجمع الله الرسل ﴾ [المائدة: ١٠٩] وقال من بعد هذا: ﴿ يوم ينفع الصادقين صدقهم ﴾ [المائدة: ١١٩]، وأراد بهما يوم القيامة، وقد تجيء إذْ بمعنى إذاً كقوله عزّ وجلّ: ﴿ ولو ترى إذْ فزعوا ﴾ [سبأ: ٥١] أي: إذا فزعوا يوم القيامة، والقيامة وإن لم تكن بعد ولكنها كالكائنة لأنها آتية لا محالة، قوله: ﴿ أأنت قلتَ للنّاس اتخذوني وأُميَ إلّهين منْ دُونِ الله ﴾؟ فإن قيل: فما وجه هذا السؤال عنه لتوبيخ قومه وتعظيم أمر هذه المقالة كما يقول القائل لآخر: أفعلت كذا وكذا فيما يعلم أنه لم يفعله إعلاماً واستعظاماً لا استخباراً واستفهاماً وأيضاً أراد الله عزّ وجلّ أن يقرَّ عيسى عليه السلام عن نفسه العبودية، فيسمع قومه منه ويظهر كذبهم عليه أنه أمرهم بذلك، قال أبو روق: وإذا سمع عيسى عليه السلام هذا الخطاب أرعدت مفاصله وانفجرت من أصل كل شعرة على جسده عين من دم، ثم يقول مجيباً لله عزّ وجلّ: ﴿ قالَ سبحانَكَ ﴾، تنزيهاً وتعظيماً لك﴿ ما يكونُ لي أنْ

ما أعلم ولا أعلم ما تعلم وقال ابن عباس تعلم ما في غيبي ولا أعلم ما في غيبك وقيل معناه تعلم ما أخفي ولا أعلم ما تخفي وقيل معناه تعلم ما كان مني في دار الدنيا ولا أعلم ما يكون منك في دار الآخرة وقيل معناه تعلم ما أقول وأفعل ولا أعلم ما تقول وتفعل والنفس عبارة عن ذات الشيء يقال نفس الشيء وذاته بمعنى واحد. وقال الزجاج: النفس عبارة عن جملة الشيء وحقيقته يقال تعلم جميع حقيقة أمري ولا أعلم حقيقة أمرك. وقيل: معناه تعلم معلومي ولا أعلم معلومك وإنما ذكر هذا الكلام على طريقة المشاكلة والمطابقة وهو من فصيح الكلام ثم قال: ﴿**إنك أنت علام الغيوب**﴾ يعني أنك تعلم ما كان وما سيكون وهذا تأكيد لما تقدم من قوله تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك.

مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾

قوله تعالى إخباراً عن عيسى ﴿**ما قلت لهم إلا ما أمرتني به**﴾ يعني ما قلت لهم إلا قولاً أمرتني به ﴿**أن اعبدوا الله**﴾ يعني قلت لهم اعبدوا الله ﴿**ربي وربكم**﴾ يعني وحده ولا تشركوا به شيئاً ﴿**وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم**﴾ يعني وكنت أشهد ما يفعلون وأحصره ما دمت مقيماً فيهم ﴿**فلما توفيتني**﴾ يعني فلما رفعتني إلى السماء فالمراد به وفاة الرفع لا الموت ﴿**كنت أنت الرقيب عليهم**﴾ يعني الحفيظ عليهم المراقب لأعمالهم وأحوالهم والرقيب الحافظ الذي لا يغيب عنه شيء ﴿**وأنت على كل شيء شهيد**﴾ يعني أنت شهدت مقالتي التي قلتها لهم وأنت الشهيد عليهم بعد ما رفعتني إليك لا تخفى عليك خافية فعلى هذا الشهيد هنا بمعنى الشاهد لما كان وما يكون أن يجوز أن يكون الشهيد هنا بمعنى العليم يعني أنت العالم بكل شيء فلا يعزب عن علمك شيء.

قوله عز وجل إخباراً عن عيسى عليه السلام ﴿**إن تعذبهم**﴾ يعني إن تعذب هؤلاء الذين قالوا هذه المقالة بأن تميتهم على كفرهم ﴿**فإنهم عبادك**﴾ لا يقدرون على دفع ضر نزل بهم ولا جلب نفع لأنفسهم وأنت العادل فيهم لأنك أوضحت لهم طريق الحق فرجعوا عنه وكفروا ﴿**وإن تغفر لهم**﴾ يعني لمن تاب من كفره منهم بأن تهديه إلى الإيمان فإن ذلك بفضلك ورحمتك ﴿**فإنك أنت العزيز**﴾ يعني في الانتقام ممن تريد الانتقام منه لا يمتنع عليك ما تريده

أقولَ ما ليسَ لي بحقٍ إنْ كنتُ قلتُهُ فقدْ علمتَه تعلمُ ما في نفسي ولا أعلمُ ما في نفسِكَ ﴾، قال ابن عباس: تعلم ما في غيبي ولا أعلم ما في غيبك، وقيل: تعلم سرّي ولا أعلَم سرّك، وقال أبو روق تعلم ما كان منّي في دار الدنيا ولا أعلم ما يكون منك في الآخرة، وقال الزجّاج: النفس عبارة عن جملة الشيء وحقيقته، يقول: تعلم جميع ما أعلم من حقيقة أمري ولا أعلم حقيقة أمرك، ﴿ **إنّك أنتَ علاّمُ الغُيوب** ﴾، ما كان وما يكون.

﴿ **ما قلتُ لهم إلاّ ما أمرتني به أنِ اعبدُوا اللّهَ رَبي وربّكم** ﴾، وحده ولا تُشركوا به شيئاً، ﴿ **وكنتُ عليهم شهيداً ما دمتُ** ﴾، وقمت، ﴿ **فيهِمْ فلمّا توفّيتني** ﴾، قبضتني ورفعتني إليك، ﴿ **كنتَ أنتَ الرقيبَ عليهم** ﴾ والحفيظ عليهم تحفظ أعمالهم، ﴿ **وأنتَ على كل شيء شهيد** ﴾.

قوله تعالى: ﴿ **إنْ تُعذّبهـمْ فإنهم عبادُكَ وإنْ تغفرْ لهم فإنك أنت العزيز الحكيم** ﴾، فإن قيل كيف طلب المغفرة لهم وهم كفّار، وكيف قال: وإن تغفر لهم فإنك أنت العـزيز الحكيم، وهـذا لا يليق بسؤال المغفرة، قيـل: أما الأول فمعناه إن تعذبهم بإقامتهم على كفرهم وإن تغفر لهم بعد الإيمان وهذا يستقيم بعد الإيمان وهذا يستقيم على قول السدي: إن هذا السؤال قبل يوم القيامة لأن الإيمان لا ينفع في القيامة، وقيل: هذا في الفريقين منهم معناه إن تعذّب مَن كفر منهم وإن تغفر مَن كفر منهم وإن تغفر لمَن آمن منهم، وقيل: ليس هذا على وجه طلب المغفرة ولو

﴿الحكيم﴾ في أفعالك كلها وهذا التفسير إنما يصح على قول السدي لأنه قال كان سؤال الله عز وجل لعيسى عليه السلام حين رفعه إلى السماء قبل يوم القيامة. أما على قول جمهور المفسرين إن هذا السؤال إنما يقع يوم القيامة ففي قوله ﴿وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم﴾ إشكال وهو أنه يليق بعيسى عليه السلام طلب المغفرة لهم مع علمه بأن الله تعالى لا يغفر لمن يموت على الشرك والجواب عن هذا الإشكال من وجوه أحدها أنه ليس هذا على طريق طلب المغفرة ولو كان كذلك لقال فإنك أنت الغفور الرحيم ولكنه على تسليم الأمر إلى الله وتفويضه إلى مراده فيهم لأنه العزيز في ملكه الحكيم في فعله ويجوز في حكمته وسعة مغفرته ورحمته أن يغفر للكفار، لكنه تعالى أخبر أنه لا يفعل ذلك بقوله ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به﴾ الوجه الثاني: قيل معناه أن تعذبهم يعني إقامتهم على كفرهم إلى الموت وإن تغفر لهم يعني لمن آمن منهم وتاب ورجع عن كفره، الوجه الثالث: قال ابن الأنباري: لما قال الله لعيسى ﴿أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله﴾. لم يقع لعيسى إلا أن النصارى حكت عنه الكذب لأنه لم يقل ذلك وقول الكذب ذنب فيجوز أن يسأل له المغفرة والله أعلم بمراده وأسرار كتابه (م) عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن النبي ﷺ تلا قول الله عز وجل في إبراهيم ﴿رب إنهن أضللن كثيراً من الناس فمن تبعني فإنه مني﴾ الآية وقول عيسى: ﴿إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم﴾ فرفع يديه وقال اللهم أمتي أمتي فبكى فقال الله تعالى: يا جبريل اذهب إلى محمد وربك أعلم فاسأله ما يبكيك، فأتاه جبريل عليه السلام فسأله فأخبره رسول الله ﷺ بما قال وهو أعلم فقال يا جبريل اذهب إلى محمد فقل له إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوءك. عن أبي ذر أن رسول الله ﷺ قام حتى أصبح بآية والآية ﴿إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم﴾ أخرجه النسائي قوله عز وجل:

﴿قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌۢ ﴿١٢٠﴾﴾

﴿قال الله هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم﴾ اتفق جمهور العلماء على أن المراد بهذا اليوم يوم القيامة والمعنى أن

كان كذلك لقال: أنت الغفور الرحيم، ولكنه على تسليم الأمر وتفويضه إلى مراده، وأما السؤال الثاني فكان ابن مسعود رضي الله عنه يقرأ وإن تغفر لهم فإنّك أنت الغفور لهم فإنّك أنت الغفور الرحيم، وكذلك هو في مصحفه، وأما على القراءة المعروفة قيل فيه تقديم وتأخير تقديره: إن تغفر لهم فإنهم عبادك وإن تعذبهم فإنك أنت العزيز الحكيم، وقيل: معناه إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز في الملك الحكيم في القضاء لا ينقص من عزّك شيء، ولا يخرج من حكمك ويدخل في حكمته ومغفرته وسعة رحمته ومغفرته للكفّار، ولكنه أخبر أنه لا يغفر وهو لا يخلف خبره أخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر أنا عبد الغافر بن محمد الفارسي ثنا محمد بن عيسى الجلودي حدّثنا إبراهيم بن محمد بن سفيان حدّثنا مسلم بن الحجّاج حدّثني يونس بن عبد الأعلى الصيرفي حدّثنا ابن وهب أخبرني عمر بن الحارث أن بكر بن سوادة حدّثه عن عبد الرحمن بن جبير عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن النبي ﷺ تلا قول الله تعالى في إبراهيم: ﴿ ربِّ إنهنّ أضللنَ كثيراً من الناس فمَنْ تبعني فإنه منّي ﴾ [٣٦]، الآية. وقول عيسى عليه السلام: إنْ تعذبهم فإنهم عبادك وإنْ تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم، فرفع يديه وقال: اللّهمَّ أمتي وبكى فقال الله عزّ وجلّ: يا جبريل إذهب إلى محمد وربُّك أعلم فسله ما يبكيه، فأتاه جبريل فسأله، فأخبر رسول الله ﷺ بما قال فقال الله تعالى: يا جبريل اذهب إلى محمد فقل إنّا سنرضيك في أمتك ولا نسوءُك.

﴿ قال اللّهُ هذا يوم ينفع الصادقين صدقُهم ﴾، قرأ نافع «يوم» بنصب الميم، يعني: تكون هذه الأشياء في

صدقهم في الدنيا ينفعهم في الآخرة لأنه يوم الإثابة والجزاء وما تقدم من صدقهم في الدنيا يتبين نفعه يوم القيامة والمراد بالصادقين النبيون والمؤمنون لأن الكفار لا ينفعهم صدقهم يوم القيامة. قال قتادة: متكلمان لا يخطئان يوم القيامة عيسى عليه السلام لأنه يقوم فيقول ما قص الله عنه ما قلت لهم إلا ما أمرتني به الآية فكان صادقاً في الدنيا والآخرة فينفعه صدقه. وأما المتكلم الآخر فإبليس فإنه يقوم فيقول وقال الشيطان لما قضى الأمر الآية فصدق عدو الله فيما قال ولم ينفعه صدقه. وقال عطاء هو يوم من أيام الدنيا لأن الآخرة دار جزاء لا دار عمل وذهب في هذا القول إلى ظاهر الآية من أن الصدق النافع إنما يكون في الدنيا وهذا القول موافق لمذهب السدي حيث يقول إن هذه المخاطبة جرت مع عيسى عليه السلام حين رفع إلى السماء، والوجه ما ذهب إليه الجمهور ثم ذكر الله تعالى ما لهم من الثواب على صدقهم فقال تعالى: ﴿**لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً**﴾ فهذا إشارة إلى ما يحصل من الثواب الدائم الذي لا انقطاع له ولا انتهاء ﴿**رضي الله عنهم**﴾ يعني بطاعتهم له ﴿**ورضوا عنه**﴾ يعني بما أعطاهم من ثوابه وجزيل كرامته ﴿**ذلك**﴾ إشارة إلى ما ذكره من ثوابهم ﴿**الفوز العظيم**﴾ يعني أنهم فازوا بالجنة وبرضوانه عنهم ونجوا من النار ﴿**لله ملك السموات والأرض وما فيهن**﴾ عظم الله عز وجل نفسه عما قال فيه النصارى يعني، أن الذي له ملك السموات والأرض هو الذي يستحق الإلهية لا ما قالت النصارى من إلهة المسيح وأمه لأنهما جملة من في السموات والأرض فهما عبيده وفي ملكه. وقيل: هو جواب السؤال مضمر في الكلام كأنه لما وعد الصادقين بالثواب العظيم قيل من يعطيهم ذلك قال الذي له ملك السموات والأرض ومن فيهن ﴿**وهو على كل شيء قدير**﴾ والله سبحانه وتعالى أعلم بمراده وأسرار كتابه.

يوم، فحذف في فانتصب، وقرأ الآخرون بالرفع على أنه خبر ﴿ هذا ﴾ أي: ينفع الصادقين في الدنيا صدقهم في الآخرة، ولو كذبوا ختم الله على أفواههم ونطقت به جوارحهم فافتضحوا، وقيل: أرادوا بالصادقين النبيِّين، وقال الكلبي: ينفع المؤمنين إيمانهم، قال قتادة: متكلمان لا يخطئان يوم القيامة عيسى عليه السلام، وهو ما قصَّ الله، وعدوّ الله إبليس، وهو قوله: ﴿ وقال الشيطان لمّا قضي الأمر ﴾ [إبراهيم: ٢٢]، الآية. فصدق عدو الله يومئذٍ، وكان قبل ذلك كاذباً فلم ينفعه صدقه، وأما عيسى عليه السلام فكان صادقاً في الدنيا والآخرة، فنفعه صدقه، وقال بعضهم: هذا يوم من أيام الدنيا لأن الدار الآخرة دار جزاء لا دار عمل، ثم بيّن ثوابهم فقال: ﴿ لهم جنّاتٌ تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً رضي الله عنهم ورضُوا عنه ذلك الفوزُ العظيم ﴾، ثم عظّم نفسه.

فقال: ﴿ لله مُلكُ السمٰواتِ والأرض وما فيهنّ وهو على كل شيء قدير ﴾.

تفسير سورة الأنعام

(فصل في ذكر نزولها)

روى مجاهد عن ابن عباس أن سورة الأنعام مما نزل بمكة وهذا قول الحسن وقتادة وجابر بن زيد. وروى يوسف بن مهران عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: نزلت سورة الأنعام جملة ليلاً بمكة وحولها سبعون ألف ملك وروى أبو صالح عن ابن عباس قال: هي مكية نزلت جملة واحدة نزلت ليلاً وكتبوها من ليلتهم غير ست آيات منها فإنها مدنيات وهي قوله تعالى: **﴿قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم﴾** إلى آخر الثلاث آيات وقوله تعالى: **﴿وما قدروا الله حق قدره﴾** الآية وقوله تعالى: **﴿ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو قال أوحي إلي ولم يوح إليه شيء﴾** إلى آخر الآيتين وذكر مقاتل نحو هذا وزاد آيتين وهما قوله تعالى: **﴿والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق﴾** الآية وقوله تعالى: **﴿الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم﴾** الآية وروي عن ابن عباس أيضاً وقتادة أنهما قالا: هي مكية إلا آيتين نزلتا بالمدينة قوله **﴿وما قدروا الله حق قدره﴾** وقوله: **﴿وهو الذي أنشأ جنات معروشات وغير معروشات﴾** الآية ولما نزلت سورة الأنعام ومعها سبعون ألف ملك قد سدوا ما بين الخافقين لهم زجل بالتسبيح والتحميد قال النبي ﷺ «سبحان ربي العظيم سبحان ربي العظيم وخرّ ساجداً» قال البغوي وروي عنه مرفوعاً من قرأ سورة الأنعام صلى عليه أولئك السبعون ألف ملك ليله ونهاره وذكره بغير سند والله سبحانه وتعالى أعلم.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾

قوله عز وجل: **﴿الحمد لله الذي خلق السموات والأرض﴾** قال كعب الأحبار: هذه الآية أول آية في التوراة وآخر آية في التوراة قوله تعالى: ﴿وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً﴾ الآية وفي رواية عنه أن آخر آية في التوراة آخر

سُوْرَة الأنْعَـام

مكيّة وهي مائة وخمس وستّون آية. نزلت بمكة جملة ليلاً معها سبعون ألف ملك قد سدُّوا ما بين الخافقين، لهم زجل بالتسبيح والتحميد والتمجيد، فقال النبي ﷺ: «سبحان ربّي العظيم سبحان ربّي العظيم وخرّ ساجداً». ورُوِيَ مرفوعاً: «مَن قرأ سورة الأنعام يصلّي عليه أولئك السبعون ألف ملك ليله ونهاره»، وقال الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما: نزلت سورة الأنعام بمكة، إلّا قوله: ﴿ وما قدَرُوا الله حقَّ قدره ﴾ [٩١ ـ ٩٣]، إلى آخر ثلاث آيات، وقوله تعالى: ﴿ قلْ تعالوا ﴾، إلى قوله: ﴿ لعلكم تتقون ﴾ [١٥١ ـ ١٥٣]، فهذه الستّ آيات مدنيات.

﴿ الحمدُ للّهِ الذِي خلَقَ السمواتِ والأرض ﴾، قال كعب الأحبار: هذه الآية أول آية في التوراة، وآخر آية

سورة هود قال ابن عباس: افتتح الله الخلق بالحمد فقال الحمد لله الذي خلق السموات والأرض وختمه بالحمد فقال تعالى: ﴿وقضى بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين﴾ وفي قوله: الحمد لله، تعليم لعباده كيف يحمدونه أي: قولوا الحمد لله. وقال أهل المعاني لفظه خبر ومعناه الأمر أي احمدوا الله وإنما جاء على صيغة الخبر وفيه معنى الأمر لأنه أبلغ من البيان من حيث إنه جمع الأمرين ولو قيل احمدوا الله لم يجمع الأمرين فكان قوله الحمد لله أبلغ وقد تقدم معنى الحمد في تفسير سورة فاتحة الكتاب بما فيه مقنع الذي خلق السموات والأرض أي احمدوا الله خلق السموات والأرض وإنما خصهما بالذكر لأنهما أعظم المخلوقات فيما يرى العباد لأن السماء بغير عمد ترونها وفيها العبر والمنافع والأرض مسكن الخلق وفيها أيضاً العبر والمنافع ﴿وجعل الظلمات والنور﴾ الجعل هنا بمعنى الخلق أي وخلق الظلمات والنور. قال السدي: يريد بالظلمات، ظلمات الليل والنهار، وبالنور، نور النهار. وقال الحسن: يعني بالظلمات الكفر وبالنور الإيمان. وقيل: يعني بالظلمات الجهل وبالنور العلم. وقيل: الجنة والنار. وقال قتادة: خلق الله السموات قبل الأرض وخلق الظلمات قبل النور وخلق الجنة قبل النار.

روي عن عبد الله بن عمرو بن العاص عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله خلق خلقه في ظلمة ثم ألقى عليهم من نوره فمن أصابه ذلك النور فقد اهتدى ومن أخطأه ضل» ذكره البغوي بغير سند ﴿ثم الذين كفروا بربهم يعدلون﴾ يعني والذين كفروا بعد هذا البيان بربهم يشركون وأصل العدل، مساواة الشيء بالشيء. والمعنى: أنهم يعدلون بالله غير الله ويجعلون له عديلاً من خلقه فيعبدون الحجارة مع إقرارهم بأن الله خلق السموات والأرض. وقال النضر بن شميل: الباء في قوله بربهم بمعنى عن أي عن ربهم يعدلون وينحرفون من العدول عن الشيء وقيل دخول ثم في قوله ثم الذين كفروا بربهم يعدلون دليل على معنى لطيف وهو أنه تعالى دل به على إنكاره على الكفار العدل به وعلى تعجيب المؤمنين من ذلك ومثال ذلك: أن تقول لرجل أكرمتك وأحسنت إليك وأنت تنكرني وتجحد إحساني إليك فتقول ذلك منكراً عليه ومتعجباً من فعله قوله تعالى:

في التوراة. قوله: ﴿وقل الحمد لله الذي لم يتّخذ ولداً﴾ [الإسراء: ١١١] الآية: وقال ابن عباس رضي الله عنهما: افتتح الله الخلق بالحمد، فقال: ﴿الحمد لله الذي خلقَ السمٰواتِ والأرض﴾، وختمه بالحمد فقال: ﴿وقضي بينهم بالحق﴾ [الزّمر: ٦٩ و٧٥]، أي: بين الخلائق، وقيل: الحمد لله ربِّ العالمين. قوله: الحمد لله، حمد الله نفسه تعليماً لعباده، أي: احمدوا الله الذي خلق السموات والأرض، خصّهما بالذكر لأنهما أعظم المخلوقات فيما يرى العباد وفيهما العبر والمنافع للعباد، ﴿وجعلَ الظلمَاتِ والنور﴾، والجعل بمعنى الخلق، وقال الواقدي: كل ما في القرآن من الظلمات والنور فهو الكفر والإيمان، إلّا في هذه الآية فإنه يريد بهما الليل والنهار، وقال الحسن: وجعل الظلمات والنور يعني الكفر والإيمان، وقيل: أراد بالظلمات الجهل والنور العلم، وقال قتادة: يعني الجنة والنار، وقيل: معناه خلق الله السمٰوات والأرض، وقد جعل الظلمات والنور، لأنه خلق السمٰوات والنور قبل السمٰوات والأرض، قال قتادة: خلق الله السمٰوات قبل الأرض، وخلق الظلمة قبل النور، والجنة قبل النار، ورُوِيَ عن عبد الله بن عمرو بن العاص عن النبي ﷺ قال: «إن الله تعالى خلق الخلق في ظلمة، ثم ألقى عليهم من نوره، فمَن أصابه من ذلك النور اهتدى ومَن أخطأه ضلّ» ﴿ثمّ الذينَ كفرُوا بربّهم يعدِلُون﴾، أي: ثم الذين كفروا بعد هذا البيان بربّهم يعدلون، أي: يشركون، وأصله خلق مساواة الشيء بالشيء، ومنه العدل، أي: يعدلون بالله غير الله تعالى، يقال: عدلت هذا بهذا إذا ساويته، وبه قال النضر بن شميل، الباء بمعنى عن، أي: عن ربهم يعدلون، أي يميلون وينحرفون من العدل، قال الله تعالى: ﴿عيناً يشرب بها عباد الله﴾ [الإنسان: ٦] أي: منها، وقيل: تحب، قوله: ثم الذين كفروا بربّهم يعدلون، معنى لطيف، وهو مثل قول القائل:

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ۖ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ ۖ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴿٣﴾﴾

﴿هو الذي خلقكم من طين﴾ يعني أنه تعالى خلق آدم من طين وإنما خاطب ذريته بذلك لأنه أصلهم وهم من نسله وذلك لما أنكر المشركون البعث وقالوا مَن يحيـي العظام وهي رميم أعلمهم بهذه الآية أنه خلقهم من طين وهو القادر على إعادة خلقهم وبعثهم بعد الموت. قال السدي: لما أراد الله عز وجل أن يخلق آدم بعث جبريل إلى الأرض ليأتيه بقبضة منها، فقالت الأرض: إني أعوذ بالله منك أن تقبض مني فراجع ولم يأخذ منها شيئاً فقال: يا رب عاذت بك فبعث الله ميكائيل فاستعاذت فرجع فبعث الله ملك الموت فعاذت منه فقال: وأنا أعوذ بالله أن أخالف أمره وأخذ من وجه الأرض فخلط الحمراء والسوداء والبيضاء؛ فلذا اختلفت ألوان بني آدم ثم عجنها بالماء العذب والملح والمر فلذلك اختلفت أخلاقهم ثم قال الله لملك الموت رحم جبريل وميكائيل الأرض ولم ترحمها لا جرم اجعل أرواح من أخلق من هذا الطين بيدك عن أبي موسى الأشعري قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله تعالى خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض فجاء بنو آدم على قدر الأرض منهم الأحمر والأبيض والأسود وبين ذلك والسهل والحزن والخبيث والطيب» أخرجه أبو داود والترمذي وأما قوله تعالى: ﴿ثم قضى أجلاً وأجل مسمى عنده﴾ فاختلف العلماء في معنى ذلك فقال الحسن وقتادة والضحاك: الأجل الأول، من وقت الولادة إلى وقت الموت. والأجل الثاني: من وقت الموت إلى البعث، وهو البرزخ.

ويروى نحو ذلك عن ابن عباس قال: لكل أحد أجلان: أجل إلى الموت، وأجل من الموت إلى البعث، فإن كان الرجل براً تقياً وصولاً للرحم زيد له من أجل البعث إلى أجل العمر، وإن كان فاجراً قاطعاً للرحم نقص من أجل العمر وزيد في أجل البعث وذلك قوله: ﴿وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب﴾ وقال مجاهد وسعيد بن جبير: الأجل الأول أجل الدنيا، والأجل الثاني أجل الآخرة. وقيل: الأجل هو الوقت المقدر فأجل كل إنسان مقدر معلوم عند الله لا يزيد ولا ينقص.

أنعمت عليكم بكذا وتفضّلت عليكم بكذا، ثم تكفرون بنعمتي.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ هو الذي خلقكمْ منْ طين ﴾، يعني آدم عليه السلام، خاطبهم به إذ كانوا من ولده، قال السدي: بعث الله تعالى جبريل عليه السلام إلى الأرض ليأتيه بطائفة منها، فقالت الأرض إني أعوذ بالله منك أن تنقص منّي، فرجع جبريل ولم يأخذ وقال: يا ربِّ إنها عاذت بك، فبعث ميكائيل، فاستعاذت فرجع، فبعث ملك الموت فعاذت منه بالله، فقال: وأنا أعوذ بالله أن أخالف أمره، فأخذ من وجه الأرض فخلط الحمراء والسوداء والبيضاء، فلذلك اختلفتْ ألوان بني آدم، ثم عجنها بالماء العذب والملح والمرّ، كذا اختلفت أخلاقهم فقال الله تعالى لملك الموت: رحم جبريل وميكائيل الأرض ولم ترحمها، لا جرمَ أخرجْ أرواح مَن أخلق من هذا الطين بيـدك ورُوِيَ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: خلق الله آدم عليه السلام من تراب وجعله طيناً، ثم تركه حتى كان حمأً مسنوناً ثم خلقه وصوّره وتركه حتى كان صلصالاً كالفخار، ثم نفخ فيه روحه. قوله عزّ وجلّ: ﴿ ثم قضى أجلاً وأجلٌ مُسَمًّى عنده ﴾، قال الحسن وقتادة والضحاك: الأجل الأول من الولادة إلى الموت، والأجل الثاني من الموت إلى البعث، وهو البرزخ، ورُوِيَ ذلك عن ابن عباس، وقال: لكل أحد أجلان أجل من الولادة إلى الموت وأجل من الموت إلى البعث، فإن كان بَرّاً تقيّاً وَصُولاً للرحم زيد له من أجل البعث في أجل العمر، وإن كان فاجراً قاطعاً للرحم نقص من أجل العمر وزيد في أجل البعث، وقال مجاهد وسعيد بن جبير: الأجل الأول أجل الدنيا، والأجل

والأجل الثاني: هو أجل القيامة وهو أيضاً معلوم مقدر عند الله لا يعلمه إلا الله تعالى وقال ابن عباس في رواية عطاء عنه ثم قضى أجلاً يعني النوم تقبض فيه الروح ثم ترجع عند الانتباه وأجل مسمى عنده هو أجل الموت وقيل هما واحد ومعناه ثم قضى أجلاً يعني قدّر مدة لأعماركم تنتهون إليها وهو أجل مسمى عنده يعني أن ذلك الأجل عنده لا يعلمه إلا هو والمراد بقوله عنده يعني في اللوح المحفوظ الذي لا يطلع عليه غيره ﴿ثم أنتم تمترون﴾ يعني ثم أنتم تشكون في البعث.

قوله عز وجل: ﴿وهو الله في السموات وفي الأرض﴾ يعني وهو إله السموات وإله الأرض. وقيل: معناه وهو المعبود في السموات وفي الأرض. وقال محمد بن جرير الطبري: معناه وهو الله في السموات ﴿يعلم سركم وجهركم﴾ في الأرض. وقال الزجاج: فيه تقديم وتأخير تقديره وهو الله يعلم سركم وجهركم في السموات وفي الأرض. وقيل: معناه وهوالمنفرد بالتدبير في السموات وفي الأرض لا شريك له فيهما. والمراد بالسر، ما يخفيه الإنسان في ضميره فهو من أعمال القلوب وبالجهر ما يظهره الإنسان فهو من أعمال الجوارح والمعنى: أن الله لا يخفى عليه خافية في السموات ولا في الأرض ﴿ويعلم ما تكسبون﴾ يعني من خير أو شر، بقي في الآية سؤال وهو أن الكسب إما أن يكون من أعمال القلوب وهو المسمى بالسر أو من أعمال الجوارح وهو المسمى بالجهر فالأفعال لا تخرج عن هذين النوعين يعني السر والجهر فقوله ويعلم ما تكسبون يقتضي عطف الشيء على نفسه وذلك غير جائز فما معنى ذلك وأجيب عنه بأنه يجب حمل قوله ويعلم ما تكسبون على ما يستحقه الإنسان على فعله وكسبه من الثواب والعقاب والحاصل فيه أنه محمول على المكتسب فهو كما يقال: هذا المال كسب فلان أي مكتسبه ولا يجوز حمله على نفس الكسب وإلا لزم عطف الشيء على نفسه ذكره الإمام فخر الدين.

وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَسَوْفَ
يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ
وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا
ءَاخَرِينَ ﴿٦﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾

﴿وما تأتيهم﴾ يعني أهل مكة ﴿من آية من آيات ربهم﴾ يعني من المعجزات الباهرات التي جاء بها رسول الله ﷺ

الثاني أجل الآخرة، وقال عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ ثم قضى أجلاً ﴾ يعني: النوم تقبض فيه الروح ثم ترجع عند اليقظة، ﴿ وأجلٌ مسمّىً عنده ﴾، هو أجل الموت، وقيل: هما واحد معناه: ثم قضى أجلاً يعني جعل لأعماركم مدة تنتهون إليها، وأجل مسمى عنده يعني وهو أجل مسمى عنده لا يعلمه غيره، ﴿ ثم أنتم تمترُون ﴾، تشكّون في البعث.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ وهو اللّهُ في السمٰواتِ وفي الأرضِ ﴾، يعني: وهو إلٰه السمٰوات والأرض، كقوله: ﴿ وهو الذي في السماء إلٰه وفي الأرضِ إلٰه ﴾ [الزخرف: ٨٤]، وقيل: هو المعبود في السمٰوات، وقال محمد بن جرير: معناه وهو الله في السمٰوات يعلم سرّكم وجهركم في الأرض، وقال الزجّاج: فيه تقديم وتأخير وتقدير: وهو الله، ﴿ يعلم سِرّكم وجهركم ﴾، في السمٰوات والأرض، ﴿ ويعلمُ ما تكْسِبُون ﴾، تعملون من الخير والشر.

﴿ وما تأتيهم ﴾، يعني: أهل مكة، ﴿ من آيةٍ مِّنْ آياتِ ربِّهم ﴾، مثل انشقاق القمر وغيره، وقال عطاء: يريد من آيات القرآن، ﴿ إلّا كانُوا عنها مُعْرِضين ﴾، لها تاركين بها مكذبين.

مثل انشقاق القمر وغير ذلك وقيل المراد بالآيات آيات القرآن ﴿إلا كانوا عنها معرضين﴾ يعني إلا كانوا لها تاركين وبها مكذبين ﴿فقد كذبوا بالحق﴾ يعني بآيات القرآن وقيل بمحمد ﷺ وبما أتى به من المعجزات ﴿لما جاءهم﴾ يعني لما جاءهم الحق من عند ربهم كذبوا به ﴿فسوف يأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون﴾ يعني فسوف يأتيهم أخبار استهزائهم إذا عذبوا في الآخرة.

قوله تعالى: ﴿ألم يروا﴾ الخطاب لكفار مكة يعني ألم ير هؤلاء المكذبون بآياتي ﴿كم أهلكنا من قبلهم من قرن﴾ يعني مثل قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم من الأمم الماضية والقرون الخالية. والقرن الأمة من الناس وأهل كل زمان قرن سموا بذلك لاقترانهم في الوجود في ذلك الزمان وقيل سمي قرناً لأنه زمان بزمان وأمة بأمة واختلفوا في مقدار القرن، فقيل: ثمانون سنة. وقيل: ستون سنة. وقيل: أربعون سنة. وقيل: مائة وعشرون، وقيل: مائة سنة. وهو الأصح لما روي أن النبي ﷺ قال لعبد الله بن بشر المازني: إنك تعيش قرناً فعاش مائة سنة. فعلى هذا القول: المراد بالقرن أهله الذين وجدوا فيه، ومنه قول النبي ﷺ: خير القرون قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم يعني أصحابي وتابعيهم وتابعي التابعين ﴿مكناهم في الأرض ما لم نمكن لكم﴾ يعني أعطيناهم ما لم نعطكم يا أهل مكة وقيل أمددناهم في العمر والبسطة في الأجسام والسعة في الأرزاق مثل إعطاء قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم ﴿وأرسلنا السماء عليهم مدراراً﴾ مفعال من الدر يعني وأرسلنا المطر متتابعاً في أوقات الحاجة إليه والمراد بالسماء المطر سمي بذلك لنزوله منها ﴿وجعلنا الأنهار تجري من تحتهم﴾ يعني: وفجرنا لهم العيون تجري من تحتهم والمراد منه كثرة البساتين ﴿فأهلكناهم بذنوبهم﴾ يعني بسبب ذنوبهم وكفرهم ﴿وأنشأنا من بعدهم قرناً آخرين﴾ يعني وخلفنا من بعد هلاك أولئك أهل قرن آخرين وفي هذه الآية ما يوجب الاعتبار والموعظة بحال من مضى من الأمم السالفة والقرون الخالية فإنهم مع ما كانوا فيه من القوة وسعة الرزق وكثرة الأتباع أهلكناهم لما كفروا وطغوا وظلموا فكيف حال من هو أضعف منهم وأقل عدداً وعدداً وهذا يوجب الاعتبار والانتباه من نوم الغفلة ورقدة الجهالة.

قوله عز وجل: ﴿ولو نزلنا عليك كتاباً في قرطاس﴾ الآية. قال الكلبي ومقاتل: نزلت في النضر بن الحارث

﴿ فقد كذّبوا بالحقّ ﴾، بالقرآن، وقيل: بمحمد ﷺ، ﴿ لمّا جاءهُمْ فسوفَ يأتيهم أنباءُ ما كانُوا بـه يستهزئون ﴾، أي: أخبار استهزائهم وجزاؤه، أي: سيعلمون عاقبة استهزائهم إذا عُذّبوا.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ ألمْ يَرَوْا كمْ أهلكْنا من قَبْلِهِمْ من قَرْن ﴾، يعني: الأمم الماضية، والقرن: الجماعة من الناس، وجمعه قرون، وقيل: القرن مدة من الزمان، يقال: ثمانون سنة، وقيل: ستّون سنة، وقيل: أربعون سنة، وقيل: ثلاثون سنة، ويقال: مائة سنة، لِمَا رُوِيَ أنّ النبي ﷺ قال لعبد الله بن بشر المازني: «إنكَ تعيشُ قرناً»، فعاش مائة سنة فيكون معناه على هذه الأقاويل من أهلِ قرنٍ، ﴿ مكّناهم في الأرض ما لم نمكنْ لكم ﴾، أي: أعطيناهم ما لم نعطكم، وقال ابن عباس: أمهلناهم في العمر مثل قوم نوح وعاد وثمود، يقال: مكّنتهُ ومكّنتُ له، ﴿ وأرسلنا السماء عليهم مِّدْرَاراً ﴾ يعني: المطر، مِفْعَال، من الدَّر، قال ابن عباس: مدراراً أي: مُتتابعاً في أوقات الحاجات، وقوله: ﴿ ما لم نمكّنْ لكم ﴾ من خطاب التلوين، رجع من الخبر من قوله: ﴿ ألم يَرَوْا ﴾ إلى خطاب، كقوله: ﴿ حتى إذا كنتُم في الفُلْكِ وجَرَيْنَ بهم ﴾ [يونس: ٢٢]، وقال أهل البصرة: أخبر عنهم بقوله: ﴿ ألم يروا ﴾ وفيهم محمد ﷺ وأصحابه، ثم خاطبهم معهم، والعرب تقول: قلت لعبد الله ما أكرمه، وقلت: لعبد الله ما أكرمك، ﴿ وجعلْنَا الأنهارَ تجري من تحتهمْ فأهلكنَاهُمْ بذنوبهمْ وأنشأنَا ﴾ خلَقْنَا وابتدأنا، ﴿ من بعدهم قرناً آخرين ﴾.

وعبد الله بن أمية ونوفل بن خويلد قالوا يا محمد لن نؤمن لك حتى تأتينا بكتاب من عند الله ومعه أربعة من الملائكة يشهدون عليه أنه من عند الله وإنك رسوله فأنزل الله تعالى هذه الآية ﴿ولو نزلنا عليك كتاباً في قرطاس﴾ يعني من عندي يعني مكتوباً في قرطاس وهو الكاغد والصحيفة التي يكتب فيها ﴿فلمسوه بأيديهم﴾ يعني فعاينوه ومسوه بأيديهم وإنما ذكر اللمس، ولم يذكر المعاينة، لأنه أبلغ في إيقاع العلم بالشيء من الرؤية، لأن المرئيات قد يدخلها التخيلات كالبحر ونحوه بخلاف الملموس ﴿لقال الذي كفروا إن هذا إلا سحر مبين﴾ يعني لو أنزلنا عليهم كتاباً كما سألوه لما آمنوا به ولقالوا هذا سحر مبين كما قالوا في انشقاق القمر وأنه لا ينفع معهم شيء لما سبق فيهم من علمي بهم.

﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ۝٨ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ۝٩ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝١٠ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ۝١١﴾

﴿وقالوا﴾ يعني مشركي مكة ﴿لولا﴾ يعني هلا ﴿أنزل عليه﴾ يعني على محمد ﴿ملك﴾ يعني نراه عياناً ﴿ولو أنزلنا ملكاً لقضي الأمر﴾ يعني لفرغ الأمر ولوجب العذاب وهذه سنة الله في الكفار أنهم متى اقترحوا آية ثم لم يؤمنوا استوجبوا العذاب واستؤصلوا به ﴿ثم لا ينظرون﴾ يعني أنهم لا يمهلون ولا يؤخرون طرفة عين بل يعجل لهم العذاب ﴿ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً﴾ يعني ولو أرسلنا إليهم ملكاً لجعلناه في صورة رجل وذلك أن البشر لا يستطيعون أن ينظروا إلى الملائكة في صورهم التي خلقوا عليها ولو نظر إلى الملك ناظر لصعق عند رؤيته ولذلك كانت الملائكة تأتي الأنبياء في صورة الأنس كما جاء جبريل إلى النبي ﷺ في صورة دحية الكلبي وكما جاء الملكان إلى داود عليه السلام في صورة رجلين وكذلك أتى الملائكة إلى إبراهيم ولوط عليهما السلام ولما رأى النبي ﷺ جبريل في صورته التي خلق عليها صعق لذلك وغشي عليه.

وقوله تعالى: ﴿وللبسنا عليهم ما يلبسون﴾ يقال لبست الأمر على القوم إذا أشبهته عليهم وجعلته مشكلاً ولبست عليه الأمر إذا خلطته عليه حتى لا يعرف جهته ومعنى الآية وخالطنا عليهم ما يخلطون على أنفسهم حتى

قوله عزّ وجلّ: ﴿ ولو نزّلنا عليك كتاباً في قِرْطَاسٍ ﴾ الآية، قال الكلبي ومقاتل: نزلت في النضر بن الحارث وعبد الله بن أبي أمية ونوفل بن خويلد، قالوا: يا محمد لن نؤمن لك حتى تأتينا بكتاب من عند الله ومعه أربعة من الملائكة يشهدون عليه أنه من عند الله وأنك رسوله، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿ ولو نزّلنا عليكَ كتاباً في قرطاس ﴾ مكتوباً من عنده، ﴿ فلمسُوه بأيديهِمْ ﴾، أي: عاينوه ومسّوه بأيديهم، وذكر اللّمس ولم يذكر المعاينة لأن اللمس أبلغ في إيقاع العِلم من المعاينة، فإن السحر يجري على المرئي ولا يجري على الملموس، ﴿ لقالَ الذينَ كفرُوا إنْ هذا إلاّ سحرٌ مبين ﴾، معناه: أنه لا ينفع معهم شيء لِمَا سبق فيهم من علمي.

﴿ وقالوا لَوْلَآ أُنْزِلَ عليه ﴾، على محمد ﷺ، ﴿ مَلَكٌ ولو أنزلنا ملكاً لقضي الأمر ﴾، أي: لوجب العذاب، وفُرِغَ من الأمر، وهذا سُنّة الله في الكفّار أنهم متى اقترحوا آية فأُنزلت ثم لم يؤمنوا استُؤصلوا بالعذاب، ﴿ ثم لا يُنظرون ﴾، أي: لا يؤجلون ولا يمهلون، وقال قتادة: لو أنزلنا ملكاً ثم لم يُؤمنوا لعُجّل لهم العذابُ ولم يُؤخرُوا طرفةَ عين، وقال مجاهد: لقضي الأمر أي لقامت القيامة، وقال الضحّاك: لو أتاهم ملك في صورته لماتُوا.

﴿ ولو جعلنَاه مَلَكاً ﴾، يعني: لو أرسلنا إليهم ملكاً، ﴿ لجعلناه رجلاً ﴾، يعني في صورة رجل آدمي، لأنهم

يشكوا فلا يدروا أملك هو أم آدمي وقيل في معنى الآية إنا لو جعلنا الملك في صورة البشر لظنوه بشراً فتعود المسألة بحالها أنا لا نرضى برسالة البشر ولو فعل الله عز وجل ذلك صار فعل الله مثل فعلهم في التلبيس وإنما كان تلبيساً لأنهم يظنون أنه ملك وليس بملك أو يظنون أنه بشر وليس هو بشراً وإنما كان فعلهم تلبيساً لأنهم لبسوا على ضعفتهم في أمر النبي ﷺ فقالوا: إنما هو بشر مثلكم ولو رأوا الملك رجلاً للحقهم من اللبس مثل مالحق بضعفائهم فيكون اللبس نقمة من الله وعقوبة لهم على ما كان منهم من التخليط في السؤال واللبس على الضعفاء.

قوله عز وجل: ﴿ولقد استهزىء برسل من قبلك﴾ يعني كما استهزىء بك يا محمد وفي هذه الآية تعزية للنبي ﷺ وتسلية له عما كان من تكذيب المشركين إياه واستهزائهم به إذ جعل له أسوة في ذلك بالأنبياء الذين كانوا قبله ﴿فحاق﴾ أي فنزل وقيل: أحاط، وقيل: حل ﴿بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون﴾ والمعنى: فنزل العذاب بهم ووجب عليهم من النقمة والعذاب جزاء استهزائهم أو في هذه الآية تحذير للمشركين أن يفعلوا بنبيهم كما فعل من كان قبلهم بأنبيائهم فينزل بهم مثل ما نزل بهم ﴿قل سيروا في الأرض﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المستهزئين سيروا في الأرض معتبرين ومتفكرين وقيل هو سير الأقدام ﴿ثم انظروا﴾ فعلى القول الأول يكون النظر نظرة فكرة وعبرة وهو بالبصيرة لا بالبصر وعلى القول الثاني يكون المراد بالنظر نظر العين والمعنى ثم انظروا بأعينكم إلى آثار الأمم الخالية والقرون الماضية السالفة وهو قوله تعالى: ﴿كيف كان عاقبة المكذبين﴾ يعني كيف كان جزاء المكذبين وكيف أورثهم الكفر والتكذيب الهلاك فحذر كفار مكة عذاب الأمم الخالية.

﴿قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ قُل لِّلَّهِۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ ۞وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿قل لمن ما في السموات والأرض قل لله﴾ هذا سؤال وجواب المعنى قل يا محمد لهؤلاء المكذبين العادلين بربهم لمن ملك ما في السموات والأرض فإن أجابوك وإلا فأخبرهم أن ذلك لله الذي قهر كل شيء

لا يستطيعون النظر إلى الملائكة، وكان جبريل عليه السلام يأتي النبي ﷺ في صورة دحي الكلبي، وجاء الملكان إلى داود في صورة رجلين. قوله عزّ وجلّ: ﴿ وَلَلَبَسْنَا عليهم ما يَلْبِسُونَ ﴾، أي: خلطنا عليهم ما يخلطون وشبّهنا عليهم فلا يدرون أملَكٌ هو أو آدمي، وقيل: معناه شَبَّهوا على ضعفائهم فشبّه عليهم، وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: هم أهل الكتاب فرّقوا دينهم وحرّفوا الكَلِم عن مواضعه، فلبس الله عليهم ما لبسوا على أنفسهم وقرأ الزهري «وللبسنا» بالتشديد على التكرير والتأكيد.

﴿ ولقد استهزىء بِرُسُلٍ مِّن قبلك ﴾، كما استهزىء بك يا محمد فعزّى نبيّه ﷺ، ﴿ فحاقَ ﴾، قال الربيع بن أنس: فنزل، وقال عطاء: حلّ، وقال الضحّاك: أحاط، ﴿ بالذين سخرُوا منهم ما كانوا به يَسْتَهْزِءُونَ ﴾، أي: جزاء استهزائهم من العذاب والنقمة.

﴿ قل ﴾، يا محمد لهؤلاء المكذبين المستهزئين، ﴿ سيروا في الأرض ﴾، معتبرين، يُحتمل هذا السير بالعقول والفكر، ويحتمل السير بالأقدام، ﴿ ثم انظرُوا كيفَ كانَ عاقبةُ المُكذّبين ﴾، أي: جزاء أمرهم وكيف أورثهم الكفر والتكذيب الهلاك، يُحذّر كفّار مكة عذاب الأمم الخالية.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ قلْ لمنْ مّا في السمٰواتِ والأرضِ ﴾، فإن أجابوك وإلاّ فـ ﴿ قُلْ ﴾، أنتَ، ﴿ للّهِ ﴾، أمره

وملك كل شيء واستعبد كل شيء لا للأصنام التي تعبدونها أنتم فإنها موات لا تملك شيئاً ولا تملك لنفسها ضراً ولا نفعاً وإنما أمره بالجواب عقب السؤال ليكون أبلغ في التأكيد وآكد في الحجة ولما بين الله تعالى كمال قدرته وتصرفه في سائر مخلوقاته أردفه بكمال رحمته وإحسانه إليهم فقال تعالى: ﴿كتب على نفسه الرحمة﴾ يعني أنه تعالى أوجب وقضى على نفسه الرحمة وهذا استعطاف منه للمتولين عنه الإقبال عليه وإخبار بأنه رحيم بعباده وأنه لا يعجل بالعقوبة بل يقبل التوبة والإنابة ممن تاب وأناب (ق) عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «لما خلق الله الخلق كتب في كتابه فهو عنده فوق العرش إن رحمتي تغلب غضبي» وفي البخاري: «أن الله كتب كتاباً قبل أن يخلق الخلق إن رحمتي سبقت غضبي فهو مكتوب عنده فوق العرش» وفي رواية لهما أن الله لما خلق الخلق، وعند مسلم لما قضى الله الخلق كتب في كتاب كتبه على نفسه فهو موضوع عنده، زاد البخاري على العرش ثم اتفقا «إن رحمتي تغلب غضبي» (ق) عن أبي هريرة قال سمعت رسول الله ﷺ يقول «جعل الله الرحمة مائة جزء فأمسك عنده تسعة وتسعين وأنزل في الأرض جزءاً واحداً فمن ذلك الجزء تتراحم الخلائق حتى ترفع الدابة حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه» زاد البخاري في رواية له ولو يعلم الكافر بكل الذي عند الله من الرحمة لم ييأس من الجنة ولو يعلم المؤمن بكل الذي عند الله من العذاب لم يأمن من العذاب. ولمسلم إن لله مائة رحمة أنزل منها رحمة واحدة بين الجن والإنس والبهائم والهوام فبها يتعاطفون وبها يتراحمون وبها تعطف الوحش على ولدها وأخر الله تسعاً وتسعين رحمة يرحم بها عباده يوم القيامة (م) عن سلمان الفارسي قال: قال رسول الله ﷺ «إن الله خلق يوم خلق السموات والأرض مائة رحمة كل رحمة طباق ما بين السماء والأرض فجعل منها في الأرض رحمة فبها تعطف الوالدة على ولدها والوحش والطير بعضها على بعض فإذا كان يوم القيامة أكملها بهذه الرحمة» (ق) عن عمر قال: قدم على رسول الله ﷺ سبي فإذا امرأة من السبي تبتغي إذا وجدت صبياً في السبي أخذته فألصقته ببطنها وأرضعته فقال رسول الله ﷺ أترون هذه المرأة طارحة ولدها في النار؟ قلنا لا والله وهي تقدر أن تطرحه فقال ﷺ الله أرحم بعباده من هذه المرأة بولدها.

وقوله تعالى: ﴿ليجمعنكم﴾ اللام في قوله ليجمعنكم لام القسم تقديره والله ليجمعنكم ﴿إلى يوم القيامة﴾ يعني

بالجواب عقيب السؤال ليكون أبلغ في التأكيد وآكد في الحجّة، ﴿كتبَ﴾، أي: قضى، ﴿على نفسِه الرحمة﴾، هذا استعطاف منه تعالى للمتولّين عنه إلى الإقبال عليه وإخبار بأنه رحيم بالعباد لا يعجّل بالعقوبة، ويقبل الإنابة والتوبة، أخبرنا أبو علي حسان بن سعد المنيعي أخبرنا أبو طاهر الزيادي أخبرنا أبو بكر محمد بن الحسين القطّان أنا أحمد بن يوسف السلمي أنا عبد الرزّاق أنا معمر عن همّام بن منبّه قال: ثنا أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لمّا قضى اللَّهُ الخلقَ كتبَ كتاباً فهو عند الله فوق العرش: إنّ رحمتي غلبت غضبي»، وروى أبو الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة عن النبي ﷺ: «إنّ رحمتي سبقتْ غضبي»، أخبرنا الشيخ أبو القاسم عبد الله بن علي الكركاني أنا أبو طاهر الزيادي أنا حاجب بن أحمد الطوسي أنا عبد الرحمن المروزي أخبرنا عبد الله بن المبارك أنا عبد الملك بن أبي سليمان عن عطاء بن أبي رباح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ لله مائةَ رحمةً واحدة بين الجنّ والإنس والبهائم والهوام، فبها يتعاطفون، وبها يتراحمون، وبها تعطف الوحوش على أولادها، وأخّرَ الله تسعاً وتسعين رحمة يرحم بها عباده يوم القيامة». أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا ابن أبي مريم ثنا أبو غسان حدّثني زيد بن أسلم عن أبيه عن عمر بن الخطاب رضي الله عنهم قال: قَدِمَ على النبي ﷺ سبي فإذا امرأة من السبي قد تحلب ثديها، تسعى إذا وجدت صبياً في السبي أخذته فألصقته ببطنها وأرضعته، فقال لنا النبي ﷺ: «أترون هذه طارحةً ولدها في النار»؟ فقلنا: لا وهي تقدر على أن تطرحه، فقال: «اللَّهُ أرحمُ بعبادهِ منْ هذهِ بولدها». قوله عزّ وجلّ:

في يوم القيامة وقيل معناه في قبوركم إلى يوم القيامة ﴿لا ريب فيه﴾ أي لا شك فيه أنه آت ﴿الذين خسروا أنفسهم﴾ يعني بالشرك بالله أو غبنوا أنفسهم باتخاذهم الأصنام فعرضوا أنفسهم لسخط الله وأليم عقابه فكانوا كمن خسر شيئاً وأصل الخسار الغبن يقال خسر الرجل إذا غبن في بيعه ﴿فهم لا يؤمنون﴾ يعني لما سبق عليهم القضاء بالخسران فهو الذي حملهم على الامتناع عن الإيمان.

قوله تعالى: ﴿وله ما سكن في الليل والنهار﴾ يعني وله ما استقر وقيل ما سكن وما تحرك فاكتفى بذكر أحدهما عن الآخر وقيل إنما خص السكون بالذكر لأن النعمة فيه أكثر وقال ابن جرير كل ما طلعت عليه الشمس وغربت فهو من ساكن الليل والنهار فيكون المراد منه جميع ما حصل في الأرض من الدواب والحيوانات والطير وغير ذلك مما في البر والبحر وهذا يفيد الحصر والمعنى أن جميع الموجودات ملك لله تعالى لا لغيره ﴿وهو السميع﴾ لأقوالهم وأصواتهم ﴿العليم﴾ بسرائرهم وأحوالهم.

﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿قل أغير الله أتخذ ولياً﴾ قال مقاتل لما دعا رسول الله ﷺ إلى دين آبائه أنزل الله هذه الآية فقال قل لهم يا محمد أغير الله اتخذ ولياً يعني رباً ومعبوداً وناصراً ومعيناً وهو استفهام ومعناه الإنكار أي لا أتخذ غير الله ولياً ﴿فاطر السموات والأرض﴾ أي خالق السموات والأرض ومبدعهما ومبدئهما ﴿وهو يطعم ولا يطعم﴾ يعني وهو يرزق ولا يرزق وصف الله عز وجل نفسه بالغني عن الخلق وباحتياج الخلق إليه لأن من كان من صفته أن يطعم الخلق لاحتياجهم إليه وهو لا يطعم لاستغنائه سبحانه وتعالى عن الإطعام فهو غني عن الخلق ومن كان كذلك وجب أن يتخذ رباً وناصراً وولياً ومعبوداً ﴿قل إني أمرت أن أكون أول من أسلم﴾ يعني من هذه الأمة والإسلام بمعنى الاستسلام يعني أمرت أن استسلم لأمر الله وأنقاد إلى طاعته ﴿ولا تكونن من المشركين﴾ يعني وقيل لي يا محمد لا تكونن من

﴿ ليجمعنّكم ﴾، اللام فيه لام القسم والنون نون التأكيد مجازه: والله ليجمعنكم، ﴿ إلى يومِ القيامة ﴾، أي: في يوم القيامة، وقيل: معناه ليجمعنّكم في قبوركم إلى يوم القيامة، ﴿ لا ريبَ فيهِ الذينَ خسرُوا ﴾، غبنوا، ﴿ أنفسهم فهم لا يُؤمنون ﴾.

﴿ ولهُ مَا سكنَ في الليلِ والنهارِ ﴾، أي: استقر، قيل: أراد ما سكن وما تحرك، كقوله: ﴿ سرابيل تقيكم الحرّ ﴾ [النحل ٨١] أي: الحرّ والبرد، وقيل: إنما خصّ السكون بالذكر لأن النعمة فيه أكثر، وقال محمد بن جرير: كلّ ما طلعت عليه الشمس وغربت فهو من ساكن الليل والنهار، والمراد منه جميع ما في الأرض وقيل معناه: وله ما يمرّ عليه الليل والنهار، ﴿ وهو السميعُ ﴾، لأصواتهم، ﴿ العليمُ ﴾ بأسرارهم.

قوله تعالى: ﴿ قلْ أغيرَ اللّهِ اتّخذُ ولياً ﴾؟ وهذا حين دعى إلى دين آبائه، فقال تعالى: قل يا محمد أغير الله أتخذ ولياً، رباً ومعبوداً وناصراً ومُعيناً؟ ﴿ فاطِرِ السّمٰوٰتِ والأرضِ ﴾، أي: خالقهما ومُبدعهما ومبتديهما، ﴿ وهو يُطعِمُ ولا يُطعَم ﴾، أي: وهو يَرْزق ولا يُرزق، كما قال: ﴿ ما أُريد منهم منْ رزقٍ وما أُريد أنْ يُطعمون ﴾ [الذاريات: ٥٧]. ﴿ قل إني أُمِرْتُ أنْ أكونَ أوّلَ مَنْ أسلم ﴾، يعني: من هذه الأمة، والإسلام بمعنى الاستسلام

المشركين ﴿قل إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم﴾ يعني قل يا محمد لهؤلاء المشركين الذين دعوك إلى عبادة غيري إن ربي أمرني أن أكون أول من أسلم ونهاني عن عبادة شيء سواه وإني أخاف إن عصيت ربي فعبدت شيئاً سواه عذاب يوم عظيم وهو عذاب يوم القيامة ﴿من يصرف عنه﴾ يعني العذاب ﴿يومئذ﴾ يعني يوم القيامة ﴿فقد رحمه﴾ يعني بأن أنجاه من العذاب ومن أنجاه من العذاب فقد رحمه وأناله الثواب لا محالة وإنما ذكر الرحمة من صرف العذاب لئلا يتوهم أنه صرف العذاب فقط بل تحصل الرحمة من صرف العذاب عنه ﴿وذلك الفوز المبين﴾ يعني أن صرف العذاب وحصول الرحمة هو النجاة والفلاح المبين.

قوله تعالى: ﴿وإن يمسسك الله بضر﴾ يعني بشدة وبلية والضر اسم جامع لما ينال الإنسان من ألم ومكروه وغير ذلك مما هو في معناه ﴿فلا كاشف له إلا هو﴾ يعني فلا يدفع ذلك الضر إلا الله عز وجل: ﴿وإن يمسسك بخير﴾ يعني بعافية ونعمة والخير اسم جامع لكل ما ينال الإنسان من لذة وفرح وسرور ونحو ذلك ﴿فهو على كل شيء قدير﴾ يعني من دفع الضر وجلب الخير. وهذه الآية خطاب للنبي ﷺ والمعنى: لا تتخذ ولياً سوى الله لأنه هو القادر على أن يمسك بضر وهو القادر على دفعه عنك وهو القادر على إيصال الخير إليك وأنه لا يقدر على ذلك إلا هو فاتخذه ولياً وناصراً ومعيناً. وهذا الخطاب وإن كان للنبي ﷺ فهو عام لكل أحد والمعنى وإن يمسسك الله بضر أيها الإنسان فلا كاشف لذلك الضر إلا هو وإن يمسسك بخير أيها الإنسان فهو على كل شيء قدير من دفع الضر وإيصال الخير.

عن ابن عباس قال: «كنت خلف رسول الله ﷺ يوماً فقيل لي يا غلام إني أعلمك كلمات احفظ الله يحفظك احفظ الله تجده تجاهك وإذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله واعلم أن الأمة لو اجتمعت عى أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك وإن اجتمعت على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك رفعت الأقلام وجفت الصحف» أخرجه الترمذي زاد فيه رزين تعرَّف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة وفيه «وإن استطعت أن تعمل لله بالرضا في اليقين فافعل فإن لم تستطع فاصبر فإن الصبر على ما تكره خير كثير واعلم أن النصر

لأمر الله، وقيل: أسلم أخلص، ﴿ ولا تكوننَّ ﴾، يعني: وقيل لي ولا تكوننّ، ﴿ مَنَ المشركين ﴾.

﴿ قلْ إنّي أخاف إنْ عصيتُ ربّي ﴾، فعبدتُ غيرَه ﴿ عذاب يومٍ عظيم ﴾، يعني: عذاب يوم القيامة.

﴿ مَنْ يصرفْ عنه ﴾، يعني: مَن يُصرف العذاب عنه، قرأ حمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم ويعقوب «يصرف» بفتح الياء وكسر الراء، أي: مَن يصرف الله عنه العذاب فقد رحمه، وقرأ الآخرون بضم الياء وفتح الراء، ﴿ يومئذ ﴾، يعني: يوم القيامة، ﴿ فقدْ رَحِمَهُ وذلك الفوزُ المبين ﴾، أي: النجاة البيّنة.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ وإنْ يَمْسَسْكَ اللّهُ بضرّ فلا كاشفَ ﴾، لا رافع، ﴿ له إلاّ هو، وإنْ يَمْسَسْكَ بخيرٍ ﴾، عافية ونعمة، ﴿ فهو على كل شيء قدير ﴾، من الخير والضرّ. أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أبو عبد الله السلمي أنا أبو العباس الأصم أنا أحمد بن شيبان الرملي أنا عبد الله بن ميمور القداح أنا شهاب بن خراش عن عبد الملك بن عمير عن ابن عباس قال: أُهدِيَ للنبي ﷺ بغلة، أهداها له كسرى فركبها بحبل من شعر، ثم أردفني خلفه، ثم سار بي ملياً ثم التفت إليّ فقال: يا غلام، فقلتُ: لبّيك يا رسولَ الله، قال: «احفظِ الله يحفظك، احفظِ الله تجدْهُ تِجَاهك، تعرَّفْ إلى اللّهِ في الرخاء يعرفْك في الشدّة، وإذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعنْ بالله، وقد مضى القلم بما هو كائن، فلو جهد الخلائق أن ينفعوك بما لم يقضه الله تعالى لك لم يقدروا عليه، ولو جهدوا أن يضرّوك بما لم يكتب الله تعالى عليك، ما قدروا عليه، فإن استطعتَ أن تعملَ بالصبر مع اليقين، فافعلْ فإن لم تستطع فاصبرْ فإن في الصبر على ما تكره خيراً كثيراً، وإنّ الفَرَجَ مَعَ الكَرْبِ، وإنّ مَعَ العُسْرِ يُسْراً».

مع الصبر والفرج مع الكرب وأن مع العسر يسرا ولن يغلب عسر يسرين» قال ابن الأثير وقد جاء نحو هذا أو مثله بطوله في مسند أحمد بن حنبل.

وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾ قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ۘ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾

قوله عز وجل: ﴿**وهو القاهر فوق عباده**﴾ يعني وهو الغالب لعباده القاهر لهم وهم مقهورون تحت قدرته والقاهر والقهار معناه الذي يدبر خلقه بما يريد فيقع في ذلك ما يشق عليهم ويثقل ويغم ويحزن ويفقر ويميت ويذل خلقه فلا يستطيع أحد من خلقه رد تدبيره والخروج من تحت قهره وتقديره وهذا معنى القاهر في صفة الله تعالى لأنه القادر والقاهر الذي لا يعجزه شيء أراده ومعنى فوق عباده هنا أن قهره قد استعلى على خلقه فهم تحت التسخير والتذليل بما علاهم به من الاقتدار والقهر الذي لا يقدر أحد على الخروج منه ولا ينفك عنه فكل من قهر شيئاً فهو مستعل عليه بالقهر والغلبة. وقال ابن جرير الطبري: معنى القاهر المتعبد خلقه العالي عليهم وإنما قال فوق عباده لأنه تعالى وصف نفسه بقهره إياهم ومن صفة كل قاهر شيئاً أن يكون مستعلياً عليه فمعنى الكلام إذاً والله الغالب عباده المذلل لهم العالي عليهم بتذليله إياهم فهو فوقهم بقهره إياهم وهم دونه. وقيل: فوق عباده هو صفة الاستعلاء الذي تفرد به الله عز وجل: ﴿**وهو الحكيم**﴾ يعني في أمره وتدبير عباده ﴿**الخبير**﴾ يعني بأعمالهم وما يصلحهم.

قوله عز وجل: ﴿**قل أي شيء أكبر شهادة**﴾ قال الكلبي أتى أهل مكة رسول الله ﷺ فقالوا يا محمد أرنا من يشهد أنك رسول الله فإنا لا نرى أحداً يصدقك ولقد سألنا عنك اليهود والنصارى فزعموا أن ليس لك عندهم ذكر فأنزل الله عز وجل قل يعني يا محمد لهؤلاء المشركين الذين يكذبونك ويجحدون نبوتك من قومك أي شيء أكبر شهادة يعني أعظم شهادة فإن هم أجابوك وإلا ﴿**قل**﴾ أنت يا محمد ﴿**الله شهيد بيني وبينكم**﴾ قال مجاهد أمر محمد ﷺ أن يسأل قريشاً أي شيء أكبر شهادة ثم أمره أن يخبرهم فيقول الله **شهيد** بيني وبينكم يعني يشهد لي بالحق وعليكم بالباطل الذي تقولونه والحاصل أنهم طلبوا شاهداً مقبول القول يشهد له بالنبوة فبيَّن الله تعالى بهذه الآية أن أكبر الأشياء شهادة هو الله تعالى ثم بيَّن أنه يشهد له بالنبوة وهو المراد بقوله: ﴿**وأوحى إلي هذا القرآن لأنذركم به**﴾ يعني أن الله عز وجل يشهد لي بالنبوة لأنه أوحى إليّ هذا القرآن وهو معجزة لأنكم أنتم الفصحاء البلغاء وأصحاب اللسان وقد عجزتم عن معارضته فكان معجزاً وإذا كان معجزاً كان نزوله على شهادة من الله بأني رسوله وهو المراد بقوله لأنذركم به يعني أوحي إلى هذا القرآن لأخوفكم به وأحذركم مخالفة أمر الله عز وجل: ﴿**ومن بلغ**﴾ يعني وأنذر من بلغه القرآن ممن

﴿ **وهوَ القَاهِرُ فَوْقَ عبادِهِ** ﴾، القاهر الغالب، وفي القهر زيادة معنى على القدرة، وهو منع غيره عن بلوغ المراد، وقيل: هو المنفرد بالتدبير يُجْبِرُ الخلقَ على مُراده، فوق عباده هو صفة الاستعلاء الذي تفرّد به الله عزّ وجلّ. ﴿ **وهو الحكيمُ** ﴾، في أمره، ﴿ **الخبيرُ** ﴾، بأعمال عباده.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ **قلْ أيُّ شيءٍ أكبرُ شهادة** ﴾؟ الآية، قال الكلبي: أتى أهل مكة رسول الله ﷺ فقالوا: أرِنا مَن يشهد أنك رسول الله فإنّا لا نرى أحداً يصدقك، ولقد سألنا عنك اليهود والنصارى فزعموا أنه ليس عندهم ذكر، فأنزل الله تعالى: ﴿ **قلْ أيُّ شيءٍ أكبرُ شهادة** ﴾؟ فإن أجابوك، وإلاّ ﴿ **قُلِ اللَّهُ شهيدٌ بيني وبينَكم** ﴾، على ما

يأتي بعدي إلى يوم القيامة من العرب والعجم وغيرهم من سائر الأمم فكل من بلغ إليه القرآن وسمعه فالنبي ﷺ نذير له قال محمد بن كعب القرظي من بلغه القرآن فكأنما رأى النبي ﷺ وكلمه وقال أنس بن مالك لما نزلت هذه الآية كتب رسول الله ﷺ إلى كسرى وقيصر وكل جبار يدعوهم إلى الله عز وجل (خ) عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن النبي ﷺ قال «بلغوا عني ولو آية وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج ومن كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار».

(شرح ما يتعلق بهذا الحديث)

فيه الأمر بإبلاغ ما جاء به النبي ﷺ إلى من بعده من قرآن وسنة وقوله وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج الحرج الضيق والإثم ومعنى الحديث أنه مهما قلتم عن بني إسرائيل فإنهم كانوا في حال أكثر مما قلتم وأوسع وليس هذا فيه إباحة الكذب والإخبار عن بني إسرائيل لكن معناه الرخصة في الحديث عنهم على بعض البلاغ وإن لم يتحقق ذلك بنقل لأنه أمر قد تعذر لبعد المسافة وطول المدة عن ابن مسعود قال سمعت رسول الله ﷺ يقول «نضر الله أمرأ سمع منا شيئاً فبلغه كما سمعه فرب مبلغ أوعى له من سامع» أخرجه الترمذي وله عن زيد بن ثابت قال سمعت رسول الله ﷺ يقول «نضر الله امرأ سمع منا حديثاً فحفظه حتى يبلغه غيره فرب حامل فقه إلى من هو أفقه منه ورب حامل فقه ليس بفقيه» عن ابن عباس قال «تسمعون ويسمع منكم ويسمع ممن يسمع منكم» أخرجه أبو داود موقوفاً.

وقوله تعالى: ﴿أئنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى﴾ يعني قل يا محمد لهؤلاء المشركين الذين جحدوا نبوتك واتخذوا آلهة غيري إنكم أيها المشركون لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى يعني الأصنام التي كانوا يعبدونها وإنما قال أخرى لأن الجمع يلحقه التأنيث كما قال تعالى: ﴿ولله الأسماء الحسنى فما بال القرون الأولى﴾ ولم يقل الأول ولا الأولين ﴿قل لا أشهد﴾ يعني قل يا محمد لهؤلاء المشركين لا أشهد بما تشهدون به أن مع الله آلهة أخرى بل أجحد ذلك وأنكره ﴿قل إنما هو إله واحد﴾ يعني قل لهم إنما الله إله واحد ومعبود واحد لا شريك له وبذلك أشهد ﴿وإنني بريء مما تشركون﴾ يعني وأنا بريء من كل شيء تعبدونه سوى الله وفي هذه الآية دليل على إثبات التوحيد لله عز وجل وإبطال كل معبود سواه لأن كلمة إنما تفيد الحصر ولفظة الواحد صريح في التوحيد ونفي الشريك فثبت بذلك إيجاب التوحيد وسلب كل شريك والتبرؤ من كل معبود سوى الله تعالى قال العلماء يستحب لكل من أسلم أن يأتي بالشهادتين ويبرأ من كل دين خالف الإسلام لقوله تعالى: ﴿وإنني بريء مما تشركون﴾.

قوله عز وجل: ﴿الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون آباءهم﴾ المراد بالذين أوتوا الكتاب علماء اليهود والنصارى الذين كانوا في زمن رسول الله ﷺ وذلك أن كفّار مكة لما قالوا للنبي ﷺ إنا سألنا عنك اليهود والنصارى

أقول، ويشهد لي بالحق وعليكم بالباطل، ﴿ وَأُوْحِيَ إِلَيّ هذا القرآنُ لأُنْذِرَكم به ﴾، لأخوّفكم به يا أهل مكة، ﴿ وَمَنْ بَلَغَ ﴾، ومَن بلغه القرآن من العجم وغيرهم من الأمم إلى يوم القيامة حدّثنا أبو الفضل زياد بن محمد بن الحنفي أنا محمد بن بشر بن محمد المزني أنا أبو بكر محمد بن الحسين بن بشر النقاش أنا أبو شعيب الحرّاني أنا يحيىٰ بن عبد الله بن الضحاك البلابلي أنا الأوزاعي حدّثني حسان بن عطية عن أبي كبشة السلوي عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «بلّغوا عنّي ولو آية، وحدِّثوا عن بني إسرائيل ولا حرج، ومَنْ كذبَ عليّ متعمّداً فليتبوأ مقعدَه مِنَ النار»، أخبرنا أبو الحسن عبد الوهاب بن محمد الخطيب أخبرنا عبد العزيز بن أحمد الخلال أنا أبو العباس الأصم أنا الربيع أنا الشافعي أنا سفيان بن عيينة عن عبد الله الملك ابن عمير عن عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال: «نضّر اللّهُ عبداً سمعَ مقالتي فحفظها ووعاها وأدّاها. فَرُبَّ حامل فقه غير فقيه، ورُبّ حامل فقه إلى مَن هو أفقه منه، ثلاث لا يَغِلُّ عليهنّ قلبُ مسلم أبداً: إخلاص العمل لله، والنصيحة للمسلمين، ولزوم جماعتهم، فإن دعوتَهم تحيطُ من ورائهم». قال مقاتل: ومَن بلغه القرآن من الجنّ

فزعموا أنه ليس لك عندهم ذكر وأنكروا معرفته بين الله عز وجل أن شهادته له كافية على صحة نبوته وبين في هذه الآية أنهم يعرفونه وأنهم كذبوا في قولهم إنهم لا يعرفونه. وروي أن النبي ﷺ لما قدم المدينة وأسلم عبد الله بن سلام قال له عمر بن الخطاب: إن الله عز وجل أنزل على نبيه محمداً ﷺ بمكة ﴿**الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم**﴾ فكيف هذه المعرفة؟ فقال عبد الله بن سلام: يا عمر لقد عرفته حين رأيته كما أعرف ابني ولأنا أشد معرفة بمحمد ﷺ مني بابني فقال عمر وكيف ذاك؟ قال أشهد أنه رسول الله ﷺ حقاً ولا أدري ما يصنع النساء.

وقوله تعالى: ﴿**الذين خسروا أنفسهم**﴾ يعني: أهلكوا أنفسهم وغبنوها وأوبقوها في نار جهنم بإنكارهم نبوة محمد ﷺ.

وفي الذين خسروا أنفسهم قولان: **أحدهما**: أنه صفة الذين الأولى ويكون المقصود من ذلك وعيد المعاندين الذين يعرفون محمداً ﷺ ويجحدون نبوته وهم كفار أهل الكتابين ﴿**فهم لا يؤمنون**﴾ يعني به.

والقول الثاني: إنه كلام مبتدأ ولا تعلق له بالأول وهم كفار مكة الذين لم يؤمنوا بمحمد ﷺ وذكروا في معنى الخسار وجهين: **أحدهما**: أنه الهلاك الدائم الذي حصل لهم بسبب كفرهم وإنكارهم نبوة محمد ﷺ.

والوجه الثاني: أنه جعل لكل واحد من بني آدم منزلاً في الجنة ومنزلاً في النار فإذا كان يوم القيامة جعل الله للمؤمنين منازل الكفار التي في الجنة وجعل للكفار منازل المؤمنين التي في النار فذلك هو الخسران.

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢١﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾

قوله تعالى: ﴿**ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً**﴾ يعني ومن أشد عناداً وأخطأ فعلاً وأعظم كفراً ممن اختلق على الله كذباً فزعم أن له شريكاً من خلقه وإلهاً يعبد من دونه كما قال المشركون من عبدة الأصنام، أو ادعى أن له صاحبة وولداً كما قلت النصارى ﴿**أو كذب بآياته**﴾ يعني كذب بحجته وأعلام أدلته التي أعطاها رسله كما كذبت اليهود بمعجزات الأنبياء وقيل معناه أو كذب بآيات القرآن الذي أنزله على محمد ﷺ ﴿**إنه لا يفلح الظالمون**﴾ يعني أنه

والإنس فهو نذير له، وقال محمد بن كعب القرظي: مَن بلغه القرآن فكأنما رأى محمداً ﷺ وسمع منه، ﴿ **أئنكم لتشهدونَ أنّ معَ اللَّهِ آلهة أُخرى** ﴾؟ ولم يقل أخر لأن الجمع يلحقه التأنيث، كقوله عزّ وجلّ: ﴿ **ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها** ﴾ [الأعراف: ١٨٠]، وقال: ﴿ **فما بالُ القُرونِ الأولى** ﴾ [طه: ٥١]. ﴿ **قلْ** ﴾، يا محمد إن شهدتم أنتم، ﴿ **لا أشهد** ﴾، أنا أنّ معه إلَهاً، ﴿ **قلْ إنّما هو إلَهٌ واحد وإنني بريء مما تُشركُون** ﴾.

قوله تعالى: ﴿ **الذينَ آتيناهُم الكتابَ** ﴾، يعني: التوراة والإنجيل، ﴿ **يعرفُونَه** ﴾، يعني: محمداً ﷺ بنعته وصفته، ﴿ **كما يعرفون أبناءَهم** ﴾، من بين الصبيان. ﴿ **الذين خَسِرُوا** ﴾، غبنوا، ﴿ **أنفسَهُمْ فهمْ لا يُؤمنُون** ﴾، وذلك أن الله جعل لكل آدمي منزلاً في الجنة ومنزلاً في النار، فإذا كان يوم القيامة جعل الله للمؤمنين منازل أهل النار في الجنة، ولأهل النار منازل أهل الجنة في النار، وذلك الخسران.

قوله تعالى: ﴿ **ومَنْ أظلم** ﴾، أكفر، ﴿ **ممّنِ افترى** ﴾، اختلق، ﴿ **على اللّهِ كَذباً** ﴾، فأشرك به غيره، ﴿ **أو كذّب بآياتِهِ** ﴾، يعني: القرآن، ﴿ **إنّه لا يُفلحُ الظالمون** ﴾، الكافرون.

لا ينجح القائلون على الله الكذب والمفترون على الله الباطل ﴿ويوم نحشرهم جميعاً﴾ أي اذكر يوم نحشر العابدين والمعبودين وهو يوم القيامة ﴿ثم نقول للذين أشركوا أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون﴾ يعني أنها تشفع لكم عند ربكم.

قوله عز وجل: ﴿ثم لم تكن فتنتهم﴾ يعني قولهم وجوابهم وقال ابن عباس معذرتهم والفتنة التجربة، فلما كان سؤالهم تجربة لإظهار ما في قلوبهم قيل له فتنة قال الزجاج في قوله ثم لم تكن فتنتهم معنى لطيف وذلك أن الرجل يفتتن بمحبوب ثم تصيبه فيه محنة فيبرأ من محبوبه فيقال لم تكن فتنته إلا بذلك المحبوب فكذلك الكفار فتنوا بمحبة الأصنام ثم لما رأوا العذاب تبرؤوا منها. يقول الله تبارك وتعالى ثم لم تكن فتنتهم ومحبتهم للأصنام إلا أن تبرؤوا منها وهو قوله تعالى: ﴿إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين﴾ وذلك إذا شاهدوا يوم القيامة مغفرة الله تعالى لأهل التوحيد فيقول بعضهم لبعض تعالوا نكتم الشرك لعلنا ننجو من أهل التوحيد فيقولون والله ربنا ما كنا مشركين فيختم على أفواههم وتشهد عليهم جوارحهم بالشرك والكفر قال الله تعالى: ﴿انظر كيف كذبوا على أنفسهم﴾ يعني انظر يا محمد بعين البصيرة والتأمل إلى حال هؤلاء المشركين كيف كذبوا على أنفسهم يعني اعتذارهم بالباطل وتبرؤهم من الأصنام والشرك الذي كانوا عليه واستعمالهم الكذب مثل ما كانوا عليه في دار الدنيا وذلك لا ينفعهم وهو قوله: ﴿وضل عنهم﴾ يعني زال عنهم وذهب ﴿ما كانوا يفترون﴾ يعني ما كانوا يكذبون وهو قولهم إن الأصنام تشفع لهم وتنصرهم فبطل ذلك كله في ذلك اليوم.

وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن يَرَوْا كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا

﴿ويومَ نحشرُهم جميعاً﴾، أي: العابدين والمعبودين، يعني: يوم القيامة، قرأ يعقوب (يحشرهم) هنا، وفي سبأ [٤٠] بالياء، ووافق حفص في سبأ، وقرأ الآخرون بالنون. ﴿ثمّ نقولُ للذينَ أشركُوا أينَ شركاؤكُمُ الذينَ كنتمْ تزعمُون﴾، أنها تشفع لكم عند ربكم.

﴿ثمّ لم تكنْ فتنتُهم﴾، قرأ حمزة والكسائي ويعقوب «يكن» بالياء لأن الفتنة بمعنى الافتتان، فجاز تذكيره، وقرأ الآخرون بالتاء لتأنيث الفتنة، وقرأ ابن كثير وابن عامر وحفص عن عاصم «فتنتهم» بالرفع جعلوه اسم كان، وقرأ الآخرون بالنصب، فجعلوا الاسم قوله: أن قالوا، وفتنتهم الخبر، ومعنى فتنتهم أي: قولهم وجوابهم، وقال ابن عباس وقتادة: معذرتهم والفتنة التجربة، فلما كان سؤالهم تجربة لإظهار ما في قلوبهم قيل له فتنة، وقال الزجّاج في قوله: ﴿ثم لم تكن فتنتهم﴾ معنى لطيف وذلك مثل الرجل يفتتن بمحبوب ثم يصيبه فيه محنة فيتبرأ من محبوبه، فيقال: لم تكن فتنتهم إلاّ هذا، كذلك الكفّار فُتنوا بمحبة الأصنام ولما رأوا العذاب تبرأوا منها، يقول الله عزّ وجلّ: ﴿ثم لم تكن فتنتهم﴾ ومحبتهم للأصنام، ﴿إلاّ أنْ قالوا واللّهِ ربِّنا ما كنّا مشركين﴾، قرأ حمزة والكسائي (ربّنا) بالنصب على نداء المضاف، وقرأ الآخرون بالخفض على نعت والله، وقيل: إنهم إذا رأوا يوم القيامة مغفرةَ الله تعالى وتجاوزه عن أهل التوحيد، قالوا لبعضهم البعض: تعالوا نكتُمُ الشرك لعلّنا ننجوا مع أهل التوحيد، فيقولون: والله ربّنا ما كنّا مشركين، فيختم على أفواههم وتشهدُ عليهم جوارحُهم بالكفر.

فقال عزّ وجلّ: ﴿انظرْ كيفَ كَذَبُوا على أنفسِهمْ﴾، باعتذارهم بالباطل وتبرّيهم عن الشرك، ﴿وضلّ عنهم ما كانوا يَفْتَرُونَ﴾، أي: زال وذهب عنهم ما كانوا يفترون من الأصنام، وذلك أنهم كانوا يرجون شفاعتها ونصرتها، فبطل كله في ذلك اليوم.

حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾

قوله تعالى: ﴿ومنهم من يستمع إليك﴾ الآية. قال الكلبي: اجتمع أبو سفيان صخر بن حرب وأبو جهل بن هشام والوليد بن المغيرة والنضر بن الحارث وعتبة وشيبة ابنا ربيعة وأمية وأبي ابنا خلف والحارث بن عامر يستمعون القرآن فقالوا للنضر يا أبا قتيبة ما يقول محمد؟ قال: ما أدري ما يقول إلا أني أراه يحرك لسانه ويقول أساطير الأولين مثل ما كنت أحدثكم عن القرون الماضية. وكان النضر كثير الحديث عن القرون الماضية وأخبارها فقال أبو سفيان: إني لأرى بعض ما يقول حقاً. فقال أبو جهل: كلا لا تقر بشيء من هذا وفي رواية للموت أهون علينا من هذا فأنزل الله تعالى: ﴿ومنهم من يستمع إليك﴾ يعني إلى كلامك وقراءتك يا محمد ﴿وجعلنا على قلوبهم أكنة﴾ يعني أغطية جمع كنان ﴿أن يفقهوه﴾ يعني لئلا يفقهوه أو كراهية أن يفقهوه ﴿وفي آذانهم وقراً﴾ يعني وجعلنا في آذانهم صمماً وثقلاً وفي هذا دليل على أن الله تعالى يقلب القلوب فيشرح بعضها للهدى والإيمان فتقبله ويجعل بعضها في أكنة فلا تفقه كلام الله ولا تؤمن به: ﴿وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها﴾ يعني: كل معجزة من المعجزات الدالة على صدقك لا يؤمنوا بها يعني لا يصدقوا بها ولا يقروا أنها دالة على صدقك ﴿حتى إذا جاؤوك يجادلونك﴾ يعني أنهم إذا رأوا الآيات واستمعوا القرآن إنما جاؤوا ليجادلوك ويخاصموك لا ليؤمنوا بها ﴿يقول الذين كفروا إن هذا﴾ أي ما هذا القرآن ﴿إلا أساطير الأولين﴾ يعني أحاديث الأولين من الأمم الماضية وأخبارهم وأقاصيصهم. وما سطروا: يعني وما كتبوا والأساطير جمع أسطورة وأسطارة. وقيل: واحدها سطر وأسطار جمع وأساطير جمع الجمع فعلى هذا لو قال قائل: لمَ عابوا القرآن وجعلوه أساطير الأولين وقد سطر الأولون في كتبهم الحكم والعلوم النافعة وما لا يعاب قائله؟ أجيب عنه: بأنهم إنما نسبوا القرآن إلى أساطير الأولين بمعنى أنه ليس بوحي من الله تعالى وإنما هو أخبار مجردة كما تروى أخبار الأولين. وقيل في معنى أساطير الأولين: إنها الترهات وهي عند العرب طرق غامضة ومسالك وعرة مشكلة. يقول قائلهم: أخذنا في الترهات، بمعنى عدلنا عن الطريق الواضح إلى الطريق المشكل الذي لا يعرض فجعلت الترهات مثلاً لما لا يعرف ولا يتضح من الأمور المشكلة الغامضة التي لا أصل لها.

قوله عز وجل: ﴿وهم ينهون عنه﴾ يعني ينهون الناس عن اتباع محمد ﷺ ﴿وينأون عنه﴾ يعني ويتباعدون عنه بأنفسهم نزلت في كفار مكة كانوا يمنعون الناس عن الإيمان بمحمد ﷺ وعن الاجتماع به وينهون عن استماع القرآن وكانوا هم كذلك. وقال ابن عباس: نزلت في أبي طالب عم النبي ﷺ كان ينهى المشركين عن أذى النبي ﷺ ويمنعه

قوله عزّ وجلّ: ﴿ ومنهم مَن يستمعُ إليك ﴾ الآية، قال الكلبي: اجتمع أبو سفيان بن حرب وأبو جهل بن هشام والوليد بن المغيرة والنضر بن الحارث وعتبة وشيبة ابنا ربيعة وأُميّة وأُبيّ ابنا خلف والحارث بن عامر يستمعون القرآن، فقالوا للنضر: يا أبا قتيبة ما يقول محمد؟ قال: ما أدري ما يقول إلاّ أني أراه يحرّك لسانه ويقول أساطير الأوّلين، مثل ما كنت أحدّثكم عن القرون الماضية، وكان النضر كثير الحديث عن القرون وأخبارها، فقال أبو سفيان: إني أرى بعض ما يقول حقاً، فقال أبو جهل: كلا لا تقرّ بشيء من هذا، وفي رواية: الموتُ أهونُ علينا من هذا، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿ ومنهم مَن يستمعُ إليك ﴾ وإلى كلامك، ﴿ وجعلنا على قلوبهم أكِنّةً ﴾، أغطية، جمع كنان، كالأعنّة جمع عنان، ﴿ أن يفقهُوهُ ﴾، أن يعلموه، قيل: معناه أن لا يفقهوه، وقيل: كراهة أن يفقهوه، ﴿ وفي آذانهم وَقْراً ﴾، صمماً وثقلاً، وهذا دليل على أن الله تعالى يقلّب القلوب فيشرح بعضها للهدى، ويجعل بعضها في أكنّة فلا تفقه كلام الله ولا تؤمن، ﴿ وإنْ يَرَوْا كلَّ آيةٍ ﴾، من المعجزات والدلالات، ﴿ لا يُؤمنُوا بها

منهم وينأى هو بنفسه عن الإيمان به بمعنى يبعد حتى روي أنه اجتمع إليه رؤوس المشركين وقالوا له خذ شاباً من أصبحنا وجهاً وادفع إلينا محمد. فقال: ما أنصفتموني أدفع إليكم ابني محمداً لتقتلوه وأربي لكم ابنكم وروي أن النبي ﷺ دعا أبا طالب إلى الإيمان فقال لولا أن تعيرني قريش لأقررت بها عينك ولكن أذب عنك ما حييت وقال في ذلك أبياتاً:

والله لـــن يصلـــوا إليـــك بجمعهـــم حتـــى أوســـد فـــي التـــراب دفينـــا
فـــاصـــدع بـــأمـــرك مـــا عليـــك غضـــاضـــة وابشـــر بـــذاك وقـــر منـــه عيـــونـــا
ودعـــوتنـــي وعـــرفـــت أنـــك نـــاصحـــي ولقـــد صـــدقـــت وكنـــت ثـــم أمينـــا
وعـــرضـــت دينـــاً قـــد علمـــت بـــأنـــه مـــن خيـــر أديـــان البـــريـــة دينـــا
لـــولا المـــلامـــة أو حـــذار مسبـــة لـــوجـــدتنـــي سمحـــاً بـــذاك مبينـــا

وقوله تعالى: ﴿وإن يهلكون إلا أنفسهم﴾ يعني لا يرجع وبال كفرهم وفعلهم إلا عليهم ﴿وما يشعرون﴾ يعني بذلك.

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالُوٓا۟ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ولو ترى إذ وقفوا على النار﴾ يعني في النار فوضع على موضع في: كقوله «على ملك سليمان»

حتى إذا جاؤوك يُجادلونَك يقولُ الذينَ كفرُوا إنْ هذا إلّا أساطيرُ الأوّلين﴾، يعني: أحاديثهم وأقاصيصهم، والأساطير جمع: أسطورة، وأساطرة، وقيل: الأساطير هي الترهات والأباطيل، وأصلها من سطرت، أي: كُتبت.

﴿ وهم ينهون عنه ﴾ أي: ينهون الناس عن اتّباع محمد ﷺ ﴿ وينأون عنه ﴾، أي: يتباعدن عنه بأنفسهم، نزلت في كفّار مكة، قاله محمد بن الحنفية والسدي والضحّاك، وقال قتادة: ينهون عن القرآن وعن النبي ﷺ ويتباعدون عنه، وقال ابن عباس ومقاتل: نزلت في أبي طالب كان ينهى الناس عن أذى النبي ﷺ ويمنعهم وينأى عن الإيمان به، أي: يبعد، حتى رُوِيَ أنه اجتمع إليه رؤوس المشركين وقالوا: خذْ شابّاً من أصبحنا وجهاً، وادفع إلينا محمداً، فقال أبو طالب: ما أنصفتموني أدفع إليكم ولدي لتقتلوه وأُربّي ولدكم؟ ورُوِيَ أنّ النبي ﷺ دعاه إلى الإيمان، فقال: لولا أن تعيّرني قريش لأقررت بها عينك، ولكن أذبّ عنك ما حييت. وقال فيه أبيات شعر:

والله لن يصلوا إليـك بـجمعهـم حتى أُوْسِـدَ فـي التـرابِ دفينـاً
فاصدع بأمركَ ما عليكَ غضاضةٌ وابْشِـرْ بـذاكَ وقـرّ منكَ عيـوناً
ودعـوتني وعـرفتُ أنـكَ نـاصحي ولقـد صـدقتَ وكنتَ ثمّ أميـناً
وعـرضتَ ديناً قـدْ علمتُ بأنـه من خيـر أديـان البـريّـة دينـاً
لـولا المـلامـةُ أو حـذارِ مسبّ لـوجدتني سمحـاً بـذاك مبيناً

﴿ وإنْ يُهلكُون ﴾، أي: ما يهلكون، ﴿ إلاّ أنفسَهم ﴾ أي: لا يرجع وبال فعلهم إلاّ إليهم، وأوزار الذين يصدّونهم عليهم، ﴿ وما يشعرون ﴾.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ ولو تَرى إذْ وُقِفُوا على النّار ﴾، يعني: في النار، كقوله تعالى: ﴿ على ملك سليمان ﴾

أي في ملك سليمان وقيل معناه إذ عرضوا على النار وجواب لو محذوف. والمعنى: ولو ترى الكفار الذين ينهون عنك وينأون عنك يا محمد في تلك الحالة لرأيت أمراً عجيباً وموقفاً فظيعاً **﴿فقالوا﴾** يعني الكفار **﴿يا ليتنا نردّ﴾** يعني إلى الدنيا **﴿ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين﴾** تمنوا أن يردوا إلى الدنيا مرة أخرى حتى يؤمنوا ولا يكذبوا بآيات ربهم فرد الله عليهم ذلك فقال تعالى: **﴿بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل﴾** يعني ليس الأمر كما قالوا لو ردوا إلى الدنيا لأمنوا بل ظهر لهم ما كانوا يسرون في الدنيا من الكفر والمعاصي. وقيل: ظهر لهم ما كانوا يخفون من قولهم والله ربنا ما كنا مشركين أخفوا شركهم وكتموه فأظهره الله عليهم حين شهدت عليهم جوارحهم بما كتموا وستروا من شركهم وقيل ظهر لهم ما أخفوا من الكفر فعلى هذا تكون الآية في المنافقين **﴿ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون﴾** يعني في قولهم لو رددنا إلى الدنيا لم نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين: **﴿وقالوا إن هذه إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين﴾** وهذا خبر عن حال منكري البعث وذلك أن النبي ﷺ لما أخبر الكفار عن أحوال القيامة وأهوالها وما أعد الله في الآخرة من الثواب للمؤمنين المطيعين وما أعد الله من العقاب للكفار والعاصين قالوا، يعني الكفار، إن هي أي ما هي إلا حياتنا الدنيا، أي، ليس لنا غير هذه الدنيا التي نحن فيها وما نحن بمبعوثين يعني بعد الموت. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هذا خبر من الله عن هؤلاء الكفار الذي وقفوا على النار أنهم لو ردوا إلى الدنيا لقالوا إن هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين.

قوله عز وجل: **﴿ولو ترى إذ وقفوا على ربهم﴾** يعني على حكم ربهم وقضائه ومسألته وقال مقاتل عرضوا على ربهم **﴿قال أليس هذا بالحق﴾** أي يقول الله يوم القيامة أليس هذا البعث والنشر بعد الموت الذي كنتم تنكرونه في الدنيا وتكذبون به وتقولون لا بعث ولا نشور حقاً **﴿قالوا بلى وربنا﴾** يعني أنهم اعترفوا بما كانوا ينكرونه فأجابوا وقالوا بلى

[البقرة: ١٠٢] أي: في ملك سليمان، وقيل: عُرضوا على النار، وجواب **﴿ لو ﴾** محذوف معناه: لو تراهم في تلك الحالة لرأيتَ عجباً، **﴿ فقالوا يا ليتَنا نُرَدُّ ﴾**، يعني: إلى الدنيا، **﴿ ولا نُكذِّبَ بآياتِ ربِّنا ونكونَ من المؤمنين ﴾**، قراءة العامّة كلها بالرفع على معنى: يا ليتنا نرد نحن ولا نكذبُ ونكونُ من المؤمنين، وقرأ حمزة وحفص ويعقوب (ولا) بنصب الباء والنون على جواب التمنّي، أي: ليت ردّنا وقع، وأن لا نكذب ونكون، والعرب تنصب جواب التمنّي بالواو كما تنصب بالفاء، وقرأ ابن عامر (نكذب) بالرفع و (نكون) بالنصب لأنهم تمنّوا أن يكونوا من المؤمنين، وأخبروا عن أنفسهم أنهم لا يكذبون بآيات ربّهم إنْ رُدّوا إلى الدنيا.

﴿ بلْ بدَا لهم ﴾، أي: ليس الأمر على ما قالوا إنهم لو رُدّوا لآمنُوا بل بدَا لهم ظهر لهم، **﴿ ما كانوا يُخفُون ﴾**، يسرّون، **﴿ من قبل ﴾**، في الدنيا من كفرهم ومعاصيهم، وقيل: ما كانوا يخفون وهو قولهم: **﴿ واللّهِ ربِّنا ما كنّا مُشركين ﴾** [الأنعام: ٢٣]، فأخفوا شركهم وكتموا حتى شهدتْ عليهم جوارحُهم بما كتمُوا وستروا، لأنهم كانوا لا يخفون كفرهم في الدنيا، إلاّ أن تجعل الآية في المنافقين، وقال المبرّد: بل بدا لهم جزاء ما كانوا يخفون، وقال النضر بن شميل: بل بَدَا لهم بدا عنهم. ثم قال: **﴿ ولو رُدُّوا ﴾** إلى الدنيا **﴿ لعادُوا لِمَا ﴾**، يعني إلى ما، **﴿ نُهوا عنه ﴾**، من الكفر، **﴿ وإنّهم لكاذبُون ﴾**، في قولهم، لو ردّوا إلى الدنيا لم نكذب بآيات ربّنا ونكون من المؤمنين.

﴿ وقالوا إنْ هي إلاّ حياتُنا الدنيا وما نحنُ بمبعوثين ﴾، وهذا إخبار عن إنكارهم البعث، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، هذا من قولهم لو ردّوا لقالوا قوله تعالى.

﴿ ولو تَرى إذْ وُقِفُوا على ربِّهم ﴾، أي: على حكمه وقضاءه ومسألته، وقيل: عُرضوا على ربّهم،

والله إنه لحق. وقيل: تقول لهم خزنة النار بأمر الله أليس هذا بالحق يعني البعث حقاً فأجابوا بقولهم بلى وربنا قال ابن عباس: للقيامة مواقف ففي موقف ينكرون ويقولون والله ربنا ما كنا مشركين وفي موقف يعترفون بما كانوا ينكرونه في الدنيا ﴿قال فذوقوا العذاب﴾ أي يقول الله لهم ذلك أو الخزنة تقول لهم ذلك بأمر الله تعالى. وإنما خص لفظ الذوق، لأنهم في كل حال يجدون ألم العذاب وجدان الذائق في شدة الإحساس ﴿بما كنتم تكفرون﴾ يعني هذا العذاب بسبب كفركم وجحودكم البعث بعد الموت.

قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُواْ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾

قوله تعالى: ﴿قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله﴾ يعني خسروا أنفسهم بسبب تكذيبهم بالمصير إلى الله تعالى وبالبعث بعد الموت وهذا الخسران هو فوت الثواب العظيم في دار النعيم المقيم وحصول العذاب الأليم، في دركات الجحيم ﴿حتى إذا جاءتهم الساعة بغتة﴾ يعني جاءتهم القيامة فجأة وسميت القيامة ساعة: لأنها تفجأ الناس بغتة في ساعة لا يعلمها أحد إلا الله تبارك وتعالى. وقيل: سميت ساعة لسرعة الحساب فيها لأن حساب الخلائق يوم القيامة يكون في ساعة أو أقل من ذلك ﴿قالوا﴾ يعني منكري البعث وهم كفار قريش ومن سلك سبيلهم في الكفر والاعتقاد ﴿يا حسرتنا﴾ يعني: يا ندامتنا والحسرة التلهف على الشيء الفائت وذكرت على وجه النداء للمبالغة والمراد تنبيه المخاطبين على ما وقع بهم من الحسرة ﴿على ما فرطنا﴾ يعني قصرنا ﴿فيها﴾ يعني في الدنيا لأنها موضع التفريط في الأعمال الصالحة والمعنى يا حسرتنا على الأعمال الصالحة التي فرطنا فيها في دار الدنيا. وقال محمد بن جرير الطبري: الهاء والألف في قوله فيها تعود إلى الصفقة ولكن اكتفى بدلالة قوله قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله عليها من ذكرها إذ كان معلوماً أن الخسران لا يكون إلا في صفقة بيع قد جرى ومعنى الآية قد وكس الذين كذبوا بلقاء الله ببيعهم الإيمان الذي يستوجبون به رضوان الله وجنته بالكفر الذي يستوجبون به سخط الله وعقوبته وهم لا يشعرون بذلك حتى تقوم الساعة.

فإذا جاءتهم الساعة بغتة ورأوا ما لحقهم من الخسران في بيعهم قالوا حينئذ: يا حسرتنا على ما فرطنا فيها وروى الطبري بسنده عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ في قوله يا حسرتنا، قال: يرى أهل النار منازلهم في الجنة فيقولون يا حسرتنا.

﴿ **قال** ﴾، لهم، وقيل: تقول لهم الخزنة بأمر الله، ﴿ **أليسَ هذا بالحقّ** ﴾؟ يعني: أليس هذا البعث والعذاب بالحق؟ ﴿ **قالوا بلى وربِّنا** ﴾، إنه حق، قال ابن عباس: هذا في موقف، وقولهم: والله ربِّنا ما كنّا مشركين في موقف آخر، وفي القيامة مواقف، ففي موقف يُقرّون، وفي موقف يُنكرون. ﴿ **قال فذُوقُوا العذابَ بما كنْتُم تكفُرون** ﴾.

﴿ **قدْ خَسِرَ الذينَ كذَّبُوا بلقاءِ اللّهِ** ﴾، أي: خسروا أنفسهم بتكذيبهم المصير إلى الله والبعث بعد الموت، ﴿ **حتى إذا جاءتْهُمُ السّاعةُ** ﴾، أي: القيامة ﴿ **بغتةً** ﴾، أي: فجأة، ﴿ **قالوا يا حسرتَنا** ﴾، ندامَتَنا، ذُكر على وجه النداء للمبالغة، قال سيبويه: كأنه يقول: أيتها الحسرة هذا أو أنك، ﴿ **على ما فرطنا** ﴾ أي: قصّرنا ﴿ **فيها** ﴾، أي: في الطاعة، وقيل: تركنا في الدنيا من عمل الآخرة، وقال محمد بن جرير: الهاء راجعة إلى الصفقة، وذلك أنه لمّا تبيّن لهم خسران صفقتهم ببيعها الآخرة بالدنيا قالوا: يا حسرتَنا على ما فرطنا فيها، أي: في الصفقة، فترك

وقوله تعالى: ﴿وهم يحملون أوزارهم﴾ يعني أثقالهم: ﴿على ظهورهم﴾ والأوزار: الخطايا والذنوب. وأصل الوزر: الثقل والحمل. يقال: وزرته إذا حملته وإنما قيل للذنوب أوزار، لأنها تثقل ظهر من يحملها. قال قتادة والسدي: إن المؤمن إذا خرج من قبره استقبله أحسن شيء صورة وأطيبه ريحاً فيقول هل تعرفني؟ فيقول لا فيقول أنا عملك الصالح فاركبني فقد طالما ركبتك في الدنيا فذلك قوله: ﴿يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً﴾ يعني ركباناً.

وأما الكافر فيستقبله أقبح شيء صورة وأنتنه ريحاً فيقول هل تعرفني؟ فيقول لا فيقول أنا عملك الخبيث طالما ركبتني في الدنيا فأنا اليوم أركبك فذلك معنى قوله ﴿وهم يحملون أوزراهم على ظهورهم﴾.

وقال عمر بن هانيء: يحشر مع كل كافر عمله في صورة رجل قبيح كلما رأى هو صورته وقبحه زاده الله خوفاً فيقول له بئس الجليس أنت فيقول أنا عملك طالما ركبتني فلأركبنك اليوم حتى أخزيك على رؤوس الخلائق فيركبه ويتخطى به الناس حتى يقف بين يدي ربه تعالى فذلك قوله تعالى: ﴿وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم﴾. وقال الزجاج: الثقل كما يذكر في الوزن فقد يذكر في الحال والصفة يقال ثقل علي كلام فلان بمعنى كرهته فالمعنى أنهم يقاسون من ألم عقاب ذنوبهم مقاساة تثقل ذلك عليهم فعلى هذا القول يكون قوله ﴿وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم﴾ مجازاً عما يقاسونه من شدة العذاب. وقيل في معنى الآية: أوزارهم لا تزايلهم كما تقول شخصه نصب عيني أي ذكره ملازم لي ﴿ألاساء ما يزرون﴾ يعني بئس الشيء شيئاً يحملونه.

وقال ابن عباس: بئس الحمل حملوا. قوله عز وجل: ﴿وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو﴾ أي باطل وغرور لا بقاء لها وهذا فيه رد على منكري البعث في قولهم ﴿إن هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين﴾ فقال الله رداً عليهم وكذباً لهم ﴿وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو﴾ وهل المراد بهذه الحياة حياة المؤمن أو الكافر قولان: أحدهما: إن المراد بها حياة الكافر لأن المؤمن لا يزداد بحياته في الدنيا إلا خيراً لأنه يحصل في أيام حياته من الأعمال الصالحة والطاعة ما يكون سبباً لحصول السعادة في الآخرة؛ وأما الكافر فإن كل حياته في الدنيا وبال عليه قال ابن عباس يريد حياة أهل الشرك والنفاق.

والقول الثاني: إن هذا عام في حياة المؤمن والكافر لأن الإنسان يلتذ باللعب واللهو ثم عند انقضائه تحصل له الحسرة والندامة لأن الذي كان فيه من اللعب واللهو سريع الزوال لا بقاء له فبان بهذا التقرير أن المراد بهذه الحياة حياة

ذكر الصفقة اكتفاءً بذكر بقوله: ﴿ قد خسر ﴾ لأن الخسران إنما يكون في صفقة بيع، والحسرة شدّة الندم، حتى يحسر النادم، كما يحسر الذي تقوم به دابّته في السفر البعيد، ﴿ وهم يحملُون أوْزَارَهم ﴾، أثقالهم وآثامهم، ﴿ على ظهورهم ﴾، قال السدي وغيره: إن المؤمن إذ أخرج من قبره استقبله أحسن شيء صورةً وأطيبه ريحاً فيقول: هل تعرفني؟ فيقول: لا، فيقول: أنا عملك الصالح فاركبني، فقد طالما ركبتك في الدنيا، فذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿ يومَ نحشرُ المتّقينَ إلى الرحمن وَفْداً ﴾ [مريم: ٨٥] أي ركباناً، وأما الكافر فيستقبله أقبح شيء صورةً وأنتنه ريحاً، فيقول: هل تعرفني؟ فيقول: أنا عملك الخبيث طالما ركبتني في الدنيا فأنا اليوم أركبك، فهذا معنى قوله: ﴿ وهم يحملُون أوْزَارَهم على ظهورهم ﴾، ﴿ ألا ساءَ ما يَزِرُون ﴾، يحملون، قال ابنُ عباس: أي بئس الحمل حملوا.

﴿ ومَا الحياةُ الدنيا إلاّ لَعِبٌ ولهوٌ ﴾، باطل وغُرور لا بقاء ﴿ ولَلدَّارُ الآخرةُ ﴾، قرأ ابن عامر « ولدار الآخرة » مضافاً أضاف الدار إلى الآخرة، ويضاف الشيء إلى نفسه عند اختلاف اللفظين، كقوله: ﴿ وحبّ الحصيد ﴾

المؤمن والكافر وأنه عام فيهما. وإنما شبه الحياة الدنيا باللعب واللهو لسرعة زوالها وقصر عمرها كالشيء الذي يُلعب به.

وقيل: معناه إن أمر الدنيا والعمل لها لعب ولهو فأما فعل الخير والعمل الصالح فهو من فعل الآخرة وإن كان وقوعه في الدنيا وقيل معناه وما أهل الحياة الدنيا إلا أهل لعب ولهو لأنه لا يجدي شيئاً ولاشتغالهم عما أمروا به ونسبوا إلى اللعب وقوله تعالى: ﴿**وللدار الآخرة**﴾ يعني الجنة واللام فيه لام القسم تقديره والله لدار الآخرة ﴿**خير**﴾ يعني من الدنيا وأفضل لأن الدنيا سريعة الزوال والانقطاع ﴿**للذين يتقون**﴾ يعني الشرك. وقيل: يتقون اللعب واللهو ﴿**أفلا تعقلون**﴾ إن الآخرة خير من الدنيا فيعملون لها.

قوله تعالى: ﴿**قد نعلم إنه ليحزنك الذي يقولون**﴾ يعني قد نعلم يا محمد إنه ليحزنك الذي يقوله المشركون لك، قال السدي: التقى الأخنس بن شريق أبو جهل بن هشام فقال الأخنس لأبي جهل: يا أبا الحكم أخبرني عن محمد أصادق هو أم كاذب فإنه ليس هنا أحد يسمع كلامك غيري؟ فقال أبو جهل: والله إن محمداً لصادق وما كذب محمد قط ولكن إذا ذهب بنو قصي باللواء والسقاية والحجابة والندوة والنبوة فماذا يكون لسائر قريش؟ فأنزل الله هذه الآية وقال ناجية بن كعب: قال أبو جهل للنبي ﷺ: ما نتهمك ولا نكذبك ولكنا نكذب الذي جئت به، فأنزل الله هذه الآية. عن علي بن أبي طالب أن أبا جهل قال للنبي إنا لا نكذبك ولكن نكذب بما جئت به فأنزل الله فيهم ﴿**فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون**﴾ أخرجه الترمذي من طريقين وقال في أحدهما وهذا أصح، ففي هذه الآية تسلية للنبي ﷺ وتعزية عما يواجهه به قومه لأنهم كانوا يعتقدون صدقه وأنه ليس بكذاب وإنما حملهم على تكذيبه في الظاهر الحسد والظلم: ﴿**فإنهم لا يكذبونك**﴾ يعني أنهم لا يكذبونك في السر، لأنهم قد عرفوا أنك صادق ﴿**ولكن الظالمين**﴾ يعني الكافرين ﴿**بآيات الله يجحدون**﴾ يعني في العلانية وذلك أنهم جحدوا القرآن بعد معرفة الصدق الذي أنزل عليه لعنادهم وكفرهم كما قال الله تعالى في حق غيرهم، وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً. وقيل: ظاهر الآية يدل على أنهم لم يكذبوا محمداً ﷺ وإنما جحدوا آيات الله وهي القرآن الدال على صدقه، فعلى هذا يكون المعنى: فإنهم لا يكذبونك لأنهم قد عرفوا صدقك وإنما جحدوا آيات الله وهي القرآن الدال على

[قٓ: ٩]، وقولهم: ربيع الأول ومسجد الجامع، سُمّيت الدنيا لدنوها، وقيل: لدناءتها، وسُمّيت الآخرة لأنها بعد الدنيا، ﴿ **خيرٌ للّذين يتّقون** ﴾ الشرك، ﴿ **أفلا تعقلُون** ﴾، أي: أن الآخرة أفضل من الدنيا، قرأ أهل المدينة وابن عامر ويعقوب «أفلا تعقلون» بالتاء هاهنا وفي الأعراف [١٦٩] وسورة يوسف [١٠٩] ويٓس [٦٢]، ووافق أبو بكر في سورة يوسف، ووافق حفص إلاّ في سورة يٓس، وقرأ الآخرون بالياء فيهنّ.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ **قدْ نعلمُ إنه ليحْزُنُكَ الذي يقولُون** ﴾، قال السدي: التقى الأخنس بن شريق وأبو جهل بن هشام، فقال الأخنس لأبي جهل يا أبا الحكم: أخبرني عن محمد بن عبد الله أصادق هو أم كاذب؟ فإنه ليس هاهنا أحد يسمع كلامك غيري، قال أبو جهل: والله إن محمداً لصادق وما كذب محمد قطّ، ولكن إذا ذهب بنو قصيّ باللواء والسقاية والحجابة والندوة والنبوّة فماذا يكون لسائر قريش، فأنزل الله عزّ وجلّ هذه الآية، وقال ناجية بن كعب: قال أبو جهل للنبيّ ﷺ لا نتّهمك ولا نكذبك ولكنّا نكذب الذي جئت به، فأنزل الله تعالى: ﴿ **قد نعلم إنّهُ لَيحْزُنُكَ الذي يقولون** ﴾ بأنك كاذب، ﴿ **فإنهم لا يُكذّبُونَك** ﴾، قرأ نافع والكسائي بالتخفيف، وقرأ الآخرون بالتشديد من التكذيب، والتكذيب هو أن تنسبه إلى الكذب، وتقول له: كذبت، والكذاب هو أن تجده كاذباً، تقول العرب: أجدبت الأرض وأخصبتها إذا وجدتها جدبة ومخصبة، ﴿ **ولكنّ الظالمينَ بآياتِ الله يجحدُون** ﴾، يقول:

صدقه فعلى هذا يكون المعنى فإنهم لا يكذبونك لأنهم قد عرفوا صدقك وإنما جحدوا صحة نبوتك ورسالتك، قوله عز وجل:

﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾﴾

﴿ولقد كذبت رسل من قبلك﴾ يعني ولقد كذبت الأمم الخالية رسلهم كما كذبك قومك: **﴿فصبروا على ما كذبوا وأوذوا﴾** يعني أن الرسل عليهم السلام صبروا على تكذيب قومهم إياهم وصبروا على أذاهم، فاصبر أنت يا محمد على تكذيب قومك وأذاهم لك كما صبر مَن كان قبلك من الرسل وهذا فيه تسلية للنبي ﷺ وإزالة حزنه على تكذيب قومه له وأذاهم إياه **﴿حتى أتاهم نصرنا﴾** يعني بإهلاك من كذبهم **﴿ولا مبدل لكلمات الله﴾** يعني ولا ناقض لما حكم الله به من إهلاك المكذبين ونصر المسلمين كما قال ﴿ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين إنهم لَهم المنصورون وإن جندنا لهم الغالبون﴾ وقال الله تعالى: ﴿كتب الله لأغلبن أنا ورسلي ولا خلف فيما وعد الله به﴾.

وقوله تعالى: **﴿ولقد جاءك من نبأ المرسلين﴾** يعني ولقد أنزلت عليك في القرآن من أخبار المرسلين ما فيه تسلية لك وتسكين لقلبك. وقال الأخفش: من هنا صلة كما تقول أصابنا من مطر وقال غيره بل هي للتبعيض لأن الواصل إلى رسول الله ﷺ قصص بعض الأنبياء وأخبارهم كما قال تعالى: **﴿منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك﴾**.

قوله تعالى: **﴿إن كان كبر عليك إعراضهم﴾** ذكر ابن الجوزي في سبب نزول هذه الآية: أن الحارث بن عامر أتى رسول الله ﷺ في نفر من قريش فقال: ائتنا بآية كما كانت الأنبياء تأتي قومها بالآيات فإن فعلت آمنا بك فنزلت هذه الآية. رواه أبو صالح عن ابن عباس. ومعنى الآية: وإن كان عظم عليك يا محمد إعراض هؤلاء المشركين عنك وعن تصديقك والإيمان بك، وكان رسول الله ﷺ يحرص على إيمان قومه أشد الحرص وكان إذا سألوه آية أحب أن يريهم الله ذلك طمعاً في إيمانهم فقال الله عز وجل: **﴿فإن استطعت أن تبتغي﴾** يعني تطلب وتتخذ **﴿نفقاً في الأرض﴾** يني سرباً في الأرض والنفق سرب في الأرض تخلص منه إلى مكان آخر **﴿أو سلماً في السماء﴾** يعني: أو تتخذ مصعداً إلى السماء والسلم المصعد وهو مشتق من السلامة **﴿فتأتيهم بآية﴾** يعني بالآية: التي سألوا عنها. ومعنى الآية وإن كان كبر وعظم عليك إعراض قومك عن الإيمان بك فإن قدرت أن تذهب في الأرض أو تصعد إلى السماء فتأتيهم بآية تدلهم

إنهم لا يكذبونك في السرّ لأنهم عرفوا صدقك فيما مضى، وإنّما يكذِّبون وَحْيي ويجحدون آياتي، كما قال: ﴿ وجحدُوا بها واستيقنتها أنفسهم ﴾ [النمل: ١٤].

﴿ ولقدْ كُذِّبتْ رُسُلٌ من قبلِكَ ﴾، كذبهم قومهم كما كذبَتْكَ قريشٌ، **﴿ فصبرُوا على ما كُذِّبوا وأُوذُوا حتى أتاهم نصرُنا ﴾**، بتعذيب من كذبهم، **﴿ ولا مُبدِّلَ لكلماتِ الله ﴾، لا ناقض لِمَا حكم به**، وقد حكم في كتابه بنصر أنبيائه عليهم السلام، فقال: ﴿ ولقد سبقتْ كلمتنا لعبادِنا المرسَلين لهم أنَّهُمْ المنصُورُون وإنّ جندَنَا لَهُمُ الغالِبُون ﴾ [الصَّافَّات: ١٧١ و١٧٢ و١٧٣]، وقال: ﴿ إنّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا ﴾ [غافر: ٥١] وقال: ﴿ كتبَ الله لأغْلِبَنّ أنَا ورُسُلي ﴾ [المجادلة: ٢١]، وقال الحسن بن الفضل: لا خُلْفَ لِعُدَّتِهِ، **﴿ ولقدْ جاءَكَ من نَبَإِ المرسلين ﴾**، و﴿ من ﴾ صلة كما تقول: أصابنا من مطر.

على صدقك فافعل وإنما حسن حذف جواب الشرط لأنه معلوم عند السامع والمقصود من هذا أن يقطع رسول الله ﷺ طمعه عن إيمانهم ولا يتأذى بسبب إعراضهم عنه وعن الإيمان به ويدل عليه قوله تعالى: ﴿ولو شاء الله لجمعهم على الهدى﴾ أخبر الله عز وجل نبيه ﷺ أنهم إنما تركوا الإيمان وأعرضوا عنه وأقبلوا على الكفر بمشيئة الله تعالى ونافذ قضائه فيهم وأنه لو شاء لجمعهم على الهدى: ﴿فلا تكونن من الجاهلين﴾ يعني بأن لو شاء الله لجمعهم على الهدى وأنه يؤمن بك بعضهم دون بعض وقيل معناه لا يشتد تحسرك على تكذيبهم، إياك ولا تجزع من إعراضهم عنك فتقارب حال الجاهلين الذين لا صبر لهم وإنما نهاه عن هذه الحالة وغلّظ له الخطاب تبعيداً له عن هذه الحالة.

۞ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾

قوله عز وجل: ﴿إنما يستجيب الذين يسمعون﴾ يعني المؤمنين الذين فتح الله أسماع قلوبهم فهم يسمعون الحق ويستجيبون له ويبغونه وينتفعون به دون من ختم الله على سمع قلبه وهو قوله ﴿الموتى﴾ يعني الكفار الذين لا يسمعون ولا يستجيبون ﴿يبعثهم الله﴾ يعني يوم القيامة ﴿ثم إليه يرجعون﴾ فيجزيهم بأعمالهم ﴿وقالوا﴾ يعني رؤساء كفار قريش ﴿لولا﴾ يعني هلا ﴿نزل عليه آية من ربه﴾ يعني الملك ليشهد لمحمد بالنبوة وقيل الآية المعجزة الباهرة كمثل معجزات الأنبياء ﴿قل﴾ يعني قل لهم يا محمد ﴿إن الله قادر على أن ينزل آية﴾ يعني أنه تعالى قادر على إيجاد ما طلبوه وإنزال ما اقترحوه من الآيات والمعجزات الباهرات ﴿ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾ يعني ماذا عليهم في إنزالها من العذاب إن لم يؤمنوا بها وقيل معناه إنهم لا يعلمون أن الله قادر على إنزال الآيات وقيل إنهم لا يعلمون وجه المصلحة في إنزالها قوله تعالى: ﴿وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم﴾ قال العلماء: جميع ما خلق الله عز وجل لا يخرج عن هاتين الحالتين إما أن يدب على الأرض، أو يطير في الهواء، حتى ألحقوا حيوان الماء بالطير، لأن الحيتان تسبح في الماء كما أن الطير يسبح في الهواء. وإنما خص ما في الأرض بذكر دون ما في السماء وإن كان ما في السماء مخلوقاً لأن الاحتجاج بالشاهد أظهر وأولى مما لا يشهد وإنما ذكر الجناح في قوله بجناحيه للتوكيد كقولك كتبت بيدي ونظرت بعيني إلا أمم أمثالكم.

قال مجاهد: أي أصناف مصنفة تعرف بأسمائها. يريدون أن كل جنس من الحيوان أمة فالطير أمة والدواب أمة

﴿ وإنْ كانَ كَبُرَ عليكَ إعراضُهم ﴾ أي: عظم عليك وشقّ أن أعرضوا عن الإيمان بك، وكان رسول الله ﷺ يحرص على إيمان قومه أشدّ الحرص، وكانوا إذ سألوا آية أحبّ أن يريهم الله تعالى ذلك طمعاً في إيمانهم، فقال الله عزّ وجلّ: ﴿ فإنِ استطعتَ أن تبتغي نفقاً ﴾، تطلب وتتخذ نفقاً سرباً ﴿ في الأرض ﴾، ومنه نافقاً. اليربوع وهو أحد جحرية فتذهب فيه، ﴿ أو سُلّماً ﴾، أي: دَرَجاً ومصعداً، ﴿ في السماء ﴾، فتصعد فيه، ﴿ فتأتيهم بآية ﴾، فافعل، ﴿ ولو شاء الله لجمعهم على الهدى ﴾، فآمنوا كلُّهم، ﴿ فلا تكونَنّ مِنَ الجاهلين ﴾، أي: بهذا الحرف، وهو قوله: ﴿ ولو شاء الله لجمعهم على الهدى ﴾، وأنِ مَن يكفر لسابق علم الله فيه.

﴿ إنّما يستجيبُ الذينَ يسمعُون ﴾، يعني: المؤمنين الذين يسمعون الذكر فيتّبعُونه وينتفعون به دون مَن ختم الله على سمعه، ﴿ والمَوْتَى ﴾، يعني الكفّار، ﴿ يبعثُهُم اللّهُ ثمّ إليه يُرْجَعُون ﴾، فيخزيهم بأعمالهم.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ وقالوا ﴾، يعني: رؤساء قريش، ﴿ لَوْلاَ ﴾، هلاّ، ﴿ نُزِّلَ عليه آية من ربه قلْ إنّ اللّهَ قادرٌ

والسباع أمة تعرف بأسمائها مثل بني آدم يعرفون بأسمائهم كما يقال الإنس والناس ويدل على أن كل جنس من الدواب أمة ما روي عن عبد الله بن مغفل عن النبي ﷺ قال: «لولا أن الكلاب أمة من الأمم لأمرت بقتلها فاقتلوا منها كل أسود بهيم» أخرجه أبو داود والترمذي والنسائي.

فإن قلت ثبت بالآية والحديث أن الدواب والطير أمم أمثالنا وهذه المماثلة لم تحصل من كل الوجوه فيما يظهر لنا فما وجه هذه المماثلة.

قلت: اختلف العلماء في وجه هذه المماثلة فقيل: إن هذه الحيوانات تعرف الله وتوحده وتسبّحه وتصلي له كما أنكم تعرفون الله وتوحدونه وتسبحونه وتصلّون له. وقيل: إنها مخلوقة لله كما أنكم مخلوقون لله عز وجل وقيل إنها يفهم بعضها عن بعض ويألف بعضها بعضاً كما أن جنس الإنسان يألف بعضهم بعضاً ويفهم بعضهم عن بعض. وقيل: أمثالكم في طلب الرزق وتوقي المهالك ومعرفة الذكر والأنثى. وقيل: أمثالكم في الخلق والموت والبعث بعد الموت للحساب حتى يقتص للجماء من القرناء وهو قوله تعالى: ﴿**ما فرطنا في الكتاب من شيء**﴾ يعني في اللوح المحفوظ لأنه يشمل جميع أحوال المخلوقات وقيل إن المراد بالكتاب القرآن يعني أن القرآن مشتمل على جميع الأحوال: ﴿**ثم إلى ربهم يحشرون**﴾ يعني الدواب والطير قال ابن عباس: حشرها موتها. وقال أبو هريرة يحشر الله الخلق كلهم يوم القيامة البهائم والدواب والطير وكل شيء فيأخذ للجماء من القرناء ثم يقول كوني تراباً (م).

عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: لتؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء.

وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ ۗ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ

على أنْ يُنزِّل آيةً ولكنّ أكثرَهم لا يعلمُون ﴾، ما عليهم في إنزالها.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ **وَمَا مِن دَابَّةٍ في الأرض ولا طائرٍ يطيرُ بجناحيه** ﴾، قيّد الطيران بالجناح تأكيداً كما يقال نظرت بعيني وأخذت بيدي، ﴿ **إلاَّ أُممٌ أمثالُكم** ﴾، قال مجاهد: أصناف مصنّفة تُعْرَف بأسمائها يريد أن كل جنس من الحيوان أمة، فالطير أمة، والهوام أمة، والذباب أمة، والسباع أمة، تُعرَف بأسمائها مثل بني آدم، يُعرَفون بأسمائهم، يقال: الأنس والناس. أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أبو عبد الرحمن بن أبي شريح أنا أبو القاسم البغوي أنا علي بن الجعد أنا المبارك هو ابن فضالة عن الحسن عن عبد الله بن مغفل عن النبي ﷺ قال: «لولا أنّ الكلابَ أمة من الأمم لأمرت بقتلها، فاقتلوا منها كل أسود بهيم»، وقيل: أمم أمثالكم يفقه بعضهم عن بعض، وقيل: أمم أمثالكم في الخلق والموت والبعث، وقال عطاء: أمم أمثالكم في التوحيد والمعرفة، قال ابن قتيبة: أمم أمثالكم في الغذاء وابتغاء الرزق وتوقّي المهالك، ﴿ **ما فرّطنا في الكتابِ** ﴾، أي: في اللوح المحفوظ، ﴿ **مِن شيء ثمّ إلى ربِّهم يُحشرُون** ﴾، قال ابن عباس والضحاك: حشرها موتها، وقال أبو هريرة: يحشر الله الخلق كلهم يوم القيامة البهائم والدواب والطير، وكل شيء فيقتصّ للجمـاء من القرناء، ثم يقول: كوني تراباً فحينئذ يتمنى الكافر ويقول: يا ليتني كنتُ تراباً. أخبرنا أبو عبد الله محمد بن الفضل الخرقي أنا أبو الحسن الطيسفوني أخبرنا عبد الله بن عمر الجوهري أنا أحمد بن علي الكشمهيني أنا علي بن حجر أنا إسماعيل بن جعفر عن العلاء عن أبيه عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لتردنّ الحقوقَ إلى أهلها يومَ القيامةِ حتى يُقادَ للشاةِ الجمـاءِ مِنَ القَرْناء».

مُسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾

قوله عز وجل: ﴿**والذين كذبوا بآياتنا**﴾ يعني بالقرآن وبمحمد ﷺ وقيل: كذبوا بحجج الله وأدلته على توحيده ﴿**صم**﴾ يعني عن سماع الحق ﴿**وبكم**﴾ يعني عن النطق به والمعنى أنهم في حال كفرهم وتكذيبهم كمن لا يسمع ولا يتكلم، ولهذا شبه الكفار بالموتى لأن الميت لا يسمع ولا يتكلم ﴿**في الظلمات**﴾ يعني في ظلمات الكفر، حائرين مترددين فيها لا يهتدون سبيلاً ﴿**من يشأ الله يضلله**﴾ يعني عن الإيمان ﴿**ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم**﴾ يعني ومن يشأ يجعله الله على دين الإسلام وفي هذا دليل على أن الهادي والمضل هو الله تعالى فمن أحب هدايته وفقه بفضله وإحسانه للإيمان به ومن أحب ضلالته تركه على كفره وهذا عدل منه لأنه تعالى هو الفاعل المختار لا يسأل عما يفعل وهم يسألون.

قوله تعالى: ﴿**قل أرأيتكم**﴾ يعني: قل يا محمد لهؤلاء الكفار الذين تركوا عبادة الله عز وجل وعبدوا غيره من الأصنام أخبروني تقول العرب أرأيتك بمعنى أخبرنا بحالك وأصله أرأيتم والكاف فيه للتأكيد: ﴿**إن أتاكم عذاب الله**﴾ يعني قبل الموت مثل ما نزل بالأمم الماضية الكافرة من: الغرق والخسف والمسخ والصواعق ونحو ذلك من العذاب ﴿**أو أتتكم الساعة**﴾ يعني القيامة ﴿**أغير الله تدعون**﴾ يعني في كشف العذاب عنكم ﴿**إن كنتم صادقين**﴾ يعني في دعواكم. ومعنى الآية أن الكفار كانوا إذا نزل بهم شدة وبلاء رجعوا إلى الله بالتضرع والدعاء وتركوا الأصنام فقيل لهم: أترجعون إلى الله في حال الشدة والبلاء ولا تعبدونه ولا تطيعونه في حال اليسر والرخاء؟ ﴿**بل إياه تدعون**﴾ يعني بل تدعون الله، ولا تدعون غيره في كشف ما نزل بكم ﴿**فيكشف ما تدعون إليه إن شاء**﴾ يعني فيكشف الضر الذي من أجله دعوتموه وإنما قيد الإجابة بالمشيئة رعاية للمصلحة وإن كانت الأمور كلها بمشيئة الله تعالى: ﴿**وتنسون ما تشركون**﴾ يعني: وتتركون دعاء الأصنام التي تعبدونها فلا تدعونها لعلمكم أنها لا تضر ولا تنفع وقيل معناه أنكم في ترككم دعاء الأصنام بمنزلة من قد نسيها؛ وهذا معنى قول الحسن لأنه قال وتعرضون عنها إعراض الناسي لها.

قوله تعالى: ﴿**ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك**﴾ في الآية محذوف والتقدير ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك يا محمد رسلاً فخالفوهم وكفروا وحسن هذا الحذف لكونه معلوماً عند السامع ﴿**فأخذناهم بالبأساء**﴾ يعني بالفقر

قوله عزّ وجلّ: ﴿ **والذينَ كذَّبوا بآياتِنَا صمٌّ وبُكْمٌ** ﴾، لا يسمعون الخير ولا يتكلمون به، ﴿ **في الظلمات** ﴾، في ضلالات الكفر، ﴿ **مَنْ يشأ اللَّهُ يضلله ومَن يشأ يجعلْهُ على صراطٍ مُستقيم** ﴾، هو الإسلام.

قوله تعالى: ﴿ **قلْ أرأيتَكُمْ** ﴾، هلْ رأيتم؟ والكاف فيه للتأكيد، وقال الفرّاء رحمه الله: العرب تقول: أرأيتَك، وهم يريدون أخبرنا، كما يقول: أرأيتَك إن فعلت كذا ماذا تفعل؟ أي: أخبرني، وقرأ أهل المدينة «أرأيتكم، وأرأيتم، وأرأيت» بتليين الهمزة الثانية، والكسائي يحذفها، قال ابن عباس: قل يا محمد لهؤلاء المشركين أرأيتكم، ﴿ **إنْ أتاكم عذابُ اللَّهِ** ﴾، قبل الموت، ﴿ **أو أتتكُمُ الساعةُ** ﴾، يعني: يوم القيامة، ﴿ **أغيرَ اللَّهِ تَدْعُون** ﴾، في صرف العذاب عنكم، ﴿ **إنْ كنتُم صادقين** ﴾، وأراد الكفّار يدعون الله في أحوال الاضطرار كما أخبر الله عنهم: ﴿ وإذا غشيهم موجٌ كالظُّلَلِ دَعُوا اللَّهَ مخلصينَ له الدين ﴾ [لقمان: ٣٢].

الشديد وأصله من البؤس وهو الشدة والمكروه وقيل: البأساء، شدة الجوع ﴿والضراء﴾ يعني الأمراض والأوجاع والزمانة ﴿لعلهم يتضرعون﴾ يعني يخضعون ويتوبون والتضرع التخشع والتذلل والانقياد وترك التمرد وأصله من الضراعة وهي الذلة. ومقصود الآية، أن الله تعالى أعلم نبيه ﷺ أنه قد أرسل من قبله رسلاً إلى أقوام بلغوا في القسوة إلى أن أخذوا بالبأساء والضراء وهي الشدة في النفس والمال فلم يخضعوا ولم يتضرعوا ففيه تسلية للنبي ﷺ ﴿فلولا﴾ يعني فهلا ﴿إذ جاءهم بأسنا تضرعوا﴾ معناه نفي التضرع فلم يتضرعوا ﴿ولكن قست قلوبهم﴾ يعني ولكن غلظت قلوبهم فلم تضرع ولم تخشع بل أقاموا على كفرهم وتكذيبهم رسلهم ﴿وزين لهم الشيطان ماكانوا يعملون﴾ يعني من الكفر والتكذيب وتزيين الشيطان إغواؤه بما في المعصية من اللذة. قال ابن عباس: يريد زين الشيطان الضلالة التي كانوا عليها فأصروا على معاصي الله عز وجل.

فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾

قوله عز وجل: ﴿فلما نسوا ما ذكروا به﴾ أي تركوا ما وعظوا به وقيل تركوا العمل بما أمرتهم به الرسل وإنما كان النسيان بمعنى الترك لأن التارك للشيء معرضاً عنه كأنه قد صيره بمنزلة ما قد نسي ﴿فتحنا عليهم أبواب كل شيء﴾ يعني بدلنا مكان البأساء والرخاء والسعة في الرزق والعيش ومكان الضراء الصحة والسلامة في الأبدان والأجسام وذلك استدراج منه لهم. وقيل: فتحنا عليهم أبواب كل شيء من الخير كان مغلقاً عنهم ﴿حتى إذا فرحوا بما أوتوا﴾ يعني فرحوا بما أوتوا من السعة والرخاء والصحة في الأبدان والمعيشة وظنوا أن ما كان نزل بهم من الشدة لم يكن انتقاماً من الله تعالى فإنهم لما فتح الله عليهم ما فتح من الخير والسعة فرحوا به وظنوا أن ذلك باستحقاقهم

ثم قال: ﴿ بلْ إيّاهُ تَدْعُون ﴾، أي: تدعون الله ولا تدعون غيره، ﴿ فيكشِفُ ما تدعُون إليه إنْ شاء ﴾، قيد الإجابة بالمشيئة والأمور كلها بمشيئته، ﴿ وَتَنْسَونَ ﴾، وتتركون، ﴿ ما تُشْرِكُون ﴾.

﴿ ولقدْ أرسَلْنَا إلى أُمم ٍ مِن قبلِكَ فأخذْناهُمْ بالبأساءِ ﴾، بالشدّة والجوع، ﴿ والضَّرَّاءِ ﴾، المرض والزمانة، ﴿ لعلّهم يتضرّعُون ﴾، أي: يتوبون ويخضعون، والتضرُّعُ السؤال بالتذلّل.

﴿ فلولا ﴾، فهلّا، ﴿ إذْ جاءَهم بأسُنا ﴾، عذابُنا، ﴿ تضرَّعُوا ﴾، آمنوا فيكشف عنهم، أخبر الله عزّ وجلّ أنه قد أرسل إلى قوم بلغوا من القسوة إلى أنهم أُخذوا بالشدّة في أنفسهم وأموالهم فلم يخضعوا ولم يتضرعوا، فذلك قوله: ﴿ ولكنْ قستْ قلوبُهم وزَيّنَ لهمُ الشيطانُ ما كانُوا يعملون ﴾، من الكفر والمعاصي.

﴿ فلمّا نَسُوا ما ذُكّرُوا به ﴾، تركوا ما وعظوا وأُمروا به، ﴿ فتحنا عليهم أبوابَ كلِّ شيء ﴾، قرأ أبو جعفر «فتحنا» بالتشديد في كل القرآن، وقرأ ابن عامر كذلك إذا كان عقيبه جمعاً، والباقون بالتخفيف وهذا فتح استدراج ومكر، أي: بدّلنا مكان البلاء والشدّة الرخاء والصحّة، ﴿ حتى إذا فرِحُوا بما أُوتُوا ﴾، وهذا فرَح بطر مثل فرح قارون بما أصاب من الدنيا، ﴿ أخذناهمْ بغتةً ﴾، فجأة آمن ما كانوا وأعجب ما كانت الدنيا إليهم، ﴿ فإذا هُمْ مُبْلِسُون ﴾، آيسون من كل خير، وقال أبو عبيدة: المبلس النادم الحزين، وأصل الإبلاس الإطراق من الحزن والندم. روى عقبة بن عامر أنّ رسولَ الله ﷺ قال: «إذا رأيتَ الله يُعطي العبدَ ما يحبُّ وهو مقيم على معصيته، فإنّما ذلك استدراج» ثم تلا ﴿ فلمّا نَسُوا ما ذُكّرُوابه ﴾ الآية.

وهذا فرح بطر كما فرح قارون بما أوتي من الدنيا ﴿أخذناهم بغتة﴾ يعني جاءهم عذابنا فجأة من حيث لا يشعرون قال الحسن مكر بالقوم ورب الكعبة، وقال أهل المعاني: إنما أخذوا في حال الرخاء والسلامة ليكون أشد لتحسرهم على ما فاتهم من حال السلامة والعافية والتصرف في ضروب اللذة، فأخذناهم في آمن ما كانوا وأعجب ما كانت الدنيا إليهم ﴿فإذا هم مبلسون﴾ أي آيسون من كل خير، وقال الفراء المبلس اليائس المنقطع رجاؤه ولذلك يقال لمن يسكت عند انقطاع حجته ولا يكون له جواب قد أبلس وقال الزجاج المبلس الشديد الحزن والحسرة وقال أبو عبيدة المبلس النادم والحزين والإبلاس هو الإطراق من الحزن والندم روى عقبة بن عامر أن النبي ﷺ قال «إذا رأيت الله تعالى يعطي العبد ما يحب وهو مقيم على معصيته فإنما ذلك استدراج ثم تلا ﴿فلما نسوا ما ذكروا به﴾ الآية» ذكره البغوي بغير سند وأسنده الطبري.

وقوله تعالى: ﴿فقطع دابر القوم الذين ظلموا﴾ أي آخرهم الذي يدبرهم. يقال: دبر فلان القوم، إذا كان آخرهم. والمعنى: أنهم استؤصلوا بالعذاب فلم تبق منهم باقية ﴿والحمد لله رب العالمين﴾ قال الزجاج: حمد الله نفسه على أن قطع دابرهم واستأصل شأفتهم ومعنى هذا أن قطع دابرهم نعمة أنعم الله بها على الرسل الذين أرسلوا إليهم فكذبوهم فذكر الحمد تعليماً للرسل ولمن آمن بهم ليحمدوا الله على كفايتهم إياهم شر الذين ظلموا وليحمد محمد ﷺ وأصحابه ربهم، إذ أهلك المشركين المكذبين. وقيل: معناه الثناء الكامل والشكر الدائم لله رب العالمين على إنعامه على رسله وأهل طاعته بإظهار حجتهم على من خالفهم وإهلاك أعدائهم واستئصالهم العذاب.

قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَنكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾

قوله تعالى: ﴿قل أرأيتم﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين: ﴿إن أخذ الله سمعكم﴾ يعني الذي تسمعون به

﴿ فَقُطِعَ دابرُ القومِ الذينَ ظلمُوا ﴾، أي: آخرهم الذين بدبرهم، يقال: دبر فلانٍ القوم يدبرهم دبراً ودبوراً إذا كان آخرهم، ومعناه أنهم استُؤصلوا بالعذاب فلم يبقَ منهم باقية، ﴿ والحمدُ للَّهِ ربِّ العالمين ﴾، حمدَ الله نفسه على أن قطع دابرهم لأنه نعمة على رسله، فذكر الحمد لله تعليماً لهم ولمَن آمن بهم، أن يحمدوا الله على كفايته شرَّ الظالمين، وليحمد محمد ﷺ وأصحابه ربَّهم إذا أهلك المكذبين.

قوله تعالى: ﴿ قلْ أرأيتُم ﴾، أيّها المشركون، ﴿ إنْ أخذَ اللَّهُ سمعَكم ﴾، حتى لا تسمعوا شيئاً أصلاً ﴿ وأبصارَكم ﴾، حتى لا تبصروا شيئاً أصلاً، ﴿ وختَم على قلوبِكم ﴾، حتى لا تفقهوا شيئاً ولا تعرفوا مما تعرفون من أمور الدنيا شيئاً، ﴿ مَنْ إلَهٌ غيرُ اللَّهِ يأتيكم به ﴾، ولم يقل بها مع أنه ذكر أشياء، قيل: معناه يأتيكم بما أخذ منكم، وقيل: الكناية ترجع إلى السمع الذي ذكر أولاً ولا يندرج غيرُه تحته، كقوله تعالى: ﴿ واللَّهُ ورسولُهُ أحقُّ أنْ يُرضوه ﴾ [التوبة: ٦٢] فالهاء راجعة إلى الله، ورضى رسوله يندرج في رضا الله تعالى: ﴿ انظرْ كيفَ نُصرِّفُ الآياتِ ﴾، أي: نبيِّن لهم العلامات الدالّة على التوحيد والنبوّة، ﴿ ثمَّ هُمْ يَصْدِفُون ﴾، يعرضون عنها مكذِّبين.

﴿ قلْ أرأيتَكُم إنْ أتاكم عذابُ اللَّهِ بغتةً ﴾، فجأة، ﴿ أو جهرةً ﴾، معاينة ترونه عند نزوله، قال ابن عباس

فأصمكم حتى لا تسمعوا شيئاً ﴿وأبصاركم﴾ يعني وأخذ أبصاركم التي تبصرون بها فأعماكم حتى لا تبصروا شيئاً أصلاً ﴿وختم على قلوبكم﴾ يعني لا تفقهوا شيئاً أصلاً ولا تعرفوا شيئاً مما تعرفون من أمور الدنيا. وإنما ذكر هذه الأعضاء الثلاثة، لأنها أشرف أعضاء الإنسان فإذا تعطلت هذه الأعضاء، اختل نظام الإنسان وفسد أمره وبطلت مصالحه في الدين والدنيا. ومقصود هذا الكلام ذكر ما يدل على وجود الصانع الحكيم المختار وتقريره أن القادر على إيجاد هذه الأعضاء وأخذها هو الله تعالى المستحق للعبادة لا الأصنام التي تعبدونها وهو قوله تعالى: ﴿من إله غير الله يأتيكم به﴾ يعني يأتيكم بما أخذ الله منكم لأن الضمير في به يعود على معنى الفعل ويجوز أن يعود على السمع الذي ذكر أولاً ويندرج تحته غيره ﴿انظر﴾ الخطاب للنبي ﷺ ويدخل معه غيره أن انظر يا محمد ﴿كيف نصرف الآيات﴾ يعني كيف نبين لهم العلامات الدالة على التوحيد والنبوة ﴿ثم هم يصدفون﴾ يعني يعرضون عنها مكذبين لها ﴿قل أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله بغتة﴾ يعني فجأة ﴿أو جهرة﴾ يعني معاينة ترونه عند نزوله، وقال ابن عباس ليلاً أو نهاراً ﴿هل يهلك إلا القوم الظالمون﴾ يعني المشركين لأنهم ظلموا أنفسهم بالشرك.

قوله عز وجل: ﴿وما نرسل المرسلين إلا مبشرين﴾ يعني لمن آمن بالثواب ﴿ومنذرين﴾ يعني لمن أقام على كفره بالعقاب والمعنى ليس في إرسالهم أن يأتوا الناس بما يقترحون عليهم من الآيات إنما أرسلوا بالبشارة والنذارة ﴿فمن آمن وأصلح﴾ يعني آمن بهم وأصلح العمل لله ﴿فلا خوف عليهم﴾ يعني حين يخاف أهل النار ﴿ولا هم يحزنون﴾ أي إذا حزن غيرهم ﴿والذين كذبوا بآياتنا يمسهم العذاب﴾ يعني يصيبهم العذاب ﴿بما كانوا يفسقون﴾ يعني بسبب ما كانوا يكفرون ويخرجون عن الطاعة.

قوله تعالى: ﴿قل لا أقول لكم﴾ الخطاب للنبي ﷺ يعني: قل يا محمد لهؤلاء المشركين لا أقول لكم ﴿عندي خزائن الله﴾ نزلت حين اقترحوا عليه الآيات فأمره الله تعالى أن يقول لهم إنما بعثت بشيراً ونذيراً ولا أقول لكم عندي خزائن الله جمع خزانة وهي اسم للمكان الذي يخزن فيه الشيء وخزن الشيء إحرازه بحيث لا تناله الأيدي والمعنى ليس عندي خزائن رزق الله فأعطيكم منها ما تريدون لأنهم كانوا يقولون للنبي ﷺ إن كنت رسولاً من الله فاطلب منه أن يوسع علينا عيشنا ويغني فقرنا فأخبر أن ذلك بيد الله لا بيدي ﴿ولا أعلم الغيب﴾ يعني فأخبركم بما مضى وما سيقع في المستقبل، وذلك أنهم قالوا له: أخبرنا بمصالحنا ومضارنا في المستقبل حتى نستعد لتحصيل المصالح ودفع المضار، فأجابهم بقوله: ولا أعلم الغيب فأخبركم بما تريدون ﴿ولا أقول لكم إني ملك﴾ وذلك أنهم قالوا: ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق ويتزوج النساء؟ فأجابهم بقوله: ولا أقول لكم إني ملك لأن الملك يقدر على ما لا يقدر عليه البشر ويشاهد ما لا يشاهدون فلست أقول شيئاً من ذلك ولا أدّعيه فتنكرون قولي وتجحدون أمري. وإنما نفى عن نفسه الشريفة هذه الأشياء تواضعاً لله تعالى واعترافاً له بالعبودية وأن لا يقترحوا عليه الآيات العظام ﴿إن أتبع

والحسن: ليلاً ونهاراً، ﴿ هلْ يُهْلَكُ إلاّ القومُ الظّالمُون ﴾، المشركون.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ ومَا نُرسلُ المرسَلينَ إلاّ مُبشّرين ومُنذِرينَ فمَنْ آمنَ وأصلحَ ﴾، العمل، ﴿ فلا خَوفٌ عليهم ﴾، حين يخاف أهل النار، ﴿ ولا هم يحزنُون ﴾، إذا حزنوا.

﴿ والذينَ كذَّبُوا بآياتِنَا يَمسُّهُمُ ﴾، يصيبهم، ﴿ العذابُ بما كانوا يَفْسُقُون ﴾، يكفرون.

﴿ قلْ لا أقولُ لكمْ عندي خزائنُ الله ﴾، نزل حين اقترحوا الآيات فأمره أن يقول لهم: ﴿ لا أقولُ لكمْ عندي خزائنُ الله ﴾ أي: خزائن رزقه فأعطيكم ما تريدون، ﴿ ولا أعلم الغيبَ ﴾، فأُخبركم بما غاب مما مضى ومما سيكون، ﴿ ولا أقولُ لكمْ إني مَلَكٌ ﴾، قال ذلك لأن الملك يقدر على ما لا يقدر عليه الآدمي ويشاهد ما لا يشاهده

إلا ما يوحى إلي﴾ يعني ما أخبركم إلا بوحي من الله أنزله عليّ ومعنى الآية أن النبي ﷺ أعلمهم أنه لا يملك خزائن الله التي منها يرزق ويعطي وأنه لا يعلم الغيب فيخبر بما كان وما سيكون وأنه ليس بملك حتى يطلع على ما لا يطلع عليه البشر إنما يتبع ما يوحى إليه من ربه عز وجل فما أخبر عنه من غيب بوحي الله إليه وظاهر الآية يدل على أن الرسول ﷺ ما كان يجتهد في شيء من الأحكام بل جميع أوامره ونواهيه إنما كانت بوحي من الله إليه ﴿**قل هل يستوي الأعمى والبصير**﴾؟ يعني: المؤمن والكافر والضال والمهتدي والعالم والجاهل ﴿**أفلا تتفكرون**﴾ يعني أنهما لا يستويان.

قوله عز وجل: ﴿**وأنذر به**﴾ يعني وخوف بالقرآن والإنذار إعلام مع تخويف ﴿**الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم**﴾.

قال ابن عباس: يريد المؤمنين لأنهم يخافون يوم القيامة وما فيه من شدة الأهوال. وقيل: معنى يخافون يعلمون والمراد بهم كل معترف بالبعث من مسلم وكتابي وإنما خص الذين يخافون الحشر بالذكر دون غيرهم وإن كان إنذاره ﷺ لجميع الخلائق لأن الحجة عليهم أوكد من غيرهم لاعترافهم بصحة المعاد والحشر. وقيل: المراد بهم الكفار لأنهم لا يعتقدون صحة ولذلك قال: يخافون أن يحشروا إلى ربهم، وقيل: المراد بالإنذار جميع الخلائق فيدخل فيه كل مؤمن معترف بالحشر وكل كافر منكر له لأنه ليس أحد إلا وهو يخاف الحشر سواء اعتقد وقوعه أو كان يشكّ فيه ولأن دعوة النبي ﷺ وإنذاره لجميع الخلق ﴿**ليس لهم من دونه**﴾ يعني من دون الله ﴿**ولي**﴾ أي قريب ينفعهم ﴿**ولا شفيع**﴾ يعني يشفع لهم ثم إن فسرنا الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم أن المراد بهم الكفار فلا إشكال فيه لقوله تعالى: ﴿ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع﴾ وإن فسرنا الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم أن المراد بهم المؤمنون ففيه إشكال، لأنه قد ثبت بصحيح النقل شفاعة نبينا محمد ﷺ للمذنبين من أمته وكذلك تشفع الملائكة والأنبياء والمؤمنون بعضهم لبعض والجواب عن هذا الإشكال أن الشفاعة لا تكون إلا بإذن الله لقوله عز وجل: ﴿من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه﴾ وإذا كانت الشفاعة بإذن الله صح قوله: ﴿ليس لهم من دونه ولي ولا شفيع﴾ يعني حتى يأذن الله لهم في الشفاعة فإذا أذن فيها كان للمؤمنين ولي وشفيع ﴿**لعلهم يتقون**﴾ يعني ما نهيتم عنه.

﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٥٢﴾

قوله تعالى: ﴿**ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه**﴾ قال سلمان وخباب بن الأرت: فينا نزلت هذه الآية جاء الأقرع بن حابس التميمي وعيينة بن حصن الفزاري وهما من المؤلفة قلوبهم فوجدوا النبي ﷺ

الآدمي، يريد ما لا يشاهده الآدمي، يريد لا أقول لكم شيئاً من ذلك فتنكرون قولي وتجحدون أمري، ﴿ **إنْ أتّبعُ إلاّ ما يُوحَى إليّ** ﴾، أي: ما آتيكم به فمن وَحْيِ الله تعالى، وذلك غير مستحيل في العقل مع قيام الدليل والحجج البالغة، ﴿ **قلْ هلْ يستوي الأعمى والبصير** ﴾؟ قال قتادة: الكافر والمؤمن، وقال مجاهد: الضال والمهتدي، وقيل: الجاهل والعالم، ﴿ **أفلا تتفكّرُون** ﴾، أي: أنهما لا يستويان.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ **وأنْذِرْ به** ﴾، خوّف به أي: بالقرآن، ﴿ **الذينَ يخافُون أن يُحشروا** ﴾، يجمعوا ويبعثوا، ﴿ **إلى ربّهم** ﴾، وقيل: يخافون أي يعلمون، لأن خوفهم إنّما كان من علمهم، ﴿ **ليسَ لهمْ من دُونهِ** ﴾، من دون الله، ﴿ **وليّ** ﴾ قريب ينفعهم، ﴿ **ولا شفيعٌ** ﴾، يشفع لهم، ﴿ **لعلَّهم يتّقون** ﴾، فينتهون عمّا نُهوا عنه، وإنّما نفى الشفاعة لغيره مع أن الأنبياء الأولياء يشفعون، لأنهم لا يشفعون إلاّ بإذنه.

﴿ **ولا تَطْردِ الذينَ يدعونَ ربَّهم بالـغَدَوْةِ والعَشِي** ﴾، قرأ ابن عامر (بالغـداة) بضم الغين وسكون الدال وواو

قاعداً مع صهيب وبلال وعمار وخباب في نفر من ضعفاء المؤمنين فلما رأوهم حوله، حقّروهم فأتوه فقالوا: يا رسول الله لو جلست في صدر المجلس ونفيت عنا هؤلاء وأرواح جبابهم وكانت عليهم جباب صوف لها رائحة ليس عليهم غيرها لجالسناك وأخذنا عنك فقال النبي ﷺ «ما أنا بطارد المؤمنين» قالوا: فإنا نحب أن تجعل لنا منك مجلساً تعرف به العرب فضلنا فإن وفود العرب تأتيك فنستحي أن ترانا العرب مع هؤلاء الأعبد فإذا نحن جئناك فأقمهم عنا فإذا نحن فرغنا فأقعدهم إن شئت. قال: نعم. قالوا فاكتب لنا عليك بذلك كتاباً. قال: فأتى بالصحيفة ودعا علياً ليكتب. قال: ونحن قعود في ناحية إذا نزل جبريل عليه السلام بقوله: ﴿ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي﴾ إلى قوله ﴿أليس الله بأعلم الشاكرين﴾ فألقى رسول الله ﷺ الصحيفة من يده ثم دعانا فأتيناه وهوَ يقول سلام عليكم كتب ربكم عى نفسه الرحمة فكنا نقعد معه فإذا أراد أن يقوم قام وتركنا فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي﴾ الآية فكان رسول الله ﷺ يقعد معنا بعد ذلك وندنو منه حتى كانت ركبنا تمس ركبته فإذا بلغ الساعة التي يريد أن يقوم فيها قمنا وتركناه حتى يقوم وقال لنا «الحمد الله الذي لم يمتني حتى أمرني أن أصبر نفسي مع قوم من أمتي معكم المحيا ومعكم الممات».

وروي عن سعد بن أبي وقاص قال كنا مع رسول الله ﷺ ستة نفر فقال المشركون للنبي ﷺ: اطرد هؤلاء لا يجترؤون علينا. قال: وكنت أنا وابن مسعود ورجل من هزيل وبلال ورجلان لست أسميهما فوقع في نفس رسول الله ﷺ ما شاء الله أن يقع فحدث نفسه فأنزل الله عز وجل: ﴿ولا تطرد الذي يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه﴾ أخرجه مسلم.

وقال الكلبي: قالوا له، يعني أشراف قريش، اجعل لنا يوماً ولهم يوماً. قال: لا أفعل. قالوا: فاجعل المجلس واحداً وأقبل علينا ولِّ ظهرك إليهم. فأنزل الله هذه الآية. وقال مجاهد: قالت قريش لولا بلال وابن أم عبد يعني ابن مسعود لبايعناك فأنزل الله تعالى هذه الآية. وقال ابن مسعود: مر ملأ من قريش بالنبي ﷺ وعنده صهيب وعمار وبلال وخباب ونحوهم من ضعفاء المسلمين فقالوا: يا محمد رضيت بهؤلاء بدلاً من قومك هؤلاء الذين مَنَّ الله عليهم من بيننا أنحن نكون تبعاً لهؤلاء اطردهم فلعلك إن طردتهم أن نتبعك فنزلت هذه الآية. وقال عكرمة: جاء عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة ومطعم بن عدي والحارث بن نوفل في أشراف بني عبد مناف من أهل الكفر إلى أبي طالب عم النبي ﷺ فقالوا: يا أبا طالب لو أن ابن أخيك محمداً يطرد عنه موالينا وحلفاءنا فإنهم عبيدنا وعسفاؤنا، كان أعظم في

بعدها هاهنا وفي سورة الكهف [٢٨]، وقرأ الآخرون بفتح الغين والدال وألف بعدها، قال سلمان وخباب بن الأرت: فينا نزلتْ هذه الآية، جاء الأقرع بن حابس التيمي وعيينة بن حصن الفزاري وذووهم من المؤلّفة قلوبهم، فوجدوا النبي ﷺ قاعداً مع بلال وصهيب وعمّار وخبّاب في ناس من ضعفاء المؤمنين، فلمّا رأوهم حوله حقّروهم، فأتوه فقالوا: يا رسول الله لو جلست في صدر المجلس ونفيت عنّا هؤلاء وأرواح جبابهم، وكان عليهم جباب صوف لها رائحة لم يكن عليهم غيرها، لجالسناك وأخذنا عنك، فقال النبي ﷺ لهم: «ما أنا بطاردِ المؤمنين»، قالوا فإنّا نحبّ أن تجعل لنا منك مجلساً تعرف به العرب فضلنا، فإن وفود العرب تأتيك فنستحي أن ترانا العرب مع هؤلاء الأعبد، فإذا نحن جئناك فأقمهم عنّا، فإذا نحن فرغنا فاقعدْ معهم إن شئت، قال: نعم، قالوا: أُكتب لنا عليك بذلك كتاباً، قال: فدعا بالصحيفة ودعا عليّاً ليكتب، قالوا: ونحن قعود في ناحية إذْ نزل جبريل بقوله: ﴿ ولا تَطْرُدِ الذينَ يَدْعُونَ ربَّهم بالغَدَاة والعَشِيِ يُريدُونَ وَجْهَه ﴾، إلى قوله: ﴿ بالشاكرين ﴾ فألقى رسول الله ﷺ الصحيفة من يده، ثم دعانا فأتينا، وهو يقول: ﴿ سلامٌ عليكم كتبَ ربُّكم على نفسه الرحمة ﴾، فكنّا نقعد معه فإذا أراد أن يقوم قام وتركنا فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿ واصبرْ نفسَكَ معَ الذينَ يدعُونَ ربَّهم بالغَداةِ والعَشِي يُريدُونَ وَجْهَه ﴾

صدورنا وأطوع له عندنا وأدنى لاتباعنا إياه وتصديقنا له فأتى أبو طالب النبي ﷺ فحدثه بالذي كلموه به فقال عمر بن الخطاب: لو فعلت ذلك حتى ننظر ما الذي يريدون وإلى ماذا يصيرون فأنزل الله عز وجل هذه الآية ﴿**وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم قوله أليس الله بأعلم بالشاكرين**﴾ فجاء عمر فاعتذر من مقالته. قلت بين هذه الروايات والرواية الأولى التي عن سلمان وخباب بن الأرت فرق كثير وبعد عظيم، وهو أن إسلام سلمان كان بالمدينة، وكان إسلام المؤلفة قلوبهم بعد الفتح وسورة الأنعام مكية. والصحيح ما روي عن ابن مسعود والكلبي وعكرمة في ذلك، ويعضده حديث مسعد بن أبي وقاص المخرج في صحيح مسلم من أن المشركين قالوا للنبي ﷺ: اطرد هؤلاء، يعني ضعفاء المسلمين، والله أعلم.

وأما معنى الآية فقوله: ﴿**ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي**﴾ الخطاب فيه للنبي ﷺ. يعني: ولا تطرد هؤلاء الضعفاء عنك ولا تبعدهم عن مجلسك لأجل ضعفهم وفقرهم. ثم وصفهم فقال تعالى الذي يدعون ربهم بالغداة والعشي يعني صلاة الصبح وصلاة العصر. ويروى عنه أن المراد منه الصلوات الخمس. وإنما ذكر هذين الوقتين تنبيهاً على شرفهما ولأنهم مواظبون عليهما مع بقية الصلوات، ولأن الصلوات تشتمل على القراءة والدعاء والذكر فعبر بالدعاء عن الصلاة لهذا المعنى. قال مجاهد: صليت الصبح مع سعيد بن المسيب فلما سلم الإمام ابتدر الناس القاص فقال سعيد بن المسيب: ما أسرع الناس إلى هذا المجلس؟ فقال مجاهد: يتأولون قوله تعالى يدعون ربهم بالغداة والعشي قال أوفي هذا إنما هو في الصلاة التي انصرفنا عنها الآن وقال ابن عباس إن ناساً من الفقراء كانوا مع النبي ﷺ فقال ناس من أشراف الناس نؤمن لك وإذا صلينا فأخِّر هؤلاء الذين معك فليصلوا خلفنا، وقيل: المراد منه حقيقة الدعاء والذكر والمعنى: أنهم كانوا يذكرون ربهم ويدعونه طرفي النهار يريدون وجهه يعني يطلبون بعبادتهم وطاعتهم وجه الله مخلصين في عبادتهم له. وقال ابن عباس: يطلبون ثواب الله تعالى: ﴿**ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء**﴾ يعني لا تكلف أمرهم ولا يكلفون أمرك. وقيل: ما عليك حسابهم رزقهم فتملهم وتطردهم عنك ولا رزقك عليهم إنما الرازق لجميع الخلق هو الله تعالى فلا تطردهم عنك: ﴿**فتطردهم فتكون من الظالمين**﴾ يعني بطردهم عنك وعن مجلسك. فقوله: فتطردهم، جواب النفي وهو قوله ما عليك من حسابهم من شيء وقوله: فتكون من الظالمين، جواب النهي وهو قوله ولا تطرد الذين يدعون ربهم واحتج الطاعنون في عصمة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بهذه الآية فقالوا إن النبي ﷺ لما همَّ بطرد الفقراء عن مجلسه لأجل الأشراف عاتبه الله على ذلك ونهاه عن طردهم وذلك يقدح في العصمة وقوله فتطردهم فتكون من الظالمين والجواب عن هذا الاحتجاج

[الكهف: ٢٨]، فكان رسول الله ﷺ يقعد معنا بعد وندنوا منه حتى كانت ركبنا تمسّ ركبته، فإذا بلغ الساعة التي يقوم فيها قمنا وتركناه حتى يقوم، وقال: «الحمد لله الذي لم يمتني حتى أمرني أن أصبِّر نفسي مع قوم من أمتي معكم المحيا ومعكم الممات» وقال الكلبي: قالوا له اجعل لنا يوماً ولهم يوماً، فقال: لا أفعل، فقالوا: فاجعل المجلس واحداً فاقبل علينا وولِّ ظهرك عليهم، فأنزل الله تعالى هذه الآية: ﴿ **ولا تطردِ الذينَ** ﴾، قال مجاهد: قالت قريش لولا بلال وابن أُم عبد لبايعنا محمداً، فأنزل الله هذه الآية ﴿ **ولا تطرد الذين يدعون ربّهم بالغداة والعشي** ﴾، يعني: صلاة الصبح وصلاة العصر. ويُروى عنه: أن المراد منه الصلوات الخمس، وذلك أن أناساً من الفقراء كانوا مع النبي عليه السلام، فقال ناس من الأشراف: إذا صلّينا فأخِّر هؤلاء فليصلّوا خلفنا، فنزلت هذه الآية، وقال مجاهد: صلّيت الصبح مع سعيد بن المسيب، فلما سلّم الإمام ابتدر الناس القاص، فقال سعيد: ما أسرع الناس إلى هذا المجلس! قال مجاهد: فقلت يتأوّلون قوله: ﴿ **يدعون ربَّهم بالغداة والعشي** ﴾، قال: أفي هذا هو إنما ذلك في الصلاة التي انصرفنا عنها الآن، وقال إبراهيم النخعي: يعني يذكرون ربَّهـم، وقيل المراد منه:

أن النبي ﷺ ما طردهم ولا همَّ بطردهم، لأجل استخفاف بهم والاستنكاف من فقرهم وإنما كان هذا الهم لمصلحة وهي التلطف بهؤلاء الأشراف في إدخالهم في الإسلام فكان ترجيح هذا الجانب أولى وهو اجتهاد منه فأعلمه الله تعالى أن إدناء هؤلاء الفقراء أولى من الهمِّ بطردهم فقربهم منه وأدناهم. وأما قوله فتطردهم فتكون من الظالمين فإن الظلم في اللغة وضع الشيء في غير موضعه فيكون المعنى أن أولئك الفقراء الضعفاء يستحقون التعظيم والتقريب فلا تهم بطردهم عنك فتضع الشيء في غير موضعه فهو من باب ترك الأفضل والأولى لا من باب ترك الواجبات والله أعلم.

وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾

قوله عز وجل: ﴿**وكذلك فتنَّا بعضهم ببعض**﴾ يعني وكذلك ابتلينا الغني بالفقير، والفقير بالغني، والشريف بالوضيع، والوضيع بالشريف فكل أحد مبتلى بضده فكان ابتلاء الأغنياء فالشرفاء حسدهم لفقراء الصحابة على كونهم سبقوهم إلى الإسلام وتقدموا عليهم فامتنعوا من الدخول في الإسلام لذلك فكان ذلك فتنة وابتلاء لهم. وأما فتنة الفقراء بالأغنياء، فلما يرون من سعة رزقهم وخصب عيشهم فكان ذلك فتنة لهم ﴿**ليقولوا**﴾ يعني الأغنياء والشرفاء والرؤساء ﴿**أهؤلاء منَّ الله عليهم من بيننا**﴾ يعني منَّ على الفقراء والضعفاء بالإسلام ومتابعة الرسول ﷺ وهذا اعتراض من الكفار على الله تعالى فأجابهم بقوله: ﴿**أليس الله بأعلم بالشاكرين**﴾ يعني أنه تعالى أعلم بخلقه وبأحوالهم وأعلم بالشاكرين من الكافرين: قوله تعالى: ﴿**وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم**﴾ قال عكرمة: نزلت في الذين نهى الله نبيه عن طردهم فكان النبي ﷺ إذا رآهم بدأهم بالسلام.

وقال عطاء: نزلت في أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وبلال وسالم بن أبي عبيدة ومصعب بن عمير وحمزة

حقيقة الدعاء، ﴿ **يريدُون وَجْهَهُ** ﴾، أي: يريدون الله بطاعتهم. قال ابن عباس رضي الله عنهما: يطلبون ثوابَ الله فقال: ﴿ **ما عليكَ مِنْ حسابِهِمْ مِن شيءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عليهِمْ مِن شيءٍ** ﴾، أي: لا تكلّف أمرهم ولا يتكلّفون أمرك، وقيل: ليس رزقهم عليك فتملّهم، ﴿ **فتطردَهم** ﴾، رزقك عليهم، قوله: ﴿ **فتطردَهم** ﴾، جوابٌ لقوله: ﴿ **ما عليك من حسابهم من شيء** ﴾ وقوله: ﴿ **فتكونَ من الظالمين** ﴾، جوابٌ لقوله: ﴿ **ولا تطرد** ﴾ أحدهما جواب النفي والآخر جواب النهي.

﴿**وكذلك فتنّا**﴾، أي: ابتلينا، ﴿**بَعْضَهُمْ ببعضٍ**﴾، أراد ابتلى الغني بالفقير والشريف بالوضيع، وذلك أن الشريف إذا نظر إلى الوضيع قد سبقه بالإيمان امتنع من الإسلام بسببه فكان فتنة له فذلك قوله: ﴿ **لِيَقُولُوا أهؤلاءِ مَنَّ الله عليهم مِّن بينِنَا** ﴾، فقال الله تعالى: ﴿ **أليسَ الله بأعلمَ بالشاكرين** ﴾، فهو جواب لقوله: ﴿ **أهؤلاء مَنّ اللَّهُ عليهِمْ مِّن بينِنَا** ﴾، فهو استفهام بمعنى التقرير، أي: الله أعلم بمَن شكر الإسلام إذ هداه الله عزّ وجلّ. **أخبرنا الإمام أبو علي** الحسين بن محمد القاضي أنا أبو العباس عبد الله بن محمد هارون الطيسفوني أنا أبو الحسن محمد بن أحمد الترابي ثنا أبو بكر أحمد بن محمد بن عمرو بن بسطام ثنا أبو الحسن بن أحمد بن سيار القرشي أنا مسدد أنا جعفر بن سليمان عن المعلّى بن زياد عن العلاء بن بشير المزني عن أبي الصديق الناجي عن أبي سعيد الخدري قال: جلستُ في نفرٍ من ضعفاء المهاجرين وإنّ بعضهم ليستتر ببعض من العُري، وقارىءٌ يقرأ علينا إذْ جاء رسولُ الله ﷺ، فقام علينا، فلمّا قال رسول الله ﷺ سكت القارىء، فسلّم رسول الله ﷺ وقال: «ما كنتم

وجعفر وعثمان بن مظعون وعمار بن ياسر والأرقم بن أبي الأرقم وأبي سلمة بن عبد الأسد وقيل إن الآية على إطلاقها في كل مؤمن. وقيل: لما جاء عمر بن الخطاب واعتذر من مقالته التي تقدمت في رواية عكرمة وقال: ما أردت إلا الخير، نزلت وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم ﴿كتب ربكم﴾ يعني فرض ربكم وقضى ربكم ﴿على نفسه الرحمة﴾ وهذا يفيد الوجوب وسبب هذا أنه تعالى يتصرف في عباده كيف يشاء وأراد فأوجب على نفسه الرحمة على سبيل الفضل والكرم لأنه أكرم الأكرمين وأرحم الراحمين: ﴿أنه من عمل منكم سوءاً بجهالة﴾ قال مجاهد: كل من عمل ذنباً أو خطيئة فهو بها جاهل واختلفوا في سبب هذا الجهل فقيل لأنه جاهل بمقدار ما استحقه من العقاب وما فاته من الثواب. وقيل إنه وإن علم أن عاقبة ذلك السوء والفعل القبيح مذمومة إلا أنه آثر اللذة العاجلة على الخير الكثير الآجل ومن آثر القليل على الكثير فهو جاهل وقيل إنه لما فعل فعل الجهال نسب إلى الجهل وإن لم يكن جاهلاً: ﴿ثم تاب من بعده﴾ يعني من بعد ارتكابه ذلك السوء ورجع عنه ﴿وأصلح﴾ يعني أصلح العمل في المستقبل، وقيل أخلص توبته وندم على فعله ﴿فأنه غفور﴾ يعني لمن تاب من ذنوبه ﴿رحيم﴾ بعباده قال خالد بن دينار كنا إذا دخلنا على أبي العالية قال: ﴿وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة﴾ الآية. عن أبي سعيد الخدري قال: جلست في عصابة من ضعفاء المهاجرين وإن بعضهم ليستتر ببعض من العري وقارىء يقرأ علينا إذ جاء رسول الله ﷺ فقام علينا فلما قام علينا رسول الله ﷺ سكت القارىء فسلم ثم قال ما كنتم تصنعون؟ قلنا: يا رسول الله كان قارىء لنا يقرأ علينا وكنا نستمع إلى كتاب الله تعالى فقال رسول الله ﷺ: «الحمد لله الذي جعل من أمتي من أمرت أن أصبر نفسي معهم» وجلس رسول الله ﷺ وسطنا ليعدل بنفسه فينا ثم قال بيده هكذا فتلحقوا وبرزت وجوههم، قال فما رأيت رسول الله ﷺ عرف منهم أحداً غيري. ثم قال رسول الله ﷺ: أبشروا يا معشر صعاليك المهاجرين بالنور التام يوم القيامة تدخلون الجنة قبل أغنياء الناس بنصف يوم وذلك خمسمائة عام أخرجه أبو داود.

تصنعون»؟ قلنا: يا رسول الله كان قارىءُ يقرأ علينا فكنّا نستمع إلى كتاب الله تعالى، فقال رسول الله ﷺ: «الحمد لله الذي جعل من أُمتي مَن أمرني أن أصبِّر نفسي معهم» قال: ثم جلس وسطنا ليدلّ نفسه فينا ثم قال بيده: هكذا فتخلّفوا وبرزت وجوههم له، قال فما رأيت رسول الله ﷺ عرف منهم أحداً غيري، فقال رسول الله ﷺ: «أبشرُوا بالنّور التّامِّ يومَ القيامة تدخلون الجنة قبل أغنياء الناس بنصف يوم وذلك مقدار خمسمائة سنة».

﴿ وإذا جاءَكَ الذينَ يُؤمِنُون بآياتِنَا فَقُلْ سَلامٌ عليكم ﴾، قال عكرمة: نزلت في الذين نهى الله عزّ وجلّ نبيّه عن طردهم، وكان النبي ﷺ إذا رآهم بدأهم بالسلام، وقال عطاء: نزلت في أبي بكر وعمر وعثمان وعليّ وبلال وسالم وأبي عُبيدة ومُصعب بن عُمير وحمزة وجعفر وعثمان بن مظعون وعمّار بن ياسر والأرقم بن أبي الأرقم وأبي سلمة بن عبد الأسد رضي الله عنهم أجمعين. ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ على نفسِهِ الرحمة ﴾، أي: قضى على نفسه الرحمة، ﴿ أنّه مَنْ عَمِلَ منكمْ سوءاً بجهالة ﴾، قال مجاهد: لا يعلم حلالاً من حرام فمن جهالته ركب الذنب، وقيل: جاهل بما يورثه ذلك الذنب، وقيل: جهالته من حيث إنّه آثر المعصية على الطاعة العاجل القليل على الآجل الكثير، ﴿ ثم تابَ مِن بعدِهِ ﴾، رجع عن ذنبه، ﴿ وأَصْلَحَ ﴾، عمله، وقيل: أخلص توبته، ﴿ فأنّه غفورٌ رحيم ﴾، قرأ ابن عامر وعاصم ويعقوب « أنه مَنْ عمل فأنّه غفور رحيم » بفتح الألف فيهما بدلاً من الرحمة، أي: كتب على نفسه أنه مَن عمل منكم، ثم جعل الثانية بدلاً عن الأولى، كقوله تعالى: ﴿ أيعدكم أنّكم إذا مُتّم وكنتُم تراباً وعظاماً أنّكم مُخْرَجُون ﴾ [المؤمنون: ٣٥]، وفتح أهل المدينة الأولى منهما وكسر الثانية على الاستئناف وكسرهما الآخرون على الاستئناف.

﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ ۙ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِۦ ۚ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴿٥٧﴾﴾

وقوله عز وجل: ﴿وكذلك نفصل الآيات﴾ يعني وكما فصلنا لك يا محمد في هذه السورة دلائلنا على صحة التوحيد وإبطال ما هم عليه من الشرك كذلك نميز ونبين لك أدلة حججنا وبراهيننا على تقرير كل حق ينكره أهل الباطل ﴿ولتستبين﴾ قرأ بالتاء على الخطاب للنبي ﷺ يعني وليظهر لك الحق يا محمد ويتبين لك ﴿سبيل المجرمين﴾ يعني طريق هؤلاء المجرمين وقرأ بالياء على الغيبة ومعناه ليظهر ويتضح سبيل المجرمين يوم القيامة إذا صاروا إلى النار.

قوله تعالى: ﴿قل﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين ﴿إني نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله﴾ يعني نهيت أن أعبد الأصنام التي تعبدونها أنتم من دون الله وقيل تدعونها عند شدائدكم من دون الله لأن الجمادات أخس من أن تعبد أو تدعى وإنما كانوا يعبدونها على سبيل الهوى وهو قوله تعالى ﴿قل لا أتبع أهواءكم﴾ يعني في عبادة الأصنام وطرد الفقراء ﴿قد ضللت﴾ يعني: ﴿إذ﴾ عبدتها ﴿وما أنا من المهتدين﴾ يعني لو عبدتها ﴿قل﴾ يعني قل يا محمد لهؤلاء المشركين ﴿إني على بينة من ربي﴾ قال ابن عباس: يعني على يقين من ربي، وقيل: البيّنة الدلالة التي تفصل بين الحق والباطل والمعنى: إني على بيان وبصيرة في عبادة ربي ﴿وكذبتم به﴾ يعني وكذبتم بالبيان الذي جئت به من عند ربي وهو القرآن والمعجزات الباهرات والبراهين الواضحات التي تدل على صحة التوحيد وفساد الشرك ﴿ما عندي ما تستعجلون به﴾ يعني العذاب، وذلك أن النبي ﷺ كان يخوفهم بنزول العذاب عليهم وكانوا يستعجلون به استهزاءً وكانوا يقولون: يا محمد ائتنا بما تعدنا يعني من نزول العذاب، فأمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يقول لهم: ما عندي ما تستعجلون به لأن إنزال العذاب لا يقدر عليه إلا الله تعالى ولا يقدر أحد على تقديمه ولا تأخيره.

وقيل: كانوا يستعجلون بالآيات التي طلبوها واقترحوها فأعلم الله أن ذلك عنده ليس عند أحد من خلقه. وقيل: كانوا يستعجلون بقيام الساعة ومنه قوله تعالى يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها ﴿إن الحكم إلا لله﴾ يعني

﴿وكذلك نُفصّل الآيات﴾، أي: وهكذا، وقيل: معناه وكما فصّلنا لك في هذه السورة دلائلَنا وإعلامَنا على المشركين كذلك نفصّل الآيات، أي: نميّز ونبيّن لك حجتنا في كل حق ينكره أهل الباطل، ﴿وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ﴾، أي: طريق المجرمين، وقرأ أهل المدينة «ولتستبين» بالتاء، «سبيل المجرمين» نصب على خطاب النبي ﷺ، أي: ولنعرف يا محمد سبيل المجرمين، يقال: استبنتُ الشيءَ وتبيّنته إذا عرفته، وقرأ حمزة والكسائي وأبو بكر «وليستبين» بالياء «سبيلُ» بالرفع، وقرأ الآخرون «ولتستبين» بالتاء «سبيل» رفع، أي: ليظهر وليتّضح السبيل، يُذكّر ويُؤنّث، فدليل التذكير قوله تعالى: ﴿وإنْ يروا سبيلَ الرُّشد لا يتخذوه سبيلاً﴾ [الأعراف: ١٤٦]، ودليل التأنيث قوله تعالى: ﴿لِمَ تصدُّون عن سبيلِ اللَّهِ مَنْ آمن بهِ وتبغُونَها عوجاً﴾ [الأعراف: ٨٦].

قوله عزّ وجلّ: ﴿قُلْ إني نُهيتُ أن أعبد الذين تدعُونَ من دُونِ اللَّهِ قلْ لا أتَّبعُ أهواءَكم﴾، في عبادة الأوثان وطرد الفقراء، ﴿قدْ ضَلَلْتُ إذاً وما أنا مِنَ المُهتدين﴾، يعني: إن فعلتُ ذلك فقد تركتُ سبيل الحق وسلكتُ غير طريق الهدى.

الحكم الذي يفصل به بين الحق والباطل والثواب للطائع والعقاب للعاصي أي ما الحكم المطلق إلا لله ليس معه حكم فهو يفصل بين المختلفين ويقضي بإنزال العذاب إذا شاء ﴿يقص الحق﴾ قرىء بالصاد المهملة. ومعناه: يقول الحق لأن كل ما أخبر به فهو وحق وقرىء يقض بالضاد المعجمة من القضاء يعني أنه تعالى يقضي القضاء الحق ﴿وهو خير الفاصلين﴾ يعني وهو خير من بين وفصل وميز بين المحق والمبطل لأنه لا يقع في حكمه وقضائه جور ولا حيف على أحد من خلقه.

﴿قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥٨﴾ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَـٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾﴾

﴿قل لو أن عندي ما تستعجلون به﴾ يعني من إنزال العذاب. والاستعجال، المطالبة بالشيء قبل وقته، فلذلك كانت العجلة مذمومة. والإسراع: تقديم الشيء في وقته، فلذلك كانت السرعة محمودة. والمعنى: قل يا محمد لهؤلاء المشركين المستعجلين لنزول العذاب لو أن عندي ما تستعجلون به لم أمهلكم ساعة ولكن الله حليم ذو أناة لا يعجل بالعقوبة.

قوله تعالى: ﴿لقضي الأمر بيني وبينكم﴾ يعني: لا نفصل ما بيني وبينكم ولأتاكم ما تستعجلون به من العذاب ﴿والله أعلم بالظالمين﴾ يعني أنه أعلم بما يستحقون من العذاب والوقت الذي يستحثونه فيه وقيل علم أنه سيؤمن بعض من كان يستعجل بالعذاب فلذلك أخره عنهم قال والله أعلم بالظالمين وبأحوالهم. قوله عز وجل: ﴿وعنده مفاتح الغيب﴾ المفتاح الذي يفتح به المغلاق جمعه مفاتيح ويقال فيه تفتح بكسر الميم وجمعه مفاتح والمفتح بفتح الميم الخزانة وكل خزانة كانت لصنف من الأشياء فهي مفتح وجمعه مفاتح فقوله وعنده مفاتح الغيب يحتمل أن يكون المراد منه المفاتيح التي يفتح بها ويحتمل أن يكون المراد منه الخزائن. فعلى التفسير الأول فقد جعل للغيب مفاتيح على طرق الاستعارة، لأن المفاتيح هي التي يتوصل بها إلى ما في الخزائن المستوثق منها بالإغلاق، فمن علم كيف

﴿ قلْ إني على بيّنةٍ ﴾، أي: على بيان وبصيرة وبرهان، ﴿ من ربّي وكذّبتمْ بهِ ﴾، أي: ما جئت به، ﴿ ما عندي ما تستعجلُونَ به ﴾، قيل: أراد به استعجالهم بالعذاب كانوا يقولون: ﴿ إن كانَ هذا هو الحقَّ مِنْ عندِكَ فأمطرْ علينَا حجارةً ﴾ [الأنفال: ٣٢] الآية، وقيل: أراد به القيامة، قال الله: ﴿ يستعجل الذينَ بها لا يؤمنون بها ﴾ [الشورى: ١٨]، ﴿ إنِ الحُكْمُ إلاّ لله يَقُصُّ الحقَّ ﴾، وقرأ الآخرون « يقضي » بسكون القاف والضاد مكسورة، من قضيت، أي: يحكم بالحق بدليل أنه قال: ﴿ وهو خيرُ الفاصلين ﴾، والفصل يكون في القضاء وإنما حذفوا الياء لاستثقال الألف واللام، كقوله تعالى: ﴿ صال الجحيم ﴾ [الصّافّات: ١٦٣] ونحوها، ولم يقلْ بالحق لأن الحق صفة المصدر، كأنه قال: يقضي القضاء الحق.

﴿ قلْ لو أنّ عندي ﴾، وبيدي، ﴿ ما تستعجلُونَ بهِ ﴾، من العذاب، ﴿ لقُضيَ الأمرُ بيني وبينكم ﴾، أي: فرغ من العذاب وأهلكتم، أي: لعجّلتُه حتى أتخلّص منكم، ﴿ واللّهُ أعلم بالظّالمين ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وعِنْدَهُ مفاتح الغيب لا يعلمُها إلاّ هو ﴾، مفاتح الغيب خزائنه، جمع مفتح، واختلفوا في

يفتح بها ويتوصل إلى ما فيها، فهو عالم. وكذلك ها هنا لأن الله تعالى لما كان عالماً بجميع المعلومات ما غاب منها وما لم يغب عن هذا المعنى بهذه العبارة.

وعلى التفسير الثاني، يكون المعنى وعنده خزائن الغيب والمراد منه القدرة الكاملة على كل الممكنات ثم اختلفت أقوال المفسرين في قوله وعنده مفاتح الغيب ﴿**لا يعلمها إلا هو**﴾ فقيل: مفاتيح الغيب خمس وهي ما روي عن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال: مفاتح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله تعالى، لا يعلم أحد ما يكون في غد إلا الله، ولا يعلم أحد ما يكون في الأرحام إلا الله، ولا تعلم نفس ماذا تكسب غداً، ولا تدري نفس بأي أرض تموت، ولا يدري أحد متى يجيء المطر.

وفي رواية أخرى: لا يعلم أحد ما تغيض الأرحام، ولا يعلم ما في غد إلا الله، ولا يعلم متى يأتي المطر أحد إلا الله، ولا تدري نفس بأي أرض تموت إلا الله، ولا يعلم متى الساعة إلا الله، أخرجه البخاري. وقال الضحاك ومقاتل: مفاتح الغيب: خزائن الأرض، وعلم نزول العذاب، وقال عطاء: هو ما غاب عنكم من الثواب والعقاب. وقيل: هو انقضاء الآجال وعلم أحوال العباد من السعادة والشقاوة وخواتيم أعمالهم. وقيل: هو علم ما لم يكن بعد أن يكون إذ يكون كيف يكون وما لا يكون أن لو كان كيف يكون وقال ابن مسعود: أوتي نبيكم ﷺ كل شيء إلا مفاتح الغيب. وقال ابن عباس: إنها خزائن غيب السموات والأرض من الأقدار والأرزاق ﴿**ويعلم ما في البر والبحر**﴾ قال مجاهد: البر المفاوز والقفار، والبحر القُرى والأمصار لا يحدث فيها شيء إلا وهو يعلمه. وقال جمهور المفسرين: هو البر والبحر المعروفان، لأن جميع الأرض إما بر وإما بحر وفي كل واحد منهما من عجائب مصنوعاته وغرائب مبتدعاته ما يدل على عظيم قدرته وسعة علمه ﴿**وما تسقط من ورقة إلا يعلمها**﴾ يريد ساقطة وثابتة والمعنى أنه يعلم عدد ما يسقط من الورق وما بقي على الشجر من ذلك ويعلم كم انقلبت ظهراً لبطن إلى أن تسقط على الأرض ﴿**ولا حبة في ظلمات الأرض**﴾ قيل: هو الحب المعروف يكون في بطن الأرض قبل أن ينبت. وقيل: هي الحبة التي في الصخرة التي في أسفل الأرضين ﴿**ولا رطب ولا يابس**﴾ قال ابن عباس: الرطب الماء واليابس البادية. وقال عطاء: يريد ما ينبت وما لا ينبت. وقيل: المراد بالرطب الحي واليابس الميت. وقيل: هو عبارة عن كل شيء لأن جميع الأشياء إما رطبة وإما يابسة.

فإن قلت إن جميع هذه الأشياء داخلة تحت قوله وعنده مفاتح الغيب فَلِمَ أفرد هذه الأشياء بالذكر وما فائدة ذلك؟.

قلت: لما قال الله تعالى وعنده مفاتح الغيب على سبيل الإجمال ذكر من بعد ذلك الإجمال ما يدل على

مفاتح الغيب، أخبرنا أبو عبد الله محمد بن الفضل الخرقي أنا أبو الحسن الطيسفوني أنا عبد الله بن عمر الجوهري أنا أحمد بن علي الكشمهيني أنا علي بن حجر أنا إسماعيل بن جعفر أنا عبد الله بن دينار أنه سمع ابن عمر يقول: قال رسول الله: «مفاتحُ الغيب خمسٌ لا يعلمها إلاّ اللّهُ، لا يعلم ما تغيض الأرحام أحدٌ إلاّ الله تعالى، ولا يعلم ما في الغد إلاّ الله عزّ وجلّ، ولا يعلم مَتى يأتي المطرُ أحدٌ إلاّ الله، ولا تَدْرِي نفسٌ بأيّ أرض تموت، ولا يعلمُ مَتى تقومُ الساعة أحدٌ إلاّ الله». وقال الضحاك ومقاتل: مفاتح الغيب خزائن الأرض، وعلم نزول العذاب، وقال عطاء: ما غاب عنكم من الثواب والعقاب، وقيل: انقضاء الآجال، وقيل: أحوال العباد من السعادة والشقاوة وخواتيم أعمالهم، وقيل: هي ما لم يكن بعد أنه يكون أم لا يكون، وما يكون كيف يكون، وما لا يكون أنْ لو كان كيف يكون؟ وقال ابن مسعود: أُوتي نبيُّكم عِلْمَ كلّ شيء إلاّ علم مفاتيح الغيب. ﴿ **ويعلمُ ما في البرِّ والبحر** ﴾، قال

التفصيل، فذكر هذه الأشياء المحسوسة ليدل بها على غيرها، فقدم ذكر البر والبحر لما فيهما من العجائب والغرائب من المدن والقرى والمفاوز والجبال وكثرة ما فيها من المعادن والحيوان، وأصناف المخلوقات مما يعجز الوصف عن إدراكها، ثم ذكر بعد ذلك ما هو أقل من ذلك وهو مشاهد لكل أحد لأن الورقة الساقطة والثابتة يراها كل أحد، لكن لا يعلم عددها وكيفية خلقها إلا الله تعالى ثم ذكر بعد ذلك ما هو أصغر من الورقة وهي الحبة. ثم ذكر بعد ذلك مثالاً يجمع الكل وهو الرطب واليابس فذكر هذه الأشياء وأنه لا يخرج شيء منها عن علمه سبحانه وتعالى فصارت هذه الأمثال منبهة على عظمة عظيمة وقدرة عالية وعلم واسع فسبحان العليم الخبير.

قوله تعالى: ﴿**إلا في كتاب مبين**﴾ فيه قولان: أحدهما أن الكتاب المبين هو علم الله الذي لا يغير ولا يبدل.

والثاني: أن المراد بالكتاب المبين، هو اللوح المحفوظ، لأن الله كتب فيه علم ما يكون وما قد كان قبل أن يخلق السموات والأرض. وفائدة إحصاء الأشياء كلها في هذا الكتاب، لتقف الملائكة على إنفاذ علمه ونبه بذلك على تعظيم الحساب وأعلم عباده أنه لا يفوته شيء مما يصنعونه لأن من أثبت ما لا ثواب فيه ولا عقاب في كتاب فهو إلى إثبات ما فيه ثواب وعقاب أسرع.

قوله تعالى: ﴿**وهو الذي يتوفاكم بالليل**﴾ يعني يقبض أرواحكم إذا نمتم بالليل ﴿**ويعلم ما جرحتم**﴾ ما كسبتم ﴿**بالنهار ثم يبعثكم فيه**﴾ أي يوقظكم فيه أي في النهار ﴿**ليقضى أجل مسمى**﴾ يعني أجل الحياة إلى الممات يريد استيفاء العمر على التمام ﴿**ثم إليه مرجعكم**﴾ في الآخرة ﴿**ثم ينبئكم**﴾ أي يخبركم ﴿**بما كنتم تعملون**﴾ قوله تعالى:

وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾

﴿**وهو القاهر فوق عباده**﴾ يعني وهو العالي عليهم بقدرته لأن كل من قهر شيئاً وغلبه فهو مستعلٍ عليه بالقهر والقدرة. فهو كما يقال: أمرُ فلانٍ فوقَ أمرِ فلانٍ، يعني: أنه أقدر منه. وأغلب هذا مذهب أهل التأويل في معنى لفظة

مجاهد: البَرُّ: المفاوز والقفار، والبحر: القرى والأمصار، لا يحدث فيهما شيء إلّا يعلمه، وقيل: هو البرّ والبحر المعروف، ﴿ **وما تسقطُ مِن ورقةٍ إلّا يعلمها** ﴾، يريد ساقطة وثابتة، يعني: يعلم عدد ما يسقط من ورق الشجر وما يبقى عليه، وقيل يعلم كم انقلبت ظهر البطن إلى أن سقطت على الأرض، ﴿ **ولا حَبَّةٍ في ظلماتِ الأرضِ** ﴾، قيل: هو الحب المعروف في بطون الأرض، وقيل: هو تحت الصخرة التي في أسفل الأرضين، ﴿ **ولا رَطْبٍ ولا يابس** ﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما: الرطب الماء، واليابس البادية، وقال عطاء: يريد ما ينبت وما لا ينبت، وقيل: ولا حَيٍّ ولا موات، وقيل: هو عبارة عن كل شيء، ﴿ **إلّا في كتابٍ مُّبين** ﴾، يعني أن الكل مكتوب في اللوح المحفوظ.

قوله تعالى: ﴿ **وهو الذي يتوفّاكُم باللّيلِ** ﴾، أي: يقبض أرواحكم إذا نمتم بالليل، ﴿ **ويعلَمُ ما جرحتُم** ﴾، كسبتم، ﴿ **بالنّهارِ ثمّ يَبْعَثُكم فيه** ﴾، أي: يوقظكم في النهار، ﴿ **ليُقْضَى أجلٌ مسمّىً** ﴾، يعني: أجل الحياة إلى الممات، يريد استيفاء العمر على التمام، ﴿ **ثم إليه مَرْجِعُكم** ﴾، في الآخرة، ﴿ **ثم ينبِّئُكم** ﴾، يخبركم، ﴿ **بما كنتُم تعملُون** ﴾.

﴿ **وهوَ القاهِرُ فوقَ عبادِهِ ويُرسلُ عليكم حفظةً** ﴾، يعني: الملائكة الذين يحفظون أعمال بني آدم، وهو

فوق في قوله: ﴿وهو القاهر فوق عباده﴾ وأما مذهب السلف. فيها: فإمرارها كما جاءت من غير تكييف ولا تأويل ولا إطلاق على جهة والقاهر هو الغالب لغيره المذلل له والله تعالى هو القاهر لخلقه وقهر كل شيء بضده فقهر الحياة بالموت والإيجاد بالإعدام والغنى بالفقر والنور بالظلمة.

وقوله تعالى: ﴿ويرسل عليكم حفظة﴾ يعني أن من جملة قهره لعباده إرسال الحفظة عليهم والمراد بالحفظة الملائكة الذين يحفظون أعمال بني آدم من الخير والشر والطاعة والمعصية وغير ذلك من الأقوال والأفعال قيل إن مع كل إنسان ملكين ملكاً عن يمينه وملكاً عن شماله فإذا عمل حسنة كتبها صاحب اليمين وإذا عمل سيئة قال صاحب اليمين لصاحب الشمال اصبر عليه لعله يتوب منها فإن لم يتب منها كتبها عليه صاحب الشمال. وفائدة جعل الملائكة موكلين بالإنسان أنه إذا علم أن له حافظاً من الملائكة موكلاً به يحفظ عليه أقواله وأفعاله في صحائف تنشر له وتقرأ عليه يوم القيامة على رؤوس الأشهاد كان ذلك زاجراً له عن فعل القبيح وترك المعاصي. وقيل: المراد بقوله ويرسل عليكم حفظة، هم الملائكة الذين يحفظون بني آدم ويحفظون أجسادهم. قال قتادة: حفظه يحفظون على ابن آدم رزقه وأجله وعمله ﴿حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا﴾ يعني أعوان ملك الموت الموكلين بقبض أرواح البشر.

فإن قلت قال الله تعالى في آية: ﴿الله يتوفى الأنفس حين موتها﴾ وقال في آية أخرى: ﴿قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم﴾ وقال هنا توفته رسلنا فكيف الجمع بين هذه الآيات؟ قلت وجه الجمع بين هذه الآيات أن المتوفي في الحقيقة هو الله تعالى، فإذا حضر أجل العبد، أمر الله ملك الموت بقبض روحه ولملك الموت أعوان من الملائكة يأمرهم بنزع روح ذلك العبد من جسده فإذا وصلت إلى الحلقوم تولى قبضها ملك الموت نفسه فحصل الجمع بين الآيات. وقيل: المراد من قوله توفته رسلنا ملك الموت وحده وإنما ذكر بلفظ الجمع تعظيماً له. وقال مجاهد: جعلت الأرض لملك الموت مثل الطشت يتناول من حيث شاء وجعلت له أعوان ينزعون الأنفس ثم يقبضها منهم وقال أيضاً: ما من أهل بيت شعر ولا مدر إلا وملك الموت يطيف بهم كل يوم مرتين. وقيل: إن الأرواح إذا كثرت عليه يدعوها فتستجيب له وقوله: ﴿وهم لا يفرطون﴾ يعني الرسل لا يقصرون فيما أمروا به ولا يضيعونه.

قوله عز وجل: ﴿ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق﴾ يعني ثم رد العباد بالموت إلى الله في الآخرة وإنما قال مولاهم الحق لأنهم كانوا في الدنيا تحت أيدي موال بالباطل والله مولاهم وسيدهم ومالكهم بالحق ﴿ألا له الحكم﴾ يعني لا حكم إلا له ﴿وهو أسرع الحاسبين﴾ يعني أنه تعالى أسرع من حسب لأنه لا يحتاج إلى فكر وروية وعقد يد فيحاسب خلقه بنفسه لا يشغله حساب بعضهم عن بعض.

جمع حافظ، نظيره ﴿ وإنّ عليكم لحافظين كراماً كاتبين ﴾ [الانفطار: ١٠]، ﴿ حتى إذا جاء أحدَكُمُ الموتُ توفّتْهُ ﴾، قرأ حمزة « توفاه » و« استهواه » بالياء وأمالهما، ﴿ رسلُنا ﴾ يعني: أعوان ملك الموت يقبضونه فيدفعونه إلى ملك الموت فيقبض روحه، كما قال: ﴿ قلْ يتوفّاكم مَّلَكُ الموت ﴾ [السجدة: ١١]، وقيل: الأعوان يتوفّونه بأمر ملك الموت، فكأن ملك الموت توفّاه لأنّهم يصدرون عن أمره، وقيل: أراد بالرسل ملك الموت وحده، فذكر الواحد بلفظ الجمع، وجاء في الأخبار: أن الله تعالى جعل الدنيا بين ملك الموت كالمائدة الصغيرة فيقبض من هنا ومن ههنا فإذا أكثرت الأرواح يدعو الأرواح فتجيب له، ﴿ وهم لا يُفرِّطُون ﴾، لا يقصرون.

﴿ ثم رُدُّوا إلى اللّهِ مولاهُمُ الحقِّ ﴾، يعني: الملائكة، وقيل: يعني العباد يُرَدُّون بالموت إلى الله مولاهم الحق، فإن قيل الآية في المؤمنين والكفّار جميعاً وقد قال في آية أخرى: ﴿ وأنّ الكافرين لا مولى لهم ﴾

قوله تعالى: ﴿قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر﴾ يعني يا محمد، قل لهؤلاء الكفار الذين يعبدون الأصنام من دون الله من ذا الذي ينجيكم من ظلمات البر إذا ضللتم فيه وتحيرتم وأظلمت عليكم الطرق ومن ذا الذي ينجيكم من ظلمات البحر إذا ركبتم فيه فأخطأتم الطريق وأظلمت عليكم السبل فلم تهتدوا وقيل: ظلمات البر والبحر مجاز عما فيهما من الشدائد والأهوال وقيل الحل على الحقيقة أولى. فظلمات البر هي ما اجتمع فيه من ظلمة الليل وظلمة السحاب وظلمة الرياح فيحصل من ذلك الخوف الشديد لعدم الاهتداء إلى الطريق الصواب وظلمات البحر ما اجتمع فيه من ظلمة الليل وظلمة السحاب وظلمة الرياح العاصفة والأمواج الهائلة فيحصل من ذلك أيضاً الخوف الشديد من الوقوع في الهلاك فالمقصود أن عند اجتماع هذه الأسباب الموجبة للخوف الشديد لا يرجع الإنسان فيها إلا إلى الله سبحانه وتعالى لأنه هو القادر على كشف الكروب وإزالة الشدائد وهو المراد من قوله: ﴿تدعونه تضرعاً وخفية﴾ يعني فإذا اشتد بكم الأمر تخلصون له الدعاء تضرعاً منكم إليه واستكانة. جهراً وخفية: يعني سراً حالاً وحالاً ﴿لئن أنجأنا من هذه﴾ يعني قائلين في حال الدعاء والتضرع لئن أنجيتنا من هذه الظلمات وخلصتنا من الهلاك ﴿لنكونن من الشاكرين﴾ يعني لك على هذه النعمة والشكر وهو معرفة النعمة مع القيام بحقها لمن أنعم بها.

﴿قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾﴾

﴿قل الله ينجيكم منها﴾ يعني من الظلمات والشدائد التي أنتم فيها ﴿ومن كل كرب﴾ يعني وهو الذي ينجيكم من كل كرب أيضاً والكرب هو الغم الشديد الذي يأخذ بالنفس ﴿ثم أنتم تشركون﴾ يريد أنهم يقرون بأن الذي أنجاهم من هذه الشدائد هو الله تعالى ثم إنهم بعد ذلك الإقرار يشركون معه الأصنام التي لا تضر ولا تنفع.

قوله عز وجل: ﴿قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم﴾ أي: قل يا محمد لقومك إن الله هو

[محمد: ١١]، فكيف وجه الجمع؟ فقيل: المولى في تلك الآية بمعنى الناصر ولا ناصر للكفّار، والمولى ههنا بمعنى المالك الذي يتولى أمورهم والله عزّ وجلّ مالك الكل ومتولّي الأمور، وقيل: أراد هنا المؤمنين خاصة يردّون إلى مولاهم، والكفّار فيه تبع، ﴿ألَا لهُ الحُكْمُ﴾، أي: القضاء دون خلقه، ﴿وهو أسْرَعُ الحاسبين﴾، أي: إذا حاسب فحسابه سريع لأنه لا يحتاج إلى فكرة وروِيّة وعقد يد.

قوله تعالى: ﴿قلْ مَن يُنجيكم﴾، قرأ يعقوب بالتخفيف، وقرأ العامّة بالتشديد، ﴿من ظُلماتِ البرِّ والبحرِ﴾، أي: من شدائدهما وأهوالهما، كانوا إذا سافروا في البرّ والبحر فضلّوا الطريق وخافوا الهلاك، دعُوا اللَّهَ مخلصين له الدين فينجيهم، فذلك قوله تعالى: ﴿تدعُونَه تضرعاً وخفْيَة﴾، أي: علانية وسرّاً، قرأ أبو بكر عن عاصم «وخِيفة» بكسر الخاء هنا وفي الأعراف [٥٥]، وقرأ الآخرون بضمّها وهما لغتان، ﴿لئنْ أنجيْتَنا﴾، أي: يقولون لئن أنجيتنا، وقرأ أهل الكوفة: لئن أنجانا الله، ﴿مِنْ هذِه﴾، يعني: من هذه الظلمات، ﴿لنكونَنّ مِنَ الشّاكرين﴾، والشكر: هو معرفة النعمة مع القيام بحقها.

﴿قُلِ اللَّهُ يُنجيكُمْ منها﴾، قرأ أهل الكوفة وأبو جعفر «ينجيكم» بالتشديد، مثل قوله تعالى: ﴿قلْ مَن يُنجيكم﴾، وقرأ الآخرون هذا بالتخفيف، ﴿ومن كلِّ كَرْبٍ﴾، والكرب غاية الغمّ الذي يأخذ النفس، ﴿ثمّ أنتم تُشركون﴾، يريد أنهم يقرّون أنّ الذي يدعونه عند الشدّة هو الذي ينجيهم ثم يشركون معه الأصنام التي قد علموا أنها لا تضرّ ولا تنفع.

القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم يعني الصيحة والحجارة والريح والطوفان كما فعل بقوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط ﴿أو من تحت أرجلكم﴾ يعني الرجفة والخسف كما فعل بقوم شعيب وقارون. وقال ابن عباس ومجاهد: عذاباً من فوقكم، يعني أئمة السوء والسلاطين الظلمة أو من تحت أرجلكم يعني عبيد السوء. وقال الضحاك: من فوقكم يعني من قبل كباركم أو من تحت أرجلكم يعني السفلة ﴿أو يلبسكم شيعاً﴾ الشيع جمع شيعة وكل قوم اجتمعوا على أمر فهم شيعة وأشياع وأصله من التشيع. ومعنى الشيعة: الذين يتبع بعضهم بعضاً. وقيل: الشيعة هم الذي يتقوى بهم الإنسان. قال الزجاج: في قوله أويلبسكم شيعاً يعني يخلط أمركم خلط اضطراب لا خلط إنفاق فيجعلكم فرقاً مختلفين يقاتل بعضكم بعضاً وهو معنى قوله: ﴿ويذيق بعضكم بأس بعض﴾ قال ابن عباس: قوله أويلبسكم شيعاً يعني الأهواء المختلفة ويذيق بعضكم بأس بعض يعني أنه يقتل بعضكم بيد بعض. وقال مجاهد: يعني أهواء متفرقة وهو ما كان فيهم من الفتن والاختلاف. وقال ابن زيد: هو الذي فيه الناس اليوم من الاختلاف والأهواء وسفك بعضهم دماء بعض. ثم اختلف المفسرون فيمن عني بهذه الآية فقال قوم عني بها المسلمون من أمة محمد ﷺ وفيهم نزلت هذه الآية. قال أبو العالية: في قوله ﴿قال هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم﴾ الآية. قال: هن أربع وكلهن عذاب فجاءت اثنتان بعد رسول الله ﷺ بخمس وعشرين سنة فألبسوا شيعاً وأذيق بعضهم بأس بعض وبقيت اثنتان وهما لا بد واقعتان يعني الخسف والمسخ. وعن أبي بن كعب نحوه وهن أربع خلال وكلهن واقع قبل يوم القيامة مضت ثنتان بعد وفاة رسول الله ﷺ بخمس وعشرين سنة ألبسوا شيعاً وأذيق بعضهم بأس بعض ثنتان واقعتان لا محالة الخسف والرجم. وقال مجاهد: في قوله من فوقكم أو من تحت أرجلكم لأمة محمد فأعفاهم منه أو يلبسكم شيعاً ما كان بينهم من الفتن والاختلاف زاد غيره ويذيق بعضكم بأس بعض يعني ما كان فيهم من القتل بعد وفاة رسول الله ﷺ (خ) عن جابر قال لما نزلت هذه الآية قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم قال رسول الله ﷺ: «أعوذ بوجهك أو من تحت أرجلكم قال أعوذ بوجهك أو يلبسكم شيعاً ويذيق بعضكم بأس بعض قال هذا أهون أو هذا أيسر» (م).

عن سعد بن أبي وقاص أنه أقبل مع النبي ﷺ ذات يوم من العالية حتى إذا مر بمسجد بني معاوية دخل فركع فيه ركعتين وصلينا معه ودعا ربه طويلاً ثم انصرف إلينا فقال: «سألت ربي ثلاثاً فأعطاني اثنتين ومنعني واحدة سألت ربي

قوله عزّ وجلّ: ﴿ قل هو القادرُ على أنْ يبعثَ عَلَيْكُمْ عذاباً من فَوقِكُم ﴾ قال الحسن وقتادة: نزلت الآية في أهل الإيمان، وقال قوم نزلت في المشركين، قوله: ﴿ عذاباً من فوقكم ﴾ يعني: الصيحة والحجارة والريح والطوفان، كما فعل بعاد وثمود وقوم لوط وقوم نوح، ﴿ أو مِن تحتِ أَرْجُلِكُم ﴾، يعني: الرجفة والخسف كما فعل بقوم شعيب وقارون، وعن ابن عباس ومجاهد: ﴿ عذاباً من فوقكم ﴾ السلاطين الظلمة، ومن تحت أرجلكم العبيد السوء، وقال الضحاك: من فوقكم من قبل كباركم أو من تحت أرجلكم أي من أسفل منكم، ﴿ أو يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً ﴾، أي: يخلطكم فرقاً ويبثّ فيكم الأهواء المختلفة، ﴿ ويُذيقَ بعضَكمْ بأسَ بعضٍ ﴾، يعني: السيوف المختلفة، يقتل بعضكم بعضاً. أخبرنا عبد الواحد أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا أبو اليمان أنا حمّاد بن زيد عن عمرو بن دينار عن جابر قال: لمّا نزلت هذه الآية ﴿ قلْ هو القادرُ على أن يبعثَ عليكم عذاباً من فوقكم ﴾ قال رسول الله ﷺ: «أعوذُ بوجهك الكريم»، قال: «أو مِنْ تحت أرجلكم»، قال: «أعوذُ بوجهك»، قال: ﴿ أو يَلْبِسَكم شيعاً ويذيقَ بعضَكم بأس بعض ﴾، قال رسول الله ﷺ: «هذا أهون أو هذا أيسرَ»، أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحي أنا أبو بكر أحمد بن الحسن الحيري أنا أبو جعفر محمد بن علي دحيم الشيباني أخبرنا أحمد بن حازم بن أبي عرفة أنا يعلى بن عبيد الطنافسي

أن لا يهلك أمتي بالسنة فأعطانيها وسألت ربي أن لا يهلك أمتي بالغرق فأعطانيها وسألت ربي أن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها». عن خباب بن الأرت قال صلى رسول الله ﷺ صلاة فأطالها فقالوا يا رسول الله صليت صلاة لم تكن تصليها قال: «أجل إنها صلاة رغبة ورهبة إني سألت الله فيها ثلاثة فأعطاني اثنتين ومنعني واحدة سألته أن لا تهلك أمتي بسنة فأعطانيها وسألته أن لا يسلط عليهم عدواً من غيرهم فأعطانيها وسألته أن لا يذيق بعضهم بأس بعض فمنعنيها» أخرجه الترمذي وقوله تعالى: ﴿**انظر كيف نصرف الآيات**﴾ أي انظر يا محمد كيف نبين دلائلنا وحجتنا لهؤلاء المكذبين ﴿**لعلهم يفقهون**﴾ يعني يفهمون ويعتبرون فينزجروا ويرجعوا عما هم عليه من الكفر والتكذيب.

وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ ۚ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ ۚ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾

قوله تعالى: ﴿**وكذب به قومك**﴾ يعني بالقرآن ﴿**وهو الحق**﴾ يعني في كونه كتاباً منزلاً من عند الله وقيل الضمير في به يرجع إلى العذاب وهو الحق يعني أنه نازل بهم أن أقاموا على كفرهم وتكذيبهم. وقيل: الضمير يرجع إلى تصريف الآيات وهو الحق لأنهم كذبوا كونها من عند الله ﴿**قلت لست عليكم بوكيل**﴾. أي: قل يا محمد لهؤلاء المكذبين لست عليكم بحافظ حتى أجازيكم على تكذيبكم وإعراضكم عن قبول الحق بل إنما أنا منذر والله هو المجازي لكم على أعمالكم وقيل معناه إنما أدعوكم إلى الله وإلى الإيمان به ولم أومر بحربكم، فعلى هذا القول، تكون الآية منسوخة بآية السيف. وقيل في معنى الآية: قل لست عليكم بوكيل، يعني حفيظاً إنما أطالبكم بالظاهر من الإقرار والعلم لا بما تحويه الضمائر والأسرار فعلى هذا تكون الآية محكمة ﴿**لكل نبأ مستقر**﴾ أي لكل خبر من أخبار القرآن حقيقة ومنتهى ينتهي إليه إما في الدنيا وإما في الآخرة. وقيل لكل خبر يخبر الله به وقت ومكان يقع فيه من غير خلف ولا تأخير فكان ما وعدهم به من العذاب في الدنيا وقع يوم بدر ﴿**وسوف تعلمون**﴾ يعني صحة هذا الخبر إما في الدنيا وإما في الآخرة.

أنا عثمان بن حكيم عن عامر بن سعيد بن وقاص عن أبيه، قال: أقبلنا مع رسول الله ﷺ حتى مررنا على مسجد بني معاوية فدخل فصلّى ركعتين وصلّينا معه فناجى ربّه طويلاً ثم قال: «سألتُ ربّي ثلاثاً: سألتُه أن لا يُهلك أمتي بالغرق فأعطانيها، وسألتُه أن لا يُهلك أمتي بالسَّنَةِ فأعطانيها، وسألته أن لا يجعلَ بأسهم بينهم، فَمَنَعْنِيهَا». أخبرنا الإمام أبو علي الحسين بن محمد القاضي أنا السيد أبو الحسن محمد الحسين بن داود العلوي أنا أبو بكر محمد بن أحمد بن دلوية الدقاق ثنا محمد بن إسماعيل البخاري ثنا إسماعيل بن أبي أُويس حدّثني أخي عن سليمان بن بلال عن عبيد الله بن عمر جاءهم ثم قال: (إن النبي ﷺ دعا في مسجد فسأل الله ثلاثاً فأعطاه اثنتين ومنعه واحدة، سأله أن لا يُسلّط على أمته عدوّاً من غيرهم يظهرعليهم فأعطاه ذلك، وسأله أن لا يُهلكهم بالسنين فأعطاه ذلك، وسأله أن لا يجعل بأسَ بعضهم عل بعض، فمنعه ذلك)، قوله تعالى: ﴿ **انظرْ كيفَ نُصرِّفُ الآيات لعلّهم يفقهُون** ﴾.

﴿ **وكذَّب بهِ قومُك** ﴾، أي: بالقرآن، وقيل: بالعذاب، ﴿ **وهو الحقُّ قلْ لستُ عليكم بوكيل** ﴾، برقيب، وقيل: بمسلَّطٍ ألزمكم الإسلام شِئْتُمْ أو أبيتم، إنّما أنا رسول.

﴿ **لكل نبإٍ** ﴾، خبر من أخبار القرون، ﴿ **مُسْتَقَرٌّ** ﴾، حقيقة ومنتهى ينتهي إليه فيتبيّن صدقه من كذبه وحقه من باطله، إما في الدنيا وإمّا في الآخرة، ﴿ **وسوفَ تعلمُون** ﴾، وقال مقاتل: لكل خبر يخبره الله وقت وقّته ومكان يقع

قوله تعالى: ﴿وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا﴾ الخطاب في وإذا رأيت للنبي ﷺ والمعنى وإذا رأيت يا محمد هؤلاء المشركين الذين يخوضون في آياتنا يعني القرآن الذي أنزلناه إليك والخوض في اللغة هو الشروع في الماء والعبور فيه، ويستعار للأخذ في الحديث والشروع فيه. يقال: تخاوضوا في الحديث وتفاوضوا فيه، لكن أكثر ما يستعمل الخوض في الحديث على وجه اللعب والعبث وما يذم عليه ومنه قوله ﴿وكنا نخوض مع الخائضين﴾ وقيل: الخطاب في وإذا رأيت لكل فرد من الناس. والمعنى: وإذا رأيت أيها الإنسان الذين يخوضون في آياتنا وذلك أن المشركين كانوا إذا جالسوا المؤمنين وقعوا في الاستهزاء بالقرآن وبمن أنزله وبمن أنزل عليه، فنهاهم الله أن يقعدوا معهم في وقت الاستهزاء بقوله ﴿فأعرض عنهم﴾ يعني فاتركهم ولا تجالسهم ﴿حتى يخوضوا في حديث غيره﴾ يعني حتى يكون خوضهم في غير القرآن والاستهزاء به ﴿وإما ينسينك الشيطان﴾ يعني فقعدت معهم ﴿فلا تقعد بعد الذكرى﴾ يعني إذا ذكرت فقم عنهم ولا تقعد ﴿مع القوم الظالمين﴾ يعني المشركين قوله تعالى: ﴿وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء﴾ قال ابن عباس: لما نزلت هذه الآية ﴿وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم﴾ قال المسلمون: كيف نقعد في المسجد الحرام ونطوف بالبيت وهم يخوضون أبداً؟ وفي رواية، قال المسلمون: إنا نخاف الإثم حين نتركهم ولا ننهاهم فأنزل الله هذه الآية ﴿وما على الذين يتقون﴾ يعني يتقون الشرك والاستهزاء من حسابهم من حساب المشركين من شيء يعني ليس عليهم شيء من حسابهم ولا آثامهم ﴿ولكن ذكرى﴾ يعني ولكن ذكروهم ذكرى. وقيل: معناه ولكن عليكم أن تذكروهم ﴿لعلهم يتقون﴾ يعني لعل تلك الذكرى تمنعهم من الخوض والاستهزاء.

(فصل)

قال سعيد بن المسيب وابن جريج ومقاتل: هذه الآية منسوخة بالآية التي في سورة النساء وهي قوله تعالى: ﴿وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها﴾ وذهب الجمهور إلى أنها محكمة لا نسخ فيها لأنها خبر والخبر لا يدخله النسخ لأنها إنما دلت على أن كل إنسان إنما يختص بحساب نفسه لا بحساب غيره، وقيل: إنما أباح لهم القعود معهم بشرط التذكير والموعظة فلا تكون منسوخة. قوله عز وجل:

فيه من غير خلف ولا تأخير، وقال الكلبي: لكلِّ قولٍ وفعلٍ حقيقة، إمّا في الدنيا وإمّا في الآخرة وسوف تعلمون ما كان في الدنيا فستعرفونه وما كان في الآخرة فسوف يبدو لكم.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ وإذا رأيتَ الذين يخوضُون في آياتِنَا ﴾، يعني: في القرآن بالاستهزاء ﴿ فأعرضْ عنهم ﴾، فاتركهم ولا تجالسهم، ﴿ حتى يخوضُوا في حديثٍ غيرهِ وإمّا يُنْسِيَنّكَ ﴾، قرأ ابن عامر بفتح النون وتشديد السين وقرأ الآخرون بسكون النون وتخفيف السين، ﴿ الشيطانُ ﴾، نَهْيَنا، ﴿ فلا تقعدْ بعدَ الذِكرَى مَعَ القومِ الظّالمين ﴾، يعني: إذا جلست معهم ناسياً فقم من عندهم بعدما تذكرت.

﴿ وما على الذينَ يتّقُون مِن حِسَابِهِمْ منْ شيء ﴾، رُوِيَ عن ابن عباس أنه قال: لمّا نزلت هذه الآية: ﴿ وإذا رأيتَ الذينَ يخوضُون في آياتنا فأعرضْ عنهم ﴾، قال المسلمون: كيف نقعد في المسجد الحرام ونطوف بالبيت وهم يخوضون أبداً؟ وفي رواية قال المسلمون: فإنّا نخاف الإثم حين نتركهم ولا ننهاهم، فأنزل الله عزّ وجلّ، ﴿ وما على الذين يتّقون ﴾، الخوض، ﴿ من حسابهم ﴾، أي: من إثم الخائضين ﴿ من شيء ولكن ذِكْرَى ﴾، أي: ذكروهم وعِظُوهم بالقرآن، والذكر والذكرى واحد، يريد ذكرهم وهم ذكرى، فيكون في محل النصب، ﴿ لعلّهم يتّقون ﴾، الخوض إذا وعظتموهم فرخّصَ في مجالستهم على الوعظ لعلّهم يمنعهم من ذلك الخوض، قيل: لعلّهم يستحيون.

وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْ ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾ قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾

﴿وذر الذين اتخذوا دينهم لعباً ولهواً﴾ الخطاب للنبي. يعني: وذر يا محمد هؤلاء المشركين الذين اتخذوا دينهم الذي أمروا به ودعوا إليه وهو دين الإسلام لعباً ولهواً وذلك حيث سخروا به واستهزؤوا به وقيل إنهم اتخذوا عبادة الأصنام لعباً ولهواً. وقيل: إن الكفار كانوا إذا سمعوا القرآن لعبوا ولهوا عند سماعه. وقيل إن الله جعل لكل قوم عيداً فاتخذ كل قوم دينهم يعني عيدهم لعباً ولهواً يلعبون ويلهون فيه إلا المسلمين فإنهم اتخذوا عيدهم صلاة وتكبيراً وفعل الخير فيه مثل عيد الفطر وعيد النحر ويوم الجمعة ﴿وغرتهم الحياة الدنيا﴾ يعني أنهم اتخذوا دينهم لعباً ولهواً لأجل أنهم غرتهم الحياة الدنيا وغلب حبها على قلوبهم فأعرضوا عن دين الحق واتخذوا دينهم لعباً ولهواً ومعنى الآية: وذَرْ يا محمد الذين اتخذوا دينهم لعباً ولهواً واتركهم ولا تبالِ بتكذيبهم واستهزائهم وهذا يقتضي الإعراض عنهم ثم نسخ ذلك الإعراض بآية السيف وهو قول قتادة والسدي. وقيل: إنه خرج مخرج التهديد فهو كقوله ﴿ذرني ومن خلقت وحيداً﴾ وهذا قول مجاهد فعلى هذا تكون الآية محكمة. وقيل: المراد بالإعراض عنهم، ترك معاشرتهم ومخالطتهم لا ترك الإنذار والتخويف ويدل عليه قوله: ﴿وذكر به﴾ يعني وذكر بالقرآن وعِظ به هؤلاء المشركين ﴿أن تبسل نفس بما كسبت﴾ أي لئلا تبسل نفس وأصل البسل في اللغة: التحريم وضم الشيء ومنعه. وهذا عليك بسل: أي حرام ممنوع. فمعنى تبسل نفس بما كسبت: ترتهن وتحبس في جهنم وتحرم من الثواب بسبب ما كسبت من الآثام.

وقال ابن عباس: تبسل تهلك. وقال قتادة: تحبس يعني في جهنم. وقال الضحاك: تحرق بالنار. وقال ابن زيد: تؤخذ يعني بما كسبت. وقيل: تفضح. والمعنى: وذكرهم بالقرآن ومواعظه وعرفهم الشرائع لكي لا تهلك نفس وترتهن في جهنم بسبب الجنايات التي اكتسبت في الدنيا وتحرم الثواب في الآخرة ﴿ليس لها﴾ يعني لتلك النفس التي هلكت ﴿من دون الله ولي﴾ أي قريب يلي أمرها ﴿ولا شفيع﴾ يعني يشفع لها في الآخرة ﴿وإن تعدل كل عدل﴾ يعني وإن تفتد بكل فداء والعدل الفداء ﴿لا يؤخذ منها﴾ يعني العدل وتلك الفدية ﴿أولئك الذين﴾ إشارة إلى الذين اتخذوا دينهم لعباً ولهواً وغرتهم الحياة الدنيا ﴿أبسلوا بما كسبوا﴾ يعني أسلموا إلى الهلاك بسبب ما اكتسبوا ﴿لهم شراب من

قوله عزّ وجلّ: ﴿ وذَرِ الذينَ اتّخذُوا دينهم لعباً ولهواً ﴾، يعني: الكفّار الذين إذا سمعوا بآيات الله استهزؤا بها وتلاعبوا عند ذكرها، وقيل: إن الله تعالى جعل لكل قوم عيداً فاتخذ كل قوم دينهم، أي: عيدهم لعباً ولهواً وعيد المسلمين الصلاة وتكبيراتها وفعل الخير مثل الجمعة والفطر والنحر، ﴿ وغَرّتْهمُ الحياة الدنيا وذكِّرْ به ﴾ أي: وعظْ بالقرآن، ﴿ أنْ تُبْسَلَ ﴾، أي: لأن لا تبسل، أي: لا تسلم، ﴿ نفس ﴾، للهلاك، ﴿ بما كسبتْ ﴾، قال مجاهد وعكرمة والسدي: قال ابن عباس: تهلك، وقال قتادة: أن تحبس، وقال الضحاك: تحرق، وقال ابن زيد: تؤخذ، ومعناه: ذكرهم لأن يؤمنوا كيلا تهلك نفس بما كسبت، وقال الأخفش: تبسل تُجازى، وقيل: تفضح، وقال الفرّاء: ترتهن، وأصل الإبسال التحريم، والبسل الحرام، ثم جعل نعتاً لكل شدّة تُتّقى وتُترك ﴿ ليسَ لها ﴾، لتلك النفس، ﴿ مِن دُونِ الله وليٌّ ﴾، قريب، ﴿ ولا شفيع ﴾، يشفع في الآخرة ﴿ وإنْ تَعْدِلْ كلَّ عدلٍ ﴾، أي: تَفْدِ كل فداء،

حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون﴾ ذلك لهم بسبب كفرهم.

قوله تعالى: ﴿قل أندعو من دون الله ما لا ينفعنا ولا يضرنا﴾ يعني: قل يا محمد لهؤلاء المشركين الذين دعوك إلى دين آبائك أندعو يعني أنعبد من دون الله يعني الأصنام التي لا تنفع من عبدها ولا تضر من ترك عبادتها ﴿ونرد على أعقابنا﴾ يعني ونرد إلى الشرك ﴿بعد إذ هدانا الله﴾ يعني إلى دين الإسلام والتوحيد ﴿كالذي استهوته الشياطين في الأرض﴾ يعني كالذي ذهبت به الشياطين فألقته في هوية من الأرض وأصله من الهوى وهو النزول من أعلى إلى أسفل ﴿حيران﴾ يقال: حارَ فلان في الأمر، إذا تردد فيه فلم يهتد إلى الصواب ولا المخرج منه ﴿له أصحاب يدعونه إلى الهدى﴾ يعني لهذا المتحير الذي استهوته الشياطين أصحاب على الطريق المستقيم ﴿ائتنا﴾ يعني يقولون له ائتنا وهذا مثل ضربه الله لمن يدعو إلى عبادة الأصنام التي لا تضر ولا تنفع ولمن يدعو إلى عبادة الله عز وجل الذي يضر وينفع يقول مثلهما كمثل رجل في رفقة ضل به الغول والشيطان عن الطريق المستقيم فجعل أصحابه ورفقته يدعونه إليهم يقولون: هلم إلى الطريق المستقيم وجعل الغيلان يدعونه إليهم فبقي حيران لا يدري أين يذهب فإن أجاب الغيلان ضل وهلك وإن أجاب أصحابه اهتدى وسلم ﴿قل إن هدى الله هو الهدى﴾ يعني أن طريق الله الذي أوضحه لعباده ودينه الذي شرعه لهم هو الهدى والنور والاستقامة لا عبادة الأصنام ففيه زجر عن عبادتها كأنه يقول لا تفعل ذلك فإن هدى الله هو الهدى لا هدى غيره ﴿وأمرنا لنسلم﴾ أي وأمرنا أن نسلم ونخلص العبادة ﴿لرب العالمين﴾ لأنه هو الذي يستحق العبادة لا غيره.

وَأَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ ۚ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ ۚ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾

﴿وأن أقيموا الصلاة واتقوه﴾ يعني وأمرنا بإقامة الصلاة والتقوى لأن فيهما ما يقرب إليه ﴿وهو الذي إليه تحشرون﴾ يعني في يوم القيامة فيجزيكم بأعمالكم.

﴿ لا يُؤخَذْ منها ﴾، هنا، ﴿ أولئكَ الذينَ أُبْسِلُوا ﴾، أُسْلموا للهلاك، ﴿ بما كسبُوا لهمْ شرابٌ من حميم وعذابٌ أليمٌ بما كانوا يكفُرون ﴾.

﴿ قلْ أندعُوا مِن دُونِ اللَّهِ ما لا ينفعُنا ﴾، إن عبدناه، ﴿ ولا يضرُّنا ﴾، إنْ تركناه، يعني: الأصنام ليس إليها نفع ولا ضر، ﴿ ونُردُّ على أعقابِنَا ﴾، إلى الشرك مرتدّين، ﴿ بعدَ إذْ هدانا اللَّهُ كالذي استهوتهُ الشياطينُ ﴾، أي: يكون مَثَلُنا كمثل الذي استهوته الشياطين، أي: أضلّته، ﴿ في الأرض حَيْرَانَ ﴾، قال ابن عباس: كالذي استغوته الغيلان في المهامة فأضلّوه فهو حائر بائر، والحيران: المتردّد في الأمر لا يهتدي إلى مخرج منه، ﴿ له أصحابٌ يدعونَه إلى الهُدَى ائتِنَا ﴾، هذا مثل ضربه الله تعالى لمَن يدعو إلى الآلهة ولمَن يدعو إلى الله تعالى كمثل رجل في رفقة ضلّ به الغول عن الطريق أصحابه من أهل الرفقة هلمَّ إلى الطريق، ويَدعوه الغول فيبقى حيران لا يدري أين يذهب، فإن أجاب الغول انطلق به حتى يلقيه إلى الهلكة، وإن أجاب من يدعوه إلى الطريق اهتدى، ﴿ قلْ إنّ هُدَى اللَّهِ هوَ الهُدَى ﴾، يزجر عن عبادة الأصنام، كأنه يقول: لا تفعل ذلك فإن الهدى هدى الله لا يهدي غيرُه، ﴿ وأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ ﴾، أي: أن نُسلم، ﴿ لربِّ العالمين ﴾، والعرب تقول: أمرتك لتفعل وأن تفعل وبأن تفعل.

﴿ وأن أقيمُوا الصلاةَ واتّقُوه ﴾، أي: وأُمرنا بإقامة الصلاة والتقوى، ﴿ وهو الذي إليه تُحشرُون ﴾ أي: تجمعون في الموقف للحساب.

قوله عز وجل: ﴿**وهو الذي خلق السموات والأرض بالحق**﴾ يعني إظهاراً للحق فعلى هذا تكون الباء بمعنى اللام لأنه جعل صنعه دليلاً على وحدانيته. وقيل: خلقها بكمال قدرته وشمول علمه وإتقان صنعه وكل ذلك حق. وقيل خلقها بكلامه الحق وهو قول كن وفيه دليل على أن كلام الله تعالى ليس بمخلوق لأنه لا يخلق مخلوق بمخلوق ﴿**ويوم يقول كن فيكون**﴾. وقيل إنه راجع إلى خلق السموات. والمعنى: اذكر يوم قال للسموات والأرض كن فيكون. وقيل: يرجع إلى القيامة ويدل عليه سرعة البعث والحساب كأنه قال: ويوم يقول للخلق موتوا فيموتون وقوموا للحساب فيقومون أحياء ﴿**قوله الحق**﴾ يعني أن قول الله تبارك وتعالى للشيء إذا أراده كن فيكون حق وصدق وهو كائن لا محالة ﴿**وله الملك يوم ينفخ في الصور**﴾ إنما أخبر عن ملكه يومئذ وإن كان الملك له سبحانه وتعالى خالصاً في كل وقت في الدنيا والآخرة لأنه لا منازع يومئذ يدعي الملك وأنه المنفرد بالملك يومئذ وأن من كان يدعي الملك بالباطل من الجبابرة والفراعنة وسائر الملوك الذين كانوا في الدنيا قد زال ملكهم واعترفوا بأن الملك لله الواحد القهار وإنه لا منازع له فيه واعلموا أن الذي كانوا يدعونه من الملك في الدنيا باطل وغرور.

واختلف العلماء في الصور المذكور في الآية فقال قوم: هو قرن ينفخ فيه وهو لغة أهل اليمن. قال مجاهد: الصور قرن كهيئة البوق ويدل على صحة هذا القول ما روي عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال ما الصور؟ «قال قرن ينفخ فيه» أخرجه أبو داود والترمذي.

عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ «كيف أنتم وقد التقم صاحب القرن القرن وحنى جبهته وأصغى سمعه ينتظر أن يؤمر فينفخ فكان ذلك ثقل على أصحابه» فقالوا كيف نفعل يا رسول الله وكيف نقول؟ قال: «قولوا حسبنا الله ونعم الوكيل على الله توكلنا، وربما قال توكلنا على الله» أخرجه الترمذي. وقال أبو عبيدة: الصور جمع صورة والنفخ فيه إحياؤها بنفخ الروح فيها. وهذا قول الحسن ومقاتل. والقول الأول أصح لما تقدم في الحديث ولقوله تعالى في آية أخرى: ثم نفخ فيه أخرى: ولإجماع أهل السنة أن المراد بالصور هو القرن الذي ينفخ فيه إسرافيل نفختين، نفخة الصعق، ونفخة البعث للحساب.

﴿ **وهو الذي خلقَ السمٰواتِ والأرضَ بالحقّ** ﴾، قيل: الباء بمعنى اللام، أي: إظهاراً للحق لأنه جعل صنعه دليلاً على وحدانيته، ﴿ **ويومَ يقولُ كنْ فيكُونُ** ﴾، قيل: هو راجع إلى خلق السمٰواتِ والأرض والخلق، بمعنى: القضاء والتقدير، أي: كل شيء قضاه وقدّره قال له: كن، فيكون، وقيل: يرجع إلى القيامة يدلّ على سرعة أمر البعث والساعة، كأنه قال: ويوم يقول للخلق موتوا فيموتوا فيقومون، ﴿ **قولُهُ الحقُّ** ﴾، أي: الصدق الواقع لا محالة، يريد أن ما وعده حق كائن، ﴿ **ولَهُ المُلْكُ يومَ يُنفخ في الصُّور** ﴾، يعني: مُلْكُ الملوك يومئذ زائل، كقوله: ﴿ مالك يوم الدين ﴾ [الفاتحة: ٤]، وكما قال: ﴿ والأمرُ يومئذٍ لله ﴾ [الانفطار: ١٩]، والأمر لله في كل وقت، ولكن لا أمر في ذلك اليوم لأحد مع أمر الله، والصُّور: قرنٌ يُنفخ فيه، قال مجاهد: كهيئة البوق، وقيل: هو بلغة أهل اليمن، وقال أبو عبيدة: الصور هو الصُّور وهو جمع الصّورة، وهو قول الحسن، والأول أصحّ، والدليل عليه ما أخبرنا محمد بن عبد الله بن أبي توبة أنا أبو طاهر المحاربي أنا محمد بن يعقوب الكسائي أنا أبو عبد الله بن محمود أنا إبراهيم بن عبد الله الخلال أنا عبد الله بن المبارك عن سليمان التيمي عن أسلم عن بشر بن شغاف عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال: ما الصور؟ قال: «قَرْنٌ يُنفخُ فيه»، أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحي أنا أبو سعيد محمد بن موسى الصيرفي أنا أبو عبد الله بن محمد بن عبد الله الصفّار أنا أحمد بن محمد بن عيسى البرقي أنا أبو حذيفة أنا سفيان عن الأعمش عن عطية بن سعد العوفي عن أبي سعيد الخدري أنّ النبي ﷺ قال: «كيف أَنْعَمُ وصاحبُ الصُّورِ قد الْتَقَمَهُ، وأَصْغَى سمعَهُ وحنَى جبهتَهُ ينتظرُ متى

وقوله تعالى: ﴿عالم الغيب والشهادة﴾ يعني أنه تعالى ما غاب عن عباده وما يشاهدونه فلا يغيب عن عمله شيء ﴿وهو الحكيم﴾ يعني في جميع أفعاله وتدبير خلقه ﴿الخبير﴾ يعني بكل ما يفعلونه من خير أو شر.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر﴾ اختلف العلماء في لفظ آزر فقال محمد بن إسحاق والكلبي والضحاك: آزر اسم أبي إبراهيم وهو تارح ضبطه بعضهم بالحاء المهملة وبعضهم بالخاء المعجمة فعلى هذا يكون لأبي إبراهيم اسمان: آزر وتارح مثل يعقوب وإسرائيل اسمان لرجل واحد فيحتمل أن يكون اسمه الأصلي آزر وتارح لقب له وبالعكس والله سماه آزر وإن كان عند النسابين والمؤرخين اسمه تارح ليعرف بذلك وكان آزر أبو إبراهيم من كوثي وهي قرية من سواد الكوفة. وقال سليمان التيمي: آزر سب وعيب. ومعناه في كلامهم المعوج. وقيل: الشيخ الهرم وهو بالفارسية وهذا على مذهب من يجوز أن في القرآن ألفاظاً قليلة فارسية. وقيل: هو المخطىء فكان إبراهيم عابه وذمه بسبب كفره وزيغه عن الحق. وقال سعيد بن المسيب ومجاهد: آزر اسم صنم كان والد إبراهيم يعبده وإنما سماه بهذا الاسم لأن من عبد شيئاً أو أحبه جعل اسم ذلك المعبود أو المحبوب اسماً له فهو كقوله: ﴿يوم ندعو كل أناس بإمامهم﴾ وقيل: معناه وإذا قال إبراهيم لأبيه آزر فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه والصحيح هو الأول أن آزر اسم لأبي إبراهيم لأن الله تعالى سماه به وما نقل عن النسابين والمؤرخين أن اسمه تارح ففيه نظر لأنهم إنما نقلوه عن أصحاب الأخبار وأهل السير من أهل الكتاب ولا عبرة بنقلهم.

وقد أخرج البخاري في أفراده من حديث أبي هريرة أن النبي ﷺ قال «يلقى إبراهيم عليه السلام أباه آزر يوم القيامة وعلى وجه آزر قترة وغبرة» الحديث فسماه النبي ﷺ آزر أيضاً ولم يقل أباه تارخ فثبت بهذا أن اسمه الأصلي آزر لا تارخ والله أعلم.

يُؤمر»؟ فقالوا: يا رسول الله وما تأمر؟ قال: «قولُوا حسبنا اللّٰهُ ونِعْمَ الوكيل». وقال أبو العلاء عن عطية متى يؤمر بالنفخ فينفخ، قوله تعالى: ﴿ عالمُ الغيبِ والشّهادة ﴾، يعني: يعلم ما غاب عن العباد وما يشاهدونه لا يغيب عن علمه شيء، ﴿ وهو الحكيم الخبير ﴾.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ وإذْ قال إبراهيمُ لأبيهِ آزَرَ ﴾، قـرأ يعقـوب «آزر» بالرفع، يعني: « آزَرُ »، والقراءة المعروفة بالنصب، وهو اسم أعجمي لا ينصرف فينصب في موضع الخفض، قال محمد بن إسحق والضحاك والكلبي: آزر اسم أبي إبراهيم وهو تارخ أيضاً مثل إسرائيل ويعقوب وكان من كوثى قرية من سواد الكوفة، وقال مقاتل بن حيان وغيره: آزر لقب لأبي إبراهيم، واسمه تارخ، وقال سليمان التيمي: هو سبٌّ وعيب، ومعناه في كلامهم المعوج، وقيل: معناه الشيخ الهرم بالفارسية، وقال سعيد بن المسيب ومجاهد: آزر اسم صنم، فعلى هذا يكون في محل النصب تقديره أتتخذ آزر إلٰهاً، قوله: ﴿ أتتخذ أصناماً آلهةً ﴾، دون الله، ﴿ إني أراكَ وقومكَ في ضلالٍ مبين ﴾، أي: في خطأ بيّن.

﴿ وكذلك نُري إبراهيمَ ﴾، أي: كما أريناه البصيرة في دينه، والحق في خلاف قومه كذلك نريه، ﴿ ملكوت السمٰوات والأرض ﴾، والملكوت الملك زيدت فيه التاء للمبالغة كالجبروت والرحموت والرهبوت،

وقوله تعالى: ﴿**أتتخذ أصناماً آلهة**﴾ معناه: اذكر لقومك يا محمد قول إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناماً آلهة تعبدها من دون الله الذي خلقك ورزقك. والأصنام: جمع صنم وهو التمثال الذي يتخذ من خشب أو حجارة أو حديد أو ذهب أو فضة على صورة الإنسان وهو الوثن أيضاً ﴿**إني أراك وقومك في ضلال مبين**﴾ يعني: يقول إبراهيم لأبيه آزر: إني أراك وقومك الذين يعبدون الأصنام معك ويتخذونها آلهة في ضلال يعني عن طريق الحق مبين يعني بيِّن لمن أبصر ذلك فإنه لا يشك أن هذه الأصنام لا تضر ولا تنفع وهذه الآية احتجاج على مشركي العرب بأحوال إبراهيم ومحاجته لأبيه وقومه لأنهم كانوا يعظمون إبراهيم ﷺ ويعترفون بفضله فلا جرم ذكر قصة إبراهيم عليه السلام مع أبيه وقومه في معرض الاحتجاج على المشركين قوله عز وجل: ﴿**وكذلك نري إبراهيم ملكوت السموات والأرض**﴾ معناه وكما أرينا إبراهيم البصيرة في دينه والحق في خلاف قومه وما كانوا عليه من الضلال في عبادة الأصنام نريه ملكوت السموات والأرض فلهذا السبب عبر عن هذه الرؤية بلفظ المستقبل في قوله وكذلك نرى إبراهيم لأنه تعالى كان أراه بعين البصيرة أن أباه وقومه على غير الحق فخالفهم فجزاه الله بأن أراه بعد ذلك ملكوت السموات والأرض فحسنت هذه العبارة لهذا المعنى. والملكوت: الملك زيدت فيه التاء للمبالغة كالرهبوت والرغبوت والرحموت من الرهبة والرغبة والرحمة.

قال ابن عباس: يعني خلق السموات والأرض. وقال مجاهد وسعيد بن جبير: يعني آيات السموات والأرض وذلك أنه أقيم على صخرة وكشف له عن السموات حتى رأى العرش والكرسي وما في السموات من العجائب وحتى رأى مكانه في الجنة فذلك قوله: ﴿وآتيناه أجره في الدنيا﴾ يعني أريناه مكانه في الجنة وكشف له عن الأرض حتى نظر إلى أسفل الأرضين ورأى ما فيها من العجائب. قال البغوي: وروي عن سليمان ورفعه بعضهم عن علي قال: لما رأى إبراهيم ملكوت السموات والأرض أبصر رجلاً على فاحشة فدعا عليه فهلك ثم أبصر آخر فدعا عليه فهلك ثم أبصر آخر فأراد أن يدعو عليه فقال له تبارك وتعالى: ﴿يا إبراهيم أنت رجل مجاب الدعوة فلا تدعون على عبادي فإنما أنا من عبدي على ثلاث خلال: إما أن يتوب إلي فأتوب عليه وإما أن أخرج منه نسمة تعبدني وإما أن يبعث إلي فإن شئت عفوت وإن شئت عاقبت﴾ وفي رواية، وإن تولى فإن جهنم من ورائه، قال قتادة: ملكوت السموات الشمس والقمر والنجوم وملكوت الأرض الجبال والشجر والبحار، واختلف في هذه الرؤية هل كانت بعين البصر أو بعين البصيرة على قولين: **أحدهما** إنها كانت بين البصر الظاهر فشق لإبراهيم السموات حتى رأى العرش وشق له الأرض حتى رأى ما في بطنها.

قال ابن عباس: يعني خلق السمٰوات والأرض، وقال مجاهد وسعيد بن جبير: يعني آيات السمٰوات والأرض، وذلك أنه أُقيم على صخر وكشف له عن ملكوت السمٰوات والأرض حتى العرش وأسفل الأرضين ونظر إلى مكانه في الجنَّة، فذلك قوله تعالى: ﴿ وآتيناه أَجْرَهُ في الدنيا ﴾ [العنكبوت: ٢٧] يعني: أريناه مكانه في الجنة، ورُوِيَ عن سلمان رضي الله عنه، ورفعه بعضهم عن عليّ رضي الله عنه لمّا أُرِي إبراهيم ملكوت السمٰوات والأرض أبصر رجلاً على فاحشة فدعا عليه فهلك، ثم أبصر آخر فدعا عليه فهلك، ثم أبصر آخر فأراد أن يدعو عليه فقال له الربّ عزّ وجلّ: «يا إبراهيم إنك رجل مستجاب الدعوة، فلا تدعونَّ على عبادي فإنما أنا من عبدي على ثلاث خصال: إمّا أن يتوب إليّ فأتوب عليه، وإمّا أن أخرج منه نسمة تعبدني، وإمّا أن يبعث إليّ فإن شئتُ عفوتُ عنه، وإن شئتُ عاقبتُه» وفي رواية: «وإمّا أن يتولى فإنّ جهنم من ورائه». وقال قتادة: ملكوت السمٰوات والشمس والقمر والنجوم، وملكوت الأرض والجبال والشجر والبحار، ﴿ وليكونَ مِنَ المُوقِنِين ﴾، عطف على المعنى، ومعناه: نُريه ملكوت السمٰوات والأرض، ليستدلّ به وليكون من الموقنين.

والقول الثاني: إن هذه الرؤية كانت بعين البصيرة لأن ملكوت السموات والأرض عبارة عن الملك وذلك لا يعرف إلا بالعقل فبان بهذا أن هذه الرؤية كانت بعين البصيرة، إلا أن يقال: المراد بملكوت السموات والأرض نفس السموات والأرض.

وقوله تعالى: ﴿**وليكون من الموقنين**﴾ عطف على المعنى ومعناه «وكذلك نري إبراهيم ملكوت السموات والأرض» ليستدل به ﴿**وليكون من الموقنين**﴾ واليقين: عبارة عن علم يحصل بسبب التأمل بعد زوال الشبهة، لأن الإنسان في أول الحال لا ينفك عن شبهة وشك، فإذا كثرت الدلائل وتوافقت، صارت سبباً لحصول اليقين والطمأنينة في القلب وزالت الشبهة عند ذلك: قال ابن عباس في وليكون من الموقنين جلا له الأمر سره وعلانيته فلم يخف عليه شيء من أعمال الخلائق فلما جعل يلعن أصحاب الذنوب قال الله تعالى: إنك لا تستطيع هذا فردَّه الله كما كان قبل ذلك فمعنى الآية على هذا القول وكذلك أريناه ملكوت السموات والأرض ليكون ممن يوقن علم كل شيء حساً وخبراً.

وقوله تعالى: ﴿**فلما جن عليه الليل**﴾ يقال جن الليل وأجن إذا أظلم وغطى كل شيء وأجنه الليل وجن عليه إذا ستره بسواده ﴿**رأى كوكباً قال هذا ربي**﴾

(ذكر القصة في ذلك)

قال أهل التفسير وأصحاب الأخبار والسير: ولد إبراهيم عليه السلام في زمن نمرود بن كنعان الملك وكان نمرود أول من وضع التاج على رأسه ودعا الناس إلى عبادته وكان له كهان منجمون، فقالوا له: إنه يولد في بلدك هذه السنة غلام يغير دين أهل الأرض ويكون هلاكك وزوال ملكك على يديه. ويقال: إنهم وجدوا ذلك في كتب الأنبياء. وقال السدي: رأى نمرود في منامه كأن كوكباً قد طلع فذهب بضوء الشمس والقمر حتى لم يبق لهما ضوء ففزع من ذلك فزعاً شديداً، فدعا السحرة والكهان وسألهم عن ذلك، فقالوا: هو مولود يولد في ناحيتك في هذه السنة يكون هلاكك وزوال ملكك وهلاك أهل دينك على يديه، فأمر بذبح كل غلام يولد في تلك السنة في ناحيته وأمر بعزل النساء عن الرجال وجعل على كل عشرة، رجلاً يحفظهم فإذا حاضت المرأة خلى بينها وبين زوجها لأنهم كانوا لا يجامعون في المحيض فإذا طهرت من الحيض حالوا بينهما. قالوا: فرجع آزر فوجد امرأته قد طهرت من الحيض فواقعها فحملت بإبراهيم. وقال محمد بن إسحاق: بعث نمرود إلى كل رجل امرأة حبلى بقربه فحبسها عنده إلا ما كان من أم

﴿ فلمّا جَنّ عليه الليلُ رأى كوكباً ﴾، الآية، قال أهل التفسير: ولد إبراهيم عليه السلام في زمن نمرود بن كنعان، وكان نمرود أول مَن وضع التاج على رأسه ودعا الناسَ إلى عبادته، وكان له كهّان ومُنجّمون، فقالوا له: إنه يولد في بلدك هذه السنة غلام يغيّر دين أهل الأرض ويكون هلاكك وزوال ملكك على يديه، ويقال: إنهم وجدوا ذلك في كتب الأنبياء عليهم السلام، فقال السدي: رأى نمرود في منامه كأن كوكباً طلع فذهب بضوء الشمس والقمر حتى لم يبقَ لهما ضوء، ففزع من ذلك فزعاً شديداً، فدعا السَحَرَة والكَهَنة فسألهم عن ذلك، فقالوا: هو مولود يُولد في ناحيتك في هذه السنة، فيكون هلاكك وهلاك مُلْكك وأهل بيتك على يديه، قالوا: فأمر بذبح كل غلام يولد في ناحيته في تلك السنة، وأمر بعزل الرجال عن النساء، وجعل على كل عشرة رجلاً فإذا حاضت المرأة خلّى بينها وبين زوجها، لأنهم كانوا لا يجامعون في الحيض، فإذا طهرت حال بينهما، فرجع آزر فوجد امرأته قد طهرت من الحيض فواقعها، فحملت بإبراهيم عليه السلام، وقال محمد بن إسحق: بعث نمرود إلى كل امرأة حُبلى بقرية، فحبسها عنده إلاّ ما كان من أمِ إبراهيم عليه السلام، فإنه لم يعلم بحبلها لأنها كانت جارية حديثة

إبراهيم فإنه لم يعلم بحبلها لأنها كانت جارية صغيرة لم يعرف الحبل في بطنها. وقال السدي: فخرج نمرود بالرجال إلى العسكر وعزلهم عن النساء تخوفاً من ذلك المولود فمكثت بذلك ما شاء الله ثم بدت له حاجة إلى المدينة فلم يأمن عليها أحداً من قومه إلا آزر فبعث إليه فأحضره عنده وقال له: إن لي إليك حاجة أحب أن أوصيك بها ولم أبعثك فيها إلا لثقتي بك فأقسمت عليك ألا تدنو من أهلك. فقال آزر: أنا أشح على ديني من ذلك فأوصاه بحاجته فدخل المدينة وقضى حاجة الملك، ثم قال: لو دخلت على أهلي فنظرت إليهم فلما دخل على أم إبراهيم ونظر إليها لم يتمالك حتى واقعها فحملت من ساعتها بإبراهيم. قال ابن عباس: لما حملت أم إبراهيم قال الكهان لنمرود: إن الغلام الذي أخبرناك به قد حملت به أمه الليلة، فأمر نمرود بذبح الغلمان فلما دنت ولادة أم إبراهيم وأخذها المخاض، خرجت هاربة مخافة أن يطلع عليها فيقتل ولدها. قالوا: فوضعته في نهر يابس ثم لفته في خرقة ووضعته في حلفاء ثم رجعت فأخبرت زوجها بأنها ولدت وأن الولد في موضع كذا، فانطلق إليه أبوه فأخذه من ذلك المكان وحفر له سرباً في النهر فواراه فيه وسد بابه بصخرة مخافة السباع. وكانت أمه تختلف إليه فترضعه. وقال محمد بن إسحاق: لما وجدت أم إبراهيم الطلق خرجت ليلاً إلى مغارة كانت قريبة منها فولدت فيها إبراهيم وأصلحت من شأنه ما يصلح بالمولود ثم سدت عليها باب المغارة ثم رجعت إلى بيتها. وكانت تختلف إليه لتنظر ما فعل فتجده حياً وهو يمص إبهامه. قال أبو روق: قالت أم إبراهيم لأنظرن إلى أصابعه فوجدته يمص من أصبع ماء، ومن أصبع لبناً، ومن أصبع سمناً، ومن أصبع عسلاً، ومن أصبع تمراً. وقال محمد بن إسحاق: كان آزر قد سأل أم إبراهيم عن حملها ما فعل فقالت: ولدت غلاماً فما صدقها وسكت عنها. وكان إبراهيم يشب في اليوم كالشهر وفي الشهر كالسنة فلم يمكث في المغارة إلا خمسة عشر شهراً حتى قال: أخرجيني فأخرجته عشاء فنظر وتفكر في خلق السموات والأرض. وقال: إن الذي خلقني ورزقني وأطعمني وساقني لربي الذي ما لي إله غيره ونظر في السماء فرأى كوكباً قال: هذا ربي ثم أتبعه بصره ينظر إليه حتى غاب فلما أفل قال: لا أحب الآفلين.

فلما رأى القمر بازغاً، قال: هذا ربي وأتبعه بصره ينظر إليه حتى غاب ثم طلعت الشمس قال هكذا إلى آخره ثم رجعت به إلى أبيه آزر قد استقامت وجهته وعرف ربه وبرىء من دين قومه إلا أنه لم ينادهم بذلك. فلما رجعت به أمه، أخبرته أنه ابنه وأخبرته بما صنعت به فسر بذلك وفرح فرحاً شديداً. وقيل: إنه مكث في السرب سبع سنين. وقيل: ثلاث عشرة سنة وقيل سبع عشرة سنة. قالوا، فلما شب إبراهيم وهو في السرب قال لأمه: من ربي؟ قالت: أنا. قال: فمن ربك؟ قالت: أبوك. قال: فمن رب أبي؟ قالت: اسكت، ثم رجعت إلى زوجها فقالت أرأيت الغلام

السن، لم يعرف الحبل في بطنها، وقال السدي: خرج نمرود بالرجال إلى معسكر ونحاهم عن النساء تخوفاً من ذلك المولود أن يكون، فمكث بذلك ما شاء الله ثم بدت له حاجة إلى المدينة، فلم يأتمن عليها أحداً من قومه إلاّ آزر، فبعث إليه ودعاه وقال له: إنّ لي حاجة أُريد أن أُوصيك بها ولا أبعثك إلاّ لثقتي بك، فأقسمت عليك أن لا تدنو من أهلك، فقال آزر: أنا أشحّ على ديني من ذلك، فأوصاه بحاجته، فدخل المدينة وقضى حاجته، ثم قال: لو دخلت على أهلي فنظرت إليهم فلمّا نظر إلى أُم إبراهيم عليه السلام لم يتمالك حتى واقعها، فحملت بإبراهيم عليه السلام، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: لمّا حملت أُم إبراهيم قال الكهّان لنمرود: إن الغلام الذي أخبرناك به قد حملته أُمّه الليلة، فأمر نمرود بقتل الغلمان، فلمّا دنت ولادة أُم إبراهيم عليه السلام وأخذها المخاض خرجت هاربة مخافة أن يطّلع عليها فيقتل ولدها، فوضعته في نهر يابس ثم لفّته في خرقة ووضعته في حلفاء فرجعت فأخبرت زوجها بأنها ولدت وأن الولد في موضع كذا وكذا فانطلق أبوه فأخذه من ذلك المكان وحفر له سرباً عند نهر، فواراه فيه وسدّ عليه بابه بصخرة مخافة السّباع، وكانت أُمه تختلف إليه فترضعه، وقال محمد بن إسحق: لمّا

الذي كنا نحدث أنه يغير دين أهل الأرض فإنه ابنك. ثم أخبرته بما قال فأتاه أبوه آزر فقال إبراهيم: يا أبتاه من ربي؟ قال: أمك. قال: فمن رب أمي؟ قال: أنا. قال: فمن ربك؟ قال: نمرود. قال: فمن رب نمرود؟ فلطمه لطمة وقال: اسكت.

فلما جن عليه الليل دنا من باب السرب فنظر من خلال الصخرة فأبصر كوكباً قال: هذا ربي ويقال إنه قال لأبويه: أخرجاني، فأخرجاه من باب السرب حين غابت الشمس فنظر إبراهيم إلى الإبل والخيل والغنم فسأل أباه ما هذه؟ قال: إبل وخيل وغنم. فقال إبراهيم: ما لهذه بد من أن يكون لها إله وهو ربها وخالقها. ثم نظر، فإذا المشتري قد طلع ويقال إنها الزهرة، وكانت تلك الليلة من آخر الشهر فتأخر طلوع القمر فرأى الكوكب قبل القمر فذلك قوله عز وجل: ﴿**فلما جن عليه الليل**﴾ يعني ستره بظلامه رأى كوكباً قال ﴿**هذا ربي**﴾ ثم اختلف العلماء في وقت هذه الرؤية وفي وقت هذا القول هل كان قبل البلوغ أو بعده على قولين: أحدهما أنه كان قبل البلوغ في حال طفوليته وذلك قبل قيام الحجة عليه فلم يكن لهذا القول الذي صدر من إبراهيم في هذا الوقت اعتبار ولا يترتب عليه حكم لأن الأحكام إنما تثبت بعد البلوغ. وقيل: إن إبراهيم لما خرج من السرب في حال صغره ونظر إلى السماء وما فيها من العجائب ونظر إلى الأرض وما فيها من العجائب وكان قد خصه الله بالعقل الكامل والفطرة السليمة تفكر في نفسه وقال لا بد لهذا الخلق من خالق مدبر وهو إله الخلق، ثم نظر في حال تفكره فرأى الكوكب وقد أزهر، فقال: هذا ربي على ما سبق إلى وهمه وذلك في حال طفوليته وقبل استحكام النظر في معرفة الرب سبحانه وتعالى واستدل أصحاب هذا القول على صحته بقوله ﴿لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين﴾ قالوا وهذا يدل على نوع تحير وذلك لا يكون إلا في حال الصغر وقبل البلوغ وقيام الحجة وهذا القول ليس بسديد ولا مَرْضي لأن الأنبياء معصومون في كل حال من الأحوال وأنه لا يجوز أن يكون لله عز وجل رسول يأتي عليه وقت من الأوقات إلا وهو بالله عارف وله موحد وله من

وجدتْ أُم إبراهيم الطلق خرجت ليلاً إلى مغارة كانت قريبة منها فولدت فيها إبراهيم عليه السلام وأصلحت من شأنه ما يصنع بالمولود، ثم سدّت عليه المغارة ورجعت إلى بيتها ثم كانت تطالعه لتنظر ما فعل فتجده حيّاً يمصّ إبهامه، وقال أبو روق: قالت أُم إبراهيم ذات يوم لأنظرنّ إلى أصابعه، فوجدته يمصّ من أصبع ماءً، ومن أصبع لبناً ومن أصبع عسلاً ومن أصبع تمراً، ومن أصبع سمناً. وقال محمد بن إسحق: كان آزر قد سأل أُم إبراهيم عن حملها ما فعل؟ فقالت: قد ولدتُ غلاماً فمات، فصدقها فسكت عنها، وكان اليوم على إبراهيم في النشوء كالشهر والشهر كالسنة فلم يمكث إبراهيم في المغارة إلّا خمسة عشر شهراً حتى قال لأمه أخرجيني فأخرجته عِشاءً فنظرَ وتفكّر في خلق السمٰواتِ والأرضِ، وقال: إن الذي خلقني ورزقني وأطعمني وسقاني لربي الذي ما لي إلٰه غيره، ثم نظر إلى السماء فرأى كوكباً فقال: هذا ربّي، ثم أتبعه بصره ينظر إليه حتى غاب، فلما أفل، قال: لا أُحبّ الآفلين، ثم أتبعه ببصره حتى غاب، ثم طلعت الشمس هكذا إلى آخره، ثم رجع إلى أبيه آزر وقد استقامت وجهته وعرف ربّه وبرىء من دين قومه إلّا أنه لم ينادهم بذلك، فأخبره أنه ابنه وأخبرته أُم إبراهيم أنه ابنه، وأخبرته بما كانت صنعت في شأنه فَسُرَّ آزر بذلك وفرح فرحاً شديداً. وقيل: إنه كان في السرب سبع سنين، وقيل: ثلاثة عشرة سنة، وقيل: سبعة عشرة سنة، قالوا: فلما شبّ إبراهيم عليه السلام، وهو في السرب قال لأمه: مَنْ ربّي؟ قالت: أنا، قال: فمنْ ربُّكِ؟ قالت: أبوك، قال: فمَن ربُّ أبي؟ قالت: نمرود، قال: فمَنْ ربُّه؟ قالت له: اسكت فسكت، ثم رجعت إلى زوجها فقالت: أرأيت الغلام الذي كنّا نحدّث أنه يغيّر دين أهل الأرض فإنه ابنك، ثم أخبرته بما قال، فأتاه أبوه آزر، فقال له إبراهيم عليه السلام: يا أبتاه مَنْ ربّي؟ قال: أُمُّك، قال: فمَن ربُّ أُمي؟ قال: أنا، قال: فمَن ربُّك؟ قال: نمرود، قال: إنه قال لأبويه أخرجاني فأخرجاه من السرب وانطلقا به حين غابت الشمس، فنظر إبراهيم إلى

كل منقصة منزه ومن كل معبود سواه بريء وكيف يتوهم هذا على إبراهيم وقد عصمه الله وطهره وآتاه رشده من قبل وأراه ملكوت السموات والأرض أفبرؤية الكوكب يقول معتقداً هذا ربي؟ حاشا إبراهيم ﷺ من ذلك لأن منصبه أعلى وأشرف من ذلك ﷺ.

والقول الثاني: الذي عليه جمهورالمحققين إن هذه الرؤية وهذا القول كان بعد بلوغ إبراهيم وحين شرفه الله بالنبوة وأكرمه بالرسالة ثم اختلف أصحاب هذا القول في تأويل الآية ومعناها فذكروا فيها وجوهاً:

الوجه الأول: أن إبراهيم عليه السلام أراد أن يستدرج قومه بهذا القول ويعرفهم جهلهم وخطأهم في تعظيم النجوم وعبادتها لأنهم كانوا يرون أن كل الأمور إليها، فأراهم إبراهيم أنه معظِّمٌ ما عظموه فلما أفل الكوكب والقمر والشمس أراهم النقص الداخل على النجوم بسبب الغيبوبة والأفول ليثبت خطأ ما كانوا يعتقدون فيها من الألوهية. ومثل هذا كمثل الحواري الذي ورد على قوم كانوا يعبدون صنماً فأظهر تعظيمه فأكرموه لذلك حتى صاروا يصدرون عن رأيه في كثير من أمورهم إلى أن دهمهم عدو لا قبل لهم به فشاوروه في أمر هذا العدو فقال: الرأي عندي أن ندعو هذا الصنم حتى يكشف عنا ما نزل بنا، فاجتمعوا حول الصنم يتضرعون إليه فلم يغنِ شيئاً فلما تبين لهم أنه لا ينفع ولا يضر ولا يدفع، دعاهم الحواري وأمرهم أن يدعو الله عز وجل ويسألوه أن يكشف ما نزل بهم، فدعوا الله مخلصين، فصرف عنهم ما كانوا يحذرون فأسلموا جميعاً.

الوجه الثاني: أن إبراهيم عليه السلام قال هذا القول على سبيل الاستفهام وهو استفهام إنكار وتوبيخ لقومه وتقديره: أهذا ربي الذي تزعمون، وإسقاط حرف الاستفهام كثير في كلام العرب ومنه قوله تعالى: ﴿أفإن مت فهم الخالدون﴾ يعني أفهم الخالدون. والمعنى أيكون هذا رباً ودلائل النقص فيه ظاهرة.

الإبل والخيل والغنم، فسأل أباه ما هذه؟ فقال: إبل وخيل وغنم ما لهذه بدّ من أن يكون لها ربٌّ وخالق، ثم نظر فإذا المشتري قد طلع، ويقال: الزهرة، فكان تلك الليلة في آخر الشهر فتأخر طلوع القمر فيها، فرأى الكوكب قبل القمر، فذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿ **فلمّا جَنّ عليه الليلُ** ﴾ أي: دخل الليل، يقال: جنّ الليل وأجنّ الليل، وجنّه الليل، وأجنّ عليه الليل يجنّ جنوناً وجناناً، إذا أظلم وغطى كل شيء، وجنون الليل سواده، ﴿ **رأى كوكباً** ﴾ قرأ أبـو عمـرو «رأى بفتح الراء وكسر الألف، ويكسرهما ابن عامر وحمزة والكسائي وأبو بكر، فإنِ اتصل بكاف أو هاء فتحهما ابن عامر، وإن لقيهما ساكن كسر الراء وفتح الهمزة، وحمزة وأبو بكر، وفتحهما الآخرون. ﴿ **قال هذا ربّي** ﴾، واختلفوا في قوله ذلك فأجراه بعضهم على الظاهر، وقالوا: كان إبراهيم مسترشداً طالباً للتوحيد حتى وفّقه الله وآتاه رشده فلم يضرّه ذلك في حال الاستدلال، وأيضاً كان ذلك في حال طفوليته قبل قيام الحجّة عليه، فلم يكن كفراً، وأنكر الآخرون هذا القول، وقالوا: لا يجوز أن يكون لله رسول يأتي عليه وقتٌ من الأوقات إلّا وهو لله موحّدٌ وبه عارف، ومن كل معبود سواه بريء وكيف يتوهم هذا على مَن عصمه الله وطهّره وآتاه رشده من قبل وأخبره عنه؟ وقال: ﴿ إذ جاء ربَّه بقلبٍ سليم ﴾ [الصّافّات: ٨٤] وقال: ﴿ **وكذلك نُري إبراهيم ملكوت السمٰواتِ والأرض** ﴾، أفتراه أراه الملكوت ليوقن فلما أيقن رأى كوكباً قال: هذا ربِّي معتقداً فهذا ما لا يكون أبداً، ثم قال: فيه أربعة أوجه من التأويل: أحدها أن إبراهيم أراد أن يستدرج القوم بهذا القول ويعرّفهم خطأهم وجهلهم في تعظيم ما عظّموه، وكانوا يعظّمون النجوم ويعبدونها، ويرون أن الأمور كلها إليها فأراهم أنه مُعظّم ما عظّموه ومُلتمس الهدى من حيث ما التمسوه، فلما أفل أراهم النقص الداخل على النجوم ليثبت خطأ ما يدعون، ومثل هذا مثل الحواري الذي ورد على قوم يعبدون الصنم، فأظهر تعظيمه فأكرموه حتى صدّوا في كثير من الأمور عن رأيه إلى أن دهمهم

الوجه الثالث: أن إبراهيم عليه السلام قال ذلك على وجه الاحتجاج على قومه يقول هذا ربي بزعمكم فلما غاب قال لو كان إلهاً كما تزعمون لما غاب فهو كقوله ﴿ذق إنك أنت العزيز الكريم﴾ يعني عند نفسك وبزعمك وكما أخبر عن موسى عليه السلام بقوله تعالى: ﴿انظر إلى إلهك الذي ظلت عليه عاكفاً﴾ يريد إلهك بزعمك.

الوجه الرابع: إن في هذه الآية إضماراً تقديره يقولون «هذا ربي» وإضمار القول كثير في كلام العرب ومنه قوله تعالى: ﴿وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا﴾ أي يقولان ﴿ربنا تقبل منا﴾.

الوجه الخامس: إن الله تعالى قال في حقه ﴿**وكذلك نري إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين**﴾ ثم قال بعده ﴿**فلما جن عليه الليل**﴾ والفاء تقتضي التعقيب فدل هذا أن هذه الواقعة كانت بعد أن أراه الله ملكوت السموات والأرض وبعض الإيقان ومن كان معه بهذه المنزلة العالية الشريفة لا يليق بحاله أن يعبد الكواكب ويتخذها رباً.

فأما الجواب عن قوله: ﴿لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين﴾ فإن الأنبياء عليهم السلام لم يزالوا يسألون الله التثبيت ومنه قوله ﴿واجنبني وبنيّ أن نعبد الأصنام﴾ قوله تعالى: ﴿**فلما أفل**﴾ يعني غاب والأفول غيبة النيرات ﴿**قال**﴾ يعني إبراهيم ﴿**لا أحب الآفلين**﴾ يعني لا أحب رباً يغيب ويطلع لأن أمارات الحدوث فيه ظاهرة قوله تعالى:

فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيْـًٔا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾

﴿**فلما رأى القمر بازغاً**﴾ يعني طالعاً منتشر الضوء ﴿**قال هذا ربي**﴾ معناه ما تقدم من الكلام في الكوكب ﴿**فلما أفل**﴾ يعني غاب ﴿**قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين**﴾ يعني إن لم يثبتني ربي على الهدى وليس المراد

عدو فشاوروه في أمره، فقال الرأي أن ندعوا هذا الصنم حتى يكشف عنّا ما قد أظلّنا، فاجتمعوا حوله يتضرعون فلما تبيّن له أنه لا ينفع ولا يدفع دعاهم إلى أن يدعو الله فدعوه فصرف عنهم ما كانوا يحذرون، فأسلموا، والوجه الثاني من التأويل أنه قاله على وجه الاستفهام تقديره: أهذا ربّي؟ كقوله تعالى: ﴿ أفإنْ مِتَّ فهمُ الخالدون ﴾ [الأنبياء: ٣٤]؟ أي: أفهمُ الخالدون؟ وذكره على وجه التوبيخ منكراً لفعلهم، يعني: أمِثْل هذا يكون ربّاً أي: ليس هذا ربّي، والوجه الاحتجاج عليهم، يقول: هذا ربّي بزعمكم؟ فلمّا غاب قال: لو كان إلّهاً لمَا غاب، كما قال: ﴿ ذُقْ إنّك أنتَ العزيزُ الكريم ﴾ [الدخان: ٤٩] أي: عند نفسك وبزعمك، وكما أخبر عن موسى أنه قال: ﴿ وانْظرْ إلي إلّهكَ الذي ظَلْتَ عليهِ عاكِفاً لنحرقَنّهُ ﴾ [طه: ٩٧] يريد إلّهكَ بزعمك، والوجه الرابع: فيه إضمار وتقديره يقولون هذا ربّي، كقوله تعالى: ﴿ وإذْ يرفعُ إبراهيمُ القواعدَ مِنَ البيتِ وإسماعيلُ ربَّنَا تقبّلْ مِنّا ﴾ [البقرة: ١٢٧]، أي: يقولون ربّنَا تقبّلْ منّا. ﴿ فلمّا أفَلَ قالَ لا أُحبُّ الآفِلِينَ ﴾، وما لا يدُومُ.

﴿ فلمّا رأى القمرَ بازغاً ﴾، طالعاً، ﴿ قال هذا ربّي فلما أفلَ قالَ لَئِنْ لمْ يهدني ربّي ﴾، قيل: لئن لم يثبتني

أنه لم يكن مهتدياً لأن الأنبياء لم يزالوا على الهداية من أول الفطرة وفي الآية دليل على أن الهداية من الله تعالى لأن إبراهيم أضاف الهداية لله تعالى: ﴿**فلما رأى الشمس بازغة**﴾ يعني طالعة ﴿**قال هذا ربي**﴾ يعني هذا الطالع أو أنه إشارة إلى الضياء والنور لأنه رأى الشمس أضوأ من الكوكب والقمر وقيل إنما قال هذا ولم يقل هذه لأن تأنيث الشمس غير حقيقي فلهذا أتى بلفظ التذكير ﴿**هذا أكبر**﴾ يعني من الكوكب والقمر ﴿**فلما أفلت**﴾ يعني فلما غابت الشمس ﴿**قال يا قوم إني بريء مما تشركون**﴾ يعني أنه لما أثبت إبراهيم عليه السلام بالدليل القطعي أن هذه النجوم ليست بآلهة ولا تصلح للربوبية تبرأ منها وأظهر لقومه أنه بريء مما يشركون ولما أظهر خلاف قومه وتبرأ من شركهم أظهر ما هو عليه من الدين الحق فقال ﴿**إني وجهت وجهي**﴾ يعني إني صرفت وجه عبادتي وقصرت توحيدي ﴿**للذي فطر السموات والأرض**﴾ يعني للذي خلقهما وأبدعهما ﴿**حنيفاً**﴾ يعني مائلاً عن عبادة كل شيء سوى الله تعالى. وأصل الحنف: الميل، وهو ميل عن طرق الضلال إلى طريق الاستقامة. وقيل: الحنيف هو الذي يستقبل الكعبة في صلاته ﴿**وما أنا من المشركين**﴾ تبرأ من الشرك الذي كان عليه قومه.

قوله عز وجل: ﴿**وحاجَّه قومه**﴾ يعني وخاصمه قومه وذلك لما أظهر إبراهيم عليه السلام عيب آلهتهم التي كانوا يعبدونها وأظهر التوحيد لله عز وجل خاصمه قومه وجادلوه في ذلك فقال: أتحاجوني في الله. يعني تجادولونني في توحيدي لله وقد هداني وقد بين لي طريق الهداية إلى توحيده ومعرفته. وقال البغوي: لما رجع إبراهيم إلى أبيه وصار من الشباب بحالة تسقط عنه طمع الذابحين وضمه آزر إلى نفسه جعل آزر يصنع الأصنام ويعطيها إبراهيم ليبيعها فيذهب إبراهيم وينادي من يشتري ما يضره ولا ينفعه فلا يكتريها أحد فإذا بارت عليه ذهب بها إلى نهر فصوب فيه رؤوسها وقال اشربي استهزاء بقومه وبما هم فيه من الضلالة حتى فشا استهزاؤه بها في قومه وأهل قريته حاجه قومه يعني خاصمه وجادله قومه في دينه ﴿**قال**﴾ يعني إبراهيم ﴿**أتحاجُّوني في الله وقد هدان**﴾ يعني إلى توحيده ومعرفته ﴿**ولا أخاف ما تشركون به**﴾ وذلك أنهم قالوا له: احذر الأصنام فإنا نخاف أن تمسَّك بخبل أو جنون لعيبك إياها فأجابهم بقوله ولا أخاف ما تشركون به فإنها جمادات لا تضر ولا تنفع وإنما يكون الخوف ممن يقدر على النفع والضر وهو قوله ﴿**إلا أن يشاء ربي شيئاً**﴾ يعني لكن أن يشأ ربي شيئاً كان ما يشاء لأنه قادر على النفع والضر وإنما قال إبراهيم ذلك لاحتمال أن الإنسان قد يصيبه في بعض حالاته وأيام عمره ما يكرهه فلو أصابه مكروه نسبوه إلى الأصنام فنفى

ربِّي على الهدى، ليس أنه لم يكن مهتدياً، والأنبياء لم يزالوا يسألون الله تعالى الثبات على الإيمان، وكان إبراهيم يقول: ﴿ واجنبني وبنيَّ أن نعبد الأصنام ﴾ [إبراهيم: ٣٥]، ﴿ **لأكوننَّ من القوم الضَّالِّين** ﴾، أي: عن الهدى.

﴿ **فلمّا رأى الشمسَ بازِغةً** ﴾، طالعةً، ﴿ **قال هذا ربِّي هذا أكبر** ﴾، أي: أكبر من الكوكب والقمر، ولم يقل هذه مع أن الشمس مؤنثة لأنه أراد هذا الطالع، أو ردّه إلى المعنى، وهو الضياء والنور، لأنه رآه أضوأ من النجوم والقمر، ﴿ **فلمّا أفلتْ** ﴾، غربتْ، ﴿ **قال يا قومِ إنّي بريءٌ ممّا تُشركون** ﴾.

﴿ **إنّي وجّهتُ وجهيَ للذي فطَرَ السمٰواتِ والأرضَ حنيفاً وما أنا مِنَ المشركين** ﴾.

﴿ **وحاجّه قومُهُ قال أتحاجُّونّي في اللهِ وقدْ هَدانِ** ﴾، ولمّا رجع إبراهيم عليه السلام إلى أبيه، وصار من الشباب بحالة سقط عنه طمع الذّبّاحين، وضمّه آزر إلى نفسه جعل آزر يصنع الأصنام ويعطيها إبراهيم ليبيعها، فيذهب إبراهيم عليه السلام وينادي مَن يشتري ما يضرّه ولا ينفعه، فلا يشتريها أحد، فإذا بارت عليه ذهب بها إلى نهر فصوّب فيه رؤوسها، وقال: اشربي استهزاءً بقومه، وبما هم فيه من الضلالة، حتى فشا استهزاؤُهُ بها في قومه وأهل قريته، فحاجّه أيْ خاصمه وجادله قومه في دينه، ﴿ **قال: أتحاجّونّي في الله** ﴾ قرأ أهل المدينة وابن عامر بتخفيف النون، وقرأ الآخرون بتشديدها إدغاماً لإحدى النونين في الأخرى، ومَن خفّف حذف إحدى النونين تخفيفاً

هذه الشبهة بقوله ﴿إلا أن يشاء ربي شيئاً﴾ وهذا استثناء منقطع وليس هو من الأول في شيء. والمعنى ولكن إن شاء ربي شيئاً كان ﴿وسع ربي كل شيء علماً﴾ يعني أحاط علمه بكل شيء فلا يخرج شيء عن علمه ﴿أفلا تتذكرون﴾ يعني أفلا تعتبرون أن هذه الأصنام جمادات لا تضر ولا تنفع وأن الضار هو الذي خلق السموات والأرض ومن فيهما.

﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾﴾

﴿وكيف أخاف ما أشركتم﴾ يعني وكيف أخاف الأصنام التي أشركتم بها لأنها جمادات لا تبصر ولا تسمع ولا تضر ولا تنفع ﴿ولا تخافون أنكم أشركتم بالله﴾ يعني وأنتم لا تخافون وقد أشركتم بالله وهومن أعظم الذنوب ﴿ما لم ينزل به عليكم سلطاناً﴾ يعني ما ليس لكم فيه حجة وبرهان ﴿فأي الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون﴾ يعني يقول من أولى بالأمن من العذاب في يوم القيامة الموحد أم المشرك ﴿الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم﴾ وهذا فصل قضاه الله بين إبراهيم وبين قومه يعني أن الذين يستحقون الأمن يوم القيامة هم الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم. وقيل: هو من تمام كلام إبراهيم في المحاجَّة لقومه. والمعنى: إن الذين يحصل لهم الأمن يوم القيامة هم الذين آمنوا يعني آمنوا بالله وحده ولم يشركوا به شيئاً ولم يلبسوا إيمانهم بظلم يعني ولم يخلطوا إيمانهم بشرك (ق).

عن ابن مسعود قال: لما نزلت ﴿الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم﴾ شق ذلك على المسلمين وقالوا أينا لا يظلم نفسه؟ فقال رسول الله ﷺ: «ليس ذلك إنما هو الشرك ألم تسمعوا قول لقمان لابنه ﴿يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لَظلم عظيم﴾» وفي رواية ليس هو كما تظنون إنما هو كما قال لقمان لابنه وذكره. وقيل: في معنى قوله ولم يلبس إيمانهم بظلم، يعني: ولم يخلطوا إيمانهم بشيء من معاني الظلم وذلك بأن يفعل بعض ما نهى الله عنه أو يترك

يقال: أتجادلونني في توحيد الله، وقد هداني للتوحيد والحق؟ ﴿ ولا أخاف ما تُشركون به ﴾، وذلك أنهم قالوا له: احذر الأصنام فإنّا نخاف أن تمسّك بسوء من خبل أو جنون لعيبك إيّاها، فقال لهم: ولا أخاف ما تُشركون به، ﴿ إلّا أن يشاء ربّي شيئاً ﴾، وليس هذا باستثناء من الأول بل هو استثناء منقطع، معناه لكن إن يشأ ربّي شيئاً أي سواء فيكون ما شاء، ﴿ وسِعَ ربّي كلَّ شيءٍ علماً ﴾، أي: أحاط علمه بكل شيء، ﴿ أفلا تتذكّرون ﴾.

﴿ وكيف أخاف ما أشركتم ﴾، يعني الأصنام وهي لا تبصر ولا تسمع ولا تضرّ ولا تنفع، ﴿ ولا تخافُون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزِّلْ بهِ عليكم سلطاناً ﴾، حجّةً وبرهاناً، وهو القاهر القادر على كل شيء، ﴿ فأيُّ الفريقين أحق ﴾، أولى، ﴿ بالأمن ﴾، أنا وأهل ديني أم أنتم، ﴿ إن كنتم تعلمون ﴾. فقال الله تعالى قاضياً بينهما:

﴿ الذينَ آمنوا ولم يَلْبِسُوا إيمانَهم بِظُلْمٍ ﴾، لم يخلطوا أيمانهم بشرك، ﴿ أولئك لهم الأمنُ وَهُم مُهْتَدُون ﴾. أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا إسحق ثنا عيسى بن يونس أنا الأعمش أنا إبراهيم عن علقمة عن عبد الله قال: لمَّا نزلت: ﴿ الذينَ آمنُوا ولم يَلْبِسُوا إيمانهم بظلم ﴾ شقّ ذلك على المسلمين فقالوا: يا رسول الله فأيُّنا لا يظلم نفسه؟ فقال: ليس

ما أمر الله به فعلى هذا القول تكون الآية على العموم لأن الله لم يخص به معنى من معاني الظلم دون غيره والصحيح أن الظلم المذكور في هذه الآية هو الشرك لما تقدم من حديث ابن مسعود أن النبي ﷺ فسَّر الظلم هنا بالشرك وفي الآية دليل على أن من مات لا يشرك بالله شيئاً كانت عاقبته الأمن من النار لقوله ﴿أولئك﴾ يعني الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم ﴿لهم الأمن﴾ يوم القيامة من عذاب النار ﴿وهم مهتدون﴾ يعني إلى سبيل الرشاد. وقوله تعالى: ﴿وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه﴾ يعني ما جرى بين إبراهيم وبين قومه واستدل على حدوث الكوكب والقمر والشمس بالأفول وقيل لما قالوا لإبراهيم إنّا نخاف عليك من آلهتنا لسبك إياها قال أفلا تخافون أنتم منها إذ سويتم بين الصغير والكبير في العبادة أن يغضب الكبير عليكم؟ وقيل: إنه خاصم قومه المشركين فمالوا أي الفريقين أحق بالأمن من يعبد إلهاً واحداً مخلصاً له الدين والعبادة أم من يعبد أرباباً كثيرة فدلوا من يعبد إلهاً واحداً فقضوا على أنفسهم فكانت هذه حجة إبراهيم عليه ﴿نرفع درجات من نشاء﴾ يعني بالعلم والفهم والعدل والفضيلة كما رفعنا درجات إبراهيم حتى اهتدى إلى محاجَّة قومه. وقيل: نرفع درجات من نشاء في الدنيا بالنبوة والعلم والحكمة وفي الآخرة بالثواب على الأعمال الصالحة ﴿إن ربك حكيم عليم﴾ يعني أنه تعالى حكيم في جميع أفعاله عليم بجميع أحوال خلقه لا يفعل شيء إلا بحكمة وعلم.

قوله عز وجل: ﴿ووهبنا له إسحاق ويعقوب﴾ لما أظهر إبراهيم عليه السلام دينه وغلب خصمه بالحجج القاطعة والبراهين القوية والدلائل الصحيحة التي فهمه الله تعالى إياه وهداه إليها عدد الله نعمه عليه وإحسانه إليه بأن رفع درجته في عليين وأبقى النبوة في ذريته إلى يوم الدين فقال تعالى: ﴿ووهبنا له﴾ يعني لإبراهيم إسحاق يعني ابنا لصلبه ويعقوب يعني ابن إسحاق وهو ولد الولد ﴿كلًّا هدينا﴾ يعني هدينا جميعهم إلى سبيل الرشاد ووفقناهم إلى طريق الحق والصواب ﴿ونوحاً هدينا من قبل﴾ يعني من قبل إبراهيم أرشدنا نوحاً ووفقناه للحق والصواب ومنَنّا عليه بالهداية ﴿ومن ذريته﴾ اختلفوا في الضمير إلى من يرجع فقيل يرجع إلى إبراهيم يعني ومن ذرية إبراهيم ﴿داود وسليمان﴾ وقيل: يرجع إلى نوح وهو اختيار جمهور المفسرين، لأن الضمير يرجع إلى أقرب مذكور ولأن الله ذكر في جملة هذه الذرية لوطاً وهو ابن أخي إبراهيم ولم يكن من ذريته فثبت بهذا أن هاء الكناية ترجع إلى نوح وقال الزجاج: كلا القولين جائز لأن ذكرهما جميعاً قد جرى. وداود هو ابن بيشا وكان ممن آتاه الله الملك والنبوة وكذلك سليمان بن داود ﴿وأيوب﴾ هو أيوب بن أموص بن رازح بن روم بن عيص بن إسحاق بن إبراهيم ﴿ويوسف﴾ هو ابن يعقوب بن

ذلك إنما هو الشركِ ألَمْ تسمعوا إلى ما قال لقمان لابنه وهو يعظه ﴿ يا بني لا تشرك بالله إن الشّركَ لظلمٌ عظيم ﴾ [لقمان: ١٣].

قوله عزّ وجلّ: ﴿ وتلكَ حُجّتُنَا آتيناها إبراهيمَ على قومِهِ ﴾، حتى خصمهم وغلبهم بالحجّة، قال مجاهد: هي قوله: ﴿ الذين آمنُوا ولم يَلْبِسُوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن ﴾ ﴿نرفعُ درجاتٍ مَنْ نَشاء﴾، بالعلم قرأ أهل الكوفة ويعقوب «درجات» بالتنوين ههنا وفي سورة يوسف [٧٦]، أي: نرفع درجات مَن نشاء بالعلم والفهم والفضيلة والعقل، كما رفعنا درجات إبراهيم حتى اهتدى وحاجّ قومه في التوحيد، ﴿ إنّ ربّك حكيمٌ عليم ﴾.

﴿ ووهبنا له إسحَق ويعقوب كلًّا هدينا ﴾، ووفقنا وأرشدنا. ﴿ ونُوحاً هدينا من قبلُ ﴾، أي: من قبل إبراهيم، ﴿ ومن ذريته ﴾، أي من ذرية نوح عليه السلام، ولم يرد من ذريّة إبراهيم لأنه ذكر في جملتهم يُونس ولوطاً ولم يكونا من ذرية إبراهيم، ﴿ داودَ ﴾، هو داود بن أيشا، ﴿ وسليمان ﴾، يعني ابنه، ﴿ وأيوبَ ﴾، وهو أيوب بن أموص بن رازح بن رومِ بـن عيص بن إسحق بن إبراهيم، ﴿ ويوسُفَ ﴾، هو يوسف بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم عليه السلام، ﴿ وموسى ﴾، وهو موسى بن عمران بن يصهر بن فاهث بـن لاوى بن يعقوب بن

إسحاق بن إبراهيم ﴿وموسى﴾ هو ابن عمران بن يصهر بن قاهث بن لاوى بن يعقوب ﴿وهارون﴾ هو أخو موسى وكان أكبر منه بسنة ﴿وكذلك نجزي المحسنين﴾ يعني: وكما جزينا إبراهيم على توحيده وصبره على أذى قومه كذلك نجزي المحسنين على إحسانهم.

وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا
فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ
هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ
الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾

﴿وزكريا﴾ هو ابن آذن بن بركيا ﴿ويحيى﴾ هو ابن زكريا ﴿وعيسى﴾ هو ابن مريم بنت عمران ﴿والياس﴾.

قال ابن مسعود: هو إدريس وله اسمان مثل يعقوب وإسرائيل وقال محمد بن إسحاق: هو الياس بن سنا بن فنحاص بن العيزار بن هارون بن عمران. وهذا هو الصحيح لأن أصحاب الأنساب يقولون: إن إدريس جد نوح لأن نوحاً بن لامك بن متوشلخ بن أخنوخ وهو إدريس ولأن الله تعالى نسب الياس في هذه الآية إلى نوح وجعله من ذريته ﴿كل من الصالحين﴾ يعني أن كل من ذكرنا وسمينا من الصالحين ﴿وإسماعيل﴾ هو ابن إبراهيم وإنما أخر ذكره إلى هنا لأنه ذكر إسحاق وذكر أولاده من بعده على نسق واحد فلهذا السبب أخر ذكر إسماعيل إلى هنا ﴿واليسع﴾ هو ابن أخطوب بن العجوز ﴿ويونس﴾ هو ابن متى ﴿ولوطاً﴾ هو ابن أخي إبراهيم: ﴿وكلاً فضلنا على العالمين﴾ يعني على عالمي زمانهم. ويستدل بهذه الآية من يقول إن الأنبياء أفضل من الملائكة لأن العالم اسم لكل موجود سوى الله تعالى فيدخل فيه الملك فيقتضي أن الأنبياء أفضل من الملائكة.

واعلم أن الله تعالى ذكر هنا ثمانية عشر نبياً من الأنبياء عليهم السلام من غير ترتيب لا بحسب الزمان ولا بحسب الفضل، لأن الواو لا تقتضي الترتيب ولكن هنا لطيفة أوجبت هذا الترتيب وهي أن الله تعالى خص كل طائفة من طوائف الأنبياء عليهم السلام بنوع من الكرامة والفضل، فذكر أولاً نوحاً وإبراهيم وإسحاق ويعقوب لأنهم أصول الأنبياء وإليهم ترجع أنسابهم جميعاً ثم من المراتب المعتبرة بعد النبوة الملك والقدرة والسلطان قد أعطى الله داود وسليمان من ذلك حظاً وافراً من المراتب: الصبر عند نزول البلاء والمحن والشدائد وقد خص الله بهذه أيوب عليه

إسحق بن إبراهيم، ﴿ وهارون ﴾، هو أخو موسى أكبر منه بسنة، ﴿ وكذلك ﴾، أي كما جزينا إبراهيم على توحيده بأن رفعنا درجته ووهبنا له أولاداً أنبياء أتقياء كذلك، ﴿ نجزي المحسنين ﴾، على إحسانهم، وليس ذكرهم على ترتيب أزمانهم.

﴿ وزكريا ﴾، هو زكريا بن أذن، ﴿ ويحيى ﴾، وهو ابنه، ﴿ وعيسى ﴾، وهو ابن مريم بنت عمران، ﴿ وإلْياسَ ﴾، واختلفوا فيه، قال ابن مسعود: هو إدريس وله اسمان مثل يعقوب وإسرائيل، والصحيح أنه غير لأن الله تعالى ذكره في ولد نوح، وإدريس جدّ أبي نوح وهو إلياس بن بشير بن فنحاص بن عيزار بن هارونِ بن عمران. ﴿ كلٌّ من الصالحين ﴾.

﴿ وإسماعيل ﴾، وهو ولد إبراهيم، ﴿ واليسعَ ﴾، وهو ابن أخطوب بن العجوز، وقرأ حمزة والكسائي «واليسـع» بتشديد اللام وسكون الياء هنا وفي صٓ ﴿ ويونس ﴾ وهو يونس بن متّى، ﴿ ولوطاً ﴾، وهو لوط بن هاران بن أخي إبراهيم، ﴿ وكلًّا فضّلنا على العالمين ﴾، أي: عالمي زمانهم.

السلام ثم عطف على هاتين المرتبتين من جمع بينهما وهو يوسف عليه السلام فإنه صبر على البلاء والشدة إلى أن أعطاه الله ملك مصر مع النبوة ثم من المراتب المعتبرة في تفضيل الأنبياء عليهم السلام كثرة المعجزات وقوة البراهين وقد خص الله تعالى موسى وهارون من ذلك بالحظ الوافر ثم من المراتب المعتبرة الزهد في الدنيا والإعراض عنها وقد خص الله بذلك زكريا ويحيى وعيسى والياس عليهم السلام ولهذا السبب وصفهم بأنهم من الصالحين ثم ذكر الله من بعد هؤلاء الأنبياء من لم يبق له أتباع ولا شريعة وهم إسماعيل واليسع ويونس ولوط فإذا اعتبرنا هذه اللطيفة على هذا الوجه كان هذا الترتيب من أحسن شيء يذكر والله أعلم بمراده وأسرار كتابه.

قوله تعالى: ﴿ومن آبائهم﴾ يعني ومن آباء الذين سميناهم ومَن هنا للتبعيض لأن من آباء بعضهم من لم يكن مسلماً ﴿وذرياتهم﴾ يعني ومن ذرياتهم أي بعضهم لأن عيسى ويحيى لم يكن لهما ولد وكان في ذرية بعضهم من هو كافر كابن نوح ﴿وإخوانهم﴾ يعني ومن إخوانهم والمعنى أن الله تعالى وفق من آباء المذكورين ومن إخوانهم وذرياتهم للهداية وخالص الدين وهو قوله تعالى: ﴿واجتبيناهم﴾ يعني اخترناهم واصطفيناهم ﴿وهديناهم﴾ يعني وأرشدناهم ﴿إلى صراط مستقيم﴾ أي إلى دين الحق ﴿ذلك هدى الله﴾ قال ابن عباس: ذلك دين الله الذي كان عليه هؤلاء الأنبياء. وقيل: المراد بهدى الله معرفة الله وتنزيهه عن الشركاء والأضداد والأنداد ﴿يهدي به من يشاء من عباده﴾ يعني يوفق من يشاء من عباده ويرشده إلى دينه وطاعته وخلع الأضداد والشركاء ﴿ولو أشركوا﴾ يعني هؤلاء الذين سميناهم ﴿لحبط﴾ يعني لبطل وذهب ﴿عنهم ما كانوا يعملون﴾ من الطاعات قبل ذلك لأن الله تعالى لا يقبل مع الشرك من الأعمال شيئاً.

أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًاۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًاۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْۖ قُلِ ٱللَّهُۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾

قوله عز وجل: ﴿أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة﴾ يعني أولئك الذين سميناهم من الأنبياء

﴿ ومن آبائهم ﴾، من فيه للتبعيض، لأن آباء بعضهم كانوا مشركين، ﴿ وذُرِّيَّاتهم ﴾، أي: ومن ذرِّيَّاتهم وأراد ذريّة بعضهم، لأن عيسى ويحيىٰ لم يكن لهما ولد وكان في ذريّة بعضهم مَن كان كافراً، ﴿ وإخوانهم واجْتبيناهم ﴾، اخترناهم واصطفيناهم، ﴿ وهديناهم ﴾، أرشدناهم، ﴿ إلى صراطٍ مستقيم ﴾.

﴿ ذلك هُدَى اللَّهِ ﴾، دين الله، ﴿ يهدي به ﴾، يرشد به، ﴿ مَن يشاءُ مِنْ عبادِهِ، ولو أشركُوا ﴾، أي: هؤلاء الذين سمّيناهم، ﴿ لَحَبِطَ ﴾، لبطل وذهب، ﴿ عنهم ما كانُوا يعملون ﴾.

﴿ أولئكَ الذينَ آتيناهمُ الكتابَ ﴾، أي: الكتب المنزلة عليهم، ﴿ والحُكْمَ ﴾، يعني: العلم والفقه، ﴿ والنبوّةَ فإنْ يكفرْ بها هؤلاء ﴾، يعني: أهل مكة، ﴿ فقد وكّلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين ﴾، يعني: الأنصار وأهل المدينة قاله ابن عباس ومجاهد، وقال قتادة: فإن يكفر بها هؤلاء الكفّار فقد وكّلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين، يعني: الأنبياء الثمانية عشر الذين ذكرهم الله ههنا، وقال أبو رجاء العطاردي: معناه فإن يكفر بها أهل الأرض فقد وكّلنا بها أهل السماء وهم الملائكة قوماً ليسوا بها بكافرين.

﴿ أولئكَ الذينَ هدَى اللَّهُ ﴾، أي: هداهم الله، ﴿ فبهداهم ﴾، فبسنّتهم وسيرتهم، ﴿ اقْتدِهْ ﴾، الهاء فيها

أعطيناهم الكتب التي أنزلناها عليهم وآتيناهم العلم والفهم وشرفناهم بالنبوة وإنما قدم ذكر الكتاب والحكمة على النبوة وإن كانت النبوة هي الأصل لأن منصب النبوة أشرف المراتب والمناصب فذكروا أولاً الكتاب والحكم لأنهما يدلان على النبوة ﴿**فإن يكفر بها هؤلاء**﴾ يعني فإن يجحد بدلائل التوحيد والنبوة كفار قريش ﴿**فقد وكلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين**﴾ قال ابن عباس: هم الأنصار وأهل المدينة. وقيل: هم المهاجرون والأنصار وقال الحسن وقتادة: هم الأنبياء الثمانية عشر الذين تقدم ذكرهم واختاره الزجاج قال: والدليل عليه قوله ﴿**أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده**﴾ وقال رجاء العطاردي: هم الملائكة وفيه بعد لأن اسم القوم لا ينطلق إلا على بني آدم وقيل هم الفرس. قال ابن زيد: كل من لم يكفر فهو منهم سواء كان ملكاً أو نبياً أو من الصحابة أو التابعين وفي الآية دليل على أن الله تعالى ينصر نبيه ﷺ ويقوي دينه ويجعله عالياً على الأديان كلها وقد جعل ذلك فهو إخبار عن الغيب... قوله تعالى: ﴿**أولئك الذين هدى الله**﴾ يعني النبيين الذين تقدم ذكرهم لأنهم هو المخصوصون بالهداية ﴿**فبهداهم اقتده**﴾ إشارة إلى النبي ﷺ يعني فبشرائعهم وسننهم اعمل وأصل الاقتداء في اللغة طلب موافقة الثاني للأول في فعله. وقيل أمره أن يقتدي بهم في أمر الدين الذي أمرهم أن يجمعوا عليه وهو توحيد الله تعالى وتنزيهه عن جميع النقائص التي لا تليق بجلاله في الأسماء والصفات والأفعال. وقيل: أمره الله أن يقتدي بهم في جميع الأخلاق الحميدة والأفعال المرضية والصفات الرفيعة الكاملة مثل: الصبر على أذى السفهاء، والعفو عنهم. وقيل: أمره أن يقتدي بشرائعهم إلا ما خصه دليل آخر فعلى هذا القول يكون في الآية دليل على أن شرع من قبلنا شرع لنا.

(فصل)

احتج العلماء بهذه الآية على أن رسول الله ﷺ أفضل من جميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. بيانه أن جميع خصال الكمال وصفات الشرف وكانت متفرقة فيهم فكان نوح صاحب احتمال على أذى قومه، وكان إبراهيم صاحب كرم وبذل مجاهدة في الله عز وجل، وكان إسحاق ويعقوب من أصحاب الصبر على البلاء والمحن، وكان داود عليه السلام وسليمان من أصحاب الشكر على النعمة، قال الله فيهم: ﴿**اعملوا آل داود شكراً**﴾ وكان أيوب صاحب صبر على البلاء، قال الله فيه ﴿**إنا وجدناه صابراً نعم العبد إنه أواب**﴾ وكان يوسف قد جمع بين الحالتين، يعني: الصبر والشكر، وكان موسى صاحب الشريعة الظاهرة والمعجزات الباهرة، وكان زكريا ويحيى وعيسى وإلياس من أصحاب الزهد في الدنيا، وكان إسماعيل صاحب صدق وكان يونس صاحب تضرع وإخبات ثم إن الله تعالى أمر نبيه ﷺ أن يقتدي بهم وجمع له جميع الخصال المحمودة المتفرقة فيهم فثبت بهذا البيان أنه ﷺ كان أفضل الأنبياء لما اجتمع فيه من هذه الخصال التي كانت متفرقة في جميعهم والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿**قل لا أسألكم عليه أجراً**﴾ يعني: **قل** يا محمد لا أطلب على تبليغ الرسالة جعلاً قيل لما أمره الله تعالى بالاقتداء بالنبيين وكان من جملة هداهم عدم طلب الأجر على إيصال الدين وإبلاغ الشريعة لا جرم اقتدى بهم فقال: لا أسألكم عليه أجراً ﴿**إن هو**﴾ يعني ما هو يعني القرآن ﴿**إلا ذكرى للعالمين**﴾ يعني أن القرآن موعظة وذكرى

هاء الوقف، وحذف حمزة والكسائي ويعقوب الهاء في الوصل، والباقون بإثباتها وصلاً ووقفاً، وقرأ ابن عامر: «اقتـده» بإشباع الهاء كسراً ﴿ **قلْ لا أسألكم عليهِ أجراً إنْ هوَ** ﴾، ما هو، ﴿ **إلاّ ذكرى** ﴾، أي: تذكرة وموعظة، ﴿ **للعالمين** ﴾.

﴿ **وما قَدَرُوا الله حقَّ قدْرِهِ** ﴾، أي: **ما عظّموه حقّ عظمته**، وقيل ما وصفوه حقّ وصفه، ﴿ **إذْ قالُوا ما أنزل الله على بشرٍ من شيء** ﴾، قال سعيد بن جبير: جاء رجل من اليهود يقال له مالك بن الصيف يخاصم النبي ﷺ بمكة، فقال له النبي ﷺ: «أنشدك بالله الذي أنزل التوراة على موسى أما تجد في التوراة أنّ الله يبغض الحبر

لجميع العالم من الجن والإنس وفيه دليل على أنه ﷺ كان مبعوثاً إلى جميع الخلق من الجن والإنس وإن دعوته عمَّت جميع الخلائق.

قوله عز وجل: ﴿**وما قدروا الله حق قدره**﴾ قال ابن عباس: لما عظموا الله حق عظمته وعنه أن معناه ما آمنوا أن الله على شيء قدير. وقال أبو العالية: ما وصفوا الله حق وصفه. وقال الأخفش: ما عرفوا الله حق معرفته. يقال: قدر الشيء إذا حزره وسبره وأراد أن يعلم مقداره يقال قدره يقدره بالضم قدراً ثم يقال لمن عرف شيئاً هو يقدره قدره وإذا لم يعرفه بصفاته يقال فيه إنه لا يقدر قدره فقوله ﴿**وما قدروا الله حق قدره**﴾ يصح فيه جميع الوجوه المذكورة في معناه ﴿**إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء**﴾ يعني الذين قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء ما قدروا الله حق قدره ولا عرفوه حق معرفته إذ لو عرفوه حق معرفته لما قالوا هذه المقالة، ثم اختلف العلماء فيمن نزلت هذه الآية على قولين:

أحدهما: أنها نزلت في كفار قريش وهذا على قول من يقول إن جميع هذه السورة مكية وهو قول السدي. ويروي ذلك عن مجاهد وصححه الطبري قال: لأن من أول السورة إلى هذا الموضع هو خبر عن المشركين من عبدة الأصنام وكان قوله ﴿**وما قدروا الله حق قدره**﴾ موصولاً بذلك غير مفصول عنه فلا يكون قوله إذ قالوا: ﴿**ما أنزل الله على بشر من شيء**﴾ خبراً عن غيرهم وأورد فخر الدين الرازي على هذا القول إشكالاً وهو أن كفار قريش ينكرون نبوة جميع الأنبياء فكيف يمكن إلزامهم بنبوة موسى وأيضاً فما بعد هذه الآية لا يليق بكفار قريش إنما يليق بحال اليهود وأجاب عنه بأن كفار قريش كانوا مختلطين باليهود وقد سمعوا منهم أن موسى جاءهم بالتوراة وبالمعجزات الباهرات وإنما أنكر كفار قريش نبوة محمد ﷺ فيمكن إلزامهم بقوله ﴿**قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى**﴾ وأجاب عن كون سياق الآية لا يليق إلا بحال اليهود بأن كفار قريش واليهود لما كانوا مشتركين في إنكار نبوة محمد ﷺ فلا يبعد أن بعض الآية يكون خطاباً لكفار قريش وبعضها خطاباً لليهود.

والقول الثاني: في سبب نزول هذه الآية وهو قول جمهور المفسرين أنها نزلت في اليهود وهذا على قول من يقول: إن هذه الآية نزلت بالمدينة وأنها من الآيات المدنيات التي في السور المكية. قال ابن عباس: نزلت سورة الأنعام بمكة إلا ست آيات منها قوله: ﴿**وما قدروا الله حق قدره**﴾ فإنها نزلت بالمدينة ثم اختلف القائلون بهذا القول في اسم من نزلت هذه الآية فيه فقال سعيد بن جبير: جاء رجل من اليهود يقال له مالك بن الصيف يخاصم النبي ﷺ فقال له النبي ﷺ: أنشدك الله الذي أنزل التوراة على موسى أما تجدون في التوراة أن الله يبغض الحبر السمين وكان حبراً سميناً فغضب. وقال: والله ما أنزل الله على بشر من شيء فقال أصحابه الذين معه ويحك ولا على موسى فقال والله ما أنزل الله على بشر من شيء فأنزل الله ﴿**وما قدروا الله حق قدره**﴾ ﴿**إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء**﴾ ﴿**قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى**﴾ نوراً وهدى للناس الآية. قال البغوي: وفي القصة أن مالك بن الصيف لما سمعت اليهود منه تلك المقالة عتبوا عليه وقالوا: أليس الله أنزل التوراة على موسى فلمَ قلت ما أنزل الله على بشر من شيء؟ فقال مالك بن الصيف: أغضبني محمد فقلت ذلك. فقالوا له: وأنت إذا غضبت تقول على الله غير الحق؟

السمين» وكان حبراً سميناً فغضب، فقال: والله ما أنزل الله على بشر من شيء، وقال السدي: نزلت في فنحاص بن عازوراء، وهو قائل هذه المقالة. وفي القصة أن مالك بن الصيف لمّا سمعت اليهود منه تلك المقالة عتبوا عليه، وقالوا: أليس أن الله أنزل التوراة على موسى؟ فلِمَ قلتَ ما أنزل الله على بشرٍ من شيء؟ قال: فقال مالك بن الصيف أغضبني محمد فقلتُ ذلك، فقالوا له: وأنت إذا غضبت تقول على الله غير الحق فنزعوه من الحبرية، وجعلوا مكانه كعب بن الأشرف. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: قالت اليهود: يا محمد أنزل الله عليك كتاباً، قال: نعم، قالوا: والله ما أنزل الله من السماء كتاباً، فأنزل الله: ﴿ **وما قدَرُوا اللَّهَ حقَّ قدره إذْ قالُوا ما أنزلَ اللَّهُ**

فنزعوه عن الحبرية وجعلوا مكانه كعب الأشرف. وقال السدي: لما نزلت هذه الاية في فنحاص بن عازوراء اليهودي وهو القائل هذه المقالة. وقال ابن عباس: قالت اليهود يا محمد أنزل الله عليك كتاباً؟ قال: نعم فقالوا: والله ما أنزل الله من السماء كتاباً فأنزل الله: **﴿وما قدروا الله حق قدره﴾ ﴿إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء﴾ ﴿قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى﴾** الآية وقال محمد بن كعب القرظي: جاء ناس من اليهود إلى النبي ﷺ وهو محتب؟ فقالوا يا أبا القاسم ألا تأتينا بكتاب من السماء كما جاء به موسى ألواحاً يحملونها من عند الله فأنزل الله **﴿يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتاباً من السماء﴾** الآية التي في سورة النساء فلما حدثهم بأعمالهم الخبيثة جثا رجل منهم وقال: ما أنزل الله عليك ولا على موسى ولا على عيسى ولا على أحد شيئاً فأنزل الله: **﴿وما قدروا الله حق قدره﴾ إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء** وأورد الرازي على هذا القول إشكالاً أيضاً وهو أنه قال: إن اليهود مقرون بإنزال التوراة على موسى فكيف يقولون ما أنزل الله على بشر من شيء مع اعترافهم بإنزال التوراة ولم يجب عن هذا الإشكال بشيء وأجيب عنه بأن مراد اليهود إنكار إنزال القرآن على محمد ﷺ فقط ولهذا ألزموا بما لا بد لهم من الإقرار به من إنزال التوراة على موسى فقال تعالى: **﴿قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى﴾** أي: قل يا محمد لهؤلاء اليهود الذين أنكروا إنزال القرآن عليك بقولهم ما أنزل الله على بشر من شيء من أنزل التوراة على موسى وفي هذا الإلزام توبيخ اليهود بسوء جهلهم وإقدامهم على إنكار الحق الذي لا ينكر **﴿نوراً وهدى للناس﴾** يعني التوراة ضياء من ظلمة الضلالة وبياناً يفرق بين الحق والباطل من دينهم وذلك قبل أن تبدل وتغير **﴿تجعلونه قراطيس﴾** يكتبونه في قراطيس مقطعة **﴿تبدونها﴾** يعني القراطيس المكتوبة **﴿وتخفون كثيراً﴾** يعني ويخفون كثيراً مما كتبوه في القراطيس وهو ما عندهم من صفة محمد ﷺ ونعته في التوراة ومما أخفوه أيضاً آية الرجم وكانت مكتوبة عندهم في التوراة **﴿وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم﴾** أكثر المفسرين على أن هذا خطاب لليهود ومعناه: أنكم علمتم على لسان محمد ﷺ ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم من قبل. قال الحسن: جعل لهم علم ما جاء به محمد ﷺ فضيعوه ولم ينتفعوا به. وقال مجاهد: هذا خطاب للمسلمين يذكرهم النعمة فيما علمهم على لسان نبيه ﷺ **﴿قل الله﴾** هذا راجع إلى قوله: **﴿قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى﴾**، فإن أجابوك يا محمد وإلا فقل أنت الله الذي أنزله: **﴿ثم ذرهم في خوضهم يلعبون﴾** يعني: دعهم يا محمد فيما هم فيه يخوضون من باطلهم وكفرهم بالله. ومعنى يلعبون: يستهزؤون ويسخرون. وقيل: معناه يا محمد إنك إذا أقمت الحجة عليهم وبلغت في الأعذار والإنذار هذا المبلغ العظيم فحينئذ لم يبق عليك من أمرهم شيء فذرهم فيما هم فيه من الخوض واللعب وفيه وعيد وتهديد للمشركين. وقال بعضهم: هذا منسوخ بآية السيف وفيه بُعد لأنه مذكور لأجل التهديد والوعيد.

على بشرٍ من شيء ﴾، قال اللّهُ تعالى: **﴿ قلْ ﴾**، لهم، **﴿ مَنْ أنزلَ الكتابَ الذي جاء به موسى نوراً وهدىً للنّاس ﴾**، يعني التوراة، **﴿ تجعلُونَهُ قراطيسَ تبدُونها وتُخْفُونَ كثيراً ﴾**، أي: تكتبون عنه دفاتر وكتباً مقطعة تبدونها، أي: تُبدون ما تُحبّون وتُخفون كثيراً من نعت محمد ﷺ وآية الرجم. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو (يجعلونه) و(يبدونها) و(يخفونها) بالياء جميعاً، لقوله تعالى: **﴿ وما قَدَرُوا اللّه ﴾** وقرأ الآخرون بالتاء، لقوله تعالى: **﴿ قلْ مَنْ أنزلَ الكتابَ الذي جاء بهِ موسى ﴾**، وقوله: **﴿ وعُلِّمْتُمْ ما لم تعلمُوا ﴾**، الأكثرون على أنها خطاب لليهود، يقول: عُلِّمتم على لسان محمد ﷺ ما لم تعلموا، **﴿ أنتُمْ ولا آباؤُكم ﴾**، قال الحسن: جعل لهم علم ما جاء به محمد ﷺ فضيعوه ولم ينتفعوا به، وقال مجاهد: هذا خطاب للمسلمين يذكّرهم النعمة فيما علّمهم على لسان محمد ﷺ، **﴿ قُلِ اللّهُ ﴾**، هذا راجع إلى قوله: **﴿ قلْ مَنْ أنزلَ الكتابَ الذي جاءَ به موسَى ﴾**، فإن أجابوك وإلاّ فقل أنت: الله، أي: قل أنزله الله، **﴿ ثم ذَرْهم في خوضهم يلعبُون ﴾**.

وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ
يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ
وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟
أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾

قوله تعالى: ﴿**وهذا كتاب أنزلناه مبارك**﴾ يعني: وهذا القرآن كتاب أنزلناه من عندنا عليك يا محمد كثير الخير والبركة دائم النفع يبشر المؤمنين بالثواب والمغفرة ويزجر عن القبيح والمعصية. وأصل البركة: النماء والزيادة وثبوت الخير ﴿**مصدق الذي بين يديه**﴾ يعني من الكتب الإلهية المنزلة من السماء على الأنبياء يعني أنه موافق لما في التوراة والإنجيل وسائر الكتب، لأنها اشتملت جميعها على التوحيد والتنزيه لله من كل عيب ونقيصه وتدل على البشارة والنذارة فثبت بذلك كون القرآن مصدقاً لجميع الكتب المنزلة ﴿**ولتنذر**﴾ قرىء بالتاء يعني ولتنذر يا محمد وبالياء ومعناه ولينذر الكتاب ﴿**أم القرى**﴾ يعني مكة وفيه حذف تقديره ولتنذر أهل القرى وسميت مكة أم القرى لأن الأرض دحيت من تحتها. قاله ابن عباس: وقيل: لأنها أقدم القرى وأعظمها بركة. وقيل: لأنها قبلة أهل الأرض ﴿**ومن حولها**﴾ يعني جميع البلاد والقرى التي حولها شرقاً وغرباً ﴿**والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به**﴾ يعني: والذين يصدقون بقيام الساعة وبالمعاد والبعث بعد الموت يصدقون بها الكتاب وأنه منزل من عند الله عز وجل وقيل ببعثة الرسول ﷺ وذلك أن الذي يؤمن بالآخرة يؤمن بالوعد والوعيد والثواب والعقاب ومن كان كذلك فإنه يرغب في تحصيل الثواب ورد العقاب عنه وذلك لا يحصل إلا بالنظر التام فإذا نظر وتفكر علم بالضرورة أن دين محمد أشرف الأديان وشريعته أعظم الشرائع ﴿**وهم على صلواتهم يحافظون**﴾ يعني يداومون عليها في أوقاتها. والمعنى: أن الإيمان بالآخرة يحمل على الإيمان بمحمد ﷺ وذلك يحمل على المحافظة على الصلاة، وفائدة تخصيص الصلاة بالذكر دون سائر العبادات، التنبيه على أنها أشرف العبادات بعد الإيمان بالله تعالى، فإذا حافظ العبد عليها يكون محافظاً على جميع العبادات والطاعات قوله عز وجل: ﴿**ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً**﴾ يعني ومن أعظم خطأ وأجهل فعلاً ممن اختلق على الله كذباً فزعم أن الله بعثه نبياً وهو في زعمه كذاب مبطل ﴿**أو قال أوحي إليّ ولم يوح إليه شيء**﴾ قال قتادة: نزلت هذه الآية في مسيلمة الكذاب بن ثمامة. وقيل مسيلمة بن حبيب من بني حنيفة وكان صاحب نيرجات وكهانة وسجع ادعى النبوة باليمن وزعم أن الله أوحى إليه وكان قد أرسل إلى النبي ﷺ رسولين: فقال لهما رسول الله ﷺ أتشهدان أن مسيلمة نبي؟ قالا: نعم. فقال لهما: النبي ﷺ لولا أن الرسل لا تقتل لضربت أعناقكما (ق).

﴿ **وهذا كتابٌ أنزلْناه مُباركٌ** ﴾، أي: القرآن كتاب مبارك أنزلناه ﴿ **مُصَدِّقُ الذي بينَ يديهِ ولِتُنذِرَ** ﴾، يا محمد، قرأ أبو بكر عن عاصم (ولينـذر) بالياء أي: ولينذر الكتاب، ﴿ **أمَّ القُرى** ﴾، يعني: مكة سُمّيت أُمّ القرى لأنّ الأرض دحيت من تحتها، فهي أصل الأرض كلها كالأم أصل النسل، وأراد أهلُ أم القرَى ﴿ **ومَنْ حولَها** ﴾، أي: أهل الأرض كلها شرقاً وغرباً، ﴿ **والذينَ يُؤْمِنُون بالآخرة يُؤمنُونَ به** ﴾، بالكتاب، ﴿ **وهمْ على صَلَاتِهِمْ** ﴾، يعني: الصلوات الخمس، ﴿ **يُحافِظُون** ﴾، يداومون، يعني: المؤمنين.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ **ومَنْ أظلمُ ممَّنِ افْتَرى** ﴾، اختلق ﴿ **على اللَّهِ كذباً** ﴾، فزعم أن الله تعالى بعثه نبياً، ﴿ **أوْ قالَ أُوْحِيَ إليّ ولم يُوحَ إليهِ شيءٌ** ﴾، قال قتادة: نزلت في مسيلمة الكذّاب، وكان يسجع ويتكهن، فادّعى النبوّة وزعم أن الله أوحى إليه، وكان قد أرسل إلى رسول الله ﷺ رسولين، فقال النبي ﷺ لهما: «أتشهدان أن مسيلمة

عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «بينا أنا نائم إذ أوتيت خزائن الأرض فوضع في يدي سواران من ذهب فكبرا عليّ وأهماني فأوحي إلي أن انفخهما فنفختهما فطارا فأولتهما الكذابين اللذين أنا بينهما صاحب صنعاء وصاحب اليمامة» وفي لفظ الترمذي قال رسول الله ﷺ: «رأيت في المنام كأن في يدي سوارين فأولتهما كذابين يخرجان من بعدي، يقال لأحدهما: مسيلمة صاحب اليمامة والعنسي صاحب صنعاء» قوله فأوحى إليّ أن أنفخهما يروى بالخاء المهملة ومعناه الرمي والدفع من نفخت الدابة برجلها إذا دفعت ورمحت ويروى بالخاء المعجمة من النفخ يريد أنه نفخهما فطارا عنه وهو قريب من الأول فأما مسيلمة الكذاب فإنه ادعى النبوة باليمامة من اليمن وتبعه قوم من بني حنيفة وكان صاحب نيرجات فاغترّ قومه بذلك وقتل مسيلمة. الكذاب في زمن خلافة أبي بكر الصديق قتله وحشي قاتل حمزة بن عبد المطلب وكان وحشي يقول: قتلت خير الناس يعني حمزة وقتلت شر الناس يعني مسيلمة وأما الأسود العنسي بالنون فهو عبهلة بن كعب وكان يقال له ذو الحمار ادعى النبوة باليمن في آخر عهد النبي ﷺ وقتل والنبي ﷺ حي لم يمت وذلك قبل موته بيومين وأخبر أصحابه بقتله وقتله فيروز الديلمي فقال النبي ﷺ فاز فيروز يعني بقتلة الأسود العنسي فمن قال إن هذه الآية يعني قوله تعالى: ﴿**ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو قال أوحي إليّ ولم يوح إليه شيء**﴾ أنزلت في مسيلمة الكذاب والأسود العنسي يقول: إن هذه الآية مدنية نزلت بالمدينة وهو قول لبعض علماء التفسير تقدم ذكره في أول السورة ومن قال إن هذه الآية مكية وقال: إنها نزلت في شأنهما يقول إنها خبر عن غيب قد ظهر ذلك فيما بعد والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿**ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله**﴾ قال السدي: نزلت في عبد الله بن أبي سرح القرشي وكان قد أسلم وكان يكتب للنبي ﷺ فكان إذا أملى عليه سميعاً بصيراً كتب عليماً حكيماً وإذا أملى عليه عليماً حكيماً كتب غفوراً رحيماً فلما نزلت ﴿ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين﴾ أملاها عليه رسول الله ﷺ فعجب عبد الله من تفصيل خلق الإنسان فقال تبارك الله أحسن الخالقين فقال رسول الله ﷺ اكتبها فهكذا نزلت فشك عبد الله بن أبي سرح وقال: لئن كان محمد صادقاً فقد أوحي إلي مثل ما أوحي إليه فارتد عن الإسلام ولحق بالمشركين ثم رجع عبد الله بعد ذلك إلى الإسلام فأسلم قبل فتح مكة والنبي ﷺ نازل بمر الظهران وقال ابن عباس نزل قوله ومن قال: سأنزل مثل ما أنزل الله في المستهزئين وهو جواب لقولهم لو نشاء لقلنا مثل هذا قال العلماء وقد دخل في حكم هذه الآية كل من افترى على الله كذباً في ذلك الزمان وبعده لأنه لا يمنع خصوص السبب من عموم الحكم: ﴿**ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت**﴾ يعني ولو ترى يا محمد حال هؤلاء الظالمين إذ أنزل بهم الموت لرأيت أمراً عظيماً وغمراته شدائده

نبي»؟ قالا: نعم، فقال النبي ﷺ: «لولا أنّ الرسلَ لا تقتلُ لضربتُ أعناقكما» أخبرنا حسان بن سعيد المنيعي أنا أبو طاهر الزيادي أنا أبو بكر محمد بن الحسين القطّان أنا أحمد بن يوسف السلمي أنا عبد الرزّاق أنا معمر عن همّام بن منبّه أنا أبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «بينا أنا نائـم إذ أُوتيت خزائن الأرض فوضع في يدي سِواران من ذهب، فكبرَا عليّ وأوهماني فأُوحي إليّ أن أنفخهما فنفختهما فذهب، فأوّلتهما الكذّابين اللّذَين أنا بينهما: صاحب صنعاء، وصاحب اليمامة»، أراد بصاحب صنعاء الأسود العنسي وبصاحب اليمامة مسيلمة الكذّاب، ﴿ ومَنْ قالَ سَأُنْزِل مثلَ ما أنزل الله ﴾، قيل: نزلت في عبد الله بن سعد بن أبي سرح وكان قد أسلم وكان يكتب للنبي ﷺ وكان إذ أملى عليه سميعاً بصيراً كتب عليماً حكيماً، وإذا قال: عليماً حكيماً كتب غفوراً رحيماً، فلما نزلت: ﴿ ولقد خلقْنا الإنسان من سلالة من طين ﴾ [المؤمنون: ١٢] أملاها عليه رسول الله ﷺ فعجب عبد الله من تفصيل خلق الإنسان، فقال: تبارك الله أحسن الخالقين، فقال النبي ﷺ: «اكتبها فهكذا نزلتْ»، فشكّ عبد الله، وقال: لئن كان محمد صادقاً فقد أُوحي إليّ كما أُوحي إليه، فارتدّ عن الإسلام ولحق بالمشركين، ثم رجع عبد الله إلى الإسلام

وسكراته وغمرة كل شيء معظمه وأصلها الشيء الذي يغمر الأشياء فيغطيها ثم وضعت في موضع الشدائد والمكاره ﴿والملائكة باسطو أيديهم﴾ يعني بالعذاب يضربون وجوههم وأدبارهم وقيل: باسطو أيديهم لقبض أرواحهم ﴿أخرجوا أنفسكم﴾ يعني يقولون لهم أخرجوا أنفسكم.

فإن قلت: إنه لا قدرة لأحد على إخراج روحه من بدنه فما فائدة هذا الكلام.

قلت: معناه يقولون لهم أخرجوا أنفسكم كرهاً لأن المؤمن يحب لقاء الله بخلاف الكافر وقيل معناه يقولون لهم خلصوا أنفسكم من هذا العذاب إن قدرتم على ذلك فيكون هذا القول توبيخاً لهم لأنهم لا يقدرون على خلاص أنفسهم من العذاب في ذلك الوقت ﴿اليوم تجزون عذاب الهون﴾ يعني الهوان ﴿بما كنتم تقولون على الله غير الحق﴾ يعني ذلك العذاب الذي تجزونه بسبب ما كنتم تقولون على الله غير الحق ﴿وكنتم عن آياتنا تستكبرون﴾ يعني وبسبب ما كنتم تتعظمون عن الإيمان بالقرآن ولا تصدقونه.

وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾

قوله تعالى: ﴿ولقد جئتمونا فرادى﴾ يعني وحداناً لا مال معكم ولا زوج ولا ولد ولا خدم وهذا خبر من الله عز وجل عن حال الكافرين يوم القيامة وكيف يحشرون إليه ماذا يقول لهم في ذلك اليوم وفي قوله للكافرين ولقد جئتمونا فرادى تقريع وتوبيخ لهم لأنهم صرفوا هممهم في الدنيا إلى تحصيل المال والولد والجاه وأفنوا أعمارهم في عبادة الأصنام فلم يغن عنهم كل ذلك شيئاً يوم القيامة فبقوا فرادى عن كل ما حصلوه في الدنيا ﴿كما خلقناكم أول مرة﴾ يعني جئتمونا حفاة عراة غرلاً يعني قلفاً كما ولدتهم أمهاتهم في أول مرة في الدنيا لا شيء عليهم ولا معهم (ق).

عن ابن عباس قال: قام فينا رسول الله ﷺ بموعظة فقال: «أيها الناس إنكم تحشرون إلى الله حفاة عراة غرلاً» ﴿كما بدأنا أول خلق نعيده وعداً علينا إنا كنا فاعلين﴾ (ق) عن عائشة قالت سمعت رسول الله ﷺ يقول: «تحشر الناس حفاة غراة غرلاً» قالت عائشة: فقلت الرجال والنساء جميعاً ينظر بعضهم إلى بعض؟ قال الأمر أشد من أن يهمهم ذلك روى الطبري بسنده عن عائشة أنها قرأت قول الله عز وجل ﴿ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة﴾ فقالت: يا رسول الله واسوأتاه إن الرجال والنساء يحشرون جميعاً ينظر بعضهم إلى سوأة بعض؟ فقال رسول الله ﷺ «لكل امرىء منهم يومئذ شيء يغنيه لا ينظر الرجال إلى النساء ولا النساء إلى الرجال شغل بعضهم عن بعض». وقوله

قبل فتح مكة إذ نزل النبي ﷺ بمرّ الظهران. وقال ابن عباس: قوله: ﴿ وَمَن قالَ سأنزل مثل ما أنزل الله ﴾، يريد المستهزئين وهو جواب لقولهم: ﴿ ولو نشاءُ لقُلْنا مثلَ هذا ﴾ [الأنفال: ٣١]. قوله عزّ وجلّ: ﴿ ولو ترى ﴾، يا محمد، ﴿ إذِ الظّالمون في غمرات الموت ﴾، سكراته وهي جمع غمرة كل شيء معظمه وأصلها الشيء الذي يغمر الأشياء فيغطّيها، ثم وُضعت في موضع الشدائد والمكاره، ﴿ والملائكةُ باسِطُوا أيديهم ﴾، بالعذاب والضرب يضربون وجوههم وأدبارهم، وقيل بقبض الأرواح، ﴿ أخرِجُوا ﴾، أي: يقولون أخرجوا، ﴿ أنفسَكُم ﴾، أي: أرواحكم كُرْهاً لأن نفس المؤمن تنشط للقاء ربه، والجواب محذوف، يعني لو تراهم في هذه الحال لرأيت عجباً، ﴿ اليوم تجزون عذابَ الهُونِ ﴾، أي: الهوان، ﴿ بما كنتُم تقولون على اللهِ غيرَ الحقِّ وكنتُم عنْ آياتِهِ تستكبرُون ﴾، تتعظمون عن الإيمان بالقرآن ولا تصدّقونه.

﴿ ولقدْ جئتمونا فُرادَى ﴾، هذا خبر من الله أنه يقول للكفّار يوم القيامة: ولقد جئتمونا فُرادَى وحداناً، لا مال معكم ولا زوج ولا ولد ولا خدم، وفُرادى جمع فردان، مثل سكران وسكارى، وكسلان وكسالى، وقرأ الأعرج فردى

تعالى: ﴿وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم﴾ يعني وتركتم الذي أعطيناكم وملكناكم من الأموال والأولاد والخدم والخول وكل ما أعطى الله العبد خوله فيه من المال والعبيد وراء ظهوركم يعني في الدنيا ﴿وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء﴾ يعني أن المشركين زعموا أنهم إنما عبدوا هذه الأصنام «لأنها تشفع لهم عند الله يوم القيامة لأنها شركاء الله تعالى الله عن ذلك فإذا كان يوم القيامة وبخ الله المشركين وقرعهم بهذه الآية ثم قال تعالى: ﴿لقد تقطع بينكم﴾ قرىء بنصب النون من بينكم ومعناه لقد تقطع ما بينكم من الوصل أو يكون معناه لقد تقطع الأمر بينكم وقرىء بينكم برفع النون، ومعناه لقد تقطع وصلكم والبين من الأضداد يكون وصلاً ويكون هجراً ﴿وضل عنكم ما كنتم تزعمون﴾ يعني: وذهب وبطل ما كنتم تكذبون في الدنيا.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿إن الله فالق الحب والنوى﴾ لما تقدم الكلام على تقرير التوحيد وتقرير النبوة، أردفه بذكر الدلائل على كمال قدرته وعلمه وحكمته تنبيهاً بذلك على أن المقصود الأعظم هو معرفة الله سبحانه وتعالى بجميع صفاته وأفعاله وأنه مبدع الأشياء وخالقها ومن كان كذلك كان هو المستحق للعبادة لا هذه الأصنام التي كانوا يعبدونها وتعريفاً منه خطأ ما كانوا عليه من الإشراك الذي كانوا عليه. والمعنى: أن الذي يستحق العبادة دون غيره هو الله الذي فلق الحب عن النبات والنواة عن النخلة. وفي معنى فلق قولان: **أحدهما**: أنه بمعنى خلق ومعنى الآية على هذا القول: «أن الله خالق الحب والنوى» وهو قول ابن عباس في رواية العوفي عنه وبه. قال الضحاك ومقاتل: قال الواحدي: ذهبوا بفالق مذهب فاطر. وأنكر الطبري هذا القول وقال لا يعرف في كلام العرب فلق الله الشيء بمعنى خلق. ونقل الأزهري عن الزجاج جوازه فقال: وقيل الفلق الخلق، وإذا تأملت الخلق، تبين لك أن أكثره عن انفلاق ومعنى هذا الكلام أن جميع الأشياء كانت قبل الوجود في العدم فلما أوجدها الله تعالى وأخرجها من العدم إلى الوجود فكأنه فلقها وأظهرها.

والقول الثاني: وهو قول الأكثرين أن الفلق هو الشق ثم اختلفوا في معناه على قولين: **أحدهما**: وهو مروي عن

بغير ألف مثل سكرى، ﴿ كما خلقناكم أول مرّة ﴾، عراةً حُفاةً غرلاً، ﴿ وتركتُمْ ﴾، وخلّفتم ﴿ ما خوّلنَاكم ﴾، أعطيناكم من الأموال والأولاد والخدم، ﴿ وراء ظهورِكم ﴾، في الدنيا، ﴿ وما نرى معكم شفعاءكم الذينَ زعمتُمْ أنّهم فيكم شُركاءُ ﴾، وذلك أن المشركين زعموا أنّهم يعبدون الأصنام لأنهم شركاء الله وشفعاؤهم عنده، ﴿ لقد تقطّع بينكم ﴾، قرأ أهل المدينة والكسائي وحفص عن عاصم بنصب النون على معنى لقد تقطع ما بينكم من الوصل، أو تقطع الأمر بينكم برفع النون، أي: لقد تقطع وصلكم وذلك مثل قوله: ﴿ وتقطعتْ بهمُ الأسباب ﴾ [البقرة: ١٦٦]، أي: الوصلات والبين من الأضداد يكون وصلاً ويكون هجراً، ﴿ وضلّ عنكم ما كنتم تزعمُون ﴾.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ إنّ اللّهَ فالِقُ الحبّ والنّوى ﴾، الفلق الشق، قال الحسن وقتادة والسدي: معناه يشق الحبّة عن السنبلة والنواة عن النخلة فيخرجها منها، والحبّ جمع الحبّة، وهي اسم لجميع البذور والحبوب من البرّ

ابن عباس قال: فلق الحبة عن السنبلة والنواة عن النخلة وهو قول الحسن والسدي وابن زيد. قال الزجاج: بشق الحبة اليابسة والنواة اليابسة فيخرج منها ورقاً أخضر.

والقول الثاني: وهو قول مجاهد إنه الشقان اللذان في الحب والنوى والحب هو الذي ليس له نوى كالحنطة والشعير والأرز وما أشبه ذلك والنوى جمع نواة وهي ما كان على ضد الحب كالرطب والخوخ والمشمش وما أشبه ذلك ومعنى قوله: ﴿**فالق الحب والنوى**﴾ أنه إذا وقعت الحبة أو النواة في الأرض الرطبة ثم مر على ذلك قدر من الزمان أظهر الله تبارك وتعالى من تلك الحبة ورقاً أخضر ثم يخرج من ذلك الورق سنبلة يكون فيها الحب ويظهر من النواة شجرة صاعدة في الهواء وعروقاً ضاربة في الأرض فسبحان من أوجد جميع الأشياء بقدرته وإبداعه وخلقه.

وقوله تعالى: ﴿**يخرج الحي من الميت ومخرج الميت من الحي**﴾ قال ابن عباس: في رواية عنه: يخرج من النطفة بشراً حياً ويخرج النطفة الميتة من الحي وهذا قول الكلبي ومقاتل. قال الكلبي: يخرج النسمة الحية من النطفة الميتة ويخرج الفرخة من البيضة ويخرج النطفة الميتة والبيضة الميتة من الحي. وقال ابن عباس في رواية أخرى: يخرج المؤمن من الكافر ويخرج الكافر من المؤمن فجعل الإيمان بمنزلة الحياة والكفر بمنزلة الموت وهذا قول الحسن. وقيل: معناه يخرج الطائع من العاصي والعاصي من الطائع. وقال السدي: يخرج النبات من الحب والحب من النبات وهذا اختيار الطبري لأنه قال عقب قوله «إن الله فالق الحب والنوى».

فإن قلت كيف قال ومخرج الميت من الحي بلفظ اسم الفاعل بعد قوله «يخرج الحي من الميت» وما السبب في عطف الاسم على الفعل.

قلت: قوله ﴿**ومخرج الميت من الحي**﴾ عطف على قوله: ﴿**فالق الحب والنوى**﴾ وقوله: ﴿**يخرج الحي من الميت**﴾ كالبيان والتفسير لقوله ﴿**فالق الحب والنوى**﴾ لأن فلق الحب والنوى واليابس وإخراج النبات والشجر منه من جنس إخراج الحي من الميت لأن النامي من النبات في حكم الحيوان وقوله ﴿**ذلكم الله**﴾ يعني ذلكم الله المدبر الخالق الصانع لهذه الأشياء المحيي المميت لها ﴿**فأنى تؤفكون**﴾ يعني فأنى تصرفون عن الحق فتعبدون غير الله الذي هو خالق الأشياء كلها وفيه دليل أيضاً على صحة البعث بعد الموت لأن القادر على إخراج البدن من النطفة قادر على إخراجه من التراب للحساب قوله تعالى: ﴿**فالق الإصباح**﴾ أي شاق عمود الصبح عن ظلمة الليل وسواده والإصباح مصدر سمي به الصبح. وقال الزجاج: الإصباح والصبح واحد وهما أول النهار.

فإن قلت ظاهر الآية يدل على أنه تعالى فلق الصبح، والظلمة هي التي تنفلق بالصبح فما معنى ذلك؟ قلت ذكر العلماء فيه وجوهاً:

الأول: أن يكون المراد فالق ظلمة الصبح وذلك لأن الصبح صبحان: فالصبح الأول هو البياض المستطيل الصاعد في الأفق كذنب السرحان وهو الذئب ثم تعقبه ظلمة بعد ذلك ويسمى هذا الصبح الفجر الكاذب لأنه يبدو في

والشعير والذرة، وكلّ ما لم يكن له نوى، وقال الزجّاج: يشقّ الحبّة اليابسة والنواة اليابسة فيخرج منهما ورقاً أخضر، وقال مجاهد: يعني الشقّين اللّذين فيهما، أي: يشقّ عن النبات ويخرجه منه ويشقّ النّوى عن النخل ويخرجها منه، والنوى جمع النواة، وهي كل ما لم يكن له حبّ، كالتمر والمشمش والخوخ ونحوها، وقال الضحاك: فالق الحبّ والنّوى يعني: خالق الحبّ والنّوى، ﴿ **يُخرِجُ الحيَّ مِنَ الميتِ ومُخرجُ الميّت مِنَ الحيِّ ذلِكُمُ اللّهُ فأنّى تُؤفَكُون** ﴾، تصرفون عن الحقّ.

﴿ **فالِقُ الإِصْبَاحِ** ﴾، شاقّ عمود الصبح عن ظلمة الليل وكاشفه، وقال الضحاك: خالق النهار، والإصباح

الأفق الشرقي ثم يضمحل ويذهب ثم يطلع بعده الصبح الثاني، وهو الضوء المستطير في جميع الأفق الشرقي ويسمى الفجر الصادق لأنه ليس بعده ظلمة والحاصل من هذا أن يكون المعنى: فالق ظلمة الصبح الأول بنور الصبح الثاني.

الوجه الثاني: أنه تعالى كما شق ظلمة الليل بنور الصباح فكذلك يشق نور الصبح بضياء النهار فيكون معنى قوله: ﴿**فالق الإصباح**﴾ أي فالق الصباح بنور النهار.

الوجه الثالث: أن يراد فالق ظلمة الإصباح وهي الغبش في آخر الليل الذي يلي الصبح.

الوجه الرابع: أن يكون المعنى فالق الإصباح الذي هو عمود الفجر إذا انصدع الفجر وانفلق وسمي الفجر فلقاً بمعنى مفلوق.

الوجه الخامس: الفلق بمعنى الخلق يعني خالق الإصباح. وعلى هذا القول يزول الإشكال. والصبح هو الضوء الذي يبدو أول النهار. والمعنى أنه تعالى مبدي ضوء الصبح وخالقه ومنوره.

وقوله تعالى: ﴿**وجعل الليل سكناً**﴾ السكن ما سكنت إليه واسترحت به. يريد أن الناس يسكنون في الليل سكون راحة لأن الله جعل الليل لهم كذلك. قال ابن عباس: إن كل ذي روح يسكن فيه لأن الإنسان قد أتعب نفسه في النهار فاحتاج إلى زمان يستريح فيه ويسكن عن الحركة وذلك هو الليل ﴿**والشمس والقمر حسباناً**﴾ يعني أنه تعالى قدر حركة الشمس والقمر في الفلك بحسبان معين. قال ابن عباس: يجريان إلى أجل جعل لهما يعني عدد الأيام والشهور والسنين وقال الكلبي منازلهما بحسبان لا يجاوزانه حتى ينتهيا إلى أقصى منازلهما ﴿**ذلك**﴾ إشارة إلى ما تقدم ذكره في هذه الآية من الأشياء التي خلقها بقدرته وكمال علمه وهو المراد بقوله ﴿**تقدير العزيز العليم**﴾ فالعزيز إشارة إلى كمال قدرته والعليم إشارة إلى كمال علمه.

قوله عز وجل: ﴿**وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر**﴾ جعل هنا بمعنى خلق يعني والله الذي خلق لكم هذه النجوم أدلة لتهتدوا بها إذا ضللتم الطريق وتحيرتم فيه، فامتنّ الله على عباده بأن جعل لهم النجوم ليهتدوا بها في المسالك والطرق في البر والبحر إلى حيث يريدون ويستدلون بالنجوم أيضاً على القبلة فيستدلون على ما يريدون في النهار بحركة الشمس وفي الليل بحركة الكواكب ومن منافعها أيضاً أنه تعالى خلقها زينة

مصدر كالإقبال والإدبار وهو الإضاءة وأراد به الصبح وهو أول ما يبدو من النهار، يريد ومُبدي الصبح وموضحه، ﴿ وجعلَ الليلَ سكناً ﴾، يسكن فيه خلقه وقرأ أهل الكوفة، «وجعل» على الماضي، ﴿ الليل ﴾، نصب اتّباعاً للمصحف، وقرأ إبراهيم النخعي «فلق الإصباح» «وجعل الليل سكناً»، «والشمس والقمرَ حُسْبَاناً»، أي، جعل الشمس والقمر بحساب معلوم لا يجاوزانه حتى ينتهيا إلى أقصى منازلهما، والحسبان مصدر كالحساب، وقيل: جمع حساب، ﴿ ذلك تقديرُ العزيز العليم ﴾.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ وهوَ الذي جعلَ لكمُ النّجومَ ﴾ أي خلقها لكم، ﴿ لتهتدُوا بها في ظلمات البَرِّ والبحر ﴾، والله تعالى خلق النجوم لفوائد، أحدها هذا وهو أن راكب السفينة والسائر في القِفار يهتدي بها في الليالي إلى مقاصده، والثاني أنها زينة للسماء كما قال: ﴿ ولقد زيّنّا السماء الدنيا بمصابيح ﴾ [الملك: ٥]، ومنها رمي الشيطان، كما قال: ﴿ وجعلناها رُجُوماً للشياطين ﴾ [الملك: ٥]، ﴿ قدْ فصّلْنا الآيات لقوم يعلمُون ﴾.

﴿ وهوَ الذي أنشأكم ﴾، خلقكم وابتدأكم، ﴿ مِنْ نفسٍ واحدة ﴾، يعني: آدم عليه السلام، ﴿ فَمُسْتَقَرٌّ ومُستوْدَعٌ ﴾، قرأ ابن كثير وأهل البصرة «فمستقِر» بكسر القاف، يعني: فمنكم مستقر ومنكم مستودع، وقرأ

للسماء ورجوماً للشياطين كما قال: ﴿ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوماً للشياطين﴾ **﴿قد فصلنا الآيات﴾** يعني قد بيّنا الآيات الدالة على توحيدنا وكمال قدرتنا **﴿لقوم يعلمون﴾** أن ذلك مما يستدل به على وجود الصانع المختار وكمال علمه وقدرته.

قوله تعالى: **﴿وهو الذي أنشأكم من نفس واحدة﴾** يعني والله الذي ابتدأ خلقكم أيها الناس من آدم عليه السلام فهو أبو البشر كلهم وحواء مخلوقة منه وعيسى أيضاً لأن ابتداء خلقه من مريم وهي من بنات آدم فثبت أن جميع الخلق من آدم عليه السلام **﴿فمستقر ومستودع﴾** قرىء فمستقر بكسر القاف وفتحها. يقال: قر في مكانه واستقر فمن كسَر القاف قال: المستقر بمعنى القارّ. والمعنى: منكم مستقر يعني في الأرحام. ومن فتح القاف جعله مكاناً فالمستقر نفس المقر فيكون المعنى لكم مقر.

وأما المستودع فهو مثل أودع فيجوز أن يكون اسماً للإنسان الذي استودع ذلك المكان ويجوز أن يكون المكان نفسه.

فمن قرأ فمستقر بفتح القاف جعل المستودع مكاناً، والمعنى: فلكم مكان استقرار ومكان استيداع ومن كسر القاف جعل المعنى منكم مستقر ومنكم مستودع يعني منكم من استقر ومنكم من استودع والفرق بين المستقر والمستودع أن المستقر أقرب إلى الثبات من المستودع، لأن المستقر من القرار والمستودع معرض لأن يرد.

ولهذا اختلفت عبارات المفسرين في معنى هذين اللفظين فروي عن ابن عباس أنه قال المستقر في أرحام الأمهات والمستودع في أصلاب الآباء ثم قرأ ﴿ونقر في الأرحام ما نشاء﴾ ويؤيد هذا القول أن النطفة لا تبقى في صلب الأب زماناً طويلاً والجنين يبقى في بطن الأم زماناً طويلاً، ولما كان المكث في بطن الأم أكثر من صلب الأب حمل المستقر على الرحم والمستودع على الصلب. وروي عنه أنه قال: بالعكس يعني أن المستقر صلب الأب والمستودع رحم الأم. ووجه هذا القول، أن النطفة حصلت في صلب الأب قبل رحم الأم فوجب حمل المستقر على الصلب والمستودع على الرحم. وقال ابن مسعود: المستقر في الرحم إلى أن يولد والمستودع في القبر إلى أن يبعث وقال مجاهد: المستقر على ظهر الأرض في الدنيا لقوله: **﴿ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين﴾** والمستودع عند الله في الآخرة. وقال الحسن: المستقر في القبر والمستودع في الدنيا وكان يقول يا ابن آدم أنت مستودع في أهلك إلى أن تلحق بصاحبك يعني القبر وقيل المستودع في القبر والمستقر إما في الجنة والنار، لأن المقام فيهما يقتضي الخلود والتأبيد **﴿قد فصلنا الآيات﴾** قد بيّنا الدلائل الدالة على التوحيد بالبراهين الواضحة والحجج القاطعة **﴿لقوم يفقهون﴾**

الآخرون بفتح القاف، أي: فلكم مستقر ومستودع، واختلفوا في المستقر والمستودع، قال عبد الله بن مسعود: فمستقر في الرحم إلى أن يولد، ومستودع في القبر إلى أن يبعث، وقال سعيد بن جبير وعطاء: فمستقر في أرحام الأمهات ومستودع في أصلاب الآباء، وهو رواية عكرمة عن ابن عباس قال سعيد بن جبير: قال لي ابن عباس هل تزوجت قلت لا: قال: أما أنه ما كان مستودعاً في ظهرك فيستخرجه الله عزّ وجلّ. ورُوِيَ عن أُبيّ أنه قال: مستقر في أصلاب الآباء، ومستودع في أرحام الأمهات، وقيل: مستقر في الرحم ومستودع فوق الأرض، قال الله تعالى: ﴿ ونقرّ في الأرحام ما نشاء ﴾ [الحج: ٥] وقال مجاهد: مستقر على ظهر الأرض في الدنيا ومستودع عند الله في الآخرة، ويدلّ عليه قوله تعالى: ﴿ ولكم في الأرض مستقرٌ ومتاع إلى حين ﴾ [البقرة: ٣٦]، وقال الحسن: المستقر في القبر والمستودع في الدنيا، وكان يقول: يا ابن آدم أنت وديعة في أهلك ويُوشك أن تلحق بصاحبك، وقيل: المستودع القبر والمستقر الجنة والنار، لقوله عزّ وجلّ في صفة أهل الجنّة: ﴿ حَسُنَتْ مُسْتَقَرّاً ومُقَاماً ﴾

يعني لقوم يفهمون عن الله آياته ودلائله الدالة على توحيده لأن الفقه هو الفهم. قوله عز وجل:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٩٩﴾

﴿**وهو الذي أنزل من السماء ماء**﴾ يعني المطر وقيل إن الله ينزل المطر من السماء إلى السحاب ومن السحاب إلى الأرض ﴿**فأخرجنا به**﴾ يعني بالماء الذي أنزلناه من السماء ﴿**نبات كل شيء**﴾ يعني كل شيء ينبت وينمو من جميع أصناف النبات، وقيل معناه أخرجنا بالماء الذي أنزلناه من السماء غذاء كل شيء من: الأنعام والبهائم والطير والوحش وأرزاق بني آدم وأقواتهم مما يتغذون به فينبتون عليه وينمون ﴿**فأخرجنا منه خضراً**﴾ يريد أخضر مثل عور وأعور. والأخضر هو جميع الزروع والبقول الرطبة ﴿**نخرج منه حباً متراكباً**﴾ يعني: يخرج من ذلك الأخضر سنابل فيها الحب يركب بعضها فوق بعض مثل: سنبل القمح والشعير والأرز والذرة وسائر الحبوب وفي تقديم الزرع على النخل دليل على الأفضلية ولأن حاجة الناس إليه أكثر لأنه القوت المألوف ﴿**ومن النخل من طلعها قنوان دانية**﴾ يعني من ثمرها. يقال: أطلعت النخلة إذا أخرجت طلعها وطلعها كفراها قبل أن ينشق عن الإغريض. والإغريض: يسمى طلعاً أيضاً وهو ما يكون في قلب الطلع والطلع أول ما يبدو ويخرج من ثمر النخل كالكيزان يكون فيه العذق فإذا شق عنه كيزانه سمي عذقاً وهو القنو وجمعه قنوان مثل: صنو وصنون. دانية أي قريبة التناول ينالها القائم والقاعد وقال مجاهد: متدلية. وقال الضحاك: قصار ملتصقة بالأرض وفيه اختصار وحذف تقديره ومن النخل ما قنوانها دانية قريبة ومنها ما هي بعيدة عالية فاكتفى بذكر القريبة عن البعيدة لشدة الاهتمام بها ولأنها أسهل تناولاً من البعيدة لأن البعيدة تحتاج إلى كلفة ﴿**وجنات من أعناب**﴾ يعني وأخرجنا من ذلك بساتين من أعناب ﴿**والزيتون والرمان**﴾ يعني وأخرجنا شجر الزيتون وشجر الرمان ﴿**مشتبهاً**﴾ قال قتادة مشتبهاً ورقها مختلفاً ثمرها لأن ورق الزيتون يشبه ورق الرمان ﴿**وغير متشابه**﴾ يعني ومنها غير متشابه في الورق والطعم. واعلم أن الله تعالى ذكر في هذه الآية أربعة أنواع من الشجر بعد ذكر الزرع وإنما قدم الزرع على سائر الأشجار لأن الزرع غذاء وثمار أشجار فواكه والغذاء مقدم على الفواكه وإنما

[الفرقان: ٧٦]، وفي صفة أهل النار: ﴿ساءتْ مُستقرّاً ومُقاماً﴾ [الفرقان: ٦٦] ﴿**قدْ فصّلْنا الآياتِ لقومٍ يفقهُون**﴾.

﴿**وهوَ الذي أنزلَ منَ السماءِ ماءً فأخْرَجْنَا بِهِ**﴾، أي: بالماء، ﴿**نباتَ كلِّ شيءٍ فأخْرَجْنَا منه**﴾، من الماء، وقيل: من النبات، ﴿**خَضِراً**﴾، يعني: اخضرّ، مثل العور والأعور: يعني: ما كان رطباً أخضر مما ينبت من القمح والشعير ونحوهما، ﴿**نُخرِجُ منه حبّاً مُتراكِباً**﴾، أي متراكباً بعضه على بعض، مثل سنابل البُرِّ والشعير والأرز وسائر الحبوب، ﴿**ومِنَ النّخْلِ مِن طَلْعِها**﴾، والطّلع أول ما يخرج من ثمر النخل، ﴿**قِنْوانٌ**﴾ جمع قِنْو وهو العِذق، مثل صنو وصنوان ولا نظير لهما في الكلام، ﴿**دانيةٌ**﴾، أي: قريبة المتناول ينالها القائم والقاعد، وقال مجاهد: متدلية، وقال الضحاك: قصار ملتزمة بالأرض، وفيه اختصار معناه: ومن النخل ما قنوانها دانية ومنها ما هي بعيدة، فاكتفي بذكر القريبة عن البعيدة لسبقه إلى الأفهام، كقوله تعالى: ﴿سرابيل تقيكم الحَرَّ﴾ [النحل: ٨١] يعني: الحرَّ والبَرْد فاكتفى بذكر أحدهما، ﴿**وجنّاتٍ من أعناب**﴾، أي: وأخرجنا منه جنّات، وقرأ الأعمش عن عاصم «وجنّـاتٌ» بالرفـع نسقاً على قوله: ﴿**قنوان**﴾ وعامّة القرّاء على خلافة، ﴿**والزيتون والرُّمانَ**﴾، يعني: وشجر الزيتون وشجر الرمّان، ﴿**مشتبهاً وغيرَ مُتشابهٍ**﴾، قال قتادة: معناه مشتبهاً ورقها مختلفاً ثمرها، لأن ورق الزيتون

قدم النخلة على غيرها لأن ثمرتها تجري مجرى الغذاء، وفيها من المنافع والخواص ما ليس في غيرها من الأشجار وإنما ذكر العنب عقب النخلة؛ لأنها من أشرف أنواع الفواكه ثم ذكر عقبه الزيتون لما فيه من البركة والمنافع الكثيرة في الأكل وسائر وجوه الاستعمال ثم ذكر عقيبه الرمان لما فيه من المنافع أيضاً لأنه فاكهة ودواء ثم قال تعالى: ﴿انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه﴾ يعني ونضجه وإدراكه. والمعنى انظروا نظر استدلال واعتبروا كيف أخرج الله تعالى هذه التمرة الرطبة اللطيفة من هذه الشجرة الكثيفة اليابسة وهو قوله: ﴿إن في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون﴾ يعني يصدقون أن الذي أخرج هذا النبات وهذه الثمار قادر على أن يحيـي الموتى ويبعثهم وإنما احتج الله عليهم بتصريف ما خلق ونقله من حال إلى حال وهو ما يعلمونه قطعاً ويشاهدونه من إحياء الأرض بعد موتها وإخراج سائر أنواع النبات والثمار منها وأنه لا يقدر على ذلك أحد إلا الله تعالى ليبين أنه تعالى كذلك قادر على أن يحييهم بعد موتهم ويبعثهم يوم القيامة فاحتج عليهم بهذه الأشياء لأنهم كانوا ينكرون البعث قوله تعالى:

﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾
بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكُمُ
ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾﴾

﴿وجعلوا لله شركاء الجن﴾ قال الحسن: معناه أطاعوا الجن في عبادة الأوثان. وهو اختيار الزجاج. قال: معناه إنهم أطاعوا الجن فيما سولت لهم من شركهم فجعلوهم شركاء لله. وقال الكلبي: نزلت في الزنادقة أثبتوا الشرك لاثنين في الخلق فقالوا الله خالق النور والناس والدواب والأنعام وإبليس خالق الظلمة والسباع والحيات والعقارب ونقل هذا القول ابن الجوزي عن ابن السائب ونقله الرازي عن ابن عباس. قال الإمام فخر الدين: وهذا مذهب المجوس. وإنما قال ابن عباس: هذا قول الزنادقة، لأن المجوس يلتبسون بالزندقة، لأن الكتاب الذي زعم زرادشت أنه نزل من السماء سماه بالزند والمنسوب إليه زندي ثم عرب: فقيل: زنديق فإذا جمع، قيل: زنادقة. ثم إن المجوس قالوا: كل ما يكون في هذا العالم من الخير فهو من يزدان يعني النور وجميع ما في العالم من الشر فهو من الظلمة يعني إبليس ثم اختلف المجوس فالأكثرون منهم على أن إبليس محدث ولهم في كيفية حدوثه أقوال عجيبة والأقلون منهم قالوا: إنه قديم وعلى كلا القولين فقد اتفقوا على أنه شريك الله في تدبير هذا العالم فما كان من خير فمن الله وما كان من شر فمن إبليس تعالى الله عن قولهم علوّاً كبيراً.

فإن قلت فعلى هذا القول إنما أثبتوا لله شريكاً واحداً وهو إبليس فكيف حكى الله أنهم جعلوا له شركاء قلت: إن إبليس له أعوان من جنسه وحزبه وهم شياطين الجن يعملون أعماله فصح ما حكاه الله عنهم من أنهم جعلوا له شركاء الجن ومعنى الآية وجعلوا الجن شركاه لله واختلفوا في معنى هذه الشركة فمن قال إن الآية في كفار العرب قال إنهم

يشبه ورق الرمّان، وقيل: مشتبه في المنظر مختلف في الطعم، ﴿انظروا إلى ثمره﴾، قرأ حمزة والكسائي بضمّ الثاء والميم، هذا وما بعده وفي يّس على جمع الثمار، وقرأ الآخرون بفتحهما على جمع الثمرة مثل بقرة وبقر، ﴿إذا أثمرَ وينْعِهِ﴾، ونضجه وإدراكه، ﴿إنَّ في ذلكم لآياتٍ لقوم يُؤمنُون﴾.

قوله عزّ وجلّ: ﴿وجعلُوا للّهِ شُركاءَ الجِنّ﴾، يعني: الكافرين جعلُوا للّهِ شركاء الجن، ﴿وخَلَقَهُمْ﴾، يعني: وهو خلق الجن، قال الكلبي: نزلت في الزنادقة أثبتوا الشركة لإبليس في الخلق، فقالوا: الله خالق النور والناس والدواب والأنعام، وإبليس خالق الظلمة والسِّباع والحيّات والعقارب، وهذا كقوله: ﴿وجعلُوا بينَه وبينَ

لما أطاعوا الجن فيما أمروهم به من عبادة الأصنام فقد جعلوهم شركاء لله ومن قال إنها في المجوس قال إنهم أثبتوا إلهين اثنين النور والظلمة، وقيل إن كفار العرب قالوا الملائكة بنات الله وهم شركاؤه فعلى هذا القول فقد جعلوا الملائكة من الجن وذلك لأنهم مستورون عن الأعين.

وقوله ﴿وخلقهم﴾ في معنى الكناية قولان: **أحدهما**: أنها تعود إلى الجن فيكون المعنى: والله خلق الجن فكيف يكون شريك الله من هو محدث مخلوق.

والقول الثاني: إن الكناية تعود إلى الجاعلين لله شركاء فيكون المعنى: وجعلوا لله الذي خلقهم شركاء لا يخلقون شيئاً.

وهذا كالدليل القاطع بأن المخلوق لا يكون شريكه لله وكل ما في الكون محدث مخلوق والله تعالى هو الخالق لجميع ما في الكون فامتنع أن يكون لله شريك في ملكه ﴿وخرقوا له بنين وبنات بغير علم﴾ أي اختلقوا وكذبوا يقال: اختلق واخترق على فلان إذا كذب عليه وذلك أن النصارى وطائفة من اليهود ادعوا أن لله ابناً، وكفار العرب ادعوا أن الملائكة بنات الله وكذبوا على الله جميعاً فيما ادعوه وقوله ﴿بغير علم﴾ كالتنبيه على ما هو الدليل القاطع على فساد هذا القول لأن الولد جزء من الأب والله سبحانه وتعالى لا يتجزأ فثبت بهذا فساد قول من يدعي أن لله ولداً ثم نزه الله تعالى نفسه عن اتخاذ الولد وعن هذه الأقاويل الفاسدة فقال تعالى: ﴿سبحانه وتعالى عما يصفون﴾ فقوله سبحانه فيه تنزيه الله عن كل ما لا يليق بجلاله وقوله تعالى يعني هو المتعالي عن كل اعتقاد باطل وقول فاسد، أو يكون المعنى: المتعالي عن اتخاذ الولد والتشريك وقوله ﴿عما يصفون﴾ يعني عما يصفونه به من الكذب.

قوله عز وجل: ﴿بديع السموات والأرض﴾ الإبداع عبارة عن تكوين الشيء على غير مثال سبق والله تعالى خلق السموات والأرض على غير مثال سبق ﴿أنى يكون له ولد﴾ يعني من أين يكون له ولد ﴿ولم تكن له صاحبة﴾ لأن الولد لا يكون إلا من صاحبة أنثى ولا ينبغي أن تكون لله صاحبة لأنه ليس كمثله شيء ﴿وخلق كل شيء﴾ يعني أن الصاحبة والولد في جملة من خلق لأنه خالق كل شيء وليس كمثله شيء فكيف يكون الولد لمن لا مثل له وإذا نسب الولد والصاحبة إليه فقد جعل له مثل والله تعالى منزه عن المثلية وهذه الآية حجة قاطعة على فساد قول النصارى ﴿وهو بكل شيء عليم﴾ يعني أنه تعالى عالم بجميع خلقه لا يعزب عن علمه شيء وعلمه محيط بكل شيء.

قوله تعالى: ﴿ذلكم الله ربكم﴾ يعني ذلكم الله الذي من صفته أنه خلق السموات والأرض وأبدعهما على غير

الجِنَّة نسباً﴾ [الصَّافَّات: ١٥٨]، وإبليس من الجن، ﴿وخرقُوا﴾ بتشديد الراء على التكثير، وقرأ الآخرون بالتخفيف، أي: اختلقوا ﴿له بنينَ وبناتٍ بغيرِ علم﴾، وذلك مثل قول اليهود عزير ابن الله، وقول النصارى المسيح ابن الله، وقول كفّار مكة الملائكة بنات الله، ثم نزّه نفسه فقال: ﴿سبحانَهُ وتعالى عمّا يصفُون﴾.

﴿بديعُ السمٰواتِ والأرضِ﴾، أي: مبدعهما لا على مثال سبق، ﴿أنّى يكونُ له ولد﴾، أي: كيف يكون له ولد؟ ﴿ولم تكنْ له صاحبةٌ﴾، زوجة، ﴿وخلقَ كلَّ شيء وهو بكل شيء عليم﴾.

﴿ذلكمُ اللَّهُ ربكم لا إلَهَ إلاّ هوَ خالقُ كلِّ شيءٍ فاعبدوه﴾، فأطيعُوه، ﴿وهو على كلِّ شيء وَكيل﴾، بالحفظ له والتدبير، ﴿لا تُدْرِكُهُ الأبْصَارُ وهو يُدرِك الأبصار﴾ [الأنعام: ١٠٣]، يتمسك أهل الاعتزال بظاهر هذه الآية في نفي رُؤية الله عزّ وجلّ عياناً، ومذهب أهل السُّنّة إثبات رؤية الله عزّ وجلّ عياناً قال الله تعالى: ﴿وُجوهٌ يومئذ ناضرةٌ إلى ربِّها ناظرة﴾ [القيامة: ٢٢ و٢٣]، قال: ﴿كلاّ إنّهم عنْ ربهم يومئذ لمحجوبون﴾ [المطفّفين: ١٥] قال مالك رضي الله عنه: لو لم يرَ المؤمنون ربَّهم يوم القيامة لم يعيّرِ اللَّهُ الكفّارَ بالحجاب، وقرأ النبي ﷺ: ﴿للذينَ

مثال سبق ﴿وأنه بكل شيء عليم﴾ هو ربكم الذي يستحق العبادة لا من تدعون من دونه من الأصنام لأنها جمادات لا تخلق ولا تضر ولا تنفع ولا تعلم والله تعالى هو الخالق الضار النافع ﴿لا إله إلا هو خالق كل شيء فاعبدوه﴾ يعني أنه هو الذي يستحق العبادة فاعبدوه وأطيعوه ﴿وهو على كل شيء وكيل﴾ يعني أنه هو تعالى على كل شيء خلق رقيب حفيظ، يقوم بأرزاق جميع خلقه.

﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾ قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار﴾ قال جمهور المفسرين معنى: الإدراك الإحاطة بكنه الشيء وحقيقته فالأبصار ترى البارىء جل جلاله ولا تحيط به كما أن القلوب تعرفه ولا تحيط به. وقال سعيد بن المسيب في تفسيره: قوله لا تدركه الأبصار، لا تحيط به الأبصار. وقال ابن عباس: كلت أبصار المخلوقين عن الإحاطة به.

(فصل)

تمسك بظاهر الآية قوم من أهل البدع ووهم الخوارج والمعتزلة وبعض المرجئة وقالوا: إن الله تبارك وتعالى لا يراه أحد من خلقه وإن رؤيته مستحيلة عقلاً، لأن الله أخبر أن الأبصار لا تدركه وإدراك البصر عبارة عن الرؤية، إذ لا فرق بين قوله أدركته ببصري ورأيته ببصري فثبت بذلك أن قوله لا تدركه الأبصار بمعنى لا تراه الأبصار وهذا يفيد العموم ومذهب أهل السنة أن المؤمنين يرون ربهم يوم القيامة وفي الجنة وأن رؤيته غير مستحيلة عقلاً واحتجوا لصحة مذهبهم بتظاهر أدلة الكتاب والسنة وإجماع الصحابة، ومن بعدهم من سلف الأمة على إثبات رؤية الله تبارك وتعالى للمؤمنين في الآخرة قال الله تبارك وتعالى: ﴿وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة﴾ ففي هذه الآية دليل على أن المؤمنين يرون ربهم يوم القيامة وقال تعالى: ﴿كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون﴾ قال الشافعي رحمه الله: حجب قوماً بالمعصية وهي الكفر فثبت أن قوماً يرونه بالطاعة وهي الإيمان وقال مالك لو لم ير المؤمنون ربهم يوم القيامة لم يعير الكفار بالحجاب وقال تعالى: ﴿للذين أحسنوا الحسنى وزيادة﴾ وفسروا هذه الزيادة بالنظر إلى وجه الله تبارك وتعالى يوم القيامة.

وأما دلائل السنة فما روي عن جرير بن عبد الله البجلي قال «كنا عند رسول الله ﷺ فنظر إلى القمر ليلة البدر وقال إنكم سترون ربكم عياناً كما ترون هذا القمر لا تضامون في رؤيته، فإن استطعتم أن لا تغلبوا عن صلاة قبل طلوع

أحسنُوا الحُسْنَى وزِيَادة ﴾ [يونس: ٢٦]، وفسّره بالنظر إلى وجه الله عزّ وجلّ. أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا يوسف بن موسى ثنا عاصم بن يوسف اليربوعي أنا أبو شهاب عن إسماعيل بن أبي خالد عن قيس بن حازم عن جرير بن عبد الله قال: قال النبي ﷺ: «إنّكم سترَوْنَ ربّكم عياناً».

وأمّا قوله: ﴿ لا تدركه الأبصار ﴾، علم أن الإدراك هو الوقوف لأن الإدراك هو الوقوف على كُنهِ الشيء والإحاطة به والرؤية المعاينة، وقد تكون الرؤية بلا إدراك، قال الله تعالى في قصة موسى عليه السلام: ﴿فلما تراءى الجمعان قالَ أصحابُ موسَى إنّا لَمُدرَكُون ﴾ [الشعراء: ٦١]، قال: كلا، وقال: ﴿ لا تخافُ دركاً ولا تخشى ﴾

الشمس وقبل غروبها فافعلوا ثم قرأ: ﴿وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب﴾ أخرجه البخاري ومسلم عن أبي هريرة: «أن ناساً قالوا يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة؟ قال رسول الله ﷺ هل تضامون في القمر ليلة البدر؟ قالوا لا يا رسول الله قال هل تضارون في الشمس ليس دونها سحاب؟ قالوا لا يا رسول الله قال رسول الله ﷺ فإنكم ترونه» كذلك أخرجه أبو داود وأخرجه الترمذي وليس عنده في أوله أن أناساً سألوا ولا في آخره ليس دونها سحاب. عن أبي رزين العقيلي قال: قلت يا رسول الله أكلنا يرى ربه مخلياً به يوم القيامة؟ قال: نعم قلت وما آية ذلك من خلقه؟ قال: يا أبا رزين أليس كلكم يرى القمر ليلة البدر مخلياً به قلت بلى قال: «فالله أعظم إنما هو خلق من خلق الله يعني القمر فالله جل وأعظم» أخرجه أبو داود وأما الدلائل العقلية، فقد احتج أهل السنة أيضاً بهذه الآية عى جواز رؤية المؤمنين ربهم يوم القيامة، وتقريره، أنه تعالى تمدح بقوله لا تدركه الأبصار فلو لم يكن جائز الرؤية لما حصل هذا التمدح لأن المعدوم لا يصح التمدح به فثبت أن قوله لا تدركه الأبصار يفيد المدح، وهذا يدل على أنه تعالى جائز الرؤية وتحقيق هذا أن الشيء إذا كان في نفسه بحيث تمتنع رؤيته فحينئذ لا يلزم من عدم رؤيته مدح وتعظيم، أما إذا كان في نفسه جائز الرؤية. ثم إنه قدر على حجب الأبصار عنه كانت القدرة دالة على المدح والعظمة فثبت أن هذه الآية دالة على أنه تعالى جائز الرؤية وإذا ثبت هذا وجب القطع بأن المؤمنين يرونه يوم القيامة، لأن موسى ﷺ سأل الرؤية بقوله: أرني أنظر إليك وذلك يدل على جواز الرؤية، إذ لا يسأل نبي مثل موسى ما لا يجوز ويمتنع وقد علق الله الرؤية على استقرار الجبل بقوله فإن استقر مكانه فسوف تراني. استقرار الجبل جائز. والمعلق على الجائز جائز. وأما الجواب عن تمسك المعتزلة بظاهر هذه الآية في نفي الرؤية، فاعلم أن الإدراك غير الرؤية، لأن الإدراك هو الإحاطة بكنه الشيء وحقيقته، والرؤية: المعاينة للشيء من غير إحاطة. وقد تكون الرؤية بغير إدارك كما قال تعالى في قصة موسى: قال أصحاب موسى إنا لمدركون قال كلا وكان قوم فرعون قد رأوا قوم موسى ولم يدركوهم لكن قاربوا إدراكهم إياه فنفى موسى الإدراك مع إثبات الرؤية بقوله كلا والله تعالى يجوز أن يرى في الآخرة من غير إدراك ولا إحاطة لأن الإدراك هو الإحاطة بالمرئي وهو ما كان محدوداً وله جهات والله تعالى منزه عن الحد والجهة لأنه القديم الذي لا نهاية لوجوده فعلى هذا أنه تعالى يرى ولا يدرك وقال قوم: إن الآية مخصوصة بالدنيا. قال ابن عباس في معنى الآية: لا تدركه الأبصار في الدنيا وهو يرى في الآخرة وعلى هذا القول فلا فرق بين الإدراك والرؤية قالوا ويدل على هذا التخصيص قوله: ﴿وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة﴾ فقوله: ﴿يومئذ ناضرة﴾ مقيد بيوم القيامة على هذا يمكن الجمع بين الآيتين وقال السدي: البصر بصران: بصر معاينة وبصر علم فمعنى قوله ﴿**لا تدركه الأبصار**﴾ لا

[طه: ٧٧]، فنفى الإدراك مع إثبات الرؤية، فالله عزّ وجلّ يجوّز أن يُرى من غير إدراك وإحاطة كما يُعرف في الدنيا ولا يُحاط به، قال الله تعالى: ﴿ ولا يُحيطون به علماً ﴾ [طه: ١١٠]، فنفى الإحاطة مع ثبوت العلم، قال سعيد بن المسيب: لا تُحيط به الأبصار، وقال عطاء: كلّتْ أبصار المخلوقين عن الإحاطة به، وقال ابن عباس ومقاتل: لا تُدركه الأبصار في الدنيا، وهو يُرى في الآخرة، قوله: ﴿ وهو يُدرِك الأبصار ﴾، أي: لا يخفَى على الله شيء ولا يفوته، ﴿ وهو اللّطيفُ الخبيرُ ﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما، اللطيف بأوليائه الخبير بهم، وقال الزهري معنى ﴿ اللطيف ﴾ الرفيق بعباده، وقيل: اللطيف الموصل الشيء باللين والرفق، وقيل: اللطيف الذي يُنسي العبادَ ذنوبَهم لئلا يخجلوا، وأصل اللطف دقّة النظر في الأشياء.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ قدْ جاءَكمْ بصائرُ مِّن رَّبكم ﴾، يعني: الحجج البيّنة التي تبصرون بها الهُدى من الضلالة والحق من الباطل، ﴿ فمَن أبصر ﴾، أي: فمَن عرفها وآمن بها ﴿ فلنفْسِهِ ﴾، عمله ونفعه له، ﴿ ومَنْ عَمِيَ فعليها ﴾، أي: مَن عمي عنها فلم يعرفها ولم يصدّقها فعليها، أي: بنفسه ضرّ، وَوبال العمى عليه، ﴿ وما أنا

يدركه علم العلماء ونظيره ولا يحيطون به علماً هذا وجه حسن أيضاً والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿**وهو يدرك الأبصار**﴾ يعني أنه تعالى يرى جميع المرئيات ويبصر جميع المبصرات لا يخفى عليه شيء منها ويعلم حقيقتها ومطلع على ماهيتها فهو تعالى لا تدركه أبصار المبصرين وهو يدركها ﴿**وهو اللطيف الخبير**﴾ قال ابن عباس: بأوليائه الخبير بهم. وقال الزهري: معنى اللطيف الرفيق بعباده. وقيل هو الموصل الشيء إليك برفق ولين. وقيل هو الذي ينسى عباده ذنوبهم لئلا يخجلوا وأصل اللطف دقة النظر في الأشياء. وقال أبو سليمان الخطابي: اللطيف هو اللين بعباده يلطف بهم من حيث لا يعلمون ويوصل إليهم مصالحهم من حيث لا يحتسبون. وقال الأزهري: اللطيف في أسماء الله تعالى معناه الرفيق بعباده. وقيل: هو اللطيف حيث لم يأمر عباده بفوق طاقتهم وينعم عليهم فوق استحقاقهم. وقيل: هو اللطيف بعباده حيث يثني عليهم عند الطاعة ولم يقطع عنهم بره وإحسانه عند المعصية. وقيل: هو الذي لطف عن أن تدركه الأبصار وهو يدركها.

قوله تعالى: ﴿**قد جاءكم بصائر من ربكم**﴾ البصائر: جمع البصيرة، وهي الدلالة التي توجب البصر بالشيء والعلم به. والمعنى: قد جاءكم القرآن الذي فيه البيان والحجج التي تبصرون بها الهدى من الضلالة والحق من الباطل. وقيل: إن الآيات والبراهين ليست في أنفسها بصائر إلا أنها لقوّتها توجب البصائر لمن عرفها ووقف على حقائقها فلما كانت هذه الآيات والحجج والبراهين أسباباً لحصول البصائر سميت بصائر ﴿**فمن أبصر**﴾ يعني فمن عرف الآيات واهتدى بها إلى الحق ﴿**فلنفسه**﴾ يعني فلنفسه أبصر ولها عمل لأنه يعود نفع ذلك عليه ﴿**ومن عمي**﴾ يعني ومن جهل ولم يعرف الآيات ولم يستدل بها إلى الطريق ﴿**فعليها**﴾ يعني فعلى نفسه عمى ولها ضر وكان وبال ذلك العمى عليه لأن الله تعالى غني عن خلقه ﴿**وما أنا عليكم بحفيظ**﴾ يعني وما أنا عليكم برقيب أحصي عليكم أعمالكم وأفعالكم إنما أنا رسول من ربكم إليكم أبلغكم ما أرسلت به إليكم والله هو الحفيظ عليكم لا يخفى عليه شيء من أعمالكم وأحوالكم. وقيل معناه لا أقدر أن أدفع عنكم ما يريده الله بكم وقيل معناه لست آخذكم بالإيمان أخذ الحفيظ الوكيل وهذا كان قبل الأمر بقتال المشركين فعلى هذا القول تكون الآية منسوخة بآيات السيف وعلى القول الأول ليست منسوخة والله أعلم.

قوله عز وجل: ﴿**وكذلك نصرف الآيات**﴾ يعني وكذلك نبين الآيات ونفصلها في كل وجه كما صرفناها وبيناها من قبل ﴿**وليقولوا درست**﴾ يعني وكذلك نصرف الآيات لتلزمهم الحجة وليقولوا درست. وقيل: معناه لئلا يقولوا درست وقيل اللام فيه لام العاقبة ومعناه عاقبة أمرهم أن يقولوا درست يعني قرأت على غيرك. يقال: درس الكتاب يدرسه دراسة إذا أكثر قراءته وذلله للحفظ. قال ابن عباس: وليقولوا، يعني أهل مكة حين تقرأ عليهم القرآن درست يعني تعلمت من يسار وجبر وكانا عبدين من سبي الروم ثم قرأت علينا تزعم أنه من عند الله وقال الفراء: معناه تعلمت

عليكم بحفيظ ﴾، برقيب أُحصي عليكم أعمالكم، إنما أنا رسول أبلغكم رسالاتِ ربّي وهو الحفيظ عليكم الذي لا يخفى عليه شيء من أفعالكم.

﴿ **وكذلك نُصرِّفُ الآيات** ﴾، نفصّلها ونبيّنها في كل وجه، ﴿ **وَلِيَقُولُوا** ﴾، قيل: معناه لئلا يقولوا، ﴿ **دَرَسْتَ** ﴾، وقيل: اللام لام العاقبة أي عاقبة أمرهم أن يقولوا: درست، أي قرأت على غيرك، وقيل: قرأت كتب أهل الكتاب، كقوله تعالى: ﴿ فالتقطه آلُ فرعون ليكون لهم عدوّاً وحزناً ﴾ [القصص: ٨]، ومعلوم أنهم لم يلتقطوه لذلك، ولكن أراد أن عاقبة أمرهم أن كان عدوّاً لهم، قال ابن عباس: وليقولوا يعني: أهل مكة حين تقرأ عليهم القرآن درستَ أي: تعلّمتَ من يسار وجبر كانا عبدين من سبي الروم، ثم قرأتَ علينا تزعم أنه من عند الله،

من اليهود وقرىء دارست بالألف بمعنى قارأت أهل الكتاب من المدارسة التي هي بين اثنين يعني يقولون قرأت على أهل الكتاب وقرؤوا عليك وقرىء درست بفتح الدال والراء والسين وسكون التاء ومعناه أن هذه الأخبار التي تتلوها علينا قديمة فدرست وانمحت من قولهم فرس الأثر إذا محي وذهب أثره ﴿ولنبينه لقوم يعلمون﴾ يعني القرآن وقيل: معناه نصرف الآيات لقوم يعلمون. قال ابن عباس: يريد أولياءه الذين هداهم إلى سبيل الرشاد وقيل: معنى الآية وكذلك نصرف الآيات ليسعد بها قوم ويشقى بها آخرون فمن أعرض عنها وقال النبي ﷺ: درست أو درست فهو شقي ومن تبين له الحق وفهم معناها وعمل بها فهو سعيد وقال أبو إسحاق: إن السبب الذي أداهم إلى أن قالوا درست هو تلاوة الآيات عليهم وهذه اللام تسميها أهل اللغة لام الصيرورة يعني صار عاقبة أمرهم أن قالوا دارست فصار ذلك سبباً لشقاوتهم وفي هذا دليل على أن الله تعالى جعل تصريف الآيات سبباً لضلالة قوم وشقاوتهم وسعادة قوم وهدايتهم قوله تعالى:

﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟ ۗ وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾ وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾﴾

﴿اتبع ما أوحي إليك من ربك﴾ الخطاب للنبي ﷺ يعني اتبع يا محمد ما أمرك به ربك في وحيه الذي أوحاه إليك وهو القرآن فاعمل به وبلغه إلى البادي ولا تلتفت إلى قول من يقول: دارست أو درست. وفي قوله اتبع ما أوحي إليك من ربك تعزية لقلب النبي ﷺ وإزالة الحزن الذي حصل له بسبب قولهم درست ونبه بقوله تعالى: ﴿لا إله إلا هو﴾ أنه سبحانه وتعالى واحد فرد صمد لا شريك له وإذا كان كذلك فإنه تجب طاعته ولا يجوز تركها بسبب جهل الجاهلين وزيغ الزائغين وقوله تعالى: ﴿وأعرض عن المشركين﴾ قيل: المراد منه في الحال لا الدوام وإذا كان كذلك لم يكن النسخ وقيل: المراد ترك مقالتهم فعلى هذا يكون الأمر بالإعراض منسوخة بآية القتال قوله عز وجل: ﴿ولو شاء الله ما أشركوا﴾ قال الزجاج: معناه لو شاء الله لجعلهم مؤمنين وهذا نص صريح في أن شركهم كان بمشيئة الله تعالى خلافاً للمعتزلة في قولهم لم يرد من أحد الكفر والشرك فالآية رد عليهم ﴿وما جعلناك عليهم حفيظاً﴾ يعني:

من قولهم: درست الكتاب ادْرس درساً ودراسةً، وقال الفرّاء رحمه الله: يقولون تعلّمت من اليهود، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو: (دارســت)، بالألف، بفتح السين وسكون التاء، أي: هذه الأخبار التي تتلوها علينا قديمة، قد درست وانمحت، من قولهم درس الأثر يدرس دروساً. ﴿ ولِنُبَيِّنَهُ لقومٍ يعلمُون ﴾، أي: القرآن، وقيل: نُصرِّف الآيات لقوم يعلمون، قال ابن عباس: يريد أولياءه الذين هداهم إلى سبيل الرشاد، وقيل: يعني أن تصريف الآيات ليشقى بها قوم ويسعد بها قوم آخرون، فمَن قال: درست فهو شقي ومَن تبيّن له الحق فهو سعيد.

﴿ اتبِعْ ما أُوحيَ إليكَ مِن ربِّك ﴾، يعني: القرآن اعمل به، ﴿ لا إله إلاّ هو وأعرِضْ عَنِ المشركين ﴾، فلا تجادلهم.

﴿ ولو شاء الله ما أشركوا ﴾، أي: ولو شاء لجعلهم مؤمنين، ﴿ وما جعلناك عليهم حفيظاً ﴾، رقيباً، قال عطاء: وما جعلناك عليهم حفيظاً تمنعهم مني، أي: لم تُبعَث لتحفظ المشركين من العذاب إنّما بُعِثتَ مبلّغاً. ﴿ وما أنت عليهم بوكيل ﴾.

وما جعلناك يا محمد على هؤلاء المشركين رقيباً ولا حافظاً تحفظ عليهم أعمالهم. وقال ابن عباس في رواية عطاء: وما جعلناك عليهم حفيظاً تمنعهم منّا ومعناه إنك لم تبعث لتحفظ المشركين من العذاب وإنما بعثت مبلّغاً فلا تهتم بشركهم فإن ذلك بمشيئة الله تعالى: ﴿وما أنت عليهم بوكيل﴾ يعني وما أنت عليهم بقيّم تقوم بأرزاقهم وما أنت عليهم بمسيطر، فعلى التفسير الأول تكون الآية منسوخة بآية السيف وعلى قول ابن عباس: لا تكون منسوخة.

قوله تعالى: ﴿ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدواً بغير علم﴾ الآية قال ابن عباس: لما نزلت: ﴿إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم﴾ قال المشركون يا محمد لتنتهين عن سب آلهتنا أو لنهجون ربك فنهاهم الله أن يسبوا أوثانهم فيسبوا الله عدواً بغير علم وقال قتادة: كان المؤمنون يسبون أوثان الكفار فيردون ذلك عليهم فنهاهم الله عن ذلك لئلا يسبوا الله لأنهم قوم جهلة لا علم لهم بالله عز وجل. وقال السدي: لما حضرت أبا طالب الوفاة قالت قريش انطلقوا بنا لندخل على هذ الرجل فلنأمره أن ينهى عنا ابن أخيه فإنا نستحي أن نقتله بعد موته فتقول العرب كان عمه يمنعه فلما مات قتلوه. فانطلق أبو سفيان وأبو جهل والنضر بن الحارث وأمية وأبيّ ابنا خلف وعقبة بن أبي معيط وعمرو بن العاص والأسود بن أبي البختري إلى أبي طالب، فقالوا: يا أبا طالب أنت كبيرنا وسيدنا وإن محمداً قد آذانا وآذى آلهتنا فنحب أن تدعوه فتنهاه عن ذكر آلهتنا ولندعه وإلهه فدعاه جاء النبي ﷺ: فقال له أبو طالب: إن هؤلاء قومك وبنو عمك فقال رسول الله ﷺ وما يريدون؟ قالوا: نريد أن تدعنا وآلهتنا وندعك وإلهك. فقال له أبو طالب: قد أنصفك قومك فاقبل منهم فقال النبي ﷺ أرأيتم إن أعطيتكم هذا فهل أنتم معطي كلمة إن تكلمتم بها ملكتم العرب ودانت لكم العجم وأدت لكم الخراج؟ فقال أبو جهل نعم وأبيك لنعطينكها وعشرة أمثالها فما هي؟ فقال: قولوا لا إله إلا الله «فأبوا ونفروا» فقال أبو طالب: قل غيرها يا ابن أخي فقال: يا عم ما أنا بالذي أقول غيرها ولو أتوني بالشمس فوضعوها في يدي ما قلت غيرها إرادة أن يؤيسهم فقالوا: لتكفن عن شتمك آلهتنا أو لنشتمنك ونشتمن من يأمرك فأنزلت: ﴿ولا تسبوا الذين تدعون من دون الله﴾ يعني ولا تسبوا أيها المؤمنون الأصنام التي يعبدها المشركون فيسبوا الله عدواً بغير علم يعني فيسبوا الله ظلماً بغير علم لأنهم جهلة بالله عز وجل. قال الزجاج: نهوا في ذلك الوقت قبل القتال أن يلعنوا الأصنام التي كانت عبدها المشركون. وقال ابن الأنباري: هذه الآية منسوخة أنزلها الله عز وجل والنبي ﷺ بمكة فلما قواه بأصحابه نسخ هذه الآية ونظائرها بقوله اقتلوا المشركين حيث وجدتموهم. وقيل إنما نهوا عن سب الأصنام وإن كان في سبها طاعة وهو مباح لما يترتب على ذلك من المفاسد التي هي أعظم من ذلك وهو سب الله عز وجل وسب رسوله وذلك من أعظم المفاسد فلذلك نهوا عن سب الأصنام وقيل لما نزلت هذه الآية قال النبي ﷺ لا تسبوا آلهتكم فيسبوا ربكم فأمسك المسلمون عن سب آلهتهم فظاهر الآية وإن كان

﴿ ولا تسبُّوا الذين يدعُون مِن دُونِ الله ﴾ الآية، قال ابن عباس: لمّا نزلت: ﴿ إنّكم وما تعبدون مِن دُونِ اللّهِ حَصَبُ جهنّم ﴾ [الأنبياء: ٩٨] قال المشركون: يا محمد لتنتهينّ عن سبِّ آلهتنا أو لنهجونّ ربّك، فنهاهم الله تعالى أن يسبّوا أوثانهم، وقال قتادة: كان المسلمون يسبّون أصنام الكفّار، فنهاهم الله عزّ وجلّ عن ذلك، لئلا يسبُّوا الله فإنهم قوم جَهَلَة، وقال السدي: لمّا حضرت أبا طالب الوفاة قالت قريش: انطلقوا فلندخل على هذا الرجل فلنأمرنّه أن ينهى عنّا ابنَ أخيه فإنّا نستحي أن نقتله بعد موته، فتقول العرب: كان يمنعه عمّه فلما مات قتلوه فانطلق أبو سفيان وأبو جهل والنضر بن الحارث وأُمَيَّة وأُبيّ ابنا خلف وعقبة بن أبي مُعيط وعمرو بن العاص، والأسود بن أبي البختري إلى أبي طالب، فقالوا: يا أبا طالب أنت كبيرُنا وسيّدُنا وإن محمداً قد آذانا وآلهتنا، فنحبّ أن تدعوه وتنهاه عن ذلك، وعن ذكر آلهتنا، ولندعنّه وإلَهه، فدعاه فقال: يا محمد هؤلاء قومك يقولون نريد أن تدعنا وآلهتنا وندعك وإلَهك، وقد أنصفك قومك فاقبل منهم، فقال النبي ﷺ: «أرأيتم أن أعطيتكم هذا هل أنتم معطى كلمة إن

نهياً عن سب الأصنام فحقيقته النهي عن سب الله تعالى لأنه سبب لذلك.

وقوله تعالى: ﴿كذلك زينا لكل أمة عملهم﴾ يعني كما زينا لهؤلاء المشركين عبادة الأصنام وطاعة الشيطان بالحرمان والخذلان كذلك زينا لكل أمه عملهم من الخير والشر والطاعة والمعصية وفي هذه الآية دليل على تكذيب القدرية والمعتزلة حيث قالوا لا يحسن من الله خلق الكفر وتزيينه.

وقوله تعالى: ﴿ثم إلى ربهم مرجعهم﴾ يعني المؤمن والكافر والطائع والعاصي ﴿فينبئهم بما كانوا يعملون﴾ يعني في الدنيا ويجازيهم على ذلك.

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠٩)﴾

قوله عز وجل: ﴿وأقسموا بالله جهد أيمانهم﴾ قال محمد بن كعب القرظي والكلبي: قالت قريش يا محمد إنك تخبرنا أن موسى كانت له عصاً يضرب بها الحجر فتنفجر منه اثنتا عشرة عيناً وتخبرنا أن عيسى كان يحيي الموتى فأتنا بآية حتى نصدقك ونؤمن بك فقال رسول الله ﷺ: أي شيء تحبون؟ قالوا: تجعل لنا الصفا ذهباً وابعث لنا بعض موتانا نسأله عنك أحق ما تقول أم باطل؟ وأرنا الملائكة يشهدون لك؟ قال رسول الله ﷺ: إن فعلت بعض ما تقولون أتصدقوني؟ قالوا: نعم والله لئن فعلت لنتبعك أجمعون. وسأل المسلمون رسول الله ﷺ أن ينزلها عليهم حتى يؤمنوا فقام رسول الله ﷺ وجعل يدعو الله عز وجل أن يجعل الصفا ذهباً فجاءه جبريل فقال ما شئت إن شئت أصبح ذهباً ولكن إن لم يصدقوك لنعذبهم وإن شئت تركتهم حتى يتوب تائبهم فقال رسول الله ﷺ بل يتوب تائبهم فأنزل الله عز وجل: ﴿وأقسموا بالله جهد أيمانهم﴾ يعني وحلفوا بالله جهد أيمانهم يعني وحلفوا بالله جهد أيمانهم يعني أوكد ما

تكلمتُم بها ملكتم العرب ودانت لكم بها العجم»؟ فقــال أبو جهل: نعم وأبيك لنعطينكها وعشرة أمثالها، قال: فما هي؟ قال: «قولوا لا إله إلّا الله»، فأبَوْا أو تفرقوا فقال أبو طالب: قلْ غيرها يا ابنَ أخي، فقال: «يا عمُّ ما أنا بالذي أقول غيرها ولو أتوني بالشمس فوضعوها في يديْ»، فقالوا له: لتكفنّ عن سبّك آلهتنا أو لنشتمنّك ونشتمنّ مَن يأمرك، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿ ولا تسبُّوا الذين يدعُون من دُونِ الله ﴾، يعني: الأوثان، ﴿ فيسبُّوا الله عَدْواً ﴾، أي: اعتـداءً وظلماً، ﴿ بغيـر علم ﴾، قرأ يعقـوب «عَدُواً» بضم العين والـدال وتشديـد الواو، فلمّـا نزلت هـذه الآيـة قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «لا تسبُّوا رَبَّكم»، فأمسك المسلمون عن سبِّ آلهتهم. وظاهر الآية وإنْ كان نهياً عن سبِّ الأصنام فحقيقته النهي عن سبِّ الله تعالى، لأنه سبب لذلك، و﴿ كذلك زيَّنا لكلِّ أمّةٍ عملَهم ﴾، أي: كما زيّنا لهؤلاء المشركين عبادة الأصنام وطاعة الشيطان بالحرمان والخذلان، كذلك زيّنا لكل أمة عملَهم من الخير والشر والطاعة والمعصية، ﴿ ثم إلى ربِّهم مرجعُهم فينبئُهم ﴾، ويُجازيهم، ﴿ بما كانُوا يعملُون ﴾.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ وأقسمُوا بالله جَهْدَ أيمانهم ﴾ الآية. قال محمد بن كعب القرظي والكلبي: قالت قريش يا محمد إنك تخبرنا أن موسى عليه السلام كان معه عصاً يضرب بها الحجر فينفجر منه الماء اثنتا عشرة عيناً، وتخبرنا أن عيسى عليه السلام كان يحيي الموتى فأتنا من الآيات حتى نصدقك، فقال رسول الله ﷺ: «أيّ شيء تحبّون»؟ قالوا: تجعل لنا الصفا ذهباً وابعثْ لنا بعض موتانا حتى نسأله عنك أحقٌّ ما تقول أم باطل، وأرِنا الملائكة يشهدون لك، فقال رسول الله ﷺ: «فإن فعلتُ بعض ما تقولون أتصدقوني»؟ قالوا: نعم والله لئن فعلت لنتبعك أجمعون، وسأل المسلمون رسول الله ﷺ أن ينزلها عليهم حتى يؤمنوا، فقام رسول الله ﷺ يدعو الله أن يجعل الصفا ذهباً

قدروا عليه من الأيمان وأشدها. قال الكلبي ومقاتل: إذا حلف الرجل بالله فهو جهد يمينه ﴿لئن جاءتهم آية﴾ يعني كما جاءت من قبلهم من الأمم ﴿ليؤمنن بها﴾ يعني ليصدقن بها ﴿قل﴾ يعني قل يا محمد ﴿إنما الآيات عند الله﴾ يعني أن الله تعالى قادر على إنزالها ﴿وما يشعركم﴾ يعني: وما يدريكم. ثم اختلف في المخاطبين بقوله وما يشعركم فقيل هو خطاب للمشركين الذين أقسموا بالله وقيل هو خطاب للمؤمنين واختلفوا في قوله ﴿أنها إذا جاءت لا يؤمنون﴾ فقرأ ابن كثير وأهل البصرة وأبو بكر عن عاصم إنها بكسر الألف على الابتداء وقالوا تم الكلام عند قوله وما يشعروكم على معنى وما يدريكم ما يكون منهم ثم ابتدأ فقال: ﴿إنها إذا جاءت لا يؤمنون﴾ فمن جعل الخطاب للمشركين قال معناه وما يشعركم أيها المشركون أنها يعني الآيات إنها إذا جاءت آمنتم. ومن جعل الخطاب للمؤمنين قال معناه وما يشعركم أيها المؤمنون إذا جاءت آمنوا لأن المؤمنين كانوا يسألون رسول الله ﷺ أن يدعو الله أن يريهم ما اقترحوا حتى يؤمنوا فخاطبهم الله بقوله: ﴿وما يشعركم﴾ ثم ابتدأ فقال تعالى إنها: ﴿إذا جاءت لا يؤمنون﴾ وهذا في قوم مخصوصين حكم الله عز وجل عليهم بأنهم لا يؤمنون وذلك لسابق علمه فيهم وقرأ الباقون أنها بفتح الألف وجعلوا الخطاب في ذلك للمؤمنين لأن المؤمنين هم الذين سألوا رسول الله ﷺ إنزال الآيات حتى يؤمن المشركون بها إذا رؤوها لأن المشركين كانوا حلفوا أنهم إذا جاءتهم آية آمنوا وصدقوا واتبعوا رسول الله ﷺ فأحب أصحاب رسول الله ﷺ إنزال الآيات لذلك فقال الله تعالى: وما يشعركم أيها المؤمنون أن الآيات إذا جاءت هؤلاء المشركين لا يؤمنون فعلى هذا اختلفوا في لفظة لا من قوله لا يؤمنون فقيل هي صلة والمعنى وما يشعركم إنها إذا جاءت يؤمنون وقيل هي على بابها وفيه حذف والمعنى وما يشعركم أنها إذا جاءتهم يؤمنون أو لا يؤمنون وقيل إن بمعنى لعل في قوله إنها إذا جاءت وكذلك هو في قراءة أبيّ بن كعب لعلها إذا جاءت وهذا سائغ في كلام العرب تقول العرب: أئت السوق أنك

فجاءه جبريل عليه السلام، فقال له: ما شئت إن شئت أصبح ذهباً ولكن إن لم يصدقوا عذّبتهم، وإن شئت تركتهم حتى يتوب تائبُهم، فقال رسول الله ﷺ: «بلْ يتوب تائبهُم»، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿ وأقسموا بالله جهد أيمانهم ﴾، أي: حلفوا بالله جهد أيمانهم، أي: بجهد أيمانهم، يعني أوْكد ما قدروا عليه من الأيمان وأشدّها، قال الكلبي ومجاهد: إذا حلف الرجل بالله، فهو جهد يمينه، ﴿ لئن جاءتْهم آيةٌ ﴾، كما جاءت من قبلهم من الأمم، ﴿ لَيُؤْمِنُنَّ بها قُلْ ﴾، يا محمد، ﴿ إنّما الآيات عندَ الله ﴾، والله قادر على إنزالها، ﴿ وما يُشعركم ﴾، وما يدريكم، واختلفوا في المخاطبين بقوله: ﴿ وما يشعركم ﴾، فقال بعضهم: الخطاب للمشركين الذين أقسموا، وقال بعضهم: الخطاب للمؤمنين، وقوله تعالى: ﴿ أنّها إذا جاءتْ لا يؤمنُون ﴾، قرأ ابن كثير وأهل البصرة وأبو بكر عن عاصم « إنّها » بكسر الألف على الابتداء، وقالوا: تمّ الكلام عند قوله: ﴿ وما يشعركم ﴾، ثم مَن جعل الخطاب للمشركين قال معناه: وما يُشعركم أيها المشركون أنها لو جاءتْ آمنتم؟ ومَن جعل الخطاب للمؤمنين قال معناه: وما يُشعركم أيها المؤمنون أنها لو جاءت آمنوا؟ لأن المسلمين كانوا يسألون رسول الله ﷺ أن يدعو الله حتى يريهم ما اقترحوا حتى يُؤمنوا فخاطبهم بقوله: ﴿ وما يشعركم ﴾ ثم ابتدأ فقال جلّ ذكره: ﴿ أنها إذا جاءتْ لا يُؤمنون ﴾، وهذا في قوم مخصوصين حكم الله عليهم بأنهم لا يؤمنون، وقرأ الآخرون أنها بفتح الألف وجعلوا الخطاب للمؤمنين، واختلفوا في قوله: ﴿ لا يؤمنون ﴾، فقال الكسائي: ﴿ لا ﴾ صلة، ومعنى الآية: وما يشعركم أيها المؤمنون إذا جاءت أن المشركين يؤمنون؟ كقوله: ﴿ وحرامٌ على قرية أهلكناها أنّهم لا يرجعون ﴾ [الأنبياء: ٩٥] أي: يرجعون وقيل: إنها بمعنى لعلّ، وكذلك هو في قراءة أُبيّ، تقول العرب: اذهب إلى السوق أنك تشتري شيئاً، أي: لعلك، وقال عدي بن زيد: (أعاذل ما يدريك أن منيتي، إلى ساعة في اليوم أو في ضحى الغد) أي: لعلّ منيتي، وقيل: فيه حذف وتقديره: وما يُشعركم أنها إذا جاءت يؤمنون أو لا يؤمنون؟ وقرأ ابن عامر وحمزة (لا

تشتري لنا شيئاً، بمعنى لعلك ومنه قول عدي بن زيد:

أعاذل ما يدريك أن منيتي إلى ساعة في اليوم أو في ضحى الغد

يعني لعل منيتي.

﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾ ۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿**ونقلب أفئدتهم وأبصارهم**﴾ قال ابن عباس: يعني ونحول بينهم وبين الإيمان فلو جئناهم بالآيات التي سألوها لما آمنوا بها. والتقليب هو تحويل الشيء وتحريكه عن وجهه إلى وجه آخر لأن الله تعالى إذا صرف القلوب والأبصار عن الإيمان بقيت على الكفر ﴿**كما لم يؤمنوا به أول مرة**﴾ يعني كما لم يؤمنوا بما قبل ذلك من الآيات التي جاء بها رسول الله ﷺ مثل انشقاق القمر وغير ذلك من المعجزات الباهرات، وقيل: أول مرة يعني الآيات التي جاء بها موسى وغيره من الأنبياء.

وقال ابن عباس: المرة الأولى دار الدنيا يعني لو ردوا من الآخرة إلى الدنيا نقلب أفئدتهم وأبصارهم عن الإيمان فلا يؤمنون كما لم يؤمنوا به أول مرة قبل مماتهم وفي الآية دليل على أن الله تعالى: ﴿**يهدي من يشاء ويضل من يشاء**﴾ وأن القلوب والأبصار بيده وفي تصريفه فيقيم ما شاء منها ويزيغ ما أراد منها ومنه قوله ﷺ: «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك» فمعنى قوله بقلب أفئدتهم نزيغها عن الإيمان ونقلب أبصارهم عن رؤية الحق ومعرفة الصواب وإن جاءتهم الآية التي سألوها فلا يؤمنون بها كما لم يؤمنوا بالله ورسوله وبما جاء من عند الله، فعلى هذا تكون الكناية في به عائدة على الإيمان بالقرآن وبما جاء به رسول الله ﷺ قبل سؤالهم الآيات التي اقترحوها.

وقوله تعالى: ﴿**ونذرهم في طغيانهم يعمهون**﴾ يعني ونترك هؤلاء المشركين الذين سبق علم الله أنهم لا يؤمنون في تمردهم على الله واعتدائهم عليه يترددون لا يهتدون إلى الحق.

قوله عز وجل: ﴿**ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة**﴾ قال ابن جريج: نزلت في المستهزئين، وذلك أنهم أتوا إلى رسول الله ﷺ في نفر من قريش، فقالوا: يا محمد ابعث لنا بعض موتانا حتى نسألهم عنك أحق ما تقول أم باطل وأرنا الملائكة يشهدن لك أنك رسول الله ﷺ، أو ائتنا بالله والملائكة قبيلاً فنزلت هذه الآية جواباً لهم. والمعنى: ولو أنا نزلنا إليهم الملائكة حتى يشهدوا لك بالرسالة ﴿**وكلمهم الموتى**﴾ يعني كما سألوا ﴿**وحشرنا عليهم كل شيء قبلاً**﴾ يعني وجمعنا عليهم كل شيء قبلاً قبيلاً، قيل القبيل الكفيل بصحة ما تقول ما آمنوا وهو قوله: ﴿**ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله**﴾ يعني إلا أن يشاء الله الإيمان منهم وفيه دليل على أن جميع الأشياء بمشيئة الله تعالى حتى الإيمان والكفر،

تـؤمنون) بالتاء على الخطاب للكفّار واعتبروا بقراءة أُبيّ: إذا جاءتكم لا تؤمنون، وقرأ الآخرون بالياء على الخبر، دليلها قراءة الأعمش: أنها إذا جاءتهم لا يؤمنون.

﴿ **ونُقلّب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يُؤمنوا به أوّلَ مرّة** ﴾، قال ابن عباس: يعني ونحول بينهم وبين الإيمان، فلو جئناهم بالآيات التي سألوا ما آمنوا بها كما لم يؤمنوا به أول مرة، أي: كما لم يؤمنوا بما قبلها مرة، أي: كما لم يؤمنوا بما قبلها من الآيات من انشقاق القمر وغيره، وقيل: كما لم يُؤمنوا به أول مرة، يعني: معجزات موسى وغيره من الأنبياء عليهم السلام، كقوله تعالى: ﴿ أوَلم يكفروا بما أُوتي موسى من قبل ﴾ [القصص: ٤٨]،

وموضع المعجزة أن الأشياء المحشورة منها ناطق ومنها صامت فإذا أنطق الله الكل حتى يشهدوا له بصحة ما يقول كان ذلك في غاية الإعجاز. وقيل قبلاً من المقابلة والمواجهة، والمعنى: وحشرنا عليهم كل شيء مواجهة ومعاينة ﴿ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله﴾ أخبر الله أن الإيمان بمشيئة الله لا كما ظنوا أنهم متى شاؤوا آمنوا ومتى شاؤوا لم يؤمنوا، وقال ابن عباس: ما كانوا ليؤمنوا هم أهل الشقاء إلا أن يشاء الله هم أهل السعادة الذين سبق لهم في علمه أنهم يدخلون في الإيمان. وصحح الطبري قول ابن عباس قال: لأن الله عم بقوله ما كانوا ليؤمنوا القوم الذين تقدم ذكرهم في قوله: ﴿وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها﴾ ثم استثنى منهم أهل السعادة وهم الذين شاء لهم الإيمان.

قوله تعالى: ﴿ولكن أكثرهم يجهلون﴾ يعني يجهلون أن ذلك كذلك ويحسبون أن الإيمان إليهم متى شاؤوا آمنوا ومتى شاؤوا كفروا، وليس الأمر كذلك بل الإيمان والكفر بمشيئة الله تعالى فمن شاء له الإيمان آمن ومن شاء له الكفر كفر وفي هذا دليل لمذهب أهل السنة أن الأشياء كلها بمشيئة الله تعالى ورد على القدرية والمعتزلة في قولهم: إن الله أراد الإيمان من جميع الكفار.

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً﴾ قيل هو منسوق على قوله تعالى كذلك زينّا لكل أمة عملهم، أي كما فعلنا ذلك كذلك جعلنا لكل نبي عدواً. وقيل: معناه كما جعلنا لمن قبلك من الأنبياء أعداء كذلك جعلنا لك أعداء وفيه تعزية للنبي ﷺ وتسلية له يقول الله تبارك وتعالى: كما ابتليناك بهؤلاء القوم فكذلك جعلنا لكل نبي قبلك عدواً ليعظم ثوابه على ما يكابده من أذى أعدائه وعدو واحد يراد به الجمع يعني جعلنا لكل نبي أعداء ﴿شياطين الإنس والجن﴾ اختلف العلماء في معنى شياطين الإنس والجن على قولين:

وفي الآية محذوف تقديره فلا يؤمنون كما لم يؤمنوا به أول مرة، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: المرّة الأولى دار الدنيا، يعني لو رُدّوا من الآخرة إلى الدنيا نقلب أفئدتهم وأبصارهم عن الإيمان كما لم يؤمنوا في الدنيا قبل مماتهم، كما قال: ﴿ ولو رُدّوا لعادُوا لما نُهوا عنه ﴾ [الأنعام: ٢٨] ﴿ ونَذَرُهُمْ في طُغيانِهِمْ يعمهُون ﴾، قال عطاء: نخذلهم وندعهم في ضلالتهم يتمادون.

﴿ ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة ﴾، فرأوهم عياناً ﴿ وكلَّمهم الموتى ﴾ بإحيائنا إيّاهم فشهدوا لك بالنبوّة كما سألوا، ﴿ وحشرنا ﴾، وجمعنا، ﴿ عليهم كلَّ شيءٍ قُبُلًا ﴾، قرأ أهل المدينة وابن عامر (قِبلًا) بكسر القاف وفتح الباء، أي معاينة، وقرأ الآخرون بضمّ القاف والباء، قيل: هو جميع قبيل، وهو الكفيل، مثل رغيف ورُغف، وقضيب وقُضبٍ، أي: ضُمناء وكُفلاء، وقيل: هو جمع قبيل وهو القبيلة، أي: فوجاً، وقيل: هو بمعنى المقابلة والمواجهة، من قولهم: أتيتك قبلاً لا دبراً إذا أتاه من قبل وجهه. ﴿ مَا كانُوا لِيُؤمِنُوا إلاّ أنْ يشاءَ اللّهُ ﴾، ذلك، ﴿ ولكنّ أكثرَهم يجهلُون ﴾.

﴿ وكذلك جعلنا لكلِّ نبي عدوّاً ﴾، أي: أعداء فيه تعزية للنبي ﷺ، يعني كما ابتليناك بهؤلاء القوم، فكذلك جعلنا لكل نبي قبلك أعداء، ثم فسّرهم فقال: ﴿ شياطين الإنس والجن ﴾، قال عكرمة والضحاك والسدي

أحدهما: أن المراد شياطين من الإنس وشياطين من الجن والشيطان كل عات متمرد من الجن والإنس وهذا قول ابن عباس في رواية عطاء، وهو قول مجاهد وقتادة. قالوا: وشياطين الإنس أشد تمرداً من شياطين الجن لأن شيطان الجن إذا عجز عن إغواء المؤمن الصالح وأعياه ذلك استعان على إغوائه بشيطان الإنس ليفتنه، ويدل على صحة هذا القول ما روي عن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ «هل تعوذت بالله من شيطان الجن والإنس قلت يا رسول الله وهل للأنس من شيطان؟ قال نعم هم شر من شياطين الجن» ذكره البغوي بغير سند وأسنده الطبري. وقال مالك بن دينار: إن شيطان الإنس أشد عليّ من شيطان الجن وذلك أني إذا تعوذت بالله ذهب شيطان الجن وشيطان الإنس يجيئني فيجرني إلى المعاصي.

القول الثاني: إن الجميع من ولد إبليس وأضيف الشياطين إلى الإنس على معنى أنهم يغوونهم، وهذا قول عكرمة والضحاك والكلبي والسدي. ورواية عن ابن عباس قالوا: والمراد بشياطين الإنس التي مع الإنس وبشياطين الجن التي مع الجن وذلك أن إبليس قسم جنده قسمين فبعث فريقاً منهم إلى الجن وفريقاً إلى الإنس فالفريقان شياطين الجن والإنس بمعنى أنهم يغوونهم ويضلّونهم وكلا الفريقين أعداء للنبي ﷺ ولأوليائه من المؤمنين والصالحين. ومن ذهب إلى هذا القول قال: يدل على صحته أن لفظ الآية يقتضي إضافة الشياطين إلى الإنس والجن والإضافة تقتضي المغايرة فعلى هذا يكون في الشياطين نوع مغاير للإنس والجن وهم أولاد إبليس.

وقوله تعالى: ﴿**يوحي بعضهم إلى بعض**﴾ يعني يلقي ويسرّ بعضهم إلى بعض ويناجي بعضهم بعضاً وهو الوسوسة التي يلقيها إلى من يريد إغوائه، فعلى القول الأول: إن شياطين الإنس والجن يسر بعضهم إلى بعض ما يفتنون به المؤمنين والصالحين، وعلى القول الثاني: إن أولاد إبليس يلقى بعضهم بعضاً في كل حين فيقول شيطان الإنس لشيطان الجن أضللت صاحبي بكذا وكذا فأضلَّ أنت صاحبك بمثله ويقول شيطان الجن لشيطان الإنس كذلك فذلك وحي بعضهم إلى بعض.

وقوله: ﴿**زخرف القول**﴾ يعني باطل القول والزخرف هو الباطل من الكلام الذي قد زين ووشي بالكذب وكل شيء حسن مموه فهو زخرف ﴿**غروراً**﴾ يعني أن الشياطين يغرون بذلك القول الكذب المزخرف غروراً وذلك أن الشياطين يزينون الأعمال القبيحة لبني آدم ويغرونهم بها غروراً ﴿**ولو شاء ربك ما فعلوه**﴾ يعني ما فعلوا الوسوسة التي يلقيها الشياطين في قلوب بني آدم، والمعنى أن الله تعالى لو شاء لمنعَ الشياطين من إلقاء الوسوسة إلى الإنس والجن ولكن الله يمتحن من يشاء من عباده بما يعلم أنه الأجزل له في الثواب إذا صبر على المحنة ﴿**فذرهم وما يفترون**﴾ يعني فخلِّهم يا محمد وما زين لهم إبليس وغرهم به من الكفر والمعاصي فإني من ورائهم.

والكلبي: معناه شياطين الإنس التي مع الإنس، وشياطين الجن التي مع الجن، وليس للإنس شياطين، وذلك أن إبليس جعل جنده فريقين فبعث فريقاً منهم إلى الإنس وفريقاً منهم إلى الجن، وكِلا الفريقين أعداء للنبي ﷺ ولأوليائه، وهم يلتقون في كل حين، فيقول شيطان الإنس لشيطان الجن: أضللت صاحبي بكذا فأضلَّ صاحبك بمثله، ويقول شياطين الجن لشياطين الإنس كذلك، فذلك وحي بعضهم إلى بعض، قال قتادة ومجاهد والحسن: إن من الإنس شياطين كما أن من الجن شياطين، والشيطان: العاتي المتمرد من كل شيء، قالوا: إن الشيطان إذا أعياه المؤمن وعجز من إغوائه ذهب إلى متمرد من الإنس وهو شيطان الإنس فأغراه بالمؤمن ليفتنه، يدلّ عليه ما رُوِيَ عن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: «هل تعوّذت بالله من شرّ شياطين الجن والإنس»؟ فقلت: يا رسول الله وهلْ للإنس من شياطين؟قال: «نعم، هم شرّ من شياطين الجن». وقال مالك بن دينار: إن شياطين الإنس أشدّ عليّ من شياطين الجن، وذلك أني إذا تعوّذتُ بالله ذهب عنّي شياطين الجن، وشياطين الإنس يجيئني فيجرّني إلى

قوله تعالى: ﴿ولتصغي إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة﴾ قال ابن عباس: ولتميل إليه وأصل الصغو في اللغة الميل، يقال: أصغى إلى كذا مال إليه. ويقال صغوت أصغو وصغيت أصغى لغتان. قال ابن الأنباري: اللام في ولتصغى متعلقة بفعل مضمر معناه وفعلنا بهم ذلك لكي تصغي إلى الباطل أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة وقال غيره اللام متعلقة بيوحي تقديره ويوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول ليغروا بذلك ولتصغي إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة والضمير في إليه يرجع إلى زخرف القول، ليغروا بذلك ولتصغي إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة والضمير في إليه يرجع إلى زخرف القول والمعنى أن قلوب الكفار تميل إلى زخرف القول وباطله وتحبه وترضى به وهو قوله: ﴿وليرضوه﴾ يعني يرضون ذلك القول المزخرف الباطل ﴿وليقترفوا ما هم مقترفون﴾ يعني وليكتسبوا من الأعمال الخبيثة ما هم مكتسبون.

أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾

قوله عز وجل: ﴿أفغير الله أبتغي حكماً﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين أفغير الله أطلب حكماً قاضياً يقضي بيني وبينكم وذلك أنهم كانوا يقولون للنبي ﷺ اجعل بيننا وبينك حكماً، فأمره الله تعالى أن يجيبهم بهذا الجواب والحكم والحاكم واحد عند أهل اللغة، غير أن بعض أهل المعاني قال: الحكم أكمل من الحاكم لأن الحاكم من شأنه أن يحكم والحكم أهل أن يتحاكم إليه وهو الذي لا يحكم إلا بالحق فالله تعالى حكم لا يحكم إلا بالحق فلما أنزل الله على محمد القرآن فقد حكم له بالنبوة وهو قوله تعالى: ﴿وهو الذي أنزل إليكم الكتاب مفصلاً﴾ يعني علماء اليهود والنصارى ﴿يعلمون أنه منزل من ربك بالحق﴾ يعني يشهدون أن هذا القرآن منزل من عند الله وذلك لما ثبت عندهم بالدلائل الدالة على ذلك، وقيل المراد بهم علماء الصحابة ورؤساؤهم مثل: أبي بكر وعمر وعثمان وعلي ونظرائهم يعلمون أن هذا القرآن منزل من ربك بالحق فآمنوا به وصدقوه ﴿فلا تكونن من الممترين﴾ يعني فلا تكونن يا محمد من

المعاصي عياناً. قوله تعالى: ﴿ يُوحي بعضُهم إلى بعضٍ ﴾، أي: يلقي، ﴿ زُخْرُفَ القَوْلِ ﴾، وهو قول مموّه مزيّن مزخرف بالباطل لا معنى تحته، ﴿ غُرُوراً ﴾، يعني: لهؤلاء الشياطين يُزيّنون الأعمال القبيحة لبني آدم، ويغرونهم غروراً، والغرور: القول الباطل، ﴿ ولو شاءَ رَبُّكَ ما فعلُوه ﴾، أي: ما ألقوه من الوسوسة في القلوب، ﴿ فذرْهُم وما يفترُون ﴾.

﴿ ولِتَصْغى إليه أفئدةُ الذينَ لا يُؤمنُون بالآخرة ﴾، أي: تميل إليه، والصغو: الميل، يقال: صغو فلان معك، أي: ميله، والفعل منه: صغى يُصغي، صغا وصغى يَصْغَى، ويصغُو صغو، أو الهاء راجعة إلى زخرف القول، ﴿ ولِيَرْضَوْهُ ولِيَقْترِفُوا ﴾، ليكتسبوا، ﴿ ما هم مُقْتَرِفُونَ ﴾، يقال: اقترف فلان مالاً إذا اكتسبه، وقال تعالى: ﴿ ومَن يقترف حسنةً ﴾ [الشورى: ٢٣]، وقال الزجّاج: أي ليعملوا من الذنوب ما هم عاملون.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ أفغيرَ اللّهِ ﴾، فيه إضمار أي: قلْ لهم يـا محمد أفغيـرَ الله، ﴿ أبتغي ﴾، أطلب ﴿ حَكَماً ﴾، قاضياً بيني وبينكم، وذلك أنهم كانوا يقولون للنبي ﷺ: اجعل بيننا وبينك حَكَماً فأجابهم به، ﴿ وهوَ

الشاكّين أن علماء أهل الكتاب يعلمون أن هذا القرآن حق وأنه منزل من عند الله وقيل: معناه فلا تكونن في شك مما قصصنا عليك أنه حق وصدق فهو من باب التهييج لأنه ﷺ لم يشك قط، وقيل: الخطاب وإن كان في الظاهر للنبي ﷺ إلا أن المراد به غيره. والمعنى: فلا تكونن أيها الإنسان السامع لهذا القرآن في شك أنه منزل من عند الله لما فيه من الإعجاز الذي لا يقدر على مثله إلا الله تبارك وتعالى.

قوله تعالى: ﴿**وتمت كلمة ربك**﴾ وقرىء كلمات ربك على الجمع فمن قرأ على التوحيد قال: الكلمة قد يراد بها الكلمات الكثيرة إذا كانت مضبوطة بضابط واحد كقولهم قال الشاعر في كلمته يعني في قصيدته، وكذلك القرآن كلمة واحدة لأنه شيء واحد في إعجاز النظم وكونه حقاً وصدقاً ومعجزاً ومن قرأ بالجمع قال لأن الله قال في سياق الآية ﴿**لا مبدل لكلماته**﴾ فوجب الجمع في اللفظ الأول إتباعاً للثاني ﴿**صدقاً وعدلاً**﴾ يعني صدقاً فيما وعد وعدلاً فيما حكم وقيل إن القرآن مشتمل على الأخبار والأحكام فهو صادق فيما أخبر عن القرون الماضية والأمم الخالية وعما هو كائن إلى قيام الساعة. وفيما أخبر عن ثواب المطيع في الجنة وعقاب العاصي في النار وهو عدل فيما حكم من الأمر والنهي والحلال والحرام وسائر الأحكام ﴿**لا مبدل لكلماته**﴾ يعني لا مغير لقضائه ولا رادّ لحكمه ولا خلف لمواعيده، وقيل: لما وصف كلماته بالتمام في قوله وتمت كلمة ربك والتمام في كلام الله لا يقبل النقص والتغيير والتبديل.

قال الله تعالى: ﴿**لا مبدل لكلماته**﴾ لأنها مصونة عن التحريف والتغيير والتبديل باقية إلى يوم القيامة وفي قوله: ﴿**لا مبدل لكلماته**﴾ دليل على أن السعيد لا ينقلب شقياً ولا الشقي ينقلب سعيداً، فالسعيد من سعدَ في الأزل والشقي من شقيَ في الأزل وأورد على هذا أن الكافر يكون شقياً بكفره فيسلم فينقلب سعيداً بإسلامه وأجيب عنه بأن الاعتبار بالخاتمة فمن ختم له بالسعادة كان قد كتب سعيداً في الأزل ومن ختم له بالشقاوة كان شقياً في الأزل والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿**وهو السميع**﴾ يعني لما يقول العباد ﴿**العليم**﴾ بأحوالهم قوله عز وجل: ﴿**وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله**﴾ قال المفسرون إن المشركين جادلوا رسول الله ﷺ والمؤمنين في أكل الميتة وذلك أنهم قالوا للمسلمين كيف تأكلون ما قتلتم ولا تأكلوا ما قتل ربكم؟ فقال الله تعالى لنبيه محمد ﷺ: وإن تطع أكثر من في

الذي أنزلَ إليكمُ الكتابَ مُفصّلاً ﴾، مبيّناً فيه أمره ونهيه، يعني: القرآن، وقيل: مفصّلاً أي خمساً وعشراً عشراً، كما قال: ﴿ لنثبّتَ به فؤادَكَ ﴾ [الفرقان: ٣٢]، ﴿ **والذين آتيناهمُ الكتابَ** ﴾، يعني: علماء اليهود والنصارى الذين آتيناهم التوراة والإنجيل، وقيل: هم مؤمنوا أهل الكتاب، وقال عطاء: هم رؤوس أصحاب النبي ﷺ، والمراد من الكتاب هو القرآن، ﴿ **يعلمُون أنّه مُنزَّلٌ** ﴾، يعني: القرآن، قرأ ابن عامر وحفص: «منــزل»، بالتشـديد من التنزيل لأنه انزل نجوماً متفرقة، وقرأ الآخرون بالتخفيف من الإنزال، لقوله تعالى: ﴿ **وهو الذي أنزل إليكم الكتاب** ﴾، ﴿ **مِن ربِّك بالحقّ فلا تكُونَنّ مِنَ الممترين** ﴾، من الشاكين أنهم يعلمون ذلك.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ **وتَمّتْ كلمةُ ربِّكَ** ﴾، قرأ أهل الكوفة ويعقوب «كلمــة» علـى التوحيد، وقرأ الآخرون « كلمات » بالجمع وأراد بالكلمات أمره ونهيه ووعده ووعيده، ﴿ **صِدْقاً وعَدْلاً** ﴾، أي: صدقاً في الوعد والوعيد، وعدلاً في الأمر والنهي، قال قتادة ومقاتل: صادقاً فيما وعد وعدلاً فيما حكم. ﴿ **لا مُبدِّلَ لكلماتِه** ﴾، قال ابن عباس: لا رادّ لقضائه ولا مغيّر لحكمه ولا خلف لوعده، ﴿ **وهو السّميعُ العليم** ﴾، قيل: أراد بالكلمات القرآن لا مبدّل له، يريد لا يزيد فيه المفترون ولا ينقصون.

الأرض في أكل الميتة، وكان الكفار يومئذ أكثر أهل الأرض يضلوك عن سبيل الله، يعني يضلوك عن دين الله الذي شرعه لك وبعثك به وقيل معناه لا تطعهم في معتقداتهم الباطلة فإنك إن تطعهم يضلوك عن سبيل الله يعني يضلوك عن طريق الحق ومنهج الصدق ثم أخبر عن حال الكفار وما هم عليه فقال تعالى: ﴿**إن يتبعون إلا الظن**﴾ يعني أن هؤلاء الكفار الذين يجادلونك ما يتبعون في دينهم الذي هم عليه إلا الظن وليسوا على بصيرة وحق في دينهم وليسوا بقاطعين أنهم على حق لأنهم اتبعوا أهواءهم وتركوا التماس الصواب والحق واقتصروا على اتباع الظن والجهل ﴿**وإن هم إلا يخرصون**﴾ يعني يكذبون وأصل الخرص الحزر والتخمين، ومنه خرص النخلة إذا حزر كمية ثمرتها على الظن من غير يقين ويسمى الكذب خرصاً لما يدخله من الظنون الكاذبة وقيل: إن كل قول مقول عن ظن وتخمين يقال له خرص لأن قائله لم يقله عن علم ويقين ﴿**إن ربك هو أعلم من يضل عن سبيله**﴾ يقول الله لنبيه محمد ﷺ يا محمد إن ربك هو أعلم منك ومن جميع خلقه أيّ الناس يضل عن سبيله ﴿**وهو أعلم بالمهتدين**﴾ يعني وهو أعلم أيضاً بمن كان على هدى واستقامة وسداد ولا يخفى عليه شيء من أحوال خلقه فأخبر تعالى أنه أعلم بالفريقين الضال والمهتدي وأنه يجازي كلاً بما يستحق.

فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾ وَذَرُواْ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُواْ يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾

قوله تعالى: ﴿**فكلوا مما ذكر اسم الله عليه**﴾ هذا جواب لقول المشركين حيث قالوا للمسلمين أتأكلون مما قتلتم ولا تأكلون مما قتل ربكم؟ فقال الله تعالى للمسلمين فكلوا أنتم مما ذكر اسم الله عليه من الذبائح: ﴿**إن كنتم بآياته مؤمنين**﴾ وقيل كانوا يحرمون أصنافاً من النعم ويحلون الميتة فقيل: أحلوا ما أحل الله وحرموا ما حرم الله، فعلى هذا القول تكون الآية خطاباً للمشركين.

وعلى القول الأول تكون الآية خطاباً للمسلمين وهو الأصح لقوله في آخر الآية: ﴿**إن كنتم بآياته مؤمنين**﴾ ﴿**وما لكم إلاّ تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه**﴾ يعني وأي شيء لكم في أن لا تأكلوا وما يمنعكم من أن تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه وهذا تأكيد في إباحة ما ذبح على اسم الله دون غيره: ﴿**وقد فصل لكم ما حرم عليكم**﴾ يعني وقد بين لكم الحلال من الحرام فيما تطعمون. وقال جمهور المفسرين: المراد بقوله وقد فصل لكم ما حرم عليكم المحرمات

﴿ وإنْ تُطعْ أكثرَ مَن في الأرض يُضِلُّوكَ عن سبيل الله ﴾، عن دين الله، وذلك أن أكثر أهل الأرض كانوا على الضلالة، وقيل: أراد أنهم جادلوا رسول الله ﷺ والمؤمنين في أكل الميتة، وقالوا: أتأكلون ما تقتلون ولا تأكلون ما قتله الله عزّ وجلّ؟ فقال: **﴿ وإن تُطعْ أكثـرَ مَنْ في الأرض ﴾**، أي: وإن تطعهم في أكـل الميتة **يُضلّوكَ** عن سبيـل الله، **﴿ إن يتّبعُون إلاّ الظنَّ ﴾**، يريد أن دينهم الذي هم عليه ظنٌّ وهوىً لم يأخذوه عن بصيرة، **﴿ وإنْ هم إلاّ يخرصُون ﴾**، يكذّبون.

﴿ إنّ ربَّك هو أعلمُ مَن يَضِلُّ عن سبيلِهِ ﴾، قيل: موضع من نصب بنزع حرف الصفة، أي: بمَن **يضلّ**، وقال الزجّاج: موضعه رفع بالابتداء، ولفظها لفظ الاستفهام، والمعنى: إنّ ربك هو أعلم أيِ الناس مَن يضل عن سبيله، **﴿ وهو أعلم بالمُهتدين ﴾**، أخبر أنه أعلم بالفريقين الضالّين والمهتدين فيجازي كلاًّ بما يستحقون.

قوله تعالى: **﴿ فكلُوا ممّا ذُكرَ اسمُ اللّهِ عليهِ ﴾**، أي: كلوا ممّا ذُبح على اسم الله، **﴿ إن كنتُم بآياته**

المذكورة في قوله تعالى: ﴿حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهلّ لغير الله به﴾ وأورد الإمام فخر الدين الرازي هاهنا إشكالاً فقال: في سورة الأنعام مكية وسورة المائدة من آخر ما أنزل الله تعالى بالمدينة، وقوله: وقد فصل يجب أن يكون ذلك المفصل متقدماً على هذا المحل والمدني متأخر على المكي فيمتنع كونه متقدماً ثم قال بل الأولى أن يقال قوله تعالى بعد هذه الآية ﴿قل لا أجد فيما أوحي إلي محرماً على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دماً مسفوحاً أو لحم خنزير﴾ وهذه الآية وإن كانت مذكورة بعد هذه الآية بقليل إلا أن هذا القدر من المتأخر لا يمنع أن يكون هو المراد قال كاتبه ولما ذكره المفسرون وجه وهو أن الله لما علم أن سورة المائدة متقدمة على سورة الأنعام في الترتيب لا في النزول حسن عود الضمير في قوله وقد فصل لكم ما حرم عليكم إلى ما هو متقدم في الترتيب وهو قوله ﴿حرمت عليكم الميتة﴾ الآية والله أعلم بمراده.

قوله تعالى: ﴿**إلا ما اضطررتم إليه**﴾ يعني إلا أن تدعوكم الضرورة إلى أكله بسبب شدة المجاعة فيباح لكم ذلك عند الاضطرار ﴿**وإن كثيراً ليضلون بأهوائهم بغير علم**﴾ يعني وإن كثيراً من الذين يجادلونكم في أكل الميتة ويحتجون عليكم في ذلك بقولهم أتأكلون ما تذبحون ولا تأكلون ما يذبحه الله، وإنما قالوا هذه المقالة جهلاً منهم بغير علم منهم بصحة ما يقولون بل يتبعون أهواءهم ليضلوا أنفسهم وأتباعهم بذلك. وقيل: المراد به عمرو بن لحي فمن دونه من المشركين لأنه أول من بحرَ البحائر وسيَّب السوائب وأباح الميتة وغير دين إبراهيم عليه السلام ﴿**إن ربك هو أعلم بالمعتدين**﴾ يعني إن ربك يا محمد هو أعلم بمن تعدى حدوده فأحل ما حرم وحرم ما أحل الله فهو يجازيهم على سوء صنيعهم.

قوله عز وجل: ﴿**وذروا ظاهر الإثم وباطنه**﴾ يعني وذروا أيها الناس ما يوجب الإثم وهي الذنوب والمعاصي كلها سرها وعلانيتها قليلها وكثيرها، قال الربيع بن أنس: نهى الله عن ظاهر الإثم وباطنه أن يعمل به سراً وعلانية وقال سعيد بن جبير: في هذه الآية الظاهر منه قوله: ﴿ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلا ما قد سلف﴾ ونكاح المحارم من الأمهات والبنات والأخوات والباطن الزنا، وقال السدي: أما الظاهر فالزواني في الحوانيت وهنَّ أصحاب الرايات.

وأما الباطن فالمرأة يتخذها الرجل صديقة فيأتيها سراً، وقال الضحاك: كان أهل الجاهلية يستسرون بالزنا ويرون أن ذلك حلالاً ماكان سراً فحرم الله السر منه والعلانية، وقال ابن زيد: ظاهر الإثم التجرد من الثياب والتعري في الطواف والباطن الزنا، وقال الكلبي: ظاهر الإثم طواف الرجال بالبيت نهاراً عراة وباطنه طواف النساء بالليل عراة

مُؤمنين ﴾، وذلك أنهم كانوا يُحرّمون أصنافاً من النّعم ويحلّون الأموات، فقيل لهم: أحِلّوا ما أحلّ الله وحرّموا ما حرّم الله.

ثم قال: ﴿ **وَمَا لَكُمْ** ﴾، يعني: أي شيء لكم، ﴿ **أَلاّ تأكلُوا** ﴾، وما يمنعكم من أن تأكلوا ﴿ **مِمّا ذُكِرَ اسمُ اللّهِ عليهِ** ﴾، من الذبائح، ﴿ **وقدْ فصّلَ لكُم مَا حرّم عليكم** ﴾، قرأ أهل المدينة ويعقوب وحفص «فصـل»، و﴿ **حرّم** ﴾ بالفتح فيهما أي فصل الله ما حرّمه عليكم، لقوله: ﴿ **اسمُ الله** ﴾ وقرأ ابن كثير وابن عامر ويعقوب وأبو عمرو بضم الفاء والحاء وكسر الصاد والراء على غير تسمية الفاعل، لقوله: ﴿ **ذُكر** ﴾ وقرأ حمزة والكسائي وأبو بكر «فصـل» بالفتح و«حـرم» بالضم، وأراد بتفصيل المحرّمات ما ذكرت في قوله تعالى: ﴿ حُرّمَتْ عليكمُ الميتةُ والدمُ ﴾ [المائدة: ٣]. ﴿ **إلاّ ما اضْطُرِرْتُم إليه** ﴾ من هذه الأشياء فإنه حلال لكم عند الاضطرار، ﴿ **وإنّ كثيراً لَيُضِلّون** ﴾، قرأ أهل الكوفة بضمّ الياء وكذلك قوله: ﴿ ليضلّوا ﴾ في سورة يونس [٨٨]، لقوله تعالى: ﴿ **يضلّوك**

وكان أهل الجاهلية يفعلون ذلك إلى أن جاء الإسلام فنهى الله عن ذلك كله. وقيل: إن هذا النهي عام في جميع المحرمات التي نهى الله عنها وهو الأصح لأن تخصيص العام بصورة معينة من غير دليل لا يجوز، فعلى هذا القول يكون معنى الآية وذروا ما أعلنتم به وما أسررتم من الذنوب كلها، قال ابن الأنباري: وذروا الإثم من جميع جهاته. وقيل: المراد بظاهر الإثم الإقدام على الذنوب من غير مبالاة وباطنه ترك الذنوب لخوف الله عز وجل لا خوف الناس وقيل المراد بظاهر الإثم أفعال الجوارح وباطنه أفعال القلوب فيدخل في ذلك الحسد والكبر والعجب إرادة السوء للمسلمين ونحو ذلك.

وقوله عز وجل: ﴿إن الذين يكسبون الإثم﴾ يعني إن الذين يعملون بما نهاهم الله عنه ويرتكبون ما حرم عليهم من المعاصي وغيرها ﴿سيجزون﴾ يعني في الآخرة ﴿بما كانوا يقترفون﴾ يعني بما كانوا يسكبون في الدنيا من الآثام وظاهر هذا النص يدل على عقاب المذنب أنه مخصوص بمن لم يتب لأن المسلمين أجمعوا على أنه إذا تاب العبد من الذنب توبة صحيحة لم يعاقب وزاد أهل السنة في ذلك، فقالوا: المذنب إذا لم يتب فهو في خطر المشيئة إن شاء عاقبه وإن شاء عفا عنه بفضله وكرمه، وقوله تعالى: ﴿ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه﴾ قال ابن عباس: الآية في تحريم الميتات وما في معناها من المنخنقة وغيرها، وقال عطاء الآية في تحريم الذبائح التي كانوا يذبحونها على اسم الأصنام اهـ.

(فصل)

اختلف العلماء في ذبيحة المسلم إذا لم يذكر اسم الله عليها فذهب قوم إلى تحريمها سواء تركها عامداً أو ناسياً: وهو قول ابن سيرين والشعبي ونقله الإمام فخر الدين الرازي عن مالك، ونقل عن عطاء أنه قال: كل ما لم يذكر اسم الله عليه من طعام أو شراب فهو حرام. احتجوا في ذلك بظاهر هذه الآية. وقال الثوري وأبو حنيفة: إن ترك التسمية عامداً لا تحل وإن تركها ناسياً تحل. وقال الشافعي: تحل الذبيحة سواء ترك التسمية عامداً أو ناسياً، ونقله البغوي عن ابن عباس ومالك ونقل ابن الجوزي عن أحمد روايتين: فيما إذا ترك التسمية عامداً وإن تركها ناسياً حلت فمن أباح أكل الذبيحة التي لم يذكر اسم الله عليها قال: المراد من الآية الميتات وما ذبح على اسم الأصنام بدليل أنه قال تعالى في سياق الآية ﴿وإنه لفسق﴾ وأجمع العلماء على أن آكل ذبيحة المسلم التي تُرك التسمية عليها لا يفسق واحتجوا أيضاً في إباحتها بما روى البخاري في صحيحه عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: قلت يا رسول الله إن هنا أقواماً حديثاً عهدهم بشرك يأتوننا بلحمان فما ندري يذكرون اسم الله عليها أم لا قال اذكروا أنتم اسم الله وكلوا» قالوا لو كانت التسمية شرطاً للإباحة لكان الشك في وجودها مانعاً من أكلها كالشك في أصل الذبح وقول الشافعي في أول الآية وإن كان عاماً بحسب الصيغة إلا أن آخرها لما حصلت فيه هذه القيود الثلاثة وهي قوله وإنه لفسق وإن

عن سبيل الله ﴾، وقيل: أراد به عمرو بن لحي فمَن دونه من المشركين الذين اتخذوا البحائر والسوائب، وقرأ الآخرون بالفتح لقوله: ﴿ مَن يضلّ ﴾، ﴿ بأهوائهم بغيرِ علم ﴾، حين امتنعوا من أكل ما ذكر اسم الله عليه ودعوا إلى أكل الميتة، ﴿ إنّ ربَّك هو أعلمُ بالمعتدين ﴾، الذين يجاوزون الحلال إلى الحرام.

﴿ وذَرُوا ظاهر الإثم وباطنَه ﴾، يعني: الذنوب كلها لأنها لا تخلو من هذين الوجهين، قال قتادة: علانيته وسرّه، وقال مجاهد: ظاهره ما يعمله الإنسان بالجوارح من الذنوب، وباطنه ما ينويه ويقصده بقلبه كالمصرّ على الذنب القاصد له، قال الكلبي: ظاهره الزنا وباطنه المخالفة، وأكثر المفسرين على أن ظاهر الإثم الإعلان بالزنا، وهم أصحاب الروايات، وباطنه الاستسرار به، وذلك أن العرب كانوا يحبّون الزنا وكان الشريف منهم يتشرّف

الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم وإن أطعتموهم أنكم لمشركون علمنا أن المراد من هذا العموم هو الخصوص والفسق ذكر اسم غير الله في الذبح ما قال في آخر السورة ﴿قل لا أجد فيما أوحي إليّ محرماً على طاعم يطعمه﴾ إلى قوله ﴿أو فسق أهل لغير الله به﴾ فصار هذا الفسق الذي أهلّ لغير الله به مفسراً لقوله ﴿وإنه لفسق﴾ وإذا كان كذلك كان قوله:

﴿وَلَا تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾﴾

﴿ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وإنه لفسق﴾ مخصوصاً بما ﴿أهلّ لغير الله به﴾ والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم﴾ يعني أن الشياطين يوسوسون إلى أوليائهم من المشركين ليجادلوكم ويخاصموا محمداً ﷺ، وذلك أن المشركين قالوا يا محمد أخبرنا عن الشاة إذاماتت من قتلها فقال: الله قتلها قالوا فتزعم أن ما قتلت أنت وأصحابك حلال وما قتله الكلب والصقر حلال وما قتله الله حرام فأنزل الله عز وجلّ هذه الآية، وقال عكرمة: لما نزلت هذه الآية في تحريم الميتة كتبت فارس، وهم المجوس، إلى مشركي قريش أنْ خاصموا محمداً وقولوا له إن ما ذبحت فهو حلال، وما ذبحه الله فهو حرام فأنزل الله: وأن الشياطين، يعني مردة الإنس وهم المجوس، ليوحون إلى أوليائهم، يعني مشركي قريش، وكان بين فارس والعرب مولاة ومكاتبة على الروم، فعلى هذا يكون المراد بالوحي المكاتبة في خفية ﴿وإن أطعتموهم﴾ يعني في أكل الميتة، وما حرم الله عليكم ﴿إنكم لمشركون﴾ يعني أنكم إذاً مثلهم في الشرك، قال الزجاج: فيه دليل على أن كل من أحل شيئاً مما حرم الله أو حرم شيئاً مما أحل الله فهو مشرك إنما سمي مشركاً لأنه أثبت حاكماً غير الله عز وجل ومن كان كذلك فهو مشرك.

قوله عز وجل: ﴿أو من كان ميتاً فأحييناه﴾ يعني أو من كان ميتاً بالكفر فأحييناه بالإيمان وإنما جعل الكفر موتاً لأنه جعل الإيمان حياة لأن الحي صاحب بصر يهتدي به إلى رشده ولما كان الإيمان يهدي إلى الفوز العظيم والحياة الأبدية شبهه بالحياة ﴿وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس﴾ يعني وجعلنا له نوراً يستضيء به في الناس ويهتدي به إلى

فيسرُّه، وغير الشريف لا يبالي به فيظهره، فحرّمهما الله عزّ وجلّ، وقال سعيد بن جبير: ظاهر الإثم نكاح المحارم وباطنه الزنا، وقال ابن زيد: إن ظاهر الإثم التجرّد من الثياب والتعرّي في الطواف والباطن الزنا، وروى حيان عن الكلبي: ظاهر الإثم طواف الرجال بالبيت نهاراً عُراة: وباطنه طواف النساء بالليل عُراة، ﴿ إنّ الذينَ يَكْسِبُون الإثم سَيُجْزَوْنَ ﴾، في الآخرة، ﴿ بما كانوا يَقترِفُون ﴾، يكتسبون في الدنيا.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ ولا تأكلوا ممّا لم يذكرِ اسمُ اللهِ عليهِ ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: الآية في تحريم الميتات وما في معناها من المنخنقة وغيرها. وقال عطاء: الآية في تحريم الذبائح التي كانوا يذبحونها على اسم الأصنام واختلف أهل العلم في ذبيحة المسلم إذا لم يذكر اسم الله عليها، فذهب قوم إلى تحريمها سواء ترك التسمية عامداً وناسياً، وهو قول ابن سيرين والشعبي، واحتجّوا بظاهر هذه الآية. وذهب قوم إلى تحليلها، يُروى ذلك عن ابن عباس وهو قول مالك والشافعي وأحمد رضوان الله عليهم أجمعين. وذهب قوم إلى أنه ترك التسمية عامداً لا يحلّ، وإن تركها ناسياً يحلّ، حكى الخرقي من أصحاب أحمد: أن هذا مذهبه، وهو قول الثّوري وأصحاب الرأي، مَن أباحها قال: المراد من الآية الميتات وما ذبح على اسم غير الله بدليل أنه قال: ﴿ وإنّه

قصد السبيل، قيل: النور هو الإسلام لأنه يخلص من ظلمات الكفر لقوله: يخرجهم من الظلمات إلى النور.

وقال قتادة: هو كتاب الله القرآن لأنه بينة من الله مع المؤمن بما يعمله ﴿كمن مثله في الظلمات﴾ يعني كمن هو في ظلمة الكفر وظلمة الجهالة وظلمة عمى البصيرة ﴿ليس بخارج منها﴾ يعني من تلك الظلمات وهذا مثل ضربه الله تعالى لحال المؤمن والكافر فبين أن المؤمن المهتدي بمنزلة من كان ميتاً فأحياه وأعطاه نوراً يهتدي به في مصالحه وأن الكافر بمنزلة من هو في ظلمات منغمس فيها ليس بخارج منها فيكون متحيراً على الدوام، ثم اختلف المفسرون في هذين المثالين هل هما مخصوصان بإنسانين معينين أو هما عامّان في كل مؤمن وكافر؟ فذكروا في ذلك قولين: أحدهما أن الآية في رجلين معينين ثم اختلفوا فيهما فقال ابن عباس في قوله وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس يريد حمزة بن عبد المطلب عم النبي ﷺ كمن مثله في الظلمات يريد بذلك أن أبا جهل بن هشام وذلك أبا جهل رمى النبي ﷺ بفرث فأخبر حمزة بما فعل أبو جهل، وكان حمزة قد رجع من صيد وبيده قوس وحمزة لم يؤمن بعد فأقبل حمزة غضبان حتى علا أبا جهل وجعل يضربه بالقوس، وجعل أبو جهل يتضرع إلى حمزة ويقول: يا أبا يعلى أما ترى ما جاء به سفَّه عقولنا وسب آلهتنا وخالف آباءنا؟ فقال حمزة: ومن أسفه منكم عقولاً تعبدون الحجارة من دون الله أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله، فأسلم حمزة يومئذ فأنزل الله هذه الآية. وقال الضحاك: نزلت في عمر بن الخطاب وأبي جهل. وقال عكرمة والكلبي: نزلت في عمار بن ياسر وأبي جهل، وقال مقاتل: نزلت في النبي ﷺ وأبي جهل وذلك أن أبا جهل قال زاحمنا بنو عبد مناف في الشرف حتى إذا صرنا نحن وهم كفرسي رهان، قالوا منا نبي يوحى إليه والله لا نؤمن حتى يأتينا وحي كما يأتيه فنزلت هذه الآية.

﴿لَفِسْقٌ﴾، والفسق في ذكر اسم غير الله كما قال في آخر السورة: ﴿قُلْ لا أجد فيما أُوحيَ إلى محرماً على طاعم﴾ [الأنعام: ١٤٥] إلى قوله: ﴿أو فسقاً أُهِلَّ لغير اللّهِ به﴾ [الأنعام: ١٤٥]، واحتجَّ مَن أباحها بما أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أخبرنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا يوسف بن موسى ثنا أبو خالد الأحمر قال: سمعت هشام بن عروة يحدّث عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها، قالت: إن قوماً قالوا: يا رسول الله إن هنا أقواماً حديثاً عهدهم بشرْك يأتون بلحمان لا ندري يذكرون اسم الله عليها أم لا؟ قال: «اذكروا أنتم اسم الله وكُلُوا». ولو كانت التسمية شرطاً للإباحة لكان الشك في وجودها مانعاً من أكلها كالشك في أصل الذبح. قوله: ﴿وإنَّ الشياطينَ لَيُوحُونَ إلى أوليائِهم لِيُجادِلُوكم﴾، أراد أن الشياطين ليوسوسون إلى أوليائهم من المشركين ليجادلوكم، وذلك أن المشركين قالوا: يا محمد أخبرنا عن الشاة إذا ماتت مَن قتلها؟ فقال: «الله قتلها»، قالوا: أفتزعم أن ما قتلتَ أنتَ وأصحابك حلالٌ، وما قتله الكلب والصقر والفهد حلال، وما قتله الله حرام؟ فأنزل الله هذه الآية، ﴿وإنْ أطعتموهم﴾، في أكل الميتة، ﴿إنّكم لَمشركُون﴾، قال الزجّاج: وفيه دليل على أن مَن أحلّ شيئاً مما حرّم الله أو حرّم ما أحلّ الله فهو مشرك.

قوله: ﴿أوَ مَن كانَ مَيْتاً فأحييناه﴾، قرأ نافع «ميّتاً» و﴿لحم أخيه ميتاً﴾ [الحجرات: ١٢] و﴿الأرض الميتة أحييناها﴾ [يٓس: ٣٣] بالتشديد فيهنّ، وقرأ الآخرون بالتخفيف «فأحييناه» أي: كان ضَالاً فهديناه، كان ميتاً بالكفر فأحييناه بالإيمان، ﴿وجعلنا له نوراً﴾، يستضيء به، ﴿يمشي به في الناس﴾، على قصد السبيل، قيل: النور هو الإسلام، لقوله تعالى: ﴿يُخرِجُهم مِّنَ الظّلماتِ إلى النور﴾ [البقرة: ٢٥٧]، وقال قتادة: هو كتاب الله بيِّنةٌ من الله مع المؤمن، بها يعمل وبها يأخذ وإليها ينتهي، ﴿كَمَن مَّثَلُهُ في الظّلماتِ﴾، المثل صلة، أي: كمَن هو في الظلماتِ، ﴿ليس بخارج منها﴾، يعني: من ظلمة الكفر، قيل: نزلت هذه الآية في رجلين بأعيانهما، ثم اختلفوا فيهما، قال ابن عباس: جعلنا له نوراً، يريد حمزة بن عبد المطّلب، كمَن مثله في الظلمات

والقول الثاني: وهو قول الحسن في آخرين أن هذه الآية عامة في حق كل مؤمن وكافر وهذا هو الصحيح لأن المعنى إذا كان حاصلاً في الكل دخل فيه كل أحد.

وقوله تعالى: ﴿**كذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون**﴾ قال أهل السنة: المزين هو الله تعالى ويدل عليه قوله زينّا لهم أعمالهم ولأن حصول الفعل يتوقف على حصول الدواعي وحصوله لا يكون إلا بخلق الله تعالى فدل ذلك على أن المزين هو الله تعالى، وقالت المعتزلة المزين هو الشيطان ويرده ما تقدم.

وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُواْ فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِ ۘ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ۗ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُواْ يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾

وقوله تعالى: ﴿**وكذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها**﴾ يعني وكما جعلنا في مكة أكابر، وعظماء جعلنا في كل قرية أكابر وعظماء، وقيل: هو معطوف على ما قبله. ومعناه: كما زينا للكافرين ما كانوا يعملون كذلك جعلنا في كل قرية أكابر جمع الأكبر ولا يجوز أن يكون مضافاً لأنه لا يتم المعنى في بل الآية تقديم وتأخير تقديره: وكذلك جعلنا كل قرية أكابر «مجرميها» وإنما جعل المجرمين أكابر لأنهم أقدر على المكر والغدر وترويج الباطل بين الناس من غيرهم، وإنما حصل ذلك لأجل رياستهم وذلك سنة الله أنه جعل في كل قرية أتباع الرسل ضعفاءهم وجعل فسّاقهم أكابرهم ﴿**ليمكروا فيها**﴾ قال أبو عبيدة: المكر، الخديعة والحيلة والغدر والفجور. زاد بعضهم والغيبة والنميمة والأيمان الكاذبة وترويج الباطل. قال ابن عباس: معناه ليقولوا فيها الكذب. وقال مجاهد: جلس على كل طريق من طرق مكة أربعة نفر ليصرفوا الناس عن الإيمان بمحمد ﷺ ويقولوا هو كذاب ساحر كاهن فكان هذا مكرهم ﴿**وما يمكرون إلا بأنفسهم**﴾ يعني ما يحيق هذا المكر إلا بهم لأن وبال مكرهم يعود عليهم ﴿**وما يشعرون**﴾ يعني أن وبال ذلك المكر يعود عليهم ويضرهم.

قوله عز وجل: ﴿**وإذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتي رسل الله**﴾ يعني النبوة وذلك أن الوليد بن المغيرة قال للنبي ﷺ: لو كانت النبوة حقاً لكنت أنا أولى بها منك لأني أكبر منك سناً وأكثر منك مالاً، فأنزل الله هذه الآية. وقال مقاتل: نزلت في أبي جهل، وذلك أنه قال زاحمنا بنو عبد مناف في الشرف حتى إذا صرنا كفرسي رهان قالوا منا نبي يوحى إليه والله لا نؤمن به ولا نتبعه أبداً إلا أن يأتينا وحي كما يأتيه فأنزل الله هذه الآية. وإذا جاءتهم آية، يعني حجة بينة ودلالة واضحة على صدق محمد ﷺ.

يريد أبا جهل بن هشام، وذلك أنّ أبا جهل رمَى رسول الله ﷺ بفرثٍ، فأُخبر حمزةُ بما فعل أبو جهل وهو راجع من قنصه وبيده قوس، وحمزة لم يؤمن بعد، فأقبل غضبان حتى رمى أبا جهل بالقوس وهو يتضرع إليه، ويقول: يا أبا يعلى أما ترى ما جاء به؟ سفّه عقولنا وسبّ آلهتنا وخالف آباءنا، فقال حمزة: ومَن أسفه منكم؟ تعبدون الحجارة من دون الله أشهد أن لا إله إلّا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، فأنزل الله هذه الآية. وقال الضحاك: نزلت في عمر بن الخطاب وأبي جهل. وقال عكرمة والكلبي: نزلت في عمّار بن ياسر وأبي جهل. ﴿ كذلك زُيِّنَ للكافرين ما كانُوا يعملُون ﴾، من الكفرِ والمعصية. قال ابن عباس: يريد زيّن لهم الشيطان عبادة الأصنام.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ وكذلكَ جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها ﴾، أي: كما أن فسّاق مكة أكابرها، كذلك جعلنا فسّاق كل قرية أكابرها، أي: عظماءها، جمع أكبر، مثل أفضل وأفاضل، وأسود وأساود، وذلك سُنّة الله

قالوا: يعني الوليد بن المغيرة وأبا جهل بن هشام أو كل واحد من رؤساء الكفر ويدل عليه الآية التي قبلها وهي قوله وكذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها فكان من مكر كفار قريش أن قالوا لن نؤمن لك حتى نؤتى مثل ما أوتي رسل الله يعني النبوة وإنما قالوا هذه المقالة الخبيثة حسداً منهم للنبي ﷺ وفي قولهم لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتي رسل الله قولان:

أحدهما: وهو المشهور أن القوم أرادوا أن تحصل لهم النبوة والرسالة كما حصلت للنبي ﷺ وأن يكونوا متبوعين لا تابعين.

القول الثاني: وهو قول الحسن ومنقول عن ابن عباس أن المعنى: وإذا جاءتهم آية من القرآن تأمرهم باتباع محمد ﷺ قالوا: لن نؤمن لك يعني لن نصدقك حتى نؤتى مثل ما أوتي رسل الله يعني حتى يوحى إلينا ويأتينا جبريل بصدقك بأنك رسول الله، فعلى هذا القول لم يطلبوا النبوة وإنما طلبوا أن تخبرهم الملائكة بصدق محمد ﷺ وأنه رسول الله تعالى. وعلى القول الأول أنهم طلبوا أن يكونوا أنبياء ويدل على صحة هذا القول سياق الآية وهو قوله تعالى: **﴿الله أعلم حيث يجعل رسالاته﴾** يعني أنه تعالى يعلم من يستحق الرسالة فيشرفه بها ويعلم من لا يستحقها ومن ليس بأهل لها، وأنتم لستم لها بأهل وأن النبوة لا تحصل لمن يطلبها، خصوصاً لمن عنده حسد ومكر وغدر. وقال أهل المعاني: الأبلغ في تصديق الرسل أن لا يكونوا قبل البعثة مطاعين في قومهم، لأن الطعن كان يتوجه عليهم فيقال إنما كانوا رؤساء مطاعين فاتبعهم قومهم لأجل ذلك فكان الله تعالى أعلم بمن يستحق الرسالة فجعلها ليتيم أبي طالب دون أبي جهل والوليد وغيرهما من أكابر قريش ورؤسائها وقوله تعالى: **﴿سيصيب الذين أجرموا صَغار﴾** أي ذلة وهوان. وقيل الصغار هو الذل الذي تصغر إلى المرء نفسه فيه **﴿عند الله﴾** يعني هذا من عند الله وقيل إن هذا الصغار ثابت لهم عند الله فعلى هذا القول إنما يحصل لهم الصغار في الآخرة وقيل معناه سيصيبهم صغار بحكم الله حكم به عليهم في الدنيا **﴿وعذاب شديد﴾** يعني في الآخرة **﴿بما كانوا يمكرون﴾** يعني إنما حصل لهم هذ الصغار والعذاب بسبب مكرهم وحسدهم وطلبهم ما لا يستحقون.

تعالى أنه جعل في كل قرية أتباع الرسلِ ضعفاءهم، كما قال في قصة نوح عليه السلام: **﴿ أنؤمنُ لكَ واتّبعكَ الأرْذَلُون ﴾** [الشعراء: ١١١]، وجعل فسّاقهم أكابرهم، **﴿ لِيمْكُروا فيها ﴾**، وذلك أنهم أجلسوا على كل طريق من طرق مكة أربعة نفر ليصرفوا الناس عن الإيمان بمحمد ﷺ، يقولون لكل مَن يقدم: إيّاك وهذا الرجل فإنه كاهن ساحر كذّاب. **﴿ وما يمكرُون إلاّ بأنْفُسِهم ﴾**، لأن وِبال مكرهم يعود عليهم. **﴿ وما يشعرُون ﴾**، أنه كذلك.

قوله تعالى: **﴿ وإذا جاءتْهُمْ آيةٌ قالوا لن نُؤمِنَ حتّى نُؤتَى مِثْلَ ما أُوتيَ رُسُلُ اللّهِ ﴾**، يعني: مثل ما أُوتي رسل الله من النبوّة، وذلك أن الوليد بن المغيرة قال: لو كانت النبوّة حقّاً لكنتُ أولى بها منك، لأني أكبر منك سنّاً وأكثر منك مالاً، فأنزل الله تعالى هذه الآية. وقال مقاتل: نزلت في أبي جهل، وذلك أنه قال: زاحمنا بنو عبد مناف في الشرف حتى إنّا صرنا كفرسي رهان، قالوا: منّا نبي يُوحَى إليه، والله لا نؤمن به ولا نتبعه أبداً إلاّ أن يأتينا وحي كما يأتيه، فأنزل الله عزّ وجلّ: **﴿ وإذا جاءتهم آية ﴾**، حجّة على صدق محمد ﷺ قالوا: يعني أبا جهل، **﴿ لن نُؤمنَ حتى نُؤتَى مثل ما أُوتي رسلُ الله ﴾**، يعني: محمداً ﷺ. ثم قال الله تعالى: **﴿ اللّهُ أعلمُ حيثُ يجعلُ رسالتهُ ﴾**، قرأ ابن كثير وحفص«رسالته» على التوحيد،وقرأ الآخرون رسالاته بالجمع، يعني الله أعلم بمَن هو أحقُّ بالرسالة. **﴿ سيُصيبُ الذينَ أجْرَمُوا صَغارٌ ﴾**، ذُلٌّ وهَوان، **﴿ عند الله ﴾**، أي: من عند الله، **﴿ وعذابٌ شديد بما كانوا يمكرُون ﴾**، قيل: صغار في الدنيا وعذاب شديد في الآخرة.

﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿**فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام**﴾ أي الإيمان. يقال: شرح الله صدره فانشرح أي وسعه لقبول الإيمان والخير فتوسع وذلك أن الإنسان إذا اعتقد في عمل من الأعمال أن نفعه زائد وخيره راجح وربحه ظاهر مال بطبعه إليه وقويت رغبته فيه فتسمى هذه الحالة سعة النفس وانشراح الصدر. وقيل الشرح الفتح والبين ويقال شرح فلان أمره إذا: أوضحه وأظهره. وشرح المسألة إذا كانت مشكلة فأوضحها وبينها فقد ثبت أن للشرح معنين:

أحدهما: الفتح ومنه يقال شرح الكافر بالكفر صدراً أي فتحه لقبوله ومنه قوله تعالى: ﴿ولكن من شرح بالكفر صدراً﴾ وقوله: ﴿**أفمن شرح الله صدره للإسلام**﴾ يعني فتحه ووسعه لقبوله.

والثاني: أن الشرح نور يقذفه الله في قلب العبد فيعرف بذلك النور الحق، فيقبله وينشرح صدره له ومعنى الآية: ﴿**فمن يرد الله أن يهديه للإيمان بالله**﴾ وبرسوله وبما جاء به من عنده يوفقه له ويشرح صدره، لقبوله ويهونه عليه ويسهله له بفضله وكرمه ولطفه به وإحسانه إليه فعند ذلك يستنير الإسلام في قلبه فيضيء به ويتسع له صدره ولما نزلت هذه الآية سئل النبي ﷺ عن شرح الصدر فقال« نور يقذفه الله في قلب المؤمن فينشرح له وينفسح» قيل فهل لذلك أمارة قال: «نعم الإنابة إلى دار الخلود والتجافي عن دار الغرور والاستعداد للموت قبل نزول الموت» وأسنده الطبري عن ابن مسعود قيل لرسول الله ﷺ حين نزلت عليه هذه الآية: ﴿**فمن يريد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام**﴾ قال «إذا دخل النور القلب انفسح وانشرح» قالوا فهل لذلك من آية يعرف بها؟ قال: «الإنابة إلى دار الخلود والتجافي عن دار الغرور والاستعداد للموت قبل لقاء الموت».

وقوله تعالى: ﴿**ومن يرد**﴾ أي الله ﴿**أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً**﴾ يعني يجعل صدره ضيقاً حتى لا يدخله الإيمان، وقال الكلبي: ليس للخير فيه منفذ، وقال ابن عباس: إذا سمع ذكر الله اشمأز قلبه وإذا سمع ذكر الأصنام ارتاح إلى ذلك. وقرأ عمر بن الخطاب هذه الآية وعنده أعرابي من كنانة فقال له: ما الحرجة فيكم؟ قال: الحرجة فينا الشجرة تكون بين الأشجار التي لا تصل إليها راعية ولا وحشية ولا شيء، فقال عمر: كذلك قلب المنافق لا يصل إليه شيء من الخير. وأصل الحرج الضيق وهو مأخوذ من الحرجة وهي الأشجار الملتف بعضها على بعض حتى لا يصل إليه شيء. وقرأ ابن عباس هذه الآية فقال: هل هنا أحد من بني بكر؟ قال رجل: نعم. قال: ما الحرجة فيكم؟ قال:

قوله عزّ وجلّ: ﴿ **فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أن يهدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ للإسلام** ﴾، أي: يفتح قلبه وينوّره حتى يقبل الإسلام، ولمّا نزلت هذه الآية سُئِلَ رسول الله ﷺ عن شرح الصدر، قال: «نورٌ يقذفه الله في قلب المؤمن فينشرح له وينفسخ»، قيل: فهل لذلك أمارة؟ قال: «نعم، الإنابة إلى دار الخلود والتجافي عن دار الغرور والاستعداد للموت قبل نزول الموت». قوله تعالى: ﴿ **وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضلّه يجعل صَدْره ضَيّقاً** ﴾، قرأ ابن كثير «ضيقاً»، خفيف ههنا وفي الفرقان، والباقون بالتشديد، وهما لغتان مثل: هين وهين ولين ولين، ﴿ **حَرَجاً** ﴾، قرأ أهل المدينة وأبو بكر بكسر الراء والباقون بفتحها، وهما لغتان أيضاً مثل: الدنف والدَنِف، المصدر كالطلب ومعناه ذا حرج، وبالكسر الاسم وهو أشدّ الضيق، يعني: يجعل قلبه ضيقاً حتى لا يدخله الإيمان. وقال الكلبي: ليس للخير فيه منفذ. قال ابن عباس: إذا سمع ذكر الله اشمأزّ قلبه، وإذا ذكر شيء من عبادة الأصنام ارتاح إلى ذلك. وقرأ عمر بن الخطاب رضي الله عنه هذه الآية، فسأل أعرابياً من كنانة: ما الحرجة فيكم؟ قال: الحرجة فينا الشجرة

الوادي الكثير الشجر المستمسك الذي لا طريق فيه، فقال ابن عباس: كذلك قلب الكافر. قال أهل المعاني: لما كان القلب محلاً للعلوم والاعتقادات وصف الله تعالى قلب من يريد هدايته بالانشراح والانفساح ونوره فقبل ما أودعه من الإيمان بالله ورسوله ووصف قلب من يريد ضلالته بالضيق الذي هو خلاف الشرح والانفساح فدل ذلك على أن الله تعالى صير قلب الكافر بحيث لا يعي علماً ولا استدلالاً على توحيد الله تعالى والإيمان به وفي الآية دليل على أن جميع الأشياء بمشيئة الله وإرادته حتى إيمان المؤمن وكفر الكافر.

وقوله تعالى: ﴿**كأنما يصعد في السماء**﴾ يعني أن الكافر إذا دعي إلى الإسلام كأنه قد كلف أن يصعد إلى السماء ولا يقدر على ذلك، وقيل: يجوز أن يكون المعنى كأن قلب الكافر يصعد إلى السماء نبواً عن الإسلام وتكبراً، وقيل: ضاق عليه المذهب فلم يجد إلا أن يصعد إلى السماء وليس يقدر على ذلك، وقيل: هو من المشقة وصعوبة الأمر فيكون المعنى أن الكافر إذا دعي إلى الإسلام فإنه يتكلف مشقة وصعوبة في ذلك كمن يتكلف إلى السماء وليس يقدر على ذلك ﴿**كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون**﴾ الكاف في كذلك تفيد التشبيه وفيه وجهان:

الأول معناه أن جعله الرجس عليهم كجعله صدورهم ضيقة حرجة والمعنى كما جعلنا صدورهم ضيقه حرجة كذلك يجعل الله الرجس عليهم.

والوجه الثاني: قال الزجاج: أي مثل ما قصصنا عليك كذلك يجعل الله الرجس. قال ابن عباس: الرجس الشيطان أي فيسلطه الله عليهم، وقال مجاهد: الرجس ما لا خير فيه. وفي رواية عن ابن عباس أن الرجس العذاب، وقال الزجاج: الرجس في الدنيا اللعنة وفي الآخرة العذاب.

وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ ۞ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ ۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾.

قوله عز وجل: ﴿**وهذا صراط ربك مستقيماً**﴾ يعني وهذا الذي بيّنّا لك يا محمد في هذه السورة وغيرها من سور القرآن هو صراط ربك يعني دينه الذي شرعه لعباده ورضيه لنفسه وجعله مستقيماً لا اعوجاج فيه. قال ابن عباس: في قوله وهذا صراط ربك مستقيماً يعني الإسلام، وقال ابن مسعود: يعني القرآن لأنه يؤدي من تبعه وعمل به إلى طريق

تكون بين الأشجار التي لا تصل إليها راعية ولا وحشية ولا شيء، فقال عمر رضي الله عنه: كذلك قلب المنافق لا يصل إليه شيء من الخير. ﴿ **كأنما يَصْعَدُ في السماء** ﴾، وقرأ ابن كثير: «يصعـد»، بالتخفيف وسكون الصاد، وقرأ أبو بكر عن عاصم « يصاعد » بالألف، أي: يتصاعد، وقرأ الآخرون ﴿ **يصّعّد** ﴾ بتشديد الصاد والعين، أي: يتصعد، يعني: يشقّ عليه الإيمان كما يشقّ عليه صعود السماء. وأصل الصعود المشقّة، ومنه قوله تعالى: ﴿ **سأرْهِقُهُ صَعُوداً** ﴾ [المدّثر: ١٧] أي: عقبة شاقّة. ﴿ **كذلك يجعلُ اللَّهُ الرِّجْسَ على الذين لا يؤْمِنُون** ﴾، قال ابن عباس: الرجس هو الشيطان، أي: يسلّط عليه. وقال الكلبي: هو المأتم، وقال مجاهد: الرجس ما لا خير فيه. وقال عطاء: الرجس العذاب مثل الرجس. وقيل: هو النجس رُوِيَ أن رسول الله ﷺ كان إذا دخل الخلاء قال: «اللّهمَّ إني أعوذُ بِكَ مِنَ الرِّجْسِ والنّجس». وقال الزجّاج: الرجس اللعنة في الدنيا والعذاب في الآخرة.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ **وهذا صراطُ ربِّكَ مستقيماً** ﴾، أي: هذا الذي بيّنّا. وقيل: هذا الذي أنت عليه يا محمد

الاستقامة والسداد ﴿قد فصلنا الآيات﴾ يعني قد فصلنا آيات القرآن بالوعد والوعيد والثواب والعقاب والحلال والحرام والأمر والنهي وغير ذلك من أحكام القرآن ﴿لقوم يذكرون﴾ يعني لمن يتذكر بها ويتعظ بما فيها من المواعظ والعبر.

قال عطاء: يعني أصحاب النبي ﷺ ومن تبعهم بإحسان ﴿لهم دار السلام عند ربهم﴾ يعني الجنة في قول جميع المفسرين. قال الحسن والسدي: السلام هو الله تعالى وداره الجنة. معنى السلام في أسماء الله تعالى ذو السلام وهو جمع سلامة لأنه تعالى ذو السلامة من جميع الآفات والنقائص فعلى هذا القول أضيفت الدار إلى السلام الذي هو اسم الله تعالى إضافة تشريف وتعظيم كما قيل للكعبة بيت الله وللنبي ﷺ عبد الله في قوله «وأنه لما قام عبد الله يدعوه»، واحتج لصحة هذا بأن في إضافة الدار إلى الله تعالى نهاية تشريفها وتعظيمها فكان ذكر الإضافة مبالغة في تعظيم أمرها. وقيل إن السلام صفة للدار لأنها دار السلامة الدائمة التي لا تنقطع فعلى هذا يكون السلام بمعنى السلامة كأنه قال دار السلامة التي لا يلقون فيها شيئاً يكرهونه. وقيل سميت بذلك لأن جميع حالاتها مقرونة بالسلامة كما قال تعالى في وصفها ﴿ادخلوها بسلام آمنين والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم﴾ وقال ﴿تحيتهم فيها سلام﴾ وقال ﴿سلام قولاً من رب رحيم﴾ ﴿لا يسمعون فيها لغواً إلا سلاماً﴾ وقوله ﴿عند ربهم﴾ يعني أن الجنة معدة مهيأة لهم عند ربهم حتى يوصلهم إليها ﴿وهو وليهم بما كانوا يعملون﴾ يعني أنه تعالى يتولى أمرهم وإيصال المنافع إليهم ويدفع المضار عنهم. وقيل معناه أنه يتولاهم في الدنيا بالتوفيق والهداية وفي الآخرة بالجزاء والجنة. وقيل: الولي هو الناصر والقريب يعني أنه تعالى ينصرهم في الدنيا ويقربهم في الآخرة بسبب أعمالهم الصالحة التي كانوا يتقربون بها إليه في الدنيا قوله تعالى: ﴿ويوم نحشرهم جميعاً﴾ أي اذكر يا محمد يوم نحشر المعادلين بالله الأصنام مع أوليائهم من الشياطين يعني نحشر المشركين والشياطين جميعاً يوم القيامة ﴿يا معشر الجن﴾ فيه حذف تقديره يقول لهم يا معشر الجن والمعشر الجماعة والمراد من الجن الشياطين ﴿قد استكثرتم من الإنس﴾ يعني من إضلالهم وإغوائهم وقال ابن عباس: معناه أضللتم كثيراً من الإنس وهذا التفسير لا بد له من تأويل آخر لأن الجن لا يقدرون على إضلال الإنس وإغوائهم بأنفسهم لأنه لا يقدر على الإجبار أحد إلا الله لأنه هو المتصرف في خلقه بما شاء فوجب

طريق ربّك ودينه الذي ارتضاه لنفسه مستقيماً لا عوج فيه وهو الإسلام. ﴿ قدْ فصّلنا الآيات لقوم يذّكّرُون ﴾.

﴿ لهمْ دارُ السلام عندَ ربِّهم ﴾، يعني: الجنّة: قال أكثر المفسّرين: السلام هو الله وداره الجنة. وقيل: السلام هو السلامة، أي: لهم دار السلامة من الآفات، وهي الجنة. وسُمّيت دار السلام لأن كل مَن دخلها سَلِمَ من البلايا والرزايا. وقيل: سُمّيت بذلك لأن جميع حالاتها مقرونة بالسلام، فقال في الابتداء: ﴿ ادْخُلوها بسلامٍ آمنين ﴾ [الحجر: ٤٦]، ﴿ والملائكةُ يدخلون عليهمْ من كلِّ بابٍ سلام عليكم ﴾ [الرعد: ٢٣ و٢٤]، وقال: ﴿ لا يسمعُون فيها لغواً ولا تأثيماً إلّا قيلًا سلاماً سلاماً ﴾ [الواقعة: ٢٥ و٢٦]، وقال: ﴿ تحيّتُهم فيها سلامٌ ﴾ [يونس: ١٠]، ﴿ سلامٌ قولاً من ربٍّ رحيم ﴾ [يٓس: ٥٨] ﴿ وهوَ وليُّهُمْ بما كانوا يعملُون ﴾، قال الحسين بن الفضل: يتولّاهم في الدنيا بالتوفيق وفي الآخرة بالجزاء.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ ويومَ يحشرُهم ﴾، قرأ حفص: «يحشرهم»، بالياء، ﴿ جميعاً ﴾، يعني: الجن والإنس يجمعهم في موقف القيامة فيقول: ﴿ يا معشرَ الجنّ ﴾، والمراد بالجنّ: الشياطين، ﴿ قد استكْثَرْتُم منَ الإنسِ ﴾ أي: استكبرتم من الإنس بالإضلال والإغواء أي: أضللتم كثيراً، ﴿ وقال أولياؤُهم منَ الإنس ﴾، يعني: أولياء الشياطين الذين أطاعوهم من الإنس: ﴿ ربَّنا اسْتَمْتَعَ بعضُنا ببعضٍ ﴾، قال الكلبي: استمتاع الإنس بالجن هو أن الرجل إذا كان سافر ونزل بأرض قَفْرٍ وخاف على نفسه من الجن قال: أعوذ بسيد هذا الوادي من

أن يكون المعنى: قد استكثرتم من الدعاء إلى الإضلال مع مصادفة القبول من الإنس ﴿**وقال أولياؤهم من الإنس ربنا استمتع بعضنا ببعض**﴾ يعني استمتع الجن بالإنس والإنس بالجن فأما استمتاع الإنس بالجن فقال الكلبي: كان الرجل في الجاهلية إذا سافر فنزل بأرض قفراء وخاف على نفسه من الجن قال أعوذ بسيد هذا الوادي من شر سفهاء قومه فيبيت في جوارهم.

وأما استمتاع الجن بالإنس فهم أنهم قالوا سدنا الإنس مع الجن حتى عاذوا بنا فيزدادون بذلك شرفاً في قومهم وعظماً في أنفسهم. وقيل: استمتاع الإنس بالجن هو ما كانوا يلقون إليهم من الأراجيف والسحر والكهانة وتزيينهم الأمور التي كانوا يهوونها وتسهيل سبلها عليهم واستمتاع الجن بالإنس طاعة الإنس للجن، فيما يزينون لهم من الضلالة والمعاصي، وقيل: استمتاع الإنس بالجن فيما كانوا يدلونهم على أنواع الشهوات وأصناف الطيبات ويسهلونها عليهم واستمتاع الجن بالإنس هي طاعة الإنس للجن، فيما يأمرونهم به وينقادون لحكمهم فصاروا كالرؤساء للإنس والإنس كالأتباع. وقيل: إن قوله ربنا استمتع بعضنا ببعض هو من كلام الإنس خاصة لأن استمتاع الجن بالإنس وبالعكس أمر نادر لا يكاد يظهر، أما استمتاع الإنس بعضهم ببعض فهو ظاهر فوجب حمل الكلام عليه ﴿**وبلغنا أجلنا الذي أجلت لنا**﴾ يعني أن ذلك الاستمتاع كان إلى أجل معين ووقت محدود ثم ذهب وبقيت الحسرة الندامة، قال الحسن والسدي: لأجل الموت. وقيل: هو وقت البعث للحساب في يوم القيامة ﴿**قال**﴾ يعني قال الله لهؤلاء الذين استمتع بعضهم ببعض من الجن والإنس ﴿**النار مثواكم**﴾ يعني أن النار مقامكم ومقركم فيها ومصيركم إليها ﴿**خالدين فيها**﴾ يعني مقيمين في نار جهنم أبداً ﴿**إلا ما شاء الله**﴾ اختلفوا في معنى هذا الاستثناء فقيل: معناه خالدين فيها إلا قدر مدة بعثهم ووقوفهم للحساب إلى حين دخولهم إلى النار فإن هذا الوقت ليسوا بخالدين فيه في النار، وقيل: المراد من الاستثناء هو أوقات نقلتهم من عذاب إلى عذاب آخر وذلك أنهم يستغيثون من النار فينقلون إلى الزمهرير ثم يستغيثون منه فينقلون إلى النار فكانت مدة نقلتهم هي المراد من هذا الاستثناء. ونقل جمهور المفسرين عن ابن عباس أنه قال: إن هذا الاستثناء يرجع إلى قوم سبق فيهم علم الله أنهم يسلمون ويصدقون النبي ﷺ فيخرجون من النار قالوا فعلى هذا التأويل تكون ما في قوله إلا ما شاء الله، بمعنى من يعني إلا ما شاء الله ونقل الطبري عن ابن عباس أنه كان يتأول هذا الاستثناء بأن الله عز وجل جعل أمر هؤلاء القوم في مبلغ عذابهم إلى مشيئته، وقال في هذه الآية: إنه لا ينبغي لأحد أن يحكم على الله في خلقه أن لا ينزلهم جنة ولا ناراً. قال الزجاج: والقول الأول أولى لأن معنى الاستثناء إنما هو من يوم القيامة لأن قوله: ﴿**ويوم نحشرهم جميعاً**﴾ هو يوم القيامة ثم قال ﴿**خالدين فيها**﴾ منذ يبعثون ﴿**إلا ما شاء الله**﴾ من مقدار حشرهم من قبورهم ومقدار مدة محاسبتهم.

سفهاء قومه، فيبيت في جوارهم، وأما استمتاع الجن بالإنس: هو أنهم قالوا: قد سِدْنَا الإنس مع الجن، حتى عاذوا بنا فيزدادون شرفاً في قومهم وعِظَماً في أنفسهم، وهذا كقوله تعالى: ﴿ وأنه كان رجالٌ من الإنس يعوذُون برجالٍ من الجنِّ فزادُوهم رهقاً ﴾ [الجن: ٦] وقيل: استمتاع الإنس بالجن ما كانوا يُلْقون إليهم من الأراجيف والسحر والكهانة وتزيينهم لهم الأمور التي يهوونها، حتى يسهل فعلها عليهم، واستمتاع الجنّ بالإنس طاعة الإنس لهم فيما يزيّنون لهم من الضلالة والمعاصي. قال محمد بن كعب: هو طاعة بعضهم بعضاً وموافقة بعضهم لبعض، ﴿ **وبَلَغْنَا أجلَنا الذي أجّلْتَ لنَا** ﴾، يعني: القيامة والبعث، ﴿ **قال** ﴾ الله تعالى: ﴿ **النارُ مثواكم** ﴾، مقامكم، ﴿ **خالدينَ فيها إلاّ ما شاءَ الله** ﴾، اختلفوا في هذا الاستثناء كما اختلفوا في قوله: ﴿ خالدينَ فيها ما دامتِ السمٰوات والأرضُ إلاّ ما شاء رَبُّك ﴾ [هود: ١٠٧]، قيل: أراد إلاّ قدر مدة ما بين بعثهم إلى دخولهم جهنم، يعني: خالدون في النار إلاّ هذا المقدار، وقيل: الاستثناء يرجع إلى العذاب، وهو قوله: ﴿ **النار مثواكم** ﴾، أي:

﴿إن ربك حكيم﴾ يعني في تدبير خلقه وتصريفه إياهم في مشيئته من حال إلى حال وغير ذلك من أفعاله. وقيل حكيم فيما يفعله من ثواب الطائع وعقاب العاصي وفي سائر وجوه المجازاة ﴿عليم﴾ يعني بعواقب أمور خلقه وما هم إليه صائرون كأنه قال إنما حكمت لهؤلاء الكفار بالخلود في النار، لعلمي بأنهم يستحقون ذلك.

﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ۝١٢٩ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُواْ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ۝١٣٠﴾

قوله عز وجل: ﴿وكذلك نولي بعض الظالمين بعضاً﴾ الكاف في كذلك كاف التشبيه تقتضي شيئاً تقدم ذكره فالتقدير كما أنزلت العذاب بالجن والإنس الذين استمتع بعضهم ببعض كذلك نولي بعض الظالمين بعضاً أي نسلط بعضهم على بعض فنأخذ من الظالم بالظالم كما جاء في الأثر: «من أعان ظالماً سلطه الله عليه» وقال قتادة: نجعل بعضهم أولياء بعض فالمؤمن ولي المؤمن حيث كان وأين كان والكافر ولي الكافر حيث كان وأين كان. وفي رواية أخرى عن قتادة قال: يتبع بعضهم بعضاً في النار من الموالاة، وقيل: معناه نولي ظلمة الإنس الجن وظلمة الجن ظلمة الإنس يعني نكل بعضهم إلى بعض. وقال ابن عباس في تفسير هذه الآية وأن الله تعالى إذا أراد بقوم خيراً ولى عليهم خيارهم وإذا أراد بقوم شراً ولى عليهم شرارهم فعلى هذا القول إن الرعية متى كانوا ظالمين سلط الله عز وجل عليهم ظالماً مثلهم فمن أراد أن يخلص من ظلم ذلك الظالم فليترك الظلم.

وقوله تعالى: ﴿بما كانوا يكسبون﴾ يعني يسلط عليهم من يظلمهم بسبب أعمالهم الخبيثة التي اكتسبوها.

قوله تعالى: ﴿يا معشر الجن والإنس﴾ المعشر كل جماعة أمرهم واحد والجمع معاشر ﴿ألم يأتكم رسل منكم﴾ اختلف العلماء في معنى هذه الآية وهل كان من الجن رسل أم لا فذهب أكثر العلماء إلى أنه لم يكن من الجن رسول وإنما كانت الرسل من الإنس وأجابوا عن قوله رسل منكم يعني من أحدكم وهم الإنس فحذف المضاف فهو كقوله: ﴿يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان﴾ وإنما يخرج من أحدهما وهو الملح دون العذب وإنما جاز ذلك لأن ذكرهما قد جمع في قوله ﴿مرج البحرين﴾ وهو جائز في كل ما اتفق في أصله فلذلك لما اتفق ذكر الجن مع الإنس جاز مخاطبتهما بما ينصرف إلى أحد الفريقين وهم الإنس، وهذا قول الفراء والزجاج ومذهب جمهور أهل العلم.

خالدين في النار سوى ما شاء الله من أنواع العذاب، وقال ابن عباس: الاستثناء يرجع إلى قوم سبق فيهم علم الله أنهم يسلمون فيخرجون من النار، و﴿ما﴾ بمعنى (من) على هذا التأويل، ﴿إنّ ربَّك حكيمٌ عليم﴾، قيل: حكيم بمَن استثنى عليم بما في قلوبهم من البِرِّ والتقوى.

﴿وكذلك نُولّي بعض الظالمين بعضاً بما كانُوا يكسِبُون﴾، قيل: أي: كما خذلنا عصاة الجن والإنس حتى استمتع بعضهم ببعض نولي بعض الظالمين بعضاً، أي: نسلّط بعض الظالمين على بعض، فنأخذ من الظالم بالظالم، كما جاء «مَنْ أعان ظالماً سلّطه اللّهُ عليه». وقال قتادة: نجعل بعضهم أولياء بعض، فالمؤمن وليّ المؤمن أين كان، والكافر وليُّ الكافر حيث كان. وروى معمر عن قتادة: نتبع بعضهم بعضاً في النار، من الموالاة. وقيل: معناه نولي ظلمة الإنس ظلمة الجن، ونولي ظلمة الجن ظلمة الإنس، أي: نَكِل بعضهم إلى بعض، كقوله تعالى: ﴿نُولّه ما تولى﴾ [النساء: ١١٥]، وروى الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما في تفسيرها هو: أنّ الله تعالى إذا أراد بقوم خيراً ولّى أمرهم خيارهم، وإذا أراد بقوم شرّاً ولّى أمرهم شرارهم.

قال الواحدي: وعليه دل كلام ابن عباس لأنه قال يريد أنبياء من جنسهم ولم يكن من جنس الجن أنبياء وذهب قوم إلى أنه أرسل إلى الجن رسلاً منهم كما أرسل إلى الإنس رسلاً منهم. قال الضحاك: من الجن رسل كما من الإنس رسل وظاهر الآية يدل على ذلك لأنه تعالى قال: ﴿ألم يأتكم رسل منكم﴾ فخاطب الفريقين جميعاً وأجيب عن ذلك بأن الله تعالى قال: ﴿يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم﴾ وهذا يقتضي كون الرسل بعضاً من أبعاض هذا المجموع وإذا كان الرسل من الإنس كان الرسل بعضاً من أبعاض هذا المجموع وكان هذا القول أولى من حمل لفظ الآية على ظاهرها فثبت بذلك كون الرسل من الإنس لا من الجن، ويحتمل أيضاً أن يقال إن كافة الرسل كانوا من الإنس لكن الله تعالى يلقى الداعية في قلوب قوم من الجن حتى يسمعوا كلام الرسل من الإنس ثم يأتوا قومهم من الجن فيخبروهم بما سمعوا من الرسول ينذرهم به كما قال تعالى: ﴿وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن - إليّ - فلما قضى ولّوا إلى قومهم منذرين﴾ فكان أولئك النفر من الجن رسل رسول الله ﷺ إلى قومهم وهذا مذهب مجاهد فإنّ الرسل من الإنس والنذر من الجن ونحو ذلك قال ابن جريج وأبو عبيدة. وقيل: كانت الرسل يبعثون إلى الجن من الجن، ولكن بواسطة رسل الإنس والله أعلم بمراده وأسرار كتابه.

وقوله تعالى: ﴿يقصون عليكم آياتي﴾ يعني يخبرونكم بما أوحي إليهم من آياتي الدالة على توحيدي وتصديق رسلي ﴿وينذرونكم لقاء يومكم هذا﴾ يعني ويحذرونكم ويخوفونكم لقاء عذابي في يومكم هذا وهو يوم القيامة وذلك أن الله تعالى يقول يوم القيامة يوم لكفار الجن والإنس على سبيل التقريع والتوبيخ ما أخبر في كتابه، وهو قوله تعالى: ﴿يا معشر الجن والإنس﴾ الآية فيجيبون بما أخبر عنهم في قوله تعالى: ﴿قالوا﴾ يعني كفار الجن والإنس ﴿شهدنا على أنفسنا﴾ اعترفوا بأن الرسل قد أتتهم وبلغتهم رسالات ربهم وأنذروهم لقاء يومهم هذا وأنهم كذبوا الرسل ولم يؤمنوا بهم وذلك حين شهدت عليهم جوارحهم بالشرك والكفر قال الله تعالى: ﴿وغرتهم الحياة الدنيا﴾ إنما كان ذلك بسبب أنهم غرتهم الحياة الدنيا ومالوا إليها: ﴿وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين﴾ في الدنيا.

فإن قلت كيف أقروا على أنفسهم بالكفر في هذه الآية وجحدوا الشرك والكفر في قوله: ﴿والله ربنا ما كنا مشركين﴾.

قلت: يوم القيامة يوم طويل والأحوال فيه مختلفة فإذا رأوا ما حصل للمؤمنين من الخير والفضل والكرامة أنكروا الشرك لعل ذلك الإنكار ينفعهم، وقالوا والله ربنا ما كنا مشركين فحينئذٍ يختم على أفواههم وتشهد عليهم جوارحهم بالشرك والكفر فذلك قوله تعالى: ﴿وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين﴾.

فإن قلت لما كرر شهادتهم على أنفسهم، قلت: شهادتهم الأولى اعتراف منهم بما كانوا عليه في الدنيا من

قوله عزّ وجلّ: ﴿ يا معشرَ الجنِّ والإنس أَلَمْ يأتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ ﴾، واختلفوا في أن الجن هلْ أُرسل إليهم منهم رسول، فسُئل الضحاك عنه، فقال: بلى ألم تسمع الله يقول: ﴿ ألم يأتِكم رسلٌ منكم ﴾، يعني: بذلك رسلاً من الإنس ورسلاً من الجن. قال الكلبي: كانت الرسل من قبل أن يبعث محمد ﷺ يبعثون إلى الجن والإنس جميعاً ومحمد الرسول ﷺ يبعث إلى الجن والإنس كافّة. قال مجاهد: الرسل من الإنس والنذر من الجن، ثم قرأ ﴿ولَّوْا إلى قومهم مُنْذِرين ﴾ [الأحقاف: ٢٩]، وهم قوم يسمعون كلام الرسل فيبلغون الجن ما سمعوا، وليس للجن رسل، فعلى هذا قوله رسل منكم ينصرف إلى أحد الصنفين وهم الإنس، كما قال: ﴿ يخرجُ منهما اللؤلؤ والمرجان ﴾ [الرحمٰن: ٢٢]، وإنّما يخرج من الملح دون العذب، وقال: ﴿ وجعل القمر فيهنّ نوراً ﴾ [نوح: ١٦]، وإنّما هو في سماء واحدة، ﴿ يقصُّون عليكم ﴾، أي: يقرؤون عليكم، ﴿ آياتي ﴾، كتبي ﴿ وينذرونَكم لقاء يومكم

الشرك والكفر وتكذيب الرسل وفي قوله: ﴿وشهدوا على أنفسهم﴾ ذم لهم وتخطئة لرأيهم ووصف لقلة نظرهم لأنفسهم وأنهم قوم غرتهم الحياة الدنيا ولذاتها فكانت عاقبة أمرهم أن اضطروا إلى الشهادة على أنفسهم بالكفر والمقصود من شرح حالهم تحذير السامعين وضجر لهم عن الكفر والمعاصي. وقوله عز وجل:

﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾ وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَءَاتٍ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾﴾

و ﴿ذلك﴾ إشارة إلى ما تقدم ذكره من بعثة الرسل إليهم وإنذارهم سوء العاقبة، وقال الزجاج: معناه ذلك الذي قصصنا عليك من أمر الرسل وأمر عذاب من كذبهم ﴿إن لم يكن ربك﴾ يعني لأنه لم يكن ربك ﴿مهلك القرى بظلم﴾ قال الكلبي: معناه لم يكن ليهلكهم بذنوبهم من قبل أن يأتيهم الرسل فتنهاهم فإن رجعوا وإلا أتاهم العذاب، وهذا قول جمهور المفسرين قال الفراء: يجوز أن يكون المعنى لم يكن ليهلكهم بظلم منه ﴿وأهلها غافلون﴾ أي: وهم غافلون فعلى قول الجمهور: يكون الظلم فعلاً للكفار وهو شركهم وذنوبهم التي عملوها، وعلى قول الفراء: إنه لو أهلكهم قبل بعثة الرسل لكان ظالماً والله عز وجل يتعالى عن الظلم.

والقول الأول: أصح، لأنه تعالى يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد لا اعتراض لأحد عليه في شيء من أفعاله، غير أنه أخبر أنه لا يعذب قبل بعثة الرسل ولو فعل ذلك لم يكن ظلماً منه قوله تعالى: ﴿ولكل درجات مما عملوا﴾ يعني ولكل عامل بطاعة الله أو بمعصيته درجات، يعني منازل يبلغها بعمله إن كان خيراً فخير وإن كان شراً فشر.

وإنما سميت درجات لتفاضلها في الارتفاع والانحطاط كتفاضل الدرج وهذا إنما يكون في الثواب والعقاب على قدر أعمالهم في الدنيا فمنهم من هو أعظم ثواباً ومنهم من هو أشد عقاباً، وهو قول جمهور المفسرين وقيل: إن قوله تعالى ﴿ولكل درجات مما عملوا﴾، مختص بأهل الطاعة لأن لفظ الدرجة لا يليق إلا بهم. وقوله تعالى: ﴿وما ربك بغافل عما يعملون﴾ مختص بأهل الكفر والمعاصي ففيه وعيد وتهديد لهم.

والقول الأول أصح، لأن علمه تعالى شامل لكل المعلومات فيدخر فيه المؤمن والكافر والطائع والعاصي وأنه عالم بأعمالهم على التفصيل التام فيجزي كل عامل على قدر عمله وما يليق به من ثواب أو عقاب.

قوله عز وجل: ﴿وربك الغني﴾ يعني عن خلقه وذلك أنه تعالى لما بيَّن أن لكل عامل بطاعة أو معصية درجة على قدر عمله بين أن تخصيص المطيعين بالثواب والعاصين بالعقاب ليس لأنه محتاج إلى طاعة المطيع أو منتقص بمعصية العاصي بل هو الغني على الإطلاق وأن جميع الخلق فقراء إليه ﴿ذو الرحمة﴾ قال ابن عباس: بأوليائه وأهل

هذا﴾، وهو يوم القيامة، **﴿ قالوا شهدْنَا على أنفسنا ﴾**، أنهم قد بلغوا، قال مقاتل: وذلك حين شهدتْ عليهم جوارحهم بالشرك والكفر. قال الله عزّ وجلّ: **﴿ وغرّتْهمُ الحياةُ الدنيا ﴾**، حتى لم يؤمنُوا، **﴿ وشهدُوا على أنفسهم أنهم كانُوا كافرين ﴾**.

﴿ ذلك أن لَّمْ يكن ربُّك مُهْلِكَ القُرَى بظلم ﴾، أي: ذلك الذي قصصنا عليك من أمر الرُّسل وعذابِ مَن كذَّبهم، لأنه لم يكنْ ربُّك مُهلكَ القرى بظلمٍ، أي: لم يكن يهلكهم بظلم، أي: بشركِ مَن أشرك، **﴿ وأهلُها غافلُون ﴾**، لم ينذروا حتى يبعث إليهم رسلاً ينذرونهم. وقال الكلبي: لم يهلكهم بذنوبهم من قبل أن يأتيهم

طاعته، وقال الكلبي: بخلقه ذو التجاوز عنهم فمن رحمته تأخير العذاب عن المذنبين لعلهم يتوبون ويرجعون ﴿**إن يشأ يذهبكم**﴾ يعني يهلككم. الخطاب لأهل مكة ففيه وعيد وتهديد لهم ﴿**ويستخلف**﴾ يعني وينشيء ويخلق ﴿**من بعدكم**﴾ يعني من بعد إهلاككم ﴿**ما يشاء**﴾ يعني خلقاً غيركم أمثل وأطوع منكم ﴿**كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين**﴾ اختلف عبارات المفسرين في هذه اللفظة فقال البغوي: يعني آباءهم الماضين قرناً بعد قرن، ونحوه قال الواحدي وصاحب الكشاف: يعني من أولاد قوم آخرين لم يكونوا على مثل صفتكم وهم أهل سفينة نوح عليه السلام. وقال الإمام فخر الدين الرازي في قوله تعالى: ﴿**ويستخلف من بعدكم**﴾ يعني من بعد إذهابكم لأن الاستخلاف لا يكون إلا على طريق البدل من فائت.

وأما قوله ﴿**ما يشاء**﴾ فالمراد منه خلق ثالث أو رابع واختلفوا فيه، فقال بعضهم: خلقاً آخر من أمثال الجن والإنس. قال القاضي: وهو الوجه الأقرب لأن القوم يعلمون بالعادة أنه تعالى قادر على إنشاء أمثال هذا الخلق فمتى كمل خلق ثالث ورابع يكون أقوى في دلالة القدرة فكأنه تعالى نبه على أن قدرته ليست مقصورة على جنس دون جنس من الخلق الذين يصلحون لرحمته العظيمة التي هي الثواب فبين بهذا الطريق أنه تعالى لرحمته لهؤلاء الأقوام الحاضرين أبقاهم وأمهلهم ولو شاء لأماتهم وأفناهم وأبدل منهم سواهم ثم بيَّن الله تعالى قوة قدرته على ذلك فقال: ﴿**كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين**﴾ لأن المرء إذا تفكر علم أنه تعالى خلق الإنسان من نطفة ليس فيها من صورته قليل ولا كثير فوجب أن يكون ذلك بمحض القدرة والحكمة وإذا كان كذلك فكما قدر على تصوير هذه الأجسام بهذه الخاصة فكذلك يقدر على تصويرهم خلقاً آخر مخالفاً لها هذا آخر كلامه. وقال الطبري في قوله «كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين» يقول كما أحدثكم وابتدعكم من بعد خلق آخرين كانوا قبلكم ومعنى من في هذا الموضع التعقيب كما يقال في الكلام أعطيتك من دينارك ثوباً يعني مكان الدينار ثوباً لا أن الثوب من الدينار بعض. كذلك الذين خوطبوا بقوله «كما أنشأكم» لم يرد بإخبارهم هذا الخبر أنهم أنشئوا من أصلاب قوم آخرين ولكن معنى ذلك ما ذكرنا أنهم أنشئوا مكان قوم آخرين قد أهلكوا قبلهم.

قوله تعالى: ﴿**إن ما توعدون**﴾ به من مجيء الساعة والبعث بعد الموت والحشر للحساب يوم القيامة ﴿**لآت**﴾ يعني أنه كائن قريب ﴿**وما أنتم بمعجزين**﴾ يعني بفائتين حيثما كنتم يدرككم الموت.

الرسل. وقيل: معناه لم يكن ليهلكهم دون التنبيه والتذكير بالرّسل فيكون قد ظلمهم، وذلك أن الله تعالى أجرى السُّنّة أن لا يأخذ أحداً إلّا بعد وجود الذنب، وإنما يكون مذنباً إذا أُمر فلم يأتمر أو نُهي فلم ينته، وذلك يكون بعد إنذار الرّسل.

﴿ **ولكلٍّ درجاتٌ ممّا عملُوا** ﴾، يعني في الثواب والعقاب على قدر أعمالهم في الدنيا، فمنهم مَن هو أشدّ عذاباً ومنهم مَن هو أجزل ثواباً، ﴿ **وما ربُّك بغافل عمّا يعملون** ﴾، قرأ ابن عامر تعملون بالتاء والباقون بالياء.

﴿ **وربُّك الغني** ﴾، عن خلقه، ﴿ **ذُو الرحمة** ﴾، قال ابن عباس بأوليائه وأهل طاعته، وقال الكلبي: بخلقه ذو التجاوز، ﴿ **إن يشأ يُذْهِبْكُم** ﴾، يهلككم، وعيد لأهل مكة، ﴿ **ويستخلفْ** ﴾، ويخلف وينشيء، ﴿ **من بعدِكم ما يشاءُ** ﴾، خلقاً غيركم أمثل وأطوع. ﴿ **كما أنشأكم مِّن ذُرّيّةِ قومٍ آخرين** ﴾، أي: من نسل آبائهم الماضين قرناً بعد قرن.

﴿ **إنّ ما تُوعدُون** ﴾ أي: ما توعدون من مجيء الساعة والحشر، ﴿ **لآتٍ** ﴾، كائن، ﴿ **وما أنتمْ بمعجزين** ﴾، أي: بفائِتين، يعني: يدرككم الموت حيث ما كنتم.

قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١٣٥﴾ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُوا۟ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ ۗ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا۟ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ۖ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾

﴿قل﴾ الخطاب للنبي ﷺ أي قل يا محمد ﴿يا قوم﴾ أي قل لقومك من كفار قريش ﴿اعملوا على مكانتكم﴾ وقرىء مكاناتكم على الجمع والمكانة تكون مصدراً يقال: مكن مكانة إذا تمكن أبلغ التمكن وبمعنى المكان يقال مكان ومكانة كما يقال مقام ومقامة فقوله اعملوا على مكانتكم يحتمل أن يكون معناه اعملوا على تمكنكم من أمركم وأقصى استطاعتكم وإمكانكم ويحتمل أن يكون معناه اعملوا على حالتكم التي أنتم عليها كما يقال للرجل إذا أمر أن يثبت على حاله: مكانتك يا فلان أي أثبت على ما أنت عليه لا تتغير عنه. وقال ابن عباس معناه اعملوا على ناحيتكم ﴿إني عامل﴾ يعني إني عامل على مكانتي التي أنا عليها وما أمرني به ربي والمعنى اثبتوا على ما أنتم عليه من الكفر والعداوة فإني ثابت على الإسلام والمصابرة.

فإن قلت ظاهر الآية يدل على أمر الكفار بالإقامة على ما هم عليه من الكفر وذلك لا يجوز.

قلت: معنى هذا الأمر الوعيد والتهديد والمبالغة في الزجر عما هم عليه من الكفر فكأنه قال أقيموا على ما أنتم عليه من الكفر إن رضيتم لأنفسكم بالعذاب الدائم فهو كقوله تعالى: ﴿اعملوا ما شئتم﴾ ففيه تفويض أمر العمل إليهم على سبيل الزجر والتهديد وليس فيه إطلاق لهم في عمل ما أرادوه من الكفر والمعاصي.

وقوله تعالى: ﴿فسوف تعلمون﴾ يعني لمن العاقبة المحمودة لنا أو لكم. وقيل معناه فسوف تعلمون عند نزول

﴿ قلْ ﴾ يا محمد ﴿ يا قوم اعملُوا على مكانَتِكم ﴾، قرأ أبو بكر عن عاصم (مكاناتكم) بالجمع حيث كان أي: على تمكّنكم، قال عطاء: على حالاتكم التي أنتم عليها. قال الزجّاج: اعملوا على ما أنتم عليه. يقال للرجل إذا أمر أن يثبت على حالة: على مكانتك يا فلان، أي: اثبت على ما أنت عليه، وهذا أمر وعيد عن المبالغة يقول الله تعالى لنبيّه ﷺ: قل لهم اعملوا على ما أنتم عاملون، ﴿ إنّي عاملٌ ﴾، ما أمرني به ربّي عزّ وجلّ، ﴿ فسوف تعلمُون مَن تكونُ له عاقبة الدار ﴾، أي: الجنة، قرأ حمزة والكسائي: يكون بالياء هنا وفي القصص، وقرأ الآخرون بالتاء لتأنيث العاقبة، ﴿ إنه لا يُفلحُ الظّالمون ﴾، قال ابن عباس: معناه لا يسعد مَن كفر بي وأشرك. قال الضحاك: لا يفوز.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ وجعلوا للّهِ ممّا ذَرأ من الحرث والأنعام نصيباً ﴾ الآية، كان المشركون يجعلون لله من حروثهم وأنعامهم وثمارهم وسائر أموالهم نصيباً، وللأوثان نصيباً فما جعلوه لله صرفوه إلى الضيفان والمساكين، وما جعلوه للأصنام وخدمها، فإن سقط شيء مما جعلوه لله تعالى في نصيب الأوثان تركوه وقالوا: إنّ الله غنيّ عن هذا، وإن سقط شيء من نصيب الأصنام فيما جعلوه لله ردّوه إلى الأوثان، وقالوا: إنها محتاجة، وكان إذا هلك أو انتقص

العذاب بكم أينا كان على الحق في عمله نحن أم أنتم ﴿**من تكون له عاقبة الدار**﴾ يعني فسوف تعلمون غداً القيامة لمن تكون عاقبة الدار وهي الجنة ﴿**إنه لا يفلح الظالمون**﴾ قال ابن عباس: معناه أنه لا يسعد من كفر بي وأشرك. ثم في هذه الآية قولان:

أحدهما: أنها محكمة وهذا على قول من يقول إن المراد بقوله اعملوا على مكانتكم الوعيد التهديد.

والقول الثاني: أنها منسوخة بآية السيف وهذا على قول من يقول إن المراد بها ترك القتال.

قوله تعالى: ﴿**وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً**﴾ الآية لما بين الله عز وجل قبح طريقه الكفار وما كانوا عليه من إنكار البعث وغير ذلك عقبه بذكر أنواع من جهالاتهم وأحكامهم الفاسدة تنبيهاً على ضعف عقولهم وفساد ما كانوا عليه في الجاهلية فقال تعالى: ﴿**وجعلوا لله مما ذرأ**﴾ يعني مما خلق من الحرث يعني الزرع والثمر والأنعام، يعني ومن الأنعام وهي الإبل والبقر والغنم نصيباً يعني قسماً وجزءاً. قال المفسرون: كان المشركون في الجاهلية يجعلون لله من حروثهم وثمارهم وأنعامهم وسائر أموالهم نصيباً وللأصنام نصيباً فما جعلوه من ذلك لله صرفوه إلى الضيفان والمساكين وما جعلوه للأصنام أنفقوه عليها وعلى خدمتها فإن سقط شيء مما جعلوه لله في نصيب الأوثان تركوه، وقالوا: إن الله غني عن هذا وإن سقط شيء من نصيب الأوثان فيما جعلوه لله ردوه إلى الأوثان. وقالوا: إنها محتاجة إليه. وكانوا إذا هلك شيء مما جعلوه لله لم يبالوا به وإذا انتقص شيء مما جعلوه للأوثان جبروه مما جعلوه لله فذلك قوله: ﴿**وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً**﴾ وفيه اختصار تقديره وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً وللأصنام نصيباً ﴿**فقالوا هذا لله بزعمهم**﴾ يعني قولهم الذي هو بغير حقيقة لأن معنى زعم حكاية قول يكون مظنة الكذب ولذلك لا يجيء إلا في موضع ذم لقائليه وإنما نسبوا إلى الكذب في قولهم هذا الله بزعمهم وإن كانت الأشياء كلها لله لإضافتهم نصيب الأصنام مع نصيب الله وهو قولهم: ﴿**وهذا لشركائنا**﴾ يعني الأصنام وإنما سموا الأصنام شركاء لأنهم جعلوا لها نصيباً من أموالهم ينفقونه عليها: ﴿**فما كان لشركائهم**﴾ يعني وما جعلوا لها من الحرث والأنعام ﴿**فلا يصل إلى الله**﴾ يعني فلا يعطونه المساكين ولا ينفقونه على الضيفان ﴿**وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم**﴾ والمعنى أنهم كانوا يقرون ما جعلوه للأصنام مما جعلوه لله ولا يقرون ما جعلوه لله مما جعلوه للأصنام، وقال قتادة: كانوا إذا أصابتهم سنة قحط وشدة استعانوا بما جعلوه لله وأكلوا منه ووفروا مما جعلوه لشركائهم ولم يأكلوا منه شيئاً. وقال الحسن والسدي: كانوا إذا هلك ما جعلوا لشركائهم أخذوا بدله مما جعلوه لله ولا يفعلون ذلك فيما جعلوه لشركائهم فلذلك ذمهم الله تعالى فقال: ﴿**ساء ما يحكمون**﴾ يعني: بئس ما يحكمون

شيء مما جعلوه لله لم يبالوا به، إذا هلك أو انتقص شيء مما جعلوا للأصنام جبروه بما جعلوه لله، فذلك قوله تعالى: ﴿ **وجعلُوا لِلَّهِ مِمّا ذَرَأَ من** ﴾ خلق ﴿ **الحرث والأنعام نصيباً** ﴾، وفيه اختصار مجازه: وجعلوا لله نصيباً ولشركائهم نصيباً. ﴿ **فقالوا هذا للَّهِ بزعمِهم** ﴾، قرأ الكسائي «بزعمهم» بضم الزاي، والباقون بفتحها، وهما لغتان، وهو القول من غير حقيقة، ﴿ **وهذا لشركائِنا** ﴾، يعني: الأوثان، ﴿ **فما كانَ لشُركائِهم فلا يصلُ إلى اللَّهِ وما كان للَّهِ فهو يصلُ إلى شُركائِهم** ﴾، ومعناه: ما قلنا أنهم كانوا يتمّون ما جعلوا للأوثان ممّا جعلوه لله، ولا يتمّون ما جعلوه لله مما جعلوه للأوثان. وقال قتادة: كانوا إذا أصابتهم سنة استعانوا بما جزَّؤوا لله وأكلوا منه فوفَّرُوا ما جزَّؤوا لشركائهم ولم يأكلوا منه، ﴿ **ساءَ ما يحكُمون** ﴾، أي: بئس ما يقضون.

﴿ **وكذلك زَيّنَ لكثير منَ المشركين** ﴾، أي: كما زين لهم تحريم الحرث والأنعام كذلك زيّن لكثير من المشركين، ﴿ **قتلَ أولادِهم شركاؤُهم** ﴾، قال مجاهد شركاؤهم، أي: شياطينهم زيّنوا أو حسّنوا لهم وأدَ البنات

ويقضون وذلك أنهم رجحوا جانب الأصنام على جانب الله تعالى في الرعاية والحفظ وهذا سفه منهم. وقيل: إن الأشياء كلها لله عز وجل وهو خلقها فلما جعلوا للأصنام جزءاً من المال وهي لا تملك ولا تخلق ولا تضر ولا تنفع نسبوا إلى الإساءة في الحكم والمقصود من ذلك بيان ما كانوا عليه في الجاهلية من هذه الأحكام الفاسدة التي لم يرد بها شرع ولا نص ولا يحسنها عقل.

قوله عز وجل: ﴿**وكذلك**﴾ عطف على قوله ﴿**وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً**﴾ يعني كما فعلوا ذلك جهلاً منهم كذلك زين لكثير منهم قتل أولادهم شركاؤهم. والمعنى أن جعلهم لله نصيباً من أموالهم ولشركائهم نصيباً في غاية الجهل بمعرفة الخالق المنعم لأنهم جعلوا الأصنام مثله في استحقاق النصيب وكذلك إقدامهم على قتل أولادهم في نهاية الجهالة أيضاً فكأنه قال ومثل ذلك الذي فعلوه في القسم جهلاً وخطأ وضلالاً كذلك ﴿**زين**﴾ يعني حسَّن ﴿**لكثير من المشركين قتل أولادهم**﴾ يعني به وأد البنات أحياء مخافة الفقر والعيلة ﴿**شركاؤهم**﴾ يعني شياطينهم أمروهم أن يقتلوا أولادهم خشية الفقر وسميت الشياطين شركاء لأنهم أطاعوهم فيما أمروهم به من معصية الله وقتل الأولاد فأشركوهم مع الله في وجوب طاعتهم وأضيف الشركاء إلى المشركين لأنهم أطاعوهم واتخذوهم أرباباً، وقال الكلبي: شركاؤهم سدنة آلهتهم يعني خدامها وهم الذين كانوا يزينون ويحسنون للكفار قتل الأولاد وكان الرجل في الجاهلية يقوم فيحلف لئن ولد له كذا وكذا غلاماً لينحرن آخرهم كما حلف عبد المطلب على ابنه عبد الله فعلى هذا القول، الشركاء هم السدنة وخدام الأصنام سموا شركاء لأنهم أشركوهم في الطاعة ﴿**ليردوهم**﴾ يعني ليهلكوهم بذلك الفعل الذي أمروهم به. والإرداء في اللغة: الإهلاك. قال ابن عباس: ليردوهم في النار ﴿**وليلبسوا عليهم دينهم**﴾ يعني وليخلطوا عليهم دينهم. قال ابن عباس: ليدخلوا عليهم الشك في دينهم وكانوا على دين إسماعيل عليه السلام فرجعوا عنه بتلبيس الشياطين، وإنما فعلوا ذلك ليزيلهم عن الدين الحق الذي كان عليه إسماعيل وإبراهيم عليهما الصلاة والسلام فوضعوا لهم هذه الأوضاع الفاسدة وزينوها لهم ﴿**ولو شاء الله ما فعلوه**﴾ يعني ولو شاء الله لعصمهم من ذلك الفعل القبيح الذي زين لهم من تحريم الحرث والأنعام وقتل الأولاد أخبر الله عز وجلّ أن جميع الأشياء بمشيئته وإرادته إذ لو لم يشأ ما فعلوا ذلك ﴿**فذرهم**﴾ يعني فاتركهم يا محمد ﴿**وما يفترون**﴾ يعني وما يختلقون من الكذب على الله فإن الله لهم بالمرصاد.

خيفة الغيلة، سمّيت الشياطين شركاء لأنهم أطاعوهم في معصية الله وأُضيف الشركاء إليهم لأنهم اتخذوها. وقال الكلبي: شركاؤهم سدنة آلهتهم الذين كانوا يزينون للكفّار قتل الأولاد، وكان الرجل منهم يحلف لئن ولد له كذا غلاماً لينحرنّ أحدَهم كما حلف عبد المطّلب على ابنه عبد الله، وقرأ ابن عامر: «زُيِّـن» بضم الزاي وكسر الياء، ﴿ قتل ﴾ رفع ﴿ أولادهم ﴾ نصب، ﴿ شركائهم ﴾ بالخفض على التقديم، كأنه قال: زيِّن لكثير من المشركين قتل شركائهم أولادهم فصل بين الفعل وفاعله بالمفعول به وهو الأولاد، كما قال الشاعر:

فـزجـجْتـهُ مـتـمـكّـنـاً زجّ الـقـلوص أبـي مـزاده

أي: زجّ أبي مزادة القلوص، فأُضيف الفعل وهو القتل، إلى الشركاء، وإن لم يتولّوا ذلك لأنهم هم الذين زيّنوا ذلك ودعوا إليه، فكأنّهم فعلوه. قوله عزّ وجلّ: ﴿ **ليردّوهم** ﴾، ليُهلكوهم، ﴿ **ولِيَلْبِسُوا عليهم** ﴾، ليخلطوا عليهم، ﴿ **دينَهم** ﴾، قال ابن عباس: ليُدخلوا عليهم الشكَّ في دينهم، وكانوا على دين إسـماعيل فرجعوا عنه بلَبْسِ الشياطين. ﴿ **ولو شاءَ اللّهُ ما فعلُوه** ﴾، أي: لو شاء الله لعصمهم حتى ما فعلوا من تحريم الحرث والأنعام وقتل الأولاد، ﴿ **فَذَرْهم** ﴾، يا محمد، ﴿ **وما يَفْتَرُون** ﴾، يختلقون من الكذب، فإن الله تعالى لهم بالمرصاد.

وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ ۚ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾ وَقَالُواْ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا ۖ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ ۚ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾

قوله تعالى: ﴿وقالوا﴾ يعني المشركين ﴿هذه أنعام وحرث حجر﴾ أي حرام وأصله المنع لأنه منع من الانتفاع منه بتحريمه. وقيل: هو من التضييق والحبس لأنهم كانوا يحبسون أشياء من أنعامهم وحروثهم لآلهتهم. قال مجاهد: يعني بالأنعام البحيرة والسائبة والوصيلة والحامي ﴿لا يطعمها إلا من نشاء بزعمهم﴾ يعني يأكلها خدام الأصنام والرجال دون النساء: ﴿وأنعام حرمت ظهورها﴾ يعني الحوامي وهي الأنعام التي حموا ظهورها عن الركوب فكانوا لا يركبونها ﴿وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها﴾ يعني لا يذكرون اسم الله عليها عند الذبح وإنما كانوا يذكرون عليها أسماء الأصنام: وقيل معناه لا يحجون عليها ولا يركبونها لفعل الخير لأنه لما جرت العادة بذكر الله على فعل كل خير ذم هؤلاء على ترك فعل الخير ﴿افتراء عليه﴾ يعني أنهم كانوا يفعلون هذه الأفعال ويزعمون أن الله أمرهم بها وذلك اختلاق وكذب على الله عز وجل: ﴿سيجزيهم بما كانوا يفترون﴾ فيه وعيد وتهديد لهم على افترائهم على الله الكذب.

قوله عز وجل: ﴿وقالوا ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا﴾ يعني نساءنا، قال ابن عباس وقتادة والشعبي: أراد جنة البحائر والنساء جميعاً وهو قوله تعالى: ﴿وإن يكن ميتة فهم فيه شركاء﴾ ودخلت الهاء في خالصة للتأكيد والمبالغة، كقولهم رجل علاَّمة ونسَّابه. وقال الفراء: دخلت الهاء لتأنيث الأنعام لأن ما في

﴿ **وقالوا** ﴾ يعني: المشركين، ﴿ **هذهِ أنعام وحَرْثٌ حِجْرٌ** ﴾، أي حرام، يعني: ما جعلوا لله ولآلهتهم من الحرث والأنعام على ما مضى ذكره. وقال مجاهد: يعني بالأنعام البحيرة والسائبة الوصيلة والحام، ﴿ **لا يَطْعَمُها إلاّ مَنْ نشاءُ بزعمِهم** ﴾، يعنون الرجال دون النساء، ﴿ **وأنعامٌ حُرِّمَتْ ظُهورُها** ﴾، يعني: الحوامَي كانوا لا يركبونها، ﴿ **وأنعامٌ لا يذكُرون اسمَ اللّهِ عليها** ﴾، أي: يذبحونها باسم الأصنام لا باسم الله، وقال أبو وائل: معناه لا يحجّون عليها ولا يركبونها لفعل الخير، لأنه لمّا جرتِ العادة بذكر اسم الله على فعل الخير عبّر بذكر الله تعالى عن فعل الخير. ﴿ **افتراءً عليه** ﴾، يعني: أنهم يفعلون ذلك ويزعمون أن الله أمرهم به افتراءً ﴿ **سيَجْزِيهمْ بما كانُوا يفْتَرُون** ﴾.

﴿ **وقالوا ما في بطونِ هذه الأنعامِ خالصةٌ لذكورِنَا ومُحرَّمٌ على أزواجِنا** ﴾، أي: نسائنا. قال ابن عباس وقتادة والشعبي: أراد أجنّة البحائر والسوائب فما وُلد منها حيّاً فهو خالص للرجال دون النساء، وما وُلد ميّتاً أكله الرجال والنساء جميعاً. وأدخل الهاء في ﴿**الخالصة**﴾ للتأكيد كالخالصة والعامّة، كقولهم: نسّابة وعلاّمة، قال الفرّاء رحمه الله: أُدخلت الهاء لتأنيثها. وقال الكسائي: خالص وخالصة واحد، مثل وعظٍ وموعظة. ﴿**وإن يَكُن مَّيتَةً** ﴾، قرأ ابن عامر وأبو جعفر: «تكن» بالتاء ﴿ **ميتة** ﴾ رفع، ذكر الفعل بعلامة التأنيث، لأن الميتة في اللفظ مؤنثة. وقرأ أبو بكر عن عاصم «تكن» بالتاء ﴿ **ميتة** ﴾ نصب، أي: وإن تكن الأجنة ميتة، وقرأ ابن كثير: «وإنْ يكن» بالياء «ميتة» رفع، لأنّ المراد بالميتة الميت، أي: وإن يقع ما في البطون ميّتاً، وقرأ الآخرون

بطونها مثلها فأنث بتأنيثها. وقال الكسائي: خالص وخالصة واحد مثل وعظ وموعظة وقيل: إذا كان اللفظ عبارة عن مؤنث جاز تأنيثه على المعنى وتذكيره على اللفظ كما في هذه الآية فإنه أنث خالصة على المعنى وذكر ومحرم على اللفظ ﴿سيجزيهم وصفهم﴾ يعني سيكافئهم بسبب وصفهم على الله الكذب ﴿إنه حكيم عليم﴾ فيه وعيد وتهديد يعني أنه تعالى حكيم فيما يفعله عليم بقدر استحقاقهم.

﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا۟ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّوا۟ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّـٰتٍ مَّعْرُوشَـٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَـٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَـٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَـٰبِهٍ ۚ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفهاً بغير علم﴾ قال عكرمة: نزلت فيمن يئد البنات من ربيعة ومضر وكان الرجل يقاضي الرجل على أن يستحيي جارية ويئد أخرى فإذا كانت الجارية التي توأد غدا الرجل أو راح من عندها امرأته وقال لها أنت عليّ كظهر أمي إن رجعت إليك ولم تئديها فتخدّ لها في الأرض خداً وترسل إلى نسائها فيجتمعن عنهدا ثم يتداولنها بينهن حتى إذا أبصرته راجعاً دستها في حفرتها ثم سوت عليها التراب. وقال قتادة: هذا من صنيع أهل الجاهلية كان أحدهم يقتل ابنه مخافة السبي والفاقة ويغدو كلبه.

أما سبب الخسران المذكور في قوله قد خسر الذين قتلوا أولادهم: أن الولد نعمة عظيمة أنعم الله بها على الوالد فإذا تسبب الرجل في إزالة هذه النعمة عنه وإبطالها فقد استوجب الذم وخسر في الدنيا والآخرة، أما خسارته في الدنيا فقد سعى في نقص عدده وإزالة ما أنعم الله به عليه. وأما خسارته في الآخرة فقد استحق بذلك العذاب العظيم.

وقوله ﴿سفها بغير علم﴾ يعني فعلوا ذلك للسفاهة وهي الخفة والجهالة المذمومة وسبب حصول هذه السفاهة هو قلة العلم بل عدمه لأن الجهل كان هو الغالب عليهم قبل بعثة رسول الله ﷺ ولهذا سموا جاهلية وقوله تعالى: ﴿وحرموا ما رزقهم الله﴾ يعني البحائر والسوائب والحامي وبعض الحروث وبعض ما في بطون الأنعام، وهذا أيضاً من أعظم الجهالة ﴿افتراء على الله﴾ يعني أنهم فعلوا هذه الأفعال المذمومة وزعموا أن الله أمرهم بذلك وهذا افتراء على الله وكذب وهذا أيضاً من أعظم الجهالة لأن الجرأة على الله والكذب عليه من أعظم الذنوب وأكبر الكبائر ولهذا قال تعالى: ﴿قد ضلوا﴾ يعني في فعلهم عن طريق الحق والرشاد ﴿وما كانوا مهتدين﴾ يعني إلى طريق الحق والصواب في فعلهم (خ).

عن ابن عباس قال: إذا سرك أن تعلم جهل العرب فاقرأ ما فوق الثلاثين والمائة من سورة الأنعام قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفهاً بغير علم إلى قوله ﴿قد ضلوا وما كانوا مهتدين﴾.

«وإنْ يكن» بالياء «ميتة» نصب، ردّه إلى ﴿ ما ﴾ أي: وإن يكن ما في البطون ميتة، يدلّ عليه أنه قال: ﴿ فهمْ فيه شُركاء ﴾، ولم يقل فيها، وأراد أن الرجال والنساء فيه شركاء. ﴿ سَيَجْزِيهم وَصْفَهم ﴾، أي: بوصفهم، أو على وصفهم الكذب على الله، ﴿ إنه حكيمٌ عليم ﴾.

﴿ قدْ خَسِرَ الذينَ قَتَلُوا أولادَهم ﴾، قرأ ابن عامر وابن كثير «قتّلوا» بتشديد التاء على التكثير، وقرأ الآخرون بالتخفيف. ﴿ سفهاً ﴾، جهلاً. ﴿ بغير علمٍ ﴾، نزلت في ربيعة ومضر وبعض من العرب من غيرهم، كانوا يدفنون البنات أحياء مخافة السبي والفقر، وكان بنو كنانة لا يفعلون ذلك. ﴿ وحرّمُوا ما رزقَهُم الله ﴾، يعني:

قوله عز وجل: ﴿وهو الذي أنشأ جنات معروشات﴾ يعني والله الذي ابتدع وخلق جنات يعني بساتين معروشات ﴿وغير معروشات﴾ يعني مسموكات مرتفعات وغير مرتفعات وأصل العرش في اللغة شيء مسقف يجعل عليه الكرم وجمعه عروش يقال عرشت الكرم أعرشه عرشاً وعرشته تعريشاً إذا جعلته كهيئة السقف واعترش العنب العريش إذا علاه وركبه. واختلفوا في معنى قوله ﴿معروشات وغير معروشات﴾ فقال ابن عباس: المعروشات ما انبسط على الأرض وانتشر مما يعرش مثل الكرم والقرع والبطيخ ونحو ذلك وغير معروشات ما قام على ساق ونسق كالنخل والزرع وسائر الشجر. وقال الضحاك: كلاهما في الكرم خاصة لأن منه ما يعرش ومنه ما لم يعرش بل يلقى على وجه الأرض منبسطاً، وقيل: المعروشات ما غرسه الناس في البساتين واهتموا به فعرشوه من كرم وغيره وغير معروشات وهو ما أنبته الله في البراري والجبال من كرم أو شجر ﴿والنخل والزرع﴾ يعني وأنشأ النخل والزرع وهو جميع الحبوب التي تقتات وتدخر ﴿مختلفاً أكله﴾ يعني به اختلاف الطعوم في الثمار كالحلو والحامض والجيد والرديء ونحو ذلك ﴿والزيتون والرمان متشابهاً﴾ يعني في المنظر ﴿وغير متشابه﴾ يعني في المطعم كالرمانتين لونهما واحد وطعمهما مختلف، وقيل: إن ورق الزيتون يشبه ورق الرمان ولكن ثمرتهما مختلفة في الجنس والطعم ﴿كلوا من ثمره إذا أثمر﴾ لما ذكر ما أنعم الله به على عباده من خلق هذه الجنات المحتوية على أنواع من الثمار ذكر ما هو المقصود الأصلي وهو الانتفاع بها، فقال تعالى: كلوا من ثمره إذا أثمر، وهذا أمر إباحة. وتمسك بهذا بعضهم فقال: الأمر قد يرد إلى غير الوجوب لأن هذه الصيغة مفيدة لدفع الحجر. وقال بعضهم: المقصود منه إباحة الأكل قبل إخراج الحق لأنه تعالى لما أوجب الزكاة في الحبوب والثمار كان يحتمل أن يحرم على المالك أن يأكل منها شيئاً قبل إخراج الواجب فيها لمكان شركة الفقراء والمساكين معه فأباح الله أن يأكل قبل إخراجه لأن رعاية حق النفس مقدمة على رعاية حق الغير وقيل إنما قال تعالى كلوا من ثمره إذا أثمر بصيغة الأمر ليعلم أن المقصود من خلق هذه الأشياء التي أنعم الله بها على عباده وهو الأكل ﴿وآتوا حقّه يوم حصاده﴾ يعني يوم جذاذه وقطعه. واختلفوا في هذا الحق المأمور بإخراجه، فقال ابن عباس وأنس بن مالك: هو الزكاة المفروضة. وهذا قول طاوس والحسن وجابر بن زيد وسعيد بن المسيب ومحمد بن الحنفية وقتادة. قال قتادة في قوله «وآتوا حقه يوم حصاده» أي من الصدقة المفروضة ذكر لنا أن نبي الله ﷺ سن فيما سقت السماء والعين السائحة أو سقاه النيل والندى أو كان بعلاً العشر كاملاً وإن سقي بنضح أو سانية فنصف العشر وهذا فيما يكال من الثمرة أو الزرع وبلغ خمسة أوسق وذلك ثلمثائة صاع فقد وجب فيها حق الزكاة وفي رواية عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وآتوا حقه يوم حصاده﴾ قال هو العشر ونصف العشر.

البحيرة والسائبة والوصيلة والحَـام، ﴿ افتِرَاءً على اللَّهِ ﴾، حيث قالوا: إن الله أمرهم بها، ﴿ قدْ ضَلُّوا وما كانُوا مُهْتَدِين ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وهو الذي أنشأ جنَّاتٍ ﴾، بساتين، ﴿ معْرُوشاتٍ وغيرَ معرُوشات ﴾، أي: مسموكات مرفوعات وغير مرفوعات. وقال ابن عباس: معروشات ما انبسط على وجه الأرض، فانتشر مما يعرش مثل الكرم والقرع والبطيخ وغيرهـا، وغير معروشات ما قام على ساق ونسق، مثل النخلِ والزرع وسائر الأشجار. وقال الضحاك: كلاهما من الكرم خاصة منها ما عرش ومنها ما لم يعرش. ﴿ والنَّخلَ والزَّرْعَ ﴾، أي: وأنشأ النخل والزرع، ﴿ مختلفاً أُكُلُهُ ﴾، ثمره وطعمه منها الحلو والحامض والجيد والرديء، ﴿ والزيتونَ والرمَّانَ متشابهاً ﴾، في النظر، ﴿ وغير مُتشابه ﴾، في المطعم مثل الرمَّانتين لونهما واحد وطعمهما مختلف، ﴿ كلُوا من ثمرِهِ إذا أثمر ﴾، ﴿ وآتُوا حقَّه يومَ حصادِهِ ﴾ قرأ أهل البصرة وابن عامر وعاصم «حصـاده» بفتح الحاء، وقرأ الآخرون بكسرها ومعناهما واحد، كالصِّرام والصَّرام والجَذار والجِذار، واختلفوا في هذا الحق فقال ابن عباس وطاوس

فإن قلت على هذا التفسير إشكال وهو أن فرض الزكاة كان بالمدينة وهذه السورة مكية فكيف يمكن حمل قوله وآتوا يوم حصاده على الزكاة المفروضة، قلت: ذكر ابن الجوزي في تفسيره عن ابن عباس وقتادة: إن هذه الآية نزلت بالمدينة فعلى هذا القول تكون الآية محكمة نزلت في حكم الزكاة وإن قلنا إن هذه الآية مكية تكون منسوخة بآية الزكاة، لأنه قد روي عن ابن عباس أنه قال: نسخت آية الزكاة كل صدقة في القرآن وقيل في قوله تعالى: **﴿وآتوا حقه يوم حصاده﴾** أنه حق سوى الزكاة فرض يوم الحصاد وهو إطعام من حضر وترك ما سقط من الزرع والثمر، وهذا قول علي بن الحسن وعطاء ومجاهد وحماد. قال إبراهيم: هو الضغث، وقال الربيع: هو لقاط السنبل، وقال مجاهد: كانوا يجيئون بالعذق عند الصرام فيأكل منه من مر. وقال يزيد بن الأصم: كان أهل المدينة إذا صرموا النخل يجيئون بالعذق فيعلقونه في جانب المسجد فيجيء المسكين فيضربه بعصاه فما سقط منه أكله فعلى هذا القول هل هذا الأمر أمر وجوب أو استحباب وندب فيه قولان:

أحدهما: أنه أمر وجوب فيكون منسوخاً بآية الزكاة.

وبقوله ﷺ في حديث الأعرابي هل علي غيرها قال إلا أن تطوع.

والقول الثاني: إنه أمر ندب واستحباب فتكون الآية محكمة، وقال سعيد بن جبير: كان هذا حقاً يؤمر بإخراجه في ابتداء الإسلام ثم صار منسوخاً بإيجاب العشر، ولقول ابن عباس: نسخت آية الزكاة كل صدقة في القرآن واختار هذا القول الطبري وصححه واختار الواحدي والرازي القول الأول وصححاه.

فإن قلت: فعلى القول الأولى كيف تؤدى الزكاة يوم الحصاد والحب في السنبل وإنما يجب الإخراج بعد التصفية والجفاف، قلت: معناه قدروا أداء إخراج الواجب منه يوم الحصاد فإنه قريب من زمان التنقية والجفاف ولأن النخل يجب إخراج الحق منه يوم حصاده وهو الصرام والزرع محمول عليه إلا أنه لا يمكن إخراج الحق منه إلا بعد التصفية. وقيل معناه وآتوا حقه الذي وجب يوم حصاده بعد التصفية، وقيل: إن فائدة ذكر الحصاد أن الحق لا يجب بنفس الزرع وبلوغه إنما يجب يوم حصاده وحصوله في يد مالكه لا فيما يتلف من الزرع قبل حصوله في يد مالكه.

قوله تعالى: **﴿ولا تسرفوا﴾** الإسراف تجاوز الحد فيما يفعله الإنسان وإن كان في الإنفاق أشهر وقيل السراف تجاوز ما حد لك وسرف المال إنفاقه في غير منفعة.

ولهذا قال سفيان: ما أنفقت في غير طاعة الله فهو سرف وإن كان قليلاً. قال ابن عباس في رواية عنه: عمد ثابت بن قيس بن شماس فصرم خمسمائة نخلة فقسمها في يوم واحد ولم يترك لأهله شيء فأنزل الله هذه الآية **﴿ولا تسرفوا﴾** قال السدي: معناه لا تعطوا أموالكم وتقعدوا فقراء. قال الزجاج فعلى هذا لو أعطى الإنسان كل ماله ولم

والحسن وجابر بن زيد وسعيد بن المسيب: إنها الزكاة المفروضة من العشر ونصف العشر، وقال علي بن الحسين وعطاء ومجاهد وحمّاد والحكم: حق في المال سوى الزكاة، أمر بإتيانه لأن الآية مكية وفرضت الزكاة بالمدينة. قال إبراهيم: هو الضغث. وقال الربيع: لقاط السنبل. وقال مجاهد: كانوا يعلّقون العذق عند الصرام فيأكل منه مَنْ مرَّ. وقال يزيد بن الأصم: كان أهل المدينة إذا أصرموا يجيئون بالعذق فيعلّقونه في جانب المسجد، فيجيء المسكين يضربه بعصاه فيسقط منه فيأخذه. وقال سعيد بن جبير: كان هذا حقاً بإتيانه في ابتداء الإسلام منسوخاً بإيجاب العشر. قال مقسم عن ابن عباس: نسختِ الزكاةُ كلَّ نفقة في القرآن. ﴿ ولا تُسرفُوا إنّه لا يُحبُّ المُسرفين ﴾، وقيل: أراد بالإسراف إعطاء الكل. قال ابن عباس في رواية الكلبي: عمد ثابت بن قيس بن شماس فصرم خمسمائة نخلة وقسمها في يوم واحد ولم يترك لأهله شيء فأنزل الله تعالى هذه الآية، قال السدي: لا تسرفوا أي لا

يوصل إلى عياله شيئاً فقد أسرف لأنه قد صح في الحديث «ابدأ بمن تعول». وقال سعيد بن المسيب: معناه لا تمنعوا الصدقة فتأويل الآية على هذا القول لا تجاوزوا الحد في البخل والإمساك حتى تمنعوا الواجب من الصدقة وهذان القولان يشتركان في أن المراد من الإسراف مجاوزة الحد إلا أن الأول في البذل والإعطاء والثاني في الإمساك والبخل، وقال مقاتل: معناه لا تشركوا الأصنام في الحرث والأنعام وهذا القول أيضاً يرجع إلى مجاوزة الحد لأن من شرك الأصنام في الحرث والأنعام فقد جاوز ما حد له. وقال الزهري: معناه لا تنفقوا في معصية الله عز وجل. وقال مجاهد: الإسراف ما قصرت به في حق الله تعالى ولو كان أبو قبيس ذهباً فأنفقته في طاعة الله لم تكن مسرفاً ولو أنفقت درهماً أو مداً في معصية الله كنت مسرفاً. وقال ابن زيد: إنما خوطب بهذا السلطان نهي أن يأخذ من رب المال فوق الذي ألزم الله ماله. يقول الله عز وجل للسلاطين: لا تسرفوا أي لا تأخذوا بغير حق فكانت الآية بين السلطان وبين الناس. وقوله تعالى: ﴿إنه لا يحب المسرفين﴾ فيه وعيد وزجر عن الإسراف في كل شيء لأن من لا يحبه الله فهو من أهل النار. قوله تعالى:

﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۖ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾﴾

﴿ومن الأنعام﴾ يعني وأنشأ من الأنعام ﴿حمولة﴾ وهي كل ما يحمل عليها من الإبل ﴿وفرشاً﴾ يعني صغار الإبل التي لا تحمل. قال ابن عباس: الحمولة هي الكبار من الإبل والفرش هي الصغار من الإبل، وقال في رواية أخرى عنه ذكرها الطبري:

أما الحمولة: فالإبل والخيل والبغال والحمير وكل شيء يحمل عليه وأما الفرش فالغنم. وقال الربيع بن أنس: الحمولة: الإبل والبقر والفرش المعز والضان فالحمولة كل مايحمل عليها من الأنعام والفرش ما لا يصلح للحمل سمي فرشاً لأنه يفرش للذبح ولأنه قريب من الأرض لصغره ﴿كلوا مما رزقكم الله﴾ يعني كلوا مما أحله الله لكم من هذه الأنعام والحرث ﴿ولا تتبعوا خطوات الشيطان﴾ يعني لا تسلكوا طريقه وآثاره في تحريم الحرث والأنعام كما فعله

تعطوا أموالكم فتقعدوا فقراء. قال الزجّاج: على هذا إذا أعطى الإنسان كل ماله ولم يوصل إلى عياله شيئاً فقد أسرف، لأنه جاء في الخبر: «بمَن تعول ابدأ. . .»، وقال سعيد بن المسيب: معناه لا تمنعوا الصدقة. فتأويل هذه الآية على هذا لا تتجاوز الحدّ في البخل والإمساك حتى تمنعوا الواجب من الصدقة. وقال مقاتل: لا تُشركوا الأصنام في الحرث والأنعام. وقال الزهري: لا تنفقوا في المعصية. وقال مجاهد: لإسراف ما قصّرت به عن حق الله عزّ وجلّ، وقال: لو كان أبو قبيس ذهباً لرجل فأنفقه في طاعة الله لم يكن مسرفاً ولو أنفق درهماً أو مُدّاً في معصية الله كان مسرفاً. وقال إياس بن معاوية: ما جاوزت به أمر الله فهو سرف وإسراف. وروى ابن وهب عن أبي زيد، قال الخطاب للسلاطين: يقول لا تأخذُوا فوق حقكم.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ ومِنَ الأنعام ﴾، أي: وأنشأ من الأنعام، (حَمُولَةً)، وهي كل ما يحمل عليها من الإبل، ﴿ وفَرْشاً ﴾، وهي الصغار من الإبل التي لا تحمل. ﴿ كُلوا ممّا رزَقَكُمُ اللَّهُ ولا تتّبعوا خطواتِ الشيطان ﴾، لا تسلكوا طريقة آثاره في تحريم الحرث والأنعام، ﴿ إنّه لكمْ عدوٌّ مبين ﴾، ثم بيّن الحمولة والفرش فقال:

﴿ ثمانية أزواج ﴾، نصبها على البدل من الحمولة والفرش، أي: وأنشأ من الأنعام ثمانية أزواج أصناف،

أهل الجاهلية ﴿إنه﴾ يعني الشيطان ﴿لكم عدو مبين﴾ يعني أنه مبين العداوة لكم ثم بين الحمولة والفرش فقال عز وجل: ﴿ثمانية أزواج﴾ يعني وأنشأ من الأنعام ثمانية أزواج يعني ثمانية أصناف والزوج في اللغة الفرد إذا كان معه آخر من جنسه لا ينفك عنه فيطلق لفظ الزوج على الواحد كما يطلق على الاثنين فيقال للذكر زوج وللأنثى زوج ﴿من الضأن اثنين﴾ يعني الذكر والأنثى والضأن ذوات الصوف من الغنم والواحد ضائن والأنثى ضائنة والجمع ضوائن ﴿ومن المعز اثنين﴾ يعني الذكر والأنثى والمعز ذوات الشعر من الغنم والواحد ماعز والجمع معزى: ﴿قل آلذكرين حرم أم الأنثيين﴾ استفهام إنكار، أي: قل يا محمد لهؤلاء الجهلة الذكرين من الضأن والمعز حرم عليكم أم الأنثيين منهما، فإن كان حرم الذكرين من الغنم فكل ذكورها حرام وإن كان حرم الانثيين منهما فكل إناثها حرام ﴿أم ما اشتملت عليه أرحام الأنثيين﴾ يعني أم حرم ما اشتملت عليه أرحام الأنثيين من الضأن والمعز فإنها لا تشتمل إلا على ذكر أو أنثى ﴿نبئوني﴾ أي أخبروني وفسروا لي ما حرمتم ﴿بعلم إن كنتم صادقين﴾ يعني أن الله حرم ذلك عليكم.

وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٤﴾ قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾

﴿من الإبل اثنين ومن البقر اثنين﴾ وهذه أربعة أزواج أخر بقية الثمانية ﴿قل آلذكرين حرم أم الأنثيين أما اشتملت عليه أرحام الأنثيين﴾ وتفسير هذه الآية نحو ما تقدم وفي هاتين الآيتين تقريع وتوبيخ من الله تعالى لأهل الجاهلية بتحريمهم ما لم يحرمه الله وذلك أنهم كانوا يقولون: هذه أنعام وحرث حجر. وقالوا: ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا وحرموا البحيرة والسائبة والوصيلة والحامي وكانوا يحرمون بعضها على الرجال والنساء وبعضها على النساء دون الرجال كما أخبر الله عنهم في كتابه فلما جاء الإسلام وثبتت الأحكام جادلوا النبي ﷺ وكان خطيبهم مالك بن عوف الجشمي فقال: يا محمد بلغنا أنك تحرم أشياء مما كان أباؤنا يفعلونه، فقال له رسول الله ﷺ: قد حرمتم أصنافاً من النعم على غير أصل وإنما خلق الله هذه الأزواج الثمانية للأكل والانتفاع فمن أين جاء هذا التحريم من قبل الذكر أم من قبل الأنثى؟ فسكت مالك بن عوف وتحير ولم يتكلم فقال النبي ﷺ يا مالك ألا تتكلم؟

﴿ من الضأن اثنين ﴾، أي: الذكر والأنثى، فالذكر زوج والأنثى زوج، والعرب تسمّي الواحد زوجاً إذا كان لا ينفكّ عن الآخر، والضأن النعاج، وهي ذوات الصوف من الغنم، والواحد ضأن والأنثى ضائنة، والجمع ضوائن، ﴿ ومِنَ المَعْزِ اثنين ﴾، قرأ ابن كثير وابن عامر وأهل البصرة «من المعز» بفتح العين والباقون بسكونها، والمعز والمعزى جمع لا واحد له من لفظه، وهي ذوات الشعر من الغنم، وجمع الماعز معزى، وجميع الماعز مواعز، ﴿ قلْ ﴾ يا محمد ﴿ ءآلذَكَرَينِ حرّمَ ﴾، الله عليكم، يعني ذكر الضأن والمعز، ﴿ أمِ الأنثيين ﴾، يعني أُنثى الضأن والمعز، ﴿ أما اشتملتْ عليه أرحام الأُنثيين ﴾، منهما فإنها لا تشتمل إلّا على ذكر وأنثى، ﴿ نبئُوني ﴾ أخبروني، ﴿ بعلم ﴾، قال الزجّاج: فسِّروا ما حرَّمتُم بعلم، ﴿ إنْ كنتُم صَادقين ﴾ أن الله تعالى حرّم هذا.

﴿ ومِنَ الإبلِ اثنين ومِنَ البقرِ اثنينِ قلْ ءآلذكرينِ حرّم أمِ الأُنثيين أمّا اشتملَتْ عليه أرحام الأُنثيين ﴾، وذلك أنهم كانوا يقولون: هذه أنعام وحرث حِجْر، وقالوا: ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحَرّمة على أزواجنا،

فقال: بل أنت تتكلم وأسمع منك، قال المفسرون: فلو قال جاء التحريم من قبل الذكر بسبب الذكورة وجب أن يحرم جميع الذكور ولو قال بسبب الأنوثة وجب أن يحرم جميع الإناث وإن كان باشتمال الرحم عليه فينبغي أن يحرم الكل لأن الرحم لا يشتمل إلا على ذكر أو أنثى.

وأما تخصيص التحريم بالولد الخامس أو السابع أو بالبعض دون البعض فمن أين ذلك التحريم؟ فاحتج الله على بطلان دعواهم بهاتين الآيتين وأعلم نبيه ﷺ أن كل ما قالوه من ذلك وأضافوه إلى الله فهو كذب على الله وأنه لم يحرم شيئاً من ذلك وأنهم اتبعوا في ذلك أهواءهم وخالفوا أمر ربهم.

وذكر الإمام فخر الدين في معنى الآية وجهين آخرين ونسبهما إلى نفسه، فقال: إن هذا الكلام ما ورد على سبيل الاستدلال على بطلان قولهم بل هو استفهام على سبيل الإنكار يعني إنكم لا تقرون بنبوة نبي ولا تعترفون بشريعة شارع فكيف تحكمون بأن هذا يحل وهذا يحرم.

والوجه الثاني: إنكم حكمتم بالبحيرة والسائبة والوصيلة والحامي مخصوصاً بالإبل فالله تعالى بيّن أن النعم عبارة عن هذه الأنواع الأربعة وهي: الضأن والمعز والبقر والإبل فلم لم تحكموا بهذه الأحكام في هذه الأنواع الثلاثة وهي الضأن والمعز والبقر فكيف خصصتم الإبل بهذا الحكم دون هذه الأنواع الثلاثة.

قوله تعالى: ﴿**أم كنتم شهداء إذ وصاكم الله بهذا**﴾ يقول الله لنبيه ﷺ قل لهؤلاء الجهلة من المشركين الذين يزعمون أن الله حرم عليهم ما حرموا على أنفسهم من الأنعام والحرث هل شاهدتم الله حرم هذا عليكم ووصاكم به فإنكم لا تقرون بنبوة أحد من الأنبياء فكيف تثبتون هذه الأحكام وتنسبونها إلى الله عز وجل. ولما احتج الله عليهم بهذه الحجة وبين أنه لا مستند لهم في ذلك قال تعالى: ﴿**فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً ليضل الناس بغير علم**﴾ يعني فمن أشد ظلماً وأبعد عن الحق ممن يكذب على الله ويضيف تحريم ما لم يحرمه الله إلى الله ليضل الناس بذلك ويصدهم عن سبيل الله جهلاً منه إذ ليس هو على بصيرة وعلم في ذلك الذي ابتدعه ونسبه إلى الله ويقول إن الله أمرنا بهذا، قيل: أراد به عمرو بن لحي لأنه أول من بحر البحائر وسيب السوائب وغير دين إبراهيم عليه السلام ويدخل في هذا الوعيد كل من كان على طريقته أو ابتدع شيئاً لم يأمر الله به ولا رسوله ونسب ذلك إلى الله تعالى لأن اللفظ عام فلا

وحرّموا البحيرة والسائبة والوصيلة والحَام، كانوا يحرّمون بعضها على الرجال والنساء وبعضها على النساء دون الرجال، فلمّا قام الإسلام وثبتت الأحكام جادلوا النبي ﷺ، وكان خطيبهم مالك بن عوف أبو الأحوض الجشمي، قالوا: يا محمد بلغنا أنك تحرّم أشياء ممّا كان آباؤنا يفعلونه، فقال لهم رسول الله ﷺ: «إنكم قد حرّمتم أصنافاً من الغنم على غير أصلٍ، إنّما خلق الله هذه الأزواج الثمانية للأكل والانتفاع بها، فمن أين جاء هذا التحريم؟ من قِبَل الذكر أم من قِبَل الأنثى»؟ فسكت مالك بن عوف وتحيّر فلم يتكلم. فلو قال جاء هذا التحريم بسبب الذكور وجب أن يحرّم جميع الذكور، وإن كان بسبب الأنوثة وجب أن يحرّم جميع الإناث، وإن كان باشتمال الرحم عليه فينبغي أن يحرّم الكل، لأنّ الرحم لا يشتمل إلاّ على ذكر أو أُنثى، فأما تخصيص التحريم بالولد الخامس والسابع أو البعض دون البعض فمن أين؟ ويُروى أنّ النبي ﷺ قال لمالك: «يا مالك لا تتكلم»؟ قال له مالك: بل تكلمْ وأسمعُ منك. ﴿ أَمْ كنتُم شهداءَ إذْ وصّاكُمُ اللّهُ بهذا فمَنْ أظلمُ ممّن افْتَرَى على الله كَذِباً لِيُضِلَ النّاسَ بغيرِ علم ﴾، قيل: أراد عمرو بن لحي ومَن جاء بعده على طريقته، ﴿ إنّ الله لا يهدي القومَ الظالمين ﴾، ثم بيّن أن التحريم والتحليل يكون بالوحي والتنزيل، فقال:

﴿ قلْ لا أجد فيما أُوحي إليّ محرماً ﴾ أي: شيئاً محرّماً. ورُوِيَ أنهم قالوا: فما المحرّم إذاً فنزل:

وجه للتخصيص فكل من أدخل في دين الله ما ليس فيه فهو داخل في هذا الوعيد ﴿**إن الله لا يهدي القوم الظالمين**﴾ يعني أن الله لا يرشده ولا يوفق من كذب على الله وأضاف إليه ما لم يشرعه لعباده.

قوله عز وجل: ﴿**قل لا أجد فيما أوحي إليّ محرماً على طاعم يطعمه**﴾ اعلم أنه لما بين الله تعالى فساد طريقة أهل الجاهلية وما كانوا عليه من التضليل والتحريم من عند أنفسهم واتباع أهوائهم فيما أحلوه وحرموه من المطعومات أتبعه بالبيان الصحيح في ذلك وبيّن أن التحريم والتحليل لا يكون إلا بوحي سماوي وشرع نبوي، فقال تعالى: قل أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين الجاهلين الذين يحللون ويحرمون من عند أنفسهم لا أجد فيما أوحي إليّ، وقيل إنهم قالوا فما المحرم إذاً فنزل؟ ﴿**قل لا أجد فيما أوحي إليّ محرماً**﴾ يعني شيئاً محرماً على طاعم يطعمه يعني على آكل يأكله ﴿**إلا أن يكون ميتة أو دماً مسفوحاً**﴾ يعني سائلاً مصبوباً ﴿**أو لحم خنزير فإنه رجس**﴾ أي نجس ﴿**أو فسقاً أهلّ لغير الله به**﴾ يعني ما ذبح على غير اسم الله تعالى فبين الله تعالى في هذه الآية أن التحريم والتحليل لا يكون إلا بوحي منه وأن المحرمات محصورة في الأربعة الأشياء المذكورة في هذه الآية وهي: الميتة والدم المسفوح ولحم الخنزير وما ذبح على غير اسم الله، وهذا مبالغة في أن التحريم لا يخرج عن هذه الأربعة وذلك أنه ثبت أنه لا طريق إلى معرفة المحرمات إلا بالوحي وثبت أن الله تعالى نص في هذه الآية على هذه الأربعة الأشياء ولهذا اختلف العلماء في حكم هذه الآية فذهب بعضهم إلى ظاهرها وأنه لا يحرم شيء من سائر المطعومات والحيوان إلا ما ذكر في هذه الآية؛ يروى ذلك عن ابن عباس وعائشة وسعيد بن جبير وهو ظاهر مذهب مالك واحتجوا على ذلك بأن هذه الآية محكمة لأنها خبر والخبر لا يدخله النسخ واحتجوا بأن هذه الآية وإن كانت مكية لكن يعضدها آية مدنية وهي قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهلّ به لغير الله﴾، وكلمة إنما تفيد الحصر فصارت هذه الآية المدنية مطابقة للآية المكية في الحكم، وذهب جمهور العلماء إلى أن هذا التحريم لا يختص بهذه الأشياء المنصوص عليها في هذه الآية فإن المحرم بنص الكتاب هو ما ذكر في هذه الآية.

وقد حرمت السنة أشياء فوجب القول بها: منها تحريم الحمر الأهلية وكل ذي ناب من السباع ومخلب من الطير. عن المقدام بن معديكرب قال: قال رسول الله ﷺ «ألا هل عسى رجل يبلغه الحديث عني وهو متكىء على أريكته فيقول بيننا وبينكم كتاب الله فما وجدنا فيه حلالاً استحللناه وما وجدنا فيه حراماً حرمناه وإنما حرم رسول الله ﷺ كما حرم الله تعالى» أخرجه الترمذي وقال حديث حسن غريب. ولأبي داود قال: قال رسول الله ﷺ «ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه ألا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول عليكم بهذا القرآن فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه

﴿ **قلْ** ﴾ يا محمد ﴿ **لا أجد فيما أُوحي إليّ محرّماً** ﴾ ﴿ **على طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ** ﴾، آكل يأكله، ﴿ **إلاّ أن يكون مَيْتةً** ﴾ قرأ ابن عامر وأبو جعفر «تكـون» باليـاء، «ميتـة» رفع أي: إلاّ أن تقع ميتة، وقرأ ابن كثير وحمزة «تكون» بالياء، «ميتـة» نصب على تقدير اسم مؤنث، أي: إلاّ أن تكون النفس، أي: الجثّة ميتة، وقرأ الباقون بالياء «ميتـة» نصب، يعني إلاّ أن يكون المطعوم ميتة، ﴿ **أو دماً مسفوحاً** ﴾ أي: مُهْراقاً سائلاً، قال ابن عباس: يريد ما خرج من الحيوان، وهنّ أحياء وما يخرج من الأوداج عند الذبح، ولا يدخل فيه الكبد والطحال، لأنهما جامدان. وقد جاء الشرع بإباحتهما ولا ما اختلط باللحم من الدم، لأنه غير سائل، قال عمران بن جرير: سألت أبا مجلز عمّا يختلط باللحم من الدم، وعن القدر يرى: فيها حُمرة الدم، فقال: لا بأس به، إنما نهى عن الدم المسفوح، وقال إبراهيم: لا بأس بالدم في عرق أو مخ، إلاّ المسفوح الذي يعمد ذلك. وقال عكرمة: لولا هذه الآية لاتّبع المسلمون من العروق ما يتبع اليهود. ﴿ **أو لَحْمَ خنزير فإنّه رِجْسٌ أو فِسْقاً أُهلّ لغيرِ اللّهِ بِهِ** ﴾، وهو ما ذُبح على غير اسم الله تعالى. فذهب بعض أهل العلم إلى أن التحريم مقصور على هذه الأشياء. ويُروى ذلك عن

وما وجدتم فيه من حرام فحرموه ألا لا يحل لكم الحمار الأهلي ولا كل ذي ناب من السباع ولا لقطة معاهد إلا أن يستغني عنها صاحبها ومن نزل بقوم فعليهم أن يقروه فإن لم يقروه فله أن يعفيهم بمثل قراه».

عن ابن عباس قال: كان أهل الجاهلية يأكلون أشياء ويتركون أشياء تقذراً فبعث الله نبيه ﷺ وأنزل كتابه وأحل حلاله وحرم حرامه فما أحل فهو حلال وما حرم فهو حرام وما سكت عنه فهو معفو وتلا: ﴿**قل لا أجد فيما أوحي إليّ محرماً على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة**﴾ الآية أخرجه أبو داود (م) عن ابن عباس قال «نهى النبي ﷺ عن كل ذي ناب من السباع وكل ذي مخلب من الطير» (م) عن أبي هريرة «أن النبي ﷺ نهى يوم خيبر عن أكل لحوم الحمر الأهلية» (ق) عن جابر «أن النبي ﷺ نهى عن لحوم الحمر الأهلية وأذن في الخيل» وفي رواية: «أكلنا من خيبر الخيل وحمر الوحش» ونهى رسول الله ﷺ عن الحمار الأهلي عن جابر «أن رسول الله ﷺ نهى عن أكل الهر وأكل ثمنه» وقد استثنى الشارع من الميتة السمك والجراد ومن الدم الكبد والطحال وأباح أكل ذلك وقد تقدم دليله.

والأصل في ذلك عند الشافعي أن كل ما لم يرد فيه نص بتحريم أو تحليل فما كان أمر الشرع بقتله كما ورد في الصحيح «خمس فواسق يقتلن في الحل والحرم وهي الحية والعقرب والفأرة والحدأة والكلب العقور» وروي عن سعد بن أبي وقاص «أن النبي ﷺ أمر بقتل الوزغ» أخرجه البخاري ومسلم، وسماه فويسقاً. وعن ابن عباس قال «نهى النبي ﷺ عن قتل أربع من الدواب: النملة والنحلة والهدهد والصرد» أخرجه أبو داود فهذا كله حرام لا يحل أكله وما سوى ذلك فالمرجع فيه إلى الأغلب من عادة العرب فما يستطيبه الأغلب منهم فهو حلال وما يستخبثه الأغلب منهم ولا يأكلونه فهو حرام لأن الله خاطبهم بقوله: ﴿**أحل لكم الطيبات**﴾ فما استطابوه فهو حلال فهذا تقرير ما يحل ويحرم من المطعومات.

وأما الجواب عن هذه الآية الكريمة فمن وجوه:

أحدها: أن يكون المعنى لا أجد محرماً مما كان أهل الجاهلية يحرمونه من البحائر والسوائب وغيرها إلا ما أوحي إليّ في هذه الآية.

الوجه الثاني: أن يكون المراد وقت نزول هذه الآية لم يكن محرماً غير ما ذكر ونص عليه في هذه الآية ثم حرم بعد نزولها أشياء أخر.

الوجه الثالث: يحتمل أن هذا اللفظ العام خصص بدليل آخر، وهو ما ورد في السنة.

الوجه الرابع: أن ما ذكر في هذه الآية محرم على لسان رسول الله ﷺ وهو ما ورد في السنة من المحرمات والله أعلم.

بقي في الآية أحكام في قوله تعالى: ﴿**أو دماً مسفوحاً**﴾ وهو ما سال من الحيوان في حال الحياة أو عند الذبح

عائشة وابن عباس، قالوا: ويدخل في الميتة المنخنقة والموقوذة، وما ذُكر في أول سورة المائدة، وأكثر العلماء على أن التحريم لا يختصّ بهذه الأشياء بل المحرّم بنص الكتاب ما ذكر هنا، ذلك معنى قوله تعالى: ﴿ قل لا أجد فيما أُوحي إليّ محرماً ﴾. وقد حرّمتِ السُّنَّةُ أشياء يجب القول بها، منها ما أخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر ثنا عبد الغافر بن محمد بن عيسى الجلودي ثنا إبراهيم بن محمد بن سفيان ثنا مسلم بن الحجّاج، قال: ثنا عبيد الله بن معاذ العنبري أخبرنا أبي أنا شعبة عن الحكم عن ميمون بن مهران عن ابن عباس قال: (نهى رسول الله ﷺ عن أكل كل ذي ناب من السِّباع، وكل ذي مخلب من الطير). أخبرنا أبو الحسن السرخسي ثنا زاهر بن أحمد ثنا أبو إسحق الهاشمي ثنا أبو مصعب عن مالك عن إسماعيل بن أبي حكيم عن عبيدة بن سفيان الحضرمي

فإن ذلك الدم حرام نجس وما سوى ذلك كالكبد والطحال فإنهما حلال لأنهما دمان جامدان. وقد ورد الحديث بإباحتهما وكذا ما اختلط باللحم من الدم لأنه غير سائل، قال عمران بن جرير: سألت أبا مجلز عما يختلط باللحم من الدم وعن القدر يُرى فيها حمرة الدم فقال لا بأس بذلك وإنما نهي عن الدم المسفوح. وقال إبراهيم النخعي: لا بأس بالدم في عرق أو مخ إلا المسفوح، وقال عكرمة: لولا هذه الآية لتتبع المسلمون الدم من العروق ما تتبع اليهود.

وقوله تعالى: ﴿**فمن اضطر غير باغ ولا عاد**﴾ لما بين الله المحرمات في هذه الآية أباح أكلها عند الاضطرار من غير بغي ولا عدوان، وفي قوله: ﴿**فإن ربك غفور رحيم**﴾ دليل على الرخصة والإباحة عند الاضطرار.

﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ١٤٦﴾

قوله تعالى: ﴿**وعلى الذين هادوا**﴾ يعني اليهود ﴿**حرمنا كل ذي ظفر**﴾ قال ابن عباس: هو البعير والنعامة ونحو ذلك من الدواب. وقيل كل ما لم يكن مشقوق الأصابع من البهائم والطير مثل البعير والنعامة والإوز والبط. قال القتيبي هو كل ذي مخلب من الطير وكل ذي حافر من الدواب وسمي الحافر ظفراً على الاستعارة ﴿**ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما**﴾ يعني شحم الجوف وهي الثروب وشحم الكليتين ﴿**إلا ما حملت ظهورهما**﴾ يعني إلا ما علق بالظهر والجنب من داخل بطونهما من الشحم فإنه غير محرم عليهم، وقال السدي وأبو صالح: الألية مما حملت ظهورهما وهذا القول مختص بالغنم لأن البقر ليس لها ألية ﴿**أو الحوايا**﴾ وهي المباعر، في قول ابن عباس وجمهور المفسرين واحدتها حاوية وحوية، وقيل: الحوايا المباعر والمصارين وهي الدوائر التي تكون في بطن الشاة والمعنى أن الشحم المتلصق بالمباعر والمصارين غير محرم على اليهود ﴿**أو ما اختلط بعظم**﴾ يعني من شحم الألية لأنه اختلط بالعصعص وكذا الشحم المختلط بالعظام التي تكون في الجنب والرأس والعين فكل هذا حلال على اليهود فحاصل هذا أن الذي حرم عليهم شحم الثرب وشحم الكلية وما عدا ذلك فهو حلال عليهم (ق).

عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «أكلُ كلِّ ذي نابٍ مِنَ السباع حرامٌ»، والأصل عند الشافعي أن ما لم يرد فيه نص تحريم أو تحليل، فإن كان مما أمر الشرع بقتله كما قال: (خمسٌ فواسق يقتلن في الحِلّ والحَرم)، أو نهي عن قتله، كما رُوِيَ أنه نهى عن قطع النخلة وقتل النملة فهو حرام، وما سوى ذلك فالمرجع فيه إلى الأغلب من عادات العرب فيما يأكله الأغلب منهم حلال، وما لا يأكله الأغلب منهم فهو حرام، لأن الله تعالى خاطبهم بقوله: ﴿ قلْ أُحلَّ لكم الطيبات ﴾ [المائدة: ٤]، فثبت أن ما استطابوه فهو حلال، ﴿ فَمَن اضطُرَّ غيرَ باغٍ ولا عادٍ فإنَّ ربَّك غفورٌ رحيم ﴾، أباح الله أكل هذه المحرّمات عند الاضطرار في غير العدوان.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ وعلى الذينَ هادُوا حرّمنا ﴾، يعني اليهود، ﴿ كلَّ ذِي ظُفُرٍ ﴾، وهو ما لم يكن مشقوق الأصابع من البهائم والطير مثل البعير والنعامة والأوز والبط، قال القتيبي: هو كل ذي مخلب من الطير وكل ذي حافر من الدواب وحكاه عن بعض المفسرين: سمّى الحافر ظُفراً على الاستعارة، ﴿ ومِنَ البَقرِ والغَنَمِ حرّمْنَا عليهمْ شُحُومهما ﴾، يعني شحوم الجوف، وهي الثروب، وشحم الكليتين، ﴿ إلّا ما حملتْ ظُهورُهما ﴾، أي: إلّا ما علق بالظهر والجنب من داخل بطونهما، ﴿ أو الحَوَايا ﴾، وهي المباعر واحدتها حاوية وحوية أي ما حملته الحوايا من الشحم. ﴿ أو ما اخْتَلَطَ بعظم ﴾، يعني: شحم الإلية هذا كله داخل في الاستثناء، والتحريم مختصٌّ بالثراب وشحم الكلية. أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل

عن جابر بن عبد الله قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول عام الفتح بمكة «إن الله حرم بيع الخمر والميتة والخنزير والأصنام فقيل يا رسول الله أرأيت شحوم الميتة فإنها يطلى بها السن ويدهن بها الجلود ويستصبح بها الناس؟ فقال: لا هوحرام. ثم قال رسول الله ﷺ عند ذلك: قاتل الله اليهود إن الله لما حرم عليهم شحومها جملوه ثم باعوه فأكلوا ثمنه» قوله: جملوه يعني أذابوه يقال أجملت الشحم وجملته إذا أذبته وجملته أكثر وأفصح.

وقوله تعالى: ﴿ذلك جزيناهم﴾ أي ذلك التحريم جزيناهم عقوبة ﴿ببغيهم﴾ يعني بسبب بغيهم وظلمهم وهو قتل الأنبياء وأخذ الربا واستحلالهم أموال الناس بالباطل ﴿وإنا لصادقون﴾ يعني في الإخبار عن بغيهم وفي الإخبار عن تخصيصهم بهذا التحريم.

﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾﴾

﴿فإن كذبوك﴾ يعني فإن كذبك اليهود يا محمد فيما أخبرناك أنا حرمنا عليهم وأحللنا لهم مما بيّناه في هذه الآية المتقدمة ﴿فقل ربكم ذو رحمة واسعة﴾ يعني بتأخير العقوبة عنكم فإن رحمته تسع المسيء والمحسن فلا يعجل بالعقوبة على من كفر به أو عصاه ﴿ولا يرد بأسه﴾ يعني ولا يرد عذابه ونقمته إذا جاء وقتهما ﴿عن القوم المجرمين﴾ لما لزمتهم الحجة وتيقنوا بطلان ما كانوا عليه من الشرك بالله وتحريم ما لم يحرمه الله أخبر الله تعالى عنهم بما سيقولونه فقال تعالى: ﴿سيقول الذين أشركوا﴾ يعني مشركي قريش والعرب ﴿لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا﴾ يعني من قبل، قال المفسرون: جعلوا قولهم لو شاء الله ما أشركنا حجة على إقامتهم على الكفر والشرك. وقالوا: إن الله قادر على أن يحول بيننا وبين ما نحن عليه حتى لا نفعله فلولا أنه رضي ما نحن عليه وأراده منا وأمرنا به لحالَ بيننا وبين ذلك ﴿ولا حرمنا من شيء﴾ يعني ما حرموه من البحائر والسوائب وغير ذلك، فقال الله عز وجل رداً وتكذيباً لهم ﴿كذلك كذب الذين من قبلهم﴾ يعني من كفار الأمم الخالية الذي كانوا قبل قومك كذبوا أنبياءهم وقالوا مثل قول هؤلاء ﴿حتى ذاقوا بأسنا﴾ يعني عذابنا.

ثنا قتيبة أنا الليث عن يزيد بن أبي حبيب عن عطاء بن أبي رباح عن جابر بن عبد الله أنه سمع رسول الله ﷺ يقول عام الفتح وهو بمكة: «أن الله ورسوله حَرّمَا بيعَ الخمر والميتة والخنزير والأصنام» قيل: يا رسول الله أرأيت شحوم الميتة فإنه يُطلى بها السفن ويُدهن بها الجلود ويستضيء بها الناس؟ فقال: «لا هو حرام» ثم قال رسول الله عند ذلك: «قاتلَ اللَّهُ اليهودَ إن الله عزّ وجلّ لمّا حرّم شحومهما جَملوه باعوه فأكلوا ثمنه». ﴿ ذلك جزيناهم ﴾، أي: ذلك التحريم عقوبة لهم ﴿ ببغيهم ﴾، أي: بظلمهم مَن قتلهم الأنبياء وصدّهم عن سبيل الله وأخذهم الربا واستحلال أموال الناس بالباطل، ﴿ وإنّا لصادقون ﴾، في الإخبار عمّا حرّمنا عليهم وعن بغيهم.

﴿ فإن كذّبُوكَ فقلْ ربُكم ذُو رحمةٍ واسعة ﴾، بتأخير العذاب عنكم، ﴿ ولا يُردُّ بَأْسُهُ ﴾، عذابه ﴿ عن القوم المجرمين ﴾، إذا جاء وقتُه.

﴿ سيقولُ الذينَ أشركوا ﴾، لمّا لزمتهم الحجة وتيقّنوا بطلان ما كانوا عليه من الشرك بالله وتحريم ما لم يحرّمه الله قالوا: ﴿ لو شاء الله ما أشركنا ﴾، نحن، ﴿ ولا آباؤنا ﴾، من قبل، ﴿ ولا حرّمنَا مِن شيء ﴾، من البحائر والسوائب وغيرهما أرادوا أن يجعلوه قوله: ﴿ لو شاء الله ما أشركنا ﴾، حجةً لهم على إقامتهم على الشرك،

(فصل)

استدل القدرية والمعتزلة بهذه الآية فقالوا: إن القوم لما قالوا لو شاء الله ما أشركنا كذبهم الله ورد عليهم بقوله ﴿كذلك كذب الذين من قبلهم﴾ وأيضاً فإن الله تعالى حكى عن هؤلاء الكفار صريح مذهب الجبرية وهو قولهم لو شاء الله منا أن لا نشرك لم نشرك ولمنعنا عن هذا الكفر وحيث لم يمنعنا عنه ثبت أنه مريد له وإذا أراده منا امتنع تركه منا وأجيب عن هذا بأن الله تعالى حكى عن هؤلاء الكفار أنهم قالوا لو شاء الله ما أشركنا ثم ذكر عقيبة كذلك كذب الذين من قبلهم وهذا التكذيب ليس هو في قولهم لو شاء الله ما أشركنا، بل ذلك القول حق وصدق ولكن الكذب في قولهم إن الله أمرنا به ورضي ما نحن عليه كما أخبر عنهم في سورة الأعراف ﴿وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها﴾ فرد الله تعالى عليهم بقوله ﴿قل إن الله لا يأمر بالفحشاء﴾ والدليل أن التكذيب في قولهم إن الله أمرنا بهذا ورضيه منا لا في قولهم لو شاء الله ما أشركنا قوله ﴿كذلك كذب الذين من قبلهم﴾ بالتشديد ولو كان خبراً من الله عن كذبهم في قولهم لو شاء الله ما أشركنا لقال كذلك كذب الذين من قبلهم بالتخفيف فكان ينسبهم إلى الكذب لا إلى التكذيب وقال الحسن بن الفضل: لو قالوا هذه المقالة تعظيماً لله وإجلالاً له ومعرفة بحقه وبما يقولون لما عابهم بذلك، ولكنهم قالوا هذه المقالة تكذيباً وجدلاً من غير معرفة بالله وبما يقولون. وقيل في معنى الآية: إنهم كانوا يقولون الحق بهذه الكلمة وهو قوله: ﴿لو شاء الله ما أشركنا﴾ إلا أنهم كانوا يعدونه عذراً لأنفسهم ويجعلونه حجة لهم في ترك الإيمان والرد عليهم في ذلك أن أمر الله بمعزل عن مشيئته وإرادته فإن الله تعالى مريد لجميع الكائنات غير آمر بجميع ما يريد، فعلى العبد أن يتبع أمره وليس له أن يتعلق بمشيئته فإن مشيئته لا تكون عذراً لأحد عليه في فعله فهو تعالى يشاء الكفر من الكافر ولا يرضى به ولا يأمر به ومع هذا فيبعث الرسل إلى العبد ويأمر بالإيمان، وورود الأمر على خلاف الإرادة غير ممتنع.

فالحاصل أنه تعالى حكى عن الكفار أنهم يتمسكون بمشيئة الله تعالى في شركهم وكفرهم، فأخبر الله تعالى أن هذا التمسك فاسد باطل فإنه لا يلزم من ثبوت المشيئة لله تعالى في كل الأمور دفع دعوة الأنبياء عليهم السلام والله أعلم.

وقالوا: إن الله تعالى قادر على أن يحول بيننا وبين ما نحن عليه لا نفعله، فلولا أنه رضي بما نحن عليه وأراده منّا وأمرَنَا بِهِ لَحَالَ بيننا وبين ذلك، فقال الله تعالى تكذيباً لهم: ﴿ **كذلِكَ كذَّبَ الذينَ من قبلهم** ﴾، من كفّار الأمم الخالية، ﴿ **حتى ذاقُوا بأسنا** ﴾، عذابنا، ويستدلّ أهل القدر بهذه الآية، يقولون: إنهم لمّا قالوا لو شاء الله ما أشركنا كذّبهم الله وردّ عليهم، فقال: ﴿ **كذلك كذَّبَ الذينَ من قبلهم** ﴾، قلنا: التكذيب ليس في قولهم: ﴿ **لو شاء الله ما أشركنا** ﴾، بل ذلك القول صدقٌ ولكن في قولهم: إن الله تعالى أمرنا بها ورضي بما نحن عليه كما أخبر عنهم في سورة الأعراف: ﴿ وإذا فعلوا فاحشةً قالوا وجدْنَا عليها آباءَنا والله أمرَنَا بها ﴾ [الأعراف: ٢٨]، فالردّ عليهم في هذا كما قال تعالى: ﴿ قلْ إنّ اللَّهَ لا يأمرُ بالفحشاء ﴾ [الأعراف: ٢٨] والدليل على أن التكذيب ورد فيما قلنا لا في قولهم: ﴿ **لو شاء الله ما أشركنا** ﴾، قوله: ﴿ **كذلك كذّب الذين من قبلهم** ﴾، بالتشديد ولو كان ذلك خبراً من الله عزّ وجلّ عن كذبهم في قولهم: ﴿ **لو شاء الله ما أشركنا** ﴾، لقال كذلك كذب الذين من قبلهم بالتخفيف فكان نسبهم إلى الكذب لا إلى التكذيب، وقال الحسن بن الفضل لو ذكروا هذه المقالة تعظيماً وإجلالاً لله عزّ وجلّ، ومعرفة منهم به لما عابهم بذلك، لأن الله تعالى قال: ﴿ ولو شاءَ اللَّهُ ما أشركوا ﴾ [الأنعام: ١٠٧] وقال: ﴿وما كانُوا لِيُؤمِنُوا إلاّ أنْ يشاءَ الله ﴾ [الأنعام: ١١١]، والمؤمنون يقولون ذلك، ولكنهم قالوه تكذيباً وتخرّصاً وجدلاً من غير معرفة بالله وبما يقولون، نظيره قوله عزّ وجلّ: ﴿ وقالوا لو شاء الرحمنُ ما عَبَدْنَاهم ﴾ [الزخرف: ٢٠]، قال الله

وقوله تعالى: ﴿قل هل عندكم من علم﴾ أي: قل يا محمد لهؤلاء المشركين القائلين لو شاء الله ما أشركنا ولكنه رضي ما نحن عليه من الشرك هل عندكم يعني بدعواكم ما تدعون من علم يعني من حجة وكتاب يوجب اليقين من العلم ﴿فتخرجوه لنا﴾ يعني فتظهروا ذلك العلم لنا وتبينوه كما بيّنا لكم خطأ قولكم وفعلكم وتناقض ذلك واستحالته في العقول ﴿إن تتبعون إلا الظن﴾ يعني فيما أنتم عليه من الشرك وتحريم ما لم يحرمه الله عليكم وتحسبون أنكم على حق وإنما هو باطل ﴿وإن أنتم إلا تخرصون﴾ يعني وما أنتم في ذلك كله إلا تكذبون وتقولون على الله الباطل وقوله تعالى:

﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا فَإِن شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾﴾

﴿قل فلله الحجة البالغة﴾ يعني: قل يا محمد لهؤلاء المشركين حين عجزوا عن إظهار علم الله أو حجة لهم فللّه الحجة البالغة يعني التامة على خلقه بإنزال الكتاب وإرسال الرسل. قال الربيع بن أنس: لا حجة لأحد عصى الله أو أشرك به على الله ولكن لله الحجة البالغة على عباده ﴿فلو شاء لهداكم أجمعين﴾ يعني فلو شاء الله لوفقكم أجمعين للهداية ولكنه لم يشأ ذلك وفيه دليل على أنه تعالى لم يشأ إيمان الكافر ولو شاء لهداه لا يسأل عما يفعل وهم يسألون ﴿قل هلم شهداءكم الذين يشهدون﴾ يعني هاتوا وادعوا شهداءكم. وهلم كلمة دعوة إلى الشيء يستوي فيه الواحد والاثنان والجمع والذكر والأنثى وفيها لغة أخرى يقال للواحد هلم وللاثنين هلما وللجمع هلموا وللأنثى هلمي واللغة الأولى أفصح ﴿إن الله حرم هذا﴾ وهذا تنبيه من الله باستدعاء الشهود من الكافرين على تحريم ما حرموه على أنفسهم وقالوا إن الله أمرنا به ليظهر أن لا شاهد لهم على ذلك وإنما اختلقوه من عند أنفسهم ﴿فإن شهدوا فلا تشهد معهم﴾ وهذا تنبيه أيضاً على كونهم كاذبين في شهادتهم فلا تشهد أنت يا محمد معهم لأنهم في شهادتهم كاذبون ﴿ولا تتبع

تعالى: ﴿ ما لهمْ بذلكَ من علم إنْ هم إلاّ يخرصُون ﴾ [الزخرف: ٢٠]، وقيل في معنى الآية: إنهم كانوا يقولون الحق بهذه الكلمة إلاّ أنهم كانوا يعدّونه عذراً لأنفسهم ويجعلونه حجّة لأنفسهم في ترك الإيمان، وردّ عليهم في هذا لأنّ أمر الله بمعزل عن مشيئته وإرادته، فإنهُ مريدٌ لجميع الكائنات غير آمر بجميع ما يريد، وعلى العبد أن يتبع أمره وليس له أن يتعلق بمشيئته، فإن مشيئته لا تكون عذراً لأحد. ﴿ قلْ هلْ عندكم منْ علم ﴾، أي: كتاب وحجّة من الله، ﴿ فتُخرجُوه لنَا ﴾، حتى يظهر ما تدّعون على الله تعالى من الشرك وتحريم ما حرّمتموه، ﴿ إن تتّبعُون ﴾، ما تتبعون فيما أنتم عليه، ﴿ إلاّ الظّنّ ﴾، من غير علم ويقين، ﴿ وإنْ أنتم إلاّ تخْرُصُون ﴾، تكذّبون.

﴿ قلْ فللّه الحُجّةُ البالغةُ ﴾، التامّة على خلقه بالكتاب والرسول والبيان، ﴿ فلو شاء لهداكم أجمعين ﴾، فهذا يدلّ على أنه إيمان الكافر ولو شاء لهداه.

﴿ قلْ هلمّ ﴾، يقال للواحد والاثنين والجمع، ﴿ شُهَدَاءَكُمُ الذينَ يشهدُون ﴾، أي: ائتوا بشهدائكم الذين يشهدون، ﴿ أنّ اللّهَ حرّمَ هذا ﴾، هذا راجع إلى ما تقدم من تحريمهم الأشياء على أنفسهم ودعْوَاهم أن الله أمرهم

أهواء الذين كذبوا بآياتنا﴾ يعني إن وقع منهم شهادة فإنما هي باتباع الهوى فلا تتبع أنت يا محمد أهواءهم ولكن اتبع ما أوحي إليك من كتابي الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه **﴿والذين لا يؤمنون بالآخرة﴾** أي ولا تتبع أهواء الذين لا يؤمنون بالآخرة **﴿وهم بربهم يعدلون﴾** يعني يشركون.

قوله عز وجل: **﴿قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم﴾** لما بين الله تعالى فساد مقالة الكفار فيما زعموا أن الله أمرهم بتحريم ما حرموه على أنفسهم فكأنهم سألوا وقالوا: أي شيء حرم الله فأمر الله عز وجل نبيه محمداً ﷺ أن يقول لهم تعالوا تعال من الخاص الذي صار عاماً وأصله أن يقوله من كان في مكان عالٍ لمن هو أسفل منه ثم كثر واتسع فيه حتى عمَّ. وقيل أصله أن تدعو الإنسان إلى مكان مرتفع وهو من العلو وهو ارتفاع المنزلة فكأنه دعاه إلى ما فيه رفعة وشرف ثم كثر في الاستعمال، والمعنى: تعالوا وهلموا أيها القوم أتل عليكم يعني أقرأ ما حرم ربكم عليكم يعني الذي حرم ربكم عليكم حقاً يقيناً لا شك فيه ولا ظناً ولا كذباً كما تزعمون أنتم بل هو وحي أوحاه الله إليّ **﴿أن لا تشركوا به شيئاً﴾**.

فإن قلت: ترك الإشراك واجب فمامعنى قوله أن لا تشركوا به شيئاً لأنه كالتفصيل لما أجمله فيقوله حرم ربكم عليكم وذلك لا يجوز.

قلت الجواب عنه من وجوه:

الوجه الأول: أن يكون موضع أن رفع معناه هو أن لا تشركوا له.

الوجه الثاني: أن يكون محل النصب، واختلفوا في وجه انتصابه فقيل معناه حرم عليكم أن تشركوا وتكون لا صلة. وقيل: إن حرف لا على أصلها ويكون المعنى: أتل عليكم تحريم الشرك أي لا تشركوا ويكون المعنى أوصيكم أن لا تشركوا لأن قوله وبالوالدين إحساناً محمول على: أوصيكم بالوالدين إحساناً.

الوجه الثالث: أن يكون الكلام قد تم عند قوله حرم ربكم، ثم قال: عليكم أن لا تشركوا على الإغراء أو بمعنى فرض عليكم أن لا تشركوا به شيئاً ومعنى هذا الإشراك الذي حرمه الله ونهى عنه هو أن يجعل الله شريكه من خلقه أو يطيع مخلوقاً في معصية الخالق أو يريد بعبادته رياء وسمعة ومنه قوله: **﴿ولا يشرك بعبادة ربه أحد﴾**.

وقوله عز وجل: **﴿وبالوالدين إحساناً﴾** أي: وفرض عليكم ووصاكم بالوالدين إحساناً وإنما ثنى بالوصية بالإحسان إلى الوالدين لأن أعظم النعم على الإنسان نعمة الله لأنه هو الذي أخرجه من العدم إلى الوجود وخلقه وأوجده بعد أن لم يكن شيئاً ثم بعد نعمة الله نعمة الوالدين لأنهما السبب في وجود الإنسان ولما لهما عليه من حق التربية والشفقة والحفظ من المهالك في حال صغره **﴿ولا تقتلوا أولادكم من إملاق﴾** يعني من خوف الفقر، والإملاق: الإقتار. والمراد بالقتل، وأد البنات وهن أحياء فكانت العرب تفعل ذلك في الجاهلية فنهاهم الله تعالى عن

به، **﴿ فإنْ شهدُوا ﴾**، وهم كاذبون، **﴿ فلا تشهدْ ﴾**، أنت، **﴿ معهم ولا تَتّبعْ أهواءَ الذينَ كذَّبُوا بآياتِنَا والذينَ لا يُؤمنُون بالآخرة وَهُم بِرَبِّهِمْ يعدِلُون ﴾**، أي: يشركون.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ قلْ تعالَوا أتل ما حرّم ربُّكم عليكم أن لا تُشركوا به شيئاً ﴾، وذلك أن المشركين سألوا وقالوا: أيّ شيءٍ الذي حرّم الله تعالى؟ فقال عزّ وجلّ: **﴿ قل تَعالَوا أتلِ ﴾** أقرأ ما حرّم ربكم عليكم حقاً ويقيناً لا ظنّاً وكذباً كما تزعمون، فإن قيل: ما معنى قوله: **﴿ حرّم ربّكم عليكم ألاّ تشركوا به شيئاً ﴾**، والمحرّم هو الشرك لا ترك الشرك؟ قيل: موضع (أن) رفع معناه هو أن لا تشركوا، وقيل: محله نصب واختلفوا في وجه انتصابه، قيل:

ذلك وحرمه عليهم ﴿نحن نرزقكم وإياهم﴾ يعني لا تئدوا بناتكم خوف العيلة والفقر فإني رازقكم وإياهم لأن الله تعالى إذا تكفل برزق الوالد والولد وجب على الوالد القيام بحق الولد وتربيته والاتكال في أمر الرزق على الله عز وجل: ﴿ولا تقربوا الفواحش﴾ يعني الزنا ﴿ما ظهر منها وما بطن﴾ يعني علانيته وسره وكان أهل الجاهلية يستقبحون الزنا في العلانية ولا يرون به بأساً في السر فحرم الله تعالى الزنا في السر والعلانية وقيل إن الأولى حمل لفظ الفواحش على العموم في جميع الفواحش المحرمات والمنهيات فيدخل فيه الزنا وغيره لأن المعنى الموجب لهذا النهي هو كونه فاحشة فحمل اللفظ على العموم أولى من تخصيصه بنوع من الفواحش، وأيضاً فإن السبب إذا كان خاصاً لا يمنع من حمل اللفظ على العموم وفي قوله ما ظهر منها وما بطن دقيقة وهي أن الإنسان إذا احترز عن المعاصي في الظاهر ولم يحترز منها في الباطن دل ذلك على أن احترازه عنها ليس لأجل عبودية الله وطاعته فيما أمرها به أو نهى عنه ولكن لأجل الخوف من رؤية الناس ومذمتهم ومن كان كذلك استحق العقاب ومن ترك المعصية ظاهراً وباطناً لأجل خوف الله وتعظيماً لأمره استوجب رضوان الله وثوابه ﴿ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق﴾ حرم الله تعالى قتل النفس إلا بالحق وقتها من جملة الفواحش المتقدم ذكرها في قوله تعالى ﴿ولا تقربوا الفواحش﴾ وإنما أفرد قتل النفس بالذكر تعظيماً لأمر القتل وإنه من أعظم الفواحش والكبائر، وقيل: إنما أفرده بالذكر لأنه تعالى أراد أن يستثني منه ولا يمكن ذلك الاستثناء من جملة الفواحش إلا بالإفراد فلذلك فقال: ﴿لا تقتلوا النفس التي حرم الله قتلها إلا بالحق﴾ وهي التي أبيح قتلها من ردة أو قصاص أو زنا بعد إحصان وهو الذي يوجب الرجم.

(ق) عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ «لا يحل دم امرىء مسلم يشهد أن لا إله لا الله وأني رسول الله إلا بإحدى ثلاث: الثيب الزاني والنفس بالنفس والتارك لدينه المفارق للجماعة».

وقوله تعالى: ﴿ذلكم﴾ يعني ما ذكر من الأوامر والنواهي المحرمات ﴿وصاكم به﴾ يعني أمركم به وأوجبه عليكم ﴿لعلكم تعقلون﴾ يعني لكي تفهموا ما في هذه التكاليف من الفوائد والمنافع فتعملوا بها. قوله تعالى:

وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۖ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ

معناه حرّم عليكم أن تشركوا و(لا) صلة كقوله تعالى: ﴿ ما منعك أنْ لا تسجد ﴾ [الأعراف: ١٢] أي: منعك أن تسجد. وقيل: تمّ الكلام عند قوله: ﴿ حرّم ربكم ﴾ ثم قال: عليكم أن لا تُشركوا به شيئاً على وجه الإغراء. قال الزجّاج: يجوز أن يكون هذا محمولاً على المعنى، أي: أتل عليكم تحريم الشرك، وجائز أن يكون على معنى: أوصيكم ألّا تشركوا، ﴿ وبالوالدين إحساناً ولا تقتلوا أولادكم من إملاق ﴾، فقر، ﴿ نحن نرزقكم وإيّاهم ﴾، أي: لا تئدوا بناتكم خشية العيلة فإني رازقكم وإيّاهم، ﴿ ولا تَقْرَبُوا الفَوَاحِشَ ما ظهرَ منها وما بطَن ﴾، ما ظهر يعني العلانية وما بطن يعني السرّ، وكان أهل الجاهلية يستقبحون الزنا في العلانية ولا يرون به بأساً في السرّ فحرّم الله تعالى الزنا في العلانية والسرّ. وقال الضحاك: ما ظهر الخمر وما بطن الزنا. ﴿ ولا تقتلُوا النَّفْسَ التي حرّم اللّهُ إلاّ بالحق ﴾، حرّم الله تعالى قتل المؤمن والمعاهد إلاّ بالحق، إلاّ بما أُبيح قتله من ردّة أو قصاص أو زنا يوجب الرجم. أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحي ثنا أبو بكر أحمد بن الحسين الحيري ثنا حاجب بن أحمد الطوسي ثني محمد بن حمّاد ثنا أبو معاوية عن الأعمش عن عبد الله بن مرّة عن مسروق عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يحلّ دمُ امرىء يشهد أنْ لا إلّه إلاّ الله وأني رسول الله إلاّ بإحدَى ثلاث: الثّيب الزاني، والنّفسُ بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة»، ﴿ ذلِكُم ﴾ الذي ذكرت، ﴿ وصَّاكم به ﴾، أمركم به، ﴿ لعلّكم تعقلُون ﴾.

نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾

﴿**ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن**﴾ يعني ولا تقربوا مال اليتيم إلا بما فيه صلاحه وتثميره وتحصيل الربح له. قال مجاهد: هو التجارة فيه وقال الضحاك: هو أن يسعى له فيه. ولا يأخذ من ربحه شيئاً هذا إذا كان القيم بالمال غنياً غير محتاج فلو كان الوصي فقيراً فله أن يأكل بالمعروف ﴿**حتى يبلغ أشده**﴾ يعني احفظوا مال اليتيم إلى أن يبلغ أشده فإذا بلغ أشده فادفعوا إليه ماله.

فأما الأشد فهو استحكام قوة الشباب والسن حتى يتناهى في الشاب إلى حد الرجال. قال الشعبي ومالك: لأشد الحلم حين تكتب له الحسنات وتكتب عليه السيئات. وقال أبوالعالية: حتى يعقل وتجتمع قوته. وقال الكلبي: الأشد هو ما بين ثمان عشرة سنة إلى ثلاثين سنة وقيل إلى أربعين وقيل إلى ستين سنة وقال الضحاك: الأشد عشرون سنة، وقال السدي: الأشد ثلاثون سنة وقال مجاهد: الأشد ثلاث وثلاثون سنة وهذه الأقوال التي نقلت عن المفسرين في هذه الآية إنما هي نهاية الأشد لا ابتداؤه. والمراد بالأشد في هذه الآية، هو ابتداء بلوغ الحلم مع إيناس الرشد وهذا هو المختار في تفسير هذه الآية.

وقوله تعالى: ﴿**وأوفوا الكيل والميزان بالقسط**﴾ يعني بالعدل من غير زيادة ولا نقصان ﴿**لا نكلف نفساً إلا وسعها**﴾ يعني طاقتها وما يسعها في إيفاء الكيل والميزان وإتمامه. لم يكلف المعطي أن يعطي أكثر مما وجب عليه ولم يكلف صاحب الحق الرضا بأقل من حقه حتى لا تضيق نفسه عنه، بل أمر كل واحد بما يسعه مما لا حرج عليه فيه ﴿**وإذا قلتم فاعدلوا**﴾ يعني في الحكم والشهادة ﴿**ولو كان ذا قربى**﴾ يعني المحكوم عليه وكذا المشهود عليه، وقيل: إن الأمر بالعدل في القول هو أعم من الحكم والشهادة، بل يدخل فيه كل قول حتى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من غير زيادة فيه ولا نقصان وأداء الأمانة وغير ذلك من جميع الأقوال التي يعتمد فيها العدل والصدق ﴿**وبعهد الله أوفوا**﴾ يعني ما عهد إلى عباده ووصاهم به وأوجبه عليهم أو ما أوجبه الإنسان على نفسه كنذر ونحوه فيجب الوفاء به

﴿ **ولا تقرَبُوا مالَ اليتيم إلاّ بالتي هيَ أحسنُ** ﴾، يعني: بما فيه صلاحه وتثميره. وقال مجاهد: هو التجارة فيه. وقال الضحّاك: هو أن يبتغي له فيه ولا يأخذ من ربحه شيئاً، ﴿ **حتى يَبْلُغَ أشُدَّه** ﴾، قال الشعبي ومالك: الأشدّ: الحلم، حتى يكتب له الحسنات وتكتب عليه السيئات. قال أبو العالية: حتى يعقل وتجتمع قوته. وقال الكلبي: الأشدّ ما بين الثمانية عشر سنة إلى ثلاثين سنة. وقيل: إلى أربعين سنة. وقيل: إلى ستّين سنة. وقال الضحاك: عشرون سنة. وقال السدي: ثلاثون سنة. وقال مجاهد: الأشدّ ثلاث وثلاثون سنة. والأشد جمع شدّ، مثل قد وأقد، وهو استحكام قوة شبابه وسنّه، ومنه شدُّ النهار وهو ارتفاعه. وقيل بلوغ الأشد أن يؤنس رشده بعد البلوغ، وتقدير الآية: ولا تقربُوا مالَ اليتيم إلاّ بالتي هي أحسن على الأبد حتى يبلغ أشدّه، فادفعوا إليه ماله إن كان رشيداً، ﴿ **وأَوْفُوا الكَيْلَ والمِيْزَانَ بالقِسْط** ﴾، بالعدل، ﴿ **لا نُكلّفُ نفساً إلاّ وُسْعَها** ﴾، أي: طاقتها في إيفاء الكيل والميزان، لم يكلّف المعطي أكثر مما وجب عليه ولم يكلّف صاحب الحق الرضا بأقل من حقه حتى لا تضيق نفسه عنه، بل أمر كل واحد منهما بما يسعه مما لا حرج عليه فيه، ﴿ **وإذا قلتُم فاعْدِلُوا** ﴾، فاصدقوا في الحكم والشهادة، ﴿ **ولو كانَ ذا قُرْبَى** ﴾، ولو كان المحكوم والمشهود عليه ذا قرابة، ﴿ **وبعهد الله أَوْفُوا ذلِكُم وصّاكُمْ به لعلّكُم تذكّرون** ﴾، تتعظون، قرأ حمزة والكسائي وحفص تذكرون خفيفة الذال، كل القرآن، والآخرون بتشديدها

﴿ذلكم﴾ يعني الذي ذكر في هذه الآيات ﴿وصاكم به﴾ يعني بالعمل به ﴿لعلكم تذكرون﴾ يعني لعلكم تتعظون وتتذكرون فتأخذون ما أمرتكم به.

﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾﴾

قوله عز وجل ﴿وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه﴾ يعني وأن هذا الذي وصيتكم به وأمرتكم به في هاتين الآيتين هو صراطي يعني طريقي وديني الذي ارتضيته لعبادي مستقيماً يعني قويماً لا اعوجاج فيه فاتبعوه ويعني فاعملوا به. وقيل: إن الله تعالى لما بين في الآيتين المتقدمين ما وصى به مفصلاً أجمله في هذه الآية إجمالاً يقتضي دخول جميع ما تقدم ذكره فيه ويدخل فيه أيضاً جميع أحكام الشريعة وكل ما بينه رسول الله ﷺ من دين الإسلام هو المنهج القويم والصراط المستقيم والدين الذي ارتضاه الله لعباده المؤمنين وأمرهم باتباع جملته وتفصيله ﴿ولا تتبعوا السبل﴾ يعني الطرق المختلفة والأهواء المضلة والبدع الرديئة وقيل السبل المختلفة مثل: اليهود والنصرانية وسائر الملل والأديان المخالفة لدين الإسلام ﴿فتفرق بكم عن سبيله﴾ يعني فتميل بكم هذه الطرق المختلفة المضلة عن دينه وطريقه الذي ارتضاه لعباده، روى البغوي بسنده عن ابن مسعود قال: خط لنا رسول الله ﷺ خطاً ثم قال هذا سبيل الله ثم خط خطوطاً عن يمينه وعن شماله وقال هذه سبل على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه وقرأ وإن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل الآية ﴿ذلكم وصاكم به﴾ يعني باتباع دينه وصراطه الذي لا اعوجاج فيه ﴿لعكلم تتقون﴾ يعني الطرق المختلفة والسبل المضلة. قال ابن عباس: هذه الآيات محكمات في جميع الكتب لم ينسخهن شيء وهن من محرمات على بني آدم كلهم وهن أم الكتاب من عمل بهن دخل الجنة ومن تركهن دخل النار. وعن ابن مسعود قال: من سرَّه أن ينظر إلى الصحيفة التي عليها خاتم محمد ﷺ فليقرأ هؤلاء الآيات ﴿قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم﴾ الآيات ـ إلى قوله ـ ﴿لعلكم تتقون﴾ أخرجه الترمذي وقال حديث حسن غريب.

قوله تعالى: ﴿ثم آتينا موسى الكتاب﴾ يعني التوراة.

قال ابن عباس: هـذه الآيات محكمات في جميع الكتب، لم ينسخهنّ شيء وهنّ محرّمات على بني آدم كلهم، وهنّ أم الكتاب مَن عمل بهنّ دخل الجنة، ومَن تركهنّ دخل النار.

﴿ وأنّ هـذا ﴾، أي: هذا الـذي أوصـاكم بـه في هـاتين الآيتين، ﴿ صِرَاطي ﴾، طريقي وديني، ﴿ مستقيماً ﴾، مستوياً قويماً، ﴿ فاتّبِعُوه ﴾، قرأ حمزة والكسـائي، وإن بكسر الألف على الاستئناف وقرأ الآخرون بفتح الألف، قال الفرّاء: والمعنى وأتلُ عليكم أنّ هذا صراطي مستقيماً وقرأ ابن عامر ويعقوب بسكون النون.

﴿ ولا تتّبِعُوا السُّبل ﴾، أي: الطرق المختلفة التي عدا هذا الطريق، مثل اليهودية والنصرانية وسائر المِلَل، وقيل: الأهواء والبِدَع، ﴿ فتفرّق ﴾، فتميل، ﴿ بكم ﴾، وتشتّت، ﴿ عن سبيله ﴾، عن طريقه ودينه الذي ارتضى، وبه أوصى، ﴿ ذلكم ﴾، الذي ذكرنا، ﴿ وصّاكم بهِ لعلّكم تتّقُون ﴾. أخبرنا أبو بكر محمد بن عبد الصمد الراني المعروف بأبي بكر بن الهيثم أخبر الحاكم أبو الفضل محمد بن الحسين الحدادي ثنا أبو بكر محمد بن يحيى بن خالد ثنا أبو يعقوب إسحق بن إبراهيم الحنظلي ثنا عبد الرحمن بن مهدي عن حمّاد بن زيد عن عاصم بن بهدلة عن أبي وائل عن عبد الله قال: خطّ لنا رسولُ الله ﷺ خطّاً ثم قال: «هذا سبيلُ اللّهِ، ثمّ خطّ خطوطاً عن يمينه وعن

فإن قلت إتيان موسى الكتاب كان قبل نزول القرآن وحرف ثم للتعقيب فما معنى ذلك؟ قلت دخلت ثم لتأخير الخير لا لتأخير النزول والمعنى ﴿قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم﴾ وهو كذا وكذا إلى قوله تعالى لعلكم تتقون ثم أخبركم أنا آتينا موسى الكتاب وقيل إن المحرمات المذكورة في قوله تعالى: ﴿قل تعالوا اتلُ ما حرم ربكم عليكم﴾ محرمات على جميع الأمم وجميع الشرائع فتقدير الكلام: ذلك وصاكم به يا بني آدم قديماً وحديثاً ثم بعد ذلك آتينا موسى الكتاب يعني بعد إيجاب هذه المحرمات وقيل معناه ﴿قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم﴾ ثم قال بعد ذلك يا محمد إنا آتينا موسى الكتاب فحذف لفظة قل لدلالة الكلام عليها.

وقوله تعالى: ﴿تماماً على الذي أحسن﴾ اختلف أهل التفسير فيه فقيل معناه تماماً على المحسنين من قومه فيكون الذي بمعنى أي تماماً على من أحسن من قومه لأنه كان منهم محسن ومسيء وعلى قراءة ابن مسعود تماماً على الذين أحسنوا، وقيل: معناه تماماً على كل من أحسن أي أتممنا فضيلة موسى على المحسنين وهم الأنبياء والمؤمنون أي أتممنا فضله عليهم بالكتاب، وقيل: الذي أحسن هو موسى فيكون الذي بمعنى ما أي على ما أحسن وتقديره وآتينا موسى الكتاب إتماماً للنعمة عليه لإحسانه في الطاعة والعبادة وتبليغ الرسالة وأداء الأمر. وقيل الإحسان بمعنى العلم وتقديره آتينا موسى الكتاب تماماً على الذي أحسن موسى من العلم والحكمة زيادة له على ذلك وقيل معناه تماماً مني على إحساني إلى موسى ﴿وتفصيلاً لكل شيء﴾ يعني: وفيه بيان لكل شيء يحتاج إليه من شرائع الدين وأحكامه ﴿وهدى﴾ يعني: وفيه هدى من الضلالة ﴿ورحمة﴾ يعني: إنزاله عليهم رحمة مني عليهم ﴿لعلهم بلقاء ربهم يؤمنون﴾ قال ابن عباس: لكي يؤمنوا بالبعث ويصدقوا بالثواب والعقاب.

وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِى

شماله، وقال: هذه سُبلٌ على كلِّ سبيلٍ منها شيطانٌ يدعو إليه» ثم قرأ: ﴿ وأنّ هذا صراطي مستقيماً فاتّبِعُوه ﴾ الآية.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ ثمّ آتينا موسى الكتابَ ﴾، فإن قيل: لِمَ قال: ﴿ ثم آتينا ﴾ وحرف ﴿ ثم ﴾ للتعقيب وإيتاء موسى الكتاب كان قبل مجيء القرآن؟ قيل: معناه ثم أخبُركم أنّا آتينا موسى الكتاب، فأدخل ﴿ ثم ﴾ لتأخير الخبر لا لتأويل النزول. ﴿ تَماماً على الذي أحْسَنَ ﴾، اختلفوا فيه، قيل: تماماً على المحسنين من قومه، فيكون ﴿ الذي ﴾ بمعنى من، أي: على مَن أحسن من قومه، وكان منهم محسن ومسيء، يدلّ عليه قراءة ابن مسعود: «على الذين أحسنوا»، وقال أبو عبيدة: معناه على كل مَن أحسن، أي: أتممنا فضيلة موسى بالكتاب على المحسنين، يعني: أظهرنا فضله عليها، والمحسنون هم الأنبياء والمؤمنون، وقيل: الذي أحسن هو موسى، و﴿ الذي ﴾ بمعنى ما، أي: على ما أحسن موسى، تقديره آتيناه الكتاب يعني التوراة إتماماً عليه للنعمة لإحسانه في الطاعة والعبادة وتبليغ الرسالة وأداء الأمر. وقيل: الإحسان بمعنى العلم، وأحسن بمعنى علم، ومعناه تماماً على الذي أحسن موسى من العلم والحكمة، أي آتيناه الكتاب زيادة على ذلك. وقيل: معناه تماماً منّي على إحساني إلى موسى. ﴿ وتفصيلاً ﴾، بياناً ﴿ لكلِّ شيء ﴾، يحتاج إليه من شرائع الدين، ﴿ وهُدىً ورحمةً ﴾، هذا في صفة التوراة، ﴿ ولعلّهم بلقاء ربِّهم يُؤمنُون ﴾، قال ابن عباس: كي يؤمنوا بالبعث ويصدقوا بالثواب والعقاب.

ٱلَّذِينَ يَصۡدِفُونَ عَنۡ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يَصۡدِفُونَ ﴿١٥٧﴾

قوله عز وجل: ﴿وهذا كتاب أنزلناه مبارك﴾ يعني: القرآن لأنه كثير الخير والنفع والبركة ولا يتطرق إليه نسخ ﴿فاتبعوه﴾ يعني: فاعملوا بما فيه من الأوامر والنواهي والأحكام ﴿واتقوا﴾ يعني مخالفته ﴿لعلكم ترحمون﴾ يعني: ليكن الغرض بالتقوى رحمة الله وقيل معناه لكي ترحموا على جزاء التقوى ﴿أن تقولوا﴾ يعني لئلا تقولوا وقيل معناه كراهية أن تقولوا يعني أنزلنا إليكم الكتاب كراهية أن تقولوا ﴿إنما أنزل الكتاب﴾ وقيل: يجوز أن تكون أن متعلقة بما قبلها فيكون المعنى واتقوا أن تقولوا وهذا خطاب لأهل مكة والمعنى واتقوا يا أهل مكة أن تقولوا إنما أنزل الكتاب والكتاب اسم جنس لأن المراد به التوراة والإنجيل ﴿على طائفتين من قبلنا﴾ يعني اليهود والنصارى ﴿وإن كنا﴾ أي: وقد كنا وقيل وإنه كنا ﴿عن دراستهم﴾ يعني قراءتهم ﴿لغافلين﴾ يعني: لا علم لنا بما فيها لأنها ليست بلغتنا. والمراد بهذه الآية إثبات الحجة على أهل مكة وقطع عذرهم بإنزال القرآن على محمد ﷺ بلغتهم والمعنى: وأنزلنا القرآن بلغتهم لئلا يقولوا يوم القيامة إن التوراة والإنجيل أنزلا عى طائفتين من قبلنا بلسانهم ولغتهم فلم نعرف ما فيهما فقطع الله عذرهم بإنزال القرآن عليهم بلغتهم ﴿أو تقولوا لو أنا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم﴾ وذلك أن جماعة من الكفار قالوا لو أنزل علينا ما أنزله على اليهود والنصارى لكنّا خيراً منهم وأهدى وإنما قالوا ذلك لاعتمادهم على صحة عقولهم وجودة فطنهم وذهنهم قال الله عز وجل: ﴿فقد جاءكم بينة من ربكم﴾ وهو رحمة ونعمة أنعم الله بها عليكم ﴿فمن أظلم﴾ أي لا أحد أظلم أو أكفر ﴿ممن كذب بآيات الله وصدف عنها﴾ يعني وأعرض عنها ﴿سنجزي الذين يصدفون عن آياتنا سوء العذاب﴾ يعني أسوأ العذاب وأشده ﴿بما كانوا يصدفون﴾ أي ذلك العذاب جزاؤهم بسبب إعراضهم وتكذيبهم بآيات الله قوله تعالى:

هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ يَأۡتِيَ رَبُّكَ أَوۡ يَأۡتِيَ بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَۗ يَوۡمَ يَأۡتِي بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفۡسًا إِيمَٰنُهَا لَمۡ تَكُنۡ ءَامَنَتۡ مِن قَبۡلُ أَوۡ كَسَبَتۡ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيۡرٗاۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾

﴿هل ينظرون﴾ يعني: هل ينتظر هؤلاء بعد تكذيبهم الرسل وإنكارهم القرآن وصدهم عن آيات الله وهو استفهام

﴿ وهذا ﴾، يعني: القرآن، ﴿ كتابٌ أنزلناه ﴾، إليك، ﴿ مباركٌ فاتّبعُوه ﴾، فاعملوا بما فيه، ﴿ واتّقُوا ﴾، وأطيعوا، ﴿ لعلّكم تُرحمُون ﴾.

﴿ أن تقولُوا ﴾، يعني: لئلا تقولوا، كقوله تعالى: ﴿ يبيّنُ الله لكم أن تَضِلُّوا ﴾ [النساء: ١٧٦]، أي: لئلا تضلّوا وقيل: معناه أنزلناه كراهة أن تضلّوا ﴿ أن تقُولوا ﴾، قال الكسائي: معناه اتقوا أن تقولوا يا أهل مكة، ﴿ إنّما أُنزل الكتابُ على طائفتَيْنِ من قبلِنا ﴾، يعني: اليهود والنصارى، ﴿ وإن كنّا ﴾، وقد كنّا، ﴿ عن دِراستهم ﴾، قراءتهم، ﴿ لغافلين ﴾، لا نعلم ما هي، معناه أنزلنا عليكم القرآن لئلا تقولوا إن الكتاب أُنزل على مَن قبلنا بلسانهم ولغتهم فلم نعرف ما فيه وغفلنا عن دراسته، فتجعلوه عذراً لأنفسكم.

﴿ أو تقولُوا لو أنّا أُنزل علينا الكتابُ لكُنّا أهدى منهم ﴾، وقد كان جماعة من الكفّار قالوا ذلك لو أنّا أُنزل علينا ما أُنزل على اليهود والنصارى لكنّا خيراً منهم، قال الله تعالى: ﴿ فقدْ جاءكُمْ بيّنةٌ من ربِّكم ﴾، حجة واضحة بلغة تعرفونها، ﴿ وهدىً ﴾، بيانَ، ﴿ ورحمةٌ ﴾، ونعمة لم أتبعه، ﴿ فمَن أظلمُ مِمّن كذّبَ بآياتِ اللّهِ وصدفَ ﴾، أعرض، ﴿ عنها سَنَجْزِي الذينَ يَصْدِفُونَ عن آياتِنا سُوءَ العَذاب ﴾، أي شدّة العذابِ، ﴿ بما كانُوا يَصْدِفُون ﴾، يعرضون.

قوله تعالى: ﴿ هلْ ينظرُون ﴾، أي: هل ينتظرون بعد تكذيبهم الرّسل وإنكارهم القرآن، ﴿ إلاّ أن تأتيَهُمُ

معناه النفي وتقديره الآية أنهم لا يؤمنون بك إلا إذا جاءتهم إحدى هذه الأمور الثلاث فإذا جاءتهم إحداها آمنوا وذلك حين لا ينفعهم إيمانهم ﴿**إلا أن تأتيهم الملائكة**﴾ يعني: لقبض أرواحهم وقيل أن تأتيهم بالعذاب ﴿**أو يأتي ربك**﴾ يعني: للحكم وفصل القضاء بين الخلق يوم القيمة وقد تقدم الكلام في معنى الآية في سورة البقرة عند قوله ﴿هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام﴾ بما فيه كفاية وإن المجيء والذهاب على الله لمحال فيجب إمرارها بلا تكييف ﴿**أو يأتي بعض آيات ربك**﴾ قال جمهور المفسرين: هو طلوع الشمس من مغربها، ويدل على ذلك ما روي عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال «ثلاث إذا خرجن لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل طلوع الشمس من مغربها والدجال ودابة الأرض» أخرجه مسلم. عن أبي سعيد عن النبي ﷺ في قوله «أو يأتي بعض آيات ربك» قال: «طلوع الشمس من مغربها» أخرجه الترمذي وقال حديث غريب (م) عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال «من تاب قبل طلوع الشمس من مغربها تاب الله عليه» عن صفوان بن عسال المراد قال: قال رسول الله ﷺ «باب من قبل المغرب مسيرة عرضه أو قال يسير الراكب في عرضه أربعين أو سبعين سنة خلقه الله تعالى يوم خلق السموات والأرض مفتوحاً للتوبة لا يغلق حتى تطلع الشمس منه» أخرجه الترمذي وقال حديث حسن صحيح.

(ق) عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها فإذا رآها الناس آمن من عليها» وفي رواية «فإذا طلعت ورآها الناس آمنوا أجمعون فذلك حين لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً» (م) عن حذيفة بن أسد الغفاري قال اطلع رسول الله ﷺ علينا ونحن نتذاكر فقال ما تذكرون قلنا الساعة فقال «إنها لن تقوم حتى تروا قبلها عشر آيات فذكر: الدخان والدجال والدابة وطلوع الشمس من مغربها ونزول عيسى ابن مريم وثلاث خسوف خسف بالمشرق وخسف بالمغرب وخسف بجزيرة العرب وآخر ذلك نار تطرد الناس إلى محشرهم» (م) عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال «بادروا بالأعمال قبل ست: طلوع الشمس من مغربها والدخان والدجال والدابة وخويصة أحدكم وأمر العامة» (م) عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: حفظت من رسول الله ﷺ حديثاً لم أنسه بعد سمعت رسول الله ﷺ يقول «إن أول الآيات خروجاً طلوع الشمس من مغربها وخروج الدابة على الناس ضحى وأيهما كانت قبل صاحبتها فالأخرى على أثرها قريباً» وروى الطبري بسنده عن عبد الله بن مسعود في تفسير هذه الآية قال: «تصبحون والشمس والقمر من هاهنا من قبل المغرب كالبعيرين القرينين» زاد في رواية عنه «فذلك حين لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً» وبسنده عن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ يوماً «أتدرون أين تذهب هذه الشمس قالوا الله ورسوله أعلم قال إنها تذهب إلى مستقرها تحت العرش فتخر ساجدة فلا تزال كذلك حتى يقال لها ارتفعي من حيث جئتِ فتصبح طالعة من مطلعها ثم تجري حتى تنتهي إلى

الملائكةُ ﴾، لتقبض أرواحهم، وقيل: بالعذاب، قرأ حمزة والكسائي (يأتيهم) بالياء هنا وفي النحل، والباقون بالتاء، ﴿ **أو يأتِيَ ربُك** ﴾، بلا كيف لفصل القضاء بين خلقه في موقف القيامة، ﴿ **أو يأتي بعضُ آياتِ ربّك** ﴾، يعني طلوع الشمس من مغربها، عليه أكثر المفسّرين ورواه أبو سعيد الخدري مرفوعاً. ﴿ **يوم يأتي بعضُ آياتِ ربِّك لا ينفعُ نفساً إيمانُها لم تكنْ آمنتْ منْ قبلُ** ﴾، أي: لا ينفع الإيمان عند ظهور الآية التي تضطرهم إلى الإيمان، ﴿ **أو كسبتْ في إيمانها خيراً** ﴾، يريد: لا يُقبل إيمان كافر ولا توبة فاسق ﴿ **قلِ انْتَظِرُوا** ﴾، يا أهل مكة، ﴿ **إنّا منتظِرُون** ﴾، بكم العذاب أخبرنا أبو علي حسّان بن سعيد المنيعي ثنا أبو طاهر محمد بن محمد بن محمش الزيادي ثنا أبو بكر محمد بن الحسين القطّان ثنا أحمد بن يوسف السلمي ثنا عبد الرزّاق ثنا معمر عن همّام بن منبّه ثنا أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقوم الساعةُ حتى تَطْلُعَ الشمسُ من مغربها فإذا طلعتْ ورَآها الناسُ آمنُوا أجمعين، وذلك حين لا ينفعُ نفساً إيمانُها لم تكنْ آمنتْ منْ قبلُ أو كسبتْ في إيمانها خيراً»،

مستقرها تحت العرش فتخر ساجدة فلا تزال كذلك حتى يقال لها ارتفعي فارجعي من حيث جئت فتصبح طالعة من مطلعها لا تنكر الناس منها شيئاً حتى تنتهي فتخر ساجدة في مستقرها تحت العرش فيقال لها اطلعي من مغربك فتصبح طالعة من مغربها» قال رسول الله ﷺ «أتدرون أي يوم ذلك أقالوا: الله ورسوله أعلم. قال ذلك يوم لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً».

وبسنده عن أبي ذر قال: كنت رديف النبي ﷺ ذات يوم على حمار «فنظر إلى الشمس حين غربت فقال إنها تغرب في عين حمئة تنطلق حتى تخر لربها ساجدة تحت العرش حتى يأذن لها فإذا أراد أن يطلعها من مغربها حبسها فتقول يا رب إن مسيري بعيد فيقول لها اطلعي من حيث غربت فذلك حين لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل» وروي بسنده عن ابن عباس قال: خرج رسول الله ﷺ عشية من العشيات فقال لهم «عباد الله توبوا إلى الله قبل أن يأتيكم بعذاب فإنكم توشكون أن تروا الشمس من قبل المغرب فإذا فعلت حبست التوبة وطوي العمل» فقال الناس: هل لذلك من آية يا رسول الله؟ فقال رسول الله ﷺ: «إن آية تلك الليلة أن تطول كقدر ثلاث ليال فيستيقظ الذين يخشون ربهم فيصلون له ثم يقضون صلاتهم والليل مكانه لم ينقص ثم يأتون مضاجعهم فينامون حتى إذا استيقظوا والليل مكانه فإذا رأوا ذلك خافوا أن يكون ذلك بين يدي أمر عظيم فإذا أصبحوا فطال عليهم رأت أعينهم طلوع الشمس فبينما هم ينظرونها إذ طلعت عليهم من قبل المغرب فإذا فعلت ذلك لم ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل» قال ابن عباس: لا ينفع مشركاً إيمانه عند الآيات وينفع أهل الإيمان عند الآيات إن كانوا اكتسبوا خيراً قبل ذلك. وقال ابن الجوزي قيل إن الحكمة في طلوع الشمس من مغربها أن الملحدة المنجمين زعموا أن ذلك لا يكون فيريهم الله قدرته فيطلعها من المغرب كما أطلعها من المشرق فيتحقق عجزهم وقيل بل ذلك بعض الآيات الثلاثة: الدابة ويأجوج ومأجوج وطلوع الشمس من مغربها. يروى عن ابن مسعود أنه قال: التوبة معروضة على ابن آدم إن قبلها ما لم تخرج إحدى ثلاث: الدابة وطلوع الشمس من مغربها أو يأجوج ومأجوج. ويروى عن عائشة قالت: إذا خرج أول الآيات طرحت التوبة وحبست الحفظة وشهدت الأجساد على الأعمال. ويروى عن أبي هريرة في قوله تعالى أو يأتي بعض الآيات ربك قال هي مجموع الآيات الثلاث: طلوع الشمس من مغربها والدجال ودابة الأرض ورواه مرفوعاً عن النبي ﷺ قال «ثلاث إذا خرجن لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً طلوع الشمس من مغربها والدجال ودابة الأرض» وأصح الأقوال في ذلك ما تظاهرت عليه الأحاديث الصحيحة وثبت عن النبي ﷺ أنه طلوع الشمس من مغربها وقوله تعالى: ﴿**يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل**﴾ يعني لا ينفع من كان مشركاً إيمانه ولا تقبل توبة فاسق عند ظهور هذه الآية العظيمة التي تضطرهم إلى الإيمان والتوبة ﴿**أو كسبت في إيمانها خيراً**﴾ يعني أو عملت قبل ظهور هذه الآية خيراً من عمل صالح وتصديق. قال الضحاك: من أدركه

أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحي أخبرنا أبو بكر أحمد بن الحسن الحيري أنا حاجب بن أحمد الطوسي أنا محمد بن حمّاد ثنا أبو معاوية عن الأعمش عن عمرو بن مرّة عن عبيدة عن أبي موسى الأشعري عن النبي ﷺ «أن الله يبسط يده بالليل ليتوب مُسيء النهار ويبسط يده بالنهار ليتوب مُسيء الليل حتى تَطْلُعَ الشمسُ من مغربها».

أخبرنا عبد الواحد المليحي ثنا أبو منصور محمد بن محمد بن سمعان أخبرنا أبو جعفر محمد بن أحمد بن عبد الجبار الزياتي أنا حميد بن زنجويه أنا النضر بن شميل أنا هشام عن ابن سيرين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ تابَ قبلَ أنْ تطلعَ الشمسُ من مغربها تابَ اللَّهُ عليه»، أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أبو منصور السمعاني أنا أبو جعفر الزياتي أنا حميد بن زنجويه أنا أحمد بن عبد الله أنا حمّاد بن زيد أنا عاصم بن أبي النجود عن زِرّ بنِ حُبيش قال: أتيتُ صفوان بن عسال المرادي فذكر عن رسول الله ﷺ: «أنّ الله عَزّ وجلّ جعل

بعض الآيات وهو على عمل صالح مع إيمانه قبل الله منه العمل الصالح بعد نزول الآية كما قبل منه قبل ذلك فأما من آمن من شرك أو تاب من معصية عند ظهور هذه الآية فلا يقبل منه لأنها حالة اضطرار كما لو أرسل الله عذاباً على أمة فآمنوا وصدقوا فإنها لا ينفعهم إيمانهم ذلك لمعاينتهم الأهوال والشدائد التي تضطرهم إلى الإيمان والتوبة وقوله ﴿**قل انتظروا**﴾ يعني ما وعدتم به من مجيء الآية ففيه وعيد وتهديد ﴿**إنا منتظرون**﴾ يعني ما وعدكم ربكم من العذاب يوم القيامة أو قبله في الدنيا. قال بعض المفسرين: وهذا إنما ينتظره من تأخر في الوجود من المشركين والمكذبين لمحمد ﷺ إلى ذلك الوقت والمراد بهذا أن المشركين إنما يمهلون قدر مدة الدنيا فإذا ماتوا أو ظهرت الآيات لم ينفعهم الإيمان وحلت بهم العقوبة اللازمة أبداً. وقيل إن قوله ﴿**قل انتظروا إنا منتظرون**﴾ المراد به الكف عن قتال الكفار فتكون الآية منسوخة بآية القتال وعلى القول الأول تكون الآية محكمة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿**إن الذين فرقوا**﴾ وقرىء فارقوا ﴿**دينهم وكانوا شيعاً**﴾ يعني أحزاباً متفرقة في الضلالة ومعنى فرقوا دينهم أنهم لم يجتمعوا عليه وكانوا مختلفين فيه فمن قرأ وفرقوا دينهم يعني جعلوا دينهم وهو دين إبراهيم الحنيفية السهلة أدياناً مختلفة كاليهودية والنصرانية وعبادة الأصنام ونحو ذلك من الأديان المختلفة، ومن قرأ فارقوا دينهم قال: معناه باينوه وتركوه من المفارقة للشيء. وقيل: إن معنى القراءتين يرجع إلى شيء واحد في الحقيقة وهو أن من فرق دينه فأمر ببعض وأنكر بعضاً فارق دينه في الحقيقة ثم اختلفوا في المعنى بهذه الآية، فقال الحسن: هم جميع المشركين لأن بعضهم عبدوا الأصنام وقالوا هؤلاء شفعاؤنا عند الله وبعضهم عبدوا الملائكة وقالوا إنهم بنات الله وبعضهم عبدوا الكواكب فكان هذا تفريق دينهم. وقال مجاهد: هم اليهود. وقال ابن عباس وقتادة والسدي والضحاك: هم اليهود والنصارى لأنهم تفرقوا فكانوا فرقاً مختلفة. وقال أبو هريرة: في هذه الآية هم أهل الضلالة من هذه الأمة وروى ذلك مراوعاً قال: قال رسول الله ﷺ «إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء وليسوا منك هم أهل البدع وأهل الشبهات وأهل الضلالة من هذه الأمة» أسنده الطبري، فعلى هذا يكون المراد من هذه الآية الحث على أن تكون كلمة المسلمين واحدة وأن لا يتفرقوا في الدين ولا يبتدعوا البدع المضلة. وروي عن عمر بن الخطاب أن رسول الله ﷺ قال لعائشة: «إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً هم أصحاب البدع والأهواء من هذه الأمة»

بالمغرب باباً مسيرة عرضه سبعُون عاماً للتوبة لا يُغلق ما لَمْ تَطْلُع الشمسُ مِنْ قِبَلِهِ»، وذلك قول الله تعالى: ﴿ **يوم يأتي بعض آياتِ ربِّك لا ينفعُ نفساً إيمانُها لم تكن آمنت من قبل** ﴾، وروَى أبو حازم عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثٌ إذا خرجنَ لا ينفعُ نفساً إيمانُها لم تكنْ آمنتْ من قبل أو كسبتْ في إيمانِها خيراً: الدجال، والدابّة، وطلوع الشمس من مغربها».

قوله عزّ وجلّ: ﴿ **إن الذين فرّقوا دينَهم** ﴾، قرأ حمزة والكسائي: « فارقوا »، بالألف هنا وفي سورة الروم، أي: خرجوا من دينهم وتركوه وقرأ الآخرون: «فــرّقوا» مشدّداً، أي: جعلوا دينَ الله وهو واحد دين إبراهيم عليه السلام الحنيفية، أدياناً مختلفة فتهوّد قوم وتنصّر قوم، يدلّ عليه قوله عزّ وجلّ: ﴿ **وكانُوا شِيَعاً** ﴾، أي: صاروا فرقاً مختلفة وهم اليهود والنصارى في قول مجاهد وقتادة والسدي، وقيل: هم أصحاب البِدَع والشُّبُهات من هذه الأمة. ورُوِيَ عن عمر بن الخطاب أن رسول الله ﷺ قال لعائشة: «يا عائشةُ إنّ الذين فارقُوا دينَهم وكانوا شِيَعاً هم أصحاب البِدَع والشُّبهات من هذه الأمّة» حدّثنا أبو الفضل زياد بن محمد زياد الخنفي أنا أبو محمد عبد الرحمن بن أحمد بن محمد الأنصاري أنا أبو عبيد الله محمد بن عقيل الأزهري البلخي أنا الزبادي أنا أحمد بن منصور أنا الضحاك بن

ذكره البغوي بغير سند عن العرباض بن سارية قال: صلى بنا رسول الله ﷺ ذات يوم ثم أقبل بوجهه علينا فوعظنا موعظة بليغة ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب فقال رجل: يا رسول الله كأن هذه موعظة مودِّع فما تعهد إلينا؟ فقال «أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة وإن تأمر عليك عبد حبشي فإنه من يعيش منكم بعدي فسيرى اختلافاً كثيراً فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين؛ تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة» أخرجه أبو داود والترمذي عن معاوية قال: قام فينا رسول الله ﷺ فقال «ألا إن من قبلكم من أهل الكتاب افترقوا على ثنتين وسبعين فرقة وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين ثنتان وسبعون في النار وواحدة في الجنة وهي الجماعة «زاد في رواية» وإنه سيخرج في أمتي أقوام تتجارى بهم الأهواء كما يتجارى الكلب بصاحبه لا يبقى منه عرق ولا مفصل إلا دخله» أخرجه أبو داود عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله ﷺ «إن بني إسرائيل تفرقت على ثنتين وسبعين ملة وستفترق أمتي عى ثلاث وسبعين ملة كلها في النار إلا ملة واحدة قالوا من هي يا رسول الله قال من كان على ما أنا عليه وأصحابي» أخرجه الترمذي. قال الخطابي في هذا الحديث دلالة على أن هذه الفرق غير خارجة من الملة والدين إذ جعلهم من أمته. وقوله تتجارى بهم الأهواء كما يتجارى الكلب بصاحبه، التجاري تفاعل من الجري وهو الوقوع في الأهواء الفاسدة والبدع المضلة تشبيهاً بجري الفرس والكلب. قال ابن مسعود «إن أحسن الحديث كتاب الله وأحسن الهدى هدى محمد ﷺ وشر الأمور محدثاتها» ورواه جابر عن النبي ﷺ مرفوعاً.

وقوله تعالى: ﴿لست منهم في شيء﴾ يعني: في قتال الكفار فعلى هذا تكون الآية منسوخة بآية القتال وهذا على قول من يقول إن المراد من الآية اليهود والنصارى والكفار، ومن قال: المراد من الآية أهل الأهواء والبدع من هذه الأمة قال: معناه لست منهم في شيء أي أنت منهم بريء وهم منك برآء. تقول العرب إن فعلت كذا فلست منك ولست مني أي كل واحد منا بريء من صاحبه ﴿إنما أمرهم إلى الله﴾ يعني في الجزاء والمكافأة ﴿ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون﴾ يعني إذا وردوا القيامة.

مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾ قُلْ إِنَّنِى

مخلد أنا ثور بن يزيد بن معدان عن عبد الرحمن بن عمر السلمي عن العرباض بن سارية قال: (صلّى بنا رسول الله ﷺ الصبح فوعظنا موعظة بليغة ذرفت منها العيون، ووجلت منها القلوب)، وقال قائل: يا رسول الله كأنّها موعظةُ مودِّعٍ فأَوْصِنَا: فقال: «أُوصِيْكُم بتقوى الله والسمعِ والطّاعةِ وإنْ كان عبداً حبشياً، فإن مَن يعيش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بسُنّتي وسُنّة الخلفاء الراشدين المهديين، عضُّوا عليها بالنواجِذِ وإيّاكم ومُحدثات الأمور، فإنّ كل بدعة ضلالة». ورُوِيَ عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ بني إسرائيل تفرّقتْ على اثنينِ وسبعين ملّة، وتفرّق أمتي على ثلاثٍ وسبعين مِلّة، كلهم في النار إلّا واحدة»، قالوا: مَن هي يا رسول الله؟ قال: «ما أنا عليه وأصحابي»، قال عبد الله بن مسعود: (فإن أحسنَ الحديث كتابُ الله، وأحسنَ الهدي هديُ محمّدٍ ﷺ، وشرُّ الأمورِ مُحدثاتُها). ورواه جابر مرفوعاً إلى رسول الله ﷺ. قوله عزّ وجلّ: ﴿ لَسْتَ منهمْ في شيء ﴾، قيل: لست من قتالهم في شيء، نسختها آية القتال، وهذا على قول مَن يقول: المراد منه اليهود والنصارى، ومَن قال: أراد بالآية أهل الأهواء قال: المراد من قوله لست منهم في شيء أي أنتَ منهم بريء وهم منك براء، تقول العرب: إن فعلتَ كذا فلست منّي ولستُ منكَ أي: كل واحد منّا بريء من صاحبه، ﴿ إنّما أَمْرُهُمْ إلى اللّهِ ﴾، يعني: في الجزاء والمكافآت، ﴿ ثم يُنَبِّئُهُمْ بما كانُوا يفعلُون ﴾، إذا رُدُّوا للقيامة.

﴿هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي
وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها﴾ يعني مثلها في مقابلتها واختلفوا في هذه الحسنة والسيئة على قولين:

أحدهما: أن الحسنة قول لا إله لا الله والسيئة هي الشرك بالله، وأورد على هذا القول: إن كلمة التوحيد لا مثل لها حتى يجعل جزاء قائلها عشر أمثالها وأجيب عنه بأن جزاء الحسنة قدر معلوم عند الله فهل يجازى على قدر إيمان المؤمن بما يشاء من الجزاء وإنما قال عشر أمثالها للترغيب في الإيمان لا للتحديد وكذلك جزاء السيئة بمثلها من جنسها.

والقول الثاني: إن اللفظ عام في كل حسنة يعملها العبد أو سيئة، وهذا أولى. لأن حمل اللفظ على العموم أولى قال بعضهم: التقدير بالعشرة ليس التحديد لأن الله يضاعف لمن يشاء في حسناته إلى سبعمائة ويعطي من يشاء بغير حساب وإعطاء الثواب لعامل الحسنة فضل من الله تعالى هذا مذهب أهل السنة وجزاء السيئة بمثلها عدل منه سبحانه وتعالى وهو قوله تعالى: ﴿وهم لا يظلمون﴾ يعني لا ينقص من ثواب الطائع ولا يزاد على عذاب العاصي (ق) عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «إذا أحسن أحدكم إسلامه فكل حسنة يعملها تكتب له بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف وكل سيئة يعملها تكتب له بمثلها حتى يلقى الله تعالى» (م) عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «يقول الله تبارك وتعالى من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها وأزيد من جاء بالسيئة فجزاء سيئة مثلها أو أغفر ومن تقرب مني شبراً تقربت منه ذراعاً ومن تقرب مني ذراعاً تقربت منه باعاً ومن أتاني يمشي أتيته هرولة ومن لقيني بقراب الأرض خطيئة بعد أن لا يشرك بي شيئاً لقيته بمثلها مغفرة» (ق) عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال «يقول الله تبارك وتعالى وإذا أراد عبدي أن يعمل سيئة فلا تكتبوها عليه حتى يعملها فإن عملها فاكتبوها بمثلها وإن ترك من أجلي فاكتبوها له حسنة وإذا أراد أن يعمل حسنة فلم يعملها فاكتبوها له حسنة فإن عملها فاكتبوها له بعشر أمثالها إلى سبعمائة» لفظ البخاري وفي لفظ مسلم عن محمد رسول الله ﷺ قال «قال الله تبارك وتعالى إذا تحدث عبدي بأن يعمل حسنة فأنا أكتبها له حسنة ما لم يعملها فإذا عملها فأنا أكتبها له بعشر أمثالها وإذا تحدث عبدي بأن يعمل سيئة فأنا أغفرها له ما لم يعملها فإذا عملها فأنا أكتبها له بمثلها» فقال رسول الله ﷺ «قالت الملائكة رب ذاك عبدك يريد أن

قوله تعالى: ﴿مَن جاءَ بالحسنةِ فلَهُ عشرُ أمْثَالِها﴾، أي: له عشر حسنات أمثالها، وقرأ يعقوب «عشـر» منوّن، «أمثـالها» بالرفع. ﴿ومَن جاءَ بالسيّئة فلا يُجْزَى إلاّ مِثلَها وهم لا يُظلمُون﴾. أخبرنا حسان بن سعيد المنيعي ثنا أبو طاهر محمد بن محمد بن محمش الزيادي ثنا أبو بكر محمد بن الحسن القطّان ثنا محمد بن يوسف القطان ثنا محمد بن يوسف السلمي ثنا عبد الرزّاق أنا معمر عن همّام بن منبّه ثنا أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أحسن أحدُكم إسلامه فكلُّ حسنة يعملُها تُكتبُ له بعشرِ أمثالها إلى سبعمائةِ ضعف، وكلُّ سيئةٍ يعملُها تُكتبُ له بمثلها حتى يلْقَى الله عزّ وجلّ». وأخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر الجرجاني ثنا عبد الغافر بن محمد الفارسي ثنا محمد بن عيسى الجلودي ثنا إبراهيم بن محمد بن سفيان ثنا مسلم بن الحجّاج ثنا أبو بكر بن أبي شيبة ثنا وكيع ثنا الأعمش عن المعرور بن سويد عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله: مَنْ جاءَ بالحسنةِ فلَهُ عِشرُ أمثالِها وأزيد، ومَنْ جاءَ بالسيئةِ فجزاءُ سيئةٍ بمثلها أو أغفر، ومَنْ تقرّبَ منّي شِبْراً تقرّبتُ منه ذراعاً

يعمل سيئة وهو أبصر به فقال: ارقبوه فإن عملها فاكتبوها له بمثلها وإن تركها فاكتبوها له حسنة فإنما تركها من أجلي» زاد الترمذي: من جاء بالحسنة فله عشرة أمثالها.

قوله عز وجل: ﴿قل﴾ يعني: قل يا محمد لهؤلاء المشركين من قومك ﴿إنني هداني ربي إلى صراط مستقيم﴾ يعني: قل لهم إنني أرشدني ربي إلى الطريق القويم وهو دين الإسلام الذي ارتضاه الله لعباده المؤمنين ﴿ديناً قيماً﴾ يعني هداني صراطاً مستقيماً ديناً قيماً، وقيل: يحتمل أن يكون محمولاً على المعنى تقديره: وعرفني ديناً قيماً يعني ديناً مستقيماً لا اعوجاج فيه ولا زيغ، وقيل: قيماً ثابتاً مقوماً لأمور معاشي ومعادي، وقيل: هو من قام وهو أبلغ من القائم ﴿ملة إبراهيم﴾ والمِلة بالكسر الدين والشريعة. يعني هداني وعرفني دين إبراهيم وشريعته ﴿حنيفاً﴾ الأصل في الحنيف الميل وهو ميل عن الضلالة إلى الاستقامة والعرب تسمي كل من اختتن أو حج حنيفاً تنبيهاً على أنه على دين إبراهيم عليه السلام ﴿وما كان من المشركين﴾ يعني إبراهيم عليه السلام وفيه رد على كفار قريش لأنهم يزعمون أنهم على دين إبراهيم فأخبر الله تعالى أن إبراهيم لم يكن من المشركين وممن يعبد الأصنام ﴿قل إن صلاتي﴾ أي: قل يا محمد إن صلاتي ﴿ونسكي﴾ قال مجاهد وسعيد بن جبير والضحاك والسدي: أراد بالنسك في هذا الموضع الذبيحة في الحج والعمرة، وقيل: النسك العبادة والناسك العابد. وقيل: المناسك أعمال الحج. وقيل: النسك كل ما يتقرب به إلى الله تعالى من صلاة وحج وذبح وعبادة. ونقل الواحدي عن أبي الأعرابي قال: النسك سبائك الفضة كل سبيكة منها نسيكة وقيل للمتعبد ناسك لأنه خلص نفسه من دنس الآثام وصفاها كالسبيكة المخلصة من الخبث.

وفي قوله إن صلاتي ونسكي دليل على أن جميع العبادات يؤديها العبد عى الإخلاص لله ويؤكد هذا قوله لله رب العالمين لا شريك له وفيه دليل على أن جميع العبادات لا تؤدى إلا على وجه التمام والكمال لأن ما كان لله لا ينبغي أن يكون إلا كاملاً تاماً مع إخلاص العبادة له فما كان بهذه الصفة من العبادات كان مقبولاً ﴿ومحياي ومماتي﴾ أي حياتي وموتي بخلق الله وقضائه وقدره أي هو يحييني ويميتني وقيل معناه إن محياي بالعمل الصالح ومماتي إذا مت على الإيمان لله، وقيل: معناه إن طاعتي في حياتي لله وجزائي بعد مماتي من الله وحاصل هذا الكلام له أن الله أمر رسول الله ﷺ أن يبين أن صلاته ونسكه وسائر عباداته وحياته وموته كلها واقعة بخلق الله وقضائه وقدره وهو المراد بقوله ﴿لله رب العالمين لا شريك له﴾ يعني في العبادة والخلق والقضاء والقدر وسائر أفعاله لا يشاركه فيها أحد من خلقه

ومَنْ تقرّب منّي ذِرَاعاً تقرّبتُ منه باعاً، ومَن أتاني يمشي أتيتهُ هرولةً ومَن لقيني بِقُرَابِ الأرض خطيئةً لا يُشركُ بي شيئاً لقيتُه بمثلها مغفرة». قال ابن عمر: الآية في غير الصدقات من الحسنات، فأما الصدقات تضاعف سبعمائة ضعف.

قوله تعالى: ﴿ قلْ إنني هداني ربّي إلى صراطٍ مستقيم ديناً قيّماً ﴾، قرأ أهل الكوفة والشام «قِيَـماً» بكسر القاف وفتح الياء خفيفةً، وقرأ الآخرون بفتح القاف وكسر الياء مشدداً ومعناهما واحد وهو القويم المستقيم، وانتصابه على معنى هداني ديناً قيّماً، ﴿ مِلّةَ إبراهيمَ حنيفاً وما كانَ مِنَ المشركين ﴾.

﴿ قلْ إنّ صلاتي ونسكي ﴾، قيل: أراد بالنسك الذبيحة في الحج والعمرة، وقال مقاتل: نسكي: حجّي، وقيل: ديني، ﴿ ومحيايَ ومماتي ﴾، أي: حياتي ووفاتي، ﴿ لله ربِّ العالمين ﴾، أي: هو يُحييني ويُميتني، وقيل: محياي بالعمل الصالح ومماتي إذا متّ على الإيمان لله ربّ العالمين، وقيل: طاعتي في حياتي لله وجزائي بعد مماتي من الله ربِّ العالمين. قرأ أهل المدينـة «محيـاي» بسكون الياء و«ممـاتي» بفتحها، وقراءة العامّة «محيـاي» بفتح الياء لئلا يجتمع ساكنان.

﴿وبذلك أمرت﴾ يعني: قل يا محمد وبهذا التوحيد أمرت ﴿وأنا أول المسلمين﴾ قال قتادة: يعني من هذه الأمة وقيل معناه وأنا أول المستسلمين لقضائه وقدره.

﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿١٦٥﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿قل أغير الله أبغي رباً﴾ أي: قل يا محمد لهؤلاء الكفار من قومك أغير الله أطلب سيداً أو إلهاً ﴿وهو رب كل شيء﴾ يعني وهو سيد كل شيء ومالكه لا يشاركه فيه أحد وذلك أن الكفار قالوا للنبي ﷺ ارجع إلى ديننا. قال ابن عباس: كان الوليد بن المغيرة يقول اتبعوا سبيلي أحمل عنكم أوزاركم فقال الله عز وجل رداً عليه ﴿ولا تكسب كل نفس إلا عليها﴾ يعني أن إثم الجاني عليه لا على غيره ﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾ يعني لا تؤاخذ نفس آثمة بإثم أخرى ولا تحمل نفس حاملة حمل أخرى ولا يؤاخذ أحد بذنب آخر ﴿ثم إلى ربكم مرجعكم﴾ يعني يوم القيامة ﴿فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون﴾ يعني في الدنيا من الأديان والملل.

قوله تعالى ﴿وهو الذي جعلكم خلائف الأرض﴾ يعني: والله الذي جعلكم يا أمة محمد خلائف في الأرض فإن الله أهلك من كان قبلكم من الأمم الخالية واستخلفكم فجعلكم خلائف منهم في الأرض تخلفونهم فيها وتعمرونها بعدهم وذلك لأن محمداً ﷺ خاتم الأنبياء وهو آخرهم وأمته آخر الأمم ﴿ورفع بعضكم فوق بعض درجات﴾ يعني أنه تعالى خالف بين أحوال عباده فجعل بعضهم فوق بعض في الخلق والرزق والشرف والعقل والقوة والفضل فجعل منهم الحسن والقبيح والغني والفقير والشريف والوضيع والعالم والجاهل والقوي والضعيف وهذا التفاوت بين الخلق في الدرجات ليس لأجل العجز أو الجهل أو البخل فإن الله سبحانه وتعالى منزه عن صفات النقص وإنما هو لأجل الابتلاء والامتحان وهو قوله تعالى: ﴿ليبلوكم فيما آتاكم﴾ يعني يعاملكم معاملة المبتلي والمختبر وهو أعلم بأحوال عباده. والمعنى: يبتلي الغني بغناه والفقير بفقره والشريف بشرفه والوضيع بدناءته والعبد والحر وغيرهم من جميع أصناف خلقه ليظهر منكم ما يكون عليه الثواب والعقاب، لأن العبد إما أن يكون مقصراً فيما كلف به وإما أن يكون

قوله تعالى: ﴿ لا شريكَ له وبذلك أُمِرْتُ وأنا أوّلُ المسلمين ﴾، قال قتادة: وأنا أول المسلمين من هذه الأمة.

﴿ قلْ أغيرَ اللَّهِ أبْغي ربّاً ﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما: سيداً وإلٓهاً ﴿ وهو ربُّ كلِّ شيء ﴾، وذلك أن الكفّار كانوا يقولون للنبي ﷺ: ارجعْ إلى ديننا. قال ابن عباس: كان الوليد بن المغيرة يقول: اتّبعوا سبيلي أحملْ عنكم أوزارَكم، فقال الله تعالى: ﴿ ولا تَكْسِبُ كلُّ نفسٍ إلّا عليها ﴾، لا تجيء كل نفس إلّا ما كان من إثمه على الجاني، ﴿ ولا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخرى ﴾، أي لا تحمل حمل أخرى، أي: لا يُؤاخذ أحدٌ بذنب غيره، ﴿ ثمّ إلى ربِّكم مرجعُكم فيُنَبِّئكم بما كنتمْ فيه تختلفُون ﴾.

﴿ وهو الذي جعلكم خَلاَئِفَ الأرضِ ﴾، يعني: أهل القرون الماضية وأورثكم الأرضَ يا أُمّة محمد ﷺ من بعدهم، فجعلكم خلائف منهم فيها يخلفونكم فيـها وتعمرونها بعدهم، والخلائف جمع خليفة كالوصائف جمع وصيفة، وكلّ ما جاء بعد مَنْ مضى فهو خليفة، لأنه يخلفه. ﴿ ورفَعَ بعضَكم فوقَ بعضٍ درجات ﴾، أي: خالف

موفياً ما أمره به فإن كان مقصراً كان نصيبه التخويف والترغيب وهو قوله تعالى: ﴿إن ربك سريع العقاب﴾ يعني لأعدائه بإهلاكهم في الدنيا وإنما وصف العقاب بالسرعة لأن كل ما هو آت فهو قريب إن كان العبد موفياً حقوق الله تعالى فيما أمره به أو نهاه عنه كان نصيبه الترغيب والتشريف والتكريم وهو قوله تعالى: ﴿وإنه لغفور﴾ يعني لذنوب أوليائه وأهل طاعته ﴿رحيم﴾ يعني بجميع خلقه والله أعلم بمراده وأسرار كتابه.

بين أحوالكم فجعل بعضكم فوق بعض في الخلق والرزق والمعاش والقوة والفضل، ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ فيما آتَاكُمْ ﴾، ليختبركم فيما رزقكم، يعني: يبتلي الغني والفقير والشريف والوضيع والحرّ والعبد، ليظهر منكم ما يكون عليه من الثواب والعقاب، ﴿ إنّ ربَّك سريعُ العقاب ﴾، لأن ما هو آتٍ فهو سريع قريب، قيل: هو الهلاك في الدنيا، ﴿ وإنّه لغفورٌ رحيم ﴾، قال عطاء: سريع العقاب لأعدائه غفور لأوليائه رحيم بهم.

تفسير سورة الأعراف

نزلت بمكة روي ذلك عن ابن عباس، وبه قال الحسن ومجاهد وعكرمة وعطاء وجابر بن زيد وقتادة. وروي عن ابن عباس أيضاً أنها مكية إلا خمس آيات أولها: وأسألهم عن القرية التي كانت. وبه قال قتادة وقال مقاتل: ثمان آيات في سورة الأعراف مدنية أولها وأسألهم عن القرية إلى قوله وإذا أخذ ربك من بني آدم وهي مائتان وست آيات وثلاثة آلاف وثلاثمائة وخمس وعشرون كلمة وأربعة عشرة ألف حرف عشرة أحرف.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓصٓ ﴿١﴾

قوله عز وجل ﴿المص﴾ قال ابن عباس: معناه أنا الله أفصل وعنه أنا الله أعلم وأفصل وعنه أن المص قسم أقسم الله به وهو اسم من أسماء الله تعالى، وقال قتادة: المص اسم من أسماء القرآن، وقال الحسن: هو اسم للسورة، وقال السدي: هو بعض اسمه تعالى المصور، وقال أبو العالية: الألف مفتاح اسمه الله واللام مفتاح اسمه لطيف والميم مفتاح اسمه مجيد والصاد مفتاح اسمه صادق وصبور. وقيل: هي حروف مقطعة استأثر الله تعالى بعلمها وهي سره في كتابه العزيز، وقيل: هي حروف اسمه الأعظم وقيل هي حروف تحتوي معاني دل الله بها خلقه على مراده وقد تقدم بسط الكلام على معاني الحروف المقطعة أوائل السور في أول سورة البقرة.

كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ﴿٤﴾ فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٥﴾ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾

وقوله تعالى ﴿كتاب أنزل إليك﴾ يعني هذا كتاب أنزله الله إليك يا محمد وهو القرآن ﴿فلا يكن في صدرك حرج منه﴾ يعني: فلا يضيق صدرك بالإبلاغ وتأدية ما أرسلت به إلى الناس ﴿لتنذر به﴾ يعني: أنزلت إليك الكتاب يا محمد لتنذر به من أمرتك بإنذاره ﴿وذكرى للمؤمنين﴾ يعني: ولتذكر وتعظ به المؤمنين وهذا من المؤخر الذي معناه

سُورَةُ الأعْـــرَافْ

مكيّة كلها إلاّ خمس آيات أولها ﴿ واسألهم عن القرية التي كانت ﴾ [١٦٣ - ١٦٧].

﴿ الٓمٓصٓ ﴾.

﴿ كتابٌ ﴾، أي: هذا كتاب، ﴿ أُنزلَ إليكَ ﴾، وهو القرآن، ﴿ فلا يكنْ في صدرك حَرَجٌ منه ﴾، قال

التقديم، تقديره: كتاب أنزلناه إليك لتنذر به وذكر للمؤمنين فلا يكن في صدرك حرج منه. قال ابن عباس: فلا تكن في شك منه لأن الشك لا يكون إلا من ضيق الصدر وقلة الاتساع لتوجيه ما حصل له.

قوله تعالى: ﴿**اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم**﴾ أي: قل يا محمد لقومك اتبعوا أيها الناس ما أنزل إليكم من ربكم يعني من القرآن الذي فيه الهدى والنور والبيان. قال الحسن: يا ابن آدم أمرت باتباع كتاب الله وسنة محمد ﷺ والله ما نزلت آية إلا ويجب أن تعلم فيما أنزلت وما معناها، وبنحو هذا قال الزجاج: أي اتبعوا القرآن وما أتى به النبي ﷺ فإنه مما أنزل لقوله تعالى: ﴿وما أتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا﴾ ومعنى الآية أن الله تعالى لما أمر رسول الله ﷺ بالإنذار في قوله لتنذر به كان معنى الكلام أنذر القوم «وقل لهم اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم» واتركوا ما أنتم عليه من الكفر والشرك، وقيل: معناه لتنذر به وتذكر به المؤمنين فتقول لهم «اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم»، وقيل: هو خطاب للكفار أي اتبعوا أيها المشركون ما أنزل إليكم من ربكم واتركوا ما أنتم عليه من الكفر والشرك ويدل عليه قوله تعالى: ﴿**ولا تتبعوا من دونه أولياء**﴾ يعني ولا تتخذوا الذين يدعونكم إلى الكفر والشرك أولياء فتتبعوهم. والمعنى: ولا تتولوا من دونه شياطين الإنس والجن فيأمروكم بعبادة الأصنام واتباع البدع والأهواء الفاسدة ﴿**قليلاً ما تذكرون**﴾ يعني ما تتعظون إلا قليلاً.

قوله تعالى: ﴿**وكم من قرية أهلكناها**﴾ لما أمر الله رسول الله ﷺ بالإنذار والإبلاغ، وأمر أمته باتباع ما أنزله إليهم حذرهم نقمته وبأسه إن لم يتبعوا ما أمروا به فذكر في هذه الآية ما في ترك المتابعة والإعراض عن أمره من الوعيد فقال تعالى: ﴿**وكم من قرية أهلكناها**﴾، قيل: فيه حذف تقديره وكم من أهل قرية لأن المقصود بالإهلاك أهل القرية لا القرية، وقيل: ليس فيه حذف لأن إهلاك القرية إهلاك لأهلها ﴿**فجاءها بأسنا**﴾ يعني عذابنا.

فإن قلت مجيء البأس وهو العذاب إنما يكون قبل الإهلاك فكيف قال أهلكناها فجاءها بأسنا؟

قلت: معناه وكم من قرية حكمنا بإهلاكها فجاءها بأسنا. وقال الفراء: الهلاك والبأس قد يقعان معاً كما يقال أعطيتني فأحسنت إليّ فلم يكن الإحسان قبل الإعطاء ولا بعده وإنما وقعا معاً. وقال غيره: لا فرق بين قولك أعطيتني فأحسنت إليّ أو أحسنت إليّ فأعطيتني فيكون أحدهما بدلاً من الآخر ﴿**بياتاً**﴾ يعني فجاءها عذابنا ليلاً قبل أن يصبحوا ﴿**أو هم قائلون**﴾ من القيلولة وهي نوم نصف النهار أو استراحة نصف النهار وإن لم يكن معها نوم والمعنى فجاءها بأسنا غفلة وهم غير متوقعين له ليلاً وهم نائمون أو نهاراً وهم قائلون وقت الظهيرة وكل ذلك وقت الغفلة. ومقصود

مجاهد: شك، فالخطاب للرسول ﷺ والمراد به الأمة. وقال أبو العالية: حرج أي ضيق، معناه لا يضيق ما أُرسلتَ به، ﴿ **لِتُنْذِرَ بِهِ** ﴾، أي: كتاب أُنزل إليكَ لِتُنْذِرَ به، ﴿ **وذكرَى للمؤمنين** ﴾، أي: على الكتاب.

﴿ **اتَّبِعُوا** ﴾، أي: وقلْ لهم اتَّبعوا: ﴿ **مَا أُنْزِلَ إلَيْكم مِن رَّبِّكم ولا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء** ﴾، أي: لا تتخذوا غيره أولياء تطيعونهم في معصية الله تعالى، ﴿ **قليلاً ما تذكَّرُون** ﴾، تتعِظُونَ، وقرأ ابن عامر: « يتذكرون » بالياء والتاء.

﴿ **وكمْ مِّن قريةٍ أهلكنَاها** ﴾، بالعذاب، و﴿ **كم** ﴾ للتكثير و رُبَّ للتقليل، ﴿ **فجاءها بأْسُنَا** ﴾، عذابنا، ﴿ **بياتاً** ﴾، ليلاً ﴿ **أو هم قائلون** ﴾، من القيلولة، تقديره: فجاءها بأسُنَا ليلاً وهم نائمون أو نهاراً وهم قائلون أو نائمون ظهيرة، والقيلولة: استراحة نصف النهار، وإن لم يكن معها نوم. ومعنى الآية: أنهم جاءهم بأسُنا وهم غير متوقعين إمّا ليلاً أو نهاراً. قال الزجّاج: و«أوْ» لتصريف العذاب، أي: مرّة ليلاً ومرّة نهاراً. وقيل: معناه مِنْ أهل القِرى مَنْ أهلكناهم ليلاً، ومنهم مَن أهلكناهم نهاراً، أي حكمنا بهلاكها. فإن قيل: ما معنى أهلكناها فجاءها بأسُنا؟ فكيف يكون مجيء البأس بعد الهلاك؟ قيل: معنى أهلكنا حَكَمْنَا بهلاكِها فجاءها بأسُنَا. وقيل: فجاءها

الآية أنه جاءهم العذاب على حين غفلة منهم من غير تقدم أمارة تدلهم على وقت نزول العذاب وفيه وعيد وتخويف للكفار كأنه قيل لهم لا تغتروا بأسباب الأمن والراحة فإن عذاب الله إذا نزل نزل دفعة واحدة ﴿فما كان دعواهم﴾ يعني فما كان دعاء أهل القرية التي جاءها بأسنا والدعوى تكون بمعنى الادعاء وبمعنى الدعاء، قال سيبويه: تقول العرب اللهم أشركنا في صالح دعوى المؤمنين ومنه قوله تعالى: ﴿دعواهم فيها سبحانك اللهم﴾ ﴿إذ جاءهم بأسنا﴾ يعني عذابنا ﴿إلا أن قالوا إنا كنا ظالمين﴾ يعني أنهم لم يقدروا على رد العذاب عنهم وكان حاصل أمرهم الاعتراف بالجناية وذلك حين لا ينفع الاعتراف ﴿فلنسألن الذين أرسل إليهم﴾ يعني: نسأل الأمم الذين أرسلنا إليهم الرسل ماذا عملتم فيما جاءتكم به الرسل ﴿ولنسألن المرسلين﴾ يعني ولنسألن الرسل الذين أرسلناهم إلى الأمم هل بلغتم رسالاتنا وأديتم إلى الأمم ما أُمرتم بتأديته إليهم أم قصرتم في ذلك. قال ابن عباس رضي الله عنهما في معنى هذه الآية: يسأل الله تعالى الناس عما أجابوا به المرسلين ويسأل المرسلين عما بلغوا وعنه أنه قال يوضع الكتاب يوم القيامة فيتكلم بما كانوا يعملون. وقال السدي: يسأل الأمم ماذا عملوا فيما جاءت به الرسل ويسأل الرسل هل بلَّغوا ما أرسلوا به.

فإن قلت: قد أخبر عنهم في الآية الأولى بأنهم اعترفوا على أنفسهم بالظلم في قوله إنا كنا ظالمين فما فائدة هذا السؤال مع اعترافهم على أنفسهم بذلك؟

قلت: لما اعترفوا بأنهم كانوا ظالمين مقصرين سئلوا بعد ذلك عن سبب هذا الظلم والتقصير والمقصود من هذا التقريع والتوبيخ للكفار.

فإن قلت: فما الفائدة في سؤال الرسل مع العلم بأنهم قد بلغوا رسالات ربهم إلى من أرسلنا إليهم من الأمم؟

قلت: إذا كان يوم القيامة أنكر الكفار تبليغ الرسالة من الرسل فقالوا ما جاءنا من بشير ولا نذير فكان مسألة الرسل على وجه الاستشهاد بهم على من أرسلوا إليهم من الأمم أنهم قد بلغوا رسالات ربهم إلى من أرسلوا إليه من الأمم فتكون هذه المسألة كالتقريع والتوبيخ للكفار أيضاً لأنهم أنكروا تبليغ الرسل فيزداد بذلك خزيهم وهوانهم وعذابهم.

﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ۝٧ وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٨ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ۝٩﴾

وقوله تعالى: ﴿فلنقصن عليهم بعلم﴾ يعني: فلنخبرن الرسل ومن أرسلوا إليهم بعلم ويقين بما عملوا في الدنيا

بأسنا هو بيان قوله: ﴿ أهلكناها ﴾ مثل قول القائل: أعطيتني فأحسنت إليّ لا فرق بينه وبين قوله: أحسنت، إلي فأعطيتني، فيكون أحدهما بدلاً من الآخر.

﴿ فما كانَ دَعْوَاهم ﴾، أي: قولهم ودعاؤهم وتضرعهم، والدعوى تكون بمعنى الادّعاء بمعنى الدعاء، قال سيبويه: تقول العرب اللّهمّ أشركنا في صالح دعوى المسلمين أي في دعائهم، ﴿ إذْ جاءَهم بأسُنا ﴾، عذابنا، ﴿ إلاّ أن قالوا إنّا كنّا ظالمين ﴾، معناه لم يقدروا على ردّ العذاب، وكان حاصل أمرهم الاعتراف بالجناية حتى لا ينفع الاعتراف.

﴿ فَلَنَسْأَلَنّ الذينَ أُرسلَ إليهم ﴾، يعني: الأمم عن إجابتهم الرسل، وهذا سؤال توبيخ لا سؤال استعلام، يعني: نسألهم عمّا فيما بلغتهم الرّسل، ﴿ ولنسألَنّ المرسَلين ﴾، عن الإبلاغ.

﴿ فَلَنَقُصَّنّ عليهمْ بعلمٍ ﴾ أي: نخبرنّهم عن علم. قال ابن عباس رضي الله عنهما: ينطق عليهم كتاب

﴿**وما كنا غائبين**﴾ يعني عنهم وعن أفعالهم وعن الرسل فيما بلغوا وعن الأمم فيما أجابوا.

فإن قلت كيف الجمع بين قوله تعالى: ﴿**فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين**﴾ وبين قوله ﴿**فلنقصن عليهم بعلم وما كنا غائبين**﴾ وإذا كان عالماً فما فائدة هذا السؤال؟

قلت: فائدة سؤال الأمم والرسل مع علمه سبحانه وتعالى بجميع المعلومات، التقريع، والتوبيخ للكفار لأنهم إذ أقروا على أنفسهم كان أبلغ في المقصود، فأما سؤال الاسترشاد والاستثبات، فهو منفي عن الله عز وجل، لأنه عالم بجميع الأشياء قبل كونها وفي حال كونها وبعد كونها، فهو العالم بالكليات، والجزئيات، وعلمه بظاهر الأشياء كعلمه بباطنها.

قوله تعالى: ﴿**والوزن يومئذ الحق**﴾ يعني والوزن يوم سؤال الأمم والرسل وهو يوم القيامة العدل، وقال مجاهد: المراد بالوزن هنا القضاء، ومعنى الحق العدل. وذهب جمهور المفسرين إلى أن المراد بالوزن وزن الأعمال بالميزان وذلك أن الله عز وجل ينصب ميزاناً له لسان وكفتان كل كفة ما بين المشرق والمغرب، قال ابن الجوزي: جاء في الحديث «أن دواد عليه الصلاة والسلام سأل ربه أن يريه الميزان فأراه إياه فقال إلهي من يقدر أن يملأ كفتيه حسنات فقال يا داود إذا رضيت عن عبدي ملأتها بتمرة» وقال حذيفة: جبريل صاحب الميزان يوم القيامة فيقول له ربه عز وجل زن بينهم ورد من بعضهم على بعض وليس ثم ذهب ولا فضة فيرد على المظلوم من الظالم ما وجد له من حسنة فإن لم يكن له حسنة أخذ من سيئات المظلوم فيرد على سيئات الظالم فيرجع الرجل وعليه مثل الجبل.

فإن قلت: أليس الله عز وجل يعلم مقادير أعمال العباد فما الحكمة في وزنها؟

قلت: فيه حكم منها إظهار العدل، وأن الله عز وجل لا يظلم عباده، ومنها امتحان الخلق بالإيمان بذلك في الدنيا وإقامة الحجة عليهم في العقبى ومنها تعريف العباد ما لهم من خير وشر وحسنة وسيئة ومنها إظهار علامة السعادة والشقاوة ونظيره أنه تعالى أثبت أعمال العباد في اللوح المحفوظ ثم في صحائف الحفظة الموكلين ببني آدم من غير جواز النسيان عليه سبحانه وتعالى، ثم اختلف العلماء في كيفية الوزن فقال بعضهم: توزن صحائف الأعمال المكتوبة فيها الحسنات والسيئات ويدل على ذلك حديث البطاقة وهو ما روي عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن رسول الله ﷺ قال «إن الله عز وجل سيخلص رجلاً من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة فينشر له تسعة وتسعين سجلاً كل سجل مثل مد البصر ثم يقول له أتنكر من هذا شيئاً أظلمتك كتبتي الحافظون فيقول لا يارب فيقول أفلك عذر فيقول لا يارب فيقول الله تبارك وتعالى بلى إن لك عندنا حسنة فإنه لا ظلم عليك اليوم فيخرج الله له بطاقة فيها أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله فيقول أحضر وزنك فيقول يا رب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات فيقال فإنه لا ظلم عليك اليوم فتوضع السجلات في كفة والبطاقة في كفة فطاشت السجلات وثقلت البطاقة ولا يثقل مع اسم الله شيء» أخرجه الترمذي وأحمد بن حنبل. وقال ابن عباس: يؤتى بالأعمال الحسنة على صورة حسنة وبالأعمال السيئة على صورة قبيحة فتوضع في الميزان فعلى قول ابن عباس: أن الأعمال تتصور صوراً وتوضع تلك

أعمالهم، كقوله تعالى: ﴿ هذا كتابُنا ينطِقُ عليكم بالحقّ ﴾ [الجاثية: ٢٩]. ﴿ وما كُنّا غائِبين ﴾، عن الرسل فيما بلغوا، وعن الأمم فيما أجابوا.

قوله تعالى: ﴿ **والوزنُ يومئذٍ الحقُّ** ﴾، يعني: يوم السؤال. قال مجاهد: معناه والقضاء يومئذٍ العدل. وقال الأكثرون: أرادَ به وزن الأعمال بالميزان، وذاك أن الله تعالى ينصب ميزاناً له لسان وكفتان كل كفة بقدر ما بين المشرق والمغرب، واختلفوا في كيفية الوزن، فقال بعضهم: تُوزن صحائف الأعمال: وروينا: (أنّ رجلاً يُنشر عليه تسعة وتسعون فيُخرج له بطاقةٌ فيها شهادة أنْ لا إلَه إلّا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، فتوضع السجلات في

الصور في الميزان ويخلق الله في تلك الصور ثقلاً وخفة. ونقل البغوي عن بعضهم أنها توزن الأشخاص واستدل لذلك بما روي عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال «إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله تعالى جناح بعوضة» أخرجاه في الصحيحين وهذا الحديث ليس فيه دليل على ما ذكر من وزن الأشخاص في الميزان لأن المراد بقوله لا يزن عند الله جناح بعوضة مقداره وحرمته لا وزن جسده ولحمه والصحيح قول من قال إن صحائف الأعمال توزن أو نفس الأعمال تتجسد وتوزن والله أعلم بحقيقة ذلك.

وقوله تعالى: ﴿**فمن ثقلت موازينه**﴾ جمع ميزان، وأورد على هذا أنه ميزان واحد فما وجه الجمع وأجيب عنه بأن العرب قد توقع لفظ الجمع على الواحد، وقيل: إنه ينصب لكل عبد ميزان، وقيل: إنما جمعه لأن الميزان يشتمل على الكفتين والشاهدين واللسان ولا يتم الوزن إلا باجتماع ذلك كله وقيل هو جمع موزون يعني من رجحت أعماله بالحسنة الموزونة التي لها وزن وقدر ﴿**فأولئك هم المفلحون**﴾ يعني: هم الناجون غداً والفائزون بثواب الله وجزائه ﴿**ومن خفَّت موازينه**﴾ يعني موازين أعماله وهم الكفار بدليل قوله تعالى: ﴿**فأولئك الذين خسروا أنفسهم**﴾ يعني غبنوا أنفسهم حظوظها من جزيل ثواب الله وكرامته ﴿**بما كانوا بآياتنا يظلمون**﴾ يعني سبب ذلك الخسران أنهم كانوا بحجج الله وأدلة توحيده يجحدون ولا يقرّون بها. روي عن أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه أنه حين حضره الموت قال في وصيته لعمر بن الخطاب: إنما ثقلت موازين من ثقلت موازينه يوم القيامة باتباعهم الحق في الدنيا وثقله عليهم وحق لميزان يوضع فيه الحق غداً أن يكون ثقيلاً، وإنما خفَّت موازين من خفَّت موازينه يوم القيامة باتباعهم الباطل في الدنيا وخفته عليهم وحق لميزان يوضع فيه الباطل غداً أن يكون خفيفاً. قوله عز وجل:

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ۖ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾

﴿**ولقد مكناكم في الأرض**﴾ يعني ولقد مكناكم أيها الناس في الأرض، والمراد من التمكين التمليك وقيل:

كفة، والبطاقة في كفة، فطاشت السجلاتُ وثَقُلَت البطاقةُ). وقيل: توزن الأشخاص، وروينا عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ليأتي الرجلُ العظيمُ السَّمينُ يوم القيامة فلا يَزِنُ عند الله جناحَ بَعُوضة». وقيل: تُوزن الأعمال، رُوِي ذلك عن ابن عباس، فيؤتَى بالأعمال الحسنة على صورة حسنة وبالأعمال السيئة على صورة قبيحة فتوضع في الميزان، والحكمةُ في وزن الأعمال امتحانُ الله عباده بالإيمان في الدنيا وإقامة الحجة عليهم في العقبى، ﴿ **فَمَن ثَقُلَتْ موازِينُهُ** ﴾، قال مجاهد: حسناته، ﴿ **فأولئِكَ همُ المفلحُون** ﴾.

﴿ **ومَن خفَّتْ موازينُه فأولئكَ الذينَ خسرُوا أنفسَهُم بما كانُوا بآياتِنَا يَظْلِمُون** ﴾، وقال أبو بكر رضي الله عنه حين حضره الموت في وصيته لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: إنّما ثقلت موازين مَن ثقلت موازينه يوم القيامة باتّباعهم الحق في الدنيا، وثقله عليهم وحق لميزان يوضع فيه الحق غداً أن يكون ثقيلاً، وإنما خفّتْ موازينُ مَن خفّتْ موازينُه يومَ القيامة باتّباعهم الباطلَ في الدنيا، وخفّته عليهم حـق لميـزان يوضع فيه الباطل غداً أن يكون خفيفاً، فإن قيل: فقد قيل: مَن ثقلت موازينه ذكر بلفظ الجمع، والميزان واحد، قيل يجوز أن يكون لفظه جمعاً ومعناه واحد كقوله يا أيها الرسل وقيل لكل عبد ميزان وقيل الأصل ميزان واحد عظيم ولكل عبد فيه ميزان معلّق به، وقيل: جمعه: لأن الميزان يشتمل على الكفتين والشاهدين واللسان، ولا يتم الوزن إلّا باجتماعها.

قوله تعالى: ﴿ **ولقدْ مكنّاكُمْ في الأرضِ** ﴾، أي: مكنّاكم والمراد من التمكين التمليك والقدرة، ﴿ **وجعلنَا**

معناه جعلنا لكم فيها مكاناً وقراراً أو قدرناكم على التصرف فيها ﴿وجعلنا لكم فيها معايش﴾ جمع معيشة يعني به جمع وجوه المنافع التي تحصل بها الأرزاق وتعيشون بها أيام حياتكم وهي على قسمين:

أحدهما: ما أنعم الله تعالى به على عباده من الزرع والثمار وأنواع المآكل والمشارب.

والثاني: ما يتحصل من المكاسب والأرباح في أنواع التجارات والصنائع وكلا مقسمين في الحقيقة إنما يحصل بفضل الله وإنعامه وإقداره وتمكينه لعباده من ذلك فثبت بذلك أن جميع معايش العالم إنعام من الله تعالى على عباده وكثرة الإنعام توجب الطاعة للمنعم بها والشكر له عليها ثم بين تعالى أنه مع هذا الإفضال على عباده وإنعامه عليهم لا يقومون بشكره كما ينبغي فقال تعالى: ﴿قليلاً ما تشكرون﴾ يعني: على ما صنعت إليكم وأنعمت به عليكم، وفيه دليل على أنهم قد يشكرون لأن الإنسان قد يذكر نعم الله فيشكره عليها فلا يخلو في بعض الأوقات من الشكر على النعم وحقيقة الشكر، تصور النعمة وإظهارها ويضاده الكفر وهو نسيان النعمة وسترها.

قوله تعالى: ﴿ولقد خلقناكم ثم صورناكم﴾ يعني: ولقد خلقناكم أيها الناس المخاطبون بهذا الخطاب وقت نزوله في ظهر أبيكم آدم ثم صورناكم في أرحام النساء صوراً مخلوقة.

فإن قلت على هذا التفسير يكون قوله «ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم» يقتضي الأمر بالسجود كان وقع بعد خلق المخاطبين بهذا الخطاب وتصويرهم لأن كلمة ثم للتراخي ومعلوم أن الأمر ليس كذلك بل كان السجود لآدم عليه الصلاة والسلام قبل خلق ذريته؟

قلت: يحتمل أن يكون المعنى ولقد خلقناكم ثم صورناكم أيها المخاطبون ثم أخبرناكم أنا قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فتكون كلمة ثم تفيد ترتيب خبر على خبر ولا تفيد ترتيب المخبر به على الخبر. وقيل في معنى الآية: ولقد خلقناكم يعني آدم، ثم صورناكم يعني ذريته، وهذا قول ابن عباس. وقال مجاهد ولقد خلقناكم يعني آدم ثم صورناكم يعني في ظهره وعلى هذين القولين إنما ذكر آدم بلفظ الجمع على التعظيم أو لأنه أبو البشر فكان في خلقه خلق من خرج من صلبه؛ وقيل: إن الخلق والتصوير يرجع إلى آدم عليه الصلاة والسلام وحده. والمعنى: ولقد خلقناكم يعني آدم حكمنا بخلقه ثم صورناكم يعني آدم صورة من طين ﴿ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم﴾ يعني بعد إكمال خلقه وقد تقدم في سورة البقرة الكلام في معنى هذا السجود وأنه كان على سبيل التحية والتعظيم لآدم لا حقيقة السجود، وقيل: بل كان حقيقة السجود وأن المسجود له هو الله تعالى وإنما كان آدم كالقبلة للساجدين، وقيل: بل كان المسجود له وكان ذلك بأمر الله تعالى وهل كان هذا الأمر بالسجود لجميع الملائكة أو لبعضهم فيه خلاف تقدم ذكره في سورة البقرة.

لكم فيها مَعَايِشَ﴾، أي: أسباباً تعيشون بها أيام حياتكم من التجارات والمكاسب والمآكل والمشارب والمعايش جمع المعيشة، ﴿ قليلاً ما تشكرُون ﴾، فيما صنعتُ إليكم.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ ولقدْ خلقنَاكُمْ ثمَّ صوّرْنَاكُم ﴾ قال ابن عباس: خلقناكم، أي: أصُولَكم وآباءَكم ثم صوّرناكم في أرحام أمهاتكم. وقال قتادة والضحاك والسدي: أمّا خلقناكم فآدم، وأمّا صوّرناكم فذريته. وقال مجاهد في خلقناكم: آدم ثم صوّرناكم في ظهر آدم بلفظ الجمع لأنه أبو البشر ففي خلقه خلق مَن يخرج من صلبه، وقيل خلقناكم في ظهر آدم ﴿ثم صوّرناكم﴾ يوم الميثاق حين أخرجكم كالذر. وقال عكرمة: خلقناكم في أصلاب الرجال وصوّرناكم في أرحام النساء. وقال يمان: خلق الإنسان في الرحم ثم صوّره فشقّ سمعَه وبصَره وأصابعه. وقيل: الكل آدم خلقه وصوّره ﴿وثم﴾ بمعنى الواو، ﴿ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم﴾، فإن قيل: الأمر بسجود

وقوله تعالى: ﴿فسجدوا﴾ يعني الملائكة ﴿إلا إبليس﴾ يعني: فسجد الملائكة لآدم إلا إبليس ﴿لم يكن من الساجدين﴾ يعني له وظاهر الآية يدل على أن إبليس كان من الملائكة لأن الله تعالى استثناه منهم وكان الحسن يقول: إن إبليس لم يكن من الملائكة لأنه خلق من نار والملائكة من نور وإنما استثناه من الملائكة لأنه كان مأموراً بالسجود لآدم مع الملائكة فلما لم يسجد أخبر الله تعالى عنه أنه لم يكن من الساجدين لآدم فلهذا استثناه منهم.

قوله تعالى: ﴿قال ما منعك أن لا تسجد إذ أمرتك﴾ يعني: قال الله عز وجل لإبليس أي شيء منعك من السجود لآدم إذ أمرتك به فعلى هذا التأويل تكون كلمة لا في قوله أن لا تسجد صلة زائدة وإنما دخلت للتوكيد والتقدير ما منعك أن تسجد فهو كقوله: ﴿لا أقسم﴾ وقوله ﴿وحرام على قرية أهلكناها أنهم لا يرجعون﴾ أي يرجعون وقوله ﴿لئلا يعلم أهل الكتاب﴾ أي يعلم أهل الكتاب وهذا قول الكسائي والفراء والزجاج والأكثرين. وقيل: إن كلمة لا هنا على أصلها مفيدة وليست بزائدة لأنه لا يجوز أن يقال إن كلمة من كتاب الله زائدة أو لا معنى لها، وعلى هذا القول حكى الواحدي عن أحمد بن يحيى: أن لا في هذه الآية ليست زائدة ولا توكيداً لأن معنى قوله «ما منعك أن لا تسجد» من قال لك لا تسجد فحمل نظم الكلام على معناه وهذا القول حكاه أبو بكر عن الفراء. وقال الطبري والصواب في ذلك أن يقال إن في الكلام محذوفاً تقديره ما منعك من السجود فأحوجك أن لا تسجد فترك ذكر ذلك أحوجك استغناء عنه بمعرفة السامعين به ونقل الإمام فخر الدين الرازي عن القاضي قال: ذكر الله تعالى المنع وأراد الداعي فكأنه قال ما دعاك إلى أن لا تسجد لأن مخالفة الله تعالى عظيمة يتعجب منها ويسأل عن الداعي إليها.

فإن قلت: لم سأله عن المانع له من السجود وهو أعلم به؟

قلت: إنما سأله للتوبيخ والتقريع له ولإظهار معاندته وكفره وافتخاره بأصله وحسده لآدم عليه الصلاة والسلام ولذلك لم يتب الله عليه ﴿قال﴾ يعني قال إبليس مجيباً لله تعالى عما سأله عنه ﴿أنا خير منه﴾.

فإن قلت قوله أنا خير منه ليس بجواب عما سأله عنه في قوله تعالى: ﴿ما منعك أن لا تسجد﴾ فلم يجب بما منعه من السجود فإنه كان ينبغي له أن يقول منعني كذا وكذا ولكنه قال أنا خير منه.

قلت: استأنف قصة أخبر فيها عن نفسه بالفضل على آدم وفيها دليل على موضع الجواب وهو قوله ﴿خلقتني من نار وخلقته من طين﴾ والنار خير من الطين وأنور وإنما قال أنا خير منه لما رأى أنه أشد منه قوة وأفضل منه أصلاً وذلك لفضل الجنس الذي خلق منه وهو النار على الطين الذي خلق منه آدم عليه الصلاة والسلام فجهل عدو الله وجه الحق وأخطأ طريق الصواب لأن من المعلوم أن من جوهر النار الخفة والطيش والارتفاع والاضطراب، وهذا الذي حمل الخبيث إبليس مع الشقاء الذي سبق له من الله تعالى في الكتاب السابق على الاستكبار على السجود لآدم عليه الصلاة والسلام والاستخفاف بأمر ربه فأورده ذلك العطب والهلاك ومن المعلوم أن في جوهر الطين الرزانة والأناة والصبر

الملائكة كان قبل خلق بني آدم، فما وجه قوله: ﴿ ثمّ قلنا ﴾ وثم للترتيب وللتراخي؟ قيل: على قول مَن يصرف الخلق والتصوير إلى آدم وحده يستقيم الكلام إما على قول مَن يصرفه إلى الذرية فعنه أجوبة أحدها ثم بمعنى الواو، أي: وقلنا للملائكة، فلا تكون للترتيب والتعقيب، وقيل: أراد ثم أخبركم أنّا قلنا للملائكة اسجدوا، وقيل: فيه تقديم وتأخير تقديره ولقد خلقناكم، يعني: آدم ثم قلنا للملائكة اسجدوا ثم صوّرناكم. قوله تعالى: ﴿ فسجدُوا ﴾، يعني الملائكة، ﴿ إلاّ إبْليسَ لم يكن مِّنَ السّاجِدين ﴾، لآدم.

﴿ قال ﴾، الله تعالى يا إبليس: ﴿ ما منعك ألاّ تسجُدَ إذ أمرتُك ﴾، أي: ولم منعك أن تسجد ولا زائدة كقوله تعالى: ﴿ وحرام على قريةٍ أهلكناها أنّهم لا يرجعون ﴾[الأنبياء: ٩٥]. ﴿ قال ﴾ إبليس مُجيباً له ﴿ أنا خير

والحلم والحياة والتثبت وهذا كان الداعي لآدم عليه الصلاة والسلام مع السعادة السابقة التي سبقت له من الله تعالى في الكتاب السابق إلى التوبة من خطيئته ومسألته ربه العفو عنه والمغفرة، ولذلك كان الحسن وابن سيرين يقولان: أول من قاس إبليس فأخطأ وقال ابن سيرين أيضاً: ما عبدت الشمس والقمر لا بالمقاييس وأصل هذا القياس الذي قاسه إبليس لعنه الله تعالى لما رأى أن النار أفضل من الطين وأقوى فقال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين ولم يدر أن الفضل لمن جعله الله فاضلاً وأن الأفضلية والخيرية لا تحصل بسبب فضيلة الأصل والجوهر وأيضاً الفضيلة إنما تحصل بسبب الطاعة وقبول الأمر، فالمؤمن الحبشي خير من الكافر القرشي فالله تعالى خص صفيه آدم عليه الصلاة والسلام بأشياء لم يخص بها غيره وهو أنه خلقه بيده ونفخ فيه من روحه وأسجد له ملائكته وعلّمه أسماء كل شيء وأورثه الاجتباء والتوبة والهداية إلى غير ذلك مما خص الله تعالى به آدم عليه الصلاة والسلام للعناية التي سبقت له في القدم وأورث إبليس كبره اللعنةَ والطردَ للشقاوة التي سبقت له في القدم.

قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾

وقوله تعالى: ﴿**قال فاهبط منها**﴾ يعني قال الله تعالى لإبليس لعنه الله اهبط من الجنة. وقيل: من السماء إلى الأرض. والهبوط الإنزال والانحدار من فوق على سيل القهر والهوان والاستخفاف ﴿**فما يكون لك أن تتكبر فيها**﴾ يعني فليس لك أن تستكبر في الجنة عن أمري وطاعتي لأنه لا ينبغي أن يسكن في الجنة أو في السماء متكبر مخالف لأمر الله عز وجل فأما غير الجنة والسماء فقد يسكنها المستكبر عن طاعة الله تعالى وهم الكفار الساكنون في الأرض ﴿**فاخرج إنك من الصاغرين**﴾ يعني: إنك من الأذلاء المهانين والصّغار الذل والمهانة. قال الزجاج: استكبر عدو الله إبليس فابتلاه الله تعالى بالصغار والذلة. وقيل: كان له ملك الأرض فأخرجه الله تعالى منها إلى جزائر البحر الأخضر وعرشه عليه فلا يدخل الأرض إلا خائفاً كهيئة السارق مثل شيخ عليه أطمار رثة يروع فيها حتى يخرج منها ﴿**قال**

منه﴾ لأنك ﴿**خلقتني من نار وخلقته من طين**﴾، والنار خير وأنور من الطين قال ابن عباس: أول مَن قاس إبليس فأخطأ القياس فمَن قاس الدين بشيء من رأيه قرنه الله مع إبليس. قال ابن سيرين: ما عُبدَتِ الشمسُ إلاّ بالقياس قال محمد بن جرير: ظن الخبيث أن النار خير من الطين ولم يعلم أن الفضل لمَن جعل الله له الفضل، وقد فضّل الطين على النار. وقالت الحكماء: للطين فضل على النار من وجده منها أنّ من جوهر الطين الرزانة والوقار والحلم والصبر وهو الداعي لآدم بعد السعادة التي سبق له إلى التوبة والتواضع والتضرّع فأورثه الاجتباء والتوبة والهداية، ومن جوهر النار الخفّة والطيش والجرأة والارتفاع وهو الداعي لإبليس بعد الشقاوة التي سبقت له إلى الاستكبار والإصرار، فأورثه اللعنة والشقاوة، ولأن الطين سبب جمع الأشياء والنار سبب تفرّقها ولأن التراب سبب الحياة، لأنّ حياة الأشجار والنبات به، والنار سبب الهلاك.

قوله تعالى: ﴿**قالَ فاهْبطْ منها**﴾، أي: من الجنة، وقيل: من السماءِ إلى الأرض وكان له ملك الأرض فأخرجه منها إلى جزائر البحر وعرشه في البحر الأخضر، فلا يدخل الأرض إلاّ خائفاً على هيئة السارقِ مثل شيخ عليه أطمار يروع فيها حتى يخرج منها. قوله تعالى: ﴿**فما يكونُ لكَ أنْ تتكبّر**﴾، بمخالفة الأمر، ﴿**فيها**﴾، أي: في الجنة، ولا ينبغي أن يسكن الجنة ولا السماء متكبرٌ مخالفٌ لأمر الله، ﴿**فاخرجْ إنّكَ من الصّاغرين**﴾، من الأذلّاء، والصغار: الذل والمهانة.

يعني: قال إبليس عند ذلك ﴿أنظرني﴾ يعني أخِّرني وأمهلني فلا تمتني ﴿إلى يوم يبعثون﴾ يعني من قبورهم وهي النفخة الآخرة عند قيام الساعة وهذا من جهالة الخبيث إبليس لعنه الله لأنه سأل ربه الإمهال وقد علم أنه لا سبيل لأحد من خلق الله تعالى إلى البقاء في الدنيا ولكنه كره أن يكون ذائقاً للموت فطلب البقاء والخلود فلم يجب إلى ما سأل به ﴿قال﴾ الله تعالى ﴿إنك من المنظرين﴾ يعني من المؤخرين الممهلين وقد بين الله تعالى مدة النظرة والمهلة في سورة الحجر فقال تعالى: ﴿إنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم﴾ وذلك هو النفخة الأولى حين يموت الخلق كلهم.

فإن قلت: فما وجه قولك إنك من المنظرين وليس أحد ينظر سواه؟

قلت: معناه إن الذين تقوم عليهم الساعة منظرون إلى ذلك الوقت بآجالهم فهو منهم ﴿قال﴾ يعني إبليس ﴿فبما أغويتني﴾ يعني فبأي شيء أضللتني فعلى هذا تكون ما استفهامية وتم الكلام عند قوله أغويتني ثم ابتدأ فقال ﴿لأقعدن لهم صراطك المستقيم﴾ وقيل: هي باء القسم تقديره فبإغوائك إياي وقيل معناه فيما أوقعت في قلبي الغي الذي كان سبب هبوطي إلى الأرض من السماء وأضللتني عن الهدى لأقعدن لهم صراطك المستقيم يعني لأجلسن على طريقك القويم وهو طريق الإسلام. وقيل المراد بالصراط المستقيم الطريق الذي يسلكونه إلى الجنة وذلك بأن أوسوس إليهم وأزين لهم الباطل وما يكسبهم المآثم. وقيل: المراد بالصراط المستقيم هنا طريق مكة يعني يمنعهم من الهجرة. وقيل: المراد به الحج. والقول الأول أولى لأنه يعم الجميع ومعنى لأردنَّ بني آدم عن عبادتك وطاعتك ولأغوينهم ولأضلنَّهُم كما أضللتني. عن سبرة بن أبي الفاكه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الشيطان قعد لابن آدم بأطرقة قعد له في طريق الإسلام فقال تسلم وتذر دين آبائك وآباء آبائك فعصاه وأسلم، وقعد له بطريق الهجرة فقال تهاجر وتذر أرضك وسماءك وإنما مثل المهاجر كمثل الفرس في الطول فعصاه فهاجر وقعد له بطريق الجهاد فقال تجاهد فهو جهد النفس والمال فتقاتل فتقتل فتنكح المرأة ويقسم المال فعصاه فجاهد قال فمن فعل ذلك كان حقاً على الله أن يدخله الجنة وإن غرق كان حقاً على الله أن يدخله الجنة أو وقصته دابته كان حقاً على الله أن يدخله الجنة» أخرجه النسائي، وقوله تعالى إخباراً عن إبليس ﴿ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم﴾ قال ابن عباس: من بين أيديهم يعني من قبل الآخرة فأشككهم فيها، ومن خلفهم يعني من قبل الدنيا فأرغبهم فيها، وعن أيمانهم يشبه عليهم أمر دينهم، وعن شمائلهم أشهي لهم المعاصي. وإنما جعل الآخرة من بين أيديهم في هذا القول لأنهم منقلبون إليها وصائرون إليها فعلى هذا الاعتبار فالدنيا خلفهم لأنها وراء ظهورهم. وقال ابن عباس في رواية عنه: من بين أيديهم من قبل دنياهم يعني أزينها في قلوبهم، ومن خلفهم من قبل الآخرة، فأقول لا بعث ولا نشور ولا جنة ولا نار، وعن أيمانهم من قبل حسناتهم، وعن شمائلهم من قبل سيئاتهم وإنما جعل الدنيا من بين

﴿ قال ﴾، إبليس عند ذلك، ﴿ انظرني ﴾، أخّرني وأمهلني فلا تمتني، ﴿ إلى يوم يُبعثُون ﴾، من قبورهم وهو النفخة الأخرة عند قيام الساعة، أراد الخبيث أن لا يذوق الموت.

﴿ قال ﴾، الله تعالى، ﴿ إنّك مِنَ المُنْظَرِينَ ﴾، المؤخرين، وبيّن مدة النظر والمهلة في موضع آخر فقال: ﴿ إلى يوم الوقت المعلوم ﴾، وهو النفخة الأولى حين يموت الخلق كلهم.

﴿ قالَ فَبِمَا أَغْوَيتني ﴾، اختلفوا في ﴿ ما ﴾ قيل: هو استفهام يعني فبأيّ شيء أغويتني؟ ثم ابتدأ فقال: ﴿ لأقعدنّ لهم ﴾ وقيل: هو ما الجزاء، أي: لأجل أنك أغويتني أقعدنّ لهم. وقيل: هو ما المصدر موضع القسم تقديره: فبإغوائك إيّاي لأقعدنّ لهم، كقوله بما غفر لي ربّي، يعني: بغفران ربي، والمعنى بقدرتك عليّ ونفاذ سلطانك. وقال ابن الأنباري: أي فيما أوقعت في قلبي من الغِي الذي كان سبب هبوطي من السماء أغويتني، أي:

أيديهم في هذا القول لأن الإنسان يسعى فيها ويشاهدها فهي حاضرة بين يديه والآخرة غائبة عنه فهي خلفه. وقال الحكم بن عتبة: من بين أيديهم يعني من قبل الدنيا فأزينها لهم ومن خلفهم من قبل الآخرة فأثبطهم عنها وعن أيمانهم يعني من قبل الحق فأصدهم عنه وعن شمائلهم من قبل الباطل فأزينه لهم وقال قتادة: أتاهم من بين أيديهم فأخبرهم أنه لا بعث ولا جنة ولا نار ومن خلفهم من أمر الدنيا فزينها لهم ودعاهم إليها وعن إيمانهم من قبل حسناتهم فبطأهم عنها وعن شمائلهم زين لهم السيئات والمعاصي ودعاهم إليها. أتاك يا ابن آدم من كل وجه غير أنه لم يأتك من فوقك فلم يستطع أن يحول بينك وبين رحمة الله تعالى. وقال مجاهد: يأتيهم من بين أيديهم وعن أيمانهم حيث يبصرون، ومن خلفهم وعن شمائلهم حيث لا يبصرون. ومعنى هذا من حيث يخطئون ويعلمون أنهم يخطئون ومن حيث لا يبصرون أنهم يخطئون ولا يعلمون أنهم يخطئون، وقيل: من بين أيديهم يعني فيما بقي من أعمارهم فلا يقدمون فيه طاعة ومن خلفهم يعني ما مضى من أعمارهم فلا يتوبون عما أسلفوا فيه من معصية عن أيمانهم يعني من قبل الغنى فلا ينفقون ولا يشركون ومن خلفهم يعني من قبل الفقر فلا يمتنعون فيه من محظور نالوه. وقال شقيق البلخي: ما من صباح إلا ويأتيني الشيطان من الجهات الأربع من بين يديّ ومن خلفي وعن يميني وعن شمالي أما بين يدي فيقول: لا تخف إن الله غفور رحيم فأقرأ وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى، وأما من خلفي فيخوفني من وقوع أولادي في الفقر فأقرأ وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها، وأما من قبل يميني فيأتيني من الثناء فأقرأ والعاقبة للمتقين، وأما من قبل شمالي فيأتيني من قبل الشهوات فأقرأ وحيل بينهم وبين ما يشتهون. وقيل إن ذكر هذه الجهات الأربع إنما أريد بها التأكيد والمبالغة في إلقاء الوسوسة في قلب ابن آدم وأنه لا يقصر في ذلك، ومعنى الآية على هذا القول: ثم لآتينهم من جميع الوجوه الممكنة لجميع الاعتبارات وقوله ﴿**ولا تجد أكثرهم شاكرين**﴾ يعني ولا تجد يا رب أكثرهم بني آدم شاكرين على نعمك التي أنعمت بها عليهم. وقال ابن عباس: معناه ولا تجد أكثرهم موحدين.

فإن قلت: كيف علم الخبيث إبليس ذلك حتى قال ولا تجد أكثرهم شاكرين؟

قلت: قاله ظناً فأصاب منه قوله تعالى، ولقد صدق عليهم إبليس ظنه وقيل إنه كان عازماً على المبالغة في تزيين

أضللتني عن الهدى. وقيل: أهلكتني. وقيل: خيّبتني، ﴿ **لأقعدنّ لهم صراطَكَ المستقيم** ﴾، أي: لأجلسنّ لبني آدم على طريقك القويم وهو الإسلام.

﴿ **ثمّ لآتينّهم من بينِ أيديهم** ﴾، قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: من بين أيديهم أي مِنْ قِبَلِ الآخرة فأُشكِّكُهم فيها، ﴿ **ومِنْ خلفِهم** ﴾، أرغّبهم في دنياهم، ﴿ **وعنْ أيمانِهم** ﴾، أشبِّه عليهم أمر دينهم. ﴿ **وعَنْ شمائِلهم** ﴾، أُشهّي لهم المعاصي. وروى عطية عن ابن عباس: ﴿ **من بين أيديهم** ﴾ من قِبَلِ دنياهم، يعني أُزيّنها في قلوبهم، ﴿ **ومن خلفهم** ﴾، من قِبَلِ الآخرة فأقول: لَا بعث ولا جنّةَ ولا نارَ، ﴿ **وعن أيمانهم** ﴾ من قِبَلِ حسناتهم، ﴿ **وعن شَمائِلِهِمْ** ﴾ من قِبَلِ سيئاتهم. وقال الحكم: من بين أيديهم: من قبل الدنيا يُزيّنها لهم، ومن خلفهم: من قبل الآخرة يثبطهم عنها، وعن أيمانهم: من قبل الحقّ يصدّهم عنه، وعن شمائلهم: من قبل الباطل يزينه لهم. وقال قتادة: أتاهم من بين أيديهم فأخبرهم أنه لا بعث ولا جنّة ولا نار، ومن خلفهم: من أمور الدنيا يزينها لهم ويدعوهم إليها، وعن أيمانهم: من قبل حسناتهم بطّأهم عنها، وعن شمائلهم: زيّن لهم السيئات والمعاصي ودعاهم إليها أتاك يا ابن آدم من كل وجه غير أنه لم يأتك من فوقك لم يستطع أن يحول بينك وبين رحمة الله. وقال مجاهد: من بين أيديهم وعن أيمانهم من حيث يبصرون، ومن خلفهم وعن شمائلهم من حيث لا يبصرون. وقال ابن جريج: معنى قوله حيث لا يبصرون أي لا يخطئون وحيث لا يبصرون أي لا يعلمون أنهم يخطئون. ﴿ **ولا تجد**

الشهوات وتحسين القبائح وعلم ميل بني آدم إلى ذلك فقال هذه المقالة وقيل إنه رآه مكتوباً في اللوح المحفوظ فقال هذه المقالة على سبيل اليقين والقطع والله أعلم بمراده.

﴿قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾ وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴿٢٠﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿**قال اخرج منها**﴾ أي: قال الله تعالى لإبليس حين طرده عن بابه وأبعده عن جنابه وذلك بسبب مخالفته وعصيانه اخرج منها يعني من الجنة فإنه لا ينبغي أن يسكن فيها العصاة ﴿**مذؤوماً**﴾ يعني معيباً والذأم أشد العيب ﴿**مدحوراً**﴾ يعني مطروداً مبعداً. وقال ابن عباس: صغيراً ممقوتاً. وقال قتادة: لعيناً مقيتاً وقال الكلبي: ملوماً مقصياً من الجنة ومن كل خير ﴿**لمن تبعك منهم**﴾ يعني من بني آدم ﴿**لأملان جهنم منكم أجمعين**﴾ اللام لام القسم أقسم الله تعالى أن من اتبع إبليس من بني آدم وأطاعه منهم.

قوله تعالى: ﴿**ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة**﴾ أي وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وذلك بعد أن أهبط منها إبليس وأخرجه وطرده من الجنة ﴿**فكُلا من حيث شئتما**﴾ يعني فكُلا من ثمار الجنة من أي مكان شئتما.

فإن قلت: قال في سورة البقرة وكلا بالواو وقال هنا فكلا بالفاء فما الفرق؟

قلت: قال الإمام فخر الدين الرازي إن الواو تفيد الجمع المطلق والفاء تفيد الجمع على سبيل التعقيب فالمفهوم من الفاء نوع داخل تحت المفهوم من الواو ولا منافاة بين النوع والجنس ففي سورة البقرة ذكر الجنس وهنا ذكر النوع ﴿**ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين**﴾ تقدم في سورة البقرة الكلام على تفسير هذه الآية مستوفى.

قوله تعالى: ﴿**فوسوس لهما الشيطان**﴾ يعني فوسوس إليهما والوسوسة حديث يلقيه الشيطان في قلب الإنسان، يقال: وسوس إذا تكلم كلاماً خفيفاً مكرراً وأصله من صوت الحلي ومعنى وسوس لهما فعلَ الوسوسة وألقاها إليهما.

فإن قلت: كيف وسوس إليهما وآدم وحواء في الجنة وإبليس قد أُخرج منها؟

قلت: ذكر الإمام فخر الدين الرازي في الجواب عن هذا السؤال عن الحسن أنه قال: كان يوسوس في الأرض إلى السماء إلى الجنة بالقوة القوية التي جعلها الله تعالى له. قوله وقال أبو مسلم الأصبهاني: بل كان آدم وإبليس في الجنة لأن هذه الجنة كانت بعض جنات الأرض والذي يقوله بعض الناس من أن إبليس دخل في جوف الحية فدخلت

أكثرهم شاكرين ﴾، مؤمنين، فإن قيل: كيف علم الخبيث ذلك؟ قيل: قاله ظنّاً فأصاب. قال الله تعالى: ﴿ ولقدْ صدقَ عليهم إبليسُ ظنَّه ﴾ [سبأ: ٢٠].

﴿ **قال** ﴾، الله تعالى لإبليس، ﴿ **اخرجْ منها مَذْءُوماً مَّدْحُوراً** ﴾، أي: معيباً، والذامّ أشدّ العيب، يقال: ذامّه يذامّه ذامّاً فهو مذؤوم وذامّه يذيمه ذامّاً فهو مذيم، مثل سار يسير سيراً. والمدحور: المبعد المطرود، يقال: دحره يدحره دحراً إذا أبعده وطرده. قال ابن عباس: مذؤوماً أي ممقوتاً قال قتادة: مذؤوماً مدحوراً أي: لعيناً شقيّاً. وقال الكلبي: مذؤوماً مدحوراً مقصيّاً من الجنة ومن كل خير. ﴿ **لمَنْ تَبِعَكَ منهم** ﴾، من بني آدم، ﴿ **لأملأنّ**

به الحية إلى الجنة فقصة مشهورة ركيكة، وقال آخرون: إن آدم وحواء ربما قربا من باب الجنة وكان إبليس واقفاً من خارج الجنة على بابها فقرب أحدهما من الآخر فحصلت الوسوسة هناك.

فإن قلت: إن آدم عليه الصلاة والسلام قد عرف ما بينه وبين إبليس من العداوة فكيف قبل قوله؟

قلت: يحتمل أن يقال إن إبليس لقي آدم مراراً كثيرة ورغبه في أكل هذه الشجرة بطرق كثيرة منها رجاء نيل الخلد ومنها قوله وقاسمهما «إني لكما لمن الناصحين» فلأجل هذه المواظبة والمداومة على هذا التمويه أثر كلام إبليس في آدم حتى أكل من الشجرة ﴿**ليبدي لهما ما ووري عنهما من سوءاتهما**﴾ يعني ليظهر لهم ما غطى وستر عوراتهما وقوله ما ووري مأخوذ من المواراة وهي الستر يقال واريته بمعنى سترته والسوأة فرج الرجل والمرأة سمي بذلك لأن ظهوره يسوء الإنسان وفي الآية دليل على أن كشف العورة من المنكرات المحرمات واللام في قوله ليبدي لهما لام العاقبة وذلك لأن إبليس لم يقصد بالوسوسة ظهور عوراتهما وإنما كان حملهما على المعصية فقط فكان عاقبة أمرهما أن بدت عوراتهما ﴿**وقال**﴾ يعني وقال إبليس لآدم وحواء ﴿**ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة**﴾ يعني عن الأكل من هذه الشجرة ﴿**إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين**﴾ يعني إنما نهاكما عن هذه الشجرة لكي لا تكونا ملكين من الملائكة تعلمان الخير والشر أو تكونا من الباقين الذين لا يموتون وإنما أطمع إبليس آدم بهذه الآية لأنه علم أن الملائكة لهم المنزلة والقرب من العرش فاستشرف لذلك آدم وأحب أن يعيش مع الملائكة لطول أعمارهم أو يكون من الخالدين الذين لا يموتون أبداً.

فإن قلت: ظاهر الآية يدل على أن الملَك أفضل من الأنبياء لأن آدم عليه الصلاة والسلام طلب أن يكون من الملائكة وهذا يدل على فضلهم عليه.

قلت: ليس في ظاهر الآية ما يدل على ذلك لأن آدم عليه الصلاة والسلام لما طلب أن يكون من الملائكة كان ذلك الطلب قبل أن يتشرف بالنبوة وكانت هذه الواقعة قبل نبوة آدم عليه الصلاة والسلام فطلب أن يكون من الملائكة أو من الخالدين وعلى تقديره أن تكون هذه الواقعة في زمان النبوة بعد أن شرف بها آدم إنما طلب أن يكون من الملائكة لطول أعمارهم لا لأنهم أفضل منه حتى يلتحق بهم في الفضل لأنه طلب إما أن يكون من الملائكة لطول أعمارهم أو من الخالدين الذين لا يموتون أبداً وقوله تعالى:

وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا

جهنَّمَ ﴾، اللام لام القسمُ، ﴿ **منكم أجمعين** ﴾، أي: منك ومن ذريتك ومن كفّار ذريّة آدم أجمعين.

﴿ **ويا آدمُ اسْكُنْ أنتَ وزوجُكَ الجنَّةَ فكُلاَ منْ حيثُ شِئتُما ولا تقربَا هذهِ الشجرةَ فتكونَا مِنَ الظّالمين** ﴾.

﴿ **فَوَسْوَسَ لهمَا الشّيطانُ** ﴾، أي: إليهما، والوسوسة: حديث يُلقيه الشيطان في قلب الإنسان ﴿ **لِيُبْدِي لهما مَا وُورِي عنهما مِنْ سوْآتِهما** ﴾، أي: لِيُظهِرَ لهما ما غُطي وسُتر عنهما من عوراتهما، قيل: اللام فيه لام العاقبة أن إبليس لم يوسوس لهذا ولكن كان عاقبة أمرهم ذلك، وهو ظهور عورتهما، كقوله تعالى: ﴿ فالتقطه آلُ فِرْعَونَ ليكونَ لهمْ عدوّاً وحزناً ﴾ [القصص: ٨]، ثم بيّن الوسوسة فقال: ﴿ **وقال** ﴾ إبليس لآدم وحوّاء، ﴿ **مَا نَهاكُما ربُّكما عن هذه الشجرة إلاّ أنْ تكونَا مَلَكَيْنِ** ﴾، يعني إلاّ كراهية أن تكونا من الملائكة يعلمان الخير والشر، ﴿ **أو تكونَا مِنَ الخالدين** ﴾، من الباقين الذين لا يموتون كما قال في موضع آخر: ﴿ هل أدلّكَ على شجرةِ الخُلْدِ ﴾ [طه: ١٢٠].

﴿يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾﴾

﴿وقاسمهما﴾ أي وأقسم وحلف لهما وهذا من المفاعلة التي تختص بالواحد ﴿إني لكما لَمن الناصحين﴾ قال قتادة: حلف لهما بالله تعالى حتى خدعهما وقد يُخدع المؤمن بالله فقال إني خُلقت قبلكما وأنا أعلم منكما فاتبعاني أرشدكما وقال بعض العلماء: من خادعنا بالله خدعنا له ﴿فدلاهما بغرور﴾ يعني فخدعهما بغرور يقال ما زال فلان يدلي فلاناً بغرور يعني ما زال يخدعه ويكلمه بزخرف من القول الباطل. قال الأزهري وأصله أن الرجل العطشان يتدلى في البئر ليأخذ الماء فلا يجد فيها ماء فوضعت التدلية موضع الطمع فيما لا فائدة فيه والغرور إظهار النصح مع إبطان الغش وهو أن إبليس حطهما من منزلة الطاعة إلى حالة المعصية لأن التدلي لا يكون إلا من علو إلى أسفل. ومعنى الآية أن إبليس لعنه الله تعالى غر آدم باليمين الكاذبة وكان آدم عليه الصلاة والسلام يظن أن أحداً لا يحلف بالله كاذباً وإبليس أول من حلف بالله كاذباً فلما حلف إبليس ظن آدم أنه صادق فاغتر به ﴿فلما ذاقا الشجرة﴾ يعني: طعما من ثمرة الشجرة وفيها دليل على أنهما تناولا اليسير من ذلك قصد إلى معرفة طعمه لأن الذوق يدل على الأكل اليسير ﴿بدت لهما سوءاتهما﴾ يعني: ظهرت لهما عوراتهما قال ابن عباس رضي الله عنهما: قبل أن ازدردا أخذتهما العقوبة والعقوبة أن ظهرت وبدت لهما سوآتهما وتهافت عنهما لبسهما حتى أبصر كل واحد منهما ما ووري عنه من عورة صاحبه وكانا لا يريان ذلك. وقال وهب: كان لباسهما من النور لا يرى هذا عورة هذه ولا هذه عورة هذا فلما أصابا الخطيئة بدت لهما سوآتهما وقال قتادة: كان لباس آدم في الجنة ظفراً كله فلما وقع في الذنب قشط عنه وبدت سوأته ﴿وطفقا﴾ يعني وأقبلا وجعلا ﴿يخصفان عليهما من ورق الجنة﴾ يعني أنهما لما بدت لهما سوآتهما جعلا يرقعان ويلزقان عليهما من ورق الجنة وهو ورق التين حتى صار كهيئة الثوب. وقال الزجاج: جعلا ورقة على ورقة ليسترا سوآتهما وفي الآية دليل على أن كشف العورة من ابن آدم قبيح ألا ترى أنهما بادرا إلى ستر العورة لما تقرر في عقلهما من قبيح كشفها.

روى أبيّ بن كعب عن رسول الله ﷺ قال «كان آدم ﷺ رجلاً طويلاً كأنه نخلة سحوق كثير شعر الرأس فلما وقع في الخطيئة بدت له سوأته وكان لا يراها في الجنة فانطلق فاراً فعرضت له شجرة من شجر الجنة فحبسته بشعره فقال

﴿ وَقَاسَمَهُمَا إنّي لكما لَمِنَ النَّاصِحين ﴾، أي: وأقسم وحلف لهما وهذا من المفاعلة التي تختصّ بالواحد، وقال قتادة: حلف لهما بالله حتى خدعهما، وقد يُخدع المؤمن بالله، فقال: إني خلقت قبلكما وأنا أعلم منكما فاتّبعـاني أُرشدكما، وإبليس أول مَن حلف بالله كاذباً فلما حلف ظنّ آدم أن أحداً لا يحلف بالله إلّا صادقاً فاغترّ به.

﴿ فدلّاهُما بِغُرور ﴾، أي: خدعهما، يقال: ما زال إبليس يدلّ فلاناً بالغرور، يعني: ما زال يخدعه ويكلمه بزخرف باطل من القول. وقيل: حطهما من منزلة الطاعة إلى حالة المعصية، ولا يكون التدلّي إلّا من علو إلى أسفل والتدلية إرسال الدلو في البئر، يُقال: تدلّى بنفسه ودعا غيره، وقال الأزهري: أصله من تدلية العطشان البئر ليروي من الماء ولا يجد الماء فيكون تدلى بالغرور عن إظهار النصح مع إبْطانِ الغش. ﴿ فلما ذَاقَا الشجرةَ بدتْ لهما سوآتهما ﴾، قال الكلبي: فلما أكلا منها. ورُوِيَ عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: قبل أن ازدردا أخذتْهما العقوبةُ، والعقوبةُ إنْ بدتْ ظهرتْ لهما سوآتُهما عوراتُهما، وتهافت لباسهما حتى أبصر كل واحد منهما ما

لها أرسليني قالت لست بمرسلتك فناداه ربه يا آدم أمنّي تفر قال لا يا رب ولكني استحييتك» ذكره البغوي بغير سند وأسنده الطبري من طريقين موقوفاً ومرفوعاً.

قوله تعالى: ﴿وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة﴾ يعني أن الله تعالى نادى آدم وحواء وخاطبهما فقال: ألم أنهكما عن أكل ثمرة هذه الشجرة ﴿وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين﴾ يعني أعلمكما أن الشيطان قد بانت عداوته لكما بترك السجود حسداً وبغياً. قال ابن عباس رضي الله عنهما: لما أكل آدم من الشجرة قيل له: لم أكلت من الشجرة التي نهيتك عنها؟ قال: حواء أمرتني. قال فإني أعقبتها أن لا تحمل إلا كرهاً ولا تضع إلا كرهاً قال فرنت حواء عند ذلك رنة فقيل لها الرنة عليك وعلى بناتك وقال محمد بن قيس: ناداه ربه يا آدم لم أكلت منها وقد نهيتك قال أطعمتني حواء فقال لحواء لم أطعمتيه قالت أمرتني الحية فقال للحية لم أمرتها قالت أمرني إبليس قال الله تعالى: أما أنت يا حواء فكما أدميت الشجرة تدمين كل شهر وأما أنت يا حية فأنطع رجليك فتمشين على وجهك وسيشدخ رأسك من لقيك وأما أنت يا إبليس فملعون مطرود مدحور يعني عن الرحمة. وقيل ناداه ربه يا آدم أما خلقتك بيدي أما نفخت فيك من روحي أما أسجدت لك ملائكتي أما أسكنتك جنتي في جواري.

﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿قالا ربنا ظلمنا أنفسنا﴾ وهذا خبر من الله عز وجل عن آدم عليه الصلاة والسلام وحواء عليها السلام واعترافهما على أنفسهما بالذنب والندم على ذلك والمعنى: قالا يا ربنا إنا فعلنا بأنفسنا من الإساءة إليها بمخالفة أمرك وطاعة عدونا وعدوك ما لم يكن لنا أن نطيعه فيه من أكل الشجرة التي نهيتنا عن أكلها ﴿وإن لم تغفر لنا﴾ يعني وأنت يا ربنا إن لم تستر علينا ذنبنا ﴿وترحمنا﴾ يعني وتتفضل علينا برحمتك ﴿لنكونن من الخاسرين﴾ يعني من الهالكين.

وُورِيَ عنه من عورة صاحبه، وكانا لا يريان ذلك قال وهب: كان لباسهما من النور. وقال قتادة: كان ظفراً ألبسهما الله من الظفر لباساً فلمّا وقعا في الذنب بدت لهما سوءاتهما فاستحيا، ﴿ وطَفِقَا ﴾ أقبلا وجعلا ﴿ يَخْصِفَانِ ﴾، يرقّعان ويلزقان ويصلان، ﴿ عليهما منْ وَرَقِ الجنّة ﴾، وهو ورق التين حتى صار كهيئة الثوب. قال الزجّاج: يجعلان ورقة على ورقة ليستروا سوآتهما، ورُوِيَ عن أُبيّ بن كعب عن رسول الله ﷺ «كان آدم رجلاً طِوَالاً كأنه نخلة سحوق كثير شعر الرأس، فلما وقع في الخطيئة بدت له سوأته، وكان لا يراها فانطلق هارباً في الجنة، فعرضتْ له شجرةٌ من شجر الجنة فحبسته بشعره، فقال لها: أرسليني، قالت: لست بمرسلتك، فناداه ربُّه يا آدمُ أتفرّ منّي؟ قال: لا يا رب ولكن استحييتُك». ﴿ وناداهما ربُّهما ألمْ أنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشجرة ﴾، يعني: عن الأكل منها، ﴿ وأقلْ لكُمَا إنّ الشيطانَ لَكُمَا عدوٌّ مُّبين ﴾، أي: بيّن العداوة، قال محمد بن قيس: ناداه ربُّه يا آدمُ أكلت منها وقد نهيتُك؟ قال: ربِّ أطعمتني حوّاء، قال لحوّاء: لِمَ أطعمتيه؟ قالت: أمرتني الحيّة، قال للحيّةِ: لِمَ أمرتيها؟ قالتْ: أمرني إبليس، فقال الله: أمّا أنت يا حوّاء فكما أدميت الشجرة فتدمين كل شهر، وأما أنت يا حيّة فأقطع قوائمك فتمشين على بطنك ووجهك، وسيشدخ رأسك مَن لقيك، وأمّا أنتَ يا إبليس فملعون مدحور.

﴿ قالاَ ربَّنا ظلمنا أنفسَنا ﴾، ضررناها بالمعصية، ﴿ وإنْ لم تغفرْ لنا وترحَمْنا لنكوننّ من الخاسرين ﴾، الهالكين.

قال قتادة: قال آدم يا رب أرأيت إن تبت إليك واستغفرتك، قال: إذاً أدخلك الجنة.

وأما إبليس فلم يسأله التوبة وسأله أن ينظره فأعطى كل واحد مهما ما سأل وقال الضحاك في قوله ﴿ربنا ظلمنا أنفسنا﴾ قال: هي الكلمات التي تلقّاها آدم عليه الصلاة والسلام من ربه عز وجل.

(فصل)

وقد استدل من يرى صدور الذنب من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بهذه الآية وأجيب عنه بأن درجة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في الرفعة والعلو والمعرفة بالله عز وجل مما حملهم على الخوف منه والإشفاق من المؤاخذة بما لم يؤاخَذ به غيرهم وأنهم ربما عوتبوا بأمور صدرت منهم على سبيل التأويل والسهو فهم بسبب ذلك خائفون وجِلون وهي ذنوب بالإضافة إلى علو منصبهم وسيئات بالنسبة إلى كمال طاعتهم لا أنها ذنوب كذنوب غيرهم ومعاص كمعاصي غيرهم فكان ما صدر منهم، مع طهارتهم ونزاهتهم وعمارة بواطنهم بالوحي السماوي والذكر القدسي وعمارة ظواهرهم بالعمل الصالح والخشية لله عز وجل، ذنوباً وهي حسنات بالنسبة إلى غيرهم كما قيل: حسنات الأبرار سيئات المقربين. يعني أنهم يرونها بالنسبة إلى أحوالهم كالسيئات وهي حسنات لغيرهم. وقد تقدم في سورة البقرة أن أكل آدم من الشجرة هل كان قبل النبوة أو بعدها؟ والخلاف فيه فأغنى عن الإعادة والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿قال اهبطوا﴾ قال الإمام فخر الدين الرازي رحمه الله: إن الذي تقدم ذكره هو آدم وحواء وإبليس فقوله اهبطوا يجب أن يتناول هؤلاء الثلاثة. وقال الطبري: قال الله تعالى لآدم وحواء وإبليس والحية اهبطوا يعني من السماء إلى الأرض قال السدي رحمه الله: قوله تعالى: ﴿اهبطوا﴾ يعني إلى الأرض آدم وحواء وإبليس والحية ﴿بعضكم لبعض عدو﴾ يعني أن العداوة ثابتة بين آدم وإبليس والحية وذرية كل واحد من آدم وإبليس ﴿ولكم في الأرض مستقر﴾ يعني موضع قرار تستقرون فيه، وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما في قوله تعالى: ﴿ولكم في الأرض مستقر﴾ يعني القبور ﴿ومتاع إلى حين﴾ يعني ولكم فيها متاع تستمتعون به إلى انقطاع الدنيا أو إلى انقضاء آجالكم ومعنى الآية أن الله عز وجل أخبر آدم وحواء وإبليس والحية أنه إذا أهبطهم إلى الأرض فإن بعضهم لبعض عدو وأن لهم في الأرض موضع قرار يستقرون فيه إلى انقضاء آجالهم ثم يستقرون في قبورهم إلى انقطاع الدنيا. قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما في قوله تعالى: ﴿ومتاع إلى حين﴾ يعني إلى يوم القيامة وإلى انقطاع الدنيا ﴿قال فيها تحيون﴾ يعني: قال الله عز وجل لآدم وذريته وإبليس وأولاده فيها تحيون يعني في الأرض تعيشون أيام حياتكم

﴿ قال اهبطُوا بعضُكم لبعضٍ عَدُوٌّ ولكم في الأرضِ مستقرٌّ ومتاعٌ إلى حين ﴾.

﴿ قال فيها تَحْيَوْنَ ﴾، يعني في الأرض تعيشون، ﴿ وفيها تَمُوتُونَ ومنها تخرُجُون ﴾، أي: من الأرض تخرجون من قبوركم للبعث، قرأ ابن عامر وحمزة والكسائي: «تخرجــون» بفتح التاء ههنا وفي الزخرف، وافق يعقوب ههنا وزاد حمزة والكسائي: « وكذلك تخرجون » في أول الروم، والباقون بضمّ التاء وفتح الراء فيهنّ.

﴿ يا بني آدمَ قدْ أنزلنا عليكم ﴾، أي: خلَقْنَا لكم ﴿ لباساً ﴾، وقيل: إنّما قال: ﴿ أنزلْنا ﴾ لأنّ اللباس يكون من نبات الأرض، والنبات يكون بما ينزل من السماء، فمعنى قوله: ﴿ أنزلنا ﴾ أي: أنزلنا أسبابه. وقيل: كل بركات الأرض منسوبة إلى السماء كما قال تعالى: ﴿ وأنزلنا الحديد ﴾ [الحديد: ٢٥] وإنما يستخرج الحديد من الأرض. وسبب نزول هذه الآية أنهم كانوا في الجاهلية يطوفون بالبيت عُراة يقولون لا نطوف في ثياب عصينا الله فيها، فكان الرجال يطوفون بالنهار والنساء بالليل عراة. قال قتادة: كانت المرأة تطوف وتضع يدها على فرجها وتقول:

﴿وفيها تموتون﴾ يعني: وفي الأرض تكون وفاتكم وموضع قبوركم ﴿ومنها تخرجون﴾ يعني: ومن الأرض يخرجكم ربكم ويحشركم للحساب يوم القيامة.

قوله عز وجل: ﴿يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يواري سوءاتكم﴾ اعلم أن الله عز وجل لما أمر آدم وحواء بالهبوط إلى الأرض وجعلها مستقراً لهم أنزل عليهم كل ما يحتاجون إليه من مصالح الدين والدنيا فكان مما أنزل عليهم اللباس الذي يحتاج إليه في الدين والدنيا فأما منفعته في الدين فإنه يستر العورة وسترها شرط في صحة الصلاة وأما منفعته في الدنيا فإنه يمنع الحر والبرد فامتنّ الله على عباده بأن أنزل عليهم لباساً يواري سوءاتهم فقال تعالى: ﴿يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يواري سوءاتكم﴾ يعني لباساً تسترون به عوراتكم.

فإن قلت ما معنى قوله قد أنزلنا عليكم لباساً.

قلت ذكر العلماء فيه وجوهاً **أحدها**: أنه بمعنى خلق أي خلقنا لكم لباساً أو بمعنى رزقناكم لباساً.

الوجه الثاني: أن الله تعالى أنزل المطر من السماء وهو سبب نبات اللباس فكأنه أنزله عليهم.

الوجه الثالث: أن جميع بركات الأرض تنسب إلى السماء وإلى الإنزال كما قال تعالى: وأنزلنا الحديد ﴿وريشاً﴾ الريش للطائر معروف وهو لباسه وزينته كالثياب للإنسان فاستعير للإنسان لأنه لباسه وزينته والمعنى وأنزلنا عليكم لباسين لباساً يواري سوءاتكم ولباساً لزينتكم لأن التزيين غرض صحيح كما قال تعالى ﴿لتركبوها وزينة﴾ وقال ﴿ولكم فيها جمال﴾ وقال رسول الله ﷺ «إن الله جميل يحب الجمال» واختلفوا في معنى الريش المذكور في الآية فقال ابن عباس رضي الله عنهما وريشاً يعني مالاً، وهو قول مجاهد والضحاك والسدي لأن المال مما يتزين به، ويقال: تريش الرجل إذا تموّل. وقال ابن زيد: الريش الجمال وهو يرجع إلى الزينة أيضاً، وقيل: إن الرياش في كلام العرب الأثاث وما ظهر من الثياب والمتاع مما يلبس أو يفرش والريش أيضاً المتاع والأموال عندهم وربما استعملوه في الثياب والكسوة دون سائر المال يقال إنه لحسن الريش أو لحسن الثياب وقيل الريش والرياش يستعمل أيضاً في الخصب ورفاهية العيش ﴿ولباس التقوى﴾ اختلف العلماء في معناه فمنهم من حمله على نفس الملبوس وحقيقته، ومنهم من حمله على المجاز أما من حمله على نفس الملبوس فاختلفوا أيضاً في معناه، فقال ابن الأنباري: لباس التقوى هو اللباس الأول وإنما أعاده إخباراً أنّ ستر العورة من التقوى وذلك خير.

وقيل: إنما أعاده لأجل أن يخبر عنه بأنه خير لأن العرب في الجاهلية كانوا يتعبدون بالتعري وخلع الثياب في الطواف بالبيت فأخبر أن ستر العورة في الطواف هو لباس التقوى وذلك خير. وقال زيد بن علي رحمه الله تعالى: لباس التقوى آلات الحرب التي يتقى بها في الحروب كالدروع والمغفر ونحو ذلك. وقيل لباس التقوى هو الصوف

اليومَ يبدُو بعضُه أو كلُّه ... وما بَدَا منه فلاَ أُحِلُّه

فأمر الله سبحانه بالستر فقال: ﴿ **قد أنزلنا عليكم لباساً يُوارِي سوآتِكم** ﴾، يستر عوراتكم، واحدتها سوأة سُمّيت بها لأنه يسوء صاحبَها انكشافُها فلا تطوفوا عُراةً، ﴿ **وريشاً** ﴾، يعني: مالاً في قول ابن عباس ومجاهد والضحّاك والسدي، يُقال: تريّش الرجل إذا تموّل، وقيل: الريش الجمال، أي: ما تتجملون به من الثياب، وقيل: هو اللباس ﴿ **ولباسُ التقوى ذلك خير** ﴾، قرأ أهل المدينة وابن عامر والكسائي «ولبـاس» بنصب السين عطفاً على قوله: ﴿ **لباساً** ﴾ وقرأ الآخرون بالرفع على الابتداء وخبره ﴿ **خير** ﴾، وجعلوا ﴿ **ذلك** ﴾ صلة في الكلام، ولذلك قرأ ابن مسعود وأُبيّ بن كعب « ولباسُ التقوى خير » واختلفوا في ﴿ **لباس التقوى** ﴾ قال قتادة والسدي:

والخشن من الثياب التي يلبسها أهل الزهد والورع. وقيل: هو ستر العورة في الصلاة وأما من حمل لباس التقوى على المجاز فاختلفوا في معناه. فقال قتادة والسدي: لباس التقوى هو الإيمان لأن صاحبه يتقي به من النار، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: لباس التقوى هو العمل الصالح، وقال الحسن رضي الله عنه: هو الحياء لأنه يحث على التقوى. وقال عثمان بن عفان رضي الله عنه: لباس التقوى هو السمت الحسن، وقال عروة بن الزبير رضي الله عنه: لباس التقوى خشية الله، وقال الكلبي: هو العفاف فعلى هذه الأقوال: إن لباس التقوى خير لصاحبه إذا أخذ به مما خلق الله له من لباس التجمل وزينة الدنيا وهو قوله تعالى: ﴿ذلك خير﴾ يعني لباس التقوى خير من لباس الجمال والزينة وأنشدوا في المعنى:

إذا أنت لم تلبس ثياباً من التقى … عريت وإن وارى القميصَ قميصُ

وقوله تعالى: ﴿ذلك من آيات الله﴾ يعني أنزل اللباس عليكم يا بني آدم من آيات الله الدالة على معرفته وتوحيده ﴿لعلهم يذكرون﴾ يعني لعلهم يذكرون نعمته عليهم فيشكرونها.

﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٢٧﴾ وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةٗ قَالُواْ وَجَدۡنَا عَلَيۡهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة﴾ قيل: هذا خطاب للذين كانوا يطوفون بالبيت عراة والمعنى: لا يخدعنكم بغروره ولا يضلنكم فيزين لكم كشف عوراتكم في الطواف وإنما ذكر قصة آدم هنا وشدة عداوة إبليس له ليحذر بذلك أولاد آدم فقال تعالى: ﴿يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة﴾ يعني آدم وحواء عليهما الصلاة والسلام والمعنى أن من قدر على إخراج أبويكم من الجنة بوسوسته وشدة عداوته فبأن يقدر على فتنتكم بطريق الأولى فحذر الله عز وجل بني آدم وأمرهم بالاحتراز عن وسوسة الشيطان وغروره وتزيينه القبائح وتحسينه الأفعال الرديئة في قلوب بني آدم فهذه فتنته التي نهى الله تعالى عباده عنها وحذرهم منها.

قوله تعالى: ﴿ينزع عنهما لباسهما﴾ إنما أضاف نزع اللباس إلى الشيطان وإن لم يباشر ذلك لأن نزع لباسهما كان بسبب وسوسة الشيطان وغروره فأسند إليه واختلفوا في اللباس الذي نزع عنهما، فقال ابن عباس رضي الله عنهما: كان لباسهما الظفر فلما أصابا الخطيئة نزع عنهما وبقيت الأظفار تذكرة وزينة ومنافع، وقال وهب بن منبه رحمه الله تعالى: كان لباس آدم وحواء نوراً، وقال مجاهد: كان لباسهما التقى.

التقوى هو الإيمان. وقال الحسن: هو الحياء لأنه يبعث على التقوى. وقال عطاء عن ابن عباس: هو العمل الصالح. وعن عثمان بن عفّان: أنه هو السمت الحسن. وقال عروة بن الزبير: لباس التقوى خشية الله. وقال الكلبي: هو العفــاف. والمعنى: لباس التقوى خير لصاحبه إذا أخـذ به مما خُلق له من اللباس للتجمّل. وقال ابن الأنباري: لباس التقوى هو اللباس الأول وإنما أعاده إخباراً أن ستر العورة خير من التعرّي في الطواف. وقال زيد بن علي: لباس التقوى الآلات التـي يُتّقى بها في الحرب كالدرع والمغفر والساعد والساقين. وقيل: لباس التقوى هو الصوف والثياب الخشنة التي يلبسها أهل الورع. ﴿ ذلك من آيات الله لعلّهم يذّكّرون ﴾.

﴿ يـا بني آدمَ لا يفتننّكم الشيطانُ ﴾، لا يضلنّكم الشيـطان، ﴿ كمـا أخـرج أبـوَيْكُم ﴾، أي: فتن أبـويكم آدم وحوّاء فأخرجهما، ﴿ مِنَ الجنّةِ ينْزِعُ عنهما لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سوءاتِهما ﴾، أي ليرى كل واحد سوأة الآخر. ﴿ إنّه

وفي رواية عنه التقوى وقيل إن لباسهما من ثياب الجنة وهذا القول أقرب لأن إطلاق اللباس ينصرف إليه ولأن النزع لا يكون إلا بعد اللبس ﴿**ليريهما سوءاتهما**﴾ يعني: ليرى آدم عورة حواء وترى حواء عورة آدم وكان قبل ذلك لا يرى بعضهم سوءة بعض ﴿**إنه يراكم هو وقبيله**﴾ يعني أن إبليس يراكم يا بني آدم هو وقبيله إنما أعاد الكناية في قوله هو ليحسن العطف والقبيل جمع قبيلة وهي الجماعة المجتمعة التي يقابل بعضهم بعضاً، وقال الليث: كل جيل من جن أو إنس قبيل ومعنى يراكم هو وقبيله أي من هو من نسله، وحكى أبو عبيد عن أبي يزيد القبيل: ثلاثة فصاعداً من قوم شتى والجمع قبل والقبيلة بنو أب واحد. وقال الطبري: قبيله يعني صنفه وجيله الذي هو منهم وهو واحد يجمع على قبل وهم الجن. وقال مجاهد: الجن والشياطين وقال ابن يزيد: قبيله نسله. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: هو ولده وقوله ﴿**من حيث لا ترونهم**﴾ يعني أنتم يا بني آدم، قال العلماء رحمهم الله: إن الله تعالى خلق في عيون الجن إداركاً يرون بذلك الإدراك الإنس ولم يخلق في عيون الإنس هذا الإدراك فلم يروا الجن. وقالت المعتزلة الوجه في أن الإنس لا يرون الجن رقة أجسام الجن ولطافتها والوجه في رؤية الجن للإنس كثافة أجسام الإنس والوجه في رؤية الجن بعضهم بعضاً أن الله تعالى قوى شعاع أبصار الجن وزاد فيها حتى يرى بعضهم بعضاً ولو جعل في أبصارنا هذه القوة لرأيناهم ولكن لم يجعلها. وحكى الواحدي وابن الجوزي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال «إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم وجعلت صدور بني آدم مساكن لهم إلا من عصمه الله تعالى» كما قال تعالى: «الذي يوسوس في صدور الناس» فهم يرون بني آدم وبنو آدم لا يرونهم، وقال مجاهد: قال إبليس جعل لنا أربعة نرى ولا نرى ونخرج من تحت الثرى ويعود شيخنا فتى. وقال مالك بن دينار رحمه الله تعالى: إن عدواً يراك ولا تراه لشديد المؤنة إلا من عصمه الله تعالى ﴿**إنا جعلنا الشياطين أولياء**﴾ يعني أعواناً وقرباء ﴿**للذين لا يؤمنون**﴾ قال الزجاج يعني سلّطناهم عليهم يزيدون في غيهم.

قوله عز وجل: ﴿**وإذا فعلوا فاحشة**﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد: هي طوافهم بالبيت عراة الرجال والنساء. وقال عطاء: هي الشرك والفاحشة اسم لكل قبيح فيدخل فيه جميع المعاصي والكبائر فيمكن حملها على الإطلاق وإن كان السبب مخصوصاً بما ورد من طوافهم عراة ولما كانت هذه الأفعال التي كان أهل الجاهلية يفعلونها ويعتقدون أنها طاعات وهي في نفسها فواحش ذمهم الله تعالى عليها ونهاهم عنها فاحتجوا عن هذه الأفعال بما أخبر الله عنهم وهو قوله تعالى: ﴿**قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها**﴾ فذكروا لأنفسهم عذرين أحدهما محض التقليد وهو قولهم وجدنا على هذا الفعل آباءنا وهذا التقليدَ باطل لأنه لا أصل له، والعذر الثاني قولهم والله أمرنا بها وهذا العذر أيضاً باطل وقد أجاب الله تعالى عنه بقوله ﴿**قل إن الله لا يأمر بالفحشاء**﴾ والمعنى أن هذه الأفعال التي كان أهل الجاهلية يفعلونها هي في أنفسها قبيحة منكرة فكيف يأمر الله تعالى بها والله لا يأمر بالفحشاء بل يأمر بما فيه مصالح العباد ثم قال تعالى رداً عليهم ﴿**أتقولون على الله ما لا تعلمون**﴾ يعني انكم سمعتم كلام الله تعالى ابتداء من غير واسطة

يراكم ﴾، يعني أنّ الشيطان يراكم يا بني آدم، ﴿ **هو وقبيله** ﴾، جنوده، قال ابن عباس: هو وولده. وقال قتادة: قبيلة الجن والشياطين، ﴿ **من حيثُ لا ترونَهم** ﴾، قال مالك بن دينار: إنّ عدوّاً يراكَ ولا تراه لشديد المؤنة إلاّ مَن عصم الله، ﴿ **إنّا جعلنا الشياطينَ أولياء** ﴾ قرناء وأعواناً، ﴿ **للذينَ لا يُؤمنُون** ﴾، قال الزجّاج: سلّطناهم عليهم يزيدون في غيّهم كما قال: ﴿ إنّا أرسلنا الشياطينَ على الكافرينَ تؤزّهم أزّاً ﴾ [مريم: ٨٣].

﴿ **وإذا فعلُوا فاحشةً** ﴾، قال ابن عباس ومجاهد: هي طوافهم بالبيت عراة. قال عطاء: الشرك والفاحشة: اسم لكل فعل قبيح بلغ النهاية في القبح. ﴿ **قالوا وَجَدْنا عليها آباءَنا** ﴾، وفيه إضمار معناه: وإذا فعلوا فاحشة فنهوا

ولا أخذتموه عن الأنبياء الذين هم وسائط بين الله تعالى وبين عباده في تبليغ أوامره ونواهيه وأحكامه لأنكم تنكرون نبوّة الأنبياء فكيف تقولون على الله ما لا تعلمون.

﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قل أمر ربي بالقسط﴾ أي: قل يا محمد لهؤلاء الذين يقولون على الله ما لا يعلمون أمر ربي بالقسط يعني بالعدل، وهذا قول مجاهد والسدي. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: بلا إله إلا الله فالأمر بالقسط في هذه الآية يشتمل على معرفة الله تعالى بذاته وصفاته وأفعاله وأنه واحد لا شريك له ﴿وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد﴾ فإن قلت قل أمر ربي بالقسط خبر وقوله وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد أمر وعطف الأمر على الخبر لا يجوز فما معناه.

قلت: فيه إضمار وحذف تقديره قل أمر ربي بالقسط وقال «وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد» فحذف فقال لدلالة الكلام عليه ومعنى الآية قول مجاهد والسدي: وجهوا وجوهكم حيثما كنتم في الصلاة إلى الكعبة، وقال الضحاك: معناه إذا حضرت الصلاة وأنتم عند المسجد فصلوا فيه ولا يقولن أحدكم أصلي في مسجدي أو في مسجد قومي. وقيل معناه اجعلوا سجودكم لله خالصاً ﴿وادعوه مخلصين له الدين﴾ أي واعبدوه مخلصين العبادة والطاعة والدعاء لله عز وجل لا لغيره ﴿كما بدأكم تعودون﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: إن الله عز وجل بدأ خلق بني آدم مؤمناً وكافراً كما قال تعالى: ﴿هو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن﴾ ثم يعيدهم يوم القيامة كما بدأ خلقهم مؤمناً وكافراً وحجة هذا القول قوله في سياق الآية ﴿فريقاً هدى وفريقاً حق عليهم الضلالة﴾ فإنه كالتفسير له ويدل على صحة ذلك ما روي عن جابر رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ «يُبعث كل عبد على ما مات عليه» أخرجه مسلم زاد البغوي في روايته: المؤمن على إيمانه والكافر على كفره. وقال محمد بن كعب: من ابتدأ الله خلقه على الشقاوة صار إلى ما ابتدىء عليه خلقه وإن عمل بأعمال أهل السعادة كما أن إبليس كان يعمل بعمل أهل السعادة ثم صار إلى الشقاوة. ومن ابتدأ خلقه على السعادة صار إليها وإن عمل بأعمال أهل الشقاوة كما أن السحرة كانوا

عنها قالوا: وجدنا عليها آباءنا. وإذا قيل: ومن أين أخذ آباؤكم؟ قالوا: ﴿ والله أمرنا بها قل إنّ الله لا يأمرُ بالفحشاءِ أتقولون على الله ما لا تعلمون ﴾.

﴿ قلْ أمرَ ربِّي بالقسط ﴾، قال ابن عباس: بِلاَ إلَهَ إلاّ الله. وقال الضحاك: بالتوحيد. وقال مجاهد والسدي: بالعدل. ﴿ وأقيمُوا وجوهَكم عندَ كلِّ مسجد ﴾ قال مجاهد والسدي: يعني توجهوا حيث ما كنتم في الصلاة إلى الكعبة. وقال الضحاك: إذا حضرت الصلاة وأنتم عند مسجد فصلّوا فيه ولا يقولنّ أحدكم أُصلّي في مسجدي. وقيل: معناه اجعلوا سجودكم لله خالصاً. ﴿ وادْعُوه ﴾، واعبدوه، ﴿ مخلصين له الدين ﴾، الطاعة والعبادة، ﴿ كما بدأكم تعودُون ﴾، قال ابن عباس: إن الله بدأ خلق بني آدم مؤمناً وكافراً كما قال: ﴿ هو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن ﴾ [التغابن: ٢]، ثم يعيدهم يوم القيامة كما خلقهم مؤمناً وكافراً. قال جابر: يبعثون على ما ماتوا عليه. أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحي حدّثنا أبو سعيد محمد بن موسى الصيرفي أنبأنا محمد بن عبد الله الصفّار حدّثنا أحمد بن محمد بن عيسى البزّي حدّثنا أبو حذيفة حدّثنا سفيان الثّوري عن الأعمش عن أبي سفيان عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «يُبعث كلُّ عبدٍ على ما ماتَ عليه، المؤمن على

يعملون بعمل أهل الشقاوة ثم صاروا إلى السعادة ويصح هذا القول ما روي عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال «إن الرجل ليعمل الزمن الطويل بعمل أهل الجنة ثم يختم له عمله بعمل أهل النار وإن الرجل ليعمل الزمن الطويل بعمل أهل النار ثم يختم له عمله بعمل أهل الجنة» أخرجه مسلم وقال الحسن ومجاهد في معنى الآية كما بدأكم فخلقكم في الدنيا ولم تكونوا شيئاً فأحياكم ثم يميتكم كذلك تعودون أحياء يوم القيامة ويشهد لمصلحة هذا القول ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قام فينا رسول الله ﷺ بموعظة فقال «أيها الناس إنكم تحشرون إلى الله عز وجل حفاة عراة غرلاً كما بدأنا أول خلق نعيده وعداً علينا إنا كنا فاعلين» أخرجه البخاري ومسلم وقوله تعالى: ﴿فريقاً هدى﴾ يعني هداهم إلى الإيمان به ومعرفته ووفقهم لطاعته وعبادته ﴿وفريقاً حق عليهم الضلالة﴾ يعني وخذل فريقاً حتى وجبت عليهم الضلالة للسابقة التي سبقت لهم في الأزل بأنهم أشقياء وفيه دليل على أن الهدى والضلالة من الله عز وجل، ولما روي عن عبد الله بن عمرو بن العاص روى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ «إن الله خلق خلقه في ظلمة فألقى عليهم من نوره فمن أصابه من ذلك النور اهتدى ومن أخطأه ضل» أخرجه الترمذي.

وقوله تعالى: ﴿إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله﴾ يعني أن الفريق الذي حق عليهم الضلالة اتخذوا الشياطين نصراء وأعواناً أطاعوهم فيما أمروهم به من الكفر والمعاصي والمعنى أن الداعي الذي دعاهم إلى الكفر والمعاصي هو أنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله لأن الشياطين لا يقدرون على إضلال أحد.

وقوله ﴿ويحسبون أنهم مهتدون﴾ يعني أنهم مع ضلالتهم يظنون ويحسبون أنهم على هداية وحق وفيه دليل على أن الكافر الذي يظن أنه في دينه على الحق والجاحد والمعاند في الكفر سواء.

۞ يَـٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ

إيمانه والكافر على كفره». وقال أبو العالية: عادوا على عمله فيهم. قال سعيد بن جبير: كما كُتِبَ عليكم تكونون. قال محمد بن كعب: مَن ابتدأ الله خلقه على الشقاوة صار إليها وإن عمل أهل السعادة، كما أن إبليس كان يعمل بأعمال أهل السعادة ثم صار إلى الشقاوة، ومن ابتداء خلقه على السعادة صار إليها وإن عمل بعمل أهل الشقاة، وكما أن السَحَرَة كانت تعمل بعمل أهل الشقاوة فصاروا إلى السعادة. أخبرنا عبد الواحد المليحي أنبأنا عبد الرحمن بن أبي شريح أنبأنا أبو القاسم البغوي ثنا علي بن الجعد حدّثنا أبو غسان عن أبي حازم قال: سمعت سهل بن سعيد يقول: قال رسول الله ﷺ: «إنّ العبد يعمل فيما يرى الناس بعمل أهل الجنة وإنه من أهل النار، وإنه ليعمل فيما يرى النّاسُ بعمل أهل النار وإنه من أهل الجنة، وإنما الأعمال بالخواتيم». وقال الحسن ومجاهد: كما بدأكم وخلقكم في الدنيا ولم تكونوا شيئاً، كذلك تعودون أحياء يوم القيامة كما بدأنا أول خلق نعيده. قال قتادة: بدأهم من التراب إلى التراب يعودون، فنظيره قوله تعالى: ﴿ منها خلقناكُمْ وفيها نُعيدُكم ﴾ [طه: ٥٥].

قوله عزّ وجلّ: ﴿ فريقاً هدَى ﴾، أي هداهم الله، ﴿ وفريقاً حقّ ﴾، وجب ﴿ عليهم الضّلالة ﴾، أي: لإرادة السابقة، ﴿ إنّهم اتخذوا الشياطين أولياء من دُونِ اللّهِ ويَحْسَبُونَ أنّهم مُهْتَدُون ﴾، فيه دليل على أن الكافر الذي يظن أنه في دينه على الحق والجاحد والمعاند سواء.

وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾

قوله عز وجل: ﴿يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد﴾ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال «كانت المرأة تطوف بالبيت وهي عريانة فتقول من يعيرني تطوافاً تجعله على فرجها وهي تقول:

اليوم يبدو بعضه أو كله ... وما بدا منه فلا أحله

فنزلت هذه الآية ﴿خذوا زينتكم عند كل مسجد﴾ أخرجه مسلم وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كانوا يطوفون بالبيت عراة الرجال بالنهار والنساء بالليل» وذكر الحديث زاد في رواية أخرى عنه فأمرهم الله تعالى أن يلبسوا ثيابهم ولا يتعروا. وقال مجاهد: كان حي من أهل اليمن كان أحدهم إذا قدم حاجاً أو معتمراً يقول لا ينبغي لي أن أطوف في ثوب قد عصيت فيه فيقول من يعيرني مئزراً فإن قدر عليه وإلا طاف عرياناً فأنزل الله تعالى فيه ما تسمعون خذوا زينتكم عند كل مسجد. وقال الزهري: إن العرب كانت تطوف بالبيت عراة إلا الحمس وهم قريش وأحلافهم فمن جاء من غير الحمس وضع ثيابه وطاف في ثوب أحمسي ويرى أنه لا يحل له أن يلبس ثيابه فإن لم يجد من يعيره من الحمس فإنه يلقي ثيابه ويطوف عرياناً وإن طاف في ثياب نفسه ألقاها إذا قضى طوافه وحرمها أي جعلها حراماً عليه فلذلك قال الله تعالى: خذوا زينتكم عند كل مسجد، والمراد من الزينة لبس الثياب التي تستر العورة. قال مجاهد: ما يواري عوراتكم ولو عباءة. وقال الكلبي: الزينة ما يواري العورة عند كل مسجد كطواف وصلاة وقوله تعالى: خذوا زينتكم، أمر وظاهره الوجوب وفيه دليل على أن ستر العورة واجب في الصلاة والطواف وفي كل حال.

وقوله تعالى: ﴿وكلوا واشربوا﴾ قال الكلبي كانت بنو عامر لا يأكلون في أيام حجهم إلا قوتاً ولا يأكلون دسماً يعظمون بذلك حجهم فقال المسلمون نحن أحق أن نفعل ذلك يا رسول الله ﷺ فأنزل الله عز وجل وكلوا واشربوا يعني الدسم واللحم ﴿ولا تسرفوا﴾ يعني بتحريم ما لم يحرمه الله من أكل اللحم والدسم، قال ابن عباس رضي الله عنهما: «كل ما شئت واشرب ما شئت والبس ما شئت ما أخطأ بك خصلتان سرف ومخيلة» وقال علي بن الحسين بن واقد: قد جمع الله الطب كله في نصف آية فقال: ﴿وكلوا واشربوا ولا تسرفوا﴾ وفي الآية دليل على أن جميع المطعومات والمشروبات حلال إلا ما خصه الشرع دليل في التحريم لأن الأصل في جميع الأشياء الإباحة إلا ما حظره الشارع وثبت تحريمه بدليل منفصل ﴿إنه لا يحب المسرفين﴾ يعني أن الله تعالى لا يحب من إسراف المأكول والمشروب والملبوس وفي هذه الآية وعيد وتهديد لمن أسرف في هذه الأشياء لأن محبة الله تعالى عبارة عن رضاه عن العبد وأيضاً. وإيصال الثواب إليه وإلا لم يحبه علم أنه تعالى ليس هو راض عنه فدلت الآية على الوعيد الشديد في الإسراف قوله تعالى: ﴿قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده﴾ يعني قل يا محمد لهؤلاء الجهلة من العرب الذين يطوفون بالبيت عراة من حرم عليكم زينة الله التي خلقها لعباده أن تتزينوا بها وتلبسوها في الطواف وغيره ثم في تفسير الزينة قولان:

قوله تعالى: ﴿ يا بني آدمَ خُذُوا زِينَتَكم عند كلِّ مسجدٍ ﴾، قال أهل التفسير: كانت بنو عامر يطوفون بالبيت عراة، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿ يا بني آدم خذُوا زينتَكم عندَ كلِّ مسجد ﴾، يعني الثياب. قال مجاهد: ما يُواري عورتك ولو عباءة. قال الكلبي: الزينة ما يُواري العورة عند كل مسجد لطواف وصلاة. ﴿ وكلُوا واشربُوا ﴾، قال الكلبي: كانت بنو عامر لا يأكلون في أيام حجّهم من الطعام إلّا قوتاً ولا يأكلون دسماً يعظمون بذلك حجمهم، فقال المسلمون: نحن أحقّ أن نفعل ذلك يا رسول الله، فأنزل الله عزّ وجلّ وكلوا يعني اللحم والدسم واشربوا، ﴿ ولا تسرفوا ﴾، بتحريم ما أحلّ الله لكم من اللحم والدسم، ﴿ إنّه لا يُحبُّ المسرفين ﴾، الذين يفعلون ذلك.

أحدهما: وهو قول جمهور المفسرين أن المراد من الزينة هنا اللباس الذي يستر العورة.

والقول الثاني: ذكر الإمام فخر الدين الرازي أنه يتناول جميع أنواع الزينة فيدخل تحته جميع أنواع الملبوس والحلي، ولولا أن النص ورد بتحريم استعمال الذهب والحرير على الرجال لدخلا في هذا العموم ولكن النص ورد بتحريم استعمال الذهب والحرير على الرجال دون النساء ﴿**والطيبات من الرزق**﴾ يعني ومن حرم الطيبات من الرزق التي أخرجها الله لعباده وخلقها لهم ثم ذكروا في معنى الطيبات في هذه الآية أقوالاً: **أحدها** أن المراد بالطيبات اللحم والدسم الذي كانوا يحرمونه على أنفسهم أيام الحج يعظمون بذلك حجهم فرد الله تعالى بقوله: ﴿**قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق**﴾.

القول الثاني: وهو قول ابن عباس رضي الله تعالى عنهما وقتادة: أن المراد بذلك ما كان أهل الجاهلية يحرمونه من البحائر والسوائب. قال ابن عباس رضي الله عنهما إن أهل الجاهلية كانوا يحرمون أشياء أحلها الله تعالى من الرزق وغيرها وهو قول الله تعالى: قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراماً وحلالاً وهو هذا وأنزل الله قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق.

والقول الثالث: إن الآية على العموم فيدخل تحته كل ما يستلذ ويشتهى من سائر المطعومات إلا ما نهى عنه وورد نص بتحريمه ﴿**قل هي للذين آمنوا**﴾ يعني قل يا محمد إن الطيبات التي أخرج الله من رزقه للذين آمنوا ﴿**في الحياة الدنيا**﴾ غير خالصة لهم لأنه يشركهم فيها المشركون ﴿**خالصة**﴾ لهم ﴿**يوم القيامة**﴾ يعني لا يشركهم فيها أحد لأنه لا حظ للمشركين يوم القيامة في الطيبات من الرزق، وقيل: خالصة لهم يوم القيامة من التكدير والتنغيص والغم لأنه قد يقع لهم في الحياة الدنيا في تناول الطيبات من الرزق كدر وتنغيص فأعلمهم أنها خالصة لهم في الآخرة من ذلك كله ﴿**كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون**﴾ يعني كذلك نبين الحلال مما أحللت والحرام مما حرمت لقوم علموا إني أنا الله وحدي لا شريك لي فأحلّوا حلالي وحرّموا حرامي.

قوله عز وجل: ﴿**قل إنما حرم ربي الفواحش**﴾ جمع فاحشة وهي ما قبح وفحش من قول أو فعل، والمعنى: قل يا محمد لهؤلاء المشركين الذين يتجردون من الثياب ويطوفون بالبيت عراة ويحرمون أكل الطيبات مما أحل الله لهم إن الله لم يحرم ما تحرمونه أنتم بل أحله الله لعباده وطيبه لهم وإنما حرم ربي الفواحش من الأفعال والأقوال ﴿**ما ظهر منها وما بطن**﴾ يعني علانيته وسره (ق). عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال «لا أحد أغير من الله» من أجل ذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا أحد أحب إليه المدح من الله من أجل ذلك مدح نفسه.

قال ابن عباس: كُلْ ما شئتَ والبسْ ما شئتَ ما أخطأتك خصلتان سرف ومخيلة. **قال علي بن الحسين بن واقد: قد جمع الله الطِبَّ كله في نصف آية فقال: ﴿ كلُوا واشربوا ﴾.**

قوله عزّ وجلّ: ﴿ قلْ مَنْ حرّمَ زينةَ اللّهِ التي أخرجَ لعبادِه ﴾، يعني لبس الثياب في الطواف، **﴿ والطيبات مِنَ الرزقِ ﴾**، يعني اللحم والدسم في أيام الحج. وعن ابن عباس وقتادة: والطيبات من الرزق ما حرّم أهل الجاهلية من البحائر والسوائب. **﴿ قلْ هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصةً يومَ القيامة ﴾**، فيه حذف تقديره: هي للذين آمنوا وللمشركين في الحياة الدنيا فإن أهل الشرك يشاركون المؤمنين في طيبات الدنيا، وهي في الآخرة خالصة للمؤمنين لا حظّ للمشركين فيها. وقيل: هي خالصة يوم القيامة من التنغيص والغمّ للمؤمنين، فإنها لهم في الدنيا مع التنغيص والغمّ. قرأ نافع «خالصـة» رفع، أي: قلْ هي للذين آمنوا مشتركة في الدنيا خالصة يوم القيامة. وقرأ الآخرون بالنصب على القطع، **﴿ كذلك نُفصّل الآيات لقوم يعلمون ﴾**.

أصل الغيرة ثوران القلب وهيجان الحفيظة بسبب المشاركة فيما يختص به الإنسان ومنه غيرة أحد الزوجين على الآخر لاختصاص كل واحد منهما بصاحبه ولا يرضى أن يشاركه أحد فيه فلذلك يذب عنه ويمنعه من غيره وأما الغيرة في وصف الله تعالى فهو منعه من ذلك وتحريمه له ويدل على ذلك قوله: ومن غيرته حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن وقد يحتمل أن تكون غيرته تغيير حال فاعل ذلك بعقاب والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿**والإثم**﴾ يعني وحرم الإثم واختلفوا في الفرق بين الفاحشة والإثم فقيل الفواحش الكبائر لأنه قد تفاحش قبحها وتزايدَ والإثم عبارة عن الصغائر من الذنوب فعلى هذا يكون معنى الآية: قل إنما حرم ربي الكبائر والصغائر. وقيل الفاحشة اسم لما يجب فيه الحد من الذنوب والإثم اسم لما لا يجب فيه الحد، وهذا القول قريب من الأول واعترض على هذين القولين بأن الإثم في أصل اللغة الذنب فيدخل فيه الكبائر والصغائر، وقيل: إن الفاحشة اسم للكبيرة والإثم اسم لمطلق الذنب سواء كان كبيراً أو صغيراً والفائدة فيه أن يقال لما حرم الله الكبيرة بقوله: ﴿**قل إنما حرم ربي الفواحش**﴾ أردفه بتحريم مطلق الذنب لئلا يتوهم متوهم أن التحريم مقصور على الكبائر فقط وقيل إن الفاحشة وإن كانت بحسب اللغة اسماً لكل ما تفاحش من قول أو فعل لكنه قد صار في العرف مخصوصاً بالزنا لأنه إذا أطلق لفظ الفاحشة لم يفهم منه إلا ذاك نوجب حمل لفظ الفاحشة على الزنا وأما الإثم فقد قيل إنه اسم من أسماء الخمر وهو قول الحسن وعطاء. قال الجوهري وقد تسمى الخمر إثماً واستدل عليه بقول الشاعر:

شـربـتُ الإثـم حتـى ضـل عقلـي كـذاك الإثـم يـذهـب بـالعقـول

وقال ابن سيده صاحب المحكم: وعندي أن تسمية الخمر بالإثم صحيح لأن شربها إثم وبهذا المعنى يظهر الفرق بين اللفظين وأنكر أبو بكر بن الأنباري تسمية الخمر بالإثم قال لأن العرب ما سمته إثماً قط في جاهلية ولا في إسلام ولكن قد يكون الخمر داخلاً تحت الإثم لقوله: قل فيهما إثم كبير.

وقوله تعالى: ﴿**والبغي**﴾ أي وحرم البغي ﴿**بغير الحق**﴾ والبغي هو الظلم والكبر والاستطالة على الناس ومجاوزة الحد في ذلك كله ومعنى البغي بغير الحق هو أن يطلب ما ليس له بحق فإذا طلب ما له بحق خرج من أن يكون بغياً ﴿**وأن تشركوا**﴾ أي وحرم أن تشركوا ﴿**بالله ما لم ينزل به سلطاناً**﴾ هذا فيه تهكم بالمشركين والكفار لأنه لا يجوز أن ينزل حجة وبرهاناً بأن يشرك به غيره لأن الإقرار بشيء ليس على ثبوته حجة ولا برهاناً ممتنع فلما امتنع حصول الحجة والبينة على صحة القول بالشرك وجب أن يكون باطلاً على الإطلاق فإن قلت البغي والإشراك داخلان تحت الفاحشة والإثم لأن الشرك من أعظم الفواحش وأعظم الإثم وكذا البغي أيضاً من الفواحش والإثم.

﴿ **قلْ إنّما حرّم ربّي الفواحشَ ما ظهرَ منها وما بَطَنَ** ﴾، يعني: الطواف عراة ﴿ **ما ظهر** ﴾ طواف الرجال بالنهار ﴿ **وما بطن** ﴾ طواف النساء بالليل. وقيل: هو الزنا سرّاً وعلانيةً. أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنبأنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنبأنا محمد بن يوسف حدّثنا محمد بن إسماعيل حدّثنا شعبة عن عمرو بن مرّة عن أبي وائل عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «لا أحدَ أغْيَرُ من الله، فلذلك حرّم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ولا أحدَ أحبُّ إليه المدحة من الله فلذلك مَدَحَ نفسَه»، قوله عزّ وجلّ: ﴿ **والإثْمَ** ﴾، يعني: الذنب والمعصية. وقال **الضحاك**: الذنب الذي لا حدَّ فيه. قال الحسن: الإثم: الخمر. قال الشاعر:

شـربتُ الإثم حتى ضـلّ عـقلي كـذاك الإثم يـذهب بـالعقـول

﴿ **والبغيَ** ﴾، الظلم والكِبْر، ﴿ **بغيرِ الحقِّ وأنْ تُشرِكُوا بالله ما لَمْ يُنزّلْ به سُلطَاناً** ﴾، حجةً وبرهاناً، ﴿ **وأن**

قلت: إنما أفردهما بالذكر للتنبيه على عظم قبحهما أنه قال من الفواحش المحرمة البغي والشرك فكأنه بين جملته ثم تفصيله وقوله ﴿وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون﴾ تقدم تفسيره.

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ (٣٤) يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٥) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٣٦) فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ (٣٧)﴾

قوله تعالى: ﴿ولكل أمة أجل﴾ الأجل: الوقت المؤقت لانقضاء وقت المهلة ثم في هذا الأجل المذكور في الآية قولان: أحدهما أنه أجل العذاب والمعنى أن لكل أمة كذبت رسله وقتاً معيناً وأجلاً مسمى أمهلهم الله إلى ذلك الوقت ﴿فإذا جاء أجلهم﴾ يعني: إذا حلَّ وقت عذابهم ﴿لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون﴾ يعني فلا يؤخرون ولا يمهلون قدر ساعة ولا أقل من ساعة وإنما ذكرت الساعة لأنها أقل أسماء الوقت في العرف وهذا حين سألوا نزول العذاب فأخبرهم الله تعالى أن لهم وقتاً إذا جاء ذلك الوقت هو وقت إهلاكهم واستئصالهم فلا يؤخرون عنه ساعة ولا يستقدمون.

والقول الثاني: إن المراد بهذا الأجل هو أجل الحياة والعمر، فإذا انقضى ذلك الأجل وحضر الموت فلا يؤخر ساعة ولا يقدم ساعة وعلى هذا القول يلزم أن يكون لكل واحد أجل لا يقع فيه تقديم ولا تأخير وإنما قال تعالى: لكل أمة تقارب أعمار أهل كل عصر فكأنهم كالواحد في مقدار العمر. وعلى هذا القول أيضاً يكون المقتول ميتاً بأجله خلافاً لمن يقول القاتل قطع عليه أجله.

قوله عز وجل: ﴿يا بني آدم إما يأتينكم رسل منكم﴾ هي إن الشرطية ضمت إليها ما مؤكدة لمعنى الشرط وجزاء هذا الشرط هو الفاء وما بعده من الشرط والجزاء، وهو قوله فمن اتقى وأصلح يعني منكم وإنما قال رسل بلفظ الجمع وإن كان المراد به واحد وهو النبي ﷺ لأنه خاتم الأنبياء وهو مرسل إلى كافة الخلق فذكره بلفظ الجمع على سبيل التعظيم فعلى هذا يكون الخطاب في قوله يا بني آدم لأهل مكة ومن يلحق بهم. وقيل: أراد جميع الرسل وعلى هذا فالخطاب في قوله يا بني آدم عام في كل بني آدم وإنما قال منكم يعني من جنسكم ومثلكم من بني آدم لأن الرسول إذا كان من جنسهم كان أقطع لعذرهم وأثبت للحجة عليهم لأنهم يعرفونه ويعرفون أحواله فإذا أتاهم بما لا يليق بقدرته أو بقدرة أمثاله علم أن ذلك الذي أتى به معجزة له وحجة على من خالفه ﴿يقصون عليكم آياتي﴾ يعني يقرؤون عليكم كتابي وأدلة أحكامي وشرائعي التي شرعت لعبادي ﴿فمن اتقى﴾ يعني فمن اتقى الشرك ومخالفة رسلي ﴿وأصلح﴾

تقولوا على الله مَا لا تعلمُون﴾، في تحريم الحرث والأنعام، في قول مقاتل، وقال غيره. هـو عامّ في تحريم القول في الدين من غير يقين.

﴿ولكلِّ أمّةٍ أجل﴾، مدّة وأكل وشرب. وقال ابن عباس وعطاءِ والحسن: يعني وقتاً لنزول العذاب بهم، ﴿فإذا جاء أجلهم﴾، وانقطع أكلهم، ﴿لا يستأخرونَ ساعةً ولا يستقدِمُون﴾، أي: لا يتقدمون. وذلك حين سألوا العذاب فأنزل الله هذه الآية.

يعني العمل الذي أمرته به رسلي فعمل بطاعتي وتجنب معصيتي وما نهيته عنه ﴿فلا خوف عليهم﴾ يعني حين يخاف غيرهم يوم القيامة من العذاب ﴿ولا هم يحزنون﴾ يعني على ما فاتهم من دنياهم التي تركوها ﴿والذين كذبوا بآياتنا﴾ يعني ومن جحدوا آياتنا وكذبوا رسلنا ﴿واستكبروا عنها﴾ يعني واستكبروا عن الإيمان بها وما جاءت به رسلنا ﴿أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ يعني لا يخرجون منها أبداً.

قوله تعالى: ﴿فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً﴾ يعني فمن أعظم ظلماً ممن يقول على الله ما لم يقله أو يجعل له شريكاً من خلقه وهو منزه عن الشريك والولد ﴿أو كذب بآياته﴾ يعني أو كذب بالقرآن الذي أنزله على عبده ورسوله محمد ﷺ ﴿أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب﴾ يعني ينالهم حظهم مما قدر لهم وكتب في اللوح المحفوظ واختلفوا في ذلك النصيب على قولين أحدهما: أن المراد به هو العذاب المعين لهم في الكتاب ثم اختلفوا فيه، فقال الحسن والسدي: ما كتب لهم من العذاب وقضي عليهم من سواد الوجوه ورزقه العيون، وقال ابن عباس: في رواية عنه كتب لمن يفتري على الله كذباً أن وجهه أسود، وقال الزجـاج: هو المذكور في قوله فأنذرتكم ناراً تلظى وفي قوله إذ الأغلال في أعناقهم فهذه الأشياء هي نصيبهم من الكتاب على قدر ذنوبهم في كفرهم.

والقول الثاني: إن المراد بالنصيب المذكور في الكتاب هو شيء سوى العذاب ثم اختلفوا فيه فقال ابن عباس رضي الله عنهما في رواية أخرى عنه وعن مجاهد وسعيد بن جبير وعطية، في قوله: ينالهم نصيبهم من الكتاب، قالوا: هو السعادة والشقاوة، وقال ابن عباس: ما كتب عليهم من الأعمال، وقال في رواية أخرى عنه: من عمل خيراً جوزي به ومن عمل شراً جوزي به. وقال قتادة: جزاء أعمالهم التي عملوها. وقيل معنى ذلك ينالهم نصيبهم مما وعدوا في الكتاب من خير أو شر قاله مجاهد والضحاك، وهو رواية عن ابن عباس رضي الله عنهما أيضاً، وقال الربيع بن أنس: ينالهم ما كتب لهم في الكتاب من الرزق، وقال محمد بن كعب القرظي: عمله ورزقه وعمره. وقال ابن زيد: ينالهم نصيبهم من الكتاب من الأعمال والأرزاق والأعمار فإذا فرغ هذا جاءتهم رسلنا يتوفونهم، وصحح الطبري هذا القول الآخر وقال: لأن الله تعالى أتبع ذلك بقوله حتى إذا جاءتهم رسلنا يتوفونهم فأبان أن الذي ينالهم هو ما قدر لهم في الدنيا فإذا فرغ توفتهم رسل ربهم. قال الإمام فخر الدين رحمه الله تعالى: إنما حصل الاختلاف لأن لفظ النصيب محتمل لكل الوجوه. وقال بعض المحققين: حمله على العمر والرزق أولى لأنه تعالى بيَّن أنهم وإن بلغوا في الكفر ذلك المبلغ العظيم فإنه ليس بمانع أن ينالهم ما كتب لهم من رزق وعمر تفضلاً من الله سبحانه وتعالى لكي يصلحوا ويتوبوا.

قوله تعالى: ﴿حتى إذا جاءتهم رسلنا يتوفونهم﴾ يعني حتى إذا جاءت هؤلاء الذين يفترون على الله الكذب

قوله تعالى: ﴿ يا بني آدمَ إمّا يأتينّكم رسلٌ منكم ﴾، أي: إن يأتكم. قيل: أراد جميع الرسل. وقال مقاتل: أراد بقوله: ﴿ يا بني آدم ﴾ مشركي العرب وبالرسل محمداً ﷺ وحده، ﴿ **يقصُّون عليكم آياتي** ﴾، قال ابن عباس: فرائضي وأحكامي، ﴿ **فمَنِ اتّقَى وأصلح** ﴾، أي: اتقى الشرك وأصلح عمله. وقيل: أخلص ما بينه وبين ربّه ﴿ **فلا خوفٌ عليهم** ﴾، إذا خاف النّاس، ﴿ **ولا هم يحزنُون** ﴾، أي: إذا حزنوا.

﴿ **والذين كذّبوا بآياتنا واستكبرُوا عنها** ﴾، تكبروا عن الإيمان بها ذكر الاستكبار لأن كل مكذِّب وكافر متكبّر. قال الله تعالى: ﴿ إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إلّه إلّا الله يستكبرُون ﴾ [الصّافّات: ٣٥]. ﴿ **أولئكَ أصحابُ النّارِ هُمْ فيها خالدُون** ﴾.

قوله تعالى: ﴿ فمَنْ أظلم ممّنِ افترَى على اللّهِ كذباً ﴾، جعل له شريكاً، ﴿ **أن كذّبَ بآياتِهِ** ﴾، القرآن،

رسلنا يعني ملك الموت وأعوانه لقبض أرواحهم عند استكمال أعمارهم وأرزاقهم لأن لفظ الوفاة يفيد هذا المعنى ﴿قالوا﴾ يعني: قال الرسل وهم الملائكة للكفار ﴿أين ما كنتم تدعون من دون الله﴾ وهذا سؤال توبيخ وتقريع وتبكيت لا سؤال استعلام والمعنى أين الذين كنتم تعبدونهم من دون الله ادعوهم ليدفعوا عنكم ما نزل بكم. وقيل إن هذا يكون في الآخرة والمعنى حتى إذا جاءتهم رسلنا يعني ملائكة العذاب يتوفونهم يعني يستوفون عددهم عند حشرهم إلى النار قالوا أينما كنتم تدعون يعني شركاء وأولياء تعبدونهم من دون الله فادعوهم ليدفعوا عنكم ما جاءكم من أمر الله ﴿قالوا﴾ يعني الكفار مجيبين للرسل ﴿ضلوا عنا﴾ يعني بطلوا وذهبوا عنا وتركونا عند حاجتنا إليهم فلم ينفعونا ﴿وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين﴾ يقول الله تعالى وشهد هؤلاء الكفار عند معاينة العذاب أنهم كانوا جاحدين وحدانية الله واعترفوا على أنفسهم بذلك.

﴿قَالَ ٱدْخُلُواْ فِيٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِي ٱلنَّارِۖ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٞ لَّعَنَتْ أُخْتَهَاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعٗا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابٗا ضِعْفٗا مِّنَ ٱلنَّارِۖ قَالَ لِكُلّٖ ضِعْفٞ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ٣٨ وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٖ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ٣٩﴾

قوله عز وجل: ﴿قال ادخلوا في أمم قد خلت من قبلكم من الجن والإنس﴾ يقول الله عز وجل يوم القيامة لمن افترى عليه الكذب وجعل له شريكاً من خلقه: ادخلوا في أمم يعني في جملة أمم قد خلت يعني قد مضت وسلفت وإنما قال قد خلت ولم يقل قد خلوا لأنه أطلق الضمير على الجماعة يعني في جملة جماعة قد خلت من قبلكم يعني من الجن والإنس ﴿في النار﴾ أي ادخلوا جميعاً في النار التي هي مستقركم ومأواكم وإنما عنى بالأمم والجماعات والأحزاب وأهل الملل الكافرة من الجن والإنس ﴿كلما دخلت أمة﴾ يعني كلما دخلت جماعة النار ﴿لعنت أختها﴾ يعني كلما دخلت أمة النار لعنت أختها من أهل ملتها في الدين لا في النسب. قال السدي: كلما دخلت أهل ملة النار لعنوا أصحابهم على ذلك الدين فيلعن المشركون المشركين واليهود اليهود والنصارى النصارى والصابئون الصابئين والمجوس المجوس تلعن الآخرة الأولى ﴿حتى إذا أداركوا﴾ يعني تداركوا وتلاحقوا ﴿فيها جميعاً﴾ يعني تلاحقوا

﴿ أولئكَ ينالهُمْ نصيبهُم مِّنَ الكتاب ﴾، نصيبهم أي: حظهم ممّا كتب لهم في اللوح المحفوظ. واختلفوا فيه، قال الحسن والسدي: ما كتب لهم من العذاب وقضى عليهم من سواد الوجوه وزرقة العيون. قال عطية عن ابن عباس: كُتب لمَن يفتري على الله أنّ وجهه مسود، قال الله تعالى: ﴿ ويومَ القيامة ترَى الذين كذَبُوا على اللَّهِ وجوهُهُمْ مسودّة ﴾ [الزمر: ٦٠]، وقال سعيد بن جبير ومجاهد: ما سبق لهم من الشقاوة والسعادة. وقال ابن عباس وقتادة والضحاك: يعني أعمالهم التي عملوها وكتب عليهم من خير وشرّ يجري عليها. وقال محمد بن كعب القرظي: ما كتب لهم من الأرزاق والأعمال فإذا فنيت، ﴿ حتى إذا جاءتْهُم رسلُنا يَتَوَفَّوْنَهمُ ﴾، يقبضون أرواحهم يعني ملك الموت وأعوانه، ﴿ قالوا ﴾، يعني يقول الرسل للكفّار، ﴿ أينما كنتم تدعون ﴾، تعبدون، ﴿ منْ دونِ الله ﴾، سؤال تبكيت وتقريع، ﴿ قالوا ضلّوا عنّا ﴾، بطلوا وذهبوا عنّا، ﴿ وشَهِدُوا على أنفسهم ﴾، اعترفوا عند معاينة الموت، ﴿ أنّهم كانوا كافرين ﴾.

﴿ قالَ ادْخلُوا في أمم ﴾، يعني: يقول الله لهم يوم القيامة ادخلوا في أُممٍ، أي: مع جماعات، ﴿ قدْ خلَتْ ﴾، مضت، ﴿ من قَبْلِكُم مِّنَ الجنّ والإنس في النار ﴾، يعني كفّار الأمم الخالية، ﴿ كلما دخلتْ أمّةٌ لعنتْ أُختها ﴾، يريد أُختها في الدين لا في النسب، فتلعن اليهود اليهود والنصارى النصارى، وكل فرقة تلعن أُختها

واجتمعوا في النار جميعاً وأدرك بعضهم بعضاً واستقروا في النار ﴿قالت أخراهم لأولاهم﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: يعني قال آخر كل أمة لأولها، وقال السدي: قالت أخراهم الذين كانوا في آخر الزمان لأولاهم الذين شرعوا لهم ذلك الدين. وقال مقاتل: يعني قال أخراهم دخولاً النار وهم الأتباع لأولاهم دخولاً وهم القادة لأن القادة يدخلون النار أولاً ﴿ربنا هؤلاء أضلونا﴾ يعني: تقول الأتباع ربنا هؤلاء القادة والرؤساء أضلونا عن الهدى وزينوا لنا طاعة الشيطان، وقيل: إنما قال المتأخرون ذلك لأنهم كانوا يعتقدون تعظيم المتقدمين من أسلافهم فسلكوا سبيلهم في الضلالة واتبعوا طريقهم فيما كانوا عليه من الكفر والضلالة فلما كان يوم القيامة وتبين لهم فساد ما كانوا عليه قالوا ربنا هؤلاء أضلونا لأنا اتبعنا سبيلهم ﴿فآتهم عذاباً ضعفاً من النار﴾ أي أضعف عليهم العذاب، قال أبو عبيدة: الضعف هو مثل الشيء مرة واحدة، قال الأزهري والذي قاله أبو عبيدة هو ما يستعمله الناس في مجاز كلامهم وأما كتاب الله فهو عربي مبين فيرد تفسيره إلى موضع كلام العرب والضعف في كلامهم ما زاد وليس بمقصور على مثلين وجائز في كلام العرب هذا ضعفه أي مثلاه وثلاثة أمثاله لأن الضعف في الأصل زيادة غير محصورة وأولى الأشياء به أن يجعل عشرة أمثاله فأقل الضعف محصور وهو المثل وأكثره غير محصور وقال الزجاج في تفسير هذه الآية: فآتهم عذاباً ضعفاً أي مضاعفاً لأن الضعف في كلام العرب على ضربين أحدهما المثل والآخر أن يكون في معنى تضعيف الشيء أي زيادته ﴿قال﴾ يعني قال الله تعالى: ﴿لكل ضعف﴾ يعني لأولاكم ضعف ولأخراكم ضعف وقيل معناه للتابع ضعف وللمتبوع ضعف لأنهم قد دخلوا في الكفر جميعاً ﴿ولكن لا تعلمون﴾ يعني ما أعد الله لكل فريق من العذاب وقرىء بالياء ومعناه ولكن لا يعلم كل فريق ما أعد الله تعالى من العذاب للفريق الآخر ﴿وقالت أولاهم﴾ يعني في الكفر وهم القادة ﴿لأخراهم﴾ يعني الأتباع ﴿فما كان لكم علينا من فضل﴾ يعني قد ضللتم كما ضللنا وكفرتم كما كفرنا وقيل في معنى الآية وقالت كل أمة سلفت في الدنيا لأخراها الذين جاؤوا من بعدهم فسلكوا سبيل من مضى قبلهم فما كان لكم علينا من فضل وقد علمتم ما حل بنا من عقوبة الله بسبب كفرنا ومعصيتنا إياه وجاءتكم بذلك الرسل والنذر فما رجعتم عن ضلالتكم وكفركم ﴿فذوقوا العذاب﴾ وهذا يحتمل أن يكون من قول القادة للاتباع والأمة الأولى للأخرى التي بعدها ويحتمل أن يكون من قول الله تعالى يعني يقول الله للجميع فذوقوا العذاب ﴿بما كنتم تكسبون﴾ يعني بسبب ما كنتم تكسبون من الكفر والأعمال الخبيثة.

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى

ويلعن الأتباع القادة، ولم يقل أخاها لأنه عني الأمة والجماعة، ﴿ حتى إذا ادَّاركوا فيها ﴾، أي: تداركوا وتلاحقوا واجتمعوا في النار، ﴿ جميعاً قالتْ أُخْراهم ﴾، قال مقاتل: يعني أخراهم دخولاً النار وهم الأتباع، ﴿ لأُوْلاَهم ﴾، أي: لأُولاهم دخولاً وهم القادة، لأن القادة يدخلون النار أوّلاً. وقال ابن عباس: يعني آخر كل أمة لأُولاها. وقال السدي: أهل الزمان لأُولاهم الذين شرعوا لهم ذلك الدين، ﴿ ربَّنا هؤلاء ﴾، الذين، ﴿ أضلُّونا ﴾ عن الهدى يعني القادة ﴿ فآتِهمْ عذاباً ضِعْفا مِّنَ النّار ﴾، أي: ضعِّف عليهم العذاب، ﴿ قال ﴾، الله تعالى، ﴿ لكلٍّ ضِعْفٌ ﴾، يعني للقادة والأتباع ضعف من العذاب، ﴿ ولكنْ لا تعلمون ﴾ ما لكل فريق منكم من العذاب. وقرأ أبو بكر «لا يعلمــون» بالياء، أي: لا يعلم الأتباع ما للقادة ولا القادة ما للأتباع.

﴿ وقالتْ أُولاَهُمْ ﴾، يعني القادة، ﴿ لأُخراهم ﴾، يعني القادة، ﴿ لأُخراهم ﴾، للأتباع، ﴿ فما كان لكم علينَا من فضل ﴾، لأنكم كفرتم كما كفرنا فنحن وأنتم في الكفر سواء وفي العذاب سواء، ﴿ فَذُوقُوا العذاب بما كنتم تكسبون ﴾.

سَمِّ ٱلْخِيَاطِۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى
ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِۖ هُمْ فِيهَا
خَٰلِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُۖ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا
لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُۖ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّۖ وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾

قوله عز وجل: ﴿إن الذين كذبوا بآياتنا﴾ يعني كذبوا بدلائل التوحيد فلم يصدقوا بها ولم يتبعوا رسلنا ﴿واستكبروا عنها﴾ أي وتكبروا عن الإيمان بها والتصديق لها وأنفوا عن اتباعها والانقياد لها والعمل بمقتضاها تكبراً ﴿لا تفتح لهم أبواب السماء﴾ يعني لا تفتح لأرواحهم إذا خرجت من أجسادهم ولا يصعد لهم إلى الله عز وجل في وقت حياتهم قول ولا عمل لأن أرواحهم وأقوالهم وأعمالهم كلها خبيثة وإنما يصعد إلى الله تعالى الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه، قال ابن عباس رضي الله عنهما: لا تفتح أبواب السماء لأرواح الكفار وتفتح لأرواح المؤمنين. وفي رواية عن ابن عباس رضي الله عنهما أيضاً قال: لا يصعد لهم قول ولا عمل، وقال ابن جريج: لا تفتح أبواب السماء لأعمالهم ولا لأرواحهم. وروى الطبري بسنده عن البراء بن عازب: أن رسول الله ﷺ ذكر قبض روح الفاجر وأنه يصعد بها إلى السماء قال فيصعدون بها فلا يمرون على ملأ من الملائكة إلا قالوا ما هذه الروح الخبيثة قال فيقولون فلان بأقبح أسمائه التي كان يدعى بها في الدنيا حتى ينتهوا بها إلى السماء فيستفتحون له فلا يفتح له ثم قرأ رسول الله ﷺ «لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط» وقيل في معنى الآية: لا تنزل عليهم البركة والخير لأن ذلك لا ينزل إلا من السماء فإذا لم تفتح لهم أبواب السماء فلا ينزل عليهم من البركة والخير والرحمة شيء.

وقوله تعالى: ﴿ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط﴾ والولوج الدخول والجمل معروف وهو الذكر من الإبل وسم الخياط ثقب الإبرة قال الفراء: الخياط والمخيط ما يخاط به والمراد به الإبرة في هذه الآية وإنما خص الجمل بالذكر من بين سائر الحيوانات لأنه أكبر من سائر الحيوانات جسماً عند العرب قال الشاعر:

جسم الجِمال وأحلام العصافير

وصف من هجاه بهذا بعظم الجسم مع صغر العقل فجسم الجمل من أعظم الأجسام وثقب الإبرة من أضيق المنافذ فكان ولوج الجمل مع عظم جسمه في ثقب الإبرة الضيق محالاً فكذلك دخول الكفار الجنة محال ولما وصف الله دخولهم الجنة على حصول هذا الشرط وكان وقوع هذا الشرط محالاً ثبت أن الموقوف على المحال محال فوجب بهذا الاعتبار أن دخول الكفار الجنة مأيوس منه قطعاً. وقال بعض أهل المعاني: لما علق الله تعالى دخولهم الجنة

﴿ إنّ الذينَ كذّبُوا بآياتِنا واستكبَرُوا عنها لا تُفتّح ﴾، بالتاء، خفّف أبو عمرو، وبالياء، خفّف حمزة والكسائي، والباقون بالتاء والتشديد، ﴿ لهم أبوابُ السّماءِ ﴾ لأدعيتهم ولا لأعمالهم. وقال ابن عباس: لأرواحهم لأنها خبيثة لا يُصعد بها بل يُهوى بها إلى سجين، إنما تفتّح أبواب السماء لأرواح المؤمنين وأدعيتهم وأعمالهم، ﴿ ولا يدخلُون الجنّة حتى يَلِجَ الجَمَلُ في سَمِّ الخِيَاط ﴾، أي: حتى يدخل البعير في ثقب الإبرة، والخياط والمخيط واحد، وهو الإبرة والمراد منه أنهم لا يدخلون الجنة أبداً لأن الشيء إذا عُلّق بما يستحيل كونه دلّ ذلك على تأكيد المنع، كما يقال: لا أفعل ذلك حتى يشيب الغراب أو يبيض القار. يريد لا أفعله أبداً.
﴿ وكذلكَ نَجْزي المجرمين ﴾.

بولوج الجمل في سم الخياط وهو خرق الإبرة كان ذلك نفياً لدخولهم الجنة على التأبيد وذلك لأن العرب إذا علقت ما يجوز كونه بما لا يجوز كونه استحال كون ذلك الجائز وهذا كقولك: لا آتيك حتى يشيب الغراب ويبيض القار ومنه قول الشاعر:

إذا شـاب الغـراب أتيـت أهلـي وصـار القـار كـاللبـن الحليـب

قوله تعالى: ﴿وكذلك نجزي المجرمين﴾ أي ومثل الذي وصفنا نجزي المجرمين يعني: الكافرين لأنه تقدم من صفتهم أنهم كذبوا بآيات الله واستكبروا عنها وهذه صفة الكفار فوجب حمل لفظ المجرمين على أنهم الكفار ولما بين الله عز وجل أن الكفار لا يدخلون الجنة أبداً بين أنهم من أهل النار ووصف ما أعد لهم فيها فقال تعالى: ﴿لهم من جهنم مهاد﴾ يعني لهم من نار جهنم فراش وأصل المهاد التمهد الذي يقعد عليه ويضطجع عليه كالفراش والبساط ﴿ومن فوقهم غواش﴾ جمع غاشية وهي الغطاء كاللحاف ونحوه ومعنى الآية أن النار محيطة بهم من تحتهم ومن فوقهم، قال محمد بن كعب القرظي والضحاك والسدي: المهاد الفراش والغواشي اللحف ﴿وكذلك نجزي الظالمين﴾ يعني وكذلك نكافىء ونجازي المشركين الذين وضعوا العبادة في غير موضعها.

قوله عز وجل: ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات لا نكلف نفساً إلا وسعها﴾ لما ذكر الله تعالى وعيد الكافرين وما أعد لهم في الآخرة أتبعه بذكر وعد المؤمنين وما أعد لهم في الآخرة فقال والذين آمنوا وعملوا الصالحات يعني والذين صدقوا الله ورسوله وأقروا بما جاءهم به من وحي الله إليه وتنزيله عليه من شرائع دينه وعملوا بما أمرهم به وأطاعوه في ذلك وتجنبوا ما نهاهم عنه لا نكلف نفساً إلا وسعها يعني لا نكلف نفساً إلا ما يسعها من الأعمال وما يسهل عليها ويدخل في طوقها وقدرتها وما لا حرج فيه عليها ولا ضيق. قال الزجاج: الوسع ما يُقدر عليه، وقال مجاهد: معناه إلا ما افترض عليها يعني الذي افترض عليها من وسعها الذي تقدر عليه ولا تعجز عنه وقد غلط من قال إن الوسع بذل المجهود قال أكثر أصحاب المعاني إن قوله تعالى لا نكلف نفساً إلا وسعها اعتراض وقع بين المبتدأ والخبر والتقدير والذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴿أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون﴾ لا نكلف نفساً إلا وسعها وإنما يحسن وقوع هذا الكلام بين المبتدأ والخبر لأنه جنس هذا الكلام لأنه تعالى لما ذكر عملهم الصالح ذكر أن ذلك العمل من وسعهم وطاقتهم وغير خارج عن قدرتهم وفيه تنبيه للكفار على أن الجنة مع عظم قدرها ومحلها يُتوصل

﴿ لهمْ مِّن جهنَّم مِهادٌ ﴾، أي: فراش، ﴿ ومِن فوقهم غَوَاشٍ ﴾، أي: لُحف. وهي جمع غاشية، يعني ما غشّاهم وغطّاهم، يريد إحاطة النار بهم من كل جانب، كما قال الله: ﴿ لهمْ مِّن فوقهمْ ظُلَلٌ منَ النّارِ ومن تحتهمُ ظلل ﴾ [الزمر: ١٦]، ﴿ وكذلك نجزي الظّالمين ﴾.

﴿ والذينَ آمنُوا وعملوا الصالحات لا نُكلِّفُ نَفْساً إلاّ وُسْعَهَا ﴾، أي: طاقتها وما لا تحرّجَ فيه ولا تضيّق عليه، ﴿ أولئكَ أصحابُ الجنّةِ همْ فيها خالدُون ﴾.

﴿ ونزعنا ﴾، أخرجنا، ﴿ ما في صدورِهمْ مِّن غِلٍّ ﴾، من غش وعداوة كانت بينهم في الدنيا فجعلناهم إخواناً على سُرر متقابلين لا يحسد بعضهم بعضاً على شيء خصّ الله به بعضهم. ﴿ تجري من تحتهم الأنهار ﴾، روى الحسن عن علي رضي الله عنه قال: فينا والله أهل بدر نزلتْ: ﴿ ونزعنا ما في صدورهم من غِلّ إخواناً على سرر متقابلين ﴾ [الحجر: ٤٧]، وقال علي رضي الله عنه أيضاً: إني لأرجو أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير من الذين قال لهم الله عزّ وجلّ: ﴿ ونزعنا ما في صدورهم من غِلٍّ ﴾، أخبرنا عبد الواحد المليحي أنبأنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنبأنا محمد بن يوسف حدّثنا محمد بن إسماعيل حدّثنا الصلت بن محمد حدّثنا يزيد بن زريع

إليها بالعمل الصالح السهل من غير تحمل كلفة ولا مشقة صعبة. وقال قوم من أصحاب المعاني هو من تمام الخبر موضعه رفع والعائد محذوف كأنه قال لا نكلف نفساً منهم إلا وسعها فحذف العائد للعلم به.

قوله تعالى: ﴿ونزعنا ما في صدورهم من غل﴾ يعني وقلعنا وأخرجنا ما في صدور المؤمنين من غش وحسد وحقد وعداوة كانت بينهم في الدنيا ومعنى الآية أزلنا تلك الأحقاد التي كانت لبعضهم على بعض في الدنيا فجعلناهم إخواناً على سرر متقابلين لا يحسد بعضهم بعضاً على شيء خص الله به بعضهم دون بعض ومعنى نزع الغل تصفية الطباع وإسقاط الوساوس ودفعها عن أن ترد على القلب روي عن علي رضي الله عنه قال: فينا والله أهل بدر نزلت ﴿ونزعنا ما في صدورهم من غل إخواناً على سرر متقابلين﴾ وروي عنه أيضاً أنه قال إني لأرجو أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير من الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿ونزعنا ما في صدورهم من غل﴾ وقيل إن الحسد والغل يزول بدخولهم الجنة (خ) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «يخلص المؤمنون من النار فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار فيقتص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا حتى إذا هذبوا ونقوا أذن الله لهم في دخول الجنة فوالذي نفس محمد بيده لأحدهم أهدى بمنزله في الجنة منه بمنزله في الدنيا» وقال السدي في هذه الآية: إن أهل الجنة إذا سيقوا إلى الجنة فبلغوا وجدوا عند بابها شجرة في أصل ساقها عينان فشربوا من إحداهما فينزع ما في صدورهم من غل فهو الشراب الطهور واغتسلوا من الأخرى فجرت عليهم نضرة النعيم فلن يشعثوا ولن يسحنوا بعدها أبداً. وقيل إن درجات أهل الجنة متفاوتة في العلو والكمال فبعض أهل الجنة أعلى من بعض وأخرج الله عز وجل الغل والحسد من صدورهم وأزاله عنهم ونزعه من قلوبهم فلا يحسد صاحب الدرجة النازلة صاحب العالية، وأورد على هذا القول كيف يعقل أن الإنسان يرى الدرجات العالية والنعم العظيمة وهو محبوس عنها لا يصل إليها ولا يميل بطبعه إليها ولا يغتم بسبب حرمانه منها وإن كان في لذة ونعيم وأجيب عن هذا بأن الله تعالى قد وعد بإزالة الحقد والحسد من قلوب أهل الجنة حتى تكمل لهم اللذة والسرور حتى إن أحدهم لا يرى نفسه إلا في كمال وزيادة في النعيم الذي هو فيه فيرضى بما هو فيه ولا يحسد أحداً أبداً وبهذا تم نعيمه ولذته وكمل سروره وبهجته.

وقوله تعالى: ﴿تجري من تحتهم الأنهار﴾ لما أخبر الله تعالى بما أنعم به على أهل الجنة من إزالة الغل والحسد والحقد من صدورهم أخبرنا بما أنعم به عليهم من اللذات والخيرات والمسرات ﴿وقالوا الحمد لله الذي هدانا لهذا﴾ يعني أن المؤمنين إذا دخلوا الجنة قالوا الحمد لله الذي وفقنا وأرشدنا للعمل الذي هذا ثوابه وتفضل علينا رحمة منه وإحساناً وصرف عنا عذاب جهنم بفضله وكرمه فله الحمد على ذلك ﴿وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله﴾ يعني وما كنا لنرشد لذلك العمل الذي هذا ثوابه لولا أنه أرشدنا الله إليه ووفقنا بفضله ومنه وكرمه وفي الآية دليل على أن المهتدي من هداه الله ومن لم يهده الله فليس بمهتد ﴿لقد جاءت رسل ربنا بالحق﴾ يعني أن أهل النعيم إذا دخلوها ورأوا ما أعد

حدّثنا سعيد عن قتادة عن أبي المتوكل الناجي عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «يخلص المؤمنون من النار فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار فيقتصّ لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا حتى إذا هُذّبوا ونُقّوا أذِنَ لهم في دخول الجنة، فوَالذي نفسُ محمدٍ بيده لأحدهم أهدى بمنزله في الجنة منه بمنزله كان في الدنيا». وقال السدي في هذه الآية: إن أهل الجنة إذا سيقوا إلى الجنة وجدوا عند بابها شجرة في أصل ساقها عينان فشربوا من إحداهما فينزع ما في صدورهم من غِلّ، فهو الشراب الطهور واغتسلوا من الأخرى فجرت عليهم نضرة النعيم فلن يشعثوا ولن يسحنوا بعدها أبداً، أي إلى هذا، يعني طريق الجنة. وقال سفيان الثّوري: معناه هدانا لعملٍ هذا ثوابه، ﴿ تجري من تحتهم الأنهار وقالوا الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنّا ﴾، قرأ ابن عامر: (ما كنّا) بلا واو، ﴿ لِنَهْتَدِي لولا أنْ هدانا اللّهُ لقدْ جاءتْ رُسلُ ربِّنا بالحقّ ﴾، هذا قول أهل الجنة حين رأوا ما

الله لهم فيها من النعيم قالوا لقد جاءت رسل ربنا بالحق يعني أنهم رأوا ما وعدهم به الرسل عياناً ﴿ونودوا أن تلكم الجنة﴾ يعني: ونادى منادي أهل الجنة إن هذه الجنة التي كانت الرسل وعدتكم بها في الدنيا واختلفوا في المنادى فقيل هو الله عز وجل وقيل الملائكة ينادون بأمر الله عز وجل وقيل هذا النداء يكون في الجنة (م). عن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة رضي الله تعالى عنهما: أن رسول الله ﷺ قال: «إذا دخل أهل الجنة الجنة نادى مناد إن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبداً وإن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبداً وإن لكم أن تشبّوا فلا تهرموا أبداً وإن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبداً فذلك قوله عز وجل ونودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون».

وقوله تعالى: ﴿أورثتموها بما كنتم تعملون﴾ روى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال «ما من أحد إلا وله منزل في الجنة ومنزل في النار فأما الكافر فإنه يرث المؤمن منزله من النار والمؤمن يرث الكافر منزله من الجنة» زاد في رواية فذلك قوله تعالى: ﴿أورثتموها بما كنتم تعملون﴾ قال بعضهم لما سمى الله الكافر ميتاً بقوله أموات غير أحياء وسمى المؤمن حياً بقوله: لينذر من كان حياً وفي الشرع أن الأحياء يرثون الأموات فقال أورثتموها يعني أن المؤمن حي وهو يرث الكافر منزله من الجنة لأنه في حكم الميت. وقيل معناه أن أمرهم يؤول إلى الجنة كما أن الميراث يؤول إلى الوارث، وقيل: أورثتموها عن الأعمال الصالحة التي عملتموها لأن الجنة جعلت لهم جزاء وثواباً على الأعمال ويعارض هذا القول ما ورد عن النبي ﷺ أنه قال «لن يدخل الجنة أحد بعمله وإنما يدخلها برحمة الله» فإن دخول الجنة برحمة الله وانقسام المنازل والدرجات بالأعمال. وقيل إن العمل الصالح لن يناله المؤمن ولن يبلغه إلا برحمة الله تعالى وتوفيقه وإذا كان العمل الصالح بسبب الرحمة كان دخول الجنة في الحقيقة برحمة الله تعالى وجعلها الله ثواباً وجزاء لهم على تلك الأعمال الصالحة التي عملوها في دار الدنيا والله أعلم.

﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗاۖ قَالُواْ نَعَمۡۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ بَيۡنَهُمۡ أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ٤٤﴾

قوله تعالى: ﴿ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار﴾ يعني ونادى أهل الجنة أهل النار وهذا النداء إنما يكون بعد استقرار أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار تقول أهل الجنة يا أهل النار ﴿أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً﴾ يعني ما وعدنا في الدنيا على ألسنة رسله من الثواب على الإيمان به وبرسله وطاعته حقاً ﴿فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً﴾

وعدهم الرسل عياناً، ﴿ ونُودوا أنْ تِلْكُمُ الجنّةُ أورِثْتُموها بما كُنْتُمْ تعملون ﴾، قيل: هذا النداء إذا رأوا الجنة من بعيد نُودُوا أنْ تلكم الجنة، وقيل: هذا النداء يكون في الجنة، أخبرنا أبو بكر محمد بن عبد الله بن أبي توبة الخطيب أنبأنا أبو طاهر محمد بن الحارث أنبأنا محمد بن يعقوب الكسائي أنبأنا عبد الله بن محمد أنبأنا إبراهيم بن عبد الله الخلال حدّثنا عبد الله بن المبارك عن سفيان عن أبي إسحق عن الأغر عن أبي سعيد وعن أبي هريرة قالا: ينادي منادٍ: إنّ لكم أن تصحُّوا فلا تسقمُوا أبداً، وإنّ لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبداً، وإنّ لكم أن تشبُّوا فلا تهرمُوا أبداً، وإنّ لكم أن تنعموا فلا تَبْأسوا أبداً، فذلك قوله: ﴿ ونُودُوا أن تلكمُ الجنّةَ، أورِثْتموهَا بما كنتُم تعملون ﴾، هذا حديث صحيح أخرجه مسلم بن الحجاج عن إسحق بن إبراهيم وعبد الرحمن بن حميد عن عبد الرزاق عن سفيان الثّوري بهذا الإسناد مرفوعاً، ورُوِي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا مِن أحدٍ إلاّ وله منزلةٌ في الجنة ومنزلة في النار، فأمّا الكافر فإنه يرث المؤمن منزله من النار، والمؤمن يرث الكافر ومنزله من الجنة».

قوله تعالى: ﴿ ونادى أصحابُ الجنّةِ أصحابَ النارِ أنْ وَجَدْنا ما وعدنا ربُّنا ﴾، من الثواب، ﴿ حقّاً ﴾، أي

يعني من العذاب على الكفر ﴿قالوا نعم﴾ يعني قال أهل النار مجيبين لأهل الجنة نعم وجدنا ذلك حقاً.

فإن قلت: هذا النداء من كل أهل الجنة لكل أهل النار أو من البعض للبعض؟

قلت: ظاهر قوله ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار يفيد العموم والجمع إذا قابل الجمع يوزع الفرد على الفرد فكل فريق من أهل الجنة ينادي من كان يعرفه من الكفار في دار الدنيا.

فإن قلت: إذا كانت الجنة في السماء والنار في الأرض فكيف يمكن أن يبلغ هذا النداء أو كيف يصح أن يقع.

قلت: إن الله تعالى قادر على أن يقوي الأصوات والأسماء فيصير البعيد كالقريب.

وقوله تعالى: ﴿فأذن مؤذن بينهم﴾ يعني نادى مناد وأعلم لأن أصل الأذان في اللغة الإعلام. والمعنى نادى مناد أسمع الفريقين وهذا المنادي من الملائكة وقيل إنه إسرافيل صاحب الصور ذكره للواحدي ﴿أن لعنة الله على الظالمين﴾ يعني يقول المؤذن إن لعنة الله على الظالمين ثم فسر الظالمين من هم فقال تعالى:

﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْآخِرَةِ كَٰفِرُونَ ﴿٤٥﴾ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَٰهُمْ وَنَادَوْا۟ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾﴾

﴿الذين يصدون عن سبيل الله﴾ يعني الذين يمنعون الناس عن الدخول في دين الإسلام ﴿ويبغونها عوجاً﴾ يعني ويحاولون أن يغيروا دين الله وطريقته التي شرع لعباده ويبدلونها. وقيل معناه أنهم يصلون لغير الله ويعظمون ما لم يعظمه الله وذلك أنهم طلبوا سبيل الله بالصلاة لغير الله وتعظيم ما لم يعظمه الله فأخطؤوا الطريق وضلوا عن السبيل ﴿وهم بالآخرة كافرون﴾ يعني وهم بكون الآخرة واقعة جاحدون منكرون لها.

قوله عز وجل: ﴿وبينهما حجاب﴾ يعني بين الجنة والنار وقيل بين أهل الجنة وأهل النار حجاب وهو المذكور في قوله تعالى: ﴿فضوب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب﴾ قال مجاهد الأعراف حجاب بين الجنة والنار. وقال السدي وبينها حجاب هو السور وهو الأعراف وقوله: ﴿وعلى الأعراف رجال﴾ الأعراف: جمع عرف وهو كل مرتفع من الأرض ومنه قيل عرف الديك لارتفاعه على ما سواه من الجسد سمي بذلك لأنه بسبب ارتفاعه صار أعرف وأبين مما انخفض، وقال السدي: إنما سمي الأعراف لأن أصحابه يعرفون الناس. وقال ابن

صدقاً، ﴿ فهلْ وجدتُّم ما وَعَدَ ربُّكُم ﴾، من العذاب، ﴿ حقاً قالوا نعم ﴾، قرأ الكسائي بكسر العين حيث كان، والباقون بفتحها وهما لغتان، ﴿ فأذَّن مؤذِّنٌ بينهم ﴾، أي: نادى منادٍ أسمع الفريقين، ﴿ أنْ لعنَة اللَّهِ على الظالمين ﴾، قرأ أهل المدينة والبصرة وعاصم: «أن» خفيف، «لعنة»، رفع، وقرأ الآخرون بالتشديد، «لعنـةَ الله» نصب على الظالمين، أي: الكافرين.

﴿ الذين يصدّون ﴾، أي: يصرفون الناس، ﴿ عن سبيل الله ﴾، طاعة الله، ﴿ ويبغُونَها عِوَجاً ﴾، أي: يطلبونها زيغاً وميلاً، أي: يبطلون سبيل الله جائرين. قال ابن عباس: يصلّون لغير الله، يعظون ما لم يعظمه الله. والعِوَج بكسر العين في الدِّين والأمر والأرض وكل ما لم يكن قائماً، وبالفتح في كل ما كان قائماً كالحائط والرمح ونحوهما. ﴿ وهمْ بالآخرةِ كافرُون ﴾.

﴿ وبينهما حِجَابٌ ﴾، يعني: بين الجنة والنار. وقيل: بين أهل النار حجاب، وهو السور الذي ذكر الله في قوله: ﴿ فضُرب بينهم بسُورٍ له باب ﴾ [الحديد: ١٣]، قوله تعالى: ﴿ وعلى الأعراف رجالٌ ﴾، هي ذلك السور

عباس رضي الله عنهما: الأعراف الشيء المشرف وعنه قال الأعراف سور كعرف الديك وعنه أن الأعراف جبل بين الجنة والنار. يحبس عليه ناس من أهل الذنوب بين الجنة والنار واختلف العلماء في صفة الرجال الذين أخبر الله عنهم أنهم على الأعراف وما السبب الذي من أجله صاروا هنالك فروي عن حذيفة أنه سئل عن أصحاب الأعراف فقال: هم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم فقصرت بهم سيئاتهم عن الجنة وتخلفت بهم حسناتهم عن النار فوقفوا هنالك على السور حتى يقضي الله تعالى فيهم، قال بعضهم: إنما جعلوا على الأعراف لأنها درجة متوسطة بين الجنة والنار فهم لا من أهل الجنة ولا من أهل النار لكن الله تعالى يدخلهم الجنة بفضله ورحمته لأنه ليس في الآخرة دار إلا الجنة أو النار. وقال ابن مسعود رضي الله عنه يحاسب الناس يوم القيامة فمن كانت حسناته أكثر بواحدة دخل الجنة من كانت سيئاته أكثر بواحدة دخل النار وإن الميزان يخف ويثقل بمثال حبة من خردل ومن استوت حسناته وسيئاته كان من أصحاب الأعراف فوقفوا على الأعراف فإذا نظروا إلى أهل الجنة نادوا سلام عليكم وإذا نظروا إلى أهل النار قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين فهنالك يقول الله تعالى: ﴿لم يدخلوها وهم يطمعون﴾ فكان الطمع دخولاً قال ابن مسعود رضي الله تعالى عنه: إذا عمل العبد حسنة كتب له بها عشر وإذا عمل سيئة لم تكتب له إلا واحدة ثم قال هلك من غلب آحاده عشراته، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: الأعراف سور بين الجنة والنار وأصحاب الأعراف هم قوم استوت حسناتهم وسيئآتهم فهم بذلك المكان حتى إذا أراد الله تعالى أن يعافيهم انطلق بهم إلى نهر يقال له نهر الحياة حافتاه قصب الذهب مكلل باللؤلؤ ترابه المسك فألقوا فيه حتى تصلح ألوانهم وتبدو في نحورهم شامة بيضاء يعرفون بها حتى إذا صلحت ألوانهم أتى بهم الرحمن تبارك وتعالى فقال تمنوا ما شئتم فيتمنون حتى إذا انقطعت أمنيتهم قال لهم لكم الذي تمنيتم ومثله سبعون ضعفاً فيدخلون الجنة ذكره ابن جرير في تفسيره. وقال شرحبيل بن سعد: أصحاب الأعراف قوم خرجوا في الغزو من غير إذن آبائهم. ورواه الطبري بسنده إلى يحيى بن غيل مولى لبني هاشم عن محمد بن عبد الرحمن عن أبيه قال: سئل رسول الله ﷺ عن أصحاب الأعراف فقال «هم قوم قتلوا عصاة لآبائهم فمنعهم قتلهم في سبيل الله عن النار ومنعتهم معصية آبائهم أن يدخلوا الجنة» زاد في رواية «فهُم آخر من يدخل الجنة» وذكر ابن الجوزي: إنهم قوم رضي آباؤهم دون أمهاتهم وأمهاتهم دون آبائهم. ورواه عن إبراهيم وذكر عن أبي صالح مولى التوأمة عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: إنهم أولاد الزنا، وقيل: إنهم الذين ماتوا في الفترة وفيه بعد لأن آخر أمر أصحاب الأعراف إلى الجنة وهؤلاء الذين ماتوا في الفترة والله أعلم بحالهم وهو يتولى أمرهم وقيل إنهم أولاد المشركين الذين ماتوا أطفالاً وهذا القول يرجع معناه إلى القول الذي قبله لأنه داخل في حكمه فهذه الأقوال تدل على أن أصحاب الأعراف دون أهل الجنة في الدرجات وإن كانوا يدخلون الجنة برحمة الله تعالى. وقال مجاهد:

الذي بين الجنة والنار، وهي جمع عرف وهو اسم للمكان المرتفع، ومنه عُرْف الديك لارتفاعه على ما سواه من جسده. وقال السدي: سُمّي ذلك السور أعرافاً لأن أصحابه يعرفون الناس. واختلفوا في الرجال الذين أخبر الله عنهم أنهم على الأعراف، فقال حذيفة وابن عباس: هم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم وقصرت بهم سيئاتهم عن الجنة وتجاوزت بهم حسناتهم عن النار، فوقفوا هناك حتى يقضي الله فيهم ما يشاء ثم يُدخلهم الجنة بفضل رحمته، وهم آخر مَن يدخل الجنة. أخبرنا أبو بكر محمد بن عبد الله بن أبي توبة ثنا أبو طاهر محمد بن أحمد بن الحارث ثنا محمد بن يعقوب الكسائي ثنا عبد الله بن محمود ثنا إبراهيم بن عبد الله الخلال ثنا عبد الله بن المبارك عن أبي بكر الهذلي قال: قال سعيد بن جبير يُحدّث عن ابن مسعود قال: يُحاسب الناس يوم القيامة فمَن كانت حسناتُه أكثرَ من سيئاته بواحدة دخل الجنّةَ، ومَن كانت سيئاتُه أكثرَ من حسناته بواحدة دخل النار، ثم قرأ قوله: ﴿ فمَن ثَقُلَتْ موازينُه فأولئك همُ المفلحُون ومَن خفَّتْ موازينُه فأولئك الذين خسرُوا أنفسَهم ﴾ [الأعراف: ٨ و٩،

أصحاب الأعراف قوم صالحون فقهاء علماء فعلى هذا القول إنما يكون لبثهم على الأعراف على سبيل النزهة أو ليرى غيرهم شرفهم وفضلهم وقيل إنهم أنبياء حكاه ابن الأنباري وإنما أجلسهم الله على ذلك المكان العالي تمييزاً لهم على سائر أهل القيامة وإظهاراً لفضلهم وعلو مرتبتهم وليكونوا مشرفين على أهل الجنة والنار ومطلعين على أحوالهم ومقادير ثواب أهل الجنة وعقاب أهل النار. وقال أبو مجلز: أصحاب الأعراف ملائكة يعرفون الفريقين بسيماهم يعني يعرفون أهل الجنة وأهل النار، فقيل لأبي مجلز: إن الله تعالى يقول وعلى الأعراف رجال وأنت تقول إنهم ملائكة فقال إن الملائكة ذكور ليسوا بإناث وضعَّف الطبري قول أبي مجلز قال: لأن لفظ الرجـال في لسان العرب لا يطلق إلا على الذكور من بني آدم دون إناثهم ودون سائر الخلق وحاصل هذه الأقوال أن أصحاب الأعراف أفضل من أهل الجنة لأنهم أعلى منهم منزلة وأفضل. وقيل: إنما أجلسهم الله في ذلك المكان العالي ليميزوا بين أهل الجنة وبين أهل النار والله أعلم بمراده وأسرار كتابه.

قوله عز وجل: ﴿**يعرفون كلًّا بسيماهم**﴾ يعني: أصحاب الأعراف يعرفون أهل الجنة بسيماهم وذلك ببياض وجوههم ونضرة النعيم عليهم ويعرفون أهل النار بسيماهم وذلك بسواد وجوههم وزرقة عيونهم والسيما العلامة الدالة على الشيء وأصله من السمة. قال ابن عباس رضي الله عنهما: أصحاب الأعراف إذا رأوا أصحاب الجنة عرفوا ببياض الوجوه وإذا رأوا أصحاب النار عرفوهم بسواد الوجوه.

فإن قلنا إن أصحاب الأعراف من استوت حسناتهم وسيئاتهم وهم دون أهل الجنة في الدرجة كان وقوفهم على الأعراف ليكونوا درجة متوسطة بين الجنة والنار فإذا رأوا أهل الجنة وعرفوهم ببياض وجوههم نادوهم أن سلام عليكم وهو قوله تعالى ﴿**ونادوا أصحاب الجنة أن سلام عليكم**﴾ يعني: نادى أصحاب الأعراف أصحاب الجنة أن سلام عليكم يعني سلمتم من الآفات وحصل لكم الأمن والسلامة وإذا رأوا أهل النار يعرفونهم بسواد وجوههم «قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين» وإن قلنا: إن أصحاب الأعراف هم الأشراف والأفاضل من أهل الجنة كان جلوسهم على الأعراف ليطلعوا على أهل الجنة وأهل النار ثم لينقلهم الله عز وجل إلى الدرجات العلية في الجنة.

المؤمنون: ١٠٢ و١٠٣]، ثم قال: إن الميزان يخفّ بمثقال حبة أو يرجح، قال: مَن استوت حسناته وسيئاته كان من أصحاب الأعراف فوقفوا على الصراط، ثم عرفوا أهل الجنة وأهل النار فإذا نظروا إلى أهل الجنة نادُوا سلامٌ عليكم، وإذا صرفوا أبصارَهم إلى أصحاب النار قالوا ربَّنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين، فأمّا أصحاب الحسنات فإنهم يُعطون نوراً يمشُون به بين أيديهم وبأيمانهم، ويُعطي كلُّ يومئذ نوراً فإذا أتوا على الصراط سَلَبَ اللَّهُ نورَ كلِّ منافق ومنافقة، فلمّا رأى أهل الجنة ما لقي المنافقوان قالوا: ربَّنا أتْمِمْ لنَا نورَنا، فأمّا أصحاب الأعراف فإن النور لم ينزع من بين أيديهم، ومنعتهم سيئاتهم أن يمضوا فبقي في قلوبهم الطمع إذْ لم يُنزع النورُ من بين أيديهم، فهنالك يقول الله: ﴿ لَمْ يدخلُوها وهمْ يَطْمَعُون ﴾، وكان الطمع للنّور الذي بين أيديهم، ثم أُدخلوا الجنّة، وكانوا آخر أهل الجنة دخولاً، وقال شرحبيل بن سعد: أصحاب الأعراف قوم خرجوا في الغزو بغير إذن آبائهم. ورواه مقاتل في تفسيره مرفوعاً: هم رجالٌ غزوا في سبيل الله عصاة لآبائهم فقُتِلُوا. فأُعْتِقُوا من النار بقتلهم في سبيل الله وحُبسوا عن الجنة بمعصية آبائهم، فهم آخر مَن يدخل الجنة. ورُوِيَ عن مجاهد: أنهم أقوام رضي الله عنهم أحد الأبوين دون الآخر، يُحبسون على الأعراف إلى أن يقضي الله بين الخلق، ثم يدخلون الجنة. وقال عبد العزيز بن يحيـى الكناني: هم الذين ماتوا في الفترة ولم يُبدلوا دينهم. وقيل: هم أطفال المشركين. وقال الحسن: هم أهل الفضل من المؤمنين علوا على الأعراف فيطّلعُون على أهل الجنة وأهل النار جميعاً ويطالعون أحوال الفريقين. قوله تعالى: ﴿**يعرفُون كُلًّا بسيماهم**﴾، أي: يعرفون أهل الجنّة ببياض وجوههم وأهل النّار بسواد وجوههم. ﴿ **ونادَوْا أصحابَ**

وقوله تعالى: ﴿لم يدخلوها وهم يطمعون﴾ يعني في دخول الجنة. قال الحسن: ما جعل الله ذلك الطمع في قلوبهم إلا لكرامة يريدها بهم.

۞ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُواْ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَٰهُمْ قَالُواْ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾

قوله تعالى: ﴿وإذا صرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار﴾ يعني وإذا صرفت أبصار أصحاب الأعراف تلقاء أصحاب النار يعني وجاههم وحيالهم فنظروا إليهم وإلى سواد وجوههم وما هم فيه من العذاب ﴿قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين﴾ يعني الذين ظلموا أنفسهم بالشرك، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: إن أصحاب الأعراف إذا نظروا لأهل النار وعرفوهم قالوا: ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين والمعنى أن أصحاب الأعراف إذا نظروا إلى أهل النار وما هم فيه من العذاب تضرعوا إلى الله تعالى وسألوه أن لا يجعلهم منهم.

قوله تعالى: ﴿ونادى أصحاب الأعراف رجالاً﴾ يعني ونادى أصحاب الأعراف رجالاً كانوا عظماء في الدنيا وهم من أهل النار ﴿يعرفونهم بسيماهم﴾ يعني سيما أهل النار ﴿قالوا﴾ يعني أصحاب الأعراف لهؤلاء الذين عرفوهم في النار ﴿ما أغنى عنكم جمعكم﴾ يعني ما كنتم تجمعون من الأموال والعدد في الدنيا ﴿وما كنتم تستكبرون﴾ يعني وما أغنى عنكم تكبركم عن الإيمان شيئاً. قال الكلبي: ينادونهم وهم على السور يا وليد بن المغيرة يا أبا جهل بن هشام يا فلان ويا فلان ثم ينظرون إلى الجنة فيرون فيها الفقراء والضعفاء ممن كانوا يستهزئون بهم مثل سلمان وصهيب وخباب وبلال وأشباههم فيقول أصحاب الأعراف لأولئك الكفار ﴿أهؤلاء﴾ لفظ استفهام يعني أهؤلاء الضعفاء ﴿الذين أقسمتم﴾ بالله ﴿لا ينالهم الله برحمة﴾ يعني أنكم حلفتم أنهم لا يدخلون الجنة وقد دخلوا الجنة ثم يقول الله تعالى لأصحاب الأعراف ﴿ادخلوا الجنة﴾ بفضلي ورحمتي ﴿لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون﴾ وقيل إن أصحاب الأعراف إذا قالوا لأصحاب النار ما أخبر الله عنهم قال لهم أهل النار إن أولئك دخلوا الجنة وأنتم لم تدخلوها

الجنةِ أنْ سلامٌ عليكم ﴾، أي: إذا رأوا أهل الجنة قالوا سلام عليكم، **﴿ لم يدخلوها ﴾**، يعني: أصحاب الأعراف لم يدخلوا الجنة، **﴿ وهم يَطْمَعُون ﴾**، في دخولها، قال أبو العالية: ما جعل الله ذلك الطمع فيهم إلاّ كرامة يريدهم بهم. قال الحسن: الذي جعل الطمعَ في قلوبهم يُوصلهم إلى ما يطمعون.

﴿ وإذا صُرِفَتْ أبصارُهم تلقاءَ أصحابِ النار ﴾، تعوّذُوا بالله، **﴿ قالوا ربَّنا لا تجعلنا مع القوم الظّالمين ﴾**، يعني: الكافرين في النار.

﴿ ونادى أصحابُ الأعرافِ رجالاً ﴾، كانوا عظماء في الدنيا من أهل النار، **﴿ يعرفُونَهم بسيماهم قالوا ما أغنى عنكم جمعُكم ﴾**، في الدنيا من المال والولد، **﴿ ومَا كُنْتُمْ تستكبرُون ﴾**، عن الإيمان. قال الكلبي: ينادون وهم على السور يا وليد بن المغيرة ويا أبا جهل بن هشام ويا فلان، ثم ينظرون إلى الجنة فيرون فيها الفقراء والضعفاء ممّن كانوا يستهزؤون بهم، مثل سلمان وصهيب وخباب وبلال وأشباههم فيقول أصحاب الأعراف لأولئك الكفّار.

﴿ أهؤلاء ﴾، يعني: هؤلاء الضعفاء، **﴿ الذين أقسمتم ﴾**، حلفتم، **﴿ لا ينالُهُمُ اللَّهُ برحمةٍ ﴾**، أي: حلفتم أنهم لا يدخلون الجنة. ثم يقال لأهل الأعراف، **﴿ ادْخُلُوا الجنّةَ لا خوفٌ عليكم ولا أنتم تحزنُون ﴾**، وفيه قول

فيعيرونهم بذلك ويقسمون إنهم لا يدخلون الجنة ولا ينالهم الله برحمة فتقول الملائكة لأهل النار أهؤلاء يعني أصحاب الأعراف الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة ثم تقول الملائكة لأصحاب الأعراف: ادخلوا الجنة برحمة الله لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون. قوله عز وجل:

وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾ وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾

﴿**ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله قالوا**﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما لما صار أصحاب الأعراف إلى الجنة طمع أهل النار في الفرج فقالوا: يا ربنا إن لنا قرابات من أهل الجنة فأذن لنا حتى نراهم ونكلمهم فيأذن لهم فينظرون إلى قرابتهم في الجنة وما هم فيه من النعيم فيعرفونهم وينظر أهل الجنة إلى قرابتهم من أهل النار فلم يعرفوهم لسواد وجوههم فينادون أي أصحاب النار أصحاب الجنة بأسمائهم فينادي الرجل أباه وأخاه فيقول قد احترقت أفضْ عليّ من الماء فيقال لهم: أجيبوهم فيقولون إن الله حرمهما على الكافرين. ومعنى الآية أن أهل النار يستغيثون بأهل الجنة إذا استقروا فيها وذلك عند نزول البلاء بأهل النار وما يلقون من شدة العطش والجوع عقوبة لهم من الله على ما سلف منهم في الدنيا من الكفر والمعاصي. يقول أهل النار لأهل الجنة يا أهل الجنة أفيضوا علينا من الماء يعني صبوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله يعني أو أطعمونا مما رزقكم الله ووسعوا علينا من طعام الجنة فيجيبهم أهل الجنة بقولهم ﴿**إن الله حرمهما على الكافرين**﴾ وهذا الجواب يفيد الحرمان، وقال بعضهم: لما كانت شهواتهم في الدنيا في لذة الأكل والشرب عذبهم الله في الآخرة بشدة الجوع والعطش فسألوا ما كانوا يعتادونه في الدنيا في طلب الأكل والشرب فأجيبوا بأن الله حرمهما على الكافرين يعني طعام الجنة وشرابها ثم وصف الكافرين فقال تعالى: ﴿**الذين اتخذوا دينهم لهواً ولعباً**﴾ يعني أنهم تلاعبوا بدينهم الذي شرع لهم ولهوا عنه. وأصل اللهو ما يشغل الإنسان عما يعنيه ويهمه. ويقال لهوت بكذا ولهيت عن كذا أي اشتغلت عنه. قال ابن عباس رضي الله عنهما: هم المستهزؤون وذلك أنهم كانوا إذا دعوا إلى الإيمان سخروا ممن دعاهم إليه وهزؤوا به استهزاء بالله عز وجل، وقيل: هو ما زين لهم الشيطان من تحريم البحائر والسوائب والمكاء والتصدية حول البيت وسائر

آخر: أن أصحاب الأعراف إذا قالوا لأهل النار ما قالوا قال لهم أهل النار إن دخل أولئك الجنة فأنتم لم تدخلوها فيعيِّرونَهم بذلك ويُقسمون أنهم يدخلون النار، فتقول الملائكةُ الذين حَبَسُوا أصحابَ الأعراف على الصراط لأهل النار: أهؤلاء يعني أصحاب الأعراف الذين أقسمتم يا أهل النار أنه لا ينالهم الله برحمة، ثم قالت الملائكة لأصحاب الأعراف: ﴿ **ادْخلُوا الجنةَ لا خوفٌ عليكم ولا أنتم تحزنون** ﴾، فيدخلون الجنة.

قوله تعالى: ﴿ **ونادَى أصحابُ النارِ أصحابَ الجنّةِ أنْ أفِيضُوا** ﴾، أي: صُبّوا، ﴿ **علينا من الماء أو ممّا رزَقَكُمُ الله** ﴾، أي: أوسعوا علينا مما رزقكم الله من طعام الجنة. قال عطاء عن ابن عباس: لمّا صار أصحاب الأعراف إلى الجنة طمع أهل النار في الفرج، وقالوا: يا رب إنّ لنا قَرابات من أهل الجنة، فأذنْ لنا حتى نراهم

الخصال الذميمة التي كانوا يفعلونها في الجاهلية. وقيل: معنى دينهم عيدهم اتخذوه لهواً ولعباً لا يذكرون الله فيه ﴿وغرتهم الحياة الدنيا﴾ يعني وخدعهم عاجل ما هم فيه من خصب العيش ولذته وشغلهم ما هم فيه من ذلك عن الإيمان بالله ورسله وعن الأخذ بنصيبهم من الآخرة حتى أتتهم المنية على ذلك. والغرة غفلة في اليقظة وهو طمع الإنسان في طول العمر وحسن العيش وكثرة المال والجاه ونيل الشهوات فإذا حصل ذلك صار محجوباً عن الدين وطلبِ الخلاص لأنه غريق في الدنيا بلذاته وما هو فيه من ذلك ولما وصفهم الله تعالى بهذه الصفات الذميمة قال ﴿فاليوم﴾ يوم القيامة ﴿ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا﴾ يعني فاليوم نتركهم في العذاب المهين جياعاً عطاشاً كما تركوا العمل للقاء يومهم هذا. وهذا قول ابن عباس ومجاهد والسدي. قال ابن عباس رضي الله عنهما: نسيهم من الخير ولم ينسهم من الشر. وقيل معناه نعاملهم معاملة من نسي فنتركهم في النار كما تركوا العمل وأعرضوا عن الإيمان إعراض الناسي. سمى الله تعالى جزاء نسيانهم بالنسيان على المجاز لأن الله تعالى لا ينسى شيئاً فهو كقوله وجزاء سيئة سيئة مثلها فيكون المراد من هذا النسيان أن الله تعالى لا يجيب دعاءهم ولا يرحم ضعفهم وزلتهم بل يتركهم في النار كما تركوا الإيمان والعمل ﴿وما كانوا بآياتنا يجحدون﴾ يعني ونتركهم في النار كما كانوا بدلائل وحدانيتنا يكذبون.

قوله تعالى: ﴿ولقد جئناهم بكتاب﴾ يعني ولقد جئنا هؤلاء الكفار بالقرآن الذي أنزلناه عليك يا محمد ﴿فصلناه على علم﴾ أي بيناه على علم منا بما نفصله ونبينه ﴿هدى ورحمة لقوم يؤمنون﴾ أي جعلنا القرآن هادياً وذا رحمة لقوم يؤمنون ﴿هل ينظرون﴾ يعني هل ينتظر هؤلاء الكفار الذين كذبوا بآياتنا وجحدوها ولم يؤمنوا بها ﴿إلا تأويله﴾ يعني هل ينظرون ويتوقعون إلا ما وعدوا به على ألسنة الرسل من العذاب وأن مصيرهم إلى النار والتأويل ما يؤول إليه الشيء ﴿يوم يأتي تأويله﴾ يعني يوم القيامة لأنه يوم الجزاء وما تؤول إليه أمورهم ﴿يقول الذين نسوه من قبل﴾ يعني: يقول الذين تركوا العمل بالقرآن ولم يؤمنوا به يوم القيامة عند معاينة العذاب ﴿قد جاءت رسل ربنا بالحق﴾ أقروا على أنفسهم واعترفوا حين لا ينفعهم ذلك الاعتراف والإقرار. والمعنى أن الكفَّار أقروا بأن الذي جاءت به الرسل من الإيمان والتصديق والحشر والنشر والبعث يوم القيامة والثواب والعقاب حق وصدق وإنما أقروا بهذه الأشياء لأنهم شاهدوها معاينة وذلك حين لا ينفعهم ولما رأوا أنفسهم في العذاب قالوا ﴿فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا أو نرد فنعمل غير الذي كنا نعمل﴾ يعني أنه ليس لنا طريق إلى الخلاص مما نحن فيه من العذاب إلا أن يشفع لنا شفيع عند ربنا فيقبل شفاعته فينا فيخلصنا من هذا العذاب أو نرد إلى الدنيا فنعمل غير الذي كنا نعمل فيها فنبدل الكفر بالتوحيد والإيمان والمعاصي بالطاعة والإنابة ﴿قد خسروا أنفسهم﴾ يعني أن الذي طلبوه لا يحصل لهم فتبين خسرانهم

ونكلمهم، فينظروا إلى قرابتهم في الجنة وما هم فيه من النعيم فيعرفونهم ولم يعرفهم أهل الجنة لسواد وجوههم فينادي أصحابُ النار أصحابَ الجنة بأسمائهم، وأخبروهم بقراباتهم أن أفيضوا علينا من الماء أو ممّا رزقكم الله، ﴿ قالوا إنّ اللّهَ حرّمهمَا على الكافرين ﴾، يعني: الماء والطعام، ﴿ الذين اتّخذُوا دينَهم لهواً ولعباً ﴾ وهو ما زيّن لهم الشيطان من تحريم البَحيرة وأخواتها والمُكاء والتصدية حول البيت، وسائر الخصال الذميمة التي كانوا يفعلونها في الجاهلية. وقيل: دينهم أي عيدهم، ﴿ وغرّتْهُمُ الحياةُ الدنيا فاليوم نَنْسَاهُم ﴾، نتركهم في النار، ﴿ كما نَسُوا لقاءَ يومهم هذا ﴾، أي: كما تركوا العمل للقاء يومهم هذا، ﴿ وما كانُوا بآياتِنا يجحدُون ﴾.

﴿ ولقدْ جِئْناهم بكتابٍ ﴾، يعني القرآن ﴿ فصّلناه ﴾، بيّناه، ﴿ على علمٍ ﴾ منّا لِما يصلحهم، ﴿ هدىً ورحمةً ﴾، أي: جعلنا القرآن هادياً وذا رحمة، ﴿ لقومٍ يُؤمنُون ﴾.

﴿ هلْ ينظرون ﴾، أي: هل ينتظرون، ﴿ إلاّ تأويلَه ﴾، قال مجاهد: جزاءه. وقال السدي: عاقبته.

وإهلاكهم أنفسهم لأنهم كانوا في الدنيا أول مرة فلم يعملوا بطاعة الله ولو رُدوا إلى الدنيا لعادوا إلى ما كانوا عليه من الكفر والعصيان لسابق علم الله تعالى فيهم ﴿وضل عنهم ما كانوا يفترون﴾ يعني وبطل وذهب عنهم ما كانوا يزعمون ويكذبون في الدنيا من أن الأصنام تشفع لهم فلما أفضوا إلى الآخرة ذهب ذلك عنهم وعملوا أنهم كانوا في دعواهم كاذبين.

إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾

قوله عز وجل: ﴿إن ربكم الله﴾ يعني إن سيدكم ومالككم ومصلح أموركم وموصل الخيرات إليكم والذي يدفع عنكم المكاره وهو الله ﴿الذي خلق السموات والأرض﴾ أصل الخلق في اللغة التقدير ويستعمل في إيداع الشيء من غير أصل سبق ولا ابتداء تقدم. فقوله: خلق السموات والأرض يعني أبدعهما وأنشأ خلقهما على غير مثال سبق وقدر أحوالهما ﴿في ستة أيام﴾ فإن قلت: اليوم عبارة عن مقدار من الزمان وذلك المقدار هو من طلوع الشمس إلى غروبها فكيف قال في ستة أيام ولم يكن شمس ولا سماء قلت معناه في مقدار ستة أيام فهو كقوله ﴿ولهم رزقهم فيها بكرة وعشياً﴾ يعني على مقادير البكر والعشي في الدنيا لأن الجنة لا ليل فيها ولا نهار. واختلف العلماء في اليوم الذي ابتدأ الله عز وجل بخلق الأشياء فيه فقيل في يوم السبت وهو قول محمد بن إسحاق وغيره، ويدل على صحة هذا القول ما روى مسلم في إفراده من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال «أخذ رسول الله ﷺ بيدي فقال خلق الله تعالى التربة يوم السبت وخلق الجبال يوم الأحد وخلق الشجر يوم الاثنين وخلق المكروه يوم الثلاثاء وخلق النور يوم الأربعاء وخلق الدواب يوم الخميس وخلق آدم بعد العصر من يوم الجمعة في آخر الخلق في آخر ساعة من ساعات الجمعة فيما بين العصر إلى الليل» وهذا الحديث وإن كان في صحيح مسلم ففيه مقال وقد أنكره بعض العلماء لما فيه من المخالفة للآية الكريمة لأن الله تعالى يقول: خلق السموات والأرض في ستة أيام. وقال في آخر آية أخرى: ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام فدل بهذين النصين على أن جميع الخلق تم وعمل في ستة أيام والذي في الحديث أن بعض الخلق وقع في سبعة أيام وذلك مجموع أيام الأسبوع فلهذا السبب أنكره وأنكره من العلماء وقد ذكر الأزهري في كتابه تهذيب اللغة ما يقوي الحديث فقال: وقال ابن الأنباري السبت القطع وسمي يوم السبت لأن الله تعالى ابتدأ الخلق يوم السبت وقطع فيه بعض خلق السموات والأرض وقيل: إن ابتداء الخلق كان يوم الأحد وهو قول عبد الله بن سلام وكعب الأحبار والضحاك ومجاهد واختاره ابن جرير الطبري، قال الطبري: خلق الله السموات والأرض في ستة أيام وذلك يوم الأحد والاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس والجمعة، وروي بسنده عن مجاهد قال: بدأ خلق العرش والماء والهواء وخلقت الأرض من الماء وبدأ الخلق يوم الأحد والاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس وجمع الخلق في يوم الجمعة وتهودت اليهود في يوم السبت ويوم من الستة الأيام كألف سنة مما تعدون ويعضد هذا

ومعناه: هل ينتظرون إلّا ما يـؤُل إليه أمرهم من العذاب ومصيرهم إلى النار. ﴿ يومَ يأتي تأويلهُ ﴾، أي: جزاؤه وما يـؤل إليه أمرهم، ﴿ يقولُ الذينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قدْ جاءتْ رسلُ ربِّنا بالحقّ ﴾، اعترفوا به حين لا ينفعهم الاعتراف، ﴿ فهلْ لنا ﴾، اليوم، ﴿ من شُفعاءَ فيشفعُوا لَنا أو نُرَدُّ ﴾، إلى الدنيا، ﴿ فَنَعْمَلَ غيرَ الذي كنّا نعملُ قدْ خسِرُوا أنفسَهم ﴾، أهلكوها بالعذاب، ﴿ وضلَّ ﴾، وبطل، ﴿ عنهمْ ما كانوا يَفْتَرُون ﴾.

قوله تعالى: ﴿ إنّ ربَّكُمُ اللَّهُ الذي خلقَ السـمٰواتِ والأرضَ في ستة أيّام ﴾، أراد به في مِقْدارِ سِتَّةِ أيام لأن اليوم من لَدن طلوع الشمس إلى غروبها، ولم يكن يومئذ يوم ولا شمس ولا سماء، وقيل: ستة أيام كأيام الآخرة

القول ما حكاه صاحب المحكم ابن سيده قال: وسمي سابع الأسبوع سبتاً لأن ابتداء الخلق كان من يوم الأحد إلى يوم الجمعة ولم يكن في السبت خلق. قال أصحاب الأخبار والسير والتواريخ: إن الله تعالى خلق التربة التي هي الأرض بلا دحو ولا بسط في يوم الأحد والاثنين ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات في يومين وهما الثلاثاء والأربعاء ثم دحا الأرض وبسطها وطحاها وأخرج ماءها ومرعاها وخلق دوابها ووحشها وجميع ما فيها في يومين وهما الخميس والجمعة وخلق آدم في يوم الجمعة آخر الخلق في آخر ساعة من ساعات الجمعة وقبل خلق الله عز وجل التربة يوم الأحد ثم استوى إلى السماء فخلقها وجميع ما فيها يوم الاثنين والثلاثاء ثم مد الأرض ودحاها يوم الأربعاء والخميس وخلق آدم يوم الجمعة وأسكنه الجنة هو وزوجته حواء ثم أهبطهما إلى الأرض في آخر ساعة من يوم الجمعة. وقيل: أول ما خلق الله القلم ثم اللوح فكتب فيه ما كان وما سيكون وما خلق وما هو خالق إلى يوم القيامة ثم خلق الظلمة والنور ثم خلق العرش ثم خلق السماء من درة بيضاء ثم خلق التربة ثم خلق السموات وما فيها من نجوم وشمس وقمر ثم مد الأرض وبسطها من التربة التي خلقها أولاً ثم خلق جميع ما فيها من جبال وشجر ودواب وغير ذلك ثم خلق آدم آخر الخلق في آخر ساعة من ساعات يوم الجمعة وفيه أهبط إلى الأرض فتكامل جميع الخلق في ستة أيام كل يوم مقداره ألف سنة وهذا قول جمهور العلماء وقيل في ستة أيام من أيام الدنيا.

فإن قلت إن الله عز وجل قادر على أن يخلق جميع الخلق في لحظة واحدة ومنه قوله تعالى: «وما أمرنا إلا واحدة كلمح البصر» فما الفائدة في خلق السموات والأرض في ستة أيام وما الحكمة في ذلك؟

قلت: إن الله سبحانه وتعالى، وإن كان قادراً على خلق جميع الأشياء في لحظة واحدة، إلا أنه تعالى جعل لكل شيء حداً محدوداً ووقتاً معلوماً فلا يدخل في الوجود إلا في ذلك الوقت والمقصود من ذلك تعليم عباده التثبت والتأني في الأمور. وقال سعيد بن جبير كان الله عز وجل قادراً على خلق السموات والأرض في لمحة ولحظة فخلقهن في ستة أيام تعليماً لخلقه التثبت والتأني في الأمور كما في الحديث «التأني من الله والعجلة من الشيطان» وقيل إن الشيء إذا أحدث دفعة واحدة فلعله أن يخطر ببال بعضهم أن ذلك الشيء إنما وقع على سبيل الاتفاق فإذا أحدث شيئاً بعد شيء على سبيل المصلحة والحكمة كان ذلك أبلغ في القدرة وأقوى في الدلالة. وقيل: إن الله تعالى أراد أن يوقع في كل يوم أمراً من أمره حتى تستعظمه الملائكة وغيرهم ممن شاهده. وقيل إن التعجيل في الخلق أبلغ في القدرة وأقوى في الدلالة والتثبت أبلغ في الحكمة فأراد الله تعالى إظهار حكمته في خلق الأشياء بالتثبت كما أظهر قدرته في خلق الأشياء بكن فيكون.

وقوله تعالى: ﴿ثم استوى على العرش﴾ العرش في اللغة: السرير، وقيل: هو ما علا فأظل وسمي مجلس السلطان عرشاً اعتباراً بعلوه. ويكنى عن العز والسلطان والمملكة بالعرش على الاستعارة والمجاز. يقال فلان فل عرشه بمعنى ذهب عزه وملكه وسلطانه. قال الراغب في كتابه مفردات القرآن: وعرش الله عز وجل مما لا يعلمه البشر إلا بالاسم على الحقيقة وليس هو كما تذهب إليه أوهام العامة فإنه لو كان كذلك لكان حاملاً له تعالى الله عن ذلك وليس كما قال قوم إنه الفلك الأعلى والكرسي فلك الكواكب. وأما استوى بمعنى استقر فقد رواه البيهقي في كتابه

وكل يوم كألف سنة. وقيل: كأيام الدنيا. قال سعيد بن جبير: كان الله عزّ وجلّ قادراً على خلق السمٰوات والأرض في لمحة ولحظة، فخلقهنّ في ستّة أيام تعليماً لخلقه التثبّت والتأنّي في الأمور. وقد جاء في الحديث: «التأنّي من الرحمن والعجلة من الشيطان». ﴿ ثم استوَى على العرش ﴾، قال الكلبي ومقاتل: استقر. وقال أبو عبيدة: صعد. وأوّلت المعتزلة الاستواء بالاستيلاء. فأما أهل السُّنّة يقولون: الاستواء على العرش صفة لله تعالى بلا كيف يجب على الرجل الإيمان به ويكل العلم فيه إلى الله عزّ وجلّ. وسأل رجل مالك بن أنس عن قوله: ﴿ الرحمن على

الأسماء والصفات برواية كثيرة عن جماعة من السلف وضعفها كلها، وقال: أما الاستواء فالمتقدمون من أصحابنا كانوا لا يفسرونه ولا يتكلمون فيه كنحو مذهبهم في أمثال ذلك، وروى بسنده عن عبد الله بن وهب أنه قال: كنا عند مالك بن أنس فدخل رجل فقال يا أبا عبد الله الرحمن على العرش استوى كيف استواؤه؟ قال: فأطرق مالك وأخذته الرحضاء ثم رفع رأسه فقال: الرحمن على العرش استوى كما وصف نفسه ولا يقال له كيف وكيف عنه مرفوع وأنت رجل سوء صاحب بدعة أخرجوه فأخرج الرجل. وفي رواية يحيى بن يحيى قال: كنا عند مالك بن أنس فجاء رجل فقال يا أبا عبد الله الرحمن على العرش استوى كيف استواؤه؟ فأطرق مالك برأسه حتى علته الرحضاء ثم قال الاستواء غير مجهول والكيف غير معقول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة وما أراك إلا مبتدعاً فأمر به أن يخرج. روى البيهقي بسنده عن ابن عيينة قال: ما وصف الله تعالى به نفسه في كتابه فتفسيره تلاوته والسكوت عنه. قال البيهقي: والآثار عن السلف في مثل هذا كثيرة وعلى هذه الطريقة يدل مذهب الشافعي رضي الله تعالى عنه وإليه ذهب أحمد بن حنبل والحسن بن الفضل البجلي ومن المتأخرين أبو سليمان الخطابي. قال البغوي أهل السنة يقولون الاستواء على العرش صفة الله بلا كيف يجب على الرجل الإيمان به ويكل العلم به إلى الله عز وجل وذكر حديث مالك بن أنس مع الرجل الذي سأله عن الاستواء وقد تقدم. وروى عن سفيان الثوري والأوزاعي والليث بن سعد وسفيان بن عيينة وعبد الله بن المبارك وغيرهم من علماء السنة في هذه الآيات التي جاءت في الصفات المتشابهة اقرؤوها كما جاءت بلا كيف. وقال الإمام فخر الدين الرازي رحمه الله بعد ذكره الدلائل العقلية والسمعية: أنه لا يمكن حمل قوله تعالى ثم استوى على العرش على الجلوس والاستقرار وشغل المكان والحيز وعند هذا حصل للعلماء الراسخين مذهبان الأول القطع بكونه تعالى متعالياً عن المكان والجهة ولا نخوض في تأويل الآية على التفصيل بل نفوض علمها إلى الله تعالى وهو الذي قررنا في تفسير قوله: ﴿وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به﴾ وهذا المذهب هو الذي نختاره ونقول به ونعتمد عليه والمذهب الثاني: أنا نخوض في تأويله على التفصيل وفيه قولان ملخصان: الأول، ما ذكره القفال فقال العرش في كلامهم هو السرير الذي يجلس عليه الملك ثم جعل ثل العرش كناية عن نقض الملك يقال ثل عرشه انتقض ملكه وإذا استقام له ملكه واطرد أمره ونفذ حكمه قالوا استوى على عرشه واستوى على سرير ملكه هذا ما قاله القفال والذي قاله القفال حق وصواب ثم قال الله تعالى دل على ذاته وصفاته وكيفية تدبيره العالم على الوجه الذي ألفوه من ملوكهم واستقر في قلوبهم تنبيهاً على عظمة الله جل جلاله وكمال قدرته وذلك مشروط بنفي التشبيه والمراد منه نفاذ القدرة وجريان المشيئة. قال ويدل على صحة هذا قوله في سورة يونس ﴿ثم استوى على العرش يدبر﴾ فقوله يدبر الأمر جرى مجرى التفسير لقوله ثم استوى على العرش وأورد على هذا القول أن الله تعالى لم يكن مستوياً على الملك قبل خلق السموات والأرض والله تعالى منزه عن ذلك وأجيب عنه بأن الله تعالى كان قبل خلق السموات والأرض مالكها لكن لا يصح أن يقال شبع زيد إلا بعد أكله الطعام فإذا فسر العرش بالملك صح أن يقال إنه تعالى إنما استوى على ملكه بعد خلق السموات والأرض والقول الثاني: أن يكون استوى بمعنى استولى وهذا مذهب المعتزلة وجماعة من المتكلمين واحتجوا عليه بقول الشاعر:

قد استوى بشر على العراقِ ... من غير سيف ودم مهراقِ

وعلى هذا القول إنما خص العرش بالإخبار عنه بالاستيلاء عليه لأنه أعظم المخلوقات ورد هذا القول بأن

العرش استوى ﴾، كيف استوى؟ فأطرق رأسه ملياً وعلاه الرحضاء ثم قال: الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، وما أظنك إلّا ضالاً، ثم أمر به فأُخرج. ورُوِيَ عن سفيان الثّوري والأوزاعي والليث بن سعد وسفيان بن عيينة وعبد الله بن المبارك وغيرهم من علماء السُّنّة في هذه الآيات التي جاءت في الصفات المتشابهات: أمِرُّوها كما جاءت بلا كيف. والعرش في اللغة: هو السرير. وقيل: هو ما علا

العرب لا تعرف استوى بمعنى استولى وإنما يقال استولى فلان على كذا إذا لم يكن في ملكه ثم ملكه واستولى عليه والله تعالى لم يزل مالكاً للأشياء كلها ومستولياً عليها، فأي تخصيص للعرش هنا دون غيره من المخلوقات. ونقل البيهقي عن أبي الحسن الأشعري أن الله تعالى فعل في العرش فعلاً سماه استواء كما فعل في غيره فعلاً سماه رزقاً ونعمة وغيرهما من أفعاله ثم لم يكيف الاستواء إلا أنه جعله من صفات الفعل لقوله تعالى: ثم استوى على العرش. وثم للتراخي والتراخي إنما يكون في الأفعال وأفعال الله تعالى توجد بلا مباشرة منه إياها ولا حركة وحكى الأستاذ أبو بكر بن فورك عن بعض أصحابنا أنه قال: استوى بمعنى علا من العلو قال ولا يريد بذلك علواً بالمسافة والتحيز والكون في المكان متمكناً فيه ولكن يريد معنى نفي التحيز عنه وأنه ليس مما يحويه طبق أو يحيط به قطر ووصف الله تعالى بذلك طريقة الخبر. ولا يتعدى ما ورد به الخبر قال البيهقي رحمه الله تعالى وهو على هذه الطريقة من صفات الذات وكلمة ثم تعلقت بالمستوي عليه لا بالاستواء. قال وقد أشار أبو الحسن الأشعري إلى هذه الطريقة حكاية فقال بعض أصحابنا إنه صفة ذات قال وجوابي هو الأول وهو أن الله تعالى مستو على عرشه وأنه فوق الأشياء بائن منها بمعنى أن لا تحله ولا يحلها ولا يماسها ولا يشبهها وليست البينونة بالعزلة تعالى الله ربنا عن الحلول والمماسة علواً كبيراً وقد قال بعض أصحابنا: إن الاستواء صفة الله تعالى تنفي الاعوجاج عنه. وروي أن ابن الأعرابي جاءه رجل فقال يا أبا عبد الرحمن ما معنى قوله تعالى الرحمن على العرش استوى؟ قال: إنه مستو على عرشه كما أخبر فقال الرجل: إنما معنى قوله استوى أي استولى. فقال له ابن الأعرابي: ما يدريك أن العرب لا تقول استولى فلان على الشيء حتى يكون له فيه مضاد فأيهما غلب قيل لمن غلب قد استولى عليه والله تعالى لا مضاد له فهو على عرشه كما أخبر لا كما تظنه البشر والله أعلم. وقوله تعالى: ﴿**يغشي الليل والنهار**﴾ يعني أنه تعالى يأتي بالليل على النهار لدلالة الكلام عليه ﴿**يطلبه حثيثاً**﴾ يعني سريعاً، وذلك أنه إذا كان يعقب أحدهما الآخر ويخلفه فكأنه يطلبه، حكى الإمام فخر الدين الرازي عن القفال أنه قال: إن الله تعالى لما أخبر عباده باستوائه على العرش أخبر عن استمرار أمور المخلوقات على وفق مشيئته وأراهم ذلك فيما يشاهدونه منها لينضم العيان إلى الخبر وتزول الشبهة من كل الجهات. قال الإمام: واعلم أنه سبحانه وتعالى وصف هذه الحركة بالسرعة الشديدة وذلك لأن تعاقب الليل والنهار إنما يحصل بحركة الفلك الأعظم وتلك الحركة أشد الحركات سرعة فإن الإنسان إذا كان في أشد عدوه بمقدار رفع رجله ووضعها بتحرك الفلك الأعظم ثلاث آلاف ميل وهي ألف فرسخ فلهذا قال تعالى يطلبه حثيثاً لسرعة حركته ﴿**والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره**﴾ معنى التسخير التذليل وقال الزجاج وخلق هذه الأشياء جارية في مجاريها بأمره وقال المفسرون: يعني بتسخيرهن تذليلهن لما يراد منها من طلوع وغروب وسير ورجوع إذ ليس هي قادرات بأنفسهن وإنما هن يتصرفن في متصرفاتهن على إرادة المدبر لهن الحكيم في تدبيرهن وتصريفهن على ما أراد منهن والمراد بالأمر في قوله بأمره نفاذ إرادته لأن الغرض من هذه الآية تبيين عظمة قدرته ومنهم من حمل الأمر على الأمر الذي هو الكلام وقال إنه تعالى أمر هذه الأجرام بالسير الدائم والحركة المستمرة إلى انقضاء الدنيا وخراب هذا العالم.

فإن قلت: إن الشمس والقمر من النجوم فلم أفردهما بالذكر ثم عطف عليهما ذكر النجوم؟

فأظلّ، ومنه عرش الكروم. وقيل: العرشُ المُلْكُ. ﴿ **يُغْشِي اللَّيلَ النّهار** ﴾، قرأ حمزة والكسائي وأبو بكر ويعقوب (**يُغشّي**) بالتشديد هاهنا وفي سورة الرعد، والباقون بالتخفيف، أي: يأتي الليل على النهار فيغطيه، وفيه حذف أي: ويغشي النهار الليل، ولم يذكره لدلالة الكلام عليه وذكر في آية أخرى فقال: ﴿ **يُكوِّرُ اللَّيلَ على النّهار ويُكوِّرُ النّهارَ على الليل** ﴾ [الزمر: ٥]، ﴿ **يطلبُه حثيثاً** ﴾، أي: سريعاً، وذلك أنه إذا كان يعقب أحدهم الآخر ويخلفه، فكأنه يطلبه. ﴿ **والشّمسَ والقمرَ والنجومَ مسخّراتٍ** ﴾، قرأ ابن عامر كلها بالرفع على الابتداء والخبر، والباقون

قلت: إنما أفردهما بالذكر لبيان شرفهما على سائر الكواكب لما فيهما من الإشراق والنور وسيرهما في المنازل لتعرف الأوقات فهو كقوله: من كان عدواً لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فعطف جبريل وميكال على ذكر الملائكة وإن كانا من الملائكة لبيان شرفهما وفضلهما على غيرهما من الملائكة وقوله تعالى: ﴿ألا له الخلق والأمر﴾ يعني: له الخلق لأنه خلقهم وله أن يأمر فيهم بما أراد وله أن يحكم فيهم بما شاء وعلى هذا المعنى الأمر هنا الذي هو نقيض النهي، واستخرج سفيان بن عيينة من هذا المعنى أن كلام الله عز وجل ليس بمخلوق فقال: إن الله تعالى فرق بين الخلق والأمر فمن جمع بينهما فقد كفر يعني أن من جعل الأمر الذي هو كلامه تعالى من جملة ما خلقه فقد كفر لأن المخلوق لا يقوم بمخلوق مثله. وقيل: معناه أن جميع ما في العالم لله عز وجل والخلق له لأنه خلقهم وجميع الأمور تجري بقضائه وقدره فهو مجريها ومنشئها فلا يبقى بعد هذا لأحد شيء، وقيل: المراد بالأمر هنا الإرادة لأن الغرض من الآية تعظيم القدرة وفي الآية دليل على أنه لا خالق إلا الله عز وجل ففيه رد على من يقول إن للشمس والقمر والكواكب تأثيرات في هذا العالم، فأخبر الله أنه هو الخالق المدبر لهذا العالم لا الشمس والقمر والكواكب وله الأمر المطلق وليس لأحد أمر غيره فهو الآمر والناهي الذي يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد لا اعتراض لأحد من خلقه عليه ﴿تبارك الله﴾ يعني تمجد وتعظم وارتفع، وقال الزجاج: تبارك تفاعل من البركة ومعنى البركة الكثرة من كل خير وقيل معناه تعالى وتعظم الله ﴿رب العالمين﴾ يعني أنه هو الذي يستحق التعظيم وذلك أن الله تعالى لما افتتح هذه الآية بقوله: ﴿أن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض﴾ وذكر أشياء من عظيم خلقه وأن له الخلق والأمر والنهي والقدرة عليهم ختم الآية بالثناء عليه لأنه هو المستحق للمدح المطلق والثناء والتعظيم. وقال ابن عباس رضي الله عنهما. معناه جاء بكل بركة. وقيل: تبارك معناه تقدس والتقديس الطهارة. وقيل معناه باسمه يتبرك في كل شيء وقال المحققون: معنى هذه الصفة ثبت ودام كما لم يزل ولا يزال، وأصل البركة الثبوت ويقال تبارك الله ولا يقال متبارك ولا مبارك لأنه لم يرد به التوقيف. قوله عز وجل:

﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾

﴿ادعوا ربكم﴾ قيل معناه اعبدوا ربكم لأن معنى الدعاء طلب الخير من الله تعالى وهذه الصفة العبادة ولأنه تعالى عطف عليه قوله وادعوه خوفاً وطمعاً والمعطوف يجب أن يكون مغايراً للمعطوف عليه. وقيل: المراد به حقيقة الدعاء هو الصحيح لأن الدعاء هو السؤال والطلب وهو نوع من أنواع العبادة لأن الداعي لا يقدم على الدعاء إلا إذا عرف من نفسه الحاجة إلى ذلك المطلوب وهو عاجز عن تحصيله وعرف أن ربه تبارك وتعالى يسمع الدعاء ويعلم

بالنصب، وكذلك في سورة النحل عطفاً على قوله: ﴿خلقَ السمواتِ والأرضَ﴾، أي: خلق هذه الأشياء مسخّراتٍ، أي: مُذلّلاتٍ ﴿بأمره ألَا له الخلقُ والأمر﴾، له الخلق لأنه خلقهم وله الأمر يأمر في خلقه بما يشاء، قال سفيان بن عيينة: فرّق الله بين الخلق والأمر فمَن جمع بينهما فقد كفر. ﴿تبارك الله﴾، أي: تعالى الله وتعظّم. وقيل: ارتفع. والمبارك المرتفع. وقيل: تبارك تفاعل من البركة وهي النماء والزيادة، أي: البركةُ تُكتسبُ وتُنال بذكره. وعن ابن عباس قال: جاء بكل بركة. وقال الحسن: تجيء البركة من عنده. وقيل: تبارك تقدّس. والقدس الطهارة. وقيل: تبارك الله أي باسمه يُتبرّك في كل شيء. وقال المحقّقون: معنى هذه الصفة ثبت ودام بما لم يزل ولا يزال. وأصل البركة الثبوت. ويُقال: تبارك الله، ولا يقال: متبارك ولا مبارك، لأنه لم يرد به التوقيف. ﴿رَبُّ العالمين﴾.

﴿ادْعُوا ربَّكم تضرُّعاً﴾، تذلّلًا واستكانة، ﴿وخُفْيَةً﴾، أي سرّاً. قال الحسن: بينَ دعوةِ السرّ ودعوة

حاجته، وهو قادر على إيصالها إلى الداعي فعند ذلك يعرف العبد نفسه بالعجز والنقص ويعرف ربه بالقدرة والكمال وهو المراد من قوله تعالى: ﴿تضرعاً﴾ يعني ادعوا ربكم تذللاً واستكانة، وهو إظهار الذل في النفس والخشوع. يقال: ضرع فلان لفلان إذا أذل له وخشع. وقال الزجاج: تضرعاً يعني تملقاً وحقيقته أن ندعوه خاضعين خاشعين متعبدين بالدعاء له تعالى ﴿وخفية﴾ يعني سراً في أنفسكم وهو ضد العلانية والأدب في الدعاء أن يكون خفياً لهذه الآية قال الحسن بين دعوة السر ودعوة العلانية سبعون ضعفاً ولقد كان المسلمون يجتهدون في الدعاء ولا يسمع لهم صوت إن كان إلا همساً بينهم وبين ربهم وذلك أنه تعالى يقول ادعوا ربكم تضرعاً وخفية وأن الله تعالى ذكر عبداً صالحاً رضي فعله فقال تعالى: ﴿إذ نادى ربه نداء خفياً﴾ (ق) وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: كنا مع رسول الله ﷺ فجعل الناس يجهرون بالتكبير فقال رسول الله ﷺ «أيها الناس أربعوا على أنفسكم إنكم لا تدعون أصم ولا غائباً، إنكم تدعون سميعاً بصيراً وهو معكم والذي تدعونه أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته» قال أبو موسى رضي الله عنه وأنا خلفه أقول لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم في نفسي فقال: «يا عبد الله بن قيس ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة قلت بلى يا رسول الله قال: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم» قوله ﷺ «أربعوا على أنفسكم» يعني ارفقوا بها وأقصروا عن الصياح في الدعاء.

وقوله تعالى: ﴿إنه لا يحب المعتدين﴾ يعني في الدعاء، وقال أبو مجلز: هم الذين يسألون منازل الأنبياء. عن عبد الله بن مغفل أنه سمع ابنه يقول اللهم إني أسألك القصر الأبيض عن يمين الجنة إذا دخلتها قال أي بني سل الله الجنة وتعوذ به من النار فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول «سيكون في هذه الأمة قوم يعتدون في الطهور والدعاء» أخرجه أبو داود. وقال ابن جريج: الاعتداء رفع الصوت والنداء والصياح في الدعاء. وقيل: الاعتداء مجاوزة الحد في كل شيء فكل من خالف أمر الله ونهيه فقد اعتدى ودخل تحت قوله تعالى: ﴿إنه لا يحب المعتدين﴾ وفرع بعض أرباب الطريقة على قوله تعالى: ﴿ادعوا ربكم تضرعاً وخفية﴾ هل الأفضل إظهار العبادات أم لا فذهب بعضهم إلى أن إخفاء الطاعات والعبادات أفضل من إظهارها لهذه الآية ولكونها أبعد عن الرياء وذهب بعضهم إلى أن إظهارها أفضل ليقتدي به الغير فيعمل مثل عمله وتوسط الشيخ محمد بن عبد الحكيم الترمذي فقال: إن كان خائفاً على نفسه من الرياء، فالأولى إخفاء العبادات صوناً لعمله عن البطلان وإن كان قد بلغ في الصفاء وقوة اليقين إلى التمكين بحيث صار مبايناً شائبة الرياء كأن الأولى في حقه الإظهار لتحصل فائدة الاقتداء به؛ وذهب بعضهم إلى أن إظهار العبادات المفروضات أفضل من إخفائها فالصلاة المكتوبة في المسجد أفضل من صلاته في بيته وصلاة النفل في البيت أفضل من صلاته في المسجد وكذا إظهار الزكاة أفضل من إخفائها وإخفاء صدقة التطوع أفضل من إظهارها ويقاس على هذا

العلانية سبعون ضعفاً، ولقد كان المسلمون يَجْتهدون في الدعاء وما يُسمع لهم صوت، إنْ كان إلّا همساً بينهم وبين ربِّهم، ذلك أن الله سبحانه يقول: ﴿ ادْعُوا ربَّكم تضرّعاً وخُفْيةً ﴾، وإنّ الله ذكَرَ عبداً صالحاً ورضيَ فعله فقال: ﴿ إذْ نادَى ربه نداءً خَفِيّاً ﴾ [مريم: ٣]. ﴿ إنّه لا يُحبُّ المعتدين ﴾، قيل: المعتدين في الدعاء. وقال أبو مجلز: هم الذين يسألون منازل الأنبياء عليهم السلام. أخبرنا عمر بن عبد العزيز الفاشاني أنبأنا القاسم بن جعفر الهاشمي أنبأنا أبو علي محمد بن أحمد اللؤلؤي ثنا أبو داود السجستاني حدّثنا موسى بن إسماعيل حدّثنا حمّاد يعني ابن سلمة أنبأنا سعيد الجريري عن أبي نعامة أن عبد الله بن مغفل سمع ابنه يقول: اللّهمّ إنّي أسألك القصر الأبيض عن يمين الجنة إذا دخلتها. فقال: يا بني سلِ اللّهَ الجنة وتعوّذْ به من النار، فإنّي سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «إنّه سيكون في هذه الأمة قوم يعتدون في الطّهور والدّعاء». وقيل: أراد به الاعتداء بالجهر، قال ابن جريج: من الاعتداء رفع الصوت والنداء بالدعاء والصياح. روينا عن أبي موسى قال: لمّا غزا رسول الله ﷺ خيبر أشرفَ الناسُ

سائر العبادات قوله تعالى: ﴿**ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها**﴾ يعني ولا تفسدوا أيها الناس في الأرض بالمعاصي والكفر والدعاء إلى غير طاعة الله بعد إصلاح الله إياها ببعثة الرسل وبيان الشرائع والدعاء إلى طاعة الله تعالى، وهذا معنى قول الحسن والسدي والضحاك والكلبي. قال ابن عطية: لا تعصوا في الأرض فيمسك الله المطر ويهلك الحرث بسبب معاصيكم فعلى هذا يكون معنى قوله بعد إصلاحها يعني بعد إصلاح الله إياها بالمطر والخصب. وقيل معنى الآية: ولا تفسدوا في الأرض شيئاً بعد أن أصلحه الله تعالى فيدخل فيه المنع من إتلاف النفس بالقتل أو إفسادها بقطع بعض الأعضاء وإفساد الأموال بالغصب والسرقة وأخذه من الغير بوجوه الحيل وإفساد الأديان بالكفر واعتقاد البدع والأهواء المضلة وإفساد الأنساب بالإقدام على الزنى وإفساد العقول بسبب شرب المسكر وذلك لأن المصالح المعتبرة في الدنيا هي هذه الخمسة فمنع الله من إدخال الفساد في ماهيتها.

وقوله تعالى: ﴿**وادعوه خوفاً وطمعاً**﴾أصل الخوف انزعاج في الباطن لما لا يؤمن من المضار وقيل هو توقع مكروه يحصل فيما بعد والطمع توقع محبوب يحصل له والمعنى وادعوه خوفاً منه ومن عقابه وطمعاً فيما عنده من جزيل ثوابه. وقال ابن جريج: العدل معناه خوف والطمع الفضل. وقيل معناه ادعوه خوفاً من الرياء في الذكر والدعاء طمعاً في الإجابة.

فإن قلت قال في أول الآية ادعوا ربكم تضرعاً وخفية وقال هنا وادعوه وهذا هو عطف الشيء على نفسه فما فائدة ذلك؟ قلت: الفائدة فيه أن المراد بقوله تعالى ادعوا ربكم أي ليكن الدعاء مقروناً بالتضرع والإخبات وقوله وادعوه خوفاً وطمعاً أن فائدة الدعاء أحد هذين الأمرين فكانت الآية الأولى في بيان شرط صحة الدعاء والآية الثانية في بيان فائدة الدعاء وقيل معناه كونوا جامعين في أنفسكم من بين الخوف والرجاء في أعمالكم كلها ولا تطمعوا أنكم وفيتم حق الله في العبادة والدعاء وإن اجتهدتم فيهما ﴿**إن رحمة الله**﴾ أصل الرحمة رقة تقتضي الإحسان إلى المرحوم وتستعمل تارة في الرقة المجردة عن الإحسان وتارة في الإحسان المجرد عن الرقة وإذا وصف بها الباري جل وعز فليس يراد بها إلا الإحسان المجرد دون الرقة فرحمة الله عز وجل عبارة عن الإفضال والإنعام على عباده وإيصال الخير إليهم. وقيل: هي إرادة إيصال الخير والنعمة إلى عباده فعلى القول الأول تكون الرحمة من صفات الأفعال وعلى القول الثاني تكون من صفات الذات ﴿**قريب من المحسنين**﴾ قال سعيد بن جبير: الرحمة ههنا الثواب فرجع النعت إلى المعنى دون اللفظ. وقيل إن تأنيث الرحمة ليس بحقيقي وما كان كذلك جاز فيه التذكير والتأنيث عند أهل اللغة

على وادٍ فرفعوا أصواتهم بالتكبير، فقال رسول الله ﷺ: «أَرْبِعُوا على أنفسِكم إنّكم لا تدعُون أصمَّ ولا غائباً، إنّكم تدعون سميعاً قريباً». وقال عطية: هم الذين يدعون على المؤمنين فيما لا يحلّ، فيقولون: اللّهمّ اخزهم اللّهمّ العنهم.

﴿ **ولا تُفسدُوا في الأرض بعد إصْلاَحِها** ﴾، أي لا تفسدوا فيها بالمعاصي والدعاء إلى غير طاعة الله بعد إصلاح الله إيّاها ببعث الرسل وبيان الشريعة. والدعاء إلى طاعة الله، وهذا معنى قول الحسن والسدي والضحاك والكلبي. وقال عطية: لا تعصوا في الأرض فيُمسك الله المطر ويُهلك الحرث بمعاصيكم. فعلى هذا معنى قوله: ﴿ **بعد إصلاحها** ﴾ أي: بعد إصلاح الله إيّاها بالمطر والخصب. ﴿ **وادْعُوهُ خَوْفاً وطَمَعاً** ﴾، أي: خوفاً منه ومن عذابه وطمعاً فيما عنده من مغفرته وثوابه. وقال ابن جريج: خوف العدل وطمع الفضل. ﴿ **إنّ رحمةَ اللّهِ قريبٌ مِّنَ المحسنين** ﴾، ولم يقل قريبة، قال سعيد بن جبير: الرحمة ههنا للثواب فرجع النعت إلى المعنى دون اللفظ كقوله: ﴿ وإذا حضرَ القسمةَ أُولُوا القربَى واليتامَى والمساكين فارْزُقُوهم منه ﴾ [النساء: ٨]، ولم يقل منها لأنه أراد الميراث والمال. وقال الخليل بن أحمد: القريب والبعيد يستوي فيهما المذكّر والمؤنث والواحد والجمع. قال أبو

وكون الرحمة قريبة من المحسنين لأن الإنسان في كل ساعة من الساعات في إدبار عن الدنيا وإقبال على الآخرة وإذا كان كذلك كان الموت أقرب إليه من الحياة وليس بينه وبين رحمة الله التي هي الثواب في الآخرة إلا الموت وهو قريب من الإنسان.

﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿وهو الذي يرسل الرياح﴾ هذا عطف على ما قبله. والمعنى أن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض وهو الذي يرسل الرياح ﴿بشراً﴾ قرىء نشراً بالنون أراد جمع نشور وهي الريح الطيبة الهبوب التي تهب من كل ناحية، وقيل: هو جمع ناشر يقال أنشر الله الريح بمعنى أحياها. وقال الفراء: النشر الريح الطيبة اللينة التي تنشىء السحاب. وقال ابن الأنباري: النشر المنتشرة الواسعة الهبوب. وقيل: النشر خلاف الطيّ فيحتمل أنها كانت بانقطاعها كالمطوية فانتشرت بمعنى أرسلت. وقرىء بشراً بالباء جمع بشيرة وهي التي تبشر بالمطر والريح هو الهواء المتحرك يمنة ويسرة والرياح أربعة الصبا وهي الشرقية والدبور وهي الغربية والشمال وهي التي تهب من تحت القطب الشمالي والجنوب وهي القبلية. وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن الرياح ثمان: أربع منها عذاب وهي القاصف والعاصف والصرصر والعقيم وأربع منها رحمة وهي الناشرات والمبشرات والمرسلات والذاريات ﴿بين يدي رحمته﴾ يعني أمام المطر الذي هو رحمته وإنما سماه رحمة لأنه سبب لحياة الأرض الميتة. قال أبو بكر بن الأنباري رحمه الله تعالى: اليدان تستعملهما العرب في المجاز على معنى التقدمة تقول هذه تكون في الفتن بين يدي الساعة يريدون قبل أن تقوم الساعة تشبيهاً وتمثيلاً بما إذا كانت يد الإنسان تتقدمانه كذلك الرياح تتقدم المطر وتؤذن به. عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أخذت الناس ريح بطريق مكة وعمر حاج فاشتدت فقال عمر لمن حوله ما بلغكم في الريح فلم يرجعوا إليه شيئاً وبلغني الذي سأل عمر عنه من أمر الريح فاستحثثت راحلتي حتى أدركت عمر وكنت في مؤخر الناس فقلت: يا أمير المؤمنين أخبرت أنك سألت عن الريح فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول «الريح من روح الله تعالى تأتي بالرحمة وتأتي بالعذاب فإذا رأيتموها فلا تسبوها واسألوا الله من خيرها واستعيذوا بالله من شرها» رواه الشافعي رضي الله عنه بطوله وأخرجه أبو داود في المسند عنه. وقال كعب الأحبار: لو حبس الله الريح عن عباده ثلاثة أيام لأنتن أكثر أهل الأرض وقوله تعالى: ﴿حتى إذا أقلّت سحاباً ثقالاً﴾ يقال أقل فلان الشيء إذا حمله واشتقاق الإقلال من القلة فإن من يرفع شيئاً يراه قليلاً والسحاب جمع سحابة وهو الغيم فيه ماء أو لم يكن فيه ماء سمي سحاباً لانسحابه في الهواء.

والمعنى: حتى إذا حملت هذه الرياح سحاباً ثقالاً بما فيه من الماء قال السدي: إن الله تبارك وتعالى يرسل الرياح فتأتي بالسحاب من بين الخافقين وهما طرفا السماء والأرض حيث يلقيان فتخرجه من ثم، ثم تنشره فتبسطه في

عمرو بن العلاء: القريب في اللغة يكون بمعنى القرب وبمعنى المسافة، تقول العرب: هذه امرأة قريبة منك إذا كانت بمعنى القرابة، وقريب منك إذا كانت بمعنى المسافة.

قوله تعالى: ﴿ وهو الذي يُرسلُ الرياحَ بشراً ﴾، قرأ عاصم بالباء وضمّها وسكون الشين هاهنا وفي الفرقان [٤٨] وسورة النمل [٦٣]، يعني: أنها تبشّر بالمطر بدليل قوله تعالى: ﴿ الرياح مبشّرات ﴾ [الروم: ٤٦]، وقرأ حمزة والكسائي «نشراً» بالنون وفتحها، وهي الريح الطيبة اللينة، قال الله تعالى: ﴿ والناشرات نشراً ﴾ [المرسلات: ٣] وقرأ ابن عامر بضمّ النون وسكون الشين، وقرأ الآخرون بضم النون

السماء كيف يشاء ثم تفتح له أبواب السماء فيسيل الماء على السحاب ثم يمطر السحاب بعد ذلك. وقيل إن الله تعالى دبر بحكمته أن الرياح تتحرك تحريكاً شديداً فتثير السحاب ثم ينضم بعضه إلى بعض فيتراكم وينعقد ويحمل الماء ثم تسوقه إلى حيث يشاء الله عز وجل وهو قوله تعالى: ﴿سقناه لبلد ميت﴾ يعني إلى بلد فتكون اللام بمعنى إلى. وقيل: معناه لأجل حياة بلد ميت وإنما قال سقنا، لأن لفظ السحاب مذكر وإن كان جمع سحابة فكان ورود الكناية عنه على سبيل التذكير جائزاً نظراً إلى اللفظ. قال الأزهري رحمه الله تعالى: قال الليث البلد كل موضع من الأرض عامراً أو غير عامر خال أو مسكون والطائفة منها بلدة والجمع بلاد. زاد غيره والمفازة تسمى بلدة، لكونها مسكن الوحش والجن. قال الأعشى:

وبلـدة مثـل ظهـر التـرس مـوحشـة للجـن بـالليـل فـي حـافـاتهـا زجـل

ومعنى الآية: إنا سقنا السحاب إلى بلد ميت محتاج لإنزال الماء لم ينزل فيه غيث ولم تنبت فيه خضرة ﴿فأنزلنا به الماء﴾ اختلفوا في الضمير في قوله تعالى به إلى ماذا يعود؟ فقال الزجاج رحمه الله وابن الأنباري جائز أن يكون المعنى فأنزلنا بالبلد الميت الماء وجائز أن يكون المعنى وأنزلنا بالسحاب الماء لأن السحاب آلة لنزول الماء ﴿فأخرجنا به﴾ يعني بذلك الماء لأن إنزال الماء كان سبباً لإخراج الثمرات، وقيل: يحتمل أن يكون المعنى فأخرجنا بذلك الماء ﴿من كل الثمرات﴾ يعني وأخرجنا بذلك البلد بعد موته وجد به من أصناف الثمار والزروع ﴿كذلك نخرج الموتى﴾ يعني كما أحيينا البلد الميت كذلك نخرج الموتى أحياء من قبورهم بعد فنائهم ودروس آثارهم واختلفوا في وجه التشبيه، فقيل: إن الله تعالى كما يخلق النبات بواسطة إنزال المطر كذلك يحيي الموتى بواسطة إنزال المطر أيضاً. قال أبو هريرة وابن عباس رضي الله عنهما: إن الناس إذا ماتوا في النفخة الأولى أمطر الله تعالى عليهم ماء من تحت العرش يدعى ماء الحيوان أربعين سنة فينبتون كما ينبت الزرع من الماء. وفي رواية: أربعين يوماً فينبتون في قبورهم نبات الزرع حتى إذا استكملت أجسادهم نفخ فيهم الروح ثم يلقى عليهم النوم فينامون في قبورهم فإذا نفخ في الصور النفخة الثانية عاشوا ثم يحشرون من قبورهم وهم يجدون طعم النوم في رؤوسهم وأعينهم كما يجد النائم حين يستيقظ من نومه فعند ذلك يقولون: يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا فيناديهم المنادي: هذا ما وعد الرحمن وصدق

والشين، جمع نشور، مثل صبور وصبر ورسول ورسل، أي: متفرقة وهي الرياح التي تهبّ من كل ناحية. ﴿ بينَ يدي رحمتِهِ ﴾، أي: قدّام المطر. أخبرنا عبد الوهاب بن محمد الخطيب أنبأنا عبد العزيز بن أحمد الخلال أنبأنا أبو العباس الأصم أنبأنا الربيع أنبأنا الشافعي أنبأنا الثقة عن الزهري عن ثابت بن قيس عن أبي هريرة قال: أخذتِ الناسَ ريحٌ بطريق مكة وعمر حاجّ فاشتدّتْ، فقال عمر رضي الله عنه لمَن حوله: ما بلغكم في الريح فلم يرجعوا إليه شيئاً، فبلغني الذي سأل عمر عنه من أمر الريح فاستحثثت راحلتي حتى أدركتُ عمرَ وكنتُ في مؤخر الناس، فقلت: يا أمير المؤمنين أُخبرت أنك سألتَ عن الريح وإنّي سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الريح تأتي من روح الله تأتي بالرحمة وبالعذاب فلا تسبّوها وسَلُوا الله من خيرها وتعوّذوا به من شرّها»، ورواه عبد الرزّاق عن معمر عن الزهري بإسناده. ﴿ حتى إذا أقلّتْ ﴾، حملت الرياح، ﴿ سحاباً ثِقالاً ﴾، بالمطر، ﴿ سقناه ﴾، وردّ الكناية إلى السحاب، ﴿ لبلدٍ ميّتٍ ﴾، أي: إلى بلد ميت محتاج إلى الماء. وقيل: معناه لإحياء بلد ميّتٍ لا نباتَ فيه ﴿ فأنزلْنَا بهِ ﴾، أي: بالسحاب. وقيل: بذلك البلد، ﴿ الماءَ ﴾، يعني: من المطر، ﴿ فأخرجْنَا بهِ من كلِّ الثّمراتِ كذلكَ نُخرِجُ الموتَى ﴾، استدلّ بإحياء الأرض بعد موتها على إحياء الموتى، ﴿ لعلّكم تذكّرُون ﴾، قال أبو هريرة وابن عباس: إذا مات الناس كلهم في النفخة الأولى أرسل الله عليهم مطراً كمنيّ الرجال من ماء تحت العرش يُدعى ماء الحيوان، فينبتون في قبورهم نبات الزرع حتى إذا استكملت أجسادهم نفخ فيهم الروح، ثم يُلقي عليهم النوم

المرسلون: قال مجاهد: إذا أراد الله تعالى أن يخرج الموتى أمطر السماء حتى تنشق الأرض ثم يرسل الأرواح فتعود كل روح إلى جسدها فكذلك يحيي الله الموتى بالمطر كإحيائه الأرض به وقيل إنما وقع التشبيه بأصل الإحياء والمعنى أنه تعالى كما أحيا هذا البلد الميت بعد خرابه وموته فأنبت فيه الزرع والشجر وجعل فيه الثمر كذلك يحيي الموتى ويخرجهم من قبورهم أحياء بعد أن كانوا أمواتاً ورمماً بالية لأن من قدر على إخراج الثمر الرطب من الخشب اليابس قادر على أن يحييهم ويخرجهم من قبورهم إلى حشرهم ونشرهم ﴿لعلكم تذكرون﴾ الخطاب لمنكري البعث، يقول: إنكم شاهدتم الأشجار وهي مزهرة مورقة مثمرة في أيام الربيع والصيف ثم إنكم شاهدتموها يابسة عارية من تلك الأزهار والأوراق والثمار ثم إن الله تعالى أحياها مرة أخرى فالقادر على إحيائها بعد موتها قادر على إحياء الأجساد بعد موتها. والمعنى: إنما وصفت ما وصفت من التشبيه والتمثيل لكي تعتبروا وتتذكروا وتعلموا أن من فعل ذلك كان هو الذي يعيد ويحيي.

قوله تعالى: ﴿والبلد الطيب﴾ يعني والأرض الطيبة التربة السهلة السمحة ﴿يخرج نباته بإذن ربه﴾ يعني إذا أصابه المطر أخرج نباته بإذن الله عز وجل: ﴿والذي خبث لا يخرج﴾ يعني والبلد الذي خبث أرضه فهي سبخة لا يخرج يعني لا يخرج نباته ﴿إلا نكداً﴾ يعني عسراً بمشقة وكلفة قال الشاعر في المعنى يذم إنساناً:

لا تنجز الوعد إن وعدت وإن أعطيت أعطيت تافهاً نكدا

يعني بالتافه القليل وبالنكد العسير ومعناه: إنك إن أعطيت أعطيت القليل بعسر ومشقة. قال المفسرون: هذا مثل ضربه الله تعالى للمؤمن والكافر فشبه المؤمن بالأرض الحرة الطيبة وشبه نزول القرآن على قلب المؤمن بنزول المطر على الأرض الطيبة فإذا نزل المطر عليها أخرجت أنواع الأزهار والثمار وكذلك المؤمن إذ سمع القرآن آمن به وانتفع به وظهرت منه الطاعات والعبادات وأنواع الأخلاق الحميدة وشبه الكافر بالأرض الرديئة الغليظة السبخة التي لا ينتفع بها وإن أصابها المطر فكذلك الكافر إذا سمع القرآن لا ينتفع به ولا يصدقه ولا يزيده إلا عتواً وكفراً وإن عمل الكافر حسنة في الدنيا كانت بمشقة وكلفة ولا ينتفع بها في الآخرة. قال ابن عباس رضي الله عنهما: هذا مثل ضربه الله تعالى للمؤمن يقول هو طيب وعمله طيب كما أن البلد الطيب ثمره طيب ثم ضرب مثل الكافر كالبلدة السبخة المالحة التي خرجت منها البركة فالكافر خبيث وعمله خبيث. وقال مجاهد: هذا مثل ضربه الله تعالى لآدم وذريته كلهم منهم خبيث وطيب ويدل على صحة هذا التأويل ما روي عن أبي موسى الأشعري رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ «إن مثل ما بعثني الله تعالى به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضاً فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله تعالى بها الناس فشربوا منها وسقوا وزرعوا وأصاب

فينامون في قبورهم، ثم يُحشرون بالنفخة الثانية وهم يجدون طعم النوم في رؤوسهم وأعينهم، فعند ذلك يقولون: ﴿ياويلنا مَن بعثنا من مرقدنا﴾ [يٓس: ٥٢].

قوله تعالى: ﴿والبلدُ الطيّبُ يَخرجُ نباتُه بإذنِ ربِّه﴾، هذا مثل ضربه الله للمؤمنين والكافرين، فمثل المؤمن مثل البلد الطيب يصيبه المطر فيخرج نباته بإذن ربه، ﴿والذي خَبُثَ﴾، يريد الأرض السبخة التي، ﴿لا يخرجُ﴾، نباتُها، ﴿إلاّ نَكِداً﴾، قرأ أبو جعفر بفتح الكاف، وقرأ الآخرون بكسرها، أي: عسراً قليلاً بعناء ومشقّة. فالأول مثل المؤمن الذي إذا سمع القرآن وعاه وعقله وانتفع به، والثاني مثل الكافر الذي يسمع القرآن فلا يؤثّر فيه، كالبلد الخبيث الذي لا يتبيّن أثر المطر فيه ﴿كذلك نُصرِّفُ الآياتِ﴾ نبيّنها، ﴿لقوم يشكرون﴾، أخبرنا عبد الواحد المليحي أنبأنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنبأنا محمد بن يوسف حدّثنا محمد بن إسماعيل حدّثنا

طائفة منها أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبته كلأ فذلك مثل من فقه في دين الله عز وجل ونفعه ما بعثني الله تعالى به فعلم وعلم ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله تعالى الذي أرسلت به» أخرجاه في الصحيحين.

وقوله تعالى: ﴿كذلك نصرف الآيات لقوم يشكرون﴾ يعني كما ضربنا هذا المثل كذلك نبين الآيات الدالة على التوحيد والإيمان آية بعد آية وحجة بعد حجة لقوم يشكرون الله تعالى على إنعامه عليهم بالهداية وحيث جنّبهم سبيل الضلالة وإنما خص الشاكرين بالذكر لأنهم هم الذين انتفعوا لسماع القرآن.

لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾

قوله عز وجل: ﴿لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه﴾اعلم أن الله تبارك وتعالى لما ذكر في الآيات المتقدمة دلائل آثار قدرته وغرائب خلقه وصنعته الدالة على توحيده وربوبيته وأقام الدلالة القاطعة على صحة البعث بعد الموت أتبع ذلك بقصص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ما جرى لهم مع أممهم وفي ذلك تسلية للنبي ﷺ لأنه لم يكن إعراض قومه فقط عن قبول الحق بل قد أعرض عنه سائر الأمم الخالية والقرون الماضية وفيه تنبيه على أن عاقبة أولئك الذين كذبوا الرسل كانت إلى الخسار والهلاك في الدنيا وفي الآخرة إلى العذاب العظيم فمن كذب بمحمد ﷺ من قومه كانت عاقبته مثل أولئك الذين خلوا من قبله من الأمم المكذبة وفي ذكر هذه القصص دليل على صحة نبوة محمد ﷺ لأنه كان أمّياً لا يقرأ ولا يكتب ولم يلق أحداً من علماء زمانه فلما أتى بمثل هذه القصص والأخبار عن القرون الماضية والأمم الخالية مما لم ينكره عليه أحد علم بذلك أنه إنما أتى به من عند الله عز وجل وإنه أوحى إليه ذلك فكان دليلاً واضحاً وبرهاناً قاطعاً على صحة نبوته ﷺ وقوله تعالى: ﴿لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه﴾ لقد أرسلنا نوحاً جواب قسم محذوف تقديره والله لقد أرسلنا نوحاً وهو نوح بن لمك بن متوشلخ بن أخنوخ وهو إدريس عليه الصلاة والسلام ويعني أرسلنا بعثنا وهو أول نبي بعثه الله تعالى بعد إدريس وكان نوح عليه الصلاة والسلام نجاراً. وقيل: معنى الإرسال أن الله تعالى حمله رسالة ليؤديها إلى قومه فعلى هذا التقدير فالرسالة تكون متضمنة للبعث أيضاً ويكون البعث كالتابع لا أنه أصل، قال ابن عباس رضي الله عنهما: بعثه الله وهو ابن أربعين سنة وقيل وهو ابن خمسين سنة وقيل وهو ابن مائتين وخمسين سنة وقيل هو ابن مائة سنة، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: سمي نوحاً لكثرة نوحه على نفسه واختلفوا في سبب نوحه فقيل: لدعوته على قومه بالهلاك وقيل: لمراجعته ربه في شأن ابنه كنان وقيل: لأنه

محمد بن العلاء حدّثنا حمّاد بن أسامة عن يزيد بن عبد الله عن أبي بردة عن أبي موسى عن النبي ﷺ قال: «مثلُ ما بعثني اللَّهُ بِهِ مِنَ الهُدَى والعلمِ كمثلِ الغيثِ الكثيرِ أصابَ أرضاً فكانت منها طائفةٌ طيبةٌ قبلتِ الماءَ فأنبتت الكلأَ والعُشبَ والكثير، وكانتْ منها أجادبُ أمسكتِ الماءَ فنفع اللَّهُ بها الناسَ فشربُوا وسَقَوْا وزرعُوا، وأصاب منها طائفةً أخرى إنّما هي قيعانٍ لا تُمسك ماءً ولا تُنبتُ كلأً، فذلك مثلُ مَن فَقُهَ في دينِ الله ونفعه ما بعثني اللَّهُ بِهِ فَعَلِمَ وعلَّمَ، ومثلُ مَنْ لم يرفعْ بذلك رأساً ولم يقبلْ هُدى الله الذي أُرسلتُ به».

قوله تعالى: ﴿ لقدْ أرسلنا نوحاً إلى قومِهِ ﴾، وهو نوح بن لمك بن متوشلخ بن أخنوخ وهو إدريس، وهو أول نبي بعثه الله بعد إدريس، وكان نجاراً بعثه الله إلى قومه وهو ابن خمسين سنة. وقال ابن عباس: ابن أربعين سنة. وقيل: بُعث وهو ابن مائتين وخمسين سنة. وقال مقاتل: ابن مائة سنة. وقال ابن عباس: سُمّي نوحاً لكثرة ما ناح

مر بكلب مجذوم فقال له: اخسأ يا قبيح فأوحى الله تعالى إليه أعبتني أم عبت الكلب؟ ﴿فقال﴾ يعني نوحاً لقومه ﴿يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره﴾ يعني اعبدوا الله تعالى فإنه هو الذي يستحق العبادة لا غيره فإنه ليس لكم إله معبود سواه فإنه هو الذي يستوجب أن يعبد ﴿إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم﴾ يعني إن لم تقبلوا ما آمركم به من عبادة الله تعالى واتباع أمره وطاعته واليوم الذي خافه عليهم وهو إما يوم الطوفان وإهلاكهم فيه أو يوم القيامة وإنما قال أخاف على الشك وإن كان على يقين من حلول العذاب بهم إن لم يؤمنوا به لأنه لم يعلم وقت نزول العذاب بهم أيعاجلهم أم يتأخر عنهم العذاب إلى يوم القيامة ﴿قال الملأ﴾ وهم الجماعة الأشراف ﴿من قومه إنا لنراك﴾ يعني يا نوح ﴿في ضلال مبين﴾ يعني في خطأ وزوال عن الحق بين ﴿قال﴾ يعني نوحاً ﴿يا قوم ليس بي ضلالة﴾ يعني ما بي ما تظنون من الضلال ﴿ولكني رسول من رب العالمين﴾ يعني: هو أرسلني إليكم لأنذركم وأخوفكم إن لم تؤمنوا به وهو قوله ﴿أبلغكم رسالات ربي﴾ يعني بتحذيري إياكم عقوبة على كفركم إن لم تؤمنوا به ﴿وأنصح لكم﴾ يقال نصحته ونصحت له كما يقال شكرته وشكرت له والنصح إرادة الخير لغيره كما يريده لنفسه وقيل النصح تحري قول أو فعل فيه صلاح للغير وقيل حقيقة النصح تعريف وجه المصلحة مع خلوص النية من شوائب المكروه والمعنى أنه قال أبلغكم جميع تكاليف الله وشرائعه وأرشدكم إلى الوجه الأصلح والأصوب لكم وأدعوكم إلى ما دعاني إليه وأحب لكم ما أحب لنفسي قال بعضهم والفرق بين إبلاغ الرسالة وبين النصيحة هو أن تبليغ الرسالة أن يعرفهم جميع أوامر الله تعالى ونواهيه وجميع أنواع التكاليف التي أوجبها الله تعالى عليهم.

وأما النصيحة فهو أن يرغّبهم في قبول تلك الأوامر والنواهي والعبادات ويحذرهم عقابه إن عصوه ﴿وأعلم من الله ما لا تعلمون﴾ يعني أعلم أنكم إن عصيتم أمره عاقبكم بالطوفان والغرق في الدنيا ويعذبكم في الآخرة عذاباً عظيماً وقيل أعلم أن مغفرة الله تعالى لمن تاب وعقوبته لمن أصر على الكفر وقيل: لعل الله تعالى أطلعه على سر من أسراره فقال وأعلم من الله ما لا تعلمون.

على نفسه. واختلفوا في سبب نوحه فقال بعضهم: لدعوته على قومه بالهلاك. وقيل: لمراجعته ربَّه في شأن ابنه كنعان. وقيل: لأنه مرّ بكلب مجذوم، فقال: اخسأ يا قبيح فأوحى الله تعالى إليه أعبتني أم عبت الكلب؟ ﴿ فقال ﴾، لقومه، ﴿ يا قوم اعبدُوا اللَّهَ ما لكمْ من إلَهٍ غيرُه ﴾، قرأ أبو جعفر والكسائي «من إلَـه غيره» بكسر الراء حيث كان على نعت الإِلَه، وافق حمزة في سورة فاطر: ﴿ هل منْ خالقٍ غير الله ﴾ [فاطر: ٣]، وقرأ الآخرون برفع الراء على التقديم، تقديره: ما لكم غيره من إلَه، ﴿ إنّي أخافُ عليكم ﴾، إن لم تؤمنوا، ﴿ عذابَ يومٍ عظيم ﴾.

﴿ قالَ الملأُ من قومِه إنّا لَنراكَ في ضَلَالٍ ﴾ خطأ وزوال عن الحق، ﴿ مُّبين ﴾، بيّن.

﴿ قال ﴾، نوح، ﴿ يا قوم ليسَ بي ضَلَالَة ﴾، ولم يقل ليست، لأن معنى الضلالة الضلال أو على تقديم الفعل، ﴿ ولكنّي رسولٌ من ربِّ العالمين ﴾.

﴿ أبلِّغُكُم ﴾، قرأ أبو عمرو: (أبلغـكم) بالتخفيف حيث كان من الإبلاغ. لقوله: ﴿ لقدْ أبلغتُكم ﴾ [الأعراف: ٧٩ ـ ٩٣]، ﴿ رسالاتِ ربّي ﴾، ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم، وقرأ الآخرون بالتشديد من التبليغ، لقوله تعالى: ﴿ بلّغْ ما أُنزل إليك ﴾ [المائدة: ٦٧]، رسالات ربّي، ﴿ وأنصحُ لكم ﴾، يقال نصحته ونصحت له. والنصح أن يريد لغيره من الخير ما يريد لنفسه، ﴿ وأعلمُ منَ اللَّهِ مَا لَا تعلمُون ﴾، أن عذابه لا يُردّ عن القوم المجرمين.

أَوَ عَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَـٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾ ۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَـٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَـٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾

﴿أوعجبتم﴾ الألف ألف استفهام والواو للعطف والمعطوف عليه محذوف وهذا الاستفهام استفهام إنكار معناه أكذبتم وعجبتم ﴿أن جاءكم ذكر من ربكم﴾ يعني وحياً من ربكم ﴿على رجل منكم﴾ تعرفونه وتعرفون نسبه وذلك لأن كونه منهم يزيل التعجب، وقيل: المراد بالذكر الكتاب الذي أنزله الله تعالى على نوح عليه الصلاة والسلام سماه ذكراً كما سمي القرآن ذكراً. وقيل: المراد بالذكر المعجزة التي جاء بها نوح عليه السلام فعلى هذا تكون على بمعنى مع أي مع رجل منكم. قال الفراء على هنا بمعنى مع ﴿لينذركم﴾ يعني جاءكم لأجل أن ينذركم ﴿ولتتقوا﴾ أي ولأجل أن تتقوا ﴿ولعلكم ترحمون﴾ لأن المقصود من إرسال الرسل الإنذار والمقصود من الإنذار التقوى عن كل ما لا ينبغي والمقصود بالتقوى الفوز بالرحمة في الدار الآخرة ﴿فكذبوه﴾ يعني فكذبوا نوحاً ﴿فأنجيناه﴾ يعني من الطوفان والغرق ﴿والذين معه﴾ يعني من آمن من قومه معه ﴿في الفلك﴾ يعني في السفينة ﴿وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا إنهم كانوا قوماً عمين﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: ما عميت قلوبهم عن معرفة الله تعالى، قال الزجاج: عموا عن الحق والإيمان. يقال رجل عم في البصيرة وأعمى في البصر وأنشدوا قول زهير:

وأعلم ما في اليوم والأمس قبله ... ولكنني عن علم ما في غدٍ عم

قال مقاتل: عموا عن نزول العذاب بهم وهو الفرق.

قوله تعالى: ﴿وإلى عاد أخاهم هوداً﴾ أي وأرسلنا إلى عاد وهو عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح وهي عاد الأولى أخاهم هوداً يعني أخاهم في النسب لا في الدين وهو هود بن عبد الله بن رباح بن الخلود بن عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح. وقال ابن إسحاق: هو هود بن شالخ بن أرفخشد بن سام بن نوح واتفقوا على أن هوداً عليه الصلاة والسلام لم يكن أخاهم في الدين ثم اختلفوا في سبب الأخوّة من أين حصلت فقيل إنه كان واحداً من القبيلة فيتوجه قوله أخاهم لأنه واحد منهم وقيل إنه لم يكن من القبيلة ثم ذكروا في تفسير هذه الإخوة وجهين:

الأول: قال الزجاج: إنه كان من بني آدم ومن جنسهم لا من الملائكة ويكفي هذا القدر في تسمية الأخوة.

﴿ أوَعَجِبْتُم ﴾، ألف استفهام دخلت على واو العطف، ﴿ أنْ جاءَكم ذكرٌ من ربِّكم ﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما: موعظة. وقيل: بيان. وقيل: رسالة. ﴿ على رجلٍ منكم ليُنْذِرَكم ﴾، عذاب الله إن لم تؤمنوا، ﴿ ولِتَتَّقوا ﴾، أي: لكي تتقوا الله، ﴿ ولعلّكم تُرحمُون ﴾، لكي ترحموا.

﴿ فكذّبوه ﴾، يعني: كذبوا نوحاً، ﴿ فأنجيناه ﴾، من الطوفان، ﴿ والذينَ معه في الفُلْكِ ﴾، في السفينة، ﴿ وأغْرَقْنَا الذينَ كذّبوا بآياتنا إنّهم كانُوا قوماً عَمِين ﴾، أي: كفّاراً. قال ابن عباس: عميت قلوبهم عن معرفة الله. قال الزجّاج: عموا عن الحق والإيمان، يقال رجلٌ عمٍ عن الحق وأعمى في البصر. وقيل: العمى والأعمى كالخضر والأخضر. قال مقاتل: عموا عن نزول العذاب وهو الغرق.

والمعنى إنّا أرسلنا إلى عاد واحداً من جنسهم من البشر ليكون الفهم والأنس بكلامه أتم وأكمل ولم نبعث إليهم من غير جنسهم مثل الملك أو الجن.

والثاني: إنه أخاهم يعني صاحبهم والعرب تسمي صاحب القوم أخاهم وكانت منازل عاد بالأحقاف باليمن والأحقاف الرمل الذي عند عمان وحضرموت ﴿**قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره**﴾ أي اعبدوا الله وحده ولا تجعلوا معه إلهاً آخر فإنه ليس لكم إله غيره والفرق بين قوله في قصة نوح وهنا قال إن نوحاً كان مواظباً على دعوة قومه غير متوان فيها لأن الفاء تدل على التعقيب.

وأما هود فلم يكن كذلك بل كان دون نوح في المبالغة في الدعاء فأخبر الله تعالى عنه بقوله «قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره» ﴿**أفلا تتقون**﴾ يعني أفلا تخافون عقابه بعبادتكم غيره ولما كانت هذه القصة منسوقة على قصة قوم نوح وقد علموا ما حل بهم من الفرق حسن قوله هنا. أفلا تتقون يعني أفلا تخافون ما نزل بهم العذاب ولم يكن قبل واقعة قوم نوح شيء حسن تخويفهم من العذاب فقال هناك إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم ﴿**قال الملأ الذين كفروا من قومه إنا لنراك في سفاهة**﴾ يعني إنا لنراك يا هود في حمق وجهالة وضلالة عن الحق. والصواب: أخبر الله تعالى عن قومه نوح أنهم قالوا له إنا لنراك في ضلال مبين وأخبر عن قوم هود أنهم قالوا إنا لنراك في سفاهة والفرق بينهما أن نوحاً لما خوف قومه بالطوفان وطفق في عمل السفينة قال له قومه عند ذلك إنا لنراك في ضلال مبين حيث تتعب في إصلاح سفينة في أرض ليس فيها من الماء شيء وأما هود عليه السلام فإنه لما زيف عبادة الأصنام ونسب من عبدها إلى السفه وهو قلة العقل قابلوه بمثله فقالوا إنا لنراك في سفاهة ﴿**وإنا لنظنك من الكاذبين**﴾ يعني في ادعائك أنك رسول من عند الله ﴿**قال**﴾ يعني قال هود لهؤلاء الملأ الذين نسبوه إلى السفه ﴿**يا قوم ليس بي سفاهة**﴾ يعني ليس الأمر كما تدعون أن بي سفاهة ﴿**ولكني رسول من رب العالمين**﴾ يعني إليكم.

أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ
لِيُنذِرَكُمْۚ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةًۖ فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ
لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَاۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن
كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌۖ أَتُجَٰدِلُونَنِي فِيٓ أَسْمَآءٍ
سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍۚ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾

قوله تعالى: ﴿ **وإلى عادٍ أخَاهُمْ هُوداً** ﴾، أي: وأرسلنا إلى عاد، وهو عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام، وهي عاد الأولى أخاهم في النسب لا في الدين، وهو هود بن عبد الله بن رباح بن الجلود بن عاد بن عوص. وقال ابن إسحاق: هو ابن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح، ﴿ **قالَ يا قومِ اعبدُوا اللَّهَ ما لكمْ من إلَهٍ غيرُهُ أفَلا تَتَّقُون** ﴾، أفلا تخافون.

﴿ **قالَ الملأُ الذينَ كفرُوا منْ قومهِ إنَّا لَنَراكَ** ﴾، يا هود، ﴿ **في سَفَاهةٍ** ﴾، في حمق وجهالة. قال ابن عباس رضي الله عنهما: تدعو إلى دين لا تعرفه، ﴿ **وإنَّا لنظنُّكَ من الكاذبين** ﴾، أنك رسول الله إلينا.

﴿ **قال** ﴾، هود ﴿ **يا قومِ ليسَ بي سفاهةٌ ولكنّي رسولٌ من ربِّ العالمين** ﴾.

﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾﴾

﴿**أبلغكم رسالات ربي**﴾ يعني أؤدي إليكم ما أرسلني به من أوامره ونواهيه وشرائعه وتكاليفه ﴿**وأنا لكم ناصح**﴾ يعني فيما آمركم به من عبادة الله عز وجل وترك عبادة ما سواه ﴿**أمين**﴾ يعني على تبليغ الرسالة وأداء النصح والأمين الثقة على ما ائتمن عليه. حكى الله عن نوح عليه الصلاة والسلام، أنه قال وأنصح لكم وحكى عن هود عليه الصلاة والسلام أنه قال: وأنا لكم ناصح فالأول بصيغة الفعل والثاني بصيغة اسم الفاعل والفرق بينهما أن صيغة الفعل تدل على تجدد النصح ساعة بعد ساعة فكان نوح يدعو قومه ليلاً ونهاراً كما أخبر الله عنه بقوله قال رب إني دعوت قومي ليلاً ونهاراً فلما كان ذلك من عادته ذكره بصيغة الفعل فقال: وأنصح لكم وأما هود فلم يكن كذلك بل كان يدعوهم وقتاً دون وقت فلهذا قال: وأنا لكم ناصح أمين والمدح للنفس بأعظم صفات المدح غير لائق بالعقلاء وإنما فعل هود ذلك وقال هذا القول لأنه كان يجب عليه إعلام قومه بذلك ومقصوده الرد عليهم في قولهم وإنا لنظنك من الكاذبين فوصف نفسه بالأمانة وأنه أمين في تبليغ ما أرسل به من عند الله ففيه تقرير للرسالة والنبوة وفيه دليل على جواز مدح الإنسان نفسه في موضع الضرورة إلى مدحها ﴿**أوعجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم**﴾ يعني أعجبتم أن أنزل الله وحيه على رجل تعرفونه لينذركم بأس ربكم ويخوفكم عقابه ﴿**واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح**﴾ يعني واذكروا نعمة الله عليكم إذا أهلك قوم نوح وجعلكم تخلفونهم في الأرض ﴿**وزادكم في الخلق بسطة**﴾ يعني طولاً وقوة. قال الكلبي والسدي: كانت قامة الطويل منهم مائة ذراع وقامة القصير ستين ذراعاً وقيل سبعين ذراعاً. عن ابن عباس رضي الله عنهما ثمانين ذراعاً وقال مقاتل: اثني عشر ذراعاً وقال وهب: كان رأس أحدهم مثل القبة العظيمة ﴿**فاذكروا آلاء الله**﴾ يعني نِعَم الله وفيه إضمار تقديره فاذكروا نعمة الله عليكم واعملوا عملاً يليق بذلك الإنعام وهو أن تؤمنوا به وتتركوا ما أنتم عليه من عبادة الأصنام ﴿**لعلكم تفلحون**﴾ يعني لكي تفوزوا بالفلاح وهو البقاء في الآخرة ﴿**قالوا**﴾ يعني قال قوم هود مجيبين له ﴿**أجئتنا**﴾ يا هود ﴿**لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا**﴾ يعني من الأصنام ﴿**فأتنا بما تعدنا**﴾ يعني من العذاب ﴿**إن كنت من الصادقين**﴾ يعني في قولك إنك رسول الله ﴿**قال**﴾ يعني قال هود مجيباً لهم ﴿**قد وقع**﴾ يعني نزل ووجب ﴿**عليكم من ربكم رجس وغضب**﴾ أي عذاب وسخط ﴿**أتجادلونني**﴾ يعني أتخاصمونني ﴿**في أسماء سميتوها أنتم وآباؤكم**﴾ يعني وضعتم لها أسماء من عند

﴿ **أُبلِغُكُمْ رسالاتِ ربِّي وأنَا لكمْ ناصحٌ أمين** ﴾، ناصح أدعوكم إلى التوبة أمين على الرسالة. قال الكلبي: كنتُ فيكم قبل اليوم أميناً.

﴿ **أَوَ عَجِبْتُم أن جاءَكم ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكم على رجلٍ منكم** ﴾، يعني نفسه، ﴿ **لِيُنْذِرَكُم. واذْكُرُوا إذْ جعلَكم خُلَفَاءَ** ﴾، يعني في الأرض، ﴿ **من بعدِ قومِ نوح** ﴾، أي: من بعد إهلاكهم، ﴿ **وزادكم في الخلق بسطة** ﴾، أي: طـولاً وقوّة. قال الكلبي والسدي: كانت قامةِ الطويل منهم مائة ذراع وقامة القصير ستّون ذراعاً. وقال أبو حمزة الثمالي: سبعون ذراعاً. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: ثمانون ذراعاً. وقال مقاتل: كان طول كل رجل اثني عشر ذراعاً. وقال وهب: كان رأس أحدهم مثل القبّة العظيمة وكان عين الرجل يفرخ فيها الضياع وكذلك مناخرهم. ﴿ **فاذْكُرُوا آلاَءَ اللَّهِ** ﴾ نِعَم الله، واحدها إلى وإلى مثل مِعي وأمعاء وقفا وأقفاء، ونظيرها: ﴿ آناء الليل ﴾ [آل عمران: ١١٣، طه: ١٣٠، الزمر: ٩]، واحدها أني واني، ﴿ **لعلّكم تفلحون** ﴾.

﴿ **قالوا أجئتَنا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وحدَهُ ونَذَرَ مَا كانَ يعبدُ آباؤُنا** ﴾، من الأصنام، ﴿ **فَأْتِنَا بِما تَعِدُنا** ﴾، من العذاب، ﴿ **إنْ كنتَ مِنَ الصّادقين** ﴾.

أنفسكم والمراد منه الاستفهام على سبيل الإنكار عليهم لأنهم سموا الأصنام بالآلهة وذلك معدوم فيها ﴿ما نزل الله بها من سلطان﴾ يعني من حجة وبرهان على هذه التسمية وإنما سميتموها أنتم من عند أنفسكم بغير دليل ﴿فانتظروا﴾ يعني العذاب ﴿إني معكم من المنتظرين﴾ يعني نزول العذاب بكم ﴿فأنجيناه﴾ يعني فأنجينا هوداً عند نزول العذاب بقومه ﴿والذين معه برحمة منا﴾ يعني وأنجينا أتباعه الذين آمنوا به وصدقوه لأنهم كانوا مستحقين للرحمة ﴿وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا﴾ يعني وأهلكنا الذين كذبوا هوداً من قومه وأراد بالآيات معجزات هود عليه الصلاة والسلام الدالة على صدقه وهذا هلاك استئصال فهلكوا جميعاً ولم يبق منهم واحد ﴿وما كانوا مؤمنين﴾ يعني لأنهم لم يكونوا مصدقين بالله ولا برسوله هود عليه الصلاة والسلام:

(ذكر قصة عاد على ما ذكره محمد بن إسحاق وأصحاب السير والأخبار)

قالوا جميعاً: كانت منازل عاد وجماعتهم حين بعث الله تعالى فيهم هودا عليه الصلاة والسلام الأحقاف والأحقاف الرمل فيما بين عمان وحضرموت من أرض اليمن وكانوا قد فسقوا في الأرض كلها وقهروا أهلها بفضل قوتهم التي جعلها الله فيهم وكانوا أصحاب أوثان يعبدونها من دون الله عز وجل صنم يقال له صداء، وصنم يقال له صمود وصنم يقال له الهباء فبعث الله عز وجل فيهم هودا عليه الصلاة والسلام وهو من أوسطهم نسباً وأفضلهم موضعاً فأمرهم أن يوحدوا الله ولا يجعلوا معه إلهاً غيره وأن يكفوا عن ظلم الناس ولم يأمرهم بغير ذلك فيما ذكر فأبوا عليه وكذبوه وقالوا من أشد منا قوة واتبعه منهم ناس فآمنوا به وهم يسير يكتمون إيمانهم وكان ممن صدقه وآمن به رجل يقال له مرثد بن سعد بن عفير وكان يكتم إيمانه فلما عتوا على الله وكذَّبوا نبيهم وأكثروا في الأرض الفساد وتجبروا وبنوا بكل ريع آية واتخذوا المصانع لعلهم يخلدون فلما فعلوا ذلك أمسك الله عنهم المطر ثلاث سنين حتى جهدهم ذلك وكان الناس في ذلك الزمان إذا نزل بهم بلاء وجهد يطلبون الفرج من الله عز وجل وذلك عند بيته الحرام بمكة مؤمنهم ومشركهم وكان يجتمع بمكة ناس كثير مختلفة أديانهم وكل معظم مكة معترف بحرمتها ومكانها من الله عز

﴿ قال ﴾، هود، ﴿ قدْ وقع ﴾، وجب ونزل، ﴿ عليكمْ من ربِّكم رِجْسٌ ﴾ أي: عذاب، والسين مبدلة من الزاي، ﴿ وغضبٌ ﴾، أي: سخط، ﴿ أتجادِلُونَني في أسماءٍ سمَّيتمُوها ﴾، وضعتموها، ﴿ أنتم وآباؤُكم ﴾، قال أهل التفسير: كانت لهم أصنام يعبدونها سمَّوها أسماء مختلفة، ﴿ ما نزَّلَ اللَّهُ بها من سلطان ﴾، حجة وبرهان، ﴿ فانتظروا ﴾، نزول العذاب، ﴿إنِّي معكمْ من المنتظرين ﴾.

﴿ فأنجيناه ﴾، يعني هوداً عند نزول العذاب، ﴿ والذينَ معه برحمةٍ منّا وقَطَعْنَا دَابِرَ الذينَ كذَّبُوا بآياتِنَا ﴾، أي: استأصلناهم وأهلكناهم عن آخرهم، ﴿ وما كانُوا مؤمنين ﴾.

قصّـــــةُ عـــاد

ما ذكره محمد بن إسحاق وغيره أنهم كانوا ينزلون اليمن وكانت مساكنهم بالأحقاف، وهي رمال بين عمان وحضرموت، وكانوا قد فشوا في الأرض كلها وقهروا أهلها بفضل قوتهم التي آتاهم الله عزّ وجلّ، وكانوا أصحاب أوثان يعبدونها لهم، صنم يقال له صداء وصنم يقال له صمود وصنم يقال له الهباء، فبعث الله إليهم هوداً نبيّاً وهو من أوسطهم نسباً وأفضلهم حسباً فأمرهم أن يُوحّدُوا الله ويكفّوا عن ظلم الناس لم يأمرهم بغير ذلك، فكذّبوه وقالوا: مَن أشدّ منّا قوة وبنوا المصانع وبطشوا بطشة الجبّارين، فلما فعلوا ذلك أمسك الله عنهم المطر ثلاث سنين حتى جهدهم ذلك، وكان الناس في ذلك الزمان إذا نزل بهم بلاء فطلبوا الفرج كانت طلبتهم إلى الله عزّ وجلّ عند بيته الحرام بمكة مسلمهم ومشركهم، فيجتمع بمكة ناس كثير شتّى، مختلفة أديانهم وكلهم معظّم لمكة، وأهل مكة

وجل وكان البيت معروفاً مكانه من الحرم وكان سكان مكة يومئذ العماليق وإنما سموا العماليق لأن أباهم كان عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح وكان سيد العماليق يومئذ رجلاً يقال له معاوية بن بكر وكانت أم معاوية كلهدة بنت الخيبري وهو رجل من عاد وكانت عاد أخوال معاوية سيد العماليق فلما قحطت عاد وقلَّ عنهم المطر قالوا: جهزوا منكم وفداً إلى مكة ليستسقوا لكم فإنكم قد هلكتم فبعثوا قيل بن عنز ونعيم بن هزال من هزيل وعقيل بن صنديد بن عاد الأكبر ومرثد بن سعد بن عفير وكان مسلماً يكتم إسلامه وجلهمة بن الخيبري خال معاوية بن بكر سيد العماليق ولقمان بن عاد فانطلق كل رجل من هؤلاء القوم ومعه جماعة من قومه فبلغ عدد وفد عاد سبعين رجلاً فلما قدموا مكة نزلوا على معاوية بن بكر وهو بظاهر مكة خارجاً عن الحرم فأنزلهم وأكرمهم وكانوا أخواله وأصهاره فأقاموا عنده شهراً يشربون الخمر وتغنيهم الجرادتان وهما قينتان لمعاوية بن بكر فلما رأى معاوية بن بكر طول مقامهم عنده وقد بعثهم قومهم يتغوثون لهم من البلاء الذي أصابهم شق ذلك عليه وقال هلك أخوالي وأصهاري وهؤلاء مقيمون عندي وهم ضيفي نازلون عليّ والله وما أدري كيف أصنع فإني أستحي أن آمرهم بالخروج لما بعثوا إليه فيظنوا أنه ضيق مني بمكانهم عندي وقد هلك مَن وراءهم من قومهم جهداً وعطشا قال وشكا ذلك من أمرهم إلى قينتيه الجرادتين فقالتا قل شعراً نغنيهم به ولا يدرون من قاله لعل ذلك أن يحركهم فقال معاوية:

ألا يـــا قيـــل ويحـــك قـــم فهينـــم ... لعـــل الله يسقينـــا غمـــامـــا
فيسقـــي أرض عـــاد إن عـــاداً ... قـــد أمســـوا لا يبينـــون الكـــلامـــا
مـــن العطـــش الشـــديـــد فليـــس نـــرجـــو ... بـــه الشيـــخ الكبيـــر ولا الغـــلامـــا
وقـــد كـــانـــت نســـاؤهمـــو بخيـــر ... فقـــد أمســـت نســـاؤهـــم أيـــامـــى

يومئذ العماليق سمّوا عماليق، لأن أباهم عمليق بن لاذا بن سام بن نوح، وكان سيد العماليق إذ ذاك بمكة رجل يقال له معاوية بن بكر وكانت أُم معاوية كلهدة بنت الخيبري رجل من عاد، فلما قحط المطر عن عاد وجهدوا قالوا جهّزوا وفداً منكم إلى مكة فليستسقوا لكم، فبعثوا قيل بن عنز ونعيم بن هزال من هزيل وعقيل بن صندين بن عاد الأكبر ومرثد بن سعد بن عفير وكان مسلماً يكتم إسلامه، وجلهمة بن الخيبري خال معاوية بن بكر، ثم بعثوا لقمان بن عاد الأصغرين صندين بن عاد الأكبر، فانطلق كل رجل من هؤلاء ومعه رهط من قومه حتى بلغ عدد وفدهم سبعين رجلاً، فلما قَدِموا مكة نزلوا على معاوية بن بكر وهو بظاهر مكة خارجاً من الحرم، فأنزلهم وأكرمهم وكانوا أخواله وأصهاره فأقاموا عنده شهراً يشربون الخمر وتغنّيهم الجرادتان وهم قينتان لمعاوية بن بكر، وكان مسيرهم شهراً ومقامهم شهراً فلما رأى معاوية بن بكر طول مقامهم وقد بعثهم قومهم يتغوّثون بهم من البلاء الذي أصابهم شقّ ذلك عليه، وقال هلك أخوالي وأصهاري وهؤلاء مقيمون عندي وهم ضيفي، والله ما أدري كيف أصنع بهم، أستحي أن آمرهم بالخروج إلى ما بُعِثُوا إليه، فيظنّون أنه ضيق منّي بمقامهم عندي، وقد هلك مَن وراءهم من قومهم جهداً وعطشاً، فشكا ذلك من أمرهم إلى قينتيه الجرادتين، فقالتا: قلْ شعراً نُغنّهم به لا يدرون مَن قاله لعلّ ذلك أن يُحرِّكَهم، فقال معاوية بن بكر:

أَلا يـا قيـلَ ويحـكَ قمْ فَهَيْنِـم ... لـعـلَّ الـلَّهَ يـسقـينـا غـمـامـا
فـيسقـي أرضَ عـادٍ إنَّ عـاداً ... قـد أمْسُـوا لا يَبِينُـون الكـلامـا
منَ العطشِ الشديـدِ فليسَ نرجُـو ... بـهِ الشيـخَ الكبيـرَ ولا الغُـلامـا
وقـدْ كـانـتْ نسـاؤُهـم بـخيـرٍ ... فـقـدْ أمستْ نسـاؤُهم أيـامَـى

وإن الوحش تأتيهم جهارا | ولا تخشى لعادي سهاما
وأنتم هاهنا فيما اشتهيتم | نهاركمو وليلكمو تماما
فقبح وفدكم من وفد قوم | ولا لقوا التحية والسلاما

فلما قال معاوية هذا الشعر وغنتهم به الجرادتان وعرف القوم ما غنتا به قال بعضهم لبعض: يا قوم إنما بعثكم قومكم ليتغوثوا بكم من هذا البلاء الذي نزل بهم وقد أبطأتم عليهم فادخلوا الحرم واستسقوا لقومكم فقال مرثد بن سعد بن عفير: إنكم والله لا تسقون بدعائكم ولكن إن أطعتم نبيكم وتبتم إلى ربكم سقيتم وأظهر إسلامه عند ذلك وقال في ذلك:

عصت عاد رسولهم فأمسوا | عطاشاً ما تبلهم السماء
لهم صنم يقال له صمود | يقابله صداء والهباء
فبصرنا الرسول سبيل رشد | فأبصرنا الهدى وجلا العماء
وأن إله هود هو إلهي | على الله التوكل والرجاء

زاد في رواية:

لقد حكم الإله وليس جوراً | وحكم الله إن غلب الهواء
على عاد وعاد شر قوم | فقد هلكوا وليس لهم بقاء
وإني لن أفارق دين هود | طوال الدهر أو يأتي الفناء

فقال جلهمة بن الخيبري مجيباً لمرثد بن سعد حين فرغ من مقالته وعرف أنه اتبع دين هود وآمن به:

ألا يا سعد إنك من قبيل | ذوي كرم وأمك من ثمود
فإنا لا نطيعك ما بقينا | ولسنا فاعلين لما تريد
أتأمرنا لنترك دين وفد | ورمل والصداء مع الصمود
ونترك دين آباء كرام | ذوي رأي ونتبع دين هود

وإنّ الوحش تأتيهم جِهاراً | فلا تخشَى لعادي سهاما
وأنتم ههنا فيما اشتهيتم | نهارُكمو وليلكمو تماما
فَقُبِّحَ وفدُكم منْ وفدِ قومٍ | ولا لقُوا التحيةَ والسلاما

فلمّا غنّتهم الجرادتان هذا قال بعضهم لبعض: يا قوم إنّما بعثكم قومكم يتغوثون بكم من البلاء الذي نزل بهم وقد أبطأتم عليهم فادخلوا هذا الحرم فاستسقوا لقومكم، فقال مرثد بن سعد بن عفير وكان قد آمن بهود سرّاً: إنكم والله لا تُسقون بدعائكم ولكن إن أطعتم نبيّكم وتُبْتُم إلى ربّكم سُقيتم، فأظهر إسلامه عند ذلك وقال شعراً:

عصتْ عادٌ رسولَهمْ فأمسُوا | عطاشاً ما تبلهم السماء
لهم صنم يُقال له صمودٌ | يقابله صداءٌ والهباءُ
فبصّرنا الرسولُ سبيلَ رشد | فأبصرنا الهُدى وجَلَى العماءُ
وإن إِلٰه هود هو إِلٰهي | على اللّهِ التوكّلُ والرجاءُ

فقالوا لمعاوية بن بكر: احبس عنّا مرثد بن سعد فلا يقدمنّ معنا مكة فإنه قد اتّبع دين هود وترك ديننا ثم

ثم قال جلهمة لمعاوية بن بكر وأبيه بكر احبسا عنا مرثداً فلا يقدمن معنا مكة فإنه قد تبع دين هود وترك ديننا ثم خرجوا إلى مكة يستسقون بها لعاد فلما ولوا إلى مكة خرج مرثد بن سعد من منزل معاوية بن بكر حتى أدركهم بمكة قبل أن يدعو الله بشيء مما خرجوا إليه فلما انتهى إليهم قام يدعو الله وبها وفد عاد يدعونه فقال مرثد: اللهم أعطني سؤلي وحدي ولا تدخلني فيما يدعوك به وفد عاد، وقام قيل بن عنز رأس وفد عاد يدعو فقال: اللهم أعط قيلاً ما سألك. وقال الوفد معه: واجعل سؤلنا مع سؤله. وكان قد تخلف عن وفد عاد لقمان بن عاد وكان سيد عاد حتى إذا فرغوا من دعواتهم قام لقمان فقال: اللهم إني جئتك وحدي في حاجتي فأعطني سؤلي وسأل طول العمر فعمر عمر سبعة أنسر وقال قيل بن عنز حين دعا يا إلهنا إن كان هود صادقاً فاسقنا فإنا قد هلكنا فأنشأ الله تعالى سحائب ثلاثاً بيضاء وحمراء وسوداء ثم ناداه مناد من السماء يا قيل اختر لقومك ولنفسك من هذه السحائب فقال قيل: قد اخترت السحابة السوداء فإنها أكثر السحاب ماء فناداه مناد اخترت رماداً رمدداً لا يبقي من آل عاد أحداً وساق الله تعالى السحابة السوداء التي اختارها قيل بما فيها من النقمة إلى عاد حتى خرجت عليهم من واد لهم يقال له المغيث فلما رأوها استبشروا بها وقالوا هذا عارض ممطرنا يقول الله عز وجل: ﴿بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم تدمر كل شيء﴾ أي كل شيء مرت به بأمر ربها وكان أول من أبصر ما فيها وعرف أنها ريح مهلكة امرأة من عاد يقال لها مهدد فلما عرفت ما فيها من العذاب صاحت ثم صعقت فلما أن أفاقت قالوا لها ماذا رأيت قالت رأيت الريح فيها كشهب النار أمامها رجال يقودونها فسخرها الله عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً فلم تدع من آل عاد أحداً إلا أهلكه واعتزل هود ومن معه من المؤمنين في حظيرة ما يصيبه ومن معه من الريح إلا ما تلين عليه الجلود وتلذ به الأنفس

خرجوا إلى مكة يستسقون لعادٍ، فلمّا ولّوا إلى مكة خرج مرثد بن سعد من منزل معاوية حتى أدركهم قبل أن يدعوا الله بشيء مما خرجُوا له، فلمّا انتهى إليهم قام يدعو الله وبها وفد عاد يدعون، فقال: اللّهمّ أعطني سؤلي وحدي ولا تدخلني في شيء مما يدعوكَ به وفدُ عاد، وكان قِيْلُ بنُ عنز رأسَ وفد عاد، فقال وفد عاد: اللّهمّ أعطِ قيلاً ما سألك واجعلِ سؤلنا مع سؤله، وكان قد تخلّف عن وفد عاد حين دعوا لُقمانُ بنُ عاد، وكان سيّدَ عاد، حتى إذا فرغوا من دعوتهم، فقال: اللّهمّ إني جئتك وحدي في حاجتي فأعطني سؤلي، وسألَ اللّهَ طول العمر فعمّر عمر سبعة أنسُر، وقال قِيْلُ بنُ عنز حين دعا: يا إلّهنا إن كان هودُ صادقاً فاسقنا فإنّا قد هلكنا، فأنشأ الله سحائب ثلاثاً بيضاء وحمراء وسوداء، ثم ناداه مُنادٍ من السحاب يا قيلُ اختر لنفسك وقومك من هذه السحائب ما شئت، فقال قيلُ: اخترتُ السحابة السوداء فإنها أكثر السحاب ماءً فناداه منادٍ اخترت رماداً رمدداً لا يُبقي من آل عاد أحداً، وساق الله السحابة السوداء التي اختارها قيل بما فيها من النقمة إلى عاد حتى خرجت عليهم من وادٍ لهم يقال له المغيث، فلمّا رأوها استبشروا وقالوا هذا عارض ممطرنا، يقول الله تعالى: بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم تُدمّرُ كلَّ شيء بأمر ربها، أي: كل شيء مرّتْ به، وكان أول مَن بصر ما فيها وعرف أنها ريح مهلكة امرأة من عاد يقال لها مهدد، فلما تبينت ما فيها صاحت ثم صُعِقت، فلما أفاقت قالوا لها: ماذا رأيتِ؟ قالتْ: رأيت الريح فيها كشهب النار أمامها رجال يقودونها، فسخّرها الله عليهم سبعَ ليالٍ وثمانية أيام حسوماً، فلم تدع من آل عادٍ أحداً إلّا هلك، واعتزل هود ومَن معه من المؤمنين في حظِيرة ما يصيبه هو ومَن معه من الريح إلّا ما تلين عليه الجلود وتلذّ الأنفس، وإنها لتَمرُّ من عاد بالظعن فتحملهم بين السماء والأرض وتدمغهم بالحجارة، وخرج وفد عاد من مكة حتى مرّوا بمعاوية بن بكر فنزلوا عليه فبينما هم عنده إذ أقبل رجل على ناقة في ليلة مقمرة مساء ثالثة من مصاب عاد فأخبرهم الخبر، فقالوا له: فأين فارقت هوداً وأصحابه؟ فقال: فارقتهم بساحل البحر فكأنهم شكّوا فيما حدّثهم به، فقالت هزيلة بنت بكر: صدق وربِّ مكة، وذكروا أن مرثد بن سعد ولقمان بن عاد وقيل بن عنز حين دعوا بمكة قيل

وإنها في وقتها لتمر بالظعن من عاد فتحملها بين السماء والأرض وتدمغهم بالحجارة وخرج وفد عاد من مكة حتى مروا بمعاوية بن بكر فنزلوا عليه فبينما هم عنده إذ أقبل إليه رجل على ناقة في ليلة مقمرة وذلك مساء ثالثة من مصاب عاد فأخبرهم الخبر فقالوا له: أين فارقت هوداً وأصحابه؟ فقال: فارقتهم بساحل البحر وكأنهم شكوا فيما حدثهم به فقالت هذيلة بنت بكر: صدق ورب الكعبة. وقال السدي بعث الله عز وجل على عاد الريح العقيم فلما دنت منهم نظروا إلى الإبل والرجال تطير بهم الريح بين السماء والأرض فلما رأوها تبادروا إلى البيوت فدخلوها وأغلقوا الأبواب، فجاءت الريح فقلعت أبوابهم ودخلت عليهم فأهلكتهم فيها ثم أخرجتهم من البيوت فلما أهلكتهم أرسل الله تعالى عليهم طيراً أسود فنقلهم إلى البحر فألقاهم فيه، وقيل: إن الله تعالى أمر الريح فأمالت عليهم الرمال فكانوا تحتها سبع ليال وثمانية أيام يسمع لهم أنين تحت الرمل ثم أمر الله الريح فكشفت عنهم الرمل ثم احتملتهم فرمت بهم في البحر ولم تخرج ريح قط إلا بمكيال إلا يومئذ فإنها عتت على الخزنة فغلبتهم فلم يعلموا كم كان مكيالها وفي الحديث «إنما خرجت على مثل خرق الخاتم» وقيل: إن مرثد بن سعد ولقمان بن عاد وقيل ابن عنز حين دعوا بمكة قيل لهم أعطيتم مُناكم فاختاروا لأنفسكم غير أنه لا سبيل إلى الخلود ولا بد من الموت فقال مرثد: اللهم أعطني براً وصدقاً فأعطي ذلك، وقال لقمان: اللهم أعطني عمراً فقيل له اختر فاختار عمر سبعة أنسر فكان يأخذ الفرخ حين يخرج من البيضة وكان يأخذ الذكر لقوته فيربيه حتى يموت فإذا مات أخذ غيره فلم يزل يفعل ذلك حتى أتى على السابع وكان كل نسر يعيش ثمانين سنة وكان السابع من النسور اسمه لبد فلما مات لبد مات لقمان معه.

وأما قيل فإنه اختار لنفسه ما يصيب قومه فقيل له إنه الهلاك فقال لا أبالي لا حاجة لي في البقاء بعد قومي فأصابه الذي أصاب عاداً فهلك ومَن معه من الوفد الذين خرجوا يستسقون لعاد فأتت الريح لما خرجوا من الحرم فأهلكتهم جميعاً فلما أهلك الله عاداً ارتحل هود ومن معه من المؤمنين من أرضهم بعد هلاك قومه إلى موضع يقال له الشجر من أرض اليمن فنزل هناك ثم أدركه الموت فدفن بأرض حضرموت. يروى عن علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه أن قبر هود عليه الصلاة والسلام بحضرموت في كثيب أحمر وقال عبد الرحمن بن شبابة: بين الركن والمقام وزمزم قبر تسعة وتسعين نبياً وأن قبر هود وصالح وشعيب وإسماعيل عليهم الصلاة والسلام في تلك البقعة ويروى أن

لهم: قد أعطيتم مُناكم فاختاروا لأنفسكم إلاّ أنه لا سبيل إلى الخلود، ولا بدّ من الموت، فقال مرثد: اللّهمَّ أعطني صدقاً وبرّاً فأُعطي ذلك، وقال لقمان: أعطني يا ربِّ عمراً فقيل له: اختر فاختار عمر سبعة أنسُر، فكان يأخذ الفرخ حين يخرج من بيضته فيأخذ الذكر منها لقوّته، حتى إذا مات أخذ غيره فلم يزل يفعل ذلك حتى أتى على السابع، وكان كل نسر يعيش ثمانون سنة، وكان آخرها لبداً فلما مات لبد مات لقمان معه. وأمّا قيل فإنه قال: أختار أن يصيبني ما أصاب قومي فقيل له: إن الهلاك، فقال: لا أُبالي لا حاجة لي في البقاء بعدهم، فأصابه الذي أصاب عاداً من البلاء والعذاب فهلك. قال السدي: بعث الله على عاد الريح العقيم فلما دنت منهم نظروا إلى الإبل والرجال تطير بهم الريح بين السماء والأرض فلمّا رأوها تبادروا البيوت فدخلوها وأغلقوا أبوابهم، فجاءت الريح فقلعت أبوابهم فدخلت عليهم فأهلكتهم فيها، ثم أخرجتهم من البيوت، فلمّا أهلكهم الله أرسل عليهم طيراً سوداء فنقلتهم إلى البحر فألقتهم فيه. ورُوِيَ أن الله عزّ وجلّ أمر الريح فأهالت عليهم الرمال، فكانوا تحت الرمل سبع ليالٍ وثمانية أيام لهم أنين تحت الرمل، ثم أمر الريح فكشفت عنهم الرمال فاحتملتهم فرمت بهم في البحر ولم تخرج ريح قطّ إلا بمكيال إلا يومئذ فإنها عتت على الخَزَنَة فغلبتهم فلم يعلموا كم كان مكيالها. وفي الحديث: «إنها خرجت على قدر خرق الخاتم»، ورُوِيَ عن عليّ: أن قبر هود بحضرموت في كثيب أحمر. وقال عبد الرحمن بن سابط: بين الركن والمقام وزمزم قبر تسعة وتسعين نبيّاً، وإن قبر هود وشعيب وصالح وإسماعيل في

كل نبي من الأنبياء كان إذا هلك قومه جاء هو والصالحون من قومه معه إلى مكة يعبدون الله تعالى حتى يموتوا بها.

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿وإلى ثمود أخاهم صالحاً﴾ يعني أرسلنا إلى ثمود وهو ثمود بن عابر بن إرم بن سام بن نوح وهو أخو جديس بن عابر وكانت مساكن ثمود الحجر بين الحجاز والشام إلى وادي القرى وما حوله ومعنى الكلام وإلى بني ثمود أخاهم صالحاً لأن ثمود قبيلة. قال أبو عمرو بن العلاء: سميت ثمود لقلة مائها والثمد الماء القليل وقيل سموا ثمود باسم أبيهم الذي ينسبون إليه أخاهم صالحاً يعني في النسب لا في الدين وهو صالح بن عبيد بن آسف بن ماسح بن عبيد بن حاذر بن ثمود ﴿قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره﴾ يعني قال لهم صالح حين أرسله الله تعالى إليهم يا قوم وحدوا الله تعالى ولا تشركوا به شيئاً فما لكم من إله يستحق أن يُعبد سواه ﴿قد جاءتكم بينة من ربكم﴾ يعني جاءتكم حجة من ربكم وبرهان على صدق ما أقول وأدعو إليه من عبادة الله تعالى ولا تشركوا به شيئاً وعلى تصديق بأني رسول الله إليكم ثم فسر تلك البينة فقال ﴿هذه ناقة الله لكم آية﴾ يعني علامة على صدقي قال العلماء رحمهم الله تعالى: ووجه كون هذه الناقة آية على صدق صالح ومعجزة له خارقة للعادة أنها خرجت من صخرة في الجبل وكونها لا من ذكر ولا من أنثى وكمال خلقها من غير حمل ولا تدريج لأنها خلقت في ساعة وخرجت من الصخرة وقيل لأنه كان لها شرب يوم ولجميع قبيلة ثمود شرب يوم وهذا من المعجزة أيضاً لأن ناقة تشرب ما تشربه قبيلة معجزة وكانوا يحلبونها في يوم شربها قدر ما يكفيهم جميعهم ويقوم لهم مقام الماء وهذ أيضاً معجزة وقيل إن سائر الوحوش والحيوانات كانت تمتنع من شرب الماء في يوم شرب الناقة وتشرب الحيوانات الماء في غير يوم الناقة وهذا أيضاً معجزة وإنما أضافها إلى الله تعالى في قوله هذه ناقة الله على سبيل التفضيل والتشريف كما يقال بيت الله وقيل لأن الله تعالى خلقها بغير واسطة ذكر وأنثى وقيل لأنه لم يملكها أحد إلا الله تعالى وقيل لأنها كانت حجة الله على قوم صالح ﴿فذروها تأكل في أرض الله﴾ يعني فذروا الناقة تأكل العشب من أرض الله فإن الأرض لله والناقة أيضاً لله وليس لكم في أرض الله شيء لأنه هو الذي أنبت العشب فيها ﴿ولا تمسوها بسوء﴾ يعني ولا تطردوها ولا تقربوها بشيء من أنواع الأذى ولا تعقروها ﴿فيأخذكم عذاب أليم﴾ يعني بسبب عقرها وأذاها.

تلك البقعة. ويُروى: أنّ النبيَّ منَ الأنبياء إذا هلك قومُه جاءَ هو والصالحون معه إلى مكة يعبدون الله فيها حتى يموتوا.

قوله تعالى: ﴿ وإلى ثمودَ أخاهم صالحاً ﴾، وهو ثمود بن عابر بن أرم بن سام بن نوح، وأراد ههنا القبيلة. قال أبو عمرو بنِ العلاء: سُمّيت ثمود لقلّة مائها، والثمد: الماء القليل، وكانت مساكنهم الحِجْر بين الحجاز والشام إلى وادي القرى، ﴿أخاهم صالحاً﴾ أي أرسلنا إلى ثمود أخاهم في النسب لا في الدين صالحاً، وهو صالح بن عبيد بن آسف بن ماسح بن عبيد بن خادر بن ثمود، ﴿ قالَ يا قوم اعبدُوا اللّهَ ما لكم مِنْ إلَهٍ غيرُهُ قدْ جاءتْكُم بيّنةٌ مِّن رَّبِّكم ﴾، على صدق، ﴿ هذه ناقةُ الله ﴾، أضافها إليه على التفضيل والتخصيص، كما يقال بيت الله، ﴿ لكم آيةً ﴾، نصب على الحال، ﴿ فَذَرُوها تأكلْ ﴾، العشب، ﴿ في أرضِ اللّهِ ولا تَمَسُّوها بِسُوءٍ ﴾، لا تصيبوها بعقر، ﴿ فيأخُذَكم عذابٌ أليم ﴾.

﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا
وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ
ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ
قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾
فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾﴾

﴿واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد﴾ يعني أن الله أهلك عاداً وجعلكم تخلفونهم في الأرض وتعمرونها ﴿وبوأكم﴾ يعني وأسكنكم وأنزلكم ﴿في الأرض تتخذون من سهولها قصوراً﴾ يعني تبنون القصور من سهولة الأرض لأن القصور إنما تبنى من اللّبن والآجر المتخذ من الطين السهل اللين ﴿وتنحتون الجبال بيوتاً﴾ يعني وتشقون بيوتاً من الجبال وقيل كانوا يسكنون السهول في الصيف والجبال في الشتاء وهذا يدل على أنهم كانوا متمتعين مترهفين ﴿فاذكروا آلاء الله﴾ أي فاذكروا نعمة الله عليكم واشكروه عليها ﴿ولا تعثوا في الأرض مفسدين﴾ قال قتادة: معناه ولا تسيروا في الأرض مفسدين فيها والعثو أشد الفساد وقيل أراد به عقر الناقة وقيل هو على ظاهره فيدخل فيه النهي عن جميع أنواع الفساد ﴿قال الملأ الذين استكبروا من قومه﴾ يعني قال الأشراف الذين تعظموا عن الإيمان بصالح ﴿للذين استضعفوا﴾ يعني المساكين ﴿لمن آمن منهم﴾ يعني قال الأشراف المتعظمون في أنفسهم لأتباعهم الذين آمنوا بصالح وهم الضعفاء من قومه ﴿أتعلمون أن صالحاً مرسل من ربه﴾ يعني أن الله أرسله إلينا وإليكم ﴿قالوا إنا بما أرسل به مؤمنون﴾ يعني قال الضعفاء إنا بما أرسل الله به صالحاً من الدين والهدى مصدقون ﴿قال الذين استكبروا﴾ يعني عن أمر الله والإيمان به وبرسوله صالح ﴿إنا بالذي آمنتم به كافرون﴾ أي جاحدون منكرون ﴿فعقروا الناقة﴾ يعني فعقرت ثمود الناقة والعقر قطع عرقوب البعير ثم جعل النحر عقراً لأن ناحر البعير يعقره ثم ينحره ﴿وعتوا عن أمر ربهم﴾ أي تكبروا عن أمر ربهم وعصوه والعتو الغلوّ في الباطل والتكبر عن الحق والمعنى أنهم عصوا الله وتركوا أمره في الناقة وكذبوا نبيهم صالحاً عليه الصلاة والسلام ﴿وقالوا يا صالح ائتنا بما تعدنا﴾ يعني من العذاب ﴿إن كنت من المرسلين﴾

﴿ واذْكُروا إذْ جعلكم خلفاءَ من بعد عادٍ وبوّأكم ﴾، أسكنكم وأنزلكم، ﴿ في الأرض تَتّخِذُونَ مِن سُهولها قُصوراً وَتَنْحِتُون الجبالَ بُيوتاً ﴾، كانوا ينقبون في الجبال البيت ففي الصيف يسكنون بيوت الطين، وفي الشتاء بيوت الجبل. وقيل: كانوا ينحتون البيوت في الجبل لأن بيوت الطين ما كانت تبقى مدة أعمارهم لطول أعمارهم، ﴿ فاذكرُوا آلاءَ اللّهِ ولا تَعْثَوْا في الأرضِ مُفسدين ﴾، والعثو: أشدّ الفساد.

﴿ قالَ الملأُ ﴾ قرأ ابن عامر: «وقـالَ المـلأ» بالواو، ﴿ الذينَ استكبرُوا مِن قومِه ﴾، يعني الأشراف والقادة الذين تعظّمُوا عن الإيمان بصالح، ﴿ للذين اسْتُضْعِفُوا ﴾، يعني الأتباع، ﴿ لِمَنْ آمنَ منهم ﴾، يعني: قال الكفّار للمؤمنين، ﴿ أتعلمون أنّ صالحاً مُرسلٌ من ربِّه ﴾، إليكم، ﴿ قالوا إنّا بما أُرسلَ به مُؤمنون ﴾.

﴿ قال الذين استكبرُوا إنّا بالذي آمنتُمْ بهِ كافرون ﴾، جاحدون.

﴿ فعقرُوا النّاقةَ ﴾، قال الأزهري: العقر هو قطع عرقوب البعير، ثم جُعل النحر عقراً لأنّ ناحر البعير يعقره ثم ينحره. ﴿ وعَتَوْا عن أمرِ ربِّهم ﴾، والعتو الغلو في الباطل، يقال: عتا يعتو عتوّاً إذا استكبروا، والمعنى: عصوا

يعني: إن كنت كما تزعم أنك رسول الله فإن الله تعالى ينصر رسله على أعدائه وإنما قالوا ذلك لأنهم كانوا مكذبين في كل ما أخبرهم به من العذاب فعجل الله لهم ذلك فقال تعالى:

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ۝٧٨ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ ۝٧٩﴾

﴿**فأخذتهم الرجفة**﴾ قال الفراء والزجاج: الرجفة الزلزلة الشديدة العظيمة، وقال مجاهد والسدي: هي الصيحة فيحتمل أنهم أخذتهم الزلزلة من تحتهم والصيحة من فوقهم حتى هلكوا وهو قوله تعالى: ﴿**فأصبحوا في دارهم جاثمين**﴾ يعني فأصبحوا في أرضهم وبلدهم جاثمين ولذلك وحد الدار كما يقال دار الحرب أي بلد الحرب ودار بني فلان بمعنى موضعهم ومجمعهم وجمع في آية أخرى، فقال في ديارهم لأنه أراد ما لكل واحد منهم من الديار والمساكن وقوله جاثمين يعني باركين على الركب والجثوم للناس والطير بمنزلة البروك للبعير وجثوم الطير هو وقوعه لاطئاً بالأرض في حال نومه وسكونه بالليل والمعنى أنهم أصبحوا جاثمين على وجوههم موتى لا يتحركون ﴿**فتولى عنهم**﴾ يعني فأعرض عنهم صالح وفي وقت هذا التولي قولان:

أحدهما: أنه تولى عنهم بعد أن ماتوا وهلكوا ويدل عليه قوله «فأصبحوا في دارهم جاثمين فتولى عنهم» والفاء للتعقيب فدل على أنه جعل هذا التولي بعد جثومهم وهو موتهم.

والقول الثاني: أنه تولى عنهم وهم أحياء قبل موتهم وهلاكهم ويدل عليه أنه خاطبهم ﴿**وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين**﴾ وهذا الخطاب لا يليق إلا بالأحياء فعلى هذا القول يحتمل أن يكون في الآية تقديم وتأخير تقديره فتولى عنهم وقال: يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين وأجاب أصحاب القول الأول عن هذا أنه خاطبهم بعد هلاكهم وموتهم توبيخاً وتقريعاً كما خاطب النبي ﷺ الكفار من قتلى بدر حين ألقوا في القليب فجعل يناديهم بأسمائهم الحديث في الصحيح وفيه فقال عمر: يا رسول الله كيف تكلم أقواماً قد جيفوا فقال ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ولكن لا يجيبون. وقيل إنما خاطبهم صالح بذلك ليكون عبرة لمن يأتي من بعدهم فينزجر عن مثل تلك الطريقة التي كانوا عليها.

الله وتركوا أمره في الناقة وكذّبوا نبيّهم. ﴿ **وقالوا يا صالحُ ائتنا بما تعِدُنا** ﴾، أي: من العذاب، ﴿ **إنْ كنتَ من المرسلين** ﴾.

﴿ **فأخذتْهُمُ الرجفةُ** ﴾، وهي زلزلة الأرض وحركتها وأهلكوا بالصيحة والرجفة، ﴿ **فأصبحُوا في دارهم** ﴾، قيل: أراد الديار. وقيل: أراد في أرضهم وبلدتهم، ولذلك وحّد الدار، ﴿ **جاثمين** ﴾، خامدين ميتين. قيل: سقطوا على وجوههم موتى عن آخرهم.

﴿ **فتولّى** ﴾، أعرض صالح، ﴿ **عنهم وقالَ يا قوم لقدْ أبلغتُكم رسالةَ ربّي ونصحتُ لكم ولكن لا تُحبُّون النّاصحين** ﴾، فإن قيل: كيف خاطبهم بقوله لقد أبلغتكم رسالة ربّي ونصحتُ لكم بعدما أُهلكوا بالرجفة؟ قيل: كما خاطب النبي ﷺ الكفّار من قتلى بدر حين ألقاهم في القليب، فجعل يناديهم بأسمائهم وأسماء آبائهم: «أيسرّكم أنّكم أطعتم الله ورسوله فإنّا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقّاً، فهل وجدتم ما وعد ربكم حقّاً»؟ فقال عمر: يا رسول الله ما تكلم من أجساد لا أرواح لها؟ فقال النبي ﷺ: «والذي نفس محمد بيده ما أنتم بأسمع لما أقول

(ذكر قصة ثمود على ما ذكره محمد بن إسحاق ووهب بن منبه وغيرهما من أصحاب السير والأخبار)

قالوا جميعاً إن عاد لما هلكت وانقضى أمرها عمرت ثمود بعدها واستخلفوا في الأرض فدخلوا فيها وكثروا وعمروا حتى إن أحدهم ليبني المسكن من المدر فينهدم والرجل حي فلما رأوا ذلك اتخذوا من الجبال بيوتاً وكانوا في سعة من العيش والرخاء فعثوا وأفسدوا في الأرض وعبدوا غير الله فبعث الله تعالى إليهم صالحاً نبياً وكانوا قوماً عرباً وكان صالح من أوسطهم نسباً وأفضلهم بيتاً وحسباً فبعثه الله تعالى إليهم وهو غلام فلم يزل يدعوهم إلى الله تعالى وإلى عبادته حتى شمط وكبر فلم يتبعه منهم إلا قليل مستضعفون فلما ألح عليهم صالح بالدعاء والتبليغ وأكثر لهم التحذير والتخويف سألوه أن يريهم آية تكون مصداقاً على ما يقول فقال صالح أي آية تريدون؟ فقالوا: تخرج معنا إلى عيدنا وكان لهم عيد يخرجون فيه أصنامهم، وذلك في يوم معلوم من السنة وقالوا تدعو إلهك وندعو آلهتنا فإن استجيب لك اتبعناك وإن استجيب لنا اتبعتنا فقال لهم صالح نعم فخرجوا بأصنامهم إلى عيدهم وخرج صالح معهم ودعوا أوثانهم وسألوها أن لا يستجاب لصالح في شيء مما يدعو به ثم قال جندع بن عمرو بن حراش وهو يومئذ سيد ثمود: يا صالح أخرج لنا من هذه الصخرة، لصخرة منفردة في ناحية الحجر يقال لها الكاثبة، ناقة مخترجة جوفاء وبراء عشراء والمخترجة ما شاكلت بالبخت من الإبل فإن فعلت آمنا بك وصدقناك فأخذ عليهم صالح مواثيقهم لئن فعلت لتصدقني ولتؤمنن بي قالوا نعم قال فصلى صالح عليه الصلاة والسلام ركعتين ودعا ربه عز وجل فتمخضت الصخرة كما تمخض النتوج بولدها ثم تحركت الهضبة عن ناقة عشراء جوفاء وبراء كما سألوا ووصفوا غير أنه لا يعلم ما بين جنبها إلا الله عز وجل عظماً وهم ينظرون إليها ثم نتجت سقباً مثلها في العظم فآمن به جندع بن عمرو ورهط معه من قومه وأراد بقية أشراف ثمود أن يؤمنوا به ويصدقوه فمنعهم ذؤاب بن عمرو بن لبيد والحباب وكانا صاحبا أوثانهم ورباب بن ضمير وكان كاهنهم وكانوا من أشراف ثمود فلما خرجت الناقة من الصخرة قال لهم صالح: هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم فمكثت الناقة ومعها سقبها في أرض ثمود ترعى الشجر وتشرب الماء وكانت ترد الماء غباً فإذا كان يوم ورودها وضعت رأسها في بئر في الحجر يقال لها بئر الناقة فما ترفع رأسها حتى تشرب كل ما

منهم، ولكنْ لا يجيبون». وقيل: خاطبهم ليكون عبرة لمَن خلفهم. وقيل: في الآية تقديم وتأخير تقديرها: فتولّى عنهم، وقال: يا قوم لقد أبلغتُكم رسالة ربّي فأخذتهم الرجفة. وكانت قصة ثمود على ما ذكرها محمد بن إسحاق ووهب وغيرهما: أن عاد لمّا هلكت وتقضي أمرها عمرت ثمود بعدها واستخلفوا في الأرض فدخلوا فيها وكثروا وعمروا حتى جعل أحدهم يبني المسكن من المدر فينهدم والرجل منهم حيّ، فلما رأوا ذلك اتخذوا من الجبال بيوتاً، وكانوا في سعة من معاشهم فعَثَوا وأفسدُوا في الأرض وعبدُوا غير الله، فبعث الله فيهم صالحاً وكانوا قوماً عرباً وكان صالح من أوسطهم نسباً وأفضلهم حسباً وموضعاً، فبعث الله إليهم غلاماً شابّاً فدعاهم إلى الله حتى شمط وكبر لا يتبعه منهم إلّا قليل مستضعفون، فلمّا ألحّ عليهم صالح بالدعاء والتبليغ وأكثر لهم التحذير والتخويف سألوه أن يُريهم آية تكون مصداقاً إلى ما يقول، فقال لهم: أيّ آية تريدون؟ قالوا: أتخرج معنا إلى عيدنا، وكان لهم عيد يخرجون فيه بأصنامهم في يوم معلوم من السنة فتدعو إلٰهك وندعوا آلهتنا، فإن استُجيب لك اتبعناك وإن استُجيب لنا اتّبعتنا، فقال لهم صالح: نعم، فخرجوا بأوثانهم إلى عيدهم، وخرج صالح معهم فدعوا أوثانهم وسألوها أن لا يُستجاب لصالح في شيء مما يدعو به، ثم قال جندع بن عمرو بن حراش وهو يومئذ سيد ثمود: يا صالح أخرج لنا من هذه الصخرة منفردة في ناحية من الحجر يقال لها الكاثبة ناقة مخترجة جوفاء وبراء عشراء والمخترجة ما شاكل البخت من الإبل، فإن فعلتَ صدقناك وآمنّا بك، فأخذ عليهم صالح مواثيقهم لئن فعلت لتصدقنّي ولتؤمنّ

فيها فلا تدع قطرة ثم ترفع رأسها فتتفحج لهم فيحلبون ما شاؤوا منها من لبن فيشربون ويدخرون حتى يملؤوا أوانيهم كلها ثم تصدر الناقة من غير الفج الذي وردت منه ولا تقدر أن تصدر من حيث وردت حتى إذا كان من الغد كان يوم ثمود فيشربوا ما شاء الله من الماء ويدخرون ما شاؤوا ليوم الناقة فهم على ذلك في سعة ودعة وكانت الناقة تصيف إذا كان الحر بظهر الوادي فتهرب منها مواشيهم الإبل والبقر والغنم فتهبط إلى بطن الوادي فتكون في حره وجدبه وإذا كان الشتاء فتشتو الناقة في بطن الوادي فتهرب المواشي إلى ظهره فتكون في البرد والجدب فأضر ذلك بمواشيهم للأمر الذي يريده الله بهم والبلاء الاختبار، فكبر ذلك عليهم فعتوا عن أمر ربهم وحملهم ذلك على عقر الناقة فأجمعوا على عقرها وكانت امرأتان من ثمود يقال لأحداهما عنيزة بنت غنم بن مخلد وتكنى بأم غنم وكانت عجوزاً مسنة وهي امرأة ذؤاب بن عمرو وكانت ذات بنات حسان وذات مال من إبل وبقر وغنم، والمرأة الأخرى يقال لها صدقة بنت المختار وكانت جميلة غنية ذات مواش كثيرة وكانتا من أشد الناس عداوة لصالح عليه الصلاة والسلام وكانتا تحبان عقر الناقة لما أضرت بمواشيهما فتحيلتا في عقر الناقة فدعت صدقة رجلاً من ثمود يقال له الحباب لعقر الناقة وعرضت عليه نفسها إن هو فعل فأبى عليها فدعت ابن عم لها يقال لها مصدع بن مهزج بن المحيا وجعلت له نفسها على أن يعقر الناقة وكانت من أحسن الناس وجهاً وأكثرهم مالاً فأجابها إلى ذلك ودعت عنيزة بنت غنم قدار بن سالف وكان رجلاً أحمر أزرق قصيراً ويزعمون أنه كان ابن زانية ولم يكن لسالف ولكنه ولد على فراشه فقالت عنيزة لقدار أي بناتي شئت أعطيتك على أن تعقر الناقة وكان قدار عزيزاً منيعاً في قومه (ق).

عن عبد الله بن زمعة رضي الله تعالى عنه أنه سمع النبي ﷺ يخطب وذكر الناقة والذي عقرها فقال رسول الله ﷺ «إذا انبعث أشقاها انبعث لها رجل عزيز عارم منيع في رهطه مثل أبي زمعة» قوله انبعث أي قام بسرعة والعارم الخبيث الشرير والعرامة الشدة والقوة والشراسة والمنيع الممتنع ممن أراده. قال أصحاب الأخبار: فانطلق قدار بن سالف ومصدع بن مهزج، فاستنفروا غواة ثمود فاتبعهم سبعة نفر فكانوا تسعة رهط فانطلق قدار ومصدع وأصحابهما فرصدوا الناقة حتى صدرت عن الماء وقد كمن لها قدار في أصل صخرة على طريقها وكمن لها مصدع في أصل صخرة أخرى فمرت على مصدع فرماها بسهم فانتظم في عضلة ساقها فخرجت أم غنم عنيزة وأمرت ابنتها فسفرت عن وجهها

بي، قالوا: نعم، فصلّى صالح ركعتين ودعا به فتمخضت الصخرة تمخّض النتوج بولدها، ثم تحركت الهضبة فانصدعت عن ناقة عشراء جوفاء وبراء كما وَصَفُوا لا يعلم ما بين جنبيها عظماً إلاّ الله، وهم ينظرون ثم نتجت سبقاً مثلها في العظم، فآمن به جندع بن عمرو ورهط من قومه وأراد أشراف ثمود أن يُؤمنوا به ويصدقوه فنهاهم ذُؤاب بن عمر بن لبيد والحباب صاحب أوثانهم ورباب بن صمغر وكان كاهنهم وكانوا من أشراف ثمود، فلما خرجت الناقة قال لهم صالح: هذه ناقة الله لها شرب ولكم شرب يوم معلوم، فمكثت الناقة ومَعها سقبها في أرض ثمود ترعى الشجر وتشرب الماء، فكانت ترد الماء غبًا فإذا كان يومها وضعت رأسها في بئر في الحجر يقال لها بئر الناقة فما ترفع رأسها حتى تشرب كل ماء فيها فلا تدع قطرة ثم ترفع رأسها فتتفحج حتى تفحج لهم فيحلبون ما شاؤوا من لبن فيشربون ويدّخرون حتى يملؤوا أوانيهم كلها ثم تصدر من غير الفج الذي وردت منه لا تقدر أن تصدر من حيث ترد يضيق عنها، حتى إذا كان يومهم فيشربون ما شاؤوا من الماء ويدّخرون ما شاؤوا ليوم الناقة، فهل له من ذلك في سعة ودعة وكانت الناقة تصيف إذا كان الحرّ بظهر الوادي فتهرب منها المواشي أغنامهم وبقرهم وإبلهم فتهبط إلى بطن الوادي في حرّه وجدبه، وذلك أن المواشي تنفر منها إذا رأتها وتشتو ببطن الوادي إذا كان الشتاء فتهرب مواشيهم إلى ظهر الوادي في البرد والجدب فأضرّ ذلك بمواشيهم للبلاء والاختبار، فكبر ذلك عليهم فعتوا عن أمر ربّهم وحملهم ذلك على عقر الناقة، فأجمعوا على عقرها، وكانت امرأتان من ثمود إحداهما يقال لها عنيزة بنت

وكانت من أحسن الناس وجهاً ليراها قدار ثم حثته على عقرها وأغرته فشد قدار على الناقة بالسيف فكشف عرقوبها فخرجت ورغت رغاة واحدة فتحذر سقبها من الجبل ثم طعن قدار في لبتها فنحرها فخرج أهل البلد فاقتسموا لحمها فلما رأى سقبها ذلك انطلق هارباً حتى أتى جبلاً منيعاً يقال له صور وقيل قارة وأتى صالح عليه الصلاة والسلام فقيل له أدرك الناقة فقد عقرت فأقبل نحوها وخرج أهل البلد يتلقونه ويعتذرون إليه ويقولون يا نبي الله إنما عقرها فلان ولا ذنب لنا فقال صالح انظروا هل تدركون فصيلها فإن أدركتموه فعسى أن يرفع عنكم العذاب فخرجوا في طلبه فرأوه على الجبل فذهبوا ليأخذوه فأوحى الله تعالى إلى الجبل أنْ تطاولْ فتطاول حتى ما تناله الطير وجاء صالح عليه السلام فلما رآه الفصيل بكى حتى سالت دموعه ثم رغا ثلاثاً ثم انفجرت الصخرة فدخلها فقال صالح لكل رغوة أجل يوم تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب وقال ابن إسحاق تبع السقب أربعة نفر من التسعة الذين عقروا الناقة وفيهم مصدع بن مهزج وأخوه ذؤاب فرماه مصدع بسهم فأصاب قلبه ثم جذبه فأنزله وألقوا لحمه مع لحم أمه وقال لهم صالح عليه الصلاة والسلام: انتهكتم حرمة الله فأبشروا بعذاب الله ونقمته قالوا وهم يهزؤون به: ومتى ذلك يا صالح وما آية ذلك؟ وكانوا يسمون الأيام في ذلك الوقت الأحد أول والأثنين أهون والثلاثاء دبار والأربعاء جبار والخميس مؤنس والجمعة العروبة والسبت شبار وكانوا عقروا الناقة يوم الأربعاء فقال لهم صالح عليه الصلاة والسلام حين قالوا ذلك: تصبحون غداً يوم مؤنس ووجوهكم مصفرة، ثم تصبحون يوم العروبة ووجوهكم محمّرة، ثم تصبحون يوم شبار ووجوهكم مسودة ثم يصبحكم العذاب يوم أول فلما قال لهم صالح ذلك قال التسعة الذين عقروا الناقة: هلموا فلنقتل صالحاً فإن كان صادقاً عجلناه قبلنا وإن كان كاذباً كنا قد ألحقناه بناقته فأتوه ليلاً ليقتلوه في أهله

غنم بن مجلز تكنّى بأُم غنم، وكانت امرأة ذؤاب بن عمرو وكانت عجوزاً مسنّة، وكانت ذات بنات حِسان وذات مال من إبل وبقر وغنم وامرأة أخرى يقال لها صدوف بنت المحيا وكانت جميلة غنية ذات مواشٍ كثيرة، وكانتا من أشدّ الناس عداوة لصالح وكانتا تحبّان عقر الناقة لما أضرّت بهما من مواشيهما فتحيلتا في عقر الناقة فدعتْ صدوف رجلاً من ثمود يقال له الحباب لعقر الناقة، وعرضت عليه نفسها إن هو فعل فأبى عليها فدعت ابن عمّ لها يقال له مصدع بن مهرج بن المحيا، وجعلت له نفسها على أن يعقر الناقة وكانت من أحسن الناس وأكثرهم مالاً، فأجابها إلى ذلك ودعت عنيزة بنت غنم قدار بن سالف وكان رجلاً أحمر أزرق قصيراً، يزعمون أنه كان لزانية ولم يكن لسالف ولكنه ولد على فراش سالف، فقالت أُعطيك أيّ بناتي شئت على أن تعقر الناقة، وكان قدار عزيزاً منيعاً في قومه. أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف حدّثنا محمد بن إسماعيل حدّثنا موسى بن إسماعيل حدّثنا وهيب حدّثنا هشام عن أبيه أنه أخبره عبد الله بن زمعة أنه سمع النبي ﷺ يخطب وذكر الناقة والذي عقرها، فقال رسول الله ﷺ: ﴿ إذا انبعث أشقاها ﴾ [الشمس: ١٢]، انبعث لها رجل عزيز عارم منيع في قومه مثل أبي زمعة. رجعنا إلى القصة، قالوا: فانطلق قدار بن سالف ومصدع بن مهرج فاستغويا غواة ثمود فاتبعهم سبعة نفر فكانوا تسعة رهط، فانطلق قدار ومصدع وأصحابهما فرصدوا الناقة حين صدرت عن الماء وقد كمن لها قدار في أصل صخرة على طريقها، وكَمَنَ لها مصدع في طريق آخر فمرّت على مصدع، فرماها بسهم فانتظم به في عضلة ساقها، وخرجت أُم غنم عنيزة وأمرت ابنتها وكانت من أحسن الناس فأسفرت لقدار ثم زمرته، فشدّ على الناقة بالسيف فكشف عرقوبها فخرّت ورغت رغاة واحدة تحذر سقبها، ثم طعن في لبّتها فنحرها، وخرج أهل البلد واقتسموا لحمها وطبخوه، فلما رأى سقبها ذلك انطلق حتى أتى جبلاً منيعاً يقال له صنو، وقيل: اسمه قارة وأتى صالح فقيل له: أدرك الناقة فقد عقرت، فأقبل وخرجوا يتلقونه ويعتذرون إليه يا نبيّ الله إنّما عقرها فلان ولا ذنب لنا، فقال صالح: انظروا هل تذكرون فصيلها فإن أدركتموه فعسى أن يرفع الله عنكم العذاب، فخرجوا يطلبونه،

فدمغتهم الملائكة بالحجارة فلما أبطؤوا على أصحابهم أتوا منزل صالح عليه الصلاة والسلام فوجدوهم وقد رضخوا بالحجارة فقالوا لصالح أنت قتلتهم ثم هموا به فقامت عشيرته دونه وقالوا لا تقتلوه أبداً فإنه قد وعدكم العذاب أنه نازل بكم بعد ثلاث فإن كان صادقاً لم تزيدوا ربكم إلا غضباً عليكم وإن كان كاذباً فأنتم وراء ما تريدون فانصرفوا عنه تلك الليلة فأصبحوا يوم الخميس ووجوههم مصفرة كأنما طليت بالخلوق صغيرهم وكبيرهم ذكرهم وأنثاهم فأيقنوا بالعذاب وعرفوا أن صالحاً قد صدقهم فيما قال فطلبوه ليقتلوه فهرب منهم ولحق بحي من بطون ثمود يقال لهم بنو غنم فنزل على سيدهم واسمه نفيل ويكنى بأبي هدب وهو مشرك فمنع صالحاً فلم يقدروا عليه وكانوا عمدوا إلى أصحاب صالح ليدلوهم عليه فقال رجل من أصحاب صالح يقال له مبدع بن هرم: يا نبي الله إنهم يعذبوننا لندلهم عليك أفندلهم عليك؟ قال: نعم. فدلوهم عليه فأتوا أبو هدب فكلموه في أمر صالح فقال هو عندي وليس لكم إليه سبيل فأعرضوا عنه وتركوه وشغلهم ما نزل بهم من العذاب فجعل بعضهم يخبر بعضاً بما يرون في وجوههم فلما أمسوا صاحوا بأجمعهم ألا قد مضى يوم من الأجل فلما أصبحوا في اليوم الثاني إذا وجوههم محمرة كأنما خضبت بالدم فصاحوا وضجوا وبكوا وأيقنوا أنه العذاب فلما أمسوا صاحوا بأجمعهم ألا قد مضى يومان من الأجل وحضركم العذاب فلما أصبحوا في اليوم الثالث إذا وجوههم مسودة كأنما طليت بالقار فصاحوا جميعاً ألا قد حضركم العذاب فلما كانت ليلة الأحد خرج صالح عليه الصلاة والسلام ومن أسلم معه من بين أظهرهم إلى الشام فنزل رملة فلسطين فلما أصبحوا في اليوم الرابع تكفنوا وتحنطوا وألقوا بأنفسهم إلى الأرض يقلّبون أبصارهم إلى السماء مرة وإلى الأرض مرة لا يدرون من أين يأتيهم العذاب فلما اشتد الضحى من يوم الأحد أتتهم صيحة عظيمة من السماء فيها صوت كل

فلما رأوه على الجبل ذهبوا ليأخذوه، فأوحى الله إلى الجبل فتطاول في السماء حتى لا تناله الطير، وجاء صالح فلما رأى الفصيل بكى حتى سالت دموعه، ثم رغا ثلاثاً وانفجرت الصخرة فدخلها، فقال صالح لكل رغوة أجل يوم فتمتعوا في داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب. وقال ابن إسحاق: اتبع السقب أربعة نفر من التسعة الذين عقروا الناقة، وفيهم مصدع بن مهرج وأخوه هؤاب بن مهرج فرماه مصدع بسهم فانتظم قلبه، جرّه برجله فأنزله، فألقوا لحمه مع لحم أُدمه، وقال لهم صالح: انتهكتم حُرمة الله فأبشروا بعذاب الله ونقمته، قالوا وهم يهزؤون به: ومتى ذلك يا صالح؟ وما آية ذلك؟ وكانوا يسمّون الأيام فيهم الأحد أول والاثنين أهون والثلاثاء دبار والأربعاء جبار والخميس مؤنساً والجمعة العروبة والسبت شبار، وكانوا عقروا الناقة يوم الأربعاء، فقال لهم صالح حين قالوا ذلك: تُصبحون غداة يوم مؤنس ووجوهكم مصفرّة، ثم تُصبحون يوم العروبة ووجوهكم محمرّة، ثم تُصبحون يوم شبار ووجوهكم مسودّة، ثم يصبحكم العذاب يوم أول، فلما قال لهم صالح ذلك قال التسعة الذين عقروا الناقة: هلمّ فلنقتلْ صالحاً فإن كان صادقاً عجّلناه قبلنا، وإن كان كاذباً قد كنّا ألحقناه بناقته فأتوه ليلاً ليبيتوه في أهله، فدمغتهم الملائكة بالحجاره، فلما أبطؤا على أصحابهم أتوا منزل صالح فوجدوهم قد رضخوا بالحجارة، فقالوا لصالح أنت قتلتهم، ثم همّوا به فقامت عشيرته دونه ولبسوا السلاح، وقالوا لهم: والله لا تقتلونه أبداً فقد وعدكم أن العذاب نازل بكم بعد ثلاث ساعات، فإن كان صادقاً لم تزيدوا ربكم عليكم إلّا غضباً وإن كان كاذباً فأنتم من وراء ما تريدون، فانصرفوا عنهم ليلتهم فأصبحوا يوم الخميس ووجوههم مصفرّة كأنّما طُلِيَت بالخلوف صغيرهم وكبيرهم ذكرهم وأُنثاهم، فعند ذلك أيقنوا العذاب وعرفوا أن صالحاً قد صدقهم، فطلبوه ليقتلوه وخرج صالح هارباً منهم حتى جاء إلى بطن من ثمود يقال لهم بني غنم، فنزل على سيدهم رجل يقال له نفيل ويُكنّى بأبي هدب وهو مشرك فغيّبه عنهم ولم يقدروا عليه فغدوا على أصحاب صالح يعذبونهم ليدلّوهم عليه، فقال رجل من أصحاب صالح يقال له مبدع بن هرم: يا نبيّ الله إنهم ليعذبوننا لنهديهم عليك أفندلّهم؟ قال: «نعم»، فدلّهم عليه وأتوا أبا هدب فكلّموه

صاعقة وصوت كل شيء له صوت في الأرض فتقطعت قلوبهم في صدورهم وهلكوا جميعاً إلا جارية مقعدة يقال لها ذريعة بنت سالف وكانت كافرة شديدة العداوة لصالح عليه الصلاة والسلام فأطلق الله تعالى رجليها بعد ما عاينت العذاب وما أصاب ثمود فخرجت مسرعة حتى أتت وادي القرى فأخبرتهم بما عاينت من العذاب الذي بثمود ثم استقت ماء فسقيت فلما شربت ماتت في الحال. وذكر السدي في عقر الناقة فقال: أوحى الله عز وجل إلى صالح عليه والسلام إن قومك سيعقرون ناقتك فقال لهم ذلك صالح فقالوا ما كنا لنفعل فقال صالح إنه سيولد في شهركم هذا غلام يعقرها فيكون هلاككم على يديه فقالوا لا يولد لنا في هذا الشهر ولد إلا قتلناه قال فولد لتسعة منهم في ذلك الشهر أولاد فذبحوهم ثم ولد للعاشر ولد فأبى أن يذبحه لأنه كان لم يولد له قبل ذلك ولد وكان الولد الذي ولد له أحمر أزرق فنبت نباتاً سريعاً فكان إذا مر بالتسعة فرأوه، قالوا: لو كان أبناؤنا أحياء لكانوا مثل هذا الغلام فغضب التسعة على صالح لأنه كان سبب قتل أبنائهم فتقاسموا بالله يعني فتحالفوا بالله لنبيتنه وأهله وقالوا نخرج فنرى الناس أنا قد خرجنا إلى سفر فنأتي الغار فنكون فيه حتى إذا كان الليل وخرج صالح إلى مسجده أتيناه فقتلناه ثم نرجع إلى الغار فنكون فيه حتى ننصرف إلى رحلنا فنقول ما شهدنا مهلك أهله وإنا لصادقون فيصدقوننا فيظنون أنا قد خرجنا إلى سفر وكان صالح لا ينام معهم في القرية بل كان يبيت في مسجد له خارج القرية فإذا أصبح أتاهم فيعظهم ويذكرهم فإذا أمسى خرج إلى مسجده فيتعبد فيه قال فانطلق التسعة إلى الغار فدخلوا فسقط عليهم فقتلوا فانطلق رجال ممن كان قد اطلع على أمرهم لينظروا ما فعل أولئك النفر فرأوهم وهم رضخ فرجعوا إلى القرية يصيحون ما رضي صالح بقتل

في ذلك، فقال: نعم عندي صالح وليس لكم عليه سبيل، فأعرضوا عنه وتركوه وشغلهم عنه ما أنزل الله بهم من عذابه، فجعل بعضهم يخبر بعضاً بما يرون في وجوههم أمسوا صاحوا بأجمعهم ألاَ قدْ مضى يوم من الأجل، فلما أصبحوا اليوم الثاني إذا وجوههم محمرّة كأنما خضّبت بالدماء فصاحوا وبكوا، فلما أمسوا صاحوا بأجمعهم ألا قد مضى يومان من الأجل وحضركم العذاب، فلما أصبحوا اليـوم الثـالث إذا وجوههم مسودّة كأنّما طُليت بالقار فصاحوا بأجمعهم ألاَ قد حضركم العذاب، فلما أن كانت ليلة الأحد خرج صالح من بين أظهرهم ومَن أسلم معه إلى الشام، فنزل رملة فلسطين، فلما أصبح القوم تكفّنوا وتحنطوا وألقوا أنفسهم بالأرض يقلبون أبصارهم إلى السماء مرّة وإلى الأرض مرّة لا يدرون من أين يأتيهم العذاب، فلما اشتد الضحى من يوم الأحد أتتهم صيحة من السماء فيها صوت كل صاعقة، وصوت كل شيء له صوت في الأرض فقطعت قلوبهم في صدورهم فلم يبق منهم صغير ولا كبير إلاّ هلك كما قال الله تعالى: ﴿ فأصبحوا في دارهم جاثمين ﴾، إلاّ جارية مقعدة يقال لها ذريعة بنت سالف وكانت كافرة شديدة العداوة لصالح فأطلق الله رجليها بعدما عاينت العذاب فخرجت كأسرع ما يرى شيء قطّ حتى أتت قزح وهو واد القرى من حدمـا بين الحجاز والشام، فأخبرتهم بما عاينته من العذاب وما أصاب ثمود، ثم استقت من الماء فسقيت فلما شربت ماتت. وذكر السدي في عقر الناقة: وأوحى الله إلى صالح عليه السلام أنّ قومك سيعقرون ناقتك، فقال لهم ذلك فقالوا: ما كنّا نفعل، فقال صالح: إنه يولد في شهركم هذا غلام يعقرها فيكون هلاككم على يديه، فقالوا: لا يولد لنا ولد في هذا الشهر إلاّ قتلناه، قال: فولد لتسعة منهم في ذلك الشهر فذبحوا أبناءهم ثم ولد للعاشر فأبى أن يذبح ابنه، وكان لم يولد له قبل ذلك وكان ابنه أزرق أحمر فنبت نباتاً سريعاً وكان إذا مرّ بالتسعة قالوا: لو كان أبناؤنا أحياء لكانوا مثل هذا فغضب التسعة على صالح لأنه كان سبب قتل أولادهم، فتقاسموا بالله لنبيتنّه وأهله، قالوا: نخرج فيرى الناس أنّا قد خرجنا إلى سفر فنأتي الغار فنكون فيه حتى إذا كان الليل وخرج صالح إلى مسجده أتيناه فقتلناه، ثم رجعنا إلى الغار فكنّا فيه ثم انصرفنا إلى رحلنا فقلنا ما شهدنا مهلك أهله وإنا لصادقون فيصدقوننا يظنون أنّا قد خرجنا إلى سفر، وكان صالح لا ينام معهم في القرية،

أولادهم حتى قتلهم فاجتمع أهل القرية على عقر الناقة. وقال ابن إسحاق: كان التسعة قد تقاسموا على تبييت صالح بعد عقر الناقة، وقال السدي وغيره: لما ولد للعاشر ولد سماه بقدار فكان يشب سريعاً فلما كبر جلس مع أناس يشربون الخمر فأرادوا ماء ليمزجوا به شرابهم وكان ذلك اليوم يوم شرب الناقة فوجدوا الماء قد شربته الناقة فاشتد ذلك عليهم وقالوا ما نصنع نحن بلبن هذه الناقة ولو كنا نأخذ هذا الماء الذي تشربه الناقة فنسقيه لأنعامنا وزروعنا كان خيراً لنا، وقال ابن العاشر: هل لكم أن أعقرها لكم قالوا نعم فعقرها (ق) عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: لما مر رسول الله ﷺ بالحجر قال: «لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم أن يصيبكم ما أصابهم إلا أن تكونوا باكين ثم قنع رأسه وأسرع السير حتى جاوز الوادي» وفي رواية لمسلم: «لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين» ثم ذكر مثله ولهما عنه أن الناس نزلوا مع رسول الله ﷺ على الحجر أرض ثمود فاستقوا من آبارها وعجنوا به العجين فأمرهم رسول الله ﷺ أن يهرقوا ما استقوه ويعلفوا الإبل العجين وأمرهم أن يستقوا من البئر التي كانت تردها الناقة «وللبخاري» أن رسول الله ﷺ لما نزل الحجر في غزوة تبوك أمرهم أن لا يشربوا من آبارهم ولا يستقوا منها فقالوا قد عجنا منها واستقينا فأمرهم النبي ﷺ أن يطرحوا ذلك العجين ويهريقوا ذلك الماء. وفي بعض الأحاديث قال رسول الله ﷺ: «لا تسألوا رسولكم الآيات هؤلاء قوم صالح سألوا رسولهم الآيات فبعث الله الناقة فكانت ترد من هذا الفج وتصدر من هذا الفج وتشرب ماءهم يوم ورودها وأراهم مرتقى الفصيل من القارة فعتوا عن أمر ربهم وعقروها فأهلك الله من تحت أديم السماء منهم في مشارق الأرض ومغاربها إلا رجلاً واحداً يقال له أبو وغال وهو أبو ثقيف، كان في حرم الله فمنعه حرم الله

وكان يبيت في مسجد يقال له مسجد صالح، فإذا أصبح أتاهم فوعظهم وذكّرهم وإذا أمسى خرج إلى المسجد فبات فيه فانطلقوا فدخلوا الغار، فسقط عليهم الغار فقتلهم فانطلق رجال ممّن قد اطّلع على ذلك منهم فإذا هم رضخ فرجعوا يصيحون في القرية أيْ عباد الله ما رضي صالح أن أمرهم بقتل أولادهم حتى قتلهم، فاجتمع أهل القرية على عقر الناقة. وقال ابن إسحاق: كان تقاسم التسعة على تبييت صالح بعد عقرهم الناقة كما ذكر. قال السدي وغيره: فلما ولد ابن العاشر يعني قد أرشب في اليوم شباب غيره في الجمعة وشبّ في شهر شباب غيره في السنة، فلما كبر جلس مع أناس يصيبون من الشراب، فأرادوا ماءً يمزجون به شرابهم، وكان ذلك اليوم شرب الناقة فوجدوا الماء قد شربته الناقة، فاشتدّ ذلك عليهم وقالوا: ما نصنع نحن باللبن لو كنّا نأخذ هذا الماء الذي تشربه هذه الناقة فنسقيه أنعامنا وحروثنا كان خيراً لنا، فقال ابن العاشر: هل لكم في أن أعقرها لكم؟ قالوا: نعم، فعقرها. أخبرنا عبد الواحد المليحي أنبأنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنبأنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا محمد بن مسكين ثنا يحيىٰ بن حسان بن حيان أبو زكريا ثنا سليمان عن عبد الله بن دينار عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ لمّا نزل الحجر في غزوة تبوك أمرهم أن لا يشربوا من بئر بها ولا يسقوا منها، فقالوا: قد عجنّا منها واستقينا، فأمرهم أن يطرحوا ذلك العجين ويهريقوا ذلك الماء. وقال نافع عن ابن عمر: فأمرهم رسول الله ﷺ أن يهريقوا ما استقوا من آبارها وأن يعلفوا الإبل العجين، وأمرهم أن يستقوا من البئر التي كانت تردها الناقة. ورُوِيَ عن الزبير عن جابر قال: لمّا مرّ رسول الله ﷺ بالحجر في غزوة تبوك قال لأصحابه: «لا يدخل أحد منكم القرية ولا تشربوا من مائهم ولا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلّا أن تكونُوا باكين أن يصيبكم مثل ما أصابهم»، ثم قال: «أما بعد فلا تسألوا رسولكم الآيات، هؤلاء قوم صالح سألوا رسولهم الناقة فبعث الله الناقة فكانت ترد من هذا الفج وتصدر من هذا الفج وتشرب ماءهم يوم ورودها، وأراهم مرتقى الفصيل من الجهل فعتوا عن أمر ربهم وعقروها فأهلك الله من تحت أديم السماء منهم في مشارق الأرض ومغاربها إلا رجلاً واحداً يقال له أبو رغال، وهو أبو ثقيف كان في حرم الله فمنعه حرم الله من عذاب الله، فلما خرج أصابه ما أصاب قومه ودفن معه غصن من ذهب، وأراهم قبر أبي

تعالى من عذاب الله فلما خرج أصابه ما أصاب قومه فدفن ودفن معه غصن من ذهب وأراهم رسول الله ﷺ قبر أبي رغال فنزل القوم وابتدروه بأسيافهم وحفروا عنه واستخرجوا ذلك الغصن» وكانت الفرقة المؤمنة من قوم صالح أربعة آلاف خرج بهم صالح إلى حضرموت فلما دخلوها مات صالح فسمي حضرموت ثم بنوا أربعة آلاف مدينة وسموها حضوراء وقال قوم من أهل العلم: توفي صالح عليه الصلاة السلام بمكة وهو ابن ثمان وخمسين سنة وأقام في قومه عشرين سنة قوله تعالى:

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾﴾

﴿ولوطاً﴾ يعني وأرسلنا لوطاً وقيل: معناه واذكر يا محمد لوطاً وهو لوط بن هاران بن تارخ وهو ابن أخي إبراهيم وإبراهيم عمه ﴿إذ قال لقومه﴾ يعني أهل سدوم وإليهم كان قد أرسل وذلك أن لوطاً عليه الصلاة والسلام لما هاجر مع عمه إبراهيم عليهما الصلاة والسلام إلى الشام فنزل إبراهيم عليه الصلاة والسلام أرض فلسطين ونزل لوط الأردن أرسله الله تعالى إلى أهل سدوم يدعوهم إلى الله تعالى وينهاهم عن فعلهم القبيح وهو قوله تعالى: ﴿أتأتون الفاحشة﴾ يعني أتفعلون الفعلة الخسيسة التي هي غاية في القبح وكانت فاحشتهم إتيان الذكران في أدبارهم ﴿ما سبقكم بها من أحد من العالمين﴾ من الأولى زائدة لتوكيد النفي وإفادة معنى الاستغراق والثانية للتبعيض، والمعنى: ما سبقكم أيها القوم بهذه الفعلة الفاحشة أحد من العالمين قبلكم وفي هذا الكلام توبيخ لهم وتقريع على فعلهم تلك الفاحشة. قال عمرو بن دينار: ما نزا ذكر على ذكر في الدنيا إلا كان من قوم لوط ﴿أئنكم لتأتون الرجال﴾ يعني في أدبارهم ﴿شهوة من دون النساء﴾ يعني في أدبار الرجال أشهى عندكم من فروج النساء ﴿بل أنتم﴾ يعني أيها القوم ﴿قوم مسرفون﴾ أي مجاوزون الحلال إلى الحرام وإنما ذمهم وعيرهم ووبخهم بهذا الفعل الخبيث لأن الله تبارك وتعالى خلق الإنسان وركب فيه شهوة النكاح لبقاء النسل وعمران الدنيا وجعل النساء محلاً للشهوة وموضع النسل فإذا تركهن الإنسان وعدل عنهن إلى غيرهن من الرجال فكأنما قد أسرف وجاوز واعتدى لأنه وضع الشيء في غير محله وموضعه الذي خلق له لأن أدبار الرجال ليست محلاً للولادة التي هي مقصودة بتلك الشهوة المركبة في الإنسان وكانت قصة قوم لوط، على ما ذكره محمد بن إسحاق وغيره من أهل الأخبار والسير أنه كانت قرى قوم لوط مخصبة

رغال، فنزل القوم فابتدروا بأسيافهم وحفروا عنه واستخرجوا ذلك الغصن، وكانت الفرقة المؤمنة من قوم صالح أربعة آلاف خرج بهم صالح إلى حضرموت، فلما دخلوها مات صالح فسمّى حضرموت ثم بنى الأربعة آلاف مدينة يقال لها حاضوراء»، قال قوم من أهل العلم: في صالح وهو ابن ثمان وخمسين سنة.

قوله تعالى: ﴿ ولوطاً ﴾، أي: وأرسلنا لوطاً. وقيل: معناه واذكر لوطاً. وهو لوط بن هاران بن تارخ بن أخي إبراهيم، ﴿ وإذْ قالَ لقومِه ﴾، وهم أهل سدوم وذلك أن لوطاً شخص من أرض بابل سافر مع عمّه إبراهيم عليه السلام مؤمناً مهاجراً معه إلى الشام، فنزل إبراهيم فلسطين وأنزل لوطاً الأردن، فأرسله الله عزّ وجلّ إلى أهل سدوم فقال لهم: ﴿ أتأتونَ الفَاحِشَةَ ﴾، يعني: إتيان الذكر، ﴿ ما سبقكم بها من أحدٍ منَ العَالَمِين ﴾، قال عمرو بن دينار ما نزا ذكر على ذكر في الدنيا إلا كان من قوم لوطٍ.

﴿ إنّكم ﴾، قرأ أهل المدينة وحفص «إنكم» بكسر الألف على الخبر، وقرأ الآخرون على الاستئناف، ﴿ لَتأتُونَ الرِّجالَ ﴾، في أدبارهم، ﴿ شهوةً مِنْ دُونِ النِّساء ﴾، فسر تلك الفاحشة يعني أدبار الرجال أشهى إليكم من فروج النساء، ﴿ بل أنتم قومٌ مسرفون ﴾ مجاوزون الحلال إلى الحرام. قال محمد بن إسحاق: كانت لهم ثمار

ذات زروع وثمار لم يكن في الأرض مثلها فقصدهم الناس فآذوهم وضيقوا عليهم فعرض لهم إبليس في صورة شيخ وقال لهم إذا فعلتم بهم كذا وكذا نجوتم منهم فأبوا فلما أحل الناس عليهم قصدوهم فأصابوا غلماناً حساناً صباحاً فأخبثوا واستحكم ذلك فيهم. قال الحسن: كانوا لا ينكحون إلا الغرباء، وقيل: استحكم ذلك الفعل فيهم حتى نكح بعضهم بعضاً. وقال الكلبي: إن أول من عمل به عمل قوم لوط إبليس وذلك لأن بلادهم أخصبت فقصدها أهل البلدان فتمثل لهم إبليس في صورة شاب أمرد فدعا إلى نفسه فكان أول من نكح في دبره فأمر الله تعالى السماء أن تحصبهم والأرض أن تخسف بهم.

وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًاۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًاۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْۖ فَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَاۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾

قوله عز وجل: ﴿وما كان جواب قومه﴾ يعني وما كان جواب قوم لوط للوط إذ وبخهم على فعلهم القبيح وركوبهم ما حرم الله تعالى عليهم من العمل الخبيث ﴿إلا أن قالوا﴾ يعني قال بعضهم لبعض ﴿أخرجوهم من قريتكم﴾ يعني أخرجوا لوطاً وأتباعه وأهل دينه من بلدكم ﴿إنهم أناس يتطهرون﴾ يعني أنهم أناس يتنزهون عن فعلكم وعن أدبار الرجال لأنها موضع النجاسة ومن تركها فقد تطهر، وقيل: إن البعد عن المعاصي والآثام يسمى طهارة فمن تباعد عنهما فقد تطهر فلهذا قال إنهم أناس يتطهرون أي من فعل المعاصي والآثام ﴿فأنجيناه وأهله﴾ يعني فأنجينا لوطاً ومن آمن به واتبعه على دينه، وقيل: المراد بأهله المتصلون به بسبب النسل أو المراد بأهله ابنتاه ﴿إلا امرأته﴾ يعني زوجته ﴿كانت من الغابرين﴾ يعني كانت من الباقين في العذاب لأنها كانت كافرة، وقيل: معناه كانت من الباقين المعمرين قد أتى عليها دهر طويل ثم هلكت مع من هلك من قوم لوط وإنما قال من الغابرين ولم يقل من الغابرات لأنها هلكت

وقرى لم يكن في الأرض مثلها فقصدهم الناس لينالوا من ثمارهم فآذوهم، فعرض لهم إبليس في صورة شيخ، فقال: إن فعلتم بهم كذا وكذا نجوتم، فأبوا فلما ألحّ عليهم قصدوهم فأصابوهم غلماناً صباحاً فأخذوهم وقهروهم على أنفسهم وأخبثوا بهم، فاستحكم ذلك فيهم. قال الحسن: كانوا لا ينكحون إلّا الغرباء. وقال الكلبي: إن أول مَن عمل عمل قومِ لوط إبليس، لأن بلادهم أخصبت فانتجعها أهل البلدان فتمثّل لهم إبليس في صورة شاب ثم دعا إلى دبره فنكح في دبره فأمر الله تعالى السماء أن تحصبهم والأرض أن تخسف بهم.

﴿ وما كانَ جوابَ قومِهِ إلّا أن قالوا ﴾، قال بعضهم لبعض، ﴿ أخرجُوهم ﴾، يعني: لوطاً وأهل دينه، ﴿ من قريتكم إنّهم أُناس يتطهَّرُون ﴾، يتنزهون عن أدبار الرجال.

﴿ فأنجيناه ﴾، يعني: لوطاً، ﴿ وأهله ﴾، المؤمنين، وقيل: أهله ابنتاه، ﴿ إلّا امرأته كانتْ منَ الغابرين ﴾، يعني البـاقين في العذاب، وقيل: معناه كانت من الباقين المعمّرين قد أتى عليها دهر طويل فهلكتْ مع مَن هلك من قوم لوط، وإنما قال: ﴿ من الغابرين ﴾، لأنه أراد ممّن بقي من الرجال فلمّا ضمّ ذكرها إلى ذكر الرجال قال من الغابرين.

مع الرجال فغلب الرجال فقال من الغابرين ﴿وأمطرنا عليهم مطراً﴾ يعني حجارة من سجّيل قد عجنت بالكبريت والنار يقال مطرت السماء وأمطرت. وقال أبو عبيدة: يقال في العذاب أمطرت وفي الرحمة مطرت ﴿فانظر كيف كان عاقبة المجرمين﴾ يعني انظر يا محمد كيف كان عاقبة هؤلاء الذين كذبوا بالله ورسوله وعملوا الفواحش كيف أهلكناهم. قال مجاهد: نزل جبريل عليه السلام فأدخل جناحيه تحت مدائن قوم لوط فاقتلعها ورفعها إلى السماء ثم قلبها فجعل أعلاها أسفلها ثم اتبعوا بالحجارة. وقوله فانظر كيف كان عاقبة المجرمين وإن كان هذا الخطاب للنبي ﷺ لكن المراد به غيره من أمته ليعتبروا بما جرى على أولئك فينزجروا بذلك الاعتبار عن الأفعال القبيحة والفواحش الخبيثة.

قوله عز وجل: ﴿وإلى مدين أخاهم شعيباً﴾ يعني: وأرسلنا إلى مدين أكثر المفسرين على أن مدين اسم رجل وهو مدين بن إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام فعلى هذا يكون المعنى وأرسلنا إلى ولد مدين ومدين اسم للقبيلة كما يقال بنو تميم بو عدي وبنو أسد. وقيل: مدين اسم للماء الذي كانوا عليه وقيل هو اسم للمدينة وعلى هذين القولين يكون المعنى: وأرسلنا إلى أهل مدين والصحيح هو الأول لقوله أخاهم شعيبا يعني في النسب لا في الدين وشعيب هو ابن ثويب بن مدين بن إبراهيم عليه الصلاة والسلام قاله عطاء وقال محمد بن إسحاق وهو شعيب بن ميكيل بن يشجر بن مدين بن إبراهيم عليه الصلاة والسلام وأم ميكيل بنت لوط عليه السلام. وقيل: هو شعيب بن يثرون بن ثويب بن مدين بن إبراهيم عليه السلام وكان شعيب أعمى وكان يقال له خطيب الأنبياء لحسن مراجعته قومه وكان قومه أهل كفر وبخس في المكيال والميزان ﴿قال﴾ يعني شعيباً ﴿يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره قد جاءتكم بينة من ربكم﴾ يعني: قد جاءتكم حجة وبرهان من ربكم بحقية ما أقول وصدق ما أدعي من النبوة والرسالة إليكم لأنه لا بد لكل نبي من معجزة تدل على صدق ما جاء به من عند الله غير أن تلك المعجزة التي كانت لشعيب لم تذكر في القرآن وليست كل آيات الأنبياء مذكورة في القرآن، وقيل: أراد بالبينة مجيء شعيب بالرسالة إليهم وقيل أراد بالبينة الموعظة وهي قوله: ﴿فأوفوا الكيل والميزان﴾ يعني فأتموا الكيل والميزان وأعطوا الناس حقوقهم وهو قوله ﴿ولا تبخسوا الناس أشياءهم﴾ يعني لا تظلموا الناس حقوقهم ولا تنقصوهم إياها فتطففوا الكيل والوزن. يقال: بخس فلان في الكيل والوزن إذا نقصه وطففه ﴿ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها﴾ يعني بعد أن أصلحها الله تعالى ببعثة الرسل وإقامة العدل وكل نبي يبعث إلى قوم فهو صلاحهم ﴿ذلكم﴾ يعني الذي ذكرت لكم وأمرتكم به من الإيمان بالله ووفاء

﴿ وأمطرنا عليهم مطراً ﴾. يعني حجارة من سجّيل قال وهب: الكبريت والنار، ﴿ فانظرْ كيفَ كان عاقبةُ المجرمين ﴾، قال أبو عبيدة: يقال في العذاب أمطر وفي الرحمة مطر.

قوله تعالى: ﴿ وإلى مدين أخاهم شعيباً ﴾، أي: وأرسلنا إلى ولد مدين وهو مدين إبراهيم خليل الرحمن عليه السلام، وهم أصحاب الأيكة أخاهم شعيباً في النسب لا في الدين. قال عطاء: هو شعيب بن توبة بن مدين بن إبراهيم. وقال ابن إسحاق: هو شعيب بن ميكائيل بن يزجر بن مدين بن إبراهيم وأُم ميكائيل بنت لوط. وقيل: هو شعيب بن يثرون بن مدين بن إبراهيم، وكان شعيب أعمى وكان يقال له خطيب الأنبياء لحُسن مراجعته قومه، وكان قومه أهل كفر وبخس للمكيال والميزان، ﴿ قال يا قوم اعبدُوا الله ما لكم مِنْ إلهٍ غيرُهُ قدْ جاءتْكم بيّنةٌ من ربّكم ﴾، فإن قيل: ما معنى قوله تعالى: ﴿ قد جاءتكم بيّنة من ربّكم ﴾ ولم يكن لهم آية مذكورة قيل: قد كانت لهم هذه الآية إلّا أنها لم تذكر، وليست كل الآيات مذكورة في القرآن، وقيل: أراد بالبيّنة مجيء شعيب، ﴿ فأوفوا الكيل ﴾، أتمّوا الكيل، ﴿ والميزانَ ولا تَبْخَسُوا النّاسَ أشياءَهم ﴾، لا تظلموا الناس حقوقهم ولا تنقصوهم إياها، ﴿ ولا تُفسدوا في الأرض بعد إصلاحِها ﴾، أي: ببعث الرسل والأمر بالعدل، وكل نبي بعث إلى

الكيل والميزان وترك الظلم والبخس ﴿خير لكم﴾ يعني مما أنتم عليه من الكفر وظلم الناس ﴿إن كنتم مؤمنين﴾ يعني إن كنتم مصدّقين بما أقول.

وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا
عِوَجًا ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِن
كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ فَٱصْبِرُوا۟ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ
ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾ ۞ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ
فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ
أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ
خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾

﴿ولا تقعدوا بكل صراط توعدون﴾ يعني أن شعيباً قال لقومه الكفار ولا تقعدوا على كل طريق من الدين والحق تمنعون الناس من الدخول فيه وتهددونهم على ذلك ذلك أنهم كانوا يجلسون على الطرقات ويخوفون من يريد الإيمان بالله وبرسوله شعيب وهو قوله تعالى: ﴿وتصدون عن سبيل الله من آمن به﴾ يعني وتمنعون من يريد الإيمان بالله وتقولون إن شعيباً كذاب وتخوفونه بالقتل. قال ابن عباس: كانوا يجلسون على الطريق فيخبرون من أتى عليهم أن شعيبا الذي تريدونه كذاب فلا يفتنكم عن دينكم ﴿وتبغونها عوجاً﴾ يعني: وتريدون اعوجاج الطريق عن الحق وعدولها عن القصد. وقيل معناه تلتمسون لها الزيغ والضلال ولا تستقيمون على طريق الهدى والرشاد ﴿واذكروا إذا كنتم قليلاً فكثركم﴾ يعني: أن شعيباً عليه الصلاة والسلام ذكرهم نعمة الله عليهم. قال الزجاج: يحتمل ذلك ثلاثة أوجه كثر عددكم وكثركم بالغنى بعد الفقر وكثركم بالقوة بعد الضعف ووجه ذلك أنهم إذا كانوا فقراء ضعفاء فهم بمنزلة القليل والمعنى إنه كثركم بعد القلة وأعزكم بعد الذلة فاشكروا نعمة الله تعالى عليكم وآمنوا به ﴿وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين﴾ يعني وانظروا نظر اعتبار ما نزل بمن كان قبلكم من الأمم السالفة والقرون الخالية حين عتوا على ربهم وعصوا رسله من العذاب والهلاك وأقرب الأمم إليكم قوم لوط فانظروا كيف أرسل الله تعالى عليهم حجارة من السماء لما عصوه وكذبوا رسله ﴿وإن كان طائفة منكم آمنوا بالذي أرسلت به وطائفة لم يؤمنوا﴾ يعني وإن اختلفتم في رسالتي فصرتم فرقتين فرقة آمنت بي وصدقت برسالتي وفرقة كذبت وجحدت رسالتي ﴿فاصبروا﴾ فيه وعيد وتهديد ﴿حتى يحكم الله بيننا﴾ يعني حتى يقضي الله ويفصل بيننا فيعجز المؤمنين المصدقين وينصرهم ويهلك المكذبين الجاحدين ويعذبهم ﴿وهو خير الحاكمين﴾ يعني أنه حاكم عادل منزه عن الجور والميل والحيف في حكمه وإنما قال خير الحاكمين لأنه قد يسمى بعض الأشخاص حاكماً على سبيل المجاز والله تعالى هو الحاكم في الحقيقة

قوم فهو صلاحهم، ﴿ ذلكم ﴾ الذي ذكرت لكم وأمرتكم به، ﴿ خير لكم إن كنتم مؤمنين ﴾، مصدّقين بما أقول.

﴿ ولا تقعدُوا بكل صراط ﴾، أي: على كل طريق، ﴿ تُوعِدُون ﴾، تهددون، ﴿ وتَصُدُّونَ عن سبيل الله ﴾، دين الله، ﴿ مَنْ آمنَ به وتبغونها عِوجاً ﴾، زيغاً، وقيل: تطلبون الإعوجاج في الدين والعدول عن القصد، وذلك أنهم كانوا يجلسون على الطريق فيقولون لمَن يريد الإيمان لشعيب، إن شعيب كذاب فلا يفتنك عن دينك ويتوعدون المؤمنين بالقتل ويخوفونهم. وقال السدي: كانوا عشّارين. ﴿ واذكروا إذ كنتم قليلاً فكثركم ﴾، فكثر عددهم، ﴿ وانظرُوا كيف كان عاقبةُ المفسدين ﴾، أي: آخر أمر قوم لوط.

فلهذا قال وهو خير الحاكمين ﴿قال الملأ الذين استكبروا من قومه﴾ يعني قال الجماعة من أشراف قومه الذين تكبروا عن الإيمان بالله وبرسوله وتعظموا عن اتباع شعيب ﴿لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودنّ في ملتنا﴾ يعني أن قوم شعيب أجابوه بأن قالوا لا بد من أحد أمرين إما إخراجك ومن تبعك على دينك من بلدنا أو لترجعن إلى ديننا وملتنا وما نحن عليه وهذا فيه إشكال وهو أن شعيباً عليه الصلاة والسلام لم يكن قط على ملتهم حتى يرجع إلى ما كان عليه فما معنى قوله أو لتعودن في ملتنا وأجيب عن هذا الإشكال بأن اتباع شعيب كانوا قبل الإيمان به على ملة أولئك الكفار فخاطبوا شعيبا وأتباعه جميعاً فدخل هو في الخطاب وإن لم يكن على ملتهم قط. وقيل: معناه لتصيرن إلى ملتنا فوقع العود على معنى الابتداء كما تقول قد عاد عليّ من فلان مكروه بمعنى قد لحقني منه ذلك وإن لم يكن قد سبق منه مكروه فهو كما قال الشاعر:

فـــإن تكـــن الأيـــام أحســـن مـــدة إلـــي فقـــد عـــادت لهـــن ذنـــوب

أراد فقد صارت لهن ذنوب ولم يرد أن ذنوباً كانت لهن قبل الإحسان.

وقوله تعالى: ﴿قال أو لو كنا كارهين﴾ أي لا نعود في ملتكم وإن أكرهتمونا وأجبرتمونا على الدخول فيها فلا نقبل ولا ندخل ﴿قد افترينا على الله كذباً إن عدنا في ملتكم بعد إذ نجانا الله منها﴾ يعني أن شعيباً أجاب قومه إذ دعوه ومن آمن به إلى العود إلى ملتهم والدخول فيها فقال قد افترينا يعني قد اختلقنا على الله كذباً وتخرصنا عليه من القول باطلاً إن نحن رجعنا إلى ملتكم وقد علمنا فساد ما أنتم عليه من الملة والدين وقد أنقذنا الله وخلصنا منها وبصرنا خطأها وهذا أيضاً فيه من الاشكال مثل ما في الأول وهو أن شعيباً عليه الصلاة والسلام ما كان في ملتهم قط حتى يقول إن عدنا في ملتكم بعد إذ نجانا الله منها والجواب عنه مثل ما أجيب عن الإشكال الأول وهو أن نقول إن الله نجى قومه الذين آمنوا به من تلك الملة الباطلة، إلا أن شعيباً نظم نفسه في جملتهم وإن كانا بريئاً مما كانوا عليه من الكفر فأجرى الكلام على حكم التغليب. وقيل: معنى نجانا الله منها علمنا قبح ملتكم وفسادها فكأنه خلصنا منها وقوله تعالى إخباراً عنه ﴿وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا﴾ يعني وما يكون لنا أن نرجع إلى ملتكم ونترك الحق الذي نحن عليه إلا أن يشاء الله ربنا يعني إلا أن يكون قد سبق لنا في علم الله أن نعود فيها فحينئذ يمضي قضاء الله وقدره فينا وينفذ سابق مشيئته علينا وقال الواحدي: ومعنى العود هنا الابتداء والذي عليه أهل العلم والسنة في هذه الآية أن شعيباً وأصحابه قالوا ما كنا لنرجع إلى ملتكم بعد أن وقفنا على أنها ضلالة تكسب دخول النار إلا أن يريد الله إهلاكنا فأمورنا راجعة إلى الله غير خارجة عن قبضته يسعد من يشاء بالطاعة ويشقي من يشاء بالمعصية وهذا من شعيب وقومه استسلام لمشيئة الله ولم تزل الأنبياء والأكابر يخافون العاقبة وانقلاب الأمر ألا ترى إلى قول الخليل عليه الصلاة والسلام «واجنبني وبنيّ أن نعبد الأصنام» وكان نبينا محمد ﷺ كثيراً ما يقول «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك» قال الزجاج رحمه الله تعالى المعنى وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يكون قد سبق في علم الله ومشيئته أن نعود فيها

﴿ وإن كان طائفةٌ منكم آمنوا بالذي أُرسلتُ به وطائفةٌ لم يُؤمنوا ﴾، أي: إن اختلفتم في رسالتي فصرتم فرقتين مكذّبين ومصدقين، ﴿ فاصبروا حتى يحكم الله بيننا ﴾، بتعذيب المكذبين وإنجاء المصدقين، ﴿ وهو خيرُ الحاكمين ﴾.

﴿ قال الملأ الذين استكبرُوا مِن قومِه ﴾، يعني الرؤساء الذين تعظموا عن الإيمان به، ﴿ لنُخرجنّك يا شعيبُ والذينَ آمنوا معكَ من قريتنا أو لَتَعُودُنَّ في مِلّتنا ﴾، لترجعنّ إلى ديننا الذي نحن عليه، ﴿ قال ﴾ شعيب ﴿ أَوَ لو كنّا كارِهين ﴾، يعني: أَوَ لو كنّا أي: إن كنّا كارهين لذلك فتجبروننا عليه؟

وتصديق ذلك قوله ﴿وسع ربنا كل شيء علماً﴾ يعني أنه تعالى يعلم ما يكون قبل أن يكون وما سيكون وأنه تعالى كان عالماً في الأزل بجميع الأشياء فالسعيد من سعد في علم الله تعالى والشقي من شقي في علم الله تعالى ﴿على الله توكلنا﴾ على الله نعتمد وإليه نستند في أمورنا كلها فإنه الكافي لمن توكل عليه والمعنى: على الله توكلنا لا على غيره فكأنه ترك الأسباب ونظر إلى مسبب الأسباب ﴿ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق﴾ لما أيس شعيب من إيمان قومه دعا بهذا الدعاء فقال ربنا افتح أي اقض وافصل واحكم بيننا وبين قومنا بالحق يعني بالعدل الذي لا جور فيه ولا ظلم ولا حيف ﴿وأنت خير الفاتحين﴾ يعني خير الحاكمين قال الفراء إن أهل عمان يسمون القاضي الفاتح والفتاح وقال غيره من أهل اللغة هي لغة مراد وأنشد لبعضهم في ذلك:

ألا أبلـــغ بنـــي عصـــم رســـولاً فـــإنـــي عـــن فتـــى حكـــم غنـــي

أراد أنه غني عن حاكمهم وقاضيهم. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ما كنت أدري ما معنى قوله ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين حتى سمعت ابنة ذي يزن تقول تعال أفاتحك يعني أقاضيك. وهذا قول قتادة والسدي وابن جريج وجمهور المفسرين أن الفاتح هو القاضي والحاكم سمي بذلك لأنه يفتح أغلاق الإشكال بين الخصوم ويفصلها. وقال الزجاج: وجائز أن يكون معناه ربنا أظهر أمرنا حتى ينفتح بيننا وبين قومنا وينكشف والمراد منه أن ينزل عليهم عذاباً يدل على كونهم مبطلين وعلى كون شعيب وقومه محقين وعلى هذا الوجه فالفتح يراد به الكشف والتمييز.

وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَـٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَـٰثِمِينَ ﴿٩١﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا ۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَانُواْ هُمُ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾

﴿وقال الملأ الذين كفروا من قومه لئن اتبعتم شعيباً﴾ يعني وقال جماعة من أشراف قوم شعيب ممن كفر به لآخرين منهم لئن اتبعتم شعيبا على دينه وتركتم دينكم وملتكم وما أنتم عليه ﴿إنكم إذاً لخاسرون﴾ يعني إنكم لمغبونون في فعلكم ﴿فأخذتهم الرجفة﴾ يعني الزلزلة الشديدة ﴿فأصبحوا في دارهم جاثمين﴾ قال ابن عباس وغيره: فتح الله عليهم باباً من جهنم فأرسل عليهم حراً شديداً من جهنم فأخذ بأنفاسهم فلم ينفعهم ظل ولا ماء فدخلوا في الأسراب ليبردوا فيها فوجدوها أشد حراً من الظاهر فخرجوا هرباً إلى البرية فبعث الله عليهم سحابة فيها ريح طيبة باردة فأظلتهم وهي الظلة فوجدوا لها برداً ونسيماً فنادى بعضهم بعضاً حتى إذا اجتمعوا تحت السحابة رجالهم

﴿ قدِ افْترينا على اللَّهِ كذباً إن عُدْنَا في مِلَتِكم بعد إذْ نجّانا اللَّهُ منها وما يكون لنا أنْ نعودَ فيها ﴾، بعد إذ أنقذنا الله منها، ﴿ إلاّ أنْ يشاءَ اللَّهُ ربُّنا ﴾ يقول إلاّ أن يكون قد سبق لنا في علم الله ومشيئته أنّا نعود فيها فحينئذ يمضي قضاء الله فينا وينفذ حكمه علينا. فإن قيل: ما معنى قوله: ﴿ أو لَتَعُودُنّ في ملّتنا ﴾، ﴿ وما يكون لنا أن نعودَ فيها ﴾، ولم يكن شعيب قطّ على ملّتهم حتى يصحّ قولهم ترجع إلى ملّتنا؟ قيل: معناه أو لتدخلنّ في ملّتنا، فقال: وما كان لنا أن ندخل فيها. وقيل: معناه إن صرنا في ملّتكم. ومعنى عاد صار وقيل: أراد به قوم شعيب لأنهم كانوا كفّاراً فآمنوا فأجاب شعيب عنهم، قوله: ﴿ وَسِعَ ربُّنا كلَّ شيءٍ علماً ﴾، أحاط علمه بكل شيء، ﴿ على اللَّهِ توكلنا ﴾، فيما توعدوننا فيه، ثم عاد شعيب بعدما أيس من فلاحهم فقال: ﴿ ربَّنا افتحْ بيننا وبينَ قومِنَا ﴾، أي: اقضِ بيننا، ﴿ بالحق ﴾، والفتّاح: القاضي، ﴿ وأنت خيرُ الفاتحين ﴾، أي: الحاكمين.

﴿ قالَ الملأ الذين كفروا مِنْ قومه لئنِ اتبعتُم شُعيباً ﴾، تركتم دينكم، ﴿ إنّكم إذاً لخاسرون ﴾، مغبونون، قال عطاء: جاهدون. قال الضحاك: عجزة.

ونساؤهم وصبيانهم ألهبها الله عليهم ناراً ورجفت بهم الأرض من تحتهم فاحترقوا كاحتراق الجراد في المقلاة وصاروا رماداً، وروي أن الله تعالى حبس عنهم الريح سبعة أيام ثم سلط عليهم الحر حتى هلكوا بها. وقال قتادة: بعث الله شعيباً إلى أصحاب الأيكة وإلى أهل مدين فأما أصحاب الأيكة فأهلكوا بالظلة وأما أهل مدين فأخذتهم الرجفة صاح بهم جبريل عليه السلام صيحة هلكوا جميعاً. قال أبو عبد الله البجلي: كان أبو جاد وهوز وحطي وكلمن وسعفص وقرشت ملوك مدين وكان ملكهم في زمن شعيب يوم الظلة اسمه كلمن فلما هلك قالت ابنته شعراً تبكيه وترثيه به:

كلمـــن هـــدم ركنـــي هلكـــه وســـط المحلـــة
سيـــد القـــوم أتـــاه هلـــك نـــار تحـــت ظلـــة
جعلـــت نـــاراً عليهـــم دارهـــم كـــالمضمحلـــة

وقوله تعالى: ﴿الذين كذبوا شعيباً كأن لم يغنوا فيها﴾ يعني كأن لم يقيموا فيها ولم ينزلوها يوماً من الدهر يقال: غنيت بالمكان أي أقمت به. والمغاني: المنازل التي بها أهلها واحدها مغنى قال الشاعر:

ولقـــد غنـــوا فيهـــا بـــأنعـــم عيشـــة فـــي ظـــل ملـــك ثـــابـــت الأوتـــاد

أراد أقاموا فيها وقيل في معنى الآية كأن لم يعيشوا فيها متنعمين مستغنين. يقال: غني الرجل إذا انغنى وهو من الغنى الذي هو ضد الفقر ﴿الذين كذبوا شعيبا كانوا هم الخاسرين﴾ يعني خسروا أنفسهم بهلاكهم.

﴿ فأخَذَتْهُم الرجفةُ فأصبحوا في دارِهِم جَاثمين ﴾، قال الكلبي: الزلزلة. وقال ابن عباس رضي الله عنهما وغيره: فتح الله عليهم باباً من جهنم فأرسل عليهم حرّاً شديداً فأخذ بأنفاسهم ولم ينفعهم ظل ولا ماء فكانوا يدخلون الأسراب ليبردوا فيها فإذا دخلوها وجدوها أشدّ حرّاً من الظاهر، فخرجوا هرباً إلى البرية فبعث الله سحابة فيها ريح طيبة فأظلّتهم، فنادى بعضهم بعضاً وهي الظلة، فوجدوا لها برداً ونسيماً حتى اجتمعوا تحت السحابة، رجالهم ونساؤهم وصبيانهم ألْهَبها اللّهُ عليهم ناراً ورجفت بهمُ الأرض فاحترقوا كما يحترق الجراد المقلي، وصاروا رماداً. ورُوِيَ أن الله تعالى حبس عنهم الريح سبعة أيام ثم سلّط عليهم الحرّ. قال يزيد الجريري: سلّط الله عليهم الحرّ سبعة أيام ثم رفع لهم جبل من بعيد فأتاه رجل فإذا تحته أنهار وعيون فاجتمعوا تحته كلهم فوقع ذلك الجبل عليهم، فذلك قوله: ﴿ عذابُ يوم الظلة ﴾ [الشعراء: ١٨٩]، قال قتادة: بعث الله شعيباً إلى أصحاب الأيكة وأصحاب مدين، أما أصحاب الأيكة فأهلكوا بالظلة، وأما أصحاب مدين فأخذتهم الصيحة، صاح بهم جبريل عليه السلام فهلكوا جميعاً. قال أبو عبد الله البجلي: كان أبو جاد وهوّز وحطّي وكلمن وسعفص وقرشت ملوك مدين، وكان ملكهم في زمن شعيب عليه السلام يوم الظلة كلمن، فلما هلك قامت ابنته تبكيه:

كـلـمـن قـد هـدَّ ركـنـي هـلـكـه وسط الـمـحـلّة
سـيـد الـقـوم أتـاه هـلـك نـاراً تـحـت ظـلـه
جـعـلـت نـاراً عـلـيـهـم دارهـم كـالـمـضـمـحـلّة

وقوله تعالى: ﴿ الذين كذّبوا شعيباً كأن لم يَغْنَوا فيها ﴾، أي: لم يقيموا ولم ينزلوا فيها، من قولهم: غنيت بالمكان إذا قمت به، والمغاني المنازل واحدها مغنى، وقيل: كأن لم يتنعموا فيها.

﴿ الذين كذبوا شعيباً كانوا هم الخاسرون ﴾، لا المؤمنين كما زعموا.

فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ
كَٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا
مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَواْ وَّقَالُواْ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾ وَلَوْ
أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُواْ
يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾

﴿**فتولى عنهم**﴾ يعني فأعرض عنهم شعيب شاخصاً من بين أظهرهم حين أتاهم العذاب ﴿**وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم**﴾ يعني أنه قال لهم ذلك لما تيقن نزول العذاب بقومه واختلفوا هل كان ذلك القول قبل نزول العذاب أو بعده على قولين سبقا في قصة صالح عليه الصلاة والسلام وقوله ﴿**فكيف آسى**﴾ يعني أحزن ﴿**على قوم كافرين**﴾ والأسى أشد الحزن وإنما اشتد حزنه على قومه لأنهم كانوا كثيرين وكان يتوقع منهم الإجابة والإيمان فلما نزل بهم ما نزل من العذاب عزى نفسه فقال كيف أحزن على قوم كافرين لأنهم هم الذين أهلكوا أنفسهم بإصرارهم على الكفر. وقيل في معنى الآية إن شعيباً قال لقد أعذرت إليكم في الإبلاغ والنصيحة والتحذير فلم تسمعوا قولي ولم تقبلوا نصحي فكيف أحزن عليكم يعني إنكم لستم مستحقِّين لأن يحزن عليكم.

فعلى القول الأول: إنه حصل لشعيب حزن على قومه.

وعلى القول الثاني: لم يحزن عليه والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿**وما أرسلنا في قرية من نبي**﴾ فيه إضمار وحذف تقديره فكذبوه ﴿**إلا أخذنا أهلها بالبأساء والضراء**﴾ قال ابن مسعود: البأساء الفقر والضراء المرضى وهو معنى قول الزجاج: فإنه قال البأساء كل ما نالهم من الشدة في أموالهم والضراء كل ما نالهم من الأمراض. وقيل: البأساء الشدة وضيق العيش والضراء الضر وسوء الحال ﴿**لعلهم يضرعون**﴾ يعني إنما فعلنا بهم ذلك لكي يتضرعوا ويتوبوا والتضرع الخضوع والانقياد لأمر الله عز وجل والمراد من هذه الآية أن الله عز وجل لما عرف نبيه ﷺ أحوال الأنبياء مع أممهم المكذبة وقص عليه من أخبارهم وعرفه سنته في الأمم الذين خلوا من قبله وما صاروا إليه من الهلاك والعذاب عرفه في هذه الآية أنه قد أرسل رسلاً إلى أمم أخر فكذبوا رسلهم فأخذهم بالبأساء والضراء كما فعل بمن كذب برسله وفيه تخويف وتحذير الكفار قريش وغيرهم من لكفار لينزجروا عما هم عليه من الكفر والتكذيب ثم بين تعالى أنه لا يجري تدبيره في أهل القرى على نمط واحد وسنة واحدة إنما يدبرهم بما يكون إلى الإيمان أقرب وهو قوله تعالى: ﴿**ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة**﴾ لأن ورود النعمة على البدن والمال بعد الشدة والضيق يستدعيَ الانقياد للطاعة والاشتغال بالشكر. قال أهل اللغة: السيئة كل ما يسوء صاحبه والحسنة كل ما يستحسنه الطبع والعقل فالسيئة والحسنة هنا الشدة والرخاء. والمعنى أنه تعالى

﴿ **فتولى عنهم** ﴾، أعرض عنهم شعيب شاخصاً من بين أظهرهم حين أتاهم العذاب، ﴿ **وقال يا قومِ لقد أبلغتُكم رسالاتِ ربي ونصحتُ لكم فكيف آسَى** ﴾، أحزن، ﴿ **على قومٍ كافرين** ﴾، والأسى: الحزن، والأسى: الصبر.

قوله: ﴿ **وما أرسلنا في قرية من نبي** ﴾، فيه إضمار، يعني: فكذبوه، ﴿ **إلّا أخذنا** ﴾، عاقبنا ﴿ **أهلها** ﴾، حين لم يؤمنوا، ﴿ **بالبأساءِ والضرّاء** ﴾، قال ابن مسعود: البأساء الفقر والضرّاء المرض، وهذا معنى قول مَن قال

بدل مكان البأساء والضراء النعمة والسعة والخصب والصحة في الأبدان فأخبر الله تعالى في هذه الآية أنه يأخذ أهل المعاصي والكفر تارة بالشدة وتارة بالرخاء على سبيل الاستدراج وهو قوله ﴿حتى عفوا﴾ يعني أنه فعل ذلك بهم حتى كثروا وكثرت أموالهم. يقال: عفا الشعر إذا كثر وطال. قال مجاهد: حتى كثرت أموالهم وأولادهم ﴿وقالوا﴾ يعني من غرتهم وغفلتهم بعد ما صاروا إلى الرخاء والسعة ﴿قد مس آباءنا الضراء والسراء﴾ يعني أنهم قالوا هكذا عادة الدهر قديماً وحديثاً لنا ولآبائنا ولم يكن ما مسنا من الشدة والضراء عقوبة لنا من الله تعالى على ما نحن عليه فكونوا على ما أنتم عليه كما كان آباؤكم من قبل فإنهم لم يتركوا دينهم مما أصابهم من الضراء والسراء قال الله تعالى: ﴿فأخذناهم بغتة﴾ يعني أخذناهم فجأة آمن ما كانوا ليكون ذلك أعظم لحسرتهم ﴿وهم لا يشعرون﴾ يعني بنزول العذاب بهم والمراد بذكر هذه القصة اعتبار من سمعها لينزجر عما هو عليه من الذنوب.

قوله عز وجل: ﴿ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا﴾ لما بين الله تعالى في هذه الآية الأولى ﴿إن الذين عصوا وتمردوا أخذهم بعذابه﴾ بين في هذه الآية أنهم لو آمنوا يعني بالله ورسوله وأطاعوه فيما أمرهم به واتقوا يعني ما نهى الله تعالى عنه وحرمه عليهم ﴿لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض﴾ وبركات السماء المطر وبركات الأرض النبات والثمار وجميع ما فيها من الخيرات والأنعام والأرزاق والأمن والسلامة من الآفات وكل ذلك من فضل الله تعالى وإحسانه على عباده. وأصل البركة ثبوت الخير الإلهي في الشيء وسمي المطر بركة السماء لثبوت البركة فيه وكذا ثبوت البركة في نابت الأرض لأنه نشأ عن بركات السماء وهي المطر. وقال البغوي: أصل البركة المواظبة على الشيء. أي تابعنا عليهم بالمطر من السماء والنبات من الأرض ورفعنا عنهم القحط والجدب ﴿ولكن كذبوا﴾ يعني فعلنا بهم ذلك ليؤمنوا فما آمنوا ولكن كذبوا يعني الرسل ﴿فأخذناهم﴾ يعني بأنواع العذاب ﴿بما كانوا يكسبون﴾ يعني أخذناهم بسبب كسبهم الأعمال الخبيثة.

قوله تعالى: ﴿أفأمن أهل القرى﴾ هو استفهام بمعنى الإنكار وفيه وعيد وتهديد وزجر، والمراد بالقرى مكة وما حولها، وقيل: هو عام في كل أهل القرى الذين كفروا وكذبوا ﴿أن يأتيهم بأسنا﴾ يعني عذابنا ﴿بياتاً﴾ يعني ليلاً ﴿وهم نائمون﴾.

البأساء في الماء والضرّاء في النفس. وقيل: البأساء البؤس وضيق العيش، والضرّاء والضرّ سوء الحال. وقيل: البأساء في الحزن والضرّاء في الجدب، ﴿ لعلّهم يضرعُون ﴾، لكي يتضرعوا فيتوبوا.

﴿ ثم بدّلنا مكانَ السيئةِ الحسنة ﴾، يعني: النعمة والسعة والخصب والصحة، ﴿ حتى عَفَوا ﴾، أي: كثروا وازْدادوا، أو كثرت أموالهم، يقال: عفا الشعر إذا كثر. قال مجاهد: كثرت أموالهم وأولادهم، ﴿ وقالوا ﴾، من غرّتهم وغفلتهم بعدما صاروا إلى الرخاء، ﴿ قدْ مسّ آباءَنا الضرّاءُ والسرّاءُ ﴾، أي: هكذا كانت عادة الدهر قديماً لنا ولآبائنا ولم يكن ما مسّنا من الضرّاء عقوبة من الله، فكونوا على ما أنتم عليه كما كان آباؤكم فإنهم لم يتركوا دينهم لِما أصابهم من الضرّاء، قال الله تعالى عزّ وجلّ: ﴿ فأخذناهم بغتةً ﴾، فجأةً آمَنَ ما كانُوا ﴿ وهم لا يشعرون ﴾، بنزول العذاب.

﴿ ولو أنّ أهلَ القرى آمنوا واتَّقوا لَفَتَحْنَا عليهم بركاتٍ منَ السماء والأرض ﴾، يعني: المطر من السماء والنبات من الأرض. وأصل البركة: المواظبة على الشيء، أي: تابعنا عليهم المطر والنبات ورفعنا عنهم القحط والجدب، ﴿ ولكنْ كذّبوا فأخذناهمْ بما كانوا يكسِبُون ﴾، من الأعمال الخبيثة.

﴿ أفأَمِنَ أهلُ القرى ﴾ الذين كفروا وكذبوا، يعني: مكة وما حولها، ﴿ أن يأتِيَهُمْ بأسُنا ﴾، عذابنا، ﴿ بياتاً ﴾، ليلاً، ﴿ وهم نائمون ﴾.

﴿أَوَ أَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝٩٨ أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ۝٩٩ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَـٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۝١٠٠ تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ۝١٠١﴾

﴿**أوأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى**﴾ يعني نهاراً لأن الضحى صدر النهار ﴿**وهم يلعبون**﴾ يعني: وهم ساهون لاهون غافلون عما يراد بهم. والمقصود من الآية أن الله خوفهم بنزول العذاب وهم في غاية الغفلة وهو حال النوم بالليل وحال الضحى بالنهار لأنه الوقت الذي يغلب على الإنسان التشاغل فيه بأمور الدنيا، وأمور الدنيا كلها لعب ويحتمل أن يكون المراد خوضهم في كفرهم وذلك لعب أيضاً لأنه يضر ولا ينفع ﴿**أفأمنوا مكر الله**﴾ يعني استدارجه إياهم بما أنعم عليهم من الدنيا وقيل: المراد به أن يأتيهم عذابه من حيث لا يشعرون، وعلى هذا الوجه فيكون بمعنى التحذير وسمي هذا العذاب مكراً لنزوله وهم في غفلة عنه لا يشعرون به ﴿**فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون**﴾ يعني أنه لا يأمن أن يكون ما أعطاهم من النعمة مع كفرهم استدراجاً إلا من خسر في أخراه وهلك مع الهالكين ﴿**أو لم يهد**﴾أو لم يبين ﴿**للذين يرثون الأرض من بعد**﴾ هلاك ﴿**أهلها**﴾ الذين كانوا من قبلهم فورثوها عنهم وخلفوهم ﴿**أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم**﴾ يعني لو نشاء أخذناهم وعاقبناهم بسبب كفرهم ﴿**ونطبع**﴾ أي نختم ﴿**على قلوبهم فهم لا يسمعون**﴾ يعني لا يسمعون موعظة ولا يقبلون الإيمان ونطبع منقطع عما قبله والمعنى ونحن نطبع على قلوبهم ويجوز أن يكون معطوفاً على الماضي ولفظه لفظ المستقبل والمعنى لو شئنا طبعنا على قلوبهم ﴿**تلك القرى**﴾ يعني هذه القرى التي ذكرنا لك يا محمد أمرها وأمر أهلها وهي قرى قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وشعيب ﴿**نقصّ عليك من أنبائها**﴾ يعني نخبرك عنها وعن أخبار أهلها وما كان من أمرهم وأمر رسلهم الذين أرسلوا إليهم لتعلم يا محمد إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا معهم على أعدائنا وأعدائهم من أهل الكفر والعناد وكيف أهلكناهم بكفرهم وبمخالفتهم رسلهم ففيه تسلية للنبي ﷺ وتحذير لكفار قريش أن يصيبهم مثل ما أصابهم ﴿**ولقد جاءتهم**﴾ يعني لأهل

﴿ **أَوَ أَمِنَ** ﴾، قرأ أهل الحجاز والشام: (أَوْ أَمِنَ) بسكون الواو، والباقون بفتحها، ﴿ **أهلُ القرى أن يأتِيَهُم بأسُنا ضُحىً** ﴾، أي: نهاراً، والضحى: صدر النهار، ووقت انبساط الشمس، ﴿ **وهم يلعبون** ﴾، ساهون لاهون.

﴿ **أفأمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فلا يَأْمَنُ مكرَ اللَّهِ إلاّ القومُ الخاسرون** ﴾، ومكر الله استدراجه إيّاهم بما أنعم عليهم في دنياهم. وقال عطية: يعني أخذه وعذابه.

﴿ **أوَ لمْ يهدِ** ﴾، قرأ قتادة ويعقوب: (نهـدِ) بالنون على التعظيم، والباقون بالياء على التفريد، يعني أوَلم يتبيّن، ﴿ **للذين يرثونَ الأرضَ مِن بعد** ﴾، هلاك ﴿ **أهلها** ﴾، الذين كانوا فيها، ﴿ **أنْ لو نشاءُ أصَبْناهم** ﴾، أي: أخذناهم وعاقبناهم، ﴿ **بذنوبهم** ﴾ كما عاقبنا مَن قبلهم، ﴿ **ونَطْبَعُ** ﴾، نختم، ﴿ **على قلوبهم فهم لا يسمعون** ﴾، الإيمان ولا يقبلون الموعظة، قال الزجّاج: قوله: ﴿ **ونطبع** ﴾ منقطع عمّا قبله لأن قوله: ﴿ **أصَبْناهم** ﴾ ماضٍ و﴿ **نطبع** ﴾ مستقبل.

﴿ **تلك القرى** ﴾، أي: هذه القرى التي ذكرت لك أمرها وأمر أهلها يعني قرى قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط

تلك القرى ﴿رسلهم بالبينات﴾ يعني جاءتهم رسلهم بالمعجزات الباهرات والبراهين الدالة على صدقهم ﴿فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل﴾ اختلف أهل التفسير في معنى ذلك فقيل: معناه فما كانوا هؤلاء المشركين الذين أهلكناهم من أهل القرى ليؤمنوا عند إرسالنا إليهم رسلهم بما كذبوا من قبل ذلك وهو يوم أخذ ميثاقهم حين أخرجهم من ظهر آدم عليه السلام فأقروا باللسان وأضمروا التكذيب وهذا معنى قول ابن عباس والسدي. قال السدي: آمنوا كرهاً يوم أخذ الميثاق، وقال مجاهد: فما كانوا لو أحييناهم بعد إهلاكهم ومعاينتهم العذاب ليؤمنوا بما كذبوا من قبل هلاكهم وقيل معناه فما كانوا ليؤمنوا عند مجيء الرسل بما سبق لهم في علم الله أنهم يكذبون به حين أخرجهم من صلب آدم عليه الصلاة والسلام.

قال أبيّ بن كعب: كان سبق لهم في علمه يوم أقروا له بالميثاق أنهم لا يؤمنون به وقال الربيع بن أنس يحق على العباد أن يأخذوا من العلم ما أبدى لهم ربهم وأن لا يتأولوا علم ما أخفى الله تعالى عنهم فإن علمه نافذ فيما كان وفيما يكون وفي ذلك قال تعالى: ﴿ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين﴾ قال: نفذ علمه فيهم أيهم المطيع من العاصي حيث خلقهم في صلب آدم عليه الصلاة والسلام. قال الطبري: وأولى الأقوال بالصواب قول أبيّ بن كعب والربيع بن أنس وذلك أن من سبق في علم الله أنه لا يؤمن به فلا يؤمن أبداً وقد كان سبق في علم الله لمن هلك من الأمم الذين قص خبرهم في هذه السورة أنهم لا يؤمنون أبداً فأخبر عنهم أنهم لم يكونوا ليؤمنوا بما هم مكذبون به في سابق علمه قبل مجيء الرسل عند مجيئهم إليهم ﴿كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين﴾ يعني كما طبع الله على قلوب كفار الأمم الخالية وأهلكهم كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين الذين كتب الله عليهم أنهم لا يؤمنون من قومك.

وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ

وشعيب. ﴿ نقصُّ عليك من أنبائها ﴾، أخبارها لما فيها من الاعتبار، ﴿ ولقد جاءتْهم رسلُهم بالبيّنات ﴾، بالآيات والمعجزات والعجائب، ﴿ فما كانوا لِيُؤمنُوا بما كَذَّبُوا من قبل ﴾، أي: فما كانوا ليؤمنوا بعد رؤية المعجزات والعجائب بما كذبوا من قبل رؤيتهم تلك العجائب، نظيره قوله عزّ وجلّ: ﴿ قدْ سألها قومٌ من قبلكم ثم أصبحوا بها كافرين ﴾ [المائدة: ١٠٢]. قال ابن عباس والسدي: يعني فما كان هؤلاء الكفّار الذين أهلكناهم ليؤمنوا عند إرسال الرسل بما كذبوا من قبل يوم أخذ ميثاقهم حين أخرجهم من ظهر آدم، فأقرّوا باللسان وأضمروا التكذيب. وقال مجاهد: معناه فما كانوا لو أحييناهم بعد إهلاكهم ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل هلاكهم، لقوله عزّ وجلّ: ﴿ ولو رُدُّوا لعادوا لما نُهوا عنه ﴾ [الأنعام: ٢٨]. قال يمانُ بن رباب: هذا على معنى أن كل نبي أنذر قومه بالعذاب فكذبوه، يقول: ما كانوا ليؤمنوا بما كذب به أوائلهم من الأمم الخالية، بل كذبوا بما كذب أوائلهم، نظيره قوله عزّ وجلّ: ﴿ كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلاّ قالوا ساحرٌ أو مجنون ﴾ [الذاريات: ٥٢]. ﴿ كذلك يَطْبَعُ اللّهُ على قلوبِ الكافرين ﴾، أي: كما طبع الله على قلوب الأمم الخالية وأهلكهم كذلك يطبع الله على قلوب الكفّار الذين كتب أنْ لا يؤمنوا من قومك.

مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾

﴿وما وجدنا لأكثرهم من عهد﴾ يعني وما وجدنا لأكثر الأمم الخالية والقرون الماضية الذين قصصنا خبرهم عليك يا محمد من وفاء بالعهد الذي عهدناه إليهم وأوصيناهم به يوم أخذ الميثاق قال ابن عباس إنما أهلك الله أهل القرى لأنهم لم يكونوا حفظوا ما وصاهم به ﴿وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين﴾ أي ما وجدنا أكثرهم إلا فاسقين خارجين عن طاعتنا وأمرنا قوله عز وجل: ﴿ثم بعثنا من بعدهم﴾ يعني ثم بعثنا من بعد الأنبياء الذين تقدم ذكرهم وهم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب عليهم الصلاة والسلام ﴿موسى بآياتنا﴾ يعني بحججنا وأدلتنا الدالة على صدقه مثل اليد والعصا ونحو ذلك من الآيات التي جاء بها موسى عليه الصلاة والسلام ﴿إلى فرعون وملئه﴾ قيل إن كل من ملك مصر كان يسمى فرعون في ذلك الزمان مثل ما كان يسمى ملك الفرس كسرى وملك الروم قيصر وملك الحبشة النجاشي وكان اسم فرعون الذي أرسل إليه موسى عليه الصلاة والسلام الوليد بن مصعب بن الريان وكان ملك القبط والملأ إشراف قومه وإنما خصوا بالذكر لأنه إذا آمن الأشراف آمن الأتباع ﴿فظلموا بها﴾ يعني: فجحدوا بها لأن الظلم وضع الشيء في غير موضعه وكانت هذه الآيات معجزات ظاهرة قاهرة فكفروا بها ووضعوا الكفر موضع الإيمان ﴿فانظر كيف كان عاقبة المفسدين﴾ أي: انظر يا محمد بعين العقل والبصيرة كيف فعلنا بهم وكيف أهلكناهم ﴿وقال موسى يا فرعون إني رسول من رب العالمين﴾ يعني أن موسى عليه الصلاة والسلام لما دخل على فرعون دعاه إلى الله تعالى وإلى الإيمان به وقال له إني رسول أي مرسل إليك وإلى قومك من رب العالمين يعني أن الله الذي خلق السموات والأرض وخلق الخلق وهو سيدهم ومالكهم هو الذي أرسلني إليك ﴿حقيق﴾ أي واجب ﴿على أن لا أقول على الله إلا الحق﴾ يعني إني رسول والرسول لا يقول على الله إلا الحق في وصفه وتنزيهه وتوحيده وأنه لا إله غيره ﴿قد جئتكم ببينة من ربكم﴾ يعني ببرهان على صدقي فيما أدعي من الرسالة والمراد ببينته معجزته وهي العصا واليد البيضاء ثم إن موسى عليه الصلاة والسلام لما فرغ من تبليغ رسالته رتب على ذلك الحكم فقال موسى ﴿فأرسل معي بني إسرائيل﴾ يعني خلِّ عنهم وأطلقهم من أسرك وكان فرعون قد استعبد بني إسرائيل واستعملهم في الأعمال الشاقة مثل ضرب اللبن ونقل التراب ونحو ذلك من الأعمال الشاقة ﴿قال إن كنت جئت بآية فأتِ بها إن كنت من الصادقين﴾ يعني أن فرعون قال لموسى عليه الصلاة والسلام بعد تبليغ الرسالة: إن كنت جئت من عند من أرسلك ببينة تدل على صدقك

﴿ وما وجدنا لأكثرِهم منْ عهد ﴾، أي: وفاء بالعهد الذي عاهدهم يوم الميثاق، حين أخرجهم من صلب آدم ﴿ وإنْ وجدْنَا أكثرَهم لَفَاسقين ﴾، أي: ما وجدنا أكثرهم إلاّ فاسقين ناقضين للعهد.

قوله تعالى: ﴿ ثم بعثنا من بعدِهم ﴾، أي: من بعد نوح وهود وصالح وشعيب، ﴿ موسى بآياتنا ﴾، بأدلتنا، ﴿ إلى فرعونَ ومَلَئِهِ فظلمُوا بها ﴾، فجحدوا بها. والظلم: وضع الشيء في غير موضعه، وظلمهم وضع الكفر موضع الإيمان، ﴿ فانظرْ كيفَ كان عاقبةُ المفسدين ﴾. كيف فعلنا بهم.

﴿ وقال موسى ﴾، لما دخل على فرعون، ﴿ يا فرعون إنّي رسولٌ من ربِّ العالمين ﴾، إليك، فقال فرعون: كذبت فقال موسى:

﴿ حقيقٌ على أن لا أقولَ على اللهِ إلاّ الحقَّ ﴾، أي: أنا خليق بأن لا أقول على الله إلاّ الحق، فتكون ﴿ على ﴾ بمعنى الباء كما يقال: رميت بالقوس ورميت عن القوس، وجئت على حال حسنة وبحال حسنة، يدلّ عليه قراءة أُبيّ والأعمش ﴿ حقيقٌ بأنْ لا أقول ﴾، وقال أبو عبيدة: معناه حريص على أن لا أقول على الله إلاّ

فأتني بها وأحضرها عندي لتصح دعواك ويثبت صدقك فيما قلت ﴿فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين﴾ أي بيِّن، والثعبان الذكر من الحيات وصفه هنا بأنه ثعبان والثعبان من الحيات العظيم الضخم ووصفه في آية أخرى بأنه جان والجان الحية الصغيرة والجامع بين هذين الوصفين أنها كانت في عظم الجثة كالثعبان العظيم وفي خفة الحركة كالحية الصغيرة وهي الجان. قال ابن عباس والسدي: إن موسى لما ألقى العصا صارت حية عظيمة صفراء شعراء فاغرة فاها بين لحييها ثمانون ذراعاً وارتفعت من الأرض بقدر ميل وقامت على ذنبها واضعة لحيها الأسفل في الأرض ولحيها الأعلى على سور القصر وتوجهت نحو فرعون لتأخذه فوثب فرعون عن سريره هارباً وأحدث وقيل إنه أحدث في ذلك اليوم أربعمائة مرة، وقيل: إنها أخذت قبة فرعون بين أنيابها وحملت على الناس فانهزموا وصاحوا وقتل بعضهم بعضاً فمات منهم في ذلك اليوم خمسة وعشرون ألفاً ودخل فرعون البيت وصاح يا موسى أنشدك بالذي أرسلك أن تأخذها وأنا أؤمن بك وأرسل معك بني إسرائيل فعادت في يده عصا كما كانت وفي كون الثعبان مبيناً وجوه:

الأول: أنه تميز وتبين ذلك عما عملته السحرة من التمويه والتلبيس وبذلك تتميز معجزات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام على تمويه السحرة وتخليهم.

الوجه الثاني: أنهم شاهدوا العصا قد انقلبت حية ولم يشتبه ذلك عليهم فذلك قال ثعبان مبين أي بيِّن.

الوجه الثالث: إن ذلك الثعبان لما كان معجزة لموسى عليه الصلاة والسلام كان من أعظم الآيات التي أبانت صدق قول موسى عليه الصلاة والسلام في أنه رسول من رب العالمين.

وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ ۖ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾

وقوله تعالى: ﴿ونزع يده﴾ النزع في اللغة عبارة عن إخراج الشيء عن مكانه والمعنى أنه أخرج يده من جيبه أو

الحق، وقرأ نافع (عَلَيَّ) بتشديد الياء أي حق واجب عليّ أذن لا أقول على الله إلاّ الحق. ﴿ قدْ جئتكم ببينةٍ من ربكم ﴾، يعني العصا، ﴿ فأرسلْ معي بني إسرائيل ﴾، أي: أطلق عنهم وخلّهم يرجعون إلى الأرض المقدسة، وكان فرعون قد استخدمهم في الأعمال الشاقّة من ضرب اللَّبن ونقل التراب ونحوهما، فقال فرعون مجيباً لموسى.

﴿ قال إن كنتَ جئتَ بآيةٍ فأتِ بها إن كنت من الصادقين ﴾.

﴿ فألقى ﴾ موسى ﴿ عَصَاه ﴾ من يده ﴿ فإذا هي ثعبانٌ مبين ﴾، والثعبان: الذكر العظيم من الحيّات، فإن قيل: أليس قد قال في موضع آخر ﴿كأنّها جان﴾ [النمل: ١٠، القصص: ٣١]، والجان الحيّة الصغيرة؟ قيل: إنها كانت كالجان في الحركة والخفّة، وهي في جثتها حيّة عظيمة. قال ابن عباس والسدي: إنه لمّا ألقى العصا صارت حيّة عظيمة صفراء شعراء فاغرةً فاها ما بين لحييها ثمانون ذراعاً ارتفعت من الأرض بقدر ميل، وقامت له على ذنبها واضعةً لحيها الأسفل في الأرض ولحيها الأعلى على سور القصر، وتوجهت نحو فرعون لتأخذه. ورُوِيَ أنها أخذت قبّة فرعون بين نابيها فوثب فرعون من سريره هارباً وأحْدَثَ. قيل: أخذه البطن في ذلك اليوم أربعمائة مرة، وحملت على الناس فانهزموا وصاحوا ومات منهم خمسة وعشرون ألفاً قتل بعضهم بعضاً ودخل فرعون البيت وصاح يا موسى أنشدك بالذي أرسلك خذها وأنا أُؤمن بك وأُرسل معك بني إسرائيل، فأخذها موسى فعادت عصاً كما كانت ثم قال فرعون هل معك آية أخرى؟ قال: نعم.

﴿ ونَزَعَ يَدَهُ فإذا هي بيضاءُ للنّاظرين ﴾، فأدخل يده في جيبه ثم نزعها منه، وقيل: أخرجها من تحت إبطه

من تحت جناحه ﴿فإذا هي بيضاء للناظرين﴾ قال ابن عباس وغيره: أخرج يده من جيبه فرآها بيضاء من غير سوء يعني من غير برص، وقيل: إن موسى عليه الصلاة والسلام أدخل يده تحت جيبه ثم نزعها منه وقيل أخرج يده من تحت إبطه فإذا هي بيضاء لها شعاع غلب نور الشمس وكان موسى عليه الصلاة والسلام آدم اللون ثم ردها إلى جيبه فأخرجها فإذا هي كما كانت ولما كان البياض المفرط عيباً في الجسد وهو البرص قال الله تعالى في آية أخرى «بيضاء من غير سوء» يعني من غير برص والمعنى فإذا هي بيضاء للنظارة ولا تكون بيضاء للنظارة إلا إذا كان بياضها بياضاً عجيباً خارجاً عن العادة يُتعجب منه.

(فصل في بيان المعجزة وكونها دليلاً على صدق الرسل)

اعلم أن الله تبارك وتعالى كان قادراً على خلق المعرفة والإيمان في قلوب عباده ابتداء من غير واسطة ولكن أرسل إليهم رسلاً تعرفهم معالم دينه وجميع تكليفاته وذلك الرسول واسطة بين الله عز وجل وبين عباده يبلغهم كلامه ويعرفهم أحكامه وجائز أن تكون تلك الواسطة من غير البشر كالملائكة من الأنبياء وجائز أن تكون الواسطة من جنس البشر كالأنبياء مع أممهم ولا مانع لهذا من جهة العقل وإذا جاز هذا في دليل العقل وقد جاءت الرسل عليهم الصلاة والسلام بمعجزات دلت على صدقهم فوجب تصديقهم في جميع ما أتوا به لأن المعجز مع التهدي من النبي قائم مقام قول الله عز وجل صدق عبدي فأطيعوه واتبعوه ولأن معجزة النبي شاهد على صدقه فيما يقوله وسميت المعجزة معجزة لأن الخلق عجزوا عن الإتيان بمثلها وهي على ضربين: فضرب منها هو على نوع قدرة البشر ولكن عجزوا عنه فعجزهم عنه دلَّ على أنه من فعل الله ودل على صدق النبي ﷺ كتمنّي الموت في قوله ﴿فتمنوا الموت إن كنتم صادقين﴾ فلما صرفوا عن تمنيه مع قدرتهم عليه علم أنه من عند الله ودل على صدق النبي ﷺ وسلم الضرب الثاني ما هو خارج عن قدرة البشر كإحياء الموتى وقلب العصا حية وإخراج ناقة من صخرة وكلام الشجر والجماد والحيوان ونبع الماء من بين الأصابع وغير ذلك من المعجزات التي عجز البشر عن مثلها فإذا أتى النبي بشيء من تلك المعجزات الخارقة للعادات علم أن ذلك من عند الله وأن الله عز وجل هو الذي أظهر ذلك المعجز على يد نبيه ليكون حجة له على صدقه فيما يخبر به عن الله عز وجل وقد ثبت بدليل العقل والبرهان القاطع أن الله تعالى قادر على خلق الأشياء وإبداعها من غير أصل سبق لها وإخراجها من العدم إلى الوجود وأنه قادر على قلب الأعيان وخوارق العادات والله تعالى أعلم.

قوله عز وجل: ﴿قال الملأ من قوم فرعون إن هذا﴾ يعني موسى ﴿لَساحر عليم﴾ يعني أنه ليأخذ بأعين الناس حتى يخيل لهم أن العصا صارت حية ويرى الشيء بخلاف ما هو عليه كما أراهم يده بيضاء وهو آدم اللون، وإنما قالوا

فإذا هي بيضاء لها شعاع غلب نور الشـــمس، وكان موسى آدم اللون، ثم أدخلها جيبه فصارت كما كانت.

﴿ قال الملأُ من قوم فِرعونَ إنّ هذا لساحرٌ عليم ﴾، يعنون أنه ليأخذ بأعين الناس حتى يخيّل إليهم العصا حيّة والأدم أبيض، ويُري أن الشيء بخلاف ما هو عليه.

﴿ يُريدُ أنْ يُخرجَكم ﴾، يا معشر القبط، ﴿ منْ أرْضِكم ﴾، مصر، ﴿ فماذا تأمرون ﴾، أي: تشيرون إليه، هذا يقوله فرعون وإن لم يذكره، وقيل: من قول الملأ لفرعون وخاصته.

﴿ قالوا ﴾، يعني الملأ، ﴿ أرْجِهْ ﴾ قرأ ابن كثير وأهل البصرة وابن عامر بالهمزة وضمّ الهاء، وقرأ الآخرون بلا همزة، ثم نافع رواية ورش والكسائي يشبعان الهاء كسراً، ويسكّنها عاصم وحمزة، ويختلسها أبو جعفر وقالون، قال عطاء: معناه أخّره. وقيل: احبسه، ﴿ وأخاه ﴾، معناه أشاروا عليه بتأخير أمره وترك التعرّض إليه بالقتل،

ذلك لأن السحر كان هو الغالب في ذلك الزمان فلما أتى بما يعجز عنه غيره قالوا إن هذا لساحر عليم.

فإن قلت: قد أخبر الله تعالى في هذه السورة أن هذا الكلام من قوم الملأ لفرعون وقال في سورة الشعراء قال للملأ حوله إن هذا لساحر عليم فكيف الجمع بينهما.

قلت: لا يمتنع أن يكون قاله فرعون أولاً ثم إنهم قالوه بعده فأخبر الله تعالى عنهم هنا وأخبر عن فرعون في سورة الشعراء، وقيل: يحتمل أن فرعون قال هذا القول، ثم إن الملأ من قومه وهم خاصته سمعوه منه ثم إنهم بلغوه إلى العامة فأخبرالله عز وجل هنا عن الملأ وأخبر هناك عن فرعون.

وقوله: ﴿**يريد أن يخرجكم من أرضكم**﴾ يعني يريد موسى أن يخرجكم أيها القبط من أرض مصر ﴿**فماذا تأمرون**﴾ يعني: فأي شيء تشيرون أن نفعل به وقيل إن قوله فماذا تأمرون من قول الملأ لأن كلام فرعون تم عند قوله يريد أن يخرجكم من أرضكم فقال الملأ مجيبين لفرعون فماذا تأمرون وإنما خاطبوه بلفظ الجمع وهو واحد على عادة الملوك في التعظيم والتفخيم والمعنى فما ترون أن نفعل به والقول الأول أصح لسياق الآية التي بعدها وهو قوله تعالى: ﴿**قالوا أرجه وأخاه**﴾ يعني أخرِّ أمرهما ولا تعجل فيه فتصير عجلتك عليك لا لك والإرجاء في اللغة هو التأخير لا الحبس ولأن فرعون ما كان يقدر على حبس موسى بعد أن رأى من أمر العصا ما رأى ﴿**وأرسل في المدائن**﴾ جمع مدينة واشتقاقها من مدن بالمكان أي أقام به يعني مدائن صعيد مصر ﴿**حاشرين**﴾ يعني رجالاً يحشرون إليك السحرة من جميع مدائن الصعيد والمعنى أنهم قالوا لفرعون أرسل إلى هذه المدائن رجالاً من أعوانك وهم الشرَط يحشرون إليك من فيها من السحرة وكان الرؤساء السحرة بأقصى مدائن الصعيد فإن غلبهم موسى صدقناه واتبعناه وإن غلبوه أنه ساحر فذلك قوله ﴿**يأتوك**﴾ يعني الشرط ﴿**بكل ساحر**﴾ وقرىء سحار والفرق بين الساحر والسحار أن الساحر هو المبتدىء في صناعة السحر فيتعلم ولا يعلم والسحار هو الماهر الذي يتعلم منه السحر وقيل الساحر من يكون سحره وقتاً دون وقت والسحار الذي يدوم سحره ويعمل في كل وقت ﴿**عليم**﴾ يعني ماهر بصناعة السحر وقال ابن عباس رضي الله عنهما وابن إسحاق والسدي: إن فرعون لما رأى من سلطان الله وقدرته في العصا قال إنا لا نقاتل موسى إلا بمن هو أشد منه سحراً فاتخذ غلماناً من بني إسرائيل وبعث بهم إلى مدينة يقال لها الغوصاء يعلمونهم السحر فعلموهم سحراً كبيراً وواعد فرعون موسى موعداً ثم بعث إلى السحرة فجاؤوا ومعهم معلمهم فقال فرعون للمعلم ماذا صنعت قال قد علمتهم سحراً لا يطيقه سحر أهل الأرض إلا أن يكون أمراً من السماء فإنه لا طاقة لهم به

﴿ وأرسلْ في المدائِنِ حَاشرين ﴾، يعني الشرط في المدائن، وهي مدائن الصعيد من نواحي مصر، قالوا: أرسل إلى هذا المدائن رجالاً يحشرون إليك مَن فيها من السحرة، وكان رؤساء السَّحَرَة بأقصى مدائن الصعيد، فإن غلبهم موسى صدّقناه وإن غلبوا علمنا أنه ساحر.

فذلك قوله: **﴿ يأتوك بكلِّ ساحرٍ عليم ﴾**، قرأ حمزة والكسائي «سحار» ههنا وفي سورة يونس ولم يختلفوا في الشعراء أنه سحار، قيل: الساحر الذي يَتَعَلَّمُ السحر ولا يُعَلِّمُ، والسحار الذي يعلّم ويعمل. وقيل: الساحر مَن يكون سحره في وقت دون وقت، والسحار مَن يديم السحر. قال ابن عباس وابن إسحاق والسدي: قال فرعون لمّا رأى من سلطان الله في العصا ما رأى: إنّا لا نُغالب إلاّ بمَن هو أعلم منه، فاتخذ غلماناً من بني إسرائيل فبعث بهم إلى قرية يقال لها الغوصاء يعلّمونهم السحر، فعلّموهم سحراً كثيراً ووعد فرعون موسى موعداً فبعث إلى السَّحَرَة فجاؤوا ومعلّمهم معهم، فقال له: ماذا صنعت؟ قال: قد علّمتهم سحراً لا يطيقه سَحَرَة أهل الأرض إلاّ أن يكون أمر من السماء فإنه لا طاقة لهم به، ثم بعث فرعون في مملكته فلم يترك في سلطانه ساحراً إلاّ أتى به. واختلفوا في

ثم بعث فرعون في مملكته فلم يترك ساحراً إلا أتى به واختلفوا في عدد السحرة الذين جمعهم فرعون فقال مقاتل: كانوا اثنين وسبعين اثنان منهم من القبط وهما رئيسا القوم وسبعون من بني إسرائيل وقال الكلبي: كان الذين يعلمونهم رجلين مجوسيين من أهل نينوى وكانوا سبعين غير رئيسهم وقال كعب الأحبار: كانوا اثني عشر ألفاً، وقال محمد بن إسحاق: كانوا خمسة عشر ألفاً، وقال عكرمة: كانوا سبعين ألفاً وقال محمد بن المنكدر: كانوا ثمانين ألفاً وقال السدي: كانوا بضعاً وثمانين ألفاً، ويقال: رئيس القوم شمعون، وقيل: يوحنا قوله عز وجل:

﴿وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُواْ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾﴾

﴿**وجاء السحرة فرعون**﴾ يعني لما اجتمعوا وجاؤوا إلى فرعون ﴿**قالوا إن لنا لأجراً**﴾ يعني جعلاً وعطاء تكرمنا به ﴿**إن كنا نحن الغالبين**﴾ يعني لموسى قال الإمام فخر الدين الرازي: ولقائل أن يقول كان حق الكلام أن يقول وجاء السحرة فرعون فقالوا بالفاء وجوابه هو على تقدير سائل سأل ما قالوا إذا جاؤوا فأجيب بقوله قالوا أئن لنا لأجراً إن كنا نحن الغالبين يعني لموسى ﴿**قال نعم**﴾ يعني: قال لهم فرعون لكم الأجر والعطاء ﴿**وإنكم لمن المقربين**﴾ يعني ولكم المنزلة الرفيعة عندي مع الأجر والمعنى أن فرعون قال للسحرة إني لا أقتصر معكم على الأجر بل أزيدكم عليه وتلك الزيادة إني أجعلكم من المقربين عندي، قال الكلبي: تكونوا أول من يدخل عليّ وآخر من يخرج من عندي ﴿**قالوا**﴾ يعني السحرة ﴿**يا موسى إما أن تلقي**﴾ يعني عصاك ﴿**وإما أن نكون نحن الملقين**﴾ يعني عصيّنا وحبالنا في هذه الآية دقيقة لطيفة وهي أن السحرة راعوا مع موسى عليه الصلاة والسلام حسن الأدب حيث قدموه على أنفسهم في الإلقاء لا جرم أن الله عز وجل عوضهم حيث تأدبوا مع نبيه موسى ﷺ أن منَّ عليهم بالإيمان والهداية ولما راعوا الأدب أولاً وأظهروا ما يدل على رغبتهم في ذلك ﴿**قال**﴾ يعني قال لهم موسى ﴿**ألقوا**﴾ يعني أنتم فقدمهم على نفسه في الإلقاء.

فإن قلت كيف جاز لموسى أن يأمر بالإلقاء وقد علم أنه سحر وفعل السحر غير جائز؟

قلت: ذكر العلماء رحمهم الله تعالى في أجوبة **أحدها** أن معناه إن كنتم محقين في فعلكم فألقوا وإلا فلا تلقوا.

الجواب الثاني: إنما أمرهم بالإلقاء لتظهر معجزته لأنهم إذا لم يلقوا حبالم وعصيهم لم تظهر معجزة موسى في عصاه.

عددهم فقال مقاتل: كانوا اثنين وسبعين، اثنان من القبط وهما رؤساء القوم وسبعون من بني إسرائيل. وقال الكلبي: كان الذين يعملونهم رجلين مجوسيين من أهل نينوى، وكانوا سبعين غير رئيسهم. وقال كعب: كانوا اثني عشر ألفاً. وقال السدي: كانوا بضعة وثلاثين ألفاً. وقال عكرمة: كانوا سبعين ألفاً. وقال محمد بن المنكدر: كانوا ثمانين ألفاً. وقال مقاتل: كان رئيس السَّحَرَة شمعون. وقال ابن جريج كان رئيس السَّحَرَة يوحنا.

﴿ **وجاءَ السَّحرةُ فرعونَ** ﴾ واجتمعوا، ﴿ **قالوا** ﴾، لفرعون ﴿ **إنّ لنا لأجراً** ﴾، أي جُعْلاً ومالاً ﴿ **إن كنّا نحنُ الغالبين** ﴾، قرأ أهل الحجاز وحفص «إن لنـا» على الخبر، وقرأ الباقون بالاستفهام، ولم يختلفوا في الشعراء أنه مستفهم.

الجواب الثالث: أن موسى علم أنهم لا بد أن يلقوا تلك الحبال والعصي وإنما وقع التخيير في التقديم والتأخير فأذن لهم في التقديم لتظهر معجزته أيضاً بغلبهم لأنه لو ألقى أولاً لم يكن له غلب وظهور عليهم فلهذا المعنى أمرهم بالإلقاء أولاً ﴿**فلما ألقوا**﴾ يعني حبالهم وعصيهم ﴿**سحروا أعين الناس**﴾ يعني صرفوا أعين الناس عن إدراك حقيقة ما فعلوا من التمويه والتخييل وهذا هو السحر وهذا هو الفرق بين السحر الذي هو فعل البشر وبين معجزة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام التي هي فعل الله وذلك لأن السحر قلب الأعين وصرفها عن إدراك ذلك الشيء والمعجزة قلب نفس الشيء عن حقيقته كقلب عصا موسى عليه الصلاة والسلام حية تسعى ﴿**واسترهبوهم**﴾ يعني أرهبوهم وأفزعوهم بما فعلوه من السحر وهذا قوله تعالى: ﴿**وجاؤوا**﴾ يعني السحرة ﴿**بسحر عظيم**﴾ وذلك أنهم ألقوا حبالاً غلاظاً وخشباً طوالاً فإذا هي حيات كأمثال الجبال قد ملأت الوادي يركب بعضها بعضاً، ويقال: إنهم طلوا تلك الحبال بالزئبق وجعلوا داخل تلك العصي زئبقاً أيضاً وألقوها على الأرض فلما أثر حر الشمس فيها تحركت والتوى بعضها على بعض حتى تخيل للناس أنها حيات. ويقال: إن الأرض كانت سعتها ميلاً في ميل فصارت كلها حيات وأفاعي ففزع الناس من ذلك وأوجس في نفسه خيفة موسى وهذه الخيفة لم تحصل لموسى عليه الصلاة والسلام لأجل سحرهم لأنه عليه الصلاة والسلام كان على يقين وثقة من الله تعالى أنهم لن يغلبوه وهو غالبهم وكان عالماً بأن كل ما أتوا به على وجه المعارضة لمعجزته فهو من باب السحر والتخييل وذلك باطل ومع هذا الجزم يمتنع حصول الخوف لموسى من ذلك بل كان خوفه عليه الصلاة والسلام لأجل فزع الناس واضطرابهم مما رأوا من أمر تلك الحيات فخاف موسى عليه الصلاة والسلام أن يتفرقوا قبل ظهور معجزته وحجته فلذلك أوجس في نفسه خيفة موسى.

قول تعالى: ﴿**وأوحينا إلى موسى أن ألق عصاك**﴾ يعني فألقاها ﴿**فإذا هي تلقف**﴾ يعني تبتلع ﴿**ما يأفكون**﴾ يعني ما يكذب فيه السحرة لأن أصل الإفك قلب الشيء عن غير وجهه ومنه قيل للكذاب أفَّاك لأنه يقلب الكلام عن وجهه الصحيح إلى الباطل. قال المفسرون: أوحى الله عز وجل إلى موسى عليه الصلاة والسلام أن لا تخف وألق عصاك فألقاها فصارت حية عظيمة حتى سدت الأفق. قال ابن زيد: كان اجتماعهم بالإسكندرية فيقال بلغ ذنب الحية من وراء البحر ثم فتحت فاها ثمانين ذراعاً فإذا هي تلقف يعني تبتلع كل شيء أتوا به من السحر فكانت تبتلع حبالهم وعصيهم واحداً واحداً حتى ابتلعت الكل وقصدت القوم الذين حضروا ذلك المجمع ففزعوا ووقع الزحام بينهم فمات

﴿ **قال** ﴾ فرعون ﴿ **نعمْ وإنّكم لَمنَ المقرّبين** ﴾، في المنزلة الرفيعة عندي مع الأجر، قال: يعني أول مَن يدخل وآخر مَن يخرج.

﴿ **قالوا** ﴾ يعني السَّحَرَة ﴿ **يا موسى إمّا أن تُلقي** ﴾ عصاك ﴿ **وإما أن نكونَ نحنُ الملقين** ﴾، لعصيّنا وحبالنا.

﴿ **قال** ﴾ موسى بل ﴿ **ألقوا** ﴾ أنتم، ﴿ **فلما ألْقَوْا سحرُوا أعينَ الناس** ﴾، أي: صرفوا أعينهم عن إدراك حقيقة ما فعلوه من التمويه والتخييل، وهذا هو السحر، ﴿ **واسترهبوهم** ﴾، أي: أرهبوهم وأفزعوهم، ﴿ **وجاءُوا بسحرٍ عظيم** ﴾، وذلك أنهم ألقوا حبالاً غِلاظاً وخشباً طِوالاً فإذا هي حيّات كأمثال الجبال قد ملأت الوادي يركب بعضها بعضاً. وفي القصة أن الأرض كانت ميلاً في ميل صارت حيات وأفاعي في أعين الناس.

﴿ **وأوحينا إلى موسى أنْ ألقِ عصاكَ** ﴾، فألقاها فصارت حيّة عظيمة حتى سدّت الأفق. قال ابن زيد: كان اجتماعهم بالإسكندرية. ويقال: بلغ ذنب الحيّة من وراء البحر ثم فتحت فاها ثمانين ذراعاً، ﴿ **فإذا هي تَلْقَفُ** ﴾ قرأ حفص «تلقـف» ساكنة اللام خفيفة حيث كان، وقرأ الآخرون بفتح اللام وتشديد القاف، أي: تبتلع، ﴿ **ما**

من ذلك الزحام خمسة وعشرون ألفاً ثم أخذها موسى عليه السلام فصارت في يده عصا كما كانت أول مرة فلما رأى السحرة ذلك عرفوا أنه من أمر السماء وليس بسحر وعرفوا أن ذلك ليس من قدرة البشر وقوتهم فعند ذلك خروا سجَّداً وقالوا: آمنا برب العالمين وذلك قوله تعالى:

﴿فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾﴾

﴿**فوقع الحق**﴾ يعني فظهر الحق الذي جاء به موسى ﴿**وبطل ما كانوا يعملون**﴾ يعني من السحر وذلك أن السحرة قالوا لو كان ما صنع موسى سحراً لبقيت حبالنا وعصينا فلما نفدت وتلاشت في عصا موسى علموا أن ذلك من أمر الله وقدرته ﴿**فغلبوا هنالك**﴾ يعني فعند ذلك غلب فرعون وسحرته وجموعه ﴿**وانقلبوا صاغرين**﴾ يعني ورجعوا ذليلين مقهورين ﴿**وألقى السحرة ساجدين**﴾ يعني أن السحرة لما عاينوا من عظيم قدرة الله تعالى ما ليس في قدرتهم مقابلته وعلموا أنه ليس بسحر خروا لله ساجدين وذلك أن الله عز وجل ألهمهم معرفته والإيمان به ﴿**قالوا آمنا برب العالمين**﴾ فقال فرعون إياي تعنون فقالوا بل ﴿**رب موسى وهارون**﴾ قال مقاتل: قال موسى لكبير السحرة تؤمن بي إن غلبتك فقال لآتينّ بسحر لا يغلبه سحر ولئن غلبتني لأومنن بك، وقيل: إن الحبال والعصي التي كانت مع السحرة كانت حمل ثلاثمائة بعير فلما ابتلعتها عصا موسى كلها قال بعضهم لبعض هذا أمر خارج عن حد السحر وما هو إلا من أمر السماء فآمنوا به وصدقوه.

فإن قلت كان يجب أن يأتوا بالإيمان قبل السجود فما فائدة تقديم السجود على الإيمان.

قلت: لما قذف الله عز وجل في قلوبهم الإيمان والمعرفة خروا سجداً لله تعالى شكراً على هدايتهم إليه وعلى ما ألهمهم الله من الإيمان بالله وتصديق رسوله ثم أظهروا بعد ذلك إيمانهم. وقيل: لما رأوا عظيم قدرة الله تعالى وسلطانه في أمر العصا وأنه ليس يقدر على ذلك أحد من البشر وزالت كل شبهة كانت في قلوبهم بادروا إلى السجود لله تعظيماً لشأنه لما رأوا من عظيم قدرته ثم إنهم أظهروا الإيمان باللسان. قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: لما رأت السحرة ما رأت عرفت أن ذلك من أمر السماء وليس بسحر فخروا سجداً وقالوا آمنا برب العالمين رب موسى وهارون.

يأفِكُون﴾، يكذبون من التخابيل وقيل: يزوّرون على الناس. وكانت تلتقم حبالهم وعصيهم واحداً واحداً حتى ابتلعت الكلَّ وقصدت القوم الذين حضروا فوقع الزحام عليهم فهلك منهم في الزحام خمسة وعشرون ألفاً، ثم أخذها موسى فصارت عصاً كما كانت.

﴿ **فوقعَ الحقُّ** ﴾، قال الحسن ومجاهد: ظهر الحق، ﴿ **وبطل ما كانوا يعملون** ﴾، من السحر، وذلك أن السَّحَرَة قالوا: لو كان ما يصنع موسى سحراً لبقيت حبالنا وعصيانا، فلما فقدت علموا أن ذلك من أمر الله.

﴿ **فَغُلِبُوا هنالك وانقلبُوا صاغِرين** ﴾، ذليلين مقهورين.

﴿ **وأُلقيَ السَّحرةُ ساجدين** ﴾ لله. قال مقاتل: ألقاهم الله. وقيل: ألهمهم الله أن يسجدوا فسجدوا. قال الأخفش: من سرعة ما سجدوا كأنهم أُلقوا.

قوله عز وجل: ﴿قال فرعون آمنتم به قبل أن آذن لكم﴾ يعني فرعون للسحرة آمنتم بموسى وصدقتموه قبل أن آمركم به وآذن لكم فيه ﴿إن هذا لمكر مكرتموه في المدينة﴾ يعني إن هذا الصنع الذي صنعتموه أنتم وموسى في مدينة مصر قبل خروجكم إلى هذا الموضع وذلك أن فرعون رأى موسى يحدث كبير السحرة فظن فرعون أن موسى وكبير السحرة قد تواطآ عليه وعلى أهل مصر وهو قوله ﴿لتخرجوا منها أهلها﴾ وتستولوا عليها أنتم ﴿فسوف تعلمون﴾ فيه وعيد وتهديد يعني: فسوف تعلمون ما أفعل بكم ثم فسر ذلك الوعيد فقال ﴿لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف﴾ وهو أن تقطع إحدى اليدين وإحدى الرجلين فيخالف بينهما في القطع ﴿ثم لأصلبنكم أجمعين﴾ يعني على شاطىء نيل مصر. قال ابن عباس رضي الله عنهما: أول من صلب وأول من قطع الأيدي والأرجل فرعون ﴿قالوا﴾ يعني مجيبين لفرعون حين وعدهم بالقتل ﴿إنا إلى ربنا منقلبون﴾ إنا إلى ربنا راجعون وإليه صائرون في الآخرة.

وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾

﴿وما تنقم منا﴾ وما تكره منا وما تطعن علينا وقال عطاء: معناه وما لنا عندك من ذنب تعذبنا عليه ﴿إلا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا﴾ ثم فزعوا إلى الله تعالى وسألوه الصبر على تعذيب فرعون إياهم فقالوا ﴿ربنا أفرغ علينا صبراً﴾ أي اصبب علينا صبراً كاملاً تاماً ولهذا أتى بلفظ التنكير يعني صبراً وأي صبر عظيم ﴿وتوفنا مسلمين﴾ يعني واقبضنا على دين الإسلام وهو دين خليلك إبراهيم عليه الصلاة والسلام، قال ابن عباس رضي الله عنهما: كانوا في أول النهار سحرة وفي آخر النهار شهداء. قال الكلبي: إن فرعون قطع أيديهم وأرجلهم وصلبهم غير أنه لم يقدر عليهم لقوله تعالى: ﴿لا يصلون إليكما بآياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون﴾.

﴿ قالوا آمنّا بربِّ العالمين ﴾، فقال فرعون: إياي تعنون فقالوا: ﴿ رب موسى وهارون ﴾، قال مقاتل: قال موسى لكبير السَّحرة تؤمن بي إن غلبتك؟ فقال: لآتينّ بسحر لا يغلبه سحر، ولئن غلبتني لأومننّ بك، وفرعون ينظر.

﴿ قال ﴾لهم ﴿ فرعون ﴾ حين آمنوا ﴿ آمنتم به ﴾، قرأ حفص «آمنتم» على الخبر ههنا وفي طه [٧١] والشعراء [٤٩]، وقرأ الآخرون بالاستفهام أأمنتم به، ﴿ قبل أن آذن لكم ﴾، أصدّقتم موسى من غير أمري إيّاكم، ﴿إنّ هذا لمكرٌ مكرتمُوه ﴾، أي: صنع صنعتموه أنتم وموسى: ﴿ في المدينة ﴾ في مصر قبل خروجكم إلى هذا الموضع لتستولوا على مصر، ﴿ لِتُخْرِجُوا منها أهلها فسوف تعلمون ﴾ ما أفعل بكم.

﴿ لأقطعنّ أيديكم وأرجلَكم من خلاف ﴾، وهو أن يقطع من كل شق طرفاً. قال الكلبي: لأقطعنّ أيديكم اليمنى وأرجلكم اليسرى، ﴿ ثم لأصلبنّكم أجمعين ﴾، على شاطىء نهر مصر.

﴿ قالوا ﴾، يعني السَّحرة لفرعون، ﴿ إنّا إلى ربِّنا مُنقلبون ﴾، راجعون في الآخرة.

﴿ وما تَنْقِمُ مِنّا ﴾، أي: ما تكره منّا. وقال الضحاك وغيره: وما تطعن علينا. وقال عطاء: ما لنا عندك من ذنب تعذبنا عليه، ﴿ إلاّ أنْ آمنّا بآيات ربِّنا لمّا جاءتْنا ﴾ ثم فزعوا إلى الله عزّ وجلّ فقالوا: ﴿ ربَّنا أفْرِغْ ﴾ أصبب، ﴿ علينا صبراً وتوفّنا مسلمين ﴾، ذكر الكلبي: أن فرعون قطع أيديهم وأرجلهم وصلبهم وذكر غيره: أنه لم يقدر

قوله تعالى: ﴿وقال الملأ من قوم فرعون أتذر موسى﴾ يعني وقال جماعة من أشراف قوم فرعون لفرعون أتدع موسى ﴿وقومه﴾ من بني إسرائيل ﴿ليفسدوا في الأرض﴾ يعني أرض مصر وأراد بالإفساد فيها أنهم يأمرونهم بمخالفة فرعون وهو قوله ﴿ويذرك وآلهتك﴾ يعني وتذره ليذرك ويذر آلهتك فلا يعبدك ولا يعبدها. قال ابن عباس رضي الله عنهما: كانت لفرعون بقرة كان يعبدها وكان إذا رأى بقرة حسنة أمرهم بعبادتها ولذلك أخرج لهم السامري عجلاً. وقال السدي: كان فرعون قد اتخذ لقومه أصناماً وكان يأمرهم بعبادتها وقال لهم أنا ربكم ورب هذه الأصنام وذلك قوله أنا ربكم الأعلى والأولى أن يقال إن فرعون كان دهرياً منكر الوجود الصانع فكان يقول مدبر هذا العالم السفلي هي الكواكب فاتخذ أصناماً على صورة الكواكب وكان يعبدها ويأمر بعبادتها وكان يقول في نفسه إنه هو المطاع والمخدوم في الأرض فلهذا قال أنا ربكم الأعلى وقرأ ابن مسعود رضي الله عنه وابن عباس والشعبي والضحاك ويذرك وإلهتك بكسر الألف ومعناه ويذرك وعبادتك فلا يعبدك لأن فرعون كان يعبد ولا يعبد وقيل أراد بالآلهة الشمس والكواكب لأنه كان يعبدها قال الشاعر:

تــروحنــا مــن اللعبــاء قصــراً وأعجلنــا الإلاهــة أن تــؤوبــا

أراد بالإلاهة الشمس ﴿قال﴾ يعني فرعون مجيباً لقومه حين قالوا له أتذر موسى وقومه ﴿سنقتل أبناءهم ونستحيي نساءهم﴾ يعني نتركهن أحياء.

وذلك أن قوم فرعون لما أرادوا إغراء فرعون على قتل موسى وقومه أوجس موسى إنزال العذاب بقومه ولم يقدر فرعون أن يفعل بموسى عليه الصلاة والسلام شيئاً مما أرادوا به لقوة موسى عليه السلام بما معه من المعجزات فعدل إلى قومه فقال سنقتل أبناءهم ونستحيي نساءهم.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: كان قد ترك القتل في بني إسرائيل بعد ما ولد موسى فلما جاءهم موسى بالرسالة وكان من أمره ما كان قال فرعون: أعيدوا عليهم القتل فأعادوا القتل على بني إسرائيل، والمعنى أن فرعون قال إنما يتقوى موسى بقومه فنحن نسعى في تقليل عدد قومه بالقتل لتقلّ شوكته، ثم بين فرعون أنه قادر على ذلك بقوله ﴿وإنا فوقهم قاهرون﴾ يعني بالغلبة والقدرة عليهم ولما نزل ببني إسرائيل ما نزل شكوا إلى موسى ما نزل بهم ﴿قال موسى لقومه﴾ يعني لما شكوا إليه ﴿استعينوا بالله واصبروا﴾ يعني استعينوا بالله على فرعون وقومه فيما نزل بكم

عليهم لقوله تعالى: ﴿ لا يصلون إليكما بآياتنا أنتما ومَن اتبعكما الغالبون ﴾ [القصص: ٣٥].

﴿ وقالَ الملأُ مِن قوم ِ فرعون ﴾ له ﴿ أَتَذَرُ موسى وقومَهُ لِيُفْسِدُوا في الأرض ﴾، وأرادوا بالإفساد في الأرض دعاءهم الناس إلى مخالفة فرعون في عبادته، ﴿ ويَذَرَكَ ﴾، أي: وليذرك، ﴿ وآلهتَكَ ﴾، فلا يعبدك ولا يعبدها. قال ابن عباس: كان لفرعون بقرة يعبدها، وكان إذا رأى بقرة حسناء أمرهم أن يعبدوها، فلذلك أخرج السامري لهم عجلاً. وقال الحسن: كان قد علّق على عنقه صليباً يعبده. وقال السدي: كان فرعون قد اتخذ لقومه أصناماً وأمرهم بعبادتها، وقال لقومه: هذه آلهتكم أراد بها أنه ربّها وربّكم، فذلك قوله: ﴿ أنا ربُّكم الأعلى ﴾ [النازعات: ٢٤]، وقرأ ابن مسعود وابن عباس والشعبي والضحاك: « ويذرك وإلَهتك »، بكسر الألف، أي: عبادتك فلا يعبدك، لأن فرعون كان يُعْبَد ولا يَعْبُدُ وقيل: أراد بالآلهة الشمس. وكانوا يعبدونها قال الشاعر:

تروحنا من اللّعباء قصراً وأعجلنا الالاهة أن تؤبا

﴿ قال ﴾ فرعون ﴿ سنُقتِّل أبناءَهم ﴾، قرأ أهل الحجاز: «سـنقتل» بالتخفيف من القتل، وقرأ الآخرون بالتشديد من التقتيل على الكثير، ﴿ ونستحيي نساءَهم ﴾، نتركهنّ أحياء، ﴿ وإنّا فوقهم قاهرون ﴾، غالبون. قال

من البلاء فإن الله هو الكافي لكم واصبروا على ما نالكم من المكاره في أنفسكم وأبنائكم ﴿إن الأرض لله﴾ يعني أرض مصر وإن كانت الأرض كلها لله تعالى ﴿يورثها من يشاء من عباده﴾ وهذا إطماع من موسى عليه الصلاة والسلام لبني إسرائيل أن يهلك فرعون وقومه ويملك بني إسرائيل أرضهم وبلادهم بعد إهلاكهم وهو قوله تعالى: ﴿والعاقبة للمتقين﴾ يعني أن النصر والظفر للمتقين على عدوهم، وقيل أراد الجنة يعني إن عاقبة المتقين الصابرين الجنة.

قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبۡلِ أَن تَأۡتِيَنَا وَمِنۢ بَعۡدِ مَا جِئۡتَنَاۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُهۡلِكَ عَدُوَّكُمۡ وَيَسۡتَخۡلِفَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ ﴿١٢٩﴾ وَلَقَدۡ أَخَذۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿١٣١﴾

﴿قالوا أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: لما آمنت السحرة تبع موسى ستمائة ألف من بني إسرائيل والمعنى أن بني إسرائيل لما سمعوا ما قاله فرعون ووعدهم به من القتل مرة ثانية قالوا لموسى قد أوذينا من قبل أن تأتينا يعني بالرسالة وذلك أن بني إسرائيل كانوا مستضعفين في يد فرعون وقومه وكان يستعملهم في الأعمال الشاقة إلى نصف النهار فلما جاء موسى بالرسالة وجرى ما جرى شدد فرعون في استعمالهم فكان يستعملهم جميع النهار وأعاد القتل عليهم فقالوا أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا يعني بالرسالة وظاهر هذا الكلام يوهم أن بني إسرائيل كرهوا مجيء موسى بالرسالة وذلك كفر.

والجواب عن هذا الإيهام أن موسى عليه الصلاة والسلام كان قد وعدهم بزوال ما كانوا فيه من الشدة والمشقة فظنوا أن ذلك يكون على الفور فلما رأوا أنه قد زادت الشدة عليهم قالوا أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا فمتى يكون ما وعدتنا به من زوال ما نحن فيه ﴿قال﴾ موسى مجيباً لهم ﴿عسى ربكم أن يهلك عدوكم﴾ يعني فرعون وقومه ﴿ويستخلفكم في الأرض﴾ يعني ويجعلكم تخلفونهم في أرضهم بعد هلاكهم ﴿فينظر كيف تعملون﴾ يعني فيرى

ابن عباس: كان فرعون يقتل أبناء بني إسرائيل في العام الذي قيل له أنه يولد مولود يذهب بملكك، فلم يزل يقتلهم حتى أتاهم موسى بالرسالة، وكان من أمره ما كان فقال فرعون أعيدوا عليهم القتل فأعادوا عليهم القتل، فشكت ذلك بنو إسرائيل.

﴿ قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا إنّ الأرض لله ﴾، يعني أرض مصر، ﴿ يُورثها ﴾ يعطيها ﴿ مَنْ يشاء من عباده والعاقبةُ للمتّقين ﴾، النصر والظفر. وقيل: السعادة والشهادة. وقيل: الجنة.

﴿ قالوا أُوذينا ﴾، قال ابن عباس: لمّا آمنت السَّحَرة اتبع موسى ستمائة ألف من بني إسرائيل، فقالوا: يعني قوم موسى إنّا أُوذينا، ﴿ من قبل أنْ تأتينا ﴾، بالرسالة بقتل الأبناء، ﴿ ومن بعد ما جئتنا ﴾، بإعادة القتل علينا. وقيل: فالمراد منه أن فرعون كان يستسخرهم قبل مجيء موسى إلى نصف النهار، فلما جاء موسى استسخرهم جميع النهار بلا أجْر. وذكر الكلبي أنهم كانوا يضربون له اللبـن بطين فرعون، فلما جاء موسى أجبرهم أن يضربوه بطين من عندهم. ﴿ قال ﴾ موسى ﴿ عسى ربُّكم أنْ يُهلك عدوّكم ﴾، فرعون، ﴿ ويستخلِفَكم في الأرض ﴾، أي: يسكنكم أرض مصر من بعدهم، ﴿ فينظرَ كيف تعملون ﴾، فحقّق الله بإغراق فرعون استخلافهم في ديارهم وأموالهم فعبدوا العجل.

ربكم كيف تعملون من بعدهم. قال الزجاج: فيرى وقوع ذلك منهم لأن الله تعالى لا يجازيهم بما يعلمه منهم وإنما يجازيهم على ما يقع منهم.

قوله عز وجل: ﴿**ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين**﴾ يعني بالقحط والجدب. تقول العرب: مستهم السنة بمعنى أخذهم الجدب في السنة ويقال أسنتوا كما يقال أجدبوا قال الشاعر:

ورجـال مكـة مسنتـون عجـاف

ومنه قوله ﷺ «اللهم اجعلها عليهم سنين كسنيّ يوسف» ومعنى الآية: ولقد أخذنا آل فرعون بالجدب والقحط والجوع سنة بعد سنة ﴿**ونقص من الثمرات**﴾ يعني وإتلاف الغلات بالآفات. قال قتادة أما السنون فلأهل البوادي وأما نقص الثمرات فلأهل الأمصار ﴿**لعلهم يذكرون**﴾ يعني لعلهم يتعظون فيرجعوا عما هم فيه من الكفر والمعاصي وذلك لأن الشدة ترقق القلوب وترغب فيما عند الله عز وجل من الخير، ثم بين الله تعالى أنهم عند نزول العذاب وتلك المحن عليهم والشدة لم يزدادوا إلا تمرداً وكفراً فقال تعالى: ﴿**فإذا جاءتهم الحسنة**﴾ يعني الغيث والخصب والسعة والعافية والسلامة من الآفات ﴿**قالوا لنا هذه**﴾ أي نحن مستحقون لها ونحن أهلها على العادة التي جرت لنا في سعة الأرزاق وصحة الأبدان ولم يروا ذلك من فضل الله عليهم فيشكروه على إنعامه ﴿**وإن تصبهم سيئة**﴾ يعني القحط والجدب والمرض والبلاء ورأوا ما يكرهون في أنفسهم ﴿**يطيروا**﴾ يعني يتشاءموا وأصله يتطيروا والتطير التشاؤم في قول جميع المفسرين ﴿**بموسى ومن معه**﴾ يعني أنهم قالوا ما أصابنا بلاء إلا حين رأيناهم وما ذلك إلا بشؤم موسى وقومه. قال سعيد بن جبير ومحمد بن المنكدر: كان ملك فرعون أربعمائة سنة وعاش ستمائة وعشرين وسنة لم يروا مكروهاً قط ولو كان حصل له في تلك المدة جوع يوم أو حمى ليلة أو وجع ساعة لما ادعى الربوبية قط ﴿**ألا إنما طائرهم عند الله**﴾ يعني أن نصيبهم من الخصب والجدب والخير والشر كله من الله قال ابن عباس رضي الله عنهما طائرهم ما قضي لهم وقدر عليهم من عند الله وفي رواية عنه شؤمهم عند الله تعالى ومعناه أنه إنما جاءهم بكفرهم بالله وقيل الشؤم العظيم هو الذي لهم عند الله من عذاب النار ﴿**ولكن أكثرهم لا يعلمون**﴾ يعني أن ما أصابهم من الله تعالى وإنما قال أكثرهم لا يعلمون لأن أكثر الخلق يضيفون الحوادث إلى الأسباب ولا يضيفونها إلى القضاء والقدر.

قوله تعالى: ﴿ **ولقد أخذنا آل فرعونَ بالسِّنين** ﴾، أي: بالجدب والقحط. تقول العرب: مسّتهم السنَةُ، أي: جدب السنة وشدّة السنة. وقيل: أراد بالسنين القحط سنة بعد سنة، ﴿ **ونقصٍ من الثّمرات** ﴾، والغلّات بالآفات والعاهات. وقال قتادة: أمّا السنين فلأهل البوادي، وأمّا نقص الثمرات فلأهل الأمصار، ﴿ **لعلّهم يذّكّرون** ﴾، أي: يتّعظون وذلك لأن الشدّة ترقق القلوب وترغّبها فيما عند الله عزّ وجلّ.

﴿**فإذا جاءتْهُم الحسنةُ** ﴾، يعني: الخصب والسعة والعافية، ﴿ **قالوا لنا هذه** ﴾، أي: نحن أهلها ومستحقّوها على العادة التي جرت لنا في سعة أرزاقنا ولم يروها تفضلاً من الله عزّ وجلّ فيشكروا عليها، ﴿ **وإنْ تُصبهم سيئةٌ** ﴾، جدب وبلاء ورأوا ما يكرهون، ﴿ **يطّيّروا** ﴾، يتشاءموا، ﴿ **بموسى ومَن معه** ﴾، وقالوا: ما أصابنا بلاء حتى رأيناهم، فهذا من شؤم موسى وقومه. وقال سعيد بن جبير ومحمد بن المنكدر: وكان مُلْكُ فرعون أربعمائة سنة وعاش ستمائة وعشرين سنة لا يرى مكروهاً، ولوكان له في تلك المدة جوع أوحمّى ليلة أووجع ساعة لمَا ادّعى الربوبية قطّ. قال الله تعالى: ﴿**ألا إنما طائرُهم عندَ الله**﴾، نصيبهم من الخصب والجدب والخير والشر كله من الله. وقال ابن عباس: طائرهم ما قضى عليهم وقدّر لهم. وفي رواية عنه: شُؤمهم عند الله ومن قِبَل الله أي: إنّما جاءهم الشؤم بكفرهم بالله. وقيل: معناه الشؤم العظيم هو الذي لهم عند الله من عذاب النار، ﴿ **ولكنّ أكثرهم لا يعلمون** ﴾، أن الذي أصابهم من الله.

﴿وَقَالُواْ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وقالوا﴾ يعني قوم فرعون وهم القبط لموسى عليه السلام ﴿مهما تأتنا به من آية﴾ يعني من عند ربك فهي عندنا سحر وهو قولهم ﴿لتسحرنا بها﴾ يعني لتصرفنا عما نحن عليه من الدين ﴿فما نحن لك بمؤمنين﴾ يعني بمصدّقين وكان موسى عليه الصلاة والسلام رجلاً حديداً مستجاب الدعوة فدعا عليهم فاستجاب الله عز وجل دعاءه فقال تعالى ﴿فأرسلنا عليهم الطوفان﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما وسعيد بن جبير وقتادة ومحمد بن إسحاق: دخل كلام بعضهم في بعض قالوا لما آمنت السحرة ورجع فرعون مغلوباً أبى هو وقومه إلا الإقامة على الكفر والتمادي في الشر فتابع الله عز وجل عليهم الآيات فأخذهم أولاً بالسنين وهو بالقحط ونقص الثمرات وأراهم قبل ذلك من المعجزات اليد والعصا فلم يؤمنوا فدعا عليهم موسى وقال: يا رب إن عبدك فرعون علا في الأرض وبغى وعتا وإن قومه قد نقضوا العهد رب فخذهم بعقوبة تجعلها عليهم نقمة ولقومي عظة ولمن بعدهم آية وعبرة فبعث الله عليهم الطوفان وهو الماء فأرسل الله عليهم المطر من السماء وبيوت بني إسرائيل وبيوت القبط مختلفة مشتبكة فامتلأت بيوت القبط حتى قاموا في الماء إلى تراقيهم ومن جلس منهم غرق ولم يدخل من ذلك الماء في بيوت إسرائيل شيء وركد الماء على أرضهم فلم يقدروا على التحرك ولم يعلموا شيئاً ودام ذلك الماء عليهم سبعة أيام من السبت إلى السبت.

وقال مجاهد وعطاء: الطوفان الموت. وقال وهب: الطوفان الطاعون بلغة أهل اليمن.

وقال أبو قلابة: الطوفان الجدري وهم أول من عذبوا به ثم بقي في الأرض. وقال مقاتل: الطوفان الماء طفا فوق حروثهم. وفي رواية ابن عباس رضي الله عنهما آن الطوفان أمر من الله عز وجل طاف بهم فعند ذلك قالوا يا موسى ادع لنا ربك ليكشف عنا هذا المطر ونحن نؤمن بك ونرسل معك بني إسرائيل فدعا موسى عليه الصلاة والسلام ربه فرفع عنهم الطوفان وأنبت الله لهم تلك السنة شيئاً لم ينبته قبل ذلك من الكلأ والزرع والثمر وأخصبت بلادهم

﴿وقالوا﴾، يعني: القبط لموسى، ﴿مهما﴾، متى «ما» كلمة تستعمل للشرط والجزاء، ﴿تأتنا به من آية﴾، علامة، ﴿لتسحرنا بها﴾، لتنقلنا عمّا نحن عليه من الدين، ﴿فما نحن لك بمؤمنين﴾، بمصدقين.

﴿فأرسلنا عليهم الطوفان﴾، قال ابن عباس وسعيد بن جبير وقتادة ومحمد بن إسحاق: دخل كلام بعضهم في بعض لمّا آمنت السَّحَرة، ورجع فرعون مغلوباً أبى هو وقومه إلاّ الإقامة على الكفر والتمادي في الشرّ فتابع الله عليهم الآيات وأخذهم بالسنين ونقص من الثمرات، فلما عالج منهم بالآيات الأربع العصا واليد والسنين ونقص الثمار فأبوا أن يؤمنوا فدعا عليهم، فقال: يا رب إن عبدك فرعون علا في الأرض وطغى وعتا وإن قومه قد نقضوا عهدك، ربِّ فخذهم بعقوبة تجعلها لهم نقمةً ولقومي عظةً ولمَن بعدهم آيةً وعبرةً، فبعث الله عليهم الطوفان، وهو الماء أرسل الله عليهم الماء وبيوت بني إسرائيل وبيوت القبط مشتبكة مختلطة، فامتلأت بيوت القبط حتى قاموا في الماء إلى تراقيهم ومَن جلس منهم غرق ولم يدخل بيوت بني إسرائيل قطرة من الماء، وركد الماء على أرضهم لا يقدرون أن يحرثوا ولا يعملوا شيئاً، ودام ذلك عليهم سبعة أيام من السبت إلى السبت. وقال مجاهد وعطاء: الطوفان الموت. وقال وهب: الطوفان الطاعون بلغة اليمن. وقال أبو قلابة: الطوفان الجدري، وهم أول مَن عُذّبوا به فبقي في الأرض. وقال مقاتل: الطوفان الماء طغى فوق حروثهم. وروى ابن ظبيان عن ابن عباس قال: الطوفان أمر من الله طاف بهم، ثم قرأ: ﴿فطاف عليها طائفٌ مِّن رَّبك وهم نائمون﴾ [القلم: ١٩]، قال نحاة الكوفة:

فقالوا ما كان هذا الماء إلا نعمة علينا فلم يؤمنوا وأقاموا شهراً في عافية فبعث الله عليهم الجراد فأكل عامة زرعهم وثمارهم وورق الشجر وأكل الأبواب وسقوف البيوت والخشب والثياب والأمتعة وأكل مسامير الحديد التي في الأبواب وغيرها وابتلي الجراد بالجوع فكان لا يشبع وامتلأت دور القبط منه ولم يصب بني إسرائيل من ذلك شيء فعجوا وضجوا وقالوا يا موسى ادع لنا ربك لئن كشفت عنا هذا الرجز لنؤمنن لك وأعطوه عهد الله وميثاقه بذلك فدعاه موسى ربه عز وجل فكشف الله عنهم الجراد بعد ما أقام عليهم سبعة أيام من السبت إلى السبت وفي الخبر «مكتوب على صدر كل جرادة جند الله الأعظم» ويقال إن موسى عليه السلام خرج إلى الفضاء فأشار بعصاه نحو المشرق فرجع الجراد من حيث جاء وكان قد بقي من زروعهم وثمارهم بقية فقالوا قد بقي لنا ما هو كافينا فما نحن بتاركي ديننا فلم يؤمنوا ولم يفوا بما عاهدوا عليه وعادوا إلى أعمالهم الخبيثة فأقاموا شهراً في عافية ثم بعث الله عز وجل عليهم القمل واختلفوا فيه فروى سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما أن القمل هو السوس الذي يخرج من الحنطة. وقال مجاهد وقتادة والسدي والكلبي: القمل الدبي وهو صغار الجراد الذي لا أجنحة له. وقال الحسن: يقرأ بفتح القاف وسكون الميم. قال أصحاب الأخبار أمر الله عز وجل موسى عليه السلام أن يمشي إلى كثيب رملي أعفر بقرية من قرى مصر تسمى عين شمس فمشى إلى ذلك الكثيب فضربه بعصاه فانهال عليهم القمل فتتبع ما بقي من حروثهم وزروعهم

الطوفان مصدر لا يُجمع كالرجحان والنقصان. وقال أهل البصرة: هو جمع واحدها طوفانة، فقال لموسى ادعُ لنا ربك يكشف عنا المطر فنؤمن بك ونرسل معك بني إسرائيل، فدعا ربَّه فرفع عنهم الطوفان، فأنبت الله لهم في تلك السنة شيء لم يُنبته لهم قبل ذلك من الكلأ والزرع والثمر وخصبت بلادهم، فقالوا: ما كان هذا الماء إلّا نعمة علينا وخصباً، فلم يؤمنوا وأقاموا شهراً في عافية، فبعث الله عليهم الجراد فأكل كل عامّة زروعهم وثمارهم وأوراق الشجر حتى كانت تأكل الأبواب وسقوف البيوت والخشب والثياب والأمتعة ومسامير الأبواب من الحديد حتى تقع دورهم، وابتلى الجراد بالجوع، فكان لا يشبع ولم يصب بني إسرائيل شيء من ذلك فعجّوا وضجّوا، وقالوا: يا موسى ادعُ لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنّا الرجز لنؤمننّ لك وأعطوه عهد الله وميثاقه، فدعا موسى عليه السلام فكشف الله عنهم الجراد بعدما أقام عليه سبعة أيام من السبت إلى السبت، وفي الخبر: «مكتوب على صدر كل جرادة جند الله الأعظم». ويقال إن موسى برز إلى الفضاء فأشار بعصاه نحو المشرق والمغرب فرجعت الجراد من حيث جاءت، وكانت قد بقيت من زروعهم وغلّاتهم بقية، فقالوا: قد بقي لنا ما هو كافينا فما نحن بتاركي ديننا، فلم يفوا بما عاهدوا وعادوا إلى أعمالهم السوء فأقاموا شهراً في عافية، ثم بعث الله عليهم القمل. واختلفوا في القمل، فروى سعيدبن جبير عن ابن عباس قال: القمل السوس الذي يخرج من الحنطة. وقال مجاهد والسدي وقتادة والكلبي: القمل الدبى والجراد الطيّارة التي لها أجنحة، والدبى الصغار التي لا أجنحة لها. وقال الجراد. وقال أبو عبيدة: وهو الحمنان وهو ضرب من القراد. وقال عطاء الخرساني: هو القمل. وبه قرأ أبو الحسن «القمل» بفتح القاف وسكون الميم، قالوا: أمر الله موسى أن يمشي إلى كثيب أعفر بقرية من قرى مصر تدعى عين شمس، فمشى موسى إلى ذلك الكثيب وكان أهيل فضربه بعصاه فانهال عليهم القمل، فتتبع ما بقي من حروثهم وأشجارهم ونباتهم فأكمله، ولحس الأرض كلها وكان يدخل بين ثوب أحدهم وجلده فيعضده، وكان أحدهم يأكل الطعام فيمتلىء قملاً. قال سعيد بن المسيب: القمل السوس الذي يخرج من الحبوب، وكان الرجل يخرج عشرة أجربة إلى الرحا فلا يردّ منها ثلاثة أقفزة، فلم يصابوا ببلاء كان أشد عليهم من القمل، وأخذ أشعارهم وأبشارهم وأشفار عيونهم وحواجبهم ولزم جلودهم كأنه الجدري عليهم ومنعهم النوم والقرار فصرخوا وصاحوا إلى موسى أنّا نتوب فادع لنا ربك يكشف عنّا البلاء، فدعا موسى عليه السلام الله فرفع القمل عنهم بعدما أقام عليهم سبعة أيام من

وثمارهم فأكلها كلها ولحس الأرض وكان يدخل بين ثوب أحدهم وجلده فيعضه فإذا أكل أحدهم طعاماً امتلأ قملاً. قال سعيد بن المسيب: القمل السوس الذي يخرج من الحبوب وكان الرجل منهم يخرج بعشرة أجربة إلى الرحى فلا يرد منها ثلاثة أقفزة فلم يصابوا ببلاء كان أشد عليهم من القمل وأخذت أشعارهم وأبصارهم وحواجبهم وأشفار عيونهم ولزم جلودهم كأنه الجدري عليهم ومنعهم النوم والقرار فصرخوا بموسى إنّا نتوب فادعُ لنا ربك يكشف عنا هذا البلاء فدعا موسى فرفع الله عنهم القمل بعد ما أقام عليهم سبعة أيام من السبت إلى السبت فمكثوا بعد ذلك ورجعوا إلى أخبث ما كانوا عليه من الأعمال الخبيثة وقالوا ما كنا قط أحق أن نستيقن أنه ساحر منا اليوم يجعل الرمل دواباً فدعا موسى عليهم بعد ما أقاموا شهراً في عافية فأرسل الله عليهم الضفادع فامتلأت منها بيوتهم وأطعمتهم وآنيتهم فلا يكشف أحد إناء ولا طعاماً إلا وجد فيه الضفادع وكان الرجل منهم يجلس في الضفادع فتبلغ إلى حلقه فإذا أراد أن يتكلم يثب الضفدع فيدخل في فيه وكانت تثب في قدورهم فتفسد طعامهم عليهم وتطفىء نيرانهم وكان أحدهم إذا اضطجع ركبته الضفادع حتى تكون عليه ركاماً فلا يستطيع أن ينقلب إلى شقه الآخر وإذا أراد أن يأكل سبقه الضفدع إلى فيه ولا يعجن أحدهم عجيناً إلا امتلأ ضفادع فلقوا من ذلك بلاء شديداً.

وروى عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال كانت الضفادع برية فلما أرسلها الله عز وجل على آل فرعون وسمعت وأطاعت وجعلت تقذف بأنفسها في القدور وهي تغلي على النار وفي التنانير وهي تفور أثابها الله عز وجل بحسن طاعتها برد الماء فلما رأوا ذلك بكوا وشكوا إلى موسى عليه الصلاة والسلام ما يلقونه من الضفادع وقالوا هذه المرة نتوب ولا نعود فأخذ موسى عليه السلام عليهم العهود والمواثيق ثم دعا الله عز وجل فكشف عنهم الضفادع بعد ما أقامت عليهم سبعاً من السبت إلى السبت فأقاموا شهراً في عافية ثم نقضوا العهد وعادوا إلى كفرهم فدعا عليهم موسى عليه الصلاة والسلام فأرسل الله عز وجل الدم فسال النيل عليهم دماً عبيطاً وصارت مياههم كلها دماً وكل ما يستقون من الآبار والأنهار يجدونها دماً عبيطاً فشكوا ذلك إلى فرعون وقالوا: ليس لنا شراب إلا الدم، فقال: سحركم. فقالوا: من أين يسحرنا ونحن لا نجد في أوعيتنا شيئاً من الماء إلا دماً عبيطاً. فكان فرعون يجمع بين

السبت إلى السبت، فنكثوا وعادوا إلى أخبث أعمالهم، وقالوا: كنّا قطّ أحقّ أن نستيقن أنه ساحر منّا اليوم يجعل الرمل دواب، وقالوا: وعزّة فرعون لا نتبعه أبداً ولا نصدقه، فأقاموا شهراً في عافية فدعا موسى عليه السلام بعدما أقاموا شهراً في عافية، فأرسل الله عليهم الضفادع فامتلأت منها بيوتهم وأفنيتهم وأطعمتهم وآنيتهم، فلا يكشف أحدٌ إناءً ولا طعاماً إلاّ وجد فيه الضفادع، وكان الرجل يجلس في الضفادع إلى ذقنه ويهمّ أن يتكلم فيثب الضفدع إلى فيه، وكانت تثب في قدورهم فتفسد عليهم طعامهم وتطفىء نيرانهم، وكان أحدهم يضطجع فتركبه الضفادع فتكون عليه ركاماً حتى ما يستطيع أن ينصرف إلى شقّه الآخر ويفتح فاه لأكلته فيسبق الضفدع أكلته إلى فيه، ولا يعجن عجيناً إلاّ تشدّخت فيه ولا يفتح قدراً إلا امتلأت ضفادع، فلقوا منها أذىً شديداً. وروى عكرمة عن ابن عباس قال: كانت الضفادع بريّة، فلما أرسلها الله على آل فرعون وأطاعت فجعلت تقذف نفسها في القدور وهي تغلي وفي التنانير وهي تفور، فأثابها الله بحسن طاعتها برد الماء، فلما رأوا ذلك بكوا وشكوا إلى موسى، وقالوا هذه المرة نتوب إلى الله تعالى ولا نعود فأخذ عهودهم ومواثيقهم، ثم دعا ربه فكشف عنهم الضفادع بعدما أقام سبعاً من السبت إلى السبت، فأقاموا شهراً في عافية ثم نقضوا العهود وعادوا إلى كفرهم، فدعا عليهم موسى فأرسل الله عليهم الدم، فسال النيل عليهم دماً وصارت مياههم دماً وما يستقون من الآبار والأنهار إلاّ وجدوه دماً عبيطاً أحمر، فشكوا ذلك إلى فرعون وقالوا ليس لنا شراب، فقال: إنه سحركم، فقال القوم من أين سحرنا ونحن لا نجد في أوعيتنا شيئاً من الماء إلاّ دماً عبيطاً وكان فرعون يجمع بين القبطي والإسرائيلي على الإناء الواحد فيكون ما يلي

القبطي والإسرائيلي على إناء واحد فيكون ما يلي الإسرائيلي ماء وما يلي القبطي دماً ويفرغان الجرة فيها الماء فيخرج للقبطي دم وللإسرائيلي ماء حتى أن المرأة من آل فرعون تأتي إلى المرأة من بني إسرائيل حين جهدهم العطش فتقول لها اسقني من مائك فتصب لها في قربتها فيصير في الإناء ماء حتى كانت تقول اجعليه في فيك ثم مجيه في فمي فتفعل ذلك فيصير دماً ثم إن فرعون اعتراه العطش حتى أنه ليضطر إلى مضغ الأشجار الرطبة فإذا مضغها صار ماؤها دماً فمكثوا على ذلك سبعة أيام لا يشربون إلا الدم. وقال زيد بن أسلم: إن الدم الذي سلط الله عز وجل عليهم كان الرعاف فأتوا موسى عليه الصلاة والسلام وشكوا إليه ما يلقوه وقالوا ادع لنا ربك يكشف عنا هذا الدم فنحن نؤمن بك ونرسل معك بني إسرائيل فدعا موسى عليه الصلاة والسلام ربه فكشف عنهم ذلك فلم يؤمنوا فذلك قوله تعالى: ﴿**فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات**﴾ يعني يتبع بعضها بعضاً وتفصيلها أن كل عذاب كان يقوم عليهم أسبوعاً وبين كل عذابين مدة شهر ﴿**فاستكبروا**﴾ يعني عن الإيمان فلم يؤمنوا ﴿**وكانوا قوماً مجرمين**﴾ يعني آل فرعون.

وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾

قوله تعالى: ﴿**ولما وقع عليهم الرجز**﴾ يعني لما نزل بهم العذاب الذي ذكره في الآية المتقدمة هو الطوفان وما بعده وقال سعيد بن جبير الرجز الطاعون وهو العذاب السادس بعد الآيات الخمس التي تقدمت فنزل بهم الطاعون حتى مات منهم في يوم واحد سبعون ألفاً فأمسوا وهم لا يتدافنون (ق). عن أبي أسامة بن زيد قال: قال رسول الله ﷺ «الطاعون رجز أرسل على طائفة من بني إسرائيل أو على من كان قبلكم فإذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه».

وقوله تعالى: ﴿**قالوا يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عندك**﴾ يعني بما أوصاك وقيل بما عهد عندك من إجابة

الإسرائيلي ماء وما يلي القبطي دماً ويقومان إلى الجرّة فيها الماء فيخرج للإسرائيلي ماء وللقبطي دم، حتى كانت المرأة من آل فرعون تأتي المرأة من بني إسرائيل حين جهدهم العطش فتقول اسقني من مائك فتصبّ لها من قربتها فيعود في الإناء دماً حتى كانت تقول اجعليه في فيك ثم مجّيه في فِيه، فتأخذ في فيها ماء فإذا مجّته في فيها صار دماً وإن فرعون اعتراه العطش حتى إنه ليضطر إلى مضغ الأشجار الرطبة فإذا مضغها يصير ماؤها في فيه ملحاً أجاجاً فمكثوا في ذلك سبعة أيام لا يشربون إلّا الدم. قال زيد بن أسلم: الدم الذي سُلّط عليهم كان الرعاف، فأتوا موسى وقالوا يا موسى ادع ربّك يكشف عنّا هذا الدم فنؤمن من بك ونرسل معك بني إسرائيل، فدعا ربه عزّ وجلّ فكشف عنهم فلم يؤمنوا فذلك قوله عزّ وجلّ فأرسلنا عليهم الطوفان، ﴿ والجرادَ والقُمّلَ والضفادِعَ والدّمَ آياتٍ مفصّلاتٍ ﴾، يتبع بعضها بعضاً وتفصيلها أن كل عذاب كان يمتد أسبوعاً وبين كل عذابين شهراً، ﴿ فاسْتَكْبَرُوا وكانُوا قوماً مجرمين ﴾.

﴿ **ولمّا وقعَ عليهمُ الرِّجْزُ** ﴾، أي: نزل بهم العذاب وهو ما ذكر الله عزّ وجلّ من الطوفان وغيره... وقال سعيد بن جبير: الرجز الطاعون، وهو العذاب السادس بعد الآيات الخمس، حتى مات منهم سبعون ألفاً في يوم فأمسوا وهم لا يتدافنون، ﴿ **قالوا** ﴾ لموسى ﴿ **يا موسى ادعُ لنا ربك بما عهد عندك** ﴾، أي: أوصاك. وقال عطاء: بما نبّأك. وقيل: بما عهد عندك من إجابة دعوتك ﴿ **لئن كشفتَ عنّا الرّجْزَ** ﴾، وهو الطاعون، ﴿ **لَنُؤْمِنَنّ لك**

دعوتك ﴿لئن كشفت عنا الرجز﴾ يعني العذاب الذي وقع بنا ﴿لنؤمنن لك ولنرسلن معك بني إسرائيل﴾ حتى يذهبوا حيث شاؤوا ﴿فلما كشفنا عنهم الرجز﴾ يعني بدعوة موسى عليه الصلاة والسلام ﴿إلى أجل هم بالغوه﴾ يعني إلى الوقت الذي أجل لهم وهو وقت إهلاكهم بالغرق في اليم ﴿إذا هم ينكثون﴾ يعني إذا هم ينقضون العهد الذي التزموه فلم يفوا به.

واعلم أن ما ذكره الله تعالى في هذه الآيات هي معجزات في الحقيقة دالة على صدق موسى عليه الصلاة والسلام ووجه ذلك أن العذاب كان مختصاً بآل فرعون دون بني إسرائيل فاختصاصه بالقبطي دون الإسرائيلي معجز وكون بني إسرائيل في أمان منه وعافية وقوم فرعون في شدة وعذاب وبلاء مع اتحاد المَساكن معجز أيضاً.

فإن اعترض معترض وقال إن الله تعالى علم من حال آل فرعون أنهم لا يؤمنون بتلك المعجزات فما الفائدة في تواليها عليهم وإظهار الكثير منها.

فالجواب على مذهب أهل السنة إن الله تعالى يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد لا يُسأل عما يفعل وأما على قول المعتزلة في رعاية المصلحة فلعله تعالى علم من قوم فرعون أن بعضهم كان يؤمن بتوالي تلك المعجزات وظهورها فلهذا السبب والاها عليهم والله أعلم بمراده.

قوله عز وجل: ﴿فانتقمنا منهم﴾ يعني كافأناهم عقوبة لهم سوء صنيعهم. وأصل الانتقام في اللغة سلب النعمة بالعذاب ﴿فأغرقناهم في اليم﴾ والمعنى أنه تعالى لما كشف عنهم العذاب مرات فلم يؤمنوا ولم يرجعوا عن كفرهم فلما بلغوا الأجل الذي أجل لهم انتقم منهم بأن أهلكهم بالغرق فذلك قوله فأغرقناهم في اليم يعني البحر واليم الذي لا يدرك قعره وقيل هو لجة جر البحر ومعظم مائه. قال الزهري: اليم معروف لفظة سريانية عربتها العرب ويقع إسم على البحر الملح والبحر العذب ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿فاقذفيه في اليم﴾ والمراد به نيل مصر وهو عذب ﴿بأنهم كذبوا بآياتنا﴾ يعني أهلكناهم وأغرقناهم بسبب أنهم كذبوا بآياتنا الدالة على وحدانيتنا وصدق نبينا ﴿وكانوا عنها﴾ يعني عن آياتنا ﴿غافلين﴾ يعني معرضين وقيل كانوا على حلول النقمة بهم غافلين.

ولما كان الإعراض عن الآيات وعدم الالتفات إليها كالغفلة عنها سموا غافلين تجوزاً لأن الغفلة ليست من فعل الإنسان.

وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَـٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَـٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ

ولنُرسِلنَّ معكَ بني إسرائيل﴾، أخبرنا أبو الحسن السرخسي ثنا زاهر بن أحمد ثنا أبو إسحق الهاشمي ثنا أبو مصعب عن مالك عن محمد بن المنكدر عن أبي النضر مولى عمر بن عبيد الله عن عامر بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه أنه سمعه يسأل أسامة بن زيد: أسمعتَ من رسول الله ﷺ في الطاعون؟ فقال أسامة بن زيد: قال رسول الله ﷺ: «الطاعونُ رجزٌ أُرسلَ على بني إسرائيل أو على مَن كان قبلكم، فإذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه».

قوله عزّ وجلّ: ﴿ فلمّا كشفنا عنهُمُ الرِّجْزَ إلى أجلٍ هم بالِغُوه ﴾، يعني إلى الغرق في اليم، ﴿ إذا هم ينكُثون ﴾، ينقضون العهد.

﴿ فانتقمنا منهم فأغرقناهم في اليم ﴾، يعني البحر، ﴿ بأنّهم كذَّبُوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين ﴾، أي: عن النقمة قبل حلولها. وقيل: معناه عن آياتنا مُعرضين.

كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْاْ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾

قوله عز وجل: ﴿وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون﴾ يعني ومكنّا القوم الذين كانوا يقهرون ويغلبون على أنفسهم وهو أن فرعون وقومه كانوا قد تسلطوا على بني إسرائيل فقتلوا أبناءهم واستخدموهم فصيروهم مستضعفين تحت أيديهم ﴿مشارق الأرض ومغاربها﴾ يعني أرض الشام ومصر وأراد بمشارقها ومغاربها جميع جهاتها ونواحيها. وقيل: أراد بمشارق الأرض ومغاربها الأرض المقدسة وهو بيت المقدس وما يليه من الشرق والغرب. وقيل: أراد جميع جهات الأرض وهو اختيار الزجاج قال: لأن داود وسليمان صلوات الله وسلامه عليهما كانا من بني إسرائيل وقد ملكا الأرض.

وقوله عز وجل: ﴿التي باركنا فيها﴾ يدل على أنها الأرض المقدسة يعني باركنا فيها بالثمار والأشجار والزروع والخصب والسعة ﴿وتمت كلمة ربك الحسنى على بني إسرائيل﴾ يعني وتمت كلمة الله وهي وعدهم بالنصر على عدوهم والتمكين في الأرض من بعدهم وقيل كلمة الله هي قوله ﴿ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض﴾ الآية والحسنى صفة للكلمة وهي تأنيث الأحسن وتمامها إنجاز ما وعدهم به من تمكينهم في الأرض وإهلاك عدوهم ﴿بما صبروا﴾ يعني إنما حصل لهم ذلك التمام وهو ما أنعم الله تعالى به عليهم من إنجاز وعده لهم بسبب صبرهم على دينه وأذى فرعون لهم ﴿ودمرنا﴾ يعني وأهلكنا والدمار الهلاك باستئصال ﴿ما كان يصنع فرعون وقومه﴾ في أرض مصر من العمارات والبنيان ﴿وما كانوا يعرشون﴾ يعني يسقفون من ذلك البنيان وقال مجاهد: ما كانوا يبنون من البيوت والقصور. وقال الحسن: وما كانوا يعرشون من الثمار والأعناب.

قوله عز وجل: ﴿وجاوزنا ببني إسرائيل البحر﴾ يعني وقطعنا ببني إسرائيل البحر بعد إهلاك فرعون وقومه وإغراقهم فيه يقال جاز الوادي وجاوزه إذا قطعه وخلفه وراء ظهره.

وقال الكلبي عبر موسى البحر يوم عاشوراء بعد مهلك فرعون وقومه فصامه شكراً لله تعالى: ﴿فأتوا على قوم

﴿ وأورثنا القوم الذين كانوا يُسْتَضْعَفُون ﴾، يُقهرون ويُستذلون بذبح الأبناء واستخدام النساء والاستعباد وهم بنو إسرائيل، ﴿ مشارق الأرض ومغاربَها ﴾، يعني مصر والشام، ﴿ التي باركنا فيها ﴾، بالماء والأشجار والثمار والخصب والسعة، ﴿ وتمّتْ كلمةُ ربِّك الحسنى على بني إسرائيل ﴾، يعني: وتمت كلمة الله وهي وعده إيّاهم بالنصر والتمكين في الأرض، وذلك قوله تعالى: ﴿ ونُريدُ أنْ نَمُنَّ على الذين اسْتُضْعِفُوا في الأرض ﴾ [القصص: ٥] الآية ﴿ بما صبرُوا ﴾، على دينهم وعلى عذاب فرعون، ﴿ وَدَمَّرْنا ﴾ أهلكنا ﴿ ما كان يصنعُ فرعونُ وقومُه ﴾، في أرض مصر من العمارات، ﴿ وما كانوا يعرشون ﴾، قال مجاهد: يبنون من البيوت والقصور. وقال الحسن: يعرشون من الأشجار والثمار والأعناب. وقرأ أبو بكر وابن عامر «يعرشون» بضم الراء هاهنا وفي النحل [٦٨]، وقرأ الآخرون بكسرها.

قوله تعالى: ﴿ وجاوزنا ببني إسرائيل البحر ﴾، قال الكلبي: عبر بهم موسى البحر يوم عاشوراء بعد مهلك

يعكفون على أصنام لهم﴾ يعني فمر بنو إسرائيل بعد مجاوزة البحر على قوم يعكفون أي يقيمون ويواظبون على أصنام لهم يعني تماثيل لهم كانوا يعبدونها من دون الله. قال ابن جريج: كانت تلك الأصنام تماثيل بقر وذلك أول شأن العجل. وقال قتادة: كان أولئك القوم من لخم وكانوا نزولاً بالرقة يعني بالرقة ساحل البحر وقيل كان أولئك الأقوام من الكنعانيين الذين أمر موسى عليه الصلاة والسلام بقتالهم **﴿قالوا﴾** يعني قال بنو إسرائيل لموسى لما رأوا ذلك التمثال **﴿يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة﴾** يعني كما لهم أصنام يعبدونها ويعظمونها فاجعل لنا أنت إلهاً نعبده ونعظمه. قال البغوي رحمه الله: ولم يكن ذلك شكاً من بني إسرائيل في وحدانية الله تعالى وإنما معناه اجعل لنا شيئاً نعظمه ونتقرب بتعظيمه إلى الله تعالى وظنوا أن ذلك لا يضر الديانة وكان ذلك لشدة جهلهم وقال غيره هذا يدل على غاية جهل بني إسرائيل وذلك أنهم توهموا أنه يجوز عبادة غير الله تعالى بعد ما رأوا الآيات الدالة على وحدانية الله تعالى وكمال قدرته وهي الآيات التي توالت عى قوم فرعون حتى أغرقهم الله تعالى في البحر بكفرهم وعبادتهم غير الله تعالى فحملهم جهلهم على أن قالوا لنبيهم موسى عليه الصلاة والسلام اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة فرد عليهم موسى عليه الصلاة والسلام بقوله **﴿قال إنكم قوم تجهلون﴾** يعني تجهلون عظمة الله تعالى وأنه لا يستحق أن يعبد سواه لأنه هو الذي أنجاكم من فرعون وقومه فأغرقهم في البحر وأنجاكم منه. عن أبي واقد الليثي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ لما خرج إلى غزوة حنين مر بشجرة للمشركين كانوا يعلقون عليها أسلحتهم يقال لها ذات أنواط فقالوا يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط فقال رسول الله ﷺ «سبحان الله هذا كما قال قوم موسى اجعل إلهاً كما لهم آلهة والذي نفسي بيده لتركبن سنن مَن كان قبلكم» أخرجه الترمذي.

وقوله تعالى: **﴿إن هؤلاء متبرِ ما هم فيه﴾** أي مهلك والتتبير الإهلاك **﴿وباطل ما كانوا يعملون﴾** البطلان عبارة عن عدم الشيء إما بعدم ذاته أو بعدم فائده ونفعه والمراد من بطلان عملهم أنه لا يعود عليهم من ذلك العمل نفع ولا يدفع عنهم ضراً لأنه عمل لغير الله تعالى فكان باطلاً لا نفع فيه **﴿قال أغير الله أبغيكم إلهاً﴾** لما قال بنو إسرائيل لموسى عليه الصلاة والسلام اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة حكم عليهم بالجهالة وقال مجيباً لهم على سبيل العجب والإنكار عليهم أغير الله أبغيكم إلهاً يعني أطلب لكم وأبغي لكم إلهاً **﴿وهو فضّلكم على العالمين﴾** والمعنى أن الإله ليس هو

فرعون وقومه فصامه شكراً لله عزّ وجلّ ﴿ فأتوا ﴾ فمرّوا ﴿ على قوم يعكفون ﴾، يقيمون قرأ حمزة والكسائي «يعكفون» بكسر الكاف وقرأ الآخرون بضمّها وهما لغتان، ﴿ على أصنام ﴾، أوثان ﴿ لهم ﴾، يعبدونها من دون الله. قال وذلك أول شأن العجل. قال قتادة: كان أولئك القوم من لخم وكانوا نزولاً بالرقّة، فقالت بنو إسرائيل لمّا رأوا ذلك: ﴿ قالوا يا موسى اجعلْ لنَا إلَهاً ﴾؛ أي مثالاً نعبده ﴿ كما لهم آلهة ﴾، ولم يكن ذلك شكّاً من بني إسرائيل في وحدانية الله، وإنما معناه اجعل لنا شيئاً نعظّمه ونتقرّب بتعظيمه إلى الله وظنوا أن ذلك لا يضرّ الديانة وكان ذلك لشدّة جهلهم. ﴿ قال ﴾ موسى ﴿ إنّكم قومٌ تجهلون ﴾ عظمة الله.

﴿ إنّ هؤلاء مُتبَّرٌ ﴾، مهلك، ﴿ ما هم فيه ﴾ والتتبير الإهلاك، ﴿ وباطلٌ ﴾، مضمحل وزائل، ﴿ ما كانوا يعملون ﴾.

﴿ قال ﴾ يعني موسى ﴿ أغيرَ اللهِ أبغيكم ﴾، أي: أبغي لكم وأطلب، ﴿ إلَهاً وهو فضّلكم على العالمين ﴾، أي: على عالمي زمانكم. أخبرنا أبو سعيد عبد الله بن أحمد الطاهري أنا جدّي أبو سهل عبد الصمد بن عبد الرحمن البزار أنا أبو بكر محمد بن زكريا العذافري أنا إسحق بن إبراهيم الدبري أنا عبد الرزّاق أنا معمر عن الزهري عن سنان بن أبي سنان الديلي عن أبي واقد الليثي، قال: خرجنا مع النبي ﷺ قبل حنين

شيئاً يطلب ويلتمس ويتخير بل الإله هو الذي فضلكم على العالمين لأنه القادر على الإنعام والإفضال فهو هذا الذي يستحق أن يعبد ويطاع لا عبادة غيره ومعنى قوله فضلكم على العالمين يعني على عالمي زمانكم وقيل فضلهم بما خصهم به من الآيات الباهرة التي لم تحصل لغيرهم وإن كان غيرهم أفضل منهم.

وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾ ۞ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾

قوله عز وجل: ﴿**وإذ أنجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يقتلون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذلك بلاء من ربكم عظيم**﴾ هذه الآية تقدم تفسيرها في سورة البقرة، والفائدة في ذكرها في هذا الموضع أنه تعالى هو الذي أنعم عليكم بهذه النعمة العظيمة فكيف يليق بكم الاشتغال بعبادة غيره حتى تقولوا اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة.

قوله عز وجل: ﴿**وواعدنا موسى ثلاثين ليلة**﴾ يعني وواعدنا موسى عليه الصلاة والسلام لمناجاتنا ثلاثين ليلة وهي ذو القعدة ﴿**وأتممناها بعشر**﴾ يعني عشر ذي الحجة وهذا قول ابن عباس ومجاهد. قال المفسرون إن موسى عليه الصلاة والسلام وعد بني إسرائيل إذا أهلك الله تعالى عدوهم فرعون أن يأتيهم بكتاب من عند الله عز وجل فيه بيان ما يأتون وما يذرون فلما أهلك الله تعالى فرعون سأل موسى ربه عز وجل أن ينزل عليه الكتاب الذي وعد به بني إسرائيل فأمره أن يصوم ثلاثين يوماً فصامها فلما تمت أنكر خلوف فمه فتسوك بعود خرنوب وقيل بل أكل من ورق الشجر فقالت الملائكة كنا نشم من فيك رائحة المسك فأفسدته بالسواك فأمره الله أن يصوم عشر ذي الحجة وقال له أما علمت أن خلوف فم الصائم أطيب عندي من ريح المسك فكانت فتنة بني إسرائيل في تلك العشر التي زادها الله عز وجل لموسى عليه الصلاة والسلام وقيل إن الله تعالى أمر موسى عليه الصلاة والسلام أن يصوم ثلاثين يوماً ويعمل فيها

فمررنا بسدرة فقلنا: يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما كان للكفّار ذات أنواط، وكان الكفّار ينوطون سلاحهم بسدرة يعكفون حولها، فقال النبيّ ﷺ الله أكبر هذا كما قالت بنو إسرائيل لموسى: «اجعل لنا إلّهاً كما لهم آلهة، لتَرْكَبُنَّ سُنن مَن قبلكم».

قوله عزّ وجلّ: ﴿ **وإذْ أنجيناكم** ﴾ قرأ ابن عامر « وإذْ أنجاكم »، وكذلك هو في مصاحف أهل الشام، ﴿ **من آل فرعون يسومُونَكم سوءَ العذابِ يقتلون أبناءكم** ﴾، قرأ نافع «يقتلون» خفيفة التاء من القتل وقرأ الآخرون بالتشديد على التكثير من التقتيل، ﴿ **ويستحيون نساءكم وفي ذلكم بلاءٌ من ربكم عظيم** ﴾.

﴿ **وواعدنا موسى ثلاثين ليلة** ﴾، ذا القعدة، ﴿ **وأتممناها بعشر** ﴾، من ذي الحجة، ﴿ **فتمّ ميقاتُ ربِّه أربعينَ ليلةً وقال موسى** ﴾ عند انطلاقه إلى الجبل للمناجاة ﴿ **لأخيه هارون اخلفني** ﴾، كن خليفتي، ﴿ **في قومي وأصلحْ** ﴾، أي أصلحهم بحملك إياهم على طاعة الله وقال ابن عباس: يريد الرفق بهم والإحسان إليهم ﴿ **ولا تتبعْ سبيلَ المفسدين** ﴾، أي: لا تطع مَن عصى الله ولا توافقه على أمره وذلك أن موسى عليه السلام وعد بني

ما يتقرب به إلى الله ثم كلمه وأعطاه الألواح في العشر التي زادها فلهذا قال: وتممناها بعشر وهذا التفصيل الذي ذكره هنا هو تفصيل ما أجمله في سورة البقرة وهو قوله تعالى: ﴿وإذ واعدنا موسى أربعين ليلة﴾ فذكره هناك على الإجمال وذكره هنا على التفصيل.

وقوله تعالى: ﴿فتم ميقات ربه أربعين ليلة﴾ يعني فتم الوقت الذي قدره الله لصوم موسى عليه الصلاة والسلام وعبادته أربعين ليلة لأن الميقات هو الوقت الذي قدر أن يعمل فيه عمل من الأعمال ولهذا قيل مواقيت الحج ﴿وقال موسى لأخيه هارون اخلفني في قومي﴾ يعني كن أنت خليفتي فيهم من بعدي حتى أرجع إليك ﴿وأصلح﴾ يعني وأصلح أمور بني إسرائيل واحملهم على عبادة الله تعالى. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: يريد الرفق بهم والإحسان إليهم ﴿ولا تتبع سبيل المفسدين﴾ يعني ولا تسلك طريق المفسدين في الأرض ولا تطعهم والمقصود من هذا الأمر التأكيد لأن هارون عليه الصلاة والسلام لم يكن ممن يتبع سبيل المفسدين فهوكقوله ولكن ليطمئن قلبي وكقولك للقاعد اقعد بمعنى دُم على ما أنت عليه من القعود.

قوله تعالى: ﴿ولما جاء موسى لميقاتنا﴾ يعني للوقت الذي وقتنا له أن يأتي فيه لمناجاتنا وهو قوله ﴿وكلمه ربه﴾ وفي هذه الآية دليل على أن الله عز وجل كلم موسى عليه الصلاة والسلام واختلف الناس في كلام الله تعالى فقال الزمخشري كلمه ربه عز وجل من غير واسطة كما يكلم الملك وتكليمه أن يخلق الكلام منطوقاً به في بعض الأجرام كما خلقه مخطوطاً في الألواح هذا كلامه وهذا مذهب المعتزلة ولا شك في بطلانه وفساده لأن الشجرة أو ذلك الجرم لا يقول «إنني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري» فثبت بذلك بطلان ما قالوه وذهبت الحنابلة ومن وافقهم إلى أن كلام الله تعالى حروف وأصوات متقطعة وأنه قد تم وذهب جمهور المتكلمين إلى أن كلام الله تعالى صفة مغايرة لهذه الحروف والأصوات وتلك الصفة قديمة أزلية والقائلون بهذا القول قالوا إن موسى عليه الصلاة والسلام سمع تلك الصفة الأزلية الحقيقية وقالوا كما أنه لا يبعد رؤية ذاته وليس جسماً ولا عرضاً كذلك لا يبعد سماع كلامه مع أن كلامه ليس بصوت ولا حرف ومذهب أهل السنة وجمهور العلماء من السلف والخلف إن الله تعالى متكلم بكلام قديم وسكتوا عن الخوض في تأويله وحقيقته. قال أهل التفسير والأخبار: لما جاء موسى عليه الصلاة والسلام لميقات ربه تطهر وطهر ثيابه وصام ثم أتى طور سيناء وفي القصة أن الله تعالى أنزل ظلة تغشت الجبل على أربع فراسخ من كل ناحية وطرد عنه الشيطان وهو أم الأرض ونحى عنه الملكين وكشط له السماء فرأى الملائكة قياماً

إسرائيل وهم بمصر إن الله إذا أهلك عدوّهم أتاهم بكتاب فيه بيان ما يأتون وما يذرون! فلمّا فعل الله ذلك بهم سأل موسى ربَّه الكتاب فأمره الله عزّ وجلّ أن يصوم ثلاثين يوماً فلما تمت ثلاثون أنكر خلوف فمه فتسوّك بعود خرنوب، وقال أبو العالية: أكل من لحاء شجرة فقالت له الملائكة: كنّا نشمّ من فِيك رائحة المسك، فأفسدتَه بالسِواك فأمره الله أن يصوم عشرة أيام من ذي الحجة، وقال: أما علمت أنّ خلوف فم الصائم أطيب عندي من ريح المسك، وكانت فتنتهم في العشر التي زادها.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ ولمّا جاء موسى لميقاتنا وكلّمه ربّه ﴾، أي: للوقت الذي ضربنا له أن نكلمه فيه. قال أهل التفسير: إن موسى تطهّر وطهّر ثيابه لميعاد ربّه فلما أتى طور سيناء. وفي القصة: إن الله عزّ وجلّ أنزل ظلمة على أربعة فراسخ وطرد عنه الشيطان وطرد هوام الأرض ونحّى عنه الملكين وكشط له السماء فرأى الملائكة قياماً في الهواء ورأى العرش بارزاً وكلّمه الله وناجاه حتى أسمعه، وكان جبريل عليه السلام معه فلم يسمع ما كلّمه ربّه وأدناه حتى سمع صرير القلم فاستحلى موسى عليه السلام كلام ربّه واشتاق إلى رؤيته ﴿ قالَ ربِّ أرني أنظرْ إليك ﴾، قال

في الهواء ورأى العرش بارزاً وأدنى ربه حتى سمع صريف الأقلام على الألواح وكلمه الله تبارك وتعالى وناجاه وأسمعه كلامه وكان جبريل عليه السلام معه فلم يسمع ما كلم الله تعالى به موسى فاستحلى كلام ربه عز وجل واشتاق إلى رؤيته ﴿**قال رب أرني أنظر إليك**﴾ قال الزجاج: فيه اختصار تقديره أرني نفسك أنظر إليك وقال ابن عباس معناه أعطني أنظر إليك وإنما سأل موسى عليه الصلاة والسلام الرؤية مع علمه بأن الله تعالى لا يرى في الدنيا لما هاج به من الشوق وفاض عليه من أنواع الجلال حتى استغرق في بحر المحبة فعند ذلك سأل الرؤية وقيل إنما سأل الرؤية ظناً منه بأنه تعالى يرى في الدنيا فتعالى الله عن ذلك ﴿**قال لن تراني**﴾ يعني ليس لبشر أن يراني في الدنيا ولا يطيق النظر إليّ في الدنيا من نظر إليّ في الدنيا مات فقال موسى عليه الصلاة والسلام: إلهي سمعت كلامك فاشتقت إلى النظر إليك ولأن أنظر إليك ثم أموت أحب إليّ من أن أعيش ولا أراك. وقال السدي: لما كلم الله تعالى موسى عليه الصلاة والسلام غاص عدو الله إبليس الخبيث في الأرض حتى خرج من بين قدمي موسى فوسوس إليه أن مكلمك شيطان فعند ذلك سأل موسى عليه الصلاة والسلام ربه الرؤية فقال «رب أرني أنظر إليك» قال الله تبارك وتعالى لموسى عليه الصلاة والسلام «لن تراني».

(فصل)

وقد تمسك من نفي الرؤية من أهل البدع والخوارج والمعتزلة وبعض المرجئة بظاهر هذه الآية وهو قوله تعالى: ﴿**لن تراني**﴾ قالوا لن تكون للتأبيد والدوام ولا حجة لهم في ذلك ولا دليل ولا يشهد لهم في ذلك كتاب ولا سنة وما قالوه في أن لن تكون للتأبيد خطأ بين ودعوى على أهل اللغة إذ ليس يشهد لما قالوه نص عن أهل أهل اللغة والعربية ولم يقل به أحد منهم ويدل على صحة ذلك قوله تعالى في صفة اليهود «ولن يتمنوه أبداً» مع أنهم يتمنون الموت يوم القيامة يدل عليه قوله تعالى: ﴿ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك﴾ وقوله ﴿يا ليتها كانت القاضية﴾ فإن قالوا إن لن معناها تأكيد النفي كلا التي تنفي المستقبل قلنا إن صح هذا التأويل فيكون معنى لن تراني محمولاً على الدنيا أي لن تراني في الدنيا جمعاً بين دلائل الكتاب والسنة فإنه قد ثبت في الحديث الصحيح أن المؤمنين يرون ربهم عز وجل يوم

الزجّاج: فيه اختصار تقديره أرني نفسك أنظر إليك. قال ابن عباس: أعطني النظر إليك. فإن قيل: كيف سأل الرؤية وقد علم أن الله تعالى لا يُرى في الدنيا؟ قال الحسن: هاج به الشوق فسأل الرؤية. وقيل: سأل الرؤية ظناً منه أنه يجوز أن يُرى في الدنيا ﴿ **قال** ﴾ الله تعالى ﴿ **لن تراني** ﴾ وليس لبشر أن يطيق النظر إلَيَّ في الدنيا مَن نظر إليّ في الدنيا مات فقال إلٰهي سمعت كلامك فاشتقت إلى النظر إليك ولأن أنظر إليك ثم أموت أحبَّ إليَّ من أن أعيش ولا أراك فقال الله عزّ وجلّ: ﴿ **لنْ تراني ولكنِ انظرْ إلى الجبل** ﴾، وهو أعظمَ جبل بمدين يقال له زبير. قال السدي: لمّا كلّم الله موسى غاص الخبيث إبليس في الأرض حتى خرج من بين قدمي موسى، فوسوس إليه وقال: إنّ مَنْ كلّمك شيطان فعند ذلك سأل موسى الرؤية فقال الله عزّ وجلّ: ﴿ **لن تراني** ﴾، وتعلقت نفاة الرؤية بظاهر هذه الآية، وقالوا: قال الله ﴿ **لن تراني** ﴾، ولن تكون للتأبيد، ولا حجّة لهم فيها ومعنى الآية: لن تراني في الدنيا أو في الحال، لأنه كان يسأل الرؤية في ~~الحال وأن~~ لا تكون للتأبيد كقوله تعالى: ﴿ لن يتمنّوه أبداً ﴾ [البقرة: ٩٥]، إخباراً عن اليهود، ثم أخبر عنهم أنهم يتمنون الموت في الآخرة كما قال الله تعالى: ﴿ ونادَوْا يا مالك ليقضِ علينا ربُّك ﴾ [الزخرف: ٧٧]، و﴿ يَا لَيْتَهَا كانتِ القاضية ﴾ [الحاقّة: ٢٧]، والدليل عليه أنه لم ينسبه إلى الجهل بسؤال الرؤية ولم يقل إني لا أُرَى حتى تكون لهم حجة بل علّق الرؤية على استقرار الجبل واستقرار الجبل عند التجلّي غير مستحيل إذا جعل الله تعالى له تلك القوة، والمُعلّق بما لا يستحيل لا يكون محالاً. قال الله تعالى: ﴿ **ولكنِ انظرْ إلى الجبلِ فإنِ استقرَّ مكانَهُ فسوفَ تراني** ﴾، قال وهب وابن إسحق: لمّا سأل موسى ربّه الرؤية أرسل الله

القيمة في الدار الآخرة وأيضاً فإن موسى عليه الصلاة والسلام كان عارفاً بالله تعالى وبما يجب ويجوز ويمتنع على الله عز وجل وفي الآية دليل على أنه سأل الرؤية فلو كانت الرؤية ممتنعة على الله تعالى لما سألها موسى عليه الصلاة والسلام فحيث سألها علمنا أن الرؤية جائزة على الله تعالى وأيضاً فإن الله عز وجل علق رؤيته على أمر جائز والمعلق على الجائز جائز فيلزم من ذلك كون الرؤية في نفسها جائزة وإنما قلنا ذلك لأنه تعالى علق رؤيته على استقرار الجبل وهو قوله تعالى: ﴿**ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني**﴾ وهو أمر جائز الوجود في نفسه وإذا كان كذلك ثبت أن رؤيته جائزة الوجود لأن استقرار الجبل غير مستحيل عند التجلي إذا جعل الله تعالى له قوة على ذلك والمعلق بما لا يستحيل لا يكون محالاً والله أعلم بمراده.

قال وهب ومحمد بن إسحاق: لما سأل موسى عليه الصلاة والسلام ربه عز وجل الرؤية أرسل الله الضباب والرياح والصواعق والرعد والبرق والظلمة حتى أحاطت بالجبل الذي عليه موسى عليه الصلاة والسلام أربع فراسخ من كل جانب وأمر الله تعالى أهل السموات أن يعترضوا على موسى عليه الصلاة والسلام فمرت به ملائكة السماء الدنيا كثيران البقر تنبع أفواههم بالتسبيح والتقديس بأصوات عظيمة كصوت الرعد الشديد فقال موسى: رب إني كنت عن هذا غنياً ثم أمر الله تعالى ملائكة السماء الثانية أن اهبطوا على موسى واعترضوا عليه فهبطوا عليه مثل الأسود لهم لجب بالتسبيح والتقديس ففزع العبد الضعيف موسى بن عمران مما رأى وسمع واقشعرت كل شعرة في رأسه وبدنه ثم قال: لقد ندمت على مسألتي فهل ينجيني مما أنا فيه شيء فقال له خير الملائكة ورئيسهم: يا موسى اصبر لما سألت فقليل من كثير ما رأيت ثم أمر الله ملائكة السماء الثالثة أن اهبطوا على موسى واعترضوا عليه فهبطوا عليه أمثال النسور لهم قصف ورجف ولجب شديد وأفواههم تنبع بالتسبيح والتقديس لهم جلب كجلب الجيش العظيم أوالنهم كلهب النار ففزع موسى واشتد فزعه وأيس من الحياة فقال له خير الملائكة ورئيسهم: مكانك يا ابن عمران حتى ترى ما لا صبر لك عليه ثم أمر الله ملائكة السماء الرابعة أن اهبطوا على موسى فاعترضوا عليه فهبطوا عليه لا يشبههم شيء من الذين مروا قبلهم ألوانهم كلهب النار وسائر خلقهم كالثلج الأبيض أصواتهم عالية بالتسبيح والتقديس لا يقاربهم شيء من أصوات الذين مروا به قبلهم فاصطكت ركبتاه وأرعد قلبه واشتد بكاؤه فقال له خير الملائكة ورئيسهم: يا ابن

الدواب والصواعق والظلمة والرعد والبرق وأحاط بالجبل الذي عليه موسى أربعة فراسخ من كل جانب، وأمر الله ملائكة السماء أن يعترضوا على موسى فمرّت به ملائكة السماء الدنيا كثيرَانِ البقر تنبع أفواههم بالتسبيح والتقديس بأصوات عظيمة كصوت الرعد الشديد، ثم أمر الله ملائكة السماء الثانية أن اهبطوا على موسى فاعترضوا عليه، فهبطوا عليه أمثال الأسود لهم لجب بالتسبيح والتقديس، ففزع العبد الضعيف ابن عمران ممّا رأى وسمع واقشعرّت كل شعرة في رأسه وجسده، ثم قال: لقد ندمت على مسألتي فهل ينجيني من مكاني الذي فيه شيء؟ فقال له خير الملائكة ورأسهم: يا موسى اصبرْ لِما سألت، فقليلٌ من كثيرٍ ما رأيتَ. ثم أمر الله ملائكة السماء الثالثة أنِ اهبطوا على موسى فاعترضوا عليه، فهبطوا أمثال النسور لهم قصف ورجف ولجب شديد، وأفواهُهُم تنبع بالتسبيح والتقديس كجلب الجيش العظيم ألوانهم كلهب النار، ففزع موسى واشتدّ فزعه وأيِسَ من الحياة، فقال له خير الملائكة: يا ابن عمران مكانك حتى ترى ما لا تصبر عليه، ثم أمر الله ملائكة السماء الرابعة أنِ اهبطوا فاعترضوا على موسى بـن عمران، فهبطوا عليه لا يشبههم شيء من الذين مرّوا به قبلهم ألوانهم كلهب النار، وسائر خلقهم كالثلج الأبيض أصواتهم عالية بالتقديس والتسبيح لا يقاربهم شيء من أصوات الذين مرّوا به من قبلهم، فاصطكّت ركبتاه وارتعد قلبه واشتدّ بكاؤه، فقال له خير الملائكة ورأسهم: يا ابن عمران اصبرْ لما سألت فقليلٌ من كثيرٍ ما رأيت، ثم أمر الله ملائكة السماء الخامسة أن اهبطوا فاعترضوا على موسى فهبطوا عليه لهم سبعة ألوان فلم يستطع

عمران اصبر لما سألت فقليل من كثير ما رأيت ثم أمر الله ملائكة السماء الخامسة اهبطوا على موسى فاعترضوا عليه فهبطوا عليه لهم سبعة ألوان فلم يستطع موسى أن يتبعهم بصره ولم ير مثلهم ولم يسمع مثل أصواتهم فامتلأ جوفه خوفاً واشتد حزنه وكثر بكاؤه فقال له خير الملائكة ورئيسهم: يا ابن عمران مكانك حتى ترى ما لا تصير عليه ثم أمر الله ملائكة السماء السادسة أن اهبطوا على موسى فاعترضوا عليه فهبطوا عليه وفي يد كل واحد منهم مثل النخلة العظيمة الطويلة نار أشد ضوءاً من الشمس ولباسهم كلهب النار إذا سبحوا وقدسوا جاوبهم من كان قبلهم من الملائكة كلهم يقولون بشدة أصواتهم سبوح قدوس رب العزة أبداً لا يموت في رأس كل ملك منهم أربعة أوجه فلما رآهم موسى عليه الصلاة والسلام رفع صوته يسبح معهم وهو يبكي ويقول: رب اذكرني ولا تنس عبدك فلا أدري أأنفلت مما أنا فيه أم لا إن خرجت احترقت وإن أقمت مت فقال له كبير الملائكة ورئيسهم: قد أوشكت يا ابن عمران أن يشتد خوفك وينخلع قلبك فاصبر للذي سألت ثم أمر الله تعالى أن يحمل عرشه ملائكة السماء السابعة فلما بدأ نور العرش انصدع الجبل من عظمة الرب سبحانه وتعالى ورفعت الملائكة أصواتهم جميعاً يقولون سبحان الملك القدوس رب العزة أبداً لا يموت فارتج الجبل لشدة أصواتهم واندك واندكت كل شجرة كانت فيه وخر العبد الضعيف موسى صعقاً على وجهه ليس معه روحه فأرسل الله تعالى برحمته الروح فتغشته وقلب عليه الحجر الذي كان جلس عليه موسى فصار عليه كهيئة القبة لئلا يحترق موسى عليه الصلاة والسلام وأقامت الروح عليه مثل اللامة فلما أفاق موسى قام يسبح ويقول آمنت بك وصدقت أنه لا يراك أحد فيحيا ومن نظر إلى ملائكتك انخلع قلبه فما أعظمك وأعظم ملائكتك أنت رب الأرباب وملك الملوك والإله العظيم لا يعدلك شيء ولا يقوم لك شيء رب تبت إليك الحمد لك لا شريك لك ما أعظمك وما أجلّك يا رب العالمين فذلك قوله تعالى: ﴿**فلما تجلى ربه للجبل جعله دكاً**﴾ قال ابن عباس: ظهر نور ربه للجبل فصار تراباً واسم الجبل زبير. وقال الضحاك أظهر الله عز وجل من نور الحجب مثل منخر الثور. وقال عبد الله بن سلام وكعب الأحبار ما تجلى للجبل من الله تعالى إلا مثل سم الخياط حتى صار دكاً. وقال السدي ما تجلى إلا قدر الخنصر يدل عليه ما روى ثابت عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قرأ هذه الآية وقال هكذا ووضع الإبهام على الفصل الأعلى من الخنصر فساخ الجبل ذكره البغوي هكذا بغير سند وأخرجه الترمذي أيضاً عن أنس أن

موسى أن يتبعهم بصره، لم يرَ مثلهم ولم يسمع مثل أصواتهم فامتلأ جوفه خوفاً واشتدّ حزنه وكثر بكاؤه، فقال له خير الملائكة ورأسهم: يا ابن عمران مكانك حتى ترى بعض ما لا تصبر عليه، ثم أمر الله ملائكة السماء السادسة أنِ اهبطوا على موسى فاعترضوا عليه، فهبطوا عليه في يد كل مَلَكٍ منهم مثل النخلة الطويلة نار أشدّ ضوءاً من الشمس، ولباسهم كلهب النار إذا سبّحوا وقدّسوا جاوبهم مَن كان قبلهم من ملائكة السمٰوات، كلهم يقولون بشدّة أصواتهم: سُبُّوحٌ قُدّوسٌ ربُّ الملائكة والروح، ربُّ العزّة أبداً لا يموت، وفي رأس كل مَلَك منهم أربعة أوجه، فلما رآهم موسى رفع صوته يسبّح معهم حين سبّحوا وهو يبكي ويقول: ربِّ اذكرني ولا تنسَ عبدك لا أدري أأنفلتُ ممّا أنا فيه أم لا؟ إنْ خرجتُ احترقتُ وإن مكثتُ متُّ، فقال له كبير الملائكة ورأسهم: قد أوشكت يا ابن عمران أن يشتدَّ خوفُك وينخلع قلبك فاصبرْ للذي سألت، ثم أمر الله أن يحمل عرشه ملائكة السماء السابعة فلمّا بدَا نورُ العرش انفرج الجبل من عظمة الرب جلّ جلاله، ورفعت ملائكة السمٰوات أصواتهم جميعاً يقولون: سبحان الملك القدوس ربِّ العزّة أبداً لا يموت بشدة أصواتهم، فارتجّ الجبل واندكّت كل شجرة كانت فيه وخرّ العبد الضعيف موسى صَعِقاً على وجهه ليس معه روحه، فأرسل الله برحمته الروح فيغشاه، وقلب عليه الحجر الذي كان عليه موسى وجعله كهيئة القبّة لئلا يحترق موسى، فأقامه الروح مثل اللامة، فقام موسى يسبّح الله ويقول آمنتُ بكَ ربّي وصدقت أنه لا يراك أحد فيحيا، مَن نظر إلى ملائكتك انخلع قلبه فما أعظمك وأعظم ملائكتك أنت ربّ

النبي ﷺ قرأ هذه الآية ﴿فلما تجلى ربه للجبل جعله دكاً﴾ قال حماد هكذا وأمسك بطرف إبهامه على أنملة أصبعه اليمنى فساخ الجبل وخرّ موسى عليه السلام صعقاً. وقال الترمذي حديث حسن صحيح غريب لا نعرفه إلا من حديث حماد بن سلمة ويروى عن سهل بن سعد الساعدي أن الله تعالى أظهر من سبعين ألف حجاب نوراً قدر الدرهم فجعل الجبل دكاً يعني مستوياً بالأرض وقال ابن عباس: جعله تراباً وقال سفيان ساخ الجبل حتى وقع في البحر فهو يذهب فيه وقال عطية العوفي صار رملاً هائلاً وقال الكلبي جعله دكاً يعني كسراً جبالاً صغاراً وقيل إنه صار لعظمة الله تعالى ستة أجبل فوقع ثلاثة بالمدينة وهي: أحد وورقان ورضوى ووقع ثلاثة بمكة وهي: ثور وثبر وحراء وقوله تعالى: ﴿وخر موسى صعقاً﴾ قال ابن عباس والحسن يعني مغشياً عليه. وقال قتادة يعني ميتاً والأول أصح لقوله ﴿فلما أفاق﴾ والميت لا إفاقة له إنما يقال أفاق من غشيته قال الكلبي صعق موسى عليه الصلاة والسلام يوم الخميس وهو يوم عرفة وأعطي التوراة يوم الجمعة يوم النحر. وقال الواقدي: لما خر موسى صعقاً قالت ملائكة السموات: ما لابن عمران وسؤال الرؤية وفي بعض الكتب أن ملائكة السموات أتوا موسى وهو في غشيته فجعلوا يركلونه ويقولون يا ابن النساء الحيض أطمعت في رؤية رب العزة فلما أفاق يعني من غشيته ورجع عقله إليه وعرف أنه سأل أمراً عظيماً لا ينبغي له ﴿قال سبحانك﴾ يعني تنزيهاً لك من النقائص كلها ﴿تبت إليك﴾ يعني من مسألتي الرؤية بغير إذنك وقيل من سؤال الرؤية في الدنيا وقيل لما كانت الرؤية مخصوصة بمحمد ﷺ فمنعها قال سبحانك تبت إليك يعني من سؤال ما ليس لي وقيل لما سأل الرؤية ومنعها قال تبت إليك يعني من هذا السؤال وحسنات الأبرار سيئآت المقربين ﴿وأنا أول المؤمنين﴾ يعني بأنك لا ترى في الدنيا وقيل وأنا أول المؤمنين يعني من بني إسرائيل بقي في الآية سؤالات: الأول أن الرؤية عين النظر فكيف قال أرني أنظر إليك وعلى هذا يكون التقدير أرني حتى أراك؟ والجواب عنه: أن معنى قوله أرني اجعلني متمكن من رؤيتك حتى أنظر إليك وأراك. السؤال الثاني كيف قال لن تراني ولم يقل لن تنظر إليّ حتى يكون مطابقاً لقوله «أنظر إليك»؟ والجواب: أن النظر لما كان مقدمة الرؤية كان المقصود هو الرؤية لا النظر الذي لا رؤية معه.

الأرباب وإله الآلهة وملك الملوك، ولا يَعْدِلُك شيء ولا يقوم لك شيء، ربِّ تبتُ إليك الحمد لك لا شريك لك ما أعظمك ما أجلّك ربَّ العالمين، فذلك قوله تعالى: ﴿ فلمّا تجلّى ربُّه للجبل جعله دكّاً ﴾، قال ابن عباس ظهر نورُ ربِّه للجبل جبلِ زبير. وقال الضحاك: أظهر الله من نور الحجب مثل مِنخر ثور. وقال عبد الله بن سلام كعب الأحبار: ما تجلّى من عظمة الله للجبل إلّا مثل سمّ الخياط حتى صار دكّاً. وقال السدي: ما تجلّى إلّا قدر الخنصر، يدلّ عليه ما روى ثابت عن أنس أنّ النبي ﷺ قرأ هذه الآية وقال: «هكذا» ووضع الإبهام على المِفصَل الأعلى من الخنصر، فساخ الجبل. وحُكِيَ عن سهل بن سعد الساعدي أن الله تعالى أظهر من سبعين ألف حجاب نوراً قدر الدرهم فجعل الجبل دكّاً، أي: مستوياً بالأرض. قرأ حمزة والكسائي «دكـاء» ممدوداً غير منوّن هاهنا وفي سورة الكهف، وافق عاصم في الكهف، وقرأ الآخرون «دكّـاً» مقصوراً منوّناً، فمَن قَصَرَ فمعناه جعله مدقوقاً: والدكّ والدقّ واحد، وقيل: معناه دكّه الله دكّاً فتقه كما قال: ﴿ إذا دُكّتِ الأرضُ دَكّاً ﴾ [الفجر: ٢١]، ومَن قرأ بالمدّ أي جعله مستوياً أرضاً دكّاء. وقيل: معناه جعله مثل دكاء وهي الناقة التي لا سنام لها قال ابن عباس: جعله تراباً. وقال سفيان: ساخ الجبل في الأرض حتى وقع في البحر فهو يذهب فيه. وقال عطية العوفي: صار رملاً هائلاً. وقال الكلبي: جعله دكّاً أي كسراً جبالاً صغاراً. ووقع في بعض التفاسير: صارت لعظمته ستّة أجبل وقعت بالمدينة أحد وودقان ورضوى، ووقعت ثلاثة بمكة ثور وثبير وحراء. قوله عزّ وجلّ: ﴿ وخرّ موسى صَعِقاً ﴾، قال ابن عباس والحسن: مغشياً عليه. وقال قتادة: ميّتاً. وقال الكلبي: خرّ موسى صعقاً يوم الخميس يوم عَرَفَة وأُعطي التوراة يوم

السؤال الثالث: كيف استدرك وكيف اتصل الاستدراك من قوله: ﴿ولكن انظر إلى الجبل﴾ بما قبله؟ والجواب أن المقصود منه تعظيم أمر الرؤية وأن أحداً لا يقوى على رؤيته تعالى إلا من قواه الله تعالى بمعونته وتأييده ألا ترى أنه لما ظهر أصل التجلي للجبل اندك وتقطع فهذا هوالمراد من هذا الاستدراك لأنه يدل على تعظيم أمر الرؤية والله أعلم بمراده.

﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ١٤٤﴾

قوله عز وجل: ﴿قال يا موسى إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي﴾ يعني قال الله تعالى لموسى عليه الصلاة والسلام يا موسى إني اخترتك واتخذتك صفوة. الاصطفاء الاستخلاص من الصفوة والاجتباء والمعنى إني فضلتك واجتبيتك على الناس وفي هذا تسلية لموسى عليه الصلاة والسلام عن منع الرؤية حين طلبها لأن الله تعالى عدد عليه نعمه التي أنعم بها عليه وأمره أن يشتغل بشكرها كأنه قال له إن كنت منعت من الرؤية التي طلبت فقد أعطيتك من النعم العظيمة كذا وكذا فلا يضيقن صدرك بسبب منع الرؤية وانظر إلى سائر أنواع النعم التي خصصتك بها ويه الاصطفاء على الناس برسالاتي وبكلامي يعني من غير واسطة لأن غيره من الرسل منع كلام الله تعالى إلا بواسطة الملك.

فإن قلت كيف قال اصطفيتك على الناس برسالاتي مع أن كثيراً من الأنبياء قد ساواه في الرسالة قلت ذكر العلماء عن هذا السؤال جوابين:

أحدهما: ذكره البغوي فقال لما لم تكن الرسالة على العموم في حق الناس كافة استقام قوله «اصطفيتك على

الجمعة يوم النحر. قال الواقدي: لمّا خرّ موسى صَعِقاً قالتْ ملائكة السمٰوات: مَا لِابْنِ عمران وسؤال الرؤية؟ وفي بعض الكتب: أن ملائكة السمٰوات أتوا موسى وهو مغشي عليه فجعلوا يركلونه بأرجلهم ويقولون يا ابن النساء الحيّض أطمعت في رؤية ربّ العزّة. ﴿ فلما أَفَاقَ ﴾، موسى من صعقته وثاب إليه عقله عرف أنه قدْ سأل أمراً عظيماً لا ينبغي له، ﴿ قال سبحانك تبتُ إليك ﴾، عن سؤال الرؤية ﴿ وأنا أولُ المؤمنين ﴾، بأنّك لا تُرى في الدنيا. وقال مجاهد والسدي: وأنا أول مَن آمن بك من بني إسرائيل.

﴿ قال يا موسى إنّي اصطفيتُكَ على النّاس ﴾، أي اخترتك، قرأ ابن كثير وأبو عمرو «إنّـي» بفتح الياء وكذلك ﴿ أخي أُشدد ﴾ [طه: ٣١]، ﴿ برسالاتي ﴾، قرأ أهل الحجاز «برسالتي» على التوحيد، والآخرون بالجمع، ﴿ وبكلامي فَخُذْ مَا آتيتك ﴾، أعطيتك، ﴿ وكن منَ الشاكرين ﴾. لله على نعمه، فإن قيل: فما معنى قوله: ﴿ اصطفيتك على الناس برسالاتي ﴾، وقد أعطى غيره الرسالة؟ قيل: لمّا لم تكن الرسالة على العموم في حقّ الناس كافّة اصطفيتك على الناس وإن شاركه فيه غيره، كما يقول الرجل: خصصتك بمشورتي وإن شاور غيره إذا لم تكن المشورة على العموم يكون مستقيماً. وفي القصة: أن موسى كان بعدما كلّمه ربّه لا يستطيع أحد أن ينظر إليه لِمَا غُشي وجهه من النور، ولم يزل على وجهه برقع حتى مات. وقالت له امرأته: أنا لم أرك منذ كلمك ربك فكشف لها وجهه فأخذها مثل شعاع الشمس فوضعت يدها على وجهها وخرّت لله ساجدة، وقالت: ادع الله أن يجعلني زوجتك في الجنة، قال: ذلك لك إن لم تتزوجي بعدي، فإن المرأة لآخر أزواجها. أخبرنا أبو سعيد الشريحي أنا أبو إسحاق الثعلبي أنا أبو عبد الله محمد بن أحمد بن علي المزكي أنا أبو العباس محمد بن أحمد بن إسحق السراج حدّثنا قتيبة بن سعيد حدّثنا رشد بن أسعد بن عبد الرحمن المغافري عن أبيه عن كعب الأحبار أن موسى نظر عند سعيد في التوراة فقال: إني أجد أمة خير الأمم أُخرجت للناس يأمرون بالمعروف، وينهون عن

الناس» وإن شاركه فيها غيره كما يقول الرجل للرجل خصصتك بمشورتي وإن كان قد شاور غيره إذا لم تكن المشورة على العموم فيكون مستقيماً وفي هذا الجواب نظر لأن من جملة من اصطفاه الله برسالته محمداً ﷺ وهو أفضل من موسى عليه الصلاة والسلام فلا يستقيم هذا الجواب الجواب الثاني ذكره الإمام فخر الدين الرازي فقال: إن الله تعالى بين أنه خصه بمجموع أمرين وهمّا الرسالة مع الكلام بغير واسطة وهذا المجموع ما حصل لغيره فثبت أنه إنما حصل التخصيص هاهنا لأنه سمع ذلك الكلام بغير واسطة وإنما كان الجواب بغير واسطة سبباً لمزيد الشرف بناء على العرف الظاهر لأن من سمع كلام الملك العظيم من فيه كان أعلى وأشرف ممن سمعه بواسطة الحجاب والنواب وهذا الجواب فيه نظر أيضاً لأن محمداً ﷺ اصطفاه برسالته وكلمه ليلة المعراج بغير واسطة وفرض عليه وعلى أمته الصلوات وخاطبه بيا محمد يدل عليه قوله ﴿فأوحى إلى عبده ما أوحى﴾ ورفعه إلى حيث سمع صريف الأقلام وهذا كله يدل على مزيد الفضل والشرف على موسى عليه الصلاة والسلام وغيره من الأنبياء فلا يستقيم هذا الجواب أيضاً والذي يعتمد في هذا الجواب عن هذا السؤال أن الله اصطفى موسى عليه الصلاة والسلام برسالته وبكلامه على الناس الذين كانوا في زمانه وذلك أنه لم يكن في ذلك الوقت أعلى منصباً ولا أشرف ولا أفضل منه وهو صاحب الشريعة الظاهرة وعليه نزلت التوراة فدل ذلك عليه أنه اصطفاه على ناس زمكانه كما اصطفى قومه على عالمي زمانهم وهو قوله تعالى: ﴿يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأني فضلتكم على العالمين﴾ قال المفسرون: يعني على عالمي زمانهم.

وقوله تعالى: ﴿فخذ ما آتيتك﴾ يعني ما فضلتك وأكرمتك به ﴿وكن من الشاكرين﴾ يعني على إنعامي عليك وفي القصة أن موسى عليه الصلاة والسلام كان بعد ما كلمه ربه لا يستطيع أحد أن ينظر إليه لما غشي وجهه من النور ولم يزل على وجهه برقع حتى مات وقالت له زوجته أنا لم أرك منذ كلمك ربك فكشف لها عن وجهه فأخذها مثل

المنكر ويؤمنون بالله وبالكتاب الأول وبالكتاب الآخر، ويقاتلون أهل الضلالة حتى يقاتلوا الأعور الدجّال، ربِّ اجعلهم أمتي، قال: هي أمة محمد يا موسى، فقال: ربّي إني أجد أمةً هم الحمّادون لله على كل حال رعاة الشمس المحكمون إذا أرادوا أمراً قالوا نفعل إن شاء الله فاجعلهم أمتي، قال: هي أمة محمد، فقال: ربِّ إنّي أجد أمة يأكلون كفّاراتهم وصدقاتهم، وكان الأوّلون يحرقون صدقاتهم بالنار، وهم المستجيبون والمُستجاب لهم الشافعون المشفوع لهم فاجعلهم أمتي، قال: هي أمة محمد، فقال: يا ربِّ إنّي أجد أمة إذا أشرف أحدهم على شرف كبّر الله فإذا هبط وادياً حمد الله، الصعيدُ لهم طهور والأرض لهم مسجد حيث ما كانوا، يتطهرون من الجنابة طهورهم بالصعيد كطهورهم بالماء حيث لا يجدون الماء، غرٌّ محجلون من آثار الوضوء فاجعلهم أمتي، قال: هي أمة محمد، قال: ربِّ إنّي أجد أمة إذا همّ أحدهم بحسنة ولم يعملها كُتبت له حسنة مثلها وإن عملها كتبت بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، وإذا همّ بسيئة ولم يعملها لم تُكتَب عليه وإن عملها كُتبت له سيئة مثلها، فاجعلهم أمتي، قال: هي أمة محمد، فقال: ربِّ إنّي أجد أمة مَرْحُومةً ضعفاء يرثون الكتاب من الذين اصطفيتهم فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات فلا أجد أحداً منهم إلاّ مرحوماً فاجعلهم أمتي، قال: هي أمة أحمد، قال: ربِّ إني أجد أمة مصاحفهم في صدورهم يلبسون ألوان ثياب أهل الجنة يُصفّون في صلاتهم صفوف الملائكة أصواتهم في مساجدهم كدويّ النحل لا يدخل النار أحد منهم أبداً إلاّ مَن يرى الحساب مثل ما يرى له الحجر من وراء البحر، فاجعلهم أمتي، قال: هي أمة أحمد، فلما عجب موسى من الخير الذي أعطى الله محمداً وأمته قال: يا ليتني من أصحاب محمد، فأوحى الله إليه ثلاث آيات يرضيه بهنّ ﴿ يا موسى إني اصطفيتُك على الناس برسالاتي وبكلامي﴾ إلى قوله: ﴿ سأريكم دار الفاسقين ﴾، ﴿ ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه

شعاع الشمس فوضعت يدها على وجهها وخرت ساجدة وقالت ادع الله أن يجعلني زوجتك في الجنة قال ذلك لك إن لم تتزوجي بعدي فإن المرأة لآخر أزواجها قوله تعالى:

﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾﴾

﴿وكتبنا في الألواح﴾ قال ابن عباس: يريد ألواح التوراة والمعنى وكتبنا لموسى في ألواح التوراة قال البغوي وفي الحديث كانت من سدر الجنة طول اللوح إثنا عشر ذراعاً وجاء في الحديث خلق الله تعالى آدم بيده وكتب التوراة بيده وغرس شجرة طوبى بيده. وقال الحسن: كانت الألواح من خشب. وقال الكلبي من زبرجدة خضراء. وقال سعيد بن جبير من ياقوتة حمراء. وقال ابن جريج من زمرد أمر الله تعالى جبريل عليه السلام حتى جاء بها من جنة عدن وكتبها بالقلم الذي كتب به الذكر واستمد من نهر النور. وقال الربيع بن أنس: كانت الألواح من زبرجد وقال وهب: أمره الله بقطع ألواح من صخرة صماء لينها له فقطعها بيده ثم شقها بأصبعه وسمع موسى عليه الصلاة والسلام صرير الأقلام بالكلمات العشرة وكان ذلك في أول يوم من ذي الحجة كان طول الألواح عشرة أذرع على طول موسى وقيل إن موسى خر صعقاً يوم عرفه فأعطاه الله تعالى التوراة يوم النحر وهذا أقرب إلى الصحيح عنه أنها لوحان واختاره الفراء قال وإنما جمعت على عدة العرب في إطلاق الجمع على الإثنين وقال وهب كانت عشرة ألواح. وقال مقاتل: كانت تسعة. وقال الربيع بن أنس: نزلت التوراة وهي وقر سبعين بعيراً يقرأ لجزء منها في سنة ولم يقرأها إلا أربعة نفر موسى ويوشع بن نون وعزيز وعيسى عليهم الصلاة والسلام والمراد بقوله لم يقرأها يعني لم يحفظها ويقرأها عن ظهر قلبه إلا هؤلاء الأربعة. وقال الحسن: هذه الآية في التوراة بألف آية يعني قوله وكتبنا له في الألواح ﴿من كل شيء﴾ يعني يحتاج إليه من أمر ونهي ﴿موعظة﴾ يعني نهياً عن الجهل وحقيقة الموعظة التذكير والتحذير مما يخاف عاقبته ﴿وتفصيلاً لكل شيء﴾ يعني وتبييناً لكل شيء من الأمر والنهي والحلال والحرام والحدود والأحكام مما يحتاج إليه في أمور الدين وروى الطبري بسنده عن وهب بن منبه قال: كتب له يعني في التوراة لا تشرك بي شيئاً من أهل السماء ولا من أهل الأرض فإن كل ذلك خلقي ولا تحلف باسمي كاذباً فإن من حلف باسمي كاذباً فلا أزكيه ووقر والديك.

يعدلون ﴾ [الأعراف: ١٥٩]، قال: فرضي موسى كلَّ الرضا.

قوله تعالى: ﴿ وكتبنا له ﴾، يعني لموسى، ﴿ في الألواح ﴾، قال ابن عباس: يريد ألواح التوراة، وفي الحديث: «كانت من سدر الجنة طول اللوح اثنا عشر ذراعاً». وجاء في أحاديث خلق الله آدم بيده: «وكتب التوراة بيده وغرس شجرة طوبى بيده». وقال الحسن: كانت الألواح من خشب. قال الكلبي: كانت من زبر جدّة خضراء. وقال سعيد بن جبير: كانت من ياقوت أحمر. وقال الربيع بن أنس: كانت الألواح من برد. وقال ابن جريج: كانت من زمرّد أمر الله جبريل حتى جاء بها من عدن وكتبها بالقلم الذي كتب به الذكر واستمدّ من نهر النور قال وهب: أمر الله بقطع الألواح من صخرة صمّاء ليّنها الله له فقطعها بيده ثم شققها بيده، وسمع موسى صرير القلم بالكلمات العشرة وكان ذلك في أول يوم من ذي القعدة، وكانت الألواح عشرة أذرع على طول موسى. وقال مقاتل ووهب: ﴿ وكتبنا له في الألواح ﴾، كنقش الخاتم. وقال الربيع بن أنس: نزلت التوراة وهي سبعون وقر بعير يقرأ الجزء منه في سنة لم يقرأه إلّا أربعة نفر موسى ويوشع وعزير وعيسى. وقال الحسن: هذه الآية في التوراة ألف آية يعني ﴿ وكتبنا له في الألواح ﴾ ﴿ مِن كلّ شيء ﴾، مما أُمروا به ونُهوا عنه، ﴿ موعظة ﴾ نهياً عن الجهل، وحقيقة الموعظة: التذكير والتحذير مما يخاف عاقبته، ﴿ وتفصيلاً لكلِّ شيء ﴾، أي: تبييناً لكل شيء من الأمر والنهي

وروى البغوي بإسناد الثعلبي عن كعب الأحبار أن موسى عليه الصلاة والسلام نظر في التوراة فقال: إني أجد أمة خير الأمم أخرجت للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويؤمنون بالكتاب الأول والكتاب الآخر ويقاتلون أهل الضلالة حتى يقاتلوا الأعور الدجال رب اجعلهم أمتي قال هي أمة محمد يا موسى فقال رب إني لأجد أمة هم الحمادون رعاة الشمس المحكمون إذا أرادوا أمراً قالوا نفعل إن شاء الله فاجعلهم أمتي قال هي أمة محمد قال: رب إني أجد في التوراة أمة يأكلون كفارتهم وصدقاتهم وكان الأولون يحرقون صدقاتهم بالنار وهم المستجيبون والمستجاب لهم الشافعون المشفوع لهم فاجعلهم أمتي قال هي أمة محمد قال: يا رب إني أجد أمة إذا أشرف أحدهم على شرف كبّر الله وإذا هبط وادياً حمد الله الصعيد لهم طهور والأرض لهم مسجد حيثما كانوا يتطهرون من الجنابة طهورهم بالصعيد كطهورهم بالماء حيث لا يجدون الماء غر محجلون من آثار الوضوء فاجعلهم أمتي قال هي أمة محمد قال: يا رب إني أجد أمة إذا همّ أحدهم بحسنة ولم يعلمها كتب له حسنة بمثلها وإن عملها كتبت بعشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف فاجعلهم أمتي قال هي أمة محمد قال: يا رب إني أجد أمة مرحومة ضعفاء يرثون الكتاب الذين اصطفيتهم فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات فلا أجد أحداً منهم إلا مرحوماً فاجعلهم أمتي قال هي أمة محمد قال: رب إني أجد أمة مصاحفهم في صدورهم يلبسون ألوان ثياب أهل الجنة يصفون في صلاتهم صفوف الملائكة أصواتهم في مساجدهم كدوي النحل لا يدخل النار أحد منهم أبداً إلا من يرى الحساب مثل ما يرى الحجر من وراء من البحر فاجعلهم أمتي قال هي أمة محمد فلما عجب موسى من الخير الذي أعطاه الله عز وجل محمداً ﷺ وأمته قال يا ليتني من أصحاب محمد فأوحى الله إليه ثلاث آيات يرضيه بهن ﴿**يا موسى إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي ـ إلى قوله ـ سأريكم دار الفاسقين**﴾ ﴿ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون﴾ قال فرضي موسى كل الرضا.

وقوله تعالى: ﴿**فخذها بقوة**﴾ يعني وقلنا لموسى عليه الصلاة والسلام إذا كتبنا له في الألواح من كل شيء خذها بجد واجتهاد. وقيل معناه فخذها بقوة قلب وصحة عزيمة ونية صادقة لأن من أخذ شيئاً بضعف نية أداه إلى الفتور ﴿**وأمر قومك يأخذوا بأحسنها**﴾ قال ابن عباس: يحلوا حلالها ويحرموا حرامها ويتدبروا أمثالها ويعلموا بمحكمها ويقفوا عند متشابهها وكان موسى عليه الصلاة والسلام أشد عبادة من قومه فأمر بما لم يؤمروا به وقيل ظاهر قوله «وأمر قومك يأخذوا بأحسنها» يدل على أن بين التكليفين فرقا ليكون في هذا الفصل فائدة وهي أن التكليف كان على موسى أشد لأنه تعالى لم يرخص له ما رخص لغيره من قومه.

فإن قلت ظاهر قوله تعالى: ﴿**يأخذوا بأحسنها**﴾ يدل على أن فيها ما ليس بحسن وذلك لم يقل به أحد فما معنى قوله ﴿**يأخذوا بأحسنها**﴾؟ قلت إن التكليف كله حسن وبعضه أحسن كالقصاص حسن ولكن العفو أحسن وكالانتصار حسن والصبر أحسن منه فأمروا أن يأخذوا بالشد على أنفسهم ليكون ذلك أعظم من الثواب فهو كقوله ﴿**اتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم**﴾ وكقوله ﴿**الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه**﴾ وقيل إن الحسن يدخل تحته الواجب والمندوب والمباح والأحسن الأخذ بالأشد والأشق على النفس وقيل معناه بأحسنها بحسنها وكلها حسن.

والحلال والحرام والحدود والأحكام. ﴿ **فَخُذْهَا بقوة** ﴾، أي: بجدٍّ واجتهاد. وقيل: بقوة القلب وصحة العزيمة، لأنه إذا أخذه بضعف النيّة أدّاه إلى الفتور، ﴿**وأْمُرْ قومكَ يأخذوا بأحسنها**﴾، قال عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما: يُحلُّوا حلالَها ويُحرِّموا حرامها ويتدبروا أمثالها ويعملوا بمحكمها، ويقفوا عند متشابهها. وكان موسى عليه السلام أشدّ عبادة من قومه، فأمر بما لم يُؤمروا به. قال قطرب: بأحسنها أي بحسنها وكلها حسن. وقيل: أحسنها الفرائض والنوافل، وهي ما يستحقّ عليها الثواب وما دونها المباح لأنه لا يستحق عليه الثواب. وقيل: بأحسنها

قوله تعالى: ﴿سأريكم دار الفاسقين﴾ قال مجاهد: يعني مصيركم في الآخرة وقال الحسن وعطاء يريد جهنم يحذركم أن تكونوا مثلهم. وقال قتادة: سأدخلكم الشام فأريكم منازل القرون الماضية الذين خالفوا الله تعالى لتعتبروا بها. وقال عطية العوفي يعني دار فرعون وقومه وهي مصر. وقال السدي: يعني منازل الكفار وقال الكلبي هي منازل عاد وثمود والقرون الذين هلكوا فكانوا يمرون عليها إذا سافروا.

سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾

قوله عز وجل: ﴿سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق﴾ قال ابن عباس يريد الذين يتجبرون على عبادي ويحاربون أوليائي سأصرفهم عن قبول آياتي والتصديق بها حتى لا يؤمنوا بي عقوبة بحرمان الهداية لعنادهم الحق. وقال سفيان بن عيينة: سأمنعهم فهم القرآن وقيل معناه سأصرفهم عن التفكير في خلق السموات والأرض وما فيهما من الآيات والعبر وقيل حكم الآية لأهل مصر خاصة وأراد بالآيات الآيات التسع التي أعطاها الله تعالى لموسى عليه الصلاة والسلام والأكثرون على أن الآية فيه دليل لمذهب أهل السنة على أن الله تعالى يهدي من يشاء ويضل من يشاء ويصرف عن آياته ويقبل الحق من يشاء ويوفق بالتفكر في آياته وقبول الحق من يشاء لأنه القادر على ما يشاء ﴿لا يسأل عما يفعل وهم يسألون﴾ ومعنى الذين يتكبرون الذين يرون أنهم أفضل الخلق وأن لهم من الحق ما ليس لغيرهم والتكبر على هذه الصفة لا يكون إلا لله عز وجل لأنه هو الذي له القدرة والفضل الذي ليس لأحد سواه فالتكبر في حق الله عز وجل صفة مدح وفي حق المخلوقين صفة ذم لأنه تكبر بما ليس له ولا يستحقه وقيل التكبر إظهار كبر النفس على غيرها فهو صفة ذم في حق جميع العباد وقوله يتكبرون من الكبر لا من التكبر أن يفتعلون التكبر ويرون أنهم أفضل من غيرهم فلذلك قال يتكبرون في الأرض بغير الحق بل بالباطل ﴿وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها وإن

بأحسن الأمرين في كل شيء كالعفو أحسن من القصاص والصبر أحسن من الانتصار. ﴿ سأُرِيكُم دارَ الفاسقين ﴾، قال مجاهد: مصيرها في الآخرة. قال الحسن وعطاء: يعني جهنم يحذّركم أن تكونوا مثلهم. وقال قتادة وغيره: سأُدخلكم الشأم فأُريكم منازل القرون الماضية الذين خالفوا أمر الله لتعتبروا بها. قال عطية العوفي: أراد دار فرعون وقومه وهي مصر، يدلّ عليه قراءة قسامة بن زهير: ﴿ سأُورثكم دار الفاسقين ﴾، وقال السدي: دار الفاسقين مصارع الكفّار. وقال الكلبي: ما مرّوا عليه إذا سافروا من منازل عاد وثمود والقرون الذين أُهلكوا.

قوله تعالى: ﴿ سَأَصْرِفُ عنْ آياتي الذين يتكبّرون في الأرض بغيرِ الحق ﴾، قال ابن عباس: يريد الذين يتجبرون على عبادي ويحاربون أوليائي حتى لا يؤمنوا بي، يعني سأصرفهم عن قبول آياتي والتصديق بها عوقبوا بحرمان الهداية لعنادهم للحق، كقوله: ﴿ فلمّا زاغُوا أزاغَ اللَّهُ قلوبَهم ﴾ [الصفّ: ٥]. قال سفيان بن عيينة: ساء منعهم فهم القرآن. قال ابن جريج: يعني عن خلق السمٰوات والأرض وما فيهما أي سأصرفهم أن يتفكّروا فيها ويعتبروا بها. وقيل: حكم الآية لأهل مصر خاصة، وأراد بالآيات الآيات التسع التي أعطاها الله تعالى موسى. والأكثرون على أنّ الآية عامّة ﴿ وإنْ يَرَوْا كلَّ آيةٍ لا يُؤمِنوا بها وإنْ يَرَوْا ﴾، يعني هؤلاء المتكبرين، ﴿ سبيل الرُّشد ﴾ قرأ حمزة والكسائي «الرشـد» بفتح الراء والشين، والآخرون بضم الراء وسكون الشين وهما لغتان كالسُّقم والسَّقم والبُخل والبَخل والحزُن والحزَن. وكان أبو عمر يفرّق بينهما، فيقول: «الرشد» بالضم الصلاح في

يروا سبيل الرشد﴾ يعني طريق الحق والهدى والسداد والصواب ﴿لا يتخذوه سبيلاً﴾ يعني لا يختاروه لأنفسهم طريقاً يسلكونه إلى الهداية ﴿وإن يروا سبيل الغي﴾ يعني طريق الضلال ﴿يتخذوه سبيلاً ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا﴾ يعني ذلك اختاروه لأنفسهم من ترك الرشد واتباع الغي بسبب أنهم كذبوا بآيات الله الدالة على توحيده ﴿وكانوا عنها غافلين﴾ يعني عن التفكر فيها والاتعاظ بها،

وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾ وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِن بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٥٠﴾

﴿والذين كذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة﴾ يعني ولقاء الدار الآخرة التي فيها الثواب والعقاب ﴿حبطت أعمالهم﴾ يعني بطلت فصارت كأن لم تكن والمعنى أنه قد يكون في الذين يكذبون بآيات الله من يعمل البر والإحسان والخير فبين الله تعالى بهذه الآية أن ذلك ليس ينفعهم من كفرهم وتكذيبهم بآيات الله وإنكارهم الدار الآخرة والبعث ﴿هل يجزون إلا ما كانوا يعملون﴾ يعني هل يجزون في العقبى إلا جزاء العمل الذي كانوا يعملونه في الدنيا.

قوله تعالى: ﴿واتخذ قوم موسى من بعده﴾ يعني من بعد انطلاق موسى إلى الجبل لمناجاة ربه عز وجل: ﴿من حليهم﴾ يعني التي استعاروها من قوم فرعون وذلك أن بني إسرائيل كان لهم عيد فاستعاروا من القبط الحلي ليتزينوا به في عيدهم فبقي عندهم إلى أن أهلك الله فرعون وقومه فبقي الحلي لبني إسرائيل ملكاً لهم فلذلك قال الله تعالى من حليهم فلما أبطأ موسى عليهم جمع السامري ذلك الحلي وكان رجلاً مطاعاً في بني إسرائيل فذلك قال تعالى: واتخذ قوم موسى. والمتخذ هو واحد فنسب الفعل إلى الكل لأنه كان برضاهم فكأنهم أجمعوا عليه وكان السامري رجلاً صائغاً فصاغ لهم ﴿عجلاً جسداً﴾ يعني من ذلك الحلي وهو الذهب والفضة وألقى في ذلك العجل من تراب أثر فرس جبريل عليه السلام فتحول عجلاً جسداً لحماً ودماً ﴿له خوار﴾ هو صوت البقر وهذا معنى قول ابن عباس والحسن

الأمر وبالفتح الاستقامة في الدين. ومعنى الآية: وإن يروا طريق الهدى والسداد، ﴿ لا يتخذوه ﴾ لأنفسهم ﴿ سبيلاً ﴾، ﴿ وإن يَروا سبيلَ الغيِّ ﴾ أي طريق الضلال ﴿ يتخذوه سبيلاً ذلك بأنهم كذّبُوا بآياتِنا وكانُوا عنها غافلين ﴾، عن التفكـر فيها والاتّعاظ بها غافلين ساهين.

﴿ والذين كذّبوا بآياتنا ولقاءِ الآخرة ﴾، أي: ولقاء الدار الآخرة التي هي موعد الثواب والعقاب، ﴿ حبطتْ أعمالُهم ﴾، بطلت وصارت كألم تكن، ﴿ هلْ يُجزون ﴾ في العقبى ﴿ إلّا ما كانوا ﴾، أي إلّا جزاء ما كانوا ﴿ يعملون ﴾، في الدنيا.

قوله تعالى: ﴿ واتّخذَ قومُ موسى من بعده ﴾، أي: من بعد انطلاقه إلى الجبل ﴿ من حُليِّهم ﴾ التي استعارها من قوم فرعون. قرأ حمزة والكسائي «من حليهم» بكسر الحاء وسكون اللام، خفيف، اتخذ السامريّ منها ﴿ عجلاً ﴾، وألقى في فمه من تراب أثر فرس جبريل فتحوّل عجلاً، ﴿ جسداً ﴾، حيّاً ولحماً ودماً ﴿ له

وقتادة وجمهور أهل التفسير وقيل كان جسداً لا روح فيه وكان يسمع منه صوت وقيل إن ذلك الصوت كان خفيق الريح وذلك أنه جعله مجوفاً ووضع في جوفه أنابيب عى وضع مخصوص فإذا هبت الريح دخلت في تلك الأنابيب فيسمع لها صوت كصوت البقر.

والقول الأول: أصح لأنه كان يخور وقيل إنه خار مرة واحدة وقيل إنه كان يخور كثيراً وكلما خار سجدوا له وإذا سكت رفعوا رؤوسهم. قال وهب كان يسمع منه الخوار ولا يتحرك. وقال السدي: كان يخور ويمشي ﴿**ألم يروا**﴾ يعني الذين عبدوا العجل وقيل إن بني إسرائيل كلهم عبدوا العجل إلا هارون عليه الصلاة والسلام بدليل قوله تعالى: ﴿**واتخذ قوم موسى من بعده**﴾ وهذا يفيد العموم وقيل إن بعضهم عبد العجل وهو الصحيح وأجيب عن قوله واتخذ قوم موسى أنه خرج على الأغلب وكذا قوله ﴿**ألم يروا**﴾ ﴿**أنه**﴾ يعني العجل الذي عبدوه ﴿**لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلاً**﴾ يعني أن هذا العجل لا يمكنه أن يتكلم بصواب ولا يهدي إلى رشد ولا يقدر على ذلك ومن كان كذلك كان جماداً أو حيواناً ناقصاً عاجزاً وعلى كلا التقديرين لا يصلح لأن يعبد ﴿**اتخذوه وكانوا ظالمين**﴾ يعني لأنفسهم حيث أعرضوا عن عبادة الله تعالى الذي يضر وينفع واشتغلوا بعبادة العجل الذي لا يضر ولا ينفع ولا يتكلم ولا يهديهم إلى رشد وصواب.

قوله عز وجل: ﴿**ولما سقط في أيديهم**﴾ يعني ولما ندموا على عبادة العجل. تقول العرب لكل نادم على أمر: سقط في يده وذلك لأن من شأن من اشتد ندمه على أمر أن يعض يده ثم يضرب على فخذه فتصير يده ساقطة لأن السقوط عبارة عن النزول من أعلى إلى أسفل ﴿**ورأوا أنهم قد ضلوا**﴾ يعني وتيقنوا أنهم على الضلالة في عبادتهم العجل ﴿**قالوا لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا**﴾ يعني يتب علينا ويتجاوز عنا ﴿**لنكونن من الخاسرين**﴾ يعني الذين خسروا أنفسهم بوضعهم العبادة في غير موضعها وهذا كلام من اعترف بعظيم ما أقدر عليه من الذنب وندم على ما صدره منه ورغب إلى الله تعالى في إقالة عثرته واعترافهم على أنفسهم بالخسران إن لم يغفر لهم ربهم ويرحمهم كلام التائب النادم على ما فرط منه وإنما قالوا ذلك لما رجع موسى عليه الصلاة والسلام إليهم وهو قوله تعالى: ﴿**ولما رجع موسى إلى قومه غضبان أسفاً**﴾ يعني لما رجع موسى عليه الصلاة والسلام من مناجاة ربه إلى قومه بني إسرائيل رجع غضبان أسفاً لأن الله تعالى كان قد أخبره أنه قد فتن قومه وأن السامري قد أضلهم فكان موسى في حال رجوعه غضبان أسفاً. قال أبو الدرداء: الأسف أشد الغضب. وقال ابن عباس والسدي: الأسف الحزن والأسيف الحزين. قال الواحدي والقولان متقاربان لأن الغضب من الحزن والحزن من الغضب فإذا جاءك ما تكره ممن هو دونك غضبت وإذا

خوار﴾، وهو صوت البقر وهذا قول ابن عباس والحسن وقتادة وجماعة أهل التفسير. وقيل: كان جسداً مجسّداً من ذهب لا روح فيه، كان يسمع منه صوت. وقيل: كان يسمع صوت حفيف الريح يدخل في جوفه ويخرج. والأول أصحّ. وقيل: إنه ما خار إلّا مرة واحدة. وقيل: إنه كان يخور كثيراً فكلما خار سجدوا له وإذا سكت رفعوا رؤوسهم. وقال وهب كان يسمع منه الخوار وهو لا يتحرك. وقال السدي: كان يخور ويمشي، ﴿ **أَلَمْ يروْا** ﴾، يعني: الذين عبدوا العجل ﴿ **أنه لا يكلّمهم ولا يهديهم سبيلاً** ﴾. قال الله عزّ وجلّ: ﴿ **اتّخذُوه وكانُوا ظالمين** ﴾، أي: اتخذوه إلّهاً وكانوا كافرين.

﴿ **ولمّا سقطَ في أيديهم** ﴾، أي ندموا على عبادة العجل، تقول العرب لكل نادم على أمر: **قد سقط في يديه**، ﴿ **ورأوا أنهم قد ضلّوا قالوا لئنْ لمْ يرحمْنَا ربُّنا** ﴾، يتب علينا ربنا، ﴿ **ويغفرْ لنا** ﴾، يتجاوز عنّا، ﴿ **لنكوننّ من الخاسرين** ﴾، قرأ حمزة والكسائي: «ترحمنــا وتغفر لنا» بالتاء فيهما، ﴿ **ربنا** ﴾ بنصب الباء. وكان هذا الندم والاستغفار منهم بعد رجوع موسى إليهم.

جاءك ما تكره ممن هو فوقك حزنت فتسمى إحدى هاتين الحالتين حزناً والأخرى غضباً فعلى هذا كان موسى عليه الصلاة والسلام غضبان من قومه لأجل عبادتهم العجل آسفاً حزيناً لأن الله تعالى فتنهم وأن الله تعالى كان قد أعلمه بذلك فحزن لأجل ذلك ﴿قال﴾ يعني موسى عليه الصلاة والسلام لقومه ﴿بئسما خلفتموني من بعدي﴾ أي بئس الفعل فعلتم بعد فراقي إياكم هذا الخطاب يحتمل أن يكون لعبدة العجل من السامي وأتباعه أو لهارون من بني إسرائيل فعلى الاحتمال الأول في أنه خطاب لعبدة العجل يكون المعنى بئسما خلفتموني حيث عبدتم العجل وتركتم عبادة الله وعلى الاحتمال الثاني وهو أن يكون الخطاب لهارون ومن معه من المؤمنين يكون المعنى بئسما خلفتموني حيث لم تمنعوهم من عبادة غير الله تعالى وقد رأيتم مني الأمر بتوحيد الله تعالى وإخلاص العبادة له ونفي الشركاء عنه وحمل بني إسرائيل على ذلك ومن حق الخلفاء أن يسروا لسيرة مستخلفهم وقوله ﴿أعجلتم أمر ربكم﴾ معنى العجلة التقدم بالشيء قبل وقته ولذلك صارت مذمومة والسرعة غير مذمومة لأن معناها عمل الشيء في أول وقته ولقائل أن يقول لو كانت العجلة مذمومة لم يقل موسى عليه الصلاة والسلام «عجلت إليك رب لترضى» ومعنى الآية أعجلتم ميعاد ربكم فلم تصبروا له. وقال الحسن: أعجلتم وعد ربكم الذي وعدكم من الأربعين وذلك أنهم قدروا أنه لم يأت على رأس الثلاثين فقد مات وقيل معناه أعجلتم سخط ربكم بعبادة العجل. وقال الكلبي: معناه أعجلتم بعبادة العجل قبل أن يأتيكم أمر ربكم ولما ذكر الله تعالى أن موسى عليه الصلاة والسلام رجع إلى قومه غضبان أسفاً ذكر بعده ما أوجبه الغضب فقال تعالى: ﴿وألقى الألواح﴾ يعني التي فيها التوراة وكان حاملاً لها فألقاها من شدة الغضب قالت الرواة وأصحاب الأخبار: كانت التوراة سبعة أسباع فلما ألقى موسى الألواح تكسرت فرفع منها ستة أسباع وبقي سبع واحد رفع منها ما كان من أخبار الغيب وبقي ما فيه المواعظ والأحكام والحلال والحرام، وروى أن الله تعالى أخبر مولى عليه الصلاة والسلام بفتنة قومه وعرف موسى عليه الصلاة والسلام أن ما أخبره الله سبحانه وتعالى به حق وصدق ومع ذلك لم يلق التوراة من يده فلما رجع إلى قومه وعاين ذلك وشاهده ألقى التوراة وهذا كما قيل ليس الخبر كالمعاينة ﴿وأخذ برأس أخيه يجره إليه﴾ قيل إنه أخذ بشعر رأسه ولحيته من شدة غضبه وقال ابن الأنباري لما رجع موسى عليه الصلاة والسلام ووجد قومه مقيمين على المعصية أكبر ذلك واستعظمه فأقبل على أخيه هارون يلومه ومد يده إلى رأسه لشدة موجدته عليه إذا لم يلحق به فيعرفه خبر بني إسرائيل فيرجع ويتلافاهم فأعلمه هارون عليه السلام أنه إنما أقام بين أظهرهم خوفاً على نفسه من القتل وهو قوله تعالى ﴿قال﴾ يعني هارون ﴿ابن أم﴾ إذ قال هارون لموسى ابن

قوله تعالى: ﴿ولمّا رجعَ موسى إلى قومه غَضبانَ أَسِفاً﴾، قال أبو الدرداء الأسف: شديد الغضب. وقال ابن عباس والسدي: أسفاً أي حزيناً. والأسف أشدّ الحزن. ﴿قال بئسما خلفتُموني منْ بعدي﴾، أي: بئس ما عملتم بعد ذهابي، يقال: خلفه بخير أو بشر إذا أولاه في أهله بعد شخوصه عنهم خيراً أو شرّاً، ﴿أعَجِلْتُم﴾، أسبقتم ﴿أمرَ ربِّكم﴾، قال الحسن: وعد ربكم الذي وعدكم من الأربعين ليلة، وقال الكلبي: أعجلتم بعبادة العجل قبل أن يأتيكم أمرُ ربكم. ﴿وألقى الألواح﴾، التي فيها التوراة وكان حاملاً لها، وألقاها على الأرض من شدّة الغضب. قال الرواة: كانت التوراة سبعة أسباع فلما ألقى الألواح تكسرت فرفعت ستّة أسباعها وبقي سبع، فرفع ما كان من أخبار الغيب أو بقي ما فيه الموعظة والأحكام والحلال والحرام، ﴿وأخذ برأسِ أخيه﴾، بذوائبه ولحيته ﴿يجرّه إليه﴾، وكان هارون أكبر من موسى بثلاث سنين وأحبَّ إلى بني إسرائيل من موسى، لأنه كان ليّن الغضب. ﴿قالَ﴾ هارون عند ذلك، ﴿ابنَ أُمَّ﴾ قرأ أهل الكوفة والشام هاهنا وفي طَـه [٩٤] بكسر الميم، يريد يا ابن أمي فحذف ياء الإضافة وأُبقيت الكسرة لتدلّ على الإضافة كقوله: ﴿يا عبادِ﴾ [الزمر: ١٠ و١٦، الزخرف: ٦٨] وقرأ أهل الحجاز والبصرة وحفص بفتح الميم على معنى يا ابن أُماه. وقيل: جعله اسماً واحداً وبناه

أم وإن كانا لأب وأم ليرققه ويستعطفه عليه ﴿إن القوم﴾ يعني الذين عبدوا العجل ﴿استضعفوني﴾ أي استذلوني وقهروني ﴿وكادوا يقتلونني﴾ أي وقاربوا أهمّوا أن يقتلوني ﴿فلا تشمت بي الأعداء﴾ أصل الشماتة الفرح ببلية من تعاديه ويعاديك يقال شمت فلان بفلان إذا سر بمكروه نزل به والمعنى لا تسر الأعداء بما تنال مني من مكروه ﴿ولا تجعلني مع القوم الظالمين﴾ يعني الذين عبدوا العجل.

قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾

﴿قال رب اغفر لي﴾ يعني أن موسى عليه الصلاة والسلام لما تبين له عذر أخيه هارون قال رب اغفر لي ما صنعت إلى أخي هارون يريد ما أظهر من الموجدة عليه في وقت الغضب ﴿ولأخي﴾ يعني واغفر لأخي هارون إن كان وقع منه تقصير في الإنكار على عبدة العجل ﴿وأدخلنا﴾ يعني جميعاً ﴿في رحمتك﴾ يعني في سعة رحمتك ﴿وأنت أرحم الراحمين﴾ وهذا فيه دليل على الترغيب في الدعاء لأن من هو أرحم الراحمين تؤمل منه الرحمة وفيه تقوية لطمع الداعي في نجاح طلبته ﴿إن الذين اتخذوا العجل﴾ يعني إلهاً عبدوه من دون الله ﴿سينالهم غضب من ربهم وذلة في الحياة الدنيا﴾ يعني سينالهم عقوبة من ربهم وهوان بسبب كفرهم وعبادتهم العجل وذلك في عاجل الحياة الدنيا ثم للمفسرين في هذه الآية قولان:

أحدهما: أن المراد بالذين اتخذوا العجل تابوا إلى الله تعالى بقتلهم أنفسهم كما أمرهم الله فتاب عليهم فكيف ينالهم الغضب والذلة مع التوبة؟ والجواب: إن ذلك الغضب إنما حصل لهم في الدنيا وهو نفس القتل فكان ذلك القتل غضباً عليهم والمراد بالذلة هو إسلامهم أنفسهم للقتل واعترافهم على أنفسهم بالضلال والخطأ. فإن قلت السين في قوله سينالهم للاستقبال فكيف تكون للماضي؟

قلت: هذا الكلام إنما هو خبر عما أخبر الله به موسى عليه الصلاة واللاسلام حين أخبره بافتتان قومه واتخاذهم العجل ثم أخبره الله في ذلك الوقت أنه سينالهم غضب من ربهم وذلة فكان هذا الكلام سابقاً لوقوعه وهو التل الذي أمرهم الله به بعد ذلك وقال ابن جريج في هذه الآية إن هذا الغضب والذلة لمن مات منهم على عبادة العجل ولمن فر من القتل وهو الذي قاله ابن جريج وإن كان له وجه لكن لجميع المفسرين على الخلافة.

القول الثاني: أن المراد بالذين اتخذوا العجل اليهود الذين كانوا في زمن النبي رسول الله ﷺ. قال ابن عباس:

على الفتح، كقولهم: حضرموت وخمسة عشر ونحوهما، وإنما قال ابنَ أمَّ وكان هارون أخاه لأبيه وأُمه ليرقّقه ويستعطفه. وقيل: كان أخاه لأُمه دون أبيه، ﴿ إنّ القومَ استضعفوني ﴾، يعني عبَدَة العجل، ﴿ وكادوا يقتلونني ﴾، همّوا وقاربوا أن يقتلوني، ﴿ فلا تشمتْ بيَ الأعداءَ ولا تجْعَلْني ﴾ في مؤاخذتك عليّ ﴿ مع القوم الظالمين ﴾، يعني عبدة العجل.

﴿ قال ﴾ موسى لمّا تبيّن له عذر أخيه، ﴿ ربِّ اغفرْ لي ﴾، ما صنعت إلى أخي، ﴿ ولأخي ﴾، إن كان منه تقصير في الإنكار على عبدة العجل، ﴿ وأدْخِلْنَا ﴾ جميعاً ﴿ في رحمتك وأنت أرحمُ الراحمين ﴾.

قوله تعالى: ﴿ إنّ الذين اتخذوا العِجْلَ ﴾ أي: اتخذوه إلّهاً ﴿ سَيَنَالُهُم غضبٌ من ربِّهم ﴾، في الآخرة ﴿وذِلّةٌ

هم الذين أدركوا النبي ﷺ وآباؤهم هم الذين عبدوا العجل وأراد بالغضب عذاب الآخرة وبالذلة في الدنيا الجزية. وقال عطية العوفي: سينال أولاد الذين عبدوا العجل وهم الذين كانوا على عهد رسول الله ﷺ وأراد بالغضب والذلة ما أصاب بني النضير وبني قريظة من القتل والجلاء وعلى هذا القول في تقرير الآية وجهان:

الأول: أن العرب تعير الأبناء بقبائح أفعال الآباء كما تفعل لك في المناقب فتقول للأبناء كذا وفعلتم كذا وإما فعل ذلك من مضى من آبائهم فكذلك هاهنا وصف اليهود الذين كانوا على زمن رسول الله ﷺ بأنهم اتخذوا العجل وإن كان آباؤهم فعلوا ذلك ثم حكم على اليهود الذين كانوا في زمنه بأنهم سينالهم غضب من ربهم في الآخرة وذلة في الحياة الدنيا.

الوجه الثاني: أن تكون الآية من باب حذف المضاف والمعنى أن الذين اتخذوا العجل وباشروا عبادته سينال أولادهم، الخ ثم حذف المضاف لدلالة الكلام عليه.

وقوله تعالى: ﴿**وكذلك نجزي المفترين**﴾ يعني: وكما جزينا هؤلاء الذين اتخذوا العجل إلهاً نجزي كل من افترى على الله كذباً أو عبد غيره وقال أبو قلابة: هي والله جزاء كل مفتر إلى يوم القيامة أن يذله الله، وقال سفيان بن عيينة: هذا في كل مبتدع إلى يوم القيامة وقال مالك بن أنس: ما من مبتدع إلا وهو يجد فوق رأسه ذلة ثم قرأ هذه الآية قال والمبتدع مفتر في دين الله ﴿**والذين عملوا السيئات**﴾ يعني عملوا الأعمال السيئة ويدخل في ذلك كل ذنب صغير وكبير حتى الكفر فما دونه ﴿**ثم تابوا من بعدها**﴾ يعني ثم رجعوا إلى الله من بعد أعمالهم السيئة ﴿**وآمنوا**﴾ يعني وصدقوا بالله تعالى وأنه يقبل توبة التائب ويغفر الذنوب ﴿**إن ربك**﴾ يا محمد أو يا أيها الإنسان التائب ﴿**من بعدها**﴾ يعني من بعد توبتهم ﴿**لغفور رحيم**﴾ يعني أنه تعالى يغفر الذنوب ويرحم التائبين وفي الآية دليل على أن السيئات بأسرها صغيرها وكبيرها مشتركة في التوبة وأن الله تعالى يغفرها جميعاً بفضله ورحمته وتقدير الآية أن من أتى بجميع السيئات ثم تاب إلى الله وأخلص التوبة فإن الله يغفرها له ويقبل توبته وهذا من أعظم البشائر للمذنبين التائبين.

وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾ وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾

قوله تعالى: ﴿**ولما سكت عن موسى الغضب**﴾ يعني: سكن لأن السكوت أصله الإمساك عن الشيء ولما كان السكوت بمعنى السكون استعير في سكون الغضب لأن الغضب لا يتكلم لكنه لما كان بفورته دالًّا على ما في نفس

في الحياة الدنيا ﴾، قال أبو العالية: هو ما أمروا به من قتل أنفسهم. وقال عطية العوفي: ﴿ **إن الذين اتخذوا العجل** ﴾ أراد اليهود الذين كانوا في عصر النبي ﷺ عيّرهم بصنيع آبائهم فنسبه إليهم ﴿ **سَيَنالُهم غضبٌ من ربّهم وذِلّةٌ في الحياةِ الدنيا** ﴾ أراد ما أصاب بني قريظة والنضير من القتل والجلاء. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: هو الجزية، ﴿ **وكذلك نجزي المفترين** ﴾، الكاذبين، قال أبو قلابة هو والله جزاء كل مُفترٍ إلى يوم القيامة أن يذلّه الله. قال سفيان بن عيينة: هذا في كل مبتدع إلى يوم القيامة.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ **والذين عَمِلُوا السيئاتِ ثمّ تابُوا منْ بعدِها وآمنُوا إنّ ربَّك منْ بعدِها لغفورٌ رحيم** ﴾.

قوله تبارك وتعالى: ﴿ **ولمّا سكتَ** ﴾، أي: سكن، ﴿ **عن موسى الغضبُ أخذَ الألواح** ﴾، التي كان ألقاها

المغضب كان بمنزلة الناطق فإذا سكنت تلك الفورة كان بمنزلة السكوت عما كان متكلماً به وقيل معناه ولما سكت موسى عن الغضب فهو من المقلوب كما تقول أدخلت القلنسوة في رأسي والمعنى أدخلت رأسي في القلنسوة والقول الأول أصح لأنه قول أهل اللغة والتفسير ﴿أخذ الألواح﴾ يعني التي ألقاها قال الإمام فخر الدين: وظاهر هذا يدل على أن الألواح لم تتكسر ولم يرفع من التوراة شيء ﴿وفي نسختها﴾ النسخ عبارة عن النقل والتحويل فإذا نسخت كتاباً من كتاب حرفاً بحرف فقد نقلت ما في الأصل إلى الفرع فعلى هذا قيل أراد بها الألواح لأنها نسخت من اللوح المحفوظ، وقيل: أراد بها النسخة المكتتبة من الألواح التي أخذها موسى بعدما تكسرت. وقال ابن عباس وعمرو بن دينار: لما ألقى موسى الألواح فتكسرت صام أربعين يوماً فردت عليه في لوحين وفيهما ما في الأولى بعينها فيكون نسخها نقلها وعلى قول من قال إن الألواح لم تتكسر وأخذها موسى بعينها بعد ما ألقاها يكون معنى وفي نسختها المكتوب فيها ﴿هدى ورحمة﴾ قال ابن عباس: يعني هدى من الضلالة ورحمة من العذاب ﴿للذين هم لربهم يرهبون﴾ يعني للخائفين من ربهم.

قوله عز وجل: ﴿واختار موسى قومه سبعين رجلاً لميقاتنا﴾ الاختيار افتعال من لفظ الخيار يقال اختار الشيء إذا أخذ خيره وخياره. والمعنى اختار موسى من قومه فحذف كلمة من وذلك سائغ في العربية لدلالة الكلام عليه. قال أصحاب الأخبار: إن موسى عليه الصلاة والسلام اختار من كل سبط من قومه ستة نفر فكانوا اثنين وسبعين فقال ليتخلف منكم رجلان فتشاحوا فقال لمن قعد منكم مثل أجر من خرج فقعد يوشع بن نون وكالب بن يقونا وقيل إنه لم يجد إلا ستين شيخاً فأوحى الله إليه أن يختار من الشباب عشرة فاختارهم فأصبحوا شيوخاً فأمرهم أن يصوموا ويتطهروا ويطهروا ثيابهم ثم ذهب بهم إلى ميقات ربه واختلف أهل التفسير في ذلك الميقات فقيل إنه الميقات الذي كلمه فيه ربه وسأل فيه الرؤية وذلك أنه لما خرج إلى طور سيناء أخذ معه هؤلاء السبعين فلما دنى موسى من الجبل وقع عليه عمود من الغمام حتى أحاط بالجبل كله ودخل موسى فيه وقال لقومه ادنوا فدنوا حتى دخلوا في الغمام ووقعوا سجداً وسمعوا الله تعالى وهو يكلم موسى يأمره وينهاه افعل كذا لا تفعل كذا فلما انكشف الغمام أقبلوا على موسى وقالوا لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتهم الصاعقة وهي المراد من الرجفة المذكورة في هذه الآية. وقال السدي: إن الله أمر موسى أن يأتيه في ناس من بني إسرائيل يعتذرون إليه من عبادة العجل ووعدهم موعداً فاختار موسى من قومه سبعين رجلاً ثم ذهب بهم إلى ميقات ربه ليعتذروا فلما أتوا ذلك المكان قالوا «لن نؤمن لك» يا موسى «حتى نرى الله جهرة» فإنك قد كلمته فأرِناه فأخذتهم الصاعقة فماتوا، فقام موسى يبكي ويدعو الله ويقول: رب ماذا أقول لبني إسرائيل إذا أتيتهم وقد أهلكت خيارهم رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي. وقال محمد بن إسحاق اختار

وقد ذهبت ستّة أسباعها، ﴿ وفي نُسْخَتِها ﴾، اختلفوا فيه، قيل: أراد بها الألواح لأنها نسخت من اللوح المحفوظ، وقيل: إن موسى لمّا ألقى الألواح تكسّرت فنسخ منها نسخة أخرى فهو المراد من قوله: ﴿ وفي نسختها ﴾. وقيل: أراد وفيما نسخ منها. وقال عطاء: فيما بقي منها. وقال ابن عباس وعمرو بن دينار: لمّا ألقى موسى الألواح فكسرت صام أربعين يوماً فردّت عليه في لوحين كان فيه، ﴿ هُدَىً ورحمةٌ ﴾، أي: هدى من الضلالة ورحمة من العذاب، ﴿ للذين هم لربّهم يَرْهَبُون ﴾، أي: للخائفين من ربّهم، واللام في ﴿ لربهم ﴾ زيادة للتوكيد، كقوله: ﴿ رَدِفَ لكم ﴾ [النمل: ٧٢]، وقال الكسائي: إن تقدمتْ قبل الفعل حَسُنَتْ، كقوله: ﴿ للرؤيا تعبرون ﴾ [يوسف: ٤٣]، قال قطرب: أراد من ربّهم يرهبون. وقيل: أراد راهبون. وقيل: أراد راهبون لربهم.

قوله تعالى: ﴿ واختارَ موسى قومَه ﴾، أي من قومه فانتصب لنزع حرف الصفة، ﴿ سبعين رجلاً لميقاتِنَا ﴾، وفيه دليل على أن كلهم لم يعبدوا العجل. قال السدي: أمر الله تعالى موسى أن يأتيه في ناس من بني إسرائيل

موسى من بني إسرائيل سبعين رجلاً الخير فالخير وقال انطلقوا إلى الله فتوبوا إليه مما صنعتم واسألوه التوبة على من تركتم وراءكم من قومكم صوموا وتطهروا وطهروا ثيابكم ثم خرج بهم إلى طور سيناء لميقات وقته له ربه وكان لا يأتيه إلا بإذن منه وعلم فقال السبعون فيما ذكر لي حين فعلوا ما أمرهم به وخرجوا مع موسى لميقات ربه اطلب لنا نسمع كلام ربنا فقال أفعل فلما دنا موسى من الجبل وقع عليه عمود الغمام حتى غشي الجبل كله ودنا موسى فدخل فيه وقال للقوم ادنوا فكان موسى إذا كلمه ربه وقع على جبهته نور ساطع لا يستطيع أحد من بني آدم أن ينظر إليه فضرب دونه بالحجاب ودنا القوم حتى دخلوا في الغمام ووقعوا سجوداً فسمعوا الله وهو يكلم موسى يأمره وينهاه افعل ولا تفعل فلما فرغ من أمره إنكشف عن موسى الغمام فأقبل إليهم فقالوا «لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتهم الصاعقة» وهي مرجفة فماتوا جميعاً فقام موسى يناشد ربه ويدعوه ويرغب إليه يقول رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي، وقال ابن عباس: كان الله أمر موسى أن يختار من قومه سبعين رجلاً فبرز بهم ليدعو ربهم فكان فيما دعوا الله أن قالوا اللهم أعطنا ما لم تعطه أحداً قبلنا ولا تعطه أحداً بعدنا فكره الله ذلك من دعائهم فأخذتهم الرجفة قال رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي، وقيل: إنما أخذتهم الرجفة من أجل أنهم ادعوا على موسى أنه قتل هارون. قال علي بن أبي طالب: انطلق موسى وهارون إلى سفح جبل فنام هارون على سرير فتوفاه الله فلما رجع موسى إلى بني إسرائيل قالوا له: أنت قتلته حسدتنا على خلقه ولينه، وكان هارون حسن الخلق محبباً في بني إسرائيل فقال لهم موسى اختاروا من شئتم فاختاروا سبعين رجلاً فلما انتهوا إليه قالوا يا هارون من قتلك قال ما قتلني أحد ولكن الله توفاني فأخذتهم الرجفة فجعل موسى يرجع يميناً وشمالاً ويقول «رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي» الآية فأحياهم الله عز وجل وقيل إنما أخذتهم الرجفة لتركهم فراق عبدة العجل لا لأنهم كانوا من عبدته. قال ابن عباس: إنما تناولتهم الرجفة لأنهم لم يزايلوا القوم حين نصبوا العجل وما كرهوا أن يجامعوهم عليه. قال ابن جريج فلما خرجوا ودعوا الله أماتهم ثم أحياهم: وقال مجاهد: واختار موسى قومه سبعين رجلاً لميقاتنا الميقات الموعد فلما أخذتهم الرجفة بعد أن خرج موسى بالسبعين من قومه يدعون الله ويسألونه أن يكشف عنهم البلاء فلم يستجب لهم علم موسى أنهم قد أصابوا من المعصية ما أصاب قومهم، وقال محمد بن كعب القرظي: لم يستجب لهم من أجل أنهم لم ينهوهم عن المنكر ولم يأمروهم بالمعروف فأخذتهم الرجفة فماتوا ثم أحياهم الله وقوله تعالى: ﴿**فلما أخذتهم الرجفة**﴾ أصل الرجفة الاضطراب الشديد الذي يحصل معه التغيير والهلاك ولهذا اختلفوا في تلك الرجفة التي حصلت لهؤلاء هل كان معها موت أم لا فمعظم الروايات التي تقدمت أنهم ماتوا بسبب تلك الرجفة. وقال وهب بن منبه: لم تكن تلك الرجفة موتاً ولكن القوم لما رأوا تلك الهيئة أخذتهم الرعدة وقلقوا ورجفوا حتى كادت أن تبين مفاصلهم فلما رأى موسى ذلك رحمهم وخاف عليهم الموت واشتد عليه فقدهم وكانوا له وزراء على الخير سامعين له مطيعين، فعند ذلك دعا موسى وبكى وناشد ربه فكشف الله عنهم تلك الرجفة فاطمأنوا وسمعوا كلام الله فذلك قوله تعالى: ﴿**فلما أخذتهم الرجفة**﴾ ﴿**قال**﴾ يعني موسى ﴿**رب**﴾ أي يا رب ﴿**لو شئت أهلكتهم من قبل**﴾ يعني من قبل عبادتهم العجل ﴿**وإياي**﴾ وذلك أنه

يعتذرون إليه من عبادة العجل، فاختار موسى من قومه سبعين رجلاً، ﴿ **فلما** ﴾ أتوا ذلك المكان قالوا: لن نؤمنَ لك حتى نرى الله جهرة فأَخَذَتْهم الصاعقةُ فماتُوا. وقال ابن إسحق: اختارهم ليتوبوا إليه مما صنعوا ويسألوا التوبة على مَنْ تركوا وراءهم من قومهم، فهذا يدلّ على أن كلهم عبدوا العجل. قال قتادة وابن جريج ومحمد بن كعب ﴿ **أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ** ﴾ لأنهم لم يُزايلوا قومهم حين عبدوا العجل، ولم يأمروهم بالمعروف ولم ينهوهم عن المنكر. وقال ابن عباس: إن السبعين الذين قالوا: ﴿ لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتهم الصاعقة ﴾ [البقرة: ٥٥] كانوا قبل السبعين رجلاً فاختارهم وبرز بهم ليدعوا ربهم، فكان فيما دعوا أن قالوا: اللّهمّ أعطنا ما لم تُعطه أحداً قبلنا ولا تعطه أحداً بعدنا فكره الله ذلك من دعائهم، فأخذتهم الرجفة. قال وهب: لم تكن

خاف أن يتهمه بنو إسرائيل على السبعين إذا رجع إليهم وما هم معه ولم يصدقوه بأنهم ماتوا فقال: رب لو شئت أهلكتهم من قبل يعني قبل خروجهم إلى الميقات وإياي معهم فكان بنو إسرائيل يعاينون ذلك ولا يتهموني ﴿**أتهلكنا بما فعل السفهاء منا**﴾ قال الفراء: ظن موسى أنهم أهلكوا باتخاذ أصحاب العجل العجل فقال أتهلكنا بما فعل السفهاء منا يعني عبدة العجل وإنما أهلكوا بسبب مسألتهم الرؤية وهي قولهم أرنا الله جهرة، وهذا قول الكلبي وجماعة، وقال جماعة من أهل العلم: لا يجوز أن يظن موسى أن الله تعالى يهلك قوماً بذنوب غيرهم ولكن قوله أتهلكنا بما فعل السفهاء منا استفهام بمعنى الجحد أي لست تفعل ذلك وهذا قول ابن الأنباري، وقال المبرد: هذا استفهام استعطاف أي لا تهلكنا ﴿**إن هي إلا فتنتك**﴾ قال الواحدي: الكناية في هي تعود إلى الفتنة كما تقول إن هو إلا زيد والمعنى أن تلك الفتنة التي وقع فيها السفهاء لم تكن إلا فتنتك أي اختبارك وابتلاؤك وهذا تأكيد لقوله أتهلكنا بما فعل السفهاء منا لأن معناه لا تهلكنا بفعلهم فإن تلك الفتنة كانت اختباراً منك وابتلاء أضللت بها قوماً فافتتنوا وهديت قوماً فعصمتهم حتى ثبتوا على دينك وهو المراد من قوله: ﴿**تضل بها من تشاء وتهدي من تشاء**﴾ قال الواحدي: وهذه الآية من الحجج الظاهرة على القدرية التي لا يبقى لهم معها عذر ﴿**أنت ولينا**﴾ يعني أنت يا ربنا ناصرنا وحافظنا وهذا يفيد الحصر أي لاوليّ لنا ولا ناصر ولا حافظ إلا أنت ﴿**فاغفر لنا**﴾ سأل موسى عليه الصلاة والسلام لنفسه ولقومه الغفران أما لنفسه فلقوله إن هي إلا فتنتك وهذا فيه إقدام على الحضرة المقدسة وأما لقومه فلقولهم أرنا الله جهرة وفي هذا إقدام على الحضرة المقدسة فلهذا السبب سأل موسى عليه الصلاة والسلام الغفران له ولقومه ﴿**وارحمنا**﴾ أي اشملنا برحمتك التي وسعت كل شيء ﴿**وأنت خير الغافرين**﴾ يعني أن كل من سواك إنما يغفر الذنب طلباً للثناء الجميل أو لدفع ضرر وأما أنت يا رب فتغفر ذنوب عبادك لا لطلب عوض ولا غرض بل لمحض الفضل والكرم فأنت خير الغافرين.

۞ وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ ۖ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ

الرجفة صوتاً ولكن القوم لمّا رأوا تلك الهيبة أخذتهم الرعدة وقلقوا ورجفوا، حتى كادت أن تبين منهم مفاصلهم، فلما رأى موسى ذلك رحمهم وخاف عليهم الموت، واشتدّ عليه فقدهم وكانوا له وزراء على الخير سامعين مطيعين، فعند ذلك دعا وبكى وناشد ربّه فكشف الله عنهم تلك الرجفة، فاطمأنوا وسمعوا كلام ربّهم، فذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿ **قال** ﴾، يعني موسى ﴿ **ربِّ لو شئتَ أهلكتَهم منْ قبل** ﴾، يعني عن عبادة العجل، ﴿ **وإيّايَ** ﴾ بقتل القبطي. ﴿ **أتُهلِكُنَا بما فعلَ السفهاءُ منّا** ﴾، يعني عبدة العجل، وظنّ موسى أنهم عُوقبوا باتخاذ بني إسرائيل العجل، وقال: هذا على طريق السؤال يسأل أتهلكنا بفعل السفهاء. وقال المبرّد: قوله: ﴿ **أتهلكنا بما فعل السفهاءُ منّا** ﴾ استفهام استعطاف، أي لا تهلكنا، وقد علم موسى عليه السلام أن الله تعالى أعدل من أن يأخذ بجريرة الجاني غيره. قوله تعالى: ﴿ **إنْ هي إلاّ فِتْنَتُكَ** ﴾، أي: التي وقع فيها السفهاء لم تكن إلاّ اختبارك وابتلاءك أضللت بها قوماً فافتتنوا وهديت قوماً فعصمتهم حتى ثبتوا على دينك، فذلك هو معنى قوله: ﴿ **تُضِلُّ بها مَنْ تشاءُ وتهدي مَن تشاءُ أنتَ وَلِيُّنا** ﴾، ناصرنا وحافظنا، ﴿ **فاغفر لنا وارحمنا وأنتَ خيرُ الغافرين** ﴾.

وَالْأَغْلَٰلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾

قوله تعالى: ﴿واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة وفي الآخرة﴾ يعني قال موسى في دعائه واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة أي واجعلنا ممن كتبت له حسنة وهي ثواب الأعمال الصالحة وفي الآخرة أي واكتب لنا في الآخرة مغفرة لذنوبنا ﴿إنا هدنا إليك﴾ قال ابن عباس معناه إنّا تبنا إليك، وهذا قول جميع المفسرين وأصل الهود الرجوع برفق قال بعضهم وبه سميت اليهود وكان اسم مدح قبل نسخ شريعتهم فلما نسخت شريعتهم صار اسم ذم وهو لازم لهم ﴿قال﴾ يعني قال الله عز وجل لموسى عليه الصلاة والسلام ﴿عذابي أصيب به من أشاء﴾ يعني من خلقي وليس لأحد علي اعتراض لأن الكل ملكي وعبيدي ومن تصرف في خالص حقه فليس لأحد عليه اعتراض ﴿ورحمتي وسعت كل شيء﴾ يعني أن رحمته سبحانه وتعالى عمّت خلقه كلهم، وقال بعضهم: هذا من العام أريد به الخاص فرحمه الله عمت البر والفاجر في الدنيا وهي للمؤمنين خاصة في الآخرة وقيل هي للمؤمنين خاصة في الدنيا والآخرة ولكن الكافر يرزق ويدفع عنه ببركة المؤمن لسعة رحمة الله له فإذا كان يوم القيامة وجبت للمؤمنين خاصة قال جماعة من المفسرين لما نزلت ورحمتي وسعت كل شيء تطاول إبليس إليها وقال أنا من ذلك الشيء فنزعها الله تعالى من إبليس فقال تعالى: ﴿فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون﴾ أيس إبليس منها، وقالت اليهود نحن نتقي ونؤتي الزكاة ونؤمن بآيات ربنا فنزعها الله وأثبتها لهذه الأمة فقال تعالى: ﴿الذين يتبعون الرسول النبي الأمي﴾ الآية وقال نوف البكالي لما اختار موسى من قومه سبعين رجلاً قال الله تعالى لموسى اجعل لك الأرض مسجداً وطهوراً تصلون حيث أدركتكم الصلاة لا عند مرحاض أو حمام أو قبر وأجعل السكينة في قلوبكم واجعلكم تقرؤون التوراة عن ظهر قلوبكم يقرؤها الرجل والمرأة والحر والعبد والصغير والكبير فقال موسى ذلك لقومه فقالوا لا نريد أن نصلي إلا في الكنائس ولا نستطيع حمل السكينة في قلوبنا ولا نستطيع أن نقرأ التوراة على ظهر قلوبنا ولا نريد أن نقرأها إلا نظراً قال الله تعالى ﴿فسأكتبها للذين يتقون ـ إلى قوله ـ المفلحون﴾ فجعلها الله تعالى لهذه الأمة، فقال موسى: رب اجعلني نبيهم، قال: نبيهم منهم، قال: اجعلني منهم قال إنك لن تدركهم قال موسى: يا رب أتيتك بوفد بني إسرائيل فجعلت وفادتنا لغيرنا فأنزل الله تعالى ﴿ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون﴾ فرضي موسى، أما التفسير فقوله الذين يتقون يعني الشرك وسائر ما نهوا عنه لأن جميع التكاليف محصورة في نوعين:

الأول: التروك وهي الأشياء التي يجب على الإنسان تركها والاحتراز عنها ولا يقربها وإليه الإشارة بقوله تعالى:

﴿ واكتبْ لنا ﴾ أوجب لنا ﴿ في هذه الدنيا حسنة ﴾، النعمة والعافية، ﴿ وفي الآخرة ﴾ أي: وفي الآخرة ﴿ حسنة ﴾، أي: المغفرة والجنة، ﴿ إنّا هُدْنَا إليك ﴾، أي: تبنا إليك، ﴿ قال ﴾ الله تعالى: ﴿ عذابي أُصيبُ بِهِ مَن أشاءُ ﴾، من خلقي، ﴿ ورحمتي وَسِعَتْ ﴾ أي عمّت ﴿ كلَّ شيء ﴾، قال الحسن وقتادة: وسعت رحمته في الدنيا البرَّ والفاجر، وهي يوم القيامة للمتّقين خاصة. قال عطية العوفي: وَسِعَت كل شيء ولكن لا تجب إلّا للذين يتّقون، وذلك أن الكافرين يرزقون ويدفع عنهم بالمؤمنين لسعة رحمة الله للمؤمنين فيعيشون فيها، فإذا صار إلى الآخرة وجبت للمؤمنين خاصة كالمستضيء بنار غيره إذا ذهب صاحب السراج بسراجه. قال ابن عباس رضي الله عنهما وقتادة وابن جريج: لمّا نزلت: ﴿ ورحمتي وَسِعَتْ كلَّ شيء ﴾ قال إبليس: أنا من ذلك الشيء، فقال الله سبحانه وتعالى: ﴿ فَسَأَكْتُبها للذينَ يتّقُون ويُؤْتُون الزكاةَ والذين هُمْ بآياتِنَا يُؤمنون ﴾، فتمنّاها اليهود والنصارى، وقالوا: نحن نتّقي ونؤتي الزكاة ونُؤمن، فجعلها الله لهذه الأمة فقال:

﴿للذين يتقون﴾ والثاني الأفعال المأمور بها وتلك الأعمال بدنية وقلبية أما البدنية فإنها الإشارة بقوله ويؤتون الزكاة وهذه الآية وإن كانت في حق المال لكن يختص البدن بإخراجها والأعمال القلبية كالإيمان والمعرفة وإليها الإشارة بقوله تعالى: **﴿والذين هم بآياتنا يؤمنون﴾**.

قوله عز وجل: **﴿الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل﴾** ذكر الإمام فخر الدين الرازي في معنى هذه التبعية وجهين:

أحدهما: إن المراد بذلك أن يتبعوه باعتقاد نبوته من حيث وجدوا صفته في التوراة إذ لا يجوز أن يتبعوه في شرائعه قبل أن يبعث إلى الخلق وفي قوله والإنجيل أن المراد وسيجدونه مكتوباً في الإنجيل لأن من المحال أن يجده فيه قبل ما أنزل الله الإنجيل.

الوجه الثاني: إن المراد من لحق من بني إسرائيل زمان رسول الله ﷺ فبين تعالى أن هؤلاء اللاحقين لا يكتب لهم رحمة الآخرة إلا إذا اتبعوه، قال: وهذا القول أقرب لأن اتباعه قبل أن يبعث لا يمكن فبين بهذه الآية أن هذه الرحمة لا يفوز بها من بني إسرائيل إلا من اتقى وآتى الزكاة وآمن بآيات الله في زمن موسى عليه الصلاة والسلام، ومن كانت هذه صفته في أيام رسول الله ﷺ في شرائعه فعلى هذين الوجهين يكون المراد بقوله الذين يتبعون الرسول من بني إسرائيل خاصة. وجمهور المفسرين على خلاف ذلك فإنهم قالوا: المراد بهم جميع أمته الذين آمنوا به واتبعوه سواء كانوا من بني إسرائيل أو غيرهم وأجمع المفسرون على أن المراد بالرسول محمد ﷺ وصفه بكونه رسولاً لأنه الواسطة بين الله وبين خلقه المبلغ رسالته وأوامره ونواهيه وشرائعه إليهم ثم وصفه بكونه نبياً.

وهذا أيضاً من أعلى المراتب وأشرفها وذلك يدل على أنه رفيع الدرجات عند الله المخبر عنه ثم وصفه بالأمي. قال ابن عباس: هو نبيكم ﷺ كان أمياً لا يكتب ولا يقرأ ولا يحسب قال الزجاج في معنى الأمي: هو الذي على صفة

﴿ الذين يَتَّبِعُونَ الرسولَ النبي الأُمِيَّ ﴾ الآية. قال نوف البكالي الحميري: لما اختار موسى سبعين رجلاً قال تعالى لموسى أجعل لكم الأرض مسجداً وطهوراً تصلّون حيث أدركتكم الصلاة إلّا عند مِرحاض أو حمّام أو قبر، وأجعل السكينة في قلوبكم تقرؤون التوراة عن ظهر قلوبكم يقرأها الرجل والمرأة والحرّ والعبد والصغير والكبير، فقال ذلك موسى لقومه، فقالوا: لا نريد أن نصلّي إلّا في الكنائس ولا نستطيع حمل السكينة في قلوبنا، ولا نستطيع أن نقرأ التوراة عن ظهور قلوبنا، ولا نريد أن نقرأها إلّا نظراً، فقال الله تعالى: **﴿ فسأكتُبها للذين يتّقون ويُؤتون الزكاة ﴾** إلى قوله: **﴿ أولئك هم المفلحون ﴾**، فجعلها الله لهذه الأمة. فقال موسى عليه السلام: يا ربِّ اجعلني منهم، فقال: إنك لن تدركهم، فقال موسى عليه السلام: يا ربِّ أتيتك بوفد بني إسرائيل فجعلت وفادتنا لغيرنا، فأنزل الله تعالى: **﴿ ومِنْ قومِ موسى أُمةٌ يهدون بالحق وبه يَعْدِلُون ﴾** [الأعراف: ١٥٩]، فرضي موسى. قوله تعالى: **﴿ الذين يتبعُون الرسول النبيَّ الأُميّ ﴾** وهو محمد ﷺ. قال ابن عباس رضي الله عنهما هو نبيّكم كان أمياً لا يكتب ولا يقرأ ولا يحسب. وقال النبيّ ﷺ: «إنّا أُمة أُمّيّة لا نكتب ولا نحسب»، وهو منسوب إلى الأم أي هو على ما ولدته أُمه. وقيل: هو منسوب إلى أُمته، أصله أُمتي وسقطت التاء في النسبة كما سقطت في المكّي والمدني. وقيل: هو منسوب إلى أُم القرى وهي مكة. **﴿ الذي يَجِدُونَه ﴾** أي: يجدون صفته ونعته ونبوّته، **﴿ مكتوباً عندهم في التوراةِ والإنجيل ﴾**. أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف حدّثنا محمد بن إسماعيل حدّثنا محمد بن سنان حدّثنا فليح حدّثنا هلال عن عطاء بن يسار قال: لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص، فقلت: أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة: قال: أجلْ والله إنه لموصوف

أمة العرب لأن العرب أكثرهم لا يكتب ولا يقرأ ولا يحسب فالنبي ﷺ كان كذلك فلهذا وصفه الله تعالى بكونه أمياً وصح في الحديث أنه ﷺ قال «نحن أمة أمية لا نكتب ولا نحسب» قال أهل التحقيق: وكونه ﷺ كان أمياً من أكبر معجزاته وأعظمها، وبيانه أنه ﷺ أتى بهذا الكتاب العظيم الذي أعجزت الخلائق فصاحته وبلاغته وكان يقرؤه عليهم بالليل والنهار من غير زيادة فيه ولا نقصان منه ولا تغيير فدل ذلك على معجزته وهو قوله تعالى: ﴿سنقرئك فلا تنسى﴾ وقيل: إنه لو كان يحسن الكتابة ثم إنه أتى بهذا القرآن العظيم لكان متهماً فيه لاحتمال أنه كتبه ونقله عن غيره فلما كان أمياً وأتى بهذا القرآن العظيم الذي فيه علم الأولين والآخرين والمغيبات دل ذلك على كونه معجزة له ﷺ. وأيضاً فإن الكتابة تعين الإنسان على الاشتغال بالعلوم وتحصيلها ثم إنه أتى بهذه الشريعة الشريفة والآداب الحسنة مع علوم كثيرة وحقائق دقيقة من غير مطالعة كتب ولا اشتغال على أحد فدل ذلك على كونه معجزة له ﷺ وقيل في معنى الأمي: الذي هو منسوب إلى أمه كأنه لم يخرج بعد عما ولدته عليه وقيل سمي أمياً لأنه منسوب إلى أم القرى وهي مكة وقوله تعالى: ﴿**الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل**﴾ يعني يجيدون صفته ونعته ونبوته مكتوباً عندهم يعرفها علماؤهم وأحبارهم ولكنهم كتموا ذلك وبدلوه وغيروه حسداً منهم له وخوفاً على زوال رياستهم وقد حصل لهم ما كانوا يخافونه فقد زالت رياستهم ووقعوا في الذل والهوان (خ) عن عطاء بن يسار قال: لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص فقلت: أخبرني عن صفة رسول الله في التوراة فقال: أجل إنه لَموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن ﴿يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وحرزاً للأميين﴾ أنت عبدي ورسولي سميتك المتوكل ليس بفظ ولا غليظ ولا سخاب في الأسواق ولا يدفع بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويغفر ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا لا إله إلا الله ويفتح به أعينا عمياً وآذاناً صماً وقلوباً غلفاً.

(شرح غريب ألفاظ الحديث)

الفظ: السيىء الخلق، والغليظ: الجافي القاسي، وقوله سخاب: بالسين والصاد وهو كثير الصياح في الأسواق، والاعوجاج: ضد الاستقامة وأراد بالملة العوجاء: الكفر والقلب الأغلف: الذي لا يصل إليه شيء ينفعه شبهه بالأغلف كأنه في غلاف. وروى البغوي بسنده عن كعب الأحبار قال: إني أجد في التوراة مكتوباً محمد رسول الله لا فظ ولا غليظ ولا سخاب في الأسواق ولا يجزي بالسيئة ولكن يعفو ويصفح، أمته الحامدون يحمدون الله في كل منزلة ويكبرونه على كل نجد يأتزرون على أنصافهم ويغضون أطرافهم صفهم في الصلاة وصفهم في القتال سواء مناديهم ينادي في جوف السماء لهم في جوف الليل دوي كدوي النحل مولده بمكة ومهاجره بطيبة وملكه بالشام.

في التوراة ببعض صفته في القرآن، يا أيّها النبي إنّا أرسلناك شاهداً ومبشّراً ونذيراً وحرزاً للأُمّيّين أنت عبدي ورسولي سمّيتك المتوكل، ليس بفظٍّ ولا غليظ ولا سخاب في الأسواق، ولا يدفع بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويغفر ويصفح، ولن يقبضه الله حتى يُقيم بـه المِلّة العوجـاء، بأن يقـولوا: لا إلـه إلاّ الله، ويفتح بـه أعيناً عميـاً وآذانـاً صُمّـاً وقلوباً غُلْفاً. تابعه عبد العزيز بن أبي سلمة، وقال سعيد عن هلال عن عطاء عن ابن سلام أخبرنا الإمام الحسين بن محمد القاضي أنا أبو العباس عبد الله بن محمد بن هارون الطيسفوني أنا أبو الحسن محمد بن أحمد الترابي أنا أبو بكر أحمد بن محمد بن عمر بن بسطام أنا أبو الحسن أحمد بن سيار القرشي حدّثنا عبد الله بن عثمان عن أبي حمزة عن الأعمش عن أبي صالح عن عبد الله بن ضمرة عن كعب قال: إني أجد في التوراة مكتوباً محمد رسول الله لا فظ ولا غليظ ولا سخاب في الأسواق، ولا يجزي بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويصفح، أُمته الحمّادون يحمدون الله في كل منزلة ويكبّرونه على كل نجد، يأتزرون على أنصافهم ويُوضّؤون أطرافهم، صفّهم في الصرة وصفّهم في القتال سواء، مناديهم ينادي في جوِّ السماء، لهم في جوف الليل دويّ كدويّ النحل، مولده بمكة ومهاجره بطابة

وقوله تعالى: ﴿يأمرهم بالمعروف﴾ يعني بالإيمان وتوحيد الله ﴿وينهاهم عن المنكر﴾ يعني عن الشرك بالله، وقيل: المعروف ما عرف في الشريعة والسنة والمنكر ما لا يعرف في شريعة ولا سنة.

وقال عطاء: يأمرهم بالمعروف بخلع الأنداد وبمكارم الأخلاق وصلة الأرحام وينهاهم عن المنكر عن عبادة الأوثان وقطع الأرحام ﴿ويحل لهم الطيبات﴾ يعني بذلك ما كان محرماً عليهم في التوراة من الطيبات وهو لحوم الإبل وشحم الغنم والمعز والبقر، وقيل: هو ما كانوا يحرمونه على أنفسهم في الجاهلية من البحائر والسوائب والوصائل والحوامي، وقيل: هي المستلذات التي تستطيبها الأنفس ﴿ويحرم عليهم الخبائث﴾ قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: يريد الميتة والدم ولحم الخنزير، وقيل: هو كل ما يستخبثه الطبع وتستقذره النفس، فإن الأصل في المضار الحرمة إلا ما له دليل متصل بالحل ﴿ويضع عنهم إصرهم﴾ يعني ثقلهم وأصل الإصر الثقل الذي يأصر صاحبه أي يحبسه عن الحركة لثقله، والمراد بالإصر هنا العهد والميثاق الذي أخذ على بني إسرائيل أن يعملوا بما في التوراة من الأحكام فكانت تلك الشدائد ﴿والأغلال التي كانت عليهم﴾ يعني ويضع الأثقال والشدائد التي كانت عليهم في الدين والشريعة وذلك مثل قتل النفس في التوبة وقطع الأعضاء الخاطئة وقرض النجاسة عن البدن والثوب بالمقراض وتعيين القصاص في القتل وتحريم أخذ الدية وترك العمل في السبت وأن صلاتهم لا تجوز إلا في الكنائس وتتبع العروق في اللحم وغير ذلك من الشدائد التي كانت على بني إسرائيل شبهت بالأغلال مجازاً لأن التحريم يمنع من الفعل كما أن الغل يمنع من الفعل، وقيل: شبهت بالأغلال التي تجمع اليد إلى العنق. كما أن اليد لا تمتد مع وجود الغل فكذلك لا تمتد إلى الحرام الذي نهيت عنه وكانت هذه الأثقال في شريعة موسى عليه الصلاة والسلام فلما جاء محمد عليه الصلاة والسلام نسخ ذلك كله ويدل عليه قوله عليه الصلاة والسلام: بعثت بالحنيفية السهلة السمحة ﴿فالذين آمنوا به﴾ يعني بمحمد عليه الصلاة والسلام ﴿وعزروه﴾ يعني وقّروه وعظموه، وأصل التعزير المنع والنصرة وتعزير النبي ﷺ تعظيمه وإجلاله ودفع الأعداء عنه وهو قوله ﴿ونصروه﴾ يعني على أعدائه ﴿واتبعوا النور الذي أنزل معه﴾ يعني القرآن سمي القرآن نوراً لأن به يستنير قلب المؤمن فيخرج به من ظلمات الشك والجهالة إلى ضياء اليقين والعلم ﴿أولئك هم المفلحون﴾ يعني هم الناجون الفائزون بالهداية.

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ

وملكه بالشام. قوله تعالى: ﴿ يأمرهم بالمعروف ﴾ أي: بالإيمان، ﴿ وينهاهم عن المنكر ﴾ يعني: عن الشرك قيل: المعروف الشريعة والسُّنّة، والمنكر ما لا يُعرَف في شريعة ولا سُنّة. وقال عطاء: يأمرهم بالمعروف بخلع الأنداد ومكارم الأخلاق وصلة الأرحام وينهاهم عن المنكر عن عبادة الأوثان وقطع الأرحام، ﴿ ويُحِلُّ لهمُ الطيباتِ ﴾، يعني: ما كانوا يحرّمونه في الجاهلية من البحيرة والسائبة والوصيلة والحام، ﴿ ويُحرِّمُ عليهمُ الخبائِثَ ﴾، يعني الميتة والدم ولحم الخنزير والزنا وغيرها من المحرّمات، ﴿ ويضعُ عنهم إصْرَهم ﴾، قرأ ابن عـامر «آصـارهم» بالجمع، والإصر: كلّ ما يثقل على الإنسان من قول أو فعل. قال ابن عباس والحسن والضحاك والسدي ومجاهد: يعني العهد الثقيل كان أُخذ على بني إسرائيل بالعمل بما في التوراة. وقال قتادة: يعني التشديد الذي كان عليهم في الدين، ﴿ والأغلال ﴾، يعني: الأثقال ﴿ التي كانت عليهم ﴾، وذلك مثل قتل النفس في التوراة وقطع الأعضاء الخاطئة وقرض النجاسة عن الثوب بالمِقراض، وتعيين القصاص في القتل وتحريم أخذ الديّة، وترك العمل في السبت، وأن صلاتهم لا تجوز إلّا في الكنائس وغير ذلك من الشدائد، شُبّهت بالأغلال التي تجمع اليد إلى العنق. ﴿ فالذين آمنوا به ﴾، أي: بمحمد ﷺ، ﴿ وعزّرُوه ﴾، وقرّوه، ﴿ ونصروه ﴾، على الأعداء، ﴿ واتّبعُوا النّورَ الذي أنزل معه ﴾، يعني: القرآن، ﴿ أُولئك هم المفلحون ﴾.

﴿يُحْيِۦ وَيُمِيتُ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ
تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿**قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً**﴾ الخطاب للنبي ﷺ أي قل يا محمد للناس إني رسول الله إليكم جميعاً لا إلى بعضكم دون بعض ففي الآية دليل على عموم رسالته إلى كافة الخلق، لأن قوله يا أيها الناس خطاب عام يدخل فيه جميع الناس ثم أمره الله عز وجل بأن يقول إني رسول الله إليكم جميعاً، وهذا يقتضي كونه مبعوثاً إلى جميع الناس (ق) عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ «أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلي كان كل نبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى كل أحمر وأسود وأُحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي وجعلت لي الأرض طيبة وطهوراً ومسجداً فأيما رجل أدركته الصلاة صلى حيث كان ونصرت بالرعب على العدو بين يدي مسيرة شهر وأعطيت الشفاعة» وفي رواية «أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي نصرت بالرعب مسيرة شهر وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصلِّ وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد من قبلي وأعطيت الشفاعة وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة» وقوله في الرواية الأولى وبعثت إلى كل أحمر وأسود قيل أراد بالأحمر العجم وبالأسود العرب وقيل أراد بالأحمر الإنس وبالأسود الجن فعلى هذا تكون رسالته ﷺ عامة إلى كافة الخلق من الإنس والجن.

(م) عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال «فضلت على الأنبياء بستة أعطيت جوامع الكلم ونصرت بالرعب وأحلت لي الغنائم وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً وأرسلت إلى الخلق كافة وختم بي النبيون».

وقوله تعالى: ﴿**الذي له ملك السموات والأرض**﴾ لما أمر الله عز وجل رسوله محمداً بأن يقول «يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً» أردفه بما يدل على صحة دعواه: يعني أن الذي له ملك السموات والأرض وهو مدبرهما ومالك أمرهما هو الذي أرسلني إليكم وأمرني بأن أقول لكم إني رسول الله إليكم جميعاً ﴿**لا إله إلا هو يحيي ويميت**﴾ وصف الله نفسه بالإلهية وأنه لا شريك له فيها وأنه القادر على إحياء خلقه وإماتتهم ومن كان كذلك فهو القادر على إرسال الرسل إلى خلقه ﴿**فآمنوا بالله ورسوله**﴾ لما أمر الله رسوله محمداً ﷺ بأن يقول للناس إني رسول الله إليكم جميعاً أمر الله جميع خلقه بالإيمان به وبرسوله وذلك لأن الإيمان بالله هو الأصل والإيمان برسوله فرع عنه فلهذا بدأ بالإيمان بالله ثم ثنى بالإيمان برسوله فقال فآمنوا بالله ورسوله ثم وصفه الله تعالى فقال ﴿**النبي الأمي**﴾ تقدم معناهما ﴿**الذي يؤمن بالله وكلماته**﴾ قال قتادة: يعني آياته وهو القرآن، وقال مجاهد والسدي: أراد بكلماته عيسى ابن مريم لأنه خلق بقوله كن فكن، وقيل: هو على العموم يعني يؤمن بجميع كلمات الله تعالى: ﴿**واتبعوه**﴾ يعني واقتدوا به أيها الناس فيما يأمركم به وينهاكم عنه وقيل: المتابعة على قسمين: متابعة في الأقوال ومتابعة في الأفعال.

أما المتابعة في الأقوال فبأن يتمثل التابع جميع ما أمره به المتبوع على طريق الأمر والنهي والترغيب والترهيب، وأما المتابعة في الأفعال فبأن يقتدي به في جميع أفعاله وآدابه إلا ما خص به رسول الله ﷺ، وثبت بالدليل أنه من

قوله تعالى: ﴿ **قلْ يا أيها الناسُ إنِّي رسولُ اللَّهِ إليكم جميعاً الذي له مُلْكُ السـمواتِ والأرض لا إلَه إلاّ هوَ يُحي ويُميتُ فآمنُوا بالله ورسولِهِ النبيِّ الأمّي الذي يُؤمنُ باللَّهِ وكلماتهِ** ﴾، أي: آياته وهي القرآن. وقال مجاهد والسدي: يعني عيسى ابن مريم. ويقرأ ﴿ كلمته ألقـاها إلى مـريم ﴾ [النساء: ١٧١]. ﴿ **واتَّبِعُوه لَعَلَّكم تَهْتَدُون** ﴾.

خصائصه فلا متابعة فيه وقوله تعالى: ﴿لعلكم تهتدون﴾ يعني لكي تهتدوا وترشدوا وتصيبوا الحق والصواب في متابعتكم إياه.

قوله عز وجل: ﴿ومن قوم موسى﴾ يعني من بني إسرائيل ﴿أمة﴾ أي جماعة ﴿يهدون بالحق﴾ يعني يهتدون بالحق ويستقيمون عليه ويعملون به ويرشدون إليه ﴿وبه يعدلون﴾ يعني وبالحق يحكمون وبالعدل يأخذون ويعطون ويتصفون.

واختلفوا في هؤلاء من هم فقيل هم الذين أسلموا من بني إسرائيل مثل عبد الله بن سلام وأصحابه فإنهم آمنوا بموسى والتوراة وآمنوا بمحمد ﷺ والقرآن واعترض على هذا بأنهم كانوا قليلين ولفظ الأمة يقتضي الكثرة.

وأجيب عنه بأنهم لما كانوا مخلصين في الدين جاز إطلاق لفظ الأمة عليهم كما في قوله إن إبراهيم كان أمة وقيل هم قوم بقوا على الدين الحق الذي جاء به موسى عليه الصلاة والسلام قبل التحريف والتبديل ودعوا الناس إليه. وقال السدي وابن جريج وجماعة من المفسرين: إن بني إسرائيل لما قتلوا أنبياءهم وكفروا وكانوا اثني عشر سبطاً تبرأ سبط منهم مما صنعوا واعتذروا وسألوا الله أن يفرق بينهم وأن يبعدهم عنم ففتح الله لهم نفقاً في الأرض فساروا فيه حتى خرجوا من وراء الصين فهم هناك حنفاء مسلمون يستقبلون قبلتنا. قال ابن جريج قال ابن عباس: ساروا في السرب سنة ونصفاً رواه الطبري. وحكى البغوي عن الكلبي والضحاك والربيع قالوا: هم قوم خلف الصين بأقصى الشرق على نهر يسمى نهر الأردن ليس لأحد منهم مال دون صاحبه يمطرون بالليل ويصحون بالنهار ويزرعون ولا يصل إليهم أحد منا وهم على الحق.

وذكر لنا أن جبريل ذهب بالنبي ﷺ ليلة الإسراء به فكلمهم فقال لهم جبريل: هل تعرفون من تكلمون؟ قالوا: لا، قالوا هذا محمد النبي الأمي فآمنوا به وقالوا يا رسول الله إن موسى أوصانا أن من أدرك منكم أحمد فليقرأ مني عليه السلام فرد رسول الله ﷺ على قوم موسى وأقرأهم عشر سور من القرآن نزلت عليه بمكة وأمرهم بالصلاة والزكاة وأمرهم أن يقيموا مكانهم وكانوا يسبتون فأمرهم أن يجمعوا ويتركوا السبت وهذه الحكاية ضعيفة من وجوه:

الأول: قولهم إن أحداً منا لا يصل إليهم وإذا كان كذلك فمن ذا الذي أوصل خبرهم إلينا.

الوجه الثاني: قولهم إن جبريل ذهب بالنبي ﷺ ليلة الإسراء به وهذا لم يرد به نقل صحيح ولا رواه أحد من أئمة الحديث ولا يلتفت إلى قول الإخباريين والقصاص في ذلك.

الوجه الثالث: قولهم إنهم بلغوا النبي ﷺ موسى وقد صح في حديث المعراج أنه سلم عليه في السماء السادسة وأيضاً قولهم وأقرأهم عشر سور وقد نزل عليه بمكة أكثر من ذلك وكان فرض الزكاة بالمدينة فكيف يأمرهم بها قبل فرضيتها فإذا ثبت بما ذكرناه بطلان هذه الرواية فالمختار في تفسير هذه الآية أنها إما أن تكون نزلت في قوم كانوا

قوله عزّ وجلّ: ﴿ ومِنْ قومِ موسى ﴾، يعني: من بني إسرائيل، ﴿ أُمَّةٌ ﴾ أي: جماعة، ﴿ يهدون بالحقّ ﴾، أي: يرشدون ويدعون إلى الحق. وقيل: معناه يهتدون ويستقيمون عليه، ﴿ وبه يعدِلُون ﴾، أي: بالحق يحكمون وبالعدل يقومون. قال الكلبي والضحاك والربيع: هم قوم خلف الصين بأقصى الشرق على نهر مجرى الرمل يسمى نهر الأردن، ليس لأحد منهم مال دون صاحبه يمطرون بالليل ويسقون بالنهار ويزرعون، لا يصل إليهم منّا أحد وهم على دين الحق. وذُكر أن جبرائيل عليه السلام ذهب بالنبي ﷺ ليلة أُسري به إليهم، فكلّمهم فقال لهم جبريل: هل تعرفون مَن تكلّمون؟ قالوا: لا، فقال لهم: هذا محمد النبي الأميّ فآمنوا به، فقالوا: يا رسول الله إن موسى أوصانا أن مَن أدرك منكم أحمد فليقرأ عليه منّي السلام فردّ النبي ﷺ على موسى

متمسكين بدين موسى قبل التبديل والتغيير ثم ماتوا وهم على ذلك وإما أن تكون قد نزلت فيمن أسلم من اليهود على عهد رسول الله ﷺ كعبد الله بن سلام وأصحابه والله أعلم بمراده.

وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾

قوله تعالى: ﴿**وقطعناهم**﴾ يعني وفرقنا بني إسرائيل ﴿**اثنتي عشرة أسباطاً**﴾ يعني من أولاد يعقوب لأن يعقوب هو إسرائيل وأولاده الأسباط وكانوا اثني عشر ولداً ﴿**أمماً**﴾ يعني جماعات وقبائل ﴿**وأوحينا إلى موسى إذ استسقاه قومه**﴾ يعني في التيه ﴿**أن اضرب بعصاك الحجر فانبجست**﴾ يعني: فانفجرت. وقيل: عرقت وهو الانبجاس ﴿**منه**﴾ أي من الحجر ﴿**اثنتا عشرة عيناً**﴾ يعني: لكل سبط عين ﴿**قد علم كل أناس مشربهم**﴾ يعني لا يدخل سبط على سبط في مشربهم ﴿**وظللنا عليهم الغمام**﴾ يعني في التيه يقيهم حر الشمس ﴿**وأنزلنا عليهم المن**﴾ هو الترنجبين ﴿**والسلوى**﴾ جنس من الطير جعل الله ذلك طعاماً لهم في التيه ﴿**كلوا من طيبات ما رزقناكم**﴾ أي وقلنا كلوا ﴿**وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون**﴾ في الكلام حذف ترك ذكره للاستغناء عنه ودلالة الكلام عليه تقديره كلوا من طيبات ما رزقناكم فأجمعوا ذلك وسئموه، وقالوا: لن نصبر على طعام واحد وسألوه غيره لأن المكلف إذا أمر بشيء فتركه وعدل عنه إلى غيره يكون عاصياً بفعله ذلك فلهذا قال: وما ظلمونا يعني وما أدخلوا علينا في ملكنا وسلطاننا نقصاً بمسألتهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون يعني بمخالفتهم ما أمروا به وقد تقدم بسط الكلام على هذه الآية في سورة البقرة.

وقوله تعالى: ﴿**وإذ قيل لهم**﴾ يعني: واذكر يا محمد لقومك إذ قيل لهم يعني لبني إسرائيل ﴿**اسكنوا هذه القرية**﴾ يعني بيت المقدس، وقال في سورة البقرة: ادخلوا هذه القرية، ولا منافاة بينهما لأن كل ساكن في موضع لا بد له من الدخول إليه ﴿**وكلوا منها حيث شئتم**﴾ يعني وكلوا من ثمار القرية وزروعها وحبوبها وبقولها حيث شئتم

وعليهم، ثم أقرأهم عشر سور من القرآن نزلت بمكة وأمرهم بالصلاة والزكاة وأمرهم أن يقيموا مكانهم وكانوا يسبتون، فأمرهم أن يجمعوا ويتركوا السبت. وقيل: هم الذين أسلموا من اليهود في زمن النبي ﷺ. والأول أصح.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ **وقطّعناهم** ﴾، أي: فرّقناهم، يعني بني إسرائيل، ﴿ **اثنتي عشرة أسباطاً أمماً** ﴾، قال الفرّاء: إنّما قال: ﴿ **اثنتي عشرة** ﴾، والسبط مذكّر لأنه قال: ﴿ **أمماً** ﴾ فرجع التأنيث إلى الأمم. وقال الزجّاج: المعنى وقطّعناهم اثنتا عشرة فرقة أُمماً، وإنما قال: ﴿ **أسباطاً أُمماً** ﴾، بالجمع وما فوق العشرة لا يفسّر بالجمع، فلا يقال: أتاني اثنا عشر رجالاً لأن الأسباط في الحقيقة نعت المفسّر المحذوف وهو الفرقة، أي: وقطعناهم اثنتي عشرة فرقة أُمماً. وقيل: فيه تقديم وتأخير تقديرها: وقطعناهم أسباطاً أمما اثنتي عشرة، والأسباط القبائل واحدها سبط. قوله تعالى: ﴿ **وأَوْحينا إلى موسى إذ استسقاه قومُه** ﴾ في التِّيهِ، ﴿ **أن اضربْ بعصاك الحجرَ فانْبَجَسَتْ** ﴾،

وأين شئتم. وقال في البقرة: فكلوا، بالفاء وهنا بالواو والفرق بينهما أن الدخول حالة مقتضية للأكل عقبه فيحسن دخول الفاء التي هي للتعقيب ولما كانت السكنى حالة استمرار حسن دخول الواو عقب السكنى فيكون الأكل حاصلاً متى شاؤوا وإنما قال في سورة البقرة: رغداً، ولم يقله هنا لأن الأكل عقب الدخول ألذ وأكمل فأما الأكل مع السكنى والاستمرار فليس كذلك فحسن دخول لفظة رغداً هناك بخلافه هنا **﴿وقولوا حطة﴾** أي حط عنا ذنوبنا **﴿وادخلوا الباب سجداً﴾** وقال في البقرة عكس هذا اللفظ ولا منافاة في ذلك لأن المقصود من ذلك تعظيم أمر الله وإظهار الخضوع والخشوع له فلم يتفاوت الحال بسبب التقديم والتأخير **﴿نغفر لكم خطيئاتكم﴾** يعني نغفر لكم ذنوبكم ولم نؤاخذكم بها.

وإنما قال هنا خطيئاتكم وفي البقرة خطاياكم لأن المقصود غفران ذنوبهم سواء كانت قليلة أو كثيرة إذا أتوا بالدعاء والتضرع **﴿سنزيد المحسنين﴾** وقال في سورة البقرة: وسنزيد، بالواو ومعناه أنه قد وعد المسيئين بالغفران وبالزيادة للمحسنين من الثواب وإسقاط الواو لا يخل بهذا المعنى لأنه استئناف مرتب على تقدير قول القائل وماذا بعد الغفران فقيل له: سنزيد المحسنين **﴿فبدل الذين ظلموا منهم قولاً غير الذي قيل لهم﴾** يعني فغير الذين ظلموا أنفسهم بمخالفة أمرنا من بني إسرائيل فقالوا قولاً غير الذي قيل لهم وأمروا به وذلك أنهم أمروا أن يقول حطة فقالوا حنطة في شعيرة فكان ذلك تبديلهم وتغييرهم **﴿فأرسلنا عليهم رجزاً من السماء﴾** يعني بعثنا عليهم عذاباً من السماء أهلكهم، ولا منافاة بين قوله تعالى هنا أرسلنا وبين قوله في سورة البقرة أنزلنا لأنهما لا يكونان إلا من أعلى إلى أسفل، وقيل: بينهما فرق وهو أن الإنزال لا يشعر بالكثرة والإرسال يشعر بذلك فكأنه تعالى بدأ بإنزال العذاب قليلاً ثم أرسله عليهم كثيراً **﴿بما كانوا يظلمون﴾** يعني أن إرسال العذاب عليهم بسبب ظلمهم ومخالفتهم أمر الله. وقال في البقرة: بما كانوا يفسقون، والجمع بينهما أنهم لما ظلموا أنفسهم بما غيروا وبدلوا فسقوا بذلك وخرجوا عن طاعة الله تعالى وقد تقدمت هذه القصة أيضاً في تفسير سورة البقرة.

وَسْئَلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾

انفجرت. وقال أبو عمرو بن العلاء: عرقت وهو الانبجاس، ثم انفجرت، **﴿ منه اثنتا عشرةَ عيناً ﴾**، لكل سبط عين، **﴿ قدْ علمَ كلُّ أُناسٍ ﴾**، كل سبط، **﴿ مَشْرَبهم ﴾**، وكل سبط بنو أب واحد. قوله تعالى: **﴿ وظلّلنا عليهم الغمامَ ﴾** في التيه تقيهم حَرَّ الشمس، **﴿ وأنزلنا عليهمُ المَنَّ والسلوى كُلُوا من طيباتِ ما رزقناكم وما ظلمُونا ولكنْ كانُوا أنفسهم يظلمون ﴾**.

﴿ وإذْ قيلَ لهمُ اسكنُوا هذه القرية وكلُوا منها حيثُ شِئْتُمْ وقولوا حِطّةٌ وادْخلوا البابَ سُجّداً نغفرْ لكم ﴾، قرأ أهل المدينة وابن عامر ويعقوب: «تغفر» بالتاء وضمّها وفتح الفاء. وقرأ الآخرون بالنون وفتحها وكسر الفاء، **﴿ خطيئاتِكم ﴾**، قرأ ابن عامر «خطيئتكم» على التوحيد ورفع التاء، وقرأ أبو عمرو: و«خطاياكم»، وقرأ أهل المدينة ويعقوب: «خطيئاتُكم» بالجمع ورفع التاء. وقرأ الآخرون بالجمع وكسر التاء بالجمع. **﴿ سَنَزِيدُ المحسنين ﴾**.

﴿ فبدّلَ الذين ظلموا منهم قولاً غيرَ الذي قيلَ لهم فأرْسلنَا عليهمْ رِجْزاً ﴾، عذاباً **﴿ من السماء بما كانوا يظلمون ﴾**.

وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾

قوله عز وجل: ﴿واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر﴾ الخطاب للنبي ﷺ أي: سل يا محمد هؤلاء اليهود الذين هم جيرانك عن حال أهل القرية وهذا السؤال سؤال توبيخ وتقريع لا سؤال استفهام، لأنه عليه الصلاة والسلام كان قد علم حال أهل هذه القرية بوحي الله عز وجل إليه وإخباره إياهم بحالهم وإنما المقصود بهذا السؤال تقريع اليهود على إقدامهم على الكفر والمعاصي قديماً وأن إصرارهم على الكفر بمحمد ﷺ وإنكار نبوته ومعجزاته ليس بشيء قد حدث منهم في زمانه بل إصرارهم على الكفر كان حاصلاً لأسلافهم في قديم الزمان. وفي الإخبار بهذه القصة معجزة للنبي ﷺ لأنه كان أمياً لا يقرأ الكتب القديمة ولم يعرف أخبار الأولين، ثم أخبرهم بما جرى لأسلافهم في قديم الزمان وإنهم بسبب مخالفتهم أمر الله عز وجل مسخوا قردة وخنازير واختلفوا في هذه القرية فقال ابن عباس[1]: هي قرية بين مصر والمدينة والمغرب. وقيل بين مدين والطور على شاطىء البحر. وقال الزهري: هي طبرية الشام. وفي رواية عن ابن عباس قال: هي مدين وقال وهب: هي ما بين مدين وعيوني يعني القرية التي كانت على ساحل البحر وقريبة منه ﴿إذ يعدون في السبت﴾ يعني يتجاوزون حد الله فيه، وما أمرهم به من تعظيمه فخالفوا أمر الله وصادوا فيه السمك ﴿إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعاً﴾ يعني ظاهرة على الماء كثيرة وقال الضحاك تأتيهم متتابعة يتبع بعضها بعضاً وقيل كانت تأتيهم يوم السبت مثل الكباش البيض السمان ﴿ويوم لا يسبتون لا تأتيهم﴾ يعني الحيتان ﴿كذلك نبلوهم﴾ يعني مثل هذا الاختبار الشديد نختبرهم ونحن أعلم بحالهم ﴿بما كانوا يفسقون﴾ يعني أن ذلك الابتداء والاختبار بسبب فسقهم وخروجهم عن طاعة الله وما أمروا به. قال أهل التفسير: إن اليهود أمروا يوم الجمعة فتركوه واختاروا يوم السبت فابتلوا به وهو أن الله أمرهم بتعظيمه ونهاهم عن العمل فيه وحرم عليهم فيه الصيد، فلما أراد أن يبتليهم كانت الحيتان تظهر لهم في يوم السبت ينظرون إليها في البحر فإذا انقضى السبت ذهبت فلم تُر إلى السبت المقبل فلما ابتلوا به وسوس إليهم الشيطان وقال إن الله لم ينهكم عن الاصطياد وإنما نهاكم عن الأكل فاصطادوا وقيل إنه وسوس إليهم أنكم إنما نهيتم عن الأخذ فاتخذوا حياضاً على ساحل البحر وسوقوا إليها الحيتان يوم السبت فإذا كان يوم الأحد خذوها ففعلوا ذلك زمانا ثم إنهم تجرؤوا على السبت وقالوا: ما نرى السبت

قوله تعالى: ﴿ واسْأَلْهُمْ عنِ القرية التي كانتْ حاضِرةَ البحرِ ﴾، أي: سلْ يا محمد هؤلاء اليهود الذين هم جيرانك سؤال توبيخ وتقريع عن القرية التي كانت حاضرة البحر، أي: بقربه. قال ابن عباس: هي قرية يقال لها: إيلة بين مدين والطور على شاطىء البحر. وقال الزهري: هي طبرية الشام. ﴿ إذْ يَعْدُونَ في السَّبتِ ﴾، أي: يظلمون فيه ويجاوزون أمر الله تعالى بصيدِ السمك، ﴿ إذْ تأتِيهم حِيتانُهم يومَ سَبْتِهم شُرّعاً ﴾، أي: ظاهرة على الماء كثيرة، جمع شارِع. وقال الضحاك: متتابعة. وفي القصة: أنها كانت تأتيهم يوم السبت مثل الكباش السِّمان البيض. ﴿ ويومَ لا يَسْبِتُونَ لا تأتيهم ﴾، قرأ الحسن: «يـومَ لا يُسبتون» بضم الياء أي لا يدخلون في السبت، والقراءة المعروفة بنصب الياء، ومعناه لا يعظمون السبت، ﴿ كـذلك نَبْلُوهُمْ ﴾، نختبرهم، ﴿ بمـا كانـوا يفسُقُون ﴾، فوسوس إليهم الشيطان وقال: إن الله لم ينهكم عن الاصطياد إنما نهاكم عن الأكل، فاصطادوا أو قيل: وسوس إليهم أنكم إنما نُهيتم عن الأخذ، فاتخذوا حيضاً على شاطىء البحر، تسوقون الحيتان إليها يوم السبت ثم تأخذونها يوم الأحد، ففعلوا ذلك زماناً ثم تجرؤوا على السبت وقالوا: ما نرى السبت إلّا قد أُحلّ لنا

---

(١) قوله هي قرية بين مصر والمدينة والمغرب في نسخة هي إيلة بين مصر والمدينة والعرب تسمى المدينةَ قرية وقال الزهري الخ اهـ.

إلا قد حل لنا فاصطادوا فيه وأكلوا وباعوا وصار أهل القرية أحزاباً ثلاثة وكانوا نحواً من سبعين ألفاً فثلث نهوا عن الاصطياد وثلث سكتوا ولم ينهوا وقالوا للناهين لم تعظمون قوماً الله مهلكهم وثلث هم أصحاب الخطيئة الذين خالفوا أمر الله واصطادوا وأكلوا وباعوا فلما لم ينتهوا عما هم فيه من المعصية قال الناهون لا نساكنكم في قرية واحدة فقسموا القرية بينهم بجدار للناهين باب يدخلون ويخرجون منه وللعاصين باب، ولعنهم داود عليه الصلاة والسلام وكانوا في زمنه فأصبح الناهون ذات يوم ولم يخرج من المعتدين أحد فقالوا إن لهم لَشأناً لعل الخمر قد غلبتهم فعلوا على الجدار الذي بينهم فإذا هم قد مسخوا قردة ففتحوا عليهم الباب ودخلوا إليهم فصار القردة يعرفون أنسابهم من الناس ولم يعرف الناس أنسابهم من القردة فجعلت القردة تأتي أنسابها من الناس فتشم ثيابها فيقول لهم أهلوهم ألم ننهكم فتقول القردة برأسها نعم فنجا الناهون وهلك سائرهم فذلك قوله تعالى: ﴿**وإذ قالت أمة منهم لم تعظون قوماً الله مهلكهم أو معذبهم عذاباً شديداً قالوا معذرة إلى ربكم**﴾ واختلفوا في القائلين هذه المقالة فقال بعض المفسرين إن أهل القرية افترقوا ثلاث فرق فرقة اعتدت وأصابت الخطيئة وفرقة نهتهم عن ذلك الفعل وفرقة أمسكت عن الصيد وسكتت عن موعظة المعتدين. وقالوا للناهين: لم تعظون قوماً الله مهلكهم أو معذبهم عذاباً شديداً، يعني أنهم لاموهم على موعظة قوم يعلمون أنهم غير متعظين ولا منزجرين فقالت الفرقة الناهية للذين لاموهم: معذرة إلى ربكم يعني أن موعظتنا إياهم معذرة إلى ربكم لأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب علينا فموعظتنا لهؤلاء عذر لنا عند الله ﴿**ولعلهم يتقون**﴾ أي: وجائز عندنا أن ينتفعوا بالموعظة فيتقوا الله ويتركوا ما هم فيه من الصيد وقال بعضهم: إن أهل القرية كانوا فرقتين فرقة نهت وزجرت عن السوء وفرقة عملت بالسوء فعلى هذا يكون الذين قالوا لم تعظون قوماً الله مهلكهم الفرقة المعتدية وذلك أن الفرقة الناهية قالوا للفرقة المعتدية انتهوا قبل أن ينزل بكم عذاب شديد إن لم تنتهوا عما أنتم فيه فقالت لهم الفرقة المعتدية: لم تعظون قوماً الله مهلكهم أو معذبهم عذاباً شديداً؟ والمعنى: لم تعظونا وقد علمتم أن الله مهلكنا أو منزل بنا عذابه، والقول الأول أصح لأنهم لو كانوا فرقتين لكان قولهم معذرة إلى ربكم خطاباً من الناهية للمعتدية.

فأخذوا وأكلوا أو باعوا، فصار أهل القرية أثلاثاً وكانوا نحواً من سبعين ألفاً، ثلث نُهوا، وثلث لم ينهوا وسكتوا وقالوا: لِمَ تعظون قوماً اللَّهُ مُهلكهم، وثلث هم أصحاب الخطيئة؟، فلما لم ينتهوا قال الناهون: لا نُساكنكم في قرية واحدة فقسموا القرية بجدار للمسلمين باب وللمعتقدين باب، ولعنهم داود فأصبح الناهون ذات يوم ولم يخرج من المعتدين أحد، فقالوا: إنّ لهم لشأناً لعلّ الخمر غلبتهم فتسوّروا الجـــدار واسترقوا عليهم فإذا هم كلهم صاروا قردة وخنازير فعرفت القردة أنسابها من الإنس ولم تعرف الإنس أنسابها من القردة، فجعلت القردة تأتي أنسابها من الإنس فتشمّ ثيابه وتبكي فيقول: ألم ننهكم؟ فتقول برأسها: نعم، فما نجا إلّا الذين نُهوا أو هلك سائرهم.

قوله تعالى: ﴿ **وإذْ قالتْ أمةٌ منهم لِمَ تَعِظُون قوماً اللَّهُ مُهلِكُهم** ﴾، اختلفوا في الذين قالوا هذا، قيـل: كانوا من الفرقة الهالكة، وذلك أنهم لمّا قيل لهم: انتهوا عن هذا العمل السيء، قبل أن ينزل بكم العذاب فإنّا نعلم أن الله منزل بكم بأسه إن لم تنتهوا أجابوا وقالوا لِمَ تَعظون قوماً الله مهلكهم، ﴿ **أو** ﴾ علمتم أنه ﴿ **مُعذِّبُهم عذاباً شديداً قالوا** ﴾ أي: قال الناهون ﴿ **معذرةٌ** ﴾ أي: موعظتنا معذرة ﴿ **إلى ربِّكم** ﴾، قرأ حفص: «**معـــذرة**» بالنصب أي نفعل ذلك معذرة إلى ربكم. والأصحّ أنها من قول الفرقة الساكنة، قالوا لِمَ تعظون قوماً الله مهلكهم، قالوا: معذرة إلى ربكم، ومعناه أن الأمر بالمعروف واجب علينا فعلينا موعظة هؤلاء عذراً إلى الله، ﴿ **ولعلّهم يتّقون** ﴾، أي: يتقون الله ويتركون المعصية ولو كان الخطاب مع المعتدين لكان يقول ولعلكم تتّقون.

فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟
يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ
يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾ وَقَطَّعْنَـٰهُمْ فِى
ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ ٱلصَّـٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَبَلَوْنَـٰهُم بِٱلْحَسَنَـٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾

وقوله تعالى: ﴿فلما نسوا ما ذكروا به﴾ أي فلما تركوا ما وعظوا به ﴿أنجينا الذين ينهون عن السوء﴾ وهم الفرقة الناهية ﴿وأخذنا الذين ظلموا﴾ يعني الفرقة المعتدية العاصية ﴿بعذاب بئيس﴾ أي شديد وجميع من البأس وهو الشدة ﴿بما كانوا يفسقون﴾ يعني أخذناهم بالعذاب بسبب فسقهم واعتدائهم وخروجهم عن طاعتنا. روى عكرمة عن ابن عباس قال: أسمع الله يقول أنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس فلا أدر ما فعلت الفرقة الساكتة وجعل يبكي قال عكرمة: فقلت جعلني الله فداك، ألا تراهم قد أنكروا وكرهوا ما هم عليه، وقالوا لم تعظون قوماً الله مهلكهم، وإن لم يقل الله أنجيتهم لم يقل أهلكتهم قال فأعجبه قولي ورضي به وأمر لي ببردين فكسانيهما وقال: نجت الساكتة وقال يمان ابن رباب: نجت الطائفتان الذين قالوا لم تعظون والذين قالوا معذرة وأهلك الله الذين أخذوا الحيتان وهذا قول الحسن، وقال ابن زيد: نجت الناهية وهلكت الفرقتان وهذه الآية أشد آية في ترك النهي عن المنكر وقوله تعالى: ﴿فلما عتوا عما نهوا عنه﴾ قول ابن عباس: أبوا أن يرجعوا عن المعصية والعتو عبارة عن الإباء والعصيان والمعنى فلما عتوا عما نهوا يعني عن ترك ما نهوا عنه وتمردوا في العصيان من اعتدائهم في السبت واستحلالهم ما حرم الله عليهم من صيد السمك في يوم السبت وأكله ﴿قلنا لهم كونوا قردة خاسئين﴾ يعني صاغرين مبعدين من كل خير.

قال قتادة: لما عتوا عما نهوا عنه مسخهم الله فصيرهم قردة تتعاوى بعد ما كانوا رجالاً ونساء. وقال ابن عباس: جعل الله منهم القردة والخنازير فزعم أن شبان القوم صاروا قردة وأن المشيخة صاروا خنازير، قيل إنهم بقوا ثلاثة أيام ينظر الناس إليهم ثم هلكوا جميعاً.

قوله تعالى: ﴿وإذ تأذن ربك﴾ الخطاب فيه للنبي ﷺ ومعنى تأذن أذن والأذان الإعلام يعني أعلم ربك وقيل معناه قال ربك، وقيل: حكم ربك وقيل آلى ربك بمعنى أقسم أجزما ربك ﴿ليبعثن عليهم﴾ اللام في قوله ليبعثن جواب القسم لأن قوله وإذ تأذن ربك جارٍ مجرى القسم لكونه وجواب القسم ليبعثن عليهم واختلفوا في الضمير في

﴿ فَلَمَّا نَسُوا ما ذُكِّرُوا بهِ ﴾ أي: تركوا ما وُعِظوا به، ﴿ أنجينا الذين ينهون عن السوءِ وأخذنا الذين ظلموا ﴾، يعني الفرقة العاصِية، ﴿ بعذابٍ بئيس ﴾، أي: شديد وجيع، من البأس وهو الشدة. واختلف القراءة فيه قرأ أهل المدينة وابن عامر ﴿ بئيس ﴾ بكسر الباء على وزنِ فعل، إلّا أن ابن عامر يهمزه، وأبو جعفر ونافع لا يهمزان، وقرأ عاصم في رواية أبي بكر بفتح الباء وسكون الياء وفتح الهمزة على وزن فيعل مثل صيقل، وقرأ الآخرون على وزن فعيل مثل بعير وصغير، ﴿ بما كانوا يَفْسُقُون ﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما: نسمع الله يقول: ﴿ أنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس ﴾، فلا أدري ما فعل بالفرقة الساكتة. قال عكرمة: قلت له جعلني الله فداك ألّا نراهم قد أنكروا وكرهوا ما هم عليه، وقالوا: لِمَ تعظون قوماً الله مهلكهم؟، وإن لم يقل الله أنجيتهم لم يقل أهلكتهم فـأعجبه قـولي فرضي وأمـر لي ببردين فكسـانيهما، وقـال: نجت الفرقة الساكتة. وقال يمان بن رباب: نجت الطائفتان الذين قالوا: لِمَ تعظون قوماً والذين قالوا: معذرةً إلى ربكم،

عليهم إلى من يرجع فقيل يقتضي أن يكون راجعاً إلى قوله فلما عتوا عما نهوا عنه قلنا لهم كونوا قردة خاسئين لكن قد علم أن الذين مسخوا لم يبق منهم أحد فيحتمل أن يكون المراد الذين بقوا منهم فألحق الذل بهم وقيل بأن المراد سائر اليهود من بعدهم لأن الذين بقوا من أهل القرية كانوا صالحين والذي بعثه الله على اليهود هو بختنصر وسخاريب وملوك الروم فساموهم سوء العذاب. وقيل: المراد بقوله ليبعثن عليهم اليهود الذين كانوا في زمن رسول الله ﷺ والذي بعثه الله عليهم وهو رسول الله ﷺ وأمته فألزم من لم يسلم منهم الصَّغار والذلة والهوان والجزية لازمة لليهود إلى يوم القيامة وأورد على هذا بأن في آخر الزمان يكون لهم عزة وذلك عند خروج الدجال لأن اليهود أتباعه وأشياعه وأجيب عنه بأن ذلك العز الذي يحصل لهم هو في نفسه غاية الذلة لأنهم يدعون إلهية الدجال فيزدادون كفراً على كفرهم فإذا هلك الدجال أهلكهم المسلمون وقتلوهم جميعاً فذلك هو الذلة والصغار المشار إليه بقوله تعالى ليبعثن عليهم ﴿**إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب**﴾ وهذا نص في أن العذاب إنما يحصل لهم في الدنيا مستمراً عليهم إلى يوم القيامة ولهذا فسر هذا العذاب بالإهانة والذلة وأخذ الجزية منهم فإذا أفضوا إلى الآخرة؛ كان عذابهم أشد وأعظم وهو قوله تعالى ﴿**إن ربك لسريع العقاب**﴾ يعني لمن أقام على الكفر ففيه دليل على أنه يجمع لهم مع ذلة الدنيا عذاب الآخرة فيكون العذاب مستمراً عليهم في الدنيا والآخرة، ثم ختم الآية بقوله تعالى: ﴿**وإنه لغفور رحيم**﴾ يعني لمن آمن منهم ورجع عن الكفر واليهودية ودخل في دين الإسلام.

قوله تعالى: ﴿**وقطعناهم في الأرض أمماً**﴾ يعني وفرقنا بني إسرائيل في الأرض جماعات متفرقة فلا تجد بلداً إلا وفيه من اليهود طائفة وجماعة، قال ابن عباس: كل أرض يدخلها قوم من اليهود ﴿**منهم الصالحون**﴾ يعني من هؤلاء الذين وصفهم الله من بني إسرائيل صالحون وهم من آمن بالله ورسوله وثبت منهم على دينه قبل مبعث عيسى عليه الصلاة والسلام وإنما وصفهم بذلك قبل ارتدادهم عن دينهم وكفرهم بربهم ذكره الطبري ولم يذكر غيره، وروى البغوي وغيره من المفسرين عن ابن عباس ومجاهد: إن المراد بالصالحين الذين أدركوا النبي ﷺ من اليهود وآمنوا به والصحيح ما ذكره الطبري يدل عليه قوله بعد فخلف من بعدهم خلف والخلف إنما كان بعد هؤلاء الذين وصفهم بالصلاح من بني إسرائيل.

وقوله تعالى: ﴿**ومنهم دون ذلك**﴾ يعني الذين كفروا من بني إسرائيل وبدلوا وغيروا ﴿**وبلوناهم**﴾ يعني جميعاً الصالح وغيره وهي بلوى اختبار وامتحان ﴿**بالحسنات**﴾ يعني الخصب والعافية ﴿**والسيئات**﴾ يعني الجدب والشدة ﴿**لعلهم يرجعون**﴾ يعني لكي يرجعوا إلى طاعة ربهم ويتوبوا إليه. قال أهل المعاني: كل واحدة من الحسنات

وأهلك الله الذين أخذوا الحيتان. وهذا قول الحسن. وقال ابن زيد: الناهية وهلكت الفرقتان، وهذه أشدّ آية في ترك النهي عن المنكر.

قوله تعالى: ﴿ **فلمّا عَتَوا عمّا نُهوا عنه** ﴾، قال ابن عباس: أبوا أن يرجعوا عن المعصية ﴿ **قُلْنَا لهم كُونُوا قِردةً خاسئين** ﴾، مبعدين فمكثوا ثلاثة أيام ينظر بعضهم إلى بعض وينظر إليهم الناس ثم هلكوا.

﴿ **وإذْ تأذنَ ربُّك** ﴾، أي: آذن وأعلم ربك، يقال: تأذن وآذن مثل توعد وأوعد. وقال ابن عباس: تأذّن ربّك قال ربك. وقال مجاهد: أمر ربّك. وقال عطاء: حكم ربّك. ﴿ **ليبعثنّ عليهم إلى يومِ القيامة** ﴾، أي: على اليهود، ﴿ **مَنْ يسومُهم سُوءَ العذابِ** ﴾، بعث الله عليهم محمداً ﷺ وأمته يقاتلونهم حتى يسلموا أو يعطوا الجزية، ﴿ **إنّ ربّك لَسَريعُ العقابِ وإنّه لغفورٌ رحيم** ﴾.

﴿ **وقطّعناهم** ﴾، فرّقناهم ﴿ **في الأرض أُمماً** ﴾، فرقاً فرّقهم الله فتشتّت أمرهم فلم تجتمع لهم كلمة، ﴿ **منهم**

والسيئات إذا فسرت بالنعم والشدة تدعو إلى طاعة الله تعالى أما النعمة فيزداد عليها شكراً فيرغب في الطاعة وأما الشدة فيخاف سوء عاقبتها فيرهب منها.

فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٞ وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغۡفَرُ لَنَا وَإِن يَأۡتِهِمۡ عَرَضٞ مِّثۡلُهُۥ يَأۡخُذُوهُۚ أَلَمۡ يُؤۡخَذۡ عَلَيۡهِم مِّيثَٰقُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِۗ وَٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿١٦٩﴾

قوله تعالى: ﴿**فخلف من بعدهم**﴾ يعني من بعد هؤلاء الذين وصفناهم قوله تعالى: ﴿**خلف**﴾ يعني خلف سوء يعني حدث من بعدهم وتبدل منهم بدل سوء يقال منه هو خلَف صدق بفتح اللام وخلف سوء بسكونها فأكثر ما يقال في المدح بفتح اللام وفي الذم بسكونها وقد تحرك في الذم وتسكن في المدح قال حسان بن ثابت في المدح:

لنـا القـدم الأولـى إليـك وخلْفنـا ... لأولنـا فـي طـاعـة الله تـابـع

فسكن اللام في قوله وخلفنا وهو يريد المدح وقال لبيد في الذم:

ذهـب الـذيـن يعـاش فـي أكنـافهـم ... وبقيـت فـي خَلَـف كجلـد الأجـرب

ففتح اللام وهو يريد الذم وأصله من الفساد. يقال: خلف اللبن إذا فسد وتغير في السقاء ويقال للرديء من القول: خلف وخلف الشيء تغيره، ومنه خلوف فم الصائم والمعنى جاء من بعد هؤلاء الذين وصفناهم خلف والخلف القرن الذي يجيء بعد قرن كان قبله ﴿**ورثوا الكتاب**﴾ يعني انتقل إليهم الكتاب عن آبائهم والمراد بالكتاب التوراة ﴿**يأخذون عرَض هذا الأدنى**﴾ العرض بفتح الراء جميع متاع الدنيا كما يقال الدنيا عرض حاضر يأكل منها البر والفاجر، والعرْض بسكون الراء جميع المال سوى الدراهم والدنانير والمعنى أنهم كانوا يأخذون الرشا في الأحكام على تبديل الكلام وتغييره وذلك الذي يأخذونه من حطام الدنيا هو الشيء التافه الخسيس الحقير لأن الدنيا بأسرها فانية حقيرة والراغب فيها أحقر منها فاليهود ورثوا التوراة وعلموا ما فيها وضيعوا العمل بما فيها وتركوه وأخذوا الرشا في الأحكام ويعلمون أنها حرام ثم إنهم مع إقدامهم على هذا الذنب العظيم يصرون عليه ﴿**ويقولون سيغفر لنا**﴾ يعني ذنوبنا فيتمنون على الله الأماني الباطلة الكاذبة عن شداد بن أوس أن رسول الله ﷺ قال «الكيّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني» أخرجه الترمذي وقال في قوله عليه الصلاة والسلام

الصالحون﴾، قال ابن عباس ومجاهد: يريد الذين أدركوا رسول الله ﷺ وآمنوا به، ﴿ **ومنهم دُونَ ذلك** ﴾، يعني الذين بقوا على الكفر، وقال الكلبي: منهم الصالحون هم الذين وراء نهر أوداف من وراء الصين، ومنهم دُون ذلك، يعني: من ههنا من اليهود، ﴿ **وبلوناهم بالحسنات** ﴾، بالخصب والعافية، ﴿ **والسيئات** ﴾، الجدب والشدّة، ﴿ **لعلّهم يرجِعُون** ﴾، لكي يرجعوا إلى طاعة ربّهم ويتوبوا.

﴿ **فخلَفَ مِنْ بعدِهم** ﴾، أي: جاء من بعد هؤلاء الذين وصفناهم ﴿ **خَلْفٌ** ﴾، والخلف: القرن الذي يجيء بعد قرن. قال أبو حاتم: الخلف بسكون اللام الأولاد، الواحد والجمع فيه سواء، والخلَف بفتح اللام: البدل سواء كان ولداً أو غريباً. وقال ابن الأعرابي: الخلَف بالفتح: الصالح، وبالجزم: الطالح. وقال النضر بن شميل: الخلف بتحريك اللام وإسكانها في القرْن السوء واحد، وأما في القرْن الصالح فبتحريك اللام لا غير. وقال محمد بن جرير: أكثر ما جاء في المدح بفتح اللام، وفي الذم بتسكينها وقد يُحرّك في الذم ويُسكّن في المدح.

﴿ **وَرِثُوا الكتابَ** ﴾، أي: انتقل إليهم الكتاب من آبائهم وهو التوراة، ﴿ **يأخذُون عَرَضَ هذا الأدْنى** ﴾، العرض

دان نفسه يعني حاسبها في الدنيا قبل أن يحاسَب يوم القيامة وموضع الاستشهاد من الحديث على الآية، قوله وتمنى على الله الأماني لأن اليهود كانوا يقدمون على الذنوب ويقولون سيغفر لنا وهذا هو التمني بعينه قوله تعالى: ﴿**وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه**﴾ وهذا إخبار عن حرصهم على الدنيا وإصرارهم على الذنوب، والمعنى أنهم إذا أتاهم شيء من الدنيا أخذوه حلالاً كان أو حراماً ويتمنون على الله المغفرة وإن وجدوا من الغد مثله أخذوه.

قال السدي: كانت بنو إسرائيل لا يستقضون قاضياً إلا ارتشى في الحكم فيقال له ما بالك ترتشي فيقول: سيغفر لي فيطعن عليه الآخرون فإذا مات أو نزع من الحكم وجعل مكانه آخر فمن كان يطعن عليه ارتشى أيضاً يقول الله عز وجل وإن يأت الآخرين عرض الدنيا يأخذوه ﴿**ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب**﴾ يعني ألم يؤخذ على هؤلاء المرتشين في أحكامهم العهود والمواثيق في الكتاب وهو التوراة ﴿**أن لا يقولوا على الله إلا الحق**﴾ يعني إنّا أخذنا عليهم الميثاق على أن يقولوا الحق فقالوا الباطل وخالفوا أمر الله وهو قولهم سيغفر لنا والمراد من هذا التوبيخ والتقريع لليهود في ادعائهم على الله الباطل قال ابن عباس: هو ما يوجبون على الله من غفران ذنوبهم التي لا يزالون يعودون فيها ولا يتوبون منها ﴿**ودرسوا ما فيه**﴾ يعني ما في الكتاب والمعنى أنهم ذاكرون لما أخذ عليهم من العهود والمواثيق في الكتاب لأنهم دارسون له لم يتركوه ولكن درسوه وضيعوا العمل به ﴿**والدار الآخرة**﴾ يعني وما في الدار الآخرة مما أعد الله لأوليائه وأهل طاعته العاملين بما أمرهم الله به من كتابه، ولم يغيروا ولم يبدلوا ولم يرتشوا في الأحكام ﴿**خير للذين يتقون**﴾ يعني يتقون الله ويخافون عقابه ﴿**أفلا يعقلون**﴾ يعني أفلا يعقل هؤلاء الذين يرضون بعرض الدنيا أن ما في الآخرة خير وأبقى لأنها دار المتقين.

وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾ ۞ وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ

متاع الدنيا، والعرض بسكون الراء ما كان من الأموال سوى الدراهم والدنانير. وأراد بالأدنى العالم وهو هذه الدار الفانية فهو تذكير الدنيا، وهؤلاء اليهود ورثوا التوراة فقرؤوها وضيّعوا العمل بما فيها وخالفوا حكمها يرتشون في حكم الله وتبديل كلماته، ﴿ **ويقولون سَيُغفرُ لنَا** ﴾، ذنوبنا يتمنّون على الله الأباطيل. أخبرنا محمد بن عبد الله بن أبي توبة أنبأنا طاهر محمد بن أحمد بن الحرث أنبأنا أبو الحسن محمد بن يعقوب الكسائي أنبأنا عبد الله بن محمود أنبأنا إبراهيم بن عبد الله الخلال أنبأنا عبد الله بن المبارك عن أبي بكر بن أبي مريم الغساني عن ضمرة بن جندب عن شدّاد بن أوس قال: قال رسول الله ﷺ: «الكَيّسُ منْ دَانَ نفسَه وعمِلَ لِما بعدَ الموتِ والعاجزُ مَن أتبع نفسه هواها وتمنّى على الله الأماني». ﴿ **وإنْ يأتِهم عَرَضٌ مِّثْلُهُ يأخذُوه** ﴾، هذا إخبار عن حرصهم على الدنيا وإصرارهم على الذنوب، يقول إذا أشرف لهم شيء من الدنيا: أخذوه حلالاً كان أو حراماً، ويتمنّون على الله المغفرة وأين وجدوا من الغد مثله أخذوه. وقال السدي: كانت بنو إسرائيل لا يستقضون قاضياً إلّا ارتشى في الحكم فيقال له: ما لك ترتشي؟ فيقول: سيغفر لي فيطعن عليه الآخر، فإذا مات أو نزع وجعل مكانه رجل ممّن كان يطعن عليه فيرتشي أيضاً، يقول: وإن يأتِ الآخرين عرض مثله يأخذوه. ﴿ **أَلَمْ يُؤْخَذْ عليهم ميثاقُ الكتاب أنْ لا يقولوا على الله إلّا الحق** ﴾، أي: أخذ عليهم العهد في التوراة أن لا يقولوا على الله الباطل، وهي تمنّي المغفرة مع الإصرار وليس في التوراة ميعاد المغفرة مع الإصرار، ﴿ **ودَرَسُوا ما فيه** ﴾، قرأوا ما فيه فهم ذاكرون لذلك، ولو عقلوه لعملوا للدار الآخرة، ودرس الكتاب قراءته وتدبره مرة بعد أخرى، ﴿ **والدّارُ الآخرةُ للذين يتّقون أفلا تعقلون** ﴾.

ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾

﴿والذين يمسكون بالكتاب﴾ يقال مسكت بالشيء وتمسكت به واستمسكت به وأمسكت به والمراد بالتمسك بالكتاب العمل بما فيه من إحلال حلاله وتحريم حرامه وإقامة حدوده والتمسك بأحكامه.

نزلت هذه الآية في الذين أسلموا من أهل الكتاب مثل عبد الله بن سلام وأصحابه لأنهم تمسكوا بالكتاب الأول ولم يحرفوه ولم يغيروه فأداهم ذلك التمسك إلى الإيمان بالكتاب الثاني وهو القرآن ﴿وأقاموا الصلاة﴾ يعني وداوموا على إقامتها في مواقيتها وإنما أفردها بالذكر وإن كانت الصلاة داخلة في التمسك بالكتاب تنبيهاً على عظم قدرها وأنها من أعظم العبادات بعد الإيمان بالله وبرسوله ﴿إنا لا نضيع أجر المصلحين﴾ قوله عز وجل: ﴿وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة﴾ يعني واذكر يا محمد إذ قلعنا الجبل فرفعناه فوق بني إسرائيل كأنه ظلة يعني جعلناه فوقهم كالظلة والظلة كل ما علا الإنسان كالسقف ونحوه ﴿وظنوا﴾ أي علموا وأيقنوا ﴿أنه واقع بهم﴾ يعني الجبل ﴿خذوا﴾ يعني وقلنا لهم خذوا وإضمار القول كثير في القرآن وكلام العرب ﴿ما آتيناكم﴾ يعني التوراة ﴿بقوة﴾ يعني بجد واجتهاد ﴿واذكروا ما فيه﴾ يعني واعملوا بما فيه من الأحكام ﴿لعلكم تتقون﴾ قال أصحاب الأخبار: إن بني إسرائيل لما أبوا أن يقبلوا أحكام التوراة لما فيها من التكاليف الشاقة أمر الله عز وجل جبريل فرفع جبلاً عظيماً حتى صار على رؤوسهم كالظلة فلما نظروا إلى الجبل فوق رؤوسهم خرّوا ساجدين فسجد كل واحد منهم على خده وحاجبه الأيسر وجعل ينظر بعينه اليمنى إلى الجبل خوفاً أن يسقط عليه ولذلك لا تسجد اليهود إلا على شق وجوههم الأيسر قوله تعالى: ﴿وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى﴾ الآية عن مسلم بن يسار الجهني أن عمر بن الخطاب سئل عن قوله سبحانه وتعالى: ﴿وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم﴾ الآية قال سئل عنها رسول الله ﷺ فقال «إن الله تبارك وتعالى خلق آدم ثم مسح ظهره بيمينه فاستخرج منه ذرية فقال خلقت هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذرية فقال خلقت هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون فقال رجل يا رسول الله ففيم العمل فقال رسول الله ﷺ إن الله سبحانه وتعالى إذا خلق العبد للجنة استعمله بعمل أهل الجنة حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة فيدخله الجنة وإذا خلق العبد للنار استعمله بعمل أهل النار حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار فيدخله النار» أخرجه مالك في الموطأ وأبو داود والترمذي، وقال حديث حسن ومسلم بن يسار لم يسمع من عمر وقد ذكر بعضهم في هذا الإسناد بين مسلم بن يسار وعمر رجلاً. قلت ذكر الطبري في بعض طرق هذا الحديث الرجل فقال عن مسلم بن يسار عن يعمر بن ربيعة عن عمر عن النبي ﷺ بنحوه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «لما خلق الله سبحانه وتعالى آدم مسح ظهره فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها من

﴿ والذين يُمَسِّكُونَ بالكتابِ ﴾، قرأ أبو بكر عن عاصم: «يمسكون» بالتخفيف وقراءة العامّة بالتشديد لأنه يقال: مسكت بالشيء، ولا يقال: أمسكت بالشيء، إنما يقال: أمسكته، وقرأ أُبيّ بن كعب: «والذين تمسّكوا بالكتاب»، على الماضي وهو جيد لقوله تعالى: ﴿ وأقاموا الصلاة ﴾ إذ قلّ ما يعطف ماضٍ على مستقبل إلّا في المعنى، وأراد الذين يعملون بما في الكتاب، قال مجاهد: هم المؤمنون من أهل الكتاب عبد الله بن سلام وأصحابه تمسكوا بالكتاب الذي جاء به موسى فلم يحرّفوه ولم يكتموه ولم يتخذوه مأكلةً. وقال عطاء: هم أمة محمد ﷺ. ﴿ وأقاموا الصلاة إنّا لا نُضيعُ أجر المصلحين ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وإذْ نَتقْنا الجبل فوقَهم ﴾، أي: قلَعْنَا. وقال المؤرّج: قطعناه. وقال الفرّاء: علّقنا. وقيل:

ذريته إلى يوم القيامة وجعل بين عيني كل إنسان وبيصاً من نور ثم عرضهم على آدم فقال أي رب من هؤلاء قال هؤلاء ذريتك فرأى رجلاً منهم فأعجبه وبيص ما بين عينيه فقال يا رب من هذا قال داود قال رب كم جعلت عمره قال ستين سنة قال يا رب زده من عمري أربعين سنة قال رسول الله ﷺ فلما انقضى عمر آدم إلا أربعين جاءه ملك الموت فقال آدم أو لم يبق من عمري أربعون سنة؟ قال أو لم تعطها ابنك داود؟ فجحد آدم فجحد ذريته ونسي آدم فأكل من الشجرة فنسيت ذريته وخطىء فخطئت ذريته» أخرجه الترمذي وقال حديث حسن صحيح.

وأما تفسير الآية فقوله سبحانه وتعالى: وإذ أخذ ربك، يعني واذكر يا محمد إذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم يعني من ظهور بني آدم وإنما لم يذكر ظهر آدم وإن كان الله سبحانه وتعالى أخرج جميع الذرية من ظهره لأن الله تعالى أخرج ذرية آدم بعضهم من ظهر بعض على نحو ما يتوالد الأبناء من الآباء فلذلك قال سبحانه وتعالى من بني آدم من ظهورهم فاستغنى عن ذكر ظهر آدم عليه السلام لما علم أنهم كلهم بنو آدم وأخرجوا من ظهره فترك ذكر ظهر آدم استغناء.

ثم للعلماء في تفسير هذه الآية مذهبان: أحدهما وهو مذهب أهل التفسير والأثر وظاهر ما جاءت به الروايات عن السلف فيما روي عن ابن عباس من طرق كثيرة وروايات مختلفة رواها عنه الطبري بأسانيد، فمنها عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال «أخذ الله الميثاق من ظهر آدم بنعمان يعني عرفة فأخرج من صلبه كل ذرية ذرأها فنثرهم بين يديه كالذر ثم كلمهم قبلاً وقال ألست بربكم؟ قالوا بلى شهدنا أن يقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين» وعن ابن عباس في هذه الآية قال: مسح ربك ظهر آدم فخرجت كل نسمة هو خالقها إلى يوم القيامة بنعمان هذا الذي وراء عرفة وأخذ ميثاقهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا وعن ابن عباس أيضاً قال: إن أول ما أهبط الله آدم إلى الأرض أهبطه بدهناء أرض الهند فمسح ظهره فأخرج منه كل نسمة هو بارئها إلى يوم القيامة ثم أخذ عليهم الميثاق وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم؟ قالوا بلى شهدنا أن يقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين» زاد في رواية عنه «فجف القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة» وفي رواية عنه قال «لما خلق الله آدم أخذ ميثاقه أنه ربه وكتب رزقه وأجله ومصائبه واستخرج ذريته كالذر وكتب أرزاقهم وآجالهم ومصائبهم» وفي رواية عنه قال «إن الله عز وجل مسح صلب آدم فاستخرج كل نسمة هو خالقها إلى يوم القيامة فأخذ منهم الميثاق أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً وتكفل لهم بالأرزاق

رفعنا ﴿ كأنّه ظُلّة ﴾، قال عطاء: سقيفة. والظلّة: كلّ ما أظلّك، ﴿ وظنّوا ﴾، علموا ﴿ أنه واقعٌ بهم خُذُوا ﴾، أي: وقلنا لهم خذوا، ﴿ ما آتيناكم بقوة ﴾، بجِدٍّ واجتهاد، ﴿ واذْكُروا ما فيهِ ﴾، واعملوا به، ﴿ لعلّكم تتّقون ﴾، وذلك حين أبَوْا أن يقبلوا أحكام التوراة، فرفع الله على رؤوسهم جبلاً. قال الحسن: فلما نظروا إلى الجبل خرّ كل رجل منهم ساجداً على حاجبه الأيسر ينظر بعينه اليمنى إلى الجبل فـرقاً من أن يسقط عليه، ولذلك لا تجد يهودياً إلّا ويكون سجوده على حاجبه الأيسر.

قوله تعالى: ﴿ وإذ أخذَ ربُّك من بني آدم مِنْ ظهورهم ذُرِّيتهم ﴾، الآيـة. أخبرنا أبو الحسن محمد بن السرخسي أنا زاهر بن أحمد أنا أبو إسحاق الهاشمي أنا أبو مصعب عن مالك عن زيد بن أبي أنيسة عن عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب أخبره عن مسلم بن يسار الجهني أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه سُئِلَ عن هذه الآية: ﴿ وإذْ أخذَ ربُّكَ من بني آدَمَ من ظهورهم ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ الآية. قال عمر بن الخطاب: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يُسأَل عنها فقال رسول الله ﷺ: «إن الله عزّ وجلّ خلق آدم ثم مسح ظهره بيمينه فاستخرج منه ذُرّيَّةً، فقال: خلقتُ هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون، ثم مسح ظهره فاستخرج منهُ ذريّةً فقال: خلقتُ هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون، فقال رجل: فَفِيمَ العملُ يا رسولَ الله؟ فقال رسول الله ﷺ: «إنّ اللّهَ عزّ وجلّ إذا خلق

ثم أعادهم في صلبه فلن تقوم الساعة حتى يولد كل من أعطي الميثاق يومئذ فمن أدرك منهم الميثاق الآخر فوفى به نفعه الميثاق الأول ومن أدرك الميثاق الآخر فلم يف به لم ينفعه الأول ومن مات صغيراً ولم يدرك الميثاق الآخر مات على الميثاق الأول على الفطرة» وروى الطبري بسنده عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ «أخذوا من ظهره كما يؤخذ بالمشط من الرأس فقال لهم ألست بربكم قالوا بلى؟ قالت الملائكة شهدنا أن تقولوا يوم القيامة «إنا كنا عن هذا غافلين» وقال ابن عباس: أخرج ذرية آدم من ظهره فكلمهم الله وأنطقهم فقال ألست بربكم قالوا بلى ثم أعادها في صلبه فليس أحد من الخلق إلا وقد تكلم فقال ربي الله وإن القيامة لن تقوم حتى يولد من كان يومئذ أشهد على نفسه، وقال السدي: أخرج الله آدم من الجنة ولم يهبطه من السماء ثم إنه مسح صفحة ظهره اليمنى فأخرج منه كهيئة الذر بيضاء فقال ادخلوا الجنة برحمتي ثم مسح صفحة ظهره اليسرى فأخرج منه كهيئة الذر سوداء فقال ادخلوا النار ولا أبالي فذلك حين يقول أصحاب اليمين وأصحاب الشمال ثم أخذ منهم الميثاق فقال ألست بربكم قالوا بلى فأعطاه طائفة طائعين وطائفة كارهين على وجهه التبعية زاد في رواية وذلك حيث يقول «وله أسلم من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً» وقال محمد بن كعب القرظي: أقر له بالإيمان والمعرفة الأرواح قبل خلق أجسادها، وقال مقاتل: مسح صفحة ظهر آدم اليمنى، فأخرج منها ذرية بيضاء كهيئة الذر يتحركون ثم مسح صفحة ظهره اليسرى فأخرج منها ذرية سوداء كهيئة الذر يتحركون فقال يا آدم هؤلاء ذريتك ثم قال لهم ألست بربكم قالوا بلى فقال للبيض هؤلاء في الجنة برحمتي وهم أصحاب اليمين وقال للسود هؤلاء في النار ولا أبالي وهم أصحاب الشمال ثم أعادهم جميعاً في صلب آدم فأهل القبور محبوسون حتى يخرج أهل الميثاق جميعاً. وروى أن الله سبحانه وتعالى قال لهم جميعاً. اعلموا أنه لا إله لكم غيري وأنا ربكم لا رب لكم غيري فلا تشركوا بي شيئاً فإني سأنتقم ممن أشرك بي ولم يؤمن بي وإني مرسل إليكم رسلاً يذكرونكم عهدي وميثاقي ومنزل عليكم كتباً فتكلموا جميعاً وقالوا شهدنا أنك ربنا لا رب لنا غيرك فأخذ بذلك مواثيقهم ثم كتب آجالهم وأرزاقهم ومصائبهم فنظر إليهم آدم عليه السلام فرأى منهم الغني والفقير وحسن الصورة ودون ذلك فقال رب هلا سويت بينهم فقال إني أحب أن أشكر فلما قررهم بتوحيده وأشهد بعضهم على بعض أعاده إلى صلبه فلا تقوم الساعة حتى يولد كل من أخذ منه الميثاق» وقال الزجاج وجائز أن يكون الله سبحانه وتعالى جعل لأمثال الذر عقلاً وفهما تعقل به كما قال تبارك وتعالى في النملة ﴿قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم﴾ وكما قال ﴿وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير﴾ وقال ابن الأنباري مذهب أصحاب الحديث وكبراء أهل العلم في هذه الآية أن الله تعالى أخرج ذرية آدم من صلبه وأصلاب أولادهم وهم صور كالذر وأخذ عليهم الميثاق أنه خالقهم

العبد للجنة استعمله بعمل أهل الجنة، حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة، فيدخله به الجنة، وإذا خلق العبد للنار استعمله بعمل أهل النار، حتى يموت على عمل من أعمالِ أهل النار فيدخله به النار»، وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن. ومسلم بن يسار لم يسمع من عمر وقد ذكر بعضهم في هذا الإسناد بين مسلم بن يسار وعمر رجلاً. قال مقاتل وغيره من أهل التفسير: إن الله مسح صفحةَ ظهرِ آدمَ اليمنى فأخرج منه ذريّةً بيضاء كهيئة الذرّ يتحرّكون، ثم مسح صفحة ظهره اليسرى فأخرج منه ذريّةً سوداء كهيئة الذرّ، فقال: يا آدم هذه ذريّتك، ثم قال لهم: ألستُ بربكم؟ قالوا: بلى، فقال للبيض: هؤلاء في الجنة برحمتي ولا أُبالي وهم أصحاب اليمين، وقال للسود: هؤلاء في النار ولا أُبالي، وهم أصحاب الشمال، ثم أعادهم جميعاً في صلبه، فأهل القبور محبوسون حتى يخرج أهل الميثاق كلهم من أصلاب الرجال وأرحام النساء. قال الله تعالى فيمن نقض العهد الأول: ﴿ ومَا وَجَدْنا لأكثرهم من عهد ﴾ [الأعراف: ١٠٢]. وقال بعض أهل التفسير: إن أهل السعادة أقرّوا طوعاً وقالوا: بلى، وأهل الشقاوة قالوا تقية وكرهاً، وذلك معنى قوله: ﴿ وله أسلمَ مَن في السمٰواتِ والأرضِ طَوْعاً وكَرْهاً ﴾

وأنهم مصنوعه فاعترفوا بذلك وقبلوه وذلك بعد أن ركب فيهم عقولاً عرفوا بها ما عرض عليهم كما جعل للجبال عقولاً حتى خوطبوا بقوله «يا جبال أوبي معه» وكم جعل للبعير عقلاً حتى سجد للنبي ﷺ وكذلك الشجرة حتى سمعت لأمره وانقادت ومعنى قوله ﴿ألست بربكم﴾ على هذا التفسير قال الله تعالى للذرية «ألست بربكم» فهو إيجاب للربوبية عليهم قالوا بلى يعني قالت الذرية بلى أنت ربنا فهو جواب منهم له وإقرار منهم له بالربوبية واعتراف على أنفسهم بالعبودية ﴿شهدنا﴾ فيه قولان:

أحدهما: أنهم لما أقروا له بالربوبية قال الله عز وجل للملائكة اشهدوا قالوا شهدنا على إقرارهم فعلى هذا القول يحسن الوقف على قوله سبحانه وتعالى بلى لأن كلام الذرية تم وانقطع وقوله شهدنا كلام مستأنف.

والقول الثاني: إن قوله سبحانه وتعالى شهدنا من كلام الذرية والمعنى شهدنا على أنفسنا بهذا الإقرار وعلى هذا لا يحسن الوقف على بلى لتعلقه بما بعده.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿**أن تقولوا**﴾ وقرىء بالتاء على خطاب الذرية ومعناه لئلا تقولوا أيها الذرية ﴿**يوم القيامة إنا كنا عن هذا**﴾ يعني الميثاق ﴿**غافلين**﴾ وقرىء أن يقولوا بالياء على الغيبة ومعناه لئلا يقولوا أي الذرية إنا كنا عن هذا غافلين، والمذهب الثاني في معنى هذه الآية وهو مذهب أهل الكلام والنظر أنه سبحانه وتعالى أخرج الذرية وأنشأهم بعد أن كانوا نطفاً في أصلاب الآباء وهم أولاد بني آدم فأخرج الذرية إلى الدنيا على ترتيبهم في الوجود وأشهدهم على أنفسهم بما ركب فيهم من العقول وأراهم عجائب خلقه وغرائب صنعه ودلائل وحدانيته فبهذا الإشهاد صاروا كأنهم قالوا: بلى وأشهدهم على أنفسهم أنه ربهم وذلك بما أظهر لهم من دلائل آياته وبراهينه التي تضطرهم إلى أن يعلموا أنه خالقهم وبارئهم وربهم ونافذ الحكم فيهم فلما عرفوا ذلك دعاهم ذلك إلى التصديق بوحدانيته وربوبيته فقالوا بلى شهدنا على أنفسنا أنك أنت ربنا وخالقنا فعلى هذا القول يكون قولهم بلى شهدنا على أنفسنا على المجاز لا على الحقيقة وهذا النوع من المجاز والاستعارة مشهور في كلام العرب فكل من بلغ وعقل فقد أخذ عليه الميثاق بما جعل فيه من السبب الذي يؤخذ به الميثاق وهو العقل والتكليف فيكون معنى الآية وإذ يأخذ ربك من بني آدم ويشهدهم على أنفسهم بما ركب فيهم من العقل الذي يكون به الفهم والتكليف الذي به يترتب على صاحبه الثواب والعقاب يوم القيامة.

[آل عمران: ٨٣]، واختلفوا في موضع الميثاق، قال ابن عباس رضي الله عنهما: ببطن نعمان وادٍ إلى جنب عَرَفَة. ورُوِيَ عنه أيضاً أنه بدهناء من أرض الهند، وهو الموضع الذي هبط آدم عليه السلام عليه. وقال الكلبي: بين مكة والطائف. وقال السدي: أخرج الله آدم عليه السلام من الجنة فلم يهبط من السماء ثم مسح ظهره فأخرج ذريّتـه. ورُوِيَ أن الله أخرجهم جميعاً وصوّرهم وجعل لهم عقولاً يعلمون بها وألسُناً ينطقون بها ثم كلّمهم قبلاً يعني عياناً وقال: ألست بربكم؟ وقال الزجّاج: وجائز أن يكون الله تعالى جعل لأمثال الذرّ فهماً تعقل به، كما قال تعالى: ﴿ قالتْ نملةٌ يا أيها النّملُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكم ﴾ [النمل: ١٨]، ورُوِيَ أن الله تعالى قال لهم جميعاً: اعلموا أنه لا إلّه غيري وأنا ربّكم لا ربَّ لكم غيري فلا تشركوا بي شيئاً فإني سأنتقم ممّن أشرك بي ولم يؤمن بي وإني مرسل إليكم رسلاً يذكّرونكم عهدي وميثاقي ومنزّل عليكم كتباً فتكلموا جميعـاً، وقالـوا: شهدنـا أنك ربُّنا وإلهنا لاَ ربّ لنـا غيرُك، فأخذ بذلك مواثيقهم، ثم كتب آجالهم وأرزاقهم ومصائبهم، فنظر إليهم آدم فـرأى منهم الغني والفقير وحَسَنَ الصـورة ودون ذلك، فقال: ربِّ لولا سويتَ بينهم؟ قال: إنّي أُحبّ أن أُشكر، فلمّا قرّرهم بتوحيده وأشهد بعضهم على بعض أعادهم إلى صلبه فلا تقوم الساعة حتى يولد كل مَن أخذ ميثاقه، فذلك قوله تعالى: ﴿ وإذْ أخذ ربُّك من بني آدم مِنْ ظهورهِم ﴾ أي: من ظهور بني آدم ذريتهم، قرأ أهل المدينة وأبو عمرو وابن عامر: « ذريّاتهم » بالجمع

فإن قلت: فما المختار من هذين المذهبين في تفسير هذه الآية؟

قلت: المذهب الأول هو المختار لأنه مذهب جمهور المفسرين من السلف وورد الحديث بذلك عن النبي ﷺ.

فإن قلت إذا كانت المختار في تفسير هذه الآية هو مذهب السلف في ذلك وأن الله تعالى أخرج الذرية من ظهر آدم لأخذ الميثاق عليهم كما ورد في الحديث أيضاً فكيف يحمل تفسير ألفاظ هذه الآية على هذا القول؟

قلت: قد صحَّ الحديث بأن الله مسح ظهر آدم فأخرج ذريته وأخذ عليهم الميثاق ولا منافاة بين الآية والحديث كما تقدم في تفسير ألفاظ الآية من أن الله أخرج ذرية آدم من ظهره على سبيل التوالد بعضهم من بعض كما في الخارج وكلهم بأجمعهم من ظهر آدم الذي هو أصلهم فبهذا الطريق أمكن الجمع بين الآية والحديث، إذ ليس في معنى ألفاظ الآية ما يدل على بطلان ذلك ونفيه وقد ورد الحديث بثبوت ذلك وصحته فوجب المصير إليه والأخذ به جمعاً بين الآية والحديث وحكى الواحدي عن صاحب النظم أنه قال: ليس بين قوله إن الله مسح ظهر آدم فأخرج منه ذريته وبين الآية اختلاف بحمد الله لأنه تعالى إذ أخرجهم من ظهر آدم فقد أخرجهم من ظهور ذريته لأن ذرية آدم ذرية كذرية بعضهم من بعض قال وتحصل الفائدة بهذا الفصل بأنه تعالى أثبت الحجة على كل منفوس ممن بلغ ومن لم يبلغ بالميثاق الذي أخذه عليهم وزاد على من بلغ منهم بالحجة بالآيات والدلائل التي نصبها بالرسل المنفذة إليهم مبشرين ومنذرين وبالمواعظ وقال غيره: فائدة أخذ الميثاق عليها في القدم أن من مات منهم صغيراً أدخل الجنة بإقراره بالميثاق الأول وهذا على قول من يقول إن أطفال المشركين يدخلون الجنة إذا ماتوا صغاراً فأما من لا يحكم لهم بالجنة فإنه يقول من كان من أهل الشقاوة من الذرية السوداء وإنما أقروا بالمعرفة كرهاً فلم يغن عنهم ذلك شيئاً ومن بلغ وعقل لم يغن عنه إقراره بالميثاق الأول شيئاً حتى يؤمن ويصدق عند بلوغه وعقله بأن الله ربه وخالقه ويصدق رسله فيما جاؤوا به من عنده وإنما فعل ذلك لئلا يقول الكفار إنا كنا عن هذا الميثاق أو الإيمان بأن الله ربنا غافلين أو لئلا تقول أخلافهم إنما أشرك آباؤنا ونحن نسير على آثارهم ظناً منهم أن الحق ما كانوا عليه.

فإن قلت: إن ذلك الميثاق لا يذكره أحد اليوم فكيف يكون حجة عليهم اليوم أو فكيف يذكرونه يوم القيامة حتى يحتج عليهم به.

قلت: لما أخرج الذرية من صلب آدم ركب فيهم العقول وأخذ عليهم الميثاق فلما أعيدوا إلى صلب آدم بطل ما ركب فيهم فتوالدوا ناسين لذلك الميثاق لاقتضاء الحكمة الإلهية نسيانهم له ثم ابتدأهم بالخطاب على ألسنة الرسل عليهم الصلاة والسلام وأصحاب الشرائع فقام ذلك مقام الذكر، إذ الدار دار تكليف وامتحان ولو لم ينسوه لانتفت

وكسر التاء، وقرأ الآخرون «ذريّتهـم» على التوحيد، ونصب التاء، فإن قيل: ما معنى قوله: ﴿ **وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم** ﴾ وإنما أخرجهم من ظهر آدم؟ قيل: إنّ الله أخرج ذريّة آدم بعضهم من ظهور بعض على نحو ما يتوالد الأبناء من الآباء في الترتيب، فاستغنى عن ذكر ظهر آدم لمّا علم أنهم كلهم بنوه وأُخرِجوا من ظهره. قوله تعالى: ﴿ **وأشهدهم على أنفسهم أَلَسْتُ بربِّكم قالوا بلى** ﴾، أي: أشهد بعضهم على بعض. قوله: ﴿ **شَهِدْنَا أَنْ تقولوا** ﴾، قرأ أبو عمرو: «أن يقولوا» ويقولوا بالياء فيهما، وقرأ الآخرون بالتاء فيهما، واختلفوا في قوله: ﴿ **شهدنا** ﴾ قال السدي: هو خبر من الله عن نفسه وملائكته أنهم شهدوا على إقرار بني آدم. وقال بعضهم هو خبر عن قول بني آدم أشهد اللَّهُ بعضهم على بعض، فقالوا: بلى شهدناه. وقال الكلبي: ذلك من قول الملائكة وفيه حذف تقديره: لمّا قالت الذريّة: بلى، قال الله للملائكة: اشهدوا، قالوا: شهدنا، قوله: ﴿ **أن يقولوا** ﴾ يعني: وأشهدهم على أنفسهم أن يقولوا، أي: لئلا يقولوا أو كراهية أن يقولوا، ومَن قرأ بالتاء

المحنة والابتلاء والتكليف، فقامت الحجة عليهم لإمدادهم بالرسل وإعلامهم بجريان أخذ الميثاق عليهم وبذلك قامت الحجة عليهم أيضاً يوم القيامة لإخبار الرسل إياهم بذلك الميثاق في الدنيا فمن أنكره كان معانداً ناقضاً للعهد ولزمتهم الحجة ولم تسقط الحجة عنهم بنسيانهم وعدم حفظهم بعد إخبار الصادق صاحب الشرع والمعجزات الباهرات.

﴿أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿**أو تقولوا**﴾ يعني الذرية ﴿**إنما أشرك آباؤنا من قبل**﴾ يعني إنما أخذ الميثاق عليهم لئلا يقول المشركون إنما أشرك آباؤنا من قبل ﴿**وكنا ذرية من بعدهم**﴾ يعني وكنا أتباعاً لهم فاقتدينا بهم في الشرك ﴿**أفتهلكنا**﴾ يعني أفتعذبنا ﴿**بما فعل المبطلون**﴾ قال المفسرون: هذا قطع لعذر الكفار فلا يستطيع أحد من الذرية أن يقول يوم القيامة إنما أشرك آباؤنا من قبلنا ونقضوا العهد والميثاق وكنا نحن الذرية من بعدهم فقلدناهم واقتدينا بهم وكنا في غفلة عن هذا الميثاق فلا ذنب لنا فلا يمكنهم أن يحتجوا بمثل ذلك وقد أخذ عليهم جميعاً الميثاق وجاءتهم الرسل وذكروهم به وثبتت الحجة عليهم بذلك يوم القيامة، وأما الذين حملوا معنى الآية على أن المراد منه مجرد نصب الدلائل وهو مذهب أهل النظر قالوا معناه إن الله نصب هذه الدلائل وأظهرها للعقول لئلا يقولوا إنما أشركنا على سبيل التقليد لآبائنا لأن نصب أدلة التوحيد قائم معهم فلا عذر لهم في الإعراض عنه والإقبال على تقليد الآباء في الشرك.

وقوله تعالى: ﴿**وكذلك نفصّل الآيات**﴾ يعني ليتدبرها العباد فيرجعوا إلى الحق والإيمان ويعرضوا عن الباطل والكفر وهو المراد من قوله ﴿**ولعلهم يرجعون**﴾ يعني عن الشرك إلى التوحيد وقيل معناه ولعلهم يرجعون إلى الميثاق الأول فيذكرونه ويعملون بموجبه ومقتضاه.

قوله عز وجل: ﴿**واتل عليهم**﴾ يعني واقرأ على قومك يا محمد ﴿**نبأ**﴾ يعني خبر ﴿**الذي آتيناه آياتنا**﴾ اختلفوا فيه فقال ابن عباس: هو بلعم بن باعوراء، وقال مجاهد: بلعام بن باعر، وقال ابن مسعود: هو بلعم بن أبر، قال عطية قال ابن عباس: إنه كان من بني إسرائيل وفي رواية أخرى عنه أنه كان من الكنعانيين من بلد الجبارين، وقال مقاتل: هو من مدينة البلقاء وكانت قصته على ما ذكره ابن عباس ومحمد بن إسحاق والسدي وغيرهم من أصحاب الأخبار والسير قالوا: إن موسى عليه الصلاة والسلام لما قصد حرب الجبارين ونزل أرض كنعان من أرض الشام أتى

فتقدير الكلام: أخاطبكم ألستُ بربِّكم لئلا تقولوا: ﴿ يوم القيامة إنّا كنّا عن هذا غافلين ﴾، أي: عن هذا الميثاق والإقرار، فإن قيل: كيف يلزم الحجة واحد لا يذكر الميثاق، قيل: قد أوضح الله الدلائل على وحدانيته وصدق رسله فيما أخبروا، فمَن أنكره كان معانداً ناقضاً للعهد ولزمته الحجة، وبنسيانهم وعدم حفظهم لا يُسقِطُ الاحتجاج بعد إخبار المخبر الصادق صاحب المعجزة.

قوله تعالى: ﴿ أو تقولوا إنّما أشرك آباؤُنا من قبلُ وكنّا ذريّةً منْ بعدِهم ﴾، يقول: إنما أُخذ الميثاق عليكم لئلا تقولوا أيّها المشركون: إنّما أشرك آباؤنا من قبل ونقضوا العهد وكنّا ذريّة من بعدهم، أي كنّا أتباعاً لهم فاقتدينا بهم فتجعلوا هذا عذراً لأنفسكم وتقولوا: ﴿ أفتُهلِكُنَا بما فَعلَ المُبْطِلُون ﴾، أفتعذبنا بجناية آبائنا المبطلين فلا يمكنهم أن يحتجّوا بمثل هذا الكلام بعد تذكير الله تعالى بأخذ الميثاق على التوحيد.

قوم بلعام إليه وكان عنده اسم الله الأعظم، فقالوا: إن موسى رجل حديد وأن معه جنوداً كثيرة وأنه قد جاء يخرجنا من بلادنا ويقتلنا ويحلها بني إسرائيل وأنت رجل مجاب الدعوة فاخرج وادع الله أن يردهم عنا. فقال: ويلكم نبي الله ومعه الملائكة والمؤمنون فكيف أدعو عليهم وأنا أعلم من الله ما أعلم وإني إن فعلت هذا ذهبت دنياي وآخرتي؟ فراجعوه وألحوا عليه فقال: حتى أؤامر ربي وكان لا يدعو حتى يؤامر ربه في المنام فأتى في المنام فقيل له لا تدع عليهم فقال لقومه: إني قد آمرت ربي فنهاني أن أدعو عليهم فأهدوا له هدية فقبلها وراجعوه فقال حتى أؤامر ربي فآمر فلم يوح إليه شيء فقال قد آمرت ربي فلم يوح إلي بشيء فقالوا له: لو كره ربك أن تدعو عليهم لنهاك كما نهاك أول مرة فلم يزالوا يتضرعون إليه حتى فتنوه فافتتن فركب أتاناً له متوجهاً إلى جبل يطلعه على عسكر بني إسرائيل يقال لذلك الجبل جبل حسان فلما سار على أتانه غير بعيد ربضت فنزل عنها وضربها فقامت وركبها فلم تسر به كثيراً حتى ربضت فضربها حتى قامت فركبها فلم تسر به كثيراً حتى ربضت فضربها حتى أزلقها فأذن الله عز وجل لها في الكلام وأنطقها له فكلمته حجة عليه فقالت ويحك يا بلعام أتدري أين تذهب أما ترى الملائكة أمامي يردونني عن وجهي وهذا ويحك أتذهب إلى نبي الله والمؤمنين فتدعو عليهم فلم ينزع فخلى الله سبيل الأتان فانطلقت به حتى إذا أشرفت به على جبل حسان ومعه قومه جعل يدعو فلم يدع بشيء إلا صرف الله به لسانه إلى قومه ولا يدعو لقومه بخير إلا صرف الله به لسانه إلى بني إسرائيل فقال له قومه يا بلعام أتدري ما تصنع إنما تدعو لهم وتدعو علينا فقال هذا ما لا أملكه هذا شيء قد غلب الله عليه واندلع لسانه فوقع على صدره فقال لقومه: قد ذهبت مني الدنيا والآخرة ولم يبق لي إلا المكر والحيلة فسأمكر لكم وأحتال، ثم قال: جملوا النساء وزينوهن وأعطوهن السلع ثم أرسلوهن إلى عسكر بني إسرائيل ليبعنها عليهم ومروهن أن لا تمنع امرأة نفسها من رجل أرادها فإنه إن زنى رجل منهم بواحدة منهن كُفيتموهم ففعلوا ذلك فلما دخل النساء على العسكر مرت امرأة من الكنعانين اسمها كستى بنت صور على رجل من عظماء بني إسرائيل يقال له زمري بن شلوم وكان رأس سبط شمعون بن يعقوب فقام إلى المرأة وأخذ بيدها حين أعجبه جمالها ثم أقبل بها حتى وقف بها على موسى عليه الصلاة والسلام وقال إني لأظنك أنك تقول هذه حرام عليك فقال أجل هي حرام عليك لا تقربها قال والله إني لا أطيعك في هذا ثم قام ودخل بها إلى قبتة فوقع عليها فأرسل الله عزَّ وجلّ الطاعون على بني إسرائيل في ذلك الوقت. وكان فنحاص بن العيزار بن هارون وكان صاحب أمر موسى وكان رجلاً فظاً قد أعطي بسطة في الخلق وقوة في البطش، وكان غائباً حين صنع زمري بن شلون ما صنع فجاء والطاعون يجوس في بني إسرائيل

﴿وكذلك نُفصّلُ الآياتِ﴾ أي: نُبيّن الآيات ليتدبّرها العباد، ﴿ولعلّهم يرجِعُون﴾، من الكفر إلى التوحيد.

قوله تعالى: ﴿واتْلُ عليهم نَبَأَ الذي آتيناه آياتِنا فانْسلَخَ منها﴾ الآية، اختلفوا فيه، قال ابن عباس: هو بلعم بن باعوراء. وقال مجاهد: بلعام بن باعور. وقال عطية عن ابن عباس: كان من بني إسرائيل. ورُوِيَ عن علي بن أبي طلحة رضي الله عنه أنه كان من الكنعانيين من مدينة الجبّارين. وقال مقاتل: هو من مدينة بلقا، وكانت قصته على ما ذكره ابن عباس وابن إسحاق والسدي وغيرهم: أن موسى لمّا قصد حرب الجبّارين ونزل بأرض بني كنعان من أرض الشام أتى قوم بعلم إلى بلعم، وكان عنده اسم الله الأعظم فقالوا: إن موسى رجل شديد ومعه جند كثير، وأنه جاء يُخرجنا من بلادنا ويقتلنا ويحلّها بني إسرائيل، وأنت رجل مُجاب الدعوة، فاخرجْ فادعُ الله أن يردّهم عنّا، فقال: ويلكمَ نبيّ الله ومعه الملائكة والمؤمنون كيف أدعو عليهم وأنا أعلم من الله ما أعلم وإني إن فعلت هذا ذهبت دنياي وآخرتي، فراجعوه وألحّوا عليه فقال: حتى أُؤامر ربّي، وكان لا يدعوه حتى ينظر ما يؤمر به في المنام فآمر في الدعاء عليهم، فقيل له في المنام: لا تَدعُ عليهم، فقال لقومه: إني قد آمرتُ ربّي وإني قد

فأخبر الخبر فأخذ حربته وكانت من حديد كلها ثم دخل عليهما القبة وهما متضاجعان فطعنهما بحربته فانتظمهما ثم خرج بهما وهو رافعهما إلى السماء وقد أخذ الحربة بذارعه واعتمد بمرفقه على خاصرته وأسند الحربة إلى لحيته وكان بكر بن العيزار وجعل يقول اللهم هكذا نفعل بمن عصاك ورفع الطاعون من بني إسرائيل فحسب من مات منهم في ذلك الطاعون فيما بين أن أصاب ذلك الرجل المرأة إلى أن قتله فنحاص فوجوده قد هلك سبعون ألفاً في ساعة واحدة من النهار فمن هنالك يعطي بنو إسرائيل لولد فنحاص من كل ذبيحة يذبحونها الفشة والذراع واللحى لاعتماده بالحربة على خاصرته وأخذه إياها بذراعه وإسناده إياها إلى لحيته ويعطوهم البكر من كل أموالهم لأنه كان بكر العيزار وفي بلعام أنزل الله عز وجل: ﴿**واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا**﴾ الآية، وقال مقاتل: إن ملك البلقاء قال لبلعام ادع الله على موسى فقال بلعام إنه من أهل ديني ولا أدعو عليه فنصب له خشبة ليصلبه عليها فلما رأى ذلك خرج على أتان له ليدعو على موسى فلما عاين عسكرهم وقفت به الأتان فضربها فقالت: لم تضربني وأنا مأمورة وهذه نار أمامي قد منعتني أن أمشي فرجع إلى الملك فأخبره بذلك فقال لتدعون عليه أو لأصلبنك فدعا على موسى بالاسم الأعظم أن لا يدخل المدينة فاستجيب له ووقع موسى ومن معه من بني إسرائيل في التيه بدعاء بلعام عليه فقال موسى يا رب بأي ذنب وقعت في التيه قال بدعاء بلعام قال فكما سمعت دعاءه عليّ فاسمع دعائي عليه فدعا موسى عليه السلام أن ينزع عنه الاسم الأعظم والإيمان فنزع الله سبحانه وتعالى منه المعرفة وسلخه منها فخرجت من صدره كحمامة بيضاء فذلك قوله سبحانه وتعالى: ﴿**آتيناه آياتنا فانسلخ منها**﴾.

نُهيتُ فأهدوا إليه هديةً فقبلها، ثم راجعوه فقال: حتى أُؤامر ربّي فآمر، فلم يوحِ إليه شيء، فقال: قد آمرتُ فلم يُوحَ إليّ شيء، فقالوا: لو كره ربك أن تدعو عليهم لنهاك كما نهاك في المرّة الأولى، فلم يزالوا يتضرعون إليه حتى فتنوه فافتتن فركب أتاناً له متوجهاً إلى جبل يُطلعه على عسكر بني إسرائيل يقال له حسان، فقلما سار عليه غيرَ كثيرٍ رَبَضتْ به، فنزل عنها فضربها حتى إذا أدلفها قامت فركبها، فلم تسرْ به كثيراً حتى ربضت، ففعل بها مثل ذلك فقامت فركبها فلم تسر به كثيراً حتى ربضت، وضربها حتى إذا أذلقها أذن الله لها بالكلام فكلّمته حجّة عليه، فقالت: ويحك يا بلعم أين تذهب ألاَ ترى الملائكة أمامي تردّني عن وجهي هذا؟ أتذهب بي إلى نبيّ الله والمؤمنين تدعو عليهم؟ فلم ينزع فخلّى الله سبيلها فانطلقت حتى إذا أشرفت على جبل حسان جعل يدعو عليهم ولا يدعو بشيء إلاّ صرف الله به لسانه إلى قومه، ولا يدعو لقومه بخير إلاّ صرف الله به لسانه إلى بني إسرائيل، فقال له قومه: يا بلعم أتدري ما تصنع إنما تدعو لهم وتدعو علينا؟! فقال: هذا ما لا أملكه هذا شيء قد غلب الله عليه فاندلع لسانه فوقع على صدره، فقال لهم: قد ذهبت الآن منّي الدنيا والآخرة، فلم يبقَ إلاّ المكر والحيلة، فسأمكر لكم وأحتال جمِّلُوا النساءَ وزيّنوهنّ وأعطوهنّ السلع، ثم أرسلوهنّ إلى العسكر يبعنها فيه، ومُروهنّ فلا تمنع امرأة نفسها من رجل أرادها، فإنهم إن زنا رجلٌ واحد منهم كفيتموهم، ففعلوا فلما دخل النساء العسكر مرّت امرأة من الكنعانيين اسمها كستي بنت صور برجل من عظماء بني إسرائيل يقال له زمري بن شلوم رأس سبط شمعون بن يعقوب، فقام إليها فأخذ بيدها حين أعجبه جمالها ثم أقبل بها حتى وقف بها على موسى، فقال: إني أظنك ستقول هذه حرام عليك؟ قال: أجل هي حرام عليك لا تقربها، قال: فوالله لا أطيعك في هذا، ثم دخل بها قبّته فوقع عليها، فأرسل الله الطاعون على بني إسرائيل في الوقت، وكان فنحاص بن العيزار بن هارون صاحب أمر موسى، وكان رجلاً قد أُعطي بسطة في الخلق وقوة في البطش، وكان غائباً حين صنع زمري بن شلوم ما صنع، فجاء والطاعون يجوس بني إسرائيل فأُخبر الخبر فأخذ حربته وكانت من حديد كلها، ثم دخل عليهما القبّة، وهما متضاجعان فانتظمهما بحربته، ثم خرج بهما رافعهما إلى السماء والحِربة قد أخذها بذراعه واعتمد بمِرفقه على

فإن قلت هذه القصة ذكرها جماعة من المفسرين وفيها أن موسى عليه السلام دعا على بلعام بأن ينزع عنه الاسم الأعظم والإيمان وكيف يجوز لموسى عليه السلام مع علو منصبه في النبوة أن يدعو على إنسان بالكفر بعد الإيمان أو يرضى له بذلك قلت الجواب عنه من وجوه:

أحدها: منع صحة هذه القصة لأنها من الإسرائيليات ولا يلتفت إلى ما يسطره أهل الأخبار إذا خالف الأصول.

الوجه الثاني: أن سبب وقوع بني إسرائيل في التيه هو عبادتهم العجل أو قولهم لموسى عليه السلام اجعل لنا إلهاً فكان ذلك هو سبب وقوعهم في التيه لادعاء بلعام عليهم.

الوجه الثالث: على تقدير صحة هذه القصة وأن موسى عليه السلام دعا على بلعام أن موسى عليه السلام لم يدع عليه إلا بعد أن ثبت عنده أن بلعام كفر وارتد عن الإيمان بدعائه على موسى وإيثاره الحياة الدنيا فدعا عليه مقابلة لدعائه عليه والله سبحانه وتعالى أعلم بحقيقة ذلك كله والمقصود من ذلك تنزيه منصب النبوة عما ينقله أصحاب الأخبار في كتبهم من غير نظر فيه ولا بحث عن معناه وقال عبد الله بن عمرو بن العاص وسعيد بن المسيب وزيد بن أسلم: نزلت هذه الآية في أمية بن أبي الصلت الثقفي وكانت قصته أنه كان قد قرأ الكتب القديمة وعلم أن الله سبحانه وتعالى مرسل رسولاً فرجا أن يكون هو ذلك الرسول فلما أرسل محمد ﷺ وشرفه الله بالنبوة حسده وكذبه وكان أمية صاحب حكمة وشعر ومواعظ حسنة فقصد بعض الملوك فلما رجع مر على قتلى بدر فسأل عنهم فقيل له: قتلهم محمد فقال: لو كان نبياً ما قتل أقرباءه فلما مات أمية أتت أخته فازعة إلى رسول الله ﷺ فسألها رسول الله ﷺ عن وفاة أخيها فقالت: بينا هو راقد أتاه اثنان فكشفا سقف البيت ونزلا فقعد أحدهما عند رأسه والآخر عند رجليه فقال الذي عند رجليه للذي عند رأسه: أوعى قال وعى قال أزكى قال أبى قالت فسألته عن ذلك فقال: خير أريد بي فصرف عني ثم غشي عليه فلما أفاق من غشيته قال شعراً:

خاصرته، وأسند الحربة إلى لحيته وكان بكر العيزار، وجعل يقول: اللّهمَّ هكذا نفعل بمَن يعصيك ورُفع الطاعون، فحُسب مَن هلك من بني إسرائيل في الطاعون فيما بين أن أصيب زمري والمرأة إلى أن قتله فنحاص، فوجدوا قد هلك منهم سبعون ألفاً في ساعة من النهار، فمن هنالك يعطي بنو إسرائيل ولد فنحاص من كل ذبيحة ذبحوها القبة والذراع واللحى لاعتماده بالحِربة على خاصرته، وأخذه إيّاها بذراعه، وإسناده إيّاها إلى لحيته، والبكر من كل أموالهم وأنفسهم، لأنه كان بكر العيزار، وفي بلعم أنزل الله تعالى: ﴿ **واتْلُ عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا** ﴾ الآية، وقال مقاتل: إن ملك البلقاء قال لبلعام: ادعُ اللَّهُ على موسى، فقال: إنه من أهل ديني لا أدعو عليه، فنحت خشبة ليصلبه فلما رأى ذلك خرج على أتان له ليدعو عليه، فلما عاين عسكرهم قامت به الأتان ووقفت فضربها، فقالت: لِمَ تضربني إني مأمورة وهذه نار أمامي قد منعتني أن أمشي فرجع فأخبر الملك، فقال موسى: يا ربّ بأيّ ذنب وقعنا في التيه؟ فقال: بدعاء بلعام، قال: فكما سمعتَ دعاءَه عليّ فاسمعْ دعائي عليه، فدعا موسى عليه السلام أن ينزع عنه الاسم الأعظم والإيمان، فنزع الله عنه المعرفة وسلخه منها فخرجت منه صورة كحمامة بيضاء، فذلك قوله: ﴿ **فانْسَلَخَ منها** ﴾، وقال عبد الله بن عمرو بن العاص وسعيد بن المسيب وزيد بن أسلم وليث بن سعد: نزلت هذه الآية في أميّة بن أبي الصلت الثقفي، وكانت قصته: أنه كان قد قرأ الكتب وعلم أن الله مرسل رسولاً فَرَجَا أن يكون هو ذلك الرسول، فلمّا أرسل محمداً ﷺ حسده وكفر به، وكان صاحب حكمة وموعظة حسنة، وكان قصد بعض الملوك فلما رجع مرَّ على قتلى بدر، فسأل عنهم فقيل: قتلهم محمد، فقال: لو كان نبيّاً ما قتل أقرباءه، فلما مات أمية أتت أخته فازعةً إلى رسول الله ﷺ، فسألها رسول الله ﷺ عن وفاة أخيها فقالت: بينما هو راقد أتاه آتيان فكشفا

كل عيش وإن تطاول دهراً صائر مرة إلى أن يزولا
ليتني كنت قبل ما قد بدا لي في قلال الجبال أرعى الوعولا
إن يوم الحساب يوم عظيم شاب فيه الصغير يوماً ثقيلا

فقال لها رسول الله ﷺ أنشديني من شعر أخيك فأنشدته بعض قصائده فقال رسول الله ﷺ: «آمن شعره وكفر قلبه» فأنزل الله عز وجل: ﴿**واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها**﴾ الآية وفي رواية عن ابن عباس: إنها نزلت في البسوس وهو رجل من بني إسرائيل وكان قد أعطي ثلاث دعوات مستجابات وكانت له امرأة منها أولاد فقالت له اجعل لي منها دعوة فقال لك منها واحدة كما تريدين قالت ادع الله أن يجعلني أجمل امرأة في بني إسرائيل فدعا لها فصارت أجمل النساء فلما علمت أنه ليس في نساء بني إسرائيل مثلها رغبت عنه فغضبت فدعا عليها فصارت كلبة نباحة فذهب فيها دعوتان فجاء بنوها إلى أبيهم وقالوا ليس لنا على هذا الأمر قرار صارت أمنا كلبة نباحة والناس تعيرنا بذلك فادع الله أن يردها إلى حالها الأول فدعا فعادت كما كانت فذهبت فيها الدعوات جميعاً والقولان الأولان أشهر. وقال الحسن وابن كيسان: نزلت في منافقي أهل الكتاب الذين كانوا يعرفون النبي ﷺ بنعته وصفته كما يعرفون أبناءهم ثم أنكروه، وقال قتادة: هذا مثل ضربه الله لمن عرض عليه الهدى فلم يقبله وقوله تعالى ﴿**آتيناه آياتنا**﴾ قال ابن عباس: كان يعلم اسم الله الأكبر وقال ابن زيد كان لا يسأل الله شيئاً إلا أعطاه، وقال السدي: كان يعلم اسم الله الأعظم. وفي رواية أخرى عن ابن عباس: أنه أوتي كتاباً وقيل آتاه الله حجة وأدلة وهي الآيات التي أوتيها ﴿**فانسلخ منها**﴾ يعني فخرج من الآيات التي كان الله آتاه إياها كما تنسلخ الحية من جلدها، وقال ابن عباس: نزع منه العلم ﴿**فأتبعه الشيطان**﴾ يعني لحقه وأدركه وصيره الشيطان تابعاً لنفسه في معصية الله يخالف أمر ربه ويطيع الشيطان وهواه.

سقف البيت، فنزلا فقعد أحدهما عند رجليه والآخر عند رأسه، فقال الذي عند رجليه للذي عند رأسه: أوعى؟، قال: أزكى؟ قال: أبي، قالت: فسألته عن ذلك فقال: خيرٌ أُريدَ بي، فصرف عنّي فغشي عليه، فلما أفاق قال شعراً:

كـل عـيش وإن تـطاول دهـراً صـائـرٌ مـرةً إلـى أن يـزولا
ليتني كنتُ قبلَ ما قـدْ بدَا لي في قلال الجبالِ أرعى الوعُولا
إنّ يـومَ الحسـابِ يـومٌ عـظيمٌ شابَ فيه الصغيـرُ يومـاً ثقيلا

ثم قال لها رسول الله ﷺ: «أنشديني من شعر أخيك»، فأنشدته بعض قصائده، فقال لها رسول الله ﷺ: «آمنَ شِعْرُه وكفر قلبه»، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿ **واتْلُ عليهم نبأ الذي آتيناه آياتِنا فانسلخَ منها** ﴾ الآية. وفي رواية عن ابن عباس: أنها نزلت في البسوس، رجل من بني إسرائيل وكان قد أُعطي له ثلاث دعوات مُستجابات، وكان له امرأة له منها ولد، فقالت: اجعلْ لي منها دعوة فقال: لك منها واحدة فما تريدين؟ قالت: ادعُ الله أن يجعلني أجمل امرأة في بني إسرائيل، فدعا لها فجُعلت أجمل النساء في بني إسرائيل، فلما علمت أنه ليس فيهم مثلها رغبت عنه فغضب الزوج ودعا عليها فصارت كلبة نباحة، فذهب فيها دعوتان، فجاء بنوها وقالوا: ليس لنا على هذا قرار، قد صارت أُمُّنا كلبةً نباحة والناس يعيّروننا بها، ادعُ الله أن يردّها إلى الحال التي كانت عليها فدعا الله فعادت كما كانت فذهبت فيها الدعوات كلها. والقولان الأولان أظهر. وقال الحسن وابن كيسان: نزلت في منافقي أهل الكتاب الذين كانوا يعرفون النبي ﷺ كما يعرفون أبناءهم. وقال قتادة: هذا مثل ضربه الله عزّ وجلّ لمَن عُرض عليه الهدى فأبى أن يقبله، فذلك قوله: ﴿ **واتْلُ عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا** ﴾. قال ابن عباس والسدي: اسم الله الأعظم. قال ابن

قوله تعالى: ﴿فكان من الغاوين﴾ يعني من الهالكين الضالين بما خالف ربه وأطاع هواه وشيطانه وقوله تعالى:

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾﴾

﴿ولو شئنا لرفعناه بها﴾ يعني رفعنا درجته ومنزلته بتلك الآيات التي أوتيها. وقال ابن عباس: لرفعناه، وقال ابن عباس: لرفعناه بعمله بها، وقال مجاهد وعطاء: معناه لو شئنا لرفعنا عنه الكفر وعصمناه بالآيات ﴿ولكنه أخلد إلى الأرض﴾ يعني: ولكنه سكن إلى الدنيا ومال إليها ورضي بها وأصله من الخلود وهو الدوام والمقام والأرض هنا عبارة عن الدنيا لأن الأرض عبارة عن المفاوز والقفار وفيها المدن والضياع والمعادن والنبات ومنها يستخرج ما يعاش به في الدنيا فالدنيا كلها هي الأرض ﴿واتبع هواه﴾ يعني أنه أعرض عن التمسك بما أتاه الله من الآيات واتبع الهوى فخسر دنياه واخرته ووقع في هاوية الردى والهلاك وهذه الآية من أشد الآيات على العلماء الذين يريدون بعلمهم الدنيا وشهوات النفس ويتبعون الهوى وذلك لأن الله عز وجل خص هذا الرجل بآياته وحكمته وعلمه اسمه الأعظم وجعل دعاءه مستجاباً ثم إنه اتبع هواه وركن إلى الدنيا ورضي بها عوضاً عن الآخرة نزع منه ما كان أعطيه وانسلخ من الدين فخسر الدنيا والآخرة ومن الذي يسلم من الميل إلى الدنيا واتباع الهوى إلا من عصمه الله بالورع وثبته بالعلم وبصُّره بعيوب نفسه. عن كعب بن مالك الأنصاري قال: قال رسول الله ﷺ «ما ذئبان جائعان أرسلا في غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والسرف لدينه» أخرجه الترمذي ثم ضرب الله عز وجل مثلاً لهذا الرجل الذي أتاه آياته فانسلخ منها واتبع هواه فقال تعالى ﴿فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث﴾ يقال لهث الكلب يلهث إذا أدلع لسانه من العطش وشدة الحر وعند الإعياء والتعب وهذا مثل ضربه الله عز وجل لمن أتاه آياته وحكمته فتركها وعدل عنها واتبع هواه وترك آخرته وآثر دنياه بأخس الحيوانات وهو الكلب في أخس أحواله وهو اللهث لأن الكلب في حال لهثه لا يقدر على نفع نفسه ولا ضرها كذلك العالم الذي يتبع هواه لا يقدر على نفع نفسه ولا ضرها في الآخرة لأن التمثيل به على أن يلهث على كل حال إن حملته عليه أو تركته كان لاهثاً وذلك عادة منه وطبيعة وهي مواظبته على اللهث دائماً فكذلك من أتاه الله العلم والدين وأغناه عن التعرض لحطام الدنيا الخسيسة، ثم إنه مال إليها وطلبها كانت

زيد: كان لا يسأل الله شيئاً إلّا أعطاه. وقال ابن عباس في رواية أخرى: أُوتي كتاباً من كتب الله فانسلخ، أي: خرج منها كما تنسلخ، أي: خرج منها كما تنسلخ الحيّة من جلدها. ﴿ فأتْبعَه الشيطانُ ﴾، أي: لحقه وأدركه، ﴿ فكان مِنَ الغاوين ﴾.

﴿ ولو شِئْنَا لرفعناه بها ﴾، أي: رفعنا درجته ومنزلته بتلك الآيات. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: لرفعناه بعلمه بها. وقال مجاهد وعطاء: لرفعنا عنه الكفر وعصمناه بالآيات. ﴿ ولكنّه أخلد إلى الأرض ﴾، أي: سكن إلى الدنيا ومال إليها. قال الزجّاج: خلد وأخلد واحد. وأصله من الخلود وهو الدوام والمقام، يقال: أخلد فلان بالمكان إذا أقام به، والأرض ههنا عبارة عن الدنيا لأن ما فيها من القِفار والرِّباع كلها أرض وسائر متاعها مستخرَج من الأرض. ﴿ واتَّبعَ هَوَاهُ ﴾، انقاد لما دعاه إليه الهوى. قال ابن زيد: كان هواه مع القوم. قال عطاء: أراد الدنيا وأطاع شيطانه وهذه أشدّ آية على العلماء، وذلك أن الله أخبر أنه آتاه آياته من اسمه الأعظم والدعوات المستجابة والعلم والحكمة، فاستوجب بالسكون إلى الدنيا واتّباع الهوى تغيير النعمة عليه والانسلاخ عنها، ومَن الذي يَسْلَمُ من هاتين الخلّتين إلّا مَن عصمه الله؟ أخبرنا أبو بكر محمد بن عبد الله بن أبي توبة أنا محمد بن يعقوب الكسائي أنا عبد الله بن محمود أنا إبراهيم بن عبد الله الخلال أنا عبد الله بن المبارك عن زكريا بن أبي زائدة عن محمد بن

حالته كحالة الكلب اللاهث وقيل: إن العالم إذا توصل بعلمه إلى طلب الدنيا فإنه يظهر علومه عند أهلها ويدلع لسانه في تقرير تلك العلوم وبيانها وذلك لأجل ما يحصل عنده من حرارة الحرص الشديد وشدة العطش إلى الفوز بمطلوبه من الدنيا فكانت حالته شبيهة بحالة الكلب الذي أدلع لسانه من اللهث في غير حاجة ولا ضرورة. ومعنى أن تحمل عليه يلهث، أو تتركه يلهث أي إن شددت عليه وأهجته لهث وإن تركته على حاله لهث لأن اللهث طبيعة أصلية فيه فكذلك حال الحريص على الدنيا إن وعظته فهو حريص لا يقبل الوعظ ولا ينجع فيه وإن تركته ولم تعظه فهو حريص أيضاً لأن الحرص على طلب الدنيا صار طبيعة له لازمة كما أن اللهث طبيعة لازمة للكلب ﴿**ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا**﴾ يعني أن المثل الذي ضربناه للذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فعم هذا المثل جميع من كذب بآيات الله وجحدها فوجه التمثيل بينهم وبين الكلب اللاهث أنهم إذا جاءتهم الرسل ليهدوهم لم يهتدوا وإن تركوا لم يهتدوا أيضاً بل هم ضلّال في كل حال ثم قال سبحانه وتعالى ﴿**فاقصص القصص**﴾ وهذا خطاب للنبي ﷺ يعني فاقصص القصص يا محمد على قومك أي أخبار من كفر بآيات الله ﴿**لعلهم يتفكرون**﴾ يعني فيتعظون، وقيل: هذا المثل لكفار مكة وذلك أنهم كانوا يتمنون هادياً يهديهم ويدعوهم إلى طاعة الله عز وجل فلما جاءهم محمد ﷺ يدعوهم إلى الله وإلى طاعته وهم يعرفونه ويعرفون صدقه كذبوه ولم يقبلوا منه ثم قال سبحانه وتعالى:

سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿١٧٨﴾

﴿**ساء مثلاً القوم الذين كذبوا بآياتنا**﴾ يعني بئس مثلاً مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا ﴿**وأنفسهم كانوا يظلمون**﴾ يعني بتكذيبهم بآياتنا.

قوله عز وجل: ﴿**من يهد الله فهو المهتدي**﴾ يعني من يرشده الله إلى دينه فهو المهتدي، وقيل: معناه من يتول الله هدايته وإرشاده فهو المهتدي ﴿**ومن يضلل**﴾ يعني ومن يتول الضلالة ﴿**فأولئك هم الخاسرون**﴾ يعني في الآخرة

عبد الرحمن بن سعيد بن زرارة عن كعب بن مالك الأنصاري عن أبيه، قال: قال رسول الله ﷺ: «ما ذِئْبَانِ جائعان أُرسلا في غَنَمٍ بأفسدَ لها من حرص المرءِ على المال والشرف لدينه». قوله تعالى: ﴿ **فَمَثَلُه كمثلِ الكلبِ إنْ تحملْ عليه يلهثْ أو تتركْهُ يلهثْ** ﴾، يقال: لهث الكلب يلهث لهثاً إذا أدلع لسانه. قال مجاهد: هو مثل الذي يقرأ الكتاب ولا يعمل به. والمعنى: إن هذا الكافر إن زجرته لم ينزجر وإن تركته لم يهتدِ فالحالتان عنده سواء كحالتي الكلب إن طرد وحُمل عليه بالطّرد كان لاهثاً وإن تُرك ورَبضَ كان لاهثاً. قال: كل شيء يلهث إنما يلهث من إعياء أو عطش إلّا الكلب فإنه يلهث في حال الكلال وفي حال الراحة وفي حال العطش، فضربه الله مثلاً لمَن كذب بآياته فقال: إن وعظته فهو ضال وإن تركته فهو ضال كالكلب إن طردته لهث، وإن تركته على حاله لهث، نظيره قوله تعالى: ﴿ وإنْ تدعُوهُمْ إلى الهُدَى لا يتَّبِعُوكم سواءٌ عليكم أدعوتُموهم أمْ أنتم صَامِتُون ﴾ [الأعراف: ١٩٣]، ثم عمّ بهذا التمثيل جميع مَن يكذب بآيات الله فقال: ﴿ **ذلك مَثَلُ القومِ الذين كذّبوا بآياتنا فاقْصُصِ القَصَصَ لعلّهم يتفكرُون** ﴾، وقيل: هذا مثل لكفّار مكة وذلك أنهم كانوا يتمنّون هادياً يهديهم ويدعوهم إلى طاعة الله، فلما جاءهم نبيّ لا يشكّون في صدقه كذّبوه فلم يهتدوا تُركوا أو دُعوا.

﴿ **ساءَ مثلاً القومُ الذينَ كذّبوا بآياتِنا** ﴾، أي: بئس مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا، وتقديره: ساء مثلاً مثلُ القوم، فحذف مثل وأُقيم القوم مقامه فرُفع، ﴿ **وأنفسَهم كانوا يظلِمُون** ﴾.

وفي الآية دليل على أن الله سبحانه وتعالى هو الهادي المضل وقوله سبحانه وتعالى:

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾﴾

﴿ولقد ذرأنا﴾ يعني خلقنا ﴿لجهنم كثيراً من الجن والإنس﴾ أخبر الله سبحانه وتعالى أنه خلق كثيراً من الجن والإنس للنار وهم الذين حقت عليهم الكلمة الأزلية بالشقاوة ومن خلقه الله للنار فلا حيلة له في الخلاص منها. واستدل البغوي على صحة هذا التأويل بما رواه عن عائشة قالت: دعي رسول الله ﷺ إلى جنازة صبي من الأنصار فقلت: يا رسول الله طوبى لهذا عصفور من عصافير الجنة لم يعمل السوء ولم يدركه فقال «أو غير ذلك يا عائشة إن الله خلق للجنة أهلاً خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم وخلق للنار أهلاً خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم» أخرجه مسلم. قال الشيخ محيي الدين النووي في شرح مسلم: أجمع من يعتد به من علماء المسلمين أن من مات من أطفال المسلمين فهو من أهل الجنة لأنه ليس مكلفاً وتوقف فيهم بعض من لا يعتد به لحديث عائشة هذا.

وأجاب العلماء عنه بأنه لعله ﷺ نهاها عن المسارعة إلى القطع من غير أن يكون عندها دليل قاطع كما أنكر على سعد بن أبي وقاص لفظة «إني لأراه مؤمناً فقال: أو مسلماً» الحديث، ويحتمل أن ﷺ قال هذا قبل أن يعلم أن أطفال المسلمين في الجنة فلما علم ذلك قال به، وأما أطفال المشركين ففيهم ثلاث مذاهب قال الأكثرون: هم في النار تبعاً لآبائهم وتوقف طائفة فيهم والثالث وهو الصحيح الذي ذهب إليه المحققون أنهم من أهل الجنة ويستدل له بأشياء منها خبر إبراهيم الخليل ﷺ حين رآه النبي ﷺ في الجنة وحوله أولاد الناس فقالوا: يا رسول الله وأولاد المشركين؟ قال: وأولاد المشركين. رواه البخاري في صحيحه ومنها قوله سبحانه وتعالى: ﴿وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً﴾ ولا يتوجه على المولود التكليف ولا يلزمه قبول قول الرسول حتى يبلغ وهذا متفق عليه والله أعلم.

وفي الآية دليل وحجة واضحة لمذهب أهل السنة في أن الله خالق أعمال العباد جميعها خيرها وشرها وأن الله سبحانه وتعالى بيّن بصريح اللفظ أنه خلق كثيراً من الجن والإنس للنار ولا تزيد على بيان الله عز وجل لأن العاقل لا يختار لنفسه دخول النار فلما عمل بما يوجب دخول النار به علم أنه له من يضطره إلى ذلك العمل الواجب إلى دخول النار وهو الله عز وجل، وقيل: اللام في جهنم للعاقبة أي عاقبتهم جهنم، ثم وصفهم فقال تعالى: ﴿لهم قلوب لا يفقهون بها﴾ يعني: لا يفهمون بها ولا يعقلون بها وأصل الفقه في اللغة الفهم والعلم بالشيء ثم صار علماً على اسم العلم في الدين لشرفه على غيره من العلوم يقال: فقه الرجل يفقه فهو فقيه إذا فهم ومعنى الآية لهم قلوب لا يتفكرون

﴿ مَن يهدِ اللَّهُ فهو المهتدِي ومَن يضللْ فأولئكَ هُمُ الخاسرون ﴾.

﴿ ولقدْ ذرأنا لجهنَّمَ كثيراً مِّنَ الجنِّ والإنس ﴾، أخبر الله تعالى أنه خلق كثيراً من الجن والإنس للنار وهم الذين حقّت عليهم الكلمة الأزلية بالشقاوة، ومَن خلقه الله لجهنم فلا حيلة له في الخلاص منها. أخبرنا أبو بكر يعقوب بن أحمد بن محمد بن علي الصيرفي أنا أبو محمد الحسن بن أحمد المخلدي أنا أحمد بن محمد بن أبي حمزة البلخي حدّثنا موسى بن محمد بن الحكم الشطوي حدّثنا حفص بن غياث عن طلحة بن يحيىٰ عن عائشة بنت طلحة عن عائشة أم المؤمنين قالت: أدرك النبي ﷺ جنازة صبي من صبيان الأنصار، فقالت عائشة: طوبى له عصفور من عصافير الجنة، فقال رسول الله ﷺ: «وما يدريك؟ إنّ الله خلق الجنة وخلق لها أهلاً وهم في أصلاب

بها في آيات الله ولا يتدبرونها ولا يعلمون بها الخير والهدى لإعراضهم عن الحق وتركهم قبوله **﴿ولهم أعين لا يبصرون بها﴾** يعني لا يبصرون بها طريق الحق والهدى ولا ينظرون بها في آيات الله وأدلة توحيده **﴿ولهم آذان لا يسمعون بها﴾** يعني لا يسمعون آيات القرآن ومواعظه فيعتبرون بها، قال أهل المعاني: إن الكفار لهم قلوب يفقهون بها مصالحهم المتعلقة بالدنيا ولهم أعين يبصرون بها المرئيات وآذان يسمعون بها الكلمات وهذا لا يشك فيه.

ولما وصفهم الله عز وجل بأنهم لا يفقهون ولا يبصرون ولا يسمعون مع وجود هذه الحواس الدراكة علم بذلك أن المراد بذلك يرجع إلى مصالح الدين وما فيه نفعهم في الآخرة وحاصل هذا الكلام أنهم مع وجود هذه الحواس لا ينتفعون بها فيما ينفعهم في أمور الدين والعرب تقول مثل ذلك لمن ترك استعمال بعض جوارحه فيما لا يصلح له ومنه قول الشاعر:

وعوراء الكلام صممت عنها ... وإني إن أشاء بها سميع

فإنه أثبت له صمماً مع وجود السمع. قال مجاهد: لهم قلوب لا يفقهون بها شيئاً من أمر الآخرة ولهم أعين لا يبصرون بها الهدى ولهم آذان لا يسمعون بها الحق.

ثم ضرب لهم مثلاً فقال سبحانه وتعالى: **﴿أولئك كالأنعام﴾** يعني أن الذين ذرأهم لجهنم وهم الذين حقَّت عليهم الكلمة الأزلية كالأنعام وهي البهائم التي لا تفهم ولا تعقل وذلك لأن الإنسان وسائر الحيوانات مشتركون في هذه الحواس الثلاثة التي هي القلب والبصر والسمع.

وإنما فضّل الإنسان على سائر الحيوانات بالعقل والإدراك والفهم المؤدي إلى معرفة الحق من الباطل والخير والشر فإذا كان الكافر لا يعرف ذلك ولا يدركه فلا فرق بينه وبين الأنعام التي لا تدرك شيئاً ثم قال تعالى: **﴿بل هم أضل﴾** يعني: بل إن الكفار أضلّ من الأنعام لأن الأنعام تعرف ما يضرها وما ينفعها والكافر لا يعرف ذلك فصار أضل من الأنعام ولأن الأنعام لم تعطَ القوة الفعلية والإنسان قد أعطيها فإذا لم يستعملها فيما ينفعه صار أحسن حالاً من الأنعام.

وقيل: إن الأنعام مطيعة لله عز وجل والكافر غير مطيع لله عز وجل، فصارت الأنعام أفضل منه ثم قال تعالى: **﴿أولئك هم الغافلون﴾** يعني عن ضرب هذه الأمثال لهم.

قوله سبحانه وتعالى: **﴿ولله الأسماء الحسنى﴾** قال مقاتل: إن رجلاً دعا الله في صلاته ودعا الرحمن فقال بعض مشركي مكة قال ابن الجوزي: هو أبو جهل إن محمداً وأصحابه يزعمون أنهم يعبدون رباً واحد فما بال هذا يدعو اثنين فأنزل الله هذه الآية **﴿ولله الأسماء الحسنى﴾** والحسنى تأنيث الأحسن، ومعنى الآية أن أسماء الله سبحانه وتعالى المقدسة كلها حسنى وليس المراد أن فيها ما ليس بحسن والمعنى أن الأسماء الحسنى ليس إلا لله لأن هذا اللفظ يفيد الحصر. وقيل إن الأسماء ألفاظ دالة على معان فهي إنما تحسن بمعانيها ولا معنى للحسن في حق الله تبارك وتعالى إلا ذكره بصفات الكمال ونعوت الجلال وهي محصورة في نوعين:

أحدهما: عدم افتقاره إلى غيره.

آبائهم، وخلق النار وخلق لها أهلاً وهم في أصلاب آبائهم». وقيل: اللّام في قوله: **﴿ لجهنم ﴾** لام العاقبة، أي: ذرأناهم، وعاقبة أمرهم جهنم، كقوله تعالى: ﴿ فالتقطه آلُ فرعونَ ليكونَ لهم عدوّاً وحزناً ﴾ [القصص: ٨]، ثم وصفهم فقال: **﴿ لهم قلوبٌ لا يفقهون بها ﴾**، أي: يعلمون بها الخير والهدى، **﴿ ولهم أعينٌ لا يُبصرون بها ﴾**، طريق الحق وسبيل الرشاد، **﴿ ولهم آذانٌ لا يسمعون بها ﴾** مواعظ القرآن فيتفكّرون فيها ويعتبرون بها، ثم ضرب

الثاني: افتقار غيره إليه وإنه هو المسمى بالأسماء الحسنى (ق). عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ «إن لله تسعة وتسعين اسماً من حفظها دخل الجنة، والله وتر يحب الوتر» وفي رواية «من أحصاها» وفي رواية أخرى «لله تسعة وتسعين اسماً من حفظها دخل الجنة، والله وتر يحب الوتر» وفي رواية «من أحصاها» وفي رواية أخرى «لله تسعة وتسعون اسماً مائة إلا واحداً لا يحفظها أحد إلا دخل الجنة وهو وتر يحب الوتر» قال البخاري: أحصاها حفظها. وفي رواية الترمذي قال: قال رسول الله «إن لله تسعة وتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنة هو الله الذي لا إله إلا هو الرحمن الرحيم الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر الخالق البارىء المصور الغفار القهار الوهاب الرزاق الفتاح العليم القابض الباسط الخافض الرافع المعز المذل السميع البصير الحكم العدل اللطيف الخبير الحليم العظيم الغفور الشكور العلي الكبير الحفيظ المقيت الحسيب الجليل الكريم الرقيب المجيب الواسع الحكيم الودود المجيد الباعث الشهيد الحق الوكيل القوي المتين الولي الحميد المحصي المبدىء المعيد المحيي المميت الحي القيّوم الواجد الماجد الواحد الصمد القادر المقتدر المعدم المؤخر الأول الآخر الظاهر الباطن الوالي المتعالي البر التواب المنتقم العفو الرؤوف مالك الملك ذو الجلال والإكرام المقسط الجامع الغني المغني المانع الضار النافع النور الهادي البديع الباقي الوارث الرشيد الصبور» قال الترمذي: حدثنا به غير واحد عن صفوان بن صالح ولا نعرفه إلا من حديث صفوان بن صالح وهو ثقة عند أهل الحديث قال وقد روي هذا الحديث من غير وجه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ ولا نعلم في كثير من الروايات ذكر الأسماء التي في هذا الحديث. قال ابن الأثير: وفي رواية ذكرها رزين أن رسول الله ﷺ تلا قوله ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون في أسمائه سيجزون ما كانوا يعملون فقال: «إن لله تبارك وتعالى تسعة وتسعين اسماً» الحديث.

قال الشيخ محيي الدين النووي رحمه الله تعالى: اتفق العلماء على أن هذا الحديث ليس فيه حصر لأسمائه سبحانه وتعالى وليس معناه أنه ليس له أسماء غير هذه التسعة والتسعين وإنما المقصود من الحديث أن هذه التسعة والتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنة فالمراد الإخبار عن دخول الجنة بإحصائها لا الإخبار بحصر الأسماء ولهذا جاء في الحديث الآخر «أسألك بكل اسم سميت به نفسك أو استأثرت به في علم الغيب عندك» وقد ذكر الحافظ أبو بكر بن العربي المالكي عن بعضهم أن لله ألف اسم. قال ابن العربي: وهذا قليل. وقوله ﷺ: من أحصاها دخل الجنة تقدم فيه قول البخاري أن معناه حفظها وهو قول أكثر المحققين ويعضده الرواية الأخرى من حفظها دخل الجنة. وقيل: المراد من الإحصاء العدد أي عدها في الدعاء بها. وقيل معناه من أطاقها وأحسن المراعاة لها والمحافظة على ما تقتضيه وصدق بمعانيها وعمل بمقتضاها دخل الجنة وقيل معنى أحصاها أحضر بباله عند ذكرها معناه وتفكر في مدلولها معتبراً متدبراً ذاكراً راغباً راهباً معظماً لها ولمسماها ومقدساً لذات الله سبحانه وتعالى وأن يخطر بباله عند ذكر كل اسم الوصف الدال عليه، وقوله والله وتر يحب الوتر الوتر الفرد ومعناه في وصف الله تعالى أنه الواحد الذي لا شريك له ولا نظير فيه تفضيل الوتر في الأعمال لأن أكثر الطاعات وتر وفيه دليل على أن أشهر أسمائه سبحانه وتعالى الله لإضافة الأسماء إليه فيقال الرؤوف والكريم واللطيف من أسماء الله ولا يقال من أسماء الله الرؤوف والكريم

لهم مثلاً في الجهل والإقصار على الأكل والشرب، فقال: ﴿ **أولئك كالأنعام بلْ همْ أضلُّ** ﴾، أي: كالأنعام في أنّ همّتهم في الأكل والشرب والتمتّع بالشهوات، بل هم أضلّ لأن الأنعام تُميِّز بين المضارّ والمنافع، فلا تُقدِم على المضارّ هؤلاء يُقدِمون على النار معاندةً مع العلم بالهلاك، ﴿ **أولئك هم الغافلُون** ﴾.

قوله تعالى: ﴿ **وللَّهِ الأسماءُ الحُسنَى فادعوه بها** ﴾، قال مقاتل: وذلك أن الرجل دعا الله في صلاته ودعا الرحمن فقال بعض مشركي مكة: إن محمداً ﷺ وأصحابه يزعمون أنهم يعبدون ربّاً واحداً فما بال هذا يدعو اثنين،

واللطيف الله وقد قيل إن لفظة الله هو الاسم الأعظم. قال أبو القاسم القشيري: فيه دليل على أن الاسم هو المسمى إذ لو كان غيره لكانت الأسماء لغيره وقد قال «ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها» وقال الإمام فخر الدين الرازي: دلت الآية على أن الاسم غير المسمى لا تدل على أن أسماء الله كثيرة لأن لفظ الأسماء الجمع وهو يفيد الثلاثة فما فوقها فثبت أن أسماء الله كثيرة ولا شك أن الله واحد فلزم القطع بأن الاسم غير المسمى وأيضاً قوله سبحانه وتعالى: ولله الأسماء يقتضي إضافة الأسماء إلى الله وإضافة الشيء إلى نفسه محال. وقال غيره: الاسم عبارة عن اللفظ الدال على الشيء المسمى به فهو غيره. وقال أهل اللغة: إنما جعل الاسم تنويهاً على المعنى لأن المعنى تحت الاسم والتسمية غير الاسم لأن التسمية عبارة عن وضع اللفظ المعين لتعريف ذات الشيء والاسم عبارة عن تلك اللفظة المعينة والفرق ظاهر. قال العلماء: وكما يجب تنزيه الله عن جميع النقائص فكذلك يجب تنزيه أسمائه أيضاً وقوله سبحانه وتعالى: **﴿فادعوه بها﴾** يعني ادعوا الله بأسمائه التي سمى بها نفسه أو سماه بها رسوله ففيه دليل على أن أسماء الله تعالى توقيفية لا اصطلاحية ومما يدل على صحة هذا القول ويؤكده أنه يجوز أن يقال يا جواد ولا يجوز أن يقال يا سخي ويجوز أن يقال يا عالم ولا يجوز أن يقال يا عاقل ويجوز أن يقال يا حكيم ولا يجوز أن يقال يا طبيب وللدعاء شرائط منها أن يعرف الداعي معاني الأسماء التي يدعو بها ويستحضر في قلبه عظمة المدعوّ سبحانه وتعالى ويخلص النية في دعائه مع كثرة التعظيم والتبجيل والتقديس لله ويعزم المسألة مع رجاء الإجابة ويعترف الله سبحانه وتعالى بالربوبية وعلى نفسه بالعبودية فإذا فعل العبد ذلك عظم موقع الدعاء وكان له تأثير عظيم **﴿وذروا الذين يلحدون في أسمائه﴾** معنى الإلحاد في اللغة الميل عن القصد والعدول عن الاستقامة. وقال ابن السكيت: الملحد العادل عن الحق المدخل فيه ما ليس منه يقال ألحد في الدين إلحاداً إذا عدل عنه ومال إلى غيره. قال المحققون: الإلحاد يقع في أسماء الله تعالى على وجوه:

أحدها: إطلاق أسماء الله عز وجل على غيره وذلك أن المشركين سموا أصنامهم بالآلهة واشتقوا لها أسماء من أسماء الله تعالى فسموا اللات والعزى ومناة واشتقاق اللات من الإله والعزى من العزيز ومناة من المنان وهذا معنى قول ابن عباس ومجاهد.

الوجه الثاني: وهو قول أهل المعاني أن الإلحاد في أسماء الله هو تسميته بما لم يسمّ به نفسه ولم يرد فيه نص من كتاب ولا سنة لأن أسماء الله سبحانه وتعالى كلها توقيفية كما تقدم فلا يجوز فيها غير ما ورد في الشرع بل ندعو الله بأسمائه التي وردت في الكتاب والسنة على وجه التعظيم.

فأنزل الله عزّ وجلّ: **﴿ ولله الأسماء الحسنى فادْعُوه بها ﴾**. والحسنى تأنيث الأحسن كالكبرى والصغرى، فادعوه بها. أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحي أنا أبو الحسين علي بن محمد بن عبد الله بن بشران أنا أبو علي إسماعيل بن محمد الصفار أنا أحمد بن منصور الرمادي حدّثنا معمر عن همّام بن منبّه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «إنّ لله تسعةً وتسعين اسماً، مائة إلّا واحداً، مَن أحصاها دخل الجنة، إنّه وِترٌ يحبّ الوِتر». **﴿ وذَرُوا الذينَ يُلحدون في أسمائه ﴾**، قرأ حمزة «**يلحدون**» بفتح الياء والحاء حيث كان، وافقه الكسائي في النحل والباقون بضم الياء وكسر الحاء، ومعنى الإلحاد هو الميل عن القصد، يقال: ألحَد يُلحد إلحاداً، ولحد يلحد لحوداً إذا مال. قال يعقوب بن السكّيت: الإلحاد هو العدول عن الحق وإدخال ما ليس منه فيه، يقال: ألحد في الدين ولحد به. قرأ حمزة: **﴿ وذَرُوا الذين يُلحدون في أسمائه ﴾**: هم المشركون عدلوا بأسماء الله تعالى عمّا هي عليه، فسمّوا بها أوثانهم فزادُوا ونقصوا فاشتقّوا اللّات من الله والعزّى من العزيز ومناة من المنّان، هذا قول ابن عباس ومجاهد. وقيل: هو تسميتهم الأصنام آلهة. ورُوِيَ عن ابن عباس: يلحدون في أسمائه أي يكذبون. وقال أهل المعاني:

الوجه الثالث: مراعاة حسن الأدب في الدعاء فلا يجوز أن يقال يا ضارّ يا مانع يا خالق القردة على انفراد بل يقال يا ضار يا نافع يا خالق الخلق.

الوجه الرابع: أن لا يسمي الله العبد باسم لا يعرف معناه فإنه ربما سماه باسم لا يليق إطلاقه على جلال الله سبحانه وتعالى ولا يجوز أن يسمى به لما فيه من الغرابة.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿**سيجزون ما كانوا يعملون**﴾ يعني في الآخرة ففيه وعيد وتهديد لمن ألحد في أسماء الله عز وجل.

وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾

قوله عز وجل: ﴿**ومما خلقنا أمة**﴾ يعني جماعة وعصابة ﴿**يهدون بالحق وبه يعدلون**﴾ قال ابن عباس: يريد أمة محمد ﷺ وهم المهاجرون والأنصار والتابعون لهم بإحسان. قال قتادة: بلغنا أن النبي ﷺ كان إذا قرأ هذه الآية قال «هذه لكم وقد أعطى القوم بين أيديكم مثلها ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون» ﴿**ق**﴾ عن معاوية قال وهو يخطب سمعت رسول الله ﷺ يقول «لا تزال من أمتي أمة قائمة بأمر الله لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك» وفي الآية دليل على أنه لا يخلو زمان من قائم بالحق يعمل به ويهدي إليه ﴿**والذين كذبوا بآياتنا**﴾ يريد به جميع المكذبين بآيات الله وهم الكفار. وقيل: المراد بهم أهل مكة والأول أولى لأن صيغة العموم تتناول الكل إلا ما دل الدليل على خروجه منه ﴿**سنستدرجهم من حيث لا يعلمون**﴾ قال الأزهري: سنأخذهم قليلاً قليلاً من حيث لا يحتسبون وذلك أن الله سبحانه وتعالى يفتح عليهم من النعيم ما يغتبطون به ويركنون إليه ثم يأخذهم على غرتهم أغفل ما يكونون وقيل معناه سنقربهم إلى ما يهلكهم ويضاعف عقابهم من حيث لا يعلمون ما يراد بهم لأنهم كانوا إذا أتوا بجرم أو أقدموا على ذنب فتح الله عليهم من أبواب الخير والنعمة في الدنيا فيزدادون تمادياً في الغيّ والضلال ويندرجون في الذنوب والمعاصي فيأخذهم الله أخذة واحدة أغفل ما يكونون عليه. وقال الضحاك: معناه

الإلحاد في أسماء الله تسميته بما لم يتسمّ به ولم ينطق به كتاب الله ولا سُنّة رسول الله ﷺ، وجملته أن أسماء الله تعالى على التوقيف فإنه يُسمي جواد ولا يسمى سخيّاً، وإن كان في معنى الجواد، ويسمى رحيماً ولا يسمى رفيقاً، ويسمى عالماً ولا يسمى عاقلاً. وقال تعالى: ﴿ يُخادعون الله وهو خَادِعُهم ﴾ [النساء: ١٤٢] وقال عزّ منْ قائل: ﴿ ومكرُوا ومكرَ الله ﴾ [آل عمران: ٥٤]، ولا يقال في الدعاء يا مخادع يا مكّار، بل يدعى بأسمائه التي ورد بها التوقيف على وجه التعظيم، فيقال: يا الله يا رحمن يا رحيم يا عزيز يا كريم ونحو ذلك. ﴿ سَيُجْزَوْنَ ما كانوا يعملون ﴾ في الآخرة.

قولهُ تعالى: ﴿ وممّنْ خلقنا أمةٌ ﴾، أي: عصابة، ﴿ يهدون بالحقِّ وبهِ يَعْدِلُون ﴾، قال عطاء عن ابن عباس: يريد أُمة محمد ﷺ وهم المهاجرون والأنصار والتابعون لهم بإحسان. وقال قتادة: بلغنا أن النبي ﷺ كان إذا قرأ هذه الآية قال: «هذه لكم وقد أُعطي القوم بين أيديكم مثلها ومن قوم موسى أُمة يهدون بالحق وبه يعدلون».

أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل حدّثنا الحميدي حدّثني عمير بن هانىء أنه سمع معاوية رضي الله عنه يقول: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «لا تزال من أُمتي أُمة قائمة بأمر الله لا يضرّهم مَن خذلهم ولا مَن خالفهم حتى يأتي أمرُ الله وهم على ذلك». وقال الكلبي: هم من جميع الخلق.

كلما جددوا معصية جددنا نعمة. وقال الكلبي: نزين أعمالهم ثم نهلكهم بها، وقال سفيان الثوري: نسبغ عليهم النعم ثم نسلبهم الشكر.

روي أن عمر بن الخطاب لما حمل إليه كنوز كسرى قال: اللهم إني أعوذ بك أن أكون مستدرجاً فإني سمعتك تقول سنستدرجهم من حيث لا يعلمون. قال أهل المعاني: الاستدراج أن يندرج الشيء إلى الشيء في خفية قليلاً ومنه درج الصبي إذا قارب بين خطاه في المشي ومنه درج الكتاب إذا أطواه شيئاً بعد شيء ﴿**وأملي لهم**﴾ يعني وأمهلهم وأطيل مدة أعمارهم.

والإملاء في اللغة الإمهال وإطالة المدة والمعنى إني أطيل مدة أعمارهم ليتمادوا في الكفر والمعاصي ولا أعاجلهم بالعقوبة ولا أفتح لهم باب التوبة ﴿**إن كيدي متين**﴾ يعني إن أخذي شديد والمتين من كل شيء هو القوي الشديد. وقال ابن عباس: معناه إن مكري شديد. قال المفسرون: نزلت هذه الآية في المستهزئين من قريش وذلك أن الله سبحانه وتعالى أمهلهم ثم قتلهم في ليلة واحدة وفي هذه الآية دليل على مسألة القضاء والقدر وأن الله سبحانه وتعالى يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد لا يسأل عما يفعل وهم يسألون.

أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾ أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾ مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾

قوله سبحانه وتعالى: ﴿**أو لم يتفكروا ما بصاحبهم**﴾ يعني محمداً ﷺ ﴿**من جنة**﴾ يعني من جنون قال قتادة ذكر لنا أن نبي الله ﷺ قام على الصفا ليلاً فجعل يدعو قريشاً فخذاً فخذاً «يا بني فلان يا بني فلان إني لكم نذير مبين» وكان يحذرهم بأس الله ووقائعه فقال قائلهم: إن صاحبكم هذا لمجنون بات يصوّت إلى الصباح فأنزل الله عز وجل: ﴿**أو لم يتفكروا**﴾ والتفكر التأمل وإعمال الخاطر في عاقبة الأمر والمعنى أو لم يتفكروا فيعلموا ما بصاحبهم يعني محمداً ﷺ من جنة والجنة. حالة من الجنون وإدخال لفظة من في قوله من جنة يوجب أن لا يكون به نوع من أنواع الجنون وإنما

﴿ **والذين كذَّبوا بآياتِنا سَنَسْتَدْرِجهُمْ مِّنْ حيثُ لا يعلمون** ﴾، قال عطاء: سنمكر بهم من حيث لا يعلمون. وقيل: نأتيهم من مأمنهم، كما قال: ﴿ **فأتاهم الله من حيثُ لم يحتسبوا** ﴾ [الحشر: ٢]، قال الكلبي: نُزيّن لهم أعمالهم فنهلكهم. وقال الضحاك: كلما جدّدوا معصية جدّدنا لهم نعمة. قال سفيان الثّوري: نسبغ عليهم النعمة ونُنسيهم الشكر. قال أهل المعاني: الاستدراج أن يتدرّج إلى الشيء في خفية قليلاً فلا يباغت ولا يجاهر، ومنه درج الصبي إذا قارب بين خطاه في المشي، ومنه درج الكتاب إذا طواه شيئاً بعد شيء.

﴿ **وأملي لهم** ﴾، أي: أمهلهم وأُطيل لهم مدّة عمرهم ليتمادوا في المعاصي، ﴿ **إنّ كيدي متين** ﴾، أي: إن أخذي قوي شديد، قال ابن عباس: إن مكري شديد. قيل: نزلت في المستهزئين فقتلهم الله في ليلة واحدة.

قوله تعالى: ﴿ **أوَ لمْ يتفكّروا ما بصاحبهم مِّن جِنّة** ﴾، قال قتادة: ذكر لنا أن النبي ﷺ قام على الصفا ليلاً فجعل يدعو قريشاً فَخذاً فَخذاً يا بني فلان يا بني فلان يحذّرهم بأس الله ووقائعه، فقال قائلهم: إن

نسبوه إلى الجنون وهو بريء منه لأنهم رأوا أنه ﷺ خالفهم في الأقوال والأفعال لأنه كان معرضاً عن الدنيا ولذاتها مقبلاً على الآخرة ونعيمها مشتغلاً بالدعاء إلى الله عز وجل وإنذارهم بأسه ونقمته ليلاً ونهاراً من غير ملال ولا ضجر فعند ذلك نسبوه إلى الجنون فبرأه الله سبحانه وتعالى من الجنون فقال تعالى: ﴿إن هو﴾ يعني ما هو ﴿إلا نذير مبين﴾ ثم حثَّهم على النظر المؤدي إلى العلم بالوحدانية فقال سبحانه وتعالى: ﴿أولم ينظروا﴾ يعني نظر اعتبار واستدلال ﴿في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء﴾ والمقصود التنبيه على أن الدلالة على الوحدانية ووجود الصانع القديم غير مقصورة على ملك السموات والأرض بل كل شيء خلقه الله سبحانه وتعالى وبرأه فيه دليل على وحدانية الله سبحانه وتعالى وآثار قدرته كما قال الشاعر:

وفـــي كـــل شـــيء لـــه آيـــة تـــدل علـــى أنـــه واحـــد

﴿وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم﴾ والمعنى ولعل أجلهم يكون قد اقترب فيموتوا على الكفر قبل أن يؤمنوا فيصيروا إلى النار وإذا كان الأمر كذلك وجب على العاقل المبادرة إلى التفكر والاعتبار والنظر المؤدي إلى الفوز بالنعيم المقيم ﴿فبأي حديث بعده﴾ يعني بعد القرآن ﴿يؤمنون﴾ يعني يصدقون. والمعنى فبأي كتاب بعد الكتاب الذي جاء به محمد ﷺ يصدقون وليس بعد محمد نبي ولا بعد كتابه كتاب لأنه خاتم الأنبياء وكتابه خاتم الكتب لانقطاع الوحي بعد محمد ﷺ ثم ذكر علة إعراضهم عن الإيمان فقال سبحانه وتعالى: ﴿من يضلل الله فلا هادي له﴾ يعني أن إعراض هؤلاء عن الإيمان لإضلال الله إياهم فلو هداهم لآمنوا ﴿ويذرهم في طغيانهم يعمهون﴾ يعني ويتركهم في ضلالتهم وتماديهم في الكفر يترددون متحيرين لا يهتدون سبيلاً.

قوله عز وجل: ﴿يسألونك عن الساعة أيان مرساها﴾ قال قتادة: قالت قريش لرسول الله ﷺ إن بيننا وبينك قرابة فأسرّ إلينا متى الساعة فأنزل الله تعالى هذه الآية. وقال ابن عباس: قال جبل بن أبي قبشير وشمول بن زيد، وهما من اليهود، لرسول الله ﷺ: يا محمد أخبرنا متى الساعة إن كنت نبياً كما تقول فإنا نعلم متى الساعة فأنزل الله عز وجل: يسألونك عن الساعة يعني عن خبر القيامة. سميت ساعة لأنها تقوم في ساعة غفلة وبغتة أو لأن حساب الخلائق ينقضي فيها في ساعة واحدة أيان سؤال استفهام عن الوقت الذي تقوم فيه الساعة ومعناه متى مرساها. قال ابن عباس: يعني منتهاها أي متى وقوعها. قالوا والساعة الوقت الذي تموت فيه الخلائق وأصل الإرساء الثبات يقول رسا يرسو إذا ثبت ﴿قل﴾ أي قل لهم يا محمد ﴿إنما علمها عند ربي﴾ أي لا يعلم الوقت الذي تقوم فيه إلا الله استأثر الله بعلمها فلم

صاحبكم هذا لمجنون بات يُصوّت إلى الصباح، فأنزل الله تعالى: ﴿ أَوَ لَمْ يتفكّروا ما بصاحبهم ﴾، محمد ﷺ: ﴿ مِنْ جِنّة ﴾ جنون. ﴿ إنْ هو ﴾، ما هو، ﴿ إلاّ نذيرٌ مُبين ﴾، ثم حثّهم على النظر المؤدّي إلى العلم فقال:

﴿ أوَ لَمْ ينظُروا في ملكوتِ السمٰوات والأرض وما خَلَقَ اللَّهُ ﴾، فيهما، ﴿ مِن شيء ﴾، أي: وينظروا إلى ما خلق الله فيهما من شيء ليستدلّوا بها على وحدانيته. ﴿ وأنْ عسَى أن يكونَ قد اقتَرَبَ أجلُهم ﴾، أي: لعلّ أن يكون قد اقترب أجلهم فيموتوا قبل أن يؤمنوا ويصيروا إلى العذاب، ﴿ فبأيّ حديثٍ بعده يؤمنون ﴾، أي: بعد القرآن يؤمنون يقول: بأيّ كتاب غير ما جاء به محمد ﷺ يصدقون وليس بعده نبي ولا كتاب، ثم ذكر علّة إعراضهم عن الإيمان فقال:

﴿ مَن يُضلِلِ اللَّهُ فلا هَادِيَ له ويذَرُهُم ﴾، قرأ أهل البصرة وعاصم بالياء ورفع الراء، وقرأ حمزة والكسائي بالياء وجزم الراء، لأن ذكر الله قد مرّ قبله، وجزم الراء مردود على ﴿ يضلل ﴾ وقرأ الآخرون بالنون ورفع الراء على أنه كلام مستأنف. ﴿ في طُغيانِهم يَعْمَهُون ﴾، يتردّدون متحيّرين.

يطلع عليه أحد ومر حديث الإيمان والإسلام والإحسان وسؤال جبريل للنبي ﷺ فأخبرني عن الساعة قال ما المسؤول عنها بأعلم من السائل.

قال المحققون: وسبب إخفاء علم الساعة ووقت قيامها عن العباد ليكونوا على خوف وحذر منها لأنهم إذا لم يعلموا متى يكون ذلك الوقت كانوا على وجل وخوف وإشفاق منها فيكون ذلك أدعى لهم إلى الطاعة والتوبة وأزجر لهم عن المعصية **﴿لا يجليها لوقتها إلا هو﴾** قال مجاهد لا يأتي بها إلا هو، وقال السدي: لا يرسلها لوقتها إلا هو والتجلية إظهار الشيء بعد خفائه، والمعنى: لا يظهرها لوقتها المعين إلا الله ولا يقدر على ذلك غيره **﴿ثقلت في السموات والأرض﴾** يعني ثقل أمرها وخفي علمها على أهل السموات والأرض فكل شيء خفي فهو ثقيل شديد. وقال الحسن: إذا جاءت ثقلت وعظمت على أهل السموات والأرض وإنما ثقلت عليهم لأن فيها فناءهم وموتهم وذلك ثقيل على القلوب **﴿لا تأتيكم إلا بغتة﴾** يعني فجأة على حين غفلة من الخلق (ق) عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لتقومن الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما بينهما فلا يتبايعانه ولا يطويانه ولتقومن الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لقحته فلا يطعمه ولتقومن الساعة وهو يليط حوضه فلا يسقي فيه ولتقومن الساعة وقد رفع أكلته إلى فيه فلا يطعمها» اللَّقحة بفتح اللام وكسرها: الناقة القريبة العهد بالنتاج.

قوله: يليط حوضه ويروى يلوط حوضه يعني يطينه ويصلحه يقال لاط حوضه يليطه أو يلوطه إذا طينه وأصله من اللصوق. الأُكلة: بضم الهمزة اللقمة.

وقوله سبحانه وتعالى: **﴿يسألونك كأنك حفي عنها﴾** يعني يسألونك قومك عن الساعة كأنك حفي بهم بمعنى بارّ بهم شفيق عليهم فعلى هذا القول فيه تقديم وتأخير تقديره يسألونك عنها كأنك حفي بهم. قال ابن عباس: يقول كأن بينك وبينهم مودة وكأنك صديق لهم. قال ابن عباس لما سأل الناس محمداً ﷺ عن الساعة سألوه سؤال قوم كأنهم يرون أن محمداً ﷺ حفي بهم فأوحى الله عز وجل إليه إنما علمها عنده استأثر بعلمها فلم يطلع عليها ملكاً ولا رسولاً وقيل معناه يسألونك عنها كأنك حفي بها أي عالم بها من قولهم أحفيت في المسألة إذا بالغت في السؤال عنها حتى علمتها **﴿قل﴾** يعني يا محمد **﴿إنما علمها عند الله﴾** يعني استأثر الله بعلمها فلا يعلم متى الساعة إلا الله عز وجل.

فإن قلت: قوله سبحانه وتعالى يسألونك عن الساعة أيان مرساها وقوله سبحانه وتعالى ثانياً يسألونك كأنك حفي عنها فيه تكرار؟

قلت: ليس فيه تكرار لأن السؤال الأول سؤال عن وقت قيام الساعة والسؤال الثاني سؤال عن أحوالها من ثقلها وشدائدها فلم يلزم التكرار.

فإن قلت: عبر عن الجواب في السؤال الأول بقوله تعالى: علمها عند ربي وعن الجواب في السؤال الثاني بقوله تعالى: علمها عند الله فهل من فرق بين الصورتين في الجوابين.

قوله تعالى: ﴿ يسـألونَكَ عن الساعةِ أيّانَ مُرْسَاها ﴾، قال قتادة: قالت قريش لرسول الله ﷺ: إن بيننا وبينك قرابة فأسرّ إلينا متى الساعة؟ فأنزل الله تعالى: **﴿ يسـئلونك عن الساعة ﴾**، يعني يوم القيامة، **﴿ أيّان مُرْسَاهَا ﴾**، قال ابن عباس رضي الله عنهما: منتهاها. وقال قتادة: قيامها وأصله الثبات، أي: مثبتها **﴿ قلْ ﴾** يا محمد **﴿ إنما عملها عندَ ربّي ﴾**، استأثر بعلمها ولا يعلمها إلاّ هو، **﴿ لا يُجلّيها ﴾**، لا يكشفها ولا يظهرها. وقال مجاهد: لا يأتي بها، **﴿ لوقتها إلاّ هو ثقلتْ في السـمٰواتِ والأرض ﴾**، يعني: ثقل علمها وخفي أمرها على أهل السمٰوات والأرضِ، وكلّ خفي ثقيل. قال الحسن: يقول إذا جاء ثقلت وعظمت على أهل السـمٰوات والأرض، **﴿ لا تأتِيكم**

قلت: فيه فرق لطيف وهو أنه لما كان السؤال الأول واقعاً عن قيام وقت الساعة عبر عن الجواب فيه بقوله تعالى علم وقت قيامها عند ربي.

ولما كان السؤال الثاني واقعاً عن أحوالها وشدائدها وثقلها عبر عن الجواب فيه بقوله سبحانه وتعالى عند الله لأنه أعظم الأسماء ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ يعني لا يعملون أن علمها عند الله وأنه استأثر بعلم ذلك حتى لا يسألوا عنه.

وقيل: ولكن أكثر الناس لا يعلمون السبب الذي من أجله أخفى علم وقت قيامها المغيب عن الخلق قوله سبحانه وتعالى:

قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾ ۞ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَاۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾

﴿قل لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً﴾ قال ابن عباس: إن أهل مكة قالوا يا محمد ألا يخبرك ربك بالسعر الرخيص قبل أن يغلو فتشتري به فتربح فيه عند الغلاء وبالأرض التي يريد أن تجدب فترحل عنها إلى ما قد أخصبت فأنزل الله عز وجل: ﴿قل لا أملك﴾ أي قل يا محمد لا أملك ولا أقدر لنفسي نفعاً أي اجتلاب نفع بأن أربح فيما أشتريه ولا ضراً يعني ولا أقدر أن أدفع عن نفسي ضراً نزل بها بأن أرتحل إلى الأرض الخصبة وأترك الجدبة ﴿إلا ما شاء الله﴾ يعني أن أملكه وأقدر عليه ﴿ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير﴾ يعني ولو كنت أعلم وقت الخصب والجدب لاستكثرتُ من المال ﴿وما مسني السوء﴾ يعني الضر والفقر والجوع. وقال ابن جريج: معناه لا أملك لنفسي **نفعاً** ولا ضراً من الهدى والضلالة ولو كنت أعلم **الغيب** يريدون وقت الموت لاستكثرت من **الخير** يعني من العمل الصالح. وقيل إن أهل مكة لما سألوا رسول الله ﷺ عن الساعة أنزل الله تعالى الآية الأولى وهذه الآية ومعناه: أنا لا أدعي علم الغيب حتى أخبركم عن وقت قيام الساعة وذلك لما طالبوه بالإخبار عن الغيوب فذكر أن قدرته قاصرة عن علم الغيب.

﴿إلّا بغتةً﴾، فجأة على غفلة. أخبرنا عبد الواحد المليحي حدّثنا أحمد بن عبد الله النعيمي حدّثنا محمد بن يوسف حدّثنا محمد بن إسماعيل حدّثنا أبو اليمان حدّثنا شعيب حدّثنا أبو الزناد عن عبد الرحمن الأعرج عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لتقومنّ الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما بينهما فلا يتبايعانه ولا يطويانه، ولتقومنّ الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لقحته لا يطعمه، ولتقومنّ الساعة وهو يليط حوضه فلا يسقي فيه، ولتقومنّ الساعة وقد رفع أكلته إلى فِيه فلا يطعمها» **﴿يسألونَكَ كأنّك حَفِيٌّ عنها﴾**، أي: عالم بها من قولهم أحفيت في المسألة، أي: بالغت في سؤال عنها حتى علمتها، **﴿قلْ إنّما علمها عند الله ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾**، أن علمها عند الله حتى سألوا محمداً ﷺ عنها.

﴿قلْ لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً إلّا ما شاء الله﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما: إن أهل مكة قالوا يا محمد ألا **يخبرك ربك** بالسعر الرخيص قبل أن يغلو فتشتريه وتربح عند الغلاء وبالأرض التي يريد أن تجدب فترتحل منها إلى ما قد أخصبت، فأنزل الله تعالى: **﴿قلْ لا أملك لنفسي نفعاً﴾** أي: لا أقدّر لنفسي نفعاً، أي:

فإن قلت: قد أخبر ﷺ عن المغيبات وقد جاءت أحاديث في الصحيح بذلك وهو من أعظم معجزاته ﷺ فكيف الجمع بينه وبين قوله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير؟

قلت: يحتمل أن يكون قاله ﷺ على سبيل التواضع والأدب والمعنى لا أعلم الغيب إلا أن يطلعني الله عليه ويقدره لي. ويحتمل أن يكون قال ذلك قبل أن يطلعه الله عز وجل على الغيب فلما أطلعه الله عز وجل أخبر به كما قال تعالى: ﴿فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول﴾ أو يكون خرج هذا الكلام مخرج الجواب عن سؤالهم ثم بعد ذلك أظهره الله سبحانه وتعالى عن أشياء من المغيبات فأخبر عنها ليكون ذلك معجزة له ودلالة على صحة نبوته ﷺ وقوله وما مسنى السوء يعني الجنون وذلك أنهم نسبوه إلى الجنون وقيل معناه ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من تحصيل الخير واحترزت عن الشر حتى أصير بحيث لا يمسني السوء وقيل معناه ولو كنت أعلم الغيب لأعلمتكم بوقت قيام الساعة حتى تؤمنوا وما مسني السوء يعني قولكم لو كنت نبياً لعلمت متى تقوم الساعة ﴿**إن أنا إلا نذير**﴾ يعني ما أنا إلا رسول أرسلني الله إليكم أنذركم وأخوفكم عقابه إن لم تؤمنوا ﴿**وبشير**﴾ يعني وأبشر بثوابه ﴿**لقوم يؤمنون**﴾ يعني يصدقون.

قوله عز وجل: ﴿**هو الذي خلقكم من نفس واحدة**﴾ يعني آدم عليه السلام ﴿**وجعل منها زوجها**﴾ يعني وخلق منها زوجها حواء قد تقدم كيفية خلق حواء من ضلع آدم في أول سورة النساء ﴿**ليسكن إليها**﴾ يعني ليأنس بها ويأوي ﴿**فلما تغشاها**﴾ يعني واقعها وجامعها كنى به عن الجماع أحسن كناية لأن الغشيان إتيان الرجل المرأة وقد غشيها وتغشاها إذا علاها وتجللها ﴿**حملت حملاً خفيفاً**﴾ يعني النطفة والمني لأن أول ما تحمل النطفة وهي خفيفة عليها ﴿**فمرت به**﴾ يعني أنها استمرت بذلك الحمل فقامت وقعدت وهو خفيف عليها ﴿**فلما أثقلت**﴾ أي صارت إلى حال الثقل وكبر ذلك الحمل ودنت مدة ولادتها ﴿**دعوا الله ربهما**﴾ يعني أن آدم وحواء دعوا الله ربهما ﴿**لئن آتيتنا صالحاً**﴾ يعني لئن أعطيتنا بشراً سوياً مثلنا ﴿**لنكونن من الشاكرين**﴾ يعني لك على إنعامك علينا. قال المفسرون: لما هبط آدم

اجتلاب نفع بأن أربح ولا ضرّاً، أي دفع ضَرّ بأن أرتحل من أرض يريد أن تجدب إلّا ما شاء الله أن أملكه، ﴿ **ولو كنتُ أعلم الغيبَ لاستكثرت من الخير وما مسّني السوء** ﴾، أي: لو كنت أعلم الخصب والجدب لاستكثرت من المال أي لسنة القحط وما مسّني السوء، أي: الضرّ والفقر والجوع. وقال ابن جريج: قلْ لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضرّاً يعني الهدى والضلالة ولو كنت أعلم الغيب، أي متى أموت لاستكثرت من الخير يعني من العمل الصالح وما مسّني السوء. قال ابن زيد: اجتنبت ما يكون من الشر واتقيته. وقيل: معناه ولو كنت أعلم الغيب أي متى الساعة لأخبرتكم حتى تؤمنوا وما مسّني السوء بتكذيبكم. وقيل: ما مسّني السوء ابتداء يريد ما مسّني الجنون لأنهم كانوا ينبونه إلى الجنون. ﴿ **إنْ أنا إلاّ نذيرٌ** ﴾، لمَن لا يصدّق بما جئت به، ﴿ **وبشيرٌ** ﴾، بالجنة، ﴿ **لقوم يُؤمنون** ﴾، يصدقون.

قوله تعالى: ﴿ **هو الذي خلقكم مِّن نفسٍ واحدة** ﴾، يعني من آدم، ﴿ **وجعلَ** ﴾، وخلق ﴿ **منها زوجها** ﴾ يعني: حوّاء، ﴿ **ليسكن إليها** ﴾، ليأنس بها ويأوي إليها، ﴿ **فلما تغشّاها** ﴾، أي: واقعها وجامعها ﴿ **حملتْ حملاً خفيفاً** ﴾، وهو أول ما تحمل المرأة من النطفة يكون خفيفاً عليها، ﴿ **فمرّت به** ﴾، أي: استمرت به وقامت وقعدت به ولم يثقلها، ﴿ **فلما أثْقَلَتْ** ﴾، أي: كبر الولد في بطنها وصارت ذات ثقل بحملها ودنت ولادتها، ﴿ **دَّعَوَا الله ربَّهما** ﴾، يعني آدم وحوّاء، ﴿ **لئن آتيتنا** ﴾ يا ربّنا ﴿ **صالحاً** ﴾، أي: بشراً سويّاً مثلنا، ﴿ **لنكونَنّ مِنَ الشاكرين** ﴾، قال المفسّرون: فلما حملت حوّاء أتاها إبليس في صورة رجل، فقال لها: ما الذي في بطنك؟

وحواء إلى الأرض ألقيت الشهوة في نفس آدم فأصاب حواء فحملت من ساعتها فلما ثقل الحمل وكبر الولد أتاها إبليس فقال لها: ما الذي في بطنك؟ قالت: ما أدري قال: إني أخاف أن يكون بهيمة أو كلباً أو خنزيراً أترين في الأرض إلا بهيمة أو نحوها قالت: إني أخاف بعض ذلك قال وما يدريك من أين خرج أمن دبرك أم من فيك أو يشق بطنك فيقتلك فخافت حواء من ذلك وذكرته لآدم فلم يزالا في غم من ذلك ثم عاد إليها إبليس فقال لها إني من الله بمنزلة فإن دعوت الله أن يجعله خلقاً سوياً مثلك ويسهل عليك خروجه تسميه عبد الحارث وكان اسم إبليس في الملائكة الحارث فذكرت ذلك حواء لآدم عليه السلام فقال لعله صاحبنا الذي قد علمت فعاودها إبليس فلم يزل بهما حتى غرهما فلما ولدت سمياه عبد الحارث. وقال ابن عباس: كانت حواء تلد لآدم فيسميه عبد الله وعبيد الله وعبد الرحمن فيصيبهم الموت فأتاهما إبليس فقال: إن سركما أن يعيش لكما ولد فسمياه عبد الحارث فولدت فسمياه عبد الحارث فعاش. عن سمرة بن جندب قال: قال رسول الله ﷺ «لما حملت حواء طاف بها إبليس وكان لا يعيش لها ولد فقال سميه عبد الحارث فسمته فعاش وكان ذلك من وحي الشيطان وأمره» أخرجه الترمذي وقال حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث عمر بن إبراهيم عن قتادة وقال وقد رواه بعضهم ولم يرفعه وقوله وذلك من وحي الشيطان يعني من وسوسته وحديثه كما جاء أنه خدعهما مرتين مرة في الجنة ومرة في الأرض. قال ابن عباس: لما ولد له أول ولد آتاه إبليس فقال إني أنصح لك في شأن ولدك هذا تسميه عبد الحارث وكان اسمه في السماء الحارث فقال آدم: أعوذ بالله من طاعتك إني أطعتك في أكل الشجرة فأخرجتني من الجنة فلن أطيعك فمات ولده ثم ولد له بعد ذلك ولد آخر فقال أطعني وإلا مات كما مات الأول فعصاه فمات ولده، فقال لا أزال أقتلهم حتى تسميه عبد الحارث فلم يزل به حتى سماه عبد الحارث فذلك قوله تعالى: ﴿**فلما آتاهما صالحاً جعلا له شركاء فيما آتاهما**﴾ قال ابن عباس: أشركاه في طاعته في غير عبادة ولم يشركا بالله ولكن أطاعاه. وقال قتادة: أشركا في الاسم ولم يشركا في العبادة. وقال عكرمة ما أشرك آدم ولا حواء وكان لا يعيش لهما ولد فأتاهما الشيطان فقال إن سركما أن يعيش لكماولد فسمياه عبد الحارث فهو قوله تعالى جعلا له شركاء فيما آتاهما قرىء شركا بكسر الشين مع التنوين ومعناه

قالت: ما أدري: إني أخاف أن يكون بهيمة أو كلباً أو خنزيراً وما يدريك من أين يخرج من دبرك فيقتلك أو من فِيك وينشقّ بطنك، فخافت حوّاء من ذلك، وذكرت ذلك لآدم عليه السلام فلم يَزَالاَ في همّ من ذلك، ثم عاد إليها فقال: إني من الله بمنزلة فإن دعوتُ الله أن يجعله خلقاً سويّاً مثلك ويسهّل عليك خروجه أسمّيته عبد الحارث؟ وكان اسم إبليس في الملائكة الحارث، فذكرت ذلك لآدم، فقال: لعلّه صاحبنا الذي قد علمت، فعاودها إبليس فلم يزل بهما حتى غرّهما، فلما ولدت سمّياه عبد الحارث قال الكلبي: قال إبليس لها إن دعوت الله فولدت إنساناً أتسمينه بي؟ قالت: نعم، فلما ولدت قال: سمّيه بي، قالت: وما اسمك؟ قال: الحارث، ولو سمّى لها نفسه لعرفته فسمّته عبد الحارث. ورُوِي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كانت حوّاء تلد لآدم فيسمّيه عبد الله وعبيد الله وعبد الرحمن فيصيبهم الموت، فأتاهما إبليس وقال: إن سرّكما أن يعيش لكما ولد فسمّياه عبد الحارث، فولدت فسمّياه عبد الحارث فعاش. وجاء في الحديث: «خَدَعَهُما إبليس مرتين مرة في الجنة ومرة في الأرض»، وقال ابن زيد: ولد لآدم ولد فسمّاه عبد الله فأتاهما إبليس فقال: ما سمّيتما ابنكما؟ قال: عبد الله، وكان قد ولد لهما قبل ذلك ولد فسمّياه عبد الله فمات، فقال إبليس: أتظنان أن الله تارك عبده عندكما والله ليذهبنّ به كما ذهب بالآخرين، ولكن أدلّكم على اسم يبق لكما ما بقيتما فسمّياه عبد شمس. والأول أصحّ، فذلك قوله:

﴿ **فلما آتاهما صالحاً** ﴾، بشراً سويّاً ﴿ **جعلا له شُرَكَاءَ فيما آتاهما** ﴾، قرأ أهل المدينة وأبو بكر شركا بكسر الشين والتنوين، أي: شركة، قال أبو عبيدة: أي حظّاً ونصيباً، وقرأ الآخرون «شــركاء» بضمّ الشين ممدوداً على

شركة وقال أبو عبيدة معناه حظاً ونصيباً وقرىء شركاء بضم الشين مع المد جمع شريك يعني إبليس عبر عن الواحد بلفظ الجمع يعني جعلا له شريكاً إذ سميا ولدهما عبد الحارث. قال العلماء: ولم يكن ذلك شركاً في العبادة ولا أن الحارث رب لهما لأن آدم عليه الصلاة والسلام كان نبياً معصوماً من الشرك ولكن قصد بتسميتهما الولد بعبد الحارث أن الحارث كان سبب نجاة الولد وسلامته وسلامة أمه وقد يطلق اسم العبد على من لا يراد به أنه مملوك كما قال الشاعر:

وإنـي لعبـد الضيـف ما دام ثاويـاً

أخبر عن نفسه أنه عبد الضيف ما أقام عنده مع بقاء الحرية عليه وإنما أراد بالعبودية خدمة الضيف والقيام بواجب حقوقه كما يقوم العبد بواجب حقوق سيده. وقد يطلق اسم الرب بغير الألف واللام على غير الله كقول يوسف عليه الصلاة والسلام لعزيز مصر «إنه ربي أحسن مثواي» أراد به التربية ولم يرد به أنه ربه ومعبوده فكذلك هنا وإنما أخبر عن آدم عليه السلام بقوله سبحانه وتعالى: ﴿**جعلا له شركاء فيما آتاهما**﴾ لأن حسنات الأبرار سيئآت المقربين ولأن منصب النبوة أشرف المناصب وأعلاها فعاتبه الله على ذلك لأنه نظر إلى السبب ولم ينظر إلى المسبب والله أعلم بمراده وأسرار كتابه. قال العلماء: وعلى هذا فقد تم الكلام عند قوله فيما آتاهما ثم ابتدأ في الخبر عن الكفار بقوله تعالى: ﴿**فتعالى الله عما يشركون**﴾ نزه نفسه سبحانه وتعالى عن إشراك المشركين من أهل مكة وغيرهم وهذا على العموم، ولو أراد آدم وحواء لقال سبحانه وتعالى فتعالى الله عما يشركان على التثنية لا على الجمع وقال بعض أهل المعاني: ولو أراد به ما سبق في معنى الآية فمستقيم أيضاً من حيث إنه كان الأولى بهما أن لا يفعلا ما أتيا به من الإشراك في التسمية فكان الأولى أن يسمياه عبد الله لا عبد الحارث وفي معنى الآية قول آخر وهو أنه راجع إلى جميع المشركين من ذرية آدم وهو قول الحسن وعكرمة ومعناه وجعل أولادهما له شركاء فحذف ذكر الأولاد وأقامهما مقامهم كما أضاف فعل الآباء إلى الأبناء بقوله: ﴿ثم اتخذتم العجل وإذ قتلتم نفساً﴾ فعير به الهيود الذين كانوا موجودين في زمن النبي ﷺ وكان ذلك من فعل آبائهم وقال عكرمة: خاطب كل واحد من الخلق بقوله: ﴿**هو الذي خلقكم من نفس واحدة**﴾ أي خلق كل واحد من أبيه وجعل منها زوجها أي وجعل من جنسها زوجها آدمية مثله وهذا قول حسن إلا أن القول وورد الحديث بذلك عن النبي ﷺ وقيل هم اليهود والنصارى رزقهم الله أولاداً فهودوهم

جمع شريك يعني إبليس، أخبر عن الواحد بلفظ الجمع، أي: جعلا له شريكاً إذ سمّياه عبد الحارث، ولم يكن هذا إشراكاً في العبادة ولا أن الحارث ربّهما فإن آدم كان نبيّاً معصوماً من الشرك، ولكن قصد إلى أن الحارث كان سبب نجاة الولد وسلامة أمه، وقد يطلق اسم العبد على مَن يراد به أنه معبود هذا، كالرجل إذا نزل به ضيف يسمّي نفسه عبد الضيف على وجه الخضوع لا على وجه أن الضيف ربّه، ويقول للغير: أنا عبدك، وقال يوسف لعزيز مصر: إنه ربّي ولم يرد به أنه معبوده كذلك هذا. وقوله: ﴿ **فتعالى اللَّهُ عمّا يُشرِكُون** ﴾، قيل: هذا ابتداء كلام وأراد به إشراك أهل مكة، ولئن أراد به ما سبق فمستقيم من حيث أنه كان الأولى بهما أن لا يفعلا ما أتيا به من الإشراك في الاسم، وفي الآية قول آخر: وهو أنه راجع إلى جميع المشركين من ذرّيّة آدم، وهو قول الحسن وعكرمة، ومعناه: جعل أولادهما شركاء فحذف الأولاد وأقامهما مقامهم كما أضاف فعل الآباء إلى الأبناء في تعييرهم بفعل الآباء إلى الأبناء فقال: ثم اتخذتم العجل، وإذْ قتلتم نفساً خاطب به اليهود الذين كانوا في عهد النبي ﷺ، وكان ذلك الفعل من آبائهم. وقيل: هم اليهود والنصارى، رزقهم الله أولاداً فهوَّدُوا ونصَّرُوا. وقال ابن كيسان: هم الكفّار سمّوا أولادهم عبد العزّى وعبد اللّات وعبد مناة. وقال عكرمة: خاطب كل واحد من الخلق بقوله خلقكم أي خلق كل واحد من أبيه وجعل منها زوجها، أي: جعل من جنسها زوجها، وهذا قول الحسن، لولا قول السلف

ونصّروهم وقال ابن كيسان: هم الكفار سموا أولادهم بعبد العزى وعبد شمس وعبد الدار ونحو ذلك.

﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ ﴿١٩٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٩٤﴾﴾

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿أيشركون﴾ قرىء بالتاء على خطاب الكفار، وقرىء بالياء على الغيبة ﴿ما لا يخلق شيئاً﴾ يعني إبليس والأصنام ﴿وهم يخلقون﴾ أي وهم مخلوقون.

فإن قلت: كيف وحد يخلق ثم جمع فقال وهم يخلقون؟

قلت: إن لفظة «ما» تقع على الواحد والإثنين والجمع فهي من صيغ الواحدان بحسب ظاهر اللفظ ومحتملة للجمع بحسب المعنى فوحد قوله ما لا يخلق رعاية الحكم ظاهر اللفظ وجمع قوله وهم يخلقون رعاية لجانب المعنى.

فإن قلت: كيف جمع بالواو وبالنون لمن لا يعقل وهو جمع من يعقل من الناس؟

قلت: لما اعتقد عابدو الأصنام أنها تعقل وتميز ورد هذا الجمع بناء على ما يعقدونه ويتصورونه.

وقوله تعالى: ﴿ولا يستطيعون لهم نصراً﴾ يعني أن الأصنام لا تقدر على نصر من أطاعها وعبدها ولا تضر من عصاها والنصر، المعونة على الأعداء. والمعنى أن المعبود الذي تجب عبادته يكون قادراً على إيصال النفع ودفع الضر وهذه الأصنام ليست كذلك فكيف يليق بالعاقل أن يعبدها ثم قال تعالى: ﴿ولا أنفسهم ينصرون﴾ يعني ولا يقدرون على أن يدفعوا عن أنفسهم مكروهاً فإن من أراد كسرها قدر عليه وهي لا تقدر على دفعه عنها.

ثم خاطب المؤمنين فقال سبحانه وتعالى: ﴿وإن تدعوهم إلى الهدى﴾ يعني وإن تدعوا أيها المؤمنون المشركين إلى الهدى ﴿لا يتبعوكم﴾ لأن الله سبحانه وتعالى حكم عليهم بالضلالة فلا يقبلون الهداية ﴿سواء عليكم أدعوتموهم﴾ إلى الدين والهداية ﴿أم أنتم صامتون﴾ أي ساكتون عن دعائهم فهم في كلا الحالين لا يؤمنون. وقيل إن الله سبحانه وتعالى لما بيّن في الآية المتقدمة عجز الأصنام بيّن في هذه الآية أنه لا علم لها بشيء البتة؛ والمعنى أن هذه الأصنام التي يعبدها المشركون معلوم من حالها أنها لا تضر ولا تنفع ولا تسمع لمن دعاها إلى خير وهدى ثم قوى هذا المعنى

مثل عبد الله بن عباس رضي الله عنهما ومجاهد وسعيد بن المسيب وجماعة من المفسّرين أنه في آدم وحوّاء.

قوله تعالى: ﴿ أَيُشرِكُونَ مَا لَا يخلقُ شيئاً ﴾، يعني: إبليس والأصنام، ﴿ وهم يُخلقون ﴾، أي: هم مخلوقين.

﴿ ولا يستطيعون لهم نصراً ﴾، الأصنام، أي: لا تنصر مَن أطاعها، ﴿ ولا أنفسَهُمْ ينصرُون ﴾، قال الحسن: لا يدفعون عن أنفسهم مكروه مَن أراد بهم بكسر أو نحوه ثم خاطب المؤمنين فقال:

﴿ وإنْ تَدْعُوهُم إلى الهُدَى ﴾، وإن تدعوا المشركين إلى الإسلام، ﴿ لا يتّبِعُوكم ﴾، قرأ نافع بالتخفيف وكذلك: ﴿ يتبعهم الغاوون ﴾ في [الشعراء: ٢٢٤] وقرأ الآخرون بالتشديد فيهما وهما لغتان، يقال؛ تبعه تبعاً واتّبعه اتّباعاً. ﴿ سواءٌ عليكم أدعوتُموهم ﴾، إلى الدين، ﴿ أمْ أنتُمْ صَامِتُون ﴾، عن دعائهم لا يؤمنون، كما قال:

بقوله سبحانه وتعالى: ﴿سواء عليكم أدعوتموهم أم أنتم صامتون﴾ وذلك أن المشركين كانوا إذا وقعوا في شدة وبلاء تضرعوا لأصنامهم فإذا لم تكن لهم إلى الأصنام حاجة سكتوا وصمتوا فقيل لهم لا فرق بين دعائكم للأصنام أو سكوتكم عنها فإنها عاجزة في كل حال.

قوله سبحانه وتعالى: ﴿إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم﴾ يعني أن الأصنام التي يعبدها هؤلاء المشركون إنما هي مملوكة لله أمثالهم وقيل إنها مسخرة مذللة مثل ما أنتم مسخرون مذللون قال مقاتل في قوله سبحانه وتعالى: ﴿عباد أمثالكم﴾ أنها الملائكة والخطاب مع قوم كانوا يعبدون الملائكة والقول الأول أصح وفيه سؤال وهو أنه وصفها بأنها عباد مع أنها جماد.

والجواب أن المشركين لما ادعوا أن الأصنام تضر وتنفع وجب أن يعتقدوا كونها عاقلة فاهمة فوردت هذه الألفاظ على وفق معتقدهم تبكيتاً لهم وتوبيخاً ولذلك قال عز وجل: ﴿فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين﴾ في كونها آلهة وجواب آخر وهو أن هذا اللفظ إنما ورد في معرض الاستهزاء بالمشركين والمعنى أن قصارى هذه الأصنام التي تعبدونها أحياء عاقلة على معتقدكم فهم عباد الله أمثالكم ولا فضل لهم عليكم فلما عبدتموهم وجعلتموهم آلهة وجعلتم أنفسكم لهم عبيداً ثم وصفهم بالعجز فقال تعالى:

﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾ إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُواْ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾

﴿ألهم أرجل يمشون بها أم لهم أيد يبطشون بها أم لهم أعين يبصرون بها أم لهم آذان يسمعون بها﴾ يعني أن قدرة الإنسان المخلوق إنما تكون بهذه الجوارح الأربعة فإنها آلات يستعين بها الإنسان في جميع أموره والأصنام ليس لها من هذه الأعضاء والجوارح شيء فهم مفضلون عليها بهذه الأعضاء لأن الرجل الماشية أفضل من الرجل العاجزة عن المشي وكذلك اليد الباطشة أفضل من اليد العاجزة عن البطش والعين الباصرة أفضل من العين العاجزة عن الإدراك

﴿ سواءٌ عليهم أأنذرْتَهم أمْ لَمْ تُنذرْهم لا يُؤمنون ﴾ [يٓس: ١٠، البقرة: ٦] وقيل: وإن تدعهم إلى الهدى يعني الأصنام لا يتبعوكم لأنها غير عاقلة.

﴿ إنّ الذين تدعُون من دُونِ الله ﴾، يعني الأصنام، ﴿ عبادٌ أمثالُكم ﴾، يريد أنها مملوكة أمثالكم. وقيل: أمثالكم في التسخير، أي: أنهم مسخّرون مذلّلون لما أُريد منهم. قال مقاتل: قوله عبادٌ أمثالكم أراد به الملائكة، والخطاب مع قوم كانوا يعبدون الملائكة. والأول أصحّ. ﴿ فادْعُوهم فليستجيبُوا لكم إنْ كنتُم صادقين ﴾، أنها آلهة. قال ابن عباس: فاعبدوهم هل يثيبونكم أو يجازونكم إن كنتم صادقين أن لكم عندها منفعة. ثم بيّن عجزهم فقال:

﴿ أَلَهُمْ أَرْجلٌ يمشونَ بها أمْ لهمْ أيـدٍ يَبْطِشُون بها ﴾، قرأ أبو جعفر بضم الهاء هنا وفي القصص والدخان، وقرأ الآخرون بكسر الطاء، ﴿ أمْ لهم أعينٌ يُبْصِرُون بها أمْ لهم آذانٌ يسمعونَ بها ﴾، أراد أن قدرة المخلوقين تكون بهذه الجوارح والآلات، وليست للأصنام هذه الآلات، فأنتم مفضَّلُون عليها بالأرجل الماشية والأيدي الباطشة

والأذن السامعة أفضل من الأذن العاجزة عن السمع فظهر بهذا البيان أن الإنسان أفضل من هذه الأصنام العاجزة بكثير بل لا فضل لها البتة لأنها حجارة وجماد لا تضر ولا تنفع وإذا كان لا فضل له البتة ولا يضر ولا ينفع فامتنع بهذه الحجة كون الأصنام آلة ثم قال تعالى: ﴿قل ادعوا شركاءكم﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين ادعوا شركاءكم هذه الأصنام التي تعبدونها حتى يتبين عجزها ﴿ثم كيدون﴾ يعني أنتم وشركاؤكم وهذا متصل بما قبله في استكمال الحجة عليهم لأنهم لما قرّعوا بعادة من لا يملك ضراً ولا نفعاً قيل لمحمد ﷺ قل إن معبودي يملك الضر والنفع فلو اجتهدتم في كيدي لم تصلوا إلى ضري لأن الله يدفع عني، وقال الحسن كانوا يخوفونه بآلهتهم فقال الله تعالى قل ادعوا شركاءكم ثم كيدون ﴿فلا تنظرون﴾ أي لا تمهلون واعجلوا في كيدي أنتم وشركاؤكم ﴿إن وليي الله﴾ يعني أن الذي يتولى حفظي وينصرني عليكم هو الله ﴿الذي نزل الكتاب﴾ يعني القرآن، المعنى كما أيدني بإنزال القرآن علي كذلك يتولى حفظي وينصرني ﴿وهو يتولى الصالحين﴾ يعني يتولاهم بنصره وحفظه فلا تضرهم عداوة من عاداهم من المشركين وغيرهم ممن أرادهم بسوء أو كادهم بشر. قال ابن عباس: يريد بالصالحين الذين لا يعدلون بالله شيئاً ولا يعصونه وفي هذا مدح للصالحين لأن من تولاه الله يحفظه فلا يضره شيء.

قوله عز وجل: ﴿والذين تدعون من دونه لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون﴾ هذه الآية قد تقدم تفسيرها، والفائدة في تكريرها أن الآية الأولى مذكورة على جهة التقريع والتوبيخ وهذه الآية مذكورة على جهة الفرق بين من تجوز له العبادة وهو الله الذي يتولى الصالحين بنصره وحفظه وبين هذه الأصنام وهي ليست كذلك فلا تكون معبودة.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وإن تدعوهم إلى الهدى لا يسمعوا وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون﴾ قال الحسن المراد بهذا المشركون ومعناه وإن تدعوا إليها المؤمنون المشركين إلى الهدى لا يسمعوا دعاءكم لأن آذانهم قد صمّت عن سماع الحق وتراهم ينظرون إليك يا محمد وهم لا يبصرون يعني ببصائر قلوبهم وذهب أكثر المفسرين إلى أن هذه الآية أيضاً واردة في صفات الأصنام لأنها جماد لا تضر ولا تنفع ولا تسمع ولا تبصر.

قوله تعالى: ﴿خذ العفو﴾ العفو هنا الفضل وما جاء بلا كلفة والمعنى: اقبل الميسور من أخلاق الناس ولا تستقصِ عليهم فيستقصوا عليك فتتولد منه العداوة والبغضاء. وقال مجاهد: يعني خذ العفو من أخلاق الناس وأعمالهم من غير تجسس وذلك مثل قبول الاعتذار منهم وترك البحث عن الأشياء والعفو التساهل في كل شيء (خ) عن عبد الله بن الزبير قال: ما نزلت خذ العفو وأمر بالعرف إلا في أخلاق الناس وفي رواية قال أمر الله نبيه ﷺ أن يأخذ

والأعين الباصرة والآذان السامعة، فكيف تعبدون مَن أنتم أفضل وأقدر منهم؟ ﴿ قل ٱدْعُوا شُرَكاءَكم ﴾، يا معشر المشركين، ﴿ ثمّ كِيدُونِ ﴾، أنتم وهم، ﴿ فلا تُنْظِرُونِ ﴾، أي: لا تمهلوني وأعجلوا في كيدي.

قوله: ﴿ إنّ وليّيَ اللّهُ الذي نزّل الكتاب ﴾، يعني القرآن، أي أنه يتولّاني وينصرني كما أيّدني بإنزال الكتاب، ﴿ وهو يتولى الصالحين ﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما: يريد الذين لا يعدلون بالله شيئاً فاللّهُ يتولّاهم بنصره فلا يضرّهم عداوة مَن عاداهم.

﴿ والذين تدعون من دونه لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون ﴾.

﴿ وإن تدعوهم إلى الهدى لا يسمعوا ﴾، يعني الأصنام، ﴿ وتراهم ﴾ يا محمد ﴿ ينظرون إليك ﴾، يعني الأصنام، ﴿ وهم لا يُبصِرُون ﴾، وليس المراد من النظر حقيقة النظر إنما المراد منه المقابلة، تقول العرب: داري تنظر إلى دارك، أي: تقابلها. وقيل: وتراهم ينظرون إليك أي: كأنهم ينظرون إليك، كقوله تعالى: ﴿ وترى النّاسَ

العفو من أقوال الناس وكذا في جامع الأصول وفي الجمع بين الصحيحين للحميدي قال أمر الله نبيه ﷺ أن يأخذ العفو من أقوال الناس أو كما قال: وقال ابن عباس يعني خذ ما عفا لك من أموالهم فما أتوك به من شيء فخذه وكان هذا قبل أن تتنزل براءة بفرائض الصدقات وتفصيلها وما انتهت إليه وقال السدي خذ العفو أي الفضل من المال نسختها آية الزكاة، وقال الضحاك: خذ ما عفا من أموالهم وهذا قبل أن تفرض الصدقة المفروضة ﴿وأمر بالعرف﴾ يعني وأمر بكل ما أمرك الله به وهو ما عرفته بالوحي من الله عز وجل وكل ما يعرفه الشارع وقال عطاء وأمر بقول لا إله إلا الله ﴿وأعرض عن الجاهلين﴾ أمر الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ أن يصفح عن الجاهلين وهذا قبل أن يؤمر بقتال الكفار فلما أمر بقتالهم صار الأمر بالإعراض عنهم منسوخاً بآية القتال، قال بعضهم: أول هذه الآية وآخرها منسوخ، ووسطها محكم يريد ينسخ أولها أخذ الفضل من الأموال فنسخ بفرض الزكاة والأمر بالمعروف محكم والإعراض عن الجاهلين منسوخ بآية القتال روي أنه لما نزلت هذه الآية قال رسول الله ﷺ لجبريل: ما هذا؟ قال لا أدري حتى أسأل. ثم رجع فقال إن ربك يأمرك أن تصل من قطعك وتعطي من حرمك وتعفو عمن ظلمك ذكره البغوي بغير سند. وقال جعفر الصادق: أمر الله عز وجل نبيه ﷺ بمكارم الأخلاق وليس في القرآن آية أجمع لمكارم الأخلاق من هذه.

عن عائشة قالت «لم يكن رسول الله ﷺ فاحشاً ولا متفحشاً ولا سخاباً في الأسواق ولا يجزي بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويصفح» أخرجه الترمذي وروى البغوي بسنده عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ «إن الله بعثني لتمام مكارم الأخلاق وتمام محاسن الأفعال» قوله عز وجل:

سُكارَى ﴾ [الحج: ٢]، أي: كأنّهم سُكارى هذا قول المفسرين. وقال الحسن: ﴿ وإن تدعوهم إلى الهدى ﴾ يعني المشركين لا يسمعوا ولا يعقلوا ذلك بقلوبهم وتراهم ينظرون إليك بأعينهم وهم لا يبصرون بقلوبهم.

قوله تعالى: ﴿ خُذِ العفوَ ﴾، قال عبد الله بن الزبير: أمر الله نبيّه عليه الصلاة والسلام أن يأخذ العفو من أخلاق الناس. وقال مجاهد: خذ العفو يعني العفو من أخلاق الناس وأعمالهم من غير تجسّس، وذلك مثل قبول الاعتذار. والعفو: المساهلة وترك البحث عن الأشياء ونحو ذلك. ورُوِيَ أنه لمّا نزلت هذه الآية قال رسول الله ﷺ لجبريل: «ما هذا»؟ قال: لا أدري حتى أسأله، ثم رجع فقال: «إنّ ربّك يأمرك أن تصل مَن قطعك وتعطي مَن حرمك وتعفو عمّن ظلمك». وقال ابن عباس رضي الله عنهما والسدي والضحاك والكلبي: يعني خُذْ ما عفا لك من الأموال وهو الفضل من العيال، وذلك معنى قوله: ﴿ يسألونك ماذا ينفقون قلِ العفو ﴾ [البقرة: ٢١٩]، ثم نسخت هذه بالصدقات المفروضات. قوله تعالى: ﴿ وأْمر بالعُرْفِ ﴾ أي: بالمعروف، وهو كل ما يعرفه الشرع. وقال عطاء: وأمرْ بالعُرف يعني بلا إلّه إلّا الله. ﴿ وأعْرِضْ عَنِ الجاهلين ﴾، أبي جهلٍ وأصحابه، نسختها آية السيف. وقيل: إذا تسفَّه عليك الجاهل فلا تقابله بالسفه، وذلك مثل قوله: ﴿ وإذا خاطَبَهُمُ الجاهلون قالوا سلاماً ﴾ [الفرقان: ٦٣]، وذلك سلام المُتاركة. قال جعفر الصادق: أمر الله نبيّه ﷺ بمكارم الأخلاق، وليس في القرآن آية أجمع لمكارم الأخلاق من هذه الآية. أخبرنا عبد الله بن عبد الصمد الجرجاني ثنا أبو القاسم علي بن أحمد الخزاعي ثنا هيثم بن كليب ثنا أبو عيسى الترمذي ثنا محمد بن بشّار ثنا محمد بن جعفر ثنا شعبة عن أبي إسحاق عن أبي عبد الله الجدلي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: «لم يكن رسول الله ﷺ فاحشاً ولا متفحشاً ولا سخاباً في الأسواق، ولا يجزي بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويصفح». ثنا أبو الفضل زياد بن محمد الحنفي ثنا أبو سعيد عبد الملك ابن أبي عثمان الواعظ ثنا عمّار بن محمد البغدادي ثنا أحمد بن محمد عن سعيد الحافظ ثنا محمد بن إسماعيل ثنا عمر بن إبراهيم يعني الكوفي ثنا يوسف بن محمد بن المنكدر عن أبيه عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « إنّ اللّهَ بعثني لتمام مكارم الأخلاق وإتمام محاسن الأفعال».

وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾

﴿وإما ينزغنك من الشيطان نزغ﴾ قال ابن زيد «لما نزل قوله سبحانه وتعالى خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين قال النبي ﷺ فكيف بالغضب يا رب فأنزل الله عز وجل: وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه سميع عليم. ونزغ الشيطان عبارة عن وساوسه ونخسه في القلب. وقيل النزغ الانزعاج وأكثر ما يكون عند الغضب وأصله الإزعاج بالحركة إلى الشر والإفساد. يقال: نزغت بين القوم إذا أفسدت بينهم. وقال الزجاج: النزغ أدنى حركة تكون ومن الشيطان أدنى وسوسة والمعنى وإما يصيبنك يا محمد ويعرض لك من الشيطان وسوسة أو نخسة **﴿فاستعذ بالله﴾** يعني فاستجر بالله والجأ إليه في دفعه عنك **﴿إنه سميع﴾** يعني لدعائك **﴿عليم﴾** بحالك وقيل إن الشيطان يجد مجالاً في حمل الإنسان على ما لا ينبغي في حالة الغضب والغيظ فأمر الله بالالتجاء إليه والتعوذ به في تلك الحالة فهي تجري مجرى العلاج لذلك المرض.

(فصل واحتج الطاعنون في عصمة الأنبياء بهذه الآية)

فقالوا لو كان النبي معصوماً لم يكن للشيطان عليه سبيل حتى ينزغ في قلبه ويحتاج إلى الاستعاذة والجواب عنه من وجوه، الأول: أن معنى الكلام إن حصل في قلبك نزغ من الشيطان فاستعذ بالله وإنه لم يحصل له ذلك البتة فهو كقوله لئن أشركت وهو بريء من الشرك البتة. والوجه الثاني: على تقدير أنه لو حصل وسوسة من الشيطان لكن الله عز وجل عصم نبيه ﷺ عن قبولها وثبوتها في قلبه (م) عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ «ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن وقرينه من الملائكة قالوا وإياك يا رسول الله قال وإياي إلا أن الله أعانني عليه فأسلم فلا يأمرني إلا بخير» قال الشيخ محيي الدين النووي يروى فأسلم بفتح الميم وضمها فمن رفع قال معناه فأسلم أنا من شره وفتنته ومن فتح قال معناه أن القرين أسلم من الإسلام يعني صار مؤمناً لا يأمرني إلا بخير. قال الخطابي: الصحيح المختار الرفع ورجح القاضي عياض الفتح قال الشيخ وهو المختار لقوله فلا يأمرني إلا بخير. قال القاضي عياض: واعلم أن الأمة مجمعة على عصمة النبي ﷺ من الشيطان في جسمه وخاطره ولسانه وفي هذا الحديث إشارة إلى التحذير من فتنة القرين ووسوسته وإغوائه أعلمنا أنه معنا لنحترز عنه بحسب الإمكان والله أعلم. الوجه الثالث: يحتمل أن يكون الخطاب للنبي ﷺ والمراد به غيره ومعناه وإما ينزغنك أيها الإنسان من الشيطان نزغ فاستعذ بالله فهو كقوله فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله.

قوله سبحانه وتعالى: **﴿إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف﴾** وقرىء طيف **﴿من الشيطان﴾** وهما لغتان ومعناه

قوله تعالى: ﴿ وإمّا ينزغنّك منَ الشيطان نَزْغٌ ﴾، أي: يصيبنّك ويعتريك ويعرض لك من الشيطان نزغ نخسة. والنزغ من الشيطان الوسوسة. وقال الزجّاج: النزغ أدنى حركة تكون من الآدمي، ومن الشيطان أدنى وسوسة. وقال عبد الرحمن بن زيد: لمّا نزلت هذه الآية: ﴿ خُذِ العفوَ ﴾، قال النبي ﷺ: «كيف يا رب والغضب»، فنزل: ﴿ وإمّا ينزغنّك منَ الشيطانِ نَزْغٌ فاسْتَعِذْ بالله ﴾، أي: استجرْ بالله ﴿ إنّه سميعٌ عليم ﴾.

﴿ إنّ الذين اتّقوا ﴾، يعني المؤمنين، ﴿ إذا مسّهمْ طائفٌ مِّنَ الشيطان ﴾، قرأ ابن كثير وأهل البصرة والكسائي: «طيـف» ، وقرأ الآخرون ﴿ طائف ﴾ بالمدّ والهمز وهما لغتان كالميت والمائت، ومعناهما: الشيء يلمّ بك. وفرّق قوم بينهما، فقال أبو عمرو: الطائف ما يطوف حول الشيء، والطيف: اللمّة والوسوسة. وقيل:

الشيء يلم بالإنسان وقيل بينهما فرق فالطائف ما يطوف حول الإنسان والطيف الوسوسة. وقيل الطائف ما طاف به من وسوسة الشيطان والطيف اللمم والمس. قال الأزهري: الطيف في كلام العرب الجنون وقيل للغضب طيف لأن الغضبان يشبه المجنون. وقيل سمي الجنون والغضب والوسوسة طيفاً لأنه لمة من الشيطان تشبه لمة الخبال فذكر في الآية الأولى النزغ وهو أخف من الطيف المذكور في هذه الآية لأن حالة الشيطان مع الأنبياء أضعف من حاله مع غيرهم ﴿تذكروا﴾ يعني عرفوا ما حصل لهم من وسوسة الشيطان وكيده قال سعيد بن جبير هو الرجل يغضب الغضب فيذكر الله فيكظم غيظه. وقال مجاهد: هو الرجل يلم بالذنب فيذكر الله فيقوم ويدعه ﴿فإذا هم مبصرون﴾ يعني أنهم يبصرون مواقع الخطأ بالتذكر والتفكر. وقال السدي: إذا زلوا تابوا وقال مقاتل: هو الرجل إذا أصابه نزغ من الشيطان تذكر وعرف أنه معصية فأبصر ونزع عن مخالفة الله عز وجل:

وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُوا۟ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا ۚ قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ مِن رَّبِّى ۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾

﴿وإخوانهم﴾ يعني وإخوان الشياطين من المشركين ﴿يمدونهم﴾ أي يمدهم الشياطين ﴿في الغي﴾ قال الكلبي لكل كافر أخ من الشياطين يمدونهم أي يطيلون لهم في الإغواء حتى يستمروا عليه وقيل يزيدونهم في الضلالة ﴿ثم لا يقصرون﴾ يعني لا يكفون عن الضلالة ولا يتركونها وهذا بخلاف حال المؤمنين المتقين لأن المؤمن إذا أصابه طيف من الشيطان تذكر وعرف ذلك فنزع عنه وتاب واستغفر والكافر مستمر في ضلالته لا يتذكر ولا يرعوي. وقال ابن عباس: لا الإنس يقصرون عما يعملون من السيئآت ولا الشياطين يمسكون عنه فعلى هذا القول يحمل قوله لا يقصرون على فعل الإنس والشياطين جميعاً.

قوله عز وجل: ﴿وإذا لم تأتهم بآية﴾ يعني وإذا لم تأت المشركين يا محمد بآية ومعجزة باهرة ﴿قالوا﴾ يعني قال المشركون ﴿لولا اجتبيتها﴾ يعني افتعلتها وأنشأتها من قبل نفسك واختيارك تقول العرب اجتبت الكلام إذا اختلقته وافتعلته. وقال الكلبي: كان أهل مكة يسألون النبي ﷺ الآيات تعنتا فإذا تأخرت اتهموه وقالوا لولا اجتبيتها يعني هلا أحدثتها وأنشأتها من عندك ﴿قل﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين الذين سألوا الآيات ﴿إنما أتبع ما يوحي إلي من ربي﴾ يعني القرآن الذي أنزل عليّ وليس لي أن أقترح الآيات والمعجزات ﴿هذا بصائر من ربكم﴾ يعني هذا

الطائف ما طاف به من وسوسة الشيطان، والطيف اللمم والمسّ. ﴿ تذكَّرُوا ﴾، عرفوا، قال سعيد بن جبير: هو الرجل يغضب الغضبة فيذكر الله تعالى فيكظم للغيظ. وقال مجاهد: الرجل يهمّ بالذنب فيذكر الله فيدعه. ﴿ فإذا همْ مُبصرون ﴾، أي يبصرون مواقع خطاياهم بالتذكّر والتفكّر. قال السدي: إذا زلّوا تابُوا. وقال مقاتل: إن المتّقي إذا أصابه نزغ من الشيطان تذكّر وعرف أنه معصية، فأبصر فنزع عن مخالفة الله.

قوله: ﴿ وإخوانُهم يَمُدُّونَهم ﴾، يعني إخوان الشياطين من المشركين يمدّونهم، أي: يمدّهم الشيطان. قال الكلبي: لكل كافر أخٌ من الشياطين. ﴿ في الغيِّ ﴾، أي: يطلبون لهم الإغواء حتى يستمرّوا عليه. وقيل: يزيدونهم في الضلالة. وقرأ أهل المدينة: «يُمدّونَهـم» بضم الياء وكسر الميم من الإمداد والآخرون بفتح الياء وضمّ الميم وهما لغتان بمعنى واحد. ﴿ ثمّ لا يُقْصِرُون ﴾، أي: لا يكفّون. قال ابن عباس رضي الله عنهما: لا الإنس يقصرون عمّا يعملون من السيئات ولا الشياطين يمسكون عنهم، فعلى هذا قوله: ﴿ ثم لا يُقْصِرُون ﴾ من

القرآن حجج وبرهان وأصلُ البصائر من الإبصار وهو ظهور الشيء حتى يبصره الإنسان ولما كان القرآن سبباً لبصائر العقول في دلائل التوحيد والنبوة والمعاد أطلق عليه اسم البصائر فهو من باب تسمية السبب باسم المسبب ﴿وهدى﴾ يعني وهو هدى ﴿ورحمة﴾ يعني وهو رحمة من الله ﴿لقوم يؤمنون﴾ وهنا لطيفة وهي الفرق بين هذه المراتب الثلاث وذلك أن الناس متفاوتون في درجات العلوم فمنهم من بلغ الغاية في علم التوحيد حتى صار كالمشاهد وهم أصحاب عين اليقين ومنهم من بلغ درجة الاستدلال والنظر وهم أصحاب علم اليقين ومنهم المسلم والمستسلم وهم عامة المؤمنين وهم أصحاب حق اليقين فالقرآن في حق الأولين وهم السابقون بصائر وفي حق القسم الثاني وهم المستدلون هدى وفي حق القسم الثالث وهم عامة المؤمنين رحمة.

قوله تعالى: ﴿وإذا قرىء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا﴾ لما ذكر الله سبحانه وتعالى عظم شأن القرآن بقوله هذا بصائر من ربكم وهدى ورحمة لقوم يؤمنون أتبعه بما يجب من تعظيم شأنه عند قراءته فقال سبحانه وتعالى: وإذا قرىء عليكم أيها المؤمنون القرآن فاستمعوا له يعني أصغوا إليه بأسماعكم لتفهموا معانيه وتتدبروا مواعظه وأنصتوا يعني عند قراءته والإنصات السكوت للاستماع. يقال: نصت وأنصت وانتصت بمعنى واحد. واختلف العلماء في الحال التي أمر الله عز وجل بالاستماع لقارىء القرآن والإنصات له إذا قرأ لأن قوله فاستمعوا له وأنصتوا أمر.

وظاهر الأمر للوجوب فمقتضاه أن يكون الاستماع والسكوت واجبين وللعلماء في ذلك أقوال:

القول الأول: وهو قول الحسن وأهل الظاهر أن تجري هذه الآيات على العموم ففي أي وقت وأي موضع قرىء القرآن يجب على كل أحد الاستماع له والسكوت.

والقول الثاني: إنها نزلت في تحريم الكلام في الصلاة روي عن أبي هريرة أنهم كانوا يتكلمون في الصلاة بحوائجهم فأمروا بالسكون والاستماع لقراءة القرآن. وقال عبد الله: كنا يسلم بعضنا على بعض في الصلاة سلام على فلان وسلام على فلان قال فجاء القرآن وإذا قرىء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا.

القول الثالث: إنها نزلت في ترك الجهر بالقراءة خلف الإمام روى عن أبي هريرة قال نزلت هذه الآية في رفع

فعل المشركين والشياطين جميعاً. قال الضحّاك ومقاتل: يعني المشركين لا يُقْصِرون عن الضلالة ولا يُبصرونها، بخلاف ما قال في المؤمنين: ﴿ تذكّروا فإذا هم مُّبْصِرون ﴾.

﴿ وإذا لم تأتِهم بآية ﴾، يعني: إذا لم تأتِ المشركين بآية، ﴿ قالوا لولا اجْتَبَيْتَها ﴾، هلاّ افتعلتها وأنشأتها مِنْ قَبلِ نفسك واختيارك؟ تقول العرب: اجتبيتُ الكلام إذا اختلقتُه قال الكلبي: كان أهل مكة يسألون النبي ﷺ الآيات تعنّتاً فإذا تأخرت قالوا: لولا اجتبيتها؟ أي: هلاّ أحدثتها وأنشأتها من عندك؟ ﴿ قلْ ﴾ لهم يا محمد ﴿ إنّما أتّبعُ ما يُوحَى إليّ من ربّي ﴾، ثم قال: ﴿ هذا ﴾، يعني: القرآن ﴿ بَصَائِرُ ﴾، حجج وبيان وبرهان؟ ﴿ مِنْ ربِّكم ﴾، واحدتها بصيرة، وأصلها ظهور الشيء واستحكامه حتى يبصره الإنسان، فيهتدي به يقول: هذه دلائل تقودكم إلى الحق. ﴿ وهُدىً ورحمةٌ لقوم يُؤمنون ﴾.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ وإذا قُرِىءَ القرآنُ فاسْتَمِعُوا لَهُ وأنْصِتُوا لعلّكم تُرحَمُون ﴾، اختلفوا في سبب نزول هذه الآية فذهب جماعة إلى أنها في القراءة في الصلاة. رُوِيَ عن أبي هريرة أنّهم كانوا يتكلمون في الصلاة بحوائجهم فأُمروا بالسكوت والاستماع إلى قراءة القرآن. وقال قوم: نزلت في ترك الجهر بالقراءة خلف الإمام. روى زيد بن أسلم عن أبيه عن أبي هريرة قال: نزلت هذه الآية في رفع الأصوات وهم خلف رسول الله ﷺ في الصلاة. وقال الكلبي: كانوا يرفعون أصواتهم في الصلاة حين يسمعون ذكر الجنّة والنار. وعن ابن مسعود رضي الله عنه أنه سمع

الأصوات وهم خلف رسول الله ﷺ. وعن ابن مسعود: أنه سمع ناساً يقرؤون مع الإمام فلما انصرف قال أما آن لكم أن تفقهوا وإذا قرىء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا كما أمركم الله. وقال الكلبي: كانوا يرفعون أصواتهم في الصلاة حين يسمعون ذكر الجنة والنار.

القول الرابع: أنها نزلت في السكوت عند الخطبة يوم الجمعة وهو قول سعيد بن جبير ومجاهد وعطاء قال مجاهد: الإنصات للإمام يوم الجمعة. وقال عطاء وجب الصمت في اثنتين عند الرجل يقرأ القرآن وعند الإمام وهو يخطب. وهذا القول قد اختاره جماعة وفيه بعد لأن الآية مكية والخطبة إنما وجبت بالمدينة واتفقوا على أنه يجب الإنصات حال الخطبة بدليل السنة وهو ما روي عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال «إذا قلت لصاحبك أنصت والإمام يخطب يوم الجمعة فقد لغوت» أخرجاه في الصحيحين واختلف العلماء في القراءة خلف الإمام فذهب جماعة إلى إيجابها سواء جهر الإمام بالقراءة أو أسرّ. يروى ذلك عن عمر وعثمان وعلي وابن مسعود ومعاذ وهو قول الأوزاعي وإليه ذهب الشافعي وذهب قوم إلى أن يقرأ فيما أسرّ الإمام فيه القراءة ولا يقرأ فيما جهر الإمام فيه، يروى ذلك عن ابن عمر وهو قول عروة بن الزبير والقاسم بن محمد وبه قال الزهري ومالك وابن المبارك وأحمد وإسحاق وذهب قوم إلى أنه لا يقرأ سواء أسرّ الإمام أو جهر. يروى ذلك عن جابر وإليه ذهب أصحاب الرأي حجة من لا يرى القراءة خلف الإمام ظاهر هذه الآية وحجة من قال يقرأ في السرية دون الجهرية قال إن الآية تدل على الأمر بالاستماع لقراءة القرآن ودلت السنة على وجوب القراءة خلف الإمام فحملنا مدلول الآية على صلاة الجهرية وحملنا مدلول السنة على صلاة السرية جمعاً بين دلائل الكتاب والسنة وحجة من أوجب القراءة خلف الإمام في صلاة السرية والجهرية قال الآية واردة في غير الفاتحة لأن دلائل السنة قد دلت على وجوب قراءة الفاتحة خلف الإمام ولم يفرق بين السرية والجهرية. قالوا وإذا قرأ الفاتحة خلف الإمام تتبع سكناته ولا ينازعه في القراءة ولا يجهر بالقراءة خلفه ويدل عليه ما روى عن عبادة بن الصامت قال: «صلى رسول الله ﷺ الصبح فثقلت عليه القراءة فلما انصرف قال أراكم تقرؤون وراء إمامكم قال قلنا: يا رسول الله أي والله قال لا تفعلوا إلا بأم القرآن فإنه لا صلاة لمن لم يقرأ بها» أخرجه الترمذي بطوله

ناساً يقرؤون مع الإمام فلما انصرف قال: أمَا آن لكم أن تفقهوا وإذا قرىء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا كما أمركم الله؟ وهذا قول الحسن والزهري والنخعي: أن الآية في القراءة في الصلاة. وقال سعيد بن جبير وعطاء ومجاهد: إن الآية في الخطبة، أُمروا بالإنصات لخطبة الإمام يوم الجمعة. وقال سعيد بن جبير: هذا في الإنصات يوم الأضحى والفطر ويوم الجمعة، وفيما يجهر به الإمام. وقال عمر بن عبد العزيز: الإنصات لقول كل واعظ. والأول أولاها، وهو أنها في القراءة في الصلاة لأنّ الآية مكيَّة والجمعة وجبت بالمدينة. واتفقوا على أنه مأمور بالإنصات حالة ما يخطب الإمام. أخبرنا عبد الوهاب بن محمد الخطيب ثنا عبد العزيز بن أحمد الخلال ثنا أبو العباس الأصم ثنا الربيع ثنا الشافعي ثنا مالك عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إذا قُلْتَ لصاحبِكَ أنْصِتْ والإمامُ يخطبُ يوم الجمعة فقد لغوت». واختلف أهل العلم في القراءة خلف الإمام في الصلاة فذهب جماعة إلى إيجابها سواء جهر الإمام بالقراءة أو أسرّ. رُوِيَ ذلك عن عمر وعثمان وعلي وابن عباس ومعاذ، وهو قول الأوزاعي والشافعي. وذهب قوم إلى أنه يقرأ فيما أسرّ الإمام فيه بالقراءة ولا يقرأ إذا جهر. رُوِيَ ذلك عن ابن عمر وهو قول عروة بن الزبير والقاسم بن محمد، وبه قال الزهري ومالك وابن المبارك وأحمد وإسحاق. وذهب قوم إلى أنه لا يقرأ سواء أسرّ الإمام أو جهر، يُروى ذلك عن جابر، وبه قال الثوري وأصحاب الرأي، ويتمسك مَن لا يرى القراءة خلف الإمام بظاهر هذه الآية، ومن أوجبها قال الآية في غير الفاتحة وإذا قرأ الفاتحة يتبع سكتات الإمام ولا ينازع الإمام في القراءة، والدليل عليه ما أخبرنا أبو عثمان سعيد بن إسماعيل الضبـي ثنا أبو محمد عبد الجبار بن

وأخرجاه في الصحيحين أقصر منه قال: قال رسول الله ﷺ «لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب» (م) عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «من صلى صلاة لم يقرأ فيها بفاتحة الكتاب فهي خداج يقولها ثلاثاً غير تمام فقيل لأبي هريرة إنا نكون وراء الإمام قال اقرأ بها في نفسك» وذكر الحديث وقوله سبحانه وتعالى: ﴿لعلكم ترحمون﴾ يعني لكي يرحمكم ربكم باتباعكم ما أمركم به من أوامره ونواهيه.

﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿واذكر ربك في نفسك﴾ الخطاب للنبي ﷺ ويدخل فيه غيره من أمته لأنه عام لسائر المكلفين. قال ابن عباس: يعني بالذكر القرآن في الصلاة يريد اقرأ سراً في نفسك والفائدة فيه أن انتفاع الإنسان بالذكر إنما يكمل إذا وقع الذكر بهذه الصفة لأن ذكر النفس أقرب إلى الإخلاص والبعد عن الرياء وقيل المراد بالذكر في النفس أن يستحضر في قلبه عظمة المذكور جل جلاله وإذاكان الذكر باللسان عارياً عن ذكر القلب كان عديم الفائدة لأن فائدة الذكر حضور القلب واستشعاره عظمة المذكور عز وجل ﴿تضرعاً﴾ يقال ضرع الرجل يضرع ضراعه إذا خضع وذل واستكان لغيره ﴿وخيفة ودون الجهر من القول﴾ يعني وخوفاً والمعنى تضرع إليّ وخاف عذابي. وقال مجاهد وابن جريج: أمر أن يذكروه في الصدور بالتضرع والاستكانة دون رفع الصوت في الدعاء وهاهنا لطيفة وهي أن قوله سبحانه وتعالى: ﴿واذكر ربك في نفسك﴾ فيه إشعار بقرب العبد من الله عز وجل وهو مقام الرجاء لأن لفظ الرب مشعر بالتربية والرحمة والفضل والإحسان فإذا تذكر العبد إنعام الله عليه وإحسانه إليه فعند ذلك يقوى مقام الرجاء ثم أتبعه بقوله تضرعاً وخيفة وهذا مقام الخوف فإذا حصل في قلب العبد داعية الخوف والرجاء قوي إيمانه والمستحب أن يكون الخوف أغلب على العبد في حال صحته وقوته فإذا قارب الموت ودنا آخر أجله فيستحب أن يغلب رجاؤه على خوفه. عن أنس بن مالك «أن النبي ﷺ دخل على شاب وهو في الموت فقال كيف تجدك؟ قال أرجو الله يا رسول الله وإني أخاف ذنوبي فقال رسول الله ﷺ: «لا يجتمعان في قلب عبد في مثل هذا الموطن إلا أعطاه الله ما يرجو منه وآمنه مما يخاف» أخرجه الترمذي.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿بالغدو﴾ جمع غدوة ﴿والآصال﴾ جمع أصيل وهي ما بين صلاة العصر إلى المغرب والمعنى اذكر ربك بالبكر والعشيات وإنما خص هذين الوقتين بالذكر لأن الإنسان يقوم بالغداة من النوم الذي هو أخو الموت فاستحب له أن يستقبل حالة الانتباه من النوم وهو وقت الحياة من موت النوم بالذكر ليكون أول أعماله ذكر الله عز وجل وأما وقت الآصال وهو آخر النهار فإن الإنسان يريد أن يستقبل النوم الذي هو أخو الموت فيستحب له أن يستقبله بالذكر لأنها حالة تشبه الموت ولعله لا يقوم من تلك النومة فيكون موته على ذكر الله عز وجل وهو المراد من قوله سبحانه وتعالى ﴿ولا تكن من الغافلين﴾ يعني عما يقربك إلى الله عز وجل وقيل إن أعمال العبد تصعد أول النهار

محمد الجراحي ثنا أبو العباس المحبوبي ثنا أبو عيسى الترمذي ثنا هنّاد ثنا عبدة بن سليمان عن محمد بن إسحاق عن مكحول عن محمود بن الربيع عن عبادة بن الصامت قال صلّى النبيُّ ﷺ الصبح فثقلت عليه القراءة، فلما انصرف قال: «إنّي أراكم تقرؤون وراءَ إمامِكم»؟ قال: قال: قلنا يا رسول الله: إيْ والله، قال: «لا تفعلوا إلاّ بأمّ القرآن فإنه لا صلاة لمَن لم يقرأ بها».

قوله تعالى: ﴿ واذكرْ ربَّك في نفسِك ﴾، قال ابن عباس: يعني بالذكر: القراءة في الصلاة، يريد يقرأ سرّاً في نفسه، ﴿ تضرّعاً وخِيْفَةً ﴾، خوفاً، أي: تتضرع إليّ وتخاف منّي هذا في صلاة السرّ. وقوله: ﴿ ودُونَ الجهرِ منَ القولِ ﴾، أراد في صلاة الجهر لا تجهر جهراً شديداً بل في خفض وسكون، تُسمعُ مَنْ خلفك. وقال مجاهد

وآخره فيصعد عمل الليل عند صلاة الفجر ويصعد عمل النهار بعد العصر إلى المغرب فاستحب له الذكر في هذين الوقتين ليكون ابتداء عمله بالذكر واختتامه بالذكر وقيل: لما كانت الصلاة بعد صلاة الصبح وبعد صلاة العصر مكروهة استحب للعبد أن يذكر الله في هذين الوقتين ليكون في جميع أوقاته مشتغلاً بما يقربه إلى الله عز وجل من صلاة أو ذكر.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسۡجُدُونَ ۩ ٢٠٦﴾

قوله عز وجل: ﴿**إن الذين عند ربك**﴾ يعني الملائكة المقربين لما أمر الله عز وجل رسوله ﷺ والمؤمنين بالذكر في حالة التضرع والخوف أخبر أن الملائكة الذين عنده مع علو مرتبتهم وشرفهم وعصمتهم ﴿**لا يستكبرون عن عبادته**﴾ وطاعته لأنهم عبيده خاضعون لعظمته وكبريائه عز وجل: ﴿**ويسبحونه**﴾ يعني وينزهونه عن جميع النقائص ويقولون سبحان ربنا ﴿**وله يسجدون**﴾ لا لغيره.

فإن قلت: التسبيح والسجود داخلان في قوله تعالى لا يستكبرون عن عبادته لأنهما من جملة العبادة فكيف أفردهما بالذكر؟

قلت: أخبر الله عز وجل عن حال الملائكة أنهم خاضعون لعظمته لا يستكبرون عن عبادته ثم أخبر عن صفة عبادتهم أنهم يسبحونه وله يسجدون ولما كانت الأعمال تنقسم إلى قسمين أعمال القلوب وأعمال الجوارح وأعمال القلوب هي تنزيه الله عن كل سوء وهو الاعتقاد القلبي عبر عنه بقوله: ويسبحونه. وعبر عن أعمال الجوارح بقوله: وله يسجدون وهذه السجدة من عزائم سجود القرآن فيستحب للقارىء والمستمع أن يسجد عند قوله: وله يسجدون ليوافق الملائكة المقربين في عباداتهم (ق) عن عبد الله بن عمر «أن النبي ﷺ كان يقرأ القرآن فيقرأ سورة فيها سجدة فيسجد ونسجد معه حتى ما يجد بعضنا موضعاً لمكان جبهته في غير وقت صلاة» (م) عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «إذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد اعتزل الشيطان يبكي يقول يا ويلتا أمر ابن آدم بالسجود فسجد فله الجنة وأمرت بالسجود فأبيت فلي النار» (م) عن ثوبان مولى رسول الله ﷺ قال سمعت رسول الله ﷺ يقول «عليك بكثرة السجود لله فإنك لا تسجد لله سجدة إلا رفعك الله بها درجة وحط عنك بها خطيئة» والله أعلم بمراده وأسرار كتابه.

وابن جريج: أمر أن يذكروه في الصدور بالتضرّع إليه في الدعاء والاستكانة، دون رفع الصوت والصياح بالدعاء. ﴿ **بالغُدُوِّ والآصَالِ ولا تكنْ مِّنَ الغافلين** ﴾، أي: بالبكر والعشيات، واحد آصال: أصيل، مثل يمين وأيمان، وهو ما بين العصر والمغرب.

﴿ **إنَّ الذينَ عِنْدَ ربِّك** ﴾، يعني الملائكة المقرّبين بالفضل والكرامة، ﴿ **لا يَسْتَكْبِرُون** ﴾، لا يتكبرون، ﴿ **عَنْ عبادته ويُسَبِّحُونَه** ﴾، وينزهونه ويذكرونه، فيقولون: سبحان الله. ﴿ **ولَهُ يَسْجُدُون** ﴾. أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحي أنبأنا أحمد بن الحسن الحيري أنبأنا حاجب بن أحمد الطوسي ثنا عبد الرحيم بن منيب ثنا يعلى بن عبيد عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا قرأ ابنُ آدمَ السّجدةَ فسجدَ اعتزلَ الشيطانُ يبكي، فيقول: يا ويله أُمِرَ هذا بالسجودِ فسجدَ فلَهُ الجنّةُ وأُمرتُ بالسجود فعصيت فليَ النار**». أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي ثنا أبو منصور محمد بن محمد بن سمعان ثنا أبو جعفر محمد بن سمعان ثنا أبو جعفر محمد بن أحمد بن عبد الجبار الرياني ثنا حميد بن زنجويه ثنا محمد بن يوسف ثنا الأوزاعي عن الوليد بن هشام عن معدان قال: سألتُ ثوبان مولى رسول الله ﷺ، قلت: حدّثني حديثاً ينفعني اللّهُ به، قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «**مَا مِنْ عَبْدٍ يسجدُ للّهِ سجدةً إلاّ رفعه اللّهُ بها درجةً وحطَّ عنه بها سيئةً**».

﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾
(قرآن كريم)

تفسير سورة الأنفال

مدنية كلها إلا سبع آيات منها نزلت بمكة وهي من قوله سبحانه وتعالى: ﴿وإذ يمكر بك الذين كفروا﴾ إلى آخر سبع آيات والأصح أنها نزلت بالمدينة وإن كانت الواقعة مكية وهي خمس وسبعون آية وألف وخمس وسبعون كلمة وخمسة آلاف وثمانون حرفاً.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١﴾

قوله سبحانه وتعالى: ﴿يسألونك عن الأنفال﴾ (ق) عن سعيد بن جبير قال: سألت ابن عباس عن سورة الأنفال. قال: نزلت في بدر واختلف أهل التفسير في سبب نزولها فقال ابن عباس لما كان يوم بدر قال رسول الله ﷺ: «من صنع كذا وكذا فله كذا وكذا ومن أتى مكان كذا وكذا فله كذا وكذا ومن قتل قتيلاً فله كذا فتسارع الشباب وبقيت الشيوخ تحت الرايات فلما فتح الله عليهم جاؤوا يطلبون ما جعل لهم النبي ﷺ، فقال لهم الأشياخ: لا تذهبوا به دوننا ولا تستأثروا به علينا فإنا كنا رداءاً لكم ولو انكشفتم إلينا فتنازعوا. فأنزل الله عز وجل: يسألونك عن الأنفال. الآية قال أهل التفسير: قام أبو اليسر بن عمرو الأنصاري أخو بني سلمة فقال: يا رسول الله إنك وعدت أن من قتل قتيلاً فله كذا وكذا وإنا قد قتلنا سبعين وأسرنا سبعين وقام سعد بن معاذ فقال: والله ما منعنا أن نطلب ما طلب هؤلاء زهادة في الآخرة ولا جبن عن العدو ولكن كرهنا أن تعرى مصافك فتعطف عليك خيل من المشركين فيصيبونك. فأعرض عنهما

سُوْرَة الأَنْفَـــالِ

مدنية وهي خمس وسبعون آية. قيل: إلّا سبع آيات من قوله: ﴿ وإذ يمكر بك الذين كفروا ﴾ [٣٠ - ٣٧] إلى آخر سبع آيات، فإنها نزلت بمكة. والأصح أنها نزلت بالمدينة، وإن كانت الواقعة بمكة.

﴿ يسألونَكَ عنِ الأنفالِ ﴾ الآية، قال أهل التفسير: سبب نزول هذه الآية هو أن النبي ﷺ قال يوم بدر: «مَنْ أتى مكان كذا فله من النفل كذا ومَنْ قتلَ قتيلاً فله كذا ومَنْ أسر أسيراً فله كذا»، فلما التقوا تسارع إليه الشبّان وأقام الشيوخ ووجوه الناس عند الرايات، فلما فتح الله على المسلمين جاؤوا يطلبون ما جعل لهم النبي ﷺ، فقال الأشياخ: كنّا دِرْأً لكم ولو انهزمتم لانحرفتم إلينا، فلا تذهبوا بالغنائم دوننا، وقام أبو اليسر بن عمرو الأنصاري أخو بني سلمة فقال: يا رسول الله إنّك وعدت أنّ مَن قتل قتيلاً فله كذا ومَن أسر أسيراً فله كذا وإنّا قد قتلنا منهم سبعين وأسرنا منهم سبعين، فقام سعد بن معاذ رضي الله عنه فقال: والله يا رسول الله ما منعنا أن نطلب ما طلب هؤلاء إلّا زهادة في الآخرة ولا جبن عن العدو، ولكن كرهنا أن تعرّى مصافك فيعطف عليك خيل من المشركين فيصيبوك، فأعرض عنهما رسول الله ﷺ. فقال سعيد: يا رسول الله إن الناس كثير والغنيمة دون ذلك، فإن تعطِ هؤلاء الذي

رسول الله ﷺ فقال سعد: يا رسول الله إن الناس كثير والغنيمة دون ذلك فإن تعط هؤلاء الذين ذكرت لا يبقى لأصحابك كبير شيء فنزلت هذه الآية: يسألونك عن الأنفال وقال محمد بن إسحاق: «أمر رسول الله ﷺ بما في العسكر فجمع فاختلف المسلمون فيه فقال من جمعه هو لنا وكان رسول الله ﷺ نفل كل امرىء ما أصاب وقال الذين كانوا يقاتلون العدو لولا نحن ما أصبتموه وقال الذين يحرسون رسول الله ﷺ لقد كنا نقدر أن نقاتل العدو ولكنا خفنا على رسول الله ﷺ غرة العدو فقمنا دونه فما أنتم بأحق منا فنزلت هذه الآية». .

روى مكحول عن أبي أمامة الباهلي قال: «سألت عبادة بن الصامت عن الأنفال فقال فينا معشر أصحاب بدر نزلت حين اختلفنا في النفل وساءت فيه أخلاقنا فنزعه الله من أيدينا وجعله إلى رسول الله ﷺ فقسمه رسول الله ﷺ بيننا عن بواء» يقول على سواء وكان فيه تقوى الله وطاعة رسول الله ﷺ وإصلاح ذات البين وعن سعد بن أبي وقاص قال: «لما كان يوم بدر جئت بسيف فقلت يا رسول الله إن الله قد شفى صدري من المشركين أو نحو هذا هب لي هذا السيف فقال: «هذا ليس لي ولا لك فقلت: عسى أن يعطي هذا من لا يبلي بلائي فجاءني الرسول فقال «إنك سألتني وليس لي وأنه قد صار لي وهو لك» فنزلت يسألونك عن الأنفال، الآية أخرجه أبو داود والترمذي وقال: حديث حسن صحيح وأخرجه مسلم في جملة حديث طويل يتضمن فضائل سعد ولفظ مسلم فيه. قال: «أصاب رسول الله ﷺ غنيمة عظيمة وإذا فيها سيف فأخذته فأتيت به رسول الله ﷺ فقلت نفلني هذا السيف فأنا قد علمت حاله فقال رده من حيث أخذته فانطلقت به حتى أردت أن ألقيه في القبض لامتني نفسي فرجعت إليه فقلت أعطنيه قال فشد على صوته «رده من حيث أخذته فأنزل الله عز وجل» يسألونك عن الأنفال وقال ابن عباس: كانت المغانم لرسول ﷺ خاصة ليس لأحد فيها شيء وما أصاب سرايا المسلمين من شيء أتوه به فمن حبس منه إبرة أو سلكاً فهو غلول وأما التفسير فقوله سبحانه وتعالى» يسألونك عن الأنفال» استفتاء يعني يسألك أصحابك يا محمد عن حكم الأنفال وعلمها وهو سؤال استفتاء لا سؤال طلب. وقال الضحاك وعكرمة: هو سؤال طِلب وقوله عن الأنفال أي من الأنفال وعن بمعنى من. وقيل: عن

ذكرت لا يبقى لأصحابك كثير شيء، فنزلت، ﴿ **يسألونك عن الأنفال** ﴾ وقال ابن إسحق: أمر رسول الله ﷺ بما في العسكر فجمع فاختلف المسلمون فيه، فقال مَن جمعه هو لنا قد كان رسول الله ﷺ نفل كلَّ امرىء ما أصاب، وقال الذين يقاتلون العدو: لولا نحن ما أصبتموه، وقال الذين كانوا يحرسون رسول الله ﷺ: لقد رأينا أن نقتل العدو وأن نأخذ المتاع ولكنّا خفنا على رسول الله ﷺ كَرّة العدو، وقمنا دونه فما أنتم بأحق به منّا. وروى مكحِول عن أبي أمامة الباهلي قال: سألت عبادة بن الصامت عن الأنفال، قال: فينا معشر أصحاب بدر نزلت حين اختلفنا في النفل وساءت فيه أخلاقنا فنزعه الله من أيدينا فجعله إلى رسول الله ﷺ، فقسمه رسول الله ﷺ بيننا عن بواء، يقول: على السواء. وكان في ذلك تقوى الله وطاعة رسوله وصلاح ذات البين. وقال سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: لمّا كان يوم بدر قتل أخي عمير وقتلت سعيد بن العاص بن أُمية، وأخذت سيفه وكان يسمّى ذا الكثيفة، فأعجبني فجئت به إلى النبي ﷺ، فقلت: يا رسول الله إن الله قد شفى صدري من المشركين فهبْ لي هذا السيف، فقال: «ليس هذا لي ولا لك اذهب فاطرحه في القبض»، فطرحته ورجعت وبي ما لا يعلمه إلّا الله من قتل أخي وأخذ سلاحي، وقلت: عسى أن يعطي هذا السيف مَن لم يبل ببلائي فما جاوزت إلّا قليلاً حتى جاءني رسول الله ﷺ وقد أنزل الله عزّ وجلّ: ﴿ **يسألونك عن الأنفال** ﴾، الآية. فخفت أن يكون قد نزل فيّ شيء فلما انتهيت إلى رسول الله ﷺ قال: «يا سعد إنك سألتني السيف وليس لي وإنه قد صار لي الآن فاذهبْ فخذْه فهو لك». وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كانت المغانم لرسول الله ﷺ خاصة ليس لأحد فيها شيء، وما أصاب سرايا المسلمين من شيء أتوه به فمَن حبس منه إبرةً أو سِلْكاً فهو غلول. قوله: « يسألونك من الأنفال »

صلة أي يسألونك الأنفال والأنفال هي الغنائم في قول ابن عباس وعكرمة ومجاهد وقتادة وأصله الزيادة سميت الغنائم أنفالاً لأنها زيادة من الله عز وجل لهذه الأمة على الخصوص وأكثر المفسرين على أنها نزلت في غنائم بدر. وقال عطاء: هي ما شذ عن المشركين إلى المسلمين بغير قتال من عبد أو امرأة أو متاع فهو للنبي ﷺ يصنع فيه ما يشاء ﴿**قل الأنفال لله والرسول**﴾ أي: قل لهم يا محمد إن الأنفال حكمها لله ورسوله يقسمانها كيف شاؤوا واختلف العلماء في حكم هذه الآية فقال مجاهد وعكرمة والسدي هذة الآية منسوخة فنسخها الله سبحانه وتعالى بالخمس في قوله ﴿**واعلموا أن ما غنمتم من شيء فأن لله خمسه وللرسول**﴾ الآية. وقيل كانت الغنائم لرسول الله ﷺ يقسمها كيف شاء ولمن شاء ثم نسخها الله بالخمس. وقال بعضهم: هذه الآية ناسخة من وجه منسوخة من وجه وذلك أن الغنائم كانت حراماً على الأمم الذين من قبلنا في شرائع أنبيائهم فأباحها الله لهذه الأمة بهذه الآية وجعلها ناسخة لشرع من قبلنا ثم نسخت بآياته الخمس وقال عبد الرحمن بن زيد إنها محكمة وهي إحدى الروايات عن ابن عباس ومعنى الآية على هذا القول قل الأنفال لله والرسول يضعها حيث أمره الله وقد بين الله مصارفها في قوله: ﴿**واعلموا أن ما غنمتم من شيء فإن لله خمسه وللرسول**﴾ الآية. وصح من حديث ابن عمر، قال: بعثنا رسول الله ﷺ في سرية فغنمنا إبلاً فأصاب كل واحد منا اثني عشر بعيراً ونفلنا بعيراً بعيراً أخرجاه في الصحيحين فعلى هذا تكون الآية محكمة وللإمام أن ينفل من شاء من الجيش ما شاء قبل التخميس ﴿**فاتقوا الله**﴾ يعني اتقوا الله بطاعته واتقوا مخالفته واتركوا المنازعة والمخاصمة في الغنائم ﴿**وأصلحوا ذات بينكم**﴾ أي أصلحوا الحال فيما بينكم بترك المنازعة والمخالفة وبتسليم أمر الغنائم إلى الله ورسوله ﴿**وأطيعوا الله ورسوله**﴾ فيما يأمرانكم به وينهيانكم عنه ﴿**إن كنتم مؤمنين**﴾ يعني إن كنتم مصدقين بوعد الله ووعيده قوله سبحانه وتعالى:

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾﴾

﴿**إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم**﴾ لما أمر الله سبحانه وتعالى بطاعته وطاعة رسوله في الآية

أي: عن حكم الأنفال وعلمها، وهو سؤال استخبار لا سؤال طلب. وقيل: هو سؤال طلب. قاله الضحاك وعكرمة. وقوله: ﴿ **عن الأنفال** ﴾ أي: من الأنفال، عن بمعنى من. وقيل: عن صلة أي: يسألونك الأنفال، وهكذا قراءة ابن مسعود بحذف عن. والأنفال: الغنائم، واحدها نفل، وأصله الزيادة، يقال نفلتك وأنفلتك أي زدتك، سمّيت الغنائم أنفالاً لأنها زيادة من الله لهذه الأمة على الخصوص. وأكثر المفسّرين على أن الآية في غنائم بدر. وقال عطاء: هي ما شذّ من المشركين إلى المسلمين بغير قتال من عبد أو أمة ومتاع فهو للنبي ﷺ يصنع به ما شاء. ﴿ **قل الأنفالُ للَّهِ والرّسولِ** ﴾ يُقسمانها كما شاءَا واختلفوا فيه، فقال مجاهد وعكرمة والسدي: هذه الآية منسوخة بقوله عزّ وجلّ: ﴿ واعلموا أنّما غَنِمْتُمْ من شيء فأنّ لله خُمُسَهُ وللرسول ﴾ [الأنفال: ٤١] الآية. كانت الغنائم يومئذ للنبي ﷺ فنسخها الله عزّ وجلّ بالخُمس. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هي ثابتة غير منسوخة، ومعنى الآية: قل الأنفال لله مع الدنيا والآخرة وللرسول يضعها حيث أمره الله تعالى، أي: الحكم فيها لله ولرسوله، وقد بيّن الله مصارفها في قوله عزّ وجلّ: ﴿ واعلموا أنّما غنمتم من شيء فأنّ لله خُمسه وللرسول ﴾ [الأنفال: ٤١] الآية. ﴿ **فاتّقُوا اللّهَ وأصلِحُوا ذاتَ بينِكم** ﴾، أي: اتقوا الله بطاعته وأصلحوا الحال بينكم بترك المنازعة والمخالفة، وتسليم أمر الغنيمة إلى الله والرسول ﷺ. ﴿ **وأطيعُوا اللّهَ ورسولَهُ إن كنتُم مُّؤمنين** ﴾.

﴿ **إنّما المؤمنون** ﴾، يقـول ليس المؤمن الذي يخالف الله ورسوله إنما المؤمنون الصادقون في إيمانهم،

المتقدمة ثم قال بعد ذلك إن كنتم مؤمنين لأن الإيمان يستلزم الطاعة، بيَّن في هذه الآية صفات المؤمنين وأحوالهم فقال سبحانه وتعالى **﴿إنما المؤمنون﴾** ولفظة إنما تفيد الحصر والمعنى ليس المؤمنون الذين يخالفون الله ورسوله إنما المؤمنون الصادقون في إيمانهم الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم أي خضعت وخافت ورقت قلوبهم وقيل إذا خوفوا بالله انقادوا خوفاً من عقابه. وقال أهل الحقائق: الخوف على قسمين: خوف عقاب وهو خوف العصاة، وخوف الهيبة والعظمة وهو خوف الخواص، لأنهم يعلمون عظمة الله عز وجل فيخافونه أشد خوف، وأما العصاة فيخافون عقابه فالمؤمن إذا ذكر الله وجل قلبه وخافه على قدر مرتبته في ذكر الله.

فإن قلت: إنه سبحانه وتعالى قال في هذه الآية وجلت قلوبهم بمعنى خافت وقال في آية أخرى تطمئن قلوبهم بذكر الله فكيف الجمع بينهما؟ قلت: لا منافاة بين هاتين الحالتين لأن الوجل هو خوف العقاب والاطمئنان إنما يكون من ثلج اليقين وشرح الصدر بنور المعرفة والتوحيد وهذا مقام الخوف والرجاء وقد جمعا في آية واحدة وهي قوله سبحانه وتعالى: تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله. والمعنى: تقشعر جلودهم من خوف عقاب الله ثم تلين جلودهم وقلوبهم عند ذكر الله ورجاء ثوابه وهذا حاصل في قلب المؤمنين ثم قال تعالى: **﴿وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً﴾** يعني وإذا قرأت عليهم آيات القرآن زادتهم تصديقاً قاله ابن عباس. والمعنى: أنه كلما جاءهم شيء من عند الله آمنوا به فيزدادون بذلك إيماناً وتصديقاً لأن زيادة الإيمان بزيادة التصديق وذلك على وجهين الوجـه الأول وهو الذي عليه عامة أهل العلم على ما حكاه الواحدي أن كل من كانت الدلائل عنده أكثر وأقوى كان إيمانه أزيد لأن عند حصول كثرة الدلائل وقوتها يزول الشك ويقوى اليقين فتكون معرفته بالله أقوى فيزداد إيمانه.

الوجه الثاني: هو أنهم يصدقون بكل ما يتلى عليهم من عند الله ولما كانت التكاليف متوالية في زمن رسول الله ﷺ فكلما تجدد تكليف صدقوا به فيزدادون بذلك الإقرار تصديقاً وإيماناً ومن المعلوم أن من صدق إنساناً في شيئين كان أكبر ممن يصدقه في شيء واحد فقوله تعالى: **﴿وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً﴾** معناه أنهم كلما سمعوا آية جديدة أتوا بإقرار جديد وتصديق جديد فكان ذلك زيادة في إيمانهم واختلف أناس في أن الإيمان هل يقبل الزيادة والنقص أم لا؟ فالذين قالوا إن الإيمان عبارة عن التصديق القلبي قالوا لا يقبل الزيادة لإجماع أهل اللغة على أن الإيمان هو التصديق والاعتقاد بالقلب وذلك لا يقبل الزيادة ومن قال إن الإيمان عبارة عن مجموع أمور ثلاثة وهي التصديق بالقلب والإقرار باللسان والعمل بالجوارح والأركان فقد استدل على ذلك بهذه الآية من وجهين أحدهما أن قوله زادتهم إيماناً صريح في أن الإيمان يقبل الزيادة ولو كان عبارة عن التصديق بالقلب فقط لما قبل الزيادة وإذا قبل لزيادة فقد قبل النقص.

الوجه الثاني: أنه ذكر في هذه الآية أوصافاً متعددة من أحوال المؤمنين ثم قال سبحانه وتعالى بعد ذلك: أولئك هم المؤمنون حقاً. وذلك يدل على أن تلك الأوصاف داخلة في مسمى الإيمان.

﴿ الذين إذا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلوبُهم ﴾، خافت وفرّقت قلوبهم. وقيل: إذا خُوِّفوا بالله انقادوا خوفاً من عقابه. **﴿ وإذا تُليتْ عليهم آياتُه زادتْهم إيماناً ﴾**، تصديقاً ويقيناً. وقال عمير بن حبيب وكانت له صحبة: إن للإيمان زيادةً ونقصاناً، قيل: فما زيادته؟ قال: إذا ذكرنا الله عزّ وجلّ وحمدناه فذلك زيادته، وإذا سهونا وغفلنا فذلك نقصانه، وكتب عمر بن عبد العزيز إلى عدي بن عدي: إن للإيمان فرائِضَ وشرائعَ وحدوداً وسُنناً فمَن استكملها استكمل الإيمانَ ومَنْ لم يستكملْها لم يستكملِ الإيمان. **﴿ وعلى ربِّهم يتوكّلُون ﴾**، أي يُفوّضون إليه أمورهم ويثقون به ولا يرجون غيره ولا يخافون سواه.

وروي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «الإيمان بضع وسبعون شعبة أعلاها شهادة أن لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق والحياء شعبة من الإيمان» أخرجاه في الصحيحين ففي هذا الحديث دليل على أن الإيمان فيه أعلى وأدنى وإذا كان كذلك كان قابلاً للزيادة والنقص. قال عمير بن حبيب، وكانت له صحبة: إن للإيمان زيادة ونقصاناً. قيل له: فما زيادته؟ قال: إذا ذكرنا الله وحمدناه فذلِك زيادته وإذا سهونا وغفلنا فذلك نقصانه. وكتب عمر بن عبد العزيز إلى عدي: أن للإيمان فرائض وشرائط وشرائع وحدوداً وسنناً فمن استكملها فقد استكمل الإيمان ومن لم يستكملها لم يستكمل الإيمان.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿**وعلى ربهم يتوكلون**﴾ معناه يفوضون جميع أمورهم إليه ولا يرجون غيره ولا يخافون سواه.

واعلم أن المؤمن إذا كان واثقاً بوعد الله ووعيده كان من المتوكلين عليه لا على غيره وهي درجة عالية ومرتبة شريفة لأن الإنسان يصير بحيث لا يبقى له اعتماد في شيء من أموره إلا على الله عز وجل واعلم أن هذه المراتب الثلاث أعني الوجل عند ذكر الله وزيادة الإيمان عند تلاوة القرآن والتوكل على الله من أعمال القلوب ولما ذكر الله سبحانه وتعالى هذه الصفات الثلاث أتبعها بصفتين من أعمال الجوارح فقال سبحانه وتعالى: ﴿**الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون**﴾ يعني يقيمون الصلاة المفروضة بحدودها وأركانها في أوقاتها وينفقون أموالهم فيما أمرهم الله به من الإنفاق فيه ويدخل فيه النفقة في الزكاة والحج والجهاد وغير ذلك من الإنفاق في أنواع البر والقربات ثم قال تعالى: ﴿**أولئك**﴾ يعني من هذه صفتهم ﴿**هم المؤمنون حقاً**﴾ يعني يقيناً لا شك في إيمانهم قال ابن عباس برؤا من الكفر. وقال قتادة: استحقوا الإيمان وأحقه الله لهم وفيه دليل على أنه لا يجوز أن يصف أحد نفسه بكونه مؤمناً حقاً لأن الله سبحانه وتعالى إنما وصف بذلك أقواماً مخصوصين على أوصاف مخصوصة وكل أحد لا يتحقق وجود تلك الأوصاف فيه وهذا يتعلق بمسألة أصولية وهي أن العلماء اتفقوا على أنه يجوز للرجل أن يقول أنا مؤمن واختلفوا في أنه هل يجوز له أن يقول أنا مؤمن حقاً أم لا؟ فقال أصحاب الإمام أبي حنيفة: الأولى أن يقول أنا مؤمن حقاً ولا يجوز أن يقول أنا مؤمن إن شاء الله واستدلوا على صحة هذا القول بوجهين:

الأول: أن المتحرك لا يجوز أن يقول أنا متحرك إن شاء الله وكذا القول في القائم والقاعد، فكذلك هذه المسألة يجب فيها أن يكون المؤمن مؤمناً حقاً، ولا يجوز أن يقول أنا مؤمن إن شاء الله.

الوجه الثاني: أنه سبحانه وتعالى قال ﴿**أولئك هم المؤمنون حقاً**﴾ فقد حكم الله لهم بكونهم مؤمنين حقاً وفي قوله أنا مؤمن إن شاء الله تشكيك فيما قطع الله لهم به وذلك لا يجوز وقال أصحاب الإمام الشافعي رضي الله تعالى عنه الأولى أن يقول الرجل أنا مؤمن إن شاء الله واحتجوا لصحة هذا القول بوجوه: الأول أن الإيمان عندهم عبارة عن الاعتقاد والإقرار والعمل وكون الإنسان آتياً بالأعمال الصالحة المقبولة أمر مشكوك فيه والشك في أحد أجزاء الماهية يوجب الشك في الماهية فيجب أن يقول أنا مؤمن إن شاء الله وإن كان اعتقاده وإقراره صحيحاً وعند أصحاب أبي

﴿ **الذين يقيمونَ الصلاةَ وممّا رزقْناهم يُنفقون** ﴾.

﴿ **أولئك هُمُ المؤمنون حقّاً** ﴾، يعني يقيناً. قال ابن عباس: بَرِئُوا من الكفر. قال مقاتل: حقاً لا شك في إيمانهم. وفيه دليل على أنه ليس لكل أحد أن يصف نفسه بكونه مؤمناً حقاً لأن الله تعالى إنما وصف بذلك قوماً مخصوصين على أوصاف مخصوصة، وكلُّ أحد لا يتحقّق وجود تلك الأوصاف فيه. وقال ابن أبي نجيح: سأل رجل الحسن فقال: أمؤمن أنت؟ فقال: إن كنتَ تسألني عن الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والجنة

حنيفة أن الإيمان عبارة عن الاعتقاد فيخرج العمل من مسمى الإيمان فلم يلزم حصول الشك.

الوجه الثاني: أن قولنا أنا مؤمن إن شاء الله ليس هو على سبيل الشك ولكن إذا قال الرجل أنا مؤمن فقد مدح نفسه بأعظم المدائح فربما حصل له بذلك عجب فإذا قال: إن شاء الله زال عنه ذلك العجب وحصل له الانكسار.

روي أن أبا حنيفة قال لقتادة: لم استثنيت في إيمانك؟ فقال قتادة: اتباعاً لإبراهيم عليه السلام في قوله: ﴿والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين﴾ فقال أبو حنيفة هلا اقتديت به في قوله أولم تؤمن؟ قال: بلى فانقطع قتادة قال بعضهم كان لقتادة أن يقول إن إبراهيم قال بعد قوله بلى ولكن ليطمئن قلبي فطلب مزيد الطمأنينة.

الوجه الثالث: أن الله سبحانه وتعالى ذكر في أول الآية إنما المؤمنون ولفظة إنما تفيد الحصر يعني إنما المؤمنون الذين هم كذا وكذا وذكر بعد ذلك أوصافاً خمسة وهي الخوف من الله والإخلاص لله والتوكل على الله والإتيان بالصلاة كما أمر الله سبحانه وتعالى وإيتاء الزكاة كذلك ثم بعد ذلك قال: أولئك هم المؤمنون حقاً يعني أن من أتى بجميع هذه الأوصاف كان مؤمناً حقاً ولا يمكن لأحد أن يقطع بحصول هذه الصفات له فكان الأولى له أن يقول أنا مؤمن إن شاء الله. وقال ابن أبي نجيح: سأل رجل الحسن فقال أمؤمن أنت؟ فقال الحسن: إن كنت سألتني عن الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والجنة والنار والبعث والحساب فأنا بها مؤمن وإن كنت سألتني عن قوله إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم الآية فلا أدري أنا منهم أم لا. وقال علقمة: كنا في سفر فلقينا قوم فقلنا من القوم؟ فقالوا نحن المؤمنون حقاً فلم ندر ما نجيبهم حتى لقينا عبدالله بن مسعود فأخبرناه بما قالوا قال فما رددتم عليهم قلنا لم نرد عليهم شيئاً قال هلا قلتم لهم أمن أهل الجنة أنتم إن المؤمنين هم أهل الجنة؟ وقال سفيان الثوري: من زعم أنه مؤمن حقاً عند الله ثم لم يشهد أنه في الجنة فقد آمن بنصف الآية دون النصف الآخر.

الوجه الرابع: إن قولنا أنا مؤمن إن شاء الله للتبرك لا للشك فهو كقوله ﷺ «وإنا إن شاء الله بكم لاحقون» مع العلم القطعي أنه لاحق بأهل القبور.

الوجه الخامس: إن المؤمن لا يكون مؤمناً حقاً إلا إذا ختم له بالإيمان ومات عليه وهذا لا يحصل إلا عند الموت، فلهذا السبب حسن أن يقول: أنا مؤمن إن شاء الله. فالمراد صرف هذا الاستثناء إلى الخاتمة. وأجاب أصحاب هذا القول، وهم أصحاب الإمام الشافعي رضي الله تعالى عنهم، عن استدلال أصحاب أبي حنيفة رضي الله تعالى عنهم بقولهم: إن المتحرك لا يجوز أن يقول أنا متحرك إن شاء الله بأن الفرق بين وصف الإنسان بكونه مؤمناً وبين وصفه بكونه متحركاً أن الإيمان يتوقف حاله على الخاتمة والحركة فعل يقيني فحصل الفرق بينهما والجواب عن الوجه الثاني وهو قولهم إنه سبحانه وتعالى قال: ﴿**أولئك هم المؤمنون حقاً**﴾ فقد حكم لهم بكونهم مؤمنين حقاً أنه تعالى حكم للموصوفين بتلك الصفات المذكورة في الآية بكونهم مؤمنين حقاً إذا أتوا بتلك الأوصاف الخمسة ولا يقدر أحد أن يأتي بتلك الأوصاف على الحقيقة ونحن نقول أيضاً إن من أتى بتلك الأوصاف على الحقيقة كان مؤمناً حقاً ولكن لا يقدر على ذلك أحد والله أعلم بمراده وأسرار كتابه.

وقوله تعالى: ﴿**لهم درجات عند ربهم**﴾ يعني لهم مراتب بعضها أعلى من بعض لأن المؤمنين تتفاوت أحوالهم في الأخذ تلك الأوصاف المذكورة فلهذا تتفاوت مراتبهم في الجنة لأن درجات الجنة على قدر الأعمال. قال عطاء:

والنار والبعث والحساب، فأنا بها مؤمن، وإن كنتَ تسألني عن قوله: ﴿ **إنما المؤمنون الذين إذا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قلوبُهم** ﴾ الآية، فلا أدري أمنهم أنا أم لا؟ وقال علقمة: كنّا في سفر فلقينا قوماً فقلنا: مَنِ القوم؟ قالوا: نحن المؤمنون حقاً، فلم ندرِ ما نُجيبهم حتى لقينا عبد الله بن مسعود فأخبرناه بما قالوا، قال: فما رددتم عليهم؟ قلنا: لم

درجات الجنة يرتقون فيها بأعمالهم، وقال الربيع بن أنس: درجات الجنة سبعون درجة ما بين الدرجتين حضر الفرس المضمر سبعين سنة وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ«إن في الجنة مائة درجة ما بين كل درجتين مائة عام» أخرجه الترمذي وله عن أبي سعيد أن النبي ﷺ قال«إن في الجنة مائة درجة لو أن العالمين اجتمعوا في إحداهن لوسعتهم» ﴿ومغفرة﴾ يعني ولهم مغفرة لذنوبهم ﴿ورزق كريم﴾ يعني ما أعدَّ لهم في الجنة وصفه بكونه كريماً لأن منافعه حاصلة لهم دائمة عليهم مقرونة بالإكرام والتعظيم.

﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥ يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ۝٦ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٧﴾

قوله سبحانه وتعالى: ﴿كما أخرجك ربك من بيتك بالحق﴾ اختلفوا في الجالب لهذه الكاف ما هو؟ فقال المبرد: تقديره قل الأنفال لله والرسول وإن كرهوا كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن كرهوا. وقيل: معناه امضِ لأمر ربك في الأنفال وإن كرهوا كما مضيت لأمر ربك في الخروج من البيت لطلب العير وهم كارهون. وقيل: معناه فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم فإن ذلك خير لكم كما أن إخراج محمد ﷺ من بيته بالحق هو خير لكم وإن كرهه فريق منكم. وقيل: هو راجع لقوله سبحانه وتعالى: لهم درجات عند ربهم تقديره وعد الله المؤمنين بالدرجات حق حتى ينجزه الله تعالى كما أخرجك ربك من بيتك **بالحق** وأنجز الوعد بالنصر والظفر. وقيل: هي متعلقة بما بعدها تقديره كما أخرجك ربك من بيتك بالحق على كره فريق منهم كذلك يكرهون القتال ويجادلونك فيه. وقيل: الكاف بمعنى على أي امض على الذي أخرجك ربك من بيتك بالحق فإنه حق. وقيل: الكاف بمعنى القسم تقديره والذي أخرجك ربك من بيتك وجوابه يجادلونك في الحق. وقيل: الكاف بمعنى إذ تقديره واذكر يا محمد إذ أخرجك ربك من بيتك بالحق. قيل: المراد بهذا الإخراج إخراجه من مكة إلى المدينة للهجرة. وقال جمهور المفسرين: المراد بهذا الإخراج هو خروجه من المدينة إلى بدر ومعناه كما أمرك ربك بالخروج من بيتك بالمدينة بالحق يعني بالوحي لطلب المشركين ﴿وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون﴾ يعني للقتال وإنما كرهوه لقلة عددهم وقلة سلاحهم وكثرة عدوهم وسلاحهم

نردّ عليهم شيئاً، قال: أفلا قلتم أمِنْ أهل الجنة أنتم؟ إن المؤمنين أهل الجنة. وقال سفيان الثّوري: مَن زعم أنه مؤمن حقاً عند الله، ثم لم يشهد أنه في الجنة فقد آمن بنصف الآية دون النصف. ﴿ لهم درجاتٌ عندَ ربِّهم ﴾، قال عطاء: يعني درجات الجنة يرتقونها بأعمالهم. وقال الربيع بن أنس: سبعون درجة ما بين كل درجتين حَضَرُ الفرس المضمر سبعين خريفاً. ﴿ ومغفرةٌ ﴾، لذنوبهم ﴿ ورِزْقٌ كريمٌ ﴾، حسن يعني ما أعدّ لهم في الجنة.

قوله تعالى: ﴿ كما أخرجك ربُّك مِن بيتك بالحقِّ ﴾، اختلفوا في الجالب لهذه الكاف التي في قوله: ﴿ كما أخرجكَ ربّك ﴾ قال المبرّد: تقديره الأنفال لله والرسول وإن كرهوا كما أخرجك ربّك من بيتك بالحق وإن كرهوا. وقيل: تقديره امضِ لأمر الله في الأنفال وإن كرهوا كما أمضيت لأمر الله في الخروج من البيت لطلب العِير وهم كارهون. وقال عكرمة: معناه فاتّقوا الله وأصلحوا ذات بينكم فإن ذلك خير لكم كما أن إخراج محمد ﷺ من بيته بالحق خير لكم، وإن كرهه فريق منكم. وقال مجاهد: معناه كما أخرجك ربك من بيتك بالحق على كره فريق منهم، كذلك يكرهون القتال ويجادلون فيه. وقيل: هو راجع إلى قوله: ﴿ لهم درجات عند ربهم ﴾، تقديره: وَعْدُ الدرجات لهم حقٌّ حتى ينجزه الله عزّ وجلّ كما أخرجك ربك من بيتك بالحق، فأنجز الوعد بالنصر والظفر. وقيل: الكاف بمعنى على، تقديره: إمضِ على الذي أخرجك ربّك. وقال أبو عبيدة: هي بمعنى القسم مجـــازاً،

﴿يجادلونك في الحق﴾ وذلك أن المؤمنين لما أيقنوا بالقتال كرهوا ذلك وقالوا لم تعلمنا أنَّا نلقى العدو فنستعد لقتالهم وإنما خرجنا لطلب العير فذلك جدالهم ﴿بعد ما تبين﴾ يعني تبين لهم أنك لا تصنع شيئاً إلا بأمر ربك وتبين لهم صدقك في الوعد ﴿كأنما يساقون إلى الموت﴾ يعني لشدة كراهتهم القتال ﴿وهم ينظرون﴾ يعني إلى الموت شبه حالهم في فرط فزعهم بحال من يجر إلى القتل ويساق إلى الموتِ وهو ينظر إليه ويعلم أنه آتيه.

قوله عز وجل: ﴿وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين﴾ يعني الفرقتين فرقة أبي سفيان مع العير وفرقة أبي جهل مع النفير ﴿أنها لكم﴾ يعني إحدى الفرقتين لكم. قال ابن عباس وعروة بن الزبير ومحمد بن إسحاق والسدي: أقبل أبو سفيان بن حرب من الشام في عير قريش في أربعين راكباً من كفار قريش منهم عمرو بن العاص ومخرمة بن نوفل الزهري ومعهم تجارة كبيرة وهي اللطيمة. يريد باللطيمة، الجمال التي تحمل العطر والبز غير الميرة، حتى إذا كانوا قريباً من بدر، بلغ النبي ﷺ خبرهم فندب أصحابه إليهم وأخبرهم بكثرة المال وقلة العدو وقال: هذه هي عير قريش فيها أموالهم فاخرجوا إليها لعل الله أن ينفلكموها فانتدب الناس فخف بعضهم وثقل بعضهم وذلك أنهم لم يظنوا أن رسول الله ﷺ يلقى حرباً فلما سمع أبو سفيان بمسير رسول الله ﷺ إليه استأجر ضمضم بن عمرو الغفاري فبعثه إلى مكة وأمره أن يأتي قريشاً يستنفرهم ويخبرهم أن محمداً في أصحابه قد عرض لعيرهم فخرج ضمضم سريعاً إلى مكة وكانت عاتكة بنت عبد المطلب قد رأت رؤيا قبل قدوم ضمضم مكة بثلاثة أيام أفزعتها فبعثت إليها أخيها العباس بن عبد المطلب. فقالت: يا أخي والله لقد رأيت الليلة رؤيا أفزعتني وخشيت أن يدخل على قومك منها شر ومصيبة فقال

والذي أخرجك، لأن ﴿ ما ﴾ في موضع الذي، وجوابه ﴿ يجادلونك ﴾، وعليه يقع القسم، تقديره: يجادلونك والله الذي أخرجك ربّك من بيتك بالحق. وقيل: الكاف بمعنى إذْ تقديره: واذكرْ إذْ أخرجك ربّك. وقيل: المراد بهذا الإخراج هو إخراجه من مكة إلى المدينة. والأكثرون على أن المراد منه إخراجه من المدينة إلى بدر، أي: كما أمرك ربّك بالخروج من بيتك إلى المدينة بالحق قيل: بالوحي لطلب المشركين ﴿ وإنّ فريقاً منَ المؤمنين ﴾، منهم، ﴿ لَكَارِهُون ﴾.

﴿ يُجادِلُونَك في الحقّ ﴾، أي: في القتال، ﴿ بعدَ ما تبيّن ﴾، وذلك أن المؤمنين لمّا أيقنوا بالقتال كرهوا ذلك، وقالوا: لم تُعلِمْنا أنّا نلقى العدو فنستعدّ لقتالهم، وإنّما خرجنا للعير، فذلك جدالهم بعد ما تبيّن لهم أنك لا تضع إلاّ ما أمرك، وتبيّن صدقك في الوعد، ﴿ كأنّما يُساقون إلى الموت ﴾ لشدّة كراهيتهم القتال. ﴿ وهم ينظرُون ﴾، فيه تقديم وتأخير، تقديره: وإنّ فريقاً من المؤمنين لكارهون كأنما يُساقون إلى الموت وهم ينظرون يجادلونك في الحق بعدما تبيّن. قال ابن زيد: هؤلاء المشركون جادلوه في الحق كأنما يساقون إلى الموت حين يدعون إلى الإسلام لكراهيتهم إيّاه وهم ينظرون.

قوله تعالى: ﴿ وإذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إحْدَى الطّائفَتين أنّها لكم ﴾، قال ابن عباس وابن الزبير ومحمد بن إسحاق والسدي: أقبل أبو سفيان من الشام في عير لقريش في أربعين راكباً من كبار قريش فيهم عمرو بن العاص ومخرمة بن نوفل الزهري، وفيها تجارة كثيرة وهي اللطيمة حتى إذا كانوا قريباً من بدر، فبلغ النبي ﷺ ذلك فندب أصحابه إليه وأخبرهم بكثرة المال وقلّة العدد، وقال: هذه عير قريش فيها أموالكم فاخرجُوا إليها لعلّ الله تعالى أن يُنفلكموها، فانتدب الناس فخفّ بعضهم وثقل بعضهم، وذلك أنهم لم يظنوا أن رسول الله ﷺ يلقى حرباً، فلما سمع أبو سفيان بمسير النبي ﷺ استأجر ضمضم بن عمرو الغفاري فبعثه إلى مكة وأمره أن يأتي قريشاً فيستنفرهم ويخبرهم أن محمداً قد عرض لعيرهم في أصحابه، فخرج ضمضم سريعاً إلى مكة. وقد رأت عاتكة بنت عبد المطلب قبل قدوم ضمضم مكة بثلاث ليالٍ رؤياً أفزعتها فبعثت إلى أخيها العباس بن عبد المطلب فقالت له: يا

لها وما رأيت؟ قالت: رأيت راكباً أقبل على بعير له حتى وقف بالأبطح ثم صرخ بأعلى صوته ألا فانفروا يا آل غدر إلى مصارعكم في ثلاث فأرى الناس قد اجتمعوا إليه ثم دخل المسجد والناس يتبعونه فبينما هم حوله مثل به بعيره على ظهر الكعبة فصرخ مثلها بأعلى صوته ألا فانفروا يا آل غدر إلى مصارعكم في ثلاث ثم مثل به بعيره على رأس أبي قبيس فصرخ مثلها ثم أخذ صخرة فأرسلها فأقبلت تهوي حتى إذا كانت بأسفل الجبل ارفضت فما بقي بيت من بيوت مكة ولا دار من دورها إلا ودخلها منها فلقة فقال العباس: والله إن هذه الرؤيا فظيعة فاكتميها ولا تذكريها لأحد. ثم خرج العباس فلقي الوليد بن عتبة، وكان صديقاً للعباس، فذكر رؤيا عاتكة له واستكتمه إياها فذكرها الوليد لأبيه عتبة، ففشا الحديث حتى تحدثت به قريش بمكة. قال العباس: فعمدت أطوف بالبيت وأبو جهل بن هشام في نفر من قريش يتحدثون برؤيا عاتكة فغدوت أطوف فلما رآني أبو جهل قال: يا أبا الفضل إذا فرغت من طوافك فأقبل إلينا. قال العباس: فلما فرغت من طوافي أقبلت إليهم حتى جلست معهم فقال لي أبو جهل: يا بني عبد المطلب متى حدثت هذه النبية فيكم قلت: وما ذاك؟ قال: الرؤيا التي رأت عاتكة قلت وما رأت قال يا بني عبد المطلب أما رضيتم أن تتنبأ رجالكم حتى تتنبأ نساؤكم لقد زعمت عاتكة في رؤياها أنه قال انفروا في ثلاث فسنتربص بكم هذه الثلاث فإن يك ما قالت حقاً فسيكون وإن تمض الثلاث ولم يكن من ذلك شيء نكتب عليكم كتاباً بأنكم أكذب أهل بيت في العرب قال العباس فوالله ما كان مني إليه من كبير شيء إلا أني جحدت ذلك وأنكرت أن تكون عاتكة رأت شيئاً ثم تفرقنا فلما أمسيت لم تبق امرأة من بني عبد المطلب إلا أتتني فقلن أقررتم لهذا الفاسق الخبيث أن يقع في رجالكم حتى تناول النساء وأنت تسمع ولم يكن عندك غيرة لشيء مما سمعت. قال: قلت قد والله فعلت ما كان مني إليه من

أخي والله لقد رأيت الليلة رؤيا أفزعتني وخشيت أن يدخل على قومك منها شرّ ومصيبة، فاكتمْ عليّ ما أحدّثك، قال لها: وما رأيت؟ قالت: رأيت راكباً أقبل على بعير له حتى وقف بالأبطح، ثم صرخ بأعلى صوته ألا انفروا يا آل غدر لمصارعكم في ثلاث، فأرى الناس قد اجتمعوا إليه، ثم دخل المسجد والناس يتبعونه فبينما هم حوله مثل بعيره على ظهر الكعبة ثم صرخ بمثلها بأعلى صوته ألا انفروا يا آل غدر لمصارعكم في ثلاث ثم مثل به بعيره على رأس أبي قبيس فصرخ بمثلها، ثم أخذ صخرة فأرسلها فأقبلت تهوي حتى إذا كانت بأسفل الجبل ارفضّت فما بقي بيت من بيوت مكة ولا دار من دُورها إلا دخلتها منها فلقة، فقال العباس: والله إن هذه لرؤيا رأيت! فاكتميها ولا تذكريها لأحد، ثم خرج العباس فلقي الوليد بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس، وكان له صديقاً فذكرها لها واستكتمه إيّاها، فذكرها الوليد لأبيه عتبة ففشا الحديث حتى تحدّثت به قريش، قال العباس: فغدوتُ أطوف بالبيت وأبو جهل بن هشام في رهط من قريش قعود يتحدّثون برؤيا عاتكة، فلما رآني أبو جهل قال: يا أبا الفضل إذا فرغت من طوافك فأقبل إلينا، قال: فلما فرغتُ أقبلت حتى جلست معهم، فقال لي أبو جهل: يا بني عبد المطّلب متى حدثت هذه البيِّنة فيكم؟ قلت: وما ذاك؟ قال: الرؤيا التي رأت عاتكة؟ قلت: وما رأت؟ قال: يا بني عبد المطلب أما رضيتم أن تتنبأ رجالكم حتى تتنبأ نساؤكم؟ قد زعمت عاتكة في رؤياها أنه قال: انفروا في ثلاث فسنتربص بكم هذه الثلاث، فإن يكُ ما قالت حقاً فسيكون، وإنْ تمضِ الثلاث ولم يكن من ذلك شيئاً نكتب عليكم كتاباً إنكم أكذب أهل بيت في العرب، فقال العباس: والله ما كان منّي إليه كبير إلا أني جحدت ذلك وأنكرت أن تكون رأت شيئاً، ثم تفرقنا فلما أمسيت لم تبقَ امرأة من بني عبد المطّلب إلاّ أتتني فقالت: أقررتم لهذا الفاسق الخبيث أن يقع في رحالكم ثم قد تناول النساء وأنت تسمع، ثم لم تكن عندك غيرة لشيء مما سمعت: قال: قلت: والله قد فعلت ما كان مني إليه من كبير، وأيم الله لأتعرضنّ له فإن عاد لأكفينّكه، قال: فغدوت في اليوم الثالث من رؤيا عاتكة وأنا حديد مغضب أرى أن قد فاتني منه أمر أُحبّ أن أُدركه منه، قال: فدخلت المسجد فرأيته فوالله إني لأمشي نحوه

شيء وايم الله لأتعرضن له فإن عاد لأكفيكنه، قال: فغدوت في اليوم الثالث من رؤيا عاتكة وأنا حديد مغضب أرى أني قد فاتني شيء أحب أن أدركه منه قال فدخلت المسجد فرأيته فوالله إني لأمر نحوه أتعرضه ليعود لبعض ما قال فأقع به وكان أبو جهل رجلاً خفيفاً حديد الوجه حديد اللسان حديد النظر إذ خرج نحو باب المسجد يشتد قال العباس: فقلت في نفسي ماله لعنه الله أكل هذا فرقاً مني أن أشاتمه قال فإذا هو قد سمع ما لم أسمع سمع صوت ضمضم بن عمرو وهو يصرخ ببطن الوادي واقفاً على بعيره وقد جدع بعيره وحول رحله وشق قميصه وهو يقول: يا معشر قريش اللطيمة اللطيمة هذه أموالكم مع أبي سفيان وقد عرض لها محمد في أصحابه ولا أرى أن تدركوها الغوث الغوث قال فشغلني عنه وشغله عني ما جاء من الأمر قال: فتجهز الناس سراعاً ولم يتخلف من أشراف قريش أحد إلا أن أبا لهب قد تخلف وبعث مكانه العاص بن هشام بن المغيرة فلما اجتمعت قريش للمسير ذكرت الذي بينها وبين بني بكر بن عبد مناة ابن كنانة من الحرب فقالوا نخشى أن يأتونا من خلفنا فكاد ذلك أن يثنيهم فتبدى لهم إبليس في صورة سراقة بن مالك بن جعشم وكان من أشراف بني بكر فقال أنا جار لكم من أن تأتيكم كنانة من خلفكم بشيء تكرهونه فخرجت قريش سراعاً وخرج رسول الله ﷺ في أصحابه لليال مضت من شهر رمضان حتى بلغ وادياً يقال له ذا قرد فأتاه الخبر عن مسير قريش ليمنعوا عن عيرهم فسار رسول الله ﷺ حتى إذا كان بالروحاء أخذ عيناً للقوم فأخبره بخبرهم وبعث رسول الله ﷺ عيناً له من جهينة حليفاً للأنصار يدعى أريقط فأتاه بخبر القوم وسبقت العير رسول الله ﷺ فنزل جبريل عليه السلام وقال: إن الله وعدكم إحدى الطائفتين إنها لكم إما العير، وإما قريش، وكانت العير أحب إليهم فاستشار رسول

أتعرّضه ليعود لبعض ما قال فادفع به، وكان رجلاً خفيفاً حديد الوجد حديد اللسان حديد النظر، إذا خرج نحو باب المسجد يشتدّ، قال: قلت في نفسي ما له لعنه الله أكلّ هذا فرقاً منّي أن أُشاتمه، قال: فإذا هو قد سمع ما لم أسمع صوت ضمضم بن عمرو وهو يصرخ ببطن الـوادي واقفاً على بعيـره، جدع أنف بعيـره وحوّل رحله وشقّ قميصـه وهـو يقول: يـا معشر قـريش اللطيمة اللطيمـة أموالكم مـع أبي سفيان قـد عرض لهـا محمدٌ في أصحـابه، ولا أرى أن تدركوها، الغوث الغوث قال: فشغلني عنه وشغله عنّي ما جاء به من الأمر، فتجهّز الناس سراعاً فلم يتخلّف من أشراف قريش أحد إلّا أن أبا لهب قد تخلّف وبعث مكانه العاص بن هشام بن المغيرة، فلما اجتمعت قريش للمسير ذكرت الذي بينها وبين بني بكر بن عبد مناف بن كنانة بن الحارث، فقالوا: نخشى أن يأتونا من خلفنا فكاد ذلك أن يثنيهم، فتبدّى لهم إبليس في صورة سُراقة بن مالك بن جعشم وكان من أشراف بني بكر، وقال: أنا جار لكم من أن تأتيكم كنانة من خلفكم بشيء تكرهونه، فخرجوا سراعاً وخرج رسول الله ﷺ في أصحابه في ليالٍ مضت من شهر رمضان حتى إذا بلغ وادياً يقال له ذا قرد، فأتاه الخبر عن مسيرة قريش ليمنعوا عن عيرهم، فخرج رسول الله ﷺ حتى إذا كان بالروحاء أخذ عيناً للقوم فأخبـره بهم، وبعث رسول الله ﷺ أيضاً عيناً له من جهينة حليفاً للأنصار يدعى عبد الله بن أُريقط فأتاه بخبر القوم وسبقت العير رسول الله ﷺ، فنزل جبريل وقال: إن الله وعدكم إحدى الطائفتين إما العير وإما قريشاً، وكانت العير أحبَّ إليهم، فاستشار النبي ﷺ أصحابه في طلب العير وحبُّ النفير، فقام أبو بكر فقال: فأحسن، ثم قام عمر فقال: فأحسن، ثم قام المقداد بن عمرو فقال: يا رسول الله امْضِ لما أراك الله فنحن معك فوالله ما نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: اذهبْ أنت وربّك فقاتلا إنّا هاهنا قاعدون، ولكن نقول: اذهب أنت وربك فقاتلا إنّا معكما مقاتلون، فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد يعني مدينة الحبشة، فجالدنا معك من دونه حتى تبلغه، فقال له رسول الله ﷺ: «خيراً» ودعا له بخير، ثم قال رسول الله ﷺ «أشيروا عليّ أيها الناس» وإنما يريد الأنصار، وذلك أنهم عدد الناس وأنهم حين بايعوه بالعقبة قالوا: يا رسول الله إنّا براء من ذمامك حتى تصل إلى دارنا، فإذا وصلت إلينا فأنـت فـي ذِمامنـا نمنعك مما نمنع به أبناءَنا ونساءَنا،

الله ﷺ أصحابه في طلب العير وحرب النفير فقام أبو بكر فقال وأحسن وقام عمر فقال وأحسن ثم قام المقداد بن عمرو فقال: يا رسول الله امض لما أمرك الله فنحن معك والله ما نقول كما قالت بنو إسرائيل لموسى اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون ولكن نقول اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد ـ يعني مدينة الحبشة ـ لجالدنا معك من دونه حتى نبلغه فقال رسول الله ﷺ له خيراً ودعا له بخير ثم قال رسول الله ﷺ: أشيروا عليّ أيها الناس وإنما يريد الأنصار وذلك لأنهم عدد الناس وأنهم حين بايعوه بالعقبة قالوا: يا رسول الله إنا براء من ذمامك حتى تصل إلى دارنا فإذا وصلت إلينا فأنت في زمامنا فنمنعك مما منع منه أبناءنا ونساءنا. فكان رسول الله ﷺ يتخوف أن لا تكون الأنصار ترى عليها نصرته إلا ممن دهمه بالمدينة من عدوه وأن ليس عليهم أن يسيروا معه إلى عدو من بلادهم فلما قال ذلك رسول الله ﷺ قال له سعد بن معاذ: والله لكأنك تريدنا يا رسول الله. قال: أجل. قال: آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة فامض يا رسول الله لما أردت فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذ البحر فخضته لخضناه معك ما يتخلف منا أحد وما نكره أن تلقى بنا عدونا وعدوك إنا لصبر عند الحرب صدق عند اللقاء ولعل الله عز وجل أن يريك منا ما تقرّ به عينك فسر بنا على بركة الله تعالى، فسرَّ رسول الله ﷺ بقول سعد ونشطه ذلك فقال: سيروا على بركة الله وأبشروا فإن الله عز وجل قد وعدني إحدى الطائفتين والله لكأني أنظر إلى مصارع القوم (م).

عن أنس بن مالك أن عمر بن الخطاب حدثه عن أهل بدر قال: «إن رسول الله ﷺ كان يرينا مصارع أهل بدر بالأمس يقول هذا مصرع فلان غداً إن شاء الله تعالى وهذا مصرع فلان غداً إن شاء الله تعالى وهذا مصرع فلان غداً إن شاء الله تعالى قال عمر فوالذي بعثه بالحق ما أخطؤوا الحدود التي حدها رسول الله ﷺ قال فجعلوا في بئر بعضهم على بعض فانطلق رسول الله ﷺ حتى انتهى إليهم فقال يا فلان ابن فلان ويا فلان ابن فلان هل وجدتم ما وعدكم الله ورسوله حقاً فإني قد وجدت ما وعدني الله حقاً فقال عمر يا رسول الله كيف تكلم أجساداً لا أرواح فيها فقال ما أنتم بأسمع لما أقول منهم غير أنهم لا يستطيعون أن يردوا علي شيئاً» فذلك قوله سبحانه وتعالى وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم يعني طائفة أبي سفيان مع العير وطائفة أبي جهل مع النفير ﴿وتودون﴾ أي وتريدون وتتمنون ﴿أن غير ذات الشوكة تكون لكم﴾ والمعنى: وتتمنون أن العير التي ليس فيها قتال ولا شوكة تكون لكم والشوكة الشدة

فكان رسول الله ﷺ يتخوَّف أن لا تكون الأنصار ترى عليهم نصرته إلّا على مَن دهمه بالمدينة من عدوِّه، وأن ليس عليهم أن يسير بهم إلى عدو من بلادهم، فلما قال ذلك رسول الله ﷺ قال له سعد بن معاذ: والله لَكأنّك تريدنا يا رسول الله؟ قال: «أجل» قال: فإنّا قد آمنّا بك وصدّقناك وشهدنا أن ما جئتنا به هو الحق أعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة، فامضِ يا رسول الله لما أردت فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلّف منّا رجل واحد، وما نكره أن نلقى بنا عدوّنا غداً إنّا لصبرٌ عند الحرب صدق في اللقاء ولعلّ الله تعالى يُريك منّا ما تقرّ به عينك، فَسُرَّ رسول الله ﷺ بقول سعد ونشّطه ذلك، قال: «سيروا على بركة الله وأبشروا فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأني الآن أنظر إلى مصارع القوم». قال ثابت عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «هذا مصرع فلان وهذا مصرع فلان»، قال: ويضع يده على الأرض هاهنا وهاهنا، قال: فما ماط أحدٌ عن موضع يد رسول الله ﷺ فذلك قوله تعالى: ﴿ **وإذْ يعدكمُ اللّهُ إحدى الطائفتين أنّها لكم** ﴾، أي: الفريقين إحداهما أبو سفيان مع العير والأخرى أبو جهل مع النفير، ﴿ **وتَوَدُّون** ﴾، أي: تريدون ﴿ **أنّ غيرَ ذاتِ الشوكة تكونُ لكم** ﴾، يعني العير التي ليس فيها قتال. والشوكة: الشدّة والقوة، ويقال: السلاح. ﴿ **ويُريدُ الله أن يُحِقَّ الحقَّ** ﴾، أي يُظهره ويُعليه، ﴿ **بكلماتِه** ﴾، بأمره إيّاكم بالقتال. وقيل: بعداتـه التي سبقت من إظهاره الدين

والقوة ويقال السلاح ﴿ويريد الله أن يحق الحق﴾ أي يظهر الحق ويعليه ﴿بكلماته﴾ يعني بأمره إياكم بالقتال وقيل بعداته التي سبقت لكم من إظهار الدين وإعزازه ﴿ويقطع دابر الكافرين﴾ أي ويستأصلهم حتى لا يبقى منهم أحد.

﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٨ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ۝٩﴾

﴿ليحق الحق﴾ يعني ليثبت الإسلام ﴿ويبطل الباطل﴾ يعني وينفي الكفر ﴿ولو كره المجرمون﴾ يعني المشركين وفي الآية سؤالان: الأول: أن قوله ويريد الله أن يحق الحق ثم قال بعده ليحق الحق تكرير فما معناه؟. والجواب أنه ليس فيه تكرير؛ لأن المراد بالأول تثبيت ما وعد في هذه الواقعة من النصر والظفر بالأعداء والمراد بالثاني: تقوية القرآن والدين وإظهار منار الشريعة لأن الذي وقع يوم بدر من نصر المؤمنين مع قلتهم وقهر الكافرين مع كثرتهم كان سبباً لإعزاز الدين وقوته ولهذا السبب قرنه بقوله ويبطل الباطل يعني الذي هو الشرك.

السؤال الثاني: الحق حق لذاته والباطل باطل لذاته فما المراد من تحقيق الحق وإبطال الباطل.

والجواب: إن المراد من تحقيق الحق إظهار كون ذلك الحق حقاً والمراد من إبطال ذلك الباطل إظهار كون ذلك الباطل باطلاً وذلك بإظهار دلائل الحق وتقويته. وقمع رؤساء الباطل وقهرهم.

قوله عز وجل: ﴿إذ تستغيثون ربكم﴾ أي واذكر يا محمد إذ تستجيرون بربكم من عدوكم وتطلبون منه الغوث والنصر وفي المستغيثين قولان أحدهما أنه رسول الله ﷺ والمسلمون معه قاله الزهري والقول الثاني: أنه رسول الله ﷺ وحده وإنما ذكره بلفظ الجمع على سبيل التعظيم له (م) عن ابن عباس قال حدثني عمر بن الخطاب قال: «لما كان يوم بدر نظر رسول الله ﷺ إلى المشركين وهم ألف وأصحابه ثلثمائة وبضعة عشر رجلاً فاستقبل نبي الله ﷺ القبلة ثم مد يده فجعل يهتف بربه يقول: اللهم أنجز لي ما وعدتني اللهم آتني ما وعدتني اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض فما زال يهتف بربه ماداً يديه حتى سقط رداؤه عن منكبيه فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه فألقاه على منكبيه ثم التزمه من ورائه وقال يا نبي الله كفاك مناشدتك ربك فإنه سينجز لك ما وعدك فأنزل الله عز جل إذ تستغيثون ربكم ﴿فاستجاب لكم إني ممدكم بألف من الملائكة مردفين﴾ فأمده الله بالملائكة. قال سماك: فحدثني ابن عباس قال: بينما رجل من المسلمين يومئذ يشتد في أثر رجل من المشركين أمامه إذ سمع ضربة بالسوط فوقه وصوت الفارس يقول أقدم حيزوم إذ نظر إلى المشرك أمامه خر مستلقياً فنظر إليه فإذا قد حطم أنفه وشق وجهه كضربة

وإعزازه، ﴿ ويقطعَ دابرَ الكافرين ﴾، أي: يستأصلهم حتى لا يبقى منهم أحد، يعني: كفّار العرب.

﴿ ليُحِقَّ الحقَّ ﴾، ليثبت الإسلام، ﴿ ويُبطلَ الباطل ﴾، أي: يفني الكفر ﴿ ولو كَرِهَ المُجرمون ﴾، المشركون. وكانت وقعة بدر يوم الجمعة صبيحة سبع عشرة ليلة من شهر رمضان.

قوله تعالى: ﴿ إذ تستغيثون ربكم ﴾، تستجيرون به من عدوّكم وتطلبون منه الغوث والنصر. رُوِيَ عن ابن عباس قال: قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لمّا كان يوم بدر نظر رسول الله ﷺ إلى المشركين، وهم ألف وأصحابه ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً، دخل العريش هو وأبو بكر الصديق رضي الله عنه، واستقبل القِبلة ومدّ يده فجعل يهتف بربّه عزّ وجلّ: اللّهمَّ أنجز لي ما وعدتني، اللّهمَّ إنّك إنْ تُهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض، فما زال يهتف بربه عزّ وجلّ ماداً يديه حتى سقط رداؤه عن منكبيه، فأخذ أبو بكر رداءه فألقاه على منكبيه، ثم التزمه من ورائه وقال: يا نبيّ الله كفاك مناشدتُك ربَّك فإنه سينجز لك ما وعدك. فأنزل الله عزّ وجلّ

السيف فأحصى ذلك أجمع وجاء فحدث بذلك رسول الله ﷺ قال: صدقت ذلك من مدد السماء الثالثة. فقتلوا يومئذ سبعين وأسروا سبعين وقوله سبحانه وتعالى فاستجاب لكم، يعني فأجـاب دعاءكم أني ممدكم أصله بأني ممدكم أي مرسل إليكم مدداً ورداءً لكم بألف من الملائكة مردفين، يعني: يردف بعضهم بعضاً بمعنى يتبع بعضهم بعضاً. روي أنه نزل جبريل عليه السلام في خمسمائة وميكائيل عليه السلام في خمسمائة في صور الرجال على خيل بلق عليهم ثياب بيض وعمائم بيض قد أرخوها بين أكتافهم. وروي أن النبي ﷺ لما ناشد ربه وقال أبو بكر إن الله سينجز لك ما وعدك خفق رسول الله ﷺ خفقة وهو في العريش ثم انتبه فقال: يا أبا بكر أتاك نصر الله هذا جبريل أخذ بعنان فرس يقوده على ثناياه النقع (خ).

عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال يوم بدر: «هذا جبريل آخذ برأس فرسه عليه آداة الحرب» يعني آلة الحرب قال ابن عباس: كان سيما الملائكة يوم بدر عمائم بيض ويوم حنين عمائم خضر ولم تقاتل الملائكة في يوم سوى يوم بدر من الأيام وكانوا يكونون فيما سواه عدداً ومدداً. وروي عن أبي أسيد مالك بن ربيعة وكان قد شهد بدراً أنه قال بعد ما ذهب بصره لو كنت معكم اليوم ببدر ومعي بصري لأريتكم الشعب الذي خرجت منه الملائكة وقد تقدم الكلام في سورة آل عمران هل قاتلت الملائكة أم لا والصحيح أنهم قاتلوا يوم بدر لما تقدم من حديث ابن عباس في الذي ضربه بالسوط فحطم أنفه وشق وجهه وكانوا فيما سوى يوم بدر مدداً وعوناً قيل إنهم لم يقاتلوا وإنما نزلوا ليكثروا سواد المسلمين ويثبتوهم ويدل عليه قوله سبحانه وتعالى:

وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ۚ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾

﴿وما جعله الله إلا بشرى﴾ يعني وما جعل الله الإرداف بالملائكة إلا بشرى ﴿ولتطمئن به قلوبكم﴾ وهذا يحقق

﴿ إذْ تستغيثُون ربَّكم ﴾ ﴿ فاستجابَ لكم أنّي مُمدّكم ﴾، مرسلٌ إليكم مدداً ورداءً لكم، ﴿ بألف منَ الملائكة مُرْدِفين ﴾، قرأ أهل المدينة ويعقوب ﴿ مردفين ﴾ بفتح الدال، أي: أردف الله المسلمين وجاء بهم مدداً. وقرأ الآخرون بكسر الدال أي متتابعين بعضهم في إثر بعض، يقال: أردفته وردفته بمعنى تبعته. يُروى أنه نزل جبريل في خمسمائة وميكائيل في خمسمائة في صورة الرجال على خيل بلق عليهم ثياب بيض وعلى رؤوسهم عمائم بيض، قد أرخوا أطرافها بين أكتافهم. ورُوِيَ أنّ النبي ﷺ لمّا ناشد ربَّه عزّ وجلّ وقال أبو بكر: إنّ اللّهَ منجزٌ لك ما وعدك فخفق رسول الله ﷺ خفقة وهو في العريش ثم انتبه، فقال: «يا أبا بكر أتاك نصرُ الله، هذا جبريل آخذ بعنان فرس يقوده على ثناياه النقع». أخبر عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا إبراهيم بن موسى ثنا عبد الوهاب ثنا خالد عن عكرمة عن ابن عباس: أن النبي ﷺ قال يوم بدر: «هذا جبريلُ آخذٌ برأسِ فَرَسِه عليه أداةُ الحرب»، وقال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: كانت سيما الملائكة يوم بدر عمائم بيض ويوم حنين عمائم خضر، ولم تقاتل الملائكة في يوم سوى يوم بدر من الأيام، وكانوا يكونون فيما سواه عدداً ومدداً. ورُوِيَ عن أبي أسيد مالك بن ربيعة قد شهد بدراً أنه قال بعدما ذهب بصره: لو كنت معكم اليوم ببدر ومعي بصري لأريتكم الشِّعبَ الذي خرجت منه الملائكة.

قوله تعالى: ﴿ وما جعلَه اللّهُ ﴾، يعني: الإمداد بالملائكة، ﴿ إلاّ بشرى ﴾، أي: بشارة ﴿ ولِتَطْمَئِنّ به

أنهم إنما نزلوا لذلك لا للقتال والصحيح هو الأول وأنهم قاتلوا يوم بدر ولم يقاتلوا فيما سواه من الأيام.

وقوله تعالى: ﴿**وما النصر إلا من عند الله**﴾ يعني أن الله هو ينصركم أيها المؤمنون فثقوا بنصره ولا تتكلوا على قوتكم وشدة بأسكم وفيه تنبيه على أن الواجب على العبد المسلم أن لا يتوكل إلا على الله تعالى في جميع أحواله ولا يثق بغيره فإن الله تعالى بيده النصر والإعانة ﴿**إن الله عزيز**﴾ يعني أنه تعالى قوي منيع لا يقهره شيء ولا يغلبه غالب بل هو يقهر كل شيء ويغلبه ﴿**حكيم**﴾ يعني في تدبيره ونصره ينصر من يشاء ويخذل من يشاء من عباده.

قوله سبحانه وتعالى: ﴿**إذ يغشيكم النعاس أمنة منه**﴾ أي: واذكروا إذ يلقى عليكم النعاس وهو النوم الخفيف أمنة منه أي أمنا من الله لكم من عدوكم أن يغلبكم قال عبد الله بن مسعود: النعاس في القتال أمنة من الله وفي الصلاة من الشيطان والفائدة في كون النعاس أمنة في القتال أن الخائف على نفسه لا يأخذه النوم فصار حصول النوم وقت الخوف الشديد دليلاً على الأمن وإزالة الخوف. وقيل إنهم لما خافوا على أنفسهم لكثرة عدوهم وعددهم وقلة المسلمين وقلة عددهم وعددهم وعطشوا عطشاً شديداً ألقى عليهم النوم حتى حصلت لهم الراحة وزال عنهم الكلال والعطش وتمكنوا من قتال عدوهم وكان ذاك النوم نعمة في حقهم لأنه كان خفيفاً بحيث لو قصدهم العدو لعرفوا وصوله إليهم وقدروا على دفعه عنهم وقيل في كون هذا النوم كان أمنة من الله أنه وقع عليهم النعاس دفعة واحدة فناموا كلهم مع كثرتهم وحصول النعاس لهذا الجمع العظيم مع وجود الخوف الشديد أمر خارج عن العادة فلهذا السبب قيل إن ذلك النعاس كان في حكم المعجزة لأنه أمر خارق للعادة وقوله سبحانه وتعالى: ﴿**وينزل عليكم من السماء ماء**﴾ يعني المطر ﴿**ليطهركم به**﴾ وذلك أن المسلمين نزلوا يوم بدر على كثيب رمل أعفر تسوخ فيه الأقدام وحوافر الدواب وكان المشركون قد سبقوهم إلى ماء بدر فنزلوا عليه وأصبح المسلمون على غير ماء وبعضهم محدث وبعضهم جنب

قلوبُكم وما النّصر إلاّ منْ عند الله إنّ الله عَزيزٌ حكيم ﴾.

﴿ **إذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ** ﴾، قرأ ابن كثير وأبو عمرو: «يغشاكم» بفتح الياء، ﴿ **النعاس** ﴾ رفع على أن الفعل له، لقوله تعالى في سورة آل عمران: ﴿ أمَنَةً نُعَاساً يَغْشَى طائفةً منكم ﴾ [١٥٤]، قرأ أهل المدينة: «يغشيكم» بضم الياء وكسر الشين خفيف، «النعاس» نصب لقوله تعالى: ﴿ كأنّما أُغْشِيَتْ وجوههم ﴾ [يونس: ٢٧]، وقرأ الآخرون بضم الياء وكسر الشين مشدّد، «النعاس» نصب على أن الفعل لله عزّ وجلّ، لقوله تعالى: ﴿ فغشّاها ما غشى ﴾ [النجم: ٥٤]، والنعاس: النوم الخفيف. ﴿ **أَمَنَةً** ﴾ أمناً ﴿ **منه** ﴾، مصدر أمنت أمناً وأمنةً وأماناً. قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: النعاس في القتال أمنة من الله وفي الصلاة من الشيطان. ﴿ **ويُنزِّلُ عليكم منَ السماءِ ماءً لِّيُطَهِّرَكمْ بِهِ** ﴾، وذلك أن المسلمين نزلوا يوم بدر على كثيب أعفر تسوخ فيه الأقدام وحوافر الدواب، وسبقهم المشركون إلى ماء بدر وأصبح المسلمون بعضهم مُحْدِثين وبعضهم مُجْنِبِينَ، وأصابهم الظمأ ووسوس إليهم الشيطان، وقال: تزعمون أنكم على الحق وفيكم نبي الله وأنكم على الحق وأنكم أولياء الله وقد غلبكم المشركون على الماء وأنتم تصلون محدثين ومجنبين، فكيف ترجون أن تظهروا عليهم؟ فأرسل الله عزّ وجلّ عليهم مطراً سال منه الوادي فشرب المؤمنون واغتسلوا وتوضئوا وسقوا الركاب، وملؤوا الأسقية وأطفأ الغبار ولبّد الأرض حتى ثبتت عليها الأقدام وزالت عنهم وسوسة الشيطان، وطابت أنفسهم، فذلك قوله تعالى: ﴿ **ويُنزّل عليكم من السماء ماء ليطهركم به** ﴾ من الأحداث والجنابة، ﴿ **ويُذْهِبَ عنكم رِجْزَ الشيطان** ﴾، ووسوسته، ﴿ **ولِيَربطَ على قلوبِكم** ﴾، باليقين والصبر، ﴿ **ويُثَبّت به الأقدام** ﴾، حتى لا تسوخ في الرمل بلبيد الأرض. وقيل: يثبت به الأقدام بالصبر وقوّة القلب.

وأصابهم العطش فوسوس لهم الشيطان. وقال: تزعمون أنكم على الحق وفيكم نبي الله وأنتم أولياء الله وقد غلبكم المشركون على الماء وأنتم تصلون محدثين ومجنبين فكيف ترجون أن تظهروا على عدوكم؟ فأنزل الله سبحانه وتعالى مطراً سال منه الوادي فشرب منه المؤمنون واغتسلوا وتوضؤوا وسقوا الركاب وملأوا الأسقية وأطفأ الغبار ولبد الأرض حتى ثبتت عليها الأقدام وزالت عنهم وسوسة الشيطان وطابت أنفسهم وعظمت النعمة من الله عليهم بذلك وكان دليلاً على حصول النصر والظفر، فذلك قوله سبحانه وتعالى: وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به يعني: من الإحداث والجنابة **﴿ويذهب عنكم رجز الشيطان﴾** يعني وسوسته التي ألقاها في قلوبكم **﴿وليربط على قلوبكم﴾** يعني بالنصر واليقين والربط في اللغة الشد وكل من صبر على أمر فقد ربط نفسه عليه قال الواحدي ويشبه أن تكون لفظة على صلة والمعنى وليربط قلوبكم بالصبر وما أوقع فيها من اليقين وقيل: إن لفظة على ليست بصلة لأنها تفيد الاستعلاء فيكون المعنى: أن القلوب امتلأت من ذلك الربط حتى كأنه علا عليها وارتفع فوقها **﴿ ويثبت به الأقدام﴾** يعني أن ذاك المطر لبد الأرض وقوى الرمل حتى تثبتت عليه الأقدام وحوافر الدواب، وقيل المراد به تثبت الأقدام بالصبر وقوة القلب لأن من يكون ضعيف القلب لا يثبت قدمه بل يفر ويهرب عن اللقاء.

وقوله سبحانه وتعالى: **﴿إذ يوحي ربك إلى الملائكة أني معكم﴾** يعني أن الله سبحانه وتعالى أوحى إلى الملائكة الذين أمد بهم النبي ﷺ وأصحابه إني معكم بالنصر والمعونة **﴿فثبّتوا الذين آمنوا﴾** أي: قووا قلوبهم واختلفوا في كيفية هذه التقوية والتثبيت. فقيل: كما أن للشيطان قوة في إلقاء الوسوسة في قلب ابن آدم بالشر، فكذلك للملك قوة في إلقاء الإلهام في قلب ابن آدم بالخير. ويسمى ما يلقي الشيطان: وسوسة، وما يلقي الملك لمة وإلهاماً، فهذا هو التثبيت. وقيل: إن ذلك التثبيت هو حضورهم معهم القتال ومعونتهم لهم أي: ثبتوهم بقتالكم معهم المشركين، وقيل معناه بشروهم بالنصر والظفر فكان الملك يمشي في صورة رجل أمام الصف ويقول أبشروا فإن الله ناصركم عليهم **﴿سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب﴾** يعني الخوف وكان ذلك نعمة من الله على المؤمنين حيث ألقى الرعب والخوف في قلوب الكافرين **﴿فاضربوا فوق الأعناق﴾** قيل هو خطاب مع المؤمنين فيكون منقطعاً عما قبله. وقيل: هو خطاب مع الملائكة فيكون متصلاً بما قبله.

﴿ إِذْ يُوحِي ربُّك إلى الملائكةِ ﴾، الذين أمدّ بهم المؤمنين، **﴿أنّي معكم﴾**، بالعون والنصرة، **﴿فثبّتوا الذينَ آمنُوا ﴾**، أي: قَوُّوا قلوبهم. قيل: ذلك التثبيت حضورهم معهم القتال ومعونتهم، أي: ثبتوهم بقتالكم معهم المشركين. وقال مقاتل: أي: بشّروهم بالنصر، وكان المَلَكُ يمشي أمام الصفّ في صورة الرجل ويقول: أبشروا فإن الله ناصرُكم. **﴿ سَأُلقِي في قلوب الذين كَفرُوا الرُّعْبَ ﴾**، قال عطاء: يريد الخوف من أوليائي، **﴿ فاضْرِبُوا فوقَ الأعناق ﴾**، قيل: هذا خطاب مع المؤمنين. وقيل: هذا خطاب مع الملائكة، وهو متصل بقوله: **﴿ فثبّتوا الذين آمنوا ﴾**، وقوله: **﴿ فوق الأعناق ﴾** قال عكرمة: يعني الرؤوس لأنها فوق الأعناق. وقال الضحّاك: معناه فاضربوا الأعناق، وفوق صلة كما قال تعالى: **﴿ فإذا لقيتُم الذين كفروا فضربَ الرقاب ﴾** [محمد: ٤]. وقيل: معناه فاضربوا على الأعناق. فوق بمعنى: على. **﴿ واضْرِبُوا منهم كُلَّ بَنَان ﴾**، قال عطية: يعني كل مفصل. وقال ابن عباس وابن جريج والضحاك: يعني الأطراف. والبَنَانُ جمع بنانة، وهي أطراف أصابع اليدين والرجلين. قال ابن الأنباري: ما كانت الملائكة تعلم كيف يقتل الآدميون، فعلّمهم الله عزّ وجلّ. أخبرنا إسماعيل بن عبد القادر الجرجاني أنا عبد الغافر بن محمد الفارسي أنا محمد بن عيسى الجلودي ثنا إبراهيم بن محمد بن سفيان ثنا مسلم بن الحجّاج ثنا زهير بن حرب ثنا عمرو بن يونس الحنفي ثنا عكرمة بن عمّار ثنا أبو زميل هو سماك الحنفي ثنا عبد الله بن عباس قال: بينما رجل من المسلمين يومئذ يشتدّ في أثر رجل من المشركين أمامه إذ سمع ضربة بالسوط

قال ابن الأنباري: ما كانت الملائكة تعرف تقتل بني آدم فعلمهم الله ذلك بقوله تعالى فاضربوا فوق الأعناق. قال عكرمة: يعني الرؤوس لأنها فوق الأعناق. وقال الضحاك: معناه فاضربوا الأعناق وفوق صلة. وقيل: معناه فاضربوا على الأعناق فتكون فوق بمعنى على ﴿**واضربوا منهم كل بنان**﴾ يعني كل مفصل. وقال ابن عباس: يعني الأطراف وهي جمع بنانة وهي أطراف أصابع اليدين سميت بذلك لأن بها صلاح الأحوال التي يمكن الإنسان أن يبين ما يريد أن يعمله بيديه وإنما خصت بالذكر من دون سائر الأطراف لأجل أن الإنسان بها يقاتل وبها يمسك السلاح في الحرب. وقيل: إنه سبحانه وتعالى أمرهم بضرب أعلى الجسد وهو الرأس وهو أشرف الأعضاء وبضرب البنان وهو أضعف الأعضاء فيدخل في ذلك كل عضو في الجسد. وقيل: أمرهم بضرب الرأس وفيه هلاك الإنسان وبضرب البنان وفيه تعطيل حركة الإنسان عن الحرب لأن بالبنان يتمكن من مسك السلاح وحمله والضرب به فإذا قطع بنانه تعطل عن ذلك كله. روي عن أبي داود المازني، وكان شهد بدراً، قال: إني لأتبع رجلاً من المشركين لأضربه إذ وقع رأسه قبل أن يصل إليه سيفي فعرفت أنه قد قتله غيري. وعن سهل بن حنيف قال: لقد رأيتنا يوم بدر وإن أحدنا ليشير بسيفه إلى المشرك فيقع رأسه عن جسده قبل أن يصل إليه السيف، وروى عكرمة عن أبي رافع مولى رسول الله ﷺ قال: كنت غلاماً للعباس بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ وكان الإسلام قد دخل علينا أهل البيت فأسلمت أم الفضل وأسلمت وكان العباس يهاب قومه ويكره خلافهم وكان يكتم إسلامه وكان ذا مال كثير متفرق في قومه وكان عدو الله أبو لهب قد تخلف عن بدر وبعث مكانه العاص بن هشام بن المغيرة فلما جاء الخبر عن مقتل أصحاب بدر كبته الله وأخزاه ووجدنا في أنفسنا قوة وعزاً، قال أبو رافع وكنت رجلاً ضعيفاً أعمل القداح وأنحتها في حجرة زمزم فوالله إني لجالس أنحت القداح وعندي أم الفضل جالسة إذ أقبل الفاسق أبو لهب يجر رجليه حتى جلس على طنب الحجرة فكان ظهره إلى ظهري فبينما هو جالس إذ قال الناس: هذا أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب قد قدم فقال أبو لهب: إليّ يا ابن أخي فعندك الخبر اليقين فجلس إليه والناس قيام عليه فقال أبو لهب: يا ابن أخي خبرني كيف كانت أحوال الناس؟

فوقه، وصوت الفارس يقول أقدم حيزوم إذ نظر إلى المشرك أمامه خرّ مستلقياً فنظر إليه فإذا هو قد حطّم أنفه وشقّ وجهه لضربة السوط فأحضر ذلك أجمع، فجاء الأنصاري فحدّث رسولَ الله ﷺ فقال: «صدقتَ ذلك من مَددِ السماء الثالثة». فقتلوا يومئذ سبعين وأسروا سبعين. ورُوِيَ عن أبي داود المازني وكان شهد بدراً قال: إني لأتبع رجلاً من المشركين لأضربه إذ وقع رأسه قبل أن يصل إليه سيفي، فعرفت أنه قد قتله غيري. ورَوى أبو أُمامة بن سهل بن حنيف عن أبيه قال: لقد رأيتنا يوم بدر وإن أحدنا ليشير بسيفه إلى المشرك فيقع رأسه عن جسده قبل أن يصل إليه السيف. وقال عكرمة: قال أبو رافع مولى رسول الله ﷺ: كنتُ غلاماً للعباس بن عبد المطلب رضي الله عنه، وكان الإسلام قد دخلنا أهل البيت وأسلمتْ أُمُّ الفضل وأسلمتُ وكان العباس يهاب قومه ويكره خلافهم، وكان يكتم إسلامه، وكان ذا مال كثير متفرّق في قومه، وكان أبو لهب عدوّ الله قد تخلّف عن بدر وبعث مكانه العاص بن هشام بن المغيرة، فلما جاء الخبر عن مصاب أصحاب بدر كَبَته الله وأخزاه، ووجدنا في أنفسنا قوةً وعزّاً وكنتُ رجلاً ضعيفاً وكنت أعمل القداح وأنحتها في حجرة زمزم، فوالله إني لجالس أنحت القداح وعند أُم الفضل جالسة إذ أقبل الفاسق أبو لهب يجرّ رجليه حتى جلس على طنب الحجرة، فكان ظهره إلى ظهري فبينا هو جالس إذ قال الناس هذا أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب قد قَدِمَ، فقال أبو لهب: إليّ يا ابن أخي فعندك الخبر، فجلس إليه والناس قيام عليه، قال: يا ابن أخي أخبرني كيف كان أمر الناس؟ قال: لا شيء والله إن كان إلاّ أن لقيناهم فمنحناهم أكتافنا يقتلوننا ويأسروننا كيف شاؤوا وأيمُ الله مع ذلك ما لمت الناس لقينا رجالاً بيضاً على خيل بلق بين السماء والأرض، لا والله ما تليق شيئاً ولا يقوم لها شيء، قال أبو رافع فرفعت طنب الحجرة بيدي، ثم

قال: لا شيء والله إن كان إلا أن لقيناهم فمنحناهم أكتافنا يقتلوننا ويأسروننا كيف شاؤوا وايم الله ما لمت الناس لقينا رجالاً بيضاء على خيل بلق بين السماء والأرض والله لا يتلقاهم شيء ولا يقوم لهم شيء. قال أبو رافع: فرفعت طرف الحجرة بيدي وقلت تلك والله الملائكة فرفع أبو لهب يده فضرب وجهي ضربة شديدة فساورته فاحتملني فضرب بي الأرض ثم برك على صدري وكنت رجلاً ضعيفاً، فقامت إليه أم الفضل بعمود من عمد الحجرة فضربته به ضربة ففلقت رأسه شجة منكرة، وقالت: تستضعفه إن غاب عنه سيده فقام مولياً ذليلاً فوالله ما عاش إلا سبع ليال حتى رماه الله تعالى بالعدسة فقتلته. وروى مقسم عن ابن عباس قال: كان الذي أسر العباس أبو اليسر كعب بن عمرو أخو بني سلمة وكان أبو اليسر رجلاً مجموعاً وكان العباس رجلاً جسيماً فقال رسول الله ﷺ لأبي اليسر كيف أسرت العباس؟ قال: يا رسول الله لقد أعانني عليه رجل ما رأيته قبل ذلك ولا بعده هيئته كذا وكذا فقال رسول الله ﷺ: لقد أعانك عليه ملك كريم. وكانت وقعة بدر في صبيحة يوم الجمعة السابع عشر من رمضان في السنة الثانية من الهجرة النبوية.

ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿**ذلك**﴾ يعني الذي وقع من القتل والأسر يوم بدر ﴿**بأنهم شاقوا الله ورسوله**﴾ يعني بأنهم خالفوا الله ورسوله. والمشاقة: المخالفة، وأصلها المجانبة، كأنهم صاروا في شق وجانب عن شق المؤمنين وجانبهم وهذا مجاز معناه أنهم شاقّوا أولياء الله وهم المؤمنون أو شاقوا دين الله ثم قال سبحانه وتعالى: ﴿**ومن يشاقق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب**﴾ يعني أن الذي نزل بهم في ذلك اليوم من القتل والأسر شيء قليل فيما أعد الله لهم من العقاب يوم القيامة ثم قال تعالى: ﴿**ذلكم**﴾ إشارة إلى القتل والأسر الذي نزل بهم ﴿**فذوقوه**﴾ يعني عاجلاً في الدنيا لأن ذلك يسير بالإضافة إلى المؤجل الذي أعده الله لهم في الآخرة من العذاب وهو قوله: ﴿**وأن للكافرين عذاب النار**﴾ يعني في الآخرة، عن ابن عباس قال: لما فرغ رسول الله ﷺ من بدر قيل له عليك بالعير ليس من دونها شيء

قلت: تلك والله الملائكة، قال: فرفع أبو لهب يده فضرب وجهي ضربة شديدة، فساورته فاحتملني فضرب بي الأرض ثم برك عليّ يضربني، وكنت رجلاً ضعيفاً فقامت أُمُّ الفضل إلى عمود من عمود الحجرة فأخذته فضربته به ضربة فلقت في رأسه شجّة منكرة، وقالت: تستضعفه إن غاب عنه سيّده؟ فقام مُولّياً ذليلاً فوالله ما عاش إلّا سبع ليالي حتى رماه الله بالعدسة فقتله. وروَى مقسم عن ابن عباس قال: كان الذي أسر العباس أبو اليسر كعب بن عمرو أخا بني سلمة، وكان أبو اليسر رجلاً مجموعاً وكان العباس رجلاً جسيماً، فقال رسول الله ﷺ لأبي اليسر: «كيف أسرتَ العباس»؟ قال: يا رسول الله لقد أعانني عليه رجل ما رأيتُه قبل ذلك ولا بعده، هيئتُه كذا وكذا، فقال رسول الله ﷺ: «لقد أعانك عليه ملك كريم».

﴿ ذلك بأنّهم شاقُّوا الله ﴾، خالفوا الله، ﴿ ورسولَه ومَن يُشاقِقِ اللَّهَ ورسولَهُ فإنّ اللَّهَ شديدُ العقاب ﴾.

﴿ ذلكم ﴾، أي: هذا العذاب والضرب الذي عجّلته لكم أيها الكفّار ببدر، ﴿ فذُوقُوه ﴾، عاجلاً، ﴿ وأنّ للكافرين ﴾، أي: واعلموا وأيقنوا أن للكافرين أجلاً في الميعاد، ﴿ عذابَ النّار ﴾ روى عكرمة عن ابن عباس قال: قيل لرسول الله ﷺ حين فرغ من بدر: عليك بالعير ليس دونها شيء فناداه العباس وهو أسير في وثاقه لا يصلح

قال فناداه العباس من وثاقه لا يصلح لك لأن الله وعدك إحدى الطائفتين وقد أعطاك الله ما وعدك قال: صدقت، أخرجه الترمذي وقال حديث حسن.

قوله عز وجل: ﴿**يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً**﴾ يعني مجتمعين متزاحفين بعضكم إلى بعض والتزاحف التداني في القتال وأصل الزحف مشي مع جر الرجل كانبعاث الصبي قبل أن يمشي وسمي مشي الطائفتين بعضهم إلى بعض في القتال زحفاً لأنها تمشي كل طائفة إلى صاحبتها مشياً رويداً وذلك قبل التداني للقتال، وقال ثعلب: الزحف المشي قليلاً قليلاً إلى الشيء ﴿**فلا تولوهم الأدبار**﴾ يعني فلا تولوهم ظهوركم منهزمين منهم فإن المنهزم يولي ظهره ودبره ﴿**ومن يولهم يومئذ دبره**﴾ يعني ومن ينهزم ويول دبره يوم الحرب والقتال ﴿**إلا متحرفاً لقتال**﴾ يعني إلا منقطعاً إلى القتال يرى عدوه من نفسه الانهزام وقصده طلب الكرة على العدو والعود إليه وهذا هو أحد أبواب الحرب وخدعها ومكايدها.

وقوله تعالى: ﴿**أو متحيزاً إلى فئة**﴾ يعني أو منضماً وصائراً إلى جماعة من المؤمنين يريدون العود إلى القتال ﴿**فقد باء بغضب من الله**﴾ يعني من انهزم من المسلمين وقت الحرب إلا في هاتين الحالتين وهي التحرف للقتال والتحيز إلى فئة من المسلمين فقد رجع بغضب من الله ﴿**ومأواه جهنم وبئس المصير**﴾

(فصل في حكم هذه الآية)

اختلف العلماء في ذلك، فقال أبو سعيد الخدري: هذا في أهل بدر خاصة لأنه ما كان يجوز لهم الانهزام يوم بدر لأن النبي ﷺ كان معهم ولم تكن لهم فئة يتحيزون إليها دون النبي ﷺ ولو انحازوا انحازوا إلى المشركين ولأنها أول غزاة غزاها رسول الله ﷺ بنفسه والمسلمون معه فشدد الله عليهم أمر الانهزام وحرمه عليهم يوم بدر فأما بعد ذلك اليوم فإن المسلمين بعضهم فئة بعض فيكون الفار متحيزاً إلى فئة فلا يكون فراره كبيرة وهذا قول الحسن وقتادة والضحاك قال يزيد بن أبي حبيب: أوجب الله النار لمن فرّ يوم بدر فلما كان يوم أحد قال الله تعالى إنما استزلهم

لك، فقال رسول الله ﷺ: لِمَه؟ قال: لأن الله تعالى وعدك إحدى الطائفتين وقد أعطاك ما وعدك.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ **يا أيّها الذين آمنوا إذا لَقِيتُمُ الذيـن كفروا زَحْفاً** ﴾، أي مجتمعين متزاحفين بعضهم إلى بعض، والتزاحف: التداني في القتال: والزحف مصدر ولذلك لم يجمع، كقولهم: قوم عدل ورضاً. قال الليث: أزحف جماعة يزحفون إلى عدوٍّ لهم بمرّة، فهم الجمع الزحوف. ﴿ **فلا تُوَلّوهُمُ الأدْبارَ** ﴾، يقول: فلا تولّوهم ظهوركم أي لا تنهزمون فإن المنهزم يولّي دُبره.

﴿ **ومَنْ يُوَلِّهم يومئذٍ دُبُرَهُ** ﴾، ظهره، ﴿ **إلاّ متحرّفاً لقتالٍ** ﴾، أي: متعطفاً يرى من نفسه الانهزام، وقصده طلب الغرّة وهو يريد الكرّة، ﴿ **أو متحيّزاً إلى فئةٍ** ﴾، أي: منضمّاً صائراً إلى جماعة من المؤمنين يريد العودة إلى القتال. ومعنى الآية النهي عن الانهزام من الكفّار والتولّي عنهم، إلاّ على نيّة التحرّف للقتال والانضمام إلى جماعة من المسلمين ليستعين بهم ويعود إلى القتال، فمَن ولّى ظهره لا على هذه النيّة لحقه الوعيد، كما قال تعالى: ﴿ **فقدْ باءَ بغضبٍ منَ اللّهِ ومأْواهُ جهنّمَ وبئسَ المصير** ﴾، اختلف العلماء في هذه الآية فقال أبو سعيد الخدري: هذا في أهل بدرٍ خاصة، ما كان يجوز لهم الانهزام لأن النبي ﷺ كان معهم، ولم يكن لهم فئة يتحيّزون إليها دون النبي ﷺ، ولو انحازُوا لانحازُوا إلى المشركين، فأمّا بعد ذلك فإن المسلمين بعضهم فئة لبعض، فيكون الفارّ متحيّزاً إلى فئة فلا يكون فراره كبيرة، وهو قول الحسن وقتادة والضحاك، قال يزيد بن أبي حبيب: أوجب الله النار لمَن فرَّ يوم بدر، فلما كان يوم أُحُد بعد ذلك قال: ﴿ إنّما استزلَّهُمُ الشيطانُ ببعضِ ما كسَبُوا ولقدْ عفَا اللّهُ عنهم ﴾

الشيطان ببعض ما كسبوا ولقد عفا الله عنهم ثم كان يوم حنين بعده فقال سبحانه وتعالى: ﴿ثم وليتم مدبرين ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء﴾ وقال عبد الله بن عمر: كنا في جيش بعثنا رسول الله ﷺ فحاص الناس حيصة فانهزمنا فقلنا يا رسول الله نحن الفرارون قال: لا بل أنتم الكرارون إنا فئة المسلمين. قوله فحاص الناس حيصة، يعني جال الناس جولة يطلبون الفرار من العدو. والمحيص: الهرب. وقال محمد بن سيرين: لما قتل أبو عبيدة جاء الخبر إلى عمر بن الخطاب، فقال: لو انحاز إليّ كنت له فئة أنا فئة كل مسلم.

وقال بعضهم: حكم الآية عام في حق كل من ظهره منهزماً بدليل قوله ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ وهذا خطاب عام فيتناول جميع الصور وإن كانت الآية نزلت في غزاة بدر لكن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب وجاء في الحديث «من الكبائر الفرار من الزحف» وقال عطاء بن أبي رباح: هذه الآية منسوخة بقوله تعالى: ﴿الآن خفف الله عنكم﴾ فليس لقوم أن يفروا من مثلهم فنسخت بذلك إلا في هذه العدة وعلى هذا أكثر أهل العلم أن المسلمين إذا كانوا على الشطر من عدوهم لا يجوز لهم أن يفروا منهم ويولوهم ظهورهم وإن كان العدو أكثر من المثلين جاز لهم أن يفروا منهم قال ابن عباس من فرّ من ثلاثة لم يفر ومن فرّ من اثنين فقد فرّ قوله تعالى:

﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾﴾

﴿فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم﴾ قال مجاهد: سبب نزول هذه الآية أنهم لما انصرفوا عن قتال أهل بدر كان الرجل يقول: أنا قتلت فلاناً، ويقول الآخر: أنا قتلت فلاناً فنزلت هذه الآية والمعنى فلم تقتلوهم بقوتكم ولكن الله قتلهم يعني بنصره إياكم وتقويتكم عليهم وقيل: معناه ولكن الله قتلهم بإمداده إياكم بالملائكة.

قال الزمخشري: الفاء في قوله فلم تقتلوهم جواب شرط محذوف تقديره وإن افتخرتم بقتلهم فلم تقتلوهم أنتم ولكن الله قتلهم ﴿وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى﴾ قال أهل التفسير والمغازي لما ندب رسول الله ﷺ أصحابه،

[آل عمران: ١٥٥]، ثم كان يوم حُنين بعده فقال: ﴿ ثم ولّيتم مُّدبِرين ﴾ [التوبة: ٢٥]، ﴿ ثم يتوبُ اللَّهُ من بعد ذلك على مَن يشاء ﴾ [التوبة: ٢٧]، وقال عبد الله: كنّا في جيش بعثنا رسول الله ﷺ فحاص الناس حيصة فانهزمنا، فقلنا: يا رسول الله نحن الفرّارون، قال: «بل أنتم الكرّارون، إنّا فئة المسلمين». وقال محمد بن سيرين: لمّا قُتل أبو عبيدة جاء الخبر إلى عمر فقال: لو انحاز إليّ كنت له فئة فإنّا فئة كل مسلم. وقال بعضهم: حكم الآية عامّ في حق كلّ مَن ولّى منهزماً. جاء في الحديث: «من الكبائر الفِرارُ من الزحف». وقال عطاء بن أبي رباح: هذه الآية منسوخة بقوله عزّ وجلّ: ﴿ الآن خَفّفَ اللَّهُ عنكم ﴾ [الأنفال: ٦٦]، فليس لقوم أن يفرّوا من مثيلهم فنسخت تلك إلّا في هذه العدّة وعلى هذا أكثر أهل العلم أن المسلمين إذا كانوا على الشطر من عدوّهم لا يجوز لهم أن يفرّوا ويولّوا ظهورهم إلّا متحرفاً لقتالٍ أو متحيّزاً إلى فئة، وإن كانوا أقل من ذلك جاز لهم أن يُولّوا ظهورهم وينحازوا عنهم. قال ابن عباس: مَنْ فرَّ من ثلاثة فلم يفرّ، ومَن فرّ من اثنين فقد فرّ.

قوله تعالى: ﴿ فلمْ تقتلُوهم ولكنّ الله قتَلَهم ﴾، قال مجاهد: سبب نزول هذه الآية أنهم لمّا انصرفُوا عن القتال كان الرجل يقول: أنا قتلتُ فلاناً ويقول الآخر مثله، فنزلت الآية. ومعناه: فلم تقتلوهم أنتم بقوتكم ولكنّ الله قتلهم بنصرته إيّاكم وتقويته لكم. وقيل: ولكن الله قتلهم بإمداد الملائكة. ﴿ وما رَميت إذْ رميتَ ولكنَّ الله رمَى ﴾، قال أهل التفسير والمغازي: ندب رسول الله ﷺ الناس فانطلقوا حتى نزلوا بدراً، ووردتْ عليهم روايـــا قريش،

انطلقوا حتى نزلوا بدراً ووردت عليهم روايا قريش وفيهم أسلم غلام أسود لبني الحجاج وأبو يسار غلام لبني العاص بن سعد فأخذوهما وأتوا بهما إلى رسول الله ﷺ فقال لهما رسول الله ﷺ: أين قريش؟ قالا: هم وراء الكثيب الذي ترى بالعدوة القصوى والكثيب العقنقل. فقال رسول الله ﷺ: كم القوم؟ قالا: كثير. قال: ما عددهم؟ قالا: لا ندري. قال: كم ينحرون كل يوم؟ قالا: يوماً عشرة ويوماً تسعة. فقال رسول الله ﷺ: القوم ما بين التسعمائة إلى ألف. ثم قال لهما: من فيهم من أشراف قريش؟ قالا: عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وأبو البختري بن هشام وحكيم بن حزام والحارث بن عامر وطعمة بن عدي والنضر بن الحارث وأبو جهل بن هشام وأمية بن خلف ونبيه ومنبه ابنا الحجاج وسهيل بن عمرو فقال رسول الله ﷺ هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها. فلما أقبلت قريش ورآها رسول الله ﷺ تصوب من العقنقل، وهو الكثيب الرمل جاء إلى الوادي. فقال: «اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تحادّك وتكذب رسولك اللهم فنصرك الذي وعدتني» فأتاه جبريل عليه السلام وقال له: خذ قبضة من تراب فارمهم بها، فلما التقى الجمعان تناول رسول الله ﷺ كفاً من الحصباء عليه تراب فرمى به وجوه القوم وقال: «شاهت الوجوه» يعني قبحت الوجوه فلم يبق مشرك إلا ودخل في عينه وفمه ومنخريه من ذلك التراب شيء فانهزموا وتبعهم المؤمنون يقتلونهم ويأسرونهم وقال قتادة وابن زيد: ذكر لنا أن رسول الله ﷺ أخذ يوم بدر ثلاث حصيات فرمى بحصاة في ميمنة القوم، وبحصاة في ميسرة القوم وبحصاة بين أظهرهم وقال: «شاهت الوجوه» فانهزموا فذلك قوله عز وجل: ﴿وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى﴾ إذ ليس في وسع أحد من البشر أن يرمي كفاً من الحصى في وجوه جيش فلا تبقى عين إلا وقد دخل فيها من ذلك شيء فصورة الرمي صدرت من رسول الله ﷺ وتأثيرها صدر من الله عز وجل فلهذا المعنى صح النفي والإثبات، وقيل. في معنى الآية: وما بلغت إذ رميت ولكن الله بلغ رميك، وقيل: ما رميت بالرعب في قلوبهم إذ رميت بحصياتك ولكن الله رمى بالرعب في قلوبهم حتى انهزموا ﴿وليبلي المؤمنين منه

وفيهم أسلم غلام أسود لبني الحجّاج وأبو يسار غلام لبني العاص بن سعيد، فأتوا بهما رسول الله ﷺ، فقال لهما: «أين قريش»؟ قالا: هم وراء هذا الكثيب الذي ترى بالعدوة القصوى، والكثيب: العقنقل، فقال رسول الله ﷺ لهما: «كَم القوم»؟ قالا: كثير، قال: «ما عِدّتُهم»؟ قالا: لا ندري، قال: «كم ينحرون كلّ يوم»؟ قالا: يوماً عشرة ويوماً تسعة، قال رسول الله ﷺ: «القوم ما بين التسع مائة إلى الألف»، ثم قال لهما: «فمَن فيهم من أشراف قريش»؟ قالا: عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وأبو البختري ابن هشام وحكيم بن حزام والحارث بن عامر، وطعيمة بن عدي والنضر بن الحارث وأبو جهل بن هشام وأُميّة بن خلف، ونبيه ومُنبّه ابنا الحجّاج وسُهيل بن عمرو، فقال رسول الله ﷺ: «هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها». فلما أقبلت قريش ورآها رسول الله ﷺ تصوب من العقنقل وهو الكثيب الذي جاؤوا منه إلى الوادي قال لهم: «هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تحادّك وتُكذّب رسولك، اللّهمَّ فنصرَكَ الذي وعدتني»، فأتاه جبريل عليه السلام وقال له: خذْ قبضةً من تراب فارمِهم بها، فلمّا التقى الجمعان تناول كفّاً من حصى عليه تراب فرمى به في وجوه القوم، وقال: «شاهتِ الوجوه، فلم يبق منهم مشرك إلّا دخل في عينيه وفمه ومِنخَرَيه منها شيء، فانهزموا ورَدَفهم المؤمنون يقتلونهم ويأسرونهم. وقال قتادة بن زيد: ذكر لنا أن رسول الله ﷺ أخذ يوم بدر ثلاثَ حصيات فرمَى بحصاة في ميمنة القوم وبحصاة في ميسرة القوم وبحصاة بين أظهرهم، وقال: «شاهتِ الوجوه»، فانهزموا، فذلك قوله تعالى: ﴿ وما رَميتَ إذْ رميتَ ولكنَّ اللَّهَ رَمَى ﴾، إذْ ليس في وسع أحد من البشر أن يرمي كفّاً من الحصا إلى وجوه جيش فلا يبقى فيهم عين إلّا ويصيبها منه شيء. وقيل: معناه وما بلغت إذْ رميت ولكنّ الله بلّغ. وقيل: وما رميت بالرعب في قلوبهم إذْ رميتِ بالحصباء ولكنّ الله رمى بالرعب في قلوبهم حتى انهزموا، ﴿ وليُبْليَ المؤمنينَ منه بلاءً حسناً ﴾، أي: ولينعم على المؤمنين منه نعمةً

بلاء حسناً﴾ يعني ولينعم على المؤمنين نعمة عظيمة بالنصر والغنيمة والأجر والثواب فقد أجمع المفسرون على أن البلاء هنا بمعنى النعمة ﴿إن الله سميع﴾ يعني لدعائكم ﴿عليم﴾ يعني بأحوالكم.

ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٨﴾ إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ۖ وَإِن تَنتَهُوا۟ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَعُودُوا۟ نَعُدْ وَلَن تُغْنِىَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾

وقوله تعالى: ﴿ذلكم﴾ يعني الذين ذكرت من أمر القتل والرمي والبلاء الحسن من الظفر بهم والنصر عليهم افعلنا ذلك الذي فعلنا ﴿وأن الله﴾ يعني واعملوا أن الله مع ذلك ﴿موهن﴾ أي مضعف ﴿كيد الكافرين﴾ يعني مكرهم وكيدهم قوله عز وجل: ﴿إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح﴾ هذا خطاب مع المشركين الذين قاتلوا رسول الله ﷺ يوم بدر وذلك أن أبا جهل قال يوم بدر، لما التقى الجمعان: اللهم أينا كان أفخر يعني نفسه ومحمداً ﷺ قاطعاً للرحم فأحنه اليوم. وقيل: إنه قال: اللهم أينا كان خيراً عندك فانصره. وقيل: قال: اللهم انصر أهدى الفئتين وخير الفريقين وأفضل الجمعين اللهم من كان أفخر وأقطع لرحمه فأحنه اليوم فأنزل الله عز وجل إن تستفتحوا ومعنى الآية إن تستحكموا الله على أقطع الفريقين للحرم وأظلم الفئتين فينصر المظلوم على الظالم والمحق على المبطل والمقطوع على القاطع (ق).

عن عبد الرحمن بن عوف قال: إني لواقف في الصف يوم بدر، فنظرت عن يميني وعن شمالي، فإذا أنا بغلامين من الأنصار حديثة أسنانهما فتمنيت أن أكون بين أضلع منهما فغمزني أحدهما فقال أي عم هل تعرف أبا جهل قلت نعم فما حاجتك إليه يا ابن أخي. قال: أخبرت أنه يسب رسول الله ﷺ فوالذي نفسي بيده لئن رأيته لا يفارق سوادي سواده حتى يموت الأعجل منا فتعجبت لذلك قال: وغمزني الآخر فقال لي مثلها فلم أنشب أن نظرت إلى أبي جهل يجول في الناس فقلت: ألا تريان هذا صاحبكما الذي تسألاني عنه قال فابتدراه بسيفيهما فضرباه حتى قتلاه ثم انصرفا إلى رسول الله ﷺ فأخبراه فقال: أيكما قتله؟ فقال كل واحد منهما: أنا قتلته. فقال: هل مسحتما سيفكما؟ فقالا: لا فنظر رسول الله ﷺ إلى السيفين فقال كلاكما قتله وقضى رسول الله ﷺ بسلبه لهماوالرجلان معاذ بن عمرو بن الجموح ومعاذ بن عفراء (ق).

عظيمةً بالنصر والغنيمة، ﴿ إنَّ اللَّهَ سميعٌ ﴾ لدعائكم، ﴿ عليمٌ ﴾ بنيّاتكم.

﴿ ذلكمُ ﴾ الذي ذكرت من القتل والرمي والبلاء الحسن، ﴿ وأنّ الله ﴾، قيل: فيه إضمار، أي: واعلموا أنِ الله ﴿ مُوهِنُ ﴾، مضعف، ﴿ كيدَ الكافرين ﴾، قرأ ابن كثير ونافع وأهل البصرة: «مـوهن» بالتشديد والتنوين، «كيـد» نصب، وقرأ الآخرون بالتخفيف والتنوين إلّا حفصاً، فإنه يضيفه ولا ينوّن ويخفض «كيـد».

قوله تعالى: ﴿ إنْ تستفتِحُوا فقدْ جاءَكمُ الفتحُ ﴾، وذلك أن أبا جهل لعنه الله قال يوم بدر لمّا التقى الناس: اللّهمَّ أيّنا؟ أفخر؟ يعني نفسه ومحمداً ﷺ قاطعاً للرحم وأتانا بما لم نعرف فأحنه الغداة، فكان هو المستفتح على نفسه. أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا يعقوب بن إبراهيم بن سعد عن أبيه عن جدّه قال: قال عبد الرحمن بن عوف: إني لفي الصفّ يوم بدر إذ التفتُّ فإذا عن يميني وعن يساري فتيان حديثا السنّ فكأني لم آمن بمكانهما، إذ قال لي أحدهما سرّاً من صاحبه: يا عمّ أرِني أبا جهل، فقلت: يا ابن أخي وما تصنع به؟ فقال: عاهدتُ اللَّهُ عزّ وجلّ إن رأيته أن أقتله أو أموت دونه، فقال لي الآخر سرّاً من صاحبه مثله، فما سرّني أني بين رجلين بمكانهما فأشرت لهما إليه فشدّا عليه

عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ «من ينظر لنا ما صنع أبو جهل فانطلق ابن مسعود فوجده قد ضربه ابنا عفراء حتى برد قال فأخذ بلحيته فقال أنت أبو جهل وفي كتاب البخاري أنت أبو جهل هكذا قاله أنس فقال وهل فوق رجل قتلتموه أو قال قتله قومه وفي رواية فقال أبو جهل فلو غير أكار قتلني» عن عبد الله بن مسعود قال: مررت فإذا أبو جهل صريع قد ضربت رجله فقلت يا عدو الله يا أبا جهل قد أخزى الله الآخر قال: ولا أهابه عند ذلك فقال أعمد من رجل قتله قومه فضربته بسيف غير طائل فلم يغن شيئاً حتى سقط سيفه من يده فضربته حتى برد أخرجه أبو داود وأخرجه البخاري مختصراً. قال: إنه أتى أبا جهل يوم بدر وبه رمق فقال: هل أعمد من رجل قتلتموه. وقال عكرمة: قال المشركون والله ما نعرف ما جاء به محمد فافتح بيننا وبينه بالحق فأنزل الله عز وجل إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح يعني إن تستقضوا فقد جاءكم القضاء. وقال السدي والكلبي: كان المشركون لما خرجوا إلى النبيﷺ من مكة أخذوا بأستار الكعبة وقالوا: اللهم انصر أعلى الجندين وأهدى الفئتين وأكرم الحزبين وأفضل الدينين ففيه نزلت: إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح. يعني: إن تستنصروا فقد جاءكم النصر. وهو على ما سألوه فكان النصر لأهدى الفئتين وهم أصحاب محمد ﷺ.

وقال محمد بن إسحاق: حدثني عبد الله بن أبي بكر قال: قال معاذ بن عمرو بن الجموح: لما فرغ رسول الله ﷺ من غزوة بدر أمر بأبي جهل بن هشام أن يلتمس في القتلى فقال: اللهم لا يعجزك، فلما سمعتها جعلته من شأني فعمدت نحوه فضربته ضربة طيرت قدمه بنصف ساقه قال: وضربني ابنه عكرمة على عاتقي فطرح يدي فتعلقت بجلدة وأجهضني القتال عنه فلقد قاتلت عامة يومي وإني لأسحبها خلفي فلما آذتني جعلت عليها قدمي ثم تمطيت بها حتى طرحتها ثم مر بأبي جهل وهو عفير معاذ بن عفراء فضربه حتى أثبته وتركه وبه رمق فمر به عبد الله بن مسعود قال عبد الله وجدته بآخر رمق فعرفته فوضعت رجلي على عنقه فقلت هل أخزاك الله يا عدو الله قال وبماذا أخزاني أعمد من رجل قتلتموه أخبرني لمن الدبرة قلت لله ولرسوله. روي عن ابن مسعود أنه قال: قال لي أبو جهل لقد ارتقيت يا رويعي الغنم مرتقى صعباً ثم احتززت رأسه ثم جئت به إلى رسول الله ﷺ قلت يا رسول الله هذا رأس عدو الله أبي جهل فقال: آلله الذي لا إله غيره فقلت نعم والذي لا إله غيره ثم ألقيته بين يدي رسول الله ﷺ فحمد الله. وقال أبي بن

مثل الصقرين حتى ضرباه وهما ابنا عفراء. أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا محمد بن المثنى ثنا ابن أبي عدي عن سليمان التيمي عن أنس، قال: قال رسول الله ﷺ يوم بدر: «مَنْ ينظرُ لنا ما صنع أبو جهل»؟ قال: فانطلق ابن مسعود فوجده قد ضربه ابنا عفراء حتى تردّى، قال: فأخذ بلحيته فقال: أنت أبو جهل؟ فقال: وهل فوق رجل قتله قومه أو قتلتموه. قال محمد بن إسحاق حدّثني عبد الله بن أبي بكر قال: قال معاذ بن عمرو بن الجموح لمّا فرغ رسول الله ﷺ من غزوه أمر بأبي جهل بن هشام أن يُلتمس في القتلى، وقال: «اللّهمّ لا يعجزنّك»، قال: فلما سمعتها جعلته من شأني فعمدت نحوه فضربته ضربة طيّرت قدمه بنصف ساقه، قال: وضربني ابنُه عكرمة على عاتقي فطرح يدي فتعلّقت بجلدة من جنبي وأجهضني القتال عنه، فلقد قاتلت عامّة يومي وإنه لأصحبها خلفي، فلما آذتني جعلت عليها قدمي ثم تمطّيت بها حتى طرحتها، ثم مرّ بأبي جهل وهو عفير معاذ بن عفراء فضربه حتى أثبته فتركه وبه رمق فمرّ عبد الله بن مسعود قال عبد الله بن مسعود وجدته بآخر رمق فعرفته فوضعت رجلي على عنقه، ثم قلت: هل أخزاكَ الله يا عدوّ الله؟ قال: وبماذا أخزاني أعمد من رجل قتلتموه، أخبرني لِمَن الدائرة؟ قلت: لله ولرسوله ورُوِيَ عن ابن مسعود أنه قال: قال لي أبو جهل: لقد ارتقيت يا رويعي الغنم مرْتقاً صعباً، ثم احترزت رأسه ثم جئت به إلى رسول الله ﷺ، فقلت: يا رسول الله هذا رأس أبي جهل، فقال: «الله الذي لا إله غيره»؟ قلت: نعم والذي لا إله غيره، ثم ألقيته

كعب: هذا خطاب لأصحاب رسول الله ﷺ قال الله عز وجل للمسلمين إن تستفتحوا أي تستنصروا فقد جاءكم الفتح أي النصر (خ) عن خباب بن الأرت قال: «شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة فقلنا ألا تستنصر لنا ألا تدعو لنا فقال قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض فيجعل فيها ثم يؤتى بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه ما يصده ذلك عن دينه والله ليتمن الله هذا الأمر حتى يصير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله أو الذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون» قلت: استدل البغوي بهذا الحديث على ما فسر به أبي بن كعب الآية وفيه نظر، لأن هذه الواقعة المذكورة في الحديث كانت بمكة والآية مدنية، فلا تعلق للحديث بتفسير الآية والله أعلم ولكن النبي ﷺ لما دعا الله ببدر وسأله إنجاز ما وعده من إحدى الطائفتين وألح في الدعاء والمسألة حتى سقط رداؤه وقال الله سبحانه وتعالى مجيباً له إن تستفتحوا يعني تطلبوا النصر وإنجاز ما وعدكم الله به فقد جاءكم الفتح يعني فقد حصل لكم ما طلبتم فاشكروا الله على ما أنعم به عليكم من إجابة دعائكم وإنجاز ما وعدكم به وهذا القول أولى لأن قوله فقد جاءكم الفتح لا يليق إلا بالمؤمنين.

هذا إذا فسرنا الفتح بالنصر والظفر على الأعداء.

أما إذا فسرناه بالقضاء والحكم لم يمتنع أن يراد به الكفار.

أما قوله سبحانه وتعالى: ﴿**وإن تنتهوا فهو خير لكم**﴾ فهو خطاب للكفار يعني وإن تنتهوا عن قتال محمد ﷺ وعن تكذيبه فهو خير لكم في الدين والدنيا أما في الدين بأن تؤمنوا به وتكفوا عنه فيجعل لكم بذلك الفوز بالثواب والخلاص من العقاب.

وأما في الدنيا فهو الخلاص من القتل والأسر ﴿**وإن تعودوا نعد**﴾ يعني وإن تعودوا لقتال محمد ﷺ نعد بتسليطه عليكم ونصره عليكم ﴿**ولن تغني عنكم فئتكم**﴾ يعني جماعتكم ﴿**شيئاً**﴾ يعني لا تغني عنكم شيئاً ﴿**ولو كثرت**﴾ يعني

بين يد رسول الله ﷺ فحمد الله عزّ وجلّ. وقال السدي والكلبي: كان المشركون حين خرجوا إلى النبي ﷺ من مكة أخذوا بأستار الكعبة وقالوا: اللّهمّ انصر أعلى الجندين وأهدى الفئتين وأكرم الحزبين وأفضل الدينين ففيه نزلت: ﴿ **إنْ تستفتِحُوا فقدْ جاءَكُم الفتحُ** ﴾ أي: إن تستنصروا فقد جاءكم النصر. وقال عكرمة: قال المشركون والله لا نعرف ما جاء به محمد فافتح بيننا وبينه بالحق، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿ **إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح** ﴾ أي: إن تستقضوا فقد جاءكم القضاء. وقال أُبيّ بن كعب: هذا خطاب لأصحاب رسول الله ﷺ، قال الله تعالى للمسلمين: إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح أي: إن تستنصروا فقد جاءكم الفتح والنصر. أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحي أنا أحمد بن الحسن الحيري أنا حاجب بن الطوسي ثنا عبد الرحيم بن منيب ثنا الفضل بن موسى ثنا إسماعيل بن خالد عن قيس عن خباب رضي الله عنه قال: شكونا إلى النبي ﷺ وهو متوسّد بُردة في ظل الكعبة وقد لقينا من المشركين شدّة، فقلنا: ألا تدعو الله فقعد وهو محمرٌ وجهه، وقال: كان الرجل فيمن كان قبلكم يحفر له في الأرض فيجعل فيها فيُجاء بالمِنشار فيوضع فوق رأسه فيشقّ باثنين فما يصدّه ذلك عن دينه، ويمشّط بأمشاط الحديد ما دون لحمه من عظم وعصب وما يصدّه ذلك عن دينه، والله ليتمنّ هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلّا الله أو الذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون. قوله: ﴿ **وإنْ تنتهوا** ﴾، يقول الكفّار: إن تنتهوا عن الكفر بالله وقتال نبيّه ﷺ، ﴿ **فهو خيرٌ لكم وإنْ تعودُوا** ﴾، لحربه وقتاله، ﴿ **نَعُدْ** ﴾ بمثل الواقعة التي أوقعت بكم يوم بدر. وقيل: وإن تعودوا إلى الدعاء والاستفتاح نعد للفتح لمحمد ﷺ، ﴿ **ولنْ تغنيَ عنكم فِئتُكم** ﴾، جماعتكم، ﴿ **شيئاً ولو كثرتْ وَأنَّ اللّهَ معَ المؤمنين** ﴾، قرأ أهل المدينة وابن عامر وحفص «وأن الله»

جماعتكم ﴿وأن الله مع المؤمنين﴾ يعني بالنصر لهم عليكم يا معشر الكفار.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَأَنتُمۡ تَسۡمَعُونَ ۝٢٠ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ۝٢١ ۞إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ ۝٢٢ وَلَوۡ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمۡ خَيۡرٗا لَّأَسۡمَعَهُمۡۖ وَلَوۡ أَسۡمَعَهُمۡ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ ۝٢٣ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ۝٢٤﴾

قوله تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله**﴾ يعني في أمر الجهاد لأن فيه بذل المال والنفس ﴿**ولا تولوا عنه**﴾ يعني عن الرسول ﷺ لأن التولي لا يصح إلا في حق الرسول ﷺ لا في حق الله تعالى والمعنى لا تعرضوا عنه وعن معونته ونصرته في الجهاد ﴿**وأنتم تسمعون**﴾ يعني القرآن يتلى عليكم ﴿**ولا تكونوا كالذين قالوا**﴾ بألسنتهم ﴿**سمعنا وهم لا يسمعون**﴾ يعني وهم لا يتعظون ولا ينتفعون بما سمعوا من القرآن والمواعظ وهذه صفة المنافقين ﴿**إن شر الدواب عند الله**﴾ يعني إن شر من دب على وجه الأرض من خلق الله عند الله ﴿**الصم**﴾ عن سماع الحق ﴿**البكم**﴾ عن النطق به فلا يقولونه ﴿**الذين لا يعقلون**﴾ يعني لا يفهمون عن الله أمره ونهيه ولا يقبلونه وإنما سماهم دواب لقلة انتفاعهم بعقولهم. قال ابن عباس: هم نفر من بني عبد الدار بن قصي كانوا يقولون نحن صم بكم عمي عما جاء به محمد ﷺ فقتلوا جميعاً يوم أحد وكانوا أصحاب اللواء ولم يسلم منهم إلا رجلان مصعب بن عمير وسويبط بن حرملة ﴿**ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم**﴾ يعني سماع تفهم وانتفاع وقبول للحق ومعنى ولو علم الله. قال الإمام فخر الدين: إن كان ما كان حاصلاً فيجب أن يعلمه الله فعدم علم الله بوجوده من لوازم عدمه فلا جرم حسن التعبير عن عدمه في نفسه بعدم علم الله بوجوده وتقدير الكلام لو حصل فيهم خير لأسمعهم الله الحجج والمواعظ سماع تعليم وتفهم ﴿**ولو أسمعهم**﴾ يعني بعد أن علم أنه لا خير فيهم لم ينتفعوا بما يسمعون من المواعظ والدلائل لقوله تعالى: ﴿**لتولوا وهم معرضون**﴾ يعني لتولوا عن سماع الحق وهم معرضون عنه لعنادهم وجحودهم الحق بعد

بفتح الهمزة، أي ولأن الله مع المؤمنين، كذلك ﴿**لنْ تُغنيَ عنكم فئتُكم شيئاً**﴾، وقيل: هو عطف على قوله: ﴿**ذلكم وأن الله مُوهِن كيدَ الكافرين**﴾، وقرأ الآخرون: ﴿**وإنّ الله**﴾ بكسر الألف على الابتداء.

﴿**يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسولَهُ ولا تَوَلَّوا عنه**﴾، أي: لا تُعرضوا عنه، ﴿**وأنتم تسمعون**﴾، القرآن ومواعظه.

﴿**ولا تكونُوا كالذين قالوا سمعنَا وهم لا يسمعُون**﴾، أي: يقولون بألسنتهم سمعنا بآذاننا وهم لا يسمعون، أي لا يتعظون ولا ينتفعون بسماعهم فكأنهم لم يسمعوا.

قوله تعالى: ﴿**إنّ شرَّ الدوابِّ**﴾، أي: شرّ من الدواب على وجه الأرض من خلق الله، ﴿**عندَ اللّهِ الصُّمُّ البُكْمُ**﴾، عن الحق فلا يسمعونه ولا يقولونه، ﴿**الذين لا يعقلُون**﴾ أَمْرَ الله عزّ وجلّ سمّاهم ﴿**دواب**﴾ لقلّة انتفاعهم بعقولهم، كما قال تعالى: ﴿**أولئك كالأنعام بل هم أضلّ**﴾ [الأعراف: ١٧٩]، قال ابن عباس: هم نفر من بني عبد الدار بن قصي، كانوا يقولون: نحن صُمٌّ بُكمٌ عُميٌ عمّا جاء به محمد، فقُتلوا جميعاً بأُحُد، وكانوا أصحاب اللواء لم يسلم منهم إلاّ رجلان مصعب بن عمير وسويبط بن حرملة.

﴿**ولو علمَ اللّهُ فيهم خيراً لأسْمَعَهم**﴾، سماع التُفهّم والقبول، ﴿**ولو أسمعهم**﴾، بعد أن علم أن لا خير

ظهوره وقيل: إنهم كانوا يقولون للنبي ﷺ: أحي لنا قصياً فإنه كان شيخاً مباركاً حتى يشهد لك بالنبوة فنؤمن لك فقال الله سبحانه وتعالى: ولو أحيا لهم قصياً وسمعوا كلامه لتولوا عنه وهم معرضون.

قوله عز وجل: ﴿يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول﴾ يعني أجيبوهما بالطاعة والانقياد لأمرهما﴿ إذا دعاكم﴾ يعني الرسول ﷺ. وإنما وجد الضمير في قوله تعالى إذا دعاكم لأن استجابة الرسول ﷺ استجابة لله تعالى وإنما يذكر أحدهما مع الآخر للتوكيد واستدل أكثر الفقهاء بهذه الآية على أن ظاهر الأمر للوجوب لأن كل من أمره الله ورسوله ﷺ بفعل فقد دعاه إليه وهذه الآية تدل على أنه لا بد من الإجابة في كل ما دعا الله ورسوله إليه (خ).

عن أبي سعيد بن المعلى قال: «كنت أصلي في المسجد فدعاني رسول الله ﷺ فلم أجبه ثم أتيته فقلت يا رسول الله إني كنت أصلي فقال ﷺ ألم يقل الله استجيبوا لله وللرسول إذ دعاكم» ثم ذكر الحديث عن أبي هريرة «أن رسول الله ﷺ خرج على أبي بن كعب وهو يصلي فقال رسول الله ﷺ يا أبيّ فالتفت أبيّ ولم يجبه وصلى أبي وخفف ثم انصرف إلى رسول الله ﷺ فقال السلام عليك يا رسول الله فقال ﷺ ما منعك يا أبي أن تجيبني إذ دعوتك فقال: يا رسول الله إني كنت في الصلاة فقال ﷺ أفلم تجد فيما أوحى الله إلي: استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم قال بلى ولا أعود إن شاء الله تعالى» وذكر الحديث أخرجه الترمذي وقال حديث حسن صحيح.

قيل هذه الإجابة مختصة بالنبي ﷺ فعلى هذا ليس لأحد أن يقطع صلاته لدعاء أحد آخر وقيل لو دعاه أحد لأمر مهم لا يحتمل التأخير فله أن يقطع صلاته.

وقوله تعالى: ﴿لما يحييكم﴾ يعني إذا دعاكم إلى ما فيه حياتكم. قال السدي: هو الإيمان، لأن الكافر ميت فيحيا بالإيمان. وقال قتادة: هو القرآن، لأنه حياة القلوب وفيه النجاة والعصمة في الدارين. وقال مجاهد: هوالحق وقال محمد بن إسحاق: هو الجهاد لأن الله أعزه به بعد الذل. وقيل: هو الشهادة لأن الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون: ﴿واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه﴾ قال ابن عباس: يحول بين المؤمن وبين الكفر ومعاصي الله ويحول بين الكافر وبين الإيمان وطاعة الله. وهذا قول سعيد بن جبير والضحاك ومجاهد. وقال السدي: يحول بين الإنسان وقلبه فلا يستطيع أن يؤمن أو يكفر إلا بإذنه وقد دلت البراهين العقلية على هذا القول لأن أحوال القلوب اعتقادات ودواعي وتلك الاعتقادات والدواعي لا بد أن تتقدمها الإرادة وتلك الإرادة لا بد لها من فاعل مختار وهو الله سبحانه وتعالى فثبت بذلك أن المتصرف في القلب كيف شاء هو الله تعالى (م) عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: سمعت

فيهم ما انتفعوا بذلك، ﴿لتولَّوا عنه وهمْ مُعرِضُون﴾، لعنادهم وجحودهم الحق بعد ظهوره. وقيل: إنهم كانوا يقولون للنبيّ ﷺ: أحيي لنا قصيّاً فإنه كان شيخاً مباركاً حتى يشهد لك بالنبوّة فنؤمن بك. فقال الله عزّ وجلّ: ﴿ولو أسمعهم﴾ كلام قصي ﴿لتولَّوا وهم معرضون﴾.

قوله تعالى: ﴿يا أيّها الذينَ آمنُوا استجيبُوا للَّهِ وللرَّسولِ﴾، يقول: أجيبوهما بالطاعة، ﴿إذا دعاكم﴾، الرسول ﷺ، ﴿لِما يُحييكم﴾، أي: إلى ما يُحييكـم. قـال السدي: وهو الإيمان، لأن الكافر ميت فيحيا بالإيمان. وقال قتادة: هو القرآن فيه الحياة وبه النجاة والعصمة في الدارين. وقال مجاهد: هو الحق. وقال ابن إسحاق: هو الجهاد أعزّكم الله بـه بعـد الـذلّ. وقال القتيبي: بل الشهادة قال الله تعالى في الشهداء: ﴿بل أحياءٌ عند ربِّهم يُرزقون﴾ [آل عمران: ١٦٩]. وروينا أن النبي ﷺ مرّ على أُبيّ بن كعب رضي الله عنه وهو يصلّي فدعاه فعجّل أُبيّ في صلاته، ثم جاء فقال رسـول الله: «مـا منعك أن تجيبني إذْ دعوتُك»؟ قال: كنت في الصلاة، قال: «أليس يقول الله عزّ وجلّ: ﴿يا أيها الذين آمنوا استجيبُوا لله وللرسول إذا دعاكم لِما يُحييكم﴾»؟ فقال: لا

رسول الله ﷺ يقول «إن قلوب بين آدم بين إصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرفه حيث شاء ثم قال رسول الله ﷺ اللهم مصرف القلوب ثبت قلوبنا على طاعتك» عن أنس بن مالك قال: «كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك فقلنا يا رسول الله قد آمنّا بك وبما جئت به فهل تخاف علينا قال: نعم إن القلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف شاء». أخرجه الترمذي وهذا الحديث من أحاديث الصفات، فيجب على المرء المسلم أن يمره على ما جاء مع الاعتقاد الحازم بتنزيه الله تعالى عن الجارحة والجسم. وقيل في معنى الآية: إن الله عز وجل يحول بين المرء وقلبه حتى لا يدري ما يصنع ولا يعقل شيئاً. وقيل: إن القوم لما دعوا إلى القتال والجهاد وكانوا في غاية الضعف والقلة خافت قلوبهم وضاقت صدورهم فقيل لهم: قاتلوا في سبيل الله واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه فيبدل الخوف أمناً والجبن جراءة.

وقوله تعالى: ﴿**وأنه إليه تحشرون**﴾ يعني في الآخرة فيجزي كل عامل بعمله فيثيب المحسن ويعاقب العاصي.

قوله سبحانه وتعالى:

وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٥﴾

﴿**واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة**﴾ لما أخبر الله عز وجل أنه يحول بين المرء وقلبه حذر من وقوع المرء في الفتن والمعنى واحذروا فتنة إن نزلت بكم لم تقتصر على الظالم خاصة بل تتعدى إليكم جميعاً وتصل إلى الصالح والطالح وأراد بالفتنة الابتلاء والاختبار وقيل: تقديره واتقوا فتنة إن لم تتقوها أصابتكم جميعاً الظالم وغير الظالم.

قال الحسن: نزلت هذه الآية في علي وعمار وطلحة والزبير. قال الزبير: لقد قرأنا هذه الآية زماناً وما نرى أنا من أهلها فإذا نحن المعنيون بها يعني ما كان منهم في يوم الجمل. وقال السدي ومجاهد والضحاك وقتادة: هذا في قوم مخصوصين من أصحاب محمد ﷺ أصابتهم الفتنة يوم الجمل. وقال ابن عباس: أمر الله عز وجل المؤمنين أن لا يقروا المنكر بين أظهرهم فيعمهم الله بالعذاب فيصيب الظالم وغير الظالم روى البغوي بسنده عن عدي بن عدي الكندي قال حدثني مولى لنا أنه سمع جدي يقول سمعت رسول الله ﷺ يقول «إن الله لا يعذب العامة بعمل الخاصة

جرم يا رسول الله لا تدعوني إلّا أجبت وإن كنت مصلياً. قوله تعالى: ﴿ **واعْلَمُوا أنّ اللَّهَ يحولُ بينَ المَرْءِ وقَلْبِه** ﴾، قال سعيد بن جبير وعطاء: يحول بين المؤمن والكفر وبين الكافر والإيمان. وقال الضحاك: يحول بين الكافر والطاعة، ويحول بين المؤمن والمعصية. وقال مجاهد: يحول بين المرء وقلبه فلا يعقل ولا يدري ما يعمل. وقال السدي: يحول بين الإنسان وقلبه فلا يستطيع أن يؤمن ولا أن يكفر إلّا بإذنه. وقيل: هو أنّ القوم لمّا دُعُوا إلى القتال في حالة الضعف ساءت ظنونهم واختلجت صدورهم فقيل لهم: قاتلوا في سبيل الله واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه فيبدل الله الخوف أمناً والجبن جُرْأةً وشجاعة. ﴿ **وأنّه إليه تُحشرون** ﴾، فيجزيكم بأعمالكم. أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحي أنا أحمد بن الحسن الحيري أنا حاطب بن أحمد الطوسي أنا محمد بن حمّاد ثنا أبو معاوية عن الأعمش عن أبي سفيان عن أنس بن مالك قال: كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول: «يا مُقَلِّبَ القُلوبِ ثَبِّتْ قلبي على دِينِك»، قالوا: يا رسول الله آمنّا بك وبما جئت به فهل تخاف علينا؟ قال: «القلوبُ بينَ أصبعين من أصابع الله يُقلّبها كيف يشاء».

﴿ **واتّقوا فتنةً** ﴾، اختباراً وبلاءً ﴿ **لا تُصيبنّ** ﴾، قوله: ﴿ **لا تصيبنّ** ﴾ ليس بجزاء محض، ولو كان جزاءً لم تدخل فيه النون، لكنه نفي، وفيه طرف من الجزاء كقوله تعالى: ﴿ يا أيها النمل ادْخُلوا مسَاكِنَكم لا يَحطمنَّكُمْ سليمانُ وجنودُه ﴾ [النمل: ١٨]، وتقديره واتقوا فتنة إنْ لم تتّقوها أصابتكم، فهو كقول القائل: انزل عن الدابّة لا تطرحك ولا تطرحنّك، فهذا جواب الأمر بلفظ النفي، معناه إن تنزل لا تطرحك. قال المفسّرون: نزلت هذه الآية

حتى يروا المنكر بين ظهرانيهم وهم قادرون على أن ينكروه فلا ينكروه فإذا فعلوا ذلك عذب الله العامة والخاصة» والذي ذكره ابن الأثير في جامع الأصول عن عدي بن عميرة الكندي أن النبي ﷺ قال: «إذا عملت الخطيئة في الأرض كان من شهدها فأنكرها كمن غاب عنها ومن غاب عنها فرضيها كان كمن شهدها» أخرجه أبو داود عن جرير بن عبد الله قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول «ما من رجل يكون في قوم يعمل فيهم بالمعاصي يقدرون على أن يغيروا عليه ولم يغيروا إلا أصابهم الله بعقاب قبل أن يموتوا» أخرجه أبو داود. وقال ابن زيد: أراد بالفتنة افتراق الكلمة ومخالفة بعضهم بعضاً (ق) عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ستكون فتن القاعد فيها خير من القائم والقائم فيها خير من الماشي والماشي خير من الساعي من تشرف لها تستشرفه ومن وجد ملجأ أو معاذاً فليعذبه» فإن قلت ظاهر قوله تعالى: ﴿**واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة**﴾ يشمل الظالم وغير الظالم كما تقدم تفسيره فكيف يليق برحمة الله وكرمه أن يوصل الفتنة إلى من يذنب.

قلت: إنه تعالى مالك الملك وخالق الخلق وهم عبيده وفي ملكه يتصرف فيهم كيف يشاء لا يسأل عما يفعل وهم يسألون فيحسن ذلك منه على سبيل المالكية أو لأنه تعالى علم اشتمال ذلك على أنواع المصلحة والله أعلم بمراده.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿**واعلموا أن الله شديد العقاب**﴾ فيه تحذير ووعيد لمن واقع الفتنة التي حذره الله منها.

وَاذْكُرُوٓا۟ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓا۟ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾

وقوله عز وجل: ﴿**واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض**﴾ لما أمر الله سبحانه وتعالى المؤمنين بطاعة الله

في أصحاب رسول الله ﷺ ومعناه: اتقوا فتنة تصيب الظالم وغير الظالم. قال الحسن: نزلت في عليّ وعمّار وطلحة والزبير رضي الله عنهم. قال الزبير: لقد قرأنا هذه الآية زماناً وما أرانا من أهلها فإذا نحن المعنيّون بها، يعني ما كان يوم الجمل. وقال السدي ومقاتل والضحاك وقتادة: هذا في قوم مخصوصين من أصحاب رسول الله ﷺ أصابتهم الفتنة يوم الجمل. وقال ابن عباس: أمر الله عزّ وجلّ المؤمنين أن لا يقرّوا المُنكر بين أظهرهم فيعمهم اللّهُ بعذاب يصيب الظالم وغير الظالم. أخبرنا محمد بن عبد الله بن أبي توبة أنا أبو طاهر الحارثي أنا محمد بن يعقوب الكسائي أنا عبد الله بن محمود أنا إبراهيم بن عبد الله الخلال ثنا عبد الله بن المبارك عن سيف بن سليمان قال: سمعت عدي بن عدي الكندي يقول: حدّثني مولىً لنا أنه سمع جدّي يقول: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إنّ الله لا يُعذّبُ العامّةَ بعملِ الخاصّة حتى يَروا المنكرَ بين ظهرانيهم وهم قادرون على أن يُنكروه فلا ينكروه، فإذا فعلوا ذلك عذب الله العامّة والخاصّة». وقال ابن زيد: أراد بالفتنة افتراق الكلمة ومخالفة بعضهم بعضاً. أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا أبو اليمان أنا شعيب عن الزهري أخبرني أبو سلمة بن عبد الرحمن عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ستكونُ فِتنٌ القاعدُ فيها خير من القائم، والقائم، فيها خير من الماشي، والماشي فيها خيرٌ من الساعي، مَن تشرّفَ لها تستشرفه، فمَن وجد ملجأً أو معاذاً فليَعُذْ به»: قوله: ﴿ **لا تصيبنّ الذين ظلموا منكم خاصّة** ﴾، يعني: العذاب، ﴿ **واعْلمُوا أنّ الله شديدُ العِقاب** ﴾.

قوله تعالى: ﴿ **واذْكُروا إذ أنتم قليلٌ مستضعَفُونَ في الأرض** ﴾، يقول: اذكروا يا معاشر المهاجرين إذْ أنتم

وطاعة رسوله وحذرهم من الفتنة ذكرهم نعمته عليهم. فقال تعالى: واذكروا يا معشر المؤمنين المهاجرين إذ أنتم قليل يعني في العدد مستضعفون في الأرض يعني في أرض مكة في ابتداء الإسلام ﴿تخافون أن يتخطفكم الناس﴾ يعني كفار مكة قال عكرمة كفار العرب وقال وهب ابن منبه يعني فارس والروم ﴿فآواكم﴾ يعني إلى المدينة ﴿وأيدكم بنصره﴾ يعني وقواكم بالأنصار. وقال الكلبي: وقواكم يوم بدر بالملائكة ﴿ورزقكم من الطيبات﴾ يعني الغنائم أحلها لكم ولم يحلها لأحد قبلكم ﴿لعلكم تشكرون﴾ يعني تشكرون الله على نعمه عليكم قوله سبحانه وتعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول﴾ قال الزهري والكلبي: نزلت هذه الآية في أبي لبابة هارون بن عبدالمنذر الأنصاري من بني عوف بن مالك وذلك أن رسول الله ﷺ حاصر يهود قريظة إحدى وعشرين ليلة فسألوا رسول الله ﷺ الصلح على ما صالح عليه إخوانهم بني النضير على أن يسيروا إلى إخوانهم إلى أذرعات وأريحاء من أرض الشام فأبى رسول الله ﷺ أن يعطيهم ذلك إلا أن ينزلوا على حكم سعيد بن معاذ فأبوا وقالوا أرسل إلينا أبا لبابة بن عبدالمنذر وكان مناصحاً لهم لأن ماله وولده وعياله كان عندهم فبعثه رسول الله ﷺ فأتاهم فقالوا: يا أبا لبابة ما ترى أننزل على حكم سعد بن معاذ فأشار أبو لبابة بيده إلى حلقه يعني إنه الذبح فلا تفعلوا. قال أبو لبابة: والله ما زالت قدماي عن مكانهما حتى عرفت أني قد خنت الله ورسوله ثم انطلق على وجهه ولم يأت رسول الله ﷺ وشدّ نفسه على سارية من سواري المسجد. وقال: والله لا أذوق طعاماً ولا شراباً حتى أموت أو يتوب الله عليّ فلما بلغ رسول الله ﷺ خبره، قال: أما لو جاءني لاستغفرت له أما إذا فعل ما فعل فإني لا أطلقه حتى يتوب الله عليه فمكث سبعة أيام لا يذوق طعاماً ولا شراباً حتى خرَّ مغشياً عليه ثم تاب الله عليه فقيل له يا أبا لبابة قد تيب عليك فقال والله لا أحل نفسي حتى يكون رسول الله ﷺ هو الذي يحلني فجاء فحله بيده ثم قال أبو لبابة إن تمام توبتي أن أهجر دار قومي التي أصبت فيها الذنب وأن أنخلع من مالي فقال رسول الله ﷺ: يجزيك الثلث أن تصدق به فنزل فيه ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله

قليل في العدد مستضعفون في أرض مكة في ابتداء الإسلام، ﴿ تخافون أن يتخطّفكُمُ النّاس ﴾، يذهب بكم الناس، يعني: كفّار العرب. وقال عكرمة: كفّار مكة. وقال وهب: فارس والروم، ﴿ فآواكم ﴾، إلى المدينة، ﴿ وأيّدكم بنصره ﴾، أي: قوّاكم يوم بدر بالأنصار. وقال الكلبي: قوّاكم يوم بدر بالملائكة، ﴿ ورزقكمْ مِّنَ الطّيباتِ ﴾، يعني: الغنائم التي أحلّها لكم ولم يُحلّها لأحدٍ قبلكم، ﴿ لعلّكم تشكرُون ﴾.

﴿ يا أيّها الذين آمنُوا لا تَخُونوا اللّهَ والرّسولَ ﴾، قال السدي: كانوا يسمعون الشيءَ من رسول الله ﷺ فيغشونه، حتى يبلغ المشركين. وقال الزهري والكلبي: نزلت الآية في أبي لبابة هارون بن عبد المنذر الأنصاري من بني عوف، وذلك أن رسول الله ﷺ حاصر يهود قريظة إحدى وعشرين ليلة، فسألوا رسول الله ﷺ الصفح على ما صالح عليه إخوانهم من بني النضير على أن يسيروا إلى إخوانهم إلى أذرعات وأريحاء من أرض الشام، فأبى رسول الله ﷺ أن يعطيهم ذلك إلّا أن ينزلوا على حكم سعد بن معاذ، فأبوا وقالوا: أرسل إلينا أبا لبابة بن عبد المنذر، وكان مناصحاً لهم لأن ماله وولده وعياله كانت عندهم، فبعثه رسول الله ﷺ فقالوا له: يا أبا لبابة ما ترى أننزل على حكم سعد بن معاذ؟ فأشار أبو لبابة بيده على حلقه أنه الذبح فلا تفعلوا، قال أبو لبابة: والله ما زالت قدماي من مكانهما حتى عرفت أنّي قد خنت الله ورسوله، ثم انطلق على وجهه ولم يأتِ رسول الله ﷺ وشدّ نفسه على سارية من سواري المسجد وقال: والله لا أبرح ولا أذوق طعاماً ولا شراباً حتى أموت أو يتوب الله عليّ، فلما بلغ رسول الله ﷺ خبره، قال: «أما لو جاءني لاستغفرتُ له فأما إذا فعل ما فعل فإني لا أطلقه حتى يتوب الله عليه»، فمكث سبعة أيام لا يذوق طعاماً ولا شراباً حتى خرّ مغشياً عليه ثم تاب الله عليه، فقيل له: يا أبا لبابة قد تيب عليك، فقال: لا والله لا أحلّ نفسي حتى يكون رسول الله ﷺ هو الذي يحلّني بيده، فجاء فحلّه بيده، ثم قال

والرسول﴾. وقال السدي: كانوا يسمعون السر من النبي ﷺ فيفشونه حتى يبلغ المشركين فنزلت هذه الآية وقال جابر بن عبد الله: إن أبا سفيان خرج من مكة فأتى جبريل النبي ﷺ فقال لي إن أبا سفيان في مكان كذا وكذا فقال النبي ﷺ لأصحابه إن أبا سفيان في مضوع كذا وكذا فاخرجوا إليه واكتموا قال فكتب رجل من المنافقين إليه إن محمداً يريدكم فخذوا حذركم فأنزل الله عز وجل لا تخونوا الله والرسول **﴿وتخونوا أماناتكم﴾** ومعنى الآية لا تخونوا الله والرسول ولا تخونوا أماناتكم **﴿وأنتم تعلمون﴾** يعني أنها أمانة وقيل: معناه وأنتم تعلمون أن ما فعلتم من الإشارة إلى الخلق خيانة وأصل الخيانة من الخون وهو النقص لأن من خان شيئاً فقد نقصه والخيانة ضد الأمانة، وقيل في معنى الآية: لا تخونوا الله والرسول فإنكم إذا فعلتم ذلك فقد خنتم أماناتكم. وقال ابن عباس: معناه لا تخونوا الله بترك فرائضه ولا تخونوا الرسول بترك سنته ولا تخونوا أماناتكم قال ابن عباس هي ما يخفى عن أعين الناس من فرائض الله تعالى والأعمال التي ائتمن عليها العباد وقال قتادة: اعلموا أن دين الله أمانة فأدوا إلى الله ما ائتمنكم عليه من فرائضه وحدوده ومن كانت عليه أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها ومنه الحديث عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «أدّ الأمانة إلى من ائتمنك ولا تخن من خانك» أخرجه أبو داود والترمذي وقال حديث حسن غريب.

وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾

وقوله عز وجل **﴿واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة﴾**. قيل: هذا مما نزل في أبي لبابة وذلك لأن أمواله وأولاده كانت في بني قريظة فلذلك قال ما قال خوفاً عليهم. وقيل: إنه عام في جميع الناس وذلك أنه لما كان الإقدام على الخيانة في الأمانة هو حب المال والولد نبّه الله سبحانه وتعالى بقوله: واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة على أنه يجب على العاقل أن يحذر من المضار المتولدة من حب المال والولد، لأن ذلك يشغل القلب ويصيره محجوباً عن خدمة المولى وهذا من أعظم الفتن وروى البغوي بسنده عن عائشة أن النبي ﷺ «أتى بصبي فقبله وقال أما إنهم مبخلة مجبنة وإنهم لمن ريحان الله» أخرج الترمذي عن عمر بن عبد العزيز قال زعمت المرأة الصالحة خولة بنت حكيم قال: «خرج ذات يوم وهو محتضن أحد ابني ابنته وهو يقول إنكم لتبخلون وتجبنون و تجهلون وإنكم لمن ريحان الله»

أبو لبابة: يا رسول الله إنّ من تمام توبتي أن أهجر دار قومي التي أصبت فيها الذنب وأن أنخلع من مالي كله، فقال النبي ﷺ: **«يجزيك الثلث فتصدّق به»**، فنزلت فيه **﴿ لا تخونوا الله والرسول ﴾**، **﴿ وتخونُوا أماناتِكم ﴾**، أي: **ولا تخونوا أماناتكم**، **﴿ وأنتم تعلمون ﴾**، أنها أمانة. وقيل: وأنتم تعلمون أن ما فعلتم من الإشارة إلى الحلق خيانة. قال السدي: إذا خانوا الله والرسول فقد خانوا أماناتهم. وقال ابن عباس: لا تخونوا الله بترك فرائضه والرسول بترك سنّته وتخونوا أماناتكم. قال ابن عباس: هي ما يخفَى عن أعين الناس من فرائض الله، والأعمال التي ائتمن العباد عليها. قال قتادة: اعلموا أنّ دين الله أمانة فأدّوا إلى الله عزّ وجلّ ما ائتمنكم عليه من فرائضه وحدوده، ومَن كانت عليه أمانة فليؤدّها إلى مَن ائتمنه عليها.

﴿ واعْلَموا أنّما أموالكم وأولادكم فتنة ﴾، قيل: هذا أيضاً في أبي لبابة، وذلك أن أمواله وأولاده كانوا في بني قريظة، فقال ما قال خوفاً عليهم. وقيل: هذا في جميع الناس. أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحي إملاءً وأبو بكر محمد بن محمد بن الحسن الطوسي قالا: حدّثنا أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الإسـفرايني أنا محمد بن

قال الترمذي: لا نعرف لعمر بن عبد العزيز سماعاً عن خولة. قوله، لمن ريحان الله: أي لمن رزق الله والريحان في اللغة الرزق.

وقوله تعالى: ﴿وأن الله عنده أجر عظيم﴾ يعني لمن أدى الأمانة ولم يخن وفيه تنبيه على أن سعادة الآخرة وهو ثواب الله أفضل من سعادة الدنيا وهو المال والولد.

وقوله عز وجل: ﴿يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله﴾ يعني بطاعته وترك معاصيه ﴿يجعل لكم فرقاناً﴾ يعني يجعل لكم نوراً وتوفيقاً في قلوبكم تفرقون به بين الحق والباطل والفرقان أصله الفرق بين الشيئين لكنه أبلغ من أصله لأنه يستعمل في الفرق بين الحق والباطل والحجة والشبهة. قال مجاهد: يجعل لكم مخرجاً في الدنيا والآخرة، وقال مقاتل: مخرجاً في الدين من الشبهات وقال عكرمة: نجاة أي يفرق بينكم وبين ما تخافون وقال محمد بن إسحاق: فصلاً بين الحق والباطل يظهر الله به حقكم ويطفىء باطل من خالفكم وقيل يفرق بينكم وبين الكفار بأن يظهر دينكم ويعليه ويبطل الكفر ويوهنه ﴿ويكفر عنكم سيئاتكم﴾ يعني ويمح عنكم ما سلف من ذنوبكم ﴿ويغفر لكم﴾ يعني ويستر عليكم بأن لا يفضحكم في الدنيا ولا في الآخرة ﴿والله ذو الفضل العظيم﴾ لأنه هو الذي يفعل ذلك بكم فله الفضل العظيم وعلى غيركم من خلقه ومن كان كذلك فإنه إذا وعد بشيء وفى به قيل إنه يتفضل على الطائعين بقبول الطاعات ويتفضل على العاصين بغفران السيئات وقيل: معناه أن بيده الفضل العظيم فلا يطلب من عند غيره.

قوله سبحانه وتعالى: ﴿وإذ يمكر بك الذين كفروا﴾ لما ذكر الله المؤمنين نعمه عليهم بقوله تعالى: واذكروا إذ أنتم قليل ذكر نبيه ﷺ نعمه عليه فيما جرى عليه بمكة من قومه لأن هذه السورة مدنية وهذه الواقعة كانت بمكة قبل أن يهاجر إلى المدينة والمعنى واذكر يا محمد إذ يمكر بك الذين كفروا وكان هذا المكر على ما ذكره ابن عباس وغيره من

محمد بن زمويه حدّثنا يحيى بن محمد بن غالب حدّثنا ابن يحيىٰ حدّثنا عبد الله بن لهيعة عن أبي الأسود عن عروة عن عائشة أن النبي ﷺ أتي بصبي فقبّله وقال: «أما إنّهم مَبْخَلَةٌ مَجْبَنَةٌ وإنّهم لَمِنْ ريحانِ اللّهِ عزّ وجلّ».
﴿ وأنّ اللّهَ عنده أجرٌ عظيم ﴾، لمَن نصح الله ورسوله وأدّى أمانته.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ يا أيّها الذين آمنوا إن تتّقُوا الله ﴾، بطاعته وترك معصيته، ﴿ يجعلْ لكم فُرْقاناً ﴾، قال مجاهد: مخرجاً في الدنيا والآخرة. وقال مقاتل بن حيان: مخرجاً في الدين من الشبهات وقال عكرمة: نجاة أي يفرِّق بينكم وبين ما تخافون. وقال الضحاك: بياناً. وقال ابن إسحق: فصلاً بين الحق والباطل يُظهر الله به حقكم ويطفىء باطل مَن خالفكم. والفرقان مصدر كالرجحان والنقصان. ﴿ ويُكفِّرْ عنكم سيئاتِكم ﴾، يمحُ عنكم ما سلف من ذنوبكم، ﴿ ويغفرْ لكم واللّهُ ذُو الفضل العظيم ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وإذْ يمكرُ بكَ الذين كفروا ﴾، هذه الآية معطوفة على قوله: ﴿ واذكروا إذ أنتم قليل ﴾، واذكر إذ يمكر بك الذين كفروا وإذ قالوا اللّهمّ، لأن هذه السورة مدنية وهذا المكر والقول إنما كانا بمكة، ولكن الله ذكرهم بالمدينة كقوله تعالى: ﴿ إلّا تنصروه فقدْ نصرَه اللّهُ ﴾ [التوبة: ٤٠] وكان هذا المكر على ما ذكره ابن عباس وغيره من أهل التفسير: أنّ قريشاً فرِّقوا لمّا أسلمت الأنصار أن يتفاقم أمر رسول الله ﷺ فاجتمع نفر من كبارهم في دار الندوة ليتشاوروا في أمر رسول الله ﷺ، وكانت رؤوسهم عيبة وشيبة ابنا ربيعة وأبو جهل بن هشام وأبو سفيان وطعيمة بن عدي وشيبة بن ربيعة والنضر بن الحارث، وأبو البختري بن هشام وزمعة بن الأسود وحكيم بن حزام، ونبيه ومنبّه ابنا الحجّاج وأمية بن خلف، فاعترضهم إبليس لعنه الله في صورة شيخ، فلما رأوه قالوا: مَن أنت؟ قال: شيخ من نجد سمعت باجتماعكم فأردت أن أحضركم ولن تعدموا منّي رأياً ونصحاً، قالوا: أدخل فدخل، فقال أبو

أهل التفسير قالوا جميعاً إن قريشاً فرقوا لما أسلمت الأنصار أن يتفاقم أمر رسول الله ﷺ ويظهر فاجتمع نفر من كبار قريش في دار الندوة ليتشاوروا في أمر رسول الله ﷺ وكان رؤوسهم عتبة وشيبة ابنا ربيعة وأبو جهل وأبو سفيان وطعيمة بن عدي والنضر بن الحارث وأبو البختري بن هشام وزمعة بن الأسود وحكيم بن حزام ونبيه ومنبه ابنا الحجاج وأمية بن خلف، فاعترضهم إبليس في صورة شيخ، فلما رأوه قالوا له: من أنت؟ قال: أنا شيخ من نجد سمعت باجتماعكم فأردت أن أحضركم ولن تعدموا مني رأياً ونصحاً. فقالوا: ادخل. فدخل، فقال أبو البختري: أما أنا فأرى أن تأخذوا محمداً وتحبسوه في بيت مقيداً وتشدوا وثاقه وتسدوا باب البيت غير كوة تلقون منها طعامه وشرابه وتتربصوا به ريب المنون حتى يهلك كما هلك من قبله من الشعراء فصرخ عدو الله إبليس وهو الشيخ النجدي وقال: بئس الرأي رأيتم لئن حبستموه ليخرجن أمره من وراء الباب الذي أغلقتم دونه إلى أصحابه فيوشك أن يثبوا عليكم فيقاتلوكم ويأخذوه من أيديكم فقالوا صدق الشيخ النجدي. فقام هشام بن عمرو من بني عامر بن لؤي، فقال: أما أنا فأرى أن تحملوه على بعير وتخرجوه من بين أظهركم فلا يضركم ما صنع وأين وقع إذا غاب عنكم واسترحتم منه. فقال إبليس اللعين: ما هذا لكم برأي تعتمدون إلى رجل قد أفسد أحلامكم فتخرجونه إلى غيركم فيفسدهم ألم تروا إلى حلاوة منطقه وطلاقة لسانه وأخذ القلوب بما تسمع من حديثه والله لئن فعلتم ذلك يذهب ويستميل قلوب قوم آخرين ثم يسير بهم إليكم فيخرجكم من بلادكم فقالوا: صدق الشيخ النجدي. فقال أبو جهل: والله لأشيرن عليكم برأي ما أرى غيره إني أرى أن تأخذوا من كل بطن من قريش شاباً نسيباً وسطاً فتياً ثم نعطي كل فتى سيفاً صارماً ثم يضربوه جميعاً ضربة رجل واحد فإذا قتلوه تفرق دمه في القبائل كلها ولا أظن هذا الحي من بني هاشم يقوون على حرب قريش كلها وأنهم إذا أرادوا ذلك. قالوا: العقل فتؤدي قريش ديته فقال إبليس اللعين: صدق هذا الفتى هو أجودكم رأياً، والقول ما قال لا أرى غيره فتفرقوا على قول أبي جهل وهم مجتمعون عليه فأتى جبريل عليه السلام

البختري: أما أنا فأرى أن تأخذوا محمداً وتحبسوه في بيت وتشدّوا وثاقه وتسدّوا باب البيت غير كـــوة تلقون إليه طعامه وشرابه وتتربّصوا به ريب المنون حتى يهلك فيه، كما هلك من قبله من الشعراء، قال: فصرخ عدوّ الله الشيخ النجدي وقال: بئس الرأي رأيتم والله لئن حبستموه في بيت فخرج أمره من وراء الباب الذي أغلقتم دونه إلى أصحابه فيوشك أن يثبوا عليكم ويقاتلوكم ويأخذوه من أيديكم، قالـوا: صدق الشيـخ النجدي، فقـال هشام بن عمـرو من بني عامر بن لؤي: أمّا أنا فأرى أن تحملوه على بعير تخرجوه من أظهركم فلا يضرّكم ما صنع ولا أين وقع إذا غاب عنكم واسترحتم منه، فقال إبليس لعنه الله: ما هذا لكم برأي تعتمدون عليه، تعتمدون إلى رجل قد أفسد أحلامكم فتخرجونه إلى غيركم فيفسدهم ألم تروا إلى حلاوة منطقه وحلاوة لسانه وأخذ القلوب بما تسمع من حديثه؟ والله لئن فعلتم ذلك ليذهبنّ وليستميل قلوب قوم ثم يسير بهم إليكم فيخرجكم من بلادكم، قالوا: صدق الشيخ النجدي: فقال أبو جهل والله لأشيرنّ عليكم برأي ما أرى غيره إني أرى أن تأخذوا من كل بطن من قريش شابّاً نسيباً وسيطاً فتيّاً ثم يُعطى كل فتىً منهم سيفاً صارماً، ثم يضربوه ضربة رجل واحد، فإذا قتلوه تفرّق دمه في القبائل كلها ولا أظن هذا الحيّ من بني هاشم يقوون على حرب قريش كلها، وبأنهم إذا رأوا ذلك قبلوا العقل فتؤدّي قريش ديّته، فقال إبليس: صدق هذا الفتى، وهو أجودكم رأياً، القول ما قال لا أرى رأياً غيره فتفرّقوا على قول أبي جهل وهم مُجمِعون له. فأتى جبريلُ النبيَّ ﷺ وأخبره بذلك وأمره أن لا يبيت في مضجعه الذي كان يبيت فيه، فأذن الله له عند ذلك بالخروج إلى المدينة، فأمر رسول الله ﷺ عليّ بــن أبي طالب أن ينام في مضجعه وقال له: «اتّشح ببردتي هذه فإنه لن يخلص إليك منهم أمر تكرهه»، ثم خرج النبي ﷺ فأخذ قبضة من تراب فأخذ الله أبصارهم عنه فجعل ينثر التراب على رؤوسهم وهو يقرأ: ﴿ إنّا جعلنا في أعناقــهم أغــلالاً ﴾ إلــى قوله: ﴿ فهم

النبي ﷺ فأخبره بذلك وأمره أن لا يبيت في مضجعه الذي كان يبيت فيه وأذن الله عز وجل له عند ذلك بالخروج إلى المدينة «فأمر رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب أن يبيت في مضجعه وقال له: اتشح ببردتي فإنه لن يخلص إليك منهم أمر تكرهه» ثم خرج رسول الله ﷺ، فأخذ قبضة من تراب وأخذ الله عز وجل أبصارهم عنه فخرج وجعل ينثر التراب على رؤوسهم وهو يقرأ: ﴿إنا جعلنا في أعناقهم أغلالاً﴾ إلى قوله، فهم لا يبصرون. ومضى إلى الغار من ثور وهو أبو بكر وخلف علياً بمكة حتى يؤدي عنه الودائع التي قبلها وكانت الودائع توضع عنده لصدقه وأمانته. قالوا: وبات المشركون يحرسون علياً وهو على فراش رسول الله ﷺ يحسبون أنه النبي ﷺ فلما أصبحوا، ساروا إليه ليقتلوه فرأوه علياً فقالوا له: أين صاحبك؟ قال: لا أدري. فاقتفوا أثره وأرسلوا في طلبه، فلما بلغوا الغار رأوا على بابه نسج العنكبوت فقالوا لو دخله لم يكن لنسج العنكبوت على بابه أثر فمكث في الغار ثلاثاً ثم خرج إلى المدينة فذلك قوله سبحانه وتعالى: ﴿وإذ يمكر بك الذين كفروا﴾ وأصل المكر احتيال في خفية ﴿ليثبتوك﴾ أي ليحبسوك ويوثقوك لأن كل من شد شيئاً وأوثقه فقد أثبته لأنه لا يقدر على الحركة ﴿أو يقتلوك﴾ يعني كما أشار عليهم أبو جهل ﴿أو يخرجوك﴾ يعني من مكة ﴿ويمكرون﴾ يعني ويحتالون ويدبرون في أمرك ﴿ويمكر الله﴾ يعني ويجازيهم الله جزاء مكرهم فسمى الجزاء مكر، لأنه في مقابلته. وقيل: معناه ويعاملهم الله معاملة مكرهم. والمكر: هو التدبير وهو من الله تعالى التدبير بالحق. والمعنى: أنهم احتالوا في إبطال أمر محمد ﷺ والله سبحانه وتعالى أظهره وقواه ونصره فضاع فعلهم وتدبيرهم وظهر فعل الله وتدبيره ﴿والله خير الماكرين﴾ فإن قلت كيف قال الله سبحانه وتعالى والله خير الماكرين ولا خير في مكرهم.

قلت: يحتمل أن يكون المراد والله أقوى الماكرين فوضع خبر موضع أقوى وفيه تنبيه على أن كل مكر يبطل بفعل الله. وقيل: يحتمل أن يكون المراد أن مكرهم فيه خير بزعمهم فقال سبحانه وتعالى في مقابلته: والله خير الماكرين. وقيل: ليس المراد التفضيل بل إن فعل الله خير مطلقاً.

وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُواْ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾

قوله عز وجل: ﴿وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا﴾ نزلت في النضر بن الحارث بن

لا يبصرون ﴾ [يس: ٨ و ٩]، ومضى إلى الغار من ثور هو وأبو بكر، وخلف علياً بمكة حتى يُؤدّي عنه الودائع التي كانت عنده وكانت الودائع تودع عنده ﷺ لصدقه وأمانته، وبات المشركون يحرسون عليّاً في فراش رسول الله ﷺ يحسبون أنه النبي ﷺ فلما أصبحوا ثاروا إليه فرأوا عليّاً رضي الله عنه، فقالوا: أين صاحبك؟ قال: لا أدري، فاقتصّوا أثره وأرسلوا في طلبه فلما بلغوا الغار رأوا على بابه نسج العنكبوت، فقالوا: لو دخله لم يكن نسج العنكبوت على بابه، فمكث فيه ثلاثاً قَدِمَ المدينة، فذلك قوله تعالى: ﴿ وإذْ يمكرُ بكَ الذين كفروا ﴾، ﴿ لِيُثْبتوك ﴾، ليحبسوك ويسجنوك ويوثقوك، ﴿ أو يقتلُوك أو يُخرجُوك ويمكُرون ويمكرُ اللَّهُ ﴾، قال الضحاك: يصنعون ويصنع الله، والمكر التدبير وهو من الله التدبير بالحق. وقيل: يجازيهم جزاء المكر، ﴿ واللَّهُ خيرُ الماكرين ﴾.

﴿ وإذا تتلى عليهم آياتُنا قالوا ﴾، يعني النضر بن الحارث، ﴿ قدْ سمعنَا لو نشاءُ لقلنا مثل هذا ﴾، وذلك أنه

علقمة من بني عبد الدار وذلك أنه كان يختلف إلى أرض فارس والحيرة ويسمع أخبارهم عن رستم واسفنديار وأحاديث العجم وكان يمر بالعباد من اليهود والنصارى فيراهم يقرؤون التوراة والإنجيل ويركعون ويسجدون ويبكون فلما جاء مكة وجد النبي ﷺ قد أوحي إليه وهو يقرأ ويصلي. فقال النضر بن الحارث: قد سمعنا يعني مثل هذا الذي جاء به محمد لو نشاء لقلنا مثل هذا فذمهم الله بدفعهم الحق الذي لا شبهة فيه بادعائهم الباطل بقولهم لو نشاء لقلنا مثل هذا بعد التحدي وأبان عجزهم عن ذلك ولو قدروا ما تخلفوا عنه وهم أهل الفصاحة وفرسان البلاغة فبان بذلك كذبهم في قولهم لو نشاء لقلنا مثل هذا ﴿إن هذا إلا أساطير الأولين﴾ يعني أخبار الماضين.

قوله سبحانه وتعالى: ﴿وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم﴾ نزلت في النضر بن الحرث أيضاً.

قال ابن عباس: لما قص رسول الله ﷺ شأن القرون الماضية، قال النضر بن الحرث: لو شئت لقلت مثل هذا فقال له عثمان بن مظعون: اتق الله فإن محمداً ﷺ يقول الحق قال وأنا أقول الحق. قال: فإن محمداً ﷺ يقول لا إله إلا الله. قال: وأنا أقول لا إله إلا الله. ولكن هذه بنات الله، يعني الأصنام، ثم قال: اللهم إن كان هذا هو الحق يعني القرآن الذي جاء به محمد ﷺ. وقيل: يعني إن كان الذي يقول محمد ﷺ من أمر التوحيد وادعاء النبوة وغير ذلك هو الحق فأمطر علينا حجارة من السماء يعني كما أمطرتها على قوم لوط أو ائتنا بعذاب أليم: يعني مثل ما عذبت به الأمم الماضية، في النضر بن الحرث نزل سأل سائل بعذاب واقع. قال عطاء: لقد نزل في النضر بن الحرث بضع عشرة آية فحاق به ما سأل من العذاب يوم بدر قال سعيد بن جبير: قتل رسول الله ﷺ يوم بدر ثلاثة من قريش صبرا طعيمة بن عدي وعقبة بن أبي معيط والنضر بن الحرث وروى أنس بن مالك أن الذي قال ذلك أبو جهل (ق)

عن أنس قال: قال أبو جهل اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء الآية فنزلت وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم الآية فلما أخرجوه نزلت وما لهم أن لا يعذبهم الله وهم يصدونهم عن المسجد الحرام.

قوله عز وجل: ﴿وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم﴾ اختلفوا في معنى هذه الآية فقال محمد بن إسحاق: هذه

كان يختلف تاجر إلى فارس والحيرة فيسمع أخبار رستم وإسفنديار، وأحاديث العجم ويمرّ باليهود والنصارى فيراهم يركعون ويسجدون ويقرؤون التوراة والإنجيل، فجاء إلى مكة فوجد رسول الله ﷺ يصلّي ويقرأ القرآن فقال النضر: قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا، ﴿ إنْ هذا إلاّ أساطيرُ الأوّلين ﴾، أخبار الأمم الماضية وأسماؤهم وما سطّر الأوّلون في كتبهم. والأساطير: جمع أسطورة، وهي المكتوبة، من قولهم سطّرت أي كتبت.

قوله تعالى: ﴿ وإذْ قالوا اللّهمَّ إنْ كان هذا هو الحقَّ من عندِكَ ﴾، الآية نزلت في النضر بن الحارث من بني عبد الدار، قال ابن عباس: لمّا قصّ رسول الله ﷺ شأن القرون الماضية، قال النضر: لو شئت لقلت مثل هذا إنْ هذا إلاّ أساطير الأوّلين، أي: ما هذا إلاّ ما سطّره الأوّلون في كتبهم، فقال له عثمان بن مظعون رضي الله عنه: اتّقِ الله فإن محمداً يقول الحق، قال: فأنا أقول الحق، قال عثمان: فإن محمداً يقول: لا إلّه إلاّ الله»، قال: وأنا أقول لا إلّه إلاّ الله، ولكن هذه بنات الله، يعني الأصنام، ثم قال: اللّهمَّ إن كان هذا الذي يقول محمد هو الحق من عندك، ﴿ والحق ﴾ نصب بخبر كان، وهو عماد وأصله: ﴿ فأمطرْ علينا حجارةً منَ السماء ﴾، كما أمطرتها على قوم لوط، ﴿ أوِ ائْتنا بعذابٍ أليم ﴾، أي: ببعض ما عذّبت به الأمم، وفيه نزل: ﴿ سأل سائل بعذاب واقع ﴾ [المعارج: ١]، وقال عطاء: لقد نزل في النضر بن الحارث بضع عشرة آية فحاق به ما سأل من العذاب يوم بدر. قال سعيد بن جبير: قتل رسول الله ﷺ يوم بدر ثلاثةً صبراً من قريش: طُعيمة بن عدي وعقبة بن أبي مُعيط

الآية متصلة بما قبلها وهي حكاية عن المشركين وذلك أنهم قالوا إن الله لا يعذبنا ونحن نستغفر ولا يعذب أمة ونبيها معها فقال الله عز وجل لنبيه ﷺ يذكره جهالتهم وغرتهم واستفتاحهم على أنفسهم وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك الآية وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم ﴿وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون﴾ ثم قال تعالى رداً عليهم: وما لهم ألا يعذبهم الله وإن كنت بين أظهرهم وإن كانوا يستغفرون وهم يصدون عن المسجد الحرام. وقال آخرون: هذا كلام مستأنف يقول الله عز وجل إخباراً عن نفسه تعالى وتقدس وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم، واختلفوا في معناه فقال الضحاك وجماعة: تأويلها: وما كان الله ليعذبهم وأنت يا محمد مقيم فيهم بين أظهرهم. قالوا: نزلت هذه الآية على النبي ﷺ وهو مقيم بمكة ثم لما خرج منها بقي بقية من المسلمين يستغفرون، فأنزل الله عز وجل وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون ثم لما خرج أولئك المسلمون من بين أظهر الكافرين أذن الله في فتح مكة فهو العذاب الذي وعدهم. وقال ابن عباس: لم يعذب الله قرية حتى يخرج نبيها منها والذين آمنوا معه ويلحق بحيث أمر فقال الله وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم مقيم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون يعني المسلمين فلما خرجوا قال الله لهم ومالهم ألا يعذبهم الله، وقال بعضهم: هذا الاستغفار راجع إلى المشركين وذلك أنهم كانوا يقولون بعد فراغهم من الطواف غفرانك غفرانك. وقال زيد بن رومان: قالت قريش اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء فلما أمسوا ندموا على ما قالوا فقالوا غفرانك اللهم فقال الله تعالى وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون. وقال قتادة والسدي: معناه وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون أي لو استغفروا ولكنهم لم يكونوا مستغفرين ولو أقروا بالذنب واستغفروا الله لكانوا مؤمنين. وقيل: هذا دعاء لهم إلى الإسلام والاستغفار بهذه الكلمة، كالرجل يقول لعبده

والنضر بن الحارث وروى أنس رضي الله عنه أن الذي قاله أبو جهل لعنه الله. أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي حدّثنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا محمد بن النضر ثنا عبيد الله بن معاذ ثنا أبي ثنا شعبة عن عبد الحميد صاحب الزيادي سمع أنس بن مالك قال: قال أبو جهل: اللّهمَّ إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطرْ علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم، فنزلت: ﴿ **وما كان الله ليُعَذِّبَهُم وأنتَ فيهم وما كانَ اللَّهُ معذبهم وهم يستغفرون وما لهم ألّا يعذِّبَهُم الله** ﴾.

قوله تعالى: ﴿ **وما كان الله ليُعذِّبَهم وأنت فيهم** ﴾، اختلفوا في معنى هذه الآية، فقال محمد بن إسحق: هذا حكاية عن المشركين أنهم قالوها وهي متصلة بالآية الأولى، وذلك أنهم كانوا يقولون إن الله لا يعذبنا ونحن نستغفره، ولا يعذّب أمة ونبيّها فيها، فقال الله تعالى لنبيّه ﷺ يذكر جهالتهم وغرّتهم واستفتاحهم على أنفسهم: ﴿ **وإذْ قالوا اللّهمَّ إن كان هذا هو الحقَّ منْ عندكَ فأمطر علينا حجارةً من السماء** ﴾ الآية، وقالوا: وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم. ﴿ **وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون** ﴾، ثم قال ردّاً عليهم: ﴿ **ومَا لهم ألّا يعذبهم الله** ﴾؟ وإن كنت بين أظهرهم وإن كانوا يستغفرون، وهم يصدّون عن المسجد الحرام. وقال الآخرون: هذا كلام مستأنف يقول الله عزّ وجلّ إخباراً عن نفسه: ﴿ **وما كان الله ليعذبهم** ﴾، واختلفوا في تأويلها فقال الضحّاك وجماعة: تأويلها وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم مقيم بين أظهرهم، قالوا: أنزلت هذه الآية على رسول الله ﷺ وهو مقيم بمكة، خرج من بين أظهرهم وبقيت بها بقية من المسلمين يستغفرون، فأنزل الله تعالى: ﴿ **وما كان الله مُعذِّبَهم وهم يستغفرون** ﴾، فخرج أولئك من بينهم فعُذِّبوا وأذن الله في فتح مكة، فهو العذاب الذي وعدهم الله. قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: لم يعذّب الله قرية حتى يخرج النبي منها والذين آمنوا ويلحق بحيث أمر. فقال: ﴿ **وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذّبهم وهم يستغفرون** ﴾، يعني المسلمين فلما خرجوا قال الله تعالى: ﴿ **وما لهم ألّا يعذبهم الله** ﴾، فعذّبهم الله يوم بدر. وقال أبو موسى الأشعري: كان فيكم أمانان وما كان الله ليعذبهم وأنت

لا أعاقبك. وأنت تطيعني أي أطعني حتى لا أعاقبك وقال مجاهد وعكرمة: وهم يستغفرون أي يسلمون. يعني: لو أسلموا لما عذبوا. وقال ابن عباس: وفيهم من سبق له من الله العناية أنه يؤمن ويستغفر مثل أبي سفيان بن حرب وصفوان بن أمية وعكرمة بن أبي جهل وسهيل بن عمرو وحكيم بن حزام وغيرهم. وقال مجاهد: وهم يستغفرون، أي وفي أصلابهم من يستغفر وقيل في معنى الآية: إن الكفار لما بالغوا وقالوا إن كان محمد محقاً في قوله فأمطر علينا حجارة من السماء أخبر الله سبحانه وتعالى أن محمداً محق في قوله وأنه مع ذلك لا يمطر على أعدائه ومنكري نبوته حجارة من السماء ما دام بين أظهرهم وذلك تعظيماً له ﷺ وأورد على هذا أنه إذا كانت إقامته مانعة من نزول العذاب بهم فكيف قال في غير هذه الآية قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم فالجواب أن المراد من العذاب الأول هو عذاب الاستئصال والمراد من العذاب الثاني وهو قوله سبحانه وتعالى يعذبهم الله بأيديكم هو عذاب القتل والسبي والأسر وذلك دون عذاب الاستئصال.

قال أهل المعاني: دلت هذه الآية على أن الاستغفار أمان سلامة من العذاب عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ «إن الله أنزل عليّ أمانين لأمتي وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون فإذا مضيت تركت فيهم الاستغفار إلى يوم القيامة» أخرجه الترمذي.

وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وما لهم ألا يعذبهم الله﴾ يعني أي شيء يمنعهم من أن يعذبهم يعني بعد خروجك من بين أظهرهم، لأنه سبحانه وتعالى بيَّن في الآية الأولى أنه لا يعذبهم وهو مقيم فيهم بين أظهرهم وبيَّن في هذه الآية أنه معذبهم. ثم اختلفوا في هذا العذاب فقيل: هو القتل والأسر يوم بدر. وقيل: أراد به عذاب الآخرة. وقيل: أراد بالعذاب الأول عذاب الاستئصال وأراد بالعذاب الثاني: العذاب بالسيف. وقيل: أراد بالعذاب الأول عذاب الدنيا وبهذا العذاب عذاب الآخرة.

فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون، فأمّا النبي ﷺ فقد مضى والاستغفار كائن فيكم إلى يوم القيامة. وقال بعضهم: هذا الاستغفار كائن فيكم إلى يوم القيامة. وقال بعضهم: هذا الاستغفار راجع إلى المشركين وذلك أنهم كانوا يقولون بعد الطواف: غفرانك غفرانك. وقال يزيد بن رومان: قالت قريش إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارةً من السماء، فلما أمسوا ندموا على ما قالوا، فقالوا: غفرانك اللّهمّ، فقال الله عزّ وجلّ: **﴿ وما كان الله معذّبهم وهم يستغفرون ﴾**. وقال قتادة والسدي: وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون، أي: لو استغفروا ولكنهم لم يكونوا يستغفرون، ولو أنهم أقرّوا بالذنب واستغفروا لكانوا مؤمنين وقيل: هذا دعاء إلى الإسلام الاستغفار بهذه الكلمة كالرجل يقول لغيره لا أعاقبك وأنت تطيعني، أي: أطعني حتى لا أعاقبك. وقال مجاهد وعكرمة: وهم يستغفرون أي يسلمون. يقول: لو أسلموا لما عُذّبوا. وروى الوالبي عن ابن عباس: وفيهم مَن سبق له من الله أن يسلم ويؤمن ويستغفر، وذلك مثل أبي سفيان وصفوان بن أُميّة وعكرمة بن أبي جهل وسهيل بن عمرو وحكيم بن حزام وغيرهم. وروى عبد الوهاب عن مجاهد: وهم يستغفرون أي وفي أصلابهم مَن يستغفر.

قوله تعالى: **﴿ وما لهم ألّا يُعذِّبهم الله ﴾** أي: وما يمنعهم من أن يعذبوا، يريد بعد خروجك من بينهم، **﴿ وهم يصدُّون عن المسجد الحرام ﴾**، أي: يمنعون المؤمنين من الطواف بالبيت. وقيل: أراد بالعذاب الأول

وقال الحسن: الآية الأولى وهو قوله تعالى وما كان الله ليعذبهم منسوخة بقوله وما لهم ألا يعذبهم الله وفيه بعد لأن الأخبار لا يدخلها النسخ ثم بين ما لأجله يعذبهم فقال تعالى: ﴿**وهم يصدون عن المسجد الحرام**﴾ يعني وهم يمنعون المؤمنين عن الطواف بالبيت وذلك حين صدوا رسول الله ﷺ وأصحابه عن البيت الحرام عام الحديبية ﴿**وما كانوا أولياءه**﴾ قال الحسن: كان المشركون يقولون نحن أولياء المسجد الحرام فرد الله عليهم بقوله وما كانوا أولياءه يعني ليسوا أولياء المسجد الحرام ﴿**إن أولياؤه إلا المتقون**﴾ يعني المؤمنين الذين يتقون الشرك ﴿**ولكن أكثرهم**﴾ يعني المشركين ﴿**لا يعلمون**﴾ ذلك قوله عز وجل:

﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾﴾

﴿**وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية**﴾ لما ذكر الله عز وجل أن الكفار ليسوا بأولياء البيت الحرام ذكر عقبة السبب في ذلك وهو أن صلاتهم عنده كانت مكاء وتصدية. والمكاء في اللغة: الصفير. يقال: مكا الطير يمكو إذا صفر والمكاء: اسم طير أبيض يكون بالحجاز له صفير. وقيل: هو طائر يألف الريف سمي بذلك لكثرة مكائه يعني صفيره.

والتصدية: التصفيق وفي أصله واشتقاقه قولان أحدهما: أنه من الصدى وهو الصوت الذي يرجع من الجبل كالمجيب للمتكلم ولا يرجع إلى شيء. الثاني: قال أبو عبيدة أصله تصددة فأبدلت الياء من الدال. قال الأزهري: والمكاء والتصدية، ليسا بصلاة، ولكن الله سبحانه وتعالى أخبر أنهم جعلوا مكان الصلاة التي أمروا بها المكاء والتصدية قال حسان بن ثابت:

صلاتهم التصدي والمكاء.

قال ابن عباس: كانت قريش يطوفون بالبيت وهم عراة يصفرون ويصفقون. وقال مجاهد: كان نفر من بني عبد الدار يعارضون النبي ﷺ في الطواف ويستهزؤون به ويدخلون أصابعهم في أفواههم ويصفرون. فالمكاء: جعل الأصابع في الشدق، والتصدية: الصفير. وقال جعفر بن ربيعة: سألت أبا سلمة بن عبد الرحمن عن قوله: إلا مكاء وتصدية، فجمع كفيه ثم نفخ فيهما صفيراً. وقال مقاتل: كان النبي ﷺ إذا دخل المسجد قام رجلان عن يمينه يصفران

عذاب الاستئصال، وأراد بقوله وما لهم أنْ لا يعذبهم الله أي: بالسيف. وقيل: أراد بالأول عذاب الدنيا، وبهذه الآية عذاب الآخرة. وقال الحسن: الآية الأولى وهي قوله: ﴿ **وما كان الله ليعذبهم** ﴾ منسوخة بقوله تعالى: ﴿ **وما لهم ألّا يعذبهم الله** ﴾ ﴿ **وما كانوا أولياءه** ﴾، قال الحسن: كان المشركون يقولون: نحن أولياء المسجد الحرام، فردّ الله عليهم بقوله: ﴿ **وما كانوا أولياءه** ﴾ أي: أولياء البيت، ﴿ **إنْ أولياؤه** ﴾ أي: ليس أولياء البيت، ﴿ **إلّا المتّقون** ﴾، يعني: المؤمنين الذين يتّقون الشرك، ﴿ **ولكنّ أكثرهم لا يعلمون** ﴾.

قوله تعالى: ﴿ **وما كانَ صلاتُهم عندَ البيتِ إلّا مُكَاءً وتَصْدِيَةً** ﴾، قال ابن عباس والحسن: المكاء: الصفير، وهي في اللغة اسم طائر أبيض يكون بالحجاز له صفير، كأنه قال: الأصوت مكاء، والتصدية التصفيق. قال ابن عباس: كانت قريش تطوف بالبيت وهم عراة يصفّرون ويصفّقون. قال مجاهد: كل نفر من بني عبد الدار يُعارضون النبي ﷺ في الطواف ويستهزؤون به ويُدخلون أصابعهم في أفواههم ويصفّرون، فذلك المكاء. والتصدية:

ورجلان عن يساره يصفقان ليخلطوا على النبي ﷺ صلاته وهم من بني عبد الدار. فعلى قول ابن عباس كان المكاء والتصدية نوع عبادة لهم، وعلى قول غيره كان نوع أذى للنبي ﷺ، وقول ابن عباس أصح، لأن الله سبحانه وتعالى سمى ذلك صلاة.

فإن قلت كيف سماها صلاة وليس ذلك من جنس الصلاة؟

قلت: إنهم كانوا يعتقدون ذلك المكاء والتصدية صلاة فخرج ذلك على حسب معتقدهم وفيه وجه آخر وهو أن من كان المكاء والتصدية صلاته فلا صلاة له فهو كقول العرب من كان السخاء عيبه فلا عيب له وقال سعيد بن جبير: التصدية صدهم المؤمنين عن المسجد الحرام وعن الدين والصلاة فعلى هذا التصدية من الصد وهوالمنع وقوله سبحانه وتعالى: ﴿**فذوقوا العذاب**﴾ يعني عذاب القتل والأسر في الدنيا. وقيل: يقال لهم في الآخرة فذوقوا العذاب ﴿**بما كنتم تكفرون**﴾ يعني بسبب كفرهم في الدنيا.

قوله سبحانه وتعالى: ﴿**إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله**﴾ لما ذكر الله سبحانه وتعالى عبادة الكفار البدنية وهي المكاء والتصدية، ذكر عقبها عبادتهم المالية التي لا جدوى لها في الآخرة. وقال الكلبي ومقاتل: نزلت في المطعمين يوم بدر وكانوا اثني عشر رجلاً أبو جهل بن هشام وعتبة وشيبة ابنا ربيعة بن عبد شمس ونبيه ومنبه ابنا الحجاج وأبو البختري بن هشام والنضر بن الحارث وحكيم بن حزام وأبي بن خلف وزمعة بن الأسود والحارث بن عامر بن نوفل والعباس بن عبد المطلب، وكلهم من قريش، فكان يطعم كل واحد منهم الجيش في كل يوم عشر جزر وأسلم من هؤلاء: العباس بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ وحكيم بن حزام. وقال الحكم بن عتبة: نزلت في أبي سفيان بن حرب حين أنفق على المشركين يوم أحد أربعين أوقية كل أوقية اثنان وأربعون مثقالاً. وقال ابن أبزي: استأجر أبو سفيان يوم أحد ألفين ليقاتل بهم رسول الله ﷺ سوى من استجاش من العرب. وقيل: استأجر يوم أحد ألفين من الأحابيش من كنانة فقاتل بهم رسول الله ﷺ. وقيل: لما أصيب من أصيب من قريش يوم بدر ورجع أبو سفيان بعيره إلى مكة مشى عبد الله بن أبي ربيعة وعكرمة بن أبي جهل وصفوان بن أمية في رجال من قريش قد أصيب أباؤهم وأبناؤهم وإخوانهم يوم بدر فكلموا أبا سفيان بن حرب ومن كانت له في تلك العير من قريش تجارة.

التصفيق. ومنه الصدى. والمكاء: جعل الأصابع في الشدق. والتصدية: الصفر. ومنه الصدا الذي يسمعه المصوِّت في الجبل. قال جعفر بن ربيعة: سألت أبا سلمة بن عبد الرحمن عن قوله عزّ وجلّ: ﴿ **إلّا مكاءً وتصديةً** ﴾ فجمع كفّيه ثم نفخ فيهما صفيراً. قال مقاتل: كان النبي ﷺ إذا صلّى في المسجد قام رجلان عن يمينه فيصفران ورجلان عن شماله فيصفّقان ليخلطوا على النبي ﷺ صلاته، وهم من بني عبد الدار. قال سعيد بن جبير: التصدية صدّهم المؤمنين عن المسجد وعن الدين، والصلاة وهي على هذا التأويل التصددة بدالين، فقلبت إحدى الدالين ياءً كما يقال تظنيت من الظن، وتقضى البازي إذا البازي كسر، أي تقضض البازي. قال ابن الأنباري: إنما سمّاه صلاة لأنهم أُمروا بالصلاة في المسجد الحرام فجعلوا ذلك صلاتهم. ﴿ **فَذُوقوا العذابَ بما كنتم تكفرون** ﴾.

قوله تعالى: ﴿ **إنّ الذين كفروا يُنفقون أموالَهم لِيَصدُّوا عن سبيل الله** ﴾، أي: ليصرفوا عن دين الله. قال **الكلبي ومقاتل**: نزلت في المُطْعِمين يوم بدر وكانوا اثني عشر رجلًا أبو جهل بن هشام وعتبة وشيبة ابنا ربيعة ابن عبد شمس، ونبيه ومنبّه ابنا الحجّاج، وأبو البختري ابن هشام، والنضر بن الحـرث وحكيم بن حزام، وأُبيّ بن خلف وزمعة بن الأسود، والحارث بن عامر بن نوفل، والعباس بن عبد المطلب، وكلهم من قريش وكان يطعم كل

فقالوا: يا معشر قريش إن محمداً قد وتركم وقتل خياركم فأعينونا بهذا المال على حربه لعلنا ندرك منه ثأراً. بمن أصيب منافقيهم نزلت إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله أي ليصرفوا الناس عن الإيمان بالله ورسوله وقيل ينفقون أموالهم على أمثالهم من المشركين ليتقووا بهم على قتال رسول الله ﷺ والمؤمنين ﴿فسينفقونها﴾ يعني أموالهم في ذلك الوجه ﴿ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون﴾ يعني ما أنفقوا من أموالهم يكون عليهم حسرة وندمة يوم القيامة لأن أموالهم تذهب ويغلبون ولا يظفرون بما يؤملون ﴿والذين كفروا﴾ يعني منهم لأن فيهم من أسلم ولهذا قال والذين كفروا يعني من المنفقين أموالهم ﴿إلى جهنم يحشرون﴾ يعني يساقون إلى النار.

﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٤٠﴾﴾

﴿ليميز الله الخبيث من الطيب﴾ يعني ليفرق الله بين فريق الكفار وهم الفريق الخبيث وبين فريق المؤمنين وهم الفريق الطيب وهذا معنى قول ابن عباس فإنه قال: يميز أهل السعادة من أهل الشقاوة وقال: ليميز العمل الخبيث من العمل الطيب فيجازي على العمل الخبيث النار وعلى العمل الطيب الجنة وقيل: المراد به إنفاق الكفار في سبيل الشيطان وإنفاق المؤمنين في سبيل الله ﴿ويجعل الخبيث بعضه على بعض﴾ يعني بعضه فوق بعض ﴿فيركمه جميعاً﴾ يعني فيجمعه جميعاً ويضم بعضه إلى بعض حتى يتراكم ﴿فيجعله في جهنم﴾ يعني الخبيث ﴿أولئك﴾ إشارة إلى المنفقين في سبيل الشيطان أو إلى الخبيث ﴿هم الخاسرون﴾ يعني أنهم خسروا الدنيا والآخرة لأنهم اشتروا بأموالهم عذاب الآخرة.

قوله سبحانه وتعالى: ﴿قل﴾ يعني قل يا محمد ﴿للذين كفروا إن ينتهوا﴾ يعني عن الشرك ﴿يغفر لهم ما قد سلف﴾ يعني ما قد مضى من كفرهم وذنوبهم قبل الإسلام ﴿وإن يعودوا فقد مضت سنة الأولين﴾ يعني في إهلاك أعدائه ونصر أوليائه. ومعنى الآية: إن هؤلاء الكفار إن انتهوا عن الكفر ودخلوا في دين الإسلام والتزموا شرائعه غفر الله لهم ما قد سلف من كفرهم وشركهم وإن عادوا إلى الكفر وأصروا عليه فقد مضت سنة الأولين بإهلاك أعدائه ونصر أنبيائه وأوليائه وأجمع العلماء على أن الإسلام يجب ما قبله وإذا أسلم الكافر لم يلزمه شيء من قضاء العبادات البدنية والمالية. وهو ساعة إسلامه كيوم ولدته أمه يعني بذلك أنه ليس عليه ذنب.

قال يحيى بن معاذ الرازي: التوحيد لم يعجز عن هدم ما قبله من كفر فأرجوا الله أن لا يعجز عن هدم ما بعده

واحد منهم كل يوم عشر جزر. وقال الحكم بن عيينة: نزلت في أبي سفيان أنفق على المشركين يوم أُحُد أربعين أوقية. قال الله تعالى: ﴿ فسيُنفقونَها ثم تكونُ عليهم حسرةً ﴾، يريد ما أنفقوا في الدنيا يصير حسرة عليهم في الآخرة، ﴿ ثم يُغْلَبُون ﴾، ولا يظفرون، ﴿ والذين كفروا ﴾، منهم، ﴿ إلى جهنَّمَ يُحشرون ﴾، خصّ الكفّار لأن منهم مَن أسلم.

﴿ لِيَميزَ اللَّهُ الخبيث ﴾، في سبيل الشيطان، ﴿ مِنَ الطَّيبِ ﴾، يعني: الكافر من المؤمن فينزل المؤمن الجنان والكافر النيران. وقال الكلبي: العمل الخبيث من العمل الصالح الطيب، فيثبت على الأعمال الصالحة الجنة، وعلى الأعمال الخبيثة النار. وقيل: يعني الإنفاق الخبيث في سبيل الشيطان من الإنفاق الطيب في سبيل

من ذنب ﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة﴾ قال ابن عباس: حتى لا يكون بلاء ﴿ويكون الدين كله لله﴾ يعني تكون الطاعة والعبادة كلها لله خالصة دون غيره، وقال قتادة: حتى يقال لا إله إلا الله عليها قاتل نبي الله ﷺ وإليها عاد وقال محمد بن إسحاق في قوله وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله يعني لا يفتن مؤمن عن دينه ويكون التوحيد لله خالصاً ليس فيه شرك ويخلع ما دونه من الأنداد والشركاء ﴿فإن انتهوا﴾ يعني عن الشرك وإفتان المؤمنين وإيذائهم ﴿فإن الله بما يعملون بصير﴾ يعني فإن الله لا يخفى عليه شيء من أعمال العباد ونياتهم حتى يوصل إليهم ثوابهم ﴿وإن تولوا﴾ يعني وإن أعرضوا عن الإيمان وأصروا على الكفر وعادوا إلى قتال المؤمنين وإيذائهم ﴿فاعلموا﴾ يعني أيها المؤمنون ﴿أن الله مولاكم﴾ يعني أن الله وليكم وناصركم عليها وحافظكم ﴿نعم المولى ونعم النصير﴾ يعني أن الله سبحانه وتعالى هو نعم المولى فمن كان في حفظه ونصره وكفايته وكلاءته فهو له نعم المولى ونعم النصير.

۞ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾

قوله عز جل: ﴿واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسه وللرسول﴾ الغنم الفوز بالشيء يقال يغنم غنماً فهو غانم واختلف العلماء هل الغنيمة والفيء اسمان لمسمى واحد أم يختلفان في التسمية فقال عطاء بن السائب: الغنيمة ما ظهر المسلمون عليه من أموال المشركين فأخذوه عنوة وأما الأرض فهي فيء.

الله. ﴿ ويجعل الخبيثَ بعْضَه على بعض ﴾، أي: فوق بعض، ﴿ فيَركمهُ جميعاً ﴾، أي: يجمعه. ومنه السحاب المركوم، وهو المجتمع الكثيف، فيجعله في جهنّم ﴿ أولئك هُم الخاسرون ﴾، ردّه إلى قوله: ﴿ إنّ الذين كفرُوا يُنفقونَ أموالَهم... أولئكَ همُ الخاسرون ﴾ الذين خسرت تجارتهم، لأنهم اشتروا بأموالهم عذاب الآخرة.

﴿ قلْ للذين كفروا إن ينتهوا ﴾، عن الشرك ﴿ يُغفرْ لهمْ ما قدْ سلفَ ﴾، أي: ما مضى من ذنوبهم قبل الإسلام، ﴿ وإن يعودُوا فقدْ مضتْ سُنّةُ الأوّلين ﴾، في نصر الله أنبيائه وأوليائه وإهلاك أعدائه. قال يحيـى بن معاذ الرازي: توحيدٌ لم يعجزْ عن هدم ما قبله من كفر أرجو أن لا يعجزَ عن هدم ما بعده من ذنب.

﴿ وقاتلوهم حتّى لا تكونَ فتنةٌ ﴾ أي: شرك قال الربيع حتى لا يفتن مؤمن عن دينه ﴿ ويكونَ الدينُ كلُّه لله ﴾، أي: ويكون الدين خالصاً لله لا شرك فيه، ﴿ فإن انتهَوا ﴾، عن الكفر، ﴿ فإنّ اللّهَ بما يعملون بصير ﴾، قرأ يعقوب «تعمـلون» بالتاء وقرأ الآخرون بالياء.

﴿ وإن تولّوا ﴾، عن الإيمان وعادوا إلى قتال أهله، ﴿ فاعْلموا أنّ اللّهَ مولاَكم ﴾، ناصركم ومعينكم، ﴿ نِعْمَ المولى ونِعْمَ النّصير ﴾، أي: الناصر.

قوله تعالى: ﴿ واعْلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خُمُسَه ﴾ الآية، الغنيمة والفيء اسمان لما يصيبه المسلمون من أموال الكفّار، فذهب جماعة إلى أنهما واحد. وذهب قوم أنهما يختلفان، فالغنيمة ما أصابه المسلمون منهم عُنْوةً بقتال، والفيء ما كان عن صلح بغير قتال، فذكر الله عزّ وجلّ في هذه الآية حكم الغنيمة فقال: ﴿ فأن لله خُمُسَهُ وللرّسول ﴾، فذهب أكثر المفسّرين والفقهاء إلى أن قوله: ﴿ لله ﴾ افتتاح كلام على سبيل التبرّك وإضافة هذا المال إلى نفسه لشرفه، وليس المراد منه أنّ سهماً من الغنيمة لله منفرداً، فإن الدنيا والآخرة كلها

وقال سفيان الثوري: الغنيمة ما أصاب المسلمون من مال الكفار عنوة بقتال وفيه الخمس وأربعة أخماسه لمن شهد الوقعة. والفيء: ما صولحوا عليه بغير قتال وليس فيه خمس فهو لمن سمى الله. وقيل: الغنيمة ما أخذ من أموال الكفار عنوة عن قهر وغلبة، والفيء: ما لم يوجف عليه بخيل ولا ركاب كالعشور والجزية وأموال الصلح والمهادنة. وقيل: إن الفيء والغنيمة معناهما واحد وهما اسمان لشيء واحد، والصحيح أنهما يختلفان فالفيء ما أخذ من أموال الكفار بغير إيجاف خيل ولا ركاب والغنيمة ما أخذ من أموالهم على سبيل القهر والغلبة بإيجاف خيل عليه وركاب فذكر الله سبحانه وتعالى في هذه الآية حكم الغنيمة فقال تعالى: ﴿واعلموا أنما غنمتم من شيء﴾ يعني من أي شيء كان حتى الخيط والمخيط فإن لله خمسه وللرسول. وقد ذكر أكثر المفسرين والفقهاء أن قوله لله افتتاح كلام على سبيل التبرك وإنما أضافه لنفسه تعالى لأنه هو الحاكم فيه فيقسمه كيف شاء وليس المراد منه أن سهماً منه لله منفرداً لأن الدنيا والآخرة كلها لله وهذا قول الحسن وقتادة وعطاء وإبراهيم النخعي قالوا: سهم الله وسهم رسوله واحد والغنيمة تقسم خمسة أخماس أربعة أخماسها لمن قاتل عليها وأحرزها والخمس الباقي لخمسة أصناف كما ذكر الله عز وجل للرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل.

وقال أبو العالية: يقسم خمس الخمس على ستة أسهم سهم لله عز وجل فيصرف إلى الكعبة القول الأول أصح أي إن خمس الغنيمة يقسم على خمسة أسهم سهم لرسول الله ﷺ كان له في حياته واليوم هو لمصالح المسلمين وما فيه قوة الإسلام وهذا قول الشافعي وأحمد. وروى الأعمش عن إبراهيم قال: كان أبو بكر وعمر رضي الله تعالى عنهما يجعلان سهم النبي ﷺ في الكراع والسلاح. وقال قتادة: هو للخليفة. وقال أبو حنيفة: سهم النبي ﷺ بعد موته مردود في الخمس فيقسم الخمس على الأربعة الأصناف المذكورين في الآية وهم ذوو القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل.

لله عزّ وجلّ. وهو قول الحسن وقتادة وعطاء وإبراهيم والشعبي، قالوا: سَهْمُ الله وسهم الرسول واحد. والغنيمة تقسم خمسة أخماس، أربعة أخماسها لمَن قاتل عليها، والخمس لخمسة أصناف كما ذكر الله عزّ وجلّ، ﴿ وللرسول ولذي القُرْبَى واليتامَى والمساكين وابنِ السّبيل ﴾، قال بعضهم: يقسم الخمس على ستّة أسهم، وهو قول أبي العالية، سهم لله فيصرف إلى الكعبة. والأول أصحّ أن خمس الغنيمة يقسم على خمسة أسهم سهم كان لرسول الله ﷺ في حياته واليوم هو لمصالح المسلمين وما فيه قوة الإسلام، وهو قول الشافعي رحمه الله، وروى الأعمش عن إبراهيم قال: كان أبو بكر وعمر رضي الله عنهما يجعلان سهم النبيّ ﷺ في الكراع والسلاح. وقال قتادة: هو للخليفة بعده. وقال بعضهم: سهم رسول الله ﷺ مردود في الخمس والخمس لأربعة أصناف. قوله: ﴿ ولذي القربى ﴾ أراد أن سهماً من الخمس لذوي القربى وهم أقارب النبي ﷺ، واختلفوا فيهم فقال قوم: جميع قريش. وقال قوم: هم الذين لا تحلّ لهم الصدقة. وقال مجاهد وعلي بن الحسين: هم بنو هاشم. وقال الشافعي: هم بنو هاشم وبنو المطلب وليس لبني عبد شمس ولا لبني نوفل منه شيء، وإن كانوا إخوة، والدليل عليه ما أخبرنا عبد الوهاب بن محمد الخطيب أنا عبد العزيز أحمد الخلال ثنا أبو العباس الأصم أنبأنا الربيع أنبأنا الشافعي أنبأنا الثقة عن ابن شهاب عن ابن المسيب عن جبير بن مطعم عن أبيه قال: قسم رسول الله ﷺ ذوي القربى بين بني هاشم وبني المطلب، ولم يعطِ منه أحداً من بني عبد شمس ولا بني نوفل شيئاً. وأخبرنا عبد الوهاب بن محمد الخطيب أنا عبد العزيز بن أحمد الخلال ثنا أبو العباس الأصم أنا الربيع أنا الشافعي أنا مطرف بن مازن عن معمر بن راشد عن ابن شهاب أخبرني محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه قال: لمّا قسم رسول الله ﷺ سهم ذوي القربى بين بني هاشم وبني المطّلب أتيته أنا وعثمان بن عفّان فقلنا: يا رسول الله هؤلاء إخواننا من بني هاشم لا

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ولذي القربى﴾ يعني أن سهماً من خمس الخمس لذوي القربى وهم أقارب رسول الله ﷺ واختلفوا فيهم فقال قوم هم جميع قريش وقال قوم هم الذين لا تحل لهم الصدقة وقال مجاهد وعلي بن الحسين: هم بنو هاشم. وقال الشافعي رحمه الله تعالى: هم بنو هاشم وبنو المطلب وليس لبني عبد شمس ولا لبني نوفل منه شيء وإن كانوا إخوة ويدل عليه ما روي عن جبير بن مطعم «قال جئت أنا وعثمان بن عفان إلى النبي ﷺ فقلت يا رسول الله أعطيت بني المطلب وتركتنا ونحن وهم بمنزلة واحدة فقال رسول الله ﷺ إنما بنو هاشم وبنو المطلب شيء واحد» وفي رواية: أعطيت بني المطلب من خمس الخمس وتركتنا وفي رواية قال جبير: ولم يقسم النبي ﷺ لبني عبد شمس ولا لبني نوفل شيئاً أخرجه البخاري وفي رواية أبي داود «أن جبير بن مطعم جاء هو وعثمان بن عفان يكلمان رسول الله ﷺ فيما يقسم من الخمس في بني هاشم وبني المطلب فقلت يا رسول الله قسمت لإخواننا بني المطلب ولم تعطنا شيئاً وقرابتنا وقرابتهم واحدة فقال رسول الله ﷺ: إنما بنو هاشم وبنو المطلب شيء واحد» وفي رواية النسائي قال «لما كان يوم خيبر رفع رسول الله ﷺ سهم ذوي القربى في بني هاشم وبني المطلب وترك بني نوفل وبني عبد شمس فانطلقت أنا وعثمان بن عفان حتى أتينا النبي ﷺ فقلنا: يا رسول الله هؤلاء بنو هاشم لا ننكر فضلهم للموضع الذي وضعك الله به منهم فما بال إخواننا بني المطلب أعطيتهم وتركتنا وقرابتنا واحدة فقال رسول الله ﷺ أنا وبنو المطلب لا نفترق في جاهلية ولا إسلام وإنما نحن وهم شيء واحد وشبك بين أصابعه» واختلف أهل العلم في سهم ذوي القربى هل هو ثابت اليوم أم لا فذهب أكثرهم إلى أنه ثابت فيعطي فقراؤهم وأغنياؤهم من خمس الخمس للذكر مثل حظ الأنثيين وهو قول مالك والشافعي وذهب أبو حنيفة وأصحاب الرأي إلى أنه غير ثابت قالوا سهم النبي ﷺ وسهم ذوي القربى مردود في الخمس فيقسم خمس الغنيمة على ثلاثة أصناف اليتامى والمساكين وابن السبيل فيصرف إلى فقراء ذوي القربى مع هذه الأصناف دون أغنيائهم وحجة الجمهور أن الكتاب والسنة يدلان على ثبوت سهم ذوي القربى وكذا الخلفاء بعد رسول الله ﷺ كانوا يعطون ذوي القربى ولا يفضلون فقيراً على غني، لأن النبي ﷺ أعطى العباس بن عبد المطلب مع كثرة ماله وكذا الخلفاء بعده كانوا يعطونه وألحقه الشافعي بالميراث الذي يستحق باسم القرابة غير أنهم يعطون القريب والبعيد قال ويفضل الذكر على الأنثى فيعطى الذكر سهمين والأنثى سهماً.

ننكر فضلهم لمكانك الذي وضعك الله منهم، أرأيت إخواننا من بني المطّلب أعطيتهم وتركتنا أو منعتنا، وإنما قرابتنا وقرابتهم واحدة، فقال رسول الله ﷺ: «إنما بنو هاشم وبنو المطلب شيء واحد هكذا وشبّكَ بين أصابعه». واختلف أهل العلم في سهم ذوي القربى هل هو ثابت اليوم؟ فذهب أكثرهم إلى أنه ثابت، وهو قول مالك والشافعي وذهب أصحاب الرأي إلى أنه غير ثابت، وقالوا: سهم رسول الله ﷺ وسهم ذوي القربي مردُودَان في الخمس، وخمس الغنيمة لثلاثة أصناف اليتامى والمساكين وابن السبيل. وقال بعضهم: يُعطى للفقراء منهم دون الأغنياء. والكتاب والسُّنّة يدلّان على ثبوته، والخلفاء بعد الرسول ﷺ كانوا يعطونه، ولا يُفضّل فقير على غني لأن النبي ﷺ والخلفاء بعده كانوا يعطون العباس بن عبد المطلب مع كثرة ماله، فألحقه الشافعي بالميراث الذي يستحق باسم القرابة، غير أنه يعطي القريب والبعيد. وقال: يفضل الذّكَر على الأُنثى فيُعطي الرجل سهمين والأُنثى سهماً واحداً. قوله: ﴿ واليتامى ﴾ وهو جمع اليتيم، واليتيم الذي له سهم في الخمس هو الصغير المسلم الذي لا أب له إذا كان فقيراً، و﴿ المساكين ﴾ هم أهل الفاقة والحاجة من المسلمين، ﴿ وابن السبيل ﴾ هو المسافر البعيد عن ماله، فهذا مصرف خمس الغنيمة ويقسم أربعة أخماس الغنيمة بين الغانمين الذين شهدوا الوقعة، للفارس منهم ثلاثة أسهم وللرّاجِل سهم واحد، لِما أخبرنا أبو صالح أحمد بن عبد الملك المؤذن أنا عبد الله بن يوسف أنا سعيد بن الأعرابي ثنا سعد بن نصر ثنا أبو معاوية عن عبيد الله بن عمر عن نافع عن ابن عمر أنّ رسول الله ﷺ أسهم

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿واليتامى﴾ جمع يتيم يعني ويعطى من خمس الخمس لليتامى، واليتيم الذي له سهم في الخمس هو الصغير المسلم الذي لا أب له فيعطى مع الحاجة إليه ﴿والمساكين﴾ وهم أهل الفاقة والحاجة من المسلمين ﴿وابن السبيل﴾ وهو المسافر البعيد عن ماله فيعطى من خمس الخمس مع الحاجة فهذا مصرف خمس الغنيمة ويقسم أربعة أخماسها الباقية بين الغانمين الذين شهدوا الواقعة وحازوا الغنيمة فيعطى للفارس ثلاثة أسهم سهم له وسهمان لفرسه، ويعطى الراجل سهماً واحداً لما روي عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قسم في النفل للفرس سهمين وللرجل سهماً. وفي رواية نحوه بإسقاط لفظ النفل أخرجه البخاري ومسلم. وفي رواية أبي داود، أن رسول الله ﷺ أسهم للرجل ولفرسه ثلاثة أسهم سهماً له وسهمين لفرسه وهذا قول أكثر أهل العلم وإليه ذهب الثوري والأوزاعي ومالك وابن المبارك والشافعي وأحمد وإسحاق. وقال أبو حنيفة: للفارس سهمان وللراجل سهم ويرضخ للعبيد والنسوان والصبيان إذا حضروا القتال ويقسم العقار الذي استولى عليه المسلمون كالمنقول وعند أبي حنيفة يتخير الإمام في العقار بين أن يقسمه بينهم وبين أن يجعله وقفاً على المصالح وظاهر الآية يدل على أنه لا فرق بين العقار والمنقول ومن قتل من المسلمين مشركاً في القتال يستحق سلبه من رأس الغنيمة لما روي عن أبي قتادة أن رسول الله ﷺ قال «من قتل قتيلاً له عليه بينة فله سلبه» أخرجه الترمذي وأخرجه البخاري ومسلم في حديث طويل والسلب كل ما يكون على المقتول من ملبوس وسلاح والفرس الذي كان راكبه ويجوز للإمام أن ينفل بعض الجيش من الغنيمة لزيادة عناء وبلاء يكون منهم في الحرب يخصهم به من بين سائر الجيش ثم يجعلهم أسوة الجماعة في سائر الغنيمة (ق) عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ كان ينفل بعض من يبعث من السرايا لأنفسهم خاصة سوى عامة الجيش.

عن حبيب بن سلمة الفهري، قال: شهدت رسول الله ﷺ نفل الربع في البدأة والثلث في الرجعة أخرجه أبو داود واختلف العلماء في أن النفل من أين يعطى فقال قوم من خمس الخمس من سهم رسول الله ﷺ وهو قول سعيد بن المسيب وبه قال الشافعي. وهذا معنى قول النبي ﷺ فيما رواه عبادة بن الصامت قال: أخذ رسول الله ﷺ يوم خيبر وبرة من جنب بعير فقال: يا أيها الناس إنه لا يحل لي مما أفاء الله عليكم قدر هذه إلا الخمس والخمس

للرجل ولفرسه ثلاثة أسهم، سهماً له وسهمين لفرسه. وهذا قول أكثر أهل العلماء وإليه ذهب الثّوري والأوزاعي ومالك وابن المبارك والشافعي وأحمد وإسحاق، وقال أبو حنيفة رضي الله عنه للفارس سهمان وللراجل سهم واحد، ويُرَخّص للعبيد والنسوان والصبيان إذا حضروا القتال، ويقسم العقار الذي استولى عليه المسلمون كالمنقول. وعند أبي حنيفة يتخيّر الإمام في العقار بين أن يقسمه بينهم وبين أن يجعله وقفاً على المصالح. وظاهر الآية لا يفرّق بين العقار والمنقول. ومَن قتل مشركاً في القتال يستحق سلبه من رأس الغنيمة، لِما رُوِيَ عن أبي قتادة أن النبي ﷺ قال يوم حُنين: «مَن قتل قتيلاً له عليه بيّنة فله سلبه». والسلب كل ما يكون على المقتول من ملبوس وسلاح وفرسه الذي هو راكبه، ويجوز للإمام أن ينقل بعض الجيش من الغنيمة لزيادة عناء وبلاء يكون منهم في الحرب يخصّه به من بين سائر الجيش ويجعله أُسوة الجماعة في سائر الغنيمة. أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا يحيىٰ بن بكير ثنا الليث عن عقيل عن ابن شهاب عن سالم عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ كان ينفل بعض مَن يبعث من السرايا لأنفسهم خاصة سوى قسم عامّة الجيش. ورُوِيَ عن حبيب بن سلمة الفهري قال: شهدت النبي ﷺ نفل الربع في البَداة والثلث في الرجعة. واختلفوا في أن النفل من أين يعطى، فقال قوم: من خمس الخمس منهم النبي ﷺ، وهو قول سعيد بن المسيب، وبه قال الشافعي، وهذا معنى قول النبي ﷺ: «ما لي مما أفاء الله عليكم إلّا الخُمسَ والخُمسُ مردُودٌ فيكم». وقال قوم: هو من الأربعة الأخماس بعد إفراز الخمس كسهام الغزاة، وهو قول أحمد وإسحاق.

مردود عليكم أخرجه النسائي. وقال قوم: هو من الأربعة الأخماس بعد إقرار الخمس كسهام الغزاة وهو قول أحمد وإسحاق. وذهب قوم إلى أن النفل من رأس الغنيمة قبل التخميس كالسلب للقاتل وأما الفيء، وهو ما أصابه المسلمون من أموال الكفار بغير إيجاف خيل ولا ركاب بأن صالحهم على ما يؤدونه، وكذلك الجزية وما أخذ من أموالهم إذا دخلوا دار الإسلام للتجارة أو يموت أحد منهم في دار الإسلام ولا وارث له فهذا كله فيء ومال الفيء كان خالصاً لرسول الله ﷺ في مدة حياته. وقال عمر: إن الله سبحانه وتعالى قد خص نبيه ﷺ في هذا الفيء بشيء لم يخص به أحداً غيره ثم قرأ عمر: وما أفاء الله على رسوله منهم الآية فكانت هذه لرسول الله ﷺ خالصة وكان ينفق على أهله وعياله نفقة سنتهم من هذا المال ثم ما بقي يجعله مجعل مال الله في الكراع والسلاح واختلف أهل العلم في مصرف الفيء بعد رسول الله ﷺ فقال قوم هو للأئمة بعده وللإمام الشافعي رضي الله تعالى عنه فيه قولان أحدهما أنه للمقاتلة الذين أثبتت أسماؤهم في ديوان الجهاد لأنهم هم القائمون مقام النبي ﷺ في إرهاب العدو.

والقول الثاني: إنه لمصالح المسلمين ويبدأ بالمقاتلة فيعطون منه كفايتهم ثم بالأهم فالأهم من المصالح واختلف أهل العلم في تخميس الفيء فذهب الإمام الشافعي رضي الله تعالى عنه إلى أنه يخمس وخمسه لأهل الخمس من الغنيمة على خمسة أسهم وأربعة أخماسه للمقاتلة وللمصالح وذهب الأكثرون إلى أنه لا يخمس بل يصرف جميعه مصرفاً واحداً ولجميع المسلمين فيه حق.

عن مالك بن أنس قال: ذكر عمر يوماً الفيء فقال ما أنا أحق بهذا الفيء منكم وما أحد منا أحق به الآخر إلا أنا على منازلنا من كتاب الله وقسمة رسول الله ﷺ وقدمه والرجل وبلاؤه والرجل وعياله والرجل وحاجته أخرجه أبو داود وأخرج البغوي بسنده عنه أنه سمع عمر بن الخطاب يقول: ما على وجه الأرض مسلم إلا له في هذا الفيء حق إلا ما ملكت أيمانكم وقوله سبحانه وتعالى: ﴿**إن كنتم آمنتم بالله**﴾ يعني واعلموا أيها المؤمنون أن خمس الغنيمة مصروف إلى ما ذكر في هذه الآية من الأصناف فاقطعوا عنه أطماعكم واقنعوا بأربعة أخماس الغنيمة إن كنتم آمنتم بالله وصدقتم

وذهب بعضهم إلى أن النفل من رأس الغنيمة قبل الخمس كالسلب للقاتل. وأما الفيء وهو ما أصابه المسلمون من أموال الكفّار بغير إيجاف خيل ولا ركاب، بأن صالحهم على مال يؤدّونه ومال الجزية وما يؤخذ من أموالهم إذا دخلوا دار الإسلام للتجارة أو يموت واحد منهم في دار الإسلام ولا وارث له، فهذا كله فيء، ومال الفيء كان خالصاً لرسول الله ﷺ في حياته. قال عمر رضي الله عنه: إنّ الله قدْ خصّ رسول الله ﷺ في هذا الفيء بشيء لم يعطه أحداً غيره، ثم قرأ: ﴿ما أفاء الله على رسـوله منهـم﴾ إلى قوله: ﴿قـدير﴾ [الحشر: ٦]، وكانت هذه خالصة لرسول الله ﷺ كان ينفق على أهله وعياله نفقة سنتهم من هذا المال، ثم يأخذ ما بقي فيجعله مجعل مال الله عزّ وجلّ. واختلف أهل العلم في مصرف الفيء بعد رسول الله ﷺ، فقال القوم: هو للأئمة بعده. وللشافعي فيه قولان، أحدهما للمقَاتِلة الذين أُثبتتْ أساميهم في ديوان الجهاد لأنهم القائمون مقام النبي ﷺ في إرهاب العدو. والقول الثاني: أنه لمصالح المسلمين ويُبدأ بالمقاتلة فيُعطون منهم كفايتهم، ثم بالأهم فالأهم من المصالح. واختلف أهل العلم في تخميس الفيء، فذهب الشافعي إلى أنه يخمس فخمسه لأهل الغنيمة على خمسة أسهم وأربعة أخماسه للمقاتلة وللمصالح. وذهب الأكثرون إلى أن الفيء لا يُخمّس بل مصرفُ جميعه واحد، ولجميع المسلمين فيه حق. أخبرنا أبو سعيد عبدالله بن أحمد الطاهري أنا جدي عبد الصمد بن عبد الرحمن البزار أنا محمد ابن زكريا العذافري أنا إسحاق الدبري ثنا عبد الرزّاق ثنا معمر عن الزهري عن مالك بن أوس بن الحدثان أنه سمع عمر بن الخطاب يقول: ما على وجه الأرض مسلم إلاّ له في هذا الفيء حق، إلاّ ما ملكت أيمانكم. وأخبرنا أبو سعيد الطاهر أنبأنا جدّي عبد الصمد بن عبد الرحمن البزار أنبأنا محمد بن زكريا العذافري أنبأنا أبو إسحاق

بوحدانيته ﴿وما أنزلنا على عبدنا﴾ يعني وآمنتم بالمنزل على عبدنا محمد ﷺ وهذه إضافة تشريف وتعظيم للنبي ﷺ والذي أنزله على عبده محمد ﷺ يسألونك عن الأنفال الآية ﴿يوم الفرقان﴾ يعني يوم بدر. قال ابن عباس: يوم الفرقان يوم بدر فرق الله عز وجل بين الحق والباطل ﴿يوم التقى الجمعان﴾ يعني جميع المؤمنين وجميع الكافرين وهو يوم بدر وهو أول مشهد شهده رسول الله ﷺ وكان رأس المشركين عتبة بن ربيعة فالتقوا يوم الجمعة لتسع عشرة أو لسبع عشرة من رمضان وأصحاب رسول الله ﷺ يومئذ ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً والمشركون ما بين الألف والتسعمائة فهزم الله المشركين وقتل منهم زيادة على سبعين وأسر منهم مثل ذلك ﴿والله على كل شيء قدير﴾ يعني على نصركم أيها المؤمنون مع قلتكم وكثرة أعدائكم.

إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ۚ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَٰدِ ۙ وَلَٰكِن لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤٤﴾

قوله سبحانه وتعالى: ﴿إذ أنتم﴾ أي اذكروا نعمة الله عليكم يا معشر المسلمين إذ أنتم ﴿بالعدوة الدنيا﴾ يعني بشفير الوادي الأدنى من المدينة والدنيا هنا تأنيث الأدنى ﴿وهم﴾ يعني المشركين ﴿بالعدوة القصوى﴾ يعني بشفير الوادي الأقصى من المدينة مما يلي مكة والقصوى تأنيث الأقصى ﴿والركب أسفل منكم﴾ يعني أبا سفيان وأصحابه وهم غير قريش التي خرجوا لأجلها وكانوا في موضع أسفل من موضع المؤمنين إلى ساحل البحر على ثلاثة أميال من بدر ﴿ولو تواعدتم﴾ يعني أنتم والمشركون ﴿لاختلفتم في الميعاد﴾ وذلك لأن المسلمين خرجوا ليأخذوا العير وخرج

الدبري ثنا عبد الرزّاق أنا معمر عن أيوب عن عكرمة بن خالد عن مالك بن أوس بن الحدثان قال: قرأ عمر بن الخطاب: ﴿ إنّما الصدقاتُ للفقراء والمساكين﴾ حتى بلغ ﴿ عليم حكيم ﴾ [التوبة: ٦٠] فقال: هذه لهؤلاء ثم قرأ: ﴿ واعلموا أنّما غَنِمْتُم منْ شيء فأن لله خمسه ﴾ حتى بلغ ﴿ وابن السبيل ﴾، ثم قال: هذه لهؤلاء، ثم قرأ ﴿ ما أفاء اللّهُ على رسوله من أهل القرى ﴾ [الحشر: ٧] حتى بلغ ﴿ للفقراء ﴾ [الحشر: ٨] ﴿ والذين جاءُوا من بعدهم ﴾ [الحشر: ١٠] ثم قال: هذه استوعبت المسلمين عامّة فلئن عشت فليأتينّ الراعي وهو بسر وحمير فنصيبه منها لم يعرق فيها جبينه. قوله تعالى: ﴿ إنْ كنتُم آمنتُم بالله ﴾، قيل: أراد ﴿ **اعْلموا أنما غنمتم من شيء فأنّ للّهِ خُمسَه وللرسول** ﴾ يأمر فيه بما يريد، فاقبلوه إن كنتم آمنتم بالله ﴿ **وما أنزلنا على عبدنا** ﴾، أي: إن كنتم آمنتم بالله وبما أنزلنا على عبدنا، يعني: قوله: ﴿ يسألونك عن الأنفال ﴾ [الأنفال: ١] ﴿ **يوم الفرقان** ﴾، يعني يوم بدر، فرّق الله بين الحق والباطل وهو، ﴿ **يوم التقى الجمعان** ﴾، حزب الله وحزب الشيطان، وكان يوم الجمعة لسبع عشرة مضت من رمضان، ﴿ **والله على كل شيء قدير** ﴾، على نصركم مع قلّتكم وكثرتهم.

﴿ **إذْ أنتم** ﴾، أي: إذ أنتم نزول يا معشر المسلمين، ﴿ **بالعُدْوَةِ الدنيا** ﴾، أي: بشفير الوادي الأدنى إلى المدينة، والدنيا. تأنيث الأدنى، ﴿ **وهم** ﴾، يعني عدوّكم من المشركين، ﴿ **بالعُدْوَةِ القُصْوَى** ﴾ بشفير الوادي الأقصى من المدينة، والقصوى تأنيث الأقصى. قرأ ابن كثيرٍ وأهل البصرة «بالعِـدوة» بكسر العين فيهما والباقون

الكفار ليمنعوها من المسلمين فالتقوا على غير ميعاد والمعنى ولو تواعدتم أنتم والكفار على القتال لاختلفتم أنتم وهم لقلتكم وكثرة عدوكم ﴿ولكن﴾ يعني ولكن الله جمعكم على غير ميعاد ﴿ليقضي الله أمراً كان مفعولاً﴾ يعني من نصر أوليائه وإعزاز دينه وإهلاك أعدائه وأعداء دينه ﴿ليهلك من هلك عن بينة﴾ يعني ليموت من مات عن بينة رآها وعبرة عاينها وحجة قامت عليه ﴿ويحيـى من حي عن بينة﴾ يعني ويعيش من عاش عن بينة رآها وعبرة شاهدها وحجة قامت عليه وقال محمد بن إسحاق: معناه ليكفر من كفر بعد حجة قامت عليه ويؤمن من آمن على مثل ذلك لأن الهلاك هو الكفر والحياة هي الإيمان ونحوه قال قتادة ليضل من ضل على بينة ويهتدي من اهتدى على بينة ﴿وإن الله لسميع عليم﴾ يعني يسمع دعاءكم ويعلم نياتكم ولا تخفى عليه خافية.

قوله عز وجل: ﴿إذ يريكهم الله﴾ يعني: واذكر يا محمد نعمة الله عليك إذ يريك المشركين ﴿في منامك﴾ يعني في نومك ﴿قليلاً﴾ قال مجاهد: أراهم الله في منامه قليلاً فأخبر النبي ﷺ أصحابه بذلك وكان ذلك تثبيتاً. وقال محمد بن إسحق: فكان ما أراه الله من ذلك نعمة من نعمه عليهم يشجعهم بها على عدوهم، فكف عنهم بها ما تخوف عليهم من ضعفهم لعلمه بما فيهم. وقيل: لما أرى الله النبي ﷺ كفار قريش في منامه قليلاً فأخبر بذلك أصحابه قالوا: رؤيا النبي ﷺ حق فصار ذلك سبباً لجراءتهم على عدوهم وقوة لقلوبهم. وقال الحسن: إن هذه الإراءة كانت في اليقظة. والمراد من المنام، العين، لأنها موضع النوم ﴿ولو أراكهم كثيراً لفشلتم﴾ يعني لجبنتم والفشل ضعف مع جبن والمعنى ولو أراكهم كثيراً فذكرت ذلك لأصحابك لفشلوا وجبنوا عنهم ﴿ولتنازعتم في الأمر﴾ يعني اختلفتم في أمر الإقدام عليهم أو الإحجام عنهم وقيل معنى التنازع في الأمر الاختلاف الذي تكون معه مخاصمة ومجادلة ومجاذبة كل واحد إلى واحد إلى ناحية والمعنى: لاضطرب أمركم واختلفت كلمتكم ﴿ولكن الله سلم﴾ يعني: ولكن الله سلمكم من التنازع والمخالفة فيما بينكم. وقيل: معناه ولكن الله سلمكم من الهزيمة والفشل ﴿إنه عليم بذات الصدور﴾ يعني أنه تعالى يعلم ما يحصل في الصدور من الجراءة والجبن والصبر والجزع. وقال ابن عباس: معناه أنه عليم بما في صدوركم من الحب لله عز وجل: ﴿وإذ يريكموهم إذ التقيتم في أعينكم قليلاً﴾ يعني أن الله سبحانه

بضمّهما، وهما لغتان كالكسوة والكسوة والرشوة والرشوة. ﴿ والركبُ ﴾، يعني: العير يريد أبا سفيان وأصحابه، ﴿ أسفل منكم ﴾، أي: في موضع أسفل منكم إلى ساحل البحر، على ثلاثة أميال من بدر، ﴿ ولو تواعدْتُم لاختلفتُم في الميعاد ﴾، وذلك أن المسلمين خرجوا ليأخذوا العير وخرج الكفّار ليمنعوها، فالتقوا على غير ميعاد، فقال تعالى: ﴿ ولو تواعدتم لاختلفتم في الميعاد ﴾، لقلتكم وكثرة عدوّكم، ﴿ ولكنّ ﴾ الله جمعكم على غير ميعاد، ﴿ ليقضيَ اللّهُ أمراً كان مَفْعُولاً ﴾، من نصر أوليائه وإعزاز دينه وإهلاك أعدائه، ﴿ لِيَهلكَ مَن هلَكَ عن بيّنة ﴾، أي: ليموت مَن يموت على بيّنة رآها وعبرة عاينها وحجّة قامت عليه. ﴿ويحيـى مَنْ حيّ عنْ بيّنة ﴾، ويعيش مَن يعيش على بيّنة لوعده: ﴿ وما كنّا معذبين حتى نبعث رسولاً ﴾ [الإسراء: ١٥]. وقال محمد بن إسْحاق: معناه ليكفر مَن كفر بعد حجّة قامت عليه، ويؤمن مَن آمن على مثل ذلك، فالهلاك هو الكفر والحياة هي الإيمان. وقال قتادة: ليضلّ عن بيّنة ويهدي مَن اهتدى على بيّنة. قرأ أهل الحجاز وأبو بكر ويعقوب « حيي » بيائين مثل ﴿ خشي ﴾ [النساء: ٢٥، يّس: ١١، قّ: ٣٣، البيّنة: ٨] وقرأ الآخرون بياء واحدة مشدّدة لأنه مكتوب بياء واحدة. ﴿ وإنّ الله لسميعٌ ﴾، لدعائكم، ﴿ عليمٌ ﴾، بنيّاتكم.

قوله تعالى: ﴿ إذْ يُريكَهُمُ اللّهُ ﴾، يُريكَ يا محمد المشركين، ﴿ في منامك ﴾، أي: نومك. وقال الحسن: في منامك أي في عينك، لأن العين موضع النوم. ﴿ قليلاً ولو أراكَهُمْ كثيراً لَفشِلْتُم ﴾، لجبنتم ﴿ ولتنازعتم ﴾، أي: اختلفتم ﴿ في الأمر ﴾، أي: في الإحجام والإقدام، ﴿ ولكن الله سلّم ﴾، أي سلّمكم من المخالفة والفشل،

وتعالى قلل عدد المشركين في أعين المؤمنين يوم بدر لما التقوا في القتال ليتأكد في اليقظة ما رآه النبي ﷺ في منامه وأخبر به أصحابه قال ابن مسعود: لقد قللوا في أعيننا حتى قلت لرجل إلى جنبي تراهم سبعين قال: أراهم مائة فأسرنا رجلاً منهم فقلنا كم كنتم قال: كنا ألفاً. ويقللكم في أعينهم يعني ويقللكم يا معشر المؤمنين في أعين المشركين. قال السدي: قال ناس من المشركين إن العير قد انصرف فارجعوا فقال أبو جهل الآن إذ برز لكم محمد وأصحابه فلا ترجعوا حتى نستأصلهم إنما محمد وأصحابه أكلة جزور يعني لقلتهم في عينيه ثم قال: فلا تقتلوهم واربطوهم في الحبال يقوله من القدرة التي في نفسه والحكمة في تقليل المشركين في أعين المؤمنين تصديق رؤيا النبي ﷺ ولتقوى بذلك قلوب المؤمنين وتزداد جراءتهم عليه ولا يجبنوا عند قتالهم والحكمة في تقليل المؤمنين في أعين المشركين لئلا يهربوا وإذا استقلوا عدد المسلمين لم يبالغوا في الاستعداد والتأهب لقتالهم فيكون ذلك سبباً لظهور المؤمنين عليهم.

فإن قلت: كيف يمكن تقليل الكثير وتكثير القليل؟

قلت: ذلك ممكن في القدرة الإلهية فإن الله سبحانه وتعالى على ما يشاء قدير ويكون ذلك معجزة للنبي ﷺ والمعجزة من خوارق العادات فلا ينكر ذلك ﴿**ليقضي الله أمراً كان مفعولاً**﴾ يعني أمراً كان كائناً من إعلاء كلمة الإسلام ونصر أهله وإذلال كلمة الشرك وخذلان أهله فإن قلت: قد قال في الآية المتقدمة ولكن ليقضي الله أمراً كان مفعولاً وقال في هذه الآية ليقضي الله أمراً كان مفعولاً فما معنى هذا التكرار؟

قلت: المقصود من ذكره في الآية المتقدمة ليحصل استيلاء المؤمنين على المشركين على وجه القهر والغلبة ليكون ذلك معجزة دالة على صدق رسول الله ﷺ والمقصود من ذكره في هذه الآية لأنه تعالى قلل عدد الفريقين في أعين بعضهم بعضاً للحكمة التي قضاها فلذلك قال ليقضي الله أمراً كان مفعولاً ﴿**وإلى الله ترجع الأمور**﴾ يعني في الآخرة فيجازى كل عامل على قدر عمله فالمحسن بإحسانه والمسيء بإساءته أو يغفر.

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَـٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾

قوله تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة**﴾ يعني جماعة كافرة ﴿**فاثبتوا**﴾ يعني لقتالهم وهو أن يوطنوا

﴿ **إنه عليمٌ بذات الصدور** ﴾. قال ابن عباس: علم ما في صدوركم من الحب لله عزّ وجلّ.

﴿ **وإذْ يُريكُمُوهم إذِ التقيتُم في أعينِكم قليلاً** ﴾، قال مقاتل: وذلك أن النبي ﷺ رأى في المنام أن العدو قليل قبل لقاء العدو، وأخبر أصحابه بما رأى، فلما التقوا ببدر قلّل الله المشركين في أعين المؤمنين. قال ابن مسعود رضي الله عنه: لقد قلّلوا في أعيننا حتى قلت لرجل إلى جنبي: أتراهم سبعين؟ قال: أراهم مائة، فأسرنا رجلاً فقلنا: كم كنتم؟ قال: ألفاً. ﴿ **ويُقلِّلكم** ﴾، يا معشر المؤمنين ﴿ **في أعينهم** ﴾، قال السدي: قال ناس من المشركين إن العير قد انصرفت فارجعُوا، فقال أبو جهل: الآن إذْ برزَ لكم محمد وأصحابه؟ فلا ترجعوا حتى تستأصلوهم، إنما محمد وأصحابه أكَلَة جزور، فلا تقتلوهم واربطوهم بالحبال. يقوله من القدرة التي في نفسه. قال الكلبي: استقلّ بعضهم بعضاً ليجترؤوا على القتال، فقلّل المشركين في أعين المؤمنين لكي لا يجبنوا، وقلّل المؤمنين في أعين المشركين لكي لا يهربوا، ﴿ **ليقضيَ اللّهُ أمراً** ﴾ من إعلاءِ الإسلام وإعزاز أهله وإذلال الشرك وأهله. ﴿ **كان مفعولاً** ﴾ كائناً، ﴿ **وإلى اللّهِ تُرجعُ الأمور** ﴾.

قوله تعالى: ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إذا لَقِيتُم فئةً** ﴾ أي: جماعة كافرة ﴿ **فاثبتُوا** ﴾، لقتالهم، ﴿ **واذكرُوا اللّهَ**

أنفسهم على لقاء العدو وقتاله ولا يحدثوها بالتولي ﴿واذكروا الله كثيراً﴾ يعني كونوا ذاكرين الله عند لقاء عدوكم ذكراً كثيراً بقلوبكم وألسنتكم أمر الله عباده المؤمنين وأولياءه الصالحين بأن يذكروه في أشد الأحوال وذلك عند لقاء العدو وقتاله، وفيه تنبيه على أن الإنسان لا يجوز أن يخلو قلبه ولسانه عن ذكر الله. وقيل: المراد من هذا الذكر هو الدعاء بالنصر على العدو وذلك لا يحصل إلا بمعونة الله تعالى فأمر الله سبحانه وتعالى عباده أن يسألوه النصر على العدو عند اللقاء ثم قال تعالى: ﴿لعلكم تفلحون﴾ يعني: وكونوا على رجاء الفلاح والنصر والظفرة.

فإن قلت: ظاهر الآية يوجب الثبات على كل حال وذلك يوهم أنها ناسخة لآية التحرف والتحيز.

قلت المراد من الثبات هو الثبات عند المحاربة والمقاتلة في الجملة وآية التحرف والتحيز لا تقدح في حصول هذا الثبات في المحاربة بل ربما كان الثبات لا يحصل إلا بذلك التحرف والتحيز ثم قال تعالى مؤكداً لذلك ﴿وأطيعوا الله ورسوله﴾ يعني في أمر الجهاد والثبات عند لقاء العدو ﴿ولا تنازعوا فتفشلوا﴾ يعني: ولا تختلفوا فإن التنازع والاختلاف يوجب الفشل والضعف والجبن.

وقوله تعالى: ﴿وتذهب ريحكم﴾ يعني قوتكم. وقال مجاهد: نصرتكم. قال: وذهبت ريح أصحاب محمد ﷺ حين نازعوه يوم أحد. وقال السدي: جراءتكم وجدكم وقال مقاتل: حدتكم وقال الأخفش وأبو عبيدة: دولتكم. والريح هنا كناية في نفاذ الأمر وجريانه على المراد. تقول العرب: هبت ريح فلان إذا أقبل أمره على ما يريد وقال قتادة وابن زيد: هي ريح النصر ولم يكن نصر قط إلا بريح يبعثها الله تعالى تضرب وجوه العدو، ومنه قول النبي ﷺ: نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور.

وعن النعمان بن مقرن قال: شهدت رسول الله ﷺ فكان إذا لم يقاتل من أول النهار أخر القتال حتى تزول الشمس وتهب الرياح وينزل النصر أخرجه أبو داود.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿واصبروا﴾ يعني عند لقاء عدوكم ولا تنهزموا عنهم ﴿إن الله مع الصابرين﴾ يعني بالنصر والمعونة (ق)

عن عبد الله بن أبي أوفى أن رسول الله ﷺ في بعض أيامه التي لقي فيها العدو انتظر حتى إذا مالت الشمس قام فيهم فقال: أيها الناس لا تتمنوا لقاء العدو واسألوا الله العافية فإذا لقيتموهم فاصبروا واعلموا أن الجنة تحت ظلال

كثيراً ﴾، أي: ادعوا الله بالنصر والظفر بهم، **﴿ لعلّكم تفلحون ﴾**، أي: كونوا على رجاء الفلاح.

﴿ وأطيعوا اللَّهَ ورسولَهُ ولا تنازعوا ﴾، لا تختلفوا، **﴿ فتفشلوا ﴾**، أي: تجبنُوا أو تضعفوا، **﴿ وتذهبَ ريحُكم ﴾**، قال مجاهد: نُصرتكم. وقال السدي: جراءتكم وجدّكم. وقال مقاتل بن حيان: حدّتكم. وقال النضر بن شميل: قوّتكم. وقال الأخفش: دولتكم. والريح هاهنا كناية عن نفاذ الأمر وجريانه على المراد، تقول العرب: هبّت ريح فلان إذا أقبل أمره على ما يريد. قال قتادة وابن زيد: هو ريح النصر لم يكن نصر قطّ إلّا بريح يبعثها الله عزّ وجلّ تضرب وجوه العدو. ومنه قول النبي ﷺ: «نُصرتُ بالصَّبَا وأهلكتْ عادُ بالدبور». وعن النعمان بن مقرن قال: شهدت مع رسول الله ﷺ فكان إذا لم يقاتل أول النهار انتظر حتى تزول الشمس وتهبّ الرياح وينزل النصر. قوله عزّ وجلّ: **﴿ واصْبِرُوا إن اللَّهَ مع الصابرين ﴾**. أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا عبد الله بن محمد ثنا معاوية بن عمرو ثنا أبو إسحاق عن موسى بن عقبة عن سالم أبي النضر مولى عمر بن عبيد الله وكان كاتباً له قال: كتب إليه عبد الله بن أبي أوفى فقرأته أن رسول الله ﷺ في بعض أيامه التي لقي فيها العدو انتظر حتى مالت الشمس، ثم قام في الناس فقال: «يا أيها الناس لا

السيوف، ثم قال رسول الله ﷺ: اللهم منزل الكتاب ومجري السحاب وهازم الأحزاب اهزمهم وانصرنا عليهم (ق) عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ لا تتمنوا لقاء العدو فإذا لقيتموهم فاصبروا.

﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطراً﴾ يعني فخراً وأشراً. وقيل: البطر: الطغيان في النعمة وذلك أن النعم إذا كثرت من الله تعالى على العبد فإن صرفها في المفاخرة على الأقران وكاثر بها أبناء الزمان وأنفقها في غير طاعة الرحمن فذلك هو البطر في النعم وإن صرفها في طاعة الله وابتغاء مرضاته فذلك شكرها، وهذا معنى قول الزجاج البطر الطغيان في النعمة وترك شكرها ﴿ورئاء الناس﴾ الرياء إظهار الجميل ليراه الناس مع إبطال القبيح والفرق بين الرياء والنفاق أن النفاق إظهار الإيمان مع إبطان الكفر والرياء إظهار الطاعة مع إبطان المعصية ﴿ويصدون عن سبيل الله﴾ يعني ويمنعون الناس عن الدخول في دين الله نزلت هذه الآية في كفار قريش حين خرجوا إلى بدر ولهم فخر وبغي فقال رسول الله ﷺ اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تجادل وتكذب رسولك اللهم فنصرك الذي وعدتني به.

قال ابن عباس: إن أبا سفيان لما رأى أنه قد أحرز عيره أرسل إلى قريش أنكم إنما خرجتم لتمنعوا عيركم ورحالكم وأموالكم فقد نجاها الله فارجعوا، فقال أبو جهل: والله لا نرجع حتى نرد بدراً وكان في بدر موسم من مواسم العرب يجتمع لهم بها سوق في كل عام قال فنقيم عليها ثلاثاً وننحر الجزور ونطعم الطعام ونسقي الخمور وتعزف علينا القيان وتسمع بنا العرب فلا يزالون يهابوننا أبداً فامضوا. زاد غيره قال: فلما وافوا بدراً سقوا كؤوس الحمام عوضاً عن الخمر وناحت عليهم النوائح مكان القيان فنهى الله عباده المؤمنين أن يكونوا مثلهم والمعنى لا

تتمنّوا لقاء العدو وسَلوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا واعلموا أنّ الجنّة تحت ظلال السيوف». ثم قال: «اللّهمَّ مُنزِّلَ الكتاب ومُجريَ السحاب وهَازِمَ الأحزاب اهْزِمْهُمْ وانصرْنا عليهم».

قوله تعالى: ﴿ ولا تكونُوا كالذينَ خرجُوا منْ ديارِهم بطراً ﴾، فخراً وأشَراً، ﴿ ورئاء الناسِ ﴾، قال الزجّاج: البطر الطغيان في النعمة وترك شكرها، والرياء: إظهار الجميل لِيُرى وإبطان القبيح، ﴿ ويصدّون عن سبيل الله والله بما يعمَلون مُحيطٌ ﴾، نزلت في المشركين حين أقبلوا إلى بدر ولهم بغيٌ وفخرٌ، فقال رسول الله ﷺ: «اللّهمَّ هذه قريشٌ قدْ أقبلتْ بخيلائها وفخرها تُجادِلُكَ وتُكذِّبُ رسولَكَ، اللّهمَّ فنصرُكَ الذي وعدتني»، قالوا: لمّا رأى أبو سفيان أنه قد أحرزَ عِيرَه أرسلَ إلى قريش أنكم إنّما خرجتُم لتمنعوا غيركم فقد نجّاها الله، فارجعوا، فقال أبو جهل: والله لا نرجع حتى نَرِدَ بدراً، وكان بدرٌ موسماً من مواسم العرب يجتمع لهم بها سوق كل عام، فنقيمَ بها ثلاثاً فننحر الجزور ونُطعم الطعام ونُسقي الخمر وتعزف علينا القِيان، وتسمع بنا العرب فلا يزالون يهابوننا أبداً، فوافوها فسُقوا كؤوس المنايا مكان الخمر، وناحت عليهم النوائح مكان القيان، فنهى الله عباده المؤمنين أن يكونوا مثلهم وأمرهم بإخلاص النيّة والحِسبة في نصر دينه ومؤازرة نبيّه ﷺ.

قوله تعالى: ﴿ وإذْ زيّنَ لهمُ الشيطانُ أعمالهم ﴾، وكان تزيينه أن قريشاً لمّا اجتمعت للسير ذكرت الذي بينها

يكونن أمركم أيها المؤمنون رياء وسمعة ولا لالتماس ما عند الله ولكن أخلصوا لله عز وجل النية وقاتلوا حسبة في نصر دينكم ومؤازرة نبيكم ﷺ ولا تعملوا إلا لذلك ولا تطلبوا غيره.

وقوله تعالى: ﴿**والله بما يعملون محيط**﴾ فيه وعيد وتهديد يعني أنه تعالى عالم بجميع الأشياء لا يخفى عن علمه شيء لأنه محيط بأعمال العباد كلها فيجازي المحسنين ويعاقب المسيئين قوله سبحانه وتعالى: ﴿**وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم**﴾ يعني اذكروا أيها المؤمنون نعمة الله عليكم إذ زين الشيطان يريد إبليس للمشركين أعمالهم الخبيثة ﴿**وقال لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم**﴾ قال بعضهم: كان تزيينه وسوسة ألقاها في قلوبهم من غير أن يتحول في صورة غير صورته. وقال جمهور المفسرين: تصور إبليس في صورة سراقة بن مالك بن جعشم وكان تزيينه أن قريشاً لما أجمعت على المسير إلى بدر ذكرت الذي بينها وبين بكر بن الحرث من الحروب فكاد ذلك أن يثنيهم فتبدّى لهم إبليس في صورة سراقة بن مالك بن جعشم المدلجي، وكان من أشرف بين كنانة، فقال: أنا جار لكم من أن يأتيكم من كنانة شيء تكرهونه فخرجوا سراحاً. وقال ابن عباس: جاء إبليس يوم بدر في جند من الشياطين معه رأيته في صورة رجل من رجال بني مدلج سراقة بن مالك بن جعشم فقال للمشركين لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم فلما اصطف الناس أخذ رسول الله ﷺ قبضة من التراب فرمى بها في وجوه المشركين فولوا مدبرين. وأقبل جبريل عليه السلام إلى إبليس، لعنه الله فلما رآه وكانت يده في يد رجل من المشركين انتزع إبليس يده ثم ولى مدبراً وشيعته، فقال الرجل ياسراقة أتزعم أنك جار لنا؟ فقال: إني أرى ما لا ترون إني أخاف الله والله شديد العقاب وذلك حين رأى الملائكة. وقوله: إني جار لكم، يعني مجير لكم من كنانة ﴿**فلما تراءت الفئتان**﴾ أي التقى الجمعان رأى إبليس الملائكة قد نزلوا من السماء فعلم عدو الله إبليس أنه لا طاقة له بهم ﴿**نكص على عقبيه وقال إني بريء منكم**﴾ يعني رجع القهقرى وولى مدبراً هارباً على قفاه، وقال الكلبي: لما التقى الجمعان كان إبليس في صف المشركين على صورة سراقة بن مالك بن جعشم وهو آخذ بيد الحرث بن هشام فنكص عدو الله إبليس على عقبيه فقال له الحرث: أفراراً من غير قتال؟ وجعل يمسكه فدفع في صدره وانطلق فانهزم الناس فلما قدموا مكة قالوا هزم الناس سراقة. فبلغ ذلك سراقة فقال: بلغني أنكم تقولون أني هزمت الناس فوالله ما شعرت بمسيركم حتى بلغتني هزيمتكم. فقالوا: أما أتيتنا في يوم كذا وكذا فحلف لهم، فلما أسلموا علموا أن ذلك كان شيطاناً قال الحسن في قوله: ﴿**إني أرى ما لا ترون**﴾ قال: رأى إبليس جبريل عليه السلام معتجراً ببرد يمشي بين يدي النبي ﷺ وفي يده اللجام يقود

وبين بني بكر من الحرب، فكاد ذلك أن يثنيهم فجاء إبليس في جند من الشياطين معه رايته فتبدّى لهم في صورة سُراقة بن مالك بن جعشم، ﴿ **وقال** ﴾، لهم ﴿ **لا غالب لكمُ اليومَ منَ الناسِ وإنّي جارٌ لكم** ﴾، أي: مُجير لكم من كنانة، ﴿ **فلما تراءتِ الفئتان** ﴾، أي: التقى الجمعان رأى إبليس أثر الملائكة، نزلوا من السماء وعلم أنه لا طاقة له بهم، ﴿ **نكصَ على عقبيه** ﴾، قال الضحاك: ولّى مدبراً. وقال النضر بن شميل: رجع القهقرى على قفاه هارباً. قال الكلبي: لمّا التقوا كان إبليس في صفّ المشركين على صورة سُراقة آخذٌ بيد الحارث بن هشام، فنكص على عقبيه، فقال له الحارث: أفراراً من غير قتال؟ فجعل يمسكه فدفع في صدره انطلق وانهزم الناس، فلما قَدِموا مكة قالوا: هزم الناس سراقة فبلغ ذلك سراقة، فقال: بلغني أنكم تقولون إني هزمت الناس، فوالله ما شعرت بمسيركم حتى بلغني هزيمتكم، فقالوا: أما أتيتنا في يوم كذا؟ فحلف لهم، فلما أسلموا علموا أن ذلك كان الشيطان، قال الحسن في قوله: ﴿ **وقال إني بريء منكم إني أرى ما لا ترون** ﴾، قال: رأى إبليس جبريل متعجّراً ببرد يمشي بين يدي النبي ﷺ، وفي يده اللجام يقود الفرس ما ركب بعد. وقال قتادة: كان إبليس يقول: إني أرى ما لا ترون وصدق. وقال: ﴿ **إني أخافُ اللّهَ** ﴾، وكذب والله ما به مخافة الله، ولكن علم أنه لا قوة به ولا مِنعة

الفرس ما ركب. وقال قتادة: قال إبليس إني أرى ما لا ترون وصدق وقال: إني أخاف الله وكذب ما به مخافة الله ولكن علم أنه لا قوة له ولا منفعة فأوردهم وأسلمهم وتلك عادة عدو الله إبليس لمن أطاعه إذ التقى الحق والباطل أسلمهم وتبرأ منهم وقيل إنه خاف أن يهلك فيمن هلك وقيل خاف أن يأخذه جبريل فيعرف حاله فلا يطيعوه وقيل معناه ﴿إني أخاف الله﴾ أعلم صدق وعده لأوليائه لأنه كان على ثقة من أمر ربه وقيل لما رأى الملائكة قد نزلت من السماء خاف أن تكون القيامة ﴿والله شديد العقاب﴾ قيل معناه إني أخاف الله لأنه شديد العقاب فعلى هذا يكون من تمام قول إبليس. وقيل: تم كلامه عند قوله: إني أخاف الله. وقوله تعالى: والله شديد العقاب ابتداء كلام. يقول الله سبحانه وتعالى: والله شديد العقاب لمن خالف الله وكفر به. عن طلحة بن عبيد الله بن كرز أن رسول الله ﷺ قال: ما رؤي الشيطان يوماً هو فيه أصغر ولا أدحر ولا أحقر ولا أغيظ منه في يوم عرفة وما ذاك إلا لما يرى من تنزل الرحمة وتجاوز الله عن الذنوب العظام إلا ما رأى يوم بدر فإنه قد رأى جبريل يزع الملائكة. أخرجه مالك في الموطأ. قوله: ولا أدحر هو بالدال والحاء المهملتين من الدحور، وهو الإبعاد والطرد مع الإهانة. وقوله: يزع الملائكة، أي يكفهم ويحبسهم لئلا يتقدم بعضهم على بعض. والوازع: هو الذي يتقدم ويتأخر في الصف ليصلحه.

فإن قلت: كيف يقدر إبليس على أن يتصور بصورة البشر وإذا تشكل بصورة البشر فكيف يسمى شيطاناً؟

قلت: إن الله عز وجل أعطاه قوة وأقدره على ذلك كما أعطى الملائكة قوة وأقدرهم على أن يتشكلوا بصورة البشر لكن النفس الباطنة لم تتغير فلم يلزم من تغير الصورة تغير الحقيقة.

﴿إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ۗ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۙ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿إذ يقول المنافقون﴾ يعني من أهل المدينة ﴿والذين في قلوبهم مرض﴾ أي شك وارتياب وهم قوم من أهل مكة تكلموا بالإسلام ولم يقو الإسلام في قلوبهم ولم يتمكن فلما خرج كفار قريش إلى حرب رسول الله ﷺ خرجوا معهم إلى بدر فلما نظروا إلى قلة المسلمين ارتابوا وارتدوا وقالوا ﴿غر هؤلاء دينهم﴾ يعني أن هؤلاء نفر

فأوردهم وأسلمهم، وذلك عادة عدوّ الله في مَن أطاعه إذا التقى الحق والباطل أسلمهم وتبرّأ منهم. وقال عطاء: إني أخاف الله أن يهلكني فيمن يهلك. وقال الكلبي: خاف أن يأخذه جبريل عليه السلام ويُعرِّف حاله فلا يطيعوه. وقيل: معناه إني أخاف الله أي أعلم صدق وعده لأوليائه لأنه كان على ثقة من أمره. ﴿والله شديدُ العقاب﴾. وقيل معناه: إني أخاف الله عليكم والله شديد العقاب. قيل: انقطع الكلام عند قوله أخاف الله ثم يقول الله: والله شديد العقاب. أخبرنا أبو الحسن السرخسي أنا زاهر بن أحمد أنا أبو إسحاق الهاشمي أنا أبو مصعب عن مالك عن إبراهيم بن أبي عَبْلة عن طلحة بن عبد الله بن كريز أن رسول الله ﷺ قال: «ما رُؤِيَ الشيطانُ يوماً هو فيه أصغرَ ولا أدحرَ ولا أحقرَ ولا أغيظَ منه يوم عَرَفَة، وما ذاك إلّا لِمَ يرى من تنزّل الرحمة وتجاوز الله تعالى عن الذنوب العِظام، إلّا ما كان من يوم بدر»، فقيل: وما رأى يوم بدر؟ قال: «أما إنه قد رأى جبريل عليه السلام وهو ينزع الملائكة». هذا حديث مرسل.

قوله تعالى: ﴿ إِذْ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ﴾، شك ونفاق، ﴿ غَرّ هؤلاء دينُهم ﴾، يعني: غرّ المؤمنين دينهم هؤلاء قوم كانوا مستضعفين بمكة وقد أسلموا أو حبسهم أقرباؤهم من الهجرة، فلما خرجت قريش إلى بدر أخرجوهم كرهاً، فلما نظروا إلى قلّة المسلمين ارتابوا أو ارتدّوا، وقالوا: غرّ هؤلاء دينُهم فقتلوا

قليلون يقاتلون أضعافهم فقد غرهم دينهم الإسلام على ذلك وحملهم على قتل أنفسهم رجاء الثواب في الآخرة فقتلوا جميعاً يوم بدر. وقال مجاهد: إن فئة من قريش وهم قيس بن الوليد بن المغيرة، وأبو قيس بن الفاكه بن المغيرة بن زمعة بن الأسود بن المطلب، وعلي بن أمية بن خلف، والعاص بن منبه بن الحجاج، خرجوا مع قريش من مكة وهم على الارتياب، فحبسهم ارتيابهم فلما رأوا قلة أصحاب رسول الله ﷺ، قالوا: غر هؤلاء دينهم ثم قال تعالى: ﴿**ومن يتوكل على الله**﴾ يعني ومن يسلم أمره إلى الله ويثق بفضله ويعول على إحسانه ﴿**فإن الله**﴾ حافظه وناصره لأنه ﴿**عزيز**﴾ لا يغلبه شيء ﴿**حكيم**﴾ فيما قضى وحكم فيوصل الثواب إلى أوليائه والعقاب إلى أعدائه.

قوله عز وجل: ﴿**ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة**﴾ يعني: ولو عاينت يا محمد وشهدت إذ تقبض الملائكة أرواح الذين كفروا عند الموت لرأيت أمراً عظيماً ومنظراً فظيعاً وعذاباً شديداً ينالهم في ذلك الوقت ﴿**يضربون وجوههم وأدبارهم**﴾ اختلفوا في وقت هذا الضرب، فقيل: هو عند الموت تضرب الملائكة وجوه الكفار وأدبارهم بسياط من نار. وقيل: إن الذين قتلوا يوم بدر من المشركين كانت الملائكة تضرب وجوههم وأدبارهم. وقال ابن عباس: كان المشركون إذا أقبلوا بوجوههم إلى المسلمين ضربت الملائكة وجوههم بالسيوف وإذا ولوا أدبارهم ضربت الملائكة أدبارهم. وقال ابن جريج: يريد، ما أقبل من أجسادهم وأدبر يعني يضربون جميع أجسادهم ﴿**وذوقوا عذاب الحريق**﴾ يعني وتقول لهم الملائكة عند القتل: ذوقوا عذاب الحريق. قيل: كان مع الملائكة مقامع من حديد محمية بالنار يضربون بها الكفار فتلتهب النار في جراحاتهم. وقال ابن عباس: تقول لهم الملائكة ذلك بعد الموت. وقال الحسن: هذا يوم القيامة تقول لهم الزبانية ذوقوا عذاب الحريق.

ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ
كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً
أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ

جميعاً منهم قيس بن المغيرة وأبو قيس بن الفاكه بن المغيرة والمخزميان، والحارث بن زمعة بن الأسود بن المطلب، وعلي بن أمية بن خلف الجمحي، والعاص بن منبّه بن الحجّاج. قال الله تعالى: ﴿ **وَمَن يتوكّلْ على الله** ﴾، أي: وَمَن يسلم أمره إلى الله ويثق به، ﴿ **فإنّ الله عزيز** ﴾، قوي يفعل بأعدائه ما يشاء، ﴿ **حكيم** ﴾ لا يسوّي بين وليّه وعدوّه.

﴿ **ولو ترى** ﴾، يا محمد، ﴿ **إذْ يَتوفّى الذين كفروا الملائكةُ يضربون** ﴾، أي: يقبضون أرواحهم. اختلفوا فيه، قيل: هذا عند الموت تضرب الملائكة وجوه الكفّار بسياط النار. وقيل: أراد الذين قتلوا من المشركين ببدر كانت الملائكة يضربون، ﴿ **وجوهَهُمْ وأدْبَارَهم** ﴾، قال سعيد بن جبير ومجاهد: يريد أستاههم ولكن الله حيّ يكنّي. قال ابن عباس: كان المشركون إذا أقبلوا بوجوههم إلى المسلمين ضربت الملائكة وجوههم بالسيوف، وإذا ولّوا أدركتهم الملائكة فضربوا أدبارهم. وقال ابن جريج: يريد ما أقبل منهم وما أدبر، أي: يضربون أجسادهم كلها، والمراد بالتوفّي القتل. ﴿ **وذُوقُوا عذابَ الحريق** ﴾، أي: وتقول لهم الملائكة ذوقوا عذاب الحريق. وقيل: كان مع الملائكة مقامع من حديد يضربون بها الكفّار، فتلتهب النار في جراحاتهم، فذلك قوله تعالى: ﴿ **وذُوقُوا عذابَ الحريق** ﴾. وقال الحسن: هذا يوم القيامة تقول لهم خَزَنَة جهنم: ذوقوا عذاب الحريق. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: يقولون لهم ذلك بعد الموت.

﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ ۚ وَكُلٌّ كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿٥٤﴾﴾

﴿ذلك﴾ يعني الذي نزل بكم من القتل والضرب والحريق ﴿بما قدمت أيديكم﴾ يعني إنما حصل لكم ذلك بسبب ما كسبت أيديكم من الكفر والمعاصي.

فإن قلت: اليد ليست محلاً للكفر وإنما محله القلب لأن الكفر اعتقاد والاعتقاد محله القلب وظاهر الآية يقتضي أن فاعل هذا الكفر هي اليد وذلك ممتنع.

قلت: اليد هنا عبارة عن القدرة لأن اليد آلة العمل والقدرة هي المؤثرة في العمل فاليد كناية عن القدرة.

قوله تعالى: ﴿وأن الله ليس بظلام للعبيد﴾ يعني أنه سبحانه وتعالى لا يعذر أحداً من خلقه إلا بجرم اجترمه لأنه لا يظلم أحداً من خلقه وإنما نفى الظلم عن نفسه مع أنه يعذب الكافر على كفره والعاصي على عصيانه لأنه يتصرف في ملكه كيف شاء ومن كان كذلك استحال نسبة الظلم إليه فلا يتوهم متوهم أنه سبحانه وتعالى مع خلقه كفر الكافر وتعذيبه عليه ظالم فلهذا قال الله سبحانه وتعالى وأن الله ليس بظلام للعبيد لأنهم في ملكه وتحت قدرته فهو يتصرف فيهم كيف يشاء.

قوله تعالى: ﴿كدأب آل فرعون﴾ يعني أن عادة هؤلاء الكفار في كفرهم كعادة آل فرعون في كفرهم فجوزي هؤلاء بالقتل والأسر يوم بدر كما جوزي آل فرعون بالإغراق وأصل الدأب في اللغة إدامة العمل يقال فلان يدأب في كذا وكذا يداوم عليه ويتعب نفسه فيه ثم سميت العادة دأباً لأن الإنسان يداوم على عادته ويواظب عليها.

قال ابن عباس: معناه أن آل فرعون أيقنوا أن موسى عليه السلام نبي من الله تعالى فكذبوه فكذلك هؤلاء لما جاءهم محمد ﷺ بالصدق كذبوه فأنزل الله بهم عقوبته كما أنزل بآل فرعون ﴿والذين من قبلهم﴾ يعني من قبل آل فرعون ﴿كفروا بآيات الله﴾ يعني أن عادة الأمم السالفة هو كفرهم بآيات الله ﴿فأخذهم الله بذنوبهم﴾ يعني بسبب كفرهم وذنوبهم ﴿إن الله قوي﴾ يعني في أخذه وانتقامه ممن كفر به وكذب رسله ﴿شديد العقاب﴾ يعني لمن كفر به وكذب رسله ﴿ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾ يعني: أن الله سبحانه وتعالى أنعم على أهل مكة بأن أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف وبعث إليهم محمداً ﷺ فقابلوا هذه النعمة بأن تركوا شكرها وكذبوا رسوله محمد ﷺ وغيَّروا ما بأنفسهم فسلبهم الله سبحانه وتعالى النعمة وأخذهم بالعقاب قال السدي: نعمة الله هو محمد ﷺ أنعم به على قريش فكفروا به وكذبوه فنقله الله تعالى إلى الأنصار ﴿وأن الله سميع﴾ يعني لأقوال خلقه لا يخفى عليه شيء من كلامهم ﴿عليم﴾ يعني بما في صدورهم من خير وشر، فيجازي كل واحد على عمله ﴿كدأب آل فرعون﴾ يعني أن هؤلاء الكفار الذين قتلوا يوم بدر غيروا نعمة الله عليهم كصنيع آل فرعون ﴿والذين من قبلهم كذبوا بآيات ربهم فأهلكناهم بذنوبهم﴾ يعني: أهلكنا بعضهم بالرجفة وبعضهم بالخسف وبعضهم بالحجارة

﴿ ذلك ﴾، أي: ذلك الضرب الذي وقع بكم، **﴿ بما قدّمتْ أيديكم ﴾**، أي: بما كسبت أيديكم، **﴿ وأنّ اللَّهَ ليسَ بظلّامٍ للعبيد ﴾**.

﴿ كَدَأْبِ آلِ فرعونَ ﴾، كفعل آل فرعون وصنيعهم وعادتهم، معناه: أن عادة هؤلاء في كفرهم كعادة آل فرعون. قال ابن عباس: هو أن آل فرعون أيقنوا أن موسى نبي من الله فكذّبوه، كذلك هؤلاء جاءهم محمد ﷺ بالصدق فكذّبوه، فأنزلَ الله بهم عقوبة كما أنزل بآل فرعون. **﴿ والذينَ منْ قبلِهم ﴾**، أي: **﴿ كفروا بآيات الله فأخذهم اللَّهُ بذنوبهم إنّ الله قويٌّ شديد العقاب ﴾**.

وبعضهم بالريح وبعضهم بالمسخ فكذلك أهلكنا كفار قريش بالسيف ﴿وأغرقنا آل فرعون وكل كانوا ظالمين﴾ يعني الأولين والآخرين، فإن قلت ما الفائدة في تكرير هذه الآية مرة ثانية؟.

قلت: فيها فوائد منها الكلام الثاني يجري مجرى التفصيل للكلام الأول لأن الآية الأولى فيها ذكر أخذهم، وفي الآية الثانية ذكر إغراقهم، فهذه تفسير للأولى.

الفائدة الثانية: أنه ذكر في الآية الأولى أنهم كفروا بآيات الله وفي الآية الثانية أنهم كذبوا بآيات ربهم ففي الآية الأولى إشارة إلى أنهم أنكروا آيات الله وجحدوها، وفي الآية الثانية إشارة إلى أنهم كذبوا بها مع جحودهم لها وكفرهم بها.

الفائدة الثالثة: أن تكرير هذه القصة للتأكيد وفي قوله ﴿كذبوا بآيات ربهم﴾ زيادة دلالة على كفران النعم وجحود الحق وفي ذكر الإغراق بيان للأخذ بالذنوب.

إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾

وقوله تعالى: ﴿إن شر الدواب عند الله﴾ يعني في علمه وحكمه ﴿الذين كفروا فهم لا يؤمنون﴾ والمعنى أن شر الدواب من الإنس الكفار المصرون على الكفر نزلت في يهود بني قريظة رهط كعب بن الأشرف ﴿الذين عاهدت منهم﴾ قيل: من صلة يعني الذين عاهدتهم وقيل: هي للتبعيض لأن المعاهدة مع بعض القوم وهم الرؤساء والأشراف ﴿ثم ينقضون عهدهم في كل مرة﴾ قال المفسرون: إن رسول الله ﷺ كان عاهد يهود بني قريظة أن لا يحاربوه ولا يعاونوا عليه فنقضوا العهد وأعانوا مشركي مكة بالسلاح على قتال رسول الله ﷺ وأصحابه ثم قالوا نسينا وأخطأنا فعاهدهم الثانية فنقضوا العهد أيضاً ومالؤوا الكفار على رسول الله ﷺ يوم الخندق وركب كعب بن الأشرف إلى مكة فوافقهم على مخالفة رسول الله ﷺ ﴿وهم لا يتقون﴾ يعني أنهم لا يخافون الله في نقض العهد لأن عادة من يرجع إلى

﴿ ذلك بأنَّ اللَّهَ لم يكُ مُغيِّراً نِّعْمةً أنعمها على قوم حتى يُغيِّروا ما بأنفسهم ﴾، أراد أن الله تعالى لا يغيِّر ما أنعم على قوم حتى يغيِّروا هم ما بهم بالكفران وترك الشكر، فإذا فعلوا ذلك غيَّر الله ما بهم، فسلبهم النعمة. وقال السدي: نعمة الله محمد ﷺ أنعم الله به على قريش وأهل مكة، فكذَّبوه وكفروا به فنقله الله إلى الأنصار، ﴿ وأنَّ اللَّهَ سميعٌ عليم ﴾.

﴿ كَدأْبِ آلِ فرعونَ ﴾، كصنيع آل فرعون، ﴿ والذين من قبلهم ﴾، من كفَّار الأمم، ﴿ كذَّبوا بآياتِ ربِّهمْ فأهلكنَاهم بذنوبهم ﴾، أهلكنا بعضهم بالرجفة وبعضهم بالخسف وبعضهم بالمسخ وبعضهم بالريح وبعضهم بالغرق، فكذلك أهلكنا كفَّار بدر بالسيف لمَّا كذَّبوا بآيات ربِّهم، ﴿ وأغْرَقْنَا آلَ فِرعونَ وكلٌّ كانُوا ظالمين ﴾، يعني: الأوَّلين والآخرين.

﴿ إنّ شرَّ الدوابِّ عندَ اللَّهِ الذينَ كفرُوا فهمْ لا يُؤمنون ﴾، قال الكلبي ومقاتل: يعني يهود بني قريظة منهم كعب بن الأشرف وأصحابه.

﴿ الذينَ عاهدتَّ مِنْهُم ﴾، يعني عاهدتهم: عاهدت معهم. وقيل: أدخل «من» لأن معناه أخذت منهم

دين وعقل وحزم آن يتقي نقض العهد حتى يسكن الناس إلى قوله ويثقون بكلامه فبين الله عز وجل أن من جمع بين الكفر ونقض العهد فهو من شر الدواب **﴿فأما تثقفنهم في الحرب﴾** يعني فأما تجدن هؤلاء الذين نقضوا العهد وتظفرن بهم في الحرب **﴿فشرد بهم من خلفهم﴾** قال ابن عباس: معناه فنكل بهم من ورائهم.

وقال سعيد بن جبير: أنذر بهم من خلفهم وأصل التشريد في اللغة التفريق مع اضطراب ومعنى الآية إنك إذا ظفرت بهؤلاء الكفار الذين نقضوا العهد فافعل بهم فعلاً من القتل والتنكيل تفرق به جمع كل ناقض للعهد حتى يخافك من وراءهم من أهل مكة واليمن **﴿لعلهم يذكرون﴾** يعني لعل ذلك النكال يمنعهم من نقض العهد **﴿وإما تخافن﴾** يعني وإما تعلمن يا محمد **﴿من قوم﴾** يعني معاهدين **﴿خيانة﴾** يعني نقضاً للعهد بما يظهر لك منهم من آثار الغدر كما ظهر من بني قريظة والنضير **﴿فانبذ﴾** أي فاطرح **﴿إليهم﴾** يعني عهدهم وارم به إليهم **﴿على سواء﴾** يعني على طريق ظاهر مستو يعني أعلمهم قبل حربك إياهم إنك قد فسخت العهد بينك وبينهم حتى تكون أنت وهم في العلم ينقض العهد سواء فلا يتوهمون أنك نقضت العهد أولاً بنصب الحرب معهم **﴿إن الله لا يحب الخائنين﴾** يعني في نقض العهد عن سليم بن عمر عن رجل من حمير قال: كان بين معاوية وبين الروم عهد وكان يسير نحو بلادهم ليقرب حتى إذا انقضى العهد غزاهم فجاءه رجل على فرس أو برذون وهو يقول: الله أكبر الله أكبر وفاء لا غدراً فإذا هو عمرو بن عنبسة فأرسل إليه معاوية فسأله فقال سمعت رسول الله ﷺ يقول «من كان بينه وبين قوم عهد فلا يشد عقدة ولا يحلها حتى ينقضي أمدها أو ينبذ إليهم على سواء، فرجع معاوية» أخرجه أبو داود وأخرجه الترمذي عن سليم بن عامر نفسه بلا زيادة رجل من حمير وعنده الله أكبر مرة واحدة وفيه جاء على دابة أو فرس وأما حكم الآية فقال أهل العلم إذا ظهرت آثار نقض العهد ممن هادهم الإمام من المشركين بأمر ظاهر مستفيض استغنى الإمام عن نبذ العهد وإعلامهم بالحرب وإن ظهرت الخيانة بأمارات تلوح وتتضح له من غير أمر مستفيض فحينئذ يجب على الإمام أن ينبذ إليهم العهد ويعلمهم بالحرب وذلك لأن قريظة كانوا قد عاهدوا النبي ﷺ ثم أجابوا أبا سفيان ومن معه من المشركين إلى مظاهرتهم على

العهد، **﴿ ثم ينقضون عهدَهم في كلِّ مرَّةٍ ﴾**، وهم بنو قريظة نقضوا العهد الذي كان بينهم وبين رسول الله ﷺ، وأعانوا المشركين بالسلاح على قتال النبي ﷺ وأصحابه، ثم قالوا: نسينا وأخطأنا فعاهدهم الثانية، فنقضوا العهد ومالَؤُوا الكفّار على رسول الله ﷺ يوم الخندق، وركب كعب بن الأشرف إلى مكة فوافقهم على مخالفة النبي ﷺ، **﴿ وهم لا يتّقون ﴾**، لا يخافون الله تعالى في نقض العهد.

﴿ فإمّا تَثْقَفَنّهُمْ ﴾، تَجِدَنّهم، **﴿ في الحرب ﴾**، قال مقاتل: إن أدركتهم بالحرب وأسرتهم، **﴿ فشرِّدْ بهم مَّن خَلْفهم ﴾**، قال ابن عباس: فنكّل بهم من ورائهم. وقال سعيد بن جبير: أنذر بهم من خلفهم. وأصل التشريد: التفريق والتبديد، معناه فرّق بهم جمع كل ناقض، أي: افعل بهؤلاء الذين نقضوا عهدك وجاؤوا لحربك فعلاً من القتل والتنكيل، يَفْرَقُ منك ويخافك مَنْ خلفهم من أهل مكة واليمن، **﴿ لعلّهم يذّكّرون ﴾**، يتذكّرون ويتّعظون ويعتبرون فلا ينقضون العهد.

﴿ وإمّا تَخافَنّ ﴾ أي: تعلمن يا محمد، **﴿ من قومٍ ﴾**، معاهدين، **﴿ خيانةً ﴾**، نقض عهد بما يظهر لكم من آثار الغدر كما ظهر من قريظة والنضير، **﴿ فانْبِذْ إليهم ﴾**، فاطرح إليهم عهدهم، **﴿ على سواءٍ ﴾**، يقول: أعلمهمْ قبلَ حربك إيّاهم أنك قد فسخت العهد بينك وبينهم حتى تكون أنت وهم في العلم بنقض العهد سواءً، فلا يتوهّموا أنك نقضت العهد بنصب الحرب معهم، **﴿ إنّ اللّهَ لا يُحبّ الخائنين ﴾**. أخبرنا محمد بن الحسن المروزي أنا أبو سهل محمد بن عمر بن طرفة السجري أنا أبو سليم الخطابي أنا أبو بكر محمد بن بكر بن محمد بن عبد الرزّاق بن داسة التمّار ثنا أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني ثنا حفص بن عمر النمر ثنا شعبة عن أبي

رسول الله ﷺ فحصل لرسول الله ﷺ خوف الغدر به وبأصحابه فهاهنا يجب على الإمام أن ينبذ إليهم على سواء ويعلمهم بالحرب وأما إذا ظهر نقض العهد ظهروا مقطوعاً به فلا حاجة للإمام إلى نبذ العهد بل يفعل كما فعل رسول الله ﷺ بأهل مكة لما نقضوا العهد بقتل خزاعة وهم في ذمة رسول الله ﷺ فلم يرعهم إلا وجيش رسول الله ﷺ بمر الظهران وذلك على أربع فراسخ من مكة.

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُوٓاْۚ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿ولا تحسبن﴾ قرىء بالتاء على الخطاب للنبي ﷺ والمعنى ولا تحسبن يا محمد ﴿الذين كفروا سبقوا﴾ يعني فاتوا وانهزموا يوم بدر وقرىء بالياء على الغيبة ومعناه ولا يحسبن الذين كفروا سبقوا يعني خلصوا من القتل والأسر يوم بدر ﴿أنهم لا يعجزون﴾ يعني أنهم بهذا السبق لا يعجزون الله من الانتقام منهم إما في الدنيا بالقتل وإما في الآخرة بعذاب النار وفيه تسلية للنبي ﷺ فيمن فاته من المشركين ولم ينتقم منهم فأعلمهم الله أنهم لا يعجزونه.

قوله عز وجل: ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة﴾ الإعداد اتخاذ الشيء لوقت الحاجة إليه وفي المراد بالقوة أقوال أحدها: أنها جميع أنواع الأسلحة والآلات التي تكون لكم قوة في الحرب على قتال عدوكم، الثاني: أنها الحصون والمعاقل الثالث: الرمي وقد جاءت مفسرة عن النبي ﷺ فيما رواه عقبة بن عامر قال «سمعت رسول الله ﷺ وهو على المنبر يقول: وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ألا إن القوة الرمي ثلاثاً» أخرجه مسلم (خ) عن أبي أسيد قال قال رسول الله ﷺ «يوم بدر حين صففنا لقريش إذا أكثبوكم» يعني غشوكم وفي رواية أكثروكم فارموهم واستبقوا نبلكم وفي رواية «إذا أكثبوكم فعليكم بالنبل» (م) عن عقبة بن عامر قال سمعت رسول الله ﷺ يقول «ستفتح عليكم الروم

الفيض عن سليم بن عامر عن رجل من حمير قال: كان بين معاوية وبين الروم عهد وكان يسير نحو بلادهم، حتى إذا انقضى العهد غزاهم فجاء رجل على فرس وهو يقول: الله أكبر الله أكبر وفاءً لا غدراً فنظر فإذا هو عمرو بن عنبسة، فأرسل إليه معاوية فسأله فقال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ كان بينه وبين قوم عهد فلا يشدّ عقدة ولا يحلّها حتى ينقضي أمدها أو ينبذ إليهم عهدهم على سواء». فرجع معاوية رضي الله عنه قوله:

﴿ ولا يحسبنّ الذين كفروا سَبَقُوا ﴾، قرأ أبو جعفر وابن عامر وحمزة وحفص «يحسبنّ» بالياء، وقرأ الآخرون بالتاء، ﴿ سَبَقُوا ﴾ أي: فاتُوا، نزلت في الذين انهزموا يوم بدر من المشركين، فمَن قرأ بالياء يقول: «لا يحسبنّ الذين كفروا» أنفسهم سابقين فائتين من عذابنا، ومَن قرأ بالتاء فعلى الخطاب. قرأ ابن عامر: «أنهم لا يُعْجِزُون»، بفتح الألف، أي: لأنهم لا يعجزون، ولا يفوتونني. وقرأ الآخرون بكسر الألف على الابتداء.

قوله تعالى: ﴿ وأعِدُّوا لهم ما اسْتَطَعْتُم مِّن قُوّةٍ ﴾، الإعداد: اتخاذ الشيء لوقت الحاجة. ﴿ من قوة ﴾، أي: من الآلات التي تكون لكم قوة عليهم من الخيل والسلاح. أخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر أنبأنا عبد الغفّار بن محمد أنا محمد بن عيسى الجلودي ثنا إبراهيم بن محمد بن سفيان عن مسلم بن الحجّاج ثنا هارون بن معروف ثنا ابن وهب أخبرني عمرو بن شفي أنه سمع عقبة بن عامر يقول: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: وهو على المنبر: «وأعدّوا لهم ما استطعتم من قوة ألا إنّ القوّةَ الرمي ألا إنّ القوّةَ الرمي ألا إنّ القوّةَ الرمي». وبهذا الإسناد قال:

ويكفيكم الله فلا يعجز أحدكم أن يلهو بأسهمه» (م) عن فقيم اللخمي قال قلت لعقبة بن عامر تختلف بين هذين الغرضين وأنت شيخ كبير يشق عليك فقال عقبة لولا كلام سمعته من رسول الله ﷺ لم أعانه قال قلت وما ذاك؟ قال سمعته يقول: «من تعلم الرمي ثم تركه فليس منا أو قد عصى» عن أبي نجيح السلمي قال سمعت رسول الله ﷺ يقول «من بلغ بسهم فهو له درجة في الجنة» فبلغت يومئذ عشرة أسهم قال وسمعت رسول الله ﷺ يقول «من رمى بسهم في سبيل الله فهو عدل محرر» أخرجه النسائي والترمذي بمعناه وعنده قال عدل رقبة محررة وأخرجه أبو داود أيضاً عن عقبة بن عامر بمعناه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول «إن الله عز وجل ليدخلن بالسهم الواحد ثلاثة نفر الجنة، صانعه يحتسب في عمله الخير والرامي به والممد به» وفي رواية «ومنبله فارموا واركبوا وأن ترموا أحب إليّ من أن تركبوا كل لهو باطل ليس من اللهو محمود إلا ثلاثة تأديب الرجل فرسه وملاعبته أهله ورميه بقوسه أي نبله إنهن من الحق ومن ترك الرمي بعد ما علمه رغبة عنه فإنها نعمة تركها أو كفرها» أخرجه أبو داود وأخرجه الترمذي مختصر إلى نبله (خ)

عن سلمة بن الأكوع قال «مر النبي ﷺ على نفر من أسلم ينتضلون بالقوس فقال النبي ﷺ: ارموا بني إسماعيل فإن أباكم كان رامياً ارموا وأنا مع بني فلان فأمسك أحد الفريقين بأيديهم فقال النبي ﷺ: ما لكم لا ترمون؟ فقالوا: كيف نرمي وأنت معهم؟ فقال: ارموا وأنا معكم كلكم. القول الرابع: أن المراد بالقوة جميع ما يتقوى به في الحرب على العدو فكل ما هو آلة يستعان بها في الجهاد فهو من جملة القوة المأمور باستعدادها وقوله ﷺ «ألا أن القوة الرمي» لا ينفي كون غير الرمي من القوة فهو كقوله ﷺ «الحج عرفة» وقوله: «الندم توبة» فهذا لا ينفي اعتبار غيره بل يدل على أن هذا المذكور من أفضل المقصود وأجله فكذا هاهنا يحمل معنى الآية على الاستعداد للقتال في الحرب وجهاد العدو بجميع ما يمكن من الآلات كالرمي بالنبل والنشاب والسيف والدرع وتعليم الفروسية كل ذلك مأمور به إلا أنه من فروض الكفايات وقوله تعالى: ﴿**ومن رباط الخيل**﴾ يعني اقتناءها وربطها للغزو في سبيل الله والربط شد الفرس وغيره بالمكان للحفظ وسمي المكان الذي يخص بإقامة حفظة فيه رباطاً والمرابطة إقامة المسلمين بالثغور للحراسة فيها وربط الخيل الجهاد من أعظم ما يستعان به.

روي أن رجلاً قال لابن سيرين: إن فلاناً أوصى بثلث ماله للحصون فقال ابن سيرين: يشتري به الخيل ويربطها في سبيل الله. وقال عكرمة: القوة الحصون ومن رباط الخيل يعني الإناث ووجه هذا أن العرب تربط الأناث من الخيل

سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «ستفتح عليكم الروم ويكفيكم الله عزّ وجلّ فلا يعجز أحدكم أن يلهو بأسهمه». أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا أبو نعيم ثنا عبد الرحمن بن الغسيل عن حمزة بن أبي أُسيد عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ يوم بدر حين صففنا لقريش وصفّوا لنا: «إذا أكثبوكم فعليكم بالنبل». أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنبأنا أبو منصور محمد بن محمد بن سمعان ثنا أبو جعفر محمد بن أحمد بن عبد الجبّار الرياني ثنا حميد بن زنجويه ثنا عبد الصمد بن عبد الوارث ثنا هشام الدستوائي عن قتادة عن سالم بن أبي الجعد عن معدان بن أبي طلحة عن أبي نجيح السلمي قال: حاصرنا مع النبي ﷺ الطائف فسمعتُ النبيَّ ﷺ يقول: «مَن بلغ بسهم في سبيل الله فهو له درجة في الجنة»، قال: فبلغتِ يومئذ ستّة عشر سهماً. وسمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَن رمى بسهم في سبيل الله فهو عدل محرّر». أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحي أنا أبو الحسين علي بن محمد بن بشران أنا إسماعيل بن حمد الصفّار ثنا أحمد بن منصور الرمادي ثنا عبدالرزّاق أنا معمر عن يحيـىٰ بن أبي كثير عن زيد بن سلام عن عبد الله بن زيد بن الأزرق عن عقبة بن عامر الجهني عن النبي ﷺ قال: «إنّ الله يُدخل بالسهم الواحد الجنة ثلاثةً صانعه والممِدَّ به والرامي به في سبيل الله». ورُوِيَ عن خالد بن زيد عن عقبة بن عامر عن رسول الله ﷺ قال: «إنّ اللّهَ يُدخلُ بالسهم الواحد ثلاثةَ

بالأفنية للنسل. وروي أن خالد بن الوليد كان لا يركب في القتال إلا الإناث لقلة صهيلها. وعن ابن محيريز قال: كانت الصحابة يستحبون ذكور الخيل عند الصفوف وإناث الخيل عند الشنات والغارات. وقيل: ربط الفحول أولى من الإناث لأنها أقوى على الكر والفر والعدو فكانت المحاربة عليها أولى من الإناث وقيل إن لفظ الخيل عام فيتناول الفحول والإناث فأي ذلك ربط بنية الغزاة كان في سبيل الله (ق) عن عروة بن الجعد البارقي أن رسول الله ﷺ قال «الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة الأجر والغنيمة» (ق)

عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال «الخيل في نواصيها الخير إلى يوم القيامة» (خ) عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال «من احتبس فرساً في سبيل الله إيماناً بالله وتصديقاً بوعده فإن شبعه وريه وروثه وبوله في ميزانه يوم القيامة» يعني حسنات (ق) عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال «الخيل ثلاثة هي لرجل أجر ولرجل ستر وعلى رجل وزر، فأما الذي هي له أجر فرجل ربطها في سبيل الله زاد في رواية لأهل الإسلام فأطال لها في مرج أو روضة فما أصابت في طيلها ذلك من المرج أو الروضة كان لها حسنات ولو أنها قطعت طيلها فاستنت شرفاً أو شرفين كانت له آثارها وأرواثها حسنات ولو أنها مرت بنهر فشربت منه ولم يرد أن يسقيها كان ذلك له حسنات فهي لذلك الرجل أجر ورجل ربطها تغنياً وتعففاً ولم ينس حق الله في رقابها ولا ظهورها فهي لذلك الرجل ستر ورجل ربطها فخراً ورياء ونواء لأهل الإسلام فهي على ذلك وزر» وسئل رسول الله ﷺ عن الحمر فقال: ما أنزل عليّ فيها شيء إلا هذه الآية الجامعة الفاذة فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره الطيل الحبل الذي يشد به الفرس وقت الرعي واستنان الجري والشرف الشوط الذي تجري فيه الفرس وقوله تغنياً يعني استغناء بها عن الطلب لما في أيدي الناس أما حق ظهورها فهو أن يحمل عليها منقطعاً إلى أهله وأما حق رقابها فقيل: أراد به الإحسان إليها. وقيل: أراد به الحمل عليها فعبر بالرقبة عن الذات وقوله: نواء لأهل الإسلام النواء المعاداة يقال ناوأت الرجل مناوأة إذا عاديته.

وقوله تعالى: ﴿ترهبون به عدو الله وعدوكم﴾ يعني: تخوفون بتلك القوة وبذلك الرباط عدو الله وعدوكم يعني الكفار من أهل مكة وغيره. وقال ابن عباس: تحزنون به عدو الله وعدوكم وذلك لأن الكفار إذا علموا أن المسلمين متأهبون للجهاد مستعدون له مستكملون لجميع الأسلحة وآلات الحرب وإعداد الخيل مربوطة للجهاد خافوهم فلا يقصدون دخول دار الإسلام بل يصير ذلك سبباً لدخول الكفار في الإسلام أو بذل الجزية للمسلمين.

نفرٍ في الجنة: صانعه يحتسب في صنعته الخير والرامي به ومُنْبِلَهْ وارْمُوا وارْكَبُوا، وإن ترموا أحبّ إليّ من أن تركبوا، كل شيء يلهو به الرجل باطل وإلّا رميَهُ بقوسه وتأديبَهُ فرسَهُ وملاعبتَهُ امرأتَه فإنّه من الحق. ومَن ترك الرمي بعدما علمه رغبة عنه فإنّه نعمة تركها أو قال كفرها». قوله: ﴿ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ ﴾، يعني: ربطها واقتناؤها للغزو. وقال عكرمة: القوة الحصون ومن رباط الخيل الإناث. ورُوِيَ عن خالد بن الوليد أنه كان لا يركب في القتال إلّا الإناث لقلّة صهيلها. وعن أبي محيريز قال: كان الصحابة رضي الله عنهم يستحبّون ذكور الخيل عند الصفوف وإناث الخيل عند الشنّات والغارات. أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنبأنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنبأنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا أبو نعيم ثنا زكريا عن عامر ثنا عروة البارقي أن النبي ﷺ قال: «الخيل معقودٌ في نواصيها الخير إلى يوم القيامة، الأجْرَ والمَغْنَم». أخبرنا عبد الواحد المليحي أنبأنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا علي بن حفص ثنا ابن المبارك ثنا طلحة بن أبي سعيد قال: سمعتُ سعيداً المقبري يحدّث أنه سمع أبا هريرة يقول: قال النبي ﷺ: «مَنِ احتبسَ فرساً في سبيلِ اللّهِ إيماناً بالله وتصديقاً بوعده، فإنّ شَبَعَهُ ورِيَّهُ ورَوْثَهُ وبوله في ميزانه يوم القيامة». أخبرنا أبو الحسن السرخسي أنا زاهر بن أحمد أنبأنا أبو إسحق الهاشمي أنبأنا أبو مصعب عن مالك عن زيد بن أسلم عن أبي صالح عن أبي هريرة أنّ رسولَ

وقوله تعالى: ﴿وآخرين من دونهم﴾ يعني وترهبون آخرين من دونهم اختلف العلماء فيهم فقال مجاهد: هم بو قريظة، وقال السدي: هم فارس وقال ابن زيد هم المنافقون لقوله تعالى: ﴿لا تعلمونهم﴾ لأنهم معكم يقولون بألسنتهم لا إله إلا الله ﴿الله يعلمهم﴾ يعني أنهم منافقون وأورد على هذا القول أن المنافقين لا يقاتلون لإظهارهم كلمة الإسلام فكيف يخوفون بإعداد القوة ورباط الخيل. وأجيب عن هذا الإيراد أن المنافقين إذا شاهدوا قوة المسلمين وكثرة آلاتهم وأسلحتهم كان ذلك مما يخوفهم ويحزنهم فكان في ذلك إرهابهم وقال الحسن: هم كفار الجن وصحح هذا القول الطبري قال: لأن الله تعالى قال لا تعلمونهم ولا شك بأن المؤمنين كانوا عالمين بعداوة قريظة وفارس لعلمهم بأنهم مشركون ولأنهم حرب للمؤمنين أما الجن فلا يعلمونهم الله يعلمهم يعني يعلم أحوالهم وأماكنهم دونكم ويعضد هذا القول ما روي «أن النبي ﷺ قال هم الجن وأن الشيطان لا يخيل أحداً في داره فرس عتيق» ذكر هذا الحديث ابن الجوزي وغيره من المفسرين بغير إسناد وقال الحسن: صهيل الخيل يرهب الجن. وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وما تنفقوا من شيء في سبيل الله﴾ قيل أراد به نفقة الجهاد والغزو وقيل هو أمر عام في كل وجوه الخير والطاعة فيدخل فيه نفقة الجهاد وغيره ﴿يوف إليكم﴾ يعني أجره في الآخرة ويعجل لكم عوضه في الدنيا ﴿وأنتم لا تظلمون﴾ يعني وأنتم لا تنقصون من ثواب أعمالكم شيئاً قوله تبارك وتعالى:

﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ
حَسْبَكَ ٱللَّهُ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ
بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ
ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِ وَإِن
يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ يَغْلِبُوٓاْ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾﴾

﴿وإن جنحوا للسلم فاجنح لها﴾ لما أمر الله سبحانه وتعالى عباده المؤمنين بإعداد القوة وما يرهب العدو أمرهم بعد ذلك أن يقبلوا منهم الصلح إن مالوا إليه وسألوه فقال تعالى: ﴿وإن جنحوا للسلم﴾ يعني مالوا إلى السلم يعني

الله ﷺ قال: «الخيل ثلاثة هي لرجل أجرٌ. وهي لرجل سِتْرٌ. وهي لرجل وِزْرٌ، فأمّا التي هي له أجر فرجل ربطها في سبيلِ الله فأطال لها في مرج أو روضة فما أصابت في طيلها ذلك من المرج أو الروضة كان له حسنات، ولو أنها قطعت طيلها ذلك فاستنّت شرفاً أو شرفين كانت آثارُها وأرواثُها حسنات له، ولو أنها مرّت بنهر فشربتْ منه ولم يُرِد أن يسقيها كان ذلك له حسنات، فهي لذلك الرجل أجر، وأمّا التي هي له سِتْرٌ فرجلٌ ربطها تغنّياً وتعفّفاً ثم لم ينسَ حقّ الله في ظُهورها ولا رقابها فهي له سِتر، وأمّا التي هي له وِزْرٌ فرجلٌ ربطها فخراً ورياءً، ونواءً لأهل الإسلام فهي على ذٰلك وزر»، وسُئِلَ رسولُ الله ﷺ عن الحُمُرِ فقال: «ما أنزل عليَّ فيها شيء إلّا هذه الآية الجامعة الفاذّة»: ﴿ فَمَن يعملْ مثقالَ ذَرّةٍ خيراً يره، ومَنْ يعمل مِثْقال ذَرّةٍ شرّاً يَرَه ﴾ [الزلزلة: ٧ و٨] ﴿ تُرْهِبُونَ بِهِ ﴾، تخوِّفون ﴿عَدوَّ الله، وعدوَّكم وآخرين﴾، أي: وترهبون آخرين، ﴿ مِنْ دُونِهِم لا تعلمونَهم الله يعلمُهم ﴾، قال مجاهد ومقاتل وقتادة: هم بنو قريظة. وقال السدي: هم أهل فارس. وقال الحسن وابن زيد: هم المنافقون، لا تعلمونهم لأنهم معكم يقولون لا إلّه إلّا الله. وقيل: هم كفّار الجن. ﴿ وما تُنفقوا من شيء في سبيلِ اللّهِ يُوفَ إليكم ﴾، يُوفَّى لكم أجره، ﴿ وأنتم لا تُظلمون ﴾، لا ينقص أجوركم.

قوله تعالى: ﴿ وإنْ جَنَحُوا للسَّلْمِ ﴾، أي: مالوا إلى الصلح، ﴿ فاجْنَحْ لهَا ﴾، أي: مِلْ إليها وصالحهم.

المصالحة فاقبلوا منهم الصلح وهو قوله تعالى فاجنح لها أي مل إليها يعني إلى المصالحة. روي عن الحسن وقتادة إن هذه الآية منسوخة بآية السيف. وقيل: إنها غير منسوخة لكنها تتضمن الأمر بالصلح إذا كان فيه مصلحة ظاهرة فإن رأى الإمام أن يصالح أعداءه من الكفار وفيه قوة فلا يجوز أن يهادنهم سنة كاملة وإن كانت القوة للمشركين جاز أن يهادنهم عشر سنين ولا تجوز الزيادة عليها اقتداء برسول الله ﷺ فإنه صالح أهل مكة مدة عشر سنين ثم إنهم نقضوا العهد قبل انقضاء المدة.

وقوله تعالى: ﴿وتوكل على الله﴾ يعني فوض أمرك إلى الله فيما عقدته معهم ليكون عوناً لك في جميع أحوالك ﴿إنه هو السميع﴾ يعني لأقوالهم ﴿العليم﴾ يعني بأحوالهم: قوله عز وجل: ﴿وإن يريدوا أن يخدعوك﴾ يعني يغدروا بك قال مجاهد: يعني بني قريظة والمعنى وإن أرادوا بإظهار الصلح خديعتك لتكف عنهم ﴿فإن حسبك الله﴾ يعني فإن الله كافيك بنصره ومعونته ﴿هو الذي أيدك بنصره﴾ يعني هو الذي قواك وأعانك بنصره يوم بدر وفي سائر أيامك ﴿وبالمؤمنين﴾ يعني وأيدك بالمؤمنين يعني الأنصار.

فإن قلت: إذا كان الله قد أيده بنصره فأي حاجة إلى نصر المؤمنين حتى يقول وبالمؤمنين.

قلت: التأييد والنصر من الله عز وجل وحده لكنه يكون بأسباب باطنة غير معلومة وبأسباب ظاهرة معلومة فأما الذي يكون بالأسباب الباطنة فهو المراد بقوله «هو الذي أيدك بنصره» لأن أسبابه باطنة بغير وسائط معلومة وأما الذي يكون بالأسباب الظاهرة فهو المراد بقوله «وبالمؤمنين» لأن أسبابه ظاهرة بوسائط وهم المؤمنون والله سبحانه وتعالى هو مسبب الأسباب وهو الذي أقامهم لنصره ثم بيَّن كيف أيده بالمؤمنين فقال تعالى: ﴿وألف بين قلوبهم لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم﴾ وذلك أن العرب كانت فيهم الحمية الشديدة والأنفة العظيمة والأنفس القوية والعصبية والانطواء على الضغينة من أدنى شيء حتى لو أن رجلاً من قبيلة لطم لطمة واحدة قاتل عنه أهل قبيلته حتى يدركوا ثأرهم لا يكاد يأتلف منهم قلبان فلما بعث رسول الله ﷺ فيهم وآمنوا به واتبعوه انقلبت تلك الحالة فائتلفت قلوبهم واستجمعت كلمتهم وزالت حمية الجاهلية من قلوبهم وأبدلت تلك الضغائن والتحاسد بالمودة والمحبة لله وفي الله واتفقوا على الطاعة وصاروا أنصاراً لرسول الله ﷺ وأعواناً يقاتلون عنه ويحمونه وهم الأوس والخزرج وكانت بينهم في الجاهلية حروب عظيمة ومعاداة شديدة ثم زالت تلك الحروب وحصلت المحبة والألفة وهذا مما لا يقدر عليه إلا الله عز وجل وصار ذلك معجزة لرسول الله ﷺ ظاهرة باهرة دالة على صدقه ومنه قوله ﷺ: يا معشر الأنصار ألم أجدكم ضلالاً فهداكم الله بي وكنتم متفرقين فألفكم الله بي وعالة فأغناكم الله بي وفي الآية دليل على أن القلوب بيد الله يصرفها كيف شاء وأرادوا ذلك لأن تلك الألفة والمحبة إنما حصلت بسبب

رُوِيَ عن قتادة والحسن: أنّ هذه الآية منسوخة بقوله تعالى: ﴿ اقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ﴾ [التوبة: ٥]. ﴿ وتوكَّلْ على اللَّهِ ﴾! ثم بالله، ﴿ إنَّه هو السّميعُ العليم ﴾.

﴿ وإنْ يُريدُوا أنْ يخدعُوك ﴾، يغدروا ويمكروا بك. قال مجاهد: يعني بني قريظة. ﴿ فإنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ ﴾، كافيك الله، ﴿ هو الذي أيَّدكَ بنصرهِ وبالمؤمنين ﴾، أي: بالأنصار.

﴿ وألَّفَ بينَ قلوبهم ﴾، أي: بين الأوس والخزرج، كانت بينهم إحَن وتارات في الجاهلية فصيّرهم الله إخواناً بعد أن كانوا أعداء، ﴿ لو أنفقتَ ما في الأرض جميعاً ما ألّفْتَ بينَ قلوبهم ولكنَّ اللَّهَ ألّفَ بينَهم. إنّه عزيزٌ حكيم ﴾.

قوله تعالى: ﴿ يا أيها النبيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ ومَن اتّبعكَ مِنَ المؤمنين ﴾، قال سعيد بن جبير: أسلم مع رسول

الإيمان واتباع الرسول ﷺ ثم إنه سبحانه وتعالى ختم هذه الآية بقوله ﴿**إنه عزيز حكيم**﴾ يعني أنه تعالى قادر قاهر يمكنه التصرف في القلوب فيقلبها من العداوة إلى المحبة ومن النفرة إلى الألفة وكل ذلك على وجه الحكمة والصواب.

قوله سبحانه وتعالى: ﴿**يا أيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين**﴾ روى سعيد بن جبير عن ابن عباس أن هذه الآية نزلت في إسلام عمر بن الخطاب قال سعيد بن جبير «أسلم مع النبي ﷺ ثلاثة وثلاثون رجلاً وست نسوة ثم أسلم عمر فنزلت هذه الآية» فعلى هذا القول تكون الآية مكية كتبت في سورة مدنية بأمر رسول الله ﷺ. وقيل: إنها نزلت بالبيداء في غزوة بدر قبل القتال فعلى هذا القول أراد بقوله تعالى: ﴿**ومن اتبعك من المؤمنين**﴾ يعني إلى غزوة بدر وقيل أراد بقوله ومن اتبعك من المؤمنين الأنصار وتكون الآية نزلت بالمدينة وقيل أراد جميع المهاجرين والأنصار، ومعنى الآية يا أيها النبي حسبك الله وحسب من اتبعك من المؤمنين وقيل معناه حسبك الله ومتبعوك من المؤمنين.

قوله عز وجل: ﴿**يا أيها النبي حرض المؤمنين على القتال**﴾ يعني حثهم على قتال عدوهم.

والتحريض في اللغة: الحث على الشيء بكثرة التزين وتسهيل الخطب فيه كأنه في الأصل إزالة الحرض وهو الهلاك ﴿**إن يكن منكم عشرون**﴾ يعني رجلاً ﴿**صابرون**﴾ يعني عند اللقاء محتسبين أنفسهم ﴿**يغلبوا مائتين**﴾ يعني من عدوهم وظاهر لفظ الآية خبر ومعناه الأمر فكأنه تعالى قال إن يكن منكم عشرون فليصبروا وليجتهدوا في قتال عدوهم حتى يغلبوا مائتين ويدل على أن المراد بهذا الخبر الأمر قوله «الآن خفف الله عنكم» لأن النسخ لا يدخل على الإخبار إنما يدخل على الأمر فدل ذلك على أن الله سبحانه وتعالى أوجب أولاً على المؤمنين هذا الحكم وإنما حسن هذا التكليف لأن الله وعدهم بالنصر ومن تكفل الله له بالنصر سهل عليه الثبات مع الأعداء ﴿**وإن يكن منكم مائة**﴾ يعني صابرة ﴿**يغلبوا ألفاً من الذين كفروا**﴾ فحاصله وجوب ثبات الواحد من المؤمنين في مقابلة العشرة من الكفار، ذلك ﴿**بأنهم قوم لا يفقهون**﴾ يعني: أن المشركين لا يقاتلون لطلب ثواب وخوف عقاب إنما يقاتلون حمية فإذا صدقتموهم في القتال فإنهم لا يثبتون معكم.

ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى

الله ﷺ ثلاثة وثلاثون رجلاً وستُّ نسوة، ثم أسلم عمر بن الخطاب فتمّ به الأربعون، فنزلت هذه الآية. واختلفوا في محل ﴿ مِنْ ﴾ فقال أكثر المفسّرين: محلّه خفض، عطفاً على الكاف في قوله: ﴿ **حَسْبُكَ اللَّهُ** ﴾ وحسب مَن اتّبعك، وقال بعضهم: هو رفع عطفاً على اسم الله معناه: حسبك الله ومتّبعوك من المؤمنين.

قوله تعالى: ﴿ **يا أيّها النبي حرّضِ المؤمنينَ على القتال** ﴾، أي: حثّهم على القتال. ﴿ **إن يكنْ منكم عِشْرَون** ﴾، رجلاً، ﴿ **صابرون** ﴾، محتسبون، ﴿ **يغلبوا مائتين** ﴾، من عدوّهم يقهروهم، ﴿ **وإن يكن منكم مائةٌ** ﴾، صابرة محتسبة، ﴿ **يغلبوا ألفاً من الذين كفروا** ﴾، ذلك ﴿ **بأنهم قومٌ لا يفقهون** ﴾، أي: إن المشركين يقاتلون على غير احتساب ولا طلب ثواب ولا يثبتون إذا صدقتموهم القتال خشية أن يقتلوا، وهذا خبر بمعنى الأمر، وكان هذا يوم بدر فرض الله على الرجل الواحد من المؤمنين قتال عشرة من الكافرين، فثقلت على المؤمنين، فخفّف الله عنهم، فنزل:

ٱلْأَرْضِۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾

﴿الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله﴾ (خ)

عن ابن عباس: قال لما نزلت إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين كتب عليهم أن لا يفر واحد من عشرة ولا عشرون من مائتين ثم نزلت الآن خفف الله عنكم الآية فكتب أن لا يفر مائة من مائتين. وفي رواية أخرى عنه قال: لما نزلت إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين شق ذلك على المسلمين فنزلت الآن خفف الله عنكم الآية فلما خفف الله عنهم من العدة نقص عنهم عن الصبر بقدر ما خفف عنهم فظاهر هذا أن قوله سبحانه وتعالى الآن خفف الله عنكم ناسخ لما تقدم من الآية الأولى وكان هذا الأمر يوم بدر فرض الله سبحانه وتعالى على الرجل الواحد من المؤمنين قتال عشرة من الكافرين فثقل ذلك على المؤمنين فنزلت الآن خفف الله عنكم أيها المؤمنون وعلم أن فيكم ضعفاً يعني في قتال الواحد للعشرة فإن تكن منكم مائة صابرة محتسبة يغلبوا مائتين وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله فرد من العشرة إلى الاثنين فإذا كان المسلمون على قدر النصف من عدوهم لا يجوز لهم أن يفروا فأيما رجل فر من ثلاثة فلم يفر ومن فر من اثنين فقد فرّ **﴿والله مع الصابرين﴾** يعني بالنصر والمعونة.

قال سفيان: قال ابن شبرمة: وأرى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مثل ذلك.

قوله تعالى: **﴿ما كان لنبي أن يكون له أسرى﴾** روي عن عبد الله ابن مسعود قال: لما كان يوم بدر وجيء بالأسرى فقال رسول الله ﷺ: ما تقولن في هؤلاء فقال أبو بكر يا رسول الله قومك وأهلك استبقهم واستأن بهم لعل الله أن يتوب عليهم وخذ منهم فدية تكون لنا قوة على الكفار. وقال عمر: يا رسول الله كذبوك وأخرجوك فدعهم نضرب أعناقهم مكن علياً من عقيل فيضرب عنقه ومكن حمزة من العباس فيضرب عنقه، ومكني من فلان نسيب لعمر فأضرب عنقه، فإن هؤلاء أئمة الكفر وقال عبد الله بن رواحة: يا رسول الله انظر وادياً كثير الحطب فأدخلهم فيه ثم أضرمه عليهم ناراً فقال له العباس: قطعت رحمك فسكت رسول الله ﷺ فلم يجبهم ثم دخل فقال ناس يأخذ بقول أبي بكر وقال ناس يأخذ بقول عمر وقال ناس يأخذ بقول ابن رواحة ثم خرج رسول الله ﷺ فقال: إن الله ليلين قلوب رجال حتى تكون ألين من اللبن ويشدد قلوب رجال حتى تكون أشد من الحجارة وإن مثلك يا أبا بكر مثل إبراهيم قال: فمن تبعني فإنه مني، ومن عصاني فإنك غفور رحيم ومثلك يا أبا بكر مثل عيسى قال: إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم ومثلك يا عمر مثل نوح قال: رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً ومثلك يا عبد

﴿ الآنَ خَفَّفَ الله عنكم وعلِمَ أنّ فيكم ضعفاً ﴾، أي: ضعفاً في الواحد عن قتال العشرة وفي المائة عن قتال الألف، وقرأ أبو جعفر: **﴿ ضعفاء ﴾** بفتح العين والمدّ على الجمع وقرأ الآخرون بسكون العين، **﴿ فإن يكن منكم مائة صابرة يَغْلِبُوا مائتين ﴾**، من الكفّار، **﴿ وإنْ يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن اللّهِ والله مع الصابرين ﴾**، فردّ من العشرة إلى الاثنين فإن كان المسلمون على الشطر من عدوّهم لا يجوز لهم أن يفرّوا. وقال سفيان قال ابن شبرمة: وأرى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مثل هذا. قرأ أهل الكوفة: **﴿ وإنْ يكنْ منكم مائة ﴾**، بالياء فيهما وافق أهل البصرة في الأول والباقون بالتاء فيهما. وقرأ عاصم وحمزة **﴿ ضعفاء ﴾** بفتح الضاد هنا وفي سورة الروم، والباقون بضمّها.

وقوله تعالى: **﴿ ما كان لنبيٍّ أنْ يكونَ له أسرى ﴾**، قرأ أبو جعفر وأهل البصرة: **﴿ تكون ﴾** بالتاء والباقون بالياء، وقرأ أبو جعفر: **﴿«أسارى»﴾**، والآخرون. **﴿ أسرى ﴾**، وروى الأعمش عن عمر بن مرّة عن أبي عبيدة عن

الله بن رواحة كمثل موسى قال: ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم ثم قال رسول الله ﷺ: اليوم أنتم عالة فلا يفلتن أحد منهم إلا بفداء أو ضرب عنق قال عبد الله بن مسعود: إلا سهيل بن بيضاء فإني سمعته يذكر الإسلام فسكت رسول الله ﷺ وقال: فما رأيتني في يوم أخوف أن تقع علي الحجارة من السماء من ذلك اليوم حتى قال رسول الله ﷺ: إلا سهيل بن بيضاء. قال ابن عباس قال عمر بن الخطاب: فهوى رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر ولم يهو ما قلت وأخذ منهم الفداء فلما كان من الغد جئت فإذا رسول الله ﷺ وأبو بكر قاعدان يبكيان فقلت: يا رسول الله أخبرني من أي شيء تبكي أنت وصاحبك فإن وجدت بكاء بكيت وإن لم أجد بكاء تباكيت لبكائكما فقال رسول الله ﷺ: أبكي على أصحابك من أخذهم الفداء لقد عرض على عذابهم أدنى من هذه الشجرة لشجرة قريبة من نبي الله ﷺ فأنزل الله عز وجل عليه: ﴿**ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض**﴾ الآية خرج هذا الحديث الترمذي مختصراً وقال: في الحديث قصة وهي هذه القصة التي ذكرها البغوي. وأخرج مسلم في إفراده من حديث عمر بن الخطاب قال ابن عباس: لما أسروا الأسارى قال رسول الله ﷺ لأبي بكر وعمر: ما ترون في هؤلاء الأسارى فقال أبو بكر: يا رسول الله هم بنو العم والعشيرة أرى أن تأخذ منهم فدية تكون لنا قوة على الكفار فعسى الله أن يهديهم إلى الإسلام فقال رسول الله ﷺ ما ترى يا ابن الخطاب قال قلت: لا والله يا رسول الله ما أرى الذي رأى أبو بكر ولكني أرى أن تمكننا فنضرب أعناقهم فتمكن علياً من عقيل فيضرب عنقه و تمكن حمزة من العباس فيضرب عنقه وتمكنني من فلان ـ نسيب لعمر ـ فأضرب عنقه فإن هؤلاء أئمة الكفر وصناديده فهوى رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر ولم يهو ما قلت فلما كان من الغد جئت فإذا رسول الله ﷺ وأبو بكر يبكيان فقلت يا رسول الله ﷺ أخبرني من أي شيء تبكي أنت وصاحبك فإن وجدت بكاء بكيت وإن لم أجد بكاء تباكيت لبكائكما فقال رسول الله ﷺ أبكي على أصحابك من أخذهم الفداء لقد عرض على عذابهم أدنى من هذه الشجرة لشجرة قريبة من نبي الله ﷺ فأنزل الله عز وجل: ﴿**ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض**﴾ إلى قوله ﴿**فكلوا مما غنمتم حلالاً طيباً**﴾ فأحل الله الغنيمة لهم ذكره الحميدي في مسنده عن عمر بن الخطاب من إفراد مسلم بزيادة فيه.

أما تفسير الآية، فقوله تعالى: ما كان لنبي أن يكون له أسرى يعني ما كان ينبغي ولا يجب لنبي. وقال أبو عبيدة: معناه لم يكن لنبي ذلك فلا يكون لك يا محمد والمعنى ما كان لنبي أن يحبس كافراً قدر عليه وصار في يده أسيراً للفداء والمن، والأسرى جمع أسير وأسارى جمع الجمع ﴿**حتى يثخن في الأرض**﴾ الإثخان في كل شيء عبارة

عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: لمّا كان يوم بدر وجيء بالأسرى، فقال رسول الله ﷺ: «ما تقولون في هؤلاء»؟ فقال أبو بكر: يا رسول الله قومك وأهلك فاستبقهم واستأذن بهم لعلّ الله أن يتوب عليهم، وخذ منهم فدية تكون لنا قوة على الكفّار، وقال عمر رضي الله عنه: يا رسول الله كذّبوك وأخرجوك فدعهم نضرب أعناقهم، مكّن عليّاً من عقيل فيضرب عنقه، ومكّنّي من فلان نسيب لعمر فأضرب عنقه، فإن هؤلاء أئمة الكفر، وقال عبد الله بن رواحة يا رسول الله انظر وادياً كثير الحطب فأدخلهم فيه ثم أضرم عليهم ناراً فقال له العباس قطعت رحمك، فسكت رسول الله ﷺ فلم يجبهم، ثم دخل. قال ناس: يأخذ بقول أبي بكر، وقال ناس: يأخذ بقول عمر، وقال ناس: يأخذ بقول ابن رواحة، ثم خرج رسول الله ﷺ فقال: «إنّ الله تعالى ليليّن قلوب رجال حتى تكون ألين من اللبن، ويشدّد قلوب رجال حتى تكون أشدّ من الحجارة، وإن مثلك يا أبا بكر مثل إبراهيم قال: فَمَن تبعني فإنه منّي ومَن عصاني فإنك غفور رحيم»، ومثلك يا أبا بكر مثل عيسى قال: ﴿ إنْ تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم ﴾ [المائدة: ١١٨]، وإن مثلك يا عمر مثل نوح قال: ﴿ ربِّ لا تذرْ على الأرض من الكافرين ديّاراً ﴾ [نوح: ٢٦]، ومثلك يا عبد الله بن رواحة مثل موسى قال: ﴿ ربّنا اطمسْ على أموالهم واشْدُدْ على

عن قوته وشدته. يقال: أثخنه المرض إذ اشتدت قوته عليه والمعنى حتى يبالغ في قتال المشركين ويغلبهم ويقهرهم فإذا حصل ذلك فله أن يقدم على الأسر فيأسر الأسارى ﴿تريدون عرض الدنيا﴾ الخطاب لأصحاب النبي ﷺ يعني تريدون أيها المؤمنون عرض الدنيا بأخذكم الفداء من المشركين وإنما سمى منافع الدنيا عرضا لأنه لا ثبات لها ولا دوام فكأنها تعرض ثم تزول بخلاف منافع الآخرة فإنها دائمة الانقطاع لها، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿والله يريد الآخرة﴾ يعني أنه سبحانه وتعالى يريد لكم ثواب الآخرة بقهركم المشركين ونصركم الدين لأنها دائمة بلا زوال ولا انقطاع ﴿والله عزيز﴾ لا يقهر ولا يغلب ﴿حكيم﴾ يعني في تدبير مصالح عباده. قال ابن عباس: كان ذلك يوم بدر والمؤمنون يومئذ قليل فلما كثروا واشتد سلطانهم أنزل الله سبحانه وتعالى في الأسارى فأما مناً بعد وإما فداء فجعل الله نبيه ﷺ والمؤمنين بالخيار إن شاؤوا قتلوهم وإن شاؤوا استعبدوهم وإن شاؤوا فادوهم وإن شاؤوا أعتقوهم. قال الإمام فخر الدين: إن هذا الكلام يوهم أن قوله فأما مناً بعد وإما فداء يزيل حكم الآية التي نحن في تفسيرها وليس الأمر كذلك لأن كلتا الآيتين متوافقتان وكلتاهما تدلان على أنه لا بد من تقديم الإثخان ثم بعده أخذ الفداء. قال العلماء: كان الفداء لكل أسير أربعين أوقية والأوقية أربعون درهماً فيكون مجموع ذلك ألفاً وستمائة درهم. وقال قتادة: كان الفداء يومئذ لكل أسير أربعة آلاف درهم.

فصل

قد استدل بهذه الآية من يقدح في عصمة الأنبياء. وبيانه من وجوه:

الأول: أن قوله ماكان لنبي أن يكون له أسرى صريح في النهي عن أخذ الأسارى وقد وجد ذلك يوم بدر.

الوجه الثاني: أن الله سبحانه وتعالى أمر النبي ﷺ وقومه بقتل المشركين يوم بدر فلما لم يقتلوهم بل أسروهم دل ذلك على صدور الذنب منهم.

الوجه الثالث: أن النبي ﷺ حكم بأخذ الفداء وهو محرم وذلك ذنب.

الوجه الرابع: أن النبي ﷺ وأبابكر قعدا يبكيان لأجل أخذ الفداء وخوف العذاب وقرب نزوله.

والجواب عن الوجه الأول: أن قوله سبحانه وتعالى: ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض يدل على أنه كان الأسر مشروعاً ولكن بشرط الإثخان في الأرض وقد حصل لأن الصحابة رضي الله تعالى عنهم قتلوا يوم بدر سبعين رجلاً من عظماء المشركين وصناديدهم وأسروا سبعين وليس من شرط الإثخان في الأرض قتل جميع الناس فدلت الآية على جواز الأسر بعد الإثخان وقد حصل.

قلوبهم ﴾ [يونس: ٨٨] الآية، ثم قال رسول الله ﷺ: «أنتم اليوم عالة فلا يفلتنّ منهم أحد إلّا بفداء أو ضرب عنق»، قال عبد الله بن مسعود إلّا سهيل بن بيضاء فإني سمعته يذكر الإسلام، فسكت رسول الله ﷺ، فما رأيتني في يوم أخوف من أن تقع عليّ الحجارة من السماء من ذلك اليوم، حتى قال رسول الله ﷺ: «إلّا سهيل بن بيضاء». قال ابن عباس: قال عمر بن الخطاب فهوَى رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر ولم يهوَ ما قلتُ، فلما كان من الغد جئت فإذا رسول الله ﷺ وأبو بكر قاعدين يبكيان، قلت: يا رسول الله أخبرني من أيّ شيء تبكي أنت وصاحبك فإن وجدت بكاءً بكيت وإن لم أجد بكاءً تباكيت لبكائكما؟ فقال رسول الله ﷺ: «أبكي للذي عرض عليّ أصحابك من أخذهم الفداء، لقد عرض عليّ عذابهم أدنى من هذه الشجرة، لشجرة قريبة من رسول الله ﷺ»، وأنزل الله تعالى: ﴿ ما كان لنبيٍّ أن يكونَ له أسرى حتى يُثْخِنَ في الأرض ﴾ إلى قوله: ﴿ فكلوا ممّا غنمتم حلالاً طيباً ﴾ فأحلّ الله الغنيمة لهم. بقوله: ﴿ أسرى ﴾ جمع أسير مثل قتلى وقتيل. قوله: ﴿ حتى يُثخِنَ في الأرض ﴾،

والجواب عن الوجه الثاني: أن الأمر بالقتل إنما كان مختصاً بالصحابة لإجماع المسلمين أن النبي ﷺ لم يؤمر بمباشرة قتال الكفار بنفسه وإذا ثبت أن الأمر بالقتل كان مختصاً بالصحابة كان الذنب صادراً منهم لا من النبي ﷺ.

والجواب عن الوجه الثالث: وهو أن النبي ﷺ حكم بأخذ الفداء وهو محرم فنقول لا نسلم أن أخذ الفداء كان محرماً وأما قوله سبحانه وتعالى تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة ففيه عتاب لطيف على أخذ الفداء من الأسارى والمبادرة إليه ولا يدل على تحريم الفداء إذ لو كان حراماً في علم الله لمنعهم من أخذه مطلقاً.

والجواب عن الوجه الرابع: وهو أن النبي ﷺ وأبا بكر قعدا يبكيان يحتمل أن يكون لأجل أن بعض الصحابة لما خالف الأمر بالقتل واشتغل بالأسر استوجب بذلك الفعل العذاب فبكى النبي ﷺ خوفاً وإشفاقاً من نزول العذاب عليهم بسبب ذلك الفعل وهو الأسر وأخذ الفداء والله أعلم.

لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾

قوله عز وجل: ﴿**لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم**﴾ قال ابن عباس: كانت الغنائم محرمة على الأنبياء والأمم فكانوا إذا أصابوا مغنماً جعلوه للقربان فكانت النار تنزل من السماء فتأكله فلما كان يوم بدر أسرع المؤمنون في أخذ الغنائم والفداء فأنزل الله عز وجل: ﴿**لولا كتاب من الله سبق**﴾ يعني لولا قضاء من الله سبق في اللوح المحفوظ بأنه يحل لكم الغنائم. ثم لمسكم **فيما** أخذتم عذاب عظيم وقال الحسن ومجاهد وسعيد بن جبير: لولا كتاب من الله سبق أنه لا يعذب أحداً ممن شهد بدراً مع النبي ﷺ. وقال ابن جريج: لولا كتاب من الله سبق أنه لا يضل قوماً بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون وأنه لا يأخذ قوماً فعلوا بجهالة لمسكم يعني لأصابكم بسبب ما أخذتم من الفداء قبل أن تؤمروا به عذاب عظيم قال محمد بن إسحاق: لم يكن من المؤمنين أحد ممن حضر بدراً إلا وأحب الغنائم إلا عمر بن الخطاب فإنه أشار على رسول الله ﷺ بقتل الأسرى وسعد بن معاذ فإنه قال: يا رسول الله ﷺ كان

أي: بالغ قتال المشركين وأسرهم، ﴿ **تُريدون** ﴾، أيها المؤمنون ﴿ **عَرَضَ الدنيا** ﴾، بأخذكم الفداء، ﴿ **واللَّهُ يُريدُ الآخرة** ﴾، يريد لكم ثواب الآخرة بقهركم المشركين ونصركم دين الله عزّ وجلّ، ﴿ **والله عزيزٌ حكيم** ﴾، وكان الفداء لكل أسير أربعين أُوقية، والأُوقية أربعون درهماً. قال ابن عباس رضي الله عنهما: كان هذا يوم بدر والمسلمون يومئذ قليل، فلما كثروا واشتدّ سلطانهم أنزل الله في الأسارى: ﴿ **فإمّا مَنّاً بعدُ وإما فداء** ﴾ [محمد: ٤]، فجعل الله عزّ وجلّ نبيّه ﷺ والمؤمنين في أمر الأسارى بالخيار إن شاؤوا قتلوهم وإن شاؤوا أعتقوهم، وإن شاؤوا استعبدوهم، وإن شاؤوا فادُوهم.

قوله تعالى: ﴿ **لولا كتابٌ منَ اللّهِ سبقَ** ﴾، قال ابن عباس: كانت الغنائم حراماً على الأنبياء والأمم فكانوا إذا أصابوا شيئاً من الغنائم جعلوه للقربان، فكانت تنزل نار من السماء فتأكله، فلما كان يوم بدر أسرع المؤمنون في الغنائم وأخذوا الفداء، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿ **لولا كتابٌ من الله سبق** ﴾ يعني لولا قضاء من الله سبق في اللوح المحفوظ بأنه يحلّ لكم الغنائم. وقال الحسن ومجاهد وسعيد بن جبير: لولا كتاب من الله سبق أنه لا يعذّب أحداً ممّن شهد بدراً مع النبي ﷺ. وقال ابن جريج: لولا كتاب من الله سبق أنه لا يضلّ قوماً بعد إذْ هداهم حتى يُبيّنَ لهم ما يتّقون الآية، وأنه لا يأخذ قوماً فعلوا أشياء بجهالة. ﴿ **لمسّكم** ﴾، لنالكم وأصابكم، ﴿ **فيما أخذتُم** ﴾، من الفداء قبل أن تؤمروا به، ﴿ **عذابٌ عظيم** ﴾. قال ابن إسحاق: لم يكن من المؤمنين أحد ممّن أحضر إلّا حبّ

الإثخان في القتل أحب إليّ من استبقاء الرجال فقال رسول الله ﷺ لو نزل عذاب من السماء ما نجا منه غير عمر وسعد بن معاذ.

وقوله تعالى: ﴿فكلوا مما غنمتم حلالاً طيباً﴾ يعني قد أحلت لكم الغنائم وأخذ الفداء فكلوا مما غنمتم حلالاً طيباً.

روي أنه لما نزلت الآية الأولى كف أصحاب رسول الله ﷺ أيديهم عما أخذوا من الفداء فنزلت فكلوا مما غنمتم حلالاً طيباً فأحل الله الغنائم بهذه الآية لهذه الأمة وكانت قبل ذلك حراماً على جميع الأمم الماضية صح من حديث جابر بن عبد الله أن النبي ﷺ قال «وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي» (ق) عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: ولم تحل الغنائم لأحد قبلنا ثم أحل الله لنا الغنائم وذلك بأن الله رأى ضعفنا وعجزنا فأحلها لنا.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿واتقوا الله إن الله غفور رحيم﴾ يعني وخافوا الله أن تعودوا وإن لم تفعلوا شيئاً من قبل أنفسكم قبل أن تؤمروا به واعلموا أن الله قد غفر لكم ما أقدمتم عليه من هذا الذنب ورحمكم وقيل في قوله واتقوا الله إشارة إلى المستقبل وقوله إن الله غفور رحيم إشارة إلى الحالة الماضية.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٠﴾ وَإِن يُرِيدُوا۟ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾﴾

قوله سبحانه وتعالى: ﴿يا أيها النبي قل لمن في أيديكم﴾ نزلن في العباس بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ وكان أحد العشرة الذين ضمنوا أن يطعموا الناس الذين خرجوا من مكة إلى بدر وكان قد خرج ومعه عشرون أوقية من ذهب ليطعم بها إذ جاءت نوبته فكانت نوبته يوم الوقعة ببدر فأراد أن يطعم ذلك اليوم فاقتتلوا فلم يطعم شيئاً وبقيت العشرون أوقية معه فلما أسر أخذت منه، فكلم رسول الله ﷺ أن يحسب العشرين أوقية من فدائه فأبى رسول الله ﷺ

الغنائم إلاّ عمر بن الخطاب فإنه أشار على رسول الله ﷺ بقتل الأسرى، وسعد بن معاذ قال: يا رسول الله كان الإثخان في القتل أحبَّ إليّ من استيفاء الرجال، فقال رسول الله ﷺ: «لو نزل عذاب من السماء ما نجا منهم غير عمر بن الخطاب وسعد بن معاذ».

فقال الله تعالى: ﴿ فكلوا ممّا غنِمتُم حلالاً طيباً واتّقوا اللّهَ إنّ اللّهَ غفورٌ رحيم ﴾، رُوِيَ أنه لمّا نزلت الآية الأولى كفّ أصحاب رسول الله ﷺ أيديهم عمّا أخذوا من الفداء فنزل: ﴿ فكلوا ممّا غنمتم ﴾ الآية. وروينا عن جابر رضي الله عنه أن النبيّ ﷺ قال: «أُحلّتْ لي الغنائم ولم تحلّ لأحد قبلي»، أخبرنا حسّان بن سعيد المنيعي أنا أبو طاهر الزيادي أنا محمد بن الحسين القطّان ثنا أحمد بن يوسف السلمي ثنا عبد الرزّاق أنبأنا معمر عن هشام ثنا أبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لم تحلّ الغنائمُ لأحد من قبلنا، ذلك بأن الله رأى ضعفنا وعجزنا فطيّبها لنا».

قوله تعالى: ﴿ يا أيّها النبيّ قلْ لمَن في أيديكم من الأسرى ﴾، قرأ أبو عمرو وأبو جعفر: « من الأسارى » بالألف والباقون بلا ألف، نزلت في العباس بن عبد المطلب وكانَ أُسر يوم بدر، وكان أحد العشرة الذين ضمنوا طعام أهل بدر وكان يوم بدر نوبته، وكان قد خرج بعشرين أُوقية من الذهب ليطعم بها الناس، فأراد أن يطعم ذلك اليوم فاقتتلوا وبقيت العشرون أُوقية معه، فأُخذتْ منه في الحرب، فكلّم النبي ﷺ أن يحتسب العشرين أُوقية من

وقال: أما شيء خرجت به لتستعين به علينا فلا أتركه لك. وكلف فداء ابني أخيه عقيل بن أبي طالب ونوفل بن الحارث فقال العباس: يا محمد تتركني أتكفف قريشاً ما بقيت. فقال رسول الله ﷺ: فأين الذهب الذي دفعته إلى أم الفضل وقت خروجك من مكة وقلت لها إني لا أدري ما يصيبني في وجهي هذا فإن حدث بي حدث فهذا لك ولعبد الله ولعبيدالله وللفضل وقثم يعني بنيه. فقال العباس: وما يدريك يا ابن أخي قال: أخبرني به ربي قال العباس: أشهد أنك لصادق وأشهد أن لا إله إلا الله وأنك عبده ورسوله لم يطلع عليه أحد إلا الله وأمر ابني أخيه عقيل ونوفل بن الحارث فأسلما فذلك قوله سبحانه وتعالى: يا أيها النبي قل لمن في أيديكم ﴿**من الأسرى**﴾ يعني الذين أسرتموهم وأخذتم منهم الفداء ﴿**إن يعلم الله في قلوبكم خير**﴾ يعني إيماناً وتصديقاً ﴿**يؤتكم خيراً مما أخذ منكم**﴾ يعني من الفداء ﴿**ويغفر لكم**﴾ يعني ما سلف منكم قبل الإيمان ﴿**والله غفور**﴾ يعني لمن آمن وتاب من كفره ومعاصيه ﴿**رحيم**﴾ يعني بأهل طاعته قال العباس: فأبدلني الله خيراً مما أخذ مني عشرين عبداً كلهم تاجر يضرب بمال كثير أدناهم يضرب بعشرين ألف درهم مكان العشرين أوقية وأعطاني زمزم وما أحب أن لي بها جميع أموال أهل مكة وأنا أنتظر المغفرة من ربي عز وجل.

وقوله تعالى: ﴿**وإن يريدوا**﴾ يعني الأسارى ﴿**خيانتك**﴾ يعني أن يكفروا بك ﴿**فقد خانوا الله**﴾ يعني فقد كفروا بالله ﴿**من قبل**﴾ وقيل معناه وإن نقضوا العهد ورجعوا إلى الكفر فقد خانوا الله بذلك ﴿**فأمكن**﴾ يعني فأمكن الله المؤمنين ﴿**منهم**﴾ ببدر حتى قتلوا منهم وأسروا منهم وهذا نهاية الإمكان وفيه بشارة للنبي ﷺ بأنه يتمكن من كل أحد يخونه أو ينقض عهده ﴿**والله عليم**﴾ يعني بما في بواطنهم وضمائرهم من إيمان وتصديق أو خيانة ونقض عهد ﴿**حكيم**﴾ يعني حكم بأنه يجازي كلاً بعمله الخير بالثواب والشر بالعقاب.

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمِۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ

فدائه فأبى وقال: «أما شيء خرجتَ تستعينُ به علينا فلا أتركه لك»، وكلّف فداء بني أخيه عقيل بن أبي طالب ونوفل بن الحارث، فقال العباس: يا محمد تركتني أتكفّف قريشاً ما بقيت؟ فقال رسول الله ﷺ: «فأين الذهب الذي دفعته إلى أُم الفضل وقت خروجك من مكة وقلت لها: إنّي لا أدري ما يصيبني في وجهي هذا، فإن حدث بي حدث فهو لك ولعبد الله ولعبيد الله وللفضل وقثم»، يعني الأربعة، فقال له العباس: وما يدريك؟ قال: «أخبرني به ربّي عزّ وجلّ»، قال العباس: أشهد أنك صادق! وقال: لا إلّه إلّا الله وإنك عبده ورسوله، ولم يطلع عليه أحد إلّا الله عزّ وجلّ، فذلك قوله تعالى: ﴿ **يا أيها النبي قل لمَن في أيديكم من الأسرى** ﴾ الذين أخذت منهم الفداء ﴿ **إنْ يعلمِ اللّهُ في قلوبِكم خيراً** ﴾، أي: إيماناً، ﴿ **يؤتكم خيراً ممّا أُخِذَ منكم** ﴾، من الفداء، ﴿ **ويغفرْ لكم** ﴾، ذنوبكم ﴿ **والله غفورٌ رحيم** ﴾، قال العباس رضي الله عنه: فأبدلني الله عنها عشرين عبداً كلّهم تاجر يضرب بمال كثير وأدناهم يضرب بعشرين ألف درهم مكان عشرين أُوقية، وأعطاني زمزم وما أُحبّ أن لي بها جميع أموال مكة، أنا أنتظر المغفرة من ربّي عزّ وجلّ.

قوله: ﴿ **وإنْ يُريدوا خيانتك** ﴾، يعني الأسارى، ﴿ **فقدْ خانُوا اللّهَ منْ قبلُ فأمكن منهم** ﴾، ببدر، ﴿ **والله عليم حكيم** ﴾، قال ابن جريج: أراد بالخيانة الكفر، أي: إن كفروا بك فقد كفروا بالله من قبل فأمكن منهم المؤمنين ببدر حتى قتلوهم وأسروهم، وهذا تهديد لهم إن عادوا إلى قتال المؤمنين ومعاداتهم.

بَعۡضٍۚ إِلَّا تَفۡعَلُوهُ تَكُن فِتۡنَةٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَفَسَادٞ كَبِيرٞ ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ
وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ﴿٧٤﴾

قوله عز وجل: ﴿**إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله**﴾ يعني إن الذين آمنوا بالله ورسوله وصدقوا بما جاءهم به وهاجروا يعني وهجروا ديارهم وقومهم في ذات الله عز وجل وابتغاء رضوان الله وهم المهاجرون الأولون وجاهدوا يعني وبذلوا أنفسهم في سبيل الله يعني في طاعة الله وابتغاء رضوانه ﴿**والذين آووا ونصروا**﴾ يعني آووا رسول الله ﷺ ومن معه من أصحابه من المهاجرين وأسكنوهم منازلهم ونصروا رسول الله ﷺ وهم الأنصار ﴿**أولئك**﴾ يعني المهاجرين والأنصار ﴿**بعضهم أولياء بعض**﴾ يعني في العون والنصر دون أقربائهم من الكفار وقال ابن عباس: في الميراث وكانوا يتوارثون بالهجرة وكان المهاجرون والأنصار يتوارثون دون أقربائهم وذوي أرحامهم وكان من آمن ولم يهاجر لا يرث من قريبه المهاجر حتى كان فتح مكة وانقطعت الهجرة فتوارثوا بالأرحام حيثما كانوا فصار ذلك منسوخاً بقوله تعالى وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله.

وقوله تعالى: ﴿**والذين آمنوا ولم يهاجروا**﴾ يعني آمنوا وأقاموا بمكة ﴿**ما لكم من ولايتهم من شيء**﴾ يعني من الميراث ﴿**حتى يهاجروا**﴾ يعني إلى المدينة ﴿**وإن استنصروكم في الدين**﴾ يعني استنصركم الذين آمنوا ولم يهاجروا ﴿**فعليكم النصر**﴾ يعني فعليكم نصرهم وإعانتهم ﴿**إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق**﴾ أي عهد فلا تنصروهم عليهم ﴿**والله بما تعملون بصير والذين كفروا بعضهم أولياء بعض**﴾ يعني في النصر والمعونة وذلك أن كفار قريش كانوا معادين لليهود فلما بعث رسول الله ﷺ تعاونوا عليه جميعاً قال ابن عباس: يعني في الميراث وهو أن يرث الكفار بعضهم من بعض ﴿**إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير**﴾ قال ابن عباس: إلا تأخذوا في الميراث بما أمرتكم به، وقال ابن جريج إلا تتعاونوا وتتناصروا وقال ابن إسحاق: جعل الله المهاجرين والأنصار أهل ولاية في الدين دون من سواهم وجعل الكافرين بعضهم أولياء بعض ثم قال سبحانه وتعالى إلا تفعلوه وهو أن يتولى المؤمن الكافر دون المؤمنين تكن فتنة في الأرض وفساد كبير فالفتنة في الأرض هي قوة الكفار والفساد الكبير هو ضعف المسلمين ﴿**والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقاً**﴾ يعني لا شك في إيمانهم ولا ريب لأنهم حققوا إيمانهم بالهجرة والجهاد وبذل النفس والمال في نصر الدين ﴿**لهم مغفرة**﴾ يعني لذنوبهم ﴿**ورزق كريم**﴾ يعني في الجنة.

قوله تعالى: ﴿ **إنّ الذين آمنوا وهاجروا** ﴾، أي: هجروا قومهم وديارهم، **يعني المهاجرين من مكة**، ﴿ **وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله والذين ءَاوَوْا** ﴾ رسول الله ﷺ والمهاجرين معه، أي: أسكنوهم منازلهم، ﴿ **ونصرُوا** ﴾ أي: نصروهم على أعدائهم وهم الأنصار رضي الله عنهم، ﴿ **أولئك بعضُهم أولياءُ بعض** ﴾، دون أقربائهم من الكفّار. قيل: في العون والنصرة. وقال ابن عباس: في الميراث وكانوا يتوارثون بالهجرة، فكان المهاجرون والأنصار يتوارثون دون ذوي الأرحام، وكان مَن آمن ولم يهاجر لا يرث من قريبه المهاجر حتى كان فتح مكة انقطعت الهجرة وتوارثوا بالأرحام حيث ما كانوا، وصار ذلك منسوخاً بقوله عزّ وجلّ: ﴿ وأُولوا الأرحامِ بعضُهم أَوْلَى ببعضٍ في كتابِ الله ﴾ [الأنفال: ٧٥]، ﴿ **والذينَ آمنُوا ولم يهاجرُوا ما لكمْ مِّن ولايتهم من شيء** ﴾، يعني في الميراث، ﴿ **حتى يُهاجروا** ﴾، قرأ حمزة ﴿ **ولايتهم** ﴾ بكسر الواو والباقون بالفتح، وهما واحد كالدلالة والدلالة. ﴿ **وإنِ استنصروكم في الدين** ﴾، أي: استنصركم المؤمنون الذين لم يهاجروا، ﴿ **فعليكم النَّصرُ إلّا على قومٍ بينكم وبينهم ميثاق** ﴾، عهد فلا تنصروهم عليهم، ﴿ **واللّهُ بما تعملون بصير** ﴾.

فإن قلت ما معنى هذا التكرار؟ قلت ليس فيه تكرار لأنه سبحانه وتعالى ذكر في الآية الأولى حكم ولاية المهاجرين والأنصار بعضهم بعضاً ثم ذكر في هذه الآية ما منَّ به عليهم من المغفرة والرزق الكريم وقيل إن إعادة الشيء مرة بعد أخرى تدل على مزيد الاهتمام به فلما ذكرهم أولاً ثم أعاد ذكرهم ثانياً دل ذلك على تعظيم شأنهم وعلو درجاتهم وهذا هو الشرف العظيم لأنه تعالى ذكر في هذه الآية من وجوه المدح ثلاث أنواع:

أحدها: قوله أولئك هم المؤمنون حقاً وهذا يفيد الحصر وقوله سبحانه وتعالى حقاً يفيد المبالغة في وصفهم بكونهم محقين في طريق الدين وتحقيق هذا القول أن من فارق أهله وداره التي نشأ فيها وبذل النفس والمال كان مؤمناً حقاً.

النوع الثاني: قوله سبحانه وتعالى لهم مغفرة وتنكير لفظ المغفرة يدل على أن لهم مغفرة وأي مغفرة لا ينالها غيرهم والمعنى لهم مغفرة تامة كاملة ساترة لجميع ذنوبهم.

النوع الثالث: قوله سبحانه وتعالى ورزق كريم فكل شيء شرف وعظم في بابه قيل له كريم والمعنى أن لهم في الجنة رزقاً لا تلحقهم فيه غضاضة ولا تعب.

وقيل: إن المهاجرين كانوا على طبقات فمنهم من هاجر أولاً إلى المدينة وهم المهاجرون الأولون ومنهم من هاجر إلى أرض الحبشة ثم هاجر إلى المدينة فهم أصحاب الهجرتين ومنهم من هاجر بعد صلح الحديبية وقبل فتح مكة فذكر الله في الآية الأولى أصحاب الهجرة الأولى وذكر في الثانية أصحاب الهجرة الثانية، والله أعلم بمراده.

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَٰهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَٰٓئِكَ مِنكُمْ ۚ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧٥﴾﴾

وقوله سبحانه وتعالى: **﴿والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم﴾** اختلفوا في قوله من بعد فقيل من بعد صلح الحديبية وهي الهجرة الثانية وقيل من نزول هذه الآية وقيل من بعد غزوة بدر والأصح أن المراد به أهل الهجرة الثانية لأنها بعد الهجرة الأولى لأن الهجرة انقطعت بعد فتح مكة لأنها صارت دار إسلام بعد الفتح ويدل عليه قوله ﷺ «لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية» أخرجاه في الصحيحين وقال الحسن الهجرة غير منقطعة.

ويجاب عن هذا بأن المراد منه الهجرة المخصوصة من مكة إلى المدنية فأما من كان من المؤمنين في بلد يخاف على إظهار دينه في كثرة الكفار وجب عليه أن يهاجر إلى بلد لا يخاف على إظهار دينه وقوله تعالى: **﴿فأولئك منكم﴾**

﴿والذين كفروا بعضهم أولياء بعض﴾، في العون والنصرة. وقال ابن عباس: في الميراث، أي: يرث المشركون بعضهم من بعض، **﴿إلّا تفعلوه تكن فتنة في الأرض﴾**، قال ابن عباس: ألّا تأخذوا في الميراث بما أمرتكم به. وقال ابن جريج: ألّا تعاونوا وتناصروا. وقال ابن إسحاق: جعل الله المهاجرين والأنصار أهل ولاية في الدين دون مَن سواهم، وجعل الكافرين بعضهم أولياء بعض، ثم قال: **﴿إلّا تفعلوه﴾**، وهو أن يتولى المؤمن الكافر دون المؤمن **﴿تكن فتنة في الأرض وفسادٌ كبير﴾**، فالفتنة في الأرض قوة الكفر، والفساد الكبير ضعف الإسلام.

﴿والذينَ آمنوا وهاجرُوا وجاهدُوا في سبيلِ اللّهِ والذينَ آوَوا ونصروا أولئك هُمُ المؤمنونَ حقاً﴾ لا مرية ولا ريب في إيمانهم. قيل: حقّقوا إيمانهم بالهجرة والجهاد وبذلِ المال في الدين، **﴿لهم مغفرةٌ ورزقٌ كريم﴾**، الجنة. فإن قيل: أي معنى في تكرار هذه الآية؟ قيل: المهاجرون كانوا على طبقات فكان بعضهم أهل الهجرة

يعني أنهم منكم وأنتم منهم لكن فيه دليل على أن مرتبة المهاجرين الأولين أشرف وأعظم من مرتبة المهاجرين المتأخرين بالهجرة لأن الله سبحانه وتعالى ألحق المهاجرين المتأخرين بالمهاجرين السابقين وجعلهم منهم وذلك معرض المدح والشرف ولولا أن المهاجرين الأولين أفضل وأشرف لما صح هذا الإلحاق.

وقوله تعالى: ﴿**وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله**﴾ قال ابن عباس: كانوا يتوارثون بالهجرة والإخاء حتى نزلت هذه الآية وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض أي في الميراث أي فبين بهذه الآية أن سبب القرابة أقوى وأولى من سبب الهجرة والإخاء ونسخ بهذه الآية ذلك التوارث وقوله في كتاب الله يعني في حكم الله وقيل أراد به في اللوح المحفوظ وقيل أراد به القرآن وهي أن قسمة المواريث مذكورة في سورة النساء من كتاب الله وهو القرآن وتمسك أصحاب الإمام أبي حنيفة بهذه الآية في توريث ذوي الأرحام.

وأجاب عنه الإمام الشافعي رضي الله تعالى عنه بأنه لما قال في كتاب الله كان معناه في حكم الله الذي بينه في سورة النساء فصارت هذه الآية مقيدة بالأحكام التي ذكرها في سورة النساء من قسمة المواريث وإعطاء أهل الفروض فروضهم وما بقي فللعصبات.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿**إن الله بكل شيء عليم**﴾ يعني أنه سبحانه وتعالى عالم بكل شيء لا تخفى عليه خافية والله أعلم بمراده وأسرار كتابه.

الأولى وهم الذين هاجروا قبل الحديبية، وبعضهم أهل الهجرة الثانية وهم الذين هاجروا بعد صلح الحديبية قبل فتح مكة، وكان بعضهم ذا هجرتين هجرة الحبشة والهجرة إلى المدينة، فالمراد من الآية الأولى الهجرة الأولى، ومن الثانية الهجرة الثانية.

قوله: ﴿ **والذين آمنوا من بعدُ وهاجرُوا وجاهدُوا معكم فأولئك منكم** ﴾ أي: معكم، يريد أنتم منهم وهم منكم، ﴿ **وأُولوا الأرْحام بعضُهم أوْلَى ببعض** ﴾، وهذا نسخ التوارث بالهجرة وردّ الميراث إلى ذوي الأرحام. قوله: ﴿ **في كتابِ الله** ﴾، أي: في حكم الله عزّ وجلّ. وقيل: أراد بكتاب الله القرآن، يعني: القسمة التي بيّنها في سورة النساء، ﴿ **إنّ اللّهَ بكلِّ شيءٍ عليمٌ** ﴾.

تفسير سورة التوبة

وهي مدنية بإجماعهم قال ابن الجوزي: سوى آيتين في آخرها لقد جاءكم رسول من أنفسكم فإنهما نزلتا بمكة وهي مائة وتسع وعشرون آية وقيل مائة وثلاثون آية وأربعة آلاف وثمان وسبعون كلمة وعشرة آلاف وأربعة وثمانون حرفاً ولهذه السورة أسماء عشرة التوبة وسورة براءة وهذان الاسمان مشهوران وهي المقشقشة قاله ابن عمر سميت بذلك لأنها تقشقش من النفاق أي تبرىء منه وهي المبعثرة لأنها تبعثر عن أخبار المنافقين وتبحث عنها وتثيرها والفاضحة قاله ابن عباس لأنها فضحت المنافقين وسورة العذاب قاله حذيفة وهي المخزية لأن فيها خزي المنافقين وهي المدمدمة سميت بذلك لأن فيها هلاك المنافقين وهي المشردة سميت بذلك لأنها شردت جموع المنافقين وفرقتهم وهي المثيرة سميت بذلك لأنها أثارت مخازي المنافقين وكشفت عن أحوالهم وهتكت أستارهم.

عن سعيد بن جبير: قال قلت لابن عباس سورة التوبة فقال بل هي الفاضحة ما زالت تقول ومنهم ومنهم حتى ظنوا أن لا يبقى أحد إلا ذكر فيها قال قلت سورة الأنفال قال نزلت في بدر قال قلت سورة الحشر قال بل سورة بني النضير أخرجاه في الصحيحين.

(فصل في بيان سبب ترك كتابة التسمية في أول هذه السورة)

عن ابن عباس قال: قلت لعثمان ما حملكم على أن عمدتم إلى الأنفال وهي من المثاني وإلى براءة وهي من المئين فقرنتم بينهما ولم تكتبوا سطر بسم الله الرحمن الرحيم ووضعتموها في السبع الطوال ما حملكم على ذلك؟ قال عثمان: كان رسول الله ﷺ كثيراً ما يأتي عليه الزمان وهو ينزل عليه السور ذوات العدد وكان إذا نزل عليه شيء دعا بعض من كان يكتب فيقول ضعوا هؤلاء الآيات في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا وإذا نزلت عليه الآية يقول ضعوا هذه الآية في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا وكانت الأنفال من أوائل ما نزل بالمدينة وكانت براءة من آخر القرآن نزولاً وكانت قصتها شبيهة بقصتها وظننت أنها منها وقبض رسول الله ﷺ ولم يبين لنا أنها منها أو من غيرها من أجل ذلك قرنت بينهما ولم أكتب بسم الله الرحمن الرحيم ووضعتها في السبع الطوال أخرجه أبو داود والترمذي، وقال حديث حسن. قال الزجاج: والشبه الذي بينهما في الأنفال ذكر العهود وفي براءة نقضها وكان قتادة يقول: هما سورة

سُوْرَةَ التوْبَـــة

قال مقاتل: هذه السورة مدنية كلها إلاّ آيتين من آخر السورة. قال سعيد بن جبير: قلتُ لابن عباس سورة التوبة؟ قال: هي الفاضحة ما زالت تنزل فيهم حتى ظنوا أنها لم تبقِ أحداً منهم إلا ذكر فيها، قال: قلتُ: سورة الأنفال؟ قال: تلك سورة بـدر، قال: قلتُ: سورة الحشر؟ قال: قل: سورة بني النضير. أخبرنا أبو سعيد أحمد بن إبراهيم الشريحي أنا أبو إسحق أحمد بن محمد إبراهيم الثعلبي أنبأنا أبو الحسين علي بن محمد بن الحسين الجرجاني أنبأنا أبو أحمد عبد الله بن عدي الحافظ أنبأنا أحمد بن علي بن المثنى ثنا عبيد الله القواريري ثنا يزيد بن

واحدة وقال محمد بن الحنفية: قلت لأبي يعني علي بن أبي طالب لم لم تكتبوا في براءة بسم الله الرحمن الرحيم قال يا بني إن براءة نزلت بالسيف وأن بسم الله الرحمن أمان وسئل سفيان بن عيينة عن هذا فقال لأن التسمية رحمة والرحمة أمان وهذه السورة نزلت في المنافقين وقال المبرد لم تفتتح هذه السورة الشريفة ببسم الله الرحمن الرحيم لأن التسمية افتتاح للخير وأول هذه السورة وعيد ونقض عهود فلذلك لم تفتتح بالتسمية وسئل أبي بن كعب عن هذا فقال إنها نزلت في آخر القرآن وكان رسول الله ﷺ يأمر في كل سورة بكتابة بسم الله الرحمن الرحيم ولم يأمر في براءة بذلك فضمت إلى الأنفال لشبهها بها وقيل إن الصحابة اختلفوا في أن سورة الأنفال وسورة براءة هل هما سورة واحدة أم سورتان فقال بعضهم سورة واحدة لأنهما نزلتا في القتال ومجموعها معاً مائتان وخمس آيات فكانت هي السورة السابعة من السبع الطوال وقال بعضهم هما سورتان فلما حصل هذا الاختلاف بين الصحابة تركوا بينهما فرجة تنبيهاً على قول من يقول إنهما سورتان ولم يكتبوا بسم الله الرحمن الرحيم تنبيهاً على قول من يقول هما سورة واحدة أما التفسير فقوله تعالى:

﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١ فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٢﴾

﴿**براءة من الله ورسوله**﴾ يعني هذه براءة من الله ورسوله وأصل البراءة في اللغة انقطاع العصمة يقال برئت من فلان أبرأ براءة أي انقطعت بيننا العصمة ولم يبق بيننا علقة وقيل معناها التباعد مما تكره مجاورته قال المفسرون لما خرج رسول الله ﷺ إلى تبوك كان المنافقون يرجفون الأراجيف وجعل المشركون ينقضون عهوداً كانت بينهم وبين رسول الله ﷺ فأمر الله عز وجل بنقض عهودهم وذلك قوله سبحانه وتعالى: ﴿وإما تخافن من قوم خيانة﴾ الآية ففعل رسول الله ﷺ ما أمر به ونبذ إليهم عهودهم قال الزجاج: أي قد برىء الله ورسوله من إعطائهم العهود والوفاء بها إذا نكثوا ﴿**إلى الذين عاهدتم من المشركين**﴾ الخطاب مع أصحاب النبي ﷺ وإن كان النبي ﷺ هو الذي عاهدهم وعاقدهم إلا أنه هو الذي عاقدهم وأصحابه بذلك راضون فكأنهم هم عقدوا وعاهدوا.

قوله سبحانه وتعالى: ﴿**فسيحوا في الأرض**﴾ أي فسيروا في الأرض مقبلين ومدبرين آمنين غير خائفين أحداً من المشركين وأصل السياحة الضرب من الأرض والاتساع فيها والبعد عن مواضع العمارة قال ابن الأنباري: قوله فسيحوا

زريع ثنا عوف بن أبي جميلة الأعرابي حدّثني يزيد الفارسي حدّثني ابن عباس رضي الله عنهما قال: قلت لعثمان بن عفّان رضي الله عنه: ما حملكم على أن عمدتم إلى الأنفال وهي من المثاني وإلى براءة وهي من المئين فقرنتم بينهما ولم تكتبوا بينهما بسم الله الرحمن الرحيم ووضعتموها في السبع الطوال؟ فقال عثمان: إن رسول الله ﷺ كان مما يأتي عليه الزمان وهو ينزل عليه السور ذوات العدد فإذا نزل عليه الشيء يدعو بعض مَن يكتب عنده فيقول: «ضعوا هذه الآية في السورة التي يُذكر فيها كذا وكذا بالمدنية»، وكانت براءة من آخر ما نزل، وكانت قصتها شبيهة بقصتها وقبض رسول الله ﷺ ولم يبيّن لنا أنها منها فمن ثَمّ قرنتُ بينهما ولم أكتب بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم، ووضعتُها في السبع الطوال.

قوله تعالى: ﴿ **براءةٌ منَ اللَّهِ ورسولِهِ** ﴾، أي: هذه براءة من الله. وهي مصدر كالنشاة والدناءة. قال المفسّرون: لمّا خرج رسول الله ﷺ إلى تبوك كان المنافقون يرجفون الأراجيف وجعل المشركون ينقضون عهوداً كانت بينهم وبين رسول الله ﷺ، فأمر الله عزّ وجلّ بنقض عهودهم، وذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿ وإمّا تخافنّ من قومٍ خيانةً ﴾ [الأنفال: ٥٨] الآية. قال الزجّاج: براءة أي: قد برىء اللَّهُ ورسولُهُ من إعطائهم العهود والوفاء لهم بها إذا

فيه مضمر أي قل لهم فسيحوا وليس هذا من باب الأمر بل المقصود منه الإباحة والإطلاق والإعلام بحصول الأمان وزوال الخوف يعني سيحوا في الأرض وأنتم آمنون من القتل والقتال ﴿أربعة أشهر﴾ يعني مدة أربعة أشهر واختلف العلماء في هذا التأجيل وفي هؤلاء الذين برىء الله ورسوله إليهم من العهود التي كانت بينهم وبين رسول الله ﷺ فقال مجاهد: هذا التأجيل من الله للمشركين فمن كانت مدة عهده أقل من أربعة أشهر رفعه إلى أربعة أشهر ومن كانت مدته أكثر حطه إلى أربعة أشهر ومن كان عهده بغير أجل معلوم محدود حده بأربعة أشهر ثم هو بعد ذلك حرب لله ولرسوله يقتل حيث أدرك ويؤسر إلا أن يتوب ويرجع إلى الإيمان، وقيل: إن المقصود من هذا التأجيل أن يتفكروا ويحتاطوا لأنفسهم ويعلموا أنه ليس لهم بعد هذه المدة إلا الإسلام أو القتل فيصير هذا داعياً لهم إلى الدخول في الإسلام ولئلا ينسب المسلمون إلى الغدر ونكث العهد وكان ابتداء هذا الأجل يوم الحج الأكبر وانقضاؤه إلى عشر من ربيع الآخر.

فأما من لم يكن له عهد فإنما أجله انسلاخ الأشهر الحرم وذلك خمسون يوماً قال الزهري الأشهر الأربعة شوال وذو القعدة وذو الحجة والمحرم لأن هذه الآية نزلت في شوال والقول الأول أصوب وعليه الأكثرون. وقال الكلبي: إنما كانت الأربعة أشهر عهداً لمن كان له عهد دون الأربعة أشهر فأتم له الأربعة أشهر.

فأما من كان عهده أكثر من أربعة أشهر فهذا أمر بإتمام عهده بقوله تعالى: ﴿فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم﴾ وقيل كان ابتداؤها في العاشر من ذي القعدة وآخرها العاشر من ربيع الأول لأن الحج في تلك السنة كان في العاشر من ذي القعدة بسبب النسيء ثم صار في السنة المقبلة في العاشر من ذي الحجة وفيها حج رسول الله ﷺ وقال «إن الزمان قد استدار» الحديث قال الحسن: أمر الله عز وجل رسول الله ﷺ بقتال من قاتله من المشركين فقال تعالى: ﴿قاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم﴾ فكان لا يقاتل إلا من قاتله ثم أمره بقتال المشركين والبراءة منهم وأجلهم أربعة أشهر فلم يكن لأحد منهم أجل أكثر من أربعة أشهر لا من كان له عهد قبل البراءة ولا من لم يكن له عهد وكان الأجل لجميعهم

نكثوا، **﴿ إلى الذينَ عاهدتُّم مِّن المشركين ﴾**، الخطاب مع أصحاب النبي ﷺ وإن كان النبي ﷺ هو الذي عاهدهم وعاقدهم، لأنه وأصحابه راضون بذلك، فكأنهم عاقدوا وعاهدوا.

﴿ فسيحوا في الأرض ﴾، رجع من الخبر إلى الخطاب، أي: قلْ لهم سيحوا أي سيروا في الأرض مقبلين ومدبرين آمنين غير خائفين أحداً من المسلمين، **﴿ أربعة أشهر واعْلموا أنّكم غير مُعجزي الله ﴾**، أي: غير فائتين ولا سابقين، **﴿ وأنّ اللّهَ مُخزي الكافرين ﴾**، أي: مذلّهم بالقتل في الدنيا والعذاب في الآخرة. واختلف العلماء في هذا التأجيل وفي هؤلاء الذي برىء الله ورسوله إليهم من العهود التي كانت بينهم وبين رسول الله ﷺ. فقال جماعة: هذا تأجيل من الله تعالى للمشركين، فمَن كانت مدّةُ عهده أقلَّ من أربعة أشهر رفعه إلى أربعة أشهر، ومَن كانت مدته أكثر من أربعة أشهر حطّه إلى أربعة أشهر، ومَن كانت مدة عهده بغير أجل محدود حدّه بأربعة أشهر، ثم هو حرب بعد ذلك لله ورسوله، فيُقتل حيث يُدرك ويؤثر، إلاّ أن يتوب، وابتداء هذا الأجل يوم الحج الأكبر وانقضاؤه إلى عشر من شهر ربيع الآخر، فأما مَن لم يكن له عهد فإنما أجله انسلاخ الأشهر الحُرُم، وذلك خمسون يوماً. وقال الزهري: الأشهر الأربعة شوّال وذو القعدة وذو الحجة والمحرّم، لأن هذه الآية نزلت في شوّال، والأول هو الأصوب وعليه الأكثرون، وقال الكلبي: إنما كانت الأربعة الأشهر لمَن كان له عهد دون أربعة أشهر فأتمّ له أربعة أشهر، فأمّا مَن كان له عهداً أكثر من أربعة أشهر فهذا أمر بإتمام عهده بقوله تعالى: **﴿ فأتِمُّوا إليهم عهدَهم إلى مُدّتِهم ﴾** [التوبة: ٤]. قال الحسن: أمر الله عزّ وجلّ رسولَه ﷺ بقتال مَن قاتله من المشركين، فقال: **﴿ قاتلوا في سبيل الله الذين يُقاتلونَكم ﴾** [البقرة: ١٩٠]، فكان لا يقاتل إلاّ مَن قاتله ثم أمره بقتال المشركين، والبراءة منهم، وأجلهم أربعة أشهر، فلم يكن لأحد منهم أجل أكثر من أربعة أشهر لا مَن كان له عهد قبل البرء ولا مَن لم يكن له عَهد،

أربعة أشهر وأحل دماء جميعهم من أهل العهود وغيرهم بعد انقضاء الأجل وقال محمد بن إسحاق ومجاهد وغيرهما: نزلت في أهل مكة وذلك أن رسول الله ﷺ عاهد قريشاً عام الحديبية على أن يضعوا الحرب عشر سنين يأمن فيها الناس ودخلت خزاعة في عهد رسول الله ﷺ ودخل بنو بكر في عهد قريش ثم عدت بنو بكر على خزاعة فنالت منهم وأعانتهم قريش بالسلاح فلما تظاهر بنو بكر وقريش على خزاعة ونقضوا عهدهم خرج عمرو بن سالم الخزاعي حتى وقف على رسول الله ﷺ وقال:

لا هـم إنـي نـاشـد محمـداً ... حلـف أبينـا وأبيـه الأتلـدا
كنـت لنـا أبـاً وكنـا ولـدا ... ثمـت أسلمنـا ولـم ننـزع يـدا
فـانصـر هـداك الله نصـراً أبـدا ... وادع عبـاد الله يـأتـوا مـددا
فيهـم رسـول الله قـد تجـردا ... فـي فليـق كـالبحـر يجـري مـزبـدا
أبيـض مثـل الشمـس يسمـو صعـدا ... إن سيـم خسفـا وجهـه تـربـدا
إن قـريشـاً أخلفـوك المـوعـدا ... ونقضـوا ميثـاقـك المـؤكـدا
وزعمـوا أن لسـت تنجـي أحـداً ... وهـم أذل وأقـل عـددا
هـم بيتـونـا بـالحطيـم هجـدا ... وقتلـونـا ركعـاً وسجـدا

فقال رسول الله ﷺ: لانصرت إن لم أنصركم. وتجهز إلى مكة ففتحها سنة ثمان من الهجرة فلما كانت سنة تسع أراد رسول الله ﷺ أن يحج فقيل له المشركون يحضرون ويطوفون بالبيت عراة فقال: لا أحب أن أحج حتى لا يكون ذلك فبعث أبا بكر في تلك السنة أميراً على الموسم ليقيم للناس الحج وبعث معه أربعين آية من سورة براءة ليقرأها

فكان الأجل لجميعهم أربعة أشهر. وأحلّ دماء جميعهم من أهل العهد وغيرهم بعد انقضاء الأجل. وقيل: نزلت هذه قبل تبوك. قال محمد بن إسحاق ومجاهد وغيرهما: نزلت في أهل مكة وذلك أن رسول الله ﷺ عاهد قريشاً عام الحديبية على أن يضعوا الحرب عشر سنين يأمن فيها الناس، ودخلت خزاعة في عهد رسول الله ﷺ، ودخل بنو بكر في عهد قريش ثم عَدَتْ بنو بكر على خزاعة فنالت منها وأعانتهم قريش بالسلاح، فلما تظاهر بنو بكر وقريش على خزاعة ونقضوا عهدهم خرج عمرو بن سالم الخزاعي حتى وقف على رسول الله ﷺ وقال:

لا هـمّ إنّي نـاشـدٌ مـحـمـداً ... حـلفَ أبـيـنـا وأبـيـه الأتـلدا
فـانصرْ هـداك الله نصراً أبـداً ... وادعُ عـبـادَ الله يـأتـوا مـدداً
أبيض مثل الشمس يسمو صعداً ... إن سيم خسفـاً وجهـهُ تـربّـدا
هم بيّتـونـا بـالهـجيـر هـجّـدا ... وقـتـلونـا ركّـعـاً وسـجّـدا
كـنـت لـنـا أبـاً وكـنّـا ولـداً ... ثـمت أسلمنـا ولـم ننـزع يـدا
فـيـهـم رسـولُ الله قـدْ تـجـرّدا ... في فَليقٍ كـالبحر يجري مُزْبِدا
إن قـريشـاً أخلفـوك المـوعـدا ... ونـقـضـوا مـيـثـاقـك المـؤكـدا
وزعمـوا أن لستَ تنجي أحـداً ... وهـم أذلّ وأقـلّ عـدداً

فقال رسول الله ﷺ: «لا نصرتُ إنْ لم أنصركم»، وتجهّز إلى مكة سنة ثمانٍ من الهجرة، فلما كان سنة تسع أراد رسول الله ﷺ أن يحجّ ثم قال: «إنه يحضر المشركون فيطوفون عراة» فبعث أبا بكر تلك السنة أميراً على الموسم ليقيم للناس الحج، وبعث معه أربعين آية من صدر براءة ليقرأها على أهل الموسم، ثم بعث بعده عليّاً كرّم

على أهل الموسم ثم بعث بعده علياً على ناقته العضباء ليقرأ على الناس صدر براءة وأمره أن يؤذن بمكة ومنى وعرفة أن قد برئت ذمة الله ورسوله ﷺ من كل مشرك ولا يطوف بالبيت عريان فرجع أبو بكر فقال: يا رسول الله بأبي أنت وأمي أنزل في شأني شيء فقال: لا ولكن لا ينبغي لأحد أن يبلغ هذا إلا رجل من أهلي أما ترضى يا أبا بكر أنك كنت معي في الغار وأنك معي على الحوض؟ قال: بلى يا رسول الله فسار أبو بكر أميراً على الحجاج وعلي بن أبي طالب يؤذن ببراءة فلما كان قبل التروية بيوم قام أبو بكر فخطب الناس وحدثهم عن مناسكهم فأقام للناس الحج والعرب في تلك السنة على منازلهم التي كانوا عليها في الجاهلية من أمر الحج حتى إذا كان يوم النحر قام علي بن أبي طالب رضي الله عنه فأذن في الناس بالذي أمر به وقرأ عليهم أول سورة براءة وقال يزيد بن تبيع سألنا علياً بأي شيء بعثت في الحجة قال بعثت بأربع لا يطوف بالبيت عريان ومن كان بينه وبين النبي ﷺ عهد فهو إلى مدته ومن يكون له عهده فأجله أربعة أشهر ولا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة ولا يجتمع المشركون والمسلمون بعد عامهم هذا في حج ثم حج النبي ﷺ سنة عشر حجة الوداع (ق). عن أبي هريرة أن أبا بكر بعثه في الحجة التي أمره رسول الله ﷺ عليها قبل حجة الوداع في رهط يؤذن في الناس يوم النحر أن لا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان وفي رواية ثم أردف النبي ﷺ بعلي بن أبي طالب فأمره أن يؤذن ببراءة قال أبو هريرة فأذن معنا في أهل منى ببراءة أن لا يحج بالبيت بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان وفي رواية ويوم الحج الأكبر يوم النحر والحج الأكبر الحج وإنما قيل الحج الأكبر من أجل قول الناس للعمرة الحج الأصغر قال فنبذ أبو بكر إلى الناس في ذلك فلم يحج في العام القابل الذي حج فيه حج فيه النبي ﷺ حجة الوداع مشرك وأنزل الله في العام الذي نبذ فيه أبو بكر إلى المشركين **﴿يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله﴾** الآية.

(فصل)

قد يتوهم متوهم أن في بعث علي بن أبي طالب بقراءة أول براءة عزل أبي بكر عن الإمارة وتفضيله على أبي بكر وذلك جهل من هذا المتوهم ويدل على أن أبا بكر لم يزل أميراً على الموسم في تلك السنة أول حديث أبي هريرة المتقدم أن أبا بكر بعثه في رهط يؤذنون في الناس الحديث وفي لفظ أبو داود والنسائي قال بعثني أبو بكر فيمن يؤذن في يوم النحر بمنى أن لا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان فقوله بعثني أبو بكر فيه دليل على أن أبا بكر كان هو الأمير على الناس وهو الذي أقام للناس حجهم وعلمهم مناسكهم وأجاب العلماء عن بعث رسول الله ﷺ علياً

الله وجهه على ناقته العضباء ليقرأ على الناس صدر براءة، وأمره أن يُؤَذِّن بمكة ومنى وعَرَفَة أن قد برئت ذمّة الله وذمّة رسوله ﷺ من كل مشرك لا يطوف بالبيت عريان، فرجع أبو بكر فقال: يا رسول الله بأبي أنت وأمي أنزل في شأني شيء؟ قال: «لا ولكن لا ينبغي لأحد أن يبلغ هذا إلّا رجل من أهلي أمَا ترضى يا أبا بكر أنك كنت معي في الغار وأنك صاحبي على الحوض»؟ قال: بلى يا رسول الله، فسار أبو بكر رضي الله عنه أميراً على الحج وعليّ رضي الله عنه ليُؤَذِّن ببراءة، فلما كان قبل يوم التروية بيومٍ خطب أبو بكر الناس وحدّثهم عن مناسكهم، وأقام للناس الحج والعرب في تلك السنة على منازلهم التي كانوا عليها في الجاهلية من الحج، حتى إذا كان يوم النحر قام عليّ بن أبي طالب كرّم الله وجهه فأذّن في الناس بالذي أمر به وقرأ عليهم سورة براءة، وقال زيد بن تبيع: سألنا علياً بأيّ شيء بعثت في تلك الحجّة؟ قال: بُعثتُ بأربع لا يطوف بالبيت عريان ومَن كان بينه وبين النبي ﷺ عهد فهو إلى مدته، ومَن لم يكن له مدة فأجله أربعة أشهر، ولا يدخل الجنة إلّا نفس مؤمنة، ولا يجتمع المشركون والمسلمون بعد عامهم هذا. ثم حجّ النبي ﷺ سنة عشر حجّة الوداع. فإن قال قائل: كيف بعث رسول الله ﷺ أبا بكر رضي الله عنه ثم عزله وبعث علياً رضي الله عنه؟ قلنا: ذكر العلماء أن رسول الله ﷺ لم يعزل أبا بكر رضي الله عنه، وكان

ليؤذن في الناس ببراءة بأن عادة العرب جرت أن لا يتولى تقرير العهد ونقضه إلا سيد القبيلة وكبيرها أو رجل من أقاربه وكان علي بن أبي طالب أقرب إلى النبي ﷺ من أبي بكر لأنه ابن عمه ومن رهطه فبعثه النبي ﷺ ليؤذن عنه ببراءة إزاحة لهذه العلة لئلا يقولوا هذا على خلاف ما نعرفه من عادتنا في عقد العهود ونقضها وقيل لما خص أبا بكر بتوليته على الموسم خص علياً بتبليغ هذه الرسالة تطييباً لقلبه ورعاية لجانبه وقيل إنما بعث علياً في هذه الرسالة حتى يصلي خلف أبي بكر ويكون جارياً مجرى التنبيه على إمامة أبي بكر بعد رسول الله ﷺ لأن النبي ﷺ بعث أبا بكر أميراً على الحجاج وولاه الموسم وبعث علياً خلفه ليقرأ على الناس براءة فكان أبو بكر الإمام وعلي المؤتم وكان أبو بكر الخطيب وعلي المستمع وكان أبو بكر المتولي أمر الموسم والأمير على الناس ولم يكن ذلك لعلي فدل ذلك على تقديم أبي بكر على علي وفضله عليه والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿واعلموا أنكم غير معجزي الله﴾ يعني أن هذا الإمهال ليس لعجز عنكم ولكن لمصلحة ولطف بكم ليتوب تائب وقيل: معناه فسيحوا في الأرض أربعة أشهر عالمين أنكم لا تعجزون الله بل هو يعجزكم ويأخذكم لأنكم في ملكه وقبضته وتحت قهره وسلطانه وقيل معناه إنما أمهلكم هذه المدة لأنه لا يخاف الفوت ولا يعجزه شيء ﴿وأن الله مخزي الكافرين﴾ يعني بالقتل والعذاب في الآخرة.

﴿وَأَذَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿وأذان من الله ورسوله﴾ الأذان في اللغة الإعلام ومنه الأذان للصلاة لأنه إعلام بدخول وقتها والمعنى وإعلام صادر من الله ورسوله واصل ﴿إلى الناس يوم الحج الأكبر﴾ اختلفوا في يوم الحج الأكبر فروى عكرمة عن ابن عباس أنه يوم عرفة ويروى ذلك عن ابن عمر وابن الزبير وهو قول عطاء وطاوس ومجاهد وسعيد بن المسيب وعن علي بن أبي طالب قال: سألت رسول الله ﷺ عن يوم الحج الأكبر فقال: يوم النحر أخرجه الترمذي وقال ويروى موقوفاً عليه وهو أصح وعن عمر أن رسول الله ﷺ وقف يوم النحر بين الجمرات في الحجة التي حج فيها فقال: أي يوم هذا، فقالوا يوم النحر فقال: هذا يوم الحج الأكبر أخرجه أبو داود ويروى ذلك عن عبد الله بن أبي أوفى والمغيرة بن شعبة وهو قول الشعبي والنخعي وسعيد بن جبير والسدي.

أميراً وإنما بعث علياً رضي الله عنه لينادي بهذه الآيات، وكان السبب فيه أن العرب تعارفوا فيما بينهم في عقد العهود ونقضها أن لا يتولى ذلك إلّا سيدهم أو رجل من رهطه، فبعث علياً رضي الله عنه إزاحة للعلّة لئلا يقولوا هذا خلاف ما نعرفه فينا في نقض العهد، والدليل على أن أبا بكر رضي الله عنه كان هو الأمير ما أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي ثنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا إسحاق ثنا يعقوب بن إبراهيم ثنا ابن أخي ابن شهاب عن عمّه أخبرني حميد بن عبد الرحمن أن أبا هريرة قال: بعثني أبو بكر رضي الله عنه في تلك الحجة في مؤذّنين يوم النحر نؤذّن بمنى ألّا لا يحجّ بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان. قال حميد بن عبد الرحمن: ثم أردف رسول الله ﷺ علياً فأمره أن يؤذّن ببراءة قال أبو هريرة: فأذّن معنا على أهل منى يوم النحر ألّا لا يحجّ بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان.

﴿ وأذانٌ ﴾ عطف على قوله: ﴿ براءة ﴾ أي: إعلام. ومنه الأذان بالصلاة، يقال: أذنته فأذن أي أعلمته. وأصله من الأذن أي أوقعته في أُذنه، ﴿ مِنَ اللَّهِ ورسولهِ إلى النّاسِ يومَ الحجِ الأكبر ﴾، اختلفوا في يوم الحج الأكبر، روى عكرمة عن ابن عباس: أنه يوم عَرَفَة. ورُوِيَ ذلك عن عمر بن الخطاب وابن الزبير. وهو قول عطاء

وروى ابن جريج عن مجاهد أن يوم الحج الأكبر أيام منى كلها وكان سفيان الثوري يقول الحج الأكبر أيام منى كلها لأن اليوم قد يطلق ويراد به الحين والزمان كقولك يوم صفين ويوم الجمل لأن الحروب دامت في تلك الأيام ويطلق عليها يوم واحد وقال عبد الله بن الحرث بن نوفل: يوم الحج الأكبر الذي حج فيه رسول الله ﷺ وهو قول ابن سيرين لأنه اجتمع فيه حج المسلمين وعيد اليهود وعيد النصارى وعيد المشركين ولم يجتمع مثل ذلك قبله ولا بعده فعظم ذلك اليوم عند المؤمنين والكافرين. قال مجاهد: الحج الأكبر القرآن لأنه قرن بين الحج والعمرة، وقال الزهري والشعبي وعطاء: الحج الأكبر الحج والحج الأصغر العمرة وإنما قيل لها الأصغر لنقصان أعمالها عن الحج وقيل: سمي الحج الأكبر لموافقة حجة رسول الله ﷺ حجة الوداع وكان ذلك اليوم يوم الجمعة فودع الناس فيه وخطبهم وعلمهم مناسكهم وذكر في خطبته أن الزمان قد استدار وأبطل النسيء وجميع أحكام الجاهلية.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿**أن الله بريء من المشركين ورسوله**﴾ فيه حذف والتقدير وأذان من الله ورسوله بأن الله بريء من المشركين وإنما حذفت الباء لدلالة الكلام عليها وفي رفع رسوله وجوه الأول أنه رفع بالابتداء وخبره مضمر والتقدير أن الله بريء من المشركين ورسوله أيضاً بريء الثاني تقديره بريء الله ورسوله من المشركين الثالث إن الله في محل الرفع بالابتداء وبريء خبره ورسوله عطف على المبتدأ.

فإن قلت: لا فرق بين قوله براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتهم من المشركين وبين قوله إن الله بريء من المشركين ورسوله فما فائدة هذا التكرار قلت المقصود من الآية الأولى البراءة من العهد ومن الآية الثانية البراءة التي هي تفيض الموالاة الجارية مجرى الزجر والوعيد والذي يدل على صحة هذا الفرق أنه قال في أولها براءة من الله ورسوله إلى يعني بريء إليهم وفي الثانية بريء منهم وقوله تعالى: ﴿**فإن تبتم**﴾ يعني فإن رجعتم عن شرككم وكفركم ﴿**فهو خير لكم**﴾ يعني من الإقامة على الشرك وهذا ترغيب من الله في التوبة والإقلاع عن الشكر الموجب لدخول النار ﴿**وإن توليتم**﴾ يعني أعرضتم عن الإيمان والتوبة من الشرك ﴿**فاعلموا أنكم غير معجزي الله**﴾ فيه وعيد عظيم وإعلام لهم بأن الله سبحانه وتعالى قادر على إنزال العذاب بهم وهو قوله تعالى: ﴿**وبشر الذين كفروا بعذاب أليم**﴾ يعني في الآخرة ولفظ البشارة هنا إنما ورد على سبيل الاستهزاء. كما يقال: تحيتهم الضرب وإكرامهم الشتم قوله سبحانه وتعالى:

وطاوس ومجاهد وسعيد بن المسيب. وقال جماعة: هو يوم النحر. رُوِيَ عن يحيى بن الجزار قال: خرج عليّ رضي الله عنه يوم النحر على بغلة بيضاء يريد الجبّانة فجاءه رجل وأخذ بلجام دابّته وسأله عن يوم الحجّ الأكبر، فقال: يومك هذا حلّ سبيلها. ويُروى ذلك عن عبد الله بن أبي أوفى والمغيرة بن شعبة. وهو قول الشعبي والنخعي وسعيد بن جبير والسدي. وروى ابن جريج عن مجاهد: يوم الحج الأكبر حين الحج أيام منى كلها. وكان سفيان الثّوري يقول: يوم الحج الأكبر أيامُ منى كلها، مثل يوم صفّين ويوم الجمل ويوم بُعاث يُراد به الحين والزمان، لأن هذه الحروب دامت أياماً كثيرةً. وقال عبد الله بن الحارث بن نوفل: يوم الحج الأكبر الذي حجّ فيه رسول الله ﷺ. وهو قول ابن سيرين، لأنه اجتمع فيه حجّ المسلمين وعيد اليهود والنصارى والمشركين، ولم يجتمع قبله ولا بعده، واختلفوا في الحج الأكبر، فقال مجاهد: الحج الأكبر القِران، والحج الأصغر إفراد الحج. وقال الزهري والشعبي وعطاء: الحج الأكبر الحج، والحج الأصغر العمرة. قيل لها الأصغر لنقصان أعمالها. قوله تعالى: ﴿ **أنّ اللَّهَ بريءٌ مِّنَ المشركين ورسولُهُ** ﴾، أي ورسوله أيضاً بريء من المشركين. وقرأ يعقوب بنصب اللام أي: إنّ اللَّهَ ورسولَه بريءٌ، ﴿ **فإنْ تُبْتُم** ﴾، رجعتم من كفركم وأخلصتم التوحيد، ﴿ **فهو خير لكم وإنْ توليتم** ﴾، أعرضتم عن الإيمان، ﴿ **فاعلموا أنّكم غيرَ مُعجِزي اللَّهِ وبشّر الذينَ كفروا بعذابٍ أليم** ﴾.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ثُمَّ لَمۡ يَنقُصُوكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَمۡ يُظَٰهِرُواْ عَلَيۡكُمۡ أَحَدٗا فَأَتِمُّوٓاْ إِلَيۡهِمۡ عَهۡدَهُمۡ إِلَىٰ مُدَّتِهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ ٤ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلۡأَشۡهُرُ ٱلۡحُرُمُ فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ وَخُذُوهُمۡ وَٱحۡصُرُوهُمۡ وَٱقۡعُدُواْ لَهُمۡ كُلَّ مَرۡصَدٖۚ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٥﴾

﴿**إلا الذين عاهدتم من المشركين**﴾ هذا الاستثناء راجع إلى قوله تعالى براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين يعني إلا من عهد الذين عاهدتم من المشركين وهم بنو ضمرة حي من كنانة أمر الله رسوله ﷺ بإتمام عهدهم إلى مدتهم وكان قد بقي من مدتهم تسعة أشهر وكان السبب فيه أنهم لم ينقضوا العهد وهو قوله تعالى: ﴿**ثم لم ينقصوكم شيئاً**﴾ يعني من عهودهم التي عاهدتموهم عليها ﴿**ولم يظاهروا**﴾ يعني ولم يعاونوا ﴿**عليكم أحداً**﴾ يعني من عدوكم وقال صاحب الكشاف: وجهه أن يكون مستثنى قوله فسيحوا في الأرض لأن الكلام خطاب للمسلمين ومعناه براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين فقولوا لهم: سيحوا في الأرض إلا الذين عاهدتم منهم ثم لم ينقصوكم ﴿**فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم**﴾ والاستثناء بمعنى الاستدراك كأنه قيل لهم بعد أن أمروا في الناكثين لكن الذين لم ينكثوا فأتموا إليهم عهدهم ولا تجروهم مجراهم ولا تجعلوا الوفي كالغادر ﴿**إن الله يحب المتقين**﴾ يعني أن قضية التقوى تقتضي أن لا يسوى بين القبيلتين يعني الوافي بالعهد والناكث له والغادر فيه.

قوله سبحانه وتعالى: ﴿**فإذا انسلخ الأشهر الحرم**﴾ يعني فإذا انقضت الأشهر الحرم ومضت وهي رجب وذو القعدة وذو الحجة والمحرم. وقال مجاهد ومحمد بن إسحاق: هي شهور العهد سميت حرماً لحرمة نقض العهد فيها فمن كان له عهد فعهده أربعة أشهر ومن لا عهد له فأجله إلى انقضاء المحرم وذلك خمسون يوماً وقيل إنما قال لها حرم لأن الله سبحانه وتعالى حرم فيها على المؤمنين دماء المشركين والتعرض لهم.

فإن قلت: على هذا القول هذه المدة وهي الخمسون يوماً بعض الأشهر الحرم والله سبحانه وتعالى قال فإذا انسلخ الأشهر الحرم.

قلت: لما كان هذا القدر من الأشهر متصلاً بما مضى أطلق عليه اسم الجمع والمعنى فإذا مضت المدة المضروبة التي يكون معها انسلاخ الأشهر الحرم ﴿**فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم**﴾ يعني في الحل والحرم وهذا

﴿ **إلّا الذينَ عاهدْتُم منَ المشركين** ﴾، هذا استثناء من قوله: ﴿ **براءةٌ من اللهِ ورسولهِ إلى الذين عاهدتم من المشركين** ﴾ **إلّا مَن عهد الذين عاهدتم من المشركين**، وهم بنو ضمرة حيّ من كنانة، أمر الله تعالى رسوله ﷺ بإتمام عهدهم إلى مدتهم، وكان قد بقي من مدتهم تسعة أشهر، وكان السبب فيه أنهم لم ينقضوا العهد، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿ **ثمّ لم يَنْقُصُوكم شيئاً** ﴾، من عهدهم الذي عاهدتموهم عليه، ﴿ **ولم يُظاهِرُوا** ﴾. لم يعاونوا، ﴿ **عليكم أحداً** ﴾، من عدوّكم. وقرأ عطاء بن يسار: «لم ينقضوكم» بالضاد المعجمة من نقض العهد، ﴿ **فأتمُّوا إليهم عهدهم** ﴾، فأوفوا لهم بعهدهم، ﴿ **إلى مُدّتِهم** ﴾، إلى أجلهم الذي عاهدتموهم عليه، ﴿ **إنّ اللّهَ يُحبُّ المتّقين** ﴾.

قوله تعالى: ﴿ **فإذا انْسلخَ** ﴾، انقضى ومضى ﴿ **الأشهر الحُرُم** ﴾، قيل: هي الأشهر الأربعة رجب وذو القعدة وذو الحجة والمحرّم. وقال مجاهد وابن إسحاق: هي شهور العهد فمَن كان له عهد فعهده أربعة أشهر، ومَن لا عهد له فأجله إلى انقضاء المحرّم خمسون يوماً. وقيل لها حُرُمٌ لأن الله تعالى حرّم فيها على المؤمنين دماء

أمر إطلاق يعني اقتلوهم في أي وقت وأي مكان وجدتموهم ﴿وخذوهم﴾ يعني واسروهم ﴿واحصروهم﴾ أي واحبسوهم.

قال ابن عباس: يريد أن تحصنوا فاحصروهم وامنعوهم من الخروج. وقيل: امنعوهم من دخول مكة والتصرف في بلاد الإسلام ﴿واقعدوا لهم كل مرصد﴾ يعني على كل طريق والمرصد الوضع الذي يقعد فيه للعدو من رصدت الشيء أرصده إذا ترقبته والمعنى كونوا لهم رصداً حتى تأخذوهم من أي وجه توجهوا. وقيل: معناه اقعدوا لهم بطريق مكة حتى لا يدخلوها ﴿فإن تابوا﴾ يعني من الشرك ورجعوا إلى الإيمان ﴿وأقاموا الصلاة﴾ يعني وأتموا أركان الصلاة المفروضة ﴿وآتوا الزكاة﴾ الواجبة عليهم طيبة بها أنفسهم ﴿فخلوا سبيلهم﴾ يعني إلى الدخول إلى مكة والتصرف في بلادهم ﴿إن الله غفور﴾ يعني لمن تاب ورجع من الشرك إلى الإيمان ومن المعصية إلى الطاعة ﴿رحيم﴾ يعني بأوليائه وأهل طاعته، وقال الحسن بن الفضل: نسخت هذه الآية كل آية فيها ذكر الإعراض عن المشركين والصبر على أذى الأعداء.

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ۝٦ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ فَمَا ٱسْتَقَـٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ۝٧ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَـٰسِقُونَ ۝٨﴾

قوله تعالى: ﴿وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله﴾ يعني وإن استأمنك يا محمد أحد من المشركين الذين أمرتك بقتالهم وقتلهم بعد انسلاخ الأشهر الحرم ليسمع كلام الله الذي أنزل عليك وهو القرآن فأجره حتى يسمع كلام الله ويعرف ماله من الثواب إن آمن وما عليه من العقاب إن أصر على الكفر ﴿ثم أبلغه مأمنه﴾ يعني إن لم يسلم أبلغه إلى الموضع الذي يأمن فيه وهو دار قومه وإن قاتلك بعد ذلك وقدرت عليه فاقتله ﴿ذلك بأنهم

المشركين والتعرّض لهم. فإن قيل: هذا القدر بعض الأشهر الحُرُم والله تعالى يقول: ﴿ فإذا انسلخَ الأشهرُ الحُرم ﴾؟ قيل: لمّا كان هذا القدر متصلاً بما مضى أُطلق عليه اسم الجمع، ومعناه: مضت المدة المضروبة التي يكون معها انسلاخ الأشهر الحُرُم. قولـه: ﴿ فاقْتُلوا المشـركينَ حيثُ وجدْتُموهم ﴾، في الحلّ والحرم، ﴿ وخُذوهم ﴾، وأسروهم، ﴿ واحْصُروهم ﴾، أي: احبسوهم. قال ابن عباس رضي الله عنه: يريد إن تحصّنوا فاحصروهم، أي: امنعوهم من الخروج. وقيل: امنعوهم من الخروج. وقيل: امنعوهم من دخول مكة والتصرّف في بلاد الإسلام. ﴿ واقْعدُوا لهم كلَّ مرصد ﴾، أي: على كل طريق، والمرصد الموضع الذي يرقب فيه العدو من رصدت الشيء أرصده إذا ترقبته، يريد كونوا لهم رصداً لتأخذوهم من أيّ وجه توجهوا. وقيل: اقعدوا لهم بطريق مكة حتى لا يدخلوها، ﴿ فإنْ تابوا ﴾، من الشرك، ﴿ وأقاموا الصلاة، وآتَوُا الزكاةَ فخلّوا سبيلهم ﴾، يقول: دعوهم فليتصرفوا في أمصارهم ويدخلوا مكة، ﴿ إنّ اللّهَ غفورٌ ﴾، لمَن تاب، ﴿ رحيمٌ ﴾ به. وقال الحسين بن الفضل: هذه الآية نسخت كل آية في القرآن فيها ذكر الإعراض والصبر على أذى الأعداء.

قوله تعالى: ﴿ وإنْ أحدٌ مِّنَ المشركين استجارَكَ ﴾، أي: وإن استجارك أحد من المشركين الذين أمرتُك بقتالهم وقتلهم، أي: استأمنك بعد انسلاخ الأشهر الحُرُم ليسمع كلام الله. ﴿ فأجِرْهُ ﴾، فأعذه وآمنه، ﴿ حتى يسمع كلامَ اللّهِ ﴾، فيما له وعليه من الثواب والعقاب، ﴿ ثم أبْلِغْهُ مأمَنه ﴾، أي: إن لم يسلم أبلغه مأمنه، أي:

قوم لا يعلمون﴾ أي لا يعلمون دين الله وتوحيده فهم يحتاجون إلى سماع كلام الله عز وجل، قال الحسن: هذه الآية محكمة إلى يوم القيامة **﴿كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله﴾** هذا على وجه التعجيب ومعناه الجحد أي لا يكون لهم **عهد** عند الله ولا عند رسوله وهم يغدرون وينقضون العهد ثم استثنى فقال سبحانه وتعالى: **﴿إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام﴾** قال ابن عباس: هم قريش.

وقال قتادة: هم أهل مكة الذين عاهدهم رسول الله ﷺ يوم الحديبية وقال السدي محمد بن عباد ومحمد بن إسحاق هم بنو خزيمة وبنو مدلج وبنو الديل قبائل من بني بكر كانوا دخلوا في عهد قريش وعقدهم يوم الحديبية، وقال مجاهد: هم أهل العهد من خزاعة **﴿فما استقاموا لكم﴾** يعني على العهد **﴿فاستقيموا لهم﴾** يعني ما أقاموا على العهد ثم إنهم لم يستقيموا ونقضوا العهد وأعانوا بني بكر على خزاعة فضرب لهم رسول الله ﷺ بعد الفتح أربعة أشهر يختارون من أمرهم إما أن يسلموا وإما أن يلحقوا بأي بلاد شاؤوا فأسلموا بعد الأربعة الأشهر والصواب من ذلك قول من قال إنهم قبائل من بني بكر وهم خزيمة وبنو مدلج من ضمرة وبنو الديل وهم الذين كانوا قد دخلوا في عهد قريش يوم الحديبية ولم يكن نقض العهد إلا قريش وبنو الديل من بني بكر فأمر بإتمام العهد لمن لم ينقض وهم بنو ضمرة وإنما كان الصواب هذا القول لأن هذه الآيات نزلت بعد نقض قريش العهد وذلك قبل فتح مكة لأن بعد الفتح كيف يقول لشيء قد مضى فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم وإنما هم الذين قال الله عز وجل فيهم إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئاً كما نقصكم قريش ولم يظاهروا عليكم أحداً كما ظاهرت قريش بني بكر على خزاعة وهم حلفاء رسول الله ﷺ.

وقوله تعالى: **﴿إن الله يحب المتقين﴾** يعني أنه سبحانه وتعالى يحب الذين يوفون بالعهد إذا عاهدوا ويتقون نقضه **﴿كيف وإن يظهروا عليكم﴾** قبل هذا مردود على الآية الأولى تقديره كيف يكون لهم عهد وإن يظهروا عليكم **﴿لا يرقبوا فيكم إلاً ولا ذمة﴾** قال الأخفش معناه، كيف لا تقتلونهم وهم إن يظهروا عليكم أي يظهروا بكم ويغلبوكم

الموضع الذي يأمن فيه وهو دار قومه، فإن قاتلك بعد ذلك فقدرْتَ عليه فاقتله، **﴿ ذلك بأنهم قومٌ لا يعلمون ﴾**، أي: لا يعلمون دين الله وتوحيده فهم محتاجون إلى سماع كلام الله. قال الحسن: هذه الآية محكمة إلى يوم القيامة.

قوله تعالى: **﴿ كيفَ يكونُ للمشركين عهدٌ عندَ اللّهِ وعندَ رسولِهِ ﴾**، هذا على وجه التعجّب، ومعناه جحد، أي: لا يكون لهم عهد عند الله ولا عند رسوله وهم يغدرون وينقضون العهد، ثم استثنى فقال جلّ وعلا **﴿ إلاّ الذين عاهدتُّم عندَ المسجدِ الحرامِ ﴾**، قال ابن عباس: هم قريش. وقال قتادة: هم أهل مكة الذين عاهدهم رسول الله ﷺ يوم الحديبية. قال الله تعالى: **﴿ فما اسْتَقامُوا لكم ﴾**، أي: على العهد، **﴿ فاسْتَقِيمُوا لهم ﴾**، فلم يستقيموا ونقضوا العهد وأعانوا بني بكر على خزاعة، فضرب لهم رسول الله ﷺ بعد الفتح أربعة أشهر يختارون من أمرهم إمّا أن يسلموا وإمّا أن يلحقوا بأيّ بلاد شاؤوا، فأسلموا قبل الأربعة الأشهر. قال السدي والكلبي وابن إسحاق: هم قبائل من بكر بنو خزيمة وبنو مدلج وبنو ضمرة وبنو الديل، وهم الذين كانوا قد دخلوا في عهد قريش يوم الحديبية فلم يكن نقض العهد إلاّ قريش وبنو الديل من بني بكر، فأمر بإتمام العهد لمَن لم ينقض وهم بنو ضمرة. وهذا القول أقرب إلى الصواب لأن هذه الآيات نزلت بعد نقض قريش العهد وبعد فتح مكة، فكيف يقول لشيء قد مضى: **﴿ فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم ﴾** وإنما هم الذين قال عزّ وجلّ: **﴿ إلاّ الذين عاهدْتُم مّنَ المشركين ثمّ لمْ ينقصُوكم شيئاً ﴾** كما نقصكم قريش، ولم يظاهروا عليكم أحداً كما ظاهرت قريش بني بكر على خزاعة حلفاء رسول الله ﷺ. **﴿ إنّ الله يحبّ المتّقين ﴾**.

ويعلوا عليكم لا يرقبوا أي لا يحفظوا. وقيل: معناه لا ينتظروا. وقيل: معناه لا يراعوا فيّكم إلاَّ. قال ابن عباس: يعني قرابة. وقيل: رحماً وهذا معنى قول ابن عباس أيضاً. وقال قتادة: الإل الحلف. وقال السدي: هو العهد وكذلك الذمة وإنما كرر للتأكيد أو لاختلاف اللفظين: وقال أبو مجلز ومجاهد: الإل هو الله عز وجل ومنه قول أبي بكر الصديق رضي الله عنه لما سمع كلام مسيلمة الكذاب إن هذا الكلام لم يخرج من إل يعني من الله وعلى هذا القول يكون معنى الآية لا يرقبون الله فيكم ولا يحفظونه لا يراعونه ﴿ولا ذمة﴾ يعني ولا يحفظون عهداً ﴿يرضونكم بأفواههم وتأبى قلوبهم﴾ يعني يطيعونكم بألسنتهم بخلاف ما في قلوبهم ﴿وأكثرهم فاسقون﴾ فإن قلت إن الموصوفين بهذه الصفة كفار والكفر أخبث وأقبح من الفسق فكيف وصفهم بالفسق في معرض الذم وما الفائدة في قوله وأكثرهم فاسقون مع أن الكفار كلهم فاسقون.

قلت: قد يكون الكافر عدلاً في دينه وقد يكون فاسقاً خبيث الفسق في دينه فالمراد بوصفهم بكونهم فاسقين أنهم نقضوا العهد وبالغوا في العداوة فوصفهم بكونهم فاسقين مع كفرهم فيكون أبلغ في الذم وإنما قال أكثرهم ولم يقل كلهم فاسقون لأن منهم من وفى بالعهد ولم ينقضه وأكثرهم نقضوا العهد فلهذا قال سبحانه وتعالى وأكثرهم فاسقون.

﴿اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِ ۚ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿اشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً﴾ يعني استبدلوا بآيات القرآن والإيمان بها عرضاً قليلاً من متاع الدنيا وذلك أنهم نقضوا العهد الذي كان بينهم وبين رسول الله ﷺ بسبب أكلة أطعمهم إياها أبو سفيان بن حرب فذمهم الله

قوله تعالى: ﴿ كيفَ وإنْ يظهرُوا عليكم ﴾، هذا مردود على الآية الأولى تقديره: كيف يكون لهم عهد عند الله وإن يظهروا عليكم، ﴿ لا يَرْقُبُوا فيكم إلاّ ولا ذِمّةً ﴾، قال الأخفش كيف لا تقتلونهم وهم إن يظهروا عليكم، أي: يظفروا بكم، لا يرقُبُوا: لا يحفظوا. وقال الضحاك: لا ينتظروا. وقال قطرب: لا يراعوا فيكم إلاّ. قال ابن عباس والضحاك: قرابةً. وقال يمان: رحماً. وقال قتادة الإلُّ: الحِلْفُ. وقال السدي: هو العهد. وكذلك الذمة إلاّ أنه كرّر لاختلاف اللفظين. وقال أبو مجلز ومجاهد: الإل هو الله عزّ وجلّ. وقال عبيد بن عمير: يقرأ جبير إلّ بالتشديد، يعني: عبد الله وفي الخبر أن ناساً قَدِمُوا على أبي بكر من قوم مسيلمة الكذّاب، فاستقرأهم أبو بكر كتاب مسيلمة فقرأوا، فقال أبو بكر رضي الله عنه: إن هذا الكلام لم يخرج من إلّ، أي: من الله عزّ وجلّ. والدليل على هذا التأويل قراءة عكرمة «لا يرقبون في مؤمن إيـلاً» بالياء، يعني الله عزّ وجلّ. مثل جبرائيل وميكائيل. ولا ذمة أي: عهداً. ﴿ يُرضونكم بأفواهِهم ﴾، أي: يطيعونكم بألسنتهم خلاف ما في قلوبهم، ﴿ وتأبى قلوبُهم ﴾، الإيمان، ﴿ وأكثرُهم فاسقون ﴾، فـإن قيل: هـذا في المشركين وكلهم فـاسقون فكيف قـال: ﴿ وأكثرهم فاسقون ﴾؟ قيل: أراد بالفسق نقض العهد ههنا وكان في المشركين مَن وفى بعهده وأكثرهم نقضوا فلهذا قال: ﴿ وأكثرُهم فاسقون ﴾.

﴿ اشْتَرَوْا بآياتِ اللّهِ ثمناً قليلاً ﴾، وذلك أنهم نقضوا العهد الذي بينهم وبين رسول الله ﷺ بأكلةٍ أطعمهم إيّاها أبو سفيان. قال مجاهد: أطعم أبو سفيان حلفاءه، ﴿ فصدُّوا عَن سبيله ﴾، فمنعوا الناس من الدخول في دين

بذلك. قال مجاهد: أطعم أبو سفيان حلفاءه وترك حلفاء رسول الله ﷺ **﴿فصدوا عن سبيله﴾** يعني منعوا الناس عن الدخول في دين الله قال ابن عباس: وذلك أن أهل الطائف أمدوهم بالأموال ليقووهم على حرب رسول الله ﷺ **﴿إنهم ساء ما كانوا يعملون﴾** يعني من الشرك ونقضهم العهد ومنعهم الناس عن الدخول في دين الإسلام **﴿لا يرقبون في مؤمن إلاَّ ولا ذمة﴾** يعني أن هؤلاء المشركين لا يراعون في مؤمن عهداً ولا ذمة إذا قدروا عليه قتلوه فلا تبقوا أنتم عليهم كما لم يبقوا عليكم إذا ظهروا عليكم **﴿وأولئك هم المعتدون﴾** يعني في نقض العهد.

قوله عز وجل: **﴿فإن تابوا﴾** يعني فإن رجعوا عن الشرك إلى الإيمان وعن نقض العهد إلى الوفاء به **﴿وأقاموا الصلاة﴾** يعني المفروضة عليهم بجميع حدودها وأركانها **﴿وآتوا الزكاة﴾** يعني وبذلوا الزكاة المفروضة عليهم طيبة بها أنفسهم **﴿فإخوانكم في الدين﴾** يعني إذا فعلوا ذلك فهم إخوانكم في الدين لهم مالكم وعليهم ما عليكم **﴿ونفصل الآيات لقوم يعلمون﴾** يعني ونبين حجج أدلتنا ونوضح بيان آياتنا لمن يعلم ذلك ويفهمه. قال ابن عباس: حرمت هذه الآية دماء أهل القبلة وقال ابن مسعود: أمرتم بالصلاة والزكاة فمن لم يزكِّ فلا صلاة له. وقال ابن زيد: افترضت الصلاة والزكاة جميعاً لم يفرق بينهما وأبى أن يقبل الصلاة إلا بالزكاة. وقال: يرحم الله أبا بكر ما كان أفقهه يعني بذلك ما ذكره أبو بكر في حق منع الزكاة وهو قوله: والله لا أفرق بين شيئين جمع الله بينهما يعني الصلاة والزكاة (ق) يعني أبي هريرة قال لما توفي النبي ﷺ واستخلف أبو بكر وكفر من كفر من العرب قال عمر بن الخطاب لأبي بكر: كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فمن قال لا إله إلا الله فقد عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على الله عز وجل» فقال أبو بكر: والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة فإن الزكاة حق المال والله لو منعوني عناقاً كانوا يؤدونها. وفي رواية، عقالاً كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعها، فقال عمر: فوالله ما هو إلا أن رأيت أن الله شرح صدر أبي بكر للقتال فعرفت أنه الحق. عن أنس قال.

الله. وقال ابن عباس رضي الله عنه: إن أهل الطائف أمدّوهم بالأموال ليقوّوهم على حرب رسول الله ﷺ، **﴿ إنّهم ساء ﴾** بئس **﴿ ما كانوا يعملون ﴾**.

﴿ لا يَرْقُبُونَ في مُؤمنٍ إلاّ ولا ذِمّةً ﴾، يقول لا تبقوا عليهم أيها المؤمنون كما لا يبقون عليكم لو ظهروا، **﴿ وأولئك هُمُ المعتدون ﴾**، بنقض العهد.

﴿ فإنْ تابُوا ﴾، من الشرك، **﴿ وأقامُوا الصلاةَ وآتُوا الزكاةَ فإخوانُكم ﴾**، فهم إخوانكم، **﴿ في الدِّين ﴾**، لهم ما لكم وعليهم ما عليكم، **﴿ ونفصّلُ الآياتِ ﴾**، نبيّن الآيات **﴿ لقوم يعلمون ﴾**، قال ابن عباس: حرّمت هذه الآية دماء أهل القِبلة. قال ابن مسعود: أُمرتم بالصلاة والزكاة فمَن لم يزكِّ فلا صلاة له. أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا أبو اليمان الحكم بن نافع ثنا شعيب بن أبي حمزة عن الزهري ثنا عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود أن أبا هريرة رضي الله عنه قال: لمّا توفي رسول الله ﷺ واستخلف أبو بكر رضي الله عنه بعده، وكفر مَن كفر من العرب قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لأبي بكر: كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله ﷺ: «أُمرت أنْ أُقاتلَ النّاسَ حتى يقولوا لا إلَه إلاّ الله، فمَنْ قال لا إلَه إلاّ الله عَصَمَ منّي مالَهُ ونفسَهُ إلاّ بحقّهِ وحسابُه على الله»؟ فقال أبو بكر: والله لأقاتلنّ مَن فرّق بين الصلاة والزكاة، فإن الزكاة حقُّ المال، والله لو منعوني عنَاقاً كانوا يُؤدونها إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعها، قال عمر رضي الله عنه: فوالله ما هو إلاّ رأيتُ أنّ الله شرح صدرَ أبي بكر للقتال، فعرفت أنه الحق. أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنبأنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا عمرو بن عباس ثنا

قال رسول الله ﷺ: من صلى صلاتنا واستقبل قبلتنا وأكل ذبيحتنا فذلك المسلم الذي له ذمة الله وذمة رسوله.

﴿وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم مِّنۢ بَعۡدِ عَهۡدِهِمۡ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمۡ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ إِنَّهُمۡ لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوۡمٗا نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ وَهَمُّواْ بِإِخۡرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ أَتَخۡشَوۡنَهُمۡۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَوۡهُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٣﴾﴾

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وإن نكثوا أيمانهم﴾ يعني وإن نقضوا عهودهم ﴿من بعد عهدهم﴾ يعني من بعد ما عاهدوكم عليه أن لا يقاتلوكم ولا يظاهروا عليكم أحداً من أعدائكم ﴿وطعنوا في دينكم﴾ يعني وعابوا دينكم الذي أنتم عليه وقدحوا فيه وثلبوه.

وفي هذا دليل على أن الذمي إذا طعن في دين الإسلام وعابه ظاهراً لا يبقى له عهد والمراد بهؤلاء الذين نقضوا العهد كفار قريش وهو قوله تعالى: ﴿فقاتلوا أئمة الكفر﴾ يعني رؤوس المشركين وقادتهم.

قال ابن عباس: نزلت في أبي سفيان بن حرب والحرث بن هشام وسهيل بن عمرو وأبي جهل وابنه عكرمة وسائر رؤساء قريش وهم الذين نقضوا عهدهم وهموا بإخراج الرسول وقيل أراد جميع الكفار وإنما ذكر الأئمة لأنهم الرؤساء والقادة ففي قتالهم قتال الأتباع، وقال مجاهد: هم فارس والروم وقال حذيفة بن اليمان: ما قوتل أهل هذه الآية بعد ولم يأت أهلها ولعل حذيفة أراد بذلك الذين يظهرون مع الدجال من اليهود فإنهم أئمة الكفر في ذلك الزمان والله أعلم بمراده.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿إنهم لا أيمان لهم﴾ جمع يمين أي لا عهد لهم وقيل معناه إنهم لا وفاء لهم بالعهود وقرىء لا إيمان لهم بكسر الهمزة ومعناه لا دين لهم ولا تصديق وقيل هو من الأمان أي اقتلوهم حيث وجدتموهم ولا تؤمنوهم ﴿لعلهم ينتهون﴾ أي لكي ينتهوا عن الطعن في دينكم ويرجعوا عن الكفر إلى الإيمان ثم حض المؤمنين على جهاد الكفار وبين السبب في ذلك فقال تعالى: ﴿ألا تقاتلون قوماً نكثوا أيمانهم﴾ يعني نقضوا عهودهم وهم الذين نقضوا عهد الصلح بالحديبية وأعانوا بني بكر على خزاعة ﴿وهموا بإخراج الرسول﴾ يعني من مكة حين اجتمعوا في

ابن مهدي ثنا منصور بن سعد عن ميمون بن سياه عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ صلّى صلاتَنا واستقبلَ قِبلتَنا وأكل ذبيحتنا فذلك المسلم الذي له ذِمّةُ الله وذِمّةُ رسوله».

قوله تعالى: ﴿ وإن نكثُوا أيمانَهم ﴾، نقضوا عهودهم، ﴿ منْ بعدِ عهدِهم ﴾، عقدهم يعني مشركي قريش، ﴿ وطعنُوا ﴾، قدحوا، ﴿ في دينكم ﴾، وعابوه. فهذا دليل على أن الذمّي إذا طعن في دين الإسلام ظاهِراً لا يبقى له عهد، ﴿ فقاتِلُوا أئمّةَ الكفر ﴾، قرأ أهل الكوفة والشام: ﴿ أئمة ﴾ بهمزتين حيث كان، وقرأ الباقون بتليين الهمزة الثانية. وأئمة الكفر: رؤوس المشركين وقادتهم من أهل مكة. قال ابن عباس: نزلت في أبي سفيان بن حرب وأبي جهل بن هشام وسهيل بن عمرو وعكرمة بن أبي جهل وسائر رؤوساء قريش يومئذ الذين نقضوا العهد، وهم الذين همّوا بإخراج الرسول. وقال مجاهد: هم أهل فارس والروم. وقال حذيفة بن اليمان: ما قُوتِلَ أهلُ هذه الآية ولم يأتِ أهلُها بعد، ﴿ إنهم لا إيمان لهم ﴾، أي: لا عهود لهم، جمع يمين. قال قطرب: لا وفاء لهم بالعهد. وقرأ ابن عامر: «لا أيمان لهم» بكسر الألف، أي: لا تصديق لهم ولا دين لهم. وقيل: هو من الأمان أي لا تؤمنوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم، ﴿ لعلّهم ينتهون ﴾، أي: لكي ينتهوا عن الطعن في دينكم والمظاهرة عليكم. وقيل: عن الكفر، حضّ المسلمين على القتال.

دار الندوة ﴿وهم بدؤوكم﴾ يعني بالقتال ﴿أول مرة﴾ يعني يوم بدر وذلك أنهم قالوا لا ننصرف حتي نستأصل محمداً وأصحابه وقيل أراد به أنهم بدءوا بقتال خزاعة حلفاء رسول الله ﷺ ﴿أتخشونهم﴾ يعني أتخافوهم أيها المؤمنون فتتركون قتالهم ﴿فالله أحق أن تخشوه﴾ يعني في ترك القتال ﴿إن كنتم مؤمنين﴾ يعني إن كنتم مصدقين بوعد الله ووعيده.

قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾

قوله سبحانه وتعالى: ﴿قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم﴾ يريد بالتعذيب القتل يعني يقتلهم الله بأيديكم.

فإن قلت: كيف الجمع بين قوله يعذبهم الله بأيديكم وبين قوله وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم؟ قلت: المراد بقوله وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم عذاب الاستئصال يعني وما كان الله ليستأصلهم بالعذاب جميعاً وأنت فيهم والمراد بقوله: قاتلوهم، يعني الذين نقضوا العهد وبدءوا بالقتال فأمر الله نبيه ﷺ والمؤمنين بقتال من قاتلهم أو نقض عهدهم.

والفرق بين العذابين، أن عذاب الاستئصال يتعدى إلى المذنب وغير المذنب وإلى المخالف والموافق، وعذاب القتل لا يتعدى إلا إلى المذنب المخالف وقوله تعالى: ﴿ويخزهم﴾ يعني ويذلهم بالقهر والأسر وينزل بهم الذل والهوان ﴿وينصركم عليهم﴾ يعني بأن يظفركم بهم ﴿ويشف صدور قوم مؤمنين﴾ يعني ويبرىء داء قلوبهم مما كانوا ينالونه من الأذى منهم ومن المعلوم أن من طال تأذيه من خصمه ثم مكنه الله منه فإنه يفرح بذلك ويعظم سروره ويصير ذلك سبباً لقوة اليقين وثبات العزيمة. قال مجاهد والسدي: أراد صدور خزاعة حلفاء رسول الله ﷺ حيث أعانت

فقال جلّ ذكره: ﴿ ألَا تقاتِلُون قوماً نكثُوا أيمانهم ﴾، نقضوا عهدهم، وهم الذين نقضوا عهد الصلح بالحديبية وأعانوا بني بكر على خزاعة. ﴿ وهمّوا بإخراج الرّسول ﴾، من مكة حين اجتمعوا في دار الندوة، ﴿ وهم بدأوكم ﴾، بالقتال، ﴿ أوّلَ مرّة ﴾، يعني: يوم بدر، وذلك أنهم قالوا حين سَلِمَ العير: لا ننصرف حتى نستأصل محمداً وأصحابه. وقال جماعة من المفسّرين: أراد أنهم بدأوا بقتال خُزاعةَ حلفاء رسول الله ﷺ، ﴿ أتخشونَهم ﴾، أتخافونهم فتتركون قتالهم، ﴿ فاللّهُ أحقُّ أن تخشوه ﴾، في ترك قتالهم، ﴿ إنْ كنتم مؤمنين ﴾.

﴿ قاتلُوهم يُعذِّبْهُمُ اللّهُ بأيديكم ﴾، يقتلهم الله بأيديكم، ﴿ ويُخْزِهِمْ ﴾، ويذلّهم بالأسر والقهر، ﴿ ويَنْصُرْكُم عليهم ويَشْفِ صُدورَ قومٍ ﴾، ويبرىء داء قلوب قوم، ﴿ مؤمنين ﴾، مما كانوا ينالونه من الأذى منهم. وقال مجاهد والسدي: أراد صُدُورَ خزاعة حلفاء رسول الله ﷺ حيث أعانت قريش بني بكر عليهم، حتى نكأوا فيهم فشفى الله صدورهم من بني بكر بالنبي ﷺ وبالمؤمنين.

﴿ ويُذْهِبْ غيظَ قلوبِهم ﴾، كَرْبَها ووَجْدَها بمعونة قريش بني بكر عليهم، ثم قال مستأنفاً: ﴿ ويتوبُ اللّهُ على مَن يشاءُ ﴾، فيهديه إلى الإسلام كما فعل بأبي سفيان وعكرمة بن أبي جهل وسهيل بن عمرو، واللّهُ عليمٌ

قريش بني بكر على خزاعة حتى قتلوا منهم ثم شفى الله صدور خزاعة من بني بكر حتى أخذوا ثأرهم منهم بالنبي ﷺ وأصحابه **﴿ويذهب غيظ قلوبهم﴾** يعني ويذهب وجد قلوبهم بما نالوه من بني بكر.

روي أن النبي ﷺ قال يوم فتح مكة: ارفعوا السيف إلا خزاعة من بني بكر إلى العصر ذكره البغوي بغير سند. ثم قال تعالى: **﴿ويتوب الله على من يشاء﴾** هذا كلام مستأنف ليس له تعلق بالأول والمعنى ويهدي الله من يشاء إلى الإسلام فيمن عليه بالتوبة من الشرك والكفر ويهديه إلى الإسلام كما فعل بأبي سفيان بن حرب وعكرمة بن أبي جهل وسهيل بن عمرو فهؤلاء كانوا من أئمة الكفر ورؤساء المشركين ثم منَّ الله عليهم بالإسلام يوم فتح مكة فأسلموا **﴿والله عليم﴾** يعني بسرائر عباده ومن سبقت له العناية الأزلية بالسعادة فيتوب عليه ويهديه إلى الإسلام **﴿حكيم﴾** يعني في جميع أفعاله قوله عز وجل: **﴿أم حسبتم أن تتركوا﴾** هذا من الاستفهام المعترض في وسط الكلام ولذلك أدخلت فيه أم لتفرق بينه وبين الاستفهام المبتدأ والمعنى أظننتم أيها المؤمنون أن تتركوا فلا تؤمروا بالجهاد ولا تمتحنوا ليظهر الصادق من الكاذب **﴿ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم﴾** أراد بالعلم: المعلوم، لأن وجود الشيء يلزمه معلوم الوجود عند الله لا جرم جعل علم الله بوجوده كناية عن وجوده. قاله الإمام فخر الدين الرازي: ونقل الواحدي عن الزجاج أي العلم الذي يجازي عليه لأنه إنما يجازي على ما عملوا **﴿ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة﴾** قال الفراء: الوليجة: البطانة من المشركين يتخذونهم يفشون إليهم أسرارهم. وقال قتادة: وليجة، يعني خيانة. وقال الضحاك: خديعة. وقال عطاء: أولياء. يعني لا تتخذوا المشركين أولياء من دون الله ورسوله والمؤمنين. وقال أبو عبيدة: كل شيء أدخلته في شيء ليس منه فهو وليجة والرجل يكون في القوم وليس منهم وليجة من الولوج فوليجة الرجل من يختصه بدخيلة أمره دون الناس. وقال الراغب: الوليجة كل ما يتخذه الإنسان معتمداً عليه وليس من قولهم فلان وليجة في القوم إذا دخل فيهم وليس منهم والمقصود من هذا نهي المؤمنين عن موالاة المشركين وإن يفشوا إليهم أسرارهم **﴿والله خبير بما تعملون﴾** يعني من موالاة المشركين وإخلاص العمل لله وحده.

قوله سبحانه وتعالى: **﴿ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله﴾** يعني به المسجد الحرام وقرىء مساجد الله

حكيم ﴾، رُوِيَ أن النبي ﷺ قال يوم فتح مكة: «ارفعوا السّيفَ إلاّ خزاعة من بني بكر إلى العصر».

قوله تعالى: **﴿ أَمْ حَسِبْتُم ﴾**، أظننتم **﴿ أن تُتْرَكُوا ﴾**، قيل: هذا خطاب للمنافقين. وقيل: للمؤمنين الذين شقّ عليهم القتال، فقال: أم حسبتم أن تُتركوا فلا تؤمروا بالجهاد ولا تُمتحنوا ليظهر الصادق من الكاذب، **﴿ ولمّا يعلمِ اللّهُ ﴾**، ولم يرَ اللّهُ **﴿ الذين جاهدُوا منكم ولم يتَّخِذُوا منْ دُونِ اللّهِ ولا رسولِهِ ولا المؤمنين وَلِيجَةً ﴾**، بطانةً وأولياءَ يُوالونَهم ويُفشون إليهم أسرارهم. وقال قتادة: وليجة خيانة. وقال الضحاك: خديعة. وقال عطاء: أولياء. وقال أبو عبيدة: كل شيء أدخلته في شيء ليس منه فهو وليجة، والرجل يكون في القوم وليس منهم. وليجة الرجل: مَن يختصّ بدخيلة أمره دون الناس، يقال: هو وليجتي، وهم وليجتي للواحد والجمع. **﴿ واللّهُ خبيرٌ بما تعملون ﴾**.

قوله تعالى: **﴿ ما كانَ للمشركين أنْ يعمرُوا مساجدَ اللّهِ ﴾** الآية، قال ابن عباس رضي الله عنهما: لمّا أسر العباس يوم بدر عيّره المسلمون بالكفر وقطيعة الرحم، وأغلظ عليّ رضي الله عنه القول، فقال العباس: ما لكم تذكرون مساوينا ولا تذكرون محاسننا؟ فقال له عليّ رضي الله عنه: ألكم محاسن؟ فقال نعم: إنّا لَنَعْمرُ المسجدَ الحرام ونحجبُ الكعبةَ ونُسقي الحاج، فأنزل الله عزّ وجلّ ردّاً على العباس: **﴿ ما كانَ للمشركين أنْ يعمرُوا مساجدَ الله ﴾**، أي: ما ينبغي للمشركين أن يعمروا مساجد الله، أوجب على المسلمين منعهم من ذلك، لأن

على الجمع والمراد به المسجد الحرام أيضاً وإنما ذكر بلفظ الجمع لأنه قبلة المساجد كلها وسبب نزول هذه الآية أن جماعة من رؤساء كفار قريش أسروا يوم بدر ومنهم العباس بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ فأقبل عليهم نفر من أصحاب رسول الله ﷺ يعيرونهم بالشرك وجعل علي بن أبي طالب يوبخ العباس بسبب قتال رسول الله ﷺ وقطيعة الرحم. فقال العباس: ما لكم تذكرون مساوينا وتكتمون محاسننا؟ فقيل له: وهل لكم من محاسن؟ قال: نعم. نحن أفضل منكم نحن نعمر المسجد الحرام ونحجب الكعبة ونسقي الحجيج ونفك العاني يعني الأسير فنزلت هذه الآية: ما كان للمشركين أي ما ينبغي للمشركين أن يعمروا مساجد الله أوجب الله على المسلمين منعهم من ذلك المساجد إنما تعمر لعبادة الله تعالى وحده فمن كان كافراً بالله فليس له أن يعمر مساجد الله واختلفوا في المراد بالعمارة على قولين أحدهما أن المراد بالعمارة العمارة المعروفة من بناء المساجد وتشييدها ومرمتها عند خرابها فيمنع منه الكافر حتى لو أوصى ببناء مسجد لم تقبل وصيته والقول الثاني إن المراد بالعمارة دخول المسجد والقعود فيه فيمتنع الكافر من دخول المسجد بغير إذن مسلم حتى لو دخل بغير إذن مسلم عزر وإن دخل بإذن لم يعزر ويدل على جواز دخول الكافر المسجد بالإذن أن النبي ﷺ شد ثمامة بن أثال إلى سارية من سواري المسجد وهو كافر والأولى تعظيم المساجد ومنعهم من دخولها.

وقوله تعالى: ﴿**شاهدين على أنفسهم بالكفر**﴾ يعني: لا يدخلون المساجد في حال كونهم شاهدين. وقيل: تقديره وهم شاهدون فلما حذفت وهم نصب. وقال ابن عباس: شهادتهم على أنفسهم بالكفر سجودهم للأصنام وذلك أن كفار قريش كانوا قد نصبوا أصنامهم خارج البيت الحرام عند القواعد وكانوا يطوفون بالبيت عراة كلما طافوا طوفة سجدوا للأصنام فلم يزدادوا بذلك من الله إلا بعداً. وقال الحسن: إنهم لم يقولوا نحن كفار ولكن كلامهم بالكفر شهادة عليهم بالكفر. وقال السدي: شهادتهم على أنفسهم بالكفر هو أن النصراني يسأل من أنت فيقول نصراني واليهودي يقول يهودي والمشرك يقول مشرك. وقال ابن عباس: في رواية عنه شاهدين على رسولهم بالكفر لأنه من

المساجد إنما تعمر لعبادة الله وحده، فمَن كان كافراً بالله فليس من شأنه أن يعمرها فذهب جماعة إلى أنّ المراد منه العمارة المعروفة من بناء المسجد ومرمته عند الخراب فيمنع منه الكافر حتى لو أوصى به لا يمتثل. وحمل بعضهم العمارة ههنا على دخول المسجد والقعود فيه. قال الحسن: ما كان للمشركين أن يتركوا فيكونوا أهل المسجد الحرام. قرأ ابن كثير وأهل البصرة: «مسـجد الله» على التوحيد، وأراد به المسجد الحرام، لقوله تعالى: ﴿ وعمارة المسجد الحرام ﴾ [التوبة: ١٩]، ولقوله تعالى: ﴿ فلا يقربوا المسجد الحرام ﴾ [التوبة: ٢٨]، وقرأ الآخرون: « مساجد الله » بالجمع والمراد منه أيضاً المسجد الحرام. قال الحسن: إنما قال مساجد لأنه قِبلة المساجد كلها. قال الفرّاء: ربما ذهبت العرب بالواحد إلى الجمع وبالجمع إلى الواحد، ألا ترى أن الرجل يركب البرذون فيقول: أخذت في ركوب البراذين، ويقال: فلان كثير الدرهم والدينار، يريد الدراهم والدنانير. قوله تعالى: ﴿ **شاهدين على أنفسهم بالكفر** ﴾، أرادَ وهم شاهدون، فلما طرحت ﴿ **وهم** ﴾ نصبت، قال الحسن: لم يقولوا نحن كفّار ولكن كلامهم بالكفر شاهد عليهم بالكفر. وقال الضحاك عن ابن عباس: شهادتهم على أنفسهم بالكفر سجودهم للأصنام، وذلك أن كفّار قريش كانوا نصبوا أصنامهم خارج البيت الحرام عند القواعد وكانوا يطوفون بالبيت عراة، كلما طافوا شوطاً سجدوا لأصنامهم، ولم يزداد بذلك من الله تعالى إلاّ بُعْداً. وقال السدي: شهادتهم على أنفسهم بالكفر هو أن النصراني يُسأل مَن أنت؟ فيقول: أنا نصراني، واليهودي يقول: أنا يهودي، ويقال للمشرك: ما دينك؟ فيقول: مشرك. قال الله تعالى: ﴿ **أولئك حَبِطَتْ أعمالهمُ** ﴾، لأنها لغير الله عزّ وجلّ، ﴿ **وفي النار هُم خالدون** ﴾.

أنفسهم ﴿**أولئك حبطت أعمالهم**﴾ يعني الأعمال التي عملوها في حال الكفر من أعمال البر مثل قرى الضيف وسقي الحاج وفك العاني لأنها لم تكن لله فلم يكن لها تأثير مع الكفر ﴿**وفي النار هم خالدون**﴾ يعني من مات منهم على كفره.

﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿**إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر**﴾ لما بين الله عز وجل أن الكافر ليس له أن يعمر مساجد الله بين في هذه الآية من هو المستحق لعمارة المساجد وهو من آمن بالله فإن الإيمان بالله شرط فيمن يعمر المسجد لأن المسجد عبارة عن الموضع الذي يعبد الله فيه فمن لم يكن مؤمناً بالله امتنع أن يعمر موضعاً يعبد الله فيه واليوم الآخر يعني وآمن باليوم الآخر وأنه حق كائن لأن عمارة المسجد لأجل عبادة الله وجزاء أجره إنما يكون في الآخرة فمن أنكر الآخرة لم يعبد الله ولم يعمر له مسجداً.

فإن قلت لم لم يذكر الإيمان برسول الله مع أن الإيمان به شرط في صحة الإيمان.

قلت: إن الإيمان برسول الله ﷺ داخل في الإيمان بالله فإن من آمن بالله واليوم الآخر فقد آمن برسول الله لأن من جهته عرف الإيمان بالله واليوم الآخر لأنه هو الداعي إلى ذلك وقيل إن المشركين كانوا يقولون أن محمداً إنما ادعى النبوة طلباً للرياسة والملك فأخبر الله عز وجل أن محمداً ﷺ إنما دعا إلى الإيمان بالله واليوم الآخر لا لطلب الرياسة والملك فلذلك قال سبحانه وتعالى إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وترك ذكر الإيمان برسول الله ﷺ وقيل: إنه تبارك وتعالى قال بعد الإيمان بالله واليوم الآخر ﴿**وأقام الصلاة وآتى الزكاة**﴾ وكان ذلك مما جاء به رسول الله ﷺ فمن أقام الصلاة وآتى الزكاة فقد آمن برسول الله ﷺ واعلم أن الاعتبار بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة في عمارة المساجد أن الإنسان إذا عمر المسجد أقام الصلاة وآتى الزكاة لأن عمارة المسجد إنما تلزم لإقامة الصلاة فيه ولا يشتغل بعمارة المسجد إلا إذا كان مؤدياً للزكاة لأن الزكاة واجبة وعمارة المسجد نافلة ولا يشتغل الإنسان بالنافلة إلا بعد إكمال الفريضة الواجبة عليه.

وقوله تعالى: ﴿**ولم يخش إلا الله**﴾ يعني ولم يخف في الدين غير الله ولم يترك أمر الله لخشية الناس ﴿**فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين**﴾ وعسى من الله واجب يعني وأولئك هم المهتدون المتمسكون بطاعة الله التي تؤدي إلى الجنة عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: «إذا رأيتم الرجل يعتاد المساجد فاشهدوا له بالإيمان فإن الله عز وجل يقول إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر» الآية أخرجه الترمذي. وقال حديث حسن (ق) عن أبي

قال تعالى: ﴿ **إنّما يَعْمُرُ مَساجِدَ الله مَنْ آمنَ باللّهِ واليومِ الآخرِ وأقام الصلاةَ وآتى الزكاةَ ولم يخشَ إلاّ الله** ﴾ ولم يخفْ في الدين غيرَ الله ولم يترك أمر الله لخشية غيره، ﴿ **فعسى أولئكَ أن يكونوا مَنَ المُهتدين** ﴾، ﴿ **وعسى** ﴾ من الله واجب، أي: فأولئك هم المهتدون، والمهتدون هم المتمسكون بطاعة الله عزّ وجلّ التي تؤدّي إلى الجنّة. أخبرنا أبو عمر ومحمد بن عبد الرحمن النسوي ثنا أحمد بن الحسين الحيري ثنا محمد بن يعقوب ثنا أحمد بن الفرج الحجازي ثنا بقية ثنا أبو الحجّاج المهدي عن عمرو بن الحارث عن أبي الهيثم عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا رأيتم الرجل يتعاهد المسجد فاشهدُوا له بالإيمان» فإن الله قال: ﴿ **إنّما يَعْمُرُ مساجدَ اللّـه مَنْ آمن باللهِ واليومِ الآخرِ** ﴾. أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنبأنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنبأنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل ثنا علي بن عبد الله ثنا يزيد بن هارون ثنا محمد بن مطرف

هريرة أن النبي ﷺ قال: من غدا إلى المسجد أو راح أعد الله له في الجنة نزلاً كلما غدا أو راح النزل ما يهيأ للضيف عند نزوله بالقوم (ق)

عن عثمان بن عفان قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: من بنى لله مسجداً يبتغي به وجه الله تعالى بنى الله له بيتاً في الجنة.

وفي رواية: بنى الله له في الجنة مثله. وعن أنس: أن رسول الله ﷺ قال من بنى لله مسجداً صغيراً كان أو كبيراً بنى الله له بيتاً في الجنة. أخرجه الترمذي عن عمرو بن عنبسة أن رسول الله ﷺ قال: من بنى لله مسجداً ليذكر الله فيه بنى الله له بيتاً في الجنة، أخرجه النسائي.

﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾﴾

قوله سبحانه وتعالى: **﴿أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام﴾** الآية (م) عن النعمان بن بشير قال: كنت عند منبر النبي ﷺ فقال رجل: ما أبالي أن لا أعمل عملاً بعد الإسلام إلا أن أعمر المسجد الحرام. قال الآخر: الجهاد في سبيل الله أفضل مما قلتم فزجره عمر وقال: لا ترفعوا أصواتكم عند منبر النبي ﷺ وهو يوم الجمعة ولكن إذا صليت الجمعة دخلت فاستفتيته فيما اختلفتم فيه فأنزل الله عز وجل أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر إلى آخرها.

وقيل: قال العباس حين أسروا يوم بدر لئن كنتم سبقتمونا بالإسلام والهجرة والجهاد لقد كنا نعمر المسجد الحرام ونسقي الحاج فأنزل الله هذه الآية وأخبر أن عمارتهم المسجد الحرام وقيامهم على السقاية لا ينفعهم مع الشرك

عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «مَنْ غَدَا إلى المسجدِ أو راحَ أعدّ الله له نُزلَه منَ الجنةِ كلّما غَدا أو رَاحَ». أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنبأنا أبو منصور محمد بن محمد بن سمعان ثنا أبو جعفر محمد بن أحمد بن عبد الجبار الرياني ثنا حميد بن زنجويه ثنا أبو عاصم عن عبد الحميد بن جعفر حدّثني أبي عن محمود بن لبيد أن عثمان بن عفان رضي الله عنه: أراد بناء المسجد فكره الناس ذلك وأحبّوا أن يدعه، فقال عثمان: سمعتُ النبي ﷺ يقول: «مَنْ بَنَى للّهِ مسجداً بَنَى اللّهُ له بيتاً كهيئته في الجنة». أخبرنا الإمام أبو علي الحسين بن محمد القاضي أنا أبو طاهر الزيادي أنا محمد بن الحسن القطان ثنا علي بن محمد الدار بجردي ثنا أبو عاصم بهذا الإسناد، وقال: (بَنَى اللّهُ له بيتاً في الجنّة).

قوله: **﴿ أجعلتُم سقاية الحاجِّ ﴾**، أخبرنا أبو سعيد أحمد بن إبراهيم الشريحي ثنا أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي ثنا عبد الله بن حامد بن محمد الوزان ثنا أحمد بن محمد بن جعفر بن محمد بن عبيد الله المنادي ثنا أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني ثنا أبو توبة الربيع بن نافع الحلبي ثنا معاوية بن سلام عن زيد بن سلام عن أبي سلام ثنا النعمان بن بشير قال: كنتُ عند منبر رسول الله ﷺ فقال رجل: ما أُبالي أن لا أعمل عملاً بعد أن أُسقي الحاجّ، وقال الآخر: ما أُبالي أن لا أعمل عملاً بعد أن أعمّر المسجد الحرام، وقال الآخر: **الجهاد في سبيل الله** أفضل مما قلتما، فزجرهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وقال: لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله ﷺ، وهو يوم الجمعة، ولكن إذا صلّيت دخلت فاستفتيت رسول الله ﷺ فيما اختلفتم فيه، ففعل فأنزل الله عزّ وجلّ: **﴿ أجعلتم سقاية الحاجِّ وعمارة المسجد الحرام ﴾**، إلى قوله: **﴿ واللّهُ لا يهدي القومَ الظالمين ﴾**.

بالله وإن الإيمان والجهاد مع نية خير مما هم عليه. وقال الحسن والشعبي ومحمد بن كعب القرظي: نزلت في علي بن أبي طالب والعباس بن عبد المطلب وطلحة بن أبي شيبة افتخروا فقال طلحة أنا صاحب البيت بيدي مفاتيحه. وقال العباس: وأنا صاحب السقاية والقيامة عليها وقال ما أدري ما تقولون لقد صليت إلى القبلة ستة أشهر قبل الناس وأنا صاحب الجهاد فأنزل الله هذه الآية ﴿**أجعلتم سقاية الحاج**﴾ والسقاية مصدر كالرعاية والحماية وهي: سقي الحاج وكان العباس ابن عبد المطلب بيده سقاية الحاج وكان يليها في الجاهلية فلما جاء الإسلام وأسلم العباس أقره رسول الله ﷺ على ذلك وعمارة المسجد الحرام يعني بناؤه وتشييده ومرمته ﴿**كمن آمن بالله واليوم الآخر**﴾ فيه حذف تقديره كإيمان من آمن بالله واليوم الآخر ﴿**وجاهد في سبيل الله**﴾ أي وكجهاد من جاهد في سبيل الله. وقيل: السقاية والعمارة بمعنى الساقي والعامر تقديره: أجعلتم ساقي الحاج وعامر المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله ﴿**لا يستوون عند الله**﴾ يعني: لا يستوي حال هؤلاء الذين آمنوا بالله وجاهدوا في سبيل الله بحال من سقى الحاج وعمر المسجد الحرام وهو مقيم على شركه وكفره لأن الله سبحانه وتعالى لا يقبل عملاً إلا مع الإيمان به ﴿**والله لا يهدي القوم الظالمين**﴾ (خ) عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ جاء إلى السقاية فاستسقى فقال العباس: يا فضل اذهب إلى أمك فأت رسول الله ﷺ بشراب من عندها فقال اسقني فقال: يا رسول الله إنهم يجعلون أيديهم فيه قال اسقني فشرب منه ثم أتى زمزم وهم يستقون ويعملون فيها فقال: اعملوا فإنكم على عمل صالح ثم قال لولا أن تغلبوا لنزلت حتى أضع الحبل على هذا يعني عاتقه (م)

عن بكر بن عبد الله المزني قال: كنت جالساً مع ابن عباس عند الكعبة فأتاه أعرابي فقال مالي أرى بني عمكم

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: قال العباس حين أسر يوم بدر: لئن كنتم سبقتمونا بالإسلام والهجرة والجهاد، لقد كنّا نعمّر المسجد الحرام، ونُسقي الحاجّ، فأنزل الله تعالى هذه الآية، وأخبر أن عمارتهم المسجد الحرام وقيامهم على السقاية لا تنفعهم مع الشرك بالله، والإيمان بالله والجهاد مع النبي ﷺ خيرٌ مما هم عليه. وقال الحسن والشعبي ومحمد بن كعب القرظي: نزلت في عليّ بن أبي طالب والعباس بن عبد المطلب وطلحة بن شيبة، افتخروا فقال طلحة: أنا صاحب البيت بيدي مفتاحه، وقال العباس: أنا صاحب السقاية والقائم عليها، وقال علي: ما أدري ما تقولون لقد صلّيت إلى القبلة ستّة أشهر قبل الناس وأنا صاحب الجهاد، فأنزل الله عزّ وجلّ هذه الآية: ﴿ **أجعلتُم سقايةَ الحاجِّ** ﴾، و﴿ **سقاية** ﴾ مصدر كالرعاية والحماية. قوله: ﴿ **وعمارةَ المسجدِ الحرام كمَنْ آمنَ باللّهِ واليومِ الآخر** ﴾، فيه اختصار تقديره: أجعلتم سقايةَ الحاجِّ وعمارة المسجد الحرام كإيمان مَن آمن بالله وجهاد مَن جاهد في سبيل الله؟ وقيل: السقاية والعمارة بمعنى السَاقيُ العامر، وتقديره: أجعلتم ساقي الحاجّ وعامرَ المسجد الحرام كمَن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله؟ وهذا كقوله تعالى: ﴿ والعاقبةُ للتقوى ﴾ [طه: ١٣٢] أي: للمتّقين، يدلّ عليه قراءة عبد الله بن الزبير وأُبيّ بن كعب ﴿ **أجعلتم سُقَاةَ الحاجِّ وعَمَرَةَ المسجدِ الحرام** ﴾، على جمع الساقي والعامر، ﴿ **كمَن آمن بالله واليوم الآخر وجاهدَ في سبيلِ الله لا يستوُون عندَ اللّهِ واللّهُ لا يهدي القومَ الظّالمين** ﴾. أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل حدّثني إسحاق بن إبراهيم ثنا أبو أسامة ثنا يحيـىٰ بن مهلب عن حسين عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ جاء إلى السقاية فاستقى، فقال العباس: يا فضل اذهب إلى أُمك فأتِ رسولَ الله ﷺ بشراب من عندها، فقال: «اسـقني»، فقال: يا رسول الله إنّهم يجعلون أيديهم فيه، قال: «اسقني»، فشرب منه ثم أتى زمزم وهم يسقون ويعملون فيها، فقال: «اعملوا فإنكم على عمل صالح»، ثم قال: «لولا الحبل على هذه»، وأشار إلى عاتقه. أخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر أنا عبد الغافر بن محمد ثنا محمد بن

يسقون العسل واللبن وأنتم تسقون النبيذ أمن حاجة بكم أم من بخل فقال ابن عباس الحمد لله ما بنا من حاجة ولا بخل إنما قدم النبي ﷺ على راحلته وخلفه أسامة فاستسقي فأتيناه بإناء من نبيذ فشرب وسقى فضله أسامة فقال: أحسنتم أو أجملتم كذا فاصنعوا فلا نريد تغيير ما أمر به رسول الله ﷺ النبيذ تمر ينقع في الماء غدوة ويشرب عشاء أو ينقع عشاء ويشرب غدوة وهذا حلال فإن غلى وحمض حرم. قوله عز وجل:

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾

﴿**الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله**﴾ يعني أن من كان موصوفاً بهذه الصفات يعني الإيمان والهجرة والجهاد في سبيل الله بالمال والنفس كان أعظم درجة عند الله ممن افتخر بالسقاية وعمارة المسجد الحرام وإنما لم يذكر القسم المرجوح لبيان فضل القسم الراجح على الإطلاق على من سواهم والمراد بالدرجة المنزلة والرفعة عند الله في الآخرة ﴿**وأولئك**﴾ يعني من هذه صفتهم ﴿**هم الفائزون**﴾ يعني بسعادة الدنيا والآخرة ﴿**يبشرهم ربهم**﴾ يعني يخبرهم ربهم والبشارة الخبر السار الذي يفرح الإنسان عند سماعه وتستنير بشرة وجهه عند سماعه ذلك الخبر السار ثم ذكر الخبر الذي يبشرهم به فقال تعالى: ﴿**برحمة منه ورضوان**﴾ وهذا أعظم البشارات لأن الرحمة والرضوان من الله عز وجل على العبد نهاية مقصوده ﴿**وجنات لهم فيها نعيم مقيم**﴾ يعني أن نعيم الجنة دائم غير منقطع أبداً ﴿**خالدين فيها**﴾ يعني في الجنان وفي النعيم ﴿**أبداً**﴾ يعني لا انقطاع له ﴿**إن الله عنده أجر عظيم**﴾ يعني لمن عمل بطاعته وجاهد في سبيله.

قوله سبحانه وتعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء**﴾ قال مجاهد: هذه الآية متصلة بما قبلها نزلت في قصة العباس وطلحة وامتناعهما من الهجرة وقال ابن عباس: لما أمر النبي ﷺ الناس بالهجرة إلى

عيسى الجلودي ثنا إبراهيم بن محمد بن سفيان عن مسلم ابن الحجاج حدّثني محمد بن منهال الضرير ثنا يزيد بن زَريع ثنا حميد الطويل عن بكر بن عبد الله المزني قال: كنتُ جالساً مع ابن عباس عند الكعبة فأتاه أعرابي فقال: ما لي أرى بني عمّكم يسقون العسل واللبن وأنتم تسقون النبيذ؟ أمِنْ حاجةٍ بكم؟ أمِنْ بُخلٍ؟ فقال ابن عباس: الحمد لله ما بنا حاجةٍ ولا بخل، قَدِمَ رسول الله ﷺ على راحلته وخلفه أسامة بن زيد فاستسقى فأتيناه بإناء من نبيد فشرب وسقى فضله أسامة، وقال: أحسنتم وأجملتم كذا فاصنعوا، فلا نريد تغيير ما أمر به رسول الله ﷺ.

قوله تعالى: ﴿ الذينَ آمنُوا وهاجَرُوا وجاهَدُوا في سبيل الله بأموالِهم وأنفسِهم أعظمُ درجةً ﴾ فضيلة، ﴿ عندَ اللهِ ﴾، من الذين افتخروا بسقاية الحاجّ وعمارة المسجد الحرام. ﴿ وأولئك هم الفائزون ﴾، الناجون من النار.

﴿ يُبَشِّرُهم ربُّهم برحمةٍ منه ورضوانٍ وجنّاتٍ لهم فيها نعيمٌ مقيم ﴾.

﴿ خالدين فيها أبداً إنّ الله عنده أجرٌ عظيم ﴾.

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء ﴾، قال مجاهد: هذه الآية متصلة بما قبلها نزلت في

المدينة فمنهم من تعلق به أهله وأولاده يقولون ننشدك الله أن لا تضيعنا فيرق لهم فيقيم عليهم ويدع الهجرة فأنزل الله هذه الآية. وقال مقاتل: نزلت في التسعة الذين ارتدوا عن الإسلام ولحقوا بمكة فنهى الله المؤمنين عن موالاتهم وأنزل يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء يعني بطانة وأصدقاء تفشون إليهم أسراركم وتؤثرون المقام معهم على الهجرة. قال بعضهم: حمل هذه الآية على ترك الهجرة مشكل لأن هذه السورة نزلت بعد الفتح وهي من آخر القرآن نزولاً والأقرب أن يقال إن الله سبحانه وتعالى لما أمر المؤمنين بالتبري من المشركين قالوا كيف يمكن أن يقاطع الرجل أباه وأخاه وابنه فذكر الله أن مقاطعة الرجل أهله وأقاربه في الدين واجبة فالمؤمن لا يوالي الكافر وإن كان أباه وأخاه وابنه وهو قوله تعالى: ﴿**إن استحبوا الكفر على الإيمان**﴾ يعني إن اختاروا الكفر وأقاموا عليه وتركوا الإيمان بالله ورسوله ﴿**ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون**﴾ يعني ومن يختار المقام معهم على الهجرة والجهاد فقد ظلم نفسه بمخالفة أمر الله واختيار الكفار على المؤمنين ولما نزلت هذه الآية قال الذين أسلموا: لم يهاجروا إن نحن هاجرنا ضاعت أموالنا وذهبت تجارتنا وخربت دورنا وقطعنا أرحامنا فأنزل الله سبحانه وتعالى:

قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾

﴿**قل**﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء الذين قالوا هذه المقالة ﴿**إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم**﴾ وقرىء على الجمع وعشيراتكم العشيرة هم الأدنون من أهل الإنسان الذين يعاشرونه دون غيرهم ﴿**وأموال اقترفتموها**﴾ يعني اكتسبتموها ﴿**وتجارة تخشون كسادها**﴾ يعني بفراقكم لها ﴿**ومساكن ترضونها**﴾ يعني تستوطنوها راضين بسكناها ﴿**أحب إليكم من الله ورسوله**﴾ يعني أحب إليكم من الهجرة إلى الله ورسوله ﴿**وجهاد في**

قصة العباس وطلحة وامْتِنَاعِهما من الهجرة. وقال الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس: قال: لمّا أمر النبي ﷺ الناس بالهجرة إلى المدينة فمنعهم مَن تعلّق به وأهله وولده يقولون ننشدك بالله أن لا تضيعنا. فيرقّ لهم فيقيم عليهم ويدع الهجرة، فأنزل الله عزّ وجلّ هذه الآية. وقال مقاتل: نزلت في التسعة الذين ارتدّوا عن الإسلام ولحقوا بمكة فنهى الله عن ولايتهم، فأنزل الله: ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءَكم وإخوانَكم أولياءَ** ﴾ بطانةً وأصدقاءً فتفشون إليهم أسراركم وتؤثرون المقام معهم على الهجرة والجهاد، ﴿ **إن استحبّوا** ﴾، اختاروا ﴿ **الكفرَ على الإيمان ومَن يتولّهم منكم** ﴾، فيطلعهم على عورة المسلمين ويُؤثر المقام معهم على الهجرة والجهاد، ﴿ **فأولئكَ هُمُ الظالمون** ﴾، وكان في ذلك الوقت لا يُقبل الإيمان إلاّ من مهاجر، فهذا معنى قوله: ﴿ **فأولئكَ هم الظالمون** ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿ **قلْ** ﴾ يا محمد لهؤلاء المتخلّفين عن الهجرة، ﴿ **إن كان آباؤكم** ﴾، وذلك لمّا نزلت الآية الأولى قال الذين أسلموا ولم يهاجروا: إن نحنُ هاجرنا ضاعت أموالُنا وذهبت تجاراتنا وخُربتْ دورُنَا وقطعنا أرحامنا، فنزل: ﴿ **قلْ إن كان آباؤكم** ﴾، ﴿ **وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجُكم وعشيرتُكم** ﴾، قرأ أبو بكر عن عاصم: « **عشيراتكم** » بالألف على الجمع، والآخرون بلا ألف عل التوحيد لأن العشيرة واقعة على الجمع، ويقوّي

سبيله﴾ فبين الله سبحانه وتعالى أنه يجب تحمل جميع المضار في الدنيا ليبقى الدين سليماً وأخبر أنه كانت رعاية هذه المصالح الدنيوية عندكم أولى من طاعة الله وطاعة رسوله ومن المجاهدة في سبيل الله **﴿فتربصوا﴾** أي فانتظروا **﴿حتى يأتي الله بأمره﴾** يعني بقضائه وهذا أمر تهديد وتخويف وقال مجاهد ومقاتل يعني بفتح مكة **﴿والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾** يعني الخارجين عن طاعته، وفي هذا دليل على أنه إذا وقع تعارض بين مصالح الدين ومصالح الدنيا وجب على المسلم ترجيح مصالح الدين على مصالح الدنيا.

قوله عز وجل: **﴿لقد نصركم الله﴾** النصر المعونة على الأعداء بإظهار المسلمين عليهم **﴿في مواطن كثيرة﴾** يعني أماكن كثيرة والمراد بها غزوات رسول الله ﷺ وسراياه وبعوثه وكانت غزوات رسول الله ﷺ على ما ذكره في الصحيحين من حديث زيد بن أرقم تسع عشرة غزوة زاد بريدة في حديثه قاتل في ثمان منهم ويقال إن جميع غزواته وسراياه وبعوثه سبعون وقيل: ثمانون وهو قوله تعالى: **﴿لقد نصركم الله في مواطن كثيرة﴾** **﴿ويوم حنين﴾** يعني: ونصركم الله في يوم حنين أيضاً فأعلم الله سبحانه وتعالى أنه هو الذي يتولى نصر المؤمنين في كل موقف وموطن ومن يتولى الله نصره فلا غالب له وحنين اسم واد قريب من الطائف بينه وبين مكة بضعة عشر ميلاً. وقال عروة: هو إلى جنب ذي المجاز وكانت قصة حنين على ما نقله الرواة أن رسول الله ﷺ فتح مكة وقد بقيت عليه أيام من شهر رمضان فخرج إلى حنين لقتال هوازن وثقيف في اثني عشر ألفاً عشرة آلاف من المهاجرين والأنصار وألفان من الطلقاء وقال عطاء: كانوا ستة عشر ألفاً. وقال الكلبي: كانوا عشرة آلاف وكانوا يومئذ أكثر ما كانوا قط وكان المشركون أربعة آلاف من هوازن وثقيف وكان على هوازن مالك بن عوف النصري وعلى ثقيف كنانة بن عبد ياليل فلما التقى الجمعان قال رجل من الأنصار يقال له سلمة بن سلامة بن رقيش لن نغلب اليوم من قلة فساء رسول الله ﷺ كلامه ووكلوا إلى كلمة الرجل. وفي رواية: فلم يرض الله قوله ووكلهم إلى أنفسهم. وذكر ابن الجوزي عن سعيد بن المسيب، أن القائل لذلك أبو بكر الصديق. وحكى ابن جرير الطبري: أن القائل لذلك رسول الله ﷺ وإسناد هذه الكلمة إلى رسول الله ﷺ فيه بعد لأنه ﷺ كان في جميع أحواله متوكلاً على الله عز وجل لا يلتفت إلى كثرة عدد ولا إلى غيره بل نظره إلى ما

هذه القراءة أن أبا الحسن الأخفش قال: لا تكاد العرب تجمع العشيرة على العشيرات، إنما نجمعها على العشائر.

﴿ وأموالٌ اقترفتمُوها وتجارةٌ تخشَوْنَ كسادَها ومساكِنُ ترضونَها ﴾، أي: تستطيبونها يعني القصور والمنازل، **﴿ أحبَّ إليكم منَ الله ورسولِهِ وجهادٍ في سبيله فتربَّصُوا ﴾**، فانتظروا، **﴿ حتى يأتيَ الله بأمره ﴾**، قال عطاء: بقضائه. وقال مجاهد ومقاتل: بفتح مكة وهذا أمر تهديد، **﴿ واللَّهُ لا يهدي ﴾** لا يُوفّق ولا يُرشد **﴿ القومَ الفاسقين ﴾**، الخارجون عن الطاعة.

قوله تعالى: **﴿ لقدْ نصرَكُم اللَّهُ في مواطنَ ﴾**، أي مشاهد، **﴿ كثيرةٍ ويَوْمَ حُنينٍ ﴾**، وحنين وادٍ بين مكة والطائف، وقال عكرمة: إلى جنب ذي المجاز. وكانت قصة حنين على ما نقله الرواة: أن رسول الله ﷺ فتح مكة وقد بقيت عليه أيام من شهر رمضان، ثم خرج إلى حُنين لقتال هوازن وثقيف في اثني عشر ألفاً، عشرة آلاف من المهاجرين وألفان من الطلقاء. قال عطاء كانوا ستّة عشر ألفاً. وقال الكلبي: كانوا عشرة آلاف، وكانوا يومئذ أكثر ما كانوا قطّ، والمشركون أربعة آلاف من هوازن وثقيف، وعلى هوازن مالك بن عوف النصري، وعلى ثقيف كنانة بن عبد ياليل الثقفي، فلما التقى الجمعان قال رجل من الأنصار يقال له سلمة بن وقش: لن نُغلبَ اليومَ عن قلّة فساء رسول الله ﷺ كلامه ووكَلوا إلى كلمة الرجل. وفي رواية: فلم يرضَ الله قوله، ووَكَلَهم إلى أنفسهم فاقتتلوا قتالاً شديداً، فانهزم المشركون وخلوا عن الذراري، ثم نادوا: يا حماة السواد اذكروا الفضائح، فتراجعوا وانكشف المسلمون. قال قتادة: وذكر لنا أن الطلقاء انجفلوا يومئذ بالناس فلما انجفل القوم هربوا. أخبرنا إسماعيل بن

يأتي من عند الله عز وجل من النصر والمعونة قالوا: فلما التقى الجمعان اقتتلوا قتالاً شديداً فانهزم المشركون وخلوا عن الذراري ثم تنادوا: يا حماة السواد اذكروا الفضائح. فتراجعوا وانكشف المسلمون. وقال قتادة: ذكر لنا أن الطلقاء انجفلوا يومئذ بالناس فلما انجفل القوم هربوا (ق)

عن أبي إسحاق قال: جاء رجل إلى البراء فقال: أكنتم وليتم يوم حنين يا أبا عمارة فقال أشهد على نبي الله ﷺ ما ولى ولكنه انطلق أخفاء من الناس وحسر إلى هذا الحي من هوازن وهم قوم رماة فرموهم برقش من نبل كأنها رجل من جراد فانكشفوا فأقبل القوم إلى رسول الله ﷺ وأبو سفيان بن الحارث يقود به بغلته فنزل ودعا واستنصر وهو يقول: أنا النبي لاكذب أنا ابن عبد المطلب اللهم نصرك. زاد أبو خيثمة ثم وصفهم. قال البراء: كنا والله إذا احمر البأس نتقي به وإن الشجاع منا للذي يحاذي به يعني النبي ﷺ. عن أبي إسحاق قال: قال رجل للبراء بن عازب يا أبا عمارة فررتم يوم حنين قال لا والله ما ولى رسول الله ﷺ ولكنه خرج شبان أصحابه وأخفاؤه حسراً ليس عليهم سلاح أو كثير سلاح فلقوا قوماً رماة لا يكاد يسقط لهم سهم جمع هوازن وبنى نصر فرشقوهم رشقاً ما يكادون يخطئون فأقبلوا هناك إلى رسول الله ﷺ ورسول الله ﷺ على بغلته البيضاء وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب يقود به فنزل ودعا واستنصر وقال:

أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب

ثم صفهم وروى شعبة عن أبي إسحاق قال: قال البراء إن هوازن كانوا قوماً رماة ولما لقيناهم حملنا عليهم فانهزموا فأقبل المسلمون على الغنائم فاستقبلونا بالسهام فأما رسول الله ﷺ فلم يفر.

عبد القاهر أنا عبد الغافر بن محمد أنا محمد بن عيسى الجلودي ثنا إبراهيم بن محمد بن سفيان ثنا مسلم بن الحجّاج ثنا يحيىٰ بن يحيىٰ أخبرنا أبو خيثمة عن أبي إسحاق قال: قال رجل للبرّاء بن عازب يا أبا عمارة فررتم يوم حنين، قال: لا والله ما ولّى رسول الله ﷺ ولكنه خرج شبّان أصحابه وأخفاؤهم وهم حُسّرٌ ليس عليهم سلاح أو كثير سلاح، فلقوا قوماً رُماة لا يكاد يسقط لهم سهم، جمع هوازن وبني نصر فرشقوهم رشقاً ما يكادون يخطئون، فأقبلوا هناك إلى رسول الله ﷺ على بغلته البيضاء، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب يقود به، فنزل واستنصر وقال: أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطّلب، ثم صفّهم. ورواه محمد بن إسماعيل عن عبيد الله بن موسى عن إسرائيل عن أبي إسحاق. وزاد قال: فما رُوِيَ مِنَ الناس يومئذ أشدَّ منه. ورواه زكريا عن أبي إسحاق. وزاد قال البراء: كنّا إذا احمرّ البأس نتّقي به وإن الشجاع منّا للذي يحاذي به يعني النبي ﷺ. وروى شعبة عن أبي إسحاق قال: قال البراء: إن هوازن كانوا قوماً رماة وإنّا لمّا لقيناهم حملنا عليهم فانهزموا فأقبل المسلمون على الغنائم واستقبلونا بالسهام، فأمّا رسول الله ﷺ فلم يفرّ. قال الكلبي: كان حول رسول الله ﷺ ثلثمائة من المسلمين وانْهزَمَ سائرُ الناس. وقال آخرون: لم يبقَ مع النبي ﷺ يومئذ غير العباس بن عبد المطّلب وأبو سفيان بن الحارث وأيمن ابن أم أيمن، فقتل يومئذ بين يدي رسول الله ﷺ أخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر أنا عبد الغافر بن محمد أنا محمد بن الجلودي ثنا إبراهيم بن محمد بن سفيان ثنا مسلم بن الحجّاج قال: حدّثنا أبو طاهر أحمد بن عمرو بن سرج ثنا أبو وهب أخبرنا يونس عن ابن شهاب، قال: حدّثني كثير بن عباس بن عبد المطلب قال: قال عباس: شهدتُ مع رسول الله ﷺ يوم حنين فلزمتُ أنا وأبو سفيان بن الحارث رسولَ الله ﷺ فلم نفارقه، ورسول الله ﷺ على بغلة بيضاء أهداها له فروة بن نفاثة الجذامي، فلما التقى المسلمون والكفّار ولّى المسلمون مدبرين، فطفق رسول الله ﷺ يُركض بغلته قبلَ الكفّار، وأنا آخذ بلجام بغلة رسول الله ﷺ أكفُّها إرادةً أن لا تسرع، وأبو سفيان

قوله: ولكنه انطلق اخفاء من الناس. الإخفاء: جمع خفيف وهم المسرعون من الناس الذين ليس لهم ما يعوقهم. والحسر: جمع حاسر وهو الذي لا درع عليه يقال إذا رمى القوم بأسرهم إلى جهة واحدة: رمينا رشقاً، والرجل من الجراد القطعة الكبيرة منه. وقوله: كنا إذا احمر البأس يعني إذا اشتد الحرب والبأس بالموحدة من تحت الشدة والخوف. وقال الكلبي: كان حول رسول الله ﷺ ثلثمائة من المسلمين وانهزم سائر الناس وقال غيره لم يبق مع النبي ﷺ يومئذ غير عمه العباس بن عبد المطلب وابن عمه أبو سفيان بن الحارث وأيمن بن أم أيمن قتل يوم حنين بين يدي رسول الله ﷺ وهذا أيمن أخو أسامة بن زيد لأمه أمهما بركاة مولاة رسول الله ﷺ وحاضنته (م)

عن العباس بن عبد المطلب قال: شهدت مع رسول الله ﷺ يوم حنين فلزمت أنا وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب رسول الله ﷺ فلم نفارقه ورسول الله ﷺ على بغلة له بيضاء أهداها له فروة بن فاثة الجذامي فلما التقى المسلمون والكفار ولي المسلمون مدبرين فطفق رسول الله ﷺ يركض بغلته قبل الكفار قال العباس وأنا آخذ بلجام بغلة رسول الله ﷺ أكفها إرادة أن لا تسرع وأبو سفيان آخذ بركاب رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ أي عباس ناد أصحاب السمرة فقال العباس، وكان رجلاً صيتاً: فقلت بأعلى صوتي أين أصحاب السمرة. قال: فوالله لكان عطفتهم حين سمعوا صوتي عطفة البقر على أولادها فقالوا لبيك لبيك. قال: فاقتتلوا والكفار والدعوة في الأنصار يقولون: يا معشر الأنصار يا معشر الأنصار قال: ثم قصرت الدعوة على بني الحرث بن الخزرج. فقالوا: يا بني الحرث بن الخزرج يا بني الحرث بن الخزرج فنظر رسول الله ﷺ وهو على بغلته كالمتطاول عليها إلى قتالهم فقال رسول الله ﷺ هذا حين حمي الوطيس قال ثم أخذ رسول الله ﷺ حصيات فرمى بهن وجوه الكفار ثم قال: انهزموا ورب محمد. قال: فذهبت أنظر فإذا القتال على هيئته فيما أرى قال: فوالله ما هو إلا أن رماهم بحصياته فما زلت أرى حدهم كليلاً وأمرهم مدبراً.

آخذ بركابه، فقال رسول الله ﷺ: «أيْ عباس نادِ أصحاب السَّمُرة»، فقال عباس: وكان رجلاً صيتاً فقلت بأعلى صوتي: أين أصحاب السَّمُرة؟ قال: فوالله لكان عطفتهم حين سمعوا صوتي عطفة البقر على أولادها، فقالوا: يا لبيك يا لبيك، قال: فاقتتلوا والكفّار والدعوة في الأنصار يقولون: يا معشر الأنصار يا معشر الأنصار، ثم قصرت الدعوة على بني الحارث بن الخزرج، فنظر رسول الله ﷺ وهو على بغلته كالمتطاول عليها إلى قتالهم، فقال: «هذا حين حمى الوطيس»، ثم أخذ رسولُ الله ﷺ حصياتٍ فرمَى بهنّ وجوهَ الكفّار، ثم قال: «انهزموا وربِّ محمد»، فذهبتُ أنظر فإذا القتال على هيئته فيما أرى، قال: فوالله ما هو إلا أن رماهم بحصياته فما زلت أرى حدّهم كليلاً، وأمرهم مدبراً، وقال سلمة بن الأكوع: غزونا مع رسول الله ﷺ حُنيناً قال: فلما غَشُوا رسولَ الله ﷺ نزلَ عن البغلة، ثم قبض قبضة من تراب الأرض ثم استقبل وجوههم، فقال: «شاهت الوُجوه»، فما خلّى الله منهم إنساناً إلّا ملأ عينه تراباً بتلك القبضة، فولُّوا مُدْبِرين، فهزمهم الله عزّ وجلّ فقسم رسول الله ﷺ غنائمهم بين المسلمين. قال سعيد بن جبير: أمدّ الله تعالى نبيّه ﷺ بخمسة آلاف من الملائكة مسوِّمين. وفي الخبر: أن رجلاً من بني نضر يقال له شجرة، قال للمؤمنين بعد القتال: أين الخيل البلق والرجال الذين عليهم ثياب بيض، ما كنّا نراكم فيهم إلّا كهيئة الشامة وما كنّا قلنا إلا بأيديهم. فأخبروا بذلك النبي ﷺ فقال: «تلك الملائكة». قال الزهري: وبلغني أن شيبة بن عثمان بن طلحة قال: استدبرتُ رسولَ الله ﷺ يوم حُنين وأنا أُريد قتله بطلحة بن عثمان وعثمان بن طلحة، وكانا قد قتلا يوم أُحُد، فأطلع اللّهُ رسولَهُ ﷺ على ما في نفسي فالتفتَ إليّ وضرب في صدري وقال أعيذك بالله يا شيبة، فارتعدتْ فرائصي فنظرت إليه وهو أحبّ إليّ من سمعي وبصري، فقلت: أشهد أنكَ رسول الله، وإن الله قد أطلعك على ما في نفسي، فلما هزم الله المشركين وولّوا مدبرين، انطلقوا حتى أتوا أوطاس وبها عيالهم وأموالهم،

قوله حمي الوطيس، أي اشتد الحرب. قال الخطابي: هذه الكلمة لم تسمع قبل أن يقولها النبي ﷺ من العرب وهي ما اقتضبه وأنشأه. والوطيس في اللغة: التنور. وقوله: حدهم كليلاً يعني لا يقطع شيئاً (م)

عن سلمة بن الأكوع قال: غزونا مع رسول الله ﷺ حنيناً قال: فلما غشوا رسول الله ﷺ نزل عن بغلته ثم قبض قبضة من تراب الأرض ثم استقبل به وجوههم. وقال: شاهت الوجوه فما خلق الله منهم إنساناً إلا ملأ عينيه تراباً بتلك القبضة فولوا مدبرين فهزمهم الله بذلك وقسم رسول الله ﷺ غنائمهم بين المسلمين أخرجه مسلم بزيادة فيه قال سعيد بن جبير: أمد الله نبيه ﷺ بخمسة آلاف من الملائكة مسومين. وروى أن رجلاً من بني نصر يقال له شجرة قال للمؤمنين بعد القتال: أين الخيل البالق والرجال عليهم ثياب بيض ما كنا نراهم فيكم إلا كهيئة الشامة وما كان قتلنا إلا بأيديهم فأخبر بذلك رسول الله ﷺ فقال: تلك الملائكة. وروي أن رجلاً من المشركين قال يوم حنين لما التقينا وأصحاب محمد لم يقفوا لنا حلب شاة أن كشفناهم فبينا نحن نسوقهم حتى انتهينا إلى صاحب البغلة البيضاء فإذا هو رسول الله ﷺ قال فتلقانا عنده رجال بيض الوجوه حسان فقالوا لنا شاهت الوجوه ارجعوا. قال: فانهزمنا وركبوا أكتافنا فكانت إياها.

واختلفوا هل قاتلت الملائكة يوم حنين على قولين والصحيح أنها لم تقاتل إلا يوم بدر وإنما كانت الملائكة يوم حنين مدداً وعوناً. وذكر البغوي أن الزهري قال: بلغني أن شيبة بن عثمان قال استدبرت رسول الله ﷺ يوم حنين وأنا أريد قتله بطلحة بن عثمان وعثمان بن طلحة وكانا قد قتلا يوم أحد فأطلع الله رسوله على ما في نفسي فالتفت إليّ وضرب في صدري وقال أعيذك بالله يا شيبة فارعدت فرائصي فنظرت إليه وهو أحب إليّ من سمعي وبصري فقلت أشهد أنك رسول الله ﷺ قد أطلعك الله على ما في نفسي فلما هزم الله المشركين وولوا مدبرين انطلقوا إلى أوطاس

فبعث رسول الله رجلاً من الأشعريين يقال له أبو عامر وأمره على جيش المسلمين إلى أوطاس، فسار إليهم فاقتتلوا، وقيل: دريد بن الصمة، وهزم الله المشركين وسبى المسلمون عيالهم وهرب أميرهم مالك بن عوف النضري، فأتى الطائف فتحصَّنَ بها وأخذ ماله وأهله فيمن أخذ. وقُتل أميرُ المسلمين أبو عامر. قال الزهري: أخبرني سعيد بن المسيب أنهم أصابوا يومئذ ستّة آلاف سبي، ثم إن رسول الله ﷺ أتى الطائف فحاصرهم بقية ذلك الشهر، فلما دخل ذو القعدة وهو شهر حرام انصرف عنهم، فأتى الجعرّانة فأحرم منها بعُمرة وقسّم فيها غنائم حنين، وأوطاس وتألّف أناساً منهم أبو سفيان بن حرب والحارث بن هشام وسهيل بن عمرو والأقرع بن حابس فأعطاهم، أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا أبو اليمان ثنا شعيب ثنا الزهري أخبرني أنس بن مالك رضي الله عنه أنّ أناساً من الأنصار قالوا لرسول الله ﷺ حين أفاء الله على رسوله من أموال هوازن ما أفاء، فطفق يعطي رجالاً من قريش المائة من الإبل، فقالوا: يغفر الله لرسول الله ﷺ يعطي قريشاً ويدعنا وسيوفنا تقطر من دمائهم؟ قال أنس: فحدث رسول الله ﷺ بمقالتهم فأرسل إلى الأنصار فجمعهم في قبّة من أدم ولم يدع معهم أحداً غيرهم، فلما اجتمعوا جاءهم رسول الله ﷺ فقال: «ما كان حديث بلغني عنكم»؟ فقال له فقهاؤهم أمّا ذُوو رأينا يا رسول الله، فلم يقولوا شيئاً، وأما أناسٌ منّا حديثة أسنانهم فقالوا: يغفر الله لرسول الله ﷺ يُعطي قريشاً ويترك الأنصار وسيوفنا تقطر من دمائهم، فقال رسول الله ﷺ: «إني أعطي رجالاً حديثي عهد بكفر، أما ترضون أن يذهب الناس بالأموال وترجعون إلى رحالكم برسول الله ﷺ؟ فوالله ما تنقلبون به خير مما ينقلبون به» قالوا: بلى يا رسول الله قد رضينا، فقال لهم: «إنكم سترون بعدي أثرة شديدة فاصبروا حتى تلقوا الله ورسوله على الحوض». وقال يونس عن ابن شهاب: (فإنّي أُعطي رجالاً حديثي عهد بالكفر أتألفهم)، وقال: «فاصبروا حتى تلقَوُا اللَّهَ ورسولَه فإنّي على الحوض»، قالوا: سنصبر. أخبرنا عبد الواحد بن

وبها عيالهم وأموالهم فبعث رسول الله ﷺ رجلاً من الأشعريين يقال له أبو عامر وأمره على الجيش فسار إلى أوطاس فاقتتلوا بها وقتل دريد بن الصمة وهزم الله المشركين وسبى المسلمون عيال المشركين وهرب أميرهم مالك بن عوف النصري فأتى الطائف فتحصن بها وأخذ ماله وأهله فيمن أخذ وقتل أبو عامر أمير المسلمين. قال الزهري: أخبرني سعيد بن المسيب أنهم أصابوا يومئذ ستة آلاف صبي ثم إن رسول الله ﷺ أتى الطائف فحاصرهم بقية ذلك الشهر فلما دخل ذو القعدة وهو شهر حرام انصرف عنهم وأتى الجعرانة فأحرم منها بعمرة وقسم بها غنائم حنين وأوطاس وتألف أناساً منهم أبو سفيان بن حرب والحارث بن هشام وسهيل بن عمرو والأقرع بن حابس فأعطاهم (ق). عن أنس بن مالك أن ناساً من الأنصار قالوا يوم حنين حين أفاء الله على رسوله من أموال هوازن ما أفاء فطفق رسول الله ﷺ يعطي رجالاً من قريش المائة من الإبل فقالوا يغفر الله لرسول الله ﷺ يعطي قريشاً ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم قال أنس فحدث بذلك رسول الله ﷺ من قولهم فأرسل إلى الأنصار فجمعهم في قبة من أدم ولم يدع معهم غيرهم فلما اجتمعوا جاءهم رسول الله ﷺ فقال: حديث بلغني عنكم فقال له فقهاء الأنصار: أما ذوو رأينا يا رسول الله لم يقولوا شيئاً وأما أناس منا حديثة أسنانهم فقالوا يغفر الله لرسول الله يعطي قريشاً ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم فقال له رسول الله ﷺ: فإني أعطي رجالاً حديثي عهد بكفر أتألفهم أفلا ترضون أن تذهب الناس بالأموال وترجعوا إلى رحالكم برسول الله ﷺ فوالله ما تنقلبون به خير مما ينقلبون به. قالوا: بلى يا رسول الله قد رضينا. قال: فإنكم ستجدون بعدي أثرة شديدة فاصبروا حتى تلقوا الله ورسوله على الحوض قالوا سنصبر زاد في رواية قال أنس فلم نصبر (ق) عن عبد الله بن زيد بن عاصم قال لما أفاء الله على رسوله ﷺ يوم حنين قسم في الناس في المؤلفة قلوبهم ولم يعط الأنصار شيئاً فكأنهم وجدوا إذ لم يصبهم ما أصاب الناس فخطبهم فقال: يا معشر الأنصار ألم أجدكم ضلالاً فهداكم الله بي وكنتم متفرقين فألفكم الله بي وعالة فأغناكم الله بي كلما قال شيئاً قالوا الله ورسوله أمن قال: فما منعكم أن تجيبوا رسول الله كلما قال شيئاً قالوا الله ورسوله آمن قال لو شئتم قلتم جئتنا كذا وكذا أترضون أن تذهب الناس بالشاة والبعير وتذهبوا بالنبي إلى رحالكم لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار ولو سلك الناس وادياً أو شعباً لسلكت وادي الأنصار وشعبهم الأنصار شعار والناس دثار (م)

عن رافع بن خديج قال: أعطى رسول الله ﷺ أبا سفيان بن حرب وصفوان بن أمية وعيينة بن حصن والأقرع بن

أحمد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا وهيب ثنا عمرو؛ بن يحيىٰ عن عباد بن تميم عن عبد الله يزيد بن عاصم قال: لمّا أفاء الله على رسوله ﷺ يوم حُنين قسم في الناس في المؤلّفة قلوبهم ولم يعطِ الأنصار شيئاً، فكأنهم وجدوا إذْ لم يصيبوا ما أصابه الناس، فخطبهم فقال: «يا معشر الأنصار ألم أجدكم ضُلّالاً فهداكم الله بي وكنتم متفرقين فألّفكم الله بي وكنتم عالَةً فأغناكم الله بي»؟ كلما قال شيئاً قالوا: اللَّهُ ورسولُه أَمَنْ قال: «ما يمنعكم أن تُجيبوا رسولَ الله ﷺ كلّما قال شيئاً»، قالوا: الله ورسوله أَمَنْ؟ قال: «لو شئتُم قلتُم كذا وكذا»، وكان من الأمر كذا وكذا لأشياء عددها، كلما قال شيئاً قالوا: الله ورسوله أَمَنْ؟ قال: «أَمَا ترْضَونَ أن يذهب الناس بالشِياه والغنم والبعير، وتذهبوا بالنبي ﷺ إلى رحالكم؟ لولا الهجرة لكنت امرأً من الأنصار، ولو سلك الناس وادياً أو شعباً لسلكت وادي الأنصار وشعبهم، الأنصار شِعارٌ والناسُ دِثار، إنكم ستلقون بعدي أَثَرَةً فاصْبِرُوا حتى تلقوني على الحوض». أخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر أنا عبد الغافر بن محمد أنا محمد بن عيسى الجلودي ثنا إبراهيم بن محمد بن سفيان ثنا مسلم بن الحجّاج ثنا محمد بن أبي عمرو المكّي ثنا سفيان عن عمرو بن مسروق عن أبيه عن عبادة بن رفاعة عن رافع بن خديج قال: أعطى رسولُ الله ﷺ أبا سفيان بن حرب وصفوان بن أُميّة وعيينة بن حصن والأقرع بن حابس كل إنسان منهم مائة من الإبل وأعطى

حابس كل إنسان مائة من الإبل وأعطى عباس بن مرداس دون ذلك فقال عباس بن مرداس:

أتجعـــل نهبـــي ونهــب العبـ ـيـــد بيـــن عيينـــة والأقـــرع
فمـــا كـــان حصـــن ولا حـــابـــس يفـــوقـــان مـــرداس فـــي مجمـــع
ومـــا كنـــت دون امـــرىء منهمـــا ومـــن يخفـض اليـوم لا يـــرفـــع

قال: فأتم رسول الله ﷺ له مائة (خ) عن المسور ومروان أن رسول الله ﷺ قام حين جاءه وفد هوازن مسلمين فسألوه أن يرد عليهم مالهم وسبيهم فقال لهم رسول الله ﷺ: إن معي من ترون وأحب الحديث إلي أصدقه فاختاروا إحدى الطائفتين إما المال وإما السبي وقد كنت استأنيت بكم.

وفي رواية: وقد كان رسول الله ﷺ انتظرهم بضع عشرة ليلة حين قفل من الطائف فلما تبين لهم أن رسول الله ﷺ غير راد عليهم إلا إحدى الطائفتين قالوا إنا نختار سبينا فقام رسول الله ﷺ في الناس فأثنى على الله بما هو أهله ثم قال: أما بعد فإن إخوانكم هؤلاء جاؤوا تائبين وإني قد رأيت أن أرد إليهم سبيهم فمن أحب منكم أن يطيب ذلك لهم فليفعل فقال الناس قد طيبنا ذلك لهم يا رسول الله. فقال لهم في ذلك: إنا لا ندري من أذن منكم ممن لم يأذن فارجعوا حتى يرفع إلينا عرفاؤكم أمركم فرجع الناس فكلمتهم عرفاؤهم ثم رجعوا إلى رسول الله ﷺ فأخبروه أنهم قد طيبوا وأذنوا فهذا الذي بلغنا من سبي هوازن وأنزل الله عز وجل في قصة حنين لقد نصركم الله في مواطن كثيرة ويوم حنين ﴿**إذ أعجبتكم كثرتكم**﴾ يعني حين قلتم لن نغلب اليوم من قلة ﴿**فلم تغن عنكم**﴾ يعني كثرتكم ﴿**شيئاً**﴾ يعني أن

عباس بن مرداس دون ذلك، فقال عباس بن مرداس:

فـمـا كـان حَـصـن ولا حـابس يـفـوقـان مـرداس في مـجـمـع
تـجـعـل نـهـى ونـهـب الـعـبـ ـيـد بـيـن عـيـيـنـة والأقـرع
ومـا كنت دون امـرىء مـنـهـمـا ومَـن يخفض الـيـوم لا يـرفـع

قال: فأتمّ له رسول الله ﷺ مائة. وفي الحديث: أن ناساً من هوازن أقبلوا مسلمين بعد ذلك، فقالوا: يا رسول الله أنت خيرُ الناس وأبرُّ الناس، وقد أخذت أبناءنا ونساءنا وأموالنا. أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا سعيد بن عفير حدّثني الليث حدّثني عقيل عن ابن شهاب عن عروة بن الزبير: أن مروان والمسور بن مخرمة أخبراه أن رسول الله ﷺ قام حين جاءه وفد هوازن مسلمين، فسألوه أن يردّ إليهم أموالهم وسبيهم، فقال لهم رسول الله ﷺ: «إن معي مَن ترون وأُحبّ الحديث إلى أصدقه، فاختاروا إحدى الطائفتين إما السبي وإما المال. قالوا فإنّا نختار سبينا، فقام رسول الله ﷺ: «فأثنى على الله عزّ وجلّ بما هو أهله»، ثم قال: «أما بعد فإن إخوانكم هؤلاء جاؤوا تائبين وإني قد رأيت أن أردّ إليهم سبيهم، فمَن أحبّ منكم أن يطيب ذلك لهم فليفعل ومَن أحبّ أن يكون على حظ حتى نعطيه إياه من أول ما يفيء الله علينا، فليفعل» فقال الناس: قد طيبنا ذلك يا رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: «إنّا لا ندري مَن أذن منكم في ذلك ممّن لم يأذن فارجعوا حتى يرفع إلينا عرفاؤكم أمركم فرجع الناس، فكلّمهم عرفاؤهم ثم رجعوا إلى رسول الله ﷺ فأخبروه أنهم قد طيبوا وأذنوا، فأنزل الله تعالى في قصة حنين ﴿ **لقدْ نصركم اللّهُ في مواطنَ كثيرة ويوم حنين إذْ أعجبتْكُم كثرتُكم** ﴾، حتى قلتم: لن نغلب اليوم من قلّة، ﴿ **فلم تُغن عنكم** ﴾، كثرتُكم، ﴿ **شيئاً** ﴾، يعني إن الظفر لا يكون بالكثرة، ﴿ **وضاقتْ عليكمُ الأرض بما رحبت** ﴾، أي برحبها وسعتها، ﴿ **ثم ولّيتم مدبرين** ﴾، منهزمين.

الظفر بالعدو ليس بكثرة العدد ولكن إنما يكون بنصر الله ومعونته ﴿وضاقت عليكم الأرض بما رحبت﴾ يعني بسعتها وفضائها ﴿ثم وليتم مدبرين﴾ يعني منهزمين.

ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَاۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾

﴿ثم أنزل الله سكينته﴾ يعني بعد الهزيمة والسكينة والطمأنينة والأمنة، وهي فعلية من السكون وذلك أن الإنسان إذا خاف رجف فؤاده فلا يزال متحركاً وإذا أمن سكن فؤاده وثبت فلما كان الأمن موجباً للسكون جعل لفظ السكينة كناية عن الأمن.

وقوله تعالى: ﴿على رسوله وعلى المؤمنين﴾ إنما كان إنزال السكينة على المؤمنين لأن الرسول ﷺ ساكن القلب ليس عنده اضطراب كما حصل للمؤمنين من الهزيمة واضطراب في هذه الواقعة ثم من الله عليهم بإنزال السكينة عليهم حتى رجعوا إلى قتال عدوهم بعد الهزيمة ورسول الله ﷺ ثابت لم يفر ﴿وأنزل جنوداً لم تروها﴾ يعني الملائكة تثبيت المؤمنين وتشجيعهم وتخذيل المشركين وتجبينهم لا للقتال لأن الملائكة لم تقاتل إلا يوم بدر ﴿وعذب الذين كفروا﴾ يعني بالأسر والقتل وسبي العيال والأموال ﴿وذلك جزاء الكافرين﴾ يعني في الدنيا ثم إذا أفضوا إلى الآخرة كان لهم عذاب أشد من ذلك العذاب وأعظم ﴿ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء﴾ يعني فيهديه إلى الإسلام كما فعل بمن بقي من هوازن حيث أسلموا وقدموا على رسول الله ﷺ تائبين فمَّن عليهم وأطلق سبيهم ﴿والله غفور﴾ إن تاب ﴿رحيم﴾ بعباده.

قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس﴾ قيل: أراد بالمشركين عبدة الأصنام دون غيرهم من أصناف الكفار. وقيل: بل أراد جميع أصناف الكفار عبدة الأصنام وغيرهم من اليهود والنصارى. والنجس: الشيء

﴿ ثم أنزل الله ﴾ بعد الهزيمة، ﴿ سكينته ﴾، يعني: الأمنَة والطمأنينة، وهي فعيلة من السكون ﴿ على رسولِه وعلى المؤمنينَ وأنزلَ جنوداً لم تروها ﴾، يعني: الملائكة. قيل: لا للقتال ولكن لتجبين الكفّار وتشجيع المسلمين، لأنه يُروى أن الملائكة لم يقاتلوا إلّا يوم بدر، ﴿ وعذّبَ الذين كفروا ﴾، بالقتل والأسر وسبي العيال وسلب الأموال، ﴿ وذلك جزاءُ الكافرين ﴾.

﴿ ثمّ يتوبُ اللّهُ من بعدِ ذلكَ على مَن يشاءُ ﴾، فيهديه إلى الإسلام، ﴿ واللّهُ غفورٌ رحيم ﴾.

قوله تعالى: ﴿ يا أيّها الذين آمنوا إنّما المشركون نجس ﴾ الآية، قال الضحاك وأبو عبيدة: نجس قذر. وقيل: خبيث. وهو مصدر يستوي فيه الذكر والأنثى والتثنية والجمع، فأما النجس بكسر النون وسكون الجيم فلا يقال على الانفراد، إنما يقال: رِجْسٌ نَجْسٌ، فإذا أُفرد قيل: نَجِسٌ بفتح النون وكسر الجيم وأراد به نجاسة الحكم لَا نجاسة العين، سُمّوا نجساً على الذم. وقال قتادة: سمّاهم نجساً لأنهم يُجنبون فلا يغتسلون ويُحدثون فلا يتوضؤون. قوله تعالى: ﴿ فلا يقربُوا المسجدَ الحرامَ ﴾، أراد منعهم من دخول الحرم لأنهم إذا دخلوا الحرم فقد قربوا من المسجد الحرام، وأراد به الحرم وهذا كما قال الله تعالى: ﴿ سبحانَ الذي أسرَى بعبدهِ ليلاً مِّنَ المسجد

القذر من الناس وغيرهم. وقيل: النجس الشيء الخبيث وأراد بهذه النجاسة نجاسة الحكم لا نجاسة العين. سموا نجساً على الذم لأن الفقهاء اتفقوا على طهارة أبدانهم. وقيل: هم أنجاس العين كالكلب والخنزير. حتى قال الحسن بن صالح: من مس مشركاً فليتوضأ. ويروى هذا عن الزيدية من الشيعة والقول الأول أصح وقال قتادة سماهم: نجساً لأنهم يجنبون فلا يغتسلون ويحدثون فلا يتوضؤون ﴿**فلا يقربوا المسجد الحرام**﴾ المراد: منعهم من دخول الحرم لأنهم إذا دخلوا الحرم فقد قربوا من المسجد الحرام ويؤكد هذا قوله تعالى سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام أراد به الحرم لأنه أسرى به ﷺ من بيت أم هانىء. قال العلماء: وجملة بلاد الإسلام في حق الكفار ثلاثة أقسام أحدها: الحرم فلا يجوز لكافر أن يدخله بحال ذمياً كان أو مستأمناً لظاهر هذه الآية وبه قال الشافعي وأحمد ومالك فلو جاء رسول من دار الكفر والإمام في الحرم فلا يأذن له في دخول الحرم بل يخرج إليه بنفسه أو يبعث إليه من يسمع رسالته خارج الحرم وجوز أبو حنيفة وأهل الكوفة للمعاهدة حول الحرم القسم الثاني من بلاد الإسلام الحجاز وحده ما بين اليمامة واليمن ونجد والمدينة الشريفة قيل نصفها تهامي ونصفها حجازي. وقيل: كلها حجازي. وقال ابن الكلبي: حد الحجاز ما بين جبل طيء وطريق العراق سمي حجازاً لأنه حجز بين تهامة، ونجد. وقيل: لأنه حجز بين نجد والسراة. وقيل: لأنه حجز بين نجد وتهامة والشام. قال الحربي: وتبوك من الحجاز فيجوز للكفار دخول أرض الحجاز بالإذن ولكن لا يقيمون فيها أكثر من مقام المسافر وهو ثلاثة أيام (م)

عن ابن عمر أنه سمع رسول الله ﷺ يقول لأخرجن اليهود والنصارى من جزيرة العرب فلا أترك فيها إلا مسلماً زاد في رواية لغير مسلم وأوصى فقال أخرجوا المشركين من جزيرة العرب فلم يتفرغ لذلك أبو بكر وأجلاهم عمر في خلافته وأجل لمن يقدم تاجراً ثلاثاً. عن ابن شهاب أن رسول الله ﷺ قال: لا يجتمع دينان في جزيرة العرب أخرجه مالك في الموطأ مرسلاً (م)

عن جابر قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن الشيطان قد يئس أن يعبده المصلون في جزيرة العرب ولكن في التحريش بينهم. قال سعيد بن عبد العزيز: جزيرة العرب ما بين الوادي إلى أقصى اليمن إلى تخوم العراق إلى البحر وقال غيره حد جزيرة العرب من أقصى عدن أبين إلى ريف العراق في الطول ومن جدة وما والاها من ساحل البحر إلى أطراف الشام عرضاً والقسم الثالث سائر بلاد الإسلام فيجوز للكافر أن يقيم فيها بعهد وأمان وذمة ولكن لا يدخلون المساجد إلا بإذن مسلم.

وقوله تعالى: ﴿**بعد عامهم هذا**﴾ يعني العام الذي حج فيه أبو بكر الصديق بالناس وفيه نادى على براءة وأن لا

الحرام ﴾ [الإسراء: ١]، وأراد به الحرم لأنه أسرى به من بيت أُم هانىء. قال الشيخ الإمام الأجلّ: وجملة بلاد الإسلام في حق الكفّار على ثلاثة أقسام: أحدها الحرم فلا يجوز للكافر أن يدخله بحال ذميّاً كان أو مستأمناً لظاهر هذه الآية، وإذا جاء رسول من بلاد الكفّار إلى الإمام والإمام في الحرم لا يأذن له في دخول الحرم بل يبعث إليه مَن يسمع رسالته خارج الحرم. وجوّز أهل الكوفة للمعاهد دخول الحرم. والقسم الثاني من بلاد الإسلام: الحجاز فيجوز للكافر دخولها بالإذن ولكن لا يقيم فيها أكثر من مقام السفر وهو ثلاثة أيام، لِما رُوِيَ عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «لئن عشتُ إن شاء الله تعالى لأخرجنّ اليهود والنصارى من جزيرة العرب حتى لا أدعَ فيها إلّا مسلماً». فمضى رسول الله ﷺ وأوصى فقال: «أخرجوا المشركين من جزيرة العرب»، فلم يتفرّغ لذلك أبو بكر رضي الله عنه، وأجلاهم عمر رضي الله عنه في خلافته، وأجلّ لمَن يقدم منهم تاجراً ثلاثاً. وجزيرة العرب من أقصى عدن أبين إلى ريف العراق في الطول، وأما العرض فمن جدّة وما وَالاَهَا من ساحل البحر إلى أطراف الشام. والقسم الثالث: سائر بلاد الإسلام يجوز للكافر أن يقيم فيها بذمّة أو أمان، ولكن لا يدخلون

يحج بعد العام مشرك وهو سنة تسع من الهجرة ﴿وإن خفتم عيلة﴾ يعني فقراً وفاقة وذلك أن أهل مكة كانت معايشهم من التجارات وكان المشركون يجلبون إلى مكة الطعام ويتجرون فلما منعوا من دخول الحرم خاف أهل مكة من الفقر وضيق العيش فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ فأنزل الله عز وجل وإن خفتم عيلة ﴿فسوف يغنيكم الله من فضله﴾ قال عكرمة: فأغناهم الله بأن أنزل المطر مدراراً وكثر خيرهم وقال مقاتل: أسلم أهل جدة وصنعاء وجرش من اليمن وجلبوا الميرة الكثيرة إلى مكة فكفاهم الله ما كانوا يخافون وقال الضحاك وقتادة: عوضهم الله منها الجزية فأغناهم بها ﴿إن شاء﴾ قيل: إنما شرط المشيئة في الغنى المطلوب ليكون الإنسان دائم التضرع والابتهال إلى الله تعالى في طلب الخيرات ودفع الآفات وأن يقطع العبد أمله من كل أحد إلا من الله عز وجل فإنه هو القادر على كل شيء وقيل إن المقصود من ذكر هذا الشرط تعليم رعاية الأدب كما في قوله تبارك وتعالى لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين ﴿إن الله عليم﴾ يعني بما يصلحكم ﴿حكيم﴾ يعني أنه تعالى لا يفعل شيئاً إلا عن حكمة وصواب فمن حكمته أن منع المشركين من دخول الحرم وأوجب الجزية والذل والصغار على أهل الكتاب فقال تعالى:

﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ٢٩﴾

﴿قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر﴾ قال مجاهد: نزلت الآية حين أمر النبي ﷺ بقتال الروم فغزا بعد نزولها غزوة تبوك، وقال الكلبي: نزلت في قريظة والنضير من اليهود فصالحهم فكانت أول جزية أصابها أهل الإسلام وأول ذل أصاب أهل الكتاب بأيدي المسلمين وهذا خطاب للنبي ﷺ وأصحابه المؤمنين والمعنى قاتلوا أيها المؤمنون القوم الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر.

فإن قلت اليهود والنصارى يزعمون أنهم يؤمنون بالله واليوم الآخر فكيف أخبر الله عنهم أنهم لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر؟

قلت: إيمانهم بالله ليس كإيمان المؤمنين وذلك أن اليهود يعتقدون التجسيم والتشبيه، والنصارى يعتقدون

المساجد إلّا بإذن مسلم قوله: ﴿ بعدَ عامهم هذا ﴾، يعني: العام الذي حجّ فيه أبو بكر رضي الله عنه بالنّاس، ونادَى عليّ كرّم الله وجهه ببراءة، وهو سنة تسع من الهجرة. قوله: ﴿ وإنْ خِفْتُم عَيْلَةً ﴾، وذلك أنّ أهل مكة كانت معايشهم من التجارات وكان المشركون يأتون مكة بالطعام ويتجرون، فلما مُنِعُوا من دخول الحرم خافُوا الفقر، وضيقَ العيش، وذكروا ذلك لرسول الله ﷺ فأنزل الله تعالى: ﴿ وإن خِفْتُمْ عَيْلَةً ﴾ فقراً وفاقةً. يُقال: عال يعيل عَيْلةً إذا افتقر، ﴿ فسوفَ يُغنيكُم اللّهُ مِنْ فضْلِه إنْ شاءَ إنّ اللّهَ عليمٌ حكيمٌ ﴾، قال عكرمة: فأغناهم الله عزّ وجلّ بأن أنزل عليهم المطر مدراراً فكثر خيرهم. وقال مقاتل: أسلم أهل جدّة وصنعاء وجريش من اليمن وجلبوا الميرة الكثيرة إلى مكة فكفاهم الله ما كانوا يخافون. وقال الضحاك وقتادة: عوّضهم الله منها الجزية فأغناهم بها.

قوله تعالى: ﴿ قَاتِلُوا الذينَ لا يُؤمنونَ باللّهِ ﴾، قال مجاهد: نزلت هذه الآية حين أُمر رسول الله ﷺ بقتال الروم، فغزا بعد نزولها غزوة تبوك. وقال الكلبي: نزلت في قريظة والنضير من اليهود، فصالحهم وكانت أول جزية أصابها أهل الإسلام، وأول ذُلّ أصاب أهل الكتاب بأيدي المسلمين: قال الله تعالى: ﴿ قاتلوا الذين لا يُؤمنون باللّهِ ولا باليوم الآخر ﴾، فإنْ قيل: أهل الكتاب مؤمنون بالله واليوم الآخر؟ قيل: لا يؤمنون كإيمان المؤمنين، فإنهم إذا قالوا عزير ابن الله والمسيح ابن الله، لا يكون ذلك إيماناً بالله. ﴿ ولا يُحرِّمُونَ ما حرّمَ اللّهُ ورسولُهُ ولا يَدِينُون دِينَ الحقِّ ﴾، أي: لا يدينون الدين الحق، أضاف الاسم إلى الصفة. وقال قتادة: الحق هو الله، أي: لا يدينون

الحلول، ومن اعتقد ذلك فليس بمؤمن بالله. وقيل: من اعتقد أن عزيزاً ابن الله وأن المسيح ابن الله فليس بمؤمن بالله بل هو مشرك بالله. وقيل: من كذب رسولاً من رسل الله فليس بمؤمن بالله واليهود والنصارى يكذبون أكثر الأنبياء فليسوا بمؤمنين بالله. وأما إيمانهم باليوم الآخر، فليس كإيمان المؤمنين، وذلك أنهم يعتقدون بعثة الأرواح دون الأجساد ويعتقدون أن أهل الجنة لا يأكلون فيها ولا يشربون ولا ينكحون ومن اعتقد ذلك فليس إيمانه كإيمان المؤمنين وإن زعم أنه مؤمن.

وقوله تعالى: ﴿**ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله**﴾ يعني: ولا يحرمون الخمر والخنزير. وقيل: معناه أنهم لا يحرمون ما حرم الله في القرآن ولا ما حرم رسوله في السنة. وقيل: معناه لا يعملون بما في التوراة والإنجيل بل حرفوهما وأتوا بأحكام من قبل أنفسهم ﴿**ولا يدينون دين الحق**﴾ يعني: ولا يعتقدون صحة الإسلام الذي هو دين الحق. وقيل: الحق هو الله تعالى ومعناه: ولا يدينون دين الله ودينه الإسلام وهو قوله تعالى إن الدين عند الله الإسلام وقيل معناه ولا يدينون دين أهل الحق وهم المسلمون ولا يطيعون الله كطاعتهم ﴿**من الذين أوتوا الكتاب**﴾ يعني أعطوا الكتاب وهم اليهود والنصارى ﴿**حتى يعطوا الجزية**﴾ وهي ما يعطى المعاهد من أهل الكتاب على عهده وهي الخراج المضروب على رقابهم سميت جزية للاجتزاء بها في حقن دمائهم ﴿**عن يد**﴾ يعني عن قهر وغلبة يقال لكل من أعطى شيئاً كرهاً من غير طيب نفس أعطى عن يد وقال ابن عباس: يعطونها بأيديهم ولا يرسلون بها على يد غيرهم وقيل: يعطونها نقداً لانسيئة. وقيل: يعطونها مع إقرارهم بإنعام المسلمين عليهم بقبولها منهم ﴿**وهم صاغرون**﴾ من الصغار وهو الذل والإهانة يعني يعطون الجزية وهم أذلاء مقهورون وقال عكرمة: يعطون الجزية وهم قائمون والقابض جالس. وقال ابن عباس: تؤخذ الجزية من أحدهم وتوطأ عنقه وقال الكلبي: إذا أعطى يصفع قفاه وقال هو أن يؤخذ بلحيته ويضرب في لهزمتيه ويقال له أدِّ حق الله يا عدو الله وقال الإمام الشافعي رضي الله تعالى عنه: الصغار هو جريان أحكام المسلمين عليهم.

دينَ الله، ودينه الإسلام. وقال أبو عبيدة: معناه ولا يطيعون الله تعالى طاعة أهل الحقّ. ﴿ **مِنَ الذين أُوتُوا الكتابَ** ﴾، يعني: اليهود والنصارى. ﴿ **حتَّى يعطُوا الجزية** ﴾، وهي الخراج المضروب على رقابهم، ﴿ **عَنْ يَدٍ** ﴾، عن قهر وذلّ. قال أبو عبيدة: يقال لكل مَن أعطى شيئاً كرهاً من غير طيب نفس أعطاه عن يد. وقال ابن عباس: يعطونها بأيديهم ولا يرسلون بها على يد غيرهم. وقيل: عن يد أي نقد لا نسيئة. وقيل: عن إقرار بإنعام المسلمين عليهم بقبول الجزية منهم، ﴿ **وهم صَاغِرُون** ﴾، أذلّاء مقهورون. قال عكرمة: يعطون الجزية عن قيام، والقابض جالس. وعن ابن عباس قال: تُؤخذ منه ويُوطأ عنقه، وقال الكلبي: إذا أعطى صفع في قفاه. وقيل: يؤخذ بلحيته ويضرب في لهزمتيه، وقيل: يُلبّب ويُجرّ إلى موضع الإعطاء بعنف وقيل: إعطاؤه إيّاها هو الصغار. وقال الشافعي رحمه الله: الصغار هو جريان أحكام الإسلام عليهم، واتفقت الأمة على جواز أخذ الجزية من أهل الكتابين، وهم اليهود والنصارى إذا لم يكونوا عرباً. واختلفوا في الكتابي العربي وفي غير أهل الكتاب من كفّار العجم، فذهب الشافعي إلى أنّ الجزية على الأديان لا على الأنساب فتؤخذ من أهل الكتاب عرباً كانوا أو عجماً، ولا تؤخذ من أهل الأوثان بحال، واحتجّ بأن النبي ﷺ أخذها من أكيد رِدومة، وهو رجل من العرب يقال إنه من غسان، وأخذ من أهل ذمّة اليمن وعامّتهم عرب. وذهب مالك والأوزاعي إلى أنها تؤخذ من جميع الكفّار إلّا المرتد، وقال أبو حنيفة رضي الله عنه: تُؤخذ من أهل الكتاب على العموم وتؤخذ من مشركي العجم ولا تؤخذ من مشركي العرب. وقال أبو يوسف: لا تؤخذ من العربي كتابياً كان أو مشركاً وتُؤخذ من العجمي كتابياً كان أو مشركاً، وأما المجوس فاتفقت الصحابة رضي الله عنهم على أخذ الجزية منهم. أخبرنا عبد الوهاب بن محمد الخطيب أنا

(فصل في بيان أحكام الآية)

اجتمعت الأمة على جواز أخذ الجزية من أهل الكتاب وهم اليهود والنصارى إذا لم يكونوا عرباً واختلفوا في أهل الكتاب العرب وفي غير أهل الكتاب من كفار العجم، فذهب الشافعي إلى أن الجزية على الأديان لا على الأنساب فتؤخذ من أهل الكتاب عرباً كانوا أو عجماً ولا تؤخذ من عبدة الأوثان بحال واحتج بما روي عن أنس: أن النبي ﷺ بعث خالد بن الوليد إلى أكيد ردومة فأخذوه فأتوا به فحقن دمه وصالحه على الجزية أخرجه أبو داود وقال الشافعي: وهو رجل من العرب يقال إنه من غسان وأخذ من أهل ذمة اليمن وعامتهم عرب وذهب مالك والأوزاعي إلى أن الجزية تؤخذ من جميع الكفار إلا المرتد. وقال أبو حنيفة: تؤخذ من أهل الكتاب على العموم وتؤخذ من مشركي العجم ولا تؤخذ من مشركي العرب وقال أبو يوسف: لا تؤخذ من العربي كتابياً كان أو مشركاً وتؤخذ من العجمي كتابياً كان أو مشركاً وأما المجوس فاتفقت الصحابة على جواز الأخذ منهم ويدل عليه ما روي عن بجالة بن عبيدة ويقال عبدة: لم يكن عمر أخذ الجزية من المجوس حتى شهد عبد الرحمن بن عوف أن رسول الله ﷺ أخذها من مجوس هجر. أخرجه البخاري عن جعفر بن محمد عن أبيه أن عمر بن الخطاب ذكر المجوس فقال ما أدري كيف أصنع في أمرهم فقال عبد الرحمن بن عوف أشهد أني سمعت رسول الله ﷺ: «يقول سنوابهم سنة أهل الكتاب» أخرجه مالك في الموطأ عن ابن شهاب قال بلغني أن رسول الله ﷺ أخذ الجزية من مجوس البحرين وأن عمر أخذها من مجوس فارس وأن عثمان بن عفان أخذها من البربر أخرجه مالك في الموطأ وفي امتناع عمر من أخذ الجزية من المجوس حتى شهد عبد الرحمن أن النبي ﷺ أخذها منهم دليل على أن رأي الصحابة كان على أنها لا تؤخذ من كل مشرك وإنما تؤخذ من أهل الكتاب واختلفوا في أن المجوس هل هم من أهل الكتاب. فروي عن علي بن أبي طالب أنه قال كان لهم كتاب يدرسونه فأصبحوا وقد أسرى على كتابهم فرفع من بين أظهرهم واتفقوا على تحريم ذبائحهم ومناكحتهم بخلاف أهل الكتاب وأما من دخل في دين اليهود والنصارى من غيرهم من المشركين فينظر فإن كانوا قد دخلوا فيه قبل النسخ والتبديل فإنهم يقرون بالجزية وتحل مناكحتهم وذبائحهم وإن كانوا دخلوا فيه بعد النسخ بمجيء محمد ﷺ ونسخ شريعتهم بشريعته فإنهم لا يقرون بالجزية ولا تحل ذبائحهم ومناكحتهم ومن شككنا في أمرهم هل دخلوا فيه بعد النسخ أو قبله يقرون بالجزية تغليباً لحقن الدم ولا تحل ذبائحهم ومناكحتهم تغليباً للتحريم ومنهم نصارى العرب من تنوخ وبهراء وبني تغلب أقرهم عمر على الجزية. وقال: لا تحل لنا ذبائحهم وأما الصابئة والسامرة

عبد العزيز بن أحمد الخلال أنا أبو العباس الأصم أنا الربيع أنا الشافعي أنا سفيان عن عمرو بن دينار سمع بجالة بن عبيدة يقول: لم يكن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أخذ الجزية من المجوس حتى شهد عبد الرحمن بن عوف أن النبي ﷺ أخذها من مجوس هجر. أخبرنا أبو الحسن السرخسي أنا زاهر بن أحمد أبو إسحاق الهاشمي أنا أبو مصعب عن مالك عن جعفر بن محمد عن أبيه أن عمر بن الخطاب ذكر المجوس فقال: ما أدري كيف أصنع في أمرهم. فقال عبد الرحمن بن عوف: أشهد أني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «سُنُّوا بهم سُنّة أهل الكتاب»، وفي امتناع عمر رضي الله عنه عن أخذ الجزية من المجوس حتى شهد عبد الرحمن بن عوف أن النبي ﷺ أخذها من مجوس هجر، دليل على أن رأي الصحابة كان على أنها لا تُؤخذ من كل مشرك، وإنما تُؤخذ من أهل الكتاب.
واختلفوا في أن المجوس: هل هم من أهل الكتاب أم لا؟ فرُوِيَ عن علي رضي الله عنه قال: كان لهم كتاب يدرسونه فأصبحوا يوماً، وقد أُسري على كتابهم، فرُفعَ من بين أظهرهم واتفقوا على تحريم ذبائح المجوس ومناكحتهم بخلاف أهل الكتابين، أما مَن دخل في دين اليهود والنصارى من غيرهم من المشركين نظر، إن دخلوا فيه قبل النسخ والتبديل يُقرُّون بالجزية وتحلّ مناكحتهم وذبائحهم، وإن دخلوا في دينهم بعد النسخ بمجيء

فسبيلهم سبيل أهل الكتاب فهم في أهل الكتاب كأهل البدع في المسلمين وأما قدر الجزية فأقلها دينار ولا يجوز أن ينقص عنه ويقبل الدينار من الغني والفقير والمتوسط ويدل عليه ما روي عن معاذ بن جبل: «أن رسول الله ﷺ لما وجهه إلى اليمن أمره أن يأخذ من كل حالم أي محتلم ديناراً أو عدله من المغافرية ثياب تكون باليمن» أخرجه أبو داود فالنبي ﷺ أمره أن يأخذ من كل محتلم وهو البالغ ديناراً ولم يفرق بين الغني والفقير والمتوسط وفيه دليل على أنه لا تؤخذ الجزية من الصبيان والنساء وإنما تؤخذ من الأحرار البالغين وذهب قوم إلى أن على كل موسر أربعة دنانير وعى كل متوسط دينارين وعلى كل فقير ديناراً وهو قول أصحاب الرأي ويدل عليه ما روي عن أسلم أن عمر بن الخطاب ضرب الجزية على أهل الذهب أربعة دنانير وعلى أهل الورق أربعين درهماً ومع ذلك أرزاق المسلمين وضيافة ثلاثة أيام أخرجه مالك في الموطأ. قال أصحاب الشافعي: أقل الجزية دينار لا يزاد على الدينار إلا بالتراضي فإذا رضي أهل الذمة بالزيادة ضربنا على المتوسط دينارين وعلى الغني أربعة دنانير قال العلماء: إنما أقر أهل الكتاب على دينهم الباطل بخلاف أهل الشرك حرمة لآبائهم الذين انقرضوا على الدين من شريعة التوراة والإنجيل قبل النسخ والتبديل وأيضاً فإن بأيديهم كتباً قديمة فربما تفكروا فيها فيعرفون صدق محمد ﷺ وصحة نبوته فأمهلوا لهذا المعنى وليس المقصود من أخذ الجزية من أهل الكتاب إقرارهم على كفرهم بل المقصود من ذلك حقن دمائهم وإمهالهم رجاء أن يعرفوا الحق فيرجعوا إليه بأن يؤمنوا ويصدقوا إذا رأوا محاسن الإسلام وقوة دلائله وكثرة الداخلين فيه.

وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَـٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾

قوله عز وجل: ﴿وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله﴾ الآية لما ذكر الله سبحانه وتعالى في الآية المتقدمة أن اليهود والنصارى لا يؤمنون بالله ولا يدينون دين الحق بينه في هذه الآية فأخبر عنهم أنهم أثبتوا لله ولداً ومن جوز ذلك على الله فقد أشرك به لأنه لا فرق بين من يعبد صنماً وبين من يعبد المسيح فقد بان بهذا أنهم لا يؤمنون بالله ولا يدينون دين الحق وقد تقدم سبب أخذ الجزية منهم وإبقائهم على هذا الشرك وهو حرمة الكتب القديمة

محمد ﷺ لا يقرّون بالجزية لا تحلّ مناكحتهم وذبائحهم، ومَن شككنا في أمرهم أنهم دخلوا فيه بعد النسخ أو قبله يقرّون بالجزية تغليباً لحقن الدم، ولا تحلّ مناكحتهم وذبائحهم تغليباً للتحريم، فمنهم نصارى العرب من تنوخ وبهراء وبني تغلب أقرّهم عمر رضي الله عنه على الجزية، وقال: لا تحلّ لنا ذبائحهم. وأما قدر الجزية فأقلّه دينار لا يجوز أن ينقص منه، ويقبل الدينار من الفقير والغني والوسط لِما أخبرنا أبو عثمان سعيد بن إسماعيل الضبي أنا أبو محمد عبد الجبّار بن محمد الجراحي ثنا أبو العباس محمد بن أحمد المحبوبي ثنا أبو عيسى الترمذي ثنا محمود بن غِيلان ثنا عبد الرزاق أنا معمر أنا سفيان عن الأعمش عن أبي وائل عن مسروق عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: بعثني رسول الله ﷺ إلى اليمن فأمره أن يأخذ من كل حالم ديناراً وعدله مغافر. فالنبي ﷺ أمره أن يأخذ من كل حَالِم، أي بالغ ديناراً ولم يفصل بين الغني والفقير والوسط، وفيه دليل على أنها لا تجب على الصبيان وكذلك لا تجب على النسوان، إنما تُؤخذ من الأحرار العاقلين البالغين من الرجال. وذهب قوم إلى أنه على كل موسر أربعة دنانير، وعلى كل متوسط ديناران، وعلى كل فقير دينار، وهو قول أصحاب الرأي.

قوله تعالى: ﴿ وقالتِ اليهودُ عُزَيْرٌ ابنُ اللّهِ وقالتِ النّصارَى المسيحُ ابنُ اللّهِ ﴾، روى سعيد بن جبير وعكرمة عن ابن عباس قال: أتى رسول الله ﷺ جماعةٌ من اليهود سلام بن مشكم والنعمان بن أوفى وشاس بن قيس ومالك بن الصيف، فقالوا: كيف نتبعك وقد تركت قبلتنا وأنت لا تزعم أن عزير ابن الله؟ فأنزل الله عزّ وجلّ:

التي بأيديهم ولعلهم يتفكرون فيها ويعرفون الحق فيرجعون إليه. روى سعيد بن جبير وعكرمة عن ابن عباس قال: أتى رسول الله ﷺ جماعة من اليهود سلام بن مشكم والنعمان بن أوفى وشاس بن قيس ومالك بن الصيف فقالوا كيف نتبعك وقد تركت قبلتنا وأنت لا تزعم أن عزيراً ابن الله فأنزل الله هذه الآية. وقال عبيد بن عمير إنما قال هذه المقالة رجل واحد من اليهود اسمه فنحاص بن عازوراء وهو الذي قال إن الله فقير ونحن أغنياء فعلى هذين القولين القائل لهذه المقالة جماعة من اليهود أو واحد وإنما نسب ذلك إلى اليهود في وقالت اليهود جرياً على عادة العرب في إيقاع اسم الجماعة على الواحد تقول العرب فلان يركب الخيل وإنما يركب فرساً واحداً منها. وتقول العرب: فلان مجالس الملوك ولعله لم يجالس إلا واحداً منهم وروى عطية العوفي عن ابن عباس أنه قال: إنما قالت اليهود ذلك من أجل أن عزير كان فيهم وكانت التوراة عندهم والتابوت فيهم فأضاعوا التوراة وعملوا بغير الحق فرفع الله سبحانه وتعالى عنهم التابوت وأنساهم التوراة ونسخها من صدورهم فدعا الله عزير وابتهل إليه أن يرد إليه التوراة فبينما هو يصلي مبتهلاً إلى الله عز وجل نزل نور من السماء فدخل جوفه فعادت إليه فأذن في قومه وقال يا قوم قد أتاني الله التوراة وردها إليّ فعلقوا به يعلمهم ثم مكثوا ما شاء الله ثم إن التابوت نزل بعد ذهابه منهم فلما رأوا التابوت عرضوا ما كان يعلمهم عزير على ما في التابوت فوجدوه مثله فقالوا ما أوتي عزير هذا إلا أنه ابن الله. وقال الكلبي: إن بختنصر لما غزا بيت المقدس وظهر على بني إسرائيل وقتل من قرأ التوراة كان عزير إذ ذاك صغيراً فلم يقتله لصغره فلما رجع بنو إسرائيل إلى بيت المقدس وليس فيهم من يقرأ التوراة بعث الله لهم عزيرا ليجدد لهم التوراة ويكون لهم آية بعدما أماته الله مائة سنة قال فأتى ملك بإناء فيه ماء فشرب منه فمثلت له التوراة في صدره فلما أتاهم قال أنا عزير فكذبوه وقالوا إن كنت كما تزعم فأمل علينا التوراة فكتبها لهم من صدره ثم إن رجلاً منهم قال إن أبي حدثني عن جدي أن التوراة جعلت في خابية ودفنت في كرم فانطلقوا معه حتى أخرجوها فعارضوها بما كتب لهم عزير فلم يجدوه غادر حرفاً فقالوا إن الله لم يقذف التوراة في قلب عزير إلا أنه ابنه فعند ذلك قالت اليهود: عزير ابن الله فعلى هذين القولين أن هذا القول كان فاشياً في اليهود جميعاً ثم إنه انقطع واندرس فأخبر الله تعالى به عنهم وأظهره عليهم ولا عبرة بإنكار اليهود ذلك فإن

﴿ **وقالتِ اليهودُ عزيرٌ ابنُ الله** ﴾، قرأ عاصم والكسائي ويعقوب « عزير » بالتنوين والآخرون بغير تنوين، فمَن لم ينوّن قال: لأنه اسم أعجمي ويشبه اسماً مصغّراً، ومَن نوّن قال: لأنه اسم خفيف، فوجهه أن يصرف، وإن كان أعجمياً مثل نوح وهود ولوط. واختار أبو عبيدة التنوين وقال: لأن هذا ليس بمنسوب إلى أبيه، إنما هو كقولك زيد ابن الأمير وزيد ابن أخينا فعزيرٌ مبتدأ وما بعده خبر له. وقال عبيد بن عمير: إنما قال هذه المقالة رجل واحد من اليهود اسمه فنحاص بن عازوراء، وهو الذي قال: إن الله فقير ونحن أغنياء، وروى عطية العوفي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: إنما قالت اليهود عزير ابن الله من أجل أن عزيراً كان فيهم وكانت التوراة عندهم والتابوت فيهم، فأضاعوا التوراة وعملوا بغير الحق، فرفع الله عنهم التابوت وأنساهم التوراة ونسخها من صدورهم، فدعا الله عزير وابتهل إليه أن يرد إليه الذي نسخ من صدورهم، فبينما هو يصلّي مبتهلاً إلى الله تعالى نزل نور من السماء فدخل جوفه فعادت إليه التوراة فأذن في قومه، وقال: يا قوم إن الله تعالى قد آتاني التوراة وردّها إليّ فعلّق بها الناس يعلمهم، فمكثوا ما شاء الله تعالى ثم إن التابوت نزل بعد ذهابه منهم، فلما رأوا التابوت عرضوا ما كان فيه على الذي كان يعلمهم عزير فوجدوه مثله، فقالوا: ما أُوتي عزير هذا إلاّ أنه ابن الله. وقال الكلبي: إن بختنصر لما ظهر على بني إسرائيل وقتل مَن قرأ التوراة، وكان عزير إذ ذاك صغيراً فاستصغره فلم يقتله، فلما رجع بنو إسرائيل إلى بيت المقدس وليس فيهم مَن يقرأ التوراة بعث الله عزيراً ليجدَ لهم التوراة وتكون لهم آية بعد مائة سنة، يقال: أتاه ملك بإناء فيه ماء فسقاه فمثلت التوراة في صدره، فلما أتاهم قال: أنا عزير فكذّبوه وقالوا: إن كنت كما تزعم فأملِ

خبر الله عز وجل أصدق وأثبت من إنكارهم وأما قول النصارى المسيح ابن الله فكان السبب فيه أنهم كانوا على الدين الحق بعد رفع عيسى عليه السلام إحدى وثمانين سنة يصلون إلى القبلة ويصومون رمضان حتى وقع بينهم وبين اليهود حرب وكان في اليهود رجل شجاع يقال له بولص قتل جماعة من أصحاب عيسى عليه السلام ثم قال بولص لليهود إن كان الحق مع عيسى فقد كفرنا والنار مصيرنا فنحن مغبونون إن دخلنا النار ودخلوا الجنة فإني سأحتال وأضلهم حتى يدخلوا النار معنا ثم إنه عمد إلى فرس كان يقاتل عليه فعرقبه وأظهر الندامة والتوبة ووضع التراب على رأسه ثم أتى إلى النصارى فقالوا له من أنت قال: أنا عدوكم بولص فقد نوديت من السماء أنه ليس لك توبة حتى تتنصر وقد تبت وأتيتكم فأدخلوه السكينة ونصروه وأدخلوه بيتاً منها لم يخرج منه سنة حتى تعلم الإنجيل ثم خرج وقال قد نوديت أن الله قبل توبتك فصدقوه وأحبوه وعلا شأنه فيهم ثم إنه عمد إلى ثلاثة رجال اسم الواحد منهم نسطور والآخر يعقوب والآخر ملكان فعلم نسطور أن عيسى ومريم والإله ثلاثة وعلم يعقوب أن عيسى ليس بإنسان ولكنه ابن الله وعلم ملكان أن عيسى هو الله لم يزل ولا يزال فلما استمكن ذلك فيهم دعا كل واحد منهم في الخلوة وقال له: أنت خالصتي وادع الناس لما علمتك وأمره أن يذهب إلى ناحية من البلاد ثم قال لهم: إني رأيت عيسى في المنام وقد رضي عني وقال لكل واحد منهم: إني سأذبح نفسي تقرباً إلى عيسى ثم ذهب إلى المذبح فذبح نفسه وتفرق أولئك الثلاثة فذهب واحد إلى الروم وواحد إلى بيت المقدس والآخر إلى ناحية أخرى وأظهر كل واحد منهم مقالته ودعا الناس إليها فتبعه على ذلك طوائف من الناس فتفرقوا واختلفوا ووقع القتال فكان ذلك سبب قولهم المسيح ابن الله.

وقال الإمام فخر الدين الرازي، بعد أن حكى هذه الحكاية: والأقرب عندي أن يقال لعله ذكر لفظ الابن في الإنجيل على سبيل التشريف كما ورد لفظ الخليل في حق إبراهيم على سبيل التشريف فبالغوا وفسروا لفظ الابن بالبنوة الحقيقية والجهال قبلوا ذلك منهم وفشا هذا المذهب الفاسد في أتباع عيسى عليه السلام والله أعلم بحقيقة

علينا التوراة، فكتبها لهم، ثم إن رجلاً قال: إن أبي حدّثني عن جدّي أن التوراة جعلت في خابية ودفنت في كرم، فانطلقوا معه حتى أخرجوها، فعارضوها بمـا كتب لهـم عزير فلم يجدوه غادر منها حرفاً، فقالوا: إن الله لم يقذف التـوراة في قلب رجـل إلّا آمن، فعنـد ذلـك قـالت اليهـود: عـزيـرٌ ابن الله. وأمّـا النصـارى فقـالـوا: المسيـح ابن الله، وكان السبب فيه أنهم كانوا على دين الإسلام إحدى وثمانين سنة بعدما رُفع عيسى عليه السلام يصلّون إلى القِبلة ويصومون رمضان حتى وقع فيما بينهم وبين اليهود حرب، وكان في اليهود رجل شجاع يقال له بولص قتل جماعة من أصحاب عيسى عليه السلام ثم قال لليهود: إن كان الحق مع عيسى فقد كفرنا به والنار مصيرنا، فإني أحتال وأضلّهم حتى يدخلوا النار، وكان له فرس يقال له العقاب يقاتل عليه فعرقب فرسه وأظهر الندامة، ووضع على رأسه التراب، فقال له النصارى: مَن أنت؟ قال: بولص عدوّكم فنوديت من السماء ليست لك توبة إلّا أن تتنصّر وقد تبت، فأدخلوه الكنيسة، ودخل بيتاً سنة لا يخرج منه ليلاً ولا نهاراً حتى تعلّم الإنجيل، ثم خرج وقال: نوديت أن الله قبل توبتك، فصدّقوه وأحبّوه ثم مضى إلى بيت المقدس واستخلف عليهم نسطوراً وعلّمه أن عيسى ومريم والإلّه كانوا ثلاثة، ثم توجّه إلى الروم وعلّمهم اللاّهوت والناسوت، وقال: لم يكن عيسى بإنس ولا بجسم ولكنه ابن الله، وعلّم ذلك رجلاً يقال له يعقوب، ثم دعا رجلاً يقال له ملكاً فقال له: إن الإلّه لم يزل ولا يزال عيسى فلما استمكن منهم دعا هؤلاء الثلاثة واحداً واحداً، وقال لكل واحد منهم أنت خالصتي، وقد رأيت عيسى في المنام فرضي عنّي وقال لكل واحد منهم: إني غداً أذبح نفسي، فادعُ الناس إلى تحلتك، ثم دخل المذبح فذبح نفسه وقال: إنما أفعل ذلك لمرضاة عيسى، فلما كان يوم ثالثه دعا كل واحد منهم الناس إلى تحلته، فتبع كلَّ واحد طائفة من الناس، فاختلفوا واقتتلوا فقال الله عزّ وجلّ: ﴿ **وقالتِ النّصارى المسيحُ ابنُ اللّهِ ذلك قولُهم بأفواهِهم** ﴾،

الحال ﴿ذلك قولهم بأفواههم﴾ يعني أنهم يقولون ذلك القول بألسنتهم من غير علم يرجعون إليه قال أهل المعاني: لم يذكر الله قولاً مقروناً بالأفواه والألسن إلا كان ذلك القول زوراً وكذباً لا حقيقة له ﴿يضاهئون﴾ قال ابن عباس: يشابهون والمضاهاة المشابهة. وقال مجاهد: يواطؤون وقال الحسن: يوافقون ﴿قول الذين كفروا من قبل﴾ قال قتادة والسدي: معناه ضاهت النصارى قول اليهود من قبلهم فقالوا: المسيح ابن الله كما قالت اليهود عزير ابن الله. وقال مجاهد: معناه يضاهئون قول المشركين من قبل لأن المشركين كانوا يقولون: الملائكة بنات الله وقال الحسن: شبه الله كفر اليهود والنصارى بكفر الذين مضوا من الأمم الخالية الكافرة. وقال القتيبي: يريد أن من كان في عصر النبي ﷺ من اليهود والنصارى يقولون ما قال أولوهم ﴿قاتلهم الله﴾ قال ابن عباس: لعنهم الله وقال ابن جريج: قتلهم الله وقيل ليس هو على تحقيق المقاتلة ولكنه بمعنى التعجب أي حق أن يقال لهم هذا القول تعجباً من بشاعة قولهم كما يقال لمن فعل فعلاً يتعجب منه قاتله الله ما أعجب فعله ﴿أنى يؤفكون﴾ يعني أنى يصرفون عن الحق بعد وضوح الدليل وإقامة الحجة بأن الله واحد أحد فجعلوا له ولداً تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً وهذا التعجب راجع إلى الخلق لأن الله سبحانه وتعالى لا يتعجب من شيء ولكن هذا الخطاب على عادة العرب في مخاطبتهم فالله سبحانه وتعالى عجب نبيه ﷺ من تركهم الحق وإصرارهم على الباطل.

﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾

قوله سبحانه وتعالى: ﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله﴾ يعني اتخذ اليهود والنصارى علماءهم وقراءهم والأحبار العلماء من اليهود والرهبان أصحاب الصوامع من النصارى أرباباً من دون الله يعني أنهم أطاعوهم في معصية الله تعالى وذلك أنهم أحلوا لهم أشياء وحرموا عليهم أشياء من قبل أنفسهم فأطاعوهم فيها فاتخذوهم كالأرباب لأنهم عبدوهم واعتقدوا فيهم الإلهية. عن عدي بن حاتم قال: أتيت النبي ﷺ وفي عنقي صليب من ذهب فقال: «يا عدي اطرح عنك هذا الوثن وسمعته يقرأ في سورة براءة ﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله﴾

يقولون بألسنتهم من غير علم. قال أهل المعاني: لم يذكر الله تعالى قولاً مقروناً بالأفواه والألسن إلّا كان ذلك زوراً. ﴿ يُضاهِؤونَ ﴾، قرأ عاصم بكسر الهاء مهموزاً، والآخرون بضمّ الهاء مهموزاً، وهما لغتان يقال: ضاهيته وضاهأته، ومعناهما واحد. قال ابن عباس رضي الله عنه: يشابهون. والمضاهاة المشابهة. وقال مجاهد: يوطّئون. وقال الحسن: يوافقون، ﴿ قولَ الذين كفرُوا مِنْ قبلُ ﴾، قال قتادة والسدي: ضاهت النصارى قول اليهود من قبل، فقالوا: المسيح ابن الله كما قالت اليهود من قبل عزير ابن الله. وقال مجاهد: يضاهؤون قول المشركين من قبل الذين كانوا يقولون اللّات والعُزّى ومناة بنات الله. وقال الحسن: شبّه كفرَهم بكفر الذين مضوا من الأمم الكافرة كما قال في مشركي العرب: ﴿ كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم تشابهت قلوبهم﴾ [البقرة: ١١٨]. وقال القتيبي: يريد أن مَن كان في عصر النبي ﷺ من اليهود والنصارى يقولون ما قال أوّلوهم، ﴿ قاتَلَهُم اللّهُ ﴾، قال ابن عباس: لعنهم الله. وقال ابن جريج: أي: قتلهم الله. وقيل: ليس هو على تحقيق المقاتلة ولكنه بمعنى العجب، ﴿ أنّى يُؤفكون ﴾، أي: يصرفون عن الحق بعد قيام الأدلّة عليه.

﴿ اتّخذُوا أحبارَهم ورُهبانَهم ﴾، أي: علماءهم وقرّاءهم، والأحبار العلماء وأحدها حبر، وحبر بكسر الحاء وفتحها، والرهبان من النصارى أصحاب الصوامع واحدها راهب، كصاحب وصحبان، ﴿ أرباباً ﴾، فإن قيل: إنهم لم يعبدوا الأحبار والرهبان؟ قلنا: معناه أنهم أطاعوهم في معصية الله واستحلّوا ما أحلّوا وحرّموا ما حرّموا،

فقال: أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئاً استحلوه وإذا حرموا عليهم شيئاً حرموه» أخرجه الترمذي وقال: حديث غريب. قال عبد الله بن المبارك:

وهـل بـدل الـديـن إلا الملـوك وأحبـار سـوء ورهبـانهـا

﴿والمسيح ابن مريم﴾ يعني اتخذوه إلهاً وذلك لما اعتقدوا فيه النبوة والحلول اعتقدوا فيه الإلهية ﴿وما أمروا﴾ يعني وما أمروا في الكتب القديمة المنزلة عليهم على ألسنة أنبيائهم ﴿إلا ليعبدوا إلهاً واحداً﴾ لأنه سبحانه وتعالى هو المستحق للعبادة لا غيره ﴿لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون﴾ أي تعالى الله وتنزه عن أن يكون له شريك في العبادة والأحكام وأن يكون له شريك في الإلهية يستحق التعظيم والإجلال.

﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾

﴿يريدون﴾ يعني يريد رؤساء اليهود والنصارى ﴿أن يطفئوا نور الله بأفواههم﴾ يعني يريد هؤلاء إبطال دين الله الذي جاء به محمد ﷺ بتكذيبهم إياه. وقيل المراد: من النور الدلائل الدالة على صحة نبوته ﷺ وهي أمور أحدها المعجزات الباهرات الخارقة للعادة التي ظهرت على يد النبي ﷺ الدالة على صدقه وثانيها القرآن العظيم الذي نزل عليه من عند الله فهو معجزة له باقية على الأبد دالة على صدقه وثالثها أن دينه الذي أمر به هو دين الإسلام ليس فيه شيء سوى تعظيم الله والثناء عليه والانقياد لأمره ونهيه واتباع طاعته والأمر بعبادته والتبرىء من كل معبود سواه فهذه أمور نيرة ودلائل واضحة في صحة نبوة محمد ﷺ فمن أراد إبطال ذلك بكذب وتزوير فقد خاب سعيه وبطل عمله ثم إن الله سبحانه وتعالى وعد نبيه محمداً ﷺ بمزيد النصر وإعلاء الكلمة وإظهار الدين بقوله: ﴿ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون﴾ يعني ويأبى الله إلا أن يعلي دينه ويظهر كلمته ويتم الحق الذي بعث به رسوله محمداً ﷺ ولو كره ذلك الكافرون.

قوله عز وجل: ﴿هو الذي أرسل رسوله﴾ يعني أن الله الذي يأبى إلا أن يتم نوره هو الذي أرسل رسوله يعني

فاتخذوهم كالأرباب. رُوِيَ عن عدي بـن حاتم رضي الله عنه قال: أتيتُ رسولَ الله ﷺ وفي عنقي صليب من ذهب فقال لي: «يا عديّ اطرحْ هذا الوثن من عنقك»، فطرحته فلما انتهيت إليه وهو يقرأ: ﴿ اتخذوا أحبارَهم ورهبانَهم أرباباً مِّن دُونِ الله ﴾، حتى فرغ منها، قلت: إنّا لسنا نعبدهم، فقال: «أليس يُحرّمون ما أحلّ الله فتحرّمونه ويحلّون ما حرّم الله فتستحلّونه»؟ قال: قلت: بلى، قال: «فتلك عبادتهم». قال عبد الله بن المبارك:

وهـلْ بـدّلَ الـديـنَ إلاّ المـلوك وأحـبـارُ سُـوء ورهـبـانُـهـا

﴿ والمسيحَ ابنَ مريمَ ﴾، أي: اتخذوه إلّهاً، ﴿ وما أُمرُوا إلاّ لِيَعْبدُوا إلّهاً واحداً لا إلّه إلاّ هو سبحانه عمّا يُشركون ﴾.

﴿ يريدون أنْ يُطفِئوا نُورَ اللّهِ بأفواهِهم ﴾، أي: يبطلوا دين الله بألسنتهم وتكذيبهم إياه. وقال الكلبي: النور القرآن، أي: يريدون أن يردّوا القرآن بألسنتهم تكذيباً، ﴿ ويأبَى اللّهُ إلاّ أنْ يُتمّ نورَهُ ﴾، أي: يُعلي دينه ويُظهِر كلمته ويتمّ الحق الذي بعثَ به محمداً ﷺ، ﴿ ولو كَرِهَ الكافرون ﴾.

﴿ هو الذي أرسلَ رسولَهُ ﴾، يعني: الذي يأبى إلاّ إتمام دينه هو الذي أرسل رسوله محمداً ﷺ، ﴿ بالهدى ﴾، قيل: بالقرآن. وقيل: ببيان الفرائض، ﴿ ودينِ الحقّ ﴾، وهو الإسلام، ﴿ ليظهرَهُ ﴾، ليُعليه

محمداً ﷺ ﴿بالهدى﴾ يعني بالقرآن الذي أنزله عليه وجعله هادياً إليه ﴿ودين الحق﴾ يعني دين الإسلام ﴿ليظهره﴾ يعني ليعليه ﴿على الدين كله﴾ يعني على سائر الأديان وقال ابن عباس: الهاء في ليظهره عائدة إلى الرسول ﷺ والمعنى ليعلمه شرائع الدين كلها ويظهره عليها حتى لا يخفى عليه شيء منها وقال غيره من المفسرين الهاء راجعة إلى الدين الحق والمعنى ليظهر دين الإسلام على الأديان كلها وهو ألا يعبد الله إلا به وقال أبو هريرة والضحاك ذلك عند نزول عيسى عليه السلام فلا يبقى أهل دين إلا دخلوا في الإسلام ويدل على صحة هذا التأويل ما روي عن أبي هريرة في حديث نزول عيسى عليه السلام قال: قال النبي ﷺ ويهلك في زمانه الملل كلها إلا الإسلام. عن المقداد قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يبقى على وجه الأرض بيت مدر ولا وبر إلا أدخله الله كلمة الإسلام إما بعز عزيز أو بذل ذليل إما أن يعزهم فيجعلهم من أهله فيعزوا به وإما أن يذلهم فيدينون له» أخرجه البغوي بغير سند (م) عن عائشة قالت سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يذهب الليل والنهار حتى تعبد اللات والعزى فقلت يا رسول الله إني كنت أظن حين أنزل الله تعالى هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله إن ذلك تام قال إنه سيكون ذلك ما شاء الله ثم يبعث ريحاً طيبة تتوفى كل من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان فيبقى من لا خير فيه فيرجعون إلى دين آبائهم» قال الشافعي: وقد أظهر الله دين رسوله ﷺ على الأديان كلها بأن أبان لكل من سمعه أنه الحق وما خالفه من الأديان باطل وقال وأظهره على الشرك دين أهل الكتاب ودين الأميين فقهر رسول الله ﷺ الأميين حتى دانوا بالإسلام طوعاً وكرهاً وقتل أهل الكتاب وسبى حتى دان بعضهم بالإسلام وأعطى بعضهم الجزية صاغرين وجرى عليهم حكمه فهذا هو ظهوره على الدين كله ﴿ولو كره المشركون﴾ قوله تعالى:

وينصره، ﴿ على الدِّين كله ﴾، على سائر الأديان كلها، ﴿ ولو كَرِهَ المشركون ﴾، واختلفوا في معنى هذه الآية، فقال ابن عباس: الهاء عائدة إلى رسول الله ﷺ أي: ليعلّمه شرائع الدين كلها فيُظهره عليها حتى لا يخفى عليه منها شيء. وقال الآخرون: الهاء راجعة إلى دين الحق، وظهوره على الأديان هو أن لا يُدانَ الله تعالى إلاّ به. وقال أبو هريرة والضحّاك: وذلك عند نزول عيسى ابن مريم لا يبقى أهل دين إلاّ دخل في الإسلام. وروينا عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ في نزول عيسى عليه السلام قال: «ويهلك في زمانه المللُ كلُّها إلاّ الإسلام». وروى المقداد قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «لا يبقى على ظهر الأرض بيتُ مدرٍ ولا وبرٍ إلاّ أدخله الله كلمة الإسلام إمّا بعزِّ عزيز أو ذُلِّ ذليلٍ»، إما يعزّهم الله فيجعلهم من أهلها أو يذلّهم فيدينون له. قلت: فيكون الدين كله لله. أخبرنا أبو سعيد الشريحي أنا أبو إسحاق الثعلبي أنا أبو القاسم الحسن بن محمد بن حبيب ثنا أبو جعفر محمد سليمان بن منصور ثنا أبو مسلم بن إبراهيم بن عبد الله البلخي ثنا أبو عاصم النبيل ثنا عبد الحميد هو ابن جعفر عن الأسود بن العلاء عن أبي سلمة عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «لا يذهب الليل والنهار حتى تُعبدَ اللاّتُ والعُزّى»، قالت: قلت يا رسول الله ما كنت أظن أن يكون ذلك بعدما أنزل الله تعالى: ﴿ هو الذي أرسل رسولَه بالهدَى ودينِ الحقِّ ليُظهره على الدِّين كلِّه ولو كره المشركون ﴾، ثم قال: «يكون ذلك ما شاء الله ثم يبعث الله تعالى ريحاً طيبةً فتقبض مَن كان في قلبه مثقال ذرّة من خير، ثم يبقى مَن لا خير فيه، فيرجع الناس إلى دين آبائهم». قال الحسين بن الفضل: معنى الآية ليُظهره على الدين كله بالحجج الواضحة. وقيل لِيُظهره على الأديان التي حول النبي ﷺ فيغلبها. قال الشافعي رحمه الله: فقد أظهر الله رسوله ﷺ على الأديان كلها بأن أبان لكل مَن سمعه أنه الحق، وما خالفه من الأديان باطل، وقال: وأظهره على الشرك دين أهل الكتاب ودين الأُمّيين فقهر رسول الله ﷺ الأُمّيين حتى دانوا بالإسلام طوعاً وكرهاً، وقتل أهل الكتاب وسبى، حتى دان بعضهم بالإسلام وأعطى بعضهم الجزية صاغرين وجرى عليهم حكمه، فهذا ظهوره على الدين كله، والله أعلم.

﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡأَحۡبَارِ وَٱلرُّهۡبَانِ لَيَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۗ وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ٣٤﴾

﴿**يا أيها الذين آمنوا إن كثيراً من الأحبار والرهبان**﴾ قد تقدم معنى الأحبار والرهبان وإن الأحبار من اليهود والرهبان من النصارى وفي قوله سبحانه وتعالى: «إن كثيراً» دليل على أن الأقل من الأحبار والرهبان لم يأكلوا أموال الناس بالباطل ولعلهم الذين كانوا قبل بعث النبي ﷺ وعبر عن أخذ الأموال بالأكل في قوله تعالى: ﴿**ليأكلون أموال الناس بالباطل**﴾ لأن المقصود الأعظم من جمع المال الأكل فسمى الشيء باسم ما هو أعظم مقاصد واختلفوا في السبب الذي من أجله أكلوا أموال الناس بالباطل فقيل إنهم كانوا يأخذون الرشا من سفلتهم في تخفيف الشرائع والمسامحة في الأحكام وقيل إنهم كانوا يكتبون بأيديهم كتباً يحرفونها ويبدلونها ويقولون هذه من عند الله ويأخذون بها ثمناً قليلاً وهي المآكل التي كانوا يصيبونها من سفلتهم على تغيير نعت النبي ﷺ وصفته في كتبه لأنهم كانوا يخافون لو آمنوا به وصدقوه لذهبت عنهم تلك المآكل وقيل إن التوراة كانت مشتملة على آيات دالة على نعت النبي ﷺ وكان الأحبار والرهبان يذكرون في تأويلها وجوهاً فاسدة باطلة ويحرفون معانيها طلباً للرياسة وأخذ الأموال ومنع الناس عن الإيمان به وذلك قوله تعالى: ﴿**ويصدون عن سبيل الله**﴾ يعني ويمنعون الناس عن الإيمان بمحمد ﷺ والدخول في دين الإسلام ﴿**والذين يكنزون الذهب والفضة**﴾ أصل الكنز في اللغة جعل المال بعضه على بعض وحفظه ومال مكنوز مجموع واختلفوا في المراد بهؤلاء الذين ذمهم الله بسبب كنز الذهب والفضة فقيل هم أهل الكتاب. قال معاوية بن أبي سفيان: لأن الله سبحانه وتعالى وصفهم بالحرص الشديد على أخذ أموال الناس بالباطل ثم وصفهم بالبخل الشديد وهو جمع المال ومنع إخراج الحقوق الواجبة منه. وقال ابن عباس: نزلت في مانعي الزكاة من المسلمين وذلك أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر قبح طريقة الأحبار والرهبان في الحرص على أخذ الأموال بالباطل حذر المسلمين من ذلك وذكر وعيد من جمع المال ومنع حقوق الله منه. وقال أبو ذر: نزلت في أهل الكتاب وفي المسلمين. ووجه هذا القول أن الله سبحانه وتعالى وصف أهل الكتاب بالحرص على أخذ أموال الناس بالباطل ثم ذكر بعده وعيد من جمع المال ومنع الحقوق الواجبة فيه سواء كان من أهل الكتاب أو من المسلمين (خ)

قوله تعالى: ﴿ **يا أيّها الذين آمنُوا إن كثيراً من الأحبار والرُّهبان** ﴾، يعني: العلماء والقرّاء من أهل الكتاب، ﴿ **لَيأكُلُون أموالَ النّاسِ بالبَاطِلِ** ﴾، يـريد ليأخذون الرشا في أحكامهم ويُحرّفون كتاب الله ويكتبون بأيديهم كتباً يقولون هذه من عند الله، ويأخذون بها ثمناً قليلاً من سفلتهم، وهي المآكل التي يصيبونها منهم على تغيير نعت النبي ﷺ يخافون لو صدّقوه لذهبت عنهم تلك المآكل، ﴿ **ويصدُّون** ﴾، ويصرفون الناس، ﴿ **عنْ سبيل الله** ﴾، دين الله عزّ وجلّ، ﴿ **والذينَ يكنِزُونَ الذهبَ والفِضّةَ ولا يُنفقونَها في سبيل الله فبشّرْهم بعذابٍ أليم** ﴾، قال ابن عمر رضي الله عنهما: كلّ مال تؤدّى زكاته فليس بكنز وإن كان مدفوناً وكلّ مال لا تُؤدّى زكاته فهو كنز، وإن لم يكن مدفوناً. ومثله عن ابن عباس. أخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر أنا عبد الغفار بن محمد أنا محمد بن عيسى الجلودي ثنا إبراهيم بـن محمد بن سفيان ثنا مسلم بـن الحجّاج حدّثني سويد بـن سعيد ثنا حفص بن ميسرة عن زيد بن أسلم أن أبا صالح بن زكوان أخبره أنه سمع أبا هريرة رضي الله عنه يقول: قال رسول الله ﷺ: «مَا مِنْ صاحب ذهبٍ ولا فِضّةٍ لا يُؤدّي منها حقّها إلاّ إذا كان يومُ القيامة صُفّحتْ له صفائحُ من نار فأُحمي عليها في نار جهنم فيُكوى بها جبينه وجنبُه وظهرُه كلما رُدّت أُعيدت له في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يُقضى بين العباد

عن زيد بن وهب قال: مررت بالربذة فإذا بأبي ذر فقلت: ما أنزلك هذا المنزل؟ قال: كنت في الشأم فاختلفت أنا ومعاوية في هذه الآية: ﴿**والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله**﴾ فقال معاوية: نزلت في أهل الكتاب. فقلت: نزلت فينا وفيهم فكان بيني وبينه في ذلك كلام فكتب إلى عثمان يشكوني فكتب إلي عثمان أن أقدم المدينة فقدمتها فكثر عليّ الناس حتى كأنهم لم يروني قبل ذلك فذكرت ذلك لعثمان فقال إن شئت تنحيت فكنت قريباً فذاك الذي أنزلني هذا المنزل ولو أمر على عبد حبشي لسمعت وأطعت واختلف العلماء في معنى الكنز فقيل هو كل مال وجبت فيه الزكاة فلم تؤد زكاته وروي عن ابن عمر: أنه قال له أعرابي أخبرني عن قول الله عز وجل: ﴿**والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم**﴾ قال ابن عمر من كنزها فلم يؤد زكاتها ويل له هذا كان قبل أن تنزل الزكاة فلما نزلت جعلها الله طهراً للأموال. أخرجه البخاري. وفي رواية مالك عن عبد الله بن دينار قال: سمعت عبد الله بن عمر وهو يسأل عن الكنز ما هو فقال: هو المال الذي لا تؤدى منه الزكاة ورواه الطبري بسنده عن ابن عمر قال: كل مال أديت زكاته فليس بكنز وإن كان مدفوناً وكل مال لم تؤد زكاته فهو الكنز الذي ذكره الله في القرآن يكوى به صاحبه وإن لم يكن مدفوناً. وروي عن علي بن أبي طالب قال: أربعة آلاف فما فوقها كنز وما دونها نفقة. وقيل: الكنز كل ما فضل من المال عن حاجة صاحبه إليه. وروى الطبري بسنده عن أبي أمامة قال: توفي رجل من أهل الصفة فوجد في مئزره دينار فقال النبي ﷺ كية ثم توفي آخر فوجد في مئزره ديناران فقال النبي ﷺ كيتان كان هذا في أول الإسلام قبل أن تفرض الزكاة فكان يجب على كل من فضل معه شيء من المال إخراجه لاحتياج غيره إليه فلما فرضت الزكاة نسخ ذلك الحكم.

عن ابن عباس قال: «لما نزلت هذه الآية: والذين يكنزون الذهب والفضة، كبر على المسلمين فقال عمر: أنا أفرج عنكم. فانطلق فقال: يا نبي الله إنه كبر على أصحابك هذه الآية. فقال: إن الله لم يفرض الزكاة إلا لتطييب ما بقي من أموالكم وإنما فرض المواريث لتكون لمن بعدكم. قال: فكبر عمر ثم قال له: ألا أخبرك بخير ما يكنز المرء؟ المرأة الصالحة إذا نظر إليها سرته وإذا أمرها أطاعته وإذا غاب عنها حفظته»

أخرجه أبو داود عن ثوبان قال «لما نزلت والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله كنا مع رسول الله ﷺ في بعض أسفاره فقال بعض أصحابه أنزلت في الذهب والفضة فلو علمنا أي المال خيراً اتخذناه؟ فقال رسول الله ﷺ: أفضله لسان ذاكر وقلب شاكر وزوجة صالحة تعين المؤمن على إيمانه» أخرجه الترمذي وقال حديث حسن

فيرى سبيله إمّا إلى الجنة وإمّا إلى النار»، قيل: يا رسول الله فالإبل؟ قال: «ولا صاحبَ إبلٍ لا يُؤدّي منها حقَّها ومن حقها حلبها يوم وِرْدِها إلاّ إذا كان يوم القيامة بُطِحَ لها بقاع قرقر أوفر ما كانت لا يفقد منها فصيلاً واحداً تطؤه بأخفافِها وتعضّه بأفواهها، كلّما مرّ عليه أُوْلاها رُدّ عليه أُخراها في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يقضي بين العباد، فيرى سبيله إمّا إلى الجنة وإما إلى النار»، قيل: يا رسول الله فالبقر والغنم؟ قال: «ولا صاحبَ بَقَرٍ ولا غنم لا يُؤدّي منها حقّها إلاّ إذاكان يوم القيامة بُطِحَ لها بقاع قرقرٍ لا يفقد منها شيئاً ليس فيها عقصاء ولا جلحاء ولا عضباءَ تنطحه بقرونها وتطؤه بأظلافها، كلّما مرّ عليه أُوْلاها رُدّ عليه أُخراها في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يُقضي بين العباد فيرى سبيله إمّا إلى الجنة وإما إلى النار». وروينا عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن آتاه الله مالاً فلم يؤدِّ زكاتَه مُثِّلَ له ماله يوم القيامة شجاعاً أقرع له زبيبتان يُطوّقه يوم القيامة فيأخذ بلَهْزِمَتَيْهِ، يعني: شِدْقيه، ثم يقول: أنا مالُك أنا كنزُك، ثم تلا: ﴿ ولا يحسبنّ الذينَ يَبْخلُون بما آتاهُم الله ﴾ [آل عمران: ١٨٠] الآية: ورُوِيَ عن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: كلّ مال زاد على أربعة آلاف درهم فهو كنز أُدِّيتْ منه الزكاة أو لم تُؤدَّ، وما دونها نفقة. وقيل: ما فضل عن الحاجة فهو كنز. أخبرنا إسماعيل بن

والصحيح من هذه الأقوال القول الأول وهو ما ذكرنا عن ابن عمر أن كل مال أديت زكاته فليس بكنز ولا يحرم على صاحبه اكتنازه وإن كثر وإن كان كل مال لم تؤد زكاته فصاحبه معاقب عليه وإن قل إذا كان مما تجب فيه الزكاة ويستحق على منع الزكاة الوعيد من الله إلا أن يتفضل الله عز وجل عليه بعفوه وغفرانه ويدل على ذلك ما روي عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «ما من صاحب ذهب ولا فضة لا يؤدي منها حقها إلا إذا كان يوم القيامة صفحت له صفائح من نار فأحمى عليها في نار جهنم فيكوى بها جبينه وجنبه وظهره كلما ردت أعيدت له في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يقتضي بين العباد فيرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار قيل يا رسول الله فالإبل قال: ولا صاحب إبل لا يؤدي منها حقها ومن حقها حلبها يوم ورودها إلا إذا كان يوم القيامة بطح له بقاع قرقر أوفر ما كانت لا يفقد منها فصيلاً واحداً تطؤه بأخفافها وتعضه بأفواهها كلما مر عليه أولاها رد عليه أخراها في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يقضي بين العباد فيرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار قيل يا رسول الله فالبقر والغنم قال ولا صاحب بقر ولا غنم لا يؤدي حقها إلا إذا كان يوم القيامة بطح لها بقاع قرقر لا يفقد منها شيئاً ليس فيها عقصاء ولا جلحاء ولا غضباء تنطحه بقرونها وتطؤه باظلافها كلما مر عليه أولاها رد عليه أخراها في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يقضي بين العباد فيرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار» أخرجه مسلم بزيادة فيه قوله كلما ردت أعيدت له هكذا هو في بعض نسخ صحيح مسلم ردت بضم الراء وفي بعضها بردت بالباء وهذا هو الصواب والرواية الأولى هي رواية الجمهور قوله حلبها هو بفتح اللام على المشهور وحكى إسكانها وهو ضعيف قوله بقاع قرقر هو المستوى من الأرض الواسع الأملس والعقصاء هي الشابة الملتوية القرنين وإنما استثناها لأنها لا تؤلم بنطحها وكذا الجلحاء وهي الشاة التي لا قن لها وكذا العضباء وهي الشاة المكسورة القرن (خ) عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ «من أتاه الله مالاً فلم يؤد زكاته مثل له ماله شجاعاً أقرع له زبيبتان يطوقه يوم القيامة ثم يأخذ بلهزمتيه ـ يعني شدقيه ـ ثم يقول أنا مالك أنا كنزك ثم تلا قوله سبحانه وتعالى ﴿ولا تحسبن الذين يبخلون بما أتاهم الله من فضله هو خيراً لهم﴾ الآية الشجاع الحية والأقرع صفة له بطول العمر لأن مَن طال عمره تمزق شعره وذهب وهي صفة أخبث الحيات والزبيبتان هما الزبدتان في الشدقين واللهزمتان عظمان ناتئان في اللحيين تحت الأذنين.

وقوله تعالى: ﴿**ولا ينفقونها في سبيل الله**﴾ يعني ولا يؤدون زكاتها وإنما قال ولا ينفقونها ولم يقل ينفقونهما لأنه رد الكناية إلى المال المكنوز وهي أعيان الذهب والفضة وقيل رد الكناية إلى الفضة لأنها أغلب أموال الناس

عبد القاهر أنا عبد الغافر بن محمد أنا محمد بن عيسى الجلودي ثنا إبراهيم بن محمد بن سفيان ثنا مسلم بن الحجّاج ثنا أبو بكر بن أبي شيبة ثنا وكيع ثنا الأعمش عن المعرور بن سويد عن أبي ذر قال: انتهيت إلى رسول الله ﷺ وهو جالس في ظل الكعبة فلما رآني قال: «هم الأخسرون وربِّ الكعبة»، قال فجئت حتى جلست فلم أتقارّ أن قمت فقلت: يا رسول الله فداك أبي وأمي مَنْ هم؟ قال: «هم الأكثرون أموالاً إلّا مَن قال هكذا وهكذا من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله وقليلاً ما هـم» ورُوِيَ عن أبي ذر رضي الله عنه أنه كان يقول: مَن ترك بيضاء أو حمراء كُوِيَ به يوم القيامة. ورُوِيَ عن أبي أمامة قال: مات رجل من أهل الصفة فوُجِدَ في مِئزره دينار، فقال النبيّ ﷺ: «كيَّة»، ثم توفي آخر فوجد في مئزره ديناران، فقال النبي ﷺ: «كيّتان». والقول الأول أصح أن الآية في منع الزكاة لا في جمع المال الحلال. قال النبي ﷺ: «نِعْمَ المال الصالح للرجل الصالح». ورُوِيَ عن مجاهد عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لمّا نزلت هذه الآية كبر ذلك على المسلمين وقالوا: ما يستطيع أحد منّا يدع لولده شيئاً، فذكر عمر ذلك لرسول الله فقال: «إنّ الله عزّ وجلّ لم يفرض الزكاة إلّا ليطيِّبَ بها ما بقي من أموالكم». وسُئِلَ عمر رضي الله عنه عن هذه الآية فقال: كان ذلك قبل أن تنزل الزكاة فلما أنزلت جعلها الله طهراً للأموال.

﴿فبشرهم بعذاب أليم﴾ يعني الكافرين الذين لا يؤدون زكاة أموالهم (ق)

عن أبي ذر قال: «انتهيت إلى النبي ﷺ وهو جالس في ظل الكعبة فلما رآني قال: هم الأخسرون ورب الكعبة قال فجئت حتى جلست فلم أتقار حتى قمت فقلت يا رسول الله فداك أبي وأمي من هم؟ قال: هم الأكثرون أموالاً إلا من قال هكذا وهكذا وهكذا من بين يده ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله وقليل ما هم ما من صاحب إبل ولا بقر ولا غنم لا يؤدي زكاتها إلا جاءت يوم القيامة أعظم ما كانت وأسمنه تنطحه بقرونها وتطؤه بأظلافها كلما نفدت أخراها عادت عليه أولاها حتى يقضي بين الناس» هذا لفظ مسلم وفرقه البخاري في موضعين.

يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾

وقوله تعالى: ﴿يوم يحمى عليها﴾ يعني الكنوز فتدخل النار فيوقد عليها حتى تبيض من شدة الحرارة ﴿في نار جهنم فتكوى بها جباههم﴾ يعني الكنوز جباه كانزيها ﴿وجيوبهم وظهورهم﴾ قال ابن عباس: لا يوضع دينار على دينار ولا درهم على درهم ولكن يوسع جلده حتى يوضع كل دينار ودرهم في موضع على حدته. قال بعض العلماء: إنما خص هذه الأعضاء، بالكي من بين سائر الأعضاء لأن الغني صاحب المال إذا أتاه السائل فطلب منه شيئاً تبدو منه آثار الكراهة والمنع فعند ذلك يقطب وجهه ويكلح وتجتمع أسارير وجهه فيتجعد جبينه ثم إن كرر السائل الطلب نأى بجانبه عنه ومال عن جهته وتركه جانباً ثم إن كرر الطلب وألح في السؤال ولاه ظهره وأعرض عنه واستقبل جهة أخرى وهي النهاية في الرد والغاية في المنع الدال على كراهية الإعطاء والبذل وهذا دأب ما نعى البر والإحسان. وعادة البخلاء فلذلك خص هذه الأعضاء الثلاثة بالكي يوم القيامة.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿هذا ما كنزتم لأنفسكم﴾ أي يقال لهم ذلك يوم القيامة ﴿فذوقوا ما كنتم تكنزون﴾ أي فذوقوا عذاب ما كنزتم في الدنيا من الأموال ومنعتم حق الله منها (ق) عن الأحنف بن قيس قال: قدمت المدينة فبينا أنا في حلقة فيها ملأ من قريش إذ جاء رجل خشن الثياب خشن الجسد خشن الوجه فقام عليهم فقال بشر الكانزين برضف يحمى عليه في نار جهنم فيوضع على حلمة ثدي أحدهم حتى يخرج من نغض كتفيه ويوضع على نغض كتفيه حتى يخرج من حلمة ثدييه يتزلزل قال فوضع القوم رؤوسهم فما رأيت أحداً منهم رجع إليه شيئاً قال فأدبر فاتبعته حتى

وقال ابن عمر: ما أُبالي لو أن لي مثل أحد ذهباً أعلم عدده أُزكّيه وأعمل بطاعة الله. قوله عزّ وجلّ: ﴿ ولا يُنفقونها في سبيلِ الله ﴾، قيل: لِمَ قال: ﴿ ولا ينفقونها ﴾ ولم يقل: ولا ينفقونهما. وقد ذكر الذهب والفضة جميعاً؟ قيل: أراد الكنوز وأعيان الذهب والفضة. وقيل: ردّ الكناية إلى الفضة لأنها أعمّ، كما قال تعالى: ﴿ واستعينوا بالصبر والصلاة وإنَّها لكبيرة ﴾ [البقرة: ٤٥]، ردّ الكناية إلى الصلاة لأنها أعمّ، كقوله تعالى: ﴿ وإذا رَأَوْا تجارةً أو لهواً انفضُّوا إليها ﴾ [الجمعة: ١١] ردّ الكناية إلى التجارة لأنها أعمّ، ﴿ فبشّرْهم بعذاب أليم ﴾. أي: أنذرهم.

﴿ يومَ يُحمَى عليها في نارِ جهنّم ﴾، أي: تدخل النار فيوقد عليها أي على الكنوز، ﴿ فتُكوَى بها ﴾، فتحرق بها، ﴿ جباهُهم ﴾، أي: جباه كانِزِيها، ﴿ وجنوبُهم وظهورُهم ﴾، رُوِيَ عن ابن مسعود قال: إنه لا يوضع دينار على دينار ولا درهم على درهم ولكن يوسع جلده حتى يوضع كل دينار ودرهم في موضع على حِدة. وسُئِلَ أبو

جلس إلى سارية فقلت ما رأيت هؤلاء إلا كرهوا ما قلت لهم فقال: إن هؤلاء لا يعقلون شيئاً هذا لفظ مسلم وفيه زيادة لم أذكرها. وزاد البخاري قلت: [١] من هذا؟ قالوا: أبا ذر. قال: فقمت إليه فقلت ما شيء سمعتك تقول قبيل فقال ما قلت إلا شيئاً سمعته من نبيهم ﷺ.

قوله عز وجل ﴿إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً﴾ هي: المحرم، وصفر، وربيع الأول، وربيع الآخر، وجمادى الأولى، وجمادى الآخرة، ورجب، وشعبان، ورمضان، وشوال، وذو القعدة، وذو الحجة، وهذه شهور السنة القمرية التي هي مبنية على سير القمر في المنازل وهي شهور العرب التي يعتد بها المسلمون في صيامهم ومواقيت حجهم وأعيادهم وسائر أمورهم وأحكامهم وأيام هذه الشهور ثلثمائة وخمسة وخمسون يوماً والسنة الشمسية عبارة عن دور الشمس في الفلك دورة تامة وهي ثلثمائة وخمسة وستون يوماً وربع يوم فتنقص السنة الهلالية عن السنة الشمسية عشرة أيام فبسبب هذا النقصان تدور السنة الهلالية فيقع الحج والصوم تارة في الشتاء وتارة في الصيف. قال المفسرون: وسبب نزول هذه الآية من أجل النسيء الذي كانت العرب تفعله في الجاهلية فكان يقع حجهم تارة في وقته وتارة في المحرم وتارة في صفر وتارة في غيره من الشهور فأعلم الله عز وجل أن عدة الشهور سنة المسلمين التي يعتدون بها اثنا عشر شهراً على منازل القمر وسيره فيها وهو قوله تبارك وتعالى إن عدة الشهور عند الله يعني في علمه وحكمه اثنا عشر شهراً ﴿في كتاب الله﴾ يعني في اللوح المحفوظ الذي كتب الله فيه جميع أحوال الخلق وما يأتون وما يذرون. وقيل: أراد بكتاب الله القرآن لأن فيه آيات تدل على الحساب ومنازل القمر وقيل أراد بكتاب الله الحكم الذي أوجبه وأمر عباده بالأخذ به ﴿يوم خلق السموات والأرض﴾ يعني أن هذا الحكم حكم به وقضاه يوم خلق السموات والأرض أن السنة اثنا عشر شهراً ﴿منها﴾ يعني من الشهور ﴿أربعة حرم﴾ وهي رجب فرد وذو القعدة وذو الحجة والمحرم ثلاثة متوالية وإنما سمِّيت حرماً لأن العرب في الجاهلية كانت تعظمها وتحرم فيها القتال حتى لو أن أحدهم لقي قاتل أبيه وابنه وأخيه في هذه الأربعة الأشهر لم يهجه ولما جاء الإسلام لم يزدها إلا حرمة وتعظيماً ولأن الحسنات والطاعات فيها تتضاعف وكذلك السيئات أيضاً أشد من غيرها فلا يجوز انتهاك حرمة الأشهر الحرم ﴿ذلك الدين القيم﴾ يعني ذلك الحساب المستقيم والعدد الصحيح المستوي فالدين هنا بمعنى الحساب ومنه قوله ﷺ: الكيس من دان نفسه. يعني: حاسب نفسه وعمل لما بعد الموت. وقيل: أراد بالدين القيم الحكم الذي لا يغير ولا يبدل. والقيم هنا: بمعنى الدائم الذي لا يزول. فالواجب على المسلمين الأخذ بهذا الحساب والعدد في صومهم وحجهم وأعيادهم وبياعاتهم وأجل ديونهم وغير ذلك من سائر أحكام المسلمين المرتبة على الشهور (ق) عن أبي بكر

بكر الورّاق: لِمَ خَصّ الجباه والجنوب والظهور بالكيّ؟ قال: لأن الغني صاحب الكنز إذا رأى الفقير قبض جبهته، ورُوِيَ ما بين عينيه وولّاه ظهره وأعرض عنه كشحه. قوله تعالى: ﴿ هذا ما كنزتُم ﴾، أي: يقال لهم هذا ما كنزتم، ﴿ لأنفسكم فذُوقوا ما كنتم تكنِزُون ﴾، أي: تمنعون حقوق الله تعالى في أموالكم. وقال بعض الصحابة: هذه الآية في أهل الكتاب. وقال الأكثرون: هي عامّة في أهل الكتاب والمسلمين، وبه قال أبو ذرّ رضي الله عنه.

قوله تعالى: ﴿ إنّ عِدّةَ الشُّهور ﴾، أي: عدد الشهور، ﴿ عندَ اللَّهِ اثنا عشرَ شهراً في كتاب الله ﴾، وهي المحرّم وصفر وربيع الأول وربيع الثاني وجُمادى الأول وجُمادى الآخرة ورجب وشعبان ورمضان وشوّال وذو القعدة وذو الحجة. وقوله: ﴿ في كتاب الله ﴾ أي: في حكم الله. وقيل: في اللوح المحفوظ. قرأ أبو جعفر اثنا عشر وتسعة عشر وإحدى عشر بسكون العين، وقرأ العامّة بفتحها، ﴿ يومَ خلقَ السّمواتِ والأرضَ ﴾، والمراد منه الشهور الهلالية وهي الشهور التي يعتدّ بها المسلمون في صيامهم وحجّهم وأعيادهم وسائر أمورهم، وبالشهور

---

(١) قوله وزاد البخاري الخ، هذه الزيادة لمسلم لا للبخاري اهـ من هامش.

أن النبي ﷺ قال: إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض السنة اثنا عشر شهراً منها أربعة حرم ثلاث متواليات ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان أي شهر هذا قلنا الله ورسوله أعلم فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه فقال أليس ذا الحجة قلنا بلى قال أي بلد هذا قلنا الله ورسوله أعلم فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه قال أليس البلد الحرام؟ قلنا: بلى. قال: فأي يوم هذا؟ قلنا: الله ورسوله أعلم فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه. قال: أليس يوم النحر. قلنا: بلى. قال: فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في بلدكم هذا في شهركم هذا وستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم ألا فلا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض ألا ليبلغ الشاهد الغائب فلعل بعض من يبلغه أن يكون أوعى له من بعض من سمعه ثم قال: ألا هل بلغت ألا هل بلغت قلنا نعم قال: اللهم اشهد.

وقوله تعالى: ﴿**فلا تظلموا فيهن أنفسكم**﴾ قيل: الكناية في فيهن ترجع إلى جميع الأشهر أي لا تظلموا أنفسكم في جميع أشهر السنة بفعل المعاصي وترك الطاعات لأن المقصود منع الإنسان من الإقدام على المعاصي والفساد مطلقاً في جميع الأوقات إلى الممات. وقيل: إن الكناية ترجع إلى الأشهر الحرم وهو قول أكثر المفسرين. وقال قتادة: العمل الصالح أعظم أجراً في الأشهر الحرم والظلم فيهن أعظم منه فيما سواهن وإن كان الظلم على كل حال عظيماً. وقال ابن عباس: لا تظلموا فيهن أنفسكم يريد استحلال الحرام والغارة فيهن وقال محمد بن إسحاق بن يسار: لا تجعلوا حلالها حراماً ولا حرامها حلالاً كفعل أهل الشرك وهو النسيء. وقيل: إن الأنفس مجبولة بطبعها على الظلم والفساد والامتناع عنه على الإطلاق شاق على النفس لا جرم أن الله خص بعض الأوقات بمزيد التعظيم والاحترام ليمتنع الإنسان في تلك الأوقات من فعل الظلم والقبائح والمنكرات فربما تركها في باقي الأوقات فتصير هذه الأوقات الشريفة والأشهر المحرمة المعظمة سبباً لترك الظلم وفعل المعاصي في غيرها من الأشهر فهذا وجه الحكمة في تخصيص بعض الأشهر دون بعض بمزيد التشريف والتعظيم وكذلك الأمكنة أيضاً. وقوله سبحانه وتعالى: ﴿**وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة**﴾ يعني قاتلوا المشركين بأجمعكم مجتمعين على قتالهم كما أنهم يقاتلونكم على هذه الصفة والمعنى تعاونوا وتناصروا على قتالهم ولا تتخاذلوا ولا تتدابروا ولا تفشلوا ولا تجبنوا عن قتالهم وكونوا عباد الله مجتمعين متوافقين في مقاتلة أعدائكم من المشركين واختلف العلماء في تحريم القتال في الأشهر الحرم فقال قوم كان كبيراً حراماً ثم نسخ بقوله: ﴿**وقاتلوا المشركين كافة**﴾ يعني في الأشهر الحرم وفي غيرهن وهذا قول قتادة وعطاء الخراساني والزهري وسفيان الثوري. قالوا: لأن النبي ﷺ غزا هوازن بحنين وثقيفاً بالطائف

الشمسية تكون السنة ثلثمائة وخمسة وستّين يوماً وربع يوم، والهلالية تنقص عن ثلاث مائة وستّين يوماً بنقصان الأهلّة. والغالب أنها تكون ثلاثمائة يوماً وأربعة وخمسين يوماً، ﴿ **منها أربعة حرم** ﴾، من الشهور أربعة حرم وهي: رجب وذو القعدة وذو الحجة والمحرّم، واحد فرد وثلاثة سرد، ﴿ **ذلك الدِّينُ القيّم** ﴾، أي: الحساب المستقيم، ﴿ **فلا تظلِمُوا فيهنَّ أنفسَكم** ﴾، قيل: قوله: ﴿ **فيهنّ** ﴾ ينصرف إلى جميع شهور السنة، أي: فلا تظلموا فيهنّ أنفسكم بفعل المعصية وترك الطاعة. وقيل: ﴿ **فيهنّ** ﴾ أي: في الأشهر الحرم. قال قتادة: العمل الصالح أعظم أجراً في الأشهر الحرم والظلم فيهنّ أعظم من الظلم فيما سواهنّ، وإن كان الظلم على كل حال عظيماً. وقال ابن عباس: فلا تظلموا فيهنّ أنفسكم يريد استحلال الحرام والغارة فيهنّ. قال محمد بن إسحاق بن يسار: لا تجعلوا حلالها حراماً ولا حرامها حلالاً كفعل أهل الشرك وهو النسيء، ﴿ **وقاتلوا المشركين كافّة** ﴾، جميعاً عامّة، ﴿ **كما يُقاتلونَكم كافّةً واعْلمُوا أنّ اللّهَ مع المتقين** ﴾، واختلف العلماء في تحريم القتال في الأشهر الحُرُم. فقال قوم: كان كبيراً ثم نسخ بقوله: ﴿ **وقاتلوا المشركين كافّة** ﴾ كأنه يقول فيهنّ وفي غيرهم. وهو قول قتادة وعطاء الخراساني

وحاصرهم في شوال وبعض ذي القعدة. وقال آخرون: إنه غير منسوخ. قال ابن جريج: حلف بالله عطاء بن أبي رباح ما يحل للناس أن يغزو في الحرم ولا في الأشهر الحرم وما نسخت إلا أن يقاتلوا فيها ﴿واعلموا أن الله مع المتقين﴾ يعني بالنصر والمعونة على أعدائه قوله سبحانه وتعالى:

﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّوا۟ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَٰلِهِمْ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾

﴿إنما النسيء زيادة في الكفر﴾ النسيء: في اللغة، عبارة عن التأخير في الوقت ومنه النسيئة في البيع ومعنى النسيء المذكور في الآية هو تأخير شهر حرام إلى شهر آخر وذلك أن العرب في الجاهلية كانت تعتقد حرمة الأشهر الحرم وتعظيمها وكان ذلك مما تمسكت به من ملة إبراهيم ﷺ وكانت عامة معايش العرب من الصيد والغارة فكان يشق عليهم الكف عن ذلك ثلاثة أشهر متوالية وربما وقعت حروب في بعض الأشهر الحرم فكانوا يكرهون تأخير حروبهم إلى الأشهر الحلال فنسؤوا يعني أخروا تحريم شهر إلى شهر آخر فكانوا يؤخرون تحريم المحرم إلى صفر فيستحلون المحرم ويحرمون صفر فإذا احتاجوا إلى تأخير تحريم صفر أخروه إلى ربيع الأول فكانوا يصنعون هكذا يؤخرون شهراً بعد شهر حتى استدار التحريم على السنة كلها وكانوا يحجون في كل شهر عامين فحجوا في الحجة عامين ثم حجوا في المحرم عامين ثم حجوا في صفر عامين وكذا باقي شهور السنة فوافقت حجة أبي بكر في السنة التاسعة قبل حجة الوداع المرة الثانية من ذي القعدة ثم حج رسول الله ﷺ في العام المقبل حجة الوداع فوافق حجة شهر ذي الحجة وهو شهر الحج المشروع فوقف بعرفة في اليوم التاسع وخطب الناس في اليوم العاشر بمنى وأعلمهم أن أشهر النسيء قد تناسخت باستدارة الزمان وعاد الأمر إلى ما وضع الله عليه حساب الأشهر يوم خلق السموات والأرض وهو قوله ﷺ: إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض الحديث المتقدم. وأمرهم بالمحافظة على ذلك لئلا يتبدل في مستأنف الأيام واختلفوا في أول من نسأ النسيء. فقال ابن عباس والضحاك وقتادة ومجاهد: أول من نسأ النسيء، بنو مالك بن كنانة وكان يليه جنادة بن عوف بن أمية الكناني وقال الكلبي: أول من

والزهري وسفيان الثّوري، وقالوا: إن النبي ﷺ غَزَا هَوازن بحُنين وثقيفاً بالطائف وحاصرهم في شوّال وبعض ذي القعدة. وقال الآخرون: إنه غير منسوخ: قال ابن جريج: حلف بالله عطاء بن أبي رباح: ما يحلّ للناس أن يغزوا في الحرم ولا في الأشهر الحرم إلّا أن يُقاتلُوا فيها: وما نسخت.

قوله تعالى: ﴿ إنّما النسيءُ زيادةٌ في الكفر ﴾، قيل: هو مصدر كالسعير والحريق. وقيل: هو مفعول كالجريح والقتيل، وهو من التأخير. ومنه النسيئة في البيع، يقال: أنسا الله في أجله أي أخّر، وهو ممدود مهموز عند أكثر القرّاء، وقرأ ورش عن نافع من طريق البخاري بتشديد الياء من غير همز، فقد قيل: أصله الهمزة فخفّف. وقيل: هو من النسيان على معنى المنسي أي المتروك. ومعنى النسيء هو تأخير تحريم شهر إلى شهر آخر وذلك أن العرب كانت تعتقد تعظيم الأشهر الحرم، وكان ذلك مما تمسكت به من ملّة إبراهيم عليه السلام وكانت عامّة معايشهم من الصيد والغارة فكان يشقّ عليهم الكفّ عن ذلك ثلاثة أشهر على التوالي، وربما وقعت لهم حرب في بعض الأشهر الحرم فيكرهون تأخير حربهم فنسؤوا أي: أخّروا تحريم ذلك الشهر إلى شهر آخر، وكانوا يؤخّرون تحريم المحرّم إلى صفر فيحرمون صفر ويستحلّون المحرم، فإذا احتاجوا إلى تأخير تحريم صفر أخّروه إلى ربيع هكذا شهراً بعد شهر حتى استدار التحريم على السنة كلها. فقام الإسلام وقد رجع المحرم إلى موضعه الذي وضعه الله عزّ وجلّ فيه وذلك بعد دهر طويل فخطب النبي ﷺ في حجّته، وبيّن ذلك كما أخبرنا عبد الواحد

فعل ذلك رجل من بني كنانة يقال له نعيم بن ثعلبة وكان يقوم على الناس في الموسم فإذا همَّ الناس بالصدر قام فخطف الناس فيقول لامرد لما قضيت أنا الذي لا أعاب ولا أجاب فيقول له المشركون لبيك ثم يسألونه أن ينسئهم شهراً يغيرون فيه فيقول: إن صفر في هذا العام حرام فإذا قال ذلك، حلّوا الأوتار، ونزعوا الأسنة، والأزجة من الرماح، وإن قال: حلال، عقدوا أوتار القسي، وركبوا الأسنة في الرماح، وأغاروا وكان من بعد نعيم بن ثعلبة رجل يقال له جنادة بن عوف: وهو الذي أدرك النبي ﷺ وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم هو رجل من بني كنانة يقال له القلمس قال شاعرهم:

وفينـا ناسـيء الشهر القلمـس

وكانوا يفعلون ذلك إذا اجتمعت العرب في الموسم وروى جويبر عن الضحاك عن ابن عباس أن أول من سن

المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف الفريري ثنا محمد بن إسماعيل البخاري ثنا محمد بن سلام ثنا عبد الوهاب ثنا أيوب عن محمد بن سيرين عن أبي بكرة عن النبي ﷺ قال: «إنّ الزمان قد استدار كهيئتِهِ يومَ خَلقَ السـمٰواتِ والأرضَ، السنةُ اثنا عشر شهراً منها أربعة حرم ثلاثة متواليات ذو القعدة وذو الحجة والمحرم، ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان». وقال: «أيّ شهر هذا»؟ قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننا أنه سيسمّيه بغير اسمه، فقال: «أليس ذو الحجة»؟ قلنا: بلى، قال: «أيّ بلد هذا»؟ قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننا أنه سيسمّيه بغير اسمه، فقال: «أليس البلد الحرام»؟ قلنا: بلى، قال: «فأيّ يوم هذا»؟ قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننا أنه سيسمّيه بغير اسمه، قال: «أليس يوم النحر»؟ قلنا: بلى، قال: «فإنّ دماءَكم وأموالكم»، قال محمد أحسبه قال: أعراضَكم عليكم حرامٌ كحُرمة يومكم هذا في بلدكم هذا في شهركم هذا، وستلقون ربَّكم فيسألونكم عن أعمالكم، ألاَ فلا ترجعوا بعد ضُلاّلاً يضرب بعضُكم رقابَ بعض، ألا ليبلغ الشاهدُ الغائب فلعلّ بعضَ مَن يبلغه أن يكون أوعى له من بعض ما سمعه، ألا هل بلغتُ ألا هل بلّغت»؟ قالوا: وكان قد استمر النسيء بهم فكانوا ربما يحجّون في بعض السنين في شهر ويحجّون من قابل في شهر آخر. قال مجاهد: كانوا يحجّون في كل شهر عامين فحجّوا في شهر ذي الحجة عامين ثم حجّوا في المحرّم عامين ثم حجّوا في صفر عامين، وكذلك في الشهور، فوافقت أبي بكر رضي الله عنه قبل حجة الوداع السنة الثانية من ذي القعدة، ثم حجَّ النبي ﷺ في العام القابل حجّة الوداع، فوافق حجة شهر الحج المشروع وهو ذو الحجة، فوقف بعَرَفَة اليوم التاسع وخطب اليوم العاشر بمنى، وأعلمهم أن أشهر النسيء قد تناسخت باستدارة الزمان وعاد الأمر إلى ما وضع الله عليه حساب الأشهر الحرم يوم خلق الله السمٰوات والأرض، وأمرهم بالمحافظة عليه لئلا يتبدّل في مستأنف الأيام، واختلفوا في أول مَن نسأ النسيء، فقال ابن عباس والضحاك وقتادة ومجاهد: أول مَن نسأ النسيء بنو مالك بن كنانة وكانوا ثلاثة أبو تمام جنادة بن عوف بن أمية الكناني. وقال الكلبي: أول مَن فعل ذلك رجل من بني كنانة يقال له نعيم بن ثعلبة، وكان يقوم أميراً على الناس بالموسم فإذا هم الناس بالصدر قام فخطب الناس فقال: لا مردّ لما قضيت أنا الذي لا أُعاب ولا أُجاب، فيقول له المشركون: لبّيك، ثم يسألونه أن ينساهم شهراً يغيرون فيه، فيقول: فإن صفر العام حرام فإذا قال ذلك حلّوا الأوتار ونزعوا الأسنّة والأزجة، وإن قال حلال عقدوا الأوتار وشدّوا الأزجة وأغاروا. وكان من بعد نعيم بن ثعلبة رجل يقال لـه جنادة بن عـوف، وهو الـذي أدركه النبي ﷺ. وقـال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هو رجل بني كنانة يقال له القلمس، قال شاعرهم:

وفينا ناسـيء الشهر القلمس

النسيء عمرو بن لحي بن قمعة بن خندف والذي صح من حديث أبي هريرة وعائشة أن عمرو بن لحي أول من سيب السوائب وقال فيه النبي ﷺ: رأيت عمرو بن لحي يجر قصبه في النار فهذا ما ورد في تفسير النسيء الذي ذكره الله في قوله تعالى إنما النسيء زيادة في الكفر يعني زيادة كفر على كفرهم وسبب هذه الزيادة أنهم أمروا بإيقاع كل فعل في وقته من الأشهر الحرم ثم إنهم بسبب أغراضهم الفاسدة أخروه إلى وقت آخر بسبب ذلك النسيء فأوقعوه في غير وقته من الأشهر الحرم فكان ذلك الفعل زيادة في كفرهم ﴿يضل به الذين كفروا﴾ وقرىء: يضل بفتح الياء وكسر الضاد ومعناه يضل الله به الطين كفروا أو يضل به الشيطان الذين كفروا بتزيين ذلك لهم وقيل يضل بالنسيء الذين كفروا وقرىء يضل بضم الياء وفتح الضاد ومعناه أن كبارهم أضلوهم وحملوهم عليه وقرىء يضل به الذين كفروا بضم الياء وكسر الضاد ومعناه يضل به الذين كفروا تابعيهم والآخذين بأفعالهم وهذا الوجه أقوى الوجهين في تفسير قراءة من قرأ يضل بضم الياء وكسر الضاد ﴿يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً﴾ يعني يحلون ذلك الإنساء عاماً ويحرمونه عاماً والمعنى يحلون الشهر المحرم عاماً فيجعلونه حلالاً ليغيروا فيه ويحرمونه عاماً فيجعلونه محرماً فلا يغيرون فيه ﴿ليواطئوا﴾ يعني ليوافقوا ﴿عدة ما حرم الله﴾ يعني أنهم ما أحلوا شهراً من المحرم إلا حرموا شهراً مكانه من الحلال ولم يحرموا شهراً من الحلال إلا أحلوا مكانه شهراً من الحرام لأجل أن يكون عدد الأشهر الحرم أربعة كما حرم الله فيكون ذلك موافقة في العدد لا في الحكم فذلك قوله سبحانه وتعالى: ﴿فيحلوا ما حرم الله زين لهم سوء أعمالهم﴾ قال ابن عباس: زين لهم الشيطان هذا العمل ﴿والله لا يهدي القوم الكافرين﴾ يعني أنه سبحانه وتعالى لا يرشد من هو كافر أثيم لما سبق له في الأزل أنه من أهل النار.

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِۚ فَمَا مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِي ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔاۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ

وكانوا لا يفعلون ذلك إلّا في ذي الحجة إذا اجتمعت العرب للموسم. وقال جويبر عن الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما: إن أول مَن سنّ النسيء عمرو بن لحي بن قمعة بن خندف. أخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر أنبأنا عبد الغافر بن محمد أنبأنا محمد بن عيسى الجلودي ثنا إبراهيم بن محمد بن سفيان ثنا مسلم بن الحجّاج حدّثني زهير بن حرب ثنا جرير عن سهيل عن أبيه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «رأيت عمرو بن لحي بن قمعة بن خندف أبا بني كعب، وهو يجرّ قَصَبَهُ في النار». فهذا الذي ذكرنا هو النسيء الذي ذكره الله تعالى فقال: ﴿ إنّما النّسيء زيادةٌ في الكفر ﴾، يريد زيادة كفر على كفرهم، ﴿ يُضلّ به الذين كفرُوا ﴾، قرأ حمزة والكسائي وحفص: «يضـل» بضم الياء وفتح الضاد، كقوله تعالى: ﴿ زيّن لهم سوء أعمالهم ﴾، وقرأ يعقوب بضمّ الياء وكسر الضاد، وهي قراءة الحسن ومجاهد على معنى ﴿ يضل ﴾ به الذين كفروا الناس، وقرأ الآخرون بفتح الياء وكسر الضاد لأنهم هم الضالّون لقوله: ﴿ يُحلُّونَه ﴾، يعني النسيء، ﴿ عاماً ويُحرّمونه عاماً لِيوَاطِئوا ﴾، أي: ليوافقوا، والمواطأة الموافقة، ﴿ عِدّةَ ما حرّمَ الله ﴾، يريد أنهم لم يحلّوا شهراً من الحرام إلّا حرّموا مكانه شهراً من الحلال، ولم يحرّموا شهراً من الحلال إلّا أحلّوا مكانه شهراً من الحرام، لئلا يكون الحرم أكثر من أربعة أشهر كما حرّم الله فيكون الموافقة في العدد، ﴿ فيحلّوا ما حرّم اللّهُ زُيّنَ لهم سوءُ أعمالهم ﴾، قال ابن عباس: يريد زيّن لهم الشيطان، ﴿ واللّهُ لا يهدي القومَ الكافرين ﴾.

لِصَـٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾

قوله عز وجل: ﴿**يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض**﴾ نزلت هذه الآية في الحث على غزوة تبوك وذلك أن النبي ﷺ لما رجع من الطائف أمر بالجهاد لغزو الروم وكان ذلك في زمان عسرة من الناس وشدة من الحر حين طابت الظلال ولم يكن رسول الله ﷺ يريد غزوة إلا ورى بغيرها حتى كانت غزوة تبوك فغزاها رسول الله ﷺ في حر شديد واستقبل سفراً بعيداً ومفاوز وعدداً كثيراً وجلى للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة عدوهم فشق عليهم الخروج وتثاقلوا فأنزل الله عز وجل هذه الآية يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم يعني قال لكم رسول الله ﷺ: انفروا في سبيل الله، أي اخرجوا إلى الجهاد. يقال: استنفر الإمام الناس إذا حثهم على الخروج إلى الجهاد ودعاهم إليه ومنه قوله ﷺ: «وإذا استنفرتم فانفروا».

والإثم النفير اثاقلتم أي تثاقلتم وتباطأتم عن الخروج إلى الغزو إلى الأرض يعني لزمتم أرضكم ومساكنكم وإنما استثقل ذلك الغزو لشدة الزمان وضيق الوقت وشدة الحر وبعد المسافة والحاجة إلى كثرة الاستعداد من العدد والزاد وكان ذلك الوقت وقت إدراك ثمار المدينة وطيب ظلالها وكان العدو كثيراً فاستثقل الناس تلك الغزوة فعاتبهم الله تعالى بقوله: ﴿**أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة**﴾ يعني أرضيتم بخفض العيش وزهرة الدنيا ودعتها من نعيم الآخرة ﴿**فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل**﴾ يعني أن لذات الدنيا ونعيمها فان زائل ينفد عن قليل ونعيم الآخرة باق على الأبد فلهذا السبب كان متاع الدنيا قليلاً بالنسبة إلى نعيم الآخرة وفي الآية دليل على وجوب الجهاد في كل حال وفي كل وقت لأن الله سبحانه وتعالى نص على أن تثاقلهم عن الجهاد أمر منكر فلو لم يكن الجهاد واجباً لما عاتبهم على ذلك التثاقل ويؤكد هذا الوعيد المذكور الآية الآتية وهي قوله تعالى: ﴿**إلا تنفروا**﴾ يعني إن لم تنفروا أيها

قوله: ﴿ **يا أيُها الذينَ آمنُوا ما لكم إذا قيلَ لكمُ انفرُوا في سبيلِ اللَّهِ اثّاقلتُم إلى الأرضِ** ﴾ الآية، نزلت في الحثّ على غزوة تبوك، وذلك أن النبي ﷺ لمّا رجع من الطائف أمر بالجهاد لغزوة الروم، وكان ذلك في زمان عسرة من الناس وشدّة من الحرّ حين طابت الثمار والظلال، ولم يكن رسول الله ﷺ يريد غزوة إلاّ ورّى بغيرها حتى كانت تلك الغزوة غزاها رسول الله ﷺ في حرٍّ شديد، واستقبل سفراً بعيداً ومفاوز هائلة وعدوّاً كثيراً، فجلّى للمسلمين أمرهم ولم يورِّها بغيرها ليتأهبوا أهبة عدوّهم، فشقّ عليهم الخروج وتثاقلوا فأنزل الله تعالى: ﴿ **يا أيها الذين آمنُوا ما لكم إذا قيل لكم** ﴾ أي: قال لكم رسول الله ﷺ: ﴿ **انفرُوا** ﴾ اخرجوا في سبيل الله ﴿ **اثّاقلتُم إلى الأرض** ﴾ أي: لزمتم أرضكم ومساكنكم، ﴿ **أرضيتُم بالحياةِ الدنيا من الآخرة** ﴾، أي: بخفض الدنيا ودعتها من نعيم الآخرة. ﴿ **فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلاّ قليل** ﴾، ثم أوعدهم على ترك الجهاد.

فقال تعالى: ﴿ **إلاّ تنفرُوا يُعذِّبْكم عذاباً أليماً** ﴾، في الآخرة. وقيل: هو احتباس المطر عنهم في الدنيا. وسأل نجدة بن نفيع ابن عباس عن هذه الآية، فقال: إن رسول الله ﷺ استنفر حيّاً من أحياء العرب فتثاقلوا عليه فأمسك عنهم المطر، فكان ذلك عذابهم، ﴿ **ويستبدِلْ قوماً غيرَكم** ﴾ خيراً منكم وأطوع قال سعيد بن جبير: هم أبناء فارس. وقيل: هم أهل اليمن، ﴿ **ولا تضرُّوه شيئاً** ﴾، بتركِكم النفير. ﴿ **واللَّهُ على كلِّ شيءٍ قديرٌ** ﴾.

قوله تعالى: ﴿ **إلاّ تنصرُوه فقدْ نصرَه اللَّهُ** ﴾، هذا إعلام من الله عزّ وجلّ أنه المتكفّلُ بنصرِ رسوله وإعزاز دينه، أعانوه أو لم يعينوه وأنه قد نصره عند قلّة الأولياء وكثرة الأعداء، فكيف به اليوم وهو في كثرة من العَدَدِ والعُدَد،

المؤمنون إلى ما استنفركم رسول الله ﷺ إليه : ﴿**يعذبكم عذاباً أليماً**﴾ يعني في الآخرة لأن العذاب الأليم لا يكون إلا في الآخرة. وقيل: إن المراد به احتباس المطر في الدنيا. قال نجدة بن نفيع : سألت ابن عباس عن هذه الآية، فقال: استنفر رسول الله ﷺ حياً من أحياء العرب فتثاقلوا فأمسك الله تعالى عنهم المطر فكان ذلك عذابهم ﴿**ويستبدل قوماً غيركم**﴾ يعني خيراً منكم وأطوع.

قال سعيد بن جبير: هم أبناء فارس. وقيل: هم أهل اليمن نبه سبحانه وتعالى على أنه قد تكفل بنصرة نبيه ﷺ وإعزاز دينه فإن سارعوا معه إلى الخروج إلى حيث استنفروا حصلت النصرة بهم ووقع أجرهم على الله عز وجل وإن تثاقلوا وتخلفوا عنه حصلت النصرة بغيرهم وحصلت العتبى لهم لئلا يتوهموا أن إعزاز رسول الله ﷺ ونصرته لا تحصل إلا بهم وهو قوله تعالى ﴿**ولا تضروه شيئاً**﴾ قيل: الضمير راجع إلى الله تعالى يعني ولا تضروا الله شيئاً لأنه غني عن العالمين وإنما تضرون أنفسكم بترككم الجهاد مع رسول الله ﷺ. وقيل: الضمير راجع إلى رسول الله ﷺ يعني: ولا تضروا محمداً ﷺ شيئاً فإن الله ناصره على أعدائه ولا يخذله ﴿**والله على كل شيء قدير**﴾ يعني أنه تعالى قادر على كل شيء فهو ينصر نبيه ويعز دينه قال الحسن وعكرمة: هذه الآية منسوخة بقوله وما كان المؤمنون لينفروا كافة وقال الجمهور هذه الآية محكمة لأنها خطاب لقوم استنفرهم رسول الله ﷺ فلم ينفروا كما نقل عن ابن عباس وعلى هذا التقدير فلا نسخ.

قوله عز وجل: ﴿**إلا تنصروه فقد نصره الله**﴾ يعني إلا تنصروا محمداً ﷺ أيها المؤمنون هذا خطاب لمن تثاقل عن الخروج معه إلى تبوك فأعلم الله عز وجل أنه هو المتكفل بنصر رسول الله ﷺ وإعزاز دينه وإعلاء كلمته أعانوه أو لم يعينوه وإنه قد نصره عند قلة الأولياء وكثرة الأعداء فكيف به اليوم وهو في كثرة من العدد والعدد ﴿**إذ أخرجه الذين كفروا**﴾ يعني أنه تعالى نصره في الوقت الذي أخرجه فيه كفار مكة من مكة حين مكروا به وأرادوا قتله ﴿**ثاني اثنين**﴾

﴿ **إِذْ أخرجه الذين كفرُوا** ﴾، من مكة حين مكروا به وأرادوا تبيينه وهمّوا بقتله، ﴿ **ثاني اثنين** ﴾ أي هو أحد الإثنين، والإثنان أحدهما رسول الله ﷺ والآخر أبو بكر الصديق رضي الله عنه، ﴿ **إِذْ هما في الغار** ﴾، وهو نقب في جبل ثور بمكة، ﴿ **إِذْ يقولُ لصاحبه لا تحزنْ إنّ اللَّهَ معنا** ﴾، قال الشعبي: عاتب الله عزّ وجلّ أهل الأرض جميعاً في هذه الآية غير أبي بكر الصدّيق رضي الله عنه. أخبرنا أبو المظفر محمد بن أحمد التميمي أنبأنا محمد بن عبد الرحمن بن عثمان أنبأنا خيثمة بن سليمان ثنا عبد الله بن أحمد الدورقي ثنا سعيد بن سليمان عن علي بن هاشم عن كثير النواء عن جميع بن عمير قال: أتيت ابن عمر رضي الله عنه فسمعته يقول: قال رسول الله ﷺ لأبي بكر رضي الله عنه: «أنت صاحبي في الغار وصاحبي على الحوض» قال الحسين بن الفضل: مَن قال إن أبا بكر لم يكن صاحب رسول الله ﷺ فهو كافر لإنكاره نصَّ القرآن. وفي سائر الصحابة إذا أنكر يكون مبتدعاً لا كافراً. وقوله عزّ وجلّ: ﴿ **لا تحزنْ إنّ الله معنا** ﴾ لم يكن حزن أبي بكر جُبْناً منه، وإنما كان إشفاقاً على رسول الله ﷺ. وقال: إن أُقتل فأنا رجل واحد وإن قتلت هلكت الأمة. ورُوِيَ أنه حين انطلق مع رسول الله ﷺ إلى الغار جعل يمشي ساعة بين يديه وساعة خلفه فقال له رسول الله ﷺ: «ما لك يا أبا بكر»؟ قال: أذكر الطلب فأمشي خلفك، ثم أذكر الرصد فأمشي بين يديك، فلما انتهيا إلى الغار قال مكانك يا رسول الله حتى أستبرىء الغار، فدخل فاستبرأه ثم قال: انزل يا رسول الله، فنزل فقال عمر: والذي نفسي بيده لتلك الليلة خير من عمر ومن آل عمر. أخبرنا أبو المظفر التميمي أنا محمد بن عبد الرحمن بن عثمان المعروف بابن أبي النصر أنا خيثمة بن سليمان ثنا أبو قلابة الرقاشي ثنا حيّان بن هلال ثنا همّام بن يحيىٰ ثنا ثابت البناني ثنا أنس بن مالك أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه حدّثهم، قال: نظرتُ

يعني هو واحد اثنين وهما رسول الله ﷺ وأبو بكر ﴿إذ هما في الغار﴾ يعني إذ رسول الله ﷺ وأبو بكر في الغار والغار نقب عظيم يكون في الجبل وهذا الغار في جبل ثور وهو قريب من مكة ﴿إذ يقول لصاحبه لا تحزن﴾ يعني يقول رسول الله ﷺ لأبي بكر الصديق لا تحزن وذلك أن أبا بكر خاف من الطلب أن يعلموا بمكانهم فجزع من ذلك فقال له رسول الله ﷺ لا تحزن ﴿إن الله معنا﴾ يعني بالنصر والمعونة قال الشعبي: عاتب الله عز وجل أهل الأرض جميعاً في هذه الآية غير أبي بكر وقال الحسن بن الفضل: من قال إن أبا بكر لم يكن صاحب رسول الله ﷺ فهو كافر لإنكاره نص القرآن وفي سائر الصحابة إذا أنكر يكون مبتدعاً ولا يكون كافراً.

عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال لأبي بكر: أنت صاحبي على الحوض وصاحبي في الغار. أخرجه الترمذي. وقال: حديث حسن غريب (ق)

عن أبي بكر الصديق قال: نظرت إلى أقدام المشركين ونحن في الغار وهم على رؤوسنا فقلت يا رسول الله لو أن أحدهم نظر إلى قدميه أبصرنا تحت قدميه فقال: يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما. قال الشيخ محيي الدين النووي معناه: ثالثهما بالنصر والمعونة والحفظ والتسديد وهو داخل في قوله سبحانه وتعالى أن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون وفيه بيان عظيم على توكل النبي ﷺ حتى في هذا المقام وفيه فضيلة لأبي بكر وهي من أجل مناقبه والفضيلة من أوجه منها اللفظ الدال على أن الله ثالثهما ومنها بذله نفسه ومفارقته أهله وماله ورياسته في طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ وملازمته النبي ﷺ ومعاداة الناس فيها ومنها جعله نفسه وقاية عنه وغير ذلك.

روي عن عمر بن الخطاب أنه ذكر عنده أبو بكر فقال: وددت أن عملي كله مثل عمله يوماً واحداً من أيامه وليلة واحدة من لياليه أما فليلته ليلة سار مع رسول الله ﷺ إلى الغار فلما انتهيا إليه قال والله لا تدخله حتى أدخله قبلك فإن

إلى أقدام المشركين فوق رؤوسنا ونحن في الغار فقلت: يا رسول الله لو أنّ أحدهم نظرَ تحت قدميه أبصرَنا، فقال: «يا أبا بكر ما ظنّك باثنين اللَّهُ ثالثُهما». أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي ثنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا يحيىٰ بن بكير ثنا الليث عن عقيل قال ابن شهاب فأخبرني عروة بن الزبير أن عائشة زوج النبي ﷺ قالت: لم أعقل أبواي قطّ إلاّ وهما يدينان الدين، ولم يمرّ علينا يوم إلاّ يأتينا فيه رسول الله ﷺ طرفي النهار بكرةً وعشيّاً، فلما ابتلي المسلمون خرج أبو بكر مهاجراً نحو أرض الحبشة حتى إذا بلغ برك الغماد لقيه ابن الدغنة وهو سيد القارّة فقال: أين تريد يا أبا بكر؟ فقال أبو بكر: أخرجني قومي فأُريد أن أسيح في الأرض فأعبد ربّي، قال ابن الدغنة: فإن مثلك يا أبا بكر لا يخرج ولا يُخرج، إنك تُكسب المعدم وتَصِل الرحم وتحمل الكَلّ وتقري الضيف وتُعين على نوائب الحق، فأنا لك جار، ارجع واعبد ربّك ببلدك، فرجع وارتحل معه ابن الدغنة فطاف ابن الدغنة عشية في أشراف قريش، فقال: إن أبا بكر لا يخرجُ مثلهُ ولا يُخرج، أتخرجون رجلاً يُكسب المعدم ويصلُ الرحم ويحملُ الكَلّ ويُقرىء الضيف ويُعين على نوائب الحق، فلم تُكذِّب قريشٌ بجوار ابن الدغنة، وقالوا لابن الدغنة مرْ أبا بكر فليعبد ربّه في داره فليصلِّ فيها وليقرأ ما شاء ولا يؤذينا بذلك، ولا يستعلن به فإنّا نخشى أن يفتن نساءنا وأبناءنا، فقال ذلك ابن الدغنة لأبي بكر فلبث أبو بكر بذلك يعبد ربه في داره ولا يستعلن بصلاته ولا يقرأ في غير داره ثم بدا لأبي بكر فابتنى مسجداً بفناء داره، وكان يصلّي فيه ويقرأ القرآن فيتقصّف عليه نساء المشركين وأبناؤهم يعجبون منه وينظرون إليه، وكان أبو بكر رضي الله عنه رجلاً بكّاء لا يملك عينيه إذا قرأ القرآن، فأفزع ذلك أشراف قريش من المشركين، فأرسلوا إلى ابن الدغنة فقَدِمَ عليهم، فقالوا: إنّا كنّا أجرنا أبا بكر بجوارك على أن يعبد ربّه في داره، فقد جاوز ذلك فابتنى مسجداً بفناء داره فأعلن الصلاة والقراءة فيه، وإنّا خشينا أن يفتن نساءنا وأبناءنا فانْهَهُ فإن أحبّ أن يقتصر على أن يعبد ربّه في داره فعل، وإن أبى إلاّ أن يعلن بذلك فسله أن

كان فيه شيء أصابني دونك فدخله فكنسه ووجد في جانبه ثقباً فشق إزاره وسدها به وبقي منهما ثقبان فألقمهما رجليه ثم قال لرسول الله ﷺ ادخل فدخل رسول الله ﷺ ووضع رأسه في حجره ونام فلدغ أبو بكر في رجله من الجحر ولم يتحرك مخافة أن ينتبه رسول الله ﷺ فسقطت دموعه على وجه رسول الله ﷺ فقال: مالك يا أبا بكر فقال: لدغت فداك أبي وأمي فتفل عليه رسول الله ﷺ فذهب ما يجده ثم انتقض عليه وكان سبب موته وأما يومه فلما قبض ﷺ ارتدت العرب، وقالوا: لا نؤدي الزكاة فقال لو منعوني عقالاً لجاهدتهم عليه فقلت يا خليفة رسول الله تألف الناس وارفق بهم. قال: لي أجبار في الجاهلية خوار في الإسلام أنه قد انقطع الوحي وتم الدين أينقص وأنا حي أخرجه في جامع الأصول ولم يرقم عليه علامة لأحد قال البغوي وروي أنه حين انطلق مع رسول الله ﷺ إلى الغار جعل يمشي ساعة بين يديه وساعة خلفه. فقال له رسول الله ﷺ: مالك يا أبا بكر؟ فقال: أذكر الطلب فأمشي خلفك واذكر الرصد فأمشي بين يديك فلما انتهيا إلى الغار قال: مكانك يا رسول الله حتى أستبرىء الغار فدخل فاستبرأه ثم قال انزل يا رسول الله فنزل وقال له: إن أقتل فأنا رجل واحد من المسلمين وإن قتلت هلكت الأمة.

(ذكر سياق حديث الهجرة وهو من أفراد البخاري)

عن عائشة قالت: لم أعقل أبوي قط إلا وهما يدينان الدين ولم يمر علينا يوم إلا يأتينا فيه رسول الله ﷺ طرفي النهار بكرة وعشياً فلما ابتلي المسلمون، خرج أبو بكر مهاجراً نحو أرض الحبشة حتى إذا بلغ برك الغماد لقيه ابن الدغنة وهو سيد القارة فقال: أين تريد يا أبا بكر؟ فقال أبو بكر: أخرجني قومي فأريد أن أسيح في الأرض فأعبد ربي. فقال ابن الدغنة: فإن مثلك يا أبا بكر لا يخرج ولا يخرج إنك تكسب المعدوم وتصل الرحم وتحمل الكل وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق فأنا لك جار فارجع واعبد ربك ببلدك فرجع وارتحل معه ابن الدغنة فطاف ابن الدغنة عشية في أشراف قريش فقال لهم إن أبا بكر لا يخرج مثله ولا يخرج أتخرجون رجلاً يكسب المعدوم ويصل الرحم ويحمل الكل ويقري الضيق ويعين على نوائب الحق فلم تكذب قريش بجوار ابن الدغنة وفي رواية فأنفذت قريش

يردّ إليك ذمّتك، فإنّا قد كرهنا أن نخفرك، ولسنا مُقرّين لأبي بكر الاستعلان، قالت عائشة رضي الله عنها: فأتى ابن الدغنة إلى أبي بكر فقال: قد علمت الذي عاقدت لك عليه فإما أن تقتصر على ذلك وإما أن تُرجع إليَّ ذمّتي فإني لا أُحب أن تسمع العرب إني أخفرت في رجل عقدت له، فقال أبو بكر: فإني أردّ إليك جوارك وأرضى بجوار الله، والنبي ﷺ يومئذ بمكة فقال النبي ﷺ للمسلمين: «إني رأيت دار هجرتكم ذات نخل بين لابتين وهما الحرّتان»، فهاجر مَن هاجر قبل المدينة ورجع عامّة مَن كان هاجر بأرض الحبشة إلى المدينة وتجهّز أبو بكر رضي الله عنه قبل المدينة فقال له رسول الله ﷺ: «على رَسْلِكَ فإنّي أرجو أن يؤذن لي»، فقال أبو بكر: وهل ترجو بذلك بأبي أنت؟ قال: «نعم»، فحبس أبو بكر نفسه على رسول الله ﷺ ليصحبه وعلف راحلتين كانتا عنده ورق السمر، وهو الخبط أربعة أشهر قال ابن شهاب: قال عروة: قالت عائشة رضي الله عنها: فبينما نحن يوماً جلوس في بيت أبي بكر في نحر الظهيرة، قال قائل لأبي بكر: هذا رسول الله ﷺ متقنعاً في ساعة لم يكن يأتينا فيها، فقال أبو بكر: فداءً له أبي وأُمي والله ما جاء به في هذه الساعة إلاّ أمر، قالت: فجاء رسول الله فاستأذن فأذن له فدخل فقال النبي ﷺ لأبي بكر: «أخرج مَنْ عندك»، فقال أبو بكر: إنما هم أهلك بأبي أنت يا رسول الله، قال: «فإني قد أذن لي في الخروج»، فقال أبو بكر: الصحبة بأبي أنت يا رسول الله؟ فقال رسول الله ﷺ: «نعم»، قال أبو بكر: فخذ بأبي أنت يا رسول الله إحدى راحلتي هاتين، قال رسول الله ﷺ: «بالثمن»، قالت عائشة رضي الله عنها فجهّزناهما أحثّ الجهاز وصنعنا لهما سفرة في جراب فقطعت أسماء بنت أبي بكر قطعة من نطاقها فربطت به على فم الجراب، فبذلك سُمّيت ذات النِطاقين، قالت: ثم لحق رسول الله ﷺ وأبو بكر بغار في جبل ثور فمكثا فيه ثلاث

جوار ابن الدغنة وأمنوا أبا بكر وقالوا لابن الدغنة مر أبا بكر فليعبد ربه في داره وليصل فيها وليقرأ ما شاء ولا يؤذينا بذلك ولا يستعلن به فإنا نخشى أن يفتن نساءنا وأبناءنا فقال ذلك ابن الدغنة لأبي بكر فلبث أبو بكر كذلك يعبد ربه في داره ولا يستعلن بصلاته ولا يقرأ في غير داره ثم بدا لأبي بكر فابتنى مسجداً بفناء داره وكان يصلي فيه ويقرأ القرآن فينقذف عليه نساء المشركين وأبناؤهم وهم يعجبون منه وينظرون إليه وكان أبو بكر رجلاً بكّاء لا يملك عينيه إذا قرأ القرآن فأفزع ذلك أشراف قريش من المشركين فأرسلوا إلى ابن الدغنة فقدم عليهم فقالوا إنا كنا أجرنا أبا بكر بجوارك على أن يعبد ربه في داره فقد جاوز ذلك فابتنى مسجداً بفناء داره فأعلن بالصلاة والقراءة فيه وإنا قد خشينا أن يفتن نساءنا وأبناءنا فانهه فإن أحب أن يقتصر على أن يعبد ربه في داره فعل وإن أبى إلا أن يعلن بذلك فسله أن يرد إليك ذمتك فإنا قد كرهنا أن نخفرك ولسنا مقرين لأبي بكر الاستعلان. قالت عائشة: فأتى ابن الدغنة إلى أبي بكر، فقال: قد علمت الذي عاهدت لك عليه فإما أن تقتصر على ذلك وإما أن ترجع إلى ذمتي فإني لا أحب أن تسمع العرب أني أخفرت في رجل عقدت له فقال أبو بكر: فإني أرد إليك جوارك وأرضى بجوار الله والنبي ﷺ يومئذ بمكة فقال النبي ﷺ للمسلمين: إني رأيت دار هجرتكم سبخة ذات نخل بين لابتين وهما الحرتان فهاجر من هاجر قبل المدينة ورجع عامة من كان بأرض الحبشة إلى المدينة وتجهز أبو بكر قبل المدينة فقال له رسول الله ﷺ: على رسلك فإني أرجو أن يؤذن لي فقال أبو بكر وهل ترجو ذلك بأبي أنت وأمي قال نعم فحبس أبو بكر نفسه على رسول الله ﷺ ليصحبه وعلف راحلتين كانتا عنده من ورق السمر هو الخبط أربعة أشهر قال ابن شهاب: قال عروة قالت عائشة: فبينا نحن جلوس يوماً في بيت أبي بكر في نحر الظهيرة قال قائل هذا رسول الله ﷺ متقنعاً في ساعة لم يكن يأتينا فيها. فقال أبو بكر: فداء له أبي وأمي والله ما جاء به في هذه الساعة إلا أمر قالت فجاء رسول الله ﷺ فاستأذن، فأذن له فدخل فقال النبي ﷺ لأبي بكر: اخرج من عندك. فقال أبو بكر إنما هم أهلك بأبي أنت وأمي يا رسول الله. قال: فإني قد أذن لي في الخروج قال أبو بكر الصحبة بأبي أنت وأمي يا رسول الله فقال رسول الله ﷺ نعم. قال أبو بكر: فخذ بأبي أنت وأمي يا رسول الله إحدى راحلتي هاتين فقال رسول الله ﷺ: بالثمن. قالت عائشة: فجهزناهما أحث الجهاز وصنعنا لهما

ليالٍ يبيت عندهما عبد الله بن أبي بكر وهو غلام شاب ثقف لقن، فيدلج من عندهما بسحر فيصبح مع قريش بمكة فلا يسمع أمراً يكتادان به إلّا وعاه حتى يأتيهما بخبر ذلك حين يختطّ الظلام، ويرعى عليهما عامر بن فهيرة مولى أبي بكر منحة من غنم فيريحها عليهما حين تذهب ساعة من العشاء فيبيتان في رسل وهو لبن منحتهما ورضيفهما حتى ينعق بهما عامر بن فهيرة بغلس، يفعل ذلك في كل ليلة من تلك الليالي الثلاث، واستأجر رسول الله ﷺ وأبو بكر رجلاً من بني الديل وهو من بني عبد بن عدي هاديا خريتاً والخريتُ: الماهر بالهداية، قد غمس حلفاً في آل العاص بن وائل السهمي وهو على دين كفّار قريش فأمّناه فدفعا إليه راحلتيهما وواعداه غار ثور بعد ثلاث ليالٍ براحلتيهما صبح ثلاث، وانطلق معهما عامر بن فهيرة والدليل فأخذ بهم على طريق السواحل قال ابن شهاب: وأخبرني عبد الرحمن بن مالك المدلجي وهو ابن أخي سراقة بن مالك بن جعشم أن أباه أخبره أنه سمع سراقة بن مالك بن جعشم يقول جاءنا رسل كفّار قريش يجعلون في رسول الله ﷺ وأبي بكر رضي الله عنه ديّة كل واحد منهما لمَن قتله أو أسره فبينما أنا جالس في مجلس من مجالس قومي بني مدلج أقبل رجل منهم حتى قام علينا ونحن جلوس، فقال: يا سراقة إني قد رأيت آنفاً أسودة بالساحل أراها محمداً وأصحابه، فقلت له: إنهم ليسوا بهم ولكنك رأيت فلاناً وفلاناً انطلقوا بأعيننا، ثم لبثتُ في المجلس ساعة ثم قمت فدخلت فأمرت جاريتي أن تخرج بفرسي وهي من وراء أكمة فتحبسها عليّ وأخذت رمحي فخرجت به من ظهر البيت فخططت بزجه الأرض وخفضت عاليه حتى أتيت فرسي فركبتها فدفعتها تقرب بي حتى دنوت منهم فعثرت بي فرسي فخررت عنها فقمت فأهويت يدي

سفرة في جراب فقطعت أسماء بنت أبي بكر قطعة من نطاقها فربطت به فم الجراب فبذلك سميت ذات النطاقين قالت ثم لحق رسول الله ﷺ وأبو بكر بغار في جبل ثور فكمنا فيه ثلاث ليال يبيت عندهما عبد الله بن أبي بكر وهو غلام شاب ثقف لقن فيدلج من عندهما بسحر فيصبح مع قريش بمكة كبائت فلا يسمع أمراً يكادان به إلا وعاه حتى يأتيهما بخبر ذلك حين يختلط الظلام ويرعى عليهما عامر بن فهيرة مولى أبي بكر منحة من غنم فيريحها عليهما حتى تذهب ساعة من العشاء فيبيتان في رسل حتى ينعق بهما عامر بن فهيرة بغلس يفعل ذلك كل ليلة من تلك الليالي الثلاث واستأجر رسول الله ﷺ وأبو بكر رجلاً من بني الديل وهو من بني عبد بن عدي هادياً خريتا والخريت الماهر بالهداية قد غمس حلفاً في آل العاص بن وائل السهمي وهو على دين كفار قريش فأمناه فدفعا إليه راحلتيهما وواعداه غار ثور بعد ثلاث ليال فأتاهما صبح ثلاث فارتحلا وانطلق معهما عامر بن فهيرة والدليل الديلي فأخذ بهم طريق السواحل وفي رواية طريق الساحل. قال ابن شهاب: فأخبرني عبد الرحمن بن مالك المدلجي وهو ابن أخي سراقة بن مالك بن جعشم أن أباه أخبره أنه سمع سراقة بن مالك بن جعشم يقول: جاءنا رسول كفار قريش يجعلون في رسول الله ﷺ وأبي بكر دية كل واحد منهما لمن قتله أو أسره فبينما أنا جالس في مجلس من مجالس قومي بني مدلج أقبل رجل منهم حتى قام علينا ونحن جلوس. فقال: يا سراقة إني قد رأيت آنفاً أسودة بالساحل أراها محمداً وأصحابه قال سراقة فعرفت أنهم هم فقلت له: إنهم ليسوا بهم ولكنك رأيت فلاناً وفلاناً انطلقوا بأعيننا يبتغون ضالة لهم ثم لبثت في المجلس ساعة ثم قمت فدخلت فأمرت جاريتي أن تخرج بفرسي وهي من وراء أكمة فتحبسها عليّ وأخذت رمحي فخرجت به من ظهر البيت فخططت بزجه الأرض وخفضت عاليه حتى أتيت فرسي فركبتها فرفعتها تقرب بي حتى دنوت منهم فعثرت بي فرسي فخررت عنها فقمت وأهويت بيدي إلى كنانتي فاستخرجت منها الأزلام فاستقسمت بها أضرهم أم لا فخرج الذي أكره فركبت فرسي وعصيت الأزلام تقرب بي حتى إذا سمعت قراءة رسول الله ﷺ وهو لا يلتفت وأبو بكر يكبر الالتفات ساخت يدا فرسي في الأرض حتى بلغتا الركبتين فخررت عنها ثم زجرتها فنهضت فلم تكد تخرج يديها فلما استوت قائمة إذ الأثر يديها عثان ساطع في السماء مثل الدخان فاستقسمت بالأزلام فخرج الذي أكره فناديتهم بالأمان فوقفوا فركبت فرسي حتى جئتهم ووقع في نفسي حين لقيت ما لقيت من الحبس عنهم أن سيظهر أمر رسول الله ﷺ فقلت له: إن قومك قد جعلوا فيك الدية وأخبرتهم أخبار ما يريد الناس بهم وعرضت عليهم الزاد والمتاع فلم يرزآني ولم يسألاني إلا أن قال أخف عنا ما استطعت فسألته أن يكتب لي كتاب أمن فأمر عامر بن فهيرة فكتب في رقعة من أديم ومضى رسول الله ﷺ قال ابن شهاب: فأخبرني عروة بن الزبير أن رسول الله ﷺ لقي الزبير في ركب من المسلمين كانوا تجاراً قافلين من الشأم فكسا الزبير رسول الله ﷺ وأبا بكر ثياب بياض وسمع المسلمون بالمدينة مخرج رسول الله ﷺ من مكة فكانوا يغدون كل غداة إلى الحرة فينتظرونه حتى يردهم حر الظهيرة فانقلبوا يوماً

إلى كنانتي فاستخرجت منها الأزلام فاستقسمت بها أضرّهم أم لا، فخرج الذي أكره، فركبت فرسي وعصيت الأزلام تقرب بي حتى إذا سمعت قراءة رسول الله ﷺ، وهو لا يلتفت وأبو بكر رضي الله عنه يكثر الالتفات فساخت يدا فرسي في الأرض حتى بلغتا الركبتين، فخررت عنها ثم زجرتها فنهضت، فلم تكد تُخرج يديها فلما استوت قائمة إذا تربدّ بها غبار ساطع في السماء مثل الدخان فاستقسمت بالأزلام فخرج الذي أكره فناديتهم بالأمان فوقفوا فركبت فرسي حتى جئتهم، ووقع في نفسي حين لقيت ما لقيت من الحبس عنهم أن سيظهر أمر النبي ﷺ، فقلت له: إن قومك قد جعلوا فيك الديّة وأخبرتهم خبرَ ما يُريد الناس بهم وعرضت عليهم الزاد والمتاع، فلم يرزآني ولم يسألاني شيئاً إلاّ أن قالا: اخْفِ عنّا، فسألته أن يكتب لي كتابَ أمن فأمر عامر بن فهيرة فكتب في رقعة من أدم ثم مضى رسول الله ﷺ. قال ابن شهاب: فأخبرني عروة بن الزبير أن رسول الله ﷺ لقي الزبير في ركب من المسلمين كانوا تجّاراً قافلين من الشام، فكسا الزبير رسول الله ﷺ وأبا بكر ثياباً بياض، وسمع المسلمون بالمدينة بمخرَج

بعد ما أطالوا انتظارهم فلما أووا إلى بيوتهم أوفى رجل من يهود على ظهر أطم من آطامهم لأمر ينظر إليه فبصر رسول الله ﷺ وأصحابه مبيضين يزول بهم السارب فلم يملك اليهودي أن قال بأعلى صوته يا معشر العرب هذا جدكم الذي تنتظرونه قال فثار المسلمون إلى السلاح فتلقوا رسول الله ﷺ بظهر الحرة فعدل بهم ذات اليمين حتى نزل بهم في بني عمرو بن عوف وذلك يوم الاثنين من شهر ربيع الأول فقام أبو بكر للناس وجلس رسول الله ﷺ صامتاً فطفق من جاء من الأنصار لمن لم ير رسول الله ﷺ يحيي أبا بكر حتى أصابت الشمس رسول الله ﷺ فأقبل أبو بكر حتى ظلل عليه بردائه فعرف الناس رسول الله ﷺ عند ذلك فلبث رسول الله ﷺ في بني عمرو بن عوف بضع عشرة ليلة وأسس المسجد الذي أسس على التقوى وصلى فيه رسول الله ﷺ ثم ركب راحلته فسار يمشي معه الناس حتى بركت عند مسجد الرسول ﷺ بالمدينة وهو يصلي فيه يومئذ رجال من المسلمين وكان مربداً للتمر لسهيل وسهل غلامين يتيمين في حجر أسعد بن زرارة فقال رسول الله ﷺ حين بركت به راحلته هذا إن شاء الله المنزل ثم دعا رسول الله ﷺ الغلامين فساومهما بالمربد ليتخذه مسجداً فقال لا بل نهبه لك يا رسول الله فأبى رسول الله ﷺ أن يقبله منهما هبة حتى ابتاعه منهما ثم بناه مسجداً وطفق رسول الله ﷺ ينقل معهم اللبن في بنيانه ويقول:

هــــذا الحمـــــال لا حمــــال خيبـــــر هــــــذا أبــــــر ربنـــــا وأطهـــــر

ويقول: اللهم إن الأجر أجر الآخرة فارحم الأنصار والمهاجرة، فتمثل بشعر رجل من المسلمين لم يسم لي. قال ابن شهاب: ولم يبلغنا في الأحاديث أن رسول الله ﷺ تمثل ببيت شعر تام غير هذا البيت أخرجه البخاري بطوله.

(شرح غريب ألفاظ الحديث)

قولها: لم أعقل أبوي إلا وهما يدينان الدين، يعني، أنهما كانا ينقادان إلى الطاعة، وبرك الغماد بفتح الباء من برك وكسر الغين المعجمة اسم موضع بينه وبين مكة خمس ليال مما يلي ساحل البحر إلى المدينة من بلاد غفار. وقيل: هو قليب ماء لبني ثعلبة. قوله: تكسب المعدوم فيه قولان: أحدهما: أنه لقوة سعده وحظه من الدنيا لا يتعذر عليه كسب كل شيء حتى المعدوم الذي يتعذر كسبه على غيره.

والقول الثاني: إنه يملك الشيء المعدوم المتعذر لمن لا يقدر عليه ففيه وصفة بالإحسان والكرم والكل ما يثقل حمله من حقوق الناس وصلة الأرحام والقيام بأمر العيال وإقراء الضيف ونوائب الحق ما ينوب الإنسان من المغارم وقضاء الحقوق لمن يقصده أنا لك جار أي حام وناصر ومدافع عنك والاستعلان إظهار المخفي. وقوله: فينقذف النساء عليه يعني يزدحمن عليه والذمة العهد والأمان وإخفاؤها نقضها. واللابة: الجبل. والحرة: الأرض التي تعلوها

رسول الله ﷺ من مكة فكانوا يغدون كل غداة إلى الحرّة فينظرونه حتى يردّهم حرّ الظهيرة، فانقلبوا يوماً بعدما أطالوا انتظارهم، فلما أوَوْا إلى بيوتهم أوفى رجلٌ من يهود على آطم من أطامهم لأمر ينظر إليه، فبصر برسول الله ﷺ وأصحابه مبيضين يزول بهم السراب، فلم يملك اليهودي أن قال بأعلى صوته: يا معشر العرب هذا جدّكم الذي تنتظرون، فثار المسلمون إلى السلاح، فتلقوا رسول الله ﷺ بظهر الحرّة فعدل بهم ذات اليمين حتى نزل بهم في بني عمرو بن عوف، وذلك يوم الاثنين من شهر ربيع الأول، فقام أبو بكر للناس وجلس رسول الله ﷺ صامتاً فطفق مَن جاء من الأنصار ممّن لم يرَ رسول الله ﷺ يحيّ أبا بكر حتى أصابت الشمسُ رسولَ الله ﷺ، فأقبل أبو بكر حتى ظلّل عليه بردائه فعرف الناسُ رسولَ الله ﷺ عند ذلك، فلبث رسول الله ﷺ في بني عمرو بن عوف بضع عشرة ليلة، وأسّسَ المسجد الذي أُسّس على التقوى، وصلّى فيه رسول الله ﷺ ثم ركب راحلته فسار يمشي معه الناس حتى بركت عند مسجد الرسول ﷺ بالمدينة، وهو يصلّي فيه يومئذ رجال من المسلمين، وكان مربداً للتمر لسهيل

حجارة سود. يقال: افعل الشيء على رسلك بكسر الراء أي على هينتك. والراحلة: البعير القوي على الحمل والسير، والظهيرة: وقت شدة الحر والنطاق: حبل أو نحوه تشد به المرأة وسطها وترفع ثوبها من تحته فتعطف طرفاً من أعلاه إلى أسفله لئلا يصل إلى الأرض. وقولها: ثقف لقن. يقال: ثقف الرجل ثقافة إذا صار حاذقاً فطناً واللقن السريع الفهم. والإدلاج: بتخفيف الدال سير أول الليل وبتشديدها سير آخره والمنحة الشاة ذات اللبن والرسل بكسر الراء وسكون السين هو اللبن يقال: نعق الراعي بالغنم إذا دعاها لتجتمع إليه. والغلس: ظلام آخر الليل. والخريت: تقدم شرحه في الحديث وهو الماهر بالهداية وأراد به هداية الطريق فهو الدليل. وقد غمس حلفاً يقال: غمس فلان حلفاً في آل فلان إذا أخذ بنصيب من عهدهم وحلفهم والأسودة الأشخاص. والأكمة: التل المرتفع من الأرض. يقال: قرب الفرس يقرب تقريباً إذا عدا عدواً دون الإسراع والكناية هي الجعبة التي تجعل فيها السهام والأزلام القداح التي كانوا يستقسمون بها عند طلب الحوائج كالفأل والعثان الغبار. يقال: ما رزأت فلاناً شيئاً أي ما أصبت منه شيئاً والمراد أنهم لم يأخذوا منه شيئاً وقوله أوفى أي أشرف وأطلع.

والأطم: البناء المرتفع كالحصن، وقوله: مبيضين هو بكسر الياء أي: هم ذو ثياب بيض والمربد الموضع يوضع فيه التمر كالبيدر. وقوله: هذا الحمال هو بالحاء المهملة يعني هذا الحمل والمحمول من اللبن أبر عند الله وأطهر وأبقى ذخراً وأدوم منفعة في الآخرة لأحمال خيبر يعني ما يحمل من خيبر من التمر والزبيب والطعام المحمول منها. والمعنى: أن ذلك الحمل الذي نحمله من اللبن لأجل عمارة المسجد أفضل عند الله مما يحمل من خيبر وقد روى هذا الجمال بالجيم من التجمل، والرواية الأولى أشهر وأكثر والله أعلم قال الزهري: لما دخل رسول الله ﷺ وأبو بكر الغار أرسل الله سبحانه وتعالى زوجاً من حمام حتى باضتا في أسفل النقب ونسجت العنكبوت بيتاً. وقيل: أتت يمامة على فم الغار وقال النبي ﷺ: «اللهم أعم أبصارهم» فجعل الطلب يضربون يميناً وشمالاً حول الغار يقولون لو دخلا هذا الغار لتكسر بيض الحمام وتفسخ بيت العنكبوت ووجدت في بعض التفاسير شعراً وقد نسب إلى أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه وهو قوله:

قال النبي ولم يجزع يوقرني ... ونحن في سدف في ظلمة الغار
لا تخش شيئاً فإن الله ثالثنا ... وقد تكفل لي منه بإظهار
وإنما كيد من تخشى بوادره ... كيد الشياطين قد كادت لكفار
والله مهلكهم بما صنعوا ... وجاعل المنتهي منهم طم إلى النار

وسهل غلامين يتيمين في حجر أسعد بن زرارة، فقال رسول الله ﷺ حين بركت به راحلته: «هذا إن شاء الله المنزل»، ثم دعا رسول الله ﷺ الغلامين فساومهما بالمربد ليتّخذه مسجداً فقالا: بل نهبه لك يا رسول الله، ثم بناه مسجداً وطفق رسول الله ينقل معهم اللَّبِنَ في بنيانه ويقول وهو ينقل اللَّبن:

«هذا الحمال لا حمال خيبر ... هذا أبرر بنا وأطهر»

ويقول:

«اللّهمَّ إن الأجر أجر الآخرة ... فارحمِ الأنصار والمهاجرة»

فتمثّل بشعر رجل من المسلمين لم يسمَّ لي، قال ابن شهاب: ولم يبلغنا في الأحاديث أن رسول الله ﷺ تمثّل ببيت شعر تامّ غير هذه الأبيات. قال الزهري: لمّا دخل رسول الله ﷺ وأبو بكر الغار أرسل الله تعالى زوجاً من حمام حتى باضتا في أسفل النقب والعنكبوت حتى نسجت بيتاً، وفي القصة أنبت يمامة على فم الغار، وقال

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿**فأنزل الله سكينته عليه**﴾ يعني فأنزل الله الطمأنينة والسكون على رسول الله ﷺ وقال ابن عباس عن أبي بكر لأن النبي ﷺ كانت عليه السكينة من قبل ذلك.

(فصل في الوجوه المستنبطة من هذه الآية الدالة على فضل سيدي أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه)

منها أن النبي ﷺ لما اختفى في الغار من الكفار كان مطلعاً على باطن أبي بكر الصديق في سره وإعلانه وأنه من المؤمنين الصادقين الصديقين المخلصين فاختار صحبته في ذلك المكان المخوف لعمله بحاله. ومنها: أن هذه الهجرة كانت بإذن الله فخصّ الله بصحبة نبيه ﷺ أبا بكر دون غيره من أهله وعشيرته وهذا التخصيص يدل على شرف أبي بكر وفضله على غيره. ومنها: أن الله سبحانه وتعالى عاتب أهل الأرض بقوله تعالى إلا تنصروه فقد نصره الله سوى أبي بكر الصديق وهذا دليل على فضله. ومنها: أن سيدنا أبا بكر رضي الله تعالى عنه لم يتخلف عن رسول الله ﷺ في سفر ولا حضر بل كان ملازماً له وهذا دليل على صدق محبته وصحة صحبته له ومنها مؤانسته للنبي ﷺ في الغار وبذل نفسه له وفي هذا دليل على فضله. ومنها: أن الله سبحانه وتعالى جعله ثاني رسول الله ﷺ بقوله سبحانه وتعالى ثاني اثنين إذ هما في الغار وفي هذا نهاية الفضيلة لأبي بكر رضي الله تعالى عنه. وقد ذكر بعض العلماء أن أبا بكر كان ثاني رسول الله ﷺ في أكثر الأحوال ومنها أن النبي ﷺ دعا الخلق إلى الإيمان بالله فكان أبو بكر أول من آمن ثم دعا أبو بكر إلى الإيمان بالله ورسوله فاستجاب له عثمان وطلحة والزبير فآمنوا على يدي أبي بكر ثم حملهم إلى النبي ﷺ ومنها أن النبي ﷺ لم يقف في موقف من غزواته إلا وأبو بكر معه في ذلك الموقف ومنه أنه لما مرض ﷺ قام مقامه في الإمامة فكان ثانيه ومنها أنه ثانيه في تربته ﷺ وفي هذا دليل على فضل أبي بكر الصديق ومنها أن الله سبحانه وتعالى نص على صحبة أبي بكر دون غيره بقوله سبحانه وتعالى إذ يقول لصاحبه لا تحزن ومنها أن الله سبحانه وتعالى كان ثالثهما ومن كان الله معه دل على فضله وشرفه على غيره ومنها إنزال السكينة على أبي بكر واختصاصه بها دليل على فضله والله أعلم.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿**وأيده بجنود لم تروها**﴾ يعني: وأيد النبي ﷺ بإنزال الملائكة ليصرفوا وجوه الكفار وأبصارهم عن رؤيته. وقيل: ألقى الرعب في قلوب الكفار حتى رجعوا وقال مجاهد والكلبي: أعانه بالملائكة يوم بدر فأخبر الله سبحانه وتعالى أنه نصره وصرف عنه كيد الأعداء وهو في الغار في حالة القلة والخوف ثم نصره بالملائكة يوم بدر ﴿**وجعل كلمة الذين كفروا السفلى**﴾ يعني كلمة الشرك فهي سفلى إلى يوم القيامة ﴿**وكلمة الله هي**

النبي ﷺ: «اللّهمَّ أعمِ أبصارهم عنّا» فجعل الطُّـلّب يضربون يميناً وشمالاً حول الغار يقولون: لو دخلا هذا الغار لتكسّر بيض الحمام وتفسّخ بيت العنكبوت. قوله عزّ وجلّ: ﴿ **فأنزل اللّهُ سكينتَهُ عليه** ﴾، قيل: على النبي ﷺ. وقال ابن عباس: على أبي بكر رضي الله عنه، فإن النبي ﷺ كانت عليه السكينة من قبل، ﴿ **وأيّدَه بجنودٍ لم تَرَوْهَا** ﴾، وهم الملائكة نزلوا يصرفون وجوه الكفّار وأبصارهم عن رؤيته، وقيل: ألقوا الرعب في قلوب الكفّار حتى رجعوا: وقال مجاهد والكلبي: أعانه بالملائكة يوم بدر أخبر أنه صرف عنه كيـد الأعداء في الغار ثم أظهر نصره بالملائكة يوم بدر، ﴿ **وجعلَ كلمةَ الذينَ كفرُوا السفلى** ﴾، وكلمتهم الشرك وهي السفلى إلى يوم القيامة، ﴿ **وكلمةُ اللّهِ هي العُليَا** ﴾، إلى يوم القيامة. قال ابن عباس: هي قول لا إله إلاّ الله. وقيل: كلمة الذين كفروا ما قدّروا بينهم في الكيد به ليقتلوه، وكلمة الله وَعْدُ الله أنه ناصره. وقرأ يعقوب: «وكلمـةَ الله» بنصب التاء على أنها معطوفة على المفعول الأول لجعل، وهو ﴿ **كلمة الذين كفروا** ﴾، والتقدير وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وجعل

العليا والله عزيز حكيم﴾ قال ابن عباس: هي كلمة لا إله إلا الله فهي باقية إلى يوم القيامة عالية. وقيل: إن كلمة الذين كفروا هي ما كانوا قدروها فيما بينهم من الكيد للنبي ﷺ ليقتلوه وكلمة الله هي ما وعده من النصر والظفر بهم فكان ما وعد الله سبحانه وتعالى حقاً وصدقاً.

﴿انفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾

قوله سبحانه وتعالى: **﴿انفروا خفافاً وثقالاً﴾** يعني انفروا على الصفة التي يخفف عليكم الجهاد بها وعلى الصفة التي يثقل عليكم فيها وهذان الوصفان يدخل تحتها أقسام كثيرة فلهذا اختلفت عبارات المفسرين فيها. فقال الحسن والضحاك ومجاهد وقتادة وعكرمة: يعني شباباً وشيوخاً. وقال ابن عباس: نشاطاً وغير نشاط. وقال عطية العوفي: ركباناً ومشاة. وقال أبو صالح: خفافاً من المال يعني فقراء وثقالاً يعني أغنياء. وقال ابن زيد: الخفيف الذي لا ضيعة له والثقيل الذي له الضيعة يكره أن يدع ضيعته.

ويروى عن ابن عباس قال: خفافاً أهل اليسرة من المال وثقالاً أهل العسرة. وقيل: خفافاً يعني من السلاح مقلين منه وثقالاً يعني مستكثرين منه. وقيل: مشاغيل وغير مشاغيل. وقيل: أصحاء ومرضى. وقيل: عزاباً ومتأهلين. وقيل: خفافاً من الحاشية والأتباع وثقالاً مستكثرين منهم. وقيل: خفافاً يعني مسرعين في الخروج إلى الغزو ساعة سماع النفير وثقالاً يعني بعد التروي فيه والاستعداد له والصحيح أن هذا عام لأن هذه الأحوال كلها داخلة تحت قوله تعالى انفروا خفافاً وثقالاً يعني على أي حال كنتم فيهما.

فإن قلت: فعلى هذا يلزم الجهاد لكل أحد حتى المريض والزمن والفقير وليس الأمر كذلك فما معنى هذا الأمر.

قلت: من العلماء من حمله على الوجوب ثم إنه نسخ.

قال ابن عباس: نسخت هذه الآية بقوله وما كان المؤمنون لينفروا كافة الآية. وقال السدي: نسخت بقوله: ليس على الضعفاء ولا على المرضى الآية ومنهم من حمل هذا الأمر على الندب. قال مجاهد: إن أبا أيوب الأنصاري شهد بدراً والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ ولم يتخلف عن غزوة غزاها المسلمون بعده فقيل له في ذلك، فقال: سمعت الله عز وجل يقول انفروا خفافاً وثقالاً ولا أجدني إلا خفيفاً أو ثقيلاً وقال الزهري: خرج سعيد بن المسيب وقد ذهبت إحدى عينيه فقيل له: إنك عليل صاحب ضر فقال: استنفر الله الخفيف والثقيل فإن لم يمكني الحرب كثرت السواد أو حفظت المتاع. وقال صفوان بن عمرو: كنت والياً على حمص فلقيت شيخاً قد سقط حاجباه على عينيه من أهل

كلمة الله هي العليا، فكلمة الله معطوفة على المفعول الأول والعليا معطوفة على المفعول الثاني. وقرأ الباقون «كلمــةُ الله» بالرفع على الاستئناف كأنه تمّ الكلام عند قوله: **﴿ وجعلوا كلمة الذين كفروا السفلى ﴾**، ثم ابتدأ فقال: **﴿ وكلمةُ الله هي العُليَا ﴾**، على الابتداء والخبر، فكلمة الله مبتدأ والعليا خبره، **﴿ واللَّهُ عزيزٌ حكيم ﴾**.

قوله تعالى: **﴿ انفرُوا خِفافاً وثِقالاً ﴾**، قال الحسن والضحاك ومجاهد وقتادة وعِكرمة: شُبّاناً وشُيوخاً. وعن ابن عباس: نشاطاً وغير نشاط. وقال عطية العوفي: ركباناً ومشاةً. وقال أبو صالح: خفافاً من المال، أي: فقراء، وثقالاً أي: أغنياء. وقال ابن زيد: الثقيل الذي له الضَيعة، فهو ثقيل يكره أن يــدع ضيعته، والخفيف الذي لا ضيعة له. ويُروى عن ابن عباس قال: خفافاً أهل الميسرة من المال وثقالاً أهل العسرة. وقيل: خفافاً من السلاح،

دمشق على راحلته يريد الغزو فقلت يا عم أنت معذور عند الله، فرفع حاجبيه وقال: يا ابن أخي استنفرنا الله خفافاً وثقالاً إلا أنه من يحبه يبتليه والصحيح. هو القول الأول أنها منسوخة وأن الجهاد من فروض الكفايات ويدل عليه أن هذه الآيات نزلت في غزوة تبوك وأن النبي ﷺ خلف في المدينة في تلك الغزوة النساء وبعض الرجال فدل ذلك على أن الجهاد من فروض الكفايات ليس على الأعيان والله أعلم.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿**وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله**﴾ فيه قولان الأول أن الجهاد إنما يجب على من له مال يتقوى به على تحصيل آلاف الجهاد ونفس سليمة قوية صالحة للجهاد فيجب عليه فرض الجهاد والقول الثاني أن من كان له مال وهو مريض أو مقعد أو ضعيف لا يصلح للحرب فعليه الجهاد بماله بأن يعطيه غيره ممن يصلح للجهاد فيغزو بماله فيكون مجاهداً بماله دون نفسه ﴿**ذلكم**﴾ يعني ذلكم الجهاد ﴿**خير لكم**﴾ يعني من القعود والتثاقل عنه. وقيل: معناه أن الجهاد خير حاصل لكم ثوابه ﴿**إن كنتم تعلمون**﴾ يعني أن ثواب الجهاد خير لكم من القعود عنه ثم نزل في المنافقين الذين تخلفوا عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك قوله عز وجل:

لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُ ۚ وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٤٢﴾ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾ لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾

﴿**لو كان عرضاً قريباً**﴾ فيه إضمار تقديره لو كان ما تدعوهم إليه عرضاً يعني غنيمة سهلة قريبة التناول والعرض ما عرض لك من منافع الدنيا ومتاعها. يقال: الدنيا عرض حاضر يأكل منها البر والفاجر ﴿**وسفراً قاصداً**﴾ يعني سهلاً قريباً ﴿**لاتبعوك**﴾ يعني لخرجوا معك ﴿**ولكن بعدت عليهم الشقة**﴾ أي المسافة والشقة السفر البعيد، لأنه يشق على الإنسان سلوكها. ومعنى الآية: لو كان العرض قريباً والغنيمة سهلة والسفر قاصداً لاتبعوك طمعاً في تلك المنافع التي تحصل لهم ولكن لما كان السفر بعيداً وكانوا يستعظمون غزو الروم لاجرم أنهم تخلفوا لهذا السبب ثم أخبر الله سبحانه

أي: مقلّين منه، وثقالاً أي: مستكثرين منه. وقال الحكم بن عتيبة: مشاغيل وغير مشاغيل. وقال مرّة الهمذاني. أصحّاء ومرضى. وقال يمان بن رباب عزّاباً ومتأهلين. وقيل: خفافاً من حاشيتكم وأتباعكم، وثقالاً مستكثرين بهم. وقيل: خفافاً مسرعين خارجين ساعة سماع النفير، وثقالاً بعد التروّي فيه الاستعداد له، ﴿ **وجاهدُوا بأموالِكم وأنفسكم في سبيل الله ذلكم خيرٌ لكم إن كنتم تعلمون** ﴾، قال الزهري: خرج سعيد بن المسيب إلى الغزو وقد ذهبت إحدى عينيه، فقيل له: إنك على صاحب ضر، فقال: استنفر الله الخفيف والثقيل، فإن لم يمكنّي الحرب كثرت السواد وحفظت المتاع. وقال عطاء الخراساني عن ابن عباس: نُسخت هذه الآية بقوله: ﴿ **وما كان المؤمنون** ﴾ [التوبة: ١٢٢]، قال السدي: لمّا نزلت هذه الآية اشتدّ شأنها على الناس فنسخها الله تعالى وأنزل: ﴿ **ليسَ على الضعفاء ولا على المرضَى** ﴾ [التوبة: ٩١] الآية: ثم نزل في المنافقين الذين تخلّفوا عن غزوة تبوك:

﴿ **لو كان عرضاً قريباً** ﴾، واسم كان مضمر، أي: لو كان ما ندعوهم إليه عرضاً قريباً أي: غنيمة قريبة المتناول، ﴿ **وسفراً قاصداً** ﴾، أي قريباً هيّناً، ﴿ **لاتّبعوك** ﴾، لخرجوا معك، ﴿ **ولكنْ بَعُدَتْ عليهمُ الشُّقَّةُ** ﴾،

وتعالى عنهم أنه إذا رجع النبي عليه السلام من هذا الجهاد يحلفون بالله وهو قوله تعالى: ﴿**وسيحلفون بالله**﴾ يعني المنافقين الذين تخلفوا عن رسول الله ﷺ في هذه الغزوة ﴿**لو استطعنا لخرجنا معكم**﴾ يعني إلى هذه الغزوة ﴿**يهلكون أنفسهم**﴾ يعني بسبب هذه الأيمان الكاذبة والنفاق وفيه دليل على أن الأيمان الكاذبة تهلك صاحبها ﴿**والله يعلم إنهم لكاذبون**﴾ يعني في أيمانهم وهو قولهم: لو استطعنا لخرجنا معكم لأنهم كانوا مستطيعين الخروج.

قوله عز وجل: ﴿**عفا الله عنك لم أذنت لهم**﴾ قال الطبري: هذا عتاب من الله عز وجل عاتب الله به نبيه محمداً ﷺ أي في إذنه لمن أذن له في التخلف عنه من المنافقين حين شخص إلى تبوك لغزو الروم. والمعنى: عفا الله عنك يا محمد ما كان منك في إذنك لهؤلاء المنافقين الذين استأذنوك في ترك الخروج معك إلى تبوك. قال عمرو بن ميمون الأودي: اثنان فعلهما رسول الله ﷺ لم يؤمر بشيء فيهما إذنه للمنافقين وأخذه الفداء من أسارى بدر فعاتبه الله كما تسمعون وقال سفيان بن عيينة: انظروا إلى هذا اللطف بدأه بالعفو قبل أن يعيره بالذنب.

(فصل)

استدل بهذه الآية من يرى جواز صدور الذنوب من الأنبياء وبيانه من وجهين: أحدهما، أنه سبحانه وتعالى. قال: عفا الله عنك والعفو يستدعي سابقة الذنب الوجه الثاني أنه سبحانه وتعالى قال لم أذنت لهم وهذا استفهام معناه الإنكار.

والجواب عن الأول: إنا لا نسلم أن قوله تعالى عفا الله عنك يوجب صدور الذنب بل نقول إن ذلك يدل على المبالغة في التعظيم والتوقير فهو كما يقول الرجل لغيره إذا كان معظماً له عفا الله عنك ما صنعت في أمري رضي الله عنك ما جوابك عن كلامي وعافاك الله وغفر لك كل هذه الألفاظ في ابتداء الكلام وافتتاحه تدل على تعظيم المخاطب به قال علي بن الجهم يخاطب المتوكل:

عفـا الله عنـك إلا حـرمـة ... تعـود بفضلـك أن أبعـدا
ألـم تـر عبـداً عـدا طـوره ... ومـولـى عفـا ورشيـداً هـدى
أقلنـي أقـالـك مـن لـم يـزل ... يقيـل ويصـرف عنـك الـردى

والجواب عن الثاني: أنه لا يجوز أن يكون المراد بقوله لم أذنت لهم الإنكار عليه وبيانه: إما أن يكون قد صدر عنه ذنب في هذه الواقعة أولاً فإن كان قد صدر عنه ذنب فذكر الذنب بعد العفو لا يليق. فقوله: عفا الله عنك، يدل على حصول العفو وبعد حصول العفو، يستحيل أن يتوجه الإنكار عليه وإن لم يكن قد صدر عنه ذنب امتنع الإنكار عليه فثبت بهذا أن الإنكار يمتنع في حقه ﷺ

وقال القاضي عياض في كتابه الشفاء في الجواب عن قوله عفا الله عنك لم أذنت لهم: أنه أمر لم يتقدم للنبي ﷺ

أي: المسافة، والشقّة السفر البعيد لأنه يشقّ على الإنسان. وقيل: الشقّة الغاية التي يقصدونها، ﴿ **وسيحلفون باللّهِ لوِ استطعنا لخرجنا معكم يُهلِكُون أنفسهم** ﴾، يعني باليمين الكاذبة، ﴿ **والله يعلم إنّهم لكاذِبُون** ﴾، في أيمانهم لأنهم كانوا مستطيعين.

﴿ **عفا اللّهُ عنكَ** ﴾، قال عمرو بن ميمون: اثنان فعلهما رسول الله ﷺ ولم يؤمر بهما: إذنه للمنافقين وأخذه الفدية من أسارى بدر، فعاتبه الله كما تسمعون. قال سفيان بن عيينة: انظروا إلى هذا اللطف بدأ بالعفو قبل أن يُعيِّره بالذنب. وقيل: إن الله عزّ وجلّ وقّره ورفع محله بافتتاح الكلام بالدعاء له، كما يقول الرجل لمَن يخاطبه إذا كان كريماً عنده: عفا الله عنك ما صنعت في حاجتي، ورضي الله عنك ألا زرتني. وقيل معناه: أدام الله لك العفو.

فيه من الله تعالى نهي فيعد معصية ولا عده تعالى عليه معصية بل لم يعده أهل العلم معاتبة وغلطوا من ذهب إلى ذلك قال نفطويه: وقد حاشاه الله من ذلك بل كان مخيراً في أمرين قالوا: وقد كان له أن يفعل ما يشاء فيما لم ينزل عليه فيه وحي فكيف وقد قال الله سبحانه وتعالى له فأذن لمن شئت منهم فلما أذن لهم أعلمه الله بما لم يطلع عليه من سرهم أنه لو لم يأذن لهم لقعدوا وأنه لا حرج عليه فيما فعل وليس عفا هنا بمعنى غفر بل كما قال النبي ﷺ عفا الله لكم عن صدقة الخيل والرقيق ولم تجب عليهم قط أي يلزمكم ذلك ونحوه للقشيري. قال: وإنما يقول العفو لا يكون إلا عن ذنب من لم يعرف كلام العرب قال ومعنى عفا الله عنك أي لم يلزمك ذنب. قال الداودي: إنها تكرمة. وقال مكي: هو استفتاح كلام مثل أصلحك الله وأعزك وحكى السمرقندي أن معناه عفاك الله. وقيل معناه: أدام الله لك العفو لم أذنت لهم يعني في التخلف عنك وهذا يحمل على ترك الأولى والأكمل لا سيما وهذه كانت من جنس ما يتعلق بالحروب ومصالح الدنيا ﴿**حتى يتبين لك الذين صدقوا**﴾ يعني في اعتذارهم ﴿**وتعلم الكاذبين**﴾ يعني فيما يعتذرون به. قال ابن عباس: لم يكن رسول الله ﷺ يعرف المنافقين يومئذ حتى نزلت براءة.

قوله سبحانه وتعالى: ﴿**لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم**﴾ أي في أن يجاهدوا وإنما حسن هذا الحذف لظهوره ﴿**والله عليم بالمتقين**﴾ يعني الذين يتقون لمخالفته ويسارعون إلى طاعته ﴿**إنما يستأذنك**﴾ يعني في التخلف عن الجهاد معك يا محمد من غير عذر ﴿**الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر**﴾ وهم المنافقون لقوله ﴿**وارتابت قلوبهم**﴾ يعني شكت قلوبهم في الإيمان وإنما أضاف الشك والارتياب إلى القلب لأنه محل المعرفة والإيمان أيضاً فإذا داخله الشك كان ذلك نفاقاً ﴿**فهم في ريبهم يترددون**﴾ يعني أن المنافقين متحيرون لا مع الكفار ولا مع المؤمنين وقد اختلف علماء الناسخ والمنسوخ في هذه الآية. فقيل: إنها منسوخة بالآية التي في سورة النور وهي قوله سبحانه وتعالى إن الذين يستأذنونك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله فإذا استأذنوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم واستغفر لهم وقيل إنها محكمات كلها ووجه الجمع بين هذه الآيات أن المؤمنين كانوا يسارعون إلى طاعة الله وجهاد عدوهم من غير استئذان فإذا عرض لأحدهم عذراً استأذن في التخلف فكان رسول الله ﷺ مخيراً في الإذن لهم بقوله تعالى فأذن لمن شئت منهم وأما المنافقون فكانوا يستأذنون في التخلف من غير عذر فعيرهم الله تعالى بهذا الاستئذان لكونه بغير عذر.

۞ وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَـٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَـٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَـٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ

﴿ **لِمَ أَذِنْتَ لهم** ﴾، أي: في التخلّف عنك ﴿ **حتّى يتبيّن لكَ الذينَ صدقُوا** ﴾، في أعذارهم، ﴿ **وتعلمَ الكاذِبين** ﴾، فيها، أي: تعلم مَن لا عذر له. قال ابن عباس رضي الله عنه: لم يكن رسول الله ﷺ يعرف المنافقين يومئذ.

﴿ **لا يستأذِنُكَ الذينَ يُؤمنُون باللّهِ واليومِ الآخرِ أنْ يُجاهدُوا بأموالِهم وأنفسهم** ﴾، أي: لا يستأذنك في التخلّف، ﴿ **واللّهُ عليمٌ بالمتّقين** ﴾.

﴿ **إنّما يستأذِنُكَ الذينَ لا يُؤمنُون باللّهِ واليومِ الآخرِ وارْتَابَتْ قلوبُهم** ﴾، أي شكّتْ ونافقت، ﴿ **فهم في ريبهم يتردّدُون** ﴾، يتحيّرون.

سَمَّٰعُونَ لَهُمْۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٤٨﴾

﴿ولو أرادوا الخروج﴾ يعني إلى الغزو معكم ﴿لأعدوا له عدة﴾ لتهؤوا له بإعداد آلات السفر وآلات القتال من الكراع والسلاح ﴿ولكن كره الله انبعاثهم﴾ يعني خروجهم إلى الغزو معكم ﴿فثبطهم﴾ يعني منعهم وحبسهم عن الخروج معكم والمعنى أن الله سبحانه وتعالى كره خروج المنافقين مع النبي ﷺ فصرفهم عنه وهاهنا يتوجه سؤال وهو أن خروج المنافقين مع النبي ﷺ إما أن يكون فيه مصلحة أو مفسدة فإن كان فيه مصلحة فلم قال: ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم، وإن كان فيه مفسدة. فلم عاتب نبيه ﷺ في أذنه لهم بالقعود والجواب عن السؤال أن خروجهم مع رسول الله ﷺ كان فيه مفسدة عظيمة بدليل أنه تعالى أخبر عن تلك المفسدة بقوله تعالى لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالاً، بقي فلم عاتب الله ورسوله ﷺ بقوله لم أذنت لهم فنقول إنه ﷺ أذن لهم قبل تمام الفحص وإكمال التأمل والتدبر في حالهم فلهذا السبب قال الله تعالى: لم أذنت لهم؟ وقيل إنما عاتبه لأجل أنه أذن لهم قبل أن يوحي إليه في أمرهم بالقعود ﴿وقيل اقعدوا مع القاعدين﴾ معناه أنهم لما استأذنوه في القعود. قيل لهم: اقعدوا مع القاعدين وهم النساء والصبيان والمرضى وأهل الأعذار ثم اختلفوا في القائل من هو فقيل، قال بعضهم لبعض: اقعدوا مع القاعدين. وقيل: القائل هو رسول الله ﷺ وإنما قال ذلك لهم على سبيل الغضب لما استأذنوه في القعود فقال لهم اقعدوا مع القاعدين فاغتنموا ذلك وقعدوا وقيل إن القائل ذلك هو الله سبحانه وتعالى بأن ألقى في قلوبهم القعود لما كره انبعاثهم مع المسلمين إلى الجهاد ثم بيَّن سبحانه وتعالى ما في خروجهم من المفاسد فقال تعالى: ﴿لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالاً﴾ يعني لو خرج هؤلاء المنافقون معكم إلى الغزو ما زادوكم إلا فساداً وشراً وأصل الخبال اضطراب ومرض يؤثر في العقل كالجنون قال بعض النحاة: هذا من الاستثناء المنقطع والمعنى لو خرجوا فيكم ما زادوكم قوة لكن خبالاً والمراد به هنا الإفساد وإيقاع الجبن والفشل بين المؤمنين بتهويل الأمر وشدة السفر وكثرة العدوان وقوتهم ﴿ولأوضعوا خلالكم﴾ يعني ولأسرعوا فيكم وساروا بينكم بإلقاء النميمة والأحاديث الكاذبة فيكم ﴿يبغونكم الفتنة﴾ يعني يطلبون لكم ما تفتتنون به وذلك أنهم يقولون للمؤمنين لقد جمع لكم كذا وكذا ولا طاقة لكم بهم وإنكم ستهزمون منهم وسيظهرون عليكم ونحو ذلك من الأحاديث الكاذبة التي تجبن وقيل معناه يطلبون العيب والشر ﴿وفيكم سماعون لهم﴾ قال مجاهد: يعني وفيكم عيون لهم يؤدون إليهم أخباركم وما يسمعون منكم وهم

﴿ ولو أرادوا الخروجَ ﴾، إلى الغزو، ﴿ لأعدُّوا لَهُ ﴾، أي: ليهيِّؤوا له، ﴿ عُدَّةً ﴾، أُهبة وقوة من السلاح والكِراع، ﴿ ولكنْ كَرِهَ اللَّهُ انبعاثهم ﴾، خروجهم، ﴿ فثبَّطَهم ﴾، منعهم وحبسهم عن الخروج، ﴿ وقيلَ اقْعُدُوا ﴾، في بيوتكم، ﴿ معَ القاعدين ﴾، يعني: مع المرضى والزَّمْنَى. وقيل: مَع النسوان والصبيان. قوله عزّ وجلّ: ﴿ وقيل ﴾ أي: قال بعضهم لبعض: اقعدوا. وقيل: أوحى إلى قلوبهم وأُلْهِمُوا أسباب الخذلان.

﴿ لو خرجُوا فيكم ﴾، وذلك أن رسول الله ﷺ أمرهم بالجهاد لغزوة تبوك فضرب رسول الله ﷺ عسكره على ثنيّة الوداع وضرب عبد الله بن أُبيّ على جدّة أسفل من ثنيّة الوداع، ولم يكن بأقل العسكرين، فلما سار رسول الله ﷺ تخلّف عند عبد الله بن أُبيّ فيمن تخلّف من المنافقين وأهل الريب، فأنزل الله تعالى يعزّي نبيّه ﷺ: ﴿ لو خرجوا ﴾ يعني المنافقون ﴿ فيكم ﴾ أي معكم، ﴿ ما زادُوكم إلاّ خبالاً ﴾، أي: فساداً وشرّاً. ومعنى الفساد: إيقاع الجبن والفشل بين المؤمنين بتهويل الأمر، ﴿ ولأَوْضَعُوا ﴾، أسرعوا، ﴿ خِلاَلَكُم ﴾، في وسطكم بإيقاع العداوة والبغضاء بينكم بالنميمة ونقل الحديث من البعض إلى البعض. وقيل: ﴿ لأَوْضَعُوا خِلاَلَكُمْ ﴾ أي: أسرعوا

الجواسيس. وقال قتادة: وفيكم مطيعون لهم يسمعون كلام المنافقين ويطيعونهم وذلك أنهم يلقون إليهم أنواعاً من الشبهات الموجبة لضعف القلب فيقبلونها منهم.

فإن قلت: كيف يجوز أن يكون في المؤمنين المخلصين من يسمع ويطيع للمنافقين؟

قلت: يحتمل أن يكون بعض المؤمنين لهم أقارب من كبار المنافقين ورؤسائهم فإذا قالوا قولاً ربما أثر ذلك القول في قلوب ضعفة المؤمنين في بعض الأحوال ﴿والله عليم بالظالمين﴾ وهذا وعيد وتهديد للمنافقين الذين يلقون الفتن والشبهات بين المؤمنين وقوله سبحانه وتعالى: ﴿لقد ابتغوا الفتنة من قبل﴾ يعني لقد طلبوا صد أصحابك يا محمد عن الدين وردهم إلى الكفر وتخذيل الناس عنكم قيل هذا اليوم كما فعل عبد الله بن أبي بن سلول يوم أحد حين انصرف بأصحابه عنكم ﴿وقلبوا لك الأمور﴾ يعني وأجالوا فيك وفي أمرك وفي إبطال دينك الرأي وبالغوا في تخذيل الناس عنك وقصدهم تشتيت أمرك ﴿حتى جاء الحق﴾ يعني النصر والظفر ﴿وظهر أمر الله وهم كارهون﴾ يعني ذلك.

وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُواْ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾ إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُواْ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّواْ وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوٓاْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾

قوله عز وجل: ﴿ومنهم من يقول ائذن لي ولا تفتني﴾ نزلت في الجد بن قيس وكان من المنافقين وذلك أن النبي ﷺ لما تجهز إلى غزوة تبوك قال للجد بن قيس: يا أبا وهب هل لك في جلاد بني الأصفر يعني الروم تتخذ منهم سراري ووصفاء. فقال الجد: يا رسول الله لقد عرف قومي أني رجل مغرم بحب النساء وإني أخشى إن رأيت بنات بني الأصفر أن لا أصبر عنهن ائذن لي في القعود ولا تفتني بهن وأعينك بمالي قال ابن عباس: اعتل الجد بن قيس ولم تكن

فيما يخلّ بكم. ﴿ يبغونَكُم الفتنة ﴾، أي: يطلبون لكم ما تفتنون به، يقولون: لقد جُمع لكم كذا وكذا وإنكم مهزومون وسيظهر عليكم عدوّكم ونحو ذلك. وقال الكلبي: يبغونكم الفتنة يعني: العَنَتَ والشرَّ. وقال الضحاك: الفتنة الشرك، ويقال: بغيته الشرّ والخير أبغيه بغياً إذا التمستُه له، يعني: بغيت له. ﴿وفيكم سمّاعُون لهم﴾، قال مجاهد: معناه وفيكم مخبرون لهم يؤدّون إليهم ما يسمعون منكم، وهم الجواسيس. وقال قتادة: معناه وفيكم مطيعون لهم، أي: يستمعون كلامهم ويطيعونهم. ﴿ واللَّهُ عليمٌ بالظالمين ﴾.

﴿ لقدْ ابْتغَوُا الفتنةَ مِن قبلُ ﴾، أي: طلبوا صدَّ أصحابك عن الدين وردّهم إلى الكفر، وتخذيل الناس عنك قبل هذا اليوم، كفعل عبد الله بن أُبيّ يوم أُحد حين انصرف عنك بأصحابه. ﴿ وقلّبُوا لكَ الأمورَ ﴾، جالوا فيك في إبطال دينك الرأي، بالتخذيل عنك وتشتيت أمرك، ﴿ حتى جاءَ الحقُّ ﴾، النصر والظفر، ﴿ وظهر أمر الله ﴾، دين الله، ﴿ وهم كارِهُون ﴾.

قوله تعالى: ﴿ ومنهم مَنْ يقولُ ائذنْ لي ولا تفتِنِّي ﴾، نزلت في جدّ بن قيس المنافق، وذلك أن النبي ﷺ لمّا تجهّز لغزوة تبوك قال: يا أبا وهب هل لك في جلاد بني الأصفر؟ يعني الروم، تتخذ منهم سراري ووصفاء، فقال جدّ: يا رسول الله لقد عرف قومي أني رجل مغرم بالنساء، وإني أخشى إن رأيت بنات بني الأصفر أن لا أصبر

له علة إلا النفاق فأعرض عنه رسول الله ﷺ وقال: قد أذنت لك فأنزل الله عز وجل فيه ومنهم يعني ومن المنافقين من يقول ائذن لي يعني في التخلف والقعود في المدينة ولا تفتني يعني ببنات بني الأصفر وهم الروم ﴿**ألا في الفتنة سقطوا**﴾ يعني أنهم وقعوا في الفتنة العظيمة وهي النفاق ومخالفة رسول الله ﷺ والقعود عنه ﴿**وإن جهنم لمحيطة بالكافرين**﴾ يعني يوم القيامة تحيط بهم وتجمعهم فيها.

قوله سبحانه وتعالى: ﴿**إن تصبك حسنة تسؤهم**﴾ يعني إن تصبك يا محمد حسنة من نصر وغنيمة تحزن المنافقين ﴿**وإن تصبك مصيبة**﴾ يعني من هزيمة أو شدة ﴿**يقولوا**﴾ يعني المنافقين ﴿**قد أخذنا أمرنا**﴾ يعني أخذنا أمرنا بالجد والحزم في القعود عن الغزو ﴿**من قبل**﴾ يعني من قبل هذه المصيبة ﴿**ويتولوا وهم فرحون**﴾ يعني مسرورين لما نالك من المصيبة وسلامتهم منها ﴿**قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا**﴾ يعني قل يا محمد لهؤلاء الذين يفرحون بما يصيبك من المصائب والمكروه لن يصيبنا إلا ما قدره الله لنا وعلينا وكتبه في اللوح المحفوظ لأن القلم جف بما هو كائن إلى يوم القيامة من خير وشر فلا يقدر أحد أن يدفع عن نفسه مكروهاً نزل به أو يجلب لنفسه نفعاً أراده لم يقدر له ﴿**هو مولانا**﴾ يعني أن الله سبحانه وتعالى هو ناصرنا وحافظنا وهو أولى بنا من أنفسنا في الموت والحياة ﴿**وعلى الله فليتوكل المؤمنون**﴾ يعني في جميع أمورهم ﴿**قل هل تربصون بنا**﴾ يعني: قل يا محمد لهؤلاء المنافقين هل تنتظرون بنا أيها المنافقون ﴿**إلا إحدى الحسنيين**﴾ يعني إما النصر والغنيمة وإما الشهادة والمغفرة وذلك أن المسلم إذا ذهب إلى الغزو والجهاد في سبيل الله إما أن يغلب عدوه فيفوز بالنصر والغنيمة والأجر العظيم في الآخرة وإما أن يقتل في سبيل الله فتحصل له الشهادة وهي الغاية القصوى ويدل على ذلك ما روي عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «تكفل الله وفي رواية تضمن الله لمن خرج في سبيله لا يخرجه إلا جهاد في سبيلي وإيمان بي وتصديق برسلي فهو عليّ ضامن أن أدخله الجنة أو أرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه نائلاً ما نال من أجر أو غنيمة» أخرجاه في الصحيحين.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿**ونحن نتربص بكم**﴾ يعني ونحن ننتظر بكم إحدى السوأيين ﴿**أن يصيبكم الله بعذاب**

عنهنّ، ائذنْ لي في القعودِ ولا تفتنّي بهنّ وأعينك بما لي. قال ابن عباس: اعتلّ جدّ بن قيس ولم تكن له علّة إلاّ النفاق، فأعرض عنه النبي ﷺ، فقال: أذنت لك فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿ **ومنهم** ﴾ يعني من المنافقين ﴿ **مَنْ يقولُ ائذنْ لي** ﴾ في التخلّف ﴿ **ولا تفتني** ﴾ ببنات الأصفر. قال قتادة: ولا تؤثمني. ﴿ **ألاَ في الفتنةِ سقطُوا** ﴾، أي: في الشرك والإثم وقعوا بنفاقهم وخلافهم أَمْرَ الله ورسوله، ﴿ **وإنّ جهنّم لمحيطةٌ بالكافِرين** ﴾، مطيفة عليهم وجامعة لهم فيها.

﴿ **إنْ تُصبْكَ حسنةٌ** ﴾، نصرة وغنيمة، ﴿ **تسؤهم** ﴾، تُحزنُهم، يعني: المنافقين، ﴿ **وإنْ تُصبْك مصيبةٌ** ﴾، قتل وهزيمة، ﴿ **يقولوا قدْ أخذنا أمْرَنا** ﴾، حذَرَنا، أي: أخذنا بالحزم في القعود عن الغزو، ﴿ **منْ قبلُ** ﴾، أي: من قبلِ هذه المصيبة، ﴿ **ويتولّوا** ﴾، ويدبروا ﴿ **وهمْ فَرِحُون** ﴾، مسرورون بما نالك من المصيبة.

﴿ **قلْ** ﴾ لهم يا محمد ﴿ **لن يُصيبنا إلاّ ما كتبَ اللّهُ لنا** ﴾، أي: علينا في اللوح المحفوظ، ﴿ **هو مولانا** ﴾، ناصرنا وحافظنا. وقال الكلبي: هو أولى بنا من أنفسنا في الموت والحياة، ﴿ **وعلى الله فليتوكلِ المؤمنون** ﴾.

﴿ **قلْ هلْ تربّصُون بنا** ﴾، تنتظِرون بنا أيها المنافقون، ﴿ **إلاّ إحدى الحُسنيين** ﴾، إما النصر والغنيمة أو الشهادة والمغفرة. وروينا عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «تكفّل الله لمَن جاهد في سبيله لا يخرجه من بيته إلاّ الجهاد في سبيله وتصديق كلمته أن يدخله الجنة. أو يرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه مع ما نال من أجر أو غنيمة».

﴿ **ونحنُ نتربصُ بكم** ﴾، إحدى السوأتين إمّا. ﴿ **أنْ يُصيبكُم اللّهُ بعذابٍ من عندِه** ﴾، فيهلككم كما أهلك الأمم

من عنده﴾ يعني فيهلككم كما أهلك من كان قبلكم من الأمم الخالية ﴿أو بأيدينا﴾ يعني أو يصيبكم بأيدي المؤمنين بأن يظفرنا بكم ويظهرنا عليكم ﴿فتربصوا إنا معكم متربصون﴾ قال الحسن: فتربصوا مواعيد الشيطان إنا متربصون مواعيد الله من إظهار دينه واستئصال من خالفه.

﴿قُلْ أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ ﴿٥٤﴾ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿٥٥﴾﴾

﴿قل أنفقوا طوعاً أو كرهاً﴾ نزلت في الجد بن قيس المنافق وذلك أنه استأذن رسول الله ﷺ في القعود عنه وقال أنا أعطيكم مالي فأنزل الله عز وجل رداً عليه قل أي قل يا محمد لهذا المنافق وأمثاله في النفاق أنفقوا طوعاً أو كرهاً يعني أنفقوا طائعين من قبل أنفسكم أو مكرهين بالإنفاق بإلزام الله ورسوله إياكم بالإنفاق ﴿لن يتقبل منكم﴾ لأن هذا الإنفاق إنما وقع لغير الله وهذه الآية وإن كانت خاصة في إنفاق المنافقين فهي عامة في حق كل من أنفق ماله لغير وجه الله بل أنفقه رياء وسمعة فإنه لا يقبل منه ثم علل بسبب منع القبول بقوله ﴿إنكم﴾ أي لأنكم ﴿كنتم قوماً فاسقين﴾ والمراد بالفسق هنا الكفر ويدل عليه قوله سبحانه وتعالى: ﴿وما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم إلا أنهم كفروا بالله وبرسوله﴾ أي المانع من قبول نفقاتهم هو كفرهم بالله وبرسوله ﴿ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى﴾ جمع كسلان يعني متثاقلين في الإتيان إلى الصلاة وذلك لأنهم لا يرجون على فعلها ثواباً ولا يخافون على تركها عقاباً فلذلك ذمهم مع فعلها ﴿ولا ينفقون إلا وهم كارهون﴾ لأنهم كانوا يعتقدون الإنفاق في سبيل الله مغرماً ومنع ذلك الإنفاق مغنماً ﴿فلا تعجبك﴾ يا محمد ﴿أموالهم ولا أولادهم﴾ هذا الخطاب وإن كان مختصاً بالنبي ﷺ إلا أن المراد به جميع المؤمنين والمعنى فلا تعجبوا بأموال المنافقين وأولادهم والإعجاب السرور بالشيء مع نوع من الافتخار به مع الاعتقاد أنه ليس لغيره مثله وهذا يدل على استغراق النفس بذلك الشيء ويكون سبب انقطاعه عن الله عز وجل فيبنغي للإنسان أن لا يعجب بشيء من أمور الدنيا ولذاتها فإن العبد إذا كان من الله عز وجل في استدراج كثر ماله وولده فيكثر إعجابه بماله وولده فيبطر ويكفر نعم الله عليه ولهذا قال سبحانه وتعالى: ﴿إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا﴾ فإن قلت كيف يكون المال والولد عذاباً في الدنيا وفيهما اللذة والسرور في الدنيا.

قلت: قال مجاهد وقتادة: في الآية تقديم وتأخير وتقديرها فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم في الحياة الدنيا إنما يريد الله ليعذبهم بها في الآخرة. وقيل: إن سبب كون المال والولد عذاباً في الدنيا هو ما يحصل من المتاعب

الخالية، ﴿ أو بأيدينا ﴾، أو بأيدي المؤمنين إن أظهرتم ما في قلوبكم، ﴿ فتربصُوا إنّا معكم مُتربِّصُون ﴾، قال الحسن: فتربصوا مواعيد الشيطان إنّا متربصون مواعيد الله من إظهار دينه واستئصال مَن خالفه.

﴿ قلْ أنفقُوا طوعاً أو كَرْهاً ﴾، أمرٌ بمعنى الشرط والجزاء، أي: إن أنفقتم طوعاً أو كرهاً. نزلت في جدّ بن قيس حين استأذن في القعود، قال أعينكم بمالي، يقول: إن أنفقتم طوعاً أو كرهاً ﴿ لنْ يُتَقَبَّلَ منكم إنّكم ﴾، أي: لأنكم، ﴿ كنتم قوماً فاسقين ﴾.

﴿ وما مَنَعهم أن تُقْبَلَ مِنْهُم ﴾، قرأ حمزة والكسائي: « يقبل » بالياء لتقدّم الفعل، وقرأ الباقون بالتاء لأن الفعل مسند إلى جمع مؤنث وهو النفقات، فأنّث الفعل ليعلم أن الفاعل مؤنث، ﴿ نفقاتُهُمْ ﴾، صدقاتهم، ﴿ إلّا

والمشاق في تحصيلهما فإذا حصلا ازداد التعب وتحمل المشاق في حفظهما ويزداد الحزن والغم بسبب المصائب الواقعة فيهما، فعلى هذا القول، لا حاجة إلى التقديم والتأخير في نظم الآية وأورد على هذا القول بأن هذا التعذيب حاصل لكل أحد من بني آدم مؤمنهم وكافرهم فما فائدة تخصيص المنافقين بهذا التعذيب في الدنيا وأجيب عن هذا الإيراد بأن المنافقين مخصوصون بزيادة من هذا العذاب وهو أن المؤمن قد علم أنه مخلوق للآخرة وإنه يثاب بالمصائب الحاصلة له في الدنيا فلم يكن المال والولد في حقه عذاباً في الدنيا وأما المنافق فإنه لا يعتقد كون الآخرة له وإنه ليس فيها ثواب فبقي ما يحصل له في الدنيا من التعب والشدة والغم والحزن على المال والولد عذاباً عليه في الدنيا فثبت بهذا الاعتبار أن المال والولد عذاب على المنافقين في الدنيا دون المؤمنين. وقيل: إن تعذيبهم بهما في الدنيا أخذ الزكاة منهم والنفقة في سبيل الله غير مثابين على ذلك وربما قتل الولد في الغزو فلا يثاب الوالد المنافق على قتل ولده وذهاب ماله. وقيل: يعذبهم بالتعب في جمعه وحفظه والكره في إنفاقه والحسرة على تخليفه عند من لا يحمده ثم يقدم في الآخرة على ملك لا يعذره ﴿وتزهق أنفسهم﴾ يعني وتخرج أنفسهم ﴿وهم كافرون﴾ والمعنى أنهم يموتون على الكفر فتكون عاقبتهم بعد عذاب الدنيا عذاب الآخرة.

وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَـٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَـٰتِ فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾

قوله عز وجل: ﴿ويحلفون بالله﴾ يعني المنافقين ﴿إنهم لمنكم﴾ يعني على دينكم وملتكم ﴿وما هم منكم﴾ يعني أنهم كاذبون في أيمانهم ﴿ولكنهم قوم يفرقون﴾ يعني أنهم يخافون أن تظهروا على ما هم عليه من النفاق ﴿لو

أنّهم كفرُوا باللّهِ وبرسولِهِ ﴾، أي: المانع من قبول نفقاتهم كفرهم، **﴿ ولا يأتُونَ الصلاةَ إلاّ وهم كُسَالَى ﴾**، متثاقلون لأنهم لا يرجون على أدائها ثواباً ولا يخافون على تركها عقاباً، فإن قيل: كيف ذمَّ الكسلَ في الصلاة ولا صلاة لهم أصلاً؟ قيل: الذم واقع على الكفر الذي يبعث على الكسل، فإن الكفر مُكسل والإيمان منشّط، **﴿ ولا ينفقون إلاّ وهم كَارِهُون ﴾**، لأنهم يعدّونها مغرماً ومنعها مغنماً.

﴿ فلا تُعجِبْكَ أموالُهم ولا أولادُهم ﴾، والإعجاب هو السرور بما يتعجب منه، يقول: لا تستحسن ما أنعمنا عليهم من الأموال والأولاد لأن العبد إذا كان من الله في استدراج كثّر الله ماله وولده، **﴿ إنّما يُريدُ اللّهُ ليعذّبَهم بها في الحياة الدنيا ﴾**، فإن قيل أيّ تعذيب في المال والولد وهم يتنعمون بها في الحياة الدنيا؟. قيل: قال مجاهد وقتادة: في الآية تقديم وتأخير، تقديره: فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم في الحياة الدنيا إنّما يريد الله ليعذبهم بها في الآخرة. وقيل: التعذيب بالمصائب الواقعة في المال والولد. وقال الحسن: يعذبهم بها في الدنيا بأخذ الزكاة منها والنفقة في سبيل الله. وقيل: يعذبهم بالتعب في جمعه والوجل في حفظه والكره في إنفاقه، والحسرة على تخليفه عند مَن لا يُحمِده، ثم يُقدم على مَلِكٍ يُعْذره. **﴿ وتَزْهَقَ أنفُسُهم ﴾**، أي: تخرج، **﴿ وهم كافرُون ﴾**، أي: يموتون على الكفر.

﴿ ويحلفون بالله إنّهم لمنكم ﴾، أي: على دينكم، **﴿ وما هم منكم ولكنّهم قومٌ يفرّقون ﴾**، يخافوا أن يُظهروا ما هم عليه.

﴿ لو يجِدُون مَلْجأً ﴾، حرزاً أو حصناً أو معقلاً. وقال عطاء: مهرباً وقيل: قوماً يأمنون فيهم. **﴿ أو**

يجدون ملجأ﴾ يعني حرزاً وحصناً ومعقلاً يلجؤون إليه وقيل لو وجدوا مهرباً لهربوا إليه وقيل لو يجدون قوماً يأمنون عندهم على أنفسهم منكم لصاروا إليهم ولفارقوكم **﴿أو مغارات﴾** يعني غيراناً في الجبل جمع مغارة وهو الموضع الذي يغور فيه الإنسان أي يستتر **﴿أو مدخلاً﴾** يعني موضع دخول يدخلون فيه وهو السرب في الأرض كنفق اليربوع وقال الحسن: وجهاً يدخلونه على خلاف رسول الله ﷺ **﴿لولوا إليه﴾** والمعنى أنهم لو وجدوا مكاناً بهذه الصفة أو على أحد هذه الوجوه الثلاثة وهي شر الأمكنة وأضيقها لولوا إليه أي لرجعوا إليه وتحرزوا فيه **﴿وهم يجمحون﴾** يعني وهم يسرعون إلى ذلك المكان والمعنى أن المنافقين لشدة بغضهم لرسول الله ﷺ والمؤمنين لو قدروا أن يهربوا منكم إلى أحد هذه الأمكنة لصاروا إليه لشدة بغضهم إياكم.

قوله سبحانه وتعالى: **﴿ومنهم من يلمزك في الصدقات﴾** نزلت في ذي الخويصرة التميمي واسمه حرقوص بن زهير وهو أصل الخوارج (ق) عن أبي سعيد الخدري قال: «بينما نحن عند رسول الله ﷺ وهو يقسم فيئاً فأتاه ذو الخويصرة رجل من بني تميم فقال يا رسول الله اعدل فقال رسول الله ﷺ: ويلك من يعدل إذا لم أعدل وفي رواية: قد خبت وخسرت إن لم أعدل فقال عمر بن الخطاب: ائذن لي فيه فأضرب عنقه فقال رسول الله ﷺ: دعه فإن له أصحاباً يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم» زاد في رواية «يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم يمرقون من الدين» وفي رواية «من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية» وقال الكلبي: قال رجل من المنافقين، يقال له أبو الجواظ لم تقسم بالسوية فنزلت هذه الآية، وقال قتادة: ذكر لنا أن رجلاً من أهل البادية حديث عهد بأعرابية أتى النبي ﷺ وهو

مَغَارَاتٍ ﴾، غِيرَاناً في الجبال جمع مغارة وهو الموضع الذي تغور فيه، أي تستتر. وقال عطاء: سراديب. **﴿ أو مُدَّخَلاً ﴾**، موضع دخول فيه، وهو من أدخل يدخل، وأصله: مدتخل مفتعل، من دخل يدخل. قال مجاهد: محرزاً. وقال قتادة: سرباً. وقال الكلبي: نفقاً في الأرض كنفق اليربوع. وقال الحسن: وجهاً يدخلونه على خلاف رسول الله ﷺ. وقرأ يعقوب: «مَدْخَلاً» بفتح الميم وتخفيف الدال، وهو أيضاً موضع الدخول، **﴿ لَوَلّوا إليه ﴾**، لأدبروا إليه هرباً منكم، **﴿ وهم يَجْمَحُون ﴾**، يسرعون في إباءٍ ونفورٍ لا يردّ وجوهَهم شيء. ومعنى الآية: أنهم لو يجدون مخلصاً منكم ومهرباً لفارقوكم.

قوله تعالى: **﴿ ومنهم مَّن يَلْمِزُكَ في الصَّدَقَاتِ ﴾**، الآية نزلت في ذي الخويصرة التميمي واسمه حرقوص بن زهير أصل الخوارج. أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا أبو اليمان أنا شعيب عن الزهري أخبرني أبو سلمة بن عبد الرحمن أن أبا سعيد الخدري رضي الله عنه قال: بينما نحن عند رسول الله ﷺ وهو يقسم قسماً فَيْأً أتاه ذُو الخُويصرة وهو رجل من بني تميم فقال: يا رسول إعدل، فقال: «وَيْلَكَ فمَنْ يعدلُ إذا لم أعدلْ قد خبت وخسرت إن لم أكنْ أعدل»، فقال عمر رضي الله عنه: يا رسول الله ائذن لي فيه فأضرب عنقه، فقال له: «دعه فإن له أصحاباً يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم، يقرؤون القرآن لا يُجاوز تراقيهم، يمرقون من الدِّينِ كما يَمْرُقُ السَّهمُ مِنَ الرَّمِيّة ينظر إلى نصله فلا يوجد فيه شيء، ثم ينظر إلى رصافه فلا يوجد فيه شيء، ثم ينظر إلى نضيه وهو قدحه فلا يوجد فيه شيء، ثم ينظر إلى قذذه فلا يوجد فيه شيء، قد ثبق الفرث والدم آنيتهم، رجل أسود إحدى عضديه مثل يدي المرأة، أو مثل البضعة تدردر، يخرجون على حين فرقة من الناس». قال أبو سعيد: وأشهد إني سمعت هذا الحديث من رسول الله ﷺ، وأشهد أني عليّ بن أبي طالب قاتلهم وأنا معه، فأمر بذلك الرجل فالتمس فوجد فأتى به حتى نظرت إليه على نعت رسول الله ﷺ الذي نعته. وقال الكلبي: قال رجل من المنافقين: يقال له أبو الجوط لرسول الله ﷺ: لم تُقسمْ بالسويّة، فأنزل الله تعالى: **﴿ ومنهم مَن يَلْمِزُكَ في الصَّدَقات ﴾** أي: يعيبك في أمرها وتفريقها ويطعن عليك

يقسم ذهباً وفضة فقال: يا محمد والله لئن كان الله أمرك أن تعدل فما عدلت فقال نبي الله ﷺ ويلك فمن ذا يعدل بعدي وقال ابن زيد قال المنافقون والله ما يعطيها محمد إلا من أحب ولا يؤثرها إلا من يهواه فأنزل الله سبحانه وتعالى ومنهم من يلمزك في الصدقات يعني ومن المنافقين من يعيبك في قسم الصدقات وفي تفريقها ويطعن عليك في أمرها يقال همزه ولمزه بمعنى واحد أي عابه ﴿فإن أعطوا منها﴾ يعني من الصدقات ﴿رضوا﴾ يعني رضوا عنك في قسمتها ﴿وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون﴾ يعني وإن لم تعطهم منها عابوا عليك وسخطوا.

وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾ ۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾

﴿ولو أنهم رضوا﴾ يعني ولو أن المنافقين الذين عابوا عليك رضوا بما قسم الله لهم وقنعوا ﴿ما آتاهم الله ورسوله وقالوا حسبنا الله﴾ أي كافينا الله ﴿سيؤتينا الله من فضله ورسوله﴾ يعني إليه ﴿إنا إلى الله راغبون﴾ يعني في أن يوسع علينا من فضله فيغنينا عن الصدقة وعن غيرها من أموال الناس وجواب لو محذوف تقديره لكان خيراً لهم وأعود عليهم.

قوله عز وجل: ﴿إنما الصدقات للفقراء والمساكين﴾ الآية اعلم أن المنافقين لما لمزو رسول الله ﷺ وعابوه في قسم الصدقات بيَّن الله عز وجل في هذه الآية إن المستحقين للصدقات هؤلاء الأصناف الثمانية ومصرفها إليهم ولا تعلن لرسول الله ﷺ منها بشيء ولم يأخذ لنفسه منها شيئاً فلم يلمزونه ويعيبون عليه فلا مطعن لهم فيه بسبب قسم الصدقات. عن زياد بن الحرث الصدائي قال «أتيت رسول الله ﷺ فبايعته فأتاه رجل فقال أعطني من الصدقة فقال له رسول الله ﷺ: إن الله لم يرض بحكم نبي ولا غيره في الصدقات حتى حكم فيها هو فجزأها ثمانية أجزاء فإن كنت من تلك الأجزاء أعطيتك حقك» أخرجه أبو داود.

فيها. يُقال: لمزه وهمزه، أي: عابه، يعني أن المنافقين كانوا يقولون إن محمداً لا يعطي إلاّ مَن أحبّ. وقرأ يعقوب «يلمـزك» وكذلك يلمزون في الحجرات ﴿ ولا تلمزوا ﴾ [الحجرات: ١١] كل ذلك بضمّ الميم فيهنّ، وقرأ الباقون بكسر الميم فيهنّ وهما لغتان «يلمُـز ويلمِز» مثل يحسِر ويعكِف ويعكُف. وقال مجاهد: يلمزك أي يزورك يعني يختبرك. ﴿ فإن أُعطُوا منها رَضُوا وإنْ لَمْ يُعطَوْا منها إذا هم يَسْخَطون ﴾، قيل: إن أعطوا كثيراً فرحوا وإن أعطوا قليلاً سخطوا.

﴿ ولو أنّهم رَضُوا ما آتاهم اللَّهُ ورسولُهُ ﴾، أي: قنعوا بما قسم لهم الله ورسوله ﴿ وقالوا حسبنا الله ﴾، كافينا الله، ﴿ سيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ورسولُهُ ﴾، ما نحتاج إليه ﴿ إنّا إلى اللّهِ رَاغِبُون ﴾، في أن يوسّع علينا من فضله، فيُغنينا عن الصدقة وغيرها من أموال الناس. وجواب ﴿ لو ﴾ محذوف أي: لكان خيراً لهم وأعود عليهم.

قوله تعالى: ﴿ إنّما الصدقاتُ للفقراء والمساكين ﴾ الآية، بيّن الله تعالى في هذه الآية أهل الصدقات وجعلها الثمانية أصناف. ورُوِيَ عن زياد بن الحارث الصدائي قال: أتيت رسولَ الله ﷺ فبايعته، فأتاه رجل وقال: أعطني من الصدقة، فقال له رسول الله ﷺ: «إنّ الله لم يرضَ بحكم نبي ولا غيره في الصدقات حتى حكم فيها هو فجزّأها ثمانية أجزاء، فإن كنتَ من تلك الأجزاء أعطيتك حقك». قوله: ﴿ للفقراء والمساكين ﴾. فأحدُ أصناف الصدقة: الفقراءُ والثاني: المساكين، واختلف العلماء في صفة الفقير والمسكين، فقال ابن عباس والحسن

(فصل في بيان حكم هذه الآية وفيه مسائل)

المسألة الأولى: في بيان وجه الحكمة في إيجاب الزكاة على الأغنياء وصرفها إلى المحتاجين من الناس وذلك من وجوه، الوجه الأول أن المال محبوب بالطبع وسببه أن القدرة صفة من صفات الكمال محبوبة لذاتها والمال سبب لتحصيل تلك القدرة فكان المال محبوباً بالطبع فإذا استغرق القلب في حب المال اشتغل به عن حب الله عز وجل وعن الاشتغال بالطاعات المقربة إلى الله عز وجل فاقتضت الحكمة الإلهية إيجاب الزكاة في ذلك المال الذي هو سبب البعد عن الله فيصير سبباً للقرب من الله عز وجل بإخراج الزكاة منه. الوجه الثاني: إن كثرة المال توجب قسوة القلب وحب الدنيا والميل إلى شهواتها ولذاتها فأوجب الله سبحانه وتعالى الزكاة ليقل ذلك المال الذي هو سبب لقساوة القلب. الوجه الثالث سبب وجوب الزكاة امتحان العبد المؤمن لأن التكاليف البدنية غير شاقة على العبد وإخراج المال مشق على النفس فأوجب الله عز وجل الزكاة على العباد ليمتحن بإخراج الزكاة أصحاب الأموال لتميز بذلك المطيع المخرج لها طيبة بها نفسه من العاصي المانع لها. الوجه الرابع أن المال مال الله والأغنياء خزان الله والفقراء عيال الله فأمر الله سبحانه وتعالى خزانه الذين هم أغنياء بدفع طائفة من ماله إلى عياله فيثيب العبد المؤمن المطيع المسارع إلى امتثال الأمر المشفق على عياله ويعاقب العبد العاصي المانع لعياله من ماله (ق)

عن أبي موسى الأشعري عن النبي ﷺ قال: إن الخازن المسلم الأمين الذي ينفذ وربما قال يعطي ما أمر به فيعطيه كاملاً موفراً طيبة به نفسه فيدفعه إلى الذي أمر له به أحد المتصدقين. الوجه الخامس أن الفقراء ربما تعلقت قلوبهم بالأموال التي بأيدي الأغنياء فأوجب الله عز وجل نصيباً للفقراء في ذلك المال تطييباً لقلوبهم. الوجه السادس أن المال الفاضل عن حاجة الإنسان الأصلية إذا أمسك بقي معطلاً عن المقصود الذي لأجله خلق المال فأمر بدفع الزكاة إلى الفقراء حتى لا يصير ذلك المال معطلاً بالكلية.

المسألة الثانية: الآية تدل على أنه لا حق لأحد في الصدقات إلا هؤلاء الأصناف الثمانية وذلك مجمع عليه لأن كلمتي إنما تفيدان الحصر وذلك لأنها مركبة من إن وما فكلمة إن للإثبات وكلمة ما للنفي فعند اجتماعهما يفيدان الحكم المذكور وصرفه عما عداه فدل ذلك على أن الصدقات لا تصرف إلا إلى الأصناف الثمانية.

المسألة الثالثة: في بيان الأصناف الثمانية فالصنف الأول للفقراء والثاني للمساكين وهم المحتاجون الذين لا

ومجاهد وقتادة وعكرمة والزهري: الفقير الذي لا يسأل والمسكين الذي يسأل. وقال ابن عمر: ليس بفقير مَن جمع الدرهم إلى الدرهم والتمرة إلى التمرة، ولكن مَن أنقى نفسه وثيابه لا يقدر على شيء يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفّف، فذلك الفقير. وقال قتادة: الفقير المحتاج الزَّمِنُ، والمسكين الصحيح المحتاج، ورُوِيَ عن عكرمة أنه قال: الفقراء من المسلمين والمساكين من أهل الكتاب. وقال الشافعي: الفقير مَن لاَ مَالَ له ولا حِرْفَة تقع منه موقعاً زَمِناً كان أو غير زَمِن، والمسكين مَن كان له مال أو حِرفَة ولا يغنيه، سائلاً كان أو غير سائل. فالمسكين عِنده أحسن حالاً من الفقير لأن الله تعالى قال: ﴿ أمّا السفينةُ فكانتْ لمساكين ﴾ [الكهف: ٧٩] أثبت لهم ملكاً مع اسم المسكنة، وعند أصحاب الرأي الفقير أحسن حالاً من المسكين. وقال القتيبي: الفقير الذي له البلغة من العيش، والمسكين الذي لا شيء له. وقيل: الفقير مَن له المسكن والخادم، والمسكين مَن لا ملك له. وقالوا: كل محتاج إلى شيء فهو مفتقر إليه وإن كان غنياً عن غيره، قال الله تعالى: ﴿ أنتم الفقراء إلى الله ﴾ [فاطر: ١٥]، والمسكين المحتاج إلى كل شيء ألا ترى كيف حضّ على إطعامه، وجعل طعام الكفّارة له ولا فاقة أشدّ من الحاجة إلى سدّ الجوعة. وقال إبراهيم النخعي: الفقراء هم المهاجرون، والمساكين مَن لم يهاجروا من المسلمين. وفي الجملة

يفي خرجهم بدخلهم ثم اختلف العلماء في الفرق بين الفقير والمسكين فقال ابن عباس والحسن ومجاهد وعكرمة والزهري: الفقير الذي لا يسأل والمسكين السائل وقال ابن عمر: ليس بفقير من جمع الدرهم إلى الدرهم والتمرة إلى التمرة ولكن الفقير من أنقى نفسه وثيابه ولا يقدر على الشيء يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف. وقال قتادة: الفقير المحتاج الزمن والمسكين الصحيح المحتاج وقال الشافعي رضي الله تعالى عنه: الفقير من لا مال له ولا حرفة تقع منه موقعاً زمناً كان أو غير زمن والمسكين من له مال أو حرفة ولكن لا تقع منه موقعاً لكفايته سائلاً كان أو غير سائل فالمسكين عنده أحسن حالاً من الفقير. وقال أبو حنيفة، وأصحاب الرأي: الفقير أحسن حالاً من المسكين ومن الناس من قال لا فرق بين الفقير والمسكين حجة الشافعي ومن وافقه أن الله سبحانه وتعالى حكم بصرف الصدقات إلى هؤلاء الأصناف الثمانية دفعاً لحاجتهم وتحصيلاً لمصلحتهم فبدأ بالفقر وإنما يبدأ بالأهم فالأهم فلو لم تكن حاجتهم أشد من حاجة المساكين لما بدأ بهم وأصل الفقير المكسور الفقار قال لبيد:

لمـــا رأى لبــد النســور تطـايــرت رفــع القــوادم كــالفقيــر الأعــزل

قال ابن الأعرابي: الفقير في هذا البيت المكسور الفقار فثبت بهذا أن الفقير إنما سمي فقيراً لزمانته وحاجته الشديدة وتمنعه الزمانة من التقلب في الكسب ولأن النبي ﷺ كان يتعوذ من الفقر وقال «اللهم أحيني مسكيناً وأمتني مسكيناً واحشرني في زمرة المساكين يوم القيامة» رواه الترمذي من حديث أنس فلو كان المسكين أسوأ حالاً من الفقير لما تعوذ من الفقر وسأل المسكنة فثبت بهذا أن المسكين أحسن حالاً من الفقير ولأن الله سبحانه وتعالى قال أما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر فأثبت لهم ملكاً مع اسم المسكنة لأن السفينة من سفن البحر تساوي دنانير كثيرة ولأن الغنى والفقر ضدان والمسكنة قسم ثالث بينهما فثبت بهذا أن الفقير أسوأ حالاً من المسكين وحجة أبي حنيفة ومن وافقه على أن المسكين أسوأ حالاً من الفقير قوله أو مسكيناً ذا متربة وصف المسكين بكونه ذا متربة وهو الذي لصق جلده بالتراب وهذا يدل على غاية الضر والشدة ولأن الله تعالى جعل الكفارات للمساكين فلو لم يكن المسكين أشد حاجة من غيره لما جعلها له واحتج أيضاً بقول الراعي:

أمــا الفقيــر الــذي كــانــت حلــوبتــه وفــق العيــال فلــم يتــرك لــه سبــد

واحتج أيضاً بقول الأصمعي وأبي عمرو بن العلاء أن الفقير الذي له ما يأكل والمسكين الذي لا شيء له وكذا

الفقر والمسكنة عبارتان عن الحاجة وضعف الحال، فالفقير المحتاج الذي كسرت الحاجة فِقَار ظهره، والمسكين الذي ضعفت نفسه وسكنت عن الحركة في طلب القوت. أخبرنا عبد الوهاب بن محمد الخطيب ثنا عبد العزيز بن أحمد الخلال ثنا أبو العباس الأصم ثنا الربيع أنبأنا الشافعي أنبأنا سفيان بن عيينة عن هشام يعني ابن عروة عن أبيه عن عبيد الله بن عدي بن الخيار أن رجلين أخبراه أنهما أتيا رسولَ الله فسألاه عن الصدقة فصعّد فيهما وصوّب، فقال: «إنْ شئتما أعطيتُكما ولا حظّ فيها لغني ولا لذي قوة مكتسب». واختلفوا في حدّ الغنى الذي يمنع أخذ الصدقة، فقال الأكثرون حدّه أن يكون عنده ما يكفيه وعياله سنة، وهو قول مالك والشافعي. وقال أصحاب الرأي: حدّه أن يملك مائتي درهم. وقال قوم: مَن مَلَكَ خمسين درهماً لا تحلّ له الصدقة، لِما روينا عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ سأل النّاسَ وله ما يُغنيه جاءَ يومَ القيامةِ ومسألتُهُ في وجهه خموش أو خدوش أو كدوح»، قيل: يا رسول الله وما يُغنيه؟ قال: «خمسون درهماً أو قيمتُها من الذهب». وهو قول الثّوري وابن المبارك وأحمد وإسحاق. وقالوا لا يجوز أن يعطى الرجل من الزكاة أكثر من خمسين درهماً. وقيل: أربعون درهماً لِما رُوِيَ أنّ النبي ﷺ قال: «مَن سأل وله أُوقية أو عدلها فقد سأل إلحافاً». قوله تعالى: ﴿ **والعاملين عليها** ﴾. وهم السعاة

قال القتيبي: الفقير الذي له البلغة من العيش والمسكين الذي لا شيء له وقيل: الفقير الذي له المسكن والخادم والمسكين الذي لا ملك له وقيل: إن كل محتاج إلى شيء فهو مفتقر إليه وإن كان غنياً عن غيره قال الله سبحانه وتعالى: أنتم الفقراء إلى الله فأثبت لهم اسم الفقر مع وجدان المال والجواب عن هذه الحجج أما قوله أو مسكيناً ذا متربة فهو حجة لمذهب الإمام الشافعي رضي الله تعالى عنه لأنه قيد المسكين المذكور هنا بكونه ذا متربة فدل على أنه قد يوجد مسكين لا بهذه الصفة وإلا لم يبق لهذا القيد فائدة والجواب عن جعل الكفارات للمسكين أنه هو الفقير الذي لصق جلده بالتراب من شدة المسكنة والجواب عن الاستدلال ببيت الراعي إنه ذكر الفقير وجده فكل فقير أفرد بالاسم جاز إطلاق المسكين عليه فسقط الاستدلال به وأما الروايات المذكورة فهي معارضة بما تقدم من الروايات عن ابن عباس وغيره من المفسرين. وبالجملة أن الفقر والمسكنة عبارتان عن شدة الحاجة وضعف الحال فالفقير هو الذي كسرت الحاجة فقار ظهره والمسكين هو الذي ضعفت نفسه وسكنت عن الحركة في طلب القوت. عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن رسول الله ﷺ قال: «لا تحل الصدقة لغني ولا لذي مرة سوي» أخرجه النسائي وأبو داود وله في رواية أخرى «ولا لذي مرة قوي» عن عبيد الله بن عدي بن الخيار قال «أخبرني رجلان أنهما أتيا النبي ﷺ وهو في حجة الوداع وهو يقسم الصدقات فسألاه منها فرفع فينا النظر وخفضه فرآنا جلدين فقال إن شئتما أعطيتكما ولا حظ فيها لغني ولا لقوي مكتسب» أخرجه أبو داود والنسائي وأخرجه الشافعي ولفظه «أن رجلين أتيا رسول الله ﷺ فسألاه عن الصدقة فقال: إن شئتما أعطيتكما ولاحظ فيها لغني ولا لذي قوة مكتسب» واختلف العلماء في حد الغنى الذي يمنع من أخذ الصدقة فقال الأكثرون حده أن يكون عنده ما يكفيه وعياله سنة وهو قول مالك والشافعي. وقال أصحاب الرأي: حده أن يملك مائتي درهم. وقال قوم: من ملك خمسين درهماً أو قيمتها لا تحل له الصدقة لما روي عن ابن مسعود قال قال رسول الله ﷺ: «من سأل الناس وله ما يغنيه جاء يوم القيامة ومسألته في وجه خموش أو خدوش أو كدوح قيل يا رسول الله وما يغنيه قال: خمسون درهماً أو قيمتها من الذهب» أخرجه أبو داود والترمذي والنسائي وهذا قول الثوري وابن المبارك وأحمد وإسحاق. وقالوا: لا يجوز أن يعطى الرجل أكثر من خمسين درهماً من الزكاة وقيل: أربعين درهماً لما روي عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ «من سأل وله قيمة أوقية فقد ألحف» أخرجه أبو داود وكانت الأوقية في ذلك الزمان أربعين درهماً الصنف الثالث قوله سبحانه وتعالى: ﴿والعاملين عليها﴾ وهم السعاة الذين يتولون جباية الصدقات وقبضها من أهلها ووضعها في جهتها فيعطون من مال الصدقات بقدر أجور

الذين يتولّون قبض الصدقات من أهلها ووضعها في حقها، فيُعطون من مال الصدقة فقراءً كانوا أو أغنياءً، فيُعطَون مثل أجر عملهم. وقال الضحاك ومجاهد: لهم الثمن من الصدقة. ﴿ والمؤلَّفةِ قلوبُهم ﴾، فالصنف الرابع من المستحقّين للصدقة هم المؤلّفة قلوبهم، وهم قسمان قسم مسلمون وقسم كفّار، فأمّا المسلمون فقسمان قسم دخلوا في الإسلام ونيّتهم ضعيفة فيه، فكان النبي ﷺ يعطيهم تألّفاً كما أعطى عيينة بن بدر والأقرع بن حابس والعباس بن مرداس السلمي، وأسلموا ونيّتهم قوية في الإسلام وهم شرفاء في قومهم مثل عدي بن حاتم والزبرقان بن بدر، فكان يعطيهم تألّفاً لقومهم وترغيباً لأمثالهم في الإسلام، فهؤلاء يجوز للإمام أن يعطيهم من الخمس خمس الغنيمة، والفيء سهم النبي ﷺ، وكان النبي ﷺ يعطيهم من ذلك ولا يعطيهم من الصدقات. والقسم الثاني من مؤلّفة المسلمين أن يكون قوم من المسلمين بإزاء قوم كفّار من موضع مُتناءٍ لا تبلغهم جيوش المسلمين إلّا بمؤنة كثيرة وهم لا يجاهدون، إمّا لضعف نيّتهم أو لضعف حالهم، فيجوز للإمام أن يعطيهم من سهم الغزاة من مال الصدقة. وقيل: من سهم المؤلّفة ومنهم قوم بإزاء جماعة من مانعي الزكاة يأخذون منهم الزكاة يحملونها إلى الإمام فيعطيهم الإمام من سهم المؤلّفة من الصدقات. وقيل: من سهم سبيل الله. رُوِيَ أنّ عديّ بن

أعمالهم سواء كانوا فقراء أو أغنياء وهذا قول ابن عمر وبه. قال الشافعي وقال مجاهد والضحاك: يعطون الثمن من الصدقات. وظاهر اللفظ مع مجاهد إلا أن الشافعي يقول: هو وأجرة عمل تتقدر بقدر العمل والصحيح أن الهاشمي والمطلبي لا يجوز أن يكون عاملاً على الصدقات لما روي عن أبي رافع أن رسول الله ﷺ استعمل رجلاً من بني مخزوم على الصدقة فأراد أبو رافع أن يتبعه فقال رسول الله ﷺ: «لا تحل لنا الصدقة وأن مولى القوم منهم» أخرجه الترمذي والنسائي الصنف الرابع قوله تعالى: ﴿والمؤلفة قلوبهم﴾ وهم قسمان: قسم مسلمون وقسم كفار فأما قسم المسلمين فقسمان القسم الأول هم قوم من أشراف العرب كان رسول الله ﷺ يعطيهم من الصدقات يتألفهم بذلك كما أعطى عيينة بن حصن والأقرع بن حابس والعباس بن مرداس السلمي فهؤلاء أسلموا وكانت نيتهم ضعيفة فكان رسول الله ﷺ يعطيهم لتقوى رغبتهم في الإسلام وقوم أسلموا وكانت نيتهم قوية في الإسلام وهم أشراف قومهم مثل عدي بن حاتم والزبرقان بن بدر فكان رسول الله ﷺ يعطيهم تألفاً لقومهم وترغيباً لأمثالهم في الإسلام فيجوز للإمام أن يعطي أمثال هؤلاء من خمس خمس الغنيمة والفيء من سهم رسول الله ﷺ كان يعطيهم من ذلك ومن الصدقات أيضاً. القسم الثاني من مؤلفة المسلمين هم قوم من المسلمين يكونون بإزاء قوم كفار في موضع لا تبلغهم جيوش المسلمين إلا بكلفة كبيرة ومؤنة عظيمة وهؤلاء الذين بإزائهم من المسلمين لا يجاهدونهم لضعف نيتهم أو لضعف حالهم فيجوز للإمام أن يعطيهم من سهم الغزاة من مال الصدقة وقيل من سهم المؤلفة قلوبهم ومن هؤلاء قوم بإزاء جماعة من مانعي الزكاة فيأخذون منهم الزكاة ويحملونها إلى الإمام فيعطيهم الإمام من سهم المؤلفة من الصدقات وقيل من سهم سبيل الله. روي أن عدي بن حاتم جاء أبا بكر بثلثمائة من الإبل من صدقات قومه فأعطاه أبو بكر منها ثلاثين بعيراً وأما مؤلفة الكفار فهم قوم يخشى شرهم أو يرجى إسلامهم فيجوز للإمام أن يعطي من يخاف شره أو يرجو إسلامه فقد كان رسول الله ﷺ يعطيهم من خمس الخمس كما أعطى صفوان بن أمية لما كان يرى من ميله إلى الإسلام أما اليوم فقد أعز الله الإسلام وله الحمد على ذلك وأغناه عن أن يتألف عليه أحد من المشركين فلا يعطى مشرك تألفاً بحال وقد قال بهذا كثير من أهل العلم ورأوا أن المؤلفة منقطعة وسهمهم ساقط يروى ذلك عن ابن عمر وعكرمة وهو قول الشعبي وبه قال مالك والثوري وأصحاب الرأي وإسحاق بن راهويه. وقال قوم: سهمهم ثابت لم يسقط. يروى ذلك عن الحسن وهو

حاتم جاء إلى أبي بكر الصديق بثلاثمائة من الإبل من صدقات قومه فأعطاه أبو بكر منها ثلاثين بعيراً. وأمّا الكفّار من المؤلّفة فهو مَن يُخشى سرّهُ منهم أو يُرجى إسلامه، فيريد الإمام أن يُعطي هذا حذراً من شرّه أو يُعطي ذلك ترغيباً به في الإسلام، فقد كان النبي ﷺ يعطيهم من خمس الخمس، كما أعطى صفوان بن أمية لِمَا كان يرى من ميله إلى الإسلام، أما اليوم فقد أعزّ الله الإسلام فله الحمد وأغناه أن يتألّف عليه رجالاً، فلا يُعطى مشركٌ تألّفاً بحال، وقد قال بهذا كثير من أهل العلم أن المؤلّفة منقطعة وسهمهم ساقط. رُوِيَ ذلك عن عكرمة، وهو قول الشعبي، وبه قال مالك والثّوري وأصحاب الرأي، وإسحاق بن راهويه، وقال قوم: سهمهم ثابت، يُروى ذلك عن الحسن، وهو قول الزهري وأبي جعفر محمد بن علي وأبي ثور، وقال أحمد: يعطون إن احتاج المسلمون إلى ذلك. قوله تعالى: ﴿ وفي الرِّقَاب ﴾، والصنف الخامس هم الرقاب وهم المُكاتبون لهم سهم من الصدقة هذا قول أكثر الفقهاء، وبه قال سعيد بن جبير والنخعي والزهري والليث بن سعد والشافعي. وقال جماعة: يشتري بسهم الرقاب عبيداً فيُعتقون. وهذا قول الحسن، وبه قال مالك وأحمد وإسحاق. قوله تعالى: ﴿ والغَارِمِينَ ﴾، والصنف السادس هم الغارمون وهم قسمان قسم أدانوا لأنفسهم في غير معصيته فإنهم يُعطَون من الصدقة إذا لم يكن لهم من المال ما يفي بديونهم، فإن كان عندهم وفاءٌ فلا يُعطون، وقسم أدانوا في المعروف وإصلاح ذات البين فإنهم يُعطَون من مال الصدقة ما يقضون به ديونهم، وإن كانوا أغنياء. أخبرنا أبو الحسَن السرخسي أنبأنا زاهر بن أحمد أنبأنا أبو إسحاق الهاشمي أنا أبو مصعب عن مالك عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار أن رسول الله ﷺ قال: «لا

قول الزهري وأبي جعفر محمد بن علي وأبي ثور وقال أحمد يعطون إن احتاج المسلمون إلى ذلك الصنف الخامس قوله سبحانه وتعالى: ﴿وفي الرقاب﴾ قال الزجاج: فيه حذف تقديره وفي فك الرقاب وفي تفسير الرقاب أقوال الأول أن سهم الرقاب موضوع في المكاتبين فيدفع إليهم ليعتقوا به وهذا مذهب الشافعي رضي الله تعالى عنه وهو قول أكثر الفقهاء منهم سعيد بن جبير والنخعي والزهري والليث بن سعد ويدل عليه أيضاً قوله تعالى وآتوهم من مال الله الذي آتاكم، القول الثاني وهو مذهب مالك وأحمد وإسحاق أن سهم الرقاب موضوع لعتق الرقاب فيشترى به عبيد ويعتقون ويدل عليه ما روي عن ابن عباس أنه قال لا بأس أن يعتق الرجل من الزكاة القول الثالث وهو قول أبي حنيفة وأصحابه أنه لا يعتق من الزكاة رقبة كاملة لكن يعطي منها في عتق رقبة ويعان بها مكاتب لأن قوله في الرقاب يقتضي التبعيض. القول الرابع وهو قول الزهري أن سهم الرقاب نصفان نصف للمكاتبين ونصف يشترى به عبيد ممن صلوا وصاموا وقدم إسلامهم فيعتقون من الزكاة. قال أصحابنا: الأحوط في سهم الرقاب أن يدفع إلى السيد بإذن المكاتب ويدل عليه أنه سبحانه وتعالى أثبت الصدقات للأصناف الأربعة المتقدمة بلام الملك فقال: إنما الصدقات للفقراء. وقال: في الصنف الخامس وفي الرقاب فلا بد لهذا الفرق من فائدة وهي أن الأصناف الأربعة المتقدم ذكرها يدفع إليهم نصيبهم من الصدقات فيصرفون ذلك فيما شاؤوا وأما الرقاب فيوضع نصيبهم في تخليص رقابهم من الرق ولا يدفع إليهم ولا يمكنون من التصرف فيه وكذا القول في الغارمين فيصرف نصيبهم في قضاء ديونهم وفي الغزاة يصرف نصيبهم فيما يحتاجون إليه في الغزو وكذا ابن السبيل فيصرف إليه ما يحتاج إليه في سفره إلى بلوغ غرضه الصنف السادس قوله سبحانه وتعالى: ﴿والغارمين﴾ أصل الغرم في اللغة لزوم ما يشق عليه النفس وسمى الدين غرما لكونه شاقاً على الإنسان والمراد بالغارمين هنا المديونون وهم قسمان أدانوا لأنفسهم في غير معصية فيعطون من مال الصدقات بقدر ديونهم إذا لم يكن لهم مال يفي بديونهم فإن كان عندهم وفاء فلا يعطون وقسم أدانوا في المعروف وإصلاح ذات البين فيعطون من مال الصدقات ما يقضون به دينهم وإن كانوا أغنياء لما روي عن عطاء بن يسار أن رسول الله ﷺ قال: «لا تحل الصدقة لغني إلا لخمسة لغاز في سبيل الله أو لعامل عليها أو لغارم أو لرجل أسير إعانة أو لرجل كان له جـار مسكين فتصدق على المسكين فأهدى المسكين للغني» أخرجه أبو داود مرسلاً لأن عطاء بن يسار

تَحِلُّ الصدقة لغني إلّا لخمسة: لغازٍ في سبيل الله، أو لغارمٍ، أو لرجلٍ اشتراها بماله، أو لرجلٍ له جارٌ مسكين فتصدّق على المساكين فأهدى المسكين للغني، أو لعاملٍ عليها». ورواه معمر عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ متّصلاً بمعناه، أما مَن كان دينه في معصية الله وفساد فلا يُدفع شيء إليه.
وقوله تعالى: ﴿وفي سبيلِ اللَّهِ﴾، أراد بها الغزاة فلهم سهم من الصدقة، يُعطَون إذا أرادوا الخروج إلى الغزو، وما يستعينون به على أمر الغزو من النفقة والكسوة والسلاح والحمولة، وإن كانوا أغنياء، ولا يُعطى شيء منه في الحج عند أكثر أهل العلم. وقال قوم: يجوز أن يصرف سهم في سبيـل الله إلى الحج. ويُـروى ذلك عن ابن عبـاس، وهو قول الحسن وأحمد وإسحاق. قوله تعـالى: ﴿وابن السبيل﴾، والصنف الثـامن هم أبناء السبيـل، فكل مَن يـريد سفراً مباحاً ولم يكن له ما يقطع بـه المسافـةُ يُعطى من الصـدقة بقـدر ما يقـطع به تلك المسـافة سـواء كان لـه في البلد المنتقل إليه مال أو لم يكن. وقال قتادة: ابن السبيل هو الضيف. وقال فقهاء العراق: ابن السبيل الحاجّ المنقطع.
قوله تعالى: ﴿فريضةً﴾ أي: واجبةً ﴿مِّنَ اللَّهِ﴾، وهو نصب على القطع، وقيل: على المصدر، أي: فرض الله هذه الأشياء فريضةً، ﴿واللَّهُ عليمٌ حكيم﴾، اختلف أهل العلم والفقهاء في كيفية قسم الصدقات، وفي جواز صرفها إلى بعض الأصناف، فذهب جماعة إلى أنه لا يجوز صرف كلها إلى بعضهم مع وجود سائر الأصناف، وهو قول عكرمة وبه قال الشافعي، قال: يجب أن يقسم زكاة كل صنف من ماله على الموجودين من الأصناف الستّة

لم يدرك النبي ﷺ ورواه معمر عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ متصلاً بمعناه أما من كان دينه في معصية فلا يعطى من الصدقات شيئاً الصنف السابع قوله تعالى: ﴿**وفي سبيل الله**﴾ يعني وفي النفقة في سبيل الله وأراد به الغزاة فلهم سهم من مال الصدقات فيعطون إذا أرادوا الخروج إلى الغزو ما يستعينون به على أمر الجهاد من النفقة والكسوة والسلاح والحمولة فيعطون ذلك وإن كانوا أغنياء لما تقدم من حديث عطاء وأبي سعيد الخدري ولا يعطى من سهم الله لمن أراد الحج عند أكثر أهل العلم وقال قوم يجوز أن يصرف سهم سبيل الله إلى الحج يروى ذلك عن ابن عباس وهو قول الحسن وإليه ذهب أحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه وقال بعضهم: إن اللفظ عام فلا يجوز قصره على الغزاة فقط ولهذا أجاز بعض الفقهاء صرف سهم سبيل الله إلى جميع وجوه الخير من تكفين الموتى وبناء الجسور والحصون وعمارة المساجد وغير ذلك قال لأن قوله وفي سبيل الله عام في الكل فلا يختص بصنف دون غيره والقول الأول هو الصحيح لإجماع الجمهور عليه. الصنف الثامن قوله سبحانه وتعالى: ﴿**وابن السبيل**﴾ يعني المسافر من بلد إلى بلد والسبيل الطريق سمي المسافر ابن السبيل لملازمته الطريق قال الشاعر:

أنا ابن الحرب ربتني وليداً ... إلى أن شبت واكتهلت لداتي

فكل مريد سفراً مباحاً ولم يكن له ما يقطع به مسافة سفره يعطى من الصدقات ما يكفيه لمؤنة سفره سواء كان له مال في البلد الذي يقصده أو لم يكن له مال، وقال قتادة: ابن السبيل هو الضيف وقال فقهاء العراق: ابن السبيل هو الحاج المنقطع.

وقوله تعالى: ﴿**فريضة من الله**﴾ يعني أن هذه الأحكام التي ذكرها في الآية فريضة واجبة من الله وقيل فرض الله هذه الأشياء فريضة ﴿**والله عليم**﴾ يعني بمصالح عباده ﴿**حكيم**﴾ يعني فيما فرض لهم لا يدخل في تدبيره وحكمه نقض ولا خلل.

المسألة الرابعة: في أحكام متفرقة تتعلق بالزكاة اتفق العلماء على أن المراد بقوله إنما الصدقات للفقراء هي الزكاة المفروضة بدليل قوله تعالى خذ من أموالهم صدقة واختلفوا في كيفية قسمتها وفي جواز صرفها كلها إلى بعض الأصناف دون بعض فذهب جماعة من الفقهاء إلى أنه لا يجوز صرفها كلها إلى بعض الأصناف مع وجود الباقين وهو قول عكرمة وإليه ذهب الشافعي قال: يجب أن يقسم زكاة ماله على الموجودين من الأصناف الستة الذين سماهم ثمانية أقسام قسمة على السواء لأن سهم المؤلفة ساقط وسهم العامل ساقط إذا قسم زكاته بنفسه ثم حصة كل صنف من

الذينَ سِهماتُهم ثابتة قسمةً على السواء، لأن سهم المؤلّفة ساقط وسهم العامِل إذا قسمه بنفسه، ثم حصة كل صنف منهم لا يجوز أن تُصرَف إلى أقل من ثلاثة منهم إن وُجِدَ منهم ثلاثة أو أكثر، فلو فاوت بين أولئك الثلاث يجوز، فإن لم يوجد من بعض الأصناف إلاّ واحد صرف حصة ذلك الصنف إليه ما لم يخرج عن حدّ الاستحقاق، فإن انتهتْ حاجتُه وفضل شيء رَدّه إلى الباقين، وذهب جماعة إلى أنه لو صرف الكل إلى صنف واحد من هذه الأصناف أو إلى شخص واحد منهم يجوز، وإنّما سمّى الله تعالى هذه الأصناف الثمانية إعلاماً منه أن الصدقة لا تخرج عن هذه الأصناف، إلاّ إيجاباً لقسمها بينهم جميعاً. وهو قول عمر وابن عباس، وبه قال سعيد بن جبير وعطاء، وإليه ذهب سفيان الثّوري وأصحاب الرأي، وبه قال أحمد، قال: يجوز أن يضعها في صنف واحد وتفريقها أولى. وقال إبراهيم: إن كان المال كثيراً يحتمل الأجزاء قسّمه على الأصناف، وإن كان قليلاً جاز وضعه في صنف واحد. وقال مالك: يتحرّى موضع الحاجة منهم ويُقدّم الأولى فالأولى من أهل الخلّة والحاجة، فإن رأى الخلّة في الفقراء في عام أكثر قدّمَهم، وإن رآها في عام في صنف آخر حوّلها إليهم، وكلُّ مَن دُفِعَ إليه شيءٌ من الصدقة لا يزيد على قدر

الأصناف الستة لا يجوز أن تصرف إلى أقل من ثلاثة منهم إن وجد منه ثلاثة أو أكثر فلو فاوت بين أولئك الثلاثة جاز فإن لم يجد من بعض الأصناف إلا واحداً دفع حصة ذلك الصنف إليه ما لم يخرج من حد الاستحقاق فإن انتهت حاجته وفضل شيء رده إلى الباقين وذهب جماعة من العلماء إلى أنه لو صرف الكل إلى صنف واحد من هذه الأصناف أو إلى شخص واحد منهم جاز لأن الله سبحانه وتعالى إنما سمى هذه الأصناف الثمانية إعلاماً منه أن الصدقة لا تخرج عن هذه الثمانية إلا إيجاباً منه لقسمتها بينهم جميعاً وهذا قول عمر وابن عباس وبه قال سعيد بن جبير وعطاء وإليه ذهب سفيان الثوري وأصحاب الرأي وأحمد بن حنبل. قال أحمد بن حنبل: يجوز أن يضعها في صنف واحد وتفريقها أولى. وقال إبراهيم النخعي: إن كان المال كثيراً يحتمل الإجزاء قسمه على الأصناف وإن كان قليلاً وضعه في صنف واحد. وقال مالك: يتحرى موضع الحاجة منهم ويقدم الأولى فالأولى من أهل الخلة والحاجة فإن رأى الخلة في الفقراء في عام قدمهم وإن رآها في صنف آخر في عام حولها إليهم وكل من دفع إليه شيئاً من الصدقة لا يزيد على قدر الاستحقاق فلا يزيد الفقير على قدر غناه وهو ما يحتاج إليه فإن حصل أدنى اسم الغني فلا يعطي بعده شيئاً وإن كان محترفاً لكنه لا يجد آلة حرفته فيعطي قدر ما يحصل به آلة حرفته فالاعتبار عند الإمام الشافعي رضي الله عنه ما يدفع الحاجة من غير حد. وقال أحمد بن حنبل: لا يعطي الفقير أكثر من خمسين درهماً وقال أبو حنيفة: أكره أن يعطى رجل واحد من الزكاة مائتي درهم فإن أعطيته أجزأ فإن أعطى من يظنه فقيراً فبان أنه غني فهل يجزىء فيه قولان ولا يجوز أن يعطي صدقته لمن تلزمه نفقته وبه قال مالك والثوري وأحمد وقال أبو حنيفة والشافعي: لا يعطى والداً وإن علا ولا ولداً وإن سفل ولا زوجة ويعطي من عداهم وتحرم الصدقة على ذوي القربى وهم بو هاشم وبنو المطلب فلا يدفع إليهم من الزكاة شيء لقوله ﷺ: «إنا آل بيت لا تحل لنا الصدقة» وقال أبو حنيفة تحرم على بني هاشم ولا تحرم على بني المطلب دليلنا قوله ﷺ «إنا وبنو المطلب شيء واحد لم يفارقونا في جاهلية ولا إسلام» وتحرم الصدقة على موالي بني هاشم وبني المطلب لقوله ﷺ «مولى القوم منهم» وقال مالك لا تحرم واختلفوا في نقل الصدقة من بلد إلى بلد آخر مع وجود المستحقين في بلد المال فكرهه أكثر أهل العلم لتعلق قلوب فقراء ذلك البلد بذلك المال ولقوله ﷺ لمعاذ «وأعلمهم أن الله سبحانه وتعالى افترض عليهم صدقة من أغنيائهم وترد على فقرائهم» الحديث بطوله في الصحيحين واتفقوا على أنه إذا نقل المال إلى بلد آخر وأداه إلى فقراء ذلك البلد سقط عنه الفرض إلا ما حكى عن

الاستحقاق، فلا يزيد الفقير على قدر غناه، فإذا حصّل أدنى اسم الغني لا يُعطى بعده، فإن كان محترِفاً لكنه لا يجد آلة حِرفته فيُعطى قدر ما يحصل به آلة حِرفته ولا يُزاد على العامل على أجْر عمله، والمُكاتبَ على قدر ما يُعتق به، والغارم على قدر دينه، والغازي على قدر نفقته للذهاب والرجوع والمقام في مغزاه وما يحتاج إليه من الفرس والسلاح، وابن السبيل على قدر إتيانه مقصده أو ماله. واختلفوا في نقل الصدقة عن بلد المال إلى موضع آخر مع وجود المستحقّين فيه، فكرهه أكثر أهل العلم لِما أخبرنا أبو عثمان سعيد بن إسماعيل الضبّي أنبأنا أبو محمد عبد الجبّار بن محمد الجراحي ثنا أبو العباس محمد بن أحمد المحبوبي ثنا أبو عيسى الترمذي ثنا أبو كريب ثنا وكيع، ثنا زكريا إسحاق المكّي ثنا يحيىٰ بن عبد الله بن الصيفي عن أبي سعيد عن ابن عباس أنّ رسول الله ﷺ بعث معاذاً إلى اليمن فقال: «إنّك تأتي قوماً أهل كتاب فادْعُهمْ إلى شهادة أن لا إلَه إلاّ الله وأن محمداً رسول الله، فإن هم أطاعوا لذلك فأعْلمهم أنّ الله قد فرض عليهم خمس صلواتٍ في اليوم والليلة، فإن هم أطاعوا لذلك فأعلمهم أنّ الله قد فرض عليهم صدقة تُؤخذ من أغنيائهم فتردّ على فقرائهم، فإن هم أطاعوا لذلك فإيّاك وكرائم أموالهم، واتّقِ دعوةَ المظلوم فإنه ليس بينه وبين الله حجاب». فهذا يدلّ على أن صدقة أغنياء كل قوم تُردّ على فقراء ذلك القوم. واتفقوا على أنه إذا نقل من بلد إلى بلد آخر وادّعى سقط الفرض عن ذمّته، إلاّ ما حُكي عن عمر بن

عمر بن عبد العزيز فإنه رد صدقة حملت من خراسان إلى الشام فردها إلى مكانها من خراسان والله أعلم.

وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾

قوله سبحانه وتعالى: ﴿ومنهم الذين يؤذون النبي ويقولون هو أذن﴾ نزلت في جماعة من المنافقين كانوا يؤذون رسول الله ﷺ ويعيبونه ويقولون ما لا ينبغي فقال بعضهم لا تفعلوا فإنا نخاف أن يبلغه ما تقولون فيقع بنا فقال الجلاس بن سويد وهو من المنافقين بل نقول ما شئنا ثم نأتيه وننكر ما قلنا ونحلف فيصدقنا بما نقول فإنما محمد أذن أي يسمع كل ما يقال له ويقبله وقيل معنى هو أذن أي ذو أذن سامعة، وقال محمد بن إسحاق: نزلت في رجل من المنافقين يقال له نبتل بن الحرث وكان أزنم ثائر الشعر أحمر العينين أسقع الخدين مشوه الخلقة وقد قال فيه النبي: «من أحب أن ينظر إلى الشيطان فلينظر إلى نبتل بن الحرث» وكان ينم حديث النبي ﷺ إلى المنافقين. فقيل له: لا تفعل ذلك. فقال: إنما محمد أذن فمن حدثه شيئاً صدقه فنقول ما شئنا ثم نأتيه ونحلف له فيصدقنا، فأنزل الله هذه الآية.

ومقصود المنافقين بقوله هو أذن أنه ليس بعيد غور بل هو سليم سريع الاغترار بكل ما يسمع فأجاب الله سبحانه وتعالى عنه بقوله: ﴿قل أذن خير لكم﴾ يعني هب أنه أذن لكنه أذن خير لكم كقولك رجل صدق وشاهد عدل والمعنى أنه مستمع خير وصلاح لا مستمع شر وفساد وقرىء أذن خير مرفوعين منونين ومعناه يسمع منكم ويصدقكم خير لكم من أن يكذبكم ولا يقبل قولكم ثم وصف الله سبحانه وتعالى نبيه محمداً ﷺ بقوله تعالى: ﴿يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين﴾ يعني أنه يصدق المؤمنين ويقبل قولهم ولا يقبل قول المنافقين وإنما عدي الإيمان بالله بالياء والإيمان للمؤمنين باللام لأن الإيمان بالله هو نقيض الكفر فلا يتعدى إلا بالياء فيقال: آمن بالله والإيمان للمؤمنين معناه تصديق المؤمنين فيما يقولونه فلا يقال إلا باللام ومنه قوله تعالى أنؤمن لك وقوله آمنتم له ﴿ورحمة﴾ أي هو رحمة ﴿للذين آمنوا منكم﴾ وإنما قال منكم لأن المنافقين كانوا يزعمون أنهم مؤمنون فبين الله سبحانه وتعالى كذبهم بقوله إنه رحمة

عبد العزيز رضي الله عنه أنه ردّ صدقة حُملت من خراسان إلى الشام إلى مكانها من خراسان.

﴿ ومِنْهُمُ الذينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ ويقولُون هو أُذُنٌ ﴾، نزلت في جماعة من المنافقين كانوا يُؤذُون النبي ﷺ، ويقولون ما لا ينبغي، فقال بعضهم: لا تفعلوا فإنّا نخاف أن يبلغه ما تقولون فيقع بنا فقال الجلاس بن سويد منهم: بل نقول ما شئنا ثم نأتيه فننكر ما قلنا ونحلف فيصدقنا بما نقول، فإنّما محمدٌ أُذُنٌ، أي: أُذنٌ سامعة، يقال: فلان أُذن سامعة وأُذنة على وزن فعلة، إذا كان يسمع كل ما قيل له ويقبله. وأصله من أذن يأذن أذناً إذا استمع. وقيل هو أذن أي: ذو أُذن وأُذن سامعة وقال محمد بن إسحاق بن يسار: نزلت في رجل من المنافقين يقال له نبتل بن الحارث، وكان رجلاً أزنم ثائر شعر الرأس أحمر العينين أسقع الخدّين مشوّه الخلقة، وقد قال النبي ﷺ: «مَن أحبّ أن ينظر إلى الشيطان فلينظر إلى نبتل بن الحارث»، وكان ينم حديث النبي ﷺ إلى المنافقين، فقيل له: لا تفعل، فقال: إنما محمد أذن فمَن حدّثه شيئاً صدّقه ، فنقول ما شئنا ثم نأتيه ونحلف بالله فيصدقنا. فأنزل الله تعالى هذه الآية. قوله تعالى: ﴿ قُلْ أُذُنُ خيرٍ لكم ﴾، قرأ العامّة بالإضافة، أي: مستمعُ خير وصلاح لكم، لا مستمع شرّ وفساد. وقرأ الأعشى والبرجمي عن أبي بكر: «أذن خيـر لكـم» مرفوعين منوّنين، يعني أن يسمع منكم ويصدقكم خير لكم من أن يكذبكم ولا يقبل قولكم، ثم كذّبهم فقال: ﴿ يُؤمنُ باللَّهِ ﴾، أي: لا بل يؤمن بالله، ﴿ ويُؤمنُ للمؤمنين ﴾، أي: يصدق المؤمنين ويقبل منهم لا من المنافقين. يقال: أمنتـه وأمنت له بمعنى صـدقته.

للمؤمنين المخلصين لا للمنافقين وقيل في كونه ﷺ رحمة لأنه يجري أحكام الناس على الظاهر ولا ينقب عن أحوالهم ولا يهتك أسرارهم ﴿والذين يؤذون رسول الله لهم عذاب أليم﴾ يعني في الآخرة.

قوله عز وجل: ﴿يحلفون بالله لكم ليرضوكم﴾ قال قتادة والسدي: اجتمع ناس من المنافقين فيهم الجلاس بن سويد ثم وديعة بن ثابت فوقعوا في النبي ﷺ وقالوا إن كان ما يقول محمد حقاً فنحن شر من الحمير وكان عندهم غلام من الأنصار اسمه عامر بن قيس فحقروه وقالوا هذه المقالة فغضب الغلام من قولهم وقال والله إن ما يقول محمد حق وأنتم شر من الحمير ثم أتى النبي ﷺ وأخبره فدعاهم فسألهم فأنكروا وحلفوا أن عامراً كذاب وحلف عامر أنهم كذبة فصدقهم النبي ﷺ فجعل عامر يدعو ويقول: اللهم صدق الصادق وكذب الكاذب.

فأنزل الله هذه الآية. وقال مقاتل والكلبي: نزلت في رهط من المنافقين تخلفوا عن غزوة تبوك فلما رجع رسول الله ﷺ أتوه يعتذرون ويحلفون، فأنزل الله هذه الآية. والمعنى: يحلف لكم أيها المؤمنون هؤلاء المنافقون ليرضوكم يعني فيما بلغكم عنهم من أذى رسول الله ﷺ ﴿والله ورسوله أحق أن يرضوه﴾ اختلفوا في معنى هذا الضمير إلى ماذا يعود فقيل: الضمير عائد على الله تعالى لأن في رضا الله رضا رسول الله ﷺ والمعنى والله ورسوله أحق أن يرضوه بالتوبة والإخلاص.

وقيل: يجوز أن يكون المراد يرضوهما فاكتفى بذكر أحدهما عن الآخر.

وقيل: معناه والله أحق أن يرضوه وكذلك رسوله: ﴿إن كانوا مؤمنين﴾ يعني إن كان هؤلاء المنافقون مصدقين بوعد الله ووعيده في الآخرة.

أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَا ذَٰلِكَ ٱلْخِزْيُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾ يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾

قوله سبحانه وتعالى: ﴿ألم يعلموا﴾ قال أهل المعاني ألم تعلم خطاب لمن علم شيئاً ثم نسيه أو أنكره فيقال له

﴿ ورحمةٌ ﴾، قرأ حمزة: «ورحمة» بالخفض على معنى أُذن خير لكم وأُذن رحمة، وقرأ الآخرون: «ورحمة» بالرفع، أي: هو أُذن خير وهو رحمة ﴿ للذين آمنُوا مِنْكم ﴾، لأنه كان سبب إيمان المؤمنين. ﴿ والذينَ يُؤذُونَ رسولَ اللَّهِ لهمْ عذابٌ أليم ﴾.

﴿ يحلفُون بالله لكم لِيرضُوكم ﴾، قال قتادة والسدي اجتمع ناس من المنافقين فيهم الجلاس بن سويد ووديعة بن ثابت فوقعوا في النبي ﷺ، وقالوا: إن كان ما يقول محمد حقاً فنحن شرٌّ من الحمير، وكان عندهم غلام من الأنصار يقال له عامر بن قيس فحقّروه وقالوا هذه المقالة، فغضب الغلام وقال: والله إن ما يقول محمد حق وأنتم شرّ من الحمير ثم أتى النبي ﷺ فأخبره، فدعاهم وسألهم رسول الله ﷺ، فحلفوا أنّ عامراً كذّاب. وحلف عامر أنهم كَذَبَة فصدّقهم النبي ﷺ، فجعل عامر يدعو ويقول: اللّهمّ صدِّق الصادقَ وكذِّب الكاذبَ فأنزل الله تعالى هذه الآية. وقال مقاتل والكلبي: نزلت في رهط من المنافقين تخلّفوا عن غزوة تبوك، فلما رجع رسول الله ﷺ أتوه يعتذرون إليه ويحلفون، فأنزل الله تعالى هذه الآية: ﴿ يحلفون بالله لكم لِيُرْضُوكم ﴾،﴿واللّهُ ورسولُه أحقُّ أن يُرضُوه إنْ كانُوا مؤمنين ﴾.

﴿ ألم يعلموا أنه مَن يُحَادِدِ اللّهَ ورسولَهُ ﴾، يخالف الله ورسوله أن يكونوا في جانب واحد من الله ورسوله،

ألم تعلم أنه كان كذا وكذا ولما طال مكث رسول الله ﷺ بين أظهر المؤمنين والمنافقين وعلمهم من أحكام الدين ما يحتاجون إليه خاطب المنافقين بقوله ألم يعلموا يعني من شرائع الدين التي علمهم رسولنا **﴿أنه من يحادد الله ورسوله﴾** يعني أنه من يخالف الله ورسوله.

وأصل المحاداة في اللغة: المخالفة والمجانبة والمعادة. واشتقاقه: من الحد. يقال: حاد فلان فلاناً إذا صار في غير حده وخالفه في أمره. وقيل: معنى يحادد الله ورسوله أي يحارب الله ورسوله ويعاند الله ورسوله **﴿فأن له نار جهنم﴾** أي فحق أن له نار جهنم **﴿خالداً فيها﴾** يعني على الدوام **﴿ذلك الخزي العظيم﴾** يعني ذلك الخلود في نار جهنم هو الفضيحة العظيمة.

قوله عز جل: **﴿يحذر المنافقون﴾** يعني يخشى المنافقون **﴿أن تنزل عليهم سورة﴾** يعني على المؤمنين **﴿تنبئهم﴾** يعني تخبر المؤمنين **﴿بما في قلوبهم﴾** يعني بما في قلوب المنافقين من الحسد والعداوة للمؤمنين وذلك أن المنافقين كانوا فيما بينهم يذكرون المؤمنين بسوء ويسترونه ويخافون الفضيحة ونزول القرآن في شأنهم.

قال قتادة: وهذه السورة كانت تسمى الفاضحة والمبعثرة والمثيرة يعني أنها فضحت المنافقين وبعثرت عن أخبارهم وأثارتها وأسفرت عن مخازيهم ومثالبهم.

وقال ابن عباس: أنزل الله ذكر سبعين رجلاً من المنافقين بأسمائهم وأسماء آبائهم ثم نسخ ذكر الأسماء رحمة منه على المؤمنين لئلا يعير بعضهم بعضاً لأن أولادهم كانوا مؤمنين **﴿قل استهزئوا﴾** أمر تهديد فهو كقوله اعملوا ما شئتم **﴿إن الله مخرج﴾** أي مظهر **﴿ما تحذرون﴾** والمعنى أن الله سبحانه وتعالى يظهر إلى الوجود ما كان المنافقون يسترونه ويخفونه عن المؤمنين. قال ابن كيسان: نزلت هذه الآية في اثني عشر رجلاً من المنافقين وقفوا لرسول الله ﷺ على العقبة لما رجع من غزوة تبوك ليفتكوا به إذا علاها وتنكروا له في ليلة مظلمة فأخبر جبريل رسول الله ﷺ بما قد أضمروا له وأمره أن يرسل إليهم من يضرب وجوه رواحلهم وكان معه عمار بن ياسر يقود ناقة رسول الله ﷺ وحذيفة يسوقها فقال لحذيفة: اضرب وجوه رواحلهم فضربها حذيفة حتى نحاهم عن الطريق فلما نزل قال لحذيفة:

﴿ فأنَّ له نارَ جهنَّمَ خالداً فيها ذلكَ الخِزيُ العظيم ﴾، أي: الفضيحة العظيمة.

﴿ يحذَرُ المنافقُون ﴾، أي: يخشى المنافقون، **﴿ أن تُنزَّلَ عليهم ﴾**، أي: تنزل على المؤمنين، **﴿سُورةٌ تُنبئُهُم بما في قُلوبِهِم ﴾**، أي: بما في قلوب المنافقين من الحسد والعداوة للمؤمنين، كانوا يقولون فيما بينهم ويُسرّون ويخافون الفضيحة بنزول القرآن في شأنهم. قال قتادة: هذه السورة تُسمى الفاضحة والمبعثرة والمثيرة أثارت مخازيهم ومثالبهم. قال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: أنزل الله تعالى ذكر سبعين رجلاً من المنافقين بأسمائهم وأسماء آبائهم ثم نسخ ذكر الأسماء رحمة للمؤمنين لئلا يعيّر بعضهم بعضاً لأنّ أولادهم كانوا مؤمنين. **﴿ قلِ استهزؤوا إنّ اللّهَ مُخْرِجٌ ﴾**، مظهر **﴿ ما تحذَرُون ﴾**، قال ابن كيسان: نزلت هذه الآية في اثني عشر رجلاً من المنافقين، وقفوا لرسول الله ﷺ على العقبة لمّا رجع من غزوة تبوك ليفتكوا به إذا علاها ومعهم رجل مسلم يخفيهم شأنه، وتنكّروا له في ليلة مظلمة فأخبر جبريلُ رسولَ الله ﷺ بما قدّروا، وأمره أن يرسل إليهم مَن يضرب وجوه رواحلهم، وعمّار بن ياسر يقود برسول الله ﷺ راحلته وحذيفة يسوق به، فقال لحذيفة: «اضرب وجوه رواحلهم» فضربها حتى نحّاها، فلما نزل رسول الله ﷺ قال لحذيفة: «مَن عرفتَ من قوم»؟ قال: لم أعرف منهم أحداً، فقال رسول الله ﷺ: «فإنهم فلان وفلان حتى عدّهم كلهم»، فقال حذيفة: ألَا تبعثُ إليهم فتقتلهم؟ فقال: «أكره أن تقول العرب لمّا ظفر محمد وأصحابه أقبل يقتلهم، بل يكفيناهم الله بالدبيلة». أخبرنا إسماعيل بن

من عرفت من القوم؟ قال لم أعرف منهم أحداً يا رسول الله فقال رسول الله ﷺ: فإنهم فلان وفلان حتى عدَّهم كلهم فقال حذيفة هلا بعثت إليهم من يقتلهم فقال: أكره أن تقول العرب لما ظفر بأصحابه أقبل يقتلهم بل يكفيناهم الله بالدبيلة (م)

عنْ قيس بن عباد قال: قلت لعمار: أرأيت قتالكم أرأيا رأيتموه فإن الرأي يخطىء ويصيب أم عهداً عهده إليكم رسول الله ﷺ؟ فقال ما عهد إلينا رسول الله ﷺ شيئاً لم يعهده إلى الناس كافة وقال إن رسول الله ﷺ قال «إن في أمتي» قال شعبة وأحسبه قال حدثني حذيفة قال: قال رسول الله ﷺ «إن في أمتي اثني عشر منافقاً لا يدخلون الجنة ولا يجدون ريحها حتى يلج الجمل في سم الخياط ثمانية منهم تكفيهم الدبيلة سراج من النار يظهر في أكتافهم حتى ينجم من صدورهم».

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾﴾

قوله سبحانه وتعالى: ﴿ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب﴾ الآية وسبب نزولها على ما قال زيد بن أسلم أن رجلاً من المنافقين قال لعوف بن مالك في غزوة تبوك: ما لقرائنا أرغبنا بطوناً وأكذبنا ألسنة وأجبننا عند اللقاء؟ فقال له عوف بن مالك: كذبت ولكنك منافق ولأخبرن رسول الله ﷺ فذهب عوف إلى رسول الله ﷺ ليخبره فوجد القرآن قد سبقه. قال زيد: قال عبد الله بن عمر: فنظرت إليه، يعني إلى المنافق، متعلقة بحقب ناقة رسول الله ﷺ تنكبه الحجارة يقول إنما كنا نخوض ونلعب فيقول له رسول الله ﷺ: أبا لله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون» ما يزيده قال محمد بن إسحاق الذي قال هذه المقالة فيما بلغني هو وديعة بن ثابت أخو أمية بن زيد بن عمرو بن عوف.

وقال قتادة: «بينا رسول الله ﷺ يسير في غزوة تبوك وبين يديه ناس من المنافقين فقالوا يرجو هذا الرجل أن

عبد القاهر أنبأنا عبد الغافر بن عيسى ثنا إبراهيم بن محمد بن سفيان ثنا مسلم بن الحجّاج ثنا محمد بن المثنى ثنا محمد بن جعفر ثنا شعبة عن قتادة عن أبي نصرة عن قيس بن عبادة قال: قلنا لعمّار أرأيتكم قتالكم أرأياً رأيتموه؟ فإن الرأي يُخطىء ويصيب أو عهـداً عهده إليكم رسول الله ﷺ؟ فقال: ما عَهَدَ إلينا رسولُ الله ﷺ شيئاً لم يعهده إلى الناس كافّة، وقال: إن رسول الله ﷺ قال: «إنّ في أُمتي ـ قال شعبة وأحسبه قال: حدّثني حذيفة قال: قال رسول الله ﷺ: إن في أمتي ـ اثني عشر منافقاً لا يدخلون الجنة ولا يجدون ريحها حتى يلج الجمل في سَمِّ الخياط، ثمانية منهم تكفيهم الدبيلة سراج من النار يظهر في أكتافهم حتى ينجم من صدورهم».

قوله تعالى: ﴿ ولئنْ سألتهم ليقولنّ إنّما كنّا نخوضُ ونلعبُ ﴾ الآية، وسبب نزول هذه الآية على ما قال الكلبي ومقاتل وقتادة: أن النبي ﷺ كان يسير في غزوة تبوك وبين يديه ثلاثة نفر من المنافقين اثنان يستهزئان بالقرآن والرسول، والثالث يضحك. قيل: كانوا يقولون: إن محمداً يزعم أنه يغلب الروم ويفتح مدائنهم ما أبعده من ذلك. وقيل: كانوا يقولون: إن محمداً يزعم أنه نزل في أصحابنا المقيمين بالمدينة قرآن، وإنما هو قوله وكلامه، فأطلع الله نبيّه ﷺ على ذلك؛ فقال: «احبسوا على الركب»، فدعاهم وقال لهم: «قلتم كذا وكذا»، فقالوا: إنما كنّا نخوض ونلعب، أي كنّا نتحدّث ونخوض في الكلام كما يفعل الركب لقطع الطريق بالحديث واللعب. قال عمر:

يفتح قصور الشام وحصونها هيهات هيهات فأطلع الله نبيه محمداً ﷺ على ذلك فقال نبي ﷺ احبسوا على الركب فأتاهم فقال قلتم كذا وكذا فقالوا يا نبي الله إنما كنا نخوض ونلعب فأنزل الله فيهم ما تسمعون» وقال الكلبي ومقاتل: «كان رسول الله ﷺ يسير في غزوة تبوك وبين يديه ثلاثة نفر من المنافقين اثنان منهم يستهزئان بالقرآن والرسول والثالث يضحك» قيل كانوا يقولون إن محمداً يزعم أنه يغلب الروم ويفتح مدائنهم ما أبعده من ذلك.

وقيل: كانوا يقولون إن محمداً يزعم أنه أنزل في أصحابنا قرآن إنما هو قوله وكلامه فأطلع الله نبيه ﷺ على ذلك. فقال: احبسوا على الركب فدعاهم. وقال لهم: قلتم كذا وكذا فقالوا إنما كنا نخوض ونلعب، ومعنى الآية: ولئن سألت يا محمد هؤلاء المنافقين عما كانوا يقولون فيما بينهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب يعني كنا نتحدث ونخوض في الكلام كما يفعله الركب يقطعون الطريق باللعب والحديث، وأصل الخوض: الدخول في مائع كالماء مع الطين كثر استعماله حتى صار يستعمل في كل دخول مع تلويث وأذى ﴿**قل**﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المنافقين ﴿**أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون**﴾ فيه توبيخ وتقريع للمنافقين وإنكار عليهم والمعنى كيف تقدمون على إيقاع الاستهزاء بالله يعني بفرائض الله وحدوده وأحكامه والمراد بآياته كتابه وبرسوله محمد ﷺ فيحتمل أن المنافقين لما قالوا كيف يقدر محمد على أخذ حصون الشام. قال بعض المسلمين: الله يعينه على ذلك فذكر بعض المنافقين كلاماً يشعر بالقدح في قدرة الله وإنما ذكروا ذلك على طريق الاستهزاء.

قوله عز وجل: ﴿**لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم**﴾ يعني قل لهؤلاء المنافقين لا تعتذروا بالباطل.

ومعنى الاعتذار محو أثر الموجدة من قلب المعتذر إليه. وقيل: معنى العذر قطع اللائمة عن الجاني. قد كفرتم بعد إيمانكم: يعني الاستهزاء بالله كفر والإقدام عليه يوجب الكفر فلهذا قال سبحانه وتعالى لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم فإن قلت إن المنافقين لم يكونوا مؤمنين فكيف قال قد كفرتم بعد إيمانكم.

قلت: معناه أظهرتم الكفر بعد ما كنتم قد أظهرتم الإيمان وذلك أن المنافقين كانوا يكتمون الكفر ويظهرون الإيمان فلما حصل ذلك الاستهزاء منهم وهو كفر قيل لهم قد كفرتم بعد إيمانكم. وقيل: معناه قد كفرتم عند المؤمنين بعد أن كنتم عندهم مؤمنين.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿**إن نعف عن طائفة منكم نعذب طائفة بأنهم كانوا مجرمين**﴾ ذكر المفسرون أن الطائفتين كانوا ثلاثة فالواحد طائفة والاثنان طائفة. والعرب توقع لفظ الجمع على الواحد فلهذا أطلق لفظ الطائفة على الواحد.

قال محمد بن إسحاق: الذي عفى عنه رجل واحد وهو مخشى بن حمير الأشجعي يقال إنه هو الذي كان

فلقد رأيت عبد الله بن أُبيّ يشتدّ قدّام رسول الله ﷺ والحجارة تنكبه وهو يقول: إنّما كنّا نخوض ونلعب، ورسول الله ﷺ يقول له: ﴿ **أباللّهِ وآياته ورسولِه كنتم تستهزؤون** ﴾ ما يلتفت إليه ولا يزيده عليه. قوله: ﴿ **قُلْ** ﴾، أي: قل يا محمد للمنافقين، ﴿ **أباللّهِ وآياتِه** ﴾، كتابه، ﴿ **ورسولِهِ كنتُمْ تستهزؤون** ﴾.

﴿ **لا تعتذرُوا قد كفرتُم بعدَ إيمانِكم** ﴾، فإن قيل كيف قال: أكفرتم بعد إيمانكم وهم لم يكونوا مؤمنين؟ قيل: معناه أظهرتم الكفر بعدما أظهرتم الإيمان. ﴿**إن نَّعْفُ عن طائِفَةٍ منكم** ﴾، أي: نتب على طائفة منكم، وأراد بالطائفة واحداً، ﴿ **نُعذِّبْ طَائِفَةً بأنهم كانُوا مُجرمين** ﴾، بالاستهزاء، وقرأ عاصم: «**نعـف**» بالنون وفتحها وضم الفاء، ﴿ **نعذب** ﴾ بالنون وكسر الذال، ﴿ **طائفة** ﴾ نصبٌ. وقرأ الآخرون: « **يُعْفَ** » بالياء وضمها وفتح الفاء، « **تعذَّبْ** » بالتاء وفتح الذال، « **طائفةٌ** » رفعٌ على غير تسمية الفاعل. وقال محمد بن إسحاق الذي عُفي عنه رجل

يضحك ولا يخوض. وقيل: إنه كان يمشي مجانباً لهم وينكر بعض ما يسمع فكان ذنبه أخف فلما نزلت الآية تاب من نفاقه ورجع إلى الإسلام وقال: اللهم إني لا أزال أسمع آية تقرأ عني بها تقشعر منها الجلود وتجب منها القلوب اللهم اجعل وفاتي قتلاً في سبيلك لا يقول أحد أنا غسلت أنا كفنت أنا دفنت، فأصيب يوم اليمامة ولم يعرف أحد من المسلمين مصرعه قوله سبحانه وتعالى: ﴿**المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض**﴾ يعني أنهم على أمر واحد ودين واحد مجتمعون على النفاق والأعمال الخبيثة كما يقول الإنسان لغيره أنا منك وأنت مني أي أمرنا واحد لا مباينة فيه ﴿**يأمرون بالمنكر**﴾ يعني يأمر بعضهم بعضاً بالشرك والمعصية وتكذيب الرسول ﷺ ﴿**وينهون عن المعروف**﴾ يعني عن الإيمان والطاعة وتصديق الرسول ﷺ ﴿**ويقبضون أيديهم**﴾ يعني عن الإنفاق في سبيل الله تعالى وفي كل خير ﴿**نسوا الله فنسيهم**﴾ هذا الكلام لا يمكن إجراؤه على ظاهره لأنا لو حملناه على النسيان الحقيقي لم يستحقوا ذماً عليه لأن النسيان ليس في وسع البشر دفعه وأيضاً فإن النسيان في حق الله محال فلا بد من التأويل وقد ذكروا فيه وجهين الأول معناه أنهم تركوا أمره حتى صاروا بمنزلة الناسين له فجازاهم بأن صيرهم بمنزلة المنسى من ثوابه ورحمته فخرج على مزاوجة الكلام فهو كقوله تعالى: ﴿وجزاء سيئة سيئة مثلها﴾.

الوجه الثاني: أن النسيان ضد الذكر فلما تركوا ذكر الله وعبادته ترك الذكر لأن من ترك شيئاً لم يذكره وقيل لما تركوا طاعة الله والإيمان به تركهم من توفيقه وهدايته في الدنيا ومن رحمته في العقبى ﴿**إن المنافقين هم الفاسقون**﴾ يعني هم الخارجون عن الطاعة.

وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ هِىَ حَسْبُهُمْۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾ كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُواْ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓاْۚ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾

﴿**وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار**﴾ يقال: وعده بالخير وعداً، ووعده بالشر وعيداً. فالوعد يكون في الخير والشر ﴿**نار جهنم خالدين فيها**﴾ فيه حذف تقديره يصلونها خالدين يعني مقيمين فيها ﴿**هي حسبهم**﴾ يعني هي

واحدٍ هو مخشي بن حمير الأشجعي، يقال هو الذي كان يضحك ولا يخوض، وكان يمشي مُجانِباً لهم وينكر بعض ما يسمع، فلما نزلت هذه الآية تاب من نفاقه، وقال: اللّهمَّ إني لا أزال أسمع آية تقرأ عنّي بها تقشعرّ الجلود منها وتجِب منها القلوب، اللّهمَّ اجعلْ وفاتي قتلاً في سبيلك لا يقول أحد أنا غسلت أنا كفّنت أنا دفنت، فأُصيب يومَ اليمامة، فما أحد من المسلمين إلّا عرف مصرعه غيره.

قوله تعالى: ﴿ **المُنافقون والمُنافِقاتُ بعضُهم مِّن بعضٍ** ﴾، أي: هم على دين واحد. وقيل: أمرهم واحد بالاجتماع على النفاق، ﴿ **يأمرون بالمنكر** ﴾، بالشرك والمعصية، ﴿ **وينهون عن المعروف** ﴾، أي عن الإيمان والطاعة، ﴿ **ويقبضون أيديهم** ﴾ أي: يمسكونَها عن الصدقة والإنفاق في سبيل الله ولا يبسطونها بخير، ﴿ **نَسُوا الله فنسيَهم** ﴾، تركوا طاعةَ الله فتركهم من توفيقه وهدايته في الدنيا ومن رحمته في الآخرة وتركهم في عذابه، ﴿ **إِنّ المنافقين هُمُ الفاسِقُون** ﴾.

﴿ **وَعَدَ اللّهُ المُنافِقِينَ والمُنافِقات والكُفّارَ نارَ جهنّمَ خالدينَ فيها هي حَسْبُهُمْ** ﴾، كافيهم جزاءً على كفرهم، ﴿ **ولعنهمُ اللّهُ** ﴾، أبعدهم الله من رحمته، ﴿ **ولهمْ عذابٌ مُّقيمٌ** ﴾، دائم.

كافيتهم جزاء على كفرهم ونفاقهم وتركهم الإيمان والطاعة ﴿**ولعنهم الله**﴾ يعني وأبعدهم من رحمته وطردهم عن بابه ﴿**ولهم عذاب مقيم**﴾ أي دائم لا ينقطع.

فإن قلت قوله خالدين فيها بمعنى ولهم عذاب مقيم وهذا تكرار فما معناه؟ قلت ليس ذلك تكراراً.

وبيان الفرق من وجهين الأول أن معناه ولهم نوع آخر من العذاب المقيم سوى الصلي بالنار. ولقائل أن يقول: هذا التأويل مشكل لأنه سبحانه وتعالى قال في النار هي حسبهم وذلك يمنع من ضم شيء آخر إلى عذاب النار.

وأجيب عن هذا الإشكال بأن قوله هي حسبهم في الإيلام ولا يمتنع أن لا يحصل نوع آخر من العذاب من غير جنس النار كالزمهرير ونحوه ويكون ذلك زيادة في عذابهم.

الوجه الثاني: أن العذاب المقيم هو العذاب المعجل لهم في الدنيا وهو ما يقاسونه من خوف اطلاع المسلمين عليهم وما هم فيه من النفاق وكشف فضائحهم وهذا هو العذاب المقيم.

قوله سبحانه وتعالى: ﴿**كالذين من قبلكم**﴾ هذا رجوع عن الغيبة إلى خطاب الحضور والكاف في كالذين للتشبيه والمعنى فعلتم كأفعال الذين من قبلكم، شبه فعل المنافقين بفعل الكفار الذين كانوا من قبلهم في الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف وقبض الأيدي عن فعل الخير والطاعة وقيل: إنه تعالى شبه المنافقين في عدو لهم عن طاعة الله واتباع أمره لأجل طلب الدنيا بمن قبلهم من الكفار ثم وصف الكفار بأنهم كانوا أشد من هؤلاء المنافقين قوة وأكثر أموالاً وأولاداً فقال تعالى: ﴿**كانوا أشد منكم قوة**﴾ يعني بطشاً ومنعة ﴿**وأكثر أموالاً وأولاداً فاستمتعوا بخلاقهم**﴾ يعني فتمتعوا بنصيبهم من الدنيا باتباع الشهوات ورضوا بها عوضاً عن الآخرة والخلاق النصيب وهو ما خلق الله للإنسان وقدر له من خير كما يقال قسم له ﴿**فاستمتعتم بخلاقكم**﴾ وهذا خطاب للحاضرين يعني فتمتعتم أيها المنافقون والكافرون بخلاقكم ﴿**كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم**﴾ فإن قلت ما الفائدة في ذكر الاستمتاع بالخلاق في حق الأولين مرة ثم ذكره في حق المنافقين ثانياً ثم إعادة ذكره في حق الأولين ثالثاً.

قلت فائدته أنه يذم الأولين بالاستمتاع بما أوتوا من حظوظ الدنيا وشهواتها ورضاهم بها وتركهم النظر فيما يصلحهم في الدار الآخرة ثم شبه حال المخاطبين من المنافقين والكفار بحال من تقدمهم ثم رجع إلى ذكر حال الأولين ثالثاً وهذا كما تريد أن تبكت بعض الظلمة على قبح ظلمة فتقول له أنت مثل فرعون كان يقتل بغير حق ويعذب بغير جرم فأنت تفعل مثل ما كان يفعل فالتكرير هنا للتأكيد وتقبيح فعلهم وفعل من شابههم في فعلهم.

وقوله تعالى: ﴿**وخضتم كالذي خاضوا**﴾ معطوف على ما قبله ومستند إليه يعني وسلكتم في فعلكم مثل ما سلكوا في اتباع الباطل والكذب على الله وتكذيب رسله والاستهزاء بالمؤمنين ﴿**أولئك حبطت أعمالهم**﴾ يعني بطلت

﴿ **كالَّذِينَ مِن قبلِكُم** ﴾، أي: فعلتم كفعل الذين من قبلكم بالعُدول من أمر الله، فَلُعنْتُم كما لُعِنُوا ﴿ **كانُوا أشدَّ منكم قُوَّةً** ﴾، بطْشاً ومنعةً، ﴿ **وأكثر أموالاً وأولاداً فاسْتَمْتَعُوا بِخلاَقِهِم** ﴾ فتمتعوا أو انتفعوا بخلاقهم بنصيبهم من الدنيا باتِّباع الشهوات ورضوا به عوضاً عن الآخرة، ﴿ **فاسْتمتَعْتُم بخلاقِكم** ﴾، أيّها الكفّار والمنافقون، ﴿ **كما اسْتَمْتَعَ الذينَ من قبلِكُم بخِلاَقِهِم** ﴾، وسلكتُم سبيلهم، ﴿ **وخُضْتُم** ﴾ في الباطل والكذب على الله تعالى وتكذيب رُسله وبالاستهزاء بالمؤمنين، ﴿ **كالذي خَاضُوا** ﴾، أي: كما خاضوا. وقيل: كالذي يعني كالذين خاضُوا، وذلك أن الذي اسم ناقص، مثل (مَا ومَن) يُعبَّر به عن الواحد والجمع، نظيره قوله تعالى: ﴿ كمثل الذي استوقد ناراً ﴾ [البقرة: ١٧] ثم قال: ﴿ ذهبَ اللَّهُ بنورهم ﴾ [البقرة: ١٧]، ﴿ **أولئك حَبِطَتْ أعمالُهم في الدنيا والآخرة وأولئكَ هُمُ الخاسِرُون** ﴾، أي: كما حبطت أعمالهم وخسروا كذلك حبطتْ أعمالُكم وخسرتُم. أخبرنا عبد الواحد بن

أعمالهم ﴿في الدنيا والآخرة﴾ يعني أن أعمالهم لا تنفعهم في الدنيا ولا في الآخرة بل يعاقبون عليها ﴿وأولئك هم الخاسرون﴾ والمعنى أنه كما بطلت أعمال الكفار الماضين وخسروا تبطل أعمالكم أيها المنافقون وتخسرون (ق). عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ «لتتبعن سنن الذين من قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع حتى لو دخلوا حجر ضب لاتبعتموهم قلنا يا رسول الله اليهود والنصارى قال فمن» قوله تعالى:

﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾

﴿ألم يأتهم﴾ رجع من الخطاب إلى الغيبة يعني ألم يأت هؤلاء المنافقين والكفار وهو استفهام بمعنى التقرير أي قد أتاهم ﴿نبأ﴾ يعني خبر ﴿الذين من قبلهم﴾ يعني الأمم الماضية الذين خلوا من قبلهم كيف أهلكناهم حين خالفوا أمرنا وعصوا رسلنا ثم ذكرهم فقال تعالى: ﴿قوم نوح﴾ يعني أنهم أهلكوا بالطوفان ﴿وعاد﴾ أهلكوا بالريح العقيم ﴿وثمود﴾ أهلكوا بالرجفة ﴿وقوم إبراهيم﴾ أهلكوا بسلب النعمة وكان هلاك نمرود ببعوضة ﴿وأصحاب مدين﴾ وهم قوم شعيب أهلكوا بعذاب يوم الظلة ﴿والمؤتفكات﴾ يعني المنقلبات التي جعل الله عاليها سافلها وهي مدائن قوم لوط.

وإنما ذكر الله سبحانه وتعالى هذه الطوائف الستة، لأن آثارهم باقية وبلادهم بالشام والعراق واليمن وكل ذلك قريب من أرض العرب، فكانوا يمرون عليهم ويعرفون أخبارهم ﴿أتتهم رسلهم بالبينات﴾ يعني بالمعجزات الباهرات والحجج الواضحات الدالة على صدقهم فكذبوهم وخالفوا أمرنا كما فعلتم أيها المنافقون والكفار فاحذروا أن يصيبكم مثل ما أصابهم فتعجل لكم النقمة كما عجلت لهم ﴿فما كان الله ليظلمهم﴾ يعني بتعجيل العقوبة ﴿ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾ يعني أن الذي استحقوه من العقوبة بسبب ظلمهم أنفسهم.

قوله عز وجل: ﴿والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض﴾ لما وصف الله المنافقين بالأعمال الخبيثة

أحمد المليحي أنبأنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا محمد بن عبد العزيز ثنا أبو عمر الصنعاني من اليمن عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لَتَتَبِعُنَّ سُنَنَ مَنْ قَبْلِكُم شِبْراً بشبرٍ وذِراعاً بِذِراعٍ حتى لو دخلوا جُحْرَ ضبٍّ لاتّبعتموهُم». قلنا: يا رسول الله اليهود والنصارى؟ قال: «فمَن»؟ وفي رواية أبي هريرة: «فهلِ الناسُ إلّا هُمْ»، وقال ابن مسعود رضي الله عنه: «أنتم أشبه الأمم ببني إسرائيل سَمْتاً وهَدْياً تتبعون عملهم حِذْوَ القَذّةِ بالقَذّةِ غيرَ أني لا أدْري أتعبدُونَ العِجْلَ أمْ لا».

قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ يأْتِهِم ﴾، يعني المنافقين، ﴿ نَبَأُ ﴾، خبر، ﴿ الذين مِن قَبْلِهِمْ ﴾، حين عصوا رُسلنا وخالفوا أمرنا كيف عذّبناهم وأهلكناهم ثم ذكرهم، فقال: ﴿ قوم نُوح ﴾، أُهلكوا بالطّوفان، ﴿ وعادٍ ﴾، أُهْلِكُوا

والأحوال الفاسدة ثم ذكر بعده ما أعد لهم من أنواع الوعيد في الدنيا والآخرة عقبه بذكر أوصاف المؤمنين وأعمالهم الحسنة وما أعد لهم من أنواع الكرامات والخيرات في الدنيا والآخرة فقال تعالى: **﴿والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض﴾** يعني الموالاة في الدين واتفاق الكلمة والعون والنصرة.

فإن قلت: إنه سبحانه وتعالى قال في وصف المنافقين: بعضهم من بعض وقال في وصف المؤمنين: بعضهم أولياء بعض فما الفائدة في ذلك.

قلت: لما كان نفاق الأتباع وكفرهم إنما حصل بتقليد المتبوعين وهم الرؤساء والأكابر وحصل بمقتضى الطبيعة أيضاً قال فيهم بعضهم من بعض ولما كانت الموافقة الحاصلة بين المؤمنين بتسديد الله وتوفيقه وهدايته لا بمقتضى الطبيعة وهوى النفس وصفهم بأن بعضهم أولياء بعض فظهر الفرق بين الفريقين وظهرت الفائدة.

وقوله سبحانه وتعالى: **﴿يأمرون بالمعروف﴾** يعني بالإيمان بالله ورسوله واتباع أمره والمعروف كل ما عرف في الشرع من خير وبر وطاعة **﴿وينهون عن المنكر﴾** يعني عن الشرك والمعصية والمنكر كل ما ينكره الشرع وينفر منه الطبع وهذا في مقابلة ما وصف به المنافقون وضده **﴿ويقيمون الصلاة﴾** يعني الصلاة المفروضة ويتممون أركانها وحدودها **﴿ويؤتون الزكاة﴾** يعني الواجبة عليهم وهو في مقابلة ويقبضون أيديهم **﴿ويطيعون الله ورسوله﴾** يعني فيما يأمرهم به وهو في مقابلة نسوا الله فنسيهم **﴿أولئك﴾** يعني المؤمنين والمؤمنات الموصوفين بهذه الصفات **﴿سيرحمهم الله﴾** لما ذكر الله ما وعد به المنافقين من العذاب في نار جهنم ذكر ما وعد به المؤمنين والمؤمنات من الرحمة والرضوان وما أعد لهم في الجنان والسين في قوله سيرحمهم الله للمبالغة والتوكيد **﴿إن الله عزيز حكيم﴾** وهذا يوجب المبالغة في الترغيب والترهيب لأن العزيز هو الذي لا يمتنع عليه شيء أراده فهو قادر على إيصال العقوبة لمن أراد والحكيم هو الذي يدبر عباده على ما يقتضيه العدل والإنصاف **﴿وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها﴾** لما ذكر الله في الآيات المتقدمة وعيد المنافقين وما أعد لهم في نار جهنم من العذاب ذكر سبحانه وتعالى في هذه الآية ما وعد به المؤمنين من الخير والثواب والمراد بالجنات التي تجري من تحتها الأنهار البساتين التي يتحير في حسنها الناظر لأنه سبحانه وتعالى قال ومساكن طيبة في جنات عدن والمعطوف يجب أن يكون مغايراً للمعطوف عليه فتكون مساكنهم في جنات عدن ومناظرهم الجنات التي هي البساتين فتكون جنات عدن هي المساكن التي يسكنونها والجنات الأخر هي البساتين التي يتنزهون فيها فهذه فائدة المغايرة بين المعطوف والمعطوف عليه والفرق بينهما **﴿ومساكن طيبة﴾** يعني ومنازل يسكنونها طيبة **﴿في جنات عدن﴾** يعني في بساتين خلد وإقامة يقال عدن بالمكان إذا أقام به.

بالريح **﴿ وثمودَ ﴾**، بالرجفة، **﴿ وقومِ إبراهيمَ ﴾**، بسلب النعمة وهلاك نمرود، **﴿ وأصحابِ مَدْيَن ﴾**، يعني قوم شعيب أهلكوا بعذاب يوم الظلّة، **﴿ والمُؤْتَفكَاتِ ﴾** المنقلبات التي جعلنا عاليها سافلها وهم قوم لوط وقُراهم، **﴿ أتتهم رُسلهُم بالبيّناتِ ﴾**، فكذّبوهم وعصَوْهم كما فعلتم يا معشر الكفّار فاحذرُوا تعجيلَ النِقْمة، **﴿ فما كانَ اللَّهُ ليظْلمَهُمْ ولكنْ كانُوا أنفسهم يظلمُون ﴾**.

قوله تعالى: **﴿ والمؤمنُونَ والمُؤمِناتُ بعضُهم أولياءُ بعضٍ ﴾** في الدِّين واجتماع الكلمة والعون والنصرة.

﴿ يأمرُونَ بالمعرُوف ﴾، بالإيمان والطاعة والخير، **﴿ ويَنْهوْنَ عَنِ المُنْكَرِ ﴾**، عن الشرك والمعصية وما لا يُعرف في الشرع، **﴿ ويُقيمُون الصّلاةَ ﴾**، المفروضة، **﴿ ويُؤْتُون الزكاةَ ويُطِيعُونَ اللَّهَ ورسولَهُ أولئكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إنّ الله عزيزٌ حكيمٌ ﴾**.

روى الطبري بسنده عن عمران بن حصين وأبي هريرة قال: «سئل رسول الله ﷺ عن هذه الآية ومساكن طيبة في جنات عدن قال: قصر من لؤلؤة في ذلك القصر سبعون داراً من ياقوتة حمراء في كل دار سبعون بيتاً من زمردة خضراء في كل بيت سبعون سريراً على كل سرير سبعون فراشاً من كل لون على كل فراش زوجة من الحور العين» وفي رواية: كل بيت سبعون مائدة على كل مائدة سبعون لوناً من طعام وفي كل بيت سبعون وصيفة ويعطى المؤمن من القوة في غداة واحدة ما يأتي على ذلك كله أجمع» وروي بسنده عن أبي الدرداء قال: «قال رسول الله ﷺ عدن داره يعني دار الله التي لم ترها عين ولم تخطر على قلب بشر وهي مسكنه ولا يسكنها مع بني آدم غير ثلاثة النبيين والصديقين والشهداء يقول الله عز وجل طوبى لمن دخلك» هكذا رواه الطبري فإن صحت هذه الرواية فلا بد من تأويلها فقوله عدن داره يعني دار الله وهو من باب حذف المضاف تقديره عدن دار أصفياء الله تعالى التي أعدها لأوليائه وأهل طاعته والمقربين من عباده.

عن أبي موسى الأشعري: أن رسول الله ﷺ قال: «جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن» أخرجه البخاري ومسلم. وقال عبد الله بن مسعود: عدن بطنان الجنة يعني وسطها. وقال عبد الله بن عمرو بن العاص: إن في الجنة قصراً يقال له عدن حوله البروج والمروج له خمسة آلاف باب لا يدخله إلا نبي أو صديق أو شهيد. وقال عطاء بن السائب: عدن نهر في الجنة خيامه على حافتيه، وقال مقاتل والكلبي: عدن أعلى درجة في الجنة فيها عين التسنيم والجنان حولها محدقة بها وهي مغطاة من حين خلقها الله حتى ينزلها أهلها وهم الأنبياء والصديقون والشهداء والصالحون ومن شاء الله وفيها قصور الدر والياقوت والذهب فتهب ريح طيبة من تحت العرش فتدخل عليهم كثبان المسك الأبيض.

قال الإمام فخر الدين الرازي: حاصل هذا الكلام أن في جنات عدن قولين:

أحدهما: أنه اسم علم لموضع معين في الجنة وهذه الأخبار والآثار تقوي هذا القول قال صاحب الكشاف وعدن علم بدليل قوله «جنات عدن التي وعد الرحمن عباده» والقول الثاني إنه صفة للجنة.

قال الأزهري: العدن مأخوذ من قولك: عدن بالمكان إذا أقام به. يعدن عدواناً فبهذا الاشتقاق قالوا: الجنات كلها جنات عدن.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿**ورضوان من الله أكبر**﴾ يعني أن رضوان الله الذي ينزله عليهم أكبر من كل ما سلف ذكره من نعيم الجنة ﴿**ذلك هو الفوز العظيم**﴾ إشارة إلى ما تقدم ذكره من نعيم الجنة والرضوان (ق)

عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله تبارك وتعالى يقول لأهل الجنة يا أهل الجنة فيقولون لبيك

﴿ **وَعَدَ اللَّهُ المؤمنينَ والمؤمناتِ جنّاتٍ تَجْري مِن تَحْتِها الأنْهارُ خالِدينَ فيها ومَساكِنَ طيّبة** ﴾، منازل طيبة، ﴿ **في جنّاتِ عَدْنٍ** ﴾ أي: بساتين خلد وإقامة، يُقال: عدن بالمكـان إذا أقام به. قال ابن مسعود: هي بطنان الجنة، أي: وسطها. قال عبد الله بن عمرو بن العاص: إن في الجنة قصراً يقال له عَدْنٌ حوله البروج والمروج له خمسة آلاف باب لا يدخله إلاّ نبيٌّ أو صدّيق أو شهيدٌ. وقال الحسن: قصرٌ من ذهب لا يدخله إلاّ نبيٌّ أو صدّيقٌ أو شهيدٌ أو حَكَمٌ عَدْلٌ. وقال عطاء بن السائب: عدن نهر في الجنة جنّاته على حافتيه. وقال مقاتل والكلبي: عدن أعلى درجة في الجنة وفيها عين التسنيم والجنان حولها محدقة بها، وهي مغطاة من حين خلقها الله تعالى حتى ينزلها أهلها الأنبياءُ والصِّدِّيقون والشهداءُ والصالحون، ومَن شاء الله، وفيها قصورُ الدُّرِ والياقوتِ والذهب، فتهبّ ريح طيبة من تحت العرش فتدخل عليهم كُثْبانُ المِسْكِ الأذْفَرِ الأبيض ﴿ **ورِضْوَانٌ مَنَ اللَّهِ أكبرُ** ﴾. أي: رضا الله عنهم أكبر من

ربنا وسعديك والخير كله في يديك فيقول هل رضيتم فيقولون ومالنا لا نرضى يا ربنا وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك فيقول ألا أعطيكم أفضل من ذلك فيقولون وأي شيء أفضل من ذلك فيقول أحل عليكم رضواني فلا أسخط بعده عليكم أبداً».

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾

قوله سبحانه وتعالى: ﴿يا أيها النبي جاهد الكفار﴾ يعني بالسيف والمحاربة والقتال ﴿والمنافقين﴾ يعني وجاهد المنافقين واختلفوا في صفة جهاد المنافقين وسبب هذا الاختلاف أن المنافق هو الذي يبطن الكفر ويظهر الإسلام ولما كان الأمر كذلك لم تجز مجاهدته بالسيف والقتال لإظهاره الإسلام فقال ابن عباس: أمر الله سبحانه وتعالى نبيه محمداً ﷺ بجهاد الكفار بالسيف والمنافقين باللسان وإذهاب الرفق عنهم وهذا قول الضحاك أيضاً وقال ابن: مسعود بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه فإن لم يستطع فليكفهر في وجهه.

وقال الحسن وقتادة: بإقامة الحدود عليهم يعني إذا تعاطوا أسبابها وهذا القول فيه بعد لأن إقامة الحدود واجبة على من ليس بمنافق فلا يكون لهذا تعلق بالنفاق وإنما قال الحسن وقتادة ذلك لأن غالب من كان يتعاطى أسباب الحدود فتقام عليهم في زمن النبي ﷺ المنافقون.

قال الطبري: وأولى الأقوال قول ابن مسعود لأن الجهاد عبارة عن بذل الجهد وقد دلت الآية على وجوب جهاد المنافقين وليس في الآية ذكر كيفية ذلك الجهاد فلا بد من دليل آخر وقد دلت الدلائل المنفصلة أن الجهاد مع الكفار إنما يكون بالسيف ومع المنافقين بإظهار الحجة عليهم تارة وبترك الرفق بهم تارة وبالانتهار تارة وهذا هو قول ابن مسعود ﴿واغلظ عليهم﴾ يعني شدد عليهم بالجهاد والإرهاب ﴿ومأواهم جهنم وبئس المصير﴾ بمعنى أن جهنم مسكنهم وبئس المصير مصيرهم إليها.

فإن قلت كيف ترك النبي ﷺ المنافقين بين أظهر أصحابه مع علمه بهم وبحالهم.

ذلك النعيم الذي هم فيه، ﴿ ذلك هو الفوزُ العظيم ﴾. روينا عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال: «يقول الله عزّ وجلّ لأهلِ الجنّةِ يا أهلَ الجنّة هلْ رضيتُم؟ فيقولون: ربَّنا وما لنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تعطه أحداً من خلقك، فيقول: أفلا أعطيكم أفضلَ من ذلك فيقولُونَ: ربَّنا وأيُّ شيء أفضلُ من ذلك؟ فيقول: أُحِلّ عليكم رِضْوَاني فلا أسخط عليكم بعده أبداً».

قوله تعالى: ﴿ يا أيّها النّبيُّ جاهدِ الكُفّارَ ﴾: بالسيف والقتل، ﴿ والمُنافِقِينَ ﴾، واختلفوا في صفة جهاد المنافقين، قال ابن مسعود: بيده فإن لم يستطع فبلسانه وإن لم يستطع فبقلبه، وقال: لا تلق المنافقين إلاّ بوجه مكفهر. وقال ابن عباس: باللسان وترك الرفق. وقال الضحاك: بتغليظ الكلام. وقال الحسن وقتادة: بإقامة الحدود عليهم. ﴿ واغْلُظْ عليهم ومأوَاهُم ﴾ في الآخرة، ﴿ جهنّمُ وبِئْسَ المصير ﴾. قال عطاء: نسخت هذه الآية كلَّ شيء من العفو والصفح.

قلت: إنما أمر الله عز وجل نبيه سيدنا محمداً ﷺ بقتال من أظهر كلمة الكفر وأقام على إظهارها.

فأما من تكلم بالكفر في السر فإذا اطلع عليه أنكره ورجع عنه وقال: إني مسلم فإنه يحكم بإسلامه في الظاهر في حقن دمه وماله وولده وإن كان معتقداً غير ذلك في الباطن لأن الله سبحانه وتعالى أمر بإجراء الأحكام على الظواهر فلذلك أجرى النبي ﷺ المنافقين على ظواهرهم ووكل سرائرهم إلى الله سبحانه وتعالى لأنه العالم بأحوالهم وهو يجازيهم في الآخرة بما يستحقون.

قوله عز وجل: ﴿**يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إسلامهم**﴾ اختلف المفسرون فيمن نزلت هذه الآية فقال عروة بن الزبير: نزلت في الجلاس بن سويد أقبل هو وابن امرأته مصعب من قباء. فقال الجلاس: إن كان ما جاء به محمد حقاً لنحن شر من حمرنا هذه التي نحن عليها فقال مصعب: أما والله يا عدو الله لأخبرن النبي ﷺ بما قلت وخفت أن ينزل في القرآن أو أن تصيبني قارعة أو أن أخلط بخطيئته فأتيت النبي ﷺ فقلت: يا رسول الله أقبلت أنا والجلاس من قباء فقال كذا وكذا ولولا مخافة أن أخلط بخطيئته أو تصيبني قارعة ما أخبرتك. قال: فدعا الجلاس، فقال له: يا جلاس أقلت ما قال مصعب؟ فحلف ما قال، فأنزل الله عز وجل: يحلفون بالله ما قالوا، الآية.

وروي عن مجاهد ونحوه. وقال ابن عباس: كان رسول الله ﷺ جالساً في ظل حجرة فقال: إنه سيأتيكم إنسان فينظر إليكم بعين الشيطان فإذا جاء فلا تكلموه، فلم يلبثوا أن طلع رجل أزرق فدعاه رسول الله ﷺ فقال: علام تشتمني أنت وأصحابك؟ فانطلق الرجل فجاء بأصحابه فحلفوا بالله ما قالوا وما فعلوا حتى تجاوز عنه فأنزل الله عز وجل: يحلفون بالله ما قالوا. ثم نعتهم جميعاً إلى آخر الآية.

وقال قتادة: ذكر لنا أن رجلين اقتتلا أحدهما من جهينة والآخر من غفار وكانت جهينة حلفاء الأنصار فظهر الغفاري على الجهني فقال عبد الله بن أبي بن سلول للأوس: انصروا أخاكم فوالله ما مثلنا ومثل محمد إلا كما قال القائل سمن كلبك يأكلك، وقال: لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل فسعى بها رجل من المسلمين إلى النبي ﷺ فأرسل إليه فسأله فحلف بالله ما قال فأنزل الله هذه الآية، هذه روايات الطبري.

وذكر البغوي عن الكلبي قال: نزلت في الجلاس بن سويد وذلك أن رسول الله ﷺ خطب ذات يوم بتبوك فذكر المنافقين وسماهم رجساً وعابهم فقال الجلاس: لئن كان محمد صادقاً لنحن شر من الحمير فلما انصرف رسول الله ﷺ إلى المدينة أتاه عامر بن قيس فأخبره بما قال الجلاس. فقال الجلاس: كذب يا رسول الله عليّ فأمرهما رسول الله ﷺ أن يحلفا عند المنبر فقام الجلاس عند المنبر بعد العصر فحلف بالله الذي لا إله إلا هو ما قاله ولقد كذب على عامر

قوله تعالى: ﴿ **يحلِفُون بالله ما قالوا** ﴾، قال ابن عباس: كان رسول الله ﷺ جالساً في ظل شجرة فقال: «إنه سيأتيكم إنسان فينظر إليكم بعيني شيطان، فإذا جاء فلا تكلّموه»، فلم يلبثوا أن طلع رجل أزرق، فدعاه رسول الله ﷺ فقال: «عَلامَ تشتمني أنتَ وأصحابُك»؟ فانطلق الرجل وجاء بأصحابه فحلفوا بالله ما قالوا، فأنزل الله عزّ وجلّ هذه الآية. وقال الكلبي: نزلت في الجلاس بن سويد، وذلك أن رسول الله ﷺ خطب ذات يوم بتبوك فذكر المنافقين وسمّاهم رجساً وعابهم، فقال جلاس: لئن كان محمد صادقاً لنحن شرٌّ من الحمير فسمعه عامر بن قيس، فقال: أجل إنّ محمداً لصادقٌ وأنتم شرٌّ من الحمير، فلما انصرف رسول الله ﷺ إلى المدينة أتاه عامر بن قيس فأخبره بما قال الجلاس، فقال الجلاس: كذب عليّ يا رسول الله، وأمرهما رسول الله ﷺ أن يحلفا عند المنبر، فقام الجلاس عند المنبر بعد العصر فحلف بالله الذي لا إلَه إلاّ هو هو ما قاله، ولقد كَذَبَ عليّ عامر، ثم قام عامر

ثم قام عامر فحلف بالله الذي لا إله إلا هو لقد قاله وما كذبت عليه ثم رفع عامر يده إلى السماء فقال: اللهم أنزل على نبيك تصديق الصادق منا فقال رسول الله ﷺ والمؤمنون آمين فنزل جبريل عليه السلام قبل أن يتفرقا بهذه الآية حتى بلغ فإن يتوبوا يك خيراً لهم فقام الجلاس فقال: يا رسول الله أسمع الله قد عرض علي التوبة صدق عامر بن قيس فيما قاله لقد قلته وأنا أستغفر الله وأتوب إليه فقبل رسول الله ﷺ ذلك منه فتاب وحسنت توبته فذلك قوله سبحانه وتعالى: ﴿**يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إسلامهم**﴾ يعني أظهروا كلمة الكفر بعد إسلامهم وتلك الكلمة هي سب النبي ﷺ فقيل: هي كلمة الجلاس بن سويد لئن كان محمد صادقاً لنحن شر من الحمير وقيل هي كلمة عبد الله بن أبي بن سلول لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل وستأتي القصة في موضعها في سورة المنافقين إن شاء الله تعالى.

قوله سبحانه وتعالى: ﴿**وهموا بما لم ينالوا**﴾ قال مجاهد: همَّ الجلاس بقتل الذي سمع مقالته خشية أن يفشيها عليه وقيل همَّ عبد الله بن أبي بن سلول وكان همه قوله لئن رجعنا إلى المدينة فلم ينله وقيل: همَّ اثنا عشر رجلاً من المنافقين بقتل رسول الله ﷺ فوقفوا على العقبة وقت رجوعه من تبوك ليقتلوه فجاء جبريل عليه السلام فأخبره وأمره أن يرسل إليهم من يضرب وجوه رواحلهم فأرسل حذيفة لذلك.

وقال السدي: قال المنافقون إذا رجعنا إلى المدينة عقدنا على رأس عبد الله بن أبي بن سلول تاجاً فلم يصلوا إليه ﴿**وما نقموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله**﴾ يعني وما أنكروا على رسول الله ﷺ شيئاً إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله والمعنى أن المنافقين عملوا بضد الواجب فجعلوا موضع شكر النبي ﷺ أن نقموا عليه وقيل إنهم بطروا النعمة فنقموا أشراً وبطراً وقال ابن قتيبة: معناه ليس ينقمون شيئاً ولا يتعرفون إلا الصنع وهذا كقول الشاعر:

ما نقم الناس من أمية إلا ... أنهم يحلمون إن غضبوا

وهذا ليس مما ينقم وإنما أراد أن الناس لا ينقمون عليهم شيئاً فهو كقول النابغة:

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم ... بهنَّ فلول من قراع الكتائب

أي ليس فيهم عيب.

قال الكلبي: كانوا قبل قدوم النبي ﷺ المدينة في ضنك من العيش فلما قدم النبي ﷺ استغنوا بالغنائم. فعلى هذا القول يكون الكلام عاماً. وقال عروة: كان الجلاس قتل له مولى فأمر له النبي ﷺ بديته فاستغنى. وقال قتادة: كانت لعبد الله بن أبي دية فأخرجها رسول الله ﷺ له. وقال عكرمة: إن مولى لبني عدي قتل رجلاً من الأنصار فقضى

فحلف بالله الذي لا إلَه إلاّ هو لقد قاله وما كذَبْتُ عليه، ثم رفع يديه إلى السماء وقال: اللّهمّ أنزل على نبيّك تصديقَ الصادقِ منّا، فقال رسول الله ﷺ والمؤمنون: «آمين». فنزل جبريل عليه السلام من السماء قبل أن يتفرقوا بهذه الآية، حتى بلغ: ﴿ **فإن يتوبوا يكُ خيراً لهم** ﴾، فقام الجلاس فقال: يا رسول الله أسمعُ اللَّهَ عزّ وجلّ قد عرضَ عليّ التوبة، صدقَ عامرُ بن قيس فيما قاله لقد قلتُه وأنا أستغفر الله وأتوب إليه، فقَبِلَ رسولُ الله ﷺ ذلك منه وحَسُنَتْ توبتُه. ﴿**ولقدْ قالُوا كلمةَ الكُفْرِ وكفَرُوا بعدَ إسلامِهم**﴾، أي: أظهروا الكفر بعد إظهار الإيمان والإسلام. وقيل: هي سبُّ النّبي ﷺ. وقيل: كلمة الكفر قول الجلاس: لئن كان محمد صادقاً لنحن شرٌّ من الحمير. وقيل: كلمة الكفر قولهم: ﴿لئن رَّجعْنَا إلى المدينةِ لَيُخرِجَنّ الأعزُّ منها الأذلَّ﴾ [المنافقون: ٨]، وستأتي القصة في موضعها في سورة المنافقين، ﴿ **وهَمُّوا بِما لَمْ ينالُوا** ﴾، قال مجاهد: هَمّ المنافقون بقتل المسلم الذي سمع قولهم: لنحن شرٌّ من الحمير، لكي لا يفشيه. وقيل: هَمّ اثنا عشر رجلاً من المنافقين وقفوا على العقبة في طريق

له النبي ﷺ بالدية اثني عشر ألفاً وفيه نزلت ﴿وما نقموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله﴾ ﴿فإن يتوبوا يك خيراً لهم﴾ يعني: فإن يتوبوا من كفرهم ونفاقهم يك ذلك خيراً لهم في العاجل والآجل ﴿وإن يتولوا﴾ يعني وإن يعرضوا عن الإيمان والتوبة ويصروا على النفاق والكفر ﴿يعذبهم الله عذاباً أليماً في الدنيا﴾ يعني بالخزي والإذلال ﴿والآخرة﴾ أي ويعذبهم في الآخرة بالنار ﴿وما لهم في الأرض من ولي ولا نصير﴾ يعني وليس لهم أحد يمنعهم من عذاب الله أو ينصرهم في الدنيا والآخرة.

۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَـٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾

قوله سبحانه وتعالى: ﴿ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن﴾ الآية.

روى البغوي بسند الثعلبي عن أبي أمامة الباهلي قال: «جاء ثعلبة بن حاطب الأنصاري إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله ادع الله أن يرزقني مالاً. فقال رسول الله ﷺ: ويحك يا ثعلبة قليل تؤدي شكره خير من كثير لا تطيقه. ثم أتاه بعد ذلك فقال: يا رسول الله ادع الله أن يرزقني مالاً. فقال رسول الله ﷺ: أمالك في رسول الله أسوة حسنة والذي نفسي بيده لو أردت أن تسير الجبال معي ذهباً وفضة لسارت. ثم أتاه بعد ذلك فقال: يا رسول الله ادع الله أن يرزقني مالاً والذي بعثك بالحق لئن رزقني الله مالاً لأعطين كل ذي حق حقه فقال رسول الله ﷺ: اللهم ارزق ثعلبة مالاً. قال: فاتخذ غنماً فنمت كما ينمو الدود فضاقت عليه المدينة فتنحى عنها ونزل وادياً من أوديتها وهي تنمو كما ينمو الدود فكان يصلي مع رسول الله ﷺ الظهر والعصر ويصلي في غنمه سائر الصلوات ثم كثرت ونمت حتى تباعد عن المدينة فصار لا يشهد إلا الجمعة ثم كثرت ونمت حتى تباعد عن المدينة أيضاً حتى صار لا يشهد جمعة ولا جماعة فكان إذا كان يوم جمعة خرج فتلقى الناس يسألهم عن الأخبار فذكره رسول الله ﷺ ذات يوم فقال: ما فعل ثعلبة؟ فقالوا: يا رسول الله اتخذ ثعلبة غنماً ما يسعها وادٍ. فقال رسول الله ﷺ: يا ويح ثعلبة يا ويح ثعلبة. فأنزل الله سبحانه وتعالى آية

تبوك ليفتِكُوا برسول الله ﷺ، فجاء جبريل عليه السلام وأمره أن يرسل إليهم مَن يضرب وُجُوهَ رَوَاحِلِهم، فأرسل حذيفة لذلك. وقال السدي: قالوا إذا قَدِمنا المدينة عقدنا على رأس عبد الله بن أُبيّ تاجاً، فلم يصلوا إليه. ﴿ وما نَقَمُوا ﴾، وما كرهوا وما أنكروا منهم، ﴿ إلاَّ أنْ أغْنَاهُمُ اللَّهُ ورسولُهُ مِن فَضْلِهِ ﴾. وذلك أن مولى الجلاس قُتل فأمر رسول الله ﷺ بديّته اثني عشر ألف درهم فاستغنى. وقال الكلبي: كانوا قبل قدوم النبيّ ﷺ في ضَنْكٍ من العيش، فلما قَدِمَ عليهم النبي ﷺ استغنوا بالغنائم. ﴿ فإن يَتُوبُوا ﴾ من نفاقهم وكفرهم ﴿ يَكُ خيراً لهم وإن يَتَوَلَّوا ﴾، يعرضوا عن الإيمان، ﴿ يُعذِّبْهُمُ اللَّهُ عذاباً أليماً في الدنيا ﴾، بالخزي، ﴿ والآخرة ﴾، أي: وفي الآخرة بالنار، ﴿ وما لهم في الأرضِ مِنْ وَلِيٍّ ولا نصير ﴾.

قوله تعالى: ﴿ ومنهمْ مَّنْ عاهَدَ اللَّهَ لئن آتانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنّ ﴾ الآية. أخبرنا أبو سعيد الشريحي ثنا أبو إسحاق الثعلبي أنا أبو عبد الله بن حامد الأصفهاني ثنا أحمد بن محمد بن إبراهيم السمرقندي ثنا محمد بن نصر حدّثني أبو الأزهر أحمد بن الأزهر ثنا مروان بن محمد بن شعيب ثنا مُعَان بن رفاعة عن علي بن زيد عن القاسم بن عبد الرحمن عن أبي أمامة الباهلي قال: جاء ثعلبة بن حاطب الأنصاري إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله أدْعُ اللَّهَ أن يرزقني مالاً، فقال رسول الله ﷺ: «ويحك يا ثعلبة قليلٌ تُؤدّي شُكْرَهُ خيرٌ من كثير لا تُطيقه»، ثم أتاه بعد ذلك فقال: يا رسول الله أدْعُ اللَّهَ أن يرزقنِي مالاً، فقال رسول الله ﷺ: «أمَا لَكَ في رسولِ الله أُسْوَةٌ حسنة؟ والذي نفسي بيده لو أردتُ أن تسير الجبال معي ذهباً وفضةً لسَارتْ»، ثم أتاه بعد ذلك فقال: يا رسول الله أدْعُ اللَّهَ أن يرزقني مالاً فوالذي بعثك بالحق لئن رزقني اللَّهُ مالاً لأعطينّ كلَّ ذِي حقٍّ حقّه، فقال رسول الله ﷺ: «اللّهمَّ ارْزُقْ ثعلبة

الصدقة، فبعث رسول الله ﷺ رجلاً من بني سليم ورجلاً من جهينة وكتب لهما أسنان الصدقة وكيف يأخذان وقال لهما: مرا على ثعلبة بن حاطب ورجل من بني سليم فخذا صدقاتهما، فخرجا حتى أتيا ثعلبة فسألاه الصدقة وأقرآه كتاب رسول الله ﷺ فقال: ما هذه إلا جزية، ما هذه إلا أخت الجزية انطلقا حتى تفرغا ثم عودا إليّ فانطلقا وسمع بها السلمي فنظر إلى خيار أسنان إبله فعزلها للصدقة ثم استقبلهما بها فلما رأياها قالا: ما هذه عليك. قال: خذاها فإن نفسي بذلك طيبة فمرا على الناس وأخذا الصدقات ثم رجعا إلى ثعلبة فقال أروني كتابكما فقرأه ثم قال: ما هذه إلا جزية ما هذه إلا أخت الجزية اذهبا حتى أرى رأيي. قالا: فأقبلا فلما رآهما رسول الله ﷺ قال قبل أن يتكلما: يا ويح ثعلبة يا ويح ثعلبة ثم دعا للسلمي بخير فأخبراه بالذي صنع ثعلبة فأنزل الله سبحانه وتعالى فيه: ﴿**ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن**﴾ الآية إلى قوله سبحانه وتعالى: ﴿وبما كانوا يكذبون﴾ وعند رسول الله ﷺ رجل من أقارب ثعلبة فسمع ذلك فخرج حتى أتاه فقال: ويحك يا ثعلبة لقد أنزل الله فيك كذا وكذا فخرج ثعلبة حتى أتى النبي ﷺ فسأله أن يقبل منه صدقته فقال: إن الله منعني أن أقبل منك صدقتك، فجعل يحثو على رأسه التراب فقال له رسول الله ﷺ: هذا عملك قد أمرتك فلم تطعني، فلما أبى أن يقبل رسول الله ﷺ صدقته رجع إلى منزله وقبض رسول الله ﷺ فأتى أبا بكر فقال: اقبل صدقتي. فقال أبو بكر: لم يقبلها منك رسول الله ﷺ فأنا لا أقبلها. فقبض أبو بكر ولم يقبلها منه فلما ولي عمر أتاه فقال: اقبل صدقتي فقال: لم يقبلها منك رسول الله ﷺ ولا أبو بكر فأنا لا أقبلها منك فلم يقبلها. ثم ولي عثمان فأتاه فلم يقبلها منه وهلك في خلافة عثمان». وأخرجه الطبري أيضاً بسنده. قال بعض العلماء: إنما لم يقبل رسول الله ﷺ صدقة ثعلبة، لأن الله سبحانه وتعالى منعه من قبولها منه مجازاة له على إخلافه ما وعد الله عليه وإهانة له على قوله: إنما هي جزية أو أخت الجزية، فلما صدر هذا القول منه ردت صدقته عليه إهانة له وليعتبر غيره فيه فلا يمتنع من بذل الصدقة عن طيب نفس بإخراجها ويرى أنها واجبة عليه وأنه يثاب على إخراجها ويعاقب على منعها.

وقال ابن عباس: إن ثعلبة أتى مجلساً من مجالس الأنصار فأشهدهم لئن آتاني الله من فضله آتيت منه كل ذي حق حقه وتصدقت منه ووصلت القرابة فمات ابن عم له فورث منه مالاً فلم يف بما عاهد الله عليه فأنزل الله فيه هذه

مالاً». قال: فاتخذ غنماً فَنَمتْ كما ينمو الدود، فضاقت عليه المدينة فتنحّى عنها، فنزل وادياً من أوديتها وهي تنمو كالدود، فكان يصلّي مع النبي ﷺ الظهر والعصر ويصلّي في غنمه سائر الصلوات، ثم كثُرتْ ونَمَتْ حتى تباعد بها عن المدينة فصار لا يشهد إلاّ الجمعة، ثم كَثُرتْ فنَمَتْ فتباعد أيضاً حتى كان لا يشهد جمعة ولا جماعة. فكان إذا كان يوم الجمعة خرج يتلقّى الناسَ يسألهم عن الأخبار، فذكره ﷺ ذات يوم فقال: «ما فعل ثعلبة»؟ قالوا: يا رسول الله اتخذ ثعلبة غنماً يسـعها وادٍ فقال رسول الله ﷺ: «يا وَيْحَ ثعلبةَ يا وَيحَ ثعلبة يا ويحَ ثعلبة». فأنزل الله آية الصدقات، فبعث رسول الله ﷺ رجلاً من بني سليم ورجلاً من جُهينة وكتب لهما أسنان الصدقة، كيف يأخذان، وقال لهما: «مُرّا على ثعلبة بن حاطب، ورجلاً من بني سليم فخذا صدقاتهما»، فخرجا إلى ثعلبة حتى أتياه فسألاه الصدقة وأقرآه كتابَ رسول الله ﷺ، فقال: ما هذه إلاّ جزية ما هذه إلاّ أُخت الجزية، انطلقا حتى تفرغا الصدقة ثمّ عُودا إليّ فانطلقا وسمع بهما السلمي خيّار أسنان إبله فعزلها للصدقة ثم استقبلهما بها فلما رأياها قالوا: ما هذه عليك؟ قال: خذاه فإن نفسي بذلك طيبة، فمرّا على الناس فأخذا الصدقة، ثم رجعَا إلى ثعلبة، فقال: أروني كتابكما فقرأه، ثم قال: ما هذه إلاّ أُخت الجزية، إذهبا حتى أرى رأيـي، قال: فأقبلا فلمّا رآهما رسول الله ﷺ قبل أن يكلّماه قال: «يا وَيْحَ ثعلبة يا وَيْحَ ثعلبة»، ثم دعا للمسلمين بخير، فأخبراه بالذي صنع ثعلبة، فأنزل الله تعالى فيه: ﴿ **ومنهم مَنْ عَاهَدَ الله لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِه** ﴾ الآية، إلى قوله: ﴿ وبما كانوا يكذبون ﴾ [التوبة: ٧٧] وعند

الآية. وقال الحسن ومجاهد: نزلت في ثعلبة ومعتب بن قشير وهما من بني عمرو بن عوف خرجا على ملأ قعود فقالا لئن رزقنا الله من فضله لنصدقن فلما رزقهما الله بخلا به. وقال ابن السائب: إن حاطب بن أبي بلتعة[1] كان له مال بالشام فأبطأ عليه فجهد لذلك جهداً شديداً فحلف بالله لئن آتاني الله من فضله يعني ذلك المال لأصدقن منه ولأصلن فلما آتاه ذلك المال لم يف بما عاهد الله عليه فنزلت هذه الآية وحاصله أن ظاهر الآية يدل على أن بعض المنافقين عاهد الله لئن آتاه من فضله ليصدقن وليفعلن فيه أفعال الخير والبر والصلة فلما آتاه الله من فضله ما سأل لم يف بما عاهد الله عليه ومعنى الآية ومن المنافقين من أعطى الله عهداً لئن رزقنا من فضله بأن يوسع علينا في الرزق لنصدقن يعني لنتصدقن ولنخرجن من ذلك المال صدقته ﴿ولنكونن من الصالحين﴾ يعني: ولنعملن في ذلك المال ما يعمله أهل الصلاح بأموالهم من صلة الأرحام والإنفاق في سبيل الله وجميع وجوه البر والخير وإخراج الزكاة وإيصالها إلى أهلها والصالح ضد المفسد والمفسد هو الذي يبخل بما يلزمه في حكم الشرع. وقيل: إن المراد بقوله لنصدقن، إخراج الزكاة الواجبة. وقوله: ولنكونن من الصالحين إشارة إلى كل ما يفعله أهل الصلاح على الإطلاق من جميع أعمال البر والطاعة.

فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾

﴿فلما آتاهم من فضله بخلوا به﴾ يعني فلما رزقهم الله لم يفعلوا من أعمال البر شيئاً ﴿وتولوا﴾ يعني عما عاهدوا الله عليه ﴿وهم معرضون﴾ يعني عن العهد.

فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ

رسول الله ﷺ رجلٌ من أقارب ثعلبة فسمع ذلك فخرج حتى أتاه فقال: ويحك يا ثعلبة لقد أنزل الله فيك كذا وكذا، فخرج ثعلبة حتى أتى النبيَّ ﷺ فسأله أن يقبل منه الصدقة، فقال: «إن الله عزّ وجلّ منعني أن أقبل منك صدقتك»، فجعل يحثو التراب على رأسه، فقال رسول الله ﷺ: «هذا عملك وقد أمرتُك فلم تطعني»، فلما أبى رسول الله ﷺ أن يقبض صدقته، رجع إلى منزله. وقُبض رسولُ الله ﷺ. ثم أتى أبا بكر فقال: اقبلْ صدقتي، فقال أبو بكر: لم يقبلها منك رسولُ الله ﷺ فأنا لا أقبلها فقُبض أبو بكر ولم يقبلها. فلمّا وَلِيَ عمرُ أتاه فقال: اقبلْ صدقتي، فقال: لم يقبلها منك رسولُ الله ولا أبو بكر فأنا لا أقبلها منك، فلم يقبلها. فلمّا وَلِيَ عثمان أتاه فلم يقبلها منه، وهلك ثعلبة في خلافة عثمان. وقال ابن عباس وسعيد بن جبير وقتادة: أتى ثعلبة مجلساً من الأنصار فأشهدهم لئن آتاني الله من فضله آتيت منه كل ذي حقّ حقَّه وتصدّقت منه فوصلت الرحم وأحسنت إلى القرابة، فمات ابن عمّ له فورث منه مالاً فلم يفِ بما قال، فأنزل الله تعالى هذه الآية. وقال الحسن ومجاهد: نزلت في ثعلبة بن حاطب ومعتب بن قشير وهما من بني عمرو بن عوف خرجا على ملأ قعود وقالا: والله لئن رزقنا اللّهُ مالاً لنصدّقنّ، فلما رزقهما الله عزّ وجلّ بَخِلَا به. فقوله عزّ وجلّ: ﴿ ومنهم ﴾ يعني: المنافقين ﴿ مَنْ عاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتانا مِن فَضْله لَنصدّقنّ ﴾ ولنؤدينّ حقَّ الله منه. ﴿ وَلَنَكُونَنّ مِنَ الصّالحين ﴾، نعمل بعمل أهل الصلاح فيه من صلة الرحم والنفقة في الخير.

﴿ فلمّا آتاهُمْ مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وتَوَلّوا وهمْ مُعْرِضُون ﴾.

---

(١) قوله إن حاطب إلخ لم يذكر البغوي هذا القول وأصاب فإن حاط مهاجري بدري وفضل آل بدر لا يخفى اهـ.

ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَـٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾

﴿فأعقبهم نفاقاً في قلوبهم﴾ يعني فأعقبهم الله نفاقاً بأن صيرهم منافقين يقال أعقبت فلاناً ندامة إذا صارت عاقبة أمره إلى ذلك وقيل معناه أنه سبحانه وتعالى عاقبهم بنفاق قلوبهم ﴿إلى يوم يلقونه﴾ يعني أنه سبحانه وتعالى حرمهم التوبة إلى يوم القيامة فيوافونه على النفاق فيجازيهم عليه ﴿بما أخلفوا الله ما وعدوه﴾ يعني الصدقة والإنفاق في سبيله ﴿وبما كانوا يكذبون﴾ يعني في قولهم لنصدقن ولنكونن من الصالحين عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «آية المنافق ثلاث إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا ائتمن خان» عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال قال رسول الله ﷺ: «أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً ومن كانت فيه خلة وفي رواية خصلة منهن كانت فيه خصلة من نفاق حتى يدعها إذا حدث كذب وإذا عاهد غدر وإذا وعد أخلف وإذا خاصم فجر» قال الشيخ محيي الدين النووي: هذا الحديث مما عده جماعة من العلماء مشكلاً من حيث إن هذه الخصال قد توجد في المسلم المصدق الذي ليس فيه شك وقد أجمع العلماء على أن من كان مصدقاً بقلبه ولسانه وفعل هذه الخصال لا يحكم عليه بكفر ولا هو منافق مخلد في النار فإن إخوة يوسف عليه السلام جمعوا هذه الخصال وكذا قد يوجد لبعض السلف ولبعض العلماء بعض هذا أو كله. قال الشيخ: هذا ليس بحمد الله إشكالاً ولكن اختلف العلماء في معناه فالذي قاله المحققون والأكثرون وهو الصحيح المختار أن معناه أن هذه الخصال خصال نفاق وصاحبها يشبه المنافقين في هذه الخصال ويتخلق بأخلاقهم فإن النفاق هو إظهار ما يبطن خلافه وهذا موجود في صاحب هذه الخصال فيكون نفاقه في حق من حدثه ووعده وائتمنه وخاصمه وعاهده من الناس لا أنه منافق في الإسلام فيظهره وهو يبطن الكفر ولم يرد النبي ﷺ بهذا أنه منافق نفاق الكفار المخلدين في الدرك الأسفل من النار وقوله ﷺ كان منافقاً خالصاً معناه كان شديد الشبه بالمنافقين بسبب هذه الخصال قال بعض العلماء وهذا فيمن كانت هذه الخصال غالبة عليه فأما من ندر ذلك منه فليس ذلك حاصلاً فيه هذا هو المختار في معنى الحديث.

وقال جماعة من العلماء: المراد به المنافقون الذين كانوا في زمن النبي ﷺ فإنهم حدثوا في أيمانهم فكذبوا وائتمنوا على دينهم فخافوا ووعدوا في أمر الدين ونصره فأخلفوا وفجروا في خصوماتهم وهذا قول سعيد بن جبير وعطاء بن أبي رباح ورجع إليه الحسن البصري بعد أن كان على خلافه، وهو مروي عن ابن عباس وابن عمر وروياه أيضاً عن النبي ﷺ قال القاضي عياض: وإليه مال أكثر أئتمنا. وحكى الخطابي قولاً آخر: إن معناه التحذير للمسلم أن يعتاد هذه الخصال وحكى أيضاً عن بعضهم أن الحديث ورد في رجل بعينه منافق وكان النبي ﷺ لا يواجههم بصريح

﴿ فأَعْقَبَهُم ﴾، فأخلفهم، ﴿ نِفَاقاً في قلوبهم ﴾، أي: صيّر عاقبة أمرهم النفاق، يقال: أعقب فلاناً ندامةً إذا صيّر عاقبة أمره ذلك. وقيل: عاقبهم بنفاق قلوبهم. يُقال: عاقبتُه وأعقبته بمعنى واحد. ﴿ إلى يوم يَلْقَوْنَه ﴾، يريد حرمهم التوبة إلى يوم القيامة، ﴿ بما أخلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وبما كانُوا يكذِبُون ﴾. أخبرنا أبو عبد الله محمد بن الفضل الخرقي ثنا أبو الحسن علي بن عبد الله الطَيْفسوني ثنا عبد الله بن عمر الجوهري ثنا أحمد بن علي الكشمهيني ثنا علي بن حجر ثنا إسماعيل بن جعفر ثنا أبو سهيل نافع بن مالك عن أبيه عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «آيةُ المنافقِ ثلاث: إذا حدّثَ كذبَ، وإذا وَعَدَ أخلف، وإذا ائتمِنَ خانَ».

﴿ أَلَمْ يعلمُوا أنّ الله يعلمُ سِرَّهُمْ ونَجْوَاهُمْ ﴾، يعني: ما أضمروا في قلوبهم وما تناجوا به بينهم، ﴿ وأَنَّ الله عَلَّامُ الغُيُوبِ ﴾.

القول فيقولا فلان منافق وإنما يشير إشارة كقوله ﷺ: «ما بال أقوام يفعلون كذا» والله أعلم. وقال الإمام فخر الدين الرازي: ظاهر هذه الآية يدل على أن نقض العهد وخلف الوعد يورث النفاق فيجب على المسلم أن يبالغ في الاحتراز عنه فإذا عاهد الله في أمر فليجتهد في الوفاء به.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿**ألم يعلموا**﴾ يعني هؤلاء المنافقين ﴿**أن الله يعلم سرهم**﴾ يعني ما تنطوي عليه صدورهم من النفاق ﴿**ونجواهم**﴾ يعني ويعلم ما يفاوض به بعضهم بعضاً فيما بينهم والنجوى هو الخفي من الكلام يكون بين القوم والمعنى أنهم يعلمون أن الله يعلم جميع أحوالهم لا يخفى عليه شيء منها ﴿**وأن الله علام الغيوب**﴾ وهذا مبالغاً في العلم يعني أن الله عالم بجميع الأشياء فكيف تخفى عليه أحوالهم.

قوله عز وجل: ﴿**الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين في الصدقات**﴾ الآية (ق) عن أبي مسعود البدري قال: لما نزلت آية الصدقة كنا نحمل على ظهورنا فجاء رجل فتصدق بشيء كثير فقالوا مراء وجاء رجل فتصدق بصاع فقالوا إن الله لغني عن صاع هذا فنزلت ﴿**الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين في الصدقات والذين لا يجدون إلا جهدهم**﴾ الآية وقال ابن عباس وغيره من المفسرين: إن رسول الله ﷺ حث على الصدقة، فجاء عبد الرحمن بن عوف بأربعة آلاف درهم وقال: يا رسول الله مالي ثمانية آلاف درهم جئتك بأربعة آلاف فاجعلها في سبيل الله وأمسكت أربعة آلاف لعيالي فقال رسول الله ﷺ: بارك الله لك فيما أعطيت وفيما أمسكت فبارك الله في مال عبد الرحمن حتى أنه خلف امرأتين يوم مات فبلغ ثمن ماله لهما مائة وستين ألف درهم وتصدق يومئذ عاصم بن عدي العجلاني بمائة وسق من تمر وجاء أبو عقيل الأنصاري بصاع من تمر وقال: يا رسول الله بت ليلتي أجر بالجرير الماء حتى نلت صاعين من تمر فأمسكت أحدهما لعيالي وأتيتك بالآخر فأمره رسول الله ﷺ أن ينثره في الصدقات فلمزهم المنافقون. فقالوا: ما أعطى عبد الرحمن وعاصم إلا رياء وإن الله ورسوله لغنيان عن صاع أبي عقيل ولكن أحب أن يذكر نفسه ليعطي من الصدقة فأنزل الله سبحانه وتعالى الذين يلمزون يعيبون المطوعين يعني المتبرعين من المؤمنين يعني عبد الرحمن بن عوف وعاصم بن عدي في الصدقات والتطوع التنفل بما ليس بواجب عليه ﴿**والذين لا يجدون إلا جهدهم**﴾ يعني أبا عقيل الأنصاري والجهد بالضم الطاقة وهي لغة أهل الحجاز وبالفتح لغيرهم وقيل: الجهد بالضم الطاقة وبالفتح المشقة وقد يكون القليل من المال الذي يأتي به فيتصدق به أكثر موقعاً عند الله تعالى من الكثير الذي يأتي به فيتصدق به لأن الغني أخرج ذلك المال الكثير عن قدرة وهذا الفقير أخرج القليل إنما أخرجه عن ضعف وجهد وقد يؤثر المحتاج إلى المال غيره رجاء ما عند الله تعالى كما قال سبحانه وتعالى ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ﴿**فيسخرون منهم**﴾ يعني أن المنافقين كانوا يستهزئون بالمؤمنين في إنفاقهم المال في طاعة الله تعالى وطاعة رسوله

﴿ **الذينَ يَلْمِزُونَ المُطَّوِّعِينَ مِنَ المُؤمنينَ في الصَّدَقَاتِ** ﴾ الآية. قال أهل التفسير: حثّ رسولُ الله ﷺ على الصدقة فجاء عبد الرحمن بن عوف بأربعة آلاف درهم، وقال: يا رسول الله مالي ثمانية آلاف جئتك بأربعة آلاف فاجعلها في سبيل الله، وأمسكتُ أربعة آلاف لعيالي، فقال رسول الله ﷺ: «بارك الله لك فيما أعطيتَ وفيما أمسكت»، فبارك الله في ماله حتى أنه خلّف امرأتين يوم مات فبلغ ثمن ماله لهما مائة وستّين ألف درهم. وتصدّق يومئذ عاصم بن عدي العجلاني بمائة وِسْقٍ من تمر. وجاء أبو عقيل الأنصاري واسمه الحبحاب بصاعٍ من تمر، وقال: يا رسول الله بتُّ ليلتي أجرّ بالجرير الماءَ حتى نِلتُ صاعين من تمرٍ فأمسكتُ أحدهما لأهلي وأتيتُك بالآخر فأمر رسول الله ﷺ أن ينثره في الصدقة، فلمزهم المنافقون، وقالوا: ما أعطى عبد الرحمن وعاصم إلّا رياءً وإن كان الله ورسوله لغنيّان عن صاع أبي عقيل، ولكنه أراد أن يُذكر فيمَن أعطى الصدقة، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿ **الذينَ يَلْمِزُونَ** ﴾ أي: يعيبون ﴿ **المُطَّوِّعِينَ مِنَ المؤمنينَ في الصدقات** ﴾ يعني: عبد الرحمن بن عوف وعاصماً.

ﷺ وهو قولهم لقد كان الله عن صدقة هؤلاء غنياً وكانوا يعيرون الفقير الذي يتصدق بالقليل ويقولون: إنه لفقير محتاج إليه فكان يتصدق به وجوابهم إن كل من يرجو ما عند الله من الخير والثواب يبذل الموجود لينال ذلك الثواب الموعود به وقوله سبحانه وتعالى: ﴿سخر الله منهم﴾ يعني أنه سبحانه وتعالى جازاهم على سخريتهم ثم وصف ذلك وهو قوله تعالى: ﴿ولهم عذاب أليم﴾ يعني في الآخرة.

﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓا۟ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾﴾

قوله سبحانه وتعالى: ﴿استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم﴾ قال المفسرون: لما نزلت الآيات المتقدمة في المنافقين وبان نفاقهم وظهر للمؤمنين جاؤوا إلى رسول الله ﷺ يعتذرون إليه ويقولون استغفر لنا فنزلت استغفر لهم أو لا تستغفر فلن يغفر الله لهم وإنما خص سبحانه وتعالى السبعين من العدد بالذكر لأن العرب كانت تستكثر السبعين ولهذا كبر رسول الله ﷺ لما صلى على عمه حمزة رضي الله تعالى عنه سبعين تكبيرة ولأن آحاد السبعين سبعة وهو عدد شريف فإن السموات والأرضين سبع والأيام سبع والأقاليم سبع والبحار سبع والنجوم السيارة سبع فلهذا خص الله تبارك وتعالى السبعين بالذكر للمبالغة في اليأس من طمع المغفرة لهم. قال الضحاك ولما نزلت هذه الآية قال رسول الله ﷺ إن الله قد رخص لي فسأزيدن على السبعين لعل الله أن يغفر لهم فأنزل الله سبحانه وتعالى سواء عليهم استغفرت لهم أم لم تستغفر لهم فلن يغفر الله لهم (ق) عن ابن عمر قال: لما توفي عبد الله يعني بن أبي بن سلول جاء ابنه عبد الله إلى رسول الله ﷺ فسأله أن يعطيه قميصه يكفن فيه أباه ثم سأله أن يصلي عليه فقام رسول الله ﷺ ليصلي عليه فقام عمر فأخذ بثوب رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله تصلي عليه وقد نهاك ربك أن تصلي عليه فقال رسول الله ﷺ: إنما خيرني الله عز وجل فقال استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة وسأزيد على السبعين قال إنه منافق فصلى عليهم رسول الله ﷺ فأنزل الله عز وجل ولا تصل على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون زاد في رواية فترك الصلاة عليهم.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ذلك بأنهم كفروا بالله ورسوله﴾ يعني أن هذا الفعل من الله وهو ترك العفو عنهم وترك المغفرة لهم من أجل أنهم اختاروا الكفر على الإيمان بالله ورسوله ﴿والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾ يعني والله لا يوافق للإيمان به وبرسوله من اختار الكفر والخروج عن طاعة الله وطاعة رسوله.

قوله عز وجل: ﴿فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله﴾ يعني فرح المتخلفون عن غزوة تبوك والمخلف

﴿ والذينَ لا يجدُونَ إلاّ جُهْدَهُم ﴾، أي: طاقتهم، يعني: أبا عقيل. والجُهد: الطاقة، بالضم لغة قريش وأهل الحجاز. وقرأ الأعرج بالفتح. قال القتيبي: الجهد بالضمّ الطاقة وبالفتح المشقّة. ﴿ فيسخَرُونَ منهم ﴾، يستهزؤون منهم، ﴿ سَخِرَ اللّهُ منهم ﴾، أي: جازاهم الله على السخرية، ﴿ ولهم عذابٌ أليم ﴾.

﴿ اسْتَغْفِرْ لهم أو لاَ تَسْتَغْفِر لهم ﴾، لفظ أمر معناه الخبر، تقديره: أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفرَ الله لهم، ﴿ إنْ تستغفرْ لهم سبعينَ مرّة فلن يغفرَ اللّهُ لهم ﴾، وذكر السبعين في العدد للمبالغة في اليأس عن طمع المغفرة. قال الضحّاك: لمّا نزلت هذه الآية قال رسول الله ﷺ: «إنّ الله قد رخّص لي فسأزيدنّ على السبعين لعلّ الله أن يغفر لهم»، فأنزل الله على رسوله ﷺ ﴿ سواءٌ عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفرْ لهم لنْ يغفرَ الله

المتروك بمقعدهم يعني بقعودهم في المدينة خلاف رسول الله يعني بعده وعلى هذا المعنى خلاف بمعنى خلف فهو اسم للجهة المعينة لأن الإنسان إذا توجه إلى قدامه فمن تركه خلفه فقد تركه بعده وقيل معناه مخالفة لرسول الله ﷺ حين سار إلى تبوك وأقاموا بالمدينة لأن رسول الله ﷺ كان قد أمرهم بالخروج إلى الجهاد فاختاروا القعود مخالفة لرسول الله ﷺ وهو قوله سبحانه وتعالى: ﴿وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله﴾ والمعنى أنهم فرحوا بسبب التخلف وكرهوا الخروج إلى الجهاد وذلك أن الإنسان يميل بطبعه إلى إيثار الراحة والقعود مع الأهل والولد ويكره إتلاف النفس والمال وهو قوله سبحانه وتعالى: ﴿وقالوا لا تنفروا في الحر﴾ وكانت غزوة تبوك في شدة الحر فأجاب الله عن هذا بقوله سبحانه وتعالى: ﴿قل نار جهنم أشد حراً لو كانوا يفقهون﴾ يعني: قل يا محمد لهؤلاء الذين اختاروا الراحة والقعود خلافك عن الجهاد في الحر أن نار جهنم التي هي موعد في الآخرة أشد حراً من حر الدنيا لو كانوا يعلمون. قال ابن عباس: إن رسول الله ﷺ أمر الناس أن ينبعثوا معه وذلك في الصيف. فقال رجال: يا رسول الله الحر شديد ولا نستطيع الخروج فلا تنفر في الحر فقال الله عز وجل قل نار جهنم أشد حراً لو كانوا يفقهون فأمره الله تعالى بالخروج ﴿فليضحكوا قليلاً﴾ يعني فليضحك هؤلاء الذين تخلفوا عن رسول الله ﷺ فرحين قليلاً في الدنيا الفانية بمقعدهم خلافه ﴿وليبكوا كثيراً﴾ يعني مكان ضحكهم في الدنيا وهذا وإن ورد بصيغة الأمر إلا أن معناه الإخبار والمعنى: أنهم وإن فرحوا وضحكوا طول أعمارهم في الدنيا فهو قليل بالنسبة إلى بكائهم في الآخرة لأن الدنيا فانية والآخرة باقية والمنقطع الفاني بالنسبة إلى الدائم الباقي قليل ﴿جزاء بما كانوا يكسبون﴾ يعني إن ذلك البكاء في الآخرة جزاء لهم على ضحكهم وأعمالهم الخبيثة في الدنيا (خ). عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً»

وروى البغوي بسنده عن أنس بن مالك قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يا أيها الناس ابكوا فإن لم تستطيعوا أن تبكوا» فتباكوا فإن أهل النار يبكون في النار حتى تسيل دموعهم في وجوههم كأنها جداول حتى تنقطع الدموع فتسيل الدماء فتقرح العيون فلو أن سفناً أجريت فيها لجرت».

لهم ﴾ [المنافقون: ٦]. ﴿ ذلك بأنّهم كفرُوا باللّهِ ورسولِه واللّهُ لا يهدي القومَ الفاسقين ﴾.

﴿ فَرِحَ المُخلَّفُون ﴾ عن غزوة تبوك والمخلف المتروك ﴿ بمقعدهم ﴾ أي بقعودهم ﴿ خلافَ رسولِ الله ﴾، قال أبو عبيدة: أي بعد رسول الله ﷺ: وقيل: مخالفة لرسول الله ﷺ حين سار وأقاموا، ﴿ وكرهُوا أنْ يُجاهِدُوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله وقالوا لا تَنْفِرُوا في الحرِّ ﴾، وكانت غزوة تبوك في شدّة الحرّ، ﴿ قلْ نارُ جهنَّمَ أشدُّ حرّاً لو كانُوا يفقهون ﴾، يعلمون وكذلك هو في مصحف عبد الله بن مسعود.

﴿ فليضْحكُوا قليلاً ﴾، في الدنيا، ﴿ وليبكُوا كثيراً ﴾، في الآخرة، تقديره: فليضحكوا قليلاً وسيبكون كثيراً، ﴿ جزاءً بما كانُوا يكسِبُون ﴾، أخبرنا الإمام أبو علي الحسين بن محمد القاضي أنبأنا السيد أبو الحسين محمد بن الحسين العلوي قال: أنا عبد الله بن محمد الحسين الشرقي ثنا عبد الله بن هشيم ثنا يحيىٰ بن سعيد ثنا شعبة عن موسى بن أنس رضي الله عنهم قال: قال رسول الله ﷺ: «ولو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتُم كثيراً». أخبرنا أبو بكر محمد بن عبد الله بن أبي توبة ثنا أبو طاهر محمد بن أحمد الحارث ثنا أبو الحسن محمد بن يعقوب الكسائي ثنا عبد الله بن محمود ثنا أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الله الخلال ثنا عبد الله بن المبارك عن عمران بن زيد الثعلبي ثنا يزيد الرقاشي عن أنس بن مالك قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يا أيّها الناس ابكوا فإن لم تستطيعوا أن تبكوا فتباكوا فإن أهل النار يبكون في النار حتى تسيل دموعهم في وجوههم كأنها جداول ثم تنقطع الدموع فتسيل الدماء فتقرّح العيون فلو أن سُفُناً أُجريتْ فيها لَجَرتْ».

﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَـٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْخَـٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَـٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾

قوله سبحانه وتعالى: ﴿فإن رجعك الله﴾ يعني فإن ردك الله يا محمد من غزاتك هذه ﴿إلى طائفة منهم﴾ يعني إلى المتخلفين عنك وإنما قال منهم لأنه ليس كل من تخلف بالمدينة عن غزوة تبوك كان منافقاً مثل أصحاب الأعذار ﴿فاستأذنوك للخروج﴾ يعني فاستأذنك المنافقون الذين تخلفوا عنك وتحقق نفاقهم في الخروج معك إلى غزوة أخرى ﴿فقل لن تخرجوا معي أبداً﴾ يعني فقل يا محمد لهؤلاء الذين طلبوا الخروج وهم مقيمون على نفاقهم لن تخرجوا معي أبداً لا إلى غزوة ولا إلى سفر ﴿ولن تقاتلوا معي عدواً إنكم﴾ يعني لأنكم ﴿رضيتم بالقعود أول مرة﴾ يعني أنكم رضيتم بالتخلف عن غزوة تبوك ﴿فاقعدوا مع الخالفين﴾ يعني: مع المتخلفين من النساء والصبيان. وقيل: مع المرضى والزمنى. وقال ابن عباس: مع الذين تخلفوا بغير عذر. وقيل: مع المخالفين يقال صاحب خالف إذا كان مخالفاً كثير الخلاف وفي الآية دليل على أن الرجل إذا ظهر منه مكروه وخداع وبدعة يجب الانقطاع عنه وترك مصاحبته لأن الله سبحانه وتعالى منع المنافقين من الخروج مع رسول الله ﷺ إلى الجهاد وهو مشعر بإظهار نفاقهم وذمهم وطردهم وإبعادهم لما علم من مكرهم وخداعهم إذا خرجوا إلى الغزوات.

قوله عز وجل: ﴿ولا تصل على أحد منهم مات أبداً﴾ الآية، قال قتادة: بعث عبد الله بن أبي بن سلول إلى رسول الله ﷺ وهو مريض ليأتيه قال فنهاه عمر عن ذلك فأتاه نبي الله ﷺ فلما دخل عليه نبي الله ﷺ قال: أهلكك حب اليهود فقال يا نبي الله إني لم أبعث إليك لتؤنبني ولكن بعثت إليك لتستغفر لي وسأله قميصه أن يكفن فيه فأعطاه إياه واستغفر له رسول الله ﷺ فمات فكفنه في قميصه ﷺ ونفث في جلده ودلاه في قبره فأنزل الله سبحانه وتعالى ولا تصل على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره الآية (خ).

عن عمر بن الخطاب: قال لما مات عبد الله بن أبي بن سلول دعى له رسول الله ﷺ ليصلي عليه فلما قام رسول الله ﷺ وثبت إليه فقلت يا رسول الله أتصلي عليه فلما قام رسول الله ﷺ وثبت إليه فقلت يا رسول الله أتصلي على ابن أبي بن سلول وقد قال يوم كذا كذا وكذا عدد عليه قوله فتبسم رسول الله ﷺ وقال: أخر عني يا عمر فلما أكثرت عليه قال: إني خيرت فاخترت لو أعلم أني إن زدت على السبعين يغفر له لزدت عليها قال فصلى عليه رسول الله ﷺ ثم

قوله تعالى: ﴿فإنْ رَّجَعَكَ اللَّهُ﴾ أي: ردّك يا محمد من غزوة تبوك، ﴿إلى طائفةٍ منهم﴾، يعني: من المخلفين، إنما قال طائفة منهم لأنه ليس كلّ مَن تخلّف من غزوة تبوك كان منافقاً، ﴿فاستأذَنُوك للخُروج﴾، معك في غزوة أُخرى، ﴿فقلْ﴾، لهم ﴿لنْ تخرجُوا معي أبداً﴾ في سفر، ﴿ولنْ تقاتِلُوا معيَ عَدُوّاً إنَّكُم رَضِيتم بالقُعُودِ أوَّلَ مَرَّةٍ﴾، في غزاة أخرى ﴿فاقعدُوا مع الخَالِفين﴾، أي: مع النساء والصبيان، وقيل: مع الزَّمْنَى والمرضَى. وقال ابن عباس: مع الذين تخلّفوا بغير عذر. وقيل: مع الخالفين قال الفرّاء: يقال صاحب خالف إذا كان مخالفاً. ﴿ولا تصلِّ على أحدٍ منهم مات أبداً﴾ [التوبة: ٨٤]، قال أهل التفسير بعث عبد الله بن أُبيّ ابن سلول إلى رسول الله ﷺ وهو مريض فلما دخل عليه رسول الله ﷺ قال له: «أهلكك حبُّ اليهود»؟ فقال: يا رسول الله إنّي لم أُبعَث إليك لتؤنّبني إنما بُعثتُ إليك لتستغفر لي وسأله أن يكفّنه في قميصه ويصلّي عليه. أخبرنا

انصرف فلم يمكث إلا يسيراً حتى نزلت الآيتان من براءة ولا تصل على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره إلى قوله وهم فاسقون قال فعجبت بعد من جرأتي على رسول الله ﷺ يومئذ والله ورسوله أعلم. وأخرجه الترمذي وزاد فيه فما صلى رسول الله ﷺ بعده على منافق ولا قام على قبره حتى قبضه الله تعالى (ق) عن جابر قال: أتى رسول الله ﷺ عبد الله بن أبي بعد ما أدخل حفرته فأمر به فأخرج فوضعه على ركبتيه ونفث فيه من ريقه وألبسه قميصه والله أعلم. قال: وكان كسا عباساً قميصاً قال سفيان وقال أبو هارون: وكان على رسول الله ﷺ قميصان فقال له ابن عبد الله يا رسول الله ألبس عبد الله قميصك الذي يلي جلدك. قال سفيان: فيرون أن النبي ﷺ ألبس عبد الله قميصه مكافأة لما صنع وفي رواية عن جابر قال: لما كان يوم بدر أتى بالأسارى وأتى بالعباس ولم يكن عليه ثوب فنظر النبي ﷺ له قميصاً فوجدوا قميص عبد الله بن أبي يقدر عليه فكساه النبي إياه فلذلك نزع النبي ﷺ قميصه الذي ألبسه.

(فصل)

قد وقع في هذه الأحاديث التي تتضمن قصة موت عبد الله بن أبي بن سلول المنافق صورة اختلاف في الروايات ففي حديث ابن عمر المتقدم، أنه لما توفي عبد الله بن أبي بن سلول أتى ابنه عبد الله إلى رسول الله ﷺ فسأله أن يعطيه قميصه ليكفنه فيه وأن يصلي عليه فأعطاه قميصه وصلى عليه وفي حديث عمر بن الخطاب من إفراد البخاري أن رسول الله ﷺ دعى له ليصلي عليه. وفي حديث جابر: أن النبي ﷺ أتاه بعد ما أدخل حفرته فأمر به فأخرج فوضعه على ركبتيه ونفث عليه من ريقه وألبسه. قميصه ووجه الجمع بين هذه الروايات أنه ﷺ أعطاه قميصه فكفن فيه ثم إنه ﷺ صلى عليه وليس في حديث جابر ذكر الصلاة عليه فالظاهر والله أعلم أنه صلى عليه أولاً كما في حديث عمر وابن عمر ثم إن رسول الله ﷺ أتاه ثانياً بعد ما أدخل حفرته فأخرجه منها ونزع عنه القميص الذي أعطاه وكفن فيه لينفث عليه من ريقه ثم إنه ﷺ ألبسه قميصه بيده الكريمة فعل هذا كله بعبد الله بن أبي تطييباً لقلب ابنه عبد الله فإنه كان صحابياً مسلماً صالحاً مخلصاً، وأما قول قتادة: إن رسول الله ﷺ عاده في مرضه وأنه سأله أن يستغفر له وأن يعطيه قميصه وأن يصلي عليه فأعطاه قميصه واستغفر له وصلى عليه ونفث في جلده ودلاه في حفرته فهذه جمل من القول ظاهرها الترتيب وما المراد بهذا الترتيب إلا توفيقاً بين الأحاديث فيكون قوله: ونفث في جلده ودلاه في قبره جملة منقطعة عما قبلها. يعني أنه ﷺ فعل ذلك بعد ما أعطاه القميص وبعد أن صلى عليه والله أعلم. وقال القرطبي في شرح صحيح مسلم له أن عبد الله بن أبي بن سلول كان سيد الخزرج في آخر جاهليتهم فلما ظهر النبي ﷺ وانصرف إليه الخزرج وغيرهم حسده وناصبه العداوة غير أن الإسلام غلب عليه فنافق وكان رأساً في المنافقين وأعظمهم نفاقاً وأشدهم كفراً وكان المنافقون كثيراً حتى لقد روى عن ابن عباس أنهم كانوا ثلثمائة رجل ومائة وسبعين امرأة وكان ولده عبد الله يعني ولد عبد الله بن أبي من فضلاء الصحابة وأصدقهم إسلاماً وأكثرهم عبادة وأشرحهم صدراً وكان أبر الناس بأبيه ومع ذلك فقد قال يوماً للنبي ﷺ: يا رسول الله إنك لتعلم أني من أبر الناس بأبي وإن أمرتني أن آتيك برأسه

عبد الواحد المليحي ثنا أحمد بن عبد الله النعيمي ثنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا يحيـى بن بكير حدّثني الليث عن عقيل عن ابن شهاب عن عبد الله بن عبد الله بن عباس عن عمر بن الخطاب رضي الله عنهم أنه قال: لمّا مات عبد الله بن أُبيّ ابن سلول دعى له رسول الله ﷺ ليصلّي عليه لمّا قام رسول الله ﷺ وثبتُ إليه فقلت: يا رسول الله أتصلّي على ابن أُبيٍّ ابن سلول وقد قال يوم كذا وكذا: كذا وكذا؟ عدّد عليه قوله فتبسّم رسولُ الله ﷺ وقال: «أخّرْ عنّي يا عمر» فلما أكثرت عليه قال: «إني خُيّرتُ فاخترت لو أعلم أني إن زدت على السبعين يغفر له لزدت عليها»، قال: فصلّى عليه رسول الله ﷺ ثم انصرف فلم يلبث إلّا يسيراً حتى نزلت الآيتان من براءة: ﴿ولا تصلِّ على أحدٍ منهم ماتَ أبداً ولا تَقُمْ على قبرِهِ﴾ [التوبة: ٨٤]، إلى قوله: ﴿وهم فاسقـون﴾

فعلت فقال رسول الله ﷺ: بل نعفو عنه وكان من أحرص الناس على إسلام أبيه وعلى أن ينتفع من بركات النبي ﷺ بشيء ولذلك لما مات أبوه سأل النبي ﷺ أن يعطيه قميصه ليكفنه فيه فينال من بركته فأعطاه وسأله أن يصلي عليه فصلى عليه كل ذلك إكراماً لابنه عبد الله وإسعافاً له ولطلبته من قول عمر تصلي عليه وقد نهاك الله أن تصلي عليه يحتمل أن يكون قبل نزول ولا تصل على أحد منهم مات أبداً. ويظهر من هذا السياق أن عمر وقع في خاطره أن الله نهاه عن الصلاة عليه فيكون هذا من قبيل الإلهام والتحديث الذي شهد له به النبي ﷺ.

ويحتمل أن يكون فهمه من سياق قوله: استغفر لهم أو لا تستغفر لهم وهذان التأويلان فيهما بعد. قال القرطبي: والذي يظهر لي، والله أعلم، أن البخاري ذكر هذا الحديث من رواية ابن عباس وساقه سياقة هي أبين من هذه وليس فيها هذا اللفظ فقال عن ابن عباس عن عمر لما مات عبد الله بن أبي بن سلول دعى له رسول الله ﷺ فلما قام رسول الله ﷺ قال عمر: وثبت إليه الحديث، إلى قوله فصلى عليه ثم انصرف فلم يلبث إلا يسيراً حتى أنزلت عليه الآيتان من براءة. قال القرطبي: وهذا مساق حسن وتنزيل متقن ليس فيه شيء من الإشكال المتقدم فهو الأولى وقوله ﷺ: سأزيد على السبعين وعد بالزيادة وهو مخالف لما في حديث ابن عباس عن ابن عمر فإن فيه لو أعلم أني إن زدت على السبعين يغفر له لزدت وهذا تقييد لذلك الوعد المطلق فإن الأحاديث يفسر بعضها بعضاً ويقيد بعضها بعضاً فلذلك قال لو أعلم أني إن زدت على السبعين يغفر له لزدت فقد علم أنه لا يغفر له. وقوله ﷺ: إني خيرت مشكل مع قوله تعالى ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين الآية وهذا يفهم منه النهي عن الاستغفار لمن مات كافراً وهو متقدم على الآية التي فيها التخيير والجواب عن هذا الإشكال أن المنهى عنه استغفاره لمن تحقق موته على الكفر والشرك. وأما استغفاره لأولئك المنافقين المخير فيهم فهو قد علم ﷺ أنه لا يقع ولا ينفع وغايته وإن وقع كان تطييباً لقلوب الأحياء من قراباتهم فانفصل الاستغفار المنهى عنه من المخير فيه وارتفع الإشكال بحمد الله والله أعلم.

وقال الشيخ محيي الدين النووي: إنما أعطاه قميصه ليكفنه فيه تطييباً لقلب ابنه عبد الله فإنه كان صحابياً صالحاً وقد سأل ذلك فأجابه إليه وقيل بل أعطاه مكافأة لعبد الله بن أبي المنافق الميت لأنه ألبس العباس حين أسر يوم بدر قميصاً وفي الحديث بيان مكارم أخلاق النبي ﷺ فقد علم ما كان من هذا المنافق من الإيذاء له وقابله بالحسنى وألبسه قميصه كفناً وصلى عليه واستغفر له قال الله سبحانه وتعالى وإنك لعلى خلق عظيم وقال البغوي: قال سفيان بن عيينة كانت له يد عند رسول الله ﷺ فأحب أن يكافئه بهاويروى أن النبي ﷺ كلم فيما فعل بعبد الله بن أبي فقال ﷺ: وما يغني عنه قميصي وصلاتي من الله والله إني كنت أرجو أن يسلم به ألف من قومه. فيروى أنه أسلم ألف من قومه لما رأوه يتبرك بقميص النبي ﷺ.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿**ولا تقم على قبره**﴾ يعني لا تقف عليه ولا تتول دفنه من قولهم قام فلان بأمر فلان إذا كفاه أمره وناب عنه فيه ﴿**إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون**﴾ وهذا تعليل لسبب المنع من الصلاة عليه والقيام على قبره ولما نزلت هذه الآية ما صلى رسول الله ﷺ على منافق ولا قام على قبره وبعدها.

فإن قلت: الفسق أدنى حالاً من الكفر ولما ذكر في تعليل هذا النهي كونه كافراً دخل تحته الفسق وغيره فما الفائدة في وصفه بكونه فاسقاً بعد ما وصفه بالكفر قلت إن الكافر قد يكون عدلاً في نفسه بأن يؤدي الأمانة ولا يضمر

[التوبة: ٨٤]. قال: فعجبتُ بعدُ من جرأتي على رسول الله ﷺ يومئذ. والله ورسوله أعلم. أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي ثنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنبأنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا علي بن عبد الله ثنا سفيان قال عمرو: سمعتُ جابر بن عبد الله قال: أتَى رسولُ الله ﷺ عبدَ الله بنَ أُبيّ بعدما أُدخل في حفرته فأمر به فأخرج فوضعه على ركبتيه ونفث من ريقه وألبسه قميصه. فالله أعلم وكان كَسَا عبّاساً قَمِيصاً. قال سفيان: قال أبو

لأحد سوءاً وقد يكون خبيثاً في نفسه كثير الكذب والمكر والخداع وإضمار السوء للغير وهذا أمر مستقبح عند كل أحد ولما كان المنافقون بهذه الصفة الخبيثة وصفهم الله سبحانه وتعالى بكونهم فاسقين بعد أن وصفهم بالكفر.

قوله تعالى: ﴿ولا تعجبك أموالهم وأولادهم إنما يريد الله أن يعذبهم بها في الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون﴾ الكلام على هذه الآية في مقامين المقام الأول في وجه التكرار والحكمة فيه أن تجدد النزول له شأن في تقرير ما نزل أولاً وتأكيده وإرادة أن يكون المخاطب به على بال ولا يغفل عنه ولا ينساه وأن يعتقد أن العمل به مهم وإنما أعيد هذا المعنى لقوته فيما يجب أن يحذر منه وهو أن أشد الأشياء جذباً للقلوب والخواطر الاشتغال بالأموال والأولاد وما كان كذلك يجب التحذير منه مرة بعد أخرى وبالجملة فالتكرير يراد به التأييد والمبالغة في التحذير من ذلك الشيء الذي وقع الاهتمام به وقيل أيضاً إنما كرر هذا المعنى لأنه أراد بالآية الأولى قوماً من المنافقين كان لهم أموال وأولاد عند نزولها وبالآية الأخرى أقواماً آخرين منهم المقام الثاني في وجه بيان ما حصل من التفاوت في الألفاظ في هاتين الآيتين وذلك أنه قال سبحانه وتعالى في الآية الأولى فلا تعجبك بالفاء وقال هنا ولا تعجبك بالواو والفرق بينهما أنه عطف الآية الأولى على قوله ولا ينفقون إلا وهم كارهون وصفهم بكونهم كارهين للإنفاق لشدة المحبة للأموال والأولاد فحسن العطف عليه بالفاء في قوله فلا تعجبك وأما هذه الآية فلا تعلق لها بما قبلها فلهذا أتى بحرف الواو وقال سبحانه وتعالى في الآية الأولى فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم وأسقط حرف لاهنا قال سبحانه وتعالى وأولادهم والسبب فيه أن حرف لا دخل هناك لزيادة التأكيد فيدل على أنهم كانوا معجبين بكثرة الأموال والأولاد وكان إعجابهم بأولادهم أكثر وفي إسقاط حرف لاهنا دليل على أنه لا تفاوت بين الأمرين قال سبحانه وتعالى في الآية الأولى إنما يريد الله ليعذبهم بحرف اللام وقال سبحانه وتعالى هنا أن يعذبهم بحرف أن والفائدة فيه التنبيه على أن التعليل في أحكام الله محال وأنه أينما ورد حرف اللام فمعناه أن كقوله سبحانه وتعالى وما أمروا إلا ليعبدوا الله ومعناه وما أمروا إلا بأن يعبدوا الله وقال تبارك وتعالى في الآية الأولى في الحياة الدنيا وقال تعالى هنا في الدنيا والفائدة في إسقاط لفظة الحياة التنبيه على أن الحياة الدنيا بلغت في الخسة إلى حيث أنها لا تستحق أن تذكر ولا تسمى حياة بل يجب الاقتصار عند ذكرها على لفظ الدنيا تنبيهاً على كمال دنائتها فهذه جمل في ذكر الفرق بين هذه الألفاظ والله أعلم بمراده وأسرار كتابه.

هريرة: وكان على رسول الله ﷺ قميصان فقال ابن عبد الله: يا رسول الله ألبسْ أبي قميصك الذي يلي جلدك، ورُوِيَ عن جابر قال: لمّا كان يوم بدر أتى بالأسارى وأتى بالعباس ولم يكن عليه ثوب فوجدوا قميص عبد الله بن أبيّ يقدّر عليه، فكساه النبيّ ﷺ، فلذلك نزع النبي ﷺ قميصه الذي ألبسه عبد الله. قال ابن عيينة: كان له عند النبي ﷺ يَدٌ فأحبَّ أن يُكافئه. ورُوِيَ أن النبي ﷺ كُلّم فيما فعل بعبدِ الله بنِ أُبيّ فقال ﷺ: «وما يغني عنه قميصي وصلاتي من الله شيئاً والله إني كنتُ أرجو أنْ يُسلم به ألف من قومه»، ورُوِيَ أنه أسلم به ألفٌ من قومه لمّا رأوه يتبرّك بقميص النبي ﷺ.

قوله: ﴿ ولا تصلِّ على أحدٍ منهم ماتَ أبداً ولا تَقُمْ على قبره ﴾، لا تقف عليه ولا تتولَّ دفنه، من قولهم: قام فلان بأمر فلان إذا كفاه أمره. ﴿ إنّهم كفروا باللَّهِ ورسولِهِ وماتُوا وهم فَاسِقُون ﴾، فما صلّى النبيّ ﷺ بعدها على منافق ولا قام على قبره حتى قُبِضَ.

قوله تعالى: ﴿ ولا تُعْجِبْكَ أموالُهم وأولادُهم إنّما يريدُ اللَّهُ أنْ يُعذِّبَهم بها في الدنيا وتزهقَ أنفسُهم وهم كافرون.

وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا۟ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ
ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾ لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ
وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ جَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ
ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾ وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ
لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾

قوله عز وجل: ﴿**وإذا أنزلت سورة**﴾ يحتمل أن يراد بالسورة بعضها لأن إطلاق لفظ الجمع على البعض جائز ويحتمل أن يراد جميع السورة، فعلى هذا المراد بالسورة براءة لأنها مشتملة على الأمر بالإيمان والأمر بالجهاد ﴿**أن**﴾ أي بأن ﴿**آمنوا بالله وجاهدوا مع رسوله**﴾.

فإن قلت: كيف يأمرهم بالإيمان مع كونهم مؤمنين فهو من باب تحصيل الحاصل قلت: معناه الأمر بالدوام على الإيمان والجهاد في المستقبل. وقيل: إن الأمر بالإيمان يتوجه على كل أحد في كل ساعة. وقيل: إن هذا الأمر وإن كان ظاهره العموم لكن المراد به الخصوص وهم المنافقون والمعنى أن أخلصوا الإيمان بالله وجاهدوا مع رسوله وإنما قدم الأمر بالإيمان على الأمر بالجهاد لأن الجهاد بغير إيمان لا يفيد أصلاً فكأنه قيل للمنافقين: الواجب عليكم أن تؤمنوا بالله أولاً وتجاهدوا مع رسوله ثانياً حتى يفيدكم ذلك الجهاد فائدة يرجع عليكم نفعها في الدنيا والآخرة.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿**استأذنك أولو الطول منهم**﴾ قال ابن عباس: يعني أهل الغنى وهم أهل القدرة والثروة والسعة من المال وقيل: هم رؤساء المنافقين وكبراؤهم وفي تخصيص أولى الطول بالذكر قولان: أحدهما أن الذم لهم ألزم لكونهم قادرين على أهبة السفر والجهاد.

والقول الثاني: إنما خص أولي الطول بالذكر لأن العاجز عن السفر والجهاد لا يحتاج إلى الاستئذان ﴿**وقالوا**﴾ يعني أولي الطول ﴿**ذرنا نكن مع القاعدين**﴾ يعني في البيوت مع النساء والصبيان وقيل مع المرضى والزمنى ﴿**رضوا بأن يكونوا مع الخوالف**﴾ قيل: الخوالف النساء اللواتي يتخلفن في البيوت فلا يخرجن منها، والمعنى رضوا بأن يكونوا في تخلفهم عن الجهاد كالنساء وقيل: خوالف جمع خالفة وهم أدنياء الناس وسفلتهم يقال فلان خالفة قومه إذا كان دونهم ﴿**وطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون**﴾ يعني: وختم على قلوب هؤلاء المنافقين فهم لايفقهون مراد الله في الأمر بالجهاد.

قوله سبحانه وتعالى: ﴿**لكن الرسول والذين آمنوا معه جاهدوا بأموالهم وأنفسهم**﴾ أي إن تخلف هؤلاء ولم

﴿ **وإذا أُنزلتْ سورةٌ أنْ آمنوا بالله وجاهدُوا معَ رسولِهِ استأذَنَكَ أُولُوا الطَّوْلِ منهم** ﴾، ذوو الغنى والسَّعة منهم في القعود والتخلّف، ﴿ **وقالوا ذَرْنَا نكنْ معَ القاعِدِين** ﴾، في رحالهم.

﴿ **رَضُوا بأنْ يكونُوا معَ الخَوالِف** ﴾، يعني: النساء. وقيل: مع أدنياء الناس وسَفَلَتهم. يقال: فلانٌ خَالِفَةُ قومه إذا كان دونهم. ﴿ **وطَبع على قُلوبهم فهم لا يفقهون** ﴾.

﴿ **لكن الرسولُ والذينَ آمنُوا معه جاهدُوا بأموالِهم وأنفسِهم وأولئك لهم الخيراتُ** ﴾، يعني الحسنات، وقيل: الجواري الحِسَان في الجنة. قال الله تعالى: ﴿ فيهنَّ خيراتٌ حِسَان ﴾ [الرحمن: ٧٠]، جمع خيرة،

يجاهدوا فقد جاهد من هو خير منهم يعني الرسول والمؤمنين ﴿**وأولئك لهم الخيرات**﴾ منافع الدارين النصر والغنيمة في الدنيا والجنة والكرامة في الآخرة وقيل الحور لقوله فيهن خيرات حسان وهي جمع خيرة تخفيف خيرة ﴿**وأولئك هم المفلحون**﴾ أي الفائزون بالمطالب.

قوله سبحانه وتعالى: ﴿**أعد الله لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدون فيها ذلك الفوز العظيم**﴾ بيان لما لهم من الخيرات الأخروية.

قوله سبحانه وتعالى: ﴿**وجاء المعذرون من الأعراب ليؤذن لهم**﴾ يعني وجاء المعتذرون من أعراب البوادي إلى رسول الله ﷺ يعتذرون إليه في التخلف عن الغزو معه. قال الضحاك: هم رهط عامر بن الطفيل جاؤوا إلى رسول الله ﷺ معتذرين إليه دفاعاً عن أنفسهم فقالوا يا نبي الله إن نحن غزونا معك تغير أعراب طيىء على حلائلنا وأولادنا ومواشينا فقال لهم رسول الله ﷺ: قد أنبأني الله من أخباركم وسيغنى الله عنكم.

وقيل: هم نفر من بني غفار رهط خفاف بن إيماء بن رحضة. وقيل: هم من أسد وغطفان. وقال ابن عباس هم الذين تخلفوا بعذر فأذن لهم رسول الله ﷺ. وجاء المعذرون: أي المقصرون. يعني: أنهم قصروا ولم يبالغوا فيما اعتذروا به والمعذر من يرى أن له عذراً ولا عذر له. وقيل: إن الأصل في هذا اللفظ عند النحاة المعتذرون أدغمت التاء في الذال لقرب مخرجيهما والاعتذار في كلام العرب على قسمين يقال اعتذر إذا كذب في عذره ومنه قوله تعالى يعتذرون إليكم فرد الله عليهم بقوله قل لا تعتذروا فدل ذلك على فساد عذرهم وكذبهم فيه ويقال اعتذر إذا أتى بعذر صحيح ومنه قول لبيد:

ومن يبك حولاً كاملاً فقد اعتذر.

يعني فقد جاء بعذر صحيح. وقيل: هو من التعذير الذي هو التقصير. يقال: عذر تعذيراً إذا قصر ولم يبالغ فعلى هذا المعنى، يحتمل أنهم كانوا صادقين في اعتذارهم وأنهم كانوا كاذبين ومن المفسرين من قال: إنهم كانوا صادقين، بدليل أنه تعالى لما ذكرهم قال بعده ﴿**وقعد الذين كذبوا الله ورسوله**﴾ فلما فصل بينهم وميزهم عن الكاذبين دلَّ ذلك على أنهم ليسوا كاذبين ويروى عن أبي عمرو بن العلاء أنه لما قيل له هذا الكلام، قال: إن قوماً تكلفوا عذراً بباطل فهم الذين عناهم الله تعالى بقوله وجاء المعذرون وتخلف آخرون لا لعذر ولا لشبهة عذر جرأة على الله تعالى فهم المراد بقوله وقعد الذين كذبوا الله ورسوله وهم منافقو الأعراب الذين ما جاؤوا وما اعتذروا وظهر بذلك أنهم

وحكي عن ابن عباس: أنَّ الخير لا يعلم معناه إلاّ الله كما قال جلّ ذكرهُ: ﴿ فلا تعلمُ نفسٌ ما أُخفي لهم من قُرَّةِ أعين ﴾ [السجدة: ١٧]. ﴿ وأولئك هُمُ المفلحون ﴾.

﴿ **أعدّ اللَّهُ لهم جنّاتٍ تجري منْ تحتِها الأنهارُ خالدينَ فيها ذلكَ الفوزُ العظيم** ﴾.

قوله تعالى: ﴿ **وجاءَ المُعذِّرُونَ مِنَ الأعرابِ لِيُؤْذَنَ لهم** ﴾ الآية، قرأ يعقوب ومجاهد: «المُعْـذِرُونَ» بالتخفيف وهم المبالغون في العذر، يقال في المثل لقد أُعذر مَن أنذر، أي بالغ في العذر مَن قدّم النذارة، وقرأ الآخرون « المعذّرون » بالتشديد، أي: المقصرون، يقال: عَذَرَ أي: قصر، وقال الفرّاء: المعذرون المعتذرون أدغمت التاء في الذال ونُقلت حركة التاء إلى العين. وقال الضحاك: المعذرون هم رهط عامر بن الطفيل جاؤوا رسول الله ﷺ دفاعاً عن أنفسهم فقالوا: يا نبيّ الله إنْ نحنُ غزونا معك تغير أعراب طيء على حلائلنا وأولادنا ومواشينا، فقال لهم رسول الله ﷺ: «قد أنبأني الله من أخباركم وسيغني الله عنكم». وقال ابن عباس: هم الذين تخلّفوا بعذر بإذن رسول الله ﷺ. ﴿ **وقَعَدَ الذينَ كذَبُوا الله ورسوله** ﴾، يعني المنافقين: قال أبو عمر بن العلاء:

كذبوا الله ورسوله يعني في ادعائهم الإيمان ﴿سيصيب الذين كفروا منهم عذاب أليم﴾ يعني في الدنيا بالقتل وفي الآخرة بالنار وإنما قال منهم لأنه سبحانه وتعالى علم أن منهم من سيؤمن ويخلص في إيمانه فاستثناهم الله من المنافقين الذين أصروا على الكفر والنفاق وماتوا عليه.

لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ ۚ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾

قوله عز وجل ﴿**ليس على الضعفاء**﴾ لما ذكر الله سبحانه وتعالى المنافقين الذين تخلفوا عن الجهاد واعتذروا بأعذار باطلة عقبه بذكر أصحاب الأعذار الحقيقية الصحيحة وعذرهم وأخبر أن فرض الجهاد عنهم ساقط فقال سبحانه وتعالى: ليس على الضعفاء والضعيف هو الصحيح في بدنه العاجز عن الغزو وتحمل مشاق السفر والجهاد مثل الشيوخ والصبيان والنساء ومن خلق في أصل الخلقة ضعيفاً نحيفاً ويدل على أن هؤلاء الأصناف هم الضعفاء أن الله سبحانه وتعالى عطف عليهم المرضى فقال سبحانه وتعالى: ﴿**ولا على المرضى**﴾ والمعطوف مغاير للمعطوف عليه فأما المرضى فيدخل فيهم أهل العمى والعرج والزمانة وكل من كان موصوفاً بمرض يمنعه من التمكن من الجهاد والسفر للغزو ﴿**ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون**﴾ يعني الفقراء العاجزين عن أهبة الغزو والجهاد، فلا يجدون الزاد والراحلة والسلاح ومؤنة السفر لأن العاجز عن نفقة الغزو معذور ﴿**حرج**﴾ أي ليس على هؤلاء الأصناف الثلاثة حرج أي إثم في التخلف عن الغزو. وقال الإمام فخر الدين الرازي: ليس في الآية أنه يحرم عليهم الخروج لأن الواحد من هؤلاء لو خرج ليعين المجاهدين بمقدار القدرة إما بحفظ متاعهم أو بتكثير سوادهم بشرط أن لا يجعل نفسه كلاً ووبالاً عليهم فإن ذلك طاعة مقبولة ثم إنه تعالى شرط على الضعفاء في جواز التخلف عن الغزو شرطاً معيناً وقوله سبحانه وتعالى: ﴿**إذا نصحوا لله ورسوله**﴾ ومعناه: أنهم إذا أقاموا في البلد احترزوا عن إفشاء الأراجيف وإثارة الفتن وسعوا في إيصال الخير إلى أهل المجاهدين الذين خرجوا إلى الغزو وقاموا بمصالح بيوتهم وأخلصوا الإيمان والعمل لله وتابعوا الرسول ﷺ فإن جملة هذه الأمور تجري مجرى النصح لله ورسوله ﴿**ما على المحسنين من سبيل**﴾ أي ليس على من أحسن فنصح لله ولرسوله في تخلفه عن الجهاد بعذر قد أباحه الشارع طريق يتطرق عليه فيعاقب عليه والمعنى أنه سد بإحسانه طريق العقاب عن نفسه ويستنبط من قوله ما على المحسنين من سبيل أن كل مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله مخلصاً من قلبه ليس عليه سبيل في نفسه وماله إلا ما أباحه الشرع بدليل منفصل ﴿**والله**

كِلا الفريقين كان مسيئاً قوم تكلفوا عذراً بالباطل وهم الذين عناهم الله تعالى بقوله: ﴿ **وجاء المُعذِّرون** ﴾، وقوم تخلّفوا عن غير تكلّف عذر فقعدوا جرأةً على الله تعالى، وهم المنافقون فأوعدهم الله بقوله: ﴿ **سَيُصيبُ الذينَ كفرُوا منهم عذابٌ أليمٌ** ﴾، ثم ذكر أهل العذر.

فقال جلّ ذكره: ﴿ **ليسَ على الضُّعفاءِ** ﴾، قال ابن عباس يعني الزَّمْنَى والمشايخ والعجزة. وقيل: هم الصبيان وقيل: النسوان، ﴿ **ولا على المرضَى ولا على الذينَ لا يجِدُونَ ما يُنفِقون** ﴾، يعني الفقراء ﴿ **حَرَجٌ** ﴾، مأثم. وقيل: ضيق في القعود عن الغزو، ﴿ **إذا نَصَحُوا للّهِ ورسولِهِ** ﴾، في مغيبهم وأخلصُوا الإيمان والعمل لله

غفور﴾ يعني لمن تخلف عن الجهاد بعذر ظاهر أباحه الشرع **﴿رحيم﴾** يعني: أنه تعالى رحيم بجميع عباده.

قال قتادة: نزلت هذه الآية في عائذ بن عمرو وأصحابه. وقال الضحاك: نزلت في عبد الله بن أم مكتوم وكان ضرير البصر ولما ذكر الله عز وجل هذه الأقسام الثلاثة من المعذورين أتبعه بذكر قسم رابع وهو قوله تعالى: **﴿ولا على الذين إذا ما أتوك﴾** يعني ولا حرج ولا إثم في التخلف عنك على الذين إذا ما أتوك **﴿لتحملهم﴾** يعني يسألونك الحملان ليبلغوا إلى غزو عدوك وعدوهم والجهاد معك يا محمد. قال ابن إسحق: نزلت في البكائين وكانوا سبعة. ونقل الطبري عن محمد بن كعب وغيره قالوا: جاء ناس من أصحاب رسول الله ﷺ يستحملونه فقال: لا أجد ما أحملكم عليه فأنزل الله هذه الآية وهم سبعة نفر من بني عمرو بن عوف سالم بن عمير ومن بني واقف جرمي بن عمير ومن بني مازن ابن النجار عبد الرحمن بن كعب يكنى أبا ليلى ومن بني المعلى سلمان بن صخر ومن بني حارثة عبد الرحمن بن زيد وهو الذي تصدق بعرضه فقبل الله منه ذلك ومن بني سلمة عمرو بن عنمة وعبد الله بن عمر المزني.

وقال البغوي: هم سبعة نفر سموا البكائين معقل بن يسار، وصخر بن خنساء، وعبد الله بن كعب الأنصاري، وعلية بن زيد الأنصاري، وسالم بن عمير، وثعلبة بن عنمة، وعبد الله بن مغفل المزني. قال: أتوا رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله إن الله عز وجل قد ندبنا إلى الخروج معك فاحملنا. فقال: لا أجد ما أحملكم عليه. وقال مجاهد: هم بنو مقرن من مزينة وكانوا ثلاثة إخوة: معقل، وسويد، والنعمان بنو مقرن. وقيل: نزلت في العرباض بن سارية، ويحتمل أنها نزلت في كل ما ذكر.

قال ابن عباس: سألوه أن يحملهم على الدواب. وقيل: بل سألوه أن يحملهم على الخفاف المرفوعة والنعال المخصوفة فقال النبي ﷺ: لا أجد ما أحملكم عليه، فولوا وهم يبكون ولذلك سموا البكائين. فذلك قوله سبحانه وتعالى: **﴿قلت لا أجد ما أحملكم عليه تولوا وأعينهم تفيض من الدمع﴾** قال صاحب الكشاف: وكقولك تفيض دمعاً وهو أبلغ من يفيض دمعها لأن العين جعلت كأن كلها دمع فائض ومن البيان كقولك أفديك من رجل **﴿حزناً ألّا يجدوا ما ينفقون﴾** يعني على أنفسهم في الجهاد **﴿إنما السبيل﴾** لما قال الله سبحانه وتعالى: ما على المحسنين من سبيل. قال تعالى في حق من يعتذر ولا عذر له إنما السبيل يعني إنما يتوجه الطريق بالعقوبة **﴿على الذين يستأذنك﴾** يا محمد في التخلف عنك والجهاد معك **﴿وهم أغنياء﴾** يعني قادرين على الخروج معك **﴿رضوا بأن يكونوا مع الخوالف﴾** يعني رضوا بالدناءة والضعة والانتظام في جملة الخوالف وهم النساء والصبيان والقعود معهم **﴿وطبع الله على**

وبايعُوا الرسول **﴿ ما على المُحْسِنينَ من سبيل ﴾**، أي: من طريق بالعقوبة، **﴿ والله غفورٌ رحيم ﴾**. قال قتادة: نزلت في زيد بن عمر وأصحابه. وقال الضحاك: نزلت في عبد الله ابن أُم مكتوم وكان ضرير البصر.

قوله تعالى: **﴿ ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملَهم ﴾**، معناه أنه لا سبيل على الأوّلين ولا على هؤلاء الذين أتوك وهم سبعة نفر سُمّوا البكّائين: معقل بن يسار وصخر بن خنساء، وعبد الله بن كعب الأنصاري، وعبلة بن زيد الأنصاري، وسالم بن عمير وثعلبة بن غنمة، وعبد الله بن مغفل المزني، أَتَوْا رسولَ الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله إنّ الله قد ندبنا إلى الخروج معك فاحملنا. واختلفوا في قوله: **﴿ لِتَحْمِلَهم ﴾** قال ابن عباس: سألوه أن يحملهم على الدواب. وقيل: سألوه أن يحملهم على الخفاف المرقوعة والنِعال المخصوفة، ليغزوا معه فأجابهم النبي ﷺ كما أخبر الله عنه في قوله تعالى: **﴿ قُلْتَ لا أجدُ ما أحْمِلُكُم عليه تَوَلّوا ﴾**، وهم يبكون، فذلك قوله تعالى: **﴿ تولّوا وأعينُهم تفيضُ من الدمع حزناً ألاّ يجِدُوا ما يُنفِقُون ﴾**.

قلوبهم﴾ يعني ختم عليها ﴿فهم لا يعلمون﴾ ما في الجهاد من الخير في الدنيا والآخرة أما في الدنيا فالفوز بالغنيمة والظفر بالعدو وأما في الآخرة فالثواب والنعيم الدائم الذي لا ينقطع.

﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٩٦﴾ الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾﴾

قوله سبحانه وتعالى: ﴿يعتذرون إليكم إذا رجعتم إليهم﴾ يعني يعتذر هؤلاء المنافقون المتخلفون عنك يا محمد إليك وإنما ذكره بلفظ الجمع تعظيماً له ﷺ ويحتمل أنهم اعتذروا إليه وإلى المؤمنين فلهذا قال تعالى يعتذرون إليكم يعني بالأعذار الباطلة الكاذبة إذا رجعتم إليهم يعني من سفركم ﴿قل﴾ أي قل لهم يا محمد ﴿لا تعتذروا﴾ قال البغوي: روي أن المنافقين الذين تخلفوا عن غزوة تبوك كانوا بضعة وثمانين فقال الله تعالى قل لا تعتذروا ﴿لن نؤمن لكم﴾ يعني لن نصدقكم فيما اعتذرتم به ﴿قد نبأنا الله من أخباركم﴾ يعني قد أخبرنا الله فيما سلف من أخباركم ﴿وسيرى الله عملكم ورسوله﴾ يعني في المستأنف أتتوبون من نفاقكم أم تقيمون عليه وقيل: يحتمل أنهم وعدوا بأن ينصروا المؤمنين في المستقبل فلهذا قال وسيرى الله عملكم ورسوله هل تفون بما قلتم أم لا ﴿ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم﴾ يعني فيخبركم ﴿بما كنتم تعملون﴾ لأنه هو المطلع على ما في ضمائركم في الخيانة والكذب وإخلاف الوعد.

قوله عز وجل: ﴿سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم إليهم﴾ يعني إذا رجعتم من سفركم إليهم يعني إلى المتخلفين بالمدينة من المنافقين ﴿لتعرضوا عنهم﴾ يعني لتصفحوا عنهم ولا تؤنبوهم ولا توبخوهم بسبب تخلفهم ﴿فأعرضوا عنهم﴾ يعني فدعوهم وما اختاروا لأنفسهم من النفاق. وقيل: يريد ترك الكلام يعني لا تكلموهم ولا تجالسوهم فلما قدم النبي ﷺ المدينة قال لا تجالسوهم ولا تكلموهم قال أهل المعاني إن هؤلاء المنافقين طلبوا إعراض الصفح

﴿إنّما السبيلُ﴾، بالعقوبة، ﴿على الذينَ يستأذِنونَكَ﴾، في التخلّف ﴿وهمْ أغنياءُ رَضُوا بأنْ يكونُوا معَ الخَوالِفِ﴾. مع النساء والصبيان، ﴿وطَبَعَ اللَّهُ على قلوبِهم فهمْ لا يَعْلَمُون﴾.

﴿يعتذرون إليكم إذا رجعتم إليهم﴾، يُروى أن المنافقين الذين تخلّفوا عن غزوة تبوك كانوا بضعةً وثمانين نفراً، فلما رجع رسول الله ﷺ جاؤوا يعتذرون بالباطل. قال الله تعالى: ﴿قلْ لا تعتذِرُوا لنْ نُؤمنَ لكم﴾، لن نصدقكم، ﴿قدْ نبَّأنا اللَّهُ منْ أخبارِكم﴾، فيما سلف، ﴿وسَيَرَى الله عمَلَكُم ورسولُه﴾، في المستأنف أتتُوبون من نفاقكم أم تقيمون عليه؟ ﴿ثمّ تردُّون إلى عالمِ الغيبِ والشّهادَةِ فيُنبئُكُم بما كنتُم تعملُون﴾.

﴿سيَحْلِفُون بالله لكم إذا انقلبتُم إليهم﴾، إذا انصرفتم إليهم من غزوكم، ﴿لِتُعْرِضُوا عنهم﴾، لتصفحوا عنهم

فأعطوا إعراض المقت ثم ذكر العلة في سبب الإعراض عنهم فقال تعالى: ﴿إنهم رجس﴾ يعني أن بواطنهم خبيثة نجسة وأعمالهم قبيحة ﴿ومأواهم﴾ يعني مسكنهم في الآخرة ﴿جهنم جزاء بما كانوا يكسبون﴾ يعني من الأعمال الخبيثة في الدنيا. قال ابن عباس: نزلت في الجد بن قيس ومعتب بن قشير وأصحابهما وكانوا ثمانين رجلاً من المنافقين فقال النبي: ﷺ لا تجالسوهم ولا تكلموهم. وقال مقاتل: نزلت في عبد الله بن أبي حلف للنبي ﷺ الذي لا إله إلا هو أنه لا يتخلف عنه بعدها وطلب من النبي ﷺ أن يرضى عنه فأنزل الله عز وجل هذه الآية والتي بعدها ﴿يحلفون لكم لترضوا عنهم﴾ يعني يحلف لكم هؤلاء المنافقون لترضوا عنهم ﴿فإن ترضوا عنهم﴾ يعني فإن رضيتم عنهم أيها المؤمنون بما حلفوا لكم وقبلتم عذرهم ﴿فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين﴾ يعني أنه سبحانه وتعالى يعلم ما في قلوبهم من النفاق والشك فلا يرضى عنهم أبداً.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿الأعراب أشد كفراً ونفاقاً﴾ نزلت في سكان البادية يعني أن أهل البدو أشد كفراً ونفاقاً من أهل الحضر. قال أهل اللغة: يقال رجل عربي إذا كان نسبه في العرب وجمعه العرب. ورجل أعرابي إذا كان بدوياً يطلب مساقط الغيث والكلأ. ويجمع الأعرابي على الأعراب والأعاريب فمن استوطن القرى والمدن العربية فهم عرب ومن نزل البادية فهم الأعراب، فالأعرابي إذا قيل له يا عربي فرح بذلك. والعربي إذا قيل له: يا أعرابي غضب والعرب أفضل من الأعراب، لأن المهاجرين والأنصار وعلماء الدين من العرب. والسبب في كون الأعراب أشد كفراً ونفاقاً بُعدهم عن مجالسة العلماء وسماع القرآن والسنن والمواعظ وهو قوله سبحانه وتعالى ﴿وأجدر﴾ يعني وأخلق وأحرى ﴿ألا يعلموا﴾ يعني بأن لا يعلموا ﴿حدود ما أنزل الله على رسوله﴾ يعني الفرائض والسنن والأحكام ﴿والله عليم﴾ يعني بما في قلوب عباده ﴿رحيم﴾ فيما فرض من فرائضه وأحكامه ﴿ومن الأعراب من يتخذ ما ينفق مغرماً﴾ يعني لا يرجو على إنفاقه ثواباً ولا يخاف على إمساكه عقاباً إنما ينفق خوفاً أو رياء. والمغرم: التزام ما لا يلزم. والمعنى: أن من الأعراب من يعتقد أن الذي ينفقه في سبيل الله غرامة لأنه لا ينفق ذلك إلا خوفاً من المسلمين أو مرآة لهم ولم يرد بذلك الإنفاق وجه الله وثوابه ﴿ويتربص﴾ يعني: وينتظر ﴿بكم الدوائر﴾ يعني بالدوائر تقلب الزمان

ولا تؤنّبوهم، ﴿ فأعْرِضُوا عنهم ﴾، فدعوهم، وما اختاروا لأنفسهم من النفاق، ﴿ إنهم رِجْسٌ ﴾ نجس أي: إن عملَهم قبيح، ﴿ ومأواهُمْ ﴾، في الآخرة، ﴿ جهنّمُ جزاءً بما كانُوا يكْسِبُون ﴾. قال ابن عباس: نزلت في جدّ بن قيس ومعتب بن قشير وأصحابهما وكانوا ثمانين رجلاً من المنافقين، فقال النبي ﷺ حين قَدِمَ المدينة: «لا تُجالِسُوهم ولا تُكلّموهم». وقال مقاتل: نزلت في عبد الله بن أُبيّ حَلَفَ للنبي ﷺ بالله الذي لا إلّه إلّا هو لا يتخلّف عنه بعدها، وطلب من النبي ﷺ أن يرضى عنه، فأنزل الله عزّ وجلّ هذه الآية:

﴿ يحلِفُون لكم لِتَرْضَوْا عنهم فإن تَرضَوْا عنهم فإن الله لا يَرضى عنِ القومِ الفاسقين ﴾.

﴿ الأعرابُ ﴾، أي: أهل البدو، ﴿ أشدُّ كفراً ونِفَاقاً ﴾، من أهل الحضر، ﴿ وأَجْدَرُ ﴾، أي: أخلق وأحرى، ﴿ ألّا يعلموا حُدُودَ ما أنزلَ اللّهُ على رسوله ﴾، وذلك لبُعدهم عن سماع القرآن ومعرفة السُّنن، ﴿ والله عليم ﴾، بما في قلوب خلقه، ﴿ حكيمٌ ﴾، فيما فرض من فرائضه.

﴿ ومِنَ الأعْرَابِ مَنْ يتخذُ ما يُنفقُ مَغْرَماً ﴾. قال عطاء: لا يرجون على إعطائه ثواباً ولا يخافون على إمساكه عقاباً إنما ينفق خوفاً ورياءً. والمغرم التزام ما لا يلزم. ﴿ ويَتَربَّصُ ﴾، وينتظر، ﴿ بكم الدّوائرَ ﴾، يعني: صروف الزمان التي تأتي مرة بالخير ومرة بالشر. وقال يمان بن رباب: يعني ينقلب الزمان عليكم فيموت الرسول ويظهر

وصروفه التي تأتي مرة بالخير ومرة بالشر. قال يمان بن رباب: يعني تقلب الزمان فيموت الرسول وتظهر المشركون ﴿عليهم دائرة السوء﴾ يعني: بل يتقلب عليهم الزمان ويدور السوء والبلاء والحزن بهم ولا يرون في محمد ﷺ وأصحابه ودينه إلا ما يسوءهم ﴿والله سميع﴾ يعني لأقوالهم ﴿عليم﴾ يعني بما يخفون في ضمائرهم من النفاق والغش وإرادة السوء للمؤمنين نزلت هذه الآية في أعراب أسد وغطفان وتميم ثم استثنى الله عز وجل فقال تبارك وتعالى:

﴿وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مَن يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرۡبَةٞ لَّهُمۡۚ سَيُدۡخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِي رَحۡمَتِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝٩٩ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ۝١٠٠﴾

﴿ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر﴾.

قال مجاهد: هم بنو مقرن من مزينة. وقال الكلبي: هم أسلم وغفار وجهينة (ق).

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أرأيتم إن كان جهينة ومزينة وأسلم وغفار خيراً من بني تميم وبني أسد وبني عبد الله بن غطفان ومن بني عامر بن صعصعة فقال رجل: خابوا وخسروا. قال: نعم هم خير من بني تميم وبني أسد وبني عبد الله بن غطفان ومن بني عامر بن صعصعة».

وفي رواية «أن الأقرع بن حابس قال للنبي ﷺ: إنما تابعك سراق الحجيج من أسلم وغفار ومزينة وأحسبه قال وجهينة. فقال النبي ﷺ: أرأيت إن كان أسلم وغفار ومزينة وأحسبه قال: وجهينة خيراً من بني تميم وبني عامر وأسد وغطفان قال خابوا وخسروا قال نعم» (ق) عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «أسلم سالمها الله وغفار غفر الله لها» زاد مسلم في رواية له: أما إني لم أقلها لكن الله قالها (ق).

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «قريش والأنصار وجهينة ومزينة وأسلم وأشجع وغفار موالي ليس لهم مولى دون الله ورسوله» وقوله سبحانه وتعالى: **﴿ويتخذ ما ينفق قربات عند الله﴾** جمع قربة أي يطلب بما ينفق القربة إلى الله تعالى: **﴿وصلوات الرسول﴾** يعني ويرغبون في دعاء النبي ﷺ وذلك أن رسول الله ﷺ كان يدعو للمتصدقين

المشركون، **﴿ عليهم دائرةُ السَّوْءِ ﴾**، عليهم يدور البلاء والحزن ولا يرون في محمد ودينه إلّا ما يكرهون وما يسوءهم. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو: «دائـرة السـوء» ههنا وفي سورة الفتح بضم السين، معناه: الضرّ والبلاء والمكروه. وقرأ الآخرون بفتح السين على المصدر. وقيل: بالفتح الردّة والفساد، وبالضمّ الضرّ والمكروه. **﴿ واللَّهُ سميعٌ عليم ﴾**، نزلت في أعراب أسد وغطفان وتميم. ثم استثنى فقال:

﴿ ومِنَ الأعراب مَن يُؤمنُ بالله واليومِ الآخر ﴾، قال مجاهد: هم بنو مقرن من مُزينة. وقال الكلبي: أسلم وغفار وجُهينة. أخبرنا أبو سعيد أحمد بن عبد الله الظاهري أنبأنا جدّي عبد الصمد بن عبد الرحمن البزار أنا أبو بكر محمد بن زكريا العذافري أنبأنا إسحاق بن إبراهيم الديري أنبأنا عبد الرزّاق ثنا معمر عن أيوب عن ابن سيرين عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أسلمُ وغفارٌ وشيءٌ من جُهينة ومُزينة خيرٌ عندَ اللَّهِ يومَ القيامة مِن تميمٍ وأسد بن خزيمة وهوازن وغطفان». **﴿ ويتَّخِذُ ما يُنفق قُرُبات عند الله ﴾**، القربات جمع القربة، أي: يطلب القربة إلى الله تعالى، **﴿ وصَلَواتِ الرسولِ ﴾**، أي: دعاءه واستغفاره، قال عطاء: يرغبون في دعاء النبي ﷺ. **﴿ ألا إنَّها**

بالخير والبركة ويستغفر لهم ومنه قوله ﷺ «اللهم صل على آل أبي أوفى» ﴿ألا إنها قربة لهم﴾ يحتمل أن يعود الضمير في إنها إلى صلوات الرسول ويحتمل أن يعود إلى الإنفاق وكلاهما قربة لهم عند الله وهذه شهادة من الله تعالى للمؤمن المتصدق بصحة ما اعتقد من كون نفقته قربات عند الله وصلوات الرسول له مقبولة عند الله لأن الله سبحانه وتعالى أكد ذلك بحرف التنبيه وهو قوله تعالى ألا وبحرف التحقيق وهو قوله تعالى إنها قربة لهم ﴿سيدخلهم الله في رحمته﴾ وهذه النعمة هي أقصى مرادهم ﴿إن الله غفور﴾ للمؤمنين المنفقين في سبيله ﴿رحيم﴾ يعني بهم حيث وفقهم لهذه الطاعة.

قوله سبحانه وتعالى: ﴿والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار﴾ اختلف العلماء في السابقين الأولين فقال سعيد بن المسيب وقتادة وابن سيرين وجماعة: هم الذين صلوا إلى القبلتين. وقال عطاء بن أبي رباح: هم أهل بدر. وقال الشعبي: هم أهل بيعة الرضوان وكانت بيعة الرضوان بالحديبية. وقال محمد بن كعب القرظي هم جميع الصحابة لأنهم حصل لهم السبق بصحبة رسول الله ﷺ. قال حميد بن زياد: قلت يوماً لمحمد بن كعب القرظي ألا تخبرني عن أصحاب رسول الله ﷺ فيما بينهم وأردت الفتن فقال: إن الله قد غفر لجميعهم محسنهم ومسيئهم وأوجب لهم الجنة في كتابه فقلت له في أي موضع أوجب لهم الجنة فقال سبحان الله ألا تقرأ والسابقون الأولون إلى آخر الآية فأوجب الله الجنة لجميع أصحاب النبي ﷺ زاد في رواية في قوله والذين اتبعوهم بإحسان قال شرط في التابعين شريطة وهي أن يتبعوهم في أعمالهم الحسنة دون السيئة. قال حميد: فكأني لم أقرأ هذه الآية قط. واختلف العلماء في أول الناس إسلاماً بعد اتفاقهم على أن خديجة أول الخلق إسلاماً وأول من صلى مع رسول الله ﷺ فقال بعض العلماء أول من آمن بعد خديجة علي بن أبي طالب وهذا قول جابر بن عبد الله ثم اختلفوا في سنة وقت إسلامه فقيل: كان ابن عشر سنين. وقيل: أقل من ذلك. وقيل: أكثر. وقيل: كان بالغاً. والصحيح، أنه لم يكن بالغاً وقت إسلامه. وقال بعضهم: أول من أسلم بعد خديجة أبو بكر الصديق وهذا قول ابن عباس والنخعي والشعبي وقال الزهري وعروة بن الزبير: أول من أسلم بعد خديجة زيد بن حارثة مولى رسول الله ﷺ وكان إسحاق بن إبراهيم الحنظلي يجمع بين هذه الروايات فيقول أول من أسلم من الرجال أبو بكر، ومن النساء خديجة، ومن الصبيان

﴿قُرْبَةٌ لهم﴾. قرأ نافع برواية ورش قربة بضم الراء، والباقون بسكونها. ﴿سَيُدْخِلُهُم اللَّهُ في رحمتِهِ﴾، في جنته، ﴿إنّ اللَّهَ غفورٌ رحيم﴾.

﴿والسّابقُون الأوّلُون مِنَ المهاجرينَ والأنصار﴾ رفعٌ، عطفاً على قوله: ﴿والسابقون﴾، واختلفوا في السابقين، قال سعيد بن المسيب وقتادة وابن سيرين وجماعة: هم الذين صلّوا إلى القِبلتين. وقال عطاء بن أبي رباح: هم أهل بدر. وقال الشعبي: هم الذين شهدوا بيعة الرضوان، وكانت بيعة الرضوان بالحديبية. واختلفوا في أول مَن آمن برسول الله ﷺ بعد امرأته خديجة، مع اتفاقهم على أنّها أولُ مَن آمن برسول الله ﷺ. فقال بعضهم: أول مَن آمن وصلّى علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وهو قول جابر، وبه قال مجاهد وابن إسحاق، أسلم وهو ابن عشر سنين. وقال بعضهم: أول مَن آمن بعد خديجة أبو بكر الصدّيق رضي الله عنه، وهو قول ابن عباس وإبراهيم النخعي والشعبي. وقال بعضهم: أول مَن أسلم زيد بن حارثة، وهو قول الزهري وعروة بن الزبير، وكان إسحاق بن إبراهيم الحنظلي يجمع بين هذه الأقوال فيقول: أول مَن أسلم من الرجال أبو بكر رضي الله عنه، ومن النساء خديجة، ومن الصبيان عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، ومن العبيد زيد بن حارثة. قال ابن إسحاق: فلما أسلم أبو بكر رضي الله عنه أظهر إسلامه ودعا إلى الله وإلى رسوله، وكان رجلاً محبباً سهلاً وكان أنسب قريش وأعلمها بما كان فيها، وكان تاجراً ذَا خُلقٍ ومعروف، وكان رجال قومه يأتونه ويألفونه لغير واحد من الأمر، لعلمه

علي بن أبي طالب، ومن العبيد زيد بن حارثة رضي الله تعالى عنهم فهؤلاء الأربعة سباق الخلق إلى الإسلام. قال ابن إسحاق: فلما أسلم أبو بكر أظهر إسلامه ودعا الناس إلى الله ورسوله وكان رجلاً محبباً سهلاً وكان أنسب قريش لقريش وأعلمها بما كان فيها وكان رجلاً تاجراً وكان ذا خلق حسن ومعروف وكان رجال قومه يأتونه ويألفونه لعلمه وحسن مجالسته فجعل يدعو إلى الإسلام من يثق به من قومه فأسلم على يديه عثمان بن عفان والزبير بن العوام وعبد الرحمن بن عوف بن أبي وقاص وطلحة بن عبيد الله فجاء بهم إلى النبي ﷺ فأسلموا على يده وصلوا معه فكان هؤلاء النفر الثمانية أول من سبق الناس إلى الإسلام ثم تتابع الناس بعدهم في الدخول إلى الإسلام وأما السابقون من الأنصار فهم الذين بايعوا رسول الله ﷺ ليلة العقبة وهي العقبة الأولى وكانوا ستة نفر[1] أسعد بن زرارة وعوف بن مالك ورافع بن مالك بن العجلان وقطبة بن عامر وجابر بن عبد الله بن رباب ثم أصحاب العقبة الثانية من العام المقبل وكانوا اثني عشر رجلاً ثم أصحاب العقبة الثالثة وكانوا سبعين رجلاً منهم البراء بن معرور وعبد الله بن عمرو بن حرام أبو جابر وسعد بن عبادة وسعد بن الربيع وعبد الله بن رواحة فهؤلاء سباق الأنصار ثم بعث رسول الله ﷺ مصعب بن عمير إلى أهل المدينة يعلمهم القرآن فأسلم على يده خلق كثير من الرجال والنساء والصبيان من أهل المدينة وذلك قبل أن يهاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة وقيل: إن المراد بالسابقين الأولين من سبق إلى الهجرة والنصرة والذي يدل عليه أن الله سبحانه وتعالى ذكر كونهم سابقين ولم يبين بماذا سبقوا فبقي اللفظ مجملاً فلما قال تعالى من المهاجرين والأنصار ووصفهم بكونهم مهاجرين وأنصاراً وجب صرف اللفظ المجمل إليه وهو الهجرة والنصرة والذي يدل عليه أيضاً أن الهجرة طاعة عظيمة ومرتبة عالية من حيث إن الهجرة أمر شاق على النفس لمفارقة الوطن والعشيرة وكذلك النصرة فإنها مرتبة عالية ومنقبة شريفة لأنهم نصروا رسول الله ﷺ على أعدائه وآووه وواسوه وآووا أصحابه وواسوهم فلذلك أثنى الله عز وجل عليهم ومدحهم فقال سبحانه وتعالى: ﴿والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار﴾ .

قوله تعالى: ﴿والذين اتبعوهم بإحسان﴾ قيل: هم بقية المهاجرين والأنصار سوى السابقين الأولين فعلى هذا القول، يكون الجميع من الصحابة. وقيل: هم الذين سلكوا سبيل المهاجرين والأنصار في الإيمان والهجرة والنصرة إلى يوم القيامة وقال عطاء هم الذين يذكرون المهاجرين والأنصار فيترحمون عليهم ويدعون لهم ويذكرون محاسنهم (ق) عن عمران بن حصين أن النبي ﷺ قال «خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم» قال عمران فلا أدري

وحُسْن مجالسته، فجعل يدعو إلى الإسلام مَن وثق به من قومه، فأسلم على يديـه فيما بلغني عثمان بن عفان والزبير بن العوام وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص وطلحة بن عبيد الله، فجاء بهم إلى رسول الله ﷺ حين أسلموا وصلّوا، فكان هؤلاء الثمانية نفرُ الذين سبقوا إلى الإسلام، ثم تتابع الناس في الدخول في الإسلام، أما السّابقون من الأنصار فهم الذين بايعوا رسول الله ﷺ ليلة العقبة، وكانوا ستّة في العقبة الأولى وسبعين في الثانية، والذين آمنوا حين قَدِمَ عليهم أبو زُرارة مُصعب بن عُمير يعلّمهم القرآن، فأسلم معه خلق كثير وجماعة من النساء والصبيان. قوله عزّ وجلّ: ﴿ والسّابقون الأوّلونَ مِنَ المهاجرين ﴾، الذينَ هاجروا قومَهم وعشيرتَهم وفارقوا أوطانهم. ﴿ والأنصارِ ﴾ أي: ومن الأنصار، وهم الذين نصروا رسول الله ﷺ على أعدائه من أهل المدينة وآووا أصحابه، ﴿ والذين اتّبعُوهم بإحسان ﴾. قيل: بقية المهاجرين والأنصار سوى السابقين الأوّلين. وقيل: هم الذين سلكوا سبيلهم في الإيمان والهجرة أو النصرة إلى يوم القيامة. وقال عطاء: هم الذين يذكرون المهاجرين والأنصار بالترحّم والدعاء. وقال أبو صخر حميد بن زيادة: أتيتُ محمد بن كعب القرظي فقلت له: ما قولك في أصحاب رسول الله ﷺ؟ فقال: جميع أصحاب رسول الله ﷺ في الجنة مُحسِنهم ومُسيئهم، فقلت: من أين تقول هذا؟

---

(١) قوله ستة نفر المعدود هنا خمسة والسادس عقبة بن عامر كما في المواهب.

أذكر بعد قرنه قرنين أو ثلاثاً (ق) عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ «لا تسبوا أصحابي فلو أن أحداً وفي رواية أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه».

أراد بالقرن في الحديث الأول أصحابه. والقرن الأمة من الناس يقارن بعضهم بعضاً واختلفوا في مدته من الزمان. فقيل: من عشر سنين إلى عشرين. وقيل: من مائة إلى مائة وعشرين سنة. والمد: المذكور في الحديث الثاني هو ربع صاع. والنصيف: نصفه. والمعنى: لو أن أحداً عمل مهما قدر عليه من أعمال البر والإنفاق في سبيل الله ما بلغ هذا القدر اليسير التافه من أعمال الصحابة وإنفاقهم لأنهم أنفقوا وبذلوا المجهود في وقت الحاجة. وقوله سبحانه وتعالى: ﴿**رضي الله عنهم ورضوا عنه**﴾ يعني رضي الله عن أعمالهم ورضوا عنه بما جازاهم عليها من الثواب وهذا اللفظ عام يدخل فيه كل الصحابة ﴿**وأعد لهم جنات تجري تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم**﴾ قوله سبحانه وتعالى:

وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾

﴿**وممن حولكم من الأعراب منافقون**﴾ ذكر جماعة من المفسرين المتأخرين كالبغوي والواحدي وابن الجوزي أنهم من أعراب مزينة وجهينة وأشجع وغفار وأسلم وكانت منازلهم حول المدينة ويعني ومن هؤلاء الأعراب منافقون وما ذكروه مشكل لأن النبي ﷺ دعا لهؤلاء القبائل ومدحهم فإن صح نقل المفسرين فيحمل قوله سبحانه وتعالى: ﴿**وممن حولكم من الأعراب منافقون**﴾ على القليل لأن لفظة من للتبعيض ويحمل دعاء النبي ﷺ لهم على الأكثر والأغلب وبهذا يمكن الجمع بين قول المفسرين ودعاء النبي ﷺ لهم. وأما الطبري، فإنه أطلق القول ولم يعين أحداً من القبائل المذكورة بل قال في تفسير هذه الآية: من القوم الذين حول مدينتكم أيها المؤمنون من الأعراب منافقون ومن أهل مدينتكم أيضاً أمثالهم أقوام منافقون وقال البغوي: ﴿**ومن أهل المدينة**﴾ من الأوس والخزرج منافقون ﴿**مردوا على النفاق**﴾ فيه تقديم وتأخير تقديره وممن حولكم من الأعراب ومن أهل المدينة منافقون مردوا على النفاق يعني مرنوا عليه يقال تمرد فلان على ربه إذا عتا وتجبر ومنه الشيطان المارد وتمرد في معصيته أي مرن وثبت عليها واعتادها ولم يتب منها قال ابن إسحاق: لجوا فيه وأبوا غيره. وقال ابن زيد: أقاموا عليه ولم يتوبوا منه ﴿**لا تعلمهم**﴾ يعني أنهم بلغوا في النفاق إلى حيث أنك لا تعلمهم يا محمد مع صفاء خاطرك واطلاعك على الأسرار ﴿**نحن نعلمهم**﴾ يعني لكن نحن نعلمهم لأنه لا تخفى علينا خافية وإن دقت ﴿**سنعذبهم مرتين**﴾ اختلف المفسرون في

قال: اقْرأْ قولَ اللَّهِ تعالى: ﴿ **والسَّابِقُون الأوَّلونَ مِنَ المهاجرينَ والأنصارِ** ﴾ إلى أن قال: ﴿ **رَضِيَ اللَّهُ عنهم ورَضُوا عنه** ﴾، وقال: ﴿ **والذين اتَّبعُوهم بإحسان** ﴾، شرط في التابعين شريطة وهي أن يتّبعوهم في أفعالهم الحسنة دون السيئة. قال أبو صخر: فكأني لم أقرأ هذه الآية قطّ. ورُوِيَ أن النبي ﷺ قال: «لا تَسُبُّوا أصحابي فوالذي نفسي بيدِهِ لو أنّ أحدَكم أنفقَ مثلَ أُحدٍ ذهباً ما أدركَ مُدَّ أحَدِهم ولا نَصِيفه». ثم جمعهم الله عزّ وجلّ في الثواب فقال: ﴿ **رَضِيَ اللَّهُ عنهم ورَضُوا عنه وأعدّ لهم جنّاتٍ تَجري تَحتِهـا الأنهار** ﴾، قرأ ابن كثير: «مِـن تحتها الأنهـار»، وكذلك هو في مصاحف أهل مكة، ﴿ **خالدين فيها أبداً ذلك الفوزُ العظيم** ﴾.

قوله تعالى: ﴿ **وممّن حولكم مِّنَ الأعرابِ مُنَافِقُون** ﴾، وهم من مُزينة وجُهينة وأشجع وأسلم وغفار كانت منازلهم حول المدينة، يقول: من هؤلاء الأعراب منافقون، ﴿ **ومِنْ أهلِ المدينة** ﴾، أي: ومن أهل المدينة من الأوس والخزرج قوم منافقون، ﴿ **مَرَدُوا على النِّفاقِ** ﴾، أي: مرنوا على النفاق، يقال: تمرّد فلان على ربِّه أي:

العذاب الأول مع اتفاقهم على العذاب الثاني هو عذاب القبر بدليل قوله ﴿ثم يردون إلى عذاب عظيم﴾ وهو عذاب النار في الآخرة فثبت بهذا أنه سبحانه وتعالى يعذب المنافقين ثلاث مرات مرة في الدنيا ومرة في القبر ومرة في الآخرة أما المرة الأولى وهي التي اختلفوا فيها فقال الكلبي والسدي «قام النبي ﷺ خطيباً في يوم جمعة فقال اخرج يا فلان فإنك منافق اخرج يا فلان فإنك منافق فأخرج من المسجد أناساً وفضحهم» فهذا هو العذاب الأول.

والثاني: هو عذاب القبر فإن صح هذا القول فيحتمل أن يكون بعد أن أعلمه الله حالهم وسماهم له لأن الله سبحانه وتعالى قال لا تعلمهم نحن نعلمهم ثم بعد ذلك أعلمه بهم. وقال مجاهد: هذا العذاب الأول هو القتل والسبي وهذا القول ضعيف، لأن أحكام الإسلام في الظاهر كانت جارية على المنافقين فلم يقتلوا ولم يسبوا وعن مجاهد رواية أخرى أنهم عذبوا بالجوع مرتين. وقال قتادة: المرة الأولى هي الدبيلة في الدنيا وقد جاء تفسيرها في الحديث بأنها خراج من نار تظهر في أكتافهم حتى تنجم من صدورهم يعني تخرج من صدورهم. وقال ابن زيد: الأولى هي المصائب في الأموال والأولاد في الدنيا والأخرى عذاب القبر. وقال ابن عباس: الأولى إقامة الحدود عليهم في الدنيا والأخرى عذاب القبر. وقال ابن إسحاق: الأولى هي ما يدخل عليهم من غيظ الإسلام ودخولهم فيه كرهاً غير حسبة والأخرى عذاب القبر. وقيل: إحداهما ضرب الملائكة وجوههم وأدبارهم عند قبض أرواحهم، والأخرى عذاب القبر. وقيل: الأولى إحراق مسجدهم مسجد الضرار، والأخرى إحراقهم بنار جهنم وهو قوله سبحانه وتعالى: ثم يردون إلى عذاب جهنم يخلدون فيه.

﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَـٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿وآخرون اعترفوا بذنوبهم﴾ فيه قولان: أحدهما: أنهم قوم من المنافقين تابوا من نفاقهم وأخلصوا وحجة هذا القول أن قوله تعالى وآخرون عطف على قوله وممن حولكم من الأعراب منافقون والعطف موهم ويعضده ما نقله الطبري. عن ابن عباس أنه قال: هم الأعراب. والقول الثاني: وهو قول جمهور المفسرين إنها نزلت في جماعة من المسلمين من أهل المدينة تخلفوا عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك ثم ندموا على ذلك.

واختلف المفسرون في عددهم فروي عن ابن عباس أنهم كانوا عشرة منهم أبو لبابة وروي أنهم كانوا خمسة أحدهم أبو لبابة وقال سعيد بن جبير وزيد بن أسلم كانوا ثمانية أحدهم أبو لبابة وقال قتادة والضحاك: كانوا سبعة

عتا: لجوا فيه وأبوا غيرَه. وقال ابن زيد: أقاموا عليه ولم يتوبوا، ﴿لا تعلَمُهُمْ﴾، أنت يا محمد، ﴿نحنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مرّتَينِ﴾، اختلفوا في هذين العذابين، قال الكلبي والسدي: قام النبي ﷺ خطيباً يوم الجمعة فقال: «اخْرُجْ يا فلان فإنّك منافق، أخرجَ ناساً من المسجد وفضحهم، فهذا هو العذاب الأول. والثاني: عذاب القبر». وقال مجاهد: الأول القتل والسبي، والثاني عذاب القبر. وعنه رواية أخرى: عُذِّبُوا بالجوع مرتين. وقال قتادة: الدبيلة في الدنيا وعذاب القبر. وقال ابن زيد: الأولى المصائب في الأموال والأولاد في الدنيا، والأخرى عذاب الآخر. وعن ابن عباس: الأولى إقامة الحدود عليهم، والأخرى في عذاب القبر. وقال ابن إسحاق: هو ما يدخل عليهم من غيظ الإسلام ودخولهم فيه من غير حسبة عذاب القبر. وقيل: أحدهما ضرب الملائكة وجوههم وأدبارهم عند قبض أرواحهم، والآخر عذاب القبر. وقيل: الأولى إحراق مسجد الضرار، والأخرى إحراقهم بنار جهنم. ﴿ثم يُرَدُّونَ إلى عذابٍ عظيمٍ﴾، أي: عذاب جهنم يخلدون فيه.

قوله تعالى: ﴿وآخَرُونَ﴾، أي: ومن أهل المدينة أو من الأعراب آخرون، ولا يرجع هذا إلى المنافقين، ﴿اعْتَرَفُوا﴾، أقرّوا، ﴿بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عملاً صالحاً﴾، وهو إقرارهم بذنوبهم وتوبتهم، ﴿وآخر سيئاً﴾، أي:

أحدهم أبو لبابة. وقيل: كانوا ثلاثة: أبو لبابة بن عبد المنذر، وأوس بن ثعلبة، ووديعة بن حزام، وذلك أنهم كانوا تخلفوا عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك ثم ندموا بعد ذلك وتابوا وقالوا أنكون في الظلال ومع النساء ورسول الله ﷺ وأصحابه في الجهاد واللأواء؟ فلما رجع رسول الله ﷺ من سفره وقرب من المدينة قالوا: والله لنوثقن أنفسنا بالسواري فلا نطلقها حتى يكون رسول الله ﷺ هو الذي يطلقنا ويعذرنا فربطوا أنفسهم في سواري المسجد فلما رجع النبي ﷺ مرَّ بهم فرآهم فقال: من هؤلاء؟ فقالوا: هؤلاء الذين تخلفوا عنك فعاهدوا الله أن لا يطلقوا أنفسهم حتى تكون أنت الذي تطلقهم وترضى عنهم فقال رسول الله ﷺ: وأنا أقسم بالله لا أطلقهم ولا أعذرهم حتى أومر بإطلاقهم، رغبوا عني وتخلفوا عن الغزو مع المسلمين. فأنزل الله عز وجل هذه الآية فأرسل رسول الله ﷺ إليهم فأطلقهم وعذرهم فلما أطلقوا قالوا: يا رسول الله هذه أموالنا التي خلفتنا عنك خذها فتصدق بها عنا وطهرنا واستغفر لنا فقال رسول الله ﷺ: ما أمرت أن آخذ من أموالكم شيئاً. فأنزل الله: خذ من أموالهم صدقة تطهرهم الآية. وقال قوم: نزلت هذه الآية في أبي لبابة خاصة واختلفوا في ذنبه الذي تاب منه فقال مجاهد: نزلت في أبي لبابة حين قال لبني قريظة: إن نزلتم على حكمه فهو الذبح وأشار إلى حلقه فندم على ذلك وربط نفسه بسارية. وقال: والله لا أحل نفسي ولا أذوق طعاماً ولا شراباً حتى أموت أو يتوب الله عليّ فمكث سبعة أيام لا يذوق طعاماً ولا شراباً حتى خر مغشياً عليه، فأنزل الله هذه الآية فقيل له قد تيب عليك فقال: والله لا أحل نفسي حتى يكون رسول الله ﷺ هو الذي يحلني فجاء رسول الله ﷺ فحله بيده فقال أبو لبابة: يا رسول الله إن من توبتي أن أهجر دار قومي التي أصبت فيها الذنب وأن أنخلع من مالي كله صدقة إلى الله وإلى رسوله ﷺ فقال يجزيك الثلث يا أبا لبابة. قالوا جميعاً فأخذ رسول الله ﷺ ثلث أموالهم وترك لهم الثلثين لأن الله سبحانه وتعالى قال: خذ من أموالهم ولم يقل خذ أموالهم. لأن لفظة «من» تقتضي التبعيض. وقال الحسن وقتادة: وهؤلاء سوى الثلاثة الذين تخلفوا وسيأتي خبرهم.

أما تفسير الآية: فقوله تعالى: وآخرون اعترفوا بذنوبهم قال أهل المعاني: الاعتراف عبارة عن الإقرار بالشيء ومعناه أنهم أقروا بذنبهم وفيه دقيقة وهي أنهم لم يعتذروا عن تخلفهم بأعذار باطلة كغيرهم من المنافقين ولكن اعترفوا على أنفسهم بذنوبهم وندموا على ما فعلوا.

فإن قلت: الاعتراف بالذنب هل يكون توبة أم لا؟

قلت: مجرد الاعتراف بالذنب لا يكون توبة فإذا اقترن الاعتراف بالندم على الماضي من الذنب والعزم على تركه في المستقبل يكون ذلك الاعتراف والندم توبة.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿**خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً**﴾ قيل: أراد بالعمل الصالح إقرارهم بالذنب وتوبتهم

بعمل آخر سيء، وضع الواو موضع الباء، كما يُقال: خلطتُ الماءَ واللبن، أي: باللبن. والعملُ السيء هو تخلّفهم عن رسول الله ﷺ، والعمل الصالح هو ندامتهم وربطهم أنفسهم بالسواري، وقيل: غزواتُهم مع النبي ﷺ، ﴿**عَسَى اللَّهُ أَنْ يتوبَ عليهِمْ إنّ اللَّهَ غفورٌ رحيمٌ**﴾، نزلت هذه الآية في قوم تخلّفوا عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، ثم نَدِمُوا على ذلك، وقالوا: يكونون في الظلال مع النساء ورسول الله ﷺ وأصحابه في الجهاد واللأواء فلما قرب رسول الله ﷺ من المدينة قالوا: والله لَنُوثِقَنّ أنفسَنَا بالسواري فلا نُطلقها حتى يكونَ رسول الله ﷺ هو الذي يطلقنا، ويعذُرُنا فأوثقوا أنفسهم بسواري المسجد فلما رجع رسول الله ﷺ مرّ بهم فرآهم فقال: مَنْ هؤلاء؟ فقالوا: هؤلاء الذين تخلّفوا عنك فعاهدُوا اللَّهَ عزّ وجلّ أن لا يُطلقوا أنفسَهم حتى تكون أنت تطلقهم وترضى عنهم، فقال رسول الله ﷺ: «وأنا أقسم بالله لا أطلقهم ولا أعذرهم حتى أُومر بإطلاقهم، لأنهم رغبوا عنّي وتخلّفوا عن الغزو مع

منه والعمل السيىء هو تخلفهم عن الجهاد مع رسول الله ﷺ. وقيل: العمل الصالح هو خروجهم مع رسول الله ﷺ إلى سائر الغزوات والسيىء هو تخلفهم عنه في غزوة تبوك. وقيل: إن العمل الصالح يعم جميع أعمال البر والطاعة والسيىء ما كان ضده فعلى هذا تكون الآية في حق جميع المسلمين والحمل على العموم أولى وإن كان السبب مخصوصاً بمن تخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك.

وروى الطبري عن أبي عثمان قال ما في القرآن آية أرجى عندي لهذه الأمة من قوله وآخرون اعترفوا بذنوبهم.

فإن قلت قد جعل كل واحد من العمل الصالح والسيىء مخلوطاً فما المخلوط به.

قلت: إن الخلط عبارة عن الجمع المطلق فأما قولك خلطته فإنما يحسن في الموضع الذي يمتزج كل واحد من الخليطين بالآخر ويتغير به عن صفته الأصلية كقولك خلطت الماء باللبن وخلطت الماء واللبن فتنوب الواو عن الباء فيكون معنى الآية على هذا خلطوا عملاً صالحاً بآخر ذكره غالب المفسرين وأنكره الإمام فخر الدين الرازي. وقال: اللائق بهذا الموضع الجمع المطلق لأن العمل الصالح والعمل السيىء إذا حصلا معاً بقي كل واحد منهما على حاله كما هو مذهبنا فإن عندنا القول بالإحباط باطل فالطاعة تبقى موجبة للمدح والثواب والمعصية تبقى موجبة للذم والعقاب فقوله سبحانه وتعالى خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً فيه تنبيه على نفي القول بالمحابطة وأنه بقي كل واحد منهما كما كان من غير أن يتأثر أحدهما بالآخر فليس إلا الجمع المطلق. وقال الواحدي: العرب تقول خالطت الماء باللبن وخلطت الماء واللبن كما تقول جمعت زيداً وعمراً. والواو في الآية أحسن من الباء لأنه أريد معنى الجمع لا حقيقة الخلط. ألا ترى أن العمل الصالح لا يختلط بالسيىء كما يختلط الماء باللبن لكن قد يجمع بينهما وقوله سبحانه وتعالى: ﴿عسى الله أن يتوب عليهم﴾ قال ابن عباس وجمهور المفسرين: عسى من الله واجب والدليل عليه قوله سبحانه وتعالى: فعسى الله أن يأتي بالفتح وقد فعل ذلك. وقال أهل المعاني: لفظة عسى هنا تفيد الطمع والإشفاق لأنه أبعد من الاتكال والإهمال.

وقيل: إن الله سبحانه وتعالى لا يجب عليه شيء بل كل ما يفعله على سبيل التفضل والتطول والإحسان فذكر

المسلمين، فأنزل الله هذه الآية فأرسل إليهم رسول الله ﷺ فأطلقهم وعذرهم، فلما أطلقوا قالوا: يا رسول الله هذه أموالنا التي خلّفتْنَا عنك فتصدَّقْ بها وطهّرْنَا واستغفرْ لنا فقال رسول الله ﷺ: «ما أُمرتُ أن آخذ من أموالكم شيئاً»، فأنزل الله تعالى: ﴿ خُذْ مِنْ أموالهم صدقةً ﴾ [التوبة: ١٠٣] الآية، واختلفوا في عدد هؤلاء التائبين، فرُوِيَ عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: كانوا عشرة منهم أبو لبابة. ورَوَى عطية عنه: أنهم كانوا خمسة أحدهم أبو لبابة. وقال سعيد بن جبير وزيد بن أسلم: كانوا ثمانية. وقال الضحاك وقتادة: كانوا سبعة. وقالوا جميعاً: أحدهم أبو لبابة. وقال قوم: نزلت في أبي لبابة خاصة. واختلفوا في ذنبه، قال مجاهد: نزلت في أبي لبابة حين قال لقريظة: إن نزلتم على حكمه فهو الذبح وأشار إلى حلقه: وقال الزهري: نزلت في تخلّفه عن غزوة تبوك فربط نفسه بسارية، وقال: والله لا أحِلّ نفسي ولا أذوق طعاماً ولا شراباً حتى أموتَ أو يتوبَ الله عليّ، فمكث سبعة أيام لا يذوق طعاماً ولا شراباً حتى خرّ مغشيّاً عليه، فأنزل الله تعالى هذه الآية، فقيل له: قد تِيْبَ عليك، فقال: والله لا أحلّ نفسي حتى يكونَ رسولُ الله ﷺ هو الذي يحلّني، فجاء النبي ﷺ فحلّه بيده، ثم قال أبو لبابة: يا رسول الله إن من توبتي أن أهجر دار قومي التي أصبت فيها الذنب، وأن أنخلع من مالي كله صدقة إلى الله وإلى رسوله، قال: «يُجزيك يا أبا لبابة الثلث» قالوا جميعاً: فأخذ رسول الله ﷺ ثلث أموالهم، وترك الثلثين؛ لأن الله تعالى قال: ﴿ خُذْ مِنْ أموالِهم ﴾ [التوبة: ١٠٣]، ولم يقل: خذ أموالهم. قال الحسن وقتادة: هؤلاء سوى الثلاثة الذين خُلِّفوا.

لفظة عسى التي هي للترجي والطمع حتى يكون العبد بين الترجي والإشفاق ولكن هو إلى نيل ما يرجوه منه أقرب لأنه ختم الآية بقوله ﴿إن الله غفور رحيم﴾ وهذا يفيد إنجاز الوعد قوله سبحانه وتعالى:

﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾﴾

﴿خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها﴾. قال ابن عباس: لما أطلق رسول الله ﷺ أبا لبابة وصاحبيه انطلق أبو لبابة وصاحبه فأتوا بأموالهم إلى رسول الله ﷺ فقالوا: خذ أموالنا وتصدق بها عنا وصل علينا يريدون استغفر لنا وطهرنا. فقال رسول الله ﷺ: لا آخذ شيئاً منها حتى أومر به، فأنزل الله عز وجل: خذ من أموالهم صدقة الآية، وهذا قول زيد بن أسلم وسعيد بن جبير وقتادة والضحاك. ثم اختلف العلماء في المراد بهذه الصدقة فقال بعضهم: هو راجع إلى هؤلاء الذين تابوا وذلك أنهم بذلوا أموالهم صدقة فأوجب الله سبحانه وتعالى أخذها وصار ذلك معتبراً في كمال توبتهم لتكون جارية مجرى الكفارة. وأصحاب هذا القول يقولون ليس المراد بها الصدقة الواجبة. وقال بعضهم: إن الزكاة كانت واجبة عليهم فلما تابوا من تخلفهم عن الغزو وحسن إسلامهم وبذلوا الزكاة أمر الله سبحانه وتعالى رسوله ﷺ أن يأخذها منهم وقال بعضهم إن الآية كلام مبتدأ والمقصود منها إيجاب أخذها من الأغنياء ودفعها إلى الفقراء وهذا قول أكثر الفقهاء واستدلوا بها على إيجاب أخذ الزكاة.

أما حجة أصحاب القول الأول، فإنهم قالوا: إن الآيات لا بد وأن تكون منتظمة متناسبة فلو حملناها على أخذ الزكاة الواجبة، لم يبق لهذه الآية تعلق بما قبلها ولا بما بعدها، ولأن جمهور المفسرين ذكروا في سبب نزولها أنها نزلت في شأن التائبين وأما أصحاب القول الأخير فإنهم قالوا: المناسبة حاصلة أيضاً على هذا التقدير وذلك أنهم لما تابوا وأخلصوا وأقروا أن السبب الموجب للتخلف وحب المال أمروا بإخراج الزكاة التي هي طهرة فلما أخرجوها علمت صحة قولهم وصحة توبتهم. ولا يمنع من خصوص السبب عموم الحكم فإن قالوا: إن الزكاة قدر معلوم لا يبلغ ثلث المال وقد أخذ منهم ثلث أموالهم قلنا: لا يمنع هذا صحة ما قلناه لأنهم رضوا ببذل الثلث من أموالهم فلأن يكونوا راضين بإخراج الزكاة أولى. ثم في هذه الآية أحكام: الأول قوله سبحانه وتعالى: خذ من أموالهم صدقة، الخطاب فيه للنبي ﷺ أي خذ يا محمد من أموالهم صدقة فكان النبي ﷺ يأخذها منهم أيام حياته ثم أخذها من بعده الأئمة فيجوز للإمام أو نائبه أن يأخذ الزكاة من الأغنياء ويدفعها إلى الفقراء.

الحكم الثاني: قوله من أموالهم، ولفظة «من» تقتضي التبعيض وهذا البعض المأخوذ غير معلوم ولا مقدر بنص القرآن فلم يبق إلا الصدقة التي بيَّن رسول الله ﷺ قدرها وصفتها في أخذ الزكاة.

الحكم الثالث: ظاهر قوله خذ من أموالهم صدقة يفيد العموم فتجب الزكاة في جميع المال حتى في الديون وفي مال الركاز.

قوله تعالى: ﴿ خُذْ مِنْ أموالِهم صدقةً تُطهِّرُهُمْ ﴾، بها من ذنوبهم، ﴿ وتُزَكِّيهِمْ بها ﴾، أي ترفعهم من منازل المنافقين إلى منازل المخلصين. وقيل: تنمّي أموالهم ﴿ وصَلِّ عليهِمْ ﴾، أي: أدْعُ لهم واستغفرْ لهم. وقيل: هو قول الساعي للمصدِّق إذا أخذ الصدقة منه: آجرَكَ اللَّهُ فيما أعطيتَ وبارَكَ لكَ فيما أبقيت. والصلاةُ في اللغة: الدعاء. ﴿ إنّ صلاتَـك ﴾ قرأ حمزة والكسائي: «صـلاتَك» على التوحيد ونصب التاء ههنا، وفي سورة هـــود [٨٧] ﴿ أصلاتك﴾ وفي سورة المؤمنـــين [٢] ﴿ على صلاتهم ﴾ كلهنّ على التوحيد، وَافَقهُما حفصٌ ههنا وفي سورة هود [٨٧]، وقرأ الآخرون بالجمع فيهنّ وكسر التاء هاهنا وفي سورة المـــؤمنين [٢]، ولا خلاف في التي في الأنـــعام [٩٢]: ﴿ وهُمْ على صلاتِهم يُحافظون ﴾ والتي في المعـــارج [٢٣]: ﴿ وهم على

الحكم الرابع: ظاهر قوله تطهرهم، أن الزكاة إنما وجبت لكونها طهرة من الآثام وصدور الآثام لا يمكن حصولها إلا من البالغ دون الصبي فوجب أن تجب الزكاة في مال البالغ دون الصبي وهذا قول أبي حنيفة ثم أجاب أصحاب الشافعي: بأنه لا يلزم من انتفاء سبب معين انتفاء الحكم مطلقاً.

وللعلماء في قوله سبحانه وتعالى تطهرهم أقوال:

الأول: أن معناه خذ يا محمد من أموالهم صدقة فإنك تطهرهم بأخذها من دنس الآثام.

القول الثاني: أن يكون تطهرهم متعلقاً بالصدقة تقديره خذ من أموالهم صدقة فإنها طهرة لهم وإنما حسن جعل الصدقة مطهرة لما جاء أن الصدقة من أوساخ الناس فإذا أخذ الصدقة فقد اندفعت تلك الأوساخ وكان ذلك الاندفاع جارياً مجرى التطهير: فعلى هذا القول يكون قوله سبحانه وتعالى وتزكيهم بها متقطعاً عن قوله تطهرهم ويكون التقدير: خذ يا محمد من أموالهم صدقة تطهرهم تلك الصدقة وتزكيهم أنت بها.

القول الثالث: أن تجعل التاء في قوله تطهرهم وتزكيهم ضمير المخاطب ويكون المعنى تطهرهم أنت يا محمد بأخذها منهم وتزكيهم أنت بواسطة تلك الصدقة.

القول الرابع: أن معناه تطهرهم من ذنوبهم وتزكيهم يعني ترفع منازلهم عن منازل المنافقين إلى منازل الأبرار المخلصين وقيل معنى وتزكيهم أي تنمي أموالهم ببركة أخذها منهم.

الحكم الخامس: قوله سبحانه وتعالى: ﴿**وصل عليهم**﴾ يعني ادع لهم واستغفر لهم لأن أصل الصلاة في اللغة الدعاء. قال الإمام الشافعي رضي الله تعالى عنه: السنة للإمام إذا أخذ الصدقة أن يدعو للمتصدق فيقول: آجرك الله فيما أعطيت وبارك لك فيما أبقيت. وقال بعضهم: يجب على الإمام أن يدعو للمتصدق. وقال بعضهم: يستحب ذلك. وقيل: يجب في صدقة الفرض ويستحب في صدقة التطوع. وقيل: يجب على الإمام ويستحب للفقير أن يدعو للمعطي. وقال بعضهم: يستحب أن يقول اللهم صلِّ على فلان. ويدل عليه ما روي عن عبد الله بن أبي أوفى وكان من أصحاب الشجرة قال: كان النبي ﷺ إذا أتاه قوم بصدقة قال: اللهم صلِّ عليهم فأتاه أبي بصدقته فقال «اللهم صلِّ على آل أبي أوفى» أخرجاه في الصحيحين.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿**إن صلاتك**﴾ وقرىء: صلواتك على الجمع ﴿**سكن لهم**﴾ يعني إن دعاءك رحمة لهم. وقال ابن عباس: طمأنينة لهم. وقيل: إن الله قد قبل منهم. وقال أبو عبيدة: تثبيت لقلوبهم. وقيل: إن السكن ما سكنت إليه النفس والمعنى إن صلواتك توجب سكون نفوسهم إليها والمعنى أن الله قد قبل توبتهم أو قبل زكاتهم

صلاتهم دائمون﴾ إنها جميعاً على التوحيد. ﴿ **سَكَنٌ لَّهُمْ** ﴾، أي: إن دعاءك رحمة لهم. قاله ابن عباس. وقيل: طمأنينة لهم وسكون لهم أن الله عزّ وجلّ قد قَبِلَ منهم. وقال أبو عبيدة: تثبيتٌ لقلوبهم. ﴿ **واللَّهُ سميعٌ عليمٌ** ﴾، واختلفوا في وجوب الدعاء على الإمام عند أخذ الصدقة. قال بعضهم: يجب. وقال بعضهم: يُستحب. وقال بعضهم: يجب في صدقة الفرض ويستحب في صدقة التطوّع. وقيل: يجب على الإمام ويستحبّ للفقير أن يدعو للمعطي. أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا آدم بن أبي إياس ثنا شعبة عن عمرو بن مرّة قال: سمعت عبد الله بن أبي أوْفَى وكان من أصحاب الشجرة قال: كان النبيُّ ﷺ إذا أتاه قومُه بصدقةٍ قال: «اللّهمَّ صلِّ عليهم»، فأتاه أبي بصدقته فقال: «اللّهمَّ صلِّ على آل أبي أوْفى»، وقال ابن كيسان: ليس هذا في صدقة الفرض إنما هو لصدقة كفّارة اليمين. وقال عكرمة: هي صدقة الفرض، فلما نزلت توبة هؤلاء قال الذين لم يتوبوا من المتخلّفين: هؤلاء كانوا معنا بالأمس لا يُكالَمُون ولا

﴿والله سميع﴾ يعني لأقوالهم أو لدعائك لهم ﴿عليم﴾ يعني بنياتهم.

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ وَقُلِ
ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ
تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾﴾

﴿ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده﴾ هذه صيغة استفهام إلا أن المقصود منه التقرير فبشر الله عز وجل هؤلاء التائبين بقبول توبتهم وصدقاتهم ومعنى الآية ألم يعلم الذين تابوا أن الله تعالى يقبل التوبة الصادقة والصدقة الخالصة. وقيل: إن المراد بهذه الآية غير التائبين ترغيباً لهم في التوبة وبذل الصدقات وذلك أنه لما نزلت توبة هؤلاء التائبين قال الذين لم يتوبوا من المتخلفين: هؤلاء كانوا معنا بالأمس لا يكلمون ولا يجالسون فما بالهم اليوم فأنزل الله هذه الآية ترغيباً لهم في التوبة. وقوله سبحانه وتعالى عن عباده قيل: لا فرق بين عن عباده ومن عباده إذ لا فرق بين قولك أخذت هذا العلم عنك أو منك. وقيل: بينهما فرق ولعل عن في هذا الموضع أبلغ لأن فيه تبشيراً بقبول التوبة مع تسهيل سبيلها وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ويأخذ الصدقات﴾ يعني يقبلها ويثيب عليها وإنما ذكر لفظ الأخذ ترغيباً في بذل الصفقة وإعطائها الفقراء وقيل معنى أخذ الله الصدقات تضمنه الجزاء عليها.

ولما كان هو المجازي عليها والمثيب بها، أسند الأخذ إلى نفسه وإن كان الفقير أو السائل هو الآخذ لها وفي هذا تعظيم أمر الصدقات وتشريفها وأن الله تعالى يقبلها من عبده المتصدق (ق).

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما تصدق أحدكم بصدقة من كسب حلال طيب ولا يقبل الله إلا الطيب إلا أخذها الرحمن بيمينه وإن كانت تمرة فتربو في كف الرحمن حتى تكون أعظم من الجبل كما يربى أحدكم فلوه أو فصيله» لفظ مسلم. وفي البخاري: «من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب ولا يصعد إلى الله إلا الطيب». وفي رواية: «ولا يقبل الله إلا الطيب فإن الله يقبلها بيمينه ثم يربيها لصاحبها كما يربي أحدكم فلوه حتى تكون مثل الجبل» وأخرجه الترمذي ولفظه: «إن الله سبحانه وتعالى يقبل الصدقة ويأخذها بيمينه فيربيها لأحدكم كما يربي أحدكم فلوه حتى اللقمة لتصير مثل جبل أحد» وتصديق ذلك في كتاب الله سبحانه وتعالى: ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات ويمحق الله الربا ويربى الصدقات. وقوله: من كسب طيب. أي: حلال. وذكر اليمين والكف في الحديث كناية عن قبول الصدقة وأن الله سبحانه وتعالى قد قبلها من المعطي، لأن من عادة الفقير أو السائل، أخذ الصدقة بكفه اليمين، فكأن المتصدق قد وضع صدقته في القبول والإثابة. وقوله: فتربو أي تكبر. يقال: ربا الشيء يربو إذا زاد وكبر. والفُلو: بضم الفاء وفتحها لغتان المهر أول ما يولد والفصيل ولد الناقة إلى أن ينفصل عنها.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وأن الله هو التواب الرحيم﴾ تأكيد لقوله سبحانه وتعالى: ﴿ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده﴾ وتبشير لهم بأن الله هو التواب الرحيم.

يُجَالَسُون، فما لهم؟ وذلك أن النبي ﷺ لمّا رجع إلى المدينة نهى المؤمنين عن مكالمة المنافقين ومجالستهم.

﴿ أَلَمْ يعلمُوا أنّ الله هو يَقْبَلُ التّوبَةَ عن عبادِهِ ويأخُذُ الصّدَقاتِ ﴾، أي: يقبلها، ﴿ وأنّ اللَّهَ هو التوّابُ الرّحِيمُ ﴾. أخبرنا عبد الوهاب بن محمد الخطيب أنا عبد العزيز بن أحمد الخلال ثنا أبو العباس محمد بن يعقوب الأصم أنبأنا الربيع بن سليمان أنبأنا الشافعي أنبأنا سفيان بن عيينة عن ابن عجلان عن سعيد بن يسار عن أبي هريرة قال: سمعتُ أبا القاسم ﷺ يقول: «والذي نفسي بيده ما من عبد يتصدّق بصدقةٍ من كسب طيّبٍ، ولا يقبلُ اللّهُ إلّا طيباً ولا يَصْعَدُ إلى السماءِ إلا طيّبٌ إلاّ كأنما يضعها في يد الرحمن عزّ وجلّ فيُربّيها له كما يُربّي أحدكم فَلْوَه، حتى

قوله عز وجل: ﴿**وقل**﴾ أي: قل يا محمد لهؤلاء التائبين ﴿**اعملوا**﴾ يعني لله بطاعته وأداء فرائضه ﴿**فسيرى الله عملكم**﴾ فيه ترغيب عظيم للمطيعين ووعيد عظيم للمذنبين فكأنه قال اجتهدوا في العمل في المستقبل فإن الله تعالى يرى أعمالكم ويجازيكم عليها ﴿**ورسوله والمؤمنون**﴾ يعني ويرى رسول الله ﷺ والمؤمنون أعمالكم أيضاً.

أما رؤية رسول الله ﷺ فباطلاع الله إياه على أعمالكم. وأما رؤية المؤمنين، فبما يقذف الله عز وجل في قلوبهم من محبة الصالحين وبغض المذنبين ﴿**وستردون إلى عالم الغيب والشهادة**﴾ يعني: وسترجعون يوم القيامة إلى من يعلم سركم وعلانيتكم ولا يخفى عليه شيء من بواطنكم وظواهركم ﴿**فينبئكم**﴾ أي فيخبركم ﴿**بما كنتم تعملون**﴾ يعني في الدنيا من خير أو شر فيجازيكم عن أعمالكم.

قوله سبحانه وتعالى: ﴿**وآخرون مرجون**﴾ أي مؤخرون والإرجاء التأخير ﴿**لأمر الله**﴾ يعني لحكم الله فيهم قال بعضهم إن الله سبحانه وتعالى قسم المتخلفين على ثلاثة أقسام:

أولهم: المنافقون وهم الذين مردوا على النفاق واستمروا عليه.

والقسم الثاني: التائبون وهم الذين سارعوا إلى التوبة بعد ما اعترفوا بذنوبهم وهم أبو لبابة وأصحابه فقبل الله توبتهم.

والقسم الثالث: موقوفون ومؤخرون إلى أن يحكم الله تعالى فيهم وهم المراد بقوله: وآخرون مرجون لأمر الله. والفرق بين القسم الثاني والقسم الثالث، أن القسم الثاني سارعوا إلى التوبة فقبل الله توبتهم، والقسم الثالث توقفوا ولم يسارعوا إلى التوبة فأخر الله أمرهم.

نزلت هذه الآية في الثلاثة الذين تخلفوا وهم: كعب بن مالك، وهلال بن أمية، ومرارة بن الربيع، وستأتي قصتهم عند قوله تعالى: وعلى الثلاثة الذين خلفوا وذلك أنهم لم يبالغوا في التوبة والاعتذار كما فعل أبو لبابة وأصحابه فوقفهم رسول الله ﷺ خمسين ليلة ونهى الناس عن كلامهم وكانوا من أهل بدر، فجعل بعض الناس يقول هلكوا وبعضهم يقول: عسى الله أن يتوب عليهم ويغفر لهم وهو قوله سبحانه وتعالى: ﴿**إما يعذبهم وإما يتوب**

أنّ اللّقمةَ لتأتي يومَ القيامة وإنّها لمثلِ الجبلِ العظيم، ثم قرأ: ﴿ إنّ اللّهَ هو يقبلُ التوبةَ عنْ عبادِهِ ويأخُذُ الصدقاتِ ﴾.

قوله تعالى: **﴿ وقل اعْمَلُوا فسَيَرى اللّهُ عملَكُمْ ورَسُولُهُ والمؤمنُون، وسَتُرَدُّونَ إلى عَالِمِ الغَيبِ والشّهادَةِ فيُنَبِّئُكُمْ بما كُنْتُم تَعْمَلُون ﴾**، قال مجاهد: هذا وعيد لهم. قيل: رؤية للنبي ﷺ بإعلام الله تعالى إيّاه، ورؤية المؤمنين بإيقاع المحبة في قلوبهم لأهل الصلاح، والبغضة لأهل الفساد.

قوله تعالى: **﴿ وآخَرُونَ مُرْجَونَ لأمرِ اللّهِ إمّا يُعذِّبُهم وإمّا يتوبُ عليهم واللّهُ عليمٌ حكيمٌ ﴾**. قرأ أهل المدينة والكوفة غير أبي بكر: «مرجـون» بغير همز، والآخرون بالهمز، والإرجاء: التأخير، مرجون: مؤخرون لأمر الله: لحكم الله عزّ وجلّ فيهم، وهم الثلاثة الذين تأتي قصتهم من بعدُ: كعب بن مالك وهلال بن أُميّة ومرارة بن الربيع، لم يبالغوا في التوبة والاعتذار كما فعل أبو لبابة وأصحابه، فوقفهم رسول الله ﷺ خمسين ليلة ونهى الناس عن مكالمتهم ومخالطتهم، حتى شقّهم القلق وضاقت عليهم الأرض بما رحبت، وكانوا من أهل بدر فجعل أُناسٌ يقولون: هلكوا وآخرون يقولون: عسى الله أن يغفر لهم، فصاروا مرجئين لأمر الله لا يدرون أيعذبهم أم يرحمهم، حتى نزلت توبتهم بعد خمسين ليلة.

عليهم﴾ يعني أن أمرهم إلى الله تعالى إن شاء عذبهم بسبب تخلفهم وإن شاء غفر لهم وعفا عنهم ﴿والله عليم﴾ يعني بما في قلوبهم ﴿حكيم﴾ يعني بما يقضي عليهم.

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٠٧﴾﴾

قوله سبحانه وتعالى: ﴿والذين اتخذوا مسجداً ضراراً وكفراً﴾ نزلت في جماعة من المنافقين بنوا مسجداً يضارّون به مسجد قباء وكانوا اثني عشر رجلاً من أهل النفاق وديعة بن ثابت وخذام بن خالد ومن داره أخرج هذا المسجد وثعلبة بن حاطب وجارية بن عمرو وابناه مجمع وزيد ومعتب بن قشير وعباد بن حنيف أخو سهل بن حنيف وأبو حبيبة بن الأزعر ونبتل بن الحرث وبجاد بن عثمان وبحزج بنوا هذا المسجد ضراراً يعني مضارة للمؤمنين وكفراً يعني ليكفروا فيه بالله ورسوله ﴿وتفريقاً بين المؤمنين﴾ لأنهم كانوا جميعاً يصلون في مسجد قباء فبنوا مسجد الضرار ليصلي فيه بعضهم فيؤدي ذلك إلى الاختلاف وافتراق الكلمة وكان يصلي بهم فيه مجمع بن جارية وكان شاباً يقرأ القرآن ولم يدر ما أرادوا ببنائه، فلما فرغوا من بنائه، أتوا رسول الله ﷺ وهو يتجهز إلى تبوك فقالوا: يا رسول الله إنا قد بنينا مسجداً لذي العلة والحاجة والليلة المطيرة والليلة الشاتية، وإنا نحب أن تأتينا وتصلي فيه وتدعو لنا بالبركة فقال رسول الله ﷺ: إني على جناح سفر ولو قدمنا إن شاء الله تعالى أتيناكم فصلينا فيه.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله﴾ يعني أنهم بنوا هذا المسجد للضرار والكفر وبنوه إرصاداً يعني انتظاراً وإعداداً لمن حارب الله ورسوله ﴿من قبل﴾ يعني من قبل بناء هذا المسجد وهو أبو عامر الراهب والد حنظلة غسيل الملائكة وكان أبو عامر قد ترهب في الجاهلية ولبس المسوح وتنصر، فلما قدم النبي ﷺ المدينة قال له أبو عامر ما هذا الدين الذي جئت به؟ فقال له النبي ﷺ: جئت بالحنيفية دين إبراهيم. فقال أبو عامر: فأنا عليها. فقال النبي ﷺ: إنك لست عليها. قال أبو عامر: بلى ولكنك أدخلت في الحنيفية ما ليس منها فقال النبي ﷺ: ما فعلت ولكن جئت بها بيضاء نقية. فقال أبو عامر: أمات الله الكاذب منا طويداً وحيداً غريباً فقال النبي ﷺ: آمين

قوله تعالى: ﴿ والذّينَ اتّخَذُوا ﴾، قرأ: أهل المدينة والشام «الـذين» بلا واو وكذلك هو في مصاحفهم، وقرأ الآخرون بالواو، ﴿ مسجداً ضِرَاراً ﴾، نزلت هذه الآية في جماعة من المنافقين بنوا مسجداً يضارّون به مسجدَ قباء، وكانوا اثني عشر رجلاً من أهل النفاق، وديعة بن ثابت وخذام بن خالد، ومن داره أخرج هذا المسجد، وثعلبة بن حاطب وحارثة بن عمرو، وابناه مجمع وزيد، ومعتب بن قشير وعباد بن حنيف أخو سهل بن حنيف، وأبو حبيبة بن الأزعر ونبتل بن الحارث، وبحاد بن عثمان، ورجل يقال له بحذج، بنوا هذا المسجد ضراراً يعني مضارّة للمؤمنين، ﴿ وكُفْراً ﴾، بالله ورسوله، ﴿ وتَفْرِيقاً بينَ المؤمنين ﴾، لأنهم كانوا جميعاً يصلّون في مسجد قباء فبنوا مسجد الضرار ليصلّي فيه بعضهم فيؤدي ذلك إلى الاختلاف وافتراق الكلمة، وكان يصلّي بهم مجمع بن حارثة، فلما فرغوا من بنائه أتوا رسول الله ﷺ وهو يتجهّز إلى تبوك فقالوا: يا رسول الله إنّا قد بنينا مسجداً لذي العلّة والحاجة، والليلة المطيرة والليلة الشاتية، وإنّا نحبّ أن تأتينا وتصلّي بنا فيه وتدعو لنا بالبركة، فقال لهم رسول الله ﷺ: «إني على جناح سفر ولو قدمنا إن شاء الله أتيناكم فصلّينا لكم فيه». ﴿ وإرْصَاداً لِمَنْ حارَبَ اللّهَ ورسولَهُ مِنْ قبلُ ﴾، أي: انتظار وإعداد لِمَن حارب الله ورسوله. يقال: أرصدت له إذا عددت له. وهو أبو عامر الراهب وكان أبو عامر هذا رجلاً منهم وهو أبو حنظلة غسيل الملائكة، وكان قد ترهّب في الجاهلية وتنصّر ولبس المسوح، فلما قَدِمَ النبي ﷺ المدينة قال له أبو عامر: ما هذا الذي جئتَ به؟ قال: «جئت بالحنيفية دين إبراهيم»، قال أبو عامر: فإنّا

وسماه الناس: أبا عامر الفاسق. فلما كان يوم أحد، قال أبو عامر الفاسق للنبي ﷺ: لا أجد قوماً يقاتلونك إلا قاتلتك معهم فلم يزل كذلك إلى يوم حنين فلما انهزمت هوازن، يئس أبو عامر وخرج هارباً إلى الشام، وأرسل إلى المنافقين أن استعدوا ما استطعتم من قوة وسلاح وابنوا لي مسجداً فإني ذاهب إلى قيصر ملك الروم فآتي بجند من الروم، فأخرج محمداً وأصحابه فبنوا مسجد الضرار إلى جنب مسجد قباء، فذلك وقوله: سبحانه وتعالى: ﴿وإرصاداً﴾ يعني انتظاراً لمن حارب الله ورسوله يعني أبا عامر الفاسق ليصلي فيه إذا رجع من الشام من قبل يعني أن أبا عامر الفاسق حارب الله ورسوله من قبل مسجد الضرار ﴿وليحلفن﴾ يعني الذين بنوا المسجد ﴿إن أردنا﴾ يعني ما أردنا ببنائه ﴿إلا الحسنى﴾ يعني إلا الفعلة الحسنى وهي: الرفق بالمسلمين والتوسعة على أهل الضعف والعجز عن الصلاة في مسجد قباء أو مسجد الرسول ﷺ ﴿والله يشهد إنهم لكاذبون﴾ يعني في قيلهم وحلفهم.

روي أن النبي ﷺ لما انصرف من تبوك راجعاً نزل بذي أوان وهو موضع قريب من المدينة فأتاه المنافقون وسألوه أن يأتي مسجدهم فدعا بقميصه ليلبسه ويأتيهم فأنزل الله هذه الآية وأخبره خبر مسجد الضرار وما هموا به فدعا رسول الله ﷺ مالك بن الدخشم ومعن بن عدي وعامر بن السكن ووحشياً فقال لهم: انطلقوا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدموه وأحرقوه، فخرجوا مسرعين حتى أتوا بني سالم بن عوف وهم رهط مالك بن الدخشم فقال مالك: أنظروني حتى أخرج إليكم بنار، فدخل أهله فأخذ من سعف النخل فأشعله ثم خرجوا يشتدون حتى دخلوا المسجد وفيه أهله فأحرقوه وهدموه وتفرق عنه أهله وأمر رسول الله ﷺ أن يتخذ ذلك الموضع كناسة تلقى فيها الجيف والنتن والقمامة.

مات أبو عامر الراهب بالشام غريباً وحيداً. وروي أن بني عمرو بن عوف الذين بنوا مسجد قباء أتوا عمر بن

عليها، فقال له النبي ﷺ: «إنك لستَ عليها»، قال: بلى لكنّك أدخلت في الحنيفية ما ليس منها، فقال النبي ﷺ: «ما فعلتُ ولكنّي جئتُ بها بيضاءَ نقية»، فقال أبو عامر: أمات الله الكاذبَ منّا طريداً وحيداً غريباً، فقال النبي ﷺ: «آمين». وسمّاه أبا عامر الفاسق، فلما كان يوم أُحد قال أبو عامر لرسول الله ﷺ: لا أجد قوماً يقاتلونك إلاّ قاتلتك معهم، فلم يزل يقاتله إلى يوم حُنين، فلما انهزمت هوازن يئس وخرج هارباً إلى الشام فأرسل إلى المنافقين أنِ استعدّوا بما استطعتم من قوة ومن سلاح، وابْنُوا لي مسجداً فإني ذاهب إلى قيصر ملك الروم فآتِ بجندٍ من الروم، فأُخرج محمداً وأصحابه من المدينة، فبنوا مسجدَ الضرار إلى جنب مسجد قباء، فذلك قوله تعالى: ﴿ وإرْصَاداً لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ ورسولَه من قَبْلُ ﴾، وهو أبو عامر الفاسق ليصلّي فيه إذا رجع من الشام. قوله: ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ يرجع إلى أبي عامر يعني حارب الله ورسوله من قبل أي: من قبل بناء مسجد الضرار، ﴿ ولَيَحْلِفُنَّ إنْ أَرَدْنَا ﴾، ما أردنا ببنائه، ﴿ إلاّ الحُسْنَى ﴾، إلاّ الفعلة الحسنى وهو الرفق بالمسلمين والتوسعة على أهل الضعف والعجز عن السير إلى مسجد رسول الله ﷺ، ﴿ واللَّهُ يشهدُ إنَّهم لكاذِبُون ﴾، في قولهم وحلفهم. رُوِيَ أنه لمّا انصرف رسول الله ﷺ من تبوك ونزل بذي أَوَان موضع قريب من المدينة أتوه فسألوه إتيان مسجدهم فدعا بقميصه ليلبسه ويأتيهم، فنزل عليه القرآن وأخبره الله تعالى خبر مسجد الضرار وما همّوا به، فدعا رسول الله ﷺ مالك بن الدخشم ومعن بن عدي وعامر بن السكن ووحشياً قاتل حمزة، وقال لهم: انطلقوا إلى هذا المسجد الظالم أهلُه فاهدمُوه واحرقوه، فخرجوا سريعاً حتى أتوا بني سالم بن عوف وهم رهط مالك بن الدخشم، فقال مالك: أنظروني حتى أخرج إليكم بنار من أهلي فدخل أهله فأخذ سعافاً من النخل وأشعل فيه ناراً، ثم خرجوا يشتدّون حتى دخلوا المسجد وفيه أهله فحرقوه وهدموه وتفرّق عنه أهله، وأمر النبي ﷺ أن يُتّخذ ذلك كناسة تلقى فيه الجيف والنتن والقمامة. ومات أبو عامر الراهب بالشام وحيداً فريداً غريباً. ورُوِيَ أن بني عمرو بن عوف الذين بنوا مسجد قباء أتوا عمر بن الخطاب

الخطاب في خلافته، فسألوه أن يأذن لمجمع بن جارية أن يؤمهم في مسجدهم. فقال: لا ولا نعمة عين أليس هو إمام مسجد الضرار؟ قال مجمع: يا أمير المؤمنين لا تعجل عليّ فوالله لقد صليت فيه وأنا لا أعلم ما أضمروا عليه ولو علمت ما صليت معهم فيه وكنت غلاماً قارئاً للقرآن وكانوا شيوخاً لا يقرؤون فصليت بهم ولا أحسب إلا أنهم يتقربون إلى الله ولو أعلم ما في أنفسهم فعذره عمر فصدقه وأمره بالصلاة في مسجد قباء.

قال عطاء: لما فتح الله على عمر بن الخطاب الأمصار أمر المسلمين أن يبنوا المساجد وأمرهم أن لا يبنوا في موضع واحد مسجدين يضار أحدهما الآخر وقوله سبحانه وتعالى:

﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا ۚ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾

﴿**لا تقم فيه أبداً**﴾ قال ابن عباس: معناه لا تصلّ فيه أبداً منع الله عز وجل نبيه ﷺ أن يصلي في مسجد الضرار ﴿**لمسجد أسس على التقوى**﴾ اللام فيه لام الابتداء. وقيل: لام القسم تقديره والله مسجد أسس يعني بني أصله ووضع أساسه على التقوى يعني على تقوى الله عز وجل ﴿**من أول يوم**﴾ يعني من أول يوم بني ووضع أساسه كان ذلك البناء على التقوى ﴿**أحق أن تقوم فيه**﴾ يعني مصلياً واختلفوا في المسجد الذي أسس على التقوى فقال عمر وزيد بن ثابت وأبو سعيد الخدري هو مسجد رسول الله ﷺ يعني مسجد المدينة ويدل عليه ما روي عن أبي سعيد الخدري قال: «دخلت على رسول الله ﷺ في بيت بعض نسائه فقلت يا رسول الله أي المسجدين أسس على التقوى؟ قال فأخذ كفاً من حصى فضرب به الأرض ثم قال: هو مسجدكم هذا مسجد المدينة» أخرجه مسلم (ق).

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة ومنبري على حوضي» (ق) عن عبد الله بن زيد قال قال رسول الله ﷺ: «ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة» عن أم سلمة أن رسول الله ﷺ قال «إن قوائم منبري هذا رواتب في الجنة» أخرجه النسائي قوله رواتب يعني: ثوابت. يقال: رتب بالمكان إذا قام فيه وثبت. وفي رواية عن ابن عباس وعروة بن الزبير وسعيد بن جبير وقتادة أنه مسجد قباء ويدل عليه سياق الآية وهو قوله سبحانه وتعالى: ﴿**فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين**﴾ ويدل على أنهم أهل قباء ما روي عن أبي

في خلافته ليأذن لمجمع بن حارثة فيؤمّهم في مسجدهم، فقال: لا ولا نعمت عين أليس بإمام مسجد الضرار؟ فقال له مجمع: يا أمير المؤمنين لا تعجّل عليّ فواللهِ لقد صلّيت فيه وإني لا أعلم ما أضمروا عليه، ولو علمتُ ما صلّيتُ معهم فيه، كنتُ غلاماً قارئاً للقرآن، وكانوا شيوخاً لا يقرؤون القرآن فصلّيت ولا أُحبّ إلّا أنهم يتقرّبون إلى الله تعالى، ولم أعلم ما في أنفسهم فعذره عمر وصدّقه وأمره بالصلاة في مسجد قباء. وقال عطاء لمّا فتح الله على عمر الأمصار: أمر المسلمين أن يبنوا المساجد وأمرهم أنْ لا يبنوا في مدينتهم مسجدين يضارّ أحدهما صاحبه.

قوله تعالى: ﴿ **لَا تَقُمْ فيهِ أبداً** ﴾، قال ابن عباس: «لا تُصلِّ فيه» منعَ اللَّهُ تعالى نبيَّه ﷺ أن يصلّي في مسجد الضِّرار. ﴿ **لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ على التَّقوَى** ﴾، اللام لام الابتداء. وقيل: لام القسم، تقديره: والله لمسجدٌ أُسِّس أي: بُني أصله على التقوى، ﴿ **مِنْ أَوَّلِ يومٍ** ﴾، أي: من أول يوم بُنِيَ ووُضِع أساسه، ﴿ **أحقُّ أنْ تقومَ فيهِ** ﴾، مصلياً واختلفوا في المسجد الذي أُسِّس على التقوى، فقال ابن عمر وزيد بن ثابت وأبو سعيد الخدري: هو مسجد المدينة مسجد الرسول ﷺ، والدليل عليه ما أخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر أنبأنا عبد الغافر بن محمد ثنا محمد بن عيسى الجلودي ثنا إبراهيم بن محمد بن سفيان ثنا مسلم بن الحجّاج ثنا محمد بن حاتم ثنا يحيىٰ بن

هريرة «قال: نزلت هذه الآية في أهل قباء فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين قال كانوا يستنجون بالماء فنزلت هذه الآية فيهم» أخرجه أبو داود والترمذي وقال: حديث غريب. هكذا ذكره صاحب جامع الأصول من رواية أبي داود والترمذي موقوفاً على أبي هريرة ورواه البغوي من طريق أبي داود مرفوعاً عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: نزلت هذه الآية في أهل قباء فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين قال: كانوا يستنجون بالماء فنزلت فيهم هذه الآية ومما يدل على فضل مسجد قباء ما روي عن ابن عمر قال: «كان النبي ﷺ يزور قباء أو يأتي قباء راكباً وماشياً» زاد في رواية فيصلي فيه ركعتين وفي رواية «أن رسول الله ﷺ كان يأتي مسجد قباء كل سبت راكباً وماشياً وكان ابن عمر يفعله» أخرج الرواية الأولى والزيادة البخاري ومسلم وأخرج الرواية الثانية البخاري عن سهل بن حنيف قال: قال رسول الله ﷺ «من خرج حتى يأتي هذا المسجد مسجد قباء فيصلي فيه كان له كعدل عمرة» أخرجه النسائي عن أسد بن ظهير أن النبي ﷺ قال الصلاة في مسجد قباء كعمرة» أخرجه الترمذي.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿**فيه رجال يحبون أن يتطهروا**﴾ يعني من الأحداث والجنابات وسائر النجاسات وهذا قول أكثر المفسرين. قال عطاء: ولما كانوا يستنجون بالماء ولا ينامون بالليل على الجنابة وروى الطبري بسنده عن عويمر بن ساعدة وكان من أهل بدر، قال: قال رسول الله ﷺ لأهل قباء «إني أسمع الله عز وجل قد أحسن عليكم الثناء في الطهور فما هذا الطهور» قالوا: يا رسول الله ما نعمل شيئاً إلا أن جيراناً لنا من اليهود رأيناهم يغسلون أدبارهم من الغائط فغسلنا كما غسلوا. وعن قتادة قال: ذكر لنا أن النبي ﷺ قال لأهل قباء «إن الله سبحانه وتعالى قد أحسن عليكم بالثناء في الطهور فما تصنعون؟ قالوا: إنا نغسل عنا أثر الغائط والبول» وقال الإمام فخر الدين الرازي: المراد من هذه الطهارة الطهارة من الذنوب والمعاصي وهذا القول متعين لوجوه:

الأول: أن التطهر من الذنوب هو المؤثر في القرب من الله عز وجل واستحقاق ثوابه ومدحه.

الوجه الثاني: أن الله سبحانه وتعالى وصف أصحاب مسجد الضرار بمضارة المسلمين والتفريق بينهم والكفر بالله وكون هؤلاء يعني أهل قباء بالضد من صفاتهم وما ذاك إلا لكونهم مبرئين من الكفر والمعاصي وهي الطهارة الباطنية.

سعيد عن حميد الخراط قال: سمعتُ أبا سلمة عبد الرحمن قال: مرّ بي عبد الرحمن بن أبي سعيد الخدري قال: فقلت له كيف سمعت أباك يذكر في المسجد الذي أُسِّسَ على التقوى؟ فقال: قال أبي: دخلت على رسول الله ﷺ في بيت بعض نسائه فقلت: يا رسول الله أيّ المسجدين الذي أُسِّسَ على التقوى. قال: فأخذ كفّاً من الحصباء فضرب به الأرض، ثم قال: «هو مسجدكم هذا مسجد المدينة»، قال: فقلت: أشهد أني سمعت أباك هكذا يذكره وأخبرنا أبو الحسن الشيرازي أنبأنا زاهر بن أحمد أنبأنا أبو إسحاق الهاشمي أنبأنا أبو مصعب عن مالك عن حبيب بن عبد الرحمن عن حفص بن عاصم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة، ومنبري على حوضي». وذهب قوم إلى أنه مسجد قباء وهو رواية عطية عن ابن عباس وهو قول عروة بن الزبير وسعيد بن جبير وقتادة أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا موسى بن إسماعيل ثنا عبد العزيز بن مسلم عن عبد الله بن دينار عن ابن عمر قال كان النبي ﷺ يأتي مسجد قباء كل سبت ماشياً وراكباً، وكان عبد الله بن عمر يفعله، وزاد نافع عن ابن عمر عن رسول الله ﷺ فيصلّي فيه ركعتين. قوله تعالى: ﴿ **فيه رجالٌ يُحبُّونَ أن يَتطَهَّرُوا** ﴾، من الأحداث والجنابات والنجاسات. وقال عطاء: كانوا يستنجون بالماء ولا ينامون بالليل على الجنابة. أخبرنا أبو طاهر عمر بن عبد العزيز الفاشاني أنبأنا أبو عمر القاسم بن جعفر بن عبد الواحد الهاشمي أنبأنا أبو علي محمد بن أحمد بن عمرو اللؤلؤي حدّثنا أبو داود

الوجه الثالث: أن طهارة الظاهر إنما يحصل لها أثر عند الله إذا حصلت الطهارة الباطنية من الكفر والمعاصي وقيل يحتمل أنه محمول على كلا الأمرين يعني طهارة الباطن من الكفر والنفاق والمعاصي وطهارة الظاهر من الأحداث والنجاسات بالماء ﴿**والله يحب المطهرين**﴾ فيه مدح لهم وثناء عليهم والرضا عنهم بما اختاروه لأنفسهم من المداومة على محبة الطهارة.

أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾

قوله سبحانه وتعالى: ﴿**أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان**﴾ يعني طلب ببنائه المسجد الذي بناه تقوى الله ورضاه. والمعنى: أن الباني لما بنى ذلك البناء كان قصده تقوى الله وطلب رضاه وثوابه ﴿**خير أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار**﴾ الشفا: هو الشفير وشفا كل شيء حرفه ومنه يقال: أشفى على كذا إذا دنا منه وقرب أن يقع فيه. والجرف: المكان الذي أكل الماء تحته فهو إلى السقوط قريب وقال أبو عبيد: الجرف هو الهوة وما يجرفه السيل من الأودية فينحفر بالماء فيبقى واهياً هار أي هائر وهو الساقط فهو من هار يهور فهو هائر وقيل: هو من هاريها إذا تهدم وسقط وهو الذي تداعى بعضه في أثر بعض كما يهار الرمل والشيء الرخو ﴿**فانهار به**﴾ يعني سقط بالباني ﴿**في نار جهنم والله لا يهدي القوم الظالمين**﴾ والمعنى أن بناء هذا المسجد الضرار كالبناء على شفير جهنم فيهور بأهله فيها. وهذا مثل ضربه الله تعالى للمسجدين مسجد الضرار ومسجد التقوى مسجد قباء أو مسجد الرسول ﷺ ومعنى المثل: أفمن أسس بنيان دينه على قاعدة قوية محكمة وهو الحق الذي هو تقوى الله ورضوانه خير أم من أسس دينه على أضعف القواعد وأقلها بقاء وثباتاً وهو الباطل والنفاق الذي مثله مثل بناء على غير أساس ثابت وهو شفا جرف هار وإذا كان كذلك كان أسرع إلى السقوط في نار جهنم ولأن الباني الأول قصد ببنائه تقوى الله ورضوانه فكان بناؤه أشرف البناء، والباني الثاني قصد ببنائه الكفر والنفاق وإضرار المسلمين فكان بناؤه أخسّ البناء وكانت عاقبته إلى نار جهنم.

سليمان بن الأشعث السجستاني أنا محمد بن العلاء حدّثنا معاوية بن هشام عن يونس بن الحارث عن إبراهيم بن أبي ميمونة عن أبي صالح عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «نزلت هذه الآية في أهل قباء»: ﴿ **فيه رجالٌ يُحبّون أن يتطهّروا** ﴾، قال: كانوا يستنجون بالماء فنزلت فيهم هذه الآية. ﴿ **واللَّهُ يُحِبُّ المُطَّهِّرين** ﴾، أي المتطهريــن.

﴿ **أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيانَه** ﴾ قرأ نافع وابن عامر «أُسِّـسَ» بضم الهمزة وكسر السين، ﴿ **بُنيانُه** ﴾ برفع النون فيها جميعاً على غير تسمية الفاعل. وقرأ الآخرون «أسّس» بفتح الهمزة والسين «بنيــانه» بنصب النون على تسمية الفاعل. ﴿ **على تقوى مِّنَ اللَّهِ ورِضْوَانٍ خيرٌ** ﴾، أي: على طلب التقوى ورضا الله تعالى خيرٌ ﴿ **أَمْ مَّنْ أَسَّسَ بنيانه على شفَا** ﴾، أي: على شفير، ﴿ **جُرُفٍ** ﴾، قرأ أبو عمرو وحمزة وأبو بكر «جُـرْف» ساكنة الراء، وقرأ الباقون بضمّ الراء وهما لغتان، وهي البئر التي لم تطوَ، قال أبو عبيدة: هو الهوّة وما يجرفه السّيل من الأودية فيتجرف بالماء فيبقى واهياً، ﴿ **هَارٍ** ﴾، أي: هائر وهو الساقط يقال هار يهور فهو هائر، ثم يقلب فيقال: هار مثل شاك وشائك وعاق وعائق. وقيل: هو مَن هار بها إذا انهدم، ومعناه الساقط الذي يتداعى بعضه في إثْر بعض كما ينهار الرمل والشيء الرخو. ﴿ **فانْهَارَ به** ﴾، أي: سقط بالباني ﴿ **في نارِ جهنّمَ** ﴾، يريد بناء هذا المسجد الضرار كالبناء على شفير جهنم فيهور بأهلها فيها. قال ابن عباس رضي الله عنهما: يريد صيّرهمُ النفاقُ إلى النار. ﴿ **واللَّهُ لا يهدي القومَ الظالمين** ﴾، قال قتادة: والله ما تناهى أن وقع في النار، وذكر لنا أنه حفرت بقعة فيه، فرُؤِيَ الدخان يخرج

قال ابن عباس: صيرهم نفاقهم إلى النار. وقال قتادة: والله ما تناهى بناؤهم حتى وقع في النار ولقد ذكر لنا أنه حفرت بقعة منه فرؤي الدخان يخرج منها. وقال جابر بن عبد الله: رأيت الدخان يخرج من مسجد الضرار.

﴿لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾﴾

﴿لا يزال بنيانهم الذي بنوا ريبة﴾ يعني شكاً ونفاقاً **﴿في قلوبهم﴾** والمعنى: أن ذلك البنيان صار سبباً لحصول الريبة في قلوبهم، لأن المنافقين فرحوا ببناء مسجدهم، فلما أمر رسول الله ﷺ بتخريبه، ثقل ذلك عليهم وازدادوا غماً وحزناً وبغضاً لرسول الله ﷺ فكان سبب الريبة في قلوبهم. وقيل: إنهم كانوا يحسبون أنهم محسنون في بنائه كما حبب العجل إلى بني إسرائيل فلما أمر رسول الله ﷺ بتخريبه، بقوا شاكّين مرتابين لأي سبب أمر بتخريبه. وقال السدي: لا يزال هدم بنيانهم ريبة أي حرارة وغيظاً في قلوبهم **﴿إلا أن تقطع قلوبهم﴾** أي تجعل قلوبهم قطعاً وتفرق أجزاء إما بالسيف وإما بالموت. والمعنى: أن هذه الريبة باقية في قلوبهم إلى أن يموتوا عليها **﴿والله عليم﴾** يعني بأحوالهم وأحوال جميع عباده **﴿حكيم﴾** يعني فيما حكم به عليهم. قوله عز وجل: **﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة﴾** الآية قال محمد بن كعب القرظي: لما بايعت الأنصار رسول الله ﷺ ليلة العقبة وكانوا سبعين رجلاً قال عبد الله بن رواحة: اشترط لربك ولنفسك ما شئت. قال أشترط لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً وأشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم. قالوا إذا فعلنا ذلك فما لنا؟ قال: الجنة. قالوا: ربح البيع لا نقيل ولا نستقيل. فنزلت **﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة﴾** قال ابن عباس: بالجنة. قال أهل المعاني لا يجوز أن يشتري الله شيئاً هو له في الحقيقة لأن المشتري إنما يشتري ما لا يملك والأشياء كلها ملك الله عز وجل، ولهذا قال الحسن: أنفسنا هو خلقها وأموالنا هو رزقنا إياها لكن جرى هذا مجرى التلطف في الدعاء إلى الطاعة والجهاد، وذلك لأن المؤمن إذا قاتل في سبيل الله حتى يقتل أو أنفق ماله في سبيل الله عوّضه الله

منها، وقال جابر بن عبد الله: رأيت الدخان يخرج من مسجد الضرار.

﴿ لا يزالُ بُنيانُهُمُ الذي بَنَوْا رِيبَةً ﴾، أي: شكّاً ونفاقاً، **﴿ في قلوبهم ﴾**، يحسبون أنهم كانوا في بنائه مُحسنين كما حُبّب العجل إلى قوم موسى. قاله ابن عباس رضي الله عنهما وقال الكلبي: حسرة وندامة لأنهم ندموا على بنائه. وقال السدي: لا يزال هدم بنيانهم ريبةً وحزازةً وغيظاً في قلوبهم. **﴿ إلّا أنْ تَقَطَّعَ قلوبُهم ﴾**، أي: تتصدّع قلوبهم فيموتوا. وقرأ ابن عامر وأبو جعفر وحفص وحمزة «تقطـع» بفتح التاء أي: تتقطّع، فحذفت إحدى التاءين تخفيفاً، وقرأ الآخرون «تقطع» بضمّ التاء من التقـطيع، وقـرأ يعقوب وحـده «إلى أن» بتخفيف الـلام على الغاية، وقرأ الباقون «إلّا أن» بتشـديد اللام على الاستثناء، ويدلّ على قراءة يعقوب تفسير الضحاك وقتادة: لا يزالون في شكّ منه وندامة إلى أن يموتوا فحينئذ يستيقنوا. **﴿ واللَّهُ عليمٌ حكيمٌ ﴾**.

قوله تعالى: **﴿ إنّ اللّهَ اشترَى مِنَ المؤمنينَ أنفسَهم وأموالَهم ﴾**، قال محمد بن كعب القرظي: لمّا بايعتِ الأنصارُ رسولَ الله ﷺ ليلة العقبة بمكة وهم سبعون نفساً، قال عبد الله بن رواحة: يا رسول الله اشترط لربك ولنفسك ما شئت، فقال: «أشترط لربّي عزّ وجلّ أن تعبدوه ولا تُشركوا به شيئاً، وأشترط لنفسي أن تمنعوني مما

الجنة في الآخرة جزاء لما فعل في الدنيا فجعل ذلك استبدالاً واشتراء فهذا معنى اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة والمراد باشتراء الأموال إنفاقها في سبيل الله وفي جميع وجوه البر والطاعة ﴿**يقاتلون في سبيل الله**﴾ هذا تفسير لتلك المبايعة. وقيل: فيه معنى الأمر أي قاتلوا في سبيل الله ﴿**فيقتلون ويقتلون**﴾ يعني: فيقتلون أعداء الله ويقتلون في طاعته وسبيله ﴿**وعداً عليه حقاً**﴾ يعني ذلك الوعد بأن لهم الجنة وعداً على الله حقاً ﴿**في التوراة والإنجيل والقرآن**﴾ يعني أن هذا الوعد الذي وعده الله تعالى للمجاهدين في سبيله قد أثبته في التوراة والإنجيل كما أثبته في القرآن وفيه دليل على أن الأمر بالجهاد موجود في جميع الشرائع ومكتوب على جميع أهل الملل ﴿**ومن أوفى بعهده من الله**﴾ يعني لا أحد أوفى بالعهد من الله ﴿**فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به**﴾ فاستبشروا أيها المؤمنون بهذا البيع الذي بايعتم الله به ﴿**وذلك**﴾ يعني هذا البيع ﴿**هو الفوز العظيم**﴾ لأنه رابح في الآخرة. قال عمر بن الخطاب: إن الله بايعك وجعل الصفقتين لك وقال الحسن: اسمعوا إلى بيعة ربيحة بايع الله بها كل مؤمن وعنه قال: إن الله سبحانه وتعالى أعطاك الدنيا فاشتر الجنة ببعضها. وقال قتادة: ثامَنهم فأغلى لهم.

ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾

قوله سبحانه وتعالى: ﴿**التائبون**﴾ قال الفراء: استؤنف لفظ التائبون بالرفع لتمام الآية الأولى وانقطاع الكلام.

وقال الزجاج: التائبون رفع بالابتداء وخبره مضمر. والمعنى: التائبون إلى آخره لهم الجنة أيضاً وإن لم يجاهدوا غير معاندين ولا قاصدين بترك الجهاد وهذا وجه حسن فكأنه وعد بالجنة جميع المؤمنين. كما قال تعالى: وكلا وعد الله الحسنى ومن جعله تابعاً للأول، كان الوعد بالجنة خاصاً بالمجاهدين الموصوفين بهذه الصفات،

تمنعون منه أنفسَكم وأموالكم»، قالوا: فإذا فعلنا ذلك فما لنا؟ قال: «الجنة»، قالوا: رَبحَ البيعُ لا نقيلُ ولا نستقيل فنزلت: ﴿ **إنّ اللَّهَ اشتَرى مِنَ المؤمنينَ أنفسَهم وأموالَهم بأنّ لهمُ الجنَّةُ** ﴾، وقرأ الأعمش «بالجنة» ﴿ **يُقاتِلُونَ في سبيـل الله فيقتُلُون ويُقتَلُون** ﴾، قـرأ حمـزة والكسائي: «فيقتلون» بضم اليـاء وفتح التـاء «ويقتلون» بفتـح اليـاء وضم التاء على تقديم فعل المفعول على فعل الفاعل، يعني: يُقتل بعضهُم ويقتل الباقون، وقرأ البـاقون «فيقتلون» بفتـح اليـاء وضمّ التـاء «ويقتلون» بضم اليـاء وفتـح التـاء على تقـديم فعـل الفـاعـل على مـا فعـل المفعول. والوجه أنهم يقتلون الكفّار أولاً ثم يستشهدون، هذا الوجه أظهر والقراءة به أكثر. ﴿ **وَعْداً عليهِ حقّاً** ﴾ أي: ثواب الجنّة لهم وعدٌ وحقٌّ ﴿ **في التوراة والإنجيل والقرآن** ﴾، يعني أنّ اللَّهَ عزّ وجلّ وعدهم هذا الوعد وبيّنه في هذه الكتب، وفيه دليل على أن أهل المِلَل كلهم أُمروا بالجهاد على ثواب الجنة، ثم هنّأهم فقال: ﴿ **وَمَنْ أوْفَى بعهدِه مِنَ اللَّهِ فاستبشِرُوا** ﴾، فافرحوا ﴿ **ببيعِكُم الذي بايَعْتُم بهِ وذلكَ هو الفوزُ العظِيم** ﴾، قال عمر رضي الله عنه: إنّ الله عزّ وجلّ بايعك وجعل الصفقتين لك وقال قتادة: ثامَنَهُمُ اللَّهُ عزّ وجلّ فأغْلَى لهم، وقال الحسن: اسعوا إلى بيعة ربيحة بايع الله بها كل مؤمن. وعنه أنه قال: إن الله أعطاك الدنيا فاشترِ الجنة ببعضها، ثم وصفهم فقال:

﴿ **التائِبُون** ﴾، قال الفرّاء: استُؤنِفَتْ بالرفع لتمام الآية وانقطاع الكلام. وقال الزجّاج: التائبون رفع بالابتداء وخبره مضمر المعنى التائبون إلى آخر الآية لهم الجنة أيضاً أي: مَن لم يجاهد غير معاند ولا قاصد لترك الجهاد،

فيكون رفع التائبون على المدح يعني المؤمنين المذكورين في قوله: إن الله اشترى. وأما التفسير: فقوله سبحانه وتعالى التائبون يعني الذين تابوا من الشرك وبرئوا من النفاق. وقيل: التائبون من كل معصية فيدخل فيه التوبة من الكفر والنفاق. وقيل: التائبون من جميع المعاصي، لأن لفظ التائبين لفظ عموم فيتناول الكل. واعلم أن التوبة المقبولة إنما تحصل بأمور أربعة: أولها احتراق القلب عند صدور المعصية، وثانيها الندم على فعلها فيما مضى، وثالثها العزم على تركها في المستقبل، ورابعها أن يكون الحامل له على التوبة طلب رضوان الله وعبوديته فإن كان غرضه بالتوبة تحصيل مدح الناس له ودفع مذمتهم فليس بمخلص في توبته. ﴿**العابدون**﴾ يعني المطيعين لله الذين يرون عبادة الله واجبة عليهم وقيل هم الذين أتوا بالعبادة على أقصى وجوه التعظيم لله تعالى وهي أن تكون العبادة خالصة لله تعالى: ﴿**الحامدون**﴾ يعني الذين يحمدون الله تعالى على كل حال في السراء والضراء.

روى البغوي بغير سند عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: أول من يدعى إلى الجنة يوم القيامة، الذين يحمدون الله في السراء والضراء. وقيل: هم الذين يحمدون الله ويقومون بشكره على جميع نعمه دنيا وأخرى ﴿**السائحون**﴾ قال ابن مسعود وابن عباس: هم الصائمون. قال سفيان بن عيينة: إنما سمي الصائم سائحاً لتركه اللذات كلها من المطعم والمشرب والنكاح. وقال الأزهري: قيل للصائم سائح لأن الذي يسيح في الأرض متعبداً لا زاد معه فكان ممسكاً عن الأكل وكذلك الصائم ممسك عن الأكل. وقيل: أصل السياحة استمرار الذهاب في الأرض كالماء الذي يسيح والصائم مستمر على فعل الطاعة وترك المنهي وقال عطاء: السائحون هم الغزاة المجاهدون في سبيل الله ويدل عليه ما روي عن عثمان بن مظعون قال قلت يا رسول الله ائذن لي في السياحة. فقال: إن سياحة أمتي الجهاد في سبيل الله ذكره البغوي بغير سند. وقال عكرمة: السائحون هم طلبة العلم لأنهم ينتقلون من بلد إلى بلد في طلبه وقيل إن السياحة لها أثر عظيم في تهذيب النفس وتحسين أخلاقها لأن السائح لا بد أن يلقى أنواعاً من الضر والبؤس ولا بد له من الصبر عليها ويلقى العلماء والصالحين في سياحته فيستفيد منهم ويعود عليه من بركتهم ويرى العجائب وأثار قدرة الله تعالى فيتفكر في ذلك فيدله على وحدانية الله سبحانه وتعالى وعظيم قدرته ﴿**الراكعون الساجدون**﴾ يعني المصلين وإنما عبر عن الصلاة بالركوع والسجود، لأنهما معظم أركانها وبهما يتميز المصلي من غير المصلي بخلاف حالة القيام والقعود لأنهما حالة المصلي وغيره ﴿**الآمرون بالمعروف**﴾ يعني يأمرون الناس بالإيمان بالله وحده ﴿**والناهون**

لأنَّ بعض المسلمين يُجزي عن بعض في الجهاد، فمَن كانت هذه صفته فله الجنة أيضاً، وهذا أحسن فكأنه وعَدَ الجنّةَ لجميع المؤمنين، كما قال: ﴿ وكلاً وعَدَ اللَّهُ الحسنى ﴾ [النساء: ٩٥]، فمَن جعله تابعاً للأول فلهم الوعد بالجنة أيضاً، وإن كان الوعد بالجنة للمجاهدين الموصوفين بهذه الصفات. قوله: ﴿ **التائبون** ﴾ أي: الذين تابوا من الشرك وبرؤوا من النفاق، ﴿ **العابِدُون** ﴾ المطيعون الذين أخلصوا العبادة لله عزّ وجلّ ﴿ **الحامِدُون** ﴾، الذين يحمدون الله على كل حال في السرّاء والضرّاء. وروينا عن ابن عباس رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ قال: «أول مَن يدعى إلى الجنة يوم القيامة الذين يحمِدُون الله في السرّاء والضرّاء». ﴿ **السّائحُون** ﴾، قال ابن مسعود وابن عباس رضي الله عنهما: هم الصائمون. وقال سفيان بن عيينة: إنّما سُمّيَ الصائمُ سائحاً لتركه اللذّات كلها من المطعم والمشرب والنكاح. وقال عطاء: السائحون الغزاة المجاهدون في سبيل الله. رُوِيَ عن عثمان بن مظعون رضي الله عنه ائذن لي في السياحة، فقال: (إن سياحة أُمتي الجهاد في سبيل الله). وقال عكرمة: السائحون هم طلبة العلم. ﴿ **الرّاكِعُون الساجِدُون** ﴾، يعني: المصلّين، ﴿ **الآمِرُونَ بالمعرُوف** ﴾، بالإيمان، ﴿ **والناهُونَ عن المُنكَرِ** ﴾ عن الشرك. وقيل: المعروف السُّنّة والمنكر البدعة. ﴿ **والحافِظُونَ لحدودِ اللّهِ** ﴾، القائمون بأوامر الله. وقال الحسن: أهل الوفاء ببيعة الله. ﴿ **وبشّرِ المؤمنين** ﴾.

عن المنكر﴾ يعني عن الشرك بالله. وقيل: إنهم يأمرون الناس بالحق في أديانهم واتباع الرشد والهدى والعمل الصالح وينهونهم عن كل قول وفعل نهى الله عباده عنه أو نهى عنه رسول الله ﷺ قال الحسن: أما أنهم لم يأمروا الناس بالمعروف حتى كانوا من أهله ولم ينهوا عن المنكر حتى انتهوا عنه وأما دخول الواو في والناهون عن المنكر فإن العرب تعطف بالواو على السبعة ومنه قوله سبحانه وتعالى: وثامنهم كلبهم وقوله تعالى في صفة الجنة: وفتحت أبوابها. وقيل: فيه وجه آخر وهو أن الموصوفين بهذه الصفات الست هم الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر، فعلى هذا يكون قوله تعالى التائبون إلى قوله الساجدون مبتدأ خبره الآمرون يعني هم الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر **﴿والحافظون لحدود الله﴾** قال ابن عباس: يعني القائمين بطاعة الله وقال الحسن: الحافظون لفرائض الله وهم أهل الوفاء ببيعة الله. وقيل: هم المؤدون فرائض الله المنتهون إلى أمره ونهيه فلا يضيعون شيئاً من العمل الذي ألزمهم به ولا يرتكبون منهياً نهاهم عنه **﴿وبشر المؤمنين﴾** يعني بشر يا محمد المصدقين بما وعدهم الله به إذا وفوا الله تعالى بعهده فإنه موف لهم بما وعدهم من إدخال الجنة. وقيل: وبشر من فعل هذه الأفعال التسع وهو قوله تعالى التائبون إلى آخر الآية بأن له الجنة وإن لم يغز.

قوله عز وجل: **﴿ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى﴾** الآية واختلف أهل التفسير في سبب نزول هذه الآية فقال قوم: نزلت في شأن أبي طالب عم النبي ﷺ والد علي وذلك أن النبي ﷺ أراد أن يستغفر له بعد موته فنهاه الله عن ذلك ويدل على ذلك ما روي عن سعيد بن المسيب عن أبيه المسيب بن حزن «قال لما حضرت أبا طالب الوفاة جاء رسول الله ﷺ فوجد عنده أبا جهل وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة فقال أي عم قل لا إله إلا الله كلمة أحاجُّ لك بها عند الله فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة: أترغب عن ملة عبد المطلب فلم يزل رسول الله ﷺ يعرضها عليه ويعودان لتلك المقالة حتى قالوا: أبو طالب آخر ما كلمهم أنا على ملة عبد المطلب وأبى أن يقول لا إله إلا الله فقال رسول الله ﷺ والله لأستغفرن لك ما لم أنه عنك فأنزل الله تعالى ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى وأنزل الله في أبي طالب «إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء» أخرجاه في الصحيحين.

فإن قلت قد استبعد بعض العلماء نزول هذه الآية في شأن أبي طالب وذلك أن وفاته كانت بمكة أول الإسلام ونزول هذه السورة بالمدينة وهي من آخر القرآن نزولاً.

﴿ ما كان للنبيِّ والذينَ آمنُوا أنْ يستغفرُوا للمشركين ﴾، اختلفوا في سبب نزول هذه الآية، قال قوم: سبب نزولها ما أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا أبو اليمان أنبأنا شعيب عن الزهري حدّثني سعيد بن المسيب عن أبيه. قال: لمّا حضرتْ أبا طالب الوفاةُ جاء رسول الله ﷺ فوجد عنده أبا جهل وعبد الله بن أبي أُمية بن المغيرة فقال: أيْ عمّ قلْ لا إله إلاّ الله كلمة أحاجُّ لكَ بها عند الله، فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أُميّة بن المغيرة: أترغب عن ملّة عبد المطّلب؟ فلم يزلْ رسولُ الله ﷺ يَعْرِضُها عليه ويعودان لتلك المقالة حتى قال أبو طالب آخر ما كلّمهم: أنا على مِلّةِ عبد المطّلب، وأَبى أنْ يقول: لا إله إلاّ الله، فقال رسول الله ﷺ: «والله لأستغفرنّ لك ما لم أنْهَ عنكَ»، فأنزل الله تعالى: ﴿ ما كانَ للنبيِّ والذينَ آمنُوا أن يستغفرُوا للمشركينَ ولو كانُوا أُولي قُرْبَى مِنْ بعدِ مَا تبيّنَ لهم أنّهم أصحابُ الجَحِيم ﴾، وأنزل في أبي طالب: ﴿ إنّكَ لا تهدي مَن أحبَبْتَ ولكنَّ الله يهدي مَنْ يشاءُ ﴾ [القصص: ٥٦]. أخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر أنبأنا عبد الغافر بن محمد أنبأنا محمد بن عيسى ثنا إبراهيم بن محمد بن سفيان ثنا مسلم بن الحجّاج حدّثني محمد بن حاتم بن ميمون ثنا يحيىٰ بن سعيد ثنا يزيد بن كيسان حدّثني أبو حازم

«قلت الذي نزل في أبي طالب قوله تعالى إنك لا تهدي من أحببت فقال النبي ﷺ لأستغفرن لك ما لم أنه عنك» كما في الحديث فيحتمل أنه ﷺ كان يستغفر له في بعض الأوقات إلى أن نزلت هذه الآية فمنع من الاستغفار والله أعلم بمراده وأسرار كتابه (م).

عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ لعمه عند الموت: «قل لا إله إلا الله أشهد لك بها يوم القيامة فأبى فأنزل الله إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء» الآية وفي رواية قال: «لولا تعيرني قريش يقولونَ إنما حمله على ذلك الجزع لأقررت بها عينك فأنزل الله الآية» (ق).

«عن أبي سعيد الخدري أنه سمع رسول الله ﷺ وذكر عنده عمه طالب فقال «لعله تنفعه شفاعتي يوم القيامة فيجعل في ضحضاح من نار يبلغ كعبيه تغلى منه أم دماغه» وفي رواية: «يغلى منه دماغه من حرارة نعليه» (ق) عن العباس بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ قال: «قلت يا رسول الله ما أغنيت عن عمك فإنه كان يحوطك ويغضب لك قال: هو في ضحضاح من نار ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار» وفي رواية قال قلت يا رسول الله إن عمك أبا طالب كان يحوطك وينصرك فهل ينفعه ذلك قال «نعم وجدته في غمرات من نار فأخرجته إلى ضحضاح» وقال أبو هريرة وبريدة «لما قدم النبي ﷺ مكة أتى قبر أمه آمنة فوقف حتى حميت الشمس رجاء أن يؤذن له فيستغفر لها فنزلت ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين» الآية وروى الطبري بسنده عن بريدة: «أن النبي ﷺ لما قدم مكة أتى رسم قال وأكثر ظني أنه قال قبر أمه فجلس إليه فجعل يخاطب ثم قام مستعبراً فقلنا: يا رسول الله إنا رأينا ما صنعت قال إني استأذنت ربي في زيارة قبر أمي فأذن لي واستأذنته في الاستغفار لها فلم يؤذن لي فما رؤي باكياً أكثر من يومئذ».

وحكى ابن الجوزي «عن بريدة قال إن النبي ﷺ مر بقبر أمه فتوضأ وصلى ركعتين ثم بكى فبكى الناس لبكائه ثم انصرف إليهم فقالوا: ما أبكاك؟ قال: مررت بقبر أمي فصليت ركعتين ثم استأذنت ربي أن أستغفر لها فنهيت فبكيت ثم عدت فصليت ركعتين فاستأذنت ربي أن أستغفر لها فزجرت زجراً فأبكاني ثم دعا براحلته فركبها فما سار إلا هنيهة حتى قامت الناقة لثقل الوحي فنزلت ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى» الآية (ق) «عن أبي هريرة قال زار النبي ﷺ قبر أمه فبكى وأبكى من حوله فقال استأذنت ربي في أن أستغفر لها فلم يؤذن لي واستأذنته في أن أزور قبرها فأذن لي فزوروا القبور فإنها تذكركم الموت» وقال قتادة قال النبي ﷺ: «لأستغفرن لأبي كما استغفر إبراهيم لأبيه» فأنزل الله هذه الآية وروى الطبري بسنده عنه قال: «ذكر لنا أن رجالاً من أصحاب رسول الله ﷺ قالوا يا نبي الله إن من آبائنا من كان يحسن الجوار ويصل الأرحام ويفك العاني ويوفي بالذمم أفلا نستغفر لهم فقال

الأشجعي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله لعمّه أبي طالب: «قلْ لا إله إلاّ الله أشهدُ لكَ بها يوم القيامة» فقال: لولا أن تعيّرَني قريشٌ فيقولون إنّما حمله على ذلك الجزع لأقررتُ بها عينكَ فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿ إنّك لا تهدي مَن أحببتَ ولكنّ اللّهَ يهدي مَنْ يشاءُ ﴾ [القصص: ٥٦]. أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا عبد الله بن يوسف حدّثني الليث عن يزيد بن الهاد عن عبد الله بن خباب عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنه سمع النبيَّ ﷺ وذُكِرَ عنده عمُّه أبو طالب، فقال: «لعلّه تنفعه شفاعتي يوم القيامة، فيجعل في ضَحْضَاح منَ النار يبلغُ كعبيه يغلي منه دماغه»، وقال أبو هريرة وبريدة: لمّا قَدِمَ رسول الله ﷺ مكة أتى قبر أمه آمنة فوقف عليه حتى حميت الشمس رجاء أن يؤذن له فيستغفر لها فنزلت: ﴿ ما كان للنبيِّ والذينَ آمنُوا أنْ يستغفرُوا للمشركين ﴾ الآية. أخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر ثنا عبد الغافر بن محمد ثنا محمد بن عيسى الجلودي ثنا إبراهيم بن محمد بن سفيان ثنا مسلم بن الحجّاج ثنا أبو بكر بن أبي شيبة

النبي ﷺ بلى والله لأستغفرن لأبي كما استغفر إبراهيم لأبيه فأنزل الله عز وجل ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين» الآية ثم عذر الله إبراهيم فقال تعالى وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه الآية عن علي بن أبي طالب قال: سمعت رجلاً يستغفر لأبويه وهما مشركان فقلت له أتستغفر لأبويك وهما مشركان فقال: استغفر إبراهيم لأبيه وهو مشرك فذكرت ذلك للنبي ﷺ فنزلت: ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين الآية أخرجه النسائي والترمذي. وقال: حديث حسن وأخرجه الطبري. وقال فيه: فأنزل الله عز وجل وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه الآية ومعنى الآية ما كان ينبغي للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين وليس لهم ذلك لأن الله سبحانه وتعالى لا يغفر للمشركين ولا يجوز أن يطلب منه ما لا يفعله ففيه النهي عن الاستغفار للمشركين ولو كانوا أولي قربى لأن النهي عن الاستغفار للمشركين عام فيستوي فيه القريب والبعيد ثم ذكر عز وجل سبب المنع فقال تعالى: ﴿**من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم**﴾ يعني تبين لهم أنهم ماتوا على الشرك فهم من أصحاب الجحيم وأيضاً فقد قال تبارك وتعالى إن الله لا يغفر أن يشرك به والله تعالى لا يخلف وعده أما قوله سبحانه وتعالى:

وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾

﴿**وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه**﴾ فمعناه وما كان طلب إبراهيم لأبيه المغفرة من الله إلا من أجل موعدة وعدها إبراهيم إياه أن يستغفر له رجاء إسلامه قال علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه: «لما أنزل الله خبراً عن إبراهيم» أنه قال سلام عليك سأستغفر لك ربي سمعت رجلاً يستغفر لوالديه وهما مشركان فقلت أتستغفر لأبويك وهما مشركان فقال أولم يستغفر إبراهيم لأبيه فأتيت النبي ﷺ فذكرت ذلك له فأنزل الله عز وجل: ﴿قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم﴾ إلى قوله إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك» يعني أن إبراهيم ليس بقدوة في

أنبأنا محمد بن عبي عن يزيد بن كيسان عن أبي حازم عن أبي هريرة قال زار النبي ﷺ قبرَ أُمِّه فبكى وأبكى مَن حوله فقال: «استأذنتُ ربّي عزّ وجلّ في أن أستغفر لها فلم يؤذن لي واستأذنته في أن أزور قبرها فأذِنَ لي فزوروا القبور، فإنها تُذكّر الموت» قال قتادة: قال النبيُّ ﷺ: «لأستغفرنّ لأبي. كما استغفرَ إبراهيم لأبيه» فأنزل الله تعالى هذه الآية: ﴿ **ما كان للنبيّ والذينَ آمنوا أنْ يستغفرُوا للمشركين ولو كانُوا أُولي قُرْبى مِنْ بعدِ ما تبيّنَ لهم أنّهم أصحابُ الجحيم** ﴾، وقال عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه: لمّا أنزل الله عزّ وجلّ خبراً عن إبراهيم عليه السلام قال لأبيه: ﴿ سلامٌ عليكَ سأستغفرُ لكَ ربّي ﴾ [مريم: ٤٧] سمعت رجلاً يستغفر لوالديه وهما مشركان، فقلت له: تستغفر لهما وهما مشركان؟! فقال: أوَلم يستغفر إبراهيم لأبيه؟ فأتيت النبيَّ ﷺ فذكرتُ ذلك له فأنزلَ الله عزّ وجلّ: ﴿ قدْ كانَتْ لكم أُسْوَةٌ حسنةٌ في إبراهيم ﴾ [الممتحنة ٤]، إلى قوله: ﴿ إلّا قولَ إبراهيمَ لأبيه لأستغفرنّ لك ﴾ [الممتحنة: ٤].

قوله تعالى: ﴿ **وما كانَ استغفارُ إبراهيم لأبيه إلاّ عَنْ مَوعِدةٍ وعدَها إيّاه** ﴾، قال بعضهم: الهاء في إياه عائدة إلى إبراهيم عليه السلام. والوعد كان من أبيه، وذلك أن أباه كان وعده أن يسلم، فقال له إبراهيم: سأستغفر لك ربي يعني إذا أسلمتَ. وقال بعضهم: الهاء راجعة إلى الأب وذلك أن إبراهيم وعد أباه أن يستغفر له رجاء إسلامه. وهو قوله: ﴿ سأستغفرُ لكَ ربّي ﴾ [مريم: ٤٧]، يدلّ عليه قراءة الحسن: «وعدها أباه»، بالباء الموحدة، والدليل على أن الوعد من إبراهيم وكان الاستغفار في حال شرك الأب قوله تعالى: ﴿ قد كانتْ لكم أُسْوَةٌ حسنةٌ في

هذا الاستغفار لأنه إنما استغفر لأبيه وهو مشرك لمكان الوعد الذي وعده أن يسلم ﴿فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه﴾ فعلى هذا الهاء في إياه راجعة إلى إبراهيم والوعد كان من أبيه وذلك أن أبا إبراهيم وعد إبراهيم أن يسلم فقال إبراهيم: سأستغفر لك ربي يعني إذا أسلمت. وقيل: إن الهاء راجعة إلى الأب وذلك أن إبراهيم وعد أباه أن يستغفر له رجاء إسلامه. ويؤكد هذا قوله: سأستغفر لك ربي ويدل عليه أيضاً قراءة الحسن وعدها أباه بالباء الموحدة فلما تبين له أنه عدو لله، تبرأ منه يعني: فلما ظهر لإبراهيم وبان له أن أباه عدو لله يعني بموته على الكفر تبرأ منه عند ذلك وقيل يحتمل أن الله سبحانه وتعالى أوحى إلى إبراهيم أن أباه عدو له فتبرأ منه وقيل لما تبين له في الآخرة أنه عدو لله تبرأ منه ويدل على ذلك ما روي عن أبي هريرة «أن النبي ﷺ. قال: يلقى إبراهيم عليه السلام أباه آزر يوم القيامة وعلى وجه آزر قترة وغبرة فيقول إبراهيم ألم أقل لك لا تعصني فيقول أبوه فاليوم لا أعصيك فيقول إبراهيم يا رب إنك وعدتني أن لا تخزيني يوم يبعثون فأي خزي أخزى من أبي فيقول الله تبارك وتعالى إني حرمت الجنة على الكافرين ثم يقال يا إبراهيم ما تحت رجليك فينظر فإذا هو بذيخ متلطخ فيؤخذ بقوائمه فيلقى في النار» أخرجه البخاري زاد غيره فتبرأ منه والقترة غبرة يعلوها سواد والذيخ بذال معجمة ثم ياء مثناة من تحت ثم خاء معجمة هو ذكر الضباع والأنثى ذيخة.

وقوله تبارك وتعالى: ﴿إن إبراهيم لأواه حليم﴾ جاء في الحديث إن الأواه الخاشع المتضرع. وقال ابن مسعود: الأواه الكثير الدعاء وقال ابن عباس رضي الله عنهما: هو المؤمن التواب، وقال الحسن وقتادة: الأواه الرحيم بعباد الله وقال مجاهد: الأواه الموقن وقال كعب الأحبار: هو الذي يكثر التأوه وكان إبراهيم ﷺ يكثر أن يقول أوه من النار قبل أن لاينفع أوه وقال عقبة بن عامر: الأواه الكثير الذكر لله عز وجل وقال سعيد بن جبير هو المسبح وعنه أنه المعلم للخير. وقال عطاء: هو الراجع عما يكره الله الخائف من النار. وقال أبو عبيدة: هو المتأوه شفقاً وفرقاً المتضرع إيقاناً ولزوماً للطاعة. وقال الزجاج: انتظم في قول أبي عبيدة جميع ما قيل في الأواه وأصله من التأوه وهو

إبراهيم ﴾ [الممتحنة: ٤]، إلى أن قال: ﴿ إلاّ قولَ إبراهيمَ لأبيه لأستغفرنّ لك ﴾ [الممتحنة: ٤]، فصرّح أن إبراهيم ليس بقدوة في الاستغفار، وإنما استغفر له وهو مشرك لمكان الوعد رجاء أن يسلم. ﴿ فلمّا تبيّنَ له أنّهُ عدوٌّ للّهِ ﴾، لموته على الكفر، ﴿ تبرأ منه ﴾، وقيل: فلما تّبين له في الآخرة أنه عدو لله تبرأ منه أي: يتبرأ منه، وذلك ما أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا إسماعيل بن عبد الله حدّثني أخي عبد الحميد عن ابن أبي ذئب عن سعيد المقبري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة وعلى وجه آزر قترة وغبرة، فيقول له إبراهيم: ألم أقل لك لا تعصيني؟! فيقول له أبوه: فاليوم لا أعصيك، فيقول إبراهيم عليه السلام: يا ربِّ إنّك وعدتني أن لا تخزيني يوم يُبعثون، فأيُّ خزيٍ أخزَى مَنْ أَبي فيقول الله إنّي حرّمتُ الجنّةَ على الكافرين، ثم يقال لإبراهيم: ما تحت رجليك؟ فينظر فإذا هو بذيخٌ متلطّخ فيُؤخذ بقوائمه فيلقى في النار» وفي رواية: يتبرأ منه يومئذ. قوله تعالى: ﴿ إن إبراهيم لأوّاهٌ حليم ﴾، اختلفوا في معنى الأوّاه، جاء في الحديث «إنّ الأوّاه الخاشعُ المتضرّع». وقال عبد الله بن مسعود: الأوّاه الدعاء. وعن ابن عباس قال: هو المؤمن التوّاب. وقال الحسن وقتادة: الأوّاه الرحيم بعباد الله. وقال مجاهد: الأوّاه الموقن. وقال عكرمة: هو المستيقن بلغة الحبشة. وقال كعب الأحبار: هو الذي يكثر التأوّه، وكان إبراهيم عليه السلام يكثر أن يقول: أوه من النار. قبل أن لا ينفع أوه. وقيل: هو الذي يتأوّه من الذنوب. وقال عقبة بن عامر: الأوّاه الكثير الذكر لله تعالى. وعن سعيد بن جبير قال: الأوّاه المسبح. ورُوِيَ عنه: الأوّاه: المعلِّم للخير. وقال النخعي: هو الفقيه. وقال عطاء: هو الراجع عن كل ما يكره الله. وقال أيضاً: هو الخائف من النار. وقال أبو عبيدة: هو المتأوّه شَفَقاً وفَرَقاً المتضرّع يقيناً. يريد أن يكون تضرّعه على يقين الإجابة ولزوم الطاعة. قال الزجّاج:

أن يسمع للصدر صوت تنفس الصعداء والفعل منه أوه هو قول الرجل عند شدة خوفه وحزنه أوه والسبب فيه أن عند الحزن تحمي الروح داخل القلب ويشتد حرها فالإنسان يخرج ذلك النفس المحترق في القلب ليخف بعض ما به من الحزن والشدة وأما الحليم: فمعناه ظاهر وهو الصفوح عمن سبه أو أتاه بمكروه ثم يقابله بالإحسان واللطف كما فعل إبراهيم بأبيه حين قال لئن لم تنته لأرجمنك، فأجابه إبراهيم بقوله سلام عليك سأستغفر لك ربي. وقال ابن عباس: الحليم: السيد، وإنما وصف الله عز وجل إبراهيم عليه السلام بهذين الوصفين وهما شدة الرقة والخوف الوجل والشفقة على عباد الله ليبين سبحانه وتعالى أنه مع هذه الصفات الجميلة الحميدة تبرأ من أبيه لما ظهر له إصراره على الكفر فاقتدوا به أنتم في هذه الحالة أيضاً.

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وما كان الله ليضل قوماً بعد إذ هداهم﴾ يعني: وما كان الله ليقضي عليكم بالضلال بسبب استغفاركم لموتاكم المشركين بعد أن رزقكم الهداية ووفقكم للإيمان به وبرسوله وذلك أنه لما منع المؤمنين من الاستغفار للمشركين وكانوا قد استغفروا لهم قبل المنع خافوا ما صدر منهم فأعلمهم أن ذلك ليس بضائرهم ﴿حتى يبين لهم ما يتقون﴾ يعني ما يأتون وما يذرون وهو أن يقدم إليهم النهي عن ذلك الفعل فأما قبل النهي فلا حرج عليهم في فعله وقيل: إن جماعة من المسلمين كانوا قد ماتوا قبل النهي عن الاستغفار للمشركين فلما منعوا من ذلك وقع في قلوب المؤمنين خوف على من مات على ذلك فأنزل الله عز وجل هذه الآية وبين أنه لا يؤآخذهم بعمل إلا بعد أن يبين لهم ما يجب عليهم أن يتقوه ويتركوه. وقال مجاهد: بيان الله للمؤمنين في ترك الاستغفار للمشركين خاصة وبيانه لهم في معصيته وطاعته عامة. وقال الضحاك: وما كان الله ليعذب قوماً حتى يبين لهم ما يأتون وما يذرون. وقال مقاتل والكلبي: هذا في أمر المنسوخ وذلك أن قوماً قدموا على النبي ﷺ وأسلموا قبل تحريم الخمر وصرف القبلة إلى الكعبة ورجعوا إلى قومهم وهم على ذلك ثم حرمت الخمر وصرفت القبلة إلى الكعبة ولا علم لهم بذلك ثم قدموا بعد ذلك إلى المدينة فوجدوا الخمر قد حرمت والقبلة قد صرفت إلى الكعبة فقالوا: يا رسول الله ﷺ قد كنت على دين ونحن على غيره فنحن على ضلال فأنزل الله عز وجل: ﴿وما كان الله ليضل قوماً بعد إذ هداهم﴾ يعني وما كان الله

قد انتظم في قول أبي عبيدة أكثر ما قيل في الأوّاه. وأصله من التأوّهِ وهو أن يسمع للصدر صوت من تنفّس الصعداء، والفعل منه أوّه وتأوّه، والحليم الصفوح عمّن سبّه أو ناله بالمكروه، كما قال لأبيه عند وعيده، وقوله: ﴿ لئنْ لَمْ تنتهِ لأرجمنّك واهجرني مليّاً سلامٌ عليكَ سأستغفرُ لكَ ربّي ﴾ [مريم: ٤٦ و٤٧]، وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: الحليم السيد.

قوله تعالى: ﴿ وما كانَ اللّهُ لِيُضِلَّ قوماً بعدَ إذْ هَدَاهُمْ ﴾، معناه: ما كان الله ليحكم عليكم بالضلالة بتركِ الأوامر باستغفاركم للمشركين، ﴿ حتّى يبيّن لهم ما يتّقون ﴾، يريد حتى يتقدّم إليكم بالنهي، فإذا بيّن ولم تأخذوا به فعند ذلك تَسْتَحِقُّون الضلال. قال مجاهد: بيان الله للمؤمنين في تركِ الاستغفار للمشركين خاصّة وبيانه لهم في معصيته وطاعته عامّة، فافعلوا وذروا. وقال الضحّاك: ما كانَ اللهُ ليعذّبَ قوماً حتى يبيّن لهم ما يأتون وما يَذَرُون. وقال مقاتل والكلبي: هذا في المنسوخ وذلك أن قوماً قَدِموا على النبي ﷺ فأسلموا ولم تكن الخمر حراماً ولا القِبلة مصروفة إلى الكعبة، فرجعوا إلى قومهم وهم على ذلك ثم حُرّمت الخمر وصُرِفَت القِبلة، ولا علم لهم بذلك، ثم قَدِموا بعد ذلك المدينة فوجدوا الخمر قد حُرِّمت والقِبلة قد صُرِفت، فقالوا: يا رسول الله قد كنت على دين ونحن

ليبطل عمل قوم وقد عملوا بالمنسوخ حتى بين الناسخ ﴿إن الله بكل شيء عليم﴾ يعني أنه سبحانه وتعالى عليم بما خالط نفوسكم من الخوف عندما نهاكم عن الاستغفار للمشركين ويعلم ما يبين لكم من أوامره ونواهيه.

إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۚ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٦﴾ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِىِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾

﴿إن الله له ملك السموات والأرض﴾ يعني أنه سبحانه وتعالى هو القادر على ملك السموات والأرض وما فيهما عبيده وملكه يحكم فيهم بما يشاء ﴿يحيي ويميت﴾ يعني أنه تعالى يحيي من يشاء على الإيمان ويميته عليه ويحيي من يشاء على الكفر ويميته عليه لا اعتراض لأحد عليه في حكمه وعبيده ﴿وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير﴾ يعني أنه تعالى هو وليكم وناصركم ليس لكم غيره يمنعكم من عدوكم وينصركم عليهم.

قوله عز وجل: ﴿لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار﴾ الآية تاب الله بمعنى تجاوز وصفح عن النبي ﷺ والمهاجرين والأنصار ومعنى توبته على النبي ﷺ: عدم مؤاخذته بإذنه للمنافقين بالتخلف في غزوة تبوك وهي كقوله سبحانه وتعالى: ﴿عفا الله عنك لم أذنت لهم﴾ فهو من باب ترك الأفضل لا أنه ذنب يوجب عقاباً. وقال أصحاب المعاني: هو مفتاح كلام للتبرك كقوله سبحانه وتعالى فأن لله خمسه. ومعنى هذا: أن ذكر النبي بالتوبة عليه

على غيره فنحن ضُلّال؟ فأنزل الله تعالى: ﴿ وما كان اللَّهُ لِيُضلَّ قوماً بعدَ إذْ هداهم ﴾، يعني: ما كان الله ليبطل عمل قوم قد علموا بالمنسوخ حتى يبيّن لهم الناسخ. ﴿ إنّ الله بكلِّ شيءٍ عليمٌ ﴾، ثم عظّم نفسه فقال:

﴿ إنّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السمٰواتِ والأرضِ ﴾، يَحكم بما يشاء، ﴿ يُحيي ويُميتُ وما لكم من دُونِ اللَّهِ من وليٍّ ولا نَصِير ﴾.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ لقدْ تابَ الله على النبيِّ ﴾ الآية، تاب الله أي: تجاوز وصفح. ومعنى توبته على النبي ﷺ بإذنه للمنافقين بالتخلّف عنه. وقيل: افتتح الكلام به لأنه كان سبب توبتهم، فذكره معهم، كقوله تعالى: ﴿ فأنّ للَّهِ خُمُسَهُ وللرَّسُولِ ﴾ [الأنفال: ٤١]، ونحوه: ﴿ والمهاجرينَ والأنصار الذينَ اتّبَعُوهُ في ساعةِ العُسْرةِ ﴾، أي: في وقت العسرة، ولم يرد ساعةً بعينها، وكانت غزوة تبوك تُسمى غزوة العسرة، والجيش يسمى جيش العسرة، والعسرة الشدّة، وكانت عليهم عسرة في الظّهر والزاد والماء، قال الحسن: كان العشرة منهم يخرجون على بعير واحد يعتقبونه يركب الرجل ساعةً ثم ينزل فيركب صاحبه كذلك، وكان زادهم التمر المسوّس والشعير المتغيّر، وكان النفر منهم يخرجون ما معهم إلّا الثمرات بينهم فإذا بلغ الجوع من أحدهما أخذ الثمرة فلاكَها حتى يجد طعمَها ثم يعطيها صاحبه فيمصّها، ثم يشرب عليها جرعة من ماء كذلك حتى يأتي على آخرهم، ولا يبقى من التمرة إلّا النواة، فمضوا مع رسول الله ﷺ على صِدْقِهم ويقينهم. وقال عمر بن الخطاب: خرجنا مع النبي ﷺ إلى تبوك في قيظ شديد فنزلنا منزلاً أصابنا فيه عطش حتى ظننا أن رقابنا ستنقطع، وحتى إن كان الرجل ليذهب فيلتمس الماء فلا يرجع حتى يظن أن رقبته ستنقطع، وحتى إن الرجل لينحر بعيره فيعصر فرثه فيشربه ويجعل ما بقي على كبده، فقال أبو بكر الصدّيق: يا رسول الله إن الله قد عوّدك في الدعاء خيراً فادْعُ اللَّهَ. قال: «أتحبُّ ذلك»؟ قال: نعم، فرفع يديه فلم يرجعهما حتى أقلّتِ السماءُ فأظلّتْ ثم سَكبت، فملؤوا ما معهم من القِرَب، ثم ذهبنا ننظر فلم نجدها جاوزت العسكر. ﴿ مِنْ بعدِ مَا كادَ يَزِيغُ ﴾ قرأ حمزة وحفص: «يزيـغ» بالياء لقوله: ﴿ كاد ﴾ ولم يقل: كادتْ.

تشريف للمهاجرين والأنصار في ضم توبتهم إلى توبة النبي ﷺ كما ضم اسم الرسول إلى اسم الله في قوله فإن لله خمسه وللرسول فهو تشريف له. وأما معنى: توبة الله على المهاجرين والأنصار، فلأجل ما وقع في قلوبهم من الميل إلى القعود عن غزوة تبوك لأنها كانت في وقت شديد وربما وقع في قلوب بعضهم أنا لا نقدر على قتال الروم وكيف لنا بالخلاص منهم فتاب الله عليهم وعفا عنهم ما وقع في قلوبهم من هذه الخواطر والوساوس النفسانية. وقيل: إن الإنسان لا يخلو من زلات وتبعات في مدة عمره إما من باب الصغائر وإما من باب ترك الأفضل. ثم إن النبي ﷺ والمؤمنين معه لما تحملوا مشاق هذا السفر ومتاعبه وصبروا على تلك الشدائد العظيمة التي حصلت لهم في ذلك السفر غفر الله لهم وتاب عليهم لأجل ما تحملوه من الشدائد العظيمة في تلك الغزوة مع النبي ﷺ وإنما ضم ذكر النبي ﷺ إلى ذكرهم تنبيهاً على عظم مراتبهم في الدين وأنهم قد بلغوا إلى الرتبة التي لأجلها ضم ذكر الرسول ﷺ إلى

وقرأ الآخرون بالتاء. والزيغ: الميل، أي: من بعد كادت تميل. ﴿ **قلوبُ فريقٍ منهم** ﴾، أي: قلوب بعضهم، ولم يُردِ الميلَ عن الدين بل أراد الميل إلى التخلّف والانصراف للشِّدَّة التي عليهم. قال الكلبي: هَمّ ناسٌ بالتخلّف ثم لحقوه. ﴿ **ثم تابَ عليهم** ﴾، فإن قيل: كيف أعاد ذكر التوبة وقد قال في أول الآية: ﴿ **لقد تاب الله على النبي** ﴾؟ قيل: ذكر التوبة في أول الآية قبل ذكر الذنب، وهو محض الفضل من الله عزّ وجلّ، فلما ذكر الذنب أعاد ذكر التوبة، والمراد منه قبولها. ﴿ **إنّه بِهِمْ رَؤُوفٌ رحيمٌ** ﴾. قال ابن عباس: مَن تاب الله عليه لم يعذّبه أبداً. قوله عزّ وجلّ: ﴿ وعلى الثلاثةِ الذينَ خُلِّفُوا ﴾ [التوبة: ١١٨]، أي: خُلِّفُوا من غزوة تبوك. وقيل: خُلِّفوا أي: أُرجىء أمرهم، عن توبة أبي لبابة وأصحابه، وهؤلاء الثلاثة هم كعب بن مالك الشاعر ومُرارة بن الربيع وهلال بن أمية كلهم من الأنصار. أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا يحيىٰ بن بكير ثنا الليث عن عقيل عن ابن شهاب عن عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب بن مالك أن عبد الله بن كعب بن مالك، وكان قائد كعب من بنيه حين عَمِيَ قال: سمعتُ كعبَ بن مالك يحدّث حين تخلّف عن غزوة تبوك، قال كعب: لم أتخلّف عن رسول الله ﷺ في غزوة غزاها قطّ إلاّ في غزوة تبوك غير أنّي كنت تخلّفت عن غزوة بدر ولم يُعاتب أحداً تخلّف عنها، إنما خرج رسول الله ﷺ يريدون عِيرَ قريش حتى جمع الله بينهم وبين عدوّهم على غير ميعاد، ولقد شهدتُ مع رسول الله ﷺ ليلةَ العقبة حين تواثقنا على الإسلام، وما أحبّ أنّ لي بها مشهد بدر وإن كانت بدرٌ أذكرَ في الناس منها، وكان من خبري حين تخلّفتُ عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك أني لم أكن قطّ حتى جمعتها في تلك الغزوة، ولم يكن رسول الله ﷺ يريد غزوة إلاّ وَرّى بغيرها حتى كانت تلك الغزوة غزاها رسول الله ﷺ في حرٍّ شديدٍ استقبل سفراً بعيداً ومفاوزَ وعدوّاً كثيراً فجَلاَ للمسلمين أمرهم ليتأهّبوا أُهْبَة غزوهم، فأخبرهم بوجهه الذي يريد والمسلمون مع رسول الله ﷺ كثير، ولا يجمعهم كتاب حافظ، يريد الديوان، قال كعب: فما رجل يريد أن يتغيّب إلاّ ظنّ أنّ ذلك سيخفي له ما لم ينزل فيه وحي من الله، وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزوة حين طابت الثمار والظلال فأنا إليها أصعر، فتجهّز رسول الله ﷺ والمسلمون معه فطفقت أغْدُو لكي أتجهّز معهم فأرجع ولم أقضِ شيئاً وأقول في نفسي أنا قادر عليه إذا أردت، فلم يزل يتمادَى بي الأمرُ حتى اشتدّ بالناس الجِدُّ فأصبح رسول الله ﷺ غادياً والمسلمون معه، ولم أقضِ من جهازي شيئاً. فقلت أتجهّز بعده بيوم أو يومين ثم ألحقهم، فغدوت بعد أنْ فصلوا لأتجهّز فرجعت ولم أقضِ شيئاً، ثم غدوت ثم رجعْتُ ولم أقضِ شيئاً فلم يزل ذلك يتمادَى بي حتى أسرعُوا أو تفارط الغزو، وفهممتُ أن أرتحل فأدركُهم وليتني فعلتُ، فلم يُقدَّرْ لي ذلك، فكنت إذا خرجت في الناس بعد خروج رسول الله ﷺ فطفتُ فيهم أحزنني أني لا أرى لي أُسوة إلاّ رجلاً مغموصاً عليه في النفاق أو رجلاً ممّن عَذَرَ اللَّهُ من الضعفاء، ولم يذكرني رسول الله ﷺ حتى بلغ تبوك، فقال وهو

ذكرهم ﴿الذين اتبعوه﴾ في تلك الغزوة من المهاجرين والأنصار وقد ذكر بعض العلماء أن النبي ﷺ سار إلى تبوك في سبعين ألفاً ما بين راكب وماش من المهاجرين والأنصار وغيرهم من سائر القبائل ﴿في ساعة العسرة﴾ يعني في وقت العسرة ولم يرد ساعة بعينها والعسرة الشدة والضيق وكانت غزوة تبوك تسمى غزوة العسرة والجيش الذي سار فيه يسمى جيش العسرة لأنه كان عليهم عسرة في الظهر والزاد والماء قال الحسن كان العشرة: منهم يخرجون على بعير واحد يعتقبونه بينهم يركب الرجل منهم ساعة ثم ينزل فيركب صاحبه كذلك وكان زادهم التمر المسوس والشعير المتغير وكان النفر منهم يخرجون وما معهم إلا التمرات اليسيرة بينهم فإذا بلغ الجوع من أحدهم أخذ التمرة فلاكها حتى يجد طعمها ثم يخرجها من فيه ويعطيها صاحبه ثم يشرب عليها جرعة من الماء ويفعل صاحبه كذلك حتى تأتي على آخرهم ولا يبقى من التمرة إلا النواة فمضوا مع النبي ﷺ على صدقهم ويقينهم رضي الله عنهم. وقال عمر بن

جالس في القوم بتبوك: «ما فعل كعب بن مالك»؟ فقال رجلٌ من بني سلمة: يا رسول الله حبسه براده ونظره في عطفيه، فقال معاذ بن جبل: بئسَ ما قلتَ والله يا رسول الله ما علمنا إلّا خيراً فسكتَ رسولُ الله ﷺ، بينا هو على ذلك رأى رجلاً مبيضاً يزول به السراب، فقال رسول الله ﷺ: «كن أبا خيثمة» فإذا هو أبو خيثمة الأنصاري وهو الذي تصدّق بصاع التمر حين لمزه المنافقون، قال كعب بن مالك: فلما بلغني أنه توجّه قافلاً من تبوك حضرني هَمّي فطفقتُ أتذكّر الكذب وأقول بماذا أخرج من سخطه غداً واستعنتُ على ذلك بكل ذي رأي من أهلي، فلما قيل: إن رسول الله ﷺ قد أظلّ قادماً زاح عنّي الباطلُ وعرفتُ أني لن أخرج منه أبداً بشيء فيه كذب، فأجمعتُ صِدْقَهُ، وأصبح رسول الله ﷺ قادماً وكان إذا قَدِمَ من سفر بدأ بالمسجد فركع فيه ركعتين ثم جلس للناس، فلما فعل ذلك جاءه المخلّفون فطفقوا يعتذرون إليه ويحلفون له، وكانوا بضعة وثمانين رجلاً، فقبل منهم رسول الله ﷺ علانيتهم وبايعهم واستغفر لهم ووكّل سرائرهم إلى الله، فجئته فلما سلّمتُ عليه تبسّم تبسّم المغضب، ثم قال: تعالَ فجئتُ أمشي حتى جلستُ بين يديه، فقال لي: «ما خلّفك ألم تكن قد ابتعت ظهرك»؟ فقلت: بلى يا رسول الله إني والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أني سأخرج من سخطه بعذر ولقد أعطيتُ جدلاً ولكنّي والله لقد علمت لئن حدّثتك اليوم حديث كذب ترضى به عنّي ليوشكنّ الله أن يسخطك عليّ ولئن حدّثتُك حديثَ صدقٍ تجدُ عليّ فيه ثقلاً، إنّي لأرجو فيه عفوَ اللّهِ لا والله ما كان لي من عذر، والله ما كنت أقوى قطّ ولا أيسرَ منّي حين تخلّفتُ عنك، فقال رسول الله ﷺ: «أمّا هذا فقد صدق، فَقُمْ حتى يقضيَ الله فيك»، فقمتُ وثارَ رجالٌ من بني سلمة فاتّبعوني فقالوا لي: واللّهِ ما علمناكَ كنتَ أذنبتَ ذنباً قبل هذا، ولقد عجزت في أنْ لا تكونَ اعتذرتَ إلى رسول الله ﷺ بما اعتذر إليه المخلّفون، قد كان كافيك ذنبك استغفار رسول الله ﷺ، فوالله ما زالوا يؤنّبونني حتى أردت أن أرجع وأُكذّب نفسي، ثم قلت لهم: هل لقي هذا معي أحد؟ قالوا: نعم رجلان قالا مثل ما قلت، فقيل لهما مثل ما قيل لك، فقلت: مَن هما؟ قالوا: مرارة بن الربيع العمري وهلال بن أمية الواقفي، فذكروا لي رجلين صالحين قد شهدا بدراً فيهما أُسوة حسنة فمضيتُ حين ذكروهما لي، قال: ونهى رسول الله ﷺ المسلمين عن كلامنا أيّها الثلاثة من بين مَن تخلّف عنه، فاجتنبنا الناس وتغيّروا لنا حتى تنكرت لي في نفسي الأرض، فما هي بالأرض التي أعرف، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة فأما صاحباي فاستكانا وقعدا في بيوتهما يبكيان، وأما أنا فكنت أشبّ القوم وأجلدهم، فكنت أخرج فأشهد الصلاة مع المسلمين وأطوف في الأسواق ولا يكلّمني أحد، وآتي رسولَ الله ﷺ فأسلّم عليه وهو في مجلسه بعد الصلاة فأقول في نفسي هلْ حرّكَ شفتيه بردّ السلام عليّ أم لا، ثم أصلّي قريباً منه وأسارقه النظر، فإذا أقبلت على صلاتي أقبل إليّ وإذا التفتُّ نحوه أعرض عنّي، حتى إذا طال عليّ ذلك من جفوة الناس مشيت حتى تسوّرت جدار حائط أبي قتادة وهو ابن عمّي وأحبّ الناس إليّ فسلّمتُ عليه فوالله ما ردّ عليّ

الخطاب: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى تبوك في قيظ شديد فنزلنا منزلاً أصابنا فيه عطش شديد حتى ظننا أن رقابنا ستقطع وحتى أن الرجل لينحر بعيره فيعصر فرثه فيشربه ويجعل ما بقي على كبده، وحتى أن الرجل كان يذهب يلتمس الماء فلا يرجع حتى يظن أن رقبته ستقطع فقال أبو بكر الصديق: يا رسول الله إن الله عز وجل قد عودك في الدعاء خيراً فادع الله قال أتحب ذلك قال: نعم فرفع يديه ﷺ فلم يرجعا حتى أرسل الله سحابة فمطرت فملأوا ما معهم من الأوعية ثم ذهبنا ننظر فلم نجدها جاوزت العسكر أسنده الطبري عن عمر.

قوله تعالى: ﴿من بعد ما كان يزيغ قلوب فريق منهم﴾ يعني من بعد ما قارب أن تميل قلوب بعضهم عن الحق من أجل المشقة والشدة التي نالتهم والزيغ في اللغة الميل. وقيل: همَّ بعضهم أن يفارق الرسول ﷺ عند تلك الشدة التي نالتهم لكنهم صبروا واحتسبوا وندموا على ما خطر في قلوبهم فلأجل ذلك قال تعالى: ﴿ثم تاب عليهم﴾ يعني أنه

السلام، فقلت له: يا أبا قتادة أنشدك بالله هل تعلمني أُحِبُّ اللَّهَ ورسولَه، فسكتَ فعدتُ له فنشدتُه فسكتَ فعدتُ له فنشدتُه فسكتَ فعدتُ له فقال: اللَّهُ ورسولُه أعلم، ففاضت عيناي وتولّيت حتى سوّرت الجدار، قال: فبينا أنا أمشي بسوق المدينة إذا نبطي من أنباط الشام ممّن قَدِمَ بالطعام يبيعه بالمدينة يقول: مَن يدلّ على كعب بن مالك، فطفق الناس يشيرون له إليّ حتى إذا جاءني دفع إليّ كتاباً من ملك غسان فقرأته فإذا فيه: أما بعد فإنه قد بلغني أنّ صاحبَك قد جفاك، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة، فالحقْ بنا نُواسِكَ، فقلتُ لما قرأته: وهذا أيضاً من البلاء، فتيمّمت به التنور فسجرته، حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين إذا رسولٌ لرسول الله ﷺ يأتيني فقال: إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تعتزل امرأتك، فقلتُ: أُطلّقها أم ماذا أفعل؟ فقال: لا بل اعتزلها ولا تقربها، وأرسل إلى صاحبيَّ بمثل ذلك، فقلت لامرأتي إلحقي بأهلك وكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الأمر، قال كعب: فجاءت امرأةُ هلال بن أُمية رسولَ الله ﷺ فقالت: يا رسول الله إن هلال بن أُمية شيخ ضائع ليس له خادم فهل تكره أنْ أخدمه؟ قال: «لا ولكن لا يقربك»، قالت: إنه والله ما به حركة إلى شيء، والله ما زال يبكي منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا، قال كعب: فقال لي بعضُ أهلي: لو استأذنتَ رسول الله ﷺ في امرأتك كما أذن لامرأة هلال بن أُمية أن تخدمه فقلت: والله لا أستأذن فيها رسول الله ﷺ، وما يدريني ما يقول لي رسول الله ﷺ إذا استأذنته فيها وأنا رجل شاب، فلبثت بعد ذلك عشر ليالٍ حتى كملت لنا خمسون ليلة من حين نهى رسول الله ﷺ عن كلامنا، فلمّا صلّيت صلاة الفجر صبح خمسين ليلة وأنا على ظهر بيت من بيوتنا، فبينا أنا جالس على الحال التي ذكر الله فينا قد ضاقت عليّ نفسي وضاقتْ عليّ الأرضُ بما رَحُبَتْ سمعتُ صوتَ صارخٍ أوْفَى على جبلِ سلع، يقول بأعلى صوته: يا كعب بن مالك أبشرْ، فخررتُ لله ساجداً وعرفتُ أنه قد جاء فرج، وآذن رسول الله ﷺ بتوبة الله علينا حين صلّى صلاة الفجر فذهب الناس يبشروننا، وذهب قِبَلَ صاحبي مبشّرون، وركض رجل إلى فرس وسعى ساعٍ من أسلم فأوْفَى على الجبل فكان الصوت أسرع من الفرس، فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشّرني نزعت له ثوبيَّ فكسوته إيَّاهما يومئذ، واستعرت ثوبين فلبستهما وانطلقتُ إلى رسول الله ﷺ، فتلقاني الناس فوجاً فوجاً يُهنئونني بالتوبة ويقولون لي: لِيُهنِكَ توبةُ اللَّهِ عليك قال كعب، حتى دخلتُ المسجد فإذا رسول الله ﷺ جالس حوله الناس، فقام إليّ طلحة بن عبيد الله يهرول حتى صافحني وهنّأني والله ما قام إليَّ رجل من المهاجرين غيره ولا أنساها لطلحة، قال كعب: فلما سلّمتُ على رسول الله ﷺ قال رسول الله ﷺ وهو يُبـرق وجهه من السـرور: «أبشر بخيرِ يومٍ مرّ عليكَ منذُ ولدتْك أُمك»! قال: قلت: أمِنْ عندكَ يا رسولَ الله أمْ مِنْ عند الله؟ قال: «لا بل من عند الله»، وكان رسول الله ﷺ إذا سُرَّ استنارَ وجهُهُ كأنه قطعة قمر، وكنّا نعرف ذلك منه، فلما جلستُ بين يديه قلت: يا رسول الله إنّ من توبتي أن انخلع من مالي صدقةً إلى الله وإلى رسوله، قال رسول الله ﷺ: «أمسك عليكَ بعضَ

سبحانه وتعالى علم إخلاص نيتهم وصدق توبتهم فرزقهم الإنابة والتوبة.

فإن قلت قد ذكر التوبة أولاً ثم ذكرها ثانياً فما فائدة التكرار؟

قلت إنه سبحانه وتعالى ذكر التوبة أولاً قبل ذكر الذنب تفضلاً منه وتطييباً لقلوبهم ثم ذكر الذنب بعد ذلك وأردفه بذكر التوبة مرة أخرى تعظيماً لشأنهم وليعلموا أنه سبحانه وتعالى قد قبل توبتهم وعفا عنهم ثم أتبعه بقوله ﴿إنه بهم رؤوف رحيم﴾ تأكيداً لذلك ومعنى الرؤوف في صفة الله تعالى أنه الرفيق بعباده لأنه لم يحملهم ما لا يطيقون من العبادات وبين الرؤوف والرحيم فرق لطيف وإن تقاربا في المعنى. قال الخطابي: قد تكون الرحمة مع الكراهة للمصلحة ولا تكاد الرأفة تكون مع الكراهة.

﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُواْ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾

قوله سبحانه وتعالى: ﴿وعلى الثلاثة الذين خلفوا﴾ هذا معطوف على ما قبله تقديره لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار وعلى الثلاثة الذين خلفوا وفائدة هذا العطف بين قبول توبتهم وهم كعب بن مالك وهلال بن أمية ومرارة بن الربيع وكلهم من الأنصار وهم المرادون بقوله سبحانه وتعالى وآخرون مرجون لأمر الله وفي معنى خلفوا قولان: أحدهما أنهم خلفوا عن توبة أبي لبابة وأصحابه وذلك أنهم لم يخضعوا كما خضع أبو لبابة وأصحابه فتاب الله على أبي لبابة وأصحابه وأخر أمر هؤلاء الثلاثة مدة ثم تاب عليهم بعد ذلك والقول الثاني أنهم تخلفوا عن

مالك فهو خيرٌ لك»، قلت: فإني أمسك سهمي الذي بخيبر، قال: فقلت: يا رسول الله إنّما نجّاني الله بالصدق، وإن من توبتي ألاّ أُحدّث إلاّ صدقاً ما بقيت، فوالله ما أعلم أحداً من المسلمين أبلاه الله في صدق الحديث منذ ذكرتُ ذلك لرسول الله ﷺ أحسنَ مما أبلاني، ووالله ما تعمّدت منذُ ذَكَرْتُ ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومي هذا كذباً، وإني لأرجو أن يحفظني الله فيما بقيت. وأنزل الله على رسوله: ﴿ لقدْ تابَ اللّهُ على النبيِّ والمهاجرينَ والأنصار ﴾، إلى قوله: ﴿ وكونُوا معَ الصادقين ﴾ [التوبة: ١١٩]. وروى إسحاق بن راشد عن الزهري بهذا الإسناد عن كعب، قال: نهى رسول الله ﷺ عن كلامي وكلام صاحبي فلبثتُ كذلك حتى طال عليّ الأمر وما من شيء أهمّ إليّ من أن أموت ولا يُصلّي عليّ رسول الله ﷺ أو يموتَ رسولُ الله ﷺ فأكونَ من الناس بتلك المنزلة، فلا يكلمني أحد منهم ولا يصلّي عليّ، وأنزل الله توبتنا على نبيّه ﷺ حين بقي الثلث الأخير من الليل، ورسول الله ﷺ عند أُم سلمة وكانت أم سلمة مُحسِنة في شأني مُعينة في أمري، فقال رسول الله ﷺ: «يا أُمَّ سلمة تِيبَ على كعب»، قالت: أفلا أُرسل إليه فأُبشّره؟ قال: «إذا يحطمكم الناس فيمنعونكم النوم سائر الليلة»، حتى إذا صلّى ﷺ صلاة الفجر آذن بتوبة الله علينا.

قوله تعالى: ﴿ وعلى الثلاثة الذين خُلِّفوا حتى إذا ضاقتْ عليهمُ الأرضُ بِمَا رَحُبَتْ ﴾، اتّسعت، ﴿ وضاقتْ

غزوة تبوك ولم يخرجوا مع رسول الله فيها وأما حديث توبة كعب بن مالك وصاحبيه، فقد روي عن ابن شهاب الزهري قال: أخبرني عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب بن مالك أن عبد الله بن كعب وكان قائد كعب من بنيه حين عمي قال: وكان أعلم قومه وأوعاهم لأحاديث رسول الله ﷺ قال: سمعت كعب بن مالك بن عبد الله بن مالك بن كعب يحدث حديثه حين تخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك. قال: لم أتخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة غزاها قط إلا في غزوة تبوك غير أني قد تخلفت في غزوة بدر ولم يعاتب أحداً تخلف عنها إنما خرج رسول الله ﷺ والمسلمون يريدون عير قريش حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد ولقد شهدت مع رسول الله ﷺ ليلة العقبة حين تواثقنا على الإسلام وما أحب أن لي بها مشهد بدر وإن كانت بدر أذكر في الناس منها وكان من خبري حين تخلفت عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك أني لم أكن قط أقوى ولا أيسر مني حتى تخلفت عنه في تلك الغزوة والله ما جمعت قبلها راحلتين قط حين جمعتهما في تلك الغزوة ولم يكن رسول الله ﷺ يريد غزوة إلا ورى بغيرها حتى كانت تلك الغزوة فغزاها رسول الله ﷺ في حر شديد واستقبل سفراً بعيداً ومفازاً واستقبل عدواً كثيراً فجلا للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة غزوهم فأخبرهم بوجههم الذي يريد والمسلمون مع رسول الله ﷺ كثير ولا يجمعهم كتاب حافظ يريد بذلك الديوان قال كعب: فقل رجل يريد أن يتغيب إلا ظن أن ذلك سيخفي له ما لم ينزل فيه وحي من الله عز وجل وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزوة حين طابت الثمار والظلال فأنا إليها أصعر فتجهز رسول الله ﷺ والمسلمون معه فطفقت أغدو لكي أتجهز معهم فأرجع ولم أقض شيئاً فأقول في نفسي أنا قادر على ذلك إذا أردت فلم يزل ذلك يتمادى بي حتى استمر بالناس الجد فأصبح رسول الله ﷺ غادياً والمسلمون معه ولم أقض من جهازي شيئاً ثم غدوت فرجعت ولم أقض شيئاً فلم يزل ذلك يتمادى بي حتى أسرعوا وتفارط الغزو فهممت أن أرتحل فأدركهم فيا ليتني فعلت ثم لم يقدر لي ذلك فطفقت إذا خرجت في الناس بعد خروج رسول الله ﷺ يحزنني أني لا أرى لي أسوة إلا رجلاً مغموصاً عليه في النفاق أو رجلاً مما عذر الله من الضعفاء ولم يذكرني رسول الله ﷺ حتى بلغ تبوك فقال وهو جالس في القوم بتبوك: ما فعل كعب بن مالك فقال رجل من بني سلمة يا رسول الله حبسه برداه والنظر في عطفيه فقال له معاذ بن جبل: بئس ما قلت والله يا رسول الله ما علمنا عليه إلا خيراً. فسكت رسول الله ﷺ فبينما هو كذلك، رأى رجلاً مبيضاً يزول به السراب فقال رسول الله ﷺ: كن أبا خيثمة فإذا هو أبو خيثمة وهو الذي تصدق بصاع التمر حين لمزه المنافقون قال كعب: فلما بلغني أن رسول الله ﷺ قد توجه قافلاً من تبوك حضرني بثى فطفقت أتذكر الكذب وأقول بم أخرج من سخطه غداً واستعنت على ذلك بكل ذي رأي من أهلي فلما قيل إن رسول الله ﷺ قد أظل قادماً زاح عني الباطل حتى عرفت أني لن أنجو منه بشيء أبداً فأجمعت صدقه فأصبح رسول الله ﷺ قادماً وكان إذا قدم من سفره بدأ بالمسجد فركع فيه ركعتين ثم جلس للناس فلما فعل ذلك جاءه المخلفون فطفقوا يعتذرون إليه ويحلفون له وكانوا بضعة وثمانين رجلاً فقبل منهم علانيتهم وبايعهم واستغفر لهم ووكل سرائرهم إلى الله عز وجل حتى جئت فلما سلمت تبسم تبسم المغضب ثم قال لي تعالى فجئت أمشي حتى جلست بين يديه فقال ما خلفك ألم تكن قد ابتعت ظهرك قال قلت يا رسول الله إني والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أني سأخرج من سخطه بعذر لقد

عليهم أنفسهم، غماً وهماً، ﴿ **وظنّوا** ﴾، أي: تيقنوا، ﴿ **أنْ لا ملجأ مِنَ الله** ﴾، لا مفزع من الله، ﴿ **إلاّ إليهِ ثمَّ تابَ عليهم لِيَتوبُوا** ﴾، أي: ليستقيموا على التوبة فإن توبتهم قد سبقت. ﴿ **إنّ الله هو التوّابُ الرحيم** ﴾.

﴿**يا أيّها الذينَ آمنوا اتّقُوا اللّهَ وكونُوا معَ الصّادِقين** ﴾، قال نافع: مع محمد وأصحابه. وقال سعيد بن جبير: مع أبي بكر وعمر رضي الله عنهما. وقال ابن جريج: مع المهاجرين، لقوله تعالى: ﴿ للفقراءِ المهاجرين ﴾ [الحشر: ٨] إلى قوله: ﴿ أولئك هُمُ الصادقون ﴾ [الحشر: ٨]. وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: مع الذين

أعطيت جدلاً ولكني والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به عني ليوشكن الله أن يسخطك علي ولئن حدثتك حديث صدق تجد علي فيه إني لأرجو فيه عقبى الله، وفي رواية عفو الله عز وجل، والله ما كان لي عذر والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنك قال فقال رسول الله ﷺ: أما هذا فقد صدق فقم حتى يقضي الله فيك فقمت وثار رجال من بني سلمة فاتبعوني فقالوا لي: والله ما علمناك أذنبت ذنباً قبل هذا لقد عجزت أن لا تكون اعتذرت إلى رسول الله ﷺ بما اعتذر إليه المخلفون فقد كان كافيك ذنبك استغفار رسول الله ﷺ لك قال فوالله ما زالوا يؤنبونني حتى أردت أن أرجع إلى رسول الله ﷺ فأكذب نفسي. قال: ثم قلت لهم هل لقي هذا أحد معي قالوا نعم لقيه معك رجلان قالا مثل ما قلت وقيل لهما مثل ما قيل لك قلت من هما قالوا مرارة بن الربيع العامري وهلال بن أمية الواقفي قال فذكروا لي رجلين صالحين قد شهدوا بدراً ففيهما أسوة قال فمضيت حين ذكروهما لي ونهى رسول الله ﷺ المسلمين عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلف عنه قال: فاجتنبنا الناس أو قال تغيروا لنا حتى تنكرت لي في نفسي الأرض فما هي بالأرض التي أعرف فلبثنا على ذلك خمسين ليلة فأما صاحباي فاستكانا وقعدا في بيوتهما يبكيان وأما أنا فكنت أشب القوم وأجلدهم فكنت أخرج فأشهد الصلاة وأطوف في الأسواق ولا يكلمني أحد وآتي رسول الله ﷺ فأسلم عليه وهو في مجلسه بعد الصلاة فأقول في نفسي هل حرك شفتيه برد السلام أم لا ثم أصلي قريباً منه وأسارقه النظر فإذا أقبلت على صلاتي نظر إلي وإذا التفت نحوه أعرض عني حتى إذا طال علي ذلك من جفوة المسلمين مشيت حتى تسورت جدار حائط أبي قتادة وهو ابن عمي وأحب الناس إليّ فسلمت عليه فوالله مارد علي السلام فقلت: يا أبا قتادة أنشدك بالله هل تعلم أني أحب الله ورسوله قال: فسكت فعدت فناشدته فسكت فعدت فناشدته فقال: الله ورسوله أعلم، ففاضت عيناي وتوليت حتى تسورت الجدار فبينا أنا أمشي في سوق المدينة إذا نبطي من نبط أهل الشام ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة يقول من يدل عليّ كعب بن مالك قال فطفق الناس يشيرون له إليّ حتى جاءني فدفع إلي كتاباً من ملك غسان وكنت كاتباً فقرأته فإذا فيه أما بعد فإنه قد بلغنا أن صاحبك قد جفاك ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة فالحق بنا نواسك قال: فقلت حين قرأتها وهذه أيضاً من البلاء فتيممت بها التنور فسجرته حتى إذا مضت أربعون من الخمسين واستلبث الوحي وإذا رسول رسول الله ﷺ يأتيني فقال إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تعتزل امرأتك قال فقلت أطلقها أم ماذا أفعل قال لا بل اعتزلها ولا تقربها قال وأرسل إلى صاحبي مثل ذلك قال فقلت لامرأتي الحقي بأهلك فكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الأمر قال فجاءت امرأة هلال بن أمية إلى رسول الله ﷺ فقالت يا رسول الله إن هلال بن أمية شيخ ضائع ليس له خدام فهل تكره أن أخدمه قال لا ولكن لا يقربنك فقالت إنه والله ما به حركة إلى شيء ووالله ما زال يبكي منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا قال فقال لي بعض أهلي لو استأذنت رسول الله ﷺ في امرأتك فقد أذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه قال فقلت لا استأذن فيها رسول الله ﷺ وما يدريني ما يقول لي رسول الله ﷺ إذا استأذنته فيها وأنا رجل شاب قال فلبثت بذلك عشر ليال فكمل لنا خمسون ليلة من حين نهى عن كلامنا. قال ثم صليت صلاة الفجر صبح خمسين ليلة على ظهر بيت من بيوتنا فبينا أنا جالس على الحال التي ذكر الله عز وجل عنا قد ضاقت علي نفسي وضاقت علي الأرض بما رحبت سمعت صوت صارخ أوفى على سلع يقول بأعلى صوته يا كعب بن مالك أبشر قال فخررت ساجداً وعرفت أنه قد جاء فرج قال وآذن رسول الله ﷺ الناس بتوبة الله علينا حين صلى صلاة الفجر فذهب الناس يبشروننا فذهب قبل صاحبي مبشرون وركض

صدقت نيّاتهم واستقامت قلوبهم وأعمالهم وخرجوا مع رسول الله ﷺ إلى تبوك بإخلاص نيّة. وقيل: مع الذين صدقوا في الاعتراف بالذنب ولم يعتذروا بالأعذار الكاذبة. وكان ابن مسعود يقرأ: «وكونُوا مع الصادقين» وقال ابن مسعود: إن الكذب لا يصلح في جِدٍّ ولا هزل، ولا أن يعدّ أحدكم صبيّه شيئاً ثم لا ينجز له، اقرؤوا إن شئتم هذه الآية.

رجل إلى فرساً وسعى ساع من أسلم قبلي وأوفى على الجبل فكان الصوت أسرع من الفرس فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشرني نزعت له ثوبي فكسوتهما إياه ببشارته والله ما أملك غيرهما واستعرت ثوبين فلبستهما وانطلقت أتأمل رسول الله ﷺ يتلقاني الناس فوجاً فوجاً يهنئوني بالتوبة ويقولون ليهنك توبة الله عليك حتى دخلت المسجد فإذا رسول الله ﷺ حوله الناس فقام إلي طلحة بن عبيد الله يهرول حتى صافحني وهنأني والله ما قام إلا رجل من المهاجرين غيره. قال: فكان كعب لا ينساها لطلحة. قال كعب: فلما سلمت على رسول الله ﷺ قال وهو يبرق وجهه من السرور: أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك. قال: قلت أمن عندك يا رسول الله أم من عند الله؟ فقال: لا بل من عند الله. وكان رسول الله ﷺ إذا سرَّ استنار وجهه حتى كان وجهه قطعة قمر قال وكنا نعرف ذلك منه قال فلما جلست بين يديه قلت: يا رسول الله إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة إلى الله رسوله فقال رسول الله ﷺ أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك قال فقلت فإني أمسك سهمي الذي بخيبر قال وقلت يا رسول الله إن الله إن أنجاني بالصدق وإن من توبتي أن لا أحدث إلا صدقاً ما بقيت قال فوالله ما علمت أن أحداً من المسلمين أبلاه الله في صدق الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ أحسن مما أبلاني الله، والله ما تعمدت كذبه منذ قلت ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومي هذا وإني لأرجو أن يحفظني الله فيما بقي قال فأنزل الله عز وجل لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة حتى بلغ أنه بهم رؤوف رحيم وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت حتى بلغ اتقوا الله وكونوا مع الصادقين قال كعب: والله ما أنعم الله عليهم الأرض بما رحبت حتى بلغ اتقوا الله وكونوا مع الصادقين قال كعب: والله ما أنعم الله علي من نعمة قط بعد أن هداني للإسلام أعظم في نفسي من صدقي رسول الله ﷺ أن لا أكون كذبته فأهلك كما هلك الذين كذبوا إن الله عز وجل قال للذين كذبوا حين أنزل الوحي شر ما قال لأحد فقال الله سبحانه وتعالى: سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم إليهم لتعرضوا عنهم فأعرضوا عنهم إنهم رجس ومأواهم جهنم جزاء بما كانوا يكسبون يحلفون لكم لترضوا عنهم فإن ترضوا عنهم فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين قال كعب: كنا خلفنا أيها الثلاثة عن أمر أولئك الذين قبل منهم رسول الله ﷺ حين حلفوا له فبايعهم واستغفر لهم وأرجأ رسول الله ﷺ أمرنا حتى قضى الله تعالى فيه فبذلك قال الله عز وجل: وعلى الثلاثة الذين خلفوا وليس الذي ذكر مما خلفنا عن الغزو وإنما هو تخليفه إيانا وإرجاؤه أمرنا عمن حلف له واعتذر إليه فقبل منه وفي رواية ونهى النبي ﷺ عن كلامي وكلام صاحبي ولم ينه عن كلام أحد من المتخلفين غيرنا فاجتنب الناس كلامنا فلبثت كذلك حتى طال علي الأمر فما من شيء أهم إلي من أن أموت فلا يصلي علي النبي ﷺ أو يموت رسول الله ﷺ فأكون من الناس بتلك المنزلة فلا يكلمني أحد منهم ولا يصلي علي ولا يسلم علي قال: وأنزل الله عز وجل توبتنا على نبيه ﷺ حين بقي الثلث الأخير من الليل ورسول الله ﷺ عند أم سلمة. وكانت أم سلمة محسنة في شأني معتنية بأمري فقال رسول الله ﷺ: يا أم سلمة تيب على كعب بن مالك قالت: أفلا أرسل إليه فأبشره قال: إذا يحطمكم الناس فيمنعونكم النوم سائر الليل حتى إذا صلى رسول الله ﷺ صلاة الفجر آذن رسول الله ﷺ بتوبة الله علينا أخرجه البخاري ومسلم. (شرح غريب هذا الحديث)..

قوله حين تواثقنا على الإسلام: التواثق تفاعل من الميثاق وهو العهد. والراحلة: الجمل أو الناقة القويان على

قوله تعالى: ﴿ **ما كانَ لأهلِ المدينةِ** ﴾ ظاهره خبر ومعناه نهي، كقوله تعالى: ﴿ وما كانَ لكم أنْ تُؤذُوا رسولَ الله ﴾ [الأحزاب: ٥٣]. ﴿ **ومَنْ حولَهم مِنَ الأعراب** ﴾، سكان البوادي مُزينة وجُهينة وأشجع وأسلم وغِفار. ﴿ **أنْ يتخلَّفُوا عنْ رسولِ الله** ﴾، إذا غزَا، ﴿ **ولا يَرْغَبُوا** ﴾، أي: ولا أن يرغبُوا، ﴿ **بأنفسهم عن نفسِهِ** ﴾، في مصاحبته ومعاونته والجهاد معه. قال الحسن: لا يرغبوا بأنفسهم عن أن يصيبهم من الشدائد فيختاروا الخفض والدّعة،

الحمل والسفر. وقوله: ورى بغيرها يقال: ورى عن الشيء إذا أخفاه وأظهر غيره. والمفازة: البرية القفراء سميت بذلك تفاؤلاً بالفوز والنجاة منها قوله فجـلا هو بالتخفيف يعني كشف لهم مقصدهم وأظهره لهم والأهبة الجهاز وما يحتاج إليه المسافر قوله فأنا إليها صعر هو بالعين المهملة أي أميل والصعر الميل. قوله: وتفارط الغزو أي تباعد ما بيني وبين الجيش من المسافة وطفق مثل جعـل والمغموص المعيب المشار إليه بالعيب. يقال: فلان ينظر في عطفيه إذا كان معجباً بنفسه ويقال: زال به السراب يزول إذا ظهر شخص الإنسان خيالاً فيه من بعد. والسراب: هو ما يظهر للإنسان في البرية في وقت الهاجرة كأنه ماء والمبيض بكسر الياء لابس البياض. قوله: كن أبا خيثمة معناه أنت أبو خيثمة وقيل معناه: اللهم اجعله أبا خيثمة أي لتوجد يا هذا الشخص أبا خيثمة حقيقة قوله الذي لمزه المنافقون يعني عابوه واحتقروه والقافل الراجـع من سفره إلى وطنه قوله حضرني بثني البث أشد الحزن كأنه لشدته يظهر قوله زاح عني الباطل أي زال وذهب عني وأجمعت صدقه أي عزمت عليه لقد أعطيت جدلاً أي فصاحة وقوة في الكلام بحيث أخرج عن عهدة ما أردت بما أشاء من الكلام والمغضب بفتح الضاد هو الغضبان قوله فما زالوا يؤنبونني أي يلومونني أشد اللوم قوله حتى تنكرت لي في نفسي الأرض فما هي الأرض التي أعرف: معناه تغير علي كل شيء من الأرض وتوحشت عليّ وصارت كأنها أرض لا أعرفها وقوله فأما صاحباي فاستكانا يعني خضعا وسكنا قوله تسورت حائط أبي قتادة أي علوته وصعدت سوره وهو أعلاه والأنباط الفلاحون والزراعون وهم من العجم والروم والمضيعة مفعلة من الضياع والأطراح، وقوله فتيممت بها التنور فسجرته بها أي فقصدت بالصحيفة التي أرسل بها ملك غسان فأحرقتها في التنور وسلع جبل بالمدنية معروف وقوله وانطلقت أتأمم يعني أقصد رسول الله ﷺ. والفوج: الجماعة من الناس. يقال: برق وجهه إذا لمع وظهر عليه أمارات الفرح والسرور قوله أنخلع من مالي أي أخرج منه جميعه وأتصدق به كما يخلع الإنسان قميصه. قوله ما علمت أحداً من المسلمين أبلاه الله في صدق الحديث أحسن مما أبلاني البلاء. والابتلاء: يكون في الخير وفي الشر وإذا أطلق كان في الشر غالباً فإذا أريد به الخير قيد به كما قيد هنا بقوله أحسن مما أبلاني أن أنعم على قوله أن لا أكون كذبته، هذا هو في جميع روايات الحديث بزيادة لفظ لا قال بعض العلماء لفظة لا زائدة ومعناه أن أكون كذبته وقوله فأهلك هو بكسر اللام وإرجاؤه أمرنا تأخيره وقوله في الرواية الأخرى يحطمكم الناس أي يطؤكم ويزدحمون عليكم وأصل الوطء الكسر وقوله سائر الليل يعني باقي الليل وقوله وآذن بتوبة الله علينا أي أعلم والأذان الإعلام والله أعلم.

قوله عز وجل: ﴿حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت﴾ يعني بما اتسعت والرحب سعة المكان والمعنى أنه ضاق عليهم المكان بعد أن كان واسعاً ﴿وضاقت عليهم أنفسهم﴾ يعني من شدة الغم والحزن ومجانبة الناس إياهم وترك كلامهم ﴿وظنوا﴾ يعني وأيقنوا وعلموا ﴿أن لا ملجأ﴾ يعني لا مفزع ولا مفر ﴿من الله إلا إليه﴾ ولا عاصم من عذابه إلا هو ﴿ثم تاب عليهم﴾ فيه إضمار وحذف تقديره وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه فرحمهم ثم تاب عليهم وإنما حسن هذا الحذف لدلالة الكلام عليه وقوله ثم تاب عليهم تأكيد لقبول توبتهم لأنه قد ذكر توبتهم في قوله تعالى: ﴿وعلى الثلاثة الذين خلفوا﴾ كما تقدم بيانه وأنه عطف على قوله ﴿لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار﴾ أي وتاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار أي وتاب الله على الثلاثة الذين خلفوا.

وقوله تعالى: ﴿ليتوبوا﴾ معناه: أن الله سبحانه وتعالى تاب عليهم في الماضي ليكون ذلك داعياً لهم إلى التوبة

ورسول الله ﷺ في مشقّة السفر ومقاساة التعب. ﴿ **ذلك بأنّهم لا يُصيبهم** ﴾، في سفرهم، ﴿ **ظَمأ** ﴾، عطش، ﴿ **ولا نَصَبٌ** ﴾، تعب، ﴿ **ولا مَخْمَصَةٌ** ﴾، مجاعة، ﴿ **في سبيل اللَّهِ ولا يَطَئونَ مَوْطِئاً** ﴾، أرضاً، ﴿ **يَغيظُ الكُفّار** ﴾، وطؤهم إياه ﴿ **ولاَ ينالُونَ من عدوٍّ نيْلاً** ﴾، أي: لا يصيبون من عدوّهم قتلاً أو أسراً أو غنيمةً أو هزيمةً، ﴿ **إلاّ كُتِبَ لهم به عملٌ صالحٌ إنّ اللَّهَ لا يُضيعُ أجرَ المحسنين** ﴾. أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله

في المستقبل فيرجعوا ويداوموا عليها وقيل إن أصل التوبة الرجوع ومعناه ثم تاب عليهم ليرجعوا إلى حالتهم الأولى يعني إلى عادتهم في الاختلاط بالناس ومكالمتهم فتسكن نفوسهم بذلك **﴿إن الله هو التواب﴾** يعني على عباده **﴿الرحيم﴾** بهم وفيه دليل على أن قبول التوبة بمحض الرحمة والكرم والفضل والإحسان وأنه لا يجب على الله تعالى شيء.

قوله عز وجل: **﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله﴾** يعني في مخالفة الرسول ﷺ **﴿وكونوا مع الصادقين﴾** يعني مع من صدق النبي ﷺ وأصحابه في الغزوات ولا تكونوا مع المتخلفين من المنافقين الذين قعدوا في البيوت وتركوا الغزو. وقال سعيد بن جبير: مع الصادقين يعني مع أبي بكر وعمر. قال ابن جريج: مع المهاجرين. وقال ابن عباس: مع الذين صدقت نياتهم واستقامت قلوبهم وأعمالهم وخرجوا مع رسول الله ﷺ إلى تبوك بإخلاص نية. وقيل: كونوا مع الذين صدقوا في الاعتراف بالذنب وهم يعتذرون بالأعذار الباطلة الكاذبة وهذه الآية تدل على فضيلة الصدق لأن الصدق يهدي إلى الجنة والكذب إلى الفجور كما ورد في الحديث. وقال ابن مسعود: الكذب لا يصلح في جد ولا هزل ولا أن يعد أحدكم صاحبه شيئاً ثم لا ينجزه اقرأوا إن شئتم وكونوا مع الصادقين.

وروي أن أبا بكر الصديق احتج بهذه الآية على الأنصار في يوم السقيفة وذلك أن الأنصار قالوا: منا أمير ومنكم أمير فقال أبو بكر: يا معشر الأنصار إن الله سبحانه وتعالى يقول في كتابه للفقراء المهاجرين إلى قوله أولئك هم الصادقون من هم قالت الأنصار: أنتم هم فقال أبو بكر: إن الله تعالى يقول: يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين فأمركم أن تكونوا معنا ولم يأمرنا أن نكون معكم نحن الأمراء وأنتم الوزراء وقيل مع بمعنى من والمعنى يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا من الصادقين قوله سبحانه وتعالى: **﴿ما كان لأهل المدينة﴾** يعني لساكني المدينة من المهاجرين والأنصار: **﴿ومن حولهم من الأعراب﴾** يعني سكان البوادي من مزينة وجهينة وأسلم وأشجع وغفار وقيل: هو عام في كل الأعراب لأن اللفظ عام وحمله على العموم أولى **﴿أن يتخلفوا عن رسول الله﴾** يعني إذا غزا وهذا ظاهر خبر ومعناه النهي أي ليس لهم أن يتخلفوا عن رسول الله ﷺ **﴿ولا يرغبوا﴾** يعني ولا أن يرغبوا **﴿بأنفسهم عن نفسه﴾** يعني ليس لهم أن يكرهوا لأنفسهم ما يختاره رسول الله ﷺ ويرضاه لنفسه ولا يختاروا لأنفسهم الخفض والدعة ويتركوا مصاحبته والجهاد معه في حال الشدة والمشقة وقال الحسن: لا يرغبوا بأنفسهم أن يصيبهم من الشدائد فيختاروا الخفض والدعة ورسول الله ﷺ في مشقة السفر ومقاساة التعب **﴿ذلك بأنهم لا يصيبهم﴾** في سفرهم وغزواتهم **﴿ظمأ﴾** أي عطش **﴿ولا نصب﴾** أي تعب **﴿ولا مخمصة﴾** يعني مجاعة شديدة **﴿في سبيل الله ولا يطؤون موطئاً يغيظ الكفار﴾** يعني ولا يضعون قدماً على الأرض يكون ذلك القدم سبباً لغيظ الكفار وغمهم وحزنهم **﴿ولا ينالون من عدو نيلاً﴾** يعني أسراً أو قتلاً أو هزيمة أو غنيمة أو نحو ذلك قليلاً كان أو كثيراً **﴿إلا كتب لهم به عمل صالح﴾** يعني إلا كتب الله لهم بذلك ثواب عمل صالح قد ارتضاه لهم وقبله منهم **﴿إن الله لا يضيع أجر المحسنين﴾** يعني أن الله سبحانه وتعالى لا يدع محسناً من خلقه قد أحسن في عمله وأطاعه فيما أمره به أو نهاه عنه أن يجازيه على إحسانه وعمله الصالح وفي الآية دليل على أن من قصد معصية الله كان قيامه وقعوده ومشيه وحركته وسكونه كلها حسنات مكتوبة عند الله من قصد معصية الله كان قيامه وقعوده ومشيه وحركته وسكونه كلها سيئآت إلا أن يغفرها الله بفضله وكرمه واختلف العلماء في حكم هذه الآية. فقال قتادة: هذا الحكم خاص برسول الله ﷺ إذا غزا بنفسه لم يكن

النعيمي أنبأنا محمد بن يوسف حدّثنا محمد بن إسماعيل حدّثنا علي بن عبد الله حدّثنا الوليد بن مسلم حدّثنا يزيد بن أبي مريم حدّثنا عباية بن رفاعة قال: أدركني أبو عبس وأنا ذاهب إلى الجمعة فقال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «مَنِ اغْبَرَّتْ قدماه في سبيل اللَّهِ حرّمهما اللَّهُ على النار». واختلفوا في حكم هذه الآية، قال قتادة: هذه خاصّة لرسول الله ﷺ إذا غزا بنفسه لم يكن لأحد أن يتخلّف عنه إلاّ بعذر، فأمّا غيره من الأئمة والوُلاة فيجوز لمَن

لأحد أن يتخلف عنه إلا بعذر فأما غيره من الأئمة والولاة فيجوز لمن شاء من المؤمنين أن يتخلف عنه إذا لم يكن للمسلمين إليه ضرورة. وقال الوليد بن مسلم: سمعت الأوزاعي وابن المبارك وابن جابر وسعيداً يقولون في هذه الآية إنها لأول هذه الأمة وآخرها فعلى هذا تكون هذه الآية محكمة لم تنسخ. وقال ابن زيد: هذا حين كان أهل الإسلام قليلاً فلما كثروا نسخها الله عز وجل وأباح التخلف لمن شاء بقوله وما كان المؤمنون لينفروا كافة ونقل الواحدي عن عطية أنه قال: وما كان لهم أن يتخلفوا عن رسول الله ﷺ إذا دعاهم وأمرهم. وقال: هذا هو الصحيح لأنه لا تتعين الطاعة والإجابة لرسول الله ﷺ إلا إذا أمر وكذا غيره من الأئمة والولاة قالوا إذا ندبوا أوعينوا لأنّ لو سوغنا للمندوب أن يتقاعد ولم يختص بذلك بعض دون بعض لأدى ذلك إلى تعطيل الجهاد والله أعلم.

وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾

وقوله عز وجل: ﴿ولا ينفقون﴾ يعني في سبيل الله ﴿نفقة صغيرة ولا كبيرة﴾ يعني تمرة فما دونها أو أكثر منها حتى علاقة سوط ﴿ولا يقطعون وادياً﴾ يعني ولا يجاوزون في مسيرهم وادياً مقبلين أو مدبرين فيه ﴿إلا كتب لهم﴾ يعني كتب الله لهم آثارهم وخطاهم ونفقاتهم ﴿ليجزيهم الله﴾ يعني يجازيهم ﴿أحسن ما كانوا يعملون﴾ قال الواحدي: معناه بأحسن ما كانوا يعملون. وقال الإمام فخر الدين الرازي: فيه وجهان: الأول: أن الأحسن من صفة أفعالهم وفيها الواجب والمندوب والمباح فالله سبحانه وتعالى يجزيهم على الأحسن وهو الواجب والمندوب دون المباح. والثاني: أن الأحسن صفة للجزاء أي يجزيهم جزاء هو أحسن من أعمالهم وأجل وأفضل وهو الثواب وفي الآية دليل على فضل الجهاد وأنه من أحسن أعمال العباد (ق) عن سهل بن سعد الساعدي أن رسول الله ﷺ قال: رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها وموضع سوط أحدكم من الجنة خير من الدنيا وما عليها والروحة يروحها العبد في سبيل الله أو الغدوة خير من الدنيا وما عليها وفي رواية وما فيها (ق) عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «تضمن الله لمن خرج في سبيله لا يخرجه إلا جهاداً في سبيلي وإيماناً بي وتصديقاً برسلي فهو علي ضامن أن أدخله الجنة أو أرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه نائلاً ما نال من أجر أو غنيمة والذي نفس محمد بيده ما من كلم يكلم في سبيل الله إلا جاء يوم القيامة كهيئته يوم كلم لونه لون دم وريحه ريح مسك والذي نفس محمد بيده لولا أن أشق على المسلمين ما قعدت خلاف سرية تغزو في سبيل الله أبداً ولكن لا أجد سعة فأحملهم ولا يجدون سعة ويشق عليهم أن يتخلفوا عني

شاء من المسلمين أن يتخلّف عنه إذا لم يكن بالمسلمين إليه ضرورة. وقال الوليد بن مسلم: سمعتُ الأوزاعي وابنَ المبارك وابنَ جابر وسعيدَ بن عبد العزيز يقولون في هذه الآية: إنها لأوّل هذه الأمة وآخرها. وقال ابن زيد: هذا حين كان أهل الإسلام قليلاً فلما كثروا نسخها الله تعالى وأباحَ التخلّف لمَن يشاء، فقال: ﴿ **وما كان المؤمنون لِينفِرُوا كافّة** ﴾.

قوله تعالى: ﴿ **ولا يُنفقُون نفقةً** ﴾، أي: في سبيل الله، ﴿ **صغيرةً ولا كبيرةً** ﴾، ولو علاقة سوط، ﴿ **ولا يقطعُون وادياً** ﴾، لا يجاوزون وادياً في مسيرهم مقبلين أو مدبرين. ﴿ **إلّا كُتِبَ لهم** ﴾، يعني: آثارهم وخطاهم، ﴿ **ليجزيَهمُ اللّهُ أحسنَ ما كانُوا يعملون** ﴾. رُوِيَ عن خزيم بن فاتك قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن أنفق نفقةً في سبيل الله كُتِبَ له سبعُمائةِ ضِعْفٍ» أخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر أنا عبد الغافر بن محمد أنا محمد بن عيسى الجلودي حدّثنا إبراهيم بن محمد بن سفيان حدّثنا مسلم بن الحجّاج حدّثنا إسحاق بن إبراهيم الحنظلي أنا جرير عن الأعمش عن أبي عمرو الشيباني عن أبي مسعود الأنصاري قال: جاءنا رجل بناقة مخطومة فقال: هذه في سبيل

والذي نفس محمد بيده لوددت أن أغزو فأقتل في سبيل الله ثم أغزو فأقتل ثم أغزوا فأقتل» لفظ مسلم وللبخاري بمعناه (ق).

عن أبي سعيد الخدري قال: «أتى رجل رسول الله ﷺ فقال أي الناس أفضل قال مؤمن يجاهد بنفسه وماله في سبيل الله قال ثم من قال ثم رجل في شعب من الشعاب يعبد الله» وفي رواية «يتقي الله ويدع الناس من شره» (خ) عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال «من احتبس فرساً في سبيل الله إيماناً بالله وتصديقاً بوعده فإن شبعه وريه وروثه وبوله في ميزانه يوم القيامة» يعني حسنات (خ) عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال «ما أغبرت قدما عبد في سبيل الله فتمسه النار» (م) عن أبي مسعود الأنصاري البدري قال: «جاء رجل بناقة مخطومة إلى رسول الله ﷺ فقال هذه في سبيل الله فقال رسول الله ﷺ لك بها يوم القيامة سبعمائة ناقة كلها مخطومة» عن خريم بن فاتك قال قال رسول الله ﷺ: «من أنفق نفقة في سبيل الله كتب الله له سبعمائة ضعف﴾ أخرجه الترمذي والنسائي.

﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ (١٢٢)

قوله سبحانه وتعالى: ﴿**وما كان المؤمنون لينفروا كافة**﴾ الآية. قال عكرمة: لما نزلت هذه الآية ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله قال ناس من المنافقين. هلك من تخلف فنزلت هذه الآية ومن كان المؤمنون لينفروا كافة. وقال ابن عباس: أنها ليست في الجهاد ولكن لما دعا رسول الله ﷺ على مضر بالسنين أجدبت بلادهم فكانت القبيلة منهم تقبل بأسرها حتى يحلوا بالمدينة من الجهد ويقبلوا بالإسلام وهم كاذبون فضيقوا على أصحاب رسول الله ﷺ وأجهدوهم فأنزل الله عز وجل الآية يخبر نبيه ﷺ أنهم ليسوا مؤمنين فردهم رسول الله ﷺ إلى عشائرهم وحذر قومهم أن يفعلوا فعلهم إذا رجعوا إليهم فذلك قوله سبحانه وتعالى: ﴿**ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم**﴾ وفي رواية أخرى عن ابن عباس أنه قال: «كان ينطلق من كل حي من العرب عصابة فيأتون النبي ﷺ فيسألونه عما يريدون من أمر دينهم ويتفقهون في دينهم ويقولون للنبي ﷺ ما تأمرنا أن نفعله وأخبرنا عما نقول لعشائرنا إذا انطلقنا إليهم فيأمرهم نبي الله ﷺ بطاعة الله وطاعة رسوله ويبعثهم إلى قومهم بالصلاة والزكاة فكانوا إذا أتوا قومهم نادوا أن من أسلم فهو منا وينذرونهم حتى أن الرجل ليفارق أباه وأمه وكان رسول الله ﷺ يخبرهم بما يحتاجون إليه من أمر الدين وأن ينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم ويدعوهم إلى الإسلام وينذروهم ويبشروهم بالجنة وقال مجاهد: إن ناساً من أصحاب النبي ﷺ خرجوا في البوادي فأصابوا من الناس معروفاً ومن الحطب ما ينتفعون به

الله، فقال رسول الله ﷺ: «لك بها يوم القيامة سبعُمائةِ ناقة كلها مخطومة» أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف حدّثنا محمد بن إسماعيل حدّثنا أبو معمر حدّثنا عبد الوارث حدّثنا الحسين حدّثني يحيىٰ بن أبي كثير حدّثني أبو سلمة حدّثني بشر بن سعيد حدّثني زيد بن خالد أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ جهّز غازياً في سبيل الله فقدْ غزا، ومَن خَلَفَ غَازياً في سبيل الله في أهله بخير فقدْ غزا».

قوله عزّ وجلّ: ﴿ وما كانَ المؤمنُونَ لِيَنْفِرُوا كافّةً ﴾، قال ابن عباس في رواية الكلبي: لمّا أنزل الله عزّ وجلّ عيوب المنافقين في غزوة تبوك كان النبي ﷺ يبعث السرايا فكان المسلمون ينفرون جميعاً إلى الغزو ويتركون النبي ﷺ وحده، فأنزل الله عزّ وجلّ هذه الآية، وهذا نفي بمعنى النهي. قوله تعالى: ﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كلِّ فِرْقَةٍ منهم طائفةٌ ﴾، أي: فهلاّ خرج إلى الغزو من كل قبيلة جماعةٌ ويبقى مع رسول الله ﷺ جماعةٌ، ﴿ لِيَتَفَقَّهُوا في

ودعوا من وجدوا من الناس إلى الهدى فقال الناس لهم ما نراكم إلا قد تركتم أصحابكم وجئتمونا فوجدوا في أنفسهم تحرجاً وأقبلوا من البادية كلهم حتى دخلوا على رسول الله ﷺ فقال الله عز وجل ﴿فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة﴾ يبتغون الخير وقعد طائفة ﴿ليتفقهوا في الدين﴾ ليسمعوا ما أنزل الله ﴿ولينذروا قومهم﴾ من الناس ﴿إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون﴾ وقال ابن عباس: ما كان المؤمنون لينفروا جميعاً ويتركوا رسول الله ﷺ وحده فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة يعني عصبة يعني السرايا ولا يسيرون إلا بإذنه فإذا رجعت السرايا وقد نزل في بعضهم قرآن تعلمه القاعدون من رسول الله ﷺ وقالوا إن الله قد أنزل على نبيكم من بعدكم قرآناً وقد تعلمناه فمكث السرايا يتعلمون ما أنزل الله على نبيهم بعدهم وتبعث سرايا أخرى فذلك قوله سبحانه وتعالى ليتفقهوا في الدين يقول ليتعملوا ما أنزل الله على نبيهم ويعلموا السرايا إذا رجعت إليهم لعلهم يحذرون نقل هذه الأقوال كلها الطبري وأما تفسير الآية فيمكن أن يقال إنها من بقية أحكام الجهاد ويمكن أن يقال إنها كلام مبتدأ لا تعلق له بالجهاد فعلى الاحتمال الأول فقد قيل: إن النبي ﷺ كان إذا خرج للغزو ولم يتخلف عنه إلا منافق أو صاحب عذر فلما بالغ الله في الكشف عن عيوب المنافقين وفضحهم في تخلفهم عن غزوة تبوك قال المؤمنون والله لا نتخلف عن شيء من الغزوات مع رسول الله ﷺ ولا عن سرية يبعثها فلما قدم المدينة وبعث السرايا نفر المسلمون جميعاً إلى الغزو وتركوا رسول الله ﷺ وحده فنزلت هذه الآية فيكون المعنى ما كان ينبغي للمؤمنين ولا يجوز لهم أن ينفروا بكليتهم إلى الجهاد ويتركوا رسول الله ﷺ بل يجب أن ينقسموا إلى قسمين فطائفة يكونون مع رسول الله ﷺ وطائفة ينفرون إلى الجهاد لأن ذلك الوقت كانت الحاجة داعية إلى انقسام أصحاب رسول الله ﷺ إلى قسمين: قسم للجهاد، وقسم لتعلم العلم والتفقه في الدين، لأن الأحكام والشرائع كانت تتجدد شيئاً بعد شيء فالملازمون لرسول الله ﷺ يحفظون ما نزل من الأحكام وما تجدد من الشرائع فإذا قدم الغزاة أخبروهم بذلك فيكون معنى الآية وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا يعني فهلاً نفر من كل فرقة منهم طائفة للجهاد وقعد طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم الذين نفروا إلى الجهاد إذا رجعوا إليهم من غزوهم لعلهم يحذرون يعني مخالفة أمر الله وأمر رسوله وهذا معنى قول قتادة. وقيل: إن التفقه صفة للطائفة النافرة قال الحسن: ليتفقه الذين خرجوا بما يريهم الله من الظهور على المشركين والنصرة وينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم ومعنى ذلك أن

الدِّين ﴾، يعني: فرقة القاعدين يتعلّمون القرآن والسُّنَنَ والفرائضَ والأحكام، فإذا رجعت السرايا أخبروهم بما أُنزل بعدهم فتمكث السرايا يتعلمون ما نزل بعدهم وتبعث سرايا أُخر، فذلك قوله: ﴿ وَلِيُنذِرُوا قومَهم ﴾، وليعلموهم بالقرآن ويخوِّفوهم به، ﴿ إذا رَجَعُوا إليهم لعلّهم يَحذرُون ﴾، أن يجهلُوا فلا يعملون بخلافه. وقال الحسن: هذا التفقّه والإنذار راجع إلى الفرقة النافرة، ومعناه: هلاَّ نفرَ فرقةٌ ليتفقهوا، أي: ليتبصروا بما يُريهم الله من الظهور على المشركين ونصرة الدين، ولينذروا قومَهم من الكفّار إذا رجعوا إليهم من الجهاد فيخبروهم بنصر الله ورسوله ﷺ والمؤمنين لعلّهم يحذرون أن يُعادُوا النبيَّ ﷺ، فينزل بهم ما نزل بأصحابهم من الكفّار. وقال الكلبي: لها وجه آخر وهو أن أحياء من بني أسد وخزيمة أصابتهم سنة شديدة فأقبلوا بالذراري حتى نزلوا المدينة فأفسدُوا طُرقها بالعذرات وأغلوا أسعارها فنزل قوله: ﴿ وما كان المؤمنون لينفِرُوا كافّةً فلولا نفرَ من كلِّ فرقةٍ منهم طائفةٌ ﴾، أي: لم يكن لهم أن ينفروا كافّة ولكن من كل قبيلة طائفة ليتفقهوا في الدين. وقال مجاهد: نزلت في ناس خرجوا في البوادي ابتغاء الخير من أهلها فأصابوا منهم معروفاً ودَعوا مَن وجدوا من الناس إلى الهدى، فقال الناس لهم: ما نراكم إلّا وقد تركتم صاحبكم وجئتمونا، فوجدوا في أنفسهم من ذلك حرجاً، وأقبلوا كلهم من البادية حتى دخلوا على النبي ﷺ، فأنزل الله هذه الآية، أي: هلاّ نَفَر من كل فرقة منهم طائفةٌ ليتفقهوا في الدين وليستمعوا ما أنزل بعدهم ولينذروا قومهم، يعني: الناس كلهم إذا رجعوا إليهم ويدعوهم إلى الله، لعلّهم يحذرون بأس الله ونقمته،

الفرقة النافرة إذا شاهدوا نصر الله لهم على أعدائهم وأن الله يريد إعلاء دينه وتقوية نبيه ﷺ وأن الفئة القليلة قد غلبت جمعاً كثيراً، فإذا رجعوا من ذلك النفير إلى قومهم من الكفار، أنذروهم بما شاهدوا من دلائل النصر والفتح والظفر لهم لعلهم يحذرون فيتركوا الكفر والنفاق وأورد على هذا القول أن هذا النوع لا يعد تفقهاً في الدين ويمكن أن يجاب عنه بأنهم إذا علموا أن الله هو ناصرهم ومقويهم على عدوهم كان ذلك زيادة في إيمانهم فيكون ذلك فقهاً في الدين.
وأما الاحتمال الثاني: وهو أن يقال إن هذه الآية كلام مبتدأ لا تعلق له بالجهاد وهو ما ذكرناه عن مجاهد أن ناساً من أصحاب النبي ﷺ خرجوا إلى البوادي فأصابوا معروفاً ودعوا من وجدوا من الناس إلى الهدى فقال الناس لهم: ما نراكم إلا قد تركتم صاحبكم وجئتمونا فوجدوا في أنفسهم من ذلك حرجاً فأقبلوا كلهم من البادية حتى دخلوا على رسول الله ﷺ فأنزل الله هذه الآية والمعنى هلا نفر من كل فرقة طائفة وقعد طائفة ليتفقهوا في الدين ويبلغوا ذلك إلى النافرين لينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون يعني بأس الله ونقمته إذا خالفوا أمره في الآية دليل على أنه يجب أن يكون المقصود من العلم والتفقه دعوة الخلق إلى الحق وإرشادهم إلى الدين القويم والصراط المستقيم فكل من تفقه وتعلم بهذا القصد كان المنهج القويم والصراط المستقيم ومن عدل عنه وتعلم العلم لطلب الدنيا كان من الأخسرين أعمالاً الآية (ق).

عن معاوية قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين وإنما أنا قاسم ويعطى الله ولم يزل أمر هذه الأمة مستقيماً حتى تقوم الساعة وحتى يأتي أمر الله» (ق).

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «تجدون الناس معادن خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا». عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ قال: «فقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد». أخرجه الترمذي وأصل الفقه في اللغة الفهم يقال فقه الرجل إذا فهم وفقه فقاهة إذا صار فقيهاً. وقيل: الفقه هو التوصل إلى علم غائب بعلم شاهد فهو أخص من العلم وفي الاصطلاح الفقه عبارة عن العلم بأحكام الشرائع وأحكام الدين وذلك ينقسم إلى فرض عين وفرض كفاية ففرض العين معرفة أحكام الطهارة وأحكام الصلاة والصوم فعلى كل مكلف معرفة ذلك قال النبي ﷺ: «طلب العلم فريضة على كل مسلم» ذكره البغوي بغير سند وكذلك كل عبادة وجبت على المكلف بحكم الشرع يجب عليه معرفة علمها مثل علم الزكاة إذا صار له مال يجب في مثله الزكاة وعلم أحكام الحج إذا وجب عليه.

وأما فرض الكفاية من الفقه، فهو أن يتعلم حتى يبلغ رتبة الاجتهاد ودرجة الفتيا وإذا قعد أهل بلد عن تعلمه عصوا جميعاً وإذا قام به من كل بلد واحد فتعلم حتى بلغ درجة الفتيا سقط الفرض عن الباقين وعليهم تقليده فيما يقع لهم من الحوادث.

عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم» أخرجه الترمذي مع زيادة

وقعدت طائفة يبتغون الخير. أخبرنا أبو عبد الله محمد بن الفضل الخرقي أنا أبو الحسن الطيسفوني حدّثنا عبد الله بن عمر الجوهري حدّثنا أحمد بن علي الكشمهيني حدّثنا علي بن حجر حدّثنا إسماعيل بن جعفر حدّثنا عبد الله بن أبي سعيد بن أبي هند عن أبيه عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ يُرِدِ اللَّهُ به خيراً يُفَقِّهْهُ في الدِّين». أخبرنا عبد الوهاب بن محمد الخطيب ثنا عبد العزيز بن أحمد الخلال حدّثنا أبو العباس الأصمّ أنا الربيع أنا الشافعي أنا سفيان عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «تجدون الناسَ معادنَ كمعادنِ الذهبِ والفضةِ، فخيارُهم في الجاهلية خيارُهم في الإسلام إذا فَقُهُوا». والفقه: هو معرفة أحكام الدين وهو ينقسم إلى فرض عين وفرض كفاية، ففرض العين مثل علم الطهارة والصلاة والصوم فعلى كل مكلّف معرفته، قال النبي ﷺ: «طلبُ العلم فريضةٌ على كلِّ مسلم ومسلمةٍ»، وكذلك كل عبادة أوجبها الشرع على

فيه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له طريقاً إلى الجنة» أخرجه الترمذي عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: «من خرج في طلب العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع» أخرجه الترمذي عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن النبي ﷺ قال: «العلم ثلاثة وما سوى ذلك فهو فضل آية محكمة أو سنة قائمة أو فريضة عادلة» أخرجه أبو داود.

الآية المحكمة هي التي لا اشتباه فيها ولا اختلاف في حكمها أو ما ليس بمنسوخ، والسنة القائمة هي المستمرة الدائمة التي العمل بها متصل لا يترك، والفريضة العادلة هي التي لا جور فيها ولا حيف في قضائها. قال الفضيل بن عياض: عالم عامل معلم يدعى عظيماً في ملكوت السموات. وأخرجه الترمذي موقوفاً وقال الإمام الشافعي رضي الله عنه: «طلب العلم أفضل من صلاة النافلة» قوله سبحانه وتعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ وَلۡيَجِدُواْ فِيكُمۡ غِلۡظَةٗۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ فَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمۡ زَادَتۡهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنٗاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَتۡهُمۡ رِجۡسًا إِلَىٰ رِجۡسِهِمۡ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾﴾

﴿يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار﴾ أمروا بقتال الأقرب فالأقرب إليهم في الدار والنسب قال ابن عباس: مثل قريظة والنضير وخيبر ونحوها. وقال ابن عمر: هم الروم لأنهم كانوا مكان الشأم والشأم أقرب إلى المدينة من العراق. وقال بعضهم: هم الديلم. وقال ابن زيد: كان الذين يلونهم من الكفار العرب فقاتلوهم حتى فرغوا منهم فأمروا بقتال أهل الكتاب وجهادهم حتى يؤمنوا أو يعطوا الجزية عن يد. ونقل عن بعض العلماء أنه قال: نزلت هذه الآية قبل الأمر بقتال المشركين كافة فلما نزلت: ﴿وقاتلوا المشركين كافة﴾ صارت ناسخة لقوله تعالى: ﴿قاتلوا الذين يلونكم من الكفار﴾ وقال المحققون من العلماء: لا وجه للنسخ، لأنه سبحانه وتعالى لما أمرهم بقتال المشركين كافة أرشدهم إلى الطريق الأصوب الأصلح وهو أن يبدؤوا بقتال الأقرب فالأقرب حتى يصلوا إلى الأبعد فالأبعد وبهذا الطريق يحصل الغرض من قتال المشركين كافة لأن قتالهم في دفعة واحدة لا يتصور، ولهذا السبب قاتل رسول الله ﷺ أولاً قومه، ثم انتقل منهم إلى قتال سائر العرب ثم انتقل إلي قتال أهل الكتاب وهم: قريظة، والنضير، وخيبر، وفدك، ثم انتقل إلى غزو الروم في الشأم فكان فتح الشأم في زمن الصحابة ثم إنهم انتقلوا إلى العراق ثم بعد ذلك إلى سائر الأمصار لأنه إذا قاتل الأقرب تقوى بما ينال منهم من الغنائم على الأبعد.

كل واحد يجب عليه معرفتها ومعرفة علمها مثل علم الزكاة إن كان له مال، وعلم الحجّ إن وجب عليه. وأما فرض الكفاية هو أن يتعلّم حتى يبلغ درجة الاجتهاد ورتبة الفُتيا، فإذا قعد أهلُ بلد عن تعلّمه عصوا جميعاً وإذا قام من كل بلد واحد بتعلّمه سقط الفرض عن الآخرين، وعليهم تقليده فيما يقع لهم من الحوادث، روى أبو أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «فضلُ العَالِم على العابد كفضلي على أدناكم»، وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «فقيه واحد أشدّ على الشيطان من ألف عابد» قال الشافعي: طلب العلم أفضل من صلاة النافلة.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ يا أيها الذينَ آمنُوا قَاتِلُوا الذينَ يَلُونَكُمْ مِّنَ الكُفّار ﴾ الآية، أُمِروا بقتال الأقرب فالأقرب إليهم في الدار والنسب، قال ابن عباس رضي الله عنهما مثل بني قريظة والنضير وخيبر ونحوها. وقيل: أراد بهم الروم لأنهم كانوا سكان الشام وكان الشام أقرب إلى المدينة من العراق، ﴿ وَلْيَجِدُوا فيكم غِلْظَةً ﴾، شِدّةً وحَمِيّة.

قوله سبحانه وتعالى: ﴿وليجدوا فيكم غلظة﴾ يعني شدة وقوة وشجاعة والغلظة ضد الرقة. وقال الحسن: صبراً على جهادهم ﴿واعلموا أن الله مع المتقين﴾ يعني بالعون والنصرة.

قوله عز وجل: ﴿وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيماناً﴾ يعني: وإذا أنزل الله سورة من سور القرآن فمن المنافقين من يقول يعني يقول بعضهم لبعض أيكم زادته هذه يعني السورة إيماناً يعني تصديقاً ويقيناً وإنما يقول ذلك المنافقون استهزاء وقيل: يقول ذلك المنافقون لبعض المؤمنين فقال سبحانه وتعالى: ﴿فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً﴾ يعني تصديقاً ويقيناً وقربة من الله، ومعنى الزيادة، ضم شيء إلى آخر من جنسه مما هو في صفته فالمؤمنون إذا أقروا بنزول سورة القرآن عن ثقة واعترفوا أنها من عند الله عز وجل زادهم ذلك القرار والاعتراف إيماناً وقد تقدم بسط الكلام على زيادة الإيمان في أول سورة الأنفال ﴿وهم يستبشرون﴾ يعني أن المؤمنين يفرحون بنزول القرآن شيئاً بعد شيء لأنهم كلما نزل ازدادوا إيماناً وذلك يوجب مزيد الثواب في الآخرة كما تحصل الزيادة في الإيمان بسبب نزول القرآن كذلك تحصل الزيادة في الكفر وهو قوله سبحانه ﴿وأما الذين في قلوبهم مرض﴾ أي شك ونفاق سمي الشك في الدين مرضاً لأنه فساد في القلب يحتاج إلى علاج كالمرض في البدن إذا حصل يحتاج إلى العلاج ﴿فزادتهم﴾ يعني السورة من القرآن ﴿رجساً إلى رجسهم﴾ يعني كفراً إلى كفرهم وذلك أنهم كلما جحدوا نزول سورة أو استهزؤوا بها ازدادوا كفراً مع كفرهم الأول وسمي الكفر رجساً لأنه أقبح الأشياء وأصل الرجس في اللغة الشيء المستقذر ﴿وماتوا﴾ يعني هؤلاء المنافقين ﴿وهم كافرون﴾ يعني وهم جاحدون لما أنزل الله عز وجل على رسوله ﷺ. قال مجاهد: في هذه الآية الإيمان يزيد وينقص وكان عمر يأخذ بيد الرجل والرجلين من أصحابه ويقول تعالوا حتى نزداد إيماناً. وقال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: إن الإيمان يبدو لمعة بيضاء في القلب وكلما ازدادا الإيمان عظماً ازداد ذلك البياض حتى يبيض القلب كله، وإن النفاق يبدو لمعة سوداء في القلب وكلما ازداد النفاق ازداد السواد حتى يسود القلب كله، وأيم الله لو شققتم عن قلب مؤمن لوجدتموه أبيض ولو شققتم عن قلب منافق لوجدتموه أسود.

أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟

قال الحسن: صبراً على جهادهم، ﴿ واعْلَمُوا أنّ اللّهَ معَ المتّقين ﴾، بالعون والنصرة.

قوله تعالى: ﴿ وإذا مَا أُنْزِلَتْ سورةٌ فمنهُمْ مَّنْ يقولُ أيّكم زادتْهُ هذهِ إيماناً ﴾، يقيناً. كان المنافقون يقولون هذا استهزاء، قال الله تعالى: ﴿ فأمّا الذينَ آمنُوا فزَادتْهم إيماناً ﴾ يقيناً وتصديقاً، ﴿ وهم يستبشِرُون ﴾، يفرحون بنزول القرآن.

﴿ وأما الذين في قلوبهم مرضٌ ﴾، شكٌّ ونفاق، ﴿ فزادَتْهُمْ رِجْساً إلى رِجْسِهِمْ ﴾، أي: كفرهم فعند نزول كل سورة ينكرونها يزداد كفرهم بها. قال مجاهد: هذه الآية إشارة إلى الإيمان يزيد وينقص. وكان عمر: يأخذ بيد الرجل والرجلين من أصحابه فيقول تعالوا حتى نزداد إيماناً. وقال عليّ بن أبي طالب: إن الإيمان يبدو لمعة بيضاء في القلب، فكلّما ازْدَادَ الإيمانِ عِظَماً ازداد ذلك البياضُ حتى يبيضَ القلبُ كله، وإن النفاق يبدو لمعة سوداء في القلب فكلما ازدادَ النفاقُ ازدادَ السوادُ حتى يسودّ القلبُ كله، وأيْمُ الله لو شققتم عن قلب مؤمن لوجدتموه أبيض ولو شققتم عن قلب منافق لوجدتموه أسود. ﴿ وماتُوا وهُمْ كافرون ﴾.

صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾

قوله سبحانه وتعالى: ﴿أولا يرون﴾ قرىء ترون بالتاء على خطاب المؤمنين وقرىء بالياء على أنه خبر عن المنافقين المذكورين في قوله في قلوبهم مرض ﴿أنهم يفتنون﴾ يعني يبتلون ﴿في كل عام مرة أو مرتين﴾ يعني بالأمراض والشدائد. وقيل: بالقحط والجدب. وقيل: بالغزو والجهاد. وقيل: إنهم يفتضحون بإظهار نفاقهم. وقيل: إنهم ينافقون ثم يؤمنون ثم ينافقون. وقيل إنهم ينقضون عهدهم في السنة مرة أو مرتين ﴿ثم لا يتوبون﴾ يعني من النفاق ونقض العهد ولا يرجعون إلى الله ﴿ولا هم يذكرون﴾ يعني ولا يتعظون بما يرون من صدق وعد الله بالنصر والظفر للمسلمين ﴿وإذا ما أنزلت سورة﴾ يعني فيها عيب المنافقين وتوبيخهم ﴿نظر بعضهم إلى بعض﴾ يريدون بذلك الهرب يقول بعضهم لبعض إشارة ﴿هل يراكم من أحد﴾ يعني هل أحد من المؤمنين يراكم إن قمتم من مجلسكم فإن لم يرهم أحد خرجوا من المسجد وإن علموا أن أحداً يراهم من المؤمنين أقاموا ولبثوا على تلك الحال ﴿ثم انصرفوا﴾ يعني عن الإيمان بتلك السورة النازلة. وقيل: انصرفوا عن مواضعهم التي يسمعون فيها ما يكرهون ﴿صرف الله قلوبهم﴾ يعني عن الإيمان. وقال الزجاج: أضلهم الله مجازاة لهم على فعلهم ﴿بأنهم قوم لا يفقهون﴾ يعني لا يفقهون عن الله دينه ولا شيئاً فيه نفعهم.

قوله سبحانه وتعالى: ﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم﴾ هذا خطاب للعرب يعني: لقد جاءكم أيها العرب رسول من أنفسكم تعرفون نسبه وحسبه وأنه من ولد إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام قال ابن عباس ليس قبيلة من العرب إلا وقد ولدت النبي ﷺ وله فيهم نسب وقال جعفر بن محمد الصادق: لم يصبه شيء من ولادة الجاهلية. عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ «إني خرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح» هكذا ذكره الطبري وذكر البغوي بإسناد الثعلبي. عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «ما ولدني من سفاح أهل الجاهلية شيء ما ولدني إلا نكاح كنكاح أهل الإسلام» قال قتادة: جعله الله من أنفسكم فلا يحسدونه على ما أعطاه الله من النبوة والكرامة. قال بعض العلماء في تفسير قول ابن عباس: ليس قبيلة من العرب إلا وقد ولدت النبي ﷺ، يعني: من مضرها وربيعتها ويمانها فأما ربيعة ومضر فهم من ولد معد بن عدنان وإليه تنسب قريش وهو منهم وأما نسبه إلى عرب اليمن وهم القحاطنة فإن آمنة لها نسب في الأنصار وإن كانت من قريش والأنصار أصلهم من عرب اليمن من ولد قحطان بن سبأ فعلى هذا القول يكون المقصود من قوله: «لقد جاءكم رسول من أنفسكم». ترغيب العرب في نصره والإيمان به فإنه تم شرفهم

قوله: ﴿ أَوَ لَا يَرَوْنَ ﴾، قرأ حمزة ويعقوب: « ترون » بالتاء على خطاب النبي والمؤمنين، وقرأ الآخرون بالياء خبر عن المنافقين المذكورين. ﴿ أنهم يُفتَنُونَ ﴾ يُبتلون ﴿ في كلِّ عامٍ مرَّةً أو مرتين ﴾، بالأمراض والشدائد. وقال مجاهد: بالقحط والشدّة. وقال قتادة: بالغزو والجهاد. وقال مقاتل بن حيّان: يفضحون بإظهار نفاقهم. وقال عكرمة: ينافقون ثم يؤمنون ثم ينافقون. وقال يمان: ينقضون عهدهم في السنة مرّةً أو مرتين. ﴿ ثمّ لَا يَتُوبُونَ ﴾، من نقض العهد ولا يرجعون إلى الله من النفاق، ﴿ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُون ﴾، أي: لا يتّعظون بما يرون من تصديق وعد الله بالنصر والظفر للمسلمين.

﴿ وإذَا ما أُنزِلَتْ سُورةٌ ﴾، فيها عيب المنافقين وتوبيخهم، ﴿ نظرَ بعضُهم إلى بعض ﴾، يريدون الهرب

بشرفه وعزتهم بعزته وفخرهم بفخره وهو من عشيرتهم يعرفونه بالصدق والأمانة والصيانة والعفاف وطهارة النسب والأخلاق الحميدة. وقرأ ابن عباس والزهري: من أنفسكم بفتح الفاء. ومعناه: أنه من أشرفكم وأفضلكم (خ) عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «بعثت من خير قرون بني آدم قرناً فقرنا حتى كنت من القرن الذي كنت منه» (م) عن واثلة بن الأسقع قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل واصطفى قريشاً من كنانة واصطفى من قريش بني هاشم واصطفاني من بني هاشم» عن العباس بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ قال: قلت يا رسول الله إن قريشاً جلسوا يتذاكرون أحسابهم بينهم فقالوا مثلك كمثل نخلة في كدية من الأرض فقال رسول الله ﷺ «إن الله خلق الخلق فجعلني من خير فريقهم وخير الفريقين ثم تخير القبائل فجعلني من خير قبيلة ثم تخير البيوت فجعلني من خير بيوتهم فأنا خيرهم نفساً وخيرهم بيتاً» أخرجه الترمذي. وقيل إن قوله سبحانه وتعالى: ﴿**لقد جاءكم رسول من أنفسكم**﴾ عام فحمله على العموم أولى فيكون المعنى على هذا القول لقد جاءكم أيها الناس رسول من أنفسكم يعني من جنسكم بشر مثلكم إذ لو كان من الملائكة لضعفت قوى البشر عن سماع كلامه والأخذ عنه.

قوله سبحانه وتعالى: ﴿**عزيز عليه ما عنتم**﴾ أي شديد عليه عنتكم يعني مكروهكم. وقيل: يشق عليه ضلالكم ﴿**حريص عليكم**﴾ حريص على إيمانكم وإيصال الخير إليكم وقال قتادة: حريص على هدايتكم وأن يهديكم الله ﴿**بالمؤمنين رؤوف رحيم**﴾ يعني أنه ﷺ رؤوف بالمطيعين رحيم بالمذنبين (ق).

عن جبير بن مطعم قال: قال رسول الله ﷺ «لي خمسة أسماء أنا محمد وأنا أحمد وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي وأنا العاقب والعاقب الذي ليس بعده نبي» وقد سماه الله رؤوفاً رحيماً. قال الحسن بن الفضل: لم يجمع الله سبحانه وتعالى لأحد من الأنبياء بين اسمين من أسمائه إلا النبي ﷺ فسماه رؤوفاً رحيماً قال سبحانه وتعالى: ﴿**إن الله بالناس لرؤوف رحيم**﴾.

يقول بعضهم لبعض إشارة، ﴿ **هلْ يَراكم من أحدٍ** ﴾، أي: أحد من المؤمنين، إن قمتم فإن لم يرهم أحد خرجوا من المسجد وإن علموا أن أحداً يراهم أقاموا وثبتوا، ﴿ **ثم انصَرَفُوا** ﴾، عن الإيمان بها. وقيل: انصرفوا عن مواضعهم التي يسمعون فيها، ﴿ **صرفَ اللَّهُ قلوبَهم** ﴾، عن الإيمان. قال أبو إسحاق الزجّاج: أضلّهمُ اللَّهُ مجازاةً على فعلهم ذلك، ﴿ **بأنّهم قومٌ لا يفقهُون** ﴾، عن الله دينه. قال ابن عباس رضي الله عنهما: لا تقولوا إذا صلّيتم انصرفنا من الصلاة فإنّ قوماً انصرفُوا فصرفَ اللَّهُ قلوبَهم، ولكنْ قُولُوا قد قضينا الصلاة.

قوله تعالى: ﴿ **لقدْ جاءَكم رسولٌ من أنفسِكم** ﴾ تعرفون نسبه وحسبه، قال السدي: من العرب من بني إسماعيل. قال ابن عباس: ليس من العرب قبيلة إلاّ وقد ولدت النبي ﷺ، وله فيهم نسب. وقال جعفر بن محمد الصادق: لم يصبه شيء من ولادة الجاهلية من زمان آدم عليه السلام. أخبرنا أحمد بن إبراهيم الشريحي أنا أحمد بن محمد بن إبراهيم أنا الثعلبي أنا عبد الله بن حامد حدّثنا حامد بن محمد أنا علي بن عبد العزيز حدّثنا محمد بن أبي نعيم حدّثنا هشيم حدّثني المدني يعني أبا معشر عن أبي الحويرث عن أبي عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «ما ولدني من سفاح أهل الجاهلية شيء، ما ولدني إلاّ نكاح كنكاح الإسلام». وقرأ ابن عباس والزهري وابن محيصن «من أنفسَكم» بفتح الفاء، أي: من أشرفكم وأفضلكم. ﴿ **عزيزٌ عليهِ** ﴾، شديد عليه، ﴿ **ما عَنِتّم** ﴾، قيل: ﴿ **ما** ﴾ صلة أي: عنتّكم، وهو دخول المشقّة والمضرّة عليكم. وقال القتيبي: ما أعنتكم وضرّكم. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ما ضللتم. وقال الضحاك والكلبي: ما أثممتم. ﴿ **حريصٌ عليكم** ﴾، أي: على إيمانِكم وصلاحِكم. وقال قتادة: حريص عليكم أي على ضالّكم أن يهديه الله، ﴿ **بالمؤمنينَ**

قوله سبحانه وتعالى: ﴿فإن تولوا﴾ يعني فإن أعرض هؤلاء الكفار والمنافقون عن الإيمان بالله ورسوله وناصبوك للحرب ﴿فقل حسبي الله﴾ يعني يكفيني الله وينصرني عليكم ﴿لا إله إلا هو عليه توكلت﴾ يعني لا على غيره وبه وثقت ﴿وهو رب العرش العظيم﴾ إنما خص سبحانه وتعالى العرش بالذكر لأنه أعظم المخلوقات فيدخل ما دونه في الذكر فيكون المعنى فهو رب العرش العظيم فما دونه أو يكون خصه بالذكر تشريفاً له كما يقال بيت الله، وروي عن أبي بن كعب أنه قال: هاتان الآيتان لقد جاءكم رسول من أنفسكم إلى آخر السورة آخر القرآن نزلا وفي رواية عنه أنه قال: أحدث القرآن عهداً بالله هاتان الآيتان لقد جاءكم رسول من أنفسكم إلى آخر الآيتين والله سبحانه وتعالى أعلم.

رؤُوفٌ رحيمٌ ﴾، قيل: رؤوف بالمطيعين رحيم بالمذنبين، ﴿ فإن تولَّوْا ﴾، إن أعرضوا عن الإيمان وناصبوك، ﴿ فقلْ حسبيَ اللَّهُ لا إلَه إلاّ هُوَ عليهِ توكّلتُ وهو ربُّ العرشِ العظيم ﴾. رُوِيَ عن أُبيِّ بن كعب قال: آخر ما نـزل من القرآن هاتان الآيتان ﴿ لقدْ جاءَكم رسولٌ من أنفسِكم ﴾ إلى آخر السورة. وقال: هما أحدث الآيات بالله عهداً.

تفسير سورة يونس عليه الصلاة والسلام

نزلت بمكة إلا ثلاث آيات وهي قوله سبحانه وتعالى: ﴿فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك﴾ إلى آخر الثلاثة آيات قاله ابن عباس وبه قال قتادة. وفي رواية أخرى: عن ابن عباس أن فيها من المدني قوله تعالى: ﴿ومنهم من يؤمن به ومنهم من لا يؤمن به﴾ الآية، وقال مقاتل: هي مكية إلا آيتين وهي قوله سبحانه وتعالى: ﴿قل بفضل الله وبرحمته﴾ والتي تليها وهي مائة وتسع آيات وألف وثمانمائة واثنتان وثلاثون كلمة وتسعة آلاف وتسعة وتسعون حرفاً.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ﴿١﴾

قوله عز وجل: ﴿الٓر﴾ قال ابن عباس والضحاك معناه أنا الله أرى وقال ابن عباس في رواية أخرى: عنه الٓر وحمٓ ونٓ حروف الرحمن مقطعة وبه قال سعيد بن جبير وسالم بن عبد الله وقال قتادة: الٓر اسم من أسماء القرآن وقيل هي اسم للسورة وقد تقدم الكلام في معنى الحروف المقطعة في أول سورة البقرة بما فيه كفاية ﴿تلك آيات الكتاب﴾ المراد في لفظ تلك الإشارة إلى الآيات الموجودة في هذه السورة ويكون التقدير تلك الآيات هي آيات الكتاب وهو القرآن الذي أنزله الله إليك يا محمد وذلك أن الله عز وجل وعده أن ينزل عليه كتاباً لا يمحوه الماء ولا تغيره الدهور. وقيل: إن لفظة تلك للإشارة إلى ما تقدم هذه السورة من آيات القرآن. والمعنى: أن تلك الآيات هي آيات الكتاب الحكيم، وفيه قول آخر أن المراد بآيات الكتاب الكتب التي قبل القرآن حكاه الطبري عن قتادة. وروي عن مجاهد أنها التوراة والإنجيل فعلى هذا القول يكون التقدير أن الآيات المذكورة في هذه السورة هي الآيات المذكورة في التوراة أو الإنجيل والمراد من الآيات القصص المذكورة في هذه السورة وهذا وإن كان له وجه فهو ضعيف لأن التوراة والإنجيل

سُوْرَة يُونـــس

سورة يونس عليه الصلاة والسلام مكيّة إلاّ ثلاث آيات من قوله: ﴿ فإنْ كنتَ في شكٍّ ممّا أنزلنا إليك ﴾ [٩٤-٩٦] إلى آخرها.

﴿ الٓر ﴾ و﴿ الٓمر ﴾ [الرعد: ١] قرأ أهل الحجاز والشام وحفص بفتح الراء وقرأ الآخرون بالإمالة، قال ابن عباس والضحاك: ﴿ الٓر ﴾ أنا الله أرى، و﴿ الٓمر ﴾ [الرعد: ١] أنا الله أعلم وأرى. وقال سعيد بن جبير: ﴿ الٓر ﴾ و﴿ حٓم ﴾ [غافر: ١، فصّلت: ١، الزخرف: ١، الدخان: ١، الجاثية: ، الأحقاف: ١] و﴿ نٓ ﴾ [القلم: ١] حروف اسم الرحمن، وقد سبق الكلام في حروف التهجّي. ﴿ تِلْكَ آياتُ الكتابِ الحكيم ﴾، أي: هذا وأراد بالكتاب الحكيم القرآن. وقيل: أراد بها الآيات التي أنزلها من قبل ذلك، ولذلك قال: ﴿ تلك ﴾ وتلك إشارة إلى غائب مؤنث والحكيم المحكم بالحلال والحرام والحدود والأحكام، فعيل بمعنى مفعل بدليل قوله:

لم يجر لهما ذكر قريب حتى يشار إليهما وقيل: إن المراد من الآيات حروف الهجاء التي منها الر سميت آيات لأنها افتتاح السور وسر القرآن ﴿الحكيم﴾ يعني المحكم الحلال والحرام والحدود والأحكام. فعيل: بمعنى مفعول. وقيل: الحكيم بمعنى الحاكم فعيل بمعنى فاعل لأن القرآن حاكم يميز بين الحق والباطل ويفصل الحلال من الحرام. وقيل: حكيم بمعنى المحكوم فيه فيعمل بمعنى مفعول. قال الحسن: حكم فيه بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى. وقيل: إن الحكيم هو الذي يفعل الحكمة والصواب فمن حيث إنه يدل على الأحكام صار كأنه هو الحكيم في نفسه.

أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِن بَعْدِ إِذْنِهِ ۚ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ۖ وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا ۚ إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ ۚ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾

قوله سبحانه وتعالى: ﴿أكان للناس عجباً﴾ قال ابن عباس: سبب نزول هذه الآية أن الله عز وجل لما بعث محمداً ﷺ رسولاً أنكرت العرب ذلك ومن أنكر منهم قال: الله أعظم من أن يكون له رسول بشر مثل محمد فقال الله سبحانه وتعالى: ﴿أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم﴾ وقال سبحانه وتعالى: ﴿وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً﴾ الآية والهمزة في أكان همزة استفهام ومعناه الإنكار والتوبيخ والمعنى لا يكون ذلك عجباً ﴿أن أوحينا إلى رجل منهم﴾ والعجب حالة تعتري الإنسان من رؤية شيء على خلاف العادة. وقيل: العجب حالة تعتري الإنسان عند الجهل بسبب الشيء ولهذا قال بعض الحكماء: العجب ما لا يعرف سببه والمراد بالناس هنا أهل مكة وبالرجل محمد ﷺ منهم يعني من أهل مكة من قريش يعرفون نسبه وصدقه وأمانته ﴿أن أنذر الناس﴾ يعني خوفهم بعقاب الله تعالى إن أصروا على الكفر والمخالفة والإنذار إخبار مع تخويف كما أن البشارة إخبار مع سرور وهو قوله سبحانه وتعالى: ﴿وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم﴾ اختلفت عبارات المفسرين وأهل اللغة في معنى قدم صدق. فقال ابن عباس: أجراً حسناً بما قدموا من أعمالم. وقال الضحاك: ثواب صدق. وقال مجاهد: الأعمال الصالحة صلاتهم وصومهم وصدقتهم وتسبيحهم. وقال الحسن: عمل صالح أسلفوه يقدمون عليه. وفي رواية أخرى عن ابن عباس أنه قال: سبقت لهم السعادة في الذكر الأول يعني في اللوح المحفوظ. وقال زيد بن اسلم: هو شفاعة محمد ﷺ وهو

﴿ كتابٌ أُحكمتْ آياتُه ﴾ [هود: ١]، وقيل: هو بمعنى الحاكم، فعيل بمعنى فاعل دليله قوله عزّ وجلّ: ﴿ وأنزل معهم الكتابَ بالحق ليحكم بين الناس ﴾ [البقرة: ٢١٣]، وقيل: هو بمعنى المحكوم، فعيل بمعنى المفعول. قال الحسن: حكم فيه بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى، وبالنهي عن الفحشاء والمنكر والبغي، وحكم فيه بالجنة لمَن أطاعه وبالنار لمَن عصاه.

قوله تعالى: ﴿ أكانَ للناس عجباً ﴾، العجب حالة تعتري الإنسان من رؤية شيء على خلاف العادة. وسبب نزول الآية أن الله عزّ وجلّ لمّا بعث محمداً ﷺ رسولاً، قال المشركون: الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً. فقال تعالى: ﴿ أكانَ للناسِ ﴾ يعني: أهل مكة، الألِفُ فيه للتوبيخ، ﴿ عجباً أنْ أوْحَيْنا إلى رجل منهم ﴾، يعني محمداً ﷺ، ﴿ أن أنذرِ الناسَ ﴾، أي: أعلمهم مع التخويف، ﴿ وبشّر الذين آمنوا أنّ لهم قَدمَ صِدْقٍ عندَ ربِّهم ﴾، واختلفوا فيه، قال ابن عباس: أجراً حسناً بما قدّموا من أعمالهم. قال الضحاك: ثواب صدق. وقال الحسن: عمل

قول قتادة. وقيل: لهم منزلة رفيعة عند ربهم وأضيف القدم إلى الصدق وهو نعته كقوله مسجد الجامع وصلاة الأولى وحب الحصيد والفائدة في هذه الإضافة التنبيه على زيادة الفضل ومدح القدم لأن كل شيء أضيف إلى الصدق فهو ممدوح ومثله في مقعد صدق، وقال أبو عبيدة: كل سابق في خير أو شر فهو عند العرب قدم. يقال: لفلان قدم في الإسلام وقدم في الخير ولفلان عندي قدم صدق وقدم سوء. قال حسان بن ثابت:

لنـــا القـــدم العليـــا إليـــك وخلفنـــا لأولنـــا فـــي طـــاعـــة الله تـــابـــع

وقال الليث وأبو الهيثم القدم السابق والمعنى أنه قد سبق لهم عند الله خير قال ذو الرمة:

وأنـــت امـــرؤ مـــن أهـــل بيـــت ذؤابـــة لهـــم قـــدم معـــروفـــة ومفـــاخـــر

والسبب في إطلاق لفظ القدم على هذه المعاني أن السعي والسبق لا يحصل إلا بالقدم فسمى المسبب باسم السبب كما سميت النعمة يداً لأنها تعطى باليد. وقال ذو الرمة:

لكـــم قـــدم لا ينكـــر النـــاس أنهـــا مـــع الحسـب العـادي طمـت علـى البحـر

معناه لكم سابقة عظيمة لا ينكرها الناس وقال آخر:

صـــل لـــذي العـــرش واتخـــذ قـــدمـــاً تنجيـــك يـــوم العثـــار والـــزلـــل

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿**قال الكافرون إن هذا لساحر مبين**﴾ وقرىء: لساحر مبين وفيه حذف تقديره أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم فلما جاءهم بالوحي وأنذرهم قال الكافرون: **إن هذا لساحر**، يعنون محمداً ﷺ، وإنما نسبوه إلى السحر لما أتاهم بالمعجزات الباهرات التي لا يقدر أحد من البشر أن يحصل مثلها، ومن قرأ السحر فإنهم عنوا به القرآن المنزل عليه وإنما نسبوه إلى السحر لأن فيه الإخبار بالبعث والنشور وكانوا ينكرون ذلك.

قوله عز وجل: ﴿**إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش**﴾ تقدم تفسير هذا في سورة الأعراف بما فيه كفاية.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿**يدبر الأمر**﴾ قال مجاهد: يقضيه وحده. وقيل: معنى التدبير، تنزيل الأمور في مراتبها وعلى أحكام عواقبها. وقيل: إنه سبحانه وتعالى يقضي ويقدر على حسب مقتضى الحكمة وهو النظر في أدبار الأمور وعواقبها لئلا يدخل في الوجود ما لا ينبغي. وقيل: معناه إنه سبحانه وتعالى يدبر أحوال الخلق وأحوال ملكوت السموات والأرض فلا يحدث حدث في العالم العلوي ولا في العالم السفلي إلا بإرادته وتدبيره وقضائه وحكمته ﴿**ما من شفيع إلا من بعد إذنه**﴾ يعني: لا يشفع عنده شافع يوم القيامة إلا من بعد أن يأذن له في الشفاعة لأنه عالم بمصالح عباده وبموضع الصواب والحكمة في تدبيرهم فلا يجوز لأحد أن يسأله ما ليس له به علم فإذا أذن له في الشفاعة كان له أن يشفع فيمن يأذن له فيه وفيه رد على كفار قريش في قولهم: إن الأصنام تشفع لهم عند الله يوم القيامة

صالح أسلفوه يقدمون عليه. وروى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس أنه قال: هو السعادة في الذكر الأول. وقال زيد بن أسلم: هو شفاعة الرسول ﷺ. وقال عطاء: مقام صدق لا زوال ولا بؤس فيه. وقيل: منزلة رفيعة. وأضيف القدم إلى الصدق وهو نعته، كقولهم مسجد الجامع، وحبّ الحصيد، وقال أبو عبيدة: كل سابق في خير أو شر فهو عند العرب قدم يقال لفلان قدم في الإسلام، وله عندي قدم صدق وقدم سوء، وهو يؤنّث فيقال: قدم صالحة. ﴿ **قال الكافِرُون إنّ هذا لَساحِرٌ مُّبين** ﴾. قرأ نافع وأهل البصرة والشام: «لسحر» بغير ألف يعنون القرآن، وقرأ ابن كثير وأهل الكوفة: «لساحر» بالألف يعنون محمداً ﷺ.

فأخبر الله سبحانه وتعالى أنه لا يشفع أحد عنده إلا بإذنه لأن له التصرف المطلق في جميع العالم ﴿**ذلكم الله ربكم**﴾ يعني الذي خلق هذه الأشياء ودبرها هو ربكم وسيدكم لا رب لكم سواه ﴿**فاعبدوه**﴾ أي فاجعلوا عبادتكم له لا لغيره لأنه المستحق للعبادة بما أنعم عليكم من النعم العظيمة ﴿**أفلا تذكرون**﴾ يعني أفلا تتعظون وتعتبرون بهذه الدلائل والآيات التي تدل على وحدانيته سبحانه وتعالى: ﴿**إليه مرجعكم جميعاً**﴾ يعني إلى ربكم الذي خلق جميع المخلوقات مصيركم جميعاً أيها الناس يوم القيامة والمرجع بمعنى الرجوع ﴿**وعد الله حقاً**﴾ يعني وعدكم الله ذلك وعداً حقاً ﴿**إنه يبدأ الخلق ثم يعيده**﴾ أي يحييهم ابتداء ثم يميتهم ثم يحييهم وهذا معنى قول مجاهد فإنه قال يحييه ثم يميته ثم يحييه.

وفي هذه الآية دليل على إمكان الحشر والنشر والمعاد وصحة وقوعه ورد على منكري البعث ووقوعه، لأن القادر على خلق هذه الأجسام المؤلفة والأعضاء المركبة على غير مثال سبق، قادر على إعادتها بعد تفرقها بالموت والبلى، فيركب تلك الأجزاء المتفرقة تركيباً ثانياً ويخلق الإنسان الأول مرة أخرى وكما لم يمتنع تعلق هذه النفس بالبدن في المرة الأولى لم يمتنع تعلقها بالبدن مرة أخرى وإذا ثبت القول بصحة المعاد والبعث بعد الموت كان المقصود منه إيصال الثواب للمطيع والعقاب للعاصي وهو قوله سبحانه وتعالى: ﴿**ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط**﴾ يعني بالعدل لا ينقص من أجورهم شيئاً ﴿**والذين كفروا لهم شراب من حميم**﴾ هو ماء حار قد انتهى حره ﴿**وعذاب أليم بما كانوا يكفرون**﴾.

هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾

﴿**هو الذي جعل الشمس ضياء**﴾ يعني ذات ضياء ﴿**والقمر نوراً**﴾ يعني ذا نور.

واختلف العلماء أصحاب الكلام في أن الشعاع الفائض من الشمس هل هو جسم أو عرض، والحق أنه عرض وهو كيفية مخصوصة فالنور اسم لأصل هذه الكيفية والضوء اسم لهذه الكيفية إذا كانت كاملة تامة قوية فلهذا خص

قوله عزّ وجلّ: ﴿ **إنّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الذي خَلقَ السمٰوات والأرض في ستةِ أيّامٍ ثُمَّ استوَى على العرشِ يُدبِّرُ الأمرَ** ﴾، يقضيه وحده، ﴿ **مَا مِن شفيعٍ إلاّ مِنْ بعدِ إذْنِهِ** ﴾، معناه أن الشفعاء لا يشفعون إلاّ بإذنه، وهذا رَدّ على النضر بن الحارث فإنه كان يقول: إذا كان يوم القيامة تشفعني اللات والعزّى. قوله تعالى: ﴿ **ذَلِكُم اللَّهُ ربُّكم** ﴾، يعني: الذي فعل هذه الأشياء ربّكم لا ربَّ لكم سواه، ﴿ **فاعْبُدُوه أفلاَ تَذَكَّرُون** ﴾، تتّعظون.

﴿ **إليهِ مَرْجِعُكم جميعاً وَعْدَ اللَّهِ حقّاً** ﴾، صدقاً لا خلف فيه. نصب على المصدر، أي: وعدكم وعداً حقّاً ﴿ **إنّه يبدأ الخلقَ ثم يعيده** ﴾، أي: يُحييهم ابتداء ثم يُميتهم ثم يُحييهم، قراءة العامّة: «إنّـه» بكسر الألف على الاستئناف، وقرأ أبو جعفر «أنه» بالفتح على معنى بأنه أو لأنه. ﴿ **لِيَجزي الذينَ آمنُوا وعمِلُوا الصّالِحَاتِ بالقِسْطِ** ﴾، بالعدل، ﴿ **والذينَ كفرُوا لهمْ شرابٌ من حَمِيمٍ** ﴾، ماءٌ حارٌّ انتهى حرُّه، ﴿ **وعذابٌ أليم بما كانُوا يكفرون** ﴾.

﴿ **هو الذي جعلَ الشمسَ ضياءً** ﴾، بالنهار، ﴿ **والقمرَ نُوراً** ﴾ بالليل. وقيل: جعل الشمس ذات ضياء، والقمرَ ذَا نُور. ﴿ **وقدّرَه منازِلَ** ﴾ أي: قدّر له يعني هيّأ له منازل لا يجاوزها ولا يقصر دونها، ولم يقل: قدّرهما.

الشمس بالضياء لأنها أقوى وأكمل من النور وخص القمر بالنور لأنه أضعف من الضياء ولأنهما لو تساويا لم يعرف الليل من النهار فدل ذلك على أن الضياء المختص بالشمس أكمل وأقوى من النور المختص بالقمر ﴿**وقدّره منازل**﴾ قيل: الضمير في وقدّره يرجع إلى الشمس والقمر والمعنى قدر لهما منازل أو قدر لسيرهما منازل لا يجاوزانهما في السير ولا يقصران عنهما وإنما وحد الضمير في وقدره للإيجاز أو اكتفى بذكر أحدهما دون الآخر فهو كقوله سبحانه وتعالى: ﴿**والله ورسوله أحق أن يرضوه**﴾ وقيل: الضمير في وقدره يرجع إلى القمر وحده لأن سير القمر في المنازل أسرع وبه يعرف انقضاء الشهور والسنين وذلك لأن الشهور المعتبرة في الشرع مبنية على رؤية الأهلة والسنة المعتبرة في الشرع هي السنة القمرية لا الشمسية ومنازل القمر ثمان وعشرون منزلة: وهي الشرطين، والبطين، والثريا، والدبران، والهقعة، والهنعة، والذراع، والنثرة، والطرف، والجبهة، والزبرة، والصرفة، والعواء، والسماك، والغفر، والزباني، والإكليل، والقلب، والشولة، والنعائم، والبلدة، وسعد الذابح، وسعد بلع، وسعد السعود، وسعد الأخبية، وفرغ الدلو المقدم، وفرغ الدلو المؤخر، وبطن الحوت، فهذه منازل القمر وهي مقسومة على اثني عشر برجاً وهي: الحمل، والثور، والجوزاء، والسرطان، والأسد، والسنبلة، والميزان، والعقرب، والقوس، والجدي، والدلو، والحوت، لكل برج منزلان وثلث منزل وينزل القمر كل ليلة منزلاً منهما إلى انقضاء ثمانية وعشرين ليلة ثم يستتر ليلتين إن كان الشهر ثلاثين وإن كان تسعاً وعشرين اختفى ليلة واحدة ﴿**لتعلموا عدد السنين**﴾ يعني قدر هذه المنازل لتعلموا بها عدد السنين ووقت دخولها وانقضائها ﴿**والحساب**﴾ يعني: ولتعلموا حساب الشهور والأيام والساعات ونقصانها وزيادتها ﴿**ما خلق الله ذلك إلا بالحق**﴾ يعني للحق وإظهار قدرته ودلائل وحدانيته ولم يخلق ذلك باطلاً ولا عبثاً ﴿**يفصل الآيات لقوم يعلمون**﴾ يعني يبين دلائل التوحيد بالبراهين القاطعة لقوم يستدلون بها على قدرة الله ووحدانيته ﴿**إن في اختلاف الليل والنهار وما خلق الله في السموات والأرض لآيات لقوم يتقون**﴾ تقدم تفسير هذه الآية في نظائرها ﴿**إن الذين لا يرجون لقاءنا**﴾ يعني لا يخافون لقاءنا يوم القيامة فهم مكذبون بالثواب والعقاب والرجاء يكون بمعنى الخوف تقول العرب: فلان لا يرجو فلاناً بمعنى: لا يخافه، ومنه قوله سبحانه وتعالى ما لكم لا ترجون الله وقاراً ومنه قول أبي ذؤيب الهذلي:

إذا لسعتـه النحـل لـم يـرج لسعهـا

قيل: تقدير المنازل ينصرف إليهما غير أنه اكتفى بذكر أحدهما، كما قال: ﴿ واللَّهُ ورسولُهُ أحقُّ أن يُرضوه ﴾ [التوبة: ٦٢]. وقيل: هو ينصرف إلى القمر خاصّة لأن القمر يُعرف به انقضاء الشهور والسنين لا بالشمس، ومنازل القمر ثمانية وعشرون منزلاً وأسماؤها الشرطين والبطين والثرياء والدبران، والهقعة والهنعة والذراع والنسر، والطوف والجبهة والزبرة والصرفة والعواء، والسماك والغفر والزباني والإكليل والقلب، والشولة والنعايم والبلدة وسعد الذابح وسعد بلع، وسعد السعود وسعد الأخبية، وفرغ الدلو المقدّم وفرغ الدلو المؤخّر، وبطن الحوت، وهذه المنازل مقسومة على البروج، وهي اثنا عشر برجاً: الحمل والثور والجوزاء، والسرطان والأسد والسنبلة، والميزان والعقرب والقوس، والجدي والدلو والحوت، فلكل برج منزلان وثلث منزل، فينزل القمر كل ليلة منزلاً منها، ويستتر ليلتين إن كان الشهر ثلاثين، وإن كان تسعاً وعشرين فليلة واحدة، فيكون تلك المنازل ويكون مقام الشمس في كل منزلة ثلاثة عشر يوماً وثلث يوم، فيكون انقضاء السنة مع انقضائها. قوله تعالى: ﴿ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ ﴾، أي: قدر المنازل. ﴿ لتعلموا عددَ السنينَ ﴾ دخولهَا وانقضاءها، ﴿ والحِسَابَ ﴾، يعني: حساب الشهور والأيام والساعات. ﴿ ما خَلَقَ اللَّهُ ذلكَ ﴾، ردّه إلى الخلق والتقدير ولولا ردُّه إلى الأعيان المذكورة لقال تلك، ﴿ إلَّا بالحقِّ ﴾، أي: لم يخلقه باطلاً بل إظهاراً لصنعه ودلالةً على قدرته. ﴿ يُفَصِّلُ الآياتِ لقومٍ يعلمُون ﴾، قرأ ابن كثير وأبو عمرو

أي لم يخفه. والرجاء يكون بمعنى الطمع، فيكون المعنى: لا يطمعون في ثوابنا ﴿ورضوا بالحياة الدنيا﴾ يعني: اختاروها وعملوا في طلبها فهم راضون بزينة الدنيا وزخرفها ﴿واطمأنوا بها﴾ يعني وسكنوا إليها مطمئنين فيها وهذه الطمأنينة التي حصلت في قلوب الكفار من الميل إلى الدنيا ولذاتها أزالت عن قلوبهم الوجل والخوف فإذا سمعوا الإنذار والتخويف لم يصل ذلك إلى قلوبهم ﴿والذين هم عن آياتنا غافلون﴾ قيل المراد بالآيات أدلة التوحيد.

وقال ابن عباس: عن آياتنا يعني عن محمد ﷺ والقرآن؛ غافلون: أي معرضون.

أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ ۞ وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾

﴿أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون﴾ يعني: من الكفر والتكذيب والأعمال الخبيثة.

قوله عز وجل: ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم﴾ يعني يهديهم ربهم إلى الجنان ثواباً لهم بإيمانهم وأعمالهم الصالحة وقال مجاهد: يهديهم على الصراط إلى الجنة: يجعل لهم نوراً يمشون به.

وقال قتادة: بلغنا أن المؤمن إذا خرج من قبره يصور له عمله في صورة حسنة فيقول له: من أنت فيقول: أنا عملك. فيكون له نوراً وقائداً إلى الجنة، والكافر بالضد، فلا يزال به عمله حتى يدخله النار وقال ابن الأنباري: يجوز أن يكون المعنى أن الله يزيدهم هداية بخصائص ولطائف وبصائر ينور بها قلوبهم ويزيل بها الشكوك عنهم ويجوز أن يكون المعنى ويثبتهم على الهداية وقيل معناه بإيمانهم يهديهم ربهم لدينه أي بتصديقهم هداهم ﴿تجري من تحتهم الأنهار﴾ يعني بين أيديهم ينظرون إليها من أعالي أسرتهم وقصورهم فهو كقوله سبحانه وتعالى: ﴿قد جعل ربك تحتك سرياً﴾ لم يرد به أنه تحتها وهي قاعدة عليه بل أراد بين يديها. وقيل: تجري بأمرهم ﴿في جنات النعيم﴾ يعني ذلك لهم جنات النعيم ﴿دعواهم فيها﴾ أي قولهم وكلامهم فيها. وقيل: الدعوى بمعنى الدعاء أي دعاؤهم فيها ﴿سبحانك اللهم﴾ وهي كلمة تنزيه لله تعالى من كل سوء ونقيصة. قال أهل التفسير: هذه الكلمة علامة بين أهل الجنة

وحفص ويعقوب: «يفصــل» بالياء، لقوله: ﴿ما خلق﴾ وقرأ الباقون: «نفصل» بالنون على التعظيم.

﴿إنَّ في اخْتِلَافِ اللّيلِ والنّهارِ وما خلقَ اللّهُ في السّمٰواتِ والأرضِ لآيات لقوم يتّقون﴾ يؤمنون.

﴿إنّ الذين لا يرجون لقاءَنا﴾، أي: لا يخافون عقابنا ولا يرجون ثوابنا، والرجاء يكون بمعنى الخوف والطمع، ﴿ورَضُوا بالحياةِ الدنيا﴾، فاختاروها وعملوها، ﴿واطْمَأَنُّوا بها﴾، سكنوا إليها. ﴿والذينَ هُمْ عن آياتِنا غافِلُون﴾، أي: عن أدلّتنا غافلون لا يعتبرون. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: عن آياتنا عن محمد ﷺ والقرآن غافلون معرضون.

﴿أولئكَ مأوَاهُمُ النارُ بما كانُوا يكْسِبُون﴾، من الكفر والتكذيب.

قوله تعالى: ﴿إنّ الذينَ آمنُوا وعمِلُوا الصّالحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهم بإيمانهم﴾، فيه إضمار، أي: يرشدهم ربّهم بإيمانهم إلى جنة، ﴿تجري من تحتِهِمُ الأنْهارُ﴾، قال مجاهد: يهديهم على الصراط إلى الجنة يجعل لهم

والخدم في الطعام فإذا أرادوا الطعام قالوا: سبحانك اللهم فيأتونهم في الوقت بما يشتهون على الموائد كل مائدة ميل في ميل على كل مائدة سبعون ألف صحفة في كل صحفة لون من الطعام لا يشبه بعضها بعضاً فإذا فرغوا من الطعام حمدوا الله على ما أعطاهم فذلك قوله تبارك وتعالى: **﴿وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين﴾** وقيل: إن المراد بقوله سبحانك اللهم اشتغال أهل الجنة بالتسبيح والتحميد والتقديس لله عز وجل والثناء عليه بما هو أهله وفي هذا الذكر والتحميد سرورهم وابتهاجهم وكمال لذتهم ويدل عليه ما روي عن جابر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول «أهل الجنة يأكلون فيها ويشربون ولا يتفلون ولا يبولون ولا يتغوطون ولا يمتخطون قالوا فما بال الطعام قال جشاء ورشح كرشح المسك يلهمون التسبيح والتحميد كما يلهمون النفس وفي رواية التسبيح والحمد» أخرجه مسلم.

قوله جشاء أي يخرج ذلك الطعام جشاء وعرقاً.

وقوله سبحانه وتعالى: **﴿وتحيتهم فيها سلام﴾** يعني يحيي بعضهم بعضاً بالسلام. وقيل: تحييهم الملائكة بالسلام وقيل تأتيهم الملائكة من عند ربهم بالسلام **﴿وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين﴾** قد ذكرنا أن جماعة من المفسرين حملوا التسبيح والتحميد على أحوال أهل الجنة بسبب المأكول والمشروب وأنهم إذا اشتهوا شيئاً قالوا: سبحانك اللهم فيحضر ذلك الشيء وإذا فرغوا منه. قالوا: الحمد لله رب العالمين فترفع الموائد عند ذلك وقال الزجاج: أعلم الله أهل الجنة يبتدئون بتعظيم الله وتنزيهه ويختمون بشكره والثناء عليه. وقيل: إنهم يفتتحون كلامهم بالتسبيح ويختمونه بالتحميد. وقيل: إنهم يلهمون ذلك كما ذكر في الحديث قوله سبحانه وتعالى: **﴿ولو يعجل الله للناس الشر﴾** يعني ولو يعجل الله للناس إجابة دعائهم في الشر بما لهم فيه مضرة ومكروه في نفس أو مال. قال ابن عباس: هذا في قول الرجل لأهله وولده عند الغضب لعنكم الله لا بارك الله فيكم. وقال قتادة: هو دعاء الرجل على نفسه وماله وأهله وولده بما يكره أن يستجاب له فيه **﴿استعجالهم بالخير﴾** يعني كاستعجالهم بالخير وكما يحبون أن يعجل لهم إجابة دعائهم بالخير **﴿لقضي إليهم أجلهم﴾** يعني لفرغ من هلاكهم وماتوا جميعاً والتعجيل تقديم الشيء قبل وقته والاستعجال طلب العجلة.

نوراً يمشون به. وقيل: يهديهم معناه يثيبهم ويجزيهم. وقيل: معناه بإيمانهم يهديهم ربّهم لدينه، أي: بتصديقهم هداهم تجري من تحتهم الأنهار أي: بين أيديهم، كقوله عزّ وجلّ: **﴿ قدْ جعلَ ربُّكِ تحتك سريّاً ﴾** [مريم: ٢٤] لم يُرد به أنه تحتها وهي قاعدة عليه، بل أراد بين يديها. وقيل: تجري من تحتهم أي: بأمرهم، **﴿ في جنّاتِ النعيم ﴾**.

﴿ دعْوَاهم ﴾، أي: قولهم وكلامهم. وقيل: دعاؤهم. **﴿ فيها سُبْحَانَكَ اللّهمّ ﴾**، وهي كلمة تنزيه، تنزّه الله من كل سوء. وروينا. «أن أهل الجنةُ يلهمون الحمدَ والتسبيح، كما يُلهمون النَّفَسَ». قال أهل التفسير: هذه الكلمة علامة بين أهل الجنة والخدم في الطعام فإذا أرادوا الطعام قالوا: سُبْحَانَكَ اللّهمَّ فأتَوهم في الوقت بما يشتهون على الموائد، كل مائدة مِيلٌ في مِيل، على كل مائدة سبعون ألف صحفة، وفي كل صحفة لون من الطعام لا يشبه بعضُها بعضاً فإذا فرغوا من الطعام حمدوا الله فذلك قولُه تعالى: **﴿ وآخِرُ دَعْوَاهُم أنِ الحمدُ للّهِ ربِّ العالمين ﴾**. قوله تعالى: **﴿ وتحيّتُهم فيها سَلَامٌ ﴾** أي: يحيّ بعضهم بعضاً بالسلام وقيل: تحية الملائكة لهم بالسلام. وقيل: تأتيهم الملائكة من عند ربّهم بالسلام. **﴿ وآخِرُ دَعْوَاهم أنِ الحمدُ لله ربِّ العالمين ﴾**، يريد يفتتحون كلامهم بالتسبيح ويختمونه بالتحميد.

قوله عزّ وجلّ: **﴿ ولو يعجّلُ اللّهُ للناسِ الشرَّ استعجالَهم بالخير ﴾**، قال ابن عباس: هذا في قول الرجل

وقال ابن قتيبة: إن الناس عند الغضب والضجر قد يدعون على أنفسهم وأهلهم وأولادهم بالموت وتعجيل البلاء كما يدعون بالرزق والرحمة وإعطاء السؤال يقال لو أجابهم الله إذا دعوه بالشر الذي يستعجلون به استعجالهم بالخير لقضى إليهم أجلهم يعني: لفرغ من هلاكهم ولكن الله عز وجل بفضله وكرمه يستجيب للداعي بالخير ولا يستجيب له في الشر. وقيل: إن هذه الآية نزلت في النضر بن الحارث حين قال إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء فعلى هذا يكون المعنى ولو يعجل الله للكافرين العذاب كما عجل لهم خير الدنيا من المال والولد لعجل قضاء آجالهم ولهلكوا جميعاً ويدل على صحة هذا القول قوله سبحانه وتعالى: ﴿**فنذر الذين لا يرجون لقاءنا**﴾ يعني فندع الذين لا يخافون عقابنا ولا يؤمنون بالبعث بعد الموت ﴿**في طغيانهم**﴾ يعني في تمردهم وعتوهم ﴿**يعمهون**﴾ يعني يترددون (ق).

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «اللهم إني اتخذت عندك عهداً لن تخلفنيه فإنما أنا بشر أغضب كما يغضب البشر فأيما رجل من المسلمين سببته أو لعنته أو جلدته فاجعلها له صلاة وزكاة وقربة تقربه بها إليك يوم القيامة واجعل ذلك كفارة له يوم القيامة» قوله عز وجل:

وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ ۙ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾

﴿**وإذا مس الإنسان الضر**﴾ أي الشدة والجهد والمراد بالإنسان في هذه الآية الكافر ﴿**دعانا لجنبه**﴾ أي على جنبه مضطجعاً ﴿**أو قاعداً أو قائماً**﴾ يريد جميع حالاته لأن الإنسان لا ينفك عن إحدى هذه الحالات الثلاث والمعنى أن المضرور لا يزال داعياً في جميع حالاته إلى أن ينكشف ضره سواء كان مضطجعاً أو قائماً أو قاعداً وهذا القول فيه بعد لأن ذكر الدعاء إلى هذه الأحوال أقرب من ذكر الضر ﴿**فلما كشفنا عنه ضره**﴾ يعني فلما أزلنا عنه ما نزل به من الضر

عند الغضب لأهله وولده: لعنكم الله ولا بارك الله فيكم. قال قتادة: هو دعاء الرجل على نفسه وأهله وماله بما يكره أن يستجاب. معناه لو يعجل الله الناس إجابة دعائهم في الشر والكروه استعجالهم بالخير، أي: كما يحبّون استعجالهم بالخير. ﴿ لَقُضِيَ إليهم أجلهم ﴾، قرأ ابن عامر ويعقوب: « لقَضَى » بفتح القاف والضاد، « أجلَهم » نصب، أي: لأهلك مَن دعى عليه وأماته. وقال الآخرون: ﴿ لقُضي ﴾ بضم القاف وكسر الضاد﴿ أجلُهم ﴾ رفع، أي: لفرغ من هلاكهم ومَاتوا جميعاً. وقيل: إنها نزلت في النضر بن الحارث حين قال: اللّهمَّ إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء، يدلّ عليه قوله عزّ وجلّ: ﴿ فَنَذرُ الذينَ لا يرجُونَ لقاءَنا ﴾، لا يخافون البعث والحساب، ﴿ في طُغْيَانِهم يعمَهُون ﴾. أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحي أنا أبو الحسين علي بن محمد بن عبد الله بن بشران حدّثنا أبو علي إسماعيل بن محمد الصفار أنبأنا أحمد بن منصور الزيادي حدّثنا عبد الرزّاق أنبأنا معمر عن همّام بن منبّه أنه سمع أبا هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ: «اللّهمّ إنّي اتخذتُ عندك عهداً لن تُخْلِفْنِيه فإنّما أنا بشر فيصدر منّي ما يصدر من البشر، فأيّ المؤمنين آذنته أو شتمته أو جلدته أو لعنته فاجعلها له صلاةً وزكاةً وقُربةً تقرّبه بها إليك يوم القيامة».

قوله تعالى: ﴿ وإذا مَسَّ الإنسانَ الضُّرُّ ﴾، الجهد والشدّة، ﴿ دعانَا لِجَنْبِهِ ﴾، أي: على جنبه مضطجعاً،

ودفعنا عنه ﴿مر﴾ يعني على طريقته الأولى قبل مس الضر ﴿كأن لم يدعنا﴾ فيه حذف تقديره كأنه لم يدعنا وإنما أسقط الضمير على سبيل التخفيف ﴿إلى ضر مسه﴾ والمعنى أنه استمر على حالته الأولى قبل أن يمسه الضر ونسي ما كان فيه من الجهد والبلاء والضيق والفقر ﴿كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون﴾ يعني مثل ما زين لهذا الكافر هذا العمل القبيح كذلك زين للمسرفين والمزين هو الله سبحانه وتعالى لأنه مالك الملك والخلق كلهم عبيده يتصرف فيهم كيف يشاء وقيل المزين هو الشيطان وذلك بأقدار الله إياه على ذلك والمسرف هو المجاوز الحد في كل شيء وإنما سمي الكافر مسرفاً لأنه أتلف نفسه وضيعها في عبادة الأصنام وأتلف ماله وضيعه في البحائر والسوائب وما كانوا ينفقونه على الأصنام وسدنتها يعني خدامها. وقال ابن جريج: في قوله كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون يعني من الدعاء عند المصيبة وترك الشكر عند الرخاء. وقيل: كما زين لكم أعمالكم كذلك زين للمسرفين الذين كانوا من قبلكم أعمالهم. وبيان مقصود الآية أن الإنسان قليل الصبر عند نزول البلاء قليل الشكر عند حصول النعماء والرخاء فإذا مسه الضر أقبل على الدعاء والتضرع في جميع حالاته مجتهداً في الدعاء طالباً من الله إزالة ما نزل به من المحنة والبلاء فإذا كشف الله ذلك عنه أعرض عن الشكر ورجع إلى ما كان عليه أولاً وهذه حالة الغافل الضعيف اليقين فأما المؤمن العاقل فإنه بخلاف ذلك فيكون صابراً عند البلاء شاكر الله عند الرخاء والنعماء كثير التضرع والدعاء في جميع أوقات الراحة والرفاهية وهاهنا مقام أعلى من هذا وهو أن المؤمن إذا ابتلي ببلية أو نزل به مكروه يكون مع صبره على ذلك راضياً بقضاء الله غير معرض بالقلب عنه بل يكون شاكراً لله عز وجل في جميع أحواله وليعلم العبد المؤمن أن الله تبارك وتعالى مالك الملك على الإطلاق حكيم في جميع أفعاله وله التصرف في خلقه بما يشاء ويعلم أنه إن أبقاه على تلك المحنة فهو عدل وإن أزالها عنه فهو فضل.

قوله سبحانه وتعالى: ﴿ولقد أهلكنا القرون من قبلكم﴾ يعني أهلكنا الأمم الماضية من قبلكم يخوف بذلك كفار مكة ﴿لما ظلموا﴾ يعني لما أشركوا ﴿وجاءتهم رسلهم بالبينات﴾ يعني فكذبوهم ﴿وما كانوا ليؤمنوا﴾ يعني: هذه الأمم برسلهم ويصدقوهم بما جاؤوا به من عند الله ﴿كذلك نجزي القوم المجرمين﴾ يعني: كما أهلكنا الأمم الخالية لما كذبوا رسلهم كذلك نهلككم أيها المشركون بتكذيبكم محمداً ﷺ ﴿ثم جعلناكم خلائف في الأرض من بعدهم﴾ الخطاب لأهل مكة الذين أرسل فيهم رسول الله ﷺ والمعنى ثم جعلناكم أيها الناس خلفاء في الأرض من بعد القرون الماضية الذين أهلكناهم ﴿لننظر كيف تعملون﴾ يعني خيراً أو شراً فنعاملكم على حسب أعمالكم والنظر هنا بمعنى العلم يريد لنختبر أعمالكم وهو يعلم ما يكون قبل أن يكون. قال أهل المعاني: معنى النظر، هو طلب العلم وجاز في وصف الله سبحانه وتعالى إظهاراً للعدل لأنه سبحانه وتعالى يعامل العباد معاملة من يطلب العلم بما يكون

﴿ أو قاعداً أو قائماً ﴾، يريد في جميع حالاته، لأن الإنسان لا يعدو إحدى هذه الحالات. ﴿ فلمّا كشفنَا ﴾، دفعنا ﴿ عنه ضُرَّهُ مـرَّ كأنْ لم يَدْعُنَا إلى ضُرٍّ مَّسَّهُ ﴾، أي استمر على طريقته الأولى قبل أن يصيبه الضر ونسي ما كان فيه من الجهد والبلاء، كأنه لم يدعنا إلى ضُرٍّ مسّه أي: لم يطلب منّا كشف ضُرٍّ مسَّه، ﴿ كذلك زُيِّن للمُسْرِفينَ ﴾ المجاوزين الحدَّ في الكفرِ والمعصية، ﴿ ما كانُوا يعملُون ﴾، من العصيان. قال ابن جريج: كذلك زُيِّن للمسرفين ما كانوا يعملون من الدعاء عند البلاء وترك الشكر عند الرخاء. وقيل: معناه كما زَيّن لكم أعمالكم كذلك زيّن للمسرفين الذين كانوا من قبلكم أعمالهم.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ ولقدْ أهلكنا القُرونَ مِن قبلِكم لمّا ظلمُوا ﴾ أشركوا، ﴿ وجاءَتهُم رُسلُهم بالبيّناتِ وما كانُوا لِيُؤمنُوا كذلك ﴾، أي: كما أهلكناهم بكفرهم، ﴿ نجزي ﴾، نعاقب ونهلك، ﴿ القومَ المُجرمين ﴾، الكافرين بتكذيبهم محمداً ﷺ، يُخوّف كفّار مكة بعذابِ الأمم الخالية المكذّبة.

منهم ليجازيهم بحسبه كقوله تبارك وتعالى: ﴿ليبلوكم أيكم أحسن عملاً﴾ ذكره الواحدي والرازي (م) عن سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: «إن الدنيا حلوة خضرة وأن الله مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون فاتقوا الدنيا واحذروا فتنة النساء» أخرجه مسلم قوله فاتقوا الدنيا معناه احذروا فتنة الدنيا واحذروا فتنة النساء.

وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾

قوله سبحانه وتعالى: ﴿وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات﴾ يعني وإذا قرىء على هؤلاء المشركين آيات كتابنا الذي أنزلناه إليك يا محمد بينات يعني واضحات تدل على وحدانيتنا وصحة نبوتك ﴿قال الذين لا يرجون لقاءنا﴾ يعني قال هؤلاء المشركون الذين لا يخافون عذابنا ولا يرجون ثوابنا لأنهم لا يؤمنون بالبعث بعد الموت وكل من كان منكراً للبعث فإنه لا يرجو ثواباً ولا يخاف عقاباً ﴿ائت بقرآن غير هذا أو بدله﴾ قال قتادة: قال ذلك مشركو مكة، وقال مقاتل: هم خمسة نفر عبد الله بن أمية المخزومي والوليد بن المغيرة ومكرز بن حفص وعمرو بن عبد الله بن أبي قيس العامري والعاص بن عامر بن هشام، قال هؤلاء للنبي ﷺ: إن كنت تريد أن نؤمن بك فأت بقرآن غير هذا ليس فيه ترك عبادة اللات والعزى ومناة وليس فيه عيبها وإن لم ينزله الله عليك فقل أنت من عند نفسك أو بدله فاجعل مكان آية عذاب آية رحمة ومكان حرام حلالاً ومكان حلال حراماً.

قال الإمام فخر الدين الرازي: اعلم أن إقدام الكفار على هذا الالتماس يحتمل وجهين: أحدهما، أنهم ذكروا ذلك على سبيل السخرية والاستهزاء وهو قولهم لو جئتنا بقرآن غير هذا القرآن أو بدلته لآمنا بك وغرضهم السخرية والاستهزاء. الثاني: أن يكونوا قالوا ذلك على سبيل التجربة والامتحان حتى أنه لو فعل ذلك علموا أنه كان كاذباً في قوله: إن هذا القرآن ينزل عليه من عند الله. ومعنى قوله: ائت بقرآن غير هذا أو بدله يحتمل أن يأتي بقرآن آخر مع وجود هذه القرآن والتبديل لا يكون إلا مع وجوده وهو أن يبدل بعض آياته بغيرها كما طلبوه ولما سألوا رسول الله ﷺ أمره الله أن يجيبهم بقوله ﴿قل﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء ﴿ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي﴾ يعني أن هذا الذي طلبتموه من التبديل ليس إليّ وما ينبغي لي أن أغيره من قبل نفسي ولم أومر به ﴿إن أتبع إلا ما يوحى إليّ﴾ يعني فيما آمركم به أو أنهاكم عنه وما أخبركم إلا ما يخبرني الله به وإن الذي أتيتكم به هو من عند الله لا من عندي ﴿إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم﴾ أي: قل لهم يا محمد إني أخشى من الله إن خالفت أمره أو غيرت أحكام كتابه أو بدلته فعصيته بذلك أن يعذبني بعذاب عظيم في يوم تذهل كل مرضعة عما أرضعت.

﴿ ثمّ جعلناكم خلائفَ ﴾، أي: خلفـاء، ﴿ في الأرضِ من بعدِهم ﴾، أي: من بعد القرون التي أهلكناهم، ﴿ لِنَنْظُرَ كيفَ تعملُون ﴾، وهو أعلم بهم. وروينا عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ أنه قال: «ألا إنّ هذه الدنيا حُلوةٌ خَضِرةٌ وإنّ اللّهَ مستخلفُكم فيها، فناظرٌ كيفَ تعملون».

قوله عزّ وجلّ: ﴿ وإذا تُتْلَى عليهم آياتُنا بيّنات ﴾، قال قتادة: يعني مُشركي مكة. وقال مقاتل: هم خمسة نفر عبد الله بن أُميّة المخزومي والوليد بن المغيرة ومكرز بن حفص وعمرو بن عبيد الله بن أبي قيس العامري

قوله سبحانه وتعالى: ﴿**قل**﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين الذين طلبوا منك تغيير القرآن وتبديله ﴿**لو شاء الله ما تلوته عليكم**﴾ يعني لو شاء الله لم ينزل علي هذا القرآن ولم يأمرني بقراءته عليكم ﴿**ولا أدراكم به**﴾ قال ابن عباس: ولا أدراكم الله به ولا أعلمكم به ﴿**فقد لبثت فيكم عمراً من قبله**﴾ يعني فقد مكثت فيكم قبل أن يوحى إلي هذا القرآن مدة أربعين سنة لم آتكم بشيء ووجه هذا الاحتجاج أن كفار مكة كانوا قد شاهدوا رسول الله ﷺ قبل مبعثه وعلموا أحواله وأنه كان أمياً لم يطالع كتاباً ولا تعلم من أحد مدة عمره قبل الوحي وذلك أربعون سنة ثم بعد الأربعين جاءهم بهذا الكتاب العظيم المشتمل على نفائس العلوم وأخبار الماضين وفيه من الأحكام والآداب ومكارم الأخلاق والفصاحة والبلاغة ما أعجز البلغاء والفصحاء عن معارضته فكل من له عقل سليم وفكر ثاقب يعلم أن هذا لم يحصل إلا بوحي من الله تعالى لا من عند نفسه وهو قوله ﴿**أفلا تعلقون**﴾ يعني أن هذا القرآن من عند الله أوحاه إليّ لا من قبل نفسي (ق) عن ابن عباس قال: أنزل على رسول الله ﷺ وهو ابن أربعين سنة فمكث ثلاث عشرة سنة يوحى إليه ثم أمر بالهجـرة فهاجر إلى المدينة فمكث بها عشر سنين ثم توفي ﷺ: وفي رواية أن رسول الله ﷺ أقام بمكة ثلاث عشرة سنة يوحى إليه وتوفي وهو ابن ثلاث وستين سنة، وفي رواية أن النبي ﷺ أقام بمكة خمس عشرة سنة يسمع الصوت ويرى الضوء سبع سنين ولا يرى شيئاً وثمان سنين يوحى إليه وأقام بالمدينة عشراً أو توفي وهو ابن خمس وستين سنة أخرجاه في الصحيحين (ق) عن عائشة قالت: توفي رسول الله ﷺ وهو ابن ثلاث وستين سنة. أخرجاه في الصحيحين (م) عن أنس قال: قبض رسول الله ﷺ وهو ابن ثلاث وستين سنة وأبو بكر وهو ابن ثلاث وستين وعمر وهو ابن ثلاث وستين أخرجه مسلم (ق).

عن ربيعة بن أبي عبد الرحمن قال سمعت أنس بن مالك يصف رسول الله ﷺ يقول: كان ربعة من القوم ليس بالطويل البائن ولا بالقصير أزهر اللون ليس بالأبيض الأمهق ولا بالآدم ليس بجعد قطط ولا سبط رجل أنزل عليه الوحي وهو ابن أربعين سنة فلبث بمكة عشر سنين ينزل عليه الوحي وبالمدينة عشراً وتوفاه الله على رأس ستين سنة وليس في رأسه ولحيته عشرون شعرة بيضاء. أخرجاه في الصحيحين قال الشيخ محيـي الدين النووي: ورد في عمره ﷺ ثلاث روايات إحداها أنه ﷺ توفي وهو ابن ستين سنة والثانية خمس وستون سنة والثالثة ثلاث وستون سنة وهو أصحها وأشهرها رواها مسلم من حديث أنس وعائشة وابن عباس واتفق العلماء على أن أصحها ثلاث وستون سنة وتأولوا الباقي عليه فرواية ستين سنة اقتصر فيها على العقود وترك الكسر ورواية الخمس متأولة أيضاً بأنها حصل فيها اشتباه. قوله: يسمع الصوت، يعني صوت الهاتف من الملائكة ويرى الضوء يعني ضوء الملائكة أو نور آيات الله حتى رأى الملك بعينه وشافه بالوحي من الله عز وجل وقوله ليس بالأبيض الأمهق المراد به الشديد البياض كلون الجص وهو كريه المنظر وربما توهم الناظر أنه برص. والمراد: أنه كان أزهر اللون بين البياض والحمرة.

والعاص بن عامر بن هشام. ﴿ **قالَ الذينَ لا يَرجُون لقاءَنا** ﴾، هم السابق ذكرهم قالوا للنبي ﷺ: إن كنت تريد أن نؤمن بك ﴿ **إئتِ بقرآن غير هذا** ﴾، ليس فيه ترك عبادة اللاّتِ والعُزّى ومنَاة، وليس فيه عيبها، وإن لم ينزلها الله فقلْ أنت من عند نفسك، ﴿ **أو بدِّلْهُ** ﴾، فاجعل مكان آية عذاب آية رحمة، أو مكان حراماً حلالاً أو مكان حلالاً حراماً، ﴿ **قلْ** ﴾ لهم يا محمد، ﴿ **ما يكونُ لي أن أُبدِّلَه من تلقاء نفسي** ﴾، من قِبَلِ نفسي ﴿ **إنْ أتبعُ إلاّ ما يُوحى إليّ** ﴾، أي: مـا أتبع إلاّ ما يُوحي إليّ فيما آمركم به وأنهاكم عنه، ﴿ **إني أخافُ إنْ عصيتُ ربّي عذابَ يوم عظيم** ﴾.

﴿ **قلْ لو شاءَ الله ما تلوتُه عليكم** ﴾، يعني: لو شاء الله ما أنزل القرآن عليّ. ﴿ **ولا أدْراكم بهِ** ﴾، أي: ولا أعلمكم الله. قرأ البزي عن ابن كثيـر: «ولأدراكم به» بـالقصر بـه على الإنجاب، يـريد ولا علّمكم بـه من غير قـراءتي

قوله عز وجل: ﴿فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً﴾ يعني فزعم أن له شريكاً وولداً والمعنى: أني لم أفتر على الله كذباً ولم أكذب عليه في قولي إن هذا القرآن من عند الله وأنتم قد افتريتم على الله الكذب فزعمتم أن له شريكاً وولداً والله تعالى منزه عن الشريك والولد وقيل: معناه إن هذا القرآن لو لم يكن من عند الله لما كان أحد في الدنيا أظلم على نفسه مني من حيث إني أفتريته على الله ولما كان هذا القرآن من عند الله أوحاه إليّ وجب أن يقال ليس أحد في الدنيا أجهل ولا أظلم على نفسه منكم من حيث إنكم أنكرتم أن يكون هذا القرآن من عند الله فقد كذبتم بآياته وهو قوله تعالى: ﴿أو كذب بآياته﴾ يعني جحد بكون القرآن من عند الله وأنكر دلائل التوحيد ﴿إنه لا يفلح المجرمون﴾ يعني المشركون وهذا وعيد وتأكيد لما سبق.

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾ وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾ وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦۖ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَاۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًاۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾﴾

﴿ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم﴾ يعني: ويعبد هؤلاء المشركون الأصنام التي لا تضرهم إن عصوها وتركوا عبادتها ولا تنفعهم إن عبدوها لأنها حجارة وجماد لا تضر ولا تنفع وإن العبادة أعظم أنواع التعظيم فلا تليق إلا بمن يضر وينفع ويحيي ويميت وهذه الأصنام جماد وحجارة لا تضر ولا تنفع ﴿ويقولون هؤلاء﴾ يعني الأصنام التي يعبدونها ﴿شفعاؤنا عند الله﴾ قال أهل المعاني: توهموا أن عبادتها أشد من تعظيم الله من عبادتهم إياه وقالوا لسنا بأهل أن نعبد الله ولكن نشتغل بعبادة هذه الأصنام فإنها تكون شافعة لنا عند الله ومنه قوله سبحانه وتعالى إخباراً عنهم ﴿ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى﴾ وفي هذه الشفاعة قولان:

أحدهما: أنهم يزعمون أنها تشفع لهم في الآخرة قاله ابن جريج عن ابن عباس.

عليكم. وقرأ ابن عباس: «ولا أنذرتُكم بهِ»، من الإنذار. ﴿ فقدْ لبثتُ فيكم عُمُراً ﴾، حيناً وهو أربعون سنة، ﴿ من قبله ﴾، من قبل نزول القرآن ولم آتكم بشيء. ﴿ أفلاَ تعقِلُون ﴾، أنه ليس من قبلي، ولبث النبي ﷺ فيهم قبل الوحي أربعين سنة ثم أوحى الله إليه فأقام بمكة بعد الوحي ثلاث عشرة سنة ثم هاجر فأقام بالمدينة عشر سنين وتوفي وهو ابن ثلاث وستّين سنة، ورَوى أنسٌ: أنه أقام بمكة بعد الوحي عشر سنين وبالمدينة عشر سنين، وتوفي وهو ابن ستّين سنة. والأول أشهر وأظهر.

قوله تعالى: ﴿ فمَنْ أظلمُ ممَّنِ افترَى على اللَّهِ كذباً ﴾، فزعم أن له شريكاً أو ولداً ﴿ أو كذَّبَ بآياته ﴾، بمحمد ﷺ وبالقرآن، ﴿ إنَّه لا يُفلح المُجْرِمُون ﴾، لا ينجو المشركون.

﴿ ويعبدون من دونِ اللَّهِ ما لا يضرُّهم ﴾، إن عصوه وتركوا عبادته، ﴿ ولا ينفعهُم ﴾، إن عبدوه، يعني: الأصنام، ﴿ ويقولون هؤلاءِ شفعاؤنا عندَ اللَّهِ قلْ أتنبّئونَ اللَّهَ ﴾ أتخبرون الله، ﴿ بما لاَ يعلم ﴾، الله صحته، ومعنى الآية: أتخبرون الله أن له شـريكاً وعنده شفيعاً بغير إذنه ولا يعلم الله لنفسه شريكاً، ﴿ في السمٰواتِ ولاَ في

والثاني: أنها تشفع لهم في الدنيا في إصلاح معايشهم قاله الحسن لأنهم كانوا لا يعتقدون بعثاً بعد الموت **﴿قل﴾** أي قل لهم يا محمد **﴿أتنبئون الله بما لا يعلم في السموات ولا في الأرض﴾** يعني: أتخبرون الله أن له شريكاً ولا يعلم الله لنفسه شريكاً في السموات ولا في الأرض. وهذا على طريق الإلزام. المقصود: نفي علم الله بذلك الشفيع وأنه لا وجود له البتة لأنه لو كان موجوداً لعلمه الله وحيث لم يكن معلوماً لله وجب أن لا يكون موجوداً ومثل هذا مشهور في العرف فإن الإنسان إذا أراد نفي شيء حصل في نفسه يقول: ما علم الله ذلك مني مقصوده أنه ما حصل ذلك الشيء منه قط ولا وقع **﴿سبحانه وتعالى عما يشركون﴾** نزه الله سبحانه وتعالى نفسه عن الشركاء والأضداد والأنداد وتعالى أن يكون له شريك في السموات والأرض ولا يعلمه.

قوله سبحانه وتعالى: **﴿وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلفوا﴾** يعني: فتفرقوا إلى مؤمن وكافر يعني كانوا جميعاً على الدين الحق وهو دين الإسلام ويدل على ذلك أن آدم عليه السلام وذريته كانوا على دين الإسلام إلى أن قتل قابيل هابيل ثم اختلفوا. وقيل: بقوا على ذلك إلى زمن نوح عليه السلام ثم اختلفوا فبعث الله نوحاً. وقيل: إنهم كانوا على دين الإسلام وقت خروج نوح ومن معه من السفينة ثم اختلفوا بعد ذلك وقيل كانوا على دين الإسلام من عهد إبراهيم الخليل عليه السلام إلى أن غيره عمرو بن لحي. فعلى هذا القول، يكون المراد من الناس في قوله «وما كان الناس إلا أمة واحدة» العرب خاصة.

وقيل: كان الناس أمة واحدة في الكفر. وهذا القول منقول عن جماعة من المفسرين ويدل عليه قوله سبحانه وتعالى في سورة البقرة: **﴿فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين﴾** وتقديره: أنه لا مطمع في أن يصير الناس على دين واحد فإنهم كانوا أولاً على الكفر وإنما أسلم بعضهم ففيه تسلية للنبي ﷺ. وقيل: كان الناس أمة واحدة. وليس في الآية ما يدل على أي دين كانوا من إيمان أو كفر فهو موقوف على دليل من خارج. وقيل: معناه أنهم كانوا في أول الخلق على الفطرة السليمة الصحيحة ثم اختلفوا في الأديان وإليه الإشارة بقوله ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه» والمراد بالفطرة في الحديث، فطرة الإسلام. قوله سبحانه وتعالى: **﴿ولولا كلمة سبقت من ربك﴾** يعني أنه سبحانه وتعالى جعل لكل أمة أجلاً وقضى بذلك في سابق الأزل، قال الكلبي: هي إمهال هذه الأمة وأنه لا يهلكهم بالعذاب **﴿لقضي بينهم﴾** يعني بنزول العذاب وتعجيل العقوبة للمكذبين وكان ذلك فصلاً بينهم **﴿فيما فيه يختلفون﴾** وقال الحسن: ولولا كلمة سبقت من ربك يعني مضت في حكمة الله أنه لا يقضي عليهم فيما اختلفوا فيه بالثواب والعقاب دون يوم القيامة لقضى بينهم في الدنيا فأدخل المؤمنين الجنة بإيمانهم وأدخل

الأرض سُبْحَانَه وتعالَى عمّا يُشْرِكُون ﴾، قرأ حمزة والكسائي: «تشـــركون» بالتاء هاهنا وفي سورة النحل [١ و٣] موضعين، وفي سورة الروم [٣٣]، وقرأ الآخرون كلها بالياء.

قوله تعالى: **﴿ وما كانَ النّاسُ إلاّ أُمّةً واحدةً ﴾**، أي: على الإسلام. وقد ذكرنا الاختلاف فيه في سورة البقرة. **﴿ فاختلفوا ﴾**، وتفرقوا إلى مؤمن وكافر، **﴿ ولَوْلاَ كلمةٌ سبقتْ مِّن رَّبِّكَ ﴾**، بأن جعل لكل أُمّة أجلاً. وقال الكلبي: هي إمهال هذه الأمة وأنه لا يهلكهم بالعذاب في الدنيا، **﴿ لَقُضِيَ بينهم ﴾**، بنزول العذاب وتعجيل العقوبة للمكذبين، وكان ذلك فصلاً بينهم، **﴿ فيما فيه يختلفون ﴾**، وقال الحسن: ولولا كلمة سبقت من ربّك مضت في حكمه أنه لا يقضي بينهم فيما اختلفوا فيه بالثواب والعقاب دون القيامة، لقضي بينهم في الدنيا فأدخل المؤمن الجنّة والكافر النار، ولكنه سبق من الله الأجل فجعل موعدهم يوم القيامة.

﴿ ويقولُون ﴾، يعني: أهل مكة، **﴿ لولا أُنزلَ عليه ﴾**، أي: على محمد ﷺ، **﴿ آيةٌ مِّن رَّبِّه ﴾**، على ما

الكافرين النار بكفرهم ولكن سبق من الله الأجل فجعل موعدهم يوم القيامة وقيل سبق من الله أنه لا يؤاخذ أحداً إلا بعد إقامة الحجة عليه. وقيل: الكلمة التي سبقت من الله هي قوله: ﴿إن رحمتي سبقت غضبي﴾ ولولا رحمته، لعجل لهم العقوبة في الدنيا ولكن أخرهم برحمته إلى يوم القيامة ثم يقضي بينهم فيما كانوا فيه يختلفون يعني في الدنيا ﴿ويقولون﴾ يعني كفار مكة ﴿لولا أنزل عليه آية من ربه﴾ يعني هلا نزل على محمد ما نقترحه عليه من الآيات ﴿فقل﴾ أي: فقل لهم يا محمد ﴿إنما الغيب لله﴾ يعني إن الذي سألتمونيه هو من الغيب وإنما الغيب لله لا يعلم أحد ذلك إلا هو والمعنى لا يعلم أحد متى نزول الآية إلا هو ﴿فانتظروا﴾ يعني نزولها ﴿إني معكم من المنتظرين﴾ وقيل معناه فانتظروا قضاء الله بيننا بإظهار المحق على المبطل إني معكم من المنتظرين قوله عز وجل: ﴿وإذا أذقنا الناس رحمة﴾ يعني رخاء ونعمة ﴿من بعد ضراء مستهم﴾ يعني من بعد شدة وبلاء وضيق في العيش أصابهم والمراد بالناس هنا: كفار مكة، وذلك أن الله سبحانه وتعالى حبس عنهم المطر سبع سنين حتى هلكوا من الجوع والقحط، ثم إن الله سبحانه وتعالى رحمهم، فأنزل عليهم المطر الكثير حتى أخصبت البلاد وعاش الناس بعد ذلك الضر فلم يتعظوا بذلك بل رجعوا إلى الفساد والكفر والمكر وهو قوله سبحانه وتعالى: ﴿إذا لهم مكر في آياتنا﴾ قال مجاهد: أي تكذيب واستهزاء وقال مقاتل وابن حيان: لا يقولون هذا رزق الله إنما يقولون سقينا بنوء كذا وكذا. ويدل على صحة هذا القول ما روي عن زيد بن خالد الجهني قال: صلى بنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح بالحديبية على أثر سماء كانت من الليل، فلما انصرف، أقبل على الناس فقال: هل تدرون ماذا قال ربكم؟ قالوا: الله ورسوله أعلم قال: قال «أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر فأما من قال مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي كافر بالكواكب وأما من قال مطرنا بنوء كذا وكذا فذلك كافر بي مؤمن بالكواكب» أخرجاه في الصحيحين. قوله: على أثر سماء كانت من الليل أي مطر كان قد وقع في الليل وسمي المطر سماء لأنه يقطر من السماء. والأنواء عند العرب: هي منازل القمر إذا طلع نجم سقط نظيره وكانوا يعتقدون في الجاهلية أنه لا بد عند ذلك من وجود مطر أو ريح كما يزعم المنجمون أيضاً فمن العرب من يجعل ذلك التأثير للطالع لأنه ناء أي ظهر وطلع ومنهم من ينسبه للغارب فنفى النبي عليه السلام صحة ذلك ونهى عنه وكفَّر معتقده إذا اعتقد أن النجم فاعل ذلك التأثير وأما من يجعله دليلاً، فهو جاهل بمعنى الدلالة. وأما من أسند ذلك إلى العادة التي يجوز انخرامها فقد كرهه قوم وحرمه قوم ومنهم من تأول الكفر بكفر نعمة الله والله أعلم وسمى تكذيبهم بآيات الله مكراً لأن المكر عبارة عن صرف الشيء عن وجهه الظاهر بنوع من الحيلة وكان كفار مكة يحتالون في دفع آيات الله بكل ما يقدرون عليه من المفاسد: ﴿قل الله أسرع مكراً﴾ أي: قل لهم يا محمد الله أعجل عقوبة وأشد أخذاً وأقدر على الجزاء وإن عذابه في هلاكهم أسرع إليكم مما يأتي منكم في دفع الحق ولما قابلوا نعمة الله بالمكر، قابل مكرهم بمكر أشد منه وهو إمهالهم إلى يوم القيامة ﴿إن رسلنا يكتبون ما تمكرون﴾ يعني الحفظة الكرام

نقترحه، ﴿ فقلْ إنما الغيبُ لله ﴾، يعني: قل إنما سألتموني الغيب وإنما الغيب لله، لا يعلم أحد لِمَ لمْ يفعلْ ذلك ولا يعلمه إلاّ هو. وقيل: الغيب نزول الآية لا يعلم متى ينزل أحد غيره، ﴿ فانتظرُوا ﴾ نزولها ﴿ إني معكم منَ المنتظرين ﴾، وقيل: فانتظروا قضاء الله بيننا بالحق بإظهار المحقّ على المبطل.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ وإذا أَذَقْنا النّاس ﴾، يعني: الكفّار، ﴿ رحمةً منْ بعدِ ضَرّاء ﴾، أي: راحة ورخاء من بعد شدّة وبلاء. وقيل: القطر بعد القحط، ﴿ مسّتْهم ﴾، أي: أصابتهم، ﴿ إذا لهم مكرٌ في آياتِنَا ﴾، قال مجاهد: تكذيب واستهزاء وقال مقاتل بن حيان: لا يقولون هذا من رزق الله إنما يقولون سُقِينَا بِنَوْءِ كذا، وهو قوله: ﴿وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون﴾[الواقعة: ٨٢]. ﴿ قُلِ اللّهُ أسرعُ مكراً ﴾، أعجل عقوبة وأشدّ أخذاً وأقدر على الجزاء، يريد عذابه في إهلاككم أسرع إليكم مما يأتي منكم في دفع الحق، ﴿ إنّ رُسلَنَا ﴾، حفظتنا، ﴿ يكتبُون

الكاتبين يكتبون ويحفظون عليهم الأعمال القبيحة السيئة إلى يوم القيامة حتى يفتضحوا بها ويجزون على مكرهم قوله تعالى:

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾

﴿هو الذي يسيركم في البر والبحر﴾ يعني: هو الله الذي يسيركم يعني يحملكم في البر على ظهور الدواب وفي البحر على الفلك. وقيل: معناه هو الله الهادي لكم في السير في البر والبحر طلباً للمعاش أو هو المهيء لكم أسباب السير في البر والبحر **﴿حتى إذا كنتم في الفلك﴾** يعني: السفن. ولفظة الفلك: تطلق على الواحد والجمع وتقديراهما مختلفان فإن أريد بها الواحد كان كبناء قفل، وإن أريد بها الجمع كان كبناء أسد والمراد بها هنا الجمع لقوله تعالى: **﴿وجرين بهم﴾** يعني: وجرت السفن بركابها.

فإن قلت: ما فائدة صرف الكلام عن الخطاب إلى الغيبة؟ قلت: قال صاحب الكشاف: المقصود منه المبالغة كأنه يذكر لغيرهم حالهم ليعجبهم منها ويستدعي منهم مزيد الإنكار والتقبيح وقال غيره إن مخاطبة الله لعباده على لسان نبيه ﷺ بمنزلة الخبر عن الغائب وكل من أقام الغائب مقام المخاطب حسن منه أن يرده إلى الغائب. وقيل: إن الالتفات في الكلام من الغيبة إلى الحضور وبالعكس من فصيح كلام العرب **﴿بريح طيبة﴾** يعني وجرت السفن بريح طيبة ساكنة **﴿وفرحوا بها﴾** يعني وفرح ركبان تلك الفلك بتلك الريح الطيبة، لأن الإنسان إذا ركب السفينة ووجد الريح الطيبة الموافقة للمقصود حصل له النفع التام والمسرة العظيمة بذلك **﴿جاءتها ريح عاصف﴾** قيل: إن الضمير في جاءتها يرجع إلى الريح فيكون المعنى: جاءت الريح الطيبة ريح عاصف فأقلبتها. وقيل: الضمير في جاءتها يرجع إلى الفلك. يعني: جاءت الفلك. ريح عاصف. يقال: ريح عاصف وعاصفة، ومعنى عصفت الريح: اشتدت. وأصل العصف: السرعة وإنما قال: عاصف، لأنه أراد به ذات عصوف أو لأجل أن لفظ الريح قد يذكر **﴿وجاءهم الموج من كل مكان﴾** يعني: وجاء ركبان السفينة الموج وهو ما ارتفع وعلا من غوارب الماء في البحر وقيل: هو شدة حركة الماء واختلاطه **﴿وظنوا أنهم أحيط بهم﴾** يعني: وظنوا أن الهلاك قد أحاط بهم وأحدق. وقيل: المراد من الظن اليقين أي وأيقنوا أنه الهلاك. وقيل: بل المراد منه المقاربة من الهلاك والدنو منه والإشراف عليه **﴿دعوا الله مخلصين له الدين﴾** يعني أنهم أخلصوا في الدعاء لله عز وجل ولم يدعوا أحداً سواه من آلهتهم وقيل في معنى هذا الإخلاص

ما تمكُرُون ﴾، قرأ روح عن يعقوب: «يمكرون» بالياء.

قوله تعالى: **﴿ هو الذي يُسَيّركم ﴾**، يجريكم ويحملكم وقرأ أبو جعفر وابن عامر: «ينشركم» بالنون والشين من النشر وهو البسيط والبثّ، **﴿ في البرِّ ﴾**، على ظهور الدواب، **﴿ و ﴾** في **﴿ البحر ﴾**، على الفلك، **﴿ حتى إذا كنتم في الفُلْك ﴾**، أي: في السفن، تكون واحداً وجمعاً **﴿ وجَرَيْنَ بهم ﴾**، يعني: جرت السفن بالناس، رجع من الخطاب إلى الغيبة، **﴿ بريحٍ طيبةٍ ﴾** ليّنة، **﴿ وفرِحُوا بها ﴾**، أي: بالريح، **﴿ جاءتْها رِيحٌ ﴾**، أي: جاءت الفلك ريح، **﴿ عاصفٌ ﴾**، شديدة الهبوب، ولم يقل ريح عاصفة، لاختصاص الريح بالعصوف. وقيل: الريح يُذكَّر ويؤنّث. **﴿ وجاءَهم ﴾**، يعني: ركبان السفينة، **﴿ الموجُ ﴾**، وهو حركة الماء واختلاطه، **﴿ مِنْ كلِّ مكانٍ**

العلم الحقيقي لا إخلاص الإيمان لأنهم كانوا يعلمون حقيقة آنه لا ينجيهم من جميع الشدائد والبلايا إلا الله تعالى فكانوا إذا وقعوا في شدة وضر وبلاء أخلصوا لله الدعاء ﴿**لئن أنجيتنا**﴾ أي قائلين لئن أنجيتنا يا ربنا ﴿**من هذه**﴾ يعني من هذه الشدائد التي نحن فيها وهي الريح العاصفة والأمواج الشديدة ﴿**لنكونن من الشاكرين**﴾ يعني من الشاكرين لك على إنعامك علينا بخلاصنا مما نحن فيه من هذه الشدة ﴿**فلما أنجاهم**﴾ يعني: فلما أنجى الله هؤلاء الذين ظنوا أنهم أحيط بهم من الشدة التي كانوا فيها ﴿**إذا هم يبغون في الأرض بغير الحق**﴾ يعني أنهم أخلفوا الله ما وعدوه وبغوا في الأرض فتجاوزوا فيها إلى غير ما أمر الله به من الكفر والعمل بالمعاصي على ظهرها وأصل البغي مجاوزة الحد.

قال صاحب المفردات: البغي على ضربين، أحدهما محمود وهو مجاوزة العدل إلى الإحسان والفرض إلى التطوع.

والثاني مذموم وهو مجاوزة الحق إلى الباطل أو إلى الشبهة.

قال صاحب الكشاف: فإن قلت: ما معنى قوله بغير الحق والبغي لا يكون بحق قلت بلى قد يكون بحق وهو استيلاء المسلمين على أرض الكفرة وهدم دورهم وإحراق زروعهم وقلع أشجارهم كما فعل رسول الله ﷺ ببني قريظة ﴿**يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم**﴾ يعني: إن وبال بغيكم راجع عليكم ﴿**متاع الحياة الدنيا**﴾ قيل هو كلام مبتدأ، والمعنى: أن بغي بعضكم على بعض هو متاع الحياة الدنيا لا يصلح لزاد الآخرة وقيل هو كلام متصل بما قبله والمعنى يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم لا يتهيأ أن يبغي بعضكم على بعض إلا أياماً قليلة وهي مدة حياتكم مع قصرها في سرعة انقضائها. والبغي: من منكرات الذنوب العظام. قال بعضهم: لو بغى جبل على جبل لاندك الباغي.

وقد نظم بعضهم هذا المعنى شعراً وكان المأمون يتمثل به فقال:

يا صاحب البغي إن البغي مصرعة ... فارجع فخير مقال المرء أعدله
فلو بغى جبل يوماً على جبل ... لاندك منه أعاليه وأسفله

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿**ثم إلينا مرجعكم**﴾ يعني يوم القيامة ﴿**فننبئكم**﴾ أي فنخبركم ﴿**بما كنتم تعملون**﴾ يعني في الدنيا من البغي والمعاصي فنجازيكم عليها.

إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا

﴿**وظنّوا**﴾، أيقنوا ﴿**أنهم أُحيطَ بِهم**﴾، دنوا من الهلكة، أي: أحاط بهم الهلاك، ﴿**دَعُوا اللَّهَ مخلصِينَ لهُ الدِّين**﴾، أي: أخلصوا في الدعاء لله ولم يدعوا أحداً سوى الله. وقالوا: ﴿**لئنْ أنجيتنا**﴾، يا ربّنا، ﴿**منْ هذه**﴾، الريح العاصف، ﴿**لنكونَنّ منَ الشّاكِرين**﴾، لك بالإيمان والطاعة.

﴿**فلما أنجاهم إذا هم يبغون في الأرض**﴾، يظلمون ويتجاوزون إلى غير أمر الله عزّ وجلّ في الأرض، ﴿**بغيرِ الحقِّ**﴾، أي: بالقتال. ﴿**يا أيّها الناس إنّما بغيكم على أنفسكم**﴾، لأن وباله راجع عليها، ثم ابتدأ فقال: ﴿**متاعُ الحياةِ الدنيا**﴾، أي: هذا متاع الحياة الدنيا، خبر ابتداء مضمر، كقوله: ﴿**لم يَلْبَثُوا إلّا ساعةً من نهارٍ بلاغ**﴾ [الأحقاف: ٣٥]، أي: هذا بلاغ. وقيل: هو كلام متصل، والبغي ابتداء ومتاع خبره، ومعناه: **إنما بغيكم متاع الحياة الدنيا لا يصلح** زاداً لمعادٍ لأنكم تستوجبون به غضب الله. وقرأ حفص «متاع» بالنصب، أي تتمتعون متاع الحياة الدنيا، ﴿**ثم إلينا مَرْجِعُكم فننبئُكم بما كنتُم تعملون**﴾.

كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَـٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾

قوله عز وجل: ﴿إنما مثل الحياة الدنيا﴾ يعني في فنائها وزوالها ﴿كماء أنزلناه من السماء﴾ يعني المطر ﴿فاختلط به﴾ أي بالمطر ﴿نبات الأرض﴾ قال ابن عباس: نبت بالماء من كل لون ﴿مما يأكل الناس﴾ يعني من الحبوب والثمار ﴿والأنعام﴾ يعني ومما يأكل الأنعام من الحشيش ونحوه ﴿حتى إذا أخذت الأرض زخرفها﴾ يعني حسنها ونضارتها وبهجتها وأظهرت ألوان زهرها من أبيض وأحمر وأصفر وغير ذلك من الزهور ﴿وازينت﴾ أي وتزينت ﴿وظن أهلها﴾ يعني أهل تلك الأرض ﴿أنهم قادرون عليها﴾ يعني على جذاذها وقطافها وحصادها، رد الكناية إلى الأرض والمراد النبات إذ كان مفهوماً. وقيل: رده إلى الثمرة والغلة وقيل: إلى الزينة ﴿أتاها أمرنا﴾ أي قضاؤنا بهلاكها ﴿ليلاً أو نهاراً﴾ يعني في الليل أو النهار ﴿فجعلناها حصيداً﴾ يعني محصودة مقطوعة ﴿كأن لم تغن بالأمس﴾ يعني: كأن لم تكن تلك الأشجار والنبات والزروع نابتة قائمة على ظهر الأرض وأصله من غنى فلان بالمكان إذا أقام به وهو مثل ضربه الله سبحانه وتعالى للمتشبثين بالدنيا الراغبين في زهرتها وحسنها وذلك أنه تعالى لما قال: يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم متاع الحياة الدنيا، أتبعه بهذا المثل لمن بغى في الأرض وتجبر فيها وركن إلى الدنيا وأعرض عن الآخرة لأن النبات في أول بروزه من الأرض ومبدأ خروجه يكون ضعيفاً فإذا نزل عليه المطر واختلط به قوي وحسن واكتسى كمال الرونق والزينة وهو المراد من قوله حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت يعني بالنبات والزخرف عبارة عن كمال حسن الشيء وجعلت الأرض آخذة زخرفها على التشبيه بالعروس إذا لبست الثياب الفاخرة من كل لون حسن من حمرة وخضرة وصفرة وبياض ولا شك أن الأرض متى كانت على هذه الصفة فإنه يفرح بها صاحبها ويعظم رجاؤه في الانتفاع بها وبما فيها ثم إن الله سبحانه وتعالى أرسل على هذه الأرض صاعقة أو برداً أو ريحاً فجعلها حصيداً كأن لم تكن من قبل.

قال قتادة: إن المتشبث بالدنيا يأتيه أمر الله وعذابه أغفل ما يكون.

ووجه التمثيل، أن غاية هذه الحياة الدنيا التي ينتفع بها المرء كناية عن هذا النبات الذي لما عظم الرجاء في الانتفاع به وقع اليأس منه، ولأن المتمسك بالدنيا إذا نال منها بغيته أتاه الموت بغتة فسلبه ما هو فيه من نعيم الدنيا ولذاتها. وقيل: يحتمل أن يكون ضرب هذا المثل لمن ينكر المعاد والبعث بعد الموت وذلك، لأن الزرع إذا انتهى وتكامل في الحسن إلى الغاية القصوى أتته آفة فتلف بالكلية. ثم إن الله سبحانه وتعالى قادر على إعادته كما كان أول مرة فضرب الله سبحانه وتعالى هذا المثل ليدل على أن من قدر على إعادة ذلك النبات بعد التلف كان قادراً على إعادة الأموات أحياء في الآخرة ليجازيهم على أعمالهم فيثيب الطائع ويعاقب العاصي.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ إنّما مَثَلُ الحياةِ الدنيا ﴾، في فنائها وزوالها، ﴿ كماءٍ أنزلناهُ مِنَ السماءِ فاختَلَطَ به ﴾، أي: بالمطر، ﴿ نباتُ الأرضِ ﴾، قال ابن عباس: نبت بالماء من كل لون، ﴿ ممّا يأكلُ الناسُ ﴾، من الحبوب والثمار، ﴿ والأنعام ﴾، من الحشيش، ﴿ حتى إذا أخذَتِ الأرضُ زُخْرُفَها ﴾، حسنَها وبهجتَها وظهر الزهرُ أخضرُ ﴿ وازَّيَّنَتْ ﴾، أي: تزينت، وكذلك هي في قراءة ابن مسعود: تزينت. ﴿ وظنَّ أهلُها أنهم قادُرون عليها ﴾، على جذاذِها وقطافِها وحصادِها، ردّ الكنايةَ إلى الأرض. والمراد: النبات إذ كان مفهوماً، وقيل: ردّها إلى الغلّة. وقيل: إلى الزينة. ﴿ أتاها أمرُنا ﴾، قضاؤنا، بإهلاكها، ﴿ ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً ﴾، أي: محصودة مقطوعة،

﴿**كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون**﴾ يعني: كما بينا لكم مثل الحياة الدنيا وعرفنا كم حكمها، كذلك نبين حججنا وأدلتنا لمن تفكر واعتبر ليكون ذلك سبباً موجباً لزوال الشك والشبهة من القلوب.

قوله سبحانه وتعالى: ﴿**والله يدعو إلى دار السلام**﴾ لما ذكر الله زهرة الحياة الدنيا وأنها فانية زائلة لا محالة دعا إلى داره والله يدعو إلى دار السلام.

قال قتادة: الله هو السلام وداره الجنة فعلى هذا السلام اسم من أسماء الله عز وجل ومعناه أنه سبحانه وتعالى سلم من جميع النقائص والعيوب والفناء والتغيير. وقيل: إنه سبحانه وتعالى يوصف بالسلام لأن الخلق سلموا من ظلمه. وقيل: إنه تعالى يوصف بالسلام بمعنى ذي السلام أي لا يقدر على تخليص العاجزين من المكاره والآفات إلا هو.

وقيل: دار السلام اسم للجنة وهو جمع سلامة. والمعنى: أن من دخلها فقد سلم من جميع الآفات، كالموت والمرض والمصائب والحزن والغم والتعب والنكد. وقيل: سميت الجنة دار السلام لأن الله سبحانه وتعالى يسلم على أهلها أو تسلم الملائكة عليهم. قيل: إن من كمال رحمة الله وجوده وكرمه على عباده، أن دعاهم إلى جنته التي هي دار السلام.

وفيه دليل على أن فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، لأن العظيم لا يدعو إلا إلى عظيم ولا يصف إلا عظيماً، وقد وصف الله سبحانه وتعالى الجنة في آيات كثيرة من كتابه: ﴿**ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم**﴾ يعني: والله يهدي من يشاء من خلقه إلى صراطه المستقيم وهو دين الإسلام عم بالدعوة أولاً إظهاراً للحجة وخص بالدعوة ثانياً استغناء عن الخلق وإظهاراً للقدرة فحصلت المغايرة بين الدعوتين (خ).

عن جابر قال: «جاءت ملائكة إلى النبي ﷺ وهو نائم فقال بعضهم: إنه نائم وقال بعضهم: العين نائمة والقلب يقظان فقالوا: إن لصاحبكم مثلاً فاضربوا له مثلاً فقالوا مثله كمثل رجل بنى داراً وجعل فيها مأدبة وبعث داعياً فمن أجاب الداعي دخل الدار وأكل من المأدبة» ومن لم يجب الداعي لم يدخل الدار ولم يأكل من المأدبة فقالوا أولوها يفقهها فإن العين نائمة والقلب يقظان فقال بعضهم الدار الجنة والداعي محمد فمن أطاع محمداً فقد أطاع الله ومن عصى محمداً فقد عصى الله ومحمد فرق بين الناس وفي رواية: «خرج علينا رسول الله ﷺ فقال إني رأيت في المنام كأن جبريل عليه السلام عند رأسي وميكائيل عند رجلي يقول أحدهما لصاحبه اضرب له مثلاً» وعن النواس بن سمعان قال: قال رسول الله ﷺ «إن الله ضرب مثلاً صراطاً مستقيماً على كتفي الصراط داران لهما أبواب مفتحة على الأبواب

﴿ **كأنْ لمْ تغنَ بالأمْسِ** ﴾، كأن لم تكن بالأمس، وأصله من غني بالمكان إذا أقام به. وقال قتادة: معناه إن المتشبّث بالدنيا يأتيه أمر الله وعذابه أغفل ما يكون. ﴿ **كذلكَ نُفصِّلُ الآياتِ لقومٍ يتفكّرُون** ﴾.

قوله تعالى: ﴿ **واللَّهُ يَدْعُو إلى دارِ السلام** ﴾، قال قتادة: السلام هو الله وداره الجنة. وقيل: السلام بمعنى السلامة، سُمّيت الجنة دارَ السلام لأنَّ مَن دخلها سَلِمَ من الآفات. وقيل: المراد بالسلام التحية سُمّيت الجنة دار السلام، لأنَّ أهلها يحيّي بعضُهم بعضاً بالسلام والملائكة تسلّم عليهم. قال الله تعالى: ﴿ والملائكـةُ يدخلُون عليهمْ مِّن كلِّ بابٍ سلامٌ عليكم ﴾ [الرعد: ٢٣ و٢٤]، وروينا عن جابر قال: جاءت ملائكة إلى النبي ﷺ وهو نائم فقالوا: إن لِصاحبكم هذا مثلاً فاضْرِبُوا له مثلاً، قال بعضُهم: إنه نائم، وقال بعضُهم إنّ العين نائمة والقلب يقظان، فقالوا: مثله كمثل رجل بنَى داراً وجعل فيها. مأدُبةً وبعث داعياً، فمَن أجاب الداعي دخل الدار وأكل من المأدبة، ومَنْ لمْ يُجبِ الداعي لم يدخل الدار ولم يأكلْ من المأدبة، فقالوا أوّلُوهَا له يفقهها، وقال بعضُهم: إنه نائم، وقال

ستور وذاع يدعو على رأس الصراط وداع يدعو فوقه والله يدعو إلى دار السلام ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم والأبواب التي على كتفي الصراط حدود الله فلا يقع أحد في حدود الله حتى يكشف الستر والذي يدعو من فوقه واعظ ربه» أخرجه الترمذي وقال حديث حسن غريب.

﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٦﴾ وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۖ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا ۚ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٧﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ ۚ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ ۖ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾

قوله عز وجل: ﴿**للذين أحسنوا الحسنى**﴾ قال ابن عباس: للذين شهدوا أن لا إله إلا الله الجنة. وقيل: معناه للذين أحسنوا عبادة الله في الدنيا من خلقه وأطاعوه فيما أمرهم ونهاهم عنه الحسنى، قال ابن الأنباري: الحسنى في اللغة، تأنيث الأحسن والعرب توقع هذه اللفظة على الخلة المحبوبة والخلصة المرغوب فيها. وقيل: معناه للذين أحسنوا المثوبة الحسنى ﴿**وزيادة**﴾ اختلف المفسرون في معنى هذه الحسنى وهذه الزيادة على أقوال:

القول الأول: إن الحسنى هي الجنة والزيادة هي النظر إلى وجه الله الكريم وهذا قول جماعة من الصحابة منهم أبو بكر الصديق وحذيفة وأبو موسى الأشعري وعبادة بن الصامت وهو قول الحسن وعكرمة والضحاك ومقاتل والسدي ويدل على صحة هذا القول المنقول والمعقول أما المنقول فما روي عن صهيب أن رسول الله ﷺ قال «إذا دخل أهل الجنة الجنة يقول الله تبارك وتعالى أتريدون شيئاً أزيدكم؟ فيقولون: ألم تبيض وجوهنا ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار قال فيكشف الحجاب قال فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم تبارك وتعالى» زاد في رواية «ثم تلا هذه الآية: للذين أحسنوا الحسنى وزيادة» أخرجه مسلم. وروى الطبري بسنده عن كعب بن عجرة عن النبي ﷺ في قوله للذين أحسنوا الحسنى وزيادة قال: الزيادة النظر إلى وجه الله الكريم.

وعن أبي بن كعب أنه سأل رسول الله ﷺ عن قول الله سبحانه وتعالى: للذين أحسنوا الحسنى وزيادة. قال: الحسنى: الجنة وزيادة: قال النظر إلى وجه الله. وعن أبي موسى الأشعري قال: «إن كان يوم القيامة بعث الله إلى أهل الجنة منادياً ينادي هل أنجزكم الله ما وعدكم به فينظرون إلى ما أعد الله لهم من الكرامات فيقولون نعم فيقول للذين أحسنوا الحسنى وزيادة النظر إلى وجه الرحمن تبارك وتعالى وفي رواية رفعها أبو موسى قال عن رسول الله ﷺ: «إن الله يبعث يوم القيامة» وذكره بمعناه. وعن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال: «إذا دخل أهل الجنة الجنة قال الله لهم: هل بقي من حقكم شيء لم تعطوه قال: فيتجلى لهم عز وجل قال فيصغر عندهم كل شيء أعطوه ثم قال للذين أحسنوا

بعضهم: إن العينَ نائمةٌ والقلب يقظان، فقالوا: الدارُ الجنة والداعي محمد ﷺ، فمَن أطاع محمداً فقد أطاع الله، ومَن عصى محمداً فقد عصى الله، ومحمد فرّقَ بين الناس. ﴿ **ويهدي مَنْ يشاءُ إلى صراطٍ مستقيم** ﴾، فالصراط المستقيم هو الإسلام عمَّ بالدعوة لإظهار الحجة، وخُصّ بالهداية استغناءً عن الخلق.

قوله تعالى: ﴿ **للذين أحسنُوا الحُسنَى وزيادة** ﴾، أي: للذين أحسنوا العمل في الدنيا الحسنَى، وهي الجنة وزيادة وهي النظر إلى وجه الله الكريم، هذا قول جماعة من الصحابة، منهم أبو بكر الصدّيق رضي الله عنه وحذيفة وأبو موسى، وعبادة بن الصامت رضي الله عنهم، وهو قول الحسن وعكرمة وعطاء ومقاتل والضحاك والسدي.

أخبرنا أبو سعيد أحمد بن العباس الحميدي أنبأنا أبو عبد الله محمد بن عبد الله الحافظ أنبأنا أبو العباس محمد بن

الحسنى وزيادة قال الحسنى الجنة والزيادة هي النظر إلى وجه ربهم» فهذه الأخبار والآثار قد دلت على أن المراد بهذه الزيادة هي النظر إلى وجه الله تبارك وتعالى. وأما المعقول فنقول: إن الحسنى لفظة مفردة دخل عليها حرف التعريف فانصرفت الى المعهود السابق وهو الجنة في قوله سبحانه وتعالى والله يدعو إلى دار السلام فثبت بهذا أن المراد من لفظة الحسنى هي الجنة وإذا ثبت هذا وجب أن يكون المراد من الزيادة أمراً مغايراً لكل ما في الجنة من النعيم وإلا لزم التكرار وإذا كان كذلك وجب حمل هذه الزيادة على رؤية الله تبارك وتعالى ومما يؤكد ذلك قوله سبحانه وتعالى: ﴿وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة﴾ فأثبت لأهل الجنة أمرين أحدهما النضارة وهو حسن الوجوه وذلك من نعيم الجنة، والثاني النظر إلى وجه الله سبحانه وتعالى وآيات القرآن يفسر بعضها بعضاً فوجب حمل الحسنى على الجنة ونعيمها وحمل الزيادة على رؤية الله تبارك وتعالى. وقالت المعتزلة: لا يجوز حمل هذه الزيادة على الرؤية، لأن الدلائل العقلية دلت على أن رؤية الله سبحانه وتعالى ممتنعة، ولأن الزيادة يجب أن تكون من جنس المزيد عليه ورؤية الله ليست من جنس نعيم الجنة ولأن الأخبار التي تقدمت توجب التشبيه ولأن جماعة من المفسرين حملوا هذه الزيادة على غير الرؤية فانتفى ما قلتم.

أجاب أصحابنا عن هذه الاعتراضات بأن الدلائل العقلية قد دلت على إمكان وقوع رؤية الله تعالى في الآخرة وإذا لم يوجد في العقل ما يمنع من رؤية الله تعالى وجاءت الأحاديث الصحيحة بإثبات الرؤية وجب المصير إليها وإجراؤها على ظواهرها من غير تشبيه ولا إحاطة.

وأجيب عن قولهم ولأن الزيادة يجب أن تكون من جنس المزيد عليه بأن المزيد عليه إذا كان بمقدار معين كانت الزيادة من جنسه وإذا لم يكن بمقدار معين وجب أن تكون الزيادة مخالفة له فالمذكور في الآية لفظ الحسنى وهي الجن ونعيمها غير مقدر بقدر معين فوجب أن الزيادة تكون شيئاً مغايراً لنعيم الجنة وذلك المغاير هو الرؤية.

وأجيب عن قولهم ولأن جماعة من المفسرين حملوا الزيادة على غير الرؤية بأنه معارض بقول جماعة من المفسرين: بأن الزيادة هي الرؤية والمثبت مقدم على النافي والله أعلم.

القول الثاني: في معنى هذه الزيادة ما روي عن علي بن أبي طالب أنه قال الزيادة غرفة من لؤلؤة واحدة لها أربعة أبواب.

القول الثالث: إن الحسنى واحدة الحسنات والزيادة التضعيف إلى تمام العشرة إلى سبعمائة.

قال ابن عباس: هو مثل قوله سبحانه وتعالى: ﴿ولدينا مزيد﴾ يقول يجزيهم بعملهم ويزيدهم من فضله.

يعقوب الأصم إملاءً حدّثنا أبو بكر محمد بن إسحاق الصنعاني حدّثنا الأسود بن عامر حدّثنا حمّاد بن سلمة عن ثابت يعني البناني عن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن صُهيب رضي الله عنه قال: قرأ رسولُ الله ﷺ هذه الآية: ﴿ **للذين أحسنُوا الحُسنَى وزيادة** ﴾، قال: إذا دخلَ أهلُ الجنّةِ الجنّةَ وأهلُ النّارِ النّارَ نادَى منادٍ: يا أهلَ الجنّةِ إنّ لكم عند الله موعداً يريد أن ينجزَكُموه، قالوا: ما هذا الموعد؟ ألَمْ يثقّلْ موازيننا ويبيّضْ وجوهَنا ويدخلْنَا الجنّةَ ويُجِرْنَا من النار؟ قال: فيرفع الحجاب فينظرون إلى وجه الله عزّ وجلّ، قال: فما أُعطوا شيئاً أحبَّ إليهم من النظر إليه. ورُوِيَ عن ابن عباس: أنّ الحُسنَى هي: أنّ الحسنة بمثلها والزيادة هي التضعيف عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف. وقال مجاهد: الحُسنَى: حسنة مثل حسنة، والزيادة المغفرة والرضوان. ﴿ **ولا يَرْهَقُ** ﴾، لا يغشى ﴿ **وجوهَهُمْ قَتَرٌ** ﴾، غبار، جمع قترة. قال ابن عباس وقتادة: سواد الوجه، ﴿ **ولا ذِلّةٌ** ﴾، هَوَانٌ. قال قتادة: كآبة. قال ابن أبي ليلى: هذا بعد نظرهم إلى ربّهم. ﴿ **أولئكَ أصحابُ الجنّةِ هُمْ فيها خالدُون** ﴾.

قال قتادة: كان الحسن يقول: الزيادة الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف.

القول الرابع: إن الحسنى حسنة مثل حسنة والزيادة مغفرة من الله ورضوان قاله مجاهد.

القول الخامس: قول ابن زيد أن الحسنى هي الجنة والزيادة ما أعطاهم في الدنيا لا يحاسبهم به يوم القيامة وقوله سبحانه وتعالى: ﴿**ولا يرهق وجوههم**﴾ يعني ولا يغشى وجوه أهل الجنة ﴿**قتر**﴾ أي كآبة ولا كسوف ولا غبار.

وقال ابن عباس: هو سواد الوجوه ﴿**ولا ذلة**﴾ يعني ولا هوان. قال ابن أبي ليلى: هذا بعد نظرهم إلى ربهم تبارك وتعالى: ﴿**أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون**﴾ يعني أن هؤلاء الذين وصفت صفتهم هم أصحاب الجنة لا غيرهم وهم فيها مقيمون لا يخرجون منها أبداً.

قوله سبحانه وتعالى: ﴿**والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها**﴾ اعلم أنه لما شرح الله سبحانه وتعالى أحوال المحسنين وما أعد لهم من الكرامة شرح في الآية حال من أقدم على السيئات والمراد بهم الكفار فقال سبحانه وتعالى: والذين كسبوا السيئات. يعني: والذين عملوا السيئات والمراد بها الكفر والمعاصي جزاء سيئة بمثلها يعني فلهم جزاء السيئة التي عملوها مثلها العقاب. والمقصود من هذا التقييد، التنبيه على الفرق بين الحسنات والسيئات لأن الحسنات يضاعف ثوابها لعاملها من الواحدة إلى العشرة إلى السبعمائة إلى أضعاف كثيرة وذلك تفضلاً منه وتكرماً. وأما السيئات، فإنه يجازي عليها بمثلها عدلاً منه سبحانه وتعالى: ﴿**وترهقهم ذلة**﴾ قال ابن عباس: يغشاهم ذل وشدة. وقيل: يغشاهم ذل وهوان لعقاب الله إياهم ﴿**ما لهم من الله من عاصم**﴾ يعني ما لهم مانع يمنعهم من عذاب الله إذا نزل بهم ﴿**كأنما أغشيت وجوههم قطعاً من الليل مظلماً**﴾ يعني كأنما ألبست وجوههم سواداً من الليل المظلم ﴿**أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون**﴾ قوله سبحانه وتعالى: ﴿**ويوم نحشرهم جميعاً**﴾ الحشر الجمع من كل جانب وناحية إلى موضع واحد والمعنى ويوم نجمع الخلائق جميعاً لموقف الحساب وهو يوم القيامة ﴿**ثم نقول للذين أشركوا مكانكم**﴾ أي الزموا مكانكم واثبتوا فيه حتى تسألوا وفي هذا وعيد وتهديد للعابدين والمعبودين ﴿**أنتم وشركاؤكم**﴾ يعني أنتم أيها المشركون والأصنام التي كنتم تعبدونها من دون الله ﴿**فزيلنا بينهم**﴾ يعني: ففرقنا بين العابدين والمعبودين وميزنا بينهم وانقطع ما كان بينهم من التواصل في الدنيا.

فإن قلت قوله سبحانه وتعالى فزيلنا بينهم جاء على لفظ الماضي بعد قوله ثم نقول للذين أشركوا وهو منتظر في المستقبل فما وجهه.

قلت: السبب فيه، أن الذي حكم الله فيه بأنه سيكون صار كالكائن الآن.

قوله: ﴿**وقال شركاؤهم**﴾ يعني الأصنام التي كانوا يعبدونها من دون الله وإنما سماهم شركاءهم، لأنهم جعلوا لهم نصيباً من أموالهم أو لأنه سبحانه وتعالى لما خاطب العابدين والمعبودين بقوله: مكانكم فقد صاروا شركاء في هذا الخطاب ﴿**ما كنتم إيانا تعبدون**﴾ تبرأ المعبودون من العابدين.

﴿ والذيـن كَسَبُوا السّيئاتِ جزاءُ سيئةٍ بمثلها ﴾، أي: لهم مثلها، كما قال: ﴿ ومَن جاءَ بالسيئةِ فلا يُجْزَى إلّا مثلَها ﴾ [الأنعام: ١٦٠]. ﴿ وتَرْهَقُهُمْ ذِلّةٌ ما لهمْ مِّنَ اللّهِ مِنْ عاصمٍ ﴾، و﴿ من ﴾ صلة، أي: ما لهم من الله عاصم، ﴿ كأنما أُغْشِيَتْ ﴾، ألبست، ﴿ وُجُوهُهُمْ قِطَعاً ﴾، جمع قطعة، ﴿ مِّنَ اللّيلِ مُظْلِماً ﴾، نصبه على الحال دون النعت، ولذلك لم يقل: مظلمة، تقديره: قطعاً من الليل في حال ظلمته أو قطعاً من الليل المظلم. وقرأ ابن كثير والكسائي ويعقوب: «قطعـاً» ساكنة الطاء، أي بعضاً، كقوله: ﴿ بقطع من الليل ﴾ [هود: ٨١، الحجر: ٦٥]. ﴿ أولئكَ أصحابُ النارِ هُمْ فيها خالدُون ﴾.

فإن قلت: كيف صدر هذا الكلام من الأصنام وهي جماد لا روح فيها ولا عقل لها؟

قلت: يحتمل أن الله تعالى خلق لها في ذلك اليوم من الحياة والعقل والنطق حتى قدرت على هذا الكلام فإن قلت إذا أحياهم الله في ذلك اليوم فهل يفنيهم أو يبقيهم.

قلت: الكل محتمل ولا اعتراض على الله في شيء من أفعاله وأحوال القيامة غير معلومة إلا ما دل عليه الدليل من كتاب أو سنة.

فإن قلت: إن الأصنام قد أنكرت أن الكفار كانوا يعبدونها وقد كانوا يعبدونها؟

قلت: قد تقدمت هذه المسألة وجوابها في تفسير سورة الأنعام ونقول هنا قال مجاهد: تكون في يوم القيامة ساعة تكون فيها شدة تنصب لهم الآلهة التي كانوا يعبدونها من دون الله، فتقول الآلهة: والله ما كنا نسمع ولا نبصر ولا نعقل ولا نعلم أنكم تعبدوننا فيقولون والله إياكم كنا نعبد فتقول لهم الآلهة.

فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿٢٩﴾ هُنَالِكَ تَبْلُوا۟ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ وَرُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾

﴿فكفى بالله شهيداً بيننا وبينكم إن كنا عن عبادتكم لغافلين﴾. والمعنى قد علم الله وكفى به شهيداً أما ما علمنا أنكم كنتم تعبدوننا وما كنا عن عبادتكم إيانا من دون لله إلا غافلين ما نشعر بذلك أما قوله سبحانه وتعالى: **﴿هنالك تبلو كل نفس ما أسلفت﴾** فهو كالتتمة للآية المتقدمة والمعنى في ذلك المقام أو ذلك الموقف أو ذلك الوقت على معنى استعارة إطلاق اسم المكان على الزمان وفي قوله تبلوا قراءات قرىء بتاءين ولها معنيان أحدهما أنه من تلاه إذا تبعه أي تبع كل نفس ما أسلفت لأن العمل هو الذي يهدي النفس إلى الثواب أو العقاب.

الثاني: أن يكون من التلاوة والمعنى أن كل نفس تقرأ صحيفة عملها من خير أو شر. وقرىء: تبلو بالتاء المثناة والباء الموحدة ومعناه تخبر وتعلم. والبلو: الاختبار ومعناه: اختبارها ما أسلفت يعني: أنه إن قدم خيراً أو شراً قدم عليه وجوزي به **﴿وردوا إلى الله مولاهم الحق﴾** الرد: عبارة عن صرف الشيء إلى الموضع الذي جاء منه. والمعنى: وردوا إلى ما ظهر لهم من الله الذي هو مالكهم ومتولي أمرهم.

فإن قلت: قد قال الله سبحانه وتعالى في آية أخرى «وأن الكافرين لا مولى لهم» فما الفرق؟

قوله تعالى: **﴿ ويومَ نحشُرهم جميعاً ثم نقولُ للذينَ أشركُوا مكانَكم ﴾**، أي: الزمُوا مكانَكم، **﴿ أنتم وشركاؤكم ﴾**، يعني: الأوثان، معناه. ثم نقول للذين أشركوا الزمُوا أنتم وشركاؤكم مكانكم ولا تبرحوا. **﴿ فَزَيَّلْنَا ﴾** ميّزنا وفرّقنا **﴿ بينهم ﴾**، أي: بين المشركين وشركائهم وقطعنا ما كان بينهم من التواصل في الدنيا وذلك حين يتبرأ كل معبود من دون الله ممّن عبده، **﴿ وقال شركاؤُهم ﴾**، يعني: الأصنام، **﴿ ما كنتم إيّانا تعبدون ﴾**، بطلبتنا فيقولون بلى كنّا نعبدكم فتقول الأصنام.

﴿ فكفى بالله شهيداً بيننا وبينكم إنْ كنّا عن عبادتِكم لغافلين ﴾، أي: ما كنّا عن عبادتكم إيّانا إلاّ غافلين، ما كنّا نسمع ولا نبصر ولا نعقل.

قال الله تعالى: **﴿ هُنالِكَ تَبْلُوا ﴾**، أي: تُختبر. وقيل: معناه تعلم وتقف عليه. وقرأ حمزة والكسائي

قلت: المولى في اللغة يطلق على المالك ويطلق على الناصر، فمعنى المولى هنا المالك ومعنى المولى هناك الناصر فحصل الفرق بين الآيتين ﴿وضل عنهم ما كانوا يفترون﴾ يعني وبطل وذهب ما كانوا يكذبون فيه في الدنيا وهو قولهم إن هذه الأصنام تشفع لنا.

قوله عز وجل: ﴿قل من يرزقكم من السماء والأرض﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين من يرزقكم من السماء يعني المطر والأرض يعني النبات ﴿أم من يملك السمع والأبصار﴾ يعني ومن أعطاكم هذه الحواس التي تسمعون بها وتبصرون بها ﴿ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي﴾ يعني أنه تعالى يخرج الإنسان حياً من النطفة وهي ميتة وكذلك الطير من البيضة وكذلك يخرج النطفة الميتة من الإنسان الحي ويخرج البيضة الميتة من الطائر الحي. وقيل: معناه أنه يخرج المؤمن من الكافر والكافر من المؤمن، والقول الأول أقرب إلى الحقيقة ﴿ومن يدبر الأمر﴾ يعني أن مدبر أمر السموات ومن فيها ومدبر أمر الأرض وما فيها هو الله تعالى وذلك قوله ﴿فسيقولون الله﴾ يعني أنهم يعترفون أن فاعل هذه الأشياء هو الله وإذا كانوا يقرون بذلك ﴿فقل﴾ أي قل لهم يا محمد ﴿أفلا تتقون﴾ يعني: أفلا تخافون عقابه حيث تعبدون هذه الأصنام التي لا تضر ولا تنفع ولا تقدر على شيء من هذه الأمور ﴿فذلكم الله ربكم الحق﴾ يعني: فذلكم الذي يفعل هذه الأشياء ويقدر عليها هو الله ربكم الحق الذي يستحق العبادة لا هذه الأصنام ﴿فماذا بعد الحق إلا الضلال﴾ يعني: إذا ثبت بهذه البراهين الواضحة والدلائل القطعية أن الله هو الحق وجب أن يكون ما سواه ضلالاً وباطلاً ﴿فأنى تصرفون﴾ يعني: إذا عرفتم هذا الأمر الظاهر الواضح فكيف تستخيرون العدول عن الحق إلى الضلال الباطل.

كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾

﴿كذلك﴾ أي كما ثبت أنه ليس بعد الحق إلا الضلال ﴿حقت﴾ أي وجبت ﴿كلمة ربك﴾ في الأزل ﴿على

ويعقوب: تتلو بتاءين أي تقرأ، ﴿ كل نفس ﴾، صحيفتَها. وقيل: معناه تتبع كل نفس، ﴿ ما أسلفتْ ﴾، ما قدّمتْ من خير أو شر. وقيل: معناه تعاين، ﴿ ورُدُّوا إلى الله ﴾، إلى حكمه فيتفرّد فيهم بالحكم، ﴿ مولاهُمُ الحقِّ ﴾، الذي يتولّى ويملك أمرهم. فإن قيل: أليس قد قال: ﴿ وأن الكافرين لاَ مولى لهم ﴾ [محمد: ١١]. قيل: المولى هناك هو الناصر، وههنا بمعنى المالك، ﴿ وضلَّ عنهم ﴾، زال عنهم وبطل، ﴿ ما كانوا يفترون ﴾، في الدنيا من التكذيب.

قوله تعالى: ﴿ قُلْ مَن يرزُقُكم مِّنَ السماءِ والأرض ﴾، أي: من السماء بالمطر ومن الأرض بالنبات، ﴿ أمْ من يملِكُ السّمعَ والأبصار ﴾، أي: من إعطائكم السمع والأبصار، ﴿ ومَنْ يُخرِجُ الحيَّ من الميت ويُخرِجُ الميتَ من الحيّ ﴾ يخرج الحيّ من النطفة والنطفة من الحيّ، ﴿ ومَنْ يُدبِّرُ الأمْرَ ﴾، أي: يقضي الآمر، ﴿ فَسَيَقُولُونَ الله ﴾، هو الذي يفعل هذه الأشياء، ﴿ فقل أفلا تتّقون ﴾، أفلا تخافون عقابه في شرككم، وقيل: أفلا تتّقون الشرك مع هذا الإقرار.

﴿ فذَلكُم اللَّهُ ربُّكم ﴾، الذي يفعل هذه الأشياء هو ربّكم، ﴿ الحقُّ فماذا بعدَ الحقِّ إلاّ الضلالُ فأنّى تُصْرَفُون ﴾، أي: فأين تصرفون عن عبادته وأنتم مقرّون به.

﴿ كذلِكَ ﴾. قال الكلبي: هكذا، ﴿ حقّتْ ﴾، وجبتْ، ﴿ كلمةُ ربِّك ﴾، حكمه السابق، ﴿ على الذين

الذين فسقوا أنهم لا يؤمنون﴾ قيل: المراد بكلمة الله قضاؤه عليهم في اللوح المحفوظ أنهم لا يؤمنون وقضاؤه لا يرد ولا يدفع **﴿قل هل من شركائكم﴾** أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين هل من شركائكم يعني هذه الأصنام التي تزعمون أنها آلهة **﴿من يبدأ الخلق﴾** يعني من يقدر على أن ينشىء الخلق على غير مثال سبق **﴿ثم يعيده﴾** أي ثم يعيده بعد الموت كهيئته أول مرة، وهذا السؤال استفهام إنكار **﴿قل﴾** أي: قل أنت يا محمد **﴿الله يبدأ الخلق ثم يعيده﴾** يعني أن الله هو القادر على ابتداء الخلق وإعادته **﴿فأنى تؤفكون﴾** يعني فأنى تصرفون عن قصد السبيل والمراد من هذا التعجب من أحوالهم كيف تركوا هذا الأمر الواضح وعدلوا عنه إلى غيره **﴿قل﴾** أي قل يا محمد **﴿هل من شركائكم من يهدي إلى الحق﴾** يعني هل من هذه الأصنام من يقدر علي أن يرشد إلى الحق فإذا قالوا لا ولا بد لهم من ذل **﴿قل﴾** أي قل لهم أنت يا محمد **﴿الله يهدي للحق﴾** يعني أن الله هو الذي يرشد إلى الحق لا غيره **﴿أفمن يهدي إلى الحق أحق أن يتبع أمن لا يهدي إلا أن يهدى﴾** يعني أن الله هو الذي يهدي إلى الحق فهو أحق بالاتباع لا هذه الأصنام التي لا تهتدي إلا أن تهدي.

فإن قلت: الأصنام جماد لا تتصور هدايتها ولا أن تهدي فكيف قال إلا أن يهدي.

قلت: ذكر العلماء عن هذا السؤال وجوهاً.

الأول: أن معنى الهداية في حق الأصنام الانتقال من مكان إلى مكان فيكون المعنى أنها لا تنتقل من مكان إلى مكان آخر إلا أن تحمل وتنقل، فبين سبحانه وتعالى بها عجز الأصنام.

الوجه الثاني: أن ذكر الهداية في حق الأصنام على وجه المجاز وذلك أن المشركين لما اتخذوا الأصنام آلهة وأنزلوها منزلة من يسمع ويعقل عبر عنها بما يعبر به عمن يسمع ويعقل ويعلم ووصفها بهذه الصفة وإن كان الأمر ليس كذلك.

الوجه الثالث: يحتمل أن يكون المراد من قوله هل من شركائكم من يبدأ الخلق ثم يعيده الأصنام، والمراد من

فسَقُوا ﴾، كفروا، **﴿ أنهم لا يُؤمنُون ﴾**، قرأ أبو جعفر ونافع وابن عامر «كلماتُ ربِّك» بالجمع ههنا موضعين وفي المؤمن [٦]، والآخرون على التوحيد.

قوله: **﴿ قُلْ هلْ مِنْ شُركائِكم ﴾**، أوثانكم **﴿ مَن يَبدَؤُاْ الخلقَ ﴾**، ينشىء الخلق من غير أصل ولا مثال، **﴿ ثمّ يُعيدُه ﴾**، ثم يحييه من الموت كهيئته، فإن أجابوك وإلا فـ **﴿ قُلْ ﴾** أنت، **﴿ الله يَبْدَؤُاْ الخلقَ ثم يُعيدُهُ فأنّى تُؤفَكُون ﴾**، أي: تصرفون عن قصف السبيل.

﴿ قُلْ هَلْ مِن شُركائِكمْ مَن يهدي ﴾، يرشد، **﴿ إلى الحقِّ ﴾**، فإذا قالوا لا ولا بدَّ لهم من ذلك، **﴿ قُلِ اللَّهُ يهدي للحقِّ ﴾**، أي إلى الحق، **﴿ أفمنْ يهدي إلى الحقِّ أحقُّ أن يُتَّبَع أَمَّن لا يَهِدي ﴾**، قرأ حمزة والكسائي ساكنة الهاء، خفيفة الدال، وقرأ الآخرون بتشديد الدال ثم قرأ أبو جعفر وقالون بسكون الهاء، وأبو عمرو يروم الهاء بين الفتح والسكون، وقرأ حفص بفتح الياء وكسر الياء، وأبو بكر بكسرهما، والباقون بفتحهما، ومعناه: يهدي في جميعها. فمَن خالف الدال قال: يقال هديته فهُدي، أي: اهتدى، ومَن شدّد الدال أدغم التاء في الدال، ثم أبو عمرو يروم على مذهبه في إيثار التخفيف، ومَن سكّن الهاء تركها على حالتها كما فعل في «تعدوا» و**﴿ يخصمون ﴾** [يٓس: ٤٩]، ومَن فتح الهاء نقل فتحة الهاء المدغمة إلى الهاء، ومَن كسر الهاء فلالتقاء الساكنين، وقال: الجزم يُحرِّكُ إلى الكسر، ومَن كسر الياء مع الهاء أتبع الكسر إلى الكسرة، قوله تعالى: **﴿ إلاّ أنْ يُهدَى ﴾**، معنى الآية:

قوله هل من شركائكم من يهدي إلى الحق رؤساء الكفر والضلالة فالله سبحانه وتعالى هدى الخلق إلى الدين بما ظهر من الدلائل الدالة على وحدانيته وأما رؤساء الكفر والضلالة فإنهم لا يقدرون على هداية غيرهم إلا إذا هداهم الله إلى الحق فكان اتباع دين الله والتمسك بهدايته أولى من اتباع غيره.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿فما لكم كيف تحكمون﴾ قال الزجاج: فما لكم كلام تام كأنه قيل لهم: أي شيء لكم في عبادة هذه الأصنام. ثم قال: كيف تحكمون؟ يعني: على أي حال تحكمون. وقيل: معناه كيف تقضون لأنفسكم بالجور حين تزعمون أن مع الله شريكاً وقيل معناه بئسما حكمتم إذ جعلتم لله شريكاً من ليس بيده منفعة ولا مضرة ولا هداية.

وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَا كَانَ هَٰذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٨﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٣٩﴾ وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِ ۚ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾

﴿وما يتبع أكثرهم إلا ظناً﴾ يعني: وما يتبع أكثر هؤلاء المشركين إلا ما لا علم لهم بحقيقته وصحته بل هم في شك منه وريبة وقيل المراد بالأكثر الكل لأن جميع المشركين يتبعون الظن في دعواهم أن الأصنام تشفع لهم وقيل المراد بالأكثر الرؤساء ﴿إن الظن لا يغني من الحق شيئاً﴾ يعني أن الشك لا يغني عن اليقين شيئاً ولا يقوم مقامه وقيل في الآية إن قولهم إن الأصنام آلهة وإنها تشفع لهم ظن منهم لم يرد به كتاب ولا يعني أنها لا تدفع عنهم من عذاب الله شيئاً ﴿إن الله عليم بما يفعلون﴾ يعني من اتباعهم الظن وتكذيبهم الحق اليقين.

قوله تعالى: ﴿وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله﴾ يعني وما كان ينبغي لهذا القرآن أن يختلق ويفتعل لأن معنى الافتراء الاختلاق والمعنى ليس وصف القرآن وصف شيء ممكن أن يفترى به على الله لأن المفترى هو الذي يأتي به البشر وذلك أن كفار مكة زعموا أن محمداً ﷺ أتى بهذا القرآن من عند نفسه على سبيل الافتعال والاختلاق فأخبر الله عز وجل أن هذا القرآن وحي أنزله الله عليه وأنه مبرأ عن الافتراء والكذب وأنه لا يقدر عليه أحد إلا الله تعالى.

الله الذي يهدي إلى الحق أحقّ بالاتباع أم الصنم الذي لا يهتدي إلاّ أن يُهدَى. فإن قيل: كيف قال: ﴿ إلاّ أنْ يُهدَى ﴾، والصنم لا يتصور أن يهتدي ولا أن يُهدَى؟ قيل: معنى الهداية في حق الأصنام الانتقال، أي: أنها لا تنتقل من مكان إلى مكان إلاّ أن تُحمل وتُنقل، بيّن به عجز الأصنام. وجواب آخر وهو: أن ذكر الهداية على وجه المجاز، وذلك أن المشركين لمّا اتخذوا الأصنام آلهةً وأنزلوها منزلة مَن يسمع ويعقل عبّر عنها بما يُعبّر عمّن يعلم ويعقل، ووُصِفَتْ بصفة مَن يعقل. ﴿ فما لَكُمْ كيفَ تَحْكُمون ﴾، كيف تقضون حين زعمتم أن لله شريكاً.

قوله تعالى: ﴿ وما يتبع أكثرهم إلاّ ظَنّاً ﴾، منهم يقولون: إن الأصنام آلهة وإنها تشفع لهم في الآخرة ظنّاً منهم، لم يَرِدْ بِهِ كتابٌ ولا رسول، وأراد بالأكثر جميع مَن يقول ذلك، ﴿ إنّ الظنّ لا يُغني مِنَ الحقّ شيئاً ﴾، أي: لا يدفع عنهم من عذاب الله شيئاً. وقيل: يقوم مقام العلم، ﴿ إنّ اللّهَ عليمٌ بما يفعلون ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وما كانَ هذا القرآنُ أنْ يُفترَى مِنْ دُونِ الله ﴾، قال الفرّاء: معناه وما ينبغي لمثل هذا القرآن

ثم ذكر سبحانه وتعالى ما يؤكد هذا بقوله: ﴿ولكن تصديق الذي بين يديه﴾ يعني ولكن الله أنزل هذا القرآن مصدقاً لما قبله من الكتب التي أنزلها على أنبيائه كالتوراة والإنجيل. وتقرير هذا، أن محمداً ﷺ كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب ولم يجتمع بأحد من العلماء، ثم إنه ﷺ أتى بهذا القرآن العظيم المعجز وفيه أخبار الأولين وقصص الماضين وكل ذلك موافق لما في التوراة والإنجيل والكتب المنزلة قبله ولو لم يكن كذلك لقدحوا فيه لعداوة أهل الكتاب له ولما لم يقدح فيه أحد من أهل الكتاب علم بذلك أن ما فيه من القصص والأخبار مطابقة لما في التوراة والإنجيل مع القطع بأنه ما علم ما فيها فثبت بذلك أنه وحي من الله أنزله عليه وأنه مصدق لما بين يديه وأنه معجزة له ﷺ. وقيل في معنى قوله: ولكن تصديق الذي بين يديه يعني من أخبار الغيوب الآتية، فإنها جاءت على وفق ما أخبر ﴿وتفصيل الكتاب﴾ يعني وتبيين ما في الكتاب من الحلال والحرام والفرائض والأحكام ﴿لا ريب فيه من رب العالمين﴾ يعني أن هذا القرآن لا شك فيه أنه من رب العالمين وأنه ليس مفترى على الله وأنه لا يقدر أحد من البشر على الإتيان بمثله وهو قوله سبحانه وتعالى: ﴿أم يقولون افتراه﴾ يعني أم يقول هؤلاء المشركون افترى محمد هذا القرآن وخلقه من قبل نفسه وهو استفهام إنكار وقيل أم بمعنى الواو أي ويقولون افتراه ﴿قل﴾ أي: قل لهم يا محمد إن كان الأمر كما تقولون ﴿فأتوا بسورة مثله﴾ يعني بسورة شبيهة به في الفصاحة والبلاغة وحسن النظم فأنتم عرب مثلي في الفصاحة والبلاغة.

فإن قلت: قال الله سبحانه وتعالى في سورة البقرة فأتوا بسورة من مثله وقال سبحانه وتعالى هنا فأتوا بسورة مثله فما فائدة ذلك وما الفرق بينهما.

قلت لما كان محمد ﷺ أمياً لم يقرأ ولم يكتب وأتى بهذا القرآن العظيم كان معجزاً في نفسه فقيل لهم فأتوا بسورة من مثله يعني: مع إنسان أمي مثل محمد ﷺ يساويه في عدم الكتابة والقراءة.

وأما قوله سبحانه وتعالى: فأتوا بسورة مثله أي فأتوا بسورة تساوي سور القرآن في الفصاحة والبلاغة وهو المراد بقوله فأتوا بسورة مثله يعني أن السورة في نفسها معجزة فإن الخلق لو اجتمعوا على ذلك لم يقدروا عليه وهو المراد من قوله: ﴿وادعوا من استطعتم من دون الله﴾ يعني وادعوا للاستعانة على ذلك من استطعتم من خلقه ﴿إن كنتم صادقين﴾ يعني في قولكم إن محمداً افتراه ثم قال تعالى: ﴿بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه﴾ يعني القرآن. أي: كذبوا بما لم يعلموه. قال عطاء: يريد أنه ليس خلق يحيط بجميع علوم القرآن. وقيل: معناه بل كذبوا بما في القرآن من ذكر الجنة والنار والحشر والقيامة والثواب والعقاب وغيرها مما لم يحيطوا بعلمه، لأنهم كانوا ينكرون ذلك كله. وقيل: إنهم لما سمعوا ما في القرآن من القصص وأخبار الأمم الخالية ولم يكونوا سمعوها قبل ذلك أنكروها لجهلهم فرد الله سبحانه وتعالى عليهم بقوله بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه لأن القرآن العظيم مشتمل على علوم كثيرة لا يقدر أحد على

أنْ يُفتَرى من دون الله، كقوله تعالى: ﴿ وما كان لنبي أن يَغُلَّ ﴾ [آل عمران: ١٦١]، وقيل: ﴿ أنْ ﴾ بمعنى اللام، أي: وما كان هذا القرآنُ لِيُفترَى من دُونِ اللَّهِ. قوله: ﴿ ولكنْ تصديقَ الذي بينَ يَدَيْهِ ﴾، أي: بين يدي القرآن من التوراة والإنجيل. وقيل: تصديق الذي بين يدي القرآن من القيامة والبعث، ﴿ وتفصيل الكتابِ ﴾، تبيين ما في الكتاب من الحلال والحرام والفرائض والأحكام، ﴿ لَا رَيْبَ فيهِ مِن رَّبِّ العالمين ﴾.

﴿ أمْ يقولُون ﴾، قال أبو عبيدة: ﴿ أم ﴾ بمعنى الواو، أي: ويقولون، ﴿ افْتَرَاهُ ﴾، اختلق محمد القرآن من قِبَلِ نفسه، ﴿ قلْ فأتُوا بسورةٍ مِّثْلِهِ ﴾ شبه القرآن ﴿ وادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتم ﴾، ممّن تعبدون، ﴿ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ لِيُعِينُوكم على ذلك، ﴿ إن كنتُم صَادِقين ﴾، أن محمداً افتراه ثم قال:

﴿ بلْ كذَّبوا بما لم يُحيطُوا بعلمه ﴾، يعني: القرآن، كذبوا به ولم يحيطوا بعلمه، ﴿ ولمّا يأتِهم تأويلُهُ ﴾،

استيعابها وتحصيلها ﴿ولما يأتهم تأويله﴾ يعني أنهم كذبوا به ولم يأتهم بعد بيان ما يؤول إليه ذلك الوعيد الذي توعدهم الله في القرآن به من العقوبة. والمعنى: أنهم لم يعلموا ما تؤول إليه عاقبة أمرهم. وقيل: معناه أنهم لم يعلموه تنزيلاً ولا علموه تأويلاً فكذبوا به وذلك لأنهم جهلوا القرآن وعلمه وعلم تأويله ﴿كذلك كذب الذين من قبلهم﴾ يعني كما كذب هؤلاء بالقرآن كذلك كذب الأمم الماضية أنبياءهم فيما وعدوهم به ﴿فانظر كيف كان عاقبة الظالمين﴾ الخطاب للنبي ﷺ أي: فانظر يا محمد كيف كان عاقبة من ظلم من الأمم كذلك تكون عاقبة من كذبك من قومك ففيه تسلية للنبي ﷺ وقيل يحتمل أن يكون الخطاب لكل فرد من الناس.

والمعنى: فانظر أيها الإنسان كيف كان عاقبة من ظلم فاحذر أن تفعل مثل فعله.

قوله عز وجل: ﴿ومنهم من يؤمن به﴾ يعني ومن قومك يا محمد من سيؤمن بالقرآن ﴿ومنهم من لا يؤمن به﴾ لعلم الله السابق فيه أنه لا يؤمن ﴿وربك أعلم بالمفسدين﴾ يعني الذين لا يؤمنون.

﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾﴾

﴿وإن كذبوك﴾ يعني وإن كذبك قومك يا محمد ﴿فقل﴾ أي فقل لهم ﴿لي عملي﴾ يعني الطاعة وجزاء ثوابها ﴿ولكم عملكم﴾ يعني الشرك وجزاء عقابه ﴿أنتم بريئون مما أعمل وأنا بريء مما تعملون﴾ قيل: المراد منه الزجر والرجوع. وقال مقاتل والكلبي: هذه الآية منسوخة بآية السيف. قال الإمام فخر الدين الرازي: وهو بعيد لأن شرط الناسخ أن يكون رافعاً الحكم المنسوخ. ومدلول الآية: اختصاص كل واحد بأفعاله وبثمرات أفعاله من الثواب والعقاب وآية القتال ما رفعت شيئاً من مدلولات هذه الآية فكان القول بالنسخ باطلاً.

قوله تعالى: ﴿ومنهم﴾ يعني ومن هؤلاء المشركين ﴿من يستمعون إليك﴾ يعني بأسماعهم الظاهرة ولا ينفعهم ذلك لشدة بغضهم وعداوتهم لك ﴿أفأنت تسمع الصم﴾ يعني كما أنك لا تقدر على إسماع الصم فكذلك لا تقدر على إسماع من أصم الله سمع قلبه ﴿ولو كانوا لا يعقلون﴾ يعني أن الله سبحانه وتعالى صرف قلوبهم عن الانتفاع بما

أي: عاقبة ما وعد الله في القرآن، أنه يؤول إليه أمرهم من العقوبة، يريد أنهم لم يعلموا ما يؤول إليه عاقبة أمرهم. ﴿ كذلِكَ كذَّبَ الذينَ مِن قبلِهم ﴾، أي: كما كذب هؤلاء الكفّار بالقرآن كذلك كذب الذين من قبلهم من كفّار الأمم الخالية، ﴿ فانْظُرْ كيفَ كانَ عاقبةُ الظالمين ﴾، آخر أمر المشركين بالهلاك.

﴿ ومنهم مَن يُؤمنُ بِهِ ﴾، أي: من قومك مَن يؤمن بالقرآن، ﴿ ومنهم مَّن لَّا يُؤمنُ بِهِ ﴾، لعلم الله السابق فيهم، ﴿ وربُّك أعلمُ بالمفسدين ﴾، الذين لا يُؤمنُون.

﴿ وإنْ كذَّبُوك ﴾، يا محمد، ﴿ فقلْ لي عملي ﴾، وجزاؤه، ﴿ ولكم عملُكم ﴾، وجزاؤه، ﴿ أنتُم بريئُون مما أعملُ وأنا بريءٌ مما تعملُون ﴾، هذا كقوله تعالى: ﴿ لنا أعمالُنا ولكم أعمالُكم ﴾ [القصص: ٥٥، الشورى: ١٥] ﴿ لكم دينُكم وليَ دين ﴾ [الكافرون: ٦]. قال الكلبي ومقاتل: هذه الآية منسوخة بآية الجهاد، ثم أخبر أن التوفيق للإيمان به لا بغيره.

يسمعون ولم يوفقهم لذلك فهم بمنزلة الجهال إذا لم ينتفعوا بما لم يسمعوا وهم أيضاً كالصم الذين لا يعقلون شيئاً ولا يفهمونه لعدم التوفيق ﴿ومنهم من ينظر إليك﴾ يعني بأبصارهم الظاهرة ﴿أفأنت تهدي العمي﴾ يريد عمي القلوب ﴿ولو كانوا لا يبصرون﴾ لأن الله أعمى بصائر قلوبهم فلا يبصرون شيئاً من الهدى وفي هذا تسلية من الله عز وجل لنبيه ﷺ يقول الله عز وجل إنك لا تقدر أن تسمع من سلبته السمع ولا تقدر أن تهدي من سلبته البصر ولا تقدر أن توفق للإيمان من حكمت عليه أن لا يؤمن ﴿إن الله لا يظلم الناس شيئاً ولكن الناس أنفسهم يظلمون﴾ .

قال العلماء: لما حكم الله عز وجل على أهل الشقوة بالشقاوة لقضائه وقدره السابق فيهم أخبر في هذه الآية أن تقدير الشقاوة عليهم ما كان ظلماً منه لأنه يتصرف في ملكه كيف يشاء والخلق كلهم عبيدة وكل من تصرف في ملكه لا يكون ظالماً وإنما قال ولكن الناس أنفسهم يظلمون لأن الفعل منسوب إليهم بسبب الكسب وإن كان قد سبق قضاء الله وقدره فيهم.

قوله سبحانه وتعالى: ﴿ويوم يحشرهم﴾ يعني: واذكر يا محمد يوم نجمع هؤلاء المشركين لموقف الحساب. وأصل الحشر: إخراج الجماعة وإزعاجهم من مكانهم ﴿كأن لم يلبثوا إلا ساعة من النهار﴾ يعني كأنهم لم يلبثوا في الدنيا إلا قدر ساعة من النهار. وقيل: معناه كأنهم لم يلبثوا في قبورهم إلا قدر ساعة من النهار. والوجه الأول أولى، لأن حال المؤمن والكافر سواء في عدم المعرفة بمقدار لبثهم في القبور إلى وقت الحشر، فتعين حمله على أمر يختص بحال الكافر وهو أنهم لما لم ينتفعوا بأعمارهم في الدنيا استقلوها. والمؤمن لما انتفع بعمره في الدنيا لم يستقله. وسبب استقلال الكفار: مدة مقامهم في الدنيا أنهم لما ضيعوا أعمارهم في طلب الدنيا والحرص على مافيها ولم يعملوا بطاعة الله فيها كان وجود ذلك كالعدم فلذلك استقلوه. وقيل: إنهم لما شاهدوا أهوال يوم القيامة وطال عليهم ذلك، استقلوا مدة مقامهم في الدنيا، لأن مقامهم في الدنيا في جنب مقامهم في الآخرة قليل جداً ﴿يتعارفون بينهم﴾ يعني: يعرف بعضهم بعضاً إذا خرجوا من قبورهم كما كانوا يتعارفون في الدنيا ثم تنقطع المعرفة بينهم إذا عاينوا أهوال يوم القيامة، وفي بعض الآثار: أن الإنسان يوم القيامة يعرف من بجنبه ولا يقدر أن يكلمه هيبة وخشية، وقيل: إن أحوال يوم القيامة مختلفة ففي بعضها يعرف بعضهم بعضاً وفي بعضها ينكر بعضهم بعضاً لهول ما يعاينون في ذلك

فقال: ﴿ ومنهم مَنْ يستمعُون إليك ﴾ بأسماعهم الظاهرة فلا ينفعهم، ﴿ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ ﴾، يريد صمم القلب، ﴿ ولو كانُوا لا يعقِلُون ﴾.

﴿ ومنهمْ مَنْ يَنْظُرُ إليكَ ﴾، بأبصارهم الظاهرة، ﴿ أَفَأَنْتَ تهدي العُمْيَ ﴾، يريد عمى القلب، ﴿ ولـو كانُـوا لا يُبْصِرُون ﴾، وهذا تسلية من الله عزّ وجلّ لنبيّه ﷺ، يقول: إنك لا تقدر أن تُسمعَ مَن سلبتُه السمعَ ولا أن تهديَ مَن سلبتُه البصرَ ولا أن تُوفّق للإيمان من حكمتُ عليه أن لا يُؤمن.

﴿ إنّ اللّهَ لا يظلمُ الناسَ شيئاً ﴾، لأنه في جميع أفعاله مُتفضّل عادل، ﴿ ولكنّ الناسَ أنفسَهم يظلِمُون ﴾، بالكفر والمعصية. قرأ حمزة والكسائي: «ولكنِ الناسُ» بتخفيف نون «لكن» ورفع «الناس»، وقرأ الباقون «ولكنّ الناس» بتشديد نون «لكن» ونصب «الناس».

قوله تعالى: ﴿ ويومَ يحشرُهم ﴾، قرأ حفص بالياء والآخرون بالنون، ﴿ كأن لَّمْ يَلْبَثُوا إلاّ ساعةً مِّنَ النّهار ﴾، قال الضحاك: كأن لم يلبثوا في الدنيا إلاّ ساعة من النهار. وقال ابن عباس: كأن لم يلبثوا في قبورهم إلاّ قدر ساعة من النهار، ﴿ يَتَعَارَفُونَ بينهم ﴾، يعرف بعضُهم بعضاً حين بُعثوا من القبور كمعرفتهم في الدنيا، ثم تنقطع المعرفة إذا عاينوا أهوال القيامة. وفي بعض الآثار: أن الإنسان يعرف يوم القيامة مَنْ بجنبه ولا يُكلمه هيبةً

اليوم ﴿قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله﴾ يعني أن من باع آخرته الباقية بدنياه الفانية قد خسر لأنه أثر الفاني على الباقي ﴿وما كانوا مهتدين﴾ يعني إلى ما يصلحهم وينجيهم من هذا الخسار.

وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾

﴿وإما نرينك﴾ يعني يا محمد ﴿بعض الذي نعدهم﴾ يعني ما نعدهم به من العذاب في الدنيا فذاك ﴿أو نتوفينك﴾ قبل أن نريك ذلك الوعد في الدنيا فإنك ستراه في الآخرة وهو قوله سبحانه وتعالى: ﴿فإلينا مرجعهم﴾ يعني في الآخرة وفيه دليل على أن الله يري رسول الله ﷺ أنواعاً من عذاب الكافرين وذلهم وخزيهم في حال حياته في الدنيا وقد أراه ذلك في يوم بدر وغيره من الأيام وسير به ما أعد لهم من العذاب في الآخرة بسبب كفرهم وتكذيبهم ﴿ثم الله شهيد على ما يفعلون﴾ فيه وعيد وتهديد لهم يعني أنه سبحانه وتعالى شاهد على أفعالهم التي فعلوها في الدنيا فيجازيهم عليها يوم القيامة.

قوله عز وجل: ﴿ولكل أمة رسول﴾ لما بيَّن الله عز وجل حال محمد ﷺ مع قومه بيَّن أن حال الأنبياء مع أممهم كذلك فقال تعالى: ولكل أمة، يعني قد خلت وتقدمت قبلكم، رسول يعني: مبعوثاً إليهم يدعو إلى الله وإلى طاعته والإيمان به ﴿فإذا جاء رسولهم﴾ في هذا الكلام إضمار تقديره، فإذا جاءهم رسولهم وبلغهم ما أرسل به إليهم فكذبه قوم وصدقه آخرون ﴿قضي بينهم بالقسط﴾ يعني حكم بينهم بالعدل وفي وقت هذا القضاء والحكم بينهم قولان: أحدهما: أنه في الدنيا وذلك أن الله سبحانه وتعالى أرسل إلى كل أمة رسولاً لتبليغ الرسالة وإقامة الحجة وإزالة العذر فإذا كذبوا رسلهم وخالفوا أمر الله قضى بينهم، وبين رسلهم في الدنيا فيهلك الكافرين وينجي رسلهم والمؤمنين ويكون ذلك عدلاً لا ظلماً لأن قبل مجيء الرسول لا يكون ثواباً ولا عقاباً.

القول الثاني: إن وقت القضاء في الآخرة وذلك أن الله إذا جمع الأمم يوم القيامة للحساب والقضاء بينهم

وخشية. ﴿ قَدْ خَسِرَ الذينَ كذَّبُوا بلقاءِ اللَّهِ وما كانُوا مُهتدين ﴾، والمراد من الخسران: خسران النفس، ولا شيء أعظم منه.

قوله تعالى: ﴿ وإمّا نُرِيَنَّكَ بعضَ الذي نَعِدُهم ﴾، يا محمد في حياتِك مِنَ العذاب، ﴿ أو نَتَوَفَّيَنَّكَ ﴾، قبل تعذيبهم، ﴿ فإلينا مَرْجِعُهم ﴾ في الآخرة، ﴿ ثمّ اللَّهُ شهيدٌ على ما يفعلون ﴾، فيجزيهم به، ﴿ ثم ﴾ بمعنى الواو، تقديره: والله شهيدٌ. قال مجاهد: فكان البعض الذي أراه قتلهم ببدر، وسائر أنواع العذاب بعد موتهم.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ ولكلِّ أُمةٍ ﴾، خلت، ﴿ رسولٌ فإذا جاءَ رسولُهم ﴾، وكذبوه، ﴿ قُضِيَ بينهم بالقسطِ ﴾، أي عُذِّبُوا في الدنيا وأُهلكوا بالعذاب، يعني: قبل مجيء الرسول، لا ثواب ولا عقاب. وقال مجاهد ومقاتل: فإذا جاء رسولهم الذي أُرسل إليهم يوم القيامة قُضِيَ بينه وبينهم بالقسط، ﴿ وهم لا يُظلمون ﴾، لا يعذبون بغير ذنب ولا يُؤاخذون بغير حجة ولا ينقص من حسناتهم ولا يُزاد على سيئاتهم.

﴿ ويقولُون ﴾، أي: المشركون، ﴿ مَتى هذا الوَعْدُ ﴾ الذي تعِدنا يا محمد من العذاب. وقيل: قيام

والفصل بين المؤمن والكافر والطائع والعاصي جيء بالرسل لتشهد عليهم. والمراد من ذلك، المبالغة في إظهار العدل، وهو قوله تعالى: ﴿وهم لا يظلمون﴾ يعني من جزاء أعمالهم شيئاً ولكن يجازي كل أحد على قدر عمله. وقيل: معناه أنهم لا يعذبون بغير ذنب ولا يؤاخذون بغير حجة ولا ينقص من حسناتهم ولا يزاد على سيئاتهم ﴿ويقولون﴾ يعني هؤلاء الكفار ﴿متى هذا الوعد﴾ يعني الذي تعدنا به يا محمد من نزول العذاب وقيل قيام الساعة، وإنما قالوا ذلك على وجه التكذيب والاستبعاد ﴿إن كنتم صادقين﴾ يعني فيما تعدونا به، وإنما قالوا بلفظ الجمع لأن كل أمة قالت لرسولها كذلك أو يكون المعنى: إن كنتم صادقين أنت وأتباعك يا محمد أوذكروه بلفظ الجمع على سبيل التعظيم ﴿قل﴾ أي: قل لهم يا محمد ﴿لا أملك لنفسي ضراً ولا نفعاً﴾ يعني لا أملك لنفسي دفع ضر أو جلب نفع ولا أقدر على ذلك ﴿إلا ما شاء الله﴾ يعني أن أقدر عليه أو أملكه. والمعنى: أن إنزال العذاب على الأعداء وإظهار النصر للأولياء وعلم قيام الساعة لا يقدر عليه إلا الله فتعيين الوقت إلى الله سبحانه وتعالى بحسب مشيئته ثم إذا حضر ذلك الوقت الذي وقته الله لحدوث هذه الأشياء فإنه يحدث لا محالة وهو قوله سبحانه وتعالى: ﴿لكل أمة أجل﴾ أي مدة مضروبة ووقت معين ﴿إذا جاء أجلهم﴾ يعني إذا انقضت مدة أعمارهم ﴿فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون﴾ يعني لا يتأخرون عن ذلك الأجل الذي أجل لهم ولا يتقدمونه ﴿قل﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين من قومك ﴿أرأيتم إن أتاكم عذابه بياتاً﴾ يعني ليلاً يقال بات يفعل كذا إذا فعل بالليل والسبب فيه إن الإنسان في الليل لا يكون إلا في البيت غالباً فجعل الله هذه اللفظة كناية عن الليل ﴿أو نهاراً﴾ يعني في النهار ﴿ماذا يستعجل منه المجرمون﴾ يعني ما الذي يستعجلون من نزول العذاب وقد وقعوا فيه وحقيقة المعنى أنهم كانوا يستعجلون نزول العذاب كما أخبر الله سبحانه وتعالى عنهم بقوله ﴿اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم﴾ فأجابهم الله سبحانه وتعالى بقوله: ﴿ماذا يستعجل منه المجرمون﴾ يعني أي شيء يعلم المجرمون ما يطلبون ويستعجلون كما يقول الرجل لغيره وقد فعل فعلاً قبيحاً ماذا جنيت على نفسك.

أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓۚ ءَآلْـَٔـٰنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ۖ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ

الساعة، ﴿ إنْ كنتُم صادقين ﴾، أنتَ يا محمدُ وأتباعُك.

﴿ قُل لَّآ أمْلِكُ لنفسي ﴾، لا أقدر لها على شيء، ﴿ ضرّاً ولا نَفْعاً ﴾، أي: دفع ضر ولا جلب نفع، ﴿ إلّا ما شاءَ اللّهُ ﴾، أن أملكه، ﴿ لكلِّ أُمَّةٍ أجلٌ ﴾، مدة مضروبة، ﴿ إذا جاءَ أجلُهم ﴾، وقت فناء أعمارهم، ﴿ فلا يستأخِرُونَ ساعةً ولا يستقدِمُون ﴾، أي: لا يتأخرون ولا يتقدمون.

قوله تعالى: ﴿ قُلْ أرأيتُم إنْ أتاكم عذابُه بياتاً ﴾، ليلاً، ﴿ أو نهاراً ماذا يستعجلُ منه المجرمون ﴾، أي: ماذا يستعجل من الله المشركون. وقيل: ماذا يستعجل من العذاب المجرمون، وقد وقعوا فيه. وحقيقة المعنى: أنهم كانوا يستعجلون العذاب، فيقولون: ﴿ اللّهمَّ إنْ كان هذا هو الحقَّ من عندكَ فأمطرْ علينا حجارةً مِّنَ السماءِ أو ائتنا بعذابٍ أليم ﴾ [الأنفال: ٣٢]، فيقول الله تعالى: ﴿ ما يستعجلُ ﴾ يعني: ليس يعلم المجرمون ماذا يستعجلون ويطلبون، كالرجل يقول لغيره وقد فعل قبيحاً ماذا جنيت على نفسك.

وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٦﴾

﴿أثمّ إذا ما وقع﴾ يعني إذا ما نزل العذاب ووقع ﴿آمنتم به﴾ يعني آمنتم بالله وقت نزول العذاب وهو وقت اليأس وقيل معناه صدقتم بالعذاب عند نزوله ودخلت همزة الاستفهام على ثم للتوبيخ والتقريع ﴿آلآن﴾ فيه إضمار تقديره يقال لهم آلآن تؤمنون أي حين وقوع العذاب ﴿وقد كنتم به تستعجلون﴾ يعني تكذيباً واستهزاء ﴿ثم قيل للذين ظلموا﴾ يعني ظلموا أنفسهم بسبب شركهم وكفرهم بالله ﴿ذوقوا عذاب الخلد هل تجزون إلا بما كنتم تكسبون﴾ يعني في الدنيا من الأعمال.

قوله سبحانه وتعالى: ﴿ويستنبئونك أحق هو﴾ يعني ويستخبرونك يا محمد أحق ما تعدنا به من نزول العذاب وقيام الساعة ﴿قل إي وربي﴾ أي قل لهم يا محمد نعم وربي ﴿إنه لحق﴾ يعني إن الذي أعدكم به حق، لا شك فيه ﴿وما أنتم بمعجزين﴾ يعني بفائتين من العذاب لأن من عجز عن شيء فقد فاته ﴿ولو أن لكل نفس ظلمت﴾ يعني أشركت ﴿ما في الأرض﴾ يعني من شيء ﴿لافتدت به﴾ يعني يوم القيامة. والافتداء: بمعنى البذل لما ينجو به من العذاب إلا أنه لا ينفعه الفداء ولا يقبل منه ﴿وأسرّوا الندامة﴾ يعني يوم القيامة، وإنما جاء بلفظ الماضي والقيامة من الأمور المستقبلة، لأن أحوال يوم القيامة لما كانت واجبة الوقوع، جعل الله مستقبلها كالماضي والإسرار يكون بمعنى الإخفاء وبمعنى الإظهار فهو من الأضداد، فلهذا اختلفوا في قوله: وأسروا الندامة. فقال أبو عبيدة: معناه وأظهروا الندامة لأن ذلك اليوم ليس يوم تصبر وتصنع. وقيل: معناه أخفوا، يعني أخفى الرؤساء الندامة من الضعفاء والأتباع خوفاً من ملامتهم إياهم وتعبيرهم لهم ﴿لما رأوا العذاب﴾ يعني: حين عاينوا العذاب وأبصروه ﴿وقضي بينهم بالقسط﴾ يعني وحكم بينهم بالعدل قيل بين المؤمن والكافر وقيل: بين الرؤساء والأتباع. وقيل: بين الكفار لاحتمال أن بعضهم قد ظلم بعضاً فيؤخذ للمظلوم من الظالم وهو قوله سبحانه وتعالى: ﴿وهم لا يظلمون﴾ يعني في الحكم لهم وعليهم بأن يخفف من عذاب المظلوم ويشدد في عذاب الظالم ﴿ألا إن لله ما في السموات والأرض﴾ يعني أن كل

﴿ أثُمَّ إذا مَا وَقَعَ ﴾، قيل: معناه أهنالك، وحينئذ، وليس بحرف عطف، ﴿ إذا ما وقع ﴾ نزل العذاب، ﴿ آمنتُم به ﴾، أي بالله في وقت اليأس. وقيل: آمنتم به أي صدقتم بالعذاب وقت نزوله، ﴿ آلآنْ ﴾، فيه إضمار، أي: يقال: لكم آلآن تُؤمنون حين وقع العذاب؟ ﴿ وَقَدْ كُنْتُم بهِ تستعجِلُون ﴾، تكذيباً واستهزاءً، قرأ ورش عن نـــافع «آلآن» بحذف الهمزة التي بعد اللام الساكنة وإلقاء حركتها على اللام، ويمدّ الهمزة الأولى على وزن عالان، وكذلك الحرف الآخر، وروى زمعة بن صالح « الان » على مثل علان بغير مدّ ولا همزة بعد اللام، وقرأ الباقون « الان » بهمزة ممدودة في الأول وإثبات همزة بعد اللام، وكذلك قالون وإسماعيل عن نافع.

﴿ ثم قيلَ للذين ظلمُوا ﴾، أشركوا، ﴿ ذوقُوا عذابَ الخُلْدِ هلْ تُجزَوْنَ إلّا بما كنتم تكسِبُون ﴾، في الدنيا.

﴿ ويَسْتَنْبِئُونَكَ ﴾، أي: يستخبرونك يا محمد، ﴿ أحقٌّ هُو ﴾، أي ما تعدنا من العذاب وقيام الساعة، ﴿ قُلْ إيْ وربِّي ﴾، أي: نعم وربِّي، ﴿ إنّه لحقٌّ ﴾، لا شك فيه، ﴿ وما أنتُم بمعجزِين ﴾، أي: بفائتين من العذاب، لأن مَن عجز عن شيء فقدْ فاته.

﴿ ولو أنّ لكلِّ نفسٍ ظلمتْ ﴾، أي: أشركت، ﴿ ما في الأرضِ لافْتَدَتْ بهِ ﴾، يوم القيامة، والافتداء ههنا بذل ما ينجو به من العذاب. ﴿ وأسرُّوا النّدامَة ﴾، قال أبو عبيدة: معناه أظهرُوا الندامة لأنه ليس ذلك اليوم يوم

شيء في السموات والأرض لله ملك له لا يشركه فيه غيره فليس للكافر شيء يفتدي به من عذاب الله يوم القيامة لأن الأشياء كلها لله وهو أيضاً ملك لله فكيف يفتدي من هو مملوك لغيره بشيء لا يملكه ﴿ألا إن وعد الله حق﴾ يعني ما وعد الله به على لسان نبيه ﷺ من ثواب الطائع وعقاب العاصي حق لا شك فيه ﴿ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾ يعني حقيقة ذلك ﴿هو يحيي ويميت﴾ يعني الذي يملك ما في السموات والأرض قادر على الإحياء والإماتة لا يتعذر عليه شيء مما أراد ﴿وإليه ترجعون﴾ يعني بعد الموت للجزاء قوله عز وجل:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ ۖ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾﴾

﴿يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم﴾ قيل: أراد بالناس قريشاً. وقيل: هو على العموم وهو الأصح وهو اختيار الطبري قد جاءتكم موعظة من ربكم يعني القرآن والوعظ زجر مقترن بتخويف. وقال الخليل: هو التذكير بالخير فيما يرق له القلب. وقيل: الموعظة، ما يدعو إلى الصلاح بطريق الرغبة والرهبة.

والقرآن داع إلى كل خير وصلاح بهذا الطريق ﴿وشفاء لما في الصدور﴾ يعني أن القرآن ذو شفاء لما في القلوب من داء الجهل وذلك لأن داء الجهل أضر للقلب من داء المرض للبدن.

وأمراض القلب هي: الأخلاق الذميمة والعقائد الفاسدة والجهالات المهلكة.

فالقرآن مزيل لهذه الأمراض كلها، لأن فيه الوعظ والزجر والتخويف والترغيب والترهيب والتحذير والتذكير فهو الدواء والشفاء لهذه الأمراض القلبية، وإنما خص الصدر بالذكر، لأنه موضع القلب وغلافه وهو أعز موضع في بدن الإنسان لمكان القلب فيه ﴿وهدى﴾ يعني وهو هدى من الضلالة ﴿ورحمة للمؤمنين﴾ يعني ونعمة على المؤمنين لأنهم هم الذين انتفعوا بالقرآن دون غيرهم ﴿قل بفضل الله وبرحمته﴾ الباء في بفضل الله متعلقة بمضمر استغنى عن ذكره لدلالة ما تقدم عليه وهو قوله قد جاءتكم موعظة من ربكم. والفضل هنا: بمعنى الإفضال ويكون معنى الآية على هذا يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور وهو القرآن بإفضال الله عليكم ورحمته بكم

تصبّر وتصنّع. وقيل: معناه أخفوا أي أخفى الرؤساء الندامة من الضعفاء خوفاً من ملامتهم وتعبيرهم، ﴿ لمّا رَأَوُا العذابَ وقُضِيَ بينهمْ بالقِسْطِ ﴾، فرغ من عذابهم، ﴿ وهم لا يُظلمون ﴾.

﴿ ألَا إنَّ للَّهِ ما في السمٰواتِ والأرضِ ألَا إنّ وَعْدَ اللَّهِ حقٌّ ولكنّ أكثرَهم لا يعلمُون ﴾.

﴿ هو يحيي ويُميتُ وإليهِ تُرْجَعُون ﴾.

قوله تعالى: ﴿ يا أيها النّاسُ قدْ جاءَتْكم موعظةٌ ﴾، تذكرة، ﴿ مِن رَّبِّكم وشفاءٌ لّما في الصّدورِ ﴾، أي: دواء لما في الصدور من داء الجهل. وقيل: لما في الصدور أي شفاء لعمى القلوب، والصدر موضع القلب وهو أعزّ موضع في الإنسان لجوار القلب، ﴿ وهُدىً ﴾، من الضلالة، ﴿ ورحمةٌ للمؤمنين ﴾، والرحمة هي النعمة على المحتاج، فإنه لو أهدى ملك إلى ملك شيئاً لا يقال قد رحمه، وإن كان ذلك نعمة فإنه لم يضعها في محتاج.

وإرادته الخير لكم ثم قال سبحانه وتعالى: ﴿فبذلك فليفرحوا﴾ أشار بذلك إلى القرآن لأن المراد بالموعظة والشفاء: القرآن فترك اللفظ وأشار إلى المعنى وقيل: فبذلك فليفرحوا إشارة إلى معنى الفضل والرحمة والمعنى فبذلك التطول والإنعام فليفرحوا قال الواحدي الفاء في قوله تعالى: فليفرحوا زائدة كقول الشاعر:

فـإذا هلكـت فعند ذلـك فاجزعـي

فالفاء في قوله فاجزعي، زائدة.

وقال صاحب الكشاف في معنى الآية بفضل الله وبرحمته فليفرحوا فبذلك. فليفرحوا والتكرير للتأكيد والتقرير إيجاب اختصاص الفضل والرحمة بالفرح دون ما عداهما من فوائد الدنيا فحذف أحد الفعلين لدلالة المذكور عليه والفاء داخلة لمعنى الشرط فكأنه قيل: إن فرحوا بشيء فليخصوهما بالفرح، فإنه لا مفروح به أحق منهما، والفرح: لذة في القلب بإدراك المحبوب والمشتهى. يقال: فرحت بكذا إذا أدركت المأمول ولذلك أكثر ما يستعمل الفرح في اللذات البدنية الدنيوية واستعمل هنا فيما يرغب فيه من الخيرات ومعنى الآية ليفرح المؤمنون بفضل الله ورحمته أي ما آتاهم الله من المواعظ وشفاء الصدور وثلج اليقين بالإيمان وسكون النفس إليه ﴿هو خير مما يجمعون﴾ يعني من متاع الدنيا ولذاتها الفانية هذا مذهب أهل المعاني في هذه الآية.

وأما مذهب المفسرين فغير هذا، فإن ابن عباس والحسن وقتادة قالوا: فضل الله الإسلام ورحمته القرآن وقال أبو سعيد الخدري: فضل الله القرآن ورحمته أن جعلنا من أهله.

وقال ابن عمر: فضل الله الإسلام ورحمته تزيينه في قلوبنا. وقيل: فضل الله الإسلام ورحمته الجنة. وقيل: فضل الله القرآن ورحمته السنن. فعلى هذا الباء في بفضل الله تتعلق بمحذوف يفسره ما بعده تقديره قل فليفرحوا بفضل الله وبرحمته ﴿قل﴾ أي قل يا محمد لكفار مكة ﴿أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق﴾ يعني من زرع وضرع وغيرهما وعبر عما في الأرض بالإنزال لأن جميع ما في الأرض من خير ورزق فإنما هو من بركات السماء ﴿فجعلتم منه﴾ يعني من ذلك الرزق ﴿حراماً وحلالاً﴾ يعني ما حرموه على أنفسهم في الجاهلية من الحرث والأنعام، كالبحيرة والسائبة والوصيلة والحامي.

قال الضحاك: وهو قوله سبحانه وتعالى: ﴿وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً﴾ ﴿قل آلله أذن لكم﴾ يعني: قل لهم يا محمد آلله أذن لكم في هذا التحريم والتحليل ﴿أم على الله تفترون﴾ يعني بل أنتم كاذبون على الله في

قوله تعالى: ﴿ قلْ بفضلِ اللَّهِ وبرحمتِهِ ﴾، قال مجاهد وقتادة: فضل الله: الإيمان، ورحمته: القرآن. وقال أبو سعيد الخدري: فضل الله القرآن ورحمته أن جعلنا من أهله. وقال ابن عمر: فضل الله: الإسلام، رحمته: تزيينه في القلب. وقال خالد بن معدان: فضل الله: الإسلام، ورحمته: السُّنَن. وقيل: فضل الله: الإيمان، ورحمته: الجنة. ﴿ فبذلك فَلْيَفْرَحُوا ﴾، أي: ليفرح المؤمنون أن جعلهم الله من أهله، ﴿ هو خيرٌ مما يجمعُون ﴾، أي: مما يجمعه الكفّار من الأموال. وقيل: كلاهما خبر عن الكفّار. وقيل: عن المؤمنين وقرأ أبو جعفر وابن عامر: «فليفرحُوا» بالياء وتجمعون بالتاء وقرأ يعقوب كلاهما بالتاء ووجه هذه القراءة أن المراد بذلك فليفرح المؤمنون فهو خير مما يجمعونه من الأموال مختلف عنه خطاباً للمؤمنين.

﴿ قلْ ﴾ يا محمد لكفّار مكة، ﴿ أرأيتُمْ ما أنزلَ الله لكمْ مِّن رِّزْقٍ ﴾، عبّر عن الخلق بالإنزال لأن ما في الأرض من خير، فما أنزل الله من رزق من زرع وضرع، ﴿ فجعلتُم منه حراماً وحلالاً ﴾، هو ما حرّموا من الحرث ومن الأنعام كالبحيرة والسائبة والوصيلة الحامي. قال الضحاك: هو قوله تعالى: ﴿ وجعلوا للَّهِ ممّا ذَرَأَ مِنَ الحرثِ

ادعائكم أن الله أمرنا بهذا ﴿وما ظن الذين يفترون على الله الكذب يوم القيامة﴾ يعني: إذا لقوه يوم القيامة أيحسبون أنه لا يؤاخذهم ولا يجازيهم على أعمالهم فهو استفهام بمعنى التوبيخ والتقريع والوعيد العظيم لمن يفتري على الله الكذب ﴿إن الله لذو فضل على الناس﴾ يعني ببعثة الرسل وإنزال الكتب لبيان الحلال والحرام ﴿ولكن أكثرهم لا يشكرون﴾ يعني: لا يشكرون الله على ذلك الفضل والإحسان.

وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾

قوله سبحانه وتعالى: ﴿وما تكون في شأن وما تتلو منه من قرآن﴾ الخطاب للنبي ﷺ وحده والشأن الخطب والحال والأمر الذي يتفق ويصلح ولا يقال إلا فيما يعظم من الأحوال والأمور والجمع الشؤون تقول العرب ما شأن فلان أي ما ماله.

والشأن اسم إذا كان بمعنى الخطب والحال ويكون مصدراً إذا كان معناه القصد والذي في هذه الآية يجوز أن يكون المراد به الاسم. قال ابن عباس: معناه، وما تكون يا محمد في شأن يريد من أعمال البر؟ وقال الحسن: في شأن من شؤون الدنيا وحوائجك ويجوز أن يكون المراد منه القصد يعني قصد الشيء وما تتلو منه من قرآن. اختلفوا في الضمير في منه إلى ماذا يعود فقيل: يعود إلى الشأن إذ تلاوة القرآن شأن من شؤون رسول الله ﷺ بل هو أعظم شؤونه، فعلى هذا يكون داخلاً تحت قوله تعالى: وما تكون في شأن إلا أنه سبحانه وتعالى خصه بالذكر لشرفه وعلو مرتبته. وقيل: إنه راجع إلى القرآن لأنه قد تقدم ذكره في قوله سبحانه وتعالى قل بفضل الله وبرحمته، فعلى هذا يكون المعنى وما تتلو من القرآن من قرآن يعني من سورة وشيء منه لأن لفظ القرآن يطلق على جميعه وعلى بعضه. وقيل: الضمير في منه راجع إلى الله والمعنى وما تتلو من الله من قرآن نازل عليك.

وأما قوله سبحانه وتعالى: ﴿ولا تعملون من عمل﴾ فإنه خطاب للنبي ﷺ وأمته داخلون فيه ومرادون به، لأن من المعلوم أنه إذا خوطب رئيس قوم وكبيرهم، كان القوم داخلين في ذلك الخطاب. ويدل عليه قوله سبحانه وتعالى: ولا تعملون من عمل على صيغة الجمع فدل على أنهم داخلون في الخطابين الأولين وقوله سبحانه وتعالى: ﴿إلا كنا عليكم شهوداً﴾ يعني شاهدين لأعمالكم وذلك لأن الله سبحانه وتعالى شاهد على كل شيء وعالم بكل شيء لأنه لا محدث ولا خالق ولا موجد إلا الله تعالى فكل ما يدخل في الوجود من أحوال العباد وأعمالهم الظاهرة والباطنة داخل في علمه وهو شاهد عليه ﴿إذ تفيضون فيه﴾ يعني أن الله سبحانه وتعالى شاهد عليكم حين تدخلون وتخوضون في ذلك العمل.

والأنعام نصيباً ﴾ [الأنعام: ١٣٦]. ﴿ قلْ آللَّهُ أذِنَ لكُمْ ﴾، في هذا التحريم والتحليل، ﴿ أمْ ﴾، بل، ﴿ على الله تَفْتَرُون ﴾، وهو قولهم: ﴿ والله أمَرَنَا بِها ﴾ [الأعراف: ٢٨].

﴿ وما ظَنُّ الذينَ يفترُونَ على اللّهِ الكذبَ يومَ القيامةِ ﴾، أيحسبون أنّ الله لا يؤاخذهم به ولا يعاقبهم عليه، ﴿ إنّ اللّهَ لذُو فضلٍ على الناسِ ولكنّ أكثرَهم لا يشكرُون ﴾.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ وما تكُونُ ﴾، يا محمد، ﴿ في شأنٍ ﴾، عمل من الأعمال، وجمعه شُؤون، ﴿ وما تَتْلُوا منه ﴾، من الله، ﴿ مِنْ قرآن ﴾، نازل، وقيل: منه أي من الشأن من قرآن، نزل فيه ثم خاطبه وأمته فقال: ﴿ ولا

والإفاضة: الدخول في العمل على جهة الانتصاب إليه والانبساط فيه. وقال ابن الأنباري: معناه إذ تدفعون فيه وتبسطون في ذكره. وقيل: الإفاضة: الدفع بكثرة. وقال الزجاج: تنشرون فيه. يقال: أفاض القوم في الحديث، إذا انتشروا فيه ﴿**وما يعزب عن ربك**﴾ يعني: وما يبعد ويغيب عن ربك يا محمد من عمل خلقه شيء لأنه عالم به وشاهد عليه. وأصل العزوب: البعد. يقال منه كلام عازب إذا كان بعيد المطلب ﴿**من مثقال ذرة**﴾ يعني وزن ذرة والمثقال: الوزن. والذرّة: النملة الصغيرة الحمراء وهي خفيفة الوزن جداً ﴿**في الأرض ولا في السماء**﴾ فإن قلت: لمَ قدم ذكر الأرض على السماء هنا وقدم ذكر السماء على الأرض في سورة سبأ وما فائدة ذلك؟ قلت: كان حق السماء أن تقدم على الأرض كما في سورة سبأ إلا أنه تعالى لما ذكر في هذه الآية شهادته على أهل الأرض وأحوالهم وأعمالهم، ثم وصل ذلك بقوله وما يعزب عن ربك حسن تقديم الأرض على السماء في هذا الموضع لهذه الفائدة ﴿**ولا أصغر من ذلك**﴾ يعني من الذرة ﴿**ولا أكبر**﴾ يعني منها ﴿**إلا في كتاب مبين**﴾ يعني في اللوح المحفوظ.

قوله سبحانه وتعالى: ﴿**ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون**﴾ اعلم أننا نحتاج أولاً في تفسير هذه الآية أن نبين من يستحق اسم الولاية ومن هو الولي فنقول: اختلف العلماء فيمن يستحق هذا الاسم فقال ابن عباس في هذه الآية هم الذين يذكر الله لرؤيتهم وروى الطبري بسنده عن سعيد بن جبير مرسلاً قال: «سئل رسول الله ﷺ عن أولياء الله فقال هم الذين إذ رؤوا ذكر الله» وقال ابن زيد: هم الذين آمنوا وكانوا يتقون ولن يتقبل الإيمان إلا بالتقوى.

وقال قوم: هم المتحابون في الله. ويدل على ذلك ما روي عن عمر بن الخطاب قال: قال رسول الله ﷺ: «إن من عباد الله لأناساً ما هم بأنبياء ولا بشهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة بمكانهم من الله قالوا يا رسول الله تخبرنا من هم؟. قال: هم قوم تحابوا في الله على غير أرحام بينهم ولا أموال يتقاطعونها فوالله إن وجوههم لنور وإنهم لعلى نور لا يخافون إذا خاف الناس ولا يحزنون إذا حزن الناس. وقرأ هذه الآية: ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون» أخرجه أبو داود.

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «يقول الله تبارك وتعالى يوم القيامة أين المتحابون بجلالي اليوم أظلهم في ظلي يوم لا ظل إلا ظلي» أخرجه مسلم.

عن معاذ بن جبل قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال الله تعالى: المتحابون بجلالي لهم منابر من نور يغبطهم النبيون والشهداء» أخرجه الترمذي.

وروى البغوي بسنده عن أبي مالك الأشعري. قال: كنت عند النبي ﷺ فقال: «إن لله عبيداً ليسوا بأنبياء ولا شهداء يغبطهم النبيون والشهداء بقربهم ومقعدهم من الله يوم القيامة. قال: وفي ناحية القوم أعرابي، فجثا على ركبتيه ورمى بيديه ثم قال: حدثنا يا رسول الله عنهم من هم؟ قال: فرأيت في وجه رسول الله ﷺ البشر فقال هم عباد من عباد

تعملُون مِنْ عملٍ إلاّ كنّا عليكم شُهوداً إذْ تُفِيضُون فيه ﴾، أي: تدخلون وتخوضون فيه، الهاء عائدة إلى العمل، والإفاضة: الدخول في العمل. وقال ابن الأنباري: تندفعون فيه. وقيل: تكثرون. والإفاضة: الدفع بكثرة، ﴿ **ومَا يَعْزُبُ عن ربِّك**﴾، يغيب عن ربك، وقرأ الكسائي «يعزب» بكسر الزي، وكذلك في سورة سبأ[٣]، وقرأ الآخرون بضمّها وهما لغتان. ﴿ **مِنْ مِّثْقالِ ذَرّةٍ** ﴾، أي: مثقال ذرّة، و﴿ **من** ﴾ صلة والذرّة هي النملة الحمراء الصغيرة. ﴿ **في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك** ﴾، أي: من الذرّة، ﴿ **ولا أكبر** ﴾ قرأ حمزة ويعقوب برفع الراء فيهما عطفاً على موضع المثقال قبل دخول ﴿ **من** ﴾، وقرأ الآخرون بنصبهما، أراد للكسر عطفاً على الذرّة في الكسر. ﴿ **إلاّ في كتابٍ مبين** ﴾. وهو اللوح المحفوظ.

الله ومن بلدان شتى وقبائل شتى لم يكن بينهم أرحام يتواصلون بها ولا دنيا يتبادلون بها يتحابون بروح الله يجعل وجوههم نوراً ويجعل لهم منابر من لؤلؤ قدام الرحمن، يفزع الناس ولا يفزعون ويخاف الناس ولا يخافون». ويروى عن النبي ﷺ قال: «قال الله تبارك وتعالى إن أوليائي من عبادي الذين يذكرون بذكري وأذكر بذكرهم» هكذا ذكره البغوي بغير سند، وروى الطبري بسنده عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «إن من عباد الله عباداً يغبطهم الأنبياء والشهداء قيل من هم يا رسول الله لعلنا نحبهم قال هم قوم تحابوا في الله من غير أموال ولا أنساب وجوههم نور على منابر من نور لا يخافون إذا خاف الناس ولا يحزنون إذا حزن الناس ثم قرأ ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون» الغبطة نوع من الحسد إلا أن الحسد مذموم والغبطة محمودة والفرق بين الحسد والغبطة أن الحاسد يتمنى زوال ما على المحسود من النعمة ونحوها والغبطة هي أن يتمنى الغابط مثل تلك النعمة التي هي على المغبوط من غير زوال عنه.

وقال أبو بكر الأصم: أولياء الله هم الذين تولى الله هدايتهم وتولوا القيام بحق العبودية لله والدعوة إليه.

وأصل الولي من الولاء وهو القرب والنصرة فولي الله هو الذي يتقرب إلى الله بكل ما افترض عليه ويكون مشتعلاً بالله مستغرق القلب في معرفة نور جلال الله فإن رأى رأى دلائل قدرة الله وإن سمع سمع آيات الله وإن نطق نطق بالثناء على الله وإن تحرك تحرك في طاعة الله وإن اجتهد اجتهد فيما يقربه إلى الله لا يفتر عن ذكر الله ولا يرى بقلبه غير الله، فهذه صفة أولياء الله وإذا كان العبد كذلك كان الله وليه وناصره ومعينه قال الله تعالى: ﴿الله ولي الذين آمنوا﴾.

وقال المتكلمون: ولي الله من كان آتياً بالاعتقاد الصحيح المبني على الدليل ويكون آتياً بالأعمال الصالحة على وفق ما وردت به الشريعة وإليه الإشارة بقوله ﴿**الذين آمنوا وكانوا يتقون**﴾ وهو أن الإيمان مبني على جميع الاعتقاد والعمل ومقام التقوى هو أن يتقي العبد كل ما نهى الله عنه وقوله سبحانه وتعالى: لا خوف عليهم، يعني في الآخرة إذ خاف غيرهم ولا هم يحزنون يعني على شيء فاتهم من نعيم الدنيا ولذاتها.

قال بعض المحققين: زوال الخوف والحزن عنهم إنما يحصل لهم في الآخرة لأن الدنيا لا تخلو من هم وغم وأنكاد وحزن.

قال بعض العارفين: إن الولاية عبارة عن القرب من الله ودوام الاشتغال بالله وإذا كان العبد بهذه الحالة فلا

قوله تعالى: ﴿ **أَلَا إِنَّ أولياءَ الله لا خوفٌ عليهمْ ولا همْ يَحْزَنُون** ﴾، اختلفوا فيمَن يستحق هذا الاسم. قال بعضهم: هم الذين ذكرهم الله، فقال:

﴿ **الذينَ آمنُوا وكانُوا يتَّقُون** ﴾، وقال قوم: هم المتحابّون في الله. أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحي أنا أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الله بن بشران أنا إسماعيل بن محمد الصفّار حدّثنا أحمد بن منصور الرمادي حدّثنا عبد الرزّاق أنا معمر عن أبي حسين عن شهر بن حوشب عن أبي مالك الأشعري قال: كنت عند النبي ﷺ فقال: «**إنّ للّهِ عباداً ليسوا بأنبياء ولا شهداء يغبطهم النبيّون والشهداء بقربهم ومقعدهم من الله يوم القيامة**»، قال: وفي ناحية القوم أعرابي فجثا على ركبتيه ورمى بيديه ثم قال: حدّثنا يا رسول الله عنهم مَن هم؟ قال: فرأيتُ في وجه النبي ﷺ البشرَ فقال: «**هُمْ عبادٌ مِن عبادِ اللّهِ من بلدانٍ شتّى لم يكن بينهم أرحام يتواصلون بها ولا دنيا يتبادلون بها يتحابّون بروح الله يجعل الله وجوههم نوراً ويجعل لهم منابر من لؤلؤ قدّام الرحمن، يفزع الناس ولا يفزعون، ويخاف الناس ولا يخافون**»، ورواه عبد الله بن المبارك عن عبد الحميد بن بهرام قال: حدّثنا شهر بن حوشب حدّثني عبد الرحمن بن غنم عن أبي مالك عن أبي مالك الأشعري عن النبي ﷺ سُئِلَ مَن أولياء الله؟ فقال: الذين

يخاف من شيء ولا يحزن على شيء لأن مقام الولاية والمعرفة منعه من أن يخاف أو يحزن.

وأما قوله سبحانه وتعالى ﴿الذين آمنوا وكانوا يتقون﴾ فقد تقدم تفسيره وأنه صفة لأولياء الله.

لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأَخِرَةِۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾ وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْۘ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًاۚ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة﴾ اختلفوا في هذه البشرى، فروي عن عبادة بن الصامت قال «سألت رسول الله ﷺ عن قوله تعالى لهم البشرى في الحياة الدنيا قال: هي الرؤيا الصالحة يراها المؤمن أو ترى له» أخرجه الترمذي.

وله عن رجل من أهل مصر قال «سألت أبا الدرداء عن هذه الآية لهم البشرى في الحياة الدنيا قال: ما سألني عنها أحد منذ سألت رسول الله ﷺ عنها وقال ما سألني عنها أحد غيرك منذ أنزلت هي الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو ترى له» قال الترمذي حديث حسن (خ).

عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لم يبق بعدي من النبوة إلا المبشرات قالوا وما المبشرات قال الرؤيا الصالحة» (ق) عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال «إذا اقترب الزمان لم تكد رؤيا المؤمن تكذب ورؤيا المؤمن جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة» لفظ البخاري ومسلم «إذا اقترب الزمان لم تكد رؤيا المسلم تكذب وأصدقكم رؤيا أصدقكم حديثاً ورؤيا المسلم جزء من خمسة وأربعين جزءاً من النبوة والرؤيا ثلاث: الرؤيا الصالحة بشرى من الله ورؤيا تحزين من الشيطان ورؤيا مما يحدث المرء نفسه، قال بعض العلماء: ووجه هذا القول إنا إذا حملنا قوله تبارك وتعالى لهم البشرى على الرؤيا الصالحة الصادقة فظاهر هذا النص يقتضي أن لا تحمل هذه الحالة إلا لهم، وذلك لأن ولي الله هو الذي يكون مستغرق القلب والروح بذكر الله عز وجل ومن كان كذلك فإنه عند النوم لا يبقى في قلبه غير ذكر الله ومعرفته ومن المعلوم أن معرفة الله في القلب لا تفيد إلا الحق والصدق فإذا رأى الولي رؤيا أو رؤيت له كانت تلك الرؤيا بشرى من الله عز وجل لهذا الولي.

قال الخطابي: في هذه الأحاديث توكيد لأمر الرؤيا وتحقيق منزلتها وإنما كانت جزءاً من أجزاء النبوة في حق الأنبياء دون غيرهم وكان الأنبياء عليهم السلام يوحى إليهم في منامهم كما يوحى إليهم في اليقظة، قال الخطابي: قال بعض العلماء معنى الحديث أن الرؤيا تأتي على موافقة النبوة لا أنها جزء من النبوة وقال الخطابي وغيره في معنى قوله ـ الرؤيا جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة: أقام النبي ﷺ في النبوة ثلاثاً وعشرين سنة على الصحيح وكان قبل ذلك بستة أشهر يرى في المنام الوحي فهي جزء من ستة وأربعين جزءاً وقيل إن المنام لعل أن يكون فيه إخبار بغيب

إذا رُؤوا ذُكِرَ الله. ويُروَى عن النبي ﷺ: قال الله تعالى: «إن أوليائي من عبادي الذين يُذْكَرُون بذكري وأُذْكَرُ بذكرِهم».

﴿ لهم البُشْرَى في الحياة الدنيا وفي الآخرة ﴾، اختلفوا في هذه البشرى، روي عن عبادة بن الصامت قال: سألتُ رسولَ الله ﷺ عن قوله تعالى: ﴿ لهم البُشْرَى في الحياة الدنيا ﴾، قال: «هي الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو تُرى له» أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف حدّثنا محمد بن إسماعيل حدّثنا أبو اليمان حدّثنا شعيب عن الزهري حدّثني سعيد بن المسيب أن أبا هريرة قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «لمْ يبقَ من النبوّةِ إلاّ المبشرات»، قالوا: وما المبشّرات؟ قال: «الرؤيا الصالحة». وقيل: البشرى في الدنيا

وهو أحد مراتب النبوة وهو يسير في جانب النبوة لأنه لا يجوز أن يبعث الله بعد محمد ﷺ نبياً يشرع الشرائع ويبين الأحكام ولا يخبر بغيب أبداً.

فإذا وقع لأحد في المنام الإخبار بغيب يكون هذا القدر جزءاً من النبوة لا أنه نبي، وإذا وقع ذلك لأحد في المنام يكون صدقاً والله أعلم.

وقيل في تفسير الآية: إن المراد بالبشرى في الحياة الدنيا هي الثناء الحسن وفي الآخرة الجنة ويدل على ذلك ما روي عن أبي ذر قال «قيل لرسول الله ﷺ أرأيت الرجل يعمل العمل من الخير ويحمده الناس عليه قال تلك عاجل بشرى المؤمن» أخرجه مسلم قال الشيخ محيي الدين النووي قال العلماء معنى هذا البشرى المعجلة له بالخير، وهي دليل للبشرى المؤخرة له في الآخرة بقوله بشراكم اليوم جنات تجري من تحتها الأنهار وهذه البشرى المعجلة دليل على رضا الله عنه ومحبته له وتحبيبه إلى الخلق كما قال ثم يوضع له القبول في الأرض هذا كله إذا حمده الناس من غير تعرض منه لحمدهم وإلا فالتعرض مذموم قال بعض المحققين: إذا اشتغل العبد بالله عز وجل استنار قلبه وامتلأ نوراً فيفيض من ذلك النور الذي في قلبه على وجهه فتظهر عليه آثار الخشوع والخضوع يحبه الناس ويثنون عليه فتلك عاجل بشراه بمحبة الله له ورضوانه عليه وقال الزهري وقتادة في تفسير البشرى: هي نزول الملائكة بالبشارة من الله عند الموت ويدل عليه قوله سبحانه وتعالى: ﴿تتنزل عليهم الملائكة أن لا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون﴾ وقال عطاء عن ابن عباس البشرى في الدنيا عند الموت تأتيهم الملائكة بالبشارة وفي الآخرة بعد خروج نفس المؤمن يعرج بها إلى الله تعالى ويبشر برضوان الله تعالى وقال الحسن هي ما بشر الله به المؤمنين في كتابه من جنته وكريم ثوابه ويدل عليه قوله تعالى: **﴿لا تبديل لكلمات الله﴾** يعني لا خلف لوعد الله الذي وعد به أولياءه وأهل طاعته في كتابه وعلى ألسنة رسله ولا تغيير لذلك الوعد **﴿ذلك هو الفوز العظيم﴾** يعني ما وعدهم به في الآخرة **﴿ولا يحزنك قولهم﴾** يقول الله لنبيه محمد ﷺ ولا يحزنك يا محمد قول هؤلاء المشركين لك ولا يغمك تخويفهم إياك **﴿إن العزة لله جميعاً﴾** يعني أن القهر والغلبة والقدرة لله جميعاً هو المنفرد بها دون غيره وهو ناصرك عليهم والمنتقم لك منهم.

هي الثناء الحسن وفي الآخرة. أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا عبد الرزّاق بن أبي شريح أنا أبو القاسم البغوي حدّثنا علي بن الجعد أنا شعبة عن أبي عمران الجوفي قال: سمعتُ عبد الله بن الصامت قال: قال أبو ذرّ يا رسول الله الرجل يعمل لنفسه ويحبّه الناس؟ قال: «تلكَ عاجِلُ بُشْرَى المؤمن». وأخرج مسلم بن الحجّاج هذا الحديث عن يحيىٰ بن يحيىٰ عن حمّاد بن زيد عن أبي عمران، وقال: «ويحمده الناس عليه» وقال الزهري وقتادة: هي نزول الملائكة بالبشارة من الله تعالى عند الموت، قال الله تعالى: ﴿ تتنزّل عليهم الملائكة أنْ لا تخافُوا ولا تحزنوا وأبْشِرُوا بالجنة التي كنتُم تُوعَدُون ﴾ [فصّلت: ٣٠]. وقال عطاء عن ابن عباس: البشرى في الدنيا عند الموت تأتيهم الملائكة بالبشارة، وفي الآخرة عند خروج نفس المؤمن مَن يعرج بها إلى الله ويُبشّر برضوان الله. وقال الحسن: هي ما بشّر الله المؤمنين في كتابه من جنته وكريم ثوابه، كقوله: ﴿ وبَشِّرِ الذينَ آمنُوا وعملوا الصالحات ﴾ [البقرة: ٢٥]، ﴿ وبَشِّرِ المؤمنين ﴾ [البقرة: ٢٢٣. التوبة: ١١٢، يونس: ٨٧، الصفّ: ١٣] ﴿ وأبْشِرُوا بالجنة ﴾ [فصّلت: ٣٠]. وقيل: بشّرَهم في الدنيا بالكتاب والرسول أنهم أولياء الله، ويبشّرهم في القبور وفي كتب أعمالهم بالجنة. ﴿ لا تبديلَ لكلمات الله ﴾، لا تغيّر لقوله: «ولا خُلْفَ لوعدِه». ﴿ ذلكَ هُوَ الفَوْزُ العظيم ﴾.

﴿ ولا يَحْزُنْكَ قولُهم ﴾، يعني: قول المشركين، قرأ نافع «ولا يُحزنـك» بضم الياء وكسر الزاي، وقرأ

وقال سعيد بن المسيب: إن العزة لله جميعاً فيعز من يشاء وهذا كما قال سبحانه وتعالى في آية أخرى «ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين» ولا منافاة بين الآيتين فإن عزة الرسول ﷺ وعزة المؤمنين بإعزاز الله إياهم فثبت بذلك أن العزة لله جميعاً وهو الذي يعز من يشاء ويذل من يشاء. وقيل إن المشركين كانوا يتعززون بكثرة أموالهم وأولادهم وعبيدهم فأخبر الله سبحانه وتعالى أن جميع ذلك لله وفي ملكه فهو قادر على أن يسلبهم جميع ذلك ويذلهم بعد العز ﴿هو السميع﴾ لأقوالكم ودعائكم ﴿العليم﴾ بجميع أحوالكم لا تخفى عليه خافية.

أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ۖ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآ ۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَٰعٌ فِي ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾

قوله سبحانه وتعالى: ﴿ألا إن لله من في السموات ومن في الأرض﴾ ألا كلمة تنبيه معناه أنه لا ملك لأحد في السموات ولا في الأرض إلا لله عز وجل فهو يملك من في السموات ومن في الأرض.

فإن قلت قال سبحانه وتعالى في الآية التي قبل هذه ألا إن لله ما في السموات بلفظة ما وقال سبحانه وتعالى في هذه الآية بلفظة من فما فائدة ذلك؟ قلت إن لفظة ما تدل على ما لا يعقل ولفظة من تدل على من يعقل فمجموع الآيتين يدل على أن الله عز وجل يملك جميع من في السموات ومن في الأرض من العقلاء وغيرهم وهم عبيده وفي ملكه.

وقيل: إن لفظة من لمن يعقل فيكون المراد بمن في السموات الملائكة والعقلاء ومن في الأرض الإنس والجن وهم العقلاء أيضاً وإنما خصهم بالذكر لشرفهم وإذا كان هؤلاء العقلاء المميزون في ملكه وتحت قدرته فالجمادات بطريق الأولى أن يكونوا في ملكه إذا ثبت هذا فتكون الأصنام التي يعبدها المشركون أيضاً في ملكه وتحت قبضته وقدرته ويكون ذلك قدحاً في جعل الأصنام شركاء لله معبودة دونه ﴿وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء﴾ لفظة ما استفهامية معناه وأي شيء يتبع الذي يدعون من دون الله شركاء والمقصود تقبيح فعلهم يعني أنهم ليسوا على شيء

الآخرون «يَحزُنك» بفتح الياء وضم الزاي، وهما لغتان، يقال: حزنه الشيء يحزنه وأحزنه، تمّ الكلام ههنا ثم ابتدأ، فقال: ﴿ إنّ العِزَّةَ للّهِ ﴾، يعني الغلبة والقدرة لله ﴿ جميعاً ﴾ هو ناصرك وناصر دينك والمنتقم منهم قال سعيد بن المسيب: إنّ العزّةَ للّهِ جميعاً يعني: أن الله يعزّ مَن يشاء، كما قال في آية أخرى: ﴿ ولِلّهِ العِزّةُ ولرسوله وللمؤمنين ﴾ [المنافقون: ٨]، وعزّة الرسول والمؤمنين بالله فهي كلها لله، ﴿ هو السميعُ العليمُ ﴾.

﴿ ألاَ إنّ للّهِ مَن في السمٰواتِ ومَن في الأرض وما يَتّبِعُ الذينَ يدعُون من دُونِ الله شُركاءَ ﴾، هو إمّا استفهام معناه: وأيّ شيء يتّبع الذين يدعون من دون الله شركاء؟ وقيل: وما يتبعون حقيقة لأنهم يعبدونها على ظن أنهم شركاء فيشفعون لنا وليس على ما يظنون. ﴿ إنْ يتبعُونَ إلاّ الظنَّ ﴾، يظنون أنها تُقرّبهم إلى الله، ﴿ وإنْ هم إلاّ يخرصُون ﴾، يكذبون.

لأنهم يعبدونها على أنها شركاء لله تشفع لهم وليس الأمر على ما يظنون وهو قوله سبحانه وتعالى: ﴿**إن يتبعون إلا الظن**﴾ يعني أن فعلهم ذلك ظن منهم أنها تشفع لهم وأنها تقربهم إلى الله وذلك ظن منهم لا حقيقة له ﴿**وإن هم إلا يخرصون**﴾ يعني إن هم إلا يكذبون في دعواهم ذلك.

قوله عز وجل: ﴿**هو الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصراً**﴾ يعني هو الله ربكم الذي خلق لكم الليل راحة لتسكنوا فيه وليزول التعب والكلال بالسكون فيه، وأصل السكون الثبوت بعد الحركة والنهار مبصراً وجعل النهار مضيئاً لتهتدوا فيه لحوائجكم وأسباب معايشكم وأضاف الإبصار إلى النهار وإنما يبصر فيه وليس النهار مما يبصر ولكن لما كان مفهوماً من كلام العرب معناه خاطبهم بلغتهم وما يفهمونه قال جرير:

لقد لمتنا يا أم غيلان في السرى ونمت وما ليل المطي بنائم

فأضاف النوم إلى الليل ووصفه به وإنما عنى نفسه وأنه لم يكن نائماً هو ولا بعيره وهذا من باب نقل الاسم من المسبب إلى السبب قال قطرب تقول العرب أظلم الليل وأبصر النهار بمعنى صار ذا ظلمة وذا ضياء.

قوله تعالى: ﴿**إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون**﴾ يعني يسمعون سمع اعتبار وتدبر فيعلمون بذلك أن الذي خلق هذه الأشياء كلها هو الإله المعبود المنفرد بالوحدانية في الوجود ﴿**قالوا**﴾ يعني المشركين ﴿**اتخذ الله ولداً**﴾ يعني به قولهم الملائكة بنات الله ﴿**سبحانه**﴾ نزه الله سبحانه وتعالى نفسه عن اتخاذ الولد ﴿**هو الغني**﴾ يعني أنه سبحانه وتعالى هو الغني عن جميع خلقه فكيف يليق بجلاله اتخاذ الولد وإنما يتخذ الولد من هو محتاج إليه والله تعالى هو الغني المطلق وجميع الأشياء محتاجة إليه وهو غني عنها ﴿**له ما في السموات وما في الأرض**﴾ يعني أنه مالك ما في السموات وما في الأرض وكلهم عبيده وفي قبضته وتصرفه وهو محدثهم وخالقهم.

ولما نزَّه الله سبحانه وتعالى نفسه عن اتخاذ الولد عطف على من قال ذلك بالإنكار والتوبيخ والتقريع فقال سبحانه وتعالى: ﴿**إن عندكم من سلطان بهذا**﴾ يعني أنه لا حجة عندكم على هذا القول البتة ثم بالغ في الإنكار عليهم بقوله تعالى: ﴿**أتقولون على الله ما لا تعلمون**﴾ يعني أتقولون على الله قولاً لا تعلمون حقيقته وصحته وتضيفون إليه ما لا تجوز إضافته إليه جهلاً منكم بما تقولون بغير حجة ولا برهان ﴿**قل إن الذين يفترون على الله الكذب**﴾ أي: قل يا محمد لهؤلاء الذين يختلقون على الله الكذب فيقولون على الله الباطل ويزعمون أن له ولداً ﴿**لا يفلحون**﴾ يعني لا يسعدون وإن اغتروا بطول السلامة والبقاء في النعمة.

والمعنى أن قائل هذا القول لا ينجح في سعيه ولا يفوز بمطلوبه بل خاب وخسر قال الزجاج هذا وقف قام يعني قوله لا يفلحون ثم ابتدأ فقال تعالى: ﴿**متاع في الدنيا**﴾ وفيه إضمار تقديره لهم متاع في الدنيا يتمتعون به مدة أعمارهم

﴿ **هو الذي جعل لكم الليلَ لتسكنُوا فيه والنَّهارَ مبصراً** ﴾، مضيئاً يُبصر فيه، كقولهم: ليل نائم وعيشةٌ راضيةٌ قال **قُطرب**: تقول العرب: أظلم الليل وأضاء النهار وأبصر، أي: صار ذا ظلمة وضياء وبصر، ﴿ **إنّ في ذلك لآياتٍ لقومٍ يسمعُون** ﴾، سمعَ الاعتبار أنـه مما لا يقدر عليه إلّا عالم قادر.

﴿ **قالوا** ﴾، يعني: المشركين، ﴿ **اتّخذَ اللّهُ ولداً** ﴾، وهو قولهم الملائكة بنات الله، ﴿ **سبحانه هـو الغني** ﴾، عن خلقه، ﴿ **له ما في السمٰواتِ وما في الأرض** ﴾، عبيداً وملكاً، ﴿ **إنْ عندَكم** ﴾، ما عندكم، ﴿ **مِن سُلطانٍ** ﴾، حجّة وبرهان، و﴿ **من** ﴾ صلة تقديره ما عندكم سلطان، ﴿ **بهذا أتقولُون على اللّهِ ما لَا تعلمون** ﴾.

﴿ **قلْ إنّ الذينَ يفترُونَ على اللّهِ الكذبَ لا يُفلِحُون** ﴾، لا ينجون، وقيل: لا يبقون في الدنيا ولكن.

وانقضاء آجالهم في الدنيا وهي أيام يسيرة بالنسبة إلى طول مقامهم في العذاب وهو قوله سبحانه وتعالى: ﴿**ثم إلينا مرجعهم**﴾ يعني بعد الموت ﴿**ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون**﴾ يعني ذلك العذاب بسبب ما كانوا يجحدون في الدنيا من نعمة الله عليهم ويصفونه بما لا يليق بجلاله.

۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾

قوله سبحانه وتعالى: ﴿**واتل عليهم نبأ نوح**﴾ لما ذكر الله سبحانه وتعالى في هذه السورة أحوال كفار قريش وما كانوا عليه من الكفر والعناد شرع بعد ذلك في بيان قصص الأنبياء وما جرى لهم مع أممهم ليكون في ذلك لرسول الله ﷺ أسوة بمن سلف من الأنبياء وتسلية له ليخف عليه ما يلقى من أذى قومه وأن الكفار من قومه إذا سمعوا هذه القصص وما جرى لكفار الأمم الماضية من العذاب والهلاك في الدنيا كان ذلك سبباً لخوف قلوبهم وداعياً لهم إلى الإيمان.

ولما كان قوم نوح أول الأمم هلاكاً وأعظمهم كفراً وجحوداً ذكر الله قصتهم وأنه أهلكهم بالغرق ليصير ذلك موعظة وعبرة لكفار قريش، فقال سبحانه وتعالى واتل عليهم نبأ نوح يعني واقرأ على قومك يا محمد خبر قوم نوح ﴿**إذ قال لقومه يا قوم**﴾ وهو بنو قابيل ﴿**إن كان كبر**﴾ يعني ثقل ﴿**عليكم مقامي**﴾ يعني فيكم ﴿**وتذكيري بآيات الله**﴾ يعني: ووعظي إياكم بآيات الله: وقيل: معناه إن كان ثقل وشق عليكم طول مقامي فيكم وذلك أنه عليه الصلاة والسلام أقام فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعوهم إلى الله تعالى ويذكرهم بآيات الله وهو قوله وتذكيري بآيات الله يعني ووعظي بآيات الله وحججه وبيناته فعزمتم على قتلي وطردي ﴿**فعلى الله توكلت**﴾ يعني فهو حسبي وثقتي

﴿ **متاعٌ** ﴾، قليل يتمتعون به وبلاغ ينتفعون به إلى انقضاء آجالهم و﴿ **متاع** ﴾ رفع بإضمار، أي: هو متاع، ﴿ **في الدنيا ثم إلينا مَرْجِعُهُم ثمّ نُذيقُهُمُ العذابَ الشديدَ بما كانُوا يكفرُون** ﴾.

قوله تعالى: ﴿ **واتلُ عليهمْ نبأَ نوح** ﴾، أي: اقرأ يا محمد على أهل مكة خبر نوح ﴿ **إذْ قالَ لقومهِ** ﴾، وهم ولد قابيل، ﴿ **يا قوم إنْ كانَ كَبُرَ عليكم** ﴾، عَظُم وثَقُلَ عليكم، ﴿ **مقامي** ﴾ طول عمري ومكثي فيكم ﴿ **وتَذْكِيري** ﴾، ووَعْظي إيّاكم ﴿ **بآياتِ الله** ﴾، بحججه وبيّناته فعزمتم على قتلي وطردي ﴿ **فعلى اللّهِ توكلتُ فأجمعُوا أمركم** ﴾، أي: أحكموا أمركم واعْزِمُوا عليه، ﴿ **وشركاءَكم** ﴾، أي: وادعوا شركاءَكم أي آلهتكم فاستعينوا بها لتجتمع معكم. وقال الزجّاج: معناه فأجمعوا أمركم مع شركائكم، فلما ترك (مع) انتصب. وقرأ يعقوب: «وشـركاؤكم» رفعٌ، أي: فأجمعوا أمركم أنتم وشركاؤكم. وقرأ رُوَيْسٌ عن يعقوب «فاجْمَعُوا» بوصل الألف وفتح الميم، والوجه من جمع يجمع، والمراد فاجمعوا ذوي أمركم، فحُذف المضافُ وأُقيم المضاف إليه مقامه، والمعنى: اجْمَعُوا رؤساءكم، ﴿ **ثم لا يكنْ أمرُكم عليكم غُمّة** ﴾، أي: خفيّاً مبهماً، من قولهم: غُمّ الهلال على الناس، أي: أشكل عليهم وخفي، ﴿ **ثمّ اقْضُوا إليّ** ﴾، أي: أمْضُوا ما في أنفسكم وافرغوا منه، يقال: قضى فلان إذا مات ومضى وقضى دينه إذا فرغ منه. وقيل: معناه توجهوا إليّ بالقتل والمكروه. وقيل: فاقضوا ما أنتم قاضون، وهذا مثل قول السَّحَرَة لفرعون: ﴿ فاقْضِ ما أنتَ قاضٍ ﴾ [طه: ٧٢]، أي: اعمل ما أنت عامل، ﴿ **ولا**

﴿**فأجمعوا أمركم**﴾ يعني فأحكموا أمركم واعزموا عليه، قال الفراء: الإجماع الإعداد والعزيمة على الأمر قال ابن الأنباري: المراد من الأمر هنا وجوه كيدهم ومكرهم فالتقدير لا تدعوا من أمركم شيئاً إلا أحضرتموه ﴿**وشركاءكم**﴾ يعني وادعوا شركاءكم يعني آلهتكم فاستعينوا بها لتجمع معكم وتعينكم على مطلوبكم وإنما حثهم على الاستعانة بالأصنام بناء على مذهبهم واعتقادهم أنها تضر وتنفع مع اعتقاده أنها جماد لا تضر ولا تنفع فهو كالتبكيت والتوبيخ لهم ﴿**ثم لا يكن أمركم عليكم غمة**﴾ يعني لا يكن أمركم عليكم خفياً مبهماً ولكن ليكن أمركم ظاهراً منكشفاً من قولهم غم الهلال فهو مغموم إذا خفي والتبس على الناس ﴿**ثم اقضوا**﴾ ثم امضوا ﴿**إليّ**﴾ بما في أنفسكم من مكروه وما توعدوني به من قتل وطرد وافرغوا منه تقول العرب قضى فلان إذا مات ومضى وقيل معناه ثم اقضوا ما أنتم قاضون ﴿**ولا تنظرون**﴾ أي: ولا تؤخروني ولا تمهلوني بعد إعلامكم إياي ما أنتم عليه وهذا الكلام من نوح عليه السلام على طريق التعجيز لهم أخبر الله عز وجل عن نوح عليه السلام أنه كان قد بلغ الغاية في التوكل على الله وأنه كان واثقاً بنصره غير خائف من كيدهم علماً منه بأنهم وآلهتهم ليس لهم نفع ولا ضر وإن مكرهم لا يصل إليه ﴿**فإن توليتم**﴾ يعني فإن أعرضتم عن قولي وقبول نصحي ﴿**فما سألتكم من أجر**﴾ يعني من جعل وعوض على تبليغ الرسالة فإذا لم يأخذ على تبليغ الدعوة إلى الله شيئاً كان أقوى تأثيراً في النفس ﴿**إن أجري إلا على الله**﴾ أي: ما ثوابي وجزائي على تبليغ الرسالة إلا على الله ﴿**وأمرت أن أكون من المسلمين**﴾ يعني أني أمرت بدين الإسلام وأنا ماض فيه غير تارك له سواء قبلتموه أم لم تقبلوه وقيل معناه وأمرت أن أكون من المستسلمين لأمر الله ولكل مكروه يصل إليّ منكم لأجل هذه الدعوة ﴿**فكذبوه**﴾ يعني فكذبوا نوحاً عليه السلام ﴿**فنجيناه ومن معه في الفلك**﴾ يعني في السفينة ﴿**وجعلناهم خلائف**﴾ يعني وجعلنا الذين نجيناهم معه في الفلك سكان الأرض بعد الهالكين ﴿**وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا فانظر كيف كان عاقبة المنذرين**﴾ أي فانظر يا محمد أو يا أيها الإنسان كيف كان آخر أمر من أنذرتهم الرسل فلم يؤمنوا ولم يقبلوا ذلك.

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا

تُنْظِرُون ﴾، ولا تؤخرون وهذا على طريق التعجيز، أخبر الله عن نوح أنه كان واثقاً بنصر الله تعالى غير خائف من كيد قومه، علماً منه بأنهم وآلهتهم ليس إليهم نفع ولا ضرّ إلاّ أن يشاء الله.

﴿ **فإنْ توليتُم** ﴾ أعرضتم عن قولي وقبول نصحـي، ﴿ **فما سألتُكم** ﴾، على تبليغ الرسالة والدعوة، ﴿ **مِنْ أجرٍ** ﴾، من جعل وعوض، ﴿ **إن أجْرِيَ** ﴾، ما أجري وثوابي، ﴿ **إلاّ على اللّهِ وأُمِرْتُ أن أكون مِنَ المسلمين** ﴾، أي: من المؤمنين. وقيل: من المستسلمين لأمر الله.

﴿ **فكذّبُوه** ﴾، يعني نوحاً ﴿ **فنجّيناهُ ومَن معه في الفُلْكِ وجعلناهم خلائفَ** ﴾، أي: جعلنا الذين معه في الفلك سكان الأرض خلفاء عن الهالكين. ﴿ **وأغرقْنا الذينَ كذّبُوا بآياتِنا فانظرْ كيف كانَ عاقبةُ المنذرين** ﴾، أي: آخر أمر الذين أنذرتهم الرسل فلم يؤمنوا.

﴿نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ۝٧٨ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِي بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ۝٧٩ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ۝٨٠﴾

﴿ثم بعثنا من بعده﴾ يعني من بعد نوح **﴿رسلاً إلى قومهم﴾** لم يسم هنا من كان بعد نوح من الرسل وقد كان بعد نوح هود وصالح وغيرهما من الرسل **﴿فجاؤوهم بالبينات﴾** يعني بالدلالات الواضحات والمعجزات الباهرات التي تدل على صدقهم **﴿فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل﴾** يعني أن أولئك الأقوام والأمم التي جاءتهم الرسل جروا على منهاج قوم نوح في التكذيب ولم يزجرهم ما جاءتهم به الرسل ولم يرجعوا عما هم فيه من الكفر والتكذيب **﴿كذلك نطبع على قلوب المعتدين﴾** يعني مثل إغراقنا قوم نوح بسبب تكذيبهم نوحاً كذلك نختم على قلوب من اعتدى وسلك سبيلهم في التكذيب.

قوله عز وجل: **﴿ثم بعثنا من بعدهم﴾** يعني من بعد الرسل **﴿موسى وهارون إلى فرعون وملئه﴾** يعني أشراف قومه **﴿بآياتنا فاستكبروا﴾** يعني عن الإيمان بما جاء به موسى وهارون **﴿وكانوا قوماً مجرمين﴾** يعني مستكسبين للإثم **﴿فلما جاءهم الحق من عندنا﴾** يعني فلما جاء فرعون وقومه الحق الذي جاء به موسى من عند الله **﴿قالوا إن هذا لسحر مبين﴾** يعني أن هذا الذي جاء به موسى سحر مبين يعرفه كل أحد **﴿قال موسى أتقولون للحق لمَّا جاءكم أسحر هذا﴾** فيه حذف تقديره أتقولون للحق لما جاءكم هو سحر أسحر هذا فحذف السحر الأول اكتفاء بدلالة الكلام عليه ثم قال أسحر هذا وهو استفهام على سبيل الإنكار يعني أنه ليس بسحر ثم احتج على صحة قوله فقال **﴿ولا يفلح الساحرون﴾** يعني حاصل السحر تمويه وتخييل وصاحب ذلك لا يفلح أبداً **﴿قالوا﴾** يعني قال قوم فرعون لموسى **﴿أجئتنا لتلفتنا﴾** يعني لتصرفنا وتلوينا **﴿عما وجدنا عليه آباءنا﴾** يعني من الدين **﴿وتكون لكما الكبرياء﴾** يعني الملك والسلطان **﴿في الأرض﴾** يعني في أرض مصر والخطاب لموسى وهارون.

قال الزجاج: سمي الملك كبرياء لأنه أكبر ما يطلب من أمر الدنيا **﴿وما نحن لكما بمؤمنين﴾** يعني بمصدقين **﴿وقال فرعون ائتوني بكل ساحر عليم﴾** يعني أن فرعون أراد أن يعارض معجزة موسى بأنواع من التلبيس ليظهر أن ما

﴿ ثمّ بعثنا مِنْ بعدِهِ رُسلاً ﴾، أي: من بعد نوح رسلاً. **﴿ إلى قومهم فجاءُوهم بالبيِّناتِ ﴾**، بالدلالات الواضحات، **﴿ فما كانوا لِيُؤْمِنُوا بما كَذَّبُوا بِهِ مِن قبل ﴾**، أي: بما كذب به قوم نوح من قبل، **﴿ كذلك نطبع ﴾**، أي: نختم، **﴿ على قلوبِ المُعتدين ﴾**.

﴿ ثمّ بعثنَا مِنْ بعدِهم موسى وهارونَ إلى فرعونَ ومَلَئِهِ ﴾، يعني: أشراف قومه، **﴿ بآياتِنا فاستكبرُوا وكانوا قوماً مجرمين ﴾**.

﴿ فلما جاءَهم ﴾، يعني: جاء فرعون وقومه، **﴿ الحقُّ من عندِنا قالوا إنَّ هذا لسحرٌ مبين ﴾**.

﴿ قالَ موسى أتقولُونَ للحقِّ لمَّا جاءَكم أسِحْرٌ هذا ﴾، تقدير الكلام أتقولون للحقِّ لمّا جاءَكم سحر أسحر هذا فحذف السحر الأول اكتفاءً بدلالة الكلام عليه. **﴿ ولا يُفلِحُ السَّاحِرُون ﴾**.

﴿ قالوا ﴾، يعني: فرعون وقومه لموسى، **﴿ أجئتنا لِتَلْفِتَنَا ﴾**، لتصرفنا، وقال قتادة: لتلوينا، **﴿ عمّا وجدْنَا عليه آباءَنا وتكون لكما الكبرياء ﴾**، الملك والسلطان، **﴿ في الأرض ﴾**. أرض مصر وقرأ أبو بكر: «ويكون» بالياء، **﴿ وما نحن لكما بمؤمنين ﴾**، بمصدّقين.

أتى به موسى سحر ﴿فلما جاء السحرة قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون﴾ إنما أمرهم موسى بإلقاء ما معهم من الحبال والعصي التي فيها سحرهم ليظهر الحق ويبطل الباطل ويتبين أن ما أتوا به فاسد.

فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾

﴿فلما ألقوا﴾ يعني ما معهم من الحبال والعصي ﴿قال موسى ما جئتم به السحر﴾ يعني الذي جئتم به هو السحر الباطل وهذا على سبيل التوبيخ لهم ﴿إن الله سيبطله﴾ يعني يكمله ويظهر فضيحة صاحبه ﴿إن الله لا يصلح عمل المفسدين﴾ يعني لا يقويه ولا يكمله ولا يحسنه ﴿ويحق الله الحق﴾ يعني ويظهر الله الحق ويقويه ويعليه ﴿بكلماته﴾ يعني وعده الصادق لموسى أنه يظهره وقيل بما سبق من قضائه وقدره لموسى أنه يغلب السحرة ﴿ولو كره المجرمون﴾.

قوله سبحانه وتعالى: ﴿فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه﴾ لما ذكر الله عز وجل ما أتى به موسى عليه السلام من المعجزات العظيمة الباهرة أخبر الله سبحانه وتعالى أنه مع مشاهدة هذه المعجزات ما آمن لموسى إلا ذرية من قومه وإنما ذكر الله عز وجل هذا تسلية لنبيه محمد ﷺ لأنه كان كثير الاهتمام بإيمان قومه وكان يغتم بسبب إعراضهم عن الإيمان به واستمرارهم على الكفر والتكذيب فبين الله سبحانه وتعالى أن له أسوة بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام لأن الذي جاء به موسى عليه السلام من المعجزات كان أمراً عظيماً ومع ذلك فما آمن معه إلا ذرية.

والذرية: اسم يقع على القليل من القوم، قال ابن عباس: الذرية القليل وقيل المراد به التصغير وقلة العدد واختلفوا في هاء الكناية في قومه فقيل إنها راجعة إلى موسى وأراد بهم قوم موسى وهم بنو إسرائيل الذين كانوا معه بمصر من أولاده. قال مجاهد: هم أولاد يعقوب الذين أرسل إليهم موسى هلك الآباء وبقي الأبناء وقيل هم قوم نجوا من قتل فرعون لما أمر بقتل أبناء بني إسرائيل كانت المرأة في بني إسرائيل إذا ولدت ابناً وهبته لقبطية خوفاً عليه من

﴿ وقالَ فرعونُ ائتوني بكلِّ ساحرٍ عليم ﴾.

﴿ فلمّا جاءَ السَّحَرَةُ قال لهم موسى ألقُوا ما أنتُمْ مُلْقونَ ﴾.

﴿ فلمّا ألقَوْا قال موسى ما جئتُمْ بِهِ السِّحْرُ ﴾، قرأ أبو عمرو وأبو جعفر: « آلسحر » بقطع الألف والمدّ على الاستفهام، و﴿ ما ﴾ في هذه القراءة للاستفهام وليست بموصولة، وهي مبتدأة و﴿ جئتُم به ﴾ خبرها، والمعنى: أيُّ شيء جئتم به؟ وقوله: « آلسحر » بدل عنها، وقرأ الباقون ما جئتم به السحر بوصل الألف من غير مـدّ، و ﴿ ما ﴾ في هذه القراءة موصولة بمعنى الذي و﴿ جئتم به ﴾، صلتها وهي مع الصلة في موضع الرفع بالابتداء، وقوله: ﴿ السحر ﴾ خبره أي الذي جئتم به السحر، وتقوّي هذه القراءة قراءة ابن مسعود ﴿ ما جئتُم بِهِ سحرٌ ﴾ بغير الألف واللام. ﴿ إنّ اللّهَ سيُبْطِلُه إنّ اللّهَ لا يُصلِحُ عملَ المفسدين ﴾.

﴿ ويُحِقُّ اللّهُ الحقَّ بكلماتِه ﴾، بآياته، ﴿ ولو كَرِهَ المجرمون ﴾.

﴿ فما آمنَ لموسى ﴾، لم يصدّق موسى مع ما آتاهم به من الآيات، ﴿ إلّا ذريّةٌ من قومِهِ ﴾، اختلفوا في الهاء التي في ﴿ قومه ﴾، قيل: هي راجعة إلى موسى، وأراد بهم مؤمني بني إسرائيل الذين كانوا بمصر وخرجوا

القتل فنشؤوا بين القبط فلما كان اليوم الذي غلب موسى فيه السحرة آمنوا به، وقال ابن عباس: ذرية من قومه يعني من بني إسرائيل. وقيل: إنها راجعة إلى فرعون يعني إلا ذرية من قوم فرعون.

روى عطية عن ابن عباس قال: هم ناس يسير من قوم فرعون آمنوا منهم امرأة فرعون ومؤمن آل فرعون وخازنه وامرأة خازنه وماشطة ابنته.

قال الفراء: سموا ذرية لأن آباءهم كانوا من القبط من آل فرعون وأمهاتهم من بني إسرائيل فكان الرجل يتبع أمه وأخواله في الإيمان وذلك كما يقال لأولاد فارس الذين دخلوا إلى اليمن الأبناء لأن أمهاتهم من غير جنس الآباء ﴿على خوف من فرعون وملئهم﴾ الملأ: الأشراف فعلى هذا يكون معنى الآية على خوف من فرعون ومن أشرافهم، وهم ملأ الذرية لأنه كان آباؤهم من القبط وأمهاتهم من بني إسرائيل وقيل أراد بالملأ ملأ فرعون وإنما قال سبحانه وتعالى وملئهم بالجمع وفرعون واحد على سبيل التفخيم له ﴿أن يفتنهم﴾ أي يصرفهم ويصدهم عن الإيمان وإنما قال أن يفتنهم ولم يقل أن يفتنوهم لأن قوم فرعون كانوا على مراده وتابعين لأمره ﴿وإن فرعون لعال في الأرض﴾ يعني أنه لغالب قهار متكبر فيها ﴿وإنه لمن المسرفين﴾ يعني من المجاوزين الحد لأنه كان عبداً فادعى الربوبية وكان كثير القتل والتعذيب لبني إسرائيل.

وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوۡمِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡنَا رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا فِتۡنَةٗ لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحۡمَتِكَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوۡمِكُمَا بِمِصۡرَ بُيُوتٗا وَٱجۡعَلُواْ بُيُوتَكُمۡ قِبۡلَةٗ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٨٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيۡتَ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةٗ وَأَمۡوَٰلٗا فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَۖ رَبَّنَا ٱطۡمِسۡ عَلَىٰٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ وَٱشۡدُدۡ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ﴿٨٨﴾

﴿وقال موسى﴾ يعني لقومه ﴿يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا﴾ يعني. فيه فثقوا ولأمره فسلموا فإنه ناصر

معه. قال مجاهد: كانوا أولاد الذين أرسل إليهم موسى من بني إسرائيل هلك الآباء وبقي الأبناء. وقال الآخرون: الهاء راجعة إلى فرعون. وروى عطية عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: هم ناس يسير من قوم فرعون آمنوا أمنهم امرأة فرعون ومؤمن آل فرعون وخازن فرعون وامرأة خازنة وماشطة ابنته. وعن ابن عباس رواية أخرى: أنهم كانوا سبعين ألف بيت من القبط من آل فرعون، وأمهاتهم من بني إسرائيل فجعل الرجل يتبع أمه وأخواله. وقيل: هم قوم نجوا من قتل فرعون، وذلك أن فرعون لمّا أمر بقتل أبناء بني إسرائيل كانت المرأة، من بني إسرائيل إذا ولدت ابناً وهبته لقبطية خوفاً من القتل، فنشئوا عند القبط، وأسلموا في اليوم الذي غلبت السَّحَرَة، قال الفرّاء: سُمّوا ذريّة لأن آباءهم كانوا من القبط وأمهاتهم من بني إسرائيل، كما يقال لأولاد أهل فارس الذين سقطوا إلى اليمن الأبناء، لأن أمهاتهم من غير جنس آبائهم، ﴿ على خوف من فرعون وملئهم ﴾، قيل: أراد بفرعون آل فرعون، أي: على خوف من آل فرعون وملئهم، كما قال: ﴿ واسئل القرية ﴾ [يوسف: ٨٢] أي: أهل القرية. وقيل: إنما قال: ﴿ وملئهم ﴾ وفرعون واحد لأن الملك إذا ذكر يُفهَم منه هو وأصحابه، كما يُقال قَدِمَ الخليفة يُراد هو ومَن معه. وقيل: أراد ملأ الذريّة، فإن ملأهم كانوا من قوم فرعون. ﴿ أنْ يفتِنَهم ﴾. أي: يصرفهم عن دينهم ولم يقل يفتنوهم لأنه أخبر عن فرعون وكان قومه على مثل ما كان عليه فرعون، ﴿ وإنّ فرعونَ لعالٍ ﴾، لمتكبّر، ﴿ في الأرض وإنّه لمن المسرفين ﴾، المجاوزين الحدّ لأنه كان عبداً فادّعى الربوبية.

﴿ وقال موسى ﴾، لمؤمني قومه، ﴿ يا قوم إنْ كنتُمْ آمنتُمْ باللّهِ فعليه توكّلُوا إنْ كنتُمْ مسلمين ﴾.

أوليائه ومهلك أعدائه ﴿إن كنتم مسلمين﴾ يعني إن كنتم مستسلمين لأمره قيل إنما أعيد قوله إن كنتم مسلمين بعد قوله إن كنتم آمنتم بالله لإرادة إن كنتم موصوفين بالإيمان القلبي وبالإسلام الظاهري ودلت الآية على أن التوكل على الله والتفويض لأمره من كمال الإيمان وأن من كان يؤمن بالله فلا يتوكل إلا على الله لا على غيره ﴿فقالوا﴾ يعني قال قوم موسى مجيبين له ﴿على الله توكلنا﴾ يعني عليه اعتمدنا لا على غيره ثم دعوا ربهم فقالوا ﴿ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين﴾ يعني لا تظهرهم علينا ولا تهلكنا بذنوبهم فيظنوا أنا لم نكن على الحق فيزدادوا طغياناً وكفراً وقال مجاهد: لا تعذبنا بعذاب من عندك فيقول قوم فرعون لو كانوا على حق لما عذبوا ويظنوا أنهم خير منا فيفتتنوا بذلك وقيل معناه لا تسلطهم علينا فيفتنونا ﴿ونجنا برحمتك من القوم الكافرين﴾ يعني وخلصنا برحمتك من أيدي قوم فرعون الكافرين لأنهم كانوا يستعبدونهم ويستعملونهم في الأعمال الشاقة قوله عز وجل: ﴿وأوحينا إلى موسى وأخيه﴾ هارون ﴿أن تبوآ لقومكما بمصر بيوتاً﴾ يعني اتخذا لقومكما بمصر بيوتاً للصلاة فيها يقال تبوأ فلان لنفسه بيتاً إذا اتخذه مباءة أي وطناً والمعنى اجعلا بمصر لقومكما بيوتاً ترجعون إليها للصلاة والعبادة ﴿واجعلوا بيوتكم قبلة﴾ اختلف أهل التفسير في معنى هذه البيوت والقبلة فمنهم من قال أراد بالبيوت المساجد التي يصلى فيها وفسروا القبلة بالجانب الذي يستقبل في الصلاة فعلى هذا يكون معنى الكلام واجعلوا بيوتكم مساجد تستقبلونها لأجل الصلاة وقيل معناه اجعلوا بيوتكم إلى القبلة.

واختلفوا في هذه القبلة، وظاهر القرآن لا يدل على تعيينها إلا أنه قد نقل عن ابن عباس أنه قال: كانت الكعبة قبلة لموسى وهارون، وهو قول مجاهد أيضاً قال ابن عباس: قالت بنو إسرائيل لموسى لا نستطيع أن نظهر صلاتنا مع الفراعنة فأذن الله لهم أن يصلوا في بيوتهم وأن يجعلوا بيوتهم قبل القبلة وقيل كانت القبلة إلى جهة المقدس. وقيل: أراد مطلق البيوت وعلى هذا يكون معنى قوله واجعلوا بيوتكم قبلة أي مقابلة يعني يقابل بعضها بعضاً وقيل معناه واجعلوا في بيوتكم قبلة تصلون إليها.

فإن قلت: إنه سبحانه وتعالى خص موسى وهرون بالخطاب في أول الآية بقوله سبحانه وتعالى: وأخيه أن تبوآ لقومكما ثم إنه عم بهذا الخطاب فقال تعالى: واجعلوا بيوتكم قبلة فما السبب فيه.

قلت: إنه سبحانه وتعالى أمر موسى وهارون بأن يتبوءا لقومهما بيوتاً للعبادة وذلك مما يخص به الأنبياء فخصا بالخطاب لذلك.

ثم لما كانت العبادة عامة تجب على الكافة عمَّ بالخطاب الجميع فقال تعالى: واجعلوا بيوتكم قبلة ﴿وأقيموا

﴿ فقالوا على اللَّهِ توكّلنا ﴾، اعتمدنا، ثم دعوا فقالوا: ﴿ ربَّنا لا تجعلْنَا فتنةً للقوم الظالمين ﴾، أي: لا تُظهرْهُم علينا ولا تُهلكنا بأيديهم، فيظنّوا أنّا لم نكن على الحق فيزدادوا طغياناً. وقال مجاهد: لا تعذبنا بعذابٍ من عندك، فيقول قوم فرعون: لو كانوا على الحق لما عُذّبوا ويظنوا أنهم خير منّا فيُفتتنوا.

﴿ ونجّنا برحمتِكَ مِنَ القومِ الكافرين ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وأوحينا إلى موسى وأخيهِ ﴾، هارون، ﴿ أنْ تبوّآ لقومِكما بمصرَ بُيُوتاً ﴾ يقال: بَوّأ فلان لنفسه بيتاً ومضجعاً إذا اتخذه، وبوّأتُه أنا إذا اتخذتُه له، ﴿ واجْعَلوا بيوتَكم قِبْلَةً ﴾، قال أكثر المفسّرين: كانت بنو إسرائيل لا يصلّون إلاّ في كنائسهم وبِيَعِهم، وكانت ظاهر، فلما أُرسل موسى أمر فرعون بتخريبها ومنعهم من الصلاة فأُمروا أن يتخذوا مساجد في بيوتهم ويصلّوا فيها خوفاً من فرعون، هذا قول إبراهيم وعكرمة عن ابن عباس. وقال مجاهد: خاف موسى ومَن معه من فرعون أن يصلّوا في الكنائس الجامعة، فأُمروا في بيوتهم مساجد مستقبلة

الصلاة﴾ يعني في بيوتكم وذلك حين خاف موسى ومن آمن معه من بني إسرائيل من فرعون وقومه إذا صلوا في الكنائس والبيع الجامعة أن يؤذهم فأمرهم الله سبحانه وتعالى أن يصلوا في بيوتهم خفية من فرعون وقومه، وقيل: كانت بنو إسرائيل لا يصلون إلا في الكنائس الجامعة وكانت ظاهرة فلما أرسل موسى أمر فرعون بتخريب تلك الكنائس ومنعهم من الصلاة فيها فأمروا أن يتخذوا مساجد في بيوتهم ويصلوا فيها خوفاً من فرعون.

وقيل: إن الله سبحانه وتعالى لما أرسل موسى وهارون وأظهرهما على فرعون أمرهم باتخاذ المساجد ظاهرة على رغم الأعداء وتكفل لهم بصونهم من شرهم وهو قوله سبحانه وتعالى: **﴿وبشر المؤمنين﴾** يعني بأنه لا يصل إليهم مكروه.

قوله سبحانه وتعالى: **﴿وقال موسى ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالاً في الحياة الدنيا﴾** لما أتى موسى عليه السلام بالمعجزات الباهرات ورأى أن القوم مصرون على الكفر والعناد والإنكار لما جاء به أخذ في الدعاء عليهم ومن حق من يدعو على الغير أن يذكر أولاً سبب إقدامه على الجرائم التي كانت سبب إصراره على ما يوجب الدعاء عليه.

ولما كان سبب كفرهم وعنادهم هو حب الدنيا وزينتها لا جرم أن موسى لما أخذ في الدعاء قدم هذه المقالة فقال **﴿ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالاً في الحياة الدنيا﴾** والزينة عبارة عما يتزين به اللباس والدواب والغلمان وأثاث البيت الفاخر والأشياء الجميلة والمال ما زاد على هذه الأشياء من الصامت ونحوه ثم قال تبارك وتعالى: **﴿ربنا ليضلوا عن سبيلك﴾** اختلفوا في هذه اللام فقال الفراء: هي لام كي فعلى هذا يكون المعنى ربنا إنك جعلت هذه الأموال سبباً لضلالهم لأنهم بطروا وطغوا في الأرض واستكبروا عن الإيمان.

وقال الأخفش: إنما هي لما يؤول إليه الأمر والمعنى إنك أتيت فرعون وملأه زينة في الحياة الدنيا فضلوا فعلى هذا هي لام العاقبة يعني فكان عاقبتهم الضلال، وقال ابن الأنباري: هي لام الدعاء وهي لام مكسورة تحزم المستقبل ويفتتح بها الكلام فيكون المعنى ربنا إنك ابتليتهم بالضلال عن سبيلك **﴿ربنا اطمس على أموالهم﴾** الطمس: إزالة أثر الشيء بالمحو. ومعنى اطمس على أموالهم أزل صورها وهيئاتها. وقال مجاهد: أهلكها وقال أكثر المفسرين: امسخها وغيرها عن هيئتها، قال قتادة: بلغنا أن أموالهم وحروثهم وزروعهم وجواهرهم صارت حجارة، وقال محمد بن كعب القرظي: صارت صورهم حجارة وكان الرجل مع أهله في فراشه فصارا حجرين والمرأة قائمة تخبز فصارت حجراً وهذا فيه ضعف لأن موسى عليه السلام دعا على أموالهم ولم يدع على أنفسهم بالمسخ. وقال ابن عباس: بلغنا أن الدراهم والدنانير صارت حجارة منقوشة كهيئتها صحاحاً وأنصافاً وأثلاثاً. وقيل إن عمر بن عبد العزيز دعا بخريطة فيها شيء من بقايا آل فرعون فأخرج منها البيضة منقوشة والجوزة مشقوقة وهي حجارة. قال

الكعبة، يصلّون فيها سرّاً. معناه واجعلوا وجوه بيوتكم إلى القِبلة. وروى ابن جريج عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كانت الكعبة قِبْلَةَ موسى ومَن معه. **﴿ وأقيموا الصلاة وبشِّرِ المؤمنين ﴾**، يا محمد.

قوله تعالى: **﴿ وقال موسى ربَّنا إنّك آتيتَ فرعونَ وملأهُ زِينةً ﴾**، من متاع الدنيا، **﴿ وأموالاً في الحياةِ الدّنيا ربَّنا لِيُضِلُّوا عن سَبيلِكَ ﴾**، اختلفوا في هذه اللام، قيل: هي لامُ كي، معناه: آتيتهم كي تفتنهم فيضلّوا ويضلّوا عن سبيلك، كقوله: ﴿ لأسقيناهم ماءً غَدَقاً لِنَفْتِنَهُمْ فيه ﴾ [الجن: ١٦] وقيل: هي لام العاقبة يعني: ليضلّوا فيكون عاقبة أمرهم **الضلال**، كقوله: ﴿ فالْتَقَطَهُ آلُ فرعونَ ليكونَ لهم عدوّاً وحَزَناً ﴾ [القصص: ٨]. قوله: **﴿ ربَّنا اطْمِسْ على أموالِهم ﴾**، قال مجاهد: أهلكها، والطمس: المحو. وقال قتادة: صارت أموالهم وحروثهم وزروعهم

السدي: مسخ الله أموالهم حجارة النخل والثمار والدقيق والأطعمة وهذا الطمس هو أحد الآيات التسع التي أوتيها موسى عليه السلام ﴿**واشدد على قلوبهم**﴾ يعني اربط على قلوبهم واطبع عليها وقسها حتى لا تلين ولا تنشرح للإيمان ومعنى الشد على القلوب الاستيثاق منها حتى لا يدخلها الإيمان؛ قال الواحدي: وهذا دليل على أن الله سبحانه وتعالى يفعل ذلك لمن يشاء ولولا ذلك لما جسر موسى عليه السلام على هذا السؤال ﴿**فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم**﴾ يعني الغرق قاله ابن عباس وقال ابن عباس في رواية أخرى عنه: قال موسى قبل أن يأتي فرعون ربنا اشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم فاستجاب الله له دعاءه فحال بين فرعون وبين الإيمان حتى أدركه الغرق فلم ينفعه الإيمان.

قال بعض العلماء: إنما دعا عليهم موسى بهذا الدعاء لما علم أن سابق قضاء الله وقدره فيهم أنهم لا يؤمنون وذلك أن الله سبحانه وتعالى كتب عليهم في الأزل أنهم لا يؤمنون فوافق دعاء موسى ما قدر وقضى عليهم.

قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ ۞ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾

﴿**قال**﴾ الله عز وجل لموسى وهارون ﴿**قد أجيبت دعوتكما**﴾ إنما نسب الدعاء إليهما وأن الداعي هو موسى وحده لأن هارون عليه السلام كان يؤمن والتأمين دعاء لأنه طلب وسؤال أيضاً ومعناه اللهم استجب فصار بذلك شريك موسى في الدعاء فلذلك قال تعالى قد أجيب دعوتكما ﴿**فاستقيما**﴾ يعني على تبليغ الرسالة وامضيا لأمري إلى أن يأتيهم العذاب ﴿**ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون**﴾ يعني ولا تسلكا طريق الذين يجهلون حقيقة وعدي فإن وعدي لا خلف فيه ووعيدي نازل بفرعون وقومه فلا تستعجلا.

قيل: كان بين دعاء موسى عليه السلام وبين الإجابة أربعون سنة.

قال الإمام فخر الدين الرازي: واعلم أن هذا النهي لا يدل على أن ذلك قد صدر من موسى وهارون كما أن قوله لئن أشركت ليحبطن عملك لا يدل على صدور الشرك منه.

وجواهرهم كلها حجارة، وقال محمد بن كعب: جعل صورهم حجارة، وكان الرجل مع أهله في فراشه فصارا حجرين والمرأة قائمة تخبز فصارت حجراً. قال ابن عباس رضي الله عنه: بلغنا أن الدراهم والدنانير صارت حجارة منقوشة كهيئتها صحاحاً وأنصافاً وأثلاثاً. ودعا عمر بـن عبد العزيز بخريطة فيها أشياء من بقايا آل فرعون فأخرج منها البيضة منقوشة والجوزة مشقوقة وإنها لحجر. قال السدي: مسخ الله أموالهم حجارة والنخيل والثمار والدقيق والأطعمة، فكانت إحدى الآيات التسع ﴿ **واشْدُدْ على قلوبهم** ﴾، أي: أقسمها واطبعْ عليها حتى لا تلين ولا تنشرح للإيمان، ﴿ **فلا يُؤْمنوا** ﴾، قيل: هو نصب بجواب الدعاء بالفاء. وقيل: هو عطف على قوله: ﴿ **لِيضلّوا** ﴾ أي: ليضلّوا فلا يؤمنوا. وقال الفرّاء: هو دعاء محله جزم، فكأنه قال: اللّهمَّ فلا يؤمنوا، ﴿ **حتى يَرَوُا العذابَ الأليمَ** ﴾، وهو الغرق. قال السدي: معناه أمتْهم على الكفر.

﴿ **قالَ** ﴾ الله تعالى لموسى وهارون، ﴿ **قدْ أُجيبَتْ دعوتُكما** ﴾، إنما نسب إليهما والدعاء كان من موسى لأنه رُوِيَ أن موسى كان يدعو وهارون يؤمن، والتأمين دعاء. وفي بعض القصص: كان بين دعاء موسى وإجابته أربعون سنة. ﴿ **فاسْتَقِيمَا** ﴾، على الرسالة والدعوة وامضيا لأمري إلى أن يأتيهم العذاب ﴿ **ولا تتّبِعانّ** ﴾، نهي بالنون

قوله عز وجل: ﴿وجاوزنا ببني إسرائيل البحر﴾ أي: وقطعنا ببني إسرائيل البحر وعبرناهم إياه حتى جاوزوه وعبروه ﴿فأتبعهم فرعون وجنوده﴾ يعني لحقهم وأدركهم ﴿بغياً وعدواً﴾ أي ظلماً وعدواناً وقيل البغي طلب الاستعلاء بغير حق والعدو الظلم وقيل بغياً في القول وعدواً في الفعل.

قال أهل التفسير: اجتمع يعقوب وبنوه إلى يوسف وهم اثنان وسبعون وخرجوا مع موسى من مصر وهم ستمائة ألف وذلك أنه لما أجاب الله دعاء موسى وهارون أمرهما بالخروج ببني إسرائيل من مصر في الوقت الذي أمرهما أن يخرجا فيه بهم ويسر لهم أسباب الخروج وكان فرعون غافلاً فلما سمع بخروجهم ومفارقتهم مملكته خرج بجنوده في طلبهم فلما أدركهم قالوا لموسى أين المخلص والمخرج البحر أمامنا وفرعون وراءنا وقد كنا نلقى من فرعون البلاء العظيم فأوحى الله سبحانه وتعالى إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فضربه فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم وكشف الله عن وجه الأرض وأيبس لهم البحر فلحقهم فرعون وكان على حصان أدهم وكان معه في عسكره ثمانمائة ألف حصانٍ على لون حصانه سوى سائر الألوان وكان مقدمهم جبريل وكان على فرس أنثى وديق وميكائيل بسوقهم حتى لا يشد منهم أحد فلما خرج آخر بني إسرائيل من البحر دنا جبريل بفرسه فلما وجد الحصان ريح الأنثى لم يملك فرعون من أمره شيئاً فنزل البحر وتبعه جنوده حتى إذا اكتملوا جميعاً في البحر وهمّ أولهم بالخروج التطم البحر عليهم فلما أدرك فرعون الغرق أتى بكلمة الإخلاص ظناً منه أنها تنجيه من الهلاك وهو قوله تعالى: ﴿حتى إذا أدركه الغرق قال﴾ يعني فرعون ﴿آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين﴾ قال ابن عباس: لم يقبل الله إيمانه عند نزول العذاب به وقد كان في مهل.

قال العلماء: إيمانه غير مقبول وذلك أن الإيمان والتوبة عند معاينة الملائكة والعذاب غير مقبولين ويدل عليه قوله تعالى: ﴿فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا﴾.

وقيل: إنه قال هذه الكلمة ليتوصل بها إلى دفع ما نزل به من البلية الحاضرة، ولم يكن قصده بها الإقرار بوحدانية الله تعالى والاعتراف له بالربوبية لا جرم لم ينفعه ما قال في ذلك الوقت.

وقيل: إن فرعون كان من الدهرية المنكرين لوجود الصانع الخالق سبحانه وتعالى، فلهذا قال آمنت أنه لا إله إلا

الثقيلة، ومحله جزم، يقال في الواحد لا تتبعنَ بفتح النون لالتقاء الساكنين وبكسر النون في التثنية لهذه العلّة. وقرأ ابن عامر بتخفيف النون. وقد اختلفت الروايات عنه فيه فبعضهم روى عنه ﴿ تتبعان ﴾ بتخيف التاء الثانية وفتح الباء وتشديد النون. وبعضهم روى عنه ﴿ تتّبِعان ﴾ بتشديد التاء الثانية وكسر الباء وتخفيف النون، وبعضهم روى عنه كقرّاء الجماعة. والوجه في تخفيف النون، أن نون التأكيد تثقّل وتخفّف. ﴿ سبيلَ الذينَ لا يعلمُون ﴾، يعني: ولا تسلكا سبيل الذين يجهلون حقيقة وَعْدي، فإن وعدي لا خُلْفَ فيه، ووعيدي نازل بفرعونَ وقومِه.

﴿ وجَاوَزْنَا ببني إسرائيل البحرَ ﴾، عبرنا بهم ﴿ فأتْبَعَهُمْ ﴾، لحقهم وأدركهم، ﴿ فرعونُ وجنودُه ﴾، يقال: أتبعه وتَبِعه إذا أدركه ولحقه، واتّبعه بالتشديد إذا سار خلفه واقتدى به. وقيل: هما واحد. ﴿ بغياً وعَدْواً ﴾، أي: ظلماً واعتداءً. وقيل: بغياً في القول وعدواً في الفعل. وكان البحر قد انفلق لموسى وقومه، فلما وصل فرعون بجنوده إلى البحر هابوا دخوله فتقدمهم جبريل على فرس وديق وخاض البحر، فاقتحمت الخيول خلفه، فلما دخل آخرهم وهمّ أولهم أن يخرج انطبق عليهم الماء. وقوله تعالى: ﴿ حتى إذا أدْرَكَه الغرقُ ﴾، أي: غمره الماء وقَرُبَ هلاكه، ﴿ قال آمنتُ أنّه ﴾، قرأ حمزة والكسائي «إنه» بكسر الألف أي: آمنت وقلت إنه. وقرأ الآخرون «أنــه» بالفتح على وقوع آمنت عليها، وإضمار حرف الجرّ، أي: آمنتُ بأنّه، فحذف الباء، وأوصل الفعل بنفسه، فهو في

الذي آمنت به بنو إسرائيل فلم ينفعه ذلك لحصول الشك في إيمانه ولما رجع فرعون إلى الإيمان والتوبة حين أغلق بابهما بحضور الموت ومعاينة الملائكة قيل له.

﴿ءَآلْـَٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾﴾

﴿آلآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين﴾ يعني آلآن تتوب وقد أضعت التوبة في وقتها وآثرت دنياك الفانية على الآخرة الباقية، والمخاطب لفرعون بهذا هو جبريل عليه السلام وقيل الملائكة. وقيل: إن القائل لذلك هو الله تعالى عرف فرعون قبح صنعه وما كان عليه من الفساد في الأرض ويدل على هذا القول قوله سبحانه وتعالى فاليوم ننجيك ببدنك، والقول الأول أشهر ويعضده ما روي عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال «لما أغرق الله فرعون قال آمنت أن لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل قال جبريل يا محمد فلو رأيتني وأنا آخذ من حال البحر فأدسه في فيه مخافة أن تدركه الرحمة» أخرجه الترمذي، وقال حديث حسن. وفي رواية أخرى عنه عن عدي بن ثابت وعطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس: ذكر أحدهما عن النبي ﷺ أنه ذكر أن جبريل عليه السلام جعل يدس في فيّ فرعون الطين خشية أن يقول لا إله إلا الله فيرحمه الله أو خشية أن يرحمه الله أخرجه الترمذي، وقال حديث حسن صحيح.

(فصل: في الكلام على هذا الحديث)

لأنه في الظاهر مشكل فيحتاج إلى بيان وإيضاح فنقول قد ورد هذا الحديث على طريقين مختلفين عن ابن عباس، ففي الطريق الأول عن ابن زيد بن جدعان وهو وإن كان قد ضعفه يحيى بن معين وغيره فإنه كان شيخاً نبيلاً صدوقاً ولكنه كان سيىء الحفظ ويغلط وقد احتمل الناس حديثه وإنما يخشى من حديثه إذا لم يتابع عليه أو خالفه فيه الثقات وكلاهما منتف في هذا الحديث لأن في الطريق الآخر شعبة عن عدي بن ثابت عن سعيد بن جبير وهذا الإسناد على شرط البخاري، ورواه أيضاً شعبة عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير وعطاء بن السائب ثقة قد أخرج له مسلم فهو على شرط مسلم وإن كان عطاء قد تكلم فيه من قبل اختلاطه فإنما يخاف منه ما انفرد به أو خولف فيه وكلاهما منتف فقد علم بهذا أن لهذا الحديث أصلاً وأن رواته ثقات ليس فيهم متهم وإن كان فيهم من هو سيىء الحفظ فقد تابعه عليه غيره.

فإن قلت ففي الحديث الثاني شك في رفعه إنما هو جزم بأن أحد الرجلين رفعه وشك شعبة في تعيينه هل هو عطاء بن السائب أو عدي بن ثابت وكلاهما ثقة فإذا رفعه أحدهما وشك في تعيينه لم يكن هذا علة في الحديث وقوله من حال البحر أي من طين البحر كما في الرواية الأخرى.

(فصل)

ووجه إشكاله ما اعترض به الإمام فخر الدين الرازي في تفسيره فقال: هل يصح أن جبريل أخذ يملأ فمه بالطين

موضع النصب. ﴿ لا إله إلّا الذي آمنتْ به بنو إسرائيل وأنا مِنَ المسلمين ﴾، فدسّ جبريل في فِيْهِ مِنْ حمأة البحر. وقال: ﴿ آلآنَ وقدْ عصيتَ قَبْلُ وكنتَ مِنَ المُفسدين ﴾. ورُوِيَ عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال: «لمّا أغرق الله فرعون قال: آمنت أنه لا إلّه إلّا الذي آمنت به بنو إسرائيل، فقال جبريل عليه السلام: يا محمد فلو رأيتني وأنا

لئلا يتوب غضباً عليه والجواب الأقرب أنه لا يصح لأن في تلك الحالة، إما أن يقال: التكليف هل كان ثابتاً أم لا فإن كان ثابتاً لا يجوز لجبريل أن يمنعه من التوبة بل يجب عليه أن يعينه على التوبة وعلى كل طاعة وإن كان التكليف زائلاً عن فرعون في ذلك الوقت فحينئذ لا يبقى لهذا الذي نسب إلى جبريل فائدة وأيضاً لو منعه من التوبة لكان قد رضي ببقائه على الكفر والرضا بالكفر كفر وأيضاً فكيف يليق بجلال الله أن يأمر جبريل بأن يمنعه من الإيمان.

ولو قيل: إن جبريل فعل ذلك من عند نفسه لا بأمر الله فهذا يبطله قول جبريل وما نتنزل إلا بأمر ربك فهذا وجه الإشكال الذي أورده الإمام على هذا الحديث في كلام أكثر من هذا، والجواب عن هذا الاعتراض أن الحديث قد ثبت عن النبي ﷺ فلا اعتراض عليه لأحد.

وأما قول الإمام: إن التكليف هل كان ثابتاً في تلك الحالة أم لا فإن كان ثابتاً لم يجز لجبريل أن يمنعه من التوبة فإن هذا القول لا يستقيم على أصل المثبتين للقدر القائلين بخلق الأفعال لله وأن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء وهذا قول أهل السنة المثبتين للقدر، فإنهم يقولون إن الله يحول بين الكافر والإيمان ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه﴾ وقوله تعالى: ﴿وقالوا قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم﴾ وقال تعالى: ﴿ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة﴾ فأخبر الله سبحانه وتعالى أنه قلب أفئدتهم مثل تركهم الإيمان به أول مرة، وهكذا فعل بفرعون منعه من الإيمان عند الموت جزاء على تركه الإيمان أولاً فدس الطين في فم فرعون من جنس الطبع والختم على القلب ومنع الإيمان وصون الكافر عنه وذلك جزاء على كفره السابق وهذا قول طائفة من المثبتين للقدر القائلين بخلق الأفعال لله.

ومن المنكرين لخلق الأفعال من اعترف أيضاً أن الله سبحانه وتعالى يفعل هذا عقوبة للعبد على كفره السابق فيحسن منه أن يضله ويطبع على قلبه ويمنعه من الإيمان.

فأما قصة جبريل عليه السلام مع فرعون فإنها من هذا الباب فإن غاية ما يقال فيه إن الله سبحانه وتعالى منع فرعون من الإيمان وحال بينه وبينه عقوبة له على كفره السابق ورده للإيمان لما جاءه.

وأما فعل جبريل من دس الطين في فيه فإنما فعل ذلك بأمر الله لا من تلقاء نفسه.

فأما قول الإمام لم يجز لجبريل أن يمنعه من التوبة بل يجب عليه أن يعينه عليها وعلى كل طاعة هذا إذا كان تكليف جبريل كتكليفنا يجب عليه ما يجب علينا.

وأما إذا كان جبريل إنما يفعل ما أمره الله به والله سبحانه وتعالى هو الذي منع فرعون من الإيمان وجبريل منفذ لأمر الله فكيف لا يجوز له منع من منعه الله من التوبة وكيف يجب عليه إعانة من لم يعنه الله بل قد حكم عليه وأخبر عنه أنه لا يؤمن حتى يرى العذاب الأليم حين لا ينفعه الإيمان.

وقد يقال: إن جبريل عليه السلام إما أن يتصرف بأمر الله فلا يفعل إلا ما أمر الله به وإما أن يفعل ما يشاء من

آخذ من حال البحر فأدسّه في فِيْهِ مخافةَ أن تدركه الرحمة». فلما أخبر موسى قومه بهلاك فرعون وقومه قالت بنو إسرائيل: ما مات فرعون فأمر الله البحر فألقى فرعون على الساحل أحمر قصيراً كأنّه ثور فرآه بنو إسرائيل فمن ذلك الوقت لا يقبل الماءُ مَيْتاً أبداً، فذلك قوله:

﴿ فاليومَ نُنجِيكَ ﴾، أي: نُلقيك على نجوة من الأرض وهي المكان المرتفع، وقرأ يعقوب «نُنجيك» بالتخفيف، ﴿ ببدنِكَ ﴾، بجسدك لا روح فيه. وقيل: ببدنك: بدرعك، وكان له درع مشهور مرصّع بالجواهر،

تلقاء نفسه لا بأمر الله وعلى هذين التقديرين فلا يجب عليه إعانة فرعون على التوبة ولا يحرم عليه منعه منها لأنه إنما يجب عليه فعل ما أمر به ويحرم عليه فعل ما نهي عنه والله سبحانه وتعالى لم يخبر أنه أمره بإعانة فرعون ولا حرم عليه منعه من التوبة وليست الملائكة مكلفين كتكليفنا.

وقوله وإن كان التكليف زائلاً عن فرعون في ذلك الوقت فحينئذ لا يبقى هذا الذي نسب إلى جبريل فائدة فجوابه أن يقال إن للناس في تعليل أفعال الله قولين أحدهما أن أفعاله لا تعلل وعلى هذا التقدير فلا يريد هذا السؤال أصلاً وقد زال الإشكال.

والقول الثاني: إن أفعاله تبارك وتعالى لها غاية بحسب المصالح لأجلها فعلها وكذا أوامره ونواهيه لها غاية محمودة محبوبة لأجلها أمر بها ونهى عنها وعلى هذا التقدير قد يقال لما قال فرعون آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وقد علم جبريل أنه ممن حقت عليه كلمة العذاب وأن إيمانه لا ينفعه دس الطين في فيه لتحقق معاينته للموت فلا تكون تلك الكلمة نافعة له. وأنه وإن كان قالها في وقت لا ينفعه فدس الطين في فيه تحقيقاً لهذا المنع والفائدة فيه تعجيل ما قد قضي عليه وسد الباب عند سداً محكماً بحيث لا يبقى للرحمة فيه منفذ ولا يبقى من عمره زمن يتسع للإيمان فإن موسى عليه السلام لما دعا ربه بأن فرعون لا يؤمن حتى يرى العذاب الأليم والإيمان عند رؤية العذاب غير نافع أجاب الله دعاءه.

فلما قال فرعون تلك الكلمة عند معاينة الغرق استعجل جبريل فدس الطين في فيه لييأس من الحياة ولا تنفعه تلك الكلمة وتتحقق إجابة الدعوة التي وعد الله موسى بقوله قد أجيبت دعوتكما فيكون سعي جبريل في تكميل ما سبق في حكم الله أنه يفعله فيكون سعي جبريل في مرضاة الله سبحانه وتعالى منفذاً لما أمره به وقدره وقضاه على فرعون.

وأما قوله: لو منعه من التوبة لكان قد رضي ببقائه على الكفر والرضا بالكفر كفر، فجوابه ما تقدم من أن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء وجبريل إنما يتصرف بأمر الله ولا يفعل إلا ما أمره الله به وإذا كان جبريل قد فعل ما أمره الله به ونفذه فإنما رضي بالأمر لا بالمأمور به فأي كفر يكون هنا وأيضاً فإن الرضا بالكفر إنما يكون كفراً في حقنا لأنا مأمورون بإزالته بحسب الإمكان فإذا أقررنا الكافر على كفره ورضينا به كان كفراً في حقنا لمخالفتنا ما أمرنا به.

وأما من ليس مأموراً كأمرنا ولا مكلفاً كتكليفنا بل يفعل ما يأمره به ربه فإنه إذا نفذ ما أمره به لم يكن راضياً بالكفر ولا يكون كفراً في حقه وعلى هذا التقدير فإن جبريل لما دس الطين في في فرعون كان ساخطاً لكفره غير راض به والله سبحانه وتعالى خالق أفعال العباد خيرها وشرها وهو غير راض بالكفر فغاية أمر جبريل مع فرعون أن يكون منفذاً لقضاء الله وقدره في فرعون من الكفر وهو ساخط له غير راض به وقوله كيف يليق بجلال الله أن يأمر جبريل بأن يمنعه من الإيمان فجوابه أن الله يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد لا يسأل عما يفعل وأما قوله وإن قيل إن جبريل إنما فعل ذلك من عند نفسه لا بأمر الله فجوابه أنه إنما فعل ذلك بأمر الله منفذاً لأمر الله والله أعلم بمراده وأسرار كتابه.

قوله سبحانه وتعالى: **﴿فاليوم ننجيك ببدنك﴾** أي نلقيك على نجوة من الأرض وهي المكان المرتفع.

فرأوه في درعه فصدّقوا أنه موسى. **﴿ لتكونَ لِمَنْ خلْفَك آيةً ﴾**، عِبرةً وعظةً، **﴿ وإنّ كثيراً من الناس عنْ آياتِنَا لغَافِلُون ﴾**.

﴿ ولقدْ بَوّأْنَا بني إسرائيلَ ﴾ أنزلنا بني إسرائيل بعد هلاك فرعون، **﴿ مُبوّأ صدقٍ ﴾**، منزل صدق، يعني: مصر. وقيل: الأردن وفلسطين وهي الأرض المقدسة التي كتب الله ميراثاً لإبراهيم وذريته. قال الضحاك: هي مصر والشام، **﴿ ورزقْناهم منَ الطيباتِ ﴾**، الحلالات، **﴿ فما اختلفُوا ﴾** يعني اليهود الذين كانوا في عهد النبي ﷺ في

قال أهل التفسير: لما أغرق الله سبحانه وتعالى فرعون وقومه أخبر موسى قومه بهلاك فرعون وقومه فقالت بنو إسرائيل ما مات فرعون وإنما قالوا ذلك لعظمته عندهم وما حصل في قلوبهم من الرعب لأجله فأمر الله عز وجل البحر فألقى فرعون على الساحل أحمر قصيراً كأنه ثور فرآه بنو إسرائيل فعرفوه فمن ذلك الوقت لا يقبل الماء ميتاً أبداً، ومعنى قوله ببدنك يعني نلقيك وأنت جسد لا روح فيه وقيل هذا الخطاب على سبيل التهكم والاستهزاء كأنه قيل له ننجيك ولكن هذه النجاة إنما تحصل لبدنك لا لروحك.

وقيل: أراد بالبدن الدرع وكان لفرعون درع من ذهب مرصع بالجواهر، يعرف به فلما رأوه في درعه ذلك عرفوه **﴿لتكون لمن خلفك آية﴾** يعني عبرة وموعظة، وذلك أنهم ادعوا أن مثل فرعون لا يموت أبداً فأظهره الله لهم حتى يشاهدوه وهو ميت لتزول الشبهة من قلوبهم ويعتبروا به لأنه كان في غاية العظمة فصار إلى نهاية الخسة والذلة ملقى على الأرض لا يهابه أحد **﴿وإن كثيراً من الناس عن آياتنا لغافلون﴾** قوله عز وجل: **﴿ولقد بوأنا بني إسرائيل مبوأ صدق﴾** يعني أسكناهم مكان صدق وأنزلناهم منزل صدق بعد خروجهم من البحر وإغراق عدوهم فرعون.

والمعنى: أنزلناهم منزلاً محموداً صالحاً وإنما وصف المكان بالصدق لأن عادة العرب إذا مدحت شيئاً أضافته إلى الصدق تقول العرب: هذا رجل صدق وقدم صدق والسبب فيه أن الشيء إذا كان كاملاً صالحاً، لا بد أن يصدق الظن فيه وفي المراد بالمكان الذي بوءوا قولان أحدهما أنه مصر فيكون المراد: إن الله أورث بني إسرائيل جميع ما كان تحت أيدي فرعون وقومه من ناطق وصامت وزرع وغيره.

والقول الثاني: إنه أرض الشام والقدس والأردن لأنها بلاد الخصب والخير والبركة **﴿ورزقناهم من الطيبات﴾** يعني تلك المنافع والخيرات التي رزقهم الله تعالى: **﴿فما اختلفوا حتى جاءهم العلم﴾** يعني فما اختلف هؤلاء الذين فعلنا بهم هذا الفعل من بني إسرائيل حتى جاءهم ما كانوا به عالمين وذلك أنهم كانوا قبل مبعث النبي ﷺ مقرين به مجمعين على نبوته غير مختلفين فيه لما يجدونه مكتوباً عندهم فلما بعث الله محمداً ﷺ واختلفوا فيه فآمن به بعضهم كعبد الله بن سلام وأصحابه وكفر به بعضهم بغياً وحسداً.

فعلى هذا المعنى يكون المراد من العلم المعلوم والمعنى فما اختلفوا حتى جاءهم المعلوم الذي كانوا يعلمونه حقاً فوضع العلم مكان العلوم وقيل المراد من العلم القرآن النازل على محمد ﷺ وإنما سماه علماً لأنه سبب العلم وتسمية السبب بالمسبب مجاز مشهور وفي كون القرآن سبباً لحدوث الاختلاف وجهان:

الأول: أن اليهود كانوا يخبرون بمبعث محمد ﷺ وصفته ونعته ويفتخرون بذلك على المشركين، فلما بعث كذبوه بغياً وحسداً وإيثاراً لبقاء الرياسة لهم فآمن به طائفة قليلة وكفر به غالبهم.

والوجه الثاني: أن اليهود كانوا على دين واحد قبل نزول القرآن فلما نزل على محمد ﷺ آمن به طائفة وكفر به آخرون.

وقوله تعالى: ﴿إن ربك﴾ يعني يا محمد **﴿يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون﴾** يعني من أمرك وأمر نبوتك في الدنيا فيدخل من آمن بك الجنة ومن كفر بك وجحد نبوتك النار قوله سبحانه وتعالى:

تصديقه وأنه نبي، ﴿ حتى جاءَهُمُ العلمُ ﴾، يعني: القرآن والبيان بأنّه رسولُ الله صدق ودينُه حق. وقيل: حتى جاءهم معلومهم وهو محمد ﷺ لأنهم كانوا يعلمونه قبل خروجه، فالعلم بمعنى المعلوم كما يقال للمخلوق: خَلْقٌ، قال الله تعالى: ﴿ هذا خلقُ اللّهِ ﴾ [لقمان: ١١]، ويقال: هذا الدرهم ضَرْبُ الأمير، أي: مضروبُه. **﴿ إنّ ربَّكَ يقضي بينهم يومَ القيامةِ فيما كانُوا فيه يختلفُون ﴾**، من الدين.

فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾

﴿فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك﴾ الشك في موضع اللغة خلاف اليقين والشك اعتدال النقيضين عند الإنسان لوجود أمارتين أو لعدم الأمارة والشك ضرب من الجهل وهو أخص منه فكل شك جهل وليس كل جهل شكاً فإذا قيل فلان شك في هذا الأمر فمعناه توقف فيه حتى يتبين له فيه الصواب أو خلافه وظاهر هذا الخطاب في قوله فإن كنت في شك أنه للنبي ﷺ والمعنى فإن كنت يا محمد في شك مما أنزلنا إليك يعني من حقيقة ما أخبرناك به وأنزلناه يعني القرآن ﴿فاسأل الذين يقرؤون الكتاب من قبلك﴾ يعني علماء أهل الكتاب يخبرونك أنك مكتوب عندهم في التوراة والإنجيل وأنك نبي يعرفونك بصفتك عندهم وقد توجه هاهنا سؤال واعتراض وهو أن يقال هل شك النبي ﷺ فيما أنزل عليه أو في نبوته حتى يسأل أهل الكتاب عن ذلك وإذا كان شاكاً في نبوة نفسه كان غيره أولى بالشك منه.

قلت: الجواب عن هذا السؤال والاعتراض ما قاله القاضي عياض في كتابه الشفاء فإنه أورد هذا السؤال، ثم قال: احذر ثبت الله قلبك أن يخطر ببالك ما ذكره فيه بعض المفسرين عن ابن عباس أو غيره من إثبات شك النبي ﷺ فيما أوحي إليه فإنه من البشر فمثل هذا لا يجوز عليه ﷺ جملة بل قال ابن عباس: لم يشك النبي ﷺ ولم يسأل. ونحوه عن سعيد بن جبير والحسن البصري. وحكي عن قتادة أنه قال: بلغنا أن النبي ﷺ قال «ما أشك ولا أسأل» وعامة المفسرين على هذا، ثم كلام القاضي عياض رحمه الله ثم اختلفوا في معنى الآية ومن المخاطب بهذا الخطاب

قوله تعالى: ﴿ فإن كنتَ في شكٍّ مما أنزلنا إليكَ ﴾، يعني: القرآن ﴿ فاسألِ الذينَ يَقْرَءُونَ الكتابَ من قَبْلِكَ ﴾، فيخبرونك أنك مكتوب عندهم في التوراة. قيل: هذا خطاب للرسول ﷺ والمراد به غيره على عادة العرب فإنهم يخاطبون الرجل ويريدون به غيره، كقوله تعالى: ﴿ يا أيها النبي اتقِ الله ﴾ [الأحزاب: ١]، خاطب للنبي ﷺ والمراد به المؤمنون بدليل أنه قال: ﴿ إنّ اللّهَ كانَ بما تعملون خبيراً ﴾ [النساء: ٩٤]، ولم يقل: بما تعمل وقال: ﴿ يا أيها النبي إذا طلّقتم النساء ﴾ [الطلاق: ١]، وقيل: كان الناسِ على عهد النبي ﷺ بين مصدّق ومكذّب وشاكٍّ فهذا الخطاب مع أهل الشك معناه: إن كنت أيها الإنسان في شكٍّ مما أنزلنا إليك من الهدى على لسان رسولنا محمد، فاسألِ الذين يقرؤون الكتابَ من قبلك. قال ابن عباس ومجاهد والضحاك: يعني مَن آمن من أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وأصحابه فسيشهدون على صدق محمد ﷺ ويخبرونك بنبوّته. قال الفرّاء: علم الله سبحانه وتعالى أن رسوله غير شاكٍّ لكنه ذكره على عادة العرب يقول الواحد منهم لعبد: إن كنت عبدي فأطعني، ويقول لولده: افعل كذا وكذا إنْ كنتَ ابني، ولا يكون بذلك على وجه الشك. ﴿ لقدْ جاءَكَ الحقُّ مِن رَّبِّك فلا تكونَنَّ مِنَ المُمترين ﴾، من الشاكّين.

﴿ ولا تكونَنَّ مِنَ الذين كذَّبُوا بآياتِ اللّهِ فتكونَ مِنَ الخاسِرِين ﴾، وهذا كله خطاب مع النبي ﷺ والمراد منه غيره.

على قولين أحدهما أن الخطاب للنبي ﷺ في الظاهر والمراد به غيره فهو كقوله لئن أشركت ليحبطن عملك ومعلوم أن النبي ﷺ لم يشرك فثبت أن المراد به غيره ومن أمثلة العرب:

إياك أعني واسمعي يا جارة. فعلى هذا يكون معنى الآية قل يا محمد، يا أيها الإنسان الشاك إن كنت في شك مما أنزلنا إليك على لسان رسولنا محمد ﷺ فاسأل الذين يقرؤون الكتاب يخبروك بصحته ويدل على صحة هذا التأويل قوله تعالى في آخر هذه السورة قل يا أيها الناس إن كنتم في شك في ديني الآية فبين أن المذكور في هذه الآية على سبيل الرمز هو المذكور في تلك الآية على سبيل التصريح وأيضاً لو كان النبي ﷺ شاكاً في بنوته لكان غيره أولى بالشك في نبوته وهذا يوجب سقوط الشريعة بالكلية معاذ الله من ذلك وقيل إن الله سبحانه وتعالى علم أن النبي ﷺ لم يشك قط فيكون المراد بهذا التهييج فإنه ﷺ إذا سمع هذا الكلام يقول لا أشك يارب ولا أسأل أهل الكتاب بل أكتفي بما أنزلته علي من الدلائل الظاهرة. وقال الزجاج: إن الله خاطب الرسول ﷺ في قوله فإن كنت في شك وهو شامل للخلق فهو كقوله يا أيها النبي إذا طلقتم النساء وهذا وجه حسن لكن فيه بعد وهو أن يقال متى كان الرسول ﷺ داخلاً في هذا الخطاب كان الاعتراض موجوداً والسؤال وارداً، وقيل: إن لفظة إن في قوله فإن كنت في شك للنفي ومعناه وما أنت في شك موجوداً والسؤال وارداً وقيل إن لفظه إن في قوله فإن كنت في شك للنفي ومعناه وما أنت في شك مما أنزلنا إليك حتى تسأل فلا تسأل ولئن سألت لازددت يقيناً.

والقول الثاني: إن هذا الخطاب ليس هو للنبي ﷺ البتة ووجه هذا القول إن الناس كانوا في زمنه على ثلاث فرق فرقة له مصدقون وبه مؤمنون وفرقة على الضد من ذلك والفرقة الثالثة المتوقفون في أمره الشاكون فيه فخاطبهم الله عز وجل بهذا الخطاب، فقال: تمجد وتعالى: فإن كنت أيها الإنسان في شك مما أنزلنا إليك من الهدى على لسان محمد ﷺ فاسأل أهل الكتاب ليدلوك على صحة نبوته وإنما وحد الله الضمير في قوله فإن كنت وهو يريد الجمع لأنه خطاب

قوله تعالى: ﴿ إنّ الذينَ حَقّتْ عليهم ﴾، وجبتْ عليهم، ﴿ كلمةُ ربِّك ﴾، قيل: لعنته. وقال قتادة: سخطه. وقيل: الكلمة هي قوله: هؤلاء في النار ولا أبالي. ﴿ لا يُؤمنون ﴾.

﴿ ولو جاءتْهم كلُّ آيةٍ ﴾، دلالة، ﴿ حتى يَرَوُا العذابَ الأليم ﴾، قال الأخفش: أنت فعل كل لأنه مضاف إلى المؤنث وهي قوله: آية، ولفظ كل للمذكّر والمؤنّث سواء.

قوله تعالى: ﴿ فلولا كانتْ ﴾، فهلاّ كانت، ﴿ قريةٌ ﴾، ومعناه: فلم تكن قرية لأن في الاستفهام ضرباً من الجحد، أي: أهل قرية، ﴿ آمنتْ ﴾، عند معاينة العذاب، ﴿ فَنَفَعَها إيمانُها ﴾، في حال اليأس، ﴿ إلاّ قومَ يُونُسَ ﴾، فإنهم نفعهم إيمانهم في ذلك الوقت، ﴿ وقوم ﴾ نصبٌ على الاستثناء المنقطع، تقديره: ولكن قوم يونس، ﴿ لمّا آمنُوا كشفنا عنهم عذابَ الخِزي في الحياة الدنيا ومتَّعْنَاهم إلى حين ﴾ وهو وقت انقضاء آجالهم واختلفوا في أنهم هل رأوا العذاب عياناً أم لا؟ فقال بعضهم: رأوا دليل العذاب؟ والأكثرون على أنهم رأوا العذاب عياناً بدليل قوله: ﴿ كَشَفْنَا عنهم عذابَ الخزي ﴾ والكشف يكون بعد الوقوع أو إذا قَرُب. (وقصة الآية) على ما ذكر عبد الله بن مسعود وسعيد بن جبير ووهب وغيرهم: أن قوم يونس كانوا بنينوى من أرض الموصل فأرسل الله إليهم يونس يدعوهم إلى الإيمان فدعاهم فأبوا، فقيل له: أخبرهم أن العذاب مصبحهم إلى ثلاث، فأخبرهم بذلك، فقالوا: إنّا لم نجرّب عليه كذباً فانظرُوا فإن بات فيكم تلك الليلة فليس بشيء، وإن لم يبت فاعلموا أن العذاب مصبحكم، فلما كان في جوف تلك الليلة خرج يونس من بين أظهرهم فلما أصبحوا تغشّاهم العذاب فكان فوق رؤوسهم قدر ميل. وقال وهب: غامت السماء غيماً أسود هائلاً يدخن دخاناً شديداً فهبط حتى غشي مدينتهم

لجنس الإنسان كما في قوله تعالى: ﴿**يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم**﴾ لم يرد في الآية إنساناً بعينه بل أراد الجمع واختلفوا في المسؤول عنه في قوله تعالى: ﴿**فاسأل الذين يقرؤون الكتاب من قبلك**﴾ من هم فقال المحققون من أهل التفسير: هم الذين آمنوا من أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وأصحابه لأنهم هم الموثوق بأخبارهم.

وقيل: المراد كل أهل الكتاب سواء مؤمنهم وكافرهم لأن المقصود من هذا السؤال الإخبار بصحة نبوة محمد ﷺ أو أنه مكتوب عندهم صفته ونعته فإذا أخبروا بذلك فقد حصل المقصود والأول أصح. وقال الضحاك يعني أهل التقوى وأهل الإيمان من أهل الكتاب ممن أدرك النبي ﷺ ﴿**لقد جاءك الحق من ربك**﴾ هذا كلام مبتدأ منقطع عما قبله وفيه معنى القسم تقديره أقسم **لقد جاءك الحق** اليقين من الخير بأنك رسول الله حقاً وأن أهل الكتاب يعلمون صحة ذلك ﴿**فلا تكونن من الممترين**﴾ يعني من الشاكين في صحة ما أنزلنا إليك ﴿**ولا تكونن من الذين كذبوا بآيات الله**﴾ يعني بدلائله وبراهينه الواضحة ﴿**فتكون من الخاسرين**﴾ يعني الذين خسروا أنفسهم.

واعلم أن هذا كله على ما تقدم من أن ظاهره خطاب للنبي ﷺ والمراد به غيره ممن عنده شك وارتياب فإن النبي ﷺ لم يشك ولم يرتب ولم يكذب بآيات الله فثبت بهذا أن المراد به غيره والله أعلم.

قوله سبحانه وتعالى ﴿**إن الذين حقت عليهم**﴾ يعني وجبت عليهم ﴿**كلمة ربك**﴾ يعني حكم ربك وهو قوله سبحانه وتعالى: وخلقت هؤلاء للنار ولا أبالي وقال قتادة: سخط ربك وقيل لعنة ربك وقيل هو ما قدره عليهم وقضاه في الأزل ﴿**لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية**﴾ فإنهم لا يؤمنون بها ﴿**حتى يروا العذاب الأليم**﴾ فحينئذ لا ينفعهم شيء قوله سبحانه وتعالى: ﴿**فلولا**﴾ يعني فهلا ﴿**كانت قرية**﴾ وقيل معناه فما كانت قرية وقيل لم تكن قرية لأن في الاستفهام معنى الحجة والمراد هل كانت قرية ﴿**آمنت**﴾ يعني عند معاينة العذاب ﴿**فنفعها إيمانها**﴾ يعني في حال اليأس ﴿**إلا قوم يونس**﴾ هذا استثناء منقطع يعني لكن قوم يونس فإنهم آمنوا فنفعهم إيمانهم في ذلك الوقت وهو قوله ﴿**لما آمنوا**﴾ يعني لما أخلصوا الإيمان ﴿**كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين**﴾ يعني إلى وقت انقضاء آجالهم واختلفوا في قوم يونس هل رأوا العذاب عياناً أم لا فقال بعضهم رأوا دليل العذاب فآمنوا؛ وقال الأكثرون إنهم رأوا العذاب عياناً بدليل قوله كشفنا عنهم عذاب الخزي والكشف لا يكون إلا بعد الوقوع أو إذا قرب وقوعه.

(ذكر القصة في ذلك)

على ما ذكره عبد الله بن مسعود وسعيد بن جبير ووهب وغيرهم قالوا: إن قوم يونس كانوا بقرية نينوى من أرض الموصل وكانوا أهل كفر وشرك فأرسل الله سبحانه وتعالى إليهم يونس عليه السلام يدعوهم إلى الإيمان بالله

واسودّت سطوحهم، فلما رأوا ذلك أيقنوا بالهلاك، فطلبوا يونس نبيّهم فلم يجدوه، وقذف الله في قلوبهم التوبة فخرجوا إلى الصعيد بأنفسهم ونسائهم وصبيانهم ودوابهم، ولبسوا المُسوح وأظهروا الإيمان والتوبة، وأخلصوا النيّة وفرّقوا بين كل والدة وولدها من الناس والأنعام فحنّ بعضُها إلى بعض، وعلتِ الأصواتُ واختلطتْ أصواتُها بأصواتهم، وعجُّوا وتضرعوا إلى الله عزّ وجلّ، وقالوا: آمنّا بما جاء به يونس، فرحمهم ربّهم فاستجاب دعاءهم وكشف عنهم العذاب بعدما أضلّهم، وذلك يوم عاشوراء وكان يونس قد خرج فأقام ينتظر العذاب وهلاك قومه فلم يرَ شيئاً، وكان مَنْ كذّب ولم يكن له بيّنة قتل، فقال يونس: كيف أرجع إلى قومي وقد كذبتهم؟ فانطلق عاتباً على ربّه مغاضباً لقومه فأتى البحر فإذا قوم يركبون سفينة فعرفوه فحملوه بغير أجْر، فلما دخلها وتوسّطت بهم ولججت، ووقفت السفينة لا ترجع ولا تتقدم، قال أهل السفينة: إن لسفينتنا لشأناً، قال يونس: قد عرفت شأنها ركبها رجل ذو خطيئة عظيمة، قالوا: ومَن هو؟ قال: أنا اقذفوني في البحر، قالوا: ما كنّا لنطرحك من بيننا حتى نعذر في شأنك،

وترك عبادة الأصنام فدعاهم فأبوا عليه فقيل له أخبرهم أن العذاب مصبحهم إلى ثلاث فأخبرهم بذلك فقالوا إنا لم نجرب عليه كذباً قط فانظروا فإن بات فيكم الليلة فليس بشيء وإن لم يبت فاعلموا أن العذاب مصبحكم فلما كان جوف الليل خرج يونس من بين أظهرهم فلما أصبحوا تغشاهم العذاب فكان فوق رؤوسهم. قال ابن عباس: إن العذاب كان أهبط على قوم يونس حتى لم يكن بينهم وبينه إلا قدر ثلثي ميل فلما دعوا كشف الله عنهم ذلك.

وقال مقاتل: قدر ميل، وقال سعيد بن جبير: غشي قوم يونس العذاب كما يغشى الثوب القبر، وقال وهب: غامت السماء غيماً أسود هائلاً يدخن دخاناً شديداً فهبط حتى غشي مدينتهم واسودت أسطحتهم فلما رأوا ذلك أيقنوا بالهلاك فطلبوا نبيهم يونس عليه السلام فلم يجدوه فقذف الله سبحانه وتعالى في قلوبهم فخرجوا إلى الصحراء بأنفسهم ونسائهم وصبيانهم ودوابهم فلبسوا المسوح وأظهروا الإسلام والتوبة وفرقوا بين كل والدة وولدها من الناس والدواب فحن البعض إلى البعض فحن الأولاد إلى الأمهات والأمهات إلى الأولاد وعلت الأصوات وعجوا جميعاً إلى الله وتضرعوا إليه وقالوا آمنا بما جاء به يونس وتابوا إلى الله وأخلصوا النية فرحمهم ربهم فاستجاب دعاءهم وكشف عنهم ما نزل بهم من العذاب بعد ما أظلهم وكان ذلك اليوم يوم عاشوراء وكان يوم الجمعة.

قال ابن مسعود: بلغ من توبتهم أن ترادوا المظالم فيما بينهم حتى أن كان الرجل ليأتي إلى الحجر وقد وضع أساس بنيانه عليه فيقلعه فيرده.

وروى الطبري بسنده عن أبي الجلد خيلان قال: لما غشي قوم يونس العذاب مشوا إلى شيخ من بقية علمائهم فقالوا له إنه قد نزل بنا العذاب فما ترى قال قولوا يا حي حين لا حي ويا حي محيي الموتى ويا حي لا إله إلا أنت فقالوها فكشف الله عنهم العذاب ومتعوا إلى حين.

وقال الفضيل بن عياض: إنهم قالوا اللهم إن ذنوبنا قد عظمت وجلت وأنت أعظم وأجل فافعل بنا ما أنت أهله ولا تفعل بنا ما نحن أهله، قال: وخرج يونس وجعل ينتظر العذاب فلم ير شيئاً فقيل له ارجع إلى قومك قال وكيف أرجع إليهم فيجدوني كذاباً وكان من كذب ولا بينة له قال فانصرف عنهم مغاضباً فالتقمه الحوت وستأتي القصة في

واسْتَهَمُوا فاقترعُوا ثلاثَ مرات فأحضَّ سهمه، والحوت عند رجل السفينة فاغراً فاه ينتظر أمر ربِّه فيه، فقال يونس: إنكم والله لتهلكنّ جميعاً ولتطرحنني فيه، فقذفوه فيه وانطلقوا وأخذه الحوت. ورُوِيَ: أن الله تعالى أوحى إلى حوت عظيم حتى قصد السفينة، فلما رآه أهل السفينة مثل الجبل العظيم وقد فغر فاه ينظر إلى مَن في السفينة كأنه يطلب شيئاً خافوا منه ولما رآه يونس زجّ نفسه في الماء. وعن ابن عباس: أنه خرج مُغاضباً لقومه فأتى بحر الروم فإذا سفينة مشحونة، فركبها فلما لججت السفينة، تكفّأت حتى كادوا أن يغرقوا، فقال الملاّحون: ههنا رجل عاصٍ أو عبد آبق، وهكذا رسم السفينة إذا كان فيها آبق لا تجري، ومن رسمنا أن نقترع في مثل هذا فمَن وقعت عليه القرعة ألقيناه في البحر، ولأن يغرق واحد خير من أن تغرق السفينة بما فيها، فاقترعوا ثلاثَ مرات فوقعت القرعة في كلها على يونس، فقال يونس: أنا الرجل العاصي والعبد الآبق، فألقى نفسه في الماء فابتلعه حوت، ثم جاء حوت آخر أكبر منه وابتلع هذا الحوت، وأوحى الله إلى الحوت لا تؤذي منه شعرة فإني جعلت بطنك سجنه ولم أجعله طعاماً لك. ورُوِيَ عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: نُودي إنّا لم نجعل يونس لك قوتاً إنما جعلنا بطنك له حرزاً ومسجداً. ورُوِيَ: أنه قام قبل القرعة فقال: أنا العبد العاصي والآبق، قالوا: مَن أنت؟ قال: أنا يونس بن متّى، فعرفوه فقالوا: لا نلقيك يا رسول الله ولكن نُساهِمْ فخرجتِ القرعةُ عليه فألقى نفسه في الماء، قال ابن مسعود رضي الله عنه: ابتلعه الحوت فأهوى به إلى قرار الأرض السابعة، وكان في بطنه أربعين ليلة فسمع تسبيح الحصى،

سورة والصافات إن شاء الله تعالى فإن قلت كيف كشف العذاب عن قوم يونس بعد ما نزل بهم وقبل توبتهم ولم يكشف العذاب عن فرعون حين آمن ولم يقبل توبته.

قلت: أجاب العلماء عن هذا بأجوبة:

أحدها: أن ذلك كان خاصاً بقوم يونس والله يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد.

الجواب الثاني: أن فرعون ما آمن إلا بعد ما باشر العذاب وهو وقت اليأس من الحياة وقوم يونس دنا منهم العذاب ولم ينزل بهم ولم يباشرهم فكانوا كالمريض يخاف الموت ويرجو العافية.

الجواب الثالث: أن الله عز وجل علم صدق نياتهم في التوبة فقبل توبتهم بخلاف فرعون فإنه ما صدق في إيمانهم ولا أخلص فلم يقبل منه إيمانه والله أعلم.

وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾ قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِي ٱلْآيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾

قوله سبحانه وتعالى: ﴿**ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً**﴾ يقول الله عز وجل لنبيه محمد ﷺ ولو شاء ربك يا محمد لآمن بك وصدقك من في الأرض كلهم جميعاً ولكن لم يشأ أن يصدقك ويؤمن بك إلا من سبقت له السعادة في الأزل قال ابن عباس: إن رسول الله ﷺ كان يحرص أن يؤمن به جميع الناس ويتابعوه على الهدى فأخبره الله عز وجل أنه لا يؤمن به إلا من سبقت له من السعادة في الذكر الأول ولم يضل إلا من سبق له من الله الشقاء في الذكر الأول وفي هذا تسلية للنبي ﷺ لأنه كان حريصاً على إيمانهم كلهم فأخبره الله أنه لا يؤمن به إلا من سبقت له العناية الأزلية فلا تتعب نفسك على إيمانهم وهو قوله سبحانه وتعالى: ﴿**أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين**﴾ يعني ليس إيمانهم إليك حتى تكرههم عليه أو تحرص عليه إنما إيمان المؤمن وإضلال الكافر بمشيئتنا وقضائنا وقدرنا ليس

فنادى في الظلمات: أن لا إله إلاّ أنت سبحانك إني كنتُ مِنَ الظالمين، فأجاب الله له فأمر الحوت، فنبذه على ساحل البحر وهو كالفرخ الممعّط، فأنبت الله عليه شجرةً من يقطين، وهو الدباء، فجعل يستظلّ تحتها ووكّل به وعلة يشرب من لبنها فيبست الشجرة، فبكى عليها فأوحى الله إليه تبكي على شجرة يبست ولا تبكي على مائة ألف أو يزيدون وأردت أن أُهلكهم، فخرج يونس فإذا هو بغلام يرعى، فقال: مَن أنت يا غلام؟ قال: من قوم يونس، قال: إذا رجعتَ إليهم فأخبرهم أني لقيت يونس، فقال الغلام: قد تعلم أنه إن لم تكن لي بيّنة قُتلتُ، قال يونس عليه السلام: تشهد لك هذه البقعة وهذه الشجرة، فقال له الغلام: فمرْهما، فقال يونس: إذا جاءكما هذا الغلام فاشهدا له، قالتا: نعم، فرجع الغلام، فقال للملك: إني لقيت يونس فأمر الملك بقتله، فقال: إنّ لي بيّنة فأرسلوا معي فأتى البقعة والشجرة، فقال: أنشدكما هل أشهدكما يونس؟ قالتا: نعم، فرجع القوم مذعورين، وقالوا للملك: شهد له الشجرة والأرض، فأخذ الملك بيد الغلام وأجلسه في مجلسه، وقال: أنت أحق بهذا المكان منّي. فأقام لهم أمرهم ذلك الغلامُ أربعين سنة.

قوله تعالى: ﴿ **ولو شاءَ ربُّك** ﴾، يا محمد، ﴿ **لآمَنَ مَنْ في الأرض كلُّهُمْ جميعاً أفأنت تُكْرِهُ الناسَ حتّى يكونُوا مؤمنين** ﴾، هذه تسلية للنبي ﷺ وذلك أنه كان حريصاً على أن يؤمن جميع الناس، فأخبره الله جلّ ذكره: أنه

ذلك لأحد سوانا ﴿وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله﴾ يعني وما كان ينبغي لنفس خلقها الله تعالى أن تؤمن وتصدق إلا بقضاء الله لها بالإيمان فإن هدايتها إلى الله وهو الهادي المضل.

وقال ابن عباس: معنى بإذن الله، بأمر الله، وقال عطاء: بمشيئة الله قوله تعالى: ﴿ويجعل﴾ قرىء بالنون على سبيل التعظيم أي ونجعل نحن وقرىء بالياء ومعناه ويجعل الله ﴿الرجس﴾ يعني العذاب، وقال ابن عباس: يعني السخط ﴿على الذين لا يعقلون﴾ يعني لا يفهمون عن الله أمره ونهيه.

قوله عز وجل: ﴿قل انظروا﴾ أي: قل يا محمد لهؤلاء المشركين الذين يسألونك الآيات انظروا يعني انظروا بقلوبكم نظر اعتبار وتفكر وتدبر ﴿ماذا في السموات والأرض﴾ يعني: ماذا خلق الله في السموات والأرض من الآيات الدالة على وحدانيته ففي السموات الشمس والقمر وهما دليلان على النهار والليل والنجوم سخرها طالعة وغاربة وإنزال المطر من السماء وفي الأرض الجبال والبحار والمعادن والأنهار والأشجار والنبات كل ذلك آية دالة على وحدانية الله تعالى وأنه خالقها كما قال الشاعر:

وفــي كــل شــيء لــه آيــة تــدل علــى أنــه واحــد

﴿وما تغني الآيات والنذر﴾ يعني الرسل ﴿عن قوم لا يؤمنون﴾ وهذا في حق أقوام علم الله أنهم لا يؤمنون لما سبق لهم في الأزل من الشقاء.

فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِهِمْ قُلْ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ
الْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن
كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ
الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ
وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٦﴾

﴿فهل ينتظرون﴾ يعني مشركي مكة ﴿إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم﴾ يعني من مضى من قبلهم من الأمم السالفة المكذبة للرسل قال قتادة يعني وقائع الله في قوم نوح وعاد وثمود.

لا يؤمن إلاّ مَن سبق له السعادة، ولا يضلّ إلاّ مَن سبق له من الله الشقاوة.

﴿ وما كانَ لنفسٍ ﴾، وما ينبغي لنفس. وقيل: ما كانت نفس، ﴿ أن تُؤمنَ إلاّ بإذنِ اللّهِ ﴾، قال ابن عباس: بأمر الله. وقال عطاء: بمشيئة الله. وقيل: بعلم الله. ﴿ ويجعلُ الرِّجْسَ ﴾، قرأ أبو بكر: « ونجعل » بالنون، والباقون بالياء، أي: ويجعل الله الرجسَ أي: العذاب وهو الرجز، ﴿ على الذينَ لا يعقلُون ﴾، عن الله أمره ونهيه.

﴿ قُلِ انظرُوا ﴾، أي: قلْ للمشركين الذين يسألونك الآيات انظروا، ﴿ ماذا في السمٰواتِ والأرضِ ﴾، من الآيات والدلائل والعِبَر ففي السمٰوات الشمس والقمر والنجوم وغيرها، وفي الأرض الجبال والبحار والأنهار والأشجار وغيرها، ﴿ وما تُغني الآياتُ والنُّذرُ ﴾، الرسل، ﴿ عن قومٍ يُؤمِنُون ﴾، وهذا في قوم علم الله أنهم لا يؤمنون.

﴿ فهلْ ينتظِرُون ﴾، يعني: مشركي مكة، ﴿ إلاّ مثلَ أيّامِ الذينَ خلَوْا ﴾، مضوا، ﴿ من قبلِهم ﴾، من

والعرب تسمي العذاب أياماً والنعم أياماً كقوله تعالى وذكرهم بأيام الله والمعنى فهل ينتظر هؤلاء المشركون من قومك يا محمد إلا يوماً يعاينون فيه العذاب مثل ما فعلنا بالأمم السالفة المكذبة أهلكناهم جميعاً فإن كانوا ينتظرون ذلك العذاب فـ ﴿**قل فانتظروا**﴾ يعني: قل لهم يا محمد فانتظروا العذاب ﴿**إني معكم من المنتظرين**﴾ يعني: هلاككم، قال الربيع بن أنس: خوفهم عذابه ونقمته ثم أخبرهم أنه إذا وقع ذلك بهم أنجى الله رسله والذين آمنوا معهم من ذلك العذاب وهو قوله تعالى: ﴿**ثم ننجي رسلنا والذين آمنوا**﴾ يعني من العذاب والهلاك ﴿**كذلك حقاً علينا ننجي المؤمنين**﴾ يعني كما أنجينا رسلنا، والذين آمنوا معهم من الهلاك كذلك ننجيك يا محمد والذين آمنوا معك وصدقوك من الهلاك والعذاب.

قال بعض المتكلمين: المراد بقوله حقاً علينا الوجوب لأن تخليص الرسول والمؤمنين من العذاب واجب وأجيب عن هذا بأنه حق واجب من حيث الوعد والحكم لا أنه واجب بسبب الاستحقاق لأنه قد ثبت أن العبد لا يستحق على خالقه شيئاً.

قوله سبحانه وتعالى: ﴿**قل يا أيها الناس**﴾ الخطاب للنبي ﷺ أي قل يا محمد لهؤلاء الذين أرسلتك إليهم فشكوا في أمرك ولم يؤمنوا بك ﴿**إن كنتم في شك من ديني**﴾ يعني الذي أدعوكم إليه وإنما حصل الشك لبعضهم في أمره ﷺ لما رأى الآيات التي كانت تظهر على يد النبي ﷺ فحصل له الاضطراب والشك فقال إن كنتم في شك من ديني الذي أدعوكم إليه فلا ينبغي لكم أن تشكوا فيه لأنه دين إبراهيم عليه السلام وأنتم من ذريته وتعرفونه ولا تشكون فيه وإنما ينبغي لكم أن تشكوا في عبادتكم لهذه الأصنام التي لا أصل لها البتة فإن أصررتم على ما أنتم عليه ﴿**فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله**﴾ يعني هذه الأوثان وإنما وجب تقديم هذا النفي لأن العبادة هي غاية التعظيم للمعبود فلا تليق لأخس الأشياء وهي الحجارة التي لا تنفع لمن عبدها ولا تضر لمن تركها ولكن تليق العبادة لمن بيده النفع والضر وهو قادر على الإماتة والإحياء وهو قوله سبحانه وتعالى: ﴿**ولكن أعبد الله الذي يتوفاكم**﴾ والحكمة في وصف الله سبحانه وتعالى في هذا المقام بهذه الصفة أن المراد أن الذي يستحق العبادة أعبده أنا وأنتم هو الذي خلقكم أولاً ولم تكونوا شيئاً ثم يميتكم ثانياً ثم يحييكم بعد الموت ثالثاً، فاكتفى بذكر الوفاة تنبيهاً على الباقي، وقيل: لما كان الموت أشد الأشياء على النفس ذكر في هذ المقام ليكون أقوى في الزجر والردع وقيل إنهم لما استعجلوا بطلب العذاب أجابهم بقوله ولكن أعبد الله الذي هو قادر على إهلاككم ونصري عليكم ﴿**وأمرت أن أكون من المؤمنين**﴾ يعني وأمرني ربي أن أكون من المصدقين بما جاء من عنده قيل لما ذكر العبادة وهي من أعمال الجوارح أتبعها بذكر الإيمان لأنه من أعمال القلوب ﴿**وأن أقم وجهك للدين حنيفاً**﴾ الواو في قوله وأن أقم واو عطف معناه وأمرت أن أقيم وجهي يعني أقم نفسك على دين الاسلام حنيفاً يعني مستقيماً عليه غير معوج عنه إلى دين آخر، وقيل معناه أقم عملك على

مكذّبي الأمم، قال قتادة: يعني وقائع الله في قوم نوح وعاد وثمود. والعرب تسمّي العذاب أياماً والنِّعَم أياماً، كقوله: ﴿ **وذَكِّرهم بأيام الله** ﴾ [إبراهيم: ٥]، وكل ما مضى عليك من خير وشر فهو أيام، ﴿ **قلْ فانتظِرُوا إني معكم من المنتظِرين** ﴾.

﴿ **ثم نُنجِّي رُسلَنَا** ﴾، قرأ يعقوب «نُنجـي» خفيف مختلف عنه، ﴿ **والذينَ آمَنُوا** ﴾، معهم عند نزول العذاب معناه نجينا مستقبل بمعنى الماضي، ﴿ **كذلك** ﴾، كما نجّيناهم، ﴿ **حقّاً** ﴾، واجباً، ﴿ **علينا نُنْجِ المؤمنين** ﴾، قرأ الكسائي وحفص ويعقوب « ننجي » بالتخفيف والآخرون بالتشديد، ونجا وأنجى بمعنى واحد.

قوله تعالى: ﴿ **قلْ يا أيها الناس إنْ كنتُمْ في شكٍّ مِّن دِيني** ﴾، الذي أدعوكم إليه، فإن قيل: كيف قال إن كنتم في شكٍّ وهم كانوا يعتقدون بطلان ما جاء به؟ قيل: كان فيهم شاكّون فهم المراد بالآية، أو أنهم لمّا رأوا

الدين الحنيفي وقيل راد بقوله وأن أقم وجهك للدين صرف نفسه بكليته إلى طلب الدين الحنيفي غير مائل عنه ﴿**ولا تكونن من المشركين**﴾ يعني ولا تكونن ممن يشرك في عبادة ربه غيره فيهلك وقيل إن النهي عن عبادة الأوثان قد تقدم في الآية المتقدمة فوجب حمل هذا النهي على معنى زائد وهو أن من عرف الله عز وجل وعرف جميع أسمائه وصفاته وأنه المستحق للعبادة لا غيره فلا ينبغي له أن يلتفت إلى غيره بالكلية وهذا هو الذي تسميه أصحاب القلوب بالشكر الخفي ﴿**ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك**﴾ يعني إن عبدته ودعوته ﴿**ولا يضرك**﴾ يعني إن تركت عبادته ﴿**فإن فعلت**﴾ يعني ما نهيتك عنه فعبدت غيري أو طلبت النفع ودفع الضر من غيري ﴿**فإنك إذاً من الظالمين**﴾ يعني لنفسك لأنك وضعت العبادة في غير موضعها وهذا الخطاب وإن كان في الظاهر للنبي ﷺ فالمراد به غيره لأنه ﷺ لم يدع من دون الله شيئاً البتة فيكون المعنى ولا تدع أيها الإنسان من دون الله ما لا ينفعك، الآية.

﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَـٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿**وإن يمسسك الله بضر**﴾ يعني وإن يصبك الله بشدة وبلاء ﴿**فلا كاشف له**﴾ يعني لذلك الضر الذي أنزل بك ﴿**إلا هو**﴾ لا غيره ﴿**وإن يردك بخير**﴾ يعني بسعة ورخاء ﴿**فلا راد لفضله**﴾ يعني فلا دافع لرزقه ﴿**يصيب به**﴾ يعني: بكل واحد من الضر والخير ﴿**من يشاء من عباده**﴾ قيل إن الله سبحانه وتعالى لما ذكر الأوثان وبين أنها لا تقدر على نفع ولا ضر بين تعالى أنه هو القادر على ذلك كله، وأن جميع الكائنات محتاجة إليه وجميع الممكنات مستندة إليه لأنه هو القادر على كل شيء وأنه ذو الجود والكرم والرحمة ولهذا المعنى ختم الآية بقوله ﴿**وهو الغفور الرحيم**﴾ وفي الآية لطيفة أخرى وهي أن الله سبحانه وتعالى رجح جانب الخير على جانب الشر وذلك أنه تعالى لما ذكر إمساس الضر بين أنه لا كاشف له إلا هو وذلك يدل على أنه سبحانه وتعالى يزيل جميع المضار ويكشفها لأن الاستثناء من النفي إثبات.

ولما ذكر الخير قال فيه فلا راد لفضله يعني أن جميع الخيرات منه فلا يقدر أحد على ردها لأنه هو الذي يفيض

الآيات اضطربوا وشكّوا في أمرهم وأمر النبي ﷺ. قوله عزّ وجلّ: ﴿ **فلا أعبدُ الذينَ تعبدُون مِنْ دُونِ اللَّهِ** ﴾، من الأوثان، ﴿ **ولكنْ أعبُدُ اللَّهَ الذي يتوفّاكم** ﴾، يُميتكم ويقبض أرواحكم، ﴿ **وأُمرتُ أن أكونَ مِنَ المؤمنين** ﴾.

قوله: ﴿ **وأنْ أقِمْ وجهَكَ للدِّينِ حنيفاً** ﴾، قال ابن عباس: عملك. وقيل: استقم على الدين حنيفاً. ﴿ **ولا تكونَنَّ مِنَ المشركين** ﴾.

﴿ **ولا تَدْعُ** ﴾، ولا تعبد، ﴿ **مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لا ينفعُك** ﴾، إن أطعته، ﴿ **ولا يضرُّك** ﴾، إن عصيته، ﴿ **فإنْ فعلتَ** ﴾، فعبدت غيرَ اللَّهِ، ﴿ **فإنّك إذاً مِّنَ الظالمين** ﴾، الضارّين لأنفسهم الواضعين العبادة في غير موضعها.

﴿ **وإنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بضُرٍّ** ﴾، أي: يصبك بشدّة وبلاء، ﴿ **فلا كاشفَ له** ﴾، فلا دافع له، ﴿ **إلاّ هُوَ وإنْ يُرِدْكَ بخيرٍ** ﴾، رخاء ونعمة وسِعة، ﴿ **فلا رادّ لِفضْلِهِ** ﴾، فلا مانع لرزقه، ﴿ **يُصيبُ بهِ** ﴾، بكل واحد من الضرّ والخير، ﴿ **مَنْ يشاءُ من عبادِهِ وهو الغفُورُ الرحيمُ** ﴾.

جميع الخيرات على عباده وعضده بقوله وهو الغفور يعني الساتر لذنوب عباده الرحيم يعني بهم.

قوله سبحانه وتعالى: ﴿**قل يا أيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم**﴾ يعني القرآن والإسلام وقيل الحق هو محمد ﷺ جاء بالحق من الله عز وجل ﴿**فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه**﴾ لأن نفع ذلك يرجع إليه ﴿**ومن ضل فإنما يضل عليها**﴾ أي على نفسه لأن وباله راجع إليه فمن حكم الله له بالاهتداء في الأزل انتفع ومن حكم عليه بالضلال ضل ولم ينتفع بشيء أبداً ﴿**وما أنا عليكم بوكيل**﴾ يعني وما أنا عليكم بحفيظ أحفظ عليكم أعمالكم وقال ابن عباس: هذه الآية منسوخة بآية السيف ﴿**واتبع ما يوحى إليك**﴾ يعني الأمر الذي يوحيه الله إليك يا محمد ﴿**واصبر**﴾ يعني على أذى من خالفك من كفار مكة وهم قومك ﴿**حتى يحكم الله**﴾ يعني ينصرك عليهم بإظهار دينك ﴿**وهو خير الحاكمين**﴾ يعني أنه سبحانه وتعالى حكم بنصر نبيه وإظهار دينه وبقتل المشركين وأخذ الجزية من أهل الكتاب، وفيها ذلهم وصغارهم والله تعالى أعلم بمراده وأسرار كتابه.

﴿ **قلْ يا أيّها الناسُ قدْ جاءَكُم الحقُّ مِن ربِّكم** ﴾، يعني: القرآن والإسلام، ﴿ **فمَن اهْتَدى فإنّما يهتدي لنفسِهِ ومَن ضَلَّ فإنّما يَضِلُّ عليها** ﴾، أي: على نفسه وباله وعليه، ﴿ **وما أنا عليكمْ بوكيلٍ** ﴾، بكفيل أحفظ أعمالكم. قال ابن عباس: نسختها آية القتال.

﴿ **واتَّبِعْ ما يُوحَى إليكَ واصْبِرْ حتى يحكمَ الله** ﴾، بنصرك وقهر عدوّك وإظهار دينه، ﴿ **وهو خيرُ الحاكمين** ﴾، فحكم بقتال المشركين وبالجزية على أهل الكتاب يعطونها عن يَدٍ وهم صاغرون.

تفسير سورة هود عليه الصلاة والسلام

وهي مكية في قول ابن عباس وبه قال الحسن وعكرمة ومجاهد وابن زيد وقتادة وفي رواية عن ابن عباس أنها مكية غير آية وهي قوله سبحانه وتعالى: ﴿وأقم الصلاة طرفي النهار﴾ وعن قتادة نحوه وقال مقاتل: هي مكية إلا قوله سبحانه فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك وقوله أولئك يؤمنون به وقوله سبحانه وتعالى إن الحسنات يذهبن السيئات وهي مائة وثلاث وعشرون آية وألف وستمائة كلمة وتسعة آلاف وخمسمائة وسبعة وستون حرفاً عن ابن عباس قال: قال أبو بكر: يا رسول الله قد شبت قال: «شيبتني هود والواقعة والمرسلات وعم يتساءلون وإذا الشمس كورت» أخرجه الترمذي، وقال حديث حسن غريب. وفي رواية غيره قال قلت «يا رسول الله عجل إليك الشيب قال شيبتني هود وأخواتها الحاقة والواقعة وعم يتساءلون وهل أتاك حديث الغاشية»، قال بعض العلماء: سبب شيبه ﷺ من هذه السور المذكورة في الحديث لما فيها من ذكر القيامة والبعث والحساب والجنة والنار والله أعلم بمراد رسول الله ﷺ.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾

قوله عز وجل: ﴿الر كتاب أحكمت آياته﴾ قال ابن عباس: لم ينسخها كتاب كما نسخت هي الكتب والشرائع ﴿ثم فصلت﴾ يعني بينت وقال الحسن: أحكمت آياته بالأمر والنهي وفصلت بالثواب والعقاب وفي رواية عنه بالعكس، قال: أحكمت بالثواب والعقاب وفصلت بالأمر والنهي، وقال قتادة: أحكمها الله من الباطل ثم فصلها بعلمه فبين حلاله وحرامه وطاعته ومعصيته فيها وقيل: أحكمها الله فليس فيها تناقض ثم فصلها وبينها وقيل معناه نظمت آياته نظماً رصيناً محكماً بحيث لا يقع فيه نقض ولا خلل كالبناء المحكم الذي ليس فيه خلل ثم فصلت آياته سورة سورة وقيل إن آيات هذا الكتاب دالة على التوحيد وصحة النبوة والمعاد وأحوال القيامة وكل ذلك لا يدخله النسخ ثم فصلت بدلائل الأحكام والمواعظ والقصص والإخبار عن المغيبات، وقال مجاهد: فصلت بمعنى فسرت وثم في قوله ثم فصلت ليست هي للتراخي في الوقت ولكن في الحال كما تقول هي محكمة أحسن الإحكام ثم مفصلة أحسن التفصيل فإن قلت كيف عم الآيات هنا بالأحكام وخص بعضها في قوله منه آيات محكمات.

قلت: إن الإحكام الذي عم به هنا غير الذي خص به هناك فمعنى الإحكام العام هنا أنه لا يتطرق إلى آياته التناقض والفساد كأحكام البناء فإن هذا الكتاب نسخ جميع الكتب المتقدمة عليه والمراد بالإحكام الخاص المذكور

سُورَة هُــودْ

مكية إلّا قوله: ﴿ وأقِمِ الصلاةَ طَرَفي النَّهارِ ﴾ [١١٤]، وهي مائة وثلاث وعشرون آية.

﴿ آلر كِتَابٌ ﴾، أي: هذا كتاب، ﴿ أُحْكِمَتْ آياتُه ﴾، قال ابن عباس: لم ينسخ بكتاب كما نسخت الكتب

في قوله منه آيات محكمات أن بعض آياته منسوخة نسخها بآيات منه أيضاً لم ينسخها غيره وقيل أحكمت آياته أي معظم آياته محكمة وإن كان قد دخل النسخ على البعض فأجرى الكل على البعض لأن الحكم للغالب وإجراء الكل على البعض مستعمل في كلامهم تقول أكلت طعام زيد وإنما أكلت بعضه.

وقوله تعالى: ﴿من لدن حكيم﴾ يعني أحكمت آيات الكتاب من عند حكيم في جميع أفعاله ﴿خبير﴾ يعني بأحوال عباده وما يصلحهم.

أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥۖ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُواْ مِنْهُۚ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٥﴾

﴿ألا تعبدوا إلا الله﴾ هذا مفعول له معناه كتاب أحكمت آياته ثم فصلت لئلا تعبدوا إلا الله والمراد بالعبادة التوحيد وخلع الأنداد والأصنام وما كانوا يعبدون والرجوع إلى الله تعالى وإلى عبادته والدخول في دين الإسلام ﴿إنني لكم منه﴾ أي: قل لهم يا محمد إنني لكم من عند الله ﴿نذير﴾ ينذركم عقابه إن ثبتم على كفركم ولم ترجعوا عنه ﴿وبشير﴾ يعني وأبشر بالثواب الجزيل لمن آمن بالله ورسوله وأطاع وأخلص العمل لله وحده ﴿وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه﴾ اختلفوا في بيان الفرق بين هذين المرتبتين فقيل معناه اطلبوا من ربكم المغفرة لذنوبكم ثم ارجعوا إليه لأن الاستغفار هو طلب الغفر وهو الستر والتوبة الرجوع عما كان فيه من شرك أو معصية إلى خلاف ذلك فلهذا السبب قدم الاستغفار على التوبة وقيل معناه استغفروا ربكم لسالف ذنوبكم ثم توبوا إليه في المستقبل وقال الفراء: ثم هنا بمعنى الواو لأن الاستغفار والتوبة بمعنى واحد فذكرهما للتأكيد ﴿يمتعكم متاعاً حسناً﴾ يعني إنكم إذا فعلتم ما أمرتم به من الاستغفار والتوبة وأخلصتم العبادة لله عز وجل بسط عليكم من الدنيا وأسباب الرزق ما تعيشون به في أمن وسعة وخير، قال بعضهم: المتاع الحسن هو الرضا بالميسور والصبر على المقدور ﴿إلى أجل مسمى﴾ يعني يمتعكم متاعاً حسناً إلى حين الموت ووقت انقضاء آجالكم.

فإن قلت قد ورد في الحديث «إن الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر» وقد يضيق على الرجل في بعض أوقاته حتى لا يجد ما ينفقه على نفسه وعياله فكيف الجمع بين هذا وبين قوله سبحانه وتعالى يمتعكم متاعاً حسناً إلى أجل مسمى.

والشرائع به، ﴿ ثم فُصِّلَتْ ﴾، بُيِّنت بالأحكام والحلال والحرام. وقال الحسن: أُحكمت بالأمر والنهي، ثم فُصّلتْ بالوعد والوعيد. قال قتادة: أُحكمت أحكمها الله فليس فيها اختلاف ولا تناقض. وقال مجاهد: فُصّلتْ أي: فُسّرت. وقيل: فُصّلتْ أي: أنزلت شيئاً فشيئاً، ﴿ مِنْ لَدُنْ حكيمٍ خبيرٍ ﴾.

﴿ ألاّ تعبدُوا إلاّ اللّهَ ﴾، أي: في ذلك الكتاب أنْ لا تعبدوا إلاّ الله، ويكون محل (أن) رفعاً. وقيل: محله خفض تقديره: بأن لا تعبدوا إلاّ الله، ﴿ إنني لكم منه ﴾ أي: من الله ﴿ نذيرٌ ﴾، للعاصين، ﴿ وبشيرٌ ﴾. للمطيعين.

﴿ وأنِ ﴾، عطف على الأول، ﴿ استغفرُوا ربَّكم ثم تُوبُوا إليه ﴾، أي: ارجعوا إليه بالطاعة. قال الفرّاء:

قلت أما قوله ﷺ «الدنيا سجن المؤمن» فهو بالنسبة إلى ما أعد الله له في الآخرة من الثواب الجزيل والنعيم المقيم فإنه في سجن في الدنيا حتى يفضي إلى ذلك المعد له وأما كون الدنيا جنة الكافر فهو بالنسبة إلى ما أعد الله له في الآخرة من العذاب الأليم الدائم الذي لا ينقطع فهو في الدنيا في جنة حتى يفضي إلى ما أعد الله له في الآخرة وأما ما يضيق على الرجل المؤمن في بعض الأوقات فإنما ذلك لرفع الدرجات وتكفير السيئات وبيان الصبر عند المصيبات فعلى هذا يكون المؤمن في جميع أحواله في عيشة حسنة لأنه راض عن الله في جميع أحواله.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿**ويؤت كل ذي فضل فضله**﴾ أي ويعط كل ذي عمل صالح في الدنيا أجره وثوابه في الآخرة، قال أبو العالية: من كثرت طاعاته في الدنيا زادت حسناته ودرجاته في الجنة لأن الدرجات تكون على قدر الأعمال، وقال ابن عباس: من زادت حسناته على سيئاته دخل الجنة ومن زادت سيئاته دخل النار ومن استوت حسناته وسيئاته كان من الأعراف ثم يدخلون الجنة. وقال ابن مسعود: من عمل سيئة كتبت عليه سيئة ومن عمل حسنة كتبت له عشر حسنات فإن عوقب بالسيئة التي عملها في الدنيا بقيت له عشر حسنات وإن لم يعاقب بها في الدنيا أخذ من حسناته العشر واحدة وبقيت له تسع حسنات ثم يقول ابن مسعود: هلك من غلبت آحاده أعشاره وقيل معنى الآية من عمل لله وفقه الله في المستقبل لطاعته ﴿**وإن تولوا**﴾ يعني وإن أعرضوا عما جئتم به من الهدى ﴿**فإني أخاف عليكم**﴾ أي: فقل لهم يا محمد إني أخاف عليكم ﴿**عذاب يوم كبير**﴾ يعني: عذاب النار في الآخرة ﴿**إلى الله مرجعكم**﴾ يعني في الآخرة فيثيب المحسن على إحسانه ويعاقب المسيء على إساءته ﴿**وهو على كل شيء قدير**﴾ يعني من إيصال الرزق إليكم في الدنيا وثوابكم وعقابكم في الآخرة قوله سبحانه وتعالى: ﴿**ألا إنهم يثنون صدورهم**﴾ قال ابن عباس: نزلت في الأخنس بن شريق وكان رجلاً حلو الكلام حلو المنظر وكان يلقى رسول الله ﷺ بما يحب وينطوي بقلبه على ما يكره فنزلت ألا إنهم يثنون صدورهم يعني يخفون ما في صدورهم من الشحناء والعداوة من ثنيت الثوب إذا طويته. وقال عبد الله بن شداد بن الهاد: نزلت في بعض المنافقين كان إذا مر برسول الله ﷺ ثنى صدره

﴿ **ثم** ﴾ هنا بمعنى الواو، أي: وتوبوا إليه، لأن الاستغفار هو التوبة والتوبة هي الاستغفار. وقيل: أن استغفروا إليه في المستأنف ﴿ **يُمتِّعْكُمْ مَّتَاعاً حسناً** ﴾، يعيشكم عيشاً حسناً في خفض ودعة وأمن وسعة. قال بعضهم: العيش الحسن هو الرضى بالميسور والصبر على المقدور. ﴿ **إلى أجلٍ مسمّىً** ﴾، إلى حين الموت، ﴿ **ويُؤتِ كلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ** ﴾، أي: ويؤت كل ذي عمل صالح في الدنيا أجره وثوابه في الآخرة. وقال أبو العالية: مَن كثرت طاعته في الدنيا زادت درجاته في الآخرة في الجنّة، لأن الدرجات تكون بالأعمال. وقال ابن عباس: مَن زادت حسناته على سيآته دخل الجنة، ومَن زادت سيآته على حسناته دخل النار، ومَن استوت حسناته وسيآته كان من الأعراف، ثم يدخل الجنة بعد. وقيل: يؤتِ كلّ ذي فضل فضله يعني: مَن عمل لله عزّ وجلّ وفّقه الله فيما يستقبل على طاعته. ﴿ **وإنْ تَوَلَّوا** ﴾، أعرضوا، ﴿ **فإني أخافُ عليكم عذابَ يومٍ كبير** ﴾، وهو يوم القيامة.

﴿ **إلى اللَّهِ مَرْجِعُكم وهو على كلِّ شيءٍ قدير** ﴾.

قوله تعالى: ﴿ **ألاَ إنهم يَثْنُونَ صدورَهم** ﴾، قال ابن عباس: نزلت في الأخنس بن شُريق وكان رجلاً حلو الكلام حلو المنظر، يلقى رسول الله ﷺ بما يحبّ وينطوي بقلبه على ما يكره، قوله: ﴿ **يثنون صدورهم** ﴾ أي: يُخفون ما في صدورهم من الشحناء والعداوة. وقال عبد الله بن شدّاد: نزلت هذه الآية في بعض المنافقين كان إذا مَرَّ برسول الله ﷺ ثنى صدره وحنى ظهره وطأطأ رأسه وغطّى وجهه كي لا يراه النبي ﷺ. وقال قتادة: كانوا يحنون صدورهم كي لا يسمعوا كتاب الله تعالى ولا ذكره. وقيل: كان الرجل من الكفّار يدخل بيته ويرخي ستره ويحني ظهره ويتغشى بثوبه. ويقول: هل يعلم الله ما في قلبي. وقال السدي: يثنون أي: يعرضون بقلوبهم، من قولهم:

وظهره وطأطأ رأسه وغطى وجهه كي لا يراه رسول الله ﷺ. وقال قتادة: كانوا يحنون صدورهم كي لا يسمعوا كتاب الله تعالى ولا ذكره وقيل كان الرجل من الكفار يدخل بيته ويرخي ستره ويحني ظهره ويتغشى بثوبه ويقول هل يعلم الله ما في قلبي، وقال السدي: يثنون صدورهم أي يعرضون بقلوبهم من قولهم ثنيت عناني ﴿**ليستخفوا منه**﴾ يعني من رسول الله ﷺ وقال مجاهد من الله عز وجل إن استطاعوا ﴿**ألا حين يستغشون ثيابهم**﴾ يعني يغطون رؤوسهم بثيابهم ﴿**يعلم ما يسرون وما يعلنون إنه عليم بذات الصدور**﴾ ومعنى الآية على ما قاله الأزهري: إن الذين أضمروا عداوة رسول الله ﷺ لا يخفى علينا حالهم في كل حال وقد نقل عن ابن عباس غير هذا التفسير وهو ما أخرجه البخاري في إفراده عن محمد بن عياش بن جعفر المخزومي أنه سمع ابن عباس يقرأ: ألا إنهم يثنون صدورهم، قال: فسألته عنها فقال كل أناس يستحيون أن يتخلوا فيفضوا إلى السماء وأن يجامعوا نساءهم فيفضوا إلى السماء فنزل ذلك فيهم.

۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿**وما من دابة في الأرض**﴾ الدابة اسم لكل حيوان دب على وجه الأرض وأطلق لفظ الدابة على كل ذي أربع من الحيوان على سبيل العرف والمراد منه الإطلاق فيدخل الآدمي وغيره من جميع الحيوانات ﴿**إلا على الله رزقها**﴾ يعني هو المتكفل برزقها فضلاً منه لا على سبيل الوجوب فهو إلى مشيئته إن شاء رزق وإن شاء لم يرزق وقيل إن لفظة على بمعنى أي من الله رزقها وقال مجاهد ما جاءها من رزق فمن الله وربما لم يرزقها فتموت جوعاً ﴿**ويعلم مستقرها ومستودعها**﴾ قال ابن عباس: مستقرها المكان الذي تأوي في ليل أو نهار ومستودعها المكان الذي تدفن فيه بعد الموت، وقال ابن مسعود: مستقرها أرحام الأمهات والمستودع المكان الذي تموت فيه وقيل المستقر الجنة أو النار والمستودع القبر ﴿**كل في كتاب مبين**﴾ أي كل ذلك مثبت في اللوح المحفوظ قبل خلقها قوله عز وجل: ﴿**وهو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء**﴾ يعني قبل خلق السموات والأرض قال كعب خلق الله ياقوتة خضراء ثم نظر إليها بالهيبة فصارت ماء يرتعد ثم خلق الريح فجعل الماء على متنها ثم وضع

ثنيت عناني. وقيل: يعطفون، ومنه ثني الثوب. وقرأ ابن عباس: «يثنـوني» على وزن يحلو لي جعل الفعل للصدور ومعناه المبالغة في الثني. ﴿ **لِيَسْتَخْفُوا منه** ﴾، أي: من رسول الله ﷺ. وقال مجاهد: ليستخفوا من الله إن استطاعوا، ﴿ **ألَا حين يستغشون ثيابَهم** ﴾، يغطّون رؤوسهم بثيابهم، ﴿ **يعلمُ ما يُسرّون وما يُعلنون إنّه عليمٌ بذاتِ الصدور** ﴾، قال الأزهري: معنى الآية من أولها إلى آخرها: إن الذين أضمروا عداوة رسول الله ﷺ لا يخفى علينا حالهم. أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا الحسن بن محمد بن صباح ثنا حجّاج قال: قال ابن جريج أخبرني محمد بن عباد بن جعفر أنه سمع ابن عباس رضي الله عنهما يقرأ: ﴿ **ألَا إنّهم يَثْنُون صدورَهم** ﴾، فقال: سألته عنها فقال: كان أُناس يستحيون أن يتخلّوا فيفضوا إلى السّماء، وأن يجامعوا نساءهم فيفضوا إلى السماء، فنزل ذلك فيهم.

قوله تعالى: ﴿ **وما مِنْ دابّةٍ في الأرض** ﴾، أي: ليس دابّة، ﴿ **من** ﴾ صلة، والدابّة: كل حيوان يدبّ على وجه الأرض. وقوله: ﴿ **إلّا على اللّهِ رِزْقُها** ﴾، أي: هو المتكفّل بذلك فضلاً وهو إلى مشيئته إن شاء رزق وإن شاء لم يرزق. وقيل: على بمعنى من أي: من الله رزقها. وقال مجاهد: ما جاءها من رزق فمن الله عزّ وجلّ، وربما لم يرزقها حتى تموت جوعاً. ﴿ **ويعلمُ مستقرَّها ومستودَعها** ﴾، قال ابن مقسم: ويُروَى ذلك عن ابن عباس مستقرّها

العرش على الماء. قال ضمرة: إن الله سبحانه وتعالى كان عرشه على الماء ثم خلق السموات والأرض وخلق القلم فكتب به ما خلق وما هو خالق وما هو كائن من خلقه إلى يوم القيامة ثم إن ذلك الكتاب سبح الله ومجده ألف عام قبل أن يخلق شيئاً من خلقه.

وقال سعيد بن جبير سئل ابن عباس عن قوله سبحانه وتعالى: ﴿وكان عرشه على الماء﴾ على أي شيء كان الماء قال: على متن الريح، وقال وهب بن منبه: إن العرش كان قبل أن يخلق الله السموات والأرض ثم قبض الله قبضة من صفاء الماء ثم فتح القبضة فارتفع دخان ثم قضاهن سبع سموات في يومين ثم أخذ سبحانه وتعالى طينة من الماء فوضعها مكان البيت ثم دحا الأرض منها ثم خلق الأقوات في يومين والسموات في يومين والأرض في يومين ثم فرغ آخر الخلق وفي اليوم السابع. قال بعض العلماء: وفي خلق جميع الأشياء وجعلها على الماء ما يدل على كمال القدرة لأن البناء الضعيف إذا لم يكن له أساس على أرض صلبة لم يثبت فكيف بهذا الخلق العظيم وهو العرش والسموات والأرض على الماء فهذا يدل على كمال قدرة الله تعالى (خ) عن عمران بن حصين قال «دخلت على النبي ﷺ وعقلت ناقتي بالباب فأتى ناس من بني تميم فقال اقبلوا البشرى يا بني تميم فقالوا بشرتنا فاعطنا مرتين فتغير وجهه ثم دخل عليه ناس من أهل اليمن فقال اقبلوا البشرى يا أهل اليمن إذ لم يقبلها بنو تميم قالوا قبلنا يا رسول الله ثم قالوا جئنا لنتفقه في الدين ولنسألك عن أول هذا الأمر ما كان قال كان الله سبحانه وتعالى ولم يكن معه شيء قبله وكان عرشه على الماء ثم خلق السموات والأرض وكتب في الذكر كل شيء ثم أتاني رجل فقال يا عمران أدرك ناقتك فقد ذهبت فانطلقت أطلبها فإذا السراب يقطع دونها وايم الله لوددت أنها ذهبت ولم أقم» عن أبي رزين العقيلي قال: قلت يا رسول الله أين كان ربنا قبل أن يخلق خلقه؟ قال «كان في عماء ما فوقه هواء وما تحته هواء وخلق عرشه على الماء» أخرجه الترمذي، وقال قال أحمد: يريد بالعماء أنه ليس معه شيء قال أبو بكر البيهقي: في كتاب الأسماء والصفات له قوله ﷺ «كان الله ولم يكن شيء قبله، يعني لا الماء ولا العرش ولا غيرهما وقوله «وكان عرشه على الماء» يعني وخلق الماء وخلق العرش على الماء ثم كتب في الذكر كل شيء، وقوله في عماء وجدته في كتاب عماء مقيداً بالمد فإن كان في الأصل ممدوداً فمعناه سحاب رقيق ويريد بقوله في عماء أي فوق سحاب مدبراً له وعالياً عليه كما قال سبحانه وتعالى «أأمنتم من في السماء» يعني من فوق السماء وقال تعالى: ﴿لأصلبنكم في جذوع النخل﴾ يعني على جذوعها وقوله ﴿ما فوقه هواء﴾ أي ما فوق السحاب هواء وكذلك قوله ﴿وما تحته هواء﴾ أي ما تحت السحاب هواء وقد قيل إن ذلك العمى مقصور والعمى إذا كان مقصوراً فمعناه لا شيء ثابت لأنه مما عمى عن الخلق لكونه غير شيء فكأنه قال في جوابه كان قبل أن يخلق خلقه ولم يكن شيء غيره ثم قال ما فوقه هواء وما تحته هواء أي ليس فوق العمى الذي هو لا شيء موجود هواء ولا تحته هواء لأن ذلك إن كان غير شيء فليس يثبت له هواء بوجه والله أعلم وقال الهروي صاحب الغريبين: قال بعض أهل العلم معناه أين كان عرش ربنا فحذف المضاف اختصاراً كقوله واسأل

المكان الذي تأوي إليه وتستقرّ فيه ليلاً ونهاراً، ومستودعها: الموضع الذي تدفن فيه إذا ماتت. وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: المستقر أرحام الأمهات والمستودع المكان الذي تموت فيه. وقال عطاء: المستقر أرحام الأمهات والمستودع أصلاب الآباء. ورواه سعيد بن جبير وعليّ بن طلحة وعكرمة عن ابن عباس. وقيل: المستقر الجنة أو النار والمستودع القبر، لقوله تعالى في صفة الجنة والنار: ﴿ حَسُنَتْ مُسْتَقَرّاً ومُقَاماً ﴾ [الفرقان: ٧٦].
﴿ كلٌّ في كتابٍ مبين ﴾، أي: كلٌّ مثبت في اللوح المحفوظ قبل أن خلقها.

قوله تعالى: ﴿ وهو الذي خلقَ السمٰواتِ والأرضَ في ستّةِ أيامٍ وكانَ عرشُه على الماءِ ﴾، قبل أن خلق السماءَ والأرض وكان ذلك الماء على متن الريح. قال كعب: خلق الله عزّ وجلّ ياقوتةً خضراء ثم نظر إليها بالهيبة

القرية ويدل على ذلك قوله سبحانه وتعالى: ﴿وكان عرشه على الماء﴾ هذا آخر كلام البيهقي، وقال ابن الأثير: العماء في اللغة السحاب الرقيق وقيل: الكثيف وقيل: هو الضباب ولا بد في الحديث من حذف مضاف، تقديره أين كان عرش ربنا فحذف ويدل على هذا المحذوف قوله تعالى: ﴿وكان عرشه على الماء﴾ وحكي عن بعضهم في العمى المقصور أنه قال هو كل أمر لا يدركه الفطن، وقال الأزهري: قال أبو عبيد إنما تأولنا هذا الحديث على كلام العرب المعقول عنهم وإلا فلا ندري كيف كان ذلك العماء قال الأزهري: فنحن نؤمن به ولا نكيف صفته (م) عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال سمعت رسول الله ﷺ يقول «كتب الله مقادير الخلق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة وكان عرشه على الماء» وفي رواية «فرغ الله من المقادير وأمور الدنيا قبل أن يخلق السموات والأرض وكان عرشه على الماء بخمسين ألف سنة» قوله فرغ يريد إتمام خلق المقادير لا أنه كان مشغولاً ففرغ منه لأن الله سبحانه وتعالى لا يشغله شأن عن شأن فإنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون.

قوله سبحانه وتعالى: ﴿ليبلوكم﴾ يعني ليختبركم وهو أعلم بكم منكم ﴿أيكم أحسن عملاً﴾ يعني بطاعة الله وأورع عن محارم الله ﴿ولئن قلت﴾ يعني ولئن قلت يا محمد لهؤلاء الكفار من قومك ﴿إنكم مبعوثون من بعد الموت﴾ يعني للحساب والجزاء ﴿ليقولن الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين﴾ يعنون القرآن.

وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ ۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾

﴿ولئن أخرنا عنهم العذاب إلى أمة معدودة﴾ يعني إلى أجل محدود وأصل الأمة في اللغة الجماعة من الناس فكأنه قال سبحانه وتعالى إلى انقراض أمة ومجيء أمة أخرى ﴿ليقولن ما يحبسه﴾ يعني: أي شيء يحبس العذاب وإنما يقولون ذلك استعجالاً بالعذاب واستهزاء يعنون أنه ليس بشيء قال الله عز وجل: ﴿ألا يوم يأتيهم﴾ يعني العذاب ﴿ليس مصروفاً عنهم﴾ أي لا يصرفه عنهم شيء ﴿وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون﴾ يعني ونزل بهم وبال استهزائهم.

فصارت ماء يرتعد ثم خلق الريح، فجعل الماء على متنها ثم وضع العرش على الماء. وقال ضمرة: إن الله تعالى كان عرشه على الماء ثم خلق السمٰوات والأرض، وخلق القلم فكتب به ما هو خالق وما هو كائن من خلقه، ثم إن ذلك الكتاب سبّح الله ومجّده ألف عام قبل أن يخلق شيئاً من خلقه. ﴿ لِيَبْلُوكُمْ ﴾، ليختبركم وهو أعلم، ﴿ أيُكم أحسنُ عملاً ﴾، عمل بطاعة الله وأورع عن محارم الله تعالى. ﴿ ولَئِنْ قلتَ ﴾، يا محمد، ﴿ إنّكم مبعوثون من بعد الموتِ لَيَقُولُنَّ الذين كفرُوا إنْ هذا إلاّ سحرٌ مبين ﴾، يعنون القرآن. وقرأ حمزة والكسائي: « ساحر » يعنون محمداً ﷺ.

﴿ ولَئِنْ أخَّرْنا عنهمُ العذاب إلى أُمّةٍ معدودةٍ ﴾، إلى أجل محدود، وأصل الأُمة الجماعة، فكأنه قال: إلى انقراض أمة ومجيء أمة أخرى ﴿ لَيَقُولُنّ ما يَحْبِسُه ﴾، أي: أيُّ شيء يحبسه؟ يقولونه استعجالاً للعذاب واستهزاءً،

قوله سبحانه وتعالى: **﴿ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة﴾** يعني: رخاء وسعة في الرزق والعيش وبسطنا عليه من الدنيا **﴿ثم نزعناها منه﴾** يعني سلبناه ذلك كله وأصابته المصائب فاجتاحته وذهبت به **﴿إنه ليؤوس كفور﴾** يعني يظل قانطاً من رحمة الله آيساً من كل خير كفور أي جحود لنعمتنا عليه أولاً قليل الشكر لربه قال بعضهم: يا ابن آدم إذا كانت بك نعمة من الله من أمن وسعة وعافية فاشكرها ولا تجحدها فإن نزعت عنك فينبغي لك أن تصبر ولا تيأس من رحمة الله فإنه العواد على عباده بالخير وهو قوله سبحانه وتعالى: **﴿ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته﴾** يعني ولئن نحن أنعمنا على الإنسان وبسطنا عليه من العيش **﴿ليقولن﴾** يعني الذي أصابه الخير والسعة **﴿ذهب السيئات عني﴾** يعني ذهب الشدائد والعسر والضيق وإنما قال ذلك غرة بالله عز وجل وجرأة عليه لأنه لم يضف الأشياء كلها إلى الله وإنما أضافها إلى العوائد فلهذا ذمه الله تعالى فقال **﴿إنه لفرح فخور﴾** أي إنه أشر بطر والفرح لذة تحصل في القلب بنيل المراد والمشتهى والفخر هو التطاول على الناس بتعديد المناقب وذلك منهي عنه ثم استثنى فقال تبارك وتعالى: **﴿إلا الذين صبروا، وعملوا الصالحات﴾** قال الفراء: هذا استثناء منقطع معناه لكن الذين صبروا وعملوا الصالحات فإنهم ليسوا كذلك فإنهم إن نالتهم شدة صبروا وإن نالتهم نعمة شكروا عليها **﴿أولئك﴾** يعني من هذه صفتهم **﴿لهم مغفرة﴾** يعني لذنوبهم **﴿وأجر كبير﴾** يعني الجنة.

قوله عز وجل: **﴿فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك﴾** الخطاب للنبي ﷺ يقول الله عز وجل لنبيه محمد ﷺ فلعلك يا محمد تارك بعض ما يوحى إليك ربك أن تبلغه إلى من أمرك أن تبلغ ذلك إليه **﴿وضائق به صدرك﴾** يعني ويضيق صدرك بما يوحى إليك فلا تبلغه إياهم وذلك أن كفار مكة قالوا ائت بقرآن غير هذا ليس فيه سب آلهتنا فهم النبي ﷺ أن يترك ذكر آلهتهم ظاهراً فأنزل الله عز وجل فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك يعني من ذكر آلهتهم هذا ما ذكره المفسرون في معنى هذه الآية وأجمع المسلمون على أنه ﷺ فيما كان طريقه البلاغ فإنه معصوم فيه من الإخبار عن شيء منه بخلاف ما هو به لا خطأ ولا عمداً ولا سهواً ولا غلطاً وأنه ﷺ بلغ جميع ما أنزل الله عليه إلى أمته ولم يكتم منه شيئاً وأجمعوا على أنه لا يجوز على رسول الله ﷺ خيانة في الوحي والإنذار ولا يترك بعض ما أوحي إليه لقول أحد لأن تجويز ذلك يؤدي إلى الشك في أداء الشرائع والتكاليف لأن المقصود من إرسال الرسول التبليغ إلى من أرسل إليه فإذا لم يحصل ذلك فقد فاتت فائدة الرسالة والنبي ﷺ معصوم من ذلك كله وإذا ثبت هذا وجب أن يكون المراد بقوله تعالى فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك شيئاً آخر سوى ما ذكره المفسرون.

يعنون أنه ليس بشيء. قال الله تعالى: **﴿ألَا يومَ يأتيهم﴾**، يعني: العذاب، **﴿ليسَ مصروفاً عنهم﴾**، لا يكون مصروفاً عنهم، **﴿وحَاقَ بهم﴾**، نزل بهم، **﴿ما كانُوا به يستهزؤون﴾**، أي: وبال استهزائهم.

قوله تعالى: **﴿ولَئِنْ أذقْنا الإنسان منّا رحمةً﴾**، نعمة وسعة، **﴿ثمّ نزعنَاها منه﴾**، أي: سلبناها منه، **﴿إنه لَيَئُوسٌ﴾**، قنوط في الشدة، **﴿كفورٌ﴾** النعمة.

﴿ولئن أذقْناه نعماءَ بعد ضرّاءَ مَسّتْهُ﴾، بعد بلاء أصابه، **﴿لَيَقُولَنَّ ذهبَ السيئاتُ عنّي﴾**، زالت الشدائد عنّي، **﴿إنه لَفَرِحٌ فخورٌ﴾**، أشر بطر، والفرح لذّة في القلب بنيل المشتهى والفخر هو التطاول على الناس بتعديد المناقب وذلك منهيٌّ عنه.

﴿إلّا الذين صبرُوا﴾، قال الفرّاء: هذا استثناء منقطع معناه: لكنّ الذين صبرُوا **﴿وعملوا الصالحات﴾**، فإنهم إن نالتهم شدّة صبروا وإن نالوا نعمة شكروا، **﴿أولئك لهم مغفرةٌ﴾**، لذنوبهم، **﴿وأجرٌ كبير﴾**، وهو الجنة.

وللعلماء في ذلك أجوبة:

أحدها: قال ابن الأنباري: قد علم الله سبحانه وتعالى أن النبي ﷺ لا يترك شيئاً مما يوحى إليه إشفاقاً من موجدة أحد وغضبه ولكن الله تعالى أكد على رسول الله ﷺ في متابعة الإبلاغ من الله سبحانه وتعالى كما قال: ﴿يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك﴾ الآية.

الثاني: أن هذا من حثه سبحانه وتعالى لنبيه ﷺ وتحريضه على أداء ما أنزله إليه والله سبحانه وتعالى من وراء ذلك في عصمته مما يخافه ويخشاه.

الثالث: أن الكفار كانوا يستهزئون بالقرآن ويضحكون منه ويتهاونون به وكان رسول الله ﷺ يضيق صدره لذلك وأن يلقي إليهم ما لا يقبلونه ويستهزئون به فأمره الله سبحانه وتعالى بتبليغ ما أوحي إليه وأن لا يلتفت إلى استهزائهم وأن تحمل هذا الضرر أهون من كتم شيء من الوحي، والمقصود من هذا الكلام التنبيه على هذه الدقيقة لأن الإنسان إذا علم أن كل واحد من طرفي الفعل والترك مشتمل على ضرر عظيم ثم علم أن الضرر في باب الترك أعظم سهل عليه الإقدام على الفعل، وقيل: إن الله سبحانه وتعالى مع علمه بأن رسول الله ﷺ لا يترك شيئاً من الوحي هيجه لأداء الرسالة وطرح المبالاة باستهزائهم وردهم إلى قبول قوله بقوله: ﴿**فعلك تارك بعض ما يوحى إليك**﴾ أي لعلك تترك أن تلقيه إليهم مخافة ردهم واستهزائهم به وضائق به صدرك أي بأن تتلوه عليهم ﴿**أن يقولوا**﴾ يعني مخافة أن يقولوا ﴿**لولا أنزل عليه كنز**﴾ يعني يستغني به وينفقه ﴿**أو جاء معه ملك**﴾ يعني يشهد بصدقه وقائل هذه المقالة هو عبد الله بن أمية المخزومي.

والمعنى أنهم قالوا لرسول الله ﷺ إن كانت صادقاً في قولك بأنك رسول الله الذي تصفه بالقدرة على كل شيء وأنت عزيز عنده مع أنك فقير فهلا أنزل عليك ما تستغني به أنت وأصحابك وهل أنزل عليك ملكاً يشهد لك بالرسالة فتزول الشبهة في أمرك فأخبر الله عز وجل أنه ﷺ نذير بقوله عز وجل: ﴿**إنما أنت نذير**﴾ تنذر بالعقاب لمن خالفك وعصى أمرك وتبشر بالثواب لمن أطاعك وآمن بك وصدقك ﴿**والله على كل شيء وكيل**﴾ يعني أنه سبحانه وتعالى حافظ يحفظ أقوالهم وأعمالهم فيجازيهم عليها يوم القيامة.

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾﴾

قوله سبحانه وتعالى: ﴿**أم يقولون افتراه**﴾ يعني بل يقول كفار مكة اختلقه يعني ما أوحي إليه من القرآن ﴿**قل**﴾

﴿ **فلعلّكَ** ﴾، يا محمد، ﴿ **تاركٌ بعضَ ما يُوحَى إليك** ﴾، فلا تبلغه إياهم. وذلك أن كفّار مكّة لمّا قالوا: ﴿ ائتِ بقرآن غير هذا ﴾ [يونس: ١٥] ليس فيه سبّ آلهتنا همَّ النبيُّ ﷺ أن يدعَ آلهتَهم ظاهراً، فأنزل الله تعالى: ﴿ **فلعلّك تاركٌ بعضَ ما يُوحَى إليك** ﴾ يعني: سبَّ الآلهة، ﴿ **وضائقٌ بهِ صَدْرُك** ﴾، أي: فلعلّك يضيق صدرك ﴿ **أنْ يقولوا** ﴾، أي: لأن يقولوا، ﴿ **لولا أُنزلَ عليه كَنْزٌ** ﴾ ينفقه ﴿ **أو جاءَ معه مَلَكٌ** ﴾، يصدقه، قاله عبد الله بن أميّة المخزومي. قال الله تعالى: ﴿ **إنّما أنتَ نذيرٌ** ﴾ ليس عليك إلّا البلاغ، ﴿ **واللّهُ على كلِّ شيءٍ وكيلٌ** ﴾، حافظ.

﴿ **أم يقولون افتراه** ﴾، بل يقولون اختلقه، ﴿ **قلْ فأتُوا بعشرِ سُوَرٍ مثلِهِ مُفترياتٍ** ﴾، فإن قيلَ: قد قال في

أي قل لهم يا محمد ﴿**فأتوا بعشر سور مثله مفتريات**﴾ لما قالوا له افتريت هذا القرآن واختلقته من عند نفسك وليس هو من عند الله تحداهم وأرخى لهم العنان وفاوضهم على مثل دعواهم فقال ﷺ هبوا أني اختلقته من عند نفسي ولم يوح إلي شيء وأن الأمر كما قلتم وأنتم عرب مثلي من أهل الفصاحة وفرسان البلاغة وأصحاب اللسان فأتوا أنتم بكلام مثل هذا الكلام الذي جئتكم به مختلق من عند أنفسكم فإنكم تقدرون على مثل ما أقدر عليه من الكلام فلهذا قال سبحانه وتعالى: ﴿**فأتوا بعشر سور مثله مفتريات**﴾ في مقابلة قولهم افتراه.

فإن قلت قد تحداهم بأن يأتوا بسورة مثله فلم يقدروا على ذلك وعجزوا عنه فكيف قالوا فأتوا بعشر سور مثله مفتريات ومن عجز عن سورة واحدة فهو عن العشرة أعجز.

قلت: قد قال بعضهم إن سورة هود نزلت قبل سورة يونس، وأنه تحداهم أولاً بعشر سور فلما عجزوا تحداهم بسورة يونس وأنكر المبرد هذا القول وقال: إن سورة يونس نزلت أولاً، قال: ومعنى قوله في سورة يونس فأتوا بسورة مثله يعني مثله في الإخبار عن الغيب والأحكام والوعد والوعيد وفي قوله في سورة هود فأتوا بعشر سور مثله يعني في مجرد الفصاحة والبلاغة من غير خبر عن غيب ولا ذكر حكم ولا وعد ولا وعيد فلما تحداهم بهذا الكلام أمره بأن يقول لهم ﴿**وادعوا من استطعتم من دون الله**﴾ حتى يعينوكم على ذلك ﴿**إن كنتم صادقين**﴾ يعني في قولكم إنه مفترى ﴿**فإن لم يستجيبوا لكم**﴾ اعلم أنه لما اشتملت الآية المتقدمة على أمرين وخطابين:

أحدهما: أمر وخطاب للنبي ﷺ وهو قوله سبحانه وتعالى قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات. **والثاني**: أمر وخطاب للكفار وهو قوله تعالى وادعوا من استطعتم من دون الله ثم أتبعه بقوله تبارك وتعالى فإن لم يستجيبوا لكم احتمل أن يكون المراد أن الكفار لم يستجيبوا في المعارضة لعجزهم عنها واحتمل أن يكون المراد أن من يدعون من دون الله لم يستجيبوا للكفار في المعارضة فلهذا السبب اختلف المفسرون في معنى الآية على قولين أحدهما أنه خطاب للنبي ﷺ والمؤمنين وذلك أن النبي ﷺ والمؤمنين معه كانوا يتحدون الكفار بالمعارضة ليتبين عجزهم فلما عجزوا عن المعارضة قال الله سبحانه وتعالى لنبيه والمؤمنين فإن لم يستجيبوا لكم فيما دعوتموهم إليه من المعارضة وعجزوا عنه ﴿**فاعلموا أنما أنزل بعلم الله**﴾ يعني فاثبتوا على العلم الذي أنتم عليه وازدادوا يقيناً وثباتاً لأنهم كانوا عالمين بأنه منزل من عند الله، وقيل: الخطاب في قوله فإن لم يستجيبوا لكم للنبي ﷺ وحده وإنما ذكره بلفظ الجمع تعظيماً له ﷺ.

القول الثاني: أن قوله سبحانه وتعالى فإن لم يستجيبوا لكم خطاب مع الكفار وذلك أنه سبحانه وتعالى لما قال في الآية المتقدمة وادعوا من استطعتم من دون الله قال الله عز وجل في هذه الآية فإن لم يستجيبوا لكم أيها الكفار ولم

سورة يونس [٣٨]: ﴿ **فأتوا بسورةٍ مثلِهِ** ﴾، وقد عجزوا عنه فكيف قال: ﴿ **فأتوا بعشرِ سورٍ** ﴾، فهو كرجل يقول لآخر: أعطني درهماً فيعجز، فيقول: أعطني درهماً فيعجز، فيقول: أعطني عشرة دراهم؟ الجواب: قد قيل: سورة هود نزلت أولاً، وأنكر المبرّد هذا، وقال: بل نزلت سورة يونس أولاً، وقال: معنى قوله في سورة يونس [٣٨]: ﴿ **فأْتوا بسورةٍ مثلِهِ** ﴾، أي: مثله في الخبر عن الغيب والأحكام والوعد والوعيد، فعجزوا فقال لهم في سورة هود: إن عجزتم عن الإتيان بسورة مثله في الأخبار والأحكام والوعد والوعيد فأتوا بعشر سور مثله من غير خبر ولا وعد ولا وعيد، وإنما هي مجرد البلاغة، ﴿ **وادْعُوا مَنِ استطعتُم** ﴾، واستعينوا بمَن استطعتم، ﴿ **مِنْ دُونِ اللّه إنْ كنتُم صادقين** ﴾.

﴿ **فإن لم يستجيبُوا لكم** ﴾، يا أصحاب محمد. وقيل: لفظه جمع والمراد به الرسول ﷺ وحده.

يعينوكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله وأنه ليس مفترى على الله بل هو أنزله على رسول الله ﷺ ﴿وأن لا إله إلا هو﴾ يعني الذي أنزل القرآن هو الله الذي لا إله إلا هو لا من تدعون من دونه ﴿فهل أنتم مسلمون﴾ فيه معنى الأمر أي أسلموا وأخلصوا لله العبادة وإن حملنا معنى الآية على أنه خطاب مع المؤمنين كان معنى قوله فهل أنتم مسلمون الترغيب أي دوموا على ما أنتم عليه من الإسلام.

قوله عز وجل: ﴿من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها﴾ يعني بعمله الذي يعمله من أعمال البر نزلت في كل من عمل عملاً يبتغي به غير الله عز وجل: ﴿نوف إليهم أعمالهم فيها﴾ يعني أجور أعمالهم التي عملوها لطلب الدنيا وذلك أن الله سبحانه وتعالى يوسع عليهم في الرزق ويدفع عنهم المكاره في الدنيا ونحو ذلك ﴿وهم فيها لا يبخسون﴾ يعني أنهم لا ينقصون من أجور أعمالهم التي عملوها لطلب الدنيا بل يعطون أجور أعمالهم كاملة موفرة.

أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٦﴾
أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتۡلُوهُ شَاهِدٞ مِّنۡهُ وَمِن قَبۡلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامٗا وَرَحۡمَةًۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۚ
وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ مِنَ ٱلۡأَحۡزَابِ فَٱلنَّارُ مَوۡعِدُهُۥۚ فَلَا تَكُ فِي مِرۡيَةٖ مِّنۡهُۚ إِنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا
يُؤۡمِنُونَ ﴿١٧﴾

﴿أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها﴾ يعني وبطل ما عملوا في الدنيا من أعمال البر ﴿وباطل ما كانوا يعملون﴾ لأنه لغير الله واختلف المفسرون في المعنى بهذه الآية فروى قتادة عن أنس أنها في اليهود والنصارى وعن الحسن مثله، وقال الضحاك: من عمل عملاً صالحاً في غير تقوى يعني من أهل الشرك أعطي على ذلك أجراً في الدنيا وهو أن يصل رحماً أو يعطي سائلاً أو يرحم مضطراً أو نحو هذا من أعمال البر فيجعل الله له ثواب عمله في الدنيا يوسع عليه في المعيشة والرزق ويقر عينه فيما خوله ويدفع عنه المكاره في الدنيا وليس له في الآخرة نصيب ويدل على صحة هذا القول سياق الآية وهو قوله أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار الآية وهذه حالة الكافر في الآخرة وقيل نزلت في المنافقين الذين كانوا يطلبون بغزوهم مع رسول الله ﷺ الغنائم لأنهم كانوا لا يرجون ثواب الآخرة وقيل إن حمل الآية على العموم أولى فيندرج الكافر والمنافق الذي هذه صفته والمؤمن الذي يأتي

﴿ فاعلموا ﴾، قيل: هذا خطاب مع المؤمنين. وقيل: مع المشركين، ﴿ أنما أُنزِلَ بعلمِ الله ﴾، يعني: القرآن. وقيل: أنزله وفيه علمه، ﴿ وأنْ لا إلَه إلاّ هو ﴾ أي: فاعلموا أن لا إله إلاّ هو، ﴿ فهل أنتم مسلمون ﴾، لفظه استفهام ومعناه أمر، أي: أسلموا.

قوله تعالى: ﴿ مَن كانَ يُريدُ الحياةَ الدنيا ﴾، أي: مَن كان يريد بعلمه الحياة الدنيا، ﴿ وزينَتَها ﴾، نزلت في كل مَن عمل عملاً يريد به غير الله عزّ وجلّ ﴿ نُوَفِّ إليهم أعمالَهم فيها ﴾، أي: نُوَفِّ لهم أُجور أعمالهم في الدنيا بسِعَة الرزق ودفع المكاره وما أشبهها. ﴿ وهم فيها لا يُبْخَسُون ﴾، أي: في الدنيا لا ينقص حظهم.

﴿ أولئك الذين ليسَ لهم في الآخرةِ إلاّ النارُ وحَبِطَ ما صنَعُوا فيها ﴾، أي: في الدنيا، ﴿ وباطلٌ ﴾، مَاحِقٌ، ﴿ ما كانُوا يَعْمَلُونَ ﴾، اختلفوا في المعنى بهذه الآية، فقال مجاهد: أهل الرياء. وروينا أنّ النبيّ ﷺ قال: «إنّ أخوفَ ما أخافُ عليكم الشركُ الأصغرُ»، قالوا: يا رسول الله وما الشرك الأصغر؟ قال: «الرياء». وقيل: هذا في الكفّار، وأما المؤمن فيريد الدنيا والآخرة وإرادته الآخرة غالبة فيجازى بحسناته في الدنيا ويُثاب عليها في الآخرة. وروينا عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إنّ الله عزّ وجلّ لا يظلم المؤمنَ حسنةً، يُثاب عليها الرزق

بالطاعات وأعمال البر على وجه الرياء والسمعة قال مجاهد في هذه الآية هم أهل الرياء وهذا القول مشكل لأن قوله سبحانه وتعالى أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار لا يليق بحال المؤمن إلا إذا قلنا إن تلك الأعمال الفاسدة والأفعال الباطلة لما كانت لغير الله استحق فاعلها الوعيد الشديد وهو عذاب النار ويدل على هذا ما روي عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول قال الله تبارك وتعالى: «﴿أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه» أخرجه مسلم عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ «من تعلم علماً لغير الله أو أراد به غير الله فليتبوأ مقعده من النار» أخرجه الترمذي، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «من تعلم علماً مما يبتغي به وجه الله لا يتعلمه إلا ليصيب به غرضاً من الدنيا لم يجد عرف الجنة يوم القيامة» يعني ريحها أخرجه أبو داود عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «تعوذوا بالله من جب الحزن قالوا يا رسول الله وما جب الحزن قال واد في جهنم تتعوذ منه جهنم كل يوم ألف مرة قيل يا رسول الله من يدخله قال القراء المراؤون بأعمالهم» أخرجه الترمذي وقال حديث حسن غريب قال البغوي وروينا أن النبي ﷺ قال «إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر قالوا يا رسول الله ﷺ وما الشرك الأصغر قال الرياء» أخرجه بغير سند والرياء هو أن يظهر الإنسان الأعمال الصالحة ليحمده الناس عليها أو ليعتقدوا فيه الصلاح أو ليقصدوه بالعطاء فهذا العمل هو الذي لغير الله نعوذ بالله من الخذلان قال البغوي وقيل هذا في الكفار يعني قوله من كان يريد الحياة وزينتها أما المؤمن فيريد الدنيا والآخرة وإرادته الآخرة غالبة فيجازى بحسناته في الدنيا ويثاب عليها في الآخرة وروينا عن أنس أن رسول الله ﷺ قال «إن الله لا يظلم المؤمن حسنة يثاب عليها الرزق في الدنيا ويجزى بها في الآخرة وأما الكافر فيطعم بحسناته في الدنيا حتى إذا أفضى إلى الآخرة لم يكن له حسنة يعطى بها خيراً» أخرجه البغوي بغير سند.

قوله سبحانه وتعالى: ﴿أفمن كان على بينة من ربه﴾ لما ذكر الله سبحانه وتعالى: في الآية المتقدمة الذين يريدون بأعمالهم الحياة الدنيا وزينتها ذكر في هذه الآية من كان يريد بعمله وجه الله تعالى والدار الآخرة فقال سبحانه وتعالى أفمن كان على بينة من ربه أي كمن يريد الحياة الدنيا وزينتها وليس لهم في الآخرة إلا النار وإنما حذف هذا الجواب لظهوره ودلالة الكلام عليه وقيل معناه أفمن كان على بينة من ربه وهو النبي ﷺ وأصحابه كمن هو في ضلالة وكفر والمراد بالبينة الدين الذي أمر الله به نبيه ﷺ وقيل المراد بالبينة اليقين يعني أنه على يقين من ربه أنه على الحق ﴿ويتلوه شاهد منه﴾ يعني ويتبعه من يشهد له بصدقه واختلفوا في الشاهد من هو، فقال ابن عباس وعلقمة وإبراهيم ومجاهد وعكرمة والضحاك وأكثر المفسرين: أنه جبريل عليه السلام يريد أن جبريل يتبع النبي ﷺ ويؤيده ويسدده ويقويه وقال الحسن وقتادة هو لسان النبي ﷺ وروي عن محمد بن الحنفية قال قلت لأبي يعني علي بن أبي طالب رضي الله تعالى: عنه أنت التالي؟ قال: وما تعني بالتالي؟ قلت: قوله سبحانه وتعالى ويتلوه شاهد منه قال وددت أني

في الدنيا ويُجزى به في الآخرة، وأما الكافر فيُطعم بحسناته في الدنيا حتى إذا أفضى إلى الآخرة لم تكنْ له حسنة يُعطى بها خيراً».

قوله تعالى: ﴿ أفمنْ كانَ على بيّنةٍ ﴾، بيان، ﴿ من ربِّه ﴾، قيل: في الآية حذف ومعناه: أفمَن كان على بيّنة من ربّه كمَن يريد الحياة الدنيا وزينتها أو مَن كان على بيّنة من ربّه كمَن هو في الضلالة والجهالة، والمراد بالذي هو على بيّنة من ربّه النبيّ ﷺ، ﴿ ويتْلُوهُ شاهدٌ منه ﴾، أي: يتبعه مَن يشهد له بصدقه. واختلفوا في هذا الشاهد، فقال ابن عباس وعلقمة وإبراهيم ومجاهد وعكرمة والضحاك وأكثر أهل التفسير: إنه جبريل عليه السلام. وقال الحسن وقتادة: هو لسان رسول الله ﷺ. وروى ابن جريج عن مجاهد قال: هو ملك يحفظه ويسدده. وقال الحسين بن الفضل: هو القرآن ونظمه وإعجازه. وقيل: هو عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه. قال علي: ما من

هو ولكنه لسان رسول الله ﷺ ووجه هذا القول إن اللسان لما كان يعرف عما في الجنان ويظهره جعل كالشاهد له لأن اللسان هو آلة الفصل والبيان وبه يتلى القرآن وقال مجاهد الشاهد هو ملك يحفظ النبي ﷺ ويسدده وقال الحسين بن الفضل: الشاهد هو القرآن لأن إعجازه وبلاغته وحسن نظامه يشهد للنبي ﷺ بنبوته ولأنه أعظم معجزاته الباقية على طول الدهر، وقال الحسين بن علي وابن زيد: الشاهد منه هو محمد ﷺ ووجه هذا القول أن من نظر إلى النبي ﷺ بعين العقل والبصيرة علم أنه ليس بكذاب ولا ساحر ولا كاهن ولا مجنون، وقال جابر بن عبد الله قال علي بن أبي طالب: ما من رجل من قريش إلا وقد نزلت فيه الآية والآيتان فقال له رجل وأنت أي آية نزلت فيك فقال علي ما تقرأ الآية التي في هود ويتلوه شاهد منه فعلى هذا القول يكون الشاهد علي بن أبي طالب وقوله يعني من النبي ﷺ والمراد تشريف هذا الشاهد وهو علي لاتصاله بالنبي ﷺ وقيل يتلوه شاهد منه يعني الإنجيل وهو اختيار الفراء والمعنى أن الإنجيل يتلو القرآن في التصديق بنبوة محمد ﷺ والأمر بالإيمان به وإن كان قد نزل قبل القرآن.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ومن قبله﴾ يعني ومن قبل نزول القرآن وإرسال محمد ﷺ ﴿كتاب موسى﴾ يعني التوراة ﴿إماماً ورحمة﴾ يعني أنه كان إماماً لهم يرجعون إليه في أمور الدين والأحكام والشرائع وكونه رحمة لأنه الهادي من الضلال وذلك سبب حصول الرحمة وقوله تعالى: ﴿أولئك يؤمنون به﴾ يعني أن الذين وصفهم الله بأنهم على بينة من ربهم هم المشار إليهم بقوله أولئك يؤمنون به يعني بمحمد ﷺ وقيل أراد الذين أسلموا من أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وأصحابه ﴿ومن يكفر به﴾ يعني بمحمد ﷺ ﴿من الأحزاب﴾ يعني من جميع الكفار وأصحاب الأديان المختلفة فتدخل فيه اليهود والنصارى والمجوس وعبدة الأوثان وغيرهم والأحزاب الفرق الذين تحزبوا وتجمعوا على مخالفة الأنبياء ﴿فالنار موعده﴾ يعني في الآخرة روى البغوي بسنده عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ «والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة ولا يهودي ولا نصراني ومات ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار» قال سعيد بن جبير: ما بلغني حديث عن رسول الله ﷺ على وجهه إلا وجدت مصداقه في كتاب الله عز وجل حتى بلغني هذا الحديث لا يسمع بي أحد من هذه الأمة الحديث، قال سعيد: فقلت أين هذا في كتاب الله حتى أتيت على هذه الآية ﴿ومن قبله كتاب موسى﴾ إلى قوله سبحانه وتعالى: ﴿ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده﴾ قال فالأحزاب أهل الملل كلها ثم قال سبحانه وتعالى: ﴿فلا تك في مرية منه إنه الحق من ربك﴾ فيه قولان أحدهما أن معناه فلا تك في شك من صحة هذا الدين ومن كون القرآن نازلاً من عند الله فعلى هذا القول يكون متعلقاً بما قبله من قوله تعالى: ﴿أم يقولون افتراه﴾ والقول الثاني: إنه راجع إلى قوله ﴿ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده﴾ يعني فلا تك في شك من أن النار موعد من كفر من الأحزاب والخطاب في قوله ﴿فلا تك في مرية﴾ للنبي ﷺ والمراد به غيره لأن النبي ﷺ لم يشك قط ويعضد هذا القول سياق الآية وهو قوله سبحانه وتعالى: ﴿ولكن

رجل من قريش إلّا وقد نزلت فيه آية من القرآن، فقال له رجل: وأنت أيُّ شيءٍ نزل فيك؟ قال: ﴿ ويتلوه شاهد منه ﴾. وقيل: شاهد منه هو الإنجيل. ﴿ ومِن قبلِهِ ﴾، أي: ومن قبل مجيء محمد ﷺ. وقيل: من قبل نزول القرآن. ﴿ كتابُ موسى ﴾، أي: كان كتاب موسى، ﴿ إماماً ورحمةً ﴾، لِمَن اتّبعها، يعني التوراة وهي مصدِّقة للقرآن شاهدة للنبي ﷺ، ﴿ أولئكَ يُؤمنُون بهِ ﴾، يعني أصحاب محمد ﷺ. وقيل: أراد الذين أسلموا من أهل الكتاب، ﴿ ومَن يكفرْ بهِ ﴾ أي: بمحمد ﷺ. وقيل: بالقرآن، ﴿ مِنَ الأحزابِ ﴾، من الكفّار من أهل المِلَل كلها، ﴿ فالنارُ موعِدُه ﴾، أخبرنا حسان بن سعيد المنيعي أنا أبو طاهر الزيادي أنا محمد بن الحسين القطان أنا أحمد بن يوسف السلمي أنا عبد الرزّاق أنا معمر عن همّام بن منبّه ثنا أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسُ محمدٍ بيدهِ لا يسمعُ بي أحدٌ من هذه الأمة ولا يهودي ولا نصراني ثم يموتُ ولم يؤمنْ بالذي

أكثر الناس لا يؤمنون﴾ يعني لا يصدقون بما أوحينا إليك أو من آن موعد الكفار النار.

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَـٰدُ هَـٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٨﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿١٩﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ۘ يُضَـٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۚ مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾

قوله عز وجل: ﴿**ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً**﴾ يعني أي الناس أشد تعدياً ممن اختلق على الله كذباً فكذب عليه وزعم أن له شريكاً أو ولداً وفي الآية دليل على أن الكذب على الله من أعظم أنواع الظلم لأن قوله تعالى: ﴿**ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً**﴾ ورد في معرض المبالغة ﴿**أولئك**﴾ يعني المفترين على الكذب ﴿**يعرضون على ربهم**﴾ يعني يوم القيامة فيسألهم عن أعمالهم في الدنيا ﴿**ويقول الأشهاد**﴾ يعني الملائكة الذين يحفظون أعمال بني آدم، قاله مجاهد وقال ابن عباس: هم الأنبياء والرسل وبه قال الضحاك وقال قتادة: الأشهاد الخلق كلهم ﴿**هؤلاء الذين كذبوا على ربهم**﴾ يعني: في الدنيا وهذه الفضيحة تكون في الآخرة لكل من كذب على الله ﴿**ألا لعنة الله على الظالمين**﴾ يعني يقول الله ذلك يوم القيامة فيلعنهم ويطردهم من رحمته (ق). عن صفوان بن محرز المازني قال: بينما ابن عمر يطوف بالبيت إذ عرض له رجل فقال يا أبا عبد الرحمن أخبرني ما سمعت من رسول الله ﷺ في النجوى قال سمعت رسول الله ﷺ يقول «يدنو المؤمن من ربه عز وجل حتى يضع عليه كنفه فيقرره بذنوبه تعرف ذنب كذا وكذا فيقول أعرف رب أعرف مرتين فيقول سترتها عليه في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم ثم يعطى كتاب حسناته» وفي رواية «ثم تطوى صحيفة حسناته» وأما الكفار والمنافقون فيقول الأشهاد وفي رواية «فينادى بهم على رؤوس الأشهاد من الخلائق هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين» قوله سبحانه وتعالى: ﴿**الذين يصدون عن سبيل الله**﴾ هذه الآية متصلة بما قبلها والمعنى ألا لعنة الله على الظالمين ثم وصفهم فقال الذين يصدون عن سبيل الله يعني يمنعون الناس من الدخول في دين الله الذي هو دين الإسلام ﴿**ويبغونها عوجاً**﴾ يعني ويطلبون إلقاء الشبهات في قلوب الناس وتعويج الدلائل الدالة على صحة دين الإسلام ﴿**وهم بالآخرة هم كافرون**﴾ يعني وهم مع صدهم عن سبيل الله يجحدون البعث بعد الموت وينكرونه ﴿**أولئك**﴾ يعني من هذه صفتهم ﴿**لم يكونوا معجزين في الأرض**﴾ قال ابن

أُرسلتُ به إلّا كان من أصحاب النار». قوله تعالى: ﴿ **فلا تكُ في مريةٍ منه** ﴾، أي: في شكٍّ منه، ﴿ **إنّه الحقُّ مِن ربِّك ولكنّ أكثرَ الناسِ لا يؤمنُون** ﴾.

﴿ **ومَنْ أظلمُ ممّنِ افترَى على الله كذباً** ﴾، فزعم أن له ولداً أو شريكاً، أي: لا أحد أظلم منه، ﴿ **أولئك** ﴾، يعني: الكاذبين والمكذبين، ﴿ **يُعرضُونَ على ربِّهم** ﴾، فيسألهم عن أعمالهم، ﴿ **ويقولُ الأشهاد** ﴾، يعني: الملائكة الذين كانوا يحفظون أعمالهم، قاله مجاهد. وعن ابن عباس رضي الله عنهما. إنهم الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام، وهو قول الضحاك. وقال قتادة: الخلائق كلهم. وروينا عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ: «إنّ الله يُدني المؤمن فيضع عليه كَنَفَهُ ويستره، فيقول: أتعرفُ ذنبَ كذا؟ أتعرفُ ذنبَ كذا؟ فيقول: نعم أيْ ربِّ، حتى إذا قرّرَهُ بذنوبِهِ ورأى في نفسه أنه قد هلك، قال: سترتُها عليكَ في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم، فيُعطَى كتابَ حسناته». وأما الكفّار والمنافقون فينادي بهم على رؤوس الخلائق، ﴿ **هؤلاءِ الذينَ كَذَبُوا على ربِّهم ألا لعنةُ اللهِ على الظالمين** ﴾.

عباس يعني سابقين وقيل هاربين وقيل فائتين في الأرض والمعنى أنهم لا يعجزون الله إذا أرادهم بالعذاب والانتقام منهم ولكنهم في قبضته وملكه لا يقدرون على الامتناع منه إذا طلبهم ﴿**وما كان لهم من دون الله من أولياء**﴾ يعني وما كان لهؤلاء المشركين من أنصار يمنعونهم من دون الله إذا أراد بهم سوءاً وعذاباً ﴿**يضاعف لهم العذاب**﴾ يعني في الآخرة يزاد عذابهم بسبب صدهم عن سبيل الله وإنكارهم البعث بعد الموت ﴿**ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون**﴾ قال قتادة صموا عن سماع الحق فلا يسمعون خيراً فينتفعون به ولا يبصرون خيراً فيأخذون به.

وقال ابن عباس أخبر الله سبحانه وتعالى أنه أحال بين أهل الشرك وبين طاعته في الدنيا والآخرة أما في الدنيا فإنه قال ما كانوا يستطيعون السمع وهي طاعته وما كانوا يبصرون وأما في الآخرة فإنه قال لا يستطيعون خاشعة أبصارهم.

أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخۡبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ مَثَلُ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ كَٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡأَصَمِّ وَٱلۡبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِۚ هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًاۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ أَلِيمٖ ﴿٢٦﴾

﴿**أولئك الذين خسروا أنفسهم**﴾ يعني أن هؤلاء الذين هذه صفتهم هم الذين غبنوا أنفسهم حظوظها من رحمة الله ﴿**وضل عنهم ما كانوا يفترون**﴾ يعني وبطل كذبهم وإفكهم وفريتهم على الله وادعاؤهم أن الملائكة والأصنام تشفع لهم ﴿**لا جرم**﴾ يعني حقاً وقال الفراء لا محالة ﴿**أنهم في الآخرة هم الأخسرون**﴾ لأنهم باعوا منازلهم في الجنة واشتروا عوضها منازل في النار وهذا هو الخسران المبين.

قوله عز وجل: ﴿**إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأخبتوا إلى ربهم**﴾ لما ذكر الله عز وجل أحوال الكفار في

﴿ **الذين يصدُّونَ عَن سبيلِ الله** ﴾، يمنعون عن دين الله، ﴿ **ويبغونها عِوَجاً وهم بالآخرة هم كافرون** ﴾.

﴿ **أولئكَ لم يكونُوا معجِزين** ﴾، قال ابن عباس: سابقين. قال قتادة: هاربين. وقال مقاتل: فائتين. ﴿ **في الأرض وما كان لهم مِن دُونِ الله منْ أولياءَ** ﴾، يعني أنصاراً وأعواناً يحفظونهم من عذابنا، ﴿ **يُضاعفُ لهمُ العذابُ** ﴾، أي: يُزاد في عذابهم. قيل: يضاعف العذاب عليهم لإضلالهم الغير واقتداء الأتباع بهم. قرأ ابن كثير وابن عامر ويعقوب: «يُضعّف» مشدّدة العين بغير ألف. وقرأ الباقون: «يضـاعف» بالألف مخفّفة العين. ﴿ **ما كانُوا يستطيعُون السمعَ وما كانُوا يُبصِرُون** ﴾، الهُدَى. قال قتادة: صُمٌّ عن سماع الحق فلا يسمعونه، وما كانوا يبصرون الهُدَى. قال ابن عباس رضي الله عنهما: أخبر الله عزّ وجلّ أنه حالَ بين أهل الشركِ وبين طاعته في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا قال: ما كانوا يستطيعون السمعَ وهو طاعتُه، وفي الآخرة قال: فلا يستطيعون، خاشعة أبصارهم.

﴿ **أولئكَ الذينَ خَسِرُوا أنفسَهم** ﴾، غَبَنُوا أنفسهم، ﴿ **وضلَّ عنهم مَّا كانُوا يَفْتَرُون** ﴾، يزعمون من شفاعة الملائكة والأصنام.

﴿ **لا جَرَمَ** ﴾، أي: حقاً. وقيل: بلى. وقال الفرّاء: لا محالة، ﴿ **أنهم في الآخرةِ هُمُ الأخْسَرُون** ﴾، يعني: من غيرهم، وإن كان الكل في الخسار.

الدنيا وخسرانهم في الآخرة أتبعه بذكر أحوال المؤمنين في الدنيا وربحهم في الآخرة والإخبات في اللغة هو الخشوع والخضوع وطمأنينة القلب ولفظ الإخبات يتعدى بإلى وباللام فإذا قلت أخبت فلان إلى كذا فمعناه اطمأن إليه وإذا قلت أخبت له فمعناه خشع وخضع له فقوله: ﴿**إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات**﴾ إشارة إلى جميع أعمال الجوارح وقوله وأخبتوا إشارة إلى أعمال القلوب وهي الخضوع والخشوع لله عز وجل يعني أن هذه الأعمال الصالحة لا تنفع في الآخرة إلا بحصول أعمال القلب وهي الخشوع والخضوع فإذا فسرنا الإخبات بالطمأنينة كان معنى الكلام يأتون بالأعمال الصالحة مطمئنين إلى صدق وعد الله بالثواب والجزاء على تلك الأعمال أو يكونون مطمئنين إلى ذكره سبحانه وتعالى وإذا فسرنا الإخبات بالخشوع والخضوع كان معناه أنهم يأتون بالأعمال الصالحة خائفين وجلين أن لا تكون مقبولة وهو الخشوع والخضوع ﴿**أولئك**﴾ يعني الذين هذه صفتهم ﴿**أصحاب الجنة هم فيها خالدون**﴾ أخبر عن حالهم في الآخرة بأنهم من أهل الجنة التي لا انقطاع لنعيمها ولا زوال.

قوله سبحانه وتعالى: ﴿**مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع**﴾ لما ذكر الله سبحانه وتعالى أحوال الكفار وما كانوا عليه من العمى عن طريق الهدى والحق ومن الصمم عن سماعه وذكر أحوال المؤمنين وما كانوا عليه من البصيرة وسماع الحق والانقياد للطاعة ضرب لهم مثلاً فقال تبارك وتعالى مثل الفريقين يعني فريق المؤمنين وفريق الكافرين كالأعمى وهو الذي لا يهتدي لرشده والأصم وهو الذي لا يسمع شيئاً البتة، والبصير وهو الذي يبصر الأشياء على ماهيتها، والسميع وهو الذي يسمع الأصوات ويجيب الداعي فمثل المؤمنين كمثل الذي يسمع ويبصر وهو الكامل في نفسه ومثل الكافر كمثل الذي لا يسمع ولا يبصر وهو الناقص في نفسه ﴿**هل يستويان مثلاً**﴾ قال الفراء لم يقل هل يستوون لأن الأعمى والأصم في حيز كأنهما واحد وهما من وصف الكافر والبصير والسميع في حيز كأنهما واحد وهما من وصف المؤمن ﴿**أفلا تذكرون**﴾ يعني فتتعظون.

قوله عز وجل: ﴿**ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه إني لكم نذير مبين**﴾ يعني أن نوحاً عليه السلام قال لقومه حين أرسله الله إليهم إني لكم أيها القوم نذير مبين يعني بين النذارة أخوف بالعقاب من خالف أمر الله وعبد غيره؛ وهو قوله سبحانه وتعالى: ﴿**أن لا تعبدوا إلا الله إني أخاف عليكم عذاب يوم أليم**﴾ يعني مؤلم موجع قال ابن عباس: بعث نوح بعد أربعين سنة ولبث يدعو قومه تسعمائة وخمسين سنة وعاش بعد الطوفان ستين سنة فكان عمره ألفاً وخمسين سنة.

﴿ **إنّ الذين آمنُوا وعملُوا الصالحاتِ وأَخْبَتُوا** ﴾، قال ابن عباس: خافوا. وقال قتادة: أنابوا. وقال مجاهد: اطمأنوا. وقيل: خشعوا. وقوله: ﴿ **إلى ربِّهم** ﴾، أي: لربهم، ﴿ **أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون** ﴾.

﴿ **مثل الفريقين** ﴾، المؤمن والكافر، ﴿ **كالأعمى والأصمِّ والبصير والسميع هل يستويَانِ مثلاً** ﴾، قال الفرّاء: لم يقل هل يستوون، لأن الأعمى والأصم في حيِّز كأنهما واحد لأنهما من وصف الكافر، والبصير والسميع في حيِّز كأنهما واحد لأنهما من وصف المؤمن، ﴿ **أفلا تذكّرُون** ﴾، أي: تتّعظون.

قوله تعالى: ﴿ **ولقدْ أرْسَلنا نوحاً إلى قومه إني لكم نذيرٌ مبين** ﴾، قرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائي ويعقوب «إنـي» بفتح الهمزة أي: بأني، وقرأ الباقون بكسرها، أي: فقال إني، لأن في الإرسال معنى القول: إني لكم نذير مبين.

﴿ **أنْ لا تعبُدُوا إلاّ اللّه إني أخافُ عليكم عذابَ يومٍ أليم** ﴾، أي: مؤلم. قال ابن عباس: بعث نوح بعد أربعين سنة ولبث يدعو قومه تسعمائة وخمسين سنة، وعاش بعد الطوفان ستّين سنة، وكان عمره ألفاً وخمسين سنة. وقال مقاتل: بعث وهو ابن مائة سنة. وقيل: بُعث وهو ابن خمسين سنة. وقيل: بعث وهو ابن مائتين وخمسين

وقال مقاتل: بعث وهو ابن مائة سنة وقيل وهو ابن خمسين سنة وقيل وهو ابن مائتين وخمسين سنة ومكث يدعو قومه تسعمائة وخمسين سنة وعاش بعد الطوفان مائتين وخمسين سنة فكان عمره ألفاً وأربعمائة وخمسين سنة.

فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾

﴿فقال الملأ الذين كفروا من قومه﴾ يعني الأشراف والرؤساء من قوم نوح ﴿ما نراك﴾ يا نوح ﴿إلا بشراً مثلنا﴾ يعني آدمياً مثلنا لا فضل لك علينا لأن التفاوت الحاصل بين آحاد البشر يمتنع اشتهاره إلى حيث يصير الواحد منهم واجب الطاعة على جميع العالم وإنما قالوا هذه المقالة وتمسكوا بهذه الشبهة جهلاً منهم لأن من حق الرسول أن يباشر الأمة بالدعوة إلى الله تعالى بإقامة الدليل والبرهان على ذلك ويظهر المعجزة الدالة على صدقه ولا يأتي ذلك إلا من آحاد البشر وهو من اختصه الله بكرامته وشرفه بنبوته وأرسله إلى عباده ثم قال سبحانه وتعالى إخباراً عن قوم نوح ﴿وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا﴾ يعني سفلتنا والرذل الدون من كل شيء قيل هم الحاكة والأساكفة وأصحاب الصنائع الخسيسة وإنما قالوا ذلك جهلاً منهم أيضاً لأن الرفعة في الذين ومتابعة الرسول لا تكون بالشرف ولا بالمال والمناصب العالية بل للفقراء الخاملين وهم أتباع الرسل ولا يضرهم خسة صنائعهم إذا حسنت سيرتهم في الدين ﴿بادي الرأي﴾ يعني أنهم اتبعوك في أول الرأي من غير تثبت وتفكر في أمرك، ولو تفكروا ما اتبعوك.

وقيل: معناه ظاهر الرأي، يعني أنهم اتبعوك ظاهراً من غير أن تفكروا باطناً ﴿وما نرى لكم علينا من فضل﴾ يعني بالمال والشرف والجاه وهذا القول أيضاً جهل منهم لأن الفضيلة المعتبرة عند الله بالإيمان والطاعة لا بالشرف والرياسة ﴿بل نظنكم كاذبين﴾ قيل الخطاب لنوح ومن آمن معه من قومه وقيل هو لنوح وحده فعلى هذا يكون الخطاب بلفظ الجمع للواحد على سبيل التعظيم ﴿قال﴾ يعني نوحاً ﴿يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي﴾ يعني

سنة، ومكث يدعو قومه تسعمائة وخمسين سنة وعاش بعد الطوفان مائتين وخمسين سنة فكان عمره ألفاً وأربعمائة وخمسين سنة قال الله تعالى: ﴿ فلبث فيهم ألف سنة إلّا خمسين عاماً ﴾ [العنكبوت: ١٤] أي: فلبث فيهم داعياً.

﴿ فقال الملأ الذينَ كفروا مِن قومِهِ ﴾: والملأ هم الأشراف والرؤساء. ﴿ وما نَراكَ ﴾، يا نوح، ﴿ إلاّ بشراً ﴾، آدمياً، ﴿ مِثْلنا وما نَراكَ اتَّبعَكَ إلاّ الذينَ هُمْ أراذِلُنا ﴾، سَفلتُنا، والرذل: الدون من كل شيء، والجمع: أرْذُل، ثم يجمع على أراذل، مثل كلب وأكلب وأكالب، وقال في سورة الشعراء [١١١]: ﴿ واتّبعك الأرْذَلُون ﴾ يعني: السفلة. وقال عكرمة: الحاكة والأساكفة، ﴿ بادِيَ الرأي ﴾، قرأ أبو عمرو «بادىء» بالهمز، أي: أول الرأي يريدون أنهم اتّبعوك في أول الرأي من غير رويّة وتفكّر، ولو تفكّروا لم يتّبعوك. وقرأ الآخرون بغير همز، أي ظاهر الرأي من قولهم: بدأ الشيء إذا ظهر معناه اتّبعوك ظاهراً من غير أن يتدبّروا ويتفكّروا باطناً. قال مجاهد: رأي العين، ﴿ وما نَرَى لكُم علينا مِن فَضلٍ بلْ نظنكم كاذبين ﴾.

﴿ قال ﴾، نوح، ﴿ يا قوم أرأيتُمْ إنْ كُنْتُ على بيِّنةٍ ﴾، بيان، ﴿ مِن رَّبي وآتاني رحمةً ﴾، أي: هدى

على بيان ويقين من ربي بالذي أنذرتكم به ﴿وآتاني رحمة من عنده﴾ يعني هدياً ومعرفة ونبوة ﴿فعميت عليكم﴾ يعني خفيت وألبست عليكم ﴿أنلزمكموها﴾ الهاء عائدة إلى الرحمة والمعنى أنلزمكم أيها القوم قبول الرحمة يعني أنا لا نقدر أن نلزمكم ذلك من عند أنفسنا ﴿وأنتم لها كارهون﴾ وهذا استفهام معناه الإنكار أي لا أقدر على ذلك والذي أقدر عليه أن أدعوكم إلى الله وليس لي أن أضطركم إلى ذلك قال قتادة والله لو استطاع نبي ﷺ لألزمها قومه ولكنه لم يملك ذلك ﴿ويا قوم لا أسألكم عليه مالاً﴾ يعني لا أسألكم ولا أطلب منكم على تبليغ الرسالة جعلاً ﴿إن أجري إلا على الله وما أنا بطارد الذين آمنوا﴾ وذلك أنهم طلبوا من نوح أن يطرد الذين آمنوا وهم الأرذلون في زعمهم فقال ما يجوز لي ذلك لأنهم يعتقدون ﴿إنهم ملاقو ربهم﴾ فلا أطردهم ﴿ولكني أراكم قوماً تجهلون﴾ يعني عظمة الله ووحدانيته وربوبيته وقيل معناه إنكم تجهلون أن هؤلاء المؤمنين خير منكم ﴿ويا قوم من ينصرني من الله إن طردتهم﴾ يعني من يمنعني من عذاب الله إن طردتهم عني لأنهم مؤمنون مخلصون ﴿أفلا تذكرون﴾ يعني فتتعظون.

وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾ وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾

﴿ولا أقول لكم عندي خزائن الله﴾ هذا عطف على قوله لا أسألكم عليه مالاً والمعنى لا أسألكم عليه مالاً ولا أقول لكم عندي خزائن الله يعني التي لا يفنيها شيء فأدعوكم إلى اتباعي عليها لأعطيكم منها وقال ابن الأنباري الخزائن هنا بمعنى غيوب الله وما هو منطو عن الخلق وإنما وجب أن يكون هذا جواباً من نوح عليه السلام لهم لأنهم قالوا وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي وادعوا أن المؤمنين إنما اتبعوه في ظاهر ما يرى منهم وهم في الحقيقة غير متبعين له فقال مجيباً لهم ولا أقول لكم عندي خزائن الله التي لا يعلم منها ما ينطوي عليه عباده وما

ومعرفة، ﴿ مِنْ عندِه فعُمِّيَتْ عليكم ﴾، أي: خفيت والتبست عليكم. وقرأ حمزة والكسائي وحفص: «فعُمِّيت» عليكم بضمّ العين وتشديد الميم، أي: شُبّهت ولبست عليكم. ﴿ أنُلْزِمُكُمُوها ﴾، أي: أنلزمكم البيّنة والرحمة، ﴿ وأنتم لها كارِهُون ﴾، لا تريدونها. قال قتادة: لو قدر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أن يُلزموا قومَهم لألزموا، ولكن لم يقدروا.

قوله: ﴿ ويا قوم لا أسألُكُمْ عليهِ مالاً ﴾، أي: على الوحي وتبليغ الرسالة، كناية عن غير مذكور، ﴿ إنْ أجْرِيَ ﴾، ما ثوابي، ﴿ إلاّ على اللّهِ وما أنا بطاردِ الذينَ آمنُوا ﴾، هذا دليل على أنهم طلبوا منه طرد المؤمنين، ﴿ إنهمْ مُلاقُوا ربِّهم ﴾، أي: صائرون إلى ربّهم في المعاد فيجزي من طردهم، ﴿ ولكنّي أراكم قوماً تجهلون ﴾.

﴿ ويا قوم مَن ينصُرُني مِنَ اللّهِ ﴾، مَن يمنعني من عذاب الله، ﴿ إنْ طردتُهم أفلا تَذَكَّرُون ﴾، تتّعظون.

﴿ ولا أقولُ لكم عندي خزَائِنُ اللّهِ ﴾، فآتي منها ما تطلبون، ﴿ ولا أعلمُ الغيبَ ﴾، فأخبركم بما تريدون. وقيل: إنهم لمّا قالوا لِنُوح إن الذين آمنُوا بِكَ إنما اتّبعوك في ظاهر ما ترى منهم، قال نوح مُجيباً لهم: لا أقول لكم

يظهرونه إلا هو وإنما قيل للغيوب خزائن لغموضها عن الناس.واستتارها عنهم والقول الأول أولى ليحصل الفرق بين قوله ولا أقول لكم عندي خزائن الله وبين قوله ﴿ولا أعلم الغيب﴾ يعني ولا أدعي علم ما يغيب عني مما يسرونه في نفوسهم فسبيل قبول إيمانهم في الظاهر ولا يعلم ما في ضمائرهم إلا الله ﴿ولا أقول إني ملك﴾ وهذا جواب لقولهم ما نراك إلا بشراً مثلنا أي لا أدعي أني من الملائكة بل أنا بشر مثلكم أدعوكم إلى الله وأبلغكم ما أرسلت به إليكم.

(فصل)

استدل بعضهم بهذه الآية على تفضيل الملائكة على الأنبياء قال لأن نوحاً عليه السلام قال ولا أقول إني ملك لأن الإنسان إذا قال أنا لا أدعي كذا وكذا لا يحسن إلا إذا كان ذلك الشيء أشرف وأفضل من أحوال ذلك القائل فلما قال نوح عليه السلام هذه المقالة وجب أن يكون الملك أفضل منه والجواب أن نوحاً عليه السلام إنما قال هذه المقالة في مقابلة قولهم ما نراك إلا بشراً مثلنا لما كان في ظنهم أن الرسل لا يكونون من البشر إنما يكونون من الملائكة فأعلمهم أن هذا ظن باطل وأن الرسل إلى البشر إنما يكونون من البشر فلهذا قال سبحانه وتعالى: ﴿ولا أقول إني ملك﴾ ولم يرد أن درجة الملائكة أفضل من درجة الأنبياء والله أعلم.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ولا أقول للذين تزدري أعينكم﴾ يعني تحتقر وتستصغر أعينكم يعني المؤمنين وذلك لما قالوا إنهم أراذلنا من الرذالة وهي الخسة ﴿لن يؤتيهم الله خيراً﴾ يعني توفيقاً وهداية وإيماناً وأجراً ﴿الله أعلم بما في أنفسهم﴾ يعني من الخير والشر ﴿إني إذاً لمن الظالمين﴾ يعني إن طردتهم مكذباً لظاهرهم ومبطلاً لإيمانهم يعني أني إن فعلت هذا فأكون قد ظلمتهم وأنا لا أفعله فما أنا من الظالمين ﴿قالوا يا نوح قد جادلتنا﴾ يعني خاصمتنا ﴿فأكثرت جدالنا﴾ يعني خصومتنا ﴿فأتنا بما تعدنا﴾ يعني من العذاب ﴿إن كنت من الصادقين﴾ يعني في دعواك أنك رسول الله إلينا ﴿قال إنما يأتيكم به الله إن شاء﴾ يعني قال نوح لقومه حين استعجلوه بإنزال العذاب إن ذلك ليس إليّ إنما هو إلى الله ينزله متى شاء وعلى من يشاء إن أراد إنزال العذاب بكم ﴿وما أنتم بمعجزين﴾ يعني وما أنتم بفائتين إن أراد الله نزول العذاب بكم ﴿ولا ينفعكم نصحي إن أردت أن أنصح لكم﴾ يعني ولا ينفعكم إنذاري وتحذيري إياكم عقوبته ونزول العذاب بكم ﴿إن كان الله يريد أن يغويكم﴾ يعني يضلكم وقيل يهلككم وهذا معنى وليس بتفسير لأن الإغواء

عندي خزائن غيوب الله التي يعلم منها ما يضمر الناس، ولا أعلم الغيب فأعلم ما يسرّونه في نفوسهم، فسبيلي قبول ما ظهر من إيمانهم، ﴿ ولا أقولُ إنّي مَلَكٌ ﴾، هذا جواب قولهم: ﴿ وما نراكَ إلاّ بشراً مثلَنا ﴾. ﴿ ولا أقول للذينَ تزدري أعينُكم ﴾، أي: تحتقرهم وتستصغرهم أعينكم، يعني: المؤمنين، وذلك أنهم قالوا: هم أراذلنا، ﴿ لن يُؤْتِيَهُمُ اللّهُ خيراً ﴾ أي: توفيقاً وإيماناً وأجراً، ﴿ الله أعلم بما في أنفسهم ﴾، من الخير والشر منّي، ﴿ إني إذاً لَّمِنَ الظالمين ﴾، لو قلتُ هذا.

﴿ قالوا يا نوحُ قدْ جادلْتَنا ﴾، خاصمتنا، ﴿ فأكثرتَ جدالَنا فأْتِنا بما تَعِدُنَا ﴾، من العذاب ﴿ إنْ كنتَ مِنَ الصادقين ﴾.

﴿ قال إنّما يأتيكم بِهِ اللّهُ إنْ شاء ﴾، يعني: بالعذاب، ﴿ وما أنتم بمعجزين ﴾، بِفائِتِين.

﴿ ولا ينفعُكم نُصحي ﴾، أي نصيحتي، ﴿ إنْ أردتُ أنْ أنصحَ لكم إن كانَ اللّهُ يريد أنْ يُغْوِيكم ﴾، يضلّكم، ﴿ هو ربُّكم ﴾، له الحكم والأمر ﴿ وإليه تُرجَعُون ﴾، فيجزيكم بأعمالكم.

﴿ أمْ يقولُون افتراه ﴾، قال ابن عباس رضي الله عنه: يعني نوحاً عليه السلام. وقال مقاتل: يعني

يؤدي إلى الهلاك ﴿هو ربكم﴾ يعني أنه سبحانه وتعالى هو يملككم فلا تقدرون على الخروج من سلطانه ﴿وإليه ترجعون﴾ يعني في الآخرة فيجازيكم بأعمالكم ﴿أم يقولون افتراه﴾ أي اختلقه وجاء به من عند نفسه والضمير يعود إلى الوحي الذي جاءهم به ﴿قل إن افتريته﴾ أي اختلقته ﴿فعلي إجرامي﴾ أي إثم إجرامي والإجرام اقتراف السيئة واكتسابها يقال جرم وأجرم بمعنى أنه اكتسب الذنب وافتعله ﴿وأنا بريء مما تجرمون﴾ يعني من الكفر والتكذيب وأكثر المفسرين على أن هذا من محاورة نوح قومه فهي من قصة نوح عليه السلام وقال مقاتل «أم يقولون» يعني المشركين من كفار مكة افتراه يعني محمداً ﷺ اختلق القرآن من عند نفسه فعلى هذا القول تكون هذه الآية معترضة في قصة نوح ثم رجع إلى القصة فقال سبحانه وتعالى: ﴿وأوحى إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن﴾ قال ابن عباس إن قوم نوح كانوا يضربون نوحاً حتى يسقط فيلفونه في لبد ويلقونه في بيت يظنون أنه قد مات فيخرج في اليوم الثاني ويدعوهم إلى الله ويروي أن شيخاً منهم جاء متكئاً على عصاه ومعه ابنه فقال يا بني لا يغرنك هذا الشيخ المجنون فقال يا أبت أمكني من العصا فأخذه من أبيه وضرب بها نوحاً عليه السلام حتى شجه شجة منكرة فأوحى الله إليه أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن ﴿فلا تبتئس﴾ يعني فلا تحزن عليهم فإني مهلكهم ﴿بما كانوا يفعلون﴾ يعني بسبب كفرهم وأفعالهم فحينئذ دعا نوح عليه السلام عليهم فقال «رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً» وحكى محمد بن إسحاق عن عبدالله بن عمير الليثي أنه بلغه أنهم كانوا يبسطون نوحاً فيخنقونه حتى يغشى عليه فإذا أفاق قال رب اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون حتى تمادوا في المعصية واشتد عليه منهم البلاء وهو ينتظر الجيل بعد الجيل فلا يأتي قرن إلا كان أنحس من الذي قبله ولقد كان يأتي القرن الآخر منهم فيقول قد كان هذا الشيخ مع آبائنا وأجدادنا هكذا مجنوناً فلا يقبلون منه شيئاً فشكا نوح إلى الله عز وجل فقال يا رب «إني دعوت قومي ليلاً ونهاراً» الآيات حتى بلغ رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً فأوحى الله سبحانه وتعالى إليه.

وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا

محمداً ﷺ. ﴿ قُلْ إنِ افتريتُه فعليّ إجْرَامي ﴾، أي: إثمي ووبال جُرْمي. والإجرام: كسب الذنب. ﴿ وأنا بريءٌ ممّا تُجْرِمُون ﴾، لا أؤاخذُ بذنوبكم.

قوله تعالى: ﴿ وأُوحي إلى نوحٍ أنه لن يُؤمنَ من قومِكَ إلاّ مَن قدْ آمَنَ ﴾، روى الضحاك عن ابن عباس: أن قوم نوح عليه السلام كانوا يضربون نوحاً حتى يسقط، فيلقونه في لبد ويلقونه في قعر بيت يظنون أنه قد مات فيخرج في اليوم الثاني ويدعوهم إلى الله عزّ وجلّ. رُوِيَ أنّ شيخاً منهم جاء يتوكأ على عصا ومعه ابنه فقال يا بني لا يغرّنّك هذا الشيخ المجنون، فقال له: يا أبتِ أمكنّي من العصا فأخذ العصا من أبيه فضرب نوحاً حتى شجّه شجّة منكرة، فأوحى الله عزّ وجلّ إليه: ﴿ أنه لن يُؤمنَ مِن قومِك إلاّ مَن قَدْ آمَنَ ﴾، ﴿ فلا تَبْتَئِسْ ﴾، فلا تحزن، ﴿ بما كانوا يفعلون ﴾ فإنّي مهلكهم ولا منقذ منهم فحينئذ دعا نوح عليهم: ﴿ فقال ربِّ لا تذرْ على الأرض مِنَ الكافرين ديّاراً ﴾ [نوح: ٢٦]. وحكى محمد بن إسحاق عن عبيد بن عمير الليثي أنه بلغه: أنهم كانوا يبطشون به فيخنقونه حتى يغشى عليه، فإذا أفاق قال: ربِّ اغفرْ لقومي فإنّهم لا يعلمون، حتى إذا تمادوا في المعصية واشتدّ عليه منهم البلاء، وانتظر الجيل بعد الجيل فلا يأتي قرن إلاّ كان أخبث من الذي قبله حتى إن كان الآخر منهم ليقول: قد كان هذا مع آبائنا وأجدادنا هكذا مجنوناً لا يقبلون منه شيئاً، فشكا إلى الله تعالى فقال: ﴿ ربِّ إنّي دعوتُ قومي ليلاً ونهاراً ﴾ [نوح: ٥] إلى أن قال: ﴿ربِّ لا تذرْ على الأرضِ مِنَ الكافرين ديّاراً ﴾ [نوح: ٢٦]، فأوحى الله تعالى إليه:

مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُواْ مِنْهُۚ قَالَ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾

﴿واصنع الفلك﴾ يعني السفينة والفلك لفظ يطلق على الواحد والجمع ﴿بأعيننا﴾ قال ابن عباس بمرأى منا وقيل بعلمنا وقيل بحفظنا ﴿ووحينا﴾ يعني بأمرنا ﴿ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون﴾ يعني بالطوفان والمعنى ولا تخاطبني في إمهال الكفار فإني قد حكمت بإغراقهم وقيل ولا تخاطبني في ابنك كنعان وامرأتك واعلة فإنهما هالكان مع القوم وقيل إن جبريل أتى نوحاً فقال له إن ربك يأمرك أن تصنع الفلك فقال كيف أصنعها ولست نجاراً فقال إن ربك يقول اصنع فإنك بأعيننا فأخذ القدوم وجعل ينجر ولا يخطىء فصنعها مثل جؤجؤ الطير وهو قوله سبحانه وتعالى: ﴿ويصنع الفلك﴾ يعني كما أمره الله سبحانه وتعالى قال أهل السير لما أمر الله سبحانه وتعالى نوحاً بعمل السفينة أقبل على عملها ولها عن قومه وجعل يقطع الخشب ويضرب الحديد ويهيىء القار وكل ما يحتاج إليه في عمل الفلك وجعل قومه يمرون وهو في عمله فيسخرون منه ويقولون يا نوح قد صرت نجاراً بعد النبوة وأعقم الله أرحام النساء فلا يولد لهم ولد قال البغوي وزعم أهل التوراة أن الله أمره أن يصنع الفلك من خشب الساج وأن يطليه بالقار من داخله وخارجه وأن يجعل طوله ثمانين ذراعاً وعرضه خمسين ذراعاً وطوله في السماء ثلاثين ذراعاً والذراع إلى المنكب وأن يجعله ثلاث طباق سفلى ووسطى وعليا وأن يجعل فيه كوى فصنعه نوح كما أمره الله سبحانه وتعالى وقال ابن عباس اتخذ نوح السفينة في سنتين فكان طولها ثلثمائة ذراع وعرضها خمسين ذراعاً وطولها في السماء ثلاثين ذراعاً وكانت من خشب الساج وجعل لها ثلاثة بطون فجعل في البطن الأسفل الوحوش والسباع والهوام وفي البطن الأوسط الدواب والأنعام وركب هو ومن معه في البطن الأعلى وجعل معه ما يحتاج إليه من الزاد وغيره قال قتادة وكان بابها في عرضها، وروي عن الحسن: أنه كان طولها ألف ومائتي ذراع وعرضها ستمائة ذراع والقول الأول أشهر وهو أن طولها ثلثمائة ذراع وقال زيد بن أسلم: مكث نوح مائة سنة يغرس الأشجار ويقطعها ومائة سنة يصنع الفلك، وقال كعب الأحبار: عمل نوح عليه السلام السفينة في ثلاثين سنة وروي أنها ثلاثة أطباق الطبقة السفلى للدواب والوحوش والطبقة الوسطى للإنس والطبقة العليا للطير فلما كثرت رواث الدواب أوحى الله سبحانه وتعالى إلى نوح عليه السلام أن اغمز ذنب الفيل فغمزه فوقع منه خنزير وخنزيرة ومسح على الخنزير فوقع منه الفأر فأقبلوا على الروث فأكلوه فلما أفسد الفأر في السفينة فجعل يقرضها ويقرض حبالها أوحى الله سبحانه وتعالى إليه أن اضرب بين عيني الأسد فضرب فخرج من منخره سنور وسنورة وهي القطة والقط فأقبلا على الفأر فأكلاه.

﴿ واصنعِ الفُلْكَ بأعْيُنِنا ﴾، قال ابن عباس: بمرأىً منّا. وقال مقاتل: بعلمنا. وقيل: بحفظنا. ﴿ ووَحْيِنَا ﴾، أي: بأمرنا. ﴿ ولا تُخاطبني في الذين ظلمُوا إنّهم مُغرقون ﴾، بالطوفان قيل معناه لا تخاطبني في إمهال الكفّار، فإني حكمت بإغراقهم. وقيل: لا تخاطبني في ابنك كنعان وامرأتك وَاعِلة فإنهما هالكان مع القوم. وفي القصةِ أن جبريل أتى نوحاً عليه السلام فقال: إن ربّك عزّ وجلّ يأمرك أن تصنع الفلك، فقال: كيف أصنع ولستُ بنجارٍ؟ فقال: إن ربّك يقول اصنع فإنك بعيني، فأخذ القدّوم وجعل يصنع ولا يخطىء. وقيل: أوحى الله إليه أن يصنعها مثل جؤجؤ الطائر.

قوله تعالى: ﴿ ويَصْنَعُ الفُلْكَ ﴾ فلما أمره الله تعالى أن يصنع الفلك أقبل نوح عليه السلام على عمل الفلك ولَهَا عن قومه، وجعل يقطع الخشب ويضرب الحديد ويهيـيء عدّة الفلك من القارّ وغيره، وجعل قومه يمرّون به وهو في عمله ويسخرون منه، ويقولون: يا نوح قد صرت نجّاراً بعد النبوّة؟ وأعقم الله أرحام نسائهم فلا يولد لهم ولد. وزعم أهل التوراة أن الله أمره أن يصنع الفلك من خشب الساج، وأن يصنعه من أزور وأن يطليه بالقار من داخله

قوله سبحانه وتعالى: ﴿وكلما مر عليه ملأ من قومه﴾ أي جماعة من قومه ﴿سخروا منه﴾ يعني استهزؤوا به وذلك أنهم قالوا إن هذا الذي كان يزعم أنه نبي قد صار نجاراً وقيل قالوا يا نوح ماذا تصنع قال أصنع بيتاً يمشي على الماء فضحكوا منه ﴿قال﴾ يعني نوحاً لقومه ﴿إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون﴾ يعني إن تستجهلونا في صنعنا فإنا نستجهلكم لتعرضكم لما يوجب سخط الله وعذابه، فإن قلت السخرية لا تليق بمنصب النبوة فكيف قال نوح عليه السلام إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون.

قلت إنما سمي هذا الفعل سخرية على سبيل الازدواج في مشاكلة الكلام كما في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وجزاء سيئة سيئة مثلها﴾ والمعنى إنا نرى غب سخريتكم بنا إذا نزل بكم العذاب وهو قوله تعالى:

فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾

﴿فسوف تعلمون﴾ يعني فسترون ﴿من يأتيه﴾ يعني أينا يأتيه نحن أو أنتم ﴿عذاب يخزيه﴾ يعني يهينه ﴿ويحل عليه عذاب مقيم﴾ يعني في الآخرة فالمراد بالعذاب الأول عذاب الدنيا وهو الغرق والمراد بالعذاب الثاني عذاب الآخرة وعذاب النار الذي لا انقطاع له.

وخارجه، وأن يجعل طوله ثمانين ذراعاً وعرضه خمسين ذراعاً وطوله في السماء ثلاثين ذراعاً، والذراع إلى المنكب، وأن يجعله ثلاثة أطباق سفلى ووسطى وعليا ويجعل فيه كوى، ففعله نوح كما أمره الله عزّ وجلّ. وقال ابن عباس: اتخذ نوح السفينة في سنتين وكان طول السفينة ثلثمائة ذراع وعرضها خمسون ذراعاً وطولها في السماء ثلاثون ذراعاً، وكانت من خشب الساج وجعل لها ثلاثة بطون، فحمل في البطن الأسفل الوحوش والسباع والهوام، وفي البطن الأوسط الدواب والأنعام، وركب هو ومَن معه في البطن الأعلى مع ما يحتاج إليه من الزاد. وقال قتادة: كان بابها في عرضها. ورُوِيَ عن الحسن: كان طولها ألفاً ومائتي ذراع وعرضها ستّ مائة ذراع. والمعروف هو الأول أن طولها ثلثمائة ذراع. وعن زيد بن أسلم قال: مكث نوح عليه السلام مائة سنة يغرس الأشجار ويقطعها، ومائة سنة يعمل الفلك. وقيل: غرس الشجر أربعين سنة وجفّفه أربعين سنة. وعن كعب الأحبار أن نوحاً عمل السفينة في ثلاثين سنة، ورُوِيَ أنها كانت ثلاث طبقات، الطبقة السفلى للدواب والوحوش، والطبقة الوسطى فيها الإنس، والطبقة العليا فيها الطير، فلما كثرت أرواث الدواب شكا ذلك إلى الله عزّ وجلّ فأوحى الله إلى نوح أنِ اغْمِزْ ذنبَ الفيل فغمزه فوقع منه خنزير وخنزيرة، فأقبلا على الروث فأكلاه، فلما وقع الفأر بجوف السفينة فجعل يقرضها ويقرض حبالها، أوحى الله تعالى إليه أن اضربْ بين عيني الأسد فضرب فخرج من مِنخره سنّور وسنّورة، فأقبلا على الفأر فأكلاه. قوله تعالى: ﴿ وكُلّما مرَّ عليه ملأٌ من قومه سخرُوا منه ﴾، وذلك أنهم كانوا يقولون: إنّ هذا الذي يزعم أنه نبي قد صار نجّاراً. ورُوِيَ أنهم كانوا يقولون له: يا نوح ماذا تصنع؟ فيقول: أصنع بيتاً يمشي على الماء، فيضحكون منه، ﴿ قال إنْ تسخرُوا مِنّا فإنّا نسخرُ مِنْكُم ﴾، إذا عاينتم عذاب الله، ﴿ كما تَسْخَرُون ﴾، فإن قيل: كيف تجوز السخرية من النبي؟ قيل: هذا على ازدواج الكلام، يعني إن تستجهلوني فإني أستجهلكم إذا نزل العذاب بكم. وقيل: معناه إن تسخروا منّا فسترون عاقبة سخريتكم.

﴿ فسوفَ تعلمُون مَن يأتيهِ عذابٌ يُخزيهِ ﴾، يهينه، ﴿ ويَحِلُّ عليهِ ﴾، يجب عليه، ﴿ عذابٌ مقيم ﴾، دائم.

وقوله عز وجل: ﴿حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور﴾ يعني وغلى والفور الغليان وفارت القدر إذا غلت.

والتنور: فارسي معرب لا تعرف له العرب اسماً غير هذا فلذلك جاء في القرآن بهذا اللفظ فخوطبوا بما يعرفون وقيل إن لفظ التنور جاء هكذا بكل لفظ عربي وعجمي وقيل إن لفظ التنور أصله أعجمي فتكلمت به العرب فصار عربياً مثل الديباج ونحوه واختلفوا في المراد بهذا التنور، فقال عكرمة والزهري: هو وجه الأرض وذلك أنه قيل لنوح عليه السلام إذا رأيت الماء قد فار على وجه الأرض فاركب السفينة فعلى هذا يكون قد جعل فوران التنور علامة لنوح على هذا الأمر العظيم وقال علي: فار التنور أي طلع الفجر ونور الصبح شبه نور الصبح بخروج النار من التنور، وقال الحسن ومجاهد والشعبي: إن التنور هو الذي يخبز فيه، وهو قول أكثر المفسرين ورواية عن ابن عباس، أيضاً وهذا القول أصح لأن اللفظ إذا دار بين الحقيقة والمجاز كان حمله على الحقيقة أولى ولفظ التنور حقيقة في اسم الموضع الذي يخبز فيه فوجب حمل اللفظ عليه.

فإن قلت الألف واللام في لفظ التنور للعهد وليس هاهنا معهود سابق عند السامع فوجب حمله على غيره وهو شدة الأمر والمعنى إذا رأيت الماء يشتد نبوعه ويقوى فانج بنفسك ومن معك.

قلت: لا يبعد أن يكون ذلك التنور معلوماً عند نوح عليه السلام، قال الحسن كان تنوراً من حجارة وكانت حواء تخبز فيه ثم صار إلى نوح وقيل له إذا رأيت الماء يفور من التنور فاركب أنت وأصحابك واختلفوا في موضع التنور فقال مجاهد نبع الماء من التنور فعلمت به امرأته فأخبرته وكان ذلك في ناحية الكوفة وكان الشعبي يحلف بالله ما فار التنور إلا من ناحية الكوفة، قال الشعبي: اتخذ نوح السفينة في جوف مسجد الكوفة وكان التنور على يمين الداخل مما يلي باب كندة وكان فوران التنور علامة لنوح عليه السلام، وقال مقاتل: كان ذلك التنور تنور آدم وكان بالشام بموضع يقال له عين وردة وروي عن ابن عباس أنه كان بالهند قال: والفوران الغليان ﴿قلنا احمل فيها﴾ يعني: قلنا لنوح احمل في السفينة ﴿من كل زوجين اثنين﴾ الزوجان كل اثنين لا يستغني أحدهما عن الآخر كالذكر والأنثى يقال

﴿حتى إذا جاءَ أمرُنا﴾، عذابنا، ﴿وفارَ التَّنُّورُ﴾، اختلفوا في التنور، قال عكرمة والزهري: هو وجه الأرض، وذلك أنه قيل لنوح: إذا رأيتَ الماء، فارَ على وجه الأرض فاركبِ السفينة. ورُوِيَ عن علي رضي الله عنه أنه قال: فار التنّور أي: طلع الفجر ونور الصبح. وقال الحسن ومجاهد والشعبي: إنه التنور الذي يُخبَز فيه، وهو قول أكثر المفسّرين. ورواية عطية عن ابن عباس قال الحسن: كان تنّوراً من حجارة، كانت حوّاء تخبز فيه فصار إلى نوح عليه السلام، فقيل لنوح: إذا رأيتَ الماءَ يفور من التنّور فاركبِ السفينة أنتَ وأصحابُك. واختلفوا في موضعه، قال مجاهد والشعبي: كان في ناحية الكوفة. وكان الشعبي يحلف: ما فار التنّور إلّا من ناحية الكوفة. وقال: اتخذ نوح السفينة في جوفْ مسجد الكوفة. وكان التنّور على يمين الداخل مما يلي باب كندة، وكان فورانُ الماء منه عَلَماً لنوح عليه السلام. وقال مقاتل: كان ذلك تنّور آدم وكان بالشام بموضع يقال له عين وردة. ورُوِيَ عن ابن عباس: أنه كان بالهند. والفوران: الغليان. قوله تعالى: ﴿قلنا احْمِلْ فيها﴾، أي: في السفينة، ﴿مِنْ كل زوجين اثنين﴾، الزوجان: كل اثنين لا يستغني أحدهما عن الآخر، يقال لكل واحد منهما زوج، يقال: زوج خفٍّ وزوج نعل، والمراد بالزوجين هنا: الذكر والأنثى. قرأ حفص ههنا وفي سورة المؤمنين [٢٧]: «مِن كُلٍّ» بالتنوين أي: من كل صنف زوجين اثنين، ذكره تأكيداً. وفي القصة: أن نوحاً عليه الصلاة والسلام قال: يا ربِّ كيفَ أحمل من كل زوجين اثنين؟ فحشر الله إليه الوحوشَ والسباعَ والهوامَّ والطير، فجعل يضرب بيديه في كل جنس فيقع الذكر في يده اليمنى والأنثى في يده اليسرى، فيحملها في السفينة، ﴿وأهْلَكَ﴾، أي: واحملْ أهلَكَ، أي: ولدك

لكل واحد منهما زوج والمعنى من كل صنف زوجين ذكراً أو أنثى فحشر الله سبحانه وتعالى إليه الحيوان من الدواب والسباع والطير فجعل نوح يضرب بيديه في كل جنس منها فيقع الذكر في يده اليمنى والأنثى في يده اليسرى فيجعلهما في السفينة **﴿وأهلك﴾** أي واحمل أهلك وولدك وعيالك **﴿إلا من سبق عليه القول﴾** يعني بإهلاك وأراد به امرأته واعلة وولده كنعان **﴿ومن آمن﴾** يعني واحمل معك من آمن بك من قومك **﴿وما آمن معه إلا قليل﴾** اختلفوا في عدد من حمل نوح معه في السفينة فقال قتادة وابن جريج ومحمد بن كعب القرظي لم يكن في السفينة إلا ثمانين: نفر نوح وامرأته وثلاثة بنين له وهم سام وحام ويافث ونساؤهم؛ وقال الأعمش: كانوا سبعة نوحاً وبنيه وثلاث كنائن له. وقال محمد بن إسحاق: كانوا عشرة سوى نسائهم وهم نوح وبنوه سام وحام ويافث وستة نفر آمنوا بنوح وأزواجهم جميعاً، وقال مقاتل: كانوا اثنين وسبعين نفراً رجلاً وامرأة وقال ابن عباس كان في السفينة ثمانون رجلاً أحدهم جرهم، قال الطبري: والصواب من القول في ذلك أن يقال كما قال الله عز وجل: **﴿وما آمن معه إلا قليل﴾** فوصفهم الله سبحانه وتعالى بالقلة ولم يحدد عدداً بمقدار فلا ينبغي أن يجاوز في ذلك حد الله سبحانه وتعالى إذ لم يرد ذلك في كتاب ولا خبر صحيح عن رسول الله ﷺ قال مقاتل: حمل نوح معه جسد آدم عليه السلام فجعله معترضاً بين الرجال والنساء وقصد نوحاً جميع الدواب والطيور ليحملها قال ابن عباس: أول ما حمل نوح الدرة وآخر ما حمل الحمار فلما أراد أن يدخل الحمار أدخل صدره فتعلق إبليس بذنبه فلم تنتقل رجلاه وجعل نوح يقول له ويحك ادخل فينهض فلا يستطيع حتى قال له أدخل وإن كان الشيطان معك كلمة ذلت على لسانه فلما قالها نوح خلى سبيل الحمار فدخل الحمار ودخل الشيطان معه فقال له نوح ماذا أدخلك عليّ يا عدو الله قال ألم تقل ادخل وإن كان الشيطان معك قال اخرج عني يا عدو الله.

قال: لا بد من أن تحملني معك فكان فيما يزعمون على ظهر السفينة، هكذا نقله البغوي وقال الإمام فخر الدين الرازي: وأما الذي يروى أن إبليس دخل السفينة فبعيد لأنه من الجن وهو جسم ناري أو هوائي فكيف يفر من الغرق وأيضاً فإن كتاب الله لم يدل على ذلك ولم يرد فيه خبر صحيح فالأولى ترك الخوض فيه، قال البغوي: وروي عن

وعيالك، **﴿ إلاّ مَنْ سبقَ عليهِ القولُ ﴾**، بالهلاك يعني امرأته وَاعِلة وابنه كنعان، **﴿ ومَنْ آمنَ ﴾** يعني: واحمل مَن آمن بك، كما قال الله تعالى: **﴿ وما آمنَ معه إلاّ قليلٌ ﴾**، واختلفوا في عددهم، قال قتادة وابن جريج ومحمد بن كعب القرظي: لم يكن في السفينة إلاّ ثمانية، نوح وامرأته وثلاثة بنين، له سام وحام ويافث، ونساؤهم، وقال الأعمش: كانوا سبعة نوح وثلاثة بنين له، وثلاث كنائن له. وقال ابن إسحاق: كانوا عشرة سوى نسائهم، نوح وبنوه سام وحام ويافث وستّة أُناس ممّن كان آمن به وأزواجهم جميعاً. وقال مقاتل: كانوا اثنين وسبعين نفراً رجلاً وامرأةً وبنيه الثلاثة ونسائهم، فجميعهم ثمانية وسبعون نصفهم رجال ونصفهم نساء. وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان في سفينة نوح ثمانون رجلاً أحدهم جرهم. قال مقاتل: حمل نوح معه جسد آدم فجعله معترضاً بين الرجال والنساء وقصد نوحاً جميعُ الدواب والطيور ليحملها. قال ابن عباس رضي الله عنهما: أول ما حمل نوح الدرّة وآخر ما حمل الحمار، فلما دخل الحمار ودخل صدره تعلّق إبليس بذنبه، فلم يستقل رجلاه فجعل نوح يقول ويحك ادخل فنهض فلم تستطع، حتى قال نوح: ويحك ادْخلْ وإن كان الشيطان معك كلمة زلّت على لسانه، فلما قالها نوح خلّى الشيطان سبيله فدخل ودخل الشيطان معه، فقال له نوح: ما أدخلك عليَّ يا عدوّ الله؟ قال: ألم تقل ادخل وإن كان الشيطان معك، قال: اخرج عنّي يا عدوّ الله، فقال: ما لك بدّ من أن تحملني معك، فكان فيما يزعمون في ظهر الفلك. ورُوِيَ عن بعضهم: أن الحيّة والعقرب أتيا نوحاً فقالتا: احملنا، فقال: إنكما سبب الضرّ والبلاء، فلا أحملكما، فقالتا له: احملنا ونحن نضمن لك أن لا نضر أحداً ذكرك فمَن قرأ حين خاف مضرّتهما سلام على

بعضهم أن الحية والعقرب أتيا نوحاً عليه السلام فقالتا احملنا معك فقال إنكما سبب البلاء فلا أحملكما فقالتا احملنا فنحن نضمن لك أن لا نضر أحداً ذكرك فمن قرأ حين يخاف مضرتهما سلام على نوح في العالمين لم تضراه وقال الحسن لم يحمل نوح معه في السفينة إلا ما يلد ويبيض وأما ما سوى ذلك مما يتولد من الطين من حشرات الأرض كالبق والبعوض فلم يحمل منها شيئاً.

﴿وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾

قوله سبحانه وتعالى: **﴿وقال اركبوا فيها﴾** يعني وقال نوح لمن حمل معه اركبوا في السفينة **﴿بسم الله مجراها ومرساها إن ربي لغفور رحيم﴾** يعني بسم الله اجراؤها وإرساؤها قال الضحاك كان نوح إذا أراد أن تجري السفينة قال بسم الله فتجري وكان إذا أراد أن ترسو يعني تقف قال بسم الله فترسو أي تقف وهذا تعليم من الله لعباده أنه من أراد أمراً فلا ينبغي له أن يشرع فيه حتى يذكر اسم الله عليه وقت الشروع حتى يكون ذلك سبباً للنجاح والفلاح في سائر الأمور **﴿وهي تجري بهم في موج كالجبال﴾** الموج ما ارتفع من الماء إذا اشتدت عليه الريح، شبهه سبحانه وتعالى بالجبال في عظمه هوارتفاعه على الماء قال العلماء: بالسير أرسل الله المطر أربعين يوماً وليلة وخرج الماء من الأرض فذلك قوله سبحانه وتعالى: ﴿ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر وفجرنا الأرض عيوناً فالتقى الماء على أمر قد قدر﴾ يعني: صار إناء نصفين نصفاً من السماء ونصفاً من الأرض وارتفع الماء على أعلى جبل وأطوله أربعين ذراعاً وقيل خمسة عشر ذراعاً حتى أغرق كل شيء.

نوح في العالمين ما ضرّتاه. قال الحسن: لم يحمل نوح في السفينة إلّا ما يلد ويبيض، فأما ما يتولّد من الطين من حشرات الأرض كالبق والبعوض والذباب فلم يحمل منها شيء.

﴿ وقالَ ارْكَبُوا فيها ﴾، أي: وقال لهم نوح اركبوا فيها أي في السفينة، **﴿ بسم اللّهِ مَجْرَاهَا ومُرْسَاهَا ﴾**، قرأ حمزة والكسائي وحفص: «مَجْراهـا» بفتـح الميم «ومُرسـاهـا» بضمهـا، وقـرأ محمـد بن محيصن «مجْريهـا ومَرساها» بفتح الميمين من جرت ورست، أي: بسم الله جريها ورسوها، وهما مصدران. وقرأ الآخرون: «مُجراها ومُرساها» بضم الميميـن من أجريت وأرسيت، أي: بسم الله إجراؤُها وإرساؤُها وهما أيضاً مصدران، كقوله: ﴿ أنزلني مُنزلاً مباركاً ﴾ [المؤمنون: ٢٩]، ﴿ وأدْخلني مُدخلَ صِدقٍ وأخرجني مُخرجَ صدق ﴾ [الإسراء: ٨٠]، والمراد منها الإنزال والإدخال والإخراج. **﴿ إنّ ربّي لغفورٌ رحيم ﴾**، قال الضحاك: قال نوح إذا أراد أن تجري السفينة قال: بسم الله، جرت وإذا أراد أن يرسوَ قال: بسم الله رست.

﴿ وهي تجري بهم في موج كالجبال ﴾، والموج ما ارتفع من الماء إذا اشتدت عليه الـريح، شبّهـه بالجبـال في عظمه وارتفاعه على الماء. **﴿ ونادَى نوحُ ابْنَه ﴾**، كنعان، وقال عبيد بن عمير: سام وكان كافراً، **﴿ وكان في معزل ﴾**، عنه لم يركب السفينة، **﴿ يا بُنيّ اركبْ معنا ﴾**، قرأ نافع وابن عامر وحمزة والبزّي عن ابن كثير، وأبو بكر عن عاصم ويعقوب: «اركـب» بإظهار الباء والآخرون يدغمونها في الميم، **﴿ ولا تكن معَ الكافرين ﴾**، فتهلك.

﴿ قال ﴾ له ابنه **﴿ سآوي ﴾**، سأصير وألتجىء، **﴿ إلى جبل يعصمُني من الماء ﴾**، يمنعني من الغرق،

وروي أنه لما كثر الماء في الشكك خافت أم الصبي على ولدها من الغرق وكانت تحبه حباً شديداً فخرجت به إلى الجبل حتى بلغت ثلثه فلحقها الماء فارتفعت حتى بلغت ثلثيه فلما لحقها الماء ذهبت حتى استوت على الجبل فلما بلغ الماء إلى رقبتها رفعت الصبي بيديها حتى ذهب بهما الماء فأغرقهما فلو رحم الله منهم أحداً لرحم أم الصبي **﴿ونادى نوح ابنه﴾** يعني كنعان وكان كافراً **﴿وكان في معزل﴾** يعني عن نوح لم يركب معه **﴿يا بني اركب معنا﴾** يعني في السفينة **﴿ولا تكن مع الكافرين﴾** يعني فتهلك معهم **﴿قال﴾** يعني قال كنعان **﴿سآوي﴾** يعني سألتجيء وأصير **﴿إلى جبل يعصمني﴾** يعني يمنعني **﴿من الماء قال﴾** يعني قال له نوح **﴿لا عاصم﴾** يعني لا مانع **﴿اليوم من أمر الله﴾** يعني من عذابه **﴿إلا من رحم﴾** يعني إلا من رحمه الله فينجيه من الغرق **﴿وحال بينهما الموج فكان من المغرقين﴾** يعني كنعان.

﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَنَادَىٰ نُوحٞ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾﴾

﴿وقيل﴾ يعني بعد ما تناهى الطوفان وأغرق الله قوم نوح **﴿يا أرض ابلعي ماءك﴾** أي اشربيه **﴿ويا سماء أقلعي﴾** أي أمسكي **﴿وغيض الماء﴾** أي نقص ونضب يقال غاض الماء إذا نقص وذهب **﴿وقضي الأمر﴾** يعني وفرغ من الأمر وهو هلاك قوم نوح **﴿واستوت﴾** يعني واستقرت السفينة **﴿على الجودي﴾** وهو جبل بالجزيرة بقرب الموصل **﴿وقيل بعداً﴾** يعني هلاكاً **﴿للقوم الظالمين﴾** قال العلماء: بالسير لما استقرت السفينة بعث نوح الغراب ليأتيه بخبر الأرض فوقع على جيفة فلم يرجع إليه فبعث الحمامة فجاءت بورق زيتون في منقارها ولطخت رجليها بالطين، فعلم نوح أن الماء قد ذهب فدعا على الغراب بالخوف فلذلك لا يألف البيوت وطوق الحمامة بالخضرة التي في عنقها ودعا لها بالأمان فمن ثم تألف البيوت وروي أن نوحاً عليه السلام ركب السفينة لعشر بقين من رجب وجرت بهم السفينة ستة أشهر ومرت بالبيت الحرام وقد رفعه الله من الغرق وبقي موضعه فطافت السفينة به سبعاً وأودع الحجر الأسود جبل أبي قبيس وهبط نوح ومن معه في السفينة يوم عاشوراء فصامه نوح عليه السلام وأمر جميع من معه بصيامه شكراً لله تعالى وبنوا قرية بقرب الجبل فسميت سوق ثمانين فهي أول قرية عمرت على وجه الأرض بعد الطوفان، وقيل: إنه لم ينج أحد من الكفار من الغرق غير عوج بن عنق وكان الماء يصل إلى حجزته وسبب نجاته من الهلاك أن نوحاً عليه

﴿ قال ﴾ له نوح **﴿ لا عاصِمَ اليومَ من أمرِ الله ﴾**، أي: من عذاب الله، **﴿ إلاّ مَن رَّحِمَ ﴾**، قيل: **﴿ من ﴾** في محل ارفع، أي لا مانع من عذاب الله إلاّ الله الراحم. وقيل: **﴿ من ﴾** في محل النصب، معناه لا معصوم إلاّ من رحمه الله، كقوله: **﴿ في عِيشَةٍ راضية ﴾** [الحاقة: ٢١، القارعة: ٧] أي: مرضية، **﴿ وحال بينهما الموجُ فكان ﴾**، فصار، **﴿ من المغرقين ﴾**، ويُروى: أن الماء علا على رؤوس الجبال قدر أربعين ذراعاً. وقيل: خمسة عشر ذراعاً. ويُروى: أنه لما كثر الماء في السكك خشيت أُم الصبي عليه وكانت تحبّه حبّاً شديداً فخرجت إلى الجبل حتى بلغت ثلثه، فلما بلغها الماء ارتفعت حتى بلغت ثلثيه، فلما بلغها الماء ذهبت حتى استوت على الجبل، فلما بلغ الماء رقبتها رفعت الصبي بيديها حتى ذهب بها الماء، فلو رحم الله منهم أحداً لرحم أُم الصبي.

﴿ وقيل ﴾، يعني بعدما تناهى أمر الطوفان. **﴿ يا أرضُ ابلعي ﴾**، اشربي، **﴿ماءَكِ ويا سماءُ أقلعي ﴾**، أمسكي، **﴿وغِيْضَ الماءُ﴾**، نقص ونضب، يقال: غاض الماء يغيض غيضاً إذا نقص، وغاضه الله أي أنقصه،

السلام احتاج إلى خشب ساج لأجل السفينة فلم يمكنه نقله فحمله عوج بن عنق من الشام إلى نوح فنجاه الله من الغرق لذلك.

فإن قلت: كيف اقتضت الحكمة الإلهية والكرم العظيم إغراق من لم يبلغوا الحلم من الأطفال ولم يدخلوا تحت التكليف بذنوب غيرهم.

قلت: ذكر بعض المفسرين أن الله عز وجل أعقم أرحام نسائهم أربعين سنة فلم يولد لهم ولد تلك المدة وهذا الجواب ليس بقوي لأنه يرد عليه إغراق جميع الدواب والهوام والطير وغير ذلك من الحيوان ويرد على ذلك أيضاً إهلاك أطفال الأمم الكافرة مع آبائهم غير قوم نوح.

والجواب الشافي عن هذا كله أن الله سبحانه وتعالى متصرف في خلقه وهو المالك المطلق يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد لا يسأل عما يفعل وهم يسألون.

قوله عز وجل: **﴿ونادى نوح ربه﴾** أي دعاه وسأله **﴿فقال رب إن ابني من أهلي﴾** يعني وقد وعدتني أن تنجيني وأهلي **﴿وإن وعدك الحق﴾** يعني الصدق الذي لا خلف فيه **﴿وأنت أحكم الحاكمين﴾** يعني أنك حكمت لقوم بالنجاة وحكمت على قوم بالهلاك **﴿قال﴾** يعني قال الله تعالى: **﴿يا نوح إنه﴾** يعني هذا الابن الذي سألتني نجاته **﴿ليس من أهلك﴾** اختلف علماء التفسير: هل كان هذا الولد ابن نوح لصلبه أم لا فقال الحسن ومجاهد كان ولد حدث من غير نوح ولم يعلم به فلذلك قال إنه ليس من أهلك، وقال محمد بن جعفر الباقر: كان ابن امرأة نوح وكان يعلمه نوح ولذلك قال من أهلي ولم يقل مني. وقال ابن عباس وعكرمة وسعيد بن جبير والضحاك وأكثر المفسرين: إنه ابن نوح من صلبه، وهذا القول هو الصحيح والقولان الأولان ضعيفان بل باطلان ويدل على صحة هذا نقل الجمهور لما صح عن ابن عباس أنه قال: ما بغت امرأة نبي قط ولأن الله سبحانه وتعالى نص عليه بقوله سبحانه وتعالى: **﴿ونادى نوح ابنه﴾** ونوح ﷺ أيضاً نص عليه بقوله «يا بني اركب معنا» وهذا نص في الدلالة وصرف الكلام عن الحقيقة إلى المجاز من غير ضرورة لا يجوز وإنما خالف هذا الظاهر من خالفه لأنه استبعد أن يكون ولد نبي كافراً وهذا خطأ ممن قاله لأن الله سبحانه وتعالى خلق خلقه فريق في الجنة وهم المؤمنون وفريق في السعير وهم الكفار والله سبحانه وتعالى يخرج الكافر من المؤمن والمؤمن من الكافر ولا فرق في ذلك بين الأنبياء وغيرهم فإن الله سبحانه وتعالى أخرج قابيل من

﴿ وقُضِيَ الأمرُ ﴾ فرغ من الأمر وهو هلاك القوم **﴿ واستوتْ ﴾**، يعني السفينة استقرت، **﴿ على الجُودي ﴾**، وهو جبل بالجزيرة بقرب الموصل، **﴿ وقيلَ بُعْداً ﴾**، هلاكاً، **﴿ للقوم الظالمين ﴾**، ورُوِيَ أن نوحاً عليه السلام بعث الغراب ليأتيه بخبر الأرض فوقع على جيفة فلم يرجع فبعث حمامة فجاءت بورق زيتون في منقارها ولطخت رجليها بالطين، فعلم نوح أن الماء قد نضب، فقيل إنه دعا على الغراب بالخوف فلذلك لا يألف البيوت، وطوّق الحمامة الخضرة التي في عنقها ودعا لها بالأمان، فمن ثم تألف البيوت، ورُوِيَ: أن نوحاً ركب السفينة لعشر مضت من رجب وجرت بهم السفينة ستّة أشهر، ومرّت بالبيت فطافت به سبعاً وقدْ رفعه الله من الغرق وبقي موضعه، وهبطوا به يوم عاشوراء فصام نوح وأمر جميع مَن معه بالصوم شكراً لله عزّ وجلّ. وقيل: ما نجا من الكفّار من الغرق غير عوج بن عنق كان الماء إلى حجزته، وكان سبب نجاته أن نوحاً احتاج إلى خشب ساج للسفينة فلم يمكنه نقله فحمله عوج إليه من الشام، فنجّاه الله تعالى من الغرق لذلك.

قوله تعالى: **﴿ ونادَى نوحُ ربَّه فقال ربِّ إنّ ابني من أهلي ﴾**، أوَ قدْ وعدتني أن تنجيني وأهلي؟ **﴿ وإنّ وَعْدَكَ الحقُّ ﴾**، لا خلف فيه، **﴿ وأنتَ أحْكمُ الحاكمين ﴾**، حكمت على قوم بالنجاة وعلى قوم بالهلاك.

صلب آدم عليه السلام وهو نبي وكان قابيل كافراً وأخرج إبراهيم من صلب آزر وهو نبي وكان آزر كافراً فكذلك أخرج كنعان وهو كافر من صلب نوح وهو نبي فهو المتصرف في خلقه كيف يشاء.

فإن قلت: فعلى هذا كيف ناداه نوح فقال: اركب معنا وسأل له النجاة مع قوله رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً قلت: قد ذكر بعضهم أن نوحاً عليه الصلاة والسلام لم يعلم بكون ابنه كان كافراً فلذلك ناداه وعلى تقدير أنه يعلم كفره إنما حمله على أن ناداه رقة لأبوة ولعله إذا رأى تلك الأهوال أن يسلم فينجيه الله بذلك من الغرق فأجابه الله عز وجل بقوله إنه ليس من أهلك يعني أنه ليس من أهل دينك لأن أهل الرجل من يجمعه وإياهم نسب أو دين أو ما يجري مجراهما.

ولما حكمت الشريعة برفع حكم النسب في كثير من الأحكام بين المسلم والكافر قال الله سبحانه وتعالى لنوح: إنه ليس من أهلك **﴿إنه عمل غير صالح﴾** قرأ الكسائي ويعقوب: عَمِلَ بكسر الميم وفتح اللام غير بفتح الراء على عود الفعل على الابن ومعناه أنه عمل الشرك والكفر والتكذيب وكل هذا غير صالح، وقرأ الباقون من القراء: عَمَلٌ بفتح الميم ورفع اللام مع التنوين وغير بضم الراء ومعناه إن سؤالك إياي أن أنجيه من الغرق عمل غير صالح لأن طلب نجاة الكفار بعد ما حكم عليه بالهلاك بعيد فلهذا قال سبحانه وتعالى: **﴿إنه عمل غير صالح﴾** ويجوز أن يعود الضمير في إنه على ابن نوح أيضاً ويكون التقدير على هذه القراءة إن ابنك ذو عمل أو صاحب عمل غير صالح فحذف المضاف كما قالت الخنساء: فإنما هي إقبال وإدبار.

قال الواحدي، وهذا قول أبي إسحاق يعني الزجاج وأبي بكر بن الأنباري وأبي علي الفارسي قال أبو علي: ويجوز أن يكون ابن نوح عمل عملاً غير صالح فجعلت نفسه ذلك العمل لكثرة ذلك منه، كما يقال الشعر زهير والعلم فلان إذا كثر منه فعلى هذا لا حذف **﴿فلا تسألن ما ليس لك به علم﴾** وذلك أن نوحاً عليه السلام سأل ربه إنجاء ولده من الغرق وهو من كمال شفقة الوالد على ولده وهو لا يعلم أن ذلك محظور لإصرار ولده على الكفر فنهاه الله سبحانه وتعالى عن مثل هذه المسألة وأعلمه أن ذلك لا يجوز فكان المعنى فلا تسألن ما ليس لك به علم بجواز مسألته **﴿إني أعظك﴾** يعني أنهاك **﴿أن تكون من الجاهلين﴾** يعني لمثل هذا السؤال.

﴿ قال ﴾ اللَّهُ عزّ وجلّ **﴿ يا نوحُ إنّه ليس مِنْ أهلِكَ إنّه عملٌ غيرُ صالح ﴾**، قرأ الكسائي ويعقوب: «عمِـلَ» بكسر الميم وفتح اللام «غيـرَ» بنصب الراء على الفعل، أي: **عمل** الشرك والتكذيب. وقرأ الآخرون بفتح الميم ورفع اللام تنوينه، **﴿ غير ﴾** برفع الراء معناه: أن سؤالك إيّاي أن أنجيه بعمل غير صالح، **﴿ فلا تَسْألْن ﴾**، يا نوح، **﴿ ما ليسَ لكَ بهِ عِلْمٌ ﴾**، قرأ أهل الحجاز والشام « فلا تسألني » بفتح اللام وتشديد النون، ويكسرون النون غير ابن كثير فإنه يفتحها. وقرأ الآخرون بجزم اللام وكسر النون خفيفة، ويُثبت أبو جعفر وأبو عمرو وورش الياء في الوصل دون الوقف، وأثبتها يعقوب في الحالين، **﴿ إني أعظُكَ أن تكون من الجاهلين ﴾**، واختلفوا في هذا الابن، قال مجاهد والحسن: كان ولد حدث من غير نوح، ولم يعلم بذلك نوح، ولذلك قال: **﴿ ما ليس لك به علم ﴾** وقرأ الحسن **﴿ فخانتاهما ﴾** [التحريم: ١٠]، وقال أبو جعفر الباقر: كان ابن امرأته وكان يعلّمه نوح ولذلك قال: **﴿ من أهلي ﴾** ولم يقل منّي. وقال ابن عباس وعكرمة وسعيد بن جبير والضحاك والأكثرون: إنه كان ابن نوح عليه السلام من صلبه. وقال ابن عباس: ما بغت امرأة نبيّ قطّ. وقوله: **﴿ إنّه ليسَ من أهلك ﴾** أي: من أهل الدين. وقوله: **﴿ فخانتاهما ﴾**[التحريم: ١٠] أي: في الدين والعمل لا في الفراش. وقوله: **﴿ إني أعظُكَ أن تكونَ مِنَ الجاهلين ﴾**، يعني: تدعو بهلاك الكفّار ثم تسأل نجاة كافر.

قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِيٓ أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٤٧﴾ قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾ تِلْكَ مِنْ أَنبَآءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَاصْبِرْ ۖ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾

﴿**قال**﴾ يعني: قال نوح ﴿**رب إني أعوذ بك**﴾ يعني: ألجأ إليك وأعتذر إليك ﴿**أن أسألك ما ليس لي به علم**﴾ يعني: إنك أنت علام الغيوب وأنا لا أعلم ما غاب عني فأعتذر إليك من مسألتي ما ليس لي به علم ﴿**وإلا تغفر لي**﴾ يعني: جهلي وإقدامي على سؤال ما ليس لي به علم ﴿**وترحمني**﴾ يعني برحمتك التي وسعت كل شيء ﴿**أكن من الخاسرين**﴾.

(فصل وقد استدل بهذه الآيات من لا يرى عصمة الأنبياء)

وبيانه أن قوله إنه عمل غير صالح المراد منه السؤال وهو محظور فلهذا نهاه عنه بقوله فلا تسألن ما ليس لك به علم، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿**إني أعظك أن تكون من الجاهلين**﴾ يدل على أن ذلك السؤال كان جهلاً ففيه زجر وتهديد وطلب المغفرة والرحمة له يدل على صدور الذنب منه.

والجواب أن الله عز وجل كان قد وعد نوحاً عليه السلام بأن ينجيه وأهله فأخذ نوح ظاهر اللفظ واتبع التأويل بمقتضى هذا الظاهر ولم يعلم ما غاب عنه ولم يشك في وعد الله سبحانه وتعالى فأقدم على هذا السؤال لهذا السبب فعاتبه الله عز وجل على سؤاله ما ليس له به علم وبين له أنه ليس من أهله الذي وعده بنجاتهم لكفره وعمله الذي هو غير صالح وأعلمه الله سبحانه وتعالى أنه مغرق مع الذين ظلموا ونهاه عن مخاطبته فيهم فأشفق نوح من إقدامه على سؤال ربه فيما لم يؤذن له فيه فخاف نوح من ذلك الهلاك فلجأ إلى ربه عز وجل وخشع له وعاذ به وسأل المغفرة والرحمة لأن حسنات الأبرار سيئات المقربين وليس في الآيات ما يقتضي صدور ذنب ومعصية من نوح عليه السلام سوى تأويله وإقدامه على سؤال ما لم يؤذن له فيه وهذا ليس بذنب ولا معصية والله أعلم.

قوله سبحانه وتعالى: ﴿**قيل يا نوح اهبط**﴾ أي انزل من السفينة أو من الجبل إلى الأرض ﴿**بسلام**﴾ أي بأمن وسلامة ﴿**منا وبركات عليك**﴾ البركة هي ثبوت الخير ونماؤه وزيادته، وقيل: المراد بالبركة هنا أن الله سبحانه وتعالى جعل ذريته هم الباقين إلى يوم القيامة فكل العالم من ذرية أولاده الثلاثة ولم يعقب من كان معه في السفينة غيرهم ﴿**وعلى أمم ممن معك**﴾ يعني: وعلى ذرية أمم ممن كانوا معك في السفينة، والمعنى وبركات عليك وعلى قرون

﴿ **قال** ﴾ نوح ﴿ **ربِّ إنّي أعوذُ بِكَ أنْ أسألَكَ ما ليسَ لي بِهِ علمٌ وإلاّ تغفرْ لي وترحمني أكُنْ مِّنَ الخاسرين** ﴾.

﴿ **قيلَ يا نوحُ اهْبِطْ** ﴾ انزل من السفينة، ﴿ **بسلامٍ مِّنّا** ﴾، أي بأمن وسلامة منّا، ﴿**وبركات عليك**﴾، البركة هي ثبوت الخير ومنه بروك البعير. وقيل: البركة ههنا هي أن الله تعالى جعل ذريّته، هُمُ الباقين إلى يوم القيامة، ﴿ **وعلى أمم مِّمَّنْ مَّعَكَ** ﴾، أي: على ذريّة أُمم ممّن كان معك في السفينة، يعني على قرون تجيء بعدك من ذريّة مَن معك في السفينة، يعني: من ولدك وهم المؤمنون، قال محمد بن كعب القرظي: دخل فيه كل مؤمن إلى يوم

تجيء من بعدك من ذرية أولادك وهم المؤمنون. قال محمد بن كعب القرظي: دخل في هذا كل مؤمن إلى يوم القيامة ﴿وأمم سنمتعهم﴾ هذا ابتداء كلام أي وأمم كافرة يحدثون بعدك سنمتعهم يعني في الدنيا إلى منتهى آجالهم ﴿ثم يمسهم منا عذاب أليم﴾ يعني في الآخرة ﴿تلك من أنباء الغيب﴾ هذا خطاب للنبي ﷺ يعني أن هذه القصة التي أخبرناك يا محمد من قصة نوح وخبر قومه من أنباء الغيب يعني من أخبار الغيب ﴿نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا﴾ يعني من قبل نزول القرآن عليك.

فإن قلت إن قصة نوح كانت مشهورة معروفة في العالم فكيف قال ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا.

قلت: يحتمل أن يكون كانوا يعلمونها مجملة فنزل القرآن بتفصيلها وبيانها.

وجواب آخر وهو أنه ﷺ كان أمياً لم يقرأ الكتب المتقدمة ولم يعلمها وكذلك كانت أمته فصح قوله ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل نزول القرآن بها ﴿فاصبر﴾ يا محمد على أذى مشركي قومك كما صبر نوح على أذى قومه ﴿إن العاقبة﴾ يعني النصر والظفر على الأعداء والفوز بالسعادة الأخروية يعني للمؤمنين.

قوله عز وجل: ﴿وإلى عاد﴾ يعني وأرسلنا إلى عاد ﴿أخاهم هوداً﴾ يعني أخاهم في النسب لا في الدين ﴿قال يا قوم اعبدوا الله﴾ يعني وحدوا الله ولا تشركوا معه شيئاً في العبادة ﴿ما لكم من إله غيره﴾ يعني أنه تعالى هو إلهكم لا هذه الأصنام التي تعبدونها فإنها حجارة لا تضر ولا تنفع ﴿إن أنتم إلا مفترون﴾ يعني ما أنتم إلا كاذبون في عبادتكم غيره.

يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾

﴿يا قوم لا أسألكم عليه﴾ يعني على تبليغ الرسالة ﴿أجراً﴾ يعني جعلاً آخذه منكم ﴿وان أجري﴾ يعني ما ثوابي ﴿إلا على الذي فطرني﴾ يعني: خلقني فإنه هو الذي رزقني في الدنيا ويثيبني في الآخرة ﴿أفلا تعقلون﴾ يعني فتتعظون

القيامة. ﴿ وأُمم سَنُمَتِّعُهُمْ ﴾، هذا ابتداء، أي: أُمم سنمتّعهم في الدنيا. ﴿ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِّنَّا عذابٌ أليمٌ ﴾، وهم الكافرون وأهل الشقاوة.

﴿ تلكَ مِنْ أنباءِ الغيب ﴾، من أخبار الغيب، ﴿ نُوحيها إليك ما كنتَ تعلمها أنتَ ولا قومُكَ مِن قبلِ هذا ﴾، من قبل نزول القرآن، ﴿ فاصْبِرْ ﴾، على القيام بأمر الله وتبليغ الرسالة وما تلقى من أذى الكفّار كما صبر نوح، ﴿ إنَّ العاقبةَ ﴾ آخر الأمر بالسعادة والنصرة ﴿ للمتَّقين ﴾، لأهل التقوى.

قوله تعالى: ﴿ وإلى عادٍ ﴾ أي: وأرسلنا إلى عاد، ﴿ أخاهم هوداً ﴾، في النسب لا في الدين، ﴿ قال يا قومِ اعبدُوا الله ﴾، وحّدوا الله ﴿ ما لكم من إلَهٍ غيرُهُ إنْ أنتم إلاّ مُفتَرُون ﴾، ما أنتم في إشراككم إلاّ كاذبون.

﴿ يا قومِ لا أسئلُكم عليه ﴾، أي: على تبليغ الرسالة، ﴿ أجراً ﴾، جَعْلًا، ﴿ إنْ أجْري ﴾، ما ثوابي، ﴿ إلّا على الذي فطرني ﴾، خلقني، ﴿ أفلا تَعْقِلُون ﴾.

﴿ويا قوم استغفروا ربكم﴾ أي آمنوا به فالاستغفار هنا بمعنى الإيمان لأنه هو المطلوب أولاً ﴿ثم توبوا إليه﴾ يعني من شرككم وعبادتكم غيره ومن سالف ذنوبكم ﴿يرسل السماء عليكم مدراراً﴾ يعني: ينزل المطر عليكم متتابعاً مرة بعد مرة في أوقات الحاجة إليه وذلك أن بلادهم كانت مخصبة كثيرة الخير والنعم فأمسك الله عنهم المطر مدة ثلاث سنين فأجدبت بلادهم وقحطت بسبب كفرهم فأخبرهم هود عليه السلام أنهم إن آمنوا بالله وصدقوه أرسل الله إليهم المطر فأحيا به بلادهم كما كانت أول مرة ﴿ويزدكم قوة إلى قوتكم﴾ يعني شدة مع شدتكم، وقيل: معناه أنكم إن آمنتم يقوِّكم بالأموال والأولاد وذلك أنه سبحانه وتعالى أعقم أرحام نسائهم فلم تلد فقال لهم هود عليه السلام إن آمنتم أرسل الله المطر فتزدادون مالاً ويعيد أرحام الأمهات إلى ما كانت عليه فيلدن فتزدادون قوة بالأموال والأولاد وقيل: تزدادون قوة في الدين إلى قوة الأبدان ﴿ولا تتولوا مجرمين﴾ يعني ولا تعرضوا عن قبول قولي ونصحي حال كونكم مشركين ﴿قالوا يا هود ما جئتنا ببينة﴾ أي ببرهان وحجة واضحة على صحة ما تقول ﴿وما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك﴾ يعني وما نترك عبادة آلهتنا لأجل قولك ﴿وما نحن لك بمؤمنين﴾ يعني بمصدقين ﴿إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء﴾ يعني إنك يا هود لست تتعاطى ما تتعاطاه من مخالفتنا وسب آلهتنا إلا أن بعض آلهتنا أصابك بخبل وجنون لأنك سببتهم فانتقموا منك بذلك ولا نحمل أمرك إلا على هذا ﴿قال﴾ يعني قال هود مجيباً لهم ﴿إني أشهد الله﴾ يعني على نفسي واشهدوا يعني واشهدوا أنتم أيضاً علي: ﴿أني بريء مما تشركون من دونه﴾ يعني هذه الأصنام التي كانوا يعبدونها ﴿فكيدوني جميعاً﴾ يعني احتالوا في كيدي وضري أنتم وأصنامكم التي تعتقدون أنها تضر وتنفع فإنها لا تضر ولا تنفع ﴿ثم لا تنظرون﴾ يعني ثم لا تمهلون وهذا فيه معجزة عظيمة لهود عليه السلام وذلك أنه كان وحيداً في قومه فما قال لهم هذه المقالة ولم يهبهم ولم يخف منهم مع ما هم فيه من الكفر والجبروت إلا لثقته بالله عز وجل وتوكله عليه وهو قوله تعالى: ﴿إني توكلت على الله ربي وربكم﴾ يعني أنه فوض أمره إلى الله واعتمد عليه ﴿ما من دابة﴾ يعني تدب على الأرض ويدخل في هذا جميع بني آدم والحيوان لأنهم يدبون على الأرض ﴿إلا هو آخذ

﴿ ويا قومِ استغفِرُوا ربَّكم ﴾، أي: آمنوا به، الإستغفار ههنا بمعنى الإيمان، ﴿ ثم تُوبُوا إليه ﴾، من عبادة غيره ومن سالف ذنوبكم، ﴿ يُرْسِلِ السماءَ عليكم مِّدْرَاراً ﴾، أي: يرسل المطر عليكم متتابعاً مرة بعد أخرى في أوقات الحاجة، ﴿ ويَزِيدْكُم قُوَّةً إلى قُوَّتِكم ﴾، أي: شدّة مع شدّتكم. وذلك أن الله عزّ وجلّ حبس عنهم المطر ثلاث سنين وأعقم أرحام نسائهم فلم يلدن، فقال لهم هود عليه السلام: إن آمنتم أرسل الله عليكم المطر فتزدادون مالاً ويعيد أرحام الأمهات إلى ما كانت، فيلدن فتزدادون قوة بالأموال والأولاد. وقيل: تزدادون قوة في الدين إلى قوة في البدن. ﴿ ولا تتولَّوا مُجرمين ﴾، أي: لا تدبروا مشركين.

﴿ قالوا يا هودُ ما جئتنا ببيّنةٍ ﴾، أي: ببرهان وحجة واضحة على ما تقول، ﴿ وما نحنُ بتارِكِي آلهتِنَا عن قولِكَ ﴾، أي: بقولك، ﴿ وما نحنُ لكَ بمؤمنين ﴾، بمصدّقين.

﴿ إنْ نقولُ إلاّ اعتراكَ بعضُ آلِهتِنَا بسوءٍ ﴾، يعني: ليست تتعاطى ما نتعاطاه من مخالفتنا وسبَّ آلهتنا إلاّ أن بعض آلهتنا اعتراك أي: أصابك بسوء بخبل وجنون، وذلك أنك سببت آلهتنا فانتقموا منك بالتخبيل لا نحمل أمرك إلاّ على هذا، ﴿ قال ﴾، لهم هود، ﴿ إني أُشْهِدُ اللّهَ ﴾، على نفسي، ﴿ واشْهَدُوا ﴾، يا قوم ﴿ إني بريءٌ ممّا تُشركون ﴾.

﴿ مِنْ دُونِهِ ﴾، يعني: الأوثان، ﴿ فَكِيدُونِي جميعاً ﴾، فاحتالوا في مكركم وضرّي أنتم وأوثانكم، ﴿ ثم لا تُنْظِرون ﴾، لا تؤخّرون ولا تمهلون.

بناصيتها﴾ يعني أنه تعالى هو مالكها والقادر عليها وهو يقهرها لأن من أخذت بناصيته فقد قهرته، والناصية: مقدم الرأس وسمي الشعر الذي عليه ناصية للمجاورة قيل: إنما خصَّ الناصية بالذكر لأن العرب تستعمل ذلك كثيراً في كلامهم فإذا وصفوا إنساناً بالذلة مع غيره يقولون ناصية فلان بيد فلان وكانوا إذا أسروا أسيراً وأرادوا إطلاقه جزوا ناصيته ليمنوا عليه ويعتدوا بذلك فخراً عليه فخاطبهم الله سبحانه وتعالى بما يعرفون من كلامهم **﴿إن ربي على صراط مستقيم﴾** يعني إن ربي وإن كان قادراً وأنتم في قبضته كالعبد الذليل فإنه سبحانه وتعالى لا يظلمكم ولا يعمل إلا بالإحسان والإنصاف والعدل فيجازي المحسن بإحسانه والمسيء بعصيانه، وقيل معناه أن دين ربي هو الصراط المستقيم وقيل فيه إضمار تقديره إن ربي يحملكم على صراط مستقيم.

فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ عَادٌ ۖ جَحَدُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾

﴿فإن تولوا﴾ يعني تتولوا بمعنى تعرضوا عن الإيمان بما أرسلت به إليكم **﴿فقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم﴾** يعني أني لم يقع مني تقصير في تبليغ ما أرسلت به إليكم إنما التقصير منكم في قبول ذلك **﴿ويستخلف ربي قوماً غيركم﴾** يعني أنكم إن أعرضتم عن الإيمان وقبول ما أرسلت به إليكم يهلككم الله ويستبدل بكم قوماً غيركم أطوع منكم يوحدونه ويعبدونه فيه إشارة إلى عذاب الاستئصال فهو وعيد وتهديد **﴿ولا تضرونه شيئاً﴾** يعني بتوليكم إنما تضرون أنفسكم بذلك وقيل لا تنقصونه شيئاً إذا أهلككم لأن وجودكم وعدمكم عنده سواء **﴿إن ربي على كل شيء حفيظ﴾** يعني أنه سبحانه وتعالى حافظ لكل شيء فيحفظني من أن تنالوني بسوء.

قوله سبحانه وتعالى: **﴿ولما جاء أمرنا﴾** يعني بإهلاكهم وعذابهم **﴿نجينا هوداً والذين آمنوا معه﴾** وكانوا أربعة آلاف **﴿برحمة منا﴾** وذلك أن العذاب إذا نزل قد يعم المؤمن والكافر فلما أنجى الله المؤمنين من ذلك العذاب كان برحمته وفضله وكرمه **﴿ونجيناهم من عذاب غليظ﴾** يعني الريح التي أهلكت بها عاد وذلك أن الله سبحانه وتعالى

﴿ إنّي توكلتُ ﴾ أي: اعتمدتُ **﴿ على اللّهِ ربّي وربِّكُمْ مَا مِنْ دَابّةٍ إلاّ هـو آخذٌ بناصِيتِها ﴾** قال الضحاك: مُحييها ومُميتها. قال الفرّاء: مالكها والقادر عليها. وقال بعض العلماء: آخذ بناصيتها لا تتوجّه إلاّ حيث يلهمها. وقال القتيبي: يقهرها، لأن مَن أخذت بناصيته فقد قهرته. وقيل: إنما خصّ الناصية بالذكر لأن العرب تستعمل ذلك إذا وصفت إنساناً بالذلّة، فتقول: ناصية فلان بيد فلان، وكانوا إذا أسروا إنساناً وأرادوا إطلاقه والمَنَّ عليه جزّوا ناصيته ليعتدّوا بذلك فخراً عليه، فخاطبهم الله بما يعرفون. **﴿ إنَّ ربّي على صراطٍ مستقيم ﴾**، يعني: إن ربي وإن كان قادراً عليهم فإنه لا يظلمهم ولا يعمل إلاّ بالإحسان والعدل، فيجازي المُحسِن بإحسانه والمسيء بعصيانه. وقيل: معناه إن دين ربّي صراط مستقيم. وقيل: فيه إضمار، أي: إن ربّي يحثّكم ويحملكم على صراط مستقيم.

﴿ فإنْ تولّوا ﴾، أي: تتولّوا، يعني: تعرضوا عمّا دعوتُكم إليه، **﴿ فقد أبلغتُكم ما أُرسلتُ به إليكم ويَسْتَخْلِفُ ربّي قوماً غيرَكم ﴾**، أي: إن أعرضتم يهلككم الله عزّ وجلّ ويستبدل قوماً غيركم أطوع منكم يوحّدُونه ويعبدونه، **﴿ ولا تَضُرُّونَه شيئاً ﴾**، بتولّيكم وإعراضكم إنما تضرّون أنفسكم. وقيل: لا تنقصونه شيئاً إذا أهلككم لأن وجودكم وعدمكم عنده سواء، **﴿ إنَّ ربّي على كلِّ شيءٍ حفيظٌ ﴾**، أي: لكل شيء حافظ، يحفظني من أن تنالوني بسوء.

أرسل على عاد ريحاً شديدة غليظة سبع ليال وثمانية أيام حسوماً وهي الأيام النحسات فأهلكتهم جميعاً وأنجى الله المؤمنين جميعاً فلم تضرهم شيئاً، وقيل: المراد بالعذاب الغليظ هو عذاب الآخرة وهذا هو الصحيح ليحصل الفرق بين العذابين والمعنى أنه تعالى كما أنجاهم من عذاب الدنيا كذلك ينجيهم من عذاب الآخرة ووصف عذاب الآخرة بكونه غليظاً لأنه أعظم من عذاب الدنيا ﴿وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله﴾ لما فرغ من ذكر قصة عاد خاطب أمة محمد ﷺ فقال وتلك عاد رده إلى القبيلة وفيه إشارة إلى قبورهم وآثارهم كأنه قال سيروا في الأرض فانظروا إليها واعتبروا بها ثم وصف حالهم بقوله تعالى جحدوا بآيات ربهم يعني المعجزات التي أتى بها هود عليه السلام وعصوا رسله يعني هوداً وحده إنما أتى به بلفظ الجمع إما للتعظيم أو لأن من كذب برسول فقد كذب كل الرسل ﴿واتبعوا أمر كل جبار عنيد﴾ يعني أن السفلة منهم اتبعوا الرؤساء والمراد من الجبار الرفيع في نفسه المتمرد على الله والعنيد المعاند الذي لا يقبل الحق ولا يتبعه.

وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾ ۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾ قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ ۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ ۖ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾

﴿وأتبعوا في هذه الدنيا لعنة﴾ يعني أردفوا لعنة تتبعهم وتلحقهم وتنصرف معهم واللعنة الطرد والإبعاد من رحمة الله ﴿ويوم القيامة﴾ يعني وفي يوم القيامة أيضاً تتبعهم اللعنة كما تتبعهم في الدنيا، ثم ذكر سبحانه وتعالى السبب الذي استحقوا به هذه اللعنة فقال سبحانه وتعالى: ﴿ألا إن عاداً كفروا ربهم﴾ أي كفروا بربهم ﴿ألا بعداً لعاد﴾ يعني هلاكاً لهم وقيل بعداً عن الرحمة.

فإن قلت: اللعنة معناها الإبعاد والهلاك فما الفائدة في قوله ألا بعداً لعاد لأن الثاني هو الأول بعينه.

قوله تعالى: ﴿ ولمّا جاءَ أمرُنا ﴾، عذابنا، ﴿ نجّينَا هوداً والذينَ آمنُوا معه ﴾، وكانوا أربعة آلاف. ﴿ برحمةٍ ﴾ بنعمة ﴿ منّا ونجّيناهم مِّنْ عذابٍ غليظٍ ﴾، وهو الريح التي أهلك بها عاداً، وقيل: العذاب الغليظ: عذاب يوم القيامة، أي: كما نجّيناهم في الدنيا من العذاب كذلك نجّيناهم في الآخرة.

﴿ وتِلْكَ عادٌ ﴾، ردّه إلى القبيلة، ﴿ جَحَدُوا بآياتِ ربِّهم وعَصَوْا رُسُلَهُ ﴾، يعني: هوداً وَحْدَهُ، ذكره بلفظ الجمع لأن مَن كذّب رسولاً واحداً كان كمَن كذّب جميع الرسل، ﴿ واتّبعُوا أمرَ كلِّ جبّارٍ عنيدٍ ﴾ أي: واتبع السُّفَلَة والسقّاط أهل التكبّر والعناد. والجبّار: المتكبّر، والعنيد: الذي لا يقبل الحق، يقال: عَنَدَ الرجلُ يعند عنوداً إذا أبى أن يقبل الشيء وإن عرفه. وقال أبو عبيدة: العنيد والعاند والعنود والمعاند المعارض لك بالخلاف.

﴿ وأُتبِعُوا في هذِهِ الدّنيا لعنةً ﴾، أي: أردفوا لعنة تلحقهم وتنصرف معهم، واللعنة: هي الإبعاد والطرد عن الرحمة، ﴿ ويومَ القيامة ﴾، أي: وفي يوم القيامة أيضاً لعنوا كما لعنوا في الدنيا والآخرة، ﴿ ألاَ إنّ عاداً كفرُوا ربّهم ﴾، أي: بربّهم، يقال: كفرته وكفرت به، كما يقال: شكرتُه وشكرتُ له ونصحتُه ونصحتُ له. ﴿ ألاَ بُعْداً لعادٍ قوم هُوْدٍ ﴾، قيل: بعداً من رحمة الله. وقيل: هلاكاً. والبعد له معنيان: أحدهما ضدّ القرب، يقال: منه بَعُدَ

قلت: الفائدة فيه أن التكرار بعبارتين مختلفتين يدل على نهاية التأكيد وأنهم كانوا مستحقين له ﴿قوم هود﴾ عطف بيان لعاد.

فإن قلت: هذا البيان حاصل مفهوم فما الفائدة في قوله قوم هود؟

قلت: إن عاداً كانوا قبيلتين عاد الأولى القديمة التي هم قوم هود وعاد الثانية وهم إرم ذات العماد وهم العماليق فأتى بقوله قوم هود ليزول الاشتباه وجواب آخر وهو أن المبالغة في التنصيص تدل على تقوية التأكيد.

قوله عز وجل: ﴿وإلى ثمود أخاهم صالحاً﴾ يعني وأرسلنا إلى ثمود وهم سكان الحجر أخاهم صالحاً يعني في النسب لا في الدين ﴿قال يا قوم اعبدوا الله﴾ أي وحدوا الله وخصوه بالعبادة ﴿ما لكم من إله غيره﴾ يعني هو إلهكم المستحق للعبادة لا هذه الأصنام ثم ذكر سبحانه وتعالى الدلائل الدالة على وحدانيته وكمال قدرته فقال تعالى: ﴿هو أنشأكم من الأرض﴾ يعني أنه هو ابتدأ خلقكم من الأرض وذلك أنهم من بني آدم وآدم خلق من الأرض ﴿واستعمركم فيها﴾ يعني وجعلكم عمارها وسكانها، وقال الضحاك: أطال أعماركم فيها حتى كان الواحد منهم يعيش ثلاثمائة سنة إلى ألف سنة وكذلك كان قوم عاد وقال مجاهد: أعمركم من العمرى أي جعلها لكم ما عشتم ﴿فاستغفروه﴾ يعني: من ذنوبكم ﴿ثم توبوا إليه﴾ يعني من الشرك ﴿إن ربي قريب﴾ يعني من المؤمنين ﴿مجيب﴾ لدعائهم ﴿قالوا يا صالح قد كنت فينا مرجواً قبل هذا﴾ يعني: قبل هذا القول الذي جئت به والمعنى إنا كنا نرجو أن تكون فينا سيداً لأنه كان من قبيلتهم وكان يعين ضعيفهم ويغني فقيرهم، وقيل: معناه أنا كنا نطمع أن تعود إلى ديننا فلما أظهر دعاءهم إلى الله وعاب الأصنام انقطع رجاؤهم منه ﴿أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا﴾ يعني الآلهة ﴿وإننا لفي شك مما تدعونا إليه﴾ يعني من عبادة الله ﴿مريب﴾ يعني انا مرتابون في قولك من أرابه إذا أوقعه في الريبة وهي قلق النفس ووقوعها في التهمة ﴿قال﴾ يعني قال صالح مجيباً لقومه ﴿يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي﴾ يعني على يقين وبرهان ﴿وآتاني منه

يبعُدُ بُعْداً، والآخر: بمعنى الهلاك، يقال: منه بَعدَ يبعِدُ بُعْداً، والآخر: بمعنى الهلاك، يقال: منه بَعدَ يبعِدُ بَعَداً وبَعُداً.

قوله تعالى: ﴿ وإلى ثمودَ أخاهم صالحاً ﴾، أي: وأرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحاً في النسب لا في الدين، ﴿ قالَ يا قومِ اعْبُدُوا اللَّهَ ﴾ وحّدُوا اللَّهَ عزَّ وجلّ، ﴿ ما لكمْ مِّنْ إلَهٍ غيرُهُ هو أنشأكم ﴾، ابتدأ خلقَكُم، ﴿ مِّنَ الأرضِ ﴾، وذلك أنهم من آدم وآدم خُلق من الأرض، ﴿ واسْتَعْمَرَكم فيها ﴾، أي: جعلكم عُمّارَها وسُكّانَها. وقال الضحّاك: أطال عمركم فيها حتى كان الواحد منهم يعيش ثلثمائة سنة إلى ألف سنة، وكذلك قوم عاد. وقال مجاهد: أعمركم من العُمري، أي: جعلها لكم ما عشتم. وقال قتادة: أسكنكم فيها. ﴿ فاسْتَغْفِرُوه ثمّ تُوبُوا إليه إنّ ربِّي قريبٌ ﴾، من المؤمنين، ﴿ مُجيبٌ ﴾ لدعائهم.

﴿ قالوا ﴾، يعني ثمود، ﴿ يا صالحُ قدْ كنتَ فينا مرجُوّاً قبلَ هذا ﴾، القول، أي: كنّا نرجو أن تكون سيّداً فينا. وقيل: كنّا نرجو أن تعود إلى ديننا، وذلك أنهم كانوا يرجون رجوعه إلى دين عشيرته، فلما أظهر دعاءهم إلى الله عزّ وجلّ وترك الأصنام زعموا أن رجاءهم انقطع عنه، فقالوا: ﴿ أتنهانا أن نعبدَ ما يعبُدُ آباؤُنا ﴾، من الآلهة، ﴿ وإنّنا لفي شكٍّ مِّمّا تدعونَا إليه مُريب ﴾، موقع للريبة والتهمة، يقال: أربتُه إرابةً إذا فعلتُ به فعلاً يوجب له الريبة.

﴿ قالَ يا قومِ أرأيتُم إنْ كنتُ على بَيّنةٍ مِنْ ربِّي وآتاني منه رحمةً ﴾، نبوّة وحكمة، ﴿ فَمَنْ ينصُرني مِنَ

رحمة﴾ يعني نبوة وحكمة ﴿فمن ينصرني من الله﴾ أي فمن يمنعني من عذاب الله ﴿إن عصيته﴾ يعني إن خالفت أمره ﴿فما تزيدونني غير تخسير﴾ قال ابن عباس معناه غير خسارة في خسارتكم وقال الحسن بن الفضل: لم يكن صالح في خسارة حتى يقول فما تزيدونني غير تخسير وإنما المعنى فما تزيدونني بما تقولون إلا نسبتي إلى الخسارة.

﴿وَيَٰقَوۡمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗۖ فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٞ قَرِيبٞ ٦٤ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمۡ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٖۖ ذَٰلِكَ وَعۡدٌ غَيۡرُ مَكۡذُوبٖ ٦٥ فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا صَٰلِحٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَمِنۡ خِزۡيِ يَوۡمِئِذٍۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ٦٦ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ ٦٧﴾

﴿ويا قوم هذه ناقة الله لكم آية﴾ وذلك أن قومه طلبوا أن يخرج لهم ناقة من صخرة كانت هناك أشاروا إليها فدعا الله عز وجل فأخرج لهم من تلك الصخرة ناقة عشراء ثم ولدت فصيلاً يشبهها وقوله ناقة الله إضافة تشريف كبيت الله وعبدالله فكانت هذه الناقة لهم آية ومعجزة دالة على صدق صالح عليه السلام ﴿فذروها تأكل﴾ يعني من العشب والنبات ﴿في أرض الله﴾ يعني فليس عليكم مؤنتها ﴿ولا تمسوها بسوء﴾ يعني يعقر ﴿فيأخذكم﴾ يعني إن قتلتموها ﴿عذاب قريب﴾ يعني في الدنيا ﴿فعقروها﴾ يعني فخالفوا أمر ربهم فعقروها ﴿فقال﴾ يعني فقال لهم صالح ﴿تمتعوا﴾ يعني عيشوا ﴿في داركم﴾ أي في بلدكم ﴿ثلاثة أيام﴾ يعني ثم تهلكون ﴿ذلك﴾ يعني العذاب الذي أوعدهم به بعد ثلاثة أيام ﴿وعد غير مكذوب﴾ أي هو غير كذب روى أنه قال لهم يأتيكم العذاب بعد ثلاثة أيام فتصبحون في اليوم الأول ووجوهكم مصفرة وفي اليوم الثاني محمرة وفي اليوم الثالث مسودة فكان كما قال وأتاهم العذاب في اليوم الرابع وهو قوله سبحانه وتعالى: ﴿فلما جاء أمرنا﴾ يعني العذاب ﴿نجينا صالحاً والذين آمنوا معه برحمة منا﴾ أي

اللَّهِ﴾، أي: مَن يمنعني من عذاب الله، ﴿ **إنْ عصيتُه فما تَزيدُونني غيرَ تَخْسِير** ﴾، قال ابن عباس: معناه ما تزيدونني غير بصارة في خسارتكم. قال الحسين بن الفضل: لم يكن صالح عليه السلام في خسارة حتى قال فما تزيدونني غيرتخسير، وإنما المعنى ما تزيدونني بما تقولون من الفحش إلّا نسبتي إيّاكم إلى الخسارة، والتفسيق والتفجير في اللغة هو: النسبة إلى الفسق والفجور، وكذلك التخسير هو: النسبة إلى الخسران.

﴿ **ويا قوم هذهِ ناقةُ اللّهِ لكم آية**﴾، نصب على الحال والقطع، وذلك أن قوماً طلبوا منه أن يخرج ناقةً عشراء من هذه الصخرة، وأشاروا إلى صخرة فدعا صالح عليه السلام فخرجت منها ناقة وولدت في الحال ولداً مثلها، وقد بينّاه في سورة الأعراف. فهذا معنى قوله: ﴿ **هذه ناقةُ اللّهِ لكم آيةً فَذَرُوهَا تأكلُ في أرضِ اللّهِ** ﴾، من العشب والنبات فليست عليكم مؤنتها، ﴿ **ولا تَمَسُّوهَا بسوء** ﴾، ولا تصيبوها بعقر، ﴿ **فيأخُذَكم** ﴾، إن قتلتموها، ﴿ **عذابٌ قريبٌ** ﴾.

﴿ **فعقَرُوها فقال** ﴾، لهم صالح، ﴿ **تَمَتَّعُوا** ﴾، عيشوا، ﴿ **في دارِكم** ﴾، أي: في دياركم، ﴿ **ثلاثةَ أيام** ﴾، ثم تهلكون، ﴿ **ذلك وَعْدٌ غيرُ مكذُوب** ﴾، أي: غير كذب. رُوِيَ أنه قال لهم: يأتيكم العذاب بعد ثلاثة أيام فتُصبحون اليوم الأول ووجوهكم مصفرّة، وفي اليوم الثاني محمرّة، وفي اليوم الثالث مسودّة، فكان كما قال، وأتاهم العذاب اليوم الرابع.

قوله تعالى: ﴿ **فلمّا جاءَ أمرُنا نجّينا صالحاً والذينَ آمنُوا معه برحمةٍ منّا** ﴾، بنعمة منّا، ﴿ **ومِنْ خِزْيِ**

بنعمة منا بأن هديناهم إلى الإيمان فآمنوا ﴿ومن خزي يومئذ﴾ يعني ونجيناهم من عذاب يومئذ سمي خزياً لأن فيه خزي الكافرين ﴿إن ربك﴾ الخطاب للنبي ﷺ يعني إن ربك يا محمد ﴿هو القوي﴾ يعني هو القادر على إنجاء المؤمنين وإهلاك الكافرين ﴿العزيز﴾ يعني القاهر الذي لا يغلبه شيء ثم أخبر عن عذاب قوم صالح فقال سبحانه وتعالى: ﴿وأخذ الذين ظلموا﴾ يعني أنفسهم بالكفر ﴿الصيحة﴾ وذلك أن جبريل عليه السلام صاح بهم صيحة واحدة فهلكوا جميعاً وقيل أتتهم صيحة من السماء فيها صوت كل صاعقة وصوت كل شيء في الأرض فتقطعت قلوبهم في صدورهم فماتوا جميعاً ﴿فأصبحوا في ديارهم جاثمين﴾ يعني صرعى هلكى.

كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَآ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ
بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُواْ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ
وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُواْ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن
وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾

﴿كأن لم يغنوا فيها﴾ يعني كأن لم يقيموا في تلك الديار ولم يسكنوها مدة من الدهر يقال غنيت بالمكان إذا أتيته أقمت به ﴿ألا إن ثموداً كفروا ربهم ألا بعداً لثمود﴾ وهذه القصص قد تقدمت مستوفاة في تفسير سورة الأعراف.

قوله عز وجل: ﴿ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى﴾ أراد بالرسل الملائكة واختلفوا في عددهم، فقال ابن عباس وعطاء: كانوا ثلاثة جبريل وميكائيل وإسرافيل، وقال الضحاك: كانوا تسعة وقال مقاتل كانوا اثني عشر ملكاً، وقال محمد بن كعب القرظي: كان جبريل ومعه سبعة أملاك وقال السدي: كانوا أحد عشر ملكاً على صور الغلمان الحسان الوجوه وقول ابن عباس: هو الأولى لأن أقل الجمع ثلاثة وقوله رسلنا جمع فيحمل على الأقل وما بعده غير مقطوع به بالبشرى يعني بالبشارة بإسحاق ويعقوب وقيل: بإهلاك قوم لوط ﴿قالوا سلاماً﴾ يعني أن الملائكة سلموا سلاماً ﴿قال﴾ يعني لهم إبراهيم ﴿سلام﴾ أي عليكم أو أمركم سلام ﴿فما لبث أن جاء بعجل حنيذ﴾ يعني: مشوياً والمحنوذ هو المشوي على الحجارة المحماة في حفرة من الأرض وهو من فعل أهل البادية وكان سميناً يسيل منه

يومئذٍ﴾، أي: من عذابه، وهو أنه قرأ أبو جعفر ونافع والكسائي ﴿خزي يومَئذ﴾ ﴿وعذاب يومَئذ﴾ [المعارج ١١] بفتح الميم. وقرأ الباقون بالكسر. ﴿إنّ رَبَّكَ هو القوي العزيز﴾.

﴿وأخَذَ الذينَ ظلمُوا﴾، كفروا، ﴿الصيحةُ﴾، وذلك أنّ جبريل عليه السلام صاح عليهم صيحة واحدة فهلكوا جميعاً. وقيل: أتتهم صيحة من السماء فيها صوت كل صاعقة وصوت كل شيء في الأرض، فتقطعت قلوبهم في صدورهم. وإنما قال: ﴿أخذ﴾ والصيحة مؤنثة لأن الصيحة بمعنى الصياح. ﴿فأصبحُوا في دِيارِهم جاثمين﴾، صَرْعَى هلكَى.

﴿كأنْ لَمْ يَغْنَوْا فيها﴾، يقيموا ويكونوا، ﴿ألاَ إنّ ثموداً كفرُوا ربَّهم ألاَ بُعْداً لثمودَ﴾، قرأ حمزة وحفص ويعقوب: «ثمود» غير منوّن، وكذلك في سورة الفرقان [٣٨] والعنكبوت [٣٨] والنجم [٥١] وافق أبو بكر في النجم، وقرأ الباقون بالتنوين، وقرأ الكسائي «لثمودٍ» بخفض الدال والتنوين، والباقون بنصب الدال، فمَن جرّه فلأنه اسم مذكّر، ومَن لم يجرّه جعله اسماً للقبيلة.

قوله تعالى: ﴿ولقدْ جاءتْ رُسُلنا إبراهيم بالبُشْرَى﴾، أراد بالرسل الملائكة عليهم السلام. واختلفوا في

الودك قال قتادة: كان عامة مال إبراهيم عليه السلام البقر، وقيل: مكث إبراهيم عليه السلام خمس عشرة ليلة لم يأته ضيف فاغتم لذلك وكان يحب الضيف ولا يأكل إلا معه فلما جاءت الملائكة رأى أضيافاً لم ير مثلهم قط فعجل قراهم وجاءهم بعجل سمين مشوي **﴿فلما رأى أيديهم﴾** يعني أيدي الأضياف **﴿لا تصل إليه﴾** يعني إلى العجل المشوي **﴿نكرهم﴾** يعني أنكرهم وأنكر حالهم وإنما أنكر حالهم لامتناعهم من الطعام **﴿وأوجس منهم خيفة﴾** يعني ووقع في قلبه خوف منهم والوجوس هو رعب القلب وإنما خاف إبراهيم ﷺ منهم لأنه كان ينزل ناحية من الناس فخاف أن ينزلوا به مكروهاً لامتناعهم من طعامه ولم يعرف أنهم ملائكة وقيل إن إبراهيم عرف أنهم ملائكة لما قدمه إليهم لمعلمه أن الملائكة لا يأكلون ولا يشربون ولأنه خافهم ولو عرف أنهم ملائكة وإنما خاف أن يكونوا نزلوا بعذاب قومه فخاف من ذلك والأقرب أن إبراهيم عليه السلام لم يعرف أنهم ملائكة في أول الأمر ويدل على صحة هذا أنه عليه السلام قدم إليهم الطعام ولو عرف أنهم ملائكة لما خافهم فلما رأت الملائكة خوف إبراهيم عليه السلام **﴿قالوا لا تخف﴾** يا إبراهيم **﴿إنا﴾** ملائكة الله **﴿أرسلنا إلى قوم لوط وامرأته﴾** يعني سارة زوجة إبراهيم وهي ابنة هاران بن ناحوراء وهي ابنة عم إبراهيم **﴿قائمة﴾** يعني من وراء الستر تسمع كلامهم، وقيل: كانت قائمة في خدمة الرسل وإبراهيم جالس معهم **﴿فضحكت﴾** أصل الضحك انبساط الوجه من سرور يحصل للنفس ولظهور الأسنان عنده سميت مقدمات الأسنان الضواحك ويستعمل في السرور المجرد وفي التعجب المجرد أيضاً وللعلماء في تفسير هذا الضحك قولان أحدهما أنه الضحك المعروف وعليه أكثر المفسرين ثم اختلفوا في سبب هذا الضحك فقال السدي لما قرب إبراهيم الطعام إلى أضيافه فلم يأكلوا خاف إبراهيم منهم فقال ألا تأكلون فقالوا إنا لا نأكل طعاماً إلا بثمن قال فإن له ثمناً قالوا وما ثمنه قال تذكرون اسم الله على أوله وتحمدونه على آخره فنظر جبريل إلى ميكائيل وقال حق لهذا أن يتخذه ربه خليلاً فلما رأى إبراهيم وسارة أيديهم لا تصل إليه ضحكت سارة وقالت يا عجباً لأضيافنا نخدمهم بأنفسنا تكرمة لهم وهم لا يأكلون طعامنا، وقال قتادة: ضحكت من غفلة قوم لوط وقرب العذاب منهم، وقال مقاتل والكلبي: ضحكت من خوف إبراهيم من ثلاثة وهو فيما بين خدمه وحشمه وخواصه وقيل: ضحكت من زوال الخوف عنها وعن إبراهيم وذلك أنها خافت لخوفه فحين قالوا لا تخف ضحكت سروراً وقيل ضحكت سروراً

عددهم، فقال ابن عباس وعطاء: كانوا ثلاثة جبريل وميكائيل وإسرافيل. وقال الضحّاك: كانوا تسعة. وقال مقاتل: كانوا اثني عشر مَلَكاً. وقال محمد بن كعب: كان جبريل ومعه سبعة. وقال السدي: كانوا أحد عشر مَلَكاً على صورة الغلمان الوضّاء وجوههم، بالبشرى بالبشارة بإسحق ويعقوب. وقيل: بإهلاك قوم لوط. **﴿ قالوا سلاماً ﴾**، أي: سلّموا سلاماً، **﴿ قال ﴾** إبراهيم **﴿ سلامٌ ﴾**، أي: عليكم سلام: وقيل: هو رفع على الحكاية، كقوله تعالى: **﴿ وقولُوا حِطةٌ ﴾** [البقرة: ٥٨، الأعراف: ١٦١]، وقرأ حمزة والكسائي «سِـلم» ههنا وفي سورة الذاريات [٢٥] بكسر السين بلا ألف. وقيل: هو بمعنى السلام. كما يقال: حِل وحَلال وحِرم وحَرام. وقيل: هو بمعنى الصلح، أي: نحن سلم أي صلح لكم غير حرب. **﴿ فما لبثَ أن جاءَ بعجلٍ حَنِيذٍ ﴾**، والحنيذ المحنوذ وهو المشوي على الحجارة في خَدٍّ من الأرض، وكان سميناً يسيل دسماً، كما قال في موضع آخر: **﴿ فجاء بِعِجْلٍ سمين ﴾** [الذاريات: ٢٦]: قال قتادة: كان عامّة مال إبراهيم البقر.

﴿ فلمّا رأى أيديهم لا تصلُ إليه ﴾، أي: إلى العجل، **﴿ نَكِرَهم ﴾**، أنكرهم، **﴿ وأوْجَسَ ﴾**، أضمر، **﴿ منهم خِيفَةً ﴾**، خوفاً. قال مقاتل: وقع في قلبه، وأصل الوجوس: الدخول، كان الخوف دخل قلبه. وقال قتادة: وذلك أنهم كانوا إذا نزل بهم ضيف لم يأكل من طعامهم ظنّوا أنه لم يأتِ بخيرٍ وإنما جاء بشر. **﴿ قالُوا لَا تخفْ ﴾**، يا إبراهيم، **﴿ إنّا ﴾** ملائكة الله **﴿ أُرْسِلْنَا إلى قومِ لُوطٍ ﴾**.

بالبشارة، وقال ابن عباس ووهب: ضحكت تعجباً من أن يكون لها ولد على كبر سنها وسن زوجها فعلى هذا القول يكون في الآية تقديم وتأخير تقديره فبشّرناها بإسحاق فضحكت يعني تعجباً من ذلك وقيل إنها قالت لإبراهيم أضمم إليك ابن أخيك لوطاً فإن العذاب نازل بقومه فلما جاءت الرسل وبشّرت بعذابهم سُرت سارة بذلك وضحكت لموافقة ما ظنت.

القول الثاني: في معنى قوله فضحكت قال عكرمة ومجاهد أي حاضت في الوقت وأنكر بعض أهل اللغة ذلك، قال الراغب: وقول من قال حاضت ليس ذلك تفسيراً لقوله فضحكت كما تصوره بعض المفسرين فقال ضحكت بمعنى حاضت وإنما ذكر ذلك تنصيصاً لحالها فإن جعل ذلك أمارة لما بشرت به بحيضها في الوقت لتعلم أن حملها ليس بمنكر لأن المرأة ما دامت تحيض فإنها تحمل وقال الفراء: ضحكت بمعنى حاضت لم نسمعه من ثقة، وقال الزجاج: ليس بشيء ضحكت بمعنى حاضت، وقال ابن الأنباري: قد أنكر الفراء وأبو عبيدة أن يكون ضحكت بمعنى حاضت وقد عرفه غيرهم وأنشد:

تضحك الضبع لقتلى هذيل ... وترى الذئب بها يستهل

قال: أراد أنها تحيض فرحاً وقال الليث في هذه الآية فضحكت أي طمثت وحكى الأزهري عن بعضهم في قوله فضحكت أي حاضت قال: ويقال أصله من ضحاك الطلعة إذا انشقت، قال: وقال الأخطل فيه بمعنى الحيض:

تضحك الضبع من دماء سليم ... إذ رأتها على الحراب تمور

وقال في المحكم: ضحكت المرأة حاضت وبه فسر بعضهم قوله سبحانه وتعالى فضحكت فبشرناها بإسحاق وضحكت الأرنب ضحكاً يعني حاضت حيضاً قال:

وضحك الأرنب فوق الصفا ... كمثل دم الخوف يوم اللقا

يعني الحيض فيما زعم بعضهم وأجاب عن هذا من أنكر أن يكون الضحك بمعنى الحيض، قال: كان ابن دريد يقول من شاهد الضبع عند كشرها علم أنها تحيض وإنما أراد الشاعر تكشر لأكل اللحوم وهذا سهو منه لأنه جعل

﴿ وامرأتُهُ ﴾ سارة بنت هاران بن أحور وهي ابنة عمّ إبراهيم. ﴿ قائمةٌ ﴾ من وراء الستر تسمع كلامهم. وقيل: كانت قائمة تخدم الرُّسل وإبراهيم جالس معهم. ﴿ فَضَحِكَتْ ﴾، قال مجاهد وعكرمة: ضحكتْ أي: حاضت في الوقت، تقول العرب: ضحكت الأرنب، أي: حاضت. والأكثرون على أن المراد منه الضحك المعروف. واختلفوا في سبب ضحكها، فقيل: ضحكت لزوال الخوف عنها وعن إبراهيم حين قالوا لا تخف. وقال السدي: لما قرّب إبراهيم الطعام إليهم فلم يأكلوا خاف إبراهيم وظنهم لصوصاً فقال لهم: ألا تأكلون؟ قالوا: إنّا لا نأكل طعاماً إلاّ بثمن، قال إبراهيم: فإن له ثمناً، قالوا وما ثمنه؟ قال: تذكرون اسم الله على أوله وتحمدونه على آخره، فنظر جبريل إلى ميكائيل عليهم الصلاة والسلام، وقال: حقّ لهذا أن يتخذه ربُّه خليلاً، فلما رأى إبراهيم وسارة أيديهم لا تصل إليه ضحكت سارة، وقالت: يا عجباً لأضيافنا إنّا نخدمهم بأنفسنا تكرمةً لهم وهم لا يأكلون طعامنا. وقال قتادة: ضحكت من غفلة قوم لوط وقرب العذاب منهم. وقال مقاتل والكلبي: ضحكت من خوف إبراهيم من ثلاثة في بيته وهو فيما بين خدمه وحشمه. وقيل: ضحكت سروراً بالبشارة. وقال ابن عباس ووهب: ضحكت تعجّباً من أن يكون لها ولد على كبر سنّها وسنّ زوجها. وعلى هذا القول تكون الآية على التقديم والتأخير، تقديره: وامرأتُه قائمةٌ فبشّرناها بإسحق ومن وراء إسحق يعقوب. فضحكتْ، وقالت: يا ويلتي أألِدُ وأنا عجوزٌ؟ قوله تعالى: ﴿ فبشَّرنَاها بإسحقَ ومِنْ وراءِ إسحقَ ﴾، أي: من بعد إسحق، ﴿ يعقوبَ ﴾، أراد به والداً

كشرها حيضاً، وقيل: معناه أنها تستبشر بالقتلى فتهز بعضها على بعض فجعل هزيزها ضحكاً، وقيل: لأنها تسر بهم فجعل سرورها ضحكاً.

فإن قلت أي القولين أصح في معنى الضحك قلت إن الله عز وجل حكى عنها أنها ضحكت وكلا القولين محتمل في معنى الضحك فالله أعلم أي ذلك كان وقوله سبحانه وتعالى: ﴿**فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب**﴾ يعني: ومن بعد إسحاق يعقوب وهو ولد الولد فبشرت سارة بأنها تعيش حتى ترى ولد ولدها فلما بشرت بالولد صكت وجهها أي ضربت وجهها وهو من صنيع النساء وعادتهن وإنما فعلت ذلك تعجباً.

قَالَتْ يَـٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَـٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَـٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾

﴿**قالت يا ويلتا**﴾ نداء ندبة وأصلها يا ويلتاه وهي كلمة يستعملها الإنسان عند رؤية ما يتعجب منه مثل يا عجباه ﴿**أألد وأنا عجوز**﴾ وكانت بنت تسعين سنة في قول ابن إسحاق، وقال مجاهد: كانت بنت تسع وتسعين سنة ﴿**وهذا بعلي**﴾ يعني زوجي والبعل هو المستعلي على غيره ولما كان زوج المرأة مستعلياً عليها قائماً بأمرها سمي بعلاً لذلك ﴿**شيخاً**﴾ وكان سن إبراهيم يومئذ مائة وعشرين سنة في قول محمد بن إسحاق وقال مجاهد مائة سنة وكان بين الولادة والبشارة سنة ﴿**إن هذا لشيء عجيب**﴾ لم تنكر قدرة الله سبحانه وتعالى وإنما تعجبت من كون الشيخ الكبير والعجوز الكبيرة يولد لهما ﴿**قالوا**﴾ يعني قالت الملائكة لسارة ﴿**أتعجبين من أمر الله**﴾ معناه لا تعجبي من ذلك فإن الله سبحانه وتعالى قادر على كل شيء فإذا أراد شيئاً كان سريعاً ﴿**رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت**﴾ يعني: بيت إبراهيم عليه السلام وهذا على معنى الدعاء من الملائكة لهم بالخير والبركة وفيه دليل على أن أزواج الرجل من أهل بيته ﴿**إنه حميد**﴾ يعني: هو المحمود الذي يحمد على أفعاله كلها وهو المستحق لأن يحمد في السراء والضراء والشدة والرخاء فهو محمود على كل حال ﴿**مجيد**﴾ ومعناه المنيع الذي لا يرام، وقال الخطابي: المجيد الواسع الكرم، وأصل المجد في كلامهم: السعة يقال رجل ماجد إذا كان سخياً كريماً واسع العطاء وقيل الماجد هو ذو الشرف والكرم قوله سبحانه وتعالى:

لولـد فبشّرت أنها تعيش حتى ترى ولد ولدها قرأ ابن عامر وحمزة وحفص ويعقوب بنصب الباء، أي: من وراء إسحق يعقوب. وقيل: بإضمار فعل، أي: ووهبنا له يعقوب. وقرأ الباقون بالرفع على حذف حرف الصفة. وقيل: ومن بعد إسحق يحدث يعقوب، فلما بشّرت بالولد ضحكت فصكّت وجهها، أي: ضربت وجهها تعجّباً.

﴿ **قالَتْ يا وَيْلَتـا** ﴾، نداء ندبة وهي كلمة يقولها الإنسان عند رؤية ما يتعجب منه، أي: يا عجباً. والأصل يا ويلتاه. ﴿ **أألِدُ وأنا عجوزٌ** ﴾، وكانت ابنة تسعين سنة في قول ابن إسحق. وقال مجاهد: تسعاً وتسعين سنة. ﴿ **وهذا بَعْلِي** ﴾، أي: زوجي، سُمّي بذلك لأنّه قيّم أمرها، ﴿ **شيخاً** ﴾؛ نصب على الحال، وكان سنُّ إبراهيم مائة وعشرين سنة في قول ابن إسحق. وقال مجاهد: مائة سنة، وكان بين البشارة والولادة سنة، ﴿ **إنَّ هذا لَشيءٌ عجيبٌ** ﴾.

﴿ **قالوا** ﴾، يعني الملائكة، ﴿ **أتعجبينَ من أمرِ اللّهِ** ﴾، معناه لا تعجبي من أمر الله، فإنَّ اللّهَ عَزّ وجلّ إذا أراد شيئاً كان. ﴿ **رحمةُ اللّهِ وبركاتُه عليكم أهلَ البيتِ** ﴾، أي: بيت إبراهيم عليه السلام. قيل: هذا على معنى الدعاء معنى الخير والرحمة والنعمة. والبركاتُ جمع البركة، وهي ثبوت الخير. وفيه دليل على أن الأزواج من أهل البيت. ﴿ **إنّه حَمِيدٌ مجيدٌ** ﴾، فالحميد: المحمود في أفعاله، والمجيد: الكريم، وأصل المجد الرّفعة.

﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾﴾

﴿**فلما ذهب عن إبراهيم الروع**﴾ يعني: الفزع والخوف الذي حصل له عند امتناع الملائكة من الأكل ﴿**وجاءته البشرى**﴾ يعني زال عنه الخوف بسبب البشرى التي جاءته وهي البشارة بالولد ﴿**يجادلنا**﴾ فيه إضمار تقديره أخذ يجادلنا أو جعل يجادلنا ويخاصمنا وقيل معناه يكلمنا ويسألنا ﴿**في قوم لوط**﴾ لأن العبد لا يقدر أن يخاصم ربه وقال جمهور المفسرين: معناه يجادل رسلنا في قوم لوط وكانت مجادلة إبراهيم مع الملائكة أن قال لهم أرأيتم لو كان في مدائن قوم لوط خمسون رجلاً من المؤمنين أتهلكونها قالوا لا قال فأربعون قالوا لا قال فثلاثون قالوا لا قال فما زال كذلك حتى بلغ خمسة قالوا لا قال أرأيتم لو كان فيها رجل واحد مسلم أتهلكونها قالوا لا قال إبراهيم فإن فيها لوطاً قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله إلا أمرأته كانت من الغابرين وقيل إنما طلب إبراهيم تأخير العذاب عنهم لعلهم يؤمنون أو يرجعون عما هم فيه من الكفر والمعاصي، قال ابن جريج: كان في قرى قوم لوط أربعة آلاف مقاتل ﴿**إن إبراهيم لحليم أوّاه منيب**﴾ تقدم تفسيره في سورة التوبة فعند ذلك قالت الملائكة لإبراهيم ﴿**يا إبراهيم أعرض عن هذا**﴾ يعني أعرض عن هذا المقال واترك هذا الجدال ﴿**إنه قد جاء أمر ربك**﴾ يعني: إن ربك قد حكم بعذابهم فهو نازل بهم وهو قوله سبحانه وتعالى: ﴿**وإنهم آتيهم عذاب غير مردود**﴾ يعني أن العذاب الذي نزل بهم غير مصروف ولا مدفوع عنهم.

وقوله عز وجل: ﴿**ولما جاءت رسلنا لوطاً**﴾ يعني: هؤلاء الملائكة الذين كانوا عند إبراهيم وكانوا على صورة غلمان مرد حسان الوجوه ﴿**سيء بهم**﴾ يعني أحزن لوط بمجيئهم إليه وساء ظنه بقومه ﴿**وضاق بهم ذرعاً**﴾ قال الأزهري: الذي يوضع موضع الطاقة والأصل فيه أن البعير يذرع بيديه في سيره ذرعاً على قدر سعة خطوه فإذا حمل

﴿ فلمّا ذهبَ عن إبراهيمَ الرَّوْعُ ﴾، الخوف، ﴿ وجاءَتْهُ البُشْرَى ﴾، بإسحق ويعقوب، ﴿ يُجادِلُنَا في قوم لوطٍ ﴾، فيه إضمار، أي: أخذ وظل يجادلنا. قيل: معناه يكلمنا لأن إبراهيم عليه السلام لا يجادل ربَّه عزّ وجلّ إنما يسأله ويطلب إليه. وقال عامّة أهل التفسير: معناه يجادل رسلنا وكانت مجادلته أنه قال للملائكة أرأيتم لو كان في مدائن لوط خمسون من المؤمنين أتهلكونهم؟ قالوا: لا، قال: أو أربعون؟ قالوا: لا، قال: أو ثلاثون؟ قالوا: لا، حتى بلغ خمسةً، قالوا: لا، قال: أرأيتم إنْ كان فيها رجل واحد مسلم أتهلكونها؟ قالوا: لا، قال لهم إبراهيم عند ذلك: إن فيها لوطاً، قالوا: نحن أعلم بمَن فيها، لننجينّه وأهله إلاّ امرأته كانت من الغابرين، فذلك قوله إخباراً عن إبراهيم عليه السلام: ﴿ يُجادِلُنا في قوم لوط ﴾.

﴿ إنَّ إبراهيمَ لحليمٌ أوّاهٌ مُنِيبٌ ﴾، قال ابن جريج: وكان في قرى قوم لوط أربعة آلاف ألف فقالت الرسل عند ذلك لإبراهيم:

﴿ يا إبراهيمُ أعرضْ عن هذا ﴾، أي: أعرض عن هذا المقال ودعْ عنك الجدال، ﴿ إنه قدْ جاءَ أمرُ ربِّكَ ﴾، أي، عذاب ربِّك وحكم ربِّك، ﴿ وإنَّهم آتيهم ﴾، نازل بهم، ﴿ عذابٌ غيرُ مردُودٍ ﴾، أي: غير مصروف عنهم.

قوله تعالى: ﴿ ولمّا جاءَتْ رسلُنا ﴾، يعني: هؤلاء الملائكة، ﴿ لوطاً ﴾، على صورة غلمان مرد حِسان

عليه أكثر من طوقه ضاق ذرعه من ذلك وضعف ومد عنقه فجعل ضيق الذرع عبارة عن ضيق الوسع والطاقة والمعنى وضاق بهم ذرعاً إذا لم يجد من المكروه في ذلك الأمر مخلصاً، وقال غيره: معناه ضاق بهم قلباً وصدراً ولا يعرف أصله إلا أن يقال إن الذرع كناية عن الوسع، والعرب تقول: ليس هذا في يدي يعنون ليس هذا في وسعي لأن الذراع من اليد ويقال ضاق فلان ذرعاً بكذا إذا وقع في مكروه ولا يطيق الخروج منه وذلك أن لوطاً عليه السلام لما نظر إلى حسن وجوههم وطيب روائحهم أشفق عليهم من قومه وخاف أن يقصدوهم بمكروه أو فاحشة وعلم أنه سيحتاج إلى المدافعة عنهم ﴿وقال﴾ يعني لوطاً ﴿هذا يوم عصيب﴾ أي: شديد كأنه قد عصب به الشر والبلاء أي شد به مأخوذ من العصابة التي تشد بها الرأس، قال قتادة والسدي: خرجت الملائكة من عند إبراهيم نحو قرية لوط فأتوا لوطاً نصف النهار وهو يعمل في أرض له وقيل أنه كان يحتطب وقد قال الله سبحانه وتعالى للملائكة لا تهلكوهم حتى يشهد عليهم لوط أربع شهادات فاستضافوه فانطلق بهم فلما مشى ساعة قال لهم أما بلغكم أمر هذه القرية قالوا وما أمرهم قال أشهد بالله إنها لشر قرية في الأرض عملاً يقول ذلك أربع مرات فمضوا معه حتى دخلوا منزله وقيل: إنه لما حمل الحطب ومعه الملائكة مر على جماعة من قومه فتغامزوا فيما بينهم فقال لوط إن قومي شر خلق الله تعالى، فقال جبريل: هذه واحدة فمر على جماعة أخرى فتغامزوا فقال مثله ثم مر على جماعة أخرى ففعلوا ذلك وقال لوط مثل ما قال أولاً حتى قال ذلك أربع مرات وكلما قال لوط هذا القول قال جبريل للملائكة اشهدوا وقيل إن الملائكة جاءوا إلى بيت لوط فوجدوه في داره فدخلوا عليه ولم يعلم أحد بمجيئهم إلا أهل بيت لوط فخرجت امرأته الخبيثة فأخبرت قومها وقالت: إن في بيت لوط رجالاً ما رأيت مثل وجوههم قط ولا أحسن منهم.

وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ قَالَ يَـٰقَوْمِ هَـٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾

﴿وجاءه قومه يهرعون إليه﴾ قال ابن عباس وقتادة يسرعون إليه وقال مجاهد يهرولون، وقال الحسن: الإهراع

الوجوه، ﴿ سِيءَ بهم ﴾، أي: حزن لوط بمجيئهم سؤته فسيء، كما يقال: سررته فسُرّ. ﴿ وضاقَ بهم ذَرْعاً ﴾، أي: قلباً. يقال: ضاق ذرع فلان بكذا إذا وقع في مكروه لا يطيق الخروج منه، وذلك أن لوطاً عليه السلام لمّا نظر إلى حُسْن وجوههم وطيب روائحهم أشفق عليهم من قومه أن يقصدوهم بالفاحشة، وعلم أنه سيحتاج إلى المدافعة عنهم. ﴿ وقالَ هذا يومٌ عصيبٌ ﴾، أي: شديد كأنه عصب به الشر والبلاء، أي: شدَّ. قال قتادة والسدي: خرجت الملائكة من عند إبراهيم عليه السلام نحو قرية قوم لوط فأتوا لوطاً نصف النهار وهو في أرض له يعمل فيها. وقيل: إنه كان يحتطب. وقد قال الله تعالى للملائكة: لا تهلكوهم حتى يشهد عليهم لوطاً أربع شهادات، فاستضافوه فانطلق بهم، فلما مشى بهم ساعة قال لهم: ما بلغكم أمر أهل هذه القرية؟ قالوا: وما أمرهم؟ قال: أشهد بالله إنها لشرُّ قرية في الأرض عملاً يقول ذلك أربع مرات، فدخلوا معه منزله. ورُوِيَ: أنه حمل الحطب وتبعته الملائكة فمرّ على جماعة من قومه فغمزوا فيما بينهم، فقال لوط: إن قومي شرُّ خلق الله، ثم مرّ على قوم آخرين، فغمزوا، فقال مثله، ثم مرّ بقوم فقال مثله، ثم مرّ بقوم آخرين، فقال مثله، فكان كلما قال لوط هذا القول قال جبريل للملائكة: اشهدوا حتى أتى منزله. ورُوِيَ: أن الملائكة جاؤوا إلى بيت لوط فوجدوه في داره ولم يعلم بذلك أحد إلاّ أهل بيت لوط، فخرجت امرأته فأخبرت قومها، وقالت: إن في بيت لوط رجالاً ما رأيتُ مثل وجوههم قطّ.

﴿ وجاءَه قومُه يهرعُون إليه ﴾، قال ابن عباس وقتادة: يسرعون إليه. وقال مجاهد: يهرولون، وقال الحسن:

هو مشي بين مشيين وقال شمر هو بين الهرولة والخبب والجمز ﴿ومن قبل﴾ يعني ومن قبل مجيء الرسل إليهم قيل ومن قبل مجيئهم إلى لوط ﴿كانوا يعملون السيئات﴾ يعني الفعلات الخبيثة والفاحشة القبيحة وهي إتيان الرجال في أدبارهم ﴿قال﴾ يعني: قال لوط لقومه حين قصدوا أضيافه وظنوا أنهم غلمان من بني آدم ﴿يا قوم هؤلاء بناتي﴾ يعني أزوجكم إياهن وقى أضيافه ببناته قيل إنه كان في ذلك الوقت وفي تلك الشريعة تزويج المرأة المسلمة بالكافر، وقال الحسن بن الفضل: عرض بناته عليهم بشرط الإسلام، وقال مجاهد وسعيد بن جبير: أراد ببناته نساء قومه وأضافهن إلى نفسه لأن كل نبي أبو أمته وهو كالوالد لهم وهذا القول هو الصحيح وأشبه بالصواب إن شاء الله تعالى والدليل عليه أن بنات لوط كانتا إثنتين وليستا بكافيتين للجماعة وليس من المروءة أن يعرض الرجل بناته على أعدائه ليزوجهن إياهم فكيف يليق ذلك بمنصب الأنبياء أن يعرضوا بناتهم على الكفار وقيل إنما قال ذلك لوط على سبيل الدفع لقومه لا على سبيل التحقيق وفي قوله ﴿هن أطهر لكم﴾ سؤال وهو أن يقال أن قوله هن أطهر لكم من باب أفعل التفضيل فيقتضي أن يكون الذي يطلبونه من الرجال طاهراً ومعلوم أنه محرم فاسد نجس لا طهارة فيه البتة فكيف قال هن أطهر لكم والجواب عن هذا السؤال إن هذا جار مجرى قوله ذلك خير نزلاً أم شجرة الزقوم ومعلوم أن شجرة الزقوم لا خير فيها وكقوله ﷺ لما قال يوم أحد اعل هبل قال الله أعلى وأجل إذ لا مماثلة بين الله عز وجل والصنم وإنما هو كلام خرج مخرج المقابلة ولهذا نظائر كثيرة.

وقوله ﴿فاتقوا الله﴾ يعني خافوه وراقبوه واتركوا ما أنتم عليه من الكفر والعصيان ﴿ولا تخزون في ضيفي﴾ يعني ولا تسوءوني في أضيافي ولا تفضحوني معهم ﴿أليس منكم رجل رشيد﴾ أي صالح سديد عاقل، وقال عكرمة: رجل يقول لا إله إلا الله، وقال محمد بن إسحاق: رجل يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر حتى ينهى عن هذا الفعل القبيح ﴿قالوا لقد علمت ما لنا في بناتك من حق﴾ يعني ليس لنا بهن حاجة ولا لنا فيهن شهوة وقيل معناه ليست بناتك لنا بأزواج ولا مستحقين نكاحهن وقيل معناه مالنا في بناتك من حاجة لأنك دعوتنا إلى نكاحهن بشرط الإيمان ولا نريد ذلك ﴿وإنك لتعلم ما نريد﴾ يعني من إتيان الرجال في أدبارهم فعند ذلك ﴿قال﴾ لوط عليه السلام ﴿لو أن لي بكم قوة﴾ أي لو أني أقدر أن أتقوى عليكم ﴿أو آوي إلى ركن شديد﴾ يعني أو أنضم إلى عشيرة يمنعوني منكم، وجواب لو محذوف تقديره لو وجدت قوة لقاتلتكم أو لوجدت عشيرة لانضممت إليهم قال أبو هريرة: ما بعث الله نبياً بعده إلا في

مشى بين مشيتين، قال شمر بن عطية: بين الهرولة والجمز. ﴿ ومِنْ قَبْلُ ﴾، أي: من قبل مجيئهم إلى لوط، ﴿ كانُوا يعملُون السيآتِ ﴾، كانوا يأتون الرجال في أدبارهم. ﴿ قال ﴾، لهم لوط حين قصدوا أضيافه وظنّوا أنهم غلمان، ﴿ يا قوم هؤلاء بناتي هُنّ أطهرُ لكم ﴾، يعني: بالتزويج، وفي أضيافه ببناته، وكان في ذلك الوقت، تزويج المسلمة من الكافر جائزاً كما زوّج النبي ﷺ ابنته من عتبة بن أبي لهب وأبي العاص بن الربيع قبل الوحي، وكانا كافرين. وقال الحسين بن فضل: عرض بناته عليهم بشرط الإسلام. وقال مجاهد وسعيد بن جبير: قوله: ﴿ بناتي هُنَّ أطهرُ لكم ﴾، أراد نساءهم وأضاف إلى نفسه لأنّ كلَّ نبي أبو أُمته. وفي قراءة أُبيّ بن كعب: ﴿ النبيُّ أوْلَى بالمؤمِنينَ مِنْ أنفسهم وأزواجهُ أُمهاتُهم ﴾ [الأحزاب: ٦]، وهو أب لهم. وقيل: ذكر ذلك على سبيل الدفع لا على التحقيق، فلم يرضوا هذا القول. ﴿ فاتّقوا اللّهَ ولا تُخزونِ في ضيفي ﴾، أي: خافُوا اللّهَ ولا تخزونِ في ضيفي، أي: لا تَسُوؤُني ولا تفضحُوني في أضيافي. ﴿ أليسَ مِنْكُم رجلٌ رَّشيدٌ ﴾، صالح سديد. وقال عِكرمة: رجل يقول لا إلّه إلاّ الله. وقال ابن إسحاق: رجل يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر.

﴿ قالوا لقدْ علمتَ ﴾، يا لوط، ﴿ مَا لَنا في بناتِكَ مِنْ حقٍّ ﴾، أي: لسن أزواجاً لنا فنستحقهنّ بالنكاح. وقيل: معناه مَا لَنا فيهنّ من حاجة وشهوة. ﴿ وإنّك لتعلمُ ما نُريد ﴾، من إتيان الرجال.

منعة من عشيرته (ق) عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «يرحم الله لوطاً لقد كان يأوي إلى ركن شديد ولو لبثت في السجن ما لبث يوسف ثم أتاني الداعي لأجبته» قال الشيخ محيي الدين النووي رحمه الله: المراد بالركن الشديد هو الله عز وجل فإنه أشد الأركان وأقواها وأمنعها ومعنى الحديث أن لوطاً عليه السلام لما خاف على أضيافه ولم تكن له عشيرة تمنعهم من الظالمين ضاق ذرعه واشتد حزنه عليهم فغلب ذلك عليه فقال في تلك الحال لو أن لي بكم قوة في الدفع بنفسي أو آوي إلى عشيرة تمنع لمنعتكم وقصد لوط إظهار العذر عند أضيافه وأنه لو استطاع لدفع المكروه عنهم ومعنى باقي الحديث فيما يتعلق بيوسف عليه السلام يأتي في موضعه من سورة يوسف إن شاء الله تعالى، قال ابن عباس وأهل التفسير: أغلق لوط بابه والملائكة معه في الدار وجعل يناظر قومه ويناشدهم من وراء الباب وقومه يعالجون سور الدار فلما رأت الملائكة ما لقي لوط بسببهم.

قَالُوا۟ يَـٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ ۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ ۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَـٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾

﴿قالوا يا لوط﴾ ركنك شديد ﴿إنا رسل ربك لن يصلوا إليك﴾ يعني بمكروه فافتح الباب ودعنا وإياهم ففتح الباب فدخلوا فاستأذن جبريل عليه السلام ربه عز وجل في عقوبتهم فأذن له فتحول إلى صورته التي يكون فيها ونشر جناحيه وعليه وشاح من در منظوم وهو براق الثنايا أجلى الجبين ورأسه حبك مثل المرجان كأنه كالثلج بياضاً وقدماه إلى الخضرة فضرب بجناحيه وجوههم فطمس أعينهم وأعماهم فصاروا لا يعرفون الطريق ولا يهتدون إلى بيوتهم فانصرفوا وهم يقولون النجاء النجاء في بيت لوط أسحر قوم في الأرض قد سحرونا وجعلوا يقولون يا لوط كما أنت

﴿ قال ﴾، لهم لوط عند ذلك: ﴿ لو أن لي بكم قوّة ﴾، أراد قوة البدن والقوة بالأتباع، ﴿ أو آوي إلى رُكنٍ شديدٍ ﴾، أي: أنضم إلى عشيرة مانعة. وجواب ﴿ لو ﴾ مضمر أي لقتلناكم وحملنا بينكم وبينهم، قال أبو هريرة: ما بعث الله بعده نبيّاً إلّا في منعة من عشيرته. أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل أنبأنا أبو اليمان أنبأنا شعيب بن أبي حمزة أنبأنا أبو الزناد عن الأعرج أن النبيَّ ﷺ قال: «يغفرُ اللّهُ للوطٍ إنْ كانَ ليَأوي إلى رُكنٍ شديدٍ» قال ابن عباس وأهل التفسير: أغلق لوط بابه والملائكة معه في الدار، وهو يناظرهم ويناشدهم من وراء الباب، وهم يعالجون تسوّرَ الجدار، فلما رأتِ الملائكة ما يلقى لوطٌ بسببهم.

﴿ قالوُا يا لوطُ ﴾، إن رُكنك لشديد، ﴿ إنّا رُسلُ ربِّك لنْ يصلُوا إليك ﴾، فافتح الباب ودعنا وإيَّاهم، ففتح الباب فدخلوا فاستأذن جبريل ربَّه عزّ وجلّ في عقوبتهم، فأذن له، فقام في الصورة التي يكون فيها فنشر جناحه وعليه وشاح من دُرٍّ منظوم، وهو بُراق الثنايا أجلى الجبين ورأسه حبك مثل المرجان كأنه الثلج بياضاً وقدماه إلى الخضر، فضرب بجناحه وجوههم فطمس أعينهم وأعمى أبصارهم، فصاروا لا يعرفون الطريق ولا يهتدون إلى بيوتهم فانصرفوا وهم يقولون: النجاء النجاء، فإن في بيت لوط أسحر قوم في الأرض سحرونا، وجعلوا يقولون: يا لوط كما أنت حتى تصبح فسترى ما تلقى منّا غداً يوعدونه، فقالت الملائكة: لا تخف إنّا أُرسِلْنَا لإهلاكهم، فقال لوط للملائكة: متى موعد إهلاكهم؟ فقالوا: الصبح، قال: أريد أسرع من ذلك فلو أهلكتموهم الآن، فقالوا: ﴿ أليس الصبحُ بقريب ﴾ ثم قالوا: ﴿ فأسْرِ ﴾، يا لوط، ﴿ بأهلِكَ ﴾، قرأ أهل الحجاز « فاسْرِ وأنِ اسْرِ » بوصل

حتى تصبح وسترى ما تلقى منا غداً يوعدونه بذلك ﴿فأسر بأهلك﴾ يعني ببيتك ﴿بقطع من الليل﴾ قال ابن عباس: بطائفة من الليل، وقال الضحاك: لبقية من الليل، وقال قتادة: بعد مضي أوله وقيل أنه السحر الأول ﴿ولا يلتفت منكم أحد﴾ يعني ولا يلتفت منكم أحد إلى ورائه ولا ينظر إلى خلفه ﴿إلا امرأتك﴾ فإنها من الملتفتات فتهلك مع من هلك من قومها وهو قوله سبحانه وتعالى: ﴿إنه مصيبها ما أصابهم﴾ فقال لوط: متى يكون هذا العذاب قالوا ﴿إن موعدهم الصبح﴾ قال لوط إنه بعيد أريد أسرع من ذلك فقالوا له ﴿أليس الصبح بقريب﴾ فلما خرج لوط من قريته أخذ أهله معه وأمرهم ألا يلتفت منهم أحد فقبلوا منه إلا امرأته فإنها لما سمعت هذه العذاب وهو نازل بهم التفتت وصاحت وا قوماه فأخذتها حجارة فأهلكتها معهم ﴿فلما جاء أمرنا﴾ يعني أمرنا بالعذاب ﴿جعلنا عاليها سافلها﴾ وذلك أن جبريل عليه السلام أدخل جناحه تحت قرى قوم لوط وهي خمس مدائن أكبرها سدوم وهي المؤتفكات المذكورة في سورة براءة ويقال كان فيها أربعمائة ألف وقيل أربعة آلاف ألف فرفع جبريل المدائن كلها حتى سمع أهل السماء صياح الديكة ونباح الكلاب لم يكفأ لهم إناء ولم ينتبه لهم نائم ثم قلبها فجعل عاليها سافلها ﴿وأمطرنا عليها﴾ يعني على شذاذها ومن كان خارجاً عنها من مسافريها وقيل بعد ما قلبها أمطر عليهم ﴿حجارة من سجيل﴾ قال ابن عباس وسعيد بن جبير: معناه سنك كل فارسي معرب لأن العرب تكلمت بشيء من الفارسي صارت لغة للعرب ولا يضاف إلى الفارسي مثل قوله سندس وإستبرق ونحو ذلك فكل هذه ألفاظ فارسية تكلمت بها العرب واستعملتها في ألفاظهم فصارت عربية، قال قتادة وعكرمة: السجيل الطين دليله قوله في موضع آخر حجارة من طين. وقال مجاهد: أولها حجر وآخرها طين، وقال الحسن: أصل الحجارة طين فشدت، وقال الضحاك: يعني الآجر وقيل: السجيل

الألف حيث وقع في القرآن مَن سرى يسري، وقرأ الباقون بقطع الألف من أسرى يسري، ومعناهما واحد وهو المسير بالليل. ﴿بِقطعٍ مِّنَ الليلِ﴾، قال ابن عباس: بطائفة من الليل. وقال الضحاك: ببقية. وقال قتادة: بعد مضي أوله. وقيل: إنه السحر الأول. ﴿ولا يلتفتْ منكم أحدٌ إلاّ امرأتَك﴾، قرأ ابن كثير وأبو عمرو «مرأتُك» برفع التاء على الاستثناء من الالتفات، أي: لا يلتفت منكم أحدٌ إلاّ امرأتُك فإنها تلتفت فتهلك وكان لوط قد أخرجها معه، ونهى مَن معه ممّن أسرى بهم أن يلتفت سوى زوجته فإنها لما سمعت هدّة العذاب التفتت، وقالت: يا قوماه فأدركها حجر فقتلها. وقرأ الآخرون بنصب التاء على الاستثناء من الإسراء أي: فأسْر بأهلك إلاّ امرأتك فلا تَسْرِ بها وخلفها مع قومها، فإنّ هَوَاهَا إليهم، وتصديقه قراءة ابن مسعود: «فأسْر بأهلك بقطع من الليل إلاّ امرأتك ولا يلتفتْ منكم أحد». ﴿إنّه مُصيبُها ما أصابهم﴾، من العذاب، ﴿إنَّ موعدَهُمُ الصُبْحُ﴾، أي: موعد هلاكهم وقت الصبح، فقال لوط: أريد أسرع من ذلك، فقالوا: ﴿أليسَ الصُّبْحُ بقريبٍ﴾.

قوله: ﴿فلما جاء أمرُنا﴾ عذابُنا، ﴿جعلنَا عاليهَا سافلَها﴾، وذلك أن جبريل عليه السلام أدخل جناحه تحت قرى قوم لوط المؤتفكات وهي خمس مدائن، وفيها أربعمائة ألف. وقيل: أربعة آلاف ألف، فرفع المدائن كلها حتى سمع أهل السماء صياح الديكة، ونباح الكلاب، فلم يُكفأ لهم إناءٌ ولم ينتبه نائمٌ، ثم قلبها فجعل عاليها سافلها. ﴿وأمطرنَا عليها﴾، أي على شذّاذها ومُسافريها. وقيل: بعدما قلبها أمطر عليها، ﴿حجارةً مِّن سِجّيل﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما وسعيد بن جبير (سنك كل) فارسي معرب. وقال قتادة وعكرمة: السجّيل الطين، دليله قوله عزّ وجلّ: ﴿لنُرْسِلَ عليهم حجارةً من طين﴾ [الذاريات: ٣٣]، قال مجاهد: أولها حجر وآخرها طين. وقال الحسن: كان أصل الحجارة طيناً فشددت. وقال الضحاك: يعني الآجر. وقيل: السجّيل اسم السماء الدنيا. وقيل: هو جبال في السماء، قال الله تعالى: ﴿وينزِّلُ من السماءِ مِنْ جبالٍ فيها مِنْ بَرَد﴾ [النور: ٤٣]. قوله تعالى: ﴿منضُودٍ﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما متتابع يتبع بعضها بعضاً مفعول من

اسم سماء الدنيا، وقيل: هو جبل في سماء الدنيا ﴿منضود﴾ قال ابن عباس: متتابع يتبع بعضها بعضاً مفعول من النضد وهو وضع الشيء بعضه فوق بعض.

﴿مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ۝٨٣ ۞ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ۝٨٤ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ۝٨٥﴾

﴿**مسومة عند ربك**﴾ صفة للحجارة يعني معلمة قال ابن جريج: عليها سيما لا تشاكل حجارة الأرض، وقال قتادة وعكرمة: عليها خطوط حمر على هيئة الجزع وقال الحسن والسدي: كانت مختومة عليها أمثال الخواتيم، وقيل: كان مكتوباً عليها أي على كل حجر اسم صاحبه الذي يرمى به ﴿**وما هي**﴾ يعني تلك الحجارة ﴿**من الظالمين**﴾ يعني مشركي مكة ﴿**ببعيد**﴾ قال قتادة وعكرمة: يعني ظالمي هذه الآمة والله ما أجار الله منها ظالماً بعد وفي بعض الآثار ما من ظالم إلا وهو بعرض حجر يسقط عليه من ساعة إلى ساعة، وقيل: إن الحجارة اتبعت شذاذ قوم لوط حتى إن واحداً منهم دخل الحرم فوجد الحجر معلقاً في السماء أربعين يوماً حتى خرج ذلك الرجل من الحرم فسقط عليه الحجر فأهلكه.

قوله عز وجل: ﴿**وإلى مدين**﴾ يعني وأرسلنا إلى مدين ﴿**أخاهم شعيباً**﴾ مدين اسم لابن إبراهيم الخليل عليه السلام ثم صار إسماً للقبيلة من أولاده وقيل هو اسم مدينة بناها مدين بن إبراهيم فعلى هذا يكون التقدير وأرسلنا إلى أهل مدين فحذف المضاف لدلالة الكلام عليه ﴿**قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره**﴾ يعني وحِّدوا الله ولا تعبدوا معه غيره كانت عادة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام يبدءون بالأهم فالأهم ولما كانت الدعوة إلى توحيد الله وعبادته أهم الأشياء قال شعيب إعبدوا الله مالكم من إله غيره ثم بعد الدعوة إلى التوحيد شرع فيما هم فيه ولما كان المعتاد من أهل مدين البخس في الكيل والوزن دعاهم إلى ترك هذه العادة القبيحة وهي تطفيف الكيل والوزن فقال ﴿**ولا تنقصوا المكيال والميزان**﴾ النقص في الكيل والوزن على وجهين أحدهما: أن يكون الاستنقاص من قبلهم فيكيلون ويزنون للغير ناقصاً، والوجه الآخر: هو استيفاء الكيل والوزن لأنفسهم زائداً عن حقهم فيكون نقصاً في مال الغير وكلا الوجهين مذموم فلهذا نهاهم شعيب عن ذلك بقوله ولا تنقصوا المكيال والميزان ﴿**إني أراكم بخير**﴾ قال ابن عباس: كانوا موسرين في نعمة وقال مجاهد: كانوا في خصب وسعة فحذرهم زوال تلك النعمة وغلاء السعر وحصول النقمة إن لم يتوبوا ولم يؤمنوا وهو قوله: ﴿**وإني أخاف عليكم عذاب يوم محيط**﴾ يعني: يحيط بكم فيهلككم جميعاً وهو

النضد، وهو وضع الشيء بعضه فوق بعض.

﴿ **مُسوّمةً** ﴾، من نعت الحجارة وهي نصب على الحال، ومعناها معلّمة: قال ابن جريج: عليها سيما لا تشاكل كل حجارة الأرض. وقال قتادة وعكرمة: عليها خطوط حمر على هيئة الجزع. وقال الحسن والسدي: كانت مختومة عليها أمثال الخواتيم. وقيل: مكتوب على كل حجر اسم مَن رمى به. ﴿ **عِنْدَ ربِّكَ وما هي** ﴾، يعني: تلك الحجارة، ﴿ **مِنَ الظالمين** ﴾، أي: من مشركي مكة، ﴿ **بِبَعِيدٍ** ﴾، وقال قتادة وعكرمة: يعني ظالمي هذه الأمة والله ما أجار الله منها ظالماً بعدُ. وفي بعض الآثار: «مَا مِنْ ظالمٍ إلاّ وهو بعرضِ حجرٍ يسقط عليه من ساعة إلى ساعة». ورُوِيَ: أن الحجر اتّبع شذّاذهم ومُسافِريهم أين كانوا في البلاد، ودخل رجل منهم الحرم فكان الحجر

عذاب الاستئصال في الدنيا أو حذرهم عذاب الآخرة ومنه قوله سبحانه وتعالى وإن جهنم لمحيطة بالكافرين ﴿ويا قوم أوفوا المكيال والميزان﴾ أي أتموهما ولا تطففوا فيهما ﴿بالقسط﴾ أي بالعدل، وقيل: بتقويم لسان الميزان وتعديل المكيال ﴿ولا تبخسوا الناس﴾ أي: ولا تنقصوا الناس ﴿أشياءهم﴾ يعني أموالهم فإن قلت قد وقع التكرار في هذه القصة من ثلاثة أوجه لأنه قال ولا تنقصوا المكيال والميزان، ثم قال: أوفوا المكيال والميزان وهذا عين الأول ثم قال ولا تبخسوا الناس أشياءهم وهذا عين ما تقدم فما الفائدة في هذا التكرار.

قلت: إن القوم لما كانوا مصرين على ذلك العمل القبيح وهو تطفيف الكيل والوزن ومنع الناس حقوقهم احتيج في المنع منه إلى المبالغة في التأكيد والتكرير يفيد شدة الاهتمام والعناية بالتأكيد فلهذا كرر ذلك ليقوى الزجر والمنع من ذلك الفعل ولأن قوله ولا تنقصوا المكيال والميزان نهى عن التنقيص وقوله أوفوا المكيال والميزان أمر بإيفاء العدل وهذا غير الأول ومغاير له ولقائل أن يقول النهي ضد الأمر فالتكرار لازم على هذا الوجه قلنا الجواب عن هذا قد يجوز أن ينهى عن التنقيص ولا يأمر بإيفاء الكيل والوزن فلهذا جمع بينهما فهو كقولك صل رحمك ولا تقطعها فتريد المبالغة في الأمر والنهي وأما قوله ثانياً ولا تبخسوا الناس أشياءهم فليس بتكرير أيضاً لأنه سبحانه وتعالى لما خصص النهي عن التنقيص والأمر بإيفاء الحق في الكيل والوزن عمم الحكم في جميع الأشياء التي يجب إيفاء الحق فيها فيدخل فيه الكيل والوزن والزرع وغير ذلك فظهر بهذا البيان فائدة التكرار والله أعلم؟ وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ولا تعثوا في الأرض مفسدين﴾ يعني بتنقيص الكيل والوزن ومنع الناس حقوقهم.

بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ قَالُوا۟ يَـٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَـٰٓؤُا۟ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ قَالَ يَـٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَـٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ وَيَـٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَـٰلِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾

﴿بقيت الله خير لكم﴾ قال ابن عباس يعني ما أبقى الله لكم من الحلال بعد إيفاء الكيل والوزن خير لكم مما تأخذونه بالتطفيف وقال مجاهد بقية الله يعني طاعة الله خير لكم وقيل بقية الله يعني ما أبقاه لكم من الثواب في الآخرة

معلّقاً في السماء أربعين يوماً حتى خرج فأصابه فأهلكه.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ وإلى مَدْيَنَ ﴾، أي: وأرسلنا إلى ولد مدين، ﴿ أخاهم شعيباً قال يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لكم مِنْ إلَهٍ غيرُهُ ولا تَنْقُصُوا المكيالَ والميزانَ ﴾، أي: لا تبخسوا، وهم كانوا يُطفّفون مع شركهم، ﴿ إني أراكم بخيرٍ ﴾، قال ابن عباس: موسرين في نعمة. وقال مجاهد: في خصب وسعة فحذّرهم زوال النعمة، وغلاء السعر وحلول النقمة، إن لم يتوبوا. ﴿ وإني أخافُ عليكم عذابَ يومٍ مُحِيطٍ ﴾، يحيط بكم فيهلككم.

﴿ ويا قومِ أوفُوا المكيالَ والميزانَ ﴾، أتمّوهما، ﴿ بالقِسْطِ ﴾، بالعدل. وقيل: بتقويم لسان الميزان، ﴿ ولا تَبْخَسُوا ﴾، لا تنقصوا، ﴿ الناسَ أشياءَهم ولا تَعْثَوْا في الأرضِ مُفْسِدين ﴾.

﴿ بقيّتُ اللّهِ خيرٌ لكم إن كُنتُمْ مُؤْمنين ﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما: يعني ما أبقى الله لكم من الحلال بعد إيفاء الكيل والوزن خيرٌ مما تأخذونه بالتطفيف. وقال مجاهد: بقيت الله أي طاعة الله خير لكم إن كنتم مؤمنين

خير لكم مما يحصل لكم في الدنيا من المال الحرام ﴿إن كنتم مؤمنين﴾ يعني مصدقين بما قلت لكم وأمرتكم به ونهيتكم عنه ﴿وما أنا عليكم بحفيظ﴾ يعني أحفظ أعمالكم قال بعضهم إنما قال لهم شعيب ذلك لأنه لم يؤمر بقتالهم ﴿قالوا يا شعيب أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا﴾ يعني من الأصنام ﴿أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء﴾ يعني من الزيادة والنقصان، قال ابن عباس: كان شعيب كثير الصلاة فلذلك قالوا هذا وقيل إنهم كانوا يمرون به فيرونه يصلي فيستهزئون به ويقولون هذه المقالة، وقال الأعمش: أقراءتك لأن الصلاة تطلق على القراءة والدعاء وقيل المراد بالصلاة هنا الدين يعني أدينك يأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا وأن نفعل في أموالنا ما نشاء وذلك أنهم كانوا ينقصون الدراهم والدنانير فكان شعيب عليه السلام ينهاهم عن ذلك ويخبرهم أنه محرم عليهم وإنما ذكر الصلاة لأنها من أعظم شعائر الدين ﴿إنك لأنت الحليم الرشيد﴾ قال ابن عباس: أرادوا السفيه الغاوي لأن العرب قد تصف الشيء بضده فيقولون للديغ سليم وللفلاة المهلكة مفازة، وقيل: هو على حقيقته وإنما قالوا ذلك على سبيل الاستهزاء والسخرية، وقيل: معناه إنك لأنت الحليم الرشيد في زعمك وقيل هو على بابه من الصحة ومعناه إنك يا شعيب فينا حليم رشيد فلا يحمل بك شق عصا قومك ومخالفتهم في دينهم ﴿قال﴾ يعني قال لهم شعيب ﴿يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي﴾ يعني: على بصيرة وهداية وبيان ﴿ورزقني منه رزقاً حسناً﴾ يعني حلالاً قيل كان شعيب كثير المال الحلال والنعمة وقيل الرزق الحسن ما أتاه الله من العلم والهداية والنبوة والمعرفة وجواب إن الشرطية محذوف تقديره أرأيتم إن كنت على بينة من ربي ورزقني المال الحلال والهداية والمعرفة والنبوة فهل يسعني مع هذه النعمة أن أخون في وحيه أو أن أخالف أمره أو أتبع الضلال أو أبخس الناس أشياءهم، وهذا الجواب شديد المطابقة لما تقدم ذلك أنهم قالوا له إنك لأنت الحليم الرشيد والمعنى فكيف يليق بالحليم الرشيد أن يخالف أمر ربه وله عليه نعم كثيرة وقوله: ﴿وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه﴾ قال صاحب الكشاف يقول خالفني فلان إلى كذا إذا قصده وأنت مول عنه وخالفني عنه إذا ولى عنه وأنت قاصده ويقال الرجل صادراً عن الماء فتسأله عن صاحبه فيقول خالفني إلى الماء يريد أنه قد ذهب إليه وارداً وأنا ذاهب عنه صداراً ومنه قوله ﴿وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه﴾ أي أن أسبقكم إلى شهواتكم التي نهيتكم عنها لأستبد بها دونكم. قال الإمام فخر الدين الرازي: وتحقيق الكلام فيه أن القوم اعترفوا فيها بأنه حليم رشيد وذلك يدل على كمال العقل وكمال العقل يحمل صاحبه على اختيار الطريق الأصوب الأصلح فكأنه عليه السلام قال لهم لما اعترفتم بكمال عقلي فاعلموا أن الذي اخترته لنفسي هو أصوب الطرق وأصلحها وهو الدعوة إلى توحيد الله وترك البخس والنقصان فأنا مواظب عليها غير تارك لها فاعلموا أن هذه الطريقة خير الطرق وأشرفها لا

أن ما عندكم من رزق الله وعطائه. ﴿ وما أنا عليكم بحفيظٍ ﴾، بوكيل. وقيل: إنما قال ذلك لأنه لم يؤمر بقتالهم.

﴿ قالوا يا شعيبُ أصلاتُك تأْمُرُكَ أنْ نتركَ ما يعبدُ آباؤُنَا ﴾، من الأوثان. قال ابن عباس رضي الله عنهما: كان شعيب عليه السلام كثير الصلاة. لذلك قالوا هذا. وقال الأعمش: يعني أقراءتك. ﴿ أو أنْ نفعلَ في أموالِنا ما نشاء ﴾ أو أن نترك أن نفعل في أموالنا ما نشاء من الزيادة والنقصان، وقيل: كان شعيب عليه السلام قد نهاهم عن قطع الدنانير والدراهم، زعم أنه محرّم عليهم فقالوا: أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء من قطعها. ﴿ إنَّك لأنتَ الحليمُ الرشيدُ ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: أرادوا السفيه الغاوي، والعرب تصف الشيء بضدّه فتقول: للديغ سليم وللفلاة مفازة. وقيل: قالوه على وجه الاستهزاء. وقيل: معناه الحليم الرشيد بزعمك. وقيل: هو على الصحة أي إنك يا شعيب فينا حليم رشيد لا يحمل بك شقّ عصا قومك ومخالفة دينهم، وهذا كما قال قوم صالح عليه السلام: ﴿ قَدْ كنتَ فينا مَرْجُوّاً قبل هذا ﴾ [هود: ٦٢].

﴿ قالَ يا قومِ أرأيتُم إن كنتُ على بيّنةٍ ﴾، بصيرة وبيان، ﴿ من ربّي ورَزَقني منه رِزْقاً حسناً ﴾، حلالاً.

ما أنتم عليه وقال الزجاج: معناه إني لست أنهاكم عن شيء وأدخل فيه إنما أختار لكم لنفسي وقال ابن الأنباري بين أن الذي يدعوهم إليه من اتباع طاعة الله وترك البخس والتطفيف هو ما يرتضيه لنفسه وهو لا ينطوي إلا عليه فكان هذا محض النصيحة لهم ﴿إن أريد﴾ يعني ما أريد فيما آمركم به وإنهاكم عنه ﴿إلا الإصلاح﴾ يعني فيما بيني وبينكم ﴿ما استطعت﴾ يعني ما استطعت إلا الإصلاح وهو الإبلاغ والإنذار فقط ولا أستطيع إجباركم على الطاعة لأن ذلك إلى الله فإنه يهدي من يشاء ويضل من يشاء ﴿وما توفيقي إلا بالله﴾ التوفيق تسهيل سبيل الخير والطاعة على العبد ولا يقدر على ذلك إلا الله تعالى فلذلك قال تعالى: ﴿وما توفيقي إلا بالله﴾ ﴿عليه توكلت﴾ يعني على الله اعتمدت في جميع أموري ﴿وإليه أنيب﴾ يعني وإليه أرجع فيما ينزل من النوائب وقيل إليه أرجع في معادي روي أن رسول الله ﷺ كان إذا ذكر شعيباً قال ذلك خطيب الأنبياء» لحسن مراجعته قومه.

وقوله تعالى: ﴿ويا قوم لا يجرمنكم شقاقي﴾ أي لا يحملنكم خلافي وعداوتي ﴿أن يصيبكم﴾ يعني عذاب العاجلة على كفركم وأفعالكم الخبيثة ﴿مثل ما أصاب قوم نوح﴾ يعني الغرق ﴿أو قوم هود﴾ يعني الريح التي أهلكتهم ﴿أو قوم صالح﴾ يعني ما أصابهم من الصيحة حتى هلكوا جميعاً ﴿وما قوم لوط منكم ببعيد﴾ وذلك أنهم كانوا حديثي عهد بهلاكهم وقيل معناه وما ديار قوم لوط منكم ببعيد وذلك أنهم كانوا جيران قوم لوط وبلادهم قريبة من بلادهم.

وَٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾ قَالُواْ يَـٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَـٰكَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ يَـٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَـٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَـٰمِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَـٰذِبٌ وَٱرْتَقِبُوٓاْ إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾

﴿واستغفروا ربكم﴾ يعني من عبادة الأصنام ﴿ثم توبوا إليه﴾ يعني من البخس والنقصان في الكيل والوزن ﴿إن ربي رحيم﴾ يعني بعباده إذا تابوا واستغفروا ﴿ودود﴾ قال ابن عباس: الودود المحبّ لعباده المؤمنين فهو من قولهم وددت الرجل أوده إذا أحببته، وقيل: يحتمل أن يكون ودود فعول بمعنى مفعول ومعناه أن عباده الصالحين يودونه

وقيل: كثيراً. وكان شعيب عليه السلام كثير المال. وقيل: الرزق الحسن: العلم والمعرفة. ﴿ وما أُريدُ أنْ أُخالِفَكم إلى ما أنْهاكُم عنه ﴾، أي: ما أُريد أن أنهاكم عن شيء ثم أرتكبه. ﴿ إنْ أُريد ﴾، ما أُريد فيما آمركم به وأنهاكم عنه، ﴿ إلاّ الإصلا حَ ما استطعتُ وما توفيقي إلاّ بالله ﴾، والتوفيق: تسهيل سبيل الخير والطاعة. ﴿ عليهِ توكّلتُ ﴾، اعتمدتُ، ﴿ وإليه أُنيب ﴾، أرجع فيما ينزل بي من النوائب. وقيل: في المعاد.

﴿ ويا قومِ لا يجْرِمَنَّكم ﴾، لا يحملنّكم، ﴿ شِقَاقي ﴾، خلافي ﴿ أنْ يُصيبكم ﴾، أي: على فعل ما أنهاكم عنه، ﴿ مِثلَ ما أصابَ قومَ نوحٍ ﴾، من الغرق، ﴿ أو قومِ هُودٍ ﴾، من الريح، ﴿ أو قومَ صالحٍ ﴾، من الصيحة، ﴿ وما قومُ لُوطٍ منكم ببعيدٍ ﴾، وذلكم أنهم كانوا حديثي عهد بهلاك قوم لوط. وقيل معناه وما دار قوم لوط منكم ببعيد، وذلك أنهم كانوا جيران قوم لوط.

﴿ واستغفِروا ربّكم ثمّ تُوبوا إليه إنّ ربّي رحيمٌ وَدُودٌ ﴾، والودود له معنيان أحدهما أنه محبٌّ للمؤمنين، وقيل: هو بمعنى الودود أي محبوب للمؤمنين. وجاء في الخبر: إن شعيباً عليه السلام كان خطيب الأنبياء عليهم السلام.

ويحبونه لكثرة إفضاله وإحسانه إليهم. وقال الحليمي: هو الوّاد لأهل طاعته أي الراضي عنهم بأعمالهم والمحسن إليهم لأجلها والمادح لهم بها، وقال أبو سليمان الخطابي: وقد يكون معناه من تودد إلى خلقه **﴿قالوا يا شعيب ما نفقه كثيراً مما تقول﴾** يعني ما نفهم ما تدعونا إليه وذلك أن الله سبحانه وتعالى ختم على قلوبهم فصارت لا تعي ولا تفهم ما ينفعها وإن كانوا في الظاهر يسمعون ويفهمون **﴿وإنا لنراك فينا ضعيفاً﴾** قال ابن عباس وقتادة: كان أعمى، قال الزجاج: ويقال إن حمير كانوا يسمون المكفوف ضعيفاً وقال الحسن وأبو روق ومقاتل: يعني ذليلاً، قال أبو روق: إن الله سبحانه وتعالى لم يبعث نبياً أعمى ولا نبياً به زمانة، وقيل: كان ضعيف البصر وقيل المراد بالضعف العجز عن الكسب والتصرف وقيل هو الذي يتعذر عليه المنع عن نفسه ويدل على صحة هذا القول ما بعده وهو قوله **﴿ولولا رهطك﴾** يعني جماعتك وعشيرتك قيل الرهط ما بين الثلاثة إلى العشرة، وقيل: إلى السبعة **﴿لرجمناك﴾** يعني لقتلناك بالحجارة والرجم بالحجارة أسوأ القتلات وشرها، وقيل: معناه لشتمناك وأغلظنا لك القول **﴿وما أنت علينا بعزيز﴾** يعني بكريم وقيل بممتنع منا والمقصود من هذا الكلام وحاصله أنهم بينوا لشعيب عليه السلام أنه لا حرمة له عندهم ولا في صدورهم وأنهم إنما لم يقتلوه ولم يسمعوه الكلام الغليظ الفاحش لأجل احترامهم رهطه وعشيرته وذلك لأنهم كانوا على دينهم وملتهم ولما قالوا لشعيب عليه السلام هذه المقالة أجابهم بقوله **﴿قال يا قوم أرهطي أعز عليكم من الله﴾** يعني أهيب عندكم من الله وأمنع حتى تركتم قتلي لمكان رهطي عندكم فالأولى أن تحفظوني في الله ولأجل الله لا لرهطي لأن الله أعز وأعظم **﴿واتخذتموه وراءكم ظهرياً﴾** يعني ونبذتم أمر الله وراء ظهوركم وتركتموه كالشيء الملقى الذي لا يلتفت إليه **﴿إن ربي بما تعملون محيط﴾** يعني أنه سبحانه وتعالى عالم بأحوالكم جميعاً لا يخفى عليه منها شيء فيجازيكم بها يوم القيامة **﴿ويا قوم اعملوا على مكانتكم﴾** يعني على تؤدتكم وتمكنكم من أعمالكم وقيل المكانة الحالة والمعنى اعملوا حال كونكم موصوفين بعناية المكنة والقدرة من الشر **﴿إني عامل﴾** يعني ما أقدر عليه من الطاعة والخير وهذا الأمر في قوله اعملوا فيه وعيد وتهديد عظيم ويدل على ذلك قوله سبحانه وتعالى: **﴿سوف تعلمون﴾** أينا الجاني على نفسه المخطىء في فعله.

فإن قلت أي فرق بين إدخال الفاء ونزعها في قوله سوف تعلمون.

قلت إدخال الفاء في قوله: فسوف تعلمون، وصل ظاهر بحرف موضوع للوصل ونزعها في قوله سوف تعلمون وصل خفي تقديري بالاستئناف الذي هو جواب لسؤال مقدر كأنهم قالوا فما يكون إذا عملنا نحن على مكانتنا وعملت أنت فقال سوف تعلمون يعني عاقبة ذلك فوصل تارة بالفاء وتارة بالاستئناف للتفنن في البلادة كما هو عادة بلغاء العرب وأقوى الوصلين وأبلغهما الاستئناف وهو باب من أبواب علم البيان تتكاثر محاسنه والمعنى سوف تعلمون **﴿من يأتيه عذاب يخزيه﴾** يعني بسبب عمله السيء أو أينا الشقي الذي يأتيه عذاب يخزيه **﴿ومن هو كاذب﴾** يعني فيما

﴿ قالوا يا شعيبُ ما نَفْقَهُ ﴾، ما نفهم، **﴿ كثيراً ممّا تقول وإنّا لَنَراكَ فينا ضَعِيفاً ﴾**، وذلك أنه كان ضرير البصر، فأرادوا ضعف البصر، **﴿ ولولا رَهْطُكَ ﴾**، عشيرتَك وكان في منعة من قومه، **﴿ لَرَجَمْنَاكَ ﴾**، لَقَتَلْنَاكَ. والرجم: أقبح القتل. **﴿ وما أنت علينَا ﴾**، عندنا، **﴿ بعزيز ﴾**.

﴿ قالَ يا قومِ أرَهْطِي أعزّ عليكمْ مِّنَ اللّهِ ﴾ أمكان رهطي أهيب عندكم من الله، أي: إن تركتم قتلي لمكان رهطي فالأولى أن تحفظوني في الله. **﴿ واتخذتُموه وراءَكم ظِهْرِيّاً ﴾**، أي: نبذتم أمر الله وراء ظهوركم وتركتموه، **﴿ إنَّ ربّي بما تعملُونَ محيطٌ ﴾**.

﴿ ويا قومِ اعملُوا على مكانَتِكم ﴾، أي: على تؤدتكم وتمكّنكم. يقال: فلان يعمل على مكانته إذا عمل على تؤدة وتمكّن. **﴿ إنّ عَامِلٌ ﴾**، على تمكّني، **﴿ سوف تعلمون ﴾**، أيُّنا الجاني على نفسه والمخطىء في فعله،

يدعيه ﴿وارتقبوا﴾ يعني وانتظروا العاقبة ما يؤول إليه أمري وأمركم ﴿إني معكم رقيب﴾ أي منتظر، والرقيب بمعنى المراقب.

وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا۟ الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَـٰرِهِمْ جَـٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَاتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ الْقِيَـٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ ۖ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَـٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَـٰمَةِ ۚ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ الْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَـٰهُمْ وَلَـٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ الَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾

﴿ولما جاء أمرنا﴾ يعني بعذابهم وإهلاكهم ﴿نجينا شعيباً والذين آمنوا معه برحمة منا﴾ يعني بفضل منا بأن هديناهم للإيمان ووفقناهم للطاعة ﴿وأخذت الذين ظلموا﴾ يعني ظلموا أنفسهم بالشرك والبخس ﴿الصيحة﴾ وذلك أن جبريل عليه السلام صاح بهم صيحة فخرجت أرواحهم وماتوا جميعاً، وقيل: أتتهم صيحة واحدة من السماء فماتوا جميعاً ﴿فأصبحوا في ديارهم جاثمين﴾ يعني ميتين وهو إستعارة من قولهم جثم الطير إذا قعد ولطأ بالأرض ﴿كأن لم يغنوا فيها﴾ يعني كأن لم يقيموا بديارهم مدة من الدهر مأخوذ من قولهم غني بالمكان إذا أقام فيه مستغنياً به عن غيره ﴿ألا بعداً﴾ يعني هلاكاً ﴿لمدين كما بعدت ثمود﴾ قال ابن عباس «لم تعذب أمتان قط بعذاب واحد إلا قوم شعيب وقوم صالح فأما قوم صالح فأخذتهم الصيحة من تحتهم وأما قوم شعيب فأخذتهم الصيحة من فوقهم» قوله عز وجل: ﴿ولقد أرسلنا موسى بآياتنا﴾ يعي بحججنا والبراهين التي أعطيناه الدالة على صدقه ونبوته ﴿وسلطان مبين﴾ يعني ومعجزة باهرة ظاهرة دالة على صدقة أيضاً قال بعض المفسرين المحققين سميت الحجة سلطاناً لأن صاحب الحجة يقهر من لا حجة معه كالسلطان يقهر غيره، وقال الزجاج: السلطان هو الحجة وسمي السلطان سلطاناً لأنه حجة الله في الأرض ﴿إلى فرعون وملئه﴾ يعني أتباعه وأشراف قومه ﴿فاتبعوا أمر فرعون﴾ يعني ما هو عليه من الكفر وترك الإيمان بما جاءهم به موسى ﴿وما أمر فرعون برشيد﴾ يعني وما طريق فرعون وما هو عليه بسديد ولا حميد العاقبة ولا يدعو إلى خير ﴿يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار﴾ يعني كما تقدم قومه فأدخلهم البحر في الدنيا كذلك يتقدم قومه يوم القيامة فيدخلهم النار ويدخل هو أمامهم، والمعنى كما كان قدوتهم في الضلال والكفر في الدنيا فكذلك هو قدوتهم وإمامهم في النار ﴿وبئس الورد المورود﴾ يعني: وبئس الدخل المدخول فيه وقيل شبه الله تعالى فرعون في

فذلك قوله: ﴿ مَنْ يأتيه عذابٌ يُخْزِيه ﴾ يذلّه ﴿ ومَنْ هو كاذبٌ ﴾، قيل: ﴿ من ﴾ في محل النصب، أي: فسوف تعلمون الكاذب. وقيل: محله رفع، تقديره: ومَن هو كاذب يعلم كذبه ويذوق وبال أمره. ﴿ وارْتَقِبُوا ﴾، وانتظرُوا العذابَ ﴿ إنّي معكم رقيبٌ ﴾، منتظر.

﴿ ولمّا جاءَ أمرُنا نجّينا شعيباً والذين آمنُوا معه برحمةٍ منّا وأخذَتِ الذينَ ظلمُوا الصيحة ﴾، قيل: إن جبريل عليه السلام صاح بهم صيحة فخرجت أرواحهم. وقيل: أتتهم صيحة من السماء فأهلكتهم. ﴿ فأصبحُوا في دِيَارِهم جاثمين ﴾، ميّتين.

﴿ كأنْ لم يَغْنَوْا ﴾ أي: كأن لم يقيموا ولم يكونوا ﴿ فيها ألاَ بُعْداً ﴾، هلاكاً، ﴿ لِمَدْيَنَ كما بَعِدَتْ ﴾، هلكتْ ﴿ ثمودُ ﴾.

تقدمه على قومه إلى النار بمن يتقدم على الوارد إلى الماء وشبه أتباعه بالواردين بعده ولما كان ورود الماء محموداً عند الواردين لأنه يكسر العطش قال في حق فرعون وأتباعه فأوردهم النار وبئس الورد المورود لأن الأصل فيه قصد الماء واستعمل في ورود النار على سبيل الفظاعة ﴿وأتبعوا في هذه﴾ يعني في هذه الدنيا ﴿لعنة﴾ يعني طرداً وبعداً عن الرحمة ﴿ويوم القيامة﴾ يعني وأتبعوا لعنة أخرى يوم القيامة مع اللعنة التي حصلت لهم في الدنيا ﴿بئس الرفد المرفود﴾ يعني بئس العون المعان وذلك أن اللعنة في الدنيا رفد للعنة في الآخرة وقيل معناه بئس العطاء المعطى وذلك أنه ترادف عليهم لعنتان لعنة في الدنيا ولعنة في الآخرة.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ذلك من أنباء القرى﴾ يعني من أخبار أهل القرى وهم الأمم السالفة والقرون الماضية ﴿نقصّه عليك﴾ يعني نخبرك به يا محمد لتخبر قومك أخبارهم لعلهم يعتبرون بهم فيرجعوا عن كفرهم أو ينزل بهم مثل ما نزل بهم من العذاب ﴿منها﴾ يعني من القرى التي أهلكنا أهلها ﴿قائم وحصيد﴾ يعني منها عامر ومنها خراب وقيل منها قائم يعني الحيطان بغير سقوف ومنها ما قد محي أثره بالكلية شبهها الله تعالى بالزرع الذي بعضه قائم على سوقه وبعضهم قد حصد وذهب أثره والحصيد بمعنى المحصود ﴿وما ظلمناهم﴾ يعني بالعذاب والإهلاك ﴿ولكن ظلموا أنفسهم﴾ يعني بالكفر والمعاصي ﴿فما أغنت عنهم آلهتهم التي يدعون من دون الله من شيء لما جاء أمر ربك﴾ يعني بعذابهم أي لم تنفعهم أصنامهم ولم تدفع عنهم العذاب ﴿وما زادوهم غير تتبيب﴾ يعني غير تخسير وقيل غير تدمير.

وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾

﴿وكذلك أخذ ربك﴾ يعني وهكذا أخذ ربك ﴿إذا أخذ القرى وهي ظالمة﴾ الضمير في وهي عائد على القرى

قوله عزّ وجلّ: ﴿ ولقدْ أرسلنا موسى بآياتنا وسلطانٍ مُّبين ﴾، حجة بيّنة.

﴿ إلى فرعونَ ومَلَئِهِ فاتَّبعُوا أمْرَ فرعونَ وما أمْرُ فرعونَ برشيدٍ ﴾، بسديد.

﴿ يَقْدُمُ قومَهُ ﴾، يتقدمهم، ﴿ يومَ القيامةِ فأوْرَدَهم ﴾ فأدخلهم ﴿ النّارَ وبِئْسَ الوِرْدُ المَوْرُودُ ﴾، أي: بئس المدخل والمدخول فيه.

﴿ وأُتْبِعُوا في هذه ﴾، أي: في هذه الدنيا، ﴿ لعنةً ويومَ القيامةِ بِئْسَ الرِّفْدُ المَرْفُودُ ﴾، أي: العون المعان. وقيل: العطاء المعطى، وذلك أنهم ترادفت عليهم اللعنتان، لعنة في الدنيا ولعنة في الآخرة.

﴿ ذلك من أنباءِ القُرَى نَقُصُّهُ عليكَ منها قائمٌ ﴾، عامر، ﴿ وحصيدٌ ﴾، خراب. وقيل: منها قائم بقيت الحيطان وسقطت السقوف. وحصيد أي: انمحى أثره. وقال مقاتل: قائم يرى له أثر وحصيد لا يُرى له أثر، وحصيد بمعنى محصود.

﴿وما ظلمناهم﴾، بالعذاب والهلاك، ﴿ولكنْ ظَلَمُوا أنفسَهم﴾، بـالكفر والمعصية. ﴿فما أغنتْ عنهم آلهتُهم التي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ شيءٍ لمّا جاءَ أمْرُ ربِّك ﴾، عذاب ربك، ﴿ وما زَادُوهم غيرَ تتبيب ﴾، أي: غير تخسير، وقيل: تدمير.

﴿ وكذلِكَ ﴾، وهكذا، ﴿ أخْذُ ربِّك إذا أخذ القُرَى وهي ظالمة إنّ أخذَه أليمٌ شديدٌ ﴾. أخبرنا عبد الواحد

والمراد أهلها ﴿إن أخذه أليم شديد﴾ (ق) عن أبي موسى الأشعري قال قال رسول الله ﷺ «إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته ثم قرأ: وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد» فالآية الكريمة في الحديث دليل على أن من أقدم على ظلم فإنه يجب أن يتدارك ذلك بالتوبة والإنابة ورد الحقوق إلى أهلها إن كان الظلم للغير لئلا يقع في هذا الوعيد العظيم والعذاب الشديد ولا يظن أن هذه الآية حكمها مختص بظالمي الأمم الماضية بل هو عام في كل ظالم ويعضده الحديث والله أعلم.

قوله عز وجل: ﴿إن في ذلك لآية﴾ يعني ما ذكر من عذاب الأمم الحالية وإهلاكهم لعبرة وموعظة ﴿لمن خاف عذاب الآخرة﴾ يعني أن إهلاك أولئك عبرة يعتبر بها وموعظة يتعظ بها من كان يخشى الله ويخاف عذابه في الآخرة لأنه إذا نظر ما أحل الله بأولئك الكفار في الدنيا من أليم عذابه وعظيم عقابه وهو كالأنموذج مما أعد لهم في الآخرة اعتبر به فيكون زيادة في خوفه وخشيته من الله ﴿ذلك يوم مجموع له الناس﴾ يعني يوم القيامة تجمع فيه الخلائق من الأولين والآخرين للحساب والوقوف بين يدي رب العالمين ﴿وذلك يوم مشهود﴾ يعني يشهده أهل السماء وأهل الأرض ﴿وما نؤخره إلا لأجل معدود﴾ يعني وما نؤخر ذلك اليوم وهو يوم القيامة إلا إلى وقت معلوم محدود وذلك الوقت لا يعلمه أحد إلا الله تعالى: ﴿يوم يأت﴾ يعني ذلك اليوم ﴿لا تكلم نفس إلا بإذنه﴾ قيل: إن جميع الخلائق يسكتون في ذلك اليوم فلا يتكلم أحد فيه إلا بإذن الله تعالى.

فإن قلت كيف وجه الجمع بين هذه الآية وبين قوله سبحانه وتعالى: ﴿يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها﴾ وقوله إخباراً عن محاجة الكفار «والله ربنا ما كنا مشركين» والأخبار أيضاً تدل على الكلام في ذلك اليوم.

قلت: يوم القيامة يوم طويل وله أحوال مختلفة وفيه أهوال عظيمة ففي بعض الأحوال لا يقدرون على الكلام لشدة الأهوال وفي بعض الأحوال يؤذن لهم في الكلام فيتكلمون وفي بعضها تخفف عنهم تلك الأهوال فيحاجون ويجادلون وينكرون، وقيل: المراد من قوله لا تكلم نفس إلا بإذنه الشفاعة يعني لا تشفع نفس لنفس شيئاً إلا أن يأذن الله لها في الشفاعة ﴿فمنهم﴾ يعني فمن أهل الموقف ﴿شقي وسعيد﴾ الشقاوة خلاف السعادة والسعادة هي معاونة الأمور الإلهية للإنسان ومساعدته على فعل الخير والصلاح وتيسيره لها ثم السعادة على ضربين سعادة دنيوية وسعادة أخروية وهي السعادة القصوى لأن نهايتها الجنة وكذلك الشقاوة على ضربين أيضاً شقاوة دنيوية وشقاوة أخروية وهي

المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنبأنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا صدقة بن الفضل أنبأنا أبو معاوية أنبأنا يزيد بن أبي بردة عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنهم قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لَيُملي للظالِمِ حتى إذا أخذه لم يفْلتهُ»، قال: ثم قرأ: ﴿ وكذلك أَخْذُ ربِّكَ إذا أَخذَ القُرَى وهي ظالمة ﴾ الآية.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ إنَّ في ذلك لآية ﴾، لعبرة، ﴿ لمنْ خافَ عذابَ الآخرةِ ذلك يومٌ مجموعٌ له الناسُ ﴾، يعني يوم القيامة، ﴿ وذلك يومٌ مشهودٌ ﴾، أي: يشهده أهل السماء والأرض.

﴿وَمَا يُؤَخِّرُهُ﴾، أي: وما نُؤخِّر ذلك اليوم، فلا نقيم عليكم القيامة. وقرأ يعقوب، وما يُؤخره باليـاء، ﴿إلّا لأجلٍ مَّعدُودٍ﴾، معلوم عند الله.

﴿ يومَ يأتِ ﴾، بإثباتِ الياء وحذفها، ﴿ لا تَكلَّمُ ﴾، أي: لا تتكلم ﴿ نفسٌ إلّا بإذنه فمنهم شقيٌّ وسعيدٌ ﴾، أي: فمنهم مَن سبقت له الشقاوة ومنهم مَن سبقت له السعادة. أخبرنا أبو سعيد بن عبد الله بن أحمد الطاهري أنبأنا جدي أبو سهل بن عبد الصمد بن عبد الرحمن البزار أنبأنا أبو بكر محمد بن زكريا العذافري أنبأنا إسحق بن إبراهيم بن عباد الدبري أنبأنا عبد الرزّاق أنا معمر عن منصور عن سعيد بن عبيدة عن أبي عبد الرحمن السلمي عن

الشقاوة القصوى لأن نهايتها النار فالشقي من سبق له الشقاوة في الأزل والسعيد من سبقت له السعادة في الأزل (ق).

عن علي بن أبي طالب قال: «كنا في جنازة في بقيع الغرقد فأتانا رسول الله ﷺ فقعد وقعدنا حوله ومعه مخصرة فنكس وجعل ينكت بمخصرته ثم قال: ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من الجنة ومقعده من النار فقالوا يا رسول الله أفلا نتكل على كتابنا فقال: اعملوا فكل ميسر لما خلق له أما من كان من أهل السعادة فسيصير لعمل أهل السعادة وأما من كان من أهل الشقاوة فسيصير لعمل أهل الشقاوة ثم قرأ ﴿فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى﴾ الآية. بقيع الغرقد هو مقبرة أهل المدينة الشريفة ومدفنهم والمخصرة كالسوط والعصا ونحو ذلك مما يمسكه بيده الإنسان والنكت بالنون والتاء المثناة من فوق ضرب الشيء بتلك المخصرة أو باليد ونحو ذلك حتى يؤثر فيه واستدل بعض العلماء بهذه الآية وهذا الحديث على أن أهل الموقف قسمان شقي وسعيد لا ثالث لهما وظاهر الآية والحديث يدل على ذلك لكن بقي قسم آخر مسكوت عنه وهو من استوت حسناته وسيئاته وهم أصحاب الأعراف في قول والأطفال والمجانين الذين لا حسنات لهم ولا سيئات فهؤلاء مسكوت عنهم فهم تحت مشيئة الله عز وجل يوم القيامة يحكم فيهم بما يشاء وتخصيص هذين القسمين بالذكر لا يدل على نفي القسم الثالث ﴿فأما الذين شقوا ففي النار لهم فيها﴾ أي في النار من العذاب والهوان ﴿زفير وشهيق﴾ أصل الزفير ترديد النفس في الصدر حتى تنتفخ منه الضلوع والشهيق رد النفس إلى الصدر أو الزفير مده وإخراجه من الصدر وقال ابن عباس: الزفير الصوت الشديد والشهيق الصوت الضعيف، وقال الضحاك ومقاتل: الزفير أول صوت الحمار والشهيق آخره إذا رده إلى صدره وقال أبو العالية: الزفير في الحلق والشهيق في الجوف.

خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۖ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾

﴿خالدين فيها﴾ يعني لابثين مقيمين في النار ﴿ما دامت السموات والأرض﴾ قال الضحاك: يعني مادامت سموات الجنة والنار وأرضهما ولا بد لأهل الجنة وأهل النار من سماء تظلهم وأرض تقلهم فكل ما علاك فأظلك فهو سماء وكل ما استقر عليه قدمك فهو أرض وقال أهل المعاني هذه عبارة عن التأبيد وذلك على عادة العرب فإنهم يقولون لا آتيك ما دامت السموات والأرض وما اختلف الليل والنهار يريدون بذلك التأبيد.

عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه قال: خرجنا على جنازة فبينا نحن بالبقيع إذْ خرجَ رسولُ الله ﷺ وبيده مِخصرة فجاء فجلس ثم نكتَ بها الأرض ساعة، ثم قال: «ما من نفسٍ منفوسةٍ إلاّ قدْ كُتِبَ مكانُها من الجنة أو النار، إلاّ وقدْ كُتِبَتْ شقيّة أو سعيدة»، قال: فقال رجل: أفلا نتّكل على كتابنا يا رسول الله وندع العمل؟ قال: «لا، ولكن اعْملُوا فكلٌّ ميسّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ، أما أهل الشقاء فسييسّرون لعمل أهل الشقاء، وأما أهل السعادة فسييسّرون لعمل أهل السعادة»، قال: ثم تلا: ﴿ فأما مَن أعطَى واتّقَى وصدَّقَ بالحسنى فسنيسّره لليُسرى، وأما مَنْ بخلَ واستغنَى وكذَّب بالحسنى فسنيسّره للعسرى ﴾ [الليل: ٥ ـ ١٠].

قوله: ﴿ فأمّا الذين شَقُوا ففي النّارِ لهمْ فيها زَفيرٌ وشهيق ﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما: الزفير الصوت الشديد، والشهيق الصوت الضعيف. وقال الضحاك ومقاتل: الزفير أول نهيق الحمار، والشهيق آخره إذا ردّده في جوفه. وقال أبو العالية: الزفير في الحلق والشهيق في الصدر.

﴿ خالدين فيها ﴾، لابثين مقيمين فيها، ﴿ ما دَامَتِ السّمٰوَاتُ والأرض ﴾، قال الضحاك: ما دامت سمٰوات الجنة والنار وأرضها، وكل ما علاكَ وأظلّكَ فهو سماء، وكل ما استقرت عليه قدمك فهو أرض. وقال أهل

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿إلا ما شاء ربك﴾ اختلف العلماء في معنى هذين الإستثناءين فقال ابن عباس والضحاك: الإستثناء الأول المذكور في أهل الشقاء يرجع إلى قوم من المؤمنين يدخلهم الله النار بذنوب اقترفوها ثم يخرجهم منها فيكون استثناء من غير الجنس لأن الذين أخرجوا من النار سعداء في الحقيقة استثناهم الله تعالى من الأشقياء ويدل على صحة هذا التأويل ما روي عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ «إن الله سبحانه وتعالى يخرج قوماً من النار بالشفاعة فيدخلهم الجنة» وفي رواية «إن الله يخرج ناساً من النار فيدخلهم الجنة» أخرجه البخاري ومسلم، عن أنس أن رسول الله ﷺ قال «يخرج من النار قوم بعد ما مسهم منها سفع فيدخلون الجنة فيسميهم أهل الجنة الجهنميين» وفي رواية «ليصيبن أقواماً سفع من النار بذنوب أصابوها عقوبة لهم ثم يدخلهم الله الجنة بفضله ورحمته فيقال لهم الجهنميون» (خ) عن عمران بن حصين أن النبي ﷺ قال «يخرج قوم من النار بشفاعة محمد فيدخلون الجنة يسمون الجهنميين» وأما الاستثناء الثاني المذكور في أهل السعادة فيرجع إلى مدة لبث هؤلاء في النار قبل دخولهم الجنة فعلى هذا القول يكون معنى الآية فأما الذين شقوا ففي النار لهم فيها زفير وشهيق خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك أن يخرجهم منها فيدخلهم الجنة ﴿إن ربك فعال لما يريد وأما الذين سعدوا ففي الجنة خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك﴾ أن يدخله النار أولاً ثم يخرجه منها فيدخله الجنة فحاصل هذا القول إن الاستثناءين يرجع كل واحد منهما إلى قوم مخصوصين هم في الحقيقة سعداء أصابوا ذنوباً استوجبوا بها عقوبة يسيرة في النار ثم يخرجون منها فيدخلون الجنة لأن إجماع الأمة على أن من دخل الجنة لا يخرج منها أبداً وقيل إن الاستثناءين يرجعان إلى الفريقين السعداء والأشقياء وهو مدة تعميرهم في الدنيا واحتباسهم في البرزخ وهو ما بين الموت إلى البعث ومدة وقوفهم للحساب ثم يدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار فيكون المعنى خالدين في الجنة والنار إلا هذا المقدار، وقيل: معنى إلا ما شاء ربك سوى ما شاء ربك فيكون المعنى خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك من الزيادة على ذلك وهو كقولك لفلان علي ألف إلا ألفين أي سوى ألفين وقيل إلا بمعنى الواو بمعنى وقد شاء ربك خلود هؤلاء في النار وخلود هؤلاء في الجنة فهو كقوله تمجدو تعالى لئلا يكون للناس عليكم حجة إلا الذين ظلموا أي ولا الذين ظلموا وقيل معناه ولو شاء ربك لأخرجهم منها ولكنه لم يشأ لأنه حكم لهم

المعاني: هذا عبارة عن التأييد على عادة العرب، يقولون لا آتيك ما دامت السمٰواتُ والأرض، ولا يكون كذا ما اختلف الليل والنهار، يعنون أبداً قوله: ﴿ إلّا ما شاءَ رَبُّك ﴾، اختلفوا في هذين الاستثنائين، فقال بعضُهم: الاستثناء في أهل الشقاء يرجع إلى قوم من المؤمنين يدخلهم الله النار بذنوب اقترفوها، ثم يخرجهم منها فيكون ذلك استثناء من غير الجنس، لأن الذين أُخرجوا من النار سعداء استثناهم الله من جملة الأشقياء، وهذا كما أخبرنا عبد الواحد بن أحمد بن عبد الله النعيمي أنبأنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا حفص بن عمر ثنا هشام عن قتادة عن أنس عن النبي ﷺ قال: «لَيُصِيبَنَّ أقواماً سفعٌ من النار بذنوب أصابوها، عقوبة ثم يدخلها الله الجنة بفضل رحمته، فيقال لهم الجهنميون». وأخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي قال: أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أخبرنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا مسدد أخبرنا يحيىٰ عن الحسن بن ذكوان أنبأنا أبو رجاء حدّثني عمران بن حصين رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «يخرج قومٌ من النار بشفاعةِ محمدٍ فيدخلون الجنة ويسمّون الجهنميين». وأمّا الاستثناء في أهل السعادة فيرجع إلى مدة لبثهم في النار قبل دخول الجنة. وقيل: إلى ما شاء ربّك من الفريقين من تعميرهم في الدنيا واحتباسهم في البرزخ ما بين الموت والبعث، قبل مصيرهم إلى الجنة أو النار يعني هم خالدون في الجنة أو النار لا هذا المقدار. وقيل: معنى إلّا ما شاء ربك سوى ما شاء ربّك، معناه خالدين فيها ما دامت السمٰوات والأرض سوى ما شاء الله من الزيادة على قدر مدة بقاء السمٰوات والأرض، وذلك هو الخلود فيها، كما تقول: لفلانٍ عليّ ألف إلّا الألفين، أي: سوى الألفين اللتين تقدمتا. وقيل: إلّا بمعنى الواو،

بالخلود فيها، قال الفراء: هذا استثناء استثناه الله ولا يفعله كقوله والله لأضربنك إلا أن أرى غير ذلك وعزمه أن يضربه فهذه الأقوال في معنى الاستثناء ترجع إلى الفريقين والصحيح هو القول الأول ويدل عليه قوله سبحانه وتعالى: **﴿إن ربك فعال لما يريد﴾** يعني من إخراج من أراد من النار وإدخالهم الجنة فهذا على الإجمال في حال الفريقين فأما على التفصيل فقوله إلا ما شاء ربك في جانب الأشقياء يرجع إلى الزفير والشهيق وتقريره أن يفيد حصول الزفير والشهيق مع خلود لأنه إذا دخل الاستثناء عليه وجب أن يحصل فيه هذا المجموع والاستثناء في جانب السعداء يكون بمعنى الزيادة يعني إلا ماشاء ربك من الزيادة لهم من النعيم بعد الخلود، وقيل: إن الاستثناء الأول في جانب الأشقياء معناه إلا ما شاء ربك من أن يخرجهم من حرّ النار إلى البرد والزمهرير وفي جانب السعداء معناه إلا ما شاء ربك أن يرفع بعضهم إلى منازل أعلى منازل الجنان ودرجاتها والقول الأول هو المختار ويدل على خلود أهل الجنة في الجنة أن الأمة مجتمعة على من دخل الجنة لا يخرج منها بل هو خالد فيها.

وقوله سبحانه وتعالى في جانب السعداء **﴿عطاء غير مجذوذ﴾** يعني غير مقطوع قال ابن زيد: أخبرنا الله سبحانه وتعالى بالذي يشاء لأهل الجنة فقال تعالى عطاء غير مجذوذ ولم يخبرنا بالذي يشاء لأهل النار وروي عن ابن مسعود أنه قال «ليأتين على جهنم زمان ليس فيها أحد وذلك بعد ما يلبثون فيها أحقاباً» وعن أبي هريرة نحوه، وهذا إن صح عن ابن مسعود وأبي هريرة: فمحمول عند أهل السنة على إخلاء أماكن المؤمنين الذين استحقوا النار من النار بعد إخراجهم منها لأنه ثبت بالدليل الصحيح القاطع إخراج جميع الموحدين وخلود الكفار فيها أو يكون محمولاً على إخراج الكفار من حر النار إلى برد الزمهرير ليزدادوا عذاباً فوق عذابهم والله أعلم.

فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِۚ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُۚ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴿١٠٩﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْۚ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾ وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْۚ إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١١﴾

قوله سبحانه وتعالى: **﴿فلا تك في مرية مما يعبد هؤلاء﴾** يعني فلا تك في شك يا محمد في هذه الأصنام التي

أي: وقد شاء ربُّك خلود هؤلاء في النار وهؤلاء في الجنة، كقوله: ﴿ لئلا يكونَ للناسِ عليكم حُجَّةٌ إلّا الذين ظلموا ﴾ [البقرة: ١٥٠]، أي: ولا الذين ظلموا. وقيل: معناه ولو شاء ربك لأخرجهم منها ولكنه لا يشاء لأنه حكم لهم بالخلود. وقال الفرّاء: هذا استثناء استثناه الله ولا يفعله، كقولك: والله لأضربنّك إلّا أن أرى غير ذلك وعزيمتك أن تضربه. **﴿ إنّ ربَّكَ فعّالٌ لِّمَا يُريد ﴾**.

﴿ وأمّا الذينَ سُعِدُوا ﴾، قرأ حمزة والكسائي وحفص «سُعِدُوا» بضم السين وكسر العين، أي: رُزقوا السعادة، وسعد وأسعد بمعنى واحد. وقرأ الآخرون بفتح السين قياساً على ﴿ شَقُوا ﴾ [هود: ١٠٦]. **﴿ ففي الجنّةِ خالدين فيها ما دامتِ السمٰواتُ والأرضُ إلّا ما شاءَ ربُّك ﴾**، قال الضحاك: إلّا ما مكثوا في النار حتى أدخلوا الجنة. قال قتادة: الله أعلم بثنياه. **﴿ عطاءً غير مَجْذُوذٍ ﴾**، أي: غير مقطوع. قال ابن زيد: أخبرنا الله تعالى بالذي يشاء لأهل الجنة، فقال: **﴿ عطاءً غير مَجْذُوذ ﴾**، لم يخبرنا بالذي يشاء لأهل النار. عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: ليأتينّ على جهنّم زمان ليس فيها أحد، وذلك بعدما يلبثون فيها أحقاباً. وعن أبي هريرة رضي الله عنه مثله. ومعناه عند أهل السُّنّة إن ثبت: أن لا يبقى فيها أحد من أهل الإيمان. وأما مواضع الكفّار فممتلئة أبداً.

﴿ فلا تَكُ في مِرْيَةٍ ﴾، في شكٍّ، **﴿ ممّا يعبد هؤلاء ﴾**، أنهم ضُلّال، **﴿ ما يعبدُون إلّا كما يعبد ﴾**، فيه

يعبدها هؤلاء الكفار فإنها لا تضر ولا تنفع ﴿ما يعبدون إلا كما يعبد آباؤهم من قبل﴾ يعني أنه ليس لهم في عبادة هذه الأصنام مستند إلا أنهم رأوا آباءهم يعبدونها فعبدوها مثلهم ﴿وإنا لموفوهم نصيبهم غير منقوص﴾ يعني وإنا مع عبادتهم هذه الأصنام نرزقهم الرزق الذي قدرناه لهم من غير نقص فيه ويحتمل أن يكون المراد من توفية نصيبهم يعني من العذاب الذي قدر لهم في الآخرة كاملاً موفراً غير ناقص.

قوله عز وجل: ﴿ولقد آتينا موسى الكتاب﴾ يعني التوراة ﴿فاختلف فيه﴾ يعني في الكتاب فمنهم مصدق به ومكذب به كما فعل قومك يا محمد بالقرآن ففيه تسلية للنبي ﷺ ﴿ولولا كلمة سبقت من ربك﴾ يعني بتأخير العذاب عنهم إلى يوم القيامة لكان الذي يستحقونه من تعجيل العقوبة في الدنيا على كفرهم وتكذيبهم وهو قوله تبارك وتعالى: ﴿لقضي بينهم﴾ يعني لعذبوا في الحال وفرغ من عذابهم وإهلاكهم ﴿وإنهم لفي شك منه﴾ يعني من القرآن ونزوله عليك يا محمد ﴿مريب﴾ يعني أنهم قد وقعوا في الريب والتهمة ﴿وإن كلًّا﴾ يعني من الفريقين المختلفين المصدق والمكذب ﴿لما ليوفينهم ربك أعمالهم﴾ اللام لام القسم تقديره والله ليوفينهم جزاء أعمالهم في القيامة فيجازي المصدق على تصديقه الجنة ويجازي المكذب على تكذيبه النار ﴿إنه بما يعملون خبير﴾ يعني أنه سبحانه وتعالى لا يخفى عليه شيء من أعمال عباده وإن دقت ففيه وعد للمحسنين المصدقين وفيه وعيد وتهديد للمكذبين الكافرين.

﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْاْ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾﴾

قوله سبحانه وتعالى: ﴿فاستقم كما أمرت﴾ الخطاب فيه للنبي ﷺ يعني فاستقم يا محمد على دين ربك

إضمار، أي: كما كان يعبد، ﴿ آباؤُهُمْ مِّن قبلُ وإنّا لموفُّوهم نصيبَهم ﴾ حظهم من الجزاء. ﴿ غير منقوصٍ ﴾.

﴿ ولقدْ آتينا موسى الكتابَ ﴾، التوراة، ﴿فاختُلِفَ فيه﴾ فَمن مصدّق به ومكذّب كما فعل قومك بالقرآن، يُعزّي نبيّه ﷺ ﴿ ولوَلا كلمةٌ سبقتْ مِن ربِّك ﴾ في تأخير العذاب عنهم، ﴿ لقُضي بينهم ﴾، أي: لعُذّبوا في الحال وفُرغ من عذابهم وإهلاكهم، ﴿ وإنَّهم لفي شكٍّ منه مُريبٍ ﴾، موقع في الريبة والتّهمة.

﴿ وإنَّ كلًّا ﴾، قرأ ابن كثير ونافع وأبو بكر: «وإنْ كلًّا»، ساكنة النون على تخفيف إن الثقيلة، والباقون بتشديدها، «لمّا» مشدّد هنا وفي يّس [٣٢]، والطارق [٤]، ابن عامر وعاصم وحمزة، وافق أبو جعفر ههنا، وفي الطارق وفي الزخرف [٣٠]، بالتشديد عاصم وحمزة، والباقون بالتخفيف، فمَن شدّد قال: الأصل فيه «وإنّ كلا» لمن ما، فوصلت من الجارّة بما، فانقلبت النون ميماً للإدغام، فاجتمعت ثلاث ميمات فحذفت إحداهنّ، فبقيت لما بالتشديد، و﴿ ما ﴾ ههنا بمعنى مَنْ، هو اسم لجماعة من الناس، كما قال تعالى: ﴿فانكحُوا مَا طَاب لكم﴾ [النساء: ٣]، أي، ما طاب لكم، والمعنى: وإنّ كلًّا لمن جماعة ليوفينّهم. ومَن قرأ بالتخفيف قال: «ما» صلة زيدت بين اللامين ليفصل بينهما كراهة اجتماعهما، والمعنى: وإن كلًّا ليوفينّهم. وقيل: ﴿ ما ﴾ بمعنى مَنْ، تقدير: لمَن ليوفينّهم، واللام في ﴿ لما ﴾ لام التأكيد التي تدخل على خبر إن، وفي ليوفينّهم لام القسم، والقسم مضمر تقديره والله، ﴿ ليوفينّهم ربُّك أعمالهم ﴾، أي: جزاء أعمالهم، ﴿ إنه بما يعملون خبير ﴾.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ فاسْتَقِمْ كما أُمِرْتَ ﴾، أي: استقم على دين ربّك والعمل به والدعاء إليه كما أُمرتَ،

والعمل به والدعاء إليه كما أمرك ربك والأمر في فاستقم للتأكيد لأن النبي ﷺ كان على الاستقامة لم يزل عليها كقولك للقائم قم حتى آتيك أي دُم على ما أنت عليه من القيام حتى آتيك ﴿ومن تاب معك﴾ يعني ومن آمن معك من أمتك فليستقيموا أيضاً على دين الله والعمل بطاعته قال عمر بن الخطاب: الاستقامة أن تستقيم على الأمر والنهي ولا تروغ منه روغان الثعلب (م). عن سفيان بن عبد الله الثقفي قال: قلت يا رسول الله قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً بعدك قال «قل آمنت بالله ثم استقم» ﴿ولا تطغوا﴾ يعني ولا تجاوزوا أمري إلى غيره ولا تعصوني وقيل معناه ولا تغلوا في الدين فتجاوزوا ما أمرتكم به ونهيتكم عنه ﴿إنه بما تعملون بصير﴾ يعني أنه سبحانه وتعالى عالم بأعمالكم لا يخفى عليه شيء منها قال ابن عباس: ما نزلت آية على رسول الله ﷺ هي أشد عليه من هذه الآية ولذلك قال شيبتني هود وأخواتها (خ) عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال «إن الدين يسر ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه فسددوا وقاربوا وأبشروا واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة» قوله: إن الدين يسر، اليسر ضد العسر وأراد به التسهيل في الدين وترك التشدد فإن هذا الدين مع يسره وسهولته قوي فلن يغالب ولن يقاوى فسددوا أي اقصدوا السداد من الأمور وهو الصواب وقاربوا أي اطلبوا المقاربة وهي القصد الذي لا غلو فيه ولا تقصير والغدوة الرواح بكرة والرواح الرجوع عشياً والمراد منه اعملوا أطراف النهار وقتاً وقتاً والدلجة سير الليل والمراد منه اعملوا بالنهار واعملوا بالليل أيضاً وقوله شيء من الدلجة إشارة إلى تقليله.

وقوله تعالى: ﴿ولا تركنوا إلى الذين ظلموا﴾ قال ابن عباس: ولا تميلوا والركون هو المحبة والميل بالقلب، وقال أبو العالية: لا ترضوا بأعمالهم، وقال السدي: لا تداهنوا الظلمة، وعن عكرمة لا تطيعوهم، وقيل: معناه ولا تسكنوا إلى الذين ظلموا ﴿فتمسكم النار﴾ يعني فتصيبكم النار بحرها ﴿وما لكم من دون الله من أولياء﴾ يعني أعواناً وأنصاراً يمنعونكم من عذابه ﴿ثم لا تنصرون﴾ يعني ثم لا تجدون لكم من ينصركم ويخلصكم من عقاب الله غداً في

﴿ وَمَنْ تابَ معكَ ﴾، أي: مَن آمن معك فليستقيموا، قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: الاستقامة أن تستقيم على الأمر والنهي، ولا تروغ روغان الثعلب. أخبرنا الإمام الحسين بن محمد القاضي أنا أبو الطيب سهل بن محمد بن سليمان أنا والدي إملاءً ثنا أبو بكر محمد بن إسحق ثنا محمد بن العلاء بن كريب ثنا أبو أسامة عن هشام بن عروة عن أبيه عن سفيان بن عبد الله الثقفي قال: قلتُ، يا رسول الله قلْ لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً بعدك، قال: «قلْ آمنتُ باللَّهِ ثم استقم». ﴿ ولا تَطْغَوْا ﴾ لا تجاوزوا أمري ولا تعصوني. وقيل: معناه ولا تغلوا فتزيدوا على ما أمرتُ ونهيتُ. ﴿ إنَّه بما تعملُون بصيرٌ ﴾، لا يخفى عليه من أعمالكم شيء. قال ابن عباس رضي الله عنهما: ما نزلت على رسول الله ﷺ آية هي أشدُّ عليه من هذه الآية، ولذلك قال: «شيّبتني هودٌ وأخواتُها». أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا عبد السلام بن مظهر ثنا عمرو بن علي عن معن بن محمد الغفاري عن سعيد بن أبي سعيد المقبري عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إنَّ الدين يُسْرٌ ولنْ يشادّ هذا الدينَ أحدٌ إلّا غلبه، فسدّدُوا وقاربوا، وأبشروا واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدُّلْجةِ».

قوله عزّ وجلّ: ﴿ ولا تَرْكَنُوا إلى الذينَ ظلمُوا ﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما: ولا تميلوا. والركون: هو المحبّة والميل بالقلب. وقال أبو العالية: لا ترضوا بأعمالهم. قال السدي: لا تداهنوا الظلمة. وعن عكرمة: لا تطيعوهم. وقيل: لا تسكنوا إلى الذين ظلموا. ﴿ فَتَمَسَّكُمُ ﴾، فتصيبكم، ﴿ النارُ وما لكمْ مِّن دُونِ اللَّهِ من أولياءَ ﴾، أي: أعوان يمنعونكم من عذابه، ﴿ ثمّ لا تُنصَرُون ﴾.

القيامة ففيه وعيد لمن ركن إلى الظلمة أو رضي بأعمالهم أو أحبهم فكيف حال الظلمة في أنفسهم نعوذ بالله من الظلم.

قوله عز وجل: ﴿وأقم الصلاة طرفي النهار﴾ سبب نزول هذه الآية ما رواه الترمذي عن أبي اليسر قال «أتتني امرأة تبتاع تمراً فقلت إن في البيت تمراً هو أطيب منه فدخلت معي فأهويت إليها فقبلتها فأتيت أبا بكر فذكرت ذلك له فقال استر على نفسك وتب ولا تخبر أحداً فلم أصبر فأتيت عمر فذكرت ذلك له فقال استر على نفسك وتب ولا تخبر أحداً فلم أصبر فأتيت رسول الله ﷺ فذكرت ذلك له فقال أخلفت غازياً في سبيل الله في أهله بمثل هذا حتى تمنى أنه لم يكن أسلم إلا تلك الساعة حتى ظن أنه من أهل النار قال وأطرق رسول الله ﷺ طويلاً حتى أوحى الله إليه وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفاً من الليل إلى قوله ذلك ذكرى للذاكرين.

قال أبو اليسر: فأتيته فقرأها رسول الله ﷺ فقال أصحابه يا رسول الله ألهذا خاصة أم للناس عامة قال بل للناس عامة» قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب وقيس بن الربيع ضعّفه وكيع وغيره وأبو اليسر هو كعب بن عمرو (ق). عن عبد الله بن مسعود «أن رجلاً أصاب من امرأة قبلة فأتى النبي ﷺ فذكر ذلك له فنزلت ﴿وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفاً من الليل﴾ الآية فقال الرجل يا رسول الله ألي هذه الآية قال لمن عمل بها من أمتي وفي رواية فقال رجل من القوم يا نبي الله هذه له خاصة قال بل للناس كافة» عن معاذ بن جبل قال «أتى النبي ﷺ رجل فقال يا رسول الله أرأيت رجلاً لقي امرأة وليس بينهما معرفة فليس يأتي الرجل إلى امرأته شيئاً إلا قد أتى هو إليها إلا أنه لم يجامعها قال فأنزل الله عز وجل ﴿وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفاً من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين﴾ فأمره النبي ﷺ أن يتوضأ ويصلي قال معاذ فقلت يا رسول الله أهي له خاصة أم للمؤمنين عامة؟ فقال: بل للمؤمنين عامة» أخرجه الترمذي وقال هذا الحديث ليس بمتصل لأن عبد الرحمن بن أبي ليلى لم يسمع من معاذ.

أما التفسير فقوله سبحانه وتعالى: ﴿وأقم الصلاة طرفي النهار﴾ يعني صلاة الغداة والعشي وقال مجاهد: طرفي النهار يعني صلاة الصبح والظهر والعصر ﴿وزلفاً من الليل﴾ يعني صلاة المغرب والعشاء، وقال مقاتل: صلاة الصبح

قوله عزّ وجلّ: ﴿ وأقمِ الصلاةَ طَرَفي النَّهارِ ﴾، أي: الغداة والعشي. قال مجاهد: طرفا النهار صلاة الصّبح والظهر والعصر. ﴿ وزُلَفاً مِّنَ الليلِ ﴾، صلاة المغرب والعشاء. وقال مقاتل: صلاة الفجر والظهر طرف، وصلاة العصر والمغرب طرف، وزلفاً من الليل يعني صلاة العشاء. وقال الحسن: طرفا النهار والصبح والعصر، وزُلَفاً من الليل المغرب والعشاء. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: طرفا النهار الغداة والعشي، يعني صلاة الصبح والمغرب. قوله: ﴿ وزلفاً من الليل ﴾ أي ساعته واحدتها زلفة وقرأ أبو جعفر « زُلُفاً » بضم اللام. ﴿ إنّ الحسناتِ يُذْهِبْنَ السيئاتِ ﴾، يعني: إن الصلوات الخمس يذهبن الخطيئات ورُوِيَ أنها نزلت في أبي اليسر وهو كعب بن عمرو الأنصاري، قال: أتتني امرأة تبتاع تمراً فقلتُ لها إن في البيت تمراً أطيب منه، فدخلت معي في البيت، فأهويتُ عليها فقبّلتها، ثم ندمتُ فأتيتُ أبا بكر رضي الله عنه فذكرت ذلك له فقال: استرْ على نفسك وتُبْ ولا تخبر أحداً، فأتيتُ عمر رضي الله عنه فذكرت ذلك له، فقال: استرْ على نفسك وتبْ ولا تخبر أحداً، فلم أصبر فأتيتُ رسولَ الله ﷺ فذكرت ذلك له، فقال: «أخلفتَ غازياً في سبيل الله في أهله بمثل هذا حتى تمنى أنه لم يكن أسلم إلاّ تلك الساعة، حتى ظن أنه من أهل النار»؟ فأطرق رسول الله ﷺ حتى أوحى الله إليه: ﴿ وأقمِ الصلاةَ طرفي النهار وزُلفاً من الليل ﴾ الآية، فقرأها رسول الله ﷺ فقال أصحاب رسول الله ﷺ: ألهذا خاصةً أم للناس عامّةً؟ قال: «بلْ للناس عامّةً». أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنبأنا محمد بن يوسف

والظهر طرف وصلاة العصر والمغرب طرف وزلفاً من الليل يعني صلاة العشاء وقال الحسن طرفي النهار الصبح والعصر وزلفاً من الليل المغرب والعشاء وقال ابن عباس طرفي النهار الغداة والعشي يعني صلاة الصبح والمغرب قال الإمام فخر الدين الرازي: كثرت المذاهب في تفسير طرفي النهار والأشهر أن الصلاة التي في طرفي النهار هي الفجر والعصر وذلك لأن أحد طرفي النهار هو طلوع الشمس والثاني هو غروبها فالطرف الأول هو صلاة الفجر والطرف الثاني لا يجوز أن يكون صلاة المغرب لأنها داخلة تحت قوله تعالى ﴿وزلفاً من الليل﴾ فوجب حمل الطرف الثاني على صلاة العصر **﴿وزلفاً من الليل﴾** يعني وأقم الصلاة في زلف من الليل وهي ساعاته واحدتها زلفة وأصل الزلفة المنزلة والمراد بها صلاة المغرب والعشاء **﴿إن الحسنات يذهبن السيئات﴾** يعني إن الصلوات الخمس يذهبن الخطيئات ويكفرنها (م) عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال «الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة كفارة لما بينهن زاد في رواية ما لم تغش الكبائر» وزاد في رواية أخرى «ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر» (ق) عن أبي هريرة أنه سمع رسول الله ﷺ يقول «أرأيتم لو أن نهراً بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمس مرات هل يبقى من درنه شيء قالوا لا قال فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بها الخطايا» (خ) عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ «مثل الصلوات الخمس كمثل نهر جار غمر على باب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمس مرات» قال الحسن وما يبقى من الدرن.

قال العلماء: الصغائر من الذنوب تكفرها الأعمال الصالحات مثل الصلاة والصدقة والذكر والاستغفار ونحو ذلك من أعمال البر وأما الكبائر من الذنوب فلا يكفرها إلا التوبة النصوح ولها ثلاث شرائط: **الشرط الأول**: الإقلاع عن الذنب بالكلية.

الثاني: الندم على فعله.

الثالث: العزم التام أن لا يعود إليه في المستقبل، فإذا حصلت هذه الشرائط صحت التوبة وكانت مقبولة إن شاء الله تعالى، وقال مجاهد في تفسير الحسنات إنها قول سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر والقول الأول أصح أنها الصلوات الخمس وهو قول ابن مسعود وابن عباس وابن المسيب ومجاهد في إحدى الروايتين عنه والقرظي والضحاك وجمهور المفسرين **﴿ذلك﴾** إشارة إلى ما تقدم ذكره من الاستقامة والتوبة وقيل هو إشارة إلى القرآن **﴿ذكرى للذاكرين﴾** يعني عظة للمؤمنين المطيعين **﴿واصبر﴾** الخطاب للنبي ﷺ يعني واصبر يا محمد على أذى قومك

ثنا محمد بن إسماعيل أنبأنا قتيبة بن سعيد ثنا يزيد بن زريع عن سليمان التيمي عن أبي عثمان النهدي عن ابن مسعود رضي الله عنه أن رجلاً أصاب من امرأة قبلة فأتى النبيَّ ﷺ فأخبره، فأنزل الله تعالى **﴿ وأقم الصلاةَ طرفي النهار وزُلفاً من الليل إنَّ الحسناتِ يُذهِبْنَ السيئاتِ ﴾**، قال الرجل: يا رسول الله ألـي هـذا؟ «لجميـع أمتي كلهم». وأخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر أنبأنا عبد الغافر بن محمد أنا محمد بن عيسى الجلودي أنبأنا إبراهيم بن محمد بن سفيان ثنا مسلم بن الحجّاج حدّثني أبو طاهر وهارون بن سعيد الأيلي قالا: حدّثنا ابن وهب عن أبي صخر أن عمر بن إسحق مولى زائدة حدّثه عن أبيه عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ كان يقول: «الصلواتُ الخمس والجمعةُ إلى الجمعة ورمضانُ إلى رمضان مكفِّراتٌ لما بينهنّ إذا اجتُنبتِ الكبائر». وأخبرنا عبد الواحد المليحي أنا محمد الحسين بن أحمد المخلدي أنبأنا أبو العباس محمد بن إسحـق أنبأنا قتيبة أنبأنا الليث وبكر بن مضر عن ابن الهادي عن محمد بن إبراهيم التيمي عن أبي سلمة بن عبد الرحمن عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «أرأيتُمْ لو أن نهراً ببابِ أحدكم يغتسلُ فيه كلَّ يومٍ خمساً هل يبقى من درنه شيء»؟ قالوا: لا يبقى من درنـه شيء، قال: «فـذلك مَثَلُ الصلواتِ الخمس، يمحو الله بهنّ الخطايا». قوله عزّ وجلّ: **﴿ ذلك ﴾**، أي: ذلك الذي ذكرنا. وقيل: هو

وما تلقاه منهم، وقيل معناه واصبر على الصلاة ﴿فإن الله لا يضيع أجر المحسنين﴾ يعني أعمالهم، قال ابن عباس: يعني المصلين.

﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا۟ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَآ أُتْرِفُوا۟ فِيهِ وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾﴾

قوله سبحانه وتعالى: ﴿فلولا كان من القرون﴾ يعني فهلا كان من القرون التي أهلكناهم ﴿من قبلكم﴾ يعني يا أمة محمد ﴿أولو بقية﴾ يعني أولوا تمييز وطاعة وخير يقال فلان ذو بقية إذا كان فيه خير وقيل معناه أولوا بقية من خير يقال فلان على بقية من الخير إذا كان على خصلة محمودة ﴿ينهون عن الفساد في الأرض﴾ يعني يقومون بالنهي عن الفساد في الأرض والآية للتقريع والتوبيخ يعني لم يكن فيهم من فيه خير ينهى عن الفساد عن الأرض فلذلك أهلكناهم ﴿إلا قليلاً﴾ هذا استثناء منقطع معناه لكن قليلاً ﴿ممن أنجينا منهم﴾ يعني من آمن الأمم الماضية وهم أتباع الأنبياء كانوا ينهون عن الفساد في الأرض ﴿واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه﴾ يعني واتبع الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والمعاصي ما تنعموا فيه والترف التنعم والمعنى أنهم اتبعوا ما تعودوا به من النعم وإيثار اللذات على الآخرة ونعيمها ﴿وكانوا مجرمين﴾ يعني كافرين ﴿وما كان ربك﴾ يعني وما كان ربك يا محمد ﴿ليهلك القرى بظلم﴾ يعني لا يهلكهم بظلم منه ﴿وأهلها مصلحون﴾ يعني: في أعمالهم ولكن يهلكهم بكفرهم وركوبهم السيئات، وقيل: في معنى الآية وما كان ربك ليهلك القرى بمجرد شركهم إذا كانوا مصلحين يعني يعامل بعضهم بعضاً بالصلاح والسداد والمراد من الهلاك عذاب الاستئصال في الدنيا أما عذاب الآخرة فهو لازم لهم ولهذا قال بعض الفقهاء إن حقوق الله مبناها على المسامحة والمساهلة وحقوق العباد مبناها على التضييق والتشديد قوله عز وجل: ﴿ولو شاء ربك لجعل الناس أمة

إشارة إلى القرآن، ﴿ ذكرى ﴾ عِظة ﴿ للذاكرين ﴾ أي لمَن ذكره.

﴿ واصْبِرْ ﴾ يا محمد على ما تلقى من الأذى. وقيل: على الصلاة، نظيره ﴿ وأمـرْ أهلك بالصّلاةِ واصْطَبِرْ عليها ﴾ [طه: ١٣٢]. ﴿ فإنّ الله لا يُضيعُ أجرَ المُحْسنين ﴾، في أعمالهم. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: يعني المصلّين.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ فلولا ﴾ فهلّا، ﴿ كانَ مِنَ القُرونِ ﴾، التي أهلكناهم، ﴿ مِنْ قبلِكم ﴾، الآية للتوبيخ ﴿ أُولُوا بقيّةٍ ﴾، أي: أُولوا تمييز. وقيل: أُولوا طاعة. وقيل: أُولوا خير. يقال: فلان ذو بقيّة إذا كان فيه خير. معناه: فهلّا كان من القرون من قبلكم مَن فيه خير ينهى عن الفساد في الأرض؟ وقيل: معناه أُولوا بقية من خير. يقال: فلان على بقية من الخير إذا كان على خصلة محمودة. ﴿ يَنْهَوْنَ عن الفسادِ في الأرض ﴾، أي يقومون بالنهي عن الفساد، ومعناه جحداً، أي: لم يكن فيهم أُولوا بقية. ﴿ إلّا قليلاً ﴾، هذا استثناء منقطع معناه: لكن قليلاً، ﴿ ممّن أنجينا منهم ﴾، وهم أتباع الأنبياء كانوا ينهون عن الفساد في الأرض. ﴿ واتّبَعَ الذينَ ظلَمُوا ما أُتْرِفُوا ﴾، نعِمُوا، ﴿ فيه ﴾، والمترَفُ: المُنعَّم. وقال مقاتل بن حيان: خُوّلوا. وقال الفرّاء: عُوّدُوا من النعيم واللذّات وإيثار الدنيا أي: واتبع الذين ظلموا ما عودوا من النعيم واللذات وإيثار الدنيا على الآخرة. ﴿ وكانوا مجرمين ﴾، كافرين.

واحدة﴾ يعني كلهم على دين واحد وشريعة واحدة ﴿ولا يزالون مختلفين﴾ يعني على أديان شتى ما بين يهودي ونصراني ومجوسي ومشرك ومسلم فكل أهل دين من هذه الأديان قد اختلفوا في دينهم أيضاً اختلافاً كثيراً لا ينضبط عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال «تفرق اليهود على إحدى وسبعين فرقة أو اثنتين وسبعين والنصارى مثل ذلك وستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة» أخرجه أبو داود والترمذي بنحوه عن معاوية قال «قام فينا رسول الله ﷺ فقال: ألا إن من قبلكم من أهل الكتاب افترقوا على اثنتين وسبعين فرقة وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين اثنتان وسبعون في النار وواحدة في الجنة وهي الجماعة» أخرجه أبو داود قال الخطابي: قوله ﷺ «وستفترق أمتي» فيه دلالة على أن هذه الفرق غير خارجة من الملة والدين إذ جعلهم من أمته وقال غيره المراد بهذه الفرق أهل البدع والأهواء الذين تفرقوا واختلفوا وظهروا بعده كالخوارج والقدرية والمعتزلة والرافضة وغيرهم من أهل البدع والأهواء والمراد بالواحدة هي فرقة السنة والجماعة الذين اتبعوا الرسول ﷺ في أقواله وأفعاله.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿إلا من رحم ربك﴾ يعني لكن من رحم ربك فمنّ عليه بالهداية والتوفيق إلى الحق، وهداه إلى الدين القويم والصراط المستقيم فهم لا يختلفون ﴿ولذلك خلقهم﴾ قال الحسن وعطاء وللاختلاف خلقهم.

قال أشهب: سألت مالك بن أنس عن هذه الآية فقال خلقهم ليكون فريق في الجنة وفريق في السعير، وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك: وللرحمة خلقهم يعني الذين يرحمهم.

وقال الفراء: خلق أهل الرحمة للرحمة وخلق أهل الاختلاف للاختلاف، وقيل: خلق الله عز وجل أهل الرحمة للرحمة لئلا يختلفوا وخلق أهل العذاب لأن يختلفوا وخلق الجنة وخلق لها أهلاً وخلق النار وخلق لها أهلاً فحاصل الآية أن الله خلق أهل الباطل وجعلهم مختلفين، وخلق أهل الحق وجعلهم متفقين فحكم على بعضهم بالاختلاف ومصيرهم إلى النار وحكم على بعضهم بالرحمة وهم أهل الاتفاق ومصيرهم إلى الجنة ويدل على صحة هذا القول سياق الآية وهو قوله تبارك وتعالى: ﴿وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين﴾ وهذا صريح بأن الله سبحانه وتعالى خلق أقواماً للجنة وللرحمة فهداهم ووفقهم لأعمال أهل الجنة وخلق أقواماً للضلالة والنار فخذلهم ومنعهم من الهداية.

﴿ وما كانَ ربُّك لِيُهلكَ القُرَى بظلم ﴾، أي: لا يهلكهم بشركهم، ﴿ وأهْلُها مُصْلحُون ﴾، فيما بينهم يتعاطون الأنصاف ولا يظلم بعضهم بعضاً وإنما يهلكهم إذا تظالموا. وقيل: لا يهلكهم بظلم منه وهم مصلحون في أعمالهم، ولكن يهلكهم بكفرهم وركوبهم السيئات.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ ولو شاءَ ربُّك لجعلَ النّاسَ ﴾، كلهم. ﴿ أمةً واحدة ﴾، على دين واحد. ﴿ ولا يزالُون مُختلفين ﴾ على أديان شتى من بين يهودي ونصراني ومجوسي ومشرك.

﴿ إلّا مَن رَّحِمَ ربُّك ﴾، معناه: لكن مَن رحم ربك فهداهم إلى الحق، فهم لا يختلفون. ﴿ ولذلك خلقَهم ﴾، قال الحسن وعطاء: وللاختلاف خلقهم. وقال أشهب: سألتُ مالكاً عن هذه الآية، فقال: خلقهم ليكون فريق في الجنة وفريق في السعير. وقال أبو عبيدة: الذي أختاره فقول مَن قال: خلق فريقاً لرحمته وفريقاً لعذابه. وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة والضحّاك: وللرحمة خلقهم، يعني الذين رحمهم. وقال الفرّاء: خلق أهل الرحمة للرحمة، وأهل الاختلاف للاختلاف. ومحصول الآية أن أهل الباطل مختلفون وأهل الحق متّفقون فخلق الله أهل الحق للاتفاق وأهل الباطل للاختلاف. ﴿ وتمتْ كلمةُ ربِّك ﴾، وتمّ حكم ربِّك، ﴿ لأملأنّ جهنَّمَ مِنَ الجنَّةِ والنّاسِ أجمعين ﴾.

وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾

قوله سبحانه وتعالى: ﴿**وكلاً نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك**﴾ لما ذكر الله سبحانه وتعالى في هذه السورة الكريمة قصص الأمم الماضية والقرون الحالية وما جرى لهم مع أنبيائهم خاطب نبيه ﷺ بقوله وكلاً نقص عليك يا محمد من أنباء الرسل يعني من أخبار الرسل وما جرى لهم مع قومهم ما نثبت به فؤادك يعني ما نقوي به قلبك لتصبر على أذى قومك وتتأسى بالرسل الذين خلوا من قبلك وذلك لأن النبي ﷺ إذا سمع هذه القصص وعلم أن حال جميع الأنبياء مع أتباعهم هكذا سهل عليه تحمل الأذى من قومه وأمكنه الصبر عليه ﴿**وجاءك**﴾ يا محمد ﴿**في هذه الحق**﴾ اختلفوا في هذا الضمير إلى ماذا يعود فقيل معناه وجاءك في هذه الدنيا الحق وفيه بعد لأنه لم يجر للدنيا ذكر حتى يعود الضمير إليها وقيل في هذه الآية وقيل في هذه السورة وهو الأقرب وهو قول الأكثرين فإن قلت جاءه الحق في سورة القرآن فلم خص هذه السورة بالذكر قلت لا يلزم من تخصيص هذه السورة بالذكر أن لا يكون قد جاءه الحق في غيرها من السور بل القرآن كله حق وصدق وإنما خصها بالذكر تشريفاً لها ﴿**وموعظة وذكرى للمؤمنين**﴾ أي وهذه السورة موعظة يتعظ بها المؤمنون إذا تذكروا أحوال الأمم الماضية وما نزل بهم ﴿**وقل للذين لا يؤمنون اعملوا على مكانتكم**﴾ فيه وعيد وتهديد يعني اعملوا ما أنتم عاملون فستعلمون عاقبة ذلك العمل فهو كقوله: إعملوا ما شئتم ﴿**إنا عاملون**﴾ يعني ما أمرنا به ربنا ﴿**وانتظروا**﴾ يعني ما يعدكم به الشيطان ﴿**إنا منتظرون**﴾ يعني ما يحل بكم من نقمة الله وعذابه إما في الدنيا وإما في الآخرة ﴿**ولله غيب السموات والأرض**﴾ يعني يعلم ما غاب عن العباد فيهما يعني أن علمه سبحانه وتعالى نافذ في جميع الأشياء خفيها وجليها وحاضرها ومعدومها لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء ﴿**إليه يرجع الأمر كله**﴾ يعني إلى الله يرجع أمر الخلق كلهم في الدنيا والآخرة ﴿**فاعبده**﴾ يعني أن من كان كذلك كان مستحقاً للعبادة لا غيره فاعبده ولا تشتغل بعبادة غيره ﴿**وتوكل عليه**﴾ يعني وثق به في جميع أمورك فإنه

﴿ **وكلاً نقصُّ عليك من أنباءِ الرسل ما نُثبِّتُ به فُؤَادَكَ** ﴾، معناه: وكل الذي تحتاج إليه من أنباء الرسل، أي: من أخبارهم وأخبار أُممهم نقصُّها عليك لنثبِّتَ به فؤادك، لنزيدك يقيناً ونقوّي قلبك، وذلك أنّ النبي ﷺ إذا سمعها كان في ذلك تقوية لقلبه على الصبر لأذى قومه. ﴿ **وجاءَكَ في هذهِ الحقُّ** ﴾، قال الحسن وقتادة: في هذه الدنيا. وقال غيرهما: في هذه السورة. وهذا قول الأكثرين، خصّ هذه السورة تشريفاً، وإن كان قد جاءه الحقُّ في جميع السور. ﴿ **ومَوْعِظَةٌ** ﴾، أي: وجاءتك موعظة، ﴿ **وذكرى للمؤمنين** ﴾.

﴿ **وقلْ للذين لا يُؤمنون اعْمَلُوا على مكانَتِكم** ﴾، أمرُ تهديدٍ ووعيد، ﴿ **إنّا عامِلُون** ﴾.

﴿ **وانتظِرُوا** ﴾، ما يحلّ بنا من رحمة الله، ﴿ **إنّا منتظِرُون** ﴾، ما يحلّ بكم من نقمة الله.

﴿ **وللّهِ غيبُ السـموات والأرض** ﴾ أي: ما غاب عن العباد فيهما، ﴿ **وإليه يرجع الأمرُ كله** ﴾، في المعاد. قرأ نافع وحفص ﴿ **يُرجَع** ﴾ بضمّ الياء وفتح الجيم: أي: يرد. وقرأ الآخرون بفتح الياء وكسر الجيم، أي: يعود الأمر كله إليه حتى لا يكون للخلق أمر. ﴿ **فاعْبُدْهُ وتوكّلْ عليه** ﴾، وثق به، ﴿ **وما رَبُّك بغافلٍ عمّا تعملون** ﴾، قرأ أهل المدينة والشام وحفص ويعقوب: «تعمـلون» بالتاء ههنا وفي آخر سورة النمل [٩٣]، وقرأ الآخرون بالياء فيهما. قال كعب: خاتمة التوراة خاتمة سورة هود. أخبرنا أبو محمد عبد الله بن عبد الصمد الجوزجاني أنبأنا أبو

يكفيك ﴿وما ربك بغافل عما تعملون﴾ قال أهل التفسير هذا خطاب للنبي ﷺ ولجميع الخلق مؤمنهم وكافرهم والمعنى أنه سبحانه وتعالى يحفظ على العباد أعمالهم لا يخفى عليه منها شيء فيجزي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته.

قال كعب الأحبار: خاتمة التوراة خاتمة سورة هود والله أعلم بمراده وأسرار كتابه.

القاسم علي بن أحمد الخزاعي أنبأنا أبو سعيد الهيثم بن كليب حدّثنا أبو عيسى الترمذي ثنا أبو كُريب محمد بن العلاء ثنا معاوية بن هشام عن شيبان عن أبي إسحق عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال أبو بكر رضي الله عنه: يا رسول الله قد شبت، فقال ﷺ: «شيّبني هودُ والواقعةُ والمرسلاتُ وعمَّ يتساءلونَ وإذا الشمسُ كُوِّرتْ». ويُروَى: «شيبتني هودُ وأخواتها من المفصل».

تفسير سورة يوسف عليه الصلاة السلام

وهي مكية بإجماعهم وهي مائة وإحدى عشرة آية وألف وستمائة كلمة وسبعة آلاف ومائة وستة وستون حرفاً.

قال ابن الجوزي رحمه الله تعالى: وفي سبب نزولها قولان: **أحدهما** روي عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: لما أنزل القرآن على رسول الله ﷺ تلاه عليهم زماناً فقالوا يا رسول الله لو حدثتنا فأنزل الله عز وجل ﴿الله نزل أحسن﴾ الحديث فقالوا يا رسول الله لو قصصت علينا فأنزل الله تعالى: ﴿**الر تلك آيات الكتاب المبين**﴾ إلى قوله تعالى: ﴿**نحن نقص عليك أحسن القصص**﴾.

القول الثاني: رواه الضحاك عن ابن عباس قال: سألت اليهود النبي ﷺ فقالوا حدثنا عن أمر يعقوب وولده وشأن يوسف فأنزل الله عز وجل ﴿الرّ تلك آيات الكتاب المبين﴾ الآيات الكريمة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٣﴾

قوله عز وجل: ﴿**الٓر**﴾ تقدم تفسيره في أول سورة يونس عليه الصلاة والسلام ﴿**تلك**﴾ إشارة إلى آيات هذه السورة أي تلك الآيات التي أنزلت إليك في هذه السورة المسماة بالر هذه ﴿**آيات الكتاب المبين**﴾ وهو القرآن أي البين حلاله وحرامه وحدوده وأحكامه وقال قتادة: مبين بينه الله ببركته وهداه ورشده فهذا من بان أي ظهر، وقال الزجاج: مبين الحق من الباطل والحلال من الحرام فهذا من أبان بمعنى أظهر وقيل إنه يبين فيه قصص الأولين وشرح أحوال المتقدمين ﴿**إنا أنزلناه**﴾ يعني هذا الكتاب ﴿**قرآناً عربياً**﴾ أي أنزلناه بلغتكم لكي تعلموا معانيه وتفهموا ما فيه وقيل لما قالت اليهود لمشركي مكة سلوا محمداً ﷺ عن أمر يعقوب وقصة يوسف وكانت عند اليهود بالعبرانية فأنزل الله هذه السورة وذكر فيها قصة يوسف بالعربية لتفهمها العرب ويعرفوا معانيها والتقدير إنا أنزلنا هذا الكتاب الذي فيه قصة يوسف في حال كونه عربياً فعلى هذا القول يجوز إطلاق اسم القرآن على بعضه لأنه اسم جنس يقع على الكل والبعض واختلف العلماء هل يمكن أن يقال في القرآن شيء بغير العربية، فقال أبو عبيدة: من زعم أن في القرآن لساناً غير

سُورَة يُوسُــــف

سورة يوسف عليه السلام مكية وهي مائة وإحدى عشرة آية.

﴿ **الٓر تِلْكَ آياتُ الكتابِ المُبينِ** ﴾، أي: البيّن حلاله وحرامه وحدوده وأحكامه. قال قتادة: مبين والله بركته وهداه ورشده، فهذا من بان أي: ظهر. وقال الزجّاج: مبيِّنٌ الحَقَّ من الباطل والحلال من الحرام، فهذا من أبان بمعنى أظهر.

العربية فقد قال بغير الحق وأعظم على الله القول واحتج بهذه الآية إنا أنزلناه قرآناً عربياً. وروي عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة: أن فيه من غير لسان العربية مثل سجيل والمشكاة واليم واستبرق ونحو ذلك وهذا هو الصحيح المختار لأن هؤلاء أعلم من أبي عبيدة بلسان العرب وكلا القولين صواب إن شاء الله تعالى ووجه الجمع بينهما أن هذه الألفاظ لما تكلمت بها العرب ودارت على ألسنتهم صارت عربية فصيحة وإن كانت غير عربية في الأصل لكنهم لما تكلموا بها نسبت إليهم وصارت لهم لغة، فظهر بهذا البيان صحة القولين وأمكن الجمع بينهما ﴿لعلكم تعقلون﴾ يعني تفهمون أيها العرب لأنه نازل بلغتكم قوله تعالى: ﴿نحن نقص عليك أحسن القصص﴾ الأصل في معنى القصص اتباع الخبر بعضه بعضاً والقاص هو الذي يأتي بالخبر على وجهه وأصله في اللغة من قص الأثر إذا تتبعه وإنما سميت الحكاية قصة لأن الذي يقص الحديث يذكر تلك القصة شيئاً فشيئاً والمعنى نحن نبين لك يا محمد أخبار الأمم السالفة والقرون الماضية أحسن البيان وقيل المراد منه قصة يوسف عليه الصلاة والسلام خاصة وإنما سماها أحسن القصص لما فيها من العبر والحكم والنكت والفوائد التي تصلح للدين والدنيا وما فيها من سير الملوك والمماليك والعلماء ومكر النساء والصبر على أذى الأعداء وحسن التجاوز عنهم بعد اللقاء وغير ذلك من الفوائد المذكورة في هذه السورة الشريفة. قال خالد بن معدان: سورة يوسف وسورة مريم يتفكه بهما أهل الجنة في الجنة. قال عطاء: لا يسمع سورة يوسف محزون إلا استراح إليها.

وقوله تعالى: ﴿بما أوحينا إليك﴾ يعنى بإيحائنا إليك يا محمد ﴿هذا القرآن وإن كنت﴾ أي وقد كنت ﴿من قبله﴾ يعني من قبل وحينا إليك ﴿لمن الغافلين﴾ يعني عن هذه القصة وما فيها من العجائب قال سعد بن أبي وقاص: أنزل القرآن على رسول الله ﷺ فتلاه عليهم زماناً فقالوا يا رسول الله لو حدثتنا فأنزل الله عز وجل: ﴿الله نزل أحسن الحديث﴾ فقالوا يا رسول الله لو قصصت علينا فأنزل الله تعالى: ﴿نحن نقص عليك أحسن القصص﴾ فقالوا يا رسول الله لو ذكرتنا فأنزل الله عز وجل: ﴿ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله﴾ قوله عز وجل:

﴿ إنَّا أنزلناه ﴾، يعني الكتاب، ﴿ قرآناً عربياً لعلّكم تعقِلُون ﴾، أي: أنزلناه بلغتكم لكي تعلموا معانيه وتفهموا ما فيه.

﴿ نحنُ نقصُّ عليك ﴾، أي: نقرأ، ﴿ أحسنَ القَصَصِ ﴾، والقاصّ هو الذي يتبع الآثار ويأتي بالخبر على وجهه، معناه: نبيّن لك أخبار الأمم السالفة والقرون الماضية أحسن البيان. وقيل: المراد منه قصة يوسف عليه السلام خاصة، سمّاها أحسن القصص لِمَا فيها من العِبَر والحِكَم والنكت والفوائد التي تصلح للدِّين والدنيا، من سِيَرِ الملوك والمماليك والعلماء ومكر النساء والصبر على أذى الأعداء. وحُسْن التجاوز عنهم بعد الالتقاء وغير ذلك من الفوائد: قال خالد بن معدان: سورة يوسف وسورة مريم عليهم السلام يتفكّه بهما أهل الجنّة في الجنّة. وقال ابن عطاء: لا يسمع سورة يوسف عليه السلام محزون إلّا استراح إليها. قوله عزّ وجلّ: ﴿ بما أوحينا إليك ﴾ (ما) المصدر، أي: بإيحائنا إليك، ﴿ هذا القرآن وإنْ كنتَ ﴾، وقد كنت، ﴿من قبله﴾، أي: من قبل وحينا، ﴿ لَمِنَ الغافلين ﴾، لمن الساهين عن هذه القصة لا تعلمها. قال سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: أنزل القرآن على رسول الله ﷺ فتلاه عليهم زماناً فقالوا: يا رسول الله لو حدّثتنا، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿ اللَّهُ نزّلَ أحسنَ الحديثِ ﴾ [الزّمر: ٢٣] فقالوا: يا رسول الله لو قصصتَ علينا، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿ نحنُ نقصُّ عليك أحسنَ القَصَص ﴾، فقالوا: يا رسول الله لو ذكرتنا، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿ أَلَمْ يأنِ لِلذينَ آمنُوا أن تخشعَ قلوبُهم لذكر الله ﴾ [الحديد: ١٦].

﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ ۝٤ قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًاۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝٥﴾

﴿إذ قال يوسف لأبيه﴾ أي اذكر يا محمد لقومك قول يوسف لأبيه يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم صلى الله عليه وعليهم أجمعين (خ) عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ «إن الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم ويوسف اسم عبري ولذلك لا يجري فيه الصرف وقيل هو عربي سئل أبو الحسن الأقطع عن يوسف فقال الأسف أشد الحزن والأسيف العبد واجتمعا في يوسف فسمي به ﴿يا أبت إني رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين﴾ معناه قال أهل التفسير: رأى يوسف في منامه كأن أحد عشر كوكباً نزلت من السماء ومعها الشمس والقمر فسجدوا له وكانت هذه الرؤيا ليلة الجمعة وكانت ليلة القدر وكان النجوم في التأويل إخوته وكانوا أحد عشر رجلاً يستضاء بهم كما يستضاء بالنجوم والشمس أبوه والقمر أمه في قول قتادة، وقال السدي: القمر خالته لأن أمه راحيل كانت قد ماتت. وقال قتادة وابن جريج: القمر أبوه والشمس أمه لأن الشمس مؤنثة والقمر مذكر وكان يوسف عليه السلام ابن اثنتي عشرة سنة، وقيل: سبع عشرة سنة وقيل سبع سنين وأراد بالسجود تواضعهم له ودخولهم تحت أمره وقيل أراد به حقيقة السجود لأنه كان في ذلك الزمان التحية فيما بينهم السجود.

فإن قلت: إن الكواكب جماد لا تعقل فكيف عبر عنها بكناية من يعقل في قوله رأيتهم ولم يقل رأيتها وقوله: ساجدين ولم يقل ساجدات.

قلت: لما أخبرنا عنها بفعل من يعقل وهو السجود كنى عنها بكناية من يعقل فهو كقوله ﴿يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم﴾ وقيل إن الفلاسفة والمنجمين يزعمون أن الكواكب أحياء نواطق حساسة فيجوز أن يعبر عنها بكناية من يعقل وهذا القول ليس بشيء والأول أصح فإن قلت قد قال ﴿إني رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر﴾ ثم أعاد لفظ الرؤيا ثانياً فقال ﴿رأيتهم لي ساجدين﴾ فما فائدة هذا التكرار.

قلت: معنى الرؤيا الأولى أنه رأى أجرام الكواكب والشمس والقمر ومعنى الرؤيا الثانية أنه أخبر بسجودها له وقال بعضهم.

معناه أنه لمّا قال: ﴿إني رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر﴾، فكأنه قيل له: وكيف رأيت؟ قال: ﴿رأيتهم

قوله عزّ وجلّ: ﴿ إِذْ قالَ يُوسفُ لأبيه ﴾، أي: اذكر إذْ قال يوسف لأبيه، ويوسف اسم عبري، ولذلك لا يجري عليه الصرف. وقيل: هو عربي، سُئِلَ أبو الحسن الأقطع عن يوسف، فقال: الأسف في اللغة الحزن، والأسيف العبد، واجتمع في يوسف عليه السلام فسُمّي به. أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنبأنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنبأنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل قال: قال عبد الله بن محمد ثنا عبد الصمد عن عبد الرحمن بن عبد الله بن دينار عن أبيه عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «إنَّ الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم». ﴿ يا أبتِ ﴾، قرأ أبو جعفر وابن عمر «يـا أبـتَ» بفتح التاء في جميع القرآن على تقدير: يا أبتاه، والوجه أن أصله يا أبتا بالألف وهي بدل عن ياء الإضافة، فحذفت الألف كما تحذف التاء فبقيت الفتحة تدلّ على الألف كما تبقى الكسرة تدلّ على الياء عند حذف الياء، وقرأ الآخرون «يـا أبـتِ» بكسر التاء في كل القرآن والوجه أن أصله: يا أبتي، فحذفت الياء تخفيفاً واكتفاءً بالكسرة لأن باب النداء حذف يدلّ على ذلك قوله: ﴿ يا عبادِ فاتّقون ﴾ [الزّمر: ١٦]، وقرأ الآخرون: «يـا أبت» بكسر التاء

لي ساجدين﴾ وإنما أفرد الشمس والقمر بالذكر وإن كانا من جملة الكواكب للدلالة على فضلهما وشرفهما على سائر الكواكب قال أهل التفسير: إن يعقوب عليه الصلاة والسلام كان شديد الحب ليوسف عليه الصلاة والسلام فحسده إخوته لهذا السبب وظهر ذلك ليعقوب، فلما رأى يوسف هذه الرؤيا وكان تأويلها أن إخوته وأبويه يخضعون له فلهذا ﴿قال﴾ يعقوب ﴿يا بني لا تقصص رؤياك على إخوتك﴾ يعني لا تخبرهم برؤياك فإنهم يعرفون تأويلها ﴿فيكيدوا لك كيداً﴾ أي: فيحتالوا في إهلاكك فأمره بكتمان رؤياه عن إخوته لأن رؤيا الأنبياء وحي وحق واللام في فيكيدوا لك كيداً تأكيداً للصلة كقولك: نصحتك ونصحت لك وشكرتك وشكرت لك ﴿إن الشيطان للإنسان عدو مبين﴾ يعني أنه بيّن العداوة، لأن عداوته قديمة فهم إن أقدموا على الكيد كان ذلك مضافاً إلى تزيين الشيطان ووسوسته (ق) عن أبي قتادة قال: كنت أرى الرؤيا تمرضني حتى سمعت رسول الله ﷺ يقول «الرؤيا الصالحة من الله والرؤيا السوء من الشيطان فإذا رأى أحدكم ما يحب فلا يحدث بها إلا من يحب وإذا رأى أحدكم ما يكره فليتفل عن يساره ثلاثاً وليتعوذ بالله من الشيطان الرجيم وشرها فإنها لن تضره» (خ). عن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه: إن رسول الله ﷺ قال: «إذا رأى أحدكم الرؤيا يحبها فإنها من الله فليحمد الله عليها وليحدِّث بها وإذا رأى غير ذلك مما يكره، فإنما هي من الشيطان فليستعذ بالله من الشيطان ومن شرِّها ولا يذكرها لأحد فإنها لن تضره» (م) عن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال «إذا رأى أحدكم الرؤيا يكرهها فليبصق عن يساره ثلاثاً وليستعذ بالله من الشيطان الرجيم ثلاثاً وليتحول عن جنبه الذي كان عليه» عن أبي رزين العقيلي قال: قال رسول الله ﷺ «رؤيا المؤمن جزء من أربعين وفي رواية جزء من ستة وأربعين جزء من النبوة وهي على رجل طائر ما لم يحدث بها فإذا حدث بها سقطت قال وأحسبه قال ولا يحدث بها إلا لبيباً أو حبيباً» أخرجه الترمذي، ولأبي داود نحوه قال الشيخ محيي الدين النووي قال المازري مذهب أهل السنة في حقيقة الرؤيا أن الله تعالى يخلق في قلب النائم اعتقادات كما يخلقها في قلب اليقظان وهو سبحانه وتعالى يفعل ما يشاء لا يمنعه نوم ولا يقظة فإذا خلق هذه الاعتقادات فكأنه جعلها علماً على أمور أخر يجعلها في ثاني الحال والجميع خلق الله تعالى ولكن يخلق الرؤيا والاعتقادات التي يجعلها علماً على ما سر بغير حضرة الشيطان فإذا خلق ما هو علم على ما يضر يكون بحضرة الشيطان فينسب إلى الشيطان مجازاً وإن كان لا فعل له في

لأن أصله: يا أبت والجزم يحرّك إلى الكسر. ﴿ إني رأيتُ أحدَ عشرَ كوكباً ﴾، أي نجماً من نجوم السماء ونصب الكواكب على التفسير، ﴿ والشمس والقمرَ رأيتُهم لي ساجدين ﴾ ولم يقل رأيتها إليَّ ساجدات، والهاء والميم والياء والنون من كنايات مَن يعقل، لأنه لمّا أخبر عنها بفعل مَن عبّر عنها بكناية مَن يعقل كقوله تعالى: ﴿ يا أيها النمل ادْخُلوا مساكِنَكم ﴾ [النمل: ١٨] وكان النجوم في التأويل أخواته، كانوا أحد عشر رجلًا يستضاء بهم كما يستضاء بالنجوم والشمس أبوه والقمر أمه. قال قتادة وقال السدي: القمر خالته لأن أمه راحيل كانت قد ماتت. وقال ابن جريج القمر أبوه والشمس أمه لأن الشمس مؤنثة والقمر مذكّر، وكان يوسف عليه السلام ابن اثنتي عشرة سنة حين رأى هذه الرؤيا. وقيل: رآها ليلة الجمعة ليلة القدر فلما قصّها على أبيه.

﴿ قال يا بُنيَّ لا تَقْصُصْ رُؤياكَ على إخوَتِك ﴾، وذلك أن رؤيا الأنبياء عليهم السلام وحي فعلم يعقوب أن أخوته إذا سمعوها حسدوه فأمرها بالكتمان، ﴿ فيكيدوا لك كيداً ﴾، فيحتالوا في إهلاكك لأنهم لا يعلمون تأويلها فيحسدونك واللام في قوله ﴿ لك ﴾ صلة، كقوله تعالى: ﴿ لربهم يرهبون ﴾ [الأعراف: ١٥٤] وقيل: هو مثل قولهم نصحتك ونصحت لك وشكرتك وشكرت لك. ﴿ إنَّ الشيطان للإنسان عدوٌّ مبين ﴾، أي: زين لهم الشيطان ويحملهم على الكيد لعداوته القديمة. أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنبأنا عبد الرحمن بن أبي شريح أنبأنا أبو القاسم البغوي ثنا علي بن الجعد أنبأنا شعبة عن عبد ربه بن سعيد قال: سمعت أبا سلمة قال: كنتُ أرى الرؤيا

الحقيقة فهذا معنى قول النبي ﷺ «الرؤيا من الله والحلم من الشيطان»، لا على أن الشيطان يفعل شيئاً والرؤيا اسم للمحبوب والحلم اسم للمكروه، وقال غيره: إضافة الرؤيا المحبوبة إلى الله تعالى إضافة تشريف بخلاف الرؤيا المكروهة وإن كانتا جميعاً من خلق الله وتدبيره وإرادته ولا فعل للشيطان فيها ولكنه يحضر المكروهة ويرتضيها فيستحب إذا رأى الرجل في منامه ما يحب أن يحدث به من يحب وإذا رأى ما يكره فلا يحدث به وليتعوذ بالله من الشيطان الرجيم ومن شرها وليتفل ثلاثاً وليتحول إلى جنبه الآخر فإنها لا تضره فإن الله تعالى جعل هذه الأسباب سبباً لسلامته من المكروه كما جعل الصدقة سبباً لوقاية المال وغيره من البلاء والله أعلم.

﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾ ۞ لَّقَدْ كَانَ فِى يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ﴿٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿**وكذلك يجتبيك ربك**﴾ يعني يقول يعقوب ليوسف عليه الصلاة والسلام أي وكما رفع منزلتك بهذه الرؤيا الشريفة العظيمة كذلك يجتبيك ربك يعني يصطفيك ربك واجتباء الله تعالى العبد تخصيصه إياه بفيض إلٓهي تحصل له منه أنواع الكرامات بلا سعي من العبد وذلك مختص بالأنبياء أو ببعض من يقاربهم من الصديقين والشهداء والصالحين ﴿**ويعلمك من تأويل الأحاديث**﴾ يعني به تعبير الرؤيا سمي تأويلاً لأنه يؤول أمره إلى ما رأى في منامه، يعني يعلمك تأويل أحاديث الناس فيما يرونه في منامهم وكان يوسف عليه السلام أعلم الناس بتعبير الرؤيا. وقال الزجاج: تأويل أحاديث الأنبياء والأمم السالفة والكتب المنزلة.

وقال ابن زيد: يعلمك العلم والحكمة ﴿**ويتم نعمته عليك**﴾ يعني بالنبوة، قاله ابن عباس لأن منصب النبوة أعلى من جميع المناصب وكل الخلق دون درجة الأنبياء فهذا من إتمام النعمة عليهم، لأن جميع الخلق دونهم في الرتب والمناصب ﴿**وعلى آل يعقوب**﴾ المراد بآل يعقوب أولاده فإنهم كانوا أنبياء وهو المراد من إتمام النعمة عليهم ﴿**كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحاق**﴾ بأن جعلهما نبيين وهو المراد من إتمام النعمة عليهما وقيل: المراد

فتهمّني حتى سمعتُ أبا قتادة يقول: كنت أرى الرؤيا فتمرضني، حتى سمعت رسول الله ﷺ، يقول: «**الرؤيا الصالحة من الله تعالى**، والحلم من الشيطان، فإذا رأى أحدكم ما يحب فلا يحدّث به إلاّ مَن يحبّ، وإذا رأى ما يكره فليتعوّذ بالله من شرّها، ومن شرّ الشيطان وليتفل ثلاثاً ولا يحدّث بها أحداً فإنها لنْ تضرّ». وأخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنبأنا عبد الرحمن بن أبي شريح أنبأنا أبو القاسم البغوي ثنا علي بن الجعد أنبأنا شعبة عن يعلى بن عطاء عن وكيع بن عدس عن أبي رزين العقيلي قال: قال رسول الله ﷺ: «**الرؤيا الصالحة** جزء من أربعين أو ستّة وأربعين جزءاً من النبوّة وهي على الرجل طائر ما لم يحدّث بها فإذا حدّث بها وقعت»، وأحسبه قال: «لا تحدّث بها إلاّ حبيباً أو لبيباً».

قوله عزّ وجلّ: ﴿ **وكذلكَ يجتبيك ربُّك** ﴾، يصطفيك بقول يعقوب ليوسف عليه السلام، أي: كما رفع منزلتك بهذه الرؤيا، فكذلك يصفيك ربُّك، ﴿ **ويعلّمُك من تأويلِ الأحاديث** ﴾، يريد تعبير الرؤيا سُمّي تأويلاً لأنه يـؤول أمره إلى ما رأى في منامه والتأويل ما يـؤول إليه عاقبة الأمر، ﴿ **ويتمّ نعمتَه عليك** ﴾، يعني: بالنبوّة، ﴿ **وعلى آلِ يعقوب** ﴾، أي: على أولاده فإنّ أولاده كلهم كانوا أنبياء، ﴿ **كما أتمّها على أبويك من قبلُ إبراهيم وإسحق** ﴾، فجعلهما نبيّين، ﴿ **إنّ ربَّك عليمٌ حكيم** ﴾، وقيل: المراد من إتمام النعمة على إبراهيم الخلّة. وقيل: إنجاؤه من الذبح. وقيل: بإخراج يعقوب والأسباط من صلبه. قال ابن عباس رضي الله عنهما: كان بين رؤيا

من إتمام النعمة على إبراهيم ﷺ بأن خلصه الله من النار واتخذه خليلاً والمراد من إتمام النعمة على إسحاق بأن خلصه الله من الذبح وهذا على قول من يقول إن إسحاق هو الذبيح وليس بشيء والقول الأول هو الأصح بأن إتمام النعمة عليهما بالنبوة لأنه لا أعظم من منصب النبوة فهو من أعظم النعم على العبد ﴿إن ربك عليم﴾ يعني بمصالح خلقه ﴿حكيم﴾ يعني أنه تعالى لا يفعل شيئاً إلا بحكمة، وقيل: إنه تعالى حكم بوضع النبوة في بيت إبراهيم ﷺ قال ابن عباس رضي الله عنهما كان بين رؤيا يوسف هذه وبين تحقيقها بمصر واجتماعه بأبويه وإخوته أربعون سنة وهذا قول أكثر المفسرين، وقال الحسن البصري: كان بينهما ثمانون سنة فلما بلغت هذه الرؤيا إخوة يوسف حسدوه وقالوا ما رضي أن يسجد له إخوته حتى يسجد له أبواه.

قوله عز وجل: ﴿لقد كان في يوسف وإخوته﴾ يعني في خبره وخبر إخوته وأسماؤهم روبيل وهو أكبرهم وشمعون ولاوى ويهوذا وزبولول ويشجر وأمهم ليا بنت ليان وهي ابنة خال يعقوب وولد يعقوب من سريتين إسم إحداهما زلفة والأخرى بلهة أربعة أولاد وأسماؤهم دان ونفتالي وجاد وآشر، ثم توفيت ليا فتزوج يعقوب أختها راحيل، فولدت له يوسف وبنيامين فهؤلاء بنو ليعقوب وهم الأسباط، وعددهم اثنا عشر نفراً ﴿آيات للسائلين﴾ وذلك أن اليهود لما سألوا رسول الله ﷺ عن قصة يوسف وقيل سألوه عن سبب انتقال ولد يعقوب من أرض كنعان إلى أرض مصر ذكر قصة يوسف مع إخوته فوجدوها موافقة لما في التوراة فعجبوا منه فعلى هذا تكون هذه القصة دالة على نبوة رسول الله ﷺ لأنه لم يقرأ الكتب المتقدمة ولم يجالس العلماء والأحبار، ولم يأخذ عن أحد منهم شيئاً فدل ذلك على أن ما أتي به وحي سماوي وعلم قدسي أوحاه الله إليه وشرفه به، ومعنى آيات للسائلين أي عبرة للمعتبرين فإن هذه القصة تشتمل على أنواع من العبر والمواعظ والحكم ومنها رؤيا يوسف وما حقق الله فيها ومنها حسد إخوته له وما آل إليه أمرهم من الحسد ومنها صبر يوسف على إخوته وبلواه مثل إلقائه في الجب وبيعه عبداً وسجنه بعد ذلك وما آل

يوسف هذه وبين تحقيقها بمصير أبويه وإخوته إليه أربعون سنة، وهو قول أكثر أهل التفسير. وقال الحسن البصري: كان بينهما ثمانون سنة. فلما بلغت هذه الرؤيا إخوة يوسف حسدوه وقالوا: ما رضي أن تسجد له إخوته حتى يسجد له أبواه فبغوه وحسدوه.

يقول الله تعالى: ﴿ لقدْ كانَ في يوسفَ وإخوتهِ ﴾، أي: في خبره وخبر إخوته. وأسماؤهم روبيل وقيل روبين بالنون وهو أكبرهم شمعون ولاوى ويهوذا وزبالون وقيل زبلون وآشر وأُمهم ليا بنت لابان وهي ابنة خال يعقوب عليه السلام، وولد له من سريّتين له اسم إحداهما زلفة والأخرى يلهمة أربعة أولاد، دان ونفتالي، وقيل: نفتولي وجادو أشير، ثم توفيت ليا فتزوج يعقوب عليه السلام أُختها راحيل فولدت له يوسف وبنيامين. وقيل: وابن يامين، فكان بنو يعقوب عليه السلام اثني عشر رجلاً. ﴿ آيات ﴾، قرأ ابن كثير « آية » على التوحيد أي عظة وعبرة. وقيل: عجب، وقرأ الآخرون: «آيـات» على الجمع. ﴿ للسائلين ﴾، وذلك أن اليهود سألوا رسول الله ﷺ عن قصة يوسف عليه السلام. وقيل: سألوه عن سبب انتقال ولد يعقوب من كنعان إلى مصر. فذكر لهم قصة يوسف جميعهـا، فوجـدوها مـوافقة لمـا في التوراة فتعجبـوا منها. فهـذا معنى قولـه: ﴿ آياتٌ للسـائلين ﴾. أي: دلالة نبوّة رسول الله ﷺ. وقيل: آيات للسائلين ولمَن لم يسأل، كقوله: ﴿ سواء للسائلين ﴾ [فصّلت: ١٠]، وقيل: معناه عبرة للمعتبرين، فإنها تشتمل على حسد إخوة يوسف وما آل إليه أمرهم في الحسد وتشتمل على رؤياه، وما حقّق الله منها، وتشتمل على صبر يوسف عليه السلام عن قضاء الشهوة وعلى الرقّ وعلى اللّبث في السجن، وما آل إليه أمره من الملك، وتشتمل على حزن يعقوب وصبره على فراق يوسف وما آل إليه أمره من الوصول إلى المراد وغير ذلك من الآيات.

إليه أمره من الملك ومنها ما تشتمل عليه من حزن يعقوب وصبره على فقد ولده وما آل إليه أمره من بلوغ المراد وغير ذلك من الآيات التي إذا فكر فيها الإنسان اعتبر واتعظ.

﴿إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ﴿٩﴾﴾

﴿**إذ قالوا**﴾ يعني إخوة يوسف ﴿**ليوسف**﴾ اللام فيه لام القسم تقديره والله ليوسف ﴿**وأخوه**﴾ يعني بنيامين وهما من أم واحدة ﴿**أحب إلى أبينا منا ونحن عصبة**﴾ إنما قالوا هذه المقالة حسداً منهم ليوسف وأخيه لما رأوا من ميل يعقوب إليه وكثرة شفقته عليه والعصبة الجماعة وكانوا عشرة، قال الفراء: العصبة هي العشرة فما زاد وقيل هي ما بين الواحد إلى العشرة وقيل ما بين الثلاثة إلى العشرة، وقال مجاهد: هي ما بين العشرة إلى خمسة عشر وقيل إلى الأربعين وقيل الأصل فيه أن كل جماعة يتعصب بعضهم ببعض يسمون عصبة والعصبة لا واحد لها من لفظها كالرهط والنفر ﴿**إن أبانا لفي ضلال مبين**﴾ يعني لفي خطأ بين في إيثاره حب يوسف علينا مع صغره لا نفع فيه ونحن عصبة ننفعه ونقوم بمصالحه من أمر دنياه وإصلاح أمر مواشيه وليس المراد من ذكر هذا الضلال الضلال عن الدين إذ لو أرادوا ذلك لكفروا به ولكن أرادوا به الخطأ في أمر الدنيا وما يصلحها يقول نحن أنفع له من يوسف فهو مخطىء في صرف محبته إليه لأنا أكبر منه سناً وأشد قوة وأكثر منفعة وغاب عنهم المقصود الأعظم وهو أن يعقوب عليه الصلاة والسلام ما فضل يوسف وأخاه على سائر الإخوة إلا في المحبة المحضة ومحبة القلب ليس في وسع البشر دفعها ويحتمل أن يعقوب إنما خص يوسف بمزيد المحبة والشفقة لأن أمه ماتت وهو صغير ولأنه رأى فيه من آيات الرشد والنجابة ما لم يره في سائر إخوته فإن قلت الذي فعله إخوة يوسف بيوسف هو محض الحسد والحسد من أمهات الكبائر وكذلك نسبة أبيهم إلى الضلال هو محض العقوق وهو من الكبائر أيضاً وكل ذلك قادح في عصمة الأنبياء فما الجواب عنه.

قلت: هذه الأفعال إنما صدرت من إخوة يوسف قبل ثبوت النبوة لهم والمعتبر في عصمة الأنبياء هو وقت حصول النبوة لا قبلها، وقيل: كانوا وقت هذه الأفعال مراهقين غير بالغين ولا تكليف عليهم قبل البلوغ فعلى هذا لم تكن هذه الأفعال قادحة في عصمة الأنبياء.

قوله تعالى حكاية عن إخوة يوسف ﴿**اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً يخل لكم وجه أبيكم**﴾ لما قوي الحسد وبلغ النهاية قال إخوة يوسف فيما بينهم لا بد من تبعيد يوسف عن أبيه وذلك لا يحصل إلا بأحد طريقين إما القتل مرة

﴿ **إذْ قالوا لَيُوسُفُ** ﴾، اللام فيه جواب القسم تقديره: والله ليوسف، ﴿ **وأخوه** ﴾، بنيامين، ﴿ **أحبُّ إلى أبينا منّا** ﴾، كان يوسف وأخوه بنيامين من أم واحدة، وكان يعقوب عليه السلام شديد الحب ليوسف عليه السلام، وكان إخوته يرون منه من الميل إليه ما لا يرونه مع أنفسهم فقالوا هذه المقالة، ﴿ **ونحنُ عُصْبةٌ** ﴾، أي: جماعة وكانوا عشرة. قال الفرّاء: العصبة هي العشرة فما زاد. وقيل: العصبة ما بين الواحد إلى العشرة. وقيل: ما بين الثلاثة إلى العشرة. وقال مجاهد: ما بين العشرة إلى خمسة عشر. وقيل: ما بين العشرة إلى الأربعين. وقيل: جماعة يتعصّب بعضها لبعض لا واحد لها من لفظها كالنفر والرهط. ﴿ **إنّ أبانَا لَفِي ضلالٍ مبين** ﴾، أي خطأ بيّن أمر إيثاره يوسف وأخاه علينا، وليس المراد من هذا الضلال الضلال عن الدين ولو أرادوه لكفروا به، بل المراد منه الخطأ في تدبير أمر الدنيا يقولون نحن أنفع في أمر الدنيا وإصلاح أمر معاشه ورعي مواشيه من يوسف، فنحن أولى بالمحبة منه فهو مخطىء في صرف محبته إليه.

واحدة أو التغريب إلى أرض يحصل اليأس من اجتماعه بأبيه بأن تفترسه الأسد والسباع أو يموت في تلك الأرض البعيدة ثم ذكروا العلة في ذلك وهي قوله يخل لكم وجه أبيكم والمعنى أنه قد شغله حب يوسف عنكم فإذا فعلتم ذلك بيوسف أقبل يعقوب بوجهه عليكم وصرف محبته إليكم ﴿وتكونوا من بعده﴾ يعني من بعد قتل يوسف أو إبعاده عن أبيه ﴿قوماً صالحين﴾ يعني: تائبين فتوبوا إلى الله يعف عنكم فتكونوا قوماً صالحين وذلك أنهم لما علموا أن الذي عزموا عليه من الذنوب والكبائر قالوا نتوب إلى الله من هذا الفعل ونكون من الصالحين في المستقبل، وقال مقاتل: معناه يصلح لكم أمركم فيما بينكم وبين أبيكم فإن قلت كيف يليق أن تصدر هذه الأفعال منهم وهم أنبياء.

قلت: الجواب ما تقدم أنهم لم يكونوا أنبياء في ذلك الوقت حتى تكون هذه الأفعال قادحة في عصمة الأنبياء وإنما أقدموا على هذه الأفعال قبل النبوة وقيل إن الذي أشار بقتل يوسف كان أجنبياً شاوروه في ذلك فأشار عليهم بقتله.

قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿١٠﴾ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ﴿١١﴾

﴿قال قائل منهم لا تقتلوا يوسف﴾ يعني قال قائل من إخوة يوسف وهو يهوذا، وقال قتادة: هو روبيل وهو ابن خالته وكان أكبرهم سناً وأحسنهم رأياً فيه فنهاهم عن قتله، وقال: القتل كبيرة عظيمة والأصح أن قائل هذه المقالة هو يهوذا لأنه كان أقربهم إليه سناً ﴿وألقوه في غيابت الجب﴾ يعني ألقوه في أسفل الجب وظلمته والغيابة كل موضع ستر شيئاً وغيبه عن النظر والجب البئر الكبيرة غير مطوية سمي بذلك لأنه جب أي قطع ولم يطو وأفاد ذكر القيامة مع ذكر الجب أن المشير أشار بطرحه في موضع من الجب مظلم لا يراه أحد واختلفوا في مكان ذلك الجب، فقال قتادة: هو بئر ببيت المقدس، وقال وهب: هو في أرض الأردن وقال مقاتل هو في أرض الأردن على ثلاثة فراسخ من منزل يعقوب وإنما عينوا ذلك الجب للعلة التي ذكروها وهي قولهم ﴿يلتقطه بعض السيارة﴾ وذلك أن هذا الجب كان معروفاً يرد عليه كثير من المسافرين، والالتقاط أخذ الشيء من الطريق أو من حيث لا يحتسب، ومنه اللقطة بعض

﴿ اقتلوا يوسف ﴾، اختلفوا في قائل هذا القول، فقال وهب: قاله شمعون. وقال كعب: قاله دان. وقال مقاتل: روبيل ﴿ مبينٌ اقتلوا ﴾ بضم التنوين، قرأها ابن كثير ونافع والكسائي، وقرأ الباقون «مبيـن اقتـلوا» بكسر التنوين. ﴿ أو اطْرَحُوه أرضاً ﴾، أي: إلى أرض تبعد عن أبيه. وقيل: في أرض تأكله السِّباع، ﴿ يخلُ لكم ﴾، يخلص لكم ويصف لكم. ﴿ وجهُ أبيكم ﴾، عن شغله بيوسف، ﴿ وتكونُوا من بعده ﴾، من بعد قتل يوسف، ﴿ قوماً صالحين ﴾، تائبين أي: توبوا بعد ما فعلتم هذا يعفُ الله عنكم. وقال مقاتل: صالحين يصلح أمركم فيما بينكم وبين أبيكم.

﴿ قالَ قائلٌ منهم لا تقتُلُوا يُوسفَ ﴾ وهو يهوذا، وقال قتادة: روبيل، وكان ابن خالة يوسف، وكان أكبرهم سنّاً وأحسنهم رأياً فيه. والأول أصحّ أنه يهوذا، نهاهم عن قتله وقال: القتل كبيرة عظيمة. ﴿ وألْقُوه في غيابتِ الجُبِّ ﴾، قرأ أبو علي جعفر ونافع غيابات الجب، الجمع في الحرفين، وقرأ الباقون غيابت الجبّ على الواحد، أي: في أسفل الجب وظلمته والغيابة كل موضع ستر عنك الشيء وغيّبه والجبّ البئر غير المطويّة لأنه جب، أي: قطع ولم يطوَ ﴿ يلتقطْه ﴾، يأخذه، والالتقاط أخذ الشيء من حيث لا يحتسبه الإنسان، ﴿ بعضُ السّيّارةِ ﴾، أي بعض المسافرين فيذهب به إلى ناحية أخرى فتستريحوا منه، ﴿ إنْ كنتُم فاعلين ﴾، أي: إن عزمتم على فعلكم وهم كانوا يومئذ بالغين ولم يكونوا أنبياء بعد. وقيل: لم يكونوا بالغين وليس بصحيح بدليل أنهم قالوا: ﴿ وتكونوا

السيارة يعني يأخذه بعض المسافرين فيذهب به إلى ناحية أخرى فتستريحون منه ﴿إن كنتم فاعلين﴾ فيه إشارة إلى ترك الفعل فكأنه قال لا تفعلوا شيئاً من ذلك وإن عزمتم على هذ الفعل فافعلوا هذا القدر إن كنتم فاعلين ذلك.

قال البغوي: كانوا يومئذ بالغين ولم يكونوا أنبياء إلا بعده وقيل لم يكونوا بالغين وليس بصحيح بدليل أنهم قالوا وتكونوا من بعده قوماً صالحين وقالوا يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين والصغير لا ذنب له. قال محمد بن إسحاق: اشتمل فعلهم هذا على جرائم كثيرة من قطيعة الرحم وعقوق الوالدين وقلة الرأفة بالصغير الذي لا ذنب له والغدر بالأمانة وترك العهد والكذب مع أبيهم وعفا الله عن ذلك كله حتى لا ييأس أحد من رحمة الله تعالى وقال بعض أهل العلم عزموا على قتله وعصمهم الله رحمة بهم ولو فعلوا ذلك لهلكوا جميعاً وكل ذلك كان قبل أن نبأهم الله فلما أجمعوا على التفريق بين يوسف وبين والده بضرب من الحيل ﴿قالوا﴾ يعني: قال إخوة يوسف ليعقوب ﴿يا أبانا مالك لا تأمنا على يوسف﴾ بدؤوا بالإنكار عليه في ترك إرسال يوسف معهم كأنهم قالوا: أتخافنا عليه إذا أرسلته معنا ﴿وإنا له لناصحون﴾ المراد بالنصح هنا القيام بالمصلحة، وقيل: البر والعطف والمعنى وإنا لعاطفون عليه قائمون بمصلحته وبحفظه، وقال مقاتل: في الكلام تقديم وتأخير وذلك أنهم قالوا لأبيهم أرسله معنا فقال يعقوب إني ليحزنني أن تذهبوا به فحينئذ قالوا: مالك لا تأمنا على يوسف وإنا له لناصحون ثم قالوا.

أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا۟ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿١٤﴾ فَلَمَّا ذَهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾

﴿أرسله معنا غداً﴾ يعني إلى الصحراء ﴿يرتع﴾ الرتع هو الاتساع في الملاذ يقال رتع فلان في ماله إذا أنفقه في

من بعده قوماً صالحين ﴾، ﴿ وقالوا يا أبانا استغفرْ لنا ذنوبنا ﴾ [يوسف: ٩٧] والصغير لا ذنب له. وقال محمد بن إسحق: اشتمل فعلهم على جرائم من قطعية الرحم وعقوق الوالدين وقلّة الرأفة بالصغير الذي لا ذنب له، والغدر بالأمانة وترك العهد والكذب مع أبيهم، وعفا الله عنهم ذلك كله حتى لا ييأس أحدٌ من رحمة الله. وقال بعض أهل العلم: إنهم عزموا على قتله وعصمهم الله رحمة لهم، ولو فعلوا لهلكوا أجمعون، وكلّ ذلك كان قبل أن أنبأهم الله تعالى. وسُئِلَ أبو عمرو بن العلاء: كيف قالوا ﴿ نلعب ﴾ وهم أنبياء؟ قال: كان ذلك قبل أن نبّأهم الله تعالى، فلما أجمعوا على التفريق بينه وبين والده بضروب من الحيل.

﴿ قالوا ﴾، ليعقوب، ﴿ يا أبانا مَا لكَ لَا تأمنّا على يوسف ﴾، قرأ أبو جعفر: «تأمنّـا» بلا شمّة، وهو رواية عن نافع، وقرأ الباقون: «تأمنّـا» بإشمام الضمة في النون الأولى المدغمة، وهو إشارة إلى الضمة من غير إمحاض ليعلم أن أصله لا تأمننا بنونين على تفعلنا، فأُدغمتِ النون الأولى في الثانية، بدؤوا بالإنكار عليه في ترك إرساله معهم كأنهم قالوا: إنك لا ترسله معنا أتخافنا علينا؟ ﴿ وإنّا له لنَاصِحُون ﴾، قال مقاتل: في الكلام تقديم وتأخير وذلك أنهم قالوا لأبيهم: ﴿ أرْسِلْه معنا ﴾ فقال أبوهم: إني ليحـزنني أن تذهبوا به، فحينئذ قالوا: ﴿ يا أبانا ما لك لا تأمنّا على يوسف وإنّا له لناصحون ﴾، النصح ههنا هو القيام بالمصلحة. وقيل: البرّ والعطف، إنّا عاطفون عليه قائمون بمصلحته نحفظه حتى نردّه إليك.

﴿ أرْسِلْهُ معنَا غداً ﴾، إلى الصحراء، ﴿ يرتعْ ويلعبْ ﴾، قرأ أبو عمرو وابن عامر بالنون فيهما وجزم العين

شهواته والأصل في الرتع أكل البهائم في الخصب زمن الربيع ويستعار للإنسان إذا أريد به الأكل الكثير ﴿ويلعب﴾ اللعب معروف وقال الراغب: يقال لعب فلان إذا كان فعله غير قاصد به مقصداً صحيحاً سئل أبو عمرو بن العلاء كيف قالوا نلعب وهم الأنبياء فقال كم يكونوا يومئذ أنبياء ويحتمل أن يكون المراد باللعب هنا الإقدام على المباحات لأجل إنشراح الصدر ومنه قوله ﷺ لجابر رضي الله عنه «هلا بكراً تلاعبها وتلاعبك» وأيضاً فإن لعبهم كان الاستباق وهو غرض صحيح مباح لما فيه من المحاربة والإقدام على الأقران والحرب بدليل قوله نستبق وإنما سموه لعباً لأنه في صورة اللعب وقيل في معنى نرتع ونلعب نتنعم ونأكل ونلهو وننشط ﴿وإنا له لحافظون﴾ يعني نجتهد في حفظه غاية الاجتهاد حتى نرده إليك سالماً ﴿قال﴾ يعني قال لهم يعقوب عليه الصلاة والسلام ﴿إني ليحزنني أن تذهبوا به﴾ أي: ذهابكم به والحزن هنا ألم القلب بفراق المحبوب ومعنى الآية أنه لما طلبوا منه أن يرسل معهم يوسف عليه الصلاة والسلام اعتذر يعقوب عليه الصلاة والسلام بعذرين أحدهما أن ذهابهم به ومفارقته إياه يحزنه لأنه كان لا يقدر أن يصبر عنه ساعة والثاني قوله ﴿وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون﴾ يعني إذا غفلوا عنه برعيهم ولعبهم وذلك أن يعقوب عليه الصلاة والسلام كان رأى في المنام أن ذئباً شد على يوسف عليه الصلاة والسلام فكان يعقوب يخاف عليه من ذلك وقيل كانت الذئاب في أرضهم كثيرة ﴿قالوا﴾ يعني قال إخوة يوسف مجيبين ليعقوب ﴿لئن أكله الذئب ونحن عصبة﴾ أي جماعة عشرة رجال ﴿إنا إذاً لخاسرون﴾ يعني عجزة ضعفاء وقيل إنهم خافوا أن يدعو عليهم يعقوب بالخسار والبوار وقيل معناه إنا إذا لم نقدر على حفظ أخينا فكيف نقدر على حفظ مواشينا فنحن إذاً خاسرون.

قوله عز وجل ﴿فلما ذهبوا به﴾ فيه إضمار واختصار تقديره فأرسله معهم فلما ذهبوا به ﴿وأجمعوا أن يجعلوه في غيابة الجب﴾ يعني وعزموا على أن يلقوه في غيابة الجب.

ذكر قصة ذهابهم بيوسف عليه الصلاة والسلام

قال وهب، وغيره من أهل السير والأخبار: إن إخوة يوسف قالوا له أما تشتاق أن تخرج معنا إلى مواشينا فنصيد ونستبق قال بلى قالوا له أنسأل أباك أن يرسلك معنا، قال يوسف: افعلوا فدخلوا بجماعتهم على يعقوب، فقالوا: يا أبانا إن يوسف قد أحب أن يخرج معنا إلى مواشينا فقال يعقوب: ما تقول يا بني؟ قال: نعم يا أبت إني أرى من إخوتي اللين واللطف فأحب أن تأذن لي، وكان يعقوب يكره مفارقته ويحب مرضاته فأذن له وأرسله معهم فلما خرجوا به من عند يعقوب جعلوا يحملونه على رقابهم ويعقوب ينظر إليهم فلما بعدوا عنه وصاروا إلى الصحراء وألقوه على الأرض

في «نرتع»، وقرأ يعقوب: «نرتع» بالنون، «ويلعب» بالياء، وقرأ أهل الكوفة بالياء فيهما وجزم العين في «يرتع» يعني يوسف، وقرأ الآخرون «نرتع» بالنون «ويلعب» بالياء. والرتع هو الاتّساع في الملاذ. يقال: رتع فلان في ماله إذا أنفقه في شهواته، يريد ونتنعم ونأكل ونشرب ونلهو وننشط. وقرأ أهل الحجاز: «يرتع» بكسر العين وهو يفتعل من الرعي، ثم ابن كثير قرأ بالنون فيهما أي: نتحارس ويحفظ بعضُنا بعضاً. وقرأ أبو جعفر ونافع بالياء إخباراً عن يوسف، أي: يرعى الماشية كما نرعى نحن. ﴿وإنّا له لحافظُون﴾.

﴿قال﴾ لهم يعقوب، ﴿إني ليحزنني أن تذهبوا به﴾، أي: يحزنني ذهابكم به، والحزن ههنا: ألم القلب بفراق المحبوب، ﴿وأخافُ أنْ يأكله الذئبُ وأنتُم عنه غافِلُون﴾، وذلك أن يعقوب كان رأى في المنام أن ذئباً شدّ على يوسف، فكان يخاف من ذلك، فمن ثَمّ قال: أخاف أن يأكله الذئب. قرأ ابن كثير وإسماعيل وقَالُونُ عن نافع وعاصم وابن عامر: «الذئب» بالهمزة، وكذلك أبو عمرو إذا لم يدرج، وحمزة إذا لم يقف، وقرأ الكسائي وورش عن نافع، وأبو عمرو وفي الدرج، وحمزة في الوقف، «الذيب» بترك الهمزة في الهمز، أنه هو الأصل لأنه من

وأظهروا له ما في أنفسهم من العداوة وأغلظوا له القول وجعلوا يضربونه فجعل كلما جاء إلى واحد منهم واستغاث به ضربه فلما فطن لما عزموا عليه من قتله جعل ينادي يا أبتاه يا يعقوب لو رأيت يوسف وما نزل به من إخوته لأحزنك ذلك وأبكاك يا أبتاه ما أسرع ما نسوا عهدك وضيعوا وصيتك وجعل يبكي بكاء شديداً فأخذه روبيل وجلد به الأرض ثم جثم على صدره وأراد قتله، فقال له يوسف: مهلاً يا أخي لا تقتلني، فقال له: يا ابن راحيل أنت صاحب الأحلام قل لرؤياك تخلصك من أيدينا ولوى عنقه، فاستغاث يوسف بيهوذا وقال له اتق الله فيّ و حلّ بيني وبين من يريد قتلي فأدركته رحمة الإخوة ورق له فقال يهوذا يا إخوتي ما على هذا عاهدتموني ألا أدلكم على ما هو أهون لكم وأرفق به فقالوا وما هو قال تلقونه في هذا الجبّ إما أن يموت أو يلتقطه بعض السيارة فانطلقوا به إلى بئر هناك على غير الطريق واسع الأسفل ضيق الرأس فجعلوا يدلونه في البئر فتعلق بشفيرها فربطوا يديه ونزعوا قميصه فقال يا إخوتاه ردوا عليّ قميصي لأستتر به في الجب فقالوا ادعُ الشمس والقمر والكواكب تخلصك وتؤنسك فقال إني لم أر شيئاً فألقوه فيها ثم قال لهم يا إخوتاه أتدعوني فيها فريداً وحيداً وقيل جعلوه في دلو ثم أرسلوه فيها، فلما بلغ نصفها ألقوه إرادة أن يموت وكان في البئر ماء فسقط فيه ثم آوى إلى صخرة كانت في البئر فقام عليها وقيل نزل عليه ملك فحل يديه وأخرج له صخرة من البئر فأجلسه عليها، وقيل إنهم لما ألقوه في الجب جعل يبكي فنادوه فظن أنها رحمة أدركته فأجابهم فأرادوا أن يرضخوه بصخرة ليقتلوه فمنعهم يهوذا من ذلك وقيل إن يعقوب لما بعثه مع أخوته أخرج له قميص إبراهيم الذي كساه الله إياه من الجنة حين ألقي في النار فجعله يعقوب في قصبة فضة وجعلها في عنق يوسف فألبسه الملك إياه حين ألقي في الجب فأضاء له الجب. وقال الحسن: لما ألقي يوسف في الجب عذب ماؤه فكان يكفيه عن الطعام والشراب ودخل عليه جبريل فأنس به فلما أمسى نهض جبريل ليذهب فقال له إنك إذا خرجت استوحشت فقال له إذا رهبت شيئاً فقل يا صريخ المستصرخين ويا غوث المستغيثين ويا مفرج كرب المكروبين قد ترى مكاني وتعلم حالي ولا يخفى عليك شيء من أمري فلما قالها يوسف حفته الملائكة واستأنس في الجب، وقال محمد بن مسلم الطائفي: لما ألقي يوسف في الجب قال: يا شاهداً غير غائب ويا قريباً غير بعيد ويا غالباً غير مغلوب اجعل لي فرجاً مما أنا فيه فما بات فيه واختلفوا في قدر عمر يوسف يوم ألقي في الجب فقال الضحاك ست سنين وقال الحسن: اثنتا عشرة سنة، وقال ابن السائب: سبع عشرة سنة، وقيل: ثمان عشرة سنة، وقيل: مكث في الجب ثلاثة أيام وكان إخوته يرعون حوله وكان يهوذا يأتيه بالطعام فذلك قوله تعالى: ﴿وأوحينا إليهم لتنبئنهم بأمرهم هذا﴾ يعني لتخبرن إخوتك قال أكثر المفسرين: إن الله أوحى إليه وحياً حقيقة فبعث إليه جبريل يؤنسه ويبشره بالخروج ويخبره أنه سينبئهم بما فعلوا

قولهم: تذابتِ الريح إذا جاءت من كل وجه، ويجمع الذئب أذؤباً وذئاباً بالهمز، والوجه في ترك الهمز أن الهمزة خففت فقلبت ياءً لسكونها وإنكسار ما قبلها.

﴿ **قالوا لئن أكلَه الذِّئْبُ ونحنُ عُصْبَةٌ** ﴾، عشرة، ﴿ **إنَّا إذاً لخاسِرُون** ﴾، عجزة ضعفاء.

﴿ **فلمّا ذهبُوا بهِ وأجمعُوا** ﴾، أي: عزموا، ﴿ **أنْ يجعلُوه** ﴾، يلقوه، ﴿**في غيابَتِ الجُبِّ وأوْحَينَا إليه** ﴾، هذه الواو زائدة تقديره: أوحينا إليه، كقوله تعالى: ﴿ فلما أسْلَما وتلّه للجبين وناديناه ﴾ [الصّافّات: ١٠٣ و١٠٤] أي: ناديناه: ﴿ **لتنبّئنّهم بأمرِهم هذا وهم لا يشعُرون** ﴾، أي: أوحينا إلى يوسف عليه السلام لتصدقنّ رؤياك ولتخبرنّ إخوتك بصنيعهم هذا وهم لا يشعرون بوحي الله وإعلامه إيّاه ذلك. قاله مجاهد، وقيل: معناه: وهم لا يشعرون يوم تخبرهم أنك يوسف، وذلك حين دخلوا عليه فعرفهم وهم منكرون، وذكر وهب وغيره أنهم أخذوا يوسف عليه السلام بغاية الإكرام وجعلوا يحملونه، فلما برزوا إلى البرية ألقوه وجعلوا يضربونه فإذا ضربه واحد منهم استغاث بالآخر فضربه الآخر، فجعل لا يرى منهم رحيماً فضربوه حتى كادوا يقتلونه وهو يصيح يا أبتاه لو تعلم ما يصنع

ويجازيهم عليه هذا قول طائفة عظيمة من المحققين ثم القائلون بهذا القول اختلفوا هل كان بالغاً في ذلك الوقت أو كان صبياً صغيراً فقال بعضهم إنه كان بالغاً وكان عمره خمس عشرة سن وقال آخرون بل كان صغيراً إلا أن الله عز وجل أكمل عقله ورشده وجعله صالحاً لقبول الوحي والنبوة كما قال في حق عيسى عليه الصلاة والسلام.

فإن قلت كيف جعله نبياً في ذلك الوقت ولم يكن أحد يبلغه رسالة ربه لأن فائدة النبوة والرسالة تبليغها إلى من أرسل إليه.

قلت: لا يمتنع أن الله يشرفه بالوحي ويكرمه بالنبوة والرسالة في ذلك الوقت، وفائدة ذلك تطييب قلبه وإزالة الهمّ والغمّ والوحشة عنه ثم بعد ذلك يأمره بتبليغ الرسالة في وقتها وقيل إن المراد من قوله وأوحينا إليه وحي إلهام كما في قوله تعالى وأوحى ربك إلى النحل وأوحينا إلى أم موسى والقول الأول أولى وقوله تعالى: ﴿وهم لا يشعرون﴾ يعني بإيحائنا إليك وأنت في البئر بأنك ستخبرهم بصنيعهم هذا، والفائدة في إخفاء ذلك الوحي أنهم إذا عرفوه فربما ازداد حسدهم له. وقيل: إن الله تعالى أوحى إلى يوسف لتخبرن إخوتك بصنيعهم هذا بعد هذا اليوم وهم لا يشعرون بأنك أنت يوسف والمقصود من ذلك تقوية قلب يوسف عليه الصلاة السلام وأنه سيخلص مما هو فيه من المحنة ويصير مستولياً عليهم ويصيرون تحت أمره وقهره قوله تعالى:

﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمۡ عِشَآءٗ يَبۡكُونَ ۝١٦ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبۡنَا نَسۡتَبِقُ وَتَرَكۡنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ ۝١٧ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٖ كَذِبٖۚ قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ۝١٨﴾

﴿وجاؤوا أباهم عشاء يبكون﴾ قال المفسرون: لما طرحوا يوسف في الجب رجعوا إلى أبيهم وقت العشاء ليكونوا في الظلمة أجرأ على الاعتذار بالكذب فلما قربوا من منزل يعقوب جعلوا يبكون ويصرخون فسمع أصواتهم ففزع من ذلك وخرج إليهم فلما رآهم قال بالله سألتكم يا بني هل أصابكم شيء في غنمكم قالوا لا قال فما أصابكم وأين يوسف ﴿قالوا يا أبانا إنا ذهبنا نستبق﴾ قال ابن عباس: يعني ننتضل، وقال الزجاج: يسابق بعضنا بعضاً في الرمي

بابنك بنو الإماء، فلما كادوا أن يقتلوه قال لهم يهوذا: أليس قد أعطيتموني موثقاً أن لا تقتلوه، فانطلقوا به إلى الجُبِّ ليطرحوه فيه، وكان ابن اثنتي عشرة سنة. وقيل: ثمانية عشرة سنة، فجاؤوا به إلى بئر على غير الطريق واسعة الأسفل ضيقة الرأس. قال مُقاتل: على ثلاثة فراسخ من منزل يعقوب عليه السلام. قال كعب: بين مدين ومصر. وقال وهب بأرض الأردن. وقال قتادة: هي بئر بيت المقدس فجعلوا يدلّونه في البئر فيتعلق بشفير البئر فربطوا يديه ونزعوا قميصه فقال: يا إخوتاه رُدّوا عليّ القميص أتوارى به في الجبّ، فقالوا: ادعُ الشمسَ والقمرَ والكواكِبَ تواريك، قال: إني لم أرَ شيئاً، فألقوه فيها. وقيل: جعلوه في دلو وأرسلوه فيها حتى إذا بلغ نصفها ألقوه إرادة أن يموت فكان في البئر ماء فسقط فيه، ثم أوى إلى صخرة فيها فقام عليها. وقيل: إنهم لمّا ألقوه فيها جعل يبكي فنادوه فظنّ أن رحمةً أدركتهم، فأجابهم فأرادوا أن يرضخوه بصخرة فيقتلوه، فمنعهم يهوذا وكان يهوذا يأتيه بالطعام، وبقي فيها ثلاثَ ليالٍ، ﴿ وأوحينا إليه لتنبئنّهم بأمرهم هذا ﴾. والأكثرون على أن الله تعالى أوحى إليه بهذا وبعث إليه جبريل عليه السلام يؤنسه ويبشّره بالخروج، ويخبره أنه ينبئهم بما فعلوه ويجازيهم عليه وهم لا يشعرون. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ثم إنهم ذبحوا أسخلة وجعلوا دمها على قميص يوسف عليه السلام.

﴿ وجاؤوا أباهم عِشَاءً يبكُون ﴾، قال أهل المعاني: جاؤوا في ظلمة العشاء ليكونوا أجرأ على الاعتذار

الأصل في السبق الرمي بالسهم وهو التناضل أيضاً وسمي المتراميان بذلك يقال تسابقا واستبقا إذا فعلا ذلك ليتبين أيهما أبعد سهماً. وقال السدي: يعني نشتد ونعدو والمعنى نستبق على الأقدام ليتبين أينا أسرع عدواً وأخف حركة، وقال مقاتل: نتصيد والمعنى نستبق إلى الصيد ﴿وتركنا يوسف عند متاعنا﴾ يعني عند ثيابنا ﴿فأكله الذئب﴾ يعني في حال استباقنا وغفلتنا عنه ﴿وما أنت بمؤمن لنا﴾ يعني وما أنت بمصدق لنا ﴿ولو كنا صادقين﴾ يعني في قولنا والمعنى إنا وإن كنا صادقين لكنك لا تصدق لنا قولاً لشدة محبتك ليوسف فإنك تتهمنا في قولنا هذا وقيل معناه إنا وإن كنا صادقين فإنك لا تصدقنا لأنه لم تظهر عندك أمارة تدل على صدقنا ﴿وجاؤوا على قميصه﴾ يعني قميص يوسف ﴿بدم كذب﴾ أي مكذوب فيه قال ابن عباس: إنهم ذبحوا سخلة وجعلوا دمها على قميص يوسف ثم جاؤوا أباهم وفي القصة أنهم لطخوا القميص بالدم ولم يشقوه، فقال يعقوب لهم: كيف أكله الذئب ولم يشقّ قميصه فاتهمهم بذلك، وقيل إنهم أتوه بذئب وقالوا هذا أكله فقال يعقوب: أيها الذئب أنت أكلت ولدي وثمرة فؤادي؟ فأنطقه الله عز وجل وقال والله ما أكلته ولا رأيت ولدك قط ولا يحل لنا أن نأكل لحوم الأنبياء، فقال يعقوب فكيف وقعت بأرض كنعان فقال جئت لصلة الرحم وهي قرابة لي فأخذوني وأتوا بي إليك فأطلقه يعقوب ولما ذكر إخوة يوسف ليعقوب هذا الكلام واحتجوا على صدقهم بالقميص الملطخ بالدم، ﴿قال﴾ يعقوب ﴿بل سولت لكم أنفسكم أمراً﴾ يعني بل زينت لكم أنفسكم أمراً، وأصل التسويل تقدير معنى في النفس مع الطمع في إتمامه، وقال صاحب الكشاف: سولت سهلت من السول وهو الاسترخاء أي سهلت لكم أنفسكم أمراً عظيماً ركبتموه من يوسف وهوّنتموه في أنفسكم وأعينكم فعلى هذا يكون معنى قوله بل رد لقولهم فأكله الذئب كأنه قال ليس الأمر كما تقولون أكله الذئب بل سولت لكم أنفسكم أمراً آخر غير ما تصفون ﴿فصبر جميل﴾ أي: فشأني صبر جميل، وقيل: معناه فصبري صبر جميل والصبر الجميل الذي لا شكوى فيه ولا جزع. وقيل: من الصبر أن لا تتحدث بمصيبتك ولا تزكين نفسك ﴿والله المستعان على ما تصفون﴾ يعني: من القول الكذب، وقيل: معناه والله المستعان على حمل ما تصفون.

بالكذب. ورُوِيَ أن يعقوب عليه السلام سمع صياحهم وعويلهم فخرج وقال: ما لكم يا بني هل أصابكم في غنمكم شيء؟ قالوا: لا. قال: فما أصابكم وأين يوسف؟؟.

﴿ قالوا يا أبانا إنّا ذهبنا نستبِقُ ﴾، أي: نترامى وننتضل، وقال السدي: نشتدّ على أقدامنا. ﴿ وتركْنا يوسفَ عندَ متاعِنَا ﴾، أي: عند ثيابنا وأقمشتنا. ﴿فأكلَه الذِّئبُ وما أنت بمؤمنٍ لنا ﴾، بمصدّق لنا، ﴿ ولو كُنّا ﴾، وإن كنّا، ﴿ صادقين ﴾، فإن قيل: كيف قالوا ليعقوب أنت لا تصدق الصادقَ؟ قيل: معناه إنك تتهمنا في هذا الأمر لأنك خفتنا عليه في الابتداء واتهمتنا في حقه. وقيل معناه لا تصدقنا لأنه لا دليل على صدقنا وإن كنّا صادقين عند الله.

﴿ وجاءُوا على قميصِه بدمٍ كذبٍ ﴾، أي: بدم كذب لأنه لم يكن دم يوسف. وقيل: بدم مكذوب فيه، فوضع المصدر موضع الاسم. وفي القصة: إنهم لطّخوا القميص بالدم ولم يشقّوه، فقال يعقوب عليه السلام: كيف أكله الذئب ولم يشقّ قميصه فاتهمهم، ﴿ قالَ بلْ سوّلتْ ﴾، زيّنت، ﴿ لكم أنفسُكم أمراً فصبرٌ جميل ﴾، معناه: فأمري صبر جميل أو فعلي صبرٌ جميل. وقيل: فصبر جميل أختاره. والصبر الجميل الذي لا شكوى فيه ولا جزع. ﴿ واللّهُ المستعانُ على ما تصفون ﴾، أي: أستعين بالله على الصبر، على ما تكذبون. وفي القصة: أنهم جاؤُوا بذئب وقالوا هذا الذي أكله فقال له يعقوب يا ذئب أنت أكلت ولدي وثمرة فؤادي فأنطقه الله عزّ وجلّ، فقال: تالله ما رأيت وجه ابنك قطّ، قال: كيف وقعت بأرض كنعان؟ قال: جئت لصلة قرابة فصادني هؤلاء فمكث يوسف في البئر ثلاثة أيام.

﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ۝١٩﴾

قوله عز وجل: ﴿وجاءت سيارة﴾ وهم القوم المسافرون سمّوا سيارة لمسيرهم في الأرض، وكانوا رفقة من مدين يريدون مصر فأخطؤوا الطريق فنزلوا قريباً من الجب الذي كان فيه يوسف وكان في قفرة بعيدة من العمارة ترده الرعاة والمارة وكان ماؤه ملحاً فلما ألقي يوسف فيه عذب فلما نزلوا أرسلوا رجلاً من أهل مدين يقال له مالك بن ذعر الخزاعي ليطلب لهم الماء فذلك قوله عز وجل: ﴿فأرسلوا واردهم فأدلى دلوه﴾ قال والوارد هو الذي يتقدم الرفقة إلى الماء فيهيىء الأرشية والدلاء يقال أدليت الدلو إذا أرسلتها في البئر ودلوتها إذا أخرجتها قال فتعلق يوسف عليه الصلاة والسلام بالحبال وكان يوسف عليه السلام أحسن ما يكون من الغلمان وذكر البغوي بسند متصل أن النبي ﷺ قال «أعطي يوسف شطر الحسن ويقال إنه ورث ذلك الجمال من جدته سارة وكانت قد أعطيت سدس الحسن قال محمد بن إسحاق: ذهب يوسف وأمه بثلثي الحسن، وحكى الثعلبي عن كعب الأحبار، قال: كان يوسف حسن الوجه جعد الشعر ضخم العينين مستوي الخلق أبيض اللون غليظ الساعدين والعضدين والساقين خميص البطن صغير السرة وكان إذا تبسم رأيت النور من ضواحكه وإذا تكلم رأيت شعاع النور في ثناياه، ولا يستطيع أحد وصفه وكان حسنه كضوء النهار عند الليل وكان يشبه آدم عليه الصلاة والسلام يوم خلقه الله وصورته قبل أن يصيب الخطيئة. قالوا فلما خرج يوسف ورآه مالك بن ذعر كأحسن ما يكون من الغلمان قال يعني الوارد وهو مالك بن ذعر ﴿يا بشراي﴾ يعني يقول الوارد لأصحابه أبشروا ﴿هذا غلام﴾ وقرىء يا بشرى بغير إضافة ومعناه أن الوارد نادى رجلاً من أصحابه اسمه بشرى كما تقول يا زيد ويقال ان جدران البئر بكت على يوسف حين خرج منها ﴿وأسروه بضاعة﴾ قال مجاهد أسره: مالك بن ذعر وأصحابه من التجار الذين كانوا معهم وقالوا إنه بضاعة استبضعناه لبعض أهل المال إلى مصر وإنما قالوا ذلك خيفة أن يطلبوا منهم الشركة فيه، وقيل: إن إخوة يوسف أسروا شأن يوسف يعني أنهم أخفوا أمر

﴿وجاءت سيّارة﴾، وهم القوم المسافرون سُمّوا سيارة لأنهم يسيرون في الأرض كانت رفقة من مدين تريد مصر، فأخطأوا الطريق فنزلوا قريباً من الجبّ، وكان الجبّ في قفر بعيد من العمران للرعاة والمارّة، وكان ماؤه صالحاً فعذب حين أُلقي يوسف عليه السلام فيه، فلما نزلوا أرسلوا رجلاً من أهل مدين يقال له مالك بن ذعر، لطلب الماء فذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿فأرسَلُوا واردهم﴾ والوارد الذي يتقدّم الرفقة إلى الماء فيهيىء الأرشية والدلاء ﴿فأدْلَى دلوَه﴾، أي: أرسلها في البئر، يقال: أدليتُ الدلو إذا أرسلتها في البئر، ودلوتها إذا أخرجتها، فتعلّق يوسف بالحبل فلما خرج إذا هو بغلام أحسنِ ما يكون، قال النبي ﷺ: «أُعطيَ يوسفُ شطر الحُسْن» ويقال: إنه ورث ذلك الجمال من جدّته سارة، وكانت قد أُعطيت سُدسَ الحُسنِ. وقال ابن إسحق ذهب يوسف وأُمه بثلثي الحُسْن فلما رآه مالك بن ذعر، ﴿قال يا بُشْرَى﴾، قرأ الأكثرون هكذا بالألف وفتح الياء، والوجه أن بشراي مضافة إلى ياء المتكلم وهو منادى مضاف فموضعه نصب، وقرأ الكوفيون: «يا بشرى» بغير ياء الإضافة على فعل، وأمال الراء حمزة والكسائي وفتحها عاصم والوجه في إفرادها عن ياء المتكلم هو أن بشرى نكرة ههنا فنادها كما تنادي النكرات نحو قولك: يا راجلاً ويا راكباً إذا جعلت النداء شائعاً فيكون موضعه نصباً مع التنوين إلّا أن فعلى لا سبيل إليها للتنوين، ويجوز أن تكون بشرى منادى تُعرَف بالقصد نحو يا رجل يريد نادى المستقي رجلاً من أصحابه اسمه بشرى فتكون بشرى في موضع رفع. وقيل: بشّر المستقي أصحابه يقول: أبشروا، ﴿هذا غلامٌ﴾ وروى ابن مجاهد عن أبيه: أن جدران البئر كانت تبكي على يوسف حين أُخرج منها. ﴿وأسرُّوه﴾، أي: أخفوه،

يوسف وكونه أخاً لهم بل قالوا هو عبد لنا أبق وصدقهم يوسف على ذلك لأنهم توعدوه بالقتل سراً من مالك ابن ذعر وأصحابه والقول الأول أصح لأن مالك بن ذعر هو الذي أسره بضاعة وأصحابه ﴿والله عليم بما يعملون﴾ يعني من إرادة إهلاك يوسف فجعل ذلك سبباً لنجاته وتحقيقاً لرؤياه أن يصير ملك مصر بعد أن كان عبداً قال أصحاب الأخبار: إن يهوذا كان يأتي يوسف بالطعام فأتاه فلم يجده في الجب فأخبر إخوته بذلك فطلبوه فإذا هم بمالك بن ذعر وأصحابه نزولاً قريباً من البئر فأتوهم فإذا يوسف عندهم فقالوا لهم هذا عبدنا أبق منا ويقال إنهم هددوا يوسف حتى يكتم حاله ولا يعرفها وقال لهم مثل قولهم ثم إنهم باعوه منهم فذلك قوله تعالى:

﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾﴾

﴿وشروه﴾ أي باعوه وقد يطلق لفظ الشراء على البيع يقال شريت الشيء بمعنى بعته وإنما وجب حمل هذا الشراء على البيع لأن الضمير في وشروه وفي وكانوا فيه من الزاهدين يرجع إلى شيء واحد وذلك أن إخوته زهدوا فيه فباعوه وقيل إن الضمير في وشروه يعود على مالك بن ذعر وأصحابه فعلى هذا القول يكون لفظ الشراء على بابه ﴿بثمن بخس﴾ قال الحسن والضحاك ومقاتل والسدي: بخس أي حرام لأن ثمن الحر حرام ويسمى الحرام بخساً لأنه مبخوس البركة يعني منقوصها وقال ابن مسعود وابن عباس: بخس أي زيوف ناقصة العيار وقال قتادة: بخس أي ظلم والظلم نقصان الحق يقال ظلمه إذا نقصه حقه وقال عكرمة والشعبي: بخس أي قليل وعلى الأقوال كلها فالبخس في اللغة هو نقص الشيء على سبيل الظلم والبخس والباخس الشيء الطفيف ﴿دراهم معدودة﴾ فيه إشارة إلى قلة تلك الدراهم لأنهم في ذلك الزمان ما كانوا يزنون أقل من أربعين درهماً إنما كانوا يأخذون ما دونها عدداً فإذا بلغت أربعين درهماً وهي أوقية وزنوها واختلفوا في عدد تلك الدراهم فقال ابن مسعود وابن عباس وقتادة: كانت عشرين درهماً فاقتسموها درهمين درهمين فعلى هذا القول لم يأخذ أخوه من أمه وأبيه شيئاً منها، وقال مجاهد: كانت اثنين وعشرين درهماً فعلى هذا أخذ أخوه منها درهمين لأنهم كانوا أحد عشر أخاً وقال عكرمة كانت أربعين درهماً ﴿وكانوا

﴿ بضاعةً ﴾، قال مجاهد: أسره مالك بن ذعر وأصحابه من التجّار الذين معهم وقالوا هذه بضاعة استبضعها بعض أهل الماء في مصر خيفة أن يطلبوا منهم فيه المشاركة. وقيل: أراد أن إخوة يوسف أسرّوا شأن يوسف وقالوا هذا عبد لنا أبِقَ منّا. قال الله تعالى: ﴿ واللَّهُ عليمٌ بما يعملون ﴾، فأتى يهوذا يوسف بالطعام فلم يجده في البئر فأخبر بذلك إخوته فطلبوه فإذا هم بمالك وأصحابه نزول فأتوهم فإذا هم بيوسف، فقالوا: هذا عبد آبق منّا. ويقال: إنهم هدّدوا يوسف حتى لا يعرف حاله. وقال مثل قولهم، ثم باعوه، فذلك قوله عزّ وجلّ:

﴿ وشروه ﴾، أي: باعوه، ﴿ بثمنٍ بَخْسٍ ﴾، قال الضحاك ومقاتل والسدي: حرام لأن ثمن الحرّ حرام، وسُمّي الحرام بخساً لأنه مبخوس البركة. وعن ابن عباس وابن مسعود: بخس أي زيوف. وقال عكرمة والشعبي: بثمن قليل. ﴿ دراهمَ ﴾، بدل من الثمن، ﴿ معدودةٍ ﴾، ذكر العدد عبارة عن قلّتها. وقيل: إنما قال معدودة لأنهم كانوا في ذلك الزمان لا يزنون ما كان أقل من أربعين درهماً، وإنما كانوا يعدّونها عدّاً فإذا بلغت أُوقية وزنوها. واختلفوا في عدد تلك الدراهم، فقال ابن عباس وابن مسعود وقتادة: عشرون درهماً فاقتسموها درهمين درهمين. قال مجاهد: اثنان وعشرون درهماً. وقال عكرمة: أربعون درهماً. ﴿ وكانوا ﴾، يعني: إخوة يوسف، ﴿ فيه ﴾، أي: في يوسف ﴿ من الزاهدين ﴾ لأنهم لم يعلموا منزلته عند الله. وقيل: كانوا في الثمن من الزاهدين لأنهم لم

فيه من الزاهدين﴾ يعني وكان إخوة يوسف في يوسف من الزاهدين وأصل الزهد قلة الرغبة يقال زهد فلان في كذا إذا لم يكن له فيه رغبة والضمير في قوله وكانوا فيه من الزاهدين إن قلنا إنه يرجع إلى أخوة يوسف كان وجه زهدهم فيه أنهم حسدوه وأرادوا إبعاده عنهم ولم يكن قصدهم تحصيل الثمن وإن قلنا إن قوله وشروه وكانوا فيه من الزاهدين يرجع إلى معنى واحد وهو أن الذين شروه كانوا فيه من الزاهدين كان وجه زهدهم فيه إظهار قلة الرغبة فيه ليشتروه بثمن بخس قليل.

ويحتمل أن يقال: إن إخوته لما قالوا إنه عبدنا وقد أبق أظهر المشتري قلة الرغبة فيه لهذا السبب قال أصحاب الأخبار ثم إن مالك بن ذعر وأصحابه لما اشتروا يوسف انطلقوا به إلى مصر وتبعهم إخوته يقولون استوثقوا منه لا يأبق منكم فذهبوا به حتى قدموا مصر فعرضه مالك على البيع فاشتراه قطفير قاله ابن عباس، وكان قطفير صاحب أمر الملك وكان على خزائن مصر وكان يسمى العزيز وكان الملك بمصر ونواحيها اسمه الريان بن الوليد بن شروان وكان من العماليق، وقيل: إن هذا الملك لم يمت حتى آمن بيوسف واتبعه على دينه ثم مات ويوسف عليه الصلاة والسلام حي. قال ابن عباس: لما دخلوا مصر لقي قطفير مالك بن ذعر فاشترى يوسف منه بعشرين ديناراً وزوج نعل وثوبين أبيضين، وقال وهب بن منبه: قدمت السيارة بيوسف مصر ودخلوا به السوق يعرضونه للبيع فترافع الناس في ثمنه حتى بلغ ثمنه وزنه ذهباً ووزنه فضة ووزنه مسكاً وحريراً وكان وزنه أربعمائة رطل وكان عمره يومئذ ثلاث عشرة سنة أو سبع عشرة سنة فابتاعه قطفير بهذا الثمن فذلك قوله تعالى: ﴿وقال الذي اشتراه من مصر﴾ يعني قطفير من أهل مصر ﴿لامرأته﴾ وكان اسمها راعيل وقيل زليخا ﴿أكرمي مثواه﴾ يعني أكرمي منزله ومقامه عندك والمثوى موضع الإقامة وقيل أكرميه في المطعم والملبس والمقام ﴿عسى أن ينفعنا﴾ يعني إن أردنا بيعه بعناه بربح أو يكفينا بعض أمورنا ومصالحنا إذا قوي وبلغ ﴿أو نتخذه ولداً﴾ يعني نتبناه وكان حصوراً ليس له ولد، قال ابن مسعود: أفرس الناس ثلاثة العزيز في يوسف حيث قال لامرأته أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً وابنة شعيب في موسى حيث قالت لأبيها استأجره إن خير من استأجرت القوي الأمين وأبو بكر في عمر استخلفه بعده ﴿وكذلك مكّنا ليوسف في الأرض﴾ يعني

يكن قصدهم تحصيل الثمن إنما كان قصدهم تبعيد يوسف عن أبيه، ثم انطلق مالك بن ذعر وأصحابه بيوسف، فتبعهم إخوته يقولون: استوثقوا منه لا يأبق، قال: فذهبوا به حتى قدِموا مصر، وعرضه مالك على البيع فاشتراه قطفير قاله ابن عباس. وقال: إطفير صاحب أمر الملك، وكان على خزائن مصر يسمى العزيز، وكان الملك يومئذ بمصر ونواحيها الريّان بن الوليد بن شروان من العمالقة. وقيل: إن هذا الملك لم يمت حتى آمن واتّبع يوسف على دينه، ثم مات ويوسف حيّ، قال ابن عباس رضي الله عنهما: لمّا دخلوا مصر تلقّى قطفير مالك بن ذعر فابتاع منه يوسف بعشرين ديناراً وزوج نعل وثوبين أبيضين. وقال وهب بن منبّه: قَدِمَت السيارة بيوسف مصر فدخلوا به السوق يعرضونه للبيع، فترافع الناس في ثمنه حتى بلغ ثمنه وزنه ذهباً ووزنه فضّةً ووزنه مِسكاً وحريراً، وكان وزنه أربعمائة رطل، وهو ابن ثلاث عشرة سنة فابتاعه قطفير من مالك بن ذعر بهذا الثمن، فذلك قوله تعالى:

﴿ وقالَ الذي اشتراه من مصرَ لامرأتِهِ ﴾، واسمها راعيل. وقيل: زليخا، ﴿ أكرمي مثواه ﴾، أي: منزله ومقامه، والمثوى: موضع الإقامة. وقيل: أكرميه في المطعم والملبس والمقام. وقال قتادة وابن جريج: منزلته. ﴿ عسى أن ينفعَنا ﴾. أي: نبيعه بالربح إن أردنا البيع أو يكفينا إذا بلغ بعض أمورنا، ﴿ أو نتّخذَه ولداً ﴾، أي: نتبنّاه. قال ابن مسعود رضي الله عنه: أفرسُ الناس ثلاثة العزيز في يوسف حيث قال لامرأته: أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا، وابنة شعيب عليه السلام حيث قالت لأبيها في موسى عليه السلام: يا أبتِ استأجرْه، وأبو بكر في عمر رضي الله عنهما حيث استخلفه. ﴿ وكذلك مكّنّا ليوسفَ في الأرض ﴾، أي: في أرض مصر، أي: كما أنقذنا يوسف من

كما مننا على يوسف بأن أنقذناه من القتل وأخرجناه من الجب كذلك مكناه في الأرض يعني أرض مصر فجعلناه على خزائنها ﴿ولنعلمه من تأويل الأحاديث﴾ أي مكنا له في الأرض لكي نعلمه من تأويل الأحاديث يعني عبارة الرؤيا وتفسيرها ﴿والله غالب على أمره﴾ قيل الكناية في أمره راجعة إلى الله تعالى ومعناه والله غالب على أمره يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد لا دافع لأمره ولا راد لقضائه ولا يغلبه شيء وقيل هي راجعة إلى يوسف ومعناه أن الله مستولٍ على أمر يوسف بالتدبير والإحاطة لا يكله إلى أحد سواه حتى يبلغ منتهى ما علمه فيه ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ يعني ما هو صانع بيوسف وما يريد منه.

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾

﴿ولما بلغ أشده﴾ يعني منتهى شبابه وشدته وقوته، وقال مجاهد: ثلاثة وثلاثون سنة، وقال الضحاك: عشرون سنة وقال السدي: ثلاثون سنة، وقال الكلبي: الأشد ما بين ثمان عشرة إلى ثلاثين سنة وسئل مالك عن الأشد فقال: هو الحلم ﴿آتيناه حكماً وعلماً﴾ يعني آتينا يوسف بعد بلوغ الأشد نبوة وفقهاً في الدين وقيل حكماً يعني إصابة في القول وعلماً بتأويل الرؤيا وقيل الفرق بين الحكيم والعالم أن العالم هو الذي يعلم الأشياء بحقائقها والحكيم هو الذي يعمل بما يوجبه العلم وقيل الحكمة حبس النفس عن هواها وصونها عما لا ينبغي والعلم هو العلم النظري ﴿وكذلك﴾ يعني وكما أنعمنا على يوسف بهذه النعم كلها كذلك ﴿نجزي المحسنين﴾ قال ابن عباس: يعني المؤمنين وعنه أيضاً المهتدين، وقال الضحاك: يعني الصابرين على النوائب كما صبر يوسف ﴿وراودته التي هو في بيتها عن نفسه﴾ يعني أن امرأة العزيز طلبت من يوسف الفعل القبيح ودعته إلى نفسها ليواقعها ﴿وغلقت الأبواب﴾ أي أطبقتها وكانت سبعة لأن مثل هذا الفعل لا يكون إلا في ستر وخفية أو أنها أغلقتها لشدة خوفها ﴿وقالت هيت لك﴾ أي هلم وأقبل، قال أبو

القتل وأخرجناه من الجب، كذلك مكّنا له في الأرض فجعلناه على خزائنها. ﴿ ولِنُعَلِّمَه مِنْ تأْويلِ الأحاديث ﴾، أي: مكّنّا له في الأرض لكي نعلّمه من تأويل الأحاديث، وهي عبارة عن الرؤيا. ﴿ واللَّهُ غالبٌ على أمره ﴾، قيل: الهاء في أمره كناية عن الله تعالى، يقول: إن الله غالب على أمره يفعل ما يشاء لا يغلبه شيء ولا يردُّ عليه حكم رادّ. وقيل: هي راجعة إلى يوسف عليه السلام معناه: إن الله مستولٍ على أمر يوسف بالتدبير والحياطة لَا يَكِلُه إلى أحد حتى يبلغه منتهى علمه فيه. ﴿ ولكنّ أكثر النّاس لا يعلمون ﴾، ما الله به صانع.

﴿ ولمّا بلغَ أشُدَّهُ ﴾، منتهى شبابه وشدّته وقوّته ومعرفته. قال مجاهد: هم ثلاثاً وثلاثين سنة. وقال السدي: ثلاثين سنة. وقال الضحاك: عشرين سنة. وقال الكلبي: الأشدّ ما بين ثمانية عشرة سنة إلى ثلاثين سنة. وسئل مالك رحمه الله عن الأشد قال: هو الحلم. ﴿ آتيناه حُكماً وعِلْماً ﴾، فالحكم النبوّة والعلم الفقه في الدين. وقيل: حكماً يعني إصابة في القول، وعلماً بتأويل الرؤيا: وقيل: الفرق بين الحكيم والعالم، أن العالم هو الذي يعلم الأشياء والحكيم الذي يعمل بما يوجبه العلم. ﴿ وكذلك نجزي المحسنين ﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما: المؤمنين. وعنه أيضاً المهتدين: وقال الضحاك: الصابرين على النوائب كما صبر يوسف عليه السلام.

﴿ وراودتْه التي هو في بيتِها عنْ نفسِه ﴾، يعني: امرأة العزيز. والمراودةُ: طلب الفعل، والمراد ههنا أنها دعته إلى نفسها ليواقعها، ﴿ وغلّقتِ الأبوابَ ﴾، أي: أطبقتها وكانت سبعة، ﴿ وقالتْ هَيْتَ لكَ ﴾، أي: هلمَّ وأقبل، قرأ أهل الكوفة والبصرة: «هَيْتَ لك» بفتح الهاء والتاء جميعاً، وقرأ أهل المدينة والشام: «هيت» بكسر الهاء وفتح التاء، وقرأ ابن كثير: «هَيتُ» بفتح الهاء وضمّ التاء، والوجه أن في هذه الكلمة ثلاث لغات

عبيدة: كان الكسائي يقول هي لغة لأهل حوران رفعت إلى الحجاز معناها تعال، وقال عكرمة أيضاً بالحورانية: هلم، وقال مجاهد وغيره: هي لغة عربية وهي كلمة حث وإقبال على الشيء وقيل هي بالعبرانية وأصلها هيتالج أي تعال فعربت فقيل هيت لك فمن قال إنها بغير لغة العرب يقول إن العرب وافقت أصحاب هذه اللغة فتكلمت بها على وفق لغات غيرهم كما وافقت لغة العرب الروم في القسطاس ولغة العرب الفرس في التنور ولغة العرب الترك في الغساق ولغة العرب الحبشة في ناشئة الليل وبالجملة فإن العرب إذا تكلمت بكلمة صارت لغة لها وقرىء هئت لك بكسر الهاء مع الهمزة ومعناها تهيأت لك ﴿قال﴾ يعني يوسف ﴿معاذ الله﴾ أي أعوذ بالله وأعتصم به وألجأ إليه فيما دعوتني إليه ﴿إنه ربي﴾ يعني أن العزيز قطفير سيدي ﴿أحسن مثواي﴾ أي أكرم منزلتي فلا أخونه وقيل إن الهاء في إنه ربي راجعة إلى الله تعالى والمعنى يقول إن الله ربي أحسن مثواي يعني أنه آواني ومن بلاء الجب نجاني ﴿إنه لا يفلح الظالمون﴾ يعني إن فعلت هذا الفعل فأنا ظالم ولا يفلح الظالمون، وقيل: معناه أنه لا يسعد الزناة.

﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿ولقد همَّت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه﴾ الآية، هذه الآية الكريمة مما يجب الاعتناء بها والبحث عنها والكلام عليها في مقامين الأول في ذكر أقوال المفسرين في هذه الآية قال المفسرون: الهمّ هم المقاربة من الفعل من غير دخول فيه، وقيل: الهم مصدر هممت بالشيء إذا أردته وحدثتك نفسك به وقاربته من غير دخول فيه فمعنى قوله ولقد همَّت به أي أرادته وقصدته فكان همها به عزمها على المعصية والزنا، وقال الزمخشري: همَّ بالأمر إذا قصده وعزم عليه قال الشاعر وهو عمرو بن ضابىء البرجمي:

هممت ولم أفعل وكدت وليتني ... تركت على عثمان تبكي حلائله

وقوله: ولقد همَّت به: معناه ولقد همت بمخالطته وهم بها أي وهم بمخالطتها لولا أن رأى برهان ربه جوابه

هيتَ وهِيتَ وهَيتُ والكل بمعنى هلمّ وقرأ السلمي وقتادة: «هِيْتُ لك» بكسر الهاء وضمّ التاء مهموزاً على مثال جئت، يعني تهيأتُ لك، وأنكره أبو عمرو الكسائي، وقالا: لم يحكَ هذا عن العَرب. والأول هو المعروف عند العرب. وقال ابن مسعود رضي الله عنه: أقرأني النبي ﷺ: ﴿ هيت لك ﴾: قال أبو عبيدة كان الكسائي يقول: هي لغة لأهل حوران وقعت إلى الحجاز معناها تعالَ. وقال عكرمة: هي أيضاً بالحورانية هلمّ. وقال مجاهد وغيره: هي لغة عربية وهي كلمة حثّ وإقبال على الشيء: قال أبو عبيدة: إن العرب لا تثني ﴿هيت﴾ ولا تجمع وتؤنّث وإنها صورة واحدة في كل حال. ﴿ قال ﴾، يوسف لها عند ذلك، ﴿ مَعَاذَ الله ﴾، أي: أعوذ بالله وأعتصم بالله مما دعوتني إليه، ﴿ إنه ربّي ﴾ يريد أن زوجك قطفير سيدي ﴿ أحسن مثواي ﴾، أي: أكرم منزلي هذا قول أكثر المفسّرين. وقيل: الهاء راجعة إلى الله تعالى يريد أن الله تعالى ربّي أحسن مثوايَ أي آواني ومن بلاء الجب عافاني. ﴿ إنه لا يُفلحُ الظالمون ﴾، يعني: إن فعلت هذا فخنته في أهله بعد ما أكرم مثواي فأنا ظالم ولا يفلح الظالمون. وقيل: لا يفلح الظالمون أي لا يسعد الزناة.

﴿ ولقدْ هَمّتْ بهِ وهمَّ بِها ﴾، والهمُّ هو المقاربة من الفعل من غير دخول فيه، فهمُّها: عزمُها على المعصية والزنا، وأمّا همُّه: فرُوِيَ عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: حلّ الهميان وجلس منها مجلس الخائن. وعن مجاهد قال: حلّ سراويله وجعل يعالج ثيابه. وهذا قول أكثر المتقدمين مثل سعيد بن جبير والحسن. وقال

محذوف تقديره لولا أن رأى برهان ربه لخالطها قال البغوي وأما همه بها فروي عن ابن عباس أنه قال حلّ الهميان وجلس منها مجلس الخائن، وقال مجاهد: حل سراويله وجعل يعالج ثيابه، وهذا قول أكثر المفسرين منهم سعيد بن جبير والحسن وقال الضحاك: جرى الشيطان بينهما فضرب بيده إلى جيد يوسف وبيده الأخرى إلى جيد المرأة حتى جمع بينهما، قال أبو عبيدة القاسم بن سلام: وقد أنكر قوم هذا القول قال البغوي: والقول ما قاله قدماء هذه الأمة وهم كانوا أعلم بالله أن يقولوا في الأنبياء من غير علم، قال السدي وابن إسحاق: لما أرادت امرأة العزيز مراودة يوسف عن نفسه جعلت تذكر له محاسن نفسه وتشوقه إلى نفسها فقالت: يا يوسف ما أحسن شعرك، قال: هو أول ما ينتثر عن جسدي، قالت: ما أحسن عينيك، قال: هي أول ما يسيل على خدي في قبري، قالت: ما أحسن وجهك، قال: هو للتراب يأكله. وقيل: إنها قالت له إن فراش الحرير مبسوط قم فاقض حاجتي قال: إذن يذهب نصيبي من الجنة. فلم تزل تطمعه وتدعوه إلى اللذة وهو شاب يجد من شبق الشباب ما يجده الرجل وهي امرأة حسناء جميلة حتى لان لها لما يرى من كلفها به فهم بها ثم إن الله تدارك عبده يوسف بالبرهان الذي ذكره وسيأتي الكلام على تفسير البرهان الذي رآه يوسف عليه الصلاة والسلام فهذا ما قاله المفسرون في هذه الآية أما المقام الثاني في تنزيه يوسف عليه الصلاة والسلام عن هذه الرذيلة وبيان عصمته من هذه الخطيئة التي ينسب إليها. قال بعض المحققين: الهم همان فهم ثابت وهو ما كان معه عزم وقصد وعقيدة رضا مثل هم امرأة العزيز فالعبد مأخوذ به وهم عارض وهو الخطرة في القلب وحديث النفس من غير اختيار ولا عزم مثل هم يوسف فالعبد غير مأخوذ به ما لم يتكلم أو يعمل به ويدل على صحة هذا ما روي عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يقول الله تبارك وتعالى: إذا هم عبدي بسيئة فلا تكتبوها عليه فإن عملها فاكتبوها عليه سيئة واحدة وإذا هم بحسنة فلم يعملها فاكتبوها له حسنة فإن عملها فاكتبوها له عشرة» لفظ مسلم وللبخاري بمعناه (ق).

الضحاك: جرى الشيطان فيما بينهما فضرب بإحدى يديه إلى جيد يوسف وباليد الأخرى إلى جيد المرأة حتى جمع بينهما. قال أبو عبيد القاسم بن سلام: قد أنكر قوم هذا القول، وقالوا: هذا لا يليق بحال الأنبياء، والقول ما قال متقدّموا هذه الأمة، وهم كانوا أعلم بالله أن يقولوا في الأنبياء من غير علم. وقال السدي وابن إسحق: لمّا أرادت امرأة العزيز مراودة يوسف عليه السلام عن نفسه جعلت تذكر له محاسن نفسه وتشوّقه إلى نفسها، فقالت يا يوسف ما أحسن شعرك، قال: هو أول ما ينتثر من جسدي، قالت: ما أحسن عينيك، قال: هي أول ما تسيل على وجهي في قبري، قالت: ما أحسن وجهك، قال: هو للتراب يأكله، وقيل: إنها قالت إن فراش الحرير مبسوط فقم فاقضِ حاجتي، قال: إذاً يذهب نصيبي من الجنة، فلم تزل تطمعه وتدعوه إلى اللذة وهو شابٌ يجد من شبق الشباب ما يجده الرجل، وهي امرأة حسناء جميلة حتى لأن لها مما يرى من كلفها به، وهمّ بها ثم إن الله تعالى تدارك عبده ونبيّه بالبرهان الذي ذكره وزَعم بعض المتأخرين: أن هذا لا يليق بحال الأنبياء عليهم السلام، وقال: تمّ الكلام عند قوله: ﴿ولقدْ هَمّتْ به﴾، ثم ابتدأ الخبر عن يوسف عليه السلام فقال: ﴿وهمّ بها لولا أنْ رأى بُرْهان رَبِّه﴾، على التقديم والتأخير، أي: لولا أن رأى برهان ربّه لهمَّ بها، ولكنه رأى البرهان فلم يهمّ، وأنكره النحاة، وقالوا: إن العرب لا تُؤخِر «لـولا» عن الفعل، فلا تقول: لقد قمت لولا زيد، وهو يريد لولا زيدٌ لَقُمْتُ. وقيل: همّت بيوسف أن يفترشها، وهمّ بها يوسف أي: تمنى أن تكون له زوجة. وهذا التأويل وأمثاله غير مرضية لمخالفتها أقاويل القدماء من العلماء الذين أخذ عنهم الدين والعلم. وقال بعضهم: إن القدر الذي فعله يوسف عليه السلام كان من الصغائر والصغائر تجوز على الأنبياء عليهم السلام. ورُوِيَ أن يوسف عليه السلام لمّا دخل على الملك حين خرج من السجن وأقرّت المرأة، قال يوسف: ﴿ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب﴾ [يوسف: ٥٢] قال له

عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال فيما يرويه عن ربه عز وجل قال «إن الله كتب الحسنات والسيئات ثم بين ذلك فمن هم بحسنة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة فإن هم بها وعملها كتبها الله له عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة ومن همّ بسيئة ولم يعملها كتبها الله له عنده حسنة وإن هو هم بها فعملها كتبها الله له عليه سيئة واحدة» زاد في رواية أو محاها «ولن يهلك على الله إلا هالك» قال القاضي عياض في كتابه الشفاء فعلى مذهب كثير من الفقهاء المحدثين إن هم النفس لا يؤاخذ به وليس سيئة وذكر الحديث المتقدم فلا معصية في هم يوسف إذن وأما على مذهب المحققين من الفقهاء والمتكلمين فإن الهم إذا وطنت عليه النفس كان سيئة وأما مالم لم توطن عليه النفس من همومها وخواطرها فهو المعفو عنه هذا هو الحق فيكون إن شاء الله هم يوسف من هذا ويكون قوله وما أبرىء نفسي الآية أي ما أبرئها من هذا الهم أو يكون ذلك على طريق التواضع والاعتراف بمخالفة النفس لما زكي قبل وبرىء فكيف وحكى أبو حاتم عن عبيدة أن يوسف عليه الصلاة والسلام لم يهم وأن الكلام فيه تقديم وتأخير أي ولقد همت به ولولا أن أري برهان ربه لهمّ بها وقال تعالى حاكياً عن المرأة ولقد راودته عن نفسه فاستعصم وقال تعالى: كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء، وقال تعالى: وغلقت الأبواب وقالت هيت لك قال معاذ الله الآية وقيل في قوله وهم بها أي بزجرها ووعظها وقيل هم بها أي همه امتناعه وقيل هم بها أي نظر إليها وقيل هم بضربها ودفعها وقيل هذا كله كان قبل نبوته وقد ذكر بعضهم ما زال النساء يملن إلى يوسف ميل شهوة زليخا حتى نبأه الله فألقى عله هيبة النبوة فشغلت هيبته كل من رآه عن حسه هذا آخر كلام القاضي عياض رحمه الله، وأما الإمام فخر الدين فذكر في هذا المقام كلاماً طويلاً مبسوطاً وأنا أذكر بعضه ملخصاً، فأقول قال الإمام فخر الدين الرازي: إن يوسف عليه الصلاة والسلام كان بريئاً من العمل الباطل والهم المحرم وهذا قول المحققين من المفسرين والمتكلمين وبه نقول وعنه نذب فإن الدلائل قد دلت على عصمة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ولا يلتفت إلى ما نقله بعض المفسرين عن الأئمة المتقدمين فإن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام متى صدرت منهم زلة أو هفوة استعظموها وأتبعوها بإظهار الندامة والتوبة والاستغفار كما ذكر عن آدم عليه السلام في قوله ربنا ظلمنا أنفسنا الآية وقال في حق داود عليه الصلاة والسلام فاستغفر ربه وخر راكعاً وأناب وأما يوسف عليه الصلاة والسلام فلم يحك عنه شيئاً من ذلك في هذه

جبريل: ولا حين هممت بها يا يوسف؟ فقال يوسف عند ذلك: ﴿ وما أُبرىء نفسي ﴾ [يوسف: ٥٣] الآية. وقال الحسن البصري: إن الله تعالى لم يذكر ذنوب الأنبياء عليهم السلام في القرآن ليعيّرهم، ولكن ذكرها ليبيّن موضع النعمة عليهم، ولئلا ييأس أحد من رحمته. وقيل: إنه ابتلاهم بالذنوب ليتفرّد بالطهارة والعزّة، ويلقاه جميع الخلق يوم القيامة على انكسار المعصية. وقيل: ليجعلهم أئمة لأهل الذنوب في رجاء الرحمة وترك الإياس من المغفرة والعفو. وقال بعض أهل الحقائق: الهمّ همّان همّ ثابتٌ وهو إذا كان معه عزم وعقد ورضى، مثل همّ امرأة العزيز، والعبد مأخوذ به، وهمّ عارضٌ وهو الخطرة وحديث النفس من غير اختيار ولا عزم، مثل همّ يوسف عليه السلام، والعبد غير مأخوذ به ما لم يتكلم أو يعمل. أخبرنا أبو علي حسان بن سعيد المنيعي أنبأنا أبو طاهر محمد بن محمد محمش الزيادي ثنا أبو بكر محمد بن الحسين القطان ثنا أحمد بن يوسف السلمي ثنا عبد الرزّاق ثنا معمر عن همّام بن منبّه قال: حدّثنا أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «قال اللّه عزّ وجلّ إذا تحدّث عبدي بأنْ يعملَ حسنةً فأنا أكتبها له حسنة ما لم يعملها، فإذا عملها فأنا أكتبها له بعشر أمثالها، وإذا تحدّث بأن يعمل سيئة فأنا أغفرها له ما لم يعملها، فإذا عملها فأنا أكتبها له بمثلها سيئة». قوله عزّ وجلّ: ﴿ لولا أَنْ رأى بُرْهَانَ رَبِّه ﴾، اختلفوا في ذلك البرهان، قال قتادة وأكثر المفسّرين: إنه رأى صورة يعقوب وهو يقول له: يا يوسف تعمل عمل السفهاء وأنت مكتوب في الأنبياء. وقال الحسن وسعيد بن جبير ومجاهد وعكرمة والضحاك: انفرج له سقف البيت فرأى يعقوب عليه السلام عاضّاً على أصبعه. وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما: مثل له يعقوب

الواقعة لأنه لو صدر منه شيء لأتبعه بالتوبة والاستغفار ولو أتى بالتوبة لحكى الله ذلك عنه في كتابه كما ذكر عن غيره من الأنبياء وحيث لم يحك عنه شيئاً علمنا براءته مما قيل فيه ولم يصدر عنه شيء كما نقله أصحاب الأخبار ويدل على ذلك أيضاً أن كل من كان له تعلق بهذه الواقعة فقد شهد ببراءة يوسف عليه السلام عما نسب إليه واعلم أن الذين لهم تعلق بهذه الواقعة يوسف والمرأة وزوجها والنسوة واللاتي قطعن أيديهن والمولود الذي شهد على القميص شهدوا ببراءته والله تعالى شهد ببراءته من الذنب أيضاً. أما بيان أن يوسف ادعى براءته مما نسب إليه فقوله هي راودتني عن نفسي، وقوله: رب السجن أحبّ إليّ مما يدعونني إليه. وأما بيان أن المرأة اعترفت ببراءة يوسف ونزاهته فقولها: أنا راودته عن نفسه فاستعصم، وقولها: الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين. وأما بيان أن زوج المرأة اعترف أيضاً ببراءة يوسف فقوله: إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم يوسف أعرض عن هذا واستغفري لذنبك إنك كنت من الخاطئين. وأما شهادة المولود ببراءته فقوله: وشهد شاهد من أهلها الآية وأما شهادة الله له بذلك فقوله تعالى كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين ومن كان كذلك فليس للشيطان عليه سلطان بدليل قوله لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين وبطل بهذا قول من قال إن الشيطان جرى بينهما حتى أخذ بجيده وجيد المرأة حتى جمع بينهما فإنه قول منكر لا يجوز لأحد أن يقول ذلك. وأما ما روي عن ابن عباس: إنه جلس منها مجلس الخائن فحاش ابن عباس أن يقول مثل هذا عن يوسف عليه الصلاة والسلام ولعل بعض أصحاب القصص وأصحاب الأخبار وضعوه عن ابن عباس، وكذلك ما روي عن مجاهد وغيره أيضاً فإنه لا يكاد يصح بسند صحيح وبطل ذلك كله وثبت ما بيناه من براءة يوسف عليه الصلاة والسلام من هذه الرذيلة والله أعلم بمراده وأسرار كتابه وما صدر من أنبيائه عليهم الصلاة والسلام.

فإن قلت: فعلى هذا التقدير لا يبقى لقوله عز وجل لولا أن رأى برهان ربه فائدة.

قلت: فيه أعظم الفوائد وبيانه من وجهين أحدهما: أنه تعالى أعلم يوسف أنه لو همّ بدفعها لقتلته فأعلمه بالبرهان أن الامتناع من ضربتها أولى صوناً للنفس عن الهلاك الوجه، الثاني: أنه عليه الصلاة والسلام لو اشتغل بدفعها عن نفسه لتعلقت به فكان في ذلك أن يتمزق ثوبه من قدام وكان في علم الله أن الشاهد يشهد بأنه ثوبه لو تمزق من قدام لكان يوسف هو الخائن وإذا تمزق من خلف كانت هي الخائنة فأعلمه الله بالبرهان هذا المعنى فلم يشتغل

عليه السلام فضرب بيده في صدره فخرجت شهوته من أنامله. وقال السدي: نودي يا يوسف تواقعها إنما مثلك ما لم تواقعها مثل الطير في جوف السماء لا يطاق ومثلك إن تواقعها مثله إذا مات ووقع في الأرض لا يستطيع أن يدفع نفسه، ومثلك ما لم تواقعها مثل الثور الصعب الذي لا يطاق ومثلك إن واقعتها مثل الثور يموت فيدخل النمل في أصل قرنيه لا يستطيع أن يدفعه عن نفسه. عن مجاهد عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿ وهمّ بها ﴾ قال: حلّ سراويله وقعد منها مقعد الرجل من امرأته فإذا بكفٍّ قد بدت بينهما بلا مِعصَم ولا عضد مكتوب عليها ﴿ وإنّ عليكم لحافظين كراماً كاتبين يعلمون ما تفعلون ﴾ [الانفطار: ١٠ و١١ و١٢]، فقام هارباً وقامت، فلما ذهب عنهما الرعب عادت وعاد فظهرت تلك الكفّ مكتوباً عليها: ﴿ ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلاً ﴾ [الإسراء: ٣٢] فقام هارباً وقامت، فلما ذهب عنهما الرعب عادت وعاد، فظهر ورأى تلك الكفّ مكتوباً عليها: ﴿ واتقوا يوماً تُرجعُون فيه إلى الله ﴾ [البقرة: ٢٨١] فقام هارباً وقامت، فلما ذهب عنهما الرعب عادت وعاد، فقال الله عزّ وجلّ لجبريل عليه السلام أدرك عبدي قبل أن يصيب الخطيئة، فانحطّ جبريل عليه السلام عاضّاً على أصبعه، يقول: يا يوسف تعمل عمل السفهاء وأنت مكتوب عند الله في الأنبياء ورُوِيَ أنه مسحه بجناحه فخرجت شهوته من أنامله. وقال محمد بن كعب القرظي: رفع يوسف رأسه إلى سقف البيت حين همّ بها فرأى كتاباً في

بدفعها عن نفسه بل ولى هارباً فأثبت بذلك الشاهد حجة له لا عليه وأما تفسير البرهان على ما ذكره المفسرون في قوله تعالى ﴿لولا أن رأى برهان ربه﴾ فقال قتادة وأكثر المفسرين: إن يوسف رأى صورة يعقوب عليه السلام وهو يقول له يا يوسف أتعمل عمل السفهاء وأنت مكتوب من الأنبياء. وقال الحسن وسعيد بن جبير ومجاهد وعكرمة والضحاك: انفرج له سقف البيت فرأى يعقوب عاضاً على أصبعه، وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس: مثل له يعقوب فضرب بيده في صدره فخرجت شهوته من أنامله وقال السدي نودي يا يوسف أتواقعها إنما مثلك ما لم تواقعها مثل الطير في جو السماء لا يطاق عليه وإن مثلك إن واقعتها كمثله إذا وقع على الأرض لا يستطيع أن يدفع عن نفسه شيئاً ومثلك ما لم تواقعها مثل الثور الصعب الذي لا يطاق ومثلك إن واقعتها كمثله إذا مات ودخل النمل في قرنه لا يستطيع أن يدفع عن نفسه وقيل إنه رأى معصماً بلا عضد عليه مكتوب ﴿وإن عليكم لحافظين كراماً كاتبين يعلمون ما تفعلون﴾ فولى هارباً ثم رجع فعاد المعصم وعليه مكتوب ﴿**ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا**﴾ فولى هارباً ثم عاد فرأى ذلك الكف وعليه مكتوب ﴿واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله﴾ الآية ثم عاد فقال الله تعالى لجبريل عليه السلام أدرك عبدي يوسف قبل أن يصيب الخطيئة فانحط جبريل عاضاً على أصبعه يقول يا يوسف أتعمل عمل السفهاء وأنت مكتوب عند الله من الأنبياء وقيل إنه مسه بجناحه فخرجت شهوته من أنامله قال محمد بن كعب القرظي رفع يوسف رأسه إلى سقف البيت فرأى كتاباً في حائط فيه ﴿**ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا**﴾ وفي رواية عن ابن عباس أنه رأى مثال ذلك الملك، وعن علي بن الحسين قال: كان في البيت صنم فقامت المرأة إليه وسترته بثوب فقال لها يوسف عليه السلام لم فعلت هذا قالت استحييت منه أن يراني على معصية فقال لها يوسف أتستحيين مما لا يسمع ولا يبصر ولا يفقه شيئاً فأنا أحق أن أستحيي من ربي فهرب فذلك قوله لولا أن رأى برهان ربه أما المحققون فقد فسروا البرهان بوجوه الأول، قال جعفر بن محمد الصادق: البرهان هو النبوة التي جعلها الله تعالى في قلبه حالت بينه وبين ما يسخط الله عز وجل الثاني البرهان حجة الله عز وجل على العبد في تحريم الزنا والعلم بما على الزاني من العقاب الثالث أن الله عز وجل طهر نفوس الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من الأخلاق الذميمة والأفعال الرذيلة وجبلهم على الأخلاق الشريفة الطاهرة المقدسة فتلك الأخلاق الطاهرة الشريفة تحجزهم عن فعل ما لا يليق فعله ﴿**كذلك**﴾ يعني كما رأيناه البرهان كذلك ﴿**لنصرف عنه السوء**﴾ يعني الإثم ﴿**والفحشاء**﴾ يعني الزنا، وقيل: السوء مقدمات الفحشاء وقيل السوء الثناء القبيح فصرف الله عنه ذلك كله وجعله من عباده المخلصين وهو قوله ﴿**إنه**﴾ يعني يوسف ﴿**من عبادنا المخلصين**﴾ قرىء بفتح اللام ومعناه أنه من عبادنا الذين اصطفيناهم بالنبوة واخترناهم على غيرهم وقرىء بكسر اللام ومعناه أنه من عبادنا الذين أخلصوا الطاعة لله عز وجل.

حائط البيت: ﴿ لا تقربُوا الزنا إنّه كان فاحشةً وساءَ سبيلًا ﴾ [الإسراء: ٣٢]، وروى عطية عن ابن عباس: في البرهان أنه رأى مثال الملك. وقال جعفر بن محمد الصادق رضي الله عنهما: البرهان النبوّة التي أودعها الله في صدره حالت بينه وبين ما يسخط الله عزّ وجلّ. وعن علي بن الحسين قال: كان في البيت صنم فقامت المرأة وسترته بثوب، فقال لها يوسف: لِمَ فعلتِ هذا؟ فقالت: استحييتُ منه أن يراني على المعصية، فقال يوسف: أتستحين مما لا يسمع ولا يبصر ولا يفقه؟ فأنا أحقُّ أن أستحي من ربّي وهرب قوله عزّ وجلّ: ﴿ **لولا أن رأى برهانَ ربِّه** ﴾ جواب لَولا محذوف تقديره: لولا أن رأى برهان ربِّهِ لواقع المعصية. ﴿ **كذلكَ لِنَصْرِفَ عنه السّوءَ والفحشاءَ** ﴾، فالسوءُ الإثم. وقيل: السوء القبيح والفحشاء: الزنا. ﴿ **إنَّه مِنْ عِبَادِنَا المُخْلَصِينَ** ﴾، قرأ أهل المدينة والكوفة: «المخلصـــين» بفتح اللام حيث كان إذا لم يكن بعده ذكر الدِّين، زاد الكوفيون ﴿ **مخلصاً** ﴾ في سورة مريم [٥١] عليها السلام ففتحوا. ومعنى ﴿ **المخلَصين** ﴾ المختارين للنبوّة، دليله: ﴿ **إنّا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار** ﴾ [صۤ: ٤٦]، وقرأ الآخرون بكسر اللام، أي: المخلِصين لله الطاعة والعبادة.

﴿وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِيَ رَٰوَدَتْنِي عَن نَّفْسِيۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿واستبقا الباب﴾ وذلك أن يوسف عليه الصلاة والسلام لما رأى البرهان قام هارباً مبادراً إلى الباب وتبعته المرأة لتمسك عليه الباب حتى لا يخرج والمسابقة طلب السبق فسبق يوسف وأدركته المرأة فتعلقت بقميصه من خلفه وجذبته إليها حتى لا يخرج فذلك قوله عز وجل: ﴿وقدت قميصه من دبر﴾ يعني شقته من خلف فغلبها يوسف فخرج وخرجت معه ﴿وألفيا سيدها لدى الباب﴾ يعني فلما خرجا وجدا زوج المرأة قطفير وهو العزيز عند الباب جالساً مع ابن عم المرأة فلما رأته المرأة هابته وخافت التهمة فسبقت يوسف بالقول ﴿قالت﴾ يعني لزوجها ﴿ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً﴾ يعني الفاحشة ثم خافت عليه أن يقتله وذلك لشدة حبها له فقالت ﴿إلا أن يسجن﴾ أي يحبس في السجن ويمنع التصرف ﴿أو عذاب أليم﴾ يعني الضرب بالسياط وإنما بدأت بذكر السجن دون العذاب لأن الحب لا يشتهي إيلام المحبوب وإنما أرادت أن يسجن عندها يوماً أو يومين ولم ترد السجن الطويل وهذه لطيفة فافهمها فلما سمع يوسف مقالتها أراد أن يبرهن عن نفسه ﴿قال﴾ يعني يوسف ﴿هي راودتني عن نفسي﴾ يعني طلبت مني الفحشاء فأبيت وفررت وذلك أن يوسف عليه الصلاة والسلام ما كان يريد أن يذكر هذا القول ولا يهتك سترها ولكن لما قالت هي ما قالت ولطخت عرضه احتاج إلى إزالة هذه التهمة عن نفسه فقال هي راودتني عن نفسي ﴿وشهد شاهد من أهلها﴾ يعني وحكم حاكم من أهل المرأة واختلفوا في ذلك الشاهد، فقال سعيد بن جبير والضحاك: كان صبياً في المهد فأنطقه الله عز وجل وهو رواية عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال «تكلم أربعة وهم صغار ابن ماشطة وابنة فرعون وشاهد يوسف وصاحب جريج وعيسى ابن مريم» ذكره البغوي بغير سند والذي جاء في الصحيحين «ثلاثة عيسى بن مريم وصاحب جريج وابن المرأة» وقصتهم مخرجة في الصحيح قيل كان هذا الصبي شاهد يوسف ابن خال المرأة. وقال الحسن وعكرمة وقتادة ومجاهد: لم يكن صبياً ولكنه كان رجلاً حكيماً ذا رأي،

﴿واسْتَبَقَا البابَ﴾، وذلك أن يوسف لمّا رأى البرهان قام مُبادِراً إلى باب البيت هارباً وتبعته المرأة لتمسك الباب حتى لا يخرج يوسف، فسبق يوسف وأدركته المرأة فتعلّقت بقميصه من الخلف فجذبته إليها حتى لا يخرج. ﴿وقَدَّتْ قميصَه﴾ أي: فشقّته ﴿مِنْ دُبُرٍ﴾، أي: من خلف، فلما خرجا لقيا العزيز، وهو قوله: ﴿وألفَيَا سَيِّدَها لدَى البابِ﴾، أي: وجدا زوج المرأة قطفير عند الباب جالساً مع ابن عمّ لراعيل فلما رأته هابته و﴿قالتْ﴾ سابقةً بالقول لزوجها: ﴿مَا جَزَاءُ مَنْ أرادَ بأهلِكَ سُوءاً﴾، يعني: الزنا، ثم خافت عليه أن يقتله فقالت: ﴿إلاّ أنْ يُسْجَن﴾، أي: يحبس، ﴿أو عذابٌ أليمٌ﴾، أي: ضرب بالسِّياط، فلما سمع يوسف مقالتها.

﴿قال هِيَ رَاوَدَتني عن نفسي﴾، يعني: طلبت مني الفاحشة فأبيت وفررت منها. وقيل: ما كان يريد يوسف أن يذكرها، فلما قالت المرأة ما جزاء مَن أراد بأهلك سوءاً ذكره، فقالت: هي راودتني عن نفسي. ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ﴾، وحكم حاكم، ﴿من أهلها﴾، اختلفوا في ذلك الشاهد، فقال سعيد بن جبير والضحاك: كان صبياً في المهد أنطقه الله عزّ وجلّ، وهو رواية العوفي عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: «تكلّم في المهد أربعة وهم صغار، ابن ماشطة ابنة فرعون، وشاهد يوسف، وصاحب جريج، وعيسى ابن مريم عليه السلام». وقيل: كان ذلك الصبي ابن خال المرأة. وقال الحسن وعكرمة وقتادة ومجاهد: لم يكن صبياً ولكنه كان رجلاً

وقال السدي: هو ابن عم المرأة فحكم فقال ﴿إن كان قميصه قد من قبل﴾ أي من قدام ﴿فصدقت وهو من الكاذبين﴾.

وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَـٰذَا ۚ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾ ۞ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾

﴿وإن كان قميصه قد من دبر﴾ أي من خلف ﴿فكذبت وهو من الصادقين﴾ وإنما كان هذا الشاهد من أهل المرأة ليكون أقوى من نفي التهمة عن يوسف عليه الصلاة والسلام ونفي التهمة عنه من وجوه منها أنه كان في الظاهر مملوك هذه المرأة والمملوك لا يبسط يديه إلى سيدته ومنها أنهم شاهدوا يوسف يعدو هارباً منها والطالب لا يهرب ومنها أنهم رأوا المرأة قد تزينت بأكمل الوجوه فكان إلحاق التهمة بها أولى ومنها أنهم عرفوا يوسف في المدة الطويلة فلم يروا عليه حالة تناسب إقدامه على مثل هذه الحالة فكان مجموع هذه العلامات دلالة على صدقه مع شهادة الشاهد له بصدقه أيضاً ﴿فلما رأى قميصه قد من دبر﴾ يعني فلما رأى قطفير زوج المرأة قميص يوسف عليه الصلاة والسلام قد من خلفه عرف خيانة امرأته وبراءة يوسف عليه الصلاة والسلام ﴿قال﴾ يعني قال لها زوجها قطفير ﴿إنه﴾ يعني هذا الصنيع ﴿من كيدكن﴾ يعني من حيلكن ومكركن ﴿إن كيدكن عظيم﴾ فإن قلت كيف وصف كيد النساء بالعظيم مع قوله تعالى وخلق الإنسان ضعيفاً وهلا كان مكر الرجال أعظم من مكر النساء.

قلت أما كون الإنسان خلق ضعيفاً فهو بالنسبة إلى خلق ما هو أعظم منه كخلق الملائكة والسموات والأرض والجبال ونحو ذلك وأما عظم كيد النساء ومكرهن في هذا الباب فهو أعظم من كيد جميع البشر لأن لهن من المكر والحيل والكيد في إتمام مرادهن ما لا يقدر عليه الرجال في هذا الباب، وقيل: إن قوله إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم من قول الشاهد وذلك أنه لما ثبت عنده خيانة المرأة وبراءة يوسف عليه الصلاة والسلام قال هذه المقالة ﴿يوسف﴾ يعني يا يوسف ﴿أعرض عن هذا﴾ يعني اترك هذا الحديث فلا تذكره لأحد حتى لا يفشو ويشيع وينتشر بين الناس وقيل

حكيماً ذا رأي. قال السدي: هو ابن عمّ راعيل فحكم فقال: ﴿ إنْ كان قميصُه قُدّ مِن قُبُلٍ ﴾، أي: من قدّام، ﴿ فصدقتْ وهو من الكاذبين ﴾.

﴿ وإنْ كانَ قميصُه قُدّ مِن دُبُرٍ فكذبتْ وهو مِنَ الصادقين ﴾.

﴿ فلَمّا رأى ﴾، قطفير، ﴿ قميصَه قُدّ مِن دُبُرٍ ﴾ عرف خيانة امرأته وبراءة يوسف عليه السلام، ﴿ قال ﴾ لها ﴿ إنّـه ﴾، أي: إن هذا الصنيع، ﴿ مِنْ كَيْدِكُنّ إنّ كَيْدَكُنّ عظيم ﴾، وقيل: إن هذا من قول الشاهد ثم أقبل قطفير على يوسف فقال:

﴿ يـــوسف ﴾، أي: يــا يوسفُ، ﴿ أعرضْ عن هذا ﴾ أي: عن هذا الحديث فلا تذكره لأحد حتى لا يشيع. وقيل: معناه لا تكترث به فقد بانَ عذرُك وبراءَتُك، ثم قال لامرأته: ﴿ واستغفري لذنْبِك ﴾، أي: توبي إلى الله، ﴿ إنّكِ كنتِ مِنَ الخاطئين ﴾، من المذنبين. وقيل: إن هذا من قول الشاهد ليوسف ولراعيل، وأراد بقوله واستغفري لذنبك، أي سَلِي زوجك أن لا يعاقبك ويصفح عنك، إنك كنتِ من الخاطئين، من المذنبين حتى راودتِ شاباً عن نفسه وخنتِ زوجك، فلما استعصم كذبت عليه، وإنما قال من الخاطئين ولم يقل من الخاطئات،

معناه يا يوسف لا تكترث بهذا الأمر ولا تهتم به فقد بان عذرك وبراءتك ثم التفت إلى المرأة فقال لها ﴿واستغفري لذنبك﴾ يعني توبي إلى الله مما رميت يوسف به من الخطيئة وهو بريء منها وقيل إن هذا من قول الشاهد يقول للمرأة سلي زوجك أن يصفح عنك ولا يعاقبك بسبب ذنبك ﴿إنك كنت من الخاطئين﴾ يعني من المذنبين حين خنت زوجك ورميت يوسف بالتهمة وهو بريء وإنما قال من الخاطئين ولم يقل من الخاطئات تغليباً لجنس الرجال على النساء وقيل إنه لم يقصد به الخبر عن النساء بل قصد الخبر عن كل ما يفعل هذا الفعل تقديره إنك كنت من القوم الخاطئين فهو كقوله وكانت من القانتين.

قوله عز وجل: ﴿وقال نسوة في المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه﴾ يعني وقال جماعة من النساء وكنَّ خمساً وقيل كن أربعاً وذلك لما شاع خبر يوسف والمرأة في مدينة مصر وقيل هي مدينة عين الشمس وتحدثت النساء فيما بينهن بذلك وهن امرأة حاجب الملك وامرأة صاحب دوابه وامرأة خبازه وامرأة ساقيه وامرأة صابح سجنه وقيل نسوة من أشراف مصر امرأة العزيز يعني زليخا تراود فتاها عن نفسه يعني تراود عبدها الكنعاني عن نفسه لأنها تطلب منه الفاحشة وهو يمتنع منها والفتى الشاب الحديث السن ﴿قد شغفها حباً﴾ يعني قد علقها حباً والشغاف جلدة محيطة بالقلب يقال لها غلاف القلب والمعنى أن حبه دخل الجلدة حتى أصاب القلب وقيل إن حبه قد أحاط بقلبها كإحاطة الشغاف بالقلب قال الكلبي حجب حبه قلبها حتى لا تعقل شيئاً سواه ﴿إنا لنراها في ضلال مبين﴾ يعني في خطأ بيّن ظاهر حيث تركت ما يجب على أمثالها من العفاف والستر وأحبت فتاها.

﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾﴾

﴿فلما سمعت بمكرهن﴾ يعني فلما سمعت زليخا بقولهن وما تحدثن به إنما سمى قولهن ذلك مكراً لأنهن طلبن بذلك رؤية يوسف وكان وصف لهن حسنه وجماله فقصدن أن يرينه وقيل إن امرأة العزيز أفشت إليهن سرها

لأنه لم يقصد به الخبر عن النساء بل قصد به الخبر عمّن يفعل ذلك، تقديره: من القوم الخاطئين، كقوله تعالى: ﴿ وكانَتْ من القانتين ﴾ [التحريم: ١٢] بيانه قوله تعالى: ﴿ إنّها كانَتْ من قوم ٍ كافرين ﴾ [النمل: ٤٣].

قوله عزّ وجلّ: ﴿ وقال نسوةٌ في المدينة ﴾ الآية، يقول: شاع أمرُ يوسف والمرأة في المدينة مدينة مصر. وقيل: مدينة عين الشمس، وتحدّثت النساء بذلك وقلنَ وهنّ خمسة نسوة، امرأة حاجب الملك، وامرأة صاحب الدواب، وامرأة الخبّاز، وامرأة الساقي، وامرأة صاحب السجن، قاله مقاتل. وقيل: هنّ نسوة من أشراف مصر، ﴿ امرأةُ العزيزِ تُراوِدُ فَتَاهَا ﴾، أي: عبدها الكنعاني، ﴿ عَنْ نفسِه ﴾، أي: تطلب من عبدها الفاحشة، ﴿ قَدْ شَغَفَها حُبّاً ﴾، أي: علقها حبّاً. قال الكلبي: حجب حبُّه قلبَها حتى لا تعقل سواه. وقيل: أحبته حتى دخل حبه شغاف قلبها، أي: داخل قلبها. قال السدي: الشغاف جلدة رقيقة على القلب، يقول دخل الحب الجلد حتى أصاب القلب. وقرأ الشعبي والأعرج: «شـعفها» بالعين غير المعجمة، معناه: ذهب الحب بها كل مذهب. ومنه شعف الجبال وهو رؤوسها. ﴿ إنّا لَنَراها في ضلالٍ مبين ﴾، أي: خطأ ظاهر. وقيل: إنها تركت ما يكون على أمثالها من العفاف والستر.

﴿ فلمّا سمعتْ ﴾، راعيل، ﴿ بمكرِهنّ ﴾، بقولهنّ وحديثهنّ، قاله قتادة والسدي. وقال ابن إسحاق: إنما قلنَ ذلك مكراً بها لتريهنّ يوسف، وكان وصف لهنّ حسنُه وجماله. وقيل: إنها أفشت إليهنّ ذلك، فلذلك سمّاه مكراً. ﴿ أرسَلَتْ إليهنّ ﴾، قال وهب: اتخذت مأدبة ودعت أربعين امرأة منهنّ هؤلاء اللاتي عيّرنها.

واستكتمتهن فأفشين ذلك عليها فلذلك سماه مكراً ﴿أرسلت إليهن﴾ يعني أنها لما سمعت بأنهن يلمنها على محبتها ليوسف أرادت أن تقيم عذرها عندهن قال وهب اتخذت مائدة يعني صنعت لهن وليمة وضيافة ودعت أربعين امرأة من أشراف مدينتها فيهن هؤلاء اللاتي عيرنها ﴿وأعتدت لهن متكأ﴾ يعني ووضعت لهن نمارق ومساند يتكئن عليها، وقال ابن عباس وابن جبير والحسن وقتادة ومجاهد: متكأ يعني طعاماً وإنما سمي الطعام متكئاً لأن كل من دعوته ليطعم عندك فقد أعددت له وسائد يجلس ويتكىء عليها فسمي الطعام متكئاً على الاستعارة ويقال: اتكأنا عند فلان أي طعمنا عنده المتكأ ما يتكأ عليه عند الطعام والشراب والحديث ولذلك جاء النهي عنه في الحديث وهو قوله ﷺ «لا آكل متكئاً» وقيل المتكأ الأترج وقيل هو كل شيء يقطع بالسكين أو يحز بها ويقال إن المرأة زينت البيت بألوان الفاكهة والأطعمة ووضعت الوسائد ودعت النسوة اللاتي عيرنها بحب يوسف ﴿وآتت كل واحدة منهن سكيناً﴾ يعني وأعطت كل واحدة من النساء سكيناً لتأكل بها وكان من عادتهم أن يأكلن اللحم والفواكه بالسكين ﴿وقالت اخرج عليهن﴾ يعني وقالت زليخا ليوسف اخرج على النسوة وكان يخاف من مخالفتها فخرج عليهن يوسف وكانت قد زينته واختبأته في مكان آخر ﴿فلما رأينه﴾ يعني النسوة ﴿أكبرنه﴾ يعني أعظمنه ودهشن عند رؤيته وكان يوسف قد أعطي شطر الحسن، وقال عكرمة: كان فضل يوسف على الناس في الحسن كفضل القمر ليلة البدر على سائر النجوم وروى أبو سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ «رأيت ليلة أسري بي إلى السماء يوسف كالقمر ليلة البدر» ذكره البغوي بغير سند، وقال إسحاق بن أبي فروة: كان يوسف إذا سار في أزقة مصر تلألأ وجهه على الجدران ويقال إنه ورث حسن آدم يوم خلقه الله عز وجل قبل أن يخرج من الجنة وقال أبو العالية هالهن أمره وبهتن إليه وفي رواية عن ابن عباس قال أكبرنه أي حضن ونحوه، عن مجاهد والضحاك قال: حضن من الفرج وأنكر أكثر أهل اللغة هذا القول. قال الزجاج: هذه اللفظة ليست معروفة في اللغة والهاء في أكبرنه تمنع من هذا لأنه لا يجوز أن يقال النساء قد حضنه لأن حضن لا يتعدى إلى مفعول قال الأزهري إن صحت هذه اللفظة فلها مخرج وذلك أن المرأة إذا حاضت أول ما تحيض فقد خرجت من حد الصغار إلى حد الكبار فيقال لها أكبرت أي حاضت على هذا المعنى فإن صحت الرواية عن ابن عباس، سلمنا له وجعلنا الهاء في قوله أكبرنه هاء الوقف لا هاء الكناية، وقيل: إن المرأة إذا خافت أو فزعت فربما أسقطت ولدها وتحيض فإن كان ثم حيض فربما كان من فزعهن وما هالهن من أمر يوسف حين رأينه قال الإمام

﴿ وأعْتَدَتْ ﴾، أي: أعدّت، ﴿ لهنّ متّكأً ﴾، أي: ما يتكأ عليه. وقال ابن عباس وسعيد بن جبير والحسن وقتادة ومجاهد: متكأً أي: طعاماً سمّاه متكأً لأن أهل الطعام إذا جلسوا يتّكئون على الوسائد، فسمّى الطعام متّكأً على الاستعارة. يقال: اتّكأنا عند فلان أي: طعمنا. ويقال: المتّكأ ما اتّكأت عليه للشراب أو الحديث أو الطعام، ويقرأ في الشواذ متكأ بسكون التاء. واختلفوا في معناه، فقال ابن عباس: هو الأترج. وقد رُوِيَ عن مجاهد مثله. وقيل: هو الأترج بالحبشة. وقال الضحاك: هو الربا ورد. وقال عكرمة: هو كل شيء يُقطع بالسكّين. وقال أبو زيد الأنصاري: كلّ ما يُجَزّ بالسكين فهو عند العرب متك، والمتك والبتك بالميم والباء: القطع، فزيّنت المأدبة بألوان الفواكهة والأطعمة، ووضعت الوسائد ودعت النسوة. ﴿ وآتَتْ ﴾، أعطت، ﴿ كلَّ واحدةٍ منهنَّ سِكّيناً ﴾، فكنّ يأكلنَ اللحم حزّاً بالسكين. ﴿ وقالت ﴾، ليوسف، ﴿ اخْرُجْ عليهنّ ﴾، وذلك أنها كانت أجلسته في مكان آخر، فخرج عليهنّ يوسف. قال عكرمة: كان فضل يوسف على سائر الناس في الحُسْن كفضل القمر ليلة البدر على سائر النجوم. ورُوِيَ عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «رأيتُ ليلةَ أُسرِيَ بي إلى السماء يوسفَ كالقمر ليلة البدر». قال إسحق بن أبي فروة: كان يوسف إذا سار في أزقّة مصر يُرى تلألأ وجهه على الجدران. ﴿ فلمّا رأيْنَهُ أكْبَرْنَهُ ﴾، أعظمنه، قال أبو العالية: هالَهُنّ أمرُه وبُهِتْنَ. وقيل: أكبرنَه أي: حضن لأجله من جماله. ولا

فخر الدين الرازي: وعندي أنه يحتمل وجهاً آخر وهو أنهن إنما أكبرنه لأنهن رأين عليه نور النبوة وسيما الرسالة آثار الخضوع والإخبات وشاهدن فيه مهابة وهيبة ملكية وهي عدم الالتفات إلى المطعوم والمنكوح وعدم الاعتداد بهن وكان ذلك الجمال العظيم مقروناً بتلك الهيبة والهيئة فتعجبن من تلك الحالة فلا جرم أكبرنه وأعظمنه ووقع الرعب والمهابة في قلوبهن قال وحمل الآية على هذا الوجه أولى ﴿وقطعن أيديهن﴾ يعني: وجعلن يقطعن أيديهن بالسكاكين التي معهن وهن يحسبن أنهن يقطعن الأترج ولم يجدن الألم لدهشتهن وشغل قلوبهن بيوسف قال مجاهد فما أحسسن إلا بالدم، وقال قتادة: أبن أيديهن حتى ألقينها والأصح أنه كان قطعاً من غير إبانة، قال وهب: مات جماعة منهن ﴿وقلن﴾ يعني النسوة ﴿حاش لله ما هذا بشراً﴾ أي معاذ الله أن يكون هذا بشراً ﴿إن هذا إلا ملك كريم﴾ يعني على الله والمقصود من هذا إثبات الحسن العظيم المفرط ليوسف لأنه قد ركز في النفوس أن لاشيء أحسن من الملك فلذلك وصفته بكونه ملكاً وقيل لما كان الملك مطهراً من بواعث الشهوة وجميع الآفات والحوادث التي تحصل للبشر وصفن يوسف بذلك.

﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْءَايَٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قالت فذلكن الذي لمتنني فيه﴾ يعني قالت امرأة العزيز للنسوة لما رأين يوسف ودهشن عند رؤيته فذلكن الذي لمتنني في محبته وإنما قالت ذلك لإقامة عذرها عندهن حين قلن إن امرأة العزيز قد شغفها فتاها الكنعاني حباً وإنما قالت فذلكن الذي الخ بعد ما قام من المجلس وذهب وقال صاحب الكشاف قالت فذلكن ولم تقل فهذا وهو حاضر رفعا لمنزلته في الحسن واستحقاق أن يحب ويفتن به ويجوز أن يكون إشارة إلى المعنى بقولهن عشقت عبدها الكنعاني تقول هو ذلك العبد الكنعاني الذي صورتن في أنفسكن ثم لمتنني فيه ثم إن امرأة العزيز صرحت بما فعلت فقالت ﴿ولقد راودته عن نفسه فاستعصم﴾ يعني فامتنع من ذلك الفعل الذي طلبته منه وإنما صرحت بذلك لأنها علمت أنه لا ملامة عليها منهن وأنهن قد أصابهن ما أصابها عند رؤيته ثم إن امرأة العزيز قالت ﴿ولئن لم يفعل ما آمره﴾ يعني وإن لم يطاوعني فيما دعوته إليه ﴿ليسجنن﴾ أي ليعاقبن بالسجن والحبس ﴿وليكوناً من الصاغرين﴾ يعني: من الأذلاء المهانين فقال النسوة ليوسف أطع مولاتك فيما دعتك إليه فاختار يوسف السجن على المعصية حين

يصحّ. ﴿ وقطّعن ﴾، أي: حززن بالسكاكين التي معهنّ، ﴿أيْدِيهُنَّ﴾، وهنّ يحسبن أنهنّ يقطعن الأترج، ولم يجدن الألم لشغل قلوبهنّ بيوسف. قال مجاهد: فما أحسسن إلّا بالدم. وقال قتادة: إنّهنّ أبنّ أيديهنّ حتى ألقينها. والأصحّ كان قطعاً بلا إبانة، وقال وهب: ماتت جماعة منهنّ. ﴿ وقُلْنَ حاشَ لِلّه ما هذا بشراً ﴾، أي: معاذ الله أن يكون هذا بشراً. حاشا الله بإثبات الألف في الحرفين، قرأهما أبو عمرو في الوصل على الأصل، وقرأ الآخرون بحذف الألف في الحرفين لكثرة دورها على الألسن وإتباع الكذب. وقوله: ﴿ ما هذا بشراً ﴾ نصب بنزع حرف الصفة، أي: ببشر، ﴿ إنْ هذا ﴾، أي: ما هذا، ﴿ إلاّ مَلَكٌ ﴾، من الملائكة، ﴿ كريمٌ ﴾، على الله.

﴿ قالت ﴾، يعني راعيل، ﴿ فَذَلِكُنَّ الذي لُمْتُنَّني فيه ﴾، أي: في حبه، ثم صرّحت بما فعلت، فقالت: ﴿ ولقدْ رَاودتُه عن نفسِهِ فاسْتَعْصَمَ ﴾، أي: امتنع، وإنما صرّحت به لأنها علمت أن لا ملامة عليها منهنّ وقد

توعدته المرأة بذلك ﴿قال رب﴾ أي يا رب ﴿السجن أحب إليّ مما يدعونني إليه﴾ قيل: إن الدعاء كان منها خاصة وإنما أضافه إليهن جميعاً خروجاً من التصريح إلى التعريض، وقيل: إنهن جميعاً دعونه إلى أنفسهن، وقيل: إنهن لما قلن له أطع مولاتك صحت إضافة الدعاء إليهن جميعاً أو لأنه كان بحضرتهن قال بعضهم أو لم يقل السجن أحب إليّ لم يبتل بالسجن والأولى بالعبد أن يسأل الله العافية ﴿وإلا تصرف عني كيدهن﴾ يعني ما أردن مني ﴿أصب إليهن﴾ أي أمل إليهن يقال صبا فلان إلى كذا إذا مال إليه واشتاقه ﴿وأكن من الجاهلين﴾ يعني من المذنبين وقيل معناه أكن ممن يستحق صفة الذم بالجهل، وفيه دليل على أن من ارتكب ذنباً إنما يرتكبه عن جهالة ﴿فاستجاب له ربه﴾ يعني فأجاب الله تعالى دعاء يوسف ﴿فصرف عنه كيدهن إنه هو السميع﴾ يعني لدعاء يوسف وغيره ﴿العليم﴾ يعني بحاله وفي الآية دليل على أن يوسف عليه الصلاة والسلام لما أظلته البلية بكيد النساء ومطالبتهن إياه بما لا يليق بحاله لجأ إلى الله وفزع إلى الدعاء رغبة إلى الله ليكشف عنه ما نزل به من ذلك الأمر مع الاعتراف بأنه إن لم يعصمه من المعصية وقع فيها فدل ذلك على أنه لا يقدر أحد عن الانصراف عن المعصية إلا بعصمة الله ولطفه به.

قوله عز وجل: ﴿ثم بدا لهم﴾ يعني للعزيز وأصحابه في الرأي وذلك أنهم أرادوا أن يقتصروا من أمر يوسف على الإعراض وكتم الحال وذلك أن المرأة قالت لزوجها إن ذلك العبد العبراني قد فضحني عند الناس يخبرهم بأني قد راودته عن نفسه فإما أن تأذن لي فأخرج وأعتذر إلى الناس وإما أن تحبسه فرأى حبسه ﴿من بعد ما رأوا الآيات﴾ يعني الدالة على صدق يوسف وبراءته من قد القميص وكلام الطفل وقطع النساء أيديهن وذهاب عقولهن عند رؤيته

أصابهنّ ما أصابها من رؤيته، فقلن له: أطع مولاتك. فقالتْ راعيل: ﴿ ولَئِنْ لم يفعلْ ما آمُرُهُ ﴾، ولئن لم يطاوعني فيما دعوته إليه، ﴿ لَيُسْجَنَنَّ ﴾، أي: ليعاقبنّ بالحبس، ﴿ وليكونا مِنَ الصَّاغِرين ﴾، من الأذلاّء. ونون التوكيد تثقّل وتخفّف، والوقف على قوله: ﴿ ليسجننّ ﴾ بالنون لأنها مشدّدة، وعلى قوله: ﴿ وليكونا ﴾ بالألف لأنها مخفّفة، وهي شُبهة نون الإعراب في الأسماء، كقوله: رأيت رجلاً، وإذا وقفت: رأيت رجلا بالألف، ومثله: ﴿ لنسفعاً بالناصية ﴾ [العلق: ١٥]. فاختار يوسف عليه السلام السجن على المعصية حين توعّدته المرأة.

﴿ قال ربِّ ﴾، أي: يا رب، ﴿ السجنُ أحبُّ إليّ مما يدعونني إليه ﴾، قيل: كان الدعاء منها خاصّة، ولكنه أضاف إليهنّ خروجاً من التصريح إلى التعريض. وقيل: إنهنّ جميعاً دعونه إلى أنفسهنّ. وقرأ يعقوب وحده: بفتح السين. وقرأ الآخرون بكسرها. واتفقوا على كسر السين في قوله: ﴿ دخل معه السجن ﴾ [يوسف: ٣٦]. وقيل: لولم يقل السجن أحبّ إليّ لم يبتلِ بالسجن، والأولى بالمرء أن يسأل الله العافية. قوله تعالى: ﴿ وإلاّ تَصْرِفْ عنّي كيدَهُنّ أصبُ إليهنّ ﴾، أمِلْ إليهنّ وأُتابعهنّ، يقال: صبا فلان إلى كذا يصبوا صبواً وصُبُوّاً وصَبْوَةً إذا مال واشتاق إليه. ﴿ وأكُنْ مِن الجاهلين ﴾، فيه دليل على أن المؤمن إذا ارتكب ذنباً يرتكبه عن جهالة.

﴿ فاستجابَ له ربُّه فصرفَ عنه كيدَهُنَّ إنّه هو السميعُ العليمُ ﴾، السميع لدعائه العليم بمكرهنّ.

﴿ ثمّ بَدَا لهم ﴾، يعني للعزيز وأصحابه في الرأي وذلك أنهم أرادوا أن يقتصروا من أمر يوسف على الأمر بالإعراض. ثم بدا لهم أن يحبسوه. ﴿ مِنْ بعدِ مَا رأوا الآياتِ ﴾، الدالّة على براءة يوسف من قدِّ القميص وكلام الطفل وقطع النساء أيديهنّ وذهاب عقولهنّ. ﴿ لَيَسْجُنُنَّهُ حتّى حينٍ ﴾، إلى مدّة يرون فيه رأيهم. وقال عطاء: إلى أن تنقطع مقالة الناس. قال عكرمة: سبع سنين. وقال الكلبي: خمس سنين. قال السدي: وذلك أن المرأة قالت لزوجها: إن هذا العبد العبراني قد فضحني في الناس يخبرهم أني راودتُه عن نفسه، فإما أن تأذن لي أن أخرج فأعتذر إلى الناس، وإما أن تحبسه، فحبسهُ وذُكر أن الله تعالى جعل ذلك الحبس تطهيراً ليوسف عليه السلام من

﴿ليسجننه﴾ أي ليحبسن يوسف في السجن ﴿حتى حين﴾ يعني إلى مدة يرون رأيهم فيها، وقال عطاء: إلى أن تنقطع مقالة الناس، وقال عكرمة: إلى سبع سنين، وقال الكلبي: خمس سنين فحبسه، قال السدي: جعل الله ذلك الحبس تطهيراً ليوسف من همه بالمرأة.

﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعْصِرُ خَمْرًاۖ وَقَالَ ٱلْأَخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٣٦﴾

﴿ودخل معه السجن فتيان﴾ وهما غلامان كانا للوليد بن شروان العمليق ملك مصر الأكبر أحدهما خبازه وصاحب طعامه والآخر ساقيه وصاحب شرابه وكان قد غضب عليهما الملك فحبسهما، وكان السبب في ذلك أن جماعة من أشراف مصر أرادوا المكر بالملك واغتياله وقتله فضمنوا لهذين الغلامين مالاً على أن يسما الملك في طعامه وشرابه فأجابا إلى ذلك ثم إن الساقي ندم فرجع عن ذلك وقبل الخباز الرشوة وسم الطعام فلما حضر الطعام بين يدي الملك قال الساقي لا تأكل أيها الملك فإن الطعام مسموم وقال الخباز لا تشرب فإن الشراب مسموم فقال للساقي اشرب فشربه فلم يضره وقال للخباز كل من طعامك فأبى فأطعم من ذلك الطعام دابة فهلكت فأمر الملك بحبسهما فحبسا مع يوسف وكان يوسف لما دخل السجن جعل ينشر علمه ويقول إني أعبر الأحلام فقال أحد الغلامين لصاحبه هلم فلنجرب هذا الغلام العبراني فتراءيا له رؤيا فسألاه من غير أن يكونا قد رأيا شيئاً قال ابن مسعود ما رأيا شيئاً إنما تحالما ليجربا يوسف وقال بل كانا قد رأيا رؤيا حقيقة فرآهما يوسف وهما مهمومان فسألهما عن شأنهما فذكرا أنهما غلامان للملك وقد حبسهما وقد رأيا رؤيا قد غمتهما فقال يوسف قصا علي ما رأيتما فقصا عليه ما رأياه فذلك قوله تعالى: ﴿قال أحدهما﴾ وهو صاحب شراب الملك ﴿إني أراني أعصر خمراً﴾ يعني عنباً سمي العنب خمراً باسم ما يؤول إليه يقال فلان يطبخ الآجر أي يطبخ اللبن حتى يصير آجراً، وقيل: الخمر العنب بلغة عمان وذلك أنه قال إني رأيت في المنام كأني في بستان وإذا فيه أصل حبلة عليها ثلاثة عناقيد عنب فجنيتها وكان كأس الملك في يدي فعصرتها فيه وسقيت الملك فشربه ﴿وقال الآخر﴾ وهو صاحب طعام الملك ﴿إني أراني أحمل فوق رأسي

همّه بالمرأة. قال ابن عباس: عثر يوسف ثلاث عثرات حين همّ بها فسجن، وحين قال اذكرني عند ربك فلبث في السجن بضع سنين، وحين قال للإخوة إنكم لسارقون، فقالوا: إنْ يسرق فقد سرق أخ له من قبل.

قوله تعالى: ﴿ ودخلَ معه السجنَ فتيان ﴾، وهما غلامان كانا للريّان بن الوليد بن شروان العمليق ملك مصر الأكبر، أحدهما خبّازه وصاحب طعامه والآخر ساقيه وصاحب شرابه، غضب الملك عليهما فحبسهما. وكان السبب فيه أن جماعة من أهل مصر أرادوا المكر بالملك واغتياله فضمنوا لهذين مالاً لِيَسُمّا الملك في طعامه وشرابه فأجاباهم، ثم إن الساقي نكل عنه، وقَبِلَ الخبّاز الرشوة فسمّ الطعام، فلما أحضر الطعام والشراب، قال الساقي: لا تأكل أيها الملك فإن الطعام مسموم، وقال الخبّاز لا تشرب فإن الشراب مسموم، فقال الملك للساقي: اشرب فشربه فلم يضرّه، وقال للخبّاز: كُلْ من طعام، فأبى فجرّب ذلك الطعام على دابّة فأكلته فهلكت، فأمر الملك بحبسهما وكان يوسف حين دخل السجن جعل ينشر علمه ويقول إني أُعبّر الأحلام، فقال أحد الفتيين لصاحبه: هلمّ فلنجرّب هذا العبراني، فتراءيا له فسألاه من غير أن يكونا رأيا شيئاً، قال ابن مسعود ما رأيا شيئاً وإنما تحالَما ليجرّبا يوسف، وقال قوم: بل كانا رأيا حقيقة، فرآهما يوسف وهما مهمومان فسألهما عن شأنهما، فذكرا أنهما غلامان للملك وقد حبسهما، وقد رأيا رؤياً قد غمّتهما، فقال يوسف: قُصّا عليّ ما رأيتُما، فقصّا عليه ﴿ قال أحدُهما ﴾، وهو صاحب الشراب، ﴿ إني أراني أعصرُ خمراً ﴾، أي: عنباً سُمّي العنب خمراً باسم ما يؤل إليه، كمايقال فلان

خبزاً تأكل الطير منه﴾ وذلك أنه قال إني رأيت في المنام كأن فوق رأسي ثلاث سلال فيها الخبز وألوان الأطعمة وسباع الطير تنهش منها **﴿نبئنا بتأويله﴾** أي أخبرنا بتفسير ما رأينا وما يؤول إليه أمر هذه الرؤيا **﴿إنا نراك من المحسنين﴾** يعني من العالمين بعبارة الرؤيا والإحسان هنا بمعنى العلم، وسئل الضحاك ما كان إحسانه فقال: كان إذا مرض إنسان في الحبس عاده وقام عليه وإذا ضاق على أحد وسع عليه وإذا احتاج أحد جمع له شيئاً وكان مع هذا يجتهد في العبادة يصوم النهار ويقوم الليل كله للصلاة. وقيل: إنه لما دخل السجن وجد فيه قوماً اشتد بلاؤهم وانقطع رجاؤهم وطال حزنهم فجعل يسليهم ويقول إصبروا وأبشروا فقالوا بارك الله فيك يا فتى ما أحسن وجهك وخلقك وحديثك لقد بورك لنا في جوارك فمن أين أنت قال أنا يوسف بن صفي الله يعقوب بن ذبيح الله إسحاق بن خليل الله إبراهيم فقال له صاحب السجن يا فتى والله لو استطعت لخليت سبيلك ولكن سأرفق بك وأحسن جوارك واختر أي بيوت السجن شئت وقيل إن الفتيين لما رأيا يوسف قالا إنا قد أحببناك منذ رأيناك فقال لهما يوسف أنشدكما بالله أن لا تحباني فوالله ما أحبني أحد قط إلا دخل عليّ من حبه بلاء لقد أحبتني عمتي فدخل عليّ من ذلك بلاء وأحبني أبي فألقيت في الجب وأحبتني امرأة العزيز فحبست فلما قصا عليه رؤياهما كره يوسف أن يعبرها لهما حين سألاه لما علم ما في ذلك من المكروه لأحدهما وأعرض عن سؤالهما وأخذ في غيره من إظهار المعجزة والنبوة والدعاء إلى التوحيد وقيل إنه عليه السلام أراد أن يبين لهما أن درجته في العلم أعلى وأعظم مما اعتقدا فيه وذلك أنهما طلبا منه علم التعبير ولا شك أن هذا العلم مبني على الظن والتخمين فأراد أن يعلمهما أنه يمكنه الإخبار عن المغيبات على سبيل القطع واليقين وذلك مما يعجز الخلق عنه وإذا قدر على الإخبار عن الغيوب كان أقدر على تعبير الرؤيا بطريق الأولى. وقيل: إنما عدل عن تعبير رؤياهما إلى إظهار المعجزة لأنه علم أن أحدهما سيصلب فأراد أن يدخله في الإسلام ويخلصه من الكفر ودخول النار فأظهر له المعجزة لهذا السبب.

يطبخ الآجر أي يطبخ اللَّبِنِ للآجر. وقيل: الخمر العنب بلغة عمان، وذلك أنه قال إني رأيتُ كأني في بستان، فإذا أنا بأصل حَبْلة عليها ثلاث عناقيد من عنب فجنيتها وكان كأس الملك بيدي فعصرتها فيه وسقيت الملك فشربه.

﴿ وقال الآخر ﴾، وهو الخبّاز **﴿ إني أراني أحمل فوق رأسي خبزاً تأكل الطيرُ منه ﴾**، وذلك أنه قال: إني رأيت كأن فوق رأسي ثلاث سِلال فيها الخبز والألوان من الأطعمة وسِباع الطير ينهش وينهبن منه. **﴿ نبِّئنا بتأويلِهِ ﴾**، أخبرنا بتفسيره وتعبيره وما يـؤل إليه أمر هذه الرؤيا. **﴿ إنّا نَرَاكَ مِنَ المُحسِنين ﴾**، أي: العالِمين بعبارة الرؤيا، والإحسان بمعنى العلم. ورُوِيَ أن الضحاك بن مُزاحم سُئِلَ عن قوله: **﴿ إنّا نَراكَ من المحسنين ﴾**، ما كان إحسانه؟ قال: كان إذا مرض إنسان في السجن عاده وقام عليه، وإذا ضاق عليه المجلس وسّع له وإذا احتاج إلى شيء جمع له شيئاً، وكان مع هذا يجتهد في العبادة، ويقوم الليل كله للصلاة. وقيل: إنه لمّا دخل السجن وجد فيه قوماً قد اشتدّ بلاؤهم وانقطع رجاؤهم وطال حزنهم، فجعل يُسلّيهم وجعل يقول: أبشروا واصبروا تؤجروا، فيقولون بارك الله فيك يا فتى ما أحسن وجهك وخلقك وحديثك، لقد بُورِكَ لنا في جِوارِكَ فمَن أنت يا فتى؟ قال: أنا يوسف بن صفيِّ الله يعقوب بن ذبيح الله إسحق بن خليل الله إبراهيم، فقال له عامل السجن: يا فتى والله لو استطعت لخلّيت سبيلك، ولكن سأحسِن جِوارك فتمكّن في أيّ بيوت السجن حيث شئت. ورُوِيَ أن الفتيين لمّا رأيا يوسف قالا له: لقد أحببناك حين رأيناك، فقال لهما يوسف: أنشدكما بالله أن لا تحبّاني فوالله ما أحبّني أحد قط إلّا دخل عليّ من حبّه بلاء، لقد أحبّتني عمتي فدخل عليّ بلاء، لقد أحبّني أبي فألقيت في الجبّ، وأحبّتني امرأة العزيز فحُبست، فلما قصّا عليه الرؤيا كره يوسف أن يعبّر لهما ما سألاه لِمَا علم في ذلك من المكروه على أحدهما فأعرض عن سؤالهما وأخذ في غيره في إظهار المعجزة والدعاء إلى التوحيد.

﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾﴾

﴿**قال لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله**﴾ قيل: أراد به في النوم يقول لا يأتيكما طعام ترزقانه في نومكما إلا أخبرتكما خبره في اليقظة، وقيل: أراد به اليقظة يقول لا يأتيكما طعام من منازلكما ترزقانه يعني تطعمانه وتأكلانه إلا نبأتكما بتأويله يعني أخبرتكما بقدره ولونه والوقت الذي يصل إليكما فيه ﴿**قبل أن يأتيكما**﴾ يعني قبل أن يصل إليكما وأي طعام أكلتم وكم أكلتم ومتى أكلتم وهذا مثل معجزة عيسى عليه الصلاة والسلام حيث قال وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم فقالا ليوسف عليه الصلاة والسلام هذا من علم العرافين والكهنة فمن أين لك هذا العلم؟ فقال ما أنا بكاهن ولا عراف وإنما ذلك إشارة إلى المعجزة والعلم الذي أخبرهما به ﴿**ذلكما مما علمني ربي**﴾ يعني أن هذا الذي أخبرتكما به وحي من الله أوحاه إليّ وعلم علمنيه ﴿**إني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله**﴾ فإن قلت ظاهر قوله اني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله أنه عليه الصلاة والسلام كان داخلاً في هذه الملة ثم تركها وليس الأمر كذلك لأن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من حين ولدوا وظهروا إلى الوجود هم على التوحيد فما معنى هذا الترك في قوله تركت.

قلت الجواب من وجهين: **الأول**: أن الترك عبارة عن عدم التعرض للشيء والالتفات إليه بالمرة وليس من شرطه أن يكون قد كان داخلاً فيه ثم تركه ورجع عنه.

والوجه الثاني: وهو الأقرب أن يوسف عليه الصلاة والسلام لما كان عند العزيز وهو كافر وجميع من عنده كذلك وقد كان بينهم وكان يوسف على التوحيد والإيمان الصحيح صح قوله إني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله ﴿**وهم بالآخرة هم كافرون**﴾ فترك ملتهم وأعرض عنهم ولم يوافقهم على ما كانوا عليه وتكرير لفظة هم في قوله وهم بالآخرة هم كافرون للتوكيد لشدة إنكارهم للمعاد وقوله ﴿**واتبعت ملة آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب**﴾ لما ادعى يوسف عليه السلام النبوة وأظهر المعجزة أظهر أنه من أهل بيت النبوة وأن آباءه كلهم كانوا أنبياء وقيل لما كان إبراهيم وإسحاق ويعقوب مشهورين بالنبوة والرسالة ولهم الدرجة العليا في الدنيا عند الخلق والمنزلة الرفيعة في الآخرة أظهر يوسف عليه الصلاة والسلام أنه من أولادهم وأنه من أهل بيت النبوة ليسمعوا قوله ويطيعوا أمره فيما يدعوهم إليه من التوحيد ﴿**ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء**﴾ معناه أن الله سبحانه وتعالى لما اختارنا لنبوته واصطفانا لرسالته وعصمنا من الشرك فما كان ينبغي لنا أن نشرك به مع جميع هذه الاختصاصات التي اختصّنا بها. قال الواحدي: لفظة من في قوله

﴿ **قال لا يأتيكما طعام تُرزقَانه** ﴾، قيل: أراد به في النوم يقول لا يأتيكما طعام ترزقانه في نومكما، ﴿ **إلاَّ نبَّأتكما بتأويلِه** ﴾، في اليقظة، وقيل: أراد به في اليقظة يقول لا يأتيكما طعام من منازلكما ترزقانه، تُطعمانه وتأكلانه إلاّ نبّأتكما بتأويله بقدره ولونه والوقت الذي يصل فيه إليكما، ﴿ **قبل أنْ يأتيكُما** ﴾، قبل أن يصل إليكُما، وأيّ طعام أكلتم وكم أكلتم ومتى أكلتم، فهذا مثل معجزة عيسى عليه السلام حيث قال: ﴿ وأنبئكم بما تأكلون وما تدّخِرون في بيوتكم ﴾ [آل عمران: ٤٩]. فقالا: هذا من فعل العرّافين والكهنة، فمن أين لك هذا العلم؟ فقال: ما أنا بكاهن وإنّما ﴿ **ذلكُمَا** ﴾، العلم، ﴿ **ممّا علّمني ربّي أنّي تركتُ مِلّةَ قومٍ لا يُؤمِنُونَ باللّهِ وهمْ بالآخرةِ همْ كافرون** ﴾، وتكرار ﴿ **هم** ﴾ على التأكيد.

من شيء زائدة مؤكدة كقولك ما جاءني من أحد، وقال صاحب الكشاف: ما كان لنا ما صح لنا معشر الأنبياء أن نشرك بالله من شيء أي شيء كان من ملك أو جني أو أنسي فضلاً أن نشرك به صنماً لا يسمع ولا يبصر ﴿ذلك من فضل الله﴾ يعني ذلك التوحيد وعدم الإشراك والعلم الذي رزقنا من فضل الله ﴿علينا وعلى الناس﴾ يعني بما نصب لهم من الأدلة الدالة على وحدانيته وبين لهم طريق الهداية إليه فكل ذلك من فضل الله على عباده ﴿ولكن أكثر الناس لا يشكرون﴾ يعني أن أكثرهم لا يشكرون الله على هذه النعم التي أنعم بها عليهم لأنهم تركوا عبادته وعبدوا غيره ثم دعاهما إلى الإسلام فقال:

يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٤٠﴾ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ ﴿٤١﴾ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٖ مِّنۡهُمَا ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ذِكۡرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجۡنِ بِضۡعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾

﴿يا صاحبي السجن﴾ يريد يا صاحبيَّ في السجن فأضافهما إلى السجن كما تقول يا سارق الليلة لأن الليلة مسروق فيها غير مسروقة ويجوز أن يريد يا ساكني السجن كقوله أصحاب النار وأصحاب الجنة ﴿أأرباب متفرقون﴾ يعني أآلهة شتى من ذهب وفضة وصفر وحديد وخشب وحجارة وغير ذلك وصغير وكبير ومتوسط متباينون في الصفة وهي مع ذلك لا تضر ولا تنفع ﴿خير أم الله الواحد القهار﴾ يعني أن هذه الأصنام أعظم صفة في المدح واستحقاق اسم الإلهية والعبادة أم الله الواحد القهار، قال الخطابي: الواحد هو الفرد الذي لم يزل وحده وقيل هو المنقطع عن القرين والمعدوم الشريك والنظير وليس هو كسائر الآحاد من الأجسام المؤلفة لأن ذلك قد يكثر بانضمام بعضها إلى بعض والواحد ليس كذلك فهو الله الواحد الذي لا مثل له ولا يشبهه شيء من خلقه القهار، قال الخطابي: القهار هو الذي قهر الجبابرة من خلقه بالعقوبة وقهر الخلق كلهم بالموت، وقال غيره: القهار هو الذي قهر كل شيء وذلله فاستسلم وانقاد وذل له، والمعنى أن هذه الأصنام التي تعبدونها ذليلة مقهورة إذ أراد الإنسان كسرها وإهانتها قدر عليه والله هو الواحد في ملكه القهار لعباده الذي لا يغلبه شيء وهو الغالب لكل شيء سبحانه وتعالى ثم بين عجز الأصنام وأنها لا شيء البتة فقال ﴿ما تعبدون من دونه﴾ يعني من دون الله وإنما قال تعبدون بلفظ الجمع وقد ابتدأ بالتثنية في المخاطبة لأنه أراد جميع من في السجن من المشركين ﴿إلا أسماء سميتموها﴾ يعني سميتموها آلهة وأرباباً وهي حجارة جمادات خالية عن المعنى لا حقيقة لها ﴿أنتم وآباؤكم﴾ يعني من قبلكم سموها آلة ﴿ما أنزل الله بها من سلطان﴾ يعني

﴿ واتَّبعتُ مِلَّةَ آبائي إبراهيمَ وإسحق ويعقوبَ ﴾، أظهر أنه من أولاد الأنبياء ﴿ ما كان لَنَا ﴾، ما ينبغي لنا، ﴿ أن نشرِكَ باللَّهِ مِنْ شيء ﴾، معناه: أن الله قد عصمنا من الشرك، ﴿ ذلكَ ﴾، التوحيد والعلم، ﴿مِنْ فضلِ اللَّهِ علينا وعلى الناسِ ﴾، ما بيّن لهم من الهدى، ﴿ ولكنّ أكثر الناس لا يشكرون ﴾، ثم دعاهما إلى الإسلام فقال:

﴿ يا صاحِبَيِ السجنِ ﴾، جعلهما صاحبي السجن لكونهما فيه، كما يقال لسكان الجنّة أصحاب الجنة ولسكان النار أصحاب النار، ﴿ أأرْبَابٌ مُتَفرِّقُون ﴾، أي: آلهة شتّى هذا من ذهب وهذا من فضة، وهذا من حديد وهذا أعلى وهذا أوسط وهذا أدنى، متباينون لا تضرّ ولا تنفع، ﴿ خيرٌ أم اللّهُ الواحدُ القهّارُ ﴾، الذي لا ثاني له، القهّار: الغالب على الكل، ثم بيّن عجز الأصنام فقال:

أن تسمية الأصنام آلهة لا حجة لكم بها ولا برهان ولا أمر الله بها وذلك أنهم كانوا يقولون إن الله أمرنا بهذه التسمية فرد الله عليهم بقوله: ﴿ما أنزل الله بها من سلطان إن الحكم إلا لله﴾ يعني أن الحكم والقضاء والأمر والنهي لله تعالى لا شريك له في ذلك ﴿أمر أن لا تعبدوا إلا إياه﴾ لأنه هو المستحق للعبادة لا هذه الأصنام التي سميتموها آلهة ﴿ذلك الدين القيم﴾ يعني عبادة الله هي الدين المستقيم ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ ذلك.

ولما فرغ يوسف عليه الصلاة والسلام من الدعاء إلى الله وعبادته رجع إلى تعبير رؤياهما فقال ﴿يا صاحبي السجن أما أحدكما فيسقي ربه خمراً﴾ يعني أن صاحب شراب الملك يرجع إلى منزلته ويسقي الملك خمراً كما كان يسقيه أولاً والعناقيد الثلاثة هي ثلاثة أيام يبقى في السجن ثم يدعو به الملك ويرده إلى منزلته التي كان عليها ﴿وأما الآخر فيصلب﴾ يعني صاحب طعام الملك والسلال الثلاث ثلاثة أيام ثم يدعو به الملك فيصلبه ﴿فتأكل الطير من رأسه﴾ قال ابن مسعود رضي الله عنه فلما سمعا قول يوسف عليه الصلاة والسلام قالا ما رأينا شيئاً إنما كنا نلعب قال يوسف ﴿قضي الأمر الذي فيه تستفتيان﴾ يعني فرغ من الأمر الذي سألتما عنه ووجب حكم الله عليكما بالذي أخبرتكما به رأيتما شيئاً أم لم تريا ﴿وقال﴾ يعني يوسف ﴿للذي ظن﴾ يعني علم وتحقق فالظن بمعنى العلم ﴿أنه ناج منهما﴾ يعني ساقي الملك ﴿اذكرني عند ربك﴾ يعني سيدك وهو الملك الأكبر فقل له إن في السجن غلاماً محبوساً مظلوماً طال حبسه ﴿فأنساه الشيطان ذكر ربه﴾ في هاء الكناية في فأنساه إلى من تعود قولان:

أحدهما: أنها ترجع إلى الساقي وهو قول عامة المفسرين والمعنى فأنسى الشيطان الساقي أن يذكر يوسف عند الملك قالوا لأن صرف وسوسة الشيطان إلى ذلك الرجل الساقي حتى أنساه ذكر يوسف أولى من صرفها إلى يوسف.

والقول الثاني: وهو قول أكثر المفسرين أن هاء الكناية ترجع إلى يوسف، والمعنى أن الشيطان أنسى يوسف ذكر ربه عز وجل حتى ابتغى الفرج من غيره واستعان بمخلوق مثله في دفع الضرر وتلك غفلة عرضت ليوسف عليه السلام فإن الاستعانة بالمخلوق في دفع الضرر جائزة إلا أنه لما كان مقام يوسف أعلى المقامات ورتبته أشرف المراتب وهي منصب النبوة والرسالة لا جرم صار يوسف مؤاخذاً بهذا القدر فإن حسنات الأبرار سيئات المقربين.

فإن قلت كيف تمكن الشيطان من يوسف حتى أنساه ذكر ربه.

قلت بشغل الخاطر وإلقاء الوسوسة فإنه قد صح في الحديث «إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم» فأما النسيان الذي هو عبارة عن ترك الذكر وإزالته عن القلب بالكلية فلا يقدر عليه.

فقال: ﴿ ما تعبدُونَ من دُونه ﴾، أي: من دون الله، وإنما ذُكر بلفظ الجمع وقد ابتدأ الخطاب للاثنين لأنه أراد جميعَ أهل السجن، وكلَّ مَن هو على مثل حالهما من أهل الشرك، ﴿ إلاّ أسماءً سمَّيتُموها ﴾، آلهةً وأرباباً خالية عن المعنى لا حقيقة لتلك الأسماء، ﴿ أنتُم وآباؤُكم ما أنزلَ اللَّهُ بها مِنْ سُلطانٍ ﴾، حجة وبرهان، ﴿ إنِ الحكمُ ﴾، ما القضاء والأمر والنهي، ﴿ إلاّ لِلَّهِ أمرَ ألاّ تعبُدوا إلاّ إيّاه ذَلكَ الدِّينُ القيِّمُ ﴾، أي: المستقيم، ﴿ ولكنّ أكثرَ الناسِ لا يعلمُون ﴾، ثم فسَّر رؤياهما فقال:

فقال: ﴿ يا صاحِبَي السجنِ أمّا أحدُكما ﴾، وهو صاحب الشراب، ﴿ فيسقي ربَّه ﴾، يعني الملك ﴿ خمراً ﴾، والعناقيد الثلاثة أيام يبقى في السجن ثم يدعوه الملك بعد الثلاثة أيام، ويُردّ إلى منزلته التي كان عليها، ﴿ وأما الآخرُ ﴾، يعني: صاحب الطعام فيدعوه الملك بعد ثلاثة أيام، والسِلال الثلاث الثلاثة أيام يبقى في السجن، ثم يُخرجه فيأمر به، ﴿ فيُصلبُ فتأكلُ الطيرُ من رأسِه ﴾، قال ابن مسعود: لمّا سَمِعَا قولَ يوسفَ قالا: ما رأينا شيئاً إنّما كنّا نلعب، قال يوسف: ﴿ قُضِيَ الأمرُ الذي فيه تستفتيان ﴾، أي: فُرِغَ من الأمر الذي عنه تسألان،

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿فلبث في السجن بضع سنين﴾.

اختلفوا في قدر البضع فقال مجاهد هو ما بين الثلاث إلى السبع وقال قتادة: هو ما بين الثلاث إلى التسع، وقال ابن عباس هو ما دون العشرة وأكثر المفسرين على أن البضع في هذه الآية سبع سنين وكان يوسف قد لبث قبلها في السجن خمس سنين فجملة ذلك اثنتا عشرة سنة وقال وهب: أصاب أيوب البلاء سبع سنين وترك يوسف في السجن سبع سنين.

وقال مالك بن دينار: لما قال يوسف للساقي اذكرني عند ربك قال له يا يوسف اتخذت من دوني وكيلاً لأطيلن حبسك فبكى يوسف وقال يا رب أنسى قلبي ذكرك كثرة البلوى فقلت كلمة قال الحسن قال النبي ﷺ «رحم الله يوسف لولا كلمته التي قالها ما لبث في السجن ما لبث» يعني قوله اذكرني عند ربك ثم بكى الحسن وقال نحن إذا نزل بنا أمر فزعنا إلى الناس ذكره الثعلبي مرسلاً وبغير سند وقيل إن جبريل دخل على يوسف في السجن فلما رآه يوسف عرفه فقال له يوسف يا أخا المنذرين مالي أراك بين الخاطئين فقال له جبريل يا طاهر بن الطاهرين يقرأ عليك السلام رب العالمين ويقول لك ما استحييت مني أن أستغثت بالآدميين فوعزتي وجلالي لألبثنك في السجن بضع سنين قال يوسف وهو في ذلك عني راض قال نعم قال إذن لا أبالي وقال كعب قال جبريل ليوسف يقول الله عز وجل لك من خلقك قال الله قال فمن رزقك قال الله قال فمن حببك إلى أبيك قال الله قال فمن نجاك من كرب البئر قال الله قال فمن علمك تأويل الرؤيا قال الله قال فمن صرفك عنك السوء والفحشاء قال الله قال فكيف استغثت بآدمي مثلك قالوا فلما انقضت سبع سنين. قال الكلبي: وهذه السبع سوى الخمس سنين التي كانت قبل ذلك ودنا فرج يوسف وأراد الله عز وجل إخراجه من السجن رأى ملك مصر الأكبر رؤيا عجيبة هالته وذلك أن رأى في منامه سبع بقرات سمان قد خرجن من البحر ثم

ووجب حكم الله عليكما الذي أخبرتُكما به، رأيتُما أو لم تَرَيا.

﴿وقال﴾، يعني: يوسف عند ذلك، ﴿للذي ظنّ﴾، علم ﴿أنه ناجٍ منهما﴾، وهو الساقي، ﴿اذْكُرْني عندَ ربِّك﴾، يعني: سيد الملك، وقل له إن في السجن غلاماً محبوساً ظلماً طال حبسه، ﴿فأنساهُ الشيطانُ ذِكرَ ربِّه﴾، قيل: أنسى الشيطان الساقي ذكر يوسف للملك تقديره: فأنساه الشيطان ذكره لربه. وقال ابن عباس وعليه الأكثرون: أنسى الشيطانُ يوسفَ ذكرَ ربِّه حين ابتغى الفرج، من غيره واستعان بمخلوق، وتلك غفلة عرضت ليوسف من الشيطان. ﴿فَلَبِثَ﴾، فمكث، ﴿في السجن بِضْعَ سِنين﴾، واختلفوا في معنى البِضع، فقال مجاهد: ما بين الثلاث إلى السبع. وقال قتادة: ما بين الثلاث إلى التسع. وقال ابن عباس: ما دون العشرة. وأكثر المفسّرين على أن البِضع في هذه الآية سبع سنين، وكان قد لبث قبله خمس سنين فجملته اثنتا عشرة سنة. وقال وهب: أصاب أيوب البلاء سبع سنين، وتُرك يوسف في السجن سبع سنين، وعذّب بختنصر فحول في السِّباع سبع سنين. قال مالك بن دينار: لمّا قال يوسف للساقي اذكرني عند ربك، قيل له: يا يوسف اتخذتَ من دوني وكيلاً لأطيلنَّ حبسَك، فبكى يوسف، وقال: يا رب أنْسى قلبي كثرةُ البلوى فقلتُ كلمةً ولن أعود. وقال الحسن: دخل جبريل على يوسف في السجن، فلما رآه يوسف عرفه فقال له: يا أخي المنذرين ما لي أراك بين الخاطئين؟ فقال له جبريل: يا طاهر الطاهرين يقرأ عليك السلام ربُّ العالمين، ويقول لك: أما استحييت منّي أن استشفعتَ بالآدميين، فوعزّتي وجلالي لألبثنّك في السجن بضع سنين، فقال يوسف: وهو في ذلك عني راضٍ؟ قال: نعم، قال: إذاً لا أُبالي. وقال كعب: قال جبريل ليوسف إن الله تعالى يقول: مَن خلقك؟ قال: عزّ وجلّ، قال: فمَن حبّبكَ إلى أبيك؟ قال: الله، قال: فمَن نجّاك من كرب البئر؟ قال: الله، قال: فمَن علّمك تأويلَ الرؤيا؟ قال: الله، قال: فمَن صرف عنك السوء والفحشاء؟ قال: الله، قال: فكيف استشفعت بآدمي مثلك؟ فلما انقضت سبع سنين.

خرج عقيبهن سبع بقرات عجاف في غاية الهزال فابتلع العجاف السمان ودخلن في بطونهن ولم ير منهن شيء ولم يتبين على العجاف منها شيء ورأى سبع سنبلات خضر قد انعقد حبها وسبع سنبلات أخر يابسات قد استحصدت فالتوت اليابسات على الخضر حتى علون عليهن ولم يبق من خضرتها شيء فجمع السحرة والكهنة والمعبرين وقص عليهم رؤياه التي رآها فذلك قوله تعالى:

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾﴾

﴿وقال الملك إني أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات أيها الملأ أفتوني في رؤياي﴾ يعني يا أيها الأشراف أخبروني بتأويل رؤياي ﴿إن كنتم للرؤيا تعبرون﴾ يعني: إن كنتم تحسنون علم العبارة وتفسيرها وعلم التعبير مختص بتفسير الرؤيا وسمي هذا العلم تعبيراً لأن المفسر للرؤيا عابر من ظاهرها إلى باطنها ليستخرج معناها وهذا أخص من التأويل لأن التأويل يقال فيه وفي غيره.

﴿قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ ۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾﴾

﴿قالوا﴾ يعني قال جماعة الملأ وهم السحرة والكهنة والمعبرون مجيبين للملك ﴿أضغاث أحلام﴾ يعني أخلاط مشتبهة واحدها ضغث وأصله الحزمة المختلطة من أنواع الحشيش والأحلام جمع حلم وهو الرؤيا التي يراها الإنسان في منامه ﴿وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين﴾ لما جعل الله هذه الرؤيا سبباً لخلاص يوسف عليه الصلاة والسلام من السجن وذلك أن الملك لما رآها قلق واضطرب وذلك لأنه قد شاهد الناقص الضعيف قد استولى على القوي الكامل حتى قهره وغلبه فأراد أن يعرف تأويل ذلك فجمع سحرته وكهنته ومعبريه وأخبرهم بما رأى في منامه وسألهم عن

قال الكلبي: وهذا السبع سوى الخمسة التي كانت قبل ذلك، ودَنَا فرجُ يوسف رأى ملك مصر الأكبر رؤياً عجيبةً هالته وذلك أنه رأى سبع بقرات سِمَان خرجت من البحر ثم خرج عقبهنّ سبع بقرات عِجاف في غاية الهزال، فابتلعت العجاف السمان فدخلن في بطونهنّ، ولم يـرَ منهنّ شيئاً ولم يتبيّن على العِجاف منها شيء، ثم رأى سبع سنبلات خضر قد انعقد حبّها وسبعاً أخرى يابسات قد استحصدت، فالتوت اليابسات على الخضر حتى غلبن عليها ولم يبقَ من خضرتها شيء، فجمع السَّحَرَة والكهنة والحادة والمعبِّرين وقصّ عليهم رؤياه.

فذلك قوله تعالى: ﴿ وقالَ الملكُ إني أرى سبعَ بقراتٍ سِمانٍ يأكُلُهُنَّ سبعٌ عِجافٌ وسبعَ سُنبلاتٍ خُضْرٍ وأُخَرَ يابساتٍ ﴾، فقال لهم: ﴿ يا أيُها الملأ أفتوني في رُؤياي إن كُنْتُم للرُّؤيا تَعْبُرُون ﴾.

﴿ قالوُا أضغاثُ أحلامٍ ﴾ أخلاط أحلام مشتبهة أهاويلَ واحدها ضغث، وأصله الحزمة من أنواع الحشيش، والأحلام جمع الحلم، وهو الرؤيا، والفعل منه حلمت أحلم بفتح اللام في الماضي وضمّها في الغابر حلماً

تأويلها فأعجز الله بقدرته جماعة الكهنة والمعبرين عن تأويل هذه الرؤيا ومنعهم عن الجواب ليكون ذلك سبباً لخلاص يوسف عليه الصلاة والسلام من السجن فذلك قوله تعالى: **﴿وقال الذي نجا منهما﴾** يعني وقال الساقي الذي نجا من السجن والقتل بعد هلاك صاحبه الخباز **﴿وادكر بعد أمة﴾** يعني أنه تذكر قول يوسف اذكرني عند ربك بعد أمة يعني بعد حين وهو سبع سنين وسمي الحين من الزمان أمة لأنه جماعة الأيام والأمة الجماعة **﴿أنا أنبئكم﴾** يعني أخبركم **﴿بتأويله﴾** وقوله أنا أنبئكم بلفظ الجمع إما أنه أراد به الملك مع جماعة السحرة والكهنة والمعبرين أو أراد به الملك وحده وخاطبه بلفظ الجمع على سبيل التعظيم وذلك أن الفتى الساقي جثا بين يدي الملك وقال إن في السجن رجلاً عالماً يعبر الرؤيا **﴿فأرسلون﴾** فيه اختصار تقديره فأرسلني أيها الملك فأرسله فأتى السجن قال ابن عباس ولم يكن السجن في المدينة **﴿يوسف﴾** أي يا يوسف **﴿أيها الصديق﴾** إنما سماه صديقاً لأنه لم يجرب عليه كذباً قط والصديق الكثير الصدق والذي ل يكذب قط وقيل سماه صديقاً لأنه صدق في تعبيره رؤياه التي رآها في السجن **﴿أفتنا في سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات﴾** فإن الملك رأى هذه الرؤيا **﴿لعلي أرجع إلى الناس﴾** يعني أرجع بتأويل هذه الرؤيا إلى الملك وجماعته **﴿لعلهم يعلمون﴾** يعني بتأويل هذه الرؤيا وقيل لعلهم يعلمون منزلتك في العلم **﴿قال﴾** يعني يوسف معبراً لتلك الرؤيا أما البقرات السمان والسنبلات الخضر فسبع سنين مخصبة وأما البقرات العجاف والسنبلات اليابسات فسبع سنين مجدبة فذلك قوله تعالى: **﴿تزرعون﴾** وهذا خبر بمعنى الأمر أي ازرعوا **﴿سبع سنين دأباً﴾** يعني عادتكم في الزراعة والدأب العادة وقيل ازرعوا بجد واجتهاد **﴿فما حصدتم فذروه في سنبله﴾** إنما أمرهم بترك ما حصدوه من الحنطة في سنبله لئلا يفسد ويقع في السوس وذلك أبقى له على طول الزمان **﴿إلا قليلاً مما تأكلون﴾** يعني ادرسوا قليلاً من الحنطة للأكل بقدر الحاجة وأمرهم بحفظ الأكثر لوقت الحاجة أيضاً وهو وقت السنين المجدبة وهو قوله **﴿ثم يأتي من بعد ذلك﴾** يعني من بعد السنين المخصبة **﴿سبع شداد﴾** يعني سبع سنين مجدبة ممحلة شديدة على الناس **﴿يأكلن﴾** يعني يفنين **﴿ما قدمتم لهن﴾** يعني يؤكل فيهن كل ما أعددتم وادخرتم لهن من الطعام وإنما أضاف الأكل إلى السنين على طريق التوسع في الكلام **﴿إلا قليلاً مما**

وحلماً، مثقّلاً ومخفّفاً. **﴿ وما نحنُ بتأويلِ الأحْلَامِ بعالِمين ﴾**.

﴿ وقالَ الذي نَجَا ﴾، من القتل، **﴿ مِنْهُما ﴾**، من الفتيين وهو الساقي، **﴿ وادَّكَرَ ﴾**، أي: تذكّر قول يوسف اذكرني عندَ ربِّك، **﴿ بعدَ أُمّةٍ ﴾**، أي: بعد حين وهو سبع سنين. **﴿أنا أُنَبِّئُكُم بتأويلِهِ﴾**، وذلك أن الغلام جثا بين يدي الملك، وقال: إن في السجن رجلاً يعبر الرؤيا، **﴿ فأرْسِلُون ﴾**، وفيه اختصار تقديره: فأرسلني أيها الملك إليه، فأرسله فأتى السجن. قال ابن عباس: ولم يكن السجن في المدينة.

فقال: **﴿ يوسف ﴾**، يعني يا يوسف، **﴿ أيّها الصّدِّيق ﴾**، والصديق الكثير الصدق، **﴿ أفْتِنَا في سبعِ بقراتٍ سِمانٍ يأكُلُهُنّ سبعٌ عجافٌ وسبعِ سُنبلاتٍ خُضْرٍ وأُخَر يابساتٍ ﴾**، فإن الملك رأى هذه الرؤيا. **﴿ لعلّي أرجعُ إلى الناس ﴾**، أهل مصر، **﴿ لَعلَّهم يعلَمُون ﴾**، تأويل الرؤيا. وقيل: لعلّهم يعلمون منزلتك في العلم، فقال لهم يوسف معبّراً ومعلّماً: أمّا البقرات السمان والسنبلات الخضر فسبع سنين مخاصيب، والبقرات العِجاف والسنبلات، فالسنون المجدبة، فذلك قوله تعالى إخباراً عن يوسف.

﴿ قال تزرعُون سبعَ سنينَ دَأَباً ﴾، هذا خبر بمعنى الأمر، يعني: ازرعُوا سبعَ سنين على عادتكم في الزراعة، والدأب: العادة. وقيل: بجدٍّ واجتهاد. وقرأ عاصم برواية حفص: **﴿ دَأَباً ﴾** بفتح الهمزة، وهما لغتان، يقال: دأبت في الأمر أدأب دَأْباً ودَأَباً إذا اجتهد فيه. **﴿ فما حصدتُّم فَذَرُوهُ في سُنْبُلِهِ ﴾**، أمرهم بترك الحنطة في

تحصنون﴾ يعني تحرزون وتدخرون للبذر، والإحصان الإحراز وهو إبقاء الشيء في الحصن بحيث يحفظ ولا يضيع.

﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ
ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ
يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن
نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾﴾

﴿**ثم يأتي من بعد ذلك**﴾ يعني من بعد هذه السنين المجدبة ﴿**عام فيه يغاث الناس**﴾ أي يمطرون من الغيث الذي هو المطر، وقيل: هو من قولهم استغثت بفلان فأغاثني من الغوث ﴿**وفيه يعصرون**﴾ يعني يعصرون العنب خمراً والزيتون زيتاً والسمسم دهناً أراد به كثرة الخير والنعم على الناس وكثرة الخصب في الزرع والثمار، وقيل يعصرون معناه ينجون من الكرب والشدة والجدب.

قوله عز وجل: ﴿**وقال الملك ائتوني به**﴾ وذلك أن الساقي لما رجع إلى الملك وأخبره بفتيا يوسف وما عبر برؤياه استحسنه الملك وعرف أن الذي قاله كائن لا محالة فقال ائتوني به حتى أبصر هذا الرجل الذي قد عبر رؤياي بهذه العبارة فرجع الساقي إلى يوسف وقال له أجب الملك فذلك قوله تعالى: ﴿**فلما جاءه الرسول**﴾ فأبى أن يخرج معه حتى تظهر براءته للملك ولا يراه بعين النقص ﴿**قال**﴾ يعني قال يوسف للرسول ﴿**ارجع إلى ربك**﴾ يعني إلى سيدك وهو الملك ﴿**فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن**﴾ ولم يصرح بذكر امرأة العزيز أدباً واحتراماً لها (ق) عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ «لو لبثت في السجن طول لبث يوسف لأجبت الداعي» أخرجه الترمذي، وزاد فيه «ثم قرأ فلما جاءه الرسول قال ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن» هذا الحديث فيه بيان فضل يوسف عليه الصلاة والسلام وبيان قوة صبره وثباته والمراد بالداعي رسول الملك الذي جاءه من عنده فلم يخرج معه مبادراً إلى الراحة ومفارقة ما هو فيه من الضيق والسجن الطويل فلبث في السجن وراسل

السنبلة لتكون أبقى على الزمان ولا تفسد، ﴿ **إلاّ قليلاً ممّا تأكلون** ﴾، أي: تدرسون قليلاً للأكل، أمرهم بحفظ الأكثر والأكل بقدر الحاجة.

﴿ **ثمّ يأتي منْ بعد ذَلِكَ سبعٌ شِدَادٌ** ﴾. سمّى السنين المجدبة شداداً لشدّتها على الناس، ﴿ **يأْكُلْنَ** ﴾، أي: يفنين ويُهلكن، ﴿ **ما قدّمتم لهنَّ** ﴾، أي: يؤكلهنّ فيهنّ ما أعددتم لهنّ من الطعام أضاف الأكل إلى السنين على طريق التوسّع ﴿ **إلاّ قليلاً ممّا تُحْصِنُون** ﴾ تُحرِزُونَ وتدّخرون للبَذْر.

﴿ **ثمَّ يأتي منْ بعدِ ذلك عامٌ فيه يُغاثُ الناس** ﴾، أي: يمطرون من الغيث، وهو المطر. وقيل: ينقذون من قول العرب استغثت فلاناً فأغاثني، ﴿ **وفيه يَعْصِرُون** ﴾، قرأ حمزة والكسائي: «تعصرون»، بالتاء لأن الكلام كله على الخطاب، وقرأ الآخرون بالياء ردّاً إلى الناس، ومعناه: يعصرون العنب خمراً والزيتون زيتاً والسمسم دهناً وأراد به كثرة النعيم والخير. وقال أبو عبيدة: يعصرون أي ينجون من الكروب والجدب والعصر والعصرة النجا والملجا.

﴿ **وقالَ الملكُ ائتوني به** ﴾، وذلك أن الساقي لمّا رجع إلى الملك وأخبره بما أفتاه به يوسف من تأويل رؤياه، وعرف الملك أن الذي قاله كائن، قال: ائتوني به، ﴿ **فلمّا جاءَه الرسولُ** ﴾، وقال له: أجب الملك أبى أن

الملك في كشف أمره الذي سجن بسببه لتظهر براءته عند الملك وغيره فأثنى رسول الله ﷺ على يوسف عليه الصلاة والسلام وبين فضيلته وحسن صبره على المحنة والبلاء وقوله: ﴿إن ربي بكيدهن عليم﴾ يعني أن الله تعالى عالم بصنيعهن وما احتلن في هذه الواقعة من الحيل العظيمة فرجع الرسول من عند يوسف إلى الملك بهذه الرسالة فجمع الملك النسوة وامرأة العزيز معهن و ﴿قال﴾ لهن ﴿ما خطبكن﴾ أي شأنكن وأمركن ﴿إذ راودتن يوسف عن نفسه﴾ إنما خاطب الملك جميع النسوة بهذا الخطاب، والمراد بذلك امرأة العزيز وحدها ليكون أستر لها وقيل إن امرأة العزيز راودته عن نفسه وحدها وسائر النسوة أمرنه بطاعتها فلذلك خاطبهن بهذا الخطاب ﴿قلن﴾ يعني النسوة جميعاً مجيبات للملك ﴿حاش لله﴾ يعني معاذ الله ﴿ما علمنا عليه من سوء﴾ يعني من خيانة في شيء من الأشياء ﴿قالت امرأة العزيز الآن حصحص الحق﴾ يعني ظهر وتبين وقيل إن النسوة أقبلن على امرأة العزيز فعزرنها وقيل خافت أن يشهد عليها فأقرت فقالت ﴿أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين﴾ يعني في قوله هي راودتني عن نفسي.

واختلفوا في قوله ﴿ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب﴾ على قولين:

أحدهما: أنه من قول المرأة ووجه هذا القول أن هذا كلام متصل بما قبله وهو قول المرأة الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين، ثم قالت: ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب والمعنى ذلك ليعلم يوسف أني لم أخنه في حال غيبته وهو في السجن ولم أكذب عليه بل قلت أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين وإن كنت قد قلت فيه ما قلت في حضرته، ثم بالغت في تأكيد هذا القول فقالت ﴿وأن الله لا يهدي كيد الخائنين﴾ يعني أني لما أقدمت على هذا الكيد والمكر لا جرم أني افتضحت لأن الله لا يرشد ولا يوفق كيد الخائنين.

والقول الثاني: أنه من قول يوسف عليه الصلاة والسلام وهذا قول الأكثرين من المفسرين والعلماء ووجه هذا القول أنه لا يبعد وصل كلام إنسان بكلام إنسان آخر إذا دلت القرينة عليه فعلى هذا يكون معنى الآية أنه لما بلغ يوسف قول المرأة أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين قال يوسف ذلك أي الذي فعلت من ردي رسول الملك إليه ليعلم يعني العزيز أني لم أخنه في زوجته بالغيب يعني في حال غيبته، فيكون هذا من كلام يوسف اتصل بقول امرأة العزيز أنا راودته عن نفسه من غير تمييز بين الكلامين لمعرفة السامعين لذلك مع غموض فيه لأنه ذكر كلام إنسان ثم أتبعه بكلام إنسان آخر من غير فصل بين الكلامين ونظير هذا قوله تعالى: ﴿يريد أن يخرجكم من أرضكم﴾ هذا من قول الملأ، فماذا تأمرون من قول فرعون ومثله قوله تعالى: ﴿وجعلوا أعزة أهلها أذلة﴾ هذا من قول بلقيس ﴿وكذلك يفعلون﴾ من قوله عز وجل تصديقاً لها وعلى هذا القول اختلفوا أين كان يوسف حين قال هذه المقالة على قولين أحدهما أنه

يخرج مع الرسول حتى تظهر براءته ثم، ﴿ قال ﴾، للرسول، ﴿ ارْجِعْ إلى ربِّك ﴾، يعني: سيدك الملك، ﴿ فاسْأَلْهُ ما بالُ النسوة اللاّتي قطَّعْنَ أيدِيهنَّ ﴾، ولم يصرِّح بذكر امرأة العزيز أدباً واحتراماً، قال النبي ﷺ: «لو لبثتُ في السجن طولَ ما لبثَ يوسفُ لأجبتُ الداعي» ﴿ إنَّ ربِّي بكيدِهنَّ عليم ﴾، أي: إن الله بصنيعهنّ عالم، وإنما أرادَ يوسف بذكرهنّ بعد طول المدة حتى لا ينظر إليه الملك بعين التهمة والخيانة، ويصير إليه بعدَ زوال الشك عن أمره، فرجع الرسول إلى الملك من عند يوسف برسالته، فدعا الملك النسوةَ وامرأة العزيز.

﴿ قال ﴾، لهنّ، ﴿ ما خَطْبُكُنَّ ﴾، ما شأنكنّ وأمركنّ، ﴿ إذْ راوَدْتُنَّ يوسفَ عن نفسِه ﴾، خاطبهنّ والمراد امرأة العزيز، وقيل: إن امرأة العزيز راودته عن نفسه وسائر النسوة أمرنه بطاعتها فلذلك خاطبهنّ جميعاً ﴿ قُلْنَ حاشَ لِلَّه ﴾ معاذَ الله، ﴿ ما عَلِمْنا عليهِ من سُوءٍ ﴾، خيانة، ﴿ قالتِ امرأةُ العزيز الآن حَصْحَصَ الحقُّ ﴾ ظهر وتبيَّن. وقيل: إن النسوة أقبلن على امرأة العزيز فقررنها فأقرّت، وقيل: خافت أن يشهدن عليها فأقرّت وقالت: ﴿ أنا راودتُه عن نفسِهِ وإنّه لَمِنَ الصَّادِقين ﴾، في قوله: هي راودتني عن نفسي، فلما سمع ذلك يوسف قال:

كان في السجن وذلك أنه لما رجع إليه رسول الملك وهو في السجن وأخبره بجواب امرأة العزيز للملك قال حينئذ ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب وهذه رواية أبي صالح عن ابن عباس وبه قال ابن جريج.

والقول الثاني: إنه قال هذه المقالة عند حضوره عند الملك وهذه رواية عطاء عن ابن عباس فإن قلت فعلى هذا القول كيف خاطبهم بلفظة ذلك وهي إشارة للغائب مع حضوره عندهم.

قلت قال ابن الأنباري قال اللغويون هذا وذلك يصلحان في هذا الموضع لقرب الخبر من أصحابه فصار كالمشاهد الذي يشار إليه بهذا وقيل ذلك إشارة إلى ما فعله يقول ذلك الذي فعلته من ردي الرسول ليعلم أني لم أخنه بالغيب أي لم أخن العزيز في حال غيبته؛ ثم ختم هذا الكلام بقوله وأن الله لا يهدي كيد الخائنين يعني أني لو كنت خائناً لما خلصني الله من هذه الورطة التي وقعت فيها لأن الله لا يهدي أي لا يرشد ولا يوفق كيد الخائنين واختلفوا في قوله.

۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٥٣﴾ وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦٓ أَسۡتَخۡلِصۡهُ لِنَفۡسِيۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلۡيَوۡمَ لَدَيۡنَا مَكِينٌ أَمِينٞ ﴿٥٤﴾

﴿وما أبرىء نفسي﴾ من قول من؟ على قولين أيضاً:

أحدهما: أنه من قول المرأة وهذا التفسير على قول من قال إن قوله ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب من قول المرأة فعلى هذا يكون المعنى وما أبريء نفسي من مراودتي يوسف عن نفسه وكذبي عليه.

والقول الثاني: وهو الأصح وعليه أكثر المفسرين أنه من قول يوسف عليه الصلاة والسلام وذلك أنه لما قال ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب قال له جبريل ولا حين هممت بها فقال يوسف عند ذلك وما أبرىء نفسي وهذه رواية عن ابن عباس أيضاً وهو قول الأكثرين وقال الحسن إن يوسف لما قال ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب خاف أن يكون قد زكى نفسه فقال وما أبرىء نفسي لأن الله تعالى قال فلا تزكوا أنفسكم، ففي قوله وما أبرىء نفسي هضم للنفس وانكسار وتواضع لله عز وجل فإن رؤية النفس في مقام العصمة والتزكية ذنب عظيم فأراد إزالة ذلك عن نفسه فإن حسنات الأبرار سيئات المقربين **﴿إن النفس لأمارة بالسوء﴾** والسوء لفظ جامع لكل ما يهم الإنسان من الأمور الدنيوية والأخروية والسيئة الفعلة القبيحة.

﴿ ذلك ﴾ أي: ذلك الذي فعلت من ردّي رسول الملك إليه، **﴿ ليعلم ﴾**، العزيز، **﴿ إني لم أخُنْهُ ﴾** في زوجته، **﴿ بالغيب ﴾**، أي: في حال غيبته، **﴿ وإنّ اللّهَ لا يهدي كيدَ الخائنين ﴾**، بقوله ذلك ليعلم من كلام يوسف اتصل بقول امرأة العزيز أنا راودته عن نفسه من غير تميّز لمعرفة السامعين. وقيل: فيه تقديم وتأخير تقدم، معناه: ارجع إلى ربِّك فاسأله ما بال النسوة اللاّتي قطّعنَ أيدِيَهنَّ إنّ ربّي بكيدهنّ عليمٌ ذلك ليعلم أني لم أخُنْه بالغيب، قيل: لمّا قال يوسف هذه المقالة، قال له جبريل: ولا حين هممت بها؟ فقال يوسف عند ذلك: وما أبرىء نفسي. قال السدي: إنما قالت له امرأة العزيز: ولا حين حللت سراويلك يا يوسف؟ فقال يوسف:

﴿ وما أُبرىء نفسي ﴾، من الخطأ والزّلل فأزكّيها، **﴿ إنَّ النفسَ لأمّارةٌ بالسوءِ ﴾**، بالمعصية **﴿ إلاّ ما رَحِمَ ربّي ﴾**، أي: إلاّ مَن رحم ربّي فعصمه، و**﴿ ما ﴾** بمعنى من، كقوله تعالى: **﴿ فانكِحُوا ما طابَ لكم ﴾** [النساء: ٣] أي: مَنْ طاب لكم، وهم الملائكة عصمهم الله عزّ وجلّ فلم يركّبْ فيهم الشهوة. وقيل: إلاّ ما رحم ربّي إشارة إلى حالة العصمة عند رؤية البرهان. **﴿ إنّ ربّي غفورٌ رحيم ﴾**، فلما تبيّن للملك عذر يوسف عليه

واختلفوا في النفس الأمارة بالسوء ما هي فالذي عليه أكثر المحققين من المتكلمين وغيرهم أن النفس الإنسانية واحدة ولها صفات: منها الأمارة بالسوء، ومنها اللوامة، ومنها المطمئنة فهذه الثلاث المراتب هي صفات لنفس واحدة فإذا دعت النفس إلى شهواها مالت إليها فهي النفس الأمارة بالسوء فإذا فعلتها أتت النفس اللوامة فلامتها على ذلك الفعل القبيح من ارتكاب الشهوات ويحصل عند ذلك الندامة على ذلك الفعل القبيح وهذا من صفات النفس المطمئنة، وقيل: إن النفس أمارة بالسوء بطبعها فإذا تزكت وصفت من أخلاقها الذميمة صارت مطمئنة.

وقوله ﴿**إلا ما رحم ربي**﴾ قال ابن عباس: معناه إلا من عصم ربي فتكون ما بمعنى من فهو كقوله ﴿ما طاب لكم من النساء﴾ يعني من طاب لكم وقيل هذا استثناء منقطع معناه لكن من رحم ربي فعمصه من متابعة النفس الأمارة بالسوء ﴿**إن ربي غفور**﴾ يعني غفور لذنوب عباده ﴿**رحيم**﴾ بهم.

قوله تعالى: ﴿**وقال الملك ائتوني به أستخلصه لنفسي**﴾ وذلك أنه لما تبين للملك عذر يوسف وعرف أمانته وعلمه طلب حضوره إليه فقال ائتوني به يعني بيوسف أستخلصه لنفسي أي أجعله خالصاً لنفسي والاستخلاص طلب خلوص الشيء من جميع شوائب الاشتراك وإنما طلب الملك أن يستخلص يوسف لنفسه، لأن عادة الملوك أن ينفردوا بالأشياء النفيسة العزيزة ولا يشاركهم فيها أحد من الناس وإنما قال الملك ذلك لما عظم اعتقاده في يوسف لما علم من غزارة علم يوسف وحسن صبره وإحسانه إلى أهل السجن وحسن أدبه وثباته على المحن كلها فلهذا حسن اعتقاد الملك فيه وإذا أراد الله تعالى أمراً هيأ أسبابه فألهم الملك ذلك فقال ائتوني به أستخلصه لنفسي ﴿**فلما كلمه**﴾ فيه اختصار تقديره فلما جاء الرسول إلى يوسف فقال له أجب الملك الآن بلا معاودة فأجابه.

روي أن يوسف لما قام ليخرج من السجن دعا لأهله فقال اللهم عطف عليهم قلوب الأخيار ولا تعم عليهم الأخبار فهم أعلم الناس بالأخبار في كل بلد، فلما خرج من السجن كتب على بابه هذا بيت البلواء وقبر الأحياء وشماتة الأعداء وتجربة الأصدقاء ثم اغتسل وتنظف من درن السجن ولبس ثياباً حسنة ثم قصد باب الملك.

قال وهب: فلما وقف بباب الملك قال: حسبي ربي من دنياي وحسبي ربي من خلقه عز جارك وجل ثناؤك ولا إله غيرك ثم دخل الدار فلما أبصر الملك قال: اللهم إني أسألك بخيرك من خيره وأعوذ بك من شره وشر غيره فلما

السلام وعرف أمانته وعلمه اشتاق لرؤيته وكلامه، وذلك معنى قوله تعالى إخباراً عنه.

﴿ **وقال الملك ائتوني بِهِ أستخلِصْهُ لنفسي** ﴾، أي: أجعله خالصاً لنفسي، ﴿ **فلمّا كلّمه** ﴾، فيه اختصار تقديره: فجاء الرسول يوسف فقال له: أجب الملك الآن. رُوِيَ أنه قام ودعا لأهل السجن فقال: اللّهمَّ عطّف عليهم قلوب الأخيار ولا تَعْمِ عليهم الأخبار، فهم أعلم الناس بالأخبار في كل بلد، فلما خرج من السجن كتب على بابه هذا قبر الأحياء وبيت الأحزان وتجربة الأصدقاء وشماتة الأعداء، ثم اغتسل وتنظّف من درن السجن ولبس ثياباً حسنةً وقصد الملك. قال وهب: فلما وقف بباب الملك قال: حسبي ربّي من دنياي وحسبي ربي من خلقه عزّ جارُه وجلّ ثناؤه ولا إله غيره، ثم دخل الدار فلما دخل على الملك قال: اللّهمّ إني أسألك بخيرك من خيره وأعوذ بك من شرّه وشرّ غيره، فلما نظر إليه الملك سلّم عليه يوسف بالعربية فقال له الملك: ما هذا اللسان؟ قال: لسان عمّي إسماعيل ثم دعا له بالعبرانية فقال له: ما هذا اللسان؟ قال: هذا لسان آبائي ولم يعرف الملك هذين اللسانين. قال وهب: وكان الملك يتكلم بسبعين لساناً، فكلما تكلم بلسان أجابه يوسف بذلك اللسان وزاد عليه بلسان العربية والعبرانية، فأعجب الملك ما رأى منه مع حداثة سنّه، وكان يوسف يومئذ ابن ثمانين سنة، فأجلسه و﴿ **قالَ إنّك اليومَ لدينا مكينٌ** ﴾، المكانة في الجاه، ﴿ **أمينٌ** ﴾، أي: صادق ورُوِيَ أنّ الملك قال له: إنّي أُحب

نظر إليه الملك سلم يوسف عليه بالعربية فقال له الملك ما هذا اللسان؟ قال لسان عمي إسماعيل ثم دعا له بالعبرانية فقال له وما هذا اللسان أيضاً قال يوسف هذا لسان آبائي قال وهب وكان الملك يتكلم بسبعين لغة فلم يعرف هذين اللسانين وكان الملك كلما كلمه بلسان أجاباه يوسف وزاد عليه بالعربية والعبرانية فلما رأى الملك منه ذلك أعجبه ما رأى مع حداثة سن يوسف عليه السلام وكان له من العمر يومئذ ثلاثون سنة فأجلسه إلى جنبه فذلك قوله تعالى فلما كلمه يعني فلما كلم الملك يوسف لأن مجالس الملوك لا يحسن لأحد أن يبدأ بالكلام فيها وإنما يبدأ فيها بالكلام وقيل معناه فلما كلم يوسف الملك قال الساقي أيها الملك هذا الذي علم تأويل الملك رؤياك مع عجز السحرة والكهنة عنها فأقبل عليه الملك و ﴿**قال إنك اليوم لدينا مكين أمين**﴾ يقال: اتخذ فلان عند فلان مكانة أي منزلة وهي الحالة التي يتمكن بها صاحبها مما يريد، وقيل: المكانة المنزلة والجاه والمعنى قد عرفت أمانتك ومنزلتك وصدقك وبراءتك مما نسبت إليه وقوله مكين أمين كلمة جامعة لكل ما يحتاج إليه من الفضائل والمناقب في أمر الدين والدنيا.

روي أن الملك قال ليوسف عليه الصلاة والسلام أحب أن أسمع تأويل رؤياي منك شفاهاً فقال: نعم أيها الملك رأيت سبع بقرات سمان شهب غر حسان غير عجاف كشف لك عنهن النيل فطلعن من شاطئه تشخب أخلافهن لبناً فبينما أنت تنظر إليهن وقد أعجبك حسنهن إذ نضب النيل فغار ماؤه وبدا يبسه فخرج من حمأته سبع بقرات عجاف شعث غبر ملصقات البطون ليس لهما ضروع ولا أخلاف ولهن أنياب وأضراس وأكف كأكف الكلاب وخراطيم كخراطيم السباع فاختلطن بالسمان فاترسن السمان فافترس السبع فأكلن لحومهن ومزقن جلودهن وحطمن عظامهن ومشمشن مخهن فبينما أنت تنظر وتتعجب كيف غلبنهن وهن مهازيل ثم لم يظهر منهن سمن ولا زيادة بعد أكلهن إذ سبع سنبلات خضر طريات ناعمات ممتلئات حباً وماء وإلى جانبهن سبع أخر سود يابسات في منبت واحد عروقهن في الثرى والماء فبينا أنت تقول في نفسك أي شيء هؤلاء خضر مثمرات وهؤلاء سود يابسات والمنبت واحد وأصولهن في الثرى والماء.

إذ هبت الريح فذرت أوراق اليابسات السود على الخضر المثمرات فاشتعلت فيهن النار فأحرقتهن فصرن سوداً فهذا ما رأيت أيها الملك ثم انتبهت مذعوراً فقال الملك والله ما أخطأت منها شيئاً فما شأن هذه الرؤيا وإن كان عجباً فما هو بأعجب مما سمعت منك وما ترى في تأويل رؤياي أيها الصديق؟ قال يوسف عليه الصلاة والسلام: أرى أن تجمع الطعام وتزرع زرعاً كثيراً في هذه السنين المخصبة وتجعل ما يتحصل من ذلك الطعام في الخزائن بقصبه وسنبله

أن أسمع رؤياي منك شفاهاً، فقال له يوسف: نعم أيها الملك رأيت سبع بقرات سِمان شُهب غرٍّ حِسَانٍ، كشفَ لك عنهنَّ النيلُ فطلعنَ عليك من شاطئه تشخب أخلافهنّ لبناً فبينما أنت تنظر إليهنّ ويعجبك حُسنهنّ إذْ نضبَ النيلُ فغار ماؤه وبدا يبسه، فخرج من حمأته سبع بقراتٍ عجافٍ شُعثٍ غُبرٍ مُتقلّصات البطون، ليس لهنّ ضروع ولا أخلاف، ولهنّ أنياب وأضراس وأكفّ كأكفّ الكلاب، وخراطيم كخراطيم السِّباع، فافترسن السِّمان افتراس السبع فأكلن لحومهنّ ومزّقنَ جلودهنّ، وحطمنَ عظامهنّ وتمششن مخّهنّ، فبينما أنت تنظر وتتعجب إذا سبع سنابل خضر وسبع أُخر سود في منبت واحد عروقهنّ في الثرى والماء، فبينما أنت تقول في نفسك أيّ شيء هؤلاء؟ خضر مثمرات وهؤلاء سود يابسات، والمنبت واحد وأُصولهنّ في الماء أذْهبتْ ريحٌ فذرَت الأوراق من اليابسات السود على الخضر المثمرات فاشتعلت فيهنّ النار، فاحترقن فصرن سوداً فهذا ما رأيت؟! فانتبهتَ من نومك مذعوراً، فقال الملك: والله ما شأن هذه الرؤيا وإن كانت عجيبة بأعجب مما سمعت منك فما ترى في رؤياي أيها الصديق؟ فقال يوسف عليه السلام: أرى أن تجمع الطعام وتزرع زرعاً كثيراً في هذه السنين المخصبة، وتجعل الطعام في الخزائن بقصبه وسنبله ليكون القصب والسنبل عَلَفاً للدواب والحبَّ طعاماً للناس، وتأمر الناس فيرفعون من طعامهم

فإنه أبقى له فيكون ذلك القصب والسنبل علفاً للدواب وتأمر الناس فليرفعوا الخمس من زروعهم أيضاً فيكفيك ذلك الطعام الذي جمعته لأهل مصر ومن حولها وتأتيك الخلق من سائر النواحي للميرة ويجتمع عندك من الكنوز والأموال ما لا يجتمع لأحد قبلك فقال الملك: ومن لي بهذا ومن يجمعه ويبيعه لي ويكفيني العمل فيه فعند ذلك.

قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾

﴿قال﴾ يعني يوسف ﴿اجعلني على خزائن الأرض﴾ يعني على خزائن الطعام والأموال، وأراد بالأرض أرض مصر أي اجعلني على خزائن أرضك التي تحت يدك، وقال الربيع بن أنس اجعلني على خزائن خراج مصر ودخلها ﴿إني حفيظ عليم﴾ أي حفيظ الخزائن عليم بوجوه مصالحها وقيل معناه إني حاسب كاتب وقيل حفيظ لما استودعتني عليم بما وليتني وقيل حفيظ للحساب عليم أعلم لغة من يأتيني، وقال الكلبي: حفيظ بتقديره في السنين المخصبة للسنين المجدبة عليم بوقت الجوع حين يقع فقال الملك عند ذلك ومن أحق بذلك منك وولّاه ذلك، وروى البغوي بإسناد الثعلبي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال قال رسول الله ﷺ «يرحم الله أخي يوسف لو لم يقل اجعلني على خزائن الأرض لاستعمله من ساعته ولكنه أخر ذلك سنة».

فإن قلت كيف طلب يوسف علي الصلاة والسلام الإمارة والولاية مع ما ورد من النهي عنها مع كراهية طلبها لما صح من حديث عبد الرحمن بن سمرة قال لي رسول الله ﷺ «يا عبد الرحمن لا تسأل الإمارة فإنك إن أوتيتها عن مسألة وكلت إليها وإن أتيتها من غير مسألة أعنت عليها» أخرجاه في الصحيحين.

قلت إنما يكره طلب الإمارة إذا لم يتعين عليه طلبها فإذا تعين عليه طلبها وجب ذلك عليه ولا كراهية فيه فأما يوسف عليه الصلاة والسلام فكان عليه طلب الإمارة لأنه مرسل من الله تعالى والرسول أعلم بمصالح الأمة من غيره وإذا كان مكلفاً برعاية المصالح ولا يمكنه ذلك إلا بطلب الإمارة وجب عليه طلبها، وقيل إنه علم أنه سيحصل قحط وشدة إما بطريق الوحي من الله أو بغيره وربما أفضى ذلك إلى هلاك معظم الخلق، وكان في طلب الإمارة إيصال الخير والراحة إلى المستحقين وجب عليه طلب الأمارة لهذا السبب.

الخُمسَ فيكفيك من الطعام الذي جمعته لأهل مصر من حولها، ويأتيك الخلق من النواحي للميرة فتبيع منهم الطعام وتأخذ ثمنه فيجتمع عندك من الكنوز ما لم يجتمع لأحد، فقال الملك: ومَن لي بهذا ومَن يجمعه ويبيعه ويكفيني الشغل فيه؟.

فـ﴿ قال ﴾، يوسف، ﴿ اجْعَلْني على خزائنِ الأرض ﴾، الخزائن جمع خزانة وأراد خزائن الطعام والأموال، والأرض أرض مصر، أي: خزائن أرضك. على خراج مصر ودخله، ﴿ إني حفيظٌ عليمٌ ﴾، أي: حفيظ للخزائن عليم بوجوه مصالحها. وقيل: حفيظ عليم، أي: كاتب حاسب. وقيل: حفيظ لما استودعتني عليم بما ولّيتني. وقيل: حفيظ للحساب عليم بالألسن أعلم لغة من يأتيني. وقال الكلبي: حفيظ بتقديره في السنين المجدبة عليم بوقت الجوع حين يقع، فقال له الملك: ومَن أحقّ به منك؟! فولّاه ذلك وقال له: إنّك اليوم لدينا مكين، ذو مكانة ومنزلة، أمين على الخزائن. أخبرنا أبو سعيد الشريحي أنا أبو إسحق الثعلبي أخبرني أبو عبد الله الحسين بن محمد الفنجوي ثنا مخلد بن جعفر البقرجي ثنا الحسن بن عوية ثنا إسماعيل بن عيسى ثنا إسحق بن بشر عن جويبر عن الضحاك عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «رحم الله أخي يوسف لو لم يقل اجعلني على خزائن الأرض لاستعمله من ساعته، ولكنه أخّره لذلك سنة فأقام في بيته سنة مع الملك»، وبإسناده عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لمّا انصرمت السنة من اليوم الذي سأل الإمارة دعاه الملك فتوجّه وقلّده بسيفه ووضع له سريراً من ذهب مكلّل

فإن قلت كيف مدح يوسف نفسه بقوله إني حفيظ عليم والله تعالى يقول فلا تزكوا أنفسكم.

قلت إنما يكره تزكية النفس إذا قصد به الرجل التطاول والتفاخر والتوسل به إلى غير ما يحل فهذا القدر المذموم في تزكية النفس.

أما إذا قصد بتزكية النفس ومدحها إيصال الخير والنفع إلى الغير فلا يكره ذلك ولا يحرم بل يجب عليه ذلك مثاله أن يكون بعض الناس عنده علم نافع ولا يعرف به فإنه يجب عليه أن يقول أنا عالم، ولما كان المالك قد علم من يوسف أنه عالم بمصالح الدين ولم يعلم أنه عالم بمصالح الدنيا نبهه يوسف بقوله إني حفيظ عليم على أنه عالم بما يحتاج إليه في مصالح الدنيا أيضاً مع كمال علمه بمصالح الدين.

﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿**وكذلك مكنا ليوسف في الأرض**﴾ وكذلك إشارة إلى ما تقدم، يعني وكما أنعمنا على يوسف بأن أنجيناه من الجب وخلصناه من السجن وزيناه في عين الملك حتى قربه وأدنى منزلته كذلك مكنا له في الأرض يعني أرض مصر؛ ومعنى التمكين هو أن لا ينازعه منازع فيما يراه ويختاره وإليه الإشارة بقوله ﴿**يتبوأ منها حيث يشاء**﴾ لأنه تفسير للتمكين.

قال ابن عباس وغيره لما انقضت السنة من يوم سأل يوسف الإمارة دعاه الملك فتوجه وقلده بسيفه وحلاه بخاتمه ووضع له سريراً من ذهب مكللاً بالدر والياقوت طوله ثلاثون ذراعاً وعرضه عشرة أذرع ووضع له عليه ثلاثون

بالدرّ والياقوت، وضرب عليه حلّة من إستبرق، وطول السرير ثلاثون ذراعاً وعرضه عشرة أذرع عليه ثلاثون فراشاً وستّون مفرمة، ثم أمر أن يخرج فخرج متوجاً ولونه كالثلج ووجهه كالقمر، يرى الناظر وجهه في صفاء لون وجهه فانطلق حتى جلس على السرير، ودانت له الملوك ودخل الملك بيته وفوّض إليه أمر مصر، وعزل قطفير عمّا كان عليه وجعل يوسف مكانه. قال ابن إسحق: وقال ابن زيد وكان لملك مصر خزائن كثيرة فسلّم سلطانه كله إليه وجعل أمره وقضاءه نافذاً، قالوا: ثم إن قطفير هلك في تلك الليالي فزوّج الملك ليوسف راعيل امرأة قطفير، فلما دخل عليها قال أليس هذا خيراً مما كنت تريدين منّي؟ فقالت: أيها الصديق لا تلمني فإني امرأة حسناء ناعمة كما ترى في ملك ودنيا، وكان صاحبي لا يأتي النساء، وكنتَ كما جعلك الله في حُسنك وجمالك وهيئتك فغلبتني نفسي وقويت عليّ شهوتي ولم أتمالك عقلي في محبتي فيك، فقرب منها يوسف فوجدها عذراء فأصابها فولدت له ولدين أفرائيم بن يوسف وميشا بن يوسف. واستوثق ليوسف ملك مصر فأقام فيهم العدل وأحبّه الرجال والنساء، فذلك قوله تعالى:

﴿ **وكذلك مَكّنّا ليوسفَ في الأرض** ﴾، يعني: أرض مصر ملّكناه، ﴿ **يتبوّأ** ﴾، أي: ينزل أيَّ، ﴿ **منها حيث يشاءُ** ﴾، ويصنع فيها ما يشاء. قرأ ابن كثير وحده: «نشاء» بالنون ردّاً على قوله: ﴿ **مكّنّا** ﴾ وقرأ الآخرون بالياء ردّاً على قوله ﴿ **يتبوّأ** ﴾. ﴿ **نصيب برحمتنا** ﴾، أي: بنعمتنا، ﴿ **مَن نشاءُ ولا نُضيعُ أجرَ المحسنين** ﴾، قال ابن عباس ووهب: يعني الصابرين. قال مجاهد وغيره: فلم يزل يوسف عليه السلام يدعو الملك إلى الإسلام ويتلطف به حتى أسلم الملك وكثير من الناس، فهذا في أمر الدنيا.

فراشاً وستون مارياً وضرب له عليه كلة من إستبرق وأمره أن يخرج فخرج متوجاً لونه كالثلج ووجهه كالقمر يرى الناظر وجهه فيه من صفاء لونه فانطلق حتى جلس على ذلك السرير ودانت ليوسف الملوك وفوض الملك الأكبر إليه ملكه وعزل قطفير عما كان عليه وجعل يوسف مكانه.

قال ابن إسحاق قال ابن زيد وكان لملك مصر خزائن كثيرة فسلمها إلى يوسف وسلم له سلطانه كله وجعل أمره وقضاءه نافذاً في مملكته قالوا ثم هلك قطفير عزيز مصر في تلك الليالي فزوج الملك يوسف امرأة العزيز بعد هلاكه فلما دخل يوسف عليها قال لها أليس هذا خيراً مما كنت تريدين قالت له أيها الصديق لا تلمني فإني كنت امرأة حسناء ناعمة كما ترى في ملك ودنيا وكان صاحبي لا يأتي النساء وكنت كما جعلك الله في حسنك وهيئتك فغلبتني نفسي وعصمك الله قالوا فوجدها يوسف عذراء فأصابها فولدت له ولدين ذكرين إفرائيم وميشا وهما ابنا يوسف منها واستوثق ليوسف ملك مصر وأقام فيه العدل وأحبه الرجال والنساء فلما اطمأن يوسف في ملكه دبر في جمع الطعام أحسن التدبير فبنى الحصون والبيوت الكثيرة وجمع فيها الطعام للسنين المجدبة وأنفق المال بالمعروف حتى خلت السنين المخصبة ودخلت السنين المجدبة بهول وشدة لم ير الناس مثله، وقيل: إنه دبر في طعام الملك وحاشيته كل يوم مرة واحدة نصف النهار فلما دخلت سنين القحط كان أول من أصابه الجوع الملك فجاع نصف النهار فنادى يا يوسف الجوع الجوع فقال يوسف هذا أول أوان القحط فهلك في السنة الأولى من أول سنين القحط كل ما أعدوه في السنين المخصبة فجعل أهل مصر يبتاعون الطعام من يوسف فباعهم في السنة الأولى بالنقود حتى لم يبق بمصر درهم ولا دينار إلا أخذه منهم وباعهم في السنة الثانية بالحلي والجواهر حتى لم يبق بمصر في أيدي الناس منها شيء وباعهم في السنة الثالثة بالدواب والمواشي والأنعام حتى لم تبق دابة ولا ماشية إلا احتوى عليها كلها وباعهم في السنة الرابعة بالعبيد والجواري حتى لم يبق بأيدي الناس عبد ولا أمة وباعهم في السنة الخامسة بالضياع والعقار حتى أتى عليها كلها وباعهم في السنة السادسة بأولادهم، حتى استرقهم وباعهم في السنة السابعة برقابهم حتى لم يبق بمصر حر ولا حرة إلا ملكه فصاروا جميعهم عبيداً ليوسف عليه الصلاة والسلام فقال أهل مصر ما رأينا كاليوم ملكاً أجمل ولا أعظم من

﴿ ولأجرُ الآخرة ﴾، ثواب الآخرة، ﴿ خيرٌ للذينَ آمنُوا وكانوا يتَّقُون ﴾، فلما اطمأن يوسف في ملكه دبر في جمع الطعام بأحسن التدبير، وبنى الحصون والبيوت الكثيرة، وجمع فيها الطعام السنين المجدبة، وأنفق بالمعروف حتى خلت السنون المخصبة ودخلت السنون المجدبة بهول لم يعهد الناس بمثله. ورُوِيَ أنه كان قد دبّر في طعام الملك وحاشيته كل يوم مرة واحدة نصف النهار، فلما دخلت سنة القحط كان أول مَن أخذه الجوع هو الملك في نصف الليل فنادى يا يوسف الجوع، فقال يوسف: هذا أوان القحط، ففي السنة الأولى من سنين الجدب هلك كل شيء أعدّوه في السنين المخصبة، فجعل أهل مصر يبتاعون من يوسف الطعام، فباعهم في أول سنة بالنقود حتى لم يبقَ بمصر دينار ولا درهم إلّا قبضه، وباعهم في السنة الثانية بالحلي والجواهر حتى لم يبقَ في أيدي الناس منها شيء، وباعهم في السنة الثالثة بالمواشي والدواب حتى احتوى عليها أجمع، وباعهم في السنة الرابعة بالعبيد والإماء حتى لم يبق في يد أحد عبد ولا أمة، وباعهم في السنة الخامسة بالضياع والعقار والدُّور حتى احتوى عليها، وباعهم في السنة السادسة بأولادهم حتى استرقّهم، وباعهم في السنة السابعة برِقابهم حت استرقّهم، ولم يبق بمصر حرّ ولا حرّة إلّا صار عبداً له، فقال الناس: ما رأينا يوماً كاليوم ملكاً أجلّ ولا أعظم من هذا، ثم قال يوسف للملك: كيف رأيت صنع ربي فيما خوّلني فما ترى في ذلك؟ فقال له الملك: الرأي رأيك والأمر إليك ونحن لك تَبَع، قال: فإني أشهد الله وأشهدك أني قد أعتقت أهل مصر عن آخرهم ورددْتُ عليهم أملاكهم. ورُوِيَ أن يوسف كان لا يشبع من طعام في تلك الأيام، فقيل له: أتجوع وبيدك خزائن الأرض؟ فقال:

يوسف فقال يوسف للملك كيف رأيت صنع الله بي فيما خولني فما ترى في هؤلاء قال الملك الرأي رأيك ونحن لك تبع قال فإني أشهد الله وأشهدك أني قد أعتقت أهل مصر عن آخرهم ورددت عليهم أملاكهم وقيل إن يوسف كان لا يشبع من الطعام في تلك الأيام فقيل له أتجوع وبيدك خزائن الأرض فقال أخاف إن شبعت أن أنسى الجائع وأمر يوسف طباخي الملك أن يجعلوا غداءه نصف النهار وأراد بذلك أن يذوق الملك طعم الجوع فلا ينسى الجائع فمن ثم جعل الملوك غداءهم نصف النهار.

قال مجاهد: ولم يزل يوسف يدعو الملك إلى الإسلام ويتلطف به حتى أسلم الملك وكثير من الناس فذلك قوله سبحانه وتعالى: وكذلك مكّنّا ليوسف في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء ﴿**نصيب برحمتنا من نشاء**﴾ يعني نختص بنعمتنا وهي النبوة من نشاء يعني من عبادنا ﴿**ولا نضيع أجر المحسنين**﴾ قال ابن عباس يعني الصابرين ﴿**ولأجر الآخرة**﴾ يعني ولثواب الآخرة ﴿**خير**﴾ يعني أفضل من أجر الدنيا ﴿**للذين آمنوا وكانوا يتقون**﴾ يعني يتقون ما نهى الله عنه وفيه دليل على أن الذي أعد الله عز وجل ليوسف عليه الصلاة والسلام في الآخرة من الأجر والثواب الجزيل أفضل مما أعطاه الله في الدنيا من الملك قوله تعالى: .

﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ٥٨﴾

﴿**وجاء إخوة يوسف فدخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرون**﴾ قال العلماء: لما اشتد القحط وعظم البلاء وعم ذلك جميع البلاد حتى وصل إلى بلاد الشام قصد الناس مصر من كل مكان للميرة وكان يوسف لا يعطي أحداً أكثر من حمل بعير وإن كان عظيماً تقسيطاً ومساواة بين الناس ونزل بآل يعقوب ما نزل بالناس من الشدة فبعث بنيه إلى مصر للميرة وأمسك عنده بنيامين أخا يوسف لأمه وأبيه وأرسل عشرة فذلك قوله تعالى وجاء إخوة يوسف وكانوا عشرة وكان مسكنهم بالعربات من أرض فلسطين والعربات ثغور الشام وكانوا أهل بادية وإبل وشياه فدعاهم يعقوب عليه الصلاة والسلام وقال بلغني أن بمصر ملكاً صالحاً يبيع الطعام فتجهزوا له واقصدوه لتشتروا منه ما تحتاجون إليه من الطعام فخرجوا حتى قدموا مصر فدخلوا على يوسف فعرفهم.

قال ابن عباس: ومجاهد بأول نظرة نظر إليهم عرفهم، وقال الحسن: لم يعرفهم حتى تعرفوا إليه وهم له منكرون يعني لم يعرفوه.

أخاف إن شبعت أن أنسى الجائع، وأمر يوسف عليه السلام طبّاخي الملك أن يجعلوا غداءه نصف النهار، وأراد بذلك أن يذوق الملك طعم الجوع فلا ينسى الجائعين، فمن ثَمّ جعل الملوك غداءهم نصف النهار. قال: وقصد الناسُ مصرَ من كل النواحي يمتارون الطعام فجعل يوسف لا يمكّن أحداً منهم، وإن كان عظيماً أكثر من حمل بعير تقسيطاً بين الناس، وتزاحم الناس عليه فأصاب أرض كنعان وبلاد الشام ما أصاب الناس في سائر البلاد من القحط والشدّة، ونزل بيعقوب ما نزل بالناس فأرسل بنيه إلى مصر للميرة وأمسك بنيامين أخا يوسف لأمه.

فذلك قوله تعالى: ﴿ **وجاءَ إخوةُ يوسف** ﴾ وكانوا عشرة، وكان منزلهم بالقرب من أرض فلسطين، بغور الشام، وكانوا أهل بادية وإبل وشاة، فدعاهم يعقوب عليه السلام وقال: يا بني بلغني أن بمصر ملكاً صالحاً يبيع الطعام، فتجهزوا له فاذهبُوا لِتَشْتَرُوا منه الطعام، فأرسلهم فقَدِمُوا مصرَ، ﴿ **فدخلُوا عليه** ﴾، على يوسف، ﴿ **فعَرَفَهم** ﴾، يوسف عليه السلام. قال ابن عباس ومجاهد: وعرفهم بأول ما نظر إليهم، وقال الحسن: لم يعرفهم حتى تعرّفوا إليه، ﴿ **وهم له مُنكِرُون** ﴾، أي: لم يعرفوه. قال ابن عباس: وكان بين أن قذفوه في البئر وبين أن

قال ابن عباس رضي الله عنهما: كان بين أن قذفوه في الجب وبين دخولهم عليه مدة أربعين سنة فلذلك أنكروه وقال عطاء: إنما لم يعرفوه لأنه كان على سرير الملك وكان على رأسه تاج الملك وقيل لأنه كان قد لبس زي ملوك مصر عليه ثياب حرير وفي عنقه طوق من ذهب وكل واحد من هذه الأسباب مانع من حصول المعرفة فكيف وقد اجتمعت فيه، وقيل إن العرفان إنما يقع في القلب بخلق الله تعالى له فيه وإن الله سبحانه وتعالى لم يخلق ذلك العرفان في تلك الساعة في قلوبهم تحقيقاً لما أخبر أنه سينبئهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون فكان ذلك معجزة ليوسف عليه الصلاة والسلام فلما نظر إليهم يوسف وكلموه بالعبرانية كلمهم بلسانهم فقال لهم أخبروني من أنتم وما أمركم فإني قد أنكرت حالكم قالوا: نحن قوم من أرض الشام رعاة قد أصابنا من الجهد ما أصاب الناس فجئنا نمتار؟ قال يوسف لعلكم جئتم تنظرون عورة بلادي قالوا: لا والله ما نحن بجواسيس إنما نحن إخوة بنو أب واحد وهو شيخ كبير صديق يقال له يعقوب نبي من أنبياء الله تعالى قال وكم أنتم؟ قالوا كنا اثني عشر فذهب أخ لنا معنا إلى البرية فهلك فيها وكان أحبنا إلى أبينا قال: فكم أنتم الآن، قالوا: عشرة قال: وأين الآخر قالوا هو عند أبينا لأنه أخو الذي هلك لأمه فأبونا يتسلى به قال فمن يعلم أن الذي تقولون حق قالوا أيها الملك إننا ببلاد غربة لا يعرفنا فيها أحد قال فأتوني بأخيكم الذي من أبيكم إن كنتم صادقين فأنا راض بذلك منكم قالوا إن أبانا يحزن لفراقه وسنراوده عنه قال فدعوا بعضكم عندي رهينة حتى تأتوني به فاقترعوا فيما بينهم فأصابت القرعة شمعون وكان أحسنهم رأياً في يوسف فخلفوه عنده فذلك قوله تعالى:

﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴿٦١﴾ وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾﴾

﴿ولما جهزهم بجهازهم﴾ يقال: جهزت القوم تجهيزاً إذا تكلفت لهم جهاز سفرهم وهو ما يحتاجون إليه في وجوههم والجهاز بفتح الجيم هي اللغة الفصيحة الجيدة وعليها الأكثرون من أهل اللغة وكسر الجيم لغة ليست

دخلوا عليه أربعون سنة، فلذلك أنكروه. وقال عطاء: إنما لم يعرفوه لأنه كان على سرير الملك وعلى رأسه تاج الملك. وقيل: لأنه كان بزيّ ملوك مصر عليه ثياب من حرير وفي عنقه طوق من ذهب، فلما نظر إليهم يوسف وكلّموه بالعبرانية، قال لهم: أخبروني مَن أنتم وما أمركم فإني أنكرت شأنكم؟ قالوا: نحن قوم من أهل الشام رعاةً أصابنا الجهد فجئنا نمتار، فقال: لعلّكم جئتم تنظرون عورة بلادي، قالوا: لا والله ما نحن بجواسيس إنّما نحن إخوة بنو أب واحد، وهو شيخ صديق يقال له يعقوب نبي من أنبياء الله، فقال: وكم أنتم؟ قالوا: كنّا اثني عشر فذهب أخ لنا معنا إلى البرية فهلك فيها وكان أحبّنا إلى أبينا، قال: فكم أنتم ههنا؟ قالوا: عشرة، قال: وأين الأخر؟ قالوا: عند أبينا لأنه أخو الذي هلك من أمه، فأبونا يتسلّى به، فقال: فمَن يعلم أن الذي تقولون حق وصدق؟ قالوا: أيها الملك إنّا ببلاد لا يعرفنا فيها أحد من أهلها، فقال لهم يوسف: فأتوني بأخيكم الذي من أبيكم إن كنتم صادقين، وأنا أرضى بذلك، قالوا: فإن أبانا يحزن على فراقه وسنراود عنه أباه، قال: فدعوا بعضكم عندي رهينة حتى تأتوني بأخيكم الذي من أبيكم، فاقترعوا بينهم فأصابت القرعة شمعون وكان أحسنهم رأياً في يوسف، فخلّفوه عنده. فذلك قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ ولمّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِم ﴾، أي: حمل لكلِ واحد بعيراً بعدّتهم، ﴿ قال ائتوني بأخٍ لكم منْ أبيكم ﴾، يعني بنيامين، ﴿ ألَا تَرَوْنَ أني أوفي الكيلَ ﴾. أي: أُتمّه ولا أبخس الناس شيئاً فأزيدكم حمل بعير لأجل أخيكم

بجيدة. قال ابن عباس: حمل لكل واحد منهم بعيراً من الطعام وأكرمهم في النزول وأحسن ضيافتهم وأعطاهم ما يحتاجون إليه في سفرهم ﴿**قال ائتوني بأخ لكم من أبيكم**﴾ يعني الذي خلفتموه عنده وهو بنيامين ﴿**ألا ترون أني أوفي الكيل**﴾ يعني أني أتمه ولا أبخس منه شيئاً وأزيدكم حمل بعير آخر لأجل أخيكم أكرمكم بذلك ﴿**وأنا خير المنزلين**﴾ يعني خير المضيفين لأنه كان قد أحسن ضيافتهم مدة إقامتهم عنده قال الإمام فخر الدين الرازي: هذا الكلام يضعف قول من يقول من المفسرين إنه اتهمهم ونسبهم إلى أنهم جواسيس ومن يشافههم بهذا الكلام فلا يليق به أن يقول لهم ألا ترون أني أوفي الكيل وأنا خير المنزلين، وأيضاً يبعد من يوسف عليه الصلاة والسلام مع كونه صديقاً أن يقول لهم أنتم جواسيس وعيون مع أنه يعرف براءتهم من هذه التهمة لأن البهتان لا يليق بالصديق ثم قال يوسف ﴿**فإن لم تأتوني به**﴾ يعني بأخيكم الذي من أبيكم ﴿**فلا كيل لكم عندي**﴾ يعني لست أكيل لكم طعاماً ﴿**ولا تقربون**﴾ يعني ولا ترجعوا ولا تقربوا بلادي وهذا هو نهاية التخويف والترهيب لأنهم كانوا محتاجين إلى تحصيل الطعام ولا يمكنهم تحصيله إلا من عنده فإذا منعهم من العود كان قد ضيق عليهم فعند ذلك ﴿**قالوا**﴾ يعني إخوة يوسف ﴿**سنراود عنه أباه**﴾ يعني سنجتهد ونحتال حتى ننزعه من عنده ﴿**وإنا لفاعلون**﴾ يعني ما أمرتنا به.

قوله عز وجل: ﴿**وقال لفتيانه**﴾ يعني: وقال يوسف لفتيانه وهم غلمانه وأتباعه ﴿**اجعلوا بضاعتهم في رحالهم**﴾ أراد بالبضاعة ثمن الطعام الذي أعطوه ليوسف وكانت دراهم وحكى الضحاك عن ابن عباس أنها كانت النعال والأدم والرحال جمع رحل وهي الأوعية التي يحمل فيها الطعام وغيره ﴿**لعلهم يعرفونها**﴾ يعني يعرفون بضاعتهم ﴿**إذا انقلبوا إلى أهلهم**﴾ يعني إذا رجعوا إلى أهلهم ﴿**لعلهم يرجعون**﴾ إلينا واختلفوا في السبب الذي من أجله رد يوسف عليه الصلاة والسلام عليهم بضاعتهم فقيل إنهم إذا فتحوا متاعهم ووجدوا بضاعتهم قد ردت إليهم علموا أن ذلك من كرم يوسف وسخائه فيبعثهم ذلك على الرجوع إليه سريعاً وقيل إنه خاف أن لا يكون عند أبيه شيء آخر من المال لأن الزمان كان زمان قحط وشدة، وقيل: إنه رأى أن أخذ ثمن الطعام من أبيه وإخوته لؤم لشدة حاجتهم إليه وقيل أراد أن يحسن إليهم على وجه لا يلحقهم فيه لوم ولا عيب، وقيل أراد أن يريهم بره وكرمه وإحسانه إليهم في رد بضاعتهم ليكون ذلك أدعى إلى العود إليه، وقيل: إنما فعل ذلك لأنه علم أن ديانتهم وأمانتهم تحملهم على رد البضاعة إليه إذا

وأكرم منزلتكم وأُحسِن إليكم، ﴿ **وأنا خيرُ المُنْزِلين** ﴾، قال مجاهد: أي خير المضيفين. وكان قد أحسن ضيافتهم.

﴿ **فإنْ لم تأتوني به فلا كيلَ لكم عندي** ﴾، أي: ليس لكم عندي طعام أكيله، ﴿ **ولا تقربون** ﴾، أي: لا تقربوا داري وبلادي بعد ذلك وهو جزم على النهي.

﴿ **قالوا سَنُرَاوِد عنه أباه** ﴾، أي: نطلبه ونسأله أن يرسله معنا، ﴿ **وإنّا لَفَاعِلُون** ﴾، ما أمرتنا به.

﴿ **وقالَ لفتيانِهِ** ﴾، قرأ حمزة والكسائي وحفص: «لفتيانــه» بالألف والنون، وقرأ الباقون: «لفتيته» بالتاء من غير ألف، يريد لغلمانه، وهما لغتان مثل الصبيان والصبية، ﴿ **اجْعَلُوا بضاعتَهم** ﴾، ثمنَ طعامهم وكانت بدراهم. وقال الضحاك عن ابن عباس: كانت النِعال والأدم. وقيل: كانت ثمانية جرب من سويق المقل. والأول أصحُ ﴿ **في رِحَالِهِمْ** ﴾، أوعيتهم، وهي جمع رحل، ﴿ **لعلّهم يعرِفُونَها إذا انقلبُوا** ﴾، انصرفوا، ﴿ **إلى أهلِهِمْ لعلّهم يَرْجِعُون** ﴾، واختلفوا في السبب الذي فعله يوسف من أجله، قيل: أراد أن يُريهم كرمه في ردّ البضاعة وتقديم الضمان في البرّ والإحسان ليكون أدعى لهم إلى العود لعلّهم يعرفونها أي كرامتهم علينا. وقيل: رأى لؤماً أخذ الطعام من أبيه وإخوته مع حاجتهم إليه فردّه عليهم من حيث لا يعلمون تكرّماً. وقال الكلبي: تخوّف أن لا

وجدوها في رحالهم لأنهم أنبياء وأولاد أنبياء وقيل أراد برد البضاعة إليهم أن يكون ذلك عوناً لأبيه ولإخوته على شدة الزمان.

فَلَمَّا رَجَعُوٓا إِلَىٰٓ أَبِيهِمۡ قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلۡكَيۡلُ فَأَرۡسِلۡ مَعَنَآ أَخَانَا نَكۡتَلۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾ قَالَ هَلۡ ءَامَنُكُمۡ عَلَيۡهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمۡ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبۡلُ فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَـٰفِظًا وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَـٰعَهُمۡ وَجَدُواْ بِضَـٰعَتَهُمۡ رُدَّتۡ إِلَيۡهِمۡ قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَا مَا نَبۡغِي هَـٰذِهِۦ بِضَـٰعَتُنَا رُدَّتۡ إِلَيۡنَا وَنَمِيرُ أَهۡلَنَا وَنَحۡفَظُ أَخَانَا وَنَزۡدَادُ كَيۡلَ بَعِيرٍ ذَٰلِكَ كَيۡلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾

﴿**فلما رجعوا إلى أبيهم قالوا يا أبانا**﴾ إنا قدمنا على خير رجل أنزلنا وأكرمنا كرامة عظيمة لو كان رجلاً من أولاد يعقوب ما أكرمنا كرامته فقال لهم يعقوب إذا رجعتم إلى ملك مصر فاقرؤوا عليه مني السلام وقولوا له إن أبانا يصلي عليك ويدعو لك بما أوليتنا ثم قال لهم أين شمعون قالوا ارتهنه ملك مصر عنده وأخبروه بالقصة ثم قالوا يا أبانا ﴿**منع منا الكيل**﴾ وفيه قولان:

أحدهما: أنهم لما أخبروا يوسف بأخيهم من أبيهم طلبوا منه الطعام لأبيهم وأخيهم المتخلف عند أبيهم فمنعهم من ذلك حتى يحضر فقولهم منع منا الكيل إشارة إليه وأراد بالكيل الطعام لأنه يكال.

والقول الثاني: إنه سيمنع منا الكيل في المستقبل وهو إشارة إلى قول يوسف فإن لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي ولا تقربون وقال الحسن يمنع منا الكيل إن لم نحمل معنا أخانا وهو قوله تعالى إخباراً عنهم ﴿**فأرسل معنا أخانا**﴾ يعني بنيامين ﴿**نكتل**﴾ قرىء بالياء يعني يكتل لنفسه وقرىء بالنون يعني نكتل نحن جميعاً وإياه معنا ﴿**وإنا له لحافظون**﴾ يعني نرده إليك فلما قالوا ليعقوب هذه المقالة (قال) يعني يعقوب ﴿**هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل**﴾ يعني كيف آمنكم على ولدي بنيامين وقد فعلتم بأخيه يوسف ما فعلتم وإنكم ذكرتم مثل هذا الكلام بعينه في يوسف وضمنتم لي حفظه وقلتم وإنا له لحافظون فما فعلتم فلما لم يحصل الأمان والحفظ هنالك فكيف يحصل هاهنا ثم قال ﴿**فالله خير حافظاً**﴾ يعني أن حفظ الله خير من حفظكم له ففيه التفويض إلى الله تعالى والاعتماد عليه في جميع الأمور ﴿**وهو أرحم الراحمين**﴾ وظاهر هذا الكلام يدل على أنه أرسله معهم، وإنما أرسله معهم وقد شاهد ما فعلوا بيوسف لأنه لم يشاهد فيما بينهم وبين بنيامين من الحقد والحسد مثل ما كان بينهم وبين يوسف أو أن يعقوب شاهد منهم الخير والصلاح لما كبروا فأرسله معهم أو أن شدة القحط وضيق الوقت أحوجه إلى ذلك.

يكون عند أبيه من الورق ما يرجعون به مرة أخرى. وقيل: فعل ذلك لأنه علم أن ديانتهم تحملهم على ردّ البضاعة نفياً للغلط ولا يستحلّون إمساكها.

﴿ **فلمّا رَجَعُوا إلى أبيهم قالوا يا أبَانَا** ﴾، إنّا قَدِمنا على خير رجل أنزلنا وأكرمنا كرامة لو كان رجلاً من أولاد يعقوب ما أكرمنا كرامته، فقال لهم يعقوب: إذا أتيتم ملك مصر فأقرؤوه منّي السلام، وقولوا له: إنّ أبانا يصلّي عليك ويدعو لك بما أوليتنا، ثم قال: أين شمعون؟ قالوا: ارتهنه ملك مصر وأخبروه بالقصة، فقال لهم: ولِمَ أخبرتموه؟ قالوا: إنه أخذنا وقال: أنتم جواسيس حيث كلّمناه بلسان العبرانية، وقصُّوا عليه القصة، وقالوا: يا أبانا ﴿ **مُنِعَ مِنّا الكيلُ** ﴾، قال الحسن: معناه يمنع منّا الكيل إن لم تحمل أخانا معنا. وقيل: معناه أعطى باسم كل واحد منّا حمل ويمنع منّا الكيل لبنيامين، والمراد بالكيل الطعام لأنه كان يكال، ﴿ **فأرْسِلْ مَعَنَا أخانَا** ﴾، بنيامين، ﴿ **نَكْتَلْ** ﴾ قرأ حمزة والكسائي: « يكتل » بالياء، يعني: يكيل لنفسه كما نحن نكتال، وقرأ الآخرون: «نكتـل» بالنون، يعني: نكتل نحن وهو الطعام. وقيل: نكتل له، ﴿ **وإنّا له لَحافِظُون** ﴾.

قوله تعالى: ﴿ولما فتحوا متاعهم﴾ يعني الذي حملوه من مصر فيحتمل أن يكون المراد به الطعام أو أوعية الطعام ﴿وجدوا بضاعتهم ردت إليهم﴾ يعني أنهم وجدوا في متاعهم ثمن الطعام الذي كانوا قد أعطوه ليوسف قد رد عليهم ودس في متاعهم ﴿قالوا يا أبانا ما نبغي﴾ يعني ماذا نبغي وأي شيء نطلب وذلك أنهم كانوا قد ذكروا ليعقوب إحسان ملك مصر إليهم وحثوا يعقوب على إرسال بنيامين معهم فلما فتحوا متاعهم ووجدوا بضاعتهم قد ردت إليهم قالوا أي شيء نطلب من الكلام بعد هذا العيان من الإحسان والإكرام أوفى لنا الكيل ورد علينا الثمن، وأرادوا بهذا الكلام تطييب قلب أبيهم ﴿هذه بضاعتنا ردت إلينا ونمير أهلنا﴾ يقال مار أهله يميرهم ميراً إذا حمل لهم الطعام وجلبه من بلد آخر إليهم والمعنى إنا نشتري لأهلنا الطعام ونحمله إليهم ﴿ونحفظ أخانا﴾ يعني بنيامين مما تخاف عليه حتى رده إليك ﴿ونزداد كيل بعير﴾ يعني ونزداد لأجل أخينا على أحمالنا حمل بعير من الطعام ﴿ذلك كيل يسير﴾ يعني إن ذلك الحمل الذي نزداد من الطعام هين على الملك لأنه قد أحسن إلينا وأكرمنا بأكثر من ذلك وقيل معناه أن الذي حملناه معنا كيل يسير قليل لا يكفينا وأهلنا.

قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ ۖ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ يَٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ۖ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا ۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾

﴿قال﴾ يعني قال لهم يعقوب ﴿لن أرسله معكم حتى تؤتون موثقاً من الله﴾ يعني لن أرسل معكم بنيامين حتى

﴿ قالَ هلْ آمَنُكُمْ عليهِ إلاّ كما أَمِنْتُكُمْ على أخيه ﴾، يوسف ﴿ مِنْ قبلُ ﴾، أي: كيف آمنكم عليه وقد فعلتم بيوسف ما فعلتم؟ ﴿ فاللَّهُ خيرٌ حافظاً ﴾، قرأ حمزة والكسائي وحفص: «حافظاً» بالألف على التفسير، كما يقال هو خير رجلاً، وقرأ الآخرون: « حفظاً » بغير ألف على المصدر، يعني: خيركم حفظاً، يقول: حفظه خير من حفظكم. ﴿ وهو أرحمُ الراحمين ﴾.

﴿ ولمّا فَتَحُوا متاعَهُم ﴾، الذي حملوه من مصر، ﴿ وجدوا بِضَاعَتَهم ﴾، ثم الطعام، ﴿ رُدَّتْ إليهمْ قالُوا يا أبانَا ما نَبْغِي ﴾، أي: ماذا نبغي وأيّ شيء نطلب؟ وذلك أنهم ذكروا ليعقوب عليه السلام إحسان الملك إليهم وحثّوه على إرسال بنيامين معهم، فلما فتحوا المتاع ووجدوا البضاعة، قالوا: يا أبانا ما نبغي، ﴿ هذهِ بضاعَتُنَا رُدَّتْ إلينا ﴾، أيُّ شيء نطلب بالكلام فهذا هو العيان من الإحسان والإكرام، أَوْفَى لنا الكيلَ ورَدَّ علينا الثمن، أرادوا تطييب نفس أبيهم، ﴿ ونميرُ أهلَنَا ﴾، أي: نشتري لهم الطعام فنحمله إليهم. يقال: مارَ أهله يمير ميراً إذا حمل إليهم الطعام من بلد آخر. ومثله امتار يمتار امتياراً. ﴿ ونحفظُ أخانَا ﴾ بنيامين، أي: مما تخاف عليه. ﴿ ونزدَادُ ﴾، على أحمالنا، ﴿ كيلَ بعيرٍ ﴾، أي: حمل بعير يكال لنا من أجله، لأنه كان يعطي باسم كل رجل حمل بعير، ﴿ ذلك كيلٌ يسير ﴾، أي: ما حملناه قليل لا يفينا وأهلنا. وقيل: معناه نزداد كيل بعير ذلك كيل يسير لا مؤنة فيه ولا مشقّة. وقال مجاهد: البعير هاهنا الحمار كيل بعير، أي: حمل حمار، وهي لغة، يقال للحمار: بعير. وهم كانوا أصحاب حمر. والأول أصحّ أنه البعير المعروف.

﴿ قال ﴾ لهم يعقوب، ﴿ لنْ أُرْسِلَهُ معكم حتى تُؤْتُون ﴾، تعطون ﴿ موثقاً ﴾، أي: ميثاقاً وعهداً، ﴿ من

تؤتون عهد الله وميثاقه والموثق العهد المؤكد باليمين، وقيل هو المؤكد بإشهاد الله عليه ﴿لتأتنني به﴾ دخلت اللام هنا لأجل اليمين وتقديره حتى تحلفوا بالله لتأتنني به ﴿إلا أن يحاط بكم﴾ قال مجاهد: إلا أن تهلكوا جميعاً فيكون عذراً لكم عندي، لأن العرب تقول أحيط بفلان إن هلك أو قارب هلاكه.

وقال قتادة: إلا أن تغلبوا جميع فلا تقدروا على الرجوع ﴿فلما آتوه موثقهم﴾ يعني فلما أعطوه عهدهم وحلفوا له ﴿قال الله على ما نقول وكيل﴾ يعني قال يعقوب الله شاهد على ما نقول كأن الشاهد وكيل بمعنى أنه موكول إليه هذا العهد، وقيل وكيل بمعنى حافظ.

قال كعب الأحبار: لما قال يعقوب «فالله خير حافظاً» قال الله تعالى: «وعزتي وجلالي لأردن عليك كليهما بعد ما توكلت علي وفوضت أمرك إليّ» وذلك أنه لما اشتد بهم الأمر وضاق عليهم الوقت وجهدوا أشد الجهد لم يجد يعقوب بداً من إرسال بنيامين معهم فأرسله معهم متوكلاً على الله ومفوضاً أمره إليه.

قوله عز وجل إخباراً عن يعقوب ﴿وقال يا بني لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة﴾ وذلك أنهم لما خرجوا من عند يعقوب قاصدين مصر قال لهم يا بني لا تدخلوا يعني مدينة مصر من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة وكان لمدينة مصر يومئذ أربعة أبواب، وقال السدي: أراد الطرق لا الأبواب يعني من طرق متفرقة وإنما أمرهم بذلك لأنه خاف عليهم العين لأنهم كانوا قد أعطوا جمالاً وقوة وامتداد قامة وكانوا أولاد رجل واحد فأمرهم أن يتفرقوا في دخولهم المدينة لئلا يصابوا بالعين فإن العين حق، وهذا قول ابن عباس ومجاهد وقتادة وجمهور المفسرين (ق).

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال «إن العين حق» زاد البخاري «ونهى عن الوشم» (م) عن ابن عباس عن رسول الله ﷺ قال «العين حق ولو كان شيء سابق القدر لسبقته العين وإذا استغسلتم فاغتسلوا» عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت «كان يؤمر العائن فيتوضأ ثم يغتسل منه المعين» أخرجه أبو داود.

قال الشيخ محيي الدين النووي رحمه الله تعالى: قال المازري: أخذ جماهير العلماء بظاهر هذا الحديث وقال العين حق وأنكره طوائف من المبتدعة والدليل على فساد عقولهم أن كل معنى يكون مخالفاً في نفسه ولا يؤدي إلى قلب حقيقة ولا إفساد دليل فإنه من مجوزات العقول وإذا أخبر الشرع بوقوعه وجب اعتقاده ولا يجوز تكذيبه وإنكاره وقيل لا بد من فرق بين تكذيبهم بهذا وتكذيبهم بما يخبر به من أمور الآخرة قال وقد زعم بعض الطبائعيين مثبتين للعين تأثيراً أن العين تنبعث من عينيه قوة سمية تتصل بالمعين فيهلك أو يفسد قالوا ولا يمتنع هذا كما لا يمتنع انبعاث قوة سمية من الأفعى والعقرب تتصل بالملدوغ فيهلك وإن كان غير محسوس لنا فكذا العين، قال المازري: وهذا غير مسلم لأنا بينا في كتب علم الكلام أنه لا فاعل إلا الله تعالى وبينا فساد القول بالطبائع وبينا أن المحدث لا يفعل في غيره شيئاً، فإذا تقرر هذا بطل ما قالوه ثم تقول هذا المنبعث من العين إما جوهر وإما عرض فباطل أن يكون عرضاً لأنه

الله ﴾، والعهد الموثق: المؤكّد بالقسم. وقيل: المؤكد بالقسم. وقيل: المؤكد بإشهاد الله على نفسه ﴿ لتأتنّني به ﴾، وأدخل اللام فيه لأن معنى الكلام اليمين، ﴿ إلّا أنْ يُحاطَ بكم ﴾، قال مجاهد: إلّا أن تهلكوا جميعاً. وقال قتادة: إلّا أن تغلبوا حتى لا تطيقوا ذلك. وفي القصة: أن الأخوة ضاق الأمر عليهم وجهدوا أشدّ الجهد، فلم يجد يعقوب بدّاً من إرسال بنيامين معهم. ﴿ فلمّا آتَوْهُ مَوْثِقَهم ﴾، أعطوه عهودهم، ﴿ قال ﴾، يعني: يعقوب، ﴿ الله على ما نقولُ وكيلٌ ﴾، شاهد. وقيل: حافظ. قال كعب: لمّا قال يعقوب فالله خير حافظاً وهو أرحم الراحمين، قال الله عزّ وجلّ: وعزّتي لأردنّ عليك كليهما بعدما توكّلتَ عليّ.

﴿ وقالَ ﴾، لهم يعقوب لمّا أرادوا الخروج من عنده، ﴿ يا بنَيَّ لا تدخلُوا من بابٍ واحدٍ وادْخُلوا من أبوابٍ

لا يقبل الانتقال وباطل أن يكون جوهراً لأن الجواهر متجانسة فليس بعضها بأن يكون مفسداً لبعض بأولى من عكسه فبطل ما قالوه وأقرب طريقة قالها من ينتحل الإسلام منهم إن قالوا لا يبعد أن تنبعث جواهر لطيفة غير مرئية من عين العائن لتتصل بالمعين فتتخلل مسام جسمه فيخلق الله عز وجل الهلاك عندها كما يخلق الهلاك عند شرب السموم عادة أجراها الله عز وجل وليست ضرورة ولا طبيعية ألجأ الفعل إليها قال ومذهب أهل السنة أن المعين إنما يفسد ويهلك عند نظر العائن بفعل الله تعالى أجرى الله تعالى العادة بأن يخلق الضرر عند مقابلة هذا الشخص شخصاً آخر، وهل ثم جواهر أم لا فهذا من مجوزات العقول لا يقطع فيه بواحد من الأمرين وإنما يقطع بنفي الفعل عنها وإضافته إلى الله تعالى فمن قطع من أطباء الإسلام بانبعاث الجواهر فقد أخطأ في قطعه وإنما هو من الجائزات هذا ما يتعلق بعلم الأصول وأما ما يتعلق بعلم الفقه فإن الشرع قد ورد بالوضوء لهذا الأمر في حديث سهل بن حنيف لما أصيب بالعين عند اغتساله رواه مالك في الموطأ.

وأما صفة وضوء العائن فمذكور في كتب شرح الحديث ومعروف عند العلماء فيطلب من هناك فليس هذا موضعه والله أعلم.

وقال وهب بن منبه: في قوله ﴿لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة﴾ أنه خاف أن يغتالوا لما ظهر لهم في أرض مصر من التهمة حكاه ابن الجوزي عنه وقيل إن يعقوب عليه الصلاة والسلام كان قد علم أن ملك مصر هو ولده يوسف عليه الصلاة والسلام إلا أن الله تعالى لم يأذن له في إظهاره ذلك فلما بعث أبناءه إليه قال لهم: لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة وكان غرضه أن يصل بنيامين إلى أخيه يوسف في وقت الخلوة قبل إخوته والقول الأول أصح أنه خاف عليهم من العين ثم رجع إلى علمه وفوض أمره إلى الله تعالى بقوله: ﴿وما أغني عنكم من الله من شيء﴾ يعني إن كان الله قد قضى عليكم بقضاء فهو يصيبكم مجتمعين كنتم أو متفرقين فإن المقدور كائن ولا ينفع حذر من قدر ﴿إن الحكم إلا لله﴾ يعني وما الحكم إلا لله وحده لا شريك له فيه وهذا تفويض من يعقوب في أموره كلها إلى الله تعالى: ﴿عليه توكلت﴾ يعني عليه اعتمدت في أموري كلها لا على غيره ﴿وعليه فليتوكل المتوكلون ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم﴾ يعني من الأبواب المتفرقة وكان لمدينة مصر وقيل مدينة الفرماء أربعة أبواب فدخلوا من أبوابها كلها ﴿ما كان يغني عنهم من الله من شيء﴾ وهذا تصديق من الله سبحانه وتعالى ليعقوب فيما قال وما أغني عنكم من الله من شيء ﴿إلا حاجة في نفس يعقوب قضاها﴾ هذا استثناء منقطع ليس من الأول في شيء ومعناه لكن حاجة في نفس يعقوب قضاها وهو أنه أشفق عليهم إشفاق الآباء على الأبناء وذلك أنه خاف عليهم من العين أو خاف عليهم حسد أهل مصر أو خاف أن لا يردوا عليه فأشفق من هذا كله أو بعضه ﴿وأنه﴾ يعني يعقوب

﴿ مُّتَفَرِّقَةٍ ﴾، وذلك أنه خاف عليهم العين لأنهم كانوا أعطوا جمالاً وقوّةً وامتداد قامة، وكانوا ولد رجل واحد، فأمرهم أن يتفرّقوا في دخولهم لئلا يُصابوا بالعين، فإن العين حق، وجاء في الأثر: «إنّ العينَ تُدخلُ الرجلَ القبرَ والجملَ القدرَ». وعن إبراهيم النخعي أنه قال ذلك لأنه كان يرجو أن يروا يوسف في التفرّق. والأول أصح. ثم قال: ﴿ وما أغني عنكم مِّنَ اللَّهِ مِنْ شيء ﴾، معناه: إن كان الله قضى فيكم قضاء فيصيبكم مجتمعين كنتم أو متفرقين، فإن المقدور كائن والحذر لا ينفع عن القدر، ﴿ إن الحُكم ﴾، ما الحكم، ﴿ إلاّ للَّهِ ﴾، هذا تفويض يعقوب أموره إلى الله، ﴿ عليهِ توكّلتُ ﴾، اعتمدتُ، ﴿ وعليهِ فليتوكل المتوكِّلون ﴾.

﴿ ولمّا دخلُوا من حيثُ أمرهم أبوهم ﴾ أي: من الأبواب المتفرّقة. وقيل: كانت المدينة مدينة الفرماء ولها أربعة أبواب، فدخلوها من أبوابها، ﴿ ما كانَ يُغني ﴾، يدفع ﴿ عنهم مِّنَ اللَّهِ من شيء ﴾، صَدقَ اللَّهُ تعالى يعقوبَ فيما قال، ﴿ إلاّ حاجةً ﴾، مراداً، ﴿ في نفس يعقوبَ قَضَاهَا ﴾، أشفق عليهم إشفاق الآباء على أبنائهم وجرى

﴿لذو علم﴾ يعني صاحب علم ﴿لما علمناه﴾ يعني لتعليمنا إياه ذلك العلم، وقيل: معناه وإنه لذو علم للشيء الذي علمناه والمعنى أنا لما علمناه هذه الأشياء حصل له العلم بتلك الأشياء، وقيل: إنه لذو حفظ لما علمناه وقيل إنه كان يعمل ما يعمل عن علم لا عن جهل، وقيل: إنه لعامل بما علمناه قال سفيان من لا يعمل بما يعلم لا يكون عالماً ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ يعني لا يعلمون ما كان يعلم يعقوب لأنهم لم يسلكوا طريق إصابة العلم وقال ابن عباس: لا يعلم المشركون ما ألهم الله أولياءه.

وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾

قوله تعالى: ﴿ولما دخلوا على يوسف آوى إليه أخاه﴾ قال المفسرون: لما دخل إخوة يوسف على يوسف قالوا أيها الملك هذا أخونا الذي أمرتنا أن نأتيك به قد جئناك به فقال لهم أحسنتم وأصبتم وستجدون ذلك عندي ثم أنزلهم وأكرم نزلهم ثم إنه أضافهم وأجلس كل اثنين على مائدة فبقي بنيامين وحيداً فبكى وقال لو كان أخي يوسف حياً لأجلسني معه فقال لهم يوسف لقد بقي هذا وحده فقالوا كان له أخ فهلك قال لهم فأنا أجلسه معي فأخذه فأجلسه معه على مائدته وجعل يؤاكله فلما كان الليل أمرهم بمثل ذلك وقال كل اثنين منكم ينامان على فراش واحد فبقي بنيامين وحده فقال يوسف هذا ينام عندي على فراشي فنام بنيامين مع يوسف على فراشه فجعل يوسف يضمه إليه ويشم ريحه حتى أصبح فلما أصبح قال لهم إني أرى هذا الرجل وحيداً ليس معه ثان وسأضمه إليّ فيكون معي في منزلي ثم إنه أنزلهم وأجرى عليهم الطعام فقال روبيل ما رأينا مثل هذا فذلك قوله آوى إليه أخاه يعني ضمه وأنزله معه في منزله فلما خلا به قال له يوسف ما اسمك قال بنيامين قال وما بنيامين قال ابن المشكل وذلك أنه لما ولدته أمه هلكت قال وما اسم أمك قال راحيل قال فهل لك من ولد قال عشر بنين قال فهل لك من أخ لأمك قال كان لي أخ فهلك قال يوسف

الأمر عليه، ﴿ وإنّه ﴾، يعني: يعقوب عليه السلام، ﴿ لَذُو علمٍ ﴾، يعني: كان يعمل ما يعمل عن علم لا عن جهل، ﴿ لِمَا عَلّمناهُ ﴾، أي: لتعليمنا إيّاه. وقيل: إنه لعامل بما علم. قال سفيان: مَن لا يعمل بما يعلم لا يكون عالماً. وقيل: إنه لذو حفظ لِمَا علّمَناه، ﴿ ولكنّ أكثرَ الناسِ لا يعلمُون ﴾، ما يعلم يعقوب لأنهم لم يسلكوا طريق إصابة العلم. وقال ابن عباس: لا يعلم المشركون ما ألهم الله أولياءه.

﴿ ولمّا دخلُوا على يوسفَ ﴾، قالوا: هذا أخونا الذي أمرتنا أن نأتيك به قد جئناك به، فقال: أحسنتم وأصبتم، وستجدون جزاء ذلك عندي، ثم أنزلهم فأكرم منزلتهم، ثم أضافهم وأجلس كل اثنين منهم على مائـدة فبقي بنيامين وحيداً فبكى وقال: لو كان أخي يوسف حيّاً لأجلسني معه، فقال يوسف: لقد بقي أخوكم هذا وحيداً فأجلسه معه على مائدته فجعل يُواكله فلمّا كان الليل أمر لهم بمثل، وقال: لِينَم كلّ أخوين منكم على مثال، فبقي بنيامين وحده، فقال يوسف: هذا ينام معي على فراشي، فنام معه فجعل يوسف يضمّه إليه ويشمّ ريحه حتى أصبح، وجعل روبين يقول: ما رأينا مثل هذا، فلما أصبح، قال لهم: إني أرى هذا الرجل ليس معه ثانٍ فسأضمّه إليّ فيكون منزله معي، ثم أنزلهم منزلاً وأجرى عليهم الطعام، وأنزل أخاه لأمه، فذلك قوله تعالى: ﴿ آوى إليه أخاه ﴾، أي: ضمّ إليه أخاه فلما خلا به قال: ما اسمك؟ قال: بنيامين، قال: وما بنيامين؟ قال: ابن المثكل، وذلك أنه لمّا ولد هلكت أُمه قال: وما اسم أُمك؟ قال: راحيل، قال: راحيل بنتُ مَن؟ قال: راحيل بنت لاوى، قال: فهل لك من ولد؟ قال: نعم عشرة بنين، قال: فهل لك من أخ لأمك، قال: كان لي أخ فهلك، قال يوسف: أتحبّ أن أكون أخاك بدل أخيك الهالك، فقال بنيامين: ومَن يجد أخاً مثلك أيها الملك ولكن لم يلدك يعقوب ولا

أتحب أن أكون أخاك بدل أخيك الهالك قال بنيامين ومن يجد أخاً مثلك أيها الملك ولكن لم يلدك يعقوب ولا راحيل فبكى يوسف عليه الصلاة والسلام وقام إليه وعانقه و ﴿قال﴾ له ﴿إني أنا أخوك﴾ يعني يوسف ﴿فلا تبتئس﴾ يعني لا تحزن وقال أهل اللغة تبتئس تفتعل من البؤس وهو الضرر والشدة والابتئاس اجتلاب الحزن والبؤس ﴿بما كانوا يعملون﴾ يعني فلا تحزن بشيء فعلوه بنا فيما مضى فإن الله قد أحسن إلينا ونجانا من الهلاك وجمع بيننا، وقيل: إن يوسف صفح عن إخوته وصفا لهم فأراد أن يجعل قلب أخيه بنيامين مثل قلبه صافياً عليهم ثم قال يوسف لأخيه بنيامين لا تعلم إخوتك بشيء مما أعلمتك به ثم إنه أوفى لإخوته الكيل وزاد لكل واحد حمل بعير ولبنيامين حمل بعير باسمه ثم أمر بسقاية الملك فجعلت في رحل أخيه بنيامين، قال السدي: وهو لا يشعر وقال كعب: لما قال له يوسف إني أنا أخوك قال بنيامين أنا لا أفارقك فقال يوسف قد علمت اغتمام والدي عليّ فإذا حبستك عندي ازداد غمه ولا يمكنني هذا إلا بعد أن أشهرك بأمر فظيع وأنسبك إلى ما لا يحمد قال لا أبالي فافعل ما بدا لك فإني لا أفارقك قال فإني أدس صاعي في رحلك ثم أنادي عليكم بالسرقة ليتهيأ لي ردك بعد تسريحك قال فافعل ما شئت فذلك قوله عز وجل:

فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُواْ
وَأَقْبَلُواْ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُواْ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾
قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُواْ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ
كَٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾

﴿فلما جهزهم بجهازهم جعل السقاية في رحل أخيه﴾ وهي المشربة التي كان الملك يشرب فيها، قال ابن عباس: كانت من زبرجد، وقال ابن إسحاق كانت من فضة وقيل من ذهب، وقال عكرمة: كانت مشربة من فضة مرصعة بالجواهر جعلها يوسف مكيالاً لئلا يكال بغيرها وكان يشرب فيها والسقاية والصواع اسم لإناء واحد وجعلت في وعاء طعام أخيه بنيامين ثم ارتحلوا راجعين إلى بلادهم فأمهلهم يوسف حتى انطلقوا وذهبوا منزلاً وقيل حتى خرجوا من العمارة ثم أرسل خلفهم من استوقفهم وحبسهم ﴿ثم أذن مؤذن﴾ يعني نادى مناد وأعلم معلم.

راحيل، فبكى يوسف عند ذلك وقام إليه وعانقه، وقال: ﴿ قال إنّي أنَا أخوكَ فلا تَبْتَئِسْ ﴾، أي: لا تحزن، ﴿ بما كانُوا يعملون﴾، بشيء فعلوه بنا فيما مضى، فإن الله تعالى قد أحسن إلينا، ولا تُعلِمهم شيئاً مما أعلمتك، ثم أوفى يوسف لأخوته الكيل وحمل لهم بعيراً بعيراً ولبنيامين بعيراً باسمه، ثم أمر بسقاية الملك فجعلت في رحل بنيامين. قال السدي: جعلت السقاية في رحل أخيه، والأخ لا يشعر، وقال كعب: لمّا قال له يوسف إني أنا أخوك، قال بنيامين: أنا لا أفارقك، فقال يوسف: قد علمت اغتمام والدي بي وإذا حبستك ازداد غمّه ولا يمكنني هذا إلّا بعد أن أُشهّرك بأمر فظيع وأنسبك إلى ما لا يحمل، قال: لا أُبالي فافعل ما بدا لك فإني لا أفارقكَ، قال: فإني أدسُّ صاعي في رحلك ثم أنادي عليك بالسرقة ليُهيّأ لي ردّك بعد تسريحك، وقال: فافعل كما تريد.

فذلك قوله تعالى: ﴿ فلمّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ في رحلِ أخيهِ ﴾، وهي المشربة التي كان الملك يشرب منها. قال ابن عباس: كانت من زبرجد. وقال ابن إسحق: كانت من فضة. وقيل: من ذهب، وقال عكرمة: كانت مشربة من فضة مرصّعة بالجواهر، جعلها يوسف مكيالاً لئلا يُكال بغيرها، وكان يشرب منها. والسقاية والصواع واحد، جعلت في وعاء طعام بنيامين، ثم ارتحلوا وأمهلهم يوسف حتى انطلقوا وذهبوا منزلاً. وقيل: حتى خرجوا من العمارة، ثم بعث من خلفهم مَن استوقفهم وحبسهم. ﴿ ثم أذّن مُؤذِّنٌ ﴾، نادى مُنادٍ، ﴿ أيتُها العِيرُ ﴾،

والأذان في اللغة الإعلام ﴿أيتها العير﴾ وهي القافلة التي في الأحمال، وقال مجاهد: العير الحمير والبغال، وقال أبو الهيثم: كل ما سير عليه من الإبل والحمير والبغال فهي عير وقول من قال إنها الإبل خاصة باطل وقيل العير الإبل التي تحمل عليها الأحمال سميت بذلك لأنها تعير أي تذهب وتجيء وقيل هي قافلة الحمير ثم كثر ذلك في الاستعمال حتى قيل لكل قافلة عير وقوله أيتها العير أراد أصحاب العير ﴿إنكم لسارقون﴾ فقفوا والسرقة أخذ ما ليس له أخذه في خفاء.

فإن قلت هل كان هذا النداء بأمر يوسف أم لا فإن كان بأمره فكيف يليق بيوسف مع علو منصبه وشريف رتبته من النبوة والرسالة أن يتهم أقواماً وينسبهم إلى السرقة كذباً مع علمه ببراءتهم من ذلك وإن كان ذلك النداء بغير أمره فهلا أظهر براءتهم عن تلك التهمة التي نسبوا إليها.

قلت ذكر العلماء عن هذا السؤال أجوبة:

أحدها: أن يوسف لما أظهر لأخيه أنه أخوه قال لست أفارقك قال لا سبيل إلى ذلك إلا بتدبير حيلة أنسبك فيها إلى ما يليق قال رضيت بذلك فعلى هذا التقدير لم يتألم قلبه بسبب هذا الكلام بل قد رضي به فلا يكون ذنباً.

الثاني: أن يكون المعنى إنكم لسارقون ليوسف من أبيه إلا أنهم ما أظهروا هذا الكلام فهو من المعاريض وفي المعاريض مندوحة عن الكذب.

الثالث: يحتمل أن يكون المنادي ربما قال ذلك النداء على سبيل الاستفهام وعلى هذا التقدير لا يكون كذباً.

الرابع: ليس في القرآن ما يدل على أنهم قالوا ذلك بأمر يوسف وهو الأقرب إلى ظاهر الحال لأنهم طلبوا السقاية فلم يجدوها ولم يكن هناك أحد غيرهم وغلب على ظنهم أنهم هم الذين أخذوها فقالوا ذلك بناء على غلبة ظنهم ﴿قالوا وأقبلوا عليهم ماذا تفقدون﴾ قال أصحاب الأخبار لما وصل الرسل إلى إخوة يوسف قالوا لهم ألم نكرمكم ونحسن ضيافتكم ونوف إليكم الكيل ونفعل بكم ما لم نفعل بغيركم قالوا بلى وما ذاك قالوا فقدنا سقاية الملك ولا نتهم عليها غيركم فذلك قوله تعالى قالوا وأقبلوا عليهم أي عطفوا على المؤذن وأصحابه ماذا أي ما الذي تفقدون والفقدان ضد الوجود ﴿قالوا﴾ يعني المؤذن وأصحابه ﴿نفقد صواع الملك﴾ الصاع الإناء الذي يكال به وجمعه أصوع والصواع لغة فيه وجمعه صيعان ﴿ولمن جاء به﴾ يعني بالصواع ﴿حمل بعير﴾ يعني من الطعام ﴿وأنا به زعيم﴾ أي كفيل قال الكلبي الزعيم هو الكفيل بلسان أهل اليمن وهذه الآية تدل على أن الكفالة كانت صحيحة في شرعهم وقد حكم رسول الله ﷺ بها في قوله «الحميل غارم» والحميل الكفيل.

وهي القافلة التي فيها الأحمال. قال مجاهد: كانت العير حميراً. وقال الفرّاء: كانوا أصحاب إبل. ﴿ **إنَّكم لَسَارِقُون** ﴾، قفوا. قال: قالوه من غير أمر يوسف. وقيل: قالوه بأمره، وكان هفوة منه. وقيل: قالوه على تأويل أنهم سرقوا يوسف من أبيه، فلما انتهى إليهم الرسول، قال لهم: ألم نكرم ضيافتكم ونُحسِن منزلتكم ونوفِّكم كيلكم ونفعل بكم ما لم نفعل بغيركم؟ قالوا: بلى، قالوا: وما ذاك؟ قالوا: سقاية الملك فقدناها، ولا نَتَّهِمْ عليها غيركم.

فذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿ **قالُوا وأقبلُوا عليهم** ﴾، عطفوا على المؤذّن وأصحابه، ﴿ **ماذا تَفْقِدُون** ﴾، ما الذي ضلّ عنكم. والفقدان: ضدّ الوجدان.

﴿ **قالوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الملكِ لِمَنْ جاء بِه حِمْلُ بعيرٍ** ﴾، من الطعام، ﴿ **وأنا بِهِ زعيمٌ** ﴾، كفيل يقوله المؤذّن.

﴿ **قالوا** ﴾، يعني: إخوة يوسف، ﴿ **تَاللَّهِ** ﴾ أي: والله، وخصّت هذه الكلمة بأن أُبدلت الواو فيها بالتاء في

فإن قلت كيف تصح هذه الكفالة مع أن السارق لا يستحق شيئاً.

قلت لم يكونوا سراقاً في الحقيقة فيحمل ذلك على مثل رد الضائع فيكون جعالة أو لعل مثل هذه الكفالة كانت جائزة عندهم في ذلك الزمان فيحمل عليه **﴿قالوا﴾** يعني إخوة يوسف **﴿تالله﴾** التاء بدل من الواو ولا تدخل إلا على اسم الله في اليمين خاصة تقديره والله **﴿لقد علمتم ما جئنا لنفسد في الأرض وما كنا سارقين﴾** قال المفسرون: إن أخوة يوسف حلفوا على أمرين:

أحدهما: أنهم ما جاؤوا لأجل الفساد في الأرض والثاني أنهم ما جاؤوا سارقين وإنما قالوا هذه المقالة لأنه كان قد ظهر من أحوالهم ما يدل على صدقهم وهو أنهم كانوا مواظبين على أنواع الخير والطاعة والبر حتى بلغ من أمرهم أنهم شدوا أفواه دوابهم لئلا تؤذي زرع الناس ومن كانت هذه صفته فالفساد في حقه ممتنع.

وأما الثاني: وهو أنهم ما كانوا سارقين فلأنهم قد كانوا ردوا البضاعة التي وجدوها في رحالهم ولم يستحلوا أخذها ومن كانت هذه صفته فليس بسارق فلأجل ذلك قالوا لقد علمتم ما جئنا لنفسد في الأرض وما كنا سارقين فلما تبينت براءتهم من هذه التهمة **﴿قالوا﴾** يعني أصحاب يوسف وهو المنادي وأصحابه **﴿فما جزاؤه إن كنتم كاذبين﴾** يعني فما جزاء السارق إن كنتم كاذبين في قولكم ما جئنا لنفسد في الأرض وما كنا سارقين.

﴿قَالُوا۟ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ ۚ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾

﴿قالوا﴾ يعني إخوة يوسف **﴿جزاؤه من وجد في رحله﴾** يعني جزاء السارق الذي وجد في رحله أن يسلم برقبته إلى المسروق منه فيسترقه سنة وكان ذلك سنة آل يعقوب في حكم السارق وكان في حكم ملك مصر أن يضرب السارق ويغرم ضعفي قيمة المسروق وكان هذا في شرعهم في ذلك الزمان يجري مجرى القطع في شرعنا فأراد يوسف أن يأخذ بحكم أبيه في السارق فلذلك رد الحكم إليهم، والمعنى أن جزاء السارق أن يستعبد سنة جزاء له على جرمه وسرقته **﴿فهو جزاؤه﴾** يعني هذا الجزاء جزاؤه **﴿كذلك نجزي الظالمين﴾** يعني مثل هذا الجزاء وهو أن يسترقّ السارق سنة نجزي الظالمين ثم قيل إن هذا الكلام من بقية كلام إخوة يوسف وقيل هو من كلام أصحاب يوسف فعلى هذا إن

اليمين دون سائر أسماء الله تعالى. **﴿ لقدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ في الأرض ﴾**، لنسرق في أرض مصر، فإن قيل: كيف قالوا لقد علمتم؟ ومن أين علموا ذلك؟ قيل: قالوا قد علمتم ما جئنا لنفسد في الأرض، فإنّا منذ قطعنا هذا الطريق لم نَرْزَأ أحداً شيئاً فاسألوا عنّا مَن مررنا به، هل ضررنا أحداً. وقيل: لأنهم ردّوا البضاعة التي جعلت في رِحالهم، قالوا: فلو كنّا سارقين ما رددناها. وقيل: قالوا ذلك لأنهم كانوا معروفين بأنهم لا يتناولون ما ليس لهم، وكانوا إذا دخلوا مصر كمّموا أفواه دوابّهم كيلا تتناول شيئاً من حروث الناس، **﴿ وما كنّا سارقين ﴾**.

﴿ قالوا ﴾، يعني: المنادي وأصحابه **﴿ فما جزاؤُهُ ﴾**، يعني: ما جزاء السارق، **﴿ إنْ كنتم كاذبين ﴾**، في قولكم وما كنّا سارقين.

﴿ قالوا ﴾، يعني: أخوة يوسف، **﴿ جزاؤُه مَنْ وُجِدَ في رحلهِ فهو جزاؤه ﴾**، أي: فالسارق جزاؤه أن يُسلّم السارق بسرقته إلى المسروق منه فيسترقّه سنة، وكان ذلك سُنّة آل يعقوب في حكم السارق، وكان حكم ملك مصر

إخوة يوسف لما قالوا جزاء السارق أن يسترق سنة قال أصحاب يوسف كذلك نجزي الظالمين يعني السارقين.

قوله عز وجل: ﴿**فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه**﴾ قال أهل التفسير إن إخوة يوسف لما أقروا أن جزاء السارق أن يسترق سنة قال أصحاب يوسف لا بد من تفتيش رحالكم فردوهم إلى يوسف فأمر بتفتيشها بين يديه فبدأ بتفتيش أوعيتهم قبل وعاء أخيه لإزالة التهمة فجعل يفتش أوعيتهم واحداً واحداً.

قال قتادة: ذكر لنا أنه كان لا يفتح متاعاً ولا ينظر وعاء إلا استغفر تأثماً مما قذفهم به حتى لم يبق إلا رحل بنيامين قال ما أظن هذا أخذ شيئاً قال إخوته والله لا نتركك حتى تنظر في رحله فإنه أطيب لنفسك وأنفسنا فلما فتحوا متاعه وجدوا الصواع فيه فذلك قوله تعالى: ﴿**ثم استخرجها من وعاء أخيه**﴾ إنما أنَّث الكناية لأنه ردها إلى السقاية، وقيل: إن الصواع يذكر ويؤنث فلما أخرج الصواع من رحل بنيامين نكس إخوة يوسف رؤوسهم من الحياء وأقبلوا على بنيامين يلومونه ويقولون له ما صنعت بنا فضحتنا وسودت وجوهنا يا بني راحيل ما زال لنا منكم بلاء حتى أخذت هذا الصواع، فقال بنيامين: بل بنو راحيل ما زال لهم منكم بلاء ذهبتم بأخي فأهلكتموه في البرية إن الذي وضع هذا الصواع في رحلي الذي وضع البضاعة في رحالكم قالوا فأخذ بنيامين رقيقاً، وقيل: إن المنادي وأصحابه هم الذين تولوا تفتيش رحالهم وهم الذين استخرجوا الصواع من رحل بنيامين فأخذه برقبته وردوه إلى يوسف ﴿**كذلك كدنا ليوسف**﴾ يعني ومثل ذلك الكيد كدنا ليوسف وهو إشارة إلى الحكم الذي ذكره إخوة يوسف باسترقاق السارق أي مثل ذلك الحكم الذي ذكره إخوة يوسف حكمنا ليوسف ولفظ الكيد مستعار للحيلة والخديعة وهذا في حق الله عز وجل محال فيجب تأويل هذه اللفظة بما يليق بجلال الله سبحانه وتعالى فنقول الكيد هنا جزاء الكيد يعني كما فعلوا بيوسف بأن حكموا أن جزاء السارق أن يسترق كذلك ألهمنا يوسف حتى دس الصواع في رحل أخيه ليضمه إليه على ما حكم به إخوته، وقال ابن الأعرابي: الكيد التدبير بالباطل وبحق فعلى هذا يكون المعنى كذلك دبرنا ليوسف وقيل: صنعنا ليوسف، وقال ابن الأنباري: كدنا وقع خبراً من الله عز وجل عليّ خلاف معناه في أوصاف المخلوقين فإنه إذا أخبر به

أن يُضرَب السارق ويغرم ضعفي قيمة المسروق، فأراد يوسف أن يحبس أخاه عنده، فردّ الحكم إليهم ليتمكّن من حبسه عنده على حكمهم. ﴿ **كذلك نجزي الظالمين** ﴾، الفاعلين ما ليس لهم فعله من سرقة مال الغير، فقال الرسول عند ذلك: لا بدّ من تفتيش أمتعتكم، فأخذ في تفتيشها. ورُوِيَ أنه ردّهم إلى يوسف فأمر بتفتيش أوعيتهم بين يديه.

﴿ **فبدَأ بأوعيتِهم** ﴾، لإزالة التّهمة، ﴿ **قبلَ وِعَاءِ أخيه** ﴾، فكان يفتش أوعيتهم واحداً واحداً. قال قتادة: ذكر لنا أنه كان لا يفتح متاعاً ولا ينظر في وعاء إلّا استغفر الله تأثّماً مما قذفهم به حتى إذا لم يبقَ إلّا رَحْل بنيامين، قال: ما أظن هذا أخذه، فقال إخوته: والله لا نترك حتى تنظر في رحله فإنه أطيب لنفسك ولأنفسنا، فلما فتحوا متاعه استخرجوه منه، فذلك قوله تعالى: ﴿ **ثم استخرجَها مِنْ وِعاءِ أخيهِ** ﴾، وإنما أنّث الكناية في قوله استخرجها، والصُّوَاع مذكّر، بدليل قوله: ﴿ ولِمَن جاء به حمل بعير ﴾ [يوسف: ٧٢] لأنه ردّ الكناية ههنا إلى السقاية. وقيل: الصواع يذكّر ويؤنّث، فلما أخرج الصواع من رحل بنيامين نكس إخوته رؤوسهم من الحياء، وأقبلوا على بنيامين وقالوا: ما الذي صنعت فضحتنا وسوّدت وجوهنا يا بني راحيل؟ ما يزال لنا منكم البلاء متى أخذت هذا الصواع، فقال بنيامين: بل بنو راحيل لا يزال لهم منكم بلاء ذهبتم بأخي فأهلكتموه في البرية والله قد وضع هذا الصواع في رحلي الذي وضع البضاعة في رحالكم، فأخذوا بنيامين رقيقاً. وقيل: إن ذلك الرحل أخذ برقبته وردّه إلى يوسف كما يرد السراق، ﴿ **كذلِكَ كِدْنَا ليوسفَ** ﴾، والكيد ههنا جزاء الكيد، يعني: كما فعلوا في الابتداء بيوسف من الكيد فعلنا بهم. وقد قال يعقوب عليه السلام ليوسف: ﴿ فيكيدُوا لكَ كيداً ﴾ [يوسف: ٥]، فكدنا ليوسف في

عن مخلوق كان تحته احتيال وهو في موضع فعل الله معرى من المعاني المذمومة ويخلص بأنه وقع بمن يكيده تدبير ما يريده به من حيث لا يشعر ولا يقدر على دفعه فهو من الله مشيئة بالذي يكون من أجل أن المخلوق إذا كاد المخلوق في ستر عنه ما ينويه ويضمره له من الذي يقع به من الكيد فهو من الله تعالى أستر إذ هو ما ختم به عاقبته والذي وقع بإخوة يوسف من كيد الله هو ما انتهى إليه شأن يوسف من ارتفاع المنزلة وتمام النعمة وحيث جرى الأمر على غير ما قدر من إهلاكه وخلوص أبيهم له بعده وكل ذا جرى بتدبير الله تعالى وخفي لطفه سماه كيداً لأنه أشبه كيد المخلوقين فعلى هذا يكون كيد الله عز وجل ليوسف عليه الصلاة والسلام عائداً إلى جميع ما أعطاه الله وأنعم به عليه على خلاف تدبيره وإخوته من غير أن يشعروا بذلك وقوله تعالى: ﴿ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك﴾ يعني في حكم الملك وقضائه لأنه كان في حكم الملك أن السارق يضرب ويغرم ضعفي قيمة المسروق يعني في حكم الملك وقضائه فلم يتمكن يوسف من حبس أخيه عنده في حكم الملك فالله تعالى ألهم يوسف ما دبره حتى وجد السبيل إلى ذلك ﴿إلا أن يشاء الله﴾ يعني أن ذلك الأمر كان بمشيئة الله وتدبيره لأن ذلك كله كان إلهاماً من الله ليوسف وإخوته حتى جرى الأمر على وفق المراد ﴿نرفع درجات من نشاء﴾ يعني بالعلم كما رفعنا درجة يوسف على إخوته وفي هذه الآية دلالة على أن العلم الشريف أشرف المقامات وأعلى الدرجات لأن الله تعالى مدح يوسف ورفع درجته على إخوته بالعلم وبما ألهمه على وجه الهداية والصواب في الأمور كلها ﴿وفوق كل ذي علم عليم﴾ قال ابن عباس: فوق كل عالم عالم إلى أن ينتهي العلم إلى الله تعالى فوق كل عالم لأنه هو الغني بعلمه عن التعليم وفي الآية دليل على أن إخوة يوسف كانوا علماء وكان يوسف أعلم منهم، قال ابن الأنباري: يجب أن يتهم العالم نفسه ويستشعر التواضع لمواهب ربه تعالى ولا يطمع نفسه في الغلبة لأنه لا يخلو عالم من عالم فوقه.

۞ قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡۚ قَالَ أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗاۖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبٗا شَيۡخٗا كَبِيرٗا فَخُذۡ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٧٨﴾

قوله تعالى: ﴿قالوا﴾ يعني إخوة يوسف ﴿إن يسرق﴾ يعني بنيامين الصواع ﴿فقد سرق أخ له من قبل﴾ يعني يوسف ظاهر الآية يقتضي أن إخوة يوسف قالوا للملك إن هذا الأمر ليس بغريب منه فإن أخاه الذي هلك كان سارقاً

أمرهم. والكيد من الخلق: الحيلة، ومن الله: التدبير بالحق. وقيل: كذباً ألهمنا. وقيل: دبرنا. وقيل: أردنا. ومعناه: صنعنا ليوسف حتى ضمّ أخاه إلى نفسه، وحال بينه وبين إخوته. ﴿ ما كان لِيَأْخُذَ أخاه ﴾ فيضمّه إلى نفسه، ﴿في دينِ الملكِ﴾، أي: في حكمه. قال قتادة وقال ابن عباس: في سلطانه. ﴿إلّا أن يشاءَ اللهُ﴾، يعني: إن يوسف لم يكن يتمكّن من حبس أخيه في حكم الملك لولا ما كِدْنَا له بلطفنا حتى وجد السبيل إلى ذلك، وهو ما أُجري على ألسنة الإخوة أن جزاء السارق الاسترقاق، فحصل مراد يوسف بمشيئة الله تعالى. ﴿ نرفعُ درجاتٍ مَّنْ نشاءُ ﴾، بالعلم كما رفعنا درجة يوسف على إخوته. وقرأ يعقوب « يرفع » و« يشاء » بالياء فيهما، وإضافة درجات إلى ﴿ من ﴾ في هذه السورة. والوجه أن الفعل فيهما مسند إلى الله تعالى، وقد تقدّم ذكره في قوله: ﴿ إلّا أن يشاءَ اللّهُ ﴾ أي: يرفع الله درجات مَن يشاء. وقرأ الباقون بالنون فيهما، إلّا أن الكوفيين قرؤوا: «درجات» بالتنوين، ومَنْ سِواهم بالإضافة، أي: نرفع به نحن، والواقع أيضاً هو الله تعالى: ﴿ وفوقَ كلِّ ذِي علمٍ عليمٌ ﴾. قال ابن عباس: فوق كل عالم عالم إلى أن ينتهي العلم إلى الله تعالى، فإن الله تعالى فوق كل عالم.

﴿ قالوا إنْ يَسْرِقْ فقدْ سَرَقَ أخٌ له من قبل ﴾، يريدون أخاً له من أمه يعنون به يوسف، واختلفوا في السرقة

أيضاً وكان غرضهم من هذا الكلام أنّا لسنا على طريقته ولا على سيرته بل هذا وأخوه كان على هذه الطريقة وهذه السيرة لأنهما من أم أخرى غير أمنا.

واختلفوا في السرقة التي نسبوها إلى يوسف عليه الصلاة والسلام فقال سعيد بن جبير وقتادة: وكان لجده أبي أمه صنم وكان يعبده فأخذه يوسف وكسره وألقاه في الطريق لئلا يعبده، وقال مجاهد: إن يوسف جاءه سائل يوماً فأخذ بيضة من البيت فناولها له، وقال سفيان بن عيينة أخذ دجاجة من الطير الذي كان في بيت يعقوب فأعطاها سائلاً، وقال وهب: كان يخبيء الطعام من المائدة للفقراء.

وذكر محمد بن إسحاق: إن يوسف كان عند عمته ابنة إسحاق بعد موت أمه راحيل فحضنته عمته وأحبته حباً شديداً فلما ترعرع وكبر وقعت محبة يعقوب عليه فأحبه فقال لأخته يا أختاه سلمي إلي يوسف فوالله ما أقدر على أن يغيب عني ساعة واحدة فقالت لا أعطيكه فقال لها والله ما أنا بتاركه عندك فقالت دعه عندي أياماً أنظر إليه لعل ذلك يسليني عنه ففعل ذلك فعمدت إلى منطقة كانت لإسحاق وكانوا يتوارثونها بالكبر وكانت أكبر أولاد إسحاق فكانت عندها فشدت المنطقة على وسط يوسف تحت ثيابه وهو صغير لا يشعر ثم قالت لقد فقدت منطقة إسحاق ففتشوا أهل البيت فوجودها مع يوسف فقالت إنه لسلم لي يعني يوسف فقال يعقوب إن كان قد فعل فهو سلم لك فأمسكته عندها حتى ماتت فلذلك قال إخوة يوسف إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل يعنون هذه السرقة قال ابن الأنباري: وليس في هذه الأفعال كلها ما يوجب السرقة ولكنها تشبه السرقة فعيروه بها عند الغضب **﴿فأسرها يوسف في نفسه ولم يبدها لهم﴾** في هاء الكناية ثلاثة أقوال: **أحدها**: أن الضمير يرجع إلى الكلمة التي بعدها وهي قوله تعالى **﴿قال﴾** يعني يوسف **﴿أنتم شر مكاناً﴾** روى هذا المعنى العوفي عن ابن عباس والثاني أن الضمير يرجع إلى الكلمة التي قالوها في حقه وهي قولهم فقد سرق أخ له من قبل وهذا معنى قول أبي صالح عن ابن عباس، فعلى هذا القول يكون المعنى فأسر يوسف جواب الكلمة التي قالوها في حقه ولم يجبهم عليها والثالث أن الضمير يرجع إلى الحجة فيكون المعنى على هذا القول فأسر يوسف الاحتجاج عليهم في ادعائهم عليه السرقة ولم يبدها لهم قال أنتم شر مكاناً يعني منزلة عند الله ممن رميتموه بالسرقة لأنه لم يكن من يوسف سرقة في الحقيقة وخيانتكم حقيقة **﴿والله أعلم بما تصفون﴾** يعني بحقيقة ما تقولون.

قوله عز وجل: **﴿قالوا﴾** يعني إخوة يوسف **﴿يا أيها العزيز﴾** يخاطبون بذلك الملك **﴿إنه له أباً شيخاً كبيراً﴾** قال أصحاب الأخبار والسير إن يوسف عليه الصلاة والسلام لما استخرج الصواع من رحل أخيه بنيامين نقره وأدناه إلى

التي وصفوا بها يوسف، فقال سعيد بن جبير وقتادة: كان لجدّه ابن أمه صنم يعبده فأخذه سرّاً وكسره وألقاه في الطريق لئلا يعبد. وقال مجاهد: إن يوسف جاءه سائل يوماً فأخذ بيضة من البيت فناولها السائل. وقال سفيان بن عيينة: أخذ دجاجة من الطير التي كانت في بيت يعقوب فأعطاها سائلاً. وقال وهب: كان يخبّيء الطعام من المائدة للفقراء. وذكر محمد بن إسحق: أن يوسف كان عند عمّته ابنة إسحق بعد موت أُمه راحيل، فحضنته عمّته وأحبّته حبّاً شديداً، فلما ترعرع وقعت محبة يعقوب عليه، فأتاها وقال: يا أُختاه سلّمي إليّ يوسف فوالله ما أقدر على أن يغيب عنّي ساعة، قالت: لا والله، فقال: والله ما أنا بتاركه، فقالت: دعه عندي أياماً أنظر إليه لعلّ ذلك يسلّيني عنه، ففعل ذلك فعمدت إلى منطقة لإسحق كانوا يتوارثونها بالكبر، فكانت عندها لأنهــا كانــت أكبـر ولد إسحق، فحزمت المنطقة على يوسف تحت ثيابه وهو صغير، ثم قالت: لقد فقدت منطقة إسحق اكشفوا أهل البيت فكشفوا فوجدوها مع يوسف، فقالت: والله إنه لَسُلّم لي، فقال يعقوب: إن كان فعل ذلك فهو سلّم لك، فأمسكتهُ حتى ماتت، فذلك الذي قال إخوة يوسف: **﴿ إنْ يَسْرِقْ فقدْ سَرقَ أَخٌ له من قبلُ ﴾**، **﴿ فأسَرّها ﴾**، أضمرها **﴿ يوسفُ**

أذنه ثم قال إن صواعي هذا يخبرني أنكم اثنا عشر رجلاً لأب واحد وإنكم انطلقتم بأخ لكم من أبيكم فبعتموه قال بنيامين أيها الملك سل صواعك هذا من جعله في رحلي فنقره ثم قال إن صواعي غضبان وهو يقول كيف تسألني عن صاحبي وقد رأيت مع من كنت قالوا فغضب روبيل لذلك وكان بنو يعقوب إذا غضبوا لم يطاقوا وكان روبيل إذا غضب لم يقم لغضبه شيء وكان إذا صاح ألقت كل حامل حملها إذا سمعت صوته وكان من هذا إذا مسه أحد من ولد يعقوب يسكن غضبه وكان أقوى الإخوة وأشدهم، وقيل: كانت هذه صفة شمعون بن يعقوب، وقيل: إنه قال لإخوته كم عدد الأسواق بمصر قالوا عشرة قال اكفوني أنتم الأسواق وأنا أكفكيم الملك أو اكفوني أنتم الملك وأنا أكفيكم الأسواق فدخلوا على يوسف فقال روبيل أيها الملك لتردن علينا أخانا أو لأصيحن صيحة لا يبقى بمصر امرأة حامل إلا وضعت ولدها وقامت كل شعرة في جسد روبيل حتى خرجت من ثيابه فقال يوسف لابن له صغير قم إلى جنب هذا فمسه أو خذ بيده فأتى له فلما مسه سكن غضبه فقال لإخوته: من مسني منكم قالوا لم يصبك منا أحد فقال روبيل إن هذا بذر من بذر يعقوب وقيل إنه غضب ثانياً فقام إليه يوسف فوكزه برجله وأخذ بتلابيبه فوقع على الأرض وقال أنتم يا معشر العبرانيين تزعمون أن لا أحد أشد منكم فلما رأوا ما نزل بهم ورأوا أن لا سبيل إلى تخليصه خضفوا وذلوا وقالوا يا أيها العزيز إن له أباً شيخاً كبيراً يعني في السن ويحتمل أن يكون كبيراً في القدر لأنه نبي من أولاد الأنبياء ﴿**فخذ أحدنا مكانه**﴾ يعني بدلاً عنه لأنه يحبه ويتسلى به عن أخيه الهالك ﴿**إنا نراك من المحسنين**﴾ يعني في أفعالك كلها وقيل من المحسنين إلينا في توفية الكيل وحسن الضيافة ورد البضاعة إلينا وقيل إن رددت بنيامين إلينا وأخذت أحدنا مكانه كنت من المحسنين.

قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ

في نفسه ولم يُبدِهَا لهم ﴾، وإنما أتت الكناية لأنه عيّن بها الكلمة وهي قوله: ﴿ **قال أنتم شَرٌّ مكاناً** ﴾، ذكرها سرّاً في نفسه ولم يصرّح بها، يريد أنتم شر مكاناً أي منزلاً عند الله ممّن رميتموه بالسرقة في صنيعكم بيوسف، لأنه لم يكن من يوسف سرقة حقيقية وخيانتكم حقيقة، ﴿ **واللَّهُ أعلمُ بما تَصفُون** ﴾. تقولون.

﴿ **قالوا يا أيُّها العزيز إنّ له أباً شيخاً كبيراً** ﴾. في القصة أنهم غضبوا غضباً شديداً لهذه الحالة، وكان بنو يعقوب إذا غضبوا لم يُطاقوا، وكان روبيل إذا غضب لم يقم لغضبه شيء، وإذا صاح ألقت كل امرأة حامل سمعت صوته ولدها، وكان مع هذا إذا مسّه أحد من ولد يعقوب سكن غضبه. وقيل: كان هذا صفة شمعون من ولد يعقوب. ورُوِيَ أنه قال لإخوته: كم عدد الأسواق بمصر؟ فقالوا عشرة، فقال: اكفوني أنتم الأسواق وأنا أكفيكم الملك، أو اكفوني أنتم الملك وأنا أكفيكم الأسواق، فدخلوا على يوسف فقال روبيل: لتردنّ علينا أخانا أو لأصيحنّ صيحة لا تُبقي بمصر امرأة حامل إلاّ ألقت ولدها وقامت كل شعرة في جسد روبيل فخرجت من ثيابه، فقال يوسف لابن له صغير: قم إلى جنب روبيل فمسّه. ورُوِيَ: خذ بيده فأتني به، فذهب الغلام فمسّه فسكن غضبه. فقال روبيل: إن ههنـا لبذراً من بذر يعقوب، فقال يوسف: مَنْ يعقوب؟ ورُوِيَ أنه غضب ثانياً فقام إليه يوسف فركضه برجله وأخذ بتلابيبه، فوقع على الأرض وقال: أنتم يا معشر العبرانيين تظنون أن لا أحد أشدّ منكم؟ فلما صار أمرهم إلى هذا ورأوا أن لا سبيل لهم إلى تخليصه خضعوا وذلّوا وقالوا يا أيها العزيز إن له أباً شيخاً كبيراً يحبه، ﴿ **فَخُذْ أحدَنَا مكانَه** ﴾، بدلاً منه، ﴿ **إنّا نَراكَ مِنَ المحسنين** ﴾، في أفعالك. وقيل: من المحسنين إلينا في توفية الكيل وحُسْن الضيافة وردّ البضاعة. وقيل: يعنون إن فعلت ذلك كنت من المحسنين.

خَلَصُواْ نَجِيّٗاۖ قَالَ كَبِيرُهُمۡ أَلَمۡ تَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ أَبَاكُمۡ قَدۡ أَخَذَ عَلَيۡكُم مَّوۡثِقٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبۡلُ مَا فَرَّطتُمۡ فِي يُوسُفَۖ فَلَنۡ أَبۡرَحَ ٱلۡأَرۡضَ حَتَّىٰ يَأۡذَنَ لِيٓ أَبِيٓ أَوۡ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ لِيۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾

﴿**قال معاذ الله**﴾ يعني: قال يوسف أعوذ بالله معاذاً ﴿**أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده**﴾ لم يقل سرق تحرزاً عن الكذب لأنه يعلم أخاه ليس بسارق ﴿**إنا إذاً لظالمون**﴾ يعني إن أخذنا بريئاً بذنب غيره فإن قلت كيف استجاز يوسف أن يعمل مثل هذه الأعمال بأبيه ولم يخبره بمكانه وحبس أخاه أيضاً عنده مع علمه بشدة وجد أبيه عليه ففيه ما فيه من العقوق وقطيعة الرحم وقلة الشفقة وكيف يجوز ليوسف مع علو منصبه من النبوة والرسالة أن يزور على إخوته ويروج عليهم مثل هذا مع ما فيه من الإيذاء لهم فكيف يليق به هذا كله قلت قد ذكر العلماء عن هذا السؤال أجوبة كثيرة وأحسنها وأصحها أنه إنما فعل ذلك بأمر الله تعالى له لا عن أمره وإنما أمره الله بذلك ليزيد بلاء يعقوب فيضاعف له الأجر على البلاء ويلحقه بدرجة آبائه الماضين ولله تعالى أسرار لا يعلمها أحد من خلقه فهو المتصرف في خلقه بما يشاء وهو الذي أخفى خبر يوسف عن يعقوب في طول هذه المدة مع قرب المسافة لما يريد أن يدبره فيهم والله أعلم بأحوال عباده.

قوله عز وجل: ﴿**فلما استيأسوا منه**﴾ يعني أيسوا من يوسف أن يجيبهم لما سألوه، وقيل: أيسوا من أخيهم أن يرد عليهم، وقال أبو عبيدة: استيأسوا أي استيقنوا أن الأخ لا يرد إليهم ﴿**خلصوا نجياً**﴾ يعني خلا بعضهم ببعض يتناجون ويتشاورون ليس فيهم غيرهم ﴿**قال كبيرهم**﴾ يعني في العقل والعلم لا في السن، قال ابن عباس: الكبير يهوذا وكان أعقلهم وقال مجاهد هو شمعون وكانت له الرئاسة على إخوته، وقال قتادة والسدي والضحاك: هو روبيل وكان أكبرهم سناً وأحسنهم رأياً في يوسف لأنه نهاهم عن قتله ﴿**ألم تعلموا أن أباكم**﴾ يعني يعقوب ﴿**قد أخذ عليكم موثقاً**﴾ يعني عهداً ﴿**من الله ومن قبل ما فرطتم في يوسف**﴾ يعني قصرتم في أمر يوسف حتى ضيعتموه ﴿**فلن أبرح الأرض**﴾ يعني الأرض التي أنا فيها وهي أرض مصر والمعنى فلن أخرج من أرض مصر ولا أفارقها على هذه الصورة

﴿ **قال** ﴾، يوسف، ﴿ **معاذَ اللَّهِ** ﴾ أعوذ بالله، ﴿ **أَنْ نأخذ إلّا مَنْ وَجَدْنا متاعَنا عندَه** ﴾، ولم يقل إلّا مَن سرق تحرّزاً من الكذب، ﴿ **إنّا إذاً لظالِمُون** ﴾، إن أخذنا بريئاً بمجرم.

﴿ **فلمّا استيأسُوا منه** ﴾، أي: أيسوا من يوسف أن يجيبهم إلى ما سألوه. وقال أبو عبيدة: استيأسوا استيقنوا أن الأخ لا يُردّ إليهم. ﴿ **خَلَصُوا نَجِيّاً** ﴾، أي: خلا بعضهم ببعض يتناجون ويتشاورون لا يخالطهم غيرهم. والنجي يصلح للجماعة كما قال ههنا ويصلح للواحد كقوله: ﴿ وقرّبناه نجيّاً ﴾ [مريم: ٥٢]، وإنما جاز للواحد والجمع لأنه مصدر جعل نعتاً كالعدل والزور، ومثله النجوى يكون اسماً ومصدراً، قال الله تعالى: ﴿ وإذْ هُمْ نجوى ﴾ [الإسراء: ٤٧]، أي: متناجون. وقال: ﴿ ما يكونُ مِنْ نجوىً ثلاثة ﴾ [المجادلة: ٧]، وقال في المصدر: ﴿ إنّما النجوى مِنَ الشيطان ﴾ [المجادلة: ١٠]. ﴿ **قالَ كبيرُهم** ﴾، يعني: في العقل والعلم لا في السن. قال ابن عباس والكلبي: هو يهوذا وهو أعقلهم. وقال مجاهد: هو شمعون، وكانت له الرئاسة على إخوته. وقال قتادة والسدي والضحاك: هو روبيل، وكان أكبرهم في السن، وهو الذي نهى الإخوة عن قتل يوسف. ﴿ **ألم تعلمُوا أنّ أباكم قد أخذ عليكم مَوْثِقاً** ﴾، عهداً. ﴿ **مِنَ الله ومِنْ قَبْلُ مَا فرّطْتُم** ﴾ قصّرتم ﴿ **في يوسف** ﴾ واختلفوا في محل ﴿ **ما** ﴾ قيل: هو نصب بإيقاع العلم عليه، يعني: ألم تعلموا من قبل تفريطكم في يوسف. وقيل: وهو في محل الرفع على الابتداء وتمّ الكلام عند قوله: ﴿ **من الله** ﴾ ثم قال: ﴿ **ومن قبل** ﴾ هذا تفريطكم في يوسف.

﴿حتى يأذن لي أبي﴾ يعني في الخروج من أرض مصر فيدعوني إليه ﴿أو يحكم الله لي﴾ برد أخي عليّ أو بخروجي معكم وترك أخي أو يحكم الله لي بالسيف فأقاتلهم حتى أسترد أخي ﴿وهو خير الحاكمين﴾ لأنه يحكم بالحق والعدل والإنصاف، والمراد من هذا الكلام الالتجاء إلى الله تعالى في إقامة عذره عند والده يعقوب عليه الصلاة والسلام.

ٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾

﴿ارجعوا إلى أبيكم﴾ يعني يقول الأخ الكبير الذي عز على الإقامة بمصر لإخوته الباقين ارجعوا إلى أبيكم يعقوب ﴿فقولوا﴾ له ﴿يا أبانا إن ابنك سرق﴾ إنما قالوا هذه المقالة ونسبوه إلى السرقة لأنهم شاهدوا الصواع وقد أخرج من متاع بنيامين فغلب على ظنهم أنه سرق فلذلك نسبوه إلى السرقة في ظاهر الأمر لا في حقيقة الحال ويدل على أنهم لم يقطعوا عليه بالسرقة قولهم ﴿وما شهدنا إلا بما علمنا﴾ يعني ولم نقل ذلك إلا بعد أن رأينا إخراج الصواع وقد أخرج من متاعه وقيل معناه ما كانت منا شهادة في عمرنا على شيء إلا بما علمناه وهذه ليست بشهادة إنما هو خبر عن صنيع ابنك أنه سرق بزعمهم فيكون المعنى أن ابنك سرق في زعم الملك وأصحابه لا أنّا نشهد عليه بالسرقة: وقرأ ابن عباس والضحاك: سرق بضم السين وكسر الراء وتشديدها أي نسب إلى السرقة واتهم بها وهذه القراءة لا تحتاج إلى تأويل ومعناها أن القوم نسبوه إلى السرقة إلا أن هذه القراءة ليست مشهورة فلا تقوم بها حجة والقراءة الصحيحة المشهورة هي الأولى وقوله وما شهدنا إلا بما علمنا يعني وما قلنا هذا إلا بما علمنا فيما رأينا إخراج الصواع من متاعه، وقيل: معناه ما كانت منا شهادة في عمرنا على شيء إلا بما عملناه وليست هذه شهادة وإنما هو خبر عن صنيع ابنك بزعمهم. وقيل: قال لهم يعقوب هب أنه سرق فما يدري هذا الرجل أن السارق يؤخذ بسرقته إلا بقولكم قالوا ما شهدنا عنده أن السارق يسترق إلا بما علمنا من الحكم وكان الحكم كذلك عند الأنبياء قبله ويعقوب وبنيه.

وأورد على هذا القول كيف جاز ليعقوب إخفاء هذا الحكم حتى ينكر على بنيه ذلك.

وأجيب عنه بأنه يحتمل أن يكون ذلك الحكم كان مخصوصاً بما إذا كان المسروق منه مسلماً فلهذا أنكر عليهم

وقيل: ﴿ ما ﴾ صلة أي: ومن قبل هذا فرطتم في يوسف ﴿ فَلَنْ أَبْرَحَ الأرضَ ﴾، التي أنا بها وهي مصر ﴿ حتى يأذن لي أبي ﴾، بالخروج منهــا يدعوني، ﴿ أو يحكمَ اللهُ لي ﴾، بردّ أخي إليّ أو بخروجي وترك أخي. وقيل: أو يحكم الله لي بالسيف فأقاتلهم وأستردّ أخي، ﴿ وهو خيرُ الحاكمين ﴾، أعدل مَن فصل بين الناس.

﴿ ارجعوا إلى أبيكم ﴾، يقول الأخ المحتبس بمصر لإخوته ارجعوا إلى أبيكم، ﴿ فقولوا يا أبانا إنّ ابنَك ﴾، بنيامين، ﴿ سَرَقَ ﴾، وقرأ ابن عباس والضحاك بضم السين وكسر الراء وتشديدها، يعني: نُسب إلى السرقة، كما يقال خوّنته أي نسبته إلى الخيانة، ﴿ وما شهِدْنا إلاّ بما علمنا ﴾، يعني: ما قلنا هذا إلاّ بما علمنا فإنّا رأينا إخراج الصواع من متاعه. وقيل: معناه وما شهدنا إلاّ بما علمنا أي ما كانت منّا شهادة في عمرنا على شيء إلاّ بما علمنا، وليست هذه شهادة منّا إنما هو خبر عن صنيع ابنك زعمهم. وقيل: قال لهم يعقوب عليه السلام: ما يدري هذا الرجل أن السارق يُؤخذ بسرقته إلاّ بقولكم، فقالوا: ما شهدنا عند يوسف بأن السارق يسترقّ إلاّ بما علمنا، وكان الحكم ذلك عند يعقوب وبنيه. ﴿ وما كنّا للغيب حافظين ﴾، قال مجاهد وقتادة: ما كنّا نعلم إن ابنك سيسرق ويصير أمرنا إلى هذا، وإنما قلنا ونحفظ أخانا مما لنا إلى حفظه منه سبيل. وعن ابن عباس: ما كنّا لليله ونهاره

إعلام الملك بهذا الحكم لظنه أنه كافر ﴿**وما كنا للغيب حافظين**﴾ قال مجاهد وقتادة: يعني ما كنا نعلم أن ابنك سرق ويصير أمرنا إلى هذا ولو عملنا ذلك ما ذهبنا به معنا وإنما قلنا ونحفظ أخانا مما لنا إلى حفظه منه سبيل، وقال ابن عباس: ما كنا لليله ونهاره ومجيئه وذهابه حافظين وقيل معناه إن حقيقة الحال غير معلومة لنا فإن الغيب لا يعلمه إلا الله فلعل الصواع دس في رحله ونحن لا نعلم بذلك ﴿**واسأل القرية التي كنا فيها**﴾ يعني واسأل أهل القرية إلا أن حذف المضاف للإيجاز ومثل هذا النوع من المجاز مشهور في كلام العرب والمراد بالقرية مصر، وقال ابن عباس: هي قرية من قرى مصر كان قد جرى فيها حديث السرقة والتفتيش ﴿**والعير التي أقبلنا فيها**﴾ يعني واسأل القافلة التي كنا فيها وكان صحبهم قوم من كنعان من جيران يعقوب ﴿**وإنا لصادقون**﴾ يعني فيما قلناه وإنما أمرهم أخوهم الذي أقام بمصر بهذه المقالة مبالغة في إزالة التهمة عن أنفسهم عند أبيهم لأنهم كانوا متهمين عنده بسبب واقعة يوسف ﴿**قال بل سولت لكم أنفسكم أمراً**﴾ فيه اختصار تقديره فرجعوا إلى أبيهم فأخبروه بما جرى لهم في سفرهم ذلك وبما قال لهم كبيرهم وأمرهم أن يقولوه لأبيهم فعند ذلك قال لهم يعقوب بل سولت يعني بل زينت لكم أنفسكم أمراً وهو حمل أخيكم معكم إلى مصر لطلب نفع عاجل فآل أمركم إلى ما آل، وقيل: معناه بل خيلت لكم أنفسكم أنه سرق ما سرق ﴿**فصبر جميل**﴾ تقدم تفسيره في أول السورة.

وقوله ﴿**عسى الله أن يأتيني بهم جميعاً**﴾ يعني بيوسف وبنيامين والأخ الثالث الذي أقام بمصر وإنما قال يعقوب هذه المقالة لأنه لما طال حزنه واشتد بلاؤه ومحنته علم أن الله سيجعل له فرجاً ومخرجاً عن قريب فقال ذلك على سبيل حسن الظن بالله عز وجل لأنه إذا اشتد البلاء وعظم كان أسرع إلى الفرج، وقيل: إن يعقوب علم بما يجري عليه وعلى بنيه من أول الأمر وهو رؤيا يوسف وقوله «يا بني لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيداً» فلما تناهى الأمر قال عسى الله أن يأتيني بهم جميعاً ﴿**إنه هو العليم**﴾ يعني بحزني ووجدي عليهم ﴿**الحكيم**﴾ فيما يدبره ويقضيه.

وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَـٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟

ومجيئه وذهابه حافظين. وقال عكرمة: وما كنّا للغيب حافظين فلعلّها دُسّت بالليل في رحله.

﴿ **واسألِ القرية التي كنّا فيها** ﴾، أي: أهلَ القرية وهي مصر. قال ابن عباس: هي قرية من قرى مصر كانوا ارتحلوا منها إلى مصر. ﴿ **والعيرَ التي أقبلنا فيها** ﴾، أي: القافلة التي كنّا فيها. وكان صحبهم قوم من كنعان من جيران يعقوب. قال ابن إسحق: عرف الأخ المحتبس بمصر أن إخوته أهل تهمة عند أبيهم لِما كانوا صنعوا في أمر يوسف فأمرهم أن يقولوا هذه المقالة لأبيهم. ﴿ **وإنّا لصادقُون** ﴾، فإن قيل: كيف استجاز يوسف أن يعمل مثل هذا بأبيه ولم يخبره بمكانه وحبس أخاه مع علمه بشدّة وجد أبيه عليه؟ وقيل معنى العقوق: قطيعة الرحم وقلّة الشفقة؟ قيل: قد أكثر الناس فيه، والصحيح أنه عمل ذلك بأمر الله سبحانه وتعالى، أمره به ليزيد في بلاء يعقوب فيضاعف له الأجر ويُلحقه في الدرجة بآبائه الماضين. وقيل: إنه لم يُظهِر نفسه لأخوته لأنه لم يأمن أن يدبّروا في أمره تدبيراً فيكتموه عن أبيه. والأول أصح.

﴿ **قالَ بلْ سَوّلَتْ لكم** ﴾، زيّنت، ﴿ **أنفسُكم أمراً** ﴾، وفيه اختصار معناه: فرجعوا إلى أبيهم وذكروا لأبيهم ما قال كبيرهم، فقال يعقوب: بل سوّلتْ لكم أنفسُكم أمراً، أي: حمل أخيكم إلى مصر لطلب نفع عاجل، ﴿ **فصبرٌ جميلٌ عسَى اللّهُ أنْ يأتيني بهم جميعاً** ﴾، يعني: يوسف وبنيامين وأخاهم المقيم بمصر، ﴿ **إنّه هو العليمُ** ﴾، بحزني ووجدي على فقدهم، ﴿ **الحكيمُ** ﴾، في تدبير خلقه.

تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾

قوله تعالى: ﴿وتولى عنهم﴾ يعني وأعرض يعقوب عن بنيه حين بلغوه خبر بنيامين فحينئذ تناهى حزنه واشتد بلاؤه وبلغ جهده وهيج حزنه على يوسف فعند ذلك أعرض عنهم ﴿وقال يا أسفا على يوسف﴾ الأسف أشد الحزن وإنما جدد حزنه على يوسف عند وجود هذه الواقعة لأن الحزن القديم إذا صادفه حزن آخر كان ذلك أوجع للقلب وأعظم لهيجان الحزن الأول كما قال متمم بن نويرة لما رأى قبراً جيداً جدد حزنه على أخيه مالك:

يقول أتبكي كل قبر رأيته ... لقد ثوى بين اللوى والدكادك
فقلت له إن الأسى يبعث الأسى ... فدعني فهذا كله قبر مالك

فأجاب بأن الحزن يجدد الحزن، وقيل: إن يوسف وبنيامين لما كانا من أم واحدة كان يعقوب يتسلى عن يوسف ببنيامين فلما حصل فراق بنيامين زاد حزنه عليه ووجده وجدد حزنه على يوسف لأن يوسف كان أصل المصيبة، وقد اعترض بعض الجهال على يعقوب عليه السلام في قوله يا أسفا على يوسف فقال هذه شكاية وإظهار جزع فلا يليق بعلو منصبه ذلك وليس الأمر كما قال هذا الجاهل المعترض لأن يعقوب عليه الصلاة والسلام شكا إلى الله لا منه فقوله يا أسفا على يوسف معناه يا رب ارحم أسفي على يوسف وقد ذكر ابن الأنباري عن بعض اللغويين أنه قال: نداء يعقوب بالأسف في اللفظ من المجاز يعني به غير المظهر في اللفظ وتلخيصه يا إلهي ارحم أسفي أو أنت رائي أسفي أو هذا أسفي فنادى الأسف في اللفظ والمنادى سواه في المعنى ولا مأثم إذ لم ينطلق اللسان بكلام مؤثم لأنه لم يشك إلا إلى ربه عز وجل فلما كان قوله يا أسفاً على يوسف شكوى إلى ربه كان غير ملوم في شكواه وقيل إن يعقوب لما عظمت مصيبته واشتد بلاؤه وقويت محنته قال يا أسفا على يوسف أي أشكو إلى الله شدة أسفي على يوسف ولم يشكه إلى أحد من الخلق بدليل قوله إنما أشكو بثي وحزني إلى الله ﴿وابيضت عيناه من الحزن﴾ أي عمي من شدة الحزن على يوسف قال مقاتل لم يبصر شيئاً ست سنين، وقيل: إنه ضعف بصره من كثرة البكاء وذلك أن الدمع يكثر عند غلبة البكاء فتصير العين كأنها بيضاء من ذلك الماء الخارج من العين ﴿فهو كظيم﴾ أي مكظوم وهو الممتلىء من الحزن الممسك عليه لا يبثه، قال قتادة: وهو الذي يردد حزنه في جوفه ولم يقل إلا خيراً، وقال الحسن: كان بين خروج يوسف من حجر أبيه إلى يوم التقيا ثمانون سنة لم تجف عينا يعقوب وما على وجه الأرض يومئذ أكرم على الله منه. وقال ثابت البناني ووهب بن منبه والسدي: إن جبريل عليه الصلاة والسلام دخل على يوسف وهو في السجن فقال هل تعرفني أيها الصديق قال يوسف أرى صورة طاهرة قال إني رسول رب العالمين وأنا الروح

قوله تعالى: ﴿ وتولّى عنهم ﴾، وذلك أن يعقوب عليه السلام لمّا بلغه خبر بنيامين تناهى حزنه وبلغ جهده، وهيّج حزنه على يوسف فأعرض عنهم، ﴿ وقالَ يا أسَفَا ﴾، يا حزنا، ﴿ على يوسف ﴾، والأسفُ أشدُّ الحزن، ﴿ وابيضتْ عيناه من الحُزن ﴾، يعني: عُمِيَ بصره. قال مقاتل: لم يبصر بهما ستّ سنين، ﴿ فهو كظيم ﴾، أي: مكظوم مملوء من الحزن مُمسِك عليه لا يبثّه. وقال قتادة: تردّد حزنه في جوفه ولم يقل إلاّ خيراً. قال الحسن: كان بين خروج يوسف من حجر أبيه إلى يوم التقى معه ثمانون عاماً لا تجفّ عينا يعقوب وما على وجه الأرض أكرم على الله من يعقوب.

﴿ قالوا ﴾، يعني: أولاد يعقوب، ﴿ تَاللَّهِ تَفْتَؤُ تذكرُ يوسفَ ﴾، أي: لا تزال تذكر يوسف، لا تفتر من حبه،

الأمين فقال يوسف فما أدخلك مدخل المذنبين وأنت أطيب الطيبين ورأس المقربين وأمين رب العالمين قال ألم تعلم يا يوسف أن الله يطهر الأرض بطهر النبيين وأن الأرض التي يدخلونها هي أطهر الأرضين وأن الله قد طهر بك الأرض والسجن وما حوله يا أطهر الطاهرين وابن الصالحين المخلصين قال يوسف كيف لي بإسم الصديقين وتعدني من الصالحين المخلصين الطاهرين وقد أدخلت مدخل المذنبين قال له إنه لم يفتتن قلبك ولم تطع سيدتك في معصية ربك فلذلك سماك الله من الصديقين وعدك من المخلصين وألحقك بآبائك الصالحين قال يوسف فهل لك علم من يعقوب أيها الروح الأمين قال نعم قد ذهب بصره وابتلاه الله بالحزن عليك فهو كظيم ووهب له الصبر الجميل قال فما قدر حزنه قال حزن سبعين ثكلاء قال فما له من الأجر يا جبريل قال أجر مائة شهيد قال أفتراني لاقيه قال نعم فطابت نفس يوسف وقال ما أبالي مما لقيت إن رأيته.

قوله عز وجل: ﴿**قالوا**﴾ يعني إخوة يوسف عليه الصلاة والسلام لأبيهم ﴿**تالله تفتأ تذكر يوسف**﴾ يعني لا تزال تذكر يوسف ولا تفتر عن حبه يقال ما فتىء يفعل كذا أي ما زال ولا محذوفة في جواب القسم لأن موضعها معلوم فحذفت للتخفيف كقول امرىء القيس:

فقلت يمين الله أبرح قاعداً ولو قطعوا رأسي لديك وأوصالي

أي لا أبرح قاعداً وقوله ﴿**حتى تكون حرضاً**﴾ قال ابن عباس يعني دنفاً وقال مجاهد الحرض ما دون الموت يعني قريباً من الموت، وقال ابن إسحاق: يعني فاسداً لا عقل له والحرض الذي فسد جسمه وعقله وقيل ذائباً من الهم وأصل الحرض الفساد في الجسم والعقل من الحزن أو الهم ومعنى الآية حتى تكون دنف الجسم مخبول العقل يعني لا تنتفع بنفسك من شدة الحزن والهم والأسف ﴿**أو تكون من الهالكين**﴾ يعني من الأموات.

فإن قلت كيف حلفوا على شيء لم يعلموا حقيقته قطعاً؟.

قلت: إنهم بنوا الأمر على الأغلب الظاهر أي نقوله ظناً منا أن الأمر يصير إلى ذلك ﴿**قال**﴾ يعني يعقوب عند ما

يقال: ما فتىء يفعل كذا أي: ما زال يفعل، و(لا) محذوفة من قوله: ﴿ **تفتؤ** ﴾ يقال: ما فتىء يفعل كذا أي: ما زال، كقول امرىء القيس:

فقلتُ يمينُ الله أبرح قاعداً ولو قطعوا رأسي لديك وأوصالي

أي: لا أبرح. ﴿ **حتّى تكونَ حَرَضاً** ﴾، قال ابن عباس: دفناً. وقال مجاهد: الحرض ما دون الموت، يعني: قريباً من الموت. وقال ابن إسحق: فاسداً لا عقل لك، والحرض: الذي فسد جسمه وعقله. وقيل: ذائباً من الهمّ. ومعنى الآية: حتى تكون دَنِفَ الجسم مخبول العقل. وأصل الحرض: الفساد في الجسم، والعقل من الحزن والهرم، أو العشق أو الهمّ، يقال: رجل حرض وامرأة حرض، ورجلان وامرأتان حرض، ورجال ونساء كذلك، يستوي فيه الواحد والاثنان والجمع والمذكّر والمؤنّث، لأنه مصدر وُضع موضع الاسم. ﴿ **أو تكونَ من الهالكين** ﴾، أي: من الميّتين.

﴿ **قال** ﴾ يعقوب عليه السلام عند ذلك لمّا رأى غِلظتهم ﴿ **إنّما أشكو بَثّي وحُزني إلى اللّهِ** ﴾، والبثّ أشدّ الحزن، سُمّي بذلك لأن صاحبه لا يصبر عليه حتى يثبته أي يُظهره، قال الحسن: بثّي أي: حاجتي. ورُوِيَ أنه دخل على يعقوب جارٌ له وقال: يا يعقوب ما الذي غيّر حالك ما لي أراك قد تهشّمت وفنيت ولم تبلغ من السنّ ما بلغ أبوك؟ قال: هشمني وأفناني ما ابتلاني الله به من همّ يوسف، فأوحى الله إليه: يا يعقوب أتشكوني إلى خلقي؟ فقال: يا ربّ خطيئة أخطأتها فاغفرْها لي، فقال: قد غفرتها لك، فكان بعد ذلك إذا سُئِلَ قال: إنما أشكو بثّي

رأى قولهم له وغلظتهم عليه ﴿إنما أشكو بثي وحزني إلى الله﴾ أصل البث إثارة الشيء وتفريقه وبث النفس ما انطوت عليه من الغم والشر، قال ابن قتيبة: البث أشد الحزن وذلك لأن الإنسان إذا ستر الحزن وكتمه كان هماً فإذا ذكره لغيره كان بثاً فالبث أشد الحزن والحزن الهم فعلى هذا يكون المعنى إنما أشكو حزني العظيم وحزني القليل إلى الله لا إليكم.

قال ابن الجوزي: روى الحاكم أبو عبد الله في صحيحه من حديث أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ أنه قال «كان ليعقوب أخ مؤاخ فقال له ذات يوم يا يعقوب ما الذي أذهب بصرك وما الذي قوس ظهرك قال أما الذي أذهب بصري فالبكاء على يوسف وأما الذي قوس ظهري فالحزن على بنيامين فأتاه جبريل فقال يا يعقوب إن الله يقرئك السلام ويقول لك أما تستحي أن تشكو إلى غيري فقال إنما أشكو بثي وحزني إلى الله فقال جبريل الله أعلم بما تشكو» وقيل: إنه دخل على يعقوب جار له فقال له يا يعقوب مالي أراك قد تهشمت بالضعف وفنيت ولم تبلغ من السن ما بلغ أبوك فقال هشمني وأفناني ما ابتلاني الله به من هم يوسف فأوحى الله إليه يا يعقوب أتشكوني إلى خلقي فقال يا رب خطيئة أخطأتها فاغفرها لي قال قد غفرتها لك فكان بعد ذلك إذا سئل يقول إنما أشكو بثي وحزني إلى الله تعالى وقيل إن الله أوحى إليه وعزتي وجلالي لا أكشف ما بك حتى تدعوني فعند ذلك قال إنما أشكو بثي وحزني إلى الله تعالى ثم قال أي رب أما ترحم الشيخ الكبير أذهبت بصري وقوست ظهري فاردد على ريحانتي أشممها شمة قبل أن أموت ثم اصنع ما شئت فأتاه جبريل فقال يا يعقوب إن الله يقرئك السلام ويقول لك أبشر فوعزتي لو كانا ميتين لنشرتهما لك أتدري لم وجدت عليك لأنكم ذبحتم شاة فقام على بابكم فلان المسكين وهو صائم فلم تطعموه منها شيئاً وإن أحب عبادي إلي الأنبياء ثم المساكين إصنع طعاماً وادع إليه المساكين فصنع طعاماً ثم قال من كان صائماً فليفطر الليلة عند آل يعقوب وكان بعد ذلك إذا تغدى أمر منادياً ينادي من أراد أن يتغدى فليأت آل يعقوب وإذا أفطر أمر أن ينادي من أراد أن يفطر فليأت آل يعقوب فكان يتغدى ويتعشى مع المساكين، وقال وهب بن منبه أوحى الله تعالى إلى يعقوب أتدري لم عاقبتك وحبست عنك يوسف ثمانين سنة قال يا رب لا قال لأنك شويت عناقاً وقترت على جارك وأكلت ولم تطعمه وقيل إن سبب ابتلاء يعقوب أنه ذبح عجلاً بين يدي أمه وهي تخور فلم يرحمها.

فإن قلت هل في هذه الروايات ما يقدح في عصمة الأنبياء؟

وحزني إلى الله ورُوِيَ أنه قيل له: يا يعقوب ما الذي أذهب بصرك وقوّس ظهرك؟ فقال: أذهب بصري بكائي على يوسف، وقوّس ظهري حزني على أخيه. فأوحى الله إليه: أتشكوني، فوعزّتي وجلالي لا أكشف ما بك حتى تدعوني، فعند ذلك قال: إنما أشكو بثّي وحزني إلى الله، فأوحى الله إليه: وعزّتي وجلالي لو كانا ميّتين لأخرجتهما لك، وإنّما وجدت عليكم لأنكم ذبحتم شاة فقام ببابكم مسكين فلم تطعموه منها شيء، وإن أحبَّ خلقي إليّ الأنبياء، ثم المساكين فاصنع طعاماً وادعُ إليه المساكين، فصنع طعاماً ثم قال: مَن كان صائماً فليفطر الليلة عند آل يعقوب. ورُوِيَ أنه كان بعد ذلك إذا تغذّى أمر مَن ينادي: مَن أراد الغداء فليأتِ يعقوب، وإذا أفطر أمر مَن ينادي: مَن أراد أن يفطر فليأت يعقوب، فكان يتغذّى ويتعشى مع المساكين. وعن وهب بن منبّه قال: لمّا أوحى الله تعالى إلى يعقوب: أتدري لِمَ عاقبتك وحبست عنك يوسف ثمانين سنة؟ قال: لا، لأنك قد شويت عناقاً وقتّرت على جارك، وأكلت ولم تطعمه. ورُوِي أن سبب ابتلاء يعقوب أنه ذبح عجلاً بين يدي أُمه وهي تخور. وقال وهب والسدي وغيرهما: أتى جبريل إلى يوسف في السجن فقال: هل تعرفني أيها الصديق؟ قال: أرى صورة طاهرة وريحاً طيبة، قال: إني رسول ربّ العالمين وأنا الروح الأمين، قال: فما أدخلك مدخل المذنبين وأنت أطيب الطيّبين ورأس المقرّبين وأمين ربّ العالمين؟ قال: ألم تعلم يا يوسف أن الله تعالى يطهّر البيوت بطُهْر النبيين، وأن

قلت: لا وإنما عوقب يعقوب بهذا لأن حسنات الأبرار سيئات المقربين وإنما يطلب من الأنبياء من الأعمال على قدر منصبهم وشريف رتبتهم ويعقوب عليه الصلاة والسلام من أهل بيت النبوة والرسالة ومع ذلك فقد ابتلى الله كل واحد من أنبيائه بمحنة فصبر وفوض أمره إلى الله فإبراهيم عليه الصلاة والسلام ألقي في النار فصبر ولم يشك إلى أحد وإسماعيل ابتلي بالذبح فصبر وفوض أمره إلى الله وإسحاق ابتلي بالعمى فصبر ولم يشك إلى أحد ويعقوب ابتلي بفقده ولده يوسف وبعده بنيامين ثم عمي بعد ذلك أو ضعف بصره من كثرة البكاء على فقدهما وهو مع ذلك صابر لم يشك إلى أحد شيئاً مما نزل به وإنما كانت شكايته إلى الله عز وجل بدليل قوله إنما أشكو بثي وحزني إلى الله فاستوجب بذلك المدح العظيم والثناء الجميل في الدنيا والدرجات العلى في الآخرة مع من سلف من أبويه إبراهيم وإسحاق عليهما الصلاة والسلام.

وأما دمع العين وحزن القلب فلا يستوجب به ذماً ولا عقوبة لأن ذلك ليس إلى اختيار الإنسان فلا يدخل تحت التكليف بدليل أن النبي ﷺ بكى على ولده إبراهيم عند موته وقال «إن العين لتدمع وإن القلب ليحزن وما نقول إلا ما يرضي ربنا» فهذا القدر لا يقدر الإنسان على دفعه عن نفسه فصار مباحاً لا حرج فيه على أحد من الناس وقوله **﴿وأعلم من الله ما لا تعلمون﴾** يعني أنه تعالى من رحمته وإحسانه يأتي بالفرج من حيث لا أحتسب وفيه إشارة إلى أنه كان يعلم حياة يوسف ويتوقع رجوعه إليه وروى أن ملك الموت زار يعقوب فقال له يعقوب أيها الملك الطيب ريحه الحسن صورته الكريم على ربه هل قبضت روح ابني يوسف في الأرواح فقال لا فطابت نفس يعقوب وطمع في رؤيته فلذلك قال وأعلم من الله ما لا تعلمون وقيل معناه وأعلم أن رؤيا يوسف حق وصدق وإني وأنتم سنسجد له وقال السدي لما

الأرض التي يدخلونها هي أطهر الأراضين، وأن الله تعالى قد طهّر بك السجن وما حوله يا طاهر الطاهرين وابن الصالحين المخلصين، قال: كيف لي باسم الصديقين وتعدّني من المخلصين الطاهرين، وقد أُدخلت مدخل المذنبين وسُمّيت باسم الفاسقين؟ قال جبريل: لأنه لم يفتن قلبك ولم تُطِعْ سيدتك في معصية ربِّك لذلك سمّاك الله في الصديقين، وعدّك من المخلصين، وألحقك بآبائك الصالحين، قال يوسف: هل لك علم بيعقوب أيها الروح الأمين؟ قال: نعم، وهبه الله الصبر الجميل وابتلاه بالحزن عليك فهو كظيم، قال: فكم قدّر حزنه؟ قال: حزن سبعين ثكلى، قال: فما زاد له من الأجْر يا جبريل؟ قال: أجْر مائة شهيد، قال: أفتراني لاقيه؟ قال: نعم، فطابت نفسه، وقال: ما أُبالي بما لقيت إن رأيته. قوله تعالى: ﴿ وأعلمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تعلمُون ﴾، يعني: أعلم من حياة يوسف ما لا تعلمون، رُوِيَ أن ملك الموت زار يعقوب فقال له: أيها الملك الطيب ريحه، الحَسَن صورته، هل قبضت روح ولدي في الأرواح؟ قال: لا، فسكن يعقوب وطمع في رؤيته، وقال: وأعلم أن رؤيا يوسف صادقة وإني وأنتم سنسجد له. وقال السدي: لمّا أخبره ولده بسيرة الملك أحسّت نفس يعقوب وطمع وقال لعلّه يوسف، فقال: يا بَنيَّ اذهبُوا فتحسَّسُوا من يوسف أخيه. ورُوِيَ عن عبد الله بن زيد بن أبي فروة: أن يعقوب عليه السلام كتب كتاباً إلى يوسف عليه السلام حين حبس بنيامين: من يعقوب إسرائيل الله بن إسحق ذبيح الله بن إبراهيم خليل الله إلى ملك مصر أما بعد فإنّا أهل بيت وُكِّلَ بِنا البلاءُ أمّا جدّي إبراهيم فشدّتْ يداه ورجلاه وأُلقي في النار، فجعلها الله عليه برداً وسلاماً، وأما أبي فشدّتْ يداه ورجلاه ووضع السكين على قفاه، ففداه الله، وأما أنا فكان لي ابن وكان أحبَّ أولادي إليّ فذهب به إخوته إلى البريّة ثم أتوني بقميصه ملطخاً بالدم، فقالوا: قد أكله الذئب، فذهبت عيناي من البكاء عليه، ثم كان لي ابن وكان أخاه من أُمه، وكنت أتسلّى به وإنك حبسته وزعمت أنه سرق، وإنّا أهل بيت لا نسرق ولا نلد سارقاً، فإن رددته إليّ وإلاّ دعوتُ عليك دعوةً تدرك السابع من ولدك، فلما قرأ يوسف الكتاب لم يتمالك البكاء وعِيلَ صبره، فأظهر نفسه على ما نذكره إن شاء الله تعالى.

أخبره بنوه بسيرة ملك مصر وكمال حاله في جميع أقواله وأفعاله أحسست نفس يعقوب وطمع أن يكون هو يوسف فعند ذلك قال يعني يعقوب.

﴿يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ٨٧ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيۡهِ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهۡلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئۡنَا بِبِضَٰعَةٖ مُّزۡجَىٰةٖ فَأَوۡفِ لَنَا ٱلۡكَيۡلَ وَتَصَدَّقۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجۡزِي ٱلۡمُتَصَدِّقِينَ ٨٨ قَالَ هَلۡ عَلِمۡتُم مَّا فَعَلۡتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذۡ أَنتُمۡ جَٰهِلُونَ ٨٩﴾

﴿**يا بني اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه**﴾ التحسس طلب الخبر بالحاسة وهو قريب من التجسس بالجيم وقيل إن التحسس بالحاء يكون في الخير وبالجيم يكون في الشر ومنه الجاسوس وهو الذي يطلب الكشف عن عورات الناس قال ابن عباس التمسوا قال ابن الأنباري يقال تحسست عن فلان ولا يقال من فلان وقال هنا من يوسف وأخيه لأنه أقيم من مقام عن قال ويجوز أن يقال من للتبعيض ويكون المعنى تحسسوا خبراً من أخبار يوسف وأخيه، روي عن عبد الله بن يزيد عن أبي فروة أن يعقوب كتب كتاباً إلى يوسف عليهما الصلاة والسلام حين حبس عنده بنيامين: من يعقوب إسرائيل الله بن إسحاق ذبيح الله بن إبراهيم خليل الله إلى ملك مصر أما بعد فإنا أهل بيت وكل بنا البلاء أما جدي إبراهيم فشدت يداه ورجلاه وألقي في النار فجعلها الله برداً وسلاماً وأما أبي فشدت يداه ورجلاه ووضع السكين على قفاه ففداه الله وأما أنا فكان لي ابن وكان أحب أولادي إليّ فذهب به إخوته إلى البرية ثم أتوني بقميصه ملطخاً بالدم وقالوا قد أكله الذئب فذهبت عيناي ثم كان لي ابن آخر وكان أخاه من أمه وكنت أتسلى به وإنك حبسته وزعمت أنه سرق وإنا أهل بيت لا نسرق ولا نلد سارقاً فإن رددته إليّ وإلا دعوت عليك دعوة تدرك السابع من ولدك فلما قرأ يوسف كتاب أبيه اشتد بكاؤه وعيل صبره وأظهر نفسه لإخوته على ما سنذكره إن شاء الله تعالى فذلك قوله تعالى يا بني اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ﴿**ولا تيأسوا**﴾ أي ولا تقنطوا ﴿**من روح الله**﴾ يعني من رحمة الله وقيل من فضل الله وقيل من فرج الله ﴿**إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون**﴾ يعني أن المؤمن على خير يرجوه من الله فيصبر عند البلاء فينال به خيراً ويحمد عند الرخاء فينال به خيراً والكافر بضد ذلك.

قوله تعالى: ﴿**فلما دخلوا عليه**﴾ فيه حذف واختصار تقديره فخرجوا من عند أبيهم قاصدين مصر فلما دخلوا عليه يعني على يوسف ﴿**قالوا يا أيها العزيز**﴾ يعنون يا أيها الملك والعزيز القادر الممتنع وكان العزيز لقب ملك مصر يومئذ ﴿**مسنا وأهلنا الضر**﴾ أي الشدة والفقر والجوع وأرادوا بأهلهم من خلفهم ومن وراءهم من العيال ﴿**وجئنا ببضاعة مزجاة**﴾ أي ببضاعة رديئة كاسدة لا تنفق في ثمن الطعام إلا بتجوز من البائع.

﴿ **يا بَنيّ اذهبُوا فتحسَّسُوا** ﴾، تخبّروا واطلبوا الخير، ﴿ **مِنْ يوسفَ وأخيهِ** ﴾، والتحسُّس بالحاء والجيم لا يبعد أحدهما من الآخر، إلّا أن التحسّس بالحاء في الخير وبالجيم في الشرّ، والتحسّس هو طلب الشيء بالحاسّة. قال ابن عباس: معناه التمسوا ﴿ **ولا تيأسُوا** ﴾، ولا تقنطوا ﴿ **مِن رَّوْحِ اللّهِ** ﴾، أي: من الرحمة: وقيل: من فرج الله. ﴿ **إنّه لا يَيْأَسُ من رَّوْحِ الله إلّا القومُ الكافرون** ﴾.

﴿ **فلمّا دخلُوا عليه** ﴾، وفيه إضمار تقديره: فخرجوا راجعين إلى مصر حتى وصلوا إليها فدخلوا عليه، ﴿ **قالوا يا أيّها العزيزُ مَسّنَا وأهلَنَا الضُّرُّ** ﴾، أي: الشدّة والجوع، ﴿ **وجئنا ببضاعةٍ مُّزْجَاةٍ** ﴾، أي: قليلة رديئة كاسدة لا تنفق في ثمن الطعام إلا بتجوّز من البائع فيها، وأصل الإزجاء السوق والدفع. وقيل: للبضاعة مزجاة لأنها

وأصل الإزجاء في اللغة: الدفع قليلاً قليلاً والتزجية دفع الشيء لينساق كتزجية الريح السحاب ومنه قول الشاعر:

وحاجــة غيـر مزجـاة من الحـاج

يعني هي قليلة يسيرة يمكن دفعها وسوقها لقلة الاعتناء بها وإنما وصفوا تلك البضاعة بأنها مزجاة إما لنقصانها أو لرداءتها أو لمجموعهما فلذلك اختلفت عبارات المفسرين في معنى هذه البضاعة المزجاة، فقال ابن عباس: كانت دراهم رديئة زيوفاً وقيل كانت خلق الغرائر والحبال، وقيل: كانت من متاع الأعراب من الصوف والأقط، وقال الكلبي ومقاتل: كانت حبة الخضراء وقيل كانت سويق المقل وقيل كانت الأدم والنعال، وقال الزجاج: سميت هذه البضاعة القليلة الرديئة مزجاة من قولهم: فلان يزجي العيش أي يدفع الزمان بالقليل من العيش والمعنى جئنا ببضاعة مزجاة لندافع بها الزمان وليست مما يتسع بها، وقيل: إنما قيل للدراهم الرديئة مزجاة لأنها مردودة مدفوعة غير مقبولة ممن يدفعها ﴿**فأوف لنا الكيل**﴾ يعني أعطنا ما كنت تعطينا من قبل بالثمن الجيد الوافي والمعنى إنا نريد أن تقيم لنا الزائد مقام الناقص والجيد مقام الرديء ﴿**وتصدق علينا**﴾ يعني وتفضل علينا بما بين الثمين الجيد والرديء ولا تنقصنا، هذا قول أكثر المفسرين قال ابن الأنباري: وكان الذي يسألونه من المسامحة يشبه الصدقة وليس به واختلف العلماء هل كانت الصدقة حلالاً للأنبياء قبل نبينا أم لا فقال سفيان بن عيينة: إن الصدقة كانت حلالاً للأنبياء قبل محمد ﷺ واستدل بهذه الآية وأنكر جمهور العلماء ذلك وقالوا إن حال الأنبياء كلهم واحد في تحريم الصدقة عليهم لأنهم ممنوعون من الخضوع للمخلوقين والأخذ منهم، والصدقة أوساخ الناس فلا تحل لهم لأنهم مستغنون بالله عمن سواه.

وأجيب عن قوله وتصدق علينا أنهم طلبوا منه أن يجريهم على عادتهم من المسامحة وإيفاء الكيل ونحو ذلك مما كان يفعل بهم من الكرامة وحسن الضيافة لا نفس الصدقة وكره الحسن ومجاهد أن يقول الرجل في دعائه اللهم تصدق علينا لأن الصدقة لا تكون إلا ممن يبتغي الثواب وروي أن الحسن سمع رجلاً يقول اللهم تصدق عليّ فقال إن الله لا يتصدق إنما يتصدق من يبغي الثواب قل اللهم أعطني وتفضل عليّ، وقال ابن جريج والضحاك وتصدق علينا يعني برد أخينا علينا ﴿**إن الله يجزي المتصدقين**﴾ يعني بالثواب الجـزيل وقال الضحاك لم يقولوا إن الله يجزيك لأنهم لم يعلموا أنه مؤمن ﴿**قال**﴾ يعني قال يوسف لإخوته ﴿**هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه**﴾ وقد اختلفوا في السبب الذي من أجله حمل يوسف وهيجه على هذا القول، فقال ابن إسحاق: ذكر لي أنهم لما كلموه بهذا الكلام أدركته رقة

غير نافقة، وإنما تجوز على دفع مَن أخذها. واختلفوا فيها، فقال ابن عباس: كانت دراهم رديئة زيوفاً. وقيل: كانت خلق الغرائر والحِبال. وقيل: كانت من متاع الأعراب من الصوف والأقط. وقال الكلبي ومقاتل: كانت الحبّة الخضراء. وقيل: كانت سويق المقل. وقيل: كانت الأدم والنِعال. ﴿ **فأوْفِ لَنا الكَيْلَ** ﴾، أي: أعطنا ما كنت تعطينا قبل بالثمن الجيد الوافي ﴿ **وتصدَّقْ علينَا** ﴾، أي: تفضل علينا بما بين الثمنين الجيد والرديء ولا تنقصنا. هذا قول أكثر المفسّرين، وقال ابن جريج والضحاك: وتصدّق علينا بردّ أخينا إلينا. ﴿ **إنّ اللَّهَ يجزي** ﴾، يثيب، ﴿ **المتصدِّقين** ﴾، وقال الضحاك: لم يقول إن الله يجزيك لأنهم يعلموا أنه مؤمن. وسُئِلَ سفيان بن عيينة: هل حُرِّمَت الصدقة على أحد من الأنبياء سوى نبيِّنا عليه الصلاة والسلام؟ فقال سفيان: ألم تسمع قوله تعالى: ﴿ **وتصدَّقْ علينا إنّ الله يجزي المتصدقين** ﴾، يريد أن الصدقة كانت حلالاً لهم. ورُوِيَ أن الحسن سمع رجلاً يقول: اللّهمَّ تصدّق عليّ، فقال: إن الله لا يتصدّق وإنما يتصدّق على مَن يبغي الثواب، قل: اللّهمَّ أعطني أو تفضل عليّ.

على إخوته فباح بالذي كان يكتم، وقيل: إنه أخرج لهم نسخة الكتاب الذي كتبوه ببيعه من مالك وفي آخره وكتبه يهوذا فلما قرؤوا الكتاب اعترفوا بصحته وقالوا يا أيها الملك إنه كان لنا عبد فبعناه منه فغاظ ذلك يوسف وقال: إنكم تستحقون العقوبة وأمر بقتلهم فلما ذهبوا بهم ليقتلوهم قال يهوذا كان يعقوب يبكي ويحزن لفقد واحد منا فكيف إذا أتاه الخبر بقتل بنيه كلهم ثم قالوا إن كنت فاعلاً ذلك فابعث بأمتعتنا إلى أبينا فإنه بمكان كذا وكذا فذلك حين أدركته الرقة عليهم والرحمة فبكى وقال هذا القول، وقيل: إن يوسف لما قرأ كتاب أبيه لم يتمالك أن بكى وقال هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه وهذا استفهام يفيد تعظيم أمر هذه الواقعة ومعناه ما أعظم ما ارتكبتم من أمر يوسف وما أقبح ما أقدمتم عليه من قطيعة الرحم وتفريقه من أبيه وهذا كما يقال للمذنب هل تدري من عصيت وهل تعرف من خالفت ولم يرد بهذا نفس الاستفهام ولكنه أراد تفظيع الأمر وتعظيمه ويجوز أن يكون المعنى هل علمتم عقبى ما فعلتم بيوسف وأخيه من تسليم الله إياهما من المكروه.

واعلم أن هذه الآية تصديق لقوله تعالى: ﴿وأوحينا إليه لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون﴾ فإن قلت الذي فعلوه بيوسف معلوم ظاهر فما الذي فعلوه بأخيه من المكروه حتى يقول لهم هذه المقالة فإنهم لم يسعوا في حبسه ولا أرادوا ذلك.

قلت: إنهم لما فرقوا بينه وبين أخيه يوسف نغصوا عليه عيشه وكانوا يؤذونه كلما ذكر يوسف، وقيل: إنهم قالوا له لما اتهم بأخذ الصواع ما رأينا منكم يا بني راحيل خيراً ﴿إذ أنتم جاهلون﴾ هذا يجري مجرى العذر لهم يعني أنكم أقدمتم على هذا الفعل القبيح المنكر حال كونكم جاهلين وهو وقت الصبا وحالة الجهل وقيل جاهلون بما يؤول إليه أمر يوسف.

قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِيۖ قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَآۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾

قوله عز وجل: ﴿قالوا أئنك لأنت يوسف﴾ قرىء على سبيل الاستفهام وحجة هذه القراءة قال ابن عباس لما

﴿قالَ هلْ علمتُم ما فعلتُم بيوسفَ وأخيهِ إذ أنتُم جَاهِلُون﴾، اختلفوا في السبب الذي حمل يوسف على هذا القول، قال ابن إسحق: ذكر لي أنهم لما كلّموه بهذا الكلام أدركته الرقّة فارفضّ دمعه فباح بالذي كان يكتمه. وقال الكلبي: إنما قال ذلك حين حكى لإخوته أن مالك بن ذعر قال إني وجدت غلاماً في بئر من حاله كيت وكيت، فابتعته بكذا درهماً فقالوا: أيها الملك، نحن بعنا ذلك الغلام، فغاظ يوسف ذلك وأمر بقتلهم فذهبوا بهم ليقتلوهم، فولّى يهوذا وهو يقول كان يعقوب يحزن ويبكي لفقد واحد منّا حتى كفّ بصره، فكيف إذا أتاه قتل بنيه كلهم؟ ثم قالوا له: إن فعلت ذلك فابعث بأمتعتنا إلى أبينا فإنه بمكان كذا وكذا، فذلك حين رحمهم وبكى، وقال ذلك القول. وقيل: قاله حين قرأ كتاب أبيه الذي كتب إليه فلم يتمالك البكاء، فقال: هل علمتُم ما فعلتُم بيوسف وأخيه إذْ فرّقتُم بينهما، وصنعتُم ما صنعتُم إذ أنتُم جاهلون بما يـؤل إليه أمر يوسف؟ وقيل: مذنبون وعاصون. وقال الحسن: إذ أنتم شبّان ومعكم جهل الشباب. فإن قيل: كيف قال ما فعلتم بيوسف وأخيه وما كان منهم إلى أخيه شيء وهم لـم يسعوا في حبسه؟ قيل: قد قالوا له في الصاع ما رأينا منكم يا بني راحيل خيراً. وقيل: لِمَا كانا من أم واحدة كانوا يؤذونه من بعد فقد يوسف.

﴿قالوا أئنكَ لأنتَ يوسفُ﴾، قرأ ابن كثير وأبو جعفر: «إنَّك» على الخبر، وقرأ الآخرون على الاستفهام.

قال لهم هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه تبسم فرأوا ثناياه كاللؤلؤ تشبه ثنايا يوسف فشبهوه بيوسف فقالوا استفهاماً أئنك لأنت يوسف؟، وقرىء على الخبر وحجته ما قال ابن عباس أيضاً في رواية أخرى عنه: إن إخوة يوسف لم يعرفوه حتى وضع التاج على رأسه وكان له في قرنه علامة تشبه الشامة وكان ليعقوب مثلها ولإسحاق مثلها ولسارة مثلها فعرفوه بها وقالوا أنت يوسف، وقيل: قالوه على سبيل التوهم ولم يعرفوه حتى **﴿قال أنا يوسف﴾** قال بعض العلماء إنما أظهر الاسم في قوله أنا يوسف ولم يقل أنا هو تعظيماً لما نزل به من ظلم إخوته له وما عوضه الله من النصر والظفر والملك فكأنه قال أنا يوسف المظلوم الذي ظلمتموني وقصدتم قتلي بأن ألقيتموني في الجب ثم بعتموني بأبخس الأثمان ثم صرت إلى ما ترون فكانت تحت ظهور الاسم هذه المعاني كلها ولهذا قال **﴿وهذا أخي﴾** وهم يعرفونه لأنه قصد به أيضاً وهذا أخي المظلوم كما ظلمتموني ثم صرت أنا وهو إلى ما ترون وهو قوله: **﴿قد منَّ الله علينا﴾** بأن جمع بيننا وقيل منَّ علينا بكل عز وخير في الدنيا والآخرة، وقيل: منَّ علينا بالسلامة في ديننا ودنيانا **﴿إنه من يتق ويصبر﴾** يعني يتقي الزنا ويصبر على العزوبة قاله ابن عباس، وقال مجاهد: يتقي المعصية ويصبر على السجن، وقيل: يتقي الله بأداء فرائضه ويصبر عما حرم الله **﴿فإن الله لا يضيع أجر المحسنين﴾** يعني أجر من كان هذا حاله **﴿قالوا﴾** يعني قال إخوة يوسف معتذرين إليه مما صدر منهم في حقه **﴿تالله لقد آثرك الله علينا﴾** أي اختارك وفضلك علينا يقال آثرك الله إيثاراً أي اختارك ويستعار الأثر للفضل والإيثار للتفضيل والمعنى لقد فضلك الله علينا بالعلم والعقل وقال الضحاك عن ابن عباس بالملك وقال أبو صالح عنه بالصبر وقيل بالحلم والصفح علينا وقيل بالحسن وسائر الفضائل التي أعطاها الله عز وجل له دون إخوته وقيل فضله عليهم بالنبوة وأورد على هذا القول بأن إخوته كانوا أنبياء أيضاً فليس له عليهم فضل في ذلك وأجيب عنه بأن يوسف فضل عليهم بالرسالة مع النبوة فكان أفضل منهم بهذا الاعتبار لأن من جمعت له النوبة والرسالة كان أفضل ممن خص بالنبوة فقط **﴿وإن كنا لخاطئين﴾** يعني وما كنا في صنعنا بك إلا خاطئين ولهذا اختير لفظ الخاطىء على المخطىء والفرق بينهما أن يقال خطىء خطأ إذا تعمد وأخطأ إذا كان غير متعمد وقيل يجوز أن يكون آثر لفظ خاطئين على مخطئين لموافقة رؤوس الآي لأن خاطئين أشبه بما قبلها **﴿قال﴾** يعني يوسف **﴿لا تثريب عليكم﴾** يعني لا تعيير ولا توبيخ عليكم ومنه قوله ﷺ «إذا زنت أمة أحدكم فليجلدها الحد ولا يوبخها ولا يثرب» أي لا يعيرها بالزنا بعد إقامة الحد عليها وفي محل قوله **﴿اليوم﴾** قولان أحدهما أنه يرجع إلى ما قبله فيكون التقدير لا تثريب عليكم اليوم والمعنى أن هذا اليوم هو يوم التثريب والتقريع والتوبيخ وأنا لا أقرعكم اليوم ولا أوبخكم ولا أثرب عليكم، فعلى هذا يحسن الوقف على قوله لا تثريب عليكم اليوم ويبتدىء بقوله **﴿يغفر الله لكم﴾**.

قال ابن إسحاق: كان يوسف يتكلم من وراء ستر فلما قال يوسف: هل علمتم ما فعلتم، كشف عنهم الغطاء ورفع الحجاب، فعرفوه. وقال الضحاك عن أبي عباس: لمّا قال هذا القول تبسّم فرأوا ثناياه كاللؤلؤ المنظوم فشبّهوه بيوسف، فقالوا استفهاماً أئنك لأنت يوسف؟ وقال عطاء عن ابن عباس: إن أخوة يوسف لم يعرفوه حتى وضع التاج عن رأسه، وكان له في قرنه علامة وكان ليعقوب مثلها ولإسحق مثلها ولسارة مثلها شبه الشامة، فعرفوه فقالوا: أئنك لأنت يوسف، وقيل: قالوه على التوهّم حتى، **﴿ قالَ أنا يوسفُ وهذا أخي ﴾**، بنيامين، **﴿ قَدْ مَنَّ الله علينَا ﴾**، أنعمَ الله علينا بأن جمع بيننا **﴿ إنَّه مَنْ يتّقِ ﴾**، بأداء الفرائض واجتناب المعاصي، **﴿ ويصبرْ ﴾**، عمّا حرّم الله عزّ وجلّ عليه. قال ابن عباس: يتّقي الزنا ويصبر عن العزوبة. وقال مجاهد: يتّقي المعصية ويصبر على السجن، **﴿ فإنَّ الله لا يضيعُ أجرَ المحسنين ﴾**.

﴿ قالوا ﴾، معتذرين، **﴿ تَاللَّهِ لقدْ آثَرَكَ الله علينَا ﴾**، أي: اختارك الله وفضّلك علينا، **﴿ وإن كنّا**

والقول الثاني: أن اليوم متعلق بقوله يغفر الله لكم فعلى هذا يحسن الوقف على قوله لا تثريب عليكم ويبتدىء باليوم يغفر الله لكم كأنه لما نفى عنهم التوبيخ والتقريع بقوله لا تثريب عليكم بشرهم بقوله اليوم يغفر الله لكم ﴿وهو أرحم الراحمين﴾ ولما عرفهم يوسف نفسه سألهم عن حال أبيه فقال ما حال أبي بعدي؟ قالوا ذهب بصره من كثرة البكاء عليك فأعطاهم قميصه وقال.

﴿ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾﴾

﴿اذهبوا بقميصي هذا﴾ قال الضحاك كان هذا القميص من نسج الجنة، وقال مجاهد: أمره جبريل أن يرسل إليه قميصه وكان ذلك القميص قميص إبراهيم وذلك أنه لما جرد من ثيابه وألقي في النار عرياناً أتاه جبريل بقميص من حرير الجنة فألبسه إياه فكان ذلك القميص عند إبراهيم، فلما مات ورثه إسحاق فلما مات ورثه يعقوب فلما شب يوسف جعل يعقوب ذلك القميص في قصبة من فضة وسد رأسها وجعلها في عنق يوسف كالتعاويذ لما كان يخاف عليه من العين وكانت لا تفارقه فلما ألقي يوسف في البئر عرياناً أتاه جبريل وأخرج ذلك القميص وألبسه إياه فلما كان هذا الوقت جاءه جبريل فأمره أن يرسل هذا القميص إلى أبيه لأن فيه ريح الجنة فلا يقع على مبتلى ولا سقيم إلا عوفي في الوقت فدفع ذلك القميص يوسف إلى إخوته وقال اذهبوا بقميصي هذا ﴿فألقوه على وجه أبي يأت بصيراً﴾ قال المحققون: إن علم يوسف أن إلقاء ذلك القميص على وجه يعقوب يوجب رد البصر كان بوحي الله إليه ذلك ويمكن أن يقال إن يوسف لما علم أن أباه قد عمي من كثرة البكاء عليه وضيق الصدر بعث إليه قميصه ليجد ريحه فيزول بكاؤه وينشرح صدره ويفرح قلبه فعند ذلك يزول الضعف ويقوى البصر فهذا القدر تمكن معرفته من جهة العقل وقوله ﴿وأتوني بأهلكم أجمعين﴾ قال الكلبي: كانوا نحواً من سبعين إنساناً، وقال مسروق: كانوا ثلاثة وسبعين ما بين رجل وامرأة ﴿ولما فصلت العير﴾ يعني خرجت من مصر وقيل من عريش مصر متوجهين إلى أرض كنعان ﴿قال أبوهم﴾

لخاطئين﴾، أي: وما صنيعنا بك إلّا مخطئين مذنبين. يقال: خطىء خطأً إذا تعمّد، وأخطأ إذا كان غير متعمّد.

﴿قال﴾، يوسف وكان حليماً، ﴿لا تثريبَ عليكُم اليومَ﴾، لا تعيير عليكم ولا أذكر لكم ذنبكم بعد اليوم، ﴿يغفرُ الله لكم وهو أرحمُ الراحمين﴾، فلما عرّفهم يوسف نفسه سألهم عن أبيه، فقال: ما فعل أبي بعدي؟ قالوا: ذهبت عيناه من البكاء فأعطاهم قميصه، ثم قال:

﴿اذهبُوا بقميصي هذا فألقوه على وجهِ أبي يأتِ بصيراً﴾، أي: يعد مبصراً. وقيل: بصيراً لأنه كان قد دعاه. قال الحسن: لم يعلم أنه يعود بصيراً إلّا بعد أن أعلمه الله عزّ وجلّ. قال الضحاك: كان ذلك القميص من نسج الجنة. وعن مجاهد قال: أمره جبريل أن يرسل إليه قميصه، وكان ذلك القميص قميص إبراهيم عليه السلام، وذلك أنه جرّد من ثيابه وأُلقي في النار عرياناً فأتاه جبريل بقميص من حرير الجنة فألبسه إيّاه فكان ذلك القميص عند إبراهيم عليه السلام، فلما مات ورثه إسحق، فلما مات ورثه يعقوب، فلما شبّ يوسف جعل يعقوب ذلك القميص في قصبة وسدّ رأسها وعلّقها في عنقه لما كان يخاف عليه من العين، وكان لا يفارقه فلما أُلقي في البئر عرياناً جاءه جبريل عليه السلام وعلى يوسف ذلك التعويذ فأخرج القميص منه وألبسه إيّاه، ففي هذا الوقت جاء جبريل عليه السلام إلى يوسف عليه السلام وقال له: أرسل إلى أبيك ذلك القميص، فإن فيه ريح الجنة لا يقع على

يعني: قال يعقوب لولد ولده ﴿إني لأجد ريح يوسف﴾ قيل: إن ريح الصبا استأذنت ربها في أن تأتي يعقوب بريح يوسف قبل أن يأتيه البشير، وقال مجاهد: أصابت يعقوب ريح يوسف من مسيرة ثلاثة أيام، وقال ابن عباس: من مسيرة ثمان ليال وقال الحسن كان بينهما ثمانون فرسخاً، وقيل: هبت ريح فاحتملت ريح القميص إلى يعقوب فوجد يعقوب ريح الجنة فعلم أنه ليس في الأرض من ريح الجنة إلا ما كان من ذلك القميص فعلم بذلك أنه من ريح يوسف فلذلك قال: إني لأجد ريح يوسف ﴿لولا أن تفندون﴾ أصل التفنيد من الفند وهو ضعف الرأي وقال ابن الأنباري أفند الرجل إذا خرف وفند إذا جهل ونسب ذلك إليه وقال الأصمعي: إذا كثر كلام الرجل من خرف فهو الفنيد والفند فيكون المعنى لولا أن تفندوني أي تنسبوني إلى الخرف وقيل تسفهوني وقيل: تلوموني وقيل تجهلوني وهو قول ابن عباس، وقال الضحاك تهرموني فتقولون شيخ كبير قد خرف وذهب عقله ﴿قالوا﴾ يعني أولاد أولاد يعقوب وأهله الذين عنده لأن أولاده لصلبه كانوا غائبين عنه ﴿تالله إنك لفي ضلالك القديم﴾ يعني من ذكر يوسف ولا تنساه لأنه كان عندهم أن يوسف قد مات وهلك ويرون أن يعقوب قد لهج بذكره فلذلك قالوا تالله إنك لفي ضلالك القديم من ذكره والضلال الذهاب عن طريق الصواب.

﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًاۖ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾﴾

﴿فلما أن جاء البشير﴾ وهو المبشر بخبر يوسف، قال ابن مسعود: جاء البشير بين يدي العير قال ابن مسعود رضي الله تعالى عنهما هو يهوذا، قال السدي: قال يهوذا أنا ذهبت بالقميص ملطخاً بالدم إلى يعقوب وأخبرته أن يوسف أكله الذئب فأنا أذهب اليوم بالقميص وأخبره أنه حي فأفرحه كما أحزنته. قال ابن عباس: حمله يهوذا وخرج به حافياً حاسراً يعدو ومعه سبعة أرغفة فلم يستوف أكلها حتى أتى أباه وكانت المسافة ثمانين فرسخاً ﴿ألقاه على

سقيم ولا مُبتلي إلّا عُوفي، فدفع يوسف ذلك القميص إلى إخوته وقال: ألقوه على وجه أبي يأتِ بصيراً، ﴿ وأتوني بأهلِكم أجمعين ﴾.

﴿ ولمّا فَصَلَتِ العِيْرُ ﴾، أي خرجت من عريش مصر متوجّهة إلى كنعان ﴿ قالَ أبُوهُمْ ﴾، أي: قال يعقوب لولد ولده، ﴿ إني لأجِدُ رِيحَ يوسفَ ﴾، رُوِيَ أن ريح الصبا استأذنت ربّها في أن تأتي يعقوب بريح يوسف قبل أن يأتيه البشير. قال مجاهد: أصاب يعقوب ريح يوسف من مسيرة ثلاثة أيام. وحُكِيَ عن ابن عباس: من مسيرة ثمان ليالٍ. وقال الحسن: كان بينهما ثمانون فرسخاً. وقيل: هبّت ريح الصبا فصفقت القميص فاحتملت ريح القميص إلى يعقوب فوجد ريح الجنة فعلم أن ليس في الأرض من ريح الجنة إلّا ما كان من ذلك القميص، فلذلك قال: إني لأجد ريح يوسف قبل البشير. ﴿ لولاَ أن تُفَنِّدُون ﴾، تسفهوني، وعن ابن عباس: تجهلوني. وقال الضحاك: تهزموني فتقولون شيخ كبير قد خرف وذهب عقله. وقيل: تضعفوني. وقال أبو عبيدة: تضلّلوني. وأصل الفند: الفساد.

﴿ قالوا ﴾، يعني أولاد أولاده، ﴿ تاللهِ إنّك لفي ضلالِكَ القديم ﴾، لفي خطئك السابق من ذكر ليوسف لا تنساه، والضلال هو الذهاب عن الطريق الصواب، فإن عندهم أن يوسف قد مات ويرون يعقوب قد لهج بذكره.

﴿ فلمّا أنْ جاءَ البشيرُ ﴾، وهو المبشّر عن يوسف، قال ابن مسعود: جاء البشير بين يدي العير. قال ابن

وجهه﴾ يعني فألقى البشير قميص يوسف على وجه يعقوب ﴿فارتد بصيراً﴾ يعني فرجع بصيراً بعد ما كان قد عمي وعادت إليه قوته بعد الضعف وسروره بعد الحزن ﴿قال ألم أقل لكم إني أعلم من الله ما لا تعلمون﴾ يعني من حياة يوسف وأن الله يجمع بيننا، وروي أن يعقوب قال للبشير كيف تركت يوسف قال تركته ملك مصر قال يعقوب ما أصنع بالملك على أي دين تركته؟ قال على دين الإسلام قال الآن تمت النعمة.

قوله تعالى: ﴿قالوا يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا﴾ يعني قال أولاد يعقوب حين وصلوا إليه وأخذوا يعتذرون إليه مما صنعوا به وبيوسف استغفر لنا أي اطلب لنا غفر ذنوبنا من الله ﴿إنا كنا خاطئين﴾ يعني في صنيعنا ﴿قال سوف أستغفر لكم ربي﴾ قال أكثر المفسرين: إن يعقوب أخر الدعاء والاستغفار لهم إلى وقت السحر لأنه أشرف الأوقات وهو الوقت الذي يقول الله فيه هل من داع فأستجيب له فلما انتهى يعقوب إلى وقت السحر قام إلى الصلاة متوجهاً إلى الله تعالى فلما فرغ رفع يديه إلى الله تعالى وقال اللهم اغفر لي جزعي على يوسف وقلة صبري عنه واغفر لأولادي ما أتوا إلى أخيهم يوسف فأوحى الله إليه أني قد غفرت لك ولهم أجمعين قال عكرمة عن ابن عباس: إنه أخر الاستغفار لهم إلى ليلة الجمعة لأنها أشرف الأوقات قال وهب كان يستغفر لهم كل ليلة جمعة نيفاً وعشرين سنة وقال طاوس أخر الاستغفار إلى وقت السحر من ليلة الجمعة فوافق ذلك ليلة عاشوراء وقال الشعبي سوف أستغفر لكم ربي قال حتى أسأل يوسف فإن كان قد عفا عنكم أستغفر لكم ربي ﴿إنه هو الغفور﴾ يعني لذنوب عباده ﴿الرحيم﴾ بجميع خلقه قال عطاء الخراساني طلب الحوائج إلى الشباب أسهل منه إلى الشيوخ ألا ترى إلى قول يوسف لإخوته لا تثريب عليكم الآية وقول يعقوب سوف أستغفر لكم ربي، قال أصحاب الأخبار إن يوسف عليه الصلاة والسلام بعث مع إخوته إلى

عباس: هو يهوذا قال: أنا ذهبت بالقميص ملطخاً بالدم إلى يعقوب فأخبرته أن يوسف أكله الذئب فأنا أذهب إليه اليوم بالقميص فأُخبره أن ولده حيّ فأُفرحه كما أحزنته. قال ابن عباس: حمله يهوذا وخرج حافياً حاسراً يعدو ومعه سبعة أرغفة لم يستوفِ أكلها حتى أتى أباه، وكانت المسافة ثمانين فرسخاً. وقيل: البشير مالك بن ذعر. ﴿ ألقاه على وجهِهِ ﴾، يعني: ألقى البشيرُ قميصَ يوسف على وجه يعقوب، ﴿ فارتدَّ بصيراً ﴾. فعاد بصيراً بعدما كان أعمى وعادت إليه قوته بعد الضعف، وشبابه بعد الهرم وسروره بعد الحزن. ﴿ قال ﴾، يعني: يعقوب عليه السلام، ﴿ ألم أقلْ لكم إني أعلمُ مِنَ اللَّهِ ما لاَ تَعْلَمُون ﴾، من حياة يوسف وأن الله يجمع بيننا. ورُوِيَ أنه قال للبشير: كيف تركت يوسف؟ قال: إنه ملك مصر، فقال يعقوب: ما أصنع بالملك على أيِّ دين تركتَه؟ قال: على دين الإسلام، قال: الآن تمّت النعمة.

﴿ قالوا يا أبانَا استغفرْ لنا ذنوبَنا إنَّا كنَّا خاطئين ﴾، مذنبين.

﴿ قال سوفَ أستغفرُ لكم ربِّي ﴾، قال أكثر المفسّرين: أخّر الدعاء إلى السّحر وهو الوقت الذي يقول الله تعالى: هل داعٍ فأستجيب له. فلما انتهى يعقوب إلى الموعد قام إلى الصلاة بالسّحر، فلما فرغ منها رفع يديه إلى الله عزّ وجلّ وقال: اللّهمَّ اغفر لي جزعي على يوسف وقلّة صبري عنه واغفرْ لأولادي ما أتوا إلى أخيهم يوسف، فأوحى الله تعالى إليه إنّي قد غفرتُ لك ولهم أجمعين. وعن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما: سوف أستغفرُ لكم ربّي يعني ليلة الجمعة. قال وهب: كان يستغفر لهم كل ليلة جمعة في نيّف وعشرين سنة. وقال طاوس: أخّر الدعاء إلى السّحر من ليلة الجمعة فوافق ليلة عاشوراء. وعن الشعبي قال: سوف أستغفرُ لكم ربّي، قال: أسأل يوسف إن عفا عنكم أستغفرْ لكم ربّي ﴿ إنّه هو الغفورُ الرحيم ﴾، رُوِيَ أن يوسف كان قد بعث مع البشير إلى يعقوب مائتي راحلة جهازاً كثيراً ليأتوا بيعقوب وأهله وأولاده، فتهيأ يعقوب للخروج إلى مصر فخرجوا وهم اثنان وسبعون من بين رجل وامرأة. وقال مسروق: كانوا ثلاثة وتسعين، فلما دنا من مصر كلّم يوسف الملك الذي فوقه

أبيه مائتي راحلة وجهازاً كثيراً ليأتوه بيعقوب وجميع أهله إلى مصر فلما أتوه تجهز يعقوب للخروج إلى مصر فجمع أهله وهم يومئذ اثنان وسبعون ما بين رجل وامرأة وقال مسروق كانوا ثلاثة وسبعين فلما دنا يعقوب من مصر كلم يوسف الملك الأكبر يعني ملك مصر وعرفه بمجيء أبيه وأهله فخرج يوسف ومعه الملك في أربعة آلاف من الجند وركب أهل مصر معهم يتلقون يعقوب عليه الصلاة والسلام وكان يعقوب يمشي وهو يتوكأ على يد ابنه يهوذا فلما نظر إلى الخيل والناس قال يايهوذا هذا فرعون مصر قال لا بل هذا ابنك يوسف فلما دنا كل واحد من صاحبه أراد يوسف أن يبدأ يعقوب بالسلام فقال له جبريل لا حتى يبدأ يعقوب بالسلام فقال يعقوب السلام عليك يا مذهب الأحزان، وقيل: إنهما نزلا وتعانقا وفعلا كما يفعل الوالد بولده والولد بوالده وبكيا، وقيل: إن يوسف قال لأبيه يا أبت بكيت حتى ذهب بصرك ألم تعلم أن القيامة تجمعنا قال بلى ولكن خشيت أن يسلب دينك فيحال بيني وبينك فذلك قوله تعالى:

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾

﴿فلما دخلوا على يوسف آوى إليه﴾ يعني ضم إليه **﴿أبويه﴾** قال أكثر المفسرين: هو أبوه يعقوب وخالته ليا وكانت أمه قد ماتت في نفاس بنيامين وقال الحسن هما أبوه وأمه وكانت حية بعد، وقيل: إن الله أحياها ونشرها من قبرها حتى تسجد ليوسف تحقيقاً لرؤياه والأول أصح **﴿وقال ادخلوا مصر﴾** قيل المراد بالدخول الأول في قوله فلما دخلوا على يوسف أرض مصر وذلك حين استقبلهم ثم قال ادخلوا مصر يعني البلد وقيل إنه أراد بالدخول الأول دخولهم مصر وأراد بالدخول الثاني الاستيطان بها أي أدخلوا مصر مستوطنين فيهما **﴿إن شاء الله آمنين﴾** قيل إن هذا الاستثناء عائد إلى الأمن لا إلى الدخول والمعنى ادخلوا مصر آمنين إن شاء الله وقيل إنه عائد إلى الدخول فعلى هذا يكون قد قال ذلك لهم قبل أن يدخلوا مصر، وقيل: إن هذا الاستثناء يرجع إلى الاستغفار فعلى هذا يكون في الكلام تقديم وتأخير تقديره سوف أستغفر لكم ربي إن شاء الله وقيل إن الناس كانوا يخافون من ملوك مصر فلا يدخلها أحد إلا بجوارهم فقال لهم يوسف ادخلوا مصر آمنين على أنفسكم وأهليكم إن شاء الله فعلى هذا يكون قوله إن شاء الله للتبرك فهو كقوله ﷺ «وإنا إن شاء الله بكم لاحقون» مع علمه أنه لاحق بهم **﴿ورفع أبويه على العرش﴾** يعني على

فخرج يوسف والملك في أربعة آلاف من الجنود وركب أهل مصر معهما يتلقّون يعقوب، وكان يعقوب يمشي وهو يتوكأ على يهوذا فنظر إلى الخيل والناس فقال: يا يهوذا هذا فرعون مصر، قال: لا هذا ابنك، فلما دنا كل واحد منهما من صاحبه ذهب يوسف يبدأ بالسلام، فقال جبريل: لا حتى يبدأ يعقوب بالسلام، فقال يعقوب: السلام عليك يا مُذهِب الأحزان. ورُوِيَ أنهما نزلا وتعانقا. وقال الثوري: لمّا التقى يعقوب ويوسف عليهما السلام عانق كل واحد منهما صاحبه وبكيا، فقال يوسف: يا أبت بكيتَ حتى ذهب بصرك ألم تعلم أن القيامة تجمعنا؟ قال: بلى يا بني ولكن فارقتك وأنت صغير، فخشيتُ أن يُسلَب دينك فيُحال بيني وبينك.

فذلك قوله: ﴿ فلمّا دخلُوا على يوسفَ آوى إليه ﴾، أي: ضمّ إليه، ﴿ أبويه ﴾، قال أكثر المفسّرين: هو أبوه وخالته ليّا، وكانت أمه راحيل قد ماتت في نفاس بنيامين. وقيل: هو أبوه وأمه وكانت حيّة. وفي بعض التفاسير

السرير الذي كان يجلس عليه يوسف والرفع النقل إلى لعلو ﴿وخروا له سجداً﴾ يعني يعقوب وخالته ليا وإخوته وكانت تحية الناس يومئذ السجود وهو الانحناء والتواضع ولم يرد به حقيقة السجود من وضع الجبهة على الأرض على سبيل العبادة.

فإن قلت كيف استجاز يوسف عليه السلام أن يسجد له أبوه وهو أكبر منه وأعلى منصباً في النبوة والشيخوخة؟ قلت: يحتمل أن الله تعالى أمر بذلك لتحقيق رؤياه، ثم في معنى هذا السجود قولان: أحدهما أنه كان انحناء على سبيل التحية كما تقدم فلا إشكال فيه، والقول الثاني أنه كان حقيقة السجود وهو وضع الجبهة على الأرض وهو مشكل لأن السجود على هذه الصورة لا ينبغي أن يكون إلا لله تعالى، وأجيب عن هذا الإشكال بأن السجود كان في الحقيقة لله تعالى على سبيل الشكر له وإنما كان يوسف كالقبلة كما سجد الملائكة لآدم ويدل على صحة هذا التأويل قوله ورفع أبويه على العرش وخروا له سجداً وظاهر هذا يدل على أنهم لما صعدوا على السرير خروا سجداً لله تعالى ولو كان ليوسف لكان قبل الصعود لأن ذلك أبلغ في التواضع.

فإن قلت يدفع صحة هذا التأويل قوله «رأيتهم لي ساجدين» وقوله «خروا له سجداً» فإن الضمير يرجع إلى أقرب المذكورات وهو يوسف عليه الصلاة والسلام.

قلت: يحتمل أن يكون المعنى وخروا لله سجداً لأجل يوسف واجتماعهم به وقيل يحتمل أن الله أمر يعقوب بتلك السجدة لحكمة خفية وهي أن إخوة يوسف ربما احتملتهم الأنفة والتكبر عن السجود ليوسف فلما رأوا أن أباهم قد سجد له سجدوا له أيضاً فتكون هذه السجدة على سبيل التحية والتواضع لا على سبيل العبادة وكان ذلك جائزاً في ذلك الزمان فلما جاء الإسلام نسخت هذه الفعلة والله أعلم بمراده وأسرار كتابه ﴿وقال﴾ يعني وقال يوسف عند ما رأى ذلك ﴿يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل﴾ يعني هذا تصديق الرؤيا التي رأيت في حال الصغر ﴿قد جعلها ربي حقاً﴾ يعني في اليقظة واختلفوا فيما بين رؤياه وتأويلها فقال سلمان الفارسي وعبد الله بن شداد أربعون سنة، وقال أبو صالح عن ابن عباس: اثنتان وعشرون سنة، وقال سعيد بن جبير وعكرمة والسدي: ست وثلاثون سنة، وقال قتادة: خمس وثلاثون سنة، وقال عبد الله بن سودون: سبعون سنة، وقال الفضيل بن عياض: ثمانون سنة، حكى هذه الأقوال كلها ابن الجوزي وزاد غيره عن الحسن: أن يوسف كان عمره حين ألقي في الجب سبع عشرة سنة وأقام في العبودية والسجن والملك مدة ثمانين سنة وأقام مع أبيه وإخوته وأقاربه مدة ثلاث وعشرين سنة وتوفاه الله وهو ابن مائة وعشرين سنة وقوله ﴿وقد أحسن بي﴾ يعني أنعم عليّ يقال أحسن بي وإليّ بمعنى واحد ﴿إذ أخرجني من السجن﴾

أن الله عزّ وجلّ أحيا أُمه حتى جاءت مع يعقوب إلى مصر. ﴿ وقالَ ادْخُلُوا مصرَ إنْ شاءَ اللهُ آمنين ﴾، فإن قيل: فقد قال فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه فكيف قال ادخلوا مصر بعدما أخبر أنهم دخلوها؟ وما وجه هذا الاستثناء وقد حصل الدخول؟ قيل: إن يوسف إنما قال لهم هذا القول حين تلقّاهم قبل دخولهم مصر. وفي الآية تقديم وتأخير، والاستثناء يرجع إلى الاستغفار وهو من قول يعقوب لبنيه سوف أستغفر لكم ربِّي إن شاء الله. وقيل: الاستثناء يرجع إلى الأمن من الجواز لأنهم كانُوا لَا يدخلون مصر قبله إلَّا بجواز من ملوكهم، يقول: آمنين من الجواز إن شاء الله، كما قال: ﴿ لَتَدْخُلُنَّ المسجدَ الحرامَ إنْ شاءَ الله آمنين ﴾ [الفتح: ٢٧]. وقيل: ﴿ إنْ ﴾ ههنا بمعنى إذ، يريد إذ شاء الله، كقوله تعالى: ﴿ وأنتم الأعلون إن كنتُم مؤمنين ﴾ [آل عمران: ١٣٩]، أي: إذْ كنتم مؤمنين.

﴿ ورَفَعَ أبويهِ على العرشِ ﴾، أي: على السرير، أجلسهما. والرفع: هو النقل إلى العلو. ﴿ وخرُّوا له

إنما ذكر إنعام الله عليه في إخراجه من السجن وإن كان الجب أصعب منه استعمالاً للأدب والكرم لئلا يخجل إخوته بعد أن قال لهم لا تثريب عليكم اليوم ولأن نعمة الله عليه في إخراجه من السجن كانت أعظم من إخراجه من الجب وسبب ذلك أن خروجه من الجب كان سبباً لحصوله في العبودية والرق وخروجه من السجن كان سبباً لوصوله إلى الملك وقيل إن دخوله الجب كان لحسد إخوته ودخوله السجن كان لزوال التهمة عنه وكان ذلك من أعظم نعمه عليه ﴿**وجاء بكم من البدو**﴾ يعني من البادية وأصل البدو هو البسيط من الأرض يبدو الشخص فيه من بعد يعني يظهر والبدو خلاف الحضر والبادية خلاف الحاضرة وكان يعقوب وأولاده أصحاب ماشية فسكنوا البادية ﴿**من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين إخوتي**﴾ يعني أفسد ما بيننا بسبب الحسد وأصل النزغ دخول في أمر لافساده واستدل بهذه الآية من يرى بطلان الجبر من المبتدعة قالوا لأن يوسف أضاف الإحسان إلى الله وأضاف النزغ إلى الشيطان ولو كان من فعل الله لوجب أن ينسب إليه كما في الإحسان والنعم، والجواب عن هذا الاستدلال أن إسناد الفعل إلى الشيطان وإضافته إليه على سبيل المجاز وإن كان ظاهر اللفظ يقتضي إضافة الفعل إلى الشيطان لا على الحقيقة لأن الفاعل المطلق المختار هو الله تعالى في الحقيقة «قل لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا» فثبت بذلك أن الكل من عند الله وبقضائه وقدره ليس للشيطان فيه مدخل إلا بإلقاء الوسوسة والتحريش لإفساد ذات البين وذلك بإقدار الله إياه على ذلك ﴿**إن ربي لطيف لما يشاء**﴾ يعني أنه تعالى ذو لطف عالم بدقائق الأمور وخفياتها.

قال صاحب المفردات: وقد يعبر باللطف عما تدركه الحاسة ويصح أن يكون وصف الله تعالى به على هذا الوجه وأن يكون لمعرفه بدقائق الأمور وأن يكون لرفقه بالعباد في هدايتهم، وقوله: إن ربي لطيف لما يشاء، أي حسن الاستخراج تنبيهاً على ما أوصل إلى يوسف حين ألقاه إخوته في الجب.

وقيل إن اجتماع يوسف بأبيه وإخوته بعد طول الفرقة وحسد إخوته له وإزالة ذلك مع طيب الأنفس وشدة المحبة كان من لطف الله بهم حيث جعل ذلك كله لأن الله تعالى إذا أراد أمراً هيأ أسبابه ﴿**إنه هو العليم**﴾ يعني بمصالح عباده ﴿**الحكيم**﴾ في جميع أفعاله.

قال أصحاب الأخبار والتواريخ: إن يعقوب عليه الصلاة والسلام أقام عند يوسف بمصر أربعاً وعشرين سنة في

سُجّدا ﴾، يعني: يعقوب وخالته وإخوته وكانت تحية الناس يومئذ السجود، ولم يرد بالسجود وضع الجباه على الأرض، وإنما هو الانحناء والتواضع. وقيل: وضعوا الجِباه على الأرض وكان ذلك على طريق التحية والتعظيم، لا على طريق العبادة. وكان ذلك جائزاً في الأمم السالفة فنسخ في هذه الشريعة. ورُوِيَ عن ابن عباس أنه قال: معناه خرّوا لله عزّ وجلّ سُجّداً بين يدي يوسف. والأول أصح. ﴿ **وقالَ** ﴾، يوسف عند ذلك، ﴿ **يا أَبَتِ هذا تأويلُ رُؤيَايَ مِنْ قبلُ قدْ جَعَلَها ربِّي حقّا**﴾، هو قوله: ﴿ إنّي رأيتُ أحدَ عشرَ كوكباً والشمسَ والقمرَ رأيتُهم لي ساجدين ﴾ [يوسف: ٤]. ﴿ **وقَدْ أحسنَ بي** ﴾، ربّي، أي: أنعم عليّ، ﴿ **إذْ أخرجني من السجن** ﴾، ولم يقل من الجب مع كونه أشد بلاءً من السجن استعمالاً للكرم لكيلا يُخجِل إخوته بعدما قال لهم: ﴿ لا تثريب عليكم اليوم ﴾ [يوسف: ٩٢]، ولأنه نعمة الله عليه في إخراجه من السجن أعظم، لأنه بعد الخروج من الجبّ صار إلى العبودية والرقّ، وبعد الخروج من السجن صار إلى المُلْك، ولأن وقوعه في البئر كان لحسد إخوته وفي السجن كان مكافأة من الله تعالى لزلّة كانت منه. ﴿ **وجاءَ بِكُم مِّنَ البَدْوِ** ﴾، والبدو بسيط من الأرض يسكنه أهل المواشي بماشيتهم، وكانوا أهل بادية ومواشي، يقال بدَا يبدُو إذا صار إلى البادية. ﴿ **مِنْ بَعْدِ أنْ نَّزَغَ** ﴾، أفسد، ﴿ **الشيطانُ بيني وبينَ إخوتي** ﴾، بالحسد والبغض، ﴿ **إنّ ربّي لطيفٌ** ﴾، أي: ذُو لُطف، ﴿ **لِمَا يشاءُ** ﴾، وقيل: معناه لمَن يشاء. وحقيقة اللطيف الذي يوصل الإحسان إلى غيره بالرفق ﴿ **إنّه هو العليمُ الحكيمُ** ﴾، قال أهل التاريخ: أقام يعقوب

أهنأ عيش وأنعم بال وأحسن حال فلما حضرته الوفاة أوصى إلى ابنه يوسف أن يحمل جسده حتى يدفنه عند قبر أبيه إسحاق في الأرض المقدسة بالشام فلما مات يعقوب عليه السلام بمصر فعل يوسف ما أمره به أبوه فحمل جسده في تابوت من ساج حتى قدم به الشام فوافق ذلك موت العيص أخي يعقوب وكانا قد ولدا في بطن واحد فدفنا في قبر واحد وكان عمرهما مائة وسبعاً وأربعين سنة فلما دفن يوسف أباه وعمه رجع إلى مصر.

قالوا لما جمع الله شمل يوسف عليه الصلاة والسلام بأبيه وإخوته علم أن نعيم الدنيا زائل سريع الفناء لا يدوم فسأل الله حسن العاقبة والخاتمة الصالحة فقال:

۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾

﴿رب﴾ أي يا رب ﴿قد آتيتني من الملك﴾ يعني من ملك مصر ومن هنا للتبعيض لأنه لم يؤت ملك مصر كله بل كان فوقه ملك آخر والملك عبارة عن الاتساع في المقدور لمن له السياسة والتدبير ﴿وعلمتني من تأويل الأحاديث﴾ يعني تعبير الرؤيا ﴿فاطر السموات والأرض﴾ يعني خالقهما ومبدعهما على غير مثال سبق.

وأصل الفطر الشق يقال فطر ناب البعير إذا شق وظهر وفطر الله الخلق أوجده وأبدعه ﴿أنت وليي﴾ يعني معيني ومتولي أمري ﴿في الدنيا والآخرة توفني مسلماً﴾ أي اقبضني إليك مسلماً.

واختلفوا هل هو طلب للوفاة في الحال أم لا على قولين:

أحدهما: أنه سأل الله الوفاة في الحال، قال قتادة: لم يسأل نبي من الأنبياء الموت إلا يوسف قال أصحاب هذا القول وإنه لم يأت عليه أسبوع حتى توفي.

والقول الثاني: أنه سأل الوفاة على الإسلام ولم يتمن الموت في الحال قال الحسن إنه عاش بعد هذه سنين كثيرة فعلى هذا القول يكون معنى الآية توفني إذا توفيتني على الإسلام فهو طلب لأن يجعل الله وفاته على الإسلام

بمصر عند يوسف أربعاً وعشرين سنة في أغبط حال وأهنأ عيش، ثم مات بمصر فلما حضرته الوفاة أوصى إلى ابنه يوسف أن يحمل جسده حتى يدفنه عند أبيه إسحق، ففعل يوسف ذلك، ومضى به حتى دفنه بالشام، ثم انصرف إلى مصر. وقال سعيد بن جبير: نُقل يعقوبُ عليه السلام في تابوت من ساج إلى بيت المقدس، فوافق ذلك موت العيص فَدُفِنَا في قبر واحد، وكانا وُلِدَا في بطن واحد، وكان عمرهما مائة وسبعاً وأربعين سنة، فلما جمع الله تعالى ليوسف شمله على أنّ نعيم الدنيا لا يدوم سأل الله تعالى حُسنَ العاقبة، فقال:

فقال: ﴿رَبِّ قَدْ آتيتني مِنَ المُلْكِ﴾، يعني: ملك مصر، والمُلْك: اتّساع المقدور لمَن له السياسة والتدبير. ﴿وعلّمتني من تأويلِ الأحاديثِ﴾، يعني: تعبير الرؤيا. ﴿فَاطِرَ﴾، أي: يا فاطر، ﴿السمٰواتِ والأرضِ﴾، أي: خالقهما ﴿أنتَ وليّـي﴾، أي: مُعيني ومتولّي أمري، ﴿في الدنيا والآخرة توفّني مسلماً﴾، يقول: اقبضني إليك مسلماً، ﴿وألحقني بالصالحين﴾، يريد بآبائي النبيّين. قال قتادة: لم يسأل نبيٌّ من الأنبياء الموت إلّا يوسف. وفي القصة: لمّا جمع الله شمله وأوصل إليه أبويه وأهله اشتاق إلى ربِّه عزّ وجلّ فقال هذه المقالة. قال الحسن: عاش بعد هذا سنين كثيرة. وقال غيره: لمّا قال هذا القول لم يمضِ عليه أسبوع حتى توفي. واختلفوا في مدة غيبة يوسف عن أبيه، فقال الكلبي: اثنتان وعشرون سنة. وقيل: أربعون سنة. وقال الحسن: ألقي يوسف في

وليس في اللفظ ما يدل على أنه طلب الوفاة في الحال، قال بعض العلماء وكلا القولين محتمل لأن اللفظ صالح للأمرين ولا يبعد من الرجل العاقل الكامل أن يتمنى الموت لعلمه أن الدنيا ولذاتها فانية زائلة سريعة الذهاب وأن نعيم الآخرة باق دائم لا نفاذ له ولا زوال ولا يمنع من هذا قوله ﷺ «لا يتمن أحدكم الموت لضر نزل به» فإن تمني الموت عند وجود الضر ونزول البلاء مكروه والصبر عليه أولى وقوله: ﴿وألحقني بالصالحين﴾ أراد به بدرجة آبائه وهم إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم الصلاة والسلام قال علماء التاريخ عاش يوسف مائة وعشرين سنة وفي التوراة مائة وعشر سنين وولد ليوسف من امرأة العزيز ثلاثة أولاد أفرائيم وميشا ورحمة امرأة أيوب وقيل عاش بعد أبيه ستين سنة وقيل أكثر.

ولما مات يوسف عليه الصلاة والسلام دفنوه في النيل في صندوق من رخام وقيل من حجارة المرمر وذلك أنه لما مات يوسف تشاحن الناس فيه فطلب كل أهل محلة أن يدفن في محلتهم رجاء بركته حتى هموا أن يقتتلوا ثم رأوا أن يدفنوه في النيل بحيث يجري الماء عليه ويتفرق عنه وتصل بركته إلى جميعهم وقال عكرمة إنه دفن في الجانب الأيمن من النيل فأخصب ذلك الجانب وأجدب الجانب الآخر فنقل إلى الجانب الأيسر فأخصب وأجدب الجانب الأيمن فدفنوه في وسط النيل وقدروه بسلسلة فأخصب الجانبان فبقي إلى أن أخرجه موسى عليه الصلاة والسلام وحمله معه حتى دفنه بقرب آبائه بالشام في الأرض المقدسة.

﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿ذلك﴾ يعني الذي ذكرت لك يا محمد من قصة يوسف وما جرى له مع إخوته، ثم إنه صار إلى الملك بعد الرق ﴿من أنباء الغيب﴾ يعني أخبار الغيب ﴿نوحيه إليك﴾ يعني الذي أخبرناك به من أخبار يوسف وحي أوحيناه إليك يا محمد وفي هذه الآية دليل قاطع على صحة نبوة محمد ﷺ لأنه كان رجلاً أمياً لم يقرأ الكتب ولم يلق العلماء ولم يسافر إلى بلد آخر غير بلده الذي أنشأ فيه ﷺ وأنه نشأ بين أمة أمية مثله، ثم إنه ﷺ أتى بهذه القصة

الجب وهو ابن سبع عشرة سنة، وغاب عن أبيه ثمانين سنة، وعاش بعد لقاء يعقوب ثلاثاً وعشرين سنة، ومات وهو ابن مائة وعشرين سنة. وفي التوراة مات وهو ابن مائة وعشر سنين وولد ليوسف من امرأة العزيز ثلاثة أولاد أفرائيم وميشا ورحمة امرأة أيوب المبتلى عليه السلام. وقيل: عاش يوسف بعد أبيه ستّين سنة. وقيل: أكثر. واختلفتِ الأقاويل فيه. وتوفي وهو ابن مائة وعشرين سنة، فدفنوه في النيل في صندوق من رخام، وذلك أنه لمّا مات تشاحّ الناس فيه فطلب أهل كل محلّة أن يدفن في محلتهم رجاء بركته، حتى همُّوا بالقتال، فرأوا أن يدفنوه في النيل حيث يتفرّق الماء بمصر ليجري الماء عليه وتصل بركته إلي جميعهم. وقال عكرمة: دفن في الجانب الأيمن من النيل، فأخصب ذلك الجانب وأجدب الجانب الآخر، فنقل إلى الجانب الأيسر فأخصب ذلك الجانب وأجدب الجانب الآخر، فدفنوه في وسطه. وقدّروا ذلك بسلسلة فأخصب الجانبان جميعاً إلى أن أخرجه موسى فدفنه بقرب آبائه بالشام.

﴿ ذلكَ ﴾، الذي ذكرتُ، ﴿ من أنباءِ الغيبِ نُوحيه إليكَ وما كُنْتَ لديهِمْ ﴾، أي: ما كنت يا محمد عند أولاد يعقوب، ﴿ إذْ أجمعُوا أمرَهم ﴾، أي: عَزَمُوا على إلقاء يوسف في الجب، ﴿ وهم يمكرُون ﴾، بيوسف.

الطويلة على أحسن ترتيب وأبين معان وأفصح عبارة فعلم بذلك أن الذي أتى به هو وحي إلهي ونور قدسي سماوي فهو معجزة له قائمة إلى آخر الدهر.

وقوله تعالى: ﴿وما كنت لديهم﴾ يعني وما كنت يا محمد عند أولاد يعقوب ﴿إذ أجمعوا أمرهم﴾ يعني حين عزموا على إلقاء يوسف ﷺ في الجب ﴿وهم يمكرون﴾ يعني بيوسف ﴿وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين﴾ الخطاب للنبي ﷺ والمعنى وما أكثر الناس يا محمد لو حرصت على إيمانهم بمؤمنين وذلك أن اليهود وقريشاً سألوا رسول الله ﷺ عن قصة يوسف فلما أخبرهم بها على وفق ما عندهم في التوراة لم يسلموا فحزن رسول الله ﷺ لذلك فقيل له إنهم لا يؤمنون ولو حرصت على إيمانهم ففيه تسلية له ﴿وما تسألهم عليه من أجر﴾ يعني على تبليغ الرسالة والدعاء إلى الله من أجر يعني أجراً وجعلا على ذلك ﴿إن هو﴾ أي ما هو يعني القرآن ﴿إلا ذكر﴾ يعني عظة وتذكيراً ﴿للعالمين وكأين من آية﴾ يعني وكم من آية دالة على التوحيد ﴿في السموات والأرض يمرون عليها﴾ يعني لا يتفكرون فيها ولا يعتبرون بها ﴿وهم عنها معرضون﴾ أي لا يلتفتون إليها والمعنى ليس إعراضهم عن هذه الآيات الظاهرة الدالة على وحدانية الله تعالى بأعجب من إعراضهم عنك يا محمد ﴿وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون﴾ يعني أن من إيمانهم أنهم إذا سئلوا من خلق السموات والأرض قالوا الله وإذا قيل لهم من ينزل المطر قالوا الله وهم مع ذلك يعبدون الأصنام.

وفي رواية عن ابن عباس: إنهم يقرون أن الله خالقهم فذلك إيمانهم وهم يعبدون غيره فذلك شركهم، وفي رواية أخرى عنه أيضاً أنها نزلت في تلبية مشركي العرب وذلك أنهم كانوا يقولون في تلبيتهم لبيك لبيك لا شريك لك إلا شريك هو لك تملكه وما ملك، وقال عطاء هذا في الدعاء وذلك أن الكفار نسوا ربهم في الرخاء فإذا أصابهم البلاء أخلصوا في الدعاء.

﴿ وما أكثرُ الناسِ ﴾، يا محمد، ﴿ ولو حَرَصْتَ بمؤمنين ﴾، على إيمانهم. ورُوِيَ أن اليهود وقريشاً سألوا رسول الله ﷺ عن قصة يوسف، فلما أخبرهم على موافقة التوراة لم يسلموا، فحزن النبي ﷺ ولذلك، فقيل لهم: إنهم لا يؤمنون وإن حَرَصْتَ على إيمانهم.

﴿ وما تسألُهم عليهِ ﴾، أي: على تبليغ الرسالة والدعاء إلى الله تعالى، ﴿ مِنْ أجْرٍ ﴾، جُعْلٍ وجزاءٍ، ﴿ إنْ هُوَ ﴾، ما هو يعني القرآن، ﴿ إلاّ ذِكرٌ ﴾، عِظة وتذكير، ﴿ للعالمين ﴾.

﴿ وكأيِّنَ ﴾، وكم، ﴿ مِّنْ آيةٍ ﴾، عِبْرةٍ ودَلَالةٍ، ﴿ في السمٰواتِ والأرضِ يَمرُّونَ عليها وهمْ عنهَا مُعْرِضُونَ ﴾، لا يتفكّرون فيها ولا يعتبرون بها.

﴿ وما يُؤمنُ أكثرَهم باللّهِ إلاّ وهُمْ مُّشرِكُون ﴾، فكان من إيمانهم إذا سُئِلُوا: مَن خلق السمٰواتِ والأرض؟ قالوا: الله، وإذا قيل لهم: مَن ينزّل القطرَ؟ قالوا: الله، ثم مع ذلك يعبدون الأصنام ويشركون. وعن ابن عباس أنه قال: إنها نزلت في تلبية المشركين من العرب كانوا يقولون في تلبيتهم: لبّيك اللّهمّ لبّيك لبّيك لا شريك لك إلاّ شريك هو لك تملكه وما ملك. وقال عطاء: هذا في الدعاء وذلك أن الكفّار نسوا ربَّهم في الرخاء، فإذا أصابهم البلاء أخلصوا في الدعاء، كما قال الله تعالى: ﴿ وظنّوا أنهم أُحيطَ بهم دَعَوُا اللّهَ مُخلصينَ له الدِّين ﴾ [يونس: ٢٢] الآية: ﴿ فإذا رَكِبُوا في الفُلْكِ دَعَوُا اللّهَ مخلصين له الدِّينَ فلما نجّاهم إلى البرّ إذا هُمْ يُشْرِكُون ﴾ [العنكبوت: ٦٥]، وغير ذلك من الآيات.

أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ۗ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾

﴿أفأمنوا أن تأتيهم غاشية من عذاب الله﴾ يعني عقوبة مجللة تعمهم وقال مجاهد عذاب يغشاهم، وقال قتادة: وقيعة وقال الضحاك يعني الصواعق والقوارع ﴿أو تأتيهم الساعة بغتة﴾ يعني فجأة ﴿وهم لا يشعرون﴾ يعني بقيامها قال ابن عباس: تهيج الصيحة بالناس وهم في أسواقهم ﴿قل﴾ أي: قل يا محمد لهؤلاء المشركين ﴿هذه سبيلي﴾ يعني طريقي التي ﴿أدعو﴾ إليها وهي توحيد الله عز وجل ودين الإسلام وسمي الدين سبيلاً لأنه الطريق المؤدي إلى الله عز وجل وإلى الثواب والجنة ﴿إلى الله﴾ يعني إلى توحيد الله والإيمان به ﴿على بصيرة﴾ يعني على يقين ومعرفة والبصيرة هي المعرفة التي يميز بها بين الحق والباطل ﴿أنا ومن اتبعني﴾ يعني من آمن بي وصدق بما جئت به أيضاً يدعو إلى الله، وهذا قول الكلبي وابن زيد قال: حق على من اتبعه وآمن به أن يدعو إلى ما دعا إليه ويذكر بالقرآن وقيل تم الكلام عند قوله أدعو إلى الله ثم استأنف على بصيرة أنا ومن اتبعني بعدي أنا على بصيرة ومن اتبعني أيضاً على بصيرة قال ابن عباس إن محمداً ﷺ وأصحابه كانوا على أحسن طريقة وأفضل هداية وهم معدن العلم وكنز الإيمان وجند الرحمن.

وقال ابن مسعود: ومن كان مستناً فليستن بمن قد مات أولئك أصحاب محمد ﷺ كانوا خير هذه الأمة وأبرها قلوباً وأعمقها علماً وأقلها تكلفاً قوم اختارهم الله لصحبة نبيه محمد ﷺ ونقل دينه فتشبهوا بأخلاقهم وطريقهم فهؤلاء كانوا على الصراط المستقيم.

وقوله ﴿سبحان الله﴾ أي وقل سبحان الله يعني تنزيهاً له عما لا يليق بجلاله من جميع العيوب والنقائص والشركاء الأضداد والأنداد ﴿وما أنا من المشركين﴾ يعني وقل يا محمد وما أنا من المشركين الذين أشركوا بالله غيره.

﴿ أَفَأَمِنُوا أَنْ تأتِيهم غَاشِيَةٌ مِّن عذابِ اللَّهِ ﴾، أي: عقوبة مجلّلة. قال مجاهد: عذاب يغشاهم، نظيره قوله تعالى: ﴿ يومَ يغشاهُمُ العذابُ مِنْ فَوقِهم ﴾ [العنكبوت: ٥٥] الآية. قال قتادة: وقيعة. وقال الضحاك: يعني الصواعق والقوارع. ﴿ أو تأتِيهمُ الساعة بَغْتَةً ﴾، فجأة، ﴿ وهُمْ لا يَشْعُرون ﴾، بقيامها. قال ابن عباس: تهيج بالناس وهم في أسواقهم.

﴿ قُلْ ﴾، يا محمد، ﴿ هذهِ ﴾، الدعوة التي أدعُو إليها والطريقة التي أنا عليها، ﴿ سَبيلي ﴾، سُنّتي ومنهاجي. وقال مقاتل: ديني، نظيره قوله: ﴿ ادْعُ إلى سبيل ربِّك ﴾ [النحل: ١٢٥] أي: إلى دينه. ﴿ أدعُوا إلى اللّهِ على بصيرةٍ ﴾، على يقين. والبصيرة: هي المعرفة التي يميِّز بها بين الحق والباطل، ﴿ أنا ومَن اتّبعني ﴾، أي: ومَن آمن بي وصدّقني أيضاً يدعو إلى الله. هذا قول الكلبي وابن زيد. قال: حق على مَن اتّبعه أن يدعو إلى ما دعا إليه، ويذكّرون بالقرآن. وقيل: تمّ الكلام عند قوله: ﴿ ادعُوا إلى اللّهِ ﴾ ثم استأنف: ﴿ على بصيرةٍ أنا ومَن اتبعني ﴾، يقول: إني على بصيرة من ربّي وكلّ مَن اتّبعني. قال ابن عباس: يعني أصحاب محمد ﷺ كانوا على أحسن طريقة وأقصد هداية، معدن العلم وكنز الإيمان وجند الرحمن. قال عبد الله بن مسعود: مَن كان مُسْتَنّاً فليستنّ بمَن قد ماتَ، فإن الحيَّ لا تؤمن عليه الفتنة أولئك أصحاب محمد ﷺ كانوا أفضل هذه الأمة، أبرّها قلوباً وأعقمها علماً وأقلّها تكلّفاً، اختارهم الله لصحبة نبيّه ولإقامة دينه، فاعرفُوا لهم فضلهم، واتّبعوهم على آثرهم

قوله عز وجل: ﴿وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً﴾ يعني وما أرسلنا قبلك يا محمد إلا رجالاً مثلك ولم يكونوا ملائكة ﴿نوحي إليهم﴾ هذا جواب لأهل مكة حيث قالوا هلا بعث الله ملكاً والمعنى كيف تعجبوا من إرسالنا إياك يا محمد وسائر الرسل الذين كانوا من قبلك بشر مثلك حالهم كحالك ﴿ومن أهل القرى﴾ يعني من أهل الأمصار والمدن لا من أهل البوادي لأن أهل الأمصار أفضل وأعلم وأكمل عقلاً من أهل البوادي، قال الحسن: لم يبعث نبي من بدو ولا من الجن ولا من النساء، وقيل: إنما لم يبعث الله نبياً من البادية لغلظهم وجفائهم ﴿أفلم يسيروا في الأرض﴾ يعني هؤلاء المشركين المكذبين ﴿فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم﴾ يعني كانت عاقبتهم الهلاك لما كذبوا رسلنا فليعتبر هؤلاء بهم وما حل بهم من عذابنا ﴿ولدار الآخرة خير للذين اتقوا﴾ يعني فعلنا هذا بأوليائنا وأهل طاعتنا إذ أنجيناهم عند نزول العذاب بالأمم المكذبة وما في الدار الآخرة خير لهم يعني الجنة لأنها خير من الدنيا وإنما أضاف الدار إلى الآخرة وإن كانت في الآخرة لأن العرب تضيف الشيء إلى نفسه كقولهم حق اليقين والحق هو اليقين نفسه ﴿أفلا تعقلون﴾ يعني يتفكرون ويعتبرون بهم فيؤمنون.

حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُۖ وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُنَا عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿١١٠﴾ لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ مَا كَانَ حَدِيثٗا يُفۡتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَتَفۡصِيلَ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿١١١﴾

قوله عز وجل: ﴿حتى إذا استيأس الرسل﴾ قال صاحب الكشاف: حتى متعلقة بمحذوف دلَّ عليه الكلام كأنه قيل وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم فتراخى نصرهم حتى إذا استيأس الرسل عن النصر، وقال الواحدي: حتى هنا حرف من حروف الابتداء يستأنف بعدها والمعنى حتى إذا استيأس الرسل من إيمان قومهم ﴿وظنوا أنهم قد كذبوا﴾ قرأ أهل الكوفة وهم عاصم وحمزة والكسائي كذبوا بالتخفيف ووجه هذه القراءة على ما قاله الواحدي أن معناه ظن الأمم أن الرسل قد كذبوهم فيما أخبروهم به من نصر الله إياهم وإهلاك أعدائهم وهذا معنى قول ابن عباس وابن مسعود وسعيد بن جبير ومجاهد، وقال أهل المعاني كذبوا من قولهم كذبتك الحديث أي لم أصدقك ومنه قوله تعالى وقعد الذين كذبوا الله ورسوله قال أبو علي والضمير في قوله وظنوا على هذه القراءة للمرسل إليهم والتقدير وظن المرسل إليهم أن الرسل قد كذبوهم فيما أخبروهم به من نصر الله إياهم وإهلاك أعدائهم وهذا معنى قول ابن

وتمسكوا بما استطعتم من أخلاقهم وسِيَرهم، فإنهم كانوا على الهدى المستقيم. قوله تعالى: ﴿ وَسُبْحانَ اللَّهِ ﴾، أي: وقلْ سبحانَ اللَّهِ تنزيهاً له عمّا أشركوا به. ﴿ وَمَا أَنَا مِنَ المشركين ﴾.

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ ﴾، يا محمد، ﴿ إلاّ رجالاً ﴾، ملائكة، ﴿ نُوحي إليهم ﴾، قرأ أبو جعفر وحفص: «نُوحِـي» بالنون وكسر الحاء، وقرأ الآخرون بالياء وفتح الحاء. ﴿ مِنْ أهلِ القُرَى ﴾، يعني: من أهل الأمصار دون أهل البوادي لأن أهل الأمصار أعقل من أهل البوادي لغلظهم وجفائهم. ﴿ أفلَمْ يسيرُوا في الأرضِ ﴾، يعني: هؤلاء المشركين المكذّبين، ﴿ فينظرُوا كيفَ كانَ عاقبةُ ﴾، آخر أمر، ﴿ الذينَ مِنْ قبلِهِم ﴾، يعني: الأمم المكذّبة فيعتبروا، ﴿ وَلَدَارُ الآخرةِ خيرٌ للذينَ اتَّقَوا ﴾، يقول: ﴿ خيرٌ للذينَ اتَّقَوا ﴾، يقول جلّ ذكرُه هذا فعلنا بأهلِ طاعتِنا أن ننجيهم عند نزول العذابِ، وما في الدار الآخرة خير لهم، فترك ما ذكرنا اكتفاء بدلالة الكلام عليه.
قوله: ﴿ وَلَدَارُ الآخرةِ ﴾، قيل: معناه ولدار الحال الآخرة خيرٌ. وقيل: هو إضافة الشيء إلى نفسه، كقوله: ﴿ إنَّ هذا لَهُوَ حَقُّ اليقين ﴾ [الواقعة: ٩٥]، وكقولهم: يوم الخميس وربيع الآخر. ﴿ أفلا تعقِلُون ﴾، فتؤمنُون.

﴿حتّى إذا استَيْأَسَ الرُّسُلُ وظَنُّوا أنّهم قد كُذِّبُوا جاءهُم نصرُنا﴾، اختلف القُرّاء في قولـه: ﴿كُذِّبُـوا﴾ فقرأ أهـل

عباس إنهم لم يؤمنوا حتى نزل بهم العذاب وإنما ظنوا ذلك لما شاهدوا من امهال الله إياهم ولا يمتنع حمل الضمير في ظنوا على المرسل إليهم وإن لم يتقدم لهم ذكر لأن ذكر الرسل يدل على ذكر المرسل إليهم وإن شئت قلت إن ذكرهم جرى في قوله أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم أي مكذبي الرسل والظن هنا على معنى التوهم والحسبان وهذا معنى ما روي عن ابن عباس أنه قال: حتى إذا استيأس الرسل من قومهم الإجابة وظن قومهم أن الرسل قد كذبوا فيما وعدوا من نصرهم وإهلاك من كذبهم وقيل معناه وتيقن الرسل أنهم قد كذبوا في وعد قومهم إياهم الإيمان أي وعدوا أن يؤمنوا ثم لم يؤمنوا وقال صاحب الكشاف وظنوا أنهم قد كذبوا أي كذبتهم أنفسهم حتى حدثتهم بأنهم لا ينصرون أو رجاؤهم كقولهم رجاء صادق ورجاء كاذب والمعنى أن مدة التكذيب والعداوة وانتظار النصر من الله تعالى وتأميله قد تطاولت عليهم وتمادت حتى استشعروا القنوط وتوهموا أن لا نصر لهم في الدنيا فجاءهم نصرنا فجأة من غير احتساب، وعن ابن عباس: وظنوا حين ضعفوا وغلبوا أنهم قد أخلفوا ما وعدهم الله به من النصر قال وكانوا بشراً وتلا قوله وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله. قال صاحب الكشاف: فإن صح هذا عن ابن عباس فقد أراد بالظن ما يخطر بالبال ويهجس في القلب من شبه الوسوسة وحديث النفس على ما عليه الطبيعة البشرية وأما الظن الذي هو ترجيح أحد الجانبين على الآخر فغير جائز على رجل من المسلمين فما بال رسل الله الذين هم أعرف الناس بربهم وأنه متعال عن خلف الميعاد وحكى الواحدي عن ابن الأنباري أنه قال هذا غير معول عليه من جهتين إحداهما أن التفسير ليس عن ابن عباس لكنه من متأول تأول عليه والأخرى أن قوله جاءهم نصرنا دال على أن أهل الكفر ظنوا ما لا يجوز مثله واستضعفوا رسل الله ونصر الله للرسل ولو كان الظن للرسل كان ذلك منهم خطأ عظيماً ولا يستحقون ظفراً ولا نصراً وتبرئة الأنبياء وتطهيرهم واجب علينا إذا وجدنا إلى ذلك سبيلاً وقرأ الباقون وهم نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وظنوا أنهم قد كذبوا بالتشديد ووجه ظاهر وهو أن معناه حتى إذا استيأس الرسل من إيمان قومهم وظنوا يعني وأيقنوا يعني الرسل أن الأمم قد كذبوهم تكذيباً لا يرجى بعده إيمانهم فالظن بمعنى اليقين وهذا معنى قول قتادة وقال بعضهم معناه حتى إذا استيأس الرسل ممن كذبهم من قومهم أن يصدقوهم وظنوا أن من قد آمن بهم من قومهم قد فارقوهم وارتدوا عن دينهم لشدة المحنة والبلاء واستبطؤوا النصر أتاهم النصر وعلى هذا القول الظن بمعنى الحسبان والتكذيب مظنون من جهة من آمن بهم يعني وظنوا بالرسل ظن حسبان أن ربهم قد كذبهم في وعد الظفر والنصر لإبطائه وتأخره عنهم ولطول البلاء بهم لا أنهم كذبوهم في كونهم رسلاً وقيل إن هذا التكذيب لم يحصل من أتباعهم المؤمنين لأنه لو حصل لكان نوع كفر ولكن الرسل ظنت بهم ذلك لبطء النصر وعلى هذا القول الظن بمعنى اليقين والتكذيب المتيقن هو من جهة الكفار وعلى القولين جميعاً فالكناية في وظنوا للرسل (خ) عن عروة بن الزبير: أنه سأل عائشة عن قوله تعالى حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا

الكوفة وأبو جعفر: «كـذبوا» بالتخفيف، وكانت عائشة تنكر هذه القراءة. وقرأ الأخرون بالتشديد، فمَن شدّده قال: معناه حتى إذا استيأس، الرسلُ من إيمان قومهم وظنّوا أيْ أيقنوا يعني الرسل أنّ الأمم قد كذّبوهم تكذيباً لا يُرجى بعد إيمانهم، والظنّ بمعنى اليقين: وهذا معنى قول قتادة. وقال بعضهم: معناه حتى إذا استيأسَ الرسلُ ممّن كذّبهم من قومهم أن يُصدِّقوهم، وظنّوا أنَ مَن آمن بهم من قومهم قد كذبوهم وارتدّوا عن دينهم لشدّة المحنة والبلاء عليهم استبطاءَ النصرَ. ومَنْ قرأ بالتخفيف قال: معناه حتى إذا استيأسَ الرسلُ من إيمان قومهم وظنّوا أي: ظنّ قومُهم أن الرسل قد كذبتهم في وعيد العقاب. ورُوِيَ عن ابن عباس: أن معناه ضعف قلوبهم، يعني: وظنّت الرسل أنهم قد كذبوا فيما وعدوا من النصر، وكانوا بشراً فضعفوا ويئسوا وظنوا أنهم قد أُخلِفُوا، ثم تلا: ﴿ حتى يقولَ الرسولُ والذينَ آمنُوا معه متَى نصرُ اللَّهِ ﴾ [البقرة: ٢١٤] جاءَهم أي: الرسل نصرُنا. ﴿ فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ ﴾، قرأ العامّة بنونين، أي: نحن ننجي مَن نشاء. وقرأ ابن عامر وحمزة وعاصم ويعقوب بنون واحدة مضمومة وتشديد

أو كذبوا، قالت: بل كذبهم قومهم فقلت والله لقد استيقنوا أن قومهم كذبوهم وما هو بالظن فقالت يا عروة أجل لقد استيقنوا بذلك فقلت لعلها قد كذبوا فقالت: معاذ الله لم تكن الرسل تظن ذلك من ربهم قلت فما هذه الآية قالت هم أتباع الرسل الذين آمنوا بربهم وصدقوهم فطال عليهم البلاء واستأخر عنهم النصر حتى إذا استيأس الرسل ممن كذبهم من قومهم وظنوا أن أتباعهم كذبوهم جاءهم نصر الله عند ذلك. وفي رواية عبد الله بن عبيد الله بن أبي مليكة قال: قال ابن عباس حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا خفيفة قال ذهب لها هنالك وتلا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب قال فلقيت عروة بن الزبير وذكرت ذلك له فقال قالت عائشة معاذ الله والله ما وعد الله ورسوله من شيء قط إلا علم أنه كائن قبل أن يموت ولكن لم يزل البلاء بالرسل حتى خافوا أن يكون معهم من قومهم من يكذبوهم فكانت تقرؤها وظنوا أنهم قد كذبوا مثقلة.

وقوله تعالى: ﴿**جاءهم نصرنا**﴾ يعني جاء نصر الله النبيين ﴿**فنجي من نشاء**﴾ من عبادنا يعني عند نزول العذاب بالكافرين فننجي المؤمنين المطيعين ﴿**ولا يرد بأسنا**﴾ يعني عذابنا ﴿**عن القوم المجرمين**﴾ يعني المشركين قوله تعالى: ﴿**لقدكان في قصصهم**﴾ يعني في خبر يوسف وإخوته ﴿**عبرة**﴾ أي موعظة ﴿**لأولي الألباب**﴾ يعني يتعظ بها أولو الألباب والعقول الصحيحة ومعناه الاعتبار والعبرة الحالة التي يتوصل بها الإنسان من معرفة المشاهد إلى ما ليس بمشاهد والمراد من التأمل والتفكر ووجه الاعتبار بهذه القصة أن الذي قدر على إخراج يوسف من الجب بعد إلقائه فيه وإخراجه من السجن وتمليكه مصر بعد العبودية وجمع شمله بأبيه وإخوته بعد المدة الطويلة واليأس من الاجتماع لقادر على إعزاز محمد ﷺ وإعلاء كلمته وإظهار دينه وأن الإخبار بهذه القصة العجيبة جار مجرى الإخبار عن الغيوب فكانت معجزة لمحمد ﷺ، وقيل: إن الله تعالى قال في أول هذه السورة نحن نقص عليك أحسن القصص وقال في آخرها لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب فدل على هذه القصة من أحسن القصص وإن فيها عبرة لمن اعتبرها ﴿**ما كان حديثاً يفترى**﴾ يعني ما كان هذا القرآن حديثاً يفتري ويختلق لأن الذي جاء به من عند الله وهو محمد ﷺ لا يصح منه أن يفتريه أو يختلقه لأنه لم يقرأ الكتب ولم يخلط العلماء ثم إنه جاء بهذا القرآن المعجز فدل ذلك على صدقه وأنه ليس بمفتر ﴿**ولكن تصديق الذي بين يديه**﴾ يعني ولكن كان تصديق الذي بين يديه من الكتب الإلهية المنزلة من السماء من التوراة والإنجيل وفيه إشارة إلى أن هذه القصة وردت على وجه الموافق لما في التوراة من ذكر قصة يوسف ﴿**وتفصيل كل شيء**﴾ يعني أن هذا القرآن المنزل عليك يا محمد تفصيل كل شيء تحتاج إليه من الحلال والحرام والحدود والأحكام والقصص والمواعظ والأمثال وغير ذلك مما يحتاج إليه العباد في أمر دينهم ودنياهم ﴿**وهدى**﴾ يعني إلى كل خير ﴿**ورحمة**﴾ يعني أنزلناه رحمة ﴿**لقوم يؤمنون**﴾ لأنهم هم الذين ينتفعون به والله أعلم بمراده وأسرار كتابه.

تم الجزء الثالث من تفسير الخازن ويليه الجزء الرابع وأوله: تفسير سورة الرعد

الجيم وفتح الياء على ما لم يسمَّ فاعله، لأنها مكتوبة في المصحف بنون واحدة مضمومة، فيكون محل «مَـنْ» رفعاً على هذه القراءة، وعلى القراءة الأُولى يكون نصباً، فَنُجِّيَ مَنْ نشاءُ عند نزول العذاب، وهم المؤمنون المطيعون. ﴿ **ولاَ يُردُّ بأسُنَا** ﴾، عذابُنا، ﴿ **عَنِ القومِ المجرمين** ﴾، أي: المشركين.

﴿ **لَقدْ كانَ في قَصَصِهِمْ** ﴾، أي: في خبر يوسف وإخوته، ﴿ **عِبْرَةٌ** ﴾ عِظة، ﴿ **لأُولي الألبابِ مَا كانَ** ﴾، يعني: القرآن، ﴿ **حديثاً يُفترَى** ﴾، أي: يُختلق، ﴿ **ولكنْ تصديقَ الذي** ﴾، أي: ولكنْ كان تصديقَ الذي، ﴿ **بينَ يديهِ** ﴾، من التوراة والإنجيل، ﴿ **وتفصيلَ كلِّ شيءٍ** ﴾، مما يحتاج العباد إليه من الحلال والحرام والأمر والنهي، ﴿ **وهُدًى ورحمةً** ﴾، بياناً ونعمةً، ﴿ **لقومٍ يُؤمنُون** ﴾.

تمّ الجزء الثاني ويليه الجزء الثالث وأوله سورة الرعد

﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾
(قرآن كريم)

تفسير سورة الرعد

قال ابن الجوزي: اختلفوا في نزولها على قولين: أحدهما أنها مكية، رواه أبو طلحة عن ابن عباس، وبه قال الحسن وسعيد بن جبير وعطاء وقتادة. وروى أبو صالح عن ابن عباس أنها مكية إلا آيتين إحداهما قوله ﴿**ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة**﴾ والأخرى قوله ﴿**ويقول الذين كفروا لست مرسلاً**﴾. والقول الثاني أنها مدنية رواه عطاء الخراساني عن ابن عباس، وبه قال جابر بن زيد وروي عن ابن عباس أنها مدنية إلا آيتين نزلتا بمكة، وهما قوله ﴿**ولو أن قرآناً سيرت به الجبال**﴾ إلى آخر الآيتين وقال بعضهم: المدني منها قوله ﴿**هو الذي يريكم البرق**﴾ إلى قوله ﴿**دعوة الحق**﴾ وهي ثلاث وقيل خمس وأربعون آية وثمانمائة وخمس وخمسون كلمة وثلاثة آلاف وخمسمائة وستة أحرف.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَاۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّىۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾

قوله عز وجل ﴿**الٓمٓر**﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: معناه أنا الله أعلم وأرى. وروى عطاء عنه أنه قال: إن معناه أنا الله الملك الرحمن ﴿**تلك آيات الكتاب**﴾ الإشارة بتلك إلى آيات السورة المسماة بالمرّ، والمراد بالكتاب السورة أي آيات السورة الكاملة العجيبة في بابها ثم قال تعالى: ﴿**والذي أنزل إليك من ربك الحق**﴾ يعني من القرآن كله هو الحق الذي لا مزيد عليه، وقيل المراد بالإشارة في قوله: تلك الأخبار والقصص أي الأخبار والقصص التي قصصتها عليك يا محمد هي آيات التوراة والإنجيل والكتب الإلهية القديمة المنزلة، والذي أنزل إليك يعني وهذا القرآن الذي أنزل إليك يا محمد من ربك الحق أي هو الحق فاعتصم به وقال ابن عباس وقتادة: أراد بآيات الكتاب القرآن، والمعنى: هذه آيات الكتاب الذي هو القرآن ثم قال: والذي أنزل إليك من ربك الحق، يعني: وهذا القرآن

سُورَةِ الرَّعْدِ

مكية إلا قوله: ﴿ ولا يزال الذين كفروا ﴾ [٣١]، وقوله: ﴿ ويقول الذين كفروا لَسْتَ مرسلاً ﴾ [٤٣]، وهي ثلاث وأربعون آية.

﴿ **الٓمٓر** ﴾ قال ابن عباس: معناه أنا الله أعلم وأرى، ﴿ **تلك آياتُ الكتاب** ﴾، يعني: تلك الأخبار التي قصصتُها عليك آيات التوراة والإنجيل والكتب المتقدمة، ﴿ **والذي أنزل إليك** ﴾، يعني: وهذا القرآن الذي أنزل إليك، ﴿ **من ربِّك الحقّ** ﴾، أي: هو الحق فاعتصم به، فيكون محل الذي رفع على الابتداء والحق خبره، وقيل:

الذي أنزل إليك من ربك هو الحق لا شك فيه ولا تناقض ﴿ولكن أكثر الناس لا يؤمنون﴾ يعني مشركي مكة نزلت هذه الآية في الرد عليهم حين قالوا إن محمداً يقوله من تلقاء نفسه، ثم ذكر من دلائل ربوبيته وعجائب قدرته ما يدل على وحدانيته فقال تعالى: ﴿الله الذي رفع السموات بغير عمد﴾ جمع عمود وهي الأساطين والدعائم التي تكون تحت السقف وفي قوله: ﴿ترونها﴾ قولان أحدهما أن الرؤية ترجع إلى السماء يعني: وأنتم ترون السموات مرفوعة بغير عمد من تحتها يعني ليس من دونهما دعامة تدعمها ولا من فوقها علاقة تمسكها، والمراد نفي العمد بالكلية. قال إياس بن معاوية: السماء مقبية على الأرض مثل القبة، وهذا قول الحسن وقتادة وجمهور المفسرين، وإحدى الروايتين عن ابن عباس. والقول الثاني: إن الرؤية ترجع إلى العمد، والمعنى أن لها عمداً ولكن لا ترونها أنتم، ومن قال بهذا القول يقول: إن عمدها على جبل قاف، وهو جبل من زمرد محيط بالدنيا، والسماء عليه مثل القبة، وهذا قول مجاهد وعكرمة والرواية الأخرى عن ابن عباس، والقول الأول أصح، وقوله تعالى ﴿ثم استوى على العرش﴾ تقدم تفسيره والكلام عليه في سورة الأعراف بما فيه كفاية ﴿وسخر الشمس والقمر﴾ يعني ذللهما لمنافع خلقه فهما مقهوران، يجريان على ما يريد ﴿كلٌّ يجري لأجل مسمى﴾ يعني إلى وقت معلوم، وهو وقت فناء الدنيا وزوالها. وقال ابن عباس: أراد بالأجل المسمى درجاتهما ومنازلهما يعني أنهما يجريان في منازلهما ودرجاتهما إلى غاية ينتهيان إليها ولا يجاوزانها، وتحقيقه أن الله تعالى جعل لكل واحد من الشمس والقمر سيراً خاصاً إلى جهة بمقدار خاص من السرعة والبطء في الحركة، ﴿يدبر الأمر﴾ يعني أنه تعالى يدبر أمر العالم العلوي والسفلي، ويصرفه ويقضيه بمشيئته، وحكمته، على أكمل الأحوال لا يشغله شأن عن شأن، وقيل: يدبر الأمر بالإيجاد والإعدام والإحياء والإماتة، ففيه دليل على كمال القدرة والرحمة، لأن جميع العالم محتاجون إلى تدبيره ورحمته، داخلون تحت قهره وقضائه وقدرته ﴿يفصل الآيات﴾ يعني أنه تعالى يبين الآيات الدالة على وحدانيته وكمال قدرته. وقيل. إن الدلائل الدالة على وجود الصانع قسمان: **الأول**: الموجودات المشاهدة، وهي خلق السموات والأرض وما فيهما من العجائب وأحوال الشمس والقمر وسائر النجوم وهذا قد تقدم ذكره. والقسم **الثاني**: الموجودات الحادثة في العالم، وهي الموت بعد الحياة والفقر بعد الغنى والضعف بعد القوة إلى غير ذلك من أحوال هذا العالم، وكل ذلك مما يدل على وجود الصانع وكمال قدرته ﴿لعلكم بلقاء ربكم توقنون﴾ يعني أنه تعالى يبين الآيات الدالة على وحدانيته وكمال قدرته لكي توقنوا، وتصدقوا بلقائه والمصير إليه بعد الموت لأن من قدر على إيجاد الإنسان بعد عدمه قادر على

محله خفض يعني تلك آيات الكتاب وآيات الذي أنزل إليك، ثم ابتدأ الحق يعني ذلك الحق، وقال ابن عباس: أراد بالكتاب القرآن، ومعناه هذه آيات الكتاب يعني القرآن، ثم قال: وهذا القرآن الذي أنزل إليك من ربك هو الحق، ﴿ ولكنَّ أكثرَ الناس لا يؤمنون ﴾، قال مقاتل: نزلت في مشركي مكة حين قالوا: إن محمداً يقوله من تلقاء نفسه، فردّ قولهم ثم بين دلائل ربوبيته، فقال عَزّ من قائل:

﴿ الله الذي رفع السمواتِ بغيرِ عمدٍ ترونها ﴾، يعني: السواري واحدها عمود مثل أديم وأدم وعمد أيضاً جمعه مثل رسول ورُسل، ومعناه نفي العمد أصلاً وهو الأصح يعني ليس من دونها دعامة تدعمها ولا فوقها علاقة تمسكها. قال إياس بن معاوية: السماء مقبية على الأرض مثل القبة. وقيل: ترونها راجعة إلى العمد، معناه: لها عمد ولكن لا ترونها، وزعم: أن عمدها جبل قاف وهو محيط بالدنيا والسماء عليه مثل القبـة. ﴿ ثم استوى على العرش ﴾، علاَ عليه، ﴿ وسخّر الشمسَ والقمرَ ﴾، ذلّلهما لمنافع خلقه فهما مقهوران، ﴿ كلٌ يجري ﴾، أي: يجريان على ما يريد الله عزّ وجلّ، ﴿ لأجلٍ مسمى ﴾، أي: إلى وقت معلوم وهو فناء الدنيا. وقال ابن عباس: أراد بالأجل المسمى درجاتهما ومنازلهما ينتهيان إليها ولا يجاوزانها، ﴿ يُدبِّر الأمرَ ﴾، يقضيه وحـده، ﴿ يُفصّل

إيجاده وإحيائه بعد موته، واليقين صفة من صفات العلم، وهو فوق المعرفة والدراية وهو سكون الفهم مع ثبات الحكم وزوال الشك، يقال منه استيقن وأيقن بمعنى علم. قوله تعالى:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ ۞ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٥﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ ۗ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٦﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۗ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ ۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٧﴾﴾

﴿وهو الذي مد الأرض﴾ لما ذكر الدلالة على وحدانيته وكمال قدرته وهي رفع السموات بغير عمد، وذكر أحوال الشمس والقمر أردفها بذكر الدلائل الأرضية، فقال: وهو الذي مد الأرض أي بسطها على وجه الماء، وقيل: كانت الأرض مجتمعة فمدها من تحت البيت الحرام، وهذا القول إنما يصح إذا قيل إن الأرض منسطحة كالأكف، وعند أصحاب الهيئة: الأرض كرة، ويمكن أن يقال: إن الكرة إذا كانت كبيرة عظيمة فكل قطعة منها تشاهد ممدودة كالسطح الكبير العظيم، فحصل الجمع ومع ذلك فالله تعالى قد أخبر أنه مد الأرض، وأنه دحاها وبسطها وكل ذلك يدل على التسطيح والله تعالى أصدق قيلاً وأبين دليلاً من أصحاب الهيئة ﴿وجعل فيها﴾ . يعني في الأرض ﴿رواسي﴾ يعني جبالاً ثابتة، يقال: رسا الشيء يرسو إذا ثبت وأرساه غير أثبته قال ابن عباس: كان أبو قبيس أول جبل وضع على الأرض ﴿وأنهاراً﴾ ، يعني وجعل في الأرض أنهاراً جارية لمنافع الخلق ﴿ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين﴾ يعني صنفين اثنين أحمر وأصفر وحلواً وحامضاً ﴿يغشي الليل النهار﴾ ، يعني يلبس النهار ظلمة الليل ويلبس الليل ضوء النهار ﴿إن في ذلك﴾ يعني الذي تقدم ذكره من عجائب صنعته وغرائب قدرته الدالة على وحدانيته ﴿لآيات﴾ أي دلالات ﴿لقوم يتفكرون﴾ يعني فيستدلون بالصنعة على الصانع، وبالسبب على المسبب، والفكر هو تصرف القلب في طلب الأشياء، وقال صاحب المفردات: الفكر قوة مطرقة للعلم إلى المعلوم، والتفكر جريان تلك القوة بحسب

الآيات﴾، يبين الدلالات، ﴿**لعلّكم بلقاء ربكم تُوقنون**﴾، لكي توقنوا بوعده وتصدقوه.

﴿**وهو الذي مدّ الأرضَ**﴾، بسطها، ﴿**وجعلَ فيها رَواسي**﴾، جبالاً ثابتة، واحدتها: راسية، قال ابن عباس: كان أبو قبيس أول جبل وضع على الأرض، ﴿**وأنهاراً**﴾، أي: وجعل فيها أنهاراً. ﴿**ومن كلِّ الثمراتِ جعلَ فيها زوجين اثنين**﴾، أي: صنفين اثنين أحمر وأصفر وحلواً وحامضاً، ﴿**يغشي الليلَ النهارَ**﴾، أي: يلبس النهار بظلمة الليل ويلبس الليل بضوء النهار، ﴿**إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون**﴾، فيستدلون والتفكر تصرف القلب في طلب معاني الأشياء.

﴿**وفي الأرض قطعٌ متجاورات**﴾، متقاربات يقرب بعضها من بعض وهي مختلفة هذه طيبة تنبت وهذه سبخة لا تنبت، وهذه قليلة الريع وهذه كثيرة الريع، ﴿**وجناتٌ**﴾ أي: بساتين، ﴿**من أعنابٍ وزرعٌ ونخيلٌ صِنْوانٌ**﴾، رفعها كلها ابن كثير وأبو عمرو وحفص ويعقوب عطفاً على الجنات، وجرها الآخرون نسقاً على

نظر العقل، وذلك للإنسان دون الحيوان، ولا يقال إلا فيما يمكن أن يحصل له صورة في القلب ولهذا روي «تفكروا في آلاء الله ولا تفكروا في الله» إذ كان الله منزلها أن يوصف بصورة. وقال بعض الأدباء: الفكر مقلوب عن الفرك لأنه يستعمل في طلب المعاني، وهو فرك الأمور وبحثها طلباً للوصول إلى حقيقتها. قوله عز وجل **﴿وفي الأرض قطع متجاورات﴾** يعني متقاربات بعضها من بعض، وهي مختلفة في الطبائع فهذه طيبة تنبت وهذه سبخة لا تنبت، وهذه قليلة الريع وهذه كثيرة الريع **﴿وجنات﴾** يعني بساتين والجنة كل بستان ذي شجر من نخيل وأعناب وغير ذلك، سمي جنة لأنه يستر بأشجاره الأرض وإليه الإشارة بقوله **﴿من أعناب وزرع ونخيل صنوان﴾** جمع صنو وهي النخلات يجتمعن من أصل واحد، ومنه قوله ﷺ في عمه العباس «عم الرجل صنو أبيه» يعني أنهما من أصل واحد **﴿وغير صنوان﴾** هي النخلة المنفردة بأصلها فالصنوان المجتمع، وغير الصنوان المتفرق **﴿يسقى بماء واحد﴾** يعني أشجار الجنات وزروعها، والماء جسم رقيق مائع به حياة كل نام، وقيل: في حده جوهر سيال به قوام الأرواح؛ **﴿ونفضل بعضها على بعض في الأكل﴾** يعني في الطعم ما بين الحلو والحامض والعفص وغير ذلك من الطعام. عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ «في قوله تعالى: **﴿ونفضل بعضها على بعض في الأكل﴾** قال: الدقل والنرسيان والحلو والحامض» أخرجه الترمذي، وقال: حديث حسن غريب. قال مجاهد: هذا كمثل بني آدم صالحهم وخبيثهم وأبوهم واحد، وقال الحسن: هذا مثل ضربه الله لقلوب بني آدم كانت الأرض طينة واحدة في يد الرحمن فسطحها فصارت قطعاً متجاورات، وأنزل على وجهها ماء السماء فتخرج هذه زهرتها وثمرتها وشجرها، وتخرج هذه نباتها وتخرج هذه سبخها وملحها وخبيثها وكل يسقى بماء واحد فلو كان الماء قليلاً. قيل: إنما هذا من قبل الماء كذلك الناس خلقوا من آدم فينزل عليهم من السماء تذكرة فترق قلوب قوم فتخشع وتخضع وتقسو قلوب قوم فتلهو، ولا تسمع. وقال الحسن: والله ما جالس القرآن أحد إلا قام من عنده بزيادة أو نقصان قال الله تعالى **﴿وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خساراً﴾** وقوله تعالى **﴿إن في ذلك﴾** يعني الذي ذكر **﴿لآيات لقوم يعقلون﴾**

الأعناب، والصنوان جمع صنو وهو النخلات يجمعهن أصل واحد، **﴿ وغير صنوان ﴾**، هي النخلة المنفردة بأصلها. وقال أهل التفسير: صنوان مجتمع وغير صنوان متفرق نظيره من الكلام قنوان جمع قنو، ومنه قول النبي ﷺ في العباس: «إنّ عمَّ الرجل صنو أبيــه» ولا فرق في الصنوان والقنوان بين الثنية والجمع إلا في الإعراب وذلك أن النون في التثنية مكسورة غير منوّنة وفي الجمع منوّنة، **﴿ يُسقى بماءٍ واحد ﴾**، قرأ ابن عامر وعاصم ويعقوب **﴿ يسقى ﴾** بالياء أي يسقى ذلك كله بماء واحد، وقرأ الآخرون بالتاء لقوله تعالى: **﴿ وجناتٍ ﴾** ولقوله تعالى من بعد **﴿ ونفضلِ بعضها على بعض ﴾**، ولم يقل بعضه والماء جسم رقيق مائع به حياة كل نام، **﴿ ونُفضل بعضَها على بعضٍ في الأكل ﴾**، في الثمر والطعم، قرأ حمزة والكسائي «ويفضــل» بالياء، لقوله تعالى: **﴿ يُدبر الأمرَ يُفصّل الآيات ﴾**. وقرأ الآخرون بالنون على معنى ونحن نفضل بعضها على بعض في الأكل، وجاء في الحديث: «ونفضل بعضها على بعض في الأكل»، قال الفارسي: كجيد التمر والدقل والحلو والحامض. قال مجاهد: كمثل بني آدم صالحهم وخبيثهم وأبوهم واحد. قال الحسن: هذا مثل ضربه الله تعالى لقلوب بني آدم، كانت الأرض طينة واحدة في يد الرحمن عزّ وجلّ فسطحها فصارت قطعاً متجاورةً فينزل عليها المطر من السماء فتخرج هذه زهرتها وشجرها وثمرها ونباتها وتخرج هذه سبخها وملحها وخبيثها، وكلٌّ يُسقَى بماء واحد، كذلك الناس خلقوا من آدم عليه السلام فينزل من السماء تذكرة فترقّ قلوب فتخشع وتقسو قلوب فتلهو، قال الحسن: والله ما جالس القرآن أحد إلا قام من عنده بزيادة أو نقصان، قال الله تعالى: **﴿ ونُنزل من القرآن ما هو شفاءٌ ورحمةٌ للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خساراً ﴾** [الإسراء: ٨٢]. **﴿ إنّ في ذلك ﴾** الذي ذكرت **﴿ لآياتٍ لقوم يعقلون ﴾**.

يعني فيتدبرون ويتفكرون في الآيات الدالة على وحدانيته. قوله تعالى ﴿وإن تعجب فعجب قولهم﴾ العجب تبعيد النفس رؤية المستبعد في العادة، وقيل: العجب حالة تعرض للإنسان عند الجهل بسبب ولهذا قال بعض الحكماء: العجب ما لا يعرف سببه ولهذا قيل: العجب في حق الله محال لأنه تعالى علاّم الغيوب لا تخفى عليه خافية، والخطاب في الآية للنبي ﷺ ومعناه وإنك يا محمد إن تعجب من تكذيبهم إياك بعد أن كنت عندهم تعرف بالصادق الأمين فعجب أمرهم، وقيل: معناه وإن تعجب من اتخاذ المشركين ما لا يضرهم ولا ينفعهم آلهة يعبدونها مع إقرارهم بأن الله تعالى خالق السموات والأرض، وهو يضر وينفع وقد رأوا من قدرة الله وما ضرب لهم به الأمثال ما رأوا فعجب قولهم. وقيل وإنك إن تعجب من إنكارهم النشأة الآخرة والبعث بعد الموت مع إقرارهم بأن ابتداء الخلق من الله فعجب قولهم، وذلك أن المشركين كانوا ينكرون البعث بعد الموت مع إقرارهم بأن ابتداء الخلق من الله، وقد تقرر في النفوس أن الإعادة أهون من الابتداء فهذا موضع التعجب وهو قولهم ﴿أئذا كنا تراباً﴾ يعني بعد الموت ﴿أئنا لفي خلق جديد﴾ يعني نعاد خلقاً جديداً بعد الموت كما كنا قبله ثم إن الله تعالى قال في حقهم ﴿أولئك الذين كفروا بربهم﴾ وفيه دليل على أن كل من أنكر البعث بعد الموت فهو كافر بالله تعالى، لأن من أنكر البعث بعد الموت فقد أنكر القدرة، وأن الله على كل شيء قدير، ومن أنكر ذلك فهو كافر ﴿وأولئك الأغلال في أعناقهم﴾ يعني يوم القيامة، والأغلال جمع غل وهو طوق من حديد يُجعل في العنق. وقيل أراد بالأغلال ذلهم وانقيادهم يوم القيامة كما يقاد الأسير ذليلاً بالغل ﴿وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ يعني أنهم مقيمون فيها لا يخرجون منها ولا يموتون. ﴿ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة﴾ الاستعجال طلب تعجيل الأمر قبل مجيء وقته، والمراد بالسيئة هنا هي العقوبة وبالحسنة العافية، وذلك أن مشركي مكة كانوا يطلبون العقوبة بدلاً من العافية استهزاء منهم، وهو قولهم «اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم» ﴿وقد خلت من قبلهم المثلات﴾ يعني وقد مضت في الأمم المكذبة العقوبات بسبب تكذيبهم رسلهم، والمثلة بفتح الميم وضم الثاء المثلثة نقمة تنزل

﴿ وإنْ تعجبْ فعجبُ قولهم ﴾، العجب تغير النفس برؤية المستبعد في العادة والخطاب لرسول الله ﷺ، ومعناه إنك إن تعجب من إنكارهم النشأة الآخرة مع إقرارهم بابتداء الخلق فعجب أمرهم وكان المشركون ينكرون البعث مع إقرارهم بابتداء الخلق من الله تعالى، وقد تقرر في القلوب أن الإعادة أهون من الابتداء، فهذا موضع العجب، وقيل: معناه وإن تعجب من تكذيب المشركين واتخاذهم ما لا يضر ولا ينفع آلهةً يعبدونها وهم قدْ رأوا من قدرة الله تعالى ما ضرب لهم به الأمثال فعجب قولهم، أي: فتعجب أيضاً من قولهم، ﴿ أئذَا كنا تراباً ﴾، بعد الموت، ﴿ أئنا لفي خلق جديد ﴾، أي: نعاد خلقاً جديداً كما كنا قبل الموت، قرأ نافع والكسائي ويعقوب ﴿ أئذا ﴾ مستفهماً (إنـــا) بتركه على الخبر ضده أبو جعفر وابن عامر، وكذلك في ﴿ سبحان ﴾ [٤٩، ٩٨] في موضعين والمؤمنون [٨٢] والّم السجدة [١٠]، وقرأ الباقون بالاستفهام فيهما وفي الصافات [١٦ ـ ٥٣] في موضعين هكذا إلا أن أبا جعفر يوافق نافعاً في أول الصافات فيقدم الاستفهام ويعقوب لا يستفهم الثانية أئذا متنا إنّا لمدينون، قال الله تعالى: ﴿ أولئك الذين كفروا بربهم وأولئك الأغلال في أعناقهم ﴾، يوم القيامة ﴿ وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾.

قوله: ﴿ ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة ﴾، الاستعجال طلب تعجيل الأمر قبل مجيء وقته والسيئة ههنا هي العقوبة والحسنة العافية، وذلك أن مشركي مكة كانوا يطلبون العقوبة بدلاً من العافية استهزاءً منهم يقولون: اللّهمّ إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارةً من السماء أو ائتنا بعذاب أليم. ﴿ وقدْ خلَتْ من قبلهم المَثُلَات ﴾، أي: مضت من قبلهم في الأمم التي عصت ربها وكذبت رسلها العقوبات، والمثلات جمع المثلة

بالإنسان فيجعل مثلاً ليرتدع غيره به، وذلك كالنكال وجمعه مثلات بفتح الميم وضمها مع ضم الثاء فيهما لغتان ﴿**وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم**﴾ قال ابن عباس: معناه إنه لذو تجاوزٍ عن المشركين إذا آمنوا ﴿**وإن ربك لشديد العقاب**﴾ يعني للمصرين على الشرك الذي ماتوا عليه. وقال مجاهد: إنه لذو تجاوز عن شركهم في تأخير العذاب عنهم، وإنه لشديد العقاب إذا عاقب. قوله تعالى ﴿**ويقول الذين كفروا**﴾ يعني من أهل مكة ﴿**لولا**﴾ أي هلاّ ﴿**أنزل عليه**﴾ يعني على محمد ﷺ ﴿**آية من ربه**﴾ يعني مثل عصى موسى وناقة صالح ذلك لأنهم لم يقنعوا بما رأوا من الآيات التي جاء بها النبي ﷺ ﴿**إنما أنت منذر**﴾ أي ليس عليك يا محمد غير الإنذار والتخويف، وليس لك من الآيات شيء ﴿**ولكل قوم هاد**﴾ قال ابن عباس: الهادي هو الله، وهذا قول سعيد ابن جبير وعكرمة ومجاهد والضحاك والنخعي، والمعنى إنما عليك الإنذار يا محمد والهادي هو الله يهدي من يشاء. وقال عكرمة في رواية أخرى عنه وأبو الضحى: الهادي هو رسول الله ﷺ المعنى: إنما أنت منذر وأنت هاد، وقال الحسن وقتادة وابن زيد: يعني ولكل قوم نبي يهديهم وقال أبو العالية: الهادي هو العمل الصالح. وقال أبو صالح: الهادي هو القائد إلى الخير لا إلى الشر. قوله عز وجل:

﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ سَوَاءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ﴿١٠﴾ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ ﴿١١﴾﴾

﴿**الله يعلم ما تحمل كل أنثى**﴾ لما سألوا رسول الله ﷺ الآيات أخبرهم الله عز وجل عن عظيم قدرته، وكمال علمه وأنه عالم بما تحمل كل أنثى يعني من ذكر أو أنثى سويّ الخلق أو ناقص الخلق واحداً أو اثنين أو أكثر ﴿**وما تغيض**﴾ يعني وما تنقص ﴿**الأرحام وما تزداد**﴾ قال أهل التفسير: غيض الأرحام الحيض على الحمل فإذا حاضت الحامل كان ذلك نقصاناً في الولد لأن دم الحيض هو غذاء الولد في الرحم، فإذا خرج الدم نقص الغذاء فينقص الولد، وإذا لم تحض يزداد الولد ويتم فالنقصان نقصان خلقة الولد بخروج الدم، والزيادة تمام خلقه باستمساك الدم، وقيل: إذا حاضت المرأة في وقت حملها ينقص الغذاء وتزداد مدة الحمل حتى تستكمل تسعة أشهر طاهرة فإن رأت خمسة أيام دماً، وضعت لتسعة أشهر وخمسة أيام فالنقصان في الغذاء زيادة في مدة الحمل. وقيل: النقصان السقط والزيادة

بفتح الميم وضم الثاء مثل صدقة وصدقات. ﴿ **وإنّ ربك لذُو مغفرةٍ للناس على ظلمهم وإنّ ربك لشديدُ العقاب** ﴾.

﴿ **ويقول الذين كفروا لَوْلاَ أنزل عليه** ﴾، أي: على محمد ﷺ ﴿ **آيـةٌ من ربِّه** ﴾، أي: علامة وحجة على نبوته، قال الله تعالى: ﴿ **إنما أنت منذر** ﴾، مُخوِّف، ﴿ **ولكل قوم هادٍ** ﴾، أي: لكل قوم نبي يدعوهم إلى الله تعالى، وقال الكلبي: داعٍ يدعوهم إلى الحق أو إلى الضلالة. وقال عكرمة: الهادي محمد ﷺ يقول إنما أنت منذر وأنت هاد لكل قوم أي داعٍ، وقال سعيد بن جبير: الهادي هو الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿ **اللَّهُ يعلمُ ما تحملُ** [كل] **أنثى** ﴾، من ذكر أو أُنثى سوى الخلق أو ناقص الخلق واحداً أو اثنين أو أكثر ﴿ **وما تغيض الأرحام** ﴾، أي ما تنقص ﴿ **وما تزداد** ﴾، قال أهل التفسير: غيض الأرحام الحيض على الحمل، فإذا حاضت الحامل كان نقصاناً في الولد لأن دم الحيض غذاء الوالد في الرحم فإذا أهرقت الدم ينقص

تمام الخلق. وقال الحسن: غيضها نقصانها من تسعة أشهر والزيادة زيادتها على تسعة أشهر فأقل مدة الحمل ستة أشهر وقد يولد لهذه المدة ويعيش. واختلفوا في أكثره فقال قوم: أكثر مدة الحمل سنتان، وهو قول عائشة، وبه قال أبو حنيفة وقيل: إن الضحاك ولد لسنتين. وقال جماعة: أكثرها أربع سنين وإليه ذهب الشافعي. وقال حماد بن أبي سلمة: إنما سمي هرم بن حيان هرماً لأنه بقي في بطن أمه أربع سنين، وعند مالك أن أكثر مدة الحمل خمس سنين **﴿وكل شيء عنده بمقدار﴾** يعني بتقدير واحد لا يجاوزه، ولا ينقص منه. وقيل: إنه تعالى يعلم كمية كل شيء وكيفيته على أكمل الوجوه. وقيل: معناه إنه تعالى خصص كل حادثة من الحوادث بوقت معين وحالة معينة وذلك بمشيئته الأزلية وإرادته وتقديره الذي لا يقدر عليه غيره **﴿عالم الغيب والشهادة﴾** يعني أنه تعالى يعلم ما غاب عن خلقه، وما يشاهدونه. وقيل: الغيب هو المعدوم والشاهد هو الموجود. وقيل: الغيب ما غاب عن الحس والشاهد ما حضر في الحس **﴿الكبير﴾** أي العظيم الذي يصغر كل كبير بالإضافة إلى عظمته وكبريائه فهو يعود إلى معنى كبر قدرته، وأنه تعالى المستحق لصفات الكمال **﴿المتعال﴾** يعني المنزه عن صفات النقص المتعالي عن الخلق، وفيه دليل على أنه تعالى موصوف بالعلم الكامل والقدرة التامة وتنزيهه عن جميع النقائص. قوله تعالى **﴿سواء منكم من أسرَّ القول ومن جهر به﴾** أي مستو منكم من أخفى القول وكتمه ومن أظهره وأعلنه، والمعنى أنه قد استوى في علم الله تعالى المسرّ بالقول والجاهر به **﴿ومن هو مستخف بالليل﴾** أي مستتر بظلمته **﴿وسارب بالنهار﴾** أي ذاهب بالنهار في سربه ظاهر. والسرب بفتح السين وسكون الراء الطريق. وقال القتيبي: السارب المتصرف في حوائجه. قال ابن عباس في هذه الآية: هو صاحب ريبة مستخف بالليل، وإذا خرج بالنهار أرى الناس أنه بريء من الإثم. وقيل: مستخف بالليل ظاهر من قولهم خفيت الشيء إذا أظهرته، وأخفيته إذا كتمته وسارب بالنهار أي متوارٍ دخل في السرب مستخفياً، ومعنى الآية: سواء ما أضمرت به القلوب أو نطقت به الألسن، وسواء من أقدم على القبائح مستتراً في ظلمات الليل أو أتى بها ظاهراً في النهار فان علمه تعالى محيط بالكل **﴿له معقبات﴾** يعني: لله ملائكة يتعاقبون بالليل والنهار، فإذا صعدت

الغذاء فينتقص الولد، وإذا لم تحض يزداد الولد ويتم فالنقصان نقصان خلقة الولد بخروج الدم والزيادة تمام خلقته باستمساك الدم. وقيل: إذا حاضت ينتقص الغذاء وتزداد مدة الحمل حتى تستكمل تسعة أشهر طاهراً فإن رأت خمسة أيام دماً وضعت لتسعة أشهر وخمسة أيام فالنقصان في الغذاء والزيادة في المدة. وقال الحسن: غيضها نقصانها من تسعة أشهر والزيادة زيادتها على تسعة أشهر. وقيل: النقصان والسقط والزيادة تمام الخلق، وأقل مدة الحمل ستة أشهر، فقد يُولد المولود لهذه المدة ويعيش، واختلفوا في أكثرها فقال قوم: أكثرها سنتان وهو قول عائشة رضي الله عنها، وبهِ قال أبو حنيفة رحمه الله، وذهب جماعة إلى أن أكثرها أربع سنين وإليه ذهب الشافعي رحمه الله، قال حماد بن سلمة: إنما سمي هرم بن سنان هرماً لأنه بقي في بطن أمه أربع سنين. **﴿ وكلُّ شيءٍ عنده بمقدار ﴾**، أي: بتقدير وحدّ لا يجاوزه ولا يقصر عنه.

﴿ عالم الغيب والشهادة الكبير ﴾، الذي كل شيء دونه. **﴿ المتعال ﴾**، المستعلي على كل شيء بقدرته.

قوله تعالى: **﴿ سواءٌ منكم من أسرّ القولَ ومن جهر به ﴾**، أي: يستوي في علم الله المسرّ بالقول والجاهر به، **﴿ ومن هو مستخفٍ بالليل ﴾**، أي: مستتر بظلمة الليل، **﴿ وساربٌ بالنهار ﴾**، أي: ذاهب في سربه ظاهر، والسرب بفتح السين وسكون الراء الطريق، قال القتيبي: سارب بالنهار أي متصرّف في حوائجه، قال ابن عباس: هو صاحب ريبة مستخف بالليل فإذا خرج بالنهار أرى الناس أنه بريء من الإثم، وقيل: مستخف بالليل أي ظاهر من قولهم خفيت الشيء إذا أظهرته وأخفيته إذا كتمته، وسارب بالنهار أي متوارٍ داخل في سرب.

﴿ له معقباتٌ ﴾، أي: لله تعالى ملائكة يتعاقبون فيكم بالليل والنهار فإذا صعدت ملائكة الليل جاء في عقبها

ملائكة الليل عقبتها ملائكة النهار والتعقيب العود بعد البدء وإنما ذكر معقبات بلفظ التأنيث، وإن كان الملائكة ذكوراً لأن واحدها معقب، وجمعها معقبة ثم جمع المعقبة معقبات. كما قيل أبناوات سعد ورجالات بكر (ق) عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يتعقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ويجتمعون في صلاة الفجر، وصلاة العصر ثم يعرج الذين باتوا فيكم فيسألهم، وهو أعلم بهم، كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: تركناهم وهم يصلون، وأتيناهم وهم يصلون. وقيل: إن مع كل واحد من بني آدم ملكين ملك عن يمينه، وهو صاحب الحسنات وملك عن شمال وهو كاتب السيئات وكاتب الحسنات أمين على كاتب السيئات فإذا عمل العبد حسنة كتبها له بعشر أمثالها، وإذا عمل سيئة قال صاحب الشمال لصاحب اليمين أكتبها عليه فيقول: انظره لعله يتوب أو يستغفر فيستأذنه ثلاث مرات، فإن هو تاب منها وإلا قال: اكتبها عليه سيئة واحدة وملك موكل بناصية العبد فإذا تواضع العبد لله عز وجل رفعه بها، وإن تجبر على الله عز وجل وضعه بها وملك موكل بعينيه يحفظهما من الأذى وملك موكل بفيه لا يدعه يدخل فيه شيء من الهوام يؤذيه فهؤلاء خمسة أملاك موكلون بالعبد في ليله وخمسة غيرهم في نهاره، فانظر إلى عظمة الله تعالى وقدرته وكمال شفقته عليك أيها العبد المسكين. وهو قوله تعالى ﴿**من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله**﴾ يعني: يحفظون العبد من بين يديه ومن وراء ظهره، ومعنى من أمر الله بأمر الله وإذنه ما لم يجىء القدر فإذا جاء خلوا عنه. وقيل: معناه إنهم يحفظونه، بما أمر الله به من الحفظ له. قال مجاهد: ما من عبد إلا وملك موكل به يحفظه في نومه ويقظته من الجن والإنس والهوام فما من شيء يأتيه يؤذيه إلا قال له الملك وراءك، إلا شيء يأذن الله فيه فيصيبه. وقال كعب الأحبار: لولا أن الله تعالى وكلّ بكم ملائكة يذبّون عنكم في مطعمكم ومشربكم وعوراتكم لتخطفتكم الجن. وقال ابن جريج: معنى يحفظونه أي يحفظون عليه الحسنات والسيئات، وهذا على قول من يقول:

ملائكة النهار وإذا صعدت ملائكة النهار جاء في عقبها ملائكة الليل، والتعقيب: العود بعد البدء وإنما ذكر بلفظ التأنيث لأن واحدها معقب، وجمعه معقبة ثم جمع الجمع معقبات كما قيل أبناوات سعد ورجالات بكر. أخبرنا أبو الحسن السرخسي أنا زاهر بن أحمد أنا أبو إسحق الهاشمي أنا أبو مصعب عن مالك عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ويجتمعون في صلاة الفجر وصلاة العصر، ثم يعرج الذين باتوا فيكم فيسألهم ربهم وهو أعلم بهم كيف تركتم عبادي؟ فيقولون تركناهم وهم يصلون وأتيناهم وهم يصلون»: قوله تعالى: ﴿ **من بين يديه ومن خلفه** ﴾، يعني: من قدام هذا المستخفي بالليل والسارب بالنهار ومن خلفه من وراء ظهره، ﴿ **يحفظونه من أمر الله** ﴾، يعني: بأمر الله، أي: يحفظونه بإذن الله ما لم يجيء القدر، فإذا جاء القدر خلوا عنه. وقيل: يحفظونه من أمر الله أي مما أمر الله به من الحفظ عنه. قال مجاهد: ما من عبد إلا وبه ملك موكل به يحفظه في نومه ويقظته من الجن والإنس والهوام، فما منهم شيء يأتيه يريده إلاّ قال وراءك إلا شيء يأذن الله فيه فيصيبه، قال كعب الأحبار: لولا أن الله عزّ وجلّ وكّل بكم ملائكة يذبّون عنكم في مطعمكم ومشربكم وعوراتكم لتخطفكم الجن. وقال عكرمة: الآية في الأمراء وحرسهم يحفظونهم من بين أيديهم ومن خلفهم. وقيل: الآية في الملكين القاعدين عن اليمين وعن الشمال يكتبان الحسنات والسيئات، كما قال الله تعالى: ﴿ **إذْ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد** ﴾ [قٓ: ١٧]، وقال ابن جريج: معنى يحفظونه أي يحفظون عليه من أمر الله يعني الحسنات والسيئات. وقيل: الهاء في له راجعة إلى رسول الله ﷺ. روى جويبر عن الضحاك عن ابن عباس أنه قال: له معقبات يعني لمحمد ﷺ حراس من الرحمن من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله، يعني من شر الجن وطوارق الليل والنهار. وقال عبد الرحمن بن زيد: نزلت هذه الآيات في عامر بن الطفيل وأربد بن ربيعة وكانت قصتهما على ما روى الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما قال:

إن الآية في الملكين القاعدين عن اليمين وعن الشمال يكتبان الحسنات والسيئات، وقال عكرمة: الآية في الأمراء وحرسهم يحفظونهم من بين أيديهم، ومن خلفهم والضمير في قوله له راجع إلى النبي ﷺ قال ابن عباس في معنى هذه الآية: لمحمد ﷺ حراس من الرحمن من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من شر الجن وطوارق الليل والنهار. وقال عبد الرحمن بن زيد: نزلت هذه الآية في عامر بن الطفيل وأربد بن ربيعة، وهما من بني عامر بن زيد وكانت قصتهما على ما رواه الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس. قال: «أقبل عامر بن الطفيل وأربد بن ربيعة وهما من بني عامر بن زيد على رسول الله ﷺ وهو جالس في المسجد في نفر من أصحابه فدخل المسجد فاستشرف الناس لجمال عامر، وكان من أجمل الناس وكان أعور فقال: يا رسول الله هذا عامر بن الطفيل قد أقبل نحوك، فقال: دعه فان يرد الله به خيراً يهده فأقبل حتى قام على رسول الله ﷺ وقال: يا محمد ما لي إن أسلمت؟ قال: لك ما للمسلمين وعليك ما على المسلمين. قال: تجعل الأمر لي بعدك؟ قال ليس ذلك لي إنما ذلك إلى الله تعالى يجعله حيث يشاء. قال: فتجعلني على الوبر وأنت على المدر؟ قال: لا قال: فما تجعل لي؟ قال: أجعل لك أعنة الخيل تغزو عليها. قال: أوليس ذلك لي اليوم قم معي أكلمك فقام معه رسول الله ﷺ، وكان عامر قد أوصى إلى أربد بن ربيعة إذا رأيتني أكلمه فدر من خلفه فاضربه بالسيف، فجعل عامر يخاصم رسول الله ﷺ ويراجعه ودار أربد من خلف رسول الله ﷺ ليضربه، فاخترط شبراً من سيفه ثم حبسه الله تعالى عليه فلم يقدر على سله، وجعل عامر يومىء إليه فالتفت رسول الله ﷺ فرأى أربد وما صنع بسيفه، فقال: اللهم اكفنيهما بما شئت فأرسل الله على أربد صاعقة في يوم صحو قائظ فأحرقته فولى عامر هارباً وقال: يا محمد دعوت ربك فقتل أربد، والله لأملأنها عليك خيلاً جرداً وشباباً مرداً. فقال النبي ﷺ: يمنعني الله من ذلك وابنا قيلة يريد الأوس والخزرج، فنزل عامر بيت امرأة سلولية فلما أصبح ضم إليه سلاحه، فخرج له خراج في أصل أذنه أخذه منه مثل النار فاشتد عليه فقال غدة كغدة البعير وموت في بيت سلولية، ثم ركب فرسه وجعل يركض في الصحراء، ويقول: ادن يا ملك الموت وجعل يقول الشعر، ويقول لئن أبصرت محمداً وصاحبه يعني ملك الموت لأنفذتهما برمحي فأرسل الله إليه ملكاً فلطمه، فأرداه في التراب ثم عاد فركب جواده حتى مات على

أقبل عامر بن الطفيل وأربد بن ربيعة وهما عامريان يريدان رسول الله ﷺ وهو جالس في المسجد في نفر من أصحابه، فدخلا المسجد فاستشرف الناس لجمال عامر وكان أعور وكان من أجلّ الناس، فقال رجل: يا رسول الله، هذا عامر بن الطفيل قد أقبل نحوك، فقال: دعه فإن يرد الله به خيراً بهذه فأقبل حتى قام عليه، فقال: يا محمد ما لي إن أسلمت؟ قال: «لك ما للمسلمين وعليك ما على المسلمين»، قال: تجعل لي الأمر بعدك، قال: «ليس ذلك إليّ إنما ذلك إلى الله عزّ وجلّ يجعله حيث يشاء»، قال: فتجعلني على الوبر وأنت على المدر، قال: «لا»، قال: فماذا تجعل لي؟ قال: «أجعل لك أعنّة الخيل تغزو عليها»، قال: أو ليس ذلك لي اليوم قم معي أكلمك، فقام معه رسول الله ﷺ وكان عامر أوصى إلى أربد بن ربيعة إذا رأيتني أكلمه فدر من خلفه فاضربه بالسيف، فجعل يخاصم رسول الله ﷺ ويراجعه فدار أربد خلف النبي ﷺ ليضربه بالسيف فاخترط من سيفه شبراً ثم حبسه الله عنه فلم يقدر على سلّه وجعل عامر يومىء إليه فالتفت رسول الله ﷺ فرأى أربد وما صنع بسيفه، فقال: «اللّهمّ اكفنيهما بما شئت، فأرسل الله على أربد صاعقة في يوم صحو قائظ فأحرقته وولّى عامر هارباً وقال: يا محمد دعوت ربك فقتل أربد والله لاملأنها عليك خيلاً جرداً وفتياناً مرداً، فقال النبي ﷺ: «يمنعك الله تعالى من ذلك»، وابنا قيلة، يريد الأوس والخزرج، فنزل عامر بيت امرأة سلولية فلما أصبح ضمّ عليه سلاحه وقد تغير لونه فجعل يركض في الصحراء، ويقول: ابرز يا ملك الموت، ويقول الشعر ويقول واللات لئن أبصرت محمداً وصاحبه يعني ملك الموت لأنفذتهما برمحي، فأرسل الله ملكاً فلطمه بجناحه فأرداه في التراب وخرجت على ركبتيه في الوقت غدّة

ظهره، وأجاب الله عز وجل دعاء رسول الله ﷺ في عامر بن الطفيل فمات بالطعن، وأربد بن ربيعة مات بالصاعقة وأنزل الله عز وجل في شأن هذه القصة سواء منكم من أسر القول، ومن جهر به إلى قوله له معقبات من بين يديه، ومن خلفه يعني لرسول الله ﷺ معقبات يحفظونه من بين يديه، ومن خلفه من أمر الله أي بأمر الله وقيل: إن تلك المعقبات من أمر الله، وفيه تقديم وتأخير تقديره له معقبات من أمر الله يحفظونه من بين يديه ومن خلفه، وقوله ﴿**إن الله لا يغير ما بقوم**﴾ خطاب لهذين عامر بن الطفيل وأربد بن ربيعة، يعني لا يغير ما بقوم من العافية والنعمة التي أنعم بها عليهم ﴿**حتى يغيروا ما بأنفسهم**﴾ يعني: من الحالة الجميلة فيعصون ربهم، ويجحدون نعمه عليهم فعند ذلك تحل نقمته بهم، وهو قوله تعالى ﴿**وإذا أراد الله بقوم سوءاً**﴾ يعني هلاكاً وعذاباً ﴿**فلا مرد له**﴾ يعني لا يقدر أحد أن يرد ما أنزل الله بهم من قضائه وقدره ﴿**وما لهم من دونه من وال**﴾ يعني وليس لهم من دون الله من وال يلي أمرهم ونصرهم ويمنع العذاب عنهم قوله عز وجل:

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَـٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴿١٣﴾﴾

﴿**هو الذي يريكم البرق خوفاً وطمعاً**﴾ لما خوف الله عز وجل عباده بقوله: وإذا أراد الله بقوم سوءاً ذكر في هذه الآية من عظيم قدرته ما يشبه النعم من وجه يشبه العذاب من وجه، فقال تعالى: هو الذي يعني هو الذي يريكم البرق والبرق معروف، وهو لمعان يظهر من خلال السحاب وفي كونه خوفاً وطمعاً وجوه: **الأول** إن عند لمعان البرق يخاف من الصواعق، ويطمع في نزول المطر. **الثاني**: أنه يخاف من البرق من يتضرر بالمطر كالمسافر ومن في جرينه يعني بيدره التمر والزبيب والقمح ونحو ذلك، ويطمع فيه من له في نزول المطر نفع كالزارع ونحوه. **الثالث**: أن المطر يخاف منه إذا كان في غير مكانه وزمانه، ويطمع فيه إذا كان في مكانه وزمانه فان من البلاد ما إذا أمطرت قحطت وإذا لم تمطر أخصبت ﴿**وينشىء السحاب الثقال**﴾ يعني المطر. يقال: أنشأ الله السحابة فنشأت أي أبداها فبدت والسحاب جمع سحابة، والسحاب غربال الماء، قاله علي بن أبي طالب رضي الله عنه. وقيل: السحاب الغيم فيه ماء أو لم يكن فيه ماء. ولهذا قيل: سحاب جهام وهو الخالي من الماء وأصل السحب الجر وسمي السحاب سحاباً إما لجر الريح له

عظيمة، فعاد إلى بيت السلولية وهو يقول: غدّة كغدّة البعير وموت في بيت سلولية، ثم دعا بفرسه فركبه ثم أجراه حتى مات على ظهره فأجاب الله دعاء رسول الله ﷺ فقتل عامر بالطعن وأربد بالصاعقة، وأنزل الله عزّ وجلّ في هذه القصة قوله: ﴿ **سواء منكم مَن أسرّ القول ومَن جهر به ومَن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار له معقبات من بين يديه** ﴾، يعني لرسول الله ﷺ معقبات يحفظونه من بين يديه ومن خلفه من أمر الله، يعني تلك المعقبات من أمر الله، وفيه تقديم وتأخير، وقال لهذين: ﴿ **إنّ اللّهَ لا يُغيّر ما بقوم** ﴾، من العافية والنعمة، ﴿ **حتى يُغيّروا ما بأنفسهم** ﴾، من الحال الجميلة فيعصوا ربهم، ﴿ **وإذا أراد الله بقوم سوءاً** ﴾، أي: عذاباً وهلاكاً ﴿ **فلا مردّ له** ﴾ أي: لا رادّ له، ﴿ **وما لهم من دونه من والٍ** ﴾، أي: ملجأ يلجؤون إليه، وقيل: والٍ يلي أمرهم ويمنع العذاب عنهم.

قوله: ﴿ **هو الذي يُريكم البرقَ خوفاً وطمعاً** ﴾، قيل: خوفاً من الصاعقة طمعاً في نفع المطر، وقيل: الخوف للمسافر يخاف منه الأذى أو المشقّة والطمع للمقيم يرجو منه البركة والمنفعة. وقيل: الخوف من المطر في غير مكانه وأبانه والطمع إذا كان في مكانه وأبانه ومن البلدان ما إذا مطروا قحطوا وإذا لم يمطروا أخصبوا. ﴿ **وينشىء**

أو لجره الماء أو لانجراره في سيره ﴿ويسبح الرعد بحمده﴾ أكثر المفسرين على أن الرعد اسم للملك الذي يسوق السحاب، والصوت المسموع منه تسبيحه. وأورد على هذا القول ما عطف عليه. وهو قوله ﴿والملائكة من خيفته﴾ وإذا كان المعطوف مغايراً للمعطوف عليه وجب أن يكون غيره. وأجيب عنه أنه لا يبعد أن يكون الرعد اسماً لملك من الملائكة وإنما أفرده بالذكر تشريفاً له على غيره من الملائكة، فهو كقوله: وملائكته وجبريل وميكال. قال ابن عباس: أقبلت يهود إلى رسول الله ﷺ فقالوا أخبرنا عن الرعد ما هو قال: «ملك من الملائكة موكل بالسحاب معه مخاريق من نار يسوقه بها حيث يشاء الله» قالوا فما هذا الصوت الذي يسمع؟ قال: «زجره السحاب حتى تنتهي حيث أمرت» قالوا صدقت. أخرجه الترمذي مع زيادة فيه. المخاريق: جمع مخراق، وهو في الأصل ثوب يلف ويضرب به الصبيان بعضهم بعضاً، وأراد به هنا آلة تزجر بها الملائكة السحاب. وقد جاء تفسيره في حديث آخر وهو صوت[1] من نور تزجر الملائكة به السحاب، قال ابن عباس: من سمع صوت الرعد فقال: سبحان من يسبح الرعد بحمده، والملائكة من خيفته وهو على كل شيء قدير. فإن أصابه صاعقة فعلي ديته، وكان عبد الله بن الزبير إذا سمع الرعد ترك الحديث، وقال: سبحان من يسبح الرعد بحمده، والملائكة من خيفته وكان يقول إن الوعيد لأهل الأرض شديد. وفي بعض الأخبار أن الله تعالى يقول: «لو أن عبادي أطاعوني لسقيتهم المطر بالليل وأطلعت عليهم الشمس بالنهار، ولم أسمعهم صوت الرعد» وروى جويبر عن الضحاك عن ابن عباس أنه قال: الرعد ملك موكل بالسحاب يصرفه إلى حيث يؤمر، وإن بحور الماء في نقرة إبهامه، وإنه يسبح الله فإذا سبح لا يبقى ملك في السماء إلا رفع صوته بالتسبيح فعندها ينزل المطر، وقيل: إن الرعد اسم لصوت الملك الموكل بالسحاب، ومع ذلك فإن صوت الرعد يسبح الله عز وجل لأن التسبيح والتقديس عبارة عن تنزيه لله عز وجل عن جميع النقائص، ووجود هذا الصوت المسموع من الرعد وحدوثه دليل على وجود موجود خالق قادر متعال عن جميع النقائص، وإن لم يكن ذلك في الحقيقة تسبيحاً ومنه قوله: وإن من شيء إلا يسبح بحمده وقيل المراد من تسبيح الرعد أن من سمعه سبح الله فلهذا المعنى أضيف التسبيح إليه، وقوله والملائكة من خيفته يعني ويسبح الملائكة من خيفة الله عز وجل وهيبته وخشيته،

السحاب الثقال﴾، بالمطر. يقال: أنشأ الله السحابة فنشأت أي أبداها فبدت، والسحب جمع واحدتها سحابة، قال علي رضي الله عنه: السحاب غربال الماء.

﴿ويسبِّحُ الرعدُ بحمده﴾، أكثر المفسّرين على أن الرعد اسم ملك يسوق السحاب والصوت المسموع منه تسبيحه، قال ابن عباس: مَن سمع صوت الرعد فقال سبحان الذي يسبّح الرعد بحمده والملائكة من خيفته وهو على كل شيء قدير فإن أصابته صاعقة فعلى ديته وعن عبد الله بن الزبير: أنه كان إذا سمع صوت الرعد ترك الحديث وقال سبحان مَن يسبّح الرعد بحمده والملائكة من خيفته، ويقول: إن هذا الوعيد لأهل الأرض شديد، وفي بعض الأخبار يقول الله تعالى: «لو أن عبادي أطاعوني لسقيتهم المطر بالليل وأطلعت عليهم الشمس بالنهار ولم أُسمعهم صوت الرعد» وقال جويبر عن الضحاك عن ابن عباس: الرعد ملك موكل بالسحاب يصرفه إلى حيث يؤمر وأن بحور الماء في نقرة إبهامه وأنه يسبّح الله تعالى فإذا سبّح لا يبقى ملك في السماء إلّا رفع صوته بالتسبيح فعندها ينزل المطر. **﴿والملائكة من خيفته﴾**، أي: تسبّح الملائكة من خيفة الله عزّ وجلّ وخشيته. وقيل: أراد بهؤلاء الملائكة أعوان الرعد جعل الله تعالى له أعواناً فهم خائفون خاضعون طائعون. قوله تعالى: **﴿ويرسلُ الصواعق﴾**، جمع صاعقة وهي العذاب المُهلِك ينزل من البرق فيحرق مَن يصيبه، **﴿فيصيبُ بها مَن يشاء﴾**، كما أصاب أربد بن ربيعة قال محمد بن علي الباقر: الصاعقة تصيب المسلم

---

(١) قوله صوت لعله سوط كما يقتضيه السياق اهـ مصححة.

وقيل: المراد بهذه الملائكة أعوان السحاب جعل الله عز وجل مع الملك الموكل بالسحاب أعواناً من الملائكة، وهم خائفون خاضعون طائعون. وقيل: المراد بهم جميع الملائكة وحمله على العموم أولى ﴿ويرسل الصواعق﴾ جمع صاعقة، وهي العذاب النازل من البرق فيحترق من تصيبه وقيل: هي الصوت الشديد النازل من الجو ثم يكون فيه نار أو عذاب أو موت وهي في ذاتها شيء واحد، وهذه الأشياء الثلاثة تنشأ منها ﴿فيصيب بها﴾ يعني بالصواعق ﴿من يشاء﴾ يعني فيهلك بها كما أصاب أربد بن ربيعة. قال محمد الباقر: الصاعقة تصيب المسلم وغير المسلم ولا تصيب الذاكر ﴿وهم يجادلون في الله﴾ يعني يخاصمون في الله. وقيل: المجادلة المفاوضة على سبيل المنازعة والمغالبة، وأصله من جدلت الحبل إذا أحكمت فتله نزلت في شأن أربد بن ربيعة حين قال للنبي ﷺ: مم ربك أمن درأم من ياقوت أم من ذهب فنزلت صاعقة من السماء فأحرقته. وسئل الحسن عن قوله: ويرسل الصواعق الآية فقال: كان رجل من طواغيت العرب بعث إليه النبي ﷺ نفراً من أصحابه يدعونه إلى الله، وإلى رسوله فقال لهم: أخبروني عن رب محمد هذا الذي تدعونني إليه، هل هو من ذهب أو فضة أو حديد أو نحاس؟ فاستعظم القوم كلامه فانصرفوا إلى النبي ﷺ فقالوا يا رسول الله ما رأينا رجلاً أكفر قلباً ولا أعتى على الله منه. فقال: ارجعوا إليه فرجعوا فلم يزدهم على مقالته الأولى شيئاً بل قال: أأجيب محمداً إلى رب لا أراه ولا أعرفه فانصرفوا إلى رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله ما زادنا على مقالته الأولى شيئاً بل أخبث. فقال: ارجعوا إليه فرجعوا إليه فبينما هم عنده يدعونه وينازعونه، وهو لا يزيدهم على مقالته شيئاً إذ ارتفعت سحابة فكانت فوق رؤوسهم، فرعدت وبرقت ورمت بصاعقة فأحرقت الكافر، وهم جلوس عنده فرجعوا ليخبروا النبي ﷺ فلما رجعوا استقبلهم نفر من أصحاب النبي ﷺ فقالوا لهم: احترق صاحبكم قالوا: من أين علمتم ذلك؟ قالوا قد أوحى الله إلى النبي ﷺ ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء وهم يجادلون في الله. واختلفوا في هذه الواو، فقيل: واو الحال فيكون المعنى فيصيب بها من يشاء في حال جداله في الله وذلك أن أربد لما جادل في الله، أهلكه الله بالصاعقة، وقيل: إنها واو الاستئناف فيكون المعنى أنه تعالى لما تمم ذكر الدلائل قال: بعد ذلك وهم يجادلون في الله ﴿وهو شديد المحال﴾ أي شديد الأخذ بالعقوبة، من قولهم يمحل به محلاً إذا أراد به سوءاً، وقيل: هو من قولهم يمحل به إذا سعى به إلى السلطان وعرضه للهلاك وتمحل إذا تكلف استعمال الحيلة، واجتهد فيه فيكون المعنى أنه سبحانه وتعالى شديد المحال بأعدائه حتى يهلكهم بطريق لا يعرفونه ولا يتوقعونه. وقيل: المحل من المحول وهو الحيلة، والميم زائدة ثم اختلفت عبارات المفسرين في معنى قوله

وغير المسلم ولا تصيب الذاكر، ﴿ وهم يجادلون ﴾، يخاصمون، ﴿ في الله ﴾، نزلت في شأن أربد بن ربيعة حيث قال للنبي ﷺ: ممَّ ربك أمن دُرّ أم من ياقوت أم من ذهب؟ فنزلت صاعقة من السماء فأحرقته. وسُئل الحسن عن قوله عزّ وجلّ: ﴿ ويرسل الصواعق ﴾ الآية، قال: كان رجل من طواغيت العرب بعث إليه النبي ﷺ نفراً يدعونه إلى الله ورسوله فقال لهم: أخبروني عن رب محمد هذا الذي تدعونني إليه ممَّ هو من ذهب أو فضة أو حديد أو نحاس، فاستعظم القوم مقالته فانصرفوا إلى النبي ﷺ فقالوا: يا رسول الله ما رأينا رجلاً أكفر قلباً ولا أعتى على الله منه، فقال: «ارجعوا إليه» فرجعوا إليه فجعل لا يزيدهم على مثل مقالته الأولى، وقال: أُجيب محمداً إلى رب لا أراه ولا أعرفه فانصرفوا وقالوا: يا رسول الله ما زادنا على مقالته الأولى وأخبث فقال: «ارجعوا إليه» فرجعوا إليه فبينما هم جلوس عنده ينازعونه ويدعونه وهو يقول هذه المقالة إذ ارتفعت سحابة فكانت فوق رؤوسهم فرعدت وبرقت ورمت بصاعقة فاحترق الكافر وهم جلوس، فجاؤوا يسعون ليخبروا رسول الله ﷺ فاستقبلهم قوم من أصحاب النبي ﷺ فقالوا لهم: احترق صاحبكم، فقالوا: من أين علمتم؟ فقالوا: أوحى الله إلى النبي ﷺ ﴿ ويرسل الصواعق فيصيب بها مَن يشاء وهم يجادلون في الله ﴾، ﴿ وهو شديد المحال ﴾، قال علي رضي الله

شديد المحال فقال الحسن: معناه شديد النقمة. وقال مجاهد وقتادة: شديد القوة. وقال ابن عباس: شديد الحول. وقيل شديد العقوبة وقيل معناه شديد الجدال. وذلك أنه لما أخبر عنهم أنهم يجادلون في الله أخبر أنه أشد جدالاً منهم. قوله تعالى:

﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ ۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿١٤﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ۩ ﴿١٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾﴾

﴿له دعوة الحق﴾ يعني لله دعوة الصدق، قال على دعوة الحق التوحيد، وقال ابن عباس: شهادة أن لا إله إلا الله. قال صاحب الكشاف دعوة الحق فيها وجهان أحدهما أن تضاف الدعوة إلى الحق الذي هو نقيض الباطل كما تضاف الكلمة إليه في قولك كلمة الحق. للدلالة على أن الدعوة ملابسة للحق مختصة به، وأنها بمعزل من الباطل؛ والمعنى أن الله تعالى يدعى فيستجيب الدعوة ويعطي الداعي سؤله إن كان مصلحة له فكانت دعوة ملابسة للحق لكونه حقيقاً بأن يوجه إليه الدعاء لما في دعوته من الجدوى والنفع بخلاف ما لا نفع فيه ولا جدوى فيرد دعاءه. الثاني أن تضاف إلى الحق الذي هو الله على معنى دعوة المدعو الحق الذي يسمع فيجيب، وعن الحسن: الله هو الحق وكل دعاء إليه دعوة الحق. فإن قلت: ما وجه اتصال هذين الوصفين بما قبلهما. قلت: أما على قصة أربد فظاهر لأن إصابته بالصاعقة كانت بدعوة رسول الله ﷺ فإنه دعا عليه وعلى صاحبه عامر بن الطفيل فأجيب فيهما فكانت الدعوة دعوة حق، وأما على قوله وهم يجادلون في الله فوعيد للكفار على مجادلتهم رسول الله ﷺ، وإجابة دعائه إن دعا عليهم. وقيل في معنى الآية: الدعاء بالإخلاص، والدعاء الخالص لا يكون إلا لله تعالى ﴿والذين يدعون من دونه﴾ يعني والذين يدعونهم آلهة من دون الله، وهي الأصنام التي يعبدونها ﴿لا يستجيبون لهم بشيء﴾ يعني لا يجيبونهم بشيء يريدونه من نفع أو دفع ضرر إن دعوهم ﴿إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه﴾ يعني إلا استجابة كاستجابة الماء لمن بسط كفيه إليه، يطلب منه أن يبلغ فاه والماء جماد لا يشعر ببسط كفيه، ولا بعطشه ولا يقدر أن يجيب دعاءه أو يبلغ فاه، وكذلك ما يدعونه جماد لا يحس بدعائهم ولا يستطيع إجابتهم، ولا يقدر على نفعهم. وقيل: شبههم في قلة جدوى دعائهم لآلهتهم بمن أراد أن يغرف الماء بيديه ليشربه فيبسطهما ناشراً أصابعه فلم تلق

عنه: شديد الأخذ. وقال ابن عباس: شديد الحول. وقال الحسن: شديد الحقد. وقال مجاهد: شديد القوة. وقال أبو عبيدة: شديد العقوبة. وقيل: شديد المكر. والمحال والمماحلة المماكرة والمغالبة.

﴿ له دعوةُ الحق ﴾ أي: لله دعوة الصدق. قال رضي الله عنه: دعوة الحق التوحيد. وقال ابن عباس: شهادة أن لا إله إلاّ الله. وقيل: الدعاء بالإخلاص والدعاء الخالص لا يكون إلاّ لله عزّ وجلّ. ﴿ والذين يدعون من دونه ﴾، أي: يعبدون الأصنام من دون الله تعالى. ﴿ لا يستجيبون لهم بشيء ﴾، أي: لا يجيبونهم بشيء يريدونه من نفع أو دفع ضر، ﴿ إلاّ كباسط كفّيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه ﴾، أي: إلاّ كباسط كفّيه ليقبض على الماء

كفاه منه شيئاً، ولم يبلغ طلبته من شربه وقيل إن القابض على الماء ناشراً أصابعه لا يكون في يده منه شيء، ولا يبلغ إلى فيه منه شيء كذلك الذي يدعو الأصنام لأنها لا تضر ولا تنفع ولا يفيده منها شيء. وقيل شبه: بالرجل العطشان الذي يرى الماء من بعيد بعينيه، فهو يشير بكفيه إلى الماء ويدعوه بلسانه فلا يأتيه أبداً هذا معنى قول مجاهد، وعن عطاء كالعطشان الجالس على شفير البئر وهو يمد يديه إلى البئر فلا هو يبلغ إلى قعر البئر ليخرج الماء، ولا الماء يرتفع إليه فلا ينفعه بسطه الكف إلى الماء ودعاؤه له، ولا هو يبلغ فاه كذلك الذي يدعون الأصنام لا ينفعهم ذلك. وقال ابن عباس: كالعطشان إذا بسط كفيه في الماء لا ينفعه ذلك ما لم يغرف بهما من الماء ولا يبلغ الماء فاه مادام باسط كفيه، وهذا مثل ضربه الله تعالى للكفار ودعائهم الأصنام حين لا ينفعهم البتة ثم ختم هذا بقوله ﴿**وما دعاء الكافرين**﴾ يعني أصنامهم ﴿**إلا في ضلال**﴾ يعني يضل عنهم إذا احتاجوا إليه، قال ابن عباس في هذه الآية أصواتهم محجوبة عن الله تعالى. قوله عز وجل ﴿**ولله يسجد من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً**﴾ في معنى هذا السجود قولان: **أحدهما** أن المراد منه السجود على الحقيقة وهو وضع الجبهة على الأرض، ثم على هذا القول ففي معنى الآية وجهان **أحدهما** أن اللفظ وإن كان عاماً إلا أن المراد منه الخصوص، فقوله: ولله يسجد من في السموات يعني الملائكة ومن في الأرض من الإنس يعني المؤمنين طوعاً وكرهاً، يعني من المؤمنين من يسجد لله طوعاً وهم المؤمنون المخلصون لله العبادة، وكرهاً يعني المنافقين الداخلين في المؤمنين وليسوا منهم فان سجودهم لله على كره منهم، لأنهم لا يرجون على سجودهم ثواباً ولا يخافون على تركه عقاباً بل سجودهم وعبادتهم خوف من المؤمنين. **الوجه الثاني**: هو حمل اللفظ على العموم، وعلى هذا ففي اللفظ إشكال، وهو أن جميع الملائكة والمؤمنين من الجن والإنس يسجدون لله طوعاً، ومنهم من يسجد كرهاً كما تقدم وأما الكفار من الجن والإنس، فلا يسجدون لله البتة فهذا وجه الإشكال. والجواب عنه أن المعنى أنه يجب على كل من في السموات ومن في الأرض أن يسجد لله، فعبر بالوجوب عن الوقوع والحصول. وجواب آخر وهو أن يكون المراد من هذا السجود هو الاعتراف بالعظمة والعبودية، وكل من في السموات من ملك ومن في الأرض من إنس وجن، فإنهم يقرون لله بالعبودية والتعظيم ويدل عليه قوله تعالى ﴿ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله﴾. **والقول الثاني**: في معنى هذا السجود هو الانقياد والخضوع وترك الامتناع فكل من في السموات والأرض ساجد لله بهذا المعنى، وهذا الاعتبار لأن قدرته ومشيئته نافذة في الكل فهم خاضعون منقادون له. وقوله تعالى ﴿**وظلالهم بالغدو والآصال**﴾ الغدوة والغداة أول النهار، وقيل: إلى نصف النهار والغدو بالضم من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس والآصال جمع أصل، وهو العشية والآصال العشايا

والقابض على الماء لا يكون في يده شيء ولا يبلغ إلى فِيْه منه شيء، كذلك الذي يدعو الأصنام وهي لا تضرّ ولا تنفع لا يكون بيده شيء. وقيل: معناه كالرجل العطشان الجالس على شفير بئر يمدّ يده إلى البئر فلا يبلغ قعر البئر إلى الماء ولا يرتفع إليه الماء فلا ينفعه بسط الكفّ إلى الماء ودعاؤه له، ولا هو يبلغ فاه كذلك الذين يدعون الأصنام لا ينفعهم نداؤها ودعاؤها، وهي لا تقدر على شيء، وعن ابن عباس: كالعطشان إذا بسط كفّيه إلى الماء لا ينفعه ذلك ما لم يغرف بهما الماء ولا يبلغ الماء فاه ما دام باسطاً كفّيه، مثلٌ ضربه الله لخيبة الكفار. ﴿ **وما دعاءُ الكافرين** ﴾، أصنامهم، ﴿ **إلّا في ضلال** ﴾، يضلّ عنهم إذا احتاجوا إليه كما قال: ﴿ وضلَّ عنهم ما كانوا يفترون ﴾ [الأنعام: ٢٤، الأعراف: ٥٣، يونس: ٣٠، هود: ٢١، النحل: ٨٧، القصص: ٧٥] وما كانوا يدعون وقال الضحاك عن ابن عباس: وما دعاء الكافرين ربهم إلّا في ضلال لأن أصواتهم محجوبة عن الله تعالى.

﴿ **ولله يسجد مَن في السمٰوات والأرض طوعاً** ﴾، يعني: الملائكة والمؤمنين، ﴿ **وكَرْهاً** ﴾، يعني: المنافقين والكافرين الذين أكرهوا على السجود بالسيف. ﴿ **وظلالهم** ﴾، يعني: ظلال الساجدين طوعاً وكرهاً

جمع عشية وهي ما بين صلاة العصر إلى غروب الشمس. قال المفسرون: إن ظل كل شخص يسجد لله ظل المؤمن والكافر. وقال مجاهد: ظل المؤمن يسجد لله طوعاً وهو طائع وظل الكافر يسجد لله كرهاً، وهو كاره. وقال الزجاج: جاء في التفسير أن الكافر يسجد لغير الله وظله يسجد لله. قال ابن الأنباري: ولا يبعد أن يخلق الله تعالى للظلال عقولاً وأفهاماً تسجد بها وتخشع كما جعل للجبال أفهاماً حتى سبحت لله مع داود، وقيل: المراد بسجود الظلال ميلانها من جانب إلى جانب آخر، وطولها وقصرها بسبب ارتفاع الشمس ونزولها، وإنما خص الغدو والآصال بالذكر لأن الظلال تعظم، وتكثر في هذين الوقتين، وقيل: لأنهما طرفا النهار فيدخل وسطه فيما بينهما.

فصل

وهذه السجدة من عزائم سجود التلاوة، فيسن للقارىء والمستمع أن يسجد عند قراءته واستماعه لهذه السجدة والله أعلم. قوله تعالى **﴿قل من رب السموات والأرض﴾** أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين الذين يعبدون غير الله من رب السموات والأرض، يعني من مالك السموات والأرض، ومن مدبرهما وخالقهما فسيقولون: الله لأنهم مقرون بأن الله خالق السموات وما فيها، والأرض، وما فيها فإن أجابوك بذلك فقل: أنت يا محمد الله رب السموات والأرض. وقيل: لما قال هذه المقالة للمشركين عطفوا عليه وقالوا أجب أنت فأمره الله أن يجيبهم بقوله **﴿قل الله﴾** أي قل يا محمد **﴿الله﴾** وقيل: إنما جاء السؤال والجواب من جهة واحدة لأن المشركين لا ينكرون أن الله خالق كل شيء، فلما لم ينكروا ذلك وأجاب النبي ﷺ بقوله الله فكأنهم قالوا ذلك أيضاً ثم ألزمهم الحجة على عبادتهم الأصنام بقوله **﴿قل﴾** أي قل يا محمد للمشركين **﴿أفأتخذتم من دونه﴾** يعني من دون الله **﴿أولياء﴾** يعني الأصنام والولي الناصر، والمعنى توليتم غير رب السموات والأرض واتخذتموهم أنصاراً يعني الأصنام **﴿لا يملكون﴾** يعني وهم لا يملكون **﴿لأنفسهم نفعاً ولا ضراً﴾** فكيف لغيرهم. ثم ضرب الله مثلاً للمشركين الذين يعبدون الأصنام وللمؤمنين الذين يعبدون الله. فقال تعالى **﴿قل هل يستوي الأعمى والبصير﴾** قال ابن عباس: يعني المشرك والمؤمن **﴿أم هل تستوي الظلمات والنور﴾** يعني الشرك والإيمان والمعنى كما لا يستوي الأعمى والبصير كذلك لا يستوي الكافر والمؤمن وكما لا تستوي الظلمات والنور كذلك لا يستوي الكفر والإيمان، وإنما شبه الكافر بالأعمى لأن الأعمى لا يهتدي سبيلاً، كذلك الكافر لا يهتدي سبيلاً **﴿أم جعلوا لله شركاء﴾** هذا استفهام إنكار يعني جعلوا لله شركاء **﴿خلقوا كخلقه﴾** يعني خلقوا سموات وأرضين وشمساً وقمراً وجبالاً وبحاراً وجناً وإنساً **﴿فتشابه الخلق عليهم﴾** من هذا الوجه، والمعنى

تسجد لله عزّ وجلّ طوعاً. قال مجاهد: ظل المؤمن يسجد طوعاً وهو طائع، وظل الكافر يسجد طوعاً وهو كاره. **﴿ بالغدوّ والآصال ﴾**، يعني إذا سجد بالغدو والعشي يسجد معه ظله، والآصال: جمع الأصل والأصل جمع الأصيل وهو ما بين العصر إلى غروب الشمس. وقيل: ظلالهم أي: أشخاصهم بالغدو والآصال بالبكر والعشايا. وقيل: سجود الظل تذليله لما أُريد له.

قوله تعالى: **﴿ قلْ مَنْ ربُّ السمٰواتِ والأرض ﴾**، أي خالقهما ومدبرهما فسيقولون الله، إنهم يقرّون بأن الله خالقهم وخالق السمٰوات والأرض إذا أجابوك فقل أنت أيضاً يا محمد: الله. ورُوِيَ أنه لمّا قال هذا للمشركين عطفوا عليه فقالوا: أجب أنت، فأمره الله عزّ وجلّ فقال: **﴿ قلْ ﴾**، أنت يا محمد، **﴿ الله ﴾**، ثم قال الله لهم إلزاماً للحجة: **﴿ قلْ أفاتخذتم من دُونه أولياءَ ﴾**، معناه: إنكم مع إقراركم بأن الله خالق السمٰوات والأرض اتخذتم من دونه أولياء فعبدتموها من دون الله، يعني: الأصنام، وهم **﴿ لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضَرّاً ﴾**، فكيف يملكون لكم؟ ثم ضرب لهم مثلاً فقال: **﴿ قلْ هلْ يستوي الأعمى والبصير ﴾**، كذلك لا يستوي الكافر والمؤمن، **﴿ أمْ هلْ**

هل رأوا غير الله خلق شيئاً فاشتبه عليهم خلق الله بخلق غيره، وقيل: إنه تعالى وبخهم بقوله أم جعلوا لله شركاء خلقوا خلقاً مثل خلقه فتشابه خلق الشركاء بخلق الله عندهم، وهذا استفهام إنكاري أي ليس الأمر كذلك حتى يشتبه عليهم الأمر، بل إذا تفكروا بعقولهم وجدوا الله تعالى هو المنفرد بخلق سائر الأشياء والشركاء مخلوقون له أيضاً لا يخلقون شيئاً حتى يشتبه خلق الله بخلق الشركاء، وإذا كان الأمر كذلك فقد لزمتهم الحجة، وهو قوله تعالى ﴿**قل الله خالق كل شيء**﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين الله خالق كل شيء مما يصح أن يكون مخلوقاً، وقوله الله خالق كل شيء من العموم الذي يراد به الخصوص لأن الله تعالى خلق كل شيء وهو غير مخلوق ﴿**وهو الواحد**﴾ يعني والله تعالى هو الواحد المنفرد بخلق الأشياء كلها ﴿**القهار**﴾ لعباده حتى يدخلهم تحت قضائه وقدره وإرادته. وقوله عز وجل: ﴿**أنزل من السماء ماء**﴾ لما شبه الله عز وجل الكافر بالأعمى والمؤمن بالبصير وشبه الكفر بالظلمات، والإيمان بالنور ضرب لذلك مثلاً فقال تعالى: أنزل من السماء ماء يعني المطر ﴿**فسالت أودية بقدرها**﴾ أودية جمع واد وهو المفرج بين الجبلين يسيل فيها الماء وقوله: فسالت أودية فيه اتساع، وحذف تقديره فسال في الوادي فهو كما يقال جري النهر والمراد جرى الماء في النهر فحذف في لدلالة الكلام عليه بقدرها. قال مجاهد بمثلها وقال ابن جريج: الصغير بقدره والكبير بقدره، وقيل: بمقدار مائها وإنما نكر أودية لأن المطر إذا نزل لا يعم جميع الأرض، ولا يسيل في كل الأودية بل ينزل في أرض دون أرض ويسيل في واد دون وادٍ. فلهذا السبب جاء هذا بالتنكير. وقال ابن عباس: أنزل من السماء ماء يعني قرآناً وهذا مثل ضربه الله تعالى فسالت أودية بقدرها يريد بالأودية القلوب شبه نزول القرآن الجامع للهدى والنور، والبيان بنزول المطر لأن المطر إذا نزل عمّ نفعه وكذلك نزول القرآن وشبه القلوب بالأودية، لأن الأودية يستكن فيها الماء وكذلك القلوب يستكن فيها الإيمان والعرفان ببركة نزول القرآن فيها، وهذا خاص بالمؤمنين لأنهم الذين انتفعوا بنزول القرآن (ق) عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «إن مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضاً فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكان منها أجادب أمسكت الماء نفع الله بها الناس، فشربوا منها وسقوا ورعوا، وأصاب طائفة منها أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فتعلم، وعلم ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به» قال الشيخ محيي الدين النووي رحمه الله، وغيره في معنى هذا الحديث وشرحه أما الكلأ فباغمز يقع على الرطب واليابس من الحشيش، وأما قوله وكان منها أجادب فالجيم والدال المهملة والباء الموحدة كذا في الصحيحين، وهي الأرض التي لا تنبت الكلأ جمع جدب على غير قياس وقياسه

تستوي ﴾، قرأ حمزة والكسائي وأبو بكر «يستوي» بالياء، وقرأ الآخرون بالتاء لأنه لا حائل بين الفعل والمؤنث. ﴿ **الظلمات والنور** ﴾، أي: كما لا يستوي الظلمات والنور لا يستوي الكفر والإيمان. ﴿ **أم جعلوا** ﴾، أي: جعلوا، ﴿ **لله شركاءَ خلقوا كخلقه فتشابه به الخلقُ عليهم** ﴾، أي: اشتبه ما خلقوه بما خلقه الله تعالى فلا يدرون ما خلق الله وما خلق آلهتهم ﴿ **قلِ اللَّهُ خالقُ كلِّ شيءٍ وهو الواحدُ القهارُ** ﴾، ثم ضرب الله تعالى مثلين للحق والباطل.

فقال عزّ وجلّ: ﴿ **أنزل** ﴾ يعني الله عزّ وجلّ، ﴿ **من السماء ماءً** ﴾، يعني المطر، ﴿ **فسالتْ** ﴾، من ذلك الماء، ﴿ **أوديةٌ بقدرها** ﴾، أي: في الصغر والكبر، ﴿ **فاحتمل السيلُ** ﴾، الذي حدث من ذلك الماء، ﴿ **زبداً رابياً** ﴾، الزبد الخبث الذي يظهر على وجه الماء، وكذلك على وجه القدر، رابياً أي عالياً مرتفعاً فوق الماء فالماء الصافي الباقي هو الحق، والذاهبِ الزائل الذي يتعلق بالأشجار وجوانب الأودية هو الباطل. وقيل: قوله أنزل من السماء ماء هذا مثل للقرآن والأودية مثل للقلوب يريد ينزل القرآن، فتحتمل منه القلوب على قدر اليقين والعقل

أجدب، والجدب ضد الخصب. وقال الخطابي: هي التي تمسك الماء ولم يسرع فيه النضوب وفي رواية الهروي أخاذات بالخاء المعجمة والذال المعجمة جمع آخاذة وهي الغدير الذي يمسك الماء، وقوله: ورعوا كذا هو في صحيح مسلم من الرعي، ووقع في صحيح البخاري وزرعوا بزيادة زاي من الزرع والقيعان بكسر القاف جمع قاع وهو المستوي من الأرض، وقوله: فذلك مثل من فقه في دين الله يروى بضم القاف وهو المشهور وروي بكسرها ومعناه فهم الأحكام وأما معنى الحديث ومقصوده فهو أن النبي ﷺ ضرب مثلاً لما جاء به من الهدى، والعلم بالأرض التي أصابها المطر. قال العلماء: والأرض ثلاثة أنواع وكذلك الناس لأنهم منها خلقوا، فالنوع الأول من أنواع الأرض الطيبة التي تنتفع بالمطر فتنبت به العشب فينتفع الناس به والدواب بالشرب والرعي وغير ذلك وكذلك النوع الأول من الناس من يبلغه الهدى من غير ذلك من العلم فيحيا به قلبه ويحفظه ويعمل به ويعلمه غيره فينتفع به وينفع غيره. قال مسروق: صحبت أصحاب رسول الله ﷺ فوجدتهم كالأخاذات لأن قلوبهم كانت واعية فصارت أوعية للعلوم بما رزقت من صفاء الفهوم. النوع الثاني من أنواع الأرض: أرض لا تقبل الانتفاع في نفسها لكن فيها فائدة لغيرها، وهي إمساك الماء لغيرها لينتفع به الناس والدواب وكذا النوع الثاني من الناس لهم قلوب حافظة، لكن ليس لهم أفهام ثاقبة فيبقى ما عندهم من العلم حتى يجيء المحتاج إليه المتعطش لما عندهم من العلم فيأخذه منهم فينتفع به هو وغيره، النوع الثالث: من أنواع الأرض أرض سبخة لا تنبت مرعى ولا تمسك ماء كذلك النوع الثالث من الناس ليس لهم قلوب حافظة، ولا أفهام ثاقبة فإذا بلغهم شيء من العلم لا ينتفعون به في أنفسهم ولا ينفعون غيرهم والله أعلم. وقوله تعالى ﴿**فاحتمل السيل زبداً**﴾ الزبد ما يعلو على وجه الماء عند الزيادة، كالحبب وكذلك ما يعلو على القدر عند غليانها والمعنى فاحتمل السيل الذي حدث من ذلك الماء زبداً ﴿**رابياً**﴾ يعني عالياً مرتفعاً فوق الماء طافياً عليه، وهاهنا تم المثل ثم ابتدأ بمثل آخر فقال تعالى ﴿**ومما يوقدون عليه في النار**﴾ الايقاد جعل الحطب في النار لتتقد تلك النار تحت الشيء ليذوب ﴿**ابتغاء حلية**﴾ يعني لطلب زينة، والضمير في قوله عليه يعود على الذهب والفضة، وإن لم يكونا مذكورين لأن الحلية لا تطلب إلا منهما ﴿**أو متاع**﴾ يعني أو لطلب متاع آخر مما ينتفع به كالحديد والنحاس والرصاص ونحوه مما يذاب وتتخذ منه الأواني وغيرها مما ينتفع له، والمتاع كل ما ويتمتع به. ويقال لكل ما ينتفع به في البيت كالطبق والقدر ونحو ذلك من الأواني: متاع ﴿**زبد مثله**﴾ يعني أن ذلك الذي يوقد عليه في النار إذا أذيب، فله أيضاً زبد مثل زبد الماء فالصافي من الماء ومن هذه الجواهر هو الذي ينتفع به وهو مثل الحق. والزبد من الماء ومن هذه الجواهر هو الذي لا ينتفع به، وهو مثل الباطل وهو قوله تعالى ﴿**كذلك يضرب الله الحق والباطل**﴾ فالحق هو الجوهر الصافي الثابت، والباطل هو الزبد الطافي الذي لا ينتفع به وهو قوله ﴿**فأما الزبد فيذهب جفاء**﴾ يعني

والشك والجهل، فهذا أحد المثلين والمثل الآخر قوله عزّ وجلّ: ﴿ **ومما يُوقدون عليه في النار** ﴾، قرأ حمزة والكسائي وحفص ﴿ **يوقدون** ﴾ بالياء لقوله تعالى: ﴿ **ما ينفع الناس** ﴾، ولا مخاطبة ههنا، قرأ الآخرون بالتاء «ومما توقدون»، أي: ومن الذي توقدون عليه النار، والإيقاد جعل النار تحت الشيء ليذوب، ﴿ **ابتغاءَ حِلْيةٍ** ﴾، أي لطلب زينة، وأراد الذهب والفضة لأن الحلية تطلب منهما، ﴿ **أو متاع** ﴾ أي: طلب متاع وهو ما ينتفع به، وذلك مثل الحديد والنحاس والرصاص، والصفر تُذاب فيُتّخذ منها الأواني وغيرها مما ينتفع بها، ﴿ **زبدٌ مثله كذلك يضرب الله الحقَّ والباطل**﴾، أي: إذا أُذيب فله أيضاً زبد مثل زبد الماء، فالباقي الصافي من هذه الجواهر مثل الحق، والزبد الذي لا ينتفع به مثل الباطل، ﴿ **فأمّا الزبد** ﴾، الذي علا السيل والفلز، ﴿ **فيذهب جفاءً** ﴾ أي: ضائعاً باطلاً، والجفاء ما رمى به الوادي من الزبد والقدر إلى جنباته، يقال: جفا الوادي وأجفأ إذا ألقى غثاءه، وأجفأت القدر وجفأت إذا غلت وألقت زبدها، فإذا سكنت لم يبقَ فيها شيء، معناه: **إن الباطل وإن علا في وقت**

ضائعاً باطلاً والجفاء ما رمى به الوادي من الزبد إلى جوانبه. وقيل: الجفاء المتفرق يقال جفأت الريح الغيم إذا فرقته والمعنى أن الباطل وإن علا في وقت فإنه يضمحل ويذهب ﴿وأما ما ينفع الناس﴾ يعني الماء الصافي والجوهر الجيد من هذه الأجسام التي تذاب ﴿فيمكث في الأرض﴾ يعني يثبت ويبقى ولا يذهب ﴿كذلك يضرب الله الأمثال﴾ قال أهل التفسير والمعاني: هذا مثل ضربه الله للحق والباطل. فالباطل وإن علا على الحق في بعض الأوقات والأحوال، فإن الله يمحقه ويبطله ويجعل العاقبة للحق وأهله كالزبد الذي يعلو على الماء فيذهب الزبد ويبقى الماء الصافي الذي ينتفع به، وكذلك الصفو من هذه الجواهر يبقى ويذهب العلو الذي هو الكدر، وهو ما ينفيه الكير مما يذاب من جواهر الأرض كذلك الحق والباطل. فالباطل وإن علا في وقت فإنه يذهب هو وأهله، والحق يظهر هو وأهله. وقيل: هذا مثل للمؤمن واعتقاده وانتفاعه بالإيمان كمثل الماء الصافي الذي ينتفع به الناس ومثل الكافر وخبث اعتقاده كالزبد الذي لا ينتفع به البتة. وقيل: هذا مثل ضربه الله للنور الذي يحصل في قلوب العباد على ما قسم لها في الأزل لأن الوادي إذا سال كنس كل شيء فيه من النجاسات والمستقذرات، كذلك إذا سال وادي قلب العبد بالنور الذي قسم له على قدر إيمانه ومعرفته كنس كل ظلمة وغفلة فيه، فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض يعني يذهب البواطل وهي الأخلاق المذمومة، وتبقى الحقائق وهي الأخلاق الحميدة كذلك يضرب الله الأمثال.
وقوله تعالى:

لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٨﴾ ۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾

﴿للذين استجابوا لربهم الحسنى﴾ قيل: اللام في للذين متعلقة بيضرب والمعنى كذلك يضرب الله الأمثال للمؤمنين الذي استجابوا لربهم يعني أجابوه إلى ما دعاهم إليه من توحيده والإيمان به وبرسوله وللكافرين الذين لم يستجيبوا، فعلى هذا يكون قوله كذلك يضرب الله الأمثال ثم للفريقين من المؤمنين والكافرين وقيل تم الكلام عند

فإنه يضمحل. وقيل: جُفَاءً أي: متفرقاً. يقال: جفأت الريح الغيم إذا فرّقته وذهبت به، ﴿ وأمّا ما ينفع الناس ﴾، يعني: الماء والفلز من الذهب والفضة والصفر والنحاس، ﴿ فيمكث في الأرض ﴾، أي: يبقى ولا يذهب، ﴿ كذلك يضرب الله الأمثال ﴾، جعل الله هذا مثالاً للحق والباطل، يعني: أن الباطل كالزبد يذهب ويضيع الحق كالماء والفلز يبقى في القلوب. وقيل: هذا تسلية للمؤمنين، يعني: أن أمر المشركين كالزبد يرى في الصورة شيئاً وليس له حقيقة، وأمر المؤمنين كالماء المستقر في مكانه له البقاء والثبات.

قوله تعالى: ﴿ للذين استجابوا ﴾، أجابوا، ﴿ لربِّهم ﴾، فأطاعوه، ﴿ الحُسْنَى ﴾ الجنة، ﴿ والذين لم يستجيبوا له لو أنّ لهم ما في الأرض جميعاً ومثله معه لافتدوا به ﴾، أي: لبذلوا ذلك يوم القيامة افتداءً من النار، ﴿ أولئك لهم سوء الحساب ﴾. قال إبراهيم النخعي: سوء الحساب أن يحاسب الرجل بذنبه كله لا يغفر له من شيء، ﴿ ومأواهم ﴾ في الآخرة ﴿ جهنّمُ وبئسَ المِهَاد ﴾، الفراش، أي: بئس ما مهد لهم.

قوله تعالى: ﴿ أفمن يعلم أن ما أُنزل إليك منْ ربِّك الحقُّ ﴾، فيؤمن به ويعمل بما فيه، ﴿ كمن هو أعمى ﴾، عنه لا يعلمه ولا يعمل به، قيل: نزلت في حمزة وأبي جهل. وقيل: في عمار وأبي جهل، فالأول حمزة

قوله كذلك يضرب الله الأمثال ثم استأنف بقوله للذين استجابوا لربهم الحسنى. قال ابن عباس وجمهور المفسرين: يعني الجنة. وقيل: الحسنى هي المنفعة العظمى في الحسن وهي المنفعة الخالصة الخالية عن شوائب المضرة والانقطاع ﴿**والذين لم يستجيبوا له**﴾ يعني الكبار الذين استمروا على كفرهم وشركهم وما كانوا عليه ﴿**لو أن لهم ما في الأرض جميعاً ومثله معه لافتدوا به**﴾ يعني لبذلوا ذلك كله فداء لأنفسهم من عذاب النار يوم القيامة ﴿**أولئك**﴾ يعني الذين لم يستجيبوا لربهم ﴿**لهم سوء الحساب**﴾ قال إبراهيم النخعي: سوء الحساب أن يحاسب الرجل بذنبه كله ولا يغفر له منه شيء ﴿**ومأواهم**﴾ يعني في الآخرة ﴿**جهنم وبئس المهاد**﴾ يعني وبئس ما مهد لهم في الآخرة، وقيل: المهاد الفراش يعني وبئس الفراش يفرش لهم في جهنم. قوله تعالى ﴿**أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق**﴾ يعني فيؤمن به ويعمل بما فيه ﴿**كمن هو أعمى**﴾ يعني أعمى البصيرة، لا أعمى البصر وهو الكافر فلا يؤمن بالقرآن ولا يعمل بما فيه قال ابن عباس رضي الله عنهما: نزلت في حمزة بن عبد المطلب عم النبي ﷺ وأبي جهل بن هشام. وقيل: نزلت في عمار بن ياسر وأبي جهل فالأول هو حمزة أو عمار والثاني هو أبو جهل وحمل الآية على العموم أولى، وإن كان السبب مخصوصاً، والمعنى: لا يستوي من يبصر الحق ويتبعه ومن لا يبصر الحق ولا يتبعه وإنما شبه الكافر والجاهل بالأعمى لأن الأعمى لا يهتدي لرشد، وربما وقع في مهلكة وكذلك الكافر والجاهل لا يهتديان للرشد وهما واقعان في المهلكة ﴿**إنما يتذكر أولو الألباب**﴾ يعني إنما يتعظ ذوو العقول السليمة الصحيحة، وهم الذين ينتفعون

أو عمار والثاني أبو جهل، وهو الأعمى، أي: لا يستوي مَن يبصر الحق ويتبعه ومَن لا يبصره ولا يتبعه. ﴿ **إنّما يتذكر** ﴾ يتعظ، ﴿ **أُولوا الألباب** ﴾. ذوو العقول.

﴿ **الذين يُوفون بعهد الله** ﴾، بما أمرهم الله تعالى به وفرضه عليهم فلا يخالفونه، ﴿ **ولا ينقضون الميثاق** ﴾، وقيل: أراد العهد الذي أخذه على ذرية آدم عليه السلام حين أخرجهم من صلبه.

﴿ **والذين يصلون ما أمر الله به أن يُوصل** ﴾، قيل: أراد به الإيمان بجميع الكتب والرسل ولا يفرقون بينهما، والأكثرون على أنه أراد به صلة الرحم. أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أبو منصور محمد بن محمد بن سمعان أنا أبو جعفر محمد بن أحمد بن عبد الجبار الرياني ثنا حميد بن زنجويه ثنا ابن أبي شيبة ثنا سفيان بن عيينة عن الزهري عن أبي سلمة أن عبد الرحمن بن عوف عاد أبا الدرداء فقال يعني عبد الرحمن سمعتُ رسولَ الله ﷺ فيما يحكي عن ربه عزّ وجلّ: «**أنا اللّهُ وأنا الرحمن خلقتُ الرحم وشققت لها من اسمي فمَن وصلها وصلتُه ومَن قطعها بتتُّه**» أخبرنا عبد الواحد المليحي أنبأنا أبو منصور السمعاني أنا أبو جعفر الرياني ثنا حميد بن زنجويه ثنا ابن أبي أُويس قال: حدّثني سليمان بن بلال عن معاوية بن أبي مزرد عن سعيد بن يسار عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**خلق الله الخلق فلما فرغ منه قامت الرحم فأخذت بحقوي الرحمن، فقال: مه، قالت: هذا مقام العائذ بك من القطيعة، قال: ألاَ ترضين أن أصل مَن وصلك وأقطع مَن قطعك؟ قالت: بلى يا رب، قال: فذاك لك**»، ثم قال أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم: ﴿ **فهل عسيتُم إن توليتم أن تُفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم** ﴾ [محمد: ٢٢]. أخبرنا عبد الواحد المليحي أنبأنا أبو منصور السمعاني أنبأنا أبو جعفر الرياني ثنا حميد بن زنجويه ثنا مسلم بن إبراهيم ثنا كثير بن عبد الله اليشكري ثنا الحسن بن عبد الرحمن بن عوف عن أبيه عن النبي ﷺ قال: «**ثلاثة تحت العرش يوم القيامة: القرآن يحاج العباد، له ظهر وبطن، والأمانة، والرحم تنادي ألاَ مَنْ وصلني وصله الله مَن قطعني قطعه الله**». أخبرنا عبد الواحد المليحي أنبأنا أبو منصور السمعاني أنا أبو جعفر الرياني أنا حميد بن زنجويه ثنا عبد الله بن صالح حدّثني الليث بن سعد حدّثني عقيل عن ابن شهاب أخبرني أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «**مَن أحبَّ أن يُبْسَطَ له في رزقه ويُنسأ له في أثره فليصلْ رحمه**». أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا

بالمواعظ والأذكار. قوله عز وجل ﴿الذين يوفون بعهد الله﴾ يعني الذي عاهدهم عليه وهو القيام بما أمرهم به، وفرضه عليهم وأصل العهد حفظ الشيء، ومراعاته حالاً بعد حال وقيل أراد بالعهد ما أخذه على أولاد آدم حين أخرجهم من صلبه، وأخذ عليهم العهد والميثاق ﴿ولا ينقضون الميثاق﴾ بل يوفون به فهو توكيد لقوله الذين يوفون بعهد الله ﴿والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل﴾ قال ابن عباس: يريد الإيمان بجميع الكتب والرسل يعني يصل بينهم بالإيمان ولا يفرق بين أحد منهم والأكثرون على أن المراد به صلة الرحم عن عبد الرحمن بن عوف. قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول «قال الله تبارك وتعالى: **أنا الله وأنا الرحمن خلقت الرحم وشققت لها اسماً من اسمي فمن وصلها وصلته ومن قطعها قطعته أو قال بتتته**» أخرجه أبو داود والترمذي (ق). عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ «الرحم معلقة بالعرش تقول من وصلني وصله الله ومن قطعني قطعه الله» (خ) عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «من سره أن يبسط له في رزقه وأن يُنسأ له في أثره فليصل رحمه» صلة الرحم مبرة الأهل والأقارب والإحسان إليهم وضده القطع، قوله: وان ينسأ له في أثره الأثر هنا الأجل سمي الأجل أثراً لأنه تابع للحياة وسابقها. ومعنى ينسأ: يؤخر والمراد به تأخير الأجل. وهو على وجهين: أحدهما أن يبارك الله في عمره فكأنما قد زاد فيه. والثاني أن يزيده في عمره زيادة حقيقية والله يفعل ما يشاء (ق) عن جبير بن مطعم أن رسول الله ﷺ قال «لا يدخل الجنة قاطع» في رواية سفيان يعني «قاطع رحم» (خ) عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول «ليس الواصل بالمكافىء الواصل من إذا قطعت رحمه وصلها» عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «تعلموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم فان صلة الرحم محبة في الأهل ومثراة في المال ومنسأة في الأثر» أخرجه الترمذي. وقوله تعالى: ﴿ويخشون ربهم﴾ يعني أنهم مع وفائهم بعهد الله وميثاقه والقيام بما أمر الله به من صلة الرحم يخشون ربهم، والخشية خوف يشوبه تعظيم وأكثر ما يكون ذلك عن علم بما يخشى منه ﴿ويخافون سوء الحساب﴾ تقدم معناه.

وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ

عبد الرحمن بن أبي شريح أنا أبو القاسم عبد الله بن محمد بن عبد العزيز البغوي ثنا علي بن الجعد ثنا شعبة عن عيينة بن عبد الرحمن قال: سمعت أبي يحدّث عن أبي بكر عن النبي ﷺ قال: «ما من ذنب أحرى أن يعجّل الله لصاحبه العقوبة في الدنيا مع ما يدّخر له في الآخرة من البغي وقطيعة الرحم». أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحي أنا أبو الحسين بن بشرَان أنا إسماعيل بن محمد الصفار أنا أحمد بن منصور الرمادي ثنا عبد الرزاق ثنا معمر عن الزهري عن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يدخل الجنةَ قاطعُ رحم». أخبرنا الإمام أبو علي الحسين بن محمد القاضي أنا أبو طاهر محمد بن محمد بن محمش الزيادي ثنا أحمد بن إسحاق الصيدلاني أنا أبو نصر أحمد بن محمد بن نصر ثنا أبو نعيم الفضل بن دكين ثنا عمرو بن عثمان قال سمعت موسى بن طلحة يذكر عن أبي أيوب الأنصاري أن أعرابياً عرض لرسول الله ﷺ في مسير له فقال: أخبرني بما يقرّبني من الجنة ويباعدني من النار، قال ﷺ: «تعبد الله ولا تشرك به شيئاً وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصل الرحم»، أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أبو منصور السمعاني ثنا أبو جعفر الرياني ثنا حميد بن زنجويه ثنا يعلى وأبو نعيم قالا: ثنا قطرة عن مجاهد عن عبد الله بن عمر وقال: قال رسول الله ﷺ: «ليس الواصل بالمكافىء، ولكن الواصل الذي إذا قطعت رحمه وصلها»، رواه محمد بن إسماعيل عن محمد بن كثير عن سفيان عن قطر وقال: إذا قطعت رحمه وصلها. قوله تعالى: ﴿ ويخشون ربَّهم ويخافون سُوءَ الحساب ﴾.

أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۙ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ وَفَرِحُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ ﴿٢٦﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾

﴿**والذين صبروا**﴾ يعني على طاعة الله وقال ابن عباس: على أمر الله. وقال عطاء: على المصائب والنوائب. وقيل: صبروا عن الشهوات وعن المعاصي وقيل: حمله على العموم أولى فيدخل فيه الصبر على جميع النوائب والمأمورات من سائر العبادات والطاعات، وجميع أعمال البر وترك جميع المنهيات فيدخل فيه ترك جميع المعاصي من الحسد والحقد والغيبة، وغير ذلك من المنهيات، ويدخل فيه الصبر عن المباحات مثل جميع الشهوات والصبر على ما نزل به من الأمراض والمصائب، وأصل الصبر حبس النفس عما يقتضيه العقل أو الشرع أو عما يقتضيان حبسها عنه فالصبر لفظ عام يدخل تحته جميع ما ذكر، وإنما قيّد الصبر بقوله ﴿**ابتغاء وجه ربهم**﴾ لأن الصبر ينقسم إلى نوعين: الأول الصبر المذموم وهو أن الإنسان قد يصبر ليقال ما أكمل صبره وأشد قوته على ما تحمل من النوازل وقد يصبر لئلا يعاب على الجزع، وقد يصبر لئلا تشمت به الأعداء، وكل هذه الأمور وإن كان ظاهرها الصبر فليس ذلك داخلاً تحت قوله: ﴿**ابتغاء وجه ربهم**﴾ لأنها لغير الله تعالى. النوع الثاني: الصبر المحمود وهو أن يكون الإنسان صابراً لله تعالى راضياً بما نزل به من الله طالباً في ذلك الصبر ثواب الله محتسباً أجره على الله فهذا هو الصبر الداخل تحت قوله ابتغاء وجه ربهم يعني صبروا على ما نزل بهم تعظيماً لله وطلب رضوانه ﴿**وأقاموا الصلاة**﴾ يعني الصلاة المفروضة. وقيل: حمله على العموم أولى فيدخل صلاة الفرض والنفل والمراد بإقامتها إتمام أركانها وهيئآتها ﴿**وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية**﴾ قال الحسن: المراد به الزكاة المفروضة فإن لم يتهم بترك أداء الزكاة فالأولى أن يؤديها سراً، وإن كان متهماً بترك أداء الزكاة فالأولى أن يؤديها علانية. وقيل: إن المراد بالسر ما يخرج من الزكاة بنفسه والمراد بالعلانية ما يؤديه إلى الإمام. وقيل: المراد بالسر صدقة التطوع والمراد بالعلانية الزكاة الواجبة وحمله

﴿ **والذين صبروا** ﴾، على طاعة الله، وقال ابن عباس: على أمر الله عزّ وجلّ. وقال عطاء: على المصائب والنوائب. وقيل: عن الشهوات. وقيل: عن المعاصي. ﴿ **ابتغاءَ وجهِ ربِّهم** ﴾، طلب تعظيمه أن يخالفوه، ﴿ **وأقاموا الصلاة وأنفقوا ممّا رزقناهم سرّاً وعلانية** ﴾، يعني يؤدون الزكاة، ﴿**ويدرؤون بالحسنة السيئة**﴾، رُوِيَ عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: **يدفعون بالصالح من العمل السيءَ من العمل**، وهو معنى قوله: ﴿ **إنّ الحسناتِ يُذهبنَ السيئات** ﴾ [هود: ١١٤]، وجاء في الحديث أن رسول الله ﷺ قال: «إذا عملتَ سيئةً فاعملْ بجنبها حسنةً تمحها، السرُّ بالسر والعلانيَةُ بالعلانية». أخبرنا أبو بكر محمد بن عبد الله بن أبي توبة أنبأنا محمد بن أحمد بن الحارث أنبأنا محمد بن يعقوب الكسائي أنبأنا عبد الله بن محمود أنا إبراهيم بن عبد الله الخلال ثنا عبد الله بن المبارك عن ابن لهيعة حدّثني يزيد بن أبي حبيب حدّثنا أبو الخير أنه سمع عقبة بن عامر يقول: قال رسول الله ﷺ: «إن مثل الذي يعمل السيئات ثم يعمل الحسنات كمثل رجل كانت عليه درع ضيقة قد خنقته ثم عمل حسنة فانفكّت عنه حلقة ثم عمل أخرى فانفكّت أخرى حتى يخرج إلى الأرض». وقال ابن كيسان: معنى

على العموم أولى ﴿ويدرؤون بالحسنة السيئة﴾ قال ابن عباس: يدفعون بالعمل الصالح العمل السيء، وهو معنى قوله: «إن الحسنات يذهبن السيئات» ويدل على صحة هذا التأويل ما جاء في الحديث أن النبي ﷺ قال «إذا عملت سيئة فاعمل بجنبها حسنة تمحها السر بالسر والعلانية بالعلانية» وروى البغوي بسنده عن عقبة بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: «إن مثل الذي يعمل السيئات ثم يعمل الحسنات كمثل رجل عليه درع ضيقة قد خنقته ثم عمل حسنة فانفكت حلقة ثم عمل أخرى فانفكت أخرى حتى خرج إلى الأرض» وقال ابن كيسان: يدفعون الذنب بالتوبة وقيل: لا يكافئون الشر بالشر ولكن يدفعون الشر بالخير وقال القتيبي معناه إذا سفه عليهم حلموا والسفه السيئة والحلم الحسنة، وقال قتادة: ردوا عليهم رداً معروفاً. وقال الحسن: إذا حرموا أعطوا وإذا ظلموا عفوا وإذا قطعوا وصلوا. قال عبد الله بن المبارك: هذه ثمان خلال مشيرة إلى أبواب الجنة الثمانية قلت إنما هي تسع خلال فيحتمل أنه عد خلتين بواحدة ولما ذكر الله عز وجل هذه الخلال من أعمال البر، ذكر بعدها ما أعد للعاملين بها من الثواب فقال تعالى ﴿أولئك﴾ يعني من أتى بهذه الأعمال ﴿لهم عقبى الدار﴾ يعني الجنة والمعنى إن عاقبتهم دار الثواب ﴿جنّات عدن﴾ بدل من عقبى الدار يعني بساتين إقامة يقال عدن بالمكان إذا أقام به ﴿يدخلونها﴾ يعني الدار التي تقدم وصفها ﴿ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم﴾ يعني ومن صدق من آبائهم بما صدقوا به، وإن لم يعمل بأعمالهم قاله ابن عباس. وقال الزجاج: إن الإنسان لا ينتفع بغير أعماله الصالحة فعلى قول ابن عباس: معنى صلح صدق وآمن ووحد، وعلى قول الزجاج معناه أصلح في عمله قال الواحدي والصحيح: ما قاله ابن عباس لأن الله تعالى جعل ثواب المطيع سروره بما يراه في أهله حيث بشره بدخوله الجنة مع هؤلاء، فدل على أنهم يدخلونها كرامة للمطيع العامل الآتي بالأعمال الصالحة، ولو كان دخولهم الجنة بأعمالهم الصالحة، لم يكن في ذلك كرامة للمطيع ولا فائدة في الوعد به إذ كل من كان صالحاً في عمله، فهو يدخل الجنة. قال الإمام فخر الدين الرازي: قوله تعالى وأزواجهم ليس فيه ما يدل على التمييز بين زوجة وزوجة، ولعل الأولى من مات عنها أو ماتت عنه وروي أنه لما كبرت سودة أراد النبي ﷺ طلاقها فسألته أن لا يفعل، ووهبت يومها لعائشة فأمسكها رجاء أن تحشر في جملة أزواجه فهو كالدليل على ما ذكرناه. وقوله تعالى ﴿والملائكة يدخلون عليهم من كل باب﴾ يعني من أبواب الجنة. وقيل من أبواب القصور، قال ابن عباس: يريد به التحية من الله والتحف والهدايا ﴿سلام عليكم﴾ يعني يقولون: سلام عليكم فأضمر القول

الآية يدفعون الذنب بالتوبة. وقيل: لا يكافئون الشر بالشر ولكن يدفعون الشر بالخير. وقال القتيبي: معناه إذا سفه عليهم حلموا، فالسفه: السيئة، والحلم: الحسنة. وقال قتادة: ردّوا عليهم معروفاً نظيره قوله تعالى: ﴿ وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً ﴾ [الفرقان: ٦٣]، وقال الحسن: إذا حُرِمُوا أعطوا وإذا ظُلِمُوا عَفُوا وإذا قُطِعُوا وصلوا. قال عبد الله بن المبارك: هذه ثمان خلال مشيرة إلى ثمانية أبواب الجنة ﴿ أولئك لهم عقبى الدار ﴾، يعني الجنة، أي: عاقبتهم دار الثواب. ثم بيّن ذلك فقال:

﴿ جناتُ عدن ﴾، بساتين إقامة، ﴿ يدخلونها ومَنْ صَلَحَ من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم والملائكة يدخلون عليهم من كل باب ﴾، قيل: من أبواب الجنة. وقيل: من أبواب القصور.

﴿ سلام عليكم ﴾، أي: يقولون سلام عليكم. وقيل: يقولون سلمكم الله من الآفات التي تخافون منها قال مقاتل: يدخلون عليهم في مقدار يوم وليلة من أيام الدنيا ثلاث كرات معهم الهدايا والتحف من الله عزّ وجلّ، يقولون سلام عليكم، ﴿ بما صبرتم فَنِعْمَ عُقْبى الدار ﴾، أخبرنا أبو بكر محمد بن عبد الله بن أبي توبة أنا أبو طاهر محمد بن أحمد بن الحارث أنا أبو الحسن محمد بن يعقوب الكسائي أنا عبد الله بن محمود أنا إبراهيم بن عبد الله الخلال ثنا عبد الله بن المبارك عن بقية بن الوليد حدّثني أرطاة بن المنذر قال: سمعت رجلاً من مشيخة الجند قال

هاهنا لدلالة الكلام عليه ﴿بما صبرتم﴾ يعني يقولون لهم: سلمكم الله من الآفات التي كنتم تخافونها في الدنيا وأدخلكم بما صبرتم في دار الدنيا على الطاعات، وترك المحرمات الجنة وقيل: إن السلام قول والصبر فعل ولا يكون القول ثواباً للفعل، فعلى هذا يكون قوله: سلام عليكم دعاء من الملائكة لهم يعني سلمكم الله بما صبرتم. قال مقاتل: إن الملائكة يدخلون عليهم في مقدار كل يوم من أيام الدنيا ثلاث مرات معهم الهدايا والتحف من الله تعالى. يقولون: سلام عليكم بما صبرتم، وروى البغوي بسنده عن أبي أمامة موقوفاً عليه قال: «إن المؤمن ليكون متكئاً على أريكته إذا دخل الجنة وعنده سماطان من خدم وعند طرف السماطين باب مبوب فيقبل الملك من ملائكة الله يستأذن فيقوم أدنى الخدم إلى الباب فإذا بالملك يستأذن فيقول: للذي يليه ملك يستأذن. ويقول الآخر: كذلك حتى يبلغ المؤمن فيقول ائذنوا له فيقول أقربهم إلى المؤمن ائذنوا له ويقول الذي يليه ائذنوا له وكذلك حتى يبلغ أقصاهم الذي عند الباب فيفتح له، فيدخل فيسلم ثم ينصرف» ﴿فنعم عقبى الدار﴾ يعني فنعم العقبى عقبى الدار. وقيل: معناه فنعم عقبى الدار ما أنتم فيه ﴿والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه﴾ لما ذكر الله أحوال السعداء وما أعد لهم من الكرامات والخيرات ذكر بعده أحوال الأشقياء، وما لهم من العقوبات فقال تعالى ﴿والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه﴾ ونقض العهد ضد الوفاء به، وهذا من صفة الكفار لأنهم هم الذين نقضوا عهد الله يعني خالفوا أمره، ومعنى من بعد ميثاقه من بعد ما أوثقوه على أنفسهم بالاعتراف والقبول ﴿ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل﴾ يعني ما بينهم وبين المؤمنين من الرحم والقرابة ﴿ويفسدون في الأرض﴾ يعني بالكفر والمعاصي ﴿أولئك﴾ يعني من هذه صفته ﴿لهم اللّعنة﴾ يعني الطرد عن رحمة الله يوم القيامة ﴿ولهم سوء الدار﴾ يعني النار لأن منقلب الناس في العرف إلى دورهم، ومنازلهم، فالمؤمنون لهم عقبى الدار وهي الجنة، والكفار لهم سوء الدار وهي النار. قوله تعالى ﴿الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر﴾ يعني يوسع على من يشاء من عباده فيغنيه من فضله، ويضيق على من يشاء من عباده فيفقره ويقتر عليه، وهذا أمر اقتضته حكمة الله ﴿وفرحوا بالحياة الدنيا﴾ يعني مشركي مكة لما بسط الله عليهم الرزق أشروا وبطروا، والفرح لذة تحصل في القلب بنيل المشتهى. وفيه دليل على أن الفرح بالدنيا والركون إليها حرام ﴿وما الحياة الدنيا في الآخرة﴾ يعني بالنسبة إلى الآخرة ﴿إلا متاع﴾ أي قليل ذاهب. قال الكلبي: المتاع مثل السكرجة والقصعة والقدر ينتفع بها في الدنيا ثم تذهب كذلك الحياة لأنها ذاهبة لا بقاء لها ﴿ويقول الذين كفروا﴾ يعني من أهل مكة

أبو الحجاج يقول: جلست إلى أبي أمامة فقال: إن المؤمن لا يكون متكئاً على أريكته إذا أُدخل الجنة وعنده سماطان من خدم وعند طرف السماطين باب مبوّب فيقبل مَلَك من ملائكة الله فيستأذن فيقوم أدنى الخدم إلى الباب فإذا هو بالملَك يستأذن فيقول للذي يليه ملك يستأذن ويقول الذي بينه للذي يليه ملك يستأذن كذلك حتى يبلغ المؤمن، فيقول: ائذنوا له، فيقول أقربهم إلى المؤمن: ائذنوا له، ويقول الذي يليه للذي يليه: ائذنوا له كذلك حتى يبلغ أقصاهم الذي عند الباب، فيُفتح له فيدخل فيسلّم ثم ينصرف.

﴿ والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ﴾، هذا في الكفّار. ﴿ ويقطعون ما أمرَ الله به أنْ يُوصل ﴾، أي: يؤمنون ببعض الأنبياء ويكفرون ببعض. وقيل: يقطعون الرحم، ﴿ ويفسدون في الأرض ﴾، أي: يعملون بالمعاصي، ﴿ أولئك لهم اللعنة ولهم سُوءُ الدار ﴾، يعني: النار، وقيل: سوء المنقلب لأن منقلب الناس دُورُهم.

قوله تعالى: ﴿ اللهُ يَبْسُطُ الرزقَ لمَن يشاء ويَقْدِر ﴾، أي: يوسع على مَن يشاء ويضيق على مَن يشاء، ﴿ وفرحوا بالحياة الدنيا ﴾، يعني: مشركي مكة أشروا وبطروا، والفرح لذة في القلب بنيل المشتهى، وفيه دليل على أن الفرح بالدنيا حرام. ﴿ وما الحياة الدنيا في الآخرة إلاّ متاع ﴾ أي: قليل ذاهب. قال الكلبي: كمثل السكرجة والقصعة والقدح والقدر ينتفع بها ثم تذهب.

﴿لولا أنزل عليه آية من ربه﴾ يعني هلا أنزل على محمد آية ومعجزة مثل معجزة موسى وعيسى ﴿قل﴾ أي قل لهم يا محمد: ﴿إن الله يضل من يشاء﴾ فلا ينفعه نزول الآيات وكثرة المعجزات إن لم يهده الله عز وجل وهو قوله ﴿ويهدي إليه من أناب﴾ يعني ويرشد إلى دينه والإيمان به من أناب بقلبه ورجع إليه بكليته ﴿الذين آمنوا﴾ بدل من قوله من أناب ﴿وتطمئن قلوبهم﴾ يعني وتسكن قلوبهم ﴿بذكر الله﴾ قال مقاتل: بالقرآن لأنه طمأنينة لقلوب المؤمنين والطمأنينة والسكون إنما تكون بقوة اليقين، والاضطراب إنما يكون بالشك ﴿ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾ يعني بذكره تسكن قلوب المؤمنين ويستقر اليقين فيها. وقال ابن عباس: هذا في الحلف وذلك أن المسلم إذا حلف بالله على شيء سكنت قلوب المؤمنين إليه. فإن قلت أليس قد قال الله تبارك وتعالى في أول سورة الأنفال ﴿إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم﴾ والوجل استشعار الخوف، وحصول الاضطراب وهو ضد الطمأنينة فكيف وصفهم بالوجل والطمأنينة وهل يمكن الجمع بينهما في حال واحد. قلت: إنما يكون الوجل عند ذكر الوعيد والعقاب والطمأنينة، إنما تكون عند الوعد والثواب فالقلوب توجل إذا ذكرت عدل الله وشدة حسابه وعقابه وتطمئن إذا ذكرت فضل الله ورحمته وكرمه وإحسانه.

ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴿٢٩﴾ كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَاْ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٣١﴾

﴿الذين آمنوا أو عملوا الصالحات طوبى لهم﴾ اختلف العلماء في تفسير طوبى فقال ابن عباس: فرح لهم وقرة

﴿ ويقول الذين كفروا ﴾، من أهل مكة، ﴿ لولا أنزل عليه آيةٌ من ربه قلْ إنّ الله يضُل مَن يشاء ويهدي إليه مَن أناب ﴾ أي: يهدي إليه مَن يشاء بالإنابة. وقيل: يرشد إلى دينه مَن يرجع إليه بقلبه.

﴿ الذين آمنوا ﴾، في محل النصب بدل من قوله: ﴿ من أناب ﴾، ﴿ وتطمئن ﴾، تسكن، ﴿ قلوبهم بذكر الله ﴾، قال مقاتل: بالقرآن، والسكون يكون باليقين، والاضطراب يكون بالشك، ﴿ ألا بذكر الله تطمئنُّ القلوب ﴾، تسكن قلوب المؤمنين ويستقر فيها اليقين، قال ابن عباس: هذا في الحلف، يقول: إذا حلف المسلم بالله على شيء تسكن قلوب المؤمنين إليه، فإن قيل: أليس قد قال الله تعالى: ﴿ إنما المؤمنون الذين إذا ذُكر اللَّهُ وَجِلَتْ قلوبُهم ﴾ [الأنفال: ٢]، فكيف تكون الطمأنينة والوَجَل في حالة واحدة؟ قيل: الوَجل عند ذكر الوعيد والعقاب والطمأنينة عند ذكر الوعد والثواب، فالقلوب توجل إذا ذكرت وعيد الله وشدّة حسابه، وتطمئن إذا ذكرت فضل الله وكرمه.

﴿ الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾، ابتداءٌ، وقوله: ﴿ طوبى لهم ﴾ خبرهُ، واختلفوا في تفسير ﴿ طوبى ﴾ رُوِيَ عن ابن عباس رضي الله عنهما: فَرَحٌ لهم وقُرّةُ عين. وقال عكرمة: نِعْمَ ما لهم. وقال قتادة: حسنى لهم. وقال معمر عن قتادة: هذه كلمة عربية يقول الرجل للرجل طوبى لك أي أصبت خيراً. وقال إبراهيم: خير لهم وكرامة. قال الفرّاء: أصله من الطيب والواو فيه لضمة الطاء وفيه لغتان، تقول العرب: طوباك وطوبى لك أي لهم الطيب. ﴿ وحُسْنُ مَآب ﴾ أي: حسن المنقلب. وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس: طوبى اسم الجنة بالحبشية.

أعين. وقال عكرمة: نعمى لهم. وقال قتادة: حسن لهم وفي رواية أخرى، عنه إن هذه الكلمة عربية يقول الرجل للرجل: طوبى لك أي أصبت خيراً. وقال إبراهيم النخعي خير لهم وكرامة. وقال الزجاج: طوبى من الطيب وقيل تأويلها الحال المستطابة لهم وهو كل ما استطابه هؤلاء في الجنة من بقاء بلا فناء وعز بلا ذل وغنى بلا فقر وصحة بلا سقم. قال الأزهري: تقول طوبى لك وطوباك لحن لا تقوله العرب وهو قول أكثر النحويين. وقال سعيد بن جبير: طوبى اسم الجنة بالحبشية وروي عن أبي أمامة وأبي هريرة وأبي الدرداء أن طوبى اسم شجرة في الجنة تظلل الجنان كلها. وقال عبيد ابن عمير: هي شجرة في جنة عدن أصلها في دار النبي ﷺ وفي كل دار وغرفة في الجنة منها غصن لم يخلق الله لوناً ولا زهرة إلا وفيها منه إلا السواد ولم يخلق الله فاكهة ولا ثمرة إلا وفيها منها ينبع من أصلها عينان: الكافور والسلسبيل. وقال مقاتل: كل ورقة منها تظل أمة عليها ملك يسبح الله بأنواع التسبيح وروي عن أبي سعيد الخدري: أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ عن طوبى فقال: «هي شجرة في الجنة مسيرة مائة سنة ثياب أهل الجنة تخرج من أكمامها» وعن معاوية بن قرة عن أبيه يرفعه. قال: «طوبى شجرة غرسها الله بيده ونفخ فيها من روحه تنبت الحلي والحلل وإن أغصانها لترى من وراء سور الجنة» هكذا ذكر البغوي هذين الحديثين بغير سند، وروي بسنده موقوفاً عن أبي هريرة قال: «إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة سنة اقرؤوا إن شئتم وظل ممدود» فبلغ ذلك كعب الأحبار فقال: صدق والذي أنزل التوراة على موسى والقرآن على محمد لو أن رجلاً ركب فرساً أو حقة أو جذعة، ثم دار بأصل تلك الشجرة ما بلغها حتى يسقط هرماً إن الله غرسها بيده، ونفخ فيها من روحه وإن أفنانها لمن وراء سور الجنة، وما في الجنة نهر إلا وهو يخرج من أصل تلك الشجرة. فقال البغوي وبهذا الإسناد عن عبد الله بن المبارك عن الأشعث عن عبد الله عن شهر بن حوشب عن أبي هريرة قال: «إن في الجنة شجرة يقال لها طوبى يقول الله لها تفتقي لعبدي عما يشاء فتفتق له عن فرس مسرجة بلجامها وهيئتها كما يشاء وتفتق له عن الراحلة برحلها وزمامها وهيئتها كما

وقال الربيع: هو البستان بلغة الهند. ورُوِيَ عن أبي أمامة وأبي هريرة وأبي الدرداء قال: طوبى شجرة في الجنة تظل الجنان كلها. وقال عبيد بن عمير: هي شجرة في جنة عدن أصلها في دار النبي ﷺ، وفي كل دار وغرفة غصن منها لم يخلق الله لوناً ولا زهرةً إلّا وفيها منها إلّا السواد، ولم يخلق الله تعالى فاكهة ولا ثمرة إلّا وفيها منها، ينبع من أصلها عينان الكافور والسلسبيل. وقال مقاتل: كل ورقة منها تُظِلُّ أمة عليها ملك يسبّح الله عزّ وجلّ بأنواع التسبيح. ورُوِيَ عن أبي سعيد الخدري أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ ما طوبى؟ قال: «شجرة في الجنة ظلها مسيرة مائة سنة، ثيابُ أهل الجنة تخرج من أكمامها». وعن معاوية بن قرة عن أبيه يرفعه: «طوبى شجرةٌ غرسها الله تعالى بيده، ونفخ فيها من روحه، تنبت الحلي والحلل وإن أغصانها لَتُرى من وراء سُور الجنة». أخبرنا محمد بن عبد الله بن أبي توبة أنا محمد بن أحمد بن الحارث أنا محمد بن يعقوب الكسائي أنا عبد الله بن محمود أنبأنا إبراهيم بن عبد الله الخلال ثنا عبد الله بن المبارك عن إسماعيل بن أبي خالد عن زياد مولى بني مخزوم أنه سمع أبا هريرة رضي الله عنه: إن في الجنة لشجرة يسير الراكب في ظلها مائة سنة لا يقطعها، اقرؤوا إن شئتم: ﴿ وظل ممدود ﴾ [الواقعة: ٣٠] فبلغ ذلك كعباً فقال: صدق والذي أنزل التوراة على موسى عليه السلام والقرآن على محمد ﷺ، لو أن رجلاً ركب حقّة أو جذعة ثم دار بأصل تلك الشجرة ما بلغها حتى يسقط هَرِماً، إن الله تعالى غرسها بيده ونفخ فيها من روحه، وإن أفنانها لمن وراء سور الجنة، ما في الجنة نهر إلا وهو يخرج من أصل تلك الشجرة. وبهذا الإسناد عن عبد الله بن المبارك عن معمر عن الأشعث بن عبد الله عن شهر بن حوشب عن أبي هريرة قال: في الجنة شجرة يقال لها طوبى، يقول الله عزّ وجلّ لها تفتقي لعبدي عمّا شاء ففتّقتْ له عن فرس بسرجه ولجامه وهيئته كما شاء وتفتّقت له عن الراحلة برحلها وزمامها وهيئتها كما شاء وعن الثياب.

يشاء وعن الثياب» (ق) عن سهل بن سعد، أن رسول الله ﷺ قال: «إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها» (ق) وعن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ قال: «إن في الجنة شجرة يسير الراكب الجواد المضمر السريع في ظلها مائة عام ما يقطعها» (ق) وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة سنة» زاد البخاري في روايته «واقرؤوا إن شئتم وظل ممدود». وقوله تعالى ﴿وحسن مآب﴾ يعني ولهم حسن منقلب ومرجع ينقلبون ويرجعون إليه في الآخرة وهي الجنة. قوله عز وجل: ﴿كذلك أرسلناك في أمة قد خلت من قبلها أمم﴾ يعني كما أرسلناك يا محمد إلى هذه الأمة كذلك أرسلنا أنبياء قبلك إلى أمم قد خلت ومضت ﴿لتتلو عليهم الذي أوحينا إليك﴾ يعني لتقرأ على أمتك الذي أوحينا إليك من القرآن وشرائع الدين ﴿وهم يكفرون بالرحمن﴾ قال قتادة ومقاتل وابن جريج: هذه الآية مدنية نزلت في صلح الحديبية وذلك أن سهيل بن عمرو لما جاء للصلح واتفقوا على أن يكتبوا كتاب الصلح قال رسول الله ﷺ لعلي بن أبي طالب: «اكتب بسم الله الرّحمٰن الرّحيم» فقالوا: لا نعرف الرحمن إلا صاحب اليمامة يعنون مسيلمة الكذاب اكتب كما نكتب باسمك اللهم فهذا معنى قوله وهم يكفرون بالرحمن يعني أنهم ينكرونه ويجحدونه والمعروف أن الآية مكية. وسبب نزولها أن أبا جهل سمع النبي ﷺ وهو في الحجر يدعو ويقول في دعائه: «يا الله يا رحمن» فرجع أبو جهل إلى المشركين وقال: إن محمداً يدعو إلٰهين يدعو الله ويدعو إلهاً آخر يسمى الرحمن ولا نعرف الرحمٰن إلا رحمٰن اليمامة فنزلت هذه الآية ونزل قوله تعالى ﴿قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمٰن أيّا ما تدعوا فله الأسماء الحسنى﴾ وروى الضحاك عن ابن عباس أنها نزلت في كفار قريش حين قال لهم النبي ﷺ «اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمٰن» فقال الله تعالى ﴿قل﴾ أي قل يا محمد إن الرحمٰن الذي أنكرتم معرفته ﴿هو ربي لا إله إلا هو عليه توكلت﴾ يعني عليه اعتمدت في أموري كلها ﴿وإليه متاب﴾ يعني وإليه توبتي ورجوعي. قوله تعالى ﴿ولو أن قرآنا سيرت به الجبال﴾ الآية نزلت في نفر من مشركي قريش منهم أبو جهل بن هشام وعبد الله بن أبي أمية، جلسوا خلف الكعبة وأرسلوا خلف النبي ﷺ فأتاهم وقيل: إنه مر بهم وهم جلوس فدعاهم إلى الله عز وجل فقال له عبد الله بن أبي أمية إن سرك أن نتبعك فسير جبال مكة بالقرآن فادفعها عنا حتى تتفتح فإنها أرض ضيقة لمزارعنا واجعل لنا فيها أنهاراً وعيوناً لنغرس الأشجار، ونزرع ونتخذ

قوله تعالى: ﴿ كذلك أرسلناك في أمة ﴾ أي: كما أرسلنا الأنبياء إلى الأمم أرسلناك إلى هذه الأمة، ﴿ قدْ خلتْ ﴾، مضت، ﴿ من قبلها أُممٌ لتتلوا ﴾، لتقرأ، ﴿ عليهم الذي أوحينا إليك وهم يكفرون بالرحمن ﴾، قال قتادة ومقاتل وابن جريج: الآية مدنية نزلت في صلح الحديبية، وذلك أن سهيل بن عمرو لمّا جاء إلى النبي ﷺ واتفقوا على أن يكتبوا كتاب الصلح فقال رسول الله ﷺ لعلي: «اكتبْ بسم الله الرحمن الرحيم»، قالوا: لا نعرف الرحمن إلاّ صاحب اليمامة، يعنون مسيلمة الكذاب، اكتب كما كنت تكتب باسمك اللّهمّ، فهذا معنى قوله: ﴿وهم يكفرون بالرحمن ﴾، والمعروف أن الآية مكية وسبب نزولها أن أبا جهل سمع النبي ﷺ وهو في الحِجْر يدعُو يا الله يا رحمن، فرجع إلى المشركين فقال: إن محمداً يدعو إلٰهين يدعو الله ويدعو إلٰهاً آخر يسمى الرحمن، ولا نعرف الرحمن إلا رحمن اليمامة فنزلت هذه الآية ونزل قوله تعالى: ﴿قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيّاً ما تدعوا فله الأسماء الحسنى﴾ [الإسراء: ١١٠]. وروى الضحاك عن ابن عباس: أنها نزلت في كفّار قريش حين قال لهم النبي ﷺ: «اسجدوا للرحمن»، قالوا: وما الرحمن؟ قال الله تعالى: ﴿ قل ﴾، لهم يا محمد إن الرحمن الذي أنكرتم معرفته، ﴿ هو ربي لا إلٰه إلاّ هو عليه توكلت ﴾، اعتمدتُ ﴿ وإليه متاب ﴾، أي: توبتي ومرجعي.

قوله: ﴿ ولو أن قرآناً سُيّرتْ به الجبال ﴾، الآية نزلت في نفر من مشركي مكة منهم أبو جهل بن هشام وعبد الله بن أبي أمية جلسوا خلف الكعبة فأرسلوا إلى النبي ﷺ فأتاهم فقال له عبد الله بن أبي أمية إن سرّك أن

البساتين فلست كما زعمت بأهون على ربك من داود، حيث سخر له الجبال تسير معه أو سخر لنا الريح لنركبها إلى الشام لميرتنا وحوائجنا، ونرجع في يومنا كما سخرت لسليمان كما زعمت فلست بأهون على ربك من سليمان أو أحي لنا جدك قصياً أو من شئت من موتانا لنسأله عن أمرك أحق أو باطل فإن عيسى كان يحيي الموتى ولست بأهون على الله من عيسى فأنزل الله هذه الآية ﴿ولو أن قرآنا سيِّرت به الجبال﴾ فأذهبت عن وجه الأرض ﴿أو قطِّعت به الأرض﴾ يعني شققت فجعلت أنهاراً وعيوناً ﴿أو كلِّم به الموتى﴾ فأحياها واختلفوا في جواب لو فقال قوم جواب لو محذوف، وإنما حذف اكتفاء بمعرفة السامع مراده وتقديره ولو أن قرآناً فعل به كذا وكذا لكان هذا القرآن فهو كقول الشاعر:

فـأقسـم لـو شـيء أتـانـا رسـولـه ... سـواك ولكـن لـم نجـد لـك مـدفعـا

أراد: لو شيء أتانا رسوله سواك لرددناه، وهذا معنى قول قتادة فإنه قال معناه لو فعل هذا بقرآن قبل قرآنكم لفعل بقرآنكم وقال آخرون: جواب لو تقدم تقدير الكلام وهم يكفرون بالرحمن ولو أن قرآناً سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى لكفروا بالرحمن، ولم يؤمنوا به لما سبق في علمنا فيهم كما قال: «ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلا ما كانوا ليؤمنوا» ثم قال تعالى ﴿بل لله الأمر جميعاً﴾ يعني في هذه الأشياء، وفي غيرها إن شاء فعل وإن شاء لم يفعل ﴿أفلم ييأس الذين آمنوا﴾ قال أكثر المفسرين: معناه أفلم يعلم؟ قال الكلبي: هذه لغة النخع وقيل هي لغة هوازن واختلف أهل اللغة في هذه اللفظة فقال الليث وأبو عبيد ألم ييأس ألم يعلم واستدلوا لهذه اللغة بقول الشاعر:

أقـول لهـم بـالشعـب إذ يـأسـرونـنـي ... ألـم تيـأسـوا أنـي ابـن فـارس زهـدم

يعني ألم تعلموا. واستدلوا عليه أيضاً بقول شاعر آخر:

ألـم ييـأس الأقـوام أنـي أنـا ابنـه ... وإن كنـت عـن أرض العشيـرة نـائيـا

نتبعك فسير جبال مكة بالقرآن فأذهبها عنّا حتى تنفسح فإنها أرض ضيقة لمزارعنا، واجعل لنا فيها عيوناً وأنهاراً لنغرس فيها الأشجار ونزرع، ونتخذ البساتين فلست كما زعمت بأهون على ربك من داود عليه السلام حيث سخر له الجبال تسبّح معه، أو سخّر لنا الريح فنركبها إلى الشام لميرتنا وحوائجنا ونرجع في يومنا فقد سخّرت الريح لسليمان كما زعمت، ولست بأهون على ربك من سليمان أو أحيِ لنا جدّك قصيّاً أو مَن شئت من آبائنا وموتانا لنسأله عن أمرك أحق ما تقول أم باطل، فإن عيسى كان يحيي الموتى ولست بأهون على الله منه فأنـزل الله عزّ وجلّ: ﴿ ولو أن قرآناً سُيِّرت به الجبال ﴾ فأذهبت عن وجه الأرض، ﴿ أو قُطِّعتْ به الأرضُ ﴾، أي: شققت فجعلت أنهاراً وعيوناً ﴿ أو كلم به الموتى ﴾ واختلفوا في جواب لو فقال قوم جوابه محذوف اكتفاء بمعرفة السامعين مراده وتقديره لكان هذا القرآن كقول الشاعر:

فـاقسـم لـو شـيء أتـانـا رسـولـه ... سـواك ولـكـن لـم نـجـد لـك مـدفعـاً

أراد لرددناه، وهذا معنى قول قتادة قال: لو فعل هذا بقرآن قبل قرآنكم لفعل بقرآنكم. وقال الآخرون: جواب لو مقدم وتقدير الكلام: وهم يكفرون بالرحمن ﴿ ولو أن قرآناً سُيِّرت به الجبال ﴾، كأنه قال: لو سُيِّرت به الجبال ﴿ أو قطعت به الأرض أو كلّم به الموتى ﴾ لكفروا بالرحمن ولم يؤمنوا، لِما سبق من علمنا فيهم كما قال: ﴿ ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلاً ما كانوا لِيُؤمنوا إلا أن يشاء الله ﴾

يعني ألم يعلم الأقوام. قال قطرب: يئس بمعنى علم لغة للعرب. قالوا: ووجه هذه اللغة أنه إنما وقع اليأس في مكان العلم لأن علمك بالشيء ويقينك به ييئسك من غيره. وقيل: لم يرد أن اليأس في موضع كلام العرب للعلم وإنما قصد أن يأس الذين آمنوا من ذلك يقتضي أن يحصل العلم بانتفائه فإذن معنى يأسهم يقتضي حصول العلم. وقال الكسائي ما وجدت العرب تقول يئست بمعنى علمت قال وهذا الحرف في القرآن من اليأس المعروف لا من العلم وذلك أن المشركين لما طالبوا رسول الله ﷺ بهذه الآيات اشرأبَّ المسلمون لذلك وأرادوا أن يظهر لهم آية ليجتمعوا على الإيمان، فقال الله تعالى: أفلم ييأس الذين آمنوا من إيمان هؤلاء ويعلموا علماً يقيناً ﴿أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً﴾ يعني من غير ظهور آية. وقال الزجاج: القول عندي أن معناه أفلم ييأس الذين آمنوا من إيمان هؤلاء لأن الله لو يشاء لهدى الناس جميعاً. وحاصله أن في معنى الآية قولين: أحدهما أن يئس بمعنى علم. والقول الثاني: أنه من اليأس المعروف وتقدير القولين ما تقدم وتمسك أهل السنة بقوله أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً على أن الله لم يشأ هداية جميع الخلائق ﴿ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا﴾ يعني من الكفر والأعمال الخبيثة ﴿قارعة﴾ أي نازلة وداهية تقرعهم بأنواع البلايا أحياناً مرة بالجدب، ومرة بالسلب ومرة بالقتل والأسر. وقال ابن عباس: أراد بالقارعة السرايا التي كان رسول الله ﷺ يبعثها إليهم ﴿أو تحل﴾ يعني السرايا أو البلية ﴿قريباً من دارهم﴾ وقيل معناه أو تحل أنت يا محمد قريباً من دارهم ﴿حتى يأتي وعد الله﴾ يعني النصر والفتح وظهور رسول الله ﷺ ودينه وقيل أراد بوعد الله يوم القيامة لأن الله يجمعهم فيه فيجازيهم بأعمالهم ﴿إن الله لا يخلف الميعاد﴾ والغرض منه تشجيع قلب النبي ﷺ وإزالة الحزن عنه لعلمه بأن الله لا يخلف الميعاد. قوله عز وجل:

وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۗ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ ۚ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ أَم بِظَـٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ ۗ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا۟ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَقُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٣٤﴾ ۞ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ

[الأنعام: ١١١]، ثم قال: ﴿ بل لله الأمرُ جميعاً ﴾، أي: في هذه الأشياء إن شاء فعل وإن شاء لم يفعل، ﴿ أفلمْ ييأسِ الذين آمنوا ﴾، قال أكثر المفسرين: معناه أفلم يعلم. قال الكلبي: هي لغة النخع. وقيل: هي لغة هوازن، يدلّ عليه قراءة ابن عباس: (أفلم يتبين الذين آمنوا)، وأنكر الفراء أن يكون ذلك بمعنى العلم وزعم أنه لم يسمع أحداً من العرب يقول يئست بمعنى علمت، ولكن معنى العلم فيه مضمر، وذلك أن أصحاب رسول الله ﷺ لما سمعوا هذا من المشركين طمعوا في أن يفعل الله ما سألوا فيؤمنوا فنزل: ﴿ أفلم ييأس الذين آمنوا ﴾ يعني: الصحابة رضي الله عنهم أجمعين من إيمان هؤلاء، أي لم ييأسوا علماً وكل مَن علم شيئاً يئس من خلافه، يقول: ألم ييئسهم العلم، ﴿ أن لو يشاء الله لهدى الناسَ جميعاً ولا يزال الذين كفروا تُصيبهم بما صنعوا ﴾، من كفرهم وأعمالهم الخبيثة ﴿ قارعةٌ ﴾ أي: نازلة وداهية تقرعهم من أنواع البلاء أحياناً بالجدب وأحياناً بالسلب وأحياناً بالقتل والأسر، وقال ابن عباس: أراد بالقارعة السرايا التي كان رسول الله ﷺ يبعثهم إليهم، ﴿ أو تحلّ ﴾، يعني: السرية أو القارعة، ﴿ قريباً من دارهم ﴾، وقيل: أو تحل أي تنزل أنت يا محمد بنفسك قريباً من ديارهم، ﴿ حتى يأتي وعد الله ﴾، قيل: يوم القيامة. وقيل: الفتح والنصر وظهور رسول الله ﷺ ودينه. ﴿ إن الله لا يُخلفُ الميعاد ﴾، وكان الكفار يسألون هذه الأشياء على سبيل الاستهزاء فأنزل الله تسلية لنبيّه ﷺ:

﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَاۚ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْۖ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَۖ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥۚ قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓۚ إِلَيْهِ أَدْعُواْ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ ﴿٣٦﴾﴾

﴿**ولقد استهزئ برسل من قبلك**﴾ وذلك أن كفار مكة إنما سألوا هذه الأشياء على سبيل الاستهزاء، فأنزل الله هذه الآية تسلية للنبي ﷺ والمعنى أنهم إنما طلبوا منك هذه الآيات على سبيل الاستهزاء، وكذلك قد استهزىء برسل من قبلك ﴿**فأمليت للذين كفروا**﴾ يعني فأمهلتهم وأطلت لهم المدة ﴿**ثم أخذتهم**﴾ يعني بالعذاب بعد الإمهال فعذبتهم في الدنيا بالقحط والقتل والأسر وفي الآخرة بالنار ﴿**فكيف كان عقاب**﴾ يعني فكيف كان عقابي لهم ﴿**أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت**﴾ يعني أفمن هو حافظها ورازقها وعالم بها وبما عملت من خير وشر ويجازيها بما كسبت فيثيبها إن أحسنت، ويعاقبها إن أساءت وجوابه محذوف، وتقديره كمن ليس بقائم بل هو عاجز عن نفسه ومن كان عاجزاً عن نفسه فهو عن غيره أعجز وهي الأصنام التي لا تضر ولا تنفع ﴿**وجعلوا لله شركاء**﴾ يعني وهو المستحق للعبادة لا هذه الأصنام التي جعلوها لله شركاء ﴿**قل سموهم**﴾ يعني له. وقيل: صفوهم بما يستحقون ثم انظروا هل هي أهل لأن تعبد ﴿**أم تنبئونه**﴾ يعني أم تخبرون الله ﴿**بما لا يعلم في الأرض**﴾ يعني أنه لا يعلم أن لنفسه شريكاً من خلقه وكيف يكون المخلوق شريكاً للخالق وهو العالم بما في السموات والأرض ولو كان لعلمه والمراد من ذلك نفي العلم بأن يكون له شريك ﴿**أم بظاهر من القول**﴾ يعني أنهم يتعلقون بظاهر من القول مسموع وهو في الحقيقة باطل لا أصل له وقيل: معناه بل بظن من القول لا يعلمون حقيقته ﴿**بل زين للذين كفروا مكرهم**﴾ قال ابن عباس: زين لهم الشيطان الكفر وإنما فسر المكر بالكفر لأن مكرهم برسول الله ﷺ كفر منهم والمزين في الحقيقة هو الله تعالى لأنه هو الفاعل المختار على الإطلاق لا يقدر أحد أن يتصرف في الوجود إلا بإذنه فتزيين الشيطان إلقاء الوسوسة فقط، ولا يقدر على إضلال أحد وهدايته إلا الله تعالى ويدل على هذا سياق الآية وهو قوله: ومن يضلل الله فما له من هاد، وقوله ﴿**وصدوا عن السبيل**﴾ قرئ بضم الصاد ومعناه صرفوا عن سبيل الدين والرشد والهداية ومنعوا من ذلك والصاد

﴿ **ولقد استُهزىء برسل من قبلك** ﴾، كما استهزؤوا بك، ﴿ **فأمليت للذين كفروا** ﴾، أمهلتهم وأطلت لهم المدة، ومنه الملوان وهما الليل والنهار، ﴿ **ثم أخذتهم** ﴾ عاقبتهم في الدنيا بالقتل وفي الآخرة بالنار، ﴿ **فكيف كان عقاب** ﴾، أي: عقابي لهم.

﴿ **أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت** ﴾، أي: حافظها ورازقها وعالم بها ومُجازيها بما عملت، وجوابه محذوف تقديره: كمَن ليس بقائم بل عاجز عن نفسه، ﴿ **وجعلوا لله شركاء قلْ سَمّوهم** ﴾ بيِّنُوا أسماءهم. وقيل: صفوهم ثم انظروا هَلْ هي أهل لأن تُعبد؟ ﴿ **أم تنبئونه** ﴾ أي: تخبرون الله ﴿ **بما لا يعلم في الأرض** ﴾، فإنه لا يعلم لنفسه شريكاً ولا في الأرض إلَهاً غيره، ﴿ **أم بظاهر** ﴾ يعني: أم تتعلقون بظاهر، ﴿ **من القول** ﴾، مسموع وهو في الحقيقة باطل لا أصل له. وقيل: بزائل من القول قال الشاعر:

وعيّرني الواشون أني أُحبها ... وتلك شكاة ظاهر عنك عارها

أي: زائل، ﴿ **بل زُين للذين كفروا مكرُهم** ﴾، كيدهم. وقال مجاهد: شركهم وكذبهم على الله، ﴿**وصدّوا عن السبيل**﴾، أي: صرفوا عن الدين، قرأ أهل الكوفة ويعقوب ﴿**وصدّوا**﴾ وفي حَم المؤمن [٣٧] ﴿ **وصُدّ** ﴾ بضم الصاد فيهما وقرأ الآخرون بالفتح لقوله تعالى: ﴿ **إنّ الذين كفروا ويصدّون عن سبيل الله** ﴾

المانع لهم هو الله تعالى، وقرئ وصدوا بفتح الصاد ومعناه أنهم صدوا عن سبيل الله غيرهم أي عن الإيمان ﴿ومن يضلل الله فما له من هاد﴾ الوقف عليه بسكون الدال وحذف الياء في قراءة أكثر القراء ﴿لهم عذاب في الحياة الدنيا﴾ يعني بالقتل والأسر ونحو ذلك مما فيه غيظهم ﴿ولعذاب الآخرة أشق﴾ يعني أشد وأغلظ لأن المشقة غلظ الأمر على النفس وشدته مما يكاد يصدع القلب من شدته فهو من الشق الذي هو الصدع ﴿وما لهم من الله﴾ يعني من عذاب الله ﴿من واق﴾ يعني من مانع يمنعهم من عذابه قوله تعالى ﴿مثل الجنة التي وعد المتقون﴾ أي صفة الجنة التي وعد المتقون ﴿تجري من تحتها الأنهار أكلها دائم﴾ لا ينقطع أبداً ﴿وظلها﴾ يعني أنه دائم لا ينقطع أبداً وليس في الجنة شمس ولا قمر ولا ظلمة بل ظل ممدود لا ينقطع، ولا يزول وفي الآية رد على جهم وأصحابه فإنهم يقولون: إن نعيم الجنة يفنى وينقطع وفي الآية دليل على أن حركات أهل الجنة لا تنتهي إلى سكون دائم. كما يقول أبو الهذيل واستدل القاضي عبد الجبار المعتزلي بهذه الآية على أن الجنة لم تخلق بعد. قال: ووجه الدليل أنها لو كانت مخلوقة لوجب أن تفنى وينقطع أكلها لقوله تعالى ﴿كل شيء هالك إلا وجهه﴾ فوجب أن لا تكون الجنة مخلوقة لقوله: أكلها دائم يعني لا ينقطع قال ولا ينكر أن تكون في السموات جنات كثيرة تتمتع بها الملائكة، ومن يعد حياً من الأنبياء والشهداء وغيرهم على ما روي إلا أن الذي نذهب إليه أن جنة الخلد لم تخلق بعد. والجواب عن هذا أن حاصل دليلهم مركب من آيتين: إحداهما: قوله تعالى: كل شيء هالك إلا وجهه، والأخرى قوله: أكلها دائم وظلها، فإذا أدخلنا التخصيص على هذين العمومين سقط دليلهم فنخص هذين الدليلين بالدلائل الدالة على أن الجنة مخلوقة. منها قوله تعالى: وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين. وقوله تعالى ﴿تلك عقبى الذين اتقوا﴾ يعني أن عاقبة أهل التقوى هي الجنة ﴿وعقبى الكافرين النار﴾ يعني في الآخرة. قوله عز وجل ﴿والذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما أنزل إليك﴾ في المراد بالكتاب هنا قولان: أحدهما أنه القرآن والذين أتوه المسلمون وهم أصحاب رسول الله ﷺ والمراد أنهم يفرحون بما يتجدد من الأحكام والتوحيد والنبوة والحشر بعد الموت بتجدد نزول القرآن ﴿ومن الأحزاب﴾ يعني الجماعات الذين تحزبوا على رسول الله ﷺ من الكفار واليهود والنصارى ﴿من ينكر بعضه﴾ وهذا قول الحسن وقتادة. فإن قلت: إن الأحزاب من المشركين وغيرهم من أهل الكتاب ينكرون القرآن كله فكيف قال ومن الأحزاب

[الحج: ٢٥]، وقوله: ﴿ الذين كفروا وصدّوا عن سبيل الله ﴾ [النحل: ٨٨، محمد: ١]. ﴿ ومَن يضلل اللّهُ ﴾، بخذلانه إيّاه، ﴿ فما له من هادٍ ﴾.

﴿ لهم عذاب في الحياة الدنيا ﴾، بالقتل والأسر، ﴿ ولعذاب الآخرة أشق ﴾، أشد، ﴿ وما لهم من الله من واقٍ ﴾، مانع يمنعهم من العذاب.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ مثل الجنة التي وُعد المتقون ﴾ أي: صفة الجنة، كقوله تعالى: ﴿ ولله المثل الأعلى ﴾ [النحل: ٦٠] أي: الصفة العليا، ﴿ تجري من تحتها الأنهار ﴾، أي: صفة الجنة التي وعد المتقون أن الأنهار تجري من تحتها. وقيل: مثل صلة مجازها الجنة التي وُعد المتقون تجري من تحتها الأنهار. ﴿ أُكُلُها دائمٌ ﴾ أي: لا ينقطع ثمرها ونعيمها، ﴿ وظلها ﴾، أي: ظلها ظليل لا يزول وهو ردّ على الجهمية حيث قالوا إن نعيم الجنة يفنى. ﴿ تلك عقبى ﴾ أي: عاقبة ﴿ الذين اتقوا ﴾ يعني: الجنة، ﴿ وعُقبى الكافرين النار ﴾.

قوله تعالى: ﴿ والذين آتيناهم الكتابَ ﴾ يعني: القرآن وهم أصحاب محمد ﷺ ﴿ يفرحون بما أُنزل إليك ﴾ من القرآن، ﴿ ومن الأحزاب ﴾ يعني: الكفّار الذين تحزبوا على رسول الله ﷺ وهم اليهود والنصارى، ﴿ ومَن ينكر بعضَه ﴾، هذا قول مجاهد وقتادة. وقال الآخرون: كان ذكر الرحمن قليلاً في القرآن في الابتداء فلما أسلم عبد الله بن سلام وأصحابه ساءهم قلة ذكره في القرآن مع كثر ذكره في التوراة، فلما كرر الله ذكره في القرآن

من ينكر بعضه. قلت: إن الأحزاب لا ينكرون القرآن بجملته لأنه قد ورد فيه آيات دالآت على توحيد الله وإثبات قدرته وعلمه وحكمته، وهم لا ينكرون ذلك أبداً والقول الثاني أن المراد بالكتاب التوراة والإنجيل والمراد بأهله الذين أسلموا من اليهود والنصارى مثل عبد الله بن سلام وأصحابه ومن أسلم من النصارى، وهم ثمانون رجلاً أربعون من نجران وثلاثون من الحبشة وعشرة ممن سواهم فرحوا بالقرآن لكونهم آمنوا به وصدقوه، ومن الأحزاب يعني بقية أهل الكتاب من اليهود والنصارى وسائر المشركين من ينكر بعضه. وقيل: كان ذكر الرحمن قليلاً في القرآن في الابتداء فلما أسلم عبد الله بن سلام ومن معه من أهل الكتاب من اليهود والنصارى ساءهم قلة ذكر الرحمن في القرآن مع كثرة ذكره في التوراة، فلما كرر الله تعالى ذكر لفظة الرحمن في القرآن فرحوا بذلك فأنزل الله تعالى والذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما أنزل إليك ومن الأحزاب يعني مشركي مكة من ينكر بعضه وذلك لمَّا كتب رسول الله ﷺ كتاب الصلح يوم الحديبية كتب فيه بسم الله الرحمٰن الرحيم فقالوا ما نعرف الرحمٰن إلا رحمٰن اليمامة يعنون مسيلمة الكذاب فأنزل الله ﴿وهم يكفرون بالرحمٰن قل هو ربي﴾ وإنما قال ومن الأحزاب من ينكر بعضه لأنهم كانوا لا ينكرون الله وينكرون الرحمٰن ﴿قل﴾ أي قل يا محمد ﴿إنما أمرت أن أعبد الله﴾ يعني وحده ﴿ولا أشرك به﴾ شيئاً ﴿إليه أدعو﴾ أي إلى الله وإلى الإيمان به أدعو الناس ﴿وإليه مآب﴾ يعني مرجعي يوم القيامة.

وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ۚ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ مَا جَآءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً ۚ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾ يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ الْكِتَٰبِ ﴿٣٩﴾

﴿وكذلك أنزلناه حكماً عربياً﴾ أي كما أنزلنا الكتب على الأنبياء بلغاتهم، أنزلنا إليك يا محمد هذا الكتاب وهو القرآن عربياً بلسانك ولسان قومك. وإنما سمي القرآن حكماً لأن فيه جميع التكاليف والأحكام والحلال والحرام والنقض والإبرام، فلما كان القرآن سبباً للحكم جعل نفس الحكم على سبيل المبالغة، وقيل إن الله لما حكم على جميع الخلق بقبول القرآن والعمل بمقتضاه سماه حكماً لذلك المعنى ﴿ولئن اتبعت أهواءهم﴾ قال جمهور المفسرين: إن المشركين دعوا رسول الله ﷺ إلى ملة آبائهم فتوعده الله على اتباع أهوائهم في ذلك. وقال ابن السائب: المراد به متابعة آبائهم في الصلاة لبيت المقدس ﴿بعد ما جاءك من العلم﴾ يعني بأنك على الحق، وأن قبلتك الكعبة هي الحق.

فرحوا به فأنزل الله سبحانه وتعالى: ﴿ والذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما أُنزل إليك ومن الأحزاب مَن ينكر بعضه ﴾، يعني: مشركي مكة حين كتب رسول الله ﷺ في كتاب الصلح بسم الله الرحمن الرحيم، قالوا: ما نعرف الرحمن إلا رحمن اليمامة، يعنون مسيلمة الكذاب، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿ وهم بذكر الرحمن هم كافرون ﴾ [الأنبياء: ٣٦] ﴿ وهم يكفرون بالرحمن ﴾ [الرعد: ٣٠]، وإنما قال ﴿ بعضه ﴾ لأنهم كانوا لا ينكرون ذكر الله وينكرون ذكر الرحمن. ﴿ قلْ ﴾، يا محمد، ﴿ إنما أُمرتُ أن أعبدَ الله ولا أُشركَ به إليه أدعوا إليه مآب ﴾، أي: مرجعي.

﴿ وكذلك أنزلناه حكماً عربياً ﴾، يقول كما أنزلنا إليك الكتاب يا محمد فأنكره الأحزاب كذلك أنزلنا إليك الحكم والدين عربياً، نسب إلى العرب لأنه نزل بلغتهم فكذب به الأحزاب. وقيل: نظم الآية كما أنزل الكتب على الرسل بلغاتهم فكذلك أنزلنا عليك الكتاب حكماً عربياً. ﴿ ولئن اتبعت أهواءَهم ﴾، في الملّة. وقيل: في القبلة، ﴿ بعد ما جاءك من العلم ما لك من الله من وليّ ولا واقٍ ﴾، يعني: من ناصر ولا حافظ.

قوله تعالى: ﴿ ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك ﴾، رُوِيَ أن اليهـود، وقيل: إن المشركين قالوا إن هذا الرجل

وقيل: ظاهر الخطاب فيه للنبي ﷺ والمراد به غيره وقيل: هو حث للنبي ﷺ على تبليغ الرسالة والقيام بما أمر به ويتضمن ذلك تحذير غيره من المكلفين لأن من هو أرفع منزلة وأعظم قدراً وأعلى مرتبة إذا حذر كان غيره ممن هو دونه بطريق الأولى ﴿ما لك من الله من ولي ولا واق﴾ يعني من ناصر ولا حافظ قوله تعالى ﴿ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك﴾ روي أن اليهود، وقيل المشركين، قالوا: إن هذا الرجل يعنون النبي ﷺ، ليس له همة إلا في النساء فعابوا عليه ذلك وقالوا لو كان كما يزعم أنه رسول الله لكان مشتغلاً بالزهد وترك الدنيا فأجاب الله عز وجل عن هذه الشبهة، وعما عابوه به بقوله عز وجل ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك يا محمد ﴿وجعلنا لهم أزواجاً وذرية﴾ فإنه قد كان لسليمان عليه الصلاة والسلام ثلثمائة امرأة حرة وسبعمائة امرأة سرية فلم يقدح ذلك في نبوته وكان لأبيه داود عليه الصلاة والسلام مائة امرأة فلم يقدح ذلك أيضاً في نبوته فكيف يعيبون عليك ذلك، ويجعلونه قادحاً في نبوتك والمعنى: ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك يأكلون ويشربون وينكحون، وما جعلناهم ملائكة لا يأكلون ولا يشربون ولا ينكحون ﴿وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله﴾ هذا جواب لعبد الله بن أبي أمية، وغيره من المشركين الذين سألوا رسول الله ﷺ، الآيات واقترحوا عليه أن يريهم المعجزات، وتقدير هذا الجواب أن المعجزة الواحدة كافية في إثبات النبوة وقد أتاهم رسول الله ﷺ بمعجزات كثيرة يعجز عن مثلها البشر، فما لهم أن يقترحوا عليه شيئاً، وإتيان الرسول بمعجزات ليس إليه بل هو مفوض إلى مشيئة الله عز وجل فإن شاء أظهرها وإن شاء لم يظهرها ﴿لكل أجل كتاب﴾ وذلك أن رسول الله ﷺ كان يخوفهم بنزول العذاب عليهم فلما استبطئوا ذلك، وقد كانوا يستعجلون نزوله أخبر الله عز وجل أن لكل قضاء قضاه كتاباً قد كتبه فيه ووقتاً يقع فيه لا يتقدم ولا يتأخر. والمعنى: أن لكل أجل أجله الله كتاباً قد أثبته فيه، وقيل: في الآية تقديم وتأخير تقديره لكل كتاب أجل ومدة والمعنى أن الكتب المنزلة لكل كتاب منها وقت ينزل فيه ﴿يمحو الله ما يشاء ويثبت﴾ وذلك أنهم لما اعترضوا على رسول الله فقالوا: إن محمداً يأمر أصحابه بأمر اليوم ثم يأمرهم بخلافه غداً، وما سبب ذلك إلا أنه يقوله من تلقاء نفسه، أجاب الله عن هذا الاعتراض بقوله يمحو الله ما يشاء ويثبت. قال سعيد بن جبير وقتادة: يمحو الله ما شاء من الشرائع والفرائض فينسخه ويبدله ويثبت ما يشاء من ذلك فلا ينسخه ولا يبدله، وقال ابن عباس: يمحو الله ما يشاء ويثبت إلا الرزق والأجل والسعادة والشقاوة، ويدل على صحة هذا التأويل ما روي عن حذيفة بن أسيد قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول «إذا مر بالنطفة ثنتان وأربعون ليلة بعث الله ملكاً فصورهما وخلق سمعها وبصرها وجلدها ولحمها وعظامها، ثم قال: يا رب أذكر أم أنثى فيقضي ربك ما يشاء فيكتب الملك، ثم يقول يا رب أجله فيقول: ربك ما يشاء ويكتب الملك ثم يقول: الملك يا رب رزقه فيقول: ربك ما يشاء ويكتب الملك ثم يخرج الملك الصحيفة، فلا يزيد على أمر ولا ينقص» أخرجه مسلم (ق) عن ابن مسعود رضي الله

ليست له همّة إلاّ في النساء فأنزل الله تعالى: ﴿ ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك وجعلنا لهم أزواجاً وذرية ﴾، وما جعلناهم ملائكة لا يأكلون ولا يشربون ولا ينكحون، ﴿ وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله ﴾، هذا جواب عبد الله بن أبي أمية. ثم قال: ﴿ لكلِ أجلٍ كتاب ﴾، يقول لكل أمر قضاه الله كتاب قد كتبه فيه. وقيل: فيه تقديم وتأخير تقديره أي: لكل كتاب أجل ومدة أي: الكتب المنزلة لكل واحد منها وقت ينزل فيه.

﴿يمحوا الله ما يشاء ويُثبت ﴾، قرأ ابن كثير وأبو عمر وعاصم ويعقوب ﴿ ويثبت ﴾ بالتخفيف وقرأ الآخرون بالتشديد. واختلفوا في معنى الآية فقال سعيد بن جبير وقتادة: يمحو الله ما يشاء من الشرائع والفرائض فينسخه ويبدله ويثبت ما يشاء منها فلا ينسخه. وقال ابن عباس يمحو الله ما يشاء ويثبت إلا الرزق والأجل والسعادة والشقاوة. وروينا عن حذيفة بن أسيد عن النبي ﷺ: «يدخل الملك على النطفة بعدما تستقر في الرحم بأربعين أو خمس وأربعين ليلة، فيقول: يا رب أشقيٌ أو سعيد؟ فيكتبان، فيقول: إيْ ربِّ أذَكَر أم أُنثى؟ فيكتبان، ويكتب عمله وأثره وأجله ورزقه، ثم تُطوى الصحف فلا يُزاد فيها ولا ينقص». وعن عمرو بن مسعود أنهما قالا: يمحو

تعالى عنه، قال حدثنا رسول الله ﷺ: وهو الصادق المصدوق «إن خلق أحدكم يجمع في بطن أمه نطفة أربعين يوماً ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يبعث الله ملكاً بأربع كلمات يكتب رزقه وأجله وشقي أو سعيد ثم ينفخ فيه الروح، فو الذي لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها». فإن قلت: هذا الحديث والذي قبله صريح بأن الآجال والأرزاق مقدرة، وكذا السعادة والشقاوة لا تتغير عما قدره الله وعلمه في الأزل فيستحيل زيادتها ونقصانها، وكذلك يستحيل أن ينقلب السعيد شقياً أو الشقي سعيداً، وقد صح في فضل صلة الرحم أن صلة الرحم تزيد في العمر فكيف الجمع بين هذه الأحاديث، وبين قوله تعالى: يمحو الله ما يشاء ويثبت؟. قلت: قد تكرر بالدلائل القطعية أن الله عالم الآجال والأرزاق وغيرها. وحقيقة العلم معرفة المعلوم على ما هو عليه فإذا علم الله أن زيداً يموت في وقت معين استحال أن يموت قبله أو بعده وهو قوله تعالى ﴿فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون﴾ فدل ذلك على أن الآجال لا تزيد ولا تنقص. وأجاب العلماء عما ورد في الحديث في فضل صلة الرحم من أنها تزيد في العمر بأجوبة الصحيح منها: أن هذه الزيادة تكون بالبركة في عمره بالتوفيق للطاعات، وعمارة أوقاته بما ينفعه في الآخرة، وصيانتها عن الضياع وغير ذلك. والجواب الثاني: منها أنها بالنسبة إلى ما يظهر للملائكة في اللوح المحفوظ أن عمر زيد مثلاً ستون سنة، إلا أن يصل رحمه فإن وصلها زيد له أربعون سنة، وقد علم الله في الأزل ما سيقع من ذلك، وهو معنى قوله تعالى: يمحو الله ما يشاء ويثبت أي بالنسبة لما يظهر للمخلوقين من تصوير الزيادة. وأما انقلاب الشقي سعيداً أو السعيد شقياً فيتصور في الظاهر أيضاً لأن الكافر قد يسلم فينقلب من الشقاوة إلى السعادة، وكذا العاصي ونحوه وقد يتوب فينقلب من الشقاوة إلى السعادة وقد يرتد المسلم، والعياذ بالله تعالى، فيموت على ردته فينقلب من السعادة إلى الشقاوة، والأصل في هذا الاعتبار بالخاتمة عند الموت وما يختم الله به له وهو المراد من علم الله الأزلي الذي لا يتغير ولا يتبدل. والله أعلم. وأصل المحو: إذهاب أثر الكتابة وضده الإثبات فمن العلماء من حمل الآية على ظاهرها فجعلها عامة في كل شيء يقتضيه ظاهر اللفظ، فيزيد الله ما يشاء في الرزق والأجل. وكذا القول في السعادة والشقاوة والإيمان بالله والكفر. ونقل نحو هذا عن عمر وابن مسعود فإنهما قالا: يمحو السعادة والشقاوة ويمحو الرزق والأجل ويثبت ما يشاء. وروي عن عمر أنه كان يطوف بالبيت وهو يبكي ويقول: اللهم إن كنت كتبتني من أهل السعادة والمغفرة فأثبتني فيها وإن كنت كتبتني من أهل الشقاوة فامحني منها وأثبتني في أهل السعادة والمغفرة فإنك تمحو ما تشاء وتثبت وعندك أم الكتاب وروي مثله عن ابن مسعود وقد ورد في بعض الآثار «أن الرجل يكون قد بقي من عمره

السعادة والشقاوة أيضاً ويمحو الرزق والأجل ويثبت ما يشاء. رُوِيَ عن عمر أنه كان يطوف بالبيت وهو يبكي ويقول: اللّهمّ إن كنت كتبتني في أهل السعادة فأثبتني فيها وإن كنت كتبتني على الشقاوة فامحني، واثبتني في أهل السعادة والمغفرة، فإنك تمحو ما تشاء وتثبت وعندك أُمّ الكتاب. ومثله عن ابن مسعود، وفي بعض الآثار: أن الرجل يكون قد بقي من عمره ثلاثون سنة فيقطع رحمه فترد إلى ثلاثة أيام، والرجل يكون قد بقي من عمره ثلاثة أيام فيصل رحمه فتمدّ إلى ثلاثين سنة. أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أبو منصور السمعاني ثنا أبو جعفر الرياني ثنا حميد بن زنجويه ثنا عبد الله بن صالح حدّثني الليث بن سعد حدّثني زياد بن محمد الأنصاري عن محمد بن كعب القرظي عن فضالة بن عبيد عن أبي الدرداء أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ينزل الله عزّ وجلّ في آخر ثلاث ساعات يبقين من الليل فينظر في الساعة الأولى منهنّ في أُمّ الكتاب الذي لا ينظر فيه أحد غيره فيمحو ما يشاء ويثبت». وقيل: معنى الآية إن الحَفَظَة يكتبون جميع أعمال بني آدم وأقوالهم فيمحو الله من ديوان الحَفَظَة ما ليس فيه ثواب ولا عقاب.

ثلاثة أيام فيصل رحمه فيمد إلى ثلاثين سنة» هكذا ذكر البغوي بغير سند. وروي بسنده عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ «ينزل الله تبارك وتعالى في ثلاث ساعات بقين من الليل فينظر في الساعة الأولى منهن في الكتاب الذي لا ينظر فيه أحد غيره، فيمحو ما يشاء ويثبت» ومن العلماء من حمل معنى الآية على الخصوص في بعض الأشياء دون بعض فقال: المراد بالمحو والإثبات نسخ الحكم المتقدم وإثبات حكم آخر عوضاً عن الحكم المتقدم، وقيل: إن الحفظة يكتبون جميع أعمال بني آدم وأقوالهم فيمحو الله ما يشاء من ديوان الحفظة ما ليس فيه ثواب، ولا عقاب مثل قول القائل أكلت، شربت، دخلت، خرجت، ونحو ذلك من الكلام، وهو صادق فيه ويثبت ما فيه ثواب وعقاب. وهذا قول الضحاك. وقال الكلبي: يكتب القول كله حتى إذا كان يوم الخميس طرح منه شيء ليس فيه ثواب ولا عقاب. وقال ابن عباس: هو الرجل يعمل بطاعة الله ثم يعود لمعصية الله فيموت على ضلاله فهو الذي يمحو والذي يثبت هو الرجل يعمل بطاعة الله ثم يموت، وهو في طاعته فهو الذي يثبت، وقال الحسن: يمحو الله ما يشاء يعني من جاء أجله فيذهبه ويثبت من لم يجيء أجله وقال سعيد بن جبير يمحو الله ما يشاء من ذنوب عباده فيغفرها ويثبت ما يشاء منها فلا يغفرها. وقال عكرمة: يمحو الله ما يشاء من الذنوب بالتوبة ويثبت بدل الذنوب حسنات. وقال السدي: يمحو الله ما يشاء يعني القمر ويثبت الشمس. وقال الربيع: هذا في الأرواح يقبضها الله عند النوم فمن أراد موته محاه وأمسكه، ومن أراد بقاءه أثبته ورده إلى صاحبه، وقيل: إن الله يثبت في أول كل سنة حكمها فإذا مضت السنة محاه وأثبت حكماً آخر للسنة المستقبلة وقيل: يمحو الله الدنيا ويثبت الآخرة. وقيل: هو في المحن والمصائب فهي مثبتة في الكتاب ثم يمحوها بالدعاء والصدقة. وقيل: إن الله يمحو ما يشاء ويثبت ما يشاء لا اعتراض لأحد عليه يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد. فان قلت مذهب أهل السنة أن المقادير سابقة وقد جف القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة، فكيف يستقيم مع هذا المحو والإثبات. قلت: المحو والإثبات مما جف به القلم وسبق به القدر فلا يمحو شيئاً ولا يثبت شيئاً إلا ما سبق به علمه في الأزل وعليه يترتب القضاء والقدر.

مسألة: استدلت الرافضة على مذهبهم في البداء بهذه الآية: قالوا: إن البداء جائز على الله وهو أن يعتقد شيئاً ثم يظهر له خلاف ما اعتقده وتمسكوا بقوله ﴿يمحو الله ما يشاء ويثبت﴾ والجواب عن هذه المسألة أن هذا مذهب باطل ظاهر الفساد لأن علم الله قديم أزلي، وهو من لوازم ذاته المخصوصة، وما كان كذلك كان دخول التغيير والتبديل فيه محالاً كذا ذكره الإمام فخر الدين الرازي في تفسير هذه الآية. وقوله تعالى ﴿**وعنده أم الكتاب**﴾ يعني أصل الكتاب، وهو اللوح المحفوظ الذي لا يغير ولا يبدل، وسمي اللوح المحفوظ أم الكتاب لأن جميع الأشياء مثبتة فيه ومنه تنسخ

مثل قوله: أكلت شربت دخلت خرجت ونحوها من كلام هو صادق فيه ويثبت ما فيه ثواب وعقاب، هذا قول الضحاك والكلبي. وقال الكلبي: يكتب القول كله حتى إذا كان يوم الخميس طرح منه كل شيء ليس فيه ثواب ولا عقاب، وقال عطية عن ابن عباس: هو الرجل يعمل بطاعة الله عزّ وجلّ ثم يعود لمعصية الله فيموت على ضلالة فهو الذي يمحو والذي يثبت الرجل يعمل بطاعة الله فيموت وهو في طاعة الله عزّ وجلّ فهو الذي يثبت. وقال الحسن: ﴿ **يمحو الله ما يشاء** ﴾ أي مَن جاء أجله يذهب به ويثبت مَن لم يجيء أجله إلى يوم أجله. وعن سعيد بن جبير قال: ﴿ **يمحو الله ما يشاء** ﴾ من ذنوب العباد فيغفرها ويثبت ما يشاء فلا يغفرها. وقال عكرمة: ﴿ **يمحو الله ما يشاء** ﴾ من الذنوب بالتوبة ويثبت بدل الذنوب حسنات، كما قال الله تعالى: ﴿ **فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات** ﴾ [الفرقان: ٧٠]. وقال السدي: ﴿ **يمحو الله ما يشاء** ﴾ يعني القمر ﴿ **ويثبت** ﴾ يعني الشمس بيانه قوله تعالى: ﴿ **فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة** ﴾ [الإسراء: ١٢] وقال الربيع: هذا في الأرواح يقبضها الله عند النوم فمَن أراد موته محاه فأمسكه ومَن أراد بقاءه أثبته وردّه إلى صاحبه، بيانه قوله عزّ وجلّ: ﴿ **الله يتوفّى الأنفس حين موتها** ﴾ [الزمر: ٤٢] الآية. ﴿ **وعنده أُمّ الكتاب** ﴾، أي: أصل الكتاب وهو اللوح المحفوظ الذي لا يبدل

الكتب المنزلة، وقيل: إن العلوم كلها تنسب إليه وتتولد منه، قال ابن عباس: هما كتابان كتاب يمحو الله منه ما يشاء ويثبت ما يشاء وأم الكتاب الذي لا يغير شيء منها وروى عطية عن ابن عباس قال: إن لله لوحاً محفوظاً مسيرة خمسمائة عام من درة بيضاء له دفتان من ياقوتة، لله فيه كل يوم ثلثمائة وستون لحظة يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب، وسأل ابن عباس كعباً عن أم الكتاب فقال: علم الله ما هو خالق وما خلقه وما هم عاملون.

وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴿٤٠﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٤١﴾ وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٤٢﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴿٤٣﴾

﴿وإن ما نرينك﴾ يعني يا محمد ﴿بعض الذي نعدهم﴾ يعني من العذاب ﴿أو نتوفينك﴾ يعني قبل أن نريك ذلك ﴿فإنما عليك البلاغ﴾ يعني ليس عليك إلا تبليغ الرسالة إليهم والبلاغ اسم أقيم مقام التبليغ ﴿وعلينا الحساب﴾ يعني وعلينا أن نحاسبهم يوم القيامة فنجازيهم بأعمالهم. قوله عز وجل: ﴿أو لم يروا أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها﴾ يعني أو لم ير كفار مكة الذين سألوا محمداً ﷺ الآيات أنا نأتي الأرض يعني أرض الشرك ننقصها من أطرافها. قال أكثر المفسرين: المراد منه فتح دار الشرك فإن ما زاد في دار الإسلام فقد نقص في دار الشرك والمعنى أو لم يروا أنا نأتي الأرض فنفتحها لمحمد ﷺ أرضاً بعد أرض حوالى أراضيهم أفلا يعتبرون، فيتعظون وهذا قول ابن عباس وقتادة وجماعة من المفسرين: وذلك أن المسلمين إذا استولوا على بلاد الكفار قهراً وتخريباً كان ذلك نقصاناً في ديارهم، وزيادة في ديار المسلمين، وقوتهم وكان ذلك من أقوى الدلائل على أن الله تعالى ينصر عبده ويعز جنده ويظهر دينه، وينجز له ما وعده. وقيل: هو خراب الأرض والمعنى أو لم يروا أنا نأتي الأرض فنخربها ونهلك أهلها أفلا يخافون أن نفعل بهم مثل ذلك، وقال مجاهد: هو خراب الأرض وقبض أهلها. وعن عكرمة والشعبي نحوه وهذا القول قريب من الأول وقال عطاء وجماعة من المفسرين نقصانها موت العلماء وذهب الفقهاء (ق) عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من الناس، وفي رواية من العباد ولكن يقبض العلم بقبض العلماء حتى إذا لم يبق عالماً اتخذ الناس رؤساء جهالاً فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلّوا وأضلّوا» قال الحسن قال عبد الله بن مسعود: موت العالم ثلمة في الإسلام لا يسدها شيء ما اختلف الليل والنهار، وقال عبد الله أيضاً:

ولا يغير. وقال عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما: هما كتابان، كتاب سوى أُم الكتاب يمحو منه ما يشاء ويثبت، وأُم الكتاب الذي لا يغيّر منه شيء. وعن عطاء عن ابن عباس قال: إن لله تعالى لوحاً محفوظاً مسيرة خمسمائة عام من درة بيضاء لها دفّتان من ياقوت لله في كل يوم فيه ثلثمائة وستون لحظة ﴿ يمحو ما يشاء ويثبت وعنده أُم الكتاب ﴾. وسأل ابن عباس كعباً عن أُم الكتاب فقال: علم الله ما هو خالق وما خلقه عاملون.

﴿ وإمّا نُرينّك بعضَ الذي نَعِدهم ﴾، من العذاب قبل وفاتك، ﴿ أو نتوفينّك ﴾، قبل ذلك، ﴿ فإنما عليك البلاغ ﴾، ليس عليك إلا ذلك، ﴿ وعلينا الحساب ﴾، الجزاء يوم القيامة.

قوله تعالى: ﴿ أو لم يرَوْا ﴾ يعني: أهل مكة الذين يسألون محمداً ﷺ الآيات، ﴿ أنّا نأتي الأرض ننقصها مِن أطرافها ﴾، أكثر المفسرين على أن المراد منه فتح ديار الشرك، فإن ما زاد في ديار الإسلام فقد نقص من ديار الشرك، يقول: ﴿ أو لم يروا أنّا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها ﴾ فنفتحها لمحمد أرضاً بعد أرض حوالي أرضهم، أفلا يعتبرون؟ هذا قول ابن عباس وقتادة وجماعة. وقال قوم: هو خراب الأرض معناه أو لم يروا أنّا نأتي

عليكم بالعلم قبل أن يقبض وقبضه ذهاب أهله، وقال سليمان: لايزال الناس بخير ما بقي الأول حتى يتعلم الآخر فإذا هلك الأول ولم يتعلم الآخر هلك الناس. وقيل لسعيد بن جبير: ما علامة هلاك الناس؟ قال: هلاك العلماء. فعلى هذا القول فالمراد بالأطراف العلماء، والأشراف من الناس: حكى الجوهري عن ثعلب قال: الأطراف الأشراف. واستدل الواحدي لهذه اللغة بقول الفرزدق:

واسـأل بنـا وبكـم إذا وردت منـي أطـراف كـل قبيلـة مـن يتبـع

قال: يريد أشراف كل قبيلة. قال الواحدي: والتفسير على القول الأول أولى لأن هذا وإن صح فلا يليق بهذا الموضع. قال الإمام فخر الدين الرازي: ويمكن أن يقال أيضاً إن هذا الوجه لا يليق بهذا الموضع وتقديره أن يقال: أو لم يروا أن كل ما يحدث في الدنيا من الاختلاف خراب بعد عمارة وموت بعد حياة وذل بعد عز ونقص بعد كمال وإذا كانت هذه التغييرات مشاهدة محسوسة فما الذي يؤمنهم أن يقلب الله الأمر على هؤلاء الكفرة، فيجعلهم ذليلين بعدما كانوا عزيزين ومقهورين بعد أن كانوا قاهرين، وعلى هذا الوجه أيضاً يجوز إيصال الكلام بما قبله. وقوله تعالى ﴿**والله يحكم لا معقب لحكمه**﴾ يعني لا رادّ لحكمه ولا ناقض لقضائه، والمعقب هو الذي يعقب غيره بالرد والإبطال، ومنه قيل لصاحب الحق: معقب، لأنه يعقب غريمه بالاقتضاء والطلب. والمعنى: والله يحكم نافذاً حكمه خالياً من المدافع والمعارض والمنازع لا يتعقب حكمه أحد غيره بتغيير، ولا نقض ﴿**وهو سريع الحساب**﴾ قال ابن عباس: يريد سريع الانتقام ممن حاسبه للمجازاة بالخير والشر فمجازاة الكفار بالانتقام منهم، ومجازاة المؤمنين بإيصال الثواب إليهم، وقد تقدم بسط الكلام في معنى سريع الحساب قبل هذا ﴿**وقد مكر الذين من قبلهم**﴾ يعني من قبل مشركي مكة من الأمم الماضية، الذين مكروا بأنبيائهم والمكر إيصال المكروه إلى الإنسان من حيث لا يشعر مثل ما مكر نمرود بإبراهيم وفرعون بموسى واليهود بعيسى، ﴿**فلله المكر جميعاً**﴾ يعني عند الله جزاء مكرهم. وقال الواحدي: يعني جميع مكر الماكرين له ومنه أي هو من خلقه وإرادته فالمكر جميعاً مخلوق له بيده الخير والشر وإليه النفع والضر. والمعنى أن المكر لا يضر إلا بإذنه وإرادته، وفي هذا تسلية للنبي ﷺ وأمان له من مكرهم كأنه قيل: قد فعل من كان قبلهم من الكفار مثل فعلهم وصنعوا مثل صنيعهم، فلم يضروا إلا من أراد الله ضره، وإذا كان الأمر كذلك وجب أن لا يكون الخوف إلا من الله لا من أحد من المخلوقين ﴿**يعلم ما تكسب كل نفس**﴾ يعني أن جميع اكتساب العباد وتأثيراتها معلومة لله هو خالقها أو خلاف المعلوم ممتنع الوقوع وإذا كان كذلك فكل ما علم وقوعه فهو واجب الوقوع وكل ما علم عدمه كان ممتنع الوقوع وإذا كان كذلك فلا قدرة للعبد على الفعل والترك، فكان الكل من الله ولا يحصل ضرراً إلا بإذنه وإرادته، وفيه وعيد للكفار الماكرين ﴿**وسيعلم الكافر**﴾ على التوحيد وقرىء وسيعلم الكفار على الجمع. قال ابن عباس: يعني أبا جهل. وقيل: أراد المستهزئين وهم خمسة نفر من كفار مكة ﴿**لمن عقبى**

الأرض فنخربها ونهلك أهلها أفلا يخافون أن نفعل بهم ذلك؟ وقال مجاهد: هو خراب الأرض وقبض أهلها. وعن عكرمة قال: قبض الناس. وعن الشعبي مثله. وقال عطاء وجماعة: نقصانها موت العلماء. وذهاب الفقهاء. أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنبأنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنبأنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا إسماعيل بن أبي أُويس حدّثنا مالك عن هشام عن أبيه عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من العباد ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يبق عالماً اتخذ الناس رؤساء جهّالاً فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلّوا وأضلّوا». وقال الحسن: قال عبد الله بن مسعود: موت العالم ثلمة في الإسلام لا يسدّها شيء ما اختلف الليل والنهار. وقال ابن مسعود رضي الله عنه: عليكم بالعلم قبل أن يقبض وقبضه ذهاب أهله. وقال علي رضي الله عنه: إنما مثل الفقهاء كمثل الأكفّ إذا قطعت كفّ لم تَعُدْ. وقال سليمان: لا يزال الناس بخير ما بقي الأول حتى يتعلم الآخر، فإذا هلك الأول قبل أن يتعلم الآخر هلك الناس.

الدار﴾ والمعنى أنهم وإن كانوا جهالاً بالعواقب فسيعلمون أن العاقبة الحميدة للمؤمنين، ولهم العاقبة المذمومة في الآخرة حين يدخلون النار، ويدخل المؤمنون الجنة قوله تعالى ﴿**ويقول الذين كفروا لست مرسلاً**﴾ لما أنكر الكفار كون محمد رسولاً من عند الله أمره الله بقوله ﴿**قل**﴾ أي قل: يا محمد لهؤلاء الكفار الذين أنكروا نبوتك ﴿**كفى بالله شهيداً بيني وبينكم**﴾ المراد بشهادة الله على نبوة محمد ﷺ ما أظهر على يديه من المعجزات الباهرات والآيات القاهرات الدالة على صدقه، وكونه نبياً مرسلاً من عند الله ﴿**ومن عنده علم الكتاب**﴾ يعني ومن عنده علم الكتاب أيضاً يشهد على نبوتك يا محمد وصحتها. واختلفوا في الذي عنده علم الكتاب من هو فروى العوفي عن ابن عباس أنهم علماء اليهود والنصارى، والمعنى أن كل من كان عالماً من اليهود بالتوراة ومن النصارى بالإنجيل علم أن محمداً ﷺ مرسل من الله لما يجد من الدلائل الدالة على نبوته فيهما شهد بذلك من شهد به وأنكره من أنكره منهم، وقيل: إنهم مؤمنو أهل الكتاب يشهدون أيضاً على نبوته. قال قتادة: هو عبد الله بن سلام، وأنكر الشعبي هذا وقال: هذه السورة مكية وعبد الله بن سلام أسلم بالمدينة المنورة وقال يونس لسعيد بن جبير ومن عنده علم الكتاب أهو عبد الله بن سلام؟ فقال: كيف يكون عبد الله بن سلام وهذه السورة مكية؟ وقال الحسن ومجاهد ومن عنده علم الكتاب هو الله تعالى. وعلى هذا القول يكون المعنى: كفى بالذي يستحق العبادة وبالذي لا يعلم علم ما في اللوح المحفوظ إلا هو شهيداً بيني وبينكم. قال الزجاج: الأشبه أن الله لا يشهد على صحة حكمه لغيره. وهذا قول مشكل لأن عطف الصفة على الموصوف وإن كان جائزاً إلا أنه خلاف الأصل. فلا يقال شهد بهذا زيد والفقيه. بل يقال: شهد بهذا زيد الفقيه لكن يشهد لصحة هذا القول قراءة من قرأ ومن عنده علم الكتاب بكسر الميم والدال، وهي قراءة ابن عباس وغيره على البناء للمفعول والمعنى ومن عند الله علم الكتاب ودليل هذه القراءة قوله ﴿**وعلمناه من لدنا علماً**﴾ وقيل: معناه إن من علم أن القرآن الذي جئتكم به معجز ظاهر وبرهان باهر لما فيه من الفصاحة والبلاغة والإخبار عن الغيوب، وعن الأمم الماضية فمن علم بهذه الصفة كان شهيداً بيني وبينكم والله أعلم بمراده وأسرار كتابه.

وقيل لسعيد بن جبير: ما علامة هلاك الناس؟ قال: هلاك علمائهم. ﴿ **والله يَحْكُمُ لا مُعَقِّبَ لحكمه** ﴾، لا رادّ لقضائه ولا ناقض لحكمه، ﴿ **وهو سريع الحساب** ﴾.

﴿ **وقد مكر الذين من قبلهم** ﴾، يعني: من قبل مشركي مكة، والمكر: إيصال المكروه إلى الإنسان من حيث لا يشعر، ﴿ **فلله المكر جميعاً** ﴾، أي: عند الله جزاء مكرهم. وقيل: إن الله خالق مكرهم جميعاً بيده الخير والشر وإليه النفع والضر، فلا يضر أحد أحداً إلا بإذنه، ﴿ **يعلم ما تكْسِبُ كلُّ نفسٍ وسيعلم الكفار** ﴾، قرأ أهل الحجاز وأبو عمرو «الكـافر» على التوحيد وقرأ الآخرون ﴿ **الكفار** ﴾ على الجمع. ﴿ **لمن عقبى الدار** ﴾ أي: عاقبة الدار الآخرة حين يدخلون النار ويدخل المؤمنون الجنة.

﴿ **ويقول الذين كفروا لستَ مرسلاً قلْ كفى بالله شهيداً بيني وبينكم** ﴾، إني رسول إليكم ﴿ **ومَن عنده علم الكتاب** ﴾، يريد مؤمني أهل الكتاب يشهدون أيضاً على ذلك. قال قتادة: هو عبد الله بن سلام. وأنكر الشعبي هذا وقال: السورة مكية، وعبد الله بن سلام أسلم بالمدينة، وقال أبو بشر: قلت لسعيد بن جبير ﴿ **ومَن عنده علم الكتاب** ﴾ أهو عبد الله بن سلام؟ فقال: وكيف يكون عبد الله بن سلام وهذه السورة مكية؟ وقال الحسن ومجاهد: ومَن عنده علم الكتاب هو الله عزّ وجلّ يدلّ عليه قراءة عبد الله بن عباس، ﴿ **ومَن عنده** ﴾ بكسر الميم والدال أي: من عند الله عزّ وجلّ. وقرأ الحسن وسعيد بن جبير ﴿ **ومَن عنده** ﴾ بكسر الميم والدال علم الكتاب على الفعل المجهول، دليل هذه القراءة: ﴿ وعلمناه من لدنا علماً ﴾ [الكهف: ٦٥] وقوله: ﴿ الرحمن علم القرآن ﴾ [الرحمن: ٢].

تفسير سورة إبراهيم عليه السلام وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام

هي مكية سوى آيتين، وهما قوله سبحانه وتعالى ﴿ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً﴾ إلى آخر الآيتين وهي إحدى وقيل: اثنتان وخمسون آية وثمانمائة وإحدى وستون كلمة وثلاثة آلاف وأربعمائة وأربعة وثلاثون حرفاً.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿١﴾ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾

قوله عز وجل: ﴿**القرآن كتاب أنزلناه إليك**﴾ يعني هذا كتاب أنزلناه إليك يا محمد والكتاب هو القرآن المنزل على محمد ﷺ ﴿**لتخرج الناس من الظلمات إلى النور**﴾ يعني بهذا القرآن والمراد من الظلمات الكفر والضلالة والجهل، والمراد بالنور: الإيمان. قال الإمام فخر الدين الرازي رحمه الله: وفيه دليل على أن طرق الكفر والبدع كثيرة وطريق الحق ليس إلا واحداً لأنه تعالى قال: لتخرج الناس من الظلمات إلى النور فعبر عن الجهل والكفر والضلال بالظلمات وهي صيغة جمع وعبر عن الإيمان والهدى بالنور وهو لفظ مفرد وذلك يدل على أن طرق الكفر والجهل كثيرة، وأما طريق العلم والإيمان فليس إلا واحد ﴿**بإذن ربهم**﴾ يعني بأمر ربهم وقيل: بعلم ربهم ﴿**إلى صراط العزيز الحميد**﴾ يعني إلى دين الإسلام وهو دينه الذي أمر به عباده، والعزيز هو الغالب الذي لا يغلب والحميد المحمود على كل حال المستحق لجميع المحامد ﴿**الله**﴾ قرىء بالرفع على الاستئناف وخبره ما بعده وقرىء بالجر نعتاً للعزيز الحميد فقال أبو عمرو قراءة الخفض على التقديم والتأخير تقديره إلى صراط الله العزيز الحميد ﴿**الذي له ما في السموات وما في والأرض**﴾ يعني ملكاً وما فيهما عبيده ﴿**وويل للكافرين**﴾ يعني الذين تركوا عبادة من يستحق العبادة الذي له ما في السموات وما في الأرض، وعبدوا من لا يملك شيئاً البتة بل هو مملوك لله لأنه من جملة خلق الله، ومن

سُوْرَة إِبْرَاهِيم

مكية وهي إحدى وخمسون آية إلا آيتين من قوله تعالى: ﴿ ألم ترَ إلى الذين بدّلوا نعمة الله كفراً ﴾ [٢٨] إلى قوله: ﴿ فإن مصيركم إلى النار ﴾ [٣٠].

﴿ **آلر كتاب** ﴾ أي: هذا كتاب ﴿ **أنزلناه إليك** ﴾، يا محمد يعني القرآن، ﴿ **لتخرج الناسَ من الظلمات إلى النور** ﴾ أي: لتدعوهم من ظلمات الضلالة إلى نور الإيمان، ﴿ **بإذن ربهم** ﴾، بأمر ربهم. وقيل: بعلم ربهم، ﴿ **إلى صراط العزيز الحميد** ﴾ أي: إلى دينه والعزيز هو الغالب والحميد هو المستحق للحمد.

﴿ **الله** ﴾ قرأ أبو جعفر ونافع وابن عامر ﴿ **الله** ﴾ بالرفع على الاستئناف وخبره فيما بعده، وقرأ الآخرون بالخفض نعتاً للعزيز الحميد، وكان يعقوب إذا وصل خفض وقال أبو عمرو: الخفض على التقديم والتأخير تقديره

جملة ما في السموات وما في الأرض ﴿من عذاب شديد﴾ يعني معد لهم في الآخرة ثم وصفهم فقال تعالى:

ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي
ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٖ ﴿٣﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي مَن
يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ
ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ ﴿٥﴾ وَإِذْ قَالَ
مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ
وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٞ ﴿٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ
رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٞ ﴿٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِي
ٱلْأَرْضِ جَمِيعٗا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ
وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُۚ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِيٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓاْ إِنَّا
كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِي شَكّٖ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٖ ﴿٩﴾ ۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكّٞ فَاطِرِ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا
بَشَرٞ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٖ مُّبِينٖ ﴿١٠﴾ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ
إِلَّا بَشَرٞ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ
وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَاۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ
ءَاذَيْتُمُونَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ
لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْۚ ذَٰلِكَ
لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾

﴿الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة﴾ يعني يختارون الحياة الدنيا ويؤثرونها على الآخرة ﴿ويصدون عن سبيل الله﴾ أي ويمنعون الناس عن قبول دين الله ﴿ويبغونها عوجاً﴾ يعني ويطلبون لها زيغاً وميلاً، فحذف الجار وأوصل الفعل. وقيل: معناه يطلبون سبيل الله حائدين عن القصد وقيل الهاء في ويبغونها راجعة إلى الدنيا ومعناه

إلى صراط الله العزيز الحميد، ﴿ **الذي له ما في السموات وما في الأرض وويل للكافرين من عذاب شديد** ﴾.

﴿ **الذين يستحبّون** ﴾، يختارون، ﴿ **الحياة الدنيا على الآخرة ويصدّون عن سبيل الله** ﴾، أي: يمنعون الناس عن قبول دين الله، ﴿ **ويبغونها عوجاً** ﴾، يطلبونها زيغاً وميلاً يريد يطلبون سبيل الله جائرين عن القصد. وقيل: الهاء راجعة إلى الدنيا ومعناه يطلبون الدنيا على طريق الميل عن الحق، اي: بجهة الحرام. ﴿ **أولئك في ضلال بعيد** ﴾.

يطلبون الدنيا على طريق الميل عن الحق والميل إلى الحرام ﴿أولئك﴾ يعني من هذه صفته ﴿في ضلال بعيد﴾ يعني عن الحق وقيل يجوز أن يراد في ضلال بعيد ذي بعد أو فيه بعد لأن الضال يبعد عن الطريق. قوله تعالى ﴿وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه﴾ يعني بلغة قومه ليفهموا عنه ما يدعوهم إليه وهو قوله تعالى ﴿ليبين لهم﴾ يعني ما يأتون وما يذرون. فإن قلت: لم يبعث رسول الله ﷺ إلى العرب وحدهم وإنما بعث إلى الناس جميعاً بدليل قوله تعالى ﴿قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً﴾ بل هو مبعوث إلى الثقلين الجن والإنس، وهم على ألسنة مختلفة ولغات شتى وقوله بلسان قومه وليس قومه سوى العرب يقتضي بظاهره أنه مبعوث إلى العرب خاصة فكيف يمكن الجمع؟ قلت: بعث رسول الله ﷺ من العرب وبلسانهم والناس تبع للعرب فكان مبعوثاً إلى جميع الخلق، لأنهم تبع للعرب ثم إنه يبعث الرسل إلى الأطراف، فيترجمون لهم بألسنتهم ويدعونهم إلى الله تعالى بلغاتهم. وقيل: يحتمل أنه أراد بقومه أهل بلده، وفيهم العرب وغير العرب فيدخل معهم من غير جنسهم في عموم الدعوى وقيل: إن الرسول إذا أرسل بلسان قومه وكانت دعوته خاصة وكان كتابه بلسان قومه كان أقرب لفهمهم عنه وقيام الحجة عليهم في ذلك، فإذا فهموه ونقل عنهم انتشر عنهم علمه وقامت التراجم ببيانه وتفهيمه لمن يحتاج إلى ذلك ممن هو من غير أهله، وإذا كان الكتاب بلغة واحدة مع اختلاف الأمم وتباين اللغات كان ذلك أبلغ في اجتهاد المجتهدين في تعليم معانيه، وتفهيم فوائده وغوامضه وأسراره وعلومه وجميع حدوده وأحكامه وقوله ﴿فيضل الله من يشاء ويهدي من يشاء﴾ يعني أن الرسول ليس عليه إلا التبليغ والتبيين والله هو الهادي المضل يفعل ما يشاء ﴿وهو العزيز﴾ يعني الذي يغلب ولا يغلب ﴿الحكيم﴾ في جميع أفعاله. قوله عز وجل ﴿ولقد أرسلنا موسى بآياتنا﴾ المراد بالآيات المعجزات التي جاء بها موسى عليه الصلاة والسلام، مثل العصا واليد وفلق البحر وغير ذلك من المعجزات العظيمة الباهرة ﴿أن أخرج

قوله تعالى: ﴿ وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبيّن لهم ﴾، بلغتهم ليفهموا عنه فإن قيل: كيف هذا وقد بعث النبي ﷺ إلى كافة الخلق؟ قيل: بعث من العرب بلسانهم والناس تبع لهم ثم بثّ الرسل إلى الأطراف يدعونهم إلى الله عزّ وجلّ ويترجمون لهم بألسنتهم، ﴿ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَن يشاء ويهدي مَن يشاء وهو العزيز الحكيم ﴾

﴿ ولقد أرسلنا موسى بآياتنا أن أخرج قومك من الظلمات إلى النور ﴾ أي: من الكفر إلى الإيمان بالدعوة، ﴿ وذكرهم بأيام الله ﴾، قال ابن عباس وأُبيّ بن كعب ومجاهد وقتادة: بنعم الله. وقال مقاتل: بوقائع الله في الأمم السالفة. يقال فلان عالم بأيام العرب أي بوقائعهم، وإنما أراد بما كان في أيام الله من النعمة والمحنة فاجتزأ بذكر الأيام عنها لأنها كانت معلومة عندهم، ﴿ إن في ذلك لآيات لكل صبَّارٍ شكور ﴾، الصبّار: الكثير الصبر، والشكور: الكثير الشكر، وأراد لكل مؤمن لأن الصبر والشكر من خصال المؤمنين.

﴿ وإذْ قال موسى لقومه اذكروا نعمةَ الله عليكم إذ أنجاكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب ويذبحون أبناءكم ﴾، قال الفرّاء: لعله الجالبة لهذا الواو أن الله تعالى أخبرهم أن آل فرعون كانوا يعذبونهم بأنواع العذاب غير التذبيح، وبالتذبيح، وحيث طرح الواو في يذبحون ويقتلون أراد تفسير العذاب الذي كانوا يسومونهم، ﴿ ويستحيون نساءكم ﴾، يتركوهنّ أحياءً ﴿ وفي ذلكم بلاءٌ من ربكم عظيم ﴾.

﴿ وإذْ تأذَّنَ ربُّكم ﴾، أي: أعلم، يقال: أذن وتأذن بمعنى واحد، مثل أوعد وتوعد، ﴿ لئن شكرتم ﴾ نعمتي فآمنتم وأطعتم ﴿ لأزيدنّكم ﴾ في النعمة. وقيل: الشكر قيد الموجود وصيد المفقود. وقيل: لئن شكرتم بالطاعة لأزيدنكم في الثواب. ﴿ ولئن كفرتم ﴾، نعمتي فجحدتموها ولم تشكروها، ﴿ إنّ عذابي لشديد ﴾.

﴿ وقال موسى إن تكفروا أنتم ومَن في الأرض جميعاً فإن الله لغني حميد ﴾، أي: غني عن خلقه حميد محمود في أفعاله لأنه فيها متفضل وعادل.

قومك من الظلمات إلى النور﴾ أي أن أخرج قومك بالدعوة من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان **﴿وذكرهم بأيام الله﴾** قال ابن عباس وأبي بن كعب ومجاهد وقتادة: يعني بنعم الله. وقال مقاتل: بوقائع الله في الأمم السالفة. يقال: فلان عالم بأيام العرب أي بوقائعهم بما أراد بما كان في أيام الله من النعمة والنقمة، فأخبر بذكر الأيام عن ذلك لأن ذلك كان معلوماً عندهم وعلى هذا يكون المعنى عظهم بالترغيب والترهيب والوعد والوعيد. والترغيب والوعد أن يذكرهم بما أنعم الله عليهم به من النعمة، وعلى من قبلهم ممن آمن بالرسل فيما مضى من الأيام، والترهيب والوعيد أن يذكرهم بأس الله، وشدة انتقامه ممن خالف أمره وكذب رسله، وقيل: بأيام الله في حق موسى أن يذكر قومه بأيام المحنة والشدة والبلاء حين كانوا تحت أيدي القبط يسومونهم سوء العذاب فخلصهم الله من ذلك، وجعلهم ملوكاً بعد أن كانوا مملوكين **﴿إن في ذلك لآيات لكل صبّار شكور﴾** الصبّار: الكثير الصبر، والشكور: الكثير الشكر، وإنما خص الشكور والصبور بالاعتبار بالآيات وإن كان فيها عبرة للكافة لأنهم هم المنتفعون بها دون غيرهم فلهذا خصهم بالآيات، فكأنها ليست لغيرهم فهو كقوله «وهدى للمتقين» ولأن الانتفاع بالآيات لا يمكن حصوله إلا لمن يكون صابراً شاكراً أما من لم يكن كذلك فلا ينتفع بها البتة **﴿وإذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم﴾** لما أمر الله عز وجل موسى عليه الصلاة والسلام أن يذكر قومه بأيام الله امتثل ذلك الأمر، وذكرهم بأيام الله فقال «اذكروا نعمة الله عليكم» **﴿إذ أنجاكم من آل فرعون﴾** أي اذكروا إنعام الله عليكم في ذلك الوقت الذي أنجاكم فيه من آل فرعون **﴿يسومونكم سوء العذاب ويذبحون أبناءكم﴾**. فإن قلت قال في سورة البقرة: يذبحون بغير واو وقال هنا ويذبحون بزيادة واو فما الفرق؟ قلت: إنما حذفت الواو في سورة البقرة لأن قوله يذبحون تفسير لقوله يسومونكم سوء العذاب، وفي التفسير لا يحسن ذكر الواو كما تقول جاءني القوم زيد وعمرو إذا أردت تفسير القوم وأما دخول الواو هنا في هذه

﴿ ألم يأتكم نبأ الذين ﴾، خبر الذين، **﴿ من قبلكم قوم نوحٍ وعادٍ وثمودَ والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله ﴾**، يعني: مَن كان بعد قوم نوح وعاد وثمود، رُوِيَ عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال بعدما قرأ هذه الآية: كذب النسّابون. وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أنه قال: بين إبراهيم وبين عدنان ثلاثون قرناً لا يعلمهم إلا الله تعالى. وكان مالك بن أنس يكره أن ينسب الإنسان نفسه أباً أباً إلى آدم، وكذلك في حق النبي ﷺ لأنه لا يعلم أولئك الآباء أحد إلّا الله عزّ وجلّ. **﴿ جاءتهم رسلهم بالبيّنات ﴾** بالدلالات الواضحات، **﴿ فردّوا أيديهم في أفواههم ﴾**، قال ابن مسعود: عضوا على أيديهم غيظاً كما قال عضّوا عليكم الأنامل من الغيظ. قال ابن عباس: لما سمعوا كتاب الله عجبوا ورجعوا بأيديهم إلى أفواههم. قال مجاهد وقتادة: كذبوا الرسل وردّوا ما جاؤوا به، يقال: رددت قول فلان في فِيْه أي كذبته. وقال الكلبي: يعني أن الأمم ردّوا أيديهم في أفواههم أي في أفواه أنفسهم أي وضعوا الأيدي على الأفواه إشارة إلى الرسل أن اسكتوا. وقال مقاتل: فردّوا أيديهم على أفواه الرسل يسكتونهم بذلك. وقيل: إن الأيدي بمعنى النعم معناه ردّوا ما لو قبلوا كانت أيادي ونعماً في أفواههم أي: بأفواههم يعني بألسنتهم. **﴿ وقالوا ﴾** يعني الأمم للرسل، **﴿ إنّا كفرنا بما أرسلتم به وإنّا لفي شكٍّ ممّا تدعوننا إليه مُريب ﴾**، موجب للريبة موقع للتهمة.

﴿ قالتْ رسلهم أفي اللّهِ شكٌّ ﴾، هذا استفهام بمعنى نفي ما اعتقدوه، **﴿ فاطر السمٰوات والأرض ﴾**، خالقهما، **﴿ يدعوكم ليغفرَ لكم من ذنوبكم ﴾**، أي: ذنوبكم و**﴿من﴾** صلة، **﴿ ويؤخركم إلى أجل مسمى ﴾**، إلى حين استيفاء آجالكم فلا يعاجلكم بالعذاب، **﴿ قالوا ﴾**، للرسل، **﴿ إن أنتم ﴾**، ما أنتم، **﴿ إلا بشرٌ مثلنا ﴾**، في الصورة والجسم ولستم ملائكة وإنما، **﴿ تريدون ﴾**، بقولكم، **﴿ أن تصدّونا عمّا كان يعبد آباؤنا فأتونا بسلطان مبين ﴾**، حجة بيّنة على صحة دعواكم.

السورة فلأن آل فرعون كانوا يعذبونهم بأنواع من العذاب غير التذبيح وبالتذبيح أيضاً فقوله: ويذبحون نوع آخر من العذاب لأنه تفسير العذاب ﴿ويستحيون نساءكم﴾ يعني يتركونهن أحياء ﴿وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم﴾ . فان قلت كيف كان فعل آل فرعون بلاء من ربهم؟ قلت: تمكينهم وإمهالهم حتى فعلوا ما فعلوا بلاء من الله؛ ووجه آخر وهو أذن لكم إشارة إلى الانجاء، وهو بلاء عظيم لأن البلاء يكون ابتلاء بالنعمة والمحنة جميعاً ومنه قوله: «ونبلوكم بالشر والخير فتنة» وهذا الوجه أولى لأنه موافق لأول الآية وهو قوله اذكروا نعمة الله عليكم. فإن قلت: هب أن تذبيح الأبناء فيه بلاء فكيف يكون استحياء النساء فيه بلاء. قلت: كانوا يستحيونهن ويتركونهن تحت أيديهم كالإماء فكان ذلك بلاء ﴿وإذ تأذن ربكم﴾ هذا من جملة ما قال موسى لقومه كأنه قيل اذكروا نعمة الله عليكم واذكروا حين تأذن ربكم، ومعنى تأذن: آذن، أي أعلم ولا بد في تفعل من زيادة معنى ليس في أفعل كأنه قيل وأذن ربكم إيذاناً بليغاً تنتفي عنده الشكوك وتنزاح الشبه والمعنى وإذ تأذن ربكم فقال: ﴿ولئن شكرتم﴾ يعني يا بني اسرائيل ما خولتكم من نعمة الإنجاء وغيرها من النعم بالإيمان الخالص والعمل الصالح ﴿لأزيدنكم﴾ يعني نعمة إلى نعمة، ولأضاعفن لكم ما أتيتكم قيل شكر الموجود صيد المفقود. وقيل: لئن شكرتم بالطاعة لأزيدنكم في الثواب وأصل الشكر تصور النعمة، وإظهارها وحقيقته الاعتراف بنعمة المنعم مع تعظيمه، وتوطين النفس على هذه الطريقة وهاهنا دقيقة وهي أن العبد إذا اشتغل بمطالعة أقسام نعم الله عز وجل عليه، وأنواع فضله وكرمه وإحسانه إليه اشتغل بشكر تلك النعمة، وذلك يوجب المزيد وبذلك تتأكد محبة العبد لله عز وجل وهو مقام شريف ومقام أعلى منه وهو أن يشغله حب المنعم عن الالتفات إلى النعم، وهذا مقام الصدّيقين نسأل الله القيام بواجب شكر النعمة حتى يزيدنا من فضله وكرمه وإحسانه وإنعامه.

وقوله ﴿ولئن كفرتم﴾ المراد بالكفر هاهنا كفران النعمة، وهو جحودها لأنه مذكور في مقابلة الشكر ﴿إن عذابي لشديد﴾ يعني لمن كفر نعمتي ولا يشكرها ﴿وقال موسى إن تكفروا﴾ يعني يا بني اسرائيل ﴿أنتم ومن في الأرض جميعاً﴾ يعني والناس كلهم جميعاً فإنما ضرر ذلك يعود على أنفسكم بحرمانها الخير كله ﴿فإن الله لغني﴾ يعني عن جميع خلقه ﴿حميد﴾ أي محمود في جميع أفعاله لأنه متفضل وعادل ﴿ألم يأتكم نبأ﴾ يعني خبر ﴿الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود﴾ قال بعض المفسرين: يحتمل أن يكون هذا خطاباً من موسى لقومه، والمقصود منه أنه عليه الصلاة والسلام يذكرهم بأمر القرون الماضية والأمم الخالية والمقصود منه حصول العبرة بأحوال من تقدم وهلاكهم ﴿والذين من بعدهم﴾ يعني من بعد هؤلاء الأمم الثلاثة ﴿لا يعلمهم إلا الله﴾ يعني لا يعلم كنه مقاديرهم وعددهم إلا الله لأن علمه محيط بكل شيء «ألا يعلم من خلق» وقيل: المراد بقوله والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله أقوام وأمم

﴿ قالت لهم رسلهم إنْ نحن إلّا بشرٌ مثلكم ولكنّ الله يمنّ على مَن يشاء من عباده ﴾، بالنبوّة والحكمة، ﴿ وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان إلّا بإذن الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾.

﴿ وما لنا أن لا نتوكل على الله ﴾ وقد عرفنا أن لا نَنَالَ شيئاً إلّا بقضائه وقدره، ﴿ وقد هدانا سُبلنا ﴾، بيّن لنا الرشد وبصّرنا طريق النجاة. ﴿ ولنصبرنّ ﴾، اللام لام القسم مجازاً، والله لنصبرنّ، ﴿ على ما آذيتمونا وعلى الله فليتوكل المتوكلون ﴾.

﴿ وقال الذين كفروا لرسلهم لنخرجنّكم من أرضنا أو لتعودنّ في ملّتنا ﴾، يعنون إلّا أن ترجعوا أو حتى ترجعوا إلى ديننا، ﴿ فأوحى إليهم ربهم لَنُهلكنّ الظالمين ﴾.

﴿ ولنسكننّكم الأرضَ من بعدهم ﴾ أي: بعد هلاكهم، ﴿ ذلك لمَن خاف مقامي ﴾ أي: خاف قيامه بين يدي كما قال: ﴿ ولمَن خاف مقام ربّه جنتان ﴾، فأضاف قيام العبد إلى نفسه، كما تقول: ندمت على ضربك أي على ضربي إياك، ﴿ وخاف وعيد ﴾ أي عقابي.

ما بلغنا خبرهم أصلاً ومنه قوله: «وقروناً بين ذلك كثيراً» وكان ابن مسعود إذا قرأ هذه الآية يقول: كذب النسابون. يعني أنهم يدعون علم النسب إلى آدم، وقد نفى الله علم ذلك عن العباد. وعن عبد الله بن عباس أنه قال: بين إبراهيم وعدنان ثلاثون قرناً لا يعلمهم إلا الله وكان مالك بن أنس يكره أن ينسب الإنسان نفسه أباً أباً إلى آدم، لأنه لا يعلم أولئك إلا الله. وقوله تعالى ﴿**جاءتهم رسلهم بالبينات**﴾ يعني بالدلالات الواضحات والمعجزات الباهرات ﴿**فردوا أيديهم في أفواههم**﴾. وفي معنى الأيدي والأفواه قولان: أحدهما أن المراد بهما هاتان الجارحتان المعلومتان ثم في معنى ذلك وجوه. قال ابن مسعود: عضوا أيديهم غيظاً. وقال ابن عباس: لما سمعوا كتاب الله عجبوا ورجعوا بأيديهم إلى أفواههم. وقال مجاهد وقتادة: كذبوا الرسل وردوا ما جاؤوا به. يقال: رددت قول فلان في فيه أي كذبته. وقال الكلبي: يعني أن الأمم ردوا أيديهم إلى أفواه أنفسهم، يعني أنهم وضعوا الأيدي على الأفواه إشارة منهم إلى الرسل أن اسكتوا. وقال مقاتل: ردوا أيديهم على أفواه الرسل يسكتونهم بذلك وقيل: إن الأمم لما سمعوا كلام الرسل عجبوا منه. وضحكوا على سبيل السخرية فعند ذلك ردوا أيديهم في أفواههم كما يفعل الذي غلبه الضحك. القول الثاني: أن المراد بالأيدي والأفواه غير الجارحتين فقيل المراد بالأيدي النعم ومعناه ردوا ما لو قبلوه لكان نعمة عليهم يقال لفلان عندي يد أي نعمة، والمراد بالأفواه وتكذيبهم الرسل والمعنى كذبوهم بأفواههم وردوا قولهم وقيل إنهم كفوا عن قبول ما أمروا بقبوله من الحق ولم يؤمنوا به يقال فلان رد يده إلى فيه إذا أمسك عن الجواب فلم يجب وهذا القول فيه بعد لأنهم قد أجابوا بالتكذيب وهو أن الأمم ردوا على رسلهم ﴿**وقالوا إنا كفرنا بما أرسلتم به**﴾ يعني إنا كفرنا بما زعمتم أن الله أرسلكم به لأنهم لم يقروا بأنهم أرسلوا إليهم لأنهم لو أقروا بأن الرسل أرسلوا إليهم لكانوا مؤمنين ﴿**وإنا لفي شك مما تدعوننا إليه مريب**﴾ يعني يوجب الريبة أو يوقع في الريبة والتهمة، والريبة قلق النفس وأن لا تطمئن إلى الأمر الذي يشك فيه. فإن قلت: إنهم قالوا أولاً إنا كفرنا بما أرسلتم به فكيف يقولون ثانياً وإنا لفي شك والشك دون

يقال: يوم حار ويوم بارد لأن الحرّ والبرد فيه. وقيل: معناه في يوم عاصف الريح فحذف الريح لأنها قد ذكرت من قبل، وهذا مثل ضربه الله لأعمال الكفّار يريد أنهم لا ينتفعون بأعمالهم التي عملوها في الدنيا لأنهم أشركوا فيها غير الله كالرماد الذي ذرته الريح لا ينتفع به، فذلك قوله تعالى: ﴿ **لا يقدرون** ﴾، يعني: الكفار ﴿ **مما كسبوا** ﴾، في الدنيا، ﴿ **على شيء** ﴾، في الآخرة، ﴿ **ذلك هو الضلال البعيد** ﴾.

﴿ **ألم تَرَ أنّ الله خلقَ السمٰواتِ والأرضَ** ﴾، قرأ حمزة والكسائي (خالق السمٰوات والأرض) وفي سورة النور[٤٥] ﴿ خالق كل دابة ﴾ مضافاً، وقرأ الآخرون ﴿ **خلق** ﴾ على الماضي ﴿ **والأرض** ﴾ وكل بالنصب، ﴿ **بالحق** ﴾ أي: لم يخلقهما باطلاً وإنما خلقهما لأمر عظيم، ﴿ **إن يشأ يذهبكم ويأتِ بخلق جديد** ﴾، سواكم أطوع لله منكم.

﴿ **وما ذلك على الله بعزيز** ﴾، منيع شديد، يعني أن الأشياء تسهل في القدرة لا يصعب على الله شيء وإن جلّ وعَظُم.

قوله تعالى: ﴿ **وبرزوا لله جميعاً** ﴾ أي: خرجوا من قبورهم إلى الله وظهروا جميعاً، ﴿ **فقال الضعفاء** ﴾، يعني الأتباع، ﴿ **للذين استكبروا** ﴾، أي: تكبروا على الناس وهم القادة والرؤوساء، ﴿ **إنّا كنّا لكم تبعاً** ﴾ جمع تابع مثل حرس وحارس، ﴿ **فهل أنتم مغنون** ﴾، دافعون. ﴿ **عنّا من عذاب الله من شيء قالوا** ﴾، يعني القادة للمتبوعين، ﴿ **لو هدانا الله لهديناكم** ﴾، أي: لو هدانا الله لدعوناكم إلى الهدى، فلما أضلّنا دعوناكم إلى الضلالة، ﴿ **سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص** ﴾، مهرب ولا منجا، قال مقاتل: يقولون في النار تعالوا نجزع فيجزعون خمسمائة عام فلا ينفعهم الجزع، ثم يقولون: تعالوا نصبر فيصبرون خمسمائة عام فلا ينفعهم الصبر،

الكفر أو داخل فيه. قلت: إنهم لما صرحوا بكفرهم بالرسل فكأنهم حصل لهم شبهة توجب لهم الشك فقالوا: إن لم تدع الجزم في كفرنا فلا أقل من أن نكون شاكّين مرتابين في ذلك ﴿**قالت رسلهم**﴾ يعني مجيبين لأممهم ﴿**أفي الله شك**﴾ يعني وهل تشكون في الله وهو استفهام إنكار ونفي لما اعتقدوه ﴿**فاطر السموات والأرض**﴾ يعني وهل تشكون في كونه خالق السموات والأرض وخالق جميع ما فيهما ﴿**يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم**﴾ يعني ليغفر لكم ذنوبكم إذا آمنتم وصدقتم وحرف (من) صلة وقيل: إنها أصل ليست بصلة، وعلى هذا إنه يغفر لهم ما بينهم وبينه من الكفر والمعاصي دون مظالم العباد ﴿**ويؤخركم إلى أجل مسمى**﴾ يعني إلى حين انقضاء آجالكم فلا يعاجلكم بالعذاب ﴿**قالوا**﴾ يعني الأمم مجيبين للرسل ﴿**إن أنتم**﴾ يعني ما أنتم ﴿**إلا بشر مثلنا**﴾ يعني في الصورة الظاهرة لستم ملائكة ﴿**تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا**﴾ يعني ما تريدون بقولكم: هذا إلا صدنا عن آلهتنا التي كان آباؤنا يعبدونها ﴿**فأتونا بسلطان مبين**﴾ يعني حجة بينة واضحة على صحة دعواكم ﴿**قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم**﴾ يعني أن الكفار لما قالوا لرسلهم: إن أنتم إلا بشر مثلنا قالت لهم رسلهم مجيبين لهم: هب أن الأمر كما قلتم ووصفتم فنحن بشر مثلكم لا ننكر ذلك ﴿**ولكن الله يمن على من يشاء من عباده**﴾ يعني بالنبوة والرسالة فيصطفي من يشاء من عباده لهذا المنصب العظيم الشريف ﴿**وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان إلا بإذن الله**﴾ يعني وليس لنا مع ما خصنا الله به من النبوة وشرفنا به من الرسالة أن نأتيكم بآية، وبرهان ومعجزة تدل على صدقنا إلا بإذن الله لنا في ذلك ﴿**وعلى الله فليتوكل المؤمنون**﴾ يعني في دفع شرور أعدائهم عنهم ﴿**وما لنا أن لا نتوكل على الله**﴾ يعني أن الأنبياء قالوا أيضاً قد عرفنا أنه لا يصيبنا شيء إلا بقضاء الله وقدره فنحن نثق به ونتوكل عليه في دفع شروركم عنا ﴿**وقد هدانا سبلنا**﴾ يعني وقد عرفنا طريق النجاة، وبين لنا الرشد ﴿**ولنصبرن**﴾ اللام لام القسم تقديره والله لنصبرن ﴿**على ما آذيتمونا**﴾ يعني به من قول أو فعل ﴿**وعلى الله فليتوكل المتوكلون**﴾. فإن قلت: كيف كرر الأمر بالتوكل؟ وهل من فرق بين التوكلين؟ قلت: نعم التوكل الأول فيه إشارة إلى استحداث التوكل والتوكل الثاني فيه إشارة إلى السعي في التثبيت على ما استحدثوا من توكلهم وإبقائه وإدامته فحصل الفرق بين التوكلين. قوله تعالى: ﴿**وقال الذين كفروا لرسلهم لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن في ملتنا**﴾ يعني ليكونن أحد الأمرين إما إخراجكم أيها الرسل من بلادنا وأرضنا وإما عودكم في

فحينئذ يقولون: ﴿ سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص ﴾. قال محمد بن كعب القرظي: بلغني أن أهل النار يستغيثون بالخزنة، كما قال تعالى: ﴿ وقال الذين في النار لخزنة جهنم ادعوا ربكم يخفّف عنّا يوماً من العذاب ﴾ [غافر: ٤٩]، فردّت الخزنة عليهم: ﴿ أَوَ لَمْ تَكُ تأتيكم رسلكم بالبيّنات قالوا بلى ﴾ [غافر: ٥٠]، فردّت الخزنة عليهم: ﴿ ادعوا وما دعاء الكافرين إلا في ضلال ﴾ [غافر: ٥٠] فلما يئسوا مما عند الخزنة نادوا ﴿ يا مالك ليقضِ علينا ربُّك ﴾ [الزخرف: ٧٧] سألوا الموت فلا يجيبهم ثمانين سنة والسنة ثلاثمائة وستون يوماً واليوم كألف سنة مما تعدون، ثم لحظ إليهم بعد الثمانين إنكم ماكثون، فلما أيسوا مما قبله قال بعضهم لبعض إنه قد نزل بكم من البلاء ما ترون فهلمّوا فلنصبر فلعلّ الصبر ينفعنا كما صبر أهل الدنيا على طاعة الله فنفعهم، فأجمعوا على الصبر فطال صبرهم ثم جزعوا فطال جزعهم فنادوا سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص، أي: من منجا. قال: فقام إبليس عند ذلك فخطبهم.

وذلك قوله تعالى: ﴿ وقال الشيطان لمّا قضي الأمر إنّ الله وعدكم وعد الحق ﴾ الآية، فلما سمعوا مقالته مقتوا أنفسهم فنودُوا لمَقتُ الله أكبر من مقتكم أنفسكم إذْ تُدعون إلى الإيمان فتكفرون، قال فنادوا الثانية فارجعنا نعمل صالحاً إنّا موقنون، فردّ عليهم: ﴿ ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ﴾ [السجدة: ١٣] الآيات، فنادوا الثالثة: ﴿ ربنا أخّرنا إلى أجلٍ قريب نجبْ دعوتك ونتبع الرسل ﴾ [إبراهيم: ٤٤]، فردّ عليهم: ﴿ أَوَ لَمْ تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال ﴾ [إبراهيم: ٤٤] الآيات، ثم نادوا الرابعة: ﴿ ربنا أخرجنا نعمل صالحاً غير الذي كنّا

ملتنا. فإن قلت: هذا يوهم بظاهره أنهم كانوا على ملتهم في أول الأمر حتى يعود فيها قلت: معاذ الله ولكن العود هنا بمعنى الصيرورة وهو كثير في كلام العرب، وفيه وجه آخر، وهو أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام قبل الرسالة لم يظهروا خلاف أممهم، فلما أرسلوا إليهم أظهروا مخالفتهم ودعوا إلى الله فقالوا لهم: لتعودن في ملتنا ظناً منهم أنهم كانوا على ملتهم ثم خالفوهم وإجماع الأمة على أن الرسل من أول الأمر إنما نشؤوا على التوحيد لا يعرفون غيره ﴿**فأوحى إليهم ربهم**﴾ يعني أن الله تعالى أوحى إلى رسله وأنبيائه بعد هذه المخاطبات والمحاورات ﴿**لنهلكن الظالمين**﴾ يعني أن عاقبة أمرهم إلى الهلاك فلا تخافوهم ﴿**ولنسكننكم الأرض من بعدهم**﴾ يعني من بعد هلاكهم ﴿**ذلك**﴾ يعني ذلك الإسكان ﴿**لمن خاف مقامي**﴾ يعني خاف مقامه بين يدي يوم القيامة فأضاف قيام العبد إلى نفسه، لأن العرب قد تضيف أفعالها إلى أنفسها كقولهم: ندمت على ضربي إياك وندمت على ضربك مثله ﴿**وخاف وعيد**﴾ أي وخاف عذابي. قوله عز وجل:

وَٱسْتَفْتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَىْءٍ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٨﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ قَالُواْ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾

﴿**واستفتحوا**﴾ يعني واستنصروا. قال ابن عباس: يعني الأمم وذلك أنهم قالوا: اللهم إن كان هؤلاء الرسل صادقين فعذبنا وقال مجاهد وقتادة: واستفتح الرسل على أممهم وذلك أنهم لما أيسوا من إيمان قومهم استنصروا الله

نعمل ﴾ [فاطر: ٣٧] فردّ عليهم: ﴿ ألم نعمركم ما يتذكر فيه مَن تذكر وجاءكم النذير ﴾ [فاطر: ٣٧]، الآية قال: فمكث عليهم ما شاء الله، ثم ناداهم: ﴿ ألم تكن آياتي تتلى عليكم فكنتم بها تكذبون ﴾ [المؤمنون: ١٠٥]، فلما سمعُوا ذلك قالوا: الآن يرحمنا، فقالوا عند ذلك: ﴿ ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنّا قوماً ضالّين، ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنّا ظالمون ﴾ [المؤمنون: ١٠٦ و١٠٧]، قال عند ذلك: ﴿ اخسؤا فيها ولا تكلمون ﴾ [المؤمنون: ١٠٨] فانقطع عند ذلك الرجاء والدعاء عنهم، فأقبل بعضهم على بعض ينفخ بعضهم في وجوه بعض وأطبقت عليهم النار. قوله تعالى: ﴿**وقال الشيطان**﴾، يعني: إبليس، ﴿**لمّا قُضي الأمر**﴾، أي: فرغ منه فأدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار، وقال مقاتل: يوضع له منبر في النار فيرقاه فيجتمع عليه الكفّار بالأئمة فيقول لهم: ﴿ **إ نّ الله وعدكم وعد الحق** ﴾، فوفى لكم به، ﴿ **ووعدتكم فأخلفتكم** ﴾، وقيل: يقول لهم قلت لكم لَا بعثَ ولا جنة ولا نار. ﴿ **وما كانَ لي عليكم من**

قوله: ﴿ **واستفتحوا** ﴾ أي: استنصروا. قال ابن عباس ومقاتل: يعني الأمم وذلك أنهم قالوا: اللّهمَّ إن كان

ودعوا على قومهم بالعذاب ﴿وخاب﴾ يعني وخسر وقيل: هلك ﴿كل جبار عنيد﴾ والجبار في صفة الإنسان يقال لمن تجبر بنفسه بادعاء منزلة عالية لا يستحقها وهو صفة ذم في حق الإنسان، وقيل: الجبار الذي لا يرى فوقه أحداً، وقيل: الجبار المتعظم في نفسه المتكبر على أقرانه والعنيد المعاند للحق ومجانبه قال مجاهد. وقال ابن عباس: هو المعرض عن الحق. وقال مقاتل: هو المتكبر. وقال قتادة: هو الذي يأبى أن يقول لا إله إلا الله. وقيل: العنيد هو المعجب بما عنده. وقيل العنيد الذي يعاند ويخالف ﴿من ورائه جهنم﴾ يعني هي أمامه وهو صائر إليها قال أبو عبيدة: هو من الأضداد يعني أنه يقال: وراء بمعنى خلف وبمعنى أمام وقال الأخفش: هو كما يقال: هذا الأمر من ورائك يعني أنه سيأتيك ﴿ويسقى﴾ يعني في جهنم ﴿من ماء صديد﴾ وهو ما سال من الجلد واللحم من القيح جعل ذلك شراب أهل النار. وقال محمد بن كعب القرظي: هو ما يسيل من فروج الزناة يسقاه الكافر وهو قوله ﴿يتجرعه﴾ أي يتحساه ويشربه لا بمرة واحدة بل جرعة بعد جرعة لمرارته وحرارته وكراهته ونتنه ﴿ولا يكاد يسيغه﴾ أي لا يقدر على ابتلاعه. يقال: ساغ الشراب في الحلق إذا سهل انحداره فيه. قال بعض المفسرين: إن يكاد صلة والمعنى يتجرعه ولا يسيغه وقال صاحب الكشاف: دخلت يكاد للمبالغة يعني ولا يقارب أن يسيغه فكيف تكون الإساغة وقال بعضهم ولا يكاد يسيغه بعد إبطاء لأن العرب تقول ما كدت أقوم أي قمت بعد إبطاء فعلى هذا كاد على أصلها وليست بصلة، وقال ابن عباس: معناه لا يجيزه. وقيل: معناه يكاد لا يسيغه ويسيغه فيغلي في جوفه. عن أبي إمامة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ في قوله تعالى «ويسقى من ماء صديد يتجرعه» قال: «يقرب إلى فيه فيكرهه فإذا أدني منه شوى وجهه ووقعت فروة رأسه فإذا شربه قطع أمعاءه حتى تخرج من دبره قال وسقوا ماء حميماً فقطع أمعاءهم وقال وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقا» أخرجه الترمذي. وقال: حديث غريب. قوله: وقعت فروة رأسة أي جلدة رأسه وإنما شبهها بالفروة للشعر الذي عليها. وقوله تعالى ﴿ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت﴾ يعني أن الكافر يجد ألم الموت وشدته من كل مكان من أعضائه. وقال إبراهيم التيمي: حتى من

هؤلاء الرسل صادقين فعذبنا، نظيره قوله تعالى: ﴿ وإذْ قالوا اللّهمَّ إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطرْ علينا حجارةً من السماء ﴾ [الأنفال: ٣٢]، وقال مجاهد وقتادة: واستفتحوا يعني الرسل وذلك أنهم لما يئسوا من إيمان قومهم استنصروا الله ودعوا على قومهم بالعذاب، كما قال نوح: ﴿ ربِّ لا تذر على الأرض من الكافرين ديّاراً ﴾ [نوح: ٢٦] وقال موسى: ﴿ ربنا اطمسْ عل أموالهم واشددْ على قلوبهم ﴾ [يونس: ٨٨]، الآية: ﴿ وخابَ ﴾، خسر. وقيل: هلك، ﴿ كل جبارٍ عنيد ﴾ والجبار: الذي لا يرى فوقه أحداً. والجبرية: طلب العلو بما لا غاية وراءه. وهذا الوصف لا يكون إلّا لله عزّ وجلّ. وقيل: الجبار: الذي يجبر الخلق على مراده، والعنيد: المعاند للحق ومجانبه. قاله مجاهد، وعن ابن عباس: هو المُعرِض عن الحق. وقال مقاتل: هو المتكبّر. وقال قتادة: العنيد الذي أبى أن يقول لا إله إلّا الله.

﴿ من ورائه جهنم ﴾ أي: أمامه كقوله تعالى وكان وراءهم ملك أي أمامهم. قال أبو عبيدة: هو من الأضداد. وقال الأخفش: هو كما يقال هذا الأمر من ورائك يريد أنه سيأتيك، وأنا من وراء فلان يعني أصل إليه. وقال مقاتل: من ورائه جهنم أي بعده، ﴿ ويسقى من ماء صديد ﴾ أي: من ماء هو صديد وهو ما يسيل من أبدان الكفّار من القيح والدم. وقال محمد بن كعب: ما يسيل من فروج الزناة يسقاه الكافر.

﴿ يتجرعه ﴾ أي: يتحساه ويشربه لا بمرة واحدة بل جرعة جرعة لمرارته وحرارته، ﴿ ولا يكاد يسيغه ﴾، يكاد صلة أي لا يسيغه، كقوله تعالى: ﴿ لم يكد يراها ﴾ [النور: ٤٠] أي: لم يرها، قال ابن عباس: لا يجيزه. وقيل: معناه يكاد لا يسيغه ويسيغه فيغلي في جوفه، أخبرنا محمد بن عبد الله بن أبي توبة أنا محمد بن أحمد بن

تحت كل شعرة من جسده وقيل يأتيه الموت من قدامه ومن خلفه، ومن فوقه ومن تحته وعن يمينه وعن شماله وما هو بميت فيستريح. وقال ابن جريج: تعلق نفسه عند حنجرته فلا تخرج من فيه فيموت ولا ترجع إلى مكانها من جوفه فتنفعه الحياة ﴿ومن ورائه﴾ يعني أمامه ﴿عذاب غليظ﴾ أي شديد قيل: هو الخلود في النار. قوله تعالى ﴿**مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف**﴾ هذا كلام مستأنف منقطع عما قبله وهو مبتدأ محذوف الخبر عند سيبويه تقديره فيما نقص، أو فيما يتلى عليكم مثل الذين كفروا والمثل مستعار للقصة التي فيها غرابة، وقوله: أعمالهم كرماد جملة مستأنفة على تقدير سؤال سائل يقول: كيف مثلهم فقال أعمالهم كرماد. وقال المفسرون والفراء: مثل أعمال الذين كفروا بربهم فحذف المضاف اعتماداً على ما ذكره بعد المضاف إليه. وقيل: يحتمل أن يكون المعنى صفة الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد كقولك في صفة زيد عرضه مصون وماله مبذول والرماد معروف وهو ما يسقط من الحطب والفحم بعد إحراقه بالنار، اشتدت به الريح يعني فنسفته وطيرته ولم تبق منه شيئاً في يوم عاصف، وصف اليوم بالعصوف والعصوف من صفة الريح، لأن الريح تكون فيه كقولك: يوم بارد وحار وليلة ماطرة لأن الحر والبرد والمطر توجد فيهما وقيل: معناه في يوم عاصف الريح فحذف الريح لأنه قد تقدم ذكرها وهذا مثل ضربه الله تعالى لأعمال الكفارالتي لم ينتفوا بها، ووجه المشابهة بين هذا المثل وبين هذه الأعمال هو أن الريح العاصف تطير الرماد وتذهب به وتفرق أجزاءه بحيث لا يبقى منها شيء وكذلك أعمال الكفار تبطل، وتذهب بسبب كفرهم وشركهم حتى لا يبقى منها شيء ثم اختلفوا في هذه الأعمال ما هي فقيل: هي ما عملوه من أعمال الخير في حال الكفر كالصدقة وصلة الأرحام، وفك الأسير وإقراء الضيف وبر الوالدين، ونحو ذلك من أعمال البر والصلاح فهذه الأعمال، وإن كانت أعمال بر لكنها لا تنفع صاحبها يوم القيامة بسبب كفره لأن كفره أحبطها وأبطلها كلها وقيل: المراد بالأعمال عبادتهم الأصنام التي ظنوا أنها تنفعهم فبطلت وحبطت ولم تنفعهم البتة، ووجه خسرانهم أنهم أتعبوا أبدانهم في الدهر الطويل لكي ينتفعوا بها فصارت وبالاً عليهم. وقيل: أراد بالأعمال الأعمال التي عملوها في الدنيا وأشركوا فيها غير الله فإنها لا تنفعهم لأنها صارت كالرماد الذي ذرته الريح وصار هباء لا ينتفع به وهو قوله تعالى: ﴿**لا يقدرون مما كسبوا**﴾ يعني في الدنيا ﴿**على شيء**﴾ يعني من تلك الأعمال والمعنى أنهم لا يجدون ثواب

الحارث أنبأنا محمد بن يعقوب الكسائي أنا عبد الله بن محمود أنا إبراهيم بن عبد الله الخلال ثنا عبد الله بن المبارك عن صفوان بن عمرو عن عبد الله بن بشر عن أبي أمامة عن النبي ﷺ في قوله: ﴿ **ويسقى من ماء صديد يتجرعه** ﴾، قال: يقرب إلى فيه فيكرهه فإذا أدني منه شوي وجهه ووقعت فروة رأسه فإذا شربه قطع أمعاءه حتى يخرج من دبره، يقول الله عزّ وجلّ: ﴿ وسقوا ماءً حميماً فقطع أمعاءهم ﴾ [طه: ٧٤، الأعلى: ١٣]، ويقول: ﴿ وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه ﴾ [الكهف: ٢٩]. ﴿ **ويأتيه الموت من كل مكان** ﴾، يعني: يجدهم الموت وألمه من كل مكان من أعضائه، قال إبراهيم التيمي: حتى من تحت كل شعرة من جسده. وقيل: يأتيه الموت من قدّامه ومن خلفه ومن فوقه ومن تحته وعن يمينه وعن شماله، ﴿ **وما هو بميت** ﴾، فيستريح قال ابن جريج تعلق بنفسه عند حنجرته ولا تخرج من فيه فيموت ولا ترجع إلى مكانها من جوفه فتنفعه الحياة. نظيرها ﴿ **لا يموت فيها ولا يحيى** ﴾ [محمد: ١٥]، ﴿ **ومن ورائه** ﴾، أمامه، ﴿ **عذابٌ غليظ** ﴾، شديد وقيل العذاب الغليظ الخلود في النار.

﴿ **مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم** ﴾ يعني: مثل أعمال الذين كفروا بربهم، كقوله تعالى: ﴿ ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودّة ﴾ [الزمر: ٦٠]، أي: ترى وجوه الذين كذبوا على الله مسودّة، ﴿ **كرمادٍ اشتدتّ به الريحُ في يوم عاصف** ﴾، وصف اليوم بالعصوف، والعصوف من صفة الريح لأن الريح تكون فيه، كما

أعمالهم في الآخرة ﴿ذلك هو الضلال البعيد﴾ يعني ذلك: الخسران الكبير لأن أعمالهم ضلت وهلكت، فلا يرجى عودها والبعيد هنا الذي لا يرجى عوده ﴿ألم تر أن الله خلق السموات والأرض بالحق﴾ يعني لم يخلقهما باطلاً ولا عبثاً وإنما خلقها لأمر عظيم وغرض صحيح ﴿إن يشأ يذهبكم﴾ يعني أيها الناس ﴿ويأت بخلق جديد﴾ يعني: سواكم أطوع لله منكم. والمعنى: أن الذي قدر على خلق السموات والأرض، قادر على إفناء قوم وإماتتهم وإيجاد خلق آخر سواهم لأن القادر لا يصعب عليه شيء. وقيل هذا خطاب لكفار مكة يريد يمتكم يا معشر الكفار، ويخلق قوماً غيركم خيراً منكم وأطوع ﴿وما ذلك على الله بعزيز﴾ يعني بممتنع لأن الأشياء كلها سهلة على الله، وإن جلت وعظمت. قوله عز وجل ﴿وبرزوا لله جميعاً﴾ يعني وخرجوا من قبورهم إلى الله ليحاسبهم ويجازيهم على قدر أعمالهم والبراز الفضاء، وبرز حصل في البراز وذلك أن يظهر بذاته كلها والمعنى، وخرجوا من قبورهم وظهروا إلى الفضاء وأورد بلفظ الماضي وإن كان معناه الاستقبال لأن كل ما أخبر الله عنه، فهو حق وصدق. وكائن لامحالة فصار كأنه قد حصل ودخل في الوجود ﴿فقال الضعفاء﴾ يعني الأتباع ﴿للذين استكبروا﴾ وهم القادة والرؤساء ﴿إنا كنا لكم تبعاً﴾ يعني في الدين والاعتقاد ﴿فهل أنتم﴾ يعني في هذا اليوم ﴿مغنون عنا﴾ يعني دافعون عنا ﴿من عذاب الله من شيء﴾ من هنا للتبعيض والمعنى هل تقدرون على أن تدفعوا عنا بعض عذاب الله الذي حل بنا ﴿قالوا﴾ يعني الرؤساء والقادة، والمتبوعين للتابعين ﴿لو هدانا الله لهديناكم﴾ يعني لو أرشدنا الله لأرشدناكم ودعوناكم إلى الهدى ولكن لما أضلنا دعوناكم إلى الضلالة ﴿سواء علينا أجزعنا أم صبرنا﴾ يعني مستويان علينا الجزع والصبر. والجزع، أبلغ من الحزن لأنه يصرف الإنسان عما هو بصدده، ويقطعه عنه ﴿ما لنا من محيص﴾ يعني من مهرب، ولا منجاة مما نحن فيه من العذاب. قال مقاتل: يقولون في النار تعالوا نجزع فيجزعون خمسمائة عام فلا ينفعهم الجزع فيقولون: تعالوا نصبر فيصبرون خمسمائة عام فلا ينفعهم الصبر فعند ذلك يقولون سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص. وقال محمد بن كعب القرظي: بلغني أن أهل النار يستغيثون بالخزنة كما قال الله وقال الذين في النار لخزنة جهنم ادعوا ربكم يخفف عنا يوماً من العذاب فردت الخزنة عليهم وقالوا ألم تك تأتيكم رسلكم بالبينات قالوا بلى فردت الخزنة وقالوا ادعوا وما دعاء الكافرين إلا في ضلال فلما يئسوا مما عند الخزنة، نادوا يا مالك ليقض علينا ربك سألوا الموت فلا يجيبهم ثمانين سنة، والسنة ثلاثمائة وستون يوماً واليوم كألف سنة مما تعدون ثم يجيبهم بقوله: إنكم ماكثون فلما يئسوا مما عنده قال بعضهم لبعض: تعالوا فلنصبر كما صبر أهل الطاعة لعل ذلك ينفعنا فصبروا وطال صبرهم فلم ينفعهم وجزعوا، فلم ينفعهم عند ذلك قالوا: سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص. قوله تعالى ﴿وقال الشيطان﴾ يعني إبليس ﴿لما قضي الأمر﴾ يعني لما فرغ منه وأدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار. يأخذ أهل النار في لوم إبليس وتقريعه، وتوبيخه، فيقوم فيها خطيباً قال مقاتل: يوضع له منبر في النار فيجتمع عليه أهل النار يلومونه فيقول لهم: ما أخبر الله عنه بقوله ﴿إن الله وعدكم وعد الحق﴾ فيه إضمار تقديره فصدق في وعده ﴿ووعدتكم فأخلفتكم﴾ يعني الوعد. وقيل يقول: لهم إني قلت لكم لابعث ولا جنة ولا نار ﴿وما كان لي عليكم من سلطان﴾ يعني من ولاية وقهر، وقيل: لم آتيكم بحجة فيما وعدتكم به ﴿إلا أن دعوتكم﴾ هذا استثناء منقطع معناه لكن دعوتكم

سلطان ﴾، وِلاَيَة. وقيل: لم آتكم بحجة فيما دعوتكم إليه، ﴿ إلا أن دعوتكم ﴾، هذا استثناء منقطع معناه: ولكن ﴿ دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ﴾، بإجابتي ومتابعتي من غير سلطان ولا برهان، ﴿ ما أنا بمصرخكم ﴾، بمغيثكم، ﴿ وما أنتم بمصرخي ﴾، بمغيثي، قرأ الأعمش وحمزة ﴿ بمصرِخيِ ﴾ بكسر الياء، والآخرون بالنصب لأجل التضعيف، ومَن كسر فلالتقاء الساكنين حرّكت إلى الكسر لأن الياء أُخت الكسرة، وأهل النحو لم يرضوه، وقيل: إنه لغة بني يربوع. والأصل ﴿ بمصرخيني ﴾ فذهبت النون لأجل الإضافة وأُدغمت ياء الجماعة في ياء الإضافة ﴿ إني كفرت بما أشركتمون من قبل ﴾ أي: كفرت بجعلكُم إياي شريكاً في عبادته وتبرأت

﴿فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم﴾ يعني ما كان مني إلا الدعاء وإلقاء الوسوسة، وقد سمعتم دلائل الله وجاءتكم الرسل فكان من الواجب عليكم أن لا تلتفوا إليّ ولا تسمعوا قولي فلما رجحتم قولي على الدلائل الظاهرة كان اللوم بكم أولى بأجابتي، ومتابعتي من غير حجة ولا دليل ﴿ما أنا مصرخكم﴾ يعني بمغيثكم ولا منقذكم ﴿وما أنتم بمصرخي﴾ يعني بمغيثيّ ولا منقذيّ مما أنا فيه ﴿إني كفرت بما أشركتمون من قبل﴾ يعني كفرت بجعلكم إياي شريكاً له في عبادته وتبرأت من ذلك والمعنى أن إبليس جحد ما يعتقده الكفار فيه، من كونه شريكاً لله وتبرأ من ذلك ﴿إن الظالمين لهم عذاب أليم﴾ روى البغوي بسنده عن عقبة بن عامر عن النبي ﷺ في حديث الشفاعة، وذكر الحديث إلى قوله «فيأتوني فيأذن الله لي أن أقوم فيثور من مجلسي أطيب ريح شمها أحد حتى آتي ربي فيشفعني، ويجعل لي نوراً من رأسي إلى ظهر قدمي. ثم يقول الكفار: قد وجد المؤمنون من يشفع لهم فمن يشفع لنا فيقولون ما هو غير إبليس هو الذي أضلنا فيأتونه، فيقولون: قد وجد المؤمنون من يشفع لهم فقم أنت فاشفع لنا فإنك أنت أضللتنا فيقوم فيثور من مجلسه أنتن ريح شمها أحد ثم تعظم جهنم، ويقول عند ذلك: إن الله وعدكم وعد الحق الآية. وقوله تعالى:

﴿وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ۖ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَـٰمٌ ﴿٢٣﴾ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾﴾

﴿وأدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار﴾ لما شرح الله عز وجل حال الكفار الأشقياء بما تقدم من الآيات الكثيرة، شرح أحوال المؤمنين السعداء، وما أعد لهم في الآخرة من الثواب العظيم الجزيل، وذلك أن الثواب منفعة خالصة دائمة مقرونة بالتعظيم والمنفعة الخالصة إليها الإشارة دائمة بقوله: وأدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار، وكونها دائمة أشير إليه بقوله ﴿خالدين فيها﴾ والتعظيم

من ذلك، ﴿ إن الظالمين ﴾، الكافرين، ﴿ لهم عذاب أليم ﴾، أخبرنا محمد بن عبد الله بن أبي توبة أنبأنا محمد بن أحمد الحارث أنبأنا محمد بن يعقوب الكسائي أنبأنا عبد الله بن محمود ثنا إبراهيم بن عبد الله الخلال ثنا عبد الله بن المبارك عن رشيد بن سعد أخبرني عبد الرحمن بن زياد عن دخين الحجري عن عقبة بن عامر عن رسول الله ﷺ في حديث الشفاعة ذكر الحديث ثم قال: يقول عيسى عليه السلام ذلكم النبي الأمّي فيأتوني فيأذن الله لي أن أقوم فيثور من مجلسي أطيب ريح شمّها أحد حتى آتي ربي عزّ وجلّ فيشفعني ويجعل لي نوراً من شعر رأسي إلى ظهر قدمي، ثم يقول الكفار: قد وجد المؤمنون مَن يشفع لهم فمَن يشفع لنا فيقولون ما هو غير إبليس هو الذي أضلّنا فيأتونه فيقولون له قد وجد المؤمنين مَن يشفع لهم فقم أنت فاشفع لنا فإنك أنت أضللتنا فيقوم فيثور من مجلسه أنتن ريح شمّها أحد، ثم تعظم جهنم ويقول عند ذلك: ﴿ إن الله وعدكم وعد الحق ﴾، الآية.

قوله تعالى: ﴿ وأدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها بإذن ربهم تحيتهم فيها سلام ﴾، يسلم بعضهم على بعض وتسلم الملائكة عليهم. وقيل: المحيّي بالسلام هو الله عزّ وجلّ.

وقوله تعالى: ﴿ ألم ترَ كيف ضرب الله مثلاً ﴾، ألم تعلم، والمثل قولٌ سائر لتشبيه شيء بشيء. ﴿ كلمةً

حصل من وجهين أحدهما قوله: ﴿بإذن ربهم﴾ لأن تلك المنافع إنما كانت تفضلاً من الله بإنعامه الثاني قوله ﴿تحيتهم فيها سلام﴾ فيحتمل أن بعضهم يحيي بعضاً بهذا الكلمة أو الملائكة تحييهم بها أو الرب سبحانه وتعالى يحييهم، ويحتمل أن يكون المراد أنهم لما دخلوا الجنة سلموا من جميع الآفات لأن السلام مشتق من السلامة. قوله عز وجل: ﴿ألم تر كيف ضرب الله مثلاً﴾ لما شرح الله عز وجل أحوال الأشقياء وأحوال السعداء، ضرب مثلاً فيه حكم هذين القسمين فقال تعالى: ألم تر أي بعين قلبك فتعلم علم يقين بإعلامي إياك فعلى هذا يحتمل أن يكون الخطاب فيه للنبي ﷺ ويدخل معه غيره فيه ويحتمل أن يكون الخطاب فيه لكل فرد من الناس، فيكون المعنى ألم تر أيها الإنسان كيف ضرب الله مثلاً يعني بين شبهاً، والمثل عبارة عن قول في شيء يشبه قولاً في شيء آخر، بينهما مشابهة ليتبين أحدهما من الآخر ويتصور. وقيل: هو قول سائر لتشبيه شيء بشيء آخر ﴿كلمة طيبة﴾ هي قول لا إله إلا الله في قول ابن عباس وجمهور المفسرين: ﴿كشجرة طيبة﴾ يعني كشجرة طيبة الثمرة وقال ابن عباس: هي النخلة. وبه قال ابن مسعود وأنس ومجاهد وعكرمة والضحاك (ق) عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: كنا عند رسول الله ﷺ فقال: «أخبروني عن شجرة شبه الرجل أو قال كالرجل المسلم لا يتحات ورقها تؤتي أكلها كل حين» قال ابن عمر: فوقع في نفسي أنها النخلة ورأيت أبا بكر وعمر لا يتكلمان فكرهت أن أتكلم فلما لم يقولوا شيئاً قال رسول الله ﷺ «هي النخلة» قال: فلما قمنا قلت لعمر: يا أبتاه والله لقد كان وقع في نفسي أنها النخلة فقال ما منعك أن تتكلم؟ فقلت لم أركم تتكلمون فكرهت أن أتكلم أو أقول شيئاً فقال عمر لأن تكون قلته أحب إلي من كذا وكذا وفي رواية: «إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها، وإنها مثل المسلم فحدثوني ما هي؟» فوقع الناس في شجر البوادي قال عبد الله ابن عمر ووقع في نفسي أنها النخلة فاستحييت أن أتكلم ثم قالوا: حدثنا ما هي يا رسول الله قال «هي النخلة» وفي رواية عن ابن عباس، أنها شجرة في الجنة وفي رواية أخرى عنه أنها المؤمن. وقوله ﴿أصلها ثابت﴾ يعني في الأرض

طيبةً ﴾، وهي قول: لا إله إلاّ الله، ﴿ كشجرةٍ طيبة ﴾، وهي النخلة يريد كشجرة طيبة الثمرة، وقال أبو ظبيان عن ابن عباس: هي شجرة في الجنة، ﴿ أصلها ثابت ﴾، في الأرض، ﴿ وفرعها ﴾، أعلاها، ﴿ في السماء ﴾، كذلك أصل هذه الكلمة راسخ في قلب المؤمن بالمعرفة والتصديق فإذا تكلم بها عرجت فلا تحجب حتى تنتهي إلى الله عزّ وجلّ. قال الله تعالى: ﴿ إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه ﴾ [فاطر: ١٠].

﴿ تؤتي أُكلها ﴾، تغطي ثمرها، ﴿ كل حين بإذن ربها ﴾، والحين في اللغة هو الوقت، وقد اختلفوا في معناه ههنا فقال مجاهد وعكرمة: الحين ههنا سنة كاملة لأن النخلة تثمر كل سنة. وقال سعيد بن جبير وقتادة والحسن: ستة أشهر من وقت إطّلاعها إلى صرامها. ورُوِيَ ذلك عن ابن عباس رضي الله عنهما. وقيل: أربعة أشهر من حين ظهورها إلى إدراكها. وقال سعيد بن المسيب شهران من حين تؤكل إلى الصرام. وقال الربيع بن أنس: كل حين أي كل غدوة وعشية لأن ثمر النخل يؤكل أبداً ليلاً ونهاراً وصيفاً وشتاءً، إما تمراً أو رطباً أو بسراً، كذلك عمل المؤمن يصعد أول النهار وآخره وبركة إيمانه لا تنقطع أبداً بل تصل إليه في كل وقت والحكمة في تمثيل الإيمان بالشجرة هي أن الشجرة لا تكون شجرة إلا بثلاثة أشياء عرق راسخ وأصل قائم وفرع عالٍ كذلك الإيمان لا يتم إلا بثلاثة أشياء تصديق بالقلب وقول باللسان وعمل بالأبدان. أخبرنا أبو عبد الله محمد بن الفضل الخرقي أنبأنا أبو الحسن علي بن عبد الله الطيسفوني أنبأنا عبد الله بن عمر الجوهري أنا أحمد بن علي الكشمهيني ثنا علي بن حجر ثنا إسماعيل بن جعفر ثنا عبد الله بن دينار أنه سمع ابن عمر يقول: قال رسول الله ﷺ: «إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها وإنها مثل المسلم فحدّثوني ما هي»؟ قال عبد الله فوقع الناس في شجر البوادي ووقع في نفسي أنها النخلة فاستحييت، ثم قالوا: حدّثنا ما هي يا رسول الله؟ قال: «هي النخلة» قال عبد الله: فذكرت

﴿وفرعها﴾ يعني أعلاها ﴿في السماء﴾ يعني ذاهبة في السماء ﴿تؤتي أكلها﴾ يعني ثمرها ﴿كل حين بإذن ربها﴾ يعني بأمر ربها والحين في اللغة الوقت يطلق على القليل والكثير واختلفوا في مقداره هذا وقال مجاهد وعكرمة: الحين هنا سنة كاملة لأن النخلة تثمر في كل سنة مرة واحدة. وقال سعيد بن جبير وقتادة والحسن: ستة أشهر يعني من وقت طلعها إلى حين صرامها، وروي ذلك عن ابن عباس أيضاً. وقال علي بن أبي طالب: ثمانية أشهر يعني أن مدة حملها باطناً وظاهراً ثمانية أشهر. وقيل: أربعة أشهر من حين ظهور حملها إلى إدراكها. وقال سعيد بن المسيب: شهران يعني من وقت أن يؤكل منها إلى صرامها. وقال الربيع بن أنس: كل حين يعني غدوة وعشية، لأن ثمر النخل يؤكل أبداً ليلاً ونهاراً وصيفاً وشتاءً، فيؤكل منها الجمار والطلع والبلح والبسر والمنصف والرطب، وبعد ذلك يؤكل التمر اليابس إلى حين الطري الرطب فأكلها دائم في كل وقت. قال العلماء: ووجه الحكمة في تمثيل هذه الكلمة التي هي كلمة الإخلاص وأصل الإيمان بالنخلة حاصل من أوجه: أحدها: أن كلمة الإخلاص شديدة الثبوت في قلب المؤمن كثبوت أصل النخلة في الأرض. الوجه الثاني: أن هذه الكلمة ترفع عمل المؤمن إلى السماء. كما قال تعالى: إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه وكذلك فرع النخلة الذي هو عال في السماء. الوجه الثالث: أن ثمر النخلة يأتي في كل حين ووقت وكذلك ما يكسبه المؤمن من الأعمال الصالحة في كل وقت وحين ببركة هذه الكلمة، فالمؤمن كلما قال: لا إله إلا الله صعدت إلى السماء وجاءته بركتها وثوابها وخيرها ومنفعتها. الوجه الرابع: أن النخلة شبيهة بالإنسان في غالب الأمر لأنها خلقت من فضلة طينة آدم وأنها إذا قطع رأسها تموت كالآدمي بخلاف سائر الشجر فإنه إذا قطع نبت، وأنها لا تحمل حتى تلقح بطلع الذكر. الوجه الخامس: في وجه الحكمة في تمثيل الإيمان بالشجر على الإطلاق لأن الشجرة لا تسمى شجرة إلا بثلاثة أشياء: عرق راسخ، وأصل ثابت، وفرع قائم، وكذلك الإيمان لا يتم إلا بثلاثة أشياء: تصديق بالقلب، وقول باللسان، وعمل بالأبدان، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ويضرب

ذلك لعمر فقال: لأن تكون قلت هي النخلة كان أحبَّ إلي من كذا وكذا. وقيل الحكمة في تشبيهها بالنخلة من بين سائر الأشجار أن النخلة شبه الأشجار بالإنسان من حيث إنها إذا قطع رأسها يبست وسائر الأشجار تتشعب من جوانبها بعد قطع رؤوسها ولأنها تشبه الإنسان في أنها لا تحمل إلا بالتلقيح ولإنها خلقت من فضل طينة آدم عليه السلام، ولذلك قال النبي ﷺ: «أكرموا عمّتكم» قيل: ومَن عمّتنا؟ قال: «النخلة» ﴿ **ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون** ﴾.

﴿ **ومثل كلمة خبيثة** ﴾. وهي الشرك، ﴿ **كشجرة خبيثة** ﴾، وهي الحنظل وقيل: هي الثوم. وقيل: الكشوت وهي العشقة، ﴿ **اجتثت** ﴾، يعني انقلعت، ﴿ **من فوق الأرض ما لها من قرار** ﴾، ثبات، معناه وليس لها أصل ثابت في الأرض ولا فرع صاعد إلى السماء، كذلكِ الكافر لا خير فيه ولا يصعد له قول طيب ولا عمل صالح.

قوله تعالى: ﴿ **يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت** ﴾، كلمة التوحيد وهي قول لا إلّه إلّا الله ﴿ **في الحياة الدنيا** ﴾، يعني قبل الموت، ﴿ **وفي الآخرة** ﴾، يعني في القبر هذا قول أكثر المفسرين وقيل: في الحياة الدنيا عند السؤال في القبر، وفي الآخرة عند البعث. والأول أصح، أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنبأنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا أبو الوليد ثنا شعبة أخبرني علقمة بن مرثد قال: سمعت سعيد بن عبيدة عن البراء بن عازب أن رسول الله ﷺ قال: «المسلم إذا سُئِل في القبر يشهد أن لا إلّه إلّا الله وأن محمداً رسول الله، فذلك قوله تعالى: ﴿ **يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة** ﴾، أخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر أنبأنا عبد الغافر بن محمد أنبأنا محمد بن عيسى الجلودي أنبأنا إبراهيم بن محمد بن سفيان أنبأنا مسلم بن الحجاج ثنا محمد بن بشار ثنا محمد بن جعفر ثنا شعبة بهذا الإسناد عن

الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون﴾ يعني أن في ضرب الأمثال زيادة في الأفهام وتصويراً للمعاني وتذكيراً ومواعظ لمن تذكر واتعظ. قوله تعالى **﴿ومثل كلمة خبيثة﴾** وهو الشرك **﴿كشجرة خبيثة﴾** يعني الحنظل قاله أنس بن مالك ومجاهد: وفي رواية عن ابن عباس إنها الكشوت وعنه أيضاً أنها الثوم وعنه أيضاً أنها الكافر لأنه لا يقبل عمله فليس له أصل ثابت ولا يصعد إلى السماء **﴿اجتثت﴾** يعني استؤصلت وقطعت **﴿من فوق الأرض ما لها من قرار﴾** يعني ما لهذه الشجرة من ثبات في الأرض، لأنها ليس لها أصل ثابت في الأرض ولا فرع صاعد إلى السماء كذلك الكافر لا خير فيه ولا يصعد له. قول طيب ولا عمل صالح ولا لاعتقاده أصل ثابت، فهذا وجه تمثيل الكافر بهذه الشجرة الخبيثة. عن أنس قال أتي رسول الله ﷺ بقناع عليه رطب فقال: «مثل كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها قال: هي النخلة ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار قال هي الحنظلة» أخرجه الترمذي. مرفوعاً وموقوفاً، وقال الموقوف أصح. قوله سبحانه وتعالى: **﴿يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت﴾** والقول الثابت: هي الكلمة الطيبة وهي شهادة أن لا إلة إلا الله، في قول جمهور المفسرين. ولما وصف الكلمة الخبيثة في الآية المتقدمة بكلمة الشرك قال: في هذه الآية ويضل الله الظالمين يعني بالكلمة الخبيثة وهي كلمة الشرك في قول جميع المفسرين وقوله: **﴿في الحياة الدنيا﴾** يعني في القبر عند السؤال **﴿وفي الآخرة﴾** يعني يوم القيامة عند البعث والحساب وهذا القول واضح ويدل عليه ما روي عن البراء بن عازب. قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن المسلم إذا سئل في القبر يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله فذلك قوله: يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة قال: نزلت في عذاب القبر زاد في رواية يقال له من ربك فيقول ربي الله ونبيي محمد ﷺ» أخرجه البخاري ومسلم (ق). عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: «إن العبد إذا وضع في قبره وتولى عنه أصحابه وأنه ليسمع قرع نعالهم إذا انصرفوا أتاه ملكان فيقعدانه فيقولان له: ما كنت تقول في هذا الرجل محمد؟ فأما المؤمن فيقول أشهد أنه عبد الله ورسوله، فيقال له: انظر إلى مقعدك من النار أبدلك الله به مقعداً من الجنة قال النبي ﷺ: «فيراهما جميعاً» قال قتادة: ذكر لنا أنه يفسح له في قبره، ثم رجع إلى حديث أنس وأما المنافق وفي رواية وأما الكافر فيقول: لا أدري كنت أقول ما يقول الناس فيه. فيقال: لا دريت ولا تليت ثم يضرب بمطرقة من حديد ضربة بين أذنيه فيصيح صيحة يسمعها من يليه إلا الثقلين» لفظ البخاري ولمسلم بمعناه زاد في رواية «أنه يفسح له في قبره سبعون ذراعاً، ويملأ عليه خضراً إلى يوم يبعثون» وأخرجه أبو داود عن أنس قال: وهذا لفظه أن رسول الله ﷺ

النبي ﷺ قال: **﴿ يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت ﴾** قال: نزلت في عذاب القبر يقال له: مَن ربك فيقول ربي الله ونبيِّي محمد، فذلك قوله تعالى: **﴿ يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت ﴾** الآية. وأخبرنا عبد الواحد المليحي أنبأنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا عياش بن الوليد ثنا عبد الأعلى ثنا سعيد عن قتادة عن أنس بن مالك أنه حدّثهم أن رسول الله ﷺ قال: «إن العبد إذا وُضع في قبره وتولى عنه أصحابه أنه يسمع قرع نِعالهم أتـاه ملكـان فيقعدانه فيقولان ما كنت تقول في هذا الرجل لمحمد ﷺ، فأما المؤمن فيقول أشهد أنه عبد الله ورسوله فيقال له انظر إلى مقعدك من النار قد أبدلك الله به مقعداً من الجنة فيراهما جميعاً». قال قتادة: وذكر لنا أنه يفسح له في قبره، ثم رجع إلى حديث أنس قال: وأما المنافق والكافر فيقال له ما كنت تقول في هذا الرجل؟ فيقول: لا أدري كنت أقول ما يقول الناس، فيقال له: لا دريت ولا تليت، ويُضْرب بمطارق من حديد ضربة فيصيح صيحة يسمعها مـن يليه غير الثقلين. أخبرنا أبو الفرج المظفر بن إسماعيل التميمي ثنا أبو القاسم حمزة بن يوسف السهمي أنبأنا أبو أحمد عبد الله بن عدي الحافظ ثنا عبد الله بن سعيد ثنا أسد بن موسى ثنا عنبسة بن سعد بن كثير حدّثني جدي عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «إن الميت يسمع خفق النعال إذا ولّى عنه

قال: «إن المؤمن إذا وضع قبره آتاه ملك فيقول: ما كنت تعبد؟ فإن هداه الله، قال: كنت أعبد الله فيقول له: ما كنت تقول في هذا الرجل؟ فيقول هو عبد الله ورسوله فلا يسأل عن شيء بعدها فينطلق به إلى بيت كان له في النار، فيقال له: هذا كان مقعدك ولكن عصمك الله فأبدلك به بيتاً في الجنة فيراه، فيقول: دعوني حتى أذهب فأبشر أهلي. فيقال له: اسكن. وإن الكافر والمنافق إذا وضع في قبره، آتاه ملك فينهضه فيقول ما كنت تعبد؟ فيقول: لا أدري. فيقال له: لا دريت ولا تليت فيقال له ما كنت تقول في هذا الرجل فيقول كنت أقول ما يقول الناس فيه فيضربه بمطراق من حديد بين أذنيه فيصيح صيحة يسمعها الخلق غير الثقلين» وأخرجه النسائي. أيضاً عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إذا قبر الميت أو قال إذا قبر أحدكم آتاه ملكان أسودان أزرقان يقال لأحدهما المنكر وللآخر النكير فيقولان: ما كنت تقول في هذا الرجل فيقول: كنت أقول هو عبد الله ورسوله أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله فيقولان: قد كنا نعلم أنك تقول هذا ثم يفسح له في قبره سبعون ذراعاً، ثم ينور له فيه ثم يقال له: ثم فيقول أرجع إلى أهلي فأخبرهم فيقولان: نم كنومة العروس الذي لا يوقظه إلا أحب أهله إليه، حتى يبعثه الله تعالى من مضجعه، ذلك وإن كان منافقاً فيقول سمعت الناس يقولون قولاً فقلت مثلهم لا أدري فيقولان: قد كنا نعلم أنك كنت تقول ذلك. فيقال للأرض: التئمي عليه فتلتئم عليه فتختلف أضلاعه، فلايزال فيها معذباً حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك» أخرجه الترمذي. عن البراء بن عازب قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ في جنازة رجل من الأنصار فانتهت إلى القبر، ولما يلحد بعد فجلس رسول الله ﷺ وجلسنا حوله كأنما على رؤوسنا الطير وبيده عود ينكت به في الأرض، فرفع رأسه ﷺ فقال: تعوذوا بالله من عذاب القبر مرتين أو ثلاثاً زاد في رواية قال: إن الميت ليسمع خفق نعالهم إذا ولوا مدبرين حين يقال له: يا هذا من ربك وما دينك ومن نبيك وفي رواية يأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له: من ربك؟ فيقول: ربي الله فيقولان له وما دينك؟ فيقول: ديني الإسلام فيقولان له ما هذا الرجل الذي بعث فيكم فيقول هو رسول الله فيقولان: وما يدريك؟ فيقول: قرأت كتاب الله وآمنت به وصدقت، زاد في رواية فذلك قوله: يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ثم لقناه قال فينادي مناد من السماء أن صدق عبدي فافرشوا له من الجنة وافتحوا له باباً إلى الجنة فيأتيه من ريحها وطيبها ويفسح له في قبره مد بصره وإن كان الكافر فذكر موته قال: فتعاد روحه في جسده، فيأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له من ربك فيقول: هاه هاه لا أدري. فيقولان ما دينك فيقول هاه هاه لا أدري فيقولان ما هذا الرجل الذي بعث فيكم فيقول هاه هاه لا أدري فينادي مناد من السماء أن قد كذب عبدي فافرشوا له من النار

الناس مدبرين، ثم يجلس ويوضع كفنه في عنقه ثم يُسأل» ورُوِيَ عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إذا قبر الميت أتاه ملكان أسودان أزرقان يقال لأحدهما المنكر وللآخر النكير، فيقولان: ما كنت تقول في هذا الرجل؟ فيقول هو عبد الله ورسوله أشهد أن لا إله إلاّ الله وأن محمداً عبده ورسوله، فيقولان: قد كنا نعلم أنك تقول هذا ثم يفسح له في قبره سبعون ذراعاً في سبعين ثم ينوّر له فيه، ثم يقال له: نمْ فيقول أرجع إلى أهلي فأُخبرهم، فيقولان نمْ كنومة العروس الذي لا يوقظه إلا أحبّ أهله إليه حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك، وإن كان منافقاً أو كافر، قال: سمعت الناس يقولون قولاً فقلت مثله لا أدري، فيقولان: قد كنّا نعلم أنك تقول ذلك فيقال للأرض التئمي عليه فتلتئم عليه فتختلف أضلاعه فلا يزال فيها معذباً حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك» ورُوِيَ عن البراء بن عازب أن رسول الله ﷺ ذكر قبض روح المؤمن وقال: «فتُعاد روحه في جسده ويأتيه ملكان فيُجلِسانه في قبره ويقولان له مَن ربك وما دينك ومَن نبيّك؟ فيقول: ربي الله وديني الإسلام ونبيّي محمد فينتهرانه ويقولان له الثانية من ربك وما دينك ومَن نبيّك وهي آخر فتنة تعرض على المؤمنين فيثبته الله عزّ وجلّ، فيقول: ربي الله وديني الإسلام ونبيّي محمد ﷺ فينادي منادٍ من السماء أنْ صدق عبدي، قال: فذلك قوله تعالى: ﴿يثبت الله الذين آمنوا بالقول

وألبسوه من النار وافتحوا له باباً في النار، فيأتيه من حرها وسمومها ويضيق عليه قبره، حتى تختلف فيه أضلاعه في رواية ثم يقيض له أعمى أبكم أصم معه مرزبة من حديد، لو ضرب بها جبلاً لصار تراباً فيضربه بها ضربة، يسمعها من بين المشرق والمغرب إلا الثقلين فيصير تراباً ثم تعاد فيه الروح» أخرجه أبو داود. عن عثمان بن عفان قال: «كان رسول الله ﷺ إذا فرغ من دفن الميت وقف عليه وقال: «استغفروا لأخيكم واسألوا له التثبيت فإنه الآن يُسأل» أخرجه أبو داود. عن عبد الرحمن بن ثمامة المهري قال: حضرنا عمرو بن العاص وهو في سياق الموت فبكى بكاء طويلاً، وحول وجهه إلى الجدر وجعل ابنه يقول: ما يبكيك يا أبتاه أما بشرك رسول الله ﷺ بكذا وكذا فأقبل بوجهه وقال: إن أفضل ما نعد شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وذكر الحديث بطوله وفيه فإذا أنا مت فلا تصحبني نائحة، ولا نار فإذا دفنتموني فسنوا علي التراب سنا، ثم أقيموا حول قبري قدر ما تنحر جزور ويقسم لحمها حتى أستأنس بكم وأنظر ماذا أراجع به رسل ربي». أخرجه مسلم بزيادة طويلة فيه قيل المراد من التثبيت بالقول الثابت هو أن الله تعالى إنما يثبتهم في القبر بسبب كثرة مواظبتهم على شهادة الحق في الحياة الدنيا وحبهم لها، فمن كانت مواظبته على شهادة الإخلاص أكثر كان رسوخها في قلبه أعظم فينبغي للعبد المسلم أن يكثر من قول لا إله إلا لله محمد رسول الله في جميع حالاته، من قيامه وقعوده ونومه ويقظته وجميع حركاته وسكناته، فلعل الله عز وجل أن يرزقه ببركة مواظبته على شهادة الإخلاص التثبيت في القبر، ويسهل عليه جواب الملكين بما فيه خلاصه من عذاب الآخرة، نسأل الله التثبيت في القبر، وحسن الجواب وتسهيله بفضله ومنه وكرمه وإحسانه، إنه على كل شيء قدير وقوله تعالى: ﴿**ويضل الله الظالمين**﴾ يعني أن الله تعالى لا يهدي المشركين إلى الجواب الصواب في القبر ﴿**ويفعل الله ما يشاء**﴾ يعني من التوفيق، والخذلان والهداية والإضلال والتثبيت، وتركة لا اعتراض عليه في جميع أفعاله لا يسئل عما يفعل وهم يسألون. قوله عز وجل:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦ ۗ قُلْ تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٣٠﴾ قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴿٣١﴾﴾

﴿**ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً**﴾ (خ) عن ابن عباس في قوله: ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً؟ قال: هم كفار مكة وفي رواية هم والله كفار قريش. قال عمر: هم قريش ونعمة الله هو محمد ﷺ ﴿**وأحلوا قومهم دار**

الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة﴾ [إبراهيم: ٢٧] أخبرنا الإمام أبو علي الحسين بن محمد القاضي أنبأنا أبو العباس عبد الله بن محمد بن هارون الطيسفوني أخبرنا أبو الحسن محمد بن أحمد الترابي أنبأنا أبو بكر أحمد بن محمد بن عمر بن بسطام أنبأنا أبو الحسن أحمد بن سيار القرشي ثنا إبراهيم بن موسى الفراء أبو إسحاق ثنا هشام بن يوسف ثنا عبد الله بن يحيى عن هانيء مولى عثمان قال: كان النبي ﷺ إذا فرغ من دفن الرجل وقف عليه وقال: «استغفروا لأخيكم واسألوا الله له التثبيت، فإنه الآن يسأل»، وقال عمرو بن العاص في سياق الموت وهو يبكي فإذا أنا متُّ فلا تصحبني نائحة ولا نار فإذا دفنتموني فسنّوا عليّ التراب سنّاً ثم أقيموا حول قبري قرد ما ينحر جزور ويقسم لحمه حتى أستأنس بكم وأنظر ماذا أراجع به رسل ربي. قوله تعالى: ﴿ **ويضلّ الله الظالمين** ﴾ أي: لا يهدي المشركين إلى الجواب بالصواب في القبر ﴿ **ويفعل الله ما يشاء** ﴾، من التوفيق والخذلان والتثبيت وترك التثبيت.

قوله تعالى: ﴿ ألم ترَ إلى الذين بدّلوا نعمةَ الله كفراً ﴾ [إبراهيم: ٢٨] الآية، أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن إسماعيل ثنا الحميدي ثنا سفيان ثنا عمرو عن عطاء عن ابن عباس في قوله

البوار﴾ قال البوار: يوم بدر وعن علي رضي الله عنه قال هم كفار قريش فجروا يوم بدر، وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: الأفجران من قريش بنو المغيرة وبنو أمية أما بنو المغيرة فقد كفيتموهم يوم بدر، وأما بنو أمية فقد متعوا إلى حين فقوله بدلوا نعمة الله كفراً معناه أن الله تعالى لما أنعم على قريش بمحمد ﷺ فأرسله إليهم وأنزل عليه كتابه ليخرجهم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان اختاروا الكفر على الإيمان، وغيروا نعمة الله عليهم. وقيل: يجوز أن يكون بدلوا شكر نعمة الله عليهم كفراً لأنهم لما وجب عليهم الشكر بسبب هذه النعمة أتوا بالكفر فكأنهم غيروا الشكر، وبدلوه بالكفر وأحلوا قومهم، يعني ومن تبعهم على دينهم وكفرهم دار البوار يعني دار الهلاك ثم فسرها بقوله ﴿جهنم يصلونها وبئس القرار﴾ يعني المستقر ﴿وجعلوا لله أنداداً﴾ يعني أمثالاً وأشباهاً من الأصنام، وليس لله تعالى ند ولا شبيه، ولا مثيل تعالى الله عن الند والتشبيه والمثيل علواً كبيراً ﴿ليضلوا عن سبيله﴾ يعني ليضلوا الناس عن طريق الهدى ودين الحق ﴿قل تمتعوا﴾ أي قل: يا محمد لهؤلاء الكفار تمتعوا في الدنيا أياماً قلائل ﴿فإن مصيركم إلى النار﴾ يعني في الآخرة. قوله تعالى ﴿قل لعبادي الذين آمنوا يقيموا الصلاة﴾ يعني يقيموا الصلاة الواجبة، وإقامتها إتمام أركانها ﴿وينفقوا مما رزقناهم﴾ قيل أراد بهذا الإنفاق إخراج الزكاة الواجبة، وقيل: أراد به جميع الإنفاق في جميع وجوه الخير والبر وحمله على العموم أولى ليدخل فيه إخراج الزكاة، والإنفاق في جميع وجوه البر ﴿سراً وعلانية﴾ يعني ينفقون أموالهم في حال السر وحال العلانية، وقيل: أراد بالسر صدقة التطوع وبالعلانية إخراج الزكاة الواجبة ﴿من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه﴾ قال أبو عبيدة: البيع هنا الفداء يعني لا فداء في ذلك اليوم ﴿ولا خلال﴾ يعني ولا خلة، وهي المودة والصداقة التي تكون مخاللة بين اثنين. وقال مقاتل: إنما هو يوم لا بيع فيه ولا شراء ولا مخاللة ولا قرابة، إنما هي الأعمال إما أن يثاب بها أو يُعاقَب عليها. فإن قلت: كيف نفى الخلة في هذه الآية، وفي الآية التي في سورة البقرة وأثبتها في قوله «الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين»؟ قلت: الآية الدالة على نفي الخلة محمولة على نفي الخلة الحاصلة، بسبب ميل الطبيعة، ورعونة النفس، والآية الدالة على حصول الخلة وثباتها محمولة على الخلة الحاصلة بسبب محبة الله ألا تراه أثبتها للمتقين فقط، ونفاها عن غيرهم. وقيل: إن ليوم القيامة أحوالاً مختلفة، ففي بعضها يشتغل كل خليله عن خليله وفي بعضها يتعاطف الأخلاء بعضهم على بعض. إذا كانت تلك المخالة لله في محبته. قوله عز وجل:

تعالى: ﴿ الذين بدّلوا نعمة الله كفراً ﴾ [إبراهيم: ٢٨]، قال: هم والله كفّار قريش. وقال عمر: هم قريش، ومحمد ﷺ نعمة الله، ﴿ وأحلّوا قومهم دار البوار ﴾ [إبراهيم: ٢٨]، قال: البوار يوم بدر، قوله: ﴿ بدلوا نعمة الله ﴾ [إبراهيم: ٢٨] أي: غيّروا نعمة الله عليهم في محمد ﷺ حيث ابتعثه الله منهم كفراً كفروا به فأحلّوا أي أنزلوا قومهم ممن تابعهم على كفرهم دار البوار الهلاك، ثم بيّن دار البوار فقال:

﴿ جهنَّمَ يصلونها ﴾، يدخلونها ﴿ وبئسَ القرار ﴾، المستقر. وعن علي كرّم الله وجهه: الذين بدّلوا نعمة الله كفراً هم كفّار قريش نحروا يوم بدر. وقال عمر بن الخطاب: هم الأفجران من قريش بنو المغيرة وبنو أمية، أما بنو المغيرة فكفيتموهم يوم بدر، وأما بنو أُمية فمتعوا إلى حين.

﴿ وجعلوا لله أنداداً ﴾، أمثالاً وليس لله تعالى ند، ﴿ ليضلوا ﴾، قرأ ابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء وكذلك في الحج [٩] وسورة لقمان [٦] والزمر [٨] ﴿ ليضل ﴾ وقرأ الآخرون بضم الياء على معنى ليضلوا الناس، ﴿ عن سبيله قل تمتعوا ﴾، عيشوا في الدنيا، ﴿ فإن مصيركم إلى النار ﴾.

﴿ قل لعبادي الذين آمنوا يقيموا الصلاة ﴾، قال الفرّاء: هذا جزم على الجزاء، ﴿ وينفقوا مما رزقناهم سرّاً وعلانيةً من قبلِ أن يأتيَ يوم لا بيع فيه ولا خلال ﴾، مخاللة وصداقة.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ
وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ
دَآئِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ
إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ
ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ رَّبَّنَآ
إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ
تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾﴾

﴿الله الذي خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج من الثمرات رزقاً لكم﴾ اعلم أنه تقدم تفسير هذه الآية في مواضع كثيرة، ونذكر هاهنا بعض فوائد هذه الآية الدالة على وجود الصانع المختار القادر الذي لا يعجزه شيء أراده، فقوله تعالى: الله خلق السموات والأرض، إنما بدأ بذكر خلق السموات والأرض، لأنها أعظم المخلوقات الشاهدة الدالة على وجود الصانع الخالق القادر المختار وأنزل من السماء ماء يعني من السحاب سمي السحاب سماء لارتفاعه مشتق من السمو، وهو الارتفاع وقيل إن المطر ينزل من السماء إلى السحاب ومن السحاب إلى الأرض فأخرج به أي بذلك الماء من الثمرات رزقاً لكم، والثمر اسم يقع على ما يحصل من الشجر. وقد يقع على الزرع أيضاً بدليل قوله: كلوا من ثمره إذا أثمر وآتوا حقه يوم حصاده وقوله: من الثمرات بيان للرزق أي أخرج به رزقاً هو الثمرات **﴿وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره﴾** لما ذكر الله سبحانه وتعالى إنعامه بإنزال المطر، وإخراج الثمر لأجل الرزق والانتفاع به ذكر نعمته على عباده بتسخير السفن الجارية على الماء، لأجل الانتفاع بها في جلب ذلك الرزق الذي هو الثمرات، وغيرها من بلد إلى بلد آخر. فهي من تمام نعمة الله على عباده **﴿وسخر لكم الأنهار﴾** يعني ذللها لكم تجرونها حيث شئتم، ولما كان ماء البحر لا ينتفع به في سقي الزروع والثمرات ولا في الشراب أيضاً ذكر نعمته على عباده في تسخير الأنهار، وتفجير العيون لأجل هذه الحاجة، فهو من أعظم نعم الله على عباده **﴿وسخر لكم الشمس والقمر دائبين﴾** الدأب العادة المستمرة دائماً على حالة واحدة ودأب في السير داوم عليه، والمعنى أن الله سخر الشمس والقمر، يجريان دائماً فيما يعود إلى مصالح العباد لا يفتران إلى آخر الدهر، وهو انقضاء عمر الدنيا

﴿ الله الذي خلق السمٰوات والأرض وأنزل من السماء ماءً فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره ﴾، بإذنه. **﴿ وسخّر لكم الأنهار ﴾**، ذلّلها لكم تجرونها حيث شئتم.

﴿ وسخّر لكم الشمسَ والقمرَ دائبين ﴾، يجريان فيما يعود إلى مصالح العباد ولا يفتران، قال ابن عباس دؤبهما في طاعة الله عزّ وجلّ، **﴿ وسخر لكم الليلَ والنهارَ ﴾**، يتعاقبان في الضياء والظلمة والنقصان والزيادة.

﴿ وآتاكم من كل ما سألتموه ﴾، يعني: آتاكم من كل شيء سألتموه شيئاً، فحذف الشيء الثاني اكتفاءً بدلالة الكلام على التبعيض، وقيل: هو على التكثير نحو قولك فلان يعلم كل شيء، وآتاه كل الناس، وأنت تريد بعضهم نظيره قوله تعالى: ﴿ فتحنا عليهم أبوابَ كلِّ شيء ﴾ [الأنعام: ٤٤]، وقرأ الحسن **﴿ من كل ﴾** بالتنوين **﴿ ما ﴾** على النفي يعني من كل ما لم تسألوه، يعني: أعطاكم أشياء ما طلبتموها ولا سألتموها، **﴿ وإنْ تعدّوا نعمةَ الله ﴾**، أي: نعم الله، **﴿ لا تحصوها ﴾**، أي: لا تطيقوا عدّها ولا القيام بشكرها، **﴿ إن الإنسانَ لظلوم كفّار ﴾**،

وذهابها. قال ابن عباس: دؤبها في طاعة الله عز وجل. وقال بعضهم: معناه يدأبان في طاعة الله أي في مسيرهما وتأثيرهما في إزالة الظلمة وإصلاح النبات والحيوان لأن الشمس سلطان النهار وبها تعرف فصول السنة والقمر سلطان الليل، وبه يعرف انقضاء الشهور وكل ذلك بتسخير الله عز وجل، وإنعامه على عباده وتسخيره لهم ﴿**وسخر لكم الليل والنهار**﴾ يعني يتعاقبان في الضياء والظلمة والنقصان، والزيادة وذلك من إنعام الله على عباده وتسخيره لهم ﴿**وآتاكم من كل ما سألتموه**﴾ لما ذكر الله سبحانه وتعالى النعم العظام التي أنعم الله بها على عباده وسخرها لهم بين بعد ذلك، أنه تعالى لم يقتصر على تلك النعم بل أعطى عباده من المنافع والمرادات ما لا يأتي على بعضها العد والحصر. والمعنى: وآتاكم من كل ما سألتموه شيئاً فحذف شيئاً اكتفاء بدلالة الكلام على التبعيض، وقيل: هو على التكثير يعني وآتاكم من كل شيء سألتموه، وما لم تسألوه لأن نعمه علينا أكثر من أن تحصى ﴿**وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها**﴾ يعني أن نعم الله كثيرة على عباده، فلا يقدر أحد على حصرها ولا عدها لكثرتها ﴿**إن الإنسان**﴾ قال ابن عباس: يريد أبا جهل، وقال الزجاج: هو اسم جنس ولكن يقصد به الكافر ﴿**لظلوم كفار**﴾ يعني ظلوم لنفسه كفار بنعمة ربه، وقيل: الظلوم الشاكر لغير من أنعم عليه فيضع الشكر في غير موضعه كفار جحود لنعم الله عليه. وقيل: يظلم النعمة بإغفال شكرها كفار شديد الكفران لها، وقيل ظلوم في الشدة يشكو ويجزع بالنعمة يجمع ويمنع. قوله سبحانه وتعالى ﴿**وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمناً**﴾ يعني ذا آمن يؤمن فيه وأراد بالبلد مكة. فإن قلت: أي فرق بين قوله اجعل هذا بلداً آمناً وبين قوله اجعل هذا البلد آمناً؟ قلت: الفرق بينهما أنه سأل في الأول أن يجعله من جملة البلاد التي يأمن أهلها فيها ولا يخافون وسأل في الثاني أن يخرج هذا البلد من صفة كان عليها من الخوف إلى ضدها من الأمن، كأنه قال: هو بلد مخوف فاجعله آمناً ﴿**واجنبني وبني أن نعبد الأصنام**﴾ يعني أبعدني وبنيّ أن نعبد الأصنام. فإن قلت قد توجه على هذه الآية إشكالات وهي من وجوه: الأول أن إبراهيم دعا ربه أن يجعل مكة آمنة ثم إن جماعة من الجبابرة وغيرهم، قد أغاروا عليها وأخافوا أهلها. الوجه الثاني: أن الأنبياء عليهم وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام معصومون عن عبادة الأصنام، وإذا كان كذلك فما الفائدة في قوله اجنبني عن عبادتها. الوجه الثالث: أن إبراهيم عليه السلام سأل ربه أيضاً أن يجنب بنيه عن عبادة الأصنام، وقد وجد كثير من بنيه عبد الأصنام مثل كفار قريش، وغيرهم ممن ينسب إلى إبراهيم عليه السلام. قلت: الجواب عن الوجوه المذكورة من وجوه: فالجواب على الوجه الأول: من وجهين أحدهما أن إبراهيم عليه السلام لما فرغ من بناء الكعبة دعا بهذا الدعاء، والمراد منه جعل مكة آمنة من الخراب، وهذا موجود بحمد الله ولم يقدر أحد على خراب مكة، وأورد على هذا ما ورد في الصحيح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «يخرب الكعبة ذو السويقتين من الحبشة» أخرجاه في الصحيحين. وأجيب عنه بأن قوله:

أي: ظالم لنفسه بالمعصية كافر بربه في نعمته وقيل الظلوم الذي يشكر غير من أنعم عليه والكافر مَن يجحد منعمه.

قوله تعالى: ﴿ **وإذْ قال إبراهيم ربِّ اجعلْ هذا البلدَ** ﴾، يعني: الحرم، ﴿ **آمناً** ﴾ ذَا أمن يؤمن فيه، ﴿ **واجنبني** ﴾، أبعدني، ﴿ **وبنيَّ أن نعبد الأصنام** ﴾، يقال: جنبت الشيء وأجنبته جنباً وجنبته تجنيباً واجتنبته اجتناباً بمعنى واحد، فإن قيل: قد كان إبراهيم معصوماً من عبادة بنيه الأصنام فكيف يستقيم السؤال وقد عبد كثير من الأصنام فأين الإجابة؟ قيل: الدعاء في حق إبراهيم لزيادة العصمة والتثبيت وأما دعاؤه لبنيه فأراد بنيه من صلبه ولم يعبد منهم أحد الصنم. وقيل: إن دعاءه لمن كان مؤمناً من بنيه.

﴿ **ربِّ إنهنّ أضللن كثيراً من الناس** ﴾، يعني: ضلّ بهنّ كثيراً عن الناس عن طريق الهدى حتى عبدوهنّ، وهذا من المقلوب نظيره قوله تعالى: ﴿ إنما ذلكم الشيطان يخوّف أولياءه ﴾ [آل عمران: ١٧٥]، أي: يخوفهم بأوليائه، وقيل: نسب الإضلال إلى الأصنام لأنهنّ سبب فيه كما يقول القائل فتنتني الدنيا، نسب الفتنة إلى الدنيا لأنها

اجعل هذا البلد آمناً يعني إلى قرب القيامة وخراب الدنيا وقيل: هو عام مخصوص بقصة ذو السويقتين فلا تعارض بين النصين. الوجه الثاني: أن يكون المراد اجعل أهل هذا البلد آمنين، وهذا الوجه عليه أكثر العلماء من المفسرين وغيرهم وعلى هذا فقد اختص أهل مكة بزيادة الأمن في بلدهم كما أخبر الله سبحانه وتعالى بقوله: ويتخطف الناس من حولهم، وأهل مكة آمنون من ذلك حتى إن من التجأ إلى مكة أمن على نفسه وما له من ذلك، وحتى إن الوحوش إذا كانت خارجة من الحرم استوحشت فإذا دخلت الحرم أَمنت واستأنست لعلمها أنها لا يهيجها أحد في الحرم وهذا القدر من الأمن حاصل بحمد الله بمكة وحرمها وأما الجواب عن الوجه الثاني: فمن وجوه أيضاً: الوجه الأول: أن دعاء إبراهيم عليه السلام لنفسه لزيادة العصمة والتثبيت، فهو كقوله واجعلنا مسلمين لك. الوجه الثاني: أن إبراهيم عليه السلام، وإن كان يعلم أن الله سبحانه وتعالى يعصمه من عبادة الأصنام إلا أنه دعا بهذا الدعاء، هضماً للنفس وإظهاراً للعجز والحاجة والفاقة إلى فضل الله تعالى ورحمته، وأن أحداً لا يقدر على نفع نفسه بشيء لم ينفعه الله به فلهذا السبب دعا لنفسه بهذا الدعاء وأما دعاؤه لبنيه، وهو الوجه الثالث من الإشكالات فالجواب عنه من وجوه: الأول أن إبراهيم دعا لبنيه من صلبه، ولم يعبد أحد منهم صنماً قط. الوجه الثاني: أنه أراد أولاده وأولاد أولاده الموجودين حالة الدعاء ولا شك أن إبراهيم عليه السلام قد أجيب فيهم. الوجه الثالث قال الواحدي: دعا لمن أذن الله أن يدعو له فكأنه قال: وبني الذين أذنت لي في الدعاء لهم لأن دعاء الأنبياء مستجاب وقد كان من بنيه من عبد الصنم فعلى هذا الوجه يكون هذا الدعاء من العام المخصوص. الوجه الرابع: أن هذا مختص بالمؤمنين من أولاده والدليل عليه أنه قال في آخر الآية: فمن تبعني فإنه مني، وذلك يفيد أن من لم يتبعه على دينه فليس منه، والله أعلم بمراده وأسرار كتابه. وقوله تعالى ﴿رب إنهن﴾ يعني الأصنام ﴿أضللن كثيراً من الناس﴾ وهذا مجاز لأن الأصنام جمادات، وحجارة لا تعقل شيئاً حتى تضل من عبدها إلا أنه لما حصل الإضلال بعبادتها أضيف إليها كما تقول: فتنتهم الدنيا وغرتهم وإنما فتنوا بها واغتروا بسببها ﴿فمن تبعني فإنه مني﴾ يعني فمن تبعني على ديني واعتقادي، فإنه مني يعني المتدينين بديني المتمسكين بحبلي كما قال الشاعر:

إذا حاولت في أسد فجوراً ... فإني لست منك ولست مني

أراد ولست من المتمسكين بحبلي، وقيل: معناه أنه مني حكمه حكمي جار مجراي في القرب والاختصاص ﴿ومن عصاني﴾ يعني في غير الدين ﴿فإنك غفور رحيم﴾ قال السدي: ومن عصاني ثم تاب فإنك غفور رحيم. وقال مقاتل: ومن عصاني فيما دون الشرك فإنك غفور رحيم. وشرح أبو بكر بن الأنباري هذا فقال: ومن عصاني فخالفني في بعض الشرائع وعقائد التوحيد فإنك غفور رحيم إن شئت أن تغفر له غفرت إذا كان مسلماً وذكر وجهين آخرين

سبب الفتنة. ﴿فمَن تبعني فإنه منّي﴾، أي: من أهل ديني وملّتي، ﴿ومَن عصاني فإنك غفورٌ رحيم﴾، قال السدي: معناه ومَن عصاني ثم تاب، وقال مقاتل بن حيان: ومَن عصاني فيما دون الشرك. وقيل: قال ذلك قبل أن يعلمه الله أنه لا يغفر الشرك.

قوله تعالى: ﴿ربنا إني أسكنتُ من ذريتي﴾، أدخل من للتبعيض ومجاز الآية أسكنت من ذريتي ولداً، ﴿بوادٍ غير ذي زرع﴾، وهو مكة لأن مكة وادٍ بين جبلين، ﴿عند بيتِكَ المُحرّم﴾، سمّاه محرّماً لأنه يحرم عنده ما لا يحرم عند غيره. أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا عبد الله بن محمد ثنا عبد الرزاق أنبأنا معمر عن أيوب السختياني وكثير بن أبي كثير بن المطلب بن أبي وداعة يزيد أحدهما على الآخر عن سعيد بن جبير قال: قال ابن عباس: أول ما اتخذ النساء المناطق من قبل أُم إسماعيل اتخذت منطقاً لتعفى أثرها على سارة ثم جاء بها إبراهيم عليه السلام وبابنها إسماعيل

أحدهما أن هذا كان قبل أن يعلمه الله أنه لا يغفر الشرك كما استغفر لأبويه، وهو يقول أن ذلك غير محظور، فلما عرف أنهما غير مغفور لهما تبرأ منهما، والوجه الآخر ومن عصاني بإقامته على الكفر فإنك غفور رحيم يعني أنك قادر على أن تغفر له وترحمه بأن تنقله من الكفر إلى الإيمان، والإسلام وتهديه إلى الصواب. قوله عز وجل إخباراً عن إبراهيم ﴿**ربنا إني أسكنت من ذريتي بوادٍ غير ذي زرع عند بيتك المحرم**﴾ (خ) عن ابن عباس قال: أول ما اتخذ النساء المنطق من قبل أم إسماعيل اتخذت منطقاً لتعفي أثرها على سارة ثم جاء بها إبراهيم وبابنها إسماعيل، وهي ترضعه حتى وضعهما عند البيت عند دوحة فوق زمزم في أعلى المسجد، وليس بمكة يومئذ أحد وليس بها ماء، فوضعهما هناك ووضع عندهما جراباً فيه تمر وسقاء فيه ماء، ثم قفل إبراهيم منطلقاً فتبعته أم إسماعيل فقالت: يا إبراهيم إلى أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه أنيس ولا شيء فقالت له ذلك مراراً وجعل لا يلتفت إليها فقالت آلله أمرك بهذا؟ قال نعم قالت إذن لا يضيعنا ثم رجعت فانطلق إبراهيم فدعا بهذه الدعوات فرفع يديه؛ فقال: رب إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع حتى بلغ يشكرون وجعلت أم إسماعيل ترضع إسماعيل، وتشرب من ذلك الماء، حتى إذا نفد ما في السقاء عطشت، وعطش ابنها وجعلت تنظر إليه يتلوى أو قال: يتلبط فانطلقت كراهية أن تنظر إليه فوجدت الصفاء أقرب جبل في الأرض يليها، فقامت عليها ثم استقبلت الوادي تنظر هل ترى أحداً فلم تر أحداً فهبطت منه حتى إذا بلغت الوادي رفعت طرف درعها، ثم سعت سعي الإنسان المجهود حتى جاوزت الوادي ثم أتت المروة فقامت عليها فنظرت هل ترى أحداً فلم تر أحداً ففعلت ذلك سبع مرات قال ابن عباس قال النبي ﷺ: فلذلك سعى الناس بينهما فلما أشرفت على المروة سمعت صوتاً فقالت: صه تريد نفسها ثم تسمعت فسمعت صوتاً أيضاً فقالت: قد أسمعت أن كان عندك غواث فإذا هي بالملك عند موضع زمزم، فبحث بقعبه أو قال بجناحه حتى ظهر الماء فجعلت تخوضه، وتقول: بيدها هكذا وجعلت تغرف من الماء في سقائها، وهو يفور بعدما تغرف وفي رواية قدر ما تغرف قال ابن عباس قال النبي ﷺ: «يرحم الله أم إسماعيل لو تركت زمزم أو قال: لو لم تغرف من الماء لكانت زمزم عيناً معيناً» قال: فشربت وأرضعت ولدها. فقال لها الملك: لا تخافي الضيعة فإن هاهنا بيتاً لله تعالى، يبنيه هذا الغلام وأبوه وأن الله لا يضيع أهله وكان البيت مرتفعاً من الأرض كالرابية تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وعن شماله، فكانت كذلك حتى مرت بهم رفقة من جرهم أو أهل بيت من جرهم مقبلين من طريق كداء فنزلوا في أسفل مكة فرأوا طائراً عائفاً. فقالوا: إن هذا الطائر ليدور على ماء لعهدنا بهذا الوادي، وما فيه ماء فأرسلوا جرياً أو جريين فإذا هم بالماء فرجعوا فأخبروهم فأقبلوا، وأم إسماعيل عند الماء فقالوا: أتأذنين لنا أن ننزل عندك قالت نعم ولكن لا حق لكم في الماء. قالوا: قال ابن عباس قال النبي ﷺ: فألقى ذلك أم إسماعيل وهي تحب الأنس فنزلوا وأرسلوا أهليهم، فنزلوا

وهي ترضعه حتى وضعهما عند البيت عند دوحة فوق زمزم في أعلى المسجد، وليس بمكة يومئذ أحد وليس بها ماء، فوضعهما هنالك ووضع عندهما جراباً فيه تمر وسقاء فيه ماء ثم قفل إبراهيم منطلقاً، فتبعته أُم إسماعيل فقالت: يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه أنيس ولا شيء؟ فقالت له ذلك مراراً وجعل لا يلتفت إليها، فقالت له: آلله أمرك بهذا؟ قال: نعم، قالت: إذن لا يضيعنا، ثم رجعت فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه استقبل بوجهه البيت، ثم دعا بهؤلاء الدعوات فرفع يديه، فقال: ﴿ **ربّنا إني أسكنت من ذريتي بوادٍ غير ذي زرع** ﴾، حتى بلغ ﴿ **يشكرون** ﴾، وجعلتْ أُم إسماعيل تُرضِع إسماعيل وتشرب من ذلك الماء حتى إذا نفد ما في السقاء عطشتْ وعطش ابنها، وجعلت تنظر إليه يتلبط أو قال يتلوى، وانطلقت كراهية أن تنظر إليه فوجدت الصفا أقرب جبل في الأرض يليها فقامت عليه ثم استقبلت الوادي تنظر هلى ترى أحداً، فلم ترَ أحداً فهبطت من الصفا حتى إذا بلغت بطن الوادي رفعت طرف درعها، ثم سعت سعي الإنسان المجهود حتى جاوزت الوادي، ثم المروة فقامت عليها ونظرت هل ترى أحداً فلم ترَ أحداً ففعلت ذلك سبع مرات، قال ابن عباس: قال

معهم حتى إذا كانوا بها أهل أبيات منهم وشب الغلام، وتعلم العربية منهم وآنسهم وأعجبهم حين شب فلما أدرك زوجوه بامرأة منهم وماتت أم إسماعيل، فجاء إبراهيم بعدما تزوج إسماعيل يطالع تركته أخرجه البخاري بأطول من هذا، وقد تقدم الحديث بطوله في تفسير سورة البقرة، وأما تفسير الآية فقوله ربنا إني أسكنت من ذريتي من للتبعيض أي بعض ذريتي وهو إسماعيل عليه السلام بواد غير ذي زرع يعني ليس فيه زرع، لأنه واد بين جبلين جبل أبي قبيس وجبل أجياد وهو واد بمكة عند بيتك المحرم سماه محرماً لأنه يحترم عنده ما لا يحترم عند غيره، وقيل: لأن الله حرمه على الجبابرة فلم ينالوه بسوء وحرم التعرض له والتهاون به، وبحرمته وجعل ما حوله محرماً لمكانه، وشرفه وقيل: لأنه حرم على الطوفان بمعنى امتنع منه وقيل: سمي محرماً لأن الزائرين له يحرمون على أنفسهم أشياء كانت مباحة لهم من قبل وسمي عتيقاً أيضاً لأنه أعتق من الجبابرة أو من الطوفان. فإن قلت: كيف قال عند بيتك المحرم ولم يكن هناك بيت حينئذ، وإنما بناه إبراهم بعد ذلك. قلت: يحتمل أن الله عز وجل أوحى إليه وأعلمه أن له هناك بيتاً قد كان في سالف الزمان، وأنه سيعمر فلذلك قال عند بيتك المحرم، وقيل: يحتمل أن يكون المعنى عند بينك الذي كان ثم رفع عند الطوفان وقيل: يحتمل أن يكون المعنى عند بيتك الذي جرى في سابق علمك أنه سيحدث في هذا المكان ﴿ربنا ليقيموا الصلاة﴾ اللام في ليقيموا متعلقة بأسكنت يعني أسكنت قوماً من ذريتي، وهم إسماعيل وأولاده بهذا الوادي الذي لا زرع فيه ليقيموا أي لأجل أن يقيموا أو لكي يقيموا الصلاة ﴿فاجعل أفئدة من الناس﴾ قال البغوي جمع الموفد ﴿تهوي إليهم﴾ تحن وتشتاق إليهم. قال السدي رحمه الله: أمل قلوبهم إلى هذا الموضع وقال ابن الجوزي أفئدة من الناس أي قلوب جماعة من الناس فلهذا جعله جمع فؤاد قال ابن الأنباري: وإنما عبر عن القلوب بالأفئدة لقرب القلب من الفؤاد فجعل القلب والفؤاد جارحتين. وقال الجوهري: الفؤاد القلب والجمع أفئدة فجعلهما جارحة واحدة ولفظة من في قوله من الناس للتبعيض، قال مجاهد: لو قال أفئدة الناس لزاحمتكم فارس والروم والترك والهند. وقال سعيد بن جبير: لحجت اليهود والنصارى والمجوس ولكنه قال أفئدة من الناس فهم المسلمون تهوي إليهم قال الأصمعي: يقال هوى يهوي هوياً إذا سقط من علو إلى أسفل وقال الفراء تهوي إليهم تريدهم كما تقول: رأيت فلاناً يهوي نحوك معناه يريدك وقال أيضاً تهوي تسرع إليهم، وقال ابن الأنباري: معناه تنحط إليهم وتنحدر وتنزل هذا قول أهل اللغة في هذا الحرف وأما أقوال المفسرين فقال ابن عباس: يريد تحن إليهم لزيارة بيتك وقال قتادة تسرع إليهم. وفي هذا بيان أن حنين الناس إليهم، إنما هو لطلب حج البيت لا لأعيانهم، وفيه دعاء

النبي ﷺ: «فلذلك سعى الناس بينهما». فلما أشرفت على المروة سمعت صوتاً فقالت: صه تريد نفسها، ثم تسمعت فسمعت أيضاً فقالت: قد أسمعت إن كان عندك غواث، فإذا هي بالملك عند موضع زمزم فبحث بعقبه أو قال بجناحه حتى ظهر الماء، فجعلت تخوضه وتقول بيدها هكذا، وجعلت تغرف من الماء في سقائها وهو يفور بعدما تغرف. قال ابن عباس قال النبي ﷺ: «يرحم الله أُم إسماعيل لو تركت زمزم» أو قال: «لو لم تغرف من الماء في سقائها لكانت زمزم عيناً معيناً». قال: فشربت وأرضعت ولدها فقال لها الملك: لا تخافوا الضيعة وإن هناك بيت الله يبنيه هذا الغلام وأبوه وإن الله لا يضيع أهله، وكان موضع البيت مرتفعاً من الأرض كالرابية تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وشماله فكانت كذلك، حتى مرت بهم رفقة من جرهم أو أهل بيت من جرهم مُقبلين من طريق كداء فنزلوا في أسفل مكة، فرأوا طائراً عائفاً فقالوا إنّ هذا الطائر ليدور على ماء ولعهدنا بهذا الوادي وما فيه ماء فأرسلوا جرياً أو جريين فإذا هم بالماء، فرجعوا فأخبروهم بالماء فأقبلوا وأُم إسماعيل عند الماء فقالوا: أتأذنين لنا أن ننزل عندك؟ فقالت: نعم ولكن لا حق لكم في الماء، قالوا: نعم، قال ابن عباس: قال النبي ﷺ: «فألقى ذلك أم إسماعيل وهي تحب الأنس فنزلوا وأرسلوا إلى أهليهم فنزلوا معهم حتى إذا كان أهل أبيات منهم وشبّ الغلام وتعلّم العربية منهم، وكان آنسهم وأعجبهم حين شبّ فلما أدرك زوّجوه امرأةً منهم، وماتت أُم إسماعيل فجاء إبراهيم

للمؤمنين بأن يرزقهم حج البيت ودعاء لسكان مكة من ذريته بأنهم ينتفعون بمن يأتي إليهم من الناس لزيارة البيت فقد جمع إبراهيم عليه السلام في هذا الدعاء من أمر الدين، والدنيا ما ظهر بيانه وعمت بركاته ﴿وارزقهم من الثمرات﴾ يعني كما رزقت سكان القرى ذوات الماء والزرع فيكون المراد عمارة قرى بقرب مكة لتحصل تلك الثمار، وقيل يحتمل أن يكون المراد جلب الثمرات إلى مكة بطريق النقل والتجارة فهو كقوله تعالى يجبى إليه ثمرات كل شيء. وقوله تعالى ﴿لعلهم يشكرون﴾ يعني لعلهم يشكرون هذه النعم التي أنعمت بها عليهم، وقيل: معناه لعلهم يوحدونك ويعظمونك وفيه دليل على أن تحصيل منافع الدنيا، إنما هو ليستعان بها على أداء العبادات وإقامة الطاعات.

﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾﴾

﴿ربنا إنك تعلم ما نخفي وما نعلن﴾ يعني إنك تعلم السر كما تعلم العلن عما لا تفاوت فيه؛ والمعنى أنك تعلم أحوالنا، وما يصلحنا وما يفسدنا وأنت أرحم بنا منا فلا حاجة بنا إلى الدعاء، والطلب إنما ندعوك إظهاراً للعبودية لك، وتخشعاً لعظمتك وتذللاً لعزتك وافتقاراً إلى ما عندك، وقيل: معناه تعلم ما نخفي من الوجد بفرقة إسماعيل وأمه حيث أسكنتهما بواد غير ذي زرع وما نعلن يعني من البكاء، وقيل: ما نخفي يعني من الحزن المتمكن في القلب، وما نعلن يعني ما جرى بينه وبين هاجر عند الوداع حين قالت لإبراهيم عليه السلام إلى من تكلنا قال: إلى الله قالت إذاً لا يضيعنا ﴿وما يخفى على الله من شيء في الأرض ولا في السماء﴾ فقيل: هذا من تتمة قول إبراهيم يعني وما يخفى على الله الذي هو عالم الغيب من شيء في كل مكان وقال الأكثرون: إنه من قول الله تعالى تصديقاً لإبراهيم فيما قال: فهو كقوله وكذلك يفعلون ﴿الحمد لله الذي وهب لي على الكبر إسماعيل وإسحاق﴾ قال ابن عباس: ولد إسماعيل لإبراهيم وهو ابن تسع وتسعين سنة وولد له إسحاق وهو ابن مائة واثنتي عشرة سنة وقال سعيد بن جبير: بشر إبراهيم بإسحاق وهو ابن مائة وسبع عشرة سنة، ومعنى قوله: على الكبر مع الكبر لأن هبة الولد في هذا السن من أعظم المنن لأنه سن اليأس من الولد فلهذا شكر الله على هذه المنة. فقال: الحمد لله الذي وهب لي على الكبر

بعدما تزوّج إسماعيل يطالع تركته. ذكرنا تلك القصة في سورة البقرة. قوله تعالى: ﴿ ربَّنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدةً من الناس ﴾، الأفئدة جمع الفؤاد ﴿ تهوي إليهم ﴾، تشتاق وتحنّ إليهم. قال السدي: معناه أملْ قلوبهم إلى هذا الموضع، قال مجاهد: لو قال أفئدة الناس لزاحمتكم فارس والروم والترك والهند. وقال سعيد بن جبير: لحجّت اليهود والنصارى والمجوس ولكنه قال أفئدة من الناس وهم المسلمون. ﴿ وارزقهم من الثمرات ﴾، ما رزقت سكان القرى ذوات الماء، ﴿ لعلهم يشكرون ﴾.

﴿ ربنا إنك تعلم ما نخفي وما نعلن ﴾، من أمورنا. وقال ابن عباس ومقاتل: من الوجد بإسماعيل وأُمه حيث أسكنتهما بوادٍ غير ذي زرع. ﴿ وما يخفى على الله من شيء في الأرض ولا في السماء ﴾، قيل: هذا كله قول إبراهيم متصل بما قبله. وقال الأكثرون: يقول الله عزّ وجلّ: ﴿ وما يخفى على الله من شيء في الأرض ولا في السماء ﴾.

إسماعيل وإسحاق. فإن قلت: كيف جمع بين إسماعيل وإسحاق في الدعاء في وقت واحد وإنما بشر باسحاق بعد إسماعيل بزمان طويل؟ قلت: يحتمل أن إبراهيم عليه السلام إنما أتى بهذا الدعاء عندما بشر باسحاق وذلك أنه لما عظمت المنة على قلبه بهبة ولدين عظيمين عند كبره قال عند ذلك الحمد لله الذي وهب لي على الكبر إسماعيل وإسحاق ولا يرد على هذا ما ورد في الحديث أنه دعا بما تقدم عند مفارقة إسماعيل وأمه لأن الذي صح في الحديث أنه دعا بقوله ربنا إني أسكنت ذريتي إلى قوله لعلهم يشكرون إذا ثبت هذا فيكون قوله الحمد لله الذي وهب لي على الكبر إسماعيل وإسحاق في وقت آخر والله أعلم بحقيقة الحال **﴿إن ربي لسميع الدعاء﴾** كان إبراهيم عليه السلام قد دعا ربه وسأله الولد بقوله «رب هب لي من الصالحين» فلما استجاب الله دعاءه ووهبه ما سأل شكر الله على ما أكرمه به من إجابة دعائه فعند ذلك قال الحمد لله الذي وهب لي على الكبر إسماعيل وإسحاق إن ربي لسميع الدعاء وهو من قولك سمع الملك كلام فلان إذا اعتد به وقبله **﴿ربِّ اجعلني مقيم الصلاة﴾** يعني ممن يقيم الصلاة بأركانها ويحافظ عليها في أوقاتها **﴿ومن ذريتي﴾** أي واجعل من ذريتي من يقيم الصلاة وإنما أدخل لفظة من التي هي للتبعيض في قوله ومن ذريتي لأنه أعلم بإعلام الله إياه أنه قد يوجد من ذريته جمع من الكفار لا يقيمون الصلاة فلهذا قال ومن ذريتي وأراد بهم المؤمنين من ذريته **﴿ربنا وتقبل دعاء﴾** سأل إبراهيم عليه السلام ربه أن يتقبل دعاءه فاستجاب الله لإبراهيم وقيل دعاءه بفضله ومنه وكرمه **﴿ربنا اغفر لي﴾** فان قلت طلب المغفرة من الله إنما يكون لسابق ذنب قد سلف حتى يطلب المغفرة من ذلك الذنب وقد ثبت عصمة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من الذنوب فما وجه طلب المغفرة له؟ قلت: المقصود منه الالتجاء إلى الله سبحانه وتعالى وقطع الطمع من كل شيء إلا من فضله وكرمه والاعتراف بالعبودية لله تعالى والاتكال على رحمته **﴿ولوالدي﴾**. فإن قلت: كيف استغفر إبراهيم لأبويه وكانا كافرين؟ قلت: أراد أنهما إن أسلما وتابا وقيل إنما قال ذلك قبل أن يتبين له أنهما من أصحاب الجحيم وقيل إن أمه أسلمت فدعا لها وقيل أراد بوالديه آدم وحواء **﴿وللمؤمنين﴾** يعني واغفر للمؤمنين كلهم **﴿يوم يقوم الحساب﴾** يعني يوم يبدو ويظهر الحساب وقيل أراد يوم الناس للحساب فاكتفى بذلك أي بذكر الحساب لكونه مفهوماً عند السامع وهذا دعاء للمؤمنين بالمغفرة والله سبحانه وتعالى لا يرد دعاء خليله إبراهيم عليه السلام ففيه بشارة عظيمة لجميع المؤمنين بالمغفرة. قوله سبحانه وتعالى **﴿ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون﴾** الغفلة معنى يمنع الإنسان من الوقوف على حقائق الأمور وقيل حقيقة الغفلة سهو يعتري الإنسان من قلة التحفظ والتيقظ وهذا في حق الله محال فلا بد من تأويل الآية فالمقصود منها أنه سبحانه وتعالى ينتقم من الظالم للمظلوم ففيه وعيد وتهديد للظالم وإعلام له بأن لا يعامله معاملة الغافل عنه بل ينتقم ولا يتركه مغفلاً قال سفيان بن عيينة: فيه تسلية للمظلوم وتهديد للظالم. فإن قلت: تعالى الله عن السهو والغفلة فكيف يحسبه رسول الله ﷺ غافلاً وهو أعلم الناس به أنه لم غافلاً حتى قيل له ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل

﴿ الحمد لله الذي وهب لي على الكِبَر ﴾، أعطاني على كبر السن، **﴿ إسماعيل وإسحاق إنّ ربي لسميع الدعاء ﴾**، قال ابن عباس: وُلد إسماعيل لإبراهيم وهو ابن تسع وتسعين سنة. ووُلد إسحاق وهو ابن مائة واثنتي عشرة سنة. وقال سعيد بن جبير: بُشِّرَ إبراهيم بإسحاق وهوابن مائة وسبع عشرة سنة.

﴿ ربِّ اجعلني مقيم الصلاة ﴾، يعني: ممّن يقيم الصلاة بأركانها ويحافظ عليها، **﴿ ومن ذريتي ﴾**، يعني: اجعل من ذريتي مَن يقيمون الصلاة. **﴿ ربَّنا وتقبلْ دعاء ﴾**، أي: عملي وعبادتي، سمّى العبادة دعاءً، وجاء في الحديث: «الدعاء مخّ العبادة» وقيل: معناه استجب دعائي.

﴿ ربنا اغفر لي ولوالدي ﴾، فإن قيل: كيف استغفر لوالديه وهما غير مؤمنين؟ قيل قد قيل إن أُمه أسلمت، وقيل: أراد إن أسلما وتابا، وقيل: قال ذلك قبل أن يتبيّن له أمر أبيه وقد بيّن الله عذر خليله في استغفاره لأبيه في

الظالمون. قلت: إذا كان المخاطب به رسول الله ﷺ ففيه وجهان: أحدهما التثبيت على ما كان عليه من أنه لا يحسب الله غافلاً فهو كقوله «ولا تكونن من المشركين ـ ولا تدع مع الله إلهاً آخر» وكقوله سبحانه وتعالى «يا أيها الذين آمنوا آمنوا» أي اثبتوا على ما أنتم عليه من الإيمان. الوجه الثاني أن المراد بالنهي عن حسابه غافلاً الإعلام بأنه سبحانه وتعالى عالم بما يفعل الظالمون ولا يخفى عليه شيء وأنه ينتقم منهم فهو على سبيل الوعيد والتهديد لهم والمعنى: ولا تحسبنه معاملهم معاملة الغافل عنهم ولكن يعاملهم معاملة الرقيب الحفيظ عليهم المحاسب لهم على الصغير والكبير وإن كان المخاطب غير النبي ﷺ فلا إشكال فيه ولا سؤال لأن أكثر الناس غير عارفين بصفات الله فمن جوز أن يحسبه غافلاً فلجهله بصفاته ﴿إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار﴾ يقال: شخص بصر الرجل إذا بقيت عيناه مفتوحتين لا يطرفهما، وشخوص البصر يدل على الحيرة والدهشة من هول ما ترى في ذلك اليوم ﴿مهطعين﴾ قال قتادة مسرعين وهذا قول أبي عبيدة فعلى هذا المعنى أن الغالب من حال من بقي بصره شاخصاً من شدة الخوف أن يبقى واقفاً باهتاً فبين الله سبحانه وتعالى في هذه الآية أن أحوال أهل الوقف يوم القيامة بخلاف الحال المعتادة فأخبر سبحانه وتعالى أنهم مع شخوص الأبصار يكونون مهطعين يعني مسرعين نحو الدعي وقيل المهطع الخاضع الذليل الساكت ﴿مقنعي رؤوسهم﴾ الاقناع رفع الرأس إلى فوق فأهل الموقف من صفتهم أنهم رافعو رؤوسهم إلى السماء وهذا بخلاف المعتاد لأن من يتوقع البلاء فإنه يطرق ببصره إلى الأرض قال الحسن وجوه الناس يوم القيامة إلى السماء لا ينظر أحد إلى أحد وهو قوله تعالى ﴿لا يرتد إليهم طرفهم﴾ أي لا ترجع إليهم أبصارهم من شدة الخوف فهي شاخصة لا ترتد إليهم قد شغلهم ما بين أيديهم ﴿وأفئدتهم هواء﴾ أي خالية. قال قتادة خرجت قلوبهم من صدورهم فصارت في حناجرهم فلا تخرج من أفواههم ولا تعود إلى أماكنها ومعنى الآية أن أفئدتهم خالية فارغة لا تعي شيئاً ولا تعقل من شدة الخوف. وقال سعيد بن جبير: وأفئدتهم هواء مترددة تهوي في أجوافهم ليس لها مكان تستقر فيه، ومعنى الآية أن القلوب يومئذ زائلة عن أماكنها والأبصار شاخصة والرؤوس مرفوعة إلى السماء من هول ذلك اليوم وشدته.

سورة التوبة [١١٤]. ﴿وللمؤمنين﴾، أي: اغفر للمؤمنين كلهم، ﴿يوم يقوم الحساب﴾، أي؛ يبدو ويظهر. وقيل: أراد يوم الحساب يوم يقوم الناس للحساب، فاكتفى بذكر الحساب لكونه مفهوماً.

قوله تعالى: ﴿ ولا تحسبنَّ الله غافلاً عمّا يعملُ الظالمون ﴾. الغفلة معنى يمنع الإنسان من الوقوف على حقيقة الأمور، والآية لتسلية المظلوم وتهديد للظالم، ﴿ إنما يؤخرهم ليوم تشخصُ فيه الأبصار ﴾، أي: لا تغمض من هول ما ترى في ذلك اليوم، وقيل: ترتفع وتزول عن أماكنها:

﴿ مهطعين ﴾، قال قتادة: مسرعين. قال سعيد بن جبير: الإهطاع النسلان كعدو الذئب، وقال مجاهد: مُديمي النظر، ومعنى الإهطاع أنهم لا يلتفتون يميناً ولا شمالاً، ولا يعرفون مواطن أقدامهم، ﴿ مقنعي رؤوسهم ﴾، أي: رافِعي رؤوسهم، قال القتيبي: المقنع الذي يرفع رأسه ويقبل بصره على ما بين يديه. وقال الحسن: وجوه الناس يومئذ إلى السماء لا ينظر أحد إلى أحد، ﴿ لا يرتدّ إليهم طرفهم ﴾، لا ترجع إليهم أبصارهم من شدّة النظر، وهي شاخصة قد شغلهم ما بين أيديهم. ﴿ وأفئدتهم هواء ﴾، أي: خالية. قال قتادة: خرجت قلوبهم عن صدورهم فصارت في حناجرهم، لا تخرج من أفواههم ولا تعود إلى مكانها، فأفئدتهم هواء لا شيء فيها ومنه سمّي ما بين السماء والأرض هواء الخلوة، وقيل: خالية لا تعي شيئاً ولا تعقل من الخوف. وقال الأخفش: جوفاً لا عقول لها. والعرب تسمّي كلّ أجوف خلو هواء. قال سعيد بن جبير: وأفئدتهم هواء أي: مترددة تمور في أجوافهم ليس لها مكان تستقر فيه، وحقيقة المعنى: أن القلوب زائلة عن أماكنها والأبصار شاخصة من هول ذلك اليوم.

وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾

﴿وأنذر الناس﴾ يعني وخوف الناس يا محمد بيوم القيامة وهو قوله سبحانه وتعالى ﴿يوم يأتيهم العذاب فيقول الذين ظلموا﴾ يعني ظلموا أنفسهم بالشرك والمعاصي ﴿ربنا أخرنا إلى أجل قريب﴾ يعني أمهلنا مدة يسيرة قال بعضهم: طلبوا الرجوع إلى الدنيا حتى يؤمنوا فينفعهم ذلك وهو قوله تعالى ﴿نجب دعوتك ونتبع الرسل﴾ فأجيبوا بقوله ﴿أولم تكونوا أقسمتم من قبل﴾ يعني في دار الدنيا ﴿ما لكم من زوال﴾ يعني ما لكم عنها انتقال ولا بعث ولا نشور.

وَسَكَنتُمْ فِى مَسَـٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾ فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾

﴿وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم﴾ يعني بالكفر والمعاصي ممن كان قبلكم من كفار الأمم الخالية كقوم نوح وعاد وثمود وغيرهم ﴿وتبين لكم كيف فعلنا بهم﴾ يعني وقد عرفتم كيف كان عقوبتنا إياهم ﴿وضربنا لكم الأمثال﴾ يعني الأمثال التي ضربها الله عز وجل في القرآن ليتدبروها، ويعتبروا بها فيجب على كل من شاهد أحوال الماضين من الأمم الخالية، والقرون الماضية، وعلم ما جرى لهم وكيف أهلكوا أن يعتبر بهم، ويعمل في خلاص نفسه من العقاب والهلاك. قوله سبحانه وتعالى ﴿وقد مكروا مكرهم﴾ اختلفوا في الضمير إلى من يعود في قوله، وقد مكروا فقيل يعود إلى الذين سكنوا في مساكن الذين ظلموا أنفسهم، وهذا القول صحيح لأن الضمير يجب عوده إلى أقرب مذكور وقيل: إن المراد بقوله وقد مكروا كفار قريش الذين مكروا برسول الله ﷺ ومكرهم ما ذكره الله تعالى بقوله تعالى ﴿وإذ يمكر بك الذين كفروا﴾ الآية والمعنى وأنذر الناس يا محمد، يوم يأتيهم العذاب يعني بسبب مكرهم بك. وقوله تعالى ﴿وعند الله مكرهم﴾ يعني جزاء مكرهم وقيل إن مكرهم مثبت عند الله ليجازيهم به يوم القيامة ﴿وإن

﴿ وأنذرِ الناسَ ﴾، خوّفهم، ﴿ يومَ ﴾، أي: بيوم، ﴿ يأتيهم العذاب ﴾، هو يوم القيامة، ﴿ فيقول الذين أظلموا ﴾، أشركوا، ﴿ ربَّنا أخّرنا ﴾، أمهلنا، ﴿ إلى أجلٍ قريب ﴾، هذا سؤالهم الردّ إلى الدنيا، أي: أرجعنا إليها، ﴿ نجب دعوتك ونتبع الرسل ﴾، فيُجابون: ﴿ أوَ لم تكونوا أقسمتم من قبلُ ﴾، حلفتم في دار الدنيا. ﴿ ما لكم من زوال ﴾، عنها أي: لا تبعثون. وهو قوله تعالى: ﴿ وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله مَن يموت ﴾ [النحل: ٣٨].

﴿ وسكنتُم ﴾، في الدنيا، ﴿ في مساكن الذين ظلموا أنفسَهم ﴾، بالكفر والعصيان، يعني قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم. ﴿ وتبيّن لكم كيفَ فعلنا بهم ﴾، أي: عرفتم عقوبتنا إيّاهم، ﴿ وضربنا لكم الأمثال ﴾، أي: بينّا مثلكم كمثلهم.

﴿ وقد مكروا مكرَهم وعندَ اللهِ مكرُهم ﴾، أي: جزاء مكرهم، ﴿ وإنْ كان مكرهم ﴾، قرأ علي وابن مسعود: ﴿ وإن كان مكرهم ﴾ بالدال، وقرأ العامّة بالنون. ﴿ لتزول منه الجبال ﴾، قرأ العامّة لتزول بكسر اللام

كان مكرهم لتزول منه الجبال﴾ يعني وإن كان مكرهم لأضعف من أن تزول منه الجبال وقيل: معناه إن مكرهم لا يزيل أمر محمد ﷺ الذي هو ثابت كثبوت الجبال وقد حكي عن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه في الآية قولاً آخر: وهو أنها نزلت في نمرود الجبار الذي حاجّ إبراهيم في ربه فقال نمرو: إن كان ما يقول إبراهيم حقاً فلا أنتهي حتى أصعد إلى السماء فأعلم ما فيها فعمد إلى أربعة أفراخ من النسور فرباهن حتى كبرت وشبت، واتخذ تابوتاً من خشب وجعل له باباً من أعلى وباباً من أسفل ثم جوع النسور ونصب خشبات أربعاً في أطراف التابوت وجعل على رؤوس تلك الخشبات لحماً أحمر وقعد هو في التابوت، وأقعد معه رجلاً آخر، وأمر بالنسور فربطت في أطراف التابوت من أسفل فجعلت النسور كلما رأت اللحم رغبت فيه، وطارت إليه فطارت النسور يوماً أجمع حتى بعدت في الهواء فقال نمرود لصاحبه: افتح الباب الأعلى وانظر إلى السماء هل قربنا منها ففتح ونظر فقال له إن السماء كهيئتها فقال له: افتح الباب الأسفل فانظر إلى الأرض كيف تراها ففعل فقال: أرى الأرض مثل اللجة والجبال مثل الدخان. قال: فطارت النسور يوماً آخر وارتفعت حتى حالت الريح بينها وبين الطيران فقال نمرود لصاحبه: افتح الباب الأعلى ففعل فإذا السماء كهيئتها، وفتح الباب الأسفل فإذا الأرض سوداء مظلمة فنودي أيها الطاغي أين تريد؟ قال عكرمة: وكان معه في التابوت غلام قد حمل القوس والنشاب وأخذ معه الترس، ورمى بسهم فعاد إليهم السهم ملطخاً بدم سمكة قذفت بنفسها من بحر في الهواء وقيل إن طائراً أصابه السهم فلما رجع إليهم السهم ملطخاً بالدم قال كفيت إله السماء ثم أمر نمرود صاحبه أن يصوب الخشبات إلى أسفل، وينكس اللحم ففعل فهبطت النسور بالتابوت فسمعت الجبال خفيق التابوت والنسور ففزعت، وظنت أنه قد حدث حدث من السماء إن الساعة قد قامت فكادت تزول عن أماكنها، فذلك قوله تعالى وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال واستبعد العلماء هذه الحكاية وقال: إن الخطر فيه عظيم ولا يكاد عاقل أن يقدم على مثل هذا الأمر العظيم وليس فيه خير صحيح يعتمد عليه، ولا مناسبة لهذه الحكاية بتأويل الآية البتة

الأولى ونصب الثانية، معناه: وما كان مكرهم لتزول. قال الحسن: إن كان مكرهم لأضعف من أن تزول منه الجبال. وقيل: معناه إن مكرهم لا يزيل أمر محمد ﷺ الذي هو ثابت كثبوت الجبال. وقرأ ابن جريج والكسائي: ﴿لتزول﴾ بفتح اللام الأولى ورفع الثانية، معناه: إن مكرهم وإن عظم حتى بلغ محلاً يُزيل الجبال لم يقدروا على إزالة أمر محمد. وقال قتادة: معناه وإن كان مكرهم شركهم لتزول منه الجبال وهو قوله تعالى: ﴿وتخرّ الجبال هدّاً أن دعوا للرحمن ولداً﴾ [مريم: ٩٠ و٩١]. ويُحكى عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه في معنى الآية: أنها نزلت في نمرود الجبار الذي حاجّ إبراهم في ربه، وذلك أنه قال: إن كان ما يقول إبراهيم حقاً فلا أنتهي حتى أصعد السماء فأعلم ما فيها فعمد إلى أربعة أفرخ من النسور فربّاها حتى شبّت واتخذ تابوتاً وجعل له باباً من أعلى وباباً من أسفل، وقعد من أسفل وقعد نمرود مع الرجل في التابوت ونصب خشبات في أطراف التابوت، وجعل على رؤوسها اللحم وربط التابوت بأرجل النسور، وخلّاها فطرن وصعدن طمعاً في اللحم حتى مضى يوم وأبعدن في الهواء، فقال نمرود لصاحبه: افتح الباب الأعلى وانظر إلى السماء هل قربنا منها، ففتح الباب ونظر فقال: إن السماء كهيئتها ثم قال افتح الباب الأسفل وانظر إلى الأرض كيف تراها ففعل فقال أرى مثل اللجّة والجبال مثل الدخان فطارت النسور يوماً آخر، وارتفعت حتى حالت الريح بينها وبين الطيران فقال لصاحبه افتح البابين ففتح الأعلى فإذا السماء كهيئتها وفتح الأسفل فإذا الأرض سوداء مظلمة فنُودِيَ أيها الطاغية أين تريد؟ قال عكرمة: كان معه في التابوت غلام قد حمل معه القوس والنشاب فرمى بسهم فعاد إليه السهم متلطخاً بدم سمكة قذفت نفسها من بحر في الهواء. وقيل: طائر أصابه السهم، فقال: كفيت شغل إلّه السماء، قال: ثم أمر نمرود صاحبه أن يصوّب الخشبات وينكص اللحم ففعل فهبطت النسور بالتابوت فسمعت الجبال خفيق التابوت والنسور ففزعت وظنت أنه قد حَدَثَ

﴿فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله﴾ يعني فلا تحسبن الله يا محمد مخلف ما وعد به رسله من النصر وإعلاء الكلمة، وإظهار الدين فإنه ناصر رسله وأوليائه ومهلك أعدائه، وفيه تقديم وتأخير تقديره ولا تحسبن الله مخلف رسله وعده ﴿إن الله عزيز﴾ أي غالب ﴿ذو انتقام﴾ يعني من أعدائه قوله عز وجل ﴿يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات﴾ ذكر المفسرون في معنى هذا التبديل قولين أحدهما أنه تبدل صفة الأرض والسماء لا ذاتهما فأما تبديل الأرض فبتغيير صفتها وهيئتها مع بقاء ذاتها وهو أن تدك جبالها وتسوى وهادها وأوديتها، وتذهب أشجارها وجميع ما عليها من عمارة وغيرها لا يبقى على وجهها شيء إلا ذهب، وتمد مد الأديم وأما تبديل السماء فهو أن تنتثر كواكبها وتطمس شمسها، وقمرها ويكوران كونها تارة كالدهان، وتارة كالمهل وبهذا القول قال جماعة من العلماء: ويدل على صحة هذا القول ما روي عن سهل بن سعيد قال: قال رسول الله ﷺ «يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء كقرصة النقى ليس بها علم لأحد» أخرجاه في الصحيحين العفراء بالعين المهملة، وهي البيضاء إلى الحمرة ولهذا شبهها بقرصة النقى، وهو الخبز الجيد البياض الفائق المائل إلى حمرة كأن النار ميلت بياض وجهها إلى الحمرة وقوله: ليس بها علم لأحد يعني ليس فيها علامة لأحد بتبديل هيئتها، وزوال جبالها وجميع بنائها فلا يبقى فيها أثر يستدل به والقول الثاني: هو تبديل ذوات الأرض والسماء وهذا قول جماعة من العلماء، ثم اختلفوا في معنى هذا التبديل فقال ابن مسعود في معنى هذه الآية قال: تبدل الأرض بأرض كالفضة بيضاء نقية لم يسفك بها دم، ولم يعمل عليها خطيئة. وقال علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه: الأرض من فضة والسماء من ذهب. وقال أبيّ بن كعب في معنى التبديل: بأن تصير الأرض نيراناً والسماء جناناً وقال أبو هريرة وسعيد بن جبير ومحمد بن كعب القرظي تبدل الأرض خبزة بيضاء يأكل المؤمن من تحت قدميه عن أبي سعيد الخدري قال. قال رسول الله ﷺ: «تكون الأرض يوم القيامة خبزة واحدة يتكفؤها الجبار بيده كما يتكفأ أحدكم خبزته في السفر نزلاً لأهل الجنة» أخرجاه في الصحيحين بزيادة فيه. قال الشيخ محيي الدين النووي في شرح هذا الحديث: أما النزل فبضم النون والزاي ويجوز إسكان الزاي وهو ما يعد للضيف عند نزوله وأما الخبزة فبضم الخاء. وقال أهل اللغة: هي الظلمة التي توضع في الملة يتكفؤها بالهمزة بيده أي يميلها من يد إلى يد حتى تجتمع وتسوى لأنها ليست منبسطة كالرقاقة، وقد حققنا الكلام في اليد في حق الله سبحانه وتعالى وتأويلها مع القطع باستحالة الجارحة عليه ليس كمثله شيء، ومعنى الحديث أن الله سبحانه

حدثٌ من السماء، وأن الساعة قد قامت، فكادت تـزول عـن أماكنها، فذلك قوله تعالى: ﴿ وإنْ كان مكرُهم لتزولَ منه الجبالُ ﴾.

﴿ فلا تحسبنّ الله مخلفَ وعدِهِ رسلَه ﴾، بالنصر لأوليائه وهلاك أعدائه، وفيه تقديم وتأخير، تقديره: ولا تحسبن الله مخلف رسله وعده، ﴿ إن الله عزيز ذو انتقام ﴾.

قوله تعالى: ﴿ يوم تبدل الأرض غيرَ الأرض والسمٰوات ﴾، أخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر أنا عبد الغافر بن محمد أنا محمد بن عيسى الجلودي أنا إبراهيم بن محمد بن سفيان ثنا مسلم بن الحجاج ثنا أبو بكر بن أبي شيبة ثنا خالد بن مخلد عن محمد بن جعفر بن أبي كثير حدّثني أبو حازم بن دينار بن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: «يُحشر الناسُ يوم القيامة على أرضٍ بيضاء عفراءَ كقرصة النقي ليس فيها علم لأحد»، وأخبرنا عبد الواحد عن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنبأنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا يحيىٰ بن بكير ثنا الليث عن خالد هو ابن يزيد عن سعيد بن أبي هلال عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد الخدري قال: قال النبي ﷺ: «تكون الأرض يوم القيامة خبزة واحدة يتكفؤها الجبار بيده كما يتكفؤ أحدكم خبزته في السفر نزلاً لأهل الجنة»، وعن ابن مسعود في هذه الآية قال: تبدل الأرض بأرض كفضة بيضاء نقية لم يسفك فيها دم ولم

وتعالى، يجعل الأرض كالظلمة أي الرغيف العظيم وتكون طعاماً نزلاً لأهل الجنة والله على كل شيء قدير. فإن قلت: إذا فسرت التبديل بما ذكرت فكيف يمكن الجمع بينه وبين قوله تعالى ﴿يومئذ تحدث أخبارها﴾ وهو أن تحدث أخبارها، وهو أن تحدث بكل ما عمل عليها، قلت: وجه الجمع بين الآيتين أن الأرض تبدل أولاً صفتها مع بقاء ذاتها كما تقدم فيومئذ تحدث أخبارها ثم بعد ذلك تبدل تبديلاً ثانياً، وهو أن تبدل ذاتها بغيرها كما تقدم أيضاً ويدل على صحة هذا التأويل ما روي عن عائشة قالت سألت رسول الله ﷺ عن قوله تعالى ﴿يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات﴾ فأين يكون الناس يومئذ يا رسول الله فقال: «على الصراط» أخرجه مسلم وروى ثوبان أن حبراً من اليهود سأل رسول الله ﷺ أين يكون الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض قال: «هم في الظلمة دون الجسر» ذكره البغوي بغير سند، ففي هذين الحديثين دليل على أن تبديل الأرض ثاني مرة يكون بعد الحساب والله أعلم بمراده وأسرار كتابه.

وقوله تعالى ﴿وبرزوا﴾ يعني وخرجوا من قبورهم ﴿لله﴾ يعني لحكم الله، والوقوف بين يديه للحساب ﴿الواحد القهار﴾ صفتان لله تعالى فالواحد الذي لا ثاني له، ولا شريك معه المنزه عن الشبه والضد والند والقهار الذي يقهر عباده على ما يريد، ويفعل ما يشاء ويحكم ما يريد. قوله تعالى:

﴿وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٥١﴾ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾﴾

﴿وترى المجرمين يومئذ مقرنين﴾ يعني مشدودين بعضهم إلى بعض يقال: قرنت الشيء بالشيء إذا شددته معه في رباط واحد ﴿في الأصفاد﴾ يعني في القيود والأغلال. قال ابن عباس: يقرن كل كافر مع شيطانه في سلسلة. وقال أبو زيد: تقرن أيديهم وأرجلهم إلى رقابهم بالأصفاد وهي القيود. وقال ابن قتيبة: يقرن بعضهم إلى بعض ﴿سرابيلهم﴾ يعني قمصهم واحدها سربال وقيل السربال كل ما لبس ﴿من قطران﴾ القطران دهن يتحلب من شجر

تعمل فيها خطيئة. وقال علي بن أبي طالب: تبدل الأرض من فضة والسماء من ذهب. وقال محمد بن كعب وسعيد بن جبير: تبدل الأرض خبزة بيضاء يأكل المؤمن من تحت قدميه. وقيل: معنى التبديل جعل السمٰوات جناناً وجعل الأرض نيراناً. وقيل: تبديل الأرض تغييرها من هيئة إلى هيئة، وهي تسيير جبالها وطم أنهارها وتسوية أوديتها وقلع أشجارها وجعلها قاعاً صفصفاً، وتبديل السمٰوات تغييرها عن حالها بتكوير شمسها، وخسوف قمرها وانتثار نجومها، وكونها مرة كالدهان، ومرة كالمهل. أخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر أنا عبد الغافر بن محمد أنا محمد بن عيسى الجلودي ثنا إبراهيم بن محمد بن سفيان ثنا مسلم بن الحجاج ثنا أبو بكر بن أبي شيبة ثنا علي بن مسهر عن داود وهو ابن أبي هند عن الشعبي عن مسروق عن عائشة قالت: سألت رسول الله ﷺ عن قوله عزّ وجلّ: «يوم تبدل الأرض غيرَ الأرض والسمٰوات» فأين يكون الناس يومئذ يا رسول الله؟ فقال: «على الصراط»، ورُوِيَ عن ثوبان أن حبراً من أحبار اليهود سأل رسول الله ﷺ فقال: أين يكون الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض؟ قال: هم في الظلمة دون الجسر. وقوله تعالى: ﴿ وبرزوا ﴾، خرجوا من قبورهم، ﴿ لله الواحد القهّار ﴾، الذي يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد.

﴿ وترى المجرمين يومئذ مقرنين ﴾، مشدودين بعضهم ببعض، ﴿ في الأصفاد ﴾، في القيود والأغلال واحدها صفد، وكلّ مَن شددته شدّاً وثيقاً فقد صفدته، قال أبو عبيدة تقول العرب: صفدت الرجل فهو مصفود وصفدته بالتشديد فهو مصفد، وقيل: يقرن كل كافر مع شيطانه في سلسلة، بيانه قوله تعالى: ﴿ احشروا الذين

الأبهل والعرعر والتوت كالزفت تدهن به الإبل إذا جربت، وهو الهناء يقال هنأت البعير أهنؤه بالهناء وهو القطران قال الزجاج: وإنما جعل لهم القطران سرابيل لأنه يبالغ في اشتعال النار في الجلود ولو أراد الله المبالغة في إحراقهم بغير ذلك لقدر ولكنه حذرهم مما يعرفون وقرأ عكرمة، ويعقوب من قطران على كلمتين منونتين فالقطر النحاس المذاب والآن الذي انتهى حره ﴿وتغشى وجوههم النار﴾ يعني تعلوها وتجللها ﴿ليجزي الله كل نفس ما كسبت﴾ يعني من خير أو شر ﴿إن الله سريع الحساب﴾ يعني إذا حاسب عباده يوم القيامة ﴿هذا بلاغ للناس﴾ يعني هذا القرآن فيه تبليغ وموعظة للناس ﴿ولينذروا﴾ يعني وليخوفوا بالقرآن ومواعظه وزواجره ﴿وليعلموا أنما هو إله واحد﴾ يعني وليستدلوا بهذه الآيات على وحدانية الله تعالى ﴿وليذكر أولو الألباب﴾ يعني وليتعظ بهذا القرآن وما فيه من المواعظ، أولو العقول والأفهام الصحيحة، فإنه موعظة لمن اتعظ والله أعلم بمراده وأسرار كتابه.

ظلموا وأزواجهم ﴾ [الصّافّات: ٢٢]، يعني: قرناءهم من الشياطين وقيل: معناه مقرنة أيديهم وأرجلهم إلى رقابهم بالأصفاد والقيود، ومنه قيل للجبل قرن.

﴿ سرابيلهم ﴾، أي: قمصهم، واحدها سربال. ﴿ من قطران ﴾ هو ما تهنأ به الإبل، وقرأ عكرمة ويعقوب ﴿ من قطران ﴾ على كلمتين منوّنتين، والقطر النحاس والصفر المُذاب، والآن الذي انتهى حرّه، قال الله تعالى: ﴿ يطوفون بينها وبين حميم آن ﴾ [الرحمن: ٤٤]. ﴿ وتغشى وجوههم النار ﴾، أي: تعلو.

﴿ ليجزي الله كل نفس ما كسبتْ ﴾، من خير وشر، ﴿ إنّ الله سريعُ الحساب ﴾.

﴿ هذا ﴾، أي: هذا القرآن، ﴿ بلاغ ﴾، أي: تبليغ وعظة، ﴿ للناس ولينذروا ﴾، وليخوفوا، ﴿ به وليعلموا إنما هو إلَه واحد ﴾، أي: ليستدلّوا بهذه الآيات على وحدانية الله، ﴿ وليذكر أُولوا الألباب ﴾، أي: ليتّعظ أُولوا العقول.

تفسير سورة الحجر

مكية بإجماعهم وهي تسع وتسعون آية وستمائة، وأربع وخمسون كلمة وألفان وسبعمائة وستون حرفاً.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٢﴾ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾

قوله سبحانه وتعالى: ﴿**الر تلك آيات الكتاب وقرآن مبين**﴾ تلك إشارة إلى ما تضمنته السورة من الآيات والمراد بالكتاب وبالقرآن المبين: الكتاب الذي وعد به الله محمداً ﷺ، وتنكير القرآن للتفخيم، والتعظيم والمعنى تلك آيات الكتاب الكامل في كونه كتاباً، وفي كونه قرآناً وأي قرآن كأنه قيل: الكتاب الجامع للكمال والغرابة في البيان وقيل: أراد بالكتاب التوراة والإنجيل، لأن عطف القرآن على الكتاب والمعطوف غير المعطوف عليه وهذا القول ليس بالقوي، لأنه لم يجر للتوراة والإنجيل ذكر حتى يشار إليهما. وقيل: المراد بالكتاب القرآن وإنما جمعهما بوصفين، وإن كان الموصوف واحداً لما في ذلك من الفائدة وهي التفخيم والتعظيم، والمبين الذي يبين الحلال من الحرام، والحق من الباطل ﴿**ربما**﴾ قرىء بالتخفيف والتشديد وهما لغتان ورب للتقليل وكم للتكثير، وإنما زيدت ما مع رب ليليها الفعل تقول رب رجل جاءني وربما جاءني زيد وإن شئت جعلت ما بمنزلة شيء كأنك قلت رب شيء فتكون المعنى رب شيء ﴿**يود الذين كفروا**﴾ وقيل: ما في ربما بمعنى حين أي رب حين يود يعني يتمنى الذين كفروا لأن التمني هو: تشهي حصول ما يوده، واختلف المفسرون في الوقت الذي يتمنى الذين كفروا ﴿**لو كانوا مسلمين**﴾ على

سُورَة الحِجْـر

مكية وهي تسعة وتسعون آية.

﴿ **الر** ﴾، معناه أنا الله أرى، ﴿ **تلك آياتُ الكتاب** ﴾، أي: هذه آيات الكتاب، ﴿ **وقرآن** ﴾ أي: وآيات قرآن، ﴿ **مبين** ﴾، أي: بين الحلال من الحرام والحق من الباطل، فإن قيل: لمّا ذكر الكتاب ثم قال: ﴿ **وقرآن مبين** ﴾ وكلاهما واحد؟ قلنا: قد قيل كل واحد منهما يفيد فائدة أخرى فإن الكتاب ما يكتب والقرآن ما يجمع بعضه إلى بعض. وقيل: المراد بالكتاب التوراة والإنجيل وبالقرآن هذا الكتاب.

﴿ **ربما** ﴾ قرأ أبو جعفر ونافع وعاصم بتخفيف الباء والباقون بتشديدها وهما لغتان، ورُبَّ للتقليل وكم للتكثير، ورُبَّ تدخل على الاسم، وربما على الفعل، يقال: ربّ رجل جاءني وربما جاءني رجل، وأدخل ما ههنا للفعل بعدها. ﴿ **يَوَدُّ** ﴾، يتمنى، ﴿ **الذين كفروا لو كانوا مسلمين** ﴾، واختلفوا في الحالة التي يتمنى الكافر فيها الإسلام، قال الضحاك: حالة المعاينة. وقيل: يوم القيامة. والمشهور أنه حين يخرج الله المؤمنين من النار. ورُوِيَ

قولين أحدهما: أن ذلك يكون عند معاينة العذاب وقت الموت فحينئذ يعلم الكافر أنه كان على الضلال، فيتمنى لو كان مسلماً، وذلك حين لا ينفعه ذلك التمني. قال الضحاك: هو عند حالة المعاينة والقول الثاني: إن هذا التمني يكون في الآخرة، وذلك حين يعاينون أهوال يوم القيامة وشدائده وما يصيرون عليه من العذاب، فحينئذ يتمنى الذين كفروا لو كانوا مسلمين. وقال الزجاج: أن الكافر كلما رأى حالاً من أحوال العذاب ورأى حالاً من أحوال المسلم ود لو كان مسلماً وقيل إذا رأى الكافر أن الله تعالى يرحم المسلمين، ويشفع بعضهم في بعض حين يقول: من كان من المسلمين فليدخل الجنة فحينئذ يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين والقول المشهور أن ذلك التمني حين يخرج الله المؤمنين من النار عن أبي موسى الأشعري عن النبي ﷺ «قال إذا اجتمع أهل النار في النار ومعهم من شاء الله من أهل القبلة قال الكفار لمن في النار من أهل القبلة: ألستم مسلمين؟ قالوا: فما أغنى عنكم إسلامكم وأنتم معنا في النار. قالوا: كانت لنا ذنوب فأخذنا بها فيغفرها الله لهم بفضل رحمته فيأمر الله بكل من كان من أهل القبلة في النار، فيخرجون منها فحينئذ يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين» ذكره البغوي بغير سند، وكذا ذكره ابن الجوزي وقال: وإليه ذهب ابن عباس في رواية عنه عن أنس بن مالك ومجاهد وعطاء وأبو العالية وإبراهيم يعني النخعي. فإن قلت: رب إنما وضعت للتقليل، وتمني الذين كفروا لو كانوا مسلمين يكثر يوم القيامة فكيف قال: ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين. قلت: قال صاحب الكشاف هو وارد على مذهب العرب في قولهم لعلك ستندم على فعلك، وربما ندم الإنسان على فعله، ولا يشكون في تندمه ولا يقصدون تقليله، ولكنهم أرادوا لو كان الندم مشكوكاً فيه أو كان قليلاً لحق عليك أن لا تفعل هذا الفعل لأن العقلاء يتحرزون من التعرض للغمِّ المظنون كما يتحرزون من المتيقن ومن القليل منه كما يتحرزون من الكثير وقال غيره إن هذا القليل أبلغ في التهديد ومعناه يكفيك قليل الندم في كونه زاجراً لك عن هذا الفعل. فكيف بكثيره؟ وقيل: إن شغلهم بالعذاب لا يقرعهم للندامة إنما يخطر ذلك ببالهم. فإن قلت: رب لا تدخل إلا على الماضي فكيف قال: ربما يود وهو في المستقبل قلت لأن المترقب في أخبار الله تعالى بمنزلة الماضي المقطوع به في تحققه كأنه قال: ربما ود. قوله سبحانه وتعالى ﴿**ذرهم يأكلوا ويتمتعوا**﴾ يعني دع يا محمد هؤلاء الكفار يأكلوا في دنياهم ويتمتعوا بلذاتها ﴿**ويلههم الأمل**﴾ يعني ويشغلهم طول الأمل عن الإيمان والأخذ بطاعة الله تعالى ﴿**فسوف يعلمون**﴾ يعني إذا وردوا القيامة، وذاقوا وبال ما صنعوا وهذا فيه تهديد ووعيد لمن أخذ بحظه من الدنيا، ولذاتها ولم يأخذ بحظه من طاعة الله عز وجل، وقال بعض أهل العلم: ذرهم تهديد وفسوف يعلمون تهديد آخر فمتى يهنأ العيش بين تهديدين وهذه الآية منسوخة بآية القتال، وفي الآية دليل على أن إيثار التلذذ، والتنعم في الدنيا يؤدي إلى طول الأمل وليس ذلك من أخلاق المؤمنين. قال علي بن أبي طالب: إنما أخشى عليكم اثنتين طول الأمل واتباع الهوى فإن طول الأمل، ينسي الآخرة، واتباع الهوى يصد عن الحق.

عن أبي موسى الأشعري عن النبي ﷺ قال: «إذا اجتمع أهل النار في النار ومعهم مَن شاء الله من أهل القبلة قال الكفّار لمَن في النار من أهل القبلة ألستم مسلمين؟ قالوا: بلى، قالوا: فما أغنى عنكم إسلامكم وأنتم معنا في النار، فقالوا: كانت لنا ذنوب فأخذنا بها فيغفر الله لهم بفضل رحمته فيأمر بكل مَن كان من أهل القبلة في النار فيخرجون منها فحينئذ يودّ الذين كفروا لَوْ كانوا مسلمين، فإن قيل: كيف قال ربما وهي للتقليل وهذا التمنّي يكثر من الكفّار؟ قلنا: قد تذكر ربما للتكثير أو أراد أن شغلهم بالعذاب لا يفرغهم للندامة إنما يخطر ذلك ببالهم أحياناً.

﴿ ذرهم ﴾، يا محمد يعني الذين كفروا، ﴿ يأكلوا ﴾ في الدنيا، ﴿ ويتمتعوا ﴾، من لذاتهم ﴿ ويلههم ﴾، يشغلهم، ﴿ الأمل ﴾، عن الأخذ بحظهم من الإيمان والطاعة، ﴿ فسوف يعلمون ﴾، إذا وردوا القيامة وذاقوا وبال ما صنعوا، وهذا تهديد ووعيد. وقال بعض أهل العلم: ذرهم تهديد وقوله: فسوف يعلمون، تهديد آخر، فمتى يهنأ العيش بين تهديدين. والآية نسختها آية القتال.

وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٞ مَّعۡلُومٞ ﴿٤﴾ مَّا تَسۡبِقُ مِنۡ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ ﴿٥﴾ وَقَالُواْ
يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٞ ﴿٦﴾ لَّوۡ مَا تَأۡتِينَا بِٱلۡمَلَـٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٧﴾ مَا نُنَزِّلُ
ٱلۡمَلَـٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَمَا كَانُوٓاْ إِذٗا مُّنظَرِينَ ﴿٨﴾ إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ
فِي شِيَعِ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿١١﴾ كَذَٰلِكَ نَسۡلُكُهُۥ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿١٢﴾
لَا يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَقَدۡ خَلَتۡ سُنَّةُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَلَوۡ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَابٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعۡرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا
سُكِّرَتۡ أَبۡصَٰرُنَا بَلۡ نَحۡنُ قَوۡمٞ مَّسۡحُورُونَ ﴿١٥﴾ وَلَقَدۡ جَعَلۡنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجٗا وَزَيَّنَّـٰهَا لِلنَّـٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظۡنَـٰهَا مِن
كُلِّ شَيۡطَٰنٖ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾

﴿**وما أهلكنا من قرية**﴾ يعني من أهل قرية وأراد إهلاك الاستئصال ﴿**إلا ولها كتاب معلوم**﴾ أي أجل مضروب، ووقت معين لا يتقدم العذاب عليه، ولا يتأخر عنه ولا يأتيهم إلا في الوقت الذي حدد لهم في اللوح المحفوظ ﴿**ما تسبق من أمة أجلها**﴾ من زائدة، في قوله: من أمة كقولك ما جاءني من أحد. وقيل: هي على أصلها لأنها تفيد التبعيض إلى هذا الحكم فيكون ذلك في إفادة عموم النفي آكد، ومعنى الآية أن الأجل المضروب لهم وهو وقت الموت، أو نزول العذاب لا يتقدم ولا يتأخر وهو قوله سبحانه وتعالى: ﴿**وما يستأخرون**﴾ وإنما أدخل الهاء في أجلها لإرادة الأمة، وإخراجها من قوله وما يستأخرون لإرادة الرجال. قوله عز وجل ﴿**وقالوا**﴾ يعني مشركي مكة ﴿**يا أيها الذي نزل عليه الذكر**﴾ يعني القرآن وأرادوا به محمداً ﷺ ﴿**إنك لمجنون**﴾ إنما نسبوه إلى الجنون لأنه ﷺ، كان يظهر عند نزول الوحي عليه ما يشبه الغشي، فظنوا أن ذلك جنون فلهذا السبب نسبوه إلى الجنون، وقيل: إن الرجل إذا سمع كلاماً مستغرباً من غيره فربما نسبه إلى الجنون، ولما كانوا يستبعدون كونه رسولاً من عند الله، وأتى بهذا القرآن العظيم أنكروه ونسبوه إلى الجنون، وإنما قالوا: يا أيها الذي نزل عليه الذكر على طريق الاستهزاء وقيل: معناه يا أيها الذي نزل عليه الذكر في زعمه، واعتقاده واعتقاد أصحابه وأتباعه إنك لمجنون في ادعائك الرسالة ﴿**لو ما**﴾ قال الزجاج والفراء: لوما ولولا لغتان ومعناهما هلا يعني هلا ﴿**تأتينا بالملائكة**﴾ يعني يشهدون لك بأنك رسول من عند الله حقاً ﴿**إن كنت من الصادقين**﴾ يعني في قولك وادعائك الرسالة ﴿**ما ننزل الملائكة إلا بالحق**﴾ يعني بالعذاب أو وقت الموت، وهو قوله تعالى ﴿**وما كانوا إذاً منظرين**﴾ يعني لو نزلت الملائكة إليهم لم يمهلوا ولم يؤخروا ساعة واحدة وذلك أن كفار مكة كانوا يطلبون من رسول الله ﷺ إنزال الملائكة عياناً فأجابهم الله عز وجل بهذا، والمعنى لو نزلوا عياناً لزال عن الكفار الإمهال وعذبوا في الحال إن لم يؤمنوا ويصدقوا ﴿**إنّا نحن نزلنا الذكر**﴾ يعني القرآن أنزلناه عليك يا محمد، وإنما قال سبحانه وتعالى: إنا **نحن** نزلنا الذكر جواباً لقولهم: يا أيها الذي نزل عليه الذكر فأخبر الله عز وجل أنه هو الذي نزل الذكر على محمد ﷺ ﴿**وإنا له لحافظون**﴾ الضمير في له يرجع إلى الذكر يعني، وإنا للذكر الذي أنزلناه على محمد لحافظون يعني من الزيادة فيه، والنقص منه والتغيير والتبديل والتحريف، فالقرآن العظيم محفوظ من هذه الأشياء كلها لا يقدر أحد من جميع الخلق من الجن والإنس أن يزيد فيه، أو ينقص منه حرفاً واحداً أو

﴿ **وما أهلكنا من قرية** ﴾، أي: من أهل قرية، ﴿ **إلاّ ولها كتاب معلوم** ﴾، أي: أجل مضروب لا يتقدم عليه ولا يأتيهم العذاب حتى يبلغوه ولا يتأخر عنهم.

﴿ **ما تسبق من أمة أجلها** ﴾، من صلة أي: ما تسبق أمة أجلها، ﴿ **وما يستأخرون** ﴾، أي: الموت لا يتقدم ولا يتأخر، وقيل: العذاب. وقيل: الأجل المضروب.

كلمة واحدة، وهذا مختص بالقرآن العظيم بخلاف سائر الكتب المنزلة فإنه قد دخل على بعضها التحريف، والتبديل والزيادة والنقصان ولما تولى الله عز وجل حفظ هذا الكتاب بقي مصوناً على الأبد محروساً من الزيادة والنقصان، وقال ابن السائب ومقاتل: الكناية في له راجعة إلى محمد ﷺ يعني وإنا لمحمد لحافظون ممن أراده بسوء فهو كقوله تعالى «**والله يعصمك من الناس**» ووجه هذا القول أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر الإنزال، والمنزل دل ذلك على المنزل عليه وهو محمد ﷺ فحسن صرف الكناية إليه لكونه أمراً معلوماً إلا أن القول الأول أصح، وأشهر، وهو قول الأكثرين لأنه أشبه بظاهر التنزيل ورد الكناية إلى أقرب مذكور أولى، وهو الذكر وإذا قلنا: إن الكناية عائدة إلى القرآن، وهو الأصح فاختلفوا في كيفية حفظ الله عز وجل للقرآن فقال بعضهم: حفظه بأن جعله معجزاً باقياً مبايناً لكلام البشر فعجز الخلق عن الزيادة فيه، والنقصان منه لأنهم لو أرادوا الزيادة فيه والنقصان منه لتغيير نظمه، وظهر ذلك لكل عالم عاقل وعلموا ضرورة أن ذلك ليس بقرآن، وقال آخرون: إن الله حفظه وصانه من المعارضة فلم يقدر أحد من الخلق أن يعارضه. وقال آخرون: بل أعجز الله الخلق عن إبطاله وإفساده بوجه من الوجوه فقيض الله له العلماء الراسخين يحفظونه، ويذبون عنه إلى آخر الدهر لأن دواعي جماعة من الملاحدة واليهود متوفرة على إبطاله وإفساده فلم يقدروا على ذلك بحمد الله تعالى قوله سبحانه وتعالى: ﴿**ولقد أرسلنا من قبلك في شيع الأولين**﴾ لما تجرأ كفار مكة على رسول الله ﷺ وخاطبوه بالسفاهة وهو قولهم: إنك لمجنون وأساؤوا الأدب عليه أخبر الله سبحانه وتعالى نبيه محمداً ﷺ أن عادة الكفار في قديم الزمان مع أنبيائهم، كذلك فلك يا محمد أسوة في الصبر على أذى قومك بجميع الأنبياء ففيه تسلية للنبي ﷺ، وفي الآية محذوف تقديره ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك يا محمد، فحذف ذكر الرسل لدلالة الإرسال عليه، وقوله تعالى في شيع الأولين: الشيعة هم القوم المجتمعة المتفقة كلمتهم وقال الفراء: الشيعة هم الأتباع وشيعة الرجل أتباعه. وقيل: الشيعة من يتقوى بهم الإنسان. وقوله في شيع الأولين من باب إضافة الصفة إلى الموصوف ﴿**وما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون كذلك نسلكه في قلوب المجرمين**﴾ السلوك النفاذ في الطريق، والدخول فيه والسلك إدخال الشيء في الشيء كإدخال الخيط في المخيط، ومعنى الآية كما سلكنا الكفر والتكذيب والاستهزاء في قلوب شيع الأولين، كذلك نسلكه أي ندخله في قلوب المجرمين يعني مشركي مكة، وفيه

﴿ **وقالوا** ﴾ يعني: مشركي مكة، ﴿ **يا أيها الذي نُزّل عليه الذكر** ﴾، أي: القرآن وأرادوا به محمداً ﷺ، ﴿ **إنك لمجنون** ﴾، وذكروا تنزيل الذكر على سبيل الاستهزاء.

﴿ **لوما** ﴾، هلاّ ﴿ **تأتينا بالملائكة** ﴾، شاهدين لك بالصدق على ما تقول إن الله أرسلك، ﴿ **إن كنت من الصادقين** ﴾، إنك نبي.

﴿ **ما ننزّل الملائكة** ﴾، قرأ أهل الكوفة غير أبي بكر بنونين ﴿ **الملائكة** ﴾ نصب، وقرأ أبو بكر بالتاء وضمها وفتح الزاي الملائكة رفع وقرأ الباقون بالتاء وفتحها وفتح الزاي ﴿ **الملائكة** ﴾ رفع. ﴿ **إلا بالحق** ﴾ أي: بالعذاب ولو نزلت يعني الملائكة لعجلوا بالعذاب، ﴿ **وما كانوا إذاً منظرين** ﴾ أي: مؤخرين وقد كان الكفّار يطلبون إنزال الملائكة عياناً فأجابهم الله تعالى بهذا. ومعناه أنهم لو نزلوا عياناً لزال عن الكفّار الإمهال وعذبوا في الحال.

﴿ **إنّا نحن نزّلنا الذكر** ﴾، يعني القرآن، ﴿ **وإنّا له لحافظون** ﴾، أي: نحفظ القرآن من الشياطين أن يزيدوا فيه أو ينقصوا منه أو يبدلوا بغيره، قال الله تعالى: ﴿ لا يأتيه الباطلُ من بين يديه ولا من خلفه ﴾ [فصّلت: ٤٢] والباطل: هو إبليس لا يقدر أن يزيد فيه ما ليس منه ولا أن ينقص منه ما هو منه. وقيل: الهاء في ﴿ **له** ﴾ راجعة إلى محمد ﷺ أي: إنّا لمحمد لحافظون ممّن أراده بسوء كما قال جلّ ذكره: ﴿ والله يعصمك من الناس ﴾ [المائدة: ٦٧].

رد على القدرية والمعتزلة وهي أبين آية في ثبوت القدر لمن أذعن للحق، ولم يعاند قال الواحدي قال أصحابنا: أضاف الله سبحانه وتعالى إلى نفسه إدخال الكفر في قلوب الكفار، وحسن ذلك منه فمن آمن بالقرآن فليستحسنه، وقال الإمام فخر الدين الرازي: احتجّ أصحابنا بهذه الآية على أنه تعالى يخلق الباطل، والضلال في قلوب الكفار فقالوا قوله: كذلك نسلكه أي كذلك نسلك الباطل، والضلال في قلوب المجرمين وقالت المعتزلة لم يجر للضلال، والكفر ذكر فيما قيل هذا اللفظ فلا يمكن أن يكون الضمير عائد إليه، وأجيب عنه بأنه سبحانه وتعالى قال: ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون فالضمير في قوله كذلك نسلكه عائد إليه، والاستهزاء بالأنبياء كفر وضلال فثبت صحة قولنا: إن المراد من قوله كذلك نسلكه في قلوب المجرمين، أنه الكفر والضلال. قوله تعالى ﴿لا يؤمنون به﴾ بمحمد ﷺ وقيل بالقرآن ﴿وقد خلت سنة الأولين﴾ فيه وعيد وتهديد لكفار مكة، يخوفهم أن ينزل بهم مثل ما نزل بالأمم الماضية المكذبة للرسل، والمعنى وقد مضت سنة الله بإهلاك من كذب الرسل من الأمم الماضية فاحذروا يا أهل مكة أن يصيبكم مثل ما أصابهم من العذاب ﴿ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون﴾ يعني ولو فتحنا على هؤلاء الذين قالوا: لو ما تأتينا بالملائكة باباً من السماء فظلوا. يقال: ظل فلان يفعل كذا إذا فعله بالنهار، كما يقل بات يفعل كذا إذا فعله بالليل فيه يعني في ذلك الباب يعرجون يعني يصعدون، والمعارج المصاعد وفي المشار إليه بقوله: فظلوا به يعرجون قولان: أحدهما أنهم الملائكة وهو قول ابن عباس والضحاك، والمعنى: لو كشف عن أبصار هؤلاء الكفار فرأوا باباً من السماء مفتوحاً والملائكة تصعد فيه لما آمنوا. والقول الثاني: أنهم المشركون وهو قول الحسن وقتادة والمعنى: فظل المشركون يصعدون في ذلك الباب فينظرون في ملكوت السموات، وما فيها من الملائكة لما آمنوا لعنادهم وكفرهم، ولقالوا إنا سحرنا وهو قوله تعالى: ﴿لقالوا إنما سكرت أبصارنا﴾ قال ابن عباس: سدت أبصارنا مأخوذ من سكر النهر إذا حبس، ومنع من الجري وقيل: هو من سكر الشراب والمعنى أن أبصارهم حارت، ووقع بها من فساد النظر مثل ما يقع للرجل السكران من تغيير العقل، وفساد النظر وقيل سكرت يعني غشيت أبصارنا وسكنت عن النظر، وأصله من السكور يقال سكرت غينه إذا تحيرت، وسكنت عن النظر ﴿بل نحن قوم مسحورون﴾ يعني سحرنا محمد، وعمل فينا سحره. وحاصل الآية أن الكفار لما طلبوا من رسول الله ﷺ،

قوله تعالى: ﴿ولقد أرسلنا من قبلك﴾، أي: رسلاً، ﴿في شيع الأولين﴾، أي: في الأمم والقرون الماضية والشيعة هم القوم المجتمعة المتفقة كلمتهم على رأي واحد.

﴿وما يأتيهم من رسول إلّا كانوا به يستهزؤون﴾، كما فعلوا بك ذكره تسلية للنبي ﷺ.

﴿كذلك نسلكه﴾، أي: كما سلكنا الكفر والتكذيب والاستهزاء بالرسل في قلوب شيع الأوّلين كذلك نسلكه ندخله، ﴿في قلوب المجرمين﴾، يعني مشركي مكة قومك، وفيه ردٌّ على القدرية.

﴿لا يؤمنون به﴾، يعني: لا يؤمنون بمحمد ﷺ وبالقرآن، ﴿وقد خلت﴾، مضت، ﴿سنة الأولين﴾، أي: وقائع الله تعالى الإهلاك فيمن كذب الرسل من الأمم الخالية يخوف أهل مكة.

﴿ولو فتحنا عليهم﴾، يعني: على الذين يقولون لو ما تأتينا بالملائكة، ﴿باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون﴾، فظلّت الملائكة يعرجون فيه وهم يرونه عياناً، هذا قول الأكثرين. وقال الحسن: معناه فظل هؤلاء الكفّار يعرجون فيه أي: يصعدون. والأول أصح.

﴿لقالوا إنما سكرت﴾، سُدّت، ﴿أبصارنا﴾، قاله ابن عباس. وقال الحسن: سحرت وقال قتادة أخذت، وقال الكلبي: عميت. وقرأ ابن كثير ﴿سكرت﴾ بالتخفيف، أي: حُبست ومُنعت النظر كما يسكر النهر لحبس

أن ينزل عليهم الملائكة فيروهم عياناً، ويشهدوا بصدقه أخبر الله سبحانه وتعالى أنه لو حصل لهم هذا وشاهدوه عياناً لما أمنوا ولقالوا سحرنا لما سبق لهم في الأزل من الشقاوة. قوله سبحانه وتعالى ﴿ولقد جعلنا من السماء بروجاً﴾ يعني البروج التي تنزلها الشمس في مسيرها واحدها برج، وهي بروج الفلك الاثنا عشر برجاً وهي: الحمل والثور والجوزاء والسرطان والأسد والسنبلة والميزان والعقرب والقوس والجدي والدلو والحوت. وهذه البروج مقسومة على ثمانية وعشرين منزلاً لكل برج منزلان وثلث منزل، وقد تقدم ذكر منازل القمر في تفسير سورة يونس، وهذه البروج مقسومة على ثلثمائة وستين درجة لكل برج منها ثلاثون درجة تقطعها الشمس في كل سنة مرة، وبها تتم دورة الفلك ويقطعها القمر في ثمانية وعشرين يوماً، قال ابن عباس في هذه الآية يريد بروج الشمس والقمر، يعني منازلهما وقال ابن عطية: هي قصور في السماء عليها الحرس. وقال الحسن ومجاهد وقتادة: هي النجوم العظام. قال أبو إسحاق يريدون نجوم هذه البروج، وهي نجوم على ما صورت به. وسميت وأصل هذا كله من الظهور ﴿وزيناها﴾ يعني السماء بالشمس والقمر والنجوم ﴿للناظرين﴾ يعني المعتبرين المستدلين بها على وحيد خالقها، وصانعها وهو الله الذي أوجد كل شيء وخلقه وصوره ﴿وحفظناها﴾ يعني السماء ﴿من كل شيطان رجيم﴾ أي مرجوم فعيل بمعنى مفعول، وقيل: ملعون مطرود من رحمة الله. قال ابن عباس: كانت الشياطين لا يحجبون عن السموات وكانوا يدخلونها، ويأتون بأخبارها إلى الكهنة فيلقونها إليهم، فلما ولد عيسى عليه السلام منعوا من ثلاث سموات فلما ولد محمد ﷺ، منعوا من السموات أجمع فما منهم من أحد يريد أن يسترق السمع إلا رمي بشهاب فلما منعوا من تلك المقاعد ذكروا ذلك لإبليس فقال: لقد حدث في الأرض حدث فبعثهم ينظرون فوجدوا رسول الله ﷺ يتلو القرآن فقالوا: هذا والله حدث.

﴿إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ۝١٨ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ۝١٩ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ۝٢٠ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ۝٢١ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ۝٢٢﴾

﴿إلا من استرق السمع﴾ هذا استثناء منقطع، معناه لكن من استرق السمع ﴿فأتبعه﴾ أي لحقه ﴿شهاب مبين﴾

الماء، ﴿ بل نحن قوم مسحورون ﴾، أي: عمل فينا السحر فسحرنا محمد.

قوله تعالى: ﴿ ولقد جعلنا في السماء بروجاً ﴾، والبروج هي النجوم الكبار مأخوذة من الظهور، يقال: تبرجت المرأة أي: ظهرت، وأراد بها المنازل التي تنزلها الشمس والقمر والكواكب السيّارة، وهي اثنا عشر برجاً الحمل والثور والجوزاء والسرطان والأسد والسنبلة والميزان والعقرب والقوس والجدي والدلو والحوت. وقال ابن عطية: هي قصور في السماء عليها الحرس، ﴿ وزيّناها ﴾، أي: السماء بالشمس والقمر والنجوم. ﴿ للناظرين ﴾.

﴿ وحفظناها من كل شيطان رجيم ﴾، مرجوم. وقيل: ملعون قال ابن عباس: كانت الشياطين لا يحجبون عن السمٰوات وكانوا يدخلونها، ويأتون بأخبارها فيلقون على الكهنة ما سمعوا فلما ولد عيسى عليه السلام منعوا من ثلاث سمٰوات فلما ولد محمد ﷺ منعوا من السمٰوات أجمع فما منهم من أحد يريد استراق السمع إلا رُمي بشهاب فلما منعوا من تلك المقاعد ذكروا ذلك لإبليس، فقال: لقد حدث في الأرض حادث، قال: فبعثهم فوجدوا رسول الله ﷺ يتلو القرآن فقالوا هذا والله حدث.

﴿ إلا مَن استرق السمع ﴾، لكن مَن استرق السمع، ﴿ فأتْبعه شهابٌ مبين ﴾، والشهاب الشعلة من النار

والشهاب شعلة من نار ساطع سمي الكوكب شهاباً لأجل ما فيه من البريق شبه بشهاب النار، قال ابن عباس في قوله إلا من استرق السمع: يريد الخطفة اليسيرة، وذلك أن الشياطين يركب بعضهم بعضاً إلى السماء يسترقون السمع من الملائكة فيرمون بالكواكب، فلا تخطىء أبداً فمنهم من تقتله، ومنهم من تحرق وجهه أو جنبه أو يده، أو حيث يشاء الله ومنهم من تخبله فيصير غولاً يضل الناس في البوادي (خ) عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله كأنه سلسلة على صفوان، فإذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم؟ قالوا: الذي قال الحق وهو العلي الكبير فيسمعها مسترقو السمع، ومسترقو السمع هكذا بعضهم فوق بعض، ووصف سفيان بكفه فحذفها، وبدد أصابعه فيسمع الكلمة فيلقيها إلى من تحته ثم يلقيها الآخر إلى من تحته حتى يلقيها على لسان الساحر أو الكاهن فربما أدركه الشهاب، قبل أن يلقيها، وربما ألقاها قبل أن يدركه فيكذب معها مائة كذبة، فيقال له: أليس قال لنا كذا وكذا فيصدق بتلك الكلمة التي سمعت من السماء».

اختلف العلماء هل كانت الشياطين ترمى بالنجوم قبل مبعث رسول الله ﷺ أم لا على قولين: أحدهما أنها لم تكن ترمى بالنجوم، قبل مبعث رسول الله ﷺ، وإنما ظهر ذلك في بدء أمره فكان ذلك أساساً لنبوته ﷺ ويدل على صحة هذا القول ما روي عن ابن عباس قال: انطلق رسول الله ﷺ في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ، وقد حيل بين الشياطين، وبين خبر السماء وأرسلت عليهم الشهب. أخرجاه في الصحيحين. فظاهر هذا الحديث يدل على أن هذا الرمي بالشهب لم يكن قبل مبعثه ﷺ فلما بعث حدث هذا الرمي. ويعضده ما روي أن يعقوب بن المغيرة بن الأخنس بن شريق قال: أول من فزع للرمي بالنجوم هذا الحي من ثقيف، وأنهم جاؤوا إلى رجل منهم يقال له: عمرو بن أمية أحد بني علاج وكان أهدى العرب فقالوا له: ألم تر ما حدث في السماء من القذف بالنجوم؟ فقال: بلى. ولكن انظروا فإن كانت معالم النجوم التي يهتدى بها في البر والبحر ويعرف بها الأنواء من الصيف والشتاء، لما يصلح الناس من معايشهم هي التي يرمى بها فهو والله طي الدنيا وهلاك الخلق الذين فيها وإن كانت نجوماً غيرها وهي ثابتة على حالها فهذا الأمر أراده الله من الخلق قال الزجاج: ويدل على أنها كانت بعد مولد النبي ﷺ أن شعراء العرب الذين ذكروا البرق، والأشياء المسرعة لم يوجد في شعرهم ذكر الكواكب المنقضة فما حدثت بعد مولده ﷺ، استعملت الشعراء ذكرها قال ذو الرمة:

كأنه كوكب في أثر عفرية مسوم في سواد الليل منقضب

وذلك أن الشياطين يركب بعضهم بعضاً إلى السماء الدنيا، ويسترقون السمع من الملائكة فيرمون بالكواكب فلا تخطىء أبداً فمنهم مَن تقتله ومنهم مَن تحرق وجهه أو جنبه أو يده أو حيث يشاء الله، ومنهم مَن تخبله فيصير غولاً يضلّ الناس في البوادي. أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا الحميدي ثنا سفيان ثنا عمر وقال: سمعت عكرمة يقول: سمعت أبا هريرة يقول: إن نبيّ الله ﷺ قال: «إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله كأنه سلسلة على صفوان فإذا فزع عن قلوبهم قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا: الذي قال الحق وهو العلي الكبير، فيسمعها مسترقو السمع ومسترقو السمع هكذا بعضهم فوق بعض»، ووصف سفيان بكفّه فحدقها وبدّد بين أصابعه فيسمع أحدهم الكلمة فيلقيها إلى مَن تحته، ثم يلقيها الآخر إلى مَن تحته حتى يلقيها على لسان الساحر أو الكاهن فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيها وربما ألقاها قبل أنْ يدركه فيكذب معها مائة كذبة فيقال: أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا يكون كذا وكذا، فيصدق بتلك الكلمة التي سمعت من السماء. أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا محمد ابن أبي مريم ثنا الليث ثنا ابن جعفر عن محمد بن عبد الرحمن عن

والقول الثاني: إن ذلك كان موجوداً قبل مبعث النبي ﷺ ولكن لما بعث شدد وغلظ عليهم. قال معمر: قلت للزهري أكان يرمى بالنجوم في الجاهلية؟ قال: نعم. قلت: أفرأيت قوله وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فقال: غلظت وشدد أمرها حين بعث محمد ﷺ ويدل على صحة هذا القول ما روي عن ابن عباس قال أخبرني رجل من أصحاب النبي ﷺ من الأنصار أنهم بينما هم جلوس ليلة مع رسول الله ﷺ إذ رمى بنجم واستنار فقال لهم رسول الله ﷺ: «ما كنتم تقولون في الجاهلية إذا رمي بمثل هذا، قالوا كنا نقول ولد الليلة رجل عظيم أو مات رجل عظيم فقال رسول الله ﷺ: فإنها لا يرمى بها لموت أحد، ولا لحياته ولكن ربنا تبارك اسمه إذا قضى أمراً سبح حملة العرش ثم سبح أهل السماء الذين يلونهم حتى يبلغ التسبيح إلى أهل هذه السماء، ثم قال: الذين يلون حملة العرش لحملة العرش، ماذا قال ربكم فيخبرونهم بما قال، فيستخبر بعض أهل السماء بعضاً حتى يبلغ الخبر هذه السماء الدنيا، فتخطف الجن السمع فيقذفونه إلى أوليائهم، ويرمون فما جاؤوا به على وجهه فهو حق ولكنهم يقذفون فيه ويزيدون» أخرجه مسلم وقال ابن قتيبة: أن الرجم كان قبل مبعثه، ولكن لم يكن في شدة الحراسة مثل بعد مبعثه، قال وعلى هذا وجدنا الشعر القديم قال بشر بن أبي حازم وهو جاهلي:

فالعير يرهقها الغبار وجحشها ... ينقض خلفهما انقضاض الكوكب

وقال أوس بن حجر وهو جاهلي:

فانقض كالدر يتبعه ... نقع يثور تخاله طنبا

والجمع بين هذين القولين: أن الرمي بالنجوم كان موجوداً قبل مبعث النبي ﷺ، فلما بعث شدد ذلك وزيد في حفظ السماء وحراستها صوناً لأخبار الغيوب والله أعلم. قوله سبحانه وتعالى: ﴿والأرض مددناها﴾ يعني بسطناها على وجه الماء كما يقال: إنها دحيت من تحت الكعبة ثم بسطت هذا قول أهل التفسير، وزعم أرباب الهيئة أنها كرة عظيمة بعضها في الماء، وبعضها خارج عن الماء، وهو الجزء المغمور منها واعتذروا عن قوله تعالى: والأرض مددناها بأن الكرة إذا كانت عظيمة كان كل جزء منها، كالسطح العظيم فثبت بهذا الأمر أن الأرض ممدودة مبسوطة

عروة بن الزبير عن عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ أنها سمعت النبي ﷺ يقول: «إن الملائكة تنزل في العنان وهو السحاب فتذكر الأمر الذي قضي في السماء فتسترق الشياطين السمع فتسمعه فتوحي إلى الكهّان فيكذبون معها مائة كذبة من عند أنفسهم» واعلم أن هذا لم يكن ظاهراً قبل مبعث النبي ﷺ ولم يذكره شاعر من العرب قبل زمان النبي ﷺ، وإنما ظهر في بدء أمره وكان ذلك أساساً لنبوّته وقال يعقوب بن عتبة بن المغيرة بن الأخنس بن شريق: إن أول مَن فزع للرمي بالنجوم هذا الحي من ثقيف وإنهم جاؤوا إلى رجل منهم يقال له عمرو بن أمية أحد بني علاج وكان أهدى العرب فقالوا له: ألم ترَ ما حدث في السماء من القذف بالنجوم؟ قال: بلى فانظروا فإن كانت معالم النجوم التي يُهتدى بها في البر والبحر وتعرف بها الأنواء من الصيف والشتاء لما يصلح الناس من معايشهم هي التي يرمى بها فهي والله طيّ الدنيا وهلاك الخلق الذي فيها، وإن كانت نجوماً غيرها وهي والله ثابتة على حالها فهذا الأمر أراده الله تعالى بهذا الخلق. قال معمر قلت للزهري: أكان يرمى بالنجوم في الجاهلية؟ قال: نعم، قلت: أفرأيت قوله تعالى: ﴿ وإنّا كنّا نقعد منها مقاعد للسمع ﴾ [الجن: ٩] الآية؟ قال: غلظ وشدّد أمرها حيث بعث محمد ﷺ، وقال ابن قتيبة: إن الرجم كان قبل مبعثه ولكن لم يكن في شدة الحراسة فصار شدة الحراسة والاهتمام بالرجم بعد مبعثه. وقيل: إن النجم ينقض فيرمي الشياطين ثم يعود إلى مكانه والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿ والأرض مددناها ﴾، بسطناها على وجه الماء، يقال: إنها مسيرة خمسمائة سنة في مثلها

وأنها كرة، ورد هذا أصحاب التفسير بأن الله أخبر في كتابه بأنها ممدودة، وأنها مبسوطة ولو كانت كرة لأخبر بذلك والله أعلم بمراده، وكيف مد الأرض ﴿وألقينا فيها رواسي﴾ يعني جبالاً ثوابت وذلك أن الله سبحانه وتعالى لما خلق الأرض على الماء مادت ورجفت فأثبتها بالجبال ﴿وأنبتنا فيها﴾ أي في الأرض، لأن أنواع النبات المنتفع به تكون في الأرض، وقيل: الضمير يرجع إلى الجبال لأنها أقرب مذكور لقوله تعالى ﴿من كل شيء موزون﴾ وإنما يوزن ما تولد في الجبال من المعادن، وقال ابن عباس وسعيد بن جبير: موزون أي معلوم، وقال مجاهد وعكرمة أي مقدور فعلى هذا يكون المعنى معلوم القدر عند الله تعالى لأن الله سبحانه وتعالى يعلم القدر الذي يحتاج إليه الناس في معايشهم وأرزاقهم فيكون إطلاق الوزن عليه مجازاً، لأن الناس لا يعرفون مقادير الأشياء إلا بالوزن، وقال الحسن وعكرمة وابن زيد: أنه عنى به الشيء الموزون كالذهب والفضة والرصاص والحديد والكحل ونحو ذلك مما يستخرج من المعادن، لأن هذه الأشياء كلها توزن وقيل: معنى موزون متناسب في الحسن والهيئة والشكل، تقول العرب فلان موزون الحركات إذا كانت حركاته متناسبة حسنة، وكلام موزون إذا كان متناسباً حسناً بعيداً من الخطأ والسخف وقيل إن جميع ما ينبت في الأرض والجبال نوعان: أحدهما ما يستخرج من المعادن وجميع ذلك موزون. والثاني النبات وبعضه موزون أيضاً: وبعضه مكيل وهو يرجع إلى الوزن لأن الصاع والمدّ مقدران بالوزن ﴿وجعلنا لكم فيها معايش﴾ جمع معيشة. وهو ما يعيش به الإنسان مدة حياته في الدنيا من المطاعم والمشارب والملابس ونحو ذلك ﴿ومن لستم له برازقين﴾ يعني الدواب والوحش والطير أنتم منتفعون بها، ولستم لها برازقين لأن رزق جميع الخلق على الله ومنه قوله تعالى: ﴿وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها﴾ وتكون من في قوله تعالى: ومن لستم بمعنى ما لأن من لمن يعقل وما لمن لا يعقل، وقيل: يجوز إطلاق لفظة من على من لا يعقل كقوله تعالى: ﴿فمنهم من يمشي على بطنه﴾ وقيل أراد بهم العبيد والخدم فتكون من على أصلها، ويدخل معهم ما لا يعقل من الدواب والوحش ﴿وإن من شيء إلا عندنا خزائنه﴾ الخزائن جمع خزانة هي اسم للمكان الذي يخزن فيه الشيء للحفظ يقال: خزن الشيء إذا أحرزه. فقيل أراد مفاتيح الخزائن وقيل: أراد بالخزائن المطر لأنه سبب الأرزاق والمعايش لبني آدم والدواب والوحش والطير ومعنى عندنا أنه في حكمه وتصرفه وأمره وتدبيره قوله تعالى: ﴿وما ننزله إلا بقدر معلوم﴾ يعني بقدر الكفاية. وقيل: إن لكل أرض حداً ومقداراً من المطر. يقال: لا تنزل من السماء قطرة مطر إلا ومعها ملك يسوقها إلى حيث يشاء الله

دحيت من تحت الكعبة. ﴿ وألقينا فيها رواسيَ ﴾، جبالاً ثوابت، وقد كانت الأرض تميد إلى أن أرساها الله بالجبال، ﴿ وأنبتنا فيها ﴾، أي: في الأرض، ﴿ من كل شيء موزونٍ ﴾، بقدر معلوم، وقيل: يعني في الجبال وهي جواهر من الذهب والفضة والحديد والنحاس وغيرها، حتى الزرنيخ والكحل كل ذلك يوزن وزناً. وقال ابن زيد: هي الأشياء التي تُوزَن وزناً.

﴿ وجعلنا لكم فيها معايش ﴾، جمع معيشة، قيل: أراد بها المطاعم والمشارب والملابس. وقيل: ما يعيش به الآدمي في الدنيا، ﴿ ومَن لستم له برازقين ﴾، أي: جعلنا فيها معايش مَن لستم له برازقين من الدواب والأنعام، أي: جعلنا لكم وكفيناكم رزقها و﴿ مَن ﴾ في الآية بمعنى ما، كقوله تعالى: ﴿ فمنهم مَن يمشي على بطنه ﴾ [النور: ٤٥]، وقيل: مَن في موضعها لأنه أراد المماليك مع الدواب. وقيل: مَن في محل الخفض عطفاً على الكاف والميم في لكم.

﴿ وإنْ من شيء ﴾، أي: وما من شيء، ﴿ إلا عندنا خزائنه ﴾، أي مفاتيح خزائنِه. وقيل: أراد به المطر، ﴿ وما ننزله إلا بقدر معلوم ﴾ لكل أرض حدّ مقدّر، ويقال: لا تنزل من السماء قطرة إلا ومعها ملك يسوقها حيث يريد الله عزّ وجلّ ويشاء، وعن جعفر بن محمد عن أبيه عن جدّه قال: في العرش مثال جميع ما خلق الله في البرّ

تعالى. وقيل: إن المطر ينزل من السماء كل عام بقدر واحد لا يزيد ولا ينقص ولكن الله يمطر قوماً، ويحرم آخرين وقيل: إذا أراد الله بقوم خيراً أنزل عليهم المطر والرحمة وإذا أراد بقوم شراً صرف المطر عنهم إلى حيث لا ينتفع به، كالبراري والقفار والرمال والبحار ونحو ذلك. وحكى جعفر بن محمد الصادق عن أبيه عن جده أنه قال في العرش تمثال جميع ما خلق الله في البر والبحر. وهو تأويل قوله وإن من شيء إلا عندنا خزائنه ﴿وأرسلنا الرياح لواقح﴾ قال ابن عباس يعني للشجر، وهو قول الحسن وقتادة وأصل هذا من قولهم: لقحت الناقة وألقحها الفحل إذا ألقى إليها الماء، فحملته فكذلك الرياح كالفحل للسحاب وقال ابن مسعود في تفسير هذه الآية: يرسل الله الرياح لتلقح السحاب فتحمل الماء فتمجه في السحاب ثم تمر به فتدر كما تدر اللقحة، وقال عبيد بن عمير: يرسل الله الريح المبشرة فتقم الأرض قماً، ثم يرسل المثيرة فتثير السحاب، ثم يرسل المؤلفة فتؤلف السحاب بعضه إلى بعض فتجعله ركاماً، ثم يرسل اللواقح فتلقح الشجر والأظهر في هذه الآية إلقاحها السحاب لقوله بعده فأنزلنا من السماء ماء قال أبو بكر بن عياش: لا تقطر قطرة من السماء إلا بعد أن تعمل الرياح الأربع فيها فالصبا تهيج السحاب، والشمال تجمعه والجنوب تدره والدبور تفرقه. وقال أبو عبيد: لواقح هنا بمعنى ملاقح جمع ملقحة حذفت الميم وردت إلى الأصل. وقال الزجاج: يجوز أن يقال لها لواقح وإن ألقحت غيرها، لأن معناها النسبة كما يقال: درهم وازن أي ذو وزن واعترض الواحدي على هذا. فقال هذا ليس بمغن لأنه كان يجب أن يصح اللاقح بمعنى ذات لقح حتى يوافق قول المفسرين، وأجاب الرازي عنه بأن قال: هذا ليس بشيء. لأن اللاقح هو المنسوب إلى اللقحة، ومن أفاد غير اللقحة فله نسبة إلى اللقحة وقال صاحب المفردات لواقح أي ذات لقاح وقيل إن الريح في نفسها لاقح لأنها حاملة للسحاب والدليل عليه قوله تعالى ﴿حتى إذا أقلت سحاباً﴾ ثقالاً، أي حملت فعلى هذا تكون الريح لاقحة بمعنى حاملة تحمل السحاب. وقال الزجاج: ويجوز أن يقال للريح لقحت إذا أتت بالخير كما قيل لها عقيم إذا لم تأت بخير، وورد في بعض الأخبار أن الملقح الرياح الجنوب، وفي بعض الآثار ما هبت رياح الجنوب إلا وابتعت عيناً غدقة (ق) عن عائشة أن النبي ﷺ كان إذا عصفت الريح قال: «اللهم إني أسألك خيرها وخير ما فيها، وخير ما أرسلت به، وأعوذ بك من شرها، وشر ما فيها وشر ما أرسلت به» وروى البغوي بسنده إلى الشافعي إلى ابن عباس قال: ما هبت ريح قط إلا جثا النبي ﷺ على ركبتيه، وقال: «اللهم اجعلها رحمة ولا تجعلها عذاباً اللهم اجعلها رياحاً ولا

والبحر، وهو تأويل قوله تعالى: ﴿ وإنّ من شيء إلا عندنا خزائنه ﴾.

﴿ وأرسلنا الرياح لواقح ﴾ أي: حوامل لأنها تحمل الماء إلى السحاب، وهو جمع لاقحة، يقال: ناقة لاقحة إذا حملت الولد. قال ابن مسعود: يرسل الله الريح فتحمل الماء فيمر به السحاب فيدرّ كما تدرّ اللقحة ثم تمطر. وقال أبو عبيدة: أراد باللواقح الملاقح واحدتها ملقحة، لأنها تلقح الأشجار. قال عبيد بن عمير: يبعث الله الريح المبشّرة فتقمّ الأرض قمّاً ثم يبعث الله المثيرة فتثير السحاب ثم يبعث الله المؤلفة فتؤلّف السحاب بعضه إلى بعض فتجعله ركاماً، ثم يبعث اللواقح فتلقح الشجر. وقال أبو بكر بن عياش: لا تقطر قطرة من السحاب إلا بعد أن تعمل الرياح الأربع فيه، فالصبا تهيجه والشمال تجمعه والجنوب تذره والدبور تفرّقه، وفي الخبران: اللقح رياح الجنوب. وفي بعض الآثار: ما هبّت ريح الجنوب إلّا وبعث عيناً غدقة. وأما الريح العقيم فإنها تأتي بالعذاب ولا تلقح أخبرنا عبد الوهاب بن محمد الخطيب أنا عبد العزيز بن أحمد الخلال ثنا أبو العباس الأصم أنا الربيع أنا الشافعي أنا مَن لا أتّهم بحديثه ثنا العلاء بن راشد عن عكرمة عن ابن عباس قال: ما هبّت ريح قطّ إلّا جثا النبي ﷺ على ركبتيه، وقال: اللّهمّ اجعلها رحمة ولا تجعلها عذاباً، اللّهمّ اجعلها رياحاً ولا تجعلها ريحاً. قال ابن عباس: في كتاب الله عزّ وجلّ ﴿ فأرسلنا عليهم ريحاً صرصراً ﴾ [فصّلت: ١٦] ﴿ إذْ أرسلنا عليهم الريح العقيم ﴾

تجعلها ريحاً» قال ابن عباس في كتاب الله عز وجل ﴿إنا أرسلنا عليهم ريحاً صرصراً﴾ ﴿فأرسلنا عليهم الريح العقيم﴾ وقال: ﴿وأرسلنا الرياح لواقح﴾ وقال ﴿يرسل الرياح مبشرات﴾ وقوله سبحانه وتعالى ﴿فأنزلنا من السماء ماء﴾ يعني المطر ﴿فأسقيناكموه﴾ يعني جعلنا لكم المطر سقياً يقال أسقى فلان فلاناً إذا جعل له سقياً، وسقاه إذا أعطاه ما يشرب، وتقول العرب: سقيت الرجل ماء، ولبناً إذا كان لسقيه فإذا جعلوا له ماء لشرب أرضه أو ماشيته يقال: أسقيناه ﴿وما أنتم له﴾ يعني للمطر ﴿بخازنين﴾ يعني: إن المطر في خزائننا لا في خزائنكم. وقيل: وما أنتم له بمانعين.

﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝٢٣ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ۝٢٤ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ۝٢٥ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ۝٢٦ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ۝٢٧ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ۝٢٨ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ۝٢٩ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ۝٣٠﴾

﴿وإنا لنحن نحيي ونميت﴾ يعني بيدنا إحياء الخلق وإماتتهم لا يقدر على ذلك أحد إلا الله سبحانه وتعالى، لأن قوله تعالى: وإنا لنحن يفيد الحصر يعني لا يقدر على ذلك سوانا ﴿ونحن الوارثون﴾ وذلك بأن نميت جميع الخلق، فلا يبقى أحد سوانا فيزول ملك كل مالك ويبقى جميع ملك المالكين لنا والوارث هو الباقي بعد ذهاب غيره والله سبحانه وتعالى هو الباقي بعد ذهاب غيره والله سبحانه وتعالى هو الباقي بعد فناء خلقه الذين أمتعهم بما آتاهم في الحياة الدنيا لأن وجود الخلق. وما آتاهم كان ابتداؤه منه تعالى فإذا فني جميع الخلائق رجع الذي كانوا يملكونه في الدنيا على المجاز إلى مالكه على الحقيقة، وهو الله تعالى. وقيل مصير الخلق إليه. قوله عز وجل ﴿ولقد علمنا المستقدمين منكم ولقد علمنا المستأخرين﴾ عن ابن عباس قال: كانت امرأة تصلي خلف رسول الله ﷺ من أحسن الناس فكان بعض الناس يتقدم حتى يكون في الصف الأول لئلا يراها. ويتأخر بعضهم حتى يكون في الصف المؤخر، فإذا ركع نظر من تحت إبطيه فأنزل الله عز وجل ولقد علمنا المستقدمين منكم، ولقد علمنا المستأخرين أخرجه النسائي وأخرجه الترمذي وقال فيه وقد روي عن ابن الجوزي نحوه. ولم يذكر فيه عن ابن عباس وهذا أشبه أن يكون

[الذاريات: ٤١]. وقال: ﴿ وأرسلنا الرياح لواقح ﴾. وقال: يرسل الرياح مبشّرات قرأ حمزة وحده «وأرسلنا الريح لواقح» على الوحدة والوجه أن الريح يراد بها الجنس والكثرة، ولهذا وصفت بالجمع في قوله: ﴿ لواقح ﴾، وقرأ الباقون ﴿ الرياح ﴾ بالألف على الجمع، ووجهه ظاهر وذلك أنها وصفت بقوله: ﴿ لواقح ﴾ وهي جماعة فينبغي أن يكون الموصوف أيضاً جماعة ليتوافقا. قوله: ﴿ فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه ﴾، أي: جعلنا المطر لكم سقياً، يقال: أسقى فلان فلاناً إذا جعل له سقياً وسقاه إذا أعطاه ما يشرب. وتقول العرب: سقيت الرجل ماءً ولبناً إذا كان لسقيه، فإذا جعلوا له ماء لشرب أرضه ودوابه تقول العرب: أسقيته. ﴿ وما أنتم له بخازنين ﴾، يعني المطر في خزائننا لا في خزائنكم. وقال سفيان: بمانعين.

﴿ وإنّا لنحن نحيي ونميت ونحن الوارثون ﴾، بأن نميت جميع الخلائق، فلا يبقى حيّ سوانا، والوارث من صفات الله عزّ وجلّ. قيل: الباقي بعد فناء الخلق. وقيل: معناه إن مصير الخلق إليه .

﴿ ولقد علمنا المستقدِمين منكم ولقد علمنا المستأخرين ﴾، قال ابن عباس: أراد بالمستقدِمين الأموات وبالمستأخرين الأحياء. قال الشعبي: الأولين والآخرين: وقال عكرمة: المستقدمون من خلق الله والمستأخرون مَن

أصح قال البغوي وذلك أن النساء كن يخرجن إلى الجماعة فيقفن خلف الرجال فربما كان من الرجال من في قلبه ريبة فيتأخر إلى آخر صف الرجال، ومن النساء من في قلبها ريبة فتتقدم إلى أول صف النساء لتقرب من الرجال فنزلت هذه الآية فعند ذلك قال النبي ﷺ: «خير صفوف الرجال أولها وشرها آخرها، وخير صفوف النساء آخرها. وشرها أولها» أخرجه مسلم عن أبي هريرة. وقال ابن عباس: أراد بالمستقدمين من خلق الله وبالمستأخرين من لم يخلق الله تعالى بعد. وقال مجاهد: المستقدمون القرون الأولى والمستأخرون أمة محمد ﷺ. وقال الحسن: المستقدمون يعني في الطاعة والخير والمستأخرون يعني فيهما. وقال الأوزاعي: أراد بالمستقدمين المصلين في أول الوقت وبالمستأخرين المؤخرين لها إلى آخره. وقال مقاتل: أراد بالمستقدمين وبالمستأخرين في صف القتال. وقال ابن عيينة: أراد من يسلم أولاً ومن يسلم آخراً. وقال ابن عباس في رواية أخرى عنه أن النبي ﷺ حرض على الصف الأول فازدحموا عليه، وقال قوم كانت بيوتهم قاصة عن المسجد: لنبيعن دورنا ونشتري دوراً قريبة من المسجد حتى ندرك الصف المقدم. فنزلت هذه الآية، ومعناها إنما تجزون على النيات فاطمأنوا وسكنوا فيكون معنى الآية على القول الأول المستقدم للتقوى والمستأخر للنظر، وعلى القول الأخير المستقدم لطلب الفضيلة والمستأخر للعذر، ومعنى الآية أن علمه سبحانه وتعالى محيط بجميع خلقه مقدمهم ومتأخرهم طائعهم وعاصيهم، لا يخفى عليه شيء من أحوال خلقه **﴿وإن ربك هو يحشرهم إنه حكيم عليم﴾** يعني على ما علم منهم، وقيل: إن الله سبحانه وتعالى يميت الكل ثم يحشرهم الأولين والآخرين على ما ماتوا عليه (م) عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ «يبعث كل عبد على ما مات عليه» قوله سبحانه وتعالى **﴿ولقد خلقنا الإنسان﴾** يعني آدم عليه السلام في قول جميع المفسرين سمي إنساناً لظهوره وإدراك البصر إياه، وقيل من النسيان لأنه عهد إليه فنسي من **﴿صلصال﴾** يعني من اليابس، إذا نقرته سمعت له صلصلة يعني صوتاً، وقال ابن عباس: هو الطين الحر الطيب الذي إذا نضب عنه الماء تشقق فإذا حرك تقعقع. وقال مجاهد: هو الطين المنتن. واختاره الكسائي وقال: هو من صل اللحم إذا أنتن **﴿من حمأ﴾** يعني من الطين الأسود **﴿مسنون﴾** أي متغير قال مجاهد وقتادة: هو المنتن المتغير. وقال أبو عبيدة: هو المصبوب. تقول العرب: سننت الماء إذا أصببنه قال ابن عباس: هو التراب المبتل المنتن جعل صلصالاً كالفخار، والجمع بين هذه الأقاويل على ما ذكره بعضهم أن

لم يخلق الله. قال مجاهد: المستقدمون القرون الأولى والمستأخرون أمة محمد ﷺ. وقال الحسن: المستقدمون في الطاعة والخير، والمستأخرون المبطئون عنها. وقيل: المستقدمون في الصفوف في الصلاة والمستأخرون فيها. وذلك أن النساء كنّ يخرجن إلى صلاة الجماعة فيقفن خلف الرجال، فربما كان من الرجال مَن في قلبه ريبة فيتأخر إلى آخر صفوف الرجال ليقرب من النساء، ومن النساء مَن كانت في قلبها ريبة فتتقدم إلى أول صفوف النساء لتقرب من الرجال. فنزلت هذه الآية. وقال النبي ﷺ: «خير صفوف الرجال أولها وشرّها آخرها، وخير صفوف النساء آخرها وشرّها أولها».

وقال الأوزاعي: أراد المصلّين في أول الوقت والمؤخرين إلى آخره. وقال مقاتل: أراد بالمستقدمين والمستأخرين في صف القتال وقال ابن عيينة: أراد مَن يسلم ومَن لا يسلم.

﴿ وإنّ ربك هو يحشرهم إنه حكيم عليم ﴾، على ما علم منهم. وقيل: يملك الكل ثم يحشرهم الأولين والآخرين. أخبرنا أبو صالح أحمد بن عبد الملك المؤذن أنا أبو سعيد الصيرفي ثنا أبو العباس الأصم ثنا أحمد بن عبد الجبار ثنا أبو معاوية عن الأعمش عن أبي سفيان عن جابر قال: قال النبي ﷺ: «مَن مات على شيء بعثه الله عليه».

قوله تعالى: ﴿ ولقد خلقنا الإنسان ﴾، يعني: آدم عليه السلام سمّي إنساناً لظهوره وإدراك البصر إياه.

الله سبحانه وتعالى لما أراد خلق آدم عليه السلام، قبض قبضة من تراب الأرض فبلها بالماء حتى اسودت وأنتن ريحها، وتغيرت وإليه الإشارة بقوله: ﴿إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب﴾ ثم إن ذلك التراب بله بالماء وخمره حتى اسودت، وأنتن ريحه وتغير وإليه الإشارة بقوله: من حمأ مسنون ثم ذلك الطين الأسود المتغير صوره صورة إنسان أجوف، فلما جف ويبس كانت تدخل فيه الريح فتسمع له صلصلة يعني صوتاً، وإليه الإشارة بقوله من صلصال كالفخار وهو الطين اليابس، إذا تفخّر في الشمس ثم نفخ فيه الروح فكان بشراً سوياً قوله تعالى ﴿والجان خلقناه من قبل﴾ يعني من قبل آدم عليه السلام. قال ابن عباس: الجان أبو الجن كما أن آدم أبو البشر. وقال قتادة: هو إبليس. وقيل: الجان أبو الجن وإبليس أبو الشياطين، وفي الجن مسلمون وكافرون يأكلون ويشربون ويحيون ويموتون كبني آدم. وأما الشياطين فليس فيهم مسلمون ولا يموتون إلا إذا مات إبليس. وقال وهب: إن من الجن من يولد له ويأكلون ويشربون بمنزلة الآدميين، ومن الجن من هو بمنزلة الريح لا يتوالدون، ولا يأكلون ولا يشربون وهم الشياطين والأصح أن الشياطين نوع من الجن لاشتراكهم في الاستتار، سموا جناً لتواريهم واستتارهم عن الأعين من قولهم: جن الليل إذا ستر والشيطان هو العاتي المتمرد الكافر، والجن منهم المؤمن ومنهم الكافر ﴿من نار السموم﴾ يعني من ريح حارة تدخل مسام الإنسان من لطفها، وقوة حرارتها فتقتله. ويقال للريح الحارة التي تكون بالنهار: السموم. وللريح الحارة التي تكون بالليل: الحرور، وقال أبو صالح: السموم نار لا دخان لها والصواعق تكون منها، وهي نار بين السماء والحجاب، فإذا حدث أمر خرقت الحجاب فهوت إلى ما أمرت به فالهدة التي تسمعون من خرق ذلك الحجاب وهذا على قول أصحاب الهيئة أن الكرة الرابعة تسمى كرة النار، وقيل: من نار السموم يعني من نار جهنم. وقال ابن مسعود: هذه السموم جزء من سبعين جزء من السموم التي خلق منها الجان، وتلا هذه الآية. وقال ابن عباس: كان إبليس من حي من الملائكة يسمون الجان خلقوا من نار السموم، وخلقت الجن الذين ذكروا في القرآن من مارج من نار، وخلقت الملائكة من النور. قوله عز وجل ﴿وإذ قال ربك للملائكة﴾ أي واذكر يا محمد: إذ قال ربك للملائكة ﴿إني خالق بشراً﴾ سمي الآدمي بشراً، لأنه جسم كثيف ظاهر البشرة ظاهر الجلد ﴿من صلصال من حمأ مسنون﴾ تقدم تفسيره ﴿فإذا سويته﴾ يعني عدلت صورته، وأتممت خلقه ﴿ونفخت له من روحي﴾ النفخ عبارة

وقيل: من النسيان لأنه عهد إليه فنسي. ﴿ من صلصال ﴾، وهو الطين اليابس الذي إذا نقرته سمعت له صلصلةً، أي: صوتاً. قال ابن عباس: هو الطين الحرّ الطيب الذي إذا نضب عنه الماء تشقّق فإذا حرّك تقعقع. وقال مجاهد: هو الطين المنتن. واختاره الكسائي، وقال: هو من صل اللحم، إذا أنتن، ﴿ من حمإٍ ﴾، والحمأ: الطين المنتن الأسود، ﴿ مسنون ﴾ أي: متغير. قال مجاهد وقتادة: هو المنتن المتغيّر. وقال أبو عبيدة: هو المصبوب. تقول العرب: سننت الماء أي صببته. قال ابن عباس: هو التراب المبتلّ المنتن جعل صلصالاً كالفخار. وفي بعض الآثار: إن الله عزّ وجلّ خمر طينة آدم وتركه حتى صار متغيراً أسود، ثم خلق منه آدم عليه السلام.

﴿ والجانّ خلقناه من قبلُ ﴾، قال ابن عباس: هو أبو الجن كما أن آدم أبو البشر. وقال قتادة: هو إبليس خلق قبل آدم. ويقال: الجان أبو الجن وإبليس أبو الشيطان، وفي الجن مسلمون وكافرون، ويحيون ويموتون، وأما الشياطين فليس منهم مسلمون ويموتون إذا مات إبليس. وذكر وهب: إن من الجن مَن يولد لهم ويأكلون ويشربون بمنزلة الآدميين، ومن الجن مَن هم بمنزلة الريح لا يأكلون ولا يشربون ولا يتوالدون. ﴿ من نار السَّمُوم ﴾، والسموم ريح حارّة تدخل مسام الإنسان فتقتله. يقال: السموم بالنهار والحرور بالليل. وعن الكلبي عن أبي صالح: السموم نار لا دخان لها، والصواعق تكون منها وهي نار بين السماء وبين الحجاب، فإذا أراد الله أن يحدث أمراً خرقت الحجاب فهو إلى ما أمرت به فالهدة التي تسمعون في خرق ذلك الحجاب. وقيل: نار

عن إجراء الريح في تجاويف جسم آخر، ومنه نفخ الروح في النشأة الأولى، وهو المراد من قوله: ونفخت فيه من روحي وأضاف الله عز وجل روح آدم إلى نفسه على سبيل التشريف والتكريم لها كما يقال بيت الله وناقة الله وعبد الله وسيأتي الكلام على الروح في تفسير سورة الإسراء عند قوله: ﴿ويسألونك عن الروح﴾ إن شاء الله تعالى **﴿فقعوا له ساجدين﴾** الخطاب للملائكة، الذين قال الله لهم: إني خالق بشراً أمرهم بالسجود لآدم بقوله فقعوا له ساجدين. وكان هذا السجود تحية لا سجود عبادة **﴿فسجد الملائكة كلهم﴾** يعني الذين أمروا بالسجود لآدم **﴿أجمعون﴾** قال سيبويه: هذا توكيد بعد توكيد، وسئل المبرد عن هذه الآية فقال: لو قال فسجد الملائكة لاحتمل أن يكون سجد بعضهم فلما قال كلهم لزم إزالة ذلك الاحتمال فظهر بهذا أنهم سجدوا بأسرهم ثم عند هذا بقي احتمال آخر، وهو أنهم سجدوا في أوقات متفرقة، أو في دعة واحدة فلما قال: أجمعون ظهر أن الكل سجدوا دفعة واحدة، ولما حكى الزجاج هذا القول عن المبرد قال: قول الخليل وسيبويه أجود لأن أجمعين معرفة فلا تكون حالاً. روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن الله سبحانه وتعالى أمر جماعة من الملائكة، بالسجود لآدم فلم يفعلوا فأرسل الله عليهم ناراً فأحرقتهم. ثم قال لجماعة أخرى: اسجدوا لآدم فسجدوا.

إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمۡ أَكُن لِّأَسۡجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقۡتَهُۥ مِن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيۡكَ ٱللَّعۡنَةَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسۡتَقِيمٌ ﴿٤١﴾

﴿إلا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين﴾ يعني مع الملائكة الذين أمروا بالسجود لآدم فسجدوا **﴿قال﴾** يعني

السموم لهب النار. وقيل: من نار السموم أي: من نار جهنم. وعن الضحاك عن ابن عباس قال: كان إبليس من حيّ من الملائكة يقال لهم الجن خلقوا من نار السَّموم وخلقت الجن الذين ذكروا في القرآن من مارج من نار، فأما الملائكة فإنهم خلقوا من النور.

قوله تعالى: **﴿ وإذ قال ربك للملائكة إني خالقٌ بشراً ﴾**، أي: سأخلق بشراً، **﴿ من صلصال من حمإٍ مسنون ﴾**.

﴿ فإذا سوّيته ﴾، وعدلت صورته، وأتممت خلقه، **﴿ ونفخت فيه من روحي ﴾**، فصار بشراً حيّاً والروح جسم لطيف يحيا به الإنسان وأضافه إلى نفسه تشريفاً، **﴿ فقعوا له ساجدين ﴾**، سجود تحية لا سجود عبادة.

﴿ فسجد الملائكة ﴾، الذين أُمروا بالسجود، **﴿ كلهم أجمعون ﴾**، فإن قيل: لِمَ قال: **﴿ كلهم أجمعون ﴾** وقد حصل المقصود بقوله فسجد الملائكة؟ قلنا: زعم الخليل وسيبويه أنه ذكر ذلك تأكيداً وذكر المبرد أن قوله: **﴿ فسجد الملائكة ﴾** كان من المحتمل أنه سجد بعضهم فذكر كلهم ليزول هذا الإشكال، ثم كان يحتمل أنهم سجدوا في أوقات مختلفة فزال ذلك الإشكال بقوله: **﴿ أجمعون ﴾**. وروى عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنه: إن الله عزّ وجلّ قال لجماعة من الملائكة: اسجدوا لآدم فلم يفعلوا فأرسل الله عليهم ناراً فأحرقهم، ثم قال لجماعة أخرى: اسجدوا لآدم فسجدوا.

﴿ إلاّ إبليس أبى أن يكون مع الساجدين ﴾.

قال الله ﴿يا إبليس ما لك ألا تكون مع الساجدين قال﴾ يعني إبليس ﴿لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمأ مسنون﴾ أراد إبليس أنه أفضل من آدم لأن آدم طيني الأصل وإبليس ناري الأصل. والنار أفضل من الطين فيكون إبليس في قياسه أفضل من آدم، ولم يدرِ الخبيث أن الفضل فيما فضله الله تعالى ﴿قال فاخرج منها﴾ يعني من الجنة وقيل من السماء ﴿فإنك رجيم﴾ أي طريد ﴿وإن عليك اللعنة إلى يوم الدين﴾ قيل: إن أهل السموات يلعنون إبليس كما يلعنه أهل الأرض، فهو ملعون في السموات والأرض فإن قلت: إن حرف إلى لانتهاء الغاية فهل ينقطع اللعن عنه يوم الدين الذي هو يوم القيامة؟ قلت: لا بل يزداد عذاباً إلى اللعنة التي عليه كأنه قال تعالى، وإن عليك اللعنة فقط إلى يوم الدين. ثم تزداد معها بعد ذلك عذاباً دائماً مستمراً لا انقطاع له ﴿قال رب فأنظرني﴾ يعني أخّرني ﴿إلى يوم يبعثون﴾ يعني يوم القيامة وأراد بهذا السؤال أنه لا يموت أبداً لأنه إذا أمهل إلى يوم القيامة، ويوم القيامة لا يموت فيه أحد لزم من ذلك أنه لا يموت أبداً، فلهذا السبب سأل الإنظار إلى يوم يبعثون، فأجابه الله سبحانه وتعالى بقوله: ﴿قال فإنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم﴾ يعني الوقت الذي يموت فيه جميع الخلائق وهو النفخة الأولى فيقال: إن مدة موت إبليس أربعون سنة، وهو ما بين النفختين، ولم تكن إجابة الله تعالى إياه في الإمهال إكراماً له بل كان ذلك الإمهال زيادة له في بلائه وشقائه وعذابه. وإنما سمي يوم القيامة بيوم الوقت المعلوم، لأن ذلك اليوم لا يعلمه أحد إلا الله تعالى فهو معلوم عنده وقيل: إن جميع الخلائق يموتون فيه فهو معلوم بهذا الاعتبار وقيل لما سأل إبليس الإنظار إلى يوم يبعثون، أجابه الله بقوله: فإنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم يعني اليوم الذي عينت وسألت الإنظار إليه ﴿قال رب بما أغويتني﴾ الباء للقسم في قوله بما وما ومصدرية، وجواب القسم ﴿لأزينن﴾ والمعنى فبإغوائك إياي لأزينن لهم في الأرض، وقيل هي باء السبب. يعني بسبب كوني غاوياً لأزينن ﴿لهم في الأرض﴾ يعني لأزينن لهم حب الدنيا ومعاصيك ﴿ولأغوينهم أجمعين﴾ يعني بإلقاء الوسوسة في قلوبهم، وذلك أن إبليس لما علم أنه يموت على الكفر غير مغفور له حرص على إضلال الخلق بالكفر، وإغوائهم ثم استثنى فقال ﴿إلا عبادك منهم المخلصين﴾ يعني المؤمنين الذين أخلصوا لك التوحيد والطاعة والعبادة، ومن فتح اللام من المخلصين يكون المعنى إلا من أخلصته واصطفيته لتوحيدك وعبادتك. وإنما استثنى إبليس المخلصين، لأنه علم أن كيده ووسوسته لا تعمل

﴿ قال يا إبليس ما لكَ ألاّ تكون مع الساجدين ﴾.

﴿ قال لم أكن لأسجدَ لبشرٍ خلقته من صلصال من حمأ مسنون ﴾، أراد إني أفضل منه لأنه طيني وأنا ناري والنار تأكل الطين.

﴿ قال فاخرجْ منها ﴾ أي: من الجنة ﴿ فإنّك رجيم ﴾، طريد.

﴿ وإن عليك اللعنة إلى يوم الدين ﴾، قيل: إن أهل السمٰوات يلعنون إبليس كما يلعنه أهل الأرض فهو ملعون في السماء والأرض.

﴿ قال ربِّ فأنظرني إلى يوم يبعثون ﴾، أراد الخبيث أن لا يموت.

﴿ قال فإنك من المنظرين ﴾.

﴿ إلى يوم الوقت المعلوم ﴾، أي: الوقت الذي يموت فيه الخلائق وهو النفخة الأولى. ويقال: إن مدة موت إبليس أربعون سنة وهي ما بين النفختين، ويقال: إنه لم تكن إجابة الله تعالى إياه في الإمهال إكراماً له بل كانت زيادة في بلائه وشقائه.

﴿ قال ربِّ بما أغويتني ﴾، أضللتني. وقيل: خيبتني من رحمتك، ﴿ لأزيننّ لهم في الأرض ﴾، حب الدنيا

فيهم، ولا يقبلون منه وحقيقة الإخلاص فعل الشيء خالصاً لله عن شائبة الغير فكل من أتى بعمل من أعمال الطاعات فلا يخلو، إما أن مراده بتلك الطاعات وجه الله فقط، أو غير الله أو مجموع الأمرين. أما ما كان لله تعالى فهو الخالص المقبول، وأما ما كان لغير الله فهو الباطل المردود، وأما من كان مراده مجموع الأمرين فإن ترجح جانب الله تعالى كان من المخلصين الناجحين، وإن ترجح الجانب الآخر كان من الهالكين لأن المثل يقابله المثل فيبقى القدر الزائد، وإلى أي الجانبين رجح أخذ به ﴿قال﴾ يعني قال الله تبارك وتعالى ﴿هذا صراط علي مستقيم﴾ قال الحسن معناه هذا صراط إلي مستقيم. وقال مجاهد: الحق يرجع إلى الله وعليه طريقه لا يعرج إلى شيء. وقال الأخفش: معناه على الدلالة على الصراط المستقيم. وقال الكسائي: هذا على طريق التهديد والوعيد كما يقول الرجل لمن يخاصمه: طريقك علي، أي لا تنفلت مني. وقيل: معناه علي استقامته بالبيان والبرهان والتوفيق والهداية. وقيل: هذا عائد إلى الإخلاص والمعنى أن الإخلاص طريق علي وإلي يؤدي إلى كرامتي ورضواني.

إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾

﴿إن عبادي ليس لك عليهم سلطان﴾ أي قوة وقدرة وذلك أن إبليس لما قال: لأزينن لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين، أوهم بهذا الكلام أن له سلطاناً على غير المخلصين فبين الله سبحانه وتعالى، أنه ليس له سلطان على أحد من عبيده سواء كان من المخلصين، أو لم يكن من المخلصين. قال أهل المعاني: ليس لك عليهم سلطان على قلوبهم، وسئل سفيان بن عيينة عن هذه الآية فقال: معناه ليس لك عليهم سلطان أن تلقيهم في ذنب يضيق عنه عفوي، وهؤلاء خاصته أي الذين هداهم، واجتباهم من عباده ﴿إلا من اتبعك من الغاوين﴾ يعني إلا من اتبع إبليس من الغاوين، فإن له عليهم سلطاناً بسبب كونهم منقادين له فيما يأمرهم به ﴿وإن جهنم لموعدهم أجمعين﴾ يعني موعد إبليس وأتباعه وأشياعه ﴿لها﴾ يعني لجهنم ﴿سبعة أبواب﴾ يعني سبع طبقات. قال علي بن أبي طالب: تدرون كيف أبواب جهنم هكذا ووضع إحدى يديه على الأخرى أي سبعة أبواب بعضها فوق بعض. قال ابن

ومعاصيك، ﴿ ولأغوينّهم ﴾، أي: لأضلنّهم، ﴿ أجمعين ﴾.

﴿ إلاّ عبادك منهم المخلصين ﴾، المؤمنين الذين أخلصوا لك بالطاعة والتوحيد، ومَن فتح اللام أي من أخلصته بتوحيدك فهديته واصطفيته.

﴿ قال ﴾، الله تعالى، ﴿ هذا صراط عليَّ مستقيم ﴾، قال الحسن: معناه صراط مستقيم. قال مجاهد: الحق يرجع إلى الله تعالى وعليه طريقه ولا يعوج عليه شيء. وقالَ الأخفش: يعني على الدلالة على الصراط المستقيم. قال الكسائي: هذا على التهديد والوعيد كما يقول الرجل لمَن يخاصمه طريقك، أي: لا تفلت مني، كما قال عزّ وجلّ: ﴿ إن ربك لبالمرصاد ﴾ [الفجر: ١٤]. وقيل: معناه على استقامته بالبيان والبرهان والتوفيق والهداية، وقرأ ابن سيرين وقتادة ويعقوب على من العلو أي: رفيع وعبّر بعضهم عنه رفيع أن ينال مستقيم أن يمال.

﴿ إنّ عبادي ليس لك عليهم سلطان ﴾، أي: قوة. قال أهل المعَاني: يعني على قلوبهم. وسئل سفيان بن عيينة عن هذه الآية فقال: معناه ليس لك عليهم سلطان تلقيهم في ذنب يضيق عنه عفوي، وهؤلاء ثنية الله الذين هداهم واجتباهم. ﴿ إلاّ مَن اتّبعك من الغاوين ﴾.

﴿ وإنّ جهنّم لموعدهم أجمعين ﴾، يعني موعد إبليس ومَن تبعه.

﴿ لها سبعة أبواب ﴾، أطباق. قال علي كرّم الله وجهه: تدرون كيف أبواب النار هكذا ووضع إحدى يديه

جريج: النار سبع دركات أولها جهنم، ثم لظى، ثم الحطمة، ثم السعير، ثم سقر، ثم الجحيم، ثم الهاوية ﴿**لكل باب منهم جزء مقسوم**﴾ يعني لكل دركة قوم يسكنونها والجزء بعض الشيء، وجزأته جعلته أجزاء، والمعنى أن الله سبحانه وتعالى يجزىء أتباع إبليس سبعة أجزاء فيدخل كل قسم منهم في النار دركة من النار والسبب فيه أن مراتب الكفر مختلفة فلذلك اختلفت مراتبهم في النار. قال الضحاك: في الدركة الأولى أهل التوحيد الذين أدخلوا النار يعذبون فيها بقدر ذنوبهم ثم يخرجون منها، وفي الثانية النصارى، وفي الثالثة اليهود، وفي الرابعة الصابئون، وفي الخامسة المجوس، وفي السادسة أهل الشرك، وفي السابعة المنافقون فذلك، قوله سبحانه وتعالى «**إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار**» عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال «لجهنم سبعة أبواب باب منها لمن سل السيف على أمتي أو قال على أمة محمد ﷺ» أخرجه الترمذي. وقال: حديث غريب قوله سبحانه وتعالى ﴿**إن المتقين في جنات وعيون**﴾ المراد بالمتقين الذين اتقوا الشرك في قول جمهور المفسرين وقيل: هم الذين اتقوا الشرك والمعاصي والجنات والبساتين والعيون والأنهار الجارية في الجنات، وقيل: يحتمل أن تكون هذه العيون غير الأنهار الكبار التي في الجنة، وعلى هذا فهل يختص كل واحد من أهل الجنة بعيون أو تجري هذه العيون من بعضهم إلى بعض؟ وكلا الأمرين محتمل فيحتمل أن كل واحد من أهل الجنة يختص بعيون تجري في جناته، وقصوره ودوره فينتفع بها هو ومن يختص به من حوره وولدانه، ويحتمل أنها تجري من جنات بعضهم إلى جنات بعض لأنهم قد طهروا من الحسد والحقد.

ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾ ۞ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِىَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا۟ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٦٠﴾

﴿**ادخلوها**﴾ أي يقال لهم: ادخلوها والقائل هو الله تعالى أو بعض ملائكته ﴿**بسلام آمنين**﴾ يعني ادخلوا الجنة

على الأخرى، أي: سبعة أبواب بعضها فوق بعض وإن الله وضع الجنان على العرض ووضع النيران بعضها فوق بعض. قال ابن جريج: النار سبع دركات أولها جهنم ثم لظى ثم الحطمة ثم السعير ثم سقرثم الجحيم ثم الهاوية.

﴿ لكل باب منهم جزءٌ مقسوم ﴾، أي: لكلِّ دركة قوم يسكنونها. وقال الضحاك: في الدركة الأولى أهل التوحيد الذين أدخلوا النار يعذبون بقدر ذنوبهم ثم يخرجون، وفي الثانية النصارى، وفي الثالثة اليهود، وفي الرابعة الصابئون، وفي الخامسة المجوس، وفي السادسة أهل الشرك، وفي السابعة المنافقون، فذلك قوله تعالى: ﴿ إنَّ المنافقين في الدرك الأسفل من النار ﴾ [النساء: ١٤٥] ورُوِيَ عن ابن عمر عن النبي ﷺ: «إن لجهنّم سبعة أبواب باب منها لمَن سلّ السيف على أمتي أو قال على أمة محمد».

قوله تعالى: ﴿ إنّ المتقين في جنات وعيون ﴾، أي: في بساتين وأنهار.

﴿ ادخلوها ﴾ أي: يقال لهم ادخلوا الجنة، ﴿ بسلام ﴾، أي: بسلامة ﴿ آمنين ﴾، من الموت والخروج والآفات.

مع السلامة والأمن من الموت ومن جميع الآفات ﴿ونزعنا ما في صدورهم من غل﴾ الغل الحقد الكامن في القلب. ويطلق على الشحناء والعداوة والبغضاء والحقد والحسد، وكل هذه الخصال المذمومة داخلة في الغل لأنها كامنة في القلب يروى أن المؤمنين يحبسون على باب الجنة فيقتص بعضهم من بعض ثم يؤمر بهم إلى الجنة، وقد نقيت قلوبهم من الغل والغش والحقد والحسد ﴿إخواناً﴾ يعني في المحبة والمودة والمخالطة، وليس المراد منه إخوة النسب ﴿على سرر﴾ جمع سرير. قال بعض أهل المعاني: السرير مجلس رفيع عال مهيأ للسرور وهو مأخوذ منه لأنه مجلس سرور. وقال ابن عباس: على سرر من ذهب مكللة بالزبرجد والدر والياقوت والسرير مثل صنعاء إلى الجابية ﴿متقابلين﴾ يعني يقابل بعضهم بعضاً لا ينظر أحد منهم في قفا صاحبه، وفي بعض الأخبار أن المؤمن في الجنة إذا أراد أن يلقى أخاه المؤمن سار سرير كل واحد منهما إلى صاحبه فيلتقيان ويتحدثان ﴿لا يمسهم فيها﴾ يعني في الجنة ﴿نصب﴾ أي تعب ولا إعياء ﴿وما هم منها﴾ يعني من الجنة ﴿بمخرجين﴾ هذا نص من الله في كتابه على خلود أهل الجنة في الجنة، والمراد منه خلود بلا زوال وبقاء بلا فناء، وكمال بلا نقصان وفوز بلا حرمان. قوله سبحانه وتعالى ﴿نبىء عبادي أني أنا الغفور الرحيم﴾ قال ابن عباس: يعني لمن تاب منهم وروي أن النبي ﷺ خرج على أصحابه وهم يضحكون فقال: «أتضحكون وبين أيديكم النار فنزل جبريل بهذه الآية وقال: يقول لك ربك يا محمد مم تقنط عبادي» ذكره البغوي بغير سند ﴿وأن عذابي هو العذاب الأليم﴾ قال قتادة بلغنا أن النبي ﷺ قال «لو يعلم العبد قدر عفو الله لما تورع عن حرام ولو يعلم العبد قدر عذابه لبخع نفسه» يعني لقتل نفسه (خ) عن أبي هريرة قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله سبحانه وتعالى خلق الرحمة يوم خلقها مائة رحمة فأمسك عنده تسعاً وتسعين رحمة، وأدخل في خلقه كلهم رحمة واحدة، فلو يعلم الكافر بكل الذي عند الله من الرحمة لم ييأس من الجنة، ولو يعلم المؤمن بكل

﴿ ونزعنا ﴾، أخرجنا، ﴿ ما في صدورهم من غل ﴾، هو الشحناء والعداوة والحقد والحسد، ﴿ إخواناً ﴾، نصب على الحال، ﴿ على سرر ﴾ جمع سرير ﴿ متقابلين ﴾، يقابل بعضهم بعضاً لا ينظر أحد منهم إلى قفا صاحبه. وفي بعض الأخبار: إن المؤمن في الجنة إذا وَدّ أن يلقى أخاه المؤمن سار سرير كل واحد منهما إلى صاحبه فيلتقيان ويتحدثان.

﴿ لا يَمسُّهم ﴾، لا يصيبهم، ﴿ فيها نَصَبٌ ﴾، أي: تعب، ﴿وما هم منها بمخرجين﴾، هذه أنصّ آية في القرآن على الخلود.

قوله تعالى: ﴿ نبّىء عبادي أني أنا الغفور الرحيم ﴾، قال ابن عباس: يعني لِمَن تاب منهم. ورُوِيَ أن النبي ﷺ خرج يوماً على نفر من أصحابه وهم يضحكون، فقال: «أتضحكون وبين أيديكم النار»، فنزل جبريل بهذه الآية وقال: «يقول لك ربك يا محمد لِمَ تقنط عبادي من رحمتي».

﴿ وأنّ عذابي هو العذاب الأليم ﴾ قال قتادة: بلغنا أن نبيّ الله ﷺ قال: «لو يعلم العبد قدر عفو الله لما تورّع عن حرام، ولو يعلم قدر عذابه لبخع نفسه». أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا قتيبة بن سعيد ثنا يعقوب بن عبد الرحمن عن عمرو بن أبي عمرو عن سعيد بن أبي سعيد بن أبي المقبري عن أبي هريرة قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «إن الله خلق الرحمة يوم خلقها مائة رحمة فأمسك عنده تسعاً وتسعين رحمة وأرسل في خلقه كلهم رحمة واحدة، فلو يعلم الكافر بكل الذي عند الله من الرحمة لم ييأس من الجنة، ولو يعلم المؤمن بكل الذي عند الله من العذاب لم يأمن من النار».

قوله تعالى: ﴿ ونبئهم عن ضيف إبراهيم ﴾ أي: عن الضيافة، والضيف اسم يقع على الواحد والاثنين

الذي عند الله من العذاب لم يأمن من النار» وفي الآية لطائف منها أنه سبحانه وتعالى أضاف العباد إلى نفسه بقوله نبىء عبادي وهذا تشريف وتعظيم لهم، ألا ترى أنه لما أراد أن يشرف محمداً ﷺ ليلة المعراج لم يزد على قوله «سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً» فكل من اعترف على نفسه بالعبودية لله تعالى فهو داخل في هذا التشريف العظيم، ومنها أنه سبحانه وتعالى لما ذكر الرحمة والمغفرة بالغ في التأكيد بألفاظ ثلاثة أولها قوله: أني وثانيها أنا وثالثها إدخال الألف واللام في الغفور الرحيم، وهذا يدل على تغليب جانب الرحمة والمغفرة. ولما ذكر العذاب لم يقل إني أنا المعذب، وما وصف نفسه بذلك. بل قال: وأن عذابي هو العذاب الأليم على سبيل الإخبار، ومنها أنه سبحانه وتعالى أمر رسوله ﷺ أن يبلغ عباده هذا المعنى فكأنه أشهد رسوله على نفسه في التزام المغفرة والرحمة. قوله سبحانه وتعالى: ﴿ونبئهم عن ضيف إبراهيم﴾ هذا معطوف على ما قبله أي وأخبر يا محمد عبادي عن ضيف إبراهيم. وأصل الضيف الميل يقال ضفت إلى كذا إذا ملت إليه والضيف من مال إليك نزولاً بك وصارت الضيافة متعارفة في القرى وأصل الضيف مصدر، ولذلك استوى فيه الواحد والجمع في عامة كلامهم، وقد يجمع فيقال أضياف وضيوف وضيفان وضيف إبراهيم هم الملائكة الذين أرسلهم الله سبحانه وتعالى، ليبشروا إبراهيم بالولد ويهلكوا قوم لوط ﴿إذ دخلوا عليه﴾ يعني إذ دخل الأضياف على إبراهيم عليه السلام ﴿فقالوا سلاماً﴾ أي نسلم سلاماً ﴿قال﴾ يعني إبراهيم ﴿إنا منكم وجلون﴾ أي خائفون وإنما خاف إبراهيم منهم لأنهم لم يأكلوا طعامه ﴿قالوا لا توجل﴾ يعني لا تخف ﴿إنا نبشرك بغلام عليم﴾ يعني أنهم بشروه بولد ذكر غلام في صغره عليم في كبره، وقيل عليم بالأحكام والشرائع والمراد به إسحاق عليه السلام فلما بشروه بالولد عجب إبراهيم من كبره وكبر امرأته ﴿قال أبشرتموني﴾ يعني بالولد ﴿على أن مسني الكبر﴾ يعني على حالة الكبر، قاله على طريق التعجب ﴿فبم تبشرون﴾ يعني فبأي شيء تبشرون، وهو استفهام بمعنى التعجب كأنه عجب من حصول الولد على الكبر ﴿قالوا بشرناك بالحق﴾ يعني بالصدق الذي قضاه الله بأن يخرج منك ولداً ذكراً، تكثر ذريته وهو إسحاق ﴿فلا تكن من القانطين﴾ يعني فلا تكن من الآيسين من الخير. والقنوط: هو الإياس من الخير ﴿قال﴾ يعني إبراهيم ﴿ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون﴾ يعني من ييأس من رحمة ربه إلا المكذبون، وفيه دليل على أن إبراهيم عليه السلام لم يكن من القانطين، ولكنه استبعد حصول الولد على الكبر فظنت

والجمع والمذكر والمؤنث، وهم الملائكة الذين أرسلهم الله تعالى ليبشّروا إبراهيم بالولد ويهلكوا قوم لوط.

﴿ إِذْ دخلوا عليه فقالوا سلاماً قال ﴾، إبراهيم، ﴿ إنّا منكم وجلون ﴾، خائفون لأنهم لم يأكلوا طعامه.

﴿ قالوا لا تَوْجَلْ ﴾ لا تخف، ﴿ إنّا نبشّرك ﴾، قرأ حمزة وحده ﴿ نَبْشرك ﴾ بفتح النون وإسكان الباء وضم الشين وتخفيفها وقرأ الباقون «نبشـرك» بضم النون وفتح الباء وكسر الشين وتشديدها، ﴿ بغلام عليم ﴾، أي: غلام في صغره عليم في كبـره يعني إسحاق، فتعجب إبراهيم عليه السلام من كبره وكبر امرأته.

﴿ قال أبشرتموني ﴾ أي: بالوَلد ﴿ على أن مسّني الكبر ﴾، أي: على حال الكبر قاله على طريق التعجب، ﴿ فبِمَ تبشرون ﴾، فبأي شيء تبشرون، قرأ نافع بكسر النون وتخفيفها أي: تبشّرون، وقرأ ابن كثير بكسرها وبتشديد النون أي تبشّرونني أدغمت نون الجمع في نون الإضافة، وقرأ الآخرون بفتح النون وتخفيفها.

﴿ قالوا بشّرناك بالحق ﴾ أي بالصدق، ﴿ فلا تكن من القانطين ﴾.

﴿ قال ومَن يقنط ﴾، قرأ أبو عمرو والكسائي ويعقوب بكسر النون والآخرون بفتحها وهما لغتان قنط يقنط وقنط يقنط أي: مَن ييأس، ﴿ من رحمة ربّه إلاّ الضالّون ﴾، أي: الخاسرون، والقنوط من رحمة الله كبيرة كالأمن من مكره.

الملائكة أن به قنوطاً فنفى ذلك عن نفسه، وأخبر أن القانط من رحمة الله تعالى من الضالين لأن القنوط من رحمة الله كبيرة، كالأمن من مكر الله ولا يحصل إلا عند من يجهل كون الله تعالى قادراً على ما يريد، ومن يجهل كونه سبحانه وتعالى عالماً بجميع المعلومات فكل هذه الأمور سبب للضلالة ﴿قال﴾ يعني إبراهيم ﴿فما خطبكم﴾ يعني فما شأنكم وما الأمر الذي جئتم فيه ﴿أيها المرسلون﴾ والمعنى ما الأمر الذي جئتم به سوى ما بشرتموني به من الولد ﴿قالوا﴾ يعني الملائكة ﴿إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين﴾ يعني لهلاك قوم مجرمين ﴿إلا آل لوط﴾ يعني أشياعه وأتباعه من أهل دينه ﴿إنا لمنجوهم أجمعين إلا امرأته﴾ يعني امرأة ﴿لوط (قدرنا﴾ يعني قضينا وإنما أسند الملائكة القدر إلى أنفسهم وإن كان ذلك لله عز وجل، لاختصاصهم بالله وقربهم منه كما تقول خاصة الملك نحن أمرنا، ونحن فعلنا وإن كان قد فعلوه بأمر الملك ﴿إنها لمن الغابرين﴾ يعني لمن الباقين في العذاب والاستثناء من النفي إثبات، ومن الإثبات نفي فاستثناء امرأة لوط من الناجين يلحقها بالهالكين.

فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُوا۟ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٦٤﴾ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾ وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾

﴿فلما جاء آل لوط المرسلون﴾ وذلك أن الملائكة عليهم السلام لما بشروا إبراهيم بالولد، وعرفوه بما أرسلوا به ساروا إلى لوط وقومه فلما دخلوا على لوط ﴿قال إنكم قوم منكرون﴾ وإنما قال هذه المقالة لوط لأنهم دخلوا عليه وهم في زي شبان مردان حسان الوجوه، فخاف أن يهجم عليهم قومه فلهذا السبب قال هذه المقالة. وقيل: إن النكرة ضد المعرفة فقوله: إنكم قوم منكرون يعني لا أعرفكم ولا أعرف من أي الأقوام أنتم، ولا لأي غرض دخلتم فعند ذلك ﴿قالوا﴾ يعني الملائكة ﴿بل جئناك بما كانوا فيه يمترون﴾ يعني جئناك بالعذاب الذي كانوا يشكون فيه ﴿وأتيناك

﴿ قال ﴾ إبراهيم لهم، ﴿ فما خطبكم ﴾، ما شأنكم، ﴿ أيها المرسلون ﴾.

﴿ قالوا إنّا أرسلنا إلى قوم مجرمين ﴾، مشركين.

﴿ إلاّ آل لوط ﴾، أتباعه وأهل دينه، ﴿ إنّا لمنجوهم أجمعين ﴾، خفّف الجيم حمزة والكسائي وشدّده الباقون.

﴿ إلاّ امرأته ﴾، أي: امرأة لوط، ﴿ قدّرنا ﴾، قضينا، ﴿ إنّها لمن الغَابِرين ﴾، الباقين في العذاب، والاستثناء من النفي إثبات، ومن الإثبات نفي، فاستثنى امرأة لوط من الناجين فكانت ملحقة بالهالكين، قرأ أبو بكر ﴿ قدَرنا ﴾ ههنا وفي سورة النمل [٥٧] بتخفيف الدال. والباقون بتشديدها.

﴿ فلما جاء آل لوطٍ المرسلون ﴾.

﴿ قال ﴾، لوط لهم، ﴿ إنكم قوم منكرون ﴾ أي: أنا لا أعرفكم.

﴿ قالوا بل جئناك بما كانوا فيه يمترون ﴾، أي: يشكّون في أنه نازل بهم وهو العذاب لأنه كان يوعدهم بالعذاب ولا يصدقونه.

بالحق﴾ يعني باليقين الذي لا شك فيه **﴿وإنّا لَصادقون﴾** يعني فيما أخبرناك به من إهلاكهم **﴿فأسر بأهلك﴾** بقطع من الليل يعني آخر الليل، والقطع القطعة من الشيء وبعضه **﴿واتبع أدبارهم﴾** يعني واتبع آثار أهلك وسر خلفهم **﴿ولا يلتفت منكم أحد﴾** يعني حتى لا يرى ما نزل بقومه من العذاب فيرتاع بذلك، وقيل: المراد الإسراع في السير وترك الالتفات إلى ورائه، والاهتمام بما خلفه كما تقول امض لشأنك ولا تعرج على شيء وقيل جعل ترك الالتفات علامة لمن ينجو من آل لوط، ولئلا يتخلف أحد منهم فيناله العذاب **﴿وامضوا حيث تؤمرون﴾** قال ابن عباس: يعني إلى الشام وقيل: الأردن، وقيل إلى حيث يأمركم جبريل وذلك أن جبريل أمرهم أن يسيروا إلى قرية معينة، ما عمل أهلها عمل قوم لوط **﴿وقضينا إليه ذلك الأمر﴾** يعني وأوحينا إلى لوط ذلك الأمر الذي حكمنا به على قومه، وفرغنا منه ثم إنه سبحانه وتعالى فسر ذلك الأمر الذي قضاه بقوله **﴿أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين﴾** يعني أن هؤلاء القوم يستأصلون عن آخرهم بالعذاب وقت الصبح وإنما أبهم الأمر الذي قضاه عليهم أولاً، وفسر ثانياً تفخيماً له وتعظيماً لشأنه **﴿وجاء أهل المدينة﴾** يعني مدينة سدوم وهي مدينة قوم لوط **﴿يستبشرون﴾** يعني يبشر بعضهم بعضاً بأضياف لوط والاستبشار: إظهار الفرح والسرور، وذلك أن الملائكة لما نزلوا على لوط ظهر أمرهم في المدينة، وقيل إن امرأته أخبرتهم بذلك، وكانوا شباناً مرداً في غاية الحسن ونهاية الجمال فجاء قوم لوط إلى داره طمعاً منهم في ركوب الفاحشة **﴿قال﴾** يعني قال لوط لقومه **﴿إن هؤلاء ضيفي﴾** وحق على الرجل إكرام ضيفه **﴿فلا تفضحون﴾** يعني فيهم يقال فضحه يفضحه إذا أظهر من أمره ما يلزمه العار بسببه **﴿واتقوا الله﴾** يعني خافوا الله في أمرهم **﴿ولا تخزون﴾** يعني ولا تخجلون **﴿قالوا﴾** يعني: قوم لوط الذين جاؤوا إليه **﴿أولم ننهك عن العالمين﴾** يعني أو لم ننهك عن أن تضيف أحداً من العالمين. وقيل: معناه أو لم ننهك أن تدخل الغرباء إلى بيتك، فانا نريد أن نركب منهم الفاحشة: وقيل: معناه ألسنا قد نهيناك أن تكلمنا في أحد من العالمين إذا قصدناه بالفاحشة.

قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٧١﴾ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾

﴿ وآتيناك بالحق ﴾، باليقين. وقيل: بالعذاب. **﴿ وإنّا لصادقون ﴾**.

﴿ فأسرِ بأهلك بقطع منَ الليل واتّبعْ أدبارهم ﴾ أي: خلفهم، **﴿ ولا يلتفتْ منكم أحد ﴾**، حتى لا يرتاعوا من العذاب إذا نزل بقومهم. وقيل: جعل الله ذلك علامة لمَن ينجو من آل لوط، **﴿ وامضوا حيث تُؤمرون ﴾**، قال ابن عباس: يعني الشام. وقال مقاتل: يعني زغر. وقيل: الأردن.

﴿ وقضينا إليه ذلك الأمر ﴾، أي وقضينا إلى آل لوط ذلك الأمر أي أحكمنا الأمر الذي أمرنا في قوم لوط، وأخبرناه **﴿ أنّ دابر هؤلاء ﴾**، يدلّ عليه قراءة عبد الله وقلنا له إن دابر هؤلاء يعني أصلهم، **﴿ مقطوع ﴾**، مستأصل، **﴿ مصبحين ﴾**، إذا دخلوا في الصبح.

﴿ وجاء أهل المدينة ﴾، يعني سدوم، **﴿ يستبشِرُون ﴾**، بأضياف لوط أي: يبشّر بعضهم بعضاً طمعاً في ركوب الفاحشة منهم.

﴿ قال ﴾، لوط لقومه، **﴿ إن هؤلاء ضيفي ﴾**، وحق على الرجل إكرام ضيفه، **﴿ فلا تفضحون ﴾**، فيهم.

﴿ واتقوا الله ولا تُخزون ﴾، ولا تخجلون.

﴿ قالوا أو لم ننْهَكَ عن العالمين ﴾، أي: ألم ننهك عن أن تضيف أحداً من العالمين. وقيل: ألم ننهك أن تُدخل الغرباء المدينة فإنّا نركب منهم الفاحشة.

فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ
مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ
مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾

﴿قال﴾ يعني قال لوط لقومه الذين قصدوا أضيافه ﴿هؤلاء بناتي﴾ أزوجكم إياهن إن أسلمتم فأتوا الحلال ودعوا الحرام وقيل: أراد بالبنات نساء قومه لأن النبي كالوالد لأمته ﴿إن كنتم فاعلين﴾ يعني ما آمركم به ﴿لعمرك﴾ الخطاب فيه للنبي ﷺ قال ابن عباس: معناه وحياتك يا محمد وقال ما خلق الله نفساً أكرم عليه من محمد ﷺ وما أقسم بحياة أحد إلا بحياته والعمر واحد وهو اسم لمدة عمارة بدن الإنسان بالحياة والروح وبقائه مدة حياته. قال النحويون: ارتفع لعمرك بالابتداء والخبر محذوف والمعنى لعمرك قسمي فحذف الخبر لأن في الكلام دلالة عليه. ﴿إنهم لفي سكرتهم﴾ يعني في حيرتهم وضلالتهم وقيل غفلتهم ﴿يعمهون﴾ يعني يترددون متحيرين وقال قتادة: يلعبون ﴿فأخذتهم الصيحة مشرقين﴾ يعني حين أضاءت الشمس فكان ابتداء العذاب الذي نزل بهم وقت الصبح وتمامه وانتهاؤه حين أشرقت الشمس ﴿فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل﴾ تقدم تفسيره في سورة هود ﴿إن في ذلك﴾ يعني الذي نزل بهم من العذاب ﴿لآيات للمتوسمين﴾ قال ابن عباس: للناظرين. وقال قتادة: للمعتبرين. وقال مقاتل: للمتفكرين. وقال مجاهد: للمتفرسين ويعضد هذا التأويل ما روي عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال «اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله ثم قرأ إن في ذلك لآيات للمتوسمين» أخرجه الترمذي وقال حديث غريب. الفراسة بالكسر اسم من قولك تفرست في فلان الخير. وهي على نوعين: أحدهما ما دل عليه ظاهر الحديث، وهو ما يوقعه الله في قلوب أوليائه فيعلمون بذلك أحوال الناس بنوع من الكرامات، وإصابة الحدس والنظر والظن والتثبت، والنوع الثاني ما يحصل بدلائل التجارب والخلق والأخلاق تعرف بذلك أحوال الناس أيضاً وللناس في علم الفراسة تصانيف قديمة وحديثة. قال الزجاج: حقيقة المتوسمين في اللغة المتثبتين في نظرهم حتى يعرفوا سمة الشيء وصفته وعلامته فالمتوسم الناظر في سمة الدلائل، تقول توسمت في فلان كذا أي عرفت وسم ذلك وسمته ﴿وإنها﴾ يعني قرى قوم لوط ﴿لبسبيل مقيم﴾ يعني بطريق واضح. قال مجاهد: بطريق معلم ليس بخفي ولا زائل والمعنى: أن آثار ما أنزل الله بهذه القرى من عذابه وغضبه لبسبيل مقيم ثابت لم يدثر

﴿ قال هؤلاء بناتي ﴾ أزوّجهنّ إياكم إن أسلمتم فأتوا الحلال ودعوا الحرام، ﴿ إن كنتم فاعلين ﴾، ما آمركم به. وقيل: أراد بالبنات نساء قومه لأن النبي كالوالد لأمته.

قال الله تعالى: ﴿ لَعَمْرُكَ ﴾، يا محمد أي وحياتك، ﴿ إنهم لفي سكرتهم ﴾، حيرتهم وضلالتهم، ﴿ يعمهون ﴾، يترددون، قال قتادة: يلعبون. رُوِيَ عن أبي الجوزاء عن ابن عباس أنه قال: ما خلق الله نفساً أكرم عليه من محمد ﷺ وما أقسم الله تعالى بحياة أحد إلّا بحياته.

﴿ فأخذتهم الصيحة مشرقين ﴾، أي: حين أضاءت الشمس فكان ابتداء العذاب حين أصبحوا وتمامه حين أشرقوا.

﴿ فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجّيل ﴾.

﴿ إنّ في ذلك لآيات للمتوسمين ﴾، قال ابن عباس: للناظرين. وقال مجاهد: للمتفرسين. وقال قتادة للمعتبرين. وقال مقاتل: للمتفكّرين.

ولم يخف، والذين يمرون عليها من الحجاز إلى الشام يشاهدون ذلك ويرون أثره ﴿إن في ذلك﴾ يعني الذي ذكر من عذاب قوم لوط، وما أنزل بهم ﴿لآية للمؤمنين﴾ يعني المصدقين لما أنزله على رسوله ﷺ ﴿وإن كان أصحاب الأيكة لظالمين﴾ يعني كان أصحاب الأيكة وهي الغيضة، واللام في قوله لظالمين للتأكيد وهم قوم شعيب عليه السلام كانوا أصحاب غياض، وشجر ملتف وكان عامة شجرهم المقل وكانوا قوماً كافرين فبعث الله عز وجل إليهم شعيباً رسولاً فكذبوه فأهلكهم الله فهو قوله تعالى ﴿فانتقمنا منهم﴾ يعني بالعذاب، وذلك أن الله سبحانه وتعالى سلط عليهم الحر سبعة أيام حتى أخذ بأنفاسهم وقربوا من الهلاك فبعث الله سبحانه وتعالى سحابة كالظلة فالتجؤوا إليها، واجتمعوا تحتها يلتمسون الروح فبعث الله عليهم ناراً فأحرقتهم جميعاً ﴿وإنهما﴾ يعني مدينة قوم لوط ومدينة أصحاب الأيكة ﴿لبإمام مبين﴾ يعني طريق واضح مستبين لمن مر بهما، وقيل: الضمير راجع إلى الأيكة ومدين لأن شعيباً كان مبعوثاً إليهما وإنما سمي الطريق إماماً لأنه يؤم ويتبع، ولأن المسافر يأتم به حتى يصير إلى الموضع الذي يريده. قوله عز وجل ﴿ولقد كذب أصحاب الحجر المرسلين﴾ قال المفسرون: الحجر اسم واد كان يسكنه ثمود وهو معروف بين المدينة النبوية والشام وآثاره موجودة باقية يمر عليها ركب الشام إلى الحجاز، وأهل الحجاز إلى الشام وأراد بالمرسلين صالحاً وحده، وإنما ذكره بلفظ الجمع للتعظيم أو لأنهم كذبوه، وكذبوا من قبله من الرسل.

وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾

﴿وآتيناهم آياتنا﴾ يعني الناقة وولدها والآيات التي كانت في الناقة خروجها من الصخرة، وعظم جثتها وقرب ولادها وغزارة لبنها، وإنما أضاف الآيات إليهم وإن كانت لصالح، لأنه مرسل إليهم بهذه الآيات ﴿فكانوا عنها﴾ يعني

﴿ وإنها ﴾ يعني قرى قوم لوط، ﴿ لَبِسَبِيلٍ مُقيم ﴾، أي: بطريق واضح، وقال مجاهد: بطريق معلم ليس بخفي ولا زائل.

﴿ إن في ذلك لآية للمؤمنين ﴾.

﴿ وإن كان ﴾، وقد كان ﴿ أصحاب الأيكة ﴾، الغيضة، ﴿ لظالمين ﴾، لكافرين واللام للتأكيد وهم قوم شعيب عليه السلام كانوا أصحاب غياض وشجر ملتف، وكانت عامّة شجرهم الدوم وهو المقل.

﴿ فانتقمنا منهم ﴾، بالعذاب وذلك أن الله سلط عليهم الحرّ سبعة أيام ثم بعث سحابة فالتجؤوا إليها يلتمسون الروح، فبعث عليهم منها ناراً فأحرقتهم، فذلك قوله تعالى: ﴿ فأخذهم عذاب يوم الظلة ﴾ [الشعراء: ١٨٩] ﴿ وإنهما ﴾ يعني مدينتي قوم لوط وأصحاب الأيكة ﴿ لبإمامٍ مبين ﴾، لبطريق واضح مستبين.

قوله تعالى: ﴿ ولقد كذب أصحاب الحِجْر ﴾، وهي مدينة ثمود قوم صالح وهي بين المدينة والشام، ﴿ المرسلين ﴾، أراد صالحاً وحده، وإنما ذكر بلفظ الجمع لأن مَن كذّب رسولاً فقد كذّب الرسل كلّهم.

﴿ وآتيناهم آياتنا ﴾، يعني: الناقة وولدها والبئر والآية في الناقة خروجها من الصخرة وكبرها وقرب ولادها

عن الآيات ﴿معرضين﴾ يعني تاركين لها غير ملتفتين إليها ﴿وكانوا ينحتون من الجبال بيوتاً آمنين﴾ خوفاً من الخراب أو أن يقع عليهم الجبل أو السقف ﴿فأخذتهم الصيحة﴾ يعني العذاب ﴿مصبحين﴾ يعني وقت الصبح ﴿فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون﴾ يعني من الشرك والأعمال الخبيثة (ق) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: لما مر رسول الله ﷺ بالحجر قال: «لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم أن يصيبكم ما أصابهم، إلا أن تكونوا باكين ثم قنع رأسه وأسرع السير حتى جاوز الوادي» قوله سبحانه وتعالى ﴿وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق﴾ يعني لإظهار الحق والعذاب، وهو أن يثاب المؤمن المصدق ويعاقب الجاحد الكافر الكاذب ﴿وإن الساعة لآتية﴾ يعني: وإن القيامة لتأتي ليجازى المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته ﴿فاصفح الصفح الجميل﴾ الخطاب للنبي ﷺ أي فأعرض عنهم يا محمد واعفُ عنهم عفواً حسناً. واحتمل ما تلقى من أذى قومك وهذا الصفح والإعراض منسوخ بآية القتال، وقيل فيه بُعد لأن الله سبحانه وتعالى أمر نبيه ﷺ، أن يظهر الخلق الحسن وأن يعاملهم بالعفو والصفح الخالي من الجزع والخوف ﴿إن ربك هو الخلاق العليم﴾ يعني أنه سبحانه وتعالى خلق خلقه، وعلم ما هم فاعلوه وما يصلحهم. قوله عز وجل ﴿ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم﴾ قال ابن الجوزي: سبب نزولها أن سبع قوافل وافت من بصرى وأذرعات ليهود قريظة والنضير في يوم واحد، فيها أنواع من البز والطيب والجواهر، فقال المسلمون: لو كانت هذه الأموال لنا لتقوينا بها وأنفقناها في سبيل الله فأنزل الله هذه الآية. وقال: قد أعطيتكم سبع آيات هي خير من هذه السبع القوافل ويدل على صحة هذا قوله ﴿لا تمدّن عينيك﴾ الآية قال الحسن بن الفضل قلت وهذا القول ضعيف، أو لا يصح لأن هذه السورة مكية، بإجماع أهل التفسير وليس فيها من المدني شيء. ويهود قريظة والنضير، كانوا بالمدينة وكيف يصح أن يقال إن سبع قوافل جاءت في يوم واحد، فيها أموال عظيمة حتى تمناها المسلمون فأنزل الله هذه الآية، وأخبرهم أن هذه السبع آيات هي خير من هذه السبع القوافل والله أعلم، وفي المراد بالسبع المثاني أقوال أحدها أنها فاتحة الكتاب، وهذا قول عمر وعلي وابن مسعود وفي رواية عنه وابن عباس، وفي

وغزارة لبنها، ﴿ فكانوا عنها مُعرِضين ﴾.

﴿ وكانوا ينحتون من الجبال بيوتاً آمنين ﴾، من الخراب ووقوع الجبل عليهم.

﴿ فأخذتهم الصيحة ﴾، يعني: صيحة العذاب، ﴿ مصبحين ﴾، أي: داخلين في وقت الصبح.

﴿ فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون ﴾، من الشرك والأعمال الخبيثة. أخبرنا أبو بكر محمد بن عبد الله بن أبي توبة أنبأنا محمد بن أحمد بن الحارث أنا محمد بن يعقوب الكسائي ثنا عبد الله بن محمود أنبأنا إبراهيم بن عبد الله الخلال ثنا عبد الله بن المبارك عن معمر عن الزهري أنا سالم بن عبد الله عن أبيه عن النبي ﷺ أنه لمّا مرّ بالحجر قال: «لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلاّ أن تكونوا باكين أن يصيبكم مثل ما أصابهم»، قال: وتقنع بردائه وهو على الرّحل. وقال عبد الرزاق عن معمر: «ثم قنع رأسه وأسرع السير حتى اجتاز الوادي».

قوله تعالى: ﴿ وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلاّ بالحق وإن الساعة ﴾، يعني: القيامة ﴿ لآتية ﴾، يجازي المحسن بإحسانه والمُسيء بإساءته، ﴿ فاصفحِ الصفحَ الجميل ﴾، فأعرضْ عنهم واعفُ عفواً حسناً نسختها آية القتال.

﴿ إنّ ربَّك هو الخلاّق العليم ﴾ بخلقه.

قوله تعالى: ﴿ ولقد آتيناك سبعاً من المثاني ﴾، قال عمر وعلي: فاتحة الكتاب. وهو قول قتادة وعطاء

رواية الأكثرين عنه وأبي هريرة والحسن، وسعيد بن جبير وفي رواية عنه ومجاهد وعطاء وقتادة في آخرين. ويدل على صحة هذا التأويل ما روي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «الحمد لله رب العالمين أم القرآن وأم الكتاب، والسبع المثاني» أخرجه أبو داود والترمذي (ق) عن أبي سعيد ابن المعلى قال: قال رسول الله ﷺ «الحمد لله رب العالمين هي السبع المثاني، والقرآن العظيم الذي أوتيته» أخرجه البخاري. وفيه زيادة أما السبب في تسمية فاتحة الكتاب بالسبع المثاني، فلأنها سبع آيات بإجماع أهل العلم واختلفوا في سبب تسميتها بالمثاني. فقال ابن عباس والحسن وقتادة: لأنها تثنى في الصلاة تقرأ في كل ركعة. وقيل: لأنها مقسومة بين العبد وبين الله نصفين: فنصفها الأول ثناء على الله. ونصفها الثاني: دعاء ويدل على صحة هذا التأويل ما روي عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال «يقول الله تبارك وتعالى قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين» الحديث مذكور في فضل الفاتحة. وقيل سميت مثاني لأن كلماتها مثناة مثل قوله: ﴿الرحمن الرحيم إياك نعبد وإياك نستعين اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين﴾ فكل هذه ألفاظ مثناة. وقال الحسن بن الفضل: لأنها نزلت مرتين مرة بمكة ومرة بالمدينة ومعها سبعون ألف ملك. وقال مجاهد: لأن الله سبحانه وتعالى استثناها وادخرها لهذه الأمة فلم يعطها لغيرهم. وقال أبو زيد البلخي: لأنها تثني أهل الشرك عن الشر من قول العرب ثنيت عناني. وقال ابن الزجاج: سميت فاتحة الكتاب مثاني لاشتمالها على الثناء على الله تعالى وهو حمد الله وتوحيده، وملكه وإذا ثبت كون الفاتحة هي السبع المثاني دل ذلك على فضلها وشرفها وأنها من أفضل سور القرآن، لأن إفرادها بالذكر في قوله تعالى **﴿ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم﴾** مع أنها جزء من أجزاء القرآن وإحدى سوره لا بد. وأن يكون لاختصاصها بالشرف، والفضيلة. القول الثاني في تفسير قوله سبعاً من المثاني أنها السبع الطوال، وهذا قول ابن عمر وابن مسعود في رواية عنه وابن عباس وفي رواية عنه وسعيد بن جبير وفي رواية عنه السبع الطوال هي سورة البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنعام والأعراف. واختلفوا في السابعة فقيل الأنفال مع براءة لأنهما كالسورة الواحدة، ولهذا لم يكتبوا بينهما سطر بسم الله

والحسن وسعيد بن جبير. أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا آدم ثنا ابن أبي زيد ثنا سعيد المقبري عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أم القرآن هي السبع المثاني». **﴿ والقرآن العظيم ﴾**، وعن ابن مسعود قال: السبع المثاني هي فاتحة الكتاب والقرآن العظيم سائر القرآن، واختلفوا في أن الفاتحة لِمَ سمِّيت مثاني، فقال ابن عباس والحسن وقتادة: لأنها تُثنَى في الصلاة فتقرأ في كل ركعة. وقيل: لأنها مقسومة بين الله وبين العبد بنصفين نصفها ثناء ونصفها دعاء، كما روينا عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: يقول الله: «قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين»، وقال الحسين بن الفضل: سُمِّيت مثاني لأنها نزلت مرتين مرة بمكة ومرة بالمدينة كل مرة معها سبعون ألف ملك. وقال مجاهد سُمِّيت مثاني لأن الله تعالى استثناها وادّخرها لهذه الأمة فما أعطاها غيرهم. وقال أبو زيد البلخي: سُمِّيت مثاني لأنها تُثْنِي أهل الشر عن الفسق من قول العرب ثنيت عناني. وقيل: لأن أولها ثناء. وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس: أن السبع المثاني هي السبع الطوال أولها سورة البقرة وآخرها الأنفال مع التوبة. وقال بعضهم: سورة يونس بدل الأنفال. أخبرنا أبو سعيد أحمد بن إبراهيم الشريحي أنا أبو إسحاق الثعلبي ثنا أبو محمد الحسن بن أحمد المخلدي أنا أبو بكر محمد بن حمدون بن خالد وعبد الله بن محمد بن مسلم قال: أنبأنا هلال بن العلاء ثنا حجاج بن محمد عن أيوب بن عيبة عن يحيىٰ بن كثير عن شداد بن عبد الله عن أبي أسماء الرخبي عن ثوبان أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله تعالى أعطاني السبع الطوال مكان التوراة، وأعطاني المِئِين مكان الإنجيل وأعطاني مكان الزبور المثاني، وفضّلني ربّي بالمفصل»، وعن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: أُوتي النبي ﷺ السبع الطوال، وأُعطي موسى ستاً فلما ألقى

الرحمن الرحيم. وقيل السابعة هي سورة يونس ويدل على صحة هذا القول ما روي عن ثوبان أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله سبحانه وتعالى أعطاني السبع الطوال مكان التوراة وأعطاني المثين مكان الإنجيل وأعطاني مكان الزبور المثاني، وفضلني ربي بالمفصل» أخرجه البغوي بإسناد الثعلبي؛ قال ابن عباس: إنما سميت السبع الطوال مثاني لأن الفرائض والحدود، والأمثال والخبر والعبر ثنيت فيها، وأورد على هذا القول أن هذه السور الطوال غالبها مدنيات فكيف يمكن تفسير هذه الآية بها، وهي مكية وأجيب عن هذا الإيراد بأن الله سبحانه وتعالى، حكم في سابق علمه بإنزال هذه السورة على النبي ﷺ وإذا كان الأمر كذلك صح أن تفسر هذه الآية بهذه السورة، القول الثالث: أن السبع المثاني هي السور التي هي دون الطوال، وفوق المفصل وهي المئين، وحجة هذا القول الحديث المتقدم وأعطاني مكان الزبور المثاني، والقول الرابع: أن السبع المثاني هي القرآن كله وهذا قول طاوس وحجة هذا القول أن الله سبحانه وتعالى قال «الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني» وسمي القرآن كله مثاني لأن الأخبار والقصص والأمثال ثنيت فيه فإن قلت: كيف يصح عطف القرآن في قوله «والقرآن العظيم» على قوله «سبعاً من المثاني» وهل هو إلا عطف الشيء على نفسه؟ قلت: إذا عني بالسبع المثاني فاتحة الكتاب أو السبع الطوال فما وراءهن ينطلق عليه القرآن لأن القرآن اسم يقع على البعض كما يقع على الكل ألا ترى إلى قوله بما أوحينا إليك هذا القرآن يعني سورة يوسف عليه السلام. وإذا عنى بالسبع المثاني القرآن كله كان المعنى ولقد آتيناك سبعاً من المثاني، وهي القرآن العظيم وإنما سمي القرآن عظيماً، لأنه كلام الله ووحيه أنزله على خير خلقه محمد ﷺ. قوله ﴿**لا تمدن عينيك**﴾ الخطاب للنبي ﷺ أي لا تمدن عينيك يا محمد ﴿**إلى ما متعنا به أزواجاً**﴾ يعني أصنافاً ﴿**منهم**﴾ يعني من الكفار متمنياً لها نهى الله عز وجل رسوله ﷺ عن الرغبة في الدنيا، ومزاحمة أهله عليها والمعنى أنك قد أوتيت القرآن العظيم الذي فيه غنى عن كل شيء، فلا تشغل قلبك وسرك بالالتفات إلى الدنيا والرغبة فيها. روي أن سفيان بن عيينة تأول قول النبي ﷺ «ليس منا من لم يتغن بالقرآن» يعني من لم يستغن بالقرآن فتأول هذه الآية. قيل: إنما يكون ماداً عينيه إلى الشيء، إذا أدام النظر إليه مستحسناً له فيحصل من ذلك تمني ذلك الشيء المستحسن، فكان رسول الله ﷺ لا ينظر إلى شيء من متاع الدنيا ولا يلتفت إليه ولا يستحسنه ﴿**ولا تحزن عليهم**﴾ يعني ولا تغتم على ما فاتك من مشاركتهم في الدنيا وقيل ولا تحزن على إيمانهم إذا لم يؤمنوا ففيه النهي عن الالتفات إلى أموال الكفار، والالتفات إليهم أيضاً وروى البغوي

الألواح رفع ثنتان وبقي أربع. قال ابن عباس: وإنما سُمّيت السبع الطوال مثاني لأن الفرائض والحدود والأمثال والخير والشر والعبر والخبر ثنيت فيها. وقال طاوس: القرآن كله مثاني قال الله تعالى: ﴿ الله نزل أحسنَ الحديث كتاباً متشابهاً مثاني ﴾ [الزمر: ٢٣]. وسُمّي القرآن مثاني لأن الأنباء والقصص ثنيت فيه، وعلى هذا القول المراد بالسبع سبعة أسباع القرآن، فيكون تقديره على هذا وهي القرآن العظيم. وقيل: الواو مقحمة مجازه ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم.

قوله تعالى: ﴿ **لا تمدنّ عينيك** ﴾، يا محمد، ﴿ **إلى ما متّعنا به أزواجاً** ﴾، أصنافاً، ﴿ **منهم** ﴾ أي: من الكفّار متمنياً لها نهى الله تعالى ورسوله ﷺ عن الرغبة في الدنيا ومزاحمة أهلها عليها، ﴿ **ولا تحزن عليهم** ﴾، أي: لا تغتم على ما فاتك من مشاركتهم في الدنيا. أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا أبو جعفر أحمد بن محمد بن المقبري ثنا عيسى بن نصر أنبأنا عبد الله بن المبارك أنا جهم بن أوس قال: سمعت عبد الله بن أبي مريم ومرّ به عبد الله بن رستم في موكبه، فقال لابن أبي مريم: إني لأشتهي مجالستك وحديثك، فلما مضى قال ابن مريم: سمعت أبا هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ: «لا تغبطنّ فاجراً بنعمته فإنك لا تدري ما هو لاقٍ بعد موته إن له عند الله قاتلاً لا يموت» فبلغ ذلك وهب بن منبّه فأرسل إليه وهب أبا داود الأعور، فقال: يا أبا

بسنده عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «لا تغبطن فاجراً بنعمته فإنك لا تدري ما هو لاق بعد موته إن له عند الله قاتلاً لا يموت قيل: وما هو؟ قال: النار» (ق) عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «إذا نظر أحدكم إلى من فضل عليه في المال، والخلق فلينظر إلى من هو أسفل منه» لفظ البخاري ولمسلم قال: قال رسول الله ﷺ «انظروا إلى من هو أسفل منكم ولا تنظروا إلى من هو فوقكم، فهو أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم» قال عوف بن عبد الله بن عتبة: كنت أصحب الأغنياء فما كان أحد أكثر هماً مني كنت أرى دابة خيراً من دابتي وثوباً خيراً من ثوبي، فلما سمعت هذا الحديث صحبت الفقراء فاسترحت. وقوله سبحانه وتعالى ﴿واخفض جناحك﴾ يعني ليِّن جانبك ﴿للمؤمنين﴾ وارفق بهم لما نهاه الله سبحانه وتعالى عن الالتفات إلى الأغنياء من الكفار، أمره بالتواضع واللين والرفق بفقراء المسلمين وغيرهم من المؤمنين.

﴿وَقُلْ إِنِّيٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٩﴾ كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾﴾

﴿وقل﴾ أي وقل لهم يا محمد ﴿إني أنا النذير المبين﴾ لما أمر الله تعالى رسوله ﷺ بالزهد في الدنيا، والتواضع للمؤمنين أمره بتبليغ ما أرسل به إليهم، والنذارة تبليغ مع تخويف والمعنى: إني أنا النذير بالعقاب لمن عصاني المبين النذارة ﴿كما أنزلنا على المقتسمين﴾ يعني أنذركم عذاباً كعذاب أنزلناه بالمقتسمين، قال ابن عباس: أراد بالمقتسمين اليهود والنصارى. وهو قول الحسن ومجاهد وقتادة: سموا بذلك لأنهم آمنوا ببعض القرآن وكفروا ببعضه، فما وافق كتبهم آمنوا به وما خالف كتبهم كفروا به، وقال عكرمة: إنهم اقتسموا سور القرآن فقال واحد منهم هذه السورة لي وقال: آخر هذه السورة لي، وإنما فعلوا ذلك استهزاء به، وقال مجاهد: إنهم اقتسموا كتبهم فآمنوا ببعضها وكفروا ببعضها، وكفر آخرون منهم بما آمن به غيرهم. وقال قتادة وابن السائب: أراد بالمقتسمين كفار قريش سموا بذلك لأن أقوالهم تقسمت في القرآن. فقال بعضهم: إنه سحر وزعم بعضهم أنه كهانة وزعم بعضهم إنه أساطير الأولين وقال ابن

فلان ما قاتلاً لا يموت؟ قال ابن أبي مريم: النار. أخبرنا أبو منصور محمد بن عبد الملك المظفر السرخسي أنا أبو سعيد أحمد بن محمد بن الفضل الفقيه ثنا أبو الحسن ابن أبي إسحاق ثنا إبراهيم بن عبد الله العبسي أنا وكيع عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «انظروا إلى مَن هو أسفل منكم ولا تنظروا إلى مَن فوقكم فإنه أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم» وقيل: هذه الآية متصلة بما قبلها وذلك أنه لمّا منّ الله تعالى عليه بالقرآن نهاه عن الرغبة في الدنيا. رُوِيَ أن سفيان بن عُيَيْنة تأوّل قول النبي ﷺ ليس منّا مَن لم يتغنّ بالقرآن أي: مَن لم يستغنِ بالقرآن. وتأويل هذه الآية قوله تعالى: ﴿ واخفض جناحك ﴾، ليّن جانبك ﴿ للمؤمنين ﴾، وارفق بهم والجناحان من ابن آدم جانباه.

﴿ وقل إني أنا النذير المبين ﴾.

﴿ كما أنزلنا على المقتسمين ﴾ قال الفرّاء مجازه أنذركم عذاباً كعذاب المقتسمين، حكي عن ابن عباس أنه قال: هم اليهود والنصارى.

﴿ الذين جعلوا القرآن عضِين ﴾، جزؤه فجعلوه أعضاء فآمنوا ببعضه وكفروا ببعضه. وقال مجاهد: هم اليهود والنصارى قسموا كتابهم ففرّقوه وبدّلوه. وقيل: المقتسمون قوم اقتسموا القرآن، فقال بعضهم: سحر. وقال

السائب: سموا بالمقتسمين لأنهم اقتسموا عقاب مكة وطرقها، وذلك أن الوليد بن المغيرة بعث رهطاً من أهل مكة. قيل ستة عشر. وقيل: أربعين. فقال لهم: انطلقوا فتفرقوا على عقاب مكة وطرقها حيث يمر بكم أهل الموسم، فإذا سألوكم عن محمد فليقل بعضكم إنه كاهن وليقل بعضكم إنه شاعر، وليقل بعضكم إنه ساحر فإذا جاؤوا إلي صدقتكم فذهبوا وقعدوا على عقاب مكة وطرقها يقولون لمن مر بهم من حجاج العرب: لا تغتروا بهذا الخارج الذي يدعي النبوة منا فإنه مجنون كاهن، وشاعر. وقعد الوليد بن المغيرة على باب المسجد الحرام فإذا جاؤوا وسألوه عما قال: أولئك المقتسمون. قال: صدقوا. وقوله سبحانه وتعالى: ﴿الذين جعلوا القرآن عضين﴾ (خ) عن ابن عباس في قوله تعالى الذين جعلوا القرآن عضين. قال: هم اليهود والنصارى جزؤوه أجزاء آمنوا ببعض وكفروا ببعض، قيل: هو جمع عضة من قولهم عضيت الشيء إذا فرقته، وجعلته أجزاء وذلك لأنهم جعلوا القرآن أجزاء مفرقة. فقال بعضهم: هو سحر. وقال بعضهم: هو كهانة. وقال بعضهم: هو أساطير الأولين. وقيل: هو جمع عضة. وهو الكذب والبهتان وقيل: المراد به العضة وهو السحر يعني أنهم جعلوا القرآن عضين ﴿عما كانوا يعملون﴾ يعني عما كانوا يقولونه في القرآن. وقيل: عما كانوا يعملون من الكفر والمعاصي. وقيل: يرجع الضمير في لنسألنهم إلى جميع الخلق المؤمن والكافر لأن اللفظ عام فحمله على العموم أولى قال جماعة من أهل العلم عن لا إله إلا الله عن أنس عن النبي ﷺ في قوله: لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون قال: «عن قول لا إله إلا الله» أخرجه الترمذي. وقال: حديث غريب وقال أبو العالية: يسأل العباد عن خلتين عما كانوا يعبدون، وماذا أجابوا المرسلين. فإن قلت: كيف الجمع بين قوله لنسألنهم أجمعين وبين قوله ﴿فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان﴾؟ قلت: قال ابن عباس: لا يسألهم هل عملتم

بعضهم: شعر وقال بعضهم: كذب. وقال بعضهم: أساطير الأولين. وقيل: الاقتسام هو أنهم فرّقوا القول في رسول الله ﷺ فقالوا: ساحر كاهن شاعر، وقال مقاتل: كانوا ستة عشر رجلاً بعثهم الوليد بن المغيرة أيام الموسم فاقتسموا عقاب مكة وطرفها، وقعدوا على نقابها فيقولون لمَن جاء من الحجاج لا تغترّوا بهذا الرجل الخارج الذي يدّعي النبوّة منّا، وتقول طائفة منهم: إنه مجنون وطائفة إنه كاهن وطائفة إنه شاعر والوليد قاعد على باب المسجد نصّبوه حكماً فإذا سُئِلَ عنه قال: صدق أولئك يعني المقتسمين. وقوله: ﴿ عضين ﴾ قيل: هو جمع عضو مأخوذ من قولهم عضيت الشيء تعضيةً، إذا فرّقته ومعناه أنهم جعلوا القرآن أعضاء، فقال بعضهم: سحر. وقال بعضهم: كهانة. وقال بعضهم: أساطير الأولين. وقيل: هو جمع عضة. يقال: عضة وعضين مثل برة وبرين وعزة وعزين وأصلها عضة ذهبت هاؤها الأصلية كما نقصوا من الشفة وأصلها شفهة بدليل أنك تقول في التصغير شفيهة والمراد بالعضة الكذب والبهتان. وقيل: المراد بالعضين العضة وهو السحر يريد أنهم سمّوا القرآن سحراً.

﴿ فوربّك لنسألنّهم أجمعين ﴾، يوم القيامة.

﴿ عمّا كانوا يعملون ﴾ في الدنيا قال محمد بن إسماعيل قال عدّة من أهل العلم عن قوله لا إلّه إلّا الله، فإن قيل: كيف الجمع بين هذه الآية وبين قوله تعالى: ﴿ فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان ﴾ [الرحمن: ٣٩]، قيل: قال ابن عباس لا يسألهم هل عملتم لأنه أعلم بهم منهم ولكن يقول: لِمَ عملتم كذا وكذا؟ واعتمده قطرب فقال: السؤال ضربان سؤال استعلام وسؤال توبيخ، فقوله تعالى: ﴿ فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان ﴾ [الرحمن: ٣٩]، يعني: استعلاماً. وقوله: ﴿ لنسألنّهم أجمعين ﴾ يعني توبيخاً وتقريعاً. وقال عكرمة عن ابن عباس في الآيتين: إن يوم القيامة يوم طويل فيه مواقف مختلفة يسألون في بعض المواقف ولا يسألون في بعضها، نظير ذلك قوله تعالى: ﴿ هذا يوم لا ينطقون ﴾ [المرسلات: ٣٥]، وقال في آية أخرى: ﴿ ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون ﴾ [الزمر: ٣١].

لأنه أعلم به منهم، ولكن يقول لم عملتم كذا واعتمده قطرب فقال: السؤال ضربان سؤال استعلام وسؤال توبيخ فقال تعالى ﴿فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان﴾ يعني سؤال استعلام وقوله ﴿لنسألنهم أجمعين﴾ سؤال توبيخ وتقريع وجواب آخر، وهو يروى عن ابن عباس أيضاً أنه قال في الآيتين: أن يوم القيامة يوم طويل فيه مواقف فيسألون في بعض المواقف ولا يسألون في بعضها نظيره قوله سبحانه وتعالى ﴿هذا يوم لا ينطقون﴾ وقال تعالى في آية أخرى ﴿ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون﴾ قوله سبحانه وتعالى ﴿فاصدع بما تؤمر﴾ قال ابن عباس: أظهر. ويروى عنه أمضه. وقال الضحاك: أعلم وأصل الصدع الشق والفرق أي أفرق بالقرآن بين الحق والباطل أمر النبي ﷺ في هذه الآية بإظهار الدعوة وتبليغ الرسالة إلى من أرسل إليهم قال عبد الله بن عبيدة. ما زال النبي ﷺ مستخفياً حتى نزلت هذه الآية، فخرج هو وأصحابه ﴿وأعرض عن المشركين﴾ أي اكفف عنهم ولا تلتفت إلى لومهم على إظهار دينك، وتبليغ رسالة ربك وقيل أعرض عن الاهتمام باستهزائهم، وهو قوله سبحانه وتعالى ﴿إنا كفيناك المستهزئين﴾ أكثر المفسرين على أن هذا الإعراض منسوخ بآية القتال. وقال بعضهم: ما للنسخ وجه لأن معنى الإعراض ترك المبالاة بهم، والالتفات إليهم، فلا يكون منسوخاً، وقوله تعالى إنا كفيناك المستهزئين يقول الله تعالى عز وجل لنبيه محمد ﷺ فاصدع بما أمرتك به ولا تخف أحداً غيري فإني أنا كافيك، وحافظك ممن عاداك فإنا كفيناك المستهزئين وكانوا خمسة نفر من رؤساء كفار قريش، كانوا يستهزئون بالنبي ﷺ وبالقرآن وهم: الوليد بن المغيرة المخزومي وكان رأسهم، والعاص بن وائل السهمي، والأسود بن المطلب بن الحارث بن أسد بن عبد العزى بن زمعة، وكان رسول الله ﷺ قد دعا عليه فقال: اللهم أعم بصره وأثكله بولده. والأسود بن عبد يغوث بن وهب بن عبد مناف بن زهرة، والحارث بن قيس ابن الطلاطلة كذا ذكره البغوي. وقال ابن الجوزي: الحارث بن قيس ابن عيطلة وقال الزهري: عيطلة أمة وقيس أبوه فهو منسوب إلى أبيه وأمة قال المفسرون: أتى جبريل عليه السلام إلى رسول الله ﷺ والمستهزئون يطوفون بالبيت فقام جبريل، وقام رسول الله ﷺ إلى جنبه فمر به الوليد بن المغيرة فقال جبريل: يا محمد كيف تجد هذا قال بئس عبد الله فقال: قد كفيته وأومأ إلى ساق الوليد فمرّ الوليد برجل من خزاعة نبال بريش

قوله تعالى: ﴿ فاصدع بما تؤمر ﴾، قال ابن عباس: أظهره. ويروى عنه: أمضه. وقال الضحاك: أعلم. وقال الأخفش: أفرق، أي: أفرق بالقرآن بين الحق والباطل. وقال سيبويه: اقضِ بما تؤمر، وأصل الصدع الفصل والفرق أمر النبي ﷺ في هذه الآية بإظهار الدعوة. ورُوِيَ عن عبد الله بن عبيدة قال: كان مستخفياً حتى نزلت هذه الآية فخرج هو وأصحابه ﴿ وأعرضْ عنِ المشركين ﴾، نسختها آية القتال.

﴿ إنّا كفيناك المستهزئين ﴾، يقول الله تعالى لنبيّه ﷺ: فاصدع بأمر الله ولا تخف أحداً غير الله عزّ وجلّ فإن الله كافيك مَن عاداك كما كفاك المستهزئين، وهم خمسة نفر من رؤساء قريش الوليد بن المغيرة المخزومي، وكان رأسهم والعاص بن وائل السهمي والأسود بن عبد المطلب بن الحارث بن أسد بن عبد العزي بن زمعة، وكان رسول الله ﷺ قد دعا عليه فقال: «اللّهمَّ أعمِ بصره واثكله بولده» والأسود بن عبد يغوث بن وهب بن عبد مناف بن زهرة والحارث بن قيس بن الطلاطلة فأتى جبريل النبي ﷺ، والمستهزؤن يطوفون بالبيت فقام جبريل وقام النبي ﷺ إلى جنبه فمرّ به الوليد بن المغيرة، فقال جبريل: يا محمد كيف تجد هذا؟ فقال: «بئس عَبْدِ عَبدَ الله» فقال: قد كفيته وأومأ إلى ساق الوليد فمرّ برجل من خزاعة نبال بريش نباله وعليه برديمان وهو يجرّ إزاره فتعلقت شظية من نبل بإزاره فمنعه الكبر أن يطأطىء رأسه فينزعها وجعلت تضرب ساقه فخدشته فمرض منها فمات، ومرّ به العاص بن وائل فقال جبريل: كيف تجد هذا يا محمد؟ قال: «بئس عبد الله» فأشار جبريل إلى أخمص رجليه، وقال: قد كفيته فخرج على راحلته ومعه ابنان له يتنزه فنزل شعباً من تلك الشِعاب فوطىء على شبرقة فدخلت منها شوكة في

نبلاً له، وعليه برد يماني وهو يجر إزاره فتعلقت شظية من النبل بإزار الوليد، فمنعه الكبر أن يطأطىء رأسه فينزعها وجعلت تضربه في ساقه، فخدشته فمرض فمات، ومر بهما العاص بن وائل السهمي فقال جبريل: كيف تجد هذا يا محمد؟ فقال: بئس عبد الله، فأشار جبريل إلى أخمص قدمه وقال: قد كفيته. فخرج العاص على راحلة يتنزه، ومعه ابناه فنزل شعباً من تلك الشعاب فوطىء شبرقة فدخل منها شوكة في أخمص رجله، فقال: لدغت لدغت فطلبوا فلم يجدوا شيئاً وانتفخت رجله حتى صارت مثل عنق البعير، فمات مكانه. ومر بهما الأسود بن المطلب فقال جبريل: كيف تجد هذا يا محمد؟ فقال: عبد سوء فأشار جبريل بيده إلى عينيه. وقال: قد كفيته فعمي. قال ابن عباس: رماه جبريل بورقة خضراء فألهب بصره ووجعت عينه فجعل يضرب برأسه الجدار، حتى هلك وفي رواية الكلبي قال: أتاه جبريل وهو قاعد في أصل شجرة ومعه غلام له وفي رواية فجعل ينطح رأسه في الشجرة ويضرب وجهه بالشوك فاستغاث بغلامه، فقال له غلامه: ما أرى أحداً يصنع بك شيئاً غيرك فمات، وهو يقول قتلني محمد ومر بهما الأسود ابن عبد يغوث فقال جبريل: كيف تجد هذا يا محمد؟ فقال: بئس عبد الله على أنه خالي. فقال جبريل: قد كفيته وأشار إلى بطنه فاستسقى بطنه فمات. وفي رواية الكلبي أنه خرج من أهله. فأصابه سموم فاسود وجهه حتى صار حبشياً، فأتى أهله فلم يعرفوه وأغلقوا دونه الباب فمات، وهو يقول: قتلني رب محمد. ومر بهما الحارث بن قيس فقال جبريل: كيف تجد هذا يا محمد؟ فقال: عبد سوء فأومأ جبريل إلى رأسه. وقال قد كفيته فامتخط قيحاً فقتله. وقال ابن عباس: إنه أكل حوتاً مالحاً فأصابه العطش فلم يزل يشرب الماء حتى أنقد بطنه فمات. فذلك قوله تعالى ﴿إنا كفيناك المستهزئين﴾ يعني بك وبالقرآن.

﴿ٱلَّذِينَ يَجۡعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۚ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدۡرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾

﴿الذين يجعلون مع الله إلهاً آخر فسوف يعلمون﴾ يعني إذا نزل بهم العذاب ففيه وعيد وتهديد. قوله سبحانه وتعالى ﴿ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون﴾ يعني بسبب ما يقولون، وهو ما كانوا يسمعونه من الاستهزاء به،

أخمص رجله فقال لدغت لدغت فطلبوا فلم يجدوا شيئاً وانتفخت رجله حتى صارت مثل عنق البعير، فمات مكانه ومرّ به الأسود بن المطلب فقال جبريل: كيف تجد هذا؟ قال: «عبد سوء» فأشار بيده إلى عينيه، وقال: قد كفيته، فعمي. قال ابن عباس: رماه جبريل بورقة خضراء فعمي فذهب ضوء بصره ورجعت عيناه فجعل يضرب برأسه الجدار حتى هلك. وفي رواية الكلبي: أتاه جبريل وهو قاعد في أصل شجرة ومعه غلام له فجعل ينطح رأسه بالشجرة ويضرب وجهه بالشوك، فاستغاث بغلامه فقال غلامه: لا أرى أحداً يصنع بك شيئاً غير نفسك حتى مات، وهو يقول: قتلني رب محمد ومرّ به الأسود بن عبد يغوث فقال جبريل: كيف تجد هذا يا محمد؟ قال: «بئس عبد الله على أنه ابن خالي»، فقال: قد كفيته، وأشار إلى بطنه فاستسقى بطنه فمات حيناً. وفي رواية للكلبي أنه خرج من أهله فأصابه السَّمُوم فاسودّ حتى عاد حبشياً فأتى أهله فلم يعرفوه وأغلقوا دونه الباب حتى مات، وهو يقول: قتلني رب محمد، ومرّ به الحارث بن قيس فقال جبريل: كيف تجد هذا يا محمد؟ فقال: «عبد سوء» فأومأ إلى رأسه وقال: قد كفيته فامتخط قيحاً فقتله. وقال ابن عباس: إنه أكل حوتاً مالحاً فأصابه العطش فلم يزل يشرب عليه من الماء حتى أنقد بطنه فمات، فذلك قوله تعالى: ﴿إنّا كفيناك المستهزئين﴾، بك وبالقرآن.

﴿الذين يجعلون مع الله إلهاً آخر فسوف يعلمون﴾ وقيل استهزاؤهم واقتسامهم هو أن الله لمّا أنزل في

والقول الفاحش والجبلة البشرية تأبى ذلك فيحصل عند سماع ذلك ضيق الصدر، فعند ذلك أمره بالتسبيح والعبادة وهو قوله ﴿فسبح بحمد ربك﴾ قال ابن عباس: فصلِّ بأمر ربك ﴿وكن من الساجدين﴾ يعني من المتواضعين لله، وقال الضحاك فسبح بحمد ربك قل سبحان الله وبحمده وكن من الساجدين يعني من المصلين روي أن النبي ﷺ، كان إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة، قال بعض العارفين من المحققين: أن السبب في زوال الحزن عن القلب، إذا أتى العبد بهذه العبادات أنه يتنور باطنه ويشرق قلبه، وينفسح وينشرح صدره فعند ذلك يعرف قدر الدنيا وحقارتها فلا يلتفت إليها، ولا يتأسف على فواتها فيزول الهم والغم والحزن عن قلبه. وقال بعض العلماء: إذا نزل بالعبد مكروه ففزع إلى الصلاة فكأنه يقول: يارب إنما يجب عليّ عبادتك سواء أعطيتني ما أحب أو كفيتني ما أكره، فأنا عبدك وبين يديك فافعل بي ما تشاء. قوله تعالى ﴿واعبد ربك حتى يأتيك اليقين﴾ يعني الموت الموقن به الذي لا يشك فيه أحد، والمعنى واعبد ربك في جميع أوقاتك، ومدة حياتك حتى يأتيك الموت وأنت في عبادة ربك، وهذا مثل قوله تعالى في سورة مريم ﴿وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حياً﴾ روى البغوي بسنده عن جبير بن نفير قال: قال رسول الله ﷺ «ما أوحى الله إليّ أن أجمع المال وأكون من التاجرين، ولكن أوحى إليّ أن سبح بحمد ربك وكن من الساجدين واعبد ربك حتى يأتيك اليقين» وعن عمر قال: نظر رسول الله ﷺ إلى مصعب بن عمير مقبلاً وعليه إهاب كبش قد تنطق به فقال رسول الله ﷺ: «انظروا إلى هذا الذي نور الله قلبه لقد رأيته بين أبويه يغذيانه بأطيب الطعام والشراب ولقد رأيت عليه حلة شراها، أو قال: شريت له بمائتي درهم فدعاه حب الله، وحب رسوله إلى ما ترون» ذكره البغوي بغير سند والله أعلم بمراده وأسرار كتابه.

القرآن سورة البقرة وسورة النحل وسورة النمل وسورة العنكبوت، كانوا يجتمعون ويقولون استهزاء يقول هذا في سورة البقرة ويقول هذا في سورة النحل ويقول هذا في سورة العنكبوت.

فأنزل الله تعالى: ﴿ ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون فسبّح بحمد ربك ﴾، قال ابن عباس: فصل بأمر ربك ﴿ وكن من الساجدين ﴾، من المصلّين المتواضعين، وقال الضحاك: فسبّح بحمد ربك قلْ سبحان الله وبحمده وكن من الساجدين، يعني: من المصلّين. ورُوِيَ أن رسول الله ﷺ كان إذا حزّ به أمر فزع إلى الصلاة.

﴿ واعبدْ ربَّك حتى يأتيَك اليقين ﴾، أي الموت الموقن به، وهذا معنى ما ذكر في سورة مريم [٣١] ﴿ وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حيّاً ﴾ أخبرنا المطهر بن علي الفارسي أنا محمد بن إبراهيم الصالحي أنا عبد الله محمد بن جعفر بن الشيخ الحافظ ثنا أمية بن محمد الصواف البصري ثنا محمد بن يحيىٰ الأزدي ثنا أبي والهيثم بن خارجة قالا ثنا إسماعيل بن عياش عن شرحبيل بن مسلم عن أبي مسلم الخولاني عن جبير بن نفير قال: قال رسول الله ﷺ: «وما أوحى الله إليّ أن أجمع المال وأكون من التاجرين ولكن أوحى إليّ أن سبّح بحمد ربك وكن من الساجدين، واعبد ربك حتى يأتيك اليقين». ورُوِيَ عن عمر رضي الله عنه قال: نظر النبي ﷺ إلى مصعب بن عمير مقبلاً وعليه أهاب كبش قد تنطق به، فقال رسول الله ﷺ: «انظروا إلى هذا الذي قد نوّر الله قلبه لقد رأيته بين أبويه يغذيانه بأطيب الطعام والشراب، ولقد رأيت عليه حلّة شراها أو شريت له بمائتي درهم، فدعاه حبُّ الله ورسوله إلى ما ترونه». والله أعلم.

تفسير سورة النحل

مكية إلا قوله تعالى ﴿وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به﴾. إلى آخر السورة فإنها نزلت بالمدينة في قتل حمزة قاله ابن عباس وفي رواية أخرى عنه أنها مكية غير ثلاث آيات. نزلت بالمدينة وهي قوله تعالى ﴿**ولا تشتروا بعهد الله ثمناً قليلاً**﴾ إلى قوله ﴿**يعلمون**﴾ وقال قتادة هي مكية إلا خمس آيات وهي قوله ﴿**والذين هاجروا في الله من بعد ما ظلموا**﴾ وقوله ﴿**ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا**﴾ وقوله تعالى ﴿**وإن عاقبتم**﴾ إلى آخر السورة زاد مقاتل وقوله: من كفر بالله من بعد إيمانه الآية وضرب الله مثلاً قرية كانت آمنة مطمئنة الآية وقيل كان يقال لسورة النحل سورة النعم لكثرة تعداد النعم فيها، وهي مائة وثمان وعشرون آية وألفان وثمانمائة وأربعون كلمة وسبعة آلاف وسبعمائة وسبعة أحرف.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١﴾ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴿٢﴾

قوله سبحانه وتعالى: ﴿**أتى أمر الله**﴾ يعني جاء ودنا وقرب أمر الله تقول العرب: أتاك الأمر وهو متوقع المجيء، بعدما أتى، ومعنى الآية أتى أمر الله وعداً ﴿**فلا تستعجلوه**﴾ يعني وقوعاً بالمراد به مجيء القيامة. قال ابن عباس: لما نزل قوله سبحانه وتعالى ﴿**اقتربت الساعة وانشق القمر**﴾ قال الكفار: بعضهم لبعض إن هذا الرجل يزعم أن القيامة قد قربت فامسكوا عن بعض ما كنتم تعملون حتى ننظر ما هو كائن، فلما رأوا أنه لا ينزل شيء قالوا: ما نرى شيئاً فنزل قوله تعالى ﴿**اقترب للناس حسابهم**﴾ فأشفقوا فلما امتدت الأيام، قالوا: يا محمد ما نرى شيئاً مما تخوفنا به فنزل ﴿**أتى أمر الله**﴾ فوثب النبي ﷺ ورفع الناس رؤوسهم، وظنوا أنها قد أتت حقيقة فنزل ﴿**فلا تستعجلوه**﴾ فاطمأنوا، والاستعجال طلب مجيء الشيء قبل وقته ولما نزلت هذه الآية قال النبي ﷺ: «بعثت أنا

سُورَة النَّحْـل

مكية مائتان وثمان وعشرون آية إلّا قوله تعالى: ﴿ وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عُوقبتم به ﴾ [النحل: ١٢٦] إلى آخر السورة.

﴿ **أتى** ﴾ أي: جاء ودنا وقرب، ﴿ **أمرُ الله** ﴾، قال ابن عرفة تقول العرب أتاك الأمر وهو متوقع بعد، أي: أتى أمر الله وعده. ﴿ **فلا تستعجلوه** ﴾، وقوعاً، ﴿ **أمر الله** ﴾ قال الكلبي وغيره: المراد منه القيامة. قال ابن عباس: لمّا نزل قوله تعالى: ﴿ اقتربت الساعة ﴾ [القمر: ١] قال الكفار بعضهم لبعض: إن هذا يزعم أن القيامة قد قربت فأمسكوا عن بعض ما كنتم تعملون حتى تنظروا ما هو كائن، فلما لم ينزل شيء قالوا: ما نرى شيئاً فنزل قوله:

والساعة كهاتين ويشير بأصبعيه يمدهما» أخرجاه في الصحيحين من حديث سهل بن سعد (ق) عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «بعثت أنا والساعة كهاتين كفضل إحداهما على الأخرى، وضم السبابة إلى الوسطى» وفي رواية «بعثت في نفس الساعة فسبقتها كفضل هذه على الأخرى» قال ابن عباس: كان مبعث النبي ﷺ من أشراط الساعة ولما مر جبريل بأهل السموات مبعوثاً إلى النبي ﷺ قالوا: الله أكبر قامت الساعة قال قوم: المراد بالأمر هنا عقوبة المذكبين وهو العذاب بالقتل بالسيف وذلك أن النضر بن الحارث قال: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك، فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم. فاستعجل العذاب فنزلت هذه الآية، وقتل النضر يوم بدر صبراً ﴿**سبحانه وتعالى عما يشركون**﴾ يعني تنزه الله وتعاظم بالأوصاف الحميدة عما يصفه به المشركون. قوله سبحانه وتعالى: ﴿**ينزل الملائكة بالروح**﴾ يعني بالوحي ﴿**من أمره**﴾ وإنما سمي الأمر روحاً لأنه تحيا القلوب من موت الجهالات وقال عطاء: بالنبوة. وقال قتادة: بالرحمة. وقيل: الروح هو جبريل والباء بمعنى مع يعني ينزل الملائكة مع الروح وهو جبريل ﴿**على من يشاء من عباده**﴾ يعني على من يصطفيه من عباده للنبوة، والرسالة وتبليغ الوحي إلى الخلق ﴿**أن أنذروا**﴾ يعني بأن اعلموا ﴿**أنه لا إله إلا أنا فاتقون**﴾ أي فخافون. وقيل: معناه مروا بقول لا إله إلا الله منذرين يعني مخوفين بالقرآن.

خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾ وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ

﴿ اقترب للناس حسابهم ﴾ [الأنبياء: ١]، فاشفقوا فلما امتدت الأيام قالوا: يا محمد ما نرى شيئاً مما تخوّفنا به فأنزل الله تعالى: ﴿ **أتى أمر الله** ﴾ فوثب النبي ﷺ ورفع الناس رؤوسهم وظنوا أنها قد أتت حقيقة فنزلت ﴿ **فلا تستعجلوه** ﴾ فاطمأنوا. والاستعجال: طلب الشيء قبل حينه، ولمّا نزلت هذه الآية قال النبي ﷺ: «بعثتُ أنا والساعة كهاتين وأشار بأصبعيه وإن كادت لتسبقني» قال ابن عباس: كان بعث النبي ﷺ من أشراط الساعة ولمّا مرّ جبريل عليه السلام بأهل السمٰوات مبعوثاً إلى محمد ﷺ قالوا: الله أكبر قامت الساعة. وقال قوم: المراد بالأمر ههنا عقوبة المكذبين والعذاب بالسيف، وذلك أن النضر بن الحارث قال: اللّهمّ إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء فاستعجل العذاب فنزلت هذه الآية. وقتل النضر يوم بدر صبراً. ﴿ **سبحانه وتعالى عمّا يشركون** ﴾، معناه تعاظم بالأوصاف الحميدة عمّا يصفه به المشركون.

﴿ **ينزّل الملائكة** ﴾، قرأ العامّة بضم الياء وكسر الزاي، ﴿ **والملائكة** ﴾ نصب. وقرأ يعقوب بالتاء وفتحها وفتح الزاي «والمـلائكة» رفع، ﴿ **ينزّل الملائكةَ بالروح** ﴾ بالوحي سمّاه روحاً لأنه يُحيي به القلوب والحق. قال عطاء: بالنبوّة. وقال قتادة: بالرحمة. قال أبو عبيدة: بالروح يعني مع الروح وهو جبرائيل. ﴿ **من أمره على مَن يشاء من عباده أن أنذروا** ﴾، اعلموا، ﴿ **أنه لا إلٰه إلاّ أنا فاتّقون** ﴾، وقيل: معناه مُرُوهم بقول لا إلٰه إلاّ الله منذرين مخوفين بالقرآن إن لم يقولوا. وقوله: فاتقون أي: فخافون.

ٱلثَّمَرَٰتِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمۡرِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴿١٢﴾

﴿**خلق السموات والأرض بالحق تعالى عما يشركون**﴾ تقدم تفسيره ﴿**خلق الإنسان من نطفة فاذا هو خصيم مبين**﴾ يعني أنه جدل بالباطل بين الخصومة نزلت في أبيّ بن خلف الجمحي، وكان ينكر البعث فجاء بعظم رميم إلى النبي ﷺ فقال: تزعم أن الله يحيي هذا بعدما رم فنزلت فيه هذه الآية، ونزل فيه أيضاً قوله تعالى «قال من يحيي العظام وهي رميم» والصحيح أن الآية عامة في كل ما يقع من الخصومة في الدنيا ويوم القيامة، وحملها على العموم أولى، وفيها بيان القدرة وأن الله خلق الإنسان من نطفة قذرة فصار جباراً كثيراً لخصومة، وفيه كشف قبيح ما فعله الكفار من جحدهم نعم الله تعالى مع ظهورها عليهم. قوله عز وجل ﴿**والأنعام خلقها**﴾ لما ذكر الله سبحانه وتعالى أنه خلق السموات والأرض، ثم أتبعه بذكر خلق الإنسان، ذكر بعده ما ينتفع به في سائر ضروراته. ولما كان أعظم ضرورات الإنسان إلى الأكل واللباس اللذين يقوم بهما بدن الإنسان بدأ بذكر الحيوان المنتفع به في ذلك، وهو الأنعام. فقال تعالى ﴿**والأنعام خلقها**﴾ وهي الإبل والبقر والغنم. قال الواحدي: تم الكلام عند قوله والأنعام خلقها. ثم ابتدأ فقال تعالى ﴿**لكم فيها دفء**﴾ قال: ويجوز أيضاً أن يكون تمام الكلام عند قوله لكم ثم ابتدأ فقال تعالى: فيها دفء. قال صاحب النظم أحسن الوجهين أن يكون الوقف عند قوله خلقها ثم يبتدأ بقوله لكم فيها دفء، والدليل عليه أنه عطف عليه قوله، ولكم فيها جمال والتقدير لكم فيها دفء ولكم فيها جمال. ولما كانت منافع هذه الأنعام منها ضرورية، ومنها غير ضرورية، بدأ الله سبحانه وتعالى بذكر المنافع الضرورية، فقال تعالى: لكم فيها دفء وهو ما يُستدفأ به من اللباس والأكسية ونحوها، المتخذة من الأصواف والأوبار والأشعار الحاصلة من النعم ﴿**ومنافع**﴾ يعني النسل والدر والركوب، والحمل عليها وسائر ما ينتفع به من الأنعام ﴿**ومنها تأكلون**﴾ يعني من لحومها. فإن قلت: قوله تعالى ﴿**ومنها تأكلون**﴾ يفيد الحصر لأن تقديم الظرف مؤذن بالاختصاص، وقد يؤكل من غيرها. قلت: الأكل من هذه الأنعام هو الذي يعتمده الناس في معايشهم وأما الأكل من غيرها كالدجاج والبط والإوز وصيد البر والبحر، فغير معتد به في الأغلب: وأكله يجري مجرى التفكه به فخرج ومنها تأكلون مخرج الأغلب في الأكل من هذه الأنعام. فإن قلت: منفعة الأكل مقدمة على منفعة اللباس فلم أخر منفعة الأكل وقدم منفعة اللباس؟ قلت: منفعة اللباس أكثر وأعظم من منفعة الأكل فلهذا قدم على الأكل. وقوله سبحانه وتعالى ﴿**ولكم فيها**﴾ أي في الأنعام ﴿**جمال**﴾ أي زينة ﴿**حين تريحون وحين تسرحون**﴾ الإراحة رد الإبل بالعشي إلى مراحها حيث تأوي إليه بالليل. وقال: سرح القوم

﴿ **خلق السمٰواتِ والأرضَ بالحق تعالى عمّايشركون** ﴾،أي: ارتفع عمّا يشركون.

﴿ **خلق الإنسان من نطفةٍ فإذا هو خصيم** ﴾، جدل بالباطل، ﴿ **مبين** ﴾، نزلت في أُبيّ بن خلف الجمحي وكان ينكر البعث جاء بعظم رميم فقال: أتقول إن الله تعالى يُحيي هذا بعد ما قد رُمَّ؟ كما قال جلّ ذكره: ﴿**وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه** ﴾ [يس: ٧٨] نزلت فيه أيضاً. والصحيح أن الآية عامّة، وفيها بيان القدرة وكشف قبيح ما فعلوه، من جحود نِعَم الله مع ظهورها عليهم.

قوله تعالى: ﴿ **والأنعام خلقها** ﴾، يعني الإبل والبقر والغنم. ﴿ **لكم فيها دِفْءٌ** ﴾ يعني: من أوبارها وأشعارها وأصوافها ملابس ولُحفاً تستدفئون بها، ﴿ **ومنافعُ** ﴾، بالنسل والدرّ والركوب والحمل وغيرها، ﴿ **ومنها تأكلون** ﴾، يعني لحومها.

﴿ **ولكم فيها جمالٌ** ﴾، زينة، ﴿ **حين تُريحون** ﴾، أي: حين تردّونها بالعشـي من مراعيها إلى مباركها التي

إبلهم تسريحاً إذا أخرجوها بالغداة إلى المرعى. قال أهل اللغة: وأكثر ما تكون هذه الراحة أيام الربيع إذا سقط الغيث، ونبت العشب والكلأ وخرجت العرب للنجعة، وأحسن ما تكون النعم في ذلك الوقت فمن الله سبحانه وتعالى بالتجمل بها فيه كما من بالانتفاع بها لأنه من أغراض أصحاب المواشي بل هو من معظمها لأن الرعاة إذا سرحوا النعم بالغداة إلى المرعى، وروحوها بالعشي إلى الأفنية والبيوت يسمع للإبل رغاء وللشاء ثغاء يجاوب بعضها بعضاً، فعند ذلك يفرح أربابها بها وتتجمل بها الأفنية والبيوت، ويعظم وقعها عند الناس. فإن قلت: لم قدمت الإراحة على التسريح؟ قلت: لأن الجمال في الإراحة وهو رجوعها إلى البيوت أكثر منها وقت التسريح لأن النعم تقبل من المرعى ملأى البطون حافلة الضروع، فيفرح أهلها بها بخلاف تسريحها إلى المرعى فإنها تخرج جائعة البطون ضامرة الضروع من اللبن، ثم تأخذ في التفرق والانتشار للرعي في البرية فثبت بهذا البيان أن التجمل في الإراحة، أكثر منه في التسريح فوجب تقديمه. وقوله سبحانه وتعالى ﴿**وتحمل أثقالكم**﴾ الأثقال جمع ثقل وهو متاع السفر وما يحتاج إليه من آلات السفر ﴿**إلى بلد**﴾ يعني غير بلدكم قال ابن عباس: يريد من مكة إلى اليمن، وإلى الشام وإنما قال ابن عباس: هذا القول لأنه خطاب لأهل مكة وأكثر تجاراتهم وأسفارهم إلى الشام واليمن وحمله على العموم أولى لأنه خطاب عام فدخول الكافة فيه أولى من تخصيصه ببعض المخاطبين ﴿**لم تكونوا بالغيه**﴾ يعني بالغي ذلك البلد الذي تقصدونه ﴿**إلا بشق الأنفس**﴾ يعني بالمشقة والجهد والعناء والتعب والشق نصف الشيء، والمعنى على هذا لم تكونوا بالغيه إلا بنقصان قوة، النفس وذهاب نصفها ﴿**إن ربكم لرؤوف رحيم**﴾ يعني بخلقه حيث خلق لهم هذه المنافع. قوله سبحانه وتعالى: ﴿**والخيل والبغال والحمير لتركبوها**﴾ هذه الآية عطف على ما قبلها، والمعنى وخلق هذه الحيوانات لأجل أن تركبوها، والخيل اسم جنس لا واحد له من لفظه كالإبل والرهط والنساء ﴿**وزينة**﴾ يعني وجعلها زينة مع المنافع التي فيها.

فصل

احتج بهذه الآية من يرى تحريم لحوم الخيل، وهو قول ابن عباس وتلا هذه الآية وقال: هذه للركوب وإليه ذهب الحكم ومالك وأبو حنيفة رحمهم الله، واستدلوا أيضاً بأن منفعة الأكل أعظم من منفعة الركوب فلما لم يذكره الله تعالى، علمنا تحريم أكله فلو كان أكل لحوم الخيل جائزاً لكان هذا المعنى أولى بالذكر، لأن الله سبحانه وتعالى خص الأنعام بالأكل حيث قال ومنها تأكلون وخص هذه بالركوب. فقال: لتركبوها فعلمنا أنها مخلوقة للركوب لا للأكل وذهب مجموعة من أهل العلم إلى إباحة لحوم الخيل، وهو قول الحسن وشريح وعطاء وسعيد بن جبير: وإليه ذهب الإمام الشافعي رضي الله تعالى عنه وأحمد وإسحاق واحتجوا على إباحة لحوم الخيل لما روي عن أسماء بنت أبي بكر

تأوي إليها، ﴿ **وحين تَسْرحُون** ﴾، أي: تُخرِجونها بالغداة من مراحها إلى مسارحها، وقدّم الرواح لأن المنافع تؤخد منها بعد الرواح، ومالكها يكون أعجب بها إذا راحت.

﴿ **وتحمل أثقالكم** ﴾، أحمالكم، ﴿ **إلى بلدٍ** ﴾، آخر غير بلدكم. قال عكرمة: البلد مكة، ﴿ **لم تكونوا بالغيه إلّا بِشِقِّ الأنفس** ﴾، أي: بالمشقّة والجهد. والشق: النصف أيضاً أي: لم تكونوا بالغيه إلا بنقصان قوة النفس وذهاب نصفها. وقرأ أبو جعفر ﴿ **بشق** ﴾ بفتح الشين وهما لغتان مثل رطل ورطل. ﴿ **إنّ ربكم لرؤوف رحيم** ﴾، بخلقه حيث جعل لكم هذه المنافع.

﴿ **والخيلِ** ﴾، يعني: وخلق الخيل وهي اسم جنس لا واحد له من لفظه كالإبل والنساء والسماء. ﴿ **والبغالَ والحميرَ لتركبوها وزينة** ﴾، يعني وجعلها زينة لكم مع المنافع التي فيها. واحتجّ بهذه الآية من حرم

الصديق أنها قالت: «نحرنا على عهد رسول الله ﷺ فرساً ونحن بالمدينة فأكلناه» أخرجه البخاري ومسلم (ق). عن جابر «أن رسول الله ﷺ نهى عن لحوم الخيل وحمر الوحش ونهى النبي ﷺ عن الحمار الأهلي» هذه رواية البخاري ومسلم، وفي رواية أبي داود قال: «ذبحنا يوم خيبر الخيل والبغال والحمير وكنا قد أصابتنا مخمصة فنهانا رسول الله ﷺ عن البغال والحمير ولم ينهنا عن الخيل» وأجاب من أباح لحوم الخيل عن هذه الآية بأن ذكر الركوب والزينة، لا يدل على أن منفعتها مختصة بذلك، وإنما خص هاتان المنفعتان بالذكر لأنهما معظم المقصود، قالوا: ولهذا سكت عن حمل الأثقال على الخيل مع قوله في الأنعام وتحمل أثقالكم، ولم يلزم من هذا التحريم حمل الأثقال على الخيل، وقال البغوي: ليس المراد من الآية بيان التحليل والتحريم، بل المراد منها تعريف الله عباده نعمه، وتنبيههم على كمال قدرته وحكمته، والدليل الصحيح المعتمد عليه في إباحة لحوم الخيل أن السنة مبينة للكتاب ولما كان نص الآية يقتضي أن الخيل والبغال والحمير مخلوقة للركوب والزينة، وكان الأكل مسكوتاً عنه دار الأمر فيه على الإباحة والتحريم فوردت بإباحة لحوم الخيل وتحريم لحوم البغال والحمير، فأخذنا بها جمعاً بين النصين والله أعلم وقوله تعالى ﴿**ويخلق ما لا تعلمون**﴾ لما ذكر الله سبحانه وتعالى الحيوانات التي ينتفع بها الإنسان في جميع حالاته، وضرورياته على سبيل التفصيل، ذكر بعدها ما لا ينتفع به الإنسان في الغالب على سبيل الإجمال لأن مخلوقات الله عز وجل في البر والبحر والسموات أكثر من أن تحصى أو يحيط بها عقل أحد أو فهمه، فلهذا ذكرها على الإجمال، وقال بعضهم: ويخلق ما لا تعلمون يعني مما أعد الله لأهل الجنة في الجنة، ولأهل النار في النار مما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر وقال قتادة في قوله: ويخلق ما لا تعلمون يعني السوس في النبات والدود في الفواكه. قوله سبحانه وتعالى ﴿**وعلى الله قصد السبيل**﴾ القصد استقامة الطريق، يقال: طريق قصد وقاصد إذا أداك إلى مطلوبك وفي الآية حذف تقديره وعلى الله بيان قصد السبيل، وهو بيان طريق الهدى من الضلالة وقيل: معناه وعلى الله بيان طريق الحق بالآيات والبراهين ﴿**ومنها جائر**﴾ يعني ومن السبل سبيل جائر عن الاستقامة بل هو معوج فالقصد من السبيل هو دين الإسلام، والجائر منها دين اليهودية والنصرانية وسائر ملل الكفر، وقال جابر بن عبد الله: قصد السبيل بيان الشرائع والفرائض، وقال عبد الله بن المبارك وسهل بن عبد الله: قصد السبيل السنة ومنها جائر الأهواء والبدع ﴿**ولو شاء لهداكم أجمعين**﴾ فيه دليل على أن الله تعالى ما شاء هداية الكفار، وما أراد منهم الإيمان لأن كلمة لو تفيد انتفاء الشيء لانتفاء غيره، فقوله ولو شاء هدايتكم لهداكم أجمعين وذلك يفيد أنه تعالى ما شاء هدايتهم فلا جرم ما هداهم. قوله عز وجل ﴿**هو الذي أنزل من السماء ماء**﴾ لما ذكر الله سبحانه وتعالى نعمته على

لحوم الخيل، وهو قول ابن عباس، وتلا هذه الآية، فقال: هذه للركوب وإليه ذهب الحَكَمُ ومالك وأبو حنيفة، وذهب جماعة إلى إباحة لحوم الخيل، وهو قول الحسن وشريح وعطاء وسعيد بن جبير، وبه قال الشافعي وإسحاق، ومَن أباحها قال: ليس المراد من الآية بيان التحليل والتحريم بل المراد منه تعريف الله عباده نِعَمه وتنبيههم على كمال قدرته وحكمته، واحتجّوا بما أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا سليمان بن حرب ثنا حمّاد بن زيد عن عمرو هو ابن دينار عن محمد بن علي عن جابر رضي الله عنه قال: نهى النبي ﷺ يوم خيبر عن لحوم الحمر ورخّص في لحوم الخيل. أخبرنا أبو الفرج المظفر بن إسماعيل التميمي أنا أبو القاسم حمزة بن يوسف السهمي أنا أبو أحمد عبد الله بن عدي الحافظ ثنا الحسن بن الفرج ثنا عمرو بن خالد ثنا عبد الله بن عبد الكريم عن عطاء بن أبي رباح عن جابر أنهم كانوا يأكلون لحوم الخيل على عهد رسول الله ﷺ، ونهى عن لحوم البغال والحمير. روي عن المقدام بن معدي كرب عن خالد بن الوليد أن رسول الله ﷺ نهى عن أكل لحوم الخيل والبغال والحمير. وإسناده ضعيف. ﴿ **ويخلق ما لا تعلمون** ﴾، قيل: يعني ما أعدّ الله في الجنّة لأهلها وفي النار لأهلها مما لم تره عين ولا سمعته أذن ولا خطر على

عباده بخلق الحيوانات لأجل الانتفاع والزينة: عقبه بذكر إنزال المطر من السماء، وهو من أعظم النعم على العباد فقال: هو الذي أنزل من السماء. يعني، والله الذي خلق جميع الأشياء هو الذي أنزل من السماء ماء يعني المطر ﴿لكم منه﴾ يعني من ذلك الماء ﴿شراب﴾ يعني تشربونه ﴿ومنه﴾ يعني ومن ذلك الماء ﴿شجر﴾ الشجر في اللغة ما له ساق من نبات الأرض، ونقل الواحدي عن أهل اللغة أنهم قالوا: الشجر أصناف ما جل وعظم، وهو الذي يبقى على الشتاء وما دق وهو صنفان أحدهما تبقى له أدوحة في الشتاء، وينبت في الربيع ومنها ما لا يبقى له ساق في الشتاء كالبقول، وقال أبو إسحاق: كل ما ينبت على وجه الأرض فهو شجر وأنشد: * نطعمها اللحم إذا عز الشجر * أراد أنهم يسقون الخيل اللبن إذا أجدبت الأرض، وقال ابن قتيبة: في هذه الآية يعني الكلأ ومعنى الآية أنه ينبت بالماء الذي أنزل من السماء ما ترعى الراعية من ورق الشجر لأن الإبل ترعى كل الشجر ﴿فيه﴾ يعني في الشجر ﴿تسيمون﴾ يعني ترعون مواشيكم. يقال: أسمت السائمة إذا خليتها ترعى وسامت هي إذا رعت حيث شاءت ﴿ينبت لكم﴾ أي ينبت الله لكم وقرىء ينبت على التعظيم لكم ﴿به﴾ أي بذلك الماء ﴿الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات﴾ لما ذكر الله في الحيوان تفصيلاً وإجمالاً ذكر في الثمار تفصيلاً وإجمالاً فبدأ بذكر الزرع وهو الحب الذي يقتات به كالحنطة والشعير وما أشبههما لأن به قوام بدن الإنسان، وثنى بذكر الزيتون لما فيه من الأدم والدهن والبركة، وثلث بذكر النخيل لأن ثمرتها غذاء وفاكهة، وختم بذكر الأعناب لأنها شبه النخلة في المنفعة من التفكه، والتغذية، ثم ذكر سائر الثمرات إجمالاً لينبه بذلك على عظيم قدرته، وجزيل نعمته على عباده ثم قال تعالى ﴿إن في ذلك﴾ يعني الذي ذكر من أنواع الثمار ﴿لآية﴾ يعني علامة دالة على قدرتنا ووحدانيتنا ﴿لقوم يتفكرون﴾ يعني فيما ذكر من دلائل قدرته ووحدانيته ﴿وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم﴾ تقدم تفسيره في سورة الأعراف ﴿مسخرات﴾ يعني مذللات مقهورات تحت قهره وإرادته، وفيه رد على الفلاسفة والمنجمين لأنهم يعتقدون أن هذه النجوم هي الفعالة المتصرفة في العالم السفلي فأخبر الله تعالى أن هذه النجوم مسخرات في نفسها مذللات ﴿بأمره﴾ يعني بأمر ربها مقهورات تحت قهره يصرفها كيف يشاء، ويختار وأنها ليس لها تصرف في نفسها فضلاً عن غيرها، ولما ذكر الله سبحانه وتعالى أنه خلق هذه النجوم وجعلها مسخرات لمنافع عباده ختم هذه الآية بقوله ﴿إن في ذلك لآيات لقوم

قلب بشر. وقال قتادة يعني: السوس في النبات والدود في الفواكه.

قوله تعالى: ﴿ **وعلى اللهِ قصدُ السبيل** ﴾ يعني: بيان طريق الهدى من الضلالة. وقيل: بيان الحق بالآيات والبراهين، والقصد: الصراط المستقيم. ﴿ **ومنها جائر** ﴾ يعني: ومن السبيل جائر عن الاستقامة معوج، **فالقصد** من السبيل دين الإسلام، والجائر منها دين اليهودية والنصرانية وسائر مثل الكفر. قال جابر بن عبد الله: قصد السبيل بيان الشرائع والفرائض. وقال عبد الله بن المبارك وسهل بن عبد الله: قصد السبيل السنة. **ومنها** جائر الأهواء والبِدَع، دليله قوله تعالى: ﴿ وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل ﴾ [الأنعام: ١٥٣]. ﴿ **ولو شاء لهداكم أجمعين** ﴾، نظيره قوله تعالى: ﴿ ولو شئنا لآتينا كلَّ نفسٍ هُداها ﴾ [السجدة: ١٣].

قوله: ﴿ **هو الذي أنزل من السماء ماء لكم منه شراب** ﴾، تشربونه، ﴿ **ومنه شجر** ﴾، أي: من ذلك الماء شراب أشجاركم حياة نباتكم، ﴿ **فيه** ﴾ يعني: في الشجر، ﴿ **تُسِيمُون** ﴾، ترعون مواشيكم.

﴿ **يُنبِتُ لكم به** ﴾ أي: ينبت الله لكم به يعني بالماء الذي أنزل وقرأ أبو بكر عن عاصم «نُنبت» بالنون. ﴿ **الزرعَ والزيتونَ والنخيلَ والأعنابَ ومن كل الثمرات إنّ في ذلك لآيةً لقومٍ يتفكّرون** ﴾.

﴿ **وسخّر لكم** ﴾، ذلّل لكم ﴿ **الليلَ والنهارَ والشمسَ والقمرَ والنجومَ مسخراتٍ** ﴾، مذلّلاتٍ، ﴿ **بأمره** ﴾

يعقلون﴾ يعني أن كل من كان له عقل صحيح سليم علم أن الله سبحانه وتعالى، هو الفعال المختار وأن جميع الخلق تحت قدرته، وقهره وتسخيره لما أراده منهم.

وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾ إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾

﴿وما ذرأ لكم في الأرض﴾ يعني وما خلق لكم في الأرض، وسخر لأجلكم من الدواب والأنعام والأشجار والثمار **﴿مختلفاً ألوانه﴾** يعني في الخلقة والهيئة والكيفية واختلاف ألوان المخلوقات مع كثرتها، حتى لا يشبه بعضها بعضاً من كل الوجوه، فيه دليل قاطع على كمال قدرة الله ولذلك ختم هذه الآية بقوله تعالى **﴿وهو الذي سخر لكم البحر﴾** لما ذكر الله سبحانه وتعالى الدلائل الدالة على قدرته، ووحدانيته من خلق السموات والأرض، وخلق الإنسان من نطفة وخلق سائر الحيوان والنبات وتسخير الشمس والقمر والنجوم وغير ذلك، من آثار قدرته، وعجائب صنعته وذكر إنعامه في ذلك على عباده، ذكر بعد ذلك إنعامه على عباده بتسخير البحر لهم نعمة من الله عليهم، ومعنى تسخير الله البحر لعباده جعله بحيث يتمكن الناس من الانتفاع به. فقال تعالى: وهو الذي سخر البحر **﴿لتأكلوا منه لحماً طرياً﴾** فبدأ بذكر الأكل لأنه أعظم المقصود، لأن به قوام البدن وفي ذكر الطري مزيد فائدة دالة على كمال قدرة الله تعالى، وذلك أن السمك لون كان كله مالحاً لما عرف به من قدرة الله تعالى، ما يعرف بالطري لأنه لما خرج من البحر الملح الزعاق، الحيوان الطري الذي لحمه في غاية العذوبة علم أنه إنما حدث بقدرة الله، وخلقه لا بحسب الطبع وعلم بذلك أن الله قادر على إخراج الضد من الضد. المنفعة الثانية قوله تعالى **﴿وتستخرجوا منه حلية تلبسونها﴾** يعني

أي: بإذنه وقرأ حفص عن عاصم **﴿والنجوم مسخرات﴾** بالرفع على الابتداء. **﴿إنّ في ذلك لآيات لقوم يعقلون﴾**.

﴿وما ذرأ﴾، خلق، **﴿لكم﴾**، لأجلكم أي: وسخّر ما خلق لأجلكم، **﴿في الأرض﴾**، من الدواب والأشجار والثمار وغيرها، **﴿مختلفاً﴾**، نصب على الحال، **﴿ألوانه إنّ في ذلك لآية لقوم يذكرون﴾**، يعتبرون.

﴿وهو الذي سخّر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً﴾ يعني: السمك، **﴿وتستخرجوا منه حِلْيَةً تلبَسونها﴾** يعني: اللؤلؤ والمرجان، **﴿وترى الفُلْكَ مواخر فيه﴾**، جواري فيه. قال قتادة: مقبلة ومدبرة وهو أنك ترى سفينتين إحداهما تقبل والأخرى تدبر تجريان بريح واحدة. وقال الحسن: مواخر أي: مملوءة. وقال الفراء والأخفش: مواخر شواق تشق الماء بجؤجؤها. قال مجاهد: تمخر السفن الرياح. وأصل المخر: الرفع والشق، وفي الحديث: «إذا أراد أحدكم البول فليستمخر الريح» أي: لينظر من أين مجراها وهبوبها حتى لا يرد عليه البول. وقال أبو عبيدة

اللؤلؤ والمرجان، كما قال تعالى: يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان والمراد بلبسهم لبس نسائهم لأن زينة النساء بالحلي، وإنما هو لأجل الرجال فكان ذلك زينة لهم. المنفعة الثالثة قوله تعالى ﴿**وترى الفلك**﴾ يعني السفن ﴿**مواخر فيه**﴾ يعني جواري فيه قال قتادة: مقبلة ومدبرة وذلك أنك ترى سفينتين إحداهما تقبل والأخرى تدبر تجريان بريح واحدة، وأصل المخر في اللغة الشق يقال: مخرت السفينة مخراً إذا شقت الماء بجؤجؤها. وقال مجاهد: تمخر الرياح السفن يعني أنها إذا جرت يسمع لها صوت قال أبو عبيدة: يعني من صوائح والمخر صوت هبوب الريح عند شدتها وقال الحسن: مواخر يعني مواقر أي مملوءة متاعاً ﴿**ولتبتغوا من فضله**﴾ يعني الأرباح بالتجارة في البحر ﴿**ولعلكم تشكرون**﴾ يعني إنعام الله عليكم إذا رأيتم نعم الله فيما سخر لكم ﴿**وألقى في الأرض رواسي**﴾ يعني جبالاً ثقالاً ﴿**أن تميد بكم**﴾ يعني لئلا تميل وتضطرب بكم، والميد هو اضطراب الشيء العظيم كالأرض، وقال وهب: لما خلق الله سبحانه وتعالى الأرض جعلت تمور وتتحرك فقالت الملائكة: إن هذه غير مقرة أحداً على ظهرها فأصبحوا، وقد أرسيت بالجبال فلم تدر الملائكة مم خلقت الجبال ﴿**وأنهاراً**﴾ يعني وجعل فيها أنهاراً لأن في ألقى معنى الجعل، فقوله سبحانه وتعالى: وأنهاراً معطوف على وألقى، ولما ذكر الله الجبال ذكر بعدها الأنهار لأن معظم عيون الأنهار، وأصولها تكون من الجبال ﴿**وسبلاً**﴾ يعني وجعل فيها طرقاً مختلفة تسلكونها في أسفاركم، والتردد في حوائجكم من بلد إلى بلد ومن مكان إلى مكان ﴿**لعلكم تهتدون**﴾ يعني بتلك السبل إلى ما تريدون فلا تضلون ﴿**وعلامات**﴾ يعني وجعل فيها علامات تهتدون بها في أسفاركم قال بعضهم: تم الكلام عند قوله: وعلامات ثم ابتدأ ﴿**وبالنجم هم يهتدون**﴾ قال محمد بن كعب والكلبي: أراد بالعلامات الجبال والنجوم، فالجبال علامات النهار، والنجوم علامات الليل. وقال مجاهد: أراد بالكل النجوم فمنها ما يكون علامات ومنها ما يهتدي به. وقال السدي: أراد بالنجم الثريا وبنات نعش والفرقدين والجدي، فهذه يهتدى بها إلى الطريق والقبلة. وقال قتادة: إنما خلق الله النجوم لثلاثة أشياء لتكون زينة السماء ومعالم الطريق ورجوماً للشياطين فمن قال غير هذا فقد تكلف ما لا علم له به. قوله سبحانه وتعالى ﴿**أفمن يخلق كمن لا يخلق**﴾ لما ذكر الله عز وجل من عجائب قدرته وغرائب صنعته، وبديع خلقه ما ذكر على الوجه الأحسن والترتيب الأكمل، وكانت هذه الأشياء المخلوقة المذكورة في الآيات المتقدمة كلها دالة على كمال قدرة الله تعالى، ووحدانيته وأنه تعالى هو المنفرد بخلقها جميعاً قال على سبيل الإنكار على من ترك عبادته واشتغل بعبادة هذه الأصنام التي لا تضر ولا تنفع، ولا تقدر على شيء ﴿**أفمن يخلق**﴾ يعني هذه الأشياء الموجودة المرئية بالعيان، وهو الله تعالى الخالق لها ﴿**كمن لا يخلق**﴾ يعني هذه الأصنام العاجزة التي لا تخلق شيئاً البتة، لأنها جمادات لا تقدر على شيء، فكيف يليق بالعاقل أن يشتغل بعبادتها ويترك عبادة من يستحق العبادة وهو الله خالق هذه الأشياء كلها، ولهذا

صوائخ والمخر صوت هبوب الريح عند شدّتها، ﴿ **ولتبتغوا من فضله** ﴾ يعني: التجارة، ﴿ **ولعلكم تشكرون** ﴾، إذا رأيتم صنع الله فيما سخر لكم.

﴿ **وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم** ﴾ أي: لئلا تميد بكم أي تتحرك وتميل، والميد: هو الاضطراب والتكفؤ ومنه قيل للدوار الذي يعتري راكب البحر: مَيَدٌ قال وهب: لمّا خلق الله الأرض جعلت تمور فقالت الملائكة: إن هذه غير مقرّة أحداً على ظهرها فأصبحت وقد أُرسيت بالجبال فلم تدرِ الملائكة مِمَّ خلقت الجبال، ﴿ **وأنهاراً وسُبلاً** ﴾ أي: وجعل فيها أنهاراً وطرقاً مختلفة، ﴿ **لعلّكم تهتدون** ﴾، إلى ما تريدون فلا تضلون.

﴿ **وعلامات** ﴾، يـعني: معالم الطرق. قال بعضهم: ههُنا تمّ الكلام ثم ابتدأ، ﴿ **وبالنجم هم يهتدون** ﴾، قال محمد بن كعب والكلبي: أراد بالعلامات الجبال والجبال تكون علامات النهار والنجوم علامات الليل. وقال مجاهد: أراد بالكل النجوم منها ما يكون علامات ومنها ما يهتدون به. قال السدي: أراد بالنجوم الثريا وبنات نعش

المعنى ختم هذه الآية بقوله ﴿أفلا تذكرون﴾ يعني أن هذا القدر ظاهر غير خافٍ على أحد فلا يحتاج فيه إلى دقيق الفكر والنظر بل مجرد التذكر فيه، كفاية لمن فهم وعقل واعتبر بما ذكره. بقي في الآية سؤالان: الأول: قوله: كمن لا يخلق المراد به الأصنام وهي جمادات لا تعقل فكيف يعبر عنها بلفظة من وهي لمن يعقل، والجواب عنه أن الكفار لما سموا هذه الأصنام آلة وعبدوها أجريت مجرى من يعقل في زعمهم ألا ترى إلى قوله: بعد هذا والذين تدعون من دون الله لا يخلقون شيئاً فخاطبهم على قدر زعمهم، وعقولهم. السؤال الثاني: قوله: أفمن يخلق كمن لا يخلق المقصود منه إلزام الحجة على من عبد الأصنام حيث جعل غير الخالق مثل الخالق، فكيف قال على سبيل الاستفهام أفمن يخلق كمن لا يخلق والجواب عنه أنه ليس المراد منه الاستفهام بل المراد منه أن من خلق الأشياء العظيمة وأعطى هذه النعم الجزيلة، كيف يسوى بينه وبين هذه الجمادات الخسيسة في التسمية والعبادة، وكيف يليق بالعاقل أن يترك عبادة من يستحق العبادة لأنه خالق هذه الأشياء الظاهرة كلها، ويشتغل بعبادة جمادات لا يخلق شيئاً البتة والله أعلم. وقوله تعالى ﴿وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها﴾ يعني أن نعم الله على العبد فيما خلق الله فيه من صحة البدن وعافية الجسم، وإعطاء النظر الصحيح والعقل السليم، والسمع الذي يفهم به الأشياء وبطش اليدين وسعي الرجلين إلى غير ذلك مما أنعم به عليه في نفسه، وفيما أنعم به عليه مما خلق له من جميع ما يحتاج إليه من أمر الدين والدنيا لا تحصى حتى لو رام أحد معرفة أدنى نعمة من هذه النعم لعجز عن معرفتها وحصرها فكيف بنعمة العظام التي لا يمكن الوصول إلى حصرها لجميع الخلق فذلك قوله تعالى ﴿وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها﴾ يعني ولو اجتهدتم في ذلك وأتعبتم نفوسكم لا تقدرون عليه ﴿إن الله لغفور﴾ يعني لتقصيركم في القيام بشكر نعمته كما يجب عليكم ﴿رحيم﴾ يعني بكم حيث وسع عليكم النعم، ولم يقطعها عنكم بسبب التقصير، والمعاصي ﴿والله يعلم ما تسرّون وما تعلنون﴾ يعني أن الكفار مع كفرهم كانوا يسرون أشياء. وهو ما كانوا يمكرون بالنبي ﷺ، وما يعلنون يعني، وما يظهرون من إيذائه فأخبرهم الله عز وجل أنه عالم بكل أحوالهم سرها وعلانيتها لا تخفى عليه خافية وإن دقت وخفيت، وقيل: إن الله سبحانه تعالى لما ذكر الأصنام وذكر عجزها في الآية المتقدمة ذكر في هذه الآية أن الإله الذي يستحق العبادة، يجب أن يكون عالماً بكل المعلومات سرها وعلانيتها، وهذه الأصنام ليست كذلك فلا تستحق العبادة ثم وصف الله هذه الأصنام بصفات فقال تعالى ﴿والذين تدعون من دون الله﴾ يعني الأصنام التي تدعونها آلهة من دون الله ﴿لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون﴾ فإن قلت: قوله سبحانه وتعالى في الآية المتقدمة أفمن يخلق كمن

والفرقدين والجدي يهتدون بها إلى الطرق والقِبلة. وقال قتادة: إنما خلق الله النجوم لثلاثة أشياء لتكون زينة للسماء ومعالم للطرق ورجوماً للشياطين. فمَن قال غير هذا فقد تكلّف ما لا علم له به.

﴿ أفمن يخلق ﴾، يعني: الله تعالى، ﴿ كمَنْ لا يخلق ﴾، يعني: الأصنام، ﴿ أفلا تذكّرون ﴾.

﴿ وإن تعدّوا نعمةَ الله لا تُحصوها إنّ الله لغفورٌ ﴾ لتقصيركم في شكر نعمه، ﴿ رحيمٌ ﴾ بكم حيث وسّع عليكم النعم ولم يقطعها عنكم بالتقصير والمعاصي.

﴿ والله يعلم ما تُسرّون وما تعلنون ﴾.

﴿ والذي تدعون من دون الله ﴾ يعني: الأصنام، وقرأ عاصم ويعقوب «يـدعون» بالياء. ﴿ لا يخلقون شيئاً وهم يُخلقون ﴾.

﴿ أموات ﴾ أي: الأصنام ﴿ غير أحياء وما يشعرون ﴾، يعني: الأصنام ﴿ أيّان ﴾ متى ﴿ يُبعثون ﴾، والقرآن يدلّ على أن الأصنام تُبعَث وتُجعَل فيها الحياة فتتبرأ من عابديها. وقيل: ما يدري الكفّار عبَدَة الأصنام متى يُبعَثون.

لا يخلق، يدل على أن هذه الأصنام لا تخلق شيئاً فقوله سبحانه وتعالى: لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون هذا هو نفس المعنى المذكور في تلك الآية فما فائدة التكرار؟ قلت: فائدته أن المعنى المذكور في الآية المتقدمة أنهم لا يخلقون شيئاً فقط والمذكور في هذه الآية أنهم لا يخلقون شيئاً وإنهم مخلوقون كغيرهم، فكان هذا زيادة في المعنى وهو فائدة التكرار ﴿**أموات**﴾ أي جمادات ميتة لا حياة فيها ﴿**غير أحياء**﴾ يعني كغيرها، والمعنى لو كانت هذه الأصنام آلهة كما تزعمون لكانت أحياء غير جائز عليها الموت لأن الإله الذي يستحق أن يعبد هو الحي الذي لا يموت وهذه أموات غير أحياء، فلا تستحق العبادة فمن عبدها فقد وضع العبادة في غير موضعها. وقوله ﴿**وما يشعرون**﴾ يعني هذه الأصنام ﴿**أيان يبعثون**﴾ يعني متى يبعثون وفيه دليل على أن الأصنام تجعل فيها الحياة، وتبعث يوم القيامة حتى تتبرأ من عابديها. وقيل: معناه ما يدري الكفار الذين عبدوا الأصنام متى يبعثون. قوله سبحانه وتعالى ﴿**إلهكم إله واحد**﴾ يعني أن الذي يستحق العبادة هو إله واحد، وهذه أصنام متعددة فكيف تستحق العبادة ﴿**فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة**﴾ يعني جاحدة لهذا المعنى ﴿**وهم مستكبرون**﴾ يعني عن اتباع الحق لأن الحق إذا تبين كان تركه تكبراً ﴿**لا جرم**﴾ يعني حقاً ﴿**أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون إنه لا يحب المستكبرين**﴾ يعني عن اتباع الحق (م) عن ابن مسعود أن النبي ﷺ قال «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر» فقال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً وفعله حسناً قال: «إن الله جميل يحب الجمال الكبر بطر الحق، وغمط الناس» قوله بطر الحق هو أن يجعل ما جعله الله حقاً من توحيده، وعبادته باطلاً وهذا على قول من جعل أصل البطر من الباطل، ومن جعله من الحيرة فمعناه يتحير عند سماء الحق فلا يقبله، ولا يجعله حقاً، وقيل: البطر التكبر يعني أنه يتكبر عند سماع الحق فلا يقبله، وقوله: وغمط الناس يقال: غمطت حق فلان إذا احتقرته ولم تره شيئاً وكذا معنى غمصته أي انتقصت به وازدريته.

قوله عز وجل:

وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾ قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمْ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ فَأَلْقَوُاْ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾ ۞ وَقِيلَ

قوله تعالى: ﴿ **إلٰهكم إلٰه واحد فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة** ﴾، جاحدة، ﴿ **وهم مستكبرون** ﴾، متعظّمون.

﴿ **لا جَرَم** ﴾، حقاً ﴿ **أنّ الله يعلم ما يسرّون وما يعلنون إنّه لا يحب المستكبرين** ﴾، أخبرنا أبو سعيد بكر بن محمد بن محمد بن يحيىٰ البسطامي أنا أبو الحسن عبد الرحمن بن إبراهيم بن سحتوتة أنا أبو الفضل سفيان بن محمد الجوهري ثنا علي بن الحسن ابن أبي عيسى الهلالي ثنا يحيىٰ بن حماد ثنا شعبة عن أبَان بن ثعلبة عن فضيل العقيمي عن إبراهيم النخعي عن علقمة بن قيس عن عبد الله عن النبي ﷺ قال: «لا يدخلُ الجنةَ مَن كان في قلبه مثقالُ ذرّة من كِبْرٍ ولا يدخلُ النارَ مَن في قلبه مثقالُ ذرّة من إيمان»، فقال رجل: يا رسول الله إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسناً؟ قال: «إنّ الله جميلٌ يحب الجمال، الكِبْرُ بَطَرُ الحق وغمطُ الناس».

لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْۚ قَالُواْ خَيْرٗاۗ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٞۚ وَلَدَارُ ٱلْأٓخِرَةِ خَيْرٞۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٖ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُۖ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَۚ كَذَٰلِكَ يَجْزِي ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾

﴿**وإذا قيل لهم**﴾ يعني لهؤلاء الذين لا يؤمنون بالآخرة وهم كفار مكة الذين اقتسموا عقابها، وطرقها إذا سألهم الحاج الذين يقدمون عليهم ﴿**ماذا أنزل ربكم قالوا أساطير الأولين**﴾ يعني أحاديثهم وأباطيلهم ﴿**ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة**﴾ اللام في ليحملوا لام العاقبة وذلك أنهم لما وصفوا القرآن بكونه أساطير الأولين، كانت عاقبتهم بذلك أن يحملوا أوزارهم يعني ذنوب أنفسهم وإنما قال سبحانه وتعالى: كاملة لأن البلايا التي أصابتهم في الدنيا وأعمال البر التي عملوها في الدنيا، لا تكفر عنهم شيئاً يوم القيام بل يعاقبون بكل أوزارهم قال الإمام فخر الدين: وهذا يدل على أنه سبحانه وتعالى قد يسقط بعض العقاب عن المؤمنين، إذ لو كان هذا المعنى حاصلاً في حق الكل، لم يكن لتخصيص هؤلاء الكفار بهذا التكميل فائدة. وقوله سبحانه وتعالى ﴿**ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم**﴾ يعني ويحصل للرؤساء الذين أضلوا غيرهم وصدوهم عن الإيمان، مثل أوزار الأتباع والسبب فيه ما روي عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً» أخرجه مسلم ومعنى الآية، والحديث أن الرئيس أو الكبير إذا سنَّ سنة حسنة أو سنة قبيحة، فتبعه عليها جماعة، فعملوا بها فإن الله سبحانه وتعالى يعظم ثوابه أو عقابه حتى يكون ذلك الثواب أو العقاب مساوياً لكل ما يستحقه كل واحد من الأتباع، الذين عملوا بسنته الحسنة أو القبيحة، وليس المراد أن الله تعالى يوصل جميع الثواب أو العقاب الذي يستحقه الأتباع إلى الرؤساء، لأن ذلك ليس بعدل ويدل عليه قوله تعالى: ولا تزر وازرة وزر أخرى، وقوله تعالى: ﴿وأن ليس للإنسان إلا ما سعى﴾. قال الواحدي: ولفظة من في قوله ومن أوزار الذين يضلونهم، **بغير** علم ليست للتبعيض لأنها لو كانت للتبعيض لنقص عن الأتباع بعض الأوزار، وذلك غير جائز لقوله عليه الصلاة والسلام «لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً»، ولكنها للجنس أي ليحملوا من جنس أوزار الأتباع وقوله: بغير علم يعني أن الرؤساء إنما يقدمون على إضلال غيرهم، **بغير** علم، بما يستحقونه من العقاب، على ذلك الإضلال بل يقدمون على ذلك جهلاً منهم بما يستحقونه من العذاب الشديد. ﴿**ألا ساء ما يزرون**﴾ يعني ألا بئس ما يحملون ففيه وعيد وتهديد. قوله سبحانه وتعالى ﴿**قد مكر الذين من قبلهم**﴾ يعني من قبل كفار قريش وهو نمروذ بن كنعان الجبار، وكان أكبر ملوك الأرض في زمن إبراهيم ﷺ

﴿ **وإذا قيل لهم** ﴾، يعني: لهؤلاء الذين لا يؤمنون بالآخرة وهم مشركو مكة الذين اقتسموا عقابها إذا سأل منهم الحاجّ، ﴿ **ماذا أنزل ربكم قالوا أساطير الأولين** ﴾، أحاديثهم وأباطيلهم.

﴿ **ليحملوا** ﴾ أي: ليجعلوا، ﴿ **أوزارَهم** ﴾، ذنوب أنفسهم، ﴿ **كاملة** ﴾، وإنما ذكر الكمال لأن البلايا التي تلحقهم في الدنيا وما يفعلون فيها من الحسنات لا تكفّر عنهم شيئاً، ﴿ **يوم القيامة ومن أوزار الذين يُضلّونهم بغير علم** ﴾، بغير حجّة فيصدّونهم عن الإيمان، ﴿ **ألَا ساءَ ما يزِرُون** ﴾، ما يحملون. أنا أبو عبد الله محمد بن الفضل الخرقي أنا أبوالحسن علي بن عبد الله الطيسفوني أنا عبد الله بن عمر الجوهري أنا أحمد بن علي الكشمهيني ثنا علي بن حجر ثنا إسماعيل بن جعفر عن العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «مَن دعا إلى هُدىً كان له من الأجر مثل أُجور مَن تبعه لا ينقص ذلك من أُجورهم شيئاً، ومَن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام مَن تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً».

وكان من مكره أنه بنى صرحاً ببابل ليصعد إلى السماء، ويقاتل أهلها في زعمه. قال ابن عباس: وكان طول الصرح في السماء خمسة آلاف ذراع. وقال كعب ومقاتل: كان طوله فرسخين فهبت ريح فقصفته وألقت رأسه في البحر وخر عليهم الباقي فأهلكهم وهم تحته ولما سقط تبلبلت ألسنة الناس من الفزع فتكلموا يومئذ بثلاثة وسبعين لساناً، فلذلك سميت بابل وكان لسان الناس قبل ذلك السريانية قلت هكذا ذكره البغوي وفي هذا نظر لأن صالحاً عليه السلام كان قبلهم وكان يتكلم بالعربية، وكان أهل اليمن عرباً منهم جرهم الذي نشأ إسماعيل بينهم، وتعلم منهم العربية وكانت قبائل من العرب قديمة قبل إبراهيم عليه السلام، مثل طسم وجديس وكل هؤلاء عرب تكلموا في قدم الزمان بالعربية، ويدل على صحة هذا قوله: ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى والله أعلم. وقيل: حمل قوله قد مكر الذين من قبلهم على العموم أولى فتكون الآية عامة في جميع الماكرين المبطلين الذين يحاولون إلحاق الضرر والمكر بالغير، وقوله سبحانه وتعالى ﴿**فأتى الله بنيانهم من القواعد**﴾ يعني قصد تخريب بنيانهم من أصوله، وذلك بأن أتاهم بريح قصفت بنيانهم من أعلى، وأتاهم بزلازل قلعت بنيانهم من قواعده وأساسه، هذا إذا حملنا تفسير الآية على القول الأول، وهو ظاهر اللفظ وإن حملنا تفسير الآية على القول الثاني: وهو حملها على العموم كان المعنى أنهم لما رتبوا منصوبات ليمكروا بها على أنبياء الله وأهل الحق من عباده أهلكهم الله تعالى، وجعل هلاكهم مثل هلاك بنوا بنياناً وثيقاً شديداً ودعموه بالأساطين فانهدم ذلك البنيان، وسقط عليهم فأهلكهم فهو مثل ضربه الله سبحانه وتعالى لمن مكر بآخر فأهلكه الله بمكره، ومنه المثل السائر على ألسنة الناس: من حفر بئراً لأخيه أوقعه الله فيه. وقوله تعالى ﴿**فخرّ عليهم السقف من فوقهم**﴾ يعني سقط عليهم السقف فأهلكهم وقوله: من فوقهم للتأكيد لأن السقف لا يخر إلا من فوقهم. وقيل: يحتمل أنهم لم يكونوا تحت السقف عند سقوطه، فلما قال من فوقهم علم أنهم كانوا تحته، وأنه لما خر عليهم أهلكوا وماتوا تحته ﴿**وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون**﴾ يعني في مأمنهم، وذلك أنهم لما اعتمدوا على قوة بنيانهم، وشدته كان ذلك البنيان سبب هلاكهم ﴿**ثم يوم القيامة يخزيهم**﴾ يعني يهينهم بالعذاب، وفيه إشارة بأن العذاب يحصل لهم في الدنيا والآخرة لأن الخزي هو العذاب مع الهوان ﴿**ويقول**﴾ يعني ويقول: الله لهم يوم القيامة ﴿**أين شركائي**﴾ يعني في زعمكم واعتقادكم ﴿**الذين كنتم تشاقون فيهم**﴾ يعني كنتم تعادون وتخالفون المؤمنين وتخاصمونهم في شأنهم لأن المشاقة عبارة عن كون كل واحد من الخصمين في شق غير شق صاحبه، والمعنى: ما لهم لا يحضرون معكم ليدفعوا عنكم ما نزل بكم من العذاب والهوان ﴿**قال الذين أوتوا العلم**﴾ يعني المؤمنين وقيل الملائكة ﴿**إن الخزي**﴾ يعني الهوان ﴿**اليوم**﴾ يعني في هذا اليوم وهو يوم القيامة ﴿**والسوء**﴾ يعني العذاب ﴿**على**

قوله تعالى: ﴿ **قد مكر الذين من قبلهم** ﴾، وهو نمروذ بن كنعان، بنى الصرح ببابل ليصعد السماء. قال ابن عباس ووهب: كان طول الصرح في السماء خمسة آلاف ذراع. وقال كعب ومقاتل: كان طوله فرسخين فهبّت ريح وألقت رأسه في البحر وخرّ عليهم الباقي وهم تحته، ولمّا سقط الصرح تبلبلت ألسن الناس من الفزع يومئذ فتكلموا بثلاثة وسبعين لساناً فلذلك سُمّيت بابل، وكان لسان الناس قبل ذلك بالسريانية، فذلك قوله تعالى: ﴿ **فأتى الله بنيانهم من القواعد** ﴾ أي: قصد تخريب بنيانهم من أصولها، ﴿ **فخرّ عليهم السَّقْفُ** ﴾ يعني أعلى البيوت ﴿ **من فوقهم وأتاهم العذابُ من حيثُ لا يشعرون** ﴾، من مأمنهم.

﴿ **ثم يوم القيامة يُخزيهم** ﴾، يهينهم بالعذاب، ﴿ **ويقول أين شركائي الذين كنتم تشاقّون فيهم** ﴾، تخالفون المؤمنون فيهم ما لهم لا يحضرونكم فيدفعون عنكم العذاب، وكسر نافع النون من ﴿ **تشاقون** ﴾ على الإضافة، والآخرون بفتحها. ﴿ **قال الذين أُوتُوا العلم** ﴾، وهم المؤمنون، ﴿ **إنّ الخزيَ** ﴾، الهوان، ﴿ **اليوم والسوء** ﴾، أي: العذاب، ﴿ **على الكافرين** ﴾.

الكافرين﴾ وإنما يقول المؤمنون: هذا يوم القيامة لأن الكفار كانوا يستهزئون بالمؤمنين في الدنيا، وينكرون عليهم أحوالهم فإذا كان يوم القيامة ظهر أهل الحق، وأُكرموا بأنواع الكرامات وأهين أهل الباطل وعذبوا بأنواع العذاب فعند ذلك يقول المؤمنون: إن الخزي اليوم والسوء على الكافرين وفائدة هذا القول إظهار الشماتة بهم فيكون أعظم في الهوان، والخزي قوله تعالى ﴿**الذين تتوفاهم الملائكة**﴾ تقبض أرواحهم الملائكة، وهم ملك الموت وأعوانه ﴿**ظالمي أنفسهم**﴾ يعني بالكفر ﴿**فألقوا السلم**﴾ يعني أنهم استسلموا وانقادوا لأمر الله الذي نزل بهم وقالوا ﴿**ما كنا نعمل من سوء**﴾ يعني شركاً وإنما قالوا: ذلك من شدة الخوف ﴿**بلى إن الله عليم بما كنتم تعملون**﴾ يعني فلا فائدة لكم في إنكاركم. قال عكرمة: عنى بذلك ما حصل من الكفار يوم بدر ﴿**فادخلوا**﴾ أي فيقال لهم ادخلوا ﴿**أبواب جهنم خالدين فيها**﴾ يعني مقيمين فيها لا يخرجون منها. وإنما قال ذلك لهم ليكون أعظم في الغم والحزن، وفيه دليل على أن الكفار بعضهم أشد عذاباً من بعض ﴿**فلبئس مثوى المتكبرين**﴾ يعني عن الإيمان قوله عز وجل ﴿**وقيل للذين اتقوا ماذا أنزل ربكم قالوا خيراً**﴾ وذلك أن أحياء العرب كانوا يبعثون إلى مكة أيام الموسم من يأتيهم بخبر النبي ﷺ فإذا جاء الوافد سأل الذين كانوا يقعدون على طرقات مكة من الكفار، فيقولون: هو ساحر كاهن شاعر كذاب مجنون وإذا لم تلقه خير لك. فيقول الوافد: أنا شر وافد إن رجعت إلى قومي من دون أن أدخل مكة فألقاه فيدخل مكة، فيرى أصحاب رسول الله ﷺ فيسألهم عنه فيخبرونه بصدقه، وأمانته وأنه نبي مبعوث من الله عز وجل، فذلك قوله سبحانه وتعالى: وقيل الذين اتقوا يعني اتقوا الشرك، وقول الزور والكذب ماذا أنزل ربكم؟ قالوا: خيراً يعني أنزل خيراً فان قلت لم رفع الأول وهو قوله: أساطير الأولين ونصب الثاني، وهو قوله قالوا خيراً قلت ليحصل الفرق بين الجوابين جواب المنكر الجاحد، وجواب المقر المؤمن وذلك أنهم لما سألوا الكفار عن المنزل على النبي ﷺ عدلوا بالجواب عن السؤال فقالوا: هو أساطير الأولين وليس هو من الإنزال في شيء لأنهم لم يعتقدوا كونه منزلاً، ولما سألوا المؤمنين على المنزل على النبي ﷺ لم يتلعثموا، وأطبقوا الجواب على السؤال بيّناً مكشوفاً معقولاً للإنزال فقالوا: خيراً أي أنزل خيراً، وتم الكلام عند قوله خيراً فهو، وقف تام ثم ابتدأ بقوله تعالى ﴿**للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة**﴾ يعني للذين أتوا بالأعمال الصالحة الحسنة ثوابها حسنة مضاعفة من الواحد إلى العشرة إلى السبعمائة إلى أضعاف كثيرة، وقال الضحاك: هي النصر والفتح. وقال مجاهد: هي الرزق الحسن. فعلى هذا يكون معنى الآية للذين أحسنوا ثواب إحسانهم في هذه الدنيا حسنة، وهي النصر والفتح والرزق الحسن، وغير ذلك مما أنعم الله به على عباده في الدنيا، ويدل على صحة هذا التأويل قوله تعالى ﴿**ولدار الآخرة خير**﴾ يعني ما لهم في الآخرة مما أعد الله لهم في الجنة خير مما يحصل لهم في الدنيا ﴿**ولنعم دار المتقين**﴾ يعني الجنة وقال الحسن: هي الدنيا لأن أهل

﴿ **الذين تتوفّاهم الملائكة** ﴾، يقبض أرواحهم ملك الموت وأعوانه، قرأ حمزة «يتوفاهم» بالياء وكذا ما بعده، ﴿ **ظالمي أنفسهم** ﴾، بالكفر، ونصب على الحال أي: في حال كفرهم، ﴿ **فَأَلقَوُا السَّلَمَ** ﴾ أي: استسلموا وانقادوا وقالوا: ﴿ **ما كنّا نعمل من سوء** ﴾، شرك فقال لهم الملائكة: ﴿ **بلى إنّ الله عليم بما كنتم تعملون** ﴾. قال عكرمة: عنى بذلك من قتل من الكفّار ببدر.

﴿ **فادْخُلُوا** ﴾ أي: قال لهم ادخلوا ﴿ **أبوابَ جهنم خالدين فيها فلبئس مثوى المتكبّرين** ﴾، عن الإيمان، ﴿ **وقيل للذين اتقوا** ﴾ وذلك أن أحياء العرب كانوا يبعثون أيام الموسم مَن يأتيهم بخبر النبي ﷺ فإذا جاء يسأل الذين قعدوا على الطرق عنه فيقولون ساحر كاهن شاعر كذّاب مجنون، ولو لم تلقه خير، فيقول السائل: إنّا شرّ وفد إن رجعت إلى قومي دون أن أدخل مكة فألقاه فيدخل مكة فيرى أصحاب النبي ﷺ فيخبرونه بصدقه وأنه نبيّ مبعوث.

التقوى يتزودون منها إلى الآخرة والقول الأول أولى وهو قول جمهور المفسرين لأن الله فسر هذه الدار بقوله **﴿جنّات عدن﴾** يعني بساتين إقامة من قولهم: عدنَ بالمكان، أي أقام به **﴿يدخلونها﴾** يعني تلك الجنات لا يرحلون عنها ولا يخرجون منها **﴿تجري من تحتها الأنهار﴾** يعني تجري الأنهار في هذه الجنات من تحت دور أهلها وقصورهم ومساكنهم **﴿لهم فيها﴾** يعني في الجنات **﴿ما يشاؤون﴾** يعني ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين مع زيادات غير ذلك، وهذه الحالة لا تحصل لأحد إلا في الجنة لأن قوله فيها ما يشاؤون لا يفيد الحصر، وذلك يدل على أن الإنسان لا يجد كل ما يريد في الدنيا **﴿كذلك يجزي الله المتقين﴾** أي هكذا يكون جزاء المتقين، ثم عاد إلى وصف المتقين فقال تعالى **﴿الذين تتوفاهم الملائكة طيبين﴾** يعني مؤمنين طاهرين من الشرك. قال مجاهد: زاكية أقوالهم وأفعالهم وقيل: إن قوله طيبين كلمة جامعة لكل معنى حسن فيدخل فيه أنهم، أتوا بكل ما أمروا به من فعل الخيرات والطاعات، واجتنبوا كل ما نهوا عنه من المكروهات، والمحرمات مع الأخلاق الحسنة والخصال الحميدة، والمباعدة من الأخلاق المذمومة والخصال المكروهة القبيحة وقيل معناه إن أوقاتهم تكون طيبة سهلة لأنهم يبشرون عند قبض أرواحهم بالرضوان والجنة والكرامة، فيحصل لهم عند ذلك الفرح والسرور والابتهاج، فيسهل عليهم قبض أرواحهم ويطيب لهم الموت على هذه الحالة **﴿يقولون﴾** يعني الملائكة لهم **﴿سلام عليكم﴾** يعني تسلم عليهم الملائكة أو تبلغهم السلام من الله **﴿ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون﴾** يعني في الدنيا من الأعمال الصالحة. فإن قلت: كيف الجمع بين قوله تعالى ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون وبين قوله: ﷺ «لن يدخل أحد منكم الجنة بعمله قالوا ولا أنت يا رسول الله قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله بفضله ورحمته» أخرجاه في الصحيحين من حديث أبي هريرة؟ قلت: قال الشيخ محيي الدين النووي رحمه الله في شرح مسلم. اعلم أن مذهب أهل السنة أنه لا يثبت بالعقل ثواب ولا عقاب ولا غيرها إلا بالشرع ومذهب أهل السنة أيضاً أن الله سبحانه وتعالى لا يجب عليه شيء بل العالم كله ملكه والدنيا والآخرة في سلطانه يفعل فيهما ما يشاء فلو عذب المطيعين والصالحين أجمعين، وأدخلهم النار كان ذلك عدلاً منه، وإذا أكرمهم ورحمهم وأدخلهم الجنة فهو فضل منه ولو نعم الكافرون، وأدخلهم الجنة كان ذلك له ومنه فضلاً، ولكنه سبحانه وتعالى أخبر وخبره صادق أنه لا يفعل هذا بل يغفر للمؤمنين، ويدخلهم الجنة برحمته ويعذب الكافرين ويدخلهم النار عدلاً منه. وأما المعتزلة فيثبتون الأحكام بالعقل، ويوجبون ثواب الأعمال ويوجبون الأصلح في خبط طويل لهم، تعالى الله عن اختراعاتهم الباطلة المنابذة لنصوص الشرع. وفي ظاهر هذا الحديث دلالة لأهل الحق أنه لا يستحق أحد الثواب والجنة بطاعته. وأما قوله سبحانه وتعالى: «ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون ـ وتلك الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعملون» ونحوها من الآيات التي تدل على أن الأعمال الصالحة يدخل بها الجنة، فلا تعارض بينها، وبين هذا الحديث بل معنى الآيات: أن دخول الجنة بسبب الأعمال والتوفيق للإخلاص فيها وقبولها برحمة الله

فلذلك قوله: **﴿ وقيل للذين اتقوا ماذا أنزل ربكم قالوا خيراً ﴾** يعني: أنزل خيراً، ثم ابتدأ فقال: **﴿ للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة ﴾**، كرامة من الله. قال ابن عباس: هي تضعيف الأجر إلى العُشر. وقال الضحاك: هي النصر والفتح. وقال مجاهد: هي الرزق الحسن. **﴿ ولَدارُ الآخرة ﴾**، أي ولَدارُ الحال الآخرة، **﴿ خير ولنعم دارُ المتّقين ﴾**، قال الحسن: هي الدنيا لأن أهل التقوى يتزوّدون فيها للآخرة. وقال أكثر المفسّرين: هي الجنة، ثم فسّرها.

فقال: **﴿ جناتُ عدنٍ يدخلونها تجري من تحتها الأنهار لهم فيها ما يشاؤون كذلك يجزي الله المتقين ﴾**.

﴿ الذين تتوفاهم الملائكة طيبين ﴾، مؤمنين طاهرين من الشرك. قال مجاهد: زاكية أفعالهم وأقوالهم.

تعالى وفضله فيصح أنه لم يدخل الجنة بمجرد العمل وهو مراد الحديث ويصح أنه دخل بالأعمال أي بسببها وهي من الرحمة، والفضل والمنة والله أعلم بمراده قوله تعالى:

هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ
وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٤﴾
وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ
كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ
ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ
فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّن
نَّٰصِرِينَ ﴿٣٧﴾ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۙ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ ۚ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ
لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾

﴿**هل ينظرون**﴾ يعني هؤلاء الذين أشركوا بالله وجحدوا نبوتك يا محمد ﴿**إلا أن تأتيهم الملائكة**﴾ يعني لقبض أرواحهم ﴿**أو يأتي أمر ربك**﴾ يعني بالعذاب في الدنيا وهو عذاب الاستئصال. وقيل: المراد به يوم القيامة ﴿**كذلك فعل الذين من قبلهم**﴾ يعني من الكفر والتكذيب ﴿**وما ظلمهم الله**﴾ يعني بتعذيبه إياهم ﴿**ولكن كانوا أنفسهم يظلمون**﴾ يعني باكتسابهم المعاصي، والكفر والأعمال القبيحة الخبيثة، ﴿**فأصابهم سيئات ما عملوا**﴾ يعني فأصابهم عقوبات ما اكتسبوا من الأعمال الخبيثة ﴿**وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون**﴾ والمعنى ونزل بهم جزاء استهزائهم ﴿**وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن ولا آباؤنا**﴾ يعني أن مشركي مكة قالوا هذا على طريق الاستهزاء. والحاصل أنهم تمسكوا بهذا القول في إنكار النبوة، فقالوا: لو شاء الله منا الإيمان لحصل جئت أو لم تجيء ولو شاء الله منا الكفر لحصل جئت أو لم تجيء. وإذا كان كذلك فالكل من الله، فلا فائدة في بعثة رسل إلى الأمم والجواب عن هذا أنهم لما قالوا: إن الكل من الله فكانت بعثة الرسل عبثاً كان هذا اعتراضاً على الله تعالى، وهو جار مجرى طلب العلة في أحكام الله، وفي أفعاله وهو باطل لأن الله سبحانه وتعالى يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد فلا اعتراض لأحد عليه في أحكامه وأفعاله، ولا يجوز لأحد أن يقول له لم فعلت هذا، ولم لم تفعل هذا وكان في حكم الله وسنته في عباده إرسال الرسل إليهم ليأمروهم بعبادة الله تعالى، وينهوهم عن عبادة غيره وأن الهداية والإضلال إليه فمن هداه فهو المهتدي، ومن أضله فهو الضال وهذه سنة الله في عباده أنه يأمر الكل بالإيمان به وينهاهم عن الكفر.

وقيل: معناه إن وفاتهم تقع طيبة سهلة. ﴿ **يقولون** ﴾ يعني: الملائكة لهم، ﴿ **سلام عليكم** ﴾، وقيل: معناه يبلغونهم سلام الله، ﴿ **ادخلوا الجنّة بما كنتم تعملون** ﴾.

قوله: ﴿ **هلْ ينظرون إلا أنْ تأتيهمُ الملائكة** ﴾، لقبض أرواحهم، ﴿ **أو يأتيَ أمرُ ربِّك** ﴾، يعني: يوم القيامة، وقيل: العذاب. ﴿ **كذلك فعل الذين من قبلهم** ﴾، أي: كفروا كما كفر الذين من قبلهم، ﴿ **وما ظلمهم الله** ﴾ بتعذيبه إيّاهم، ﴿ **ولكن كانوا أنفسهم يظلمون** ﴾.

﴿ **فأصابهم سيئات ما عملوا** ﴾، عقوبات كفرهم وأعمالهم الخبيثة، ﴿ **وحاق بهم** ﴾، نزل بهم، ﴿ **ما كانوا به يستهزؤون** ﴾.

ثم إنه سبحانه وتعالى يهدي من يشاء إلى الإيمان، ويضلّ من يشاء فلا اعتراض لأحد عليه. ولما كانت سنة الله قديمة ببعثة الرسل إلى الأمم الكافرة المكذبة كان قول هؤلاء لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن ولا آباؤنا جهلاً منهم، لأنهم اعتقدوا أن كون الأمر كذلك يمنع من جواز بعثة الرسل وهذا الاعتقاد باطل فلا جرم استحقوا عليه الذم والوعيد. وأما قوله تعالى ﴿ولا حرمنا من دونه من شيء﴾ يعني الوصيلة والسائبة والحام. والمعنى: فلولا أن الله رضيها لنا لغير ذلك ولهدانا إلى غيره ﴿كذلك فعل الذين من قبلهم﴾ يعني أن من تقدم هؤلاء من كفار مكة ومن الأمم الماضية كانوا على هذه الطريقة، وهذا الفعل الخبيث فإنكار بعثة الرسل كان قديماً في الأمم الخالية ﴿فهل على الرسل إلا البلاغ المبين﴾ يعني ليس إليهم هداية أحد إنما عليهم تبليغ ما أرسلوا به إلى من أرسلوا إليه ﴿ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً﴾ يعني كما بعثنا فيكم محمداً ﷺ ﴿أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت﴾ يعني أن الرسل كانوا يأمرونهم بأن يعبدوا الله وأن يجتنبوا عبادة الطاغوت، وهو اسم كل معبود من دون الله ﴿فمنهم﴾ يعني فمن الأمم الذين جاءتهم الرسل ﴿من هدى الله﴾ يعني هداه الله إلى الإيمان به وتصديق رسله ﴿ومنهم من حقت عليه الضلالة﴾ يعني، ومن الأمم من وجبت عليه الضلالة بالقضاء السابق في الأزل حتى مات على الكفر والضلال، وفي هذه الآية أبين دليل على أن الهادي، والمضل هو الله تعالى لأنه المتصرف في عباده فيهدي من يشاء ويضل من يشاء لا اعتراض لأحد عليه بما حكم به في سابق علمه ﴿فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين﴾ يعني فسيروا في الأرض معتبرين متفكرين لتعرفوا مآل من كذب الرسل، وهو خراب منازلهم بالعذاب والهلاك، ولتعرفوا أن العذاب نازل بكم إن أصررتم على الكفر والتكذيب كما نزل بهم. قوله سبحانه وتعالى ﴿إن تحرص على هداهم﴾ الخطاب للنبي ﷺ يعني إن تحرص يا محمد على هدى هؤلاء، وإيمانهم وتجتهد كل الاجتهاد ﴿فإن الله لا يهدي من يضل﴾ قرىء بفتح الياء وكسر الدال يعني لا يهدي الله من أضله، وقيل: معناه لا يهتدي من أضله الله وقرىء بضم الياء، وفتح الدال ومعناه من أضله الله فلا هادي له ﴿وما لهم من ناصرين﴾ أي مانعين يمنعونهم من العذاب ﴿وأقسموا بالله جهد أيمانهم﴾ قال ابن الجوزي: سبب نزولها أن رجلاً من المسلمين كان له على رجل من المشركين دين فأتاه يتقاضاه فكان فيما تكلم به المسلم: والذي أرجوه بعد الموت. فقال المشرك: إنك لتزعم أنك تبعث بعد الموت، وأقسم بالله لا يبعث الله من يموت فنزلت هذه الآية قاله أبو العالية. وتقرير الشبهة التي حصلت للمشركين في إنكار البعث بعد الموت أن الإنسان ليس هو، إلا هذه البنية المخصوصة، فإذا مات وتفرقت أجزاؤه وبلى امتنع عوده بعينه لأن الشيء إذا عدم فقد فني، ولم يبق له ذات ولا حقيقة بعد فنائه وعدمه، فهذا هو أصل شبهتهم ومعتقدهم في إنكار البعث بعد الموت، فذلك قوله تعالى وأقسموا بالله جهد أيمانهم ﴿لا يبعث الله من يموت﴾ فرد الله عليهم ذلك، وكذبهم في قولهم فقال تعالى

﴿ وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن ولا آباؤنا ولا حرمنا من دونه من شيء ﴾، يعني في البحيرة والسائبة والوصيلة والحام، فلولا أن الله رضيها لنا لغيّر ذلك لنا وهدانا إلى غيرها، ﴿كذلك فعل الذين من قبلهم فهل على الرسل إلاّ البلاغ المبين ﴾، أي: ليس إليهم الهداية إنما إليهم التبليغ.

﴿ ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً ﴾ أي: كما بعثنا فيكم، ﴿ أنِ اعبدُوا الله واجتنبوا الطاغوتَ ﴾، وهو معبود من دون الله، ﴿ فمنهم مَن هدى الله ﴾، أي: هداه الله إلى دينه، ﴿ ومنهم مَن حقّت عليه الضلالة ﴾ أي: وجبت بالقضاء السابق حتى مات على كفره، ﴿ فسيروا في الأرض فانظُروا كيفَ كان عاقبة المكذبين ﴾، أي: مآل أمرهم وهو خراب منازلهم بالعذاب والهلاك.

﴿ إنْ تَحرصْ على هُداهم ﴾، يا محمد، ﴿ فَإن الله لا يهدي مَن يُضِلُّ ﴾، قرأ أهل الكوفة ﴿ يهدي ﴾ بفتح الياء وكسر الدال أي: لا يهدي الله مَن أضلّه. وقيل: معناه لا يهتدي مَن أضلّه الله، وقرأ الآخرون بضم الياء وفتح

﴿بلى﴾ يعني بلى يبعثهم بعد الموت لأن لفظة بلى إثبات لما بعد النفي. والجواب عن شبهتهم أن الله سبحانه وتعالى، خلق الإنسان وأوجده من العدم ولم يك شيئاً فالذي أوجده بقدرته ثم أعدمه قادر على إيجاده بعد إعدامه لأن النشأة الثانية أهون من الأولى ﴿وعداً عليه حقاً﴾ يعني أن الذي وعد به من البعث بعد الموت وعد حق لا خلف فيه ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ يعني لا يفهمون كيف يكون ذلك العود والله سبحانه وتعالى، قادر على كل شيء.

لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰذِبِينَ ﴿٣٩﴾ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۚ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ ۗ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾ أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾ أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ﴿٥٠﴾

﴿ليبين لهم الذي يختلفون فيه﴾ يعني من أمر البعث ويظهر لهم الحق الذي لا خلق فيه ﴿وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين﴾ يعني في قولهم لابعث بعد الموت ﴿إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون﴾ يعني أن الله سبحانه وتعالى قادر إذا أراد أن يحيي الموتى، ويبعثهم للحساب والجزاء فلا تعب عليه في إحيائهم وبعثهم إنما يقول لشيء أراده كن فيكون على ما أراد لأنه القادر الذي لا يعجزه شيء أراده (خ) عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تبارك وتعالى يشتمني ابن آدم وما ينبغي له أن يشتمني ويكذبني، وما ينبغي له أن يكذبني أما شتمه إياي فيقول إن لي ولداً، وأما تكذيبه إياي فقوله ليس يعيدني كما بدأني» وفي رواية «كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك وشتمني، ولم يكن له ذلك أما تكذيبه إياي فقوله لن يعيدني كما بدأني وليس أول الخلق بأهون من إعادته وأما شتمه إياي فقوله: اتخذ الله ولداً وأنا الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد» وقوله تعالى ﴿والذين

الدال يعني مَن أضلّه الله فلا هادي له كما قال: ﴿ مَن يضللِ اللَّهُ فلا هادي له ﴾ [الأعراف: ١٨٦]، ﴿ وما لهم من ناصرين ﴾ أي: مانعين من العذاب.

قوله تعالى: ﴿ وأقسموا بالله جَهْدَ أيمانهم لا يبعث الله مَن يموت ﴾، وهم منكرُو البعث قال الله تعالى رَدّاً عليهم: ﴿ بل وعداً عليه حقاً ولكنّ أكثرَ الناسِ لا يعلمون ﴾.

﴿ ليبيّن لهم الَّذِي يختلفون ﴾ أي: ليظهر لهم الحق فيما يختلفون، ﴿ فيه وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين ﴾.

﴿ إنّما قولُنا لشيء إذا أردناه أن نقولَ له كنْ فيكون ﴾، يقول الله تعالى: إذا أردنا أن نبعث الموتى فلا تعب علينا في إحيائهم ولا في شيء مما يحدث إنما نقول له: كن فيكون. أخبرنا حسّان بن سعيد المنيعي أنا أبو طاهر

هاجروا في الله من بعد ما ظلموا﴾ يعني أوذوا وعذبوا نزلت في بلال وصهيب وخباب وعابس وجبير وأبي جندل بن سهيل، أخذهم المشركون بمكة فجعلوا يعذبونهم ليرجعوا عن الإسلام إلى الكفر، وهم المستضعفون. فأما بلال فكان أصحابه يخرجونه إلى بطحاء مكة في شدة الحر ويشدونه، ويجعلون على صدره الحجارة وهو يقول أحد أحد فاشتراه منهم أبو بكر الصديق وأعتقه واشترى معه ستة نفر آخرين، وأما صهيب فقال لهم إني رجل كبير إن كنت معكم فلن أنفعكم وإن كنت عليكم فلا أضركم فاشترى نفسه بماله فباعوه منه فمر به أبو بكر الصديق. فقال: يا صهيب ربح البيع. وأما باقيهم فأعطوهم بعض ما يريدون، فخلوا عنهم. وقال قتادة: هم أصحاب رسول الله ﷺ ظلمهم أهل مكة فأخرجوهم من ديارهم حتى لحق طائفة بالحبشة ثم بوأهم الله المدينة بعد ذلك فجعلها لهم دار هجرة، فهاجروا إليها وجعل لهم أنصاراً من المؤمنين فآووهم ونصروهم وواسوهم، وهذه الآية تدل على فضل المهاجرين، وفضل الهجرة وفيه دليل على أن الهجرة إذا لم تكن لله خالصة لم يكن لها موقع، وكانت بمنزلة الانتقال من بلد إلى آخر ومنه حديث «الأعمال بالنيات» وفيه «فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه» الحديث أخرجاه في الصحيحين من رواية عمر بن الخطاب وقوله تعالى ﴿**لنبوأنهم في الدنيا حسنة**﴾ يعني لنبوأنهم تبوئة حسنة وهو أنه تعالى أنزلهم المدينة، وجعلها لهم دار هجرة والمعنى لنبوأنهم في الدنيا داراً حسنة أو بلدة حسنة، وهي المدينة روي عن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه كان إذا أعطى الرجل من المهاجرين عطاء يقول له: خذ هذا بارك الله لك فيه هذا ما وعدك الله في الدنيا وما ادخر لك في الآخرة أفضل، ثم يقول هذه الآية. وقيل: معناه ليحسنن إليهم في الدنيا بأن يفتح لهم مكة، ويمكنهم من أهلها الذين ظلموهم وأخرجوهم منها ثم ينصرهم على العرب قاطبة، وعلى أهل المشرق والمغرب وقيل المراد بالحسنة في الدنيا التوفيق والهداية في الدين ﴿**ولأجر الآخرة أكبر**﴾ يعني أعظم وأفضل وأشرف مما أعطاهم في الدنيا ﴿**لو كانوا يعلمون**﴾ قيل: الضمير يرجع إلى الكفار لأن المؤمنين يعلمون ما لهم في الآخرة، والمعنى لو كان هؤلاء الكفار يعلمون أن أجر الآخرة أكبر مما هم فيه من نعيم الدنيا لرغبوا فيه، وقيل: إنه راجع إلى المهاجرين والمعنى لو كانوا يعلمون ما أعد الله لهم في الآخرة، لزادوا في الجد والاجتهاد والصبر على ما أصابهم من أذى الماكرين ﴿**الذين صبروا**﴾ يعني في الله على ما نالهم، وبذل الأنفس والأموال في سبيل الله ﴿**وعلى ربهم يتوكلون**﴾ يعني في أمورهم كلها قال بعضهم ذكر الله الصبر والتوكل في هذه الآية، وهما مبدأ السلوك إلى الله تعالى ومنتهاه أما الصبر فهو قهر النفس وحبسها على أعمال البر وسائر الطاعات، واحتمال الأذى من الخلق والصبر عن الشهوات المباحات

محمد بن محمد بن محمش الزيادي أنا أبو محمد بن الحسين القطّان ثنا أحمد بن يوسف السلمي ثنا عبد الرزاق أنا معمر عن همّام بن منبّه ثنا أبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله: كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمني عبدي ولم يكن له ذلك، فأمّا تكذيبه إيّاي أن يقول لن يعيدنا كما بدأنا، وأما شتمه إيّاي أن يقول اتخذ الله ولداً، وأنا الصمد لم ألدْ ولم أُولدْ ولم يكن لي كفواً أحد».

قوله تعالى: ﴿ **والذين هاجروا في الله من بعد ما ظلموا** ﴾، عذبوا وأُوذوا في الله، نزلت في بلال وصُهيب وخبّاب وعمّار وعابس وجبير وأبي جندل بن سهل أخذهم المشركون بمكة فعذبوهم. وقال قتادة: هم أصحاب النبي ﷺ ظلمهم أهل مكة وأخرجوهم من ديارهم حتى لحق منهم طائفة بالحبشة ثم بوّأ الله لهم المدينة بعد ذلك فجعلها لهم دارَ هجرة، وجعل لهم أنصاراً من المؤمنين. ﴿ **لنبوئنّهم في الدنيا حسنة** ﴾، وهو أنه أنزلهم المدينة. رُوِيَ عن عمر بن الخطاب كان إذا أعطى الرجل من المهاجرين عطاء يقول خذ بارك الله لك فيه هذا ما وعدك الله في الدنيا وما ادّخر لك في الآخرة أفضل، ثم تلا هذه الآية. وقيل: معناه لنحسننّ إليهم في الدنيا. وقيل: الحسنة

والمحرمات والصبر على المصائب، وأما التوكل فالانقطاع عن الخلق بالكلية والتوجه إلى الحق تعالى بالكلية فالأول هو مبدأ السلوك إلى الله تعالى، والثاني هو آخر الطريق ومنتهاه ﴿**وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم**﴾ نزلت هذه الآية جواباً لمشركي مكة حيث أنكروا نبوة محمد ﷺ وقالوا الله أعظم وأجل من أن يكون رسوله بشراً فهلا بعث ملكاً إلينا فأجابهم الله عز وجل بقوله: وما أرسلنا من قبلك يا محمد إلا رجالاً يعني مثلك نوحي إليهم والمعنى أن عادة الله عز وجل جارية من أول مبدأ الخلق أنه لم يبعث إلا رسولاً من البشر فهذه عادة مستمرة، وسنة جارية قديمة ﴿**فاسألوا أهل الذكر**﴾ يعني أهل الكتاب وهم اليهود والنصارى، وإنما أمرهم الله بسؤال أهل الكتاب لأن كفار مكة كانوا يعتقدون أن أهل الكتاب أهل علم، وقد أرسل الله إليهم رسلاً منهم مثل موسى وعيسى وغيرهم من الرسل، وكانوا بشراً مثلهم فإذا سألوهم فلا بد، وأن يخبروهم بأن الرسل الذين أرسلوا إليهم كانوا بشراً، فإذا أخبروهم بذلك زالت الشبهة عن قلوبهم ﴿**إن كنتم لا تعلمون**﴾ الخطاب لأهل مكة يعني إن كنتم يا هؤلاء لا تعلمون ذلك ﴿**بالبينات والزبر**﴾ اختلفوا في المعنى الجالب لهذه الباء فقيل المعنى، وما أرسلنا من قبلك بالبيّنات والزبر إلا رجالاً يوحى إليهم أرسلناهم بالبينات والزبر، وقيل الذكر بمعنى العلم في قوله فاسألوا أهل الذكر يعني أهل العلم والمعنى فاسئلوا أهل الذكر الذي هو العلم بالبينات والزبر إن كنتم لا تعلمون أنتم ذلك. والبينات والزبر اسم جامع لكل ما يتكامل به أمر الرسالة، لأن مدار أمر الرسول على المعجزات الداله على صدقه، وهي بالبينات وعلى بيان الشرائع والتكاليف، وهي المراد بالزبر يعني الكتب المنزلة على الرسل من الله عز وجل ﴿**وأنزلنا إليك الذكر**﴾ الخطاب للنبي ﷺ يعني: وأنزلنا عليك يا محمد الذكر الذي هو القرآن وإنما سماه ذكراً لأن فيه مواعظ، وتنبيهاً للغافلين ﴿**لتبين للناس ما نزل إليهم**﴾ يعني ما أجمل إليك من أحكام القرآن، وبيان الكتاب يطلب من السنة والمبين لذلك المجمل هو الرسول ﷺ ولهذا قال بعضهم: متى وقع تعارض بين القرآن والحديث وجب تقديم الحديث لأن القرآن مجمل، والحديث مبين بدلالة هذه الآية والمبين مقدم على المجمل وقال بعضهم القرآن منه محكم، ومنه متشابه فالمحكم يجب أن يكون مبيناً والمتشابه هو المجمل ويطلب بيانه من السنة فقوله تعالى: لتبين للناس ما نزل إليهم محمول على ما أجمل فيه دون المحكم البين المفسر ﴿**ولعلهم يتفكرون**﴾ يعني فيما أنزل إليهم فيعملوا به ﴿**أفأمن الذين مكروا السيئات**﴾ فيه حذف تقديره المنكرات السيئات وهم كفار قريش مكروا برسول الله ﷺ وبأصحابه، وبالغوا في أذيتهم والمكر عبارة عن السعي بالفساد على سبيل الإخفاء، وقيل: المراد بهذا المكر اشتغالهم بعبادة غير الله فيكون مكرهم على أنفسهم

في الدنيا التوفيق والهداية. ﴿ **ولأجْرُ الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون** ﴾. وقوله: ﴿ **لو كانوا يعلمون** ﴾، ينصرف إلى المشركين لأن المؤمنين كانوا يعلمونه.

﴿ **الذين صبروا** ﴾، في الله على ما نالهم، ﴿ **وعلى ربهم يتوكلون** ﴾.

﴿ **وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم** ﴾، نزلت في مشركي مكة حيث أنكروا نبوّة محمد ﷺ، وقالوا الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً فهلّا بعث إلينا ملكاً، ﴿ **فاسئلوا أهلَ الذكر** ﴾، يعني مؤمني أهل الكتاب، ﴿ **إن كنتم لا تعلمون** ﴾.

﴿ **بالبينات والزُّبُرِ** ﴾، واختلفوا في الجالب للباء في قوله: ﴿ **بالبينات** ﴾ قيل: هي راجعة إلى قوله: ﴿ **وما أرسلنا** ﴾، وإلاّ بمعنى غير مجاز، وما أرسلنا من قبلك بالبيّنات والزبر غير رجال يُوحى إليهم ولم نبعث ملائكة. وقيل: تأويله وما أرسلنا من قبلك إلاّ رجالاً يُوحى إليهم أرسلناهم بالبينات والزُّبر. ﴿ **وأنزلنا إليك الذكر لتبيّن للناس ما نُزّل إليهم** ﴾، أراد بالذكر الوحي وكان النبي ﷺ مبيّناً للوحي وبيان الكتاب يطلب من السُّنّة، ﴿ **ولعلّهم يتفكّرون** ﴾.

والصحيح أن المراد بهذا المكر السعي في أذى رسول الله ﷺ والمؤمنين. وقيل: المراد بالذين مكروا السيئات نمروذ، ومن هو مثله والصحيح أن المراد بهم كفار مكة ﴿أن يخسف الله بهم الأرض﴾ يعني كما خسف بقرون من قبلهم ﴿أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون﴾ يعني أن العذاب يأتيهم بغتة فيهلكهم فجأة كما أهلك قوم لوط وغيرهم ﴿أو يأخذهم في تقلبهم﴾ يعني في تصرفهم في الأسفار فإنه سبحانه وتعالى، قادر على إهلاكهم في السفر كما هو قادر على إهلاكهم في الحضر، وقال ابن عباس يأخذهم في اختلافهم. وقال ابن جريج: في إقبالهم وإدبارهم يعني أنه تعالى قادر على أن يأخذهم في ليلهم ونهارهم، وفي جميع أحوالهم ﴿فما هم بمعجزين﴾ يعني بسابقين الله أو يفوتونه بل هو قادر عليهم ﴿أو يأخذهم على تخوف﴾ قال ابن عباس ومجاهد: يعني على تنقص. قال ابن قتيبة: التخوف التنقص ومثله التخون. يقال تخوفه الدهر وتخونه إذا انتقصه وأخذ ماله وحشمه، ويقال: هذه لغة هذيل فعلى هذا القول يكون المراد به أنه ينقص من أطرافهم ونواحيهم الشيء بعد الشيء حتى يهلك جميعهم وقيل هو على أصله من الخوف فيحتمل أنه سبحانه وتعالى لا يأخذهم بالعذاب أولاً، بل يخوفهم ثم يعذبهم بعد ذلك وقال الضحكاك والكلبي: هو من الخوف يعني يهلك طائفة فيتخوف الآخرون أن يصيبهم مثل ما أصابهم، فيحتمل أنه سبحانه وتعالى خوفهم بخسف يحصل في الأرض أو بعذاب ينزل من السماء، أو بآفات تحدث دفعة أو بآفات، تحدث قليلاً قليلاً إلى أن يأتي الهلاك على آخرهم ثم إنه سبحانه وتعالى، ختم الآية بقوله ﴿فإن ربكم لرؤوف رحيم﴾ يعني أنه سبحانه وتعالى، لا يعجل بالعقوبة والعذاب. قوله سبحانه وتعالى ﴿أولم يروا﴾ قرىء بالتاء على خطاب الحاضرين وبالياء على الغيبة ﴿إلى ما خلق الله من شيء﴾ يعني من جسم قائم له ظل، وهذه الرؤية لما كانت بمعنى النظر وصلت بإلى لأن المراد منها الاعتبار، والاعتبار لا يكون إلا بنفس الرؤية، التي يكون معها نظر إلى الشيء ليتأمل أحواله، ويتفكر فيه فيعتبر به ﴿يتفيئو ظلاله﴾ يعني تميل وتدور من جانب إلى جانب فهي من أول النهار على حال ثم تقلص ثم تعود في آخر النهار إلى حالة أخرى ويقال للظل بالعشي فيء، لأنه من فاء يفيء إذا رجع من المغرب إلى المشرق، والفيء الرجوع قال الأزهري تفيؤ الظلال رجوعها بعد انتصاف النهار فالتفيؤ لا يكون إلا بالعشي وما انصرفت عنه الشمس، والظل يكون بالغداة، وهو ما لم تنله الشمس وقوله ظلاله جمع ظل وإنما أضاف الظلال، وهو جمع مفرد وهو قوله: من شيء لأنه يراد به الكثرة ومعناه الإضافة إلى ذوي الظلال ﴿عن اليمين والشمائل﴾ قال العلماء: إذا طلعت الشمس من المشرق وأنت متوجه إلى القبلة كان ظلك عن يمينك فإذا ارتفعت الشمس واستوت في وسط السماء كان ظلك

﴿ أفأمِنَ الذين مكروا ﴾، عملوا ﴿ السيئات ﴾، من قبل يعني نمروذ بن كنعان وغيره من الكفّار، ﴿ أن يخسف الله بهم الأرض أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون ﴾.

﴿ أو يأخذهم ﴾، بالعذاب، ﴿ في تقلّبهم ﴾، تصرفهم في الأسفار. وقال ابن عباس: في اختلافهم. وقال ابن جريج: في إقبالهم وإدبارهم، ﴿ فما هم بمعجزين ﴾، السابقين الله.

﴿ أو يأخذهم على تخوّف ﴾، والتخوّف: النقص، أي: ينقص من أطرافهم ونواحيهم شيئاً بعد شيء حتى يهلك جميعهم، يقال: تخوفه الدهر وتخونه إذا نقصه وأخذ ماله وحشمه، ويقال: هذا لغة بني هزيل. وقال الضحاك والكلبي: هو من الخوف، أي: أن يعذب طائفة ليتخوّف الآخرون أن يصيبهم مثل ما أصابهم. ﴿ فإنّ ربكم لرؤوف رحيم ﴾، حين لم يعجّل بالعقوبة.

قوله: ﴿ أوَ لم يروا إلى ما خلق الله من شيء ﴾، قرأ حمزة والكسائي بالتاء على الخطاب وكذلك في سورة العنكبوت [١٩ و٦٧]، والآخرون بالياء خبراً عن الذين مكروا السيئات إلى ما خلق الله من شيء من جسم قائم له ظل، ﴿ يتفيّؤا ﴾، قرأ أبو عمر ويعقوب بالتاء والآخرون بالياء. ﴿ ظلالَه ﴾، أي تميل وتدور من جانب إلى جانب

خلفك فإذا مالت الشمس إلى الغروب كان ظلك عن يسارك. وقال الضحاك أما اليمين فأول النهار وأما الشمال فآخر النهار وإنما وحد اليمين وإن كان المراد به الجمع للإيجاز والاختصار في اللفظ وقيل اليمين راجع إلى لفظ الشيء وهو واحد والشمائل راجع إلى المعنى لأن لفظ الشيء يراد به الجمع ﴿سجداً لله﴾ في معنى هذا السجود قولان: أحدهما أن المراد به الاستسلام والانقياد والخضوع. يقال سجد البعير إذا طأطأ رأسه ليركب، وسجدت النخلة إذا مالت لكثرة الحمل والمعنى أن جميع الأشياء التي لها ظلال فهي منقادة لله تعالى مستسلمة لأمره غير ممتنعة عليه، فيما سخرها له من التفيؤ وغيره وقال مجاهد: إذا زالت الشمس سجد كل شيء لله، والقول الثاني في معنى هذا السجود أن الظلال واقعة على الأرض، ملتصقة بها كالساجد على الأرض فلما كانت الظلال يشبه شكلها الساجدين أطلق الله عليها هذا اللفظ وقيل ظل كل شيء ساجد لله سواء كان ذلك الشيء يسجد لله أو لا ويقال إن ظل الكافر ساجد لله وهو غير ساجد لله، ﴿وهم داخرون﴾ أي صاغرون أذلاء والداخر الصاغر الذي يفعل ما تأمره به شاء أم أبى وذلك أن جميع الأشياء منقادة لأمر الله تعالى. فإن قلت الظلال ليست من العقلاء فكيف عبر عنا بلفظ من يعقل وجمعها بالواو والنون. قلت: لما وصفها الله سبحانه وتعالى بالطاعة والانقياد لأمره، وذلك صفة من يعقل عبر عنها بلفظ من يعقل، وجاز جمعها بالواو والنون، وهو جمع العقلاء قوله عز وجل ﴿ولله يسجد ما في السموات وما في الأرض من دابة﴾ قال العلماء: السجود على نوعين سجود طاعة، وعبادة كسجود المسلم لله عز وجل، وسجود انقياد وخضوع كسجود الظلال فقوله: ولله يسجد ما في السموات، وما في الأرض من دابة يحتمل النوعين لأن سجود كل شيء بحسبه فسجود المسلمين، والملائكة لله سجود عبادة وطاعة وسجود غيرهم سجود انقياد، وخضوع وأتى بلفظ ما في قوله ما في السموات وما في الأرض للتغليب لأن ما لا يعقل أكثر ممن يعقل في العدد، والحكم للأغلب كتغليب المذكر على المؤنث، ولأنه لو أتى بمن التي هي للعقلاء لم يكن فيها دلالة على التغليب بل كانت متناولة للعقلاء خاصة فأتى بلفظة

فهي في أول النهار على حال ثم تتقلص ثم تعود في آخر النهار إلى حال أخرى سجّداً لله، فميلانها ودورانها سجودها لله عزّ وجلّ. ويقال للظل بالعشي: فيء لأنه فاء أي رجع من المغرب إلى المشرق، فالفيء الرجوع، والسجود الميل. يقال: سجدت النخلة إذا مالت. قوله عزّ وجلّ: ﴿ عن اليمين والشمائل سُجّداً لله ﴾، قال قتادة والضحاك: أما اليمين فأول النهار والشمال آخر النهار، تسجد الظلال لله. وقال الكلبي: الظل قبل طلوع الشمس عن يمينك وعن شمالك وقدّامك وخلفك، وكذلك إذا غابت فإذا طلعت كان من قدّامك وإذا ارتفعت كان عن يمينك، ثم بعده كان خلفك فإذا كان قبل أن تغرب الشمس كان عن يسارك، فهذا تفيؤه وتقلبه وهو سجوده. وقال مجاهد: إذا زالت الشمس سجد كل شيء لله. وقيل: المراد من الظلال سجود الأشخاص فإن قيل لِمَ وحّد اليمين وجمع الشمائل؟ قيل: من شأن العرب في اجتماع العلامتين الاكتفاء بواحدة، كقوله تعالى: ﴿ ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم ﴾ [البقرة: ٧]، وقوله: ﴿ يخرجهم من الظلمات إلى النور ﴾ [البقرة: ٢٥٧]، وقيل: اليمين يرجع إلى قوله: ﴿ ماخلق الله ﴾ ولفظ ﴿ ما ﴾ واحد والشمائل جمع يرجع إلى المعنى. ﴿ وهم داخِرُون ﴾، صاغرون.

﴿ ولله يسجد ما في السمٰوات وما في الأرض ﴾، إنما أخبر بما لغلبة ما لا يعقل على من يعقل في العدد، والحكم للأغلب كتغليب المذكّر على المؤنث، ﴿ من دابّة ﴾، أراد من كل حيوان يدبّ. ويقال: السجود الطاعة والأشياء كلها مطيعة لله عزّ وجلّ من حيوان وجماد، قال الله تعالى: ﴿ قالتا أتينا طائعين ﴾ [فصّلت: ١١]، وقيل: سجود الأشياء تذلّلها وتسخّرها لما أُريدت له وسُخّرت له. وقيل: سجود الجمادات وما لا يعقل ظهور أثر الصنع فيه

ما ليشمل الكل، ولفظة الدابة مشتقة من الدبيب وهو عبارة عن الحركة الجسمانية، فالدابة اسم يقع على كل حيوان جسماني يتحرك ويدب فيدخل فيه الإنسان، لأنه مما يدب على الأرض، ولهذا أفرد الملائكة في قوله ﴿والملائكة﴾ لأنهم أولو أجنحة يطيرون بها أو أفردهم بالذكر، وإن كانوا من جملة من في السموات لشرفهم. وقيل: أراد ولله يسجد ما في السموات من الملائكة، وما في الأرض من دابة فسجود الملائكة والمسلمين للطاعة، وسجود غيرهم تذليلها وتسخيرها لما خلقت له وسجود ما لا يعقل، وسجود الجمادات يدل على قدرة الصانع سبحانه وتعالى، فيدعو الغافلين إلى السجود لله عند التأمل والتدبر ﴿وهم لا يستكبرون﴾ يعني الملائكة ﴿يخافون ربهم من فوقهم﴾ وكقوله «وهو القاهر فوق عباده» وقد تقدم تفسيره ﴿ويفعلون ما يؤمرون﴾ عن أبي ذر قال قال رسول الله ﷺ: «إني أرى ما لا ترون وأسمع ما لا تسمعون أطت السماء وحق لها أن تئط ما فيها موضع أربع أصابع إلا، وملك واضع جبهته ساجداً والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً، وما تلذذتم بالنساء على الفرش ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله تعالى» قال أبو ذر: لوددت أني كنت شجرة تعضد أخرجه الترمذي وقال عن أبي ذر موقوفاً.

فصل

وهذه السجدة من عزائم سجود القرآن، فيسن للقارىء والمستمع أن يسجد عند قراءتها وسماعها. قوله سبحانه وتعالى:

﴿وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٥١﴾ وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًاۚ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾ وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيۡهِ تَجۡـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنكُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ ﴿٥٤﴾ لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡۚ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ﴿٥٥﴾ وَيَجۡعَلُونَ لِمَا لَا يَعۡلَمُونَ نَصِيبٗا مِّمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡۗ تَٱللَّهِ لَتُسۡـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمۡ تَفۡتَرُونَ ﴿٥٦﴾ وَيَجۡعَلُونَ لِلَّهِ ٱلۡبَنَٰتِ سُبۡحَٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشۡتَهُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلۡأُنثَىٰ ظَلَّ وَجۡهُهُۥ مُسۡوَدّٗا وَهُوَ كَظِيمٞ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓۚ

على معنى أنه يدعو الغافلين إلى السجود عند التأمّل والتدبّر فيه، قال الله تعالى: ﴿ سنُريهم آياتِنا في الآفاق ﴾ [فصّلت: ٥٣]. ﴿ والملائكةُ ﴾، خصّ الملائكة بالذكر مع كونهم من جملة ما في السمٰوات والأرض تشريفاً ورفعاً لشأنهم. وقيل: لخروجهم من الموصوفين بالدبيب إذ لهم أجنحة يطيرون بها. وقيل: أراد ولله يـ جد ما في السمٰوات من الملائكة وما في الأرض من دابّة، وتسجد الملائكة. ﴿ وهم لا يستكبرون ﴾.

﴿ يخافون ربَّهم من فوقهم ﴾، كقوله: ﴿ وهو القاهر فوق عباده ﴾ [الأنعام: ١٨ و٦١]. ﴿ ويفعلون ما يُؤمرون ﴾، أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا محمد بن سمعان ثنا أبو بكر محمد بن إبراهيم الشعراني ثنا محمد بن يحيىٰ الذهلي ثنا عبيد الله بن موسى العبسي ثنا إسرائيل عن إبراهيم بن مهاجر عن مجاهد عن مورق عن أبي ذرّ قال: قال رسول الله ﷺ: «إني أرى ما لا ترون وأسمع ما لا تسمعون أطّتِ السماء وحقّ لها أن تئط والذي نفسي بيده ما فيها موضع أربع أصابع إلّا وفيه ملك يُمجّد الله ولو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً وما تلذذتم بالنساء على الفرشات، ولصعدتم إلى الصعدات تجارون»، قال أبو ذر يا ليتني كنت شجرة تعضد. رواه أبو عيسى عن أحمد بن منيع عن أبي أحمد الزبيري عن إسرائيل وقال: «إلّا وملك واضع جبهته ساجداً لله».

﴿أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾﴾

﴿وقال الله لا تتخذوا إلهين اثنين﴾ لما أخبر الله عز وجل في الآية المتقدمة أن كل ما في السموات والأرض خاضعون لله، منقادون لأمره عابدون له، وأنهم في ملكه وتحت قدرته، وقبضته نهى في هذه الآية عن الشرك، وعن اتخاذ إلهين اثنين فقال «وقال الله لا تتخذوا إلهين اثنين» قال الزجاج: ذكر الاثنين توكيداً لقوله إلهين وقال صاحب النظم: فيه تقديم وتأخير تقديره، لا تتخذوا اثنين إلهين يعني أن الاثنين لا يكون كل واحد منهما إلهاً، ولكن اتخذوا إلهاً واحداً، وهو قوله تبارك وتعالى **﴿إنما هو إله واحد﴾** لأن الإلهين لا يكونان إلا متساويين في الوجود والقدم وصفات الكمال والقدرة والإرادة، فصارت الاثنينية منافية للإلهية، وذلك قوله تعالى إنما هو إله واحد يعني لا يجوز أن يكون في الوجود إلهان اثنان إنما هو إله واحد **﴿فإياي فارهبون﴾** يعني فخافون والرهب مخافة مع حزن، واضطراب وإنما نقل الكلام من الغيبة إلى الحضور، وهو من طريق الالتفات لأنه أبلغ في الترهيب من قوله، فإياه فارهبوا فهو من بديع الكلام وبليغه وقوله فإياي فارهبون يفيد الحصر، وهو أن لا يرهب الخلق إلا منه ولا يرغبون إلا إليه وإلى كرمه وفضله وإحسانه **﴿وله ما في السموات والأرض﴾** لما ثبت بالدليل الصحيح والبرهان الواضح أن إله العالم لا شريك له في الإلهية، وجب أن يكون جميع المخلوقات عبيداً له وفي ملكه وتصرفه، وتحت قدرته فذلك قوله تعالى وله ما في السموات والأرض يعني، عبيداً وملكاً **﴿وله الدين واصباً﴾** يعني وله العبادة والطاعة وإخلاص العمل دائماً ثابتاً والواصب: الدائم. قال ابن قتيبة: ليس من أحد يدان له ويطاع إلا انقطع ذلك لسبب في حال الحياة أو بالموت، إلا الحق سبحانه وتعالى فإن طاعته واجبة أبداً، ولأنه المنعم على عباده المالك لهم فكانت طاعته واجبة دائماً أبداً **﴿أفغير الله تتقون﴾** يعني أنكم عرفتم أن الله واحد لا شريك له في ملكه، وعرفتم أن كل ما سواه محتاج إليه فبعد هذه المعرفة كيف تخافون غيره، وتتقون سواه فهو استفهام بمعنى التعجب وقيل هو استفهام على طريق الانكار قوله عز وجل **﴿وما بكم من نعمة فمن الله﴾** يعني من نعمة الإسلام، وصحة الأبدان وسعة الأرزاق، وكل ما أعطاكم من مال أو ولد فكل ذلك من الله تعالى، إنما هو المتفضل به على عباده فيجب عليكم شكره على جميع إنعامه. ولما بين في الآية المتقدمة أنه يجب على جميع العباد أن لا يخافوا إلا الله تعالى بين في هذه الآية أن جميع النعم منه لا يشكر عليها إلا إياه، لأنه هو المتفضل بها على عباده فيجب عليهم شكره عليها **﴿ثم إذا مسّكم الضر﴾** أي الشدة والأمراض والأسقام **﴿فإليه تجأرون﴾** يعني إليه تستغيثون، وتصيحون وتضجون بالدعاء ليكشف عنكم ما نزل بكم من الضرر والشدة وأصل الجؤار هو رفع الصوت الشديد، ومنه جؤار البقر. والمعنى أن النعم لما كانت كلها ابتداء منه فإن حصل شدة، وضر في بعض الأوقات فلا يلجأ إلا إليه ولا يدعي إلا إياه ليكشفها، فإنه هو القادر على كشفها وهو قوله تعالى **﴿ثم إذا كشف الضر عنكم﴾** يعني ثم إذا أزال الشدة، والبلاء عنكم **﴿إذا فريق منكم﴾** يعني طائفة وجماعة

قوله تعالى: **﴿ وقال الله لا تتخذوا إلٰهين اثنين إنّما هو إلٰه واحد فإيّاي فارهبون ﴾**.

﴿ وله ما في السمٰوات والأرض وله الدين ﴾، الطاعة والإخلاص **﴿ واصباً ﴾**، دائماً ثابتاً، معناه: ليس من أحد يدان له ويطاع إلّا انقطع ذلك عنه بزوال أو هلاك غير الله عزّ وجلّ فإن الطاعة تدوم له ولا تنقطع. **﴿ أفغير الله تتّقون ﴾**، أي: تخافون، استفهام على طريق الإنكار.

قوله تعالى: **﴿ وما بكم من نعمة فمن الله ﴾**، أي: وما يكن بكم من نعمة فمن الله، **﴿ ثم إذا مسّكم الضرّ ﴾**، القحط والمرض، **﴿ فإليه تجأرون ﴾**، تضجّون وتصيحون بالدعاء والاستغاثة.

منكم ﴿بربهم يشركون﴾ يعني أنهم يضيفون كشف الضر إلى العوائد، والأسباب ولا يضيفونه إلى الله عز وجل فهذا من جملة شركهم الذي كانوا عليه، وإنما قسمهم فريقين لأن فريق المؤمنين لا يرون كشف الضر إلا من الله تعالى ثم قال تعالى ﴿ليكفروا بما آتيناهم﴾ قيل: إن هذه اللام لام كي ويكون المعنى على هذا أنهم إنما أشركوا بالله ليجحدوا نعمه عليهم في كشف الضر عنهم وقيل: إنها لام العاقبة والمعنى عاقبة أمرهم، هو كفرهم بما آتيناهم من النعماء وكشفنا عنهم الضر والبلاء ﴿فتمتعوا﴾ لفظه أمر والمراد منه التهديد والوعيد. يعني: فعيشوا في اللذة التي أنتم فيها إلى المدة التي ضربها الله لكم ﴿فسوف تعلمون﴾ يعني عاقبة أمركم إلى ماذا تصير، وهو نزول العذاب بكم. قوله سبحانه وتعالى ﴿ويجعلون لمن لا يعلمون نصيباً﴾ قيل الضمير في قوله: لما لا يعلمون عائد إلى المشركين يعني أن المشركين لا يعلمون. وقيل: إنه عائد إلى الأصنام يعني أن الأصنام لا تعلم شيئاً البتة لأنها جماد والجماد لا علم له، ومنهم من رجح القول الأول لأن نفي العلم عن الحي حقيقة، وعن الجماد مجاز فكان عود الضمير إلى المشركين أولى، ولأنه قال لما لا يعلمون فجمعهم بالواو والنون، وهو جمع لمن يعقل ومنهم من رجح القول الثاني. قال: لأنا إذا قلنا أنه عائد إلى المشركين احتجنا فيه إلى إضمار فيكون المعنى: ويجعلون يعني المشركين لما لا يعلمون أنه إله ولا إله حتى نصيباً وإذا قلنا إنه عائد إلى الأصنام لم نحتج إلى هذا الاضمار لأنها لا علم لها، ولا فيهم وقوله ﴿مما رزقناهم﴾ يعني أن المشركين جعلوا للأصنام نصيباً من حروثهم وأنعامهم وأموالهم التي رزقهم الله، وقد تقدم تفسيره في سورة الأنعام ﴿تالله﴾ أقسم بنفسه على نفسه أنه يسألهم يوم القيامة، وهو قوله تعالى ﴿لتسألن عما كنتم تفترون﴾ يعني عما كنتم تكذبون في الدنيا في قولكم، إن هذه الأصنام آلهة وإن لها نصيباً من أموالكم، وهذا التفات من الغيبة إلى الحضور، وهو من بديع الكلام وبليغه ﴿ويجعلون لله البنات﴾ هم خزاعة وكنانة قالوا: الملائكة بنات الله وإنما أطلقوا لفظ البنات على الملائكة لاستتارهم عن العيون كالنساء، أو لدخول لفظ التأنيث في تسميتهم ﴿سبحانه﴾ نزه الله نفسه عن الولد والبنات ﴿ولهم ما يشتهون﴾ يعني: ويجعلون لأنفسهم ما يشتهون يعني البنين ﴿وإذا بشر أحدهم بالأنثى﴾ البشارة عبارة عن الخبر السار الذي يظهر على بشرة الوجه أثر الفرح به، ولما كان ذلك الفرح والسرور يوجبان تغير بشرة الوجه كان كذلك الحزن، والغم يظهر أثره على الوجه وهو الكمودة التي تعلو الوجه، عند حصول الحزن والغم فثبت بهذا أن البشارة لفظ مشترك بين الخبر السار والخبر المحزن، فصح قوله: وإذا بشر أحدهم بالأنثى ﴿ظل وجهه مسوداً﴾ يعني متغيراً من الغم والحزن والغيظ والكراهة التي حصلت له عند هذه البشارة، والمعنى أن هؤلاء المشركين لا يرضى بالبنت الأنثى أن تنسب إليه فكيف يرضي أن ينسبها إلى الله تعالى ففيه تبكيت لهم وتوبيخ. وقوله سبحانه وتعالى ﴿وهو كظيم﴾ يعني أنه ظل ممتلئاً غماً وحزناً ﴿يتوارى من القوم من سوء ما بُشر به﴾ يعني أنه يختفي من ذلك القول الذي بشر به، وذلك أن العرب كانوا في الجاهلية إذا قربت ولادة زوجة أحدهم، توارى من القوم إلى أن يعلم ما ولد له فإن كان ولداً ابتهج بذلك وظهر وإن كانت أنثى حزن ولم يظهر أياماً حتى يفكر ما يصنع

﴿ ثم إذا كشف الضرَّ عنكم إذا فريقٌ منكم بربهم يشركون.

﴿ ليكفروا ﴾، ليجحدوا، ﴿ بما آتيناهم ﴾، وهذه اللام تُسمى لام العاقبة، أي: حاصل أمرهم هو كفرهم بما آتيناهم أعطيناهم من النعماء وكشف الضرّاء والبلاء، ﴿ فتمتعوا ﴾، أي: عيشوا في الدنيا المدة التي ضربتها لكم، ﴿ فسوف تعلمون ﴾ عاقبة أمركم هذا وعيد لهم.

﴿ ويجعلون لما لا يعلمون ﴾، له حقاً أي: الأصنام، ﴿ نصيباً مما رزقناهم ﴾، من الأموال وهو ما جعلوا للأوثان من حروثهم وأنعامهم، فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا، ثم رجع من الخبر إلى الخطاب فقال: ﴿ تَاللَّهِ لتُسئلنّ ﴾، يوم القيامة، ﴿ عمّا كنتم تفترون ﴾، في الدنيا.

بها وهو قوله تعالى ﴿أيمسكه على هون﴾ يعني على هوان، وإنما ذكر الضمير في أيمسكه لأنه عائد إلى ما بشر به في قوله، وإذا بشر أحدهم ﴿أم يدسه في التراب﴾ يعني أم يخفي الذي بشر به في التراب والدس إخفاء الشيء في الشيء قال أهل التفسير: إن مضر وخزاعة وتميماً كانوا يدفنون البنات أحياء، والسبب في ذلك إما خوف الفقر وكثر العيال ولزوم النفقة أو الحمية فيخافون عليهن من الأسر ونحوه، أو طمع غير الأكفّاء فيهن فكان الرجل من العرب في الجاهلية، إذا ولدت له بنت أراد أن يستحييها تركها حتى إذا كبرت ألبسها جبة من صوف أو شعر، وجعلها ترعى الإبل والغنم في البادية، وإذا أراد أن يقتلها تركها حتى إذا صارت سداسية، قال لأمها: زينيها حتى أذهب بها إلى أحمائها ويكون قد حفر لها حفرة في الصحراء فإذا بلغ بها تلك الحفرة قال لها: انظري إلى هذه البئر فإذا نظرت إليها دفعها من خلفها في تلك البئر، ثم يهيل التراب على رأسها وكان صعصعة عم(١) الفرزدق إذا أحس بشيء من ذلك وجه بإبل إلى والد البنت حتى يحييها بذلك فقال الفرزدق يفتخر بذلك:

وعمـــي الـــذي منـــع الـــوائـــدات فـــأحيـــا الـــوئيـــد فلـــم يـــوأد

عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ «الوائدة والمؤودة في النار» أخرجه أبو داود. وقوله تعالى ﴿ألا ساء ما يحكمون﴾ يعني بئس ما يصنعون ويقضون حيث يجعلون لله الذي خلقهم البنات، وهم يستنكفون منهن ويجعلون لأنفسهم البنين نظيره قوله سبحانه وتعالى ﴿ألكم الذكر وله الأنثى تلك إذاً قسمة ضيزي﴾ وقيل: معناه ألا ساء

﴿ **ويجعلون للّهِ البناتِ** ﴾، وهم خزاعة وكنانة، قالوا: الملائكة بنات الله تعالى. ﴿ **سبحانه ولهم ما يشتهون** ﴾، أي: ويجعلون لأنفسهم البنين الذين يشتهونهم فيكون ﴿ **ما** ﴾ في محل النصب، ويجوز أن يكون على الابتـدا فيكون ﴿ **ما** ﴾ في محل الرفع.

﴿ **وإذا بُشِّر أحدُهم بالأُنثى ظلّ وجهُهُ مسودّاً** ﴾، متغيراً من الغمّ والكراهية، ﴿ **وهو كظيم** ﴾، وهو ممتلىء حزناً وغيظاً فهو يكظمه، أي: يمسكه ولا يظهره.

﴿ **يتوارى** ﴾، أي: يختفي، ﴿ **من القوم من سوء ما بُشّر به** ﴾، من الحزن والعار ثم يتفكّر ﴿ **أيُمسكه** ﴾، ذكر الكناية ردّاً على ﴿ **ما** ﴾ ﴿ **على هُونٍ** ﴾ أي: هَوانٍ، ﴿ **أم يَدُسُّه في التراب** ﴾، أي: يخفيه فيئده، وذلك أن مضر وخزاعة وتميماً كانوا يدفنون البنات أحياء خوفاً من الفقر عليهم وطمع غير الأكفّاء فيهنّ، وكان الرجل من العرب إذا ولدت له بنت وأراد أن يستحيها ألبسها جبّة من صوف أو شعر وتركها ترعى له الإبل والغنم في البادية وإذا أراد أن يقتلها تركها حتى إذا صارت سداسية قال لأمها زيّنيها حتى أذهب بها إلى أحمائها، وقد حفر لها بئر في الصحراء فإذا بلغ بها البئر قال لها انظري إلى هذه البئر فيدفعها من خلفها في البئر ثم يهيل على رأسها التراب حتى يستوي البئر بالأرض، فذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿ **أيمسكه على هُونٍ أم يدسّه في التراب** ﴾ وكان صعصعة عمّ الفرزدق إذا أحسَّ بشيء من ذلك وجّه إلى والد البنت إبلاً يحييها بذلك فقال الفرزدق يفتخر به:

وعمّي الـذي منع الـوائدات فـأحيـا الـوئيـد فلم يـوأد

﴿ **ألاَ ساءَ ما يحكمُون** ﴾، بئس ما يقضون لله البنات ولأنفسهم البنين، نظيره: ﴿ **ألكم الذكر وله الأُنثى تلك إذاً قسمة ضيزى** ﴾ [النجم: ٢٢]، وقيل: بئس حكمهم وأد البنات.

---

(١) قوله مصحة عم كذا بالنسخ التي بأيدينا والصواب جد وكذا قوله (وعمي الذي) الصواب وجدي الذي كما هو مقرر في كتب الأدب اهـ.

ما يحكمون في وأد البنات ﴿للذين لا يؤمنون بالآخرة مثل السوء﴾ يعني صفة السوء من احتياجاتهم إلى الولد الذكر، وكراهتهم الإناث وقتلهن خوف الفقر ﴿ولله المثل الأعلى﴾ أي الصفة العليا المقدسة، وهي أن له التوحيد وأنه المنزه عن الولد، وأنه لا إله إلا هو وأن له جميع صفات الجلال والكمال من العلم والقدرة والبقاء السرمدي، وغير ذلك من الصفات التي وصف الله بها نفسه. وقال ابن عباس: مثل السوء النار والمثل الأعلى شهادة أن لا إله إلا الله ﴿وهو العزيز﴾ أي الممتنع في كبريائه وجلاله ﴿الحكيم﴾ يعني في جميع أفعاله قوله:

وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا
يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ
ٱلْحُسْنَىٰ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾ تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ
فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ وَهُدًى
وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾ وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾
وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ
وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾

﴿ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم﴾ يعني بسبب ظلمهم فيعاجلهم بالعقوبة على ظلمهم وكفرهم وعصيانهم. فإن قلت الناس اسم جنس يشمل الكل وقد قال تعالى في آية أخرى «فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات»، فقسمهم في تلك الآية ثلاثة أقسام فجعل الظالمين قسماً واحداً من ثلاثة. قلت: قوله ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم عام مخصوص بتلك الآية الأخرى، لأن في جنس الناس الأنبياء والصالحين ومن لا يطلق عليه اسم الظلم، وقيل: أراد بالناس الكفار فقط بدليل قوله ﴿إن الشرك لظلم عظيم﴾ وقوله ﴿ما ترك عليها﴾ يعني على الأرض كناية عن غير مذكور لأن الدابة لا تدب إلا على الأرض ﴿من دابة﴾ يعني أن الله سبحانه وتعالى، لو يؤاخذ الناس بظلمهم لأهلك جميع الدواب التي على وجه الأرض. قال قتادة: وقد فعل الله ذلك في زمن نوح عليه السلام وروي أن أبا هريرة سمع رجلاً يقول: إن الظالم لا يضر إلا نفسه، فقال: بئس ما قلت إن الحبارى تموت هزالاً بظلم الظالم. وقال ابن مسعود: إن الجعل تعذب في جحرها بذنب ابن آدم وقيل أراد بالدابة الكافر بدليل قوله: «إن شر الدواب عند

﴿ للذين لا يؤمنون بالآخرة ﴾، يعني: لهؤلاء الذين يصفون لله البنات ولأنفسهم البنينَ ﴿ مَثَلُ السَّوْءِ ﴾، صفة السوء من الاحتياج إلى الولد وكراهية الإناث وقتلهنّ خوف الفقر، ﴿ ولله المثل الأعلى ﴾، الصفة العليا وهي التوحيد وأنه لا إلَه إلّا هو. وقيل: جميع صفات الجلال والكمال من العلم والقدرة والبقاء وغيرها من الصفات. قال ابن عباس: مثل السوء النار والمثل الأعلى شهادة أن لا إلَه إلّا الله. ﴿ وهو العزيز الحكيم ﴾.

﴿ ولو يُواخذ الله الناسَ بظلمهم ﴾، فيعاجلهم بالعقوبة على كفرهم وعصيانهم، ﴿ ما ترك عليها ﴾، أي: على الأرض، كناية عن غير مذكور، ﴿ من دابّة ﴾، قال قتادة في الآية: قد فعل الله ذلك من زمن نوح فأهلك مَن على الأرض إلا مَن كان في سفينة نوح عليه السلام. رُوِيَ أن أبا هريرة سمع رجلاً يقول: إن الظالم لا يضرّ إلّا نفسه، فقال: بئس ما قلت إن الحبارى تموت في وكرها بظلم الظالم. وقال ابن مسعود: إن الجعل لتُعذّب في جُحرها بذنب ابن آدم. وقيل: إن معنى الآية لو يؤاخذ الله آباء الظالمين بظلمهم انقطع النسل ولم توجد الأبناء فلم

الله الذين كفروا» وقيل في معنى الآية ولو يؤاخذ الله الآباء الظالمين بسبب ظلمهم لانقطع النسل، ولم توجد الأبناء فلم يبق في الأرض أحد ﴿ولكن يؤخرهم﴾ يعني يمهلهم بفضله، وكرمه وحلمه ﴿إلى أجل مسمى﴾ يعني إلى انتهاء آجالهم وانقضاء أعمارهم ﴿فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون﴾ يعني لا يؤخرون ساعة من الأجل الذي جعله الله لهم ولا ينقصون عنه. وقيل: أراد بالأجل المسمى يوم القيامة، والمعنى ولكن يؤخرهم إلى يوم القيامة فيعذبهم فلا يستأخرون عنه ساعة ولا يستقدمون ﴿ويجعلون لله ما يكرهون﴾ يعني لأنفسهم وهي البنات ﴿وتصف ألسنتهم الكذب أن لهم الحسنى﴾ يعني ويقولون: إن لهم البنين وذلك أنهم قالوا: لله البنات ولنا البنون، وهذا القول كذب منهم وافتراء على الله. وقيل: أراد بالحسنى الجنة، والمعنى أنهم مع كفرهم، وقولهم الكذب يزعمون أنهم على الحق وأن لهم الجنة وذلك أنهم قالوا: إن كان محمد صادقاً في البعث بعد الموت، فإن لنا الجنة لأنّا على الحق فأكذبهم الله فقول ﴿لا جرم أن لهم النار﴾ يعني في الآخرة لا الجنة ﴿وأنهم مفرطون﴾ قرىء بكسر الراء مع التخفيف، يعني مسرفون وقرىء بكسر الراء مع التشديد يعني مضيعون لأمر الله وقراءة الجمهور بفتح الراء مع تخفيفها أي منسيون في النار قاله ابن عباس وقال سعيد بن جبير ومقاتل: متروكون. وقال قتادة: معجلون إلى النار. وقال الفراء: مقدمون إلى النار، والفرط ما تقدم إلى الماء قبل القوم. ومنه قوله ﷺ «أنا فرطكم على الحوض» أي متقدمكم ﴿تالله لقد أرسلنا إلى أمم من قبلك﴾ يعني كما أرسلناك إلى هذه الأمة لقد أرسلنا إلى أمم من قبلك، فكان شأنهم مع رسلهم التكذيب ففيه تسلية للنبي ﷺ ﴿فزين لهم الشيطان أعمالهم﴾ يعني أعمالهم الخبيثة من الكفر والتكذيب، والمزين في الحقيقة هو الله تعالى هذا مذهب أهل السنة، وإنما جعل الشيطان آلة بإلقاء الوسوسة في قلوبهم، وليس له قدرة أن يضل أحداً أو يهدي أحداً، وإنما له الوسوسة فقط فمن أراد شقاوته سلطه عليه حتى يقبل وسوسته ﴿فهو وليهم﴾ أي ناصرهم ﴿اليوم﴾ ومن كان الشيطان وليه وناصره فهو مخذول مغلوب مقهور، وإنما سماه ولياً لهم لطاعتهم إياه ﴿ولهم عذاب أليم﴾ يعني في الآخرة ﴿وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذي اختلفوا فيه﴾ يعني في أمر الدين والأحكام فتبين لهم الهدى من الضلال، والحق من الباطل والحلال من الحرام ﴿وهدى ورحمة﴾ يعني وما أنزلنا عليك الكتاب إلا بياناً وهدى ورحمة ﴿لقوم يؤمنون﴾ لأنهم هم المنتفعون به قوله سبحانه وتعالى ﴿والله أنزل من السماء ماء﴾ يعني المطر ﴿فأحيا به﴾ يعني بالماء ﴿الأرض﴾ يعني بالنبات والزروع ﴿بعد موتها﴾ يعني يبسها

يبقَ في الأرض أحد. ﴿ ولكن يُؤخِّرهُم إلى أجلٍ ﴾، يمهلهم بحلمه إلى أجل، ﴿ مسمى ﴾، إلى منتهى آجالهم وانقطاع أعمارهم. ﴿ فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ﴾.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ ويجعلون لله ما يكرهون ﴾، لأنفسهم يعني البنات، ﴿ وتصف ﴾، أي: تقول، ﴿ ألسنتهم الكذب أنّ لهم الحسنى ﴾، يعني البنين محل (أن) نصب بدل عن الكذب، قال يمان: يعني بالحسنى: الجنة في المعاد يقولون نحن في الجنة إن كان محمد صادقاً بالوعد في البعث. ﴿ لا جَرَمَ ﴾، حقاً. قال ابن عباس: بلى، ﴿ أن لهم النار ﴾، في الآخرة، ﴿ وأنهم مفرطون ﴾، قرأ نافع بكسر الراء أي: مسرفون، وقرأ أبو جعفر بتشديد الراء وكسرها أي: مضيّعون أمر الله، وقرأ الآخرون بفتح الراء وتخفيفها أي: منسيّون في النار، قاله ابن عباس، وقال سعيد بن جبير: مبعدون وقال مقاتل: متروكون. قال قتادة: معجّلون إلى النار. قال الفرّاء: مقدّمون إلى النار، ومنه قوله ﷺ: «أنا فَرطكُم على الحوض» أي: متقدمكم.

﴿ تالله لقد أرسلنا إلى أُمم من قبلك ﴾ كما أرسلنا إلى هذه الأمة، ﴿ فزيّن لهم الشيطانُ أعمالهم ﴾، الخبيثة، ﴿ فهو وليّهم ﴾، ناصرهم، ﴿ اليوم ﴾، وقرينهم سمّاه وليّاً لهم لطاعتهم إيّاه، ﴿ ولهم عذاب أليم ﴾، في الآخرة.

وجدوبتها ﴿إن في ذلك لآية﴾ يعني دلالة واضحة على كمال قدرتنا ﴿لقوم يسمعون﴾ يعني سماع إنصاف وتدبر وتفكر، لأن سماع القلوب هو النافع لا سماع الآذان فمن سمع آيات الله، أي القرآن بقلبه وتدبرها وتفكر فيها انتفع، ومن لم يسمع بقلبه لم ينتفع بالآيات ﴿وإن لكم في الأنعام لعبرة﴾ يعني إذا تفكرتم فيها عرفتم كمال قدرتنا على ذلك ﴿نسقيكم مما في بطونه﴾ الضمير عائد إلى الأنعام، وكان حقه أن يقال مما في بطونها، واختلف النحويون في الجواب، فقيل: إن لفظ الأنعام مفرد وضع لإفادة الجمع فهو بحسب اللفظ مفرد فيكون ضميره ضمير الواحد، وهو مذكر وبحسب المعنى جمع فيكون ضميره ضمير الجمع، وهو مؤنث فلهذا المعنى. قال هنا مما في بطونه وقال في سورة المؤمنين: مما في بطونها. وهذا قول أبي عبيدة والأخفش وقال الكسائي: إنه رده إلى ما ذكر يعني مما في بطون ما ذكرنا، وقال غيره الكناية مردودة إلى البعض وفيه إضمار كأنه قال: نسقيكم مما في بطونه اللبن فأضمر اللبن إذ ليس لكلها لبن ﴿من بين فرث﴾ وهو ما في الكرش من الثفل، فإذا خرج منها لا يسمى فرثاً ﴿ودم لبناً خالصاً﴾ يعني من الدم والفرث ليس عليه لون الدم ولا رائحة الفرث. قال ابن عباس: إذا أكلت الدابة العلف، واستقر في كرشها، وطبخته كان أسفله فرثاً وأوسطه لبناً وأعلاه دماً فالكبد مسلطة عليه تقسمه بتقدير الله سبحانه وتعالى فيجري الدم في العروق واللبن في الضروع ويبقى الثفل كما هو ﴿سائغا للشاربين﴾ يعني هنيئاً سهلاً يجري في الحلق بسهولة. قيل: إنه لم يغص أحد باللبن قط. هذا قول المفسرين في معنى هذه الآية. وحكى الإمام فخر الدين الرازي قول الحكماء في ذلك، فقال: ولقائل أن يقول الدم واللبن لا يتولدان في الكرش البتة، والدليل عليه الحس فان هذه الحيوانات تذبح ذبحاً متوالياً، وما رأى أحد في كرشها دماً ولا لبناً بل الحق أن الحيوان إذا تناول الغذاء، وصل ذلك العلف إلى معدته إن كان إنساناً وإلى كرشه إن كان من الأنعام، وغيرها فإذا طبخ وحصل الهضم الأول فيه فما كان منه صافياً انجذب إلى الكبد، وما كان كثيفاً نزل إلى الأمعاء، ثم ذلك الذي حصل في الكبد ينطبخ فيها ويصير دماً وهو الهضم الثاني، ويكون ذلك مخلوطاً بالصفراء والسوداء وزيادة المائية فأما الصفراء فتذهب إلى المرارة وأما السوداء فتذهب إلى الطحال، وأما المائية فتذهب إلى الكلية ومنها إلى المثانة، وأما الدم فيذهب في الأوردة وهي العروق النابتة من الكبد وهناك يحصل الهضم الثالث. وبين الكبد وبين الضرع عروق كثيرة فينصب الدم من تلك العروق إلى الضرع والضرع لحم غددي رخو أبيض، فيقلب الله عز وجل ذلك الدم عند انصبابه إلى ذلك اللحم الغددي الرخو الأبيض، فيصير الدم لبناً فهذا صورة تكوّن اللبن في الضرع فاللبن إنما يتولد من بعض أجزاء الدم، والدم إنما يتولد من بعض الأجزاء اللطيفة من الأشياء المأكولة الحاصلة في الكرش فاللبن تولد أولاً من الفرث ثم من الدم ثانياً ثم صفاه الله سبحانه وتعالى بقدرته فجعله لبناً خالصاً من بين فرث، ودم عند تولد اللبن في الضرع يخلق الله عز وجل بلطيف حكمته في حلمة الثدي ثقباً صغيراً ومسام ضيقة فيجعلها كالمصفاة للبن فكل ما كان لطيفاً من اللبن خرج بالمص أو

﴿ وما أنزلنا عليك الكتاب إلّا لتبيّن لهم الذي اختلفوا فيه ﴾، من الدين والأحكام، ﴿ وهُدىً ورحمةً لقومٍ يؤمنون ﴾، أي: ما أنزلنا عليك الكتاب إلّا بياناً وهدىً ورحمةً فالهدى والرحمة عطف على قوله: ﴿ لتبيّن ﴾.

﴿ والله أنزل من السماء ماءً ﴾، يعني: المطر، ﴿ فأحيا به الأرض ﴾، بالنبات، ﴿ بعد موتها ﴾، يبوستها، ﴿ إنّ في ذلك لآيةً لقومٍ يسمعون ﴾، سمع القلوب لا سمع الأذان.

﴿وإنّ لكم في الأنعام لعبرة﴾، لعظة، ﴿نسقيكم﴾، بفتح النون هٰهنا وفي المؤمنين [٢١]، قرأ نافع وابن عامر وأبو بكر ويعقوب والباقون بضمها وهما لغتان. ﴿ مما في بطونه ﴾، قال الفرّاء: ردّ الكناية إلى النَّعم، والنَّعم والأنعام واحد، ولفظ النعم مذكّر قال أبو عبيدة والأخفش النعم يذكّر ويؤنّث فمَن أنّث فالمعنى الجمع ومَن ذكر فلحكم اللفظ. قال الكسائي: ردّه إلى ما يعني في بطون ما ذكرنا، وقال المؤرج: الكناية مردودة إلى البعض والجزء كأنه قال نسقيكم مما في بطونه اللبن إذ ليس لكلها لبن واللبن فيه مضمر، ﴿ من بين فَرْثٍ ﴾، وهو ما في

الحلب وما كان كثيفاً احتبس في البدن، وهو المراد بقوله خالصاً هنيئاً مريئاً. قوله عز وجل ﴿**ومن ثمرات النخيل والأعناب**﴾ يعني ولكم أيضاً عبرة فيما نسقيكم ونرزقكم من ثمرات النخيل والأعناب ﴿**تتخذون منه**﴾ الضمير في منه يرجع إلى ما تقديره ولكم من ثمرات النخيل والأعناب ما تتخذون منه ﴿**سكراً ورزقاً حسناً**﴾ قال ابن مسعود وابن عمر والحسن وسعيد بن جبير ومجاهد وإبراهيم وابن أبي ليلى والزجاج وابن قتيبة: السكر الخمر سميت بالمصدر من قولهم سكر سكراً، وسكراً والرزق الحسن سائر ما يتخذ من ثمرات النخيل، والأعناب مثل الدبس والتمر والزبيب والخل وغير ذلك. فإن قلت: الخمر محرمة فكيف ذكرها الله عز وجل في معرض الإنعام والامتنان؟ قلت: قال العلماء في الجواب عن هذا: إن هذه السورة مكية، وتحريم الخمر إنما نزل في سورة المائدة وهي مدنية فكان نزول هذه الآية في الوقت الذي كانت الخمر فيه غير محرمة، وقيل: إن الله عز وجل نبه في هذه الآية على تحريم الخمر أيضاً، لأنه ميز بينها وبين الرزق الحسن في الذكر فوجب أن يقال الرجوع عن كونه حسناً يدل على التحريم، وروى العوفي عن ابن عباس أن السكر هو الخل بلغة الحبشة وقال بعضهم: السكر هو النبيذ وهو نقيع التمر والزبيب إذا اشتد، والمطبوخ من العصير وهو قول الضحاك والنخعي ومن يبيح شرب النبيذ ومن يحرمه يقول المراد من الآية الإخبار لا الإحلال، وأولى الأقاويل أن قوله تتخذون منه سكراً منسوخ. سئل ابن عباس عن هذه الآية فقال السكر: ما حرم من ثمراتها والرزق الحسن ما حل قلت: القول بالنسخ فيه نظر لأن قوله، ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكراً ورزقاً حسناً خبر، والأخبار لا يدخلها النسخ، ومن زعم أنها منسوخة رأى أن هذه الآية نزلت بمكة في وقت إباحة الخمر ثم إن الله تبارك وتعالى حرمها بالمدينة فحكم على هذه الآية بأنها منسوخة وقال أبو عبيدة في معنى الآية: السكر الطعم يقال هذا سكر لك أي طعم لك وقال غيره: السكر ما سد الجوع من قولهم سكرت النهر أي سددته والتمر والزبيب مما يسد الجوع، وهذا شرح قول أبي عبيدة أن السكر الطعم ﴿**إن في ذلك**﴾ يعني الذي ذكر من إنعامه على عباده ﴿**لآية**﴾ يعني دلالة وحجة واضحة ﴿**لقوم يعقلون**﴾ يعني أن من كان عاقلاً استدل بهذه الآية على كمال قدرة الله تعالى ووحدانيته وعلم بالضرورة أن لهذه الأشياء خالقاً، ومدبراً قادراً على ما يريد. قوله سبحانه وتعالى:

الكرش من الثقل فإذا خرج منه لا يُسمى فرثاً، ﴿ **ودم لبناً خالصاً** ﴾، من الدم والفرث ليس عليه لون دم ولا رائحة فرث، ﴿ **سائغاً للشاربين** ﴾، هنيئاً يجري على السهولة في الحلق. وقيل: إنه لم يغصّ أحد باللبن قطّ. قال ابن عباس: إذا أكلت الدابة العلف واستقر في كرشها وطحنته كان أسفله الفرث وأوسطه اللبن وأعلاه الدم، والكبد مسلّطة عليها تقسمها بتقدير الله تعالى فيجري الدم في العروق واللبن في الضرع ويبقى الفرث كما هو.

﴿ **ومن ثمرات النخيل والأعناب** ﴾، يعني: ولكم أيضاً عبرة فيما نسقيكم ونرزقكم من ثمرات النخيل والأعناب، ﴿ **تتخذون منه** ﴾ والكناية في ﴿ **منه** ﴾ عائدة إلى (ما) محذوفة أي: ما تتخذون منه، ﴿ **سكراً ورزقاً حسناً** ﴾، قال قوم: السكر الخمر، والرزق الحسن الخل والزبيب والتمر والرُّبُ، قالوا: وهذا قبل تحريم الخمر، وإلى هذا ذهب ابن مسعود وابن عمر وسعيد بن جبير والحسن ومجاهد، وقال الشعبي: السكر ما شربت، والرزق الحسن ما أكلت. وروى العوفي عن ابن عباس: أن السكر هو الخل بلغة الحبشة، وقال بعضهم: السكر النبيذ المُسكِر، وهو نقيع التمر والزبيب إذا اشتد والمطبوخ من العصير، وهو قول الضحاك والنخعي، ومن يبيح شرب النبيذ ومن حرم يقول: المراد من الآية الإخبار لا الإحلال وأولى الأقاويل أن قوله: ﴿ **تتخذون منه سكراً** ﴾ منسوخ، رُوِيَ عن ابن عباس قال: السكر ما حرّم من ثمرها والرزق الحسن ما أحلّ. وقال أبو عبيدة: السكر الطعم يقال هذا سكر لك أي: طعم، ﴿ **إن في ذلك لآيةً لقوم يعقلون** ﴾.

وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى
سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾ وَٱللَّهُ
خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾ وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ
عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟ بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ
يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾

﴿وأوحى ربك إلى النحل﴾ لما ذكر الله سبحانه وتعالى دلائل قدرته، وعجائب صنعته الدالة على وحدانيته من إخراج اللبن من بين فرث، ودم وإخراج السكر والرزق الحسن من ثمرات النخيل، والأعناب ذكر في هذه الآية إخراج العسل الذي جعله شفاء للناس من دابة ضعيفة، وهي النحلة فقال سبحانه وتعالى وأوحى ربك إلى النحل الخطاب فيه للنبي ﷺ والمراد به كل فرد من الناس ممن له عقل، وتفكر يستدل به على كمال قدرة الله ووحدانيته وأنه الخالق لجميع الأشياء المدبر لها بلطيف حكمته، وقدرته وأصل الوحي الإشارة السريعة وذلك يكون بالكلام على سبيل الرمز، والتعريض وقد يكون بصوت مجرد ويقال للكلمة الإلهية التي يلقيها الله إلى أنبيائه وحي وإلى أوليائه إلهام وتسخير الطير لما خلق له ومنه قوله تعالى «وأوحى ربك إلى النحل» يعني أنه سخرها لما خلقها له، وألهمها رشدها وقدر في أنفسها هذه الأعمال العجيبة التي يعجز عنها العقلاء من البشر، وذلك أن النحل تبني بيوتاً على شكل مسدس من أضلاع متساوية لا يزيد بعضها على بعض بمجرد طباعها ولو كانت البيوت مدورة أو مثلثة أو مربعة، أو غير ذلك من الأشكال لكان فيما بينها خلل ولما حصل المقصود فألهمها الله سبحانه وتعالى، أن تبنيها على هذا الشكل المسدس الذي لا يحصل فيه خلل وفرجة خالية ضائعة وألهمها الله تعالى أيضاً أن تجعل عليها أميراً كبيراً نافذ الحكم فيها وهي تطيعه، وتمتثل أمره ويكون هذا الأمير أكبرها جثة وأعظمها خلقة ويسمى يعسوب النحل يعني ملكها كذا حكاه الجوهري وألهمها الله سبحانه وتعالى أيضاً أنها تخرج من بيوتها، فتدور وترعى ثم ترجع إلى بيوتها، ولا تضل عنها. ولما امتاز هذا الحيوان الضعيف بهذه الخواص العجيبة، الدالة على مزيد الذكاء والفطنة دل ذلك على الإلهام الإلهي فكان ذلك شبيهاً بالوحي، فلذلك قال تبارك وتعالى: وأوحى ربك إلى النحل، والنحل زنبور العسل ويسمى الدبر أيضاً، قال الزجاج: يجوز أن يقال سمي هذا الحيوان نحلاً لأن الله سبحانه وتعالى، نحل الناس العسل الذي يخرج من بطونها بمعنى أعطاهم. وقال غيره: النحل يذكر ويؤنث وهي مؤنثة في لغة الحجاز، وكذا أنثها الله تعالى فقال **﴿أن اتخذي من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يعرشون﴾** يعني يبنون ويثقفون وذلك أن النحل منه وحشي، وهو الذي يسكن الجبال والشجر ويأوي إلى الكهوف ومنه أهلي وهو الذي يأوي إلى البيوت، ويربيه الناس وقد جرت العادة أن الناس يبنون للنحل الأماكن حتى تأوي إليها، وقال ابن زيد: أراد بالذي يعرشون الكروم **﴿ثم كلي من كل الثمرات﴾** يعني من بعض الثمرات لأنها لا تأكل من جميع الثمار فلفظة كل هاهنا ليست للعموم **﴿فاسلكي سبل ربك﴾** يعني الطرق التي ألهمك الله أن تسلكيها، وتدخلي فيها لأجل طلب الثمرات **﴿ذللاً﴾** قيل إنها نعت للسبل يعني أنها مذللة لك الطرق مسهلة لك مسالكها. قال مجاهد: لا يتوعر عليها مكان تسلكه. وقيل: الذلل نعت للنحل يعني أنها مذللة مسخرة لأربابها مطيعة منقادة لهم حتى أنهم ينقلونها من مكانها إلى مكان آخر حيث شاؤوا! وأرادوا

﴿ وأوحَى ربُّك إلى النحل﴾، أي: ألهمها وقذف في أنفسها ففهمته والنحل زنابير العسل واحدتها نحلة.
﴿ أنِ اتخذي من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يعرشون ﴾، يبنون وقد جرت العادة أن أهلها يبنون لها الأماكن فهي تأوي إليها، **قال** ابن زيد: هي الكروم.

لا تستعصي عليهم ﴿**يخرج من بطونها شراب**﴾ يعني العسل ﴿**مختلف ألوانه**﴾ يعني ما بين أبيض وأحمر وأصفر وغير ذلك من ألوان العسل. وذلك على قدر ما تأكل من الثمار والأزهار، ويستحيل في بطونها عسلاً بقدرة الله تعالى ثم يخرج من أفواهها يسيل كاللعاب، وزعم الإمام فخر الدين الرازي أنه رأى في بعض كتب الطب، أن العسل طل من السماء ينزل كالترنجبين فيقع على الأزهار، وأوراق الشجر فتجمعه النحل فتأكل بعضه، وتدخر بعضه في بيوتها لأنفسها لتتغذى به فإذا اجتمع في بيوتها من تلك الأجزاء الطلية شيء كثير، فذلك هو العسل وقال هذا القول أقرب إلى العقل لأن طبيعة الترنجبين تقرب من طبيعة العسل، وأيضاً فإنا نشاهد أن النحل تتغذى بالعسل وأجاب عن قوله تعالى: يخرج من بطونها بأن كل تجويف في داخل البدن يسمى بطناً، فقوله: يخرج من بطونها يعني من أفواهها، وقول أهل الظاهر أولى وأصح لأنا نشاهد أنه يوجد في طعم العسل طعم تلك الأزهار التي تأكلها النحل، وكذلك يوجد لونها وريحها وطعمها فيه أيضاً، ويعضد هذا قول بعض أزواج النبي ﷺ له: أكلت مغافير؟ قال: لا. قالت: فما هذه الريح التي أجد منك؟ قال: سقتني حفصة شربة عسل. قالت: جرست نحلة العرفط. العرفط شجر الطلح، وله صمغ يقال له المغافير كريه الرائحة فمعنى جرست نحلة العرفط أكلت ورعت من العرفط الذي له الرائحة الكريهة، فثبت بهذا الدليل صحة قول أهل الظاهر من المفسرين، وأنه يوجد في طعم العسل، ولونه وريحه طعم ما يأكله النحل ولونه وريحه لا ما قاله الأطباء من أنه طل لأنه لو كان طلاً لكان على لون واحد وطبيعة واحدة. وقوله: إنه طبيعة العسل تقرب من طبيعة الترنجبين فيه نظر، لأن مزاج الترنجبين معتدل إلى الحرارة، وهو ألطف من السكر ومزاج العسل حار يابس في الدرجة الثانية فبينهما فرق كبير. وقوله: كل تجويف في داخل البدن يسمى بطناً فيه نظر، لأن لفظ البطن إذا أطلق لم يرد إلا العضو المعروف مثل بطن الإنسان، وغيره والله أعلم. وقوله تعالى ﴿**فيه**﴾ يعني في الشراب الذي يخرج من بطون النحل ﴿**شفاء للناس**﴾ وهذا قول ابن عباس وابن مسعود إذ الضمير في قوله فيه شفاء للناس، يرجع إلى العسل، وقد اختلفوا في هذا الشفاء هل هو على العموم لكل مرض، أو على الخصوص لمرض دون مرض، على قولين: أحدهما أن العسل فيه شفاء من كل داء وكل مرض. قال ابن مسعود: «العسل شفاء من كل داء والقرآن شفاء لما في الصدور» وفي رواية أخرى عنه «عليك بالشفاءين القرآن والعسل» وروى نافع أن ابن عمر ما كانت تخرج به قرحة، ولا شيء إلا لطخ الموضع بالعسل ويقرأ «يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس» (ق) عن أبي سعيد الخدري قال: «جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: إن أخي استطلق بطنه فقال رسول الله ﷺ اسقه عسلاً فسقاه ثم جاء فقال: إني سقيته عسلاً فلم يزده إلا استطلاقاً فقال له: ثلاث مرات ثم جاء الرابعة. فقال: اسقه عسلاً، فقال: لقد سقيته فلم يزده إلا استطلاقاً فقال رسول الله ﷺ صدق الله وكذب بطن أخيك فسقاه فبرأ» وقد اعترض بعض الملحدين، ومن في قلبه مرض على هذا الحديث. فقال: إن الأطباء مجمعون على أن العسل مسهل فكيف يوصف لمن به الإسهال فنقول في الرد على هذا المعترض الملحد الجاهل بعلم الطب أن الإسهال يحصل من أنواع كثيرة منها التخم، والهيضات، وقد أجمع الأطباء في مثل هذا على أن علاجه بأن تترك الطبيعة وفعلها، فإن

﴿ **ثم كلي من كل الثمرات** ﴾، ليس معنى الكل العموم، وهو كقوله تعالى: ﴿ وأُوتيت من كل شيء ﴾ [النمل: ٢٣]. ﴿ **فاسلكي سُبُلَ ربِّكِ ذُلُلًا** ﴾. قيل: هي نعت الطرق، يقول: هي مذلّلة للنحل سهلة المسالك. قال مجاهد: لا يتوعر عليها مكان سلكته. وقال آخرون: الذلل نعت النحل، أي: مطيعة منقادة بالتسخير. يقال: إن أربابها ينقلونها من مكان إلى مكان ولها يعسوب إذا وقف وقفت وإذا سار سارت، ﴿ **يخرج من بطونها شراب** ﴾، يعني: العسل ﴿ **مختلفٌ ألوانه** ﴾، أبيض وأحمر وأصفر. ﴿ **فيه شفاءٌ للناس** ﴾، أي: في العسل. وقال مجاهد: أي في القرآن والأول أولى، أنا إسماعيل بن عبد القاهر ثنا عبد الغافر بن محمد ثنا محمد بن عيسى الجلودي ثنا إبراهيم بن محمد بن سفيان ثنا مسلم بـن الحجاج ثنا محمد بن المثنى أنا محمد بن جعفر ثنا شعبة

احتاجت إلى معين على الإسهال أعينت ما دامت القوة باقية فأما حبسها فمضر عندهم، واستعجال مرض فيحتمل أن يكون إسهال الشخص المذكور في الحديث أصابه من امتلاء أو هيضة، فدواؤه بترك إسهاله على ما هو عليه أو تقويته فأمره رسول الله ﷺ العسل فزاده إسهالاً، فزاده عسلاً إلى أن فنيت المادة فوقف الإسهال ويكون الخلط الذي كان به يوافقه شرب العسل، فثبت بما ذكرناه أن أمره ﷺ لهذا الرجل بشرب العسل جار على صناعة الطب، وأن المعترض عليه جاهل لها ولسنا نقصد الاستظهار لتصديق الحديث بقول الأطباء: بل لو كذبوه لكذبناهم وكفرناهم بذلك وإنما ذكرنا هذا الجواب الجاري على صناعة الطب، دفعاً لهذا المعترض بأنه لا يحسن صناعة الطب التي اعترض بها والله أعلم وقوله ﷺ: «صدق الله وكذب بطن أخيك» يحتمل أنه ﷺ، علم بالوحي الإلهي أن العسل، الذي أمره بشربه سيظهر نفعه بعد ذلك فلما لم يظهر نفعه في الحال عندهم قال: صدق الله يعني فيما وعد به من أن فيه شفاء وكذب بطن أخيك يعني باستعجالك للشفاء في أول مرة والله أعلم بمراده، وأسرار رسوله ﷺ فإن قالوا: كيف يكون شفاء للناس، وهو يضر بأصحاب الصفراء ويهيج الحرارة ويضر بالشباب المحرورين ويعطش، قلنا: في الجواب عن هذا الاعتراض أيضاً: إن قوله فيه شفاء للناس مع أنه يضر بأصحاب الصفراء، ويهيج الحرارة أنه خرج مخرج الأغلب، وأنه في الأغلب فيه شفاء، ولم يقل: إنه شفاء لكل الناس لكل داء ولكنه في الجملة دواء، وإن نفعه أكثر من مضرته، وقل معجون من المعاجين إلا وتمامه به. والأشربة المتخذة من العسل نافعة لأصحاب البلغم والشيوخ المبرودين، ومنافعه كثيرة جداً. والقول الثاني: أنه شفاء للأوجاع التي شفاؤها فيه وهذا قول السدي وقال مجاهد: في قوله فيه شفاء للناس يعني القرآن لأنه شفاء من أمراض الشرك، والجهالة والضلالة وهو هدى ورحمة للناس، والقول الأول أصح لأن الضمير يجب أن يعود إلى أقرب المذكورات، وأقربها قوله تعالى يخرج من بطونها شراب وهو العسل فهو أولى أن يرجع الضمير إليه لأنه أقرب مذكور. وقوله سبحانه وتعالى ﴿**إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون**﴾ يعني فيعتبرون ويستدلون بما ذكرنا على وحدانيتنا وقدرتنا. قوله عز وجل ﴿**والله خلقكم**﴾ يعني أوجدكم من العدم وأخرجكم إلى الوجود ولم تكونوا شيئاً ﴿**ثم يتوفاكم**﴾ يعني عند انقضاء آجالكم إما صبياناً وإما شباناً وإما كهولاً ﴿**ومنكم من يرد إلى أرذل العمر**﴾ يعني أرداه وأضعفه وهو الهرم قال بعض العلماء: عمر الإنسان له أربع مراتب أولها من النشوء والنماء، وهو من أول العمر إلى بلوغ ثلاث وثلاثين سنة، وهو غاية سن الشباب وبلوغ الأشد ثم المرتبة الثانية: سن الوقوف، وهو من ثلاث وثلاثين سنة إلى أربعين سنة، وهو غاية القوة وكمال العقل ثم المرتبة الثالثة: سن الكهولة، وهو من الأربعين إلى الستين، وهذه المرتبة يشرع الإنسان في النقص لكنه يكون نقصاً خفياً لا يظهر ثم المرتبة الرابعة: سن الشيخوخة والانحطاط من الستين إلى آخر العمر، وفيها يتبين النقص، ويكون الهرم والخرف. وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: أرذل العمر خمس وسبعون سنة. وقيل: ثمانون سنة وقال قتادة تسعون سنة (ق) عن أنس قال كان رسول الله ﷺ يقول «اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل والجبن والهرم والبخل وأعوذ بك من عذاب القبر، وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات». وفي رواية أخرى عنه قال كان رسول الله ﷺ يدعو بهذه الدعوات: «اللهم إني

عن قتادة عن أبي المتوكل عن أبي سعيد الخدري قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: إن أخي استطلق بطنه، فقال رسول الله ﷺ: اسقه عسلاً، فسقاه ثم جاء فقال: إني سقيته فلم يزده إلّا استطلاقاً، فقال النبي ﷺ له ثلاث مرات، ثم جاء الرابعة فقال: اسقه عسلاً، قال: قد سقيته فلم يزده إلا استطلاقاً فقال رسول الله ﷺ: «صدق الله وكذب بطن أخيك، اسقه عسلاً، فسقاه فبرأ». قال عبد الله بن مسعود: العسلُ شفاء من كل داء والقرآن شفاء لما في الصدور. وروي عنه أنه قال: عليكم بالشفاءين القرآن والعسل. ﴿ **إن في ذلك لآيةً لقوم يتفكّرون** ﴾، فيعتبرون.

﴿ **والله خلقكم ثم يتوفّاكم** ﴾، صبياناً أو شبّاناً أو كهولاً، ﴿ **ومنكم مَنْ يُردُّ إلى أرذلِ العُمُرِ** ﴾، أردئه، قال

أعوذ بك من البخل والكسل وأرذل العمر وعذاب القبر وفتنة المحيا والممات» وقوله تعالى: ﴿**لكيلا يعلم بعد علم شيئاً**﴾ يعني الإنسان يرجع إلى حالة الطفولية بنسيان ما كان علم بسبب الكبر، وقال ابن عباس: لكي يصير كالصبي لا عقل له. وقال ابن قتيبة: معناه حتى لا يعلم بعد علمه بالأمور شيئاً لشدة هرمه. وقال الزجاج: المعنى وإن منكم من يكبر حتى يذهب عقله خرفاً فيصير بعد أن كان عالماً جاهلاً، ليريكم الله من قدرته أنه كما قدر على إماتته وإحيائه، أنه قادر على نقله من العلم إلى الجهل هكذا، وجدته منقولاً عنه ولو قال: ليريكم من قدرته أنه كما قدر على نقله من العلم إلى الجهل، أنه قادر على إحيائه بعد إماتته ليكون ذلك دليلاً على صحة هذا البعث، بعد الموت لكان أجود. قال ابن عباس: ليس هذا في المسلمين لأن المسلم لا يزداد في طول العمر والبقاء إلا كرامة عند الله وعقلاً ومعرفة. وقال عكرمة: من قرأ القرآن لم يرد إلى أرذل العمر حتى لا يعلم بعد علم شيئاً. وقال في قوله: إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات، هم الذين قرؤوا القرآن وقال ابن عباس في قوله تعالى: ثم رددناه أسفل سافلين يريد الكافرين ثم استثنى المؤمنين فقال تعالى إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات. وقوله تعالى ﴿**إن الله عليم**﴾ يعني بما صنع بأوليائه وأعدائه ﴿**قدير**﴾ يعني على ما يريد قوله تعالى ﴿**والله فضل بعضكم على بعض في الرزق**﴾ يعني أن الله سبحانه وتعالى بسط على واحد، وضيق وقتر على واحد وكثر لواحد وقلل على آخر، وكما فضل بعضكم على بعض في الرزق، كذلك فضل بعضكم على بعض في الخلق والخلق والعقل والصحة والسقم والحسن والقبح والعلم والجهل وغير ذلك. فهم متفاوتون ومتباينون في ذلك كله، وهذا مما اقتضته الحكمة الإلهية والقدرة الربانية ﴿**فما الذين فضلوا برادي رزقهم على ما ملكت أيمانهم**﴾ يعني من العبيد حتى يستووا فيه هم وعبيدهم يقول الله سبحانه وتعالى هم لا يرضون أن يكونوا هم ومماليكهم فيما رزقتهم سواء وقد جعلوا عبيدي شركائي في ملكي وسلطاني يلزم بهذه الحجة المشركين حيث جعلوا الأصنام شركاء لله قال قتادة: هذا مثل ضربه الله عز وجل. يقول: هل منكم أحد يرضى أن يشركه مملوكه في جميع ماله فكيف تعدلون بالله خلقه وعباده، وقيل: في معنى الآية أن الموالي والمماليك الله رازقهم جميعاً ﴿**فهم فيه**﴾ يعني في رزقه ﴿**سواء**﴾ فلا تحسبن أن الموالي يردون رزقهم على مماليكهم من عند أنفسهم، بل ذلك رزق الله أجراه على أيدي الموالي للمماليك، والمقصود منه بيان أن الرازق هو الله سبحانه وتعالى لجميع خلقه وأن الموالي والمماليك في الرزق سواء وأن المالك لا يرزق المملوك، بل الرازق للمماليك والمالك هو الله سبحانه وتعالى.

مقاتل: يعني الهرم. قال قتادة: أرذل العمر تسعون سنة. رُوِيَ عن علي قال: أرذل العمر خمس وسبعون. وقيل: ثمانون سنة.

﴿ **لكيلا يعلم بعد علم شيئاً** ﴾، لكيلا يعقل بعد عقله الأول شيئاً، ﴿ **إن الله عليم قدير** ﴾، أنا عبد الواحد المليحي ثنا أحمد النعيمي ثنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا موسى بن إسماعيل ثنا هارون بن موسى ثنا أبو عبد الله الأعور عن شعيب عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ كان يدعو: «أعوذ بك من البخل والكسل وأرذل العمر وعذاب القبر وفتنة الدجال وفتنة المحيا والممات».

﴿ **والله فضّل بعضَكم على بعض في الرزق** ﴾، بسط عن واحد وضيَّق على الآخر وقلّل وكثّر. ﴿ **فما الذين فُضِّلُوا برادّي رزقهم على ما ملكتْ أيمانهم** ﴾، من العبيد، ﴿ **فهم فيه سواء** ﴾، أي: حتى يستووا هم وعبيدهم في ذلك. يقول الله تعالى: لا يرضون أن يكونوا هم ومماليكهم فيما رزقهم الله سواء وقد جعلوا عبيدي شركائي في ملكي وسلطاني يلزم به الحجة على المشركين. قال قتادة: هذا مثل ضربه الله عزّ وجلّ فهل منكم أحد يشركه مملوكه في زوجته وفراشه وما له أفتعدلون بالله خلقه وعباده، ﴿ **أفَبِنِعْمَةِ الله يجحدون** ﴾، بالإشراك به، وقرأ أبو بكر بالتاء لقوله: ﴿ **والله فضّل بعضَكم على بعض في الرزق** ﴾، والآخرون بالياء لقوله: ﴿ **فهم فيه سواء** ﴾.

وقوله ﴿**أفبنعمة الله يجحدون**﴾ فيه إنكار على المشركين حيث جحدوا نعمته وعبدوا غيره. قوله عز وجل:

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾﴾

﴿**والله جعل لكم من أنفسكم أزواجاً**﴾ يعني النساء فخلق من آدم حواء زوجته، وقيل: **جعل** لكم من جنسكم أزواجاً لأنه خطاب عام يعم الكل فتخصيصه بآدم وحواء خلاف الدليل ﴿**وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة**﴾ الحفدة جمع حافد، وهو المسرع في الخدمة المسارع إلى الطاعة ومنه قوله في الدعاء «وإليك نسعى ونحفد» أي نسرع إلى طاعتك، فهذا أصله في اللغة ثم اختلفت أقوال المفسرين فيهم فقال ابن مسعود والنخعي: الحفدة أختان الرجل على بناته وعن ابن مسعود أيضاً، أنهم أصهاره فهو بمعنى الأول فعلى هذا القول، يكون معنى الآية وجعل لكم من أزواجكم بنين وبنات، فزوجوهم فيجعل لكم بسببهم الأختان والأصهار. وقال الحسن وعكرمة والضحاك: هم الخدم. وقال مجاهد: هم الأعوان وكل من أعانك قد حفدك، وقال عطاء: هم ولد الرجل الذين يعينونه ويخدمونه وقيل: هم أهل المهنة الذين يمتهنون ويخدمون من الأولاد وقال مقاتل والكلبي: البنين هم الصغار والحفدة كبار الأولاد الذين يعينون الرجل على عمله، وقال ابن عباس: هم ولد الولد. وفي رواية أخرى عنه أنهم بنو امرأة الرجل الذين ليسوا منه وكل هذه الأقوال متقاربة لأن اللفظ يحتمل الكل بحسب المعنى المشترك، وبالجملة فإن الحفدة هم غير البنين، لأن الله سبحانه وتعالى قال: بنين وحفدة فجعل بينهما مغايرة ﴿**ورزقكم من الطيبات**﴾ يعني النعم التي أنعم عليكم من أنواع الثمار والحبوب والحيوان، والأشربة المستطابة الحلال من ذلك كله ﴿**أفبالباطل يؤمنون**﴾ يعني بالأصنام وقيل: بالشيطان يؤمنون وقيل: معناه يصدقون أن لي شريكاً وصاحبة وولداً وهذا استفهام إنكار أي ليس لهم ذلك ﴿**وبنعمة الله هم يكفرون**﴾ يعني أنهم يضيفون ما أنعم الله به عليهم إلى غيره، وقيل معناه إنهم يجحدون ما أحل الله لهم ﴿**ويعبدون من دون الله ما لا يملك لهم رزقاً من السموات والأرض**﴾ يعني الأصنام التي لا تقدر على إنزال المطر الذي في السموات خزائنه، ولا يقدرون على إخراج النبات الذي في الأرض معدنه ﴿**شيئاً**﴾ يعني لا يملك من

قوله تعالى: ﴿ **والله جعل لكم من أنفسكم أزواجاً** ﴾، يعني: النساء خلق من آدم زوجته حواء، وقيل: من أنفسكم أي: من جنسكم أزواجاً، ﴿ **وجعل لكم من أزواجكم بنينَ وحفدة** ﴾، قال ابن مسعود والنخعي: الحَفَدَة أختان الرجل على بناته، وعن ابن مسعود أيضاً أنهم الأصهار، فيكون معنى الآية على هذا القول: **وجعل** لكم من أزواجكم بنين وبنات تزوّجونهم فيحصل بسببهم الأختان والأصهار. وقال عكرمة والحسن والضحاك: هم الخدم. قال مجاهد: هم الأعوان من أعانك فقد حفدك. وقال عطاء: هم ولد ولد الرجل الذين يعينونه ويخدمونه. وقال قتادة: مهنة تمتهنونهم ويخدمونكم من أولادكم. قال الكلبي ومقاتل: البنين الصغار والحَفَدَة كبار الأولاد الذين يُعينونه على عمله. وروى مجاهد وسعيد بن جبير عن ابن عباس: أنهم ولد الولد. وروى العوفي عنه: أنهم امرأة الرجل ليسوا منه ﴿ **ورزقكم من الطيبات** ﴾، من النِعَم الحلال، ﴿ **أفبالباطل** ﴾، يعني الأصنام، ﴿ **يؤمنون وبنعمة الله هم يكفرون** ﴾، يعني التوحيد والإسلام، وقيل: الباطل الشيطان أمرهم بتحريم البحيرة والسائبة، **وبنعمة الله** أي بما أحلّ الله لهم **يكفرون** يجحدون تحليله.

﴿ **ويعبدون من دون الله ما لا يملك لهم رزقاً من السمٰوات** ﴾، يعني المطر، ﴿ **والأرض** ﴾، يعني النبات، ﴿ **شيئاً** ﴾، قال الأخفش: هو بدل من الرزق معناه أنهم لا يملكون من أمر الرزق شيئاً قليلاً ولا كثيراً. وقال الفرّاء:

الرزق شيئاً قليلاً ولا كثيراً، وقيل معناه يعبدون ما لا يرزق شيئاً ﴿ولا يستطيعون﴾ يعني ولا يقدرون على شيء يذكر عجز الأصنام عن ايصال نفع أو دفع ضر.

فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾ ۞ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ۖ هَلْ يَسْتَوُۥنَ ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ۖ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ ۙ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾

﴿**فلا تضربوا لله الأمثال**﴾ يعني لا تشبهوا الله بخلقه فإنه لا مثل له، ولا شبيه ولا شريك من خلقه، لأن الخلق كلهم عبيده، وفي ملكه فكيف يشبه الخالق بالمخلوق، أو الرازق بالمرزوق، أو القادر بالعاجز ﴿**إن الله يعلم**﴾ يعني ما أنتم عليه من ضرب الأمثال له ﴿**وأنتم لا تعلمون**﴾ خطأ ما تضربون له من الأمثال. قوله تعالى ﴿**ضرب الله مثلاً عبداً مملوكاً لا يقدر على شيء ومن رزقناه منا رزقاً حسناً**﴾ لما نهاهم الله سبحانه وتعالى عن ضرب الأمثال، لقلة علمهم ضرب هو سبحانه وتعالى لنفسه مثلاً، فقال تعالى: مثلكم في إشراككم بالله الأوثان، كمثل من سوّى بين عبد مملوك عاجز عن التصرف وبين حر كريم مالك قادر، قد رزقه الله مالاً فهو يتصرف فيه، وينفق منه كيف يشاء، فصريح العقل يشهد بأنه لا تجوز التسوية بينهما في التعظيم والإجلال، فلما لم تجز التسوية بينهما مع استوائهما في الخلقة والصورة البشرية، فكيف يجوز للعقل أن يسوي بين الله عز وجل الخالق القادر على الرزق والإفضال وبين الأصنام التي لا تملك ولا تقدر على شيء البتة؟ وقيل: هذا مثل ضربه الله للمؤمن والكافر والمراد بالعبد المملوك الذي لا يقدر على شيء هو الكافر، لأنه لما كان محروماً من عبادة الله وطاعته صار كالعبد الذليل الفقير العاجز الذي لا يقدر على شيء، وقيل: إن الكافر لما رزقه الله مالاً فلم يقدم فيه خيراً صار كالعبد الذي لا يملك شيئاً، والمراد بقوله ومن رزقناه منا رزقاً حسناً، المؤمن لأنه لما اشتغل بطاعة الله، وعبوديته والإنفاق في وجوه البر والخير صار كالحر المالك الذي ينفق سراً وجهراً في طاعة الله، وابتغاء مرضاته وهو قوله سبحانه وتعالى ﴿**فهو ينفق منه سراً**

نصب شيئاً بوقوع الرزق عليه أي لا يرزق شيئاً، ﴿ **ولا يستطيعون** ﴾، ولا يقدرون على شيء بذكر عجز الأصنام عن إيصال نفع أو دفع ضرّ.

﴿ **فلا تضربوا لله الأمثال** ﴾، يعني الأشباه فتشبّهونه بخلقه وتجعلون له شريكاً فإنه واحد لا مثل له، ﴿ **إن الله يعلم وأنتم لا تعلمون** ﴾، خطأ ما تضربون من الأمثال، ثم ضرب مثلاً للمؤمن والكافر فقال جلّ ذكره:

﴿ **ضربَ اللّهُ مثلاً عبداً مملوكاً لا يقدر على شيء** ﴾، هذا مثل الكافر رزقه الله مالاً فلم يقدّم فيه خيراً، ﴿ **ومَن رزقناه منّا رزقاً حسناً فهو ينفق منه سرّاً وجهراً** ﴾، هذا مثل المؤمن أعطاه الله مالاً فعمل فيه بطاعة الله وأنفقه في رضاء الله سرّاً وجهراً فأثابه الله عليه الجنة. ﴿ **هل يستوون** ﴾، ولم يقل هل يستويان لمكان ﴿ **من** ﴾ وهو اسم يصلح للواحد والاثنين والجمع، وكذلك قوله: ﴿ **لا يستطيعون** ﴾ بالجمع لأجل من معناه هل يستوي هذا الفقير البخيل والغني السخي كذلك لا يستوي الكافر العاصي والمؤمن المطيع. وروى ابن جريج عن عطاء في قوله تعالى: ﴿ **عبداً مملوكاً** ﴾، أي: أبو جهل بن هشام ﴿ **ومَن رزقناه رزقاً حسناً** ﴾ أبو بكر الصديق رضي الله عنه. ثم

وجهراً﴾ فأثابه الله الجنة على ذلك. فإن قلت: لم قال عبداً مملوكاً لا يقدر على شيء، وكل عبد هو مملوك وهو غير قادر على التصرف؟ قلت: إنما ذكر المملوك ليتميز من الحر لأن اسم العبد يقع عليهما جميعاً لأنهما من عباد الله، وقوله: لا يقدر على شيء احترز به عن المملوك المكاتب والمأذون له في التصرف، لأنهما يقدران على التصرف واحتج الفقهاء بهذه الآية على أن العبد لا يملك شيئاً **﴿هل يستوون﴾** ولم يقل هل يستويان يعني هل يستوي الأحرار والعبيد، والمعنى كما لا يستوي هذا الفقير البخيل، والغني السخي كذلك لا يستوي الكافر العاصي، والمؤمن الطائع، وقال عطاء في قوله: عبداً مملوكاً هو أبو جهل بن هشام ومن رزقناه منا رزقاً حسناً، هو أبو بكر الصديق ثم قال تعالى **﴿الحمد لله﴾** حمد الله نفسه لأنه المستحق لجميع المحامد لأنه المنعم المتفضل على عباده، وهو الخالق الرازق لا هذه الأصنام التي عبدها هؤلاء، فإنها لا تستحق الحمد لأنها جماد عاجز، لا يد لها على أحد ولا معروف، فتحمد عليه إنما الحمد الكامل لله لا لغيره فيجب على جميع العباد، حمد الله لأنه أهل الحمد والثناء الحسن **﴿بل أكثرهم﴾** يعني الكفار **﴿لا يعلمون﴾** يعني أن الحمد لله لا لهذه الأصنام **﴿وضرب الله مثلاً رجلين أحدهما أبكم﴾** هو الذي ولد أخرس فكل أبكم أخرس وليس كل أخرس أبكم، والأبكم الذي لا يفهم ولا يفهم **﴿لا يقدر على شيء﴾** هو إشارة إلى العجز التام والنقصان الكامل، **﴿وهو كل على مولاه﴾** أي ثقيل على من يلي أمره ويعوله وقيل أصله من الغلظ وهو نقيض الحدة، يقال كل السكين إذا غلظت شفرته وكل اللسان إذا غلظ فلم يقدر على النطق، وكل فلان عن الأمر إذا ثقل عليه فلم ينبعث فيه، فقوله وهو كل على مولاه أي غليظ ثقيل على مولاه **﴿أينما يوجهه﴾** أي حيثما يرسله ويصرفه في طلب حاجة أو كفاية مهم **﴿لا يأت بخير﴾** يعني لا يأت بجنح لأنه أخرس عاجز لا يحسن ولا يفهم **﴿هل يستوي﴾** يعني من هذه صفته **﴿هو﴾** يعني صاحب هذه الصفات المذمومة **﴿ومن يأمر بالعدل﴾** يعني ومن هو سليم الحواس نفاع ذو كفايات ذو رشد وديانة يأمر الناس بالعدل والخير **﴿وهو﴾** في نفسه **﴿على صراط مستقيم﴾** يعني على سيرة صالحة ودين قويم، فيجب أن يكون الآمر بالعدل، عالماً قادراً مستقيماً في نفسه حتى يتمكن من الأمر بالعدل، وهذا مثل ثان ضربه الله لنفسه، ولما يفيض على عباده من إنعامه ويشملهم به من آثار رحمته وألطافه وللأصنام التي هي أموات جماد، لا تضر ولا تنفع ولا تسمع ولا تنطق ولا تعقل، وهي كل على عابديها، لأنها تحتاج إلى كلفة الحمل والنقل والخدمة. وقيل: كلا المثلين للمؤمن والكافر، والمؤمن: هو الذي يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم. والكافر: هو الأبكم الثقيل الذي لا يأمر بخير فعلى هذا القول تكون الآية على العموم في كل مؤمن وكافر. وقيل: هي على الخصوص فالذي يأمر بالعدل هو رسول الله ﷺ وهو على صراط مستقيم، والذي يأمر بالظلم وهو أبكم أبو جهل. وقيل: الذي يأمر بالعدل عثمان بن عفان، وكان له مولى يأمره بالإسلام وذلك المولى يأمر عثمان

قال: **﴿ الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون ﴾**، يقول ليس الأمر كما يقولون ما للأوثان عندهم من يد ولا معروف فتحمد عليه إنما الحمد الكامل لله عزّ وجلّ لأنه المنعم والخالق والرازق، ولكن أكثر الكفار لا يعلمون، ثم ضرب مثلاً للأصنام فقال:

﴿ وضربَ الله مثلاً رجلين أحدهما أبكم لا يقدر على شيء وهو كَلٌّ على مولاه ﴾، كل ثقل ووبال على مولاه ابن عمّه وأهل ولايته، **﴿ أينما يُوجِّهه ﴾**، يرسله، **﴿ لا يأت بخير ﴾**، لأنه لا يفهم ما يقال له ولا يفهم عنه، هذا مثل الأصنام لا تسمع ولا تنطق ولا تعقل، **﴿ وهو كَلٌّ على مولاه ﴾** عابده يحتاج إلى أن يحمله ويضعه ويخدمه، **﴿ هل يستوي هو ومَن يأمر بالعدل ﴾**، يعني: الله فإنه قادر متكلّم يأمر بالتوحيد، **﴿ وهو على صراط مستقيم ﴾**، قال الكلبي: يعني يدلكم على صراط مستقيم. وقيل: هو رسول الله ﷺ يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم. وقيل: كِلا المثلين للمؤمن والكافر، يرويه عطية عن ابن عباس قال عطاء: الأبكم أُبيّ بن خلف ومَن يأمر بالعدل

بالإمساك عن الإنفاق في سبيل الله تعالى، فهو الذي لا يأت بخير. وقيل: المراد بالأبكم الذي لا يأت بخير أبي بن خلف، وبالذي يأمر بالعدل حمزة وعثمان بن عفان، وعثمان بن مظعون ﴿ولله غيب السموات والأرض﴾ أخبر الله عز وجل في الآية عن كمال علمه، وأنه عالم بجميع الغيوب، فلا تخفى عليه خافية ولا يخفى عليه شيء منها، وقيل الغيب هنا هو علم قيام الساعة وهو قوله ﴿وما أمر الساعة﴾ يعني في قيامها، والساعة هي الوقت الذي يقوم الناس فيه لموقف الحساب ﴿إلا كلمح البصر﴾ يعني في السرعة، ولمح البصر هو انطبقا جفن العين وفتحه وهو طرف العين أيضاً ﴿أو هو أقرب﴾ يعني أن لمح البصر يحتاج إلى زمان وحركة، والله سبحانه وتعالى إذا أراد شيئاً قال له: كن فيكون في أسرع من لمح البصر وهو قوله ﴿إن الله على كل شيء قدير﴾ فيه دليل على كمال قدرة الله تعالى وأنه سبحانه وتعالى مهما أراد شيئاً كان أسرع ما يكون. قال الزجاج: ليس المراد أن الساعة تأتي في أقرب من لمح البصر، ولكنه سبحانه وتعالى وصف سرعة القدرة على الإتيان بها متى شاء، لا يعجزه شيء. قوله عز وجل:

﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَـٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَـٰثًا وَمَتَـٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾﴾

﴿والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً﴾ تم الكلام هنا لأن الإنسان خلق في أول الفطرة، ومبدئها خالياً عن العلم والمعرفة لا يهتدي سبيلاً ثم ابتدأ فقال تعالى ﴿وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة﴾ يعني أن الله سبحانه وتعالى إنما أعطاكم هذه الحواس لتنتقلوا بها من الجهل إلى العلم، فجعل لكم السمع لتسمعوا به نصوص الكتاب، والسنة وهي الدلائل السمعية لتستدلوا بها على ما يصلحكم في أمر دينكم، وجعل لكم الأبصار لتبصروا بها عجائب مصنوعاته، وغرائب مخلوقاته، فتستدلوا بها على وحدانيته. وجعل لكم الأفئدة لتعقلوا بها، وتفهموا معاني الأشياء التي جعلها دلائل وحدانيته، وقال ابن عباس: في هذه الآية يريد لتسمعوا مواعظ الله وتبصروا ما أنعم الله به عليكم من إخراجكم من بطون أمهاتكم، إلى أن صرتم رجالاً وتعقلوا عظمة الله، وقيل في معنى الآية: والله خلقكم في بطون أمهاتكم وسواكم وصوركم، ثم أخرجكم من الضيق إلى السعة، وجعل لكم الحواس آلات لإزالة الجهل الذي ولدتم عليه واجتلاب العلم والعمل به، من شكر المنعم وعبادته، والقيام بحقوقه والترقي إلى ما يسعدكم به في الآخرة. فإن قلت: ظاهر الآية يدل على أن جعل الحواس الثلاث بعد الإخراج من البطون، وإنما خلقت هذه الحواس

حمزة وعثمان بن عفان وعثمان بن مظعون. وقال مقاتل: نزلت في هاشم بن عمرو بن الحرث بن ربيعة القرشي، وكان قليل الخير يُعادي رسول الله ﷺ. وقيل: نزلت في عثمان بن عفان ومولاه كان عثمان ينفق عليه وكان مولاه يكره الإسلام.

﴿ ولله غيبُ السمٰوات والأرض وما أمر الساعة ﴾، في قرب كونها، ﴿ إلاّ كلمح البصر ﴾، إذا قال له كن فيكون، ﴿ أو هو أقرب ﴾، بل هو أقرب، ﴿ إنّ الله على كل شيء قدير ﴾، نزلت في الكفّار الذين يستعجلون القيامة استهزاء.

﴿ والله أخرجكم من بطون أُمهاتكم ﴾، قرأ الكسائي ﴿ بطون ﴾ و(بيوت) أُمهاتكم بكسر الهمزة، وقرأ حمزة بكسر الميم والهمزة الباقون بضم الهمزة وفتح الميم، ﴿ لا تعلمون شيئاً ﴾، تمّ الكلام ثم ابتدأ فقال جلّ وعلا:

للإنسان من جملة خلقه، وهو في بطن أمه. قلت: ذكر العلماء أن تقديم الإخراج، وتأخير ذكر هذه الحواس لا يدل على أن خلقها كان بعد الإخراج لأن الواو لا توجب الترتيب ولأن العرب تقدم وتؤخر في بعض كلامها. وأقول لما كان الانتفاع بهذه الحواس بعد الخروج من البطن، فكأنما خلقت في ذلك الوقت الذي ينتفع بها فيه وإن كانت قد خلقت قبل ذلك. وقوله تعالى **﴿لعلكم تشكرون﴾** يعني إنما أنعم عليكم بهذه الحواس لتستعملوها في شكر من أنعم بها عليكم **﴿ألم يروا إلى الطير مسخرات﴾** يعني مذللات **﴿في جو السماء﴾** الجو الفضاء الواسع بين السماء والأرض وهو الهواء. قال كعب الأحبار: إن الطير ترتفع في الجو اثني عشر ميلاً ولا ترتفع فوق ذلك **﴿ما يمسكهن إلا الله﴾** يعني في حال قبض أجنحتها، وبسطها واصطفاقها في الهواء، وفي هذا حث على الاستدلال بها على أن لها مسخراً سخرها، ومذللاً ذللها، وممسكاً أمسكها في حال طيرانها ووقوفها في الهواء، وهو الله تعالى **﴿إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون﴾** إنما خص المؤمنين بالذكر، لأنهم هم الذين يعتبرون بالآيات ويتفكرون فيها وينتفعون بها دون غيرهم. قوله سبحانه وتعالى **﴿والله جعل لكم من بيوتكم﴾** يعني التي هي من الحجر والمدر **﴿سكناً﴾** يعني مسكناً تسكنونه، والسكن ما سكنت إليه وفيه من ألف أو بيت **﴿وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتاً﴾** يعني الخيام والقباب والأخبية، والفساطيط المتخذة من الأدم والأنطاع. واعلم أن المساكن على قسمين: أحدهما: ما لم يمكن نقله من مكان إلى مكان آخر، وهي البيوت المتخذة من الحجارة والخشب ونحوهما، والقسم الثاني: ما يمكن نقله من مكان إلى مكان آخر وهي الخيام والفساطيط المتخذة من جلود الأنعام، وإليها الإشارة بقوله تعالى **﴿تستخفونها﴾** يعني يخف عليكم حملها **﴿يوم ظعنكم﴾** يعني في يوم سيركم ورحيلكم في أسفاركم وظعن البادية هو لطلب ماء أو مرعى، ونحو ذلك **﴿ويوم إقامتكم﴾** يعني وتخف عليكم أيضاً في إقامتكم وحضركم، والمعنى: لا تثقل عليكم في الحالتين **﴿ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها﴾** الكناية عائدة إلى الأنعام، يعني ومن أصواف الضأن، وأوبار الإبل وأشعار المعز **﴿أثاثاً﴾** يعني تتخذون أثاثاً. الأثاث. متاع البيت الكبير، وأصله من أث إذا كثر وتكاثف، وقيل للمال أثاث إذا كثر. قال ابن عباس: أثاثاً يعني مالاً: وقال مجاهد: متاعاً. وقال القتيبي: الأثاث المال أجمع من الإبل والغنم والعبيد والمتاع. وقال غيره الأثاث هو متاع البيت من الفرش والأكسية ونحو ذلك **﴿ومتاعاً﴾** يعني وبلاغاً وهو ما يتمتعون به

﴿ وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة ﴾، لأن الله تعالى جعل هذه الأشياء لهم قبل الخروج من بطون الأمهات وإنما أعطاهم العلم بعد الخروج، **﴿ لعلّكم تشكرون ﴾**، نعمة كون السمع والأبصار والأفئدة قبل الخروج إذ يسمع الطفل ويبصر ولا يعلم، وهذه الجوارح من غير هذه الصفات كالمعدوم، كما قال فيمن لا يسمع ولا يبصر العِبَر ولا يعقل الثواب: **﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُميٌ فهم لا يرجعون ﴾** [البقرة: ١٨] لا يشكرون نِعمَه.

﴿ ألـم يروا ﴾، قرأ ابن عامر وحمزة ويعقوب بالتاء والباقون بالياء لقوله: **﴿ ويعبدون ﴾** [النحل: ٧٣]. **﴿ إلى الطير مسخرات ﴾**، مذلّلات، **﴿ في جوّ السماء ﴾** وهو الهوى بين السماء والأرض، روى كعب الأحبار أن الطير ترفع اثني عشر ميلاً ولا ترفع فوق هذا وفوق الجو السكاك السماء **﴿ ما يمسكهنّ ﴾** في الهواء **﴿ إلا الله إنّ في ذلك لآيات لقوم يؤمنون ﴾**.

﴿ والله جعل لكم من بيوتكم ﴾ التي هي من الحجر والمدر، **﴿ سكناً ﴾** أي: مسكناً تسكنونه، **﴿ وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتاً ﴾**، يعني الخيام والقِباب والأخبية والفساطيط من الأنطاع والأدم، **﴿ تستخفونها ﴾** أي: يخفّ عليكم حملها، **﴿ يوم ظَعْنِكم ﴾**، رحلتكم في سفركم، قرأ ابن عامر وأهل الكوفة ساكنة العين، والآخرون بفتحها، وهو أجزل اللغتين، **﴿ ويوم إقامتكم ﴾**، في بلدكم لا تثقل عليكم في الحالين، **﴿ ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها ﴾**، يعني أصواف الضأن وأوبار الإبل وأشعار المعز، والكناية راجعة إلى الأنعام، **﴿ أثاثاً ﴾**، قال ابن

﴿إلى حين﴾ يعني إلى حين يبلى ذلك الأثاث، وقيل: إلى حين الموت. فإن قلت: أي فرق بين الأثاث والمتاع حتى ذكره بواو العطف، والعطف يوجب المغايرة فهل من فرق؟. قلت: الأثاث ما كثر من آلات البيت وحوائجه وغير ذلك فيدخل فيه جميع أصناف المال، والمتاع ما ينتفع به في البيت خاصة فظهر الفرق بين اللفظتين والله أعلم.

وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡجِبَالِ أَكۡنَٰنٗا وَجَعَلَ لَكُمۡ سَرَٰبِيلَ
تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأۡسَكُمۡۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُسۡلِمُونَ ﴿٨١﴾ فَإِن
تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴿٨٢﴾ يَعۡرِفُونَ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكۡثَرُهُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٨٣﴾ وَيَوۡمَ
نَبۡعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٖ شَهِيدٗا ثُمَّ لَا يُؤۡذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ وَلَا هُمۡ يُسۡتَعۡتَبُونَ ﴿٨٤﴾ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلۡعَذَابَ
فَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمۡ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ شُرَكَآءَهُمۡ قَالُواْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا
ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدۡعُواْ مِن دُونِكَۖ فَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلَ إِنَّكُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴿٨٦﴾ وَأَلۡقَوۡاْ إِلَى ٱللَّهِ يَوۡمَئِذٍ ٱلسَّلَمَۖ وَضَلَّ
عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴿٨٧﴾ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدۡنَٰهُمۡ عَذَابٗا فَوۡقَ ٱلۡعَذَابِ بِمَا كَانُواْ
يُفۡسِدُونَ ﴿٨٨﴾

﴿والله جعل لكم مما خلق ظلالاً﴾ يعني جعل لكم ما تستظلون به من شدة الحر والبرد، وهي ظلال الأبنية والجدران والأشجار ﴿وجعل لكم من الجبال أكناناً﴾ جمع كن وهو ما يستكن فيه من شدة الحر والبرد، كالأسراب والغيران ونحوها وذلك لأن الإنسان إما أن يكون غنياً أو فقيراً، فإذا سافر احتاج في سفره ما يقيه من شدة الحر والبرد فأما الغني فيستصحب معه الخيام في سفره، ليستكن فيها وإليه الإشارة بقوله ﴿وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتاً﴾ وأما الفقير فيستكن في ظلال الأشجار والحيطان والكهوف ونحوها، وإليه الإشارة بقوله والله جعل لكم مما خلق ظلالاً وجعل لكم من الجبال أكناناً ولأن بلاد العرب شديدة الحر، وحاجتهم إلى الظلال وما يدفع شدته وقوته أكثر فلهذا السبب ذكر الله هذه المعاني في معرض الامتنان عليهم بها، لأن النعمة عليهم فيها ظاهرة ﴿وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر﴾ يعني وجعل لكم قمصاً وثياباً من القطن والكتان والصوف وغير ذلك، تمنعكم من شدة **الحر** قال أهل المعاني والبرد فاكتفى بذكر أحدهما لدلالة الكلام عليه ﴿وسرابيل تقيكم بأسكم﴾ يعني الدروع والجواشن وسائر ما يلبس في **الحرب** من السلاح، والبأس الحرب يعني تقيكم في بأسكم السلاح أن يصيبكم. قال عطاء الخراساني: إنما نزل القرآن على قدر معرفتهم فقال تعالى وجعل لكم من الجبال أكناناً، وما جعل لهم من السهول أعظم وأكثر، ولكنهم كانوا أصحاب جبال كما قال ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها وما جعل لهم من القطن والكتان أكثر، ولكن

عباس: مالاً. قال مجاهد: متاعاً. قال القتيبي: الأثاث المال جميعه من الإبل والغنم والعير والمتاع، وقال غيره: هو متاع البيت من الفرش والأكسية، ﴿ **ومتاعاً** ﴾، بلاغاً ينتفعون بها، ﴿ **إلى حين** ﴾ يعني إلى حين الموت. وقيل: إلى حين تُبلى.

﴿ **والله جعل لكم مما خلق ظلالاً** ﴾ تستظلون بها من شدّة الحرّ وهي ظلال الأبنية والأشجار، ﴿ **وجعل لكم من الجبال أكناناً** ﴾، يعني: الأسراب والغيران واحدها كِنٌّ ﴿ **وجعل لكم سرابيل** ﴾ قمصاً من الكتان والقزّ والقطن والصوف، ﴿ **تقيكم** ﴾، تمنعكم، ﴿ **الحرّ** ﴾، قال أهل المعاني: أراد الحرّ والبرد اكتفاء بذكر أحدهما لدلالة الكلام عليه. ﴿ **وسرابيل تقيكم بأسكم** ﴾، يعني: الدروع، والبأس: الحرب، يعني: تقيكم في بأسكم السلاح أن

كانوا أصحاب صوف ووبر وشعر، وكما قال تعالى ﴿**وينزل من السماء من جبال فيها من برد**﴾ وما أنزل من الثلج أكثر، ولكنهم كانوا لا يعرفون الثلج وقال تقيكم الحر وما جعل لهم مما يقي من البرد أكثر ولكنهم كانوا أصحاب حر. وقوله سبحانه وتعالى ﴿**كذلك**﴾ يعني كما أنعم عليكم بهذه النعم ﴿**يتم نعمته عليكم**﴾ يعني نعم الدنيا والدين ﴿**لعلكم تسلمون**﴾ يعني لعلكم يا أهل مكة تخلصون لله الوحدانية والربوبية والعبادة والطاعة وتعلمون، أنه لا يقدر على هذه الإنعامات إلا الله تعالى ﴿**فإن تولوا**﴾ يعني فإن أعرضوا عن الإيمان بك وتصديقك يا محمد وآثروا ما هم فيه من الكفر واللذات الدنيوية، فإنما وبال ذلك عليهم لا عليك ﴿**فإنما عليك البلاغ المبين**﴾ يعني ليس عليك في ذلك عتب، ولا سمة تقصير إنما عليك البلاغ، وقد فعلت ذلك ثم ذمهم الله تعالى بقوله ﴿**يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها**﴾ قال السدي: نعمة الله يعني محمداً ﷺ أنكروه وكذبوه. وقيل: نعمة الله هي الإسلام لأنه من أعظم النعم التي أنعم الله بها على عباده، ثم إن كفار مكة أنكروه وجحدوه، وقال مجاهد وقتادة: نعمة الله ما عدد عليهم في هذه السورة من النعم يقرون بأنها من الله، ثم إذا قيل لهم: صدقوا وامتثلوا أمر الله فيها ينكرونها ويقولون ورثناها عن آبائنا. وقال الكلبي: إنه لما ذكر هذه النعم قالوا: هذه نعم كلها من الله تعالى لكنها بشفاعة آلهتنا وقيل هو قول الرجل لولا فلان لكان كذا ولولا فلان لما كان كذا وقيل إنهم يعترفون بأن الله أنعم بهذه النعم، ولكنهم لا يستعملونها في طلب رضوانه ولا يشكرونه عليها ﴿**وأكثرهم الكافرون**﴾ إنما قال الله سبحانه وتعالى أكثرهم الكافرون مع أنهم كانوا كلهم كافرين، لأنه كان فيهم من لم يبلغ بعد حد التكليف فعبر بالأكثر عن البالغين، وقيل: أراد بالأكثر الكافرين الحاضرين المعاندين، وقد كان فيهم من ليس بمعاند وإن كان كافراً وقيل إنه عبر بالأكثر عن الكل لأنه قد يذكر الأكثر، ويراد به الجمع قوله سبحانه وتعالى ﴿**ويوم نبعث من كل أمة شهيداً**﴾ لما ذكر الله سبحانه وتعالى نعمه على الكافرين وإنكارهم لها، وذكر أن أكثرهم كافرون، أتبعه بذكر الوعيد لهم في الآخرة فقال تعالى: ﴿**ويوم نبعث من كل أمة شهيداً**﴾ يعني رسولاً وذلك اليوم، هو يوم القيامة والمراد بالشهداء: الأنبياء يشهدون على أممهم بإنكار نعم الله عليهم وبالكفر ﴿**ثم**

يصيبكم، ﴿ **وكذلك يُتِمُّ نعمتَه عليكم لعلّكم تُسلمون** ﴾، تخلصون له الطاعة، قال عطاء الخراساني: إنما أنزل القرآن على قدر معرفتهم، فقال: وجعل لكم من الجبال أكناناً وما جعل لهم من السهول أكثر وأعظم، ولكنهم كانوا أصحاب جبال كما قال: ﴿ **ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها** ﴾ لأنهم كانوا أصحاب وبر وشعر، وكما قال: ﴿ وينزّل من السماء من جبال فيها من برد ﴾ [النور: ٤٣] وما أنزل من الثلج أكثر، ولكنهم كانوا لا يعرفون الثلج. وقال: ﴿ **تقيكم الحرّ** ﴾ وما تقي من البرد أكثر ولكنهم كانوا أصحاب حرّ.

﴿ **فإن تولّوا** ﴾، فإن أعرضوا فلا يلحق في ذلك عتب ولا سِمة تقصير، ﴿ **فإنما عليك البلاغ المبين** ﴾ ﴿ **يعرفون نعمة الله** ﴾، قال السدي يعني: محمداً ﷺ، ﴿ **ثم ينكرونها** ﴾، يكذبون به، وقال قوم: هي الإسلام. وقال مجاهد وقتادة: يعني ما عدّ لهم من النِعَم في هذه السورة يقرّون أنها من الله، ثم قيل لهم: تصدقوا وامتثلوا لأمر الله فيها ينكرونها فيقولون ورثتها من آبائنا. وقال الكلبي: هو أنه لمّا ذكر لهم هذه النعمة قالوا: نعم هذه كلها من الله ولكنها بشفاعة آلهتنا. وقال عوف بن عبد الله: وهو قول الرجل لولا فلان لكان كذا وكذا ولولا فلان لما كان كذا، ﴿ **وأكثرهم الكافرون** ﴾، الجاحدون.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ **ويوم نبعث من كل أمة شهيداً** ﴾، يعني رسولاً ﴿ **ثم لا يؤذن للذين كفروا** ﴾، في الاعتذار، وقيل: في الكلام أصلاً، ﴿ **ولا هم يُستعتَبُون** ﴾، يَسترضون، يعني: لا يكلفون أن يرضوا ربهم لأن الآخرة ليست بدار تكليف ولا يرجعون إلى الدنيا فيتوبون، وحقيقة المعنى في الاستعتاب أنه التعرّض لطلب الرضا وهذا الباب مُنسدٌّ في الآخرة على الكفّار.

لا يؤذن للذين كفروا﴾ يعني في الاعتذار وقيل لا يؤذن لهم في الكلام أصلاً. وقيل: لا يؤذن لهم بالرجوع إلى دار الدنيا فيعتذروا ويتوبوا وقيل: لا يؤذن لهم في معارضة الشهود بل يشهدون عليهم ويقرونهم على ذلك **﴿ولا هم يستعتبون﴾** الاستعتاب: طلب العتاب، والمعتبة: هي الغلظة والموجدة التي يجدها الإنسان في نفسه على غيره، والرجل إنما يطلب العتاب من خصمه ليزيل ما في نفسه عليه من الموجدة والغضب، ويرجع إلى الرضا عنه وإذا لم يطلب العتاب منه دل ذلك على أنه ثابت على غضبه عليه، ومعنى الآية: أنهم لا يكلفون أن يرضوا ربهم في ذلك اليوم، لأن الآخرة ليست دار غضبه عليه، ومعنى الآية أنهم لا يكلفون أن يرضوا ربهم في ذلك اليوم لأن الآخرة ليست دار تكليف ولا يرجعون إلى الدنيا فيتوبوا ويرجعوا يرضوا ربهم فالاستعتاب: التعرض لطلب الرضا، وهذا باب مسند على الكفار في الآخرة **﴿وإذا رأى الذين ظلموا﴾** يعني ظلموا أنفسهم بالكفر والمعاصي **﴿العذاب﴾** يعني عذاب جهنم **﴿فلا يخفف عنهم﴾** يعني العذاب **﴿ولا هم ينظرون﴾** يعني لا يؤخرون ولا يمهلون **﴿وإذا رأى الذين أشركوا﴾** يعني يوم القيامة **﴿شركاءهم﴾** يعني أصنامهم التي كانوا يعبدونها في الدنيا **﴿قالوا ربنا هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعو من دونك﴾** يعني أرباباً وكنا نعبدهم ونتخذهم آلهة **﴿فألقوا﴾** يعني الأصنام **﴿إليهم﴾** يعني إلى عابديها **﴿القول إنكم لكاذبون﴾** يعني أن الأصنام قالت للكفار: إنكم لكاذبون يعني في تسميتنا آلهة وما دعوناكم إلى عبادتنا. فإن قلت: الأصنام جماد لا تتكلم فكيف يصح منها الكلام؟. قلت: لا يبعد أن الله سبحانه وتعالى لما بعثها، وأعادها في الآخرة، خلق فيها الحياة والنطق والعقل حتى قالت ذلك. والمقصود من إعادتها وبعثها، أن تكذب الكفار ويراها الكفار وهي في غاية الذلة والحقارة، فيزدادون بذلك غماً وحسرة **﴿وألقوا﴾** يعني المشركين **﴿إلى الله يومئذ السلم﴾** يعني أنهم استسلموا له، وانقادوا لحكمه فيهم ولم تغن عنهم آلهتهم شيئاً **﴿وضل عنهم﴾** يعني وزال عن المشركين **﴿ما كانوا يفترون﴾** يعني ما كانوا يكذبون في الدنيا في قولهم، إن الأصنام تشفع لهم **﴿الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله﴾** يعني ضموا مع كفرهم أنهم منعوا الناس عن الدخول في الإيمان بالله ورسوله **﴿زدناهم عذاباً فوق العذاب﴾** يعني زدناهم هذه الزيادة بسبب صدهم عن سبيل الله مع ما يستحقونه من العذاب على كفرهم الأصلي، واختلفوا في هذه الزيادة ما هي فقال عبد الله بن مسعود: عقارب لها أنياب، كأمثال النخل الطوال. وقال سعيد بن جبير: حيات كالبخت وعقارب أمثال البغال، تلسع إحداهن اللسعة، فيجد صاحبها ألمها أربعين خريفاً. وقال ابن عباس ومقاتل: يعني خمسة أنهار من صفر مذاب كالنار تسيل يعذبون بها ثلاثة على مقدار الليل واثنان على مقدار النهار، وقيل: إنهم يخرجون من حر النار إلى برد الزمهرير فيبادرون من شدة الزمهرير إلى النار مستغيثين بها وقيل: يضاعف لهم العذاب

﴿ وإذا رأى الذين ظلموا ﴾، كفروا، **﴿ العذاب ﴾**، يعني جهنّم، **﴿ فلا يخفّف عنهم ولا هم يُنظرون ﴾**.

﴿ وإذا رأى الذين أشركوا ﴾، يوم القيامة، **﴿ شركاءهم ﴾**، أوثانهم، **﴿ قالوا ربّنا هؤلاء شركاؤنا الذين كنّا ندعُوا من دونكَ ﴾**، أرباباً ونعبدهم، **﴿ فألْقَوا ﴾**، يعني الأوثان، **﴿ إليهم القول ﴾**، أي: قالوا لهم: **﴿ إنكم لكاذبون ﴾**، في تسميتنا آلهة ما دعوناكم إلى عبادتنا.

﴿ وألْقَوا ﴾، يعني المشركين **﴿ إلى الله يومئذٍ السَّلَم ﴾**، استسلموا وانقادوا لحكمه فيهم، لم تغنِ عنهم آلهتهم شيئاً، **﴿ وضلّ ﴾**، وزال، **﴿ عنهم ما كانوا يفترون ﴾**، من أنها تشفع لهم.

﴿ الذين كفروا وصدّوا عن سبيل الله ﴾، منعوا الناس عن طريق الحق **﴿ زدناهم عذاباً فوق العذاب ﴾**، قال عبد الله: عقارب لها أنياب أمثل النخل الطوال. وقال سعيد بن جبير: حيّات أمثال البخت وعقارب أمثال البغال تلسع إحداهنّ اللسعة يجد صاحبها حمتها أربعين خريفاً. وقال ابن عباس ومقاتل: يعني خمسة أنهار من صفر مُذاب كالنار تسيل من تحت العرش، يعذّبون بها ثلاثة على مقدار الليل واثنان على مقدار النهار، وقيل: إنهم

ضعفاً بسبب كفرهم وضعفاً بسبب صدهم الناس عن سبيل الله ﴿بما كانوا يفسدون﴾ يعني أن الزيادة إنما حصلت لهم بسبب صدهم عن سبيل الله، وبسبب ما كانوا يفسدون مع ما يستحقونه من العذاب على الكفر.

وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ
الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ
ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ
اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا
تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَن
تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَوْ
شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾
وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ
عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا إِنَّمَا عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾ مَا عِندَكُمْ
يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن
ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾

﴿**ويوم نبعث في كل أمة شهيداً عليهم**﴾ قال ابن عباس: يريد الأنبياء. قال المفسرون: كل نبي شاهد على أمته وهو أعدل شاهد عليها ﴿**من أنفسهم**﴾ يعني منهم لأن كل نبي إنما بعث من قومه الذين بعث إليهم ليشهدوا عليهم وبما فعلوا من كفر وإيمان وطاعة وعصيان ﴿**وجئنا بك**﴾ يا محمد ﴿**شهيداً على هؤلاء**﴾ يعني على قومك وأمتك وتم الكلام هنا ثم قال تبارك وتعالى ﴿**ونزلنا عليك الكتاب**﴾ يعني القرآن ﴿**تبياناً لكل شيء**﴾ اسم من البيان قال مجاهد: يعني لما أمر به وما نهى عنه. وقال أهل المعاني: تبياناً لكل شيء يعني من أمور الدين إما بالنص عليه أو بالإحالة على ما يوجب العلم به من بيان النبي ﷺ لأن النبي ﷺ بيّن ما في القرآن من الأحكام والحدود والحلال والحرام، وجميع المأمورات والمنهيات، وإجماع الأمة فهو أيضاً أصل ومفتاح لعلوم الدين ﴿**وهدى**﴾ يعني من الضلالة ﴿**ورحمة**﴾ يعني لمن آمن به وصدقه ﴿**وبشرى للمسلمين**﴾ يعني وفيه بشرى للمسلمين من الله عز وجل. وقوله سبحانه وتعالى ﴿**إن الله يأمر بالعدل والإحسان**﴾ قال ابن عباس: العدل شهادة أن لا إله إلا الله والإحسان أداء الفرائض. وفي رواية عنه قال: العدل خلع الأنداد، والإحسان أن تعبد الله كأنك تراه وأن تحب للناس ما تحب لنفسك إن كان مؤمناً تحب

يخرجون من حرّ النار إلى برد الزمهرير فيبادرون من شدّة الزمهرير إلى النار مستغيثين بها. وقيل: يضاعف لهم العذاب. ﴿ **بما كانوا يفسدون** ﴾، في الدنيا بالكفر وصدّ الناس عن الإيمان.

﴿ **ويوم نبعث في كل أمة شهيداً عليهم من أنفسهم** ﴾، يعني نبيّها لأن الأنبياء كانت تبعث إلى الأمم منها. ﴿ **وجئنا بك** ﴾، يا محمد، ﴿ **شهيداً على هؤلاء** ﴾، الذين بعثتَ إليهم ﴿ **ونزّلنا عليك الكتاب تبياناً** ﴾، بياناً، ﴿ **لكل شيء** ﴾، يحتاج إليه من الأمر والنهي والحلال والحرام والحدُود والأحكام، ﴿ **وهدىً** ﴾، من الضلالة، ﴿ **ورحمةً وبشرى** ﴾، بشارة ﴿ **للمسلمين** ﴾.

أن يزداد إيماناً، وإن كان كافراً تحب أن يكون أخاك في الإسلام. وقال في رواية أخرى عنه: العدل التوحيد والإحسان الإخلاص، وأصل العدل في اللغة المساواة في كل شيء من غير زيادة في شيء ولا غلو ولا نقصان فيه، ولا تقصير فالعدل هو المساواة في المكافأة إن خيراً فخير، وإن شراً فشر والإحسان أن تقابل الخير بأكثر منه والشر بأن تعفو عنه: وقيل: العدل الإنصاف ولا إنصاف أعظم من الاعتراف للمنعم بإنعامه، والإحسان أن تحسن إلى من أساء إليك، وقيل يأمر بالعدل في الأفعال والإحسان في الأقوال فلا يفعل إلا ما هو عدل، ولا يقول إلا ما هو حسن ﴿وإيتاء ذي القربى﴾ يعني ويأمر بصلة الرحم وهم القرابة الأدنون والأبعدون منك فيستحب أن تصلهم من فضل ما رزقك الله فإن لم يكن لك فضل فدعاء حسن وتودد ﴿وينهى عن الفحشاء﴾ قال ابن عباس: يعني الزنا. وقال غيره الفحشاء، ما قبح من القول والفعل فيدخل فيه الزنا وغيره من جميع الأقوال والأفعال المذمومة ﴿والمنكر﴾ قال ابن عباس: يعني الشرك والكفر. وقال غيره: المنكر ما لا يعرف في شريعة ولا سنة ﴿والبغي﴾ يعني الكبر والظلم. وقيل: البغي هو التطاول على الغير على سبيل الظلم والعدوان. قال بعضهم: إن أعجل المعاصي البغي ولو أن جبلين بغى أحدهما على الآخر لدك الباغي. وقال ابن عيينة في هذه الآية: العدل استواء السر والعلانية، والإحسان أن تكون سريرته أحسن من علانيته والفحشاء والمنكر والبغي، أن تكون علانيته أحسن من سريرته، وقال بعضهم: إن الله سبحانه وتعالى ذكر من المأمورات ثلاثة أشياء، ومن المنهيات ثلاثة أشياء، فذكر: العدل وهو الإنصاف، والمساواة في الأقوال والأفعال وذكر في مقابلته الفحشاء، وهي ما قبح من الأقوال والأفعال وذكر الإحسان، وهو أن تعفو عمن ظلمك وتحسن إلى من أساء إليك وذكر في مقابلته المنكر، وهو أن تنكر إحسان من أحسن إليك، وذكر إيتاء ذي القربى، والمراد به صلة القرابة والتودد إليهم، والشفقة عليهم وذكر في مقابلته البغي، وهو أن يتكبر عليهم أو يظلمهم حقوقهم ثم قال تعالى ﴿يعظكم لعلكم تذكرون﴾ يعني إنما أمركم بما أمركم به ونهاكم عما نهاكم عنه، لكي تتعظوا وتتذكروا فتعملوا، بما فيه رضا الله تعالى. قال ابن مسعود: إن أجمع آية في القرآن لخير وشر هذه الآية. وقال أهل المعاني: لما قال الله تعالى في الآية الأولى، ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء بيّن في هذه الآية المأمور به والمنهي عنه على سبيل الإجمال، فما من شيء يحتاج إليه الناس في أمر دينهم، مما يجب أن يؤتى أو يترك إلا وقد اشتملت عليه هذه الآية وروى عكرمة أن النبي ﷺ، قرأ على الوليد بن المغيرة أنّ الله يأمر بالعدل إلى آخر الآية، فقال له: «يا ابن أخي أعد عليّ» فأعادها عليه فقال له الوليد: والله إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله

﴿ إنّ الله يأمر بالعدل ﴾، بالإنصاف، ﴿ والإحسان ﴾، إلى الناس وعن ابن عباس: العدل: التوحيد والإحسان: أداء الفرائض. وعنه أيضاً: الإحسان: الإخلاص في التوحيد، وذلك معنى قول النبي ﷺ: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه». وقال مقاتل: العدل التوحيد، والإحسان: العفوعن الناس، ﴿ وإيتاء ذي القربى ﴾، صلة الرحم، ﴿ وينهى عن الفحشاء ﴾، ما قبح من القول والفعل. وقال ابن عباس: الزنا، ﴿ والمنكر ﴾، ما لا يعرف في شريعة ولا سُنّة، ﴿ والبغي ﴾، الكبر والظلم. وقال ابن عيينة العدل استواء السر والعلانية، والإحسان أن تكون سريرته أحسن من علانيته، والفحشاء والمنكر أن تكون علانيته أحسن من سريرته، ﴿ يعظكم لعلكم تذكرون ﴾، لعلكم تتعظون. قال ابن مسعود: أجمع آية في القرآن هذه الآية. وقال أيوب عن عكرمة: إن النبي ﷺ قرأ على الوليد: ﴿ إن الله يأمر بالعدل ﴾ إلى آخر الآية فقال له: يا ابن أخي أعد فعاد عليه، فقال: إن له والله لحلاوة وإن عليه لطلاوة وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغدق، وما هو بقول البشر.

قوله تعالى: ﴿ وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ﴾، والعهد ههنا هو اليمين، قال الشعبي: العهد يمين وكفّارته كفّارة اليمين، ﴿ ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها ﴾، تشديدها فتحنثوا فيها، ﴿ وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً ﴾،

لمغدق وما هو بقول البشر. قوله عز وجل ﴿**وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم**﴾ لما ذكر الله سبحانه وتعالى في الآية المتقدمة المأمورات والمنهيات على سبيل الإجمال، ذكر في هذه الآية بعض ذلك الإجمال على التفصيل فبدأ بالأمر بالوفاء بالعهد، لأنه آكد الحقوق فقال تعالى ﴿**وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم**﴾ نزلت في الذين بايعوا رسول الله ﷺ على الإسلام، فأمرهم بالوفاء بهذه البيعة، وقيل: المراد منه كل ما يلتزمه الإنسان باختياره، ويدخل فيه الوعد أيضاً لأن الوعد من العهد، وقيل: العهد هاهنا اليمين. قال القتيبي: العهد يمين وكفارته كفارة يمين فعلى هذا يجب الوفاء به إذا كان فيه صلاح أما إذا لم يكن فيه صلاح، فلا يجب الوفاء به لقوله ﷺ: «من حلف يميناً ثم رأى غيرها خيراً منها فليأت الذي هو خير، وليكفّر عن يمينه» فيكون قوله وأوفوا بعهد الله من العام الذي خصصته السنة. وقال مجاهد وقتادة: نزلت في حلف أهل الجاهلية، ويشهد لهذا التأويل قوله ﷺ «كل حلف كان في الجاهلية، لم يزده الإسلام إلا شدة» ﴿**ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها**﴾ يعني تشديدها فتحنثوا فيها وفيه دليل على أن المراد بالعهد غير اليمين لأنه أعم منها ﴿**وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً**﴾ يعني شهيداً بالوفاء بالعهد ﴿**إن الله يعلم ما تفعلون**﴾ يعني من وفاء العهد ونقضه ثم ضرب الله سبحانه وتعالى مثلاً لنقض العهد فقال تعالى ﴿**ولا تكونوا**﴾ يعني في نقض العهد ﴿**كالتي نقضت غزلها من بعد قوة**﴾ يعني من بعد إبرامه وإحكامه. قال الكلبي ومقاتل: هذه امرأة من قريش يقال لها ريطة بنت عمرو بن سعد بن كعب بن زيد مناة بن تميم وكانت خرقاء حمقاء بها وسوسة، وكانت قد اتخذت مغزلاً قدر ذراع وصنارة مثل الإصبع وفلكة عظيمة على قدرها، وكانت تغزل الغزل من الصوف، أو الشعر أو الوبر وتأمر جواريها بالغزل فكن يغزلن من الغداة إلى نصف النهار، فإذا انتصف النهار أمرتهن بنقض جميع ما غزلن، فكان هذا دأبها. والمعنى: أن هذه المرأة، لم تكف عن العمل ولا حين عملت كفت عن النقض فكذلك من نقض العهد لاتركه ولا حين عاهد وفى به ﴿**أنكاثاً**﴾ جمع نكث وهو ما ينقض من الغزل أو الحبل بعد الفتل ﴿**تتخذون أيمانكم دخلاً بينكم**﴾ يعني دغلاً وخيانة وخديعة، والدخل ما يدخل في الشيء على سبيل الفساد، وقيل: الدخل والدغل أن يظهر الرجل الوفاء بالعهد ويبطن نقضه ﴿**أن تكون**﴾ يعني لأن تكون ﴿**أمة هي أربى من أمة**﴾ يعني أكثر وأعلى من أمة. قال مجاهد: وذلك أنهم كانوا يحالفون الحلفاء فإذا وجدوا قوماً أكثر من أولئك وأعز نقضوا حلف هؤلاء، وحالفوا الأكثر. والمعنى: أنكم طلبتم العز بنقض العهد لأن كانت أمة أي جماعة أكثر من جماعة فنهاهم الله عن ذلك، وأمرهم بالوفاء بالعهد لمن عاهدوا وحالفوا، ﴿**إنما يبلوكم الله به**﴾ يعني يختبركم بما أمركم به من الوفاء بالعهد وهو أعلم بكم ﴿**وليبينن لكم يوم**

شهيداً بالوفاء، ﴿ **إنّ الله يعلم ما تفعلون** ﴾، واختلفوا فيمن نزلت هذه الآية وإن كان حكمها عامّاً قيل نزلت في الذين بايعوا رسول الله ﷺ، أمرهم الله بالوفاء بها. وقال مجاهد وقتادة: نزلت في حلف أهل الجاهلية ثم ضرب الله مثلاً لنقض العهد.

فقال: ﴿**ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة**﴾، أي: من بعد غزله وإحكامه. قال الكلبي ومقاتل: هي امرأة خرقاء حمقاء من قريش يقال لها ريطة بنت عمرو بن سعد بن كعب بن زيد مناة بن تميم، وتلقب بجعر وكانت بها وسوسة، وكانت اتخذت مِغزلاً بقدر ذراع وصنّارة مثل الأصبع، وفلكة عظيمة على قدرها وكانت تغزل الغزل من الصوف والشعر والوبر، وتأمر جواريها بذلك فكنّ يغزلن من الغداة إلى نصف النهار، فإذا انتصف النهار أمرتهنّ بنقض جميع ما غزلنَ فهذا كان رأيها ومعناه أنها لم تكفّ عن العمل ولا حين عملت كفّت عن النقض، فكذلك أنتم إذا أنقضتم العهد لا كففتم عن العهد، ولا حين عاهدتم وفيتم به، ﴿**أنكاثاً**﴾، يعني أنقاضاً واحدتها نكث وهو ما نقض بعد الفتل غزلاً كان أو حبلاً. ﴿ **تتخذون أيمانكم دَخَلاً بينكم** ﴾، أي: دخلاً وخيانة وخديعة، والدخل ما يدخل في شيء للفساد، وقيل: الدخل والدغل أن يظهر الوفاء ويبطن النقض. ﴿ **أن تكون** ﴾ أي: لأن تكون،

القيامة ما كنتم فيه تختلفون﴾ يعني في الدنيا فيثيب الطائع المحق، ويعاقب المسيء الخالف قوله سبحانه وتعالى **﴿ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة﴾** يعني على ملة واحدة ودين واحد، وهو دين الإسلام **﴿ولكن يضل من يشاء﴾** يعني بخذلانه إياه عدلاً منه **﴿ويهدي من يشاء﴾** بتوفيقه إياه فضلاً منه وذلك مما اقتضته الحكمة الإلهية لا يسأل عما يفعل، وهم يسألون، وهو قوله تعالى **﴿ولتسألن عما كنتم تعملون﴾** يعني في الدنيا فيجازى المحسن بإحسانه، ويعاقب المسيء بإساءته أو يغفر له. قوله عز وجل **﴿ولا تتخذوا أيمانكم دخلاً بينكم﴾** يعني خديعة وفساداً بينكم فتغروا بها الناس فيسكنوا إلى أيمانكم، ويأمنوا إليكم ثم تنقضونها. وإنما كرر هذا المعنى تأكيداً عليهم وإظهاراً لعظم أمر نقض العهد. قال المفسرون: وهذا في نهي الذين بايعوا رسول الله ﷺ على الإسلام نهاهم عن نقض عهده، لأن الوعيد الذي بعده وهو قوله سبحانه وتعالى: فتزل قدم بعد ثبوتها لا يليق بنقض عهد غيره، إنما يليق بنقض عهد رسول الله ﷺ على الإيمان به وبشريعته وقوله **﴿فتزل قدم بعد ثبوتها﴾** مثل يذكر لكل من وقع في بلاء ومحنة بعد عافية ونعمة أو سقط في ورطة بعد سلامة. تقول العرب لكل واقع في بلاء بعد عافية: زلت قدمه، والمعنى: فتزل أقدامكم عن محجة الإسلام، بعد ثبوتها عليها **﴿وتذوقوا السوء﴾** يعني العذاب **﴿بما صددتم عن سبيل الله﴾** يعني بسبب صدكم غيركم عن دين الله وذلك لأن من نقض العهد، فقد علّم غيره نقض العهد فيكون هو أقدمه على ذلك **﴿ولكم عذاب عظيم﴾** يعني بنقضكم العهد **﴿ولا تشتروا بعهد الله ثمناً قليلاً﴾** يعني ولا تنقضوا عهودكم وتطلبوا بنقضها عوضاً من الدنيا قليلاً، ولكن أوفوا بها **﴿إنما عند الله﴾** يعني فإن ما عند الله من الثواب لكم على الوفاء بالعهد **﴿هو خير لكم﴾** يعني من عاجل الدنيا **﴿إن كنتم تعلمون﴾** يعني فضل ما بين العوضين ثم بين ذلك فقال تبارك وتعالى **﴿ما عندكم ينفد﴾** يعني من متاع الدنيا، ولذاتها يفنى ويذهب **﴿وما عند الله باق﴾** يعني من ثواب الآخرة ونعيم الجنة **﴿ولنجزين الذين صبروا﴾** يعني على الوفاء بالعهد على السراء والضراء **﴿أجرهم﴾** يعني ثواب صبرهم **﴿بأحسن ما كانوا يعملون﴾** عن أبي موسى الأشعري أن رسول الله ﷺ قال: «من أحب دنياه أضر بآخرته ومن أحب آخرته أضر بدنياه فآثروا ما يبقى على ما يفنى» وقوله سبحانه وتعالى **﴿من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن﴾** فإن قلت: من عمل صالحاً يفيد العموم فما فائدة الذكر والأنثى؟ قلت: هو مبهم صالح على الإطلاق للنوعين إلا أنه إذا ذكر وأطلق، كان الظاهر تناوله للذكر دون الأنثى فقيل من ذكر أو أنثى على التبيين، ليعلم الوعد للنوعين جميعاً وجواب آخر وهو أن الآية واردة بالوعد بالثواب والمبالغة في تقرير الوعد، من أعظم دلائل الكرم والرحمة إثباتاً للتأكد، وإزالة لِوَهْم التخصيص، وقوله: وهو مؤمن، جعل الإيمان شرطاً في كون العمل الصالح موجباً للثواب **﴿فلنحيينه حياة طيبة﴾** قال

﴿ أمة هي أربى ﴾، أي: أكثر وأعلى، **﴿ من أمة ﴾** قال مجاهد: وذلك أنهم كانوا يحالفون الحلفاء فإذا وجدوا قوماً أكثر منهم وأعزّ نقضوا حلف هؤلاء وحالفوا الأكثر، فمعناه طلبتم العزّ بنقض العهد بأن كانت أمة أكثر من أمة فنهاهم الله عن ذلك. **﴿ إنَّما يبلوكم الله به ﴾**، يختبركم الله بأمره إياكم بالوفاء بالعهد، **﴿ ولِيُبيِّنَنَّ لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون ﴾**، في الدنيا.

﴿ ولو شاء الله لجعلكم أمةً واحدة ﴾، على ملّة واحدة وهي الإسلام، **﴿ ولكن يُضلّ مَن يشاء ﴾**، بخذلانه إيَّاهم عدلاً منه، **﴿ ويهدي مَن يشاء ﴾**، بتوفيقه إيَّاهم فضلاً منه، **﴿ ولتسئلنّ عمّا كنتم تعملون ﴾**، يوم القيامة.

﴿ وَلَا تتخذوا أيمانكم دخلًا ﴾، خديعةً وفساداً، **﴿ بينكم ﴾**، فتغرون بها الناس فيسكنون إلى أيمانكم ويأمنون ثم تنقضونها، **﴿ فتزلّ قدم بعد ثبوتها ﴾**، فتهلكوا بعد ما كنتم آمنين والعرب تقول لكل مبتلى بعد عافية أو ساقط في ورطة بعد سلامة زلّت قدمه، **﴿ وتذوقوا السوء بما صددتم عن سبيل الله ﴾**، قيل: معناه سهّلتم طريق نقض العهد على الناس بنقضكم العهد، **﴿ ولكم عذاب عظيم ﴾**.

سعيد بن جبير وعطاء: هي الرزق الحلال، وقال مقاتل: هي العيش في الطاعة، وقيل: هي حلاوة الطاعة. وقال الحسن هي القناعة وقيل رزق يوم بيوم، واعلم أن عيش المؤمن في الدنيا، وإن كان فقيراً أطيب من عيش الكافر وإن كان غنياً لأن المؤمن لما علم أن رزقه من عند الله، وذلك بتقديره وتدبيره وعرف أن الله محسن كريم متفضل لا يفعل إلا الصواب، فكان المؤمن راضياً عن الله وراضياً بما قدره الله له ورزقه إياه، وعرف أنه له مصلحة في ذلك القدر الذي رزقه إياه فاستراحت نفسه من الكد والحرص فطاب عيشه بذلك وأما الكافر أو الجاهل بهذه الأصول الحريص على طلب الرزق فيكون أبداً في حزن وتعب وعناء وحرص وكد ولا ينال من الرزق إلا ما قدر له فظهر بهذا أن عيش المؤمن القنوع أطيب من غيره. وقال السدي: الحياة الطيبة إنما تحصل في القبر لأن المؤمن يستريح بالموت من نكد الدنيا وتعبها. وقال مجاهد وقتادة: في قوله فلنحيينه حياة طيبة هي الجنة. وروى العوفي عن الحسن، قال: لا تطيب لأحد الحياة إلا في الجنة لأنها حياة بلا موت، وغنى بلا فقر وصحة بلا سقم وملك بلا هلك وسعادة بلا شقاة، فثبت بهذا أن الحياة الطيبة لا تكون إلا في الجنة، ولقوله في سياق الآية ﴿**ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون**﴾ لأن ذلك الجزاء إنما يكون في الجنة. قوله عز وجل:

﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ۙ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾﴾

﴿**فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم**﴾ الخطاب فيه للنبي ﷺ ويدخل فيه غيره من أمته، لأن النبي ﷺ لما كان غير محتاج إلى الاستعاذة، وقد أمر بها فغيره أولى بذلك، ولما كان الشيطان ساعياً في إلقاء الوسوسة في

﴿ **ولا تشتروا بعهد الله ثمناً قليلاً** ﴾، يعني لا تنقضوا عهودكم تطلبون بنقضها عَرَضاً قليلاً من الدنيا، ولكن أوفوا بها. ﴿ **إنما عند الله هو** ﴾، من الثواب لكم على الوفاء بالعهد، ﴿ **خير لكم إن كنتم تعلمون** ﴾، فضلّ ما بين العوضين ثم بينّ ذلك.

فقال: ﴿ **ما عندكم ينفد** ﴾، أي: الدنيا وما فيها يفنى، ﴿ **وما عند الله باقٍ ولَنَجزِيَنَّ** ﴾، قرأ أبو جعفر وابن كثير وعاصم بالنون والباقون بالياء، ﴿ **الذين صبروا** ﴾، على الوفاء في السرّاء والضرّاء، ﴿ **أجرهم بأحسنِ ما كانوا يعملون** ﴾. أخبرنا أبو عبد الله محمد بن الفضل الخرقي أنا أبو الحسن الطيسفوني أنا عبد الله بن عمر الجوهري ثنا أحمد بن علي الكشمهيني ثنا علي بن حجر ثنا إسماعيل بن جعفر ثنا عمرو بن أبي عمرو مولى المطّلب عن أبي موسى الأشعري أن رسول الله ﷺ قال: «مَن أحبَّ دنياه أضرَّ بآخرته، ومَن أحبَّ آخرته أضرَّ بدنياه، فآثروا ما يبقى على ما يفنى».

قوله تعالى: ﴿ **مَن عمل صالحاً من ذكرٍ أو أُنثى وهو مؤمن فلنحيينّه حياةً طيبةً** ﴾، قال سعيد بن جبير وعطاء: هي الرزق الحلال. قال الحسن: هي القناعة. وقال مقاتل بن حيان: يعني العيش في الطاعة. قال أبو بكر الورّاق: هي حلاوة الطاعة. وقال مجاهد وقتادة: هي الجنة. ورواه عوف عن الحسن. وقال: لا تطيب الحياة لأحد إلّا في الجنة. ﴿ **ولنجزينّهم أجرهم بأحسنِ ما كانوا يعملون** ﴾.

قوله سبحانه وتعالى: ﴿ **فإذا قرأت القرآن** ﴾، أي: إذا أردت قراءة القرآن ﴿ **فاستعذ بالله من الشيطان**

قلوب بني آدم وكانت الاستعاذة بالله مانعة من ذلك، فلهذا السبب أمر الله رسوله ﷺ والمؤمنين بالاستعاذة عند القراءة، حتى تكون مصونة من وسواس الشيطان عن جبير بن مطعم أنه رأى رسول الله ﷺ يصلي صلاة، قال عمر: ولا أدري أي صلاة هي. قال: الله أكبر كبيراً ثلاثاً والحمد لله كثيراً ثلاثاً وسبحان الله بكرة وأصيلا ثلاثاً وأعوذ بالله من الشيطان الرجيم من نفخته ونفثته وهمزته. قال: نفخته الكبر ونفثته السحر وهمزته المونة أخرجه أبو داود. المونة الجنون والفاء في قوله فاستعذ بالله للتعقيب. فظاهر لفظ الآية يدل على أن الاستعاذة بعد القراءة، وإليه ذهب جماعة من الصحابة والتابعين وهو قول أبي هريرة وإليه ذهب مالك وجماعة وداود الظاهري. قالوا: لأن قارىء القرآن يستحق ثواباً عظيماً وربما حصلت الوساوس في قلب القارىء هل حصل له ذلك الثواب أم لا؟ فإذا استعاذ بعد القراءة اندفعت تلك الوساوس وبقي الثواب مخلصاً فأما مذهب الأكثرين من الصحابة والتابعين، ومن بعدهم من الأئمة وفقهاء الأمصار، فقد اتفقوا على أن الاستعاذة مقدمة على القراءة، قالوا: ومعنى الآية إذا أردت أن تقرأ القرآن، فاستعذ بالله ومثله قوله سبحانه وتعالى ﴿إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم﴾ الخ ومثله من الكلام إذا أردت أن تأكل فقل: بسم الله وإذا أردت أن تسافر فتأهب، وأيضاً فإن الوسوسة إنما تحصل في أثناء القراءة فتقديم الاستعاذة على القراءة، لتذهب الوسوسة عنه أولى من تأخيرها عن وقت الحاجة إليها، ومذهب عطاء أنه تجب الاستعاذة عند قراءة القرآن سواء كانت في الصلاة أو في غيرها، واتفق سائر الفقهاء على أن الاستعاذة عند قراءة القرآن سواء كانت في الصلاة أو في غيرها، واتفق سائر الفقهاء على أن الاستعاذة سنة في الصلاة وغيرها، وقد تقدمت هذه المسألة والخلاف فيها في أول سورة الفاتحة، والاستعاذة: الاعتصام بالله والالتجاء إليه من شر الشيطان ووسوسته. والمراد من الشيطان إبليس. وقيل: هو اسم جنس يطلق على المردة من الشياطين، لأن لهم قدرة على إلقاء الوسوسة في قلوب بني آدم بإقدار الله إياهم على ذلك **﴿إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون﴾** لما أمر الله رسوله ﷺ بالاستعاذة من الشيطان فكأن ذلك أوهم أن له سلطان يعني ليس له قدرة، ولا ولاية على الذين آمنوا، وعلى ربهم يتوكلون. قال سفيان ليس له سلطان على أن يحملهم على ذنب لا يغفر ويظهر من هذا[1] أن الاستعاذة، إنما تفيد إذا حضر بقلب الإنسان كونه ضعيفاً، وأنه لا يمكنه التحفظ من وسوسة الشيطان إلا بعصمة الله ولهذا قال المحققون: لا حول عن معصية الله إلا بعصمة الله ولا قوة على طاعة الله إلا بتوفيق الله ثم قال تعالى **﴿إنما سلطانه على**

الرجيم﴾، كقوله تعالى: **﴿إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا﴾ [المائدة: ٦]، والاستعاذة سُنّة عند قراءة القرآن، وأكثر العلماء على أن الاستعاذة قبل القراءة. وقال أبو هريرة: بعدها ولفظة أن يقول أعوذ بالله من الشيطان الرجيم. أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أبو محمد عبد الرحمن بن أبي شريح أنا أبو القاسم البغوي ثنا علي بن الجعد أنا شعبة عن عمرو بن مرّة سمعت عاصماً عن ابن جبير بن مطعم عن أبيه أنه رأى النبي ﷺ يصلّي، قال: فكبّر، فقال: «الله أكبر كبيراً» ثلاث مرات، «والحمد لله كثيراً» ثلاث مرات، «وسبحان الله بكرةً وأصيلاً» ثلاث مرات، «اللّهمَّ إني أعوذ بك من الشيطان الرجيم من همزه ولمزه ونفخه ونفثه». قال عمر: ونفخه الكبر ونفثه الشعر وهمزه الموتة، والموتة الجنون، والاستعاذة بالله هي الاعتصام به.**

﴿إنه ليس له سلطان﴾، حجّة وولاية، ﴿على الذين آمنوا وعلى ربِّهم يتوكلون﴾، قال سفيان: ليس له سلطان على أن يحملهم على ذنب لا يُغفَر.

﴿إنما سلطانه على الذين يتولّونه﴾، يطيعونه ويدخلون في ولايته، ﴿والذين هم به مشركون﴾، أي: بالله

---

(١) قوله ويظهر من هذا، اسم الإشارة راجع لما ذكره قبل قول سفيان كما يعلم من الفخر فإنه لم يذكر في هذا المحل قول سفيان وذكر ما قبله وما بعده وعبارته بخلاف ما هنا فإنه يوهم رجوع اسم الإشارة لقول سفيان وهو غير ظاهر اهـ.

الذين يتولونه﴾ يعني يطيعونه ويدخلون في ولايته، يقال: توليته إذا أطعته وتوليت عنه إذا أعرضت عنه ﴿والذين هم به مشركون﴾ يعني بالله، وقيل: الضمير في به راجع إلى الشيطان، والمعنى هم من أهله مشركون بالله قوله سبحانه وتعالى ﴿وإذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل﴾ وذلك أن المشركين من أهل مكة قالوا: إن محمداً يسخر بأصحابه يأمرهم اليوم بأمر وينهاهم عنه غداً، ما هو إلا مفترٍ يتقوله من تلقاء نفسه فأنزل الله هذه الآية. والمعنى: وإذا نسخنا حكم آية فأبدلنا مكانه حكماً آخر والله أعلم بما ينزل اعتراض دخل في الكلام، والمعنى والله أعلم بما ينزل من الناسخ وبما هو أصلح لخلقه، وبما يغير ويبدل من أحكامه أي هو أعلم بجميع ذلك مما هو من مصالح عباده، وهذا نوع من توبيخ وتقريع للكفار على قولهم للنبي ﷺ وهو قوله تعالى ﴿قالوا إنما أنت مفتر﴾ أي تختلقه من عندك، والمعنى: إذا كان الله تعالى أعلم بما ينزل فما بالهم ينسبون محمداً إلى الافتراء والكذب لأجل التبديل والنسخ؟ وإنما فائدة ذلك ترجع إلى مصالح العباد، كما يقال: إن الطبيب يأمر المريض بشرب دواء ثم بعد ذلك ينهاه عنه ويأمره بغيره لما يرى فيه من المصلحة ﴿بل أكثرهم لا يعلمون﴾ يعني لا يعلمون فائدة الناسخ وتبديل النسوخ ﴿قل﴾ أي قل لهم يا محمد ﴿نزله﴾ يعني القرآن ﴿روح القدس﴾ يعني جبريل ﷺ أضيف إلى القدس وهو الطهر كما يقال حاتم الجود وطلحة الخير، والمعنى الروح المقدس المطهر ﴿من ربك﴾ يعني أن جبريل نزل بالقرآن من ربك يا محمد ﴿بالحق ليثبت الذين آمنوا﴾ يعني ليثبت بالقرآن قلوب المؤمنين فيزدادوا إيماناً ويقيناً ﴿وهدى وبشرى﴾ يعني وهو هدى وبشرى ﴿للمسلمين﴾ قوله عز وجل:

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ
عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ إِنَّمَا يَفْتَرِى
ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾﴾

﴿ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر﴾ وذلك أن كفار مكة قالوا: إنما يتعلم هذه القصص وهذه الأخبار من إنسان آخر وهو آدمي مثله، وليس هو من عند الله كما يزعم فأجابهم الله بقوله ولقد نعلم أنهم يقولون: إنما يعلمه بشر واختلفوا في ذلك البشر من هو فقال ابن عباس: كان رسول الله ﷺ يعلم قيناً بمكة اسمه بلعام وكان نصرانياً أعجمي اللسان فكان المشركون يرون رسول الله ﷺ يدخل عليه ويخرج من عنده، فكانوا يقولون إنما يعلمه بلعام. وقال عكرمة: كان رسول الله ﷺ يقرىء غلاماً لبني المغيرة يقال له يعيش فكان يقرأ الكتب؟ فقالت قريش: إنما يعلمه يعيش، وقال محمد بن إسحاق: كان رسول الله ﷺ فيما بلغني كثيراً ما يجلس عند المروة إلى غلام رومي نصراني عبد لبعض بني الحضرمي يقال له: جبر وكان يقرأ الكتب. وقال عبيد الله بن مسلمة: كان لنا عبدان من أهل عين التمر

مشركون. وقيل: الكناية راجعة إلى الشيطان، ومجازه الذين هم من أجله مشركون بالله.

﴿ وإذا بدّلنا آية مكان آية ﴾، يعني وإذا نسخنا حكم آية فأبدلنا مكانه حكماً آخر، ﴿ والله أعلم بما ينزل ﴾، أعلم بما هو أصلح لخلقه فيما يغيّر ويبدّل من أحكامه، ﴿ قالوا إنما أنت ﴾، يا محمد، ﴿ مفترٍ ﴾، مختلق وذلك أن المشركين قالوا: إن محمداً يسخر بأصحابه يأمرهم اليوم بأمر وينهاهم عنه غداً ما هو إلاّ مفترٍ يتقوّله من تلقاء نفسه، قال الله: ﴿ بل أكثرهم لا يعلمون ﴾، حقيقة القرآن، وبيان الناسخ والمنسوخ.

﴿ قُلْ نزّله ﴾، يعني القرآن، ﴿ رُوحُ القُدُس ﴾، جبريل، ﴿ من ربِّك بالحق ﴾، بالصدق، ﴿ ليثبِّتَ الذين آمنوا ﴾، أي: ليثبت قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً ويقيناً، ﴿ وهدىً وبشرى للمسلمين ﴾.

﴿ ولقد نعلم أنهم يقولون إنّما يعلمه بشر ﴾، آدمي وما هو من عند الله، واختلفوا في هذا البشر، قال ابن عباس: كان رسول الله ﷺ يعلّم فتىً بمكة اسمه بلعام وكان نصرانياً أعجمي اللسان، فكان المشركون يرون رسول

يقال لأحدهما: يسار ويكنى أبا فكيهة، ويقال للآخر: جبر وكانا يصنعان السيوف بمكة، وكانا يقرآن التوراة والإنجيل بمكة فربما مر بهما النبي ﷺ وهما يقرآن فيقف ويستمع قال الضحاك: وكان رسول الله ﷺ إذا آذاه الكفار يقعد إليهما فيتروح بكلامهما، فقال المشركون إنما يتعلم محمد منهما. وقال الفراء: قال المشركون إنما يتعلم محمد من عائش المملوك كان لحويطب بن عبد العزى كان نصرانياً، وقد أسلم وحسن إسلامه وكان أعجمياً، وقيل: هو عداس غلام عتبة بن ربيعة. والحاصل أن الكفار اتهموا رسول الله ﷺ وقالوا إنما يتعلم هذه الكلمات من غيره ثم إنه يضيفها لنفسه، ويزعم أنه وحي من الله عز وجل وهو كاذب في ذلك فأجاب الله عنه، وأنزل هذه الآية تكذيباً لهم فيما رموا به رسول الله ﷺ من الكذب فقال تعالى ﴿**لسان الذي يلحدون إليه**﴾ يعني يميلون، ويشيرون إليه ﴿**أعجمي**﴾ يعني هو أعجمي والأعجمي هو الذي لا يفصح في كلامه، وإن كان يسكن البادية ومنه سمي زياد الأعجم لأنه كان في لسانه عجمة مع أنه كان من العرب، والعجمي منسوب إلى العجم، وإن كان فصيحاً بالعربية والأعرابي الذي يسكن البادية، والعربي الذي يسكن الأمصار من بلاد العرب وهو منسوب إلى العرب ﴿**وهذا لسان عربي مبين**﴾ يعني بين الفصاحة والبلاغة ووجه الجواب، هو أن الذي يشيرون إليه رجل أعجمي في لسانه عجمة تمنعه من الإتيان بفصيح الكلام ومحمد ﷺ جاءكم بهذا القرآن الفصيح الذي عجزتم أنتم عنه، وأنتم أهل الفصاحة والبلاغة، فكيف يقدر من هو أعجمي على مثله وأين فصاحة هذا القرآن من عجمة هذا الذي يشيرون إليه، فثبت بهذا البرهان، أن الذي جاء به محمد ﷺ وحي أوحاه الله إليه وليس هو من تعليم الذي يشيرون إليه ولا هو أتى به من تلقاء نفسه بل هو وحي من الله عز وجل إليه وروي أن الرجل الذي كانوا يشيرون إليه أسلم وحسن إسلامه ﴿**إن الذين لا يؤمنون بآيات الله**﴾ يعني لا يصدقون أنها من عند الله ﴿**لا يهديهم الله**﴾ يعني لا يرشدهم ولا يوفقهم للإيمان ﴿**إنما يفتري الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله**﴾ يعني إنما يقدم على فرية الكذب من لا يؤمن بآيات الله فهو رد لقول كفار قريش إنما أنت مفترٍ ﴿**وأولئك هم الكاذبون**﴾ يعني في قولهم، إنما يعلمه بشر لا محمد ﷺ. فإن قلت: قد قال تبارك وتعالى إنما يفتري الكذب فما معنى قوله تعالى وأولئك هم الكاذبون والثاني هو الأول؟ قلت: قوله سبحانه وتعالى إنما يفتري الكذب

الله ﷺ يدخل عليه ويخرج، فكانوا يقولون إنما يعلمه بلعام. وقال عكرمة: كان النبي ﷺ يُقرىء غلاماً لبني المغيرة يقال له يعيش وكان يقرأ الكتب، فقالت قريش: إنما يعلّمه بشر، يعيش. وقال الفرّاء: قال المشركون إنما يتعلّم من عايش مملوك كان لحويطب ابنَ عبد العزّى، وكان قد أسلم وحَسُنَ إسلامه، وكان أعجمي اللسان. وقال ابن إسحق: كان رسول الله ﷺ فيما بلغني كثيراً ما يجلس عند المروة إلى غلام رومي نصراني عبد لبعض بني الحضرمي، يقال له جبر، وكان يقرأ الكتب، وقال عبد الله بن مسلم الحضرمي كان لنا عبدان من أهل عين النمر يقال لأحدهما يكنّى أبا فكيهة، ويقال للآخر جبر، وكانا يصنعان السيوف بمكة، وكانا يقرآن التوراة والإنجيل فربما مرّ بهما النبي ﷺ، وهما يقرآن التوراة، فيقف ويستمع. قال الضحاك: وكان النبي ﷺ إذا آذاه الكفّار يقعد إليهما ويستريح بكلامهما، فقال المشركون: إنما يتعلم محمد منهما، فنزلت هذه الآية قال الله تعالى تكذيباً لهم: ﴿ **لسانُ الذي يُلحدون إليه** ﴾، أي يميلون ويشيرون إليه، ﴿ **أعجمي** ﴾، الأعجمي الذي لا يفصح وإن كان ينزل بالبادية، والعجمي منسوب إلى العجم، وإن كان فصيحاً، والأعرابي البدوي، والعربي منسوب إلى العرب، وإن لم يكن فصيحاً، ﴿ **وهذا لسانٌ عربي مبين** ﴾، فصيح وأراد باللسان القرآن، والعرب تقول: اللغة لسان، ورُوِيَ أن الرجل الذي كانوا يشيرون إليه أسلم وحَسُنَ إسلامه.

﴿ **إنَّ الذين لا يؤمنون بآياتِ الله لا يهديهم الله** ﴾، لا يرشدهم الله، ﴿ **ولهم عذاب أليم** ﴾، ثم أخبر الله تعالى أن الكفّار هم المفترون.

إخبار عن حال قولهم، وقوله: وأولئك الكاذبون نعت لازم لهم كقول الرجل لغيره كذبت وأنت كاذب، أي كذبت في هذا القول ومن عادتك الكذب، وفي الآية دليل على أن الكذب من أفحش الذنوب الكبار لأن الكذاب المفتري، هو الذي لا يؤمن بآيات الله. روى البغوي بإسناد الثعلبي عن عبد الله بن جراد قال: «قلت يا رسول الله المؤمن يزني؟ قال: قد يكون ذلك. قلت: المؤمن يسرق؟ قال: قد يكون ذلك قلت: المؤمن يكذب قال: لا قال الله تعالى إنما يفتري الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله». قوله تعالى:

مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ
صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿١٠٦﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى
ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَسَمۡعِهِمۡ
وَأَبۡصَٰرِهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿١٠٩﴾ ثُمَّ إِنَّ
رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَٰهَدُواْ وَصَبَرُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ
رَّحِيمٞ ﴿١١٠﴾ ۞يَوۡمَ تَأۡتِي كُلُّ نَفۡسٖ تُجَٰدِلُ عَن نَّفۡسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴿١١١﴾
وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا قَرۡيَةٗ كَانَتۡ ءَامِنَةٗ مُّطۡمَئِنَّةٗ يَأۡتِيهَا رِزۡقُهَا رَغَدٗا مِّن كُلِّ مَكَانٖ فَكَفَرَتۡ بِأَنۡعُمِ ٱللَّهِ
فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلۡجُوعِ وَٱلۡخَوۡفِ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدۡ جَآءَهُمۡ رَسُولٞ مِّنۡهُمۡ فَكَذَّبُوهُ
فَأَخَذَهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَهُمۡ ظَٰلِمُونَ ﴿١١٣﴾ فَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا وَٱشۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ إِن
كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ﴿١١٤﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحۡمَ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦۖ فَمَنِ
ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١١٥﴾ وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلۡسِنَتُكُمُ ٱلۡكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٞ
وَهَٰذَا حَرَامٞ لِّتَفۡتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَٰعٞ قَلِيلٞ وَلَهُمۡ عَذَابٌ
أَلِيمٞ ﴿١١٧﴾

﴿من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان﴾ نزلت في عمار بن ياسر وذلك أن المشركين

فقال: ﴿ **إنما يفتري الكذبَ الذين لا يؤمنون بآيات الله وأولئك هم الكاذبون** ﴾، لا محمد ﷺ، فإن قيل: قد قال: إنما يفتري الكذب الذين لا يؤمنون فما معنى قوله: ﴿ **وأولئك هم الكاذبون** ﴾، قيل إنما يفتري الكذب أخبار عن فعلهم وهم الكاذبون نعت لازم لهم كقول الرجل لغيره كذبت وأنت كاذب أي كذبت في هذا القول، ومن عادتك الكذب، أخبرنا أبو سعيد الشريحي أنا أبو إسحق الثعلبي أنا أبو حفص عمر بن أحمد الجوهري أنا جدّي أبو بكر محمد بن عمر بن حفص ثنا أبو بكر محمد بن الفرج الأزرق ثنا سعيد بن عبد الحميد بن جعفر ثنا يعلى بن الأشدق عن عبد الله بن جراد قال: قلت: يا رسول الله المؤمن يزني؟ قال: «قد يكون ذلك»، قال: قلت: المؤمن يسرق؟ قال: «قد يكون ذلك»، قلت: المؤمن يكذب؟ قال: «لا، قال الله: ﴿ **إنما يفتري الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله** ﴾».

﴿ **مَن كفر بالله من بعد إيمانه إلاّ مَن أُكره** ﴾ قال ابن عباس نزلت هذه الآية في عمّار وذلك أن المشركين

أخذوه وأباه ياسر وأمه سمية، وصهيباً وبلالاً وخباباً وسالماً فعذبوهم ليرجعوا عن الإسلام، فأما سمية أم عمار فإنها ربطت بين بعيرين ووجيء قلبها بحربة، فقتلت، وقتل زوجها ياسر فهما أول قتيلين قتلا في الإسلام وأما عمار فإنه أعطاهم بعض ما أرادوا بلسانه مكرهاً. قال قتادة أخذ بنو المغيرة عمار وغطوه في بئر ميمون وقالوا له: اكفر بمحمد فبايعهم على ذلك وقلبه كاره، وأخبر رسول الله ﷺ أن عماراً كفر. فقال «كلا إن عماراً مليء إيماناً من قرنه إلى قدمه، واختلط الإيمان بلحمه ودمه فأتى عمار رسول الله ﷺ وهو يبكي فقال له رسول الله ﷺ: ما وراءك قال: شر يا رسول الله نلت منك وذكرت. فقال: كيف وجدت قلبك قال: مطمئناً بالإيمان فجعل النبي ﷺ يمسح عينيه. وقال: إن عادوا لك فعد لهم بما قلت» فنزلت هذه الآية. وقال مجاهد: نزلت في أناس من أهل مكة آمنوا فكتب إليهم بعض أصحاب النبي ﷺ أن هاجروا إلينا فإنا لا نراكم منا حتى تهاجروا، فخرجوا يريدون المدينة فأدركتهم قريش في الطريق ففتنوهم عن دينهم فكفروا كارهين، وهذا القول ضعيف لأن الآية مكية وكان هذا في أول الإسلام قبل أن يؤمروا بالهجرة، وقال مقاتل: نزلت في جبر مولى عامر بن الحضرمي أكرهه سيده على الكفر، فكفر مكرهاً وقلبه مطمئن بالإيمان ثم أسلم عامر بن الحضرمي مولى جبر، وحسن إسلامه وهاجر إلى المدينة والأولى أن يقال إن الآية عامة في كل من أكره على الكفر، وقلبه مطمئن بالإيمان، وإن كان السبب خاصاً. فإن قلت: المكره على الكفر ليس بكافر فلا يصح استثناؤه من الكافر، فما معنى هذا الاستثناء فيه إلا من أكره. قلت: المكره لما ظهر منه بعد الإيمان ما شابه ما يظهر من الكافر طوعاً صح هذا الاستثناء لهذه المشابهة والمشاكلة والله أعلم.

فصل في حكم الآية

قال العلماء: يجب أن يكون الإكراه الذي يجوز له أن يتلفظ معه بكلمة الكفر أن يعذب بعذاب لا طاقة له به، مثل التخويف بالقتل والضرب الشديد والإيلامات القوية، مثل التحريق بالنار ونحوه. قال العلماء: أول من أظهر الإسلام مع رسول الله ﷺ سبعة: أبو بكر وخباب وصهيب وبلال وعمار وأبوه ياسر وأمه سمية فأما رسول الله ﷺ فمنعه الله من أذى المشركين بعمه أبي طالب وأما أبو بكر، فمنعه قومه وعشيرته وأخذ الآخرون، وألبسوا أدراع الحديد وأجلسوا في حر الشمس بمكة، فأما بلال فكانوا يعذبونه وهو يقول أحد أحد حتى اشتراه أبو بكر وأعتقه وقتل ياسر وسمية كما تقدم. وقال خباب: لقد أوقدوا لي ناراً ما أطفأها إلا ودك ظهري. وأجمعوا على أن من أكره على الكفر لا يجوز له أن يتلفظ بكلمة تصريحاً بل يأتي بالمعاريض، وبما يوهم أنه كفر، فلو أكره على التصريح يباح له ذلك بشرط طمأنينة القلب على الإيمان غير معتقد، ما يقوله من كلمة الكفر ولو صبر حتى قتل كان أفضل لأن ياسراً وسمية قتلا ولم يتلفظا بكلمة الكفر، ولأن بلالاً صبر على العذاب ولم يلم على ذلك. قال

أخذوه وأباه ياسراً وأُمه سُميّة وصهيباً وبلالاً وخبّاباً وسالماً فعذّبوهم فأما سُميّة فإنها ربطت بين بعيرين ووجيء قُبُلَها بحربة فقتلت وقتل زوجها ياسر وهما أول قتيلين قتلا في الإسلام، وأما عمّار فإنه أعطاهم ما أرادوا بلسانه مُكرَهاً، قال قتادة: أخذ بنو المغيرة عمّاراً وغطوه في بئر ميمون، وقالوا له: اكفر بمحمد فتابعهم على ذلك وقلبه كاره، فأخبر رسول الله ﷺ بأن عمّاراً كفر فقال: «كلا إن عمّاراً مليء إيماناً من قرنه إلى قدمه، واختلط الإيمان بلحمه ودمه»، فأتى عمّار رسول الله ﷺ وهو يبكي، فقال رسول الله ﷺ: «ما وراءك»؟ قال: شرّ يا رسول الله نلت منك وذكرت آلهتهم بخير، قال: «كيف وجدت قلبك»؟ قال: مطمئناً بالإيمان فجعل النبي ﷺ، يمسح عينيه وقال: «إن عادُوا لَكَ فعُدْ لهم بما قلت»، فنزلت هذه الآية. قال مجاهد: نزلت في ناس من أهل مكة آمنوا فكتب إليهم بعض أصحاب رسول الله ﷺ: إن هاجروا فإنّا لا نراكم منّا حتى تهاجروا إلينا فخرجوا يريدون المدينة، فأدركتهم قريش في الطريق فكفروا كارهين. وقال مقاتل: نزلت في جبر مولى عامر بن الحضرمي أكرهه سيده على الكفر فكفر

العلماء: من الأفعال ما يتصور الإكراه عليها كشرب الخمر وأكل لحم الخنزير، والميتة ونحوها فمن أكره بالسيف أو القتل على أن يشرب الخمر أو يأكل الميتة أو لحم الخنزير أو نحوها، جاز له ذلك لقوله تعالى ﴿**ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة**﴾ وقيل: لا يجوز له ذلك ولو صبر كان أفضل، ومن الأفعال ما لا يتصور الإكراه عليه كالزنا لأن الإكراه يوجب الخوف الشديد، وذلك يمنع انتشار الآلة فلا يتصور فيه الإكراه واختلف العلماء في طلاق المكره، فقال الشافعي رضي الله تعالى عنه وأكثر العلماء: لا يقع طلاق المكره. وقال أبو حنيفة: يقع. حجة الشافعي ومن وافقه قوله سبحانه وتعالى: ﴿**لا إكراه في الدين**﴾ ولا يمكن أن يكون المراد نفي ذاته، لأن ذاته موجودة فوجب حمله على نفي آثاره والمعنى أنه لا أثر له ولا عبرة به، وقوله تعالى ﴿**وقلبه مطمئن بالإيمان**﴾ فيه دليل على أن محل الإيمان هو القلب ﴿**ولكن من شرح بالكفر صدراً**﴾ يعني فتحه ووسعه لقبول الكفر واختاره ورضي به ﴿**فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم**﴾ يعني في الآخرة ﴿**ذلك بأنهم استحبّوا الحياة الدنيا على الآخرة**﴾ يعني يكون ذلك الإقدام على الارتداد إلى الكفر، لأجل أنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة ﴿**وأن الله لا يهدي القوم الكافرين**﴾ يعني لا يرشدهم إلى الإيمان ولا يوفقهم للعمل به ﴿**أولئك الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم**﴾ تقدم تفسيره ﴿**وأولئك هم الغافلون**﴾ يعني عما يراد بهم من العذاب في الآخرة وهو قوله سبحانه وتعالى ﴿**لا جرم أنهم في الآخرة هم الخاسرون**﴾ يعني أن الإنسان إنما يعمل في الدنيا، ليربح في الآخرة فإذا دخل النار بان خسرانه وظهر غبنه لأنه ضيع رأس ماله، وهو الإيمان ومن ضيع رأس ماله فهو خاسر. قوله عز وجل ﴿**ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا**﴾ يعني عذبوا ومنعوا من الدخول في الإسلام فتنهم المشركون ﴿**ثم جاهدوا وصبروا**﴾ على الإيمان والهجرة والجهاد ﴿**إن ربك من بعدها**﴾ يعني من بعد الفتنة التي فتنوها ﴿**لغفور رحيم**﴾ نزلت هذه الآية في عياش بن ربيعة، وكان أخا أبي جهل من الرضاعة، وقيل كان أخاه لأمه وفي أبي جندل بن سهيل بن عمرو والوليد بن الوليد بن المغيرة، وسلمة بن هشام وعبد الله بن أسد الثقفي فتنهم المشركون، وعذبوهم فأعطوهم بعض ما أرادوا ليسلموا من شرهم ثم إنهم بعد ذلك هاجروا وجاهدوا. وقال الحسن وعكرمة: نزلت هذه الآية في عبد الله بن أبي سرح كان قد أسلم، وكان يكتب للنبي ﷺ فاستزله الشيطان، فارتد ولحق بدار الحرب فلما كان يوم فتح مكة أمر النبي ﷺ بقتله فاستجاره عثمان، وكان أخاه لأمه فأجاره رسول الله ﷺ فأسلم وحسن إسلامه وهذا القول إنما يصح إذا قلنا: إن هذه الآية مدنية

مكرهاً، ﴿ **وقلبُه مطمئنٌ بالإيمان** ﴾، ثم أسلم مولى عامر بن الحضرمي وحَسُنَ إسلامه وهاجر جبر مع سيده، ﴿ **ولكنْ مَن شرح بالكفر صدراً** ﴾ أي: فتح صدره بالكفر بالقبول فاختاره، ﴿ **فعليهم غضبٌ من الله ولهم عذاب عظيم** ﴾. وأجمع العلماء على أن مَن أكره على كلمة الكفر، يجوز له أن يقول بلسانه، وإذا قال بلسانه غير معتقد لا يكون كفراً وإن أبى أن يقول حتى يقتل كان أفضل. واختلف أهل العلم في طلاق المكره فذهب أكثرهم إلّا أنه لا يقع.

﴿ **ذلك بأنهم استحبّوا** ﴾، آثروا، ﴿ **الحياة الدنيا على الآخرة وأن الله لا يهدي القوم الكافرين** ﴾، لا يرشدهم.

﴿ **أولئك الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم وأولئك هم الغافلون** ﴾، عمّا يراد بهم.

﴿ **لا جَرَمَ** ﴾، أي حقاً، ﴿ **أنهم في الآخرة هم الخاسرون** ﴾، أي المغبونون.

﴿ **ثم إنَّ ربك للذين هاجروا من بعد ما فُتِنُوا** ﴾، عذبوا ومنعوا من الإسلام فتنهم المشركون، ﴿ **ثم جاهدُوا وصبرُوا** ﴾ على الإيمان والهجرة والجهاد، ﴿ **إنَّ ربك من بعدها** ﴾، من بعد تلك الفتنة والغفلة ﴿ **لغفورٌ**

نزلت بالمدينة فتكون من الآيات المدنيات في السور المكيات، والله أعلم بحقيقة ذلك قوله سبحانه وتعالى ﴿**يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها**﴾ يعني تخاصم وتحتج عن نفسها أي بما أسلفت من خير وشر، واشتغلت بالمجادلة لا تتفرغ إلى غيرها. فإن قلت: النفس هي نفس واحدة، وليس لها نفس أخرى فما معنى قوله كل نفس تجادل عن نفسها؟ قلت: إن النفس قد يراد بها بدن الإنسان، وقد يراد بها مجموع ذاته وحقيقته فالنفس الأولى هي مجموع ذات الإنسان وحقيقته والنفس الثانية، هي بدنه فهي عينها وذاتها أيضاً، والمعنى: يوم يأتي كل إنسان يجادل عن ذاته، ولا يهمه غيره ومعنى هذه المجادلة الاعتذار بما لا يقبل منه كقولهم والله ربنا ما كنا مشركين، ونحو ذلك من الاعتذارات ﴿**وتوفى كل نفس ما عملت**﴾ يعني جزاء ما عملت في الدنيا من خير أو شر ﴿**وهم لا يظلمون**﴾ يعني لا ينقصون من جزاء أعمالهم شيئاً، بل يوفون ذلك كاملاً من غير زيادة ولا نقصان. روي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال لكعب الأحبار: خوفنا فقال يا أمير المؤمنين والذي نفسي بيده لو وافيت القيامة بمثل عمل سبعين نبياً، لأتت عليك ساعات وأنت لا يهمك إلا نفسك وإن جهنم لتزفر زفرة ما يبقى ملك مقرب ولا نبي مرسل إلا جثا على ركبتيه حتى إبراهيم خليل الرحمن يقول: يا رب لا أسألك إلا نفسي، وإن تصديق ذلك فيما أنزل الله تعالى يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها. وروى عكرمة عن ابن عباس في هذه الآية قال: ما تزال الخصومة بين الناس يوم القيامة حتى تخاصم الروح الجسد، فتقول الروح: يا رب لم تكن لي أيدٍ أبطش بها، ولا رجل أمشي بها ولا عين أبصر بها، ويقول الجسد: يا رب خلقتني كالخشبة، ليست لي يد أبطش بها، ولا رجل أمشي بها ولا عين أبصر بها فجاء هذا الروح كشعاع النور فيه نطق لساني، وبه أبصرت عيناي وبه مشت رجلاي فضرب الله لهما مثلاً أعمى ومقعد دخلا حائطاً، يعني بستاناً فيه ثمار فالأعمى لا يبصر الثمار والمقعد لا يناله فحمل الأعمى المقعد فأصابا من الثمر فعليهما العذاب. قوله عز وجل ﴿**وضرب الله مثلاً قرية**﴾ المثل عبارة عن قول في شيء يشبه قولاً في شيء آخر بينهما مشابهة، ليبين أحدهما الآخر ويصوره، وقيل: هو عبارة عن المشابهة لغيره في معنى من المعاني أي معنى كان وهو أعم الألفاظ الموضوعة للمشابهة، قال الإمام فخر الدين الرازي: المثل قد يضرب بشيء موصوف بصفة معينة سواء، كان ذلك الشيء موجوداً أو لم يكن وقد يضرب بشيء موجود معين، فهذه القرية التي ضرب الله بها هذا المثل يحتمل أن تكون شيئاً مفروضاً، ويحتمل أن تكون قرية معينة، وعلى التقدير الثاني فتلك القرية يحتمل أن تكون مكة أو غيرها والأكثر من المفسرين على أنها مكة، والأقرب أنها غير مكة لأنها ضربت مثلاً لمكة ومثل مكة يكون غير مكة، وقال الزمخشري في كتابه الكشاف: وضرب الله مثلاً قرية أي جعل القرية التي هذه حالها، مثلاً لكل قوم أنعم الله عليهم

رحيم ﴾، نزلت في عيّاش بن أبي ربيعة أخي أبي جهل من الرضاعة، وفي أبي جندل بن سهيل بن عمرو والوليد بن الوليد بن المغيرة وسلمة بن هشام وعبد الله بن أبي أسيد الثقفي فتنهم المشركون فأعطوهم بعد ما أرادوا ليسلموا من شرّهم ثم إنهم هاجروا بعد ذلك وجاهدوا، وقال الحسن وعكرمة: نزلتْ في عبد الله بن سعد بن أبي سرح وكان يكتب للنبي ﷺ فاستزلّه الشيطان فلحق بالكفّار فأمر النبي ﷺ يوم فتح مكة بقتله فاستجاره عثمان وكان أخاه لأمه من الرضاعة فأجاره رسول الله ﷺ، ثم أسلم وحَسُنَ إسلامه فأنزل الله هذه الآية، وقرأ ابن عامر «فَتَنـوا» بفتح الفاء والتاء، وردّه إلى مَن أسلم من المشركين فتنوا المسلمين.

﴿ **يوم تأتي كل نفس تجادل** ﴾، تخاصم وتحتجّ، ﴿ **عن نفسها** ﴾، بما أسلفت من خير وشر مشتغلاً بها لا تتفرغ إلى غيرها، ﴿ **وتُوفى كل نفس ما عملت وهم لا يظلمون** ﴾. رُوِيَ أن عمر بن الخطاب قال لكعب الأحبار: خوفنا، قال: يا أمير المؤمنين والذي نفسي بيده لو وافيت يوم القيامة بمثل عمل سبعين نبيّاً لأتت عليك ساعات وأنت لا تهمّك إلا نفسك، وإن لجهنم زفرة لا يبقى ملك مقرّب ولا نبي مرسل منتخب إلاّ وقع جاثياً على ركبتيه

فأبطرتهم النعمة فكفروا وتولوا فأنزل الله بهم نقمته، فيجوز أن تراد قرية مقدرة على هذه الصفة، وأن تكون في قرى الأولين قرية كانت هذه حالها، فضرب الله مثلاً لمكة إنذاراً من مثل عاقبتها وقال الواحدي: ضرب المثل ببيان المشبه والمشبه به، وهاهنا ذكر المشبه به ولم يذكر المشبه لوضوحه عند المخاطبين، والآية عند عامة المفسرين نازلة في أهل مكة وما امتحنوا به من الخوف والجوع بعد الأمن، والنعمة بتكذيبهم النبي ﷺ فتقدير الآية ضرب الله مثلاً لقريتكم أي بين الله لها شبهاً ثم قال: قرية فيجوز أن تكون القرية بدلاً من مثلاً لأنها هي الممثل بها، ويجوز أن يكون المعنى ضرب الله مثلاً، مثل قرية فحذف المضاف هذا قول الزجاج والمفسرون كلهم قالوا: أراد بالقرية مكة يعنون أنه أراد مكة في تمثيلها بقرية صفتها ما ذكر. وقال ابن الجوزي: في هذه القرية قولان: أحدهما أنها مكة قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة والجمهور وهو الصحيح، والثاني أنها قرية أوسع الله على أهلها حتى كانوا يستنجون بالخبز فبعث الله عليهم الجوع، قاله الحسن. وأقول: هذه الآية نزلت بالمدينة في قول مقاتل وبعض المفسرين، وهو الصحيح لأن الله سبحانه وتعالى وصف هذه القرية بصفات ستة كانت هذه الصفات موجودة في أهل مكة، فضربها الله مثلاً لأهل المدينة يحذرهم أن يصنعوا مثل صنيعهم، فيصيبهم ما أصابهم من الجوع والخوف، ويشهد لصحة ما قلت إن الخوف المذكور في هذه الآية في قوله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف هو البعوث والسرايا التي كان النبي ﷺ يبعثها في قول جميع المفسرين لأن النبي ﷺ لم يؤمر بالقتال، وهو بمكة وإنما أُمر بالقتال لما هاجر إلى المدينة، فكان يبعث البعوث والسرايا إلى حول مكة يخوّفهم بذلك، وهو بالمدينة والله أعلم بمراده، وأما تفسير قوله تعالى: وضرب الله مثلاً قرية يعني مكة ﴿**كانت آمنة**﴾ يعني ذات أمن لا يهاج أهلها ولا يغار عليهم ﴿**مطمئنة**﴾ يعني قارة بأهلها لا يحتاجون إلى الانتقال عنها للانتجاع كما كان يحتاج إليه سائر العرب ﴿**يأتيها رزقها رغداً**﴾ يعني واسعاً ﴿**من كل مكان**﴾ يعني يحمل إليها الرزق والميرة من البر والبحر. نظيره قوله سبحانه وتعالى تجبى إليه ثمرات كل شيء وذلك بدعوة إبراهيم ﷺ وهو قوله «وارزق أهله من الثمرات» ﴿**فكفرت**﴾ يعني هذه القرية والمراد أهلها ﴿**بأنعم الله**﴾ جمع نعمة والمراد بها سائر النعم التي أنعم الله بها على أهل مكة فلما قابلوا نعم الله التي أنعم بها عليهم بالجحود والكفر، لا جرم أن الله تعالى انتقم منهم فقال تعالى ﴿**فأذاقها الله لباس الجوع والخوف**﴾ وذلك أن الله سبحانه وتعالى ابتلاهم بالجوع سبع سنين، فقطع عنهم المطر وقطعت عنهم العرب الميرة بأمر رسول الله ﷺ حتى جهدوا فأكلوا العظام المحرقة والجيف والكلاب والميتة والعهن، وهو الوبر يعالج بالدم ويخلط به حتى يؤكل، حتى كان أحدهم ينظر إلى السماء فيرى شبه الدخان من الجوع ثم إن رؤساء مكة كلموا رسول الله ﷺ في ذلك، وقالوا: ما هذا هبك عاديت

حتى إبراهيم خليل الرحمن، يقول: يا ربِّ لا أسألك إلاَّ نفسي، وإن تصديق ذلك الذي أنزله الله عليكم ﴿ **يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها** ﴾، وروى عكرمة عن ابن عباس في هذه الآية قال: ما تزال الخصومة بين الناس يوم القيامة، حتى تخاصم الروح الجسد فتقول الروح يا ربِّ لم يكن لي أيدٍ أبطش بها ولا رِجل أمشي بها ولا أعين أُبصر بها، فنجِّني وعذِّبه، ويقول الجسد يا ربِّ خلقتني كالخشب لم تبطش يدي ولم تمشِ رِجلي ولم تُبصِر عيني، فجاء هذا كشعاع النور، فبه نطق لساني وأبصرت عيني وبطشت يدي ومشت رِجلي، قال: فيضرب الله لهما مثلاً فقال: إنما مثلكما مثل أعمى ومُقعَد دخلا حائطاً فيه ثمار فالأعمى لا يُبصِر الثمر، والمُقعَد يرى ولا يناله، فحمل الأعمى المُقعَد فأصابا من الثمر فعليهما العذاب.

قوله تعالى: ﴿ **وضرب الله مثلاً قرية كانتْ آمنةً** ﴾ يعني: مكة كانت آمنة لا يهاج أهلها ولا يُغار عليها، ﴿ **مطمئنة** ﴾، قارّة بأهلها لا يحتاجون إلى الانتقال للانتجاع كما يحتاج إليه سائر العرب، ﴿ **يأتيها رزقها رَغَداً من كل مكان** ﴾، يُحمَل إليها من البرّ والبحر نظيره: ﴿ **يُجبى إليه ثمرات كل شيء** ﴾ [القصص: ٥٧]. ﴿ **فكفرت**

الرجال فما بال النساء والصبيان، فأذن رسول الله ﷺ في حمل الطعام إليهم، وهم بعد مشركون. والخوف يعني خوف بعوث النبي ﷺ وسراياه التي كان يبعثها للإغارة فكانت تطيف بهم وتغير على من حولهم من العرب فكان أهل مكة يخافونهم. فإن قلت: الإذاقة واللباس استعارتان فما وجه صحتهما، والإذاقة المستعارة موقعة على اللباس المستعار فما وجه صحة إيقاعها عليه، وهو أن اللباس لا يذاق بل يلبس، فيقال كساهم الله لباس الجوع أو يقال فأذاقهم الله طعم الجوع قلت: قال صاحب الكشاف: أما الإذاقة فقد جرت عندهم مجرى الحقيقة لشيوعها في البلايا والشدائد، وما يمس الناس منها فيقولون ذاق فلان البؤس والضر وأذاقه العذاب شبه ما يدرك من أثر الضرر، والألم بما يدرك من طعم المر البشع وأما اللباس فقد شبه به لاشتماله على اللابس ما غشي الإنسان، والتلبس به من بعض الحوادث وأما ايقاع الإذاقة على لباس الجوع والخوف، فلأنه لما وقع عبارة عما يغشى منهما ويلابس فكأنه قيل فأذاقهم ما غشيهم من الجوع والخوف، ثم ذكر بعده من علم المعاني والبيان ما يشهد لصحة ما قال. وقال الإمام فخر الدين الرازي: جوابه من وجوه، الأول، أن الأحوال التي حصلت لهم عند الجوع نوعان: أحدهما أن المذوق هو الطعام فلما فقدوا الطعام صاروا كأنهم يذوقون الجوع. والثاني، أن ذلك الجوع كان شديداً كاملاً فصار كأنه أحاط بهم من كل الجهات فأشبه اللباس، والحاصل أنه حصل لهم في ذلك الجوع حالة تشبه المذوق، وحالة تشبه الملبوس فاعتبر الله كلا الاعتبارين فقال فأذاقها الله لباس الجوع والخوف، الوجه الثاني: أن التقدير أن الله عرفها أثر لباس الجوع والخوف، إلا أنه تعالى عبر عن التعريف بلفظ الإذاقة، وأصل الذوق بالفم ثم قد يستعار فوضع موضع التعرف، وهو الاختبار تقول ناظر فلاناً وذاق ما عنده:

ومن يذق الدنيا فاني طعمتها وسيق إلينا عذبها وعذابها

ولباس الجوع والخوف ما ظهر عليهم من الضمور، وشحوب اللون ونهكة البدن وتغيير الحال وكسوف البال، كما تقول: تعرفت سوء أثر الجوع والخوف على فلان، كذلك يجوز أن تقول: ذقت لباس الجوع والخوف على فلان. الوجه الثالث: أن يحمل لفظ الذوق واللبس على المماسة، فصار التقدير فأذاقها الله مساس الجوع والخوف ثم قال تعالى ﴿**بما كانوا يصنعون**﴾ ولم يقل بما صنعت لأنه أراد أهل القرية، والمعنى: فعلنا بهم ما فعلنا بسبب ما كانوا يصنعون، وهذا مثل أهل مكة لأنهم كانوا في الأمن والطمأنينة والخصب ثم أنعم الله عز وجل عليهم بالنعمة العظيمة وهي إرسال محمد ﷺ وهو منهم فكفروا به وكذبوه وبالغوا في إيذائه، وأرادوا قتله فأخرجه الله من بينهم وأمره بالهجرة إلى المدينة وسلط على أهل مكة البلاء والشدائد والجوع والخوف كل ذلك بسبب تكذيبهم رسول الله ﷺ وخروجه من بين أظهرهم. قوله سبحانه وتعالى ﴿**ولقد جاءهم**﴾ يعني أهل مكة ﴿**رسول منهم**﴾ يعني محمداً ﷺ يعرفون نسبه، ويعرفونه قبل النبوة وبعدها ﴿**فكذبوه فأخذهم العذاب**﴾ يعني الجوع والخوف وقيل القتل

بأنعُمِ الله ﴾، جمع النعمة، وقيل: جمع نعماء مثل بأساء وأبؤس، ﴿ **فأذاقها الله لباس الجوع** ﴾ ابتلاهم الله بالجوع سبع سنين وقطعت العرب عنهم الميرة بأمر رسول الله ﷺ حتى جهدوا وأكلوا العظام المحرقة، والجيف والكلاب الميتة، والعهن وهو الوبر يعالج بالدم، حتى كان أحدهم ينظر إلى السماء فيرى شبه دخان من الجوع، ثم إن رؤوساء مكة كلّموا رسول الله ﷺ وقالوا: ما هذا؟ هَبْكَ عَاديتَ الرجال فما بال النساء والصبيان؟ فأذِنَ رسول الله ﷺ للناس بحمل الطعام إليهم وهم بعد مشركون، وذكر اللباس لأن ما أصابهم من الهزال والشحوب وتغيّر ظاهرهم عمّا كانوا عليه من قبل كاللباس لهم، ﴿ **والخوف** ﴾، يعني: بعوث النبي ﷺ وسراياه التي كانت تطيف بهم. ﴿ **بما كانوا يصنعون** ﴾.

﴿ **ولقد جاءهم رسول منهم** ﴾، محمد ﷺ، ﴿ **فكذبوه فأخذهم العذاب وهم ظالمون** ﴾.

﴿ **فكلوا مما رزقكم الله حلالاً طيباً واشكروا نعمة الله إن كنتم إيّاه تعبدون** ﴾.

يوم بدر، والقول الأول أولى لما تقدم في الآية ﴿وهم ظالمون﴾ يعني كافرون ﴿فكلوا مما رزقكم الله﴾ في المخاطبين بهذا قولان: أحدهما، أنهم المسلمون، وهو قول جمهور المفسرين، والثاني، أنهم هم المشركون من أهل مكة. قال الكلبي: لما اشتد الجوع بأهل مكة كلم رؤساؤهم رسول الله ﷺ فقالوا: إنك إنما عاديت الرجال فما بال النساء والصبيان؟ فأذن رسول الله ﷺ أن يحملوا الطعام إليهم حكاه الواحدي وغيره والقول الأول هو الصحيح. قال ابن عباس فكلوا يا معشر المؤمنين مما رزقكم الله يريد الغنائم ﴿حلالاً طيباً﴾ يعني أن الله سبحانه وتعالى أحل الغنائم لهذه الأمة وطيبها لهم ولم تحل لأحد قبلهم ﴿واشكروا نعمة الله﴾ يعني التي أنعم بها عليكم ﴿إن كنتم إياه تعبدون إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهلّ لغير الله به فمن اضطر غير باغ ولا عاد فإن الله غفور رحيم﴾ تقدم تفسير هذه الآية وأحكامها في سورة البقرة فلم نعده هنا، وقوله تعالى ﴿ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب﴾ يعني ولا تقولوا لأجل وصفكم الكذب ﴿هذا حلال وهذا حرام﴾ يعني أنكم تحلون وتحرمون لأجل الكذب لا لغيره فليس لتحليلكم وتحريمكم معنى وسبب إلا الكذب فقط، فلا تفعلوا ذلك. قال مجاهد: يعني البحيرة والسائبة. وقال ابن عباس: يعني قولهم ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا، ومحرم على أزواجنا وذلك أن العرب في الجاهلية كانوا يحلون أشياء ويحرمون أشياء من عند أنفسهم، وينسبون ذلك إلى الله تعالى وهو قوله تعالى ﴿لتفتروا على الله الكذب﴾ يعني لا تقولوا إن الله أمرنا بذلك فتكذبوا على الله لأن وصفهم الكذب هو افتراء على الله ثم توعد المفترين للكذب فقال سبحانه وتعالى ﴿إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون﴾ يعني: لا ينجون من العذاب، وقيل: لا يفوزون بخير لأن الفلاح هو الفوز بالخير والنجاح ثم بين أن ما هم فيه من نعيم الدنيا يزول عنهم عن قريب فقال تعالى ﴿متاع قليل﴾ يعني متاعهم في الدنيا متاع قليل فإنه لا بقاء له ﴿ولهم عذاب أليم﴾ يعني في الآخرة.

وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ
رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٩﴾ إِنَّ
إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ
مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ
حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾

﴿وعلى الذين هادوا﴾ يعني اليهود ﴿حرمنا ما قصصنا عليك من قبل﴾ يعني ما سبق ذكره وبيانه في سورة الأنعام

﴿ إنَّما حرَّم عليكم الميتةَ والدمَ ولحمَ الخنزيرِ وما أُهلّ لغير الله به فمَن اضطر غيرَ باغٍ ولا عادٍ فإنّ الله غفور رحيم ﴾.

قوله تعالى: ﴿ ولا تقولوا لما تَصِفَ ألسنَتكم الكذب ﴾، أي: لا تقولوا لوصف ألسنتكم أو لأجل وصفكم الكذب أي: أنكم تُحلّون وتُحرّمون لأجل الكذب لا لغيره، ﴿ هذا حلال وهذا حرام ﴾، يعني البحيرة والسائبة، ﴿ لتفتروا على الله الكذب ﴾، فتقولون إن الله أمرنا بهذا، ﴿ إنّ الذين يفترون على الله الكذب لا يُفلحون ﴾، لا ينجون من عذاب الله.

﴿ متاعٌ قليلٌ ﴾، يعني: الذي هم فيه متاع قليل أو لهم متاع قليلٌ في الدنيا. ﴿ ولهم عذاب أليم ﴾، في الآخرة.

﴿ وعلى الذين هادُوا حرّمنا ما قَصَصْنا عليك من قبل ﴾، يعني في سورة الأنعام [١٤٦]. وقوله تعالى:

وهو قوله تعالى «وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذي ظفر» الآية ﴿وما ظلمناهم﴾ يعني بتحريم ذلك عليهم ﴿ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾ يعني إنما حرمنا عليهم ما حرمنا بسبب بغيهم وظلمهم أنفسهم ونظيره قوله تعالى فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم. وقوله تعالى ﴿ثم إن ربك للذين عملوا السوء بجهالة﴾ المقصود من هذه الآية بيان فضل الله وكرمه وسعة مغفرته ورحمته، لأن السوء لفظ جامع لكل فعل قبيح فيدخل تحته الكفر وسائر المعاصي وكل ما لا ينبغي وكل من عمل السوء فإنما يفعله بالجهالة، لأن العاقل لا يرضى بفعل القبيح فمن صدر عنه فعل قبيح من كفر أو معصية، فإنما يصدر عنه بسبب جهله إما لجهله بقدر ما يترتب عليه من العقاب أو لجهله بقدر من يعصيه، فثبت بهذا أن فعل السوء إنما يفعل بجهالة ثم إن الله تعالى وعد من عمل سوءاً بجهالة ثم تاب، وأصلح العمل في المستقبل أن يتوب عليه ويرحمه وهو قوله تعالى ثم تابوا من بعد ذلك، يعني من بعد عمل ذلك السوء ﴿وأصلحوا﴾ يعني أصلحوا العمل في المستقبل، وقيل معنى الإصلاح الاستقامة على التوبة ﴿إن ربك من بعدها﴾ يعني من بعد عمل السوء بالجهالة والتوبة منه ﴿لغفور﴾ يعني لمن تاب وآمن ﴿رحيم﴾ يعني بجميع المؤمنين والتائبين. قوله سبحانه وتعالى ﴿إن إبراهيم كان أمة﴾ حكى ابن الجوزي عن ابن الأنباري أنه قال: هذا مثل قول العرب: فلان رحمة وفلان علامة ونسابة يقصدون بهذا التأنيث قصد التناهي في المعنى الذي يصفونه به. والعرب توقع الأسماء المبهمة على الجماعة وعلى الواحد كقوله تبارك وتعالى «فنادته الملائكة» وإنما ناداه جبريل وحده، وإنما سمي إبراهيم ﷺ أمة لأنه اجتمع فيه من صفات الكمال وصفات الخير والأخلاق الحميدة ما اجتمع في أمة. ومنه قول الشاعر:

ليـــس علـــى الله بمستنكـــر أن يجمـــع العـــالـــم فـــي واحـــد

ثم للمفسرين في معنى هذه اللفظة أقوال أحدها: قول ابن مسعود: الأمة معلم الخير يعني أنه كان معلماً للخير يأتم به أهل الدنيا. الثاني قال مجاهد: إنه كان مؤمناً وحده والناس كلهم كفار فلهذا المعنى كان أمة واحدة ومنه قوله ﷺ في زيد بن عمرو بن نفيل «يبعثه الله أمة وحده» وإنما قال فيه هذه المقالة لأنه كان قد فارق الجاهلية وما كانوا عليه من عبادة الأصنام. الثالث قال قتادة: ليس من أهل دين إلا وهم يتلونه ويرضونه، وقيل: الأمة فعلة بمعنى مفعولة، وهو الذي يؤتم به وكان إبراهيم عليه السلام إماماً يقتدى به دليله قوله سبحانه وتعالى ﴿إني جاعلك للناس إماماً﴾ وقيل إنه عليه السلام هو السبب الذي لأجله جعلت أمته ومن تبعه ممتازين عمن سواهم بالتوحيد لله والدين الحق وهو

﴿ وعلى الذين هادوا حرّمنا كل ذي ظفر ﴾ [الأنعام: ١٤٦] الآية ﴿ وما ظلمناهم ﴾ بتحريم ذلك عليهم، ﴿ ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ فحرّمنا عليهم ببغيهم.

﴿ ثم إن ربّك للذين عملوا السوء بجهالة ثم تابوا من بعد ذلك وأصلحوا ﴾ يعني: بالإصلاح الاستقامة على التوبة، ﴿ إن ربّك من بعدها ﴾، أي: من بعد الجهالة، ﴿ لغفور رحيم ﴾.

قوله تعالى: ﴿ إن إبراهيم كان أمةً ﴾ قال ابن مسعود الأمة معلم الخير أي: كان معلم الخير يأتم به أهل الدنيا، وقد اجتمع فيه من الخِصال الحميدة ما اجتمع في أمة، قال مجاهد: كان مؤمناً وحده والناس كلهم كفّار. قال قتادة: ليس من أهل دين إلّا يتولّونه ويرضونه. ﴿ قانتاً لله ﴾، مطيعاً. وقيل: قائماً بأوامر الله تعالى، ﴿ حنيفاً ﴾ مستقيماً على دين الإسلام. وقيل: مخلصاً. ﴿ ولم يكُ من المشركين ﴾.

﴿ شاكراً لأنعمه اجتباه ﴾، اختاره، ﴿ وهداه إلى صراط مستقيم ﴾، أي: إلى دين الحق.

﴿ وآتيناه في الدنيا حسنة ﴾، يعني الرسالة والخلّة. وقيل: لسان الصدق والثناء الحسن وقال مقاتل بن

من باب إطلاق المسبب على السبب، وقيل: إنما سمي إبراهيم عليه السلام أمة لأنه قام مقام أمة في عبادة الله ﴿**قانتاً لله**﴾ يعني مطيعاً لله وقيل هو القائم بأوامر الله ﴿**حنيفاً**﴾ مسلماً يعني مقيماً على دين الإسلام لا يميل عنه ولا يزول. وهو أول من اختتن وضحّى، وأقام مناسك الحج ﴿**ولم يك من المشركين**﴾ يعني أنه عليه السلام كان من الموحدين المخلصين من صغره إلى كبره ﴿**شاكراً لأنعمه**﴾ يعني أنه كان شاكراً لله على أنعمه التي أنعم بها عليه ﴿**اجتباه**﴾ أي اختاره لنبوته واصطفاه لخلته ﴿**وهداه إلى صراط مستقيم**﴾ يعني هداه إلى دين الإسلام لأنه الصراط المستقيم والدين القويم ﴿**وآتيناه في الدنيا حسنة**﴾ يعني الرسالة والخلة. وقيل: هي لسان الصدق والثناء الحسن والقبول العام في جميع الأمم فإن الله حببه إلى جميع خلقه فكل أهل الأديان يتلونه المسلمون واليهود والنصارى، ومشركو العرب وغيرهم، وقيل: هو قول المصلي في التشهد: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم. وقيل إنه آتاه أولاداً أبراراً على الكبر ﴿**وإنه في الآخرة لمن الصالحين**﴾ يعني في أعلى مقامات الصالحين في الجنة. وقيل: معناه وإنه في الآخرة لمن الصالحين يعني الأنبياء في الجنة فتكون من بمعنى مع ولما وصف الله عز وجل إبراهيم عليه السلام بهذه الصفات الشريفة العالية، أمر الله سبحانه وتعالى نبيه محمداً ﷺ باتباعه فقال تعالى ﴿**ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم**﴾ يعني دينه وما كان عليه من الشريعة والتوحيد. قال أهل الأصول: كان النبي ﷺ مأموراً بشريعة إبراهيم إلا ما نسخ منها وما لم ينسخ صار شرعاً له، وقال أبو جعفر الطبري أمره باتباعه في التبري من الأوثان والتدين بدين الإسلام وهو قوله ﴿**حنيفاً**﴾ مسلماً ﴿**وما كان من المشركين**﴾ تقدم تفسيره وقوله تعالى:

إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾

﴿**إنما جعل السبت على الذين اختلفوا فيه**﴾ يعني إنما فرض تعظيم السبت على الذين اختلفوا فيه وهم اليهود. روى الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس قال: أمرهم موسى بتعظيم يوم الجمعة فقال: تفرغوا لله في كل سبعة أيام يوماً فاعبدوه في يوم الجمعة ولا تعملوا فيه شيئاً من صنعتكم وستة أيام لصنعتكم، فأبوا عليه وقالوا لا نريد إلا اليوم

حيّان: يعني الصلاة عليه في قول هذه الأمة اللّهمَّ صلِّ على محمد وعلى آل محمد كما صلّيت على إبراهيم وآل إبراهيم. وقيل: أولاداً أبراراً على الكبر. وقيل: القبول العام في جميع الأمم. ﴿ **وإنه في الآخرة لَمِنَ الصالحين** ﴾، مع آبائه الصالحين في الجنة. وفي الآية تقديم وتأخير مجازه: وآتيناه في الدنيا والآخرة حسنة، وإنه لمن الصالحين.

﴿ **ثم أوحينا إليك** ﴾، يا محمد، ﴿ **أن اتبعْ مِلّةَ إبراهيم حنيفاً** ﴾، حاجّاً مسلماً، ﴿ **وما كان من المشركين** ﴾، وقال أهل الأصول: كان النبي ﷺ مأمور بشريعة إبراهيم إلّا ما نُسِخَ في شريعته، وما لم يُنسَخ صار شرعاً.

قوله تعالى: ﴿ **إنّما جُعل السبتُ على الذين اختلفوا فيه** ﴾ أي: خالفوا فيه. قيل: معناه إنما جعل السبت

الذي فرغ الله فيه من الخلق، وهو يوم السبت فجعل ذلك اليوم عليهم وشدد عليهم فيه ثم جاءهم عيسى عليه السلام أيضاً بيوم الجمعة. فقالت النصارى لا نريد أن يكون عيدهم بعد عيدنا يعنون اليهود فاتخذوا الأحد فأعطى الله عز وجل الجمعة لهذه الأمة فقبلوها، فبورك لهم فيها (ق) عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: «نحن الآخرون السابقون يوم القيامة بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا فاختلفوا فيه، وأوتيناه من بعدهم فهذا يومهم الذي فرض عليهم، فاختلفوا فيه فهدانا الله له فهم لنا فيه تبع فغداً لليهود، وبعد غد للنصارى» وفي رواية لمسلم «نحن الآخرون الأولون يوم القيامة ونحن أول من يدخل الجنة» وفي رواية أخرى له قال «أضل الله عن الجمعة من كان قبلنا فكان لليهود يوم السبت وللنصارى يوم الأحد فجاء الله بنا فهدانا ليوم الجمعة، فجعل الجمعة والسبت والأحد، وكذلك هم لنا تبع يوم القيامة نحن الآخرون في الدنيا، الأولون يوم القيامة المقضي لهم قبل الخلائق» قال الشيخ محيي الدين النووي في شرح مسلم: قال العلماء في معنى الحديث: نحن الآخرون في الزمان والوجود السابقون في الفضل ودخول الجنة فتدخل هذه الأمة الجنة قبل سائر الأمم. وقوله بيد أنهم يعني غير أنهم أو إلا أنهم. وقوله فهذا يومهم الذي فرض عليهم فاختلفوا فيه فهدانا الله له قال: القاضي عياض الظاهر أنه فرض عليهم تعظيم يوم الجمعة بغير تعيين ووكل إلى اجتهادهم لإقامة شرائعهم فيه، فاختلف أحبارهم في تعيينه ولم يهدهم الله له وفرضه على هذه الأمة مبيناً، ولم يكلهم إلى اجتهادهم ففازوا بفضيلته قال: يعني القاضي عياضاً ـ وقد جاء أن موسى عليه السلام أمرهم بيوم الجمعة، وأعلمهم بفضله فناظروه أن السبت أفضل. فقيل له دعهم. قال القاضي: ولو كان منصوصاً عليه لم يصح اختلافهم فيه بل كان يقول: خالفوا فيه. قال الشيخ محيي الدين النووي: ويمكن أن يكونوا أمروا به صريحاً ونص على عينه فاختلفوا فيه هل يلزم تعيينه أم لهم إبداله فأبدلوه، وغلطوا في إبداله. قال الإمام فخر الدين الرازي في قوله تعالى «على الذين اختلفوا فيه» يعني على نبيهم موسى، حيث أمرهم بالجمعة فاختاروا السبت فاختلافهم في السبت كان اختلافاً على نبيهم في ذلك اليوم، أي لأجله وليس معنى قوله اختلفوا فيه أن اليهود اختلفوا، فمنهم من قال بالسبت، ومنهم من لم يقل به، لأن اليهود اتفقوا على ذلك. وزاد الواحدي على هذا فقال: وهذا مما أشكل على كثير من المفسرين حتى قال بعضهم: معنى الاختلاف في السبت أن بعضهم قال: هو أعظم الأيام حرمة لأن الله فرغ من خلق الأشياء، وقال الآخرون بل الأحد أفضل لأن الله سبحانه وتعالى، ابتدأ فيه بخلق الأشياء، وهذا غلط لأن اليهود لم يكونوا فريقين في السبت، وإنما اختار الأحد النصارى بعدهم بزمان طويل. فان قلت إن اليهود إنما اختاروا السبت، لأن أهل الملل اتفقوا على أن الله خلق الخلق في ستة أيام وبدأ بالخلق والتكوين في يوم الأحد، وتم الخلق يوم الجمعة وكان يوم السبت يوم فراغ، فقالت اليهود نحن نوافق ربنا في ترك العمل في هذا اليوم، فاختاروا السبت لهذا المعنى وقالت النصارى: إنما بدأ بخلق الأشياء في يوم الأحد فنحن نجعل هذا اليوم عيداً لنا، وهذان الوجهان

لعنة على الذين اختلفوا فيه. وقيل: معناه ما فرض الله تعظيم السبت وتحريمه إلّا على الذين اختلفوا فيه، يعني: اليهود، فقال قوم: هو أعظم الأيام لأن الله تعالى فرغ من خلق الأشياء يوم الجمعة، ثم سبت يوم السبت. وقال قوم: بل أعظم الأيام يوم الأحد، لأن الله تعالى ابتدأ فيه خلق الأشياء فاختاروا تعظيم غير ما فرض الله عليهم، وقد افترض عليهم تعظيم يوم الجمعة. قال الكلبي: أمرهم موسى بالجمعة فقال تفرغوا لله في كل سبعة أيام يوماً فاعبدوه يوم الجمعة ولا تعملوا فيه لصنيعكم، وستّة أيام لصناعتكم، فأبوا وقالوا لا نريد إلا اليوم الذي فرغ الله فيه من الخلق السبت، فجعل ذلك اليوم عليهم وشدّد عليهم فيه ثم جاءهم عيسى عليه السلام بيوم الجمعة، فقالوا: لا نريد أن يكون عيدهم بعد عيدنا يعنون اليهود، فاتخذوا الأحد فأعطى الله الجمعة هذه الأمة فقبلوها وبُورِكَ لهم فيها. أخبرنا أبو علي حسان بن سعيد المنيعي أنا أبو طاهر محمد بن محمد بن محمش الزيادي ثنا أبو بكر محمد بن

معقولان فما وجه فضل يوم الجمعة حتى جعله أهل الإسلام عيداً؟ قلت: يوم الجمعة أفضل الأيام لأن كمال الخلق وتمامه كان فيه وحصول التمام والكمال يوجب الفرح والسرور فجعل يوم الجمعة عيداً بهذا الوجه وهو أولى. ووجه آخر وهو أن الله عز وجل خلق فيه أشرف خلقه، وهو آدم عليه السلام وهو أبو البشر وفيه تاب عليه فكان يوم الجمعة أشرف الأيام لهذا السبب، ولأن الله سبحانه وتعالى اختار يوم الجمعة لهذه الأمة وادخره لهم، ولم يختاروا لأنفسهم شيئاً، وكان ما اختاره الله لهم أفضل مما اختاره غيرهم لأنفسهم، وقال بعض العلماء: بعث الله موسى بتعظيم يوم السبت ثم نسخ بيوم الأحد في شريعة عيسى عليه السلام ثم نسخ يوم السبت، ويوم الأحد بيوم الجمعة في شريعة محمد ﷺ فكان أفضل الأيام يوم الجمعة كما أن محمداً ﷺ أفضل الأنبياء. وفي معنى الآية قول آخر قال قتادة: الذين اختلفوا فيه اليهود استحله بعضهم، وحرمه بعضهم فعلى هذا القول يكون معنى قوله إنما جعل السبت أي وبال السبت ولعنته على الذين اختلفوا فيه، وهم اليهود فأحله بعضهم فاصطادوا فيه فلُعنوا ومسخوا قردة وخنازير في زمن داود عليه السلام، وقد تقدمت القصة في تفسير سورة الأعراف وبعضهم ثبت على تحريمه، فلم يصطد فيه شيئاً وهم الناهون والقول الأول أقرب إلى الصحة. وقوله تعالى ﴿**وإن ربك ليحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون**﴾ يعني في أمر السبت فيحكم الله بينهم يوم القيامة فيجازي المحققين بالثواب والمبطلين بالعقاب. قوله عز وجل ﴿**ادعُ إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة**﴾ يعني ادع إلى دين ربك يا محمد، وهو دين الإسلام بالحكمة يعني بالمقالة المحكمة الصحيحة، وهي الدليل الموضح للحق المزيل للشبهة والموعظة الحسنة، يعني وادعهم إلى الله بالترغيب والترهيب وهو أنه لا يخفى عليهم أنك تناصحهم وتقصد ما ينفعهم ﴿**وجادلهم بالتي هي أحسن**﴾ يعني بالطريقة التي هي أحسن طرق المجادلة من الرفق واللين من غير فظاظة ولا تعنيف. وقيل: إن الناس اختلفوا وجعلوا ثلاثة أقسام: القسم الأول هم العلماء الكاملون أصحاب العقول الصحيحة والبصائر الثاقبة الذين يطلبون معرفة الأشياء على حقائقها، فهؤلاء المشار إليهم بقوله «ادع إلى سبيل ربك بالحكمة» يعني ادعهم بالدلائل القطعية اليقينية حتى يعلموا الأشياء بحقائقها حتى ينتفعوا وينفعوا الناس وهم خواص العلماء من الصحابة وغيرهم. القسم الثاني: هم أصحاب الفطرة السليمة، والخلقة الأصيلة وهم غالب الناس الذين لم يبلغوا حدّ الكمال، ولم ينزلوا إلى حضيض النقصان فهم أوساط الأقسام، وهم المشار إليهم بقوله: والموعظة الحسنة أي ادع هؤلاء بالموعظة الحسنة. القسم الثالث: هم أصحاب جدال وخصام ومعاندة، وهؤلاء المشار إليهم بقوله: وجادلهم بالتي هي أحسن حتى ينقادوا إلى الحق ويرجعوا إليه. وقيل: المراد بالحكمة القرآن يعني ادعهم بالقرآن الذي هو حكمة وموعظة حسنة، وقيل: المراد بالحكمة النبوة أي ادعهم بالنبوة والرسالة والمراد بالموعظة الحسنة الرفق واللين في الدعوة، وجادلهم بالتي هي أحسن أي أعرض عن أذاهم ولا تقصر في تبليغ الرسالة، والدعاء إلى الحق فعلى هذا القول قال بعض علماء التفسير:

الحسين القطان ثنا أحمد بن يوسف السلمي أنبأنا عبد الرزاق أنا معمر عن همّام بن منبّه قال: ثنا أبو هريرة عن محمد رسول الله ﷺ قال: «نحن الآخِرُون السابقون يوم القيامة بيد أنهم أُوتوا الكتاب من قبلنا وأُوتيناه من بعدهم، ثم هذا يومهم الذي فرض الله عليهم» يعني: يوم الجمعة «فاختلفوا فيه فهدانا الله له والناس لنا فيه تبع اليهود غداً والنصارى بعد غد» قال الله تعالى: ﴿ **إنما جعل السبت على الذين اختلفوا فيه** ﴾. قال قتادة: الذين اختلفوا فيه هم اليهود استحلّه بعضهم وحرّمه بعضهم. ﴿ **وإنّ ربك ليحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون** ﴾.

﴿ **ادعُ إلى سبيل ربك بالحكمة** ﴾، بالقرآن، ﴿ **والموعظة الحسنة** ﴾، يعني مواعظ القرآن. وقيل: الموعظة الحسنة هي الدعاء إلى الله بالترغيب والترهيب. وقيل: هو قول اللين الرقيق من غير تغليظ ولا تعنيف، ﴿ **وجادلهم بالتي هي أحسن** ﴾، وخاصمهم وناظرهم بالخصومة التي هي أحسن أي أعرض عن أذاهم ولا تقصر في تبليغ

هذا منسوخ بآية السيف ﴿إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين﴾ يعني إنما عليك يا محمد تبليغ ما أرسلت به إليهم ودعاؤهم بهذه الطرق الثلاثة وهو أعلم بالفريقين الضال والمهتدي فيجازي كل عامل بعمله قوله سبحانه وتعالى ﴿وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به﴾ نزلت هذه الآية بالمدينة في سبب شهداء أحد وذلك أن المسلمين لما رأوا ما فعل المشركون بقتلى المسلمين يوم أحد من تبقير البطون، والمثلة السيئة حتى لم يبق أحد من قتلى المسلمين إلا مثل به غير حنظلة بن أبي عامر الراهب، وذلك أن أباه أبا عامر الراهب كان مع أبي سفيان فتركوا حنظلة لذلك فقال المسلمون حين رأوا ذلك: لئن أظهرنا الله عليهم، لنربين على صنيعهم ولنمثلن بهم مثلة لم يفعلها أحد من العرب بأحد. ووقف رسول الله ﷺ على عمه حمزة بن عبد المطلب وقد جدعوا أنفه وآذانه وقطعوا مذاكيره، وبقروا بطنه وأخذت هند بنت عتبة قطعة من كبده فمضغتها ثم استرطبتها لتأكلها فلم تنزل في بطنها حتى رمت بها فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: «أما إنها لو أكلتها لم تدخل النار أبداً حمزة أكرم على الله من أن يدخل شيئاً من جسده النار» فلما نظر رسول الله ﷺ إلى عمه حمزة نظر إلى شيء لم ينظر إلى شيء قط كان أوجع لقلبه منه. فقال رسول الله ﷺ: «رحمة الله عليك فإنك ما علمنا ما كنت إلا فعّالاً للخيرات، وصولاً للرحم ولولا حزن من بعدك عليك لسرني أن أدعك حتى تحشر من أفواج شتى أما والله لئن أظفرني الله بهم لأمثلن بسبعين منهم مكانك». فأنزل الله عز وجل: ﴿وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به﴾ الآية فقال رسول الله ﷺ: «بل نصبر وأمسك عما أراد وكفر عن يمينه» عن أبي بن كعب قال: لما كان يوم أحد أصيب من الأنصار أربعة وستون رجلاً ومن المهاجرين ستة منهم حمزة فمثلوا بهم فقالت الأنصار: لئن أصبنا منهم يوماً مثل هذا لنربين عليهم. قال: فلما كان يوم فتح مكة أنزل الله عز وجل ﴿وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به، ولئن صبرتم لهو خير للصابرين﴾ فقال رجل: لا قريش بعد اليوم. فقال رسول الله ﷺ «كفوا عن القوم إلا أربعة» أخرجه الترمذي. وقال حديث حسن غريب وأما تفسير الآية فقوله تعالى ﴿وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به﴾ سمي الفعل الأول باسم الثاني للمزاوجة في الكلام، والمعنى إن صنع بكم سوء من قتل أو مثلة ونحوها، فقابلوه بمثله ولا تزيدوا عليه فهو كقوله «وجزاء سيئة سيئة مثلها» أمر الله برعاية العدل والإنصاف في هذه الآية في باب استيفاء الحقوق. يعني: إن رغبتم في استيفاء القصاص فاقتصوا بالمثل، ولا تزيدوا عليه فإن استيفاء الزيادة ظلم والظلم ممنوع منه في عدل الله وشرعه ورحمته، وفي الآية دليل على أن الأولى ترك استيفاء القصاص وذلك بطريق الإشارة والرمز والتعريض، بأن الترك أولى فإن كان لا بد من استيفاء القصاص فيكون من غير زيادة عليه بل يجب مراعاة المماثلة ثم انتقل من طريق الإشارة إلى طريق التصريح فقال تعالى ﴿**ولئن صبرتم لهو خير للصابرين**﴾ يعني ولئن عفوتم، وتركتم استيفاء القصاص وصبرتم كان ذلك العفو، والصبر خيراً من استيفاء القصاص وفيه أجر للصابرين والعافين.

الرسالة والدعاء إلى الحق، نسختها آية القتال. ﴿ **إنّ ربّك هو أعلم بمَن ضلّ عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين** ﴾.

﴿ **وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عُوقبتم به** ﴾، هذه الآيات نزلت بالمدينة في شهداء أُحُد وذلك أن المسلمين لمّا رأوا ما فعل المشركون بقتلاهم يوم أُحُد من تبقير البطون والمَثْلة السيئة حتى لم يبقَ أحد من قتلى المسلمين إلاّ مُثِّلَ به غير حنظلة بن الراهب فإن أباه أبا عامر الراهب كان مع أبي سفيان فتركوا حنظلة لذلك، فقال المسلمون حين رأوا ذلك: لئن أظهرنا الله عليهم لنزيدنّ على صنيعهم ولنمثلنّ بهم مَثْلَة لم يفعلها أحد من العرب بأحد، فوقف رسول الله ﷺ على عمّه حمزة بن عبد المطّلب وقد جدعوا أنفه وأُذنه وقطعوا مذاكيره وبقروا بطنه، وأخذت هند بنت عتبة قطعة من كبده فمضغتها ثم استرطبتها لتأكلها فلم تلبث في بطنها حتى رمت بها فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: «أما إنها لو أكلتها لم تدخل النار أبداً إن حمزة أكرم على الله تعالى من أن يدخل شيئاً من جسده النار، فلما نظر

فصل

اختلف العلماء هل هذه الآية منسوخة أم لا، على قولين: أحدهما أنها نزلت قبل براءة فأمر النبي ﷺ أن يقاتل من قاتله ولا يبدأ بالقتال ثم نسخ ذلك وأمر بالجهاد وهذا قول ابن عباس والضحاك، فعلى هذا يكون معنى قوله ولئن صبرتم عن القتال، فلما أعز الله الإسلام وكثر أهله أمر الله رسوله ﷺ بالجهاد، ونسخ هذا بقوله: اقتلوا المشركين حيث وجدتموهم الآية، القول الثاني: أنها أحكمت، وأنها نزلت فيمن ظلم ظلامة فلا يحل له أن ينال من ظالمه أكثر مما نال منها الظالم وهذا قول مجاهد والشعبي والنخعي وابن سيرين والثوري. قال بعضهم: الأصح أنها محكمة لأن الآية واردة في تعليم حسن الأدب في كيفية استيفاء الحقوق وفي القصاص وترك التعدي وهو طلب الزيادة، وهذه الأشياء لا تكون منسوخة فلا تعلق لها بالنسخ والله أعلم. قوله عز وجل ﴿**واصبر وما صبرك إلا بالله**﴾ الخطاب لرسول الله ﷺ أمر الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ بالصبر، وأعلمه أن صبره بتوفيقه ومعونته ﴿**ولا تحزن عليهم**﴾ يعني على الكافرين، وإعراضهم عنك وقيل: معنى الآية ولا تحزن على قتلى أحد وما فعل بهم فإنهم أفضوا إلى رحمة الله ورضوانه ﴿**ولا تك في ضيق مما يمكرون**﴾ يعني: ولا يضيقن صدرك يا محمد بسبب مكرهم، فإن الله كافيك وناصرك عليهم. قرىء في ضيق بفتح الضاد وكسرها، فقيل لغتان. وقال أبو عمر: والضيق بالفتح الغم وبالكسر الشدة، وقال أبو عبيد الضيق بالكسر في قلة المعاش وفي المسكن وإما ما كان في القلب والصدر فإنه بالفتح، وقال القتيبي: الضيق تخفيف ضيق مثل هين وهين ولين ولين فعلى هذا يكون صفة كأنه قال سبحانه وتعالى: ولا تك في أمر ضيق من مكرهم. قال الإمام فخر الدين الرازي: هذا الكلام من المقلوب، لأن الضيق صفة والصفة تكون حاصلة في الموصوف، ولا يكون الموصوف حاصلاً في الصفة فكان المعنى فلا يكن الضيق حاصلاً فيك إلا أن الفائدة في قوله: ولا تك في ضيق، هي أن الضيق إذا عظم وقوي صار كالشيء المحيط بالإنسان من كل جانب، كالقميص المحيط به فكانت الفائدة في ذكر هذا اللفظ بهذا المعنى ﴿**إن الله مع الذين اتقوا**﴾ أي اتقوا المثلة والزيادة في القصاص وسائر المناهي ﴿**والذين هم محسنون**﴾ يعني بالعفو عن الجاني، وهذه المعية بالعون والفضل والرحمة يعني إن أردت أيها الإنسان أن أكون معك بالعون والفضل والرحمة، فكن من المتقين المحسنين، وفي هذا إشارة إلى التعظيم لأمر الله،

رسول الله ﷺ إلى حمزة نظر إلى شيء لم ينظر إلى شيء قطّ كان أوجع لقلبه منه فقال النبي ﷺ: «رحمة الله عليك أبا السائب فإنك ما علمتك إلاّ فعّالاً للخيرات وَصُولاً للرَحِم، ولولا حزن من بعدك عليك لسرّني أن أدعك حتى تُحشَر من أفواج شتّى أما والله لئن أظفرني الله بهم لأمثلنّ بسبعين منهم مكانك»، فأنزل الله تعالى: ﴿ **وإن عاقبتم فعاقبوا** ﴾ الآية. ﴿ **ولئن صبرتم لهو خيرٌ للصابرين** ﴾، أي: ولئن عفوتم لهو خير للعافين فقال النبي ﷺ: «بل نصبر»، وأمسك عمّا أراد وكفّر عن يمينه. قال ابن عباس والضحاك: كان هذا قبل نزول براءة حين أمر النبي ﷺ بقتال مَن قاتله ومنع من الابتداء بالقتال، فلما أعزّ الإسلام وأهله نزلت براءة، وأمروا بالجهاد ونُسِخت هذه الآية، قال النخعي والثوري ومجاهد وابن سيرين: الآية مُحكَمة نزلت في مَن ظلم بظلامة فلا يحلّ له أن ينال من ظالمه أكثر مما نال الظالم منه أمر بالجزاء والعفو ومنع من الاعتداء، ثم قال لنبيّه ﷺ.

﴿ **واصْبِرْ وما صبرُكَ إلاّ بالله** ﴾، أي: بمعونة الله وتوفيقه، ﴿ **ولا تحزنْ عليهم** ﴾، في إعراضهم عنك، ﴿**ولا تَكُ في ضيق مما يمكرون**﴾، أي: مما فعلوا من الأفاعيل، قرأ ابن كثير ههنا وفي النمل [٧٠] ﴿**ضيق**﴾ بكسر الضاد وقرأ الآخرون بفتح الضاد، قال أهل الكوفة: هما لغتان مثل رطل ورطل، وقال أبو عمر: الضيق بالفتح الغم، وبالكسر الشدّة، وقال أبو عبيدة: الضيق بالكسر في قلّة المعاش وفي المساكن، فأما ما كان في القلب

والشفقة على خلق الله. قال بعض المشايخ: كمال الطريق صدق مع الحق، وخلق مع الخلق وكمال الإنسان أن يعرف الحق لذاته والخير لأجل أن يعمل به، وقيل لهرم ابن حيان عند الموت: أوص. فقال: إنما الوصية في المال ولا مال لي، ولكني أوصيك بخواتيم سورة النحل. والله أعلم بمراده وأسرار كتابه.

والصدر فإنه بالفتح. وقال ابن قتيبة: الضيق تخفيف ضيق مثل هين وهيّن، ولين وليّن، فعلى هذا هو صفة كأنه قال: ولا تكن في أمر ضيق من مكرهم.

﴿ **إن الله مع الذين اتقوا** ﴾، المناهي، ﴿ **والذين هم محسنون** ﴾ بالعون والنصرة.

تفسير سورة الإسراء

فصل في نزولها

قال ابن الجوزي: هي مكية في قول الجماعة إلا أن بعضهم يقول فيها مدني فروي عن ابن عباس أنه قال هي مكية إلا ثمان آيات من قوله سبحانه وتعالى ﴿**وإن كادوا ليفتنونك**﴾ إلى قوله ﴿**نصيراً**﴾ وهذا قول قتادة وقال مقاتل فيها من المدني ﴿**وقل رب أدخلني مدخل صدق**﴾ ـ الآية وقوله تعالى ﴿**إن الذين أوتوا العلم من قبله**﴾ ـ وقوله ﴿**إن ربك أحاط بالناس**﴾ ـ وقوله تعالى ﴿**وإن كادوا ليفتنونك**﴾ ـ وقوله تعالى ﴿**ولولا أن ثبتناك**﴾ والتي تليها ـ وهي مائة وعشر آيات وقيل وإحدى عشرة آية وخمسمائة وثلاث وثلاثون كلمة وثلاثة آلاف وأربعمائة وستون حرفاً.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾

قوله عز وجل ﴿**سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً**﴾ روى ابن الجوزي عن النبي ﷺ أنه سئل عن تفسير سبحان الله فقال: تنزيه الله عن كل شيء. هكذا ذكره بغير سند وقال النحويون: سبحان اسم علم على التسبيح يقال سبحت الله تسبيحاً فالتسبيح هو المصدر وسبحان الله علم للتسبيح وتفسير سبحان الله، تنزيه الله عن كل سوء ونقيصة وأصله في اللغة التباعد فمعنى سبحان الله بعده ونزاهته عن كل ما لا ينبغي «**الذي أسرى**» يقال سري به وأسري به لغتان «بعبده» أجمع المفسرون والعلماء والمتكلمون، أن المراد به محمد ﷺ لم يختلف أحد من الأمة في ذلك، وقوله بعبده إضافة تشريف وتعظيم وتبجيل وتفخيم وتكريم ومنه قول بعضهم.

لا تــدعنــي إلا بيــا عبــدهــا فــإنــه أشــرف أسمــائــي

قيل: لما بلغ رسول الله ﷺ إلى الدرجات العالية والرتب الرفيعة ليلة المعراج، أوحى الله عز وجل إليه يا محمد بم شرفتك؟ قال: رب حيث نسبتني إلى نفسك بالعبودية. فأنزل الله سبحانه وتعالى: سبحان الذي أسرى

سُوْرَةُ الإِسْــراء

مكيّة وهي مائة وإحدى عشرة آية.

﴿ **سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً** ﴾، سبحان الله تنزّه الله تعالى من كل سوء ووصف بالبراءة من كل نقص على طريق المبالغة، وتكون سبحان بمعنى التعجّب أسرى بعبده، أي: سيّره، وكذلك سرى به، والعبد هو: محمد ﷺ، ﴿ **من المسجد الحرام** ﴾، قيل: كان الإسراء من مسجد مكة. روى قتادة عن أنس عن مالك بن

بعبده ليلاً. فإن قلت: الإسراء لا يكون إلا بالليل فما معنى ذكر الليل. قلت: أراد بقوله ليلاً بلفظ التنكير تقليل مدة الإسراء وأنه أسري به في بعض ليلة من مكة إلى الشام مسيرة شهر أو أكثر، فدل تنكير الليل على البعضية **﴿من المسجد الحرام﴾** قيل كان الإسراء من نفس مسجد مكة وفي حديث مالك بن صعصعة أن رسول الله ﷺ قال «بينا أنا في المسجد الحرام في الحجر» وذكر حديث المعراج، وسيأتي بكماله فيما بعد وقيل عرج به من دار أم هانىء بنت أبي طالب وهي بنت عمه أخت علي رضي الله تعالى عنه، فعلى هذا أراد بالمسجد الحرام الحرم **﴿إلى المسجد الأقصى﴾** يعني إلى بيت المقدس سمي أقصى لبعده عن المسجد الحرام أو لأنه لم يكن حينئذ وراءه مسجد **﴿الذي باركنا حوله﴾** يعني بالأنهار والأشجار والثمار، وقيل سماه مباركاً لأنه مقر الأنبياء ومهبط الملائكة والوحي وقبلة الأنبياء قبل نبينا محمد ﷺ وإليه تحشر الخلق يوم القيامة. فإن قلت: ظاهر الآية يدل على أن الإسراء كان إلى بيت المقدس والأحاديث الصحيحة تدل على أنه عرج به إلى السماء فكيف الجمع بين الدليلين، وما فائدة ذكر المسجد الأقصى فقط؟ قلت: قد كان الإسراء على ظهر البراق إلى المسجد الأقصى، ومنه كان عروجه إلى السماء على المعراج وفائدة ذكر المسجد الأقصى فقط أنه ﷺ لو أخبر بصعوده إلى السماء أولاً لاشتد إنكارهم لذلك فلما أخبر أنه أسرى به إلى بيت المقدس، وبان لهم صدقه فيما أخبر به من العلامات التي فيه وصدقوه عليها أخبر بعد ذلك بعروجه إلى السماء، فجعل الإسراء إلى المسجد الأقصى كالتوطئة لمعراجه إلى السماء. وقوله تعالى **﴿لنريه من آياتنا﴾** يعني من عجائب قدرتنا فقد رأى محمد ﷺ في تلك الليلة الأنبياء وصلى بهم ورأى الآيات العظام. فإن قلت لفظة من في قوله من آياتنا تقتضي التبعيض وقال في حق إبراهيم عليه السلام وكذلك نري إبراهيم ملكوت السموات والأرض، وظاهر هذا يدل على فضيلة إبراهيم عليه السلام على محمد ﷺ ولا قائل به فما وجهه. قلت: ملكوت السموات والأرض من بعض آيات الله أيضاً ولآيات الله أفضل من ذلك وأكثر والذي أراه محمداً ﷺ من آياته وعجائبه تلك الليلة كان أفضل من ملكوت السموات والأرض، فظهر بهذا البيان فضل محمد ﷺ على إبراهيم ﷺ **﴿إنه هو السميع﴾** لأقواله ودعائه **﴿البصير﴾** لأفعاله الحافظة له في ظلمة الليل وقت إسرائه وقيل إنه هو السميع لما قالته له قريش حين أخبرهم بمسراه إلى بيت المقدس **﴿البصير﴾** بما ردوا عليه من التكذيب. وقيل: إنه هو السميع لأقوال جميع خلقه البصير بأفعالهم فيجازي كل عامل بعمله. وحمله على العموم أولى.

فصل

في ذكر حديث المعراج وما يتعلق به من الأحكام، وما قال العلماء فيه (ق) حدثنا قتادة عن أنس بن مالك عن مالك بن صعصعة أن نبي الله ﷺ حدثهم عن ليلة أسري به قال: «بينما أنا في الحطيم وربما قال في الحجر مضطجعاً، ومنهم من قال بين النائم واليقظان إذ أتاني آت فقد قال وسمعته يقول: فشق ما بين هذه إلى هذه فقلت للجارود وهو إلى جنبي ما يعني به قال من ثغرة نحره إلى شعرته وسمعته يقول من قصته إلى شعرته، فاستخرج قلبي ثم أتيت بطست من ذهب مملوءة إيماناً، فغسل قلبي ثم حشي ثم أعيد ثم أتيت بدابة دون البغل وفوق الحمار أبيض فقال له الجارود: أهو البراق يا أبا حمزة؟ قال أنس: نعم يضع خطوه عند أقصى طرفه فحملت عليه، فانطلق بي جبريل عليه السلام حتى

صعصعة أن رسول الله ﷺ قال: «بينا أنا في المسجد الحرام في الحِجْرِ بين النائم واليقظان إذ أتاني جبريل بالبراق»، فذكر حديث المعراج، وقال قوم: عرج به من دار أُم هانىء بنت أبي طالب، ومعنى قوله: **﴿ من المسجد الحرام ﴾** أي: من الحرم. قال مقاتل: كانت ليلة الإسراء قبل الهجرة بسنة. ويقال: كان في رجب. وقيل: كان في رمضان. **﴿ إلى المسجد الأقصى ﴾**، يعني: بيت المقدس، وسُمّي أقصى لأنه أبعد المساجد التي تُزار. وقيل: لبُعده من المسجد الحرام. **﴿ الذي باركنا حوله ﴾**، بالأنهار والأشجار والثمار. وقال مجاهد: سمّاه مباركاً لأنه مقرّ

أتى السماء الدنيا فاستفتح فقيل: من هذا؟ قال جبريل قيل ومن معك قال محمد قيل: وقد أرسل إليه قال: نعم قيل مرحباً به فنعم المجيء جاء ففتح فلما خلصت فإذا فيها آدم فقال: هذا أبوك آدم فسلم عليه فسلمت عليه فرد السلام ثم قال: مرحباً بالابن الصالح والنبي الصالح ثم صعد حتى أتى السماء الثانية فاستفتح. قيل من هذا قال جبريل قيل ومن معك قال: محمد قيل: وقد أرسل إليه قال نعم قيل مرحباً به فنعم المجيء جاء ففتح فلما خلصت فإذا بيحيى وعيسى وهما ابنا خالة قال: هذا يحيى وعيسى فسلم عليهما فسلمت فردا ثم قالا: مرحباً بالأخ الصالح، والنبي الصالح. ثم صعد بي إلى السماء الثالثة فاستفتح قيل من هذا قال جبريل قيل: ومن معك قال محمد قيل وقد أرسل إليه قال: نعم قيل مرحباً به فنعم المجيء جاء ففتح فلما خلصت إذا يوسف، قال: هذا يوسف فسلم عليه فسلمت عليه فرد ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح ثم صعد بي حتى أتى السماء الرابعة فاستفتح قيل من هذا قال جبريل قيل: ومن معك؟ قال: محمد قيل وقد أرسل إليه قال نعم قيل مرحباً به فنعم المجيء جاء ففتح فلما خلصت، فإذا إدريس قال: هذا إدريس فسلم عليه فسلمت عليه فرد ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح، ثم صعد بي حتى أتى السماء الخامسة فاستفتح قيل من هذا قال جبريل قيل ومن معك قال محمد قيل وقد أرسل إليه قال نعم قيل مرحباً به فنعم المجيء جاء ففتح فلما خلصت فإذا هارون قال: هذا هارون فسلم عليه فسلمت عليه فرد ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح. ثم صعد بي حتى أتى السماء السادسة فاستفتح قيل من هذا قال جبريل قيل ومن معك قال محمد قيل وقد أرسل إليه قال نعم قال مرحباً به فنعم المجيء جاء فلما خلصت فإذا موسى قال: هذا موسى فسلم عليه فسلمت عليه فرد ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح فلما تجاوزت بكى قيل له: ما يبكيك؟ قال: أبكي لأن غلاماً بعث بعدي يدخل الجنة من أمته أكثر مما يدخلها من أمتي ثم صعد بي إلى السماء السابعة فاستفتح جبريل قيل من هذا قال جبريل قيل: ومن معك قال محمد قيل وقد أرسل إليه قال نعم قيل مرحباً به فنعم المجيء جاء فلما خلصت فإذا إبراهيم قال: هذا أبوك إبراهيم فسلم عليه فسلمت عليه فرد السلام ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح، ثم رفعت إلى سدرة المنتهى فإذا نبقها مثل قلال هجر، وإذا ورقها مثل آذان الفيلة قال: هذه سدرة المنتهى فإذا أربعة أنهار نهران باطنان ونهران ظاهران، فقلت: ما هذان يا جبريل قال: أما الباطنان فنهران في الجنة وأما الظاهران فالنيل والفرات، ثم رفع لي البيت المعمور ثم أتيت بإناء من خمر وإناء من لبن وإناء من عسل فأخذت اللبن فقال: هي الفطرة أنت عليها وأمتك ثم فرضت علي الصلوات خمسين صلاة كل يوم فرجعت، فمررت على موسى فقال بم أمرت قلت: أمرت بخمسين صلاة كل يوم. قال: إن أمتك لا تستطيع خمسين صلاة كل يوم وإني والله قد جربت الناس قبلك، وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك، فرجعت فوضع عني عشراً، فرجعت إلى موسى فقال مثله فرجعت فوضع عني عشراً، فرجعت إلى موسى فقال مثله فرجعت فوضع عني عشراً، فرجعت إلى موسى فقال مثله فرجعت فوضع عني عشراً، فرجعت إلى موسى فقال مثله فرجعت فأمرت بعشر صلوات كل يوم، فرجعت إلى موسى فقال مثله فرجعت فأمرت بخمس صلوات كل يوم فرجعت إلى موسى، قال: بم أمرت؟ قلت: بخمس صلوات كل يوم قال: إن أمتك لا تستطيع خمس صلوات كل يوم وإني قد جربت الناس قبلك وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك قال سألت: ربي حتى

الأنبياء ومهبط الملائكة والوحي، وفيه الصخرة ومنه يحشر الناس يوم القيامة. ﴿ **لنُرِيَه من آياتنا** ﴾، من عجائب قدرتنا، وقدّر أي هناك الأنبياء والآيات الكبرى، ﴿ **إنه هو السميع البصير** ﴾، ذكر السميع لينبّه على أنه المُجيب لدعائه، وذكر البصير لينبّه على أنه الحافظ له في ظلمة الليل. ورُوِيَ عن عائشة رضي الله عنها أنها كانت تقول ما فقد جسد النبي ﷺ، ولكن الله أسرى بروحه. والأكثرون على أنه أسرى بجسده في اليقظة وتواترت الأخبار الصحيحة على ذلك. أخبرنا أبو عمرو عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أبو حامد أحمد بن عبد الله النعيمي أنا أبو

استحييت ولكن أرضى وأسلم قال: فلما جاوزت نادى منادي أمضيت فريضتي وخففت عن عبادي» زاد في رواية أخرى «وأجزي بالحسنة عشراً» وفي رواية أخرى «بينا أنا عند البيت بين النائم واليقظان وفيه ثم غسل البطن بماء زمزم ثم ملىء إيماناً وحكمة، وفيه فرفع إلى البيت المعمور فسألت جبريل فقال هذا البيت المعمور يصلي فيه كل يوم سبعون ألف ملك، إذا خرجوا لم يعودوا مرة أخرى» (ق) «عن أنس بن مالك قال: كان أبو ذر يحدث أن رسول الله ﷺ قال: فرج سقف بيتي وأنا بمكة فنزل جبريل، ففرج صدري ثم غسله من ماء زمزم ثم جاء بطست من ذهب ممتلىء حكمة وإيماناً، فأفرغها في صدري ثم أطبقه ثم أخذ بيدي فعرج بي إلى السماء فلما جئنا السماء الدنيا قال جبريل لخازن السماء الدنيا: افتح قال من هذا قال هذا جبريل قيل هل معك أحد قال: نعم معي محمد ﷺ قال: فأرسل إليه قال نعم فافتح ففتح قال: فلما علونا السماء الدنيا فإذا رجل عن يمينه أسودة وعن يساره أسودة قال فإذا نظر قبل يمينه ضحك، وإذا نظر قبل شماله بكى فقال مرحباً بالنبي الصالح والابن الصالح، قال: قلت يا جبريل من هذا قال هذا آدم، وهذه الأسودة عن يمينه وعن شماله نسم بنيه فأهل اليمين أهل الجنة، والأسودة التي عن شماله أهل النار، فإذا نظر قبل يمينه ضحك وإذا نظر قبل شماله بكى، قال: ثم عرج بي جبريل حتى أتى السماء الثانية فقال لخازنها: افتح. فقال له خازنها مثل ما قال خازن السماء الدنيا ففتح. قال أنس بن مالك: فذكر أنه وجد في السموات آدم وإدريس وعيسى وموسى وإبراهيم، ولم يثبت كيف منازلهم غير أنه ذكر أنه قد وجد آدم في السماء الدنيا وإبراهيم في السماء السادسة، قال: فلما مر جبريل ورسول الله بإدريس قال مرحباً بالنبي الصالح والأخ الصالح، قال: ثم مر فقلت من هذا قال هذا إدريس قال: ثم مررت بموسى فقال مرحباً بالنبي الصالح والأخ الصالح قال: فقلت من هذا قال: هذا موسى. قال ثم مررت بعيسى فقال مرحباً بالنبي الصالح والأخ الصالح قلت من هذا قال: هذا عيسى ابن مريم قال ثم مررت بإبراهيم فقال مرحباً بالنبي الصالح والابن الصالح قال فقلت من هذا قال هذا إبراهيم. قال ابن شهاب: وأخبرني ابن حزم أن ابن عباس وأبا حبة الأنصاري كانا يقولان: قال رسول الله ﷺ ثم عرج بي حتى ظهرت لمستوى أسمع فيه صريف الأقلام. قال ابن حزم وأنس بن مالك قال رسول الله ﷺ: ففرض الله على أمتي خمسين صلاة قال: فرجعت بذلك حتى مررت بموسى فقال موسى: ماذا فرض ربك على أمتك؟ قلت: فرض عليهم خمسين صلاة. قال لي موسى: فراجع ربك فإن أمتك لا تطيق ذلك قال فراجعت ربي فوضع شطرها. قال فرجعت إلى موسى فأخبرته قال: راجع ربك فإن أمتك لا تطيق ذلك قال: فراجعت ربي فقال: هي خمس وهن خمسون لا يبدل القول لدي قال فرجعت إلى موسى فقال: راجع ربك فقلت قد استحييت من ربي قال: ثم انطلق بي جبريل حتى أتى سدرة المنتهى فغشيها ألوان لا أدري ما هي؟ قال: ثم أدخلت الجنة فإذا فيها جنابذ اللؤلؤ وإذا ترابها المسك» (ق) عن شريك بن أبي نمر «أنه سمع أنس بن مالك يقول: ليلة أسري برسول الله ﷺ من مسجد الكعبة أنه جاءه ثلاثة نفر قبل أن يوحى إليه وهو نائم في المسجد الحرام. فقال أولهم: أيهم هو؟ فقال أوسطهم هو خيرهم فقال آخرهم خذوا خيرهم فكانت تلك الليلة، فلم يرهم حتى أتوه ليلة أخرى فيما يرى قلبه وتنام عينه ولا ينام قلبه وكذلك الأنبياء تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم فلم يكلموه حتى احتملوه فوضعوه عند بئر زمزم، فتولاه منهم جبريل فشق جبريل ما بين نحره

عبد الله محمد بن يوسف الفربري ثنا أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري ثنا هدبة بن خالد ثنا همّام بن يحيىٰ ثنا قتادة ثنا قال البخاري: وقال لي خليفة العصفري: ثنا يزيد بن زريع ثنا سعيد بن هشام. قال: ثنا قتادة ثنا أنس بن مالك عن مالك بن صعصعة أن نبيّ الله ﷺ، حدّثهم عن ليلة أسرِيَ به، ثنا قال البخاري: ثنا يحيىٰ بن بكير ثنا الليث عن يونس عن ابن شهاب عن أنس بن مالك قال: كان أبو ذر يحدّث الناس أن رسول الله ﷺ قال: حدّثنا، وأخبرنا أبو سعيد إسماعيل بن عبد القاهر أنا أبو الحسين عبد الغافر بن محمد الفارسي أنا أبو أحمد محمد بن عيسى الجلودي ثنا أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن سفيان ثنا أبو الحسين مسلم بن الحجّاج ثنا شيبان بن

إلى لبته حتى فرغ من صدره وجوفه فغسله من ماء زمزم بيده حتى أنقى جوفه، ثم أتى بطست من ذهب فيه نور من ذهب محشواً إيماناً، وحكمة فحشا به صدره ولغاد يده يعني عروق حلقه ثم أطبقه ثم عرج به إلى السماء الدنيا، فضرب باباً من أبوابها فناداه أهل السماء من هذا فقال جبريل قالوا: ومن معك قال معي محمد قالوا: وقد بعث إليه قال نعم قالوا: مرحباً به وأهلاً يستبشر به أهل السماء لا يعلم أهل السماء ما يريد الله به في الأرض حتى يعلمهم فوجد في السماء الدنيا آدم عليه السلام فقال له جبريل: هذا أبوك آدم فسلم عليه ورد عليه السلام وقال: مرحباً وأهلاً يا بني نعم الابن أنت فإذا هو في السماء الدنيا، بنهرين يطردان فقال: ما هذان النهران يا جبريل؟ قال: هذان النيل والفرات عنصر هما ثم مضى به في السماء، فإذا هو بنهر آخر عليه قصر من لؤلؤ وزبرجد فضرب بيده، فإذا هو مسك أذفر قال ما هذا يا جبريل قال: هذا الكوثر الذي خبأ لك ربك ثم عرج إلى السماء الثانية فقالت الملائكة له مثل ما قالت له الأولى من هذا؟ قال جبريل قالوا: ومن معك قال محمد قالوا: وقد بعث إليه قال: نعم قالوا: مرحباً به وأهلاً ثم عرج به إلى السماء الثالثة. وقالوا له مثل ما قالت الأولى والثانية. ثم عرج به إلى الرابعة فقالوا له مثل ذلك. ثم عرج به إلى السماء الخامسة. فقالوا له مثل ذلك. ثم عرج به إلى السماء السادسة. فقالوا له مثل ذلك. ثم عرج به إلى السماء السابعة. فقالوا له مثل ذلك. كل سماء فيها أنبياء قد سماهم فوعيت منهم إدريس في الثانية وهارون في الرابعة، وآخر في الخامسة ولم أحفظ اسمه وإبراهيم في السادسة وموسى في السابعة بتفضيل كلام الله فقال موسى: رب لم أظن أن يرفع علي أحد، ثم علا به فوق ذلك بما لا يعلمه إلا الله حتى جاء سدرة المنتهى، ودنا الجبار رب العزة فتدلى فكان منه قاب قوسين أو أدنى فأوحى الله فيما أوحى إليه خمسين صلاة على أمتك كل يوم وليلة، ثم هبط حتى بلغ موسى فاحتبسه موسى فقال: يا محمد ماذا عهد إليك ربك قال عهد إلي خمسين صلاة كل يوم وليلة قال: إن أمتك لا تستطيع ذلك فارجع فليخفف عنك ربك وعنهم فالتفت النبي ﷺ إلى جبريل كأنه يستشيره في ذلك فأشار إليه جبريل أن نعم إن شئت فعلا به إلى الجبار تعالى، فقال: وهو مكانه يا رب خفف عنا فإن أمتي لا تستطيع هذا فوضع عنه عشر صلوات ثم رجع إلى موسى فاحتبسه فلم يزل يردده موسى إلى ربه حتى صارت خمس صلوات، ثم احتبسه موسى عند الخمس فقال: يا محمد والله لقد راودت بني إسرائيل قومي على أدنى من هذا، فضعفوا فتركوه فأمتك أضعف أجساداً وقلوباً وأبداناً وأبصاراً وأسماعاً، فارجع فليخفف عنك ربك كل ذلك يلتفت النبي ﷺ إلى جبريل عليه السلام ليشير عليه، فلا يكره ذلك جبريل فرفعه عند الخامسة فقال: يا رب إن أمتي ضعفاء أجسادهم وقلوبهم وأسماعهم وأبدانهم، فخفف عنا. فقال الجبار: يا محمد. قال: لبيك وسعديك قال: إنه لا يبدل القول لدي كما فرضت عليك في أم الكتاب قال: فكل حسنة بعشر أمثالها فهي خمسون في أم الكتاب وهي خمس عليك فرجع إلى موسى فقال: كيف فعلت؟ قال: خفف عنا أعطانا بكل حسنة عشر أمثالها. قال موسى: قد والله راودت بني إسرائيل على أدنى من ذلك فتركوه ارجع إلى ربك فليخفف عنك أيضاً قال رسول الله ﷺ: يا موسى قد والله استحييت من ربي مما اختلفت إليه. قال: فاهبط بسم الله فاستيقظ وهو في المسجد الحرام» هذا لفظ حديث البخاري وأدرج مسلم حديث شريك عن أنس الموقوف عليه في حديث ثابت البناني المسند، فذكر من أول حديث شريك طرفاً ثم قال:

فروخ ثنا حمّاد بن سلمة ثنا ثابت البناني عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «دخل حديث بعضهم في بعض»، قال أبو ذر: إن رسول الله ﷺ قال: «فُرّج عنّي سقف بيتي وأنا بمكة، فنزل جبريل ففرج صدري ثم غسله بماء زمزم ثم جاء بطست من ذهب ممتلىء حكمةً وإيماناً فأفرغه في صدري، ثم أطبقه». وقال مالك بن صعصعة: إن نبيّ الله ﷺ حدّثهم عن ليلة أُسرِيَ به قال: «بينما أنا في الحطيم» وربما قال: «في الحجر بين النائم واليقظان»، وذكر بين رجلين، «فأُتيتُ بطست من ذهب مملوء حكمةً وإيماناً فشُقّ من النحر إلى مُراق البطن، واستُخرِجَ قلبي فغُسِلَ ثم مُلِىء، وقيل حُشِيَ، ثم أُعيد». وقال سعيد وهشام: «ثم غُسِل البطن بماء زمزم ثم مُلِىء إيماناً وحكمةً ثم

وساق الحديث نحو حديث ثابت قال مسلم، وقدم وأخر وزاد ونقص وليس في حديث ثابت من هذه الألفاظ إلا ما نورده على نصه، أخرجه مسلم وحده وهو حدثنا حماد بن سلمة عن ثابت البناني عن أنس أن رسول الله ﷺ: «قال أتيت بالبراق وهو دابة أبيض طويل فوق الحمار ودون البغل يضع حافره عند منتهى طرفه. قال: فركبته حتى أتيت بيت المقدس قال فربطته بالحلقة التي يربط بها الأنبياء، ثم دخلت فصليت فيه ركعتين ثم خرجت فجاءني جبريل بإناء من خمر وإناء من لبن فاخترت اللبن فقال جبريل عليه السلام اخترت الفطرة قال ثم عرج بنا إلى السماء فاستفتح جبريل فقيل: من أنت؟ قال جبريل قيل ومن معك قال محمد قيل وقد بعث إليه قال قد بعث إليه، ففتح لنا فإذا أنا بآدم فرحب بي ودعا لي بخير ثم عرج بنا إلى السماء الثانية فاستفتح جبريل، فقيل: من أنت قال جبريل قيل ومن معك قال: محمد. قيل: وقد بعث إليه، قال قد بعث إليه ففتح لنا، فإذا أنا بابني الخالة عيسى ابن مريم ويحيى بن زكريا فرحبا بي ودعوا لي بخير ثم عرج بنا إلى السماء الثالثة، فاستفتح جبريل فقيل من أنت قال جبريل، قيل ومن معك قال محمد، قيل: وقد بعث إليه قال: قد بعث إليه ففتح لنا فإذا أنا بيوسف عليه السلام فإذا هو قد أعطى شطر الحسن، قال: فرحب بي ودعا لي بخير ثم عرج بنا إلى السماء الرابعة. فاستفتح جبريل فقيل: من هذا؟ قال جبريل قيل: ومن معك؟ قال: محمد قيل وقد بعث إليه قال: قد بعث إليه ففتح لنا فإذا أنا بإدريس فرحب ودعا لي بخير. قال الله تعالى ورفعناه مكاناً علياً ثم عرج بنا إلى السماء الخامسة. فاستفتح جبريل فقيل: من هذا قال: جبريل قيل: ومن معك قال محمد قيل: وقد بعث إليه قال قد بعث إليه ففتح لنا فإذا أنا بهارون فرحب ودعا لي بخير، ثم عرج بنا إلى السماء السادسة فاستفتح جبريل، فقيل من هذا قال جبريل قيل: ومن معك قال محمد قيل وقد بعث إليه قال: قد بعث إليه ففتح لنا فإذا أنا بموسى فرحب بي ودعا لي بخير ثم عرج بنا إلى السماء السابعة فاستفتح جبريل فقيل: من هذا قال: جبريل قيل: ومن معك؟ قال محمد قيل: وقد بعث إليه قال: قد بعث إليه ففتح لنا فإذا أنا بإبراهيم عليه السلام مسنداً ظهره إلى البيت المعمور وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه ثم ذهب بي إلى سدرة المنتهى وإذا ورقها كأذان الفيلة وإذا ثمرها كالقلال فلما غشيها من أمر الله ما غشي تغيرت فما أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها من

أُتيت بالبُراق وهو دابّة أبيض فوق الحمار ودون البغل حافره عند منتهى طرفه، فركبته فانطلقت مع جبريل حتى أتيت بيت المقدس، قال: فربطته بالحلقة التي تربط بها الأنبياء، قال: ثم دخلت المسجد فصلّيت فيه ركعتين ثم خرجت فجاءني جبريل بإناء من خمر وإناء من لبن فاخترت اللبن، فقال جبريل: اخترتَ الفطرةَ فانطلق بي جبريل حتى أتى السماء الدنيا فاستفتح قيل: مَن هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومَن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحباً به فنِعمَ المجيء جاء، ففتح الباب فلما خلصت فإذا فيها آدم، فقال لي: هذا أبوك آدم فسلّم عليه فسلّمتُ عليه فردّ عليه السلام، ثم قال: مرحباً بالنبي الصالح والابن الصالح، وفي حديث أبي ذرّ: علونا السماء الدنيا فإذا رجل قاعد عن يمينه أسوِدة وعن يساره أسوِدة إذا نظر قِبَلَ يمينه ضحك وإذا نظر قِبَلَ شماله بكى، فقال مرحباً بالنبي الصالح والابن الصالح، قلت لجبريل: مَن هذا؟ قال: هذا أبوك آدم وهذه الأسودة التي عن يمينه وشماله نسم بنيه، فأهل اليمين منهم أهل الجنة، والأسودة التي عن شماله أهل النار فإذا نظر عن يمينه ضحك وإذا نظر عن قِبَل شماله بكى، ثم صعد حتى أتى السماء الثانية فاستفتح قيل: مَن هذا؟ قال: جبريل، ومَن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحباً به فنعم المجيء جاء، ففتح فلما خلصت إذا بيحيىٰ بن زكريا وعيسى عليهما السلام وهما ابنا خالة، قال: هذا يحيىٰ وعيسى، فسلّم فردّا عليَّ السلام، ثم قالا: مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح، ثم صعد بي إلى السماء الثالثة فاستفتح، قيل: مَن هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومَن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحباً به فنعمَ المجيء جاء، ففتح فلما خلصت فإذا يوسف

حسنها، فأوحى إلي ما أوحى ففرض علي خمسين صلاة في كل يوم وليلة، فنزلت إلى موسى فقال: ما فرض ربك على أمتك قلت خمسين صلاة قال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف فإن أمتك لا يطيقون ذلك فإني قد بلوت بني إسرائيل وخبرتهم قال: فرجعت إلى ربي فقلت: يا رب خفف على أمتي فحط عني خمساً فرجعت إلى موسى فقلت: قد حط عني خمساً قال: إن أمتك لا تطيق ذلك فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف قال: فلم أزل أرجع بين ربي تبارك وتعالى وبين موسى حتى قال يا محمد إنهن خمس صلوات كل يوم وليلة لكل صلاة عشر فذلك خمسون صلاة، ومن هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة، فإن عملها كتبت له عشراً ومن همّ بسيئة فلم يعملها لم تكتب شيئاً، فإن عملها كتبت واحدة قال فنزلت حتى انتهيت إلى موسى فأخبرته قال ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف فقال رسول الله ﷺ: فقلت قد رجعت إلى ربي حتى استحييت منه» هذه رواية مسلم وأخرجه الترمذي مختصراً وفيه «أن رسول الله ﷺ أتي بالبراق ليلة أسرى به ملجماً مسرجاً، فاستصعب عليه فقال له جبريل أبمحمد تفعل هكذا ما ركبك أحد أكرم على الله منه فارفض عرقاً» وأخرجه النسائي مختصراً، والمعنى واحد وفي آخره قال: فرجعت إلى ربي فسألته التخفيف فقال إني يوم خلقت السموات والأرض فرضت عليك وعلى أمتك خمسين صلاة فخمس بخمسين فقم بها أنت وأمتك، فعرفت أن أمر الله جرى بقول حتم فلم أرجع.

فصل

قال البغوي: قال بعض أهل الحديث ما وجدنا للبخاري ومسلم في كتابيهما شيئاً لا يحتمل مخرجاً إلا حديث شريك بن أبي نمر عن أنس، وأحال الأمر فيه على شريك وذلك أنه ذكر فيه إن ذلك كان قبل الوحي، واتفق أهل العلم على أن المعراج كان بعد الوحي بنحو من اثنتي عشرة سنة وفيه أن الجبار تبارك وتعالى دنا فتدلى وذكرت عائشة أن الذي تدلى هو جبريل عليه السلام. قال البغوي: وهذا الاعتراض عندي لا يصح لأن هذا كان رؤيا في النوم أراه الله ذلك قبل أن يوحى إليه بدليل آخر الحديث، فاستيقظ وهو في المسجد الحرام ثم عرج به في اليقظة بعد الوحي، وقبل

وإذا هو قد أُعطي شطر الحسن، قال: هذا يوسف فسلّمْ عليه، فسلّمتُ عليه فردّ عليّ، ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح، ثم صعد بي حتى أتى السماءِ الرابعة فاستفتح، قيل: مَن هذا: قال: جبريل، قيل: ومَن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحباً به فنعم المجيء جاء، ففتح فلما خلصت فإذا إدريس، قال: هذا إدريس فسلّم عليه فسلّمتُ عليه، فردّ ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح، ثم صعد بي حتى أتى السماء الخامسة فاستفتح قيل: مَن هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومَن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحباً به فنعم المجيء جاء، فلما خلصت فإذا هارون، قال: هذا هارون فسلّمْ عليه فسلّمت عليه فردّ ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح، ثم صعد بي حتى أتى السماء السادسة فاستفتح قيل: مَن هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومَن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحباً به فنِعمَ المجيء جاء ففتح فلما خلصت فإذا موسى، قال: هذا موسى فسلّمْ عليه فسلّمتُ عليه فردّ ثم قال: مرحباً بالنبي الصالح والأخ الصالح، قال: فلما جاوزت بكى قيل له: ما يُبكيك؟ قال: أبكي لأن غلاماً بُعِثَ بعدي يدخل الجنة من أمته أكثر ممّن يدخلها من أُمتي، ثم صعد بي إلى السماء السابعة فاستفتح جبريل قيل: مَن هذا؟ قال: جبريل، قيل: و مَن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحباً به فنعم المجيء جاء فلما خلصتُ فإذا إبراهيم، قال: هذا أبوك إبراهيم فسلّم عليه فسلّمتُ عليه فردّ السلام ثم قال: مرحباً بالنبي الصالح والابن الصالح، فرفع لي البيت المعمور فسألت جبريل فقال: هذا البيت المعمور يصلّي فيه كل يوم سبعون ألف

الهجرة بسنة تحقيقاً لرؤياه التي رآها من قبل كما أنه رأى فتح مكة في المنام عام الحديبية سنة ست من الهجرة، ثم كان تحقيقها سنة ثمان، ونزل قوله سبحانه وتعالى: لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق. وقال الشيخ محيي الدين النووي رحمه الله تعالى في كتابه شرح مسلم: قد جاء من رواية شريك في هذا الحديث أوهام أنكرها عليه العلماء وقد نبه مسلم على ذلك بقوله قدم وأخر وزاد ونقص منها قوله وذلك قبل أن يوحى إليه وهو غلط لم يوافق عليه فإن الإسراء أقل ما قيل فيه أنه كان بعد مبعثه ﷺ بخمسة عشر شهراً. وقال الحربي: كانت ليلة الإسراء ليلة سبع وعشرين من شهر ربيع الآخر قبل الهجرة بسنة. وقال الزهري: كان ذلك بعد مبعثه ﷺ بخمس سنين. وقال ابن إسحاق: أسري به ﷺ وقد فشا الإسلام بمكة والقبائل. قال الشيخ محيي الدين: وأشبه الأقوال قول الزهري وابن إسحاق وأما قوله في رواية شريك وهو نائم وفي الرواية الأخرى بينا أنا عند البيت بين النائم واليقظان، فقد يحتج به من يجعلها رؤيا نوم، ولا حجة فيه إذ قد يكون ذلك حالة أول وصول الملك إليه، وليس في الحديث ما يدل على كونه نائماً في القصة كلها هذا كلام القاضي عياض، وهذا الذي قاله في رواية شريك وأن أهل العلم قد أنكروها قد قاله غيره، وقد ذكر البخاري في رواية شريك هذه عن أنس في كتاب التوحيد من صحيحه، وأتى بالحديث مطولاً. قال الحافظ من رواية شريك بن أبي نمر عن أنس قد زاد فيه زيادة مجهولة، وأتى فيه بألفاظ غير معروفة وقد روى حديث الإسراء جماعة من الحفاظ المتقنين، والأئمة المشهورين كابن شهاب وثابت البناني وقتادة يعني عن أنس فلم يأت أحد منهم بما أتى شريك، وشريك ليس بالحافظ عند أهل الحديث قال: والأحاديث التي تقدمت قبل هذا هي المعول عليها.

فصل

في شرح بعض ألفاظ حديث المعراج وما يتعلق به، كانت ليلة الإسراء قبل الهجرة بسنة يقال كانت في رجب ويقال في رمضان وقد تقدم زيادة على هذا القدر في الفصل الذي قبل هذا واختلف الناس في الإسراء برسول الله ﷺ. فقيل: إنما كان ذلك في المنام والحق الذي عليه أكثر الناس، ومعظم السلف وعامة الخلف من المتأخرين والفقهاء والمحدثين والمتكلمين أنه أسري بروحه وجسده ﷺ ويدل عليه قوله سبحانه وتعالى: ﴿**سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً**﴾ ولفظ العبد عبارة عن مجموع الروح والجسد، والأحاديث الصحيحة التي تقدمت تدل على صحة هذا القول

ملك إذا خرجوا لم يعودوا إليه آخر ما عليهم. وقال ثابت عن أنس: فإذا أنا بـإبراهيم مسند ظهره إلى البيت المعمور، وإذ هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه، ثم ذهب بي إلى سدرة المنتهى فإذا نبقها مثل قلال هجر، وإذا أوراقها مثل آذان الفيلة، قال: فلما غشيها من أمر الله ما غشيها تغيرت فما أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها من حُسنها، في أصلها أربعة أنهار نهران باطنان ونهران ظاهران، فقلت: ما هذان يا جبريل؟ فقال: أما الباطنان فنهران في الجنة وأما الظاهران فالنيل والفرات، وأوحى إليّ ما أوحي، ففرض عليّ خمسين صلاة في كل يوم وليلة، فنزلت إلى موسى، فقال: ما فرض ربك على أُمتك؟ قلت: خمسين صلاة، قال: ارجعْ إلى ربك فاسأله التخفيف فإن أُمتك لا تطيق ذلك، فإني قد بلوت بني إسرائيل وخَبِرتهم، قال: فرجعتُ إلى ربي فقلت: يا رب خفِّف على أمتي فحطّ عنّي خمساً، فرجعت إلى موسى فقلت: حطّ عني خمساً، قال: إن أمتك لا تطيق ذلك فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف، قال: فلم أزل أُراجع بين ربي وبين موسى حتى قال الله تعالى: يا محمد إنهنّ خمس صلوات كل يوم وليلة لكل صلاة عشر هي خمس وهي خمسون لا يبدّل القول لديّ ومَنْ همّ بحسنة فلم يعملها كُتبت له حسنة، فإن عملها كُتِبت له عشراً، ومَن همَّ بسيئةٍ فلم يعملها لم تُكتَب شيئاً فإن عملها كُتِبت سيئة واحدة، قال: فنزلت حتى انتهيتُ إلى موسى فأخبرتهُ، فقال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك، فقلت: سألت ربي حتى استحييت ولكن أرضى وأسلم، قال: فلما جاوزت نادى مُنادٍ أمضيتُ فريضتي وخفّفت عن

لمن طالعها، وبحث عنها وحكى محمد بن جرير الطبري في تفسيره عن حذيفة أنه قال: كل ذلك كان رؤيا وأنه ما فقد جسد رسول الله ﷺ وإنما أسري بروحه. وحكي هذا القول عن عائشة أيضاً وعن معاوية ونحوه والصحيح ما عليه جمهور العلماء من السلف والخلف والله أعلم قوله ﷺ أتيت بالبراق هو اسم للدابة التي ركبها رسول الله ﷺ ليلة أسري به واشتقاقه من البرق لسرعته، أو لشدة صفائه وبياضه ولمعانه وتلألؤه ونوره والحلقة باسكان اللام، ويجوز فتحها والمراد بربط البراق بالحلقة الأخذ بالاحتياط في الأمور وتعاطي الأسباب، وإن ذلك لا يقدح في التوكل إذا كان الاعتماد على الله تعالى وقوله جاءني جبريل بإناء من خمر وإناء من لبن فاخترت اللبن فيه اختصار والتقدير، قال لي اختر فاخترت اللبن وهو قول جبريل اخترت الفطرة يعني فطرة الإسلام، وجعل اللبن علامة للفطرة الصحيحة السليمة لكونه سهلاً طيباً سائغاً للشاربين وأنه سليم العاقبة، بخلاف الخمر فإنها أم الخبائث وجالبة لأنواع الشر. قوله: ثم عرج بي حتى أتى السماء الدنيا فاستفتح جبريل فقيل: من أنت قال: جبريل فيه بيان الأدب لمن استأذن وأن يقول: أنا فلان ولا يقول: أنا فإنه مكروه وفيه أن للسماء أبواباً وبوابين وأن عليها حرساً وقول بواب السماء وقد أرسل إليه، وفي الرواية الأخرى وقد بعث إليه معناه للإسراء وصعوده السماء وليس مراده الاستفهام عن أصل البعثة والرسالة، فإن ذلك لا يخفى عليه إلى هذه المدة هذا هو الصحيح في معناه، وقيل غيره وقوله فإذا أنا بآدم وذكر جماعة من الأنبياء فيه استحباب لقاء أهل الفضل والصلاح بالبشر والترحيب والكلام اللين الحسن، وإن كان الزائر أفضل من المزور وفيه جواز مدح الإنسان في وجهه إذا أمن عليه من الإعجاب، وغيره من أسباب الفتنة وقوله فإذا أنا بإبراهيم مسنداً ظهره إلى البيت المعمور فيه دليل على جواز الاستناد إلى القبلة، وتحويل ظهره إليها. وقوله ثم ذهب بي إلى السدرة هكذا، وقع في هذه الرواية السدرة بالألف واللام وفي باقي الروايات إلى سدرة المنتهى قال ابن عباس وغيره من المفسرين: سميت بذلك لأن علم الملائكة ينتهي إليها. ولم يجاوزها أحد غير رسول الله ﷺ وقال ابن مسعود: سميت بذلك لكونها ينتهي إليها ما يهبط من فوقها، وما يصعد من تحتها من أمر الله عز وجل وقوله وإذا ثمرها كالقلال، هو بكسر القاف جمع قلة بضمها، وهي الجرة الكبيرة التي تسع قربتين أو أكثر قوله فرجعت إلى ربي. قال الشيخ محيي الدين النووي: معناه رجعت إلى الموضع الذي ناجيته فيه أولاً فناجيته فيه ثانياً وقوله: فلم أزل أرجع بين موسى وبين ربي معناه وبين موضع مناجاة ربي عز وجل. قلت: وأما الكلام على معنى الرؤية وما يتعلق بها فإنه

عبادي، ثم أدخلت الجنة فإذا فيها جنابذ اللؤلؤ وإذا ترابها المسك، قال ابن شهاب: فأخبرني ابن حزم أن ابن عباس وأبا دجانة الأنصاري، كانا يقولان: قال النبي ﷺ: ثم عرج بي حتى ظهرتُ لمستوىً أسمع فيه صريف الأقلام، قال ابن حزم وأنس: قال النبي ﷺ: ففرض الله على أمتي خمسين صلاة. وروى مَعْمَرُ عن قتادة عن أنس أن النبي ﷺ: أُتي بالبُراق ليلة أُسريَ به ملجّماً مسرّجاً، فاستصعب عليه فقال له جبريل: أبمحمد تفعل هذا فما ركبك أحد أكرم على الله منه، فارفض عرقاً. وقال ابن بريدة عن أبيه قال: قال النبي ﷺ: لما انتهينا إلى بيت المقدس قال جبريل بإصبعه فخرق بها الحجر وشدّ بها البُراق. أنا عبد الواحد المليحي أنبأنا أحمد بن عبد الله النعيمي ثنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل حدّثني محمود أنا عبد الرزاق أنبأنا معمر عن الزهري أخبرني سعيد بن المسيب عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: ليلة أُسرِيَ بي لقيتُ موسى قال فنعته فإذا هو رجل حسبته قال مضطرب، رَجْلُ الرأس كأنه من رجال شنوءة، قال: ولقيت عيسى، فنعته النبي ﷺ فقال: ربعة أحمر كأنما خرج من ديماس يعني الحمام، ورأيت إبراهيم وأنا أشبه ولده به، قال: وأتيت بإناءين أحدهما لبن والآخر فيه خمر، فقيل لي: خذ أيهما شئت فأخذت اللبن فشربته، فقيل لي: هديت الفطرة وأصبت الفطرة، أمَا أنك لو أخذت الخمر لغوت أُمتك». أنا عبد الواحد المليحي ثنا أحمد بن عبد الله النعيمي ثنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا الحميدي ثنا سفيان ثنا عمرو عن عكرمة عن ابن عباس في قوله: ﴿ وما جعلنا الرؤيا التي

سيأتي إن شاء الله تعالى في تفسير سورة والنجم، عند قوله تعالى ثم دنا فتدلى قوله ففرض الله سبحانه وتعالى على أمتي خمسين صلاة إلى قوله فوضع شطرها وفي الرواية الأخرى فوضع عني عشراً وفي الأخرى خمساً ليس بين هذه الرواية منافاة، لأن المراد بالشطر الجزء وهو الخمس، وليس المراد منه التنصيف، وأما رواية العشر فهي رواية شريك ورواية الخمس رواية ثابت البناني وقتادة، وهما أثبت من شريك فالمراد حط عني خمساً إلى آخره ثم قال: هي خمس وهن خمسون يعني خمسين في الأجر والثواب لأن الحسنة بعشر أمثالها، واحتج العلماء بهذا الحديث على جواز نسخ الشيء قبل فعله وفي أول الحديث أنه شق صدره ﷺ ليلة المعراج، وقد شق أيضاً في صغره وهو عند حليمة التي كانت ترضعه، فالمراد بالشق الثاني زيادة التطهير لمن يراد به من الكرامة ليلة المعراج. وقوله: أتيت بطست من ذهب، قد يتوهم متوهم أنه يجوز استعمال إناء الذهب لنا وليس الأمر كذلك لأن هذا الفعل من فعل الملائكة، وهو مباح لهم استعمال الذهب أو يكون هذا قد كان قبل تحريمه وقوله ممتلىء إيماناً وحكمة فأفرغها في صدري. فان قلت الحكمة والإيمان معان والإفراغ صفة الإجسام، فما معنى ذلك؟ قلت: يحتمل أنه جعل في الطست شيء يحصل به كمال الإيمان والحكمة وزيادتهما، فسمي إيماناً وحكمة لكونه سبباً لهما وهذا من أحسن المجاز. وقوله في صفة آدم عليه السلام: فإذا رجل عن يمينه أسودة وعن يساره أسودة هو جمع سواد، وقد فسره في الحديث بأنه نسم بنيه يعني أرواح بنيه وقد اعترض على هذا، بأن أرواح المؤمنين في السماء وأرواح الكفار تحت الأرض السفلى فكيف تكون في السماء والجواب عنه أنه يحتمل أن أرواح الكفار، تعرض على آدم عليه السلام، وهو في السماء فوافق وقت عرضها على آدم مرور النبي ﷺ فأخبر بما رأى. وقوله: فإذا نظر عن يمينه ضحك، وإذا نظر عن شماله بكى فيه شفقة الوالد

أريناك إلّا فتنة للناس﴾ [الإسراء: ٦٠]، قال: هي رؤيا عين أُريها النبي ﷺ ليلة أُسريَ به إلى بيت المقدس. قال: والشجرة الملعونة في القرآن قال: هي شجرة الزقوم. أنا عبد الواحد المليْحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي ثنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا عبد العزيز بن عبد الله حدّثني سليمان عن شريك بن عبد الله قال: سمعت أنس بن مالك يقول ليلة أُسرِيَ برسول الله ﷺ من مسجد الكعبة أنه جاءه ثلاثة نفر قبل أن يُوحَى إليه وهو نائم في المسجد الحرام فقال أولهم: أيّهم هو؟ فقال: أوسطهم هو خيرهم، فقال آخرهم: خذوا خيرهم، فكانت تلك الليلة فلم يرهم حتى أتوه ليلة أخرى فيما يرى قلبه أو تنام عيناه ولا ينام قلبه، وكذلك الأنبياء تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم فلم يكلّموه حتى احتملوه ووضعوه عند بئر زمزم، فشقّ جبريل ما بين نحره إلى لبّته حتى فرغ من صدره وجوفه، فغسله من ماء زمزم بيده. وساق حديث المعراج بقصته. فقال: وإذا هو في السماء الدنيا بنهرين يطّردان، قال: هذا النيل والفرات عنصرهما واحد ثم مضى به إلى السماء الدنيا فإذا هو بنهر آخر عليه قصر من لؤلؤ وزبرجد فضرب يده فإذا هو مسك أذفر، قال: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا الكوثر الذي خبّأ لك ربك. وساق الحديث، وقال: ثم عُرِج بي إلى السماء السابعة، وقال: قال موسى: ربِّ لم أظن أن ترفع عليّ أحداً، ثم علا به فوق ذلك بما لا يعلمه إلا الله حتى جاء سدرة المنتهى ودنى الجبار ربّ العزّة فتدلى حتى كان منه قاب قوسين أو أدنى فأوحى إليه فيما أوحى إليه خمسين صلاة كل يوم وليلة، وقال: فلم يزل يردُده موسى إلى ربه حتى صارت إلى خمس صلوات ثم احتبسه موسى عند الخمس، فقال: يا محمد والله لقد راودت بني إسرائيل قومي على أدنى من ذلك فضعفوا عنه وتركوه، فأُمتك أضعف قلوباً وأجساداً وأبداناً وأبصاراً وأسماعاً، فارجع فليخفّف عنك ربك، كل ذلك يلتفت النبي ﷺ إلى جبريل ليشير عليه ولا يكره ذلك جبريل فرفعه عند الخامسة، فقال: يا ربّ إن أُمتي ضعفاء أجسادهم وقلوبهم وأسماعهم وأبدانهم فخفّف عنهم، فقال الجبار: يا محمد، قال: لبّيك وسعديك، قال: إنه لا يبدل القول لديّ كما فرضت عليك في أُم الكتاب فكل حسنة بعشر أمثالها فهي خمسون في أُم الكتاب وهي خمس

على أولاده وسروره وفرحه بحسن حال المؤمن منهم، وحزنه على سوء حال الكفار منهم. وقوله في إدريس مرحباً بالنبي الصالح والأخ الصالح قد اتفق المؤرخون على أن إدريس، هو أخنوخ وهو جد نوح عليهما السلام فيكون جد النبي ﷺ كما أن إبراهيم جده، فكان ينبغي أن يقول بالنبي الصالح والابن الصالح كما قال آدم وإبراهيم عليهما السلام: فالجواب عن هذا أنه قيل: إن إدريس المذكور هنا هو إلياس، وهو من ذرية إبراهيم فليس هو جد نوح هذا جواب القاضي عياض. قال الشيخ محيي الدين: ليس في الحديث ما يمنع كون إدريس أباً لنبينا محمد ﷺ وإن قوله: الأخ الصالح يحتمل أن يكون قاله تلطفاً وتأدباً، وهو أخ وإن كان أباً لأن الأنبياء إخوة والمؤمنين إخوة والله أعلم.

فصل

في ذكر الآيات التي ظهرت بعد المعراج الدالة على صدقه ﷺ وسياق أحاديث تتعلق بالإسراء قال البغوي؛ روي أنه لما رجع رسول الله ﷺ ليلة أسرى به وكان بذي طوى قال: يا جبريل إن قومي لا يصدقون. قال: يصدقك أبو بكر وهو الصديق. قال ابن عباس وعائشة أن رسول الله ﷺ قال: «لما كانت ليلة أسري بي إلى السماء أصبحت بمكة فضقت بأمري وعرفت أن الناس يكذبوني فروي أنه ﷺ قعد معتزلاً حزيناً، فمر به أبو جهل فجلس إليه فقال كالمستهزىء هل استفدت من شيء؟ قال: نعم أسري بي الليلة قال إلى أين قال إلى بيت المقدس قال: أبو جهل: ثم أصبحت بين أظهرنا؟ قال: نعم. فلم ير أبو جهل أن ينكر ذلك مخافة أن يجحده الحديث، ولكن قال: أتحدث قومك بما حدثتني به. قال: نعم قال أبو جهل: يا معشر بني كعب بن لؤي هلموا، فانقضت المجالس وجاؤوا حتى جلسوا إليهما قال: حدث قومك بما حدثتني قال: نعم أسري بي الله قالوا إلى أين؟ قال: إلى بيت المقدس قالوا ثم أصبحت

عليك، فقال موسى: ارجع إلى ربك فليخفّف عنك أيضاً، فقال رسول الله ﷺ: «قد والله استحييت من ربي مما اختلفت إليه» قال: فاهبط بسم الله فاستيقظ وهو في المسجد الحرام. وروى مسلم هذا الحديث مختصراً عن هارون بن سعيد الإيلي عن ابن وهب عن سليمان بن بلال قال شيخنا الإمام رضي الله عنه: قد قال بعض أهل الحديث ما وجدنا لمحمد بن إسماعيل ولمسلم في كتابيهما شيئاً لا يحتمل مخرجاً إلا هذا، وأحال الأمر فيه إلى شريك بن عبد الله، وذلك أنه ذكر فيه أن ذلك قبل أن يوحى إليه، واتفق أهل العلم على أن المعراج كان بعد الوحي بنحو من اثنتي عشر سنة قبل الهجرة بسنة، وفيه أيضاً: أن الجبار دنا فتدلى. وذكرت عائشة أن الذي دنا فتدلى جبريل عليه السلام. قال شيخنا الإمام رضي الله عنه: وهذا الاعتراض عندي لا يصحّ لأن هذا كان رؤيا في النوم أراه الله عزّ وجلّ قبل الوحي بدليل آخر الحديث، قال: فاستيقظ وهو في المسجد الحرام، ثم عرج به في اليقظة بعد الوحي قبل الهجرة بسنة تحقيقاً لرؤياه من قبل كما أنه رأى فتح مكة في المنام عام الحديبية سنة ست من الهجرة، ثم كان تحقيقه سنة ثمانٍ ونزل قوله عزّ وجلّ: ﴿ لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق ﴾ [الفتح: ٢٧]، ورُوِيَ أنه لما رجع رسول الله ﷺ ليلة أُسري به وكان بذي طوى قال: يا جبريل إن قومي لا يصدقوني، قال: يصدقك أبو بكر وهو الصديق، قال ابن عباس وعائشة رضي الله عنهم عن رسول الله ﷺ: لمّا كانت ليلة أُسرِيَ بي أصبحت بمكة فضقت بأمري وعرفت أن الناس يكذبوني، فرُوِيَ أنه عليه الصلاة والسلام قعد معتزلاً حزيناً فمرّ به أبو جهل فجلس إليه فقال له كالمستهزىء: هل استفدت من شيء؟ قال: «نعم إني أُسري بي الليلة» قال: إلى أين؟ قال: «إلى بيت المقدس»، قال: ثم أصبحت بين ظهرانينا، قال: «نعم»، فلم يرَ أبو جهل أنه ينكر ذلك مخافة أن يجحده الحديث، قال: أتحدّث قومك بما حدّثتني به؟ قال: «نعم»، قال أبو جهل: يا معشر بني كعب بن لؤي هلمّوا، قال: فانقضت إليه المجالس فجاؤوا حتى جلسوا إليهما، قال: فحدّث قومك بما حدّثتني، قال: «نعم إنه أُسرِيَ بي الليلة»، قالوا: إلى أين؟ قال: «إلى بيت المقدس»، قالوا: ثم أصبحت بين ظهرانينا؟ قال: «نعم»،

بين أظهرنا؟ قال: نعم قال فبقي الناس بين مصفق وبين واضع يده على رأسه متعجباً وارتد أناس ممن كان قد آمن به وصدقه، وسعى رجل من المشركين إلى أبي بكر فقال له هل لك في صاحبك يزعم أنه أسري به الليلة إلى بيت المقدس قال: أو قد قال ذلك قال نعم قال لئن كان قال ذلك لقد صدق قالوا: أو تصدقه أنه ذهب إلى بيت المقدس وجاء في ليلة قبل أن يصبح؟ قال: نعم إني أصدقه بما هو أبعد من ذلك أصدقه بخبر السماء في غدوة أو روحة فلذلك سمي أبو بكر الصديق. قال: وكان في القوم من أتى المسجد الأقصى. قالوا: هل تستطيع أن تنعت لنا المسجد قال: نعم قال فذهبت أنعت حتى التبس علي قال فجيء بالمسجد وأنا أنظر إليه حتى وضع دون دار عقيل فنعت المسجد وأنا أنظر إليه، فقال القوم: أما النعت فوالله لقد أصاب فيه ثم قالوا يا محمد أخبرنا عن عيرنا فهي أهم إلينا هل لقيت منها شيئاً؟ قال: نعم مررت بعير بني فلان وهي بالروحاء وقد أضلوا بعيراً وهم في طلبه، وفي رحالهم قدح من ماء فعطشت فأخذته فشربته، ثم وضعته كما كان فسلوا هل وجدوا الماء في القدح حين رجعوا قالوا: هذه آية قال ومررت بعير بني فلان وفلان راكبان قعوداً لهما بذي طوى فنفر بعيرهما مني فرمى بفلان، فانكسرت يده فسلوهما عن ذلك قالوا وهذه آية أخرى قالوا: فأخبرنا عن عيرنا قال مررت بها بالتنعيم قالوا فما عدتها وأحمالها وهيئتها؟ فقال: كنت في شغل عن ذلك ثم مثلت له بعدتها وأحمالها وهيئتها ومن فيها وكانوا بالحزورة قال: نعم هيئتها كذا وكذا وفيها فلان وفلان يقدمها جمل أورق عليه غرارتان مخيطتان تطلع عليكم عند طلوع الشمس قالوا: وهذه آية. ثم خرجوا يشتدون نحو الثنية وهم يقولون والله لقد قص محمد شيئاً وبينه حتى أتوا كداء فجلسوا عليه فجعلوا ينظرون متى تطلع الشمس فيكذبونه إذ قال قائل منهم: هذه الشمس قد طلعت. وقال آخر: وهذه العير قد طلعت يقدمها بعير أورق فيه فلان وفلان كما قال: فلم يؤمنوا وقالوا: هذا سحر مبين (م) عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لقد رأيتني في الحجر وقريش تسألني عن مسراي، فسألتني عن أشياء من بيت المقدس لم أثبتها فكربت كربة ما كربت مثلها قط. قال: فرفعه الله لي أنظر إليه ما يسألوني عن شيء إلا أنبأتهم به وقد رأيتني في جماعة من الأنبياء فإذا موسى قائم يصلي فإذا رجل ضرب جعداً كأنه من رجال شنوءة وإذا عيسى ابن مريم قائم يصلي أقرب الناس به شبهاً عروة بن مسعود الثقفي، وإذا إبراهيم قائم يصلي أشبه الناس به صاحبكم يعني به نفسه ﷺ فحانت الصلاة فأممتهم فلما فرغت من الصلاة قال لي قائل: يا محمد يا محمد هذا مالك صاحب النار، فسلم عليه فالتفتُّ إليه

قال: فمن بين مصفّق ومن بين واضع يده على رأسه متعجباً للكذب، وارتدّ ناس ممّن كان آمن به وصدّقه، وسعى رجل من المشركين إلى أبي بكر فقال: هل لك في صاحبك يزعم أنه أُسرِيَ به الليلة إلى بيت المقدس، قال: أوَ قد قال ذلك؟ قال: نعم، قال: لئن كان قال ذلك لقد صدق، قالوا وتصدّقه أنه ذهب إلى بيت المقدس في ليلة وجاء قبل أن يُصبح؟ قال: نعم إني لأصدّقه بما هو أبعد من ذلك أُصدّقه بخبر السماء في غدوة أو روحة، فلذلك سُمّي أبو بكر الصديق، قال: وفي القوم مَن قد أتى المسجد الأقصى، فقال: أهل تستطيع أن تنعت لنا المسجد الأقصى؟ قال: «نعم، قال: فذهبت أنعت وأنعت فما زلت أنعت حتى التبس عليَّ بعض النعت، قال: فجيء بالمسجد وأنا أنظر إليه حتى وُضع دون دار عقيل فنعت المسجد، وأنا أنظر إليه»، فقال القوم: أمّا النعت فوالله أصاب، ثم قالوا: يا محمد أخبرنا عن عيرنا فهي أهم إلينا فهل لقيت منها شيئاً؟ قال: «نعم مررت على عير بني فلان، وهي بالروحاء وقد أضلّوا بعيراً لهم وهم في طلبه وفي رِحالهم قدح من ماء فعطشت فأخذته فشربته ثم وضعته كما كان فسلوا هل وجدوا الماء في القدح حين رجعوا إليه»، قالوا: هذه آية، قال: «ومررت بعير بني فلان وفلان وفلان راكبان قعوداً لهما بذي طوى فنفر بعيرهما مني فرمى بفلان فانكسرت يده فسلوهما عن ذلك»، قالوا: هذه آية، قالوا: فأخبرنا عن عيرنا نحن متى تجيء؟ قال: «مررت بها بالتنعيم»، قالوا : فما عدّتها وأحمالها وهيئتها

فبدأني بالسلام» (ق) عن جابر أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «لما كذبتني قريش قمت إلى الحجر فجلى الله إلي بيت المقدس فطفقت أخبرهم عن آياته وأنا أنظر إليه زاد البخاري في رواية: لما كذبني قريش حين أسري بي إلى بيت المقدس» وذكر الحديث (م) عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: أتيت على موسى ليلة أسري بي عند الكثيب الأحمر، فإذا هو قائم يصلي في قبره. عن بريدة قال: قال رسول الله ﷺ «لما انتهينا إلى بيت المقدس قال جبريل كذا بأصبعه فخرق به الحجر وشد به البراق» أخرجه الترمذي. فإن قلت: كيف رأى رسول الله ﷺ موسى يصلي في قبره وكيف صلى بالأنبياء في بيت المقدس ثم وجدهم على مراتبهم في السموات، وسلموا عليه وترحبوا به وكيف تصح الصلاة من الأنبياء بعد الموت، وهم في الدار الآخرة؟ قلت أما صلاته ﷺ بالأنبياء في بيت المقدس يحتمل أن الله سبحانه وتعالى، جمعهم له ليصلي بهم ويعرفوا فضله وتقدمه عليهم ثم إن الله سبحانه وتعالى، أراه إياهم في السموات على مراتبهم ليعرف هو مراتبهم وأما مروره بموسى، وهو قائم يصلي في قبره عند الكثيب الأحمر، فيحتمل أنه كان بعد رجوعه من المعراج، وأما صلاة الأنبياء وهم في الدار الآخرة فهم في حكم الشهداء بل أفضل منهم، وقد قال الله سبحانه وتعالى: ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء فالأنبياء أحياء بعد الموت، وأما حكم صلاتهم فيحتمل أنها الذكر والدعاء وذلك من أعمال الآخرة فإن الله تعالى قال ﴿**دعواهم فيها سبحانك اللهم**﴾ وورد في الحديث أنهم يلهمون التسبيح كما يلهمون النفس، ويحتمل أن الله سبحانه وتعالى خصّهم بخصائص في الآخرة كما خصهم في الدنيا بخصائص لم يخص بها غيرهم. منها أنه ﷺ أخبر أنه رآهم يلبون، ويحجون، فكذلك الصلاة والله أعلم بالحقائق. قوله سبحانه وتعالى:

وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ﴿٢﴾ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾ وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾

﴿**وآتينا موسى الكتاب**﴾ يعني التوراة ﴿**هدى لبني إسرائيل أن لا تتخذوا**﴾ يعني وقلنا لهم: لا تتخذوا ﴿من

ومَن فيها؟ فقال: «نعم هيئتها كذا وكذا، وفيها فلان وفلان يقدمها جمل أورق عليه غرارتـان مَخيطتان، تطلع عليكم عند طلوع الشمس»، قالوا: وهذه آية أخرى، ثم خرجوا يشتدّون نحو الثنية وهم يقولون والله لقد قصّ محمد شيئاً وبيّنه حتى أتوا كُدىً، فجلسوا عليه فجعلوا ينتظرون متى تطلع الشمس فيكذّبونه إذْ قال قائل منهم: والله هذه الشمس قد طلعت، وقال آخر: وهذه والله الإبل قد طلعت يقدمها بعير أورق فيها فلان وفلان كما قال لهم فلم يؤمنوا، ﴿ وقالوا: إن هذا إلّا سحر مبين ﴾ [الصّافّات: ١٥]. أنا إسماعيل بن عبد القاهر أنبأنا عبد الغافر بن محمد أنبأنا محمد بن عيسى الجلودي أنبأنا إبراهيم بن محمد بن سفيان ثنا مسلم بن الحجّاج حدّثني زهير بن حرب ثنا حجر بن المثنى أنبأنا عبد العزيز وهو ابن أبي سلمة عن عبد الله بن الفضل عن أبي سلمة بن عبد الرحمن عن أبي هريرة رضي الله عنهم قال: قال رسول الله ﷺ: «لقد رأيتني في الحجر وقريش تسألني عن مسرايَ فسألتني عن أشياء من بيت المقدس لم أثبتها، قال: فكربت كرباً ما كربتُ مثله قطّ، قال: فرفعه الله لي أنظر إليه ما يسألوني عن شيء إلّا أنبأتهم به، ولقد رأيتني في جماعة من الأنبياء، فإذا موسى قائم يصلّي فإذا رجل ضرب جعد كأنه من رجال شنوءة، وإذا عيسى قائم يصلّي أقرب الناس به شبهاً عروة بن مسعود الثقفي، وإذا إبراهيم قائم يصلّي أشبه الناس به صاحبكم، يعني نفسه، فجاءت الصلاة فأممتهم فلما فرغت من الصلاة قال قائل: يا محمد هذا مالك صاحب النار فسلّم عليه فالتفتّ إليه فبدأني بالسلام».

قوله عزّ وجلّ: ﴿ **وآتينا موسى الكتاب وجعلناه هدىً لبني إسرائيل أنْ لا** ﴾، بأن لا، ﴿ **تتخذوا من دوني**

دوني وكيلاً﴾ يعني رباً كفيلاً **﴿ذرية﴾** يعني يا ذرية **﴿من حملنا مع نوح إنه كان عبداً شكوراً﴾** يعني أن نوحاً كان كثير الشكر، وذلك أنه كان إذا أكل طعاماً أو شرب شراباً أو لبس ثوباً قال: الحمد لله فسماه الله عبداً شكوراً لذلك. قوله عز وجل **﴿وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب﴾**: يعني أعلمناهم وأخبرناهم فيما آتيناهم من الكتاب أنهم سيفسدون وهو قوله تعالى **﴿لتفسدن في الأرض مرتين﴾** وقال ابن عباس: وقصينا عليهم في الكتاب فإلى بمعنى على، والمراد بالكتاب اللوح المحفوظ واللام في لتفسدن لام القسم تقديره والله لتفسدن في الأرض يعني بالمعاصي والمراد بالأرض أرض الشام، وبيت المقدس **﴿ولتعلن﴾** يعني ولتستكبرن ولتظلمن الناس **﴿علواً كبيراً فإذا جاء وعد أولاهما﴾** يعني أولى المرتين قيل: إفسادهم في المرة الأولى هو ما خالفوا من أحكام التوراة، وركبوا من المحارم وقيل: إفسادهم في المرة الأولى قتلهم شعياء في الشجرة وارتكابهم المعاصي **﴿بعثنا عليكم عباداً لنا﴾** يعني جالوت وجنوده، وهو الذي قتله داود وقيل: هو سنحاريب وهو من أهل نينوى وقيل هو بختنصر البابلي وهو الأصح **﴿أولي بأس شديد﴾** يعني ذوي بطش وقوة في الحرب **﴿فجاسوا خلال الديار﴾** يعني طافوا بين الديار وسطها يطلبونكم ليقتلوكم **﴿وكان وعداً مفعولاً﴾** يعني قضاء كائناً لازماً لا خلف فيه **﴿ثم رددنا لكم الكرة عليهم﴾** يعني رددنا لكم الدولة والغلبة على الذين بعثوا عليكم، حين تبتم من ذنوبكم ورجعتم عن الفساد **﴿وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيراً﴾** يعني أكثر عدداً **﴿إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم﴾** يعني لها ثوابها وجزاء إحسانها **﴿وإن أسأتم فلها﴾** يعني فعليها إساءتها **﴿فإذا جاء وعد الآخرة﴾** يعني المرة الآخرة من إفسادكم وهو قصدكم قتل عيسى فخلصه الله منهم،

وكيلاً ﴾، ربّاً كفيلاً قرأ أبو عمرو «لا يتخـــذوا» بالياء لأنه خبر عنهم والآخرون بالتاء، يعني قلنا لهم: لا تتخدوا.

﴿ ذرية من حملنا ﴾، قال مجاهد: هذا نداء يعني يا ذرية من حملنا، **﴿ مع نوح ﴾**، في السفينة فأنجيناهم من الطوفان، **﴿ إنه كان عبداً شكوراً ﴾**، كان نوح عليه السلام إذا أكل طعاماً أو شرب شراباً أو لبس ثوباً قال: الحمد لله، فسُمّي عبداً شكوراً، أي: كثير الشكر.

قوله عزّ وجلّ: **﴿ وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب ﴾** الآيات، روى سفيان بن سعيد الثوري عن منصور بن المعتمر عن ربعي بن خراش عن حذيفة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن بني إسرائيل لمّا اعتدوا وقتلوا الأنبياء بعث الله عليهم ملك فارس بختنصّر، وكان الله ملكه سبعمائة سنة فسار إليهم حتى دخل بيت المقدس فحاصروها وفتحها، حتى قتل على دم يحيىٰ بن زكريا عليه السلام سبعين ألفاً ثم سبى أهلها وأولاد الأنبياء وسلب حُليّ بيت المقدس، واستخرج منها سبعين ألفاً ومائة ألف عجلة من حليّ»، قلت: يا رسول الله كان بيت المقدس عظيماً؟ قال: «أجل بناه سليمان بن داود من ذهب وفضة وياقوت وزبرجد، وكان عمده ذهباً أعطاه الله ذلك وسخّر له الشياطين يأتونه بهذه الأشياء في طرفة عين، فسار بها بختصّر حتى نزل بابل فأقام بنو إسرائيل في يده مائة سنة يستعبدهم المجوس وأبناء المجوس، فيهم الأنبياء ثم إن الله رحمهم فأوحى إلى ملك من ملوك فارس يقال له كورش وكان مؤمناً أن يسير إليهم ليستنقذ بقايا بني إسرائيل، فسار كورش لبني إسرائيل وحلي بيت المقدس حتى ردّه إليه، فأقام بنو إسرائيل مُطيعين لله تعالى مائة سنة ثم إنهم عادوا في المعاصي فسلّط الله عليهم ملكاً يقال له أنطيانوس فغزا بني إسرائيل حتى أتاهم بيت المقدس فسبى أهلها وأحرق بيت المقدس، وقال لهم: يا بني إسرائيل إن عدتم في المعاصي عدنا عليكم بالسبي، فعادوا فسلّط الله عليهم ملك رومية يقال له فاقس بن أستيانوس، فغزاهم في البرّ والبحر فسباهم وسبى حليّ بيت المقدس وأحرق بيت المقدس، قال رسول الله ﷺ: هذا من صفة حليّ بيت المقدس، ويردّه المهدي إلى بيت المقدس هو ألف وسبعمائة سفينة يرمي بها عليّ حتى تنقل إلى بيت المقدس، وبها يجمع الله الأوّلين والآخرين». قال محمد بن إسحاق: كانت بنو إسرائيل فيهم الأحداث والذنوب وكان

ورفعه إليه، وقتلوا زكريا ويحيى عليهما السلام، فسلط عليهم الفرس والروم فسبوهم وقتلوهم وهو قوله تعالى ﴿**ليسوءوا وجوهكم**﴾ يعني ليحزنوكم وقرىء بالنون أي ليسوء الله وجوهكم ﴿**وليدخلوا المسجد**﴾ يعني بيت المقدس ونواحيه ﴿**كما دخلوه أول مرة**﴾ يعني وقت إفسادهم الأول ﴿**وليتبروا ما علوا تتبيراً**﴾ يعني وليهلكوا ما غلبوا عليه من بلاد بني إسرائيل إهلاكاً.

ذكر القصة في هذه الآية

قال محمد بن إسحاق: كانت بنو إسرائيل فيهم الأحداث والذنوب وكان الله في ذلك متجاوزاً عنهم ومحسناً إليهم وكان أول ما نزل بهم بسبب ذنوبهم أن ملكاً منهم كان يدعى صديقة وكان الله إذا ملّك عليهم الملك بعث معه نبياً ليسدده ويرشده، ولا ينزل عليهم كتاباً إنما يؤمرون اتباع التوراة والأحكام التي فيها، فلما ملك صديقة بعث الله معه شعياء وذلك قبل مبعث زكريا ويحيى وشعياء هو الذي بشر بعيسى ومحمد ﷺ فقال: أبشري أورشليم الآن يأتيك راكب الحمار ومن بعده صاحب البعير. فملك ذلك الملك يعني صديقة بني إسرائيل وبيت المقدس زماناً، فلما انقضى ملكه عظمت الأحداث فيهم وكان معه شعياء فبعث الله سنحاريب ملك بابل ومعه ستمائة ألف راية، فلم يزل سائراً حتى نزل حول بيت المقدس، والملك مريض من قرحة كانت في ساقه، فجاء شعياء النبي إليه، وقال: يا ملك بني إسرائيل إن سنحاريب ملك بابل، قد نزل بك هو وجنوده؟ بستمائة ألف راية، وقد هابهم الناس وفرقوا منهم فكبر

الله في ذلك متجاوزاً عنهم مُحسِناً إليهم، وكان أول ما نزل بهم بسبب ذنوبهم كما أخبر على لسان موسى عليه السلام، إن ملكاً منهم كان يدعى صديقة وكان الله تعالى إذا ملك الملك عليهم بعث معه نبيّاً يسدده ويرشده لا ينزل عليهم الكتب إنما يؤمرون باتّباع التوراة والأحكام التي فيها، فلما ملك ذلك الملك بعث الله معه شعياء بن أصفيا، وذلك قبل مبعث زكريا ويحيىٰ وعيسى عليهم السلام، وشعياء هو الذي بشّر بعيسى ومحمد عليهما السلام، فقال: أبشري أورستم الآن يأتيك راكب الحمار ومن بعده صاحب البعير، فملك ذلك الملك بني إسرائيل وبيت المقدس زماناً طويلاً فلما انقضى ملكه عظمت فيهم الأحداث وشعياء معه بعث الله عليهم سنجاريب ملك بابل، مع ستمائة ألف راية فأقبل سائراً حتى نزل حول بيت المقدس، والملك مريض في ساقه قرحة فجاء النبي شعياء وقال له: يا ملك بني إسرائيل إن سنجاريب ملك بابل قد نزل بك، هو وجنوده بستمائة ألف راية، وقد هابهم الناس وفرّقوا فكبر ذلك على الملك، فقال: يا نبيّ الله هل أتاك وحي من الله فيما حدث فتخبرنا به كيف يفعل الله بنا وسنجاريب وجنوده، فقال: لم يأتني وحي فبينما هم على ذلك أوحى الله إلى شعياء النبي أن ائت ملك بني إسرائيل فمره أن يوصي وصيته ويستخلف ـ على ملكه مَن يشاء من أهل بيته، فأتى شعياء ملك بني إسرائيل صديقة فقال له: إن ربك قد أوحى إليّ أن آمرك أن توصي وصيتك وتستخلف مَن شئت على مُلكك من أهل بيتك فإنك ميت، فلما قال شعياء لصديقة: أقبل على القِبلة فصلّى ودعا وبكى، فقال وهو يبكي ويتضرّع إلى الله بقلب مخلص: اللّهمَّ ربَّ الأرباب وإلّه الآلهة يا قدّوس المقتدس يا رحمن يا رحيم يا رؤوف الذي لا تأخذه سنة ولا نوم اذكرني بعملي وفعلي وحُسْن قضائي على بني إسرائيل، وذلك كله كان منك وأنت أعلم به منّي، سرِّي وعلانيتي لك وأنت الرحمن، فاستجاب له وكان عبداً صالحاً فأوحى الله تعالى إلى شعياء صديقة أن ربّه قد استجاب له ورحمه وأخّر له أجَلَه خمس عشر سنة وأنجاه من عدوّه سنجاريب، فأتاه شعياء فأخبره بذلك فلما قال له ذهب عنه الوجع وانقطع عنه الحزن، وخرّ ساجداً لله، وقال: يا إلّهي وإلّه آبائي لك سجدت وسبّحت وكبّرت وعظّمت أنت الذي تعطي المُلكَ لمَن تشاء وتنزع المُلكَ ممّن تشاء وتعزّ مَن تشاء وتذلّ مَن تشاء بيدك الخير عالم الغيب والشهادة أنت الأول والآخر والظاهر

ذلك على الملك وقال: يا نبي الله هل أتاك من الله وحي فيما حدث فتخبرنا به وكيف يفعل الله بنا وبسنحاريب وجنوده فقال شعياء: لم يأتني وحي في ذلك فبينما هم على ذلك أوحى الله إلى شعياء النبي، أن ائت ملك بني إسرائيل فمره أن يوصي وصيته، ويستخلف على ملكه من يشاء من أهل بيته فأتى شعياء ملك بني إسرائيل وقال: إن ربك قد أوحى إلي أن آمرك أن توصي وصيتك وتستخلف من شئت على ملكك من أهل بيتك فإنك ميت، فلما قال ذلك شعياء لصديقة الملك أقبل على القبلة فصلى ودعا فقال وهو يبكي ويتضرع إلى الله تعالى بقلب مخلص: اللهم رب الأرباب وإله الآلهة يا قدوس يا متقدس يا رحمن يا رحيم يا رؤوف، يا من لا تأخذه سنة ولا نوم اذكرني بعملي وفعلي وحسن قضائي على بني إسرائيل، وذلك كله كان منك وأنت أعلم به مني سري وعلانيتي لك. فاستجاب الله له وكان عبداً صالحاً فأوحى الله إلى شعياء أن يخبر صديقة أن ربه قد استجاب له ورحمه، وأخر أجله خمس عشرة سنة وأنجاه من عدوه سنحاريب فأتاه شعياء فأخبره، فلما قال له ذلك ذهب عنه الوجع وانقطع عنه الحزن وخر ساجداً لله وقال: إلهي وإله آبائي لك سجدت وسبحت وكبرت وعظمت أنت الذي تعطي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء، وتعز من تشاء وتذل من تشاء عالم الغيب والشهادة أنت الأول والآخر والظاهر والباطن، وأنت ترحم وتستجيب دعوة المضطرين أنت الذي أجبت دعوتي ورحمت تضرعي، فلما رفع رأسه أوحى الله إلى شعياء أن قل للملك صديقة فيأمر عبداً من عبيده، فيأتيه بماء التين فيجعله على قرحته فيشفى فيصبح وقد برأ ففعل ذلك فشفي فقال الملك لشعياء: سل ربك أن يجعل لنا علماً بما هو صانع بعدونا هذا. قال الله لشعياء: قل له إني قد كفيتك عدوك وأنجيتك منهم، وأنهم سيصبحون موتى كلهم إلا سنحاريب، وخمسة نفر من كتابه أحدهم بختنصر. فلما أصبحوا جاء صارخ يصرخ على باب المدينة يا ملك بني إسرائيل إن الله قد كفاك عدوك، فاخرج فإن سنحاريب ومن معه هلكوا فخرج الملك،

والباطن وأنت ترحم وتستجيب دعوة المضطرين، وأنت الذي أجبت دعوتي ورحمت تضرعي، فلما رفع رأسه أوحى الله إلى شعياء أن قل للملك صديقة فيأمر عبداً من عبيده فيأتيه بماء التين فيجعله في قرحته فيشفى فيصبح وقد برأ ففعل وشفي، وقال الملك لشعياء: سَلْ ربك أن يجعل لنا علماً بما هو صانع بعدونا هذا قال الله لشعياء قل له: إني قد كفيتك عدوّك وأنجيتك منهم وأنهم سيُصبحون موتى كلهم إلا سنجاريب وخمسة نفر من كتّابه أحدهم بختنصّر فلما أصبحوا جاء صارخ فصرخ على باب المدينة، يا ملك بني إسرائيل إن الله قد كفاك عدوّك فاخرج فإن سنجاريب ومَن معه قد هلكوا فلما خرج الملك التمس سنجاريب في القتلى فلم يوجد في الموتى فبعث الملك في طلبه فأدركه الطلب في مغارة وخمسة نفر من كتّابه أحدهم بختنصّر فجعلوهم في الجوامع ثم أَتَوْا بهم إلى ملك بني إسرائيل، فلما رآهم خرّ ساجداً لله من حين طلعت الشمس إلى العصر، ثم قال: يا سنجاريب كيف ترى فعل ربنا بكم ألم يقتلكم بحوله وقوته ونحن وأنتم غافلون، فقال سنجاريب له: قد أتاني خبر ربكم ونصره إياكم ورحمته التي يرحمكم بها قبل أن أخرج من بلادي فلم أطع مرشداً ولم يلقني في الشقوة إلّا قلّة عقلي، ولو سمعت أو عقلت ما غزوتكم فقال صديقة الحمد لله ربّ العالمين الذي كفاناكم بما شاء وإن ربنا لم يبقِكَ ومَن معك لكرامتك على ربك، ولكنه إنما أبقاك ومَن معك لتزدادوا شقوة في الدنيا وعذاباً في الآخرة ولتخبروا مَن وراءكم بما رأيتم من فِعْل ربنا بكم فتنذروا مَن بعدكم ولولا ذلك لقتلكم ولدمك ولدم مَن معك أهون على الله من دم قراد، لو قتلت ثم إن ملك بني إسرائيل أمر أمير حرسه فقذف في رقابهم الجوامع فطافت بهم سبعين يوماً حول بيت المقدس وإيليا وكان يرزقهم كل يوم خبزين من شعير لكل رجل منهم، فقال سنجاريب لملك بني إسرائيل: القتل خير مما تفعل بنا فأمر بهم الملك إلى السجن والقتل فأوحى الله إلى شعياء عليه السلام أن قل لملك بني إسرائيل يرسل سنجاريب ومَن معه لينذروا مَن وراءهم وليكرمهم وليحملهم حتى يبلغوا بلادهم، فبلغ شعياء الملك ذلك ففعل الملك صديقة ما

والتمس سنحاريب فلم يوجد في الموتى فبعث الملك في طلبه فأدركه الطلب في مفازة ومعه خمس نفر من كتابه، أحدهم بختنصر فجعلوهم في الجوامع ثم أتوا بهم الملك فلما رآهم خر ساجداً لله تعالى، من حين طلعت الشمس إلى العصر ثم قال لسنحاريب: كيف رأيت فعل ربنا بكم ألم يقتلكم بحوله وقوته ونحن وأنتم غافلون؟ فقال سنحاريب: قد أتاني خبر ربكم ونصره إياكم ورحمته التي يرحمكم بها قبل أن أخرج من بلادي فلم أطع مرشداً ولم يلقني في الشقوة إلا قلة عقلي ولو سمعت أو عقلت ما غزوتكم فقال الملك صديقة: الحمد لله رب العالمين الذي كفاناكم بما شاء، وإن ربنا لم يمتعك ومن معك لكرامتك عليه، ولكنه إنما أبقاك ومن معك لتزدادوا شقوة في الدنيا وعذاباً في الآخرة ولتخبروا من وراءكم بما رأيتم من فعل ربنا بكم، فتنذروا من بعدكم ولولا ذلك لقتلك ومن معك ولدمك ودم من معك أهون على الله من دم قراد لو قتلت. ثم إن ملك بني إسرائيل أمر أمير حرسه أن يقذف في رقابهم الجوامع، ففعل وطاف بهم سبعين يوماً حول بيت المقدس وإيلياء، وكان يرزقهم في كل يوم خبزين من شعير لكل رجل منهم فقال سنحاريب للملك صديقة: القتل خير مما نحن فيه وما تفعل بنا فأمر بهم إلى السجن فأوحى الله إلى شعياء النبي أن قل لملك بني إسرائيل يرسل سنحاريب ومن معه لينذروا من وراءهم وليكرمهم وليحملهم حتى يبلغوا بلادهم. فبلغ ذلك شعياء للملك ففعل وخرج سنحاريب ومن معه، حتى قدموا بابل فلما قدم جمع الناس فأخبرهم كيف فعل الله تعالى بجنوده فقال له كهانه وسحرته: يا ملك بابل قد كنا نقص عليك خبر ربهم وخبر نبيهم ووحي الله إلى نبيهم، فلم تطعنا وهي أمة لا يستطيعها أحد مع ربهم وكان أمر سنحاريب تخويفاً لبني إسرائيل، ثم كفاهم الله تعالى ذلك تذكرة وعبرة ثم إن سنحاريب لبث بعد ذلك سبع سنين، ثم مات، واستخلف على ملكه بختنصر ابن ابنه فعمل بعمله وقضى بقضائه فلبث سبع عشرة سنة ثم قبض الله ملك بني إسرائيل صديقة فمرج أمر بني إسرائيل وتنافسوا الملك حتى

أمر به، فخرج سنجاريب ومَن معه حتى قَدِموا بابل فلما قَدِموا جمع الناس فأخبرهم كيف فعل الله بجنوده، فقال له كهانه وسَحَرَته: يا ملك بابل قد كنّا نقصّ عليك خبر ربّهم وخبر نبيّهم ووحي الله إلى نبيّهم فلم تطعنا وهي أمة لا يستطيعها أحد مع ربهم وكان أمر سنجاريب تخويفاً لهم ثم كفاهم الله تذكرة وعبرة، ثم لبث سنجاريب بعد ذلك سبع سنين ثم مات واستخلف بختنصّر ابن ابنه على ما كان عليـه جدّه يعمـل عمله، فلبث سبع عشـرة سنة ثم قبض الله ملك بني إسرائيل صديقة، فمرج أمر بني إسرائيل وتنافسوا المُلكَ حتى قتل بعضهم بعضاً ونبيّهم شعياء معهم ولا يقبلون منه، فلما فعلوا ذلك قال الله لشعياء قم في قومك حتى أُوحي على لسانك، فلما قام النبي شعياء أنطق الله على لسانه بالوحي، فقال: يا سماء استمعي ويا أرض انصتي فإن الله يريد أن يقصّ شأن بني إسرائيل الذين ربّاهم بنعمته واصطفاهم لنفسه وخصّهم بكرامته وفضّلهم على عباده، وهم كالغنم الضائعة التي لا راعي لها فآوى شاردتها وجمع ضالّتها وجبر كسرها، وداوى مريضها وأسمن مهزولها وحفظ سمينها، فلما فعل ذلك بطرت فتناطحت كباشها فقتل بعضها بعضاً حتى لم يبقَ منها عظم صحيح يُجبَر إليه آخر كسير، فويل لهذه الأمة الخاطئة التي لا يدرون أنى جاءهم الحين أن البعير لما يذكر وطنه فينتابه وأن الحمار لما يذكر الأري الذي شبع عليه فيراجعه وأن الثور لما يذكر المرج الذي سمن فيه فينتابه وأن هؤلاء القوم لا يذكرون من حيث جاءهم الخير وهم أُولوا الألباب العقول، ليسوا ببقر ولا حمير وأني ضارب لهم مثلاً فليسمعوه وقل لهم كيف ترون في الأرض كانت خراباً زماناً مواتاً لا عمران فيها، وكان لها ربٌّ حكيم قوي فأقبل عليها بالعمارة وكره أن تخرب أرضه وهو قوي، أو أن يقال ضيّع وهو حكيم فأحاط عليها جداراً وشيّد فيها قصوراً وأنبط نهراً وصنّف فيها غراساً من الزيتون والرمان والنخيل والأعناب وألوان الثمار كلها وولّى ذلك واستحفظه قيماً ذا رأي وهمّة حفيظاً قوياً أميناً، فلما اطّلعت جاء طلعها خروباً قالوا بئست الأرض هذه فترى أن يهدم جدرها وقصرها ويدفن نهرها ويقبض قيمها ويحرق غراسها حتى تصير كما كانت أول مرة

قتل بعضهم بعضاً، وشعياء نبيهم معهم لا يقبلون منه فلما فعلوا ذلك، قال الله لشعياء: ـ قم في قومك حتى أوحي على لسانك. فلما قام أطلق الله لسانه بالوحي فقال: يا سماء استمعي ويا أرض أنصتي، فإن الله يريد أن يقص شأن بني إسرائيل الذين رباهم بنعمته واصطفاهم لنفسه وخصهم بكرامته، وفضلهم على عباده وهم كالغنم الضائعة التي لا راعي لها، فآوى شاردتها وجمع ضالتها وجبر كسيرها وداوى مريضها، وأسمن مهزولها وحفظ سمينها، فلما فعل ذلك بطرت فتناطحت كباشها فقتل بعضها بعضاً، حتى لم يبق منها عظم صحيح يجبر إليه آخر، فويل لهذه الأمة الخاطئة الذين لا يدرون أنى جاءهم الحين. إن البعير مما يذكر وطنه فينتابه وأن الحمار مما يذكر الأرى الذي يشبع عليه فيراجعه وأن الثور مما يذكر المرج الذي سمن فيه فينتابه وإن هؤلاء القوم لا يذكرون من حيث جاءهم الخير، وهم أولو الألباب والعقول ليسوا ببقر ولا حمير وإني ضارب لهم مثلاً فليسمعوه، قل كيف ترون في أرض كانت خراباً زماناً لا عمران فيها، وكان لها رب حكيم قوي فأقبل عليها بالعمارة، وكره أن تخرب أرضه وهو قوي أو يقال: ضيع وهو حكيم فأحاط عليها جداراً وشيد فيها قصراً وأنبط فيها نهراً وصفّ فيها غراساً من الزيتون والرمان والنخيل والأعناب وألوان الثمار كلها، وولى ذلك واستحفظه قيّماً ذا رأي وهمة حفيظاً قوياً فلما أطلعت جاء طلعها خروباً. فقالوا: بئست الأرض هذه فنرى أن يهدم جدارها وقصرها ويدفن نهرها، ويقبض قيّمها ويحرق غراسها حتى تصير كما كانت أول مرة خراباً مواتاً، لا عمران فيها قال الله تعالى: قل لهم الجدار ديني والقصر شريعتي وإن النهر كتابي وأن القيّم نبيي وأن الغراس هم، وأن الخروب الذي أطلع الغراس أعمالهم الخبيثة وإني قد قضيت عليهم قضاءهم

خراباً مواتاً لا عمران فيها، قال الله قل لهم فإن الجدارَ ديني وأن القصر شريعتي وأن النهر كتابي وأن القيّم نبيّي وأن الغراس هم وأن الخرّوب الذي اطّلع الغراس أعمالهم الخبيثة، وأني قد قضيت عليهم قضاءهم على أنفسهم وأنه مثل ضربته لهم يتقرّبون إليّ بذبح البقر والغنم وليس ينالني اللحم ولا آكله ويدعون أن يتقرّبوا إليّ بالتقوى والكفّ عن ذبح الأنفس التي حرّمتها فأيديهم مخضوبة منها وثيابهم مزّملة بدمائها يشيدون لي البيوت مساجداً ويطهّرون أجوافها وينجسون قلوبهم وأجسادهم ويدنّسونها ويزوّقون إلى المساجد، ويزيّنونها ويخرّبون عقولهم وأخلاقهم ويفسدونها فأيّ حجة لي إلى تشييد البيوت ولست أسكنها؟ وأيّ حجّة لي إلى تزويق المساجد ولست أدخلها إنما أُمرت برفعها لأذكر وأُسبّح فيها، يقولون: صمنا فلم يرفع صيامنا وصلّينا فلم يرفع تنّور صلاتنا وتصدّقنا فلم ترك صدقاتنا، ودعونا بمثل حنين الحمام وبكينا بمثل عواء الذئاب في كلِ ذنب لا يُستجاب لنا، قال الله فاسألهم ما الذي يمنعني أن أستجب لهم ألست أسمع السامعين وأُبصر الناظرين وأقرب المجيبين وأرحم الراحمين؟ فكيف أرفع صيامهم وهم يلبسونه بقوله الزور ويتقوون عليه بطعمة الحرام؟ أم كيف أُنوّر صلاتهم وقلوبهم صاغية إلى مَن يحاربني ويحادني وينتهك محارمي؟ أم كيف تزكّى عندي صدقاتهم يتصدّقون بأموال غيرهم إنما آجر عليها أهلها المغصوبين؟ أم كيف أستجيب دعاءهم وإنما هو قول بألسنتهم بلا فعل، والفعل من ذلك بعيد إنما أستجيب للداعي اللّين وإنما أسمع قول المستعفف المسكين، وأن من علامة رضاي رضا المساكين، يقولون لمّا سمعوا كلامي وبلغتهم رسالتي إنها أقاويل منقولة وأحاديث متوارثة وتأليف مما يؤلّف السَّحَرة والكَهَنة، وزعموا أنهم لو شاؤوا أن يأتوا بحديث مثله فعلوا ولو شاءوا أن يطّلعوا على علم الغيب بما يوحي إليهم الشياطين اطّلعوا وأني قد قضيت يوم خلقت السموات والأرض قضاءاً أثبته وختمته على نفسي وجعلت دونه أجلاً مؤجّلاً لا بدّ أنه واقع، فإن صدقوا فيما ينتحلون من علم الغيب فليخبروك متى أنفذه أو في أيّ زمان يكون وإن كانوا يقدرون على أن يأتوا بما يشاؤون، فليأتوا بمثل هذه القدرة التي بها أمضيت فإني مُظهِره على الدين كله ولو كره المشركون، وإن كانوا يقدرون على أن يؤلّفوا ما يشاؤون فليؤلّفوا مثل الحكمة التي بها أدبر أمر ذلك القضاء إن كانوا صادقين، وإني قد قضيت يوم خلقت

على أنفسهم، وأنه مثل ضربته لهم يتقربون إليّ بذبح البقر والغنم، وليس ينالني اللحم ولا آكله ويدّعون أن يتقربوا إلي بالتقوى والكف عن ذبح الأنفس التي حرمتها، وأيديهم مخضوبة منها وثيابهم متزملات بدمائها يشيدون لي البيوت مساجد، ويطهرون أجوافها وينجسون قلوبهم وأجسادهم، ويدنسونها ويزوقون لي المساجد ويزينونها، ويخربون عقولهم وأخلاقهم ويفسدونها فأي حاجة لي إلى تشييد البيوت ولست أسكنها، وأي حاجة إلى تزويق المساجد ولست أدخلها إنما أمرت برفعها لأذكر وأسبح فيها. يقولون: صمنا فلم يرفع صيامنا وصلينا فلم تنور صلاتنا، وتصدقنا فلم تزكَّ صدقتنا، ودعونا بمثل حنين الحمام وبكينا بمثل عواء الذئاب في كل ذلك لا يستجاب لنا، قال الله: فاسألهم ما الذي يمنعني أن أستجيب لهم ألست أسمع السامعين، وأبصر الناظرين وأقرب المجيبين وأرحم الراحمين فكيف أرفع صيامهم وهم يلبسونه بقول الزور، ويتقوون عليه بطعمة الحرام أم كيف أنور صلاتهم وقلوبهم صاغية إلى من يحاربني ويحادني وينتهك محارمي، أم كيف تزكو عندي صدقاتهم وهم يتصدقون بأموال غيرهم إنما آجر عليها أهلها المغصوبين أم كيف أستجيب لهم دعاءهم وإنما هو قولهم بألسنتهم، والفعل من ذلك بعيد وإنما أستجيب للداعي اللين، وإنما استمع قول المستضعف المستكين، وان من علامة رضاي رضى المساكين يقولون لما سمعوا كلامي وبلغتهم رسالتي: إنها أقاويل منقولة، وأحاديث متواترة وتآليف مما تؤلف السحرة والكهنة، وزعموا أنهم لو شاؤوا أن يأتوا بحديث مثله فعلوا، ولو شاؤوا أن يطلعوا على علم الغيب بما توحي إليهم الشياطين اطلعوا، وإني قد قضيت يوم خلقت السموات والأرض قضاء أثبته وحتمته على نفسي وجعلت دونه أجلاً مؤجلاً لا بد أنه واقع فإن صدقوا فيما

السموات والأرض أن أجعل النبوّة في الأُجراء، وأن أجعل المُلْكَ في الرعاء، والعِزَّ في الأذلاّء، والقوة في الضعفاء، والغنى في الفقراء، والعلم في الجهالة، والحكمة في الأُميّين فسلهم متى هذا ومَن القائم بهذا، ومَن أعوان هذا الأمر وأنصاره إن كانوا يعلمون، وإني باعث لذلك نبياً أُمّياً أميناً ليس أعمى من عميان ولا ضالاً من ضالّين ليس بفظٍّ ولا غليظ ولا صخّاب في الأسواق، ولا متزين بالفحش ولا قوّال للخِنَا أُسدِّدهُ بكل جميل وأهب له كل خلق كريم، أجعل السكينة لِباسَه والبرَّ شعاره، والتقوى ضميره والحكمة معقوله، والصدق والوفاء طبيعته، والعفوَ والمعروف خلقه والعدل سيرته، والحق شريعته والهدى إمامه والإسلامَ ملّته والحمدَ دينه وأحمدَ اسمه، أهدي به بعد الضلالة وأُعلّم به بعد الجهالة وأرفع به بعد الخمالة، وأُشهّر به بعد النكرة وأُكثر بعد القلّة وأُغني به بعد العيلة، وأجمع به بعد الفرقة وأُؤلّف به بين قلوب مختلفة، وأهواء مشتتة وأُمم متفرقة، وأجعل أُمته خير أمة أُخرِجَت للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر توحيداً لي وإيماناً وإخلاصاً لي يصلّون قياماً وقعوداً ورُكّعاً وسجوداً، ويقاتلون في سبيلي صفوفاً وزحوفاً، ويخرجون من ديارهم وأموالهم ابتغاء رضواني ألهمهم التكبير والتوحيد والتسبيح والتحميد والتهليل والمدحة والتمجيد في مسيرهم ومجالسهم ومضاجعهم ومناقبهم ومثواهم، يكبِّرون ويُهلّلون ويقدّسون على رؤوس الأشراف ويطهّرون لي الوجوه والأطراف يعقدون لي الثياب على الأنصاف، قربانهم دماهم وأناجيلهم في صدورهم رهبان بالليل ليوث بالنهار، ذلك فضلي أُوتيه مَن أشاء وأنا ذو الفضل العظيم، فلما فرغ شعياء من مقالته عدوا عليه ليقتلوه فهرب منهم، فلقيته شجرة فانفلقت له فدخلِ فيها فأدركه الشيطان فأخذ بهدبة من ثوبه فأراهم إيّاها فوضعوا المِنشار في وسطها فنشروها حتى قطعوها وقطعوه في وسطها، واستخلف الله على بني إسرائيل بعد ذلك رجلاً منهم يقال له ناشية بن أموص، وبعث لهم أرمياء بن حلقيا نبيّاً وكان من سبط هارون بن عمران، وذكر ابن إسحاق أنه الخضر واسمه أرمياء سُمّي الخضر لأنه جلس على فروة بيضاء فقام عنها وهي تهتزّ خضراء، فبعث الله أرمياء إلى ذلك الملك ليسدّده ويرشده ثم عظمت الأحداث في بني إسرائيل وركبوا المعاصي واستحلّوا المحارم، فأوحى الله إلى أرمياء أن ائت قومك من بني إسرائيل فاقصص عليهم ما آمرك

ينتحلون من علم الغيب، فليخبروك متى أنفذه أو في أي زمان يكون وإن كانوا يقدرون على أن يأتوا بما يشاؤون فليأتوا بمثل هذه القدرة التي بها أمضيت فإني مظهره على الدين كله ولو كره المشركون، وإن كانوا يقدرون على أن يؤلفوا ما يشاؤون فيؤلفوا مثل هذه الحكمة التي أدبر بها ذلك القضاء، إن كانوا صادقين وإني قد قضيت يوم خلقت السماء والأرض، أن أجعل النبوة في الأجراء، وأن أجعل الملك في الرعاء والعز في الأذلّاء والقوة في الضعفاء والغنى في الفقراء، والعلم في الجهلة والحكمة في الأميين فسلهم متى هذا ومن القائم بهذا، ومن أعوان هذا الأمر وأنصاره إن كانوا يعلمون وإني باعث لذلك نبياً أمياً ليس أعمى من عميان، ولا ضالاً من ضالين وليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب في الأسواق ولا مترين بالفحش، ولا قوال للخنا أسدده بكل جميل وأهب له كل خلق كريم أجعل السكينة لباسه، والبر شعاره والتقوى ضميره والحكمة معقوله والصدق والوفاء طبيعته والعفو والمعروف خلقه، والعدل سيرته والحق شريعته والهدى إمامه والإسلام ملته وأحمد اسمه أهدي به بعد الضلالة، وأعلم به بعد الجهالة

به وذكّرهم نعمتي وعرّفهم بأحداثهم، فقال أرمياء: يا رب إني ضعيف إن لم تقوّني عاجز إن لم تبلغني، مخذول إن لم تنصرني، قال الله تعالى: أوَ لم تعلم أن الأمور كلها تصدر عن مشيئتي، وأن القلوب والألسنة بيدي أُقلّبها كيف شئت، إني معك ولن يصل إليك شيء معي، فقام أرمياء فيهم ولم يدرِ ما يقول فألهمه الله عزّ وجلّ في الوقت خطبة بليغة بيّن لهم فيها ثواب الطاعة وعقاب المعصية، وقال في آخرها عن الله تعالى: وإني حلفت بعزّتي لأقضينّ لهم فتنة يتحيّر فيها الحليم ولأسلطنّ عليهم جبّاراً قاسياً أُلبسه الهيبة، وأنزع من صدره الرحمة يتبعه عدد مثل سواد الليل المظلم، ثم أوحى الله إلى أرمياء: إني مُهلِك بني إسرائيل بيافث، ويافث من أهل بابل على ما ذكرنا في سورة البقرة، فسلّط الله عليهم بختنصّر فخرج في ستمائة ألف راية، ودخل بيت المقدس بجنوده ووطىء الشام، وقتل بني إسرائيل حتى أفناهم وخرّب بيت المقدس وأمر جنوده أن يملأ كل رجل منهم ترسه تراباً ثم يقذفوه في بيت المقدس، ففعلوا ذلك حتى ملأوه، ثم أمرهم أن يجمعوا مَنْ في بلدان بيت المقدس كلهم، فاجتمع عنده كل صغير وكبير من بني إسرائيل فاختار منهم سبعين ألف صبي فلما خرجت غنائم جنده، وأراد أن يقسمها فيهم قالت له الملوك الذين كانوا معه: أيها الملك لك غنائمنا كلها واقسم بيننا هؤلاء الصبيان الذين اخترتهم من بني إسرائيل، فقسمهم بين الملوك الذين كانوا معه فأصاب كل رجل منهم أربعة غلمان، وفرّق مَن بقي من بني إسرائيل ثلاث فِرَق، فثلثاً أقرّ بالشام، وثلثاً سبي وثلثاً قُتل، وذهب بناشئة بيت المقدس وبالصبيان السبعين الألف حتى أقدمهم بابل فكانت هذه الواقعة الأولى التي أنزل الله ببني إسرائيل بظلمهم، فذلك قوله تعالى: ﴿فإذا جاء وعداً أولاهما بعثنا عليكم عباداً لنا أُولي بأس شديد﴾ [الإسراء: ٥] يعني: بختنصّر وأصحابه، ثم إن بختنصّر أقام في سلطانه ما شاء الله ثم رأى رؤيا أعجبته إذْ رأى شيئاً أصابه فأنساه الله الذي رأى فدعا دانيال وحنانيا وعزازيا وميشائيل، وكانوا من ذراري الأنبياء وسألهم عنها قالوا أخبرنا بها نخبرك بتأويلها، قال: ما أذكرها ولئن لم تخبروني بها وبتأويلها لأنزعنّ أكتافكم فخرجوا من عنده فدعوا الله وتضرعوا إليه فأعلمهم الله بالذي رأى وسألهم عنه فجاؤوه وقالوا: رأيت تمثالاً قدماه وساقاه من فخار وركبتاه وفخذاه من نحاس، وبطنه من فضة وصدره من ذهب ورأسه وعنقه من حديد، قال: صدقتم، قالوا: فبينما أنت تنظر إليه وقد أعجبتك أرسل الله تعالى صخرة من السماء فدقّته فهي التي أنستكها، قال: صدقتم، قال: فما تأويلها؟ قالوا: تأويلها أنك رأيت ملك الملوك، فبعضهم كان ألين ملكاً وبعضهم كان أحسن ملكاً وبعضهم كان أشبه ملكاً الفخار أضعفه، ثم فوقه النحاس أشدّ منه، ثم فوق النحاس الفضة أحسن من ذلك وأفضل، والذهب أحسن من الفضة وأفضل، ثم الحديد ملكك فهو أشدّ وأعزّ مما كان قبله، والصخرة التي رأيت أرسل الله من السماء فدقّته نبي يبعثه الله من السماء فيدقّ ذلك أجمع ويصير الأمر إليه، ثم إن أهل بابل قالوا لبختنصّر أرأيت هؤلاء

وأرفع به بعد الخمالة وأشهر به بعد النكرة، وأكثر به القلة وأغني به بعد العيلة، وأجمع به بعد الفرقة وأؤلف به بين قلوب مختلفة وأهواء متشتتة وأمم متفرقة، وأجعل أمته خير أمة أخرجت للناس يأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر توحيداً لي وإيماناً بي وإخلاصاً لي يصلون قياماً وقعوداً، وركعاً وسجوداً، ويقاتلون في سبيلي صفوفاً وزحوفاً، ويخرجون من ديارهم وأموالهم ابتغاء مرضاتي ألهمهم التكبير، والتوحيد والتسبيح والتحميد والتهليل والمدحة والتمجيد لي في مسيرهم ومجالسهم، ومضاجعهم ومتقلبهم ومثواهم يكبرون ويهللون ويقدسون على رؤوس الأشراف يطهرون لي، الوجوه والأطراف ويعقدون لي الثياب على الأنصاف قربانهم دماؤهم، وأناجيلهم في صدورهم رهبان بالليل ليوث بالنهار ذلك فضلي أوتيه من أشاء أنا ذو الفضل العظيم. فلما فرغ شعياء من مقالته عدوا عليه ليقتلوه فهرب منهم فلقيته شجرة، فانفلقت له فدخل فيها فأدركه الشيطان، فأخذ بهدبة من ثوبه فأراهم إياها فوضعوا المنشار في وسطها فنشروها حتى قطعوها، وقطعوه في وسطها واستخلف الله على بني إسرائيل بعد ذلك

الغلمان من بني إسرائيل الذين كنّا سألناك أن تعطيناهم ففعلت، فإنّا قد أنكرنا نساءنا منذ كانوا معنا، لقد رأينا نساءنا انصرفت عنّا وجوههنّ إليهم فأخرجهم من بين أظهرنا أو اقتلهم، قال: شأنكم بهم، فمَن أحبَّ منكم أن يقتل مَن كان في يده فليفعل ذلك، فلما قرّبوهم للقتل بكوا إلى الله تعالى وقالوا: يا رب أصابنا البلاء بذنوب غيرنا فوعد الله أن يجيبهم، فقتلوا إلاّ مَن استبقى بختنصّر منهم دانيال وحنانيا وعزازيا وميشائيل، ثم لمّا أراد الله هلاك بختنصّر انبعث وتيقظ فقال لمَن في يده من بني إسرائيل: أرأيتم هـذا البيت الذي خرّبته والناس الذين قتلتهم منهم؟ وما هـذا البيت؟ قالوا: هذا بيت الله وهؤلاء أهله كانوا من ذراري الأنبياء فظلموا وتعدّوا فسلّطت عليهم بذنوبهم، وكان ربّهم ربّ السمٰوات والأرض وربّ الخلق كلهم يكرمهم ويعزّهم، فلما فعلوا ما فعلوا أهلكهم الله وسلّط عليهم غيرهم، فاستكبر وظنّ أنه بجبروته فعل ذلك ببني إسرائيل، قال: فأخبروني كيف لي أن أطلع إلى السماء العليا فأقتل مَن فيها وأتخذها مُلْكاً لي فإني قد فرغت من الأرض، قالوا: ما يقدر عليها أحد من الخلائق، قال: لتفعلُنّ أو لأقتلنّكم عن آخركم، فبكوا وتضرّعوا إلى الله تعالى فبعث الله عليه بقدرته بعوضة فدخلت مِنخره حتى عضّت بأم دماغه، فما كان يقرّ ولا يسكن حتى يوجأ له رأسه على أُمّ دماغه، فلما مات شقّوا رأسه فوجدوا البعوضة عاضّة على أمّ دماغه ليُري الله العباد قدرته ويُنجي الله مَن بقي من بني إسرائيل في يديه، فردّوهم إلى الشام فبنوا فيه وكثروا حتى كانوا على أحسن ما كانوا عليه. ويزعمون أن الله تعالى أحيا أولئك الذين قتلوا فلحقوا بهم، ثم إنهم لمّا دخلوا الشام دخلوها وليس معهم عهد من الله تعالى وكانت التوراة قد احترقت، وكان عزير من السبايا الذين كانوا ببابل فرجع إلى الشام يبكي عليها ليلاً ونهاراً وقد خرج من الناس فهو كذلك إذ أقبل إليه رجل فقال يا عزير ما يُبكيك؟ قال: أبكي على كتاب الله وعهده الذي كان بين أظهرنا الذي لا يصلح أمر دنيانا وآخرتنا غيره، قال: أفتحبّ أن يردّه إليك؟ قال: ارجع فصُم وتطهّر وطهّر ثيابك ثم موعدك هذا المكان غداً، فرجع عزير فصام وتطهّر وطهّر ثيابه ثم عمد إلى المكان الذي وعده فجلس فيه فأتاه ذلك الرجل بإناء فيه ماء، وكان ملكاً بعثه الله إليه فسقاه من ذلك الإناء، فمثلت التوراة في صدره فرجع إلى بني إسرائيل فوضع لهم التوراة فأحبّوه حتى لم يحبّوا حبّه شيئاً قطّ، ثم قبضه الله وجعلت بنو إسرائيل بعد ذلك يحدثون الأحداث ويعود الله عليهم ويبعث فيهم الرسل، ففريقاً يكذبون وفريقاً يقتلون حتى كان آخر مَن بعث الله فيهم من أنبيائهم زكريا ويحيى وعيسى، وكان من بيت آل داود، فمات زكريا وقيل: قتل زكريا فلما رفع الله عيسى من بين أظهرهم وقتلوا يحيى بعث الله عليهم ملكاً من ملوك بابل يقال له خردوش، فسار إليهم بأهل بابل حتى دخل عليهم الشام فلما ظهر عليهم أمر رأساً من رؤوس جنوده يدعى بيورزاذان صاحب الفيل، فقال: إني كنت حلفت بإلٰهي لئن أنا ظفرت على أهل بيت المقدس لأقتلنّهم حتى تسيل دماءهم في وسط

رجلاً منهم يقال: ناشة بن أموص وبعث لهم أرمياء بن حلقيا نبياً، وكان من سبط هرون بن عمران، وذكر ابن إسحاق أنه الخضر واسمه أرمياء الخضر لأنه جلس على فروة بيضاء، فقام عنه وهي تهتز خضراء فبعث الله أرمياء إلى ذلك الملك ليسدده ويرشده، ثم عظمت الأحداث في بني إسرائيل ،وركبوا المعاصي واستحلوا المحارم فأوحى الله إلى أرمياء، أن ائت قومك من بني إسرائيل فاقصص عليهم ما آمرك به وذكرهم نعمي وعرفهم بأحداثهم. فقال أرمياء: يا رب إني ضعيف إن لم تقوني عاجز إن لم تبلغني مخذول إن لم تنصرني قال الله تعالى: أو لم تعلم أن الأمور كلها تصدر عن مشيئتي وأن القلوب والألسنة بيدي، أقلبها كيف شئت إني معك، ولن يصل إليك شيء معي فقام أرمياء فيهم، ولم يدر ما يقول فألهمه الله عز وجل في الوقت خطبة بليغة بين لهم فيها ثواب الطاعة، وعقاب المعصية وقال

عسكري، إلّا أني لا أجد أحداً أقتله، فأمره أن يقتلهم حتى بلغ ذلك منهم بيورزاذان، ودخل بيت المقدس فقام في البقعة التي كانوا يُقرّبون فيها قربانهم فوجد فيها دماً يغلي فسألهم عنه، فقال: يا بني إسرائيل ما شأن هذا الدم يغلي؟ أخبروني خبره، قالوا: هذا دم قربان لنا قرّبناه فلم يقبل منه فلذلك يغلي، ولقد قرّبناه منذ ثمانمائة سنة القربان يتقبّل منّا إلّا هذا، فقال: ما صدقتموني، فقالوا: لو كان كأول زماننا لتُقبّل منّا ولكن قد انقطع منّا المُلْك والنبوّة والوحي فلذلك لم يُقبَل منّا، فذبح منهم بيورزاذان على ذلك الدم سبعمائة وسبعين رجلاً من رؤوسهم، فلم يهدأ فأمر بسبعمائة غلام من غلمانهم على الدم فلم يهدأ فأمر بسبعة آلاف من شيبهم وأزواجهم فذبحهم على الدم فلم يهدأ فلما رأى بيورزاذان الدم لا يهدأ قال لهم: يا بني إسرائيل ويلكم أصدقوني واصبروا على أمر ربكم فقد طال ما ملكتم في الأرض تفعلون فيها ما شئتم قبل أن لا أترك منكم نافخ نار أُنثى ولا ذَكر إلّا قتلته، فلما رأوا الجهد منه وشدّة القتل صدقوا الخبر، فقالوا: إن هذا الدم دم نبيّ كان ينهانا عن أمور كثيرة من سخط الله فلو أنّا أطعناه فيها لكان أرشد لنا وكان يخبرنا بأمركم فلم نصدّقه، فقتلناه فهذا دمه، فقال لهم بيورزاذان: ما كان اسمه؟ قالوا: يحيىٰ بن زكريا، قال: الآن صدقتموني، بمثل هذا انتقم ربُّكم منكم، فلما رأى بيورزاذان أنهم صدقوه خرّ ساجداً وقال لمَن حوله: أغلقوا أبواب المدينة وأخرجا مَن كان ههنا من جيش خردوش وخلا في بني إسرائيل قال: يا يحيىٰ بن زكريا قد علم ربّي وربُّك ما قد أصاب قومك من أجلك وما قتل منهم فاهدأ بإذن ربك قبل أن لا أُبقي من قومك أحداً فهدأ الدم بإذن الله، ورفع بيورزاذان عنهم القتل وقال: آمنت بالذي آمنت به بنو إسرائيل وأيقنت أنه لا ربّ غيره، وقال لبني إسرائيل: إنّ خردوش أمرني أن أقتل منكم حتى تسيل دماءكم وسطَ عسكره، وإني لست أستطيع أن أعصيه، قالوا له: افعل ما أُمِرتَ به فأمرهم فحفروا خندقاً وأمر بأموالهم من الخيل والبِغال والحمير والإبل والبقر والغنم فذبحها حتى سال الدم في العسكر وأمر بالقتلى الذين قتلوا قبل ذلك فطرحوا على ما قتل من مواشيهم فلم يظن خردوش إلا أن ما في الخندق من دماء بني إسرائيل، فلما بلغ الدم عسكره أرسل إلى بيورزاذان أن ارفع عنهم القتل، ثم انصرف إلى بابل، وقد أفنى بني إسرائيل أو كاد يفنيهم، وهي الواقعة الأخيرة التي أنزل الله بني إسرائيل، وذلك قوله: ﴿ لتفسدنّ في الأرض مرتين ﴾، فكانت الواقعة الأولى بختنصّر وجنوده، والأخرى خردوش وجنوده، وكانت أعظم الوقعتين فلم يقم لهم بعد ذلك راية وانتقل الملك بالشام ونواحيها إلى الروم اليونانية إلّا أن بقايا بني إسرائيل كثروا، وكانت لهم الرياسة ببيت المقدس ونواحيها على غير وجه الملك، وكانوا في نعمة إلى أن بدّلوا وأحدثوا الأحداث فسلّط الله عليهم طيطوس بن أسطيانوس الرومي، فأخرب بلادهم وطردهم عنها ونزع الله عنهم المُلْك والرياسة وضربت عليهم الذلّة فلا يبقى أحد منهم إلّا وعليه الصغار والجزية، وبقي بيت المقدس خراباً إلى خلافة عمر بن الخطاب فعمّره المسلمون بأمره. وقال قتادة: بعث الله عليهم جالوت في الأولى فسبى وقتل وخرّب ﴿ ثم رددنا لكم الكرّة عليهم ﴾ [الإسراء: ٦] يعني في زمان داود، فإذا جاء وعد الآخرة بعث

في آخرها: عن الله عز وجل حلفت بعزتي لأقيضن لهم فتنة يتحير فيها الحليم، ولأسلطن عليهم جباراً قاسياً ألبسه الهيبة، وأنزع من صدره الرحمة يتبعه عدد مثل سواد الليل المظلم، ثم أوحى الله إلى أرمياء أني مهلك بني إسرائيل بيافث ويافث من أهل بابل فسلط الله عليهم بختنصر فخرج في ستمائة ألف راية ودخل بيت المقدس بجنوده ووطىء الشام وقتل بني إسرائيل حتى افناهم وخرب بيت المقدس وأمر جنوده أن يملأ كل رجل منهم ترسه تراباً، يقذفه في بيت المقدس ففعلوا ذلك حتى ملؤوه. ثم أمرهم أن يجمعوا من بلدان بيت المقدس كلهم، فاجتمع عنده كل صغير وكبير من بني إسرائيل فاختار منهم سبعين ألف صبي، فلما خرجت غنائم جنده وأراد أن يقسمها فيهم، قالت له الملوك الذين كانوا معه: أيها الملك لك غنائمنا كلها واقسم بيننا هؤلاء الصبيان الذين اخترتهم من بني إسرائيل،

الله عليهم بختنصّر فسبى وخرّب، ثم قال: ﴿ عسى ربكم أن يرحمكم ﴾ [الإسراء: ٨] فعاد الله عليهم بالرحمة ثم عاد القوم بشرٍّ ما بحضرتهم، فبعث الله عليهم ما شاء من نقمته وعقوبته، ثم بعث الله عليهم العرب كما قال: ﴿ وإذ تأذنَ ربُّك ليبعثنّ عليهم إلى يوم القيامة مَن يسومهم سوءَ العذاب ﴾ [الأعراف: ١٦٧]، فهم في العذاب إلى يوم القيامة، وذكر السدي بإسناده أن رجلاً من بني إسرائيل رأى في النوم أن خراب بيت المقدس على يدي غلام يتيم ابن أرملة من أهل بابل، يدعى بختنصّر وكانوا يصدقون فتصدق رؤياهم، فأقبل ليسأل عنه حتى نزل على أمه وهو يحتطب فجاء وعلى رأسه حزمة حطب فألقاها ثم قعد فكلّمه ثم أعطاه ثلاثة دراهم، فقال: اشترِ بهذا طعاماً وشراباً، فاشترى بدرهم لحماً وبدرهم خبزاً وبدرهم خمراً، فأكلوا وشربوا وفعل في اليوم الثاني كذلك وفي اليوم الثالث كذلك، ثم قال: إني أُحبّ أن تكتب لي أماناً إن أنت ملكت يوماً من الدهر، فقال: أتسخر منّي؟ فقال: إني لا أسخر منك ولكن ما عليك أن تتّخذ بها عندي يداً، فكتب له أماناً وقال: أرأيت إن جئت والناس حولك قد حالوا بيني وبينك، قال: ترفع صحيفتك على قصبة فأعرفك، فكتب له وأعطاه، ثم إن ملك بني إسرائيل كان يكرم يحيىٰ بن زكريا ويُدني مجلسه وأنه هو ابنة امرأته. وقال ابن عباس: ابنة أخيه، فسأل يحيىٰ بن زكريا عن تزويجها فنهاه عن نكاحها فبلغ ذلك أُمها فحقدت على يحيى بن زكريا وعمدت حين جلس الملك على شرابه فألبستها ثياباً رقاقاً حمراً وطيّبتها وألبستها الحليَّ وأرسلتها إلى الملك وأمرتها أن تسقيه الخمر، فإن أرادها عن نفسها أبت عليه حتى يعطيها ما سألته، فإن أعطاها سألت رأس يحيى بن زكريا أن يؤتى به في طست ففعلت ذلك، فلما أرادها قالت: لا أفعل حتى تعطيني ما أسألك، قال: فما تسأليني؟ قالت: رأس يحيى بن زكريا أن يؤتى به في هذا الطست، فقال: ويحك سليني غير هذا، فقالت: ما أُريد إلاّ هذا فلما أبت عليه بعث فأُتي برأسه حتى وُضِعَ بين يديه والرأس يتكلم، ويقول: ويل لك لا تحلّ لك ويكرّر ذلك، فلما أصبح إذا دمه يغلي فأمر بتراب فأُلقي عليه فرقى الدم يعني صعد الدم يغلي، ويلقي عليه التراب حتى بلغ سور المدينة وهو في ذلك يغلي فبعث صحابين ملك بابل جيشاً إليهم وأمر عليهم بختنصّر، فسار بختنصّر وأصحابه حتى بلغوا ذلك المكان فلما سمعوا به تحصّنوا منه في مدائنهم، فلما اشتد عليهم المقام أراد الرجوع فخرجت إليه عجوز من عجائز بني إسرائيل، فقالت: تريد أن ترجع قبل فتح المدينة؟ قال: نعم، قد طال مقامي وجاع أصحابي، قالت: أرأيت إن فَتحتُ لك المـدينةَ تعـطيني ما أسـألك فتقتل مَن أمرتك بقتله وتكفّ إذا أمرتك أن تكفّ؟ قال: نعم، قالت: إذا أصبحت تقسم جندك أربعة أرباع ثم أقم على كل زاوية ربعاً ثم ارفعوا أيديكم إلى السماء فنادوا إنّا نستفتحك يا الله بدم يحيىٰ بن زكريا فإنها سوف تتساقط، ففعلوا فتساقطت المدينة ودخلوا من جوانبها، فقالت: كفّ يدك وانطلقت به إلى دم يحيى بن زكريا وقالت: اقتل على هذا الدم حتى يسكن فقتل عليه سبعين ألفاً حتى سكن، فلما سكن قالت: كفّ الآن يدك فإن الله لم يرض إذا قتل نبي حتى يقتل من قتله ومَن رضي بقتله، فأتاه صاحب الصحيفة بصحيفته فكفّ عنه وعن أهل

فقسمهم بين الملوك الذين كانوا معه فأصاب كل رجل منهم أربعة غلمان، وفرق من بقي من بني إسرائيل ثلاث فرق ثلثاً أقرهم بالشام وثلثاً سباهم وثلثاً قتلهم وذهب بآنية بيت المقدس، وبالصبيان السبعين ألفاً حتى أقدمهم بابل فكانت هذه الوقعة الأولى التي أنزل الله عز وجل ببني إسرائيل بظلمهم فذلك قوله سبحانه وتعالى:

﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُوْلِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَـٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ۝٥ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَـٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَـٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ۝٦ إِنْ أَحْسَنتُمْ

بيته، فخرّب بيت المقدس وطرح فيه الجيف وأعانه على خرابه الروم من أجل أن بني إسرائيل قتلوا يحيى بن زكريا، وذهب معه بوجوه بني إسرائيل وذهب بدانيال وقوم من أولاد الأنبياء وذهب معه برأس جالوت، فلما قَدِمَ بابل وجد صخابين قد مات فتملك مكانه، وكان أكرم الناس عنده دانيال وأصحابه فحسدهم المجوس ووشوا بهم إليه وقالوا له: إن دانيال وأصحابه لا يعبدون إلٓهك ولا يأكلون ذبيحتك، فسألهم فقالوا: أجل لنا ربّاً نعبده ولسنا نأكل من ذبيحتكم، فأمر الملك بخدٍّ فخُدّ لهم فألقوا فيه وهم ستةٌ وألقى معهم بسَبْعٍ ضارٍ ليأكلهم، فذهبوا ثم راحوا فوجدوهم جلوساً والسَّبْع مفترش ذراعيه معهم لم يخدش منهم أحداً ووجدوا معهم رجلاً سابعاً، فقال: ما هذا السابع إنما كانوا ستّة فخرج السابع وكان ملكاً فلطمه لطمة فصار في صورة الوحش ومسخه الله سبع سنين. وذكر وهب: أن الله مسخ بختنصّر نسراً في الطيور ثم مسخه ثوراً في الدواب ثم مسخه أسداً في الوحوش، فكان مسخه سبع سنين وقلبه في ذلك قلب إنسان، ثم ردّ الله إليه مُلكه فآمن. فسُئِلَ وهب أكان مؤمناً؟ فقال: وجدت أهل الكتاب اختلفوا فيه فمنهم مَن قال مات مؤمناً ومنهم مَن قال أحرق بيت الله وكتبه وقتل الأنبياء فغضب الله عليه فلم يقبل توبته. وقال السدي: ثم إن بختنصّر رجع إلى صورته بعد المسخ وردّ الله إليه مُلكه كان دانيال وأصحابه أكرم الناس عليه فحسدهم المجوس، وقالوا لبختنصّر: إن دانيال إذا شرب الخمر لم يملك نفسه أن يبول وكان ذلك فيهم عاراً فجعل لهم طعاماً وشراباً فأكلوا وشربوا، وقال للبوّاب انظر أول مَن يخرج ليبول فاضربه بالطبرزين فإن قال: أنا بختنصّر فقل: كذبت بختنصّر أمرني بذلك، فكان أول مَن قام للبول بختنصّر فلما رآه البوّاب شدّ عليه، فقال: ويحك أنا بختنصّر، فقال: كذبت بختنصّر أمرني فضربه فقتله، هذا ما ذكره في المبتدأ، إلّا أن رواية مَن روى أن بختنصّر غزى بني إسرائيل عند قتلهم يحيى بن زكريا غلط عند أهل السِّيَر، بل هم مُجمِعون على أن بختنصّر إنما غزا بني إسرائيل عند قتلهم شعياء في عهد أرمياء، ومن وقت أرمياء تخريب بختنصّر بيت المقدس إلى مولد يحيى بن زكريا أربعمائة وإحدى وستّون سنة، وذلك أنهم كانوا يعدّون من لدن تخريب بختنصّر بيت المقدس إلى حين عمارته في عهد كيوس بن أخشورش بن أصيهيد ببابل من قِبَلِ بَهْمَن بن إسفنديار سبعين سنة، ثم من بعد عمارته إلى ظهور الإسكندر على بيت المقدس ثمانٍ وثمانون سنة، ثم من بعد مملكته التي قتل يحيى بن زكريا ثلثمائة وستون سنة. والصحيح من ذلك ما ذكر محمد بن إسحاق.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب ﴾ أي: أعلمناهم وأخبرناهم فيما آتيناهم من الكتاب أنهم سيفسدون، والقضاء على وجوه يكون أمراً كقوله: ﴿ وقضى ربك ﴾ [الإسراء: ٢٣]. ويكون حكماً كقوله ﴿ إن ربك يقضي بينهم ﴾ [يونس: ٩٣، والنمل: ٧٢] ويكون خلقاً كقوله: ﴿ فقضاهنّ سبع سمٰوات ﴾ [فصّلت: ١٢]، وقال ابن عباس وقتادة: يعني وقضينا عليهم، فإلى بمعنى على، والمراد بالكتاب اللوح المحفوظ، ﴿ لتفسدُنّ ﴾، لام القسم مجازه والله لتفسدنّ، ﴿ في الأرض مرتين ﴾، بالمعاصي، والمراد بالأرض أرض الشام وبيت المقدس، ﴿ ولتعلنّ ﴾، ولتستكبرنّ ولتظلمنّ الناس، ﴿ علوّاً كبيراً ﴾.

﴿أَحۡسَنتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡۖ وَإِنۡ أَسَأۡتُمۡ فَلَهَاۚ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ ٱلۡأٓخِرَةِ لِيَسُـࣳٔوا۟ وُجُوهَكُمۡ وَلِيَدۡخُلُوا۟ ٱلۡمَسۡجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوۡا۟ تَتۡبِيرًا ٧﴾

﴿فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليك عباداً لنا أولي بأس شديد﴾ يعني بختنصر وأصحابه، ثم إن بختنصر أقام في سلطانه ما شاء الله ثم رأى رؤيا عجيبة إذ رأى شيئاً أصابه فأنساه الذي رأى، فدعا دانيال وحنانيا وعزاريا ومشائيل وكانا من ذراري الأنبياء، وسألهم عنها فقالوا: أخبرنا بها نخبرك بتأويلها فقال: ما أذكرها ولئن لم تخبروني بها وبتأويلها لأنزعن أكتافكم فخرجوا من عنده، فدعوا الله وتضرعوا إليه فأعلمهم الله بالذي سألهم عنه فجاؤوه فقالوا: رأيت تمثالاً قدماه وساقاه من فخار وركبتاه وفخذاه من نحاس وبطنه من فضة وصدره من ذهب، ورأسه وعنقه من حديد قال: صدقتم قالوا: فبينما أنت تنظر إليه وقد أعجبك أرسل الله صخرة من السماء فدقته فهي التي أنستكها قال: صدقتم فما تأويلها قالوا: تأويلها أنك رأيت الملوك بعضهم كان ألين ملكاً، وبعضهم، كان أحسن ملكاً وبعضهم كان أشد ملكاً، والفخار أضعفه ثم فوقه النحاس أشد منه ثم فوق النحاس الفضة أحسن من ذلك وأفضل والذهب أحسن من الفضة، وأفضل ثم الحديد ملكك فهو أشد وأعز مما قبله، والصخرة التي رأيت أرسل الله من السماء، فدقته فنبي يبعثه الله من السماء فيدق ذلك أجمع ويصير الأمر إليه، ثم إن أهل بابل قالوا لبختنصر: أرأيت هؤلاء الغلمان من بني إسرائيل الذين سألناك أن تعطيناهم ففعلت فإنا قد أنكرنا نساءنا منذ كانوا معنا، لقد رأينا نساءنا انصرفت وجوههن عنا إليهم فأخرجهم من بين أظهرنا أو اقتلهم فقال شأنكم بهم فمن أحب منكم أن يقتل من كان في يده، فليفعل فلما قربوهم للقتل بكوا وتضرعوا إلى الله عز وجل، وقالوا: يا ربنا أصابنا البلاء بذنوب غيرنا فوعدهم الله أن يحييهم فقتلوا إلا من كان منهم مع بختنصر منهم دانيال وحنانيا وعزاريا وميشائيل، ثم لما أراد الله تعالى هلاك بختنصر انبعث فقال لمن في يده من بني إسرائيل: أرأيتم هذا البيت الذي خربت والناس الذي قتلت منكم، وما هذا البيت؟ قالوا هو بيت الله وهؤلاء أهله كانوا من ذراري الأنبياء فظلموا وتعدوا فسلطت عليهم بذنوبهم وكان ربهم رب السموات والأرض ورب الخلائق كلهم يكرمهم ويعزهم، فلما فعلوا ما فعلوا أهلكهم وسلط عليهم غيرهم فاستكبر وتجبر، وظن أنه بجبروته فعل ذلك ببني إسرائيل، قال فأخبروني كيف لي أن أطلع إلى السماء العليا، فأقتل من فيها وأتخذها لي ملكاً فإني قد فرغت من أهل الأرض، قالوا: ما يقدر عليها أحد من الخلائق قال: لتفعلن أو لأقتلنكم عن آخركم فبكوا وتضرعوا إلى الله تعالى فبعث الله عز وجل عليه بقدرته بعوضة، فدخلت منخره حتى عضت أم دماغه فما كان يقر ولا يسكن، حتى يوجأ له رأسه على أم دماغه فلما مات شقوا رأسه فوجدوا البعوضة عاضة على أم دماغه، ليري الله العباد قدرته ونجى الله من بقي من بني إسرائيل في يده، وردهم إلى الشام فبنوا فيه وكثروا حتى كانوا على أحسن ما كانوا عليه، ويزعمون أن الله سبحانه وتعالى أحيا أولئك الذين قتلوا فلحقوا بهم ثم إنهم لما دخلوا الشام دخلوها، وليس معهم من الله عهد. كانت التوراة قد احترقت وكان عزير من السبايا الذين كانوا ببابل، فلما رجع إلى الشام جعل يبكي ليله ونهاره، وخرج عن الناس فبينما هو كذلك إذ جاءه رجل فقال له: يا عزير ما يبكيك؟ قال: أبكي على كتاب الله وعهده الذي كان بين أظهرنا الذي لا يصلح ديننا وآخرتنا غيره. قال: أفتحب أن يرد إليك قال: نعم قال: ارجع فصم وتطهر وطهر ثيابك ثم موعدك هذا المكان غداً فرجع عزيز فصام وتطهر وطهر ثيابه ثم عمد إلى المكان الذي وعده،

﴿ **فإذا جاء وَعْدُ أولاهما** ﴾، يعني أولى مرتين، قال قتادة: إفسادهم في المرة الأولى ما خالفوا من أحكام التوراة وركبوا المحارم. وقال محمد بن إسحاق: إفسادهم في المرة الأولى قتل شعياء بين الشجرة وارتكابهم المعاصي. ﴿ **بعثنا عليكم عباداً لنا** ﴾، قال قتادة: يعني جالوت الخزري وجنوده، وهو الذي قتله داود. وقال

فجلس فيه فأتاه ذلك الرجل بإناء فيه ماء وكان ملكاً بعثه الله إليه فسقاه من ذلك الإناء، فمثلت التوراة في صدره فرجع إلى بني إسرائيل فوضع لهم التوراة، فأحبوه حباً لم يحبوا حبه شيئاً قط، ثم قبضه الله تعالى وجعلت بنو إسرائيل بعد ذلك يحدثون الأحداث، ويعود الله عليهم، ويبعث فيهم الرسل ففريقاً يكذبون وفريقاً يقتلون حتى كان آخر من بعث إليهم من أنبيائهم زكريا ويحيى وعيسى عليهم السلام، وكانوا من بيت آل داود فزكريا مات، وقيل قتل وقصدوا عيسى ليقتلوه فرفعه الله من بين أظهرهم وقتلوا يحيى، فلما فعلوا ذلك بعث الله عليهم ملكاً من ملوك بابل يقال له خردوش، فسار إليهم بأهل بابل حتى دخل عليه الشام، فلما ظهر عليهم أمر رأساً من رؤساء جنوده يقال له بيورزاذان صاحب القتل فقال له: إني قد كنت حلفت بإلهي لئن أنا ظفرت على أهل بيت المقدس لأقتلنهم حتى يسيل الدم في وسط عسكري، إلا أن لا أجد أحداً أقتله فأمره أن يقتلهم حتى يبلغ ذلك منهم، ثم إن بيورزاذان دخل بيت المقدس فقام في البقعة التي كانوا يقربون فيها قربانهم، فوجد فيها دماً يغلي فسألهم عنه فقال: يا بني إسرائيل ما شأن هذا الدم يغلي؟ أخبروني خبره. فقالوا: هذا دم قربان لنا قرّبناه فلم يقبل منا فلذلك يغلي ولقد قربنا القربان من ثمانمائة سنة، فتقبل منا إلا هذا فقال: ما صدقتموني فقالوا لو كان كأول زماننا لتقبل منا، ولكن قد انقطع منا الملك والنبوة والوحي فلذلك لم يقبل منا فذبح بيورزاذان منهم على ذلك الدم سبعمائة وسبعين روحاً، من رؤوسهم فلم يهدأ الدم فأمر سبعمائة غلام من غلمانهم، فذبحهم على الدم فلم يهدأ فأمر بسبعة آلاف من شيبهم وأزواجهم فذبحهم على الدم فلم يهدأ، فلما رأى بيورزاذان أن الدم لا يهدأ قال لهم: يا بني إسرائيل ويلكم أصدقوني واصبروا على أمر ربكم فقد طالما ملكتم في الأرض تفعلون ما شئتم قبل أن لا أترك منكم نافخ نار من ذكر ولا أنثى إلا قتلته، فلما رأوا الجهد وشدة القتل صدقوه الخبر فقالوا: إن هذا دم نبي كان ينهانا عن أمور كثيرة من سخط الله تعالى فلو كنا أطعناه كنا أرشدنا. وكان يخبرنا عن أمركم فلم نصدقه فقتلناه فهذا دمه فقال لهم بيورزاذان ما كان اسمه قالوا: يحيى بن زكريا قال: الآن صدقتموني لمثل هذا ينتقم ربكم منكم فلما علم بيورزاذان أنهم صدقوه خر ساجداً وقال لمن حوله: أغلقوا ابواب المدينة، وأخرجوا من كان هاهنا من جيش خردوش، وخلا في بني إسرائيل ثم قال: يا يحيى بن زكريا قد علم ربي وربك ما أصاب قومك من أجلك، ومن قتل منهم فاهدأ باذن ربك قبل أن لا أبقي من قومك أحداً إلا قتلته فهدأ الدم باذن الله تعالى، ورفع بيورزاذان عنهم القتل وقال: آمنت بما آمنت به بنو إسرائيل، وأيقنت أنه لا رب غيره. وقال لبني إسرائيل: إن خردوش أمرني أن أقتل منكم حتى تسيل دماؤكم وسط عسكره، وإني لا أستطيع أن أعصيه قالوا له افعل ما أمرت به، فأمرهم فحفروا خندقاً، وأمرهم بأموالهم من الخيل والبغال والحمير والإبل والبقر والغنم فذبحها حتى سال الدم في العسكر، وأمر بالقتلى الذين قتلوا قبل ذلك فطرحوه على ما قتل من المواشي، فلم يظن خردوش إلا أن

سعيد بن جبير: يعني سنجاريب من أهل نينوى. وقال ابن إسحاق: بختنصّر البابلي وأصحابه، وهو الأظهر. ﴿ **أُولي بأسٍ** ﴾، ذوي بطش، ﴿ **شديد** ﴾، في الحرب، ﴿ **فجاسُوا** ﴾، أي: فطافوا وداروا، ﴿ **خلال الديار** ﴾، وسطها يطلبونكم ويقتلونكم، والجوس طلب الشيء بالاستقصاء. قال الفرّاء: جاسوا قتلوكم بين بيوتكم، ﴿ **وكان وعداً مفعولاً** ﴾، قضاءً كائناً لا خلف فيه.

﴿ **ثم رددنا لكم الكرّة** ﴾، يعني: الرجعة والدولة، ﴿ **عليهم وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيراً** ﴾، عدداً، أي: مَن ينفر معهم وعاد البلد أحسن مما كان.

﴿ **إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم** ﴾، أي: لها ثوابها، ﴿ **وإنْ أسأتم فلها** ﴾، أي: فعليها، كقوله تعالى: ﴿ فسلم لك ﴾ [الواقعة: ٩١] أي: عليك. وقيل: فلها الجزاء والعقاب، ﴿ **فإذا جاء وعد الآخرة** ﴾ أي: المرة الأخيرة من إفسادكم وذلك قصدهم قتل عيسى عليه السلام حين رفع وقتلهم يحيىٰ بن زكريا عليهما السلام، فسلّط الله عليهم الفرس والروم، خردوش وطيطوس حتى قتلوهم وسبوهم ونفوهم عن ديارهم، فذلك قوله تعالى:

ما في الخندق من دماء بني إسرائيل فلما بلغ الدم عسكره، أرسل إلى بيورزاذان أن ارفع عنهم القتل ثم انصرف إلى بابل وقد أفنى بني إسرائيل أو كاد يفنيهم، ونهى الوقعة الأخيرة التي أنزل الله ببني إسرائيل في قوله لتفسدن في الأرض مرتين فكانت الوقعة الأولى بختنصر وجنوده، والأخرى خردوش وجنوده وكانت أعظم الوقعتين، فلم تقم لهم بعد ذلك راية وانتقل الملك بالشام ونواحيها إلى الروم واليونانيين، إلا أن بقايا بني إسرائيل كثروا وكانت لهم الرياسة ببيت المقدس ونواحيها على غير وجه الملك، وكانوا في نعمة إلى أن بدلوا وأحدثوا الأحداث فسلط الله عليهم ططوس بن أسبيانيوس الرومي، فخرب بلادهم وطردهم عنها، ونزع الله عنهم الملك والرياسة وضربت عليهم الذلة والمسكنة، فما لبثوا في أمة إلا وعليهم الصَّغار والجزية وبقي بيت المقدس خراباً إلى خلافة عمر بن الخطاب فعمره المسلمون بأمره، وقيل في سبب قتل يحيى عليه السلام: أن ملك بني إسرائيل كان يكرمه ويدني مجلسه، وأن الملك هوى بنت امرأته، وقال ابن عباس ابنة أخيه فسأل يحيى تزويجها فنهاه عن نكاحها، فبلغ ذلك أمها فحقدت على يحيى وعمدت حين جلس الملك على شرابه فألبستها ثياباً رقاقاً حمراً وطيبتها وألبستها الحلي، وأرسلتها إلى الملك وأمرتها أن تسقيه فإن هو راودها عن نفسها أبت عليه حتى يعطيها ما سألته فإذا أعطاها ما سألت سألت رأس يحيى بن زكريا، وأن يؤتى به في طست ففعلت فلما راودها قالت: لا أفعل حتى تعطيني ما أسألك قال فما تسأليني قالت: رأس يحيى بن زكريا في هذا الطست فقال ويحك سليني غير هذا. قالت: ما أريد غير هذا فلما أبت عليه، بعث فأتي برأسه حتى وضع بين يديه والرأس يتكلم يقول: لا يحل لك فلما أصبح إذا دمه يغلي، فأمر بتراب فألقي عليه فرقى الدم يغلي فلا زال يغلي، ويلقى عليه التراب، وهو يغلي حتى بلغ سور المدينة وهو في ذلك يرقى ويغلي وسلط الله عليهم ملك بابل فخرب بيت المقدس، وقتل سبعين ألفاً حتى سكن دمه قوله عز وجل:

﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ
أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ
عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾ وَيَدْعُ الْإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ ۖ وَكَانَ الْإِنسَانُ عَجُولًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَا
آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَيْءٍ
فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾ وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ اقْرَأْ
كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ مَّنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ
وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا
الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿١٧﴾ مَّن كَانَ

﴿ **ليَسُوؤا وجوهَكم** ﴾، أي: تحزن وجوهكم وسوء الوجه بإدخال الغمّ والحزن. قرأ الكسائي ويعقوب: «لنسوء» بالنون وفتح الهمزة على التعظيم، كقوله: ﴿ **وقضينا** ﴾ [الحجر: ٦٦، الإسراء: ٤، القصص: ٤٤، سبأ: ١٤] ﴿ **وبعثنا** ﴾ [المائدة: ١٢، الأعراف: ١٠٣، يونس: ٧٤ و٧٥، النحل: ٣٦، الإسراء: ٥] وقرأ ابن عامر وحمزة وأبو بكر بالياء وفتح الهمزة على التوحيد، أي: ليسوء الله وجوهكم، وقيل: ليسوء الوعد وجوهكم، وقرأ الباقون بالياء وضمّ الهمزة على الجمع، أي: ليسوء العباد أُولوا البأس الشديد وجوهكم ﴿ **وليدخلوا المسجد** ﴾، يعني: بيت المقدس ونواحيه، ﴿ **كما دخلوه أوّل مَرةٍ وليتبّروا** ﴾، وليهلكوا، ﴿ **ما عَلوا** ﴾، أي: ما غلبوا عليه من بلادكم ﴿ **تتبيراً** ﴾.

﴿يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾﴾

﴿**عسى ربكم أن يرحمكم**﴾ يعني يا بني إسرائيل بعد انتقامه منكم فيرد الدولة إليكم ﴿**وإن عدتم**﴾ أي إلى المعصية ﴿**عدنا**﴾ أي إلى العقوبة. قال قتادة فعادوا فبعث الله محمداً ﷺ: فهم يعطون الجزية عن يد وهم صاغرون ﴿**وجعلنا جهنم للكافرين حصيراً**﴾ أي سجناً ومحبساً من الحصر الذي هو مجلس الحبس، وقيل: فراشاً من الحصير الذي يبسط ويفترش. قوله تعالى ﴿**إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم**﴾ أي إلى الطريقة التي هي أصوب وقيل: إلى الكلمة التي هي أعدل وهي شهادة أن لا إله إلا الله ﴿**ويبشر**﴾ يعني القرآن ﴿**المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيراً**﴾ يعني الجنة ﴿**وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة أعتدنا لهم عذاباً أليماً**﴾ يعني النار في الآخرة ﴿**ويدع الإنسان**﴾ أي على نفسه وولده وماله ﴿**بالشر**﴾ يعني قوله عند الغضب: اللهم أهلكه اللهم العنه ونحو ذلك ﴿**دعاءه بالخير**﴾ أي كدعائه ربه أن يهب له النعمة والعافية ولو استجاب الله دعاءه على نفسه لهلك، ولكن الله لا يستجيب بفضله وكرمه ﴿**وكان الإنسان عجولاً**﴾ أي بالدعاء على ما يكره أن يستجاب له فيه، وقال ابن عباس: ضجراً لا صبر له على سّراء ولا ضراء. قوله تعالى ﴿**وجعلنا الليل والنهار آيتين**﴾ أي علامتين دالتين على وحدانيتنا وقدرتنا وفي معنى الآية قولان: أحدهما: أن يكون المراد من الآيتين نفس الليل والنهار، وهو أنه جعلهما دليلين للخلق على مصالح الدنيا والدين، أما في الدين فلأن كل واحد منهما مضاد للآخر مغاير مع كونهما متعاقبين على الدوام ففيه أقوى دليل على أن لهما مدبراً يدبرهما، ويقدرهما بالمقادير المخصوصة وأما في الدنيا، فلأن مصالح العباد لا تتم إلا بهما ففي الليل يحصل السكون، والراحة وفي النهار يحصل التصرف في المعاش والكسب. والقول الثاني: أن يكون المراد وجعلنا نيرى الليل والنهار آيتين يريد الشمس والقمر ﴿**فمحونا آية الليل**﴾ أي جعلنا الليل ممحو الضوء مطموساً مظلماً لا يستبان فيه شيء ﴿**وجعلنا آية النهار مبصرة**﴾ أي تبصر فيه الأشياء رؤية بينة. قال ابن عباس: جعل الله نور الشمس سبعين جزءاً ونور القمر كذلك فمحا من نور القمر تسعة وستين جزءاً، فجعلها مع نور الشمس وحكي أن الله أمر جبريل فأمر جناحه على وجه القمر ثلاث مرات، فطمس عليه الضوء وبقي فيه النور وسأل ابن الكواء علياً عن السواد

﴿ **عسى ربُّكم** ﴾، يا بني إسرائيل، ﴿ **أن يرحَمكم** ﴾، بعد انتقامه منكم فيردّ الدولة إليكم، ﴿ **وإنْ عُدتُّم عُدْنَا** ﴾، أي: **إن عدتم إلى المعصية عدنا إلى العقوبة. قال قتادة: فعادوا فبعث الله عليهم محمداً ﷺ فهم يعطون الجزية عن يدٍ وهم صاغرون**، ﴿ **وجعلنا جهنّم للكافرين حصيراً** ﴾، سجناً ومحبساً من الحصر وهو الحبس. قال **الحسن**: حصيراً أي: فراشاً. وذهب إلى الحصير الذي يُبسَط ويُفرَش.

﴿ **إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم** ﴾، أي: إلى الطريقة التي هي أصوب. وقيل: الكلمة التي هي أعدل وهي شهادة أن لا إله إلاّ الله، ﴿ **ويبشّر** ﴾، يعني: القرآن، ﴿ **المؤمنين الذين يعملون الصالحات أنّ لهم** ﴾، بأن لهم، ﴿ **أجراً كبيراً** ﴾، وهو الجنة.

﴿ **وأنّ الذين لا يؤمنون بالآخرة أعتدنا لهم عذاباً أليماً** ﴾، وهو النار.

وقوله تعالى: ﴿ **ويَدْعُ الإنسانُ** ﴾، حذف الواو لفظاً لاستقلال اللام الساكنة كقوله: ﴿ سندع الزبانية ﴾ [العلق: ١٨]، وحذف في الخط أيضاً وهي غير محذوفة في المعنى، ومعناه: ويدعو الإنسان على ماله وولده ونفسه، ﴿ **بالشرِّ** ﴾، فيقول عند الغضب: اللّهمّ العنه واهلكه ونحوهما، ﴿ **دعاءَهُ بالخير** ﴾، أي: كدعائه ربه

الذي في القمر، فقال هو أثر المحو ﴿لتبتغوا فضلاً من ربكم﴾ أي لتتوصلوا ببياض النهار إلى استبانة أعمالكم، والتصرف في معايشكم ﴿ولتعلموا﴾ أي باختلاف الليل والنهار ﴿عدد السنين والحساب﴾ أي ما يحتاجون إليه ولولا ذلك، لما علم أحد حساب الأوقات ولتعطلت الأمور، ولو ترك الله الشمس والقمر، كما خلقهما لم يعرف الليل من النهار ولم يدر الصائم متى يفطر، ولم يعرف وقت الحج ولا وقت حلول الديون المؤجلة. واعلم أن الحساب يبنى على أربع مراتب: الساعات والأيام والشهور والسنين، فالعدد للسنين والحساب لما دونها من الشهور والأيام والساعات، وليس بعد هذه المراتب الأربعة إلا التكرار ﴿وكل شيء فصلناه تفصيلاً﴾ يعني وكل شيء تفتقرون إليه من أمر دينكم ودنياكم قد بيّناه بياناً شافياً واضحاً غير ملتبس قيل: إنه سبحانه وتعالى لما ذكر أحوال آيتي الليل والنهار وهما من وجه دليلان قاطعان على التوحيد ومن وجه آخر نعمتان من الله تعالى على أهل الدنيا، وكل ذلك تفضل منه فلا جرم قال، وكل شيء فصلناه تفصيلاً قوله عز وجل ﴿وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه﴾ قال ابن عباس: عمله وما قدر عليه فهو ملازمه أينما كان. وقيل: خيره وشره معه لا يفارقه حتى يحاسب به. وقيل: ما من مولود إلا وفي عنقه ورقة مكتوب فيها شقي أو سعيد، وقيل: أراد بالطائر ما قضى عليه أنه عامله وما هو صائر إليه من سعادة أو شقاوة، وقيل: هو من قولك طار له سهم إذا خرج يعني ألزمناه ما طار له من عمله لزوم القلادة أو الغل، لا ينفك عنه والعنق في قوله في عنقه كناية عن اللزوم كما يقال: جعلت هذا في عنقك أي قلدتك هذا العمل، وألزمتك الاحتفاظ به وإنما خص العنق من بين سائر الأعضاء لأنه موضع القلائد والأطواق والغل مما يزين أو يشين فإن كان عمله خيراً كان له كالقلادة أو الحلي في العنق وهو ما يزينه، وإن كان عمله شراً كان له كالغلّ في عنقه وهو ما يشينه ويخرج له بقول تبارك وتعالى ﴿ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً﴾ قيل: بسطت للإنسان صحيفتان ووكل به ملكان يحفظان

بالخير أن يهب له النعمة والعافية ولو استجاب الله دعاءه على نفسه لهلك، ولكن الله لا يستجيب بفضله، ﴿ وكان الإنسان عجولاً ﴾ بالدعاء على ما يكره أن يُستجاب له فيه. قال جماعة من أهل التفسير: وقال ابن عباس: ضجراً لا صبر له على السرّاء والضرّاء.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ وجعلنا الليلَ والنهارَ آيتين ﴾، أي: علامتين دالّتين على وجودنا ووحدانيتنا وقدرتنا، ﴿ فمحونا آية الليل ﴾، قال ابن عباس: جعل الله نور الشمس سبعين جزءاً ونور القمر كذلك فمحا من نور القمر تسعة وستين جزءاً فجعلها مع نور الشمس، حُكِيَ أن الله تعالى أمر جبريل فأمر جناحه على وجه القمر ثلاث مرات فطمس عنه الضوء وبقي فيه النور. وسأل ابن الكوّاء عليّاً عن السواد الذي في القمر قال هو أثر المحو. ﴿ وجعلنا آية النهار مبصرةً ﴾، منيرة مضيئة، يعني يبصر بها. قال الكسائي: تقول العرب أبصر النهار إذا أضاءت بحيث يبصر بها، ﴿ لتبتغوا فضلاً من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب ﴾، أي: لو ترك الله الشمس والقمر كما خلقهما لم يعرف الليل من النهار ولم يدرِ الصائم متى يفطر ولم يدرِ وقت الحج ولا وقت حلول الآجال ولا وقت السكون والراحة. ﴿ وكلَّ شيء فصّلناه تفصيلاً ﴾.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ وكلَّ إنسانٍ ألزمناه طائره في عنقه ﴾، قال ابن عباس: عمله وما قدر عليه فهو ملازمه أينما كان. وقال الكلبي ومقاتل: خيره وشرّه معه لا يفارقه حتى يحاسبه به. وقال الحسن: يمنه وشؤمه. وعن مجاهد: ما من مولود إلا في عنقه ورقة مكتوب فيها شقي أو سعيد. وقال أهل المعاني: أراد بالطائر ما قضى الله عليه أنه عامله وما هو صائر إليه من سعادة أو شقاوة سُمّيَ طائر على عادة العرب فيما كانت تتفاءل وتتشاءم به من سوانح الطير وبوارحها. وقال أبو عبيدة والقتيبي: أراد بالطائر حظه من الخير والشر من قولهم: طار سهم فلان بكذا وكذا، وخصّ العنق من بين سائر الأعضاء لأنه موضع القلائد والأطواق وغيرهما مما يزين أو يشين، فجرى كلام العرب

عليه حسناته وسيئاته. فإذا مات طويت الصحيفتان، وجعلتا معه في عنقه فلا ينشران إلا يوم القيامة ﴿**اقرأ كتابك**﴾ أي يقال له: اقرأ كتابك قيل يقرأ يوم القيامة من لم يكن قارئاً ﴿**كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً**﴾ أي محاسباً قال الحسن: لقد عدل عليك[1] من جعلك حسيب نفسك، وقيل: يقول الكافر إنك لست بظلام للعبيد فاجعلني أحاسب نفسي. فيقال له اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً. قوله سبحانه وتعالى ﴿**من اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها**﴾ يعني أن ثواب العمل الصالح مختص بفاعله، وعقاب الذنب مختص بفاعله أيضاً، ولا يتعدى منه إلى غيره وهو قوله تعالى ﴿**ولا تزر وازرة وزر أخرى**﴾ أي لا تحمل حاملة ثقل أخرى من الآثام، ولا يؤاخذ أحد بذنب أحد بل كل أحد مختص بذنبه ﴿**وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً**﴾ لإقامة الحجة وقطعاً للعذر وفيه دليل على أن ما وجب إنما وجب بالسمع لا بالعقل. قوله سبحانه وتعالى ﴿**وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها**﴾ في معنى الآية قولان: أحدهما: أن المراد منه الأمر بالفعل، ثم إن لفظ الآية يدل على أنه تعالى بماذا أمرهم فقال أكثر المفسرين: معناه أنه تعالى أمرهم بالأعمال الصالحة، وهي الإيمان والطاعة وفعل الخير والقوم خالفوا ذلك الأمر وفسقوا. والقول الثاني: أمرنا مترفيها أي كثرنا فساقها. يقال أمر القوم إذا كثروا وأمرهم الله إذا كثرهم، ومنه الحديث «خير المال مهرة مأمورة» أي كثيرة النتاج والنسل فعلى هذا قوله تعالى أمرنا ليس من الأمر بالفعل. والمترف هو الذي أبطرته النعمة وسعة العيش ﴿**ففسقوا فيها**﴾ أي خرجوا عما أمرهم الله به من الطاعة ﴿**فحق عليها القول**﴾ أي وجب عليها العقاب ﴿**فدمرناها تدميراً**﴾ أي أهلكناها إهلاك استئصال والدمار الهلاك والخراب (ق)، عن أم المؤمنين زينب بنت جحش أن النبي ﷺ دخل عليها فزعاً يقول: «لا إله إلا الله ويل للعرب من شر قد اقترب فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه، وحلق بأصبعيه الإبهام والتي تليها». قالت زينب: قلت يا رسول الله أنهلك وفينا الصالحون قال:

بتشبيه الأشياء اللازمة إلى الأعناق، ﴿ **ونُخرج له** ﴾، يقول الله تعالى ونحن نخرج له، ﴿ **يوم القيامة كتاباً** ﴾، وقرأ الحسن ومجاهد ويعقوب «ويخرج لـه» بفتح الياء وضمّ الراء، معناه: ويخرج له الطائر يوم القيامة كتاباً. وقرأ أبو جعفر «يخـرج» بالياء وضمّها وفتح الراء، ﴿ **يلقاه** ﴾، قرأ ابن عامر وأبو جعفر ﴿ **يلقاه** ﴾ بضمّ الياء وفتح اللام وتشديد القاف، يعني: يلقى الإنسان ذلك الكتاب، أي: يؤتاه، وقرأ الباقون بفتح الياء خفيفة أي يراه ﴿ **منشوراً** ﴾، وفي الآثار: أن الله تعالى يأمر الملك بطيّ الصحيفة إذا تمّ عمر العبد فلا تُنشَر إلا في يوم القيامة.

﴿ **اقرأ كتابك** ﴾، أي: يقال له اقرأ كتابك، قوله تعالى: ﴿ **كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً** ﴾، محاسباً. قال الحسن: لقد عدل عليك مَن جعلك حسيب نفسك. قال قتادة: سيقرأ يومئذ مَن لم يكن قارئاً في الدنيا.

﴿ **مَن اهتدى فإنّما يهتدي لنفسه** ﴾، لها ثوابه، ﴿ **ومَن ضلّ فإنما يضلّ عليها** ﴾، لأن عليها عقابه، ﴿ **ولا تزر وازرةٌ وِزْرَ أُخرى** ﴾، أي: لا تحمل حاملة حمل أخرى من الآثام، أي: لا يؤخذ أحد بذنب أحد. ﴿ **وما كنّا معذّبين حتى نبعث رسولاً** ﴾، إقامةً للحجّة وقطعاً للعذر، وفيه دليل على أن ما وجب وجب بالسمع لا بالعقل.

﴿ **وإذا أردنا أن نُهلك قريةً أمرنا مُترفيها** ﴾، قرأ مجاهد: ﴿ **أمرنا** ﴾ بالتشديد أي: سلّطنا شرارها فعصوا، وقرأ الحسن وقتادة ويعقوب ﴿ **أمرنا** ﴾ بالمدّ، أي: أكثرنا. وقرأ الباقون بالقصر مختلفاً، أي أمرناهم بالطاعة فعصوا، ويحتمل أن يكون معناه جعلناهم أمراء ويحتمل أن تكون بمعنى أكثرنا، يقال: أمرهم الله أي كثّرهم الله. وفي الحديث: «خير المال مهرة مأمورة» أي كثيرة النسل. ويقال: منه أمر القوم يأمرون أمراً إذا كثروا، وليس من

---

(١) قوله عدل هكذا في الأصل الطبع وفي بعض النسخ إليك سيدل عليك وفي الخطيب عدل والله في خلقك من الخ وفي الكشاف: يا ابن آدم أنصفك والله من الخ ا هـ.

«نعم إذا كثر الخبث» قوله: ويل للعرب. ويل كلمة تقال: لمن وقع في هلكة، أو أشرف أن يقع فيها وقوله إذا كثر الخبث أي الشر قوله تعالى ﴿**وكم أهلكنا من القرون**﴾ أي المكذبة ﴿**من بعد نوح**﴾ وهم عاد وثمود وغيرهم من الأمم الخالية يخوف الله بذلك كفار قريش. قال عبد الله بن أبي أوفى: **القرن** عشرون ومائة سنة فكان رسول الله ﷺ في أول قرن ويزيد بن معاوية في آخره. وقيل: القرن مائة سنة وروي عن محمد بن القاسم بن عبد الله بن بشر المازني أن النبي ﷺ وضع يده على رأسه وقال: «سيعيش هذا الغلام قرناً» قال محمد بن القاسم: ما زلنا **نعد** له حتى تمت له مائة سنة ثم مات. وقيل: القرن ثمانون سنة. وقيل: أربعون ﴿**وكفى بربك بذنوب عباده خبيراً بصيراً**﴾ يعني أنه عالم بجميع المعلومات راء لجميع المرئيات، لا يخفى عليه شيء من أحوال الخلق. قوله عز وجل ﴿**من كان يريد العاجلة**﴾ أي الدار العاجلة يعني الدنيا ﴿**عجلنا له فيها ما نشاء**﴾ أي من البسط أو التقتير ﴿**لمن نريد**﴾ أن نفعل به ذلك أو إهلاكه، وقيل في معنى الآية. عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد أي القدر الذي نشاء نعجله له في الدنيا، الذي يشاء هو ولمن نريد أن نعجل له شيئاً، قدرناه له وهذا ذم لمن أراد بعمله ظاهر الدنيا ومنفعتها وبيان أن من أرادها لا يدرك منها إلا ما قدر له، ﴿**ثم جعلنا له**﴾ أي في الآخرة ﴿**جهنم يصلاها**﴾ أي يدخلها ﴿**مذموماً مدحوراً**﴾ أي مطروداً مباعداً. قوله سبحانه وتعالى ﴿**ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها**﴾ أي عمل لها عملها ﴿**وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً**﴾ أي مقبولاً قيل: في الآية ثلاث شرائط في كون السعي مشكوراً إرادة الآخرة بعمله بأن يعقد بها همه ويتجافى عن دار الغرور، والسعي فيما كلف من الفعل والترك، والإيمان الصحيح الثابت، وعن بعض السلف الصالح. من لم يكن معه ثلاث لم ينفعه عمله، إيمان ثابت، ونية صادقة، وعمل مصيب. وتلا هذه الآية. قوله عز وجل:

الأمر بمعنى الفعل، فإن الله لا يأمر بالفحشاء، واختار أبو عبيدة قراءة العامّة وقال: لأن المعاني الثلاثة تجتمع فيها يعني الأمر والإمارة والكثرة. ﴿ **مترفيها** ﴾ مُنعِميها وأغنيائها ﴿ **ففسقُوا فيها فحقّ عليها القول** ﴾، وجب عليها العذاب، ﴿ **فدمرناها تدميراً** ﴾، أي: خرّبناها وأهلكنا مَن فيها. أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي ثنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا يحيىٰ بن بكر ثنا الليث عن عقيل عن ابن شهاب عن عروة بن الزبير أن زينب بنت أبي سلمة حدّثته عن أُم حبيبة بنت أبي سفيان عن زينب بنت جحش أنّ النبي ﷺ دخل عليها فزعاً وهو يقول: «لا إلّه إلّا الله ويلٌ للعرب من شرٍّ قد اقترب، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوجك مثل هذه وحلّق بأصبعه الإبهام والتي تليها»، قالت زينب فقلت: يا رسول الله أنهلَكُ وفينا الصالحون؟ قال: «نعم إذا كثر الخبث».

قوله: ﴿ **وكم أهلكنا من القرون** ﴾ أي: المكذّبة، ﴿ **من بعد نوح** ﴾، يُخوّف كفّار مكة، ﴿ **وكفى بربّك بذنوب عباده خبيراً بصيراً** ﴾، قال عبد الله بن أبي أوفى: القَرْنُ مائة وعشرون سنة، فبعث رسول الله ﷺ في أول قرن، وكان في آخره يزيد بن معاوية. وقيل: مائة سنة. ورُوِيَ عن محمد بن القاسم عن عبد الله بن بشر المازني أن رسول الله ﷺ وضع يده على رأسه وقال: «سيعيش هذا الغلام قرناً» قال محمد بن القاسم: فما زلنا نعدّ له حتى تمّ له مائة سنة، ثم مات. قال الكلبي: القرن ثمانون سنة. وقيل: أربعون سنة.

﴿ **مَن كان يريد العاجلة** ﴾، يعني الدنيا أي الدار العاجلة، ﴿ **عجّلنا له فيها ما نشاء** ﴾، من البسط والتقتير، ﴿ **لمَن نُريد** ﴾، أن نفعل به ذلك أو إهلاكه، ﴿ **ثم جعلنا له** ﴾، في الآخرة، ﴿ **جهنّم يصلاها** ﴾، يدخل نارها، ﴿ **مذموماً مدحوراً** ﴾، مطروداً مُبعداً.

﴿ **ومَن أراد الآخرة وسعى لها سعيها** ﴾، عمل عملها، ﴿ **وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً** ﴾، مقبولاً.

﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًاۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْۚ إِن تَكُونُوا۟ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾﴾

﴿**كلا نمد هؤلاء وهؤلاء**﴾ أي نمد كلا الفريقين من يريد الدنيا، ومن يريد الآخرة ﴿**من عطاء ربك**﴾ يعني يرزقهما جميعاً ثم يختلف الحال بهما في المآل ﴿**وما كان عطاء ربك محظوراً**﴾ أي ممنوعاً عن عباده والمراد بالعطاء العطاء في الدنيا إذ لا حظ للكافر في الآخرة ﴿**انظر**﴾ يا محمد ﴿**كيف فضلنا بعضهم على بعض**﴾ أي في الرزق والعمل يعني طالب العاجلة وطالب الآخرة ﴿**وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً**﴾ يعني أن تفاضل الخلق في درجات منافع الدنيا محسوس فتفاضلهم في درجات منافع الآخرة أكبر وأعظم فإن نسبة التفاضل في درجات الآخرة إلى التفاضل في درجات الدنيا، كنسبة الآخرة إلى الدنيا فإذا كان الإنسان تشتد رغبته في طلب الدنيا فلأن تقوى وتشتد رغبته في طلب الآخرة أولى، لأنها دار المقامة. قوله تعالى ﴿**لا تجعل مع الله إلهاً آخر**﴾ الخطاب مع النبي ﷺ والمراد غيره وقيل معناه لا تجعل أيها الإنسان مع الله إلهاً آخر وهذا أولى ﴿**فتقعد مذموماً**﴾ أي من غير حمد ﴿**مخذولاً**﴾ أي بغير ناصر. قوله سبحانه وتعالى: ﴿**وقضى ربك**﴾ أي وأمر ربك. قاله ابن عباس: وقيل معناه وأوجب ربك. وقيل: معناه الحكم والجزم. وقيل: ووصى ربك. وحكي عن الضحاك أنه قرأها ووصى ربك وقال: إنهم ألصقوا الواو بالصاد فصار قافاً وهي قراءة علي وابن مسعود. قال الإمام فخر الدين الرازي في تفسيره الكبير هذا القول بعيد جداً لأنه يفتح باب أن التحريف والتغيير قد تطرق إلى القرآن ولو جوزنا ذلك لارتفع الأمان على القرآن، وذلك يخرجه عن كونه حجة، ولا شك أنه طعن عظيم في الدين ﴿**ألاّ تعبدوا إلا إياه**﴾ فيه وجوب عبادة الله، والمنع من عبادة غيره وهذا

﴿ **كُلاً نُمِدُّ هؤلاء وهؤلاء** ﴾، أي: نمدّ كِلا الفريقين مَن يريد الدنيا ومَن يريد الآخرة، ﴿ **من عطاء ربك** ﴾، أي: يرزقهما جميعاً ثم يخلف بهما الحال في المآل، ﴿ **وما كان عطاء ربك** ﴾، رزق ربك، ﴿ **محظوراً** ﴾، ممنوعاً عن عباده فالمراد من العطاء العطاء في الدنيا وإلاّ فلا حظّ للكفّار في الآخرة.

﴿ **انظر** ﴾، يا محمد، ﴿ **كيف فضّلنا بعضهم على بعض** ﴾، في الرزق والعمل الصالح، يعني: طالب العاجلة وطالب الآخرة، ﴿ **وللآخرة أكبرُ درجات وأكبرُ تفضيلاً** ﴾.

﴿ **لا تجعلْ مع الله إلَهاً آخر** ﴾، الخطاب مع النبي ﷺ والمراد غيره. وقيل: معناه لا تجعل أيها الإنسان مع الله إلَهاً آخر، ﴿ **فتقعد مذموماً مخذولاً** ﴾، مذموماً من غير حمد مخذولاً من غير نصر.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ **وقضى ربُّك** ﴾، وأمر ربك، قاله ابن عباس وقتادة والحسن. قال الربيع بن أنس: وأوجب ربك. قال مجاهد: وأوصى ربك. وحُكِيَ عن الضحاك بن مزاحم أنه قرأ: ووصّى ربك. وقال: إنهم ألصقوا الواو بالصاد فصارت قافاً، ﴿ **ألاّ تعبدوا إلاّ إيّاه وبالوالدين إحساناً** ﴾، أي: وأمر بالوالدين إحساناً برّاً بهما وعطفاً عليهما، ﴿ **إما يبلغنّ عندك الكِبَرَ** ﴾، قرأ حمزة والكسائي بالألف على التثنية فعلى هذا قوله: ﴿ **أحدهما أو كلاهما** ﴾، كلام مستأنف، كقوله تعالى: ﴿ ثم عموا وصمّوا كثيرٌ منهم ﴾ [المائدة: ٧١] وقوله: ﴿ وأسرّوا النجوى الذين ظلموا ﴾ [الأنبياء: ٣] وقوله: ﴿ الذين ظلموا ﴾ [الأنبياء: ٣] ابتداء وقرأ الباقون ﴿ **يبلغن** ﴾ على التوحيد،

هو الحق لأن العبادة عبارة عن الفعل المشتمل على نهاية التعظيم، ونهاية التعظيم لا تليق إلا بمن له الإنعام والإفضال على عباده ولا منعم إلا الله، فكان هو المستحق للعبادة لا غيره ﴿**وبالوالدين إحساناً**﴾ أي وأمر بالوالدين إحساناً أي براً بهما وعطفاً عليهما وإحساناً إليهما ﴿**إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما**﴾ معناه أنهما يبلغان إلى حالة الضعف، والعجز فيصيران عندك في آخر العمر كما كنت عندهما في أول العمر واعلم أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر هذه الجملة، كلف الإنسان في حق الوالدين خمسة أشياء: الأول قوله تعالى ﴿**فلا تقل لهما أف**﴾ وهي كلمة تضجَّر وكراهية، وقيل: إن أصل هذه الكلمة أنه إذا سقط عليك تراب أو رماد، ونفخت فيه تزيله تقول: أف ثم إنهم توسعوا بذكر هذه الكلمة إلى كل مكروه يصل إليهم. والثاني: قوله ﴿**ولا تنهرهما**﴾ أي تزجرهما عما يتعاطيانه مما لا يعجبك يقال: نهره وانتهره بمعنى. فإن قلت: المنع من التأفيف أبلغ من المنع من الانتهار فما وجه الجمع قلت: المراد من قوله ولا تقل لهما أف المنع من إظهار الضجر بالقليل والكثير، والمراد من قوله ولا تنهرهما، المنع من إظهار المخالفة في القول على سبيل الرد عليها. الثالث: قوله ﴿**وقل لهما قولاً كريماً**﴾ أي حسناً جميلاً ليناً كما يقتضيه حسن الأدب معهما، وقيل: هو يا أماه يا أبتاه وقيل: لا يكنيهما وقيل: هو أن يقول لهم كقول العبد الذليل المذنب للسيد الفظ الغليظ. الرابع: قوله عز وجل ﴿**واخفض لهما جناح الذل**﴾ أي ألن لهما جناحك واخفضه لهما حتى لا تمتنع عن شيء أحباه ﴿**من الرحمة**﴾ أي من الشفقة عليهما لكبرهما وافتقارهما اليوم إليك، كما كنت في حال الصغر مفتقراً إليهما. الخامس: قوله سبحانه وتعالى ﴿**وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا**﴾ أي وادع الله لهما أن يرحمهما برحمته الباقية، وأراد به إذا كانا مسلمين فأما إذا كانا كافرين فإن الدعاء منسوخ في حقهما بقوله سبحانه وتعالى ﴿**ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى**﴾ وقيل: يجوز الدعاء لهما بأن يهديهما الله إلى الإسلام فإذا هداهما فقد رحمهما. وقيل في معنى هذه الآية: إن الله سبحانه وتعالى بالغ في الوصية بهما حيث افتتحها بالأمر بتوحيده وعبادته، ثم شفعه بالإحسان إليهما ثم ضيق الأمر في مراعاتهما حتى لم يرخص في أدنى كلمة تسوؤهما وأن يذل، ويخضع لهما ثم ختمها بالأمر بالدعاء لهما والترحم عليهما.

﴿ **فلا تقلْ لهما أُفٍّ** ﴾، فيه ثلاث لغات، قرأ ابن كثير وابن عامر ويعقوب بفتح الفاء وقرأ أبو جعفر ونافع وحفص بالكسر والتنوين والباقون بكسر الفاء غير منوّن، ومعناها واحد وهي كلمة كراهية، قال أبو عبيدة أصل التف والأف الوسخ على الأصابع إذا فتلتها. وقيل: الأف ما يكون في المغابن من الوسخ، والتفّ ما يكون في الأصابع. وقيل: الأف وسخ الأُذن والتف وسخ الأظفار. وقيل: الأف وسخ الظفر والتف ما رفعته بيدك من الأرض من شيء حقير، ﴿ **ولا تنهرهما** ﴾، ولا تزجرهما، ﴿ **وقل لهما قولاً كريماً** ﴾، حسناً جميلاً ليّناً قال ابن المسيب: كقول العبد المذنب للسيد الفظّ. وقال مجاهد: لا تسمّيهما ولا تكنّهما وقل لهما: يا أبتاه يا أُماه. وقال مجاهد: في هذه الآية أيضاً إذا بلغا عندك من الكِبَر ما يبولان فلا تتقذرهما ولا تقل لهما أفٍّ حين تميط عنهما الخلاء والبول كما كانا يميطانه عنك صغيراً.

﴿ **واخفضْ لهما جناح الذلّ** ﴾، أي: أَلِنْ جانبك لهما واخضع لهما. قال عروة بن الزبير: أَلِن لهما حتى لا تمتنع عن شيء أحبّاه ﴿ **مِنَ الرحمة** ﴾، من الشفقة، ﴿ **وقل ربِّ ارحمهما كما ربياني صغيراً** ﴾، أراد إذا كانا مسلمين. قال ابن عباس: هذا منسوخ بقوله: ﴿ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين﴾ [التوبة: ١١٣]. أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أبو مسعود محمد بن محمد بن سمعان أنا أبو جعفر محمد بن أحمد بن عبد الجبار الرياني ثنا حميد بن زنجويه ثنا سليمان بن حرب ثنا حماد بن يزيد عن عطاء بن السائب عن أبي عبد الرحمن يعني السلمي عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «الوالد أوسط أبواب الجنة فاحفظ إن شئت أو ضيّع» أخبرنا أبو

فصل

في ذكر الأحاديث التي وردت في بر الوالدين، (ق) عن أبي هريرة قال: «جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله من أحق الناس بحسن صحبتي؟ قال: أمك ثم أمك ثم أباك ثم أدناك فأدناك» (م) عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: رغم أنفه، رغم أنفه رغم أنفه قيل من يا رسول الله؟ قال من أدرك والديه عند الكبر أو أحدهما ثم لم يدخل الجنة» (م) عنه قال: قال رسول الله ﷺ «لن يجزي ولد والده إلا أن يجده مملوكاً فيشتريه فيعتقه» (ق) عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال «جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فاستأذنه في الجهاد فقال: أحيّ والداك قال: نعم قال ففيهما فجاهد» وعنه أن رسول الله ﷺ قال «رضا الرب في رضا الوالدين وسخط الرب في سخط الوالدين» أخرجه الترمذي مرفوعاً وموقوفاً قال: وهو أصح عن أبي الدرداء قال «فإن شئت فضيع ذلك الباب أو احفظه» أخرجه الترمذي. وقال حديث صحيح (م) «عن عبد الله بن مسعود قال: سألت رسول الله ﷺ أي الأعمال أحب إلى الله تعالى قال الصلاة لوقتها قلت، ثم أي قال بر الوالدين قلت ثم أي قال الجهاد في سبيل الله تعالى». قوله سبحانه وتعالى **﴿ربكم أعلم بما في نفوسكم﴾** أي من بر الوالدين، واعتقاد ما يجب لهما من التوقير، عدم عقوقهما **﴿إن تكونوا صالحين﴾** أي أبراراً مطيعين قاصدين الصلاح والبر بعد تقصير كان منكم في القيام بما لزمكم من حق الوالدين، أو غيرهما أو قيل فرط منكم في حال الغضب، وعند حرج الصدر وما لا يخلو منه البشر مما يؤدي إلى أذاهما ثم أنبتم إلى الله، واستغفرتم مما فرط منكم **﴿فإنه كان للأوابين﴾** للتوابين **﴿غفوراً﴾** قال سعيد بن جبير في هذه الآية: هو الرجل تكون منه البادرة إلى أبويه لا يريد بذلك إلا الخير فإنه لا يؤاخذ بهما. وقال سعيد بن المسيب: الأوّاب الذي يذنب ثم يتوب وعنه أنه الرجاع إلى الخير. وقال ابن عباس: الأوّاب الرجاع إلى الله فيما يحزنه، وينوبه وعنه أنهم

طاهر محمد بن محمد بن علي الزراد أنا أبو بكر محمد بن إدريس الجرجاني أنا أبو الحسن علي بن الحسين الماليني أنا حسن بن سفيان ثنا يحيىٰ بن حبيب بن عدي ثنا خالد بن الحارس عن سعيد عن يعلى بن عطاء عن أبيه عن عبد الله بن عمر عن النبي ﷺ قال: «رضا الله في رضا الوالد وسخط الله في سخط الوالد» أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحي أنا أبو سعيد محمد بن موسى الصيرفي أنا أبو عبد الله محمد بن عبد الله الصفار ثنا أبو جعفر محمد بن غالب بن تمتام الضبي ثنا عبد الله بن مسلمة ثنا عبد العزيز بن مسلم عن يزيد بن أبي زياد عن مجاهد عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يدخل الجنة منّان ولا عاقٌ ولا مُدمنُ خمـر»، أخبرنـا الإمام أبـو علي الحسين بن محمد القاضي أنا أبو محمد عبد الله بن يوسف بن محمد بن ناموية الأصفهاني أنا أبو سعيد أحمد بن زياد البصري أنا الحسن بن محمد بن الصباح ثنا ربعي بن عليّة عن عبد الرحمن بن إسحاق عن سعيد بن أبي سعيد المقبري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «رَغِمَ أنفُ رجل ذُكِرتُ عنده فلم يصلّ عليَّ ورَغِمُ أنفُ رجل أتى عليه شهر رمضان فلم يغفر له ورغم أنف امرىء أدرك أبويه الكبرُ فلم يدخلاه الجنة».

﴿ **ربكم أعلم بما في نفوسكم** ﴾، من برِّ الوالدين وعقوقهما، ﴿ **إنْ تكونوا صالحين** ﴾، أبراراً مطيعين بعد تقصير كان منكم في القيام بما لزمكم من حق الوالدين وغير ذلك، ﴿ **فإنه كان للأوّابين** ﴾، بعد المعصية ﴿ **غفوراً** ﴾، قال سعيد بن جبيـر في هذه الآية: هو الرجل يكون منه البادرة إلى أبويه لا يريد به إلّا الخير فإنه لا يؤاخذ به. قال سعيد بن المسيب: الأوّاب الذي يذنب ثم يتوب ثم يذنب ثم يتوب. قال سعيد بن جبير: الرجّاع إلى الخير. وعن ابن عباس قال: هو الرجّاع إلى الله فيما يحزنه وينوبه. وعن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: هُمُ المسبِّحون، دليله قوله: ﴿ يا جبال أوّبي معه ﴾ [سبأ: ١٠]. قال قتادة: هم المصلّون، قال عون العقيلي: هم الذين يصلّون صلاة الضحى. أخبرنا أبو الحسن طاهر بن الحسين الدورقـي الطوسي أنا أبو الحسن محمد بن

المسبحون. وقيل: هم المصلون وقيل هم الذين يصلون صلاة الضحى يدل عليه ما روي عن زيد بن أرقم. قال: خرج رسول الله ﷺ على أهل قباء وهم يصلون الضحى فقال «صلاة الأوّابين إذا رمضت الفصال» أخرجه مسلم قوله: إذا رمضت الفصال يريد ارتفاع الضحى وأن تحمى الرمضاء وهو الرمل بحر الشمس فتبرك الفصال من الحر وشدة إحراقه أخفافها. والفصال جمع فصيل وهي أولاد الإبل الصغار وقيل: الأوّاب الذي يصلي بين المغرب والعشاء يدل عليه ما روي عن ابن عباس قال: إن الملائكة لتحف بالذين يصلون بين المغرب والعشاء وهي صلاة الأوّابين. قوله سبحانه وتعالى:

وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ
وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾ وَلَا
تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ
وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ
خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ
وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ
إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟
بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ
أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ
كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾.

﴿وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل﴾ قيل: الخطاب للنبي ﷺ أمره الله سبحانه وتعالى أن يؤتي أقاربه حقوقهم وقيل: إنه خطاب للكل وهو أنه سبحانه وتعالى، وصى بعد بر الوالدين بالقرابة أن يؤتوا حقهم من صلة الرحم والمودة، والزيارة وحسن المعاشرة والمؤالفة على السراء والضراء والمعاضدة ونحو ذلك وقيل إن كانوا محاويج، وهو موسر لزمه الإنفاق عليهم وهو مذهب أبي حنيفة. وقال الشافعي رضي الله عنه: لا تلزم النفقة إلاّ لوالد

يعقوب أنا أبو النضر محمد بن محمد بن يوسف ثنا الحسن بن سفيان ثنا أبو بكر بن أبي شيبة ثنا وكيع عن هشام صاحب الدستوائي عن قتادة عن القاسم بن عوف عن زيد بن أرقم قال: خرج رسول الله ﷺ على أهل قباء وهم يصلّون صلاة الضحى، فقال: «صلاة الأوّابين إذا رمضت الفصال من الضحى» وقال محمد بن المنكدر: الأوّاب يصلّي بين المغرب والعشاء. ورُوِيَ عن ابن عباس أنه قال: إن الملائكة لتحفّ بالذين يصلّون بين المغرب والعشاء، وهي صلاة الأوّلين.

قوله تعالى: ﴿ وآتِ ذَا القُربى حقه ﴾، يعني صلة الرحم، وأراد به قرابة الإنسان وعليه الأكثرون. عن علي بن الحسين أراد به قرابة الرسول ﷺ، ﴿ والمسكين وابنَ السبيل ولا تُبَذِّرْ تبذيراً ﴾، أي: لا تنفق مالك في المعصية. وقال مجاهد: لو أنفق الإنسان ماله كله تبذيراً ولو أنفق مدّاً في باطل كان تبذيراً. وسُئِلَ ابن مسعود عن التبذير فقال: إنفاق المال في غير حقه. قال شعبة: كنت أمشي مع أبي إسحاق في طريق الكوفة فأتى على دار بنيت بجص وآجر، فقال: هذا التبذير. وفي قول عبد الله: إنفاق المال من غير حقه.

على ولده أو ولد على والديه فحسب وقيل: أراد بالقرابة قرابة رسول الله ﷺ وتقدم الكلام على المسكين وابن السبيل ﴿ولا تبذر تبذيراً﴾ أي لا تنفق مالك في المعصية. وقيل: لو أنفق الإنسان ماله كله في الحق لم يكن مبذراً ولو أنفق درهماً أو مداً في باطل كان مبذراً. وسئل ابن مسعود عن التبذير فقال: إنفاق المال في غير حقه. وقيل: هو إنفاق المال في العمارة على وجه السرف وقيل: إن بعضهم أنفق نفقة في خير فأكثر فقال له صاحبه لا خير في السرف فقال لا سرف في الخير ﴿إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين﴾ يعني أولياءهم وأصدقاءهم لأنهم يطيعونهم فيما يأمرونهم به من الإسراف، وقيل: أمثالهم في الشر وهذا غاية المذمة لأنه أشر من الشياطين، والعرب تقول لكل من هو ملازم سنة قوم: هو أخوهم ﴿وكان الشيطان لربه كفوراً﴾ أي جحوداً للنعمة فما ينبغي أن يطاع لأنه يدعو إلى مثل عمله. قوله عز وجل ﴿وإما تعرضن عنهم﴾ نزلت في مهجع وبلال وصهيب وسالم وخباب كانوا يسألون النبي ﷺ في الأحايين ما يحتاجون إليه، ولا يجد فيعرض عنهم حياء منهم ويمسك عن القول فنزلت هذه الآية. والمعنى: وإن تعرض عن هؤلاء الذين أمرت أن تؤتيهم ﴿ابتغاء رحمة من ربك ترجوها﴾ أي انتظار رزق من الله ترجوه أن يأتيك ﴿فقل لهم قولاً ميسوراً﴾ أي ليناً جميلاً أي عدهم وعداً طيباً، تطيب به قلوبهم. وقيل: هو أن يقول رزقنا الله وإياكم من فضله. قوله سبحانه وتعالى ﴿ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك﴾ قال جابر: أتى صبي فقال يا رسول الله إن أمي تستكسيك درعاً ولم يكن لرسول الله ﷺ إلا قميصه فقال للصبي: من ساعة إلى ساعة يظهر كذا فعد إلينا وقتاً آخر فعاد إلى أمه فقالت: قل له إن أمي تستكسيك الدرع الذي عليك، فدخل رسول الله ﷺ داره ونزع قميصه وأعطاه وقعد عرياناً فأذن بلال بالصلاة، وانتظره فلم يخرج فشغل قلوب أصحابه فدخل عليه بعضهم فرآه عرياناً فأنزل الله سبحانه وتعالى هذه الآية، ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك أي لا تمسك يدك عن النفقة في الحق والخير كالمغلولة يده لا يقدر على مدها ﴿ولا تبسطها﴾ أي بالعطاء ﴿كل البسط﴾ أي فتعطي جميع ما عندك. وقيل: هذا تمثيل لمنع الشحيح، وإعطاء المسرف أمر

﴿ إنّ المبذرين كانوا إخوان الشياطين ﴾، أي: أولياءهم، والعرب تقول لكل ملازم سنة قوم هو أخوهم.
﴿ وكان الشيطان لربه كفوراً ﴾، جحوداً لِنعَمِه.

﴿ وإما تعرضنّ عنهم ﴾، نزلت في مهجع وبلال وصهيب وسالم وخباب كانوا يسألون النبي ﷺ في الأحايين ما يحتاجون إليه ولا يجد فيعرض عنهم حياءً منهم ويمسك عن القول، فنزل **﴿ وإما تعرضنّ عنهم ﴾**، وإن تعرض عن هؤلاء الذين أمرتك أن تؤتيهم، **﴿ ابتغاء رحمة من ربك ترجوها ﴾**، انتظار رزق من الله ترجوه أن يأتيك، **﴿ فقلْ لهم قولاً ميسوراً ﴾** ليّناً وهي العدة، أي: عِدْهم وَعْداً جميلاً. وقيل: القول الميسور أن تقول رزقنا الله وإيّاك.

﴿ ولا تجعلْ يدكَ مغلولةً إلى عنقك ﴾، قال جابر: إني صبي فقال: يا رسول الله إن أُمي تستكسيك درعاً ولم يكن لرسول الله ﷺ إلّا قميصه، فقال للصبي: من ساعة إلى ساعة يظهر كذا، فَعُدْ إلينا وقتاً آخر، فعاد إلى أُمه فقالت: قل له إن أُمي تستكسيك الدرع الذي عليك، فدخل رسول الله ﷺ داره فنزع قميصه فأعطاه إيّاه وقعد عرياناً فأذّن بلال بالصلاة فانتظروه فلم يخرج، فشغل قلوب أصحابه فدخل عليه بعضهم فرآه عرياناً فأنزل الله تعالى **﴿ ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ﴾**، يعني: ولا تمسك يدك عن النفقة في الحق كالمغلولة يده لا يقدر على مدّها، **﴿ ولا تبسطها ﴾**، بالعطاء، **﴿ كل البسط ﴾**، فتعطي جميع ما عندك، **﴿ فتقعد ملوماً ﴾**، يلومك سائلوك بالإمساك إذا لم تعطهم، والملوم الذي أتى بما يلوم نفسه أو يلوم غيره، **﴿ محسوراً ﴾** منقطعاً لا شيء عندك تنفقه. يقال: حسرته بالمسألة إذا ألحفت عليه ودابّة حسيرة إذا كانت كالّة رازحة. قال قتادة: **﴿ محسوراً ﴾** نادماً على ما فرط منك.

بالاقتصاد الذي هو بين الإسراف والتقتير ﴿**فتقعد ملوماً**﴾ أي عند الله لأن المسرف غير مرضي عنده، وقيل ملوماً عند نفسك وأصحابك أيضاً يلومونك على تضييع المال بالكلية وقيل: يلومك سائلوك على الإمساك إذا لم تعطهم ﴿**محسوراً**﴾ أي منقطعاً لا شيء عندك تنفقه وقيل: محسوراً أي نادماً على ما فرط منك. ثم سلّى رسول الله ﷺ عما كان يرهقه من الإضافة بأن ذلك ليس لهوان بك عليه ولا لبخل منه عليك فقال تعالى ﴿**إن ربك يبسط**﴾ أي يوسع ﴿**الرزق لمن يشاء ويقدر**﴾ أي يقتر ويضيق، وذلك لمصلحة العباد ﴿**إنه كان بعباده خبيراً بصيراً**﴾ يعني أنه سبحانه وتعالى عالم بأحوال جميع عباده، وما يصلحهم فالتفاوت في أرزاق العباد ليس لأجل البخل بل لأجل رعاية مصالح العباد. قوله عز وجل ﴿**ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق**﴾ أي فاقة وفقر ﴿**نحن نرزقهم وإياكم**﴾ وذلك أن أهل الجاهلية، كانوا يئدون بناتهم خشية الفاقة أو يخافون عليهم من النهب والغارات، أو أن ينكحوهن لغير أكفاء لشدة الحاجة وذلك عار شديد عندهم فنهاهم الله عن قتلهن وقال نحن نرزقهم وإياكم، يعني أن الأرزاق بيد الله فكما أنه فتح أبواب الرزق على الرجال فكذلك يفتحه على النساء ﴿**إن قتلهم كان خطأ كبيراً**﴾ أي إثماً كبيراً ﴿**ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة**﴾ أي قبيحة زائدة على حد القبح ﴿**وساء سبيلاً**﴾ أي بئس طريقاً طريقه، وهو أن تغصب امرأة غيرك أو أخته أو بنته من غير سبب والسبب ممكن وهو الصهر الذي شرعه الله تعالى قيل: إن الزنا يشتمل على أنواع من المفاسد منها المعصية وإيجاب الحد على نفسه، ومنها اختلاط الأنساب فلا يعرف الرجل ولد من هو ولا يقوم أحد بتربيته وذلك يوجب ضياع الأولاد، وانقطاع النسل وذلك يوجب خراب العالم. قوله عز وجل ﴿**ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق**﴾ الأصل في القتل هو الحرمة المغلظة، وحل القتل إنما ثبت بسبب عارض، فلما كان كذلك نهى الله عن القتل على حكم الأصل ثم استثنى الحالة التي يحصل فيها حل القتل، وهي الأسباب العرضية فقال إلا بالحق أي إلا بإحدى ثلاث كما روي عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال «لا يحل دم امرىء مسلم يشهد أن لا إله إلا الله

﴿ **إنّ ربّك يبسط** ﴾، يوسع ﴿ **الرزق لمَن يشاء ويقدر** ﴾، أي: يقتّر ويضيق، ﴿ **إنه كان بعباده خبيراً بصيراً** ﴾.

قوله تعالى: ﴿ **ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق** ﴾، فقر، ﴿ **نحن نرزقهم وإيّاكم** ﴾، وذلك أن أهل الجاهلية كانوا يئدون بناتهم خشية الفاقة فنُهوا عنه، وأُخبِروا أن رزقهم ورزق أولادهم على الله تعالى، ﴿ **إنّ قتلهم كان خِطأً كبيراً** ﴾، قرأ ابن عامر وأبو جعفر «خطأً» بفتح الخاء والطاء مقصوراً. وقرأ ابن كثير بكسر الخاء ممدوداً وقرأ الآخرون بكسر الخاء وجزم الطاء ومعنى الكل واحد، أي: إثماً كبيراً.

﴿ **ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشةً وساء سبيلاً** ﴾.

﴿ **ولا تقتلوا النفسَ التى حرّم الله إلاّ بالحق** ﴾، وحقّها ما روينا أن النبي ﷺ قال: «لا يحلّ دمُ امرىءٍ مسلم إلاّ بإحدى ثلاث: رجل كفر بعد إيمانه أو زنى بعد إحصانه أو قتل نفساً بغير نفس فيقتـل بها». ﴿**ومَن قُتِـلَ مظلومـاً فقد جعلنا لوليّه سلطاناً** ﴾، أي: قوة ولاية على القاتل بالقتل، قاله مجاهد، وقال الضحاك: سلطانه هو أنه يتخيّر فإن شاء استفاد منه وإن شاء أخذ الديّة، وإن شاء عفا عنه. ﴿ **فلا يُسرفْ في القتل** ﴾، قرأ حمزة والكسائي: «فـلا تسـرف» بالتاء يخاطب وليّ القتيل، وقرأ الآخرون بالياء على الغائب أي: لا يسرف الوليّ في القتل، واختلفوا في هذا الإسراف الذي منع منه وليّ القتيل، فقال ابن عباس وأكثر المفسّرين: معناه لا يقتل غير القاتل وذلك أنهم كانوا في الجاهلية إذا قُتل منهم قتيل لا يرضون بقتل قاتله حتى يُقتَل أشرف منه. وقال سعيد بن جبير: إذا كان القاتل واحداً فلا يقتل جماعة بدل واحد، وكان أهل الجاهلية إذا كان المقتول شريفاً لا يرضون بقتل القاتل وحده حتى

وأني رسول الله إلا بإحدى ثلاث: الثيب الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة». أخرجاه في الصحيحين ﴿**ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً**﴾ أي قوة وولاية على القاتل بالقتل وقيل: سلطانه هو أنه يتخير فإن شاء استقاد منه وإن شاء أخذ الدية وإن شاء عفا ﴿**فلا يسرف في القتل**﴾ أي الولي قال ابن عباس: لا يقتل غير القاتل وذلك أنهم كانوا في الجاهلية إذا قتل منهم قتيل لا يرضون بقتل قاتله حتى يقتل أشرف منه. وقيل معناه إذا كان القتيل واحداً فلا يقتل به جماعة بل بواحد وكان أهل الجاهلية إذا كان المقتول شريفاً فلا يرضون بقتل القاتل وحده حتى يقتلوا معه جماعة من أقربائه، وقيل معناه أن لا يمثل بالقاتل ﴿**إنه كان منصوراً**﴾ قيل الضمير راجع للمقتول ظلماً يعني أنه منصور في الدنيا بايجاب القود على قاتله وفي الآخرة بتكفير خطاياه وايجاب النار لقاتله، وقيل: الضمير راجع إلى ولي المقتول معناه: إنه كان منصوراً على القاتل باستيفاء القصاص منه أو الدية وقيل في قوله: فلا يسرف في القتل أراد به القاتل المتعدي بالقتل بغير الحق فإنه إن فعل ذلك فولي القتيل منصور عليه باستيفاء القصاص منه.

قوله سبحانه وتعالى ﴿**ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن**﴾ أي الطريقة التي هي أحسن، وهي تنميته وحفظه عليه ﴿**حتى يبلغ أشده**﴾ وهو بلوغ النكاح والمراد ببلوغ الأشد كمال عقله ورشده بحيث يمكنه القيام بمصالح ماله، وإلا لم ينفك عنه الحجر ﴿**وأوفوا بالعهد**﴾ أي الإتيان بما أمر الله به والانتهاء عما نهي عنه وقيل: أراد **بالعهد** ما يلتزمه الإنسان على نفسه ﴿**إن العهد كان مسؤولاً**﴾ أي عنه وقيل مطلوباً وقيل: العهد يسأل فيقال فيم نقضت كالموؤدة تسأل فيم قتلت. قوله عز وجل ﴿**وأوفوا الكيل إذا كلتم**﴾ المراد منه إتمام الكيل ﴿**وزنوا بالقسطاس المستقيم**﴾ قيل هو الميزان صغيراً كان أو كبيراً، من ميزان الدراهم إلى ما هو أكبر منه وقيل: هو القبان قيل هو رومي وقيل: سرياني والأصح أنه عربي مأخوذ من القسط وهو العدل، أي وزنوا بالعدل المستقيم، واعلم أن التفاوت الحاصل بسبب نقصان الكيل والوزن قليل والوعيد الحاصل عليه شديد عظيم، فوجب على العاقل الاحتراز عنه وإنما عظم الوعيد فيه لأن جميع الناس محتاجون إلى المعاوضات والبيع والشراء، فالشارع بالغ في المنع من التطفيف والنقصان، سعياً في

يقتلوا معه جماعة من أقربائه. وقال قتادة: معناه لا يمثل بالقاتل. ﴿ **إنه كان مَنصوراً** ﴾، فالهاء راجعة إلى المقتول في قوله: ﴿ **ومَن قُتل مظلوماً** ﴾ يعني: أن المقتول منصور في الدنيا بإيجاب القود على قاتله، وفي الآخرة بتكفير خطاياه وإيجاب النار لقاتله، هذا قول مجاهد، وقال قتادة: الهاء راجعة إلى وليّ المقتول معناه أنه منصور على القاتل باستيفاء القصاص منه أو الدية. وقيل في قوله: ﴿ **فلا يسرف في القتل** ﴾ أنه أراد به القاتل المعتدي، يقول: لا يعتدي بالقتل بغير الحق فإنه إن فعل ذلك فوليّ المقتول منصور عليه باستيفاء القصاص منه.

﴿ **ولا تقربوا مال اليتيم إلّا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشدَّه وأوفُوا بالعهد** ﴾، بالإتيان بما أمر الله به والانتهاء عمّا نهى الله عنه. وقيل: أراد بالعهد أن يلتزمه الإنسان على نفسه، ﴿ **إنّ العهدَ كان مسئولاً** ﴾ وقال السدي: كان مطلوباً. وقيل: العهد يسأل عن صاحب العهد، فيقال: فيما نقضت كالمؤودة تسأل فيمَ قُتلت.

﴿ **وأوفوا الكيل إذا كِلْتُم وزنُوا بالقسطاس** ﴾، قرأ حمزة والكسائي وحفص ﴿ **بالقسطاس** ﴾ بكسر القاف والباقون بضمه، وهما لغتان وهو الميزان صغيراً كان أو كبيراً أي: بميزان العدل. وقال الحسن: هو القبّان. قال مجاهد: هو رومي. وقال غيره: هو عربي مأخوذ من القسط وهو العدل، أي: زنوا بالعدل. ﴿ **المستقيم ذلك خيرٌ وأحسن تأويلاً** ﴾، أي: عاقبة.

﴿ **ولا تَقفُ ما ليس لك به علم** ﴾، قال قتادة: لا تقل رأيت ولم تره وسمعت ولم تسمعه وعلمت ولم تعلمه. وقال مجاهد: لا ترمِ أحداً بما ليس لك به علم. قال القتيبي: لا تتبعه بالحدس والظن. وهو في اللغة اتّباع الأثر، يقال: قفوت فلاناً أقفوه وقفيته وأقفيته إذا اتّبعت أثره، وبه سمّيت القافية لتتبعهم الآثار. قال القتيبي: هو مأخوذ من

إبقاء الأموال على أربابها ﴿ذلك خير وأحسن تأويلاً﴾ أي أحسن عاقبة من آل إذا رجع، وهو ما يؤول إليه أمره. قوله سبحانه وتعالى ﴿ولا تقفُ﴾ أي ولا تتبع ﴿ما ليس لك به علم﴾ أي لا تقل رأيت ولم تر وسمعت ولم تسمع وعلمت ولم تعلم. وقيل: معناه لا ترم أحداً بما ليس لك به علم وقيل لا يتبعه بالحدس والظن وقيل: هو مأخوذ من القفا كأنه يقفو الأمور، ويتتبعها ويتعرفها والمراد أنه لا يتكلم في أحد بالظن ﴿إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً﴾ معناه يسأل المرء عن سمعه وبصره وفؤاده، وقيل يسأل السمع والبصر والفؤاد، عما فعله المرء فعلى هذا ترجع الإشارة في أولئك إلى الأعضاء، وعلى القول الأول ترجع إلى أربابها. عن شكل بن حميد قال: أتيت النبي ﷺ فقلت: يا نبي الله علمني تعويذاً أتعوذ به قال: فأخذ بيدي ثم قال: «قل أعوذ بك من شر سمعي وشر بصري وشر فؤادي وشر لساني وشر قلبي وشر منيي قال فحفظتها» أخرجه أبو داود والنسائي والترمذي. وقال حديث حسن غريب. قوله: وشر منيي يعني ماءه وذكره. قوله عز وجل ﴿ولا تمش في الأرض مرحاً﴾ أي بطراً وكبراً وخيلاء ﴿إنك لن تخرق الأرض﴾ أي لن تقطها بكبرك حتى تبلغ آخرها ﴿ولن تبلغ الجبال طولاً﴾ أي لا تقدر أن تطاول الجبال، وتساويها بكبرك والمعنى أن الإنسان لا ينال بكبره وبطره شيئاً كمن يريد خرق الأرض ومطاولة الجبال، لا يحصل على شيء. وقيل: إن الذي يمشي مختالاً يمشي مرة على عقبيه، ومرة على صدور قدميه فقيل له: إنك لن تنقب الأرض إن مشيت على عقبيك ولن تبلغ الجبال طولاً إن مشيت على صدور قدميك. عن علي قال: كان رسول الله ﷺ إذا مشى تكفأ تكفؤاً كأنما ينحط من صبب. أخرجه الترمذي في الشمائل. قوله تكفؤاً: التكفؤ التمايل في المشي إلى

القفو كأنه يقفو الأمور، أي: يكون في إقفائها يتبعها ويتعرّفها. وحقيقة المعنى: لا تتكلم أيّها الإنسان بالحدس والظن. ﴿ إنّ السمعَ والبصر والفؤادَ كلُّ أولئك كان عنه مسئولاً ﴾، قيل: معناه يسأل المرء عن سمعه وبصره وفؤاده. وقيل: يسأل السمع والبصر والفؤاد عمّا فعله المرء. وقوله: ﴿ كل أولئك ﴾ أي كل هذه الجوارح والأعضاء، وعلى القول الأول يرجع أولئك إلى أربابها، أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أبو طاهر أحمد بن محمد بن الحسن أنا أبو علي حامد بن محمد الرفاء ثنا أبو الحسن علي بن عبد العزيز أنا الفضل بن دكين ثنا سعيد بن أوس العبسي حدّثني بلال بن يحيى العبسي أن شتير بن شكل أخبره عن أبيه شكل بن حميد قال: أتيت النبي ﷺ فقلت: يا رسول الله علّمني تعويذاً أتعوّذ به، قال: فأخذ بيدي ثم قال: «قل اللّهمَّ إني أعوذ بك من شرِّ سمعي وشرِّ بصري وشرِّ لساني وشرِّ قلبي وشرِّ مَنِيِّ» قال: فحفظتها قال سعيد: المني ماؤه.

﴿ ولا تمشِ في الأرض مرحاً ﴾، أي بطراً وكِبَراً وخُيلاءُ وهو تفسير المشي فلذلك أخرجه على المصدر، ﴿ إنك لن تخرق الأرض ﴾ أي: لن تقطعها بكبرك حتى تبلغ آخرها، ﴿ ولن تبلغ الجبال طولاً ﴾ أي: لا تقدر أن تطاول الجبال وتساويها بكبرك، معناه أن الإنسان لا ينال بكبره وبطره شيئاً كَمَن يريد خرق الأرض ومطاولة الجبال لا يحصل على شيء. وقيل: ذكر ذلك لأن مَن مشى مختالاً يمشي مرة على عقبه ومرة على صدور قدميه، فقيل له: إنك لن تنقب الأرض إن مشيت على عقبيك، ولن تبلغ الجبال طولاً إن مشيت على صدور قدميك. أخبرنا أبو محمد عبد الله بن عبد الصمد الجوزجاني أنا أبو القاسم علي بن أحمد الخزاعي أنا أبو الهيثم بن كليب ثنا أبو عيسى الترمذي ثنا سفيان بن وكيع ثنا أبي عن المسعودي عن عثمان بن مسلم بن هرمز عن نافع بن جبير بن مطعم عن علي قال: كان رسول الله ﷺ إذا مشى يتكفأ تكفؤاً كأنما ينحطّ من صبب. أخبرنا أبو محمد الجرجاني أنا أبو القاسم الخزاعي أنا الهيثم بن كليب ثنا أبو عيسى الترمذي ثنا قتيبة بن سعيد ثنا ابن لهيعة عن أبي يونس عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: رأيتُ شيئاً أحسن من رسول الله ﷺ كأنّ الشمس تجري في وجهه، وما رأيتُ أحداً أسرعَ في مشيه من رسول الله ﷺ كأنما الأرض تُطوى له، إنّا لنجهد أنفسنا وإنه لغير مكترث.

قدام، وقوله كأنما ينحط من صبب هو قريب من التكفؤ أي كأنه ينحدر من موضع عال، عن أبي هريرة قال: ما رأيت شيئاً أحسن من رسول الله ﷺ كأن الشمس تجري في وجهه، وما رأيت أحداً أسرع في مشيه من رسول الله ﷺ كأنما الأرض تطوى له إنا لنجهد أنفسنا. وإنه لغير مكترث. أخرجه الترمذي. قوله: لغير مكترث أي شاق والاكتراث الأمر الذي يشق على الإنسان ﴿كل ذلك كان سيئة عند ربك مكروهاً﴾ أي ما ذكر من الأمور التي نهى الله عنها فيما تقدم. فإن قلت: كيف قيل: سيئة مع قوله مكروهاً؟ قلت: قيل فيه تقديم وتأخير تقديره كل ذلك كان مكروهاً سيئة عند ربك وقوله: مكروهاً على التكرير لا على الصفة أي كل ذلك كان سيئة وكان مكروهاً وقيل إنه يرجع إلى المعنى دون اللفظ، لأن السيئة الذنب وهو مذكر. قوله سبحانه وتعالى:

ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾
أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟
وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ
عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ
كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ
قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾

﴿ذلك﴾ إشارة إلى ما تقدم من الأوامر والنواهي في هذه الآيات ﴿مما أوحى إليك ربك من الحكمة﴾ أي إن الأحكام المذكورة في هذه الآيات شرائع واجبة الرعاية في جميع الأديان والملل لا تقبل النسخ والإبطال فكانت محكمة وحكمة بهذا الاعتبار. وقيل: إن حاصل هذه الآيات يرجع إلى الأمر بالتوحيد وأنواع البر والطاعات والإعراض عن الدنيا والإقبال على الآخرة وذلك من الحكمة. قيل: إن هذه الآيات كانت في ألواح موسى عليه السلام أولها: ولا تجعل مع الله إلهاً آخر. قال الله سبحانه وتعالى وكتبنا له في الألواح من كل شيء موعظة، واعلم أن الله

﴿ كل ذلك كان سيئة عندَ ربِّك مكروهاً ﴾، قرأ ابن عامر وأهل الكوفة برفع الهمزة وضمّ الهاء على الإضافة، ومعناه كل الذي ذكرنا من قوله: ﴿ وقضى ربّك ألاّ تعبدوا إلاّ إيّاه ﴾ [الإسراء: ٢٣] ﴿ كان سيئة ﴾ أي: سيء ما عددنا عليك عند ربك مكروهاً لأن فيما عددنا أموراً حسنة كقوله: ﴿ وآتِ ذَا القربى حقّه ﴾ [الإسراء: ٢٦] ﴿ واخفض لهما جناح الذلّ ﴾ [الإسراء: ٢٤] وغير ذلك، وقرأ الآخرون ﴿ سيئة ﴾ منصوبة منوّنة يعني: كل الذي ذكرنا من قوله: ﴿ ولا تقتلوا أولادكم ﴾ إلى هذا الموضع سيئة لا حسنة فيه، إذ الكل يرجع إلى المنهي عنه دون غيره، ولم يقل مكروهة لأن فيه تقديماً وتأخيراً تقديره كل ذلك كان مكروهاً سيئة. وقوله: ﴿ مكروهاً ﴾ على التكرير لا على الصفة مجازه كل ذلك كان سيئة وكان مكروهاً، راجع إلى المعنى دون اللفظ، لأن السيئة الذنب وهو مذكّر.

﴿ ذلك ﴾، الذي ذكرناه، ﴿ مما أوحى إليكَ رَبُّكَ من الحكمة ﴾، وكل ما أمر الله به أو نهى الله عنه فهو حكمة. ﴿ ولا تجعلْ مع الله إلَهاً آخر ﴾، خاطب النبي ﷺ في هذه الآيات والمراد منه الأمة، ﴿ فتُلقى في جهنّم ملوماً مدحوراً ﴾، مطروداً مُبعداً من كل خير.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ أَفأَصفاكم ربكم ﴾، أي: اختاركم فجعل لكم الصفوة ولنفسه ما ليس بصفوة، يعني

سبحانه وتعالى: افتتح هذه الآيات بالأمر بالتوحيد والنهي عن الشرك وختمها به، والمقصود منه التنبيه على أن كل قول وعمل يجب أن يكرر فيه التوحيد لأنه رأس كل حكمة، وملاكها ومن عدمه لم ينفعه شيء ثم إنه سبحانه وتعالى ذكر في الآية الأولى أن الشرك يجب أن يكون صاحبه مذموماً مخذولاً وقال في هذه الآية **﴿ولا تجعل مع الله إلهاً آخر فتلقى في جهنم ملوماً مدحوراً﴾** والفرق بين المذموم والملوم أما كونه مذموماً فمعناه، أن يذكر له أن الفعل الذي أقدم عليه قبيح ومنكر فهذا معنى كونه مذموماً ثم يقال له: لم فعلت هذا الفعل القبيح وما الذي حملك عليه، وهذا هو اللوم والفرق بين المخذول والمدحور أن المخذول هو الضعيف الذي لا ناصر له، والمدحور هو المبعد المطرود عن كل خير. قوله سبحانه وتعالى **﴿أفأصفاكم ربكم﴾** يعني أفخصكم واختاركم فجعل لكم الصفوة ولنفسه ما ليس بصفوة **﴿بالبنين﴾** يعني اختصكم بأفضل الأولاد وهم البنون **﴿واتخذ من الملائكة إناثاً﴾** لأنهم كانوا يقولون: الملائكة بنات الله مع علمهم بأن الله سبحانه وتعالى هو الموصوف بالكمال الذي لا نهاية له وهذا يدل على نهاية جعل القائلين بهذا القول **﴿إنكم لتقولون قولاً عظيماً﴾** يخاطب مشركي مكة يعني بإضافتهم إليه الأولاد وهي خاصة بالأجسام، ثم إنهم يفضلون عليه أنفسهم حيث يجعلون له ما يكرهون لأنفسهم يعني البنات. قوله سبحانه وتعالى **﴿ولقد صرفنا في هذا القرآن﴾** يعني العبر والحكم والأمثال والأحكام والحجج والإعلام والتشديد في صرفنا للتكثير والتكرير **﴿ليذكروا﴾** أي ليتعظوا ويعتبروا **﴿وما يزيدهم﴾** أي تصريفنا وتذكيرنا **﴿إلا نفوراً﴾** أي تباعداً عن الحق **﴿قل﴾** أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين **﴿لو كان معه آلهة كما يقولون إذاً لابتغوا﴾** أي لطلبوا يعني هؤلاء الآلهة **﴿إلى ذي العرش سبيلاً﴾** أي بالمبالغة والقهر ليزيلوا ملكه كفعل ملوك الدنيا بعضهم ببعض. وقيل: معناه لتقربوا إليه. وقيل: معناه لتعرفوا إليه فضله فابتغوا ما يقربهم إليه والأول أصح، ثم نزه نفسه فقال عز وجل **﴿سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً﴾** معنى وصفه بذلك المبالغة في البراءة والبعد عما يصفونه. قوله عز وجل **﴿تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن﴾** يعني الملائكة والإنس والجن **﴿وإن من شيء إلا يسبح بحمده﴾** قال ابن عباس: وإن من شيء حي إلا

اختاركم، **﴿ بالبنيـن واتخذَ من الملائكة إناثاً ﴾** لأنهم كانوا يقولون الملائكة بنات الله، **﴿ إنكم لتقولون قولاً عظيماً ﴾**، يخاطب مشركي مكة.

﴿ ولقد صرّفنَا في هذا القرآن ﴾، يعني الصبر والحكم والأمثال والأحكام والحجج والإعلام والتشديد للتكثير والتكرير، **﴿ ليذّكّروا ﴾** أي: ليتذكروا ويتّعظوا، وقرأ حمزة والكسائي بإسكان الذال وضمّ الكاف وكذلك في الفرقان. **﴿ وما يزيدهم ﴾**، تصريفنا وتذكيرنا وتكريرنا، **﴿ إلا نفوراً ﴾**، ذهاباً وتباعداً عن الحق.

﴿ قلْ ﴾، يا محمد لهؤلاء المشركين، **﴿ لو كان معه آلهةٌ كما يقولون ﴾**، قرأ حفص وابن كثير **﴿ يقولون ﴾** بالياء وقرأ الآخرون بالتاء، **﴿ إذاً لابتَغوا ﴾**، لطلبوا يعني الآلهة **﴿ إلى ذي العرش سبيلاً ﴾**، بالمبالغة والقهر ليزيلوا ملكه، كفعل ملوك الدنيا بعضهم ببعض. وقيل: معناه لطلبوا إلى ذي العرش سبيلاً بالتقرّب إليه. قال قتادة: لعرفوا الله بفضله وابتغوا ما يقرّبهم إليه. والأول أصحّ، ثم نزّه نفسه.

فقال عزّ من قائل: **﴿ سبحانه وتعالى عمّا يقولون ﴾**، قرأ حمزة والكسائي (تقولون) بالتاء والآخرون بالياء، **﴿ علوّاً كبيراً ﴾**.

﴿ تسبّح له السمواتُ السبعُ والأرضُ ومَن فيهنّ ﴾، قرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي وحفص ويعقوب **﴿ تسبّح ﴾** بالتاء وقرأ الآخرون بالياء للحائل بين الفعل والتأنيث، **﴿ وإنْ من شيء إلّا يسبّح بحمده ﴾**، رُوِيَ عن ابن عباس أنه قال: وإن من شيء حيّ إلّا يسبّح بحمده. وقال قتادة: يعني الحيوانات والناميات. وقال عكرمة:

يسبح. وقيل: جميع الحيوانات والنباتات. قيل: إن الشجرة تسبح والاسطوانة لا تسبح. وقيل: إن التراب يسبح ما لم يبتل، فإذا ابتل ترك التسبيح، وإن الخرزة تسبح ما لم ترفع من موضعها، فإذا رفعت تركت التسبيح. وإن الورقة تسبح ما دامت على الشجرة، فإذا سقطت تركت التسبيح، وإن الماء يسبح ما دام جارياً فإذا ركد ترك التسبيح وإن الثوب يسبح ما دام جديداً فإذا اتسخ ترك التسبيح وإن الوحش والطير لتسبح إذا صاحت، فإذا سكتت تركت التسبيح وإن من شيء جماد أوحيّ إلا يسبح بحمده حتى صرير الباب ونقيض السقف وقيل: كل الأشياء تسبح الله حيواناً كان أو جماداً وتسبيحها: سبحان الله وبحمده، ويدل على ذلك ما روي عن ابن مسعود قال: كنا نعد الآيات بركة وأنتم تعدونها تخويفاً كنا مع رسول الله ﷺ في سفر فقل الماء فقال: «اطلبوا فضلة من ماء فجاؤوا بإناء فيه قليل، فأدخل يده ﷺ في الإناء ثم قال: حي على الطهور المبارك، والبركة من الله». فقد رأيت الماء ينبع من بين أصابع رسول الله ﷺ ولقد كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل. أخرجه البخاري (م) عن جابر بن سمرة أن رسول الله ﷺ قال «إن بمكة حجراً كان يسلم علي ليالي بعثت وإني لأعرفه الآن» (خ) عن ابن عمر قال: «كان رسول الله ﷺ يخطب إلى جذع فلما اتخذ المنبر تحول إليه فحن الجذع فأتاه فمسح بيده عليه» وفي رواية «فنزل فاحتضنه وسارَّه بشيء» ففي هذه الأحاديث دليل على أن الجماد يتكلم وأنه يسبح، وقال بعض أهل المعاني: تسبيح السموات والأرض، والجمادات والحيوانات سوى العقلاء بلسان الحال، بحيث تدل على الصانع وقدرته ولطيف حكمته فكأنها تنطق بذلك، ويصير لها بمنزلة التسبيح والقول الأول أصح كما دلت عليه الأحاديث، وأنه منقول عن السلف. واعلم أن لله تعالى علماً في الجمادات لا يقف عليه غيره فينبغي أن نكل علمه إليه. وقوله تعالى ﴿**ولكن لا تفقهون تسبيحهم**﴾ أي لا تعلمون ولا تفهمون تسبيحهم، ماعدا من يسبح بلغتكم ولسانكم ﴿**إنه كان حليماً غفوراً**﴾ أي حيث لم يعاجلكم بالعقوبة على

الشجرة تسبّح والأسطوانة لا تسبّح. وعن المِقدام بن معد يكرب قال: إن التراب يسبّح ما لم يبتلّ، فإذا ابتلّ ترك التسبيح، وإن الخرزة تسبّح ما لم تُرفَع من موضعها، فإذا رُفِعَت تركت التسبيح، وإن الورقة لتسبّح ما دامت على الشجرة فإذا سقطت تركت التسبيح، وإن الثوب ليسبّح ما دام جديداً فإذا وُسِّخ ترك التسبيح، وإن الماء يسبّح ما دام جارياً فإذا ركد ترك التسبيح، وإن الوحش والطير تسبّح إذا صاحت فإذا سكنت تركت التسبيح. وقال إبراهيم النخعي: وإن من شيء جماد إلّا يسبّح بحمده حتى صرير الباب ونقيض السقف. وقال مجاهد: كل الأشياء تسبّح لله حيّاً كان أو ميتاً أو جماداً وتسبيحها سبحان الله وبحمده. أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا محمد بن المثنى أنا أبو أحمد الزبير أنا إسرائيل عن منصور عن إبراهيم عن علقمة عن عبد الله قال: كنّا نعدّ الآيات بركة وأنتم تعدّونها تخويفاً كنّا مع رسول الله ﷺ في سفر فقلَّ الماء فقال: «اطلبوا فضلة من ماء فجاؤوا بإناء فيه ماء قليل، فأدخل يده في الإناء ثم قال: حيَّ على الطهور المبارك والبركة من الله»، فلقد رأيت الماء ينبع من أصابع رسول الله ﷺ، ولقد كنّا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل. وقال بعض أهل المعاني: تسبّح السمٰوات والأرض والجمادات وسائر الحيوانات سوى العقلاء ما دامت تدلّ بلطيف تركيبها وعجيب هيئتها على خالقها، فيصير ذلك بمنزلة التسبيح منها. والأول هو المنقول عن السلف واعلم أن الله تعالى علماً في الجمادات لا يقف عليه غيره فينبغي أن يوكل علمه إليه. ﴿ **ولكن لا تفقهون تسبيحهم** ﴾، أي لا تعلمون تسبيح ما عدا من يسبّح بلغاتكم وألسنتكم، ﴿ **إنه كان حليماً غفوراً** ﴾.

﴿ **وإذا قرأتَ القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يُؤمنون بالآخرة حجاباً مستوراً** ﴾، يحجب قلوبهم عن فهمه والانتفاع به. قال قتادة: وهو الأكنّة، والمستور بمعنى الساتر كقوله: ﴿ وكان وعده مأتيّاً ﴾ [مريم: ٦١] مفعول بمعنى فاعل. وقيل: مستور عن أعين الناس فلا يرونه. وفسّره بعضهم بالحجاب عن الأعين. الظاهر كما رُوِيَ عن

غفلتكم وجهلكم بالتسبيح. قوله عز وجل ﴿وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجاباً مستوراً﴾ أي يحجب قلوبهم عن فهمه والانتفاع به، وقيل: معناه مستوراً عن أعين الناس فلا يرونه كما روي عن سعيد بن جبير أنه قال: «لما نزلت تبت يدا أبي لهب جاءت امرأة أبي لهب ومعها حجر والنبي ﷺ مع أبي بكر فلم تره فقالت لأبي بكر: أين صاحبك لقد بلغني أنه هجاني فقال لها أبو بكر والله ما ينطق بالشعر، ولا يقوله فرجعت وهي تقول قد كنت جئت بهذا الحجر لأرضخ رأسه فقال أبو بكر: ما رأتك يا رسول الله. قال: لا لم يزل ملك بيني وبينها» ﴿وجعلنا على قلوبهم أكنة﴾ أي أغطية ﴿أن يفقهوه﴾ أي لئلا يفهموه ﴿وفي آذانهم وقراً﴾ أي ثقلاً لئلا يسمعوه ﴿وإذا ذكرت ربك في القرآن وحده﴾ يعني إذا قلت لا إله إلا الله وأنت تتلو القرآن ﴿ولّوا على أدبارهم نفوراً﴾ جمع نافر.

﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾
ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾ وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا
جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ ۞ قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ ۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى
فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ
فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾ وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ
بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ ۖ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ ۚ وَمَآ
أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٤﴾ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّۦنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ
زَبُورًا ﴿٥٥﴾ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ
يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾﴾

﴿نحن أعلم بما يستمعون به﴾ أي من الهزء بك وبالقرآن وقيل: معناه نحن أعلم بالوجه الذي يستمعون به وهو التكذيب ﴿إذ يستمعون إليك﴾ أي وأنت تقرأ القرآن ﴿وإذ هم نجوى﴾ أي وبما يتناجون به في أمرك، وقيل: معناه ذوو نجوى بعضهم يقول: هو مجنون وبعضهم يقول هو كاهن وبعضهم يقول ساحر أو شاعر ﴿إذ يقول الظالمون﴾ يعني الوليد بن المغيرة وأصحابه ﴿إن تتبعون إلا رجلاً مسحوراً﴾ أي مطبوباً وقيل مخدوعاً وقيل: معناه أنه سحر

سعيد بن جبير أنه لمّا نزلت: ﴿ تبّت يدا أبي لهب ﴾ [المسد: ١] جاءت امرأة أبي لهب ومعها حجر والنبي ﷺ مع أبي بكر فلم تره، فقالت لأبي بكر: أين صاحبك لقد بلغني أنه هجاني؟ فقال: والله ما ينطق عن الهوى ولا ينطق بالشعر ولا يقوله، فرجعت وهي تقول قد كنت جئت بهذا الحجر لأرضخ رأسه، فقال أبو بكر: ما رأتك يا رسول الله، قال: «لا لم يزل ملك بيني وبينها يسترني».

﴿ وجعلنا على قلوبهم أكنّةً ﴾، أغطية، ﴿ أن يفقهوه ﴾، كراهية أن يفقهوه. وقيل: لئلا يفقهوه، ﴿ وفي آذانهم وقراً ﴾، ثقلاً لئلا يسمعوه. ﴿ وإذا ذكرتَ ربَّك في القرآن وحده ﴾، يعني إذا قلت: لا إله إلاّ الله في القرآن وأنت تتلوه، ﴿ وَلّوا على أدبارِهم نفوراً ﴾، جمع نافر مثل قاعد وقعود وجالس وجلوس، أي نافرين.

﴿ نحن أعلم بما يستمعون به ﴾، قيل: به صلة أي: يطلبون سمعه، ﴿ إذ يستمعون إليك ﴾، وأنت تقرأ القرآن، ﴿ وإذْ هم نجوى ﴾، يتناجون في أمرك. وقيل: ذو نجوى، فبعضهم يقول هو مجنون، وبعضهم يقول

فجن. وقيل: هو من السحر وهو الرئة، ومعناه أنه بشر مثلكم يأكل ويشرب قال الشاعر:

أرانـــا مـــوضعيـــن لأمـــر غيـــب ونسخـــر بـــالطعـــام وبـــالشـــراب

أي يغذى بهما **﴿انظر كيف ضربوا لك الأمثال﴾** أي الأشباه فقالوا: ساحر شاعر كاهن مجنون **﴿فضلّوا﴾** أي في جميع ذلك وحاروا **﴿فلا يستطيعون سبيلاً﴾** أي إلى طريق الحق **﴿وقالوا أئذا كنا عظاماً﴾** أي بعد الموت **﴿ورفاتاً﴾** أي تراباً وقيل: الرفات هي الأجزاء المتفتتة من كل شيء تكسر **﴿أئنا لمبعوثون خلقاً جديداً﴾** فيه أنهم استبعدوا الإعادة بعد الموت والبلى. فقال سبحانه وتعالى رداً عليهم **﴿قل﴾** أي قل يا محمد **﴿كونوا حجارة﴾** أي في الشدة **﴿أو حديداً﴾** أي في القوة وليس هذا بأمر إلزام بل هو أمر تعجيزي أي استشعروا في قلوبكم، أنكم حجارة أو حديد في القوة **﴿أو خلقاً مما يكبر في صدوركم﴾** قيل: يعني السماء والأرض والجبال لأنها أعظم المخلوقات. وقيل: يعني به الموت لأنه لا شيء في نفس ابن آدم أكبر من الموت، ومعناه لو كنتم الموت بعينه لأميتنكم ولأبعثنكم **﴿فسيقولون من يعيدنا﴾** أي من يبعثنا بعد الموت **﴿قل الذي فطركم﴾** أي خلقكم **﴿أول مرة﴾** فمن قدر على الإنشاء قدر على الإعادة **﴿فسينغضون إليك رؤوسهم﴾** أي يحركونها إذا قلت لهم ذلك مستهزئين بما تقول **﴿ويقولون متى هو﴾** يعني البعث والقيامة **﴿قل عسى أن يكون قريباً﴾** أي هو قريب **﴿يوم يدعوكم﴾** أي من قبوركم إلى موقف القيامة **﴿فتستجيبون بحمده﴾** قال ابن عباس: بأمره وقيل بطاعته وقيل مقرين بأنه خالقهم وباعثهم ويحمدونه حين لا ينفعهم الحمد، وقيل: هذا خطاب مع المؤمنين فإنهم يبعثون حامدين **﴿وتظنون إن لبثتم﴾** أي في الدنيا وقيل في القبور **﴿إلا قليلاً﴾** وذلك لأن الإنسان لو مكث في الدنيا وفي القبر ألوفاً من السنين، عد ذلك قليلاً بنسبة مدة القيامة والخلود في الآخرة، وقيل: إنهم يستحقرون مدة الدنيا في جنب القيامة. قوله سبحانه وتعالى **﴿وقل لعبادي يقولوا التي هي أحسن﴾** وذلك

كاهن، وبعضهم يقول ساحر، وبعضهم يقول شاعر. **﴿ إذْ يقول الظالمون ﴾**، يعني الوليد بن المغيرة وأصحابه، **﴿ إنْ تتبعون إلاّ رجلاً مسحوراً ﴾**، مطبوباً. وقال مجاهد: مخدوعاً. وقيل: مصروفاً عن الحق. يقال: ما سحرك عن كذا أي ما صرفك عنه؟ وقال أبو عبيدة: أي رجلاً له سحراً، والسحر الرئة أي إنه بشر مثلكم تغذّى معلّلاً بالطعام والشراب يأكل ويشرب. قال الشاعر:

أرنـــا مـوضعين لأمـــر غيب ويسحـر بالـطعام وبـالشراب

أي: يغذّي ويعلّل.

﴿ انظر ﴾، يا محمد، **﴿ كيف ضربوا لكَ الأمثال ﴾**، الأشباه، قالوا: شاعر وساحر وكاهن ومجنون، **﴿ فضلّوا ﴾**، فحاروا وحادوا، **﴿ فلا يستطيعون سبيلاً ﴾** أيْ: وصولاً إلى طريق الحق.

﴿ وقالوا أئذا كنّا عظاماً ورفاتاً ﴾ بعد الموت. قال مجاهد: تراباً. وقيل: حطاماً. والرفات: كل ما يُكسَر ويُبلى من كل شيء كالفتات والحطام.

﴿ أئنّا لمبعوثون خلقاً جديـداً ﴾.

﴿ قلْ ﴾ لهم يا محمد **﴿ كُونُوا حجارةً أو حديداً﴾**، في الشدّة والقوة، وليس هذا بأمر إلزام بل هو أمر تعجيز، أي: استشعروا في قلوبكم أنكم حجارة أو حديد في القوة.

﴿ أو خلقاً مما يكبر في صدوركم ﴾، قيل السماء والأرض والجبال. وقال مجاهد وعكرمة وأكثر المفسّرين: إنه الموت، فإنه ليس في نفس ابن آدم شيء أكبر من الموت، أي: ولو كنتم الموت بعينه لأُميتنّكم ولأُبعثنّكم، **﴿ فسيقولون مَن يُعيدنا ﴾**، مَن يبعثنا بعد الموت، **﴿ قل الذي فطركم ﴾**، خلقكم، **﴿ أول مرة ﴾**، ومَن قدر على

أن المشركين كانوا يؤذون المسلمين، فشكوا ذلك إلى رسول الله ﷺ فأنزل الله عز وجل. وقل لعبادي يقولوا يعني للكفار التي هي أحسن، أي لا يكافئوهم على سفههم بل يقولون لهم يهديكم الله وكان هذا قبل الإذن في القتال والجهاد. وقيل: نزلت في عمر بن الخطاب وذلك أنه شتمه بعض الكفار، فأمره الله بالعفو. وقيل: أمر الله المؤمنين أن يقولوا ويفعلوا الخلة التي هي أحسن وقيل الأحسن كلمة الإخلاص لا إله إلا الله ﴿**إن الشيطان ينزغ بينهم**﴾ أي يفسد ويلقي العداوة بينهم ﴿**إن الشيطان كان للإنسان عدواً مبيناً**﴾ أي ظاهر العداوة. قوله عز وجل: ربكم أعلم بكم ﴿**إن يشأ يرحمكم**﴾ أي يوفقكم للإيمان فتؤمنوا ﴿**أو إن يشأ يعذبكم**﴾ أي يميتكم على الشرك فتعذبوا، وقيل معناه إن يشأ يرحمكم فينجيكم من أهل مكة، وإن يشأ يعذبكم أي يسلطهم عليكم ﴿**وما أرسلناك عليهم وكيلاً**﴾ أي حفيظاً وكفيلاً قيل: نسختها آية القتال ﴿**وربك أعلم بمن في السموات والأرض**﴾ يعني أن علمه غير مقصور عليكم بل علمه متعلق بجميع الموجودات والمعدومات ومتعلق بجميع ذات الأرضين والسموات، ويعلم حال كل أحد ويعلم ما يليق به من المصالح والمفاسد وقيل: معناه أنه عالم بأحوالهم واختلاف صورهم وأخلاقهم ومللهم وأديانهم ﴿**ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض**﴾ وذلك أنه اتخذ إبراهيم خليلاً وكلم موسى تكليماً، وقال لعيسى: كن فكان وآتى سليمان ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده وآتى داود زبوراً وذلك قوله تعالى ﴿**وآتينا داود زبوراً**﴾ وهو كتاب أنزله الله على داود يشتمل على مائة وخمسين سورة، كلها دعاء وثناء على الله تعالى وتحميد وتمجيد ليس فيه حلال ولا حرام ولا فرائض ولا حدود ولا أحكام. فإن قلت: لم خص داود في هذه الآية بالذكر دون غيره من الأنبياء؟ قلت: فيه وجوه: أحدها أن الله ذكر أنه فضل بعض النبيين على بعض ثم قال تعالى: وآتينا داود زبوراً وذلك أن داود أعطي مع النبوة الملك، فلم يذكره بالملك وذكر ما آتاه من الكتاب تنبيهاً على أن الفضل المذكور في هذه الآية المراد به العلم لا الملك

الإنشاء قدر على الإعادة، ﴿ **فسينغضون إليك رؤوسَهم** ﴾، أي: يحرّكونها إذا قلت لهم ذلك مستهزئين بها، ﴿ **ويقولون متى هو** ﴾، أي: البعث والقيامة، ﴿ **قلْ عسى أن يكون قريباً** ﴾ أي: هو قريب، لأن عسى من الله واجب، نظيره قوله تعالى: ﴿ وما يُدريك لعلّ الساعة تكون قريباً ﴾ [الأحزاب: ٦٣].

﴿ **يوم يدعوكم** ﴾ من قبوركم إلى موقف القيامة، ﴿ **فتستجيبون بحمده** ﴾، قال ابن عباس: بأمره. وقال قتادة: بطاعته. وقيل: مقرّين بأنه خالقهم وباعثهم ويحمدونه حتى لا ينفعهم الحمد. قيل: هذا خطاب مع المؤمنين فإنهم يبعثون حامدين. ﴿ **وتظنُّون إنْ لبثتم** ﴾ في الدنيا أو في القبور، ﴿ **إلاّ قليلاً** ﴾، لأنّ الإنسان لو مكث أُلوفاً من السنين في الدنيا أو في القبور عدّ ذلك قليلاً في مدة القيامة والخلود. قال قتادة: يستحقرون مدة الدنيا في جنب القيامة.

قوله تعالى: ﴿ **وقلْ لعبادي يقولوا التي هي أحسنُ** ﴾، قال الكلبي: كان المشركون يؤذون المسلمين فشكوا إلى رسول الله ﷺ فأنزل الله تعالى: ﴿ **وقلْ لعبادي يقولوا** ﴾ للكافرين ﴿ **التي هي أحسن** ﴾ ولا يكافؤوهم بسفههم. قال الحسن: يقول له يهديك الله. وكان هذا قبل الإذن في الجهاد والقتال. وقيل: نزلت في عمر بن الخطاب شتمه بعض الكفّار فأمره الله بالعفو. وقيل: أمر الله المؤمنين بأن يقولوا ويفعلوا التي هي أحسن أي: الخلّة التي هي أحسن. وقيل: الأحسن: كلمة الإخلاص لا إلّه إلاّ الله. ﴿ **إنّ الشيطان يَنْزَغُ بينهم** ﴾، أي: يفسد ويلقي العداوة بينهم، ﴿ **إنّ الشيطان كان للإنسان عدوّاً مبيناً** ﴾ ظاهر العداوة.

﴿ **ربكم أعلم بكم إنْ يشأ يَرْحَمْكم** ﴾، يوفّقكم فتؤمنوا، ﴿ **أو إن يشأ يعذّبْكم** ﴾، يميتكم على الشرك فتعذبوا، قاله ابن جريج. وقال الكلبي: إن يشأ يرحمكم فينجيكم من أهل مكة، وإن يشأ يعذبكم فيسلطهم عليكم، ﴿ **وما أرسلناك عليهم وكيلاً** ﴾ حفيظاً وكفيلاً. قيل: نسختها آية القتال.

والمال. الوجه الثاني: أن الله سبحانه وتعالى كتب له في الزبور أن محمداً خاتم الأنبياء، وأن أمته خير الأمم فلهذا خصه بالذكر. الوجه الثالث: أن اليهود زعمت أن لا نبي بعد موسى، ولا كتاب بعد التوراة فكذبهم الله بقوله: وآتينا داود زبوراً ومعنى الآية أنكم لن تنكروا تفضيل النبيين، فكيف تنكرون تفضيل النبي ﷺ وإعطاءه القرآن وأن الله آتى موسى التوراة، وداود الزبور وعيسى الإنجيل فلم يبعد أن يفضل محمداً ﷺ على جميع الخلائق ﴿**ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء**﴾ وهذا خطاب مع من يقر بتفضيل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. قوله عز وجل ﴿**قل ادعوا الذين زعمتم من دونه**﴾ وذلك أن الكفار أصابهم قحط شديد حتى أكلوا الكلاب والجيف، فاستغاثوا بالنبي ﷺ ليدعو لهم فقال الله عز وجل: قل ادعوا الذين زعمتم أنهم آلهة من دونه ﴿**فلا يملكون كشف الضر عنكم**﴾ أي الجوع والقحط ﴿**ولا تحويلاً**﴾ أي إلى غيركم أو تحويل الحال من العسر إلى اليسر، ومقصود الآية الرد على المشركين، حيث قالوا ليس لنا أهلية أن نشتغل بعبادة الله فنحن نعبد المقربين إليه، وهم الملائكة. ثم إنهم اتخذوا لذلك الملك الذي عبدوه تمثالاً وصورة وقد اشتغلوا بعبادته فاحتج على بطلان قولهم بهذه الآية وبين عجز آلهتهم ثم قال تعالى ﴿**أولئك الذين يدعون**﴾ أي الذين يدعون المشركون آلهة ﴿**يبتغون إلى ربهم الوسيلة**﴾ أي القربة والدرجة العليا. قال ابن عباس: هم عيسى وأمه وعزير والملائكة والشمس والقمر والنجوم. وقال عبد الله بن مسعود: نزلت هذه الآية في نفر من العرب كانوا يعبدون نفراً من الجن فأسلم أولئك الجن، ولم يعلم الإنس بذلك فتمسكوا بعبادتهم فعيرهم الله وأنزل هذه الآية. قوله تعالى ﴿**أيهم أقرب**﴾ معناه، ينظرون أيهم أقرب إلى الله فيتوسلون به، وقيل: أيهم أقرب يبتغي الوسيلة إلى الله، ويتقرب إليه بالعمل الصالح وازدياد الخير والطاعة ﴿**ويرجون رحمته**﴾ أي جنته ﴿**ويخافون عذابه**﴾ وقيل:

﴿ **وربُّك أعلم بمَن في السمٰوات والأرض** ﴾، أي: ربك العالم بمَن في السمٰوات والأرض فجعلهم مختلفين في صورهم وأخلاقهم وأحوالهم وملكهم، ﴿ **ولقد فضّلنا بعض النبيّين على بعض** ﴾، قيل جعل أهل السمٰوات والأرض مختلفين كما فضّل بعض النبيّين على بعض. قال قتادة في هذه الآية اتخذ الله إبراهيم خليلاً وكلّم الله موسى تكليماً وقال لعيسى كن فيكون، وآتى سليمان ملكاً عظيماً لا ينبغي لأحد من بعده، وآتى داود زَبُوراً كما قال: ﴿ **وآتينا داودَ زَبُوراً** ﴾، والزبور كتاب علمه الله داود يشتمل على مائة وخمسين سورة كلها دعاء وتمجيد وثناء على الله عزّ وجلّ، وليس فيها حرام ولا حلال ولا فرائض ولا حدود، معناه: إنكم لم تنكروا تفضيل النبيّين فكيف تنكرون فضل النبيّ ﷺ وإعطاءَه القرآن؟ وهذا خطاب مع مَن يقرّ بتفضيل الأنبياء عليهم السلام من أهل الكتاب وغيرهم.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ **قلِ ادعوا الذين زعمتم من دونه** ﴾، وذلك أن المشركين أصابهم قحط شديد حتى أكلوا الكلاب والجيف فاستغاثوا بالنبي ﷺ ليدعو لهم، قال الله تعالى: ﴿ **قل** ﴾ للمشركين ﴿ **ادعو الذين زعمتم** ﴾ أنها آلهة ﴿ **من دونه** ﴾ ﴿ **فلا يملكون كشفَ الضرّ** ﴾، القحط والجوع، ﴿ **عنكم ولا تحويلاً** ﴾، إلى غيركم أو تحويل الحال من العسر إلى اليسر.

﴿ **أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة** ﴾، يعني الذين يدعونهم المشركون أنهم آلهة يعبدونهم. قال ابن عباس ومجاهد: وهم عيسى وأمه وعزير والملائكة، والشمس والقمر والنجوم، يبتغون أي يطلبون إلى ربهم **الوسيلة**، أي القربة. وقيل: **الوسيلة** الدرجة أي: يتضرّعون إلى الله في طلب الدرجة العليا. وقيل: الوسيلة كل ما يتقرّب به إلى الله تعالى. وقوله: ﴿ **أيّهم أقرب** ﴾، معناه ينظرون أيّهم أقرب إلى الله فيتوسلون به. وقال الزجّاج: أيّهم أقرب يبتغي الوسيلة إلى الله تعالى ويتقرّب إليه بالعمل الصالح، ﴿ **ويرجون رحمته** ﴾، جنته، ﴿ **ويخافون عذابه إنّ عذابَ ربِّكَ كان محذوراً** ﴾، أي يطلب منه الحذر. وقال عبد الله بن مسعود: نزلت الآية في نفر من

معناه يرجون ويخافون كغيرهم من عباد الله فكيف يزعمون أنهم آلهة ﴿إن عذاب ربك كان محذوراً﴾ أي حقيقاً بأن يحذره كل أحد من ملك مقرب، ونبي مرسل فضلاً عن غيرهم من الخلائق. قوله سبحانه وتعالى:

﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾ وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَن كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَٰذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾﴾

﴿وإن من قرية إلا نحن مهلكوها قبل يوم القيامة﴾ أي بالموت والخراب ﴿أو معذبوها عذاباً شديداً﴾ أي بالقتل وأنواع العذاب إذا كفروا وعصوا، وقيل: الإهلاك في حق المؤمنين الإماته وفي حق الكفار العذاب قال عبد الله بن مسعود: إذا ظهر الزنا والربا في قرية أذن الله في هلاكها ﴿كان ذلك في الكتاب﴾ أي في اللوح المحفوظ ﴿مسطوراً﴾ أي مكتوباً مثبتاً. عن عبادة بن الصامت قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول «إن أول ما خلق الله القلم فقال له: اكتب فقال: ما أكتب قال: القدر وما هو كائن إلى يوم القيامة إلى الأبد» أخرجه الترمذي. قوله سبحانه وتعالى ﴿وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون﴾ قال ابن عباس «سأل أهل مكة رسول الله ﷺ أن يجعل لهم الصفا ذهباً وفضة وأن ينحي الجبال عنهم ليزرعوا فأوحى الله إلى رسول الله ﷺ إن شئت أن أستأني بهم فعلت وإن شئت أن

العرب كانوا يعبدون نفراً من الجن فأسلم الجنيّون ولم يعلم الإنس الذين كانوا يعبدونهم بإسلامهم، فتمسكوا بعبادتهم فعيّرهم الله وأنزل هذه الآية، وقرأ ابن مسعود ﴿ الذين تدعون ﴾ بالتاء.

﴿ وإنْ من قريةٍ ﴾ وما من قرية، ﴿ إلاّ نحنُ مُهلكوها قبلَ يومِ القيامة ﴾، أي: مخرّبوها ومُهلِكوا أهلها، ﴿ أو معذّبوها عذاباً شديداً ﴾، بأنواع العذاب إذا كفروا وعصوا. وقال مقاتل وغيره: مهلكوها في حق المؤمنين بالإماتة ومعذّبوها في حقّ الكفّار بأنواع العذاب. قال عبد الله بن مسعود: إذا ظهر الزنا والربا في قرية أذِنَ الله في إهلاكها. ﴿ كان ذلك في الكتاب ﴾، في اللوح المحفوظ، ﴿ مسطوراً ﴾، مكتوباً. قال عبادة بـن الصامت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أول ما خلق الله القلم فقال اكتب، فقال: ما أكتب؟ قال: القدر، وما كان وما هو كائن إلى الأبد».

قوله: ﴿ وما منعنا أن نرسل بالآيات إلاّ أن كذّب بها الأوّلون ﴾، قال ابن عباس: سأل أهل مكة رسول الله ﷺ أن يجعل لهم الصفا ذهباً وأن ينحّي الجبال عنهم فيزرعوا فأوحى الله تعالى إلى رسوله ﷺ إن شئت أن أُستأني بهم فعلت، وإن شئت أن أوتيهم ما سألوا فعلت، فإن لم يؤمنوا أهلكهم كما أهلكتُ مَن كان قبلهم، فقال النبي ﷺ: «لا بل تستأني بهم»، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿ وما منعنا أن نرسل بالآيات ﴾ التي سألها كفّار قريش ﴿ إلاّ

أوتيهم ما سألوا فعلت، فإن لم يؤمنوا أهلكتهم كما أهلكت من كان قبلهم فقال النبي ﷺ لا بل تستأني بهم» فأنزل الله عز وجل ﴿**وما منعنا أن نرسل بالآيات**﴾ أي التي سألها الكفار قومك ﴿**إلا أن كذب بها الأولون**﴾ أي فأهلكناهم فإن لم يؤمن قومك بعد إرسال الآيات أهلكناهم، لأن من سنتنا في الأمم إذا سألوا الآيات ثم لم يؤمنوا بعد إتيانها أن نهلكهم ولا نمهلهم وقد حكمنا بإمهال هذه الأمة إلى يوم القيامة، ثم ذكر من تلك الآيات التي اقترحها الأولون ثم كذبوا بها لما أرسلت فأهلكوا فقال تعالى ﴿**وآتينا ثمود الناقة مبصرة**﴾ أي بينة، وذلك لأن آثار إهلاكهم في بلاد العرب قريبة من حدودهم يبصرها صادرهم وواردهم ﴿**فظلموا بها**﴾ أي جحدوا أنها من عند الله. وقيل: فظلموا أنفسهم بتكذيبها فعاجلناهم بالعقوبة ﴿**وما نرسل بالآيات**﴾ المقترحة ﴿**إلا تخويفاً**﴾ أي وما نرسل بالآيات إلا تخويفاً من العذاب، فإن لم يخافوا وقع عليهم. وقيل: معناه وما نرسل بالآيات يعني العبر والدلالات، إلا تخويفاً أي إنذاراً بعذاب الآخرة إن لم يؤمنوا فإن الله سبحانه وتعالى يخوف الناس بما شاء من آياته لعلهم يرجعون. قوله عز وجل ﴿**وإذ قلنا لك**﴾ أي واذكر يا محمد إذ قلنا لك ﴿**إن ربك أحاط بالناس**﴾ أي إن قدرته محيطة بهم فهم في قبضته وقدرته لا يقدرون على الخروج من مشيئته وإذا كان الأمر كذلك فهم لا يقدرون على أمر من الأمور إلا بقضائه وقدره وهو حافظك ومانعك منهم، فلا تهبهم وامضِ لما أمرك من التبليغ للرسالة، فهو ينصرك ويقويك على ذلك ﴿**وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس**﴾ الأكثرون من المفسرين على أن المراد منها ما رأى النبي ﷺ ليلة المعراج من العجائب والآيات. قال ابن عباس: هي رؤيا عين أريها رسول الله ﷺ ليلة المعراج وهي ليلة أسري به إلى بيت المقدس أخرجه البخاري. وهو قول سعيد بن جبير والحسن ومسروق وقتادة ومجاهد وعكرمة وابن جريج وغيرهم. والعرب تقول: رأيت بعيني رؤية ورؤيا فلما ذكرها رسول الله ﷺ للناس أنكر بعضهم ذلك وكذبوا فكانت فتنة للناس، وازداد المخلصون إيماناً. وقال

أن كذّب بها الأوّلون ﴾ فأهلكناهم، فإن لم يؤمن قومك بعد إرسال الآيات أهلكناهم، لأن من شأننا في الأمم إذا سألوا الآيات ثم لم يؤمنوا بعد إتيانها أن نهلكهم ولا نمهلهم، وقد حكمنا بإمهال هذه الأمة في العذاب، فقال جلّ ذكره: ﴿ بل الساعةُ موعدهم والساعة أدهى وأمرّ ﴾ [القمر: ٤٦]، ثم قال: ﴿ **وآتينا ثمودَ الناقةَ مبصرةً** ﴾، مضيئة بيّنة، ﴿ **فظلموا بها** ﴾، أي: جحدوا بها أنها من عند الله كما قال: ﴿ بما كانوا بآياتنا يظلمون ﴾ [الأعراف: ٩]، أي: يجحدون. وقيل: ظلموا أنفسهم بتكذيبها يريد فعاجلناهم بالعقوبة، ﴿ **وما نرسل بالآيات** ﴾ أي: العِبَر والدلالات، ﴿ **إلّا تخويفاً** ﴾، للعباد ليؤمنوا. قال قتادة: إن الله تعالى يُخوّف الناس بما شاء من آياته لعلّهم يرجعون.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ **وإذْ قلنا لك إنّ ربّك أحاط بالناس** ﴾، أي: هم في قبضته لا يقدرون على الخروج عن مشيئته فهو حافظك ومانعك منهم فلا تهبهم وامضِ إلى ما أمر الله به من تبليغ الرسالة، كما قال: ﴿ والله يعصمك من الناس ﴾ [المائدة: ٦٧]، ﴿ **وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلّا فتنة للناس** ﴾، فالأكثرون على أن المراد منه ما رأى النبي ﷺ ليلة المعراج من العجائب والآيات. قال ابن عباس: هي رؤيا عين أُريها النبي ﷺ، وهو قول سعيد بن جبير والحسن ومسروق وقتادة ومجاهد وعكرمة وابن جريج والأكثرين. والعرب تقول: رأيت بعيني رؤية ورؤيا، فلما ذكرها رسول الله ﷺ للناس أنكر بعضهم ذلك، وكذبوا وكان فتنة للناس. وقال قوم: أسري بروحه دون بدنه. وقال بعضهم: كان له معراجان رؤية بالعين ومعراج رؤيا بالقلب، وقال قوم: أراد بهذه الرؤيا ما رأى ﷺ عام الحديبية أنه دخل مكة هو وأصحابه فجعل السير إلى مكة قبل الأجل فصدّه المشركون، فرجع إلى المدينة وكان رجوعه في ذلك العام بعدما أخبر أنه يدخلها فكان رجوعه فتنة لبعضهم، حتى دخلها في العام المقبل، فأنزل الله تعالى: ﴿ لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق ﴾ [الفتح: ٢٧]، ﴿ **والشجرة الملعونة في القرآن** ﴾، يعني شجرة

قوم: أسري بروحه دون جسده وهو ضعيف. وقال قوم كان له معراجان: معراج رؤية عين في اليقظة ومعراج رؤيا منام. وقيل: أراد بهذه الرؤيا ما رأى رسول الله ﷺ عام الحديبية، أنه دخل مكة هو وأصحابه فعجل المسير إلى مكة قبل الأجل، فصده المشركون فرجع إلى المدينة فكان رجوعه في ذلك العام بعدما أخبر أنه يدخلها فتنة لبعضهم، ثم دخل مكة في العام المقبل وأنزل الله عز وجل لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق، وقيل: إن النبي ﷺ رأى في المنام أن ولد الحكم بن أمية يتداولون منبره كما يتداول الصبيان الكرة فساءه ذلك. فإن اعترض معترض على هذا التفسير وقال السورة مكية وهاتان الواقعتان كانتا بالمدينة أجيب بأنه لا إشكال فيه فإنه لا يبعد أن النبي ﷺ رأى ذلك بمكة، ثم كان ذلك حقيقة بالمدينة ﴿**والشجرة الملعونة في القرآن**﴾ يعني شجرة الزقوم التي وصفها الله تعالى في سورة الصافات والعرب تقول لكل طعام كريه: طعام ملعون، والفتنة فيها أن أبا جهل قال: إن ابن أبي كبشة يعني النبي ﷺ توعدكم بنار تحرق الحجارة، ثم يزعم أنه تنبت فيها شجرة وتعلمون أن النار تحرق الشجر. وقيل: إن عبد الله بن الزبعري قال: إن محمداً يخوفنا بالزقوم ولا نعرف الزقوم إلا الزبد والتمر، فقال أبو جهل: يا جارية تعالي فزقمينا فأتت بزبد وتمر فقال يا قوم فإن هذا ما يخوفكم به محمد، فأنزل الله سبحانه وتعالى حين عجبوا أن يكون في النار شجر ﴿**إنا جعلناها فتنة للظالمين**﴾ الآيات. فإن قلت: أين لعنت شجرة الزقوم في القرآن؟ قلت: لعنت حيث لعن الكفار الذين يأكلونها لأن الشجرة لا ذنب لها حتى تلعن، وإنما وصفت بلعن أصحابها على المجاز. وقيل وصفها الله تعالى باللعن لأن اللعن الإبعاد من الرحمة، وهي في أصل جهنم في أبعد مكان من الرحمة، وقال ابن عباس: في رواية عنه إن الشجرة الملعونة هي الكشوث الذي يلتوي على الشجر والشوك فيجففه ﴿**ونخوفهم فما يزيدهم**﴾ أي التخويف ﴿**إلا طغياناً كبيراً**﴾ أي تمرداً وعتواً عظيماً قوله سبحانه وتعالى ﴿**وإذ قلنا للملائكة اسجدوا**

الزقوم، مجازه والشجرة الملعونة المذكورة في القرآن، والعرب تقول لكل طعام كريه: طعام ملعون. وقيل: معناه الملعون أكلها، ونصب الشجرة عطفاً على الرؤيا، أي: وما جعلنا الرؤيا التي أريناك والشجرة الملعونة إلّا فتنة للناس، فكانت الفتنة في الرؤيا ما ذكرنا، والفتنة في الشجرة الملعونة من وجهين أحدهما أن أبا جهل قال: إن ابن أبي كبشة يوعدكم بنار تحرق الحجارة ثم يزعم أنه ينبت فيها شجرة، وتعلمون أن النار تحرق الشجرة، والثاني أن عبد الله بن الزبعري قال: إن محمداً يخوّفنا بالزقوم ولا نعرف الزقوم إلّا الزبد والتمر، وقال أبو جهل: يا جارية تعالي فزقمينا فأتت بالتمر والزبد، فقال: يا قوم تزقموا فإن هذا ما يخوّفكم به محمد، فوصفها الله تعالى في الصّافّات [٦٢]. وقيل: الشجرة الملعونة هي التي تلتوي على الشجر فتخنقه، يعني الكشوث، ﴿ **وتخوّفهم فما يزيدهم** ﴾، التخويف، ﴿ **إلّا طغياناً كبيراً** ﴾ أي: تمرّداً وعتوّاً عظيماً في قوله عزّ وجلّ:

﴿ **وإذا قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلّا إبليس قال أأسجدُ لمَن خلقتَ طيناً** ﴾ أي: خلقته من طين أنا جئتُ به، وذلك ما رُوِي عن سعيد بن جبير عن ابن عباس: أن الله تعالى بعث إبليس حتى أخذ كفّاً من تراب الأرض من عذبها ومالحها فخلق منه آدم، فمَن خلقه من العذب فهو سعيد وإن كان ابن كافرين، ومَن خلقه من الملح فهو شقي وإن كان ابن نبي.

﴿ **قال** ﴾، يعني إبليس، ﴿ **أرأيتك** ﴾ أي أخبرني والكاف لتأكيد المخاطبة، ﴿ **هذا الذي كرّمتَ عليّ** ﴾ أي: فضّلته عليّ: ﴿ **لئن أخّرتنِ** ﴾ أمهلتني ﴿ **إلى يوم القيامة لأحتَنِكَنّ ذريّته** ﴾ أي: لأستأصلنّهم بالإضلال، يقال احتنك الجراد الزرع إذا أكله كله. وقيل: هو من قول العرب حنك الدابّة يحنك إذا شدّ في حنكها الأسفل حبلاً يقودها، أي لأقودنهم كيف شئت. وقيل: لأستولينّ عليهم بالإغواء، ﴿ **إلّا قليلاً** ﴾، يعني المعصومين الذين استثناهم الله عزّ وجلّ في قوله: ﴿ إنّ عبادي ليس لك عليهم سلطان ﴾ [الحجر: ٤٢، الإسراء: ٦٥].

لآدم فسجدوا إلا إبليس قال أأسجد لمن خلقت طيناً﴾ أي من طين وذلك أن آدم خلق من تراب الأرض من عذبها وملحها، فمن خلق من العذب فهو سعيد ومن خلق من الملح فهو شقي ﴿قال﴾ يعني إبليس ﴿أرأيتك﴾ الكاف للمخاطب والمعنى أخبرني ﴿هذا الذي كرمت علي﴾ أي فضلته ﴿لئن أخرتن﴾ أي أمهلتني ﴿إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته﴾ أي لأستأصلنهم بالاضلال. وقيل: معناه لأقودنهم كيف شئت. وقيل: لأستولين عليهم بالإغواء ﴿إلا قليلاً﴾ يعني المعصومين الذي استثناهم الله تعالى في قوله ﴿إن عبادي ليس لك عليهم سلطان﴾ ﴿قال﴾ الله تعالى ﴿اذهب﴾ أي امض لشأنك وليس هو من الذهاب الذي هو ضد المجيء ﴿فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم﴾ أي جزاؤك وجزاء أتباعك ﴿جزاء موفوراً﴾ أي مكملاً. قوله سبحانه وتعالى ﴿واستفزز﴾ أي استخف واستزل واستعجل وأزعج ﴿من استطعت منهم﴾ أي من ذرية آدم ﴿بصوتك﴾ قال ابن عباس: معناه بدعائك إلى معصية الله وكل داع إلى معصية الله فهو من جند إبليس. وقيل: أراد بصوتك الغناء والمزامير واللهو واللعب ﴿واجلب عليهم بخيلك ورجلك﴾ اي أجمع عليهم مكايدك وحبائلك، واحثهم على الإغواء. وقيل: معناه استعن عليهم بركبان جندك ومشاتهم. يقال: إن له خيلاً ورجلاً من الجن والإنس فكل من قاتل أو مشى في معصية الله، فهو من جند إبليس. وقيل: المراد منه ضرب المثل كما تقول للرجل المجد في الأمر جئتنا بخيلك ورجلك ﴿وشاركهم في الأموال والأولاد﴾ أما المشاركة في الأموال فكل مال أصيب من حرام أو أنفق في حرام، وقيل هو الربا، وقيل: هو ما كانوا يذبحونه لآلهتهم ويحرمونه كالبحيرة والسائبة والوصيلة والحام. وأما المشاركة في الأولاد فروي عن ابن عباس أنها المؤودة، وقيل: أولاد الزنا. وعن ابن عباس أيضاً هي تسميتهم أولادهم بعبد العزى، وعبد الحارث وعبد شمس ونحوه، وقيل: هو أن يرغبوا أولادهم في الأديان الباطلة الكاذبة، كاليهودية والنصرانية والمجوسية ونحوها. وقيل: إن الشيطان يقعد على ذكر الرجل وقت الجماع فإذا لم يقل بسم الله أصاب معه امرأته وأنزل في فرجها كما ينزل الرجل. وروي في بعض الأخبار أن فيكم مغربين قال: وما المغربون قال: الذين شارك فيهم الجن. وعن ابن عباس أنه سأله رجل فقال: إن امرأتي

﴿ قال ﴾ الله ﴿ اذهبْ فمَن تبعك منهم فإن جهنّم جزاؤكم ﴾ أي: جزاءك وجزاء أتباعك، ﴿ جزاءً موفوراً ﴾، وافراً مكمّلاً، يقال: وفّرته أُوفره وفراً.

وقوله: ﴿واستفزز﴾، واستخفف واستجهد، ﴿ مَن استطعتَ منهم ﴾، أي: من ذريّة آدم، ﴿ بصوتك ﴾، قال ابن عباس وقتادة: بدعائك إلى معصية الله، وكل داعٍ إلى معصية الله فهو من جند إبليس. قال الأزهري: معناه ادعهم دعاء تستفزهم به إلى جانبك، أي: تستخفّهم. وقال مجاهد: بالغناء والمزامير، ﴿ وأجلِبْ عليهم بخيلك ورَجِلِكَ ﴾، قيل: اجمع عليهم مكايدك وخيلك، ويقال: اجلبوا وجلبوا إذا صاحوا، يقول: صحْ بخيلك ورجلك واحثهم عليه بالإغواء، قال مقاتل: استعن عليهم بركبان جندك ومشاتهم، والخيل: الركبان، والرجل: المشاة. قال أهل التفسير: كل راكب وماشٍ في معاصي الله فهو من جند إبليس. وقال مجاهد وقتادة: إن له خيلاً ورجلاً من الجن والإنس وهو كل مَن يقاتل في المعصية، والرجل والرجالة والراجلة واحد، يقال: راجل ورجل مثل تاجر وتجر وراكب وركب، وقرأ حفص ورجِلك بكسر الجيم وهما لغتان، ﴿ وشاركهم في الأموال والأولاد ﴾، فالمشاركة في الأموال كل ما أُصيب من حرام أو أُنفق في حرام، هذا قول مجاهد والحسن وسعيد بن جبير، وقال عطاء: هو الربا وقال قتادة: هو ما كان المشركون يحرّمونه من الأنعام كالبحيرة والسائبة والوصيلة والحام. وقال الضحاك: هو ما كانوا يذبحونه لآلهتهم، وأما الشركة في الأولاد رُوِيَ عن ابن عباس: أنها الموؤدة. وقال مجاهد والضحاك: هم أولاد الزنا. وقال الحسن وقتادة: هو أنهم هوّدوا أولادهم ونصّروهم ومجّسوهم. وعن ابن عباس رواية أخرى: هو تسميتهم الأولاد عبد الحٰرث وعبد شمس وعبد العزّى وعبد الدار ونحوها. ورُوِيَ عن جعفر بن محمد أن الشيطان

استيقظت وفي فرجها شعلة نار قال: ذلك من وطء الجن ﴿وعدهم﴾ أي منهم الجميل في طاعتك، وقيل: قل لهم لا جنة ولا نار ولا بعث، وذلك أن الشيطان إذا دعا إلى المعصية فلا بد أن يقرر أولاً أنه لا مضرة في فعلها البتة، وذلك لا يمكن إلا إذا قال له لا معاد ولا جنة ولا نار ولا حياة بعد هذه الحياة، فيقرر عند المدعو أنه لا مضرة في هذه المعاصي وإذا فرغ من هذا النوع قرر عنده أن هذا الفعل يفيد أنواعاً من اللذة والسرور ولا حياة للإنسان في الدنيا إلا به، فهذا طريق الدعوة إلى المعصية ثم ينفره عن فعل الطاعات وهو أنه يقرر عنده أن لا جنة ولا نار ولا عقاب فلا فائدة فيها. وقيل معنى عدهم أي شفاعة الأصنام عند الله وإيثار العاجل على الأجل. فإن قلت: كيف ذكر الله هذه الأشياء بصيغة الأمر، والله سبحانه وتعالى يقول: إن الله لا يأمر بالفحشاء؟ قلت: هذا على طريق التهديد كقوله تعالى: اعملوا ما شئتم. وكقول القائل اجتهد جهدك فسترى ما ينزل بك. وقوله سبحانه وتعالى ﴿**وما يعدهم الشيطان إلا غروراً**﴾ أي يزين الباطل بما يظن أنه حق واعلم أن الله سبحانه وتعالى لما قال: وعدهم، أردفه بما هو زاجر عن قبول وعده بقوله: وما يعدهم الشيطان إلا غرورا والسبب فيه أنه إنما يدعو إلى قضاء الشهوة وطلب الرياسة ونحو ذلك، ولا يدعو إلى معرفة الله تعالى، ولا إلى عبادته وتلك الأشياء التي يدعو إليها خيالية لا حقيقة لها ولا تحصل إلا بعد متاعب ومشاق عظيمة، وإذا حصلت كانت سريعة الذهاب والانقضاء وينغصها الموت والهرم وغير ذلك، وإذا كانت هذه الأشياء بهذه الصفة كانت الرغبة فيها غروراً.

إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾ رَّبُّكُمُ ٱلَّذِي يُزْجِي لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِي
ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُۖ فَلَمَّا
نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ

يقعد على ذكر الرجل فإذا لم يقل بسم الله أصاب معه امرأته وأنزل في فرجها كما ينزل الرجل. ورُوِيَ في بعض الأخبار أن فيكم مغربين، قيل: وما المغرّبون؟ قال: الذين يشارك فيهم الجن. ورُوِيَ أن رجلاً قال لابن عباس: إن امرأتي استيقظت وفي فرجها شعلة من نار، قال: ذلك من وطء الجن. وفي الآثار: أن إبليس لمّا أُخرج إلى الأرض، قال: يا ربّ أخرجتني من الجنة لأجل آدم فَسَلِّطْني عليه وعلى ذريّته، قال: أنت مسلّط، فقال: لا أستطيعه إلاّ بك فزدني، قال: استفزز مَن استطعت منهم بصوتك الآية، فقال آدم: يا ربّ سلّطت إبليس عليّ وعلى ذريّتي وإني لا أستطيعه إلاّ بك، قال: لا يولد لك ولد إلاّ وكّلت به مَن يحفظونه، قال: زدني، قال: الحسنة العشرة بعشر أمثالها والسيئة بمثلها، قال: زدني، قال: التوبة معروضة ما دام الروح في الجسد، فقال: زدني، قال: ﴿ يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم ﴾ [الزمر: ٥٣] الآية. وفي الخبر: أن إبليس قال: يا رب بعثت أنبياءَ وأنزلت كتباً فما قراءتي؟ قال: الشعر، قال: فما كتابي؟ قال: الوشم، قال: ومَن رُسلي؟ قال: الكهنة، قال: وأين مسكني؟ قال: الحمّامات، قال: وأين مجلسي؟ قال: الأسواق، قال: فما مطعمي؟ قال: ما لم يُذكر عليه اسمي، قال: ما شرابي؟ قال: كل مُسْكِر، قال: وما حبالي؟ قال: النساء، قال: وما أذاني؟ قال: المزامير. قوله عزّ وجلّ: ﴿ **وعِدْهم** ﴾، أي: خذ منهم الجميل في طاعتك. وقيل: قل لهم لا جنة ولا نار ولا بعث. ﴿ **وما يعِدُهم الشيطانُ إلاّ غروراً** ﴾، والغرور تزيين الباطل بما يظن أنه حق، فإن قيل: كيف ذكر الله هذه الأشياء وهو يقول: ﴿ إنّ الله لا يأمر بالفحشاء ﴾ [الأعراف: ٢٨]؟ قيل: هذا على طريق التهديد، كقوله تعالى: ﴿ اعملوا ما شئتم ﴾ [فصّلت: ٤٠]، وكقول القائل: افعل ما شئت فسترى.

لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾

﴿إن عبادي ليس لك عليهم سلطان﴾ يعني بعبادة الأنبياء وأهل الفضل والصلاح لأنه لا يقدر على إغوائهم ﴿وكفى بربك وكيلاً﴾ أي حافظاً. والمعنى: أنه سبحانه وتعالى لما أمكن إبليس أن يأتي بما يقدر عليه من الوسوسة كان ذلك سبباً لحصول الخوف في قلب الإنسان، قال تعالى ﴿وكفى بربك وكيلاً﴾ أي فالله سبحانه وتعالى أقدر منه وأرحم بعباده فهو يدفع عنهم كيد الشيطان ووساوسه، ويعصمهم من إغوائه وإضلاله. وفي بعض الآثار أن إبليس لما خرج إلى الأرض قال: يا رب أخرجتني من الجنة لأجل آدم فسلطني عليه وعلى ذريته قال: أنت مسلط. قال: لا أستطيعه إلا بك فزدني. قال: استفزز من استطعت منهم الآية. فقال آدم: يا رب سلطت إبليس علي وعلى ذريتي وإني لا أستطيعه إلا بك قال: لا يولد لك ولد إلا وكلت به من يحفظه قال رب زدني قال الحسنة بعشر أمثالها والسيئة بمثلها قال رب زدني قال: التوبة معروضة مادام الروح في الجسد قال رب زدني فقال يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله الآية. وفي الخبر قال إبليس: يا رب بعثت أنبياء وأنزلت كتباً فما قراءتي؟ قال: الشعر. قال: فما كتابتي؟ قال: الوشم، قال: ومن رسلي؟ قال الكهنة. قال: أي شيء مطعمي؟ قال ما لم يذكر عليه اسمي قال فما شرابي قال كل مسكر قال: وأين مسكني؟ قال الحمامات ـ قال ـ وأين مجلسي؟ قال في الأسواق قال: وما حبائلي قال: النساء قال: وما أذاني؟ قال المزمار. قوله ﴿ربكم الذين يزجي﴾ أي يسوق ويجري ﴿لكم الفلك﴾ أي السفن ﴿في البحر لتبتغوا من فضله﴾ أي لتطلبوا من رزقه بالأرباح في التجارة وغيرها ﴿إنه كان بكم رحيماً﴾ أي حيث يسر لكم هذه المنافع، والمصالح وسهلها عليكم ﴿وإذا مسكم الضر في البحر﴾ أي الشدة وخوف الغرق في البحر ﴿ضل من تدعون﴾ أي ذهب عن أوهامكم وخواطركم كل من تدعون في حوادثكم من الأصنام وغيرها ﴿إلا إياه﴾ أي إلا الله وحده فإنكم لا تذكرون سواه ولا يخطر ببالكم غيره لأنه القادر على إعانتكم ونجاتكم ﴿فلما نجاكم﴾ أي أجاب دعاءكم وأنجاكم من هول البحر وشدته وأخرجكم ﴿إلى البر أعرضتم﴾ أي عن الإيمان والإخلاص والطاعة، وكفرتم النعمة وهو قوله تعالى ﴿وكان الإنسان كفوراً﴾ أي جحوداً ﴿أفأمنتم﴾ أي بعد إنجائكم ﴿أن يخسف بكم جانب البر﴾ أي تغوره. والمعنى: أن الجهات كلها له، وفي قدرته براً كان أو بحراً بل إن كان الغرق في البحر

قوله: ﴿ إنّ عبادي ليس لك عليهم سلطان وكفى بربك وكيلاً ﴾، أي حافظاً ومَن يوكل الأمر إليه.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ ربُكم الذي يُزجي لكم الفُلْكَ ﴾ أي: يسوق ويُجري لكم الفلك، ﴿ في البحر لتبتغُوا من فضله ﴾، لتطلبوا من رزقه، ﴿ إنه كان بكم رحيماً ﴾.

﴿ وإذا مسّكم الضرّ ﴾، الشدّة وخوف الغرق، ﴿ في البحر ضَلّ ﴾، أي: بطل وسقط، ﴿ مَن تدعون ﴾، من الآلهة، ﴿ إلاّ إيّاه ﴾، إلا الله فلم تجدوا مُغيثاً سواه، ﴿ فلما نجّاكم ﴾، أجاب دعاءكم وأنجاكم من هول البحر وأخرجكم، ﴿ إلى البرّ أعرضتم ﴾، عن الإيمان والإخلاص والطاعة كفراً منكم لنعمه، ﴿ وكان الإنسان كفوراً ﴾.

﴿ أفأمِنْتُم ﴾، بعد ذلك، ﴿ أن يخسف بكم ﴾، يغور بكم، ﴿ جانب البرّ ﴾، ناحية البرّ وهي الأرض، ﴿ أو يرسل عليكم حاصباً ﴾، أي: يمطر عليكم حجارةً من السماء كما أمطر على قوم لوط. وقال أبو عبيدة والقتيبي: الحاصب الريح التي ترمي بالحصباء، وهي الحصا الصغار، ﴿ ثم لا تجدوا لكم وكيلاً ﴾، قال قتادة: مانعاً.

ففي جانب البر ما هو مثله وهو الخسف لأنه يغيب تحت الثرى كما أن الغرق يغيب تحت الماء ﴿**أو يرسل عليكم حاصباً**﴾ أي نمطر عليكم حجارة من السماء، كما أمطرناها على قوم لوط ﴿**ثم لا تجدوا لكم وكيلاً**﴾ أي مانعاً وناصراً ﴿**أم أمنتم أن يعيدكم فيه**﴾ أي في البحر ﴿**تارة**﴾ أي مرة ﴿**أخرى فيرسل عليكم قاصفاً من الريح**﴾ قال ابن عباس: أي عاصفاً وهي الريح الشديدة. وقيل: الريح التي تقصف كل شيء من شجر وغيره ﴿**فيغرقكم بما كفرتم**﴾ أي بكفرانكم النعمة وإعراضكم حين أنجيناكم ﴿**ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعاً**﴾ التبيع المطالب. والمعنى: أنا نفعل ما نفعل بكم ثم لا تجدون لكم أحداً يطالبنا بما فعلنا انتصاراً لكم ودركاً للثأر من جهتنا. وقيل: معناه من يتبعنا بالإنكار علينا.

قوله تعالى:

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ ۖ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾

﴿**ولقد كرمنا بني آدم**﴾ قال ابن عباس: هو أنهم يأكلون بالأيدي وغير الآدمي يأكل بفيه من الأرض وقال أيضاً بالعقل وقيل بالنطق والتميز والخط والفهم، وقيل باعتدال القامة وامتدادها وقيل بحسن الصورة وقيل: الرجال باللحى والنساء بالذوائب. وقيل: بتسليطهم على جميع ما في الأرض وتسخيره لهم وقيل: بحسن تدبيرهم أمر المعاش والمعاد. وقيل بأن منهم خير أمة أخرجت للناس ﴿**وحملناهم في البر**﴾ أي على الإبل والخيل والحمير ﴿**والبحر**﴾ أي وحملناهم في البحر على السفن، وهذا من مؤكدات التكريم لأن الله تعالى سخر لهم هذه الأشياء لينتفعوا بها، ويستعينوا بها على مصالحهم ﴿**ورزقناهم من الطيبات**﴾ يعني لذيذ المطاعم والمشارب وقيل الزبد والتمر والحلواء، وجعل رزق غيرهم مما لا يخفى، وقيل: إن جميع الأغذية إما نباتية وإما حيوانية ولا يتغذى الإنسان إلا بأطيب القسمين بعد الطبخ الكامل والنضج التام ولا يحصل هذا لغير الإنسان ﴿**وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً**﴾ واعلم أن الله تعالى قال في أول الآية: ولقد كرمنا بني آدم وفي آخرها وفضلناهم، ولا بد من الفرق بين

﴿ **أم أمنتم أن يعيدكم فيه** ﴾، يعني في البحر، ﴿ **تارةً** ﴾ مرة، ﴿ **أخرى فيرسل عليكم قَاصِفاً من الريح** ﴾، **قال ابن عباس**: أي: عاصفاً وهي **الريح** شديدة. وقال أبو عبيدة: هي الريح التي تقصف كل شيء، أي تدقّه وتحطّمه. وقال القتيبي: هي التي تقصف الشجر، أي تكسره، ﴿ **فيغرقكم بما كفرتم ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعاً** ﴾، ناصراً ولا ثائراً، وتبيع بمعنى تابع أي تابعاً مطالباً بالثأر. وقيل: مَن يتبعنا بالإنكار. قرأ ابن كثير وأبو عمرو (أن نخسف، ونرسل، ونعيدكم، فنرسل، فنغرقكم). بالنون فيهنّ، لقوله: ﴿ **علينا** ﴾ وقرأ الآخرون بالياء لقوله: ﴿ **إلاّ إيّاه** ﴾ وقرأ أبو جعفر ويعقوب (فتغرقكم) بالتاء يعني الريح.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ **ولقد كرّمنا بني آدم** ﴾، رُوِيَ عن ابن عباس أنه قال: هو أنهم يأكلون بالأيدي وغير الآدمي يأكل بفِيه من الأرض. ورُوِيَ عنه أنه قال: بالعقل. وقال الضحاك: بالنطق. وقال عطاء: بتعديل القامة وامتدادها، والدواب منكبّة على وجوهها. وقيل: بحُسْنِ الصورة. وقيل: الرجال باللحى والنساء بالذوائب. وقيل: **بأن سخّر** لهم سائر الأشياء. وقيل: بأن منهم خير أمة أُخرجت للناس. ﴿ **وحملناهم في البرّ والبحر** ﴾، أي: حملناهم في **البرّ** على الدواب وفي البحر على السفن، ﴿ **ورزقناهم من الطيبات** ﴾، يعني: لذيذ المطاعم والمشارب. قال مقاتلِ: السمن والزبد والتمر والحلوى، وجعل رزق غيرهم ما لا يخفى. ﴿ **وفضّلناهم على كثير ممّن خلقنا**

التكريم والتفضيل والإلزام التكرار والأقرب أن يقال: إن الله تعالى كرم الإنسان على سائر الحيوان بأمور خلقية ذاتية طبيعية، مثل العقل والنطق والخط وحسن الصورة، ثم إنه سبحانه وتعالى عرفه بواسطة ذلك العقل والفهم اكتساب العقائد الصحيحة والأخلاق الفاضلة، فالأول هو التكريم والثاني هو التفضيل. ثم قال سبحانه وتعالى: على كثير ممن خلقنا تفضيلاً. ظاهر الآية يدل على أنه فضل بني آدم على كثير ممن خلق لا على الكل فقال: قوم فضلوا على جميع الخلق إلا على الملائكة وهذا مذهب المعتزلة. وقال الكلبي: فضلوا على الخلائق كلهم إلا على طائفة من الملائكة مثل جبريل وميكائيل وإسرافيل وعزائيل وأشباههم. وقيل: فضلوا على جميع الخلائق وعلى الملائكة كلهم. فإن قلت: كيف تصنع بكثير؟ قلت: يوضع الأكثر موضع الكل كقوله تعالى ﴿**يلقون السمع وأكثرهم كاذبون**﴾ أراد كلهم وفي الحديث عن جابر يرفعه قال: «لما خلق الله آدم وذريته قالت الملائكة يا رب خلقتهم يأكلون ويشربون وينكحون فاجعل لهم الدنيا، ولنا الآخرة فقال: لا أجعل من خلقته بيدي ونفخت فيه من روحي كمن قلت له كن فكان» وقيل بالتفضيل وهو الأولى والراجح أن خواص بني آدم وهم الأنبياء أفضل من خواص الملائكة، وعوام الملائكة أفضل من عوام البشر من بني آدم، وهذا التفضيل إنما هو بين الملائكة والمؤمنين من بني آدم لأن الكفار لا حرمة لهم قال الله سبحانه وتعالى ﴿**إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية**﴾ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: المؤمن أكرم على الله تعالى من الملائكة الذين عنده. قوله عز وجل ﴿**يوم ندعو كل أناس بإمامهم**﴾ أي بنبيهم وقيل بكتابهم الذي أنزل عليهم، وقيل بكتاب أعمالهم وعن ابن عباس: بإمام زمانهم الذي دعاهم في الدنيا إما إلى هدى وإما إلى ضلالة وذلك أن كل قوم يجتمعون إلى رئيسهم في الخير والشر. وقيل: بمعبودهم وقيل بإمامهم جمع أم يعني بأمهاتهم والحكمة فيه رعاية حق عيسى عليه السلام وإظهار شرف الحسن والحسين رضي الله تعالى عنهما، وأن لا يفتضح أولاد الزنا ﴿**فمن أوتي كتابه بيمينه فأولئك يقرؤون كتابهم**﴾ فإن قلت: لم خص أصحاب اليمين بقراءة كتابهم، مع أن أصحاب الشمال يقرؤونه أيضاً. قلت: الفرق أن أصحاب الشمال إذا طالعوا

تفضيلاً ﴾، وظاهر الآية أنه فضّلهم على كثير ممّن خلقهم لا على الكل. وقال قوم: فُضِّلوا على جميع الخلق إلاّ على الملائكة. وقال الكلبي: فُضّلوا على الخلائق كلهم إلاّ على طائفة من الملائكة جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت، وأشباههم. وفي تفضيل الملائكة على البشر اختلاف، فقال قوم: فُضِّلوا على جميع الخلق وعلى الملائكة كلهم، وقد يوضع الأكثر موضع الكل كما قال تعالى: ﴿ هل أُنبئكم على مَن تنزل الشياطين ﴾ [الشعراء: ٢٢١]، إلى قوله تعالى: ﴿ وأكثرهم كاذبون ﴾ [الشعراء: ٢٢٣]، أي: كلهم وفي الحديث عن جابر يرفعه قال: لمّا خلق الله آدم وذريته قالت الملائكة: يا ربّ خلقتهم يأكلون ويشربون وينكحون فاجعل لهم الدنيا ولنا الآخرة، فقال تعالى: لا أجعل مَن خلقته بيدي ونفخت فيه من روحي كمَن قلت له: كنْ فكان. والأولى أن يقال: عوام المؤمنين أفضل من عوام الملائكة، وخواص المؤمنين أفضل من خواص الملائكة. قال الله تعالى: ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البريّة ﴾ [البيّنة: ٧]، ورُوِيَ عن أبي هريرة أنه قال: المؤمن أفضل وأكرم على الله من الملائكة الذين عنده.

قوله تعالى: ﴿ **يوم ندعو كل أُناس بإمامهم** ﴾، قال مجاهد وقتادة: بنبيِّهم. وقال: أبو صالح والضحاك: بكتابهم الذي أُنزل عليهم. وقال الحسن وأبو العالية: بأعمالهم. وقال قتادة أيضاً: بكتابهم الذي فيه أعمالهم، بدليل سياق الآية، ﴿ **فمَن أُوتي كتابه بيمينه** ﴾، ويسمّي الكتاب إماماً كما قال عزّ وجلّ: ﴿ وكلّ شيء أحصيناه في إمام مبين ﴾ [يٓس: ١٢]. وعن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما: بإمام زمانهم الذي دعاهم في الدنيا إلى ضلالة أو هدى، قال الله تعالى: ﴿ وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا ﴾ [الأنبياء: ٧٣]، وقال: ﴿ وجعلناهم أئمة

كتابهم، وجدوه مشتملاً على مشكلات عظيمة فيستولي عليهم الخجل والدهشة فلا يقدرون على إقامة حروفه فتكون قراءتهم كلا قراءة، وأصحاب اليمين إذا طالعوا كتابهم وجدوه مشتملاً على الحسنات والطاعات فيقرؤونه أحسن قراءة وأبينها ﴿ولا يظلمون فتيلاً﴾ أي ولا ينقصون من ثواب أعمالهم أدنى شيء.

﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾ وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ ۖ وَإِذًا لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾﴾

﴿ومن كان في هذه أعمى﴾ المراد عمى القلب والبصيرة لا عمى البصر. والمعنى: ومن كان في هذه الدنيا أعمى، أي عن هذه النعم التي قد عدها في هذه الآيات المتقدمة ﴿فهو في الآخرة﴾ أي التي لم تعاين ولم تر ﴿أعمى وأضل سبيلاً﴾ قاله ابن عباس: وقيل معناه ومن كان في هذه الدنيا أعمى القلب عن رؤية قدرة الله وآياته ورؤية الحق فهو في الآخرة أعمى أي أشد عمى وأضل سبيلاً، أي أخطأ طريقاً. وقيل: معناه ومن كان في الدنيا كافراً ضالاً، فهو في الآخرة أعمى لأنه في الدنيا تقبل توبته، وفي الآخرة لا تقبل توبته. قوله سبحانه وتعالى ﴿وإن كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينا إليك﴾ قيل في سبب نزولها أن النبي ﷺ كان يستلم الحجر الأسود، فمنعته قريش وقالوا: لا ندعك حتى تلم بآلهتنا وتمسها فحدث نفسه ما علي أن أفعل ذلك، والله يعلم إني لها كاره بعد أن يدعوني أستلم الحجر. وقيل طلبوا منه أن يذكر آلهتهم حتى يسلموا، ويتبعوه فحدث نفسه فأنزل الله هذه الآية. وقال ابن عباس: قد وفد ثقيف على النبي ﷺ فقالوا: نبايعك على أن تعطينا ثلاث خصال. قال: وما هن؟ قالوا: لا نحبي في الصلاة أي لا ننحني

يدعون إلى النار﴾ [القصص: ٤١]، وقيل: بمعبودهم. وعن سعيد بن المسيب قال: كل قوم يجتمعون إلى رئيسهم في الخير والشر. وقال محمد بن كعب: ﴿بإمامهم﴾، قيل: يعني بأُمّهاتهم، وفيه ثلاثة أوجه من الحكمة أحدها: لأجل عيسى عليه السلام، والثاني لشرف الحسن والحسين، والثالث لئلا يفتضح أولاد الزنا. ﴿فمَن أُوتي كتابه بيمينه فأولئك يقرأون كتابهم ولا يُظلمون فتيلاً﴾ أي: لا ينقص من حقهم قدر فتيل.

﴿ومَن كان في هذه أعمى﴾، اختلفوا في هذه الإشارة فقال قوم: هي راجعة إلى النِّعم التي عدّدها الله تعالى في هذه الآيات من قوله: ﴿ربكم الذي يزجي لكم الفلك﴾ إلى قوله: ﴿تفضيلاً﴾ [الإسراء: ٢١ و٧٠] يقول: ومَن كان منكم في هذه النِّعَم التي قد عاين أعمى، ﴿فهو في﴾، أمر، ﴿الآخرة﴾، التي لم يعاين ولم يرَ، ﴿أعمى وأضلّ سبيلاً﴾، يُروَى هذا عن ابن عباس، وقال الآخرون: هي راجعة إلى الدنيا، يقول: مَن كان في هذه الدنيا أعمى القلب عن رؤية قدرة الله وآياته ورؤية الحق، فهو في الآخرة أعمى أي أشدّ عمى وأضلّ سبيلاً أي أخطأ طريقاً. وقيل: مَن كان في هذه الدنيا أعمى عن الاعتبار فهو في الآخرة أعمى عن الاعتذار. وقال الحسن: مَن كان في هذه الدنيا ضالاً كافراً فهو في الآخرة أعمى وأضلّ سبيلاً لأنه في الدنيا تقبل توبته وفي الآخرة لا تقبل توبته، وأمال بعض القرّاء هذين الحرفين وفتحهما بعضهم، وكان أبو عمرو يكسر الأول ويفتح الثاني فهو في الآخرة أشدّ عمىً لقوله: ﴿وأضلّ سبيلاً﴾.

قوله عزّ وجلّ: ﴿وإنْ كادُوا ليفتنونك عن الذي أوحينا إليك﴾ الآية، اختلفوا في سبب نزولها، قال سعيد بن جبير: كان النبي ﷺ يستلم الحجر الأسود فمنعته قريش، وقالوا: لا ندعك حتى تلمّ بآلهتنا وتمسّها فحدّث نفسه:

ولا نكسر أصنامنا بأيدينا وأن تمتعنا باللات سنة من غير أن نعبدها فقال النبي ﷺ: لا خير في دين لا ركوع فيه ولا سجود، وأما أن لا تكسروا أصنامكم بأيديكم، فذاك لكم وأما الطاغية يعني اللات والعزى فإني غير ممتعكم بها قالوا: يا رسول الله إنا نحب أن تسمع العرب أنك أعطيتنا ما لم تعط غيرها فإن خشيت أن تقول العرب أعطيتهم ما لم تعطنا فقل الله أمرني بذلك فسكت النبي ﷺ فطمع القوم في سكوته أن يعطيهم ذلك فأنزل الله تعالى وإن كادوا ـ أي هموا ـ ليفتنونك ـ أي ليصرفونك ـ عن الذي أوحينا إليك ﴿**لتفتري**﴾ أي لتختلق وتبتعث ﴿**علينا غيره**﴾ ما لم تقله ﴿**وإذاً**﴾ أي لو فعلت ما دعوك إليه ﴿**لاتخذوك خليلاً**﴾ أي والوك ووافوك وصافوك ﴿**ولولا أن ثبتناك**﴾ أي على الحق بعصمتنا إياك ﴿**لقد كدت تركن**﴾ أي تميل ﴿**إليهم شيئاً قليلاً**﴾ أي قربت من الفعل. فإن قلت كان النبي ﷺ معصوماً فكيف يجوز أن يقرب مما طلبوه. قلت: كان ذلك خاطر قلب ولم يكن عزماً وقد عفا الله تعالى عن حديث النفس وكان النبي ﷺ يقول بعد ذلك «اللهم لا تكلني إلى نفسي طرفة عين» والجواب الصحيح هو أن الله سبحانه وتعالى قال ولولا أن ثبتناك وقد ثبته الله فلم يركن إليهم ﴿**إذاً لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات**﴾ أي لو فعلت لأذقناك عذاب الحياة وضعف عذاب الممات يعني ضعفنا لك العذاب في الدنيا والآخرة ﴿**ثم لا تجد لك علينا نصيراً**﴾ أي ناصراً يمنعك من عذابنا. قوله سبحانه وتعالى ﴿**وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها**﴾ قيل: هذه الآية مدنية وذلك أن النبي ﷺ لما قدم المدينة كره اليهود مقامه بالمدينة، وذلك حسداً فأتوه فقالوا: يا أبا القاسم لقد علمت

ما عليَّ أن أفعل ذلك والله تعالى يعلم أني لها كاره بعد أن يدعوني حتى أستلم الحجر، وقيل: طلبوا منه أن يمسّ آلهتهم حتى يسلموا ويتبعوه فحدّث نفسه بذلك، فأنزل الله هذه الآية، قال ابن عباس: قَدِمَ وفد ثقيف على النبي ﷺ فقالوا: نبايعك على أن تعطينا ثلاث خصال، قال: وما هنّ؟ قالوا: أن لا ننحني أي في الصلاة ولا نكسر أصنامنا بأيدينا وأن تمتعنا باللّات سنة من غير أن نعبدها، فقال النبي ﷺ: «لا خير في دين لا ركوع فيه ولا سجود، وأما أن تكسروا أصنامكم بأيديكم فذاك لكم، وأما الطاغية يعني اللات والعزّى فإني غير ممتعكم بها»، فقالوا: يا رسول الله إنّا نحبّ أن تسمع العرب إنك أعطيتنا ما لم تعطِ غيرنا، فإن خشيت أن تقول العرب أعطيتهم ما لم تعطنا، فقل: الله أمرني بذلك؟ فسكت رسول الله ﷺ، فطمع القوم في سكوته أن يعطيهم ذلك، فأنزل الله عزّ وجلّ هذه الآية: ﴿ **وإن كادوا ليفتنونك** ﴾ ليصرفونك ﴿ **عن الذي أوحينا إليك** ﴾ ﴿ **لتفتري** ﴾، لتختلق، ﴿ **علينا غيره وإذاً** ﴾، لو فعلت ما دعوك إليه ﴿ **لاتّخذُوكَ خليلاً** ﴾ أي: وَالوكَ وصَافُوكَ.

﴿ **ولولا أن ثبّتناك** ﴾، على الحق بعصمتنا، ﴿ **لقد كِدتَّ تركنُ** ﴾ أي: تميل، ﴿ **إليهم شيئاً قليلاً** ﴾ أي: قريباً من الفعل، فإن قيل: كان النبي ﷺ معصوماً فكيف يجوز أن يقرب مما طلبوه وما طلبوه كفر؟ قيل: كان ذلك خاطر قلب ولم يكن عزماً وقد عفا الله عزّ وجلّ عن حديث النفس. قال قتادة: كان النبي ﷺ يقول بعد ذلك: «اللّهمّ لا تكلني إلى نفسي طرفة عين». والجواب الصحيح هو: أن الله تعالى قال: ﴿ **ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلاً** ﴾ وقد ثبّته الله ولم يركن وهذا، مثل قوله تعالى: ﴿ ولولا فضل الله ورحمته لاتّبعتم الشيطان إلاّ قليلاً ﴾ [النساء: ٨٣]، وقد تفضّل فلم يتبعوا.

﴿ **إذاً لأذقناك ضِعْفَ الحياةِ وضِعْفَ الممات** ﴾، أي: لو فعلت ذلك لأذقناك ضعف عذاب الحياة وضعف عذاب الممات، يعني أضعفنا لك العذاب في الدنيا والآخرة. وقيل: الضعف هو العذاب سُمّي ضعفاً لتضاعف الألم فيه. ﴿ **ثم لا تجد لك علينا نصيراً** ﴾، أي: ناصراً يمنعك من عذابنا.

قوله تعالى: ﴿ **وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها** ﴾، اختلفوا في معنى الآية فقال بعضهم: هذه الآية مدنية. قال الكلبي: لمّا قَدِمَ رسول الله ﷺ المدينة كره اليهود مقامه بالمدينة حسداً منهم، فأتوه وقالوا: يا

ما هذه بأرض أنبياء، وإن أرض الأنبياء الشام، وهي الأرض المقدسة وكان بها إبراهيم والأنبياء عليهم السلام، فإن كنت نبياً مثلهم فأت الشام، وإنما يمنعك من الخروج إليها مخافة الروم، وإن الله سيمنعك من الروم إن كنت رسوله فعسكر النبي ﷺ على ثلاثة أميال من المدينة وفي رواية إلى ذي الحليفة حتى يجتمع إليه أصحابه، فيخرج فأنزل الله هذه الآية فالأرض هنا أرض المدينة، وقيل الأرض أرض مكة والآية مكية والمعنى: همّ المشركون أن يخرجوه منها فكفهم الله عنه حتى أمره بالخروج للهجرة فخرج بنفسه وهذا أليق بالآية لأن ما قبلها خبر عن أهل مكة والسورة مكية. وقيل: همّ المشركون كلهم وأرادوا أن يستفزوه من أرض العرب باجتماعهم وتظاهرهم عليه فمنع الله رسوله ولم ينالوا منه ما أملوه والاستفزاز الازعاج ﴿وإذاً لا يلبثون خلافك إلا قليلاً﴾ أي لا يبقون بعد إخراجك إلا زماناً قليلاً حتى يهلكوا. قوله سبحانه وتعالى:

سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾ أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾

﴿سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا﴾ يعني أن كل قوم أخرجوا رسولهم من بين أظهرهم فسنة الله أن يهلكهم وأن لا يعذبهم مادام نبيهم بينهم فإذا خرج من بين أظهرهم عذبهم ﴿ولا تجد لسنتنا تحويلاً﴾ أي تبديلاً. قوله سبحانه وتعالى ﴿أقم الصلاة لدلوك الشمس﴾ روي عن ابن مسعود أنه قال الدلوك الغروب وهو قول النخعي ومقاتل والضحاك والسدي. قال ابن عباس وابن عمر وجابر: هو زوال الشمس. وهو قول عطاء وقتادة ومجاهد والحسن وأكثر

أبا القاسم لقد علمت ما هذه بأرض الأنبياء فإنّ أرض الأنبياء الشام، وهي الأرض المقدسة، وكان بها إبراهيم والأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فإن كنت نبياً مثلهم فأتِ الشام، وإنما يمنعك من الخروج إليها مخافتك الروم، وإن الله سيمنعك من الروم إن كنت رسوله، فعسكر النبي ﷺ على ثلاثة أميال من المدينة. وفي رواية: إلى ذي الحُليفة حتى يجتمع إليه أصحابه ويخرج، فأنزل الله هذه الآية ﴿ والأرض ﴾ ههنا هي المدينة. وقال مجاهد وقتادة: الأرض أرض مكة. والآية مكية، هَمَّ المشركون أن يُخرجوه منها فكفَّهم الله عنه حتى أمره بالهجرة، فخرج بنفسه. وهذا أليق بالآية لأن ما قبلها خبر عن أهل مكة والسورة مكية. وقيل: همّ الكفّار كلهم أرادوا أن يستفزّوه من أرض العرب باجتماعهم وتظاهرهم عليه، فمنع الله عزّ وجلّ رسوله ﷺ ولم ينالوا منه ما أملوا، والاستفزاز هو الإزعاج بسرعة، ﴿ وإذاً لا يلبثون خِلافَكَ ﴾ أي: بعدك، وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائي وحفص ويعقوب هذا ﴿ خلافك ﴾ اعتباراً بقوله تعالى: ﴿ فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله ﴾ [التوبة: ٨١]، ومعناهما واحد. ﴿ إلا قليلاً ﴾ أي: لا يلبثون بعدك إلا قليلاً حتى يهلكوا، فعلى هذا القول الأول حدة حياتهم، وعلى الثاني ما بين خروج النبي ﷺ إلى المدينة إلى أن قتلوا ببدر.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ سُنَّةَ مَن قد أرسلنا قبلك من رسُلنا ﴾ أي: كسنّتنا، فانتصب بحذف الكاف، وسُنّة الله في الرّسل إذا كذبتهم الأمم أن لا يعذبهم ما دام نبيّهم بين أظهرهم، فإذا خرج نبيّهم من بين أظهرهم عذّبهم. ﴿ ولا تجد لسنّتنا تحويلاً ﴾، أي تبديلاً.

قوله: ﴿ أقم الصلاة لدلوكِ الشمس ﴾، اختلفوا في الدلوك رُوِيَ عن عبد الله بن مسعود أنه قال: الدلوك هو الغروب، وهو قول إبراهيم النخعي ومقاتل بن حيان والضحاك والسدي، وقال ابن عباس وابن عمر وجابر: هو زوال

التابعين. ومعنى اللفظ: يجمعهما، لأن أصل الدلوك الميل والشمس: تميل إذا زالت وإذا غربت والحمل على الزوال أولى القولين: لكثرة القائلين به وإذا حملناه عليه كانت الآية جامعة لمواقيت الصلاة كلها فدلوك الشمس يتناول صلاة الظهر والعصر ﴿إلى غسق الليل﴾ أي ظهور ظلمته وقال ابن عباس: بدو الليل وهذا يتناول المغرب والعشاء ﴿وقرآن الفجر﴾ يعني صلاة الفجر سمى الصلاة قرآنا لأنها لا تجوز إلا بالقرآن ﴿إن قرآن الفجر كان مشهوداً﴾ أي يشهده ملائكة الليل وملائكة النهار (خ). عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول تفضل صلاة الجمع صلاة أحدكم وحده بخمس وعشرين جزءاً وتجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار في صلاة الفجر ثم يقول أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم إن قرآن الفجر كان مشهوداً. قال الإمام فخر الدين الرازي في تفسيره: هذا دليل قاطع قوي على أن التغليس أفضل من التنوير لأن الإنسان، إذا شرع فيها من أول الصبح ففي ذلك الوقت الظلمة باقية فتكون ملائكة الليل حاضرين، ثم إذا امتدت الصلاة بسبب ترتيل القرآن وتكثيرها زالت الظلمة وظهر الضوء، وحضرت ملائكة النهار أما إذا ابتدأ بهذه الصلاة في وقت الإسفار فهناك لم يبق أحد من ملائكة الليل، فلا يحصل المعنى المذكور في الآية فثبت أن قوله تعالى ﴿إن قرآن الفجر كان مشهوداً﴾ دليل على أن الصلاة في أول وقتها أفضل. قوله سبحانه وتعالى ﴿ومن الليل فتهجد به﴾ أي قم بعد نومك، والتهجد لا يكون إلا بعد القيام من النوم. والمراد من الآية قيام الليل للصلاة، وكانت صلاة الليل فريضة على النبي ﷺ وعلى الأمة في الابتداء لقوله تعالى ﴿يا أيها المزمل قم الليل إلا قليلاً نصفه﴾ ثم نزل التخفيف فصار الوجوب منسوخاً في حق الأمة بالصلوات الخمس، وبقي قيام الليل على الاستحباب بدليل قوله تعالى ﴿فاقرؤوا ما تيسر منه﴾ وبقي الوجوب ثابتاً في حق النبي ﷺ بدليل قوله تعالى ﴿نافلة لك﴾ أي زيادة لك يريد فريضة

الشمس، وهو قول عطاء وقتادة ومجاهد والحسن وأكثر التابعين، ومعنى اللفظ يجمعهما لأن أصل الدلوكِ الميل والشمس تميل إذا زالت وغربت، والحمل على الزوال أولى القولين لكثرة القائلين به، ولأنا إذا حملناه عليه كانت الآية جامعة لمواقيت الصلاة كلها، فدلوك الشمس يتناول صلاة الظهر والعصر وإلى غسق الليل يتناول المغرب والعشاء، وقرآن الفجر هو صلاة الصبح، قوله عزّ وجلّ: ﴿ **إلى غسق الليل** ﴾، أي: ظهور ظلمته، وقال ابن عباس: بدُوّ الليل. وقال قتادة: وقت صلاة المغرب. وقال مجاهد: غروب الشمس، ﴿ **وقرآن الفجر** ﴾، يعني صلاة الفجر، سمّي صلاة الفجر قرآناً لأنها لا تجوز إلّا بقرآن، وانتصاب القرآن من وجهين أحدهما أنه عطف على الصلاة، أي: وأقم قرآن الفجر، قاله الفرّاء، وقال أهل البصرة: على الإغراء أي وعليك قرآن الفجر، ﴿ **إنّ قرآن الفجر كان مشهوداً** ﴾، أي: يشهده ملائكة الليل وملائكة النهار. أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنبأنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا أبو اليمان أنبأنا شعيب عن الزهري أخبرني سعيد بن المسيب وأبو سلمة بن عبد الرحمن أن أبا هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «تفضل صلاة الجمع على صلاة أحدكم وحده بخمس وعشرين جزءاً وتجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار في صلاة الفجر» ثم يقول أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم «إن قرآن الفجر كان مشهوداً».

قوله تعالى: ﴿ **ومن الليل فتهجّد به** ﴾ أي: قم بعد نومك، والتهجّد لا يكون إلّا بعد النوم، يقال: تهجّد إذا قام بعدما نام، وهجّد إذا نام، والمراد من الآية: قيام الليل للصلاة، وكانت صلاة الليل فريضة على النبي ﷺ في الابتداء، وعلى الأمة، لقوله تعالى: ﴿ يا أيها المزّمّل قم الليل إلّا قليلاً ﴾ [المزّمّل: ١]، ثم نزل التخفيف فصار الوجوب منسوخاً في حق الأمة بالصلوات الخمس، وبقي الاستحباب: قال الله تعالى: ﴿ فاقرؤوا ما تيسّر منه ﴾ [المزّمّل: ٢٠]، وبقي الوجوب في حق النبي ﷺ. ورُوِيَ عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: «ثلاث هنّ عليّ فريضة، وهنّ سُنّة لكم: الوتر والسِواكُ وقيام الليل». قوله عزّ وجلّ: ﴿ **نافلة لك** ﴾ أي: زيادة لك، يريد

زائدة على سائر الفرائض التي فرضها الله عليك روي عن عائشة أن النبي ﷺ قال: «ثلاث هن عليّ فريضة وهن سنة لكم الوتر والسواك وقيام الليل» وقيل: إن الوجوب صار منسوخاً في حقه كما في حق الأمة: فصار قيام الليل نافلة لأن الله سبحانه وتعالى قال: نافلة لك ولم يقل عليك. فإن قلت: ما معنى التخصيص إذا كان زيادة في حق المسلمين كما في حقه ﷺ؟ قلت: فائدة التخصيص أن النوافل كفارات لذنوب العباد والنبي ﷺ، قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر فكانت له نافلة وزيادة في رفع الدرجات.

فصل

في الأحاديث الواردة في قيام الليل (ق) عن المغيرة بن شعبة قال: «قام رسول الله ﷺ حتى انتفخت قدماه فقيل له أتتكلف هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: أفلا أكون عبداً شكوراً» (م) عن زيد بن خالد الجهني: قال لأرمقن صلاة رسول الله ﷺ فتوسدت عتبته أو فسطاطه فقام فصلى ركعتين خفيفتين، ثم صلى ركعتين طويلتين طويلتين ثم صلّى ركعتين دون اللتين قبلهما، ثم صلى ركعتين دون اللتين قبلهما ثم صلى ركعتين دون اللتين قبلهما ثم صلى ركعتين دون اللتين قبلهما ثم أوتر فذلك ثلاث عشرة ركعة لفظ أبي داود (ق)، «عن أبي سلمة عبد الرحمن أنه سأل عائشة كيف كانت صلاة رسول الله ﷺ في رمضان؟ قالت: ما كان يزيد في رمضان ولا في غيره على أكثر من إحدى عشرة ركعة يصلي أربعاً، فلا تسأل عن حسنهن وطولهن ثم يصلي أربعاً فلا تسأل عن حسنهن وطولهن ثم يصلي ثلاثاً، قالت عائشة: فقلت يا رسول الله أتنام قبل أن توتر فقال يا عائشة: إنّ عيني تنامان ولا ينام قلبي» (ق) عنها قالت «كان رسول الله ﷺ يصلي فيما بين أن يفرغ من صلاة العشاء إلى الفجر إحدى عشر ركعة يسلم بين كل ركعتين ويوتر بواحدة، ويسجد سجدتين قدر ما يسجد، ويقرأ أحدكم خمسين آية قبل أن يرفع رأسه فإذا سكت المؤذن من صلاة الفجر، وتبين له الفجر قام فركع ركعتين خفيفتين ثم اضطجع على شقه الأيمن حتى يأتيه المؤذن للإقامة» (خ) عنها قالت: «كان رسول الله ﷺ إذا قام من الليل افتتح صلاته بركعتين خفيفتين» عن عوف بن

فضيلة زائدة، على سائر الفرائض، فرضها الله عليك. وذهب قوم إلى أن الوجوب صار منسوخاً في حقه كما في حق الأمة، فصارت نافلة، وهو قول مجاهد وقتادة، لأن الله تعالى قال: ﴿ نافلة لك ﴾ ولم يقل عليك، فإن قيل: فما معنى التخصيص وهي زيادة في حق كافّة المسلمين كما في حقه ﷺ قيل: التخصيص من حيث إن نوافل العباد كفّارة لذنوبهم، والنبي ﷺ قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر فكانت نوافله لا تعمل في كفّارة الذنوب فتبقى له زيادة في رفع الدرجات. أخبرنا أبو محمد عبد الله بن عبد الصمد الجوزجاني أنا أبو القاسم علي بن أحمد الخزاعي أنا أبو سعيد الهيثم بن كليب ثنا أبو عيسى الترمذي ثنا قتيبة وبشر بن معاذ قالا ثنا أبو عوانة عن زياد بن علاقة عن المغيرة بن شعبة قال: قام النبي ﷺ حتى انتفخت قدماه، فقيل له: أتتكلّف هذا وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: «أفلا أكون عبداً شكوراً». أخبرنا أبو الحسن محمد بن محمد السرخسي أنا زاهر بن أحمد أنا أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الصمد الهاشمي أنا أبو مصعب عن مالك عن عبد الله بن أبي بكرة عن أبيه عن عبد الله بن قيس بن مخرمة أنه أخبره عن زيد بن خالد الجهني أنه قال: لأرمقنّ صلاة رسول الله ﷺ الليلة، فتوسدت عتبته أو فسطاطه، فقام فصلّى ركعتين خفيفتين، ثم صلّى ركعتين طويلتين، ثم صلّى ركعتين دون اللتين قبلهما، ثم صلّى ركعتين دون اللتين قبلهما، ثم صلّى ركعتين دون اللتين قبلهما، ثم صلّى ركعتين دون اللتين قبلهما، ثم أوتر فذلك ثلاثة عشرة ركعة، أخبرنا أبو الحسن محمد بن محمد السرخسي أنا زاهر بن أحمد أنا أبو إسحاق الهاشمي أنا أبو مصعب عن مالك عن سعيد بن أبي سعيد المقبري عن أبي سلمة بن عبد الرحمن أنه أخبره أنه سأل عائشة رضي الله عنها: كيف كانت صلاة رسول الله ﷺ في رمضان؟ قال: فقالت ما كان رسول الله ﷺ يزيد

مالك الأشجعي قال: «قمت مع رسول الله ﷺ ليلة فقام فقرأ سورة البقرة لا يمر بآية رحمة إلا وقف وسأل ولا يمر بآية عذاب، إلا وقف وتعوذ ثم ركع بقدر قيامه، يقول في ركوعه. سبحان ذي الجبروت والملكوت والكبرياء والعظمة، ثم سجد بقدر قيامه ثم قال في سجوده مثل ذلك ثم قام فقرأ بآل عمران ثم قرأ سورة النساء» أخرجه أبو داود النسائي. «عن عائشة قالت: قام رسول الله ﷺ بآية من القرآن ليلة» أخرجه الترمذي (ق) عن الأسود قال: «سألت عائشة كيف كانت صلاة رسول الله ﷺ من الليل قالت كان ينام أوله ويقوم آخره فيصلي ثم يرجع إلى فراشه، فإذا أذن المؤذن وثب، فإن كانت به حاجة اغتسل وإلا توضأ وخرج» عن أنس قال: «ما كنا نشاء أن نرى رسول الله ﷺ في الليل مصلياً إلا رأيناه ولا نشاء أن نراه نائماً إلا رأيناه» أخرجه النسائي. زاد في رواية غيره قال: «وكان يصوم من الشهر حتى نقول لا يفطر منه شيئاً ويفطر حتى نقول لا يصوم منه شيئاً». وقوله عز وجل: ﴿**عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً**﴾ أجمع المفسرون على أن عسى من الله واجب وذلك لأن لفظة عسى تفيد الإطماع ومن أطمع إنساناً في شيء ثم أحرمه كان ذلك عاراً عليه والله أكرم من أن يطمع أحداً ثم لا يعطيه ما أطمعه فيه. والمقام المحمود هو مقام الشفاعة لأنه يحمده فيه الأولون والآخرون (ق) عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لكل نبي دعوة مستجابة وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي، فهي نائلة منكم إن شاء الله من مات لا يشرك بالله شيئاً» (م) عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن رسول الله ﷺ قال: «إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ثم صلوا عليّ فمن صلى عليّ صلاة صلى الله عليه بها عشراً ثم سلوا الله لي الوسيلة، فإنها منزلة في الجنة لا تبتغى إلا لعبد من عباد الله وأرجو أن أكون أنا هو فمن سأل لي الوسيلة حلت عليه الشفاعة» (م) عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال: «من قال حين يسمع النداء اللهم رب هذه

في رمضان ولا في غيره على إحدى عشر ركعة، يصلّي أربعاً فلا تسأل عن حُسنهنّ وطولهنّ، ثم يصلّي أربعاً فلا تسأل عن حُسنهنّ وطولهنّ ثم يصلّي ثلاثاً. قالت عائشة: فقلت: يا رسول الله أتنام قبل أن توتر؟ فقال: «يا عائشة إن عيني تنامان ولا ينام قلبي». أخبرنا الإمام أبو علي الحسين بن محمد القاضي أنا أبو نعيم عبد الملك بن الحسن الإسفرايني أنا أبو عوانة يعقوب بن إسحاق أنا يونس بن هارون بن عبد الأعلى أنا ابن وهب أخبرني يونس وابن أبي ذئب وعمر بن الحارث أن ابن شهاب أخبرهم عن عروة بن الزبير عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ يصلّي فيما بين أن يفرغ من صلاة العشاء إلى الفجر إحدى عشرة ركعة يسلّم من كل ركعتين ويوتر بواحدة، فيسجد السجدة قدر ما يقرأ أحدكم خمسين آية قبل أن يرفع رأسه، فإذا سكت المؤذّن من آذان الفجر وتبيّن له الفجر قام فركع ركعتين خفيفتين، ثم اضطجع على شقّه الأيمن حتى يأتيه المؤذّن للإقامة فيخرج، وبعضهم يزيد على بعض. أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحي أنا أبو بكر أحمد بن الحسن الحيري أنا حاجب بن أحمد الطوسي أنا عبد الرحمن بن منيب أنا يزيد بن هارون أنا حميد الطويل عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: ما كنّا نشاء أن نرى رسول الله ﷺ في الليل مصلياً إلّا رأيناه ولا نشاء أن نراه نائماً إلا رأيناه، وقال: كان يصوم الشهر حتى نقول لا يفطر، ويفطر حتى نقول لا يصوم منه شيئاً. قوله عزّ وجلّ: ﴿ **عسى أنْ يبعثك ربُك مقاماً محموداً** ﴾ عسى من الله تعالى واجب لأنه لا يدع أن يعطي عباده أو يفعل بهم ما أطمعهم فيه، والمقام المحمود هو مقام الشفاعة لأمته لأنه، يحمده فيه الأوّلون والآخرون، أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أبو منصور محمد بن محمد بن سمعان أنا أبو جعفر محمد بن أحمد بن عبد الجبّار الرياني ثنا حميد بن زنجويه أنا عبد الله بن يزيد المقري أنا حياة عن كعب عن علقمة عن عبد الرحمن بن جبير عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن رسول الله ﷺ قال: «إذا سمعتم المؤذّن فقولوا مثل ما يقول، ثم صلّوا عليّ فإنه مَن صلّى عليّ صلاة صلّى الله عليه بها عشراً، ثم سَلوا الله لي الوسيلة فإنها منزلة في الجنة لا ينبغي أن تكون إلّا لعبد من عباد الله وأرجو أن أكون أنا هو، فمَن سأل لي الوسيلة حلّت عليه الشفاعة»،

الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمداً الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته، حلت له شفاعتي يوم القيامة» (ق) عن أنس أن النبي ﷺ قال: «يجمع الله الناس يوم القيامة فيهتمون لذلك وفي رواية فيلهمون لذلك فيقولون لو استشفعنا إلى ربنا، فيريحنا من مكاننا فيأتون آدم فيقولون أنت آدم أبو البشر خلقك الله بيده، وأسكنك جنته وأسجد لك ملائكته وعلمك أسماء كل شيء اشفع لنا عند ربك حتى يريحنا من مكاننا هذا فيقول: لست هناكم فيذكر خطيئته التي أصاب فيستحي ربه منها، ولكن ائتوا نوحاً أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض فيأتون نوحاً فيقول لست هناكم فيذكر خطيئته التي أصاب، فيستحي ربه منها ولكن ائتوا إبراهيم الذي اتخذه الله خليلاً فيأتون إبراهيم، فيقول: لست هناكم ويذكر خطيئته التي أصاب فيستحي ربه منها، ولكن ائتوا موسى الذي كلمه الله، وأعطاه التوراة قال فيأتون موسى فيقول لست هناكم ويذكر خطيئته التي أصاب فيستحي ربه منها، ولكن ائتوا عيسى روح الله وكلمته فيأتون عيسى روح الله وكلمته فيقول: لست هناكم ولكن ائتوا محمداً ﷺ عبداً قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر. قال قال رسول الله ﷺ: فيأتوني فأستأذن على ربي تعالى فيؤذن لي فإذا أنا رأيته، وقعت ساجداً فيدعني ما شاء فيقال: يا محمد ارفع رأسك قل تسمع سل تعطه اشفع تشفع فأرفع رأسي فأحمد ربي بتحميد يعلمنيه ربي ثم أشفع فيحد لي حداً فأخرجهم من النار، وأدخلهم الجنة ثم أعود فأقع ساجداً فيدعني ما شاء الله أن يدعني، ثم يقال لي: ارفع يا محمد رأسك قل تسمع، سل تعطه اشفع تشفع فأرفع رأسي فأحمد ربي بتحميد يعلمنيه ربي ثم أشفع فيحد لي حداً فأخرجهم من النار، وأدخلهم الجنة قال فلا أدري في الثالثة أو في الرابعة فأقول يا رب ما بقي في النار إلا من حبسه القرآن أي من وجب عليه الخلود» وفي رواية للبخاري ثم تلا هذه الآية عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً، قال وهذا

أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا علي بن عياش ثنا سعيد بن أبي حمزة عن محمد بن المنكدر عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال: «مَن قال حين يسمع النداء اللّهمّ ربّ هذه الدعوة التامّة والصلاة القائمة آتِ محمداً الوسيلة والفضيلة، وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته حلّتْ له شفاعتي يوم القيامة»، أخبرنا أبو حامد أحمد بن عبد الله الصالحي أنا أبو بكر أحمد بن الحسن الحيري أنا حاجب بن أحمد الطوسي أنا عبد الرحيم بن منيب أنا يعلى عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لكل نبي دعوة مستجابة وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي وهي نائلة منكم إن شاء الله مَن مات لا يشرك بالله شيئاً»، أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل قال: وقال الحجّاج بن منهال ثنا همّام بن يحيىٰ ثنا قتادة عن أنس أن النبي ﷺ قال: «يحبس المؤمنون يوم القيامة حتى يهتموا بذلك فيقولون لو استشفعنا إلى ربنا فيريحنا من مكاننا، فيأتون آدم فيقولون: أنت آدم أبو الناس خلقك الله بيده وأسكنك جنته وأسجد لك ملائكته، وعلّمك أسماء كل شيء، اشفعْ لنا عند ربك حتى يريحنا من مكاننا هذا، فيقول: لست هناكم ويذكر خطيئته التي أصاب أكله من الشجرة، وقد نهي عنها ولكن ائتوا نوحاً أول نبي بعثه الله إلى أهل الأرض، فيأتون نوح فيقول: لست هناكم ويذكر خطيئته التي أصاب سؤاله ربّه بغير علم. ولكن ائتوا إبراهيم خليل الرحمن، قال: فيأتون إبراهيم، فيقول: إني لست هناكم ويذكر كذبات كذبهنّ، ولكن ائتوا موسى عبداً أتاه الله التوراة وكلّمه وقربه نجيّاً. قال: فيأتون موسى، فيقول: إني لستُ هناكم، ويذكر خطيئته التي أصاب قتله النفس، ولكن ائتوا عيسى عبد الله ورسوله وروح الله وكلمته، قال: فيأتون عيسى، فيقول: لستُ هناكم، ولكن ائتوا محمداً عبداً غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، قال: فيأتوني فأستأذن على ربي في داره فيؤذن لي عليه، فإذا رأيته وقعت ساجداً فَيَدَعني ما شاء الله أن يدعني، فيقول ارفعْ محمدُ وقلْ تُسمع واشفعْ تشفع، وسلْ تعطه قال: فأرفع رأسي فأثني على ربي بثناء وتحميد يعلّمنيه، ثم أشفع

المقام المحمود الذي وعده نبيكم ﷺ زاد في رواية «فقال النبي ﷺ يخرج من النار من قال لا إله إلا الله، وكان في قلبه من الخير ما يزن شعيرة، ثم يخرج من النار من قال لا إله إلا الله، وكان في قلبه من الخير ما يزن برة، ثم يخرج من النار من قال لا إله إلا الله وكان في قلبه من الخير ما يزن ذرة» قال يزيد بن زريع في حديث شعبة ذرة وفي رواية من إيمان مكان خير، وفي حديث معبد بن هلال العنزي عن أنس في حديث الشفاعة، وذكر نحوه وفيه فأقول يا رب أمتي أمتي فيقال انطلق فمن كان في قلبه أدنى أدنى أدنى من مثقال حبة من خردل من إيمان فأخرجه من النار فانطلق فافعل قال فلما خرجنا من عند أنس، مررنا بالحسن فسلمنا عليه فحدثناه بالحديث إلى هذا الموضع فقال: هيا، فقلنا: لم يزدنا على هذا فقال لقد حدثني، وهو يومئذ جميع منذ عشرين سنة كما حدثكم، ثم قال: ثم أعود في الرابعة فأحمده بتلك المحامد ثم أخرّ له ساجداً فيقال لي يا محمد ارفع رأسك، وقل يسمع لك وسل تعط واشفع تشفع فأقول يا رب ائذن لي فيمن قال لا إله إلا الله قال: ليس ذاك لك أو قال ليس ذاك إليك ولكن وعزتي وكبريائي وعظمتي وجبريائي، لأخرجن منها من قال لا إله إلا الله. قوله: وهو يومئذ جميع أي مجتمع الذهن والرأي. عن أبي سعيد قال قال رسول الله ﷺ «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر وبيدي لواء الحمد، ولا فخر وما من نبي يومئذ آدم فمن سواه إلا تحت لوائي وأنا أول من تنشق عنه الأرض، ولا فخر قال فيفزع الناس ثلاث فزعات فيأتون آدم فيقولون أنت أبونا اشفع لنا إلى ربك فيقول: إني أذنبت ذنباً عظيماً فأهبطت به إلى الأرض ولكن ائتوا نوحاً فيأتون نوحاً فيقول: إني دعوت على أهل الأرض دعوة فأهلكوا ولكن اذهبوا إلى إبراهيم فيأتون إبراهيم فيقول: إني كذبت ثلاث كذبات ثم قال رسول الله ﷺ ما منها كذبة إلا ما حل بها عن دين الله ولكن ائتوا موسى فيأتون موسى فيقول قد قتلت نفساً ولكن ائتوا عيسى فيأتون عيسى فيقول: إني عبدت من دون الله ولكن ائتوا محمداً فيأتوني فأنطلق معهم» قال: ابن جدعان:

فيحدّ لي حدّاً فأخرج فأخرجهم من النار، وأدخلهم الجنة، ثم أعود الثانية فاستأذن على ربي في داره فيؤذن لي عليه فإذا رأيته وقعت ساجداً فيدعني ما شاء الله أن يدعني، ثم يقول: ارفعْ محمدُ وقلْ تسمعْ واشفعْ تشفعْ وسلْ تعطه، قال: فأرفع رأسي فأثني على ربي بثناء وتحميد يعلّمنيه، ثم أشفع فيحدّ لي حدّاً فأخرج فأخرجهم من النار وأدخلهم الجنة، ثم أعود الثالثة فأستأذن على ربي في داره فيؤذن لي عليه فإذا رأيته وقعت ساجداً فيدعني ما شاء الله أن يدعني، ثم يقول: ارفع محمد وقـل تسمعْ واشفعْ تشفعْ وسلْ تعطه، قال: فأرفع رأسي فأُثني على ربي بثناء وتحميد يعلّمنيه ثم اشفع فيحدّ لي حدّاً فأخرج فأدخلهم الجنة». قال قتادة: وقد سمعته يقول: «فأخرج فأخرجهم من النار وأدخلهم الجنة حتى ما بقي في النار إلا من قد حبسه القرآن»، أي وجب عليه الخلود، ثم تلا هذه الآية: ﴿ **عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً** ﴾ قال: «وهذا المقام المحمود الذي وعده نبيّكم ﷺ». وبهذا الإسناد قال: حدّثنا محمد بن إسماعيل ثنا سليمان بن حرب ثنا حماد بن زيد ثنا معبد بن هلال الغزي قال: ذهبنا إلى أنس بن مالك فذكر حديث الشفاعة، بمعناه، وقال: «فأستأذن على ربّي فيؤذن لي ويلهمني محامد أحمده بها لا تحضرني الآن، فأحمده بتلك المحامد وأخرّ له ساجداً، فيقال: يا محمد ارفع رأسك وقل تسمع وسَل تعطه واشفع تشفع، فأقول: يا رب أمتي أمتي، فيقال: انطلق فأخرج مَن كان في قلبه مثقال شعيرة من إيمان، فأنطلق فأفعل، ثم أعود فأحمده بتلك المحامد ثم أخرّ له ساجداً فذكر مثله، وقال: فيقال لي: انطلق فأخرج مَن كان في قلبه مثقال ذرّة أو خردلة من إيمان، قال: فأنطلق فأفعل ثم أعود فأحمده بتلك المحامد ثم أخرّ له ساجداً، فذكر مثله، ثم يقال: انطلق فأخرج من كان في قلبه أدنى أدنى أدنى مثقال حبة من خردل من إيمان، فأنطلق فأفعل، فلما خرجنا من عند أنس مررنا بالحسن فسلّمنا عليه فحدّثناه بالحديث إلى هذا الموضوع، فقال: هيه، فقلنا: يزدنا على هذا، فقال: لقد حدّثني وهو يومئذ جميع منذ عشرين سنة كما حدّثكم، ثم قال: ثم أعود الرابعة فأحمده بتلك المحامد، ثم أخرّ

قال أنس فكأني أنظر إلى رسول الله ﷺ قال فآخذ بحلقة باب فأقعقعها، فيقال من هذا؟ فيقال: محمد فيفتحون لي ويقولون مرحباً فأخرج ساجداً فيلهمني الله من الثناء والحمد فيقال لي ارفع رأسك وسل تعطه، واشفع تشفع وقل يسمع لقولك وهو المقام المحمود الذي قال الله سبحانه وتعالى: عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً. قال سفيان: ليس عن أنس غير هذه الكلمة فآخذ بحلقة باب الجنة فاقعقعها فيقال: من هذا فيقال محمد فيفتحون لي ويرحبون فيقولون: مرحباً فأخر ساجداً فيلهمني الله من الثناء والحمد» أخرجه الترمذي. قوله: ماحل المماحلة: المخاصمة والمجادلة. والمعنى: أنه عليه الصلاة والسلام خاصم وجادل عن دين الله بتلك الألفاظ التي صدرت منه. قوله: فاقعقعها أي أحركها حركة شديدة والقعقعة حكاية أصوات الترس وغيره مما له صوت. عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ «أنا أول الناس خروجاً إذا بعثوا، وأنا خطيبهم إذا وفدوا وأنا مبشرهم إذا أيسوا ولواء الحمد يومئذ بيدي، وأنا أكرم ولد آدم على ربي ولا فخر» أخرجه الترمذي زاد في رواية غير الترمذي: وأنا مستشفعهم إذا حبسوا الكرامة، والمفاتيح يومئذ بيدي يطوف علي خدم كأنهم بيض مكنون أو لؤلؤ منثور» (م) عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة وأول من تنشق عنه الأرض، وأول شافع وأول مشفع» زاد الترمذي، قال: «أنا أول من تنشق عنه الأرض فأكسى حلة من حلل الجنة ثم أقوم عن يمين العرش فليس أحد من الخلائق يقوم ذلك المقام غيري. عن عبد الله بن عمر رضي الله تعالى عنه قال: إن الشمس تدنو يوم القيامة حتى يبلغ العرق نصف الأذن فبينما هم كذلك، استغاثوا بآدم ثم بموسى ثم بمحمد عليه أفضل الصلاة والسلام، فيشفع ليقضي بين الخلائق فيمشي حتى يأخذ بحلقة الباب، فيؤمئذٍ يبعثه الله مقاماً محموداً يحمده فيه أهل الجمع كلهم (م) عن يزيد بن صهيب قال: كنت قد شغفني رأي من رأي الخوارج فخرجنا في عصابة ذوي عدد نريد أن نحج ثم نخرج على الناس قال:

له ساجداً فيقال: يا محمد ارفع رأسك وقل تسمع وسل تعطه واشفع تشفع، فأقول: يا ربّي إئذن لي فيمن قال لا إله إلاّ الله، فيقول وعزّتي وجلالي وكبريائي وعظمتي لأخرجنّ منها مَن قال لا إله إلاّ الله» ورُوِيَ عن عبد الله بن عمر قال: إن الشمس تدنو يوم القيامة حتى يبلغ العرق نصف الأذن فبينما هم كذلك استغاثوا بآدم ثم بموسى ثم بمحمد ﷺ فيشفع ليقضي بين الخلق، فيمشي حتى يأخذ بحلقة الباب فيومئذ يبعثه الله مقاماً محموداً يحمده أهل الجمع كلهم. وأخبرنا الإمام أبو علي الحسين بن محمد القاضي أنا أبو محمد عبد الله بن يوسف بن محمد بن ماموية ثنا أبو بكر محمد بن الحسين القطّان ثنا محمد بن حنوية ثنا سعيد بن سليمان ثنا منصور بن أبي الأسود ثنا الليث عن الربيع بن أنس عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا أوّلهم خروجاً إذا بعثوا وأنا قائدهم إذا وفدوا وأنا خطيبهم إذا أنصتوا وأنا شفيعهم إذا حبسوا وأنا مبشّرهم إذا أيسوا، الكرامة والمفاتيح يومئذ بيدي، ولواء الحمد يومئذ بيدي، وأنا أكرم ولد آدم على ربي، يطوف عليّ ألف خادم كأنهم لؤلؤ بيض مكنون أو لؤلؤ منثور»، أخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر أنا عبد الغافر بن محمد أنا محمد بن عيسى الجلودي ثنا إبراهيم بن محمد بن سفيان ثنا مسلم بن الحجّاج حدّثني الحكم بن موسى ثنا معقل بن زياد عن الأوزاعي حدّثني أبو عمّار حدّثني عبد الله بن فرّوخ حدّثني أبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة وأول مَن ينشقّ عنه القبر وأول شافع وأول مشفع»، والأخبار في الشفاعة متواترة كثيرة وأول مَن أنكرها عمرو بن عبيد وهو مبتدع باتفاق أهل السنّة، ورُوِيَ عن يزيد بن صهيب الفقيه قال: كنت قد شغفني رأي من رأي الخوارج، وكنت رجلاً شاباً فخرجنا في عصابة تريد الحج، فمررنا على المدينة فإذا جابر بن عبد الله يحدّث القوم عن رسول الله ﷺ، وذكر حديث الجهنميين، فقلت له: يا صاحب رسول الله ما هذا الذي يحدّثون والله عزّ وجلّ يقول: ﴿ إنك مَن تدخل النار فقد أخزيته ﴾ [آل عمران: ١٩٢]، ﴿ وكلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها ﴾ [السجدة: ٢٠]، فقال لي:

فمررنا على المدينة فإذا جابر بن عبد الله جالس إلى سارية يحدث عن رسول الله ﷺ، وإذا هو قد ذكر الجهنميين فقلت يا صاحب رسول الله ﷺ ما هذا الذي تحدثونه والله يقول إنك من تدخل النار فقد أخزيته وكلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها، فما هذا الذي تقولون قال: أتقرأ القرآن؟ قلت: نعم. قال: فاقرأ ما قبله إنه في الكفار ثم قال فهل سمعت بمقام محمد الذي يبعثه الله فيه قلت: نعم قال فإن مقام محمد ﷺ المحمود الذي يخرج الله به من يخرج من النار قال ثم نعت وضع الصراط ومر الناس عليه، قال وأخاف أن لا أكون أحفظ ذاك. قال غيره أنه قد زعم أن قوماً يخرجون من النار بعد أن يكونوا فيها. قال: يعني فيخرجون كأنهم عيدان السماسم قال فيدخلون نهراً من أنهار الجنة فيغتسلون فيه، فيخرجون منه كأنهم القراطيس فرجعنا فقلنا ويحكم أترون هذا الشيخ يكذب على رسول الله ﷺ، فرجعنا فلا والله ما خرج غير رجل واحد أو كما قال، والأحاديث في الشفاعة كثيرة وأول من أنكرها عمرو ابن عبيد وهو مبتدع باتفاق أهل السنة. وروى أبو وائل عن ابن مسعود أنه قال: إن الله اتخذ إبراهيم خليلاً وإن صاحبكم خليل الله وأكرم الخلق عليه. ثم قرأ عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً قال يقعده على العرش. وعن مجاهد مثله وعن عبد الله بن سلام قال يقعد على الكرسي. قوله عز وجل:

﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾

﴿**وقل رب أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق**﴾ المراد منهما الإدخال والإخراج قال ابن عباس: معناه أدخلني مدخل صدق المدينة وأخرجني مخرج صدق من مكة نزلت حين أمر رسول الله ﷺ بالهجرة. وقيل: معناه أخرجني من مكة آمناً من المشركين، وأدخلني مكة ظاهراً عليها بالفتح، وقيل: أدخلني في أمرك الذي أرسلتني به من النبوة مدخل صدق، وأخرجني من الدنيا، وقد قمت بما وجب علي من حق النبوة مخرج صدق وقيل: معناه

يا فتى أتقرأ القرآن؟ قلت: نعم، قال: هل سمعت بمقام محمد المحمود الذي يبعثه الله فيه؟ قلت: نعم، قال: فإنه مقام محمد المحمود الذي يخرج الله به مَن يخرج من النار، ثم نعتَ وَضْعَ الصراط ومرَّ الناس عليه، وأن قوماً يخرجون من النار بعدما يكونون فيها، قال: فرجعنا وقلنا أترون هذا الشيخ يكذب على رسول الله ﷺ، ورُوِيَ عن أبي وائل عن عبد الله عن النبي ﷺ قال: «إن الله عزّ وجلّ اتخذ إبراهيم خليلاً، وإن صاحبكم خليل الله وأكرم الخلق على الله»، ثم قرأ: ﴿ **عسى أن يبعثك ربُّك مقاماً محموداً** ﴾. وعن مجاهد في قوله تعالى: ﴿ **عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً** ﴾، قال: يجلسه على العرش. وعن عبد الله بن سلام قال: يقعده على الكرسي.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ **وقلْ ربِّ أدخلني مُدْخلَ صدق وأخرجني مُخرَجَ صدق** ﴾، المراد من المدخل والمخرج الإدخال والإخراج، واختلف أهل التفسير فيه، فقال ابن عباس والحسن وقتادة: أدخلني مدخل صدق المدينة، وأخرجني مخرج صدق من مكة، نزلت حين أمر النبي ﷺ بالهجرة. وقال الضحاك: وأخرجني مخرج صدق من مكة آمناً من المشركين، وأدخلني مدخل صدق مكة ظاهراً عليها بالفتح. وقال مجاهد: أدخلني في أمرك الذي أرسلتني به من النبوّة مدخل صدق، وأخرجني من الدنيا وقد قمت بما وجب عليّ من حقها مخرج صدق. وعن الحسن أنه قال: أدخلني مدخل صدق الجنة واخرجني مخرج صدق من مكة وقيل: أدخلني في طاعتك وأخرجني من المناهي وقيل معناه أدخلني حيث ما أدخلتني بالصدق، وأخرجني بالصدق، أي: لا تجعلني ممّن يدخل بوجه ويخرج بوجه، فإنّ ذا الوجهين لا يكون أميناً ووجيهاً عند الله. ووصف الإدخال والإخراج بالصدق لما يـؤل إليه الخروج والدخول من النصر والعزّ ودولة الدين، كما وصف القدم بالصدق فقال: ﴿ إنّ لهم قدم صدق عند ربهم ﴾

أدخلني في طاعتك مدخل صدق وأخرجني من المناهي مخرج صدق وقيل: معناه أدخلني حيثما أدخلتني بالصدق، وأخرجني بالصدق ولا تجعلني ممن يخرج بوجه ويدخل بوجه فإن ذا الوجهين لا يكون آمناً عند الله ﴿**واجعل لي من لدنك سلطاناً نصيراً**﴾ أي حجة بينة وقيل: ملكاً قوياً تنصرني به على من عاداني وعزاً ظاهراً أقيم به دينك فوعده الله لينزعن ملك فارس والروم وغيرهما ويجعله له، وأجاب دعاءه فقال له والله يعصمك من الناس، وقال يظهره على الدين كله وقال: وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض الآية. قوله تعالى ﴿**وقل جاء الحق**﴾ يعني الإسلام والقرآن ﴿**وزهق الباطل**﴾ أي الشرك والشيطان ﴿**إن الباطل كان زهوقاً**﴾ أي مضمحلاً غير ثابت، وذلك أن **الباطل** وإن كان له دولة وصولة في وقت من الأوقات فهو سريع الذهاب والزوال (ق) . عن عبد الله بن مسعود قال: دخل النبي ﷺ مكة يوم الفتح وكان حول البيت ثلثمائة وستون صنماً فجعل يطعنها بعود في يده ويقول: جاء الحق وزهق **الباطل** إن الباطل كان زهوقاً ـ جاء الحق، وما يبدىء **الباطل** وما يعيد ـ قوله تعالى:

وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴿٨٣﴾ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾

﴿**وننزل من القرآن ما هو شفاء**﴾ من في قوله تعالى من القرآن لبيان الجنس. والمعنى: ننزل من هذا الجنس الذي هو القرآن ما هو شفاء أي بيان من الضلالة والجهالة، يتبين به المختلف فيه ويتضح به المشكل، ويستشفى به من الشبهة ويهتدى به من الحيرة وهو شفاء القلوب بزوال الجهل عنها. وقيل: هو شفاء للأمراض الباطنة والظاهرة، وذلك لأنها تنقسم إلى نوعين[1] أحدهما الاعتقادات الباطلة، والثاني الأخلاق المذمومة أما الاعتقادات الباطلة

[يونس: ٢]. ﴿ **واجعل لي من لدنك سلطاناً نصيراً** ﴾، قال مجاهد: حجة بيّنة. وقال الحسن: ملكاً قوياً تنصرني به على مَن ناوأني وعزّاً ظاهراً أُقيم به دينك، فوعده الله لينزعنّ ملك فارس والروم وغيرهما فيجعله له. قال قتادة: علم نبيّ الله ﷺ أن لا طاقة له بهذا الأمر إلّا بسلطان نصير، فسأل سلطاناً نصيراً كتاب الله وحدوده وإقامة دينه.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ **وقلْ جاء الحق** ﴾، يعني القرآن، ﴿ **وزهق الباطل** ﴾، أي الشيطان، قال قتادة: وقال السدي: الحق الإسلام، والباطل الشرك. وقيل: الحق عبادة الله، والباطل عبادة الأصنام. ﴿ **إنّ الباطل كان زهوقاً** ﴾ ذاهباً، يقال: زهقت نفسه أي خرجت. أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي ثنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا صدقة بن الفضل ثنا ابن عيينة عن ابن أبي نجيح عن مجاهد عن أبي معمر عن عبد الله، قال: دخل النبي ﷺ مكة يوم الفتح وحول البيت ستون وثلاثمائة صنم، فجعل يطعنها بعود في يده ويقول: «**جاء الحق وزهق الباطل، جاء الحق وما يبدىء الباطل وما يعيد**».

قوله عزّ وجلّ: ﴿ **وننزل من القرآن ما هو شفاءٌ ورحمةٌ للمؤمنين** ﴾، قيل: ﴿ من ﴾ ليس للتبعيض، ومعناه: وننزل من القرآن ما هو كله شفاء، أي: بيان من الضلالة والجهالة يتبيّن به المختلف ويتضح به المشكل ويستشفى به من الشبهة ويهتدى به من الحيرة، وهو شفاء القلوب بزوال الجهل عنها ورحمة للمؤمنين. ﴿ **ولا يزيد الظالمين**

---

(١) قوله لأنها تنقسم إلى نوعين أي الأمراض الغير الجسمانية بدليل قوله بعد وأما كونه شفاء من الأمراض الجسمانية والعبارة في الفخر الرازي بغاية التهذيب فليراجع.

فأشدها فساداً والاعتقادات الفاسدة في الذات والصفات والنبوات والقضاء والقدر والبعث بعد الموت، فالقرآن كتاب مشتمل على دلائل المذهب الحق في هذه الأشياء وابطال المذاهب الفاسدة، لا جرم، كان القرآن شفاء لما في القلوب من هذا النوع. وأما النوع الثاني: وهو الأخلاق المذمومة فالقرآن مشتمل على التنفير منها، والإرشاد إلى الأخلاق المحمودة والأعمال الفاضلة، فثبت أن القرآن شفاء من جميع الأمراض الباطنة وأما كونه شفاء من الأمراض الجسمانية، فلأن التبرك بقراءته يدفع كثيراً من الأمراض. يدل عليه ما روي عن النبي ﷺ في فاتحة الكتاب، «وما يدريك أنها رقية»: ﴿ورحمة للمؤمنين﴾ لما كان القرآن شفاء للأمراض الباطنة والظاهرة، فهو جدير بأن يكون رحمة للمؤمنين ﴿ولا يزيد الظالمين إلا خساراً﴾ لأن الظالم لا ينتفع به، والمؤمن ينتفع به فكان رحمة للمؤمنين وخساراً للظالمين، وقيل: لأن كل آية تنزل يتجدد لهم تكذيب بها فيزداد خسارهم قال قتادة: لم يجالس القرآن أحد إلا قام عنه بزيادة أو نقصان قضاه الله الذي قضى شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خساراً. قوله سبحانه وتعالى: ﴿وإذا أنعمنا على الإنسان﴾ أي بالصحة والسعة ﴿أعرض﴾ أي عن ذكرنا ودعائنا ﴿ونأى بجانبه﴾ أي تباعد منا بنفسه وترك التقرب إلينا بالدعاء وقيل: معناه تكبر وتعظم ﴿وإذ مسه الشر﴾ أي الشدة والضر ﴿كان﴾ أي يائساً قنوطاً، وقيل: معناه إنه يتضرع ويدعو عند الضر والشدة، فإذا تأخرت الإجابة يئس فلا ينبغي للمؤمن أن يدع الدعاء ولو تأخرت الإجابة. قوله عز وجل ﴿قل كل﴾ أي كل أحد ﴿يعمل على شاكلته﴾ قال ابن عباس: على ناحيته. وقيل: الشاكلة الطريقة أي على طريقته التي جبل عليها، وفيه وجه آخر وهو أن كل إنسان يعمل على حسب جوهر نفسه، فإن كانت نفسه شريفة طاهرة، صدرت عنه أفعال جميلة وأخلاق زكية طاهرة وإن كانت نفسه كدرة خبيثة صدرت عنه أفعال خبيثة فاسدة رديئة ﴿فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلاً﴾ أي أوضح طريقاً وأحسن مذهباً واتباعاً للحق قوله سبحانه وتعالى:

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ

إلّا خساراً ﴾، لأن الظالم لا ينتفع به والمؤمن مَن ينتفع به فيكون رحمة له، وقيل: زيادة الخسارة للظالم من حيث أن كل آية تنزل يتجدّد منهم تكذيب ويزداد لهم خسارة، قال قتادة: لم يجالس هذا القرآن أحد إلّا قام عنه بزيادة أو نقصان، قضى الله الذي قضى شفاء ورحمة للمؤمنين، ولا يزيد الظالمين إلّا خساراً.

قوله تعالى: **﴿ وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ﴾**، عن ذكرنا ودعائنا، **﴿ ونأى بجانبه ﴾**، أي تباعد منّا بنفسه، أي ترك التقرّب إلى الله بالدعاء. وقال عطاء: تعظم وتكبر، ويكسر النون والهمزة حمزة والكسائي، ويفتح النون ويكسر الهمزة أبو بكر، وقرأ ابن عامر وأبو جعفر «ونـاء» مثل جاء قيل: هو بمعنى نأى، وقيل: ناء من النوء وهو النهوض والقيام. **﴿ وإذا مسّه الشرّ ﴾**، الشدّة والضرّ، **﴿ كان يؤساً ﴾**، أي آيساً قنوطاً. وقيل: معناه أنه يتضرّع ويدعو عند الضرّ والشدّة، فإذا تأخرت الإجابة يئس ولا ينبغي للمؤمن أن ييأس من الإجابة، وإن تأخرت فيدع الدعاء.

قوله عزّ وجلّ: **﴿ قلْ كلٌّ يعمل على شاكلته ﴾**، قال ابن عباس: على ناحيته. قال الحسن وقتادة: على نيّته. وقال مقاتل: على خليقته. قال الفرّاء على طريقته التي جُبِلَ عليها. وقال القتيبي: على طبيعته وجبلته. وقيل: على السبيل الذي اختاره لنفسه، وهو من الشكل، يقال: لستَ على شكلي ولا شاكلتي، وكلها لغات متقاربة، تقول العرب: طريق ذو شواكل إذا تشعبت منه الطرق، ومجاز الآية: كلٌّ يعمل على ما يشبهه كما يقال في المثل: كل امرىء يشبهه فعله. **﴿ فربكم أعلم بمَن هو أهدى سبيلاً ﴾**، أوضح طريقاً.

بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾

﴿ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي﴾ (ق) عن عبد الله بن مسعود قال: بينما أنا أمشي مع النبي ﷺ وهو يتوكأ على عسيب معه فمر بنفر من اليهود فقال بعضهم لبعض: سلوه عن الروح. وقال بعضهم: لا تسألوه يسمعكم ما تكرهون فقاموا إليه، وفي رواية، فقام إليه رجل منهم فقال: يا أبا القاسم ما الروح؟ فسكت وفي رواية، فقالوا حدثنا عن الروح، فقام ساعة ينتظر الوحي، وعرفت أنه يوحى إليه فتأخرت حتى صعد الوحي قال: ويسئلونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً. فقال بعضهم لبعض: قد قلنا لكم لا تسألوه. وفي رواية، وما أوتوا من العلم إلا قليلاً. قال الأعمش هكذا في قراءتنا. العسيب: جريد النخل وسعفه. وقال ابن عباس: إن قريشاً اجتمعوا وقالوا إن محمداً نشأ فينا بالأمانة والصدق وما اتهمناه بكذب قط، وقد ادعى ما ادعى فابعثوا نفراً إلى اليهود بالمدينة واسألوهم عنه فإنهم أهل كتاب، فبعثوا جماعة إليهم فقالت اليهود سلوه عن ثلاثة أشياء فإن أجاب عن كلها، أو لم يجب عن شيء منها فليس بنبي وإن أجاب عن اثنتين ولم يجب عن واحد فهو نبي فسألوه عن فتية فقدوا في الزمن الأول ما كان شأنهم، فإنه كان لهم حديث عجيب، وعن رجل بلغ مشرق الأرض ومغربها ما خبره وعن الروح قال فسألوا النبي ﷺ فقال: أخبركم بما سألتم غداً، ولم يقل إن شاء الله فلبث الوحي. قال مجاهد: اثني عشر يوماً وقيل: خمسة عشر يوماً وقيل أربعين يوماً وأهل مكة يقولون: قد وعدنا محمد غداً وقد أصبحنا لا يخبرنا بشيء، حتى حزن رسول الله ﷺ من مكث الوحي وشق عليه ما يقوله أهل مكة ثم نزل جبريل عليه السلام بقوله تعالى: ﴿ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله﴾ ونزل في الفتية ﴿أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجباً﴾ ونزل فيمن بلغ المشرق والمغرب، قوله ﴿ويسألونك عن ذي القرنين﴾ ونزل في

قوله تعالى: ﴿ **ويسئلونك عن الروح قلِ الروح من أمر ربي** ﴾، الآية، أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا قيس بن حفص ثنا عبد الواحد يعني ابن زياد ثنا الأعمش عن إبراهيم عن علقمة عن عبد الله قال: بينا أنا أمشي مع النبي ﷺ في حرث المدينة وهو يتوكأ على عسيب معه، فمرّ بنفر من اليهود، فقال بعضهم لبعض : سلوه عن الروح، وقال بعضهم: لا تسألوه لا يجيء فيه بشيء تكرهونه، فقال بعضهم: لنسألنّه، فقام رجل منهم فقال: يا أبا القاسم ما الروح؟ فسكت، فقلت: إنه يوحى إليه فقمت فلما انجلى عنه، وقال: ﴿ **ويسئلونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أُوتيتم من العلم إلاّ قليلاً** ﴾ وفي رواية (وما أُوتوا من العلم إلاّ قليلاً) قال الأعمش: هكذا في قراءتنا. ورُوِيَ عن ابن عباس أنه قال: إن قريشاً قد اجتمعوا وقالوا: إن محمداً نشأ فينا بالأمانة والصدق وما اتهمناه بكذب، وقد ادّعى ما ادّعى، فابعثوا نفراً إلى اليهود بالمدينة واسألوهم عنه فإنهم أهل كتاب فبعثوا جماعة إليهم، فقالت اليهود: سلوه عن ثلاثة أشياء فإن أجاب عن كلها أو لم يجب عن شيء منها، فليس بنبي وإن أجاب عن اثنين ولم يجب عن واحدة فهو نبي فسلوه عن فتية فقدوا في الزمن الأول ما كان من أمرهم فإنه كان لهم حديث عجيب وعن رجل بلغ شرق الأرض وغربها ما خبره، وعن الروح، فسألوه، فقال النبي ﷺ: «أخبركم بما سألتم غداً» ولم يقل إن شاء الله، فلبث الوحي، قال مجاهد: اثني عشرة ليلة، وقيل: خمسة عشر يوماً. وقال عكرمة: أربعين يوماً وأهل مكة يقولون: وعدنا محمد غداً وقد أصبحنا لا يخبرنا بشيء، حتى حزن النبي ﷺ من مكث الوحي وشقّ عليه ما يقوله أهل مكة، ثم نزل جبريل بقوله: ﴿ ولا تقولنّ لشيء إني فاعل ذلك غداً إلاّ أن يشاء الله ﴾ [الكهف: ٢٣]، ونزل في الفتية ﴿ أم حسبتَ أن

الروح ﴿ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي﴾ واختلفوا في الذي وقع السؤال عنه، فروي عن ابن عباس أنه جبريل وعن علي أنه ملك له سبعون ألف وجه في كل وجه سبعون ألف لسان لكل لسان سبعون ألف لغة يسبح الله تعالى بكلها. وقال مجاهد: خلق على صورة بني آدم، لهم أيد وأرجل ورؤوس ليسوا بملائكة ولا ناس يأكلون الطعام. وقال سعيد بن جبير: لم يخلق الله خلقاً أعظم من الروح غير العرش لو شاء أن يبتلع السموات والأرض ومن فيها بلقمة واحدة لفعل ذلك صورة خلقه على صورة الملائكة، وصورة وجهه على صورة وجه الآدميين، يقوم يوم القيامة على يمين العرش، وهو أقرب الخلق إلى الله تعالى اليوم عند الحجب السبعين وأقرب الخلق إلى الله يوم القيامة وهو ممن يشفع لأهل التوحيد، ولولا أن بينه وبين الملائكة ستراً من نور لاحترق أهل السموات من نوره. وقيل: الروح هو القرآن لأن الله سماه روحاً ولأن به حياة القلوب. وقيل: هو الروح المركب في الخلق الذي به يحيى الإنسان وهو أصح الأقوال. وتكلم قوم في ماهية الروح فقال بعضهم: هو الدم ألا ترى أن الإنسان إذا مات لا يفوت منه شيء إلا الدم. وقال قوم: هو نفس الحيوان بدليل أنه يموت باحتباس النفس. وقال قوم: هو عرض. وقال قوم: هو جسم لطيف يحيا به الإنسان. وقيل: الروح معنى اجتمع فيه النور والطيب والعلم والعلو والبقاء، ألا ترى أنه إذا كان موجوداً يكون الإنسان موصوفاً بجميع هذه الصفات إذا خرج منه ذهب الكل. وأقاويل الحكماء والصوفية في ماهية الروح كثيرة، وليس هذا موضع استقصائها وأولى الأقاويل أن يوكل علمه إلى الله عز وجل وهو قول أهل السنة قال عبد الله بن بريدة: إن الله لم يطلع على الروح ملكاً مقرباً ولا نبياً مرسلاً بدليل قوله: قل الروح من أمر ربي أي من علم ربي الذي استؤثر به ﴿**وما أوتيتم من العلم**﴾ من علم ربي ﴿**إلا قليلاً**﴾ أي في جنب علم الله عز وجل الخطاب عام. وقيل: هو خطاب لليهود فإنهم كانوا يقولون: أوتينا التوراة وفيها العلم الكثير، فقيل لهم: إن علم التوراة قليل في جنب علم الله. وقيل إن القلة والكثرة تدوران مع الإضافة فوصف الشيء بالقلة مضافاً إلى ما فوقه، وبالكثرة مضافاً

أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجباً ﴾ [الكهف: ٩]، ونزل فيمن بلغ الشرق والغرب ﴿ ويسئلونك عن ذي القرنين ﴾ [الكهف: ٨٣]، ونزل في الروح ﴿ **ويسئلونك عن الروح قل الروح من أمر ربي** ﴾، واختلفوا في الروح الذي وقع السؤال عنه، فرُوِيَ عن ابن عباس: أنه جبريل، وهو قول الحسن وقتادة، رُوِيَ عن علي أنه قال: مَلك له سبعون ألف وجه لكل وجه سبعون ألف لسان يسبّح الله تعالى بكلها. وقال مجاهد: خلق على صور بني آدم لهم أيدٍ وأرجل ورؤوس وليسوا بملائكة ولا ناس يأكلون الطعام، وقال سعيد بن جبير: لم يخلق الله تعالى خلقاً أعظم من الروح غير العرش، لو شاء أن يبتلع السمٰوات السبع والأرضين السبع ومَن فيها بلقمة واحدة لفعل، صورة خلقه على صورة خلق الملائكة وصورة وجهه على صورة الآدميين، يقوم يوم القيامة عن يمين العرش وهو أقرب الخلق إلى الله عزّ وجلّ اليوم عند الحجب السبعين، وأقرب إلى الله يوم القيامة وهو ممّن يشفع لأهل التوحيد، ولولا أن بينه وبين الملائكة ستراً من نور لاحترق أهل السمٰوات من نوره. وقيل: الروح هو القرآن. وقيل: المراد منه عيسى عليه السلام، فإنه روح الله وكلمته، ومعناه أنه ليس كما يقوله اليهود ولا كما يقوله النصارى، وقال قوم: هو الروح المركّب في الخلق الذي يحيل به الإنسان، وهو الأصح. وتكلّم فيه قوم فقال بعضهم: هو الدم ألا ترى أن الحيوان إذا مات لا يفوت منه شيء إلا الدم. وقال قوم: هو نَفَسُ الحيوان بدليل أنه يموت باحتباس النفس. وقال قوم: هو عرض. وقال قوم: هو جسم لطيف. وقال بعضهم: الروح معنى اجتمع فيه النور والطيب والعلو والعلم والبقاء، ألا ترى أنه إذا كان موجوداً يكون الإنسان موصوفاً بجميع هذه الصفات، فإذا خرج ذهب الكل، وأولى الأقاويل: أن يوكل علمه إلى الله عزّ وجلّ، وهو قول أهل السُّنّة. قال عبد الله بن بريدة: إن الله لم يطلعْ على الروح ملكاً مقرباً ولا نبيّاً مرسلاً. وهو قول أهل السُّنّة. قال عبد الله بن بريدة إن الله لم يطلعْ على الروح

إلى ما تحته وقيل: إن النبي ﷺ علم معنى الروح ولكن لم يخبر به لأن ترك الإخبار به كان علماً لنبوته. والقول الأصح هو أن الله عز وجل استأثر بعلم الروح. قوله عز وجل ﴿**ولئن شئنا لنذهبن بالذي أوحينا إليك**﴾ ومعناه أنا كما منعنا علم الروح عنك وعن غيرك، إن شئنا ذهبنا بالقرآن ومحوناه من الصدور والمصاحف، فلم نترك له أثراً وبقيت كما كنت ما تدري ما الكتاب ﴿**ثم لا تجد لك به علينا وكيلاً**﴾ معناه لا تجد بعد الذهاب به من يتوكل علينا باسترداده عليك، وإعادته محفوظاً مستوراً ﴿**إلا رحمة من ربك**﴾ معناه إلا أن يرحمك ربك فيرده عليك، وقيل هو على الاستثناء المنقطع. معناه لكن رحمة من ربك تركته غير مذهوب به، وهذا امتنان من الله تعالى ببقاء القرآن محفوظاً، فإن قلت كيف يذهب بالقرآن وهو كلام الله عز وجل؟ قلت: المراد منه محو ما في المصاحف وإذهاب ما في الصدور وقال عبد الله بن مسعود: «اقرؤوا القرآن قبل أن يرفع فإنه لا تقوم الساعة حتى يرفع» قيل: هذه المصاحف ترفع فكيف بما في صدور الناس قال: يسرى عليه ليلاً فيرفع ما في صدورهم فيصبحون لا يحفظون شيئاً، ولا يجدون مما في المصاحف شيئاً ثم يفيضون في الشعر وعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال «لا تقوم الساعة حتى يرفع القرآن من حيث نزل. له دوي حول العرش كدوي النحل، فيقول الرب: ما لك؟ فيقول: يا رب أُتلى ولا يُعمل بي» ﴿**إن فضله كان عليك كبيراً**﴾ أي بسبب بقاء العلم والقرآن عليك وجعلك سيد ولد آدم، وختم النبيين بك وإعطائك المقام المحمود. قوله سبحانه وتعالى ﴿**قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله**﴾ أي لا يقدرون على ذلك ﴿**ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً**﴾ أي عوناً. نزلت حين قال المشركون: لو نشاء لقلنا مثل هذا فكذبهم الله عز وجل، فالقرآن معجز في النظم والتأليف والإخبار عن الغيوب، وهو كلام في أعلى طبقات البلاغة

ملكاً مقرّباً ولا نبيّاً مرسلاً. وقوله عزّ وجلّ: ﴿ **قل الروح من أمر ربي** ﴾ قيل: من علم ربي، ﴿ **وما أُوتيتم من العلم إلّا قليلاً** ﴾ أي: في جنب علم الله قيل: هذا خطاب للرسول ﷺ. وقيل: خطاب لليهود لأنهم كانوا يقولون أُوتينا التوراة وفيها العلم الكثير. وقيل: كان النبي ﷺ يعلم معنى الروح ولكن لم يخبر به أحداً لأن ترك إخباره به كان علماً لنبوّته. والأول أصح لأن الله عزّ وجلّ استأثر بعلمه.

قوله تعالى: ﴿ **ولئن شئنا لنذهبنّ بالذي أوحينا إليك** ﴾، يعني القرآن، معناه: إنّا كما منعنا علم الروح عنك وعن غيرك، لو شئنا لنذهبنّ بالذي أوحينا إليك يعني القرآن، ﴿ **ثم لا تجد لك به علينا وكيلاً** ﴾، أي: مَن يتوكل بردّ القرآن إليك.

﴿ **إلّا رحمةً من ربك** ﴾، هذا استثناء منقطع معناه: ولكن لا نشاء ذلك رحمة من ربك. ﴿ **إن فضله كان عليك كبيراً** ﴾، فإن قيل كيف يذهب القرآن وهو كلام الله عزّ وجلّ؟ قيل: المراد منه محوه من المصاحف وإذهاب ما في الصدور. وقال عبد الله بن مسعود: اقرؤوا القرآن قبل أن يرفع فإنه لا تقوم الساعة حتى يرفع. قيل هذه المصاحف ترفع فكيف بما في صدور الناس؟ قال: يسرى عليه ليلاً فيرفع ما في صدورهم فيصبحون لا يحفظون شيئاً ولا يجدون في المصاحف شيئاً، ثم يفيضون في الشعر، وعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: لا تقوم الساعة حتى يرجع القرآن من حيث نزل، له دوي حول العرش كدوي النحل، فيقول الرب: ما لك وهو أعلم؟ فيقول: يا رب أُتلى ولا يُعمَل بي.

قوله جلّ وعلا: ﴿ **قل لئنِ اجتمعتِ الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله** ﴾، لا يقدرون على ذلك، ﴿ **ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً** ﴾، عوناً ومظاهراً، نزلت حين قال الكفّار: لو نشاء لقلنا مثل هذا فكذّبهم الله تعالى، فالقرآن مُعجِز في النظم والتأليف والإخبار عن الغيوب، وهو كلام في أعلى طبقات المبالغة

لا يشبه كلام الخلق لأنه كلام الخالق وهو غير مخلوق ولو كان مخلوقاً لأتوا بمثله قوله عز وجل:

وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾ وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾

﴿**ولقد صرفنا للناس في هذا القرآن من كل مثل**﴾ أي رددنا وكررنا من كل معنى هو كالمثل في غرابته وحسنه. وقيل: معناه من كل وجه من العبر والأحكام والوعد والوعيد والقصص وغيرها ﴿**فأبى أكثر الناس إلا كفوراً**﴾ أي جحوداً. قوله سبحانه وتعالى ﴿**وقالوا لن نؤمن لك**﴾ أي لن نصدقك ﴿**حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً**﴾ لما تبين إعجاز القرآن وانضمت إليه معجزات أخر وبينات، ولزمتهم الحجة وغلبوا أخذوا يتغالون باقتراح الآيات، فقالوا: لن نؤمن **لك**. روى عكرمة عن ابن عباس أن عتبة وشيبة ابني ربيعة وأبا سفيان بن حرب والنضر بن الحارث وأبا البختري بن هشام والأسود بن عبد المطلب، وزمعة بن الأسود والوليد بن المغيرة وأبا جهل بن هشام وعبد الله بن أبي أمية وأمية بن خلف والعاص بن وائل، ونبيهاً ومنبهاً ابني الحجاج اجتمعوا بعد غروب الشمس عند ظهر الكعبة، فقال بعضهم لبعض: ابعثوا إليّ محمداً فكلموه وخاصموه حتى تعذروا فيه، فبعثوا إليه أن أشراف قومك قد اجتمعوا لك ليكلموك فجاءهم رسول الله ﷺ سريعاً وهو يظن أنه بدا لهم في أمره بدء، وكان حريصاً يحب رشدهم حتى جلس إليهم فقالوا: يا محمد إنا بعثنا إليك لنعذر فيك وإنا والله لا نعلم رجلاً من العرب أدخل على قومه ما أدخلت على قومك. لقد شتمت الآباء، وعبت الدين، وسفهت الأحلام، وشتمت الآلهة، وفرقت الجماعة، وما بقي من قبيح إلا وقد جئته فيما بيننا وبينك فإن كنت جئت بهذا الحديث تطلب به مالاً جعلنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً وإن

لا يشبه كلام الخلق، لأنه غير مخلوق ولو كان مخلوقاً لأتوا بمثله.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ **ولقد صرّفنا للناس في هذا القرآن من كل مثل** ﴾، من كل وجه من العِبَر والأحكام والوعد والوعيد وغيرها، ﴿ **فأبى أكثر الناس إلّا كفوراً** ﴾، جحوداً.

﴿ **وقالوا لن نؤمن لك** ﴾، لن نصدقك، ﴿ **حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً** ﴾، قرأ أهل الكوفة ويعقوب ﴿ **تفجر** ﴾ بفتح التاء وضمّ الجيم مخفّفاً، لأن الينبوع واحد، وقرأ الباقون بالتشديد من التفجير، واتفقوا على تشديد قوله: ﴿ **فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً** ﴾، لأن الأنهار جمع والتشديد يدلّ على التكثير، ولقوله: ﴿ **تفجيراً** ﴾ من بعد، وروى عكرمة عن ابن عباس: أن عتبة وشيبة ابني ربيعة وأبا سفيان بن حرب والنضر بن الحارث وأبا البختري بن هشام والأسود بن عبد المطلب وزمعة بن الأسود والوليد بن المغيرة وأبا جهل بن هشام وعبد الله بن أبي أمية وأمية بن خلف والعاص بن وائل ونبيهاً ومنبّهاً ابني الحجّاج اجتمعوا ومَن اجتمع معهم بعد غروب الشمس عند ظهر الكعبة، فقال بعضهم لبعض: ابعثوا إلى محمد فكلّموه وخاصموه حتى تُعذروا فيه، فبعثوا إليه أن أشراف قومك قد اجتمعوا لك ليكلّموك فجاءهم رسول الله ﷺ سريعاً وهو يظن أنه بدا لهم في أمره بدء وكان عليهم حريصاً يحب رشدهم حتى جلس إليهم، فقالوا: يا محمد إنّا بعثنا إليك لنعذر فيك وإنّا والله لا نعلم رجلاً من العرب أدخل على قومه ما أدخلت على قومك، لقد شتمت الآباء وعبت الدين وسفّهت الأحلام وشتمت الآلهة، وفرّقت الجماعة فما بقي أمر قبيح إلّا وقت جئته فيما بينك وبيننا، فإن كنت جئت بهذا الحديث تطلب به مالاً جعلنا لك من أموالنا

كنت تريد الشرف سودناك علينا وإن كنت تريد ملكاً ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي بك رئي تراه قد غلب عليك لا تستطيع رده بذلنا لك أموالنا في طلب الطب حتى نبرئك منه ونعذر فيك وكانوا يسمون التابع من الجن الرئي فقال رسول الله ﷺ: ما بي ما تقولون ما جئتكم بما جئتكم به لطلب أموالكم، ولا للشرف عليكم ولا للملك عليكم ولكن الله بعثني إليكم رسولاً وأنزل عليّ كتاباً، وأمرني أن أكون لكم بشيراً ونذيراً، فبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم فإن تقبلوا مني فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه عليَّ أصبر لأمر الله حتى يحكم بيني وبينكم فقالوا: يا محمد إن كنت غير قابل منّا ما عرضنا عليك فقد علمت أنه ليس أحد أضيق بلاداً ولا أشد عيشاً منا، فسل لنا ربك الذي بعثك فليسير عنا هذه الجبال التي قد ضيقت علينا، ويبسط لنا بلادنا ويفجر لنا فيها الأنهار كأنهار الشام والعراق وليبعث لنا من مضى من آبائنا، وليكن منهم قصي بن كلاب فإنه كان شيخاً صدوقاً فنسألهم عما تقول أحق هو أم باطل فإن صدقوك صدقناك. فقال رسول الله ﷺ: ما بهذا بعثت فقد بلغتكم ما أرسلت به، فإن تقبلوه فهو حظكم وإن تردوه أصبر لأمر الله تعالى. قالوا: فإن لم تفعل هذا فسل لنا ربك أن يبعث ملكاً يصدقك، وسله أن يجعل لك جنات وقصوراً وكنوزاً من ذهب وفضة يعينك بها على ما تريد، فإنك تقوم بالأسواق وتلتمس المعاش كما نلتمسه فقال: ما بعثت بهذا ولكن الله بعثني بشيراً ونذيراً. قالوا: فأسقط السماء كما زعمت إن ربك إن شاء فعل. فقال: ذلك إلى الله إن شاء فعل ذلك بكم. وقال قائل منهم: لن نؤمن لك حتى تأتينا بالله والملائكة قبيلاً فلما قالوا ذلك قام رسول الله ﷺ وقام معه عبد الله بن أبي أمية، وهو ابن عمته عاتكه بنت عبد المطلب فقال يا محمد عرض عليك قومك ما عرضوا فلم تقبله منهم، ثم سألوك لأنفسهم أموراً يعرفون بها منزلتك من الله فلم تفعل ثم سألوك أن تعجل

حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت تطلب الشرف سوّدناك علينا، وإن كنت تريد ملكاً ملّكناك علينا، وإن كان هذا الأمر الذي بك رئي تراه حتى غلب عليك لا تستطيع ردّه بذلنا لك أموالنا في طلب حتى نبرئك منه، أو نعذر فيك، وكانوا يسمّون التابع من الجن: الرئي، فقال رسول الله ﷺ: «ما بي ما تقولون ما جئتكم بما جئتكم به لطلب أموالكم ولا الشرف عليكم، ولا الملك عليكم ولكن الله بعثني إليكم رسولاً، وأنزل عليّ كتاباً وأمرني أن أكون لكم بشيراً ونذيراً فبلّغتكم رسالة ربّي ونصحت لكم، فإن تقبلوا مني فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردّوه عليّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم، فقالوا: يا محمد إن كنت غير قابل منّا ما عرضنا عليك فقد علمت أنه ليس أحد أضيق منّا بلاداً ولا أشدّ منّا عيشاً فَسَلْ لنا ربك الذي بعثك فليسيّر عنّا هذه الجبال التي قد ضيقت علينا، ويبسط لنا بلادنا ويفجّر فيها أنهاراً كأنهار الشام والعراق، وليبعث لنا مَن مضى من آبائنا وليكن منهم قصي بن كلاب فإنه كان شيخاً صدوقاً فنسألهم عمّا تقول أحق هو أم باطل، فإن صدقوك صدّقناك، فقال رسول الله ﷺ: «ما بهذا بعثتُ فقد بلّغتكم ما أُرسلت به، فإن تقبلوه منّي فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردّوه أصبر لأمر الله»، قالوا: فإن لم تفعل هذا فسَلْ ربك أن يبعث لنا ملكاً يصدقك واسأله أن يجعل لك جناناً وقصوراً وكنوزاً من ذهب وفضة يغنيك بها عمّا نراك، فإنك تقوم بالأسواق وتلتمس المعاش كما نلتمسه، فقال: ما بُعثتُ بهذا ولكنّ الله بعثني بشيراً ونذيراً، قالوا: فأسقط السماء كما زعمت، إن ربك لو شاء فعل، فقال: «ذلك إلى الله إن شاء فعل ذلك بكم فعله»، وقال قائل منهم: لن نؤمن لك حتى تأتينا بالله والملائكة قبيلاً»، فلما قالوا ذلك قام رسول الله ﷺ وقام معه عبد الله بن أبي أُمية وهو ابن عمته عاتكة بنت عبد المطلب، فقال: يا محمد عرض عليك قومك ما عرضوا عليك فلم تقبله منهم ثم سألوك لأنفسهم أموراً يعرفون بها منزلتك من الله تعالى فلم تفعل، ثم سألوك أن تعجّل ما تخوفهم به من العذاب، فلم تفعل، فوالله لا أُؤمن لك أبداً حتى تتخذ إلى السماء سلماً ترقى فيها وأنا أنظر حتى تأتيها وتأتي بنسخة منشورة معك ونفر من الملائكة يشهدون لك بما تقول، وإيم الله لو فعلت ذلك لظننت أن لا أصدقك، فانصرف رسول

ما تخوفهم به من العذاب، فلم تفعل فوالله ما أؤمن لك أبداً حتى تتخذ إلى السماء مرقى ترقى فيه، وأنا أنظر حتى تأتيها فتأتي بنسخة منشورة معك ونفر من الملائكة يشهدون لك بما تقول، وايم الله لو فعلت ذلك لظننت أن لا أصدقك. فانصرف رسول الله ﷺ إلى أهله حزيناً من مباعدتهم فأنزل الله تعالى: ﴿**وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض**﴾ يعني أرض مكة ﴿**ينبوعاً**﴾ أي عيوناً أو ﴿**أو تكون لك جنة من نخيل وعنب**﴾ أي بستان فيه نخيل وعنب ﴿**فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً**﴾ أي تشقيقاً ﴿**أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً**﴾ أي قطعاً ﴿**أو تأتي بالله والملائكة قبيلاً**﴾ قال ابن عباس: كفيلاً أي يكفلون بما تقول. وقيل هو جمع القبيلة أي بأصناف الملائكة قبيلة قبيلة، يشهدون لك بصحة ما تقول. وقيل: معناه تراهم مقابلة عياناً ﴿**أو يكون لك بيت من زخرف**﴾ أي من ذهب وأصله الزينة ﴿**أو ترقى**﴾ أي تصعد ﴿**في السماء ولن نؤمن لرقيك**﴾ أي لأجل رقيك ﴿**حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه**﴾ أمرنا فيه باتباعك وهذا قول عبد الله بن أبي أمية ﴿**قل**﴾ أي قل يا محمد ﴿**سبحان ربي**﴾ أمره بتنزيهه وتمجيده وفيه معنى التعجب ﴿**هل كنت إلا بشراً رسولاً**﴾ أي كسائر الرسل لأممهم وكان الرسل لا يؤتون قومهم إلا بما يظهره الله عليهم من الآيات، فليس أمر الآيات إليهم إنما هو إلى الله تعالى، ولو أراد أن ينزل ما طلبوا لفعل، ولكن لا ينزل الآيات على ما اقترحه البشر وما أنا إلا بشر، وليس ما سألتم في طوق البشر واعلم أن الله سبحانه وتعالى قد أعطى النبي ﷺ من الآيات والمعجزات ما يغني عن هذا كله، مثل القرآن وانشقاق القمر ونبع الماء من بين أصابعه وما أشبهها من الآيات، وليست بدون ما اقترحوه بل هي أعظم مما اقترحوه والقوم عامتهم كانوا متعنتين، ولم يكن قصدهم طلب الدليل ليؤمنوا فرد الله تعالى عليهم سؤالهم قوله عز وجل:

الله ﷺ إلى أهله حزيناً لِما رأى من مباعدتهم، فأنـزل الله تعالى: ﴿ **وقـالوا لن نؤمن لـك حتى تفجّر لنـا من الأرض** ﴾ يعني: أرض مكة ﴿ **ينبوعاً** ﴾ أي: عيوناً.

﴿ **أو تكون لك جنة** ﴾، بستان ﴿ **من نخيل وعنب فتفجّر الأنهار خلالها تفجيراً** ﴾، تشقيقاً.

﴿ **أو تُسقِطَ السماء كما زعمتَ علينا كِسَفاً** ﴾، قرأ نافع وابن عامر وعاصم بفتح السين، أي: قطعاً وهي جمع كسفة، وهي القطعة والجانب مثل كسرة وكسر، وقرأ الآخرون بسكون السين على التوحيد، وجمعه أكساف وكسوف، أي: تسقطها طبقاً واحداً. وقيل: أراد جانبها علينا. وقيل: معناه أيضاً القطع، وهي جمع التكسير مثل سدرة وسدر في الشعراء [٨٧] وسبأ [٩] ﴿ **كسفاً** ﴾ بالفتح، حفص، وفي الروم [٤٨] ساكنة أبو جعفر، وابن عامر. ﴿ **أو تأتي بالله والملائكة قبيلاً** ﴾، قال ابن عباس: كفيلاً أن يكفلون بما تقول: وقال الضحاك: ضامناً. وقال مجاهد: هو جمع القبيلة أي: بأصناف الملائكة قبيلة قبيلة. وقال قتادة: عياناً أي: تراهم القابلة أي معاينة. وقال الفرّاء: هو من قول العرب لقيت فلاناً قبيلاً، وقبيلاً أي: معاينة.

﴿ **أو يكون لك بيت من زُخرف** ﴾ أي: من ذهب، وأصله الزينة، ﴿ **أو ترقى** ﴾، تصعد، ﴿ **في السماء** ﴾، هذا قول عبد الله بن أبي أُميّة، ﴿ **ولنْ نُؤمن لرقيك** ﴾، لصعودك، ﴿ **حتى تُنزِّلَ علينا كتاباً نقرأه** ﴾، أمرنا فيه باتباعك، ﴿ **قلْ سبحان ربي** ﴾، وقرأ ابن كثير وابن عامر «قـال» يعني محمداً، وقرأ الآخرون على الأمر، أي: قلْ يا محمد، ﴿ **هلْ كنتُ إلّا بشراً رسولاً** ﴾، أمره بتنزيهه وتمجيده، على معنى أنه لو أراد أن ينزل ما طلبوا لفعل، ولكن الله لا ينزل الآيات على ما يقترحه البشر، وما أنا إلّا بشر وليس ما سألتم في طوق البشر، واعلم أن الله تعالى قد أعطى النبي ﷺ من الآيات والمعجزات ما يُغني عن هذا كله، مثل القرآن وانشقاق القمر وتفجير العيون من بين الأصابع وما أشبهها، والقوم عامّتهم كانوا متعنتين لم يكن قصدهم طلبَ الدليل ليؤمنوا، فردّ الله عليهم سؤالهم.

وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ
مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى
وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن
دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾

﴿**وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى**﴾ أي الوحي. والمعنى: وما منعهم الإيمان بالقرآن وبنبوة محمد ﷺ إلا شبهة تلجلجت في صدورهم هي إنكارهم أن يرسل الله البشر وهو قوله تعالى ﴿**إلا أن قالوا**﴾ أي جهلاً منهم ﴿**أبعث الله بشراً رسولاً**﴾ وذلك أن الكفار كانوا يقولون لن نؤمن لك لأنك بشر وهلا بعث الله إلينا ملكاً فأجابهم الله بقوله: ﴿**قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين**﴾ أي مستوطنين مقيمين فيها ﴿**لنزلنا عليهم من السماء ملكاً رسولاً**﴾ أي من جنسهم لأن الجنس إلى الجنس أميل ﴿**قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم**﴾ أي على أني رسوله إليكم وأني قد بلغت ما أرسلت به إليكم، وأنكم كذبتم وعاندتم ﴿**إنه كان بعباده**﴾ يعني المنذرين والمنذرين ﴿**خبيراً بصيراً**﴾ أي عالماً بأحوالهم، فهو مجازيهم وفيه تسلية للنبي ﷺ ووعيد للكفار ﴿**ومن يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد لهم أولياء من دونه**﴾ أي يهدونهم وفيه أيضاً تسلية للنبي ﷺ ،وهو أن الذين حكم لهم بالإيمان والهداية وجب أن يصيروا مؤمنين ومن سبق لهم حكم الله بالضلال والجهل استحال أن ينقلبوا عن ذلك ﴿**ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم**﴾ (ق) «عن أنس أن رجلاً قال: يا رسول الله قال الله الذين يحشرون على وجوههم إلى جهنم أيحشر الكافر على وجهه قال رسول الله: ﷺ أليس الذي أمشاه على الرجلين في الدنيا، قادراً على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة؟ قال قتادة حين بلغه بلى وعزة ربنا» وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «يحشر الناس يوم القيامة ثلاثة أصناف صنفاً مشاة، وصنفاً ركباناً، وصنفاً على وجوههم. قيل يا رسول الله وكيف يمشون على وجوههم قال: إن الذي أمشاهم على أقدامهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم أما إنهم يتقون بوجوههم كل حدب وشوك» أخرجه الترمذي الحدب كل ما ارتفع من الأرض ﴿عمياً وبكماً وصماً﴾ أي لا يبصرون ولا ينطقون ولا يسمعون. فإن قلت:

قوله عزّ وجلّ: ﴿ **وما منع الناس أنْ يُؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلاّ أن قالوا** ﴾، جهلاً منهم، ﴿ **أبعث الله بشراً رسولاً** ﴾، أراد أن الكفّار كانوا يقولون لن نؤمن لك لأنك بشر، وهلاّ بعث الله إلينا ملكاً فأجابهم الله تعالى:

﴿ **قلْ لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين** ﴾، مستوطنين مقيمين، ﴿ **لنزلنا عليهم من السماء ملكاً رسولاً** ﴾، من جنسهم لأن القلب إلى الجنس أميل منه إلى غير الجنس.

﴿ **قلْ كفى بالله شهيداً بيني وبينكم** ﴾، أني رسوله إليكم، ﴿ **إنه كان بعباده خبيراً بصيراً** ﴾.

﴿ **ومَن يهدِ الله فهو المهتد ومَن يضلل فلن تجد لهم أولياء من دونه** ﴾، يهدونهم، ﴿ **ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم** ﴾، أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحي أنا الحسن بن شجاع الصوفي المعروف بابن الموصلي أنبأنا أبو بكر بن الهيثم ثنا جعفر بن محمد الصائغ ثنا حسين بن محمد ثنا سفيان عن قتادة عن أنس أن رجلاً قال: يا رسول الله كيف يحشر الكافر على وجهه يوم القيامة؟ قال النبي ﷺ: «إن الذي أمشاه على رجليه قادر على أن يمشيه على وجهه»، وجاء في الحديث: «إنهم يتّقون بوجوههم كل حدب وشوك». ﴿ **عمياً وبكماً وصُمّاً** ﴾، فإن قيل: كيف وصفهم بأنهم عميٌ وبكمٌ وصُمٌّ. وقد قال: ﴿ ورأى المجرمون النار ﴾ [الكهف: ٥٣]، وقال: ﴿ ادعوا هنالك ثبوراً ﴾ [الفرقان: ١٣] وقال: ﴿ سمعوا لها تغيظاً وزفيراً ﴾ [الفرقان: ١٢]، أثبت الرؤية والكلام والسمع؟

كيف وصفهم بأنهم عمي وبكم وصم وقد قال الله تعالى ﴿ورأى المجرمون النار﴾ وقال ﴿دعوا هنالك ثبوراً﴾ وقال ﴿سمعوا لها تغيظاً وزفيراً﴾ فأثبت لهم الرؤية والكلام والسمع. قلت فيه أوجه: أحدها قال ابن عباس معناه عمياً لا يبصرون ما يسرهم بكماً لا ينطقون بحجة صماً لا يسمعون ما يسرهم. الوجه الثاني: قيل: معناه يحشرون على ما وصفهم الله وتعالى: ثم تعاد إليهم هذه الأشياء. الوجه الثالث: قيل معناه هذا حين يقال لهم اخسئوا فيها، ولا تكلمون فيصيرون بأجمعهم عمياً وبكماً وصماً لا يرون ولا ينطقون ولا يسمعون ﴿مأواهم جهنم كلما خبت﴾ أي سكن لهيبها. وقيل: ضعفت وهدأت من غير أن يوجد نقصان في إيلام الكفار، لأن الله سبحانه وتعالى قال: لا يفتر عنهم وقيل معناه أرادت أن تخبو ﴿زدناهم سعيراً﴾ أي وقوداً وقيل معناه خبت أي نضجت جلودهم واحترقت أعيدوا إلى ما كانوا عليه، وزيد في سعير النار لتحرقهم.

ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾ ۞ أَوَلَمْ
يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ
إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾ وَلَقَدْ
ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾

﴿ذلك جزاؤهم بأنهم كفروا بآياتنا﴾ لما ذكر الوعيد المتقدم قال: ذلك جزاؤهم بما كفروا يعني ذلك العذاب جزاؤهم بسبب كفرهم بآياتنا ﴿وقالوا أئذا كنا عظاماً ورفاتاً أئنا لمبعوثون خلقاً جديداً﴾أجابهم الله ورد عليهم بقوله ﴿أولم يروا أن الله الذي خلق السموات والأرض﴾ أي في عظمها وشدتها ﴿قادر على أن يخلق مثلهم﴾ أي في صغرهم وضعفهم ﴿وجعل لهم أجلاً﴾ أي وقتاً لعذابهم ﴿لا ريب فيه﴾ أي لا شك فيه أنه يأتيهم قبل الموت، وقيل يوم القيامة ﴿فأبى الظالمون إلا كفوراً﴾ أي جحوداً وعناداً ﴿قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربي﴾ أي خزائن نعمه ورزقه وقيل:

قيل: يحشرون على ما وصفهم الله ثم تَعاد إليهم هذه الأشياء، وجواب آخر قال ابن عباس: عمياً لا يرون ما يسرّهم بكماً لا ينطقون بحجة صمّاً لا يسمعون شيئاً يسرّهم. وقال الحسن: هذا حين يُساقون إلى الموقف إلى أن يدخلوا النار. وقال مقاتل: هذا حين يقال لهم: ﴿ اخسئوا فيها ولا تكلمون ﴾ [المؤمنون: ١٠٨] يصيرون بأجمعهم عمياً وبكماً وصُمّاً لا يرون ولا ينطقون ولا يسمعون. ﴿ مأواهم جهنّم كلما خَبَتْ ﴾، قال ابن عباس: كلما سكنت، أي: سكن لهيبها. وقال مجاهد: طفئت وقال قتادة: ضعفت وقيل: هو الهدو من غير أن يوجد نقصان في ألم الكفّار، لأن الله تعالى قال: ﴿ لا يفتر عنهم ﴾ [الزخرف: ٧٥]، وقيل: كلما خبت أي أرادت أن تخبو، ﴿ زدناهم سعيراً ﴾، أي: وقوداً، وقيل: المراد من قوله: ﴿ كلما خبت ﴾ أي: نضجت جلودهم واحترقت أُعيدوا فيها إلى ما كانوا عليه وزِيدَ في تسعير النار لتحرقهم.

﴿ ذلك جزاؤهم بأنهم كفروا بآياتنا وقالوا أئذا كنّا عظاماً ورفاتاً أئنّا لمبعوثون خلقاً جديداً ﴾، فأجابهم الله تعالى.

فقال: ﴿ أو لم يروا أنّ الله الذي خلق السموات والأرضَ ﴾، في عظمتها وشدّتها، ﴿ قادر على أن يخلق مثلهم ﴾، في صغرهم وضعفهم، نظيره قوله تعالى: ﴿ لخلق السمٰوات والأرض أكبر من خلق النـاس ﴾ [غافر: ٥٧]. ﴿ وجعل لهم أجَلاً ﴾ أي: وقتاً لعذابهم، ﴿ لا ريب فيه ﴾، أنه يأتيهم، قيل: هو الموت، وقيل: هو يوم القيامة، ﴿ فأبى الظالمون إلاّ كفوراً ﴾، أي: جحوداً وعناداً.

إن خزائن الله غير متناهية. والمعنى: لو أنكم ملكتم من النعم خزائن لا نهاية لها ﴿**إذاً لأمسكتم**﴾ أي لبخلتم وحبستم ﴿**خشية الإنفاق**﴾ والفقر والنفاد وهذا مبالغة عظيمة في وصفهم بهذا الشيء ﴿**وكان الإنسان قتوراً**﴾ أي ممسكاً بخيلاً. فان قلت: قد يوجد في جنس الإنسان من هو جواد كريم، فكيف وصفه بالبخل؟ قلت: الأصل في الإنسان البخل، لأنه خلق محتاجاً والمحتاج لا بد وأن يحب ما يدفع به عنه ضرر الحاجة، ويمسكه لنفسه إلا أنه قد يجود لأسباب خارجة مثل أن يحب المدحة أو رجاء ثواب، فثبت بها أن الأصل في الإنسان البخل. قوله تعالى ﴿**ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات**﴾ أي دلالات واضحات. قال ابن عباس: هي العصا واليد البيضاء والعقدة التي كانت بلسانه، فحلها وفلق البحر والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم وقيل عوض فلق البحر، واليد والسنون ونقص من الثمرات وقيل: الطمس والبحر بدل السنين والنقص. قيل كان الرجل منهم مع أهله في الفراش وقد صارا حجرين والمرأة قائمة تخبز، وقد صارت حجراً وقد روي أن عمر بن عبد العزيز سأل محمد بن كعب القرظي عن الآيات فذكر منها الطمس فقال عمر: هذا يجب أن يكون الفقيه ثم قال يا غلام اخرج ذلك الجراب فأخرجه. فإذا فيه بيض مكسر نصفين، وجوز مكسر نصفين وثوم وحمص وعدس كلها حجارة. وقيل: التسع آيات هي آيات الكتاب وهي الأحكام يدل عليه ما روي عن صفوان بن غسان أن يهودياً قال لصاحبه: تعال حتى نسأل هذا النبي فقال الآخر: لا تقل نبي. فإنه لو سمع صارت له أربعة أعين، فأتياه فسألاه عن هذه الآية. ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات فقال: لا تشركوا بالله شيئاً ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا تزنوا ولا تأكلوا الربا، ولا تسحروا ولا تمشوا بالبريء إلى

﴿ **قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربي** ﴾ أي: نعمة ربي. وقيل: رزق ربي، ﴿ **إذاً لأمسكتم** ﴾، لبخلتم وحبستم، ﴿ **خشية الإنفاق** ﴾، أي: خشية الفاقة، قاله قتادة، وقيل: خشية النفاد، يقال: أنفق الرجل أي أملق وذهب ماله ونفق الشيء، أي: ذهب، وقيل: لأمسكتم عن الإنفاق خشية الفقر، ﴿ **وكان الإنسان قتوراً** ﴾، أي: بخيلاً ممسكاً عن الإنفاق.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ **ولقد آتينا موسى تسع آيات بيّنات** ﴾، أي: دلالات واضحات، فهي الآيات التسع، قال ابن عباس والضحاك: هي العصا واليد البيضاء والعقدة التي كانت بلسانه فحلّها وفلق البحر والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم. وقال عكرمة وقتادة ومجاهد وعطاء: هي الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والعصا واليد والسنون ونقص الثمرات. وذكر محمد بن كعب القرظي: الطمس والبحر بدل السنين ونقص من الثمرات، قال فكان الرجل منهم مع أهله في فراشه وقد صَارَا حجرين، والمرأة منهم قائمة تخبز وقد صارت حجراً. وقال بعضهم: هنّ آيات الكتاب. أخبرنا أبو سعيد أحمد بن إبراهيم الشريحي أنا أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي أخبرني الحسن بن محمد الثقفي أنا هارون بن محمد بن هارون العطارد أنبأنا يوسف بن عبد الله بن ماهان ثنا الوليد الطيالسي ثنا شعبة عن عمرو بن مرة عن عبد الله بن مسلمة عن صفوان بن عسال المرادي أن يهودياً قال لصاحبه تعالَ حتى نسأل هذا النبي، فقال الآخر: لا تقل نبي فإنه لو سمع صارت أربعة أعين، فأتياه فسألاه عن هذه الآية: ﴿ **ولقد آتينا موسى تسع آيات بيّنات** ﴾ فقال: لا تشركوا بالله شيئاً ولا تقتلوا النفس التي حرّم الله إلّا بالحق، ولا تزنوا ولا تأكلوا الربا، ولا تسحروا ولا تمشوا بالبريء إلى سلطان ليقتله، ولا تسرفوا ولا تقذفوا المحصنة، ولا تفرّوا من الزحف، وعليكم خاصة اليهود أن لا تعدوا في السبت، فقبّلا يده، وقالا نشهد أنك نبي، قال: «فما يمنعكم أن تتبعوني»؟ قالا: إن داود دعا ربه أن لا يزال في ذريته نبي وإنّا نخاف إن تبعناك أن يقتلنا اليهود. قوله عزّ وجلّ: ﴿ **فاسأل** ﴾، يا محمد، ﴿ **بني إسرائيل إذْ جاءهم** ﴾، موسى، يجوز أن يكون الخطاب معه والمراد غيره، ويجوز أن يكون خاطبه عليه السلام وأمره بالسؤال ليتبيّن كذبهم مع قومهم. ﴿ **فقال له فرعون**

سلطان ليقتله ولا تسرفوا ولا تقذفوا المحصنات ولا تفروا من الزحف، وعليكم خاصة اليهود أن لا تعدوا في السبت فقبلا يده وقالا: نشهد إنك نبي قال: فما يمنعكم أن تتبعوني قالا إن داود دعا ربه أن لا يزال في ذريته نبي، وإنا نخاف إنا اتبعناك أن تقتلنا اليهود ﴿فاسأل﴾ يا محمد ﴿بني إسرائيل﴾ يجوز الخطاب معه والمراد غيره ويجوز أن يكون خاطبه وأمره بالسؤال ليتبين كذبهم مع قومهم ﴿إذ جاءهم﴾ يعني جاء موسى إلى فرعون بالرسالة من عند الله عز وجل ﴿فقال له فرعون إني لأظنك يا موسى مسحوراً﴾ قال ابن عباس: مخدوعاً وقيل: مطبوباً أي سحروك وقيل معناه ساحراً معطى علم السحر، فهذه العجائب التي تفعلها من سحرك.

قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْـَٔاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾

﴿قال﴾ موسى ﴿لقد علمت﴾ خطاباً لفرعون. قال ابن عباس: علمه فرعون ولكنه عانده ﴿ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض﴾ يعني الآيات التسع ﴿بصائر﴾ أي بينات يبصر بها ﴿وإني لأظنك يا فرعون مثبوراً﴾ قال ابن عباس: ملعوناً. وقيل: هالكاً. وقيل: مصروفاً عن الخير ﴿فأراد أن يستفزهم من الأرض﴾معناه أراد فرعون أن يخرج موسى وبني إسرائيل من أرض مصر ﴿فأغرقناه ومن معه جميعاً﴾ أي أغرقنا فرعون وجنوده ونجينا موسى وقومه ﴿وقلنا من بعده﴾ أي من بعد هلاك فرعون ﴿لبني إسرائيل اسكنوا الأرض﴾ يعني أرض مصر والشام ﴿فإذا جاء وعد الآخرة﴾ يعني القيامة ﴿جئنا بكم لفيفاً﴾ أي جميعاً إلى موقف القيامة، واللفيف: الجمع الكثير إذا كانوا مختلفين من

إني لأظنك يا موسى مسحوراً ﴾، أي: مطبوباً سحروك، قاله الكلبي، وقال ابن عباس: مخدوعاً. وقيل: مصروفاً عن الحق. وقال الفرّاء وأبو عبيدة: ساحراً، فوضع المفعول موضع الفاعل. وقال محمد بن جرير: معطى علم السحر، فهذه العجائب التي تفعلها من سحرك.

﴿ **قال** ﴾، موسى، ﴿ **لقد علمت** ﴾، قرأ العامّة بفتح التاء خطاباً لفرعون، وقرأ الكسائي بضم التاء، ويُروى ذلك عن علي، وقال: لم يعلم الخبيث أن موسى على الحق، ولو عَلم لآمن ولكن موسى هو الذي علم، قال ابن عباس: علّمه فرعون ولكنه عاند، قال الله تعالى: ﴿ وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلوّاً ﴾ [النمل: ١٤]، وهذه القراءة وهي نصب التاء أصحّ في المعنى وعليه أكثر القرّاء، لأن موسى لا يحتجّ عليه بعلم نفسه، ولا يثبت عن علي رفع التاء لأنه رُوِيَ عن رجل من مراد عن علي، وذلك الرجل مجهول ولم يتمسك بها أحد من القرّاء غير الكسائي، ﴿ **ما أنزل هؤلاء** ﴾، هذه الآيات التسع، ﴿ **إلاّ ربّ السمٰوات والأرض بصائر** ﴾، جمع بصيرة أي يبصر بها، ﴿ **وإني لأظنك يا فرعون مثبوراً** ﴾، قال ابن عباس: ملعوناً. وقال مجاهد: هالكاً. وقال قتادة: مهلكاً. وقال الفرّاء: أي مصروفاً ممنوعاً عن الخير. يقال: ما ثبرك عن هذا الأمر أي ما منعك وصرفك عنه.

﴿ **فأراد أن يستفزهم** ﴾، أي: أراد فرعون أن يستفزّهم موسى وبني إسرائيل أي يخرجهم، ﴿ **مِّن الأرض** ﴾، يعني أرض مصر، ﴿ **فأغرقناه ومَن معه جميعاً** ﴾، ونجّينا موسى وقومه.

﴿ **وقلنا من بعده** ﴾، أي من بعد هلاك فرعون، ﴿ **لبني إسرائيل اسكنوا الأرض** ﴾، يعني أرض مصر والشام، ﴿ **فإذا جاء وعد الآخرة** ﴾، يعني يوم القيامة، ﴿ **جئنا بكم لفيفاً** ﴾ أي: جميعاً إلى موقف القيامة. واللفيف: الجمع الكثير إذا كانوا مختلطين من كل نوع، يقال: لفّت الجيوش إذا اختلطوا وجمع القيامة كذلك فيهم

كل نوع فيهم المؤمن والكافر والبر والفاجر وقيل: أراد بوعد الآخرة نزول عيسى من السماء قوله سبحانه وتعالى:

﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾ قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴿١٠٩﴾﴾

﴿وبالحق أنزلناه وبالحق نزل﴾ يعني أنا ما أردنا بإنزال القرآن إلا تقريره للحق فلما أردنا هذا المعنى فكذلك وقع وحصل. وقيل: معناه وما أنزلنا القرآن إلا بالحق المقتضي لإنزاله وما نزل إلا ملتبساً بالحق لاشتماله على الهداية إلى كل خير ﴿وما أرسلناك إلا مبشراً﴾ يعني بالجنة للمطيعين ﴿ونذيراً﴾ أي مخوفاً بالنار للعاصين. قوله عز وجل ﴿وقرآناً فرقناه﴾ أي فصلناه وبيناه وقيل فرقنا به بين الحق والباطل، وقيل: معناه أنزلنا نجوماً لم ينزل مرة واحدة بدليل قوله تعالى ﴿لتقرأه على الناس على مكث﴾ أي على تؤدة وترسل في ثلاث وعشرين سنة ﴿ونزلناه تنزيلاً﴾ أي على حسب الحوادث ﴿قل آمنوا به أو لا تؤمنوا﴾ فيه وعيد وتهديد ﴿إن الذين أوتوا العلم من قبله﴾ قيل: هم مؤمنو أهل الكتاب الذين كانوا يطلبون الدين قبل مبعث رسول الله ﷺ ثم أسلموا بعد مبعثه مثل زيد بن عمرو بن نفيل وسلمان الفارسي وأبي ذر وغيرهم ﴿إذا يتلى عليهم﴾ يعني القرآن ﴿يخرون للأذقان﴾ قال ابن عباس: أراد بها الوجوه ﴿سجداً﴾ أي يقعون على الوجوه سجداً ﴿ويقولون سبحان ربنا﴾ أي تعظيماً لربنا لإنجازه ما وعد في الكتب المنزلة،

المؤمن والكافر والبرّ والفاجر. وقال الكلبي: فإذا جاء وعد الآخرة يعني مجيء عيسى من السماء جئنا بكم لفيفاً أي: النزاع من كل قوم من ههنا وهنا لفّوا جميعاً.

﴿ وبالحق أنزلناه وبالحق نزل ﴾، يعني القرآن، ﴿ وماأرسلناك إلاّ مبشّراً ﴾ للمطيعين، ﴿ ونذيراً ﴾، للعاصين.

﴿ وقرآناً فرّقناه ﴾، قيل: أنزلناه نجوماً لم ينزل مرة واحدة، بدليل قراءة ابن عباس: ﴿ وقرآناً فرّقناه ﴾ بالتشديد، وقراءة العامّة بالتخفيف، أي: فصّلناه. وقيل: بيّناه. وقال الحسن: معناه فرّقنا به بين الحق والباطل. ﴿ لتقرأه على الناس على مكث ﴾، أي: على تؤدة وترسّل في ثلاث وعشرين سنة، ﴿ ونزّلناه تنزيلاً ﴾.

﴿ قلْ آمنوا به أو لا تؤمنوا ﴾، هذا على طريق الوعيد والتهديد، ﴿ إنّ الذين أُوتوا العلم من قبله ﴾، قيل: هم مؤمنوا أهل الكتاب وهم الذيـن كانوا يطلبون الذين قبل مبعث رسول الله ﷺ ثم أسلموا بعد مبعثه، مثل زيد بن عمر بن نفيل وسلمان الفارسي وأبي ذرّ وغيرهم. ﴿ إذا يُتلى عليهم ﴾، يعني القرآن ﴿ يخِرّون للأذقان ﴾ أي: يسقطون على الأذقان، قال ابن عباس: أراد بها الوجوه، ﴿ سجّداً ﴾.

﴿ ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولاً ﴾، أي: كائناً واقعاً.

﴿ ويخِرُّون للأذقان يبكون ﴾، أي: يقعون على الوجوه يبكون، البكاء مستحب عند قـراءة القرآن، ﴿ ويزيدهم ﴾، نزول القرآن، ﴿ خشوعاً ﴾، خضوعاً لربهم، نظيره قوله تعالى: ﴿ إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خرّوا سجّداً وبُكياً ﴾ [مريم: ٥٨] أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحي أبو عمرو بن بكر بن محمد المزني ثنا أبو بكر محمد بن عبد الله الجنيد ثنا الحسن بن الفضل البجلي أنا عـاصم عن علي بن عاصم ثـنا المسعودي هـو عبد الرحمن بن عبد الله عن محمد بن عبد الرحمن مولى أبي طلحة عن أبي عيسى بن طلحة عن أبي هريرة قال:

من بعثة محمد ﷺ ﴿إن كان وعد ربنا لمفعولاً﴾ أي كائناً واقعاً ﴿ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعاً﴾ أي خضوعاً لربهم وقيل يزيدهم القرآن لين قلب، ورطوبة عين فالبكاء مستحب عند قراءة القرآن. عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يلج النار رجل بكى من خشية الله حتى يعود اللبن في الضرع، ولا اجتمع على عبدي غبار في سبيل الله ودخان جهنم» أخرجه الترمذي والنسائي. وزاد النسائي «في منخري مسلم أبداً» الولوج الدخول والمنخر الأنف عن ابن عباس قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول «عينان لا تمسهما النار عين بكت من خشية الله وعين باتت تحرس في سبيل الله» أخرجه الترمذي قوله عز وجل:

﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا ﴿١١١﴾﴾

﴿قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن﴾ قال ابن عباس: سجد رسول الله ﷺ ذات ليلة فجعل يقول في سجوده: يا الله يا رحمن فقال أبو جهل: إن محمداً ينهانا عن آلهتنا وهو يدعو إلهين فأنزل الله هذه الآية ومعناه أنهما اسمان لله تعالى فسموه بهذا الاسم أو بهذا الاسم ﴿أياً ما تدعوا﴾ ما صلة ومعناه أي هذين الاسمين سميتم وذكرتم، أو من جميع أسمائه ﴿فله الأسماء الحسنى﴾ يعني إذا حسنت أسماؤه كلها فهذان الاسمان منها ومعنى كونها حسنى أنها مشتملة على معاني التقديس، والتعظيم والتمجيد ﴿ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها﴾ (ق) عن ابن عباس في قوله: ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها قال: نزلت ورسول الله ﷺ مختف بمكة وكان إذا صلى بأصحابه رفع صوته بالقرآن فإذا سمعه المشركون سبوا القرآن ومن أنزله ومن جاء به فقال الله تبارك وتعالى لنبيه ﷺ: ولا تجهر بصلاتك أي بقراءتك فيسمع المشركون فيسبوا القرآن، ولا تخافت بها عن أصحابك فلا تسمعهم وابتغ بين ذلك سبيلاً زاد في رواية وابتغ

قال رسول الله ﷺ: «لا يلج النار مَن بكى من خشية الله حتى يعود اللبن في الضرع، ولا يجتمع غبار في سبيل الله ودخان جهنم في مِنخري مسلم أبداً»، أخبرنا أبو القاسم بن عبد الكريم بن هوازن القشيري أنا أبو القاسم عبد الخالق بن علي بن عبد الخالق المؤذن أنا أحمد بن بكر بن محمد بن حمدان ثنا محمد بن يونس الكريمي أنبأنا عبد الله بن محمد الباهلي ثنا أبو حبيب الغنوي ثنا بهز بن حكيم عن أبيه عن جدّه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «حرّمت النار على ثلاث أعين: عين بكت من خشية الله، وعين سهرت في سبيل الله، وعين غضّت عن محارم الله».

قوله جلّ وعلا: ﴿ قلِ ادعوا الله أو ادعوا الرحمن ﴾، قال ابن عباس: سجد رسول الله ﷺ بمكة ذات ليلة فجعل يبكي ويقول في سجوده: «يا الله يا رحمن»، فقال أبو جهل: إن محمداً ينهانا عن آلهتنا وهو يدعو إلّهين، فأنزل الله تعالى هذه الآية ومعناه أنهما اسمان لواحد، ﴿ أيّاً ما تدعوا ﴾، ﴿ ما ﴾ صلة معناه أيّاً ما تدعوا من هذين الاسمين ومن جميع أسمائه، ﴿ فله الأسماء الحسنى ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها ﴾، أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنبأنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل أنا يعقوب بن إبراهيم هشيم ثنا أبو بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها ﴾ قال: نزلت ورسول الله ﷺ مختفٍ بمكة كان إذا صلّى بأصحابه رفع صوته بالقرآن فإذا سمعه المشركون سبّوا القرآن ومَن أنزله ومَن جاء به، فقال الله تعالى لنبيّه ﷺ: ﴿ ولا تجهر بصلاتك ﴾ أي بقراءتك فيسمع المشركون فيسبّوا القرآن،

بين ذلك سبيلاً أسمعهم، ولا تجهر حتى يأخذوا عنك القرآن وقيل نزلت الآية في الدعاء وهو قول عائشة والنخعي ومجاهد ومكحول. (ق) عن عائشة «ولا تجهور بصلاتك ولا تخافت بها» قالت: نزل ذلك في الدعاء. وقيل: كان أعراب من بني تميم إذا سلم رسول الله ﷺ قالوا: اللهم ارزقنا مالاً وولداً يجهرون بذلك فأنزل الله عز وجل «ولا تجهر بصلاتك أي لا ترفع صوتك بقراءتك ودعائك ولا تخافت بها» المخافتة خفض الصوت، والسكوت ﴿**وابتغ**﴾ أي اطلب ﴿**بين ذلك سبيلاً**﴾ أي طريقاً وسطاً بين الجهر والاخفاء. عن أبي قتادة أن النبي ﷺ قال لأبي بكر: «مررت بك وأنت تقرأ القرآن وأنت تخفض من صوتك فقال إني أسمعت من ناجيت فقال ارفع قليلاً وقال لعمر مررت بك، وأنت تقرأ وأنت ترفع من صوتك فقال إني أوقظ الوسنان وأطرد الشيطان فقال: اخفض قليلاً» أخرجه الترمذي ﴿**وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً**﴾ أمر الله نبيه ﷺ بأن يحمده على وحدانيته. وقيل: معناه الحمد لله الذي عرفني أنه لم يتخذ ولداً وقيل إن كل من له ولد فهو يمسك جميع النعم لولده وإذا لم يكن له ولد أفاض نعمه على عبيده. وقيل: إن الولد يقوم مقام والده بعد انقضائه والله عز وجل يتعالى عن جميع النقائص فهو المستحق لجميع المحامد ﴿**ولم يكن له شريك في الملك**﴾ والسبب في اعتبار هذه الصفة أنه لو كان له شريك، لم يكن مستحقاً للحمد والشكر وكذا قوله

ولا تخافت بها عن أصحابك فلا تسمعهم ﴿ **وابتغِ بين ذلك سبيلاً** ﴾ وبهذا الإسناد عن محمد بن إسماعيل قال: ثنا مسدد عن هشيم عن أبي بشر بإسناده مثله وزاد ﴿ **وابتغ بين ذلك سبيلاً** ﴾، أسمعهم ولا تجهر حتى يأخذوا عنك القرآن. وقال قوم: نزلت الآية في الدعاء وهو قول عائشة رضي الله عنها والنخعي ومجاهد ومكحول، أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا طلق بن غنام ثنا زائدة عن هشام عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها: ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها قالت: أنزل ذلك في الدعاء. وقال عبد الله بن شداد: كان أعراب من بني تميم إذا سلّم النبي ﷺ قالوا: اللّهمّ ارزقنا مالاً وولداً فيجهرون بذلك، فأنزل الله هذه الآية: ﴿ **ولا تجهر بصلاتك** ﴾ أي: لا ترفع صوتك بقراءتك أو بدعائك ولا تخافت بها، والمخافتة خفض الصوت والسكوت، وابتغِ بين ذلك سبيلاً أي: بين الجهر والإخفاء. أخبرنا أبو عثمان سعيد بن إسماعيل الضبي أنا أبو محمد عبد الجبار بن محمد الخزاعي أنا أبو العباس محمد بن أحمد المحبوبي ثنا أبو عيسى الترمذي ثنا محمود بن غيلان ثنا يحيـىٰ بن إسحاق ثنا حماد بن سلمة عن ثابت عن عبد الله بن أبي رباح الأنصاري عن أبي قتادة أنّ النبي ﷺ قال لأبي بكر: «مررتُ بك وأنت تقرأ القرآن وأنت تخفض صوتك»، فقال: إني سمعت مَن ناجيت، فقال: «ارفع قليلاً»، والإخفاء «مررت بك وأنت تقرأ وأنت صوتك»، فقال: إني أوقظ الوسنان وأطرد الشيطان. فقال اخفض قليلاً».

﴿ **وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً** ﴾، أمر الله نبيّه ﷺ بأن يحمد على وحدانيته، ومعنى الحمد لله هو الثناء عليه بما هو أهله، قال الحسين بن الفضل: معناه الحمد لله الذي عرفني أنه لم يتخذ ولداً، ﴿ **ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له وليّ من الذلّ** ﴾، قال مجاهد: لم يذلّ حتى يحتاج إلى وليّ يتعزّز به، ﴿ **وكبِّرهُ تكبيراً** ﴾، أي: وعظّمه عن أن يكون له شريك أو وليّ. أخبرنا الإمام أبو علي الحسين بن محمد القاضي أنا الإمام أبو الطيب سهل بن محمد بن سليمان ثنا أبو العباس الأصم ثنا محمد بن إسحاق الصفاني ثنا نضر بن حماد أبو الحرث الورّاق ثنا شعبة عن حبيب بن أبي ثابت قال سمعت سعيد بن جبير يحدّث عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «أول ما يدعى إلى الجنة يوم القيامة الحمّادون الذين يحمدون الله في السرّاء والضرّاء». أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحي أنا أبو الحسن بن بشران أنا إسماعيل بن محمد الصفّار أنا أحمد بن منصور الرمادي أنبأنا عبد الرزّاق ثنا معمر عن قتادة أن عبد الله بن

﴿ولم يكن له ولي من الذل﴾ ومعناه أنه لم يذل فيحتاج إلى ناصر يتعزز به ﴿وكبره تكبيراً﴾ أي وعظمه عن أن يكون له ولد أو شريك أو ولي. وقيل: إذا كان منزهاً عن الولد والشريك والولي كان مستوجباً لجميع أنواع المحامد. عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «أول ما يدعى إلى الجنة يوم القيامة، الذين يحمدون الله في السراء والضراء» عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ «الحمد لله رأس الشكر ما شكر الله عبد لا يحمده» عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال: «أفضل الدعاء الحمد لله وأفضل الذكر لا إله إلا الله» أخرجه الترمذي. وقال حديث حسن غريب عن سمرة بن جندب قال: قال رسول الله ﷺ «أحب الكلام إلى الله أربع لا إله إلا الله والله أكبر وسبحان الله والحمد لله لا يضرك بأيهن بدأت» أخرجه مسلم. والله أعلم بمراده وأسرار كتابه.

عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «الحمد لله رأس الشكر، ما شكر الله عبداً لا يحمده»، أخبرنا أبو الفضل بن زياد بن محمد الحنفي أنا أبو محمد عبد الرحمن بن أحمد الأنصاري أنا أبو محمد يحيىٰ بن محمد بن صاعد ثنا يحيىٰ بن خالد بن أيوب المخزومي ثنا موسى بن إبراهيم بن كثير بن بشر الخزامي الأنصاري عن طلحة بن حراش عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال: «إن أفضل الدعاء الحمد لله، وأفضل الذكر لا إلّه إلّا الله» أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا عبد الرحمن بن أبي شريح أنا أبو القاسم عبد الله بن محمد بن عبد العزيز البغوي ثنا علي بن الجعد ثنا زهير ثنا منصور عن هلال بْن بشار عن الربيع بن خثيم عن سمرة بن جندب قال: قال رسول الله ﷺ: «أحبّ الكلام إلى الله تعالى أربع: لا إلّه إلّا الله، والله أكبر، وسبحان الله، والحمد لله، لا يضرّك بأيهنّ بدأت».

تفسير سورة الكهف

وهي مكية وآياتها مائة وإحدى عشرة آية، وكلماتها ألف وخمسمائة وسبع وسبعون كلمة وحروفها ستة آلاف وثلاثمائة وستون حرفاً

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾

قوله عز وجل: ﴿**الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب**﴾ أثنى الله سبحانه وتعالى على نفسه بإنعامه على خلقه وعلم عباده كيف يثنون عليه، ويحمدونه على أجزل نعمائه عليهم وهي الإسلام وما أنزل على عبده محمد ﷺ من الكتاب الذي هو سبب نجاتهم وفوزهم وخص رسول الله ﷺ بالذكر لأن إنزال القرآن كان نعمة عليه على الخصوص وعلى سائر الناس على العموم ﴿**ولم يجعل له عوجاً**﴾ أي لم يجعل له شيئاً من العوج قط والعوج في المعاني، كالعوج في الأعيان والمراد نفي الاختلاف والتناقض عن معانيه وقيل معناه لم يجعله مخلوقاً روي عن ابن عباس في قوله تعالى: «قرآنا عربياً غير ذي عوج» قال غير مخلوق.

قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا
حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ ۚ
كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟
بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا
صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى
ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾

﴿**قيماً**﴾ أي مستقيماً وقال ابن عباس: عدلاً، وقيل قيماً على الكتب كلّها مصدقاً لها وناسخاً لشرائعها ﴿**لينذر**

سُوْرَة الكَهْـف

مكية وهي مائة وإحدى عشرة آية.

﴿ **الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب** ﴾، أثنى الله على نفسه بإنعامه على خلقه، وخصّ رسوله ﷺ بالذكر لأن إنزال القرآن عليه كان نعمة عليه على الخصوص وعلى سائر الناس على العموم. ﴿**ولم يجعل له عـوجاً**﴾.

﴿ **قيّماً** ﴾، فيه تقديم وتأخير معناه أنزل على عبده الكتاب قيّماً ولم يجعل له عوجاً قيّماً أي مستقيماً. قال ابن

بأساً شديداً﴾ معناه لينذر الذين كفروا بأساً شديداً وهو قوله سبحانه وتعالى بعذاب بئيس ﴿من لدنه﴾ أي من عنده ﴿ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً حسناً﴾ يعني الجنة ﴿ماكثين فيه﴾ أي مقيمين فيه ﴿أبداً وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولداً ما لهم به من علم﴾ أي بالولد وباتخاذه يعني أن قولهم لم يصدر عن علم بل عن جهل مفرط. فإن قلت اتخاذ الله ولداً في نفسه محال فكيف قيل ما لهم به من علم. قلت انتفاء العلم يكون للجهل بالطريق الموصل إليه وقد يكون في نفسه محالاً لا يستقيم تعلق العلم به ﴿ولا لآبائهم﴾ أي ولا لأسلافهم من قبل ﴿كبرت﴾ أي عظمت ﴿كلمة تخرج من أفواههم﴾ أي هذا الذي يقولونه لا تحكم به عقولهم وفكرهم البتة لكونه في غاية الفساد والبطلان فكأنه يجري على لسانهم على سبيل التقليد ﴿إن يقولون إلا كذباً﴾ أي ما يقولون إلا كذباً قيل حقيقة الكذب أنه الخبر الذي لا يطابق المخبر قولهم عنه وزاد بعضهم مع علم قائله أنه غير مطابق وهذا القيل باطل لأن الله سبحانه وتعالى وصف قولهم بإثبات الولد بكونه كذباً مع أن الكثير منهم يقولون ذلك ولا يعلمون كونه باطلاً فعلمنا أن كل خبر لا تطابق الخبر عنه فهو كذب والكذب خلاف الصدق، وقيل: هو الانصراف عن الحق إلى الباطل ورجل كذاب وكذوب إذا كان كثير الكذب. قوله عز وجل ﴿فلعلك باخع نفسك﴾ أي قاتل نفسك ﴿على آثارهم﴾ أي من بعدهم ﴿إن لم يؤمنوا بهذا الحديث﴾ يعني القرآن ﴿أسفاً﴾ أي حزناً وقيل غيظاً ﴿إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها﴾ أي مما يصلح أن يكون زينة لها ولأهلها من زخارف الدنيا وما يستحسن منها، وقيل يعني النبات والشجر والأنهار، وقيل أراد به الرجال

عباس: عدلاً. وقال الفرّاء: قيّماً على الكتب كلها أي: مصدّقاً لها ناسخاً لشرائعها. وقال قتادة: ليس على التقديم والتأخير بل معناه: أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً، ولكن جعله قيّماً. قوله عزّ وجلّ: ﴿ ولم يجعل له عوجاً ﴾ أي: مختلفاً، على ما قال الله تعالى: ﴿ ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً ﴾ [النساء: ٨٢] وقيل: معناه لم يجعله مخلوقاً. ورُوِيَ عن ابن عباس في قوله: ﴿ قرآناً عربياً غير ذي عوج ﴾ [الزمر: ٢٨] أي: غير مخلوق. ﴿ لينذر بأساً شديداً ﴾، أي لينذر ببأسٍ شديد، ﴿ من لدنه ﴾، أي من عنده، ﴿ ويبشّر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً حسناً ﴾، أي: الجنة.

﴿ ماكثين فيه أبداً ﴾ أي: مقيمين فيه.

﴿ ويُنذر الذين قالوا اتخذ الله ولداً ﴾.

﴿ ما لهم به من علم ولا لآبائهم ﴾، أي قالوه عن جهل لا عن علم، ﴿ كبرت ﴾، أي: عظمت، ﴿ كلمة ﴾، نصب على التمييز، يقال: تقديره كبرت الكلمة كلمة. وقيل: من كلمة، فحذف ﴿ من ﴾فانتصب، ﴿ تخرج من أفواههم ﴾ أي: تظهر من أفواههم، ﴿ إنْ يقولون ﴾، ما يقولون، ﴿ إلّا كذباً ﴾.

﴿ فلعلك باخع نفسك على آثارهم ﴾، من بعدهم، ﴿ إن لم يؤمنوا بهذا الحديث ﴾، أي: القرآن، ﴿ أسفاً ﴾، أي حزناً وقيل غضباً.

﴿ إنّا جعلنا ما على الأرض زينة لها ﴾، فإن قيل: أي: زينة في الحيّات والعقارب والشياطين؟ قيل: فيها زينة على معنى أنها تدل على وحدانية الله تعالى. وقال مجاهد: أراد به الرجال خاصة هم زينة الأرض. وقيل: أراد بهم العلماء والصلحاء. وقيل: الزينة بالنبات والأشجار والأنهار، كما قال: ﴿ حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازّينت ﴾ [يونس: ٢٤]، ﴿ لنبلوهم ﴾، لنختبرهم، ﴿ أيّهم أحسن عملاً ﴾، أي أصلح عملاً. وقيل: أيّهم أترك للدنيا.

﴿ وإنّا لجاعلون ما عليها صعيداً جرزاً ﴾، فالصعيد وجه الأرض. وقيل: هو التراب، جرزاً يابساً أملس لا

خاصة فهم زينة الأرض، وقيل أراد به العلماء والصلحاء وقيل جميع ما في الأرض هو زينة لها. فإن قلت أي زينة في الحيات والعقارب والشياطين. قلت زينتها كونها تدل على وحدانية الله تعالى وكمال قدرته، وقيل إن جميع ما في الأرض ثلاثة معدن ونبات وحيوان وأشرف أنواع الحيوان الإنسان، قيل الأولى أن لا يدخل في هذه الزينة المكلف، بدليل قوله تعالى: ﴿**لنبلوهم**﴾ فمن يبلو يجب أن لا يدخل في ذلك ومعنى لنبلوهم نختبرهم ﴿**أيهم أحسن عملاً**﴾ أي أصلح عملاً وقيل أيهم أترك للدنيا وأزهد فيها. ﴿**وإنا لجاعلون ما عليها**﴾ أي من الزينة، ﴿**صعيداً جرزاً**﴾ يعني مثل أرض لا نبات فيها بعد أن كانت خضراء معشبة والصعيد وجه الأرض وقيل هو التراب والجرز الأملس اليابس الذي لا ينبت فيه شيء، قوله سبحانه وتعالى ﴿**أم حسبت**﴾ أي أظننت يا محمد ﴿**أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجباً**﴾ أي هم عجب من آياتنا وقيل معناه أنهم ليسوا بأعجب آياتنا، فإن خلقنا من السموات والأرض وما فيهم من العجائب أعجب منهم والكهف الغار الواسع في الجبل، والرقيم هو لوح كتب فيه أسماء أصحاب الكهف وقصتهم ثم وضع على باب الكهف وكان اللوح من رصاص وقيل من حجارة، وعن ابن عباس أن الرقيم اسم الوادي الذي فيه أصحاب الكهف وقال كعب الأحبار: هو اسم للقرية التي خرج منها أصحاب الكهف وقيل اسم للجبل الذي فيه أصحاب الكهف ثم ذكر الله عز وجل قصة أصحاب الكهف فقال عز وجل من قائل ﴿**إذ أوى الفتية إلى الكهف**﴾ أي صاروا إليه، وجعلوه مأواهم، والفتية جمع فتى وهو الطري من الشباب ﴿**فقالوا ربنا آتنا من لدنك رحمة**﴾ أي رحمة

يبيت شيئاً. يقال: جرزت الأرض إذا أُكل نباتها.

قوله تعالى: ﴿ **أم حسبتَ أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجباً** ﴾، يعني أظننت يا محمد أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجباً أي هم عجب من آياتنا. وقيل: معناه إنهم ليسوا بأعجب من آياتنا فإن ما خلقت من السموات والأرض وما فيهنّ من العجائب أعجب منهم، والكهف: هو الغار في الجبل، واختلفوا في الرقيم، قال سعيد بن جبير: هو لوح كتب فيه أسماء أصحاب الكهف وقصصهم وهذا أظهر الأقاويل، ثم وضعوه على باب الكهف وكان اللوح من رصاص، وقيل: من حجار، فعلى هذا يكون الرقيم بمعنى المرقوم، أي: المكتوب، والرقم: الكتابة. وحُكِيَ عن ابن عباس أنه قال: هو اسم للوادي الذي فيه أصحاب الكهف، وعلى هذا هو من رقمة الوادي وهو جانبه، وقال كعب الأحبار هو اسم للقرية التي خرج منها أصحاب الكهف. وقيل: اسم للجبل الذي فيه الكهف، ثم ذكر الله قصة أصحاب الكهف.

فقال: ﴿ **إذ أوى الفتية إلى الكهف** ﴾، أي صاروا إليه، واختلفوا في سبب مصيرهم إلى الكهف، فقال محمد بن إسحاق ومحمد بن يسار: مرج أهل الإنجيل وعظمت فيهم الخطايا وطغت فيهم الملوك حتى عبدوا الأصنام وذبحوا للطواغيت، وفيهم بقايا على دين المسيح متمسكين بعبادة الله وتوحيده، فكان ممّن فعل ذلك من ملوكهم ملك من الروم يقال له دقيانوس عبد الأصنام وذبح للطواغيت، وقتل مَن خالفه، وكان ينزل قرى الروم ولا يترك في قرية نزلها أحداً إلّا فتنه حتى يعبد الأصنام ويذبح للطواغيت أو قتله حتى نزل مدينة أصحاب الكهف وهي أفسوس فلما نزلها كبر على أهل الإيمان فاستخفوا منه وهربوا في كل وجه، وكان دقيانوس حين قَدِمها أمر أن يتبع أهل الإيمان فيجمعوا له واتخذ شرطاً من الكفّار من أهلها يتبعون أهل الإيمان في أماكنهم فيخرجونهم إلى دقيانوس، فيخيّرهم بين القتل وبين عبادة الأوثان والذبح للطواغيت، منهم مَن يرغب في الحياة ومنهم مَن يأبى أن يعبد غير الله فيقتل، فلما رأى ذلك أهل الشدّة في الإيمان بالله جعلوا يسلّمون أنفسهم للعذاب والقتل، فيُقتلون ويُقطعون ثم يُربَط ما قُطِعَ من أجسامهم على سور المدينة من نواحيها وعلى كل باب من أبوابها حتى عظمت الفتنة

من خزائن رحمتك وجلائل فضلك وإحسانك وهب لنا الهداية والنصر والأمن من الأعداء ﴿وهيىء لنا﴾ أي أصلح لنا ﴿من أمرنا رشداً﴾ أي حتى نكون بسببه راشدين مهديين وقيل معناه واجعل أمرنا رشداً كله.

ذكر قصة الكهف وسبب خروجهم إليه

قال محمد بن إسحاق ومحمد بن يسار مرج أمر أهل الإنجيل، وعظمت فيهم الخطايا وطغت الملوك حتى عبدوا الأصنام وذبحوا للطواغيت، وفيهم بقايا على دين المسيح متمسكون بعبادة الله وتوحيده وكان ممن فعل ذلك من ملوكهم ملك من الروم يقال له دقيانوس عبد الأصنام وذبح للطواغيت وقتل من خالفه وكان ينزل قرى الروم فلا يترك في قرية نزلها أحد إلا فتنه عن دينه حتى يعبد الأصنام أو يقتله. فلما نزل مدينة أصحاب الكهف واسمها أفسوس استخفى منه أهل الإيمان وهربوا في كل وجه فاتخذ شرطاً من الكفار وأمرهم أن يتبعوهم بين القتل وبين عبادة الأصنام، فمنهم من يرغب في الحياة ومنهم من يأبى أن يعبد غير الله فيقتل، فلما رأى ذلك أهل الشدة في الإيمان جعلوا يسلمون أنفسهم للعذاب والقتل فيقتلون ويقطعون ويجعل ما قطع من أجسادهم على أسوار المدينة وأبوابها فلما عظمت الفتنة وكثرت ورأى ذلك الفتية حزنوا حزناً شديداً فقاموا واشتغلوا بالصلاة والصيام والصدقة والتسبيح والدعاء، وكانوا من أشراف الروم وهم ثمانية نفر وبكوا وتضرعوا إلى الله عز وجل وجعلوا يقولون: «ربنا رب السموات والأرض لن ندعو من دونه إلهاً لقد قلنا إذاً شططاً» اكشف عن عبادك المؤمنين هذه الفتنة وارفع عنهم البلاء

فلما رأى ذلك الفتية حزنوا حزناً شديداً فقاموا واشتغلوا بالصلاة والصيام والصدقة والتسبيح والدعاء، وكانوا من أشراف الروم، وكانوا ثمانية نفر بكوا وتضرّعوا إلى الله وجعلوا يقولون ربّنا ربّ السمٰوات والأرض لن ندعو من دونه إلّهاً لقد قلنا إذاً شططاً إن عبدنا غيره، اكشف عن عبادك المؤمنين هذه الفتنة، وارفع عنهم هذا البلاء حتى يعلنوا عبادتك فبينما هم على مثل ذلك، وقد دخلوا في مصلًّى لهم أدركهم الشرط فوجدوهم وهم سجود على وجوههم يبكون ويتضرّعون إلى الله، فقالوا لهم: ما خلفكم عن أمر الملك انطلقوا إليه ثم خرجوا فرفعوا أمرهم إلى دقيانوس، فقالوا تجمع الناس للذبح لآلهتك وهؤلاء الفتية من أهل بيتك يستهزؤون بك ويعصون أمرك، فلما سمع بذلك بعث إليهم فأتى بهم تفيض أعينهم من الدمع معفّرة وجوههم بالتراب، فقال لهم: ما منعكم أن تشهدوا الذبح لآلهتنا التي تُعبَد في الأرض وتجعلوا أنفسكم أُسوة لسادات من أهل مدينتكم؟ اختاروا إما أن تذبَحوا لآلهتنا وإما أن أقتلنّكم، فقال مكسلمينا وهو أكبرهم سنّاً: إن لنا إلّهاً ملأ السمٰوات والأرض عظمة لن ندعو من دونه إلّهاً أبداً له الحمد والتكبير والتسبيح من أنفسنا خالصاً أبداً، إيّاه نعبد وإيّاه نسأل النجاة والخير، فأما الطواغيت فلن نعبدها أبداً فاصنع بنا ما بدا لك، وقال أصحاب مكسلمينا لدقيانوس مثل ما قال مكسلمينا، فلما قالوا ذلك أمر فنزع عنهم لبوساً كان عليهم من لبوس عظمائهم، ثم قال: سأفرغ لكم فأنجز لكم ما أوعدتكم من العقوبة وما يمنعني أن أعجل ذلك لكم إلّا إني أراكم شبّاناً حديثة أسنانكم، فلا أُحبّ أن أُهلككم حتى أجعل لكم أجلاً تذكرون فيه وتراجعون عقولكم، ثم أمر بحلية كانت عليهم من ذهب وفضة فنزعت عنهم، ثم أمرهم فأُخرجوا من عنده وانطلق دقيانوس إلى مدينة سوى مدينتهم قريباً منهم لبعض أموره، فلما رأى الفتية خروجه بادروا قدومه وخافوا إذا قَدِمَ مدينتهم أن يذكر بهم فاتمروا بينهم أن يأخذ كل رجل منهم نفقة من بيت أبيه فيتصدّقوا منها ويتزوّدوا بما بقي ثم ينطلقوا إلى كهف قريب من المدينة في جبل يقال له مخلوس، فيَمكثوْن فيه ويعبدون الله حتى إذا جاء دقيانوس أتوه فقاموا بين يديه فيصنع بهم ما شاء، فلما قال ذلك بعضهم لبعض عمد كل فتى منهم إلى بيت أبيه فأخذ نفقة فتصدق منها، ثم انطلقوا بما بقي معهم واتبعهم كلب كان لهم حتى أتوا ذلك الكهف، فلبثوا فيه. قال كعب الأحبار: مرّوا بكلب فتبعهم فطردوه

حتى يعلنوا عبادتك؛ فبينما هم على ذلك وقد دخلوا مصلاهم أدركهم الشرط فوجدوهم سجوداً يبكون ويتضرعون إلى الله عز وجل فقال لهم الشرط ما خلفكم عن أمر الملك، ثم انطلقوا إلى الملك فأخبروه خبر الفتية فبعث إليهم فأتى بهم تفيض أعينهم من الدمع معفرة، وجوههم بالتراب فقال لهم ما منعكم أن تشهدوا الذبح لآلهتنا التي تعبد في الأرض وتجعلوا أنفسكم أسوة أهل مدينتكم اختاروا إما أن تذبحوا لآلهتنا وإما أن أقتلكم، فقال مكسلينا وهو أكبرهم: إن لنا إلهاً ملء السموات والأرض عظمته لن ندعوا من دونه إلهاً أبداً له الحمد والتكبير من أنفسنا خالصاً أبداً، إياه نعبد وإياه نسأل النجاة والخير فأما الطواغيت فلن نعبدها أبداً اصنع بنا ما بدا لك. وقال أصحابه مثل ذلك فلما سمع الملك كلامهم أمر بنزع ثيابهم وحلية كانت عليهم من الذهب والفضة وقال سأفرغ لكم وأنجز لكم ما أوعدتكم من العقوبة وما يمنعني أن أعجل ذلك لكم إلا أني أراكم شباناً حديثة أسنانكم فلا أحب أن أهلككم حتى أجعل لكم أجلاً تذكرون فيه فترجعون إلى عقولكم. ثم أمر بهم فأخرجوا من عنده، وانطلق دقيانوس إلى مدينة أخرى قريبة منه لبعض أموره فلما رأى الفتية خروجه بادروا وخافوا إذا قدم أن يذكرهم، فأتمروا بينهم واتفقوا على أن يأخذ كل واحد منهم نفقة من بيت أبيه فيتصدقوا منها ويتزودوا بما بقي ثم ينطلقوا إلى كهف قريب من المدينة في جبل يقال له ينجلوس[١]، فيمكثوا فيه ويعبدوا الله حتى إذا جاء دقيانوس أتوه فيصنع بهم ما يشاء فلما اتفقوا على ذلك عمد كل فتى منهم إلى بيت أبيه فأخذ نفقة فتصدق منها وانطلقوا بما بقي معهم، وأتبعهم كلب كان لهم حتى أتوا ذلك الكهف فمكثوا فيه. وقال كعب الأحبار: مروا بكلب فتبعهم فطردوه فعاد ففعلوا ذلك مراراً فقال لهم الكلب: ما

ففعل ذلك مراراً فقال لهم الكلب: يا قوم ما تريدون مني لا تخشون جانبي أنا أحبّ أحباب الله، فناموا حتى أحرسكم. وقال ابن عباس: هربوا ليلاً من دقيانوس، وكانوا سبعة فمرّوا براعٍ معه كلب فتبعهم على دينهم وتبعه كلبه فخرجوا من البلد إلى الكهف وهو قريب من البلد. قال ابن إسحاق: فلبثوا فيه ليس لهم عمل إلّا الصلاة والصيام والتسبيح والتكبير والتحميد ابتغاء وجه الله، وجعلوا نفقتهم إلى فتى منهم يقال له تمليخا فكان يبتاع لهم أرزاقهم من المدينة سرّاً وكان من أحلمهم وأجلدهم، وكان إذا دخل المدينة يضع ثياباً كانت عليه حساناً ويأخذ ثياباً كثياب المساكين الذين يستطعمون فيها ثم يأخذ ورقة فينطلق إلى المدينة فيشتري لهم طعاماً وشراباً ويتجسّس لهم الخبر هل ذكر هو وأصحابه بشيء، ثم يرجع إلى أصحابه فلبثوا بذلك ما لبثوا، ثم قَدِمَ داقيانوس المدينة فأمر عظماء أهلها فذبحوا للطواغيت ففزع من ذلك أهل الإيمان وكان تمليخا بالمدينة يشتري لأصحابه طعامهم فرجع إلى أصحابه وهو يبكي ومعه طعام قليل، وأخبرهم أن الجبار قد دخل المدينة وأنهم قد ذكروا والتمسوا مع عظماء المدينة ففزعوا ووقعوا سجوداً يدعون الله ويتضرعون إليه ويتعوّذون من الفتنة ثم إن تمليخاً قال لهم يا إخوتاه ارفعوا رؤوسكم واطعموا وتوكلوا على ربكم، فرفعوا رؤوسهم وأعينهم تفيض من الدمع، فطعموا وذلك غروب الشمس ثم جلسوا يتحدثون ويتدارسون ويذكر بعضهم بعضاً فبينما هم على ذلك إذ ضرب الله على آذانهم النوم في الكهف وكلبهم باسط ذراعيه بباب الكهف، فأصابه ما أصابهم وهم مؤمنون موقنون ونفقتهم عند رؤوسهم، فلما كان من الغد فقدهم دقيانوس فالتمسهم فلم يجدهم، فقال لبعضهم: لقد ساءني شأن هؤلاء الفتية الذين ذهبوا، لقد كانوا ظنوا أن بي غضباً عليهم لجهلهم ما جهلوا من أمري ما كنت لأحمل عليهم إن هم تابوا وعبدوا آلهتي، فقال عظماء المدينة: ما أنت بحقيق أن ترحم قوماً فجرة مردة عصاة قد كنت أجّلت لهم أجلاً ولو شاؤوا لرجعوا في ذلك الأجل، ولكنهم لم يتوبوا، فلما قالوا ذلك غضب غضباً شديداً ثم أرسل إلى آبائهم فأتى بهم فسألهم عنهم، فقال:

---

(١) قوله ينجلوس هكذا في بعض النسخ وفي بعضها مخلوس وفي حياة الحيوان منحلوس ا هـ.

تريدون مني لا تخشوا مني أنا أحب أحباب الله عز وجل فناموا حتى أحرسكم. وقال ابن عباس: هربوا من دقيانوس وكانوا سبعة فمروا براعٍ معه كلب فتبعهم على دينهم وتبعهم الكلب فخرجوا من البلد إلى الكهف. قال ابن عباس: فلبثوا فيه ليس لهم عملٌ إلا الصلاة والصيام والتسبيح والتحميد ابتغاء لوجه الله عز وجل وجعلوا نفقتهم إلى فتى منهم اسمه تمليخا فكان يبتاع لهم أرزاقهم من المدينة سراً وكان من أجملهم وأجلدهم وكان إذا دخل المدينة لبس ثياباً رثة كثياب المسلمين ثم يأخذ ورقة فينطلق إلى المدينة فيشتري لهم طعاماً وشراباً، ويتجسس لهم الخبر هل ذكر هو وأصحابه بشيء ثم يرجع إلى أصحابه فلبثوا بذلك ما شاء الله أن يلبثوا. ثم قدم دقيانوس المدينة وأمر عظماء أهلها أن يذبحوا للطواغيت ففزع من ذلك أهل الإيمان وكان تمليخا بالمدينة يشتري لأصحابه طعامهم، فرجع إلى أصحابه وهو يبكي ومعه طعام قليل فأخبرهم أن الجبار قد دخل المدينة وأنهم قد ذكروا والتمسوا مع عظماء المدينة ففزعوا ووقعوا سجوداً يدعون الله ويتضرعون إليه ويتعوذون من الفتنة فقال لهم تمليخا: يا إخوتاه ارفعوا رؤوسكم واطعموا وتوكلوا على ربكم فرفعوا رؤوسهم وأعينهم تفيض من الدمع وذلك عند غروب الشمس، ثم جلسوا يتحدثون ويذكر بعضهم بعضاً فبينما هم على ذلك إذ ضرب الله عز وجل على آذانهم في الكهف، وكلبهم باسط ذارعيه بباب الكهف فأصابه ما أصابهم وهم مؤمنون موقنون ونفقتهم عند رؤوسهم فلما كان من الغد تفقدهم دقيانوس والتمسهم فلم يجدهم فقال لبعض عظماء المدينة لقد ساءني شأن هؤلاء الفتية الذين ذهبوا لقد ظنوا أن بي غضباً عليهم لجهلهم ما جهلوا من أمري ما كنت لأجهل عليهم إن هم تابوا وعبدوا آلهتي فقال عظماء المدينة ما أنت بحقيق أن ترحم قوماً فجرة مردة عصاة، قد كنت أجلت لهم أجلاً ولو شاؤوا لرجعوا في ذلك الأجل ولكنهم لم يتوبوا، فلما قالوا ذلك غضب غضباً شديداً ثم أرسل إلى آبائهم فأتى بهم فقال: أخبروني عن أبنائكم المردة الذين عصوني، فقالوا: أما نحن لم نعصك فلم تقتلنا بقوم مردة إنهم ذهبوا بأموالنا وأهلكوها في أسواق المدينة، ثم انطلقوا إلى جبل يدعى ينجلوس فلما قالوا له ذلك

أخبروني عن أبنائكم المردة الذين عصوني، فقالوا له: أما نحن فلم نعصك فلِمَ تقتلنا بقوم مردة قد ذهبوا بأموالنا، فأهلكوها في أسواق المدينة، ثم انطلقوا وارتقوا إلى جبل يدعى بمخلوس، فلما قالوا له ذلك خلّى سبيلهم وجعل لا يدري ما يصنع بالفتية، فألقى الله في نفسه أن يأمر بالكهف فيسدّ عليهم وأراد الله أن يكرّمهم ويجعلهم آية لأمة تستخلف من بعدهم وأن يبيّن لهم أن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث مَن في القبور، فأمر دقيانوس بالكهف أن يُسَدّ عليهم، وقال: دعوهم كما هم في الكهف يموتون جوعاً وعطشاً ويكون كهفهم الذي اختاروا قبراً لهم، وهو يظن أنهم أيقاظ يعلمون ما يصنع بهم، وقد توفّى الله أرواحهم وفاة النوم، وكلبهم باسط ذراعيه بباب الكهف قد غشيهم ما غشيهم يتقلبون ذات اليمين وذات الشمال، ثم إن رجلين مؤمنين في بيت الملك دقيانوس يكتمان إيمانهما اسم أحدهما يندروس والآخر روناس، ائتمرا أن يكتبا شأن الفتية وأنسابهم وأسمائهم وخبرهم في لوحين من رصاص ويجعلاهما في تابوت من نحاس، ويجعلا التابوت في البنيان، وقالا لعل الله أن يظهر على هؤلاء الفتية قوماً مؤمنين قبل يوم القيامة، فيعلم مَن فتح عليهم حين يقرأ هذا الكتاب خبرهم، ففعلا وبنيا عليه فبقي دقيانوس ما بقي، ثم مات هو وقومه وقرون بعده كثيرة وخلفت الملوك بعد الملوك، وقال عبيد بن عمير: كان أصحاب الكهف فتياناً مطوّقين مسوّرين ذوي ذوائب وكان معهم كلب صيدهم فخرجوا في عيد لهم عظيم في زيّ وموكب وأخرجوا معهم آلهتهم التي كانوا يعبدونها، وقد قذف الله في قلوب الفتية الإيمان وكان أحدهم وزير الملك فآمنوا وأخفى كل واحد منهم إيمانه فقالوا في أنفسهم نخرج من بين أظهر هؤلاء القوم لا يصيبنا عقاب يحرمهم فخرج شاب منهم حتى انتهى إلى ظل شجرة فجلس فيه ثم خرج آخر فرآه جالساً وحده فرجا أن يكون على مثل أمره من غير أن يظهر ذلك، ثم خرج الآخر فاجتمعوا في مكان، فقال بعضهم لبعض: ما جمعكم وكل واحد يكتم صاحبه إيماناً مخافة على نفسه،

خلى سبيلهم، وجعل ما يدري ما يصنع بالفتية فألقى الله سبحانه وتعالى في نفسه أن يأمر بسد باب الكهف عليهم وأراد الله عز وجل أن يكرمهم بذلك ويجعلهم آية لأمة تستخلف من بعدهم، وأن يبين لهم أن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور. فأمر دقيانوس بالكهف فسد عليهم وقال دعوهم كما هم في كهفهم يموتون جوعاً وعطشاً ويكون كهفهم الذي اختاروه قبراً لهم، وهو يظن أنهم أيقاظ يعلمون ما يصنع بهم وقد توفى الله عز وجل أرواحهم وفاة نوم وكلبهم باسط ذراعيه بباب الكهف قد غشيه ما غشيهم يتقلبون ذات اليمين وذات الشمال. ثم إن رجلين مؤمنين في بيت الملك دقيانوس يكتمان إيمانهما، اسم أحدهما بيدروس واسم الآخر روناس اهتما أن يكتبا شأن هؤلاء الفتية، وأسماءهم وأنسابهم وأخبارهم في لوحين من رصاص ويجعلاهما في تابوت من نحاس ويجعلا التابوت في البنيان، وقالا: لعل الله أن يظهر على هؤلاء الفتية قوماً مؤمنين قبل يوم القيامة فيعلم من فتح عليهم خبرهم حين يقرأ الكتاب ففعلا ذلك وبنيا عليه وبقي دقيانوس ما بقي ثم مات هو وقومه، وقرون بعده كثيرة وخلفت الملوك بعد الملوك وقال عبيد بن عمير: كان أصحاب الكهف فتياناً مطوقين مسورين ذوي ذوائب فخرجوا في عيد لهم عظيم في زي وموكب وأخرجوا معهم آلهتهم التي كانوا يعبدونها وكان معهم كلب صيد لهم، وكان أحدهم وزير الملك فقذف الله سبحانه وتعالى الإيمان في قلوبهم فآمنوا وأخفى كل واحد إيمانه وقال في نفسه أخرج من بين أظهر هؤلاء القوم لئلا يصيبني عقاب بجرمهم، فخرج شاب منهم حتى انتهى إلى ظل شجرة فجلس فيه ثم خرج آخر فرآه جالساً وحده فرجا أن يكون على مثل أمره وجلس إليه من غير أن يظهره على أمره ثم خرج آخر فخرجوا جميعاً فاجتمعوا فقال بعضهم لبعض ما جمعكم وكل واحد يكتم إيمانه من صاحبه مخافة على نفسه، ثم قالوا ليخرج كل فتيين فيخلوا ويفشي كل واحد سره إلى صاحبه ففعلوا ذلك فإذا هم جميعاً على الإيمان وإذا الكهف في جبل عظيم قريب منهم فقال بعضهم لبعض فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته. فدخلوا الكهف ومعهم كلب صيد فناموا ثلاثمائة سنين وازداد

ثم قالوا: ليخرج كل فتى فيخلوا بصاحبه ثم يفشي واحد منكم سرّه إلى صاحبه، ففعلوا فإذا هم جميعاً على الإيمان، وإذا كهف في الجبل قريب منهم فقال بعضهم لبعض: فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته، فدخلوا الكهف ومعهم كلب صيدهم فناموا ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعاً، وفقدهم قومهم فطلبوهم فعمى الله عليهم آثارهم وكهفهم، فكتبوا أسماءهم وأنسابهم في لوح: فلان وفلان وفلان أبناء ملوكنا فقدناهم في شهر كذا في سنة كذا في مملكة فلان بن فلان ووضعوا اللوح في خزانة الملك، وقالوا: ليكوننّ لهذا شأن ومات ذلك الملك، وجاء قرن بعد. وقال وهب بن منبّه: جاء حواري عيسى عليه السلام إلى مدينة أصحاب الكهف فأراد أن يدخلها فقيل له: إن على بابها صنماً لا يدخلها أحد إلّا يسجد له فكره أن يدخلها فأتى حماماً قريباً من المدينة فكان يؤاجر نفسه من الحمامي، ويعمل فيه ورأى صاحب الحمّام في حمّامه البركة واجتمع عليه فتية من أهل المدينة فجعل يخبرهم خبر السماء والأرض وخبر الآخرة حتى آمنوا وصدقوه، وكان شرط صاحب الحمام أن الليل لي لا يحول بيني وبينه ولا بين الصلاة أحد، وكان على ذلك حتى أتى ابن الملك بامرأة فدخل بها الحمام فعيّره الحواري، وقال: أنت ابن الملك وتدخل مع هذه فاستحيا وذهب فرجع مرة أخرى، فقال له مثل ذلك فسبّه وانتهره ولم يلتفت إلى مقالته حتى دخلا معاً فماتا في الحمام وأتى الملك فقيل له قتل صاحب الحمام ابنك فالتمس فلم يدر عليه وهرب، فقال: مَن كان يصحبه فسمّوا الفتية فالتمسوا فخرجوا من المدينة فمرّوا بصاحب لهم على مثل إيمانهم فانطلق معهم ومعه كلب حتى آواهم الليل إلى الكهف فدخلوه، وقالوا: نبيت هنا الليلة ثم نصبح إن شاء الله تعالى، فترون رأيكم فضرب الله على آذانهم فخرج الملك في أصحابه يبتغونهم حتى وجدوهم قد دخلوا الكهف، فلما أراد رجل منهم دخوله أرعب فلم يطق أحد أن يدخله، فقال قائل منهم: أليس لو قدّر عليهم قتلتهم؟ قال: بلى، قال: فابنِ عليهم باب الكهف

تسعاً، وفقدهم قومهم وطلبوهم فعمى الله عليهم آثارهم وكهفهم فكتبوا أسماءهم وأنسابهم في لوح فلان وفلان وفلان أبناء ملوكنا فقدناهم في شهر كذا في سنة كذا في مملكة فلان ابن فلان الملك ووضعوا اللوح في خزانة الملك وقالوا ليكون لهؤلاء شأن ومات ذلك الملك، وجاء قرن بعد قرن. قال محمد بن إسحاق: ثم ملك أهل تلك البلاد رجل صالح يقال له بيدروس فلما ملك بقي ملكه ثماني وستين سنة، فتحزب الناس في ملكه فكانوا أحزاباً منهم من يؤمن بالله ويعلم أن الساعة حق، ومنهم من يكذب بها فكبر ذلك على الملك الصالح وتضرع إلى الله وحزن حزناً شديداً لما رأى أهل الباطل يزيدون ويظهرون على أهل الحق ويقولون لا حياة إلا الحياة الدنيا وإنما تبعث الأرواح دون الأجساد. وجعل بيدروس الملك يرسل إلى من يظن فيهم خيراً وأنهم أئمة في الخلق فلم يقبلوا منه وجعلوا يكذبون بالساعة حتى كادوا يخرجون الناس عن الحق وملة الحواريين، فلما رأى ذلك الملك الصالح دخل بيته وأغلق بابه عليه، ولبس مسحاً وجعل تحته رماداً فجلس عليه فدأب ليله ونهاره يتضرع إلى الله تعالى ويبكي ويقول رب قد ترى اختلاف هؤلاء فابعث لهم آية تبين لهم بطلان ما هم عليه. ثم إن الله سبحانه وتعالى الرحمن الرحيم الذي يكره هلكة عباده أراد أن يظهر على الفتية أصحاب الكهف ويبين للناس شأنهم ويجعلهم آية وحجة عليهم ليعلموا أن الساعة آتية فيها، ويستجيب لعبده الصالح بيدروس ويتم نعمته عليه وأن يجمع من كان تبدد من المؤمنين، فألقى الله سبحانه وتعالى في نفس رجل من أهل ذلك البلد الذي فيه ذلك الكهف وكان اسمه أولياس أن يهدم ذلك البنيان الذي على فم الكهف ويبني به حظيرة لغنمه، فاستأجر غلامين فجعلا ينزعان تلك الحجارة ويبنيان بها تلك الحظيرة حتى نزعا ما كان على باب الكهف، وفتحا باب الكهف وحجبهم الله تعالى عن الناس بالرعب فلما فتح باب الكهف أذن الله سبحانه وتعالى ذو القدرة والسلطان محيي الموتى للفتية أن يجلسوا بين ظهراني الكهف، فجلسوا فرحين مسفرة وجوههم طيبة أنفسهم فسلم بعضهم على بعض كأنما استيقظوا من ساعتهم التي كانوا يستيقظون منها إذا أصبحوا من ليلتهم. ثم

واتركهم فيه يموتون جوعاً، ففعل، قال وهب: فعبر بعدما سدّوا عليهم باب الكهف زمان بعد زمان، ثم إن راعياً أدركه المطر عند الكهف فقال: لو فتحت باب هذا الكهف وأدخلت غنمي فيه من المطر فأكنهم من المطر، فلم يزل يعالجه حتى فتح وردّ الله عليهم أرواحهم من الغد حين أصبحوا. وقال محمد بن إسحاق: ثم ملك أهل تلك البلاد رجل صالح يقال له بيدروس، فلما ملك بقي في ملكه ثمانياً وستّين سنة فتحزّب الناس في ملكه فكانوا أحزاباً منهم مَن يؤمن بالله ويعلم أن الساعة حق ومنهم مَن يكذب بها، فكبر ذلك على الملك الصالح فبكى وتضرّع إلى الله وحزن حزناً شديداً لما رأى أهل الباطل يزيدون ويظهرون على أهل الحق، ويقولون لا حياة إلا حياة الدنيا وإنما تُبعَث الأرواح ولا تُبعَث الأجساد، فجعل بيدروس يرسل مَن يظن أن فيهم خيراً وأنهم أئمة في الخلق، فجعلوا يكذبون بالساعة حتى كادوا أن يحوّلوا الناس عن الحق وملّة الحواريين، فلما رأى ذلك الملك الصالح دخل بيته وأغلقه عليه، ولبس مسحاً وجعل تحته رماداً فجلس عليه فدأب ليله ونهاره زماناً يتضرّع إلى الله تعالى ويبكي كله، ويقول أي رب قد ترى اختلاف هؤلاء فابعث إليهم آية تبيّن لهم بطلان ما هم عليه، ثم إن الرحمن الرحيم الذي يكره هلكة العباد أراد أن يظهر الفتية أصحاب الكهف ويبيّن للناس شأنهم ويجعلهم آية وحجّة عليهم ليعلموا أن الساعة آتية لا ريب فيها، ويستجيب لعبده الصالح بيدروس ويتم نعمته عليه، وأن يجمع مَن كان تبدّد من المؤمنين فألقى الله في نفس رجل من ذلك البلد الذي فيه الكهف، وكان اسم ذلك الرجل أولياس أن يهدم ذلك البنيان الذي على فم الكهف فيبني به حظيرة لغنمه فاستأجر غلامين فجعلا ينزعان تلك الحجارة ويبنيان تلك الحظيرة، حتى نزعا ما على فم الكهف وفتحا باب الكهف وحجبهم الله عن الناس بالرغب، فلما فتحا باب الكهف أذِنَ الله ذو القدرة والسلطان مُحيي الموتى للفتية أن يجلسوا بين ظهراني الكهف، فجلسوا فرحين مسفرة وجوههم طيبة أنفسهم

قاموا إلى الصلاة فصلوا كما كانوا يفعلون لا يرى في وجوههم ولا ألوانهم شيء ينكرونه وأنهم كهيئتهم حين رقدوا وهم يرون أن دقيانوس في طلبهم فلما قضوا صلاتهم قالوا لتمليخا صاحب نفقتهم: أنبئنا بما قال الناس في شأننا عشية أمس عند هذا الجبار، وهم يظنون أنهم قد رقدوا كبعض ما كانوا يرقدون وقد خيل إليهم أنهم كانوا ينامون حتى تساءلوا بينهم فقال بعضهم لبعض كم لبثتم نياماً قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم، قالوا ربكم أعلم بما لبثتم وكل ذلك في أنفسهم يسير فقال لهم تمليخا: قد التمستم في المدينة وهو يريد أن يؤتى بكم اليوم فتذبحوا للطواغيت أو يقتلكم، فما شاء الله بعد ذلك فعل فقال لهم مكسلمينا: يا إخوتاه اعلموا أنكم ملاقو الله فلا تكفروا بعد إيمانكم إذا دعاكم عدو الله، ثم قالوا لتمليخا انطلق إلى المدينة فتسمع ما يقال لنا بها وما الذي يذكر فينا عند دقيانوس وتلطف ولا تشعرن بك أحداً، وابتع لنا طعاماً فأتنا به وزدنا على الطعام الذي جئتنا به فقد أصبحنا جياعاً، ففعل تمليخا كما كان يفعل ووضع ثيابه وأخذ الثياب التي كان يتنكر فيها وأخذ ورقاً من نفقتهم التي كانت معهم التي ضربت بطابع دقيانوس وكانت كخفاف الربع، فانطلق تمليخا خارجاً فلما مر بباب الكهف رأى الحجارة منزوعة عن باب الكهف فعجب منها ثم مر ولم يبال بها حتى أتى باب المدينة مستخفياً يصد عن الطريق تخوفاً أن يراه أحد من أهلها فيعرفه، ولا يشعر أن دقيانوس وأهله هلكوا قبل ذلك بثلاثمائة سنة. فلما أتى تمليخا باب المدينة رفع بصره فرأى فوق ظهر الباب علامة كانت لأهل الإيمان. إذ كان أمر الإيمان ظاهراً فيهما فلما رآها عجب وجعل ينظر إليها يميناً وشمالاً ثم ترك ذلك الباب ومضى إلى باب آخر فرأى مثل ذلك فخيل إليه أن المدينة ليست بالتي كان يعرف ورأى أشخاصاً كثيرة محدثين لم يكن رآهم قبل ذلك، فجعل يمشي ويتعجب ويخيل إليه أنه حيران ثم رجع إلى الباب الذي أتى منه فجعل يتعجب بينه وبين نفسه ويقول يا ليت شعري ما هذا أما عشية أمس كان المسلمون يخفون هذه العلامة في هذه المدينة ويستخفون بها واليوم ظاهرة لعلي نائم حالم ثم يرى أنه ليس بنائم فأخذ كساءه فجعله على رأسه ثم دخل المدينة

فسلّم بعضهم على بعض، كأنما استيقظوا من ساعتهم التي كانوا يستيقظون فيها إذا أصبحوا من ليلتهم، ثم قاموا إلى الصلاة فصلّوا كالذي كانوا يفعلون لا يُرى في وجوههم ولا ألوانهم شيء ينكرونه كهيئتهم حين رقدوا وهم يرون أن دقيانوس في طلبهم فلما قضوا صلاتهم قالوا لتمليخا صاحب نفقاتهم: أنبأنا ما الذي قال النـاس في شأننا عشية أمس عند هذا الجبار؟ وهم يظنون أنهم رقدوا كبعض ما كانوا يرقدون، وقد تخيل إليهم أنهم قد ناموا أطول مما كانوا ينامون، حتى يتساءلوا بينهم فقال بعضهم لبعض: كم لبثتم نياماً؟ قالوا: لبثنا يوماً أو بعض يوم، ثم قالوا: ربّكم أعلم بما لبثتم، وكل ذلك في أنفسهم يسير، فقال لهم تمليخا: التمستم في المدينة فلم توجدوا وهو يريد أن يُؤتى بكم اليوم، فتُذبحون للطواغيت أو يقتلكم فما شاء الله بعد ذلك فعل، فقال لهم مكسلمينا: يا إخوتاه اعلموا أنكم مُلاقوا الله فلا تكفروا بعد إيمانكم إذا دعاكم عدوّ الله ثم قالوا لتمليخا: انطلق إلى المدينة فتسمع ما يقال لنا بها، وما الذي يذكر عند دقيانوس وتلطف ولا تُشعِرَنّ بك أحداً وابتع لنا طعاماً فائتنا به وزدنا على الطعام الذي جئتنـا به، فقد أصبحنا جياعاً، ففعل تمليخا كما كان يفعل ووضع ثيابه وأخذ الثياب التي يتنكّر فيها وأخذ ورقاً من نفقتهم التي كانت معهم والتي ضُرِبت بطابع دقيانوس، فكانت كخفاف الربع والربع أول ما ينتج من ولد الضأن في الربيع، فانطلق تمليخا خارجاً فلما مرّ بباب الكهف رأى الحجارة منزوعة عن باب الكهف فعجب منها ثم مرّ ولم يُبالِ بها حتى باب المدينة مستخفياً يصدّ عن الطريق تخوفاً أن يراه أحد من أهلها فيعرفه ولم يشعر أن دقيانوس وأهله قد هلكوا قبل ذلك بثلثمائة سنة، فلما أتى تمليخا باب المدينة رفع بصره فرأى فوق ظهر الباب علامة تكون لأهل الإيمان إذا كان الإيمان ظاهراً فيها فلما رآها عجب وجعل ينظر إليها مستخفياً وجعل ينظر يميناً وشمالاً، ثم ترك ذلك الباب فتحوّل إلى باب آخر من أبوابها فرأى مثل ذلك فجعل يُخَيّل إليه أن المدينة ليست بالتي كان يعرف ورأى

فجعل يمشي في أسواقها فسمع ناساً يحلفون باسم عيسى ابن مريم، فزاده ذلك تعجباً ورأى أنه حيران فقام مسنداً ظهره إلى جدار من جدران المدينة وهو يقول في نفسه والله ما أدري ما هذا أما عشية أمس فليس كان على الأرض من يذكر عيسى ابن مريم إلا قتل وأما اليوم فأسمع كل إنسان يذكر عيسى ابن مريم لا يخاف، ثم قال في نفسه: لعل هذه ليست بالمدينة التي أعرف والله ما أعلم مدينة بقرب مدينتنا فقام كالحيران ثم لقي فتى فقال له ما اسم هذه المدينة يا فتى فقال اسمها أفسوس، فقال في نفسه لعل بي مساً أوأمراً أذهب عقلي والله يحق لي أن أسرع الخروج قبل أن يصيبني فيها شر فأهلك. فمضى إلى الذين يبتاعون الطعام فأخرج لهم الورق التي كانت معه وأعطاها رجلاً منهم وقال له بعني بهذه الورق طعاماً، فأخذها الرجل ونظر إلى ضرب الورق ونقشها فعجب منها فناولها رجلاً آخر من أصحابه فنظر ثم جعلوا يتطارحونها بينهم من رجل إلى رجل ويتعجبون منها ويتشاورون بينهم، ويقول بعضهم لبعض: إن هذا أصاب كنزاً خبيئاً في الأرض منذ زمان طويل فلما رآهم تمليخا يتحدثون فيه فرق فرقاً شديداً وخاف وجعل يرعد ويظن أنهم قد فطنوا به وعرفوه وأنهم إنما يريدون أن يذهبوا به إلى ملكهم دقيانوس، وجعل أناس يأتونه ويتعرفونه فلا يعرفونه فقال لهم وهو شديد الخوف منهم: أفضلوا علي قد أخذتم ورقي فأمسكوها وأما طعامك فلا حاجة لي به، فقالوا له يا فتى من أنت وما شأنك والله لقد وجدت كنزاً من كنوز الأولين وأنت تريد أن تخفيه منا انطلق معنا وأرناه وشاركنا فيه نخفف عليك ما وجدت، وإنك إن لم تفعل نحملك إلى السلطان فنسلمك إليه فيقتلك فلما سمع قولهم قال والله قد وقعت في كل شيء كنت أحذر منه، فقالوا له يا فتى إنك والله لا تستطيع أن تكتم ما وجدت وجعل تمليخا ما يدري ما يقول لهم وخاف حتى لم يجر على لسانه إليهم شيء، فلما رأوه لا يتكلم أخذوا كساءه فطرحوه في عنقه

ناساً كثيراً محدّثين لم يكن يراهم قبل ذلك فجعل يمشي ويتعجب ويخيّل إليه أنه حيران، ثم رجع إلى الباب الذي أتى منه فجعل يتعجب بينه وبين نفسه ويقول يا ليت شعري ما هذا أما عشية أمس فكان المسلمون يخبئون هذه العلامة ويستخفون بها، وأما اليوم فإنها ظاهرة لعلّي نائم ثم يرى أنه ليس بنائم، فأخذ كساءه فجعله على رأسه ثم دخل المدينة فجعل يمشي بين ظهراني سوقها فيسمع ناساً يحلفون باسم عيسى ابن مريم فزاده فرقاً ورأى أنه حيران، فقام مسنداً ظهره إلى جدار من جدر المدينة، وقال في نفسه: والله ما أدري ما هذا أما عشية أمس فليس على ظهر الأرض إنسان يذكر عيسى ابن مريم إلا قُتل، وأما الغداة فأسمعهم وكل إنسان يذكر اسم عيسى ولا يخاف أحداً، ثم قال في نفسه: لعل هذه ليست بالمدينة التي أعرف، والله ما أعرف مدينة قرك مدينتنا، فقام كالحيران ثم لقي فتى فقال له: ما اسم هذه المدينة يا فتى قال: اسمها أفسوس، فقال في نفسه: لعلّ بي مسّاً أو أمراً أذهب عقلي والله يحق لي أن أسرع الخروج منها قبل أن أخزى فيها أو يصيبني شرٌّ فأهلك ثم إنه أفاق فقال: والله لو عجّلت الخروج من المدينة قبل أن يفطن بي لكان أكيس بي، فدنا من الذين يبيعون الطعام فأخرج الورق التي كانت معه فأعطاها رجلاً منهم فقال بعني بهذه الورق طعاماً فأخذها الرجل فنظر إلى ضرب الورق ونقشها فعجب منه ثم طرحها إلى رجل آخر من أصحابه فنظر إليها فجعلوا يتطارحونها بينهم من رجل إلى رجل يتعجبون منها، ثم جعلوا يتشاورون بينهم ويقول بعضهم لبعض إن هذا أصاب كنزاً خبيئاً في الأرض منذ زمان ودهر طويل فلما رآهم تمليخاً يتشاورون من أجله فرق فرِقاً شديداً وجعل يرتعد ويظن أنهم قد فطنوا به وعرفوه وأنهم إنما يريدون أن يذهبوا به إلى ملكهم دقيانوس وجعل أُناس آخرون يأتونه فيتعرّفونه فلا يعرفونه، فقال لهم وهو شديد الفرق منهم: أفضلوا عليّ قد أخذتم ورقي، فأمسكوها وأما طعامكم فلا حاجة لي به، فقالوا له مَن أنت يا فتى وما شأنك والله لقد وجدت كنزاً من كنوز الأولين، وأنت تريد أن تخفيه منّا، فانطلقْ معنا وأرِنا وشاركنا فيه. نخفِ عليك ما وجدت، فإنك إن لم تفعل نأتِ بك إلى السلطان فنسلّمك إليه فيقتلك، فلما سمع قولهم قال في نفسه: قد وقعت في كل شيء كنت أحذر منه،

وجعلوا يسحبونه في سكك المدينة حتى سمع به من فيها، وقيل قد أخذ رجل معه كنز فاجتمع عليه أهل المدينة وجعلوا ينظرون إليه ويقولون والله ما هذا الفتى من أهل هذه المدينة وما رأيناه فيها قط وما نعرفه، وجعل تمليخا لا يدري ما يقول لهم، وكان متيقناً أن أباه وإخوته بالمدينة وأنه من عظماء أهلها وأنهم سيأتونه إذا سمعوا به فبينما هو قائم كالحيران ينتظر متى يأتيه بعض أهله فيخلصه من أيديهم إذ اختطفوه وانطلقوا به إلى رئيسي المدينة ومدبريها، اللذين يدبران أمرها وهما رجلان صالحان اسم أحدهما أريوس واسم الآخر طنطيوس، فلما انطلقوا به إليهما ظن تمليخا أنه إنما ينطلق به إلى دقيانوس الجبار فجعل يلتفت يميناً وشمالاً، وهو يبكي والناس يسخرون منه كما يسخرون من المجنون ثم رفع رأسه إلى السماء وقال: اللهم إله السماء وإله الأرض أفرغ علي اليوم صبراً وأولج معي روحاً منك تؤيدني به عند هذا الجبار، وجعل يقول في نفسه فرقوا بيني وبين إخوتي يا ليتهم يعلمون ما لقيت ويا ليتهم يأتونني فنقوم جميعاً بين يدي هذا الجبار فإنا قد كنا تواثقنا على الإيمان بالله وأن لا نشرك به أحداً أبداً ولا نفترق في حياة ولا موت فلما انتهى إلى الرجلين الصالحين أريوس وطنطيوس ورأى أنه لم يذهب إلى دقيانوس، أفاق وذهب عنه البكاء وأخذ أريوس وطنطيوس الورقة ونظرا إليها وعجبا منها وقال أين الكنز الذي وجدت يا فتى فقال تمليخا: ما وجدت كنزاً ولكن هذا ورق آبائي ونقش هذه المدينة وضربها، ولكن والله ما أدري ما شأني وما أقول لكم فقال له أحدهما: ممن أنت فقال تمليخا أما أنا فكنت أرى أني من أهل هذه المدينة فقيل له: ومن أبوك ومن يعرفك بها فأخبرهم باسم أبيه، فلم يوجد من يعرفه ولا أباه فقال له أنت رجل كذاب لا تنبئنا بالحق فلم يدر تمليخا ما يقول غير أنه نكث بصره إلى الأرض فقال بعض من حوله هذا رجل مجنون، وقال بعضهم ليس بمجنون ولكنه يحمق نفسه عمداً

فقالوا: يا فتى إنك والله لا تستطيع أن تكتم ما وجدت، فجعل تمليخا لا يدري ما يقول لهم وما يرجع إليهم، وفرق حتى ما يخبر إليهم شيئاً، فلما رأوه ولا يتكلم أخذوا كساءه فطرحوه في عنقه، ثم جعلوا يقودونه في سكك المدينة حتى سمع به مَن فيها، وقيل: قد أخذ رجل معه كنزاً فاجتمع إليه أهل المدينة صغيرهم وكبيرهم فجعلوا ينظرون إليه، ويقولون: والله ما هذا الفتى من أهل هذه المدينة وما رأيناه فينا قطّ وما نعرفه قطّ، فجعل تمليخا لا يدري ما يقول لهم فلما، اجتمع عليه أهل المدينة فرق فسكت فلم يتكلم، وكان مستيقناً أن أباه وإخوته بالمدينة وأن حسبه ونسبه من أهل المدينة من عظماء أهلها وأنهم سيأتونه إذا سمعوا به فبينا هو قائم كالحيران ينتظر متى يأتيه بعض أهله فيخلّصه من أيديهم إذا اختطفوه وانطلقوا به إلى رئيسي المدينة ومدبّريها اللذين يدبّران أمرها، وهما رجلان صالحان اسم أحدهما أريوس واسم الآخر طنطيوس. فلما انطلق به إليهما ظن تمليخا أنه ينطلق به إلى دقيانوس الجبّار، فجعل يلتفت يميناً وشمالاً وجعل الناس يسخرون منه كما يسخرون من المجنون، وجعل تمليخا يبكي ثم رفع رأسه إلى السماء فقال في نفسه: اللّهمّ إلّه السماء وإلّه الأرض أفرغ اليوم عليّ صبراً وأولج معي روحاً منك تؤيّدني به عند هذا الجبّار، وجعل يبكي ويقول في نفسه: فرّق بيني وبين إخوتي يا ليتهم يعلمون ما لقيت يا ليتهم يأتونني فنقوم جميعاً بين يدي هذا الجبار، فإنّا كنّا تواثقنا لنكوننّ معاً لا نكفر بالله ولا نشرك به شيئاً، فرّق بيني وبينهم فلن يروني ولن أراهم أبداً وكنّا تواثقنا أن لا نفترق في حياة ولا موت أبداً يحدّث به نفسه تمليخا، فما يخبر أصحابه حين يرجع إليهم، حتى انتهوا إلى الرجلين الصالحين أريوس وطنطيوس، فلما رأى تمليخا أنه لا يذهب به إلى دقيانوس أفاق وذهب عنه البكاء فأخذ أريوس وطنطيوس الورق فنظرا إليها وعجبا منها ثم قال له أحدهما: أين الكنز الذي وجدت يا فتى؟ فقال تمليخا: ما وجدت كنزاً ولكن هذا ورق آبائي ونقش هذه المدينة وضربها، ولكن والله ما أدري ما شأني وما أقول لكم، فقال أحدهما: فمَن أنت؟ فقال: تمليخا أما أنا فكنت أرى أني من أهل هذه المدينة، فقالوا: ومَن أبوك ومَن يعرفك فيها: فأنبأهم باسم أبيه فلم يجدوا أحداً يعرفه ولا أباه، فقال له أحدهما: أنت رجل

لكي ينفلت منكم، فقال له أحدهما ونظر إليه نظراً شديداً أتظن إنا نرسلك ونصدقك بأن هذا مال أبيك ونقش هذه المدينة وضربها ولهذه الورقة أكثر من ثلاثمائة سنة وأنت غلام شاب أتظن أنك تأفكنا وتسخر بنا ونحن شيوخ شمط وحولك سراة هذه المدينة وولاة أمرها وخزائن هذه المدينة بأيدينا وليس عندنا من هذا الضرب درهم ولا دينار، وإنني لأظنني سآمر بك فتعذب عذاباً شديداً ثم أوثقك حتى تعترف بهذا الكنز الذي وجدته. فقال لهم تمليخا: أخبروني عما أسألكم عنه فإن أنتم فعلتم صدقتكم عما عندي، فقالوا له سل لا نكتمك شيئاً، قال: فما فعل الملك دقيانوس فقال: ما نعرف على وجه الأرض من اسمه دقيانوس ولم يكن إلا ملك هلك في الزمان الأول وله دهر طويل وهلك بعده قرون كثيرة، فقال تمليخا: إني إذاً لحيران وما يصدقني أحد من الناس فيما أقول لقد كنا فتية على دين الواحد وأن الملك أكرهنا على عبادة الأصنام والذبح للطواغيت فهربنا منه عشية أمس، فأتينا إلى الكهف الذي في جبل بنجلوس فنمنا فيه فلما انتهينا خرجت لأشتري لأصحابي طعاماً وأتجسس الأخبار فإذا أنا معكم كما ترون فانطلقوا معي إلى الكهف أريكم أصحابي، فلما سمع أريوس قول تمليخا قال يا قوم لعل هذه آية من آيات الله جعلها الله عز وجل لكم على يد هذا الفتى فانطلقوا بنا معه حتى يرينا أصحابه. فانطلق أريوس وطنطيوس ومعهما جميع أهل المدينة كبيرهم وصغيرهم نحو أصحاب الكهف لينظروا إليهم فلما رأى الفتية أصحاب الكهف تمليخا قد احتبس عنهم بطعامهم وشرابهم عن القدر الذي كان يأتي فيه ظنوا أنه أخذ وذهب به إلى ملكهم دقيانوس فبينما هم يظنون ذلك ويتخوفونه إذ سمعوا الأصوات وجلبة الخيل مصعدة فظنوا أنهم رسل الجبار دقيانوس بعث بهم إليهم ليؤتى بهم فقاموا إلى الصلاة وسلم بعضهم على بعض وأوصى بعضهم بعضاً وقالوا انطلقوا بنا نأت أخانا تمليخا فإنه الآن بين يدي الجبار وهو ينتظرنا حتى نأتيه. فبينما هم يقولون ذلك وهم جلوس على هذه الحالة إذ هم بأريوس وأصحابه وقوفاً على باب

كذّاب لا تنبئنا بالحق، فلم يدرِ تمليخا ما يقول لهم غير أنه نكس بصره إلى الأرض، فقال بعض مَن حوله: هذا رجل مجنون، وقال بعضهم: ليس بمجنون ولكنه يحمق نفسه عمداً لكي ينقلب منكم، فقال له أحدهما ونظر إليه نظراً شديداً: أتظن أنّا نرسلك ونصدقك بأن هذا مال أبيك ونقش هذا الورق وضربها أكثر من ثلثمائة سنة، وإنما أنت غلام شاب أتظن أنك تأفكنا وتسخر بنا ونحن شيوخ شمط كما ترى، وحولك سراة أهل المدينة وولاة أمرها وخزائن هذه البلدة بين أيدينا، وليس عندنا من هذا الضرب درهم ولا دينار، وإني لأظنني سآمر بك فتعذّب عذاباً شديداً، ثم أوثقك حتى تعترف بهذا الكنز الذي وجدته، فلما قال ذلك قال لهم تمليخا: أنبئوني عن شيء أسألكم عنه فإن فعلتم صدقتكم عمّا عندي، قالوا: سَل لا نكتمك شيئاً، قال لهم: ما فعل الملك دقيانوس؟ قالوا: لا نعرف اليوم على وجه الأرض ملك يسمى دقيانوس، ولم يكن إلا ملك هلك منذ زمان ودهر طويل وهلكت بعده قرون كثيرة، فقال تمليخا: إني إذاً لحيران وما يصدقني أحد من الناس بما أقول، لقد كنا فتية على دين واحد وهو الإسلام وإن الملك أكرهنا على عبادة الأوثان والذبح للطواغيت فهربنا منه عشية أمس فنمنا فلما انتبهنا خرجت لأشتري له طعاماً وأتجسّس الأخبار فإذا أنا كما ترون، فانطلقوا معي إلى الكهف أُريكم أصحابي، فلما سمع أريوس ما يقول تمليخا، قال: يا قوم لعلّ هذه آية من آيات الله جعلها الله لكم على يدي هذا الفتى، فانطلقوا بنا معه يُرِنا أصحابه، فانطلق معه أريوس وطنطيوس وانطلق معهم أهل المدينة كبيرهم وصغيرهم نحو أصحاب الكهف لينظروا إليهم، ولما رأى الفتية أصحاب الكهف تمليخا قد احتبس عنهم بطعامهم وشرابهم عن القدر الذي كان يأتي به ظنوا أنه قد أخذ فذهب به إلى ملكهم دقيانوس، فبينما هم يظنون ذلك ويتخفّونه إذ سمعوا الأصوات وجلب الخيل مصعدة نحوهم، فظنوا أنهم رُسُل الجبّار دقيانوس بعث إليهم ليؤتى بهم، فقاموا إلى الصلاة وسلّم بعضهم على بعض وأوصى بعضهم بعضاً قالوا انطلقوا بنا نأت أخانا تمليخا فإنه الآن بين يدي الجبار ينتظر متى نأتيه، فبينما هم يقولون ذلك

الكهف فسبقهم تمليخا ودخل وهو يبكي فلما رأوه يبكي بكوا معه ثم سألوه عن خبره فقص عليهم الخبر كله، فعرفوا أنهم كانوا نياماً بأمر الله ذلك الزمن الطويل وإنما أوقظوا ليكونوا آية للناس وتصديقاً للبعث وليعلموا أن الساعة لا ريب فيها. ثم دخل على أثر تمليخا أريوس فرأى تابوتاً من نحاس مختوماً بخاتم فضة فوقف على الباب ودعا جماعة من عظماء أهل المدينة وأمر بفتح التابوت بحضرتهم فوجدوا فيه لوحين من رصاص مكتوباً فيهما مكسلمينا ومخشلمينا وتمليخا ومرطونس وكشطونس وبيرونس وديموس وبطيوس وقالوس والكلب اسمه قطمير. كانوا فتية هربوا من ملكهم دقيانوس مخافة أن يفتنهم عن دينهم فدخلوا هذا الكهف فلما أخبر بمكانهم أمر بالكهف فسد عليهم بالحجارة وإنا كتبنا شأنهم وخبرهم ليعلمه من بعدهم إن عثر بهم فلما قرأوه عجبوا وحمدوا الله سبحانه وتعالى الذي أراهم آية تدلهم على البعث ثم رفعوا أصواتهم بحمد الله وتسبيحه، ثم دخلوا على الفتية الكهف فوجدوهم جلوساً مشرقة وجوههم لم تبل ثيابهم فخر أريوس وأصحابه سجداً لله وحمدوا الله سبحانه وتعالى الذي أراهم آية من آياته ثم كلم بعضهم بعضاً وأخبرهم الفتية عن الذي لقوا من ملكهم دقيانوس ثم أريوس وأصحابه بعثوا بريداً إلى ملكهم الصالح بيدروس أن عجل لعلك تنظر إلى آية من آيات الله جعلها الله على ملكك للناس آية لتكون لهم نوراً وضياء وتصديقاً للبعث، وذلك أن فتية بعثهم الله وقد كان توفاهم منذ ثلاثمائة سنة وأكثر، فلما أتى الملك الخبر رجع عقله إليه وذهب همه وقال: أحمدك اللهم رب السموات والأرض وأعبدك وأسبح لك تطولت علي ورحمتني ولم تطفىء النور الذي جعلته لآبائي وللعبد الصالح بيدروس الملك ثم أخبر بذلك أهل مدينته فركب وركبوا معه حتى أتوا مدينة أفسوس، فتلقاهم أهلها وساروا معه نحو الكهف فلما صعد الجبل ورأى الفتية بيدروس فرح بهم وخر ساجداً على وجهه وقام

وهم جلوس بين ظهراني الكهف لم يروا إلاّ أريوس وأصحابه وقوفاً على باب الكهف. وسبقهم تمليخا فدخل عليهم وهو يبكي فلما رأوه يبكي بكوا معه، ثم سألوه عن شأنه فأخبرهم، وقصّ عليهم القصة والنبأ كله، فعرفوا عند ذلك أنهم كانوا نياماً بأمر الله ذلك الزمان كله بأمر الله، وإنما أُوقظوا ليكونوا آية للناس وتصديقاً للبَعْث وليعلموا أن الساعة آتية لا ريب فيها، ثم دخل على أثر تمليخا أريوس فرأى تابوتاً من نحاس مختوماً بخاتم من فضة فقام بباب الكهف ثم دعا رجالاً من عظماء أهل المدينة ففتح التابوت عندهم فوجدوا فيه لوحين من رصاص مكتوباً فيهما أن مكسلمينا ومخشلمينا وتمليخا ومرطونس وكشطونس ويبرونس وديموس وبطيوس والكلب اسمه قطمير كانوا فتية هربوا من ملكهم دقيانوس الجبار مخافة أن يفتنهم عن دينهم فدخلوا هذا الكهف، فلما أُخبِرَ بمكانهم أمر بالكهف فسُدَّ عليهم بالحجارة وأنّا كتبنا شأنهم وخبرهم ليعلمه مَن بعدهم إن عُثِرَ عليهم فلما قرأوه وعجبوا، وحمدوا الله الذي أراهم آية البَعْث فيهم، ثم رفعوا أصواتهم بحمد الله وتسبيحه ثم دخلوا على الفتية إلى الكهف فوجدوهم جلوساً بين ظهرانيهم مشرقة وجوههم لم تبلُ ثيابهم فخرّ أريوس وأصحابه سجوداً وحمدوا الله الذي أراهم آية من آياته، ثم كلّم بعضهم بعضاً وأنبأهم الفتية عن الذي لقوا من ملكهم دقيانوس، ثم إن أريوس وأصحابه بعثوا بريداً إلى ملكهم الصالح بيدروس أن عجّل لعلك تنظر إلى آية من آيات الله جعلها الله في مُلْكك وجعلها آية للعالمين لتكون لهم نوراً وضياءً وتصديقاً للبعث فأعجل إلى فتية بعثهم الله عزّ وجلّ، وقد كان توفّاهم منذ أكثر من ثلثمائة سنة فلما أتى الملك الخبر رجع إليه عقله وذهب عنه غمّه فقال أحمدك الله ربّ السموات والأرض وأعبدك وأُسبّح لك تطوّلت عليّ ورحمتني فلم تطفىء النور الذي كنت جعلته لآبائي للعبد الصالح بيدروس الملك، فلما نبّأ به أهل المدينة ركبوا إليه وساروا معه حتى أتوا مدينة إكسوس فتلقّاهم أهل المدينة وساروا معه حتى صعدوا نحو الكهف، فلما رأى الفتية بيدروس فرحوا به وخرّوا سُجّداً على وجوههم، وقام بيدروس قدّامهم ثم اعتنقهم وبكى وهم جلوس بين يديه على الأرض يسبّحون الله ويحمدونه، ثم قال الفتية لبيدروس: نستودعك الله والسلام عليك ورحمة

بيدروس الملك قدامهم ثم اعتنقهم وبكى وهم جلوس بين يديه على الأرض يسبحون الله ويحمدونه. ثم قال الفتية لبيدروس الملك نستودعك الله والسلام عليك ورحمة الله وبركاته حفظك الله وحفظ ملكك ونعيذك بالله من شر الإنس والجن. فبينما الملك قائم إذا هم رجعوا إلى مضاجعهم فناموا وتوفى الله أنفسهم، فقام الملك إليهم وجعل ثيابهم عليهم وأمر أن يجعل كل رجل منهم في تابوت من ذهب فلما أمسى ونام أتوه في منامه فقالوا له إنا لم نخلق من ذهب ولا فضة ولكنا خلقنا من تراب وإلى التراب نصير فاتركنا كما كنا في الكهف على التراب حتى يبعثنا الله تعالى منه، فأمر الملك عند ذلك بتابوت من ساج فجعلوا فيه وحجبهم الله حين خرجوا من عندهم بالرعب، ولم يقدر أحد أن يدخل عليهم وأمر الملك أن يتخذوا على باب الكهف مسجداً يصلى فيه وجعل لهم عيداً عظيماً وأمر أن يؤتى كل سنة. وقيل إن تمليخا حمل إلى الملك الصالح فقال له الملك من أنت قال أنا رجل من أهل هذه المدينة، وذكر أنه خرج أمس أو منذ أيام وذكر منزله وأقواماً لم يعرفهم أحد وكان الملك قد سمع أن فتية قد فقدوا في الزمان الأول وإن أسماءهم مكتوبة على لوح في خزانته فدعا باللوح ونظر في أسمائهم فإذا اسمه مكتوب وذكر أسماء الآخرين فقال تمليخا: هم أصحابي فلما سمع الملك ركب ومن معه من القوم فلما أتوا باب الكهف قال تمليخا: دعوني حتى أدخل على أصحابي فأبشرهم فإنهم إن رأوكم معي أرعبتموهم فدخل تمليخا فبشرهم فقبض الله روحه وأرواحهم وأعمى على الملك وأصحابه أثرهم فلم يهتدوا إليهم فذلك قوله عز وجل ﴿**إذ أوى الفتية إلى الكهف**﴾ أي صاروا إلى الكهف واسمه خيرم ﴿**فقالوا ربنا آتنا من لدنك رحمة**﴾ أي هداية في الدين ﴿**وهيىء لنا**﴾ أي يسر لنا﴿**من أمرنا رشداً**﴾ أي ما نلتمس منه رضاك وما فيه رشدنا، وقال ابن عباس: أي مخرجاً من الغار في سلامة. قوله سبحانه وتعالى:

فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ﴿١٢﴾ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ

الله وبركاته حفظك الله وحفظ مُلكك، ونعيذك بالله من شرّ الإنس والجن، فبينما الملك قائم إذ رجعوا إلى مضاجعهم فناموا وتوفى الله تعالى أنفسهم، وقام الملك إليهم فجعل ثيابهم عليهم وأمر أن يُجعل كل رجل منهم في تابوت من ذهب فلما أمسى ونام أتوه في المنام، فقالوا له إننا لم نُخلَق من ذهب ولا من فضـة ولكنّا خُلقنا من تراب وإلى التراب نصير فاتركنا كما كنّا في الكهف على التراب حتى يبعثنا الله منه، فأمر الملك حينئذ بتابوت من ساج فجعلوا فيه وحجبهم الله حين خرجوا من عندهم بالرعب فلم يقدر أحد على أن يدخل عليهم فأمر الملك فجعل على باب الكهف مسجداً يصلّى فيه وجعل لهم عيداً عظيماً وأمر أن يؤتى كل سنة، وقيل: إن تمليخا لما حمل إلى الملك الصالح قال له الملك مَن أنت قال: أنا رجل من أهل هذه المدينة وذكر أنه خرج أمس أو منذ أيام وذكر منزله وأقواماً لم يعرفهم أحد وكان الملك قد سمع أن فتية فُقِدوا في الزمن الأول وأن أسماءهم مكتوبة على اللوح بالخزانة، فدعا باللوح وقد نظر في أسمائهم فإذا هو من أولئك القوم، وذكر أسماء الآخرين فقال تمليخا هم أصحابي، فلما سمع الملك ذلك ركب ومَن معه من القوم فلما أتوا باب الكهف قال تمليخا دعوني حتى أدخل على أصحابي فأُبشّرهم فإنهم إن رأوكم معي أرعبتموهم، فدخل فبشّرهم فقبض الله أرواحهم وأعمى عليهم أثرهم فلم يهتدوا إليهم مرة ثانية، وذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿ **إذْ أوى الفتية إلى الكهف** ﴾ أي: صاروا إلى الكهف، يقال أوى فلان إلى موضع كذا أي: اتخذه منزلاً إلى الكهف، وهو غار في جبل مخلوس واسم الكهف خيرم. ﴿ **فقالوا ربنا آتنا من لدنك رحمة** ﴾. ومعنى الرحمة الهداية في الدين. وقيل: الرزق، ﴿ **وهيّء لنا** ﴾، يسّر لنا، ﴿ **من أمرنا رشداً** ﴾، أي: ما نلتمس من خير رضاك وما فيه رشدنا، وقال ابن عباس: رشداً أي: مخرجاً من الغار في سلامة.

قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا مِن دُونِهِ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَٰؤُلَاءِ قَوْمُنَا
اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾ وَإِذِ
اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم
مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾ ۞ وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ
فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾

﴿**فضربنا على آذانهم**﴾ أي ألقينا عليهم النوم، وقيل منعنا نفوذ الأصوات إلى مسامعهم فإن النائم إذا سمع الصوت ينتبه ﴿**في الكهف سنين عدداً**﴾ أي أنمناهم سنين كثيرة فإن العدد يدل على الكثرة ﴿**ثم بعثناهم**﴾ أي من نومهم ﴿**لنعلم**﴾ أي علم مشاهدة وذلك أن الله عز وجل لم يزل عالماً، وإنما أراد ما تعلق به العلم من ظهور الأمر لهم ليزدادوا إيماناً واعتباراً ﴿**أي الحزبين**﴾ أي الطائفتين ﴿**أحصى لما لبثوا أمداً**﴾ أي أحفظ لما مكثوا في كهفهم نياماً وذلك أن أهل المدينة تنازعوا في مدة لبثهم في الكهف. قوله تعالى ﴿**نحن نقص عليك نبأهم بالحق**﴾ أي نقرأ عليك خبر أصحاب الكهف بالحق أي بالصدق ﴿**إنهم فتية**﴾ أي شبان ﴿**آمنوا بربهم وزدناهم هدى**﴾ أي إيماناً وبصيرة ﴿**وربطنا على قلوبهم**﴾ أي شددنا على قلوبهم بالصبر والتثبيت وقويناهم بنور الإيمان حتى صبروا على هجران دار قومهم، ومفارقة ما كانوا عليه من خفض العيش وفروا بدينهم إلى الكهف ﴿**إذ قاموا**﴾ يعني بين يدي دقيانوس الجبار

﴿ **فضربنا على آذانهم** ﴾، أي: أنمناهم وألقينا عليهم النوم. وقيل: معناه منعنا نفوذ الأصوات إلى مسامعهم، فإن النائم إذا سمع الصوت ينتبه، ﴿ **في الكهف سنين عدداً** ﴾، أي: أنمناهم سنين معدودة وذكر العدد على سبيل التأكيد. وقيل: ذكره يدلّ على الكثرة فإن القليل لا يُعدّ في العادة.

﴿ **ثم بعثناهم** ﴾، يعني من نومهم، ﴿ **لنعلم** ﴾ أي: علم المشاهدة، ﴿ **أيّ الحزبين** ﴾، أي الطائفتين، ﴿ **أحصى لِما لبثوا أمداً** ﴾. وذلك أن أهل القرية تنازعوا في مدة لبثهم في الكهف واختلفوا في قوله: ﴿ **أحصى لِما لبثوا** ﴾ حفظ لما مكثوا في كهفهم نياماً أمداً أي: غاية. وقال مجاهد: عدداً ونصبه على التفسير.

﴿ **نحن نقصّ عليك** ﴾ نقرأ عليك ﴿ **نبأهم** ﴾، خبر أصحاب الكهف. ﴿ **بالحق** ﴾، بالصدق ﴿ **إنهم فتية** ﴾، شبان، ﴿ **آمنوا بربهم وزدناهم هدىً** ﴾، إيماناً وبصيرةً.

﴿ **وربطنا** ﴾، شددنا، ﴿ **على قلوبهم** ﴾، بالصبر والتثبيت وقوّيناهم بنور الإيمان حتى صبروا على هجران دار قومهم ومفارقة ما كانوا فيه من خفض العيش وفرّوا بدينهم إلى الكهف، ﴿ **إذْ قاموا** ﴾، بين يدي دقيانوس حين عاتبهم على ترك عبادة الصنم، ﴿ **فقالوا ربُّنا ربُّ السمٰوات والأرض لن ندعوا من دونه إلٰهاً** ﴾، قالوا ذلك لأن قومهم كانوا يعبدون الأوثان، ﴿ **لقد قلنا إذاً شططاً** ﴾، يعني إن دعونا غير الله لقد قلنا إذاً شططاً، قال ابن عباس: جوراً. وقال قتادة: كذباً. وأصل الشطط والإشطاط مجاوزة القدر والإفراط.

﴿ **هؤلاء قومنا** ﴾، يعني أهل بلدهم، ﴿ **اتخذوا من دونه** ﴾، أي: من دون الله، ﴿ **آلهة** ﴾، يعني الأصنام يعبدونها، ﴿ **لولا** ﴾، أي: هلاّ، ﴿ **يأتون عليهم** ﴾، أي: على عبادتهم، ﴿ **بسلطان بيّن** ﴾، بحجة واضحة، ﴿ **فمَن أظلم ممّن افترى على الله كذباً** ﴾، وزعم أن له شريكاً أو ولداً.

ثم قال بعضهم لبعض: ﴿ **وإذا اعتزلتموهم** ﴾، يعني قومكم، ﴿ **وما يعبدون إلاّ الله** ﴾، قرأ ابن مسعود

حين عاتبهم على ترك عبادة الأصنام ﴿فقالوا﴾ أي الفتية ﴿ربنا رب السموات والأرض لن ندعو من دونه إلهاً﴾ إنما قالوا ذلك لأن قومهم كانوا يعبدون الأصنام ﴿لقد قلنا إذاً شططاً﴾ قال ابن عباس: يعني جوراً وقيل كذباً يعني إن دعونا غير الله ﴿هؤلاء قومنا﴾ يعني أهل بلدهم ﴿اتخذوا من دونه﴾ أي من دون الله ﴿آلهة﴾ يعني أصناماً يعبدونها ﴿لولا﴾ أي هلا ﴿يأتون عليهم﴾ أي على عبادة الأصنام ﴿بسلطان بين﴾ أي بحجة واضحة وفيه تبكيت لأن الإتيان بحجة على عبادة الأصنام محال ﴿فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً﴾ أي وزعم أنه له شريكاً أو ولداً ثم قال بعضهم لبعض ﴿وإذ اعتزلتموهم﴾ يعني قومكم ﴿وما يعبدون إلا الله﴾ وذلك أنهم كانوا يعبدون الله، ويعبدون معه الأصنام والمعنى وإذا اعتزلتموهم وجميع ما يعبدون إلا الله فإنكم لم تعتزلوا عبادته ﴿فأووا إلى الكهف﴾ أي الجؤوا إليه ﴿ينشر لكم﴾ أي يبسط لكم ﴿ربكم من رحمته ويهيىء﴾ أي يسهل ﴿لكم من أمركم مرفقاً﴾ أي ما يعود إليه يسركم ورفقكم. قوله سبحانه وتعالى ﴿وترى الشمس إذا طلعت تزاور﴾ أي تميل وتعدل ﴿عن كهفهم ذات اليمين﴾ أي جانب اليمين ﴿وإذا غربت تقرضهم﴾ أي تتركهم وتعدل عنهم ﴿ذات الشمال وهم في فجوة منه﴾ أي متسع من الكهف ﴿ذلك من آيات الله﴾ أي من عجائب صنعه ودلالات قدرته وذلك أن ما كان في ذلك السمت تصيبهم الشمس ولا تصيبهم اختصاصاً لهم بالكرامة، وقيل إن باب الكهف شمالي مستقبل لبنات نعش فهم في مقنأة أبداً لا تقع الشمس عليهم عند الطلوع ولا عند الغروب ولا عند الاستواء فتؤذيهم بحرها، ولكن اختار الله لهم مضجعاً في متسع ينالهم فيه برد الريح ونسيمها ويدفع عنهم كرب الغار وغمه، وعلى هذا القول يكون معنى قوله ذلك من آيات الله أي إن شأنهم وحديثهم من آيات الله ﴿من يهد الله فهو المهتد﴾ يعني مثل أصحاب الكهف وفيه ثناء عليهم ﴿ومن يضلل﴾ أي ومن يضلله الله ولم يرشده ﴿فلن تجد له ولياً﴾ أي معيناً ﴿مرشداً﴾ أي يرشده. قوله سبحانه وتعالى:

وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ لَوِ

«وما يعبدون من دون الله»، وأما القراءة المعروفة فمعناها أنهم كانوا يعبدون الله ويعبدون معه الأوثان، يقول: إذا اعتزلتموهم وجميع ما يعبدون إلّا الله فإنكم لم تعتزلوا، ﴿ فأووا إلى الكهف ﴾، فالجأوا إليه، ﴿ ينشرْ لكم ﴾، يبسط لكم، ﴿ ربكم من رحمته ويهيّىء لكم ﴾، يسهّل لكم، ﴿ من أمركم مرفقاً ﴾ أي: ما يعود إليه يسرّكم ورفقكم. قرأ أبو جعفر ونافع وابن عامر (مَرفِقاً) بفتح الميم وكسر الفاء، وقرأ الآخرون بكسر الميم وفتح الفاء، ومعناهما واحد، وهو ما يرتفق به الإنسان.

قوله تعالى: ﴿ وترى الشمس إذا طلعت تزاور ﴾، قرأ ابن عامر ويعقوب بسكون الزاي وتشديد الراء على وزن تحمر، وقرأ أهل الكوفة بفتح الزاي خفيفة وألف بعدها، وقرأ الآخرون بتشديد الزاي، وكلها بمعنى واحد، أي: تميل وتعدل، ﴿ عن كهفهم ذات اليمين ﴾ أي: جانب اليمين، ﴿ وإذا غربت تقرضهم ﴾، أي: تتركهم وتعدل عنهم، ﴿ ذات الشمال ﴾، أصل القرض القطع، ﴿ وهم في فجوة منه ﴾ أي: متّسع من الكهف وجمعها فجوات، قال ابن قتيبة: كان كهفهم مستقبل بنات نعش، لا تقع فيه الشمس عند الطلوع ولا عند الغروب وفيما بين ذلك، قال: اختار الله لهم مضطجعاً في مقناة لا تدخل عليهم الشمس فتؤذيهم بحرّها وتغيّر ألوانهم وهم في متّسع ينالهم برد الريح ونسيمها ويدفع عنهم كرب الغار وغمومه. وقال بعضهم: هذا القول خطأ وهو أن الكهف كان مستقبل بنات نعش فكانت الشمس لا تقع عليهم ولكن الله صرف الشمس عنهم بقدرته وحال بينها وبينهم، ألا ترى أنه قال: ﴿ ذلك من آيات الله ﴾، من عجائب صنع الله ودلالات قدرته التي يعتبر بها، ﴿ مَن يهدِ اللّهُ فهو المهتدِ ومَن يضلل ﴾، أي: مَن يضلله الله ولم يرشده، ﴿ فلن تجد له ولياً ﴾، معيناً، ﴿ مرشداً ﴾.

اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٨﴾ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ
مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ
هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ
أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾

﴿**وتحسبهم**﴾ خطاب لكل أحد ﴿**أيقاظاً**﴾ أي منتبهين لأن أعينهم مفتحة ﴿**وهم رقود**﴾ أي نيام ﴿**ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال**﴾ قال ابن عباس: كانوا يقلبون في السنة مرة من جانب إلى جانب لئلا تأكل الأرض لحومهم، قيل كانوا يقلبون في يوم عاشوراء وقيل كانوا لهم في السنة تقلبتان ﴿**وكلبهم باسط ذراعيه**﴾ قال ابن عباس: كان كلباً أغر وعنه أنه كان فوق القلطي ودون الكرزي. والقلطي كلب صيني وقيل كان أصفر وقيل كان شديد الصفرة يضرب إلى حمرة، وقال ابن عباس: كان اسمه قطمير وقيل ريان وقيل صهبان قيل ليس في الجنة دواب سوى كلب أصحاب الكهف وحمار بلعام ﴿**بالوصيد**﴾ أي فناء الكهف، وقيل عتبة الباب وكان الكلب قد بسط ذراعيه وجعل وجهه عليهم، قيل كان ينقلب مع أصحابه فإذا انقلبوا ذات اليمين كسر الكلب أذنه اليمنى ورقد عليها، وإذا انقلبوا ذات الشمال كسر أذنه اليسرى ورقد عليها ﴿**لو اطلعت عليهم**﴾ يا محمد ﴿**لوليت منهم فراراً**﴾ وذلك لما ألبسهم الله من الهيبة حتى لا يصل إليهم أحد حتى يبلغ الكتاب أجله فيوقظهم الله من رقدتهم ﴿**ولملئت منهم رعباً**﴾ أي خوفاً من وحشة المكان. وقيل لأن أعينهم مفتحة كالمتيقظ الذي يريد أن يتكلم وهم نيام وقيل لكثرة شعورهم، وطول أظفارهم ولتقلبهم من غير حس ولا إشعار وقيل إن الله سبحانه وتعالى منعهم بالرعب لئلا يراهم أحد. قال ابن عباس: غزونا مع معاوية نحو

قوله تعالى: ﴿ **وتحسبهم أيقاظاً** ﴾ أي: منتبهين جمع يقظ ويقظ، ﴿ **وهم رقود** ﴾، نيام جمع راقد مثل قاعد وقعود وإنما اشتبه حالهم لأنهم كانوا مفتّحة أعينهم يتنفسون ولا يتكلمون، ﴿ **ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال** ﴾، مرة للجنب الأيمن ومرة للجنب الأيسر. قال ابن عباس: كانوا يقلبون في السنة مرة من جانب إلى جنب لئلا تأكل الأرض لحومهم. وقيل: كان يوم عاشوراء يوم تقلبهم. وقال أبو هريرة: كان لهم في كل سنة تقلّبان، ﴿ **وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد** ﴾، أكثر أهل التفسير على أنه كان من جنس الكلاب. ورُوِيَ عن ابن جريج: أنه كان أسد أو سُمّي الأسد كلباً فإن النبي ﷺ دعا على عتبة بن أبي لهب فقال: «اللّهمّ سلّط عليه كلباً من كلابك، فافترسه أسد، والأول معروف» قال ابن عباس: كان كلباً أغرّ. ويُروى عنه: فوق القلطي ودون الكرزي، والقلط كلب صيني. وقال مقاتل: كان أصفر. وقال القرظي: كانت شدّة صفرته تضرب إلى الحمرة. وقال الكلبي: لونه كالخليج. وقيل: لون الحجر. قال ابن عباس: اسمه قطمير. وعن علي: اسمه ريّان. وقال الأوزاعي: يثور. وقال السدي: يور. وقال كعب: صهباً. قال خالد بن معدان ليس في الجنة شيء من الدواب سوى كلب أصحاب الكهف وحمار بلعام. قوله: ﴿ **بالوصيد** ﴾ قال مجاهد والضحاك: والوصيد فناء الكهف. وقال عطاء: عتبة الباب. وقال السدي: الوصيد الباب، وهو رواية عكرمة عن ابن عباس، فإن قيل: لم يكن للكهف باب ولا عتبة؟ قيل: معناه موضع الباب والعتبة كان الكلب قد بسط ذراعيه وجعل وجهه عليهم. قال السدي: كان أصحاب الكهف إذا انقلبوا انقلب الكلب معهم وإذا انقلبوا إلى اليمين كسر الكلب أُذنه اليمنى ورقد عليها، وإذا انقلبوا إلى الشمال كسر أُذنه اليسرى ورقد عليها. ﴿ **لو اطّلعت عليهم** ﴾، يا محمد، ﴿**لولّيت منهم فراراً**﴾، لما ألبسهم الله من الهيبة حتى لا يصل إليهم أحد حتى يبلغ الكتاب أجله فيوقظهم الله تعالى من رقدتهم، ﴿ **ولملئت منهم رعباً** ﴾، خوفاً قرأ أهل الحجاز بتشديد اللام والآخرون بتخفيفها واختلفوا في أن الرعب كان لماذا قيل من وحشة المكان. وقال

الروم فمررنا بالكهف الذي فيه أصحاب الكهف فقال معاوية: لو كشف الله عن هؤلاء لنظرنا إليهم، فقال ابن عباس قد منع ذلك من هو خير منك فقيل له لو اطلعت عليهم لوليت منهم فراراً. فبعث معاوية ناساً فقال اذهبوا فانظروا، فلما دخلوا الكهف بعث الله عليهم ريحاً فأحرقهم. قوله سبحانه وتعالى ﴿وكذلك بعثناهم﴾ يعني كما أنمناهم في الكهف وحفظنا أجسامهم من البلى على طول الزمان بعثناهم من النومة التي تشبه الموت ﴿ليتساءلوا بينهم﴾ أي ليسأل بعضهم بعضاً ﴿ قال قائل منهم﴾ وهو رئيسهم وكبيرهم مكسلمينا ﴿كم لبثتم﴾ أي في نومكم وذلك، أنهم استنكروا طول نومهم وقيل إنهم راعهم ما فاتهم من الصلاة فقالوا ذلك ﴿قالوا لبثنا يوماً﴾ ثم نظروا فوجدوا الشمس قد بقي منها بقية فقالوا ﴿أو بعض يوم﴾ فلما نظروا إلى طول شعورهم وأظفارهم علموا أنهم لبثوا أكثر من يوم ﴿قالوا ربكم أعلم بما لبثتم﴾ وقيل إن مكسلمينا لما سمع الاختلاف بينهم قال دعوا الاختلاف ربكم أعلم بما لبثتم ﴿فابعثوا أحدكم﴾ يعني تمليخا ﴿بورقكم﴾ هي الفضة مضروبة كانت أو غير مضروبة ﴿هذه إلى المدينة﴾ قيل هي ترسوس وكان اسمها في الزمن الأول قبل الإسلام أفسوس ﴿فلينظر أيها أزكى طعاماً﴾ أي أحل طعاماً وقيل أمروه أن يطلب ذبيحة مؤمن، ولا تكون من ذبح من يذبح لغير الله وكان فيهم مؤمنون يخفون إيمانهم، وقيل أطيب طعاماً وأجود وقيل أكثر طعاماً وأرخصه ﴿فليأتكم برزق منه﴾ أي قوت وطعام تأكلونه ﴿وليتلطف﴾ أي وليترفق في الطريق وفي المدينة وليكن في

الكلبي: لأن أعينهم كانت مفتحة كالمستيقظ الذي يريد أن يتكلم وهم نيام وقيل: لكثرة شعورهم وطول أظفارهم ولتقلبهم من غير حسٍّ ولا شعور. وقيل: إن الله تعالى منعهم بالرعب لئلا يراهم أحد، ورُوِيَ عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: غزونا مع معاوية نحو الروم فمررنا بالكهف الذي فيه أصحاب الكهف، فقال معاوية: لو كشف لنا عن هؤلاء فنظرنا إليهم، فقال ابن عباس رضي الله عنهم: لقد منع ذلك مَن هو خير منك، فقال: لو اطّلعت عليهم لولّيت منهم فراراً فبعث معاوية ناساً فقال: اذهبوا فانظروا فلما دخلوا الكهف بعث الله عليهم ريحاً فأحرقتهم.

قوله تعالى: ﴿ وكذلك بعثناهم ﴾، أي: كما أنمناهم في الكهف وحفظنا أجسادهم من البلى على طول الزمان فكذلك بعثناهم من النومة التي تشبه الموت، ﴿ ليتساءلوا بينهم ﴾، ليسأل بعضهم بعضاً واللام فيه لام العاقبة لأنهم لم يُبعثوا للسؤال، ﴿ قال قائل منهم ﴾، وهو رئيسهم مكسلمينا، ﴿ كم لبثتم ﴾، في نومكم وذلك أنهم استنكروا طول نومهم. ويقال: إنهم راعهم ما فاتهم من الصلاة فقالوا ذلك، ﴿ قالوا لبثنا يوماً ﴾، وذلك أنهم دخلوا الكهف غدوة فقالوا فانتبهوا حين انتبهوا عشية فقالوا لبثنا يوماً ثم نظروا وقد بقيت من الشمس بقية، فقالوا: ﴿ أو بعض يوم ﴾، فلما نظروا إلى شعورهم وأظفارهم علموا أنهم لبثوا أكثر من يوم، ﴿ قالوا ربّكم أعلم بما لبثتم ﴾، وقيل: إن رئيسهم مكسلمينا لمّا سمع الاختلاف بينهم قال: دعوا الاختلاف ربكم أعلم بما لبثتم، ﴿ فابعثوا أحدكم بورقكم هذه ﴾، يعني تمليخا، قرأ أبو عمرو وحمزة وأبو بكر بورقكم ساكنة الراء والباقون بكسرهما ومعناهما واحد وهي الفضة مضروبة كانت أو غير مضروبة. ﴿ إلى المدينة ﴾، قيل: هي طرسوس وكان اسمها في الجاهلية أفسوس فسمّوها في الإسلام طرسوس، ﴿ فلينظر أيها أزكى طعاماً ﴾ أي: أحلّ طعاماً حتى لا يكون من غصب أو سبب حرام، وقيل: أمروه أن يطلب ذبيحة مؤمن ولا يكون من ذبيحة مَن يذبح لغير الله وكان فيهم مؤمنون يخفون إيمانهم. وقال الضحاك: أطيب طعاماً. وقال مقاتل بن حيان: أجود طعاماً. وقال عكرمة: أكثر، وأصل الزكاة الزيادة. وقيل: أرخص طعاماً ﴿ فليأتكم برزق منه ﴾، أي: قوت وطعام تأكلونه، ﴿ وليتلطف ﴾، وليترفق في الطريق وفي المدينة وليكن في ستر وكتمان، ﴿ ولا يشعرنّ ﴾، ولا يعلمنّ، ﴿ بكم أحداً ﴾، من الناس.

ستر وكتمان ﴿ولا يشعرن﴾ أي ولا يعلمن ﴿بكم أحداً﴾ أي من الناس ﴿إنهم إن يظهروا عليكم﴾ أي يعلموا بمكانكم ﴿يرجموكم﴾ قيل معناه يشتموكم ويؤذوكم بالقول وقيل يقتلوكم، وكان من عادتهم القتل بالحجارة وهو أخبث القتل وقيل يعذبوكم ﴿أو يعيدوكم في ملتهم﴾ أي الكفر ﴿ولن تفلحوا إذاً أبداً﴾ أي إن عدتم إليه. قوله عز وجل:

وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُواْ ٱبْنُواْ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّيٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾ وَلَبِثُواْ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُواْ تِسْعًا ﴿٢٥﴾

﴿وكذلك أعثرنا عليهم﴾ أي أطلعنا الناس عليهم ﴿ليعلموا أن وعد الله حق﴾ يعني قوم بيدروس الذين أنكروا البعث ﴿وأن الساعة لا ريب فيها﴾ أي لا شك فيها أنها آتية ﴿إذ يتنازعون بينهم أمرهم﴾. قال ابن عباس: في البنيان فقال المسلمون نبني عليهم مسجداً يصلي فيه الناس لأنهم على ديننا وقال المشركون نبني بنياناً لأنهم على ملتنا وقيل كان تنازعهم في البعث فقال المسلمون تبعث الأجساد والأرواح وقال قوم تبعث الأرواح فأراهم الله آية وأن البعث للأرواح والأجساد وقيل تنازعوا في مدة لبثهم وقيل في عددهم ﴿فقالوا ابنوا عليهم بنياناً ربهم أعلم بهم قال الذين غلبوا على أمرهم﴾ يعني بيدروس وأصحابه ﴿لنتخذن عليهم مسجداً﴾ قوله تعالى ﴿سيقولون ثلاثة رابعهم﴾ روي أن السيد والعاقب وأصحابهما من نصارى نجران كانوا عند النبي ﷺ فجرى ذكر أصحاب الكهف عندهم فقال السيد وكان يعقوبياً كانوا ثلاثة رابعهم ﴿كلبهم ويقولون﴾ أي وقال العاقب وكان نسطورياً ﴿خمسة سادسهم كلبهم رجماً بالغيب ويقولون﴾ وقال المسلمون ﴿سبعة وثامنهم كلبهم﴾ فحقق الله قول المسلمين وإنما عرفوا ذلك بأخبار رسول الله ﷺ على لسان جبريل ﷺ بعدما حكى قول النصارى أولاً، ثم أتبعه بقوله سبحانه وتعالى رجماً بالغيب أي ظناً وحدساً من

﴿ إنهم إن يظهروا عليكم ﴾، أي: يعلموا بمكانكم، ﴿ يرجموكم ﴾ قال ابن جريج: يشتموكم ويؤذوكم بالقول. وقيل: يقتلوكم، وقيل: كان من عادتهم القتل بالحجارة وهو أخبث القتل. وقيل: يضربوكم، ﴿ أو يعيدوكم في ملّتهم ﴾ أي: إلى الكفر، ﴿ ولن تفلحوا إذاً أبداً ﴾، إن عدتم إليه.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ وكذلك أعثرنا ﴾ أي: أطلعنا، ﴿ عليهم ﴾، يقال: عثرت على الشيء إذا اطّلعت عليه وأعثرت غيري أي أطلعته، ﴿ ليعلموا أنّ وعد الله حق ﴾، يعني أصحاب بيدروس الذين أنكروا البعث، ﴿ وأنّ الساعة لا ريب فيها إذ يتنازعون بينهم أمرهم ﴾، قال ابن عباس: يتنازعون في البنيان، فقال المسلمون: نبني عليهم مسجداً يصلّي فيه الناس لأنهم على ديننا، وقال المشركون: نبني عليهم بنياناً لأنهم من أهل ديننا. وقال عكرمة: تنازعوا في البعث، فقال المسلمون: البعث للأجساد والأرواح، وقال قوم للأرواح دون الأجساد، فبعثهم الله تعالى وأراهم أن البعث للأجساد والأرواح. وقيل: تنازعوا في مدة لبثهم. وقيل: في عددهم. ﴿ فقالوا ابنوا عليهم بنياناً ربهم أعلم بهم، قال الذين غلبوا على أمرهم ﴾، بيدروس الملك وأصحابه، ﴿ لنتخذنّ عليهم مسجداً ﴾.

غير يقين ولم يقل ذلك في السبعة وتخصيص الشيء بالوصف يدل على أن الحال في الباقي بخلافه، فوجب أن يكون المخصوص بالظن هو قول النصارى وأن يكون قول المسلمين مخالفاً لقول النصارى في كونه رجماً بالغيب وظناً، ثم أتبعه بقوله سبحانه وتعالى ﴿**قل ربي أعلم بعدتهم ما يعلمهم إلا قليل**﴾ هذا هو الحق لأن العلم بتفاصيل العوالم والكائنات فيه في الماضي والمستقبل لا يكون إلا لله تعالى أو من أخبره الله سبحانه وتعالى بذلك. قال ابن عباس رضي الله عنهما: أنا من أولئك القليل كانوا سبعة وهم مكسلمينا[1] وتمليخا ومرطونس وبينونس وسارينوس ودنوانس وكشفيططنونس وهو الراعي واسم كلبهم قطمير ﴿**فلا تمار فيهم**﴾.

أي لا تجادل ولا تقل في عددهم وشأنهم ﴿**إلا مراء ظاهراً**﴾ أي إلا بظاهر ما قصصنا عليك فقف عنده ولا تزد عليه ﴿**ولا تستفت فيهم**﴾ أي في أصحاب الكهف ﴿**منهم**﴾ أي من أهل الكتاب ﴿**أحداً**﴾ أي لا ترجع إلى قول أحد منهم بعد أن أخبرناك قصتهم. قوله سبحانه وتعالى ﴿**ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله**﴾ يعني إذا عزمت على فعل شيء غداً فقل إن شاء الله ولا تقله بغير استثناء، وذلك أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ عن الروح وعن أصحاب الكهف وعن ذي القرنين فقال أخبركم غداً ولم يقل إن شاء الله فلبث الوحي أياماً ثم نزلت هذه الآية وقد تقدمت القصة في سورة بني إسرائيل ﴿**واذكر ربك إذا نسيت**﴾ قال ابن عباس: معناه إذا نسيت الاستثناء ثم ذكرت

﴿ **سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم** ﴾، رُوِيَ أن السيد والعاقب وأصحابهما من نصارى أهل نجران كانوا عند النبي ﷺ فجرى ذكر أصحاب الكهف، فقال السيد وكان يعقوبياً: كانوا ثلاثة رابعهم كلبهم، وقال العاقب وكان نسطورياً: كانوا خمسة سادسهم كلبهم، وقال المسلمون: كانوا سبعة ثامنهم كلبهم، فحقّق الله قول المسلمين بعدما حكى قول النصارى، فقال: ﴿ **سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم ويقولون خمسة سادسهم كلبهم رجماً بالغيب** ﴾، أي: ظنّاً وحدساً من غير يقين، ولم يقل هذا في حق السبعة، فقال: ﴿ **ويقولون** ﴾ يعني: المسلمين، ﴿ **سبعة وثامنهم كلبهم** ﴾، اختلفوا في الواو في قوله: ﴿ **وثامنهم** ﴾ وقيل: تركها وذكرها سواء. وقيل: هي واو الحكم والتحقيق كأنه حكى اختلافهم، وتمّ الكلام عند قوله ويقولون سبعة ثم حقّق هذا القول بقوله: ﴿ **وثامنهم كلبهم** ﴾ والثامن لا يكون إلّا بعد السابع. وقيل: هذه واو الثمانية، وذلك أن العرب تعدّ فتقول واحد اثنان ثلاثة أربعة خمسة ستة سبعة وثمانية، لأن العقد كان عندهم سبعة كما هو اليوم عندنا عشرة، نظيره قوله تعالى: ﴿ **التائبون العابدون الحامدون** ﴾ [التوبة: ١١٢] إلى قوله: ﴿ **والناهون عن المنكر** ﴾ [التوبة: ١١٢]، وقال في أزواج النبي ﷺ: ﴿ **عسى ربه إن طلقكنّ أن يبدله أزواجاً خيراً منكنّ مسلمات مؤمنات قانتات تائبات عابدات سائحات ثيّبات وأبكاراً** ﴾ [التحريم: ٥]. ﴿ **قلْ ربّي أعلم بعدّتهم** ﴾، أي: بعددهم ﴿ **ما يعلمهم إلّا قليل** ﴾، أي: إلا قليل من الناس. قال ابن عباس: إنّا من القليل كانوا سبعة. وقال محمد بن إسحاق: كانوا ثمانية. قرأ: ﴿ **وثامنهم كلبهم** ﴾ أي: حافظهم، والصحيح هو الأول. ورُوِيَ عن ابن عباس أنه قال: هم مكسلمينا وتمليخا ومرطونس وبينونس وسارينونس وذو نوانس وكشفيططنونس، وهو الراعي والكلب قطمير. ﴿ **فلا تمارِ فيهم** ﴾، أي: لا تجادل ولا تقل في عددهم وشأنهم، ﴿ **إلّا مراءً ظاهراً** ﴾، إلا بظاهر ما قصصنا عليك، يقول يحسبك ما قصصت عليك فلا تزد عليه وقف عنده، ﴿ **ولا تستفتِ فيهم منهم** ﴾، من أهل الكتاب، ﴿ **أحداً** ﴾ أي: لا ترجع إلى قولهم بعد أن أخبرناك.

﴿ **ولا تقولنّ لشيء إني فاعل ذلك غداً** ﴾.

---

(١) قوله مكسلمينا وقع اختلاف كبير في أسمائهم وذكر في القاموس في ذلك ثلاثة أقوال فليراجع.

فاستثن وجوز ابن عباس الاستثناء المنقطع، وإن كان بعد سنة وجوزه الحسن ما دام في المجلس وجوزه بعضهم إذا قرب الزمان، فإن بعد لم يصح ولم يجوزه جماعة حتى يكون الكلام متصلاً بالاستثناء وقيل في معنى الآية واذكر ربك إذا غضبت قال وهب مكتوب في التوراة والإنجيل ابن آدم «اذكرني حين تغضب أذكرك حين أغضب»، وقيل الآية في الصلاة يدل عليه ما روي عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ «من نسي صلاة فليصلها إذ ذكرها» قال تعالى ﴿**أقم الصلاة لذكري**﴾ متفق عليه زاد مسلم أو نام عنها فكفارتها أن يصليها إذا ذكرها ﴿**وقل عسى أن يهدين ربي لأقرب من هذا رشداً**﴾ أي يثبتني على طريق هو أقرب إليه وأرشد، وقيل إن الله سبحانه وتعالى أمره أن يذكره إذا نسي شيئاً ويسأله أن يذكره أو يهديه لما هو خير له من أن يذكر ما نسي وقيل إن القوم لما سألوه عن قصة أصحاب الكهف على وجه العناد أمره الله سبحانه وتعالى أن يخبرهم أن الله سبحانه وتعالى سيؤتيه من الحجج على صحة نبوته ما هو أدل لهم من قصة أصحاب الكهف وقد فعل حيث آتاه من علم غيب المرسلين وقصصهم مما هو أوضح وأقرب إلى الرشد من خبر أصحاب الكهف. وقيل هذا شيء أمره الله أن يقوله مع قوله إن شاء الله إذا ذكر الاستثناء بعد النسيان وإذا نسي الإنسان

﴿ إلا أن يشاء الله ﴾، يعني: إذا عزمت على أن تفعل غداً شيئاً فلا تقل أفعل غداً حتى تقول إن شاء الله، وذلك أن أهل مكة سألوه عن الروح وعن أصحاب الكهف وعن ذي القرنين، فقال: أخبركم غداً ولم يقل إن شاء الله، فلبث الوحي أياماً ثم نزلت هذه الآيـة ﴿ واذكر ربك إذا نسيت ﴾، قال ابن عباس ومجاهد والحسن: معناه إذا نسيت الاستثناء ثم ذكرت فاستثنِ، وجوّز ابن عباس الاستثناء المنقـطع وإن كان إلى سنّـة وجوّزه الحسن مـا دام في المجلس، وجوّزه بعضهم إذا قرب الزمان، فإن بعد (فلا) يصح، ولم يجوّزه جماعة حتى يكون الكلام متصلاً بالكلام. وقال عكرمة: معنى الآية واذكر ربك إذا غضبت. وقال وهب: مكتوب في الإنجيل ابن آدم اذكرني حين تغضب أذكرك حين أغضب. وقال الضحاك والسدي: هذا في الصلاة، أخبرنا عبد الواحد المليحي أنبأنـا الحسن بن أحمد المخلـدي ثنا عبد االواحد أبو العباس السراج ثنا قتيبة ثنا أبو عوانة عن قتادة عن أنس قال: قال النبي ﷺ: «مَن نسي صلاة فليصلها إذا ذكرها». ﴿ وقلْ عسى أن يهدينِ ربي لأقرب من هذا رشداً ﴾، أي: يثبتني على طريق هو أقرب إليه وأرشد. وقيل: أمر الله نبيّه أنْ يذكره إذا نسي شيئاً ويسأله أن يهديه لما هو خير له من ذكر ما نسيه. ويقال: هو أن القوم لمّـا سألوه عن قصة أصحاب الكهف على وجه العناد أمره الله عزّ وجلّ أن يخبرهم أن الله سيؤتيه من الحجج على صحة نبوّته ما هو أدلّ لهم من قصة أصحاب الكهف وقد فعل حيث أتاه من علم الغيب حال المرسلين ما كان أوضح لهم في الحجة وأقرب إلى الرشد من خبر أصحاب الكهف، وقال بعضهم: هذا شيء أمر أن يقوله مع قوله إن شاء الله إذا ذكر الاستثناء بعد النسيان وإذا نسي الإنسانِ إن شاء الله فتوبته من ذلك أن يقول عسي أن يهدين ربي لأقرب من هذا رشداً.

قوله عزّ وجلّ: **﴿ ولبثوا في كهفهم ﴾**، يعني أصحاب الكهف. قال بعضهم: هذا خبر عن أهل الكتاب أنهم قالوا ذلك، ولو كان خبراً من الله عزّ وجلّ عن قدر لبثهم لم يكن لقوله: **﴿ قل الله أعلم بما لبثوا ﴾** وجه، وهذا قول قتادة: ويدلّ عليه قراءة ابن مسعود: (وقالوا لبثوا في كهفهم) ثم ردّ الله تعالى عليهم فقال: **﴿ قل الله أعلم بما لبثوا ﴾** وقال الآخرون: هذا إخبار من الله تعالى عن قدر لبثهم في الكهف وهو الأصح، وأما قوله: **﴿ قل الله أعلم بما لبثوا ﴾** فمعناه أن الأمر من مدة لبثهم كما ذكرنا فإنِ نازعوك فيها فأجبهم، وقل الله أعلم بما لبثوا، أي: هو أعلم منكم، وقد أخبرنا بمدة لبثهم. وقيل: إن أهل الكتاب قالوا: إن هذه المدة من لدن دخلوا الكهف إلى يومنا هذا ثلثمائة وتسع سنين فردّ الله عليهم وقال: **﴿ قل الله أعلم بما لبثوا ﴾** يعني بعد قبض أرواحهم إلى يومنا هذا لا يعلمه إلاّ الله. قوله تعالى: **﴿ ثلاث مائة سنين ﴾** قرأ حمزة والكسائي: (ثلثمائة) بلا تنوين، وقرأ الآخرون بالتنوين، فإن

قوله إن شاء الله فتوبته من ذلك أن يقول مع قوله إن شاء الله عسى أن يهديني ربي لأقرب من هذا رشداً. قوله عز وجل ﴿ولبثوا في كهفهم ثلاث مائة سنين وازدادوا تسعاً﴾ قيل هذا خبر عن قول أهل الكتاب ولو كان خبراً من الله عن قدر لبثهم لم يكن لقوله قل الله أعلم بما لبثوا وجه ولكن الله رد قولهم بقوله:

﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثُواْۖ لَهُۥ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ أَبۡصِرۡ بِهِۦ وَأَسۡمِعۡۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيّٖ وَلَا يُشۡرِكُ فِي حُكۡمِهِۦٓ أَحَدٗا ﴿٢٦﴾ وَٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلۡتَحَدٗا ﴿٢٧﴾ وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا ﴿٢٨﴾ وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمۡ سُرَادِقُهَاۚ وَإِن يَسۡتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٖ كَٱلۡمُهۡلِ يَشۡوِي ٱلۡوُجُوهَۚ بِئۡسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتۡ مُرۡتَفَقًا ﴿٢٩﴾﴾

﴿قل الله أعلم بما لبثوا﴾ والأصح أنه إخبار من الله تعالى عن قدر لبثهم في الكهف ويكون معنى قوله قل الله أعلم بما لبثوا، يعني إن نازعوك في مدة لبثهم في الكهف فقل أنت الله أعلم بما لبثوا أي هو أعلم منكم وقد أخبر بمدة لبثهم وقيل إن أهل الكتاب قالوا إن المدة من حين دخلوا الكهف إلى يومنا هذا وهو اجتماعهم بالنبي ﷺ ثلاثمائة وتسع سنين فرد الله عليهم بذلك وقال قل الله أعلم بما لبثوا يعني بعد قبض أرواحهم إلى يومنا هذا لا يعلمه إلا الله. فإن قلت لم قال سنين ولم يقل سنة، قلت قيل لما نزل قوله سبحانه وتعالى ﴿ولبثوا في كهفهم ثلاث مائة﴾ فقالوا أياماً أو شهوراً أو سنين فنزلت سنين على وفق قولهم وقيل هو تفسير لما أجمل في قوله فضربنا على آذانهم في الكهف سنين عدداً وازدادوا تسعاً وقيل قالت نصارى نجران أما ثلاثمائة فقد عرفنا وأما التسع فلا علم لنا بها. فنزلت قل الله أعلم بما لبثوا. وقيل إن عند أهل الكتاب لبثوا ثلاثمائة سنة شمسية والله سبحانه وتعالى ذكر ثلاثمائة سنة وتسع سنين قمرية

قيل: لِمَ قال ثلثمائة سنين ولم يقل سنة؟ قيل: نزل قوله: ﴿ ولبثوا في كهفهم ثلثمائة ﴾، فقالوا: أياماً أو شهوراً أو سنين؟ فنزلت ﴿ سنين ﴾، قال الفرّاء: ومن العرب مَن يضع سنين في موضع سنة. وقيل: معناه ولبثوا في كهفهم سنين ثلثمائة. ﴿ وازدادوا تِسْعاً ﴾، قال الكلبي قالت نصارى نجران أما ثلثمائة فقد عرفنا وأما التسع فلا علم لنا بها فنزلت.

﴿ قل الله أعلم بما لبثوا ﴾ رُوِيَ عن علي أنه قال عند أهل الكتاب أنهم لبثوا ثلثمائة شمسية والله تعالى ذكر ثلثمائة قمرية والتفاوت بين الشمسية والقمرية في كل مائة سنة ثلاث سنين، فيكون في ثلثمائة تسع سنين، فلذلك قال: ﴿ وازدادوا تسعاً ﴾. ﴿ له غيب السموات والأرض ﴾، فالغيب ما يغيب عن إدراكك والله عزّ وجلّ لا يغيب عن إدراكه شيء. ﴿ أبصرْ به وأسمعْ ﴾ أي: ما أبصر الله بكل موجود وأسمعه لكل مسموع، أي لا يغيب عن سمعه وبصره شيء، ﴿ ما لهم ﴾ أي: ما لأهل السموات والأرض، ﴿ من دونه ﴾ أي من دون الله، ﴿ من ولي ﴾ ناصر، ﴿ ولا يشرك في حكمه أحداً ﴾، قرأ ابن عامر ويعقوب: «ولا تشـرك» بالتاء على المخاطبة والنهي، وقرأ الآخرون بالياء أي لا يشرك الله في حكمه أحداً. وقيل: الحكم هنا علم الغيب أي لا يشرك في علم غيبه أحداً.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ واتلُ ﴾ أي: واقرأ يا محمد، ﴿ ما أُوحي إليك من كتاب ربك ﴾، يعني القرآن، واتّبع ما فيه، ﴿ لا مبدّل لكلماته ﴾، قال الكلبي: لا مغيّر للقرآن. وقيل: لا مغيّر لما أوعد بكلماته أهل معاصيه، ﴿ ولن

والتفاوت بين القمرية والشمسية في كل مائة سنة ثلاث سنين فتكون الثلاثمائة الشمسية ثلاث مائة وتسع سنين قمرية ﴿**له غيب السموات والأرض**﴾ يعني أنه سبحانه وتعالى لا يخفى عليه شيء من أحوال أهلها فإنه العالم وحده به فكيف يخفى عليه حال أصحاب الكهف ﴿**أبصر به وأسمع**﴾ معناه ما أبصر الله بكل موجود وأسمعه بكل مسموع لا يغيب عن سمعه وبصره شيء يدرك البواطن كما يدرك الظواهر والقريب والبعيد والمحجوب وغيره لا تخفى عليه خافية ﴿**ما لهم**﴾ أي ما لأهل السموات والأرض ﴿**من دونه**﴾ أي من دون الله ﴿**من ولي**﴾ أي ناصر ﴿**ولا يشرك في حكمه أحداً**﴾ قيل معناه لا يشرك الله في علم غيبه أحداً وقيل في قضائه. قوله تعالى ﴿**واتل**﴾ أي واقرأ يا محمد ﴿**ما أوحي إليك من كتاب ربك**﴾ يعني القرآن واتبع ما فيه واعمل به ﴿**لا مبدل لكلماته**﴾ أي لا مغير للقرآن ولا يقدر أحد على التطرق إليه بتغيير أو تبديل. فإن قلت موجب هذا أن لا يتطرق النسخ إليه. قلت النسخ في الحقيقة ليس بتبديل لأن المنسوخ ثابت في وقته إلى وقت طريان الناسخ فالناسخ كالمغاير فكيف يكون تبديلاً. وقيل معناه لا مغير لما أوعد الله بكلماته أهل معاصيه ﴿**ولن تجد من دونه**﴾ أي من دون الله إن لم تتبع القرآن ﴿**ملتحداً**﴾ أي ملجأ وحرزاً تعدل إليه. قوله عز وجل ﴿**واصبر نفسك**﴾ الآية نزلت في عيينة بن حصن الفزاري أتى النبي ﷺ قبل أن يسلم وعنده جماعة من الفقراء ومنهم سلمان وعليه صوف قد عرق فيها وبيده خوص يشقه وينسجه فقال عيينة للنبيّ ﷺ: أما يؤذيك ريح هؤلاء ونحن سادات مضر وأشرافها إن أسلمنا أسلم الناس وما يمنعنا من اتباعك إلا هؤلاء فنحهم حتى نتبعك أو اجعل لنا مجلساً فأنزل الله عز وجل واصبر نفسك أي احبس يا محمد نفسك ﴿**مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي**﴾ يعني طرفي النهار ﴿**يريدون وجهه**﴾ أي يريدون وجه الله لا يريدون عرض الدنيا، وقيل نزلت في أصحاب الصفة وكانوا سبعمائة رجل فقراء في مسجد رسول الله ﷺ لا يرجعون إلى تجارة ولا زرع ولا ضرع يصلون صلاة وينتظرون أخرى فلما نزلت هذه الآية قال النبيّ ﷺ «الحمد لله الذي جعل في أمتي من أمرت أن أصبر نفسي معهم» ﴿**ولا تعد**﴾ أي لا

تجد﴾، أنت، ﴿ **من دونه** ﴾، إن لم تتبع القرآن، ﴿ **ملتحداً** ﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما: حرزاً. وقال الحسن: مدخلاً. وقال مجاهد: ملجأ. وقيل: مَعْدِلاً. وقيل: مهرباً. وأصله من الميل.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ **واصبرْ نفسك** ﴾ الآية، نزلت في عيينة بن حصن الفزاري أتى النبي ﷺ قبل أن يسلم وعنده جماعة من الفقراء فيهم سلمان وعليه شملة قد عرق فيها وبيده خوصة يشقّها ثم ينسجها، فقال عيينة للنبي ﷺ: أمَا يؤذيك ريح هؤلاء ونحن سادات مُضَر وأشرافها، فإن أسلمنا أسلم الناس وما يمنعنا من اتّباعك إلّا هؤلاء فنحِّهم حتى نتبعك أو اجعل لنا مجلساً ولهم مجلساً، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿ **واصبر نفسك** ﴾، أي: احبس يا محمد نفسك، ﴿ **مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي** ﴾، طرفي النهار، ﴿ **يريدون وجهه** ﴾، أي: يريدون الله لا يريدون به عرضاً من الدنيا. قال قتادة: نزلت في أصحاب الصفة وكانوا سبعمائة رجل فقراء في مسجد رسول الله ﷺ، لا يرجعون إلى تجارة ولا إلى زرع ولا ضرع يصلّون صلاة وينتظرون أخرى، فلما نزلت هذه الآية قال النبي ﷺ: «الحمد لله الذي جعل في أمتي مَن أُمرت أن أصبر نفسي معهم». ﴿ **ولا تعدُ** ﴾ أي: لا تصرف ولا تتجاوز، ﴿ **عيناك عنهم** ﴾، إلى غيرهم، ﴿ **تريد زينة الحياة الدنيا** ﴾، أي طلب مجالسة الأغنياء والأشراف وصحبة أهل الدنيا، ﴿ **ولا تُطِعْ مَن أغفلنا قلبه عن ذكرنا** ﴾، أي جعلنا قلبه غافلاً عن ذكرنا يعني عيينة بن حصن. وقيل: أمية بن خلف، ﴿ **واتبع هواه** ﴾، أي مراده في طلب الشهوات، ﴿ **وكان أمره فُرطاً** ﴾، قال قتادة ومجاهد: ضياعاً. وقيل: معناه ضيّع أمره وعطّل أيامه. وقيل: ندماء. وقال مقاتل بن حيان: سرفاً. وقال الفرّاء: متروكاً. وقيل باطلاً. وقيل: مخالفاً للحق. وقال الأخفش: مجاوز للحد. قيل: معنى التجاوز في الحد، هو قول عيينة إن أسلمنا أسلم الناس وهذا إفراط عظيم.

تصرف ولا تجاوز ﴿عيناك عنهم﴾ إلى غيرهم ﴿تريد زينة الحياة الدنيا﴾ أي تطلب مجالسة الأغنياء والأشراف وصحبة أهل الدنيا ﴿ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا﴾ أي جعلنا قلبه غافلاً عن ذكرنا يعني عيينة بن حصن وقيل أمية بن خلف ﴿واتبع هواه﴾ أي في طلب الشهوات ﴿وكان أمره فرطاً﴾ ضياعاً ضيع أمره وعطل أيامه، وقيل ندماً وقيل سرفاً وباطلاً وقيل مخالفاً للحق ﴿وقل الحق من ربكم﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء الذين أغفلنا قلوبهم عن ذكرنا من ربكم الحق وإليه التوفيق والخذلان وبيده الهدى والضلال ليس إلي من ذلك شيء ﴿فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾ هذا على طريق التهديد والوعيد كقوله «اعملوا ما شئتم» وقيل معنى الآية وقل الحق من ربكم أي لست بطارد المؤمنين لهواكم فإن شئتم فآمنوا وإن شئتم فاكفروا، فإن كفرتم فقد أعد لكم ربكم ناراً وإن آمنتم فلكم ما وصف الله لأهل طاعته، وعن ابن عباس في معنى الآية: من شاء الله له الإيمان آمن ومن شاء له الكفر كفر ﴿إنا أعتدنا﴾ أي هيأنا من العتاد وهو العدة ﴿للظالمين﴾ أي الكافرين ﴿ناراً أحاط بهم سرادقها﴾ السرادق الحجزة التي تطيف بالفساطيط عن أبي سعيد الخدري عن النبيّ ﷺ «قال سرادق النار أربعة جدر كثف كل جدار أربعون سنة» أخرجه الترمذي قال ابن عباس: هو حائط نار وقيل هو عنق يخرج من النار فيحيط بالكفار كالحظيرة وقيل هو دخان يحيط بالكفار ﴿وإن يستغيثوا﴾ أي من شدة العطش ﴿يغاثوا بماء كالمهل﴾ قال ابن عباس: هو ماء غليظ مثل دردي الزيت، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبيّ ﷺ قال في قوله سبحانه وتعالى بماء كالمهل قال: «كعكر الزيت فإذا قرب إليه سقطت فروة وجهه منه» أخرجه الترمذي. وقال رشدين أحد رواة الحديث قد تكلم بفيه من قبل حفظة الفروة جلدة الوجه وقيل المهل الدم والقيح وقيل هو الرصاص والصفر المذاب ﴿يشوي الوجوه﴾ أي ينضج الوجوه من حره ﴿بئس

﴿ وقلِ الحق من ربكم ﴾، أي ما ذكر من الإيمان والقرآن، معناه: قل يا محمد لهؤلاء الذين أغفلنا قلوبهم عن ذكرنا أيها الناس الحق من ربكم وإليه التوفيق والخذلان وبيده الهدى والضلال، ليس إليّ من ذلك شيء. ﴿ فمَن شاء فليؤمن ومَن شاء فليكفر ﴾، هذا على طريق التهديد والوعيد كقوله: ﴿ اعملوا ما شئتم ﴾ [فصّلت: ٤٠]، وقيل معنى الآية. وقل الحق من ربكم ولست بطارد المؤمنين لِهوَاكم، فإن شئتم فآمنوا وإن شئتم فاكفروا فإن كفرتم فقد أعدّ لكم ربكم ناراً أحاط بكم سرادقها، وإن آمنتم فلكم ما وصف الله عزّ وجلّ لأهل طاعته. ورُوِيَ عن ابن عباس رضي الله عنهما في معنى الآية: مَن شاء الله له الإيمان آمن ومَن شاء له الكفر، كفر وهو قوله: ﴿ وما تشاؤون إلاّ أن يشاء الله ﴾ [الإنسان: ٣٠ والتكوير: ٢٩]. ﴿ إنّا أعتدنا ﴾، أعددنا وهيّأنا من العتاد وهو العدّة، ﴿ للظالمين ﴾ للكافرين، ﴿ ناراً أحاط بهم سُرادقها ﴾، السرادق الحجزة التي تطيف بالفساطيط، أخبرنا أبو بكر محمد بن عبد الله بن أبي توبة أنبأنا محمد بن أحمد بن الحارث أنبأنا محمد بن يعقوب الكسائي أنبأنا عبد الله بن محمود أنبأنا إبراهيم بن عبد الله الخلال أنبأنا عبد الله بن المبارك عن رشـدين بن سعد حدّثني عمرو بن الحارث عن دراج بن أبي السمح عن أبي الهيثم بن عبد الله عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ أنه قال: «سرادق النار أربعة جدر كثف كل جدار مثل مسيرة أربعين سنة»، قال ابن عباس: هو حائط من نار. وقال الكلبي: هو عنق يخرج من النار فيحيط بالكفّار كالحظيرة. وقيل: هو دخان يحيط بالكفّار وهو الذي ذكره الله تعالى: ﴿ انطلقوا إلى ظل ذي ثلاث شعب ﴾ [المرسلات: ٣٠]. ﴿ وإن يستغيثوا ﴾، من شدّة العطش، ﴿ يغاثوا بماء كالمهل ﴾، أخبرنا محمد بن عبد الله بن أبي توبة أنبأنا محمد بن أحمد بن الحارث أنبأنا محمد بن يعقوب الكسائي أنبأنا عبد الله بن محمد أنبأنا إبراهيم بن عبد الله الخلال ثنا عبد الله بن المبارك عن رشـدين بن سعد ثنا عمرو بن الحارث عن دراج بن أبي السمح عن أبي الهيثم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «﴿ بماء كالمهل ﴾ قال كعكر الزيت، فإذا قرب إليه سقطت فروة وجهه فيه». وقال ابن عباس: هو ماء غليظ مثل دردي

الشراب﴾ أي ذلك الذي يغاثون به ﴿وساءت﴾ أي النار ﴿مرتفقاً﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: منزلاً وقيل مجتمعاً وأصل المرتفق المتكأ وإنما جاء كذلك لمشاكلة قوله وحسنت مرتفقاً وإلا فلا ارتفاق لأهل النار ولا متكأ.
قوله عز وجل:

إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُولَٰئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ ۚ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾ ۞ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾

﴿**إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لا نضيع أجر من أحسن عملاً**﴾ أي لا نترك أعمالهم الصالحة وقيل إن قوله إنا لا نضيع أجر من أحسن عملاً كلام معترض وتقديره إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴿**أولئك لهم جنات عدن**﴾ أي دار إقامة سميت عدناً لخلود المؤمنين فيها ﴿**تجري من تحتهم الأنهار**﴾ وذلك لأن أفضل المساكن ما كان يجري فيه الماء ﴿**يحلون فيها من أساور من ذهب**﴾ قيل يحلى كل إنسان منهم ثلاثة أساور سوار من ذهب لهذه الآية وسوار من فضة لقوله تعالى «وحلوا أساور من فضة» وسوار من لؤلؤ لقوله «ولؤلؤاً ولباسهم فيها حرير» ﴿**ويلبسون ثياباً خضراً من سندس**﴾ هو الديباج الرقيق ﴿**وإستبرق**﴾ هو الديباج الصفيق الغليظ وقيل السندس المنسوج بالذهب ﴿**متكئين**﴾ خص الاتكاء لأنه هيئة المتنعمين والملوك ﴿**فيها**﴾ أي في الجنة ﴿**على الأرائك**﴾ جمع أريكة وهي السرر

الزيت. وقال مجاهد: هو القيح والدم. وسُئِل ابن مسعود عن المهل فدعا بذهب وفضة فأوقد عليهما النار حتى ذابا، ثم قال: هذا أشبه شيء بالمهل، ﴿ **يشوي الوجوه** ﴾، ينضج الوجوه من حرّه، ﴿ **بئس الشراب وساءت** ﴾ النار، ﴿ **مرتفقاً** ﴾، قال ابن عباس: منزلاً. وقال مجاهد: مجتمعاً. وقال عطاء مقرّاً. وقال القتيبي: مجلساً. وأصل المرتفق المتكأ.

قوله تعالى: ﴿ **إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنّا لا نضيع أجر مَن أحسن عملاً** ﴾، فإن قيل: أين جواب قوله: ﴿ **إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات** ﴾؟ قيل: جوابه قوله: ﴿ **أولئك لهم جنات عدن تجري** ﴾، وأما قوله: ﴿ **إنّا لا نضيع** ﴾ فكلام معترض. وقيل: فيه إضمار معناه: إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات فإنّا لا نضيّع أجرهم بل نجازيهم، ثم ذكر الجزاء.

فقال: ﴿ **أولئك لهم جنات عدن** ﴾، أي: إقامة، يقال: عَدَنَ فلان بالمكان إذا أقام به، سُمّيت عدناً لخلود المؤمنين فيها، ﴿ **تجري من تحتهم الأنهار يحلّون فيها من أساور من ذهب** ﴾، قال سعيد بن جبير: يحلّى كل واحد منهم ثلاثة أساور، واحد من ذهب وواحد من فضّة وواحد من لؤلؤ ويواقيت، ﴿ **ويلبسون ثياباً خضراً من سندس** ﴾، وهو مارق من الديباج، ﴿ **واستبرق** ﴾، وهو ما غلظ منه، ومعنى الغلظ في ثياب الجنة إحكامه. وعن أبي عمران الجوني قال: السندس هو الديباج المنسوج بالذهب، ﴿ **متكئين فيها** ﴾، في الجنان، ﴿ **على الأرائك** ﴾، وهي السرر في الحجال واحدتها أريكة، ﴿ **نِعْمَ الثوابُ** ﴾، أي نِعْمَ الجزاء، ﴿ **وحسنتْ** ﴾، الجنان ﴿ **مرتفقاً** ﴾ أي: مجلساً ومقرّاً.

﴿ **واضربْ لهم مثلاً رجلين** ﴾ الآية، قيل: نزلت في أخوين من أهل مكة من بني مخزوم أحدهما مؤمن وهو أبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد بن عبد ياليل، وكان زوج أُم سلمة قبل النبي ﷺ والآخر كافر وهو الأسود بن

في الحجال ولما وصف الله سبحانه وتعالى هذه الأشياء قال ﴿نعم الثواب﴾ أي نعم الجزاء ﴿وحسنت﴾ أي الجنات ﴿مرتفقاً﴾ أي مقراً ومجلساً، والمراد بقوله وحسنت مرتفقاً مقابلة ما تقدم ذكره من قوله سبحانه وتعالى وساءت مرتفقاً. قوله عز وجل ﴿واضرب لهم مثلاً رجلين﴾ قيل نزلت في أخوين من أهل مكة من بني مخزوم وهما أبو سلمة عبدالله بن عبد الأسد بن عبد ياليل وكان مؤمناً وأخوه الأسود بن عبد الأسود وكان كافراً وقيل هذا مثل لعيينة بن حصن وأصحابه وسلمان وأصحابه وشبههما برجلين من بني إسرائيل أخوين أحدهما مؤمن واسمه قطروس وهما اللذان وصفهما الله سبحانه وتعالى في سورة والصافات، وكانت قصتهما على ما ذكره عطاء الخراساني قال: كان رجلان شريكان لهما ثمانية آلاف دينار، وقيل كانا أخوين ورثا من أبيهما ثمانية آلاف دينار فاقتسماها فاشترى أحدهما أرضاً بألف دينار فقال صاحبه اللهم إن فلاناً قد اشترى أرضاً بألف وإني قد اشتريت منك أرضاً في الجنة بألف دينار فتصدق بها، ثم إن صاحبه بنى داراً بألف دينار فقال اللهم إن فلاناً بنى داراً بألف دينار وإني اشتريت منك داراً في الجنة بألف دينار فتصدق بها، ثم تزوج صاحبه امرأة فأنفق عليها ألف دينار فقال هذا اللهم إني أخطب إليك امرأة من نساء الجنة بألف دينار فتصدق بها، ثم اشترى خدماً ومتاعاً بألف دينار فقال هذا اللهم إني أشتري منك خدماً ومتاعاً بألف دينار في الجنة فتصدق بها، ثم أصابته حاجة شديدة فقال لو أتيت صاحبي لعل ينالني منه معروف فجلس على طريقه حتى مر به في خدمه وحشمه فقام إليه فنظر إليه صاحبه فعرفه فقال فلان، قال نعم قال ما شأنك قال أصابتني حاجة بعدك فأتيتك لتعينني بخير قال فما فعلت بمالك وقد قاسمتك مالاً وأخذت شطره، فنص عليه قصته فقال وإنك لمن المصدقين بهذا اذهب فلا أعطيك شيئاً فطرده، فقضي لهما فتوفيا فنزل فيهما قوله ﴿فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون قال قائل منهم إني كان لي قرين﴾ وروي أنه لما أتاه أخذ بيده وجعل يطوف به ويريه أمواله فنزل فيهما «واضرب لهم مثلاً رجلين» ﴿جعلنا لأحدهما جنتين﴾ أي وجعلنا بساتين ﴿من أعناب وحففناهما﴾ أي أطفناهما من

عبد الأسد بن عبد ياليل. وقيل: هذا مثل لعيينة بن حصن وأصحابه مع سلمان، وأصحابه شبههما برجلين من بني إسرائيل أخوين أحدهما مؤمن واسمه يهوذا في قول ابن عباس، وقال مقاتل: تمليخا والآخر كافر واسمه قطروس، وقال وهب: قطفير، وهما اللذان وصفهما الله تعالى في سورة الصّافّات [٥٠ و٥١]، وكانت قصتهما على ما حكى عبد الله ابن المبارك عن معمر عن عطاء الخراساني قال: كان رجلان شريكين لهما ثمانية آلاف دينار، وقيل: كانا أخوين ورثا من أبيهما ثمانية آلاف دينار فاقتسماها، فعمل أحدهما فاشترى أرضاً بألف دينار، فقال صاحبه: اللّهمَّ إن فلاناً قد اشترى أرضاً بألف دينار، فإني أشتري منك أرضاً في الجنة بألف دينار، فتصدّق بألف دينار، ثم إن صاحبه بنى داراً بألف دينار، فقال هذا: اللّهمَّ إن فلاناً بنى داراً بألف دينار، فإني أشتري منك داراً في الجنة بألف دينار، فتصدّق بذلك ثم تزوج صاحبه امرأة فأنفق عليها ألف دينار، فقال هذا المؤمن: اللّهمَّ إني أخطب إليك امرأة من نساء الجنة بألف دينار، فتصدق بألف دينار، ثم اشترىٰ صاحبه خدماً ومتاعاً بألف دينار، فقال هذا: اللّهمَّ إني أشتري منك متاعاً وخدماً في الجنة بألف دينار، فتصدق بألف دينار، ثم أصابته حاجة شديدة، فقال: لو أتيتُ صاحبي لعلّه ينالني منه معروف، فجلس على طريقه حتى مرّ به في حشمه، فقام إليه فنظر إليه الآخر فعرفه، فقال: فلان؟ قال: نعم، فقال: ما شأنك؟ قال: أصابتني حاجة بعدك فأتيتك لتصيبني بخير، فقال: ما فعل مالــك وقد اقتسمنا مالاً وأخذت شطره؟ فقصّ عليه قصته، فقال: وإنك لمن المصدّقين بهذا؟ اذهب فلا أعطيك شيئاً، فطرده فقضي لهما أن توفيا، فنزل فيهما: ﴿ فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون قال قائل منهم إني كان لي قرين ﴾ [الصّافّات: ٥٠ و٥١]، ورُوِيَ أنه لمّا أتاه أخذ بيده وجعل يطوف به ويُريه أموال نفسه، فنزل فيهما: ﴿ واضرب لهم مثلاً رجلين ﴾ اذكر لهم خبر رجلين، ﴿ جعلنا لأحدهما جنتين ﴾، بستانين، ﴿ من أعناب وحفّفناهما بنخل ﴾، أي: أطفناهما من جوانبهما بنخل، والحفاف الجانب، وجمعه أحفّة، يقال: حفّ به القوم أي طافوا بجوانبه، ﴿ وجعلنا بينهما

جوانبهما ﴿**بنخل وجعلنا بينهما زرعاً**﴾ أي بين النخل والأعناب الزرع وقيل بينهما أي بين الجنتين، يعني لم يكن بين الجنتين خراب بغير زرع ﴿**كلتا الجنتين آتت**﴾ أي أعطت كل واحدة من الجنتين ﴿**أكلها**﴾ أي ثمرها تماماً ﴿**ولم تظلم منه شيئاً**﴾ أي ولم تنقص منه شيئاً ﴿**وفجرنا خلالهما**﴾ شققنا وسطهما ﴿**نهراً**﴾.

وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ
لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا
مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ
ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ
مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾
أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ
عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ
لِلَّهِ ٱلْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾

﴿**وكان له**﴾ أي لصاحب البستان ﴿**ثمر**﴾ قرىء بالفتح جمع ثمرة وقرىء بالضم وهو الأموال الكثيرة المثمرة من كل صنف من الذهب والفضة وغيرهما ﴿**فقال**﴾ يعني صاحب البستان ﴿**لصاحبه**﴾ يعني المؤمن ﴿**وهو يحاوره**﴾ أي يخاطبه ﴿**أنا أكثر منك مالاً وأعز نفراً**﴾ أي عشيرة ورهطاً وقيل خدماً وحشماً ﴿**ودخل جنته**﴾ يعني الكافر آخذاً بيد أخيه المؤمن يطوف به فيها ويريه إياها ﴿**وهو ظالم لنفسه**﴾ أي بكفره فتوهم أنها لا تفنى أبداً وأنكر البعث فقال ﴿**وما أظن الساعة قائمة**﴾ أي كائنة ﴿**ولئن رددت إلى ربي**﴾ فإن قلت كيف قال ولئن رددت إلى ربي وهو منكر للبعث قلت

زرعاً﴾، أي: جعلنا حول الأعناب النخيل ووسط الأعناب الزرع. وقيل: بينهما أي بين الجنتين زرعاً يعني لم يكن بين الجنتين موضع خراب.

﴿ **كلتا الجنّتين آتت** ﴾، أي أعطت كل واحدة من الجنتين، ﴿ **أكلها** ﴾، ثمرها تامّاً، ﴿ **ولم تظلم** ﴾، لم تنقص، ﴿ **منه شيئاً وفجّرنا** ﴾، قرأ العامّة بالتشديد، وقرأ يعقوب بتخفيف الجيم، ﴿ **خِلالهما نَهراً** ﴾ يعني شققنا وأخرجنا وسطهما نهراً.

﴿ **وكان له** ﴾، لصاحب البستان، ﴿ **ثمر** ﴾ قرأ عاصم وأبو جعفر ويعقوب ﴿ **ثمر** ﴾ بفتح الثاء والميم، وكذلك بثمرة، وقرأ أبو عمرو بضم الثاء ساكنة الميم، وقرأ الآخرون بضمهما، فمَن قرأ بالفتح هو جمع ثمرة وهو ما تخرجه الشجرة من الثمار المأكولة، ومَن قرأ بالضم فهي الأموال الكثيرة المثمرة من كل صنف، جمع ثمار. وقال مجاهد: ذهب وفضة. وقيل: جميع الثمرات. قال الأزهري: الثمرة تجمع على ثمر، ويجمع الثمر على ثمار، ثم تجمع الثمار على ثمر. ﴿ **فقال** ﴾، يعني صاحب البستان، ﴿ **لصاحبه** ﴾، المؤمن، ﴿ **وهو يُحاوره** ﴾، يخاطبه ويجاوبه، ﴿ **أنا أكثر منك مالاً وأعزّ نفراً** ﴾ أي: عشيرة ورهطاً. وقال قتادة: خدماً وحشماً. وقال مقاتل: ولداً، تصديقه قوله تعالى: ﴿ وإن ترنِ أنا أقلّ منك مالاً وولداً ﴾ [الكهف: ٣٩].

﴿ **ودخل جنته** ﴾، يعني الكافر، أخذ بيد أخيه المسلم يطوف به فيها ويريه أثمارها، ﴿ **وهو ظالم لنفسه** ﴾،

معناه ولئن رددت إلى ربي على ما نزعم من أن الساعة آتية ﴿لأجدن خيراً منها منقلباً﴾ أي يعطيني هناك خيراً منها لأنه لم يعطني الجنة في الدنيا إلا ليعطيني في الآخرة أفضل منها ﴿قال له صاحبه﴾ يعني المؤمن ﴿وهو يحاوره أكفرت بالذي خلقك من تراب﴾ أي خلق أصلك من تراب لأن خلق أصله سبب في خلقه فكان خلقاً له ﴿ثم من نطفة ثم سواك رجلاً﴾ أي عداك بشراً سوياً وكملك إنساناً ذكراً بالغ مبلغ الرجال ﴿لكنا هو الله ربي﴾ مجازه لكن أنا هو الله ربي ﴿ولا أشرك بربي أحداً ولولا﴾ أي هلا ﴿إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله﴾ والمعنى هلا قلت عند دخولها والنظر إلى ما رزقك الله منها ما شاء الله اعترافاً بأنها وكل خير فيها إنما حصل بمشيئة الله تعالى وفضله وأن أمرها بيده وأنه إن شاء

بكفره، ﴿ قال ما أظن أن تبيد ﴾، تهلك، ﴿ هذه أبداً ﴾، قال أهل المعاني: راقَهُ حُسنها وغرّته زهرتُها فتوهّم أنها لا تفنى أبداً وأنكر البعث.

فقال: ﴿ وما أظن الساعة قائمة ﴾، كائنة، ﴿ ولئنْ رُددتُ إلى ربي لأجدنّ خيراً منها منقلباً ﴾، قرأ أهل الحجاز والشام هكذا على التثنية، يعني من الجنتين، وكذلك هو في مصاحفهم، وقرأ الآخرون ﴿ منها ﴾ أي: من الجنة التي دخلها، ﴿ منقلباً ﴾ أي: مرجعاً، إن قيل: كيف قال: ﴿ ولئن رددت إلى ربي ﴾، وهو منكر البعث؟ قيل: معناه ولئن رددت إلى ربي على ما تزعم أنت تعطيني هنالك خيراً منها فإنه لم يعطني هذه الجنة في الدنيا إلّا ليعطيني في الآخرة أفضل منها.

﴿ قال له صاحبه ﴾، المسلم، ﴿ وهو يُحاوره أكفرتَ بالذي خلقك من تراب ﴾، أي خلق أصلك من تراب، ﴿ ثم ﴾، خلقك، ﴿ من نطفة ثم سوّاك رجلاً ﴾ أي: عدّلك بشراً سويّاً ذكر.

﴿ لكنّا هو الله ربّي ﴾، قرأ ابن عامر ويعقوب لكنّا بالألف في الوصل، وقرأ الباقون بلا ألف واتفقوا على إثبات الألف في الوقف، وأصله لكن أنا، فحذفت الهمزة طلباً للتخفيف لكثرة استعمالها ثم أُدغمت إحدى النونين في الأخرى، قال الكسائي: فيه تقديم وتأخير مجازه لكن الله هو ربي، ﴿ ولا أُشرك بربّي أحداً ﴾.

﴿ ولولا إذْ دخلتَ جنتك ﴾، أي: هلّا إذ دخلت جنتك، ﴿ قلت ما شاء الله ﴾ أي: الأمر ما شاء الله. وقيل: جوابه مضمر أي ما شاء الله كان، وقوله: ﴿ لا قوة إلّا بالله ﴾، أي لا أقدر على حفظ مالي أو دفع شيء عنه إلّا بالله. ورُوِيَ عن هشام بن عروة عن أبيه أنه كان إذا رأى من ماله شيئاً يعجبه أو دخل حائطاً من حيطانه. قال: ما شاء الله لا قوة إلّا بالله. ثم قال: ﴿ إن ترنِ أنا أقلّ منك مالاً وولداً ﴾، أنا عماد، ولذلك نصب أقل معناه: إن ترني أقلّ منك مالاً وولداً فتكبّرت وتعظّمت عليّ.

﴿ فعسى ربّي ﴾، فلعلّ ربي، ﴿ أن يؤتين ﴾، يعطيني في الآخرة، ﴿ خيراً من جنتك ويرسل عليها ﴾، أي على جنتك، ﴿ حسباناً ﴾، قال قتادة: عذاباً. وقال ابن عباس رضي الله عنه: ناراً. وقال القتيبي: مرامىً. ﴿ من السماء ﴾، وهي مثل صاعقة أو شيء يهلكها، واحدتها حسبانة، ﴿ فتصبح صعيداً زَلقاً ﴾، أي أرضاً جرداء ملساء

إلّا الله والله أكبر». أخبرنا أبو القاسم عبد الله بن محمد الحنفي أنبأنا أبو بكر محمد بن الحسن الحيري أخبرنا أبو جعفر عبد الله بن إسماعيل الهاشمي أنبأنا أحمد بن عبد الجبار العطاردي ثنا أبو معاوية عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لأن أقول سبحان الله والحمد لله ولا إلّه إلّا الله والله أكبر أحبّ إليّ مما طلعت عليه الشمس». أخبرنا عبد الواحد المليحي أنبأنا أبو منصور محمد بن محمد بن سمعان أنبأنا أبو جعفر محمد بن أحمد بن عبد الجبار أنبأنا حميد بن زنجويه ثنا عثمان عن أبي صالح ثنا أبو لهيعة ثنا دراج عن

تركها عامرة وإن شاء تركها خراباً ﴿**لا قوة إلا بالله**﴾ أي وقلت لا قوة إلا بالله إقراراً بأن ما قويت به على عمارتها وتدبير أمرها بمعونة الله وتأييده ولا أقدر على حفظ مالي ودفع شيء عنه إلا بالله. روي عن عروة بن الزبير أنه كان إذا رأى من ماله شيئاً يعجبه أو دخل حائطاً من حيطانه قال ما شاء لا قوة إلا بالله الحائط البستان ﴿**إن ترن أنا أقل منك مالاً وولداً**﴾ أي لأجل ذلك تكبرت علي وتعظمت ﴿**فعسى ربي**﴾ أي فلعل ربي ﴿**أن يؤتين**﴾ أي يعطيني ﴿**خيراً من جنتك**﴾ يعني في الآخرة ﴿**ويرسل عليها**﴾ أي على جنتك ﴿**حسباناً**﴾ قال ابن عباس: ناراً، وقيل مرامي ﴿**من السماء**﴾ وهي الصواعق فتهلكها ﴿**فتصبح صعيداً زلقاً**﴾ أي أرضاً جرداء ملساء لا نبات فيها وقيل تزلق فيها الأقدام وقيل رملاً هائلاً

أبي الهيثم عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ أنه قال: «استكثروا من الباقيات الصالحات»، قيل: وما هنّ يا رسول الله؟ قال: «الملّة» قيل: وما هي يا رسول الله؟ قال: «التكبير والتهليل والتسبيح والحمد لله ولا حول ولا قوة إلّا بالله العليّ العظيم». وقال سعيد بن جبير ومسروق وإبراهيم: الباقيات الصالحات هي الصلوات الخمس. ويُروى هذا عن ابن عباس، وعنه رواية أخرى أنها الأعمال الصالحة، وهو قول قتادة. قوله تعالى: ﴿ **خيرٌ عند ربك ثواباً** ﴾، أي جزاء، المراد ﴿ **وخيرٌ أملاً** ﴾، أي ما يأمله الإنسان.

﴿ **ويوم نُسيّر الجبال** ﴾. قرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر: ﴿ **تسير** ﴾ بالتاء وفتح الياء الجبال رفع دليله قوله تعالى: ﴿ وإذا الجبال سُيّرت ﴾ [التكوير: ٣]، وقرأ الآخرون بالنون وكسر الياء، ﴿ **الجبال** ﴾ نصب، سيَّر الجبار نقلها من مكان إلى مكان، ﴿ **وترى الأرض بارزةً** ﴾، أي ظاهرة ليس عليها شجر ولا جبل ولا نبات، كما قال: ﴿ فيذرها قاعاً صفصفاً لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً ﴾ [طه: ١٠٦ و١٠٧]، قال عطاء: هو بُروز ما في باطنها من الموتى وغيرهم، فترى باطن الأرض ظاهراً، ﴿ **وحشرناهم** ﴾، جميعاً إلى الموقف والحساب، ﴿ **فلم نُغادرْ منهم** ﴾، أي نترك منهم، ﴿ **أحداً** ﴾.

﴿ **وعُرضوا على ربِّك صفّاً** ﴾، أي صفّاً صفّاً فوجاً فوجاً، لا أنهم صفٌّ واحد. وقيل: قياماً، ثم يقال لهم يعني الكفّار. ﴿**لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرّة**﴾، يعني أحياءً، وقيل: فُرادى كما ذكر في سورة الأنعام [٩٤]. وقيل: غرلاً. ﴿ **بل زعمتم أن لن نجعل لكم موعداً** ﴾، يوم القيامة، يقوله لمنكري البعث أخبرنا عبد الواحد المليحي أنبأنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنبأنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا معلى بن أسد ثنا وهب عن ابن طاوس عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «يحشر الناس على ثلاث طرائق، راغبين وراهبين، واثنان على بعير وثلاثة على بعير وأربعة على بعير وعشرة على بعير، وتحشر بقيتهم النار تقيل معهم حيث قالوا، وتبيت معهم حيث باتوا، وتصبح معهم حيث أصبحوا، وتمسي معهم حيث أمسوا». أخبرنا عبد الواحد المليحي أنبأنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنبأنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا محمد بن كثير ثنا سفيان بن المغيرة بن النعمان حدّثني سعيد بن جبير عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال: «إنكم محشورون حفاةً عراةً غرلاً»، ثم قرأ ﴿ كما بدأنا أول خلق نعيده وعداً علينا إنّا كنّا فاعلين ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]، وأول مَن يُكسى يوم القيامة إبراهيم، وإن ناساً من أصحابي يؤخذ بهم ذات الشمال، فأقول أصحابي أصحابي، فيقول: إنهم لن يزالوا مرتدّين على أعقابهم منذ فارقتهم، فأقول كما قال العبد الصالح: ﴿ وكنتُ عليهم شهيداً ما دمتُ فيهم ﴾ [المائدة: ١١٧] إلى قوله: ﴿ العزيز الحكيم ﴾ [المائدة: ١١٨]. أخبرنا أبو الحسن السرخسي أنا زاهر بن أحمد السرخسي أنا أبو القاسم جعفر بن محمد بن مغلس ببغداد ثنا هارون بن إسحاق الهمذاني أنبأنا أبو خالد الأحمر عن حاتم بن أبي صغير عن ابن أبي مليكة عن القاسم بن محمد عن عائشة قالت: قلت يا رسول الله كيف يحشر الناس يوم القيامة؟

﴿أو يصبح ماؤها غوراً﴾ غائراً ذاهباً لا تناله الأيدي ولا الدلاء ﴿فلن تستطيع له طلباً﴾ يعني إن طلبته لم تجده ﴿وأحيط بثمره﴾ يعني أحاط العذاب بثمر جنته وذلك أن الله تعالى أرسل عليها من السماء ناراً فأهلكها وغار ماؤها ﴿فأصبح﴾ يعني صاحبها الكافر ﴿يقلب كفيه﴾ يصفق بكف على كف ويقلب كفيه ظهراً لبطن تأسفاً وتلهفاً ﴿على ما أنفق فيها﴾ المعنى فأصبح يندم على ما أنفق في عمارتها ﴿وهي خاوية على عروشها﴾ أي ساقطة سقوفها وقيل إن كرومها المعرشة سقطت عروشها في الأرض ﴿ويقول يا ليتني لم أشرك بربي أحداً﴾ يعني أنه تذكر موعظة أخيه المؤمن فعلم أنه أتى من جهة شركه وطغيانه فتمنى لو لم يكن مشركاً ﴿ولم تكن له فئة﴾ أي جماعة ﴿ينصرونه من دون الله﴾ أي يمنعونه من عذاب الله ﴿وما كان منتصراً﴾ أي ممتنعاً لا يقدر على الانتصار لنفسه وقيل معناه لا يقدر على رد ما ذهب منه. قوله سبحانه وتعالى ﴿هنالك الولاية﴾ قرىء بكسر الواو يعني السلطان في القيامة ﴿لله الحق﴾ وقرىء بفتحها من الموالاة والنصرة، يعني أنهم يتولونه يومئذٍ ويتبرؤون مما كانوا يعبدون من دونه في الدنيا ﴿هو خير ثواباً﴾ أي أفضل جزاء لأهل طاعته لو كان غيره يثيب ﴿وخير عقباً﴾ يعني عاقبة طاعته خير من عاقبة طاعة غيره فهو خير إثابة وعاقبة قوله عز وجل:

﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ السَّمَآءِ فَاخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا ۖ وَالْبَٰقِيَٰتُ الصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا

قال: «عُراةً حفاةً»، قالت: قلت: والنساء؟ قال: «والنساء» قالت: قلت: يا رسول الله نستحي، قال: «يا عائشة .لا نبات فيها. وقيل: تزلق فيها الأقدام. وقال مجاهد: رملاً هائلاً.

﴿ أو يُصبح ماؤها غوراً ﴾، أي: غائر منقطعاً ذاهباً لا تناله الأيدي، ولا الدِّلاء، والغور مصدرٌ وُضع موضع الاسم، مثل زور وعدل، ﴿ فلن تستطيع له طلباً ﴾، يعني: إن طلبته لم تجده.

﴿ وأُحيط بثمره ﴾، أي: أحاط العذاب بثمر جنته، وذلك أن الله تعالى أرسل عليها ناراً فأهلكتها وغار ماؤها، ﴿ فأصبح ﴾، صاحبها الكافر، ﴿ يقلب كفّيه ﴾، أي يصفّق بيده على الأخرى ويقلب كفّيه ظهراً لبطن تأسفاً وتلهفاً، ﴿ على ما أنفق فيها وهي خاوية ﴾، أي ساقطة، ﴿ على عروشها ﴾، سقوفها، ﴿ ويقول يا ليتني لم أُشرك بربي أحداً ﴾.

قال الله تعالى: ﴿ ولم تكن له فئة ﴾، جماعة، ﴿ ينصرونه من دون الله ﴾، يمنعونه من عذاب الله، ﴿ وما كان منتصراً ﴾، ممتنعاً منتقماً لا يقدر على الانتصار لنفسه. وقيل: لا يقدر على ردّ ما ذهب عنه.

﴿ هنالك الوَلاَيةُ لله الحق ﴾، يعني في القيامة، قرأ حمزة والكسائي ﴿ الولاية ﴾ بكسر الواو، يعني السلطان، وقرأ الآخرون بفتح الواو من الموالاة والنصر، كقوله تعالى: ﴿ الله وليّ الذين آمنوا ﴾ [البقرة: ٢٥٧]، قال القتيبي: يريد أنهم يتلونه يومئذ ويتبرؤون مما كانوا يعبدون. وقيل: بالفتح الربوبية وبالكسر الإمارة، ﴿ الحق ﴾ برفع القاف أبو عمرو والكسائي على نعت الولاية، وتصديقه قراءة أُبيّ: ﴿ هنالك الولاية الحق لله ﴾، وقرأ الآخرون بالجرّ على صفة الله كقوله تعالى: ﴿ ثم رُدّوا إلى الله مولاهم الحق ﴾ [الأنعام: ٦٢] ﴿ هو خيرٌ ثواباً ﴾، أفضل جزاء لأهل طاعته لو كان غيره يثيب، ﴿ وخيرٌ عُقباً ﴾، أي عاقبة طاعته خير من عاقبة طاعة غيره، فهو خير إثابة، وعاقبة: طاعة، قرأ حمزة وعاصم ﴿ عقباً ﴾ ساكنة القاف، وقرأ الآخرون بضمها.

وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾

﴿**واضرب لهم**﴾ أي اضرب يا محمد لقومك ﴿**مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء**﴾ يعني المطر ﴿**فاختلط به نبات الأرض**﴾ أي خرج منه كل لون وزهرة ﴿**فأصبح**﴾ أي عن قريب ﴿**هشيماً**﴾ قال ابن عباس: يابساً ﴿**تذروه الرياح**﴾ قال ابن عباس: تذريه تفرقه وتنسفه ﴿**وكان الله على كل شيء مقتدراً**﴾ أي قادراً قوله سبحانه وتعالى ﴿**المال والبنون**﴾ يعني التي يفتخر بها عيينة وأصحابه الأغنياء ﴿**زينة الحياة الدنيا**﴾ يعني ليست من زاد الآخرة، قال علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه: المال والبنون حرث الدنيا والأعمال الصالحة حرث الآخرة وقد يجمعهما لأقوام ﴿**والباقيات الصالحات**﴾ قال ابن عباس: هي قول سبحان الله والحمد لله ولا إله إلاّ الله والله أكبر (م) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «لأن أقول سبحان الله والحمد لله ولا إله إلاّ الله والله أكبر أحب إلي مما طلعت عليه الشمس». عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال «استكثروا من قول الباقيات الصالحات. قيل: وما هن يا رسول الله؟ قال: التكبير والتهليل والتسبيح والحمد لله ولا حول ولا قوة إلا بالله». عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا مررتم برياض الجنة فارتفعوا. قلت: يا رسول الله وما رياض الجنة؟ قال: المساجد. قلت: وما الرتع؟ قال رسول الله ﷺ: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلاّ الله والله أكبر» أخرجه الترمذي. وقال حديث غريب عن سعيد بن المسيب أن الباقيات الصالحات هي قول العبد الله أكبر وسبحان الله ولا إله إلا الله ولا حول ولا قوة إلا بالله أخرجه مالك في الموطأ موقوفاً عليه وعن ابن عباس أن الباقيات الصالحات الصلوات الخمس وعنه أنها الأعمال الصالحة ﴿**خير عند ربك ثواباً**﴾ أي جزاء ﴿**وخير أملاً**﴾ أي ما يؤمله الإنسان. قوله سبحانه وتعالى ﴿**ويوم نسير الجبال**﴾ أي نذهب بها وذلك أن تجعل هباء منثوراً كما يسير السحاب ﴿**وترى الأرض بارزة**﴾ أي ظاهرة ليس عليها شجر ولا جبل ولا بناء وقيل هو بروز ما في بطنها من الموتى وغيرهم فيصير باطن الأرض ظاهرها ﴿**وحشرناهم**﴾ يعني جميعاً إلى موقف الحساب ﴿**فلم نغادر منهم أحداً**﴾ أي لم نترك منهم أحداً ﴿**وعرضوا على ربك صفاً**﴾ أي صفاً صفاً وفوجاً فوجاً لأنهم صف واحد وقيل قياماً كل أمة وزمرة صف ثم يقال لهم ﴿**لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة**﴾ يعني أحياء وقيل حفاة عراة غرلاً ﴿**بل زعمتم أن لن نجعل لكم موعداً**﴾ يعني القيامة يقول ذلك لمنكر البعث (ق) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قام فينا رسول الله ﷺ بموعظة فقال: أيها الناس إنكم تحشرون إلى الله حفاة عراة غرلاً كما بدأنا أول خلق نعيده وعداً علينا إنا كنا فاعلين ألا إن أول الخلائق يكسى يوم القيامة إبراهيم عليه السلام ألا وإنه سيجاء برجال من أمتي فيؤخذ بهم ذات الشمال فأقول يا رب أصحابي، فيقول إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك فأقول كما قال العبد الصالح وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم إلى قوله العزيز الحكيم قال: فيقال لي إنهم لن يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم. زاد في رواية فأقول سحقاً سحقاً» قوله غرلاً أي قلفاً والغرلة القلفة

قوله تعالى: ﴿ **واضربْ لهم** ﴾، يا محمد أي لقومك: ﴿ **مثل الحياة الدنيا كماءٍ أنزلناه من السماء** ﴾، يعني المطر، ﴿ **فاختلط به نبات الأرض** ﴾، خرج منه كل لون وزهرة، ﴿ **فأصبح** ﴾، عن قريب، ﴿ **هشيماً** ﴾، يابساً. قال ابن عباس وقال الضحاك: كسيراً. والهشيم: ما يبس وتفتّت من النباتات، **فأصبح** هشيماً، ﴿ **تذروه الرياح** ﴾، قال ابن عباس: تفرقه الرياح. وقال أبو عبيدة مثله. وقال القتيبي: تنسفه، ﴿ **وكان الله على كل شيء مقتدراً** ﴾، قادراً.

﴿ **المال والبنون** ﴾، التي يفتخر بها عتبة وأصحابه الأغنياء، ﴿ **زينة الحياة الدنيا** ﴾، ليست من زاد الآخرة،

التي تقع من جلد الذكر وهو موضع الختان، وقوله سحقاً أي بعداً، قال بعض العلماء: إن المراد بهؤلاء أصحاب الردة الذين ارتدوا من العرب ومنعوا الزكاة بعده (ق) عن عائشة قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يحشر الناس حفاة عراة غرلاً». قالت عائشة: فقلت الرجال والنساء جميعاً ينظر بعضهم إلى بعض قال: «الأمر أشد من أن يهمهم ذلك». زاد النسائي في رواية «لكل امرىء منهم يومئذٍ شأن يغنيه». قوله عز وجل:

﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾ ۞ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾﴾

﴿**ووضع الكتاب**﴾ يعني صحائف أعمال العباد توضع في أيدي الناس في أيمانهم وشمائهلم، وقيل توضع بين يدي الله تعالى ﴿**فترى المجرمين مشفقين**﴾ أي خائفين ﴿**مما فيه**﴾ يعني من الأعمال السيئة ﴿**ويقولون**﴾ يعني إذا رأوها ﴿**يا ويلتنا**﴾ أي يا هلاكنا وكل من وقع في هلكة دعا بالويل ﴿**مال هذا الكتاب لا يغادر**﴾ أي لا يترك ﴿**صغيرة ولا كبيرة**﴾ أي من ذنوبنا الصغيرة ﴿**إلا أحصاها**﴾ أي عدها وكتبها وأثبتها فيه وحفظها، قال ابن عباس: الصغيرة التبسم والكبيرة القهقهة. وقال سعيد بن جبير: الصغيرة اللمم واللمس والقبلة والكبيرة الزنا عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: «إياكم ومحقرات الذنوب فإنما مثل محقرات الذنوب مثل قوم نزلوا في بطن واد فجاء هذا بعود وجاء هذا بعود وجاء هذا بعود فانضجوا خبزهم وإن محقرات الذنوب لموبقات» الحقير الشيء الصغير التافه وقوله لموبقات أي مهلكات. ﴿**ووجدوا ما عملوا حاضراً**﴾ أي مكتوباً أي مثبتاً في كتابهم ﴿**ولا يظلم ربك أحداً**﴾ أي لا ينقص ثواب أحد عمل خيراً ولا يؤاخذ أحداً بجرم لم يعمله عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «يعرض الناس يوم القيامة ثلاث عرضات فأما عرضتان فجدال ومعاذير وأما العرضة الثالثة فعند ذلك تطير الصحف في الأيدي فآخذ بيمينه وآخذ بشماله» أخرجه الترمذي. وقال لا يصح هذا الحديث من قبل أن الحسن لم يسمع من

قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: المال والبنون حرث الدنيا والأعمال الصالحة حرث الآخرة، وقد يجمعها الله لأقوام. ﴿ **والباقيات الصالحات** ﴾، اختلفوا فيها، فقال ابن عبّاس وعكرمة ومجاهد: هي قول سبحان الله والحمد لله ولا إله إلّا الله والله أكبر. وقد روينا أن النبي ﷺ قال: «أفضل الكلام أربع كلمات: سبحان الله والحمد لله ولا إله الأمر أشد من ذلك أن يهمهم أن ينظر بعضهم إلى بعض».

قوله تعالى: ﴿ **ووُضع الكتاب** ﴾، يعني كتاب أعمال العباد يوضع في أيدي الناس في أيمانهم وشمائلهم وقيل: معناه يوضع بين يدي الله تعالى. ﴿ **فترى المجرمين مشفقين** ﴾، خائفين، ﴿ **مما فيه** ﴾، من الأعمال السيئة، ﴿ **ويقولون** ﴾، إذا رأوها، ﴿ **يا ويلتنا** ﴾، يا هلاكنا، والويل والويلة الهلكة، وكل مَن وقع في هلكة دعا بالويل، ومعنى النداء تنبيه المخاطبين، ﴿ **مالِ هذا الكتاب لا يُغادر صغيرةً ولا كبيرةً** ﴾، من ذنوبنا. قال ابن عباس: الصغيرة التبسّم والكبيرة القهقهة. وقال سعيد بن جبير: الصغيرة اللمم واللمس والقبلة، والكبيرة الزنا. ﴿ **إلّا أحصاها** ﴾، عدّدها، قال السدي: كتبها أثبتها. قال مقاتل بن حيان: حفظها. أخبرنا الإمام أبو علي الحسين بن محمد القاضي أنبأنا أبو العباس عبد الله بن محمد بن هارون الطيسفوني أنبأنا أبو الحسن محمد بن أحمد الترابي أنبأنا أبو بكر أحمد بن محمد بن عمرو بن بسطام أنبأنا الحسن أحمد بن يسار القرشي ثنا يوسف بن

أبي هريرة وقد رواه بعضهم عن الحسن عن أبي موسى. قوله سبحانه وتعالى ﴿**وإذ قلنا**﴾ أي واذكر يا محمد إذ قلنا ﴿**للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن**﴾ قال ابن عباس: كان من حي من الملائكة يقال لهم الجن، خلقوا من نار السموم وقال الحسن: كان من الجن ولم يكن من الملائكة فهو أصل الجن، كما أن آدم أصل الإنس وكونه من الملائكة لا ينافي كونه من الجن بدليل قوله سبحانه وتعالى وجعلوا بينه وبين الجنة نسباً، وذلك أن قريشاً قالت الملائكة بنات الله، فهذا يدل على أن الملك يسمى جناً ويعضده اللغة لأن الجن مأخوذ من الاجتنان، وهو الستر فعلى هذا تدخل الملائكة فيه فكل الملائكة جن لاستتارهم وليس كل جن ملائكة، ووجه كونه من الملائكة أن الله سبحانه وتعالى استثناه من الملائكة والاستثناء يفيد إخراج ما لولاه لدخل ويصح دخوله وذلك يوجب كونه من الملائكة ووجه من قال إنه كان من الجن ولم يكن من الملائكة قوله كان من الجن والجن جنس مخالف للملائكة قوله أفتتخذونه وذريته فأثبت له ذرية والملائكة لا ذرية لهم، وأجيب عن الاستثناء أنه استثناء منقطع وهو مشهور في كلام العرب قال الله سبحانه وتعالى ﴿**وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إنني براء مما تعبدون إلا الذي فطرني**﴾ وقال تعالى: ﴿**لا يسمعون فيها لغواً إلا سلاماً**﴾ قيل إنه كان من الملائكة فلما خالف الأمر مسخ وغير وطرد ولعن. وقوله تعالى ﴿**ففسق عن أمر ربه**﴾ أي خرج عن طاعة ربه ﴿**أفتتخذونه**﴾ يعني يا بني آدم أفتتخذون إبليس ﴿**وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو**﴾ يعني أعداء روى مجاهد عن الشعبي قال: إني لقاعد يوماً إذ أقبل رجل فقال أخبرني هل لإبليس زوجة قلت إن ذلك العرس ما شهدته ثم ذكرت قول الله عز وجل ﴿**أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني**﴾ فعلمت أنه لا تكون ذرية إلا من زوجة فقلت نعم، قيل يتوالدون كما يتوالد ابن آدم. وقيل إنه يدخل ذنبه في دبره فيبيض فتنفلق البيضة عن جماعة من الشياطين. قال مجاهد: من ذرية إبليس لاقيس وولهان وهو صاحب الطهارة والصلاة والهفاف ومره وبه يكنى، وزلنبور وهو صاحب الأسواق يزين اللغو والحلف الكاذب ومدح السلع وبتر وهو صاحب المصائب يزين خمش

عدي المصري ثنا أبو ضمرة أنس بن عياض عن أبي حازم قال: لا أعلمه إلاّ عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: «إيّاكم ومحقّرات الذنوب، فإنما مثل محقّرات الذنوب مثل قوم نزلوا بطن وادٍ فجاء هذا بعود وجاء هذا بعود وجاء هذا بعود، فأنضجوا خبزتهم، وإن محقرات الذنوب لموبقات». قوله تعالى: ﴿ **ووجدوا ما عملوا حاضراً** ﴾، مكتوباً مثبتاً في كتابهم، ﴿ **ولا يظلم ربك أحداً** ﴾، أي لا ينقص ثواب أحد عمل خَيراً. وقال الضحاك: لا يؤاخذ أحداً بجرم لم يعمله. وقال عبد الله بن قيس: يعرض الناس يوم القيامة ثلاث عرضات، فأما العرضتان فجدال ومعاذير، وأما العرضة الثالثة فعند ذلك تطير الصحف في الأيدي، فآخذ بيمينه وآخذ بشماله. ورفعه بعضهم عن أبي موسى.

قوله تعالى: ﴿ **وإذْ قلنا للملائكة اسجدُوا لآدم** ﴾، يقول واذكر يا محمد إذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم، ﴿ **فسجدوا إلاّ إبليس كان من الجن** ﴾، قال ابن عباس: كان من حيٍّ من الملائكة يقال لهم الجن، خُلقوا من نار السموم. وقال الحسن: كان من الجن ولم يكن من الملائكة، فهو أصل الجن كما أن آدم أصل الإنس، ﴿ **ففسق** ﴾، أي خرج، ﴿ **عن أمر ربه** ﴾، عن طاعة ربه، ﴿ **أفتتخذونه** ﴾، يعني يا بني آدم ﴿ **وذريتُه أولياءَ من دوني وهم لكم عدو** ﴾، أي أعداء. روى مجاهد عن الشعبي قال: إني لقاعد يوماً إذْ أقبل رجل فقال: أخبرني هل لإبليس زوجة؟ قلت: إن ذلك العرش ما شهدته، ثم ذكرت قوله تعالى: ﴿ **أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني** ﴾، فعلمت أنه لا تكون الذريّة إلا من الزوجة، فقلت: نعم. وقال قتادة: يتوالدون كما يتوالد بنو آدم. وقيل: إنه يدخل ذنبه في دبره فيبيض فتنفلق البيضة عن جماعة من الشياطين. قال مجاهد: من ذرية إبليس لاقيس ولهان، وهما صاحبا الطهارة والصلاة، والهفاف ومرّة وبه يكنى، وزلنبور وهو صاحب الأسواق، يزين اللغو والحلف الكاذبة ومدح

الوجوه ولطم الخدود وشق الجيوب، والأعور وهو صاحب الزنا ينفخ في إحليل الرجل وعجيزة المرأة، ومطموس وهو صاحب الأخبار الكاذبة يلقيها في أفواه الناس لا يجدون لها أصلاً، وداسم وهو الذي إذا دخل الرجل بيته ولم يسلم ولم يذكر الله بصره من المتاع ما لم يرفع أو يحسن موضعه وإذا أكل ولم يسم أكل معه، قال الأعمش: ربما دخلت البيت ولم أذكر اسم الله ولم أسلم فرأيت مطهرة فقلت ارفعوا هذه وخاصمتهم ثم أذكر فأقول داسم داسم أعوذ بالله منه، روى أبي بن كعب عن النبي ﷺ قال «إن للوضوء شيطاناً يقال له الولهان فاتقوا وسواس الماء» أخرجه الترمذي. (م) عن عثمان بن أبي العاص قال: قلت يا رسول الله إن الشيطان قد حال بيني وبين صلاتي وبين قراءتي يلبسها علي فقال رسول الله ﷺ ذاك شيطان يقال له خنزب، فإذا أحسسته فتعوذ بالله منه واتفل على يسارك ثلاثاً قال ففعلت ذلك فأذهبه الله عني (م) عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ «إن إبليس يضع عرشه على الماء ثم يبعث سراياه فأدناهم منه منزلة أعظمهم فتنة يجيء أحدهم فيقول فعلت كذا وكذا فيقول ما صنعت شيئاً ثم يجيء أحدهم فيقول ما تركته حتى فرقت بينه وبين امرأته قال فيدنيه منه ويقول نعم أنت» قال الأعمش أراه قال فيلتزمه. وقوله ﴿بئس للظالمين بدلاً﴾ يعني بئس ما استبدلوا طاعة إبليس وذريته بعبادة ربهم وطاعته. قوله سبحانه وتعالى ﴿ما أشهدتهم﴾ أي ما أحضرتهم يعني إبليس وذريته وقيل الكفار وقيل الملائكة ﴿خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم﴾ والمعنى

السلع، وبتر وهو صاحب المصائب يزيّن للناس خمش الوجوه ولطم الخدود وشقّ الجيوب، والأعور وهو صاحب الزنا ينفخ في إحليل الرجل وعجز المرأة، ومطوس وهو صاحب الأخبار الكاذبة يلقيها في أفواه الناس، لا يجدون لها أصلاً، وداسم وهو الذي إذا دخل الرجل بيته ولم يسلّم ولم يذكر اسم الله بصره من المتاع ما لم يرفع ولم يوضع في موضعه أو يحتبس موضعه، وإذا أكل ولم يذكر اسم الله أكل معه. قال الأعمش: ربما دخلت البيت ولم أذكر اسم الله ولم أسلّم، فرأيت مطهرة فقلت ارفعوا هذه وخاصمتهم، ثم أذكر اسم الله فأقول داسم داسم، ورُوِيَ عن أبي بن كعب عن النبي ﷺ أنه قال: «إن للوضوء شيطاناً يقال له الولهان. فاتقوا وسواس الماء» أخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر أنبأنا عبد الغافر بن محمد أنبأنا محمد بن عيسى الجلودي أنبأنا إبراهيم بن محمد بن سفيان أنبأنا مسلم بن الحجاج ثنا يحيىٰ بن خلف الباهلي أنبأنا مسلم بن الحجاج ثنا يحيىٰ بن خلف الباهلي أنبأنا عبد الأعلى عن سعيد الحريري عن أبي العلاء أن عثمان بن أبي العاص أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله إن الشيطان قد حال بيني وبين صلاتي وبين قراءتي يلبسها عليّ، فقال رسول الله ﷺ: «ذاك شيطان يقال له خنزب، فإذا حسسته فتعوّذ بالله منه، واتفل عن يسارك ثلاثاً»، ففعلت ذلك فأذهبه الله عني. وأخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر أنبأنا عبد الغافر بن محمد عيسى الجلودي ثنا إبراهيم بن محمد بن سفيان أنبأنا مسلم بن الحجّاج ثنا أبو كريب محمد بن علاء أنبأنا أبو معاوية ثنا الأعمش عن أبي سفيان عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهم قال: قال رسول الله ﷺ: «إن إبليس يضع عرشه على الماء ثم يبعث سراياه يفتنون الناس، فأدناهم منه منزلة أعظمهم فتنة، يجيء أحدهم فيقول: فعلت كذا وكذا، فيقول: ما صنعت شيئاً، قال: ثم يجيء أحدهم فيقول: ما تركتُه حتى فرّقت بينه وبين امرأته، قال: فيدنيه منـه ويقول: نعم أنت». قال الأعمش أراه قال: فيلتزمه. قوله تعالى: ﴿ بئس للظالمين بدلاً ﴾، قال قتادة: بئس ما استبدلوا طاعة إبليس وذريته بعبادة ربهم.

﴿ ما أشهدتهم ﴾، ما أحضرتهم، وقرأ أبو جعفر «ما أشـهدناهم» بالنون والألف على التعظيم، أي أحضرناهم يعني إبليس وذريته. وقيل: الكفار. وقال الكلبي: يعني الملائكة، ﴿ خلق السمٰواتِ والأرض ولا خلق أنفسهم ﴾، يقول ما أشهدتم خلقاً فأستعين بهم على خلقها وأشاورهم فيها، ﴿ وما كنتُ متخذ المضلّين عضداً ﴾، أي الشياطين الذين يضلّون الناس عضداً أي: أنصاراً وأعواناً.

ما أشهدتهم خلقها فأستعين بهم على خلقها وأشاورهم فيها ﴿**وما كنت متخذ المضلين**﴾ يعني الشياطين الذين يضلون الناس ﴿**عضداً**﴾ يعني أنصاراً وأعواناً. قوله عز وجل:

وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا۟ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾ وَرَءَا
ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن
كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّهُمْ
إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ ۖ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَمَآ أُنذِرُوا۟ هُزُوًا ﴿٥٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ
عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن
يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾ وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ ۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن
يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴿٥٩﴾ وَإِذْ قَالَ
مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾

﴿**ويوم يقول نادوا**﴾ يعني يقول الله تعالى يوم القيامة نادوا ﴿**شركائي**﴾ يعني الأصنام ﴿**الذين زعمتم**﴾ يعني أنهم شركائي ﴿**فدعوهم**﴾ أي فاستغاثوا بهم ﴿**فلم يستجيبوا لهم**﴾ أي فلم يجيبوهم ولم ينصروهم ﴿**وجعلنا بينهم**﴾ يعني بين الأصنام وعبدتها وقيل بين أهل الهدى وبين أهل الضلال ﴿**موبقاً**﴾ يعني مهلكاً قال ابن عباس: هو واد في النار وقيل نهر تسيل منه نار وعلى حافتيه حيات مثل البغال الدهم وقيل كل حاجز بين شيئين فهو موبق وأصله الهلاك ﴿**ورأى المجرمون**﴾ أي المشركون ﴿**النار فظنوا**﴾ أي أيقنوا ﴿**أنهم مواقعوها**﴾ أي داخلوها وواقعون فيها ﴿**ولم يجدوا عنها مصرفاً**﴾ أي معدلاً لأنها أحاطت بهم من كل جانب وقيل لأن الملائكة تسوقهم إليها. قوله سبحانه وتعالى ﴿**ولقد صرفنا**﴾ أي بينا ﴿**في هذا القرآن للناس من كل مثل**﴾ أي ليتذكروا ويتعظوا ﴿**وكان الإنسان أكثر شيء جدلاً**﴾

قوله تعالى: ﴿ **ويوم يقول** ﴾ قرأ حمزة بالنون والآخرون بالياء أي: يقول الله لهم يوم القيامة، ﴿ **نادوا شركائي** ﴾، يعني الأوثان ﴿ **الذين زعمتم** ﴾، أنهم شركائي، ﴿ **فدعوهم** ﴾، فاستغاثوا بهم، ﴿ **فلم يستجيبوا لهم** ﴾، أي لم يجيبوهم ولم ينصروهم، ﴿ **وجعلنا بينهم** ﴾، يعني بين الأوثان وعبدتها وقيل: بين أهل الهدى والضلال، ﴿ **موبقاً** ﴾ مهلكاً قاله عطاء والضحاك. وقال ابن عباس: هو واد في النار. وقال مجاهد: واد في جهنم. وقال عكرمة: هو نهر في النار يسيل ناراً على حافته حيّات مثل البغال الدهم. قال ابن الأعرابي: وكل حاجز بين شيئين فهو موبق، وأصله الهلاك يقال: أوبقه أي أهلكه، قال الفراء: وجعلنا تواصلهم في الدنيا مهلكاً لهم في الآخرة، والبين على هذا القول التواصل كقوله تعالى: ﴿ لقد تقطع بينكم ﴾ [الأنعام: ٩٤] على قراءة مَن قرأ بالرفع.

﴿ **ورأى المجرمون النار** ﴾، أي المشركون، ﴿ **فظنوا** ﴾، أيقنوا، ﴿ **أنهم مواقعوها** ﴾، داخلوها وواقعون فيها، ﴿ **ولم يجدوا عنها مصرفاً** ﴾، معدلاً لأنها أحاطت بهم من كل جانب.

قوله تعالى: ﴿ **ولقد صرّفنا** ﴾، بيّنا، ﴿ **في هذا القرآن للناس من كل مثل** ﴾، أي ليتذكروا ويتعظوا،

أي خصومة في الباطل قال ابن عباس: أراد النضر بن الحارث وجداله في القرآن وقيل أراد به أبي بن خلف وقيل أراد به جميع الكفار وقيل الآية على العموم وهو الأصح (ق) عن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ طرقه وفاطمة ليلاً فقال: «ألا تصليان». فقلت يا رسول الله أنفسنا بيد الله تعالى فإذا شاء أن يبعثنا بعثنا فانصرف رسول الله ﷺ حين قلت ذلك ولم يرجع إلى شيئاً ثم سمعته يقول وهو مول يضرب فخذه بيده «وكان الإنسان أكثر شيء جدلاً» قوله عز وجل ﴿**وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى**﴾ يعني القرآن وأحكام الإسلام والبيان من الله تعالى وقيل إنه رسول الله ﷺ ﴿**ويستغفروا ربهم**﴾ والمعنى أنه لا مانع لهم من الإيمان ولا من الاستغفار والتوبة والتخلية حاصلة والأعذار زائلة فلم لم يقدموا على الإيمان والاستغفار ﴿**إلا أن تأتيهم سنة الأولين**﴾ يعني سنتنا بإهلاك الأولين إن لم يؤمنوا وهو عذاب الاستئصال ﴿**أو يأتيهم العذاب قبلاً**﴾ قال ابن عباس: أي عياناً من المقابلة وقيل فجأة. قوله سبحانه وتعالى ﴿**وما نرسل المرسلين إلا مبشرين**﴾ أي بالثواب على الطاعة ﴿**ومنذرين**﴾ بالعقاب لمن عصى ﴿**ويجادل الذين كفروا بالباطل**﴾ هو قولهم «أبعث الله بشراً رسولاً» وقولهم للرسل «ما أنتم إلا بشر مثلنا» وشبه ذلك ﴿**ليدحضوا**﴾ أي ليبطلوا ﴿**به الحق**﴾ ويزيلوه ﴿**واتخذوا آياتي وما أنذروا هزواً**﴾ فيه إضمار يعني اتخذوا ما أنذروا به وهو القرآن استهزاء. قوله عز وجل ﴿**ومن أظلم من ذكر**﴾ أي وعظ ﴿**بآيات ربه فأعرض عنها**﴾ أي تولى عنها وتركها ولم يؤمن بها ﴿**ونسي ما قدمت يداه**﴾ أي ما عمل من المعاصي من قبل ﴿**إنا جعلنا على قلوبهم أكنة**﴾ أي أغطية ﴿**أن يفقهوه**﴾ يريد لئلا يفقهوه ﴿**وفي آذانهم وقراً**﴾ أي ثقلاً وصماً ﴿**وإن تدعهم**﴾ يا محمد ﴿**إلى الهدى**﴾ أي الدين ﴿**فلن يهتدوا إذاً أبداً**﴾ وهذا في أقوام علم الله منهم أنهم لا يؤمنون ﴿**وربك الغفور**﴾ أي البليغ المغفرة ﴿**ذو**

﴿ **وكان الإنسان أكثرَ شيءٍ جدلاً** ﴾، خصومة في الباطل. قال ابن عباس: أراد النضر بن الحارث وجداله في القرآن. قال الكلبي: أراد به أُبيّ بن خلف الجمحي. وقيل: المراد من الآية الكفّار، لقوله تعالى: ﴿ ويجادل الذين كفروا بالباطل ﴾ [الكهف: ٥٦]، وقيل: هي على العموم، وهذا أصح، أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنبأنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنبأنا محمد بن يوسف أنبأنا محمد بن إسماعيل أنا أبو اليمان أنا شعيب عن الزهري أنبأنا علي بن الحسين أن الحسين بن علي أخبره أن علياً أخبره أن رسول الله ﷺ طرقه وفاطمة بنت رسول الله ﷺ ليلةً فقال: «ألاَ تصليان»؟ فقلت: يا رسول الله إن أنفسنا بيد الله فإذا شاء أن يبعثنا بعثنا، فانصرف رسول الله ﷺ حين قلت له ذلك ولم يُرجعْ إليّ شيئاً، ثم سمعته وهو مولٍّ يضرب فخذه وهو يقول: ﴿ **وكان الإنسان أكثر شيء جدلاً** ﴾.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ **وما منع الناس أنْ يؤمنوا إذْ جاءهُمُ الهدى** ﴾، القرآن والإسلام والبيان من الله عزّ وجلّ. وقيل: إن الرسول ﷺ قال: ﴿ **ويستغفروا ربَّهم إلاّ أن تأتيهم سُنّة الأوّلين** ﴾، يعني سنّتنا في إهلاكهم إن لم يؤمنوا. وقيل: إلا طلب أن تأتيهم سُنّة الأولين من معاينة العذاب، كما قالوا: اللّهمَّ إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم، ﴿ **أو يأتيهم العذاب قُبُلاً** ﴾، قال ابن عباس: أي: عياناً من المقابلة. وقال مجاهد فجأة، وقرأ أبو جعفر وأهل الكوفة ﴿ **قبلاً** ﴾ بضم القاف والباء، جمع قبيل أي: أصناف العذاب نوعاً نوعاً.

﴿ **وما نُرسل المرسلين إلاّ مبشرين ومنذرين ويجادل الذين كفروا بالباطل** ﴾، ومجادلتهم قولهم: ﴿ **أبعث الله بشراً رسولاً** ﴾ [الإسراء: ٩٤]. ﴿ ولولا نُزّل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ﴾ [الزخرف: ٣١]، وما أشبهه. ﴿ **لِيُدْحِضُوا** ﴾، ليبطلوا، ﴿ **به الحق** ﴾، وأصل الدحض الزلق يريد ليُزيلوا به الحق، ﴿ **واتخذوا آياتي وما أُنذرُوا هزُواً** ﴾، فيه إضمار يعني وما أنذروا به وهو القرآن، هزواً أي استهزاءً.

الرحمة﴾ أي الموصوف بالرحمة **﴿لو يؤآخذهم﴾** أي يعاقب الكفار **﴿بما كسبوا﴾** من الذنوب **﴿لعجل لهم العذاب﴾** أي في الدنيا **﴿بل لهم موعد﴾** يعني البعث والحساب **﴿لن يجدوا من دونه موئلاً﴾** أي ملجأ **﴿وتلك القرى﴾** قرى قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وغيرهم **﴿أهلكناهم لما ظلموا﴾** أي كفروا **﴿وجعلنا لمهلكهم موعداً﴾** أي أجلاً لإهلاكهم. قوله سبحانه وتعالى **﴿وإذ قال موسى لفتاه﴾** الآيات أكثر العلماء على أن موسى المذكور في هذه الآية هو موسى بن عمران من سبط لاوي بن يعقوب صاحب المعجزات الظاهرة وصاحب التوراة. وعن كعب الأحبار أنه موسى بن ميشا من أولاد يوسف بن يعقوب وكان قد تنبأ قبل موسى بن عمران. والقول الأول أصح بدليل أن الله سبحانه وتعالى في كتابه لم يذكر العزيز موسى إلا أراد به صاحب التوراة فإطلاق هذا الاسم يوجب الانصراف إليه ولو أراد شخصاً آخر لوجب تعريفه بصفة توجب الامتياز بينهما وتزيل الشبهة فلما لم يميزه بصفة علمنا أنه موسى بن عمران صاحب التوراة وأما فتاه فالأصح أنه يوشع ابن نون بن أفرأ ثم ابن يوسف وهو صاحب موسى وولي عهده بعد وفاته، وقيل إنه أخو يوشع وقيل فتاة يعني بده بدليل قوله ﷺ «لا يقل أحدكم عبده وأمتي وليقل فتاي وفتاتي». (ق) عن سعيد بن جبير قال قلت لابن عباس أن نوفاً البكالي يزعم أن موسى صاحب الخضر ليس هو موسى بني إسرائيل، فقال ابن عباس: كذب عدو الله حدثنا أبي بن كعب أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إن موسى عليه السلام قام خطيباً في بني إسرائيل فسأل أي الناس أعلم فقال أنا، فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إليه فأوحى الله سبحانه وتعالى إليه إن لي عبداً بمجمع البحرين هو أعلم منك، قال موسى: يا رب فكيف لي به قال: فخذ معك حوتاً فاجعله في مكتل فحيثما فقدت الحوت فهو ثم فأخذ حوتاً فجعله في مكتل ثم انطلق وانطلق معه فتاه يوشع بن نون حتى إذا أتيا الصخرة

﴿ومَن أظلم ممّن ذُكِّر﴾، وعُظ، **﴿بآيات ربه فأعرض عنها﴾**. تولى عنها وتركها ولم يؤمن بها، **﴿ونسي ما قدّمت يداه﴾**، أي ما عمل من المعاصي من قبل، **﴿إنّا جعلنا على قلوبهم أكنة﴾**، أغطية، **﴿أن يفقهوه﴾**، أي: يفهموه يريد لئلا يفهموه، **﴿وفي آذانهم وَقْراً﴾**. أي صمماً وثقلاً، **﴿وإن تدعهم﴾**، يا محمد **﴿إلى الهدى﴾**، إلى الدين، **﴿فلن يهتدوا إذاً أبداً﴾**، وهذا في أقوام علم الله منهم أنهم لا يؤمنون.

﴿وربُّك الغفورُ ذُو الرحمة﴾، ذو النعمة **﴿لو يُؤاخذهم﴾**، يعاقب الكفّار، **﴿بما كسبوا﴾**، من الذنوب **﴿لعجّل لهم العذاب﴾**، في الدنيا، **﴿بل لهم موعد﴾**، يعني البعث والحساب، **﴿لن يجدوا من دونه موئلاً﴾**، ملجأ.

﴿وتلك القرى أهلكناهم﴾، يعني قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وغيرهم، **﴿لمّا ظلموا﴾**. كفروا، **﴿وجعلنا لمهلكهم موعداً﴾**، أي أجلاً، قرأ أبو بكر **﴿لمهلكهم﴾** بفتح الميم واللام، وقرأ حفص بفتح الميم وكسر اللام، وكذلك في النمل [٤٩] **﴿مهلك﴾** أي لوقت هلاكهم، وقرأ الآخرون بضم الميم وفتح اللام أي: لإهلاكهم.

قوله تعالى: **﴿وإذ قال موسى لفتاه لا أبرحُ حتى أبلغ مجمع البحرين﴾**، عامّة أهل العلم قالوا: إنه موسى بن عمران. وقال بعضهم: هو موسى بن ميشا من أولاد يوسف. والأول أصح، أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنبأنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنبأنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا الحميدي ثنا سفيان ثنا عمرو بن دينار أخبرني سعيد بن جبير قال: قلت لابن عباس: إن نوفاً البكالي يزعم أن موسى صاحب الخضر ليس هو موسى بني إسرائيل، فقال ابن عباس: كذب عدو الله حدّثنا أُبيّ بن كعب أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إن موسى قام خطيباً في بني إسرائيل، فسُئِلَ أيّ الناس أعلم؟ فقال: «أنا»، فعتب الله عليه إذ لم يردّ العلم إليه،

وضعا رأسيهما فناما، فاضطرب الحوت في المكتل فخرج منه فسقط في البحر فاتخذ سبيله في البحر سرباً وأمسك الله عن الحوت جرية الماء فصار عليه مثل الطاق، فلما استيقظ نسي صاحبه أن يخبره بالحوت وانطلقا بقية يومهما وليلتهما حتى إذا كانا من الغد قال موسى لفتاه آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا قال ولم يجد موسى النصب حتى جاوز المكان الذي أمره الله به. فقال له فتاه ﴿أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإني نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره واتخذ سبيله في البحر عجباً﴾ قال فكان للحوت سرباً ولموسى ولفتاه عجباً فقال موسى ﴿ذلك ما كنا نبغ فارتدا على آثارهما قصصاً﴾ قال رجعا فقصا آثارهما حتى انتهيا إلى الصخرة فإذا رجل مسجى بثوب أبيض فسلم عليه موسى فقال الخضر وأنى بأرضك السلام فقال أنا موسى قال موسى بني إسرائيل؟ قال: نعم أتيتك لتعلمني ما علمت رشداً، قال: إنك لن تستطيع معي صبراً، يا موسى إني على علم من علم الله علمنيه لا تعلمه وأنت على علم من علم الله لا أعلمه فقال موسى: ستجدني إن شاء الله صابراً ولا أعصي لك أمراً فقال له الخضر: فإن اتبعتني فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكراً. فانطلقا يمشيان على ساحل البحر فمرت بهم سفينة فكلموهم أن يحملوهم فعرفوا الخضر فحملوهم بغير نول، فلما ركبا السفينة لم يفجأ موسى إلا والخضر قد قلع لوحاً من ألواح السفينة بالقدوم، فقال له موسى: قوم حملونا بغير نول عمدت إلى سفينتهم فخرقتها لتغرق أهلها «لقد جئت شيئاً إمراً قال: ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبراً: قال لا تؤاخذني بما نسيت ولا ترهقني من أمري عسراً» قال رسول الله ﷺ

فأوحى الله إليه أن لي عبداً بمجمع البحرين، هو أعلم منك، قال موسى: يا رب فكيف لي به؟ قال: تأخذ معك حوتاً فتجعله في مكتل فحيث ما فقدت الحوت فهو ثمة، فأخذ حوتاً فجعله في مكتل ثم انطلق وانطلق معه فتاه يوشع بن نون، حتى إذا أتيا الصخرة وضعا رؤوسهما فناما، واضطرب الحوت في المكتل فخرج منه فسقط في البحر، فاتخذ سبيله في البحر سرباً وأمسك الله تعالى عن الحوت جرية الماء فصار عليه مثل الطاق، فلما استيقظ نسي صاحبه أن يخبره بالحوت، فانطلقا بقية يومهما وليلتهما حتى إذا كان من الغد، فلما جاوزا قال موسى لفتاه آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً، قال: ولم يجد موسى النصب حتى جاوز المكان الذي أمره الله به، وقال له فتاه: أرأيت إذْ أوينا إلى الصخرة فإني نسيت الحُوت وما أنسانيه إلاّ الشيطان أن أذكره، واتخذ سبيله في البحر عجباً، قال: فكان للحوت سرباً ولموسى ولفتاه عجباً، وقال موسى: ذلك ما كنّا نبغِ نطلبه، فارتدّا على آثارهما قصصاً فوجدا عبداً من عبادنا آتيناه رحمة مِن عندنا وعلّمناه من لدنّا علماً. قال له موسى: هل أتبعك على أن تعلمنِ مِما عُلّمتَ رشداً؟ قال: رجعا يقصّان آثارهما حتى انتهيا إلى الصخرة فإذا رجل مسجى بثوب فسلّم عليه موسى، فقال الخضِر عليه السلام وأني بأرضك السلام، فقال له: أنا موسى، قال: موسى بني إسرائيل؟ قال: نعم، قال: أتيتك لتعلّمني مما علمت رشداً، قال: إنك لن تستطيع معي صبراً، وكيف تصبر على ما لم تُحِط به خبراً يا موسى إني على علم من علِم الله علّمنيه لا تعلمه أنت، وأنت على علم من علم علّمكه الله لا أعلمه، فقال موسى: ستجدني إن شاء الله صابراً ولا أعصي لك أمراً، فقال له الخضر: فإنِ اتبعتني فلا تسألني عن شيء حتى أُحدث لك منه ذكراً، فانطلقا يمشيان على ساحل البحر فمرّت سفينة فكلموهم أن يحملوهم، فعرفوا الخضر فحملوهم بغير نول، حتى إذا ركبا في السفينة لم يفجأ إلاّ والخضر قد قلع لوحاً من ألواح السفينة بالقَدّوم، فقال له موسى: قوم قد حملونا بغير نول عمدت إلى سفينتهم فخرقتها لتغرق أهلها لقد جئت شيئاً إمراً، قال: ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبراً؟ قال: لا تؤاخذني بما نسيتُ ولا تُرهقني من أمري عُسراً، فانطلقا حتى إذا لقيا غلاماً فقتله، قال: وقال النبي ﷺ: «فكانت الأولى من موسى نسياناً والوسطى شرطاً والثالثة عمداً»، قال: وجاء عصفور فوقع على حرف السفينة فنقر في البحر نقرة فقال له الخضر: ما نقص علمي وعلمك من علم إلا مثل ما نقص هذا العصفور من

«كانت الأولى من موسى نسياناً قال وجاء عصفور فوقع على حرف السفينة فنقر في البحر نقرة فقال له الخضر ما نقص علمي وعلمك من علم الله إلا مثل ما نقص هذا العصفور من هذا البحر ثم خرجا من السفينة فبينما هما يمشيان على الساحل إذ أبصر الخضر غلاماً يلعب مع الغلمان فأخذ الخضر برأسه فاقتلعه بيده فقتله فقال له موسى: «أقتلت نفساً زكية بغير نفس لقد جئت شيئاً نكراً قال ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبراً» قال وهذه أشد من الأولى قال «إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني قد بلغت من ولدني عذراً. فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقض» أي مائلاً فقال الخضر بيده هكذا فأقامه فقال موسى قوم أتيناهم فلم يطعمونا ولم يضيفونا «لو شئت لاتخذت عليه أجراً قال هذا فراق بيني وبينك سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبراً قال رسول الله ﷺ: يرحم الله موسى، لوددت أنه صبر يقص علينا من أخبارهما» قال سعيد بن جبير فكان ابن عباس يقرأ: وكان أمامهم ملك يأخذ كل سفينة صالحة غصباً، وكان يقرأ وأما الغلام فكان كافراً وكان أبواه مؤمنين. وفي رواية عن أبي بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ قام موسى عليه السلام ذكر الناس يوماً حتى إذا ما فاضت العيون ورقت القلوب ولى فأدركه رجل فقال: أي رسول الله هل في الأرض أحد أعلم منك؟؟ قال: لا، فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إلى الله تعالى. فقال بلى قال أي رب وأين هو قال بمجمع البحرين قال خذ حوتاً ميتاً حيث ينفخ فيه الروح. وفي رواية تزود حوتاً مالحاً فإنه حيث يفقد الحوت زاد في رواية وفي أصل الصخرة عين يقال لها الحياة لا يصيب من مائها شيء إلا حي فأصاب الحوت من ماء تلك العين فتحرك وانسل من المكتل فدخل البحر ورجعنا إلى التفسير. قوله سبحانه وتعالى ﴿لا أبرح﴾ أي لا أزال أسير ﴿حتى أبلغ مجمع البحرين﴾ قيل أراد بحر فارس والروم ما يلي المشرق وقيل طنجة وقيل إفريقية ﴿أو أمضي حقباً﴾ يعني أو أسير دهراً طويلاً. والحقب ثمانون سنة فحمل خبزاً وسمكة مالحة في المكتل وهو الزنبيل الذي يسع خمسة عشر صاعاً ومضيا حتى انتهيا إلى الصخرة التي عند مجمع

هذا البحر، ثم خرجا من السفينة فبينما هما يمشيان على الساحل إذ أبصر الخضر غلاماً يلعب مع الغلمان فأخذ الخضر برأسه فاقتلعه بيده وقتله، فقال له موسى: أقتلت نفساً زكيةً بغير نفس، لقد جئت شيئاً نكراً، قال: ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبراً؟ قال: وهذه أشدّ من الأولى، قال: إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني قد بلغت من لدني عذراً، فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبَوْا أن يضيفوهما، فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقض، قال: كان مائلاً، فقال الخضر بيده فأقامه، فقال موسى: قوم أتيناهم فلم يطعمونا ولم يضيفونا لو شئتَ لاتّخذت عليه أجراً، قال: هذا فراق بيني وبينك، إلى قوله: ﴿ سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبراً ﴾ [الكهف:٧٨] فقال رسول الله ﷺ: «وَدِدْنَا أن موسى كان صبر حتى يقصّ علينا من خبرهما» قال سعيد بن جبير: فكان ابن عباس يقرأ: وكان أمامهم ملك يأخذ كل سفينة صالحة غصباً، وكان يقرأ وأما الغلام فكان كافراً وكان أبواه مؤمنين. وعن سعيد بن جبير في رواية أخرى عن ابن عباس عن أُبيّ بن كعب، قال: قال رسول الله ﷺ: «قام موسى رسول الله فذكر الناس يوماً حتى إذا فاضت العيون ورقّت القلوب ولّى فأدركه رجل فقال: أي رسول الله هل في الأرض أحداً أعلم منك؟ قال: لا، فعتب الله عليه، إذ لم يردّ العلم إلى الله، قيل: بلى عبدنا الخضر، قال: يا رب وأين؟ قال: بمجمع البحرين، قال خذ حوتاً ميتاً حيث ينفخ فيه الروح، وفي رواية قيل له: تزوّد حوتاً مالحاً فإنه حيث تفقد الحوت، فأخذ حوتاً فجعله في مكتل» رجعنا إلى التفسير قوله: ﴿ وإذْ قال موسى لفتاه ﴾، يوشع بن نون، ﴿ لا أبرح ﴾، أي أزال أسير ﴿ حتى أبلغ مجمع البحرين ﴾، قال قتادة: بحر فارس وبحر الروم، مما يلي المشرق. وقال محمد بن كعب: طنجة. وقال أُبيّ بن كعب: أفريقية. ﴿ أو أمضي حُقُباً ﴾، أي وإن كان حُقُباً أي دهراً طويلاً وزماناً، وجمعه أحقاب، والحُقب: جمع الحَقب. قال عبد الله بن عمر: والحقب ثمانون سنة، فحملا

البحرين وعندها عين تسمى عين الحياة لا تصيب شيئاً إلا حيي فلما أصاب السمكة روح الماء وبرده اضطربت في المكتل وهاجت ودخلت في البحر.

﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾﴾

﴿**فلما بلغا**﴾ يعني موسى وفتاه ﴿**مجمع بينهما**﴾ أي بين البحرين ﴿**نسيا**﴾ أي تركا ﴿**حوتهما**﴾.

وإنما كان الحوت مع يوشع بن نون، وهو الذي نسيه وإنما أضاف النسيان إليهما تزواده لسفرهما وقيل المراد من قوله نسيا حوتهما أي نسيا كيفية الاستدلال بهذه الحالة المخصوصة على الوصول للمطلوب. ﴿**فاتخذ**﴾ أي الحوت ﴿**سبيله في البحر سرباً**﴾ أي مسلكاً. وروى أبي بن كعب عن رسول الله ﷺ أنه قال «انجاب الماء عن مسلك الحوت فصار كوة لم يلتئم فدخل موسى الكوة على أثر الحوت فإذا هو بالخضر». قال ابن عباس: جعل الحوت لا يمس شيئاً من البحر إلا يبس حتى صار صخرة، وقد روينا أنهما لما انتهيا إلى الصخرة وضعا رؤوسهما فناما واضطرب الحوت فخرج فسقط في البحر فاتخذ سبيله في البحر سرباً فأمسك الله عن الحوت جرية الماء فصار عليه مثل الطاق فلما استيقظ موسى نسي صاحبه أن يخبره فانطلقا حتى إذا كان من الضد وهو قوله سبحانه وتعالى ﴿**فلما جاوزوا**﴾ يعني ذلك الموضع وهو مجمع البحرين ﴿**قال**﴾ يعني موسى ﴿**لفتاه آتنا غداءنا**﴾ أي طعامنا ﴿**لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً**﴾ أي تعباً وشدة وذلك أنه ألقي على موسى الجوع بعد ما جاوز الصخرة ليتذكر الحوت ويرجع في طلبه.

﴿قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى

خبزاً وسمكة مالحة حتى انتهيا إلى الصخرة التي عند مجمع البحرين ليلاً وعندها عين تسمى ماء الحياة لا يصيب ذلك الماء شيئاً إلاّ حيّ، فلما أصاب السمكة روح الماء وبرده اضطربت في المكتل وعاشت ودخلت البحر.

فذلك قوله: ﴿ **فلما بلغا** ﴾، يعني موسى وفتاه، ﴿ **مجمع بينهما** ﴾ أي: بين الفريقين، ﴿ **نسيا** ﴾، تركا، ﴿ **حوتهما** ﴾، وإنما كان الحوت مع يوشع، وهو الذي نسيه وأضاف النسيان إليهما لأنهما جميعاً تزوّداه لسفرهما، كما يقال: خرج القوم إلى موضع كذا وحملوا من الزاد كذا وإنما حمله واحد منهم، ﴿ **فاتخذ** ﴾، أي الحوت، ﴿ **سبيله في البحر سرباً** ﴾، أي مسلكاً. ورُوِيَ عن ابن كعب عن رسول الله ﷺ أنه قال: «انجاب الماء عن مسلك الحوت فصار كوّة لم يلتئم فدخل موسى الكوّة على إثر الحوت فإذا هو بالخضر»، قال ابن عباس: جعل الحوت لا يمسّ شيئاً من البحر إلاّ يبس حتى صار صخرة، وقال الكلبي: توضأ يوشع بن نون من عين الحياة فانتضح على الحوت المالح في المكتل من ذلك الماء فعاش ثم وثب في ذلك الماء فجعل يضرب بذنبه فلا يضرب بذنبه شيئاً من الماء وهو ذاهب إلاّ يبس، وقد روينا أنهما لمّا انتهيا إلى الصخرة، وضعا رؤوسهما فناما واضطرب الحوت فخرج وسقط في البحر، فاتخذ سبيله في البحر سرباً فأمسك الله عن الحوت جرية الماء فصار عليه مثل الطاق، فلما استيقظ نسي صاحبه أن يخبره فانطلقا حتى إذا كان من الغد.

قوله تعالى: ﴿ **فلما جاوزا** ﴾، يعني ذلك الموضع وهو مجمع البحرين، ﴿ **قال** ﴾، موسى، ﴿ **لفتاه آتنا غداءنا** ﴾، أي طعامنا، والغداء ما يُعدّ للأكل غدوة، والعشاء ما يُعدّ للأكل عشية، ﴿ **لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً** ﴾، أي تعباً وشدّة وذلك أنه ألقي على موسى الجوع بعد مجاوزة الصخرة، ليتذكّر الحوت ويرجع إلى مطلبه.

ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾

﴿قال﴾ يعني يوشع ﴿أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة﴾ وهي صخرة كانت بالموضع الموعود ﴿فإني نسيت الحوت﴾ أي تركته وفقدته، وذلك أن يوشع حين رأى من الحوت ذلك قام ليدرك موسى فيخبره فنسي أن يخبره، فمكثا يومهما حتى صليا الظهر من الغد ثم قال ﴿وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره﴾ أي وما أنساني أن أذكر لك أمر الحوت إلا الشيطان، قيل المراد من النسيان شغل قلب الإنسان بوساوس الشيطان التي هي فعله دون النسيان الذي يضاد الفكر لأن ذلك لا يصح إلا من قبل الله تعالى ﴿واتخذ سبيله في البحر عجباً﴾ قيل هذا من قول يوشع بن نون يعني وقع الحوت في البحر فاتخذ سبيله فيه مسلكاً. وروي في الخبر كان للحوت سرباً ولموسى ولفتاه عجباً وقيل أي شيء أعجب من حوت يؤكل منه دهراً ثم صار حياً بعد ما أكل بعضه. قوله عز وجل ﴿قال﴾ يعني موسى ﴿ذلك ما كنا نبغ﴾ نطلب ﴿فارتدا على آثارهما قصصاً﴾ أي رجعا يقصان الذي جاءا منه ويتبعانه ﴿فوجدا عبداً من عبادنا﴾ قيل كان ملكاً من الملائكة والصحيح الذي ثبت عن رسول الله ﷺ وجاء في التواريخ أنه الخضر واسمه بليا بن ملكان وكنيته أبو العباس، قيل كان من بني إسرائيل وقيل كان من أبناء الملوك الذين تزهدوا وتركوا الدنيا والخضر لقب له، سمي به لأنه جلس على فروة بيضاء فاخضرت. (خ) عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ «إنما سمي خضراً لأنه جلس على

﴿ قال ﴾ له فتاه يذكر ﴿ أرأيتَ إذْ أوينا إلى الصخرة ﴾، وهي صخرة كانت بالموضع الموعود، قال هقل بن زياد: هي الصخرة التي دون نهر الزيت، ﴿ فإني نسيتُ الحوت ﴾، أي تركته وفقدته، وذلك أن يوشع حين رأى ذلك من الحوت قام ليدرك موسى فيخبره، فنسي أن يخبره فمكثا يومهما حتى صلّيا الظهر من الغد. قيل في الآية إضمار معناه: نسيت أن أذكر لك أمر الحوت، ثم قال: ﴿ وما أنسانيه إلّا الشيطان أن أذكره ﴾، أي وما أنساني أن أذكرلك أمر الحوت إلّا الشيطان، وقرأ حفص: ﴿ أنسانيه ﴾، وفي الفتح [١٠]. (عليهُ الله) بضم الهاء. وقيل معناه أنسانيه لئلا أذكره، ﴿ واتخذ سبيله في البحر عَجَباً ﴾، قيل هذا من قول يوشع، ويقول طفر الحوت إلى البحر فاتخذ فيه مسلكاً فعجبت من ذلك عجباً. وروينا في الخبر: كان للحوت سرباً ولموسى وفتاه عجباً. وقيل: هذا من قول موسى لما قال له يوشع: واتخذ سبيله في البحر سرباً، قال له موسى: عجباً، كأنه قال: أعجب عجباً. قال ابن زيد أي شيء أعجب من حوت يؤكل منه دهراً ثم صار حيّاً بعدما أُكِلَ بعضُه.

﴿ قال ﴾. موسى ﴿ ذلك ما كنا نبغ ﴾، أي نطلب، ﴿ فارتدّا على آثارهما قصصاً ﴾ أي: رجعا يقصّان الأثر الذي جاء أمنه أن يبتغيانه، فوجدا عبداً من عبادنا، قيل: كان مَلَكاً من الملائكة، والصحيح الذي جاء في التواريخ، وثبت عن النبي ﷺ أنه الخضر، واسمه بليا بن ملكان، قيل: كان من نسل بني إسرائيل. وقيل: كان من أبناء الملوك الذين تزهدوا في الدنيا، والخضر لقب له سُمّي بذلك لِما أخبرنا أبو علي حسان بن سعيد المنيعي أنبأنا أبو طاهر محمد بن محمد بن محمش الزيادي أنا أبو بكر محمد بن الحسين القطان ثنا أحمد بن يوسف السلمي ثنا عبد الرزاق أنا معمر عن همّام بن منبّه قال ثنا أبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما سُمي خضراً لأنه جلس على

فروة بيضاء فإذا هي تهتز تحته خضراء»، الفروة قطعة نبات مجتمعة يابسة وقيل سمي خضراً لأنه كان إذا صلّى اخضر ما حوله. وروينا أن موسى رأى الخضر مسجى بثوب فسلم عليه، فقال الخضر: وأنى بأرضك السلام قال: أنا موسى أتيتك لتعلمني مما علمت رشداً. ومعنى مسجى بثوب أي مغطى بثوب وقوله وأنى بأرضك السلام معناه من أين بأرضك التي أنت فيها الآن السلام. وروي أنه لقيه على طنفسة خضراء على جانب البحر فذلك قوله سبحانه وتعالى ﴿فوجدا عبداً من عبادنا آتيناه رحمة﴾ أي نعمة ﴿من عندنا وعلمناه من لدنا علماً﴾ أي علم الباطن إلهاماً ولم يكن الخضر نبياً عند أكثر أهل العلم. فإن قلت ظاهر الآيات يدل على أن الخضر كان أعلى شأناً من موسى وكان موسى يظهر التواضع له والتأدب معه. قلت لا يخلو إما أن يكون الخضر من بني إسرائيل أو من غيرهم فإن كان من بني إسرائيل فهو من أمة موسى، ولا جائز أن يكون أحد الأمة أفضل من نبيها أو أعلى شأناً منه، وإن كان من غير بني إسرائيل فقد قال الله تعالى لبني إسرائيل «وإني فضلتكم على العالمين» أي على عالمي زمانكم ﴿قال له موسى هل أتبعك﴾ معناه جئت لأصحبك وأتبعك ﴿على أن تعلمن مما علمت رشداً﴾ أي صواباً وقيل علماً ترشدني به. وفي بعض الأخبار قال الخضر لموسى: كفى بالتوراة علماً وبني إسرائيل شغلاً، فقال له موسى: إن الله أمرني بهذا فحينئذٍ ﴿قال﴾ الخضر لموسى ﴿إنك لن تستطيع معي صبراً﴾ وإنما قال ذلك لأنه علم أنه يرى أموراً منكرة ولا يجوز للأنبياء الصبر مع المنكرات ثم بين عذره في ترك الصبر فقال ﴿وكيف تصبر على ما لم تحط به خبراً﴾ أي علماً ﴿قال﴾ موسى

فروة بيضاء فإذا هي تهتز تحته خضرا». قال مجاهد: سُمّي خضراً لأنه إذا صلّى اخضرّ ما حوله. وروينا أن موسى رأى الخضر مسجى بثوب فسلّم عليه فقال الخضر وإني بأرضك السلام، قال: أنا موسى أتيتك لتعلّمني مما علمت رشداً. وفي رواية أخرى لقيه مسجى بثوب مستلقياً على قفاه بعض الثوب تحت رأسه وبعضه تحت رجليه. وفي رواية لقيه وهو يصلي. ويُروى لقيه على طنفسة خضراء على كبد البحر.

فذلك قوله تعالى: ﴿ فوجدا عبداً من عبادنا آتيناه رحمة ﴾، أي نعمة، ﴿ من عندنا وعلّمناه من لدنا علماً ﴾، أي علم الباطن إلهاماً ولم يكن الخضر نبيّاً عند أكثر أهل العلم، يقول جئت لأتبعك.

﴿ قال له موسى هل أتبعك ﴾، وأصحبك، ﴿ على أن تعلمن مما علمت رشداً ﴾، قرأ أبو عمرو ويعقوب: ﴿ رشداً ﴾ بفتح الراء والشين، وقرأ الآخرون بضم الراء وسكون الشين، أي صواباً. وقيل: علماً ترشدني به. وفي بعض الأخبار أنه لما قال له موسى هذا قال له الخضر: كفى بالتوراة علماً وبني إسرائيل شغلاً، فقال له موسى: إن الله أمرني بهذا فحينئذ.

﴿ قال ﴾، له الخضر، ﴿ إنك لن تستطيع معي صبراً ﴾، وإنما قال ذلك لأنه علم أنه يرى أموراً منكرة، ولا يجوز للأنبياء أن يصبروا على المنكرات، ثم بيّن عذره في ترك الصبر.

فقال له: ﴿ وكيف تصبرُ على ما لم تُحطْ به خُبْراً ﴾، أي علماً.

﴿ قال ﴾، موسى، ﴿ ستجدني إن شاء الله صابراً ﴾، إنما استثنى لأنه لم يثق من نفسه بالصبر ﴿ ولا أعصي لك أمراً ﴾، أي لا أخالفك فيما تأمرني.

﴿ قال ﴾، الخضر، ﴿ فإن اتبعتني ﴾، فإن صحبتني ولم يقل اتبعني ولكن جعل الاختيار إليه إلّا أنه شرط عليه شرطاً فقال، ﴿ فلا تسألني ﴾، قرأ أبو جعفر ونافع وابن عامر بفتح اللام وتشديد النون، والآخرون بسكون اللام وتخفيف النون، ﴿ عن شيء ﴾ أعمله فيما تنكره وتعترض عليه، ﴿ حتى أحدث لك منه ذكراً ﴾، حتى أبتدأ لك بذكره فأُبيّن لك شأنه.

﴿ستجدني إن شاء الله صابراً﴾ إنما استثنى لأنه لم يثق من نفسه بالصبر ﴿ولا أعصي لك أمراً﴾ أي أخالفك فيما تأمرني به قال ﴿فإن اتبعتني﴾ أي فإن صحبتني ولم يقل اتبعني ولكن جعل الاختيار إليه شرط عليه ثم شرطاً فقال ﴿فلا تسألني عن شيء﴾ أي مما أعمله مما تنكره ولا تعترض عليه ﴿حتى أحدث لك منه ذكراً﴾ معناه حتى أبتدأ بذكره فأبين لك شأنه. قوله سبحانه وتعالى ﴿فانطلقا﴾ أي يمشيان على الساحل يطلبان سفينة يركبانها، فوجدا سفينة فركباها فقال أهل السفينة هؤلاء لصوص، وأمروهما بالخروج فقال صاحب السفينة ما هم بلصوص ولكن أرى وجوه الأنبياء. وروينا عن أبي بن كعب عن النبيّ ﷺ «مرت بهم سفينة فكلموهم أن يحملوهم فعرفوا الخضر فحملوهم بغير نول، أي بغير عوض ولا عطاء، فلما لججوا في البحر أخذ الخضر فأسا فخرق لوحاً من ألواح السفينة فذلك» قوله تعالى ﴿حتى إذا ركبا في السفينة خرقها قال﴾ يعني موسى له ﴿أخرقتها لتغرق أهلها لقد جئت شيئاً إمراً﴾ أي أتيت شيئاً عظيماً منكراً. روي أن الخضر لما خرق السفينة لم يدخلها الماء وروي أن موسى لما رأى ذلك أخذ ثوبه فحشا به الخرق.

قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴿٧٣﴾ فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ ۞ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍۭ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٦﴾ فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾

﴿قال﴾ العالم وهو الخضر ﴿ألم أقل أنك لن تستطيع معي صبراً قال﴾ يعني موسى ﴿لا تؤاخذني بما نسيت﴾. قال ابن عباس: لم ينس ولكنه من معاريض الكلام فكأنه نسي شيئاً آخر. وقيل معناه بما تركت من عهدك والنسيان

﴿ فانطلقا ﴾، يمشيان على الساحل يطلبان سفينة يركبانها فوجدا سفينة فركباها، فقال أهل السفينة هؤلاء لصوص وأمرهما بالخروج، فقال صاحب السفينة: ما هم بلصوص ولكني أرى وجوه الأنبياء. وروينا عن أُبيّ بن كعب عن النبي ﷺ قال: «مرّت بهم سفينة فكلّموهم أن يحملوهم فعرفوا الخضر فحملوهم بغير نول، فلما لججوا البحر أخذ الخضر فأساً فخرق لوحاً من السفينة» فذلك قوله: ﴿ حتى إذا ركبا في السفينة خرقها قال ﴾، له موسى، ﴿ أخرقتها لتغرق أهلها ﴾، قرأ حمزة والكسائي: «ليغـرق» بالياء وفتحها وفتح الراء، ﴿ أهلها ﴾ بالرفع على اللزوم، وقرأ الآخرون بالتاء ورفعها وكسر الراء ﴿ أهلها ﴾ بالنصب على أن الفعل للخضر، ﴿ لقد جئتَ شيئاً إمْراً ﴾ أي منكراً، والإمر في كلام العرب الداهية، وأصله كل شيء شديد كثير، يقال: إمر القوم إذا كثروا واشتد أمرهم. وقال القتيبي: ﴿ إمراً ﴾ أي عجباً. ورُوِيَ أن الخضر لما خرق السفينة لم يدخلها الماء. ورُوِيَ أن موسى لمّا رأى ذلك أخذ ثوبه فحشى به الخرق. ورُوِيَ أن الخضر أخذ قدحاً من الزجاج ورقع به خرق السفينة.

﴿ قال ﴾، العالم وهو الخضر، ﴿ ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبراً ﴾.

﴿ قال ﴾، موسى، ﴿ لا تؤاخذني بما نسيت ﴾، قال ابن عباس: إنه لم ينسَ ولكنه من معاريض الكلام، فكأنه نسي شيئاً آخر. وقيل: معناه بما تركت من عهدك والنسيان الترك. وقال أُبيّ بن كعب عن النبي ﷺ: «كانت الأولى من موسى نسياناً والوسطى شرطاً والثالثة عمداً». ﴿ ولا ترهقني ﴾، ولا تغشني، ﴿ من أمري عسراً ﴾، وقيل: لا تكلفني مشقّة، يقال أرهقته عسراً أي كلّفته ذلك، يقول لا تضيق على أمري وعاملني باليسر ولا تعاملني بالعسر.

الترك وقال أبي بن كعب عن النبي ﷺ «كانت الأولى من موسى نسياناً والثانية شرطاً والثالثة عمداً» ﴿ولا ترهقني﴾ أي لا تغشني ﴿من أمري عسراً﴾ والمعنى لا تعسر علي متابعتك وسيرها بالأغضاء وترك المناقشة وقيل لا تكلفني مشقة ولا تضيق علي أمري. ﴿فانطلقا حتى إذا لقيا غلاماً فقتله﴾ في القصة أنهما خرجا من البحر يمشيان فمرا بغلمان، يلعبون فأخذ الخضر غلاماً ظريفاً وضيء الوجه كان وجهه يتوقد حسناً فأضجعه ثم ذبحه بالسكين، وروينا أنه أخذ برأسه فاقتلعه. وروى عبدالرزاق هذا الخبر وفيه أشار بأصابعه الثلاث الإبهام والسبابة والوسطى وقلع رأسه. وروي أنه رضخ رأسه بحجر وقيل ضرب رأسه بالجدار فقتله. قال ابن عباس: كان غلاماً لم يبلغ الحنث ولم يكن نبي الله موسى يقول أقتلت نفساً زاكية، إلا وهو صبي لم يبلغ الحنث، وقيل كان رجلاً وقيل كان اسمه حيسور وقيل كان فتى يقطع الطريق ويأخذ المتاع ويلجأ إلى أبويه. وقيل كان غلاماً يعمل بالفساد ويتأذى منه أبواه. (ق) عن أبي بن كعب قال: قال رسول رسول الله ﷺ «إن الغلام الذي قتله الخضر طبع كافراً ولو عاش لأرهق أبويه طغياناً وكفراً» لفظ مسلم ﴿قال﴾ يعني موسى ﴿أقتلت نفساً زكية﴾ أي لم تذنب قط وقرىء زكية وهي التي أذنبت ثم تابت ﴿بغير نفس﴾ أي لم تقتل نفساً حتى يجب عليها القتل ﴿لقد جئت شيئاً نكراً﴾ أي منكراً عظيماً، وقيل النكر أعظم من الأمر لأنه حقيقة

﴿ فانطلقا حتى إذا لقيا غلاماً فقتله ﴾، في القصة أنهما خرجا من البحر يمشيان فمرّا بغلمان يلعبون فأخذ الخضر غلاماً ظريفاً وضيء الوجه فأضجعه ثم ذبحه بالسكين. قال السدي: كان أحسنهم وجهاً وكان وجهه يتوقّد حُسْناً. وروينا أنه أخذ برأسه فاقتلعه بيده. وروى عبد الرزاق هذا الخبر، وأشار بأصابعه الثلاث الإبهام والسبابة والوسطى، وقلع برأسه. ورُوِيَ أنه رضخ رأسه بالحجارة. وقيل: ضرب رأسه بالجدار فقتله. قال ابن عباس: كان غلاماً لم يبلغ الحنث، وهو قول الأكثرين، قال ابن عباس: لم يكن نبي الله يقول: أقتلت نفساً زكية إلّا وهو صبي لم يبلغ، وقال الحسن: كان رجلاً. وقال شعيب الجبائي: كان اسمه حيسور. قال الكلبي: كان فتى يقطع الطريق ويأخذ المتاع ويلجأ إلى أبويه. وقال الضحاك: كان غلاماً يعمل بالفساد وتأذى منه أبواه، أخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر أنا عبد الغافر بن محمد أنا محمد بن عيسى الجلودي أنبأنا إبراهيم بن محمد بن سفيان ثنا مسلم بن الحجاج أنبأنا عبد الله بن مسلمة بن مغيث ثنا معمر بن سليمان عن أبيه عن رقبة بن مصقلة عن أبي إسحاق عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن أُبيّ بن كعب قال : قال رسول الله ﷺ: «إن الغلام الذي قتله الخضر طبع كافراً ولو عاش لأرهق أبويه طغياناً وكفراً». ﴿ قال ﴾. موسى، ﴿ أقتلتَ نفساً زكيةً ﴾، قرأ ابن كثير ونافع وأبو جعفر وأبو عمرو: «زاكيــة» بالألف، وقرأ الآخرون زكية، قال الكسائي والفراء: معناهما واحد، مثل: القاسية والقسية، وقال أبو عمر بن العلاء: الزاكية التي لم تذنب قطّ، والزكية التي أذنبت ثم تابت، ﴿ بغير نفس ﴾، أي لم تقتل نفساً بشيء وجب به عليها القتل، ﴿ لقد جئتَ شيئاً نكراً ﴾، أي: منكراً. قال قتادة: النكر أعظم من الأمر لأنه حقيقة الهلاك، وفي خرق السفينة كان خوف الهلاك، وقيل: الأمر أعظم لأنه كان فيه تغريق جمع كثير. قرأ نافع وابن عامر ويعقوب وأبو بكر ههنا ﴿ نكراً ﴾ وفي سورة الطلاق [٨] بضم الكاف، والآخرون بسكونها.

﴿ قال ﴾، يعني الخضر: ﴿ ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبراً ﴾، قيل: زاد هنالك لأنه نقض العهد مرتين، وفي القصة أن يوشع كان يقول لموسى يا نبي الله اذكر العهد الذي أنت عليه.

﴿ قال ﴾، موسى، ﴿ إن سألتك عن شيء بعدها ﴾، بعد هذا المرة، ﴿ فلا تصاحبني ﴾، وفارقني، وقرأ يعقوب: ﴿ فلا تصاحبني ﴾ بغير ألف من الصحبة. ﴿ قد بلغتَ من لدنّي عُذراً ﴾، قرأ أبو جعفر ونافع وأبو بكر ﴿ من لدني ﴾ خفيفة النون، وقرأ الآخرون، بتشديدها، قال ابن عباس: أي قد أعذرتَ فيما بيني وبينك. وقيل:

الهلاك، وفي خرق السفينة خوف الهلاك، وقيل الأمر أعظم لأن فيه تغريق جمع كثير، وقيل معناه لقد جئت شيئاً أنكر من الأول لأن ذاك كان خرقاً يمكن تداركه بالسد وهذا لا سبيل إلى تداركه ﴿**قال**﴾ يعني الخضر ﴿**ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبراً**﴾ قيل زاد في هذه الآية قوله لك لأنه نقض العهد مرتين، وقيل إن هذه اللفظة توكيد للتوبيخ فعند هذا ﴿**قال**﴾ موسى ﴿**إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني**﴾ قيل إن يوشع كان يقول لموسى يا نبي الله اذكر العهد الذي أنت عليه، قال موسى إن سألتك عن شيء بعد هذه المرة فلا تصاحبني، أي فارقني لا تصاحبني ﴿**قد بلغت من لدني عذراً**﴾ قال ابن عباس: أي قد أعذرت فيما بيني وبينك، وقيل معناه اتضح لك العذر في مفارقتي والمعنى أنه مدحه بهذه الطريقة من حيث أنه احتمله مرتين أولاً وثانياً مع قرب المدة (ق) عن أبي بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ «رحمة الله علينا وعلى موسى وكان إذا ذكر أحداً من الأنبياء بدأ بنفسه لولا أنه عجل لرأى العجب، ولكنه أخذته من صاحبه ذمامة فقال إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني قد بلغت من لدني عذراً فلو صبر لرأى العجب» قوله ذمامة هو بذال معجمة أي حياء وإشفاق من الذم واللوم، يقال ذممته ذمامة يعني لمته ملامة ويشهد له قول الخضر هذا فراق بيني وبينك.

قوله سبحانه وتعالى ﴿**فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية**﴾ قال ابن عباس: يعني أنطاكية وقيل الأيلة وهي أبعد الأرض من السماء وقيل هي بلدة بالأندلس ﴿**استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما**﴾ قال أبي بن كعب عن النبيّ ﷺ «أتيا أهل قرية لئاماً فطافا في المجلس فاستطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما». وروي أنهما طافا في القرية فاستطعماهم فلم يطعموهما واستضافاهم فلم يضيفوهما. وعن أبي هريرة قال: أطعمتهما امرأة من أهل بربر بعد أن طلبا من الرجال فلم يطعموهما فدعا لنسائهم ولعن رجالهم. وعن قتادة قال: شر القرى التي لا تضيف الضيف ﴿**فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقض**﴾ أي يسقط وهذا من مجاز الكلام لأن الجدار لا إرادة له، وإنما معناه قرب ودنا من السقوط كما تقول

قد حذّرتني أني لا أستطيع معك صبراً. وقيل: اتضح لك العذر في مفارقتي. أخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر أنبأنا عبد الغافر بن محمد أنبأنا محمد بن عيسى ثنا إبراهيم بن محمد بن سفيان ثنا مسلم بن الحجّاج ثنا محمد بن عبد علي القيسي ثنا المعتمر بن سليمان عن أبيه عن رقبة عن أبي إسحاق عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن أُبيّ بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: «رحمة الله علينا وعلى موسى»، وكان إذا ذكر أحداً من الأنبياء بدأ بنفسه، «لولا أنه عجّل لرأى العجب، ولكنه أخذته من صاحبه ذمامة، قال: ﴿ **إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني قد بلغتَ من لدني عذراً** ﴾ فلو صبر لرأى العجب».

قوله تعالى: ﴿ **فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية** ﴾، قال ابن عباس: يعني أنطاكيه. وقال ابن سيرين: هي الأيلة وهي أبعد الأرض من السماء. وقيل: برقة. وعن أبي هريرة: بلدة بالأندلس. ﴿ **استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما** ﴾، قال أُبيّ بن كعب عن النبي ﷺ: حتى إذا أتيا أهل قرية لئاماً فطافا في المجالس فاستطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما. ورُوِيَ أنهما طافا في القرية فاستطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما. ورُوِيَ أنهما طافا في القوم فاستطعماهم فلم يطعموهما واستضافوهم فلم يضيفوهما. قال قتادة: شرّ القرى التي لا تضيف الضيف. ورُوِي عن أبي هريرة قال: أطعمتهما امرأة من أهل بربر بعد أن طلبا من الرجال فلم يطعموهما. فدعوا لنسائهم ولعن رجالهم.

قوله تعالى: ﴿ **فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقض** ﴾، أي يسقط، وهذا من مجاز كلام العرب، لأن الجدار لا إرادة له وإنما معناه قَرُبَ ودنا من السقوط، كما تقول العرب: داري تنظر إلى دار فلان إذا كانت تقابلها. ﴿**فأقامه**﴾، أي سواه. ورُوِيَ عن أُبيّ بن كعب عن النبي ﷺ فقال الخضر بيده فأقامه. وقال سعيد بن جبير: مسح الجدار بيده فاستقام. ورُوِيَ عن ابن عباس: هدمه ثم قعد يبنيه. وقال السدي: بلَّ طيناً وجعل يبني الحائط. ﴿ **قال** ﴾ موسى

داري تنظر إلى دار فلان إذا كانت تقابلها، فاستعير لها النظر كما أستعير للجدار الإرادة. ﴿فأقامه﴾ أي سواه، وفي حديث أبي بن كعب عن النبيّ ﷺ فقال الخضر بيده هكذا فأقامه وقال ابن عباس: هدمه وقعد يبنيه. ﴿قال﴾ يعني موسى ﴿لو شئت لاتخذت عليه أجراً﴾ يعني على إصلاح الجدار جعلاً والمعنى أنك قد علمت أنا جياع، وأن أهل القرية لم يطعمونا فلو اتخذت على عملك أجراً.

﴿قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾﴾

﴿قال﴾ يعني الخضر ﴿هذا فراق بيني وبينك﴾ يعني هذا وقت فراق بيني وبينك وقيل إن هذا الإنكار على ترك أخذ الأجر هو المفرق بيننا ﴿سأنبئك﴾ أي سوف أخبرك ﴿بتأويل ما لم تستطع عليه صبراً﴾ وقيل إن موسى أخذ بثوب الخضر وقال أخبرني بمعنى ما عملت قبل أن تفارقني فقال الخضر ﴿أما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر﴾ قيل كانت لعشرة إخوة خمسة زمنى وخمسة يعملون في البحر، أي يؤجرونها ويكتسبون بها، وفيه دليل على أن المسكين وإن كان يملك شيئاً لا يزول عنه اسم المسكنة إذا لم يقم ما يملكه بكفايته، وإن حال الفقير في الضر والحاجة أشد من حال المسكين، لأن الله تعالى سماهم مساكين مع أنهم كانوا يملكون تلك السفينة ﴿فأردت أن أعيبها﴾ أي أجعلها ذات عيب ﴿وكان وراءهم ملك﴾ أي أمامهم وقيل خلفهم وكان رجوعهم في طريقهم عليه والأول أصح. ﴿يأخذ كل سفينة غصباً﴾ أي كل سفينة صالحة فخرقتها وعبتها حتى لا يأخذها الملك الغاصب وكان اسمه الجلندي والأزدي وكان كافراً وقيل اسمه هدد بن بدد، روي أن الخضر اعتذر إلى القوم وذكر لهم شأن الملك الغاصب ولم يكونوا يعلمون بخبره وقال أردت إذا هي تمر به أن يدعها لعيبها فإذا جاوزوا أصلحوها وانتفعوا بها. قوله عز وجل ﴿وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين فخشينا﴾ أي خفنا والخشية خوف يشوبه تعظيم، وأكثر ما يكون عن علم بما يخشى منه، وقيل معناه فعلمنا ﴿أن يرهقهما﴾ أي يغشيهما وقيل يكلفهما ﴿طغياناً وكفراً﴾ قيل معناه فخشينا أن يحملهما حبه على أن يتبعاه على دينه ﴿فأردنا أن يبدلهما ربهما﴾ الإبدال رفع الشيء ووضع آخر مكانه ﴿خيراً منه

﴿ لو شئتَ لاتّخذت عليه أجراً ﴾، قرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب «لتخـذت» بتخفيف التاء وكسر الخاء، وقرأ الآخرون «لتخـذت» بتشديد التاء وفتح الخاء، وهما لغتان مثل اتبع وتبع عليه يعني على إصلاح الجدار، ﴿ أجراً ﴾ يعني جعلاً، معناه: إنك قد علمت وإننا جياع وإن أهل القرية لم يطعمونا فلو أخذت على عملك أجراً.

﴿ قال ﴾ الخضر، ﴿ هذا فراق بيني وبينك ﴾، يعني هذا وقت فراق بيني وبينك. وقيل: هذا الإنكار على ترك الأجْر هو المفرّق بيننا. وقال الزجّاج: معناه هذا فراق بيننا أي فـراق اتصالنـا وكرّر (بيـن) تـأكيداً. ﴿ سأنبئك ﴾، أي سوف أخبرك ﴿ بتأويل ما لم تستطع عليه صبراً ﴾، وفي بعض التفاسـير أن موسى أخذ بثوبه، فقال: أخبرني بمعنى ما عملت قبل أن تفارقني.

فقال: ﴿ أمّا السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر ﴾، قال كعب: كانت لعشرة إخوة خمسة زمنى وخمسة يعملون في البحر. وفيه دليل على أن المسكين وإن كان يملك شيئاً فلا يزول عنه اسم المسكنة إذ لم يقم

زكاة﴾ أي صلاحاً وتقوى، وقيل هو في مقابلة قوله تعالى «أقتلت نفساً زاكية» فقال الخضر أردنا أن يرزقهما الله خيراً منه زكاة ﴿وأقرب رحماً﴾ أي ويكون المبدل منه أقرب عطفاً ورحمة لأبويه، بأن يبرهما ويشفق عليهما قيل أبدلهما جارية فتزوجها نبي من الأنبياء فولدت له نبياً فهدى الله على يديه أمة من الأمم وقيل ولدت سبعين نبياً، وقيل أبدلهما بغلام مسلم وقيل إن الغلام الذي قتل فرح به أبواه حين ولد وحزن عليه حين قتل ولو بقي لكان فيه هلاكهما، فليرض العبد بقضاء الله تعالى فإن قضاء الله سبحانه وتعالى للمؤمن فيما يكره خير له من قضائه فيما يحب.

قوله سبحانه وتعالى ﴿**وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة**﴾ قيل كان اسمهما أصرم وصريم ﴿**وكان تحته كنز لهما**﴾ روى أبو الدرداء عن النبي ﷺ قال «كان الكنز ذهباً وفضة» أخرجه الترمذي. وقيل كان الكنز صحفاً فيها علم. وقال ابن عباس: كان لوحاً من ذهب مكتوباً فيه عجباً لمن أيقن بالموت كيف يفرح عجباً لمن أيقن بالقدر كيف يغضب، عجباً لمن أيقن بالرزق كيف يتعب عجباً لمن أيقن بالحساب كيف يغفل عجباً لمن أيقن بزوال الدنيا وتقلبها بأهلها كيف يطمئن إليها لا إله إلا الله محمد رسول الله وفي الجانب الآخر مكتوب أنا الله لا إله إلا أنا وحدي لا شريك لي خلقت الخير والشر، فطوبى لمن خلقته للخير وأجريته على يديه، والويل لمن خلقته للشر وأجريته على يديه. وقيل الكنز إذا أطلق يراد به المال ومع التقييد يراد به غيره، يقال عند فلان كنز علم وكان هذا اللوح جامعاً لهما ﴿**وكان أبوهما صالحاً**﴾ قيل إن اسمه كاشح وكان من الأتقياء، قال ابن عباس: حفظا بصلاح أبيهما، وقيل كان بينهما وبين الأب الصالح سبعة آباء، قال محمد بن المنكدر: إن الله سبحانه وتعالى يحفظ بصلاح العبد ولده وولد ولده وعشيرته وأهل دويرات حوله، فلا يزالون في حفظ الله ما دام فيهم وقال سعيد بن المسيب: إني لأصلي فأذكر ولدي

ما يملك بكفايته، يعملون في البحر أي يؤاجرون ويكتسبون بها، ﴿ **فأردتُ أن أعيبها** ﴾، أجعلها ذات عيب، ﴿ **وكان وراءهم** ﴾، أي أمامهم، ﴿ **ملِكٌ** ﴾ كقوله: ﴿ من ورائه جهنم ﴾ [إبراهيم: ١٦]، وقيل: وراءهم خلفهم، وكان رجوعهم في طريقهم عليه، والأول أصحّ يدلّ عليه قراءة ابن عباس وكان أمامهم ملك، ﴿ **يأخذ كلَّ سفينة غصباً** ﴾، أي كل سفينة صالحة غصباً وكان ابن عباس يقرأ كذلك فخرقها وعيّبها الخضر حتى لا يأخذها الملك الغاصب، وكان اسمه الجلندي وكان كافراً. قال محمد بن إسحاق اسمه متوله بن جلندي الأزدي. وقال شعيب الجبائي اسمه هدد بن بدد. ورُوِيَ أن الخضر اعتذر إلى القوم وذكر لهم شأن الغاصب، ولم يكونوا يعلمون بخبره، وقال: أردت إذا هي مرّت به أن يدعها لعيبها فإذا جاوزه أصلحوها فانتفعوا بها قيل: سدّوها بقارورة. وقيل: بالقار.

قوله تعالى: ﴿ **وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين فخشينا** ﴾، أي فعلمنا، وفي قراءة ابن عباس وأما الغلام فكان كافراً وكان أبواه مؤمنين فخشينا، أي فعلمنا، ﴿ **أنْ يرهقهما** ﴾، يغشيهما، وقال الكلبي: يكلّفهما، ﴿ **طغياناً وكفراً** ﴾، قال سعيد بن جبير: فخشينا أن يحملهما حبه على أن يتابعاه على دينه.

﴿**فأردنا أن يُبدلهما**﴾، قرأ أبو جعفر ونافع وأبو عمر بالتشديد ههنا وفي سورة التحريم [٥] والقلم [٣٢]، وقرأ الآخرون بالتخفيف، وهما لغتان، وفرّق بعضهم فقال: التبديل تغيير الشيء أو تغيير حاله وعين الشيء قائم والإبدال رفع الشيء ووضع شيء آخر مكانه، ﴿**ربّهما خيراً منه زكاة**﴾، أي صلاحاً وتقوىً، ﴿**وأقرب رُحْماً**﴾، قرأ ابن عامر وأبو جعفر ويعقوب بضم الحاء والباقون بجزمهما أي: عطفاً من الرحمة. وقيل: هو من الرحم والقرابة قال قتادة أي أوصل للرحم وأبرّ بوالديه. قال الكلبي: أبدلهما الله جارية فتزوجها نبي من الأنبياء فولدت له نبياً فهدى الله على يديه أمة من الأمم. وعن جعفر بن محمد عن أبيه قال: أبدلهما الله جارية ولدت سبعين نبيّاً. وقال ابن جريج:

فأزيد في صلاتي. ﴿فأراد ربك أن يبلغا أشدهما﴾ أي يدركا ويعقلا قوتهما، وهو البلوغ وقيل ثمان عشرة سنة. فإن قلت كيف قال في الأولى فأردت وفي الثانية فأردنا وفي الثالثة فأراد ربك وما وجه كل واحدة في هذه الألفاظ. قلت إنه لما ذكر العيب أضافه إلى نفسه على سبيل الأدب مع الله تعالى، فقال فأردت أن أعيبها ولما ذكر القتل عبر عن نفسه بلفظ الجمع تنبيهاً على أنه من العلماء العظماء في علم الباطن وعلوم الحكمة، وأنه لم يقدم على مثل هذا القتل إلا بحكمة عالية، ولما ذكر رعاية المصالح في مال اليتيمين لأجل صلاح أبيهما أضافه إلى الله سبحانه وتعالى لأن حفظ الأبناء وصلاح أحوالهم لرعاية حق الآباء ليس إلا لله سبحانه وتعالى، فلأجل ذلك أضافه إلى الله تعالى ﴿ويستخرجا كنزهما﴾ يعني إذا بلغا وعقلا وقويا ﴿رحمة من ربك﴾ أي نعمة من ربك ﴿وما فعلته عن أمري﴾ أي باختياري ورأيي بل فعلته بأمر الله وإلهامه إياي لأن تنقيص أموال الناس وإراقة دمائهم وتغيير أصولهم، لا يكون إلا بالنص وأمر الله تعالى. واستدل بعضهم بقوله سبحانه وتعالى وما فعلته عن أمري على أنه الخضر كان نبياً لأن هذا يدل على الوحي وذلك للأنبياء، والصحيح أنه ولي لله وليس بنبي. وأجيب عن قوله سبحانه وتعالى وما فعلته عن أمري إنه إلهام من الله سبحانه وتعالى له بذلك، وهذه درجة الأولياء. وقيل معناه إنما فعلت هذه الأفعال لغرض أن تظهر رحمة الله لأنها بأسرها ترجع إلى معنى واحد وهو تحمل الضرر الأدنى لدفع الضرر الأعلى.

﴿ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبراً﴾ أي لم تطق أن تصبر عليه. روي أن موسى عليه السلام لما أراد أن يفارق الخضر قال: أوصني قال: لا تطلب العلم لتحدث به واطلب العلم لتعمل به. واختلف العلماء في أن الخضر حي أم ميت فقيل إنه حي وهو قول الأكثرين من العلماء وهو متفق عليه عند مشايخ الصوفية وأهل الصلاح والمعرفة

أبدلهما بغلام مسلم. قال مطرف: فرح به أبواه حين ولد وحزنا عليه حين قتل. ولو بقي لكان فيه هلاكهما، فليرضَ أمرؤٌ بقضاء الله تعالى، فإن قضاء الله للمؤمن فيما يكره خير له من قضائه فيما يحب.

قوله تعالى: ﴿ وأمّا الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة ﴾، وكان اسمهما أصرم وصريم، ﴿ وكان تحته كنز لهما﴾، اختلفوا في ذلك الكنز، رُوِيَ عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ أنه قال: «كان ذهباً وفضة». وقال عكرمة: كان مالاً. وعن سعيد بن جبير: كان الكنز صحفاً فيها علم. وعن ابن عباس: أنه قال كان لوحاً من ذهب مكتوباً فيه عجباً لمَن أيقن بالموت كيف يفرح، عجباً لمَن أيقن بالحساب كيف يغفل، عجباً لمَن أيقن بالرزق كيف يتعب، عجباً لمَن أيقن بالقدر كيف ينصب، عجباً لمَن أيقن بزوال الدنيا وتقلبها بأهلها كيف يطمئن إليها، لا إلّه إلّا الله محمد رسول الله. وفي الجانب الآخر مكتوب أنا الله لا إلّه إلّا أنا وحدي لا شريك لي خلقت الخير والشر، فطوبى لمَن خلقته للخير وأجريته على يديه، وهذا قول أكثر المفسرين. ورُوِيَ ذلك مرفوعاً. قال الزجّاج: الكنز إذا أُطلق ينصرف إلى كنز المال ويجوز عند التقييد أن يقال عنده كنـز علم، وهذا اللوح كان جامعاً لهما. ﴿ وكان أبوهما صالحاً ﴾، قيل: كان اسمه كاشح وكان من الأتقياء. قال ابن عباس: حُفظاً بصلاح أبيهما، وقيل: كان بينهما وبين الأب الصالح سبعة آباء، قال محمد بن المنكدر: إن الله يحفظ بصلاح العبد ولده وولد ولده، وعترته وعشيرته وأهل دويرات حوله، فما يزالون في حفظ الله ما دام فيهم. قال سعيد بن المسيب: إني لأصلّي فأذكر ولدي فأزيد في صلاتي. قوله عزّ وجلّ: ﴿ فأراد ربك أن يبلغا أشدّهما ﴾، أي يبلغا ويعقلا. وقيل: أن يدركا شدّتهما وقوتهما. وقيل: ثمان عشرة سنة، ﴿ ويستخرجا ﴾ حينئذ ﴿ كنزهما رحمةً ﴾، نعمة، ﴿ من ربك وما فعلته عن أمري ﴾، أي باختياري ورأيي، بل فعلته بأمر الله وإلهامه، ﴿ وذلك تأويل ما لم تسطعْ عليه صبراً ﴾، أي لم تطق عليه صبراً، واستطاع واسطاع بمعنى واحد، رُوِيَ أن موسى لمّا أراد أن يفارقه قال له: أوصني، قال : لا تطلب العلم لتحدّث به واطلبه لتعمل به. واختلفوا في أن الخضر حيّ أم ميت؟ قيل: إن الخضر وإلياس حيّان يلتقيان كل سنة

والحكايات في رؤيته والاجتماع به، ووجوده في المواضع الشريفة ومواطن الخير أكثر من آن تحصر، قال الشيخ أبو عمرو بن الصلاح في فتاواه: هو حي عند جماهير العلماء والصالحين والعامة. هذا آخر كلامه، وقيل إن الخضر وإلياس حيان يلتقيان كل سنة بالموسم وكان السبب في حياة الخضر فيما حكي أنه شرب من عين الحياة وذلك أن ذو القرنين دخل الظلمة لطلب عين الحياة، وكان الخضر على مقدمته فوقع الخضر على العين فاغتسل وشرب منها وصلى شكراً لله تعالى وأخطأ ذو القرنين الطريق، فرجع وذهب آخرون إلى أنه ميت لقوله سبحانه وتعالى وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد وقال النبيّ ﷺ بعدما صلى العشاء ليلة «أرأيتكم ليلتكم هذه فإن على رأس مائة سنة لا يبقى ممن هو اليوم على ظهر الأرض أحد ولو كان الخضر حياً لكان لا يعيش بعده».

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾﴾

وقوله عز وجل ﴿**ويسألونك عن ذي القرنين**﴾ قيل اسمه مرزبان بن مرزبة اليوناني من ولد يونان بن يافث بن نوح وقيل اسمه الاسكندر بن فيلفوس كذا صح الرومي، وكان ولد عجوز ليس لها ولد غيره ونقل الإمام فخرالدين في تفسيره عن أبي الريحان السروري المنجم في كتابه المسمى بالآثار الباقية عن القرون الخالية أنه من حمير واسمه أبو كرب سمي ابن عير بن أبي أفريقيس الحميري وهو الذي افتخر به أحد شعراء حمير حيث يقول:

قد كان ذو القرنين جدي مسلماً ملكاً علا في الأرض غير مفند
بلغ المشارق والمغارب يبتغي أسباب ملك من كريم مرشد
فرأى مآب الشمس عند غروبها في عين ذي خلب وثأطة حرمد

قوله فرأى مآب الشمس، أي ذهاب الشمس وقوله في عين ذي خلب أي حمأة، والثأطة الحمأة أيضاً والجمع

بالموسم. وقيل: ميت وكان سبب حياته فيما يحكى أنه شرب من عين الحياة، وذلك أن ذا القرنين دخل الظلمات لطلب عين الحياة. وكان الخضر على مقدمته، فوقع الخضر على العين فنزل واغتسل وشرب وصلّى شكراً لله عزّ وجلّ، وأخطأ ذو القرنين الطريق فعاد. وذهب آخرون إلى أنه ميت لقوله تعالى: ﴿ وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد ﴾ [الأنبياء: ٣٤]، وقال النبي ﷺ بعدما صلّى العشاء ليلة: «أرأيتكم ليلتكم هذه فإن على رأس مائة سنة منها لا يبقى ممّن هو اليوم حيّ على ظهر الأرض أحد، ولو كان الخضر حيّاً لكان لا يعيش بعده».

قوله تعالى: ﴿ **ويسألونك عن ذي القرنين قلْ سأتلوا عليكم منه ذكراً** ﴾، خبراً، واختلفوا في نبوّته فقال بعضهم: كان نبيّاً، وقال أبو الطفيل سُئِلَ عليّ رضي الله عنه عن ذي القرنين أكان نبيّاً أم ملكاً، قال: لم يكن نبيّاً ولا ملكاً ولكن كان عبداً أحبَّ الله وأحبّه الله ناصح الله فناصحه الله. ورُوِيَ أن عمر رضي الله عنه سمع رجلاً يقول لآخر: يا ذا القرنين فقال سمّيتم بأسماء النبيّين فلم ترضوا حتى تسمّيتم بأسماء الملائكة. والأكثرون على أنه كان ملكاً عادلاً صالحاً. واختلفوا في سبب تسميته بذي القرنين، قال الزهري: لأنه بلغ قرني الشمس مشرقها ومغربها. وقيل: لأنه كان ملك الروم وفارس. وقيل: لأنه دخل النور والظلمة. وقيل لأنه رأى في المنام كأنه أخذ بقرني

ثأط والحرمد الطين الأسود. وقيل سمي ذا القرنين لأنه بلغ قرني الشمس مشرقها ومغربها، وقيل لأنه ملك فارس والروم وقيل لأنه دخل النور والظلمة، وقيل لأنه رأى في المنام كأنه أخذ بقرني الشمس وقيل لأنه كان له ذؤابتان حسنتان، وقيل كان له قرنان تورايهما العمامة، وروي عن علي أنه أمر قومه بتقوى الله فضربوه على قرنه الأيمن فمات فأحياه الله ثم بعثه فأمرهم بتقوى الله فضربوه على قرنه الأيسر فمات فأحياه الله. واختلفوا في نبوته فقيل كان نبياً ويدل عليه قوله سبحانه وتعالى قلنا يا ذا القرنين وخطاب الله لا يكون إلا مع الأنبياء وقيل لم يكن نبياً. قال أبو الطفيل: سئل علي عن ذي القرنين أكان نبياً فقال: لم يكن نبياً ولا ملكاً ولكن كان عبداً أحب الله فأحبه الله وناصح الله، فناصحه الله. وروي أن عمر سمع رجلاً يقول لآخر يا ذا القرنين فقال تسميتم بأسماء الأنبياء، فلم ترضوا حتى تسميتم بأسماء الملائكة والأصح الذي عليه الأكثرون أنه كان ملكاً صالحاً عادلاً وأنه بلغ أقصى المغرب والمشرق والشمال والجنوب وهذا هو القدر المعمور من الأرض، وذلك أنه لما مات أبوه جمع ملك الروم بعد أن دان له طوائف ثم مضى إلى ملوك العرب وقهرهم، ومضى حتى انتهى إلى البحر الأخضر، ثم رجع إلى مصر وبنى الإسكندرية، وسماها باسمه ثم دخل الشام وقصد بيت المقدس وقرب فيه القربان، ثم انعطف إلى أرمينية وبوب الأبواب وبنى السد ودانت له ملوك العراق والنبط والبربر. واستولى على ممالك الفرس ثم مضى إلى الهند والصين وغزا الأمم البعيدة ثم رجع إلى العراق ومرض بشهرزور ومات بها وحمل إلى حيث هو مدفون وقيل إن عمره كان ألفاً وثلاثين سنة ومثل هذا الملك البسيط الذي هو على خلاف العادات وجب أن يبقى ذكره مخلداً على وجه الأرض فذلك قوله سبحانه وتعالى ﴿**ويسألونك**

الشمس. وقيل: لأنه كانت له ذؤابتان حسنتان. وقيل: لأنه كان له قرنان تواريهما العمامة. وروى أبو الطفيل عن عليّ أنه قال: سُمّي ذا القرنين لأنه أمر قومه بتقوى الله، فضربوه على قرنه الأيمن فمات فبعثه الله، ثم أمرهم بتقوى الله فضربوه على قرنه الأيسر فمات، فأحياه الله، واختلفوا في اسمه قيل: اسمه مرزبان بن مرزبة اليوناني من ولد يونان بن يافث بن نوح. وقيل: اسمه الإسكندر بن فيلفوس بن ياملوس الرومي.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ **إنّا مكنّا له في الأرض** ﴾، أوطأنا، والتمكين: تمهيد الأسباب. وقال علي: سخّر له السحاب فحمله عليها، ومدّ له في الأسباب وبسط له النور فكان الليل والنهار عليه سواء، فهذا معنى تمكّنه في الأرض، وهو أنه سهّل عليه السير فيها وذلّل له طُرقَها. ﴿ **وآتيناه من كل شيء** ﴾ أي: من كل شيء يحتاج إليه الخلق. وقيل: من كل ما يستعين به الملوك على فتح المدن ومحاربة الأعداء، ﴿**سبباً**﴾، أي: علماً يتسبب به إلى كل ما يريد، ويسير به في أقطار الأرض، والسبب: ما يوصل به إلى الشيء. وقال الحسن: بلاغاً إلى حيث أراد. وقيل: قربنا إليه أقطار الأرض.

﴿ **فأتبع سبباً** ﴾، أي: سلك وسار طريقاً، قرأ أهل الحجاز والبصرة فاتبع ثم اتبع موصولاً مشدداً، وقرأ الآخرون بقطع الألف وجزم التاء: وقيل: معناهما واحد، والصحيح الفرق بينهما فمَن قطع الألف فمعناه أدرك ولحق، مَن قرأ بالتشديد فمعناه سار، يقال: ما زلت أتبعه حتى اتّبعته أي: ما زلت أسير خلفه حتى لحقته. وقوله: سبباً أي طريقاً. وقال ابن عباس: منزلاً.

﴿ **حتى إذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب في عين حمئة** ﴾، قرأ أبو جعفر وأبو عامر وحمزة والكسائي وأبو بكر «حـامية» بالألف غير مهموزة، أي حارّة، وقرأ الآخرون «حمئـة» مهموزاً بغير الألف أي ذات حماة، وهي الطينة السوداء، وسأل معاوية كعباً كيف تجد في التوراة أن تغرب الشمس؟ قال: نجد في التوراة أنها تغرب في ماء وطين. قال القتيبي: يجوز أن يكون معنى قوله: ﴿ **في عين حمئة** ﴾ أي عندها عين حمئة أو في رأي العين.

عن ذي القرنين قل سأتلوا عليكم منه ذكراً﴾ أي خبراً يتضمن حاله. قوله سبحانه وتعالى ﴿إنا مكنا له في الأرض﴾ أي وطأنا له والتمكين تمهيد الأسباب، قال علي سخر الله له السحاب فحمل عليه ومد له في الأسباب، وبسط له النور فكان الليل والنهار عليه سواء وسهل عليه السير في الأرض وذلل له طريقها. ﴿وآتيناه من كل شيء﴾ ما يحتاج إليه الخلق وكل ما يستعين به الملوك على فتح المدن ومحاربة الأعداء ﴿سبباً﴾ أي علماً يتسبب به إلى كل ما يريده ويسير به في أقطار الأرض وقيل بلاغاً إلى حيث أراد، وقيل قربنا له أقطار الأرض ﴿فأتبع سبباً﴾ أي سلك طريقاً ﴿حتى إذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب في عين حمئة﴾ أي ذات حماة وهي الطينة السوداء، وقرىء حامية أي حارة، وسأل معاوية كعباً: كيف تجد في التوراة تغرب الشمس وأين تغرب؟ قال: نجد في التوراة أنها تغرب في ماء وطين. وقيل يجوز أن يكون معنى في عين حمئة أي عندها عين حمئة، أو في رأي العين، وذلك أنه بلغ موضعاً من المغرب لم يبق بعده شيء من العمران فوجد الشمس كأنها تغرب في وهدة مظلمة. كما أن راكب البحر يرى أن الشمس كأنها تغيب في البحر ﴿ووجد عندها قوماً﴾ أي عند العين أمة، قال ابن جريج: مدينة لها اثنا عشر ألف باب يقال إنها الجاسوس واسمها بالسريانية حريحسا سكنها قوم من نسل ثمود الذين آمنوا بصالح لولا ضجيج أهلها، لسمع الناس وجبة الشمس حين تجب أي تغيب ﴿قلنا يا ذا القرنين﴾ يستدل بهذا من يزعم أنه كان نبياً فإن الله خاطبه ومن قال إنه لم يكن نبياً قال المراد منه الإلهام وقيل يحتمل أن يكون الخطاب على لسان غيره ﴿إما أن تعذب﴾ يعني تقتل من لم يدخل في الإسلام.

﴿وإما أن تتخذ فيهم حسناً﴾ يعني تعفو وتصفح وقيل تأسرهم فتعلمهم الهدى، خيره الله سبحانه وتعالى بين الأمرين ﴿قال أما من ظلم﴾ أي كفر ﴿فسوف نعذبه﴾ أي نقتله ﴿ثم يرد إلى ربه﴾ أي في الآخرة ﴿فيعذبه عذاباً نكراً﴾ أي منكراً يعني بالنار لأنها أنكر من القتل ﴿وأما من آمن وعمل صالحاً فله جزاء الحسنى﴾ أي جزاء أعماله الصالحة ﴿وسنقول له من أمرنا يسراً﴾ أي نلين له القول ونعامله باليسر من أمرنا ﴿ثم أتبع سبباً﴾ أي سلك طريقاً ومنازل ﴿حتى إذا بلغ مطلع الشمس وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها ستراً﴾ قيل إنهم كانوا في مكان ليس بينهم وبين

﴿ ووجد عندها قوماً ﴾، أي عند العين أمة قال ابن جريج مدينة لها اثنا عشر ألف باب، لولا ضجيج أهلها لسمعت وجبة الشمس حين تجب. ﴿ قلنا يا ذا القرنين ﴾، يستدلّ بهذا مَن زعم أنه كان نبيّاً فإن الله تعالى خاطبه، والأصح أنه لم يكن نبياً والمراد منه الإلهام، ﴿أمّا أن تعذب﴾، يعني إمّا أن تقتلهم إن لم يدخلوا في الإسلام، ﴿ وإمّا أن تتخذ فيهم حسناً ﴾، يعني تعفو وتصفح. وقيل: تأسرهم فتعلّمهم الهدى، خيّره اللّهُ بين الأمرين.

﴿ قال أمّا مَن ظلم ﴾، كفر، ﴿ فسوف نعذبه ﴾، أي: نقتله، ﴿ ثم يردّ إلى ربه ﴾، في الآخرة ﴿ فيعذبه عذاباً نكراً ﴾ أي: منكراً يعني بالنار، والنار أنكر من القتل.

﴿ وأما مَن آمن وعمل صالحاً فله جزاءً الحسنى ﴾، قرأ حمزة والكسائي وأبو جعفر ويعقوب ﴿ جزاء ﴾ منصوباً منوّناً أي: فله الحسنى ﴿ جزاء ﴾ نصب على المصدر، وقرأ الآخرون بالرفع على الإضافة، والحسنى الجنة وإضافة الحُسن إليها كما قال: ﴿ ولدار الآخرة خيرٌ ﴾ [يوسف: ١٠٩، والنحل: ٣٠]، والدار هي الآخرة. وقيل: المراد بالحسنى على هذه القراءة الأعمال الصالحة. أي له جزاءُ الأعمال الصالحة. ﴿ وسنقول له من أمرنا يُسراً ﴾، أي نلين له القول ونعامله باليسر من أمرنا. وقال مجاهد: يسراً أي معروفاً.

﴿ ثم أتبع سبباً ﴾، أي سلك طرقاً ومنازل.

﴿ حتى إذا بلغَ مَطْلِعَ الشمس ﴾، أي موضع طلوعها، ﴿ وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها

الشمس ستر من جبل ولا شجر ولا يستقر عليهم بناء، فإذا طلعت الشمس دخلوا في أسراب لهم تحت الأرض، فإذا زالت الشمس عنهم خرجوا إلى معايشهم وحروثهم. وقيل إنهم كانوا إذا طلعت الشمس نزلوا في الماء فإذا ارتفعت عنهم خرجوا فرعوا كالبهائم، وقيل هم قوم عراة يفترش أحدهم إحدى أذنيه ويلتحف بالأخرى، وقيل إنهم قوم من نسل مؤمني قوم هود واسم مدينتهم جابلق واسمها بالسريانية مرقيسيا وهم مجاورون يأجوج ومأجوج. قوله سبحانه وتعالى ﴿كذلك﴾ أي كما بلغ مغرب الشمس كذلك بلغ مطلعها، وقيل معناه أنه حكم في القوم الذين هم عند مطلع الشمس كما حكم في القوم الذين عند مغربها وهو الأصح.

﴿وقد أحطنا بما لديه خبراً﴾ أي علماً بما عنده ومن معه من الجند والعدة وآلات الحرب، وقيل معناه وقد علمنا حين ملكناه ما عنده من الصلاحية بذلك الملك والاستقلال به والقيام بأمره. قوله عز وجل:

﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا۟ يَـٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾﴾

﴿ثم أتبع سبباً حتى إذا بلغ بين السدين﴾ هما هنا جبلان في ناحية الشمال في منقطع أرض الترك حكي أن الواثق بعث بعض من يثق به من أتباعه إليه ليعاينوه، فخرجوا من باب من الأبواب حتى وصلوا إليه وشاهدوه فوصفوا أنه بناء من لبن حديد مشدود بالنحاس المذاب وعليه باب مقفل ﴿وجد من دونهما قوماً﴾ أي أمام السدين قيل هم الترك ﴿لا يكادون يفقهون قولاً﴾ قال ابن عباس: لا يفهمون كلام أحد ولا يفهم الناس كلامهم ﴿قالوا يا ذا القرنين﴾ فإن قلت كيف أثبت لهم القول وهم لا يفهمون. قلت تكلم عنهم مترجم ممن هو مجاورهم ويفهم كلامهم، وقيل معناه لا

ستراً ﴾، قال قتادة والحسن: لم يكن بينهم وبين الشمس ستر، وذلك أنهم كانوا في مكان لا يستقر عليه بناء، فكانوا يكونون في أسراب لهم حتى إذا زالت الشمس عنهم خرجوا إلى معايشهم وحروثهم. وقال الحسن: كانوا إذا طلعت الشمس يدخلون الماء، فإذا ارتفعت عنهم خرجوا فرعوا كالبهائم. وقال الكلبي: هم قوم عراة يفترش أحدهم إحدى أذنيه ويلتحف بالأخرى.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ **كذلك** ﴾، قيل: معناه كما بلغ مغرب الشمس كذلك بلغ مطلعها، والصحيح أن معناه كما حكم في القوم الذين هم عند غروب الشمس كذلك حكم في الذين هم عند طلوع الشمس، ﴿ **وقد أحطنا بما لديه خُبراً** ﴾، يعني بما عنده ومعه من الجند والعدّة والآلات خبراً أي علماً.

﴿ **ثم أتبعَ سبباً** ﴾.

﴿ **حتى إذا بلغ بين السدين** ﴾، قرأ ابن كثير وأبو عمرو وحفص ﴿ **السدّين** ﴾ و«سـدّاً» ههنا بفتح السين وافق حمزة والكسائي في «سـدّاً» وقرأ الآخرون بضم السين وفي يّس [٩] ﴿ سدّاً ﴾ بالفتح حمزة وحفص، وقرأ الباقون بالضم، منهم مَن قال هما لغتان معناهما واحد. وقال عكرمة: ما كان من صنعة بني آدم فهو السدّ بالفتح، وما كان من صنع الله فهو سدّ بالضم. وقاله أبو عمرو. وقيل: السدّ بالفتح مصدر وبالضم اسم، وهما هنا جبلان سدد، والقرنين ما بينهما حاجزاً بين يأجوج ومأجوج ومن ورائهم. ﴿ **وجد من دونهما قوماً** ﴾ يعني: أمام السدّين. ﴿ **لا يكادون يفقهون قولاً** ﴾، قرأ حمزة والكسائي يفقهون بضم الياء وكسر القاف على معنى لا يفهمون غيرهم قولاً، وقرأ الآخرون بفتح الياء والقاف، أي لا يفهمون كلام غيرهم، قال ابن عباس: لا يفهمون كلام أحد ولا يفهم الناس كلامهم.

يكادون يفقهون قولاً إلا بجهد ومشقة من إشارة ونحوها كما يفهم الخرس ﴿إن يأجوج ومأجوج﴾ أصلهما من أجيج النار وهو ضوؤها وشررها شبهوا به لكثرتهم وشدتهم، وهم من أولاد يافت بن نوح والترك منهم قيل إن طائفة منهم خرجت تغير فضرب ذو القرنين السد فبقوا خارجه فسموا الترك لذلك لأنهم تركوا خارجين. قال أهل التواريخ: أولاد نوح ثلاثة سام وحام ويافت فسام أبو العرب والعجم والروم وحام أبو الحبشة والزنج والنوبة ويافث أبو الترك والخزر والصقالبة ويأجوج ومأجوج قال ابن عباس «هم عشرة أجزاء وولد آدم كلهم جزء» وروى حذيفة مرفوعاً «أن يأجوج ومأجوج أمة، وكل أمة أربعة آلاف أمة لا يموت الرجل منهم حتى ينظر ألف ذكر من صلبه قد حمل السلاح، وهم من ولد آدم يسيرون إلى خراب الدنيا، وقال هم ثلاثة أصناف صنف منهم أمثال الأرز شجر بالشام طوله عشرون ومائة ذراع في السماء، وصنف منهم عرضه وطوله سواء عشرون ومائة ذراع وهؤلاء لا يقوم لهم جبل ولا حديد، وصنف منهم يفترش أحدهم أذنه ويلتحف بالأخرى لا يمرون بفيل ولا وحش ولا خنزير إلا أكلوه ومن مات منهم أكلوه، مقدمتهم بالشام وساقتهم بخراسان يشربون أنهار المشرق وبحيرة طبرية.

وعن علي: منهم من طوله شبر، ومنهم من هو مفرط في الطول. وقال كعب: هم نادرة في ولد آدم وذلك أن آدم احتلم[1] ذات يوم، وامتزجت نطفته بالتراب، فخلق الله من ذلك الماء يأجوج ومأجوج فهم متصلون بنا من جهة

﴿ قالوا يا ذا القرنين ﴾ فإن قيل: كيف قالوا ذلك وهم لا يفهمون؟ قيل: كلم عنهم مترجم، دليله قراءة ابن مسعود: لا يكادون يفقهون قولاً قال الذيـن من دونهم يا ذا القرنين. ﴿ إن يأجوج ومأجوج ﴾، قرأهما عاصم مهموزين، والآخرون بغير همز، وهما لغتان أصلهما من أجيج النار، وهو ضوؤها وشررها، شبّهوا به لكثرتهم وشدّتهم، وقيل: بالهمزة من أجيج النار ويترك الهمز اثنان أعجميان، مثل هاروت وماروت، وهم من أولاد يافث بن نوح. قال الضحاك: هم جيل من الترك. قال السدي: الترك سريّة من يأجوج ومأجوج، خرجت فضرب ذو القرنين السدّ، فبقيت خارجه، فجميع الترك منهم. وعن قتادة: أنهم اثنان وعشرون قبيلة، بنى ذو القرنين السدّ على إحدى وعشرين قبيلة فبقيت قبيلة واحدة فهم الترك، سمّوا الترك لأنهم تُركوا خارجين. قال أهل التواريخ: أولاد نوح ثلاثة سام وحام ويافث، فسام أبو العرب والعجم والروم، وحام أبو الحبشة والزنج والنوبة، ويافث أبو الترك والخزر والصقالبة، ويأجوج ومأجوج قال ابن عباس في رواية عطاء: هم عشرة أجزاء وولد آدم كلهم جزء. رُوِيَ عن حذيفة مرفوعاً: إن يأجوج ومأجوج أمة، كل أمة أربعة آلاف أمة لا يموت الرجل منهم حتى ينظر إلى ألف ذكر من صلبه، كلهم قد حمل السلاح وهم من ولد آدم، يسيرون إلى خراب الدنيا. وقيل: هم ثلاثة أصناف صنف منهم أمثال الأرز شجر بالشام طوله عشرون ومائة ذراع في السماء وصنف منهم عرضه وطوله سواء عشرون ومائة ذراع في السماء، وهؤلاء لا يقوم لهم جبل ولا حديد، وصنف منهم يفترش أحدهم أذنه ويلتحف الأخرى لا يمرّون بفيل ولا وحش ولا خنزير ولا كلب إلّا أكلوه، ومَن مات منهم أكلوه، مقدمتهم بالشام وساقتهم بخراسان، يشربون أنهار المشارق وبحيرة طبرية. وعن علي أنه قال: منهم مَن طوله شبر، ومنهم مَن هو مفرط في الطول. وقال كعب: هم نادرة ولد آدم وذلك أن آدم احتلم ذات يوم وامتزجت نطفته بالتراب، فخلق الله من ذلك الماء يأجوج ومأجوج فهم يتصلون بنا من جهة الأب دون الأم. وذكر وهب بن منبّه: أن ذا القرنين كان رجلاً من الروم ابن عجوز، فلما بلغ كان عبداً صالحاً. قال الله له: إني باعثك إلى أُمم مختلفة ألسنتهم، منهم أُمتان بينهما طول الأرض إحداهما عند مغرب الشمس، يقال لها ناسك، والأخرى عند مطلعها، يقال لها منسك، وأُمتان بينهما عرض الأرض إحداهما في القطر الأيمن يقال لها هويل، والأخرى في قطر الأرض الأيسر يقال لها تاويل، وأُمم في وسط الأرض منهم الجن والإنس

---

(١) قوله احتلم، هذا مردود فإن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام معصومون من الشيطان، والاحتلام من الشيطان اهـ من هامش.

الأب دون الأم، وذكر وهب بن منبه أن ذا القرنين كان رجلاً من الروم ابن عجوز. فلما بلغ كان عبداً صالحاً قال الله سبحانه وتعالى إني باعثك إلى أمم مختلفة ألسنتهم منهم أمتان بينهما طول الأرض إحداهما عند مغرب الشمس. يقال له ناسك، والأخرى عند مطلعها يقال لها منسك وأمتان بينهما عرض الأرض احداهما في القطر الأيمن يقال لها هاويل، والأخرى في قطر الأرض الأيسر يقال لها تأويل، وأمم في وسط الأرض منهم الجن والإنس ويأجوج ومأجوج. فقال ذو القرنين بأي قوة أكابدهم وبأي جمع أكاثرهم وبأي لسان أناطقهم؟ فقال الله تعالى إني سأقويك وأبسط لسانك وأشد عضدك فلا يهولنك شيء، وألبسك الهيبة فلا يروعك شيء، وأسخر لك النور والظلمة وأجعلهما من جنودك، فالنور يهديك من أمامك والظلمة تحوطك من ورائك. فانطلق حتى أتى مغرب الشمس، فوجد جمعاً وعدداً لا يحصيهم إلا الله تعالى فكاثرهم بالظلمة حتى جمعهم في مكان واحد، فدعاهم إلى الله تعالى وعبادته فمنهم من آمن به ومنهم من صد عنه، فعمد إلى الذين تولوا عنه فأدخل عليهم الظلمة فدخلت أجوافهم وبيوتهم فدخلوا في دعوته، فجند من أهل المغرب جنداً عظيماً وانطلق يقودهم والظلمة تسوقهم، حتى أتى هاويل ففعل فيهم كفعله في ناسك ثم مضى حتى أتى منسك ففعل فيهم كفعله في الأمتين، وجند منهم جنداً عظيماً ثم أخذ ناحية اليسرى فأتى تأويل ففعل بهم كفعله فيما قبلها ثم عمد إلى الأمم التي في وسط الأرض. فلما كان فيما يلي منقطع الترك مما يلي المشرق قالت له أمة صالحة من الإنس: يا ذا القرنين إن بين هذين الجبلين خلقاً أشباه البهائم يفترسون الدواب والوحوش والسباع ويأكلون الحيات والعقارب وكل ذي روح خلق في الأرض، وليس يزداد خلق كزيادتهم فلا شك أنهم يتملكون الأرض ويظهرون عليها ويفسدون فيها فهل نجعل لك خرجاً، على أن تجعل بيننا وبينهم سداً؟ قال: «ما مكّنيّ فيه ربي خير» وقال أعدو إلى الصخور والحديد والنحاس حتى أعلم علمهم.

ويأجوج ومأجوج، فقال ذو القرنين: يا رب بأيّ قوة أُكابرهم وبأي جمع أُكاثرهم وبأيّ لسان أُناطقهم؟ قال الله عزّ وجلّ: إني سأقوّيك وأبسط لك لسانك وأشدّ عضدك فلا يهولنّك شيء، وألبسك الهيبة فلا يروعك شيء، وأسخر لك النور والظلمة وأجعلهما من جنودك، يهديك النور من أمامك وتحوطك الظلمة من ورائك، فانطلق، حتى أتى مغرب الشمس فوجد جمعاً وعدداً لا يحصيه إلاّ الله، فكابرهم بالظلمة حتى جمعهم في مكان واحد، فدعاهم إلى الله وإلى عبادته، فمنهم مَن آمن به ومنهم مَن صدّ عنه، فعمد إلى الذين تولّوا عنه فأدخل عليهم الظلم فدخلت في أجوافهم وبيوتهم فدخلوا في دعوته، فجنّد من أهل المغرب جنداً عظيماً فانطلق يقودهم والظلمة تسوقهم حتى أتى هويل فعمل فيهم كعمله في ناسك، ثم مضى حتى انتهى إلى منسك عند مطلع الشمس، فعمل فيها وجنّد فيها جنوداً كفعله في الأمتين، ثم أخذ ناحية الأرض اليسرى فأتى تاويل فعمل فيها كعمله، ثم عمد إلى الأمم التي في وسط الأرض، فلما دنا مما يلي منقطع الترك نحو المشرق قالت له أمة صالحة من الإنس: يا ذا القرنين إن بين هذين الجبلين خلقاً أشباه البهائم يفترسون الدواب والوحوش، لهم أنياب وأضراس كالسِّباع، يأكلون الحيّات والعقارب، وكل ذي روح، خلق في الأرض وليس يزداد خلق كزيادتهم، ولا شك أنهم سيملؤون الأرض ويظهرون علينا ويفسدون فيها، فهل نجعل لك خرجاً على أن تجعل بيننا وبينهم سدّاً، قال ما مكّنّي فيه ربي خير، قال: أعدّوا إلي الصخرة والحديد والنحاس حتى أعلم علمهم، فانطلق حتى توسط بلادهم فوجدهم على مقدار واحد يبلغ طول الواحد منهم مثل نصف الرجل المربوع منّا، لهم مخاليب كالأظفار في أيدينا وأنياب وأضراس كالسِّباع، ولهم هدب من الشعر في أجسادهم يواريهم ويتّقون به من الحرّ والبرد، ولكل واحد منهم أُذنان عظيمتان يفترش أحداهما ويلتحف بالأخرى يصيّف في إحداهما ويشتو في الأخرى، يتسافدون تسافد البهائم حيث التقوا، فلما عاين ذلك ذو القرنين انصرف إلى ما بين الصدفين فقاس ما بينهما فحفر له الأساس حتى بلغ الماء، وجعل حشوه

فانطلق حتى توسط بلادهم، فوجدهم على مقدار واحد يبلغ طول الواحد منهم مثل نصف الرجل المربوع منا، لهم مخالب وأضراس كالسباع، ولهم هدب شعر يواري أجسادهم، ويتقون به من الحر والبرد، ولكل واحد منهم أذنان عظيمتان يفترش إحداهما ويلتحف بالأخرى، يصيف في واحدة ويشتي في واحدة، يتسافدون تسافد البهائم حيث التقوا فلما عاين ذو القرنين ذلك انصرف إلى ما بين الصدفين فقاس ما بينهما وحفر له الأساس حتى بلغ الماء فذلك قوله تعالى ﴿**قالوا يا ذا القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون في الأرض**﴾ قيل فسادهم أنهم كانوا يخرجون أيام الربيع إلى أرضهم فلا يدعون فيها شيئاً أخضر إلا أكلوه ولا يابساً إلا حملوه وأدخلوه أرضهم، فلقوا منهم أذىً شديداً وقيل فسادهم أنهم كانوا يأكلون الناس، وقيل معناه أنهم سيفسدون عند خروجهم ﴿**فهل نجعل لك خرجاً**﴾ أي جعلاً وأجراً من الأموال ﴿**على أن تجعل بيننا وبينهم سداً**﴾ أي حاجزاً فلا يصلون إلينا.

﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴿٩٨﴾﴾

﴿**قال**﴾ لهم ذو القرنين ﴿**ما مكني فيه ربي خير**﴾ أي ما قواني به ربي خير من جعلكم ﴿**فأعينوني**﴾ يعني لا أريد منكم المال بل أعينوني بأبدانكم وقوتكم ﴿**أجعل بينكم وبينهم ردماً**﴾ أي سداً قالوا وما تلك القوة؟ قال فعلة وصناع يحسنون البناء والآلة. قالوا وما تلك الآلة؟ قال: ﴿**آتوني**﴾ أي أعطوني وقيل جيئوني[1] ﴿**زبر الحديد**﴾ أي قطع

الصخر وطينه النحاس، يُذاب فيُصبّ عليه فصار كأنه عرق من جبل تحت الأرض قوله تعالى: ﴿ **مفسدون في الأرض** ﴾، قال الكلبي: فسادهم أنهم كانوا يخرجون أيام الربيع إلى أرضهم فلا يدعون فيها شيئاً أخضر إلّا أكلوه ولا يابساً إلّا احتملوه، وأدخلوه أرضهم، وقد لقوا منهم أذىً شديداً وقتلاً. وقيل: فسادهم أنهم كانوا يأكلون الناس. وقيل: معناه أنهم سيفسدون في الأرض عند خروجهم. ﴿ **فهل نجعلُ لكَ خَرْجاً** ﴾، قرأ حمزة والكسائي (خراجاً) بالألف، وقرأ الآخرون ﴿ **خرجاً** ﴾ بغير ألف وهما لغتان بمعنى واحد، أي جعلاً وأجراً من أموالنا. وقال أبو عمرو: الخرج ما تبرعت به، والخراج ما لزمك أداؤه. وقيل: الخراج على الأرض والخرج على الرقاب. يقال: أدِ خَرْجَ رأسك وخراج مدينتك. ﴿ **على أن تجعل بيننا وبينهم سدّاً** ﴾، أي حاجزاً فلا يصلون إلينا.

﴿ **قال** ﴾، لهم ذو القرنين، ﴿ **ما مكنّي فيه** ﴾، قرأ ابن كثير (مكنني)بنونين ظاهرين. وقرأ الآخرون بنون واحدة مشددة على الإدغام، أي ما قوّاني عليه، ﴿ **ربّي خير** ﴾، مَن جعلكم، ﴿ **فأعينوني بقوة** ﴾، معناه إني لا أريد المال بل أعينوني بأبدانكم وقوّتكم، ﴿ **أجعلْ بينكم وبينهم رَدْماً** ﴾، أي سدّاً، قالوا: وما تلك القوة؟ قال: فعلة وصنّاع يُحسِنون البناء والعمل، والآلة. قالوا: وما تلك الآلة؟ قال:

﴿ **آتوني** ﴾، أعطوني وقرأ أبو بكر (ائتوني) أي جيئوني، ﴿ **زبر الحديد** ﴾، أي قطع الحديد، واحدتهما زبرة، فأتوه بها وبالحطب وجعل بعضها على بعض فلم يزل يجعل الحديد على الحطب والحطب على الحديد، ﴿ **حتى إذا ساوى بين الصدفين** ﴾، قرأ ابن كثير وابن عامر وأبو عمرو ويعقوب بضم الصاد والدال، وجزم أبو بكر الدال، وقرأ الآخرون بفتحها، وهما الجبلان، ساوى أي: سوّى بين طرفي الجبلين. ﴿ **قال انفخوا** ﴾، وفي القصة أنه جعل الفحم والحطب في خلال زبر الحديد ثم قال انفخوا يعني في النار، ﴿ **حتى إذا جعله ناراً** ﴾، أي صار

---

(١) قوله وقيل جيئوني ظاهره أنه تفسير لآتوني مقطوع الهمزة ولا يصح إنما يصح إذا كان تفسيراً لآتوني موصولها فليتأمل ا هـ.

الحديد فأتوه بها، وبالحطب فجعل الحطب على الحديد والحديد على الحطب ﴿حتى إذا ساوى بين الصدفين﴾ أي بين طرفي الجبلين ﴿قال انفخوا﴾ يعني في النار ﴿حتى إذا جعله ناراً﴾ أي صار ناراً ﴿قال آتوني أفرغ عليه﴾ أي أصيب عليه ﴿قطراً﴾ أي نحاساً مذاباً فجعلت النار تأكل الحطب وجعل النحاس يسيل مكانه حتى لزم الحديد النحاس قيل إن السد كالبرد المحبر طريقة سوداء وطريقة حمراء، وقيل إن عرضه خمسون ذراعاً وارتفاعه مائة ذراع وطوله فرسخ، واعلم أن هذا السد معجزة عظيمة ظاهرة لأن الزبرة الكبيرة إذا نفخ عليها حتى صارت كالنار لم يقدر أحد على القرب منها، والنفخ عليها لا يمكن إلا بالقرب منها. فكأنه تعالى صرف تأثير تلك الحرارة العظيمة عن أبدان أولئك النافخين

الحديد ناراً، ﴿ قال آتوني ﴾، قرأ حمزة وأبو بكر وصلاً، وقرأ الآخرون بقطع الألف. ﴿ أُفرغ عليه قِطْراً ﴾، أي آتوني قطراً أفرغ عليه، والإفراغ الصبّ والقطر هو النحاس المُذاب، فجعلت النار تأكل الحطب ويصير النحاس مكان الحطب حتى لزم الحديد النحاس. قال قتادة: هو كالبرّ والبحر طريقة سوداء وطريقة حمراء، وفي القصة أن عرضه كان خمسين ذراعاً وارتفاعه مائتي ذراع وطوله فرسخ.

﴿ فما اسطاعوا أن يُظهِروه ﴾، أن يعلوه من فوقه لطوله وملاسته، ﴿ وما استطاعوا له نقباً ﴾، من أسفله لشدّته ولصلابته. وقرأ حمزة «فما اسطاعوا» بتشديد الطاء أدغم تاء الافتعال في الطاء.

﴿ قال ﴾، يعني ذا القرنين، ﴿ هذا ﴾، أي السدّ، ﴿ رحمة ﴾، نعمة، ﴿ من ربي فإذا جاء وعد ربّي ﴾، قيل: القيامة. وقيل: وقت خروجهم. ﴿ جعله دكاء ﴾، قرأ أهل الكوفة ﴿ دكاء ﴾ بالمدّ والهمز، أي أرضاً ملساء، وقرأ الآخرون بلا مدّ أي: جعله مدكوكاً مستوياً مع وجه الأرض، ﴿ وكان وعد ربي حقاً ﴾، وروى قتادة عن أبي رافع عن أبي هريرة يرفعه أن يأجوج ومأجوج يحفرونه كل يوم حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس قال الذي عليهم: ارجعوا فستحفرونه غداً فيعيده الله كما كان، حتى إذا بلغت مدتهم حفروا حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس، قال الذي عليهم: ارجعوا فستحفرونه غداً إن شاء الله، واستثنى فيعودون إليه وهو كهيئته حين تركوه، فيحفرونه فيخرجون على الناس، فيتبعون المياه ويتحصّن الناس في حصونهم منهم فيرمون بسهامهم إلى السماء فيرجع فيها كهيئة الدم فيقولون قهرنا أهل الأرض وعلونا أهل السماء فيبعث الله عليها نغفاً في أقفائهم فيهلكون، وإن دواب الأرض لتسمن وتشكر من لحومهم شكراً. أخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر أنبأنا عبد الغافر بن محمد الفارسي أنبأنا محمد بن عيسى الجلودي ثنا إبراهيم بن محمد بن سفيان ثنا مسلم بن الحجاج ثنا محمد بن مهران الرازي ثنا الوليد بن مسلم ثنا عبد الرحمن بن يزيد بن جابر عن يحيى بن جابر الطائي عن عبد الرحمن بن جبير بن نفير عن أبيه جبير بن نفير عن النواس بن سمعان قال: ذكر رسول الله ﷺ الدجال ذات غداة فخفض فيه ورفع حتى ظنناه في طائفة النخل، فلما رحنا إليه عرف ذلك فينا، فقال: «ما شأنكم؟» قلنا: يا رسول الله ذكرتَ الدجال ذات غداة فخفضت فيه ورفعت، حتى ظنناه في طائفة النخل، فقال: «غير الدجال أخوفني عليكم؟ إن يخرج وأنا فيكم فأنا حجيجه دونكم، وإن يخرج ولست فيكم فكل امرىء حجيج نفسه، والله خليفتي على كل مسلم، إنه شاب قطط عينه اليمنى طافية كأني أشبهه بعبد العزّى بن قطن، فمَن أدركه منكم فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف إنه خارج خلّة بين الشام والعراق، فعاث يميناً وعاث شمالاً، يا عباد الله فاثبتوا» قلنا: يا رسول الله فما لبثه في الأرض؟ قال: «أربعون يوماً أول يوم كسنة ويوماً كشهر ويوم كجمعة وسائر أيامه كأيامكم» قلنا: يا رسول الله فذلك اليوم الذي كسنة أيكفينا فيه صلاة يوم قال: «لا أقدروا له قدره»، قلنا: يا رسول الله وما إسراعه في الأرض؟ قال: «كالغيث استدبرته الريح، فيأتي على القوم فيدعوهم فيؤمنوا به ويستجيبوا له، فيأمر السماء فتمطر الأرض، فتنبت فتروح عليهم سارحتهم أطول ما كانت ذرى وأسبغه ضروعاً وأمدّه خواصر، ثم يأتي القوم فيدعوهم فيردّون عليه قوله، قال:

حتى تمكنوا من العمل فيه ﴿فما استطاعوا أن يظهروه﴾ أي يعلو عليه لعلوه وملاسته ﴿وما استطاعوا له نقباً﴾ أي من أسفله لشدته وصلابته ﴿قال﴾ يعني ذو القرنين ﴿هذا﴾ أي السد ﴿رحمة من ربي﴾ أي نعمة من ربي ﴿فإذا جاء وعد ربي﴾ قيل يعني القيامة وقيل وقت خروجهم ﴿جعله دكاء﴾ أي أرضاً ملساء وقيل مدكوكاً مستوياً مع الأرض ﴿وكان وعد ربي حقاً﴾. (ق) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه وعقد بيده تسعين» قوله وعقد بيده تسعين هو من موضوعات الحساب، وهو أن تجعل رأس أصبعك السبابة في وسط الإبهام من باطنها شبه الحلقة، لكن لا يتبين لها إلا خلل يسير وعنه أن رسول الله ﷺ قال «في السد يحفرونه كل يوم حتى إذا كادوا يخرقونه قال بعضهم ارجعوا فستحفرونه غداً قال فيعيده الله كأشد ما كان حتى إذا بلغوا مدتهم وأراد الله تعالى أن يبعثهم على الناس قال الذي عليهم ارجعوا فستحفرونه غداً، إن شاء الله تعالى، واستثنى قال فيرجعون فيجدونه على هيئته حين تركوه فيخرقونه فيخرجون على الناس فيستقون المياه وتفر منهم الناس» وفي رواية «تتحصن الناس في حصونهم منهم فيرمون بسهام إلى السماء فترجع مخضبة بالدماء فيقولون قهرنا من في الأرض وعلونا من في السماء فيزدادون قسوة وعتواً، فيبعث الله عليهم نغفاً في رقابهم فيهلكون، فوالذي نفس محمد بيده إن دواب

فينصرف عنهم فيصبحون مملحين ليس بأيديهم شيء من أموالهم، ويمرّ بالخربة فيقول لها أخرجي كنوزك فيتبعه كنوزها كيعاسيب النخل، ثم يدعو رجلاً ممتلئاً شباباً فيضربه بالسيف فيقطعه جزلتين رمية الغرض، ثم يدعوه فيقبل ويتهلّل وجهه ويضحك، فبينما هو كذلك إذْ بعث الله المسيح عيسى ابن مريم، فينزل عند المنارة البيضاء شرقي باب دمشق بين مهرب ودستين واضعاً كفّتيه على أجنحة ملكين إذا طأطأ رأسه قطر وإذا رفعه تحدّر منه مثل جمان اللؤلؤ، فلا يحلّ لكافر يجد من ريح نفسه إلاّ مات، ونفسه ينتهي حيث ينتهي طرفه، فيطلبه حتى يدركه بباب لد فيقتله، ثم يأتي عيسى قوم قد عصمهم الله منه فيمسح عن وجوههم ويحدّثهم بدرجاتهم في الجنة فبينما هو كذلك إذْ أوحى الله إلى عيسى إني قد أخرجت عباداً لي لا بدّ لأحد بقتالهم فحرزْ عبادي إلى الطور، ويبعث الله يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلّون، فيمرّ أوائلهم على بحيرة طبرية فيشربون ما فيها، ويمرّ آخرهم فيقولون: لقد كان بهذه مرة ماء، ويحصر نبي الله وأصحابه حتى يكون رأس الثور لأحدهم خيراً من مائة دينار لأحدِكم اليوم، فيرغب نبي الله عيسى وأصحابه، فيرسل الله عليهم النغف في رقابهم فيصبحون فرسى كموت نفس واحدة، ثم يهبط نبي الله عيسى وأصحابه إلى الأرض فلا يجدون في الأرض موضع شبر إلاّ ملأه زهمهم ونتنهم، فيرغب نبي الله عيسى وأصحابه إلى الله، فيرسل الله طيراً كأعناق البخت، فتحملهم فتطرحهم حيث شاء الله، ثم يرسل الله مطراً لا يكن منه بيت مدر ولا وبر فيغسل الأرض، حتى يتركها كالزلفة. ثم يقال للأرض أنبتي ثمرتك، وردّي بركتك، فيومئذ تأكل العصابة من الرمانة ويستظلّون بقحفها ويبارك في الرسل حتى أن اللقحة من الإبل لتكفي ألفاً من الناس، واللقحة من البقر لتكفي القبيلة من الناس، واللقحة من الغنم لتكفي الفخذ من الناس، فبينما هم كذلك إذ بعث الله ريحاً طيبة فتأخذهم تحت آباطهم فتقبض روح كل مؤمن وكل مسلم ويبقى شرار الناس يتهارجون تهارج الحمر، فعليهم تقوم الساعة». وبهذا الإسناد حدّثنا مسلم بن الحجّاج ثنا علي بن حجر السعدي ثنا عبد الله بن عبد الرحمن بن يزيد بن جابر والوليد بن مسلم بن عبد الرحمن بن يزيد بن جابر بهذا الإسناد نحو ما ذكرنا وزاد بعد قوله: لقد كان بهذه مرة ماء ثم يسيرون حتى ينتهوا إلى جبل الخمر وهو جبل بيت المقدس، فيقولون لقد قلنا لمَن في الأرض هلمّ فلنقتل مَن في السماء، فيرمون بنشابهم إلى السماء فيردّ الله عليهم نشابهم مخضوبة دماً. وقال وهب: إنهم كانوا يأتون البحر فيشربون ماءه ويأكلون دوابّه، ثم يأكلون الخشب والشجر، ومَن ظفروا به من الناس، ولا يقدرون أن يأتوا مكة ولا المدينة ولا بيت المقدس. أخبرنا عبد الواحد المليحي أنبأنا أحمد بن

الأرض لتسمن وتشكر من لحومهم شكراً» أخرج الترمذي. وقوله قسوة وعتواً أي غلظة وفظاظة وتكبراً، والنغف دود يكون في أنوف الإبل والغنم وقوله وتشكر يقال شكرت الشاة تشكر شكراً، إذا امتلأ ضرعها لبناً، والمعنى أنها تمتلي أجسامها لحماً وتسمن. (خ) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال «ليحجن البيت وليعتمرن بعد خروج يأجوج ومأجوج». قوله عز وجل:

﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾ أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِن دُونِي أَوْلِيَاءَ ۚ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا ﴿١٠٢﴾ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾

﴿**وتركنا بعضهم يومئذٍ يموج في بعض**﴾ قيل هذا عند فتح السد، يقول تركنا يأجوج ومأجوج يموج أي يدخل بعضهم في بعض كموج الماء، ويختلط بعضهم في بعض لكثرتهم، وقيل هذا عند قيام الساعة يدخل الخلق بعضهم في بعض لكثرتهم ويختلط إنسهم بجنهم حيارى ﴿**ونفخ في الصور**﴾ فيه دليل على أن خروج يأجوج ومأجوج من علامات قرب الساعة ﴿**فجمعناهم جمعاً**﴾ أي في صعيد واحد ﴿**وعرضنا**﴾ أي أبرزنا ﴿**جهنم يومئذ للكافرين عرضاً**﴾ ليشاهدوها عياناً ﴿**الذين كانت أعينهم في غطاء**﴾ أي غشاء وستر ﴿**عن ذكري**﴾ أي عن الإيمان والقرآن والهدى والبيان وقيل عن رؤية الدلائل وتبصرها ﴿**وكانوا لا يستطيعون سمعاً**﴾ أي سمع قبول للإيمان والقرآن لغلبة الشقاء عليهم، وقيل معناه لا يستطيعون أن يسمعوا من رسول الله ﷺ لشدة عداوتهم له. قوله تعالى ﴿**أفحسب**﴾ أي أفظن ﴿**الذين كفروا أن يتخذوا عبادي من دوني أولياء**﴾ يعني أرباباً يريد عيسى والملائكة، بل هم لهم أعداء يتبرؤون منهم.

عبد الله النعيمي أنبأنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل أنبأنا أحمد أنبأنا أبي أنبأنا إبراهيم عن الحجّاج بن حجّاج عن قتادة عن عبد الله بن أبي عتبة عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال: «ليحجنّ البيت وليعتمرنّ بعد خروج يأجوج ومأجوج». وفي القصة: أن ذا القرنين دخل الظلمة فلما رجع توفي بشهر زور، وذكر بعضهم: أن عمره كان نيفاً وثلاثين سنة.

قوله تعالى: ﴿ **وتركنا بعضهم يومئذ يموج في بعض** ﴾، قيل: هذا عند فتح السدّ، يقول تركنا يأجوج ومأجوج يموج أي يدخل بعضهم على بعض، كموج الماء ويختلط بعضهم ببعض لكثرتهم، وقيل: هذا عند قيام الساعة يدخل الخلق بعضهم في بعض، ويختلط أنسيهم بجنّيهم حيارى، ﴿ **ونفخ في الصور** ﴾، لأن خروج يأجوج ومأجوج من علامات قرب الساعة، ﴿ **فجمعناهم جمعاً** ﴾، في صعيد واحد.

﴿ **وعرضنا** ﴾، أبرزنا، ﴿ **جهنّم يومئذ للكافرين عرضاً** ﴾. حتى يشاهدوها عياناً.

﴿ **الذين كانت أعينهم في غطاء** ﴾، أي غشاء والغطاء ما يُغطّى به الشيء ويستره، ﴿ **عن ذكري** ﴾، يعني عن الإيمان والقرآن. وعن الهدى والبيان. وقيل: عن رؤية الدلائل. ﴿ **وكانوا لا يستطيعون سمعاً** ﴾، أي سمع القبول، والإيمان لغلبة الشقاوة عليهم. وقيل: لا يعقلون وقيل: كانوا لا يستطيعون أي لا يقدرون أن يسمعوا من رسول الله ﷺ ما يتلوه عليهم لشدّة عداوتهم، كقول الرجل لا أستطيع أن أسمع من فلان شيئاً لعداوته.

﴿ **أفحسب** ﴾، أفظن، ﴿ **الذين كفروا أن يتخذوا عبادي من دوني أولياء** ﴾، أرباباً يريد بالعباد عيسى

وقال ابن عباس: يعني الشياطين أطاعوهم من دون الله، والمعنى أفظن الذين كفروا أن يتخذوا غيري أولياء وإني لا أغضب لنفسي فلا أعاقبهم وقيل معناه أفظنوا أنه ينفعهم أن يتخذوا عبادي من دوني أولياء ﴿**إنا أعتدنا**﴾ أي هيأنا ﴿**جهنم للكافرين نزلاً**﴾ أي منزلاً.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: هي مثواهم وقيل معدة لهم عندنا كالنزل للضيف. قوله تعالى ﴿**قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً**﴾ يعني الذين أتعبوا أنفسهم في عمل يرجون به فضلاً ونوالاً فنالوا هلاكاً وبواراً، قال ابن عباس: هم اليهود والنصارى، وقيل هم الرهبان الذي حبسوا أنفسهم في الصوامع، وقال علي بن أبي طالب: هم أهل حوراء يعني الخوارج ﴿**الذين ضل سعيهم**﴾ أي بطل عملهم واجتهادهم ﴿**في الحياة الدنيا وهم يحسبون**﴾ أي يظنون ﴿**أنهم يحسنون صنعاً**﴾ أي عملاً ثم وصفهم فقال تعالى ﴿**أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه**﴾ يعني أنهم جحدوا دلائل توحيده وقدرته، وكفروا بالبعث والثواب والعقاب، وذلك لأنهم كفروا بالنبي ﷺ وبالقرآن فصاروا كافرين بهذه الأشياء ﴿**فحبطت أعمالهم**﴾ أي بطلت ﴿**فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً**﴾. قيل لا تقيم لهم ميزاناً، لأن الميزان إنما توضع لأهل الحسنات والسيئات من الموحدين ليتميزوا مقدار الطاعات ومقدار السيئات. قال أبو سعيد الخدري «يأتي أناس بأعمال يوم القيامة هي عندهم من العظم كجبال تهامة فإذا وزنوها لم تزن شيئاً فذلك قوله تعالى «فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً» وقيل معناه نزدري بهم فليس لهم عندنا شيئاً فذلك قوله تعالى «فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً» وقيل معناه نزدري بهم فليس لهم عندنا حظ ولا قدر ولا وزن (ق) عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال «إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة وقال اقرؤوا إن شئتم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً».

والملائكة، كلا بل هم لهم أعداء ويتبرؤون منهم. قال ابن عباس: يعني الشياطين أطاعوهم من دون الله. وقال مقاتل: الأصنام سمّاها عباداً، كما قال: ﴿ إن الذين تدعون من دون الله عباداً أمثالكم ﴾ [الأعراف: ١٩٤]، وجواب هذا الاستفهام محذوف. قال ابن عباس: يريد إني لأغضب لنفسي، يقول أفظن الذين كفروا أن يتخذوا غيري أولياء وإني لا أغضب لنفسي ولا أعاقبهم. وقيل: أفظنوا أنهم ينفعهم أن يتخذوا عبادي من دوني أولياء. ﴿ **إنّا أعتدنا جهنم للكافرين نزلاً** ﴾، أي: منزلاً، قال ابن عباس: هي مثواهم. وقيل: النزل ما يُهيّأ للضيف، يريد هي معدة لهم عندنا كالنزل للضيف.

﴿ **قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً** ﴾، يعني الذين أتبعوا أنفسهم في عمل يرجون به فضلاً ونوالاً فنالوا هلاكاً وبواراً، كمَن يشتري سلعة يرجو عليها ربحاً فخسر وخاب سعيه. واختلفوا فيهم، قال ابن عباس وسعد بن أبي وقاص، وقال: هم اليهود والنصارى. وقيل: هم الرهبان.

﴿ **الذين** ﴾ حبسوا أنفسهم في الصوامع. وقال علي بن أبي طالب: هم أهل حروراء. ﴿ **ضلّ سعيهم** ﴾، بطل عملهم واجتهادهم، ﴿ **في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً** ﴾، أي عملاً.

﴿ **أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطتْ** ﴾، بطلت، ﴿ **أعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً** ﴾، أي لا تجعل لهم خطراً وقدراً، تقول العرب: ما لفلان عندي وزن أي قدر لخسته، أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا أحمد عن محمد بن يوسف عن محمد بن إسماعيل ثنا محمد بن عبد الله ثنا سعيد بن مريم أنبأنا المغيرة عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة»، وقال: ﴿ **فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً** ﴾، قال أبو سعيد الخدري: يأتي أُناس بأعمال يوم القيامة هي عندهم في العظم كجبال تهامة، فإذا وزنوها لم تزن شيئاً، فذلك قوله تعالى: ﴿ **فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً** ﴾.

ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُواْ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴿١٠٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا ﴿١١٠﴾

﴿**ذلك**﴾ إشارة إلى ما ذكر من حبوط أعمالهم وخسة قدرهم، ثم ابتدأ فقال تعالى ﴿**جزاؤهم جهنم بما كفروا واتخذوا آياتي ورسلي هزواً**﴾ يعني سخرية واستهزاء. قوله تعالى ﴿**إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلاً**﴾. عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال «إذا سألتم الله فاسألوه الفردوس فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة، وفوقه عرش الرحمن ومنه تفجر أنهار الجنة». قال كعب: ليس في الجنان جنة أعلى من جنة الفردوس، فيها الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر. وقال قتادة: الفردوس ربوة الجنة وأوسطها وأفضلها وأرفعها. وقيل: الفردوس هو البستان الذي فيه الأعناب. وقيل: هي الجنة الملتفة بالأشجار التي تنبت ضروباً من النبات. وقيل: الفردوس البستان بالرومية. وقيل: بلسان الحبش منقولاً إلى العربية نزولاً هو ما يهيأ للنازل على معنى كانت لهم ثمار جنات الفردوس ونعيمها نزلاً. وقيل في معنى كانت لهم أي في علم الله تعالى قبل أن يخلقوا ﴿**خالدين فيها لا يبغون**﴾ أي لا يطلبون ﴿**عنها حولاً**﴾ أي تحولاً إلى غيرها، قال ابن عباس: لا يريدون أن يتحولوا عنها، كما ينتقل الرجل من دار إذا لم توافقه إلى دار أخرى.

قوله تعالى ﴿**قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي**﴾ قال ابن عباس: قالت اليهود يا محمد تزعم أننا قد أوتينا الحكمة وفي كتابك «ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً» ثم تقول وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً، فأنزل الله تعالى هذه الآية وقيل لما نزل «وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً» قالت اليهود أوتينا علم التوراة وفيها علم كل شيء.

﴿ **ذلك** ﴾ الذي ذكرت من حبوط أعمالهم وخسّة أقدارهم، ثم ابتدأ فقال: ﴿ **جزاؤهم جهنم بما كفروا واتخذوا آياتي** ﴾، يعني القرآن، ﴿ **ورسلي هُزُواً** ﴾، أي سخرية ومهزواً بهم.

قوله تعالى: ﴿ **إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس** ﴾، روينا عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «إذا سألتم الله فاسألوه الفردوس، فإنه أوسط الجنة، وأعلى الجنة، وفوقه عرش الرحمن، ومنه تفجّر أنهار الجنة». قال كعب: ليس في الجنان جنة أعلى من جنة الفردوس فيها الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر. وقال قتادة: الفردوس ربوة الجنة وأوسطها وأقصاها وأرفعها، قال كعب: الفردوس هو البستان الذي فيه الأعناب. وقال مجاهد: هو البستان بالرومية. وقال عكرمة: هي الجنة بلسان الحبش. قال الزجّاج: هو بالرومية منقول إلى لفظ العربية وقال الضحاك: هي الجنة الملتفّة الأشجار. وقيل: هي الروضة المستحسنة. وقيل: هي التي تنبت ضروباً من النبات، وجمعه فراديس، ﴿ **نزلاً** ﴾، قيل: أي منزلاً. وقيل: ما يُهيأ للنازل على معنى كانت لهم ثمار جنات الفردوس ونعيمها نزلاً، ومعنى كانت لهم أي في علم الله قبل أن يُخلقوا.

﴿ **خالدين فيها لا يبغون** ﴾، لا يطلبون، ﴿ **عنها حولاً** ﴾، أي تحوّلاً إلى غيرها. قال ابن عباس: لا يريدون أن يتحوّلوا عنها كما ينتقل الرجل من دار إلى دار إذا توافقه إلى دار أخرى.

﴿ **قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي** ﴾، قال ابن عباس: قالت اليهود يا محمد تزعم أنّا قد أُوتينا الحكمة،

فأنزل الله تعالى ﴿قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي﴾ ما يستمده الكاتب ويكتب به، وأصله من الزيادة قال مجاهد: لو كان البحر مداداً للقلم والقلم يكتب قيل والخلائق يكتبون ﴿لنفد البحر﴾ أي لنفد ماؤه ﴿قبل أن تنفد كلمات ربي﴾ أي علمه وحكمه ﴿ولو جئنا بمثله مداداً﴾ والمعنى ولو كان الخلائق يكتبون والبحر يمدهم لفني ماء البحر ولم تفن كلمات ربي، ولو جئنا بمثل ماء البحر في كثرته مدداً وزيادة. قوله تعالى ﴿قل إنما أنا بشر مثلكم﴾ قال ابن عباس: علم الله تعالى رسوله ﷺ التواضع لئلا يزهى على خلقه، فأمره أن يقر فيقول آنا آدمي مثلكم إلا أني خصصت بالوحي وأكرمني الله به وهو قوله تعالى ﴿يوحى إلي أنما إلهكم إله واحد﴾ لا شريك له في ملكه ﴿فمن كان يرجو لقاء ربه﴾ أي يخاف المصير إليه وقيل يؤمل رؤية ربه ﴿فليعمل عملاً صالحاً﴾ أي من حصل له رجاء لقاء الله تعالى والمصير إليه فليستعمل نفسه في العمل الصالح ﴿ولا يشرك بعبادة ربه أحداً﴾ أي لا يرائي بعمله ولما كان العمل الصالح قد يراد به وجه الله سبحانه وتعالى وقد يراد به الرياء والسمعة اعتبر فيه قيدان، أحدهما: يراد به سبحانه وتعالى والثاني: أن يكون مبرأ من جهات الشرك جميعها (ق) عن جندب بن عبدالله البجلي قال: قال رسول الله ﷺ «من سمع سمع الله به ومن يرائي يرائي الله به» قوله من سمع سمع الله به أي من عمل عملاً مراآة للناس يشتهر بذلك شهرة الله يوم القيامة، وقيل سمع الله به أي أسمعه المكروه (م) عن أبي هريرة قال «سمعت رسول الله ﷺ يقول إن الله

وفي كتابك ومن يؤت الحكمة فقد أُوتي خيراً كثيراً، ثم تقول: وما أُوتيتم من العلم إلّا قليلاً؟ فأنزل الله هذه الآية. وقيل: لمّا نزلت: ﴿ وما أُوتيتم من العلم إلّا قليلاً ﴾ [الإسراء: ٨٥]، قالت اليهود: أُوتينا التوراة وفيها علم كل شيء، فأنزل الله: ﴿ قل لو كان البحر مداداً ﴾ سُمّي المداد مداداً لإمداد الكاتب، وأصله من الزيادة ومجيء الشيء بعد الشيء. قال مجاهد: لو كان البحر مداداً للقلم والقلم يكتب، ﴿ لنفد البحر ﴾، أي ماؤه، ﴿ قبل أن تنفد ﴾، قرأ حمزة والكسائي «ينفـد» بالياء لتقدّم الفعل، والباقون بالتاء، ﴿ كلمات ربي ﴾، أي علمه وحكمه، ﴿ ولو جئنا بمثله مدداً ﴾، معناه لو كان الخلائق يكتبون والبحر يمدّهم لنفد البحر ولم تنفد كلمات الله، ولو جئنا بمثله مدداً بمثل ماء البحر في كثرته مداداً وزيادة، نظيره قوله تعالى: ﴿ لو أن ما في الأرض من شجرة أقلامٌ والبحرُ يمدُّه من بعده سبعة أبحر ما نفدتْ كلماتُ الله ﴾ [لقمان: ٢٧].

﴿ قل إنّما أنا بشرٌ مثلكم يوحى إليّ أنّما إلٰهكم إلٰه واحد ﴾، قال ابن عباس علّم الله رسوله التواضع لئلا يزهو على خلقه، فأمره الله أن يقرّ فيقول أنا آدمي مثلكم إلّا أني خُصِّصت بالوحي وأكرمني الله به، يوحى إليّ أنّما إلٰهكم إلٰه واحد لا شريك له، ﴿ فمَن كان يرجوا لقاء ربه ﴾، أي يخاف المصير إليه. وقيل: يأمل رؤية ربّه، فالرجاء يكون بمعنى الخوف والأمل جميعاً، قال الشاعر:

فلا كل ما ترجـو من الخير كـائنُ ولا كـل ما تـرجو من الشـرّ واقعُ

فجمع بـه المعنيين، ﴿ فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً ﴾، أي لا يُرائي بعمله، أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنبأنا أبو نعيم أنا سفيان عن سلمة هو ابن كهيل قال: سمعت جندباً يقول: قال النبي ﷺ: «مَن سمَّعَ سمَّعَ الله به، ومَن يُرائي يُرائي الله به». وروينا عن النبي ﷺ أنه قال: «إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغـر»، قالـوا: يا رسـول الله وما الشـرك الأصغر؟ قـال: «الرياء». أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحي أنبأنا أبو سعيد محمد بن موسى الصيرفي ثنا أبو العباس محمد بن يعقوب الأصم ثنا محمد بن عبد الله بن عبد الحكم ثنا أبي ثنا شعيب قال: ثنا الليث عن أبي الهاد عن عمرو عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إن الله تبارك وتعالى يقول: أنا أغنى الشركاء

تبارك وتعالى يقول «أنا أغنى الشركاء عن الشرك فمن عمل عملاً أشرك فيه غيري تركته وشركه ولغير مسلم فأنا منه بريء هو والذي عمله». عن سعيد بن أبي فضالة رضي الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول «إذا جمع الناس ليوم لا ريب فيه نادى منادٍ من كان يشرك في عمل عمله لله أحداً فليطلب ثوابه منه فإن الله أغنى الشركاء عن الشرك» أخرجه الترمذي. وقال حديث غريب وعن النبي ﷺ قال «أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر؟ قالوا وما الشرك الأصغر قال الرياء». (م) عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ قال «من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عصم من فتنة الدجال» وفي رواية من آخرها والله أعلم بمراده وأسرار كتابه.

عن الشرك، مَن عمل عملاً أشرك فيه معي غيري فأنا منه بريء، هو للذي عمله». أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنبأنا أبو منصور محمد بن محمد بن سمعان ثنا أبو جعفر محمد بن أحمد بن عبد الجبار الرياني ثنا حميد بن زنجويه ثنا حفص بن عمر ثنا همّام عن قتادة عن سالم بن الجعد الغطفاني عن معدان بن أبي طلحة عن أبي الدرداء يرويه عن النبي ﷺ: قال: «مَن حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عُصم من فتنة الدجال», وأخبرنا عبد الواحد المليحي أنبأنا أبو منصور السمعاني ثنا أبو جعفر الرياني ثنا حميد بن زنجويه ثنا أبو الأسود ثنا ابن لهيعة عن زياد عن سهل هو ابن معاذ عن أبيه عن النبي ﷺ قال: «مَن قرأ أول سورة الكهف وآخرها كانت له نوراً من قدميه إلى رأسه، ومَن قرأها كلها كانت له نوراً من الأرض إلى السماء».

تفسير سورة مريم عليها السلام

مكية وهي ثمان وتسعون آية وثمانون وسبعمائة كلمة وثلاثة آلاف وسبعمائة حرف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله عز وجل:

كٓهيعٓصٓ ﴿١﴾ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴿٢﴾ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي
وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِى
وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾
يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ
وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ
خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ﴿٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ
لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١٠﴾

﴿كٓهيعٓصٓ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما؛ هو اسم من أسماء الله تعالى، وقيل اسم للقرآن، وقيل للسورة وقيل هو قسم أقسم الله تعالى به. وعن ابن عباس قال؛ الكاف من كريم وكبير، والهاء من هاد، والياء من رحيم، والعين من عليم، والصاد من صادق، وقيل معناه كاف لخلقه هاد لعباده يده فوق أيديهم عالم ببريته صادق في وعده.

سُورَة مَــرْيَم

مكية وهي ثمان وتسعون آية.

قوله عزّ وجلّ: ﴿كٓهيعٓصٓ﴾، قرأ أبو عمرو بكسر الهاء وفتح الياء وضدّه ابن عامر وحمزة وبكسرهما الكسائي وأبو بكر والباقون بفتحهما، ويظهر الدال[1]، عند الدال من صاد، ذكر ابن كثير ونافع وعاصم ويعقوب والباقون بالإدغام. قال ابن عباس رضي الله عنهما: هو اسم من أسماء الله تعالى. وقال قتادة: هو اسم من أسماء القرآن. وقيل: اسم للسورة. وقيل: هو قَسَم أقسم الله به. ورُوِيَ عن سعيد بن جبير عن ابن عباس في قوله: ﴿ كهيعص ﴾ قال: الكاف من كريم وكبير، والهاء من هاد، والياء من رحيم، والعين من عليم، وعظيم، والصاد من صادق. وقال الكلبي: معناه كافٍ لخلقه، هادٍ لعباده، يده فوق أيديهم، عالم ببريّته، صادق في وعده.

﴿ ذكرُ ﴾، رفع بالمضمر أي هذا الذي نتلوه عليك ذكر ﴿ رحمةِ ربِّك ﴾، وفيه تقديم وتأخير معناه: ذكر

﴿ذكر﴾ أي هذا الذي نتلو عليك ذكر ﴿رحمة ربك عبده زكريا﴾ قيل معناه ذكر ربك عبده زكريا برحمته ﴿إذ نادى﴾ أي دعا ﴿ربه﴾ في المحراب ﴿نداء خفياً﴾ أي دعاء سراً من قيامه في جوف الليل، وقيل راعى سنة الله في إخفاء دعائه لأن الجهر والإسرار عند الله تعالى سيان، ولكن الإخفاء أولى، وقيل خفت صوته لضعفه وهرمه يدل عليه قوله تعالى ﴿قال رب إني وهن﴾ أي رق وضعف ﴿العظم مني﴾ أي من الكبر وقيل اشتكى سقوط الأضراس ﴿واشتعل الرأس﴾ أي ابيض الشعر ﴿شيباً﴾ أي شمطاً ﴿ولم أكن بدعائك رب شقياً﴾ أي عودتني الإجابة فيما مضى ولم تخيبني، وقيل معناه لما دعوتني إلى الإيمان آمنت ولم أشق بترك الإيمان ﴿وإني خفت الموالي من ورائي﴾ أي من بعد موتي والموالي هم بنو العم وقيل العصبة وقيل الكلالة وقيل جميع الورثة ﴿وكانت امرأتي عاقراً﴾ أي لا تلد ﴿فهب لي من لدنك ولياً﴾ أي أعطني من عندك ولداً مرضياً ﴿يرثني ويرث من آل يعقوب﴾ أي ولياً ذا رشاد، وقيل أراد به يرث مالي ويرث من آل يعقوب النبوة والعلم، وقيل أراد به الحبورة، لأن زكريا كان رأس الأحبار، والأولى أن يحمل على ميراث غير المال لأن الأنبياء لم يورثوا المال وإنما يورثون العلم، ويبعد عن زكريا وهو نبي من الأنبياء أن يشفق على ماله أن يرثه بنو عمه، وإنما خاف أن يضيع بنو عمه دين الله ويغيروا أحكامه، وذلك لما أن شاهد من بني إسرائيل تبديل الدين وقتل الأنبياء. فسأل ربه ولداً صالحاً يأمنه على أمته ويرث نبوته وعلمه لئلا يضيع وهذا قول ابن عباس ﴿واجعله رب رضياً﴾ أي براً تقياً مرضياً.

ربك، ﴿ عبده زكريا ﴾، برحمته.

﴿ إذْ نادى ﴾، دعا، ﴿ ربَّه ﴾، في محرابه، ﴿ نداءً خفيّاً ﴾، دعا سرّاً من قومه في جوف الليل.

﴿ قال ربِّ إنّي وهنَ ﴾، ضعف ورق، ﴿ العظم منّي ﴾، من الكبر. قال قتادة: اشتكى سقوط الأضراس، ﴿ واشتعل الرأسُ ﴾، أي ابيضّ شعر الرأس، ﴿ شيباً ﴾، شمطاً، ﴿ ولم أكن بدعائك ربِّ شقيّاً ﴾، يقول عوّدتني الإجابة فيما مضى ولم تخيّبني. وقيل: معناه لمّا دعوتني إلى الإيمان آمنت ولم أشقَ بترك الإيمان.

﴿ وإنّي خفت الموالي ﴾، والموالي بنو العم. قال مجاهد: العصبة. وقال أبو صالح: الكلالة. وقال الكلبي: الورثة. ﴿ من ورائي ﴾، من بعد موتي، قرأ ابن كثير ﴿ من ورائيَ ﴾ بفتح الياء، والآخرون بإسكانها. ﴿ وكانت امرأتي عاقراً ﴾، لا تلد، ﴿ فهبْ لي من لدنك ﴾، أعطني من عندك، ﴿ وليّاً ﴾.

﴿ يرثني ويرثُ من آل يعقوب ﴾، قرأ أبو عمرو والكسائي بجزم الثاء فيهما على جواب الدعاء، وقرأ الآخرون بالرفع على الحال والصفة، يعني وليّاً وارثاً، واختلفوا في هذا الإرث، قال الحسن: معناه يرث مالي ويرث من آل يعقوب النبوّة والحبورة. وقيل: أراد ميراث النبوّة والعلم. وقيل: أراد إرث الحبورة، لأن زكريا كان رأس الأحبار. وقال الزجّاج: والأولى أن يحمل على ميراث غير المال لأنه يبعد أن يشفق زكريا وهو نبي من الأنبياء أن يرثه بنو عمّه ماله، والمعنى: أنه خاف تضييع بني عمّه دين الله وتغيير أحكامه على ما كان شاهده من بني إسرائيل من تبديل الدين وقتل الأنبياء، فسأل ربه ولداً صالحاً يأمنه على أُمّتِهِ، ويرث نبوّته وعمله لئلا يضيع الدين. وهذا معنى قول عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما. ﴿ واجعله ربِّ رضيّاً ﴾، أي بَرّاً تقيّاً مرضياً.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ يا زكريا إنّا نبشّرك ﴾، وفيه اختصار، معناه فاستجاب الله دعاءه، فقال: يا زكريا إنّا نبشّرك، ﴿ بغلام ﴾، بولد ذكر، ﴿ اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سميّاً ﴾، قال قتادة والكلبي: لم يُسمَّ أحد قبله يحيىٰ. وقال سعيد بن جبير وعطاء: لم نجعل له شبهاً ومثلاً، كما قال الله تعالى: ﴿ هل تعلم له سميّاً ﴾ [مريم: ٦٥]، أي مثلاً، والمعنى: أنه لم يكن له مثل لأنه لم يعص ولم يهمّ بمعصية قطّ. وقيل: لم يكن له ميل

قوله تعالى ﴿**يا زكريا**﴾ المعنى فاستجاب الله له دعائه فقال يا زكريا ﴿**إنا نبشرك بغلام**﴾ أي بولد ذكر ﴿**اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سمياً**﴾ أي لم يسم أحد قبله يحيى وقيل معناه لم نجعل له شبهاً ومثلاً، وذلك لأنه لم يعص الله ولم يهم بمعصية قط وقال ابن عباس: لم تلد العواقر مثله ولداً، قيل لم يرد الله تعالى بذلك اجتماع الفضائل كلها ليحيى، وإنما أراد بعضها لأن الخليل والكليم كانا قبله وهما أفضل منه ﴿**قال رب أنى يكون لي**﴾ أي من أين يكون لي ﴿**غلام وكانت امرأتي عاقراً**﴾ أي وامرأتي عاقر ﴿**وقد بلغت من الكبر عتياً**﴾ أي يأساً يريد بذلك نحول الجسم ودقة العظم ونحول الجلد ﴿**قال كذلك قال ربك هو علي هين**﴾ أي يسير ﴿**وقد خلقتك من قبل**﴾ أي من قبل يحيى ﴿**ولم تك شيئاً قال رب اجعل لي آية**﴾ أي دلالة على حمل امرأتي ﴿**قال آيتك**﴾ أي علامتك ﴿**أن لا تكلم الناس ثلاث ليال سوياً**﴾ أي صحيحاً سليماً من غير بأس ولا خرس، وقيل ثلاث ليال متتابعات والأول أصح قيل إنه لم يقدر فيها أن يتكلم مع الناس فإذا أراد ذكر الله انطلق لسانه. قوله عز وجل:

فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾ يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾ ۞ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾

﴿**فخرج على قومه من المحراب**﴾ أي من الموضع الذي كان يصلي فيه وكان الناس من وراء المحراب ينتظرونه

في أمر النساء، لأنه كان سيداً وحصوراً. وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما: أي لم تلد العواقر مثله ولداً. وقيل: لم يرد الله به اجتماع الفضائل كلها ليحيى إنما أراد بعضها لأن الخليل والكليم كانا قبله وهما أفضل منه.

﴿ **قال ربِّ أنّى** ﴾، من أين، ﴿ **يكون لي غلام وكانت امرأتي عاقراً وقد بلغتُ من الكبر عتيّاً** ﴾، أي يبساً، وقال قتادة: يريد تحوّل العظم، يقال عتا الشيخ يعتو عتياً وعسياً، إذا انتهى سنُّه وكبر، وشيخ عاتٍ وعاسٍ إذا صار إلى حالة اليبس والجفاف. وقرأ حمزة والكسائي: عتياً وبكياً وصلياً وجثياً بكسر أوائلهنّ، والباقون برفعها، وهما لغتان.

﴿ **قال كذلك قال ربُّك هو عليّ هيّن** ﴾، يسير، ﴿ **وقد خلقتُكَ** ﴾، قرأ حمزة والكسائي (خلقناك) بالنون والألف على التعظيم، ﴿ **من قبل** ﴾، أي من قبل يحيى، ﴿ **ولم تكُ شيئاً** ﴾.

﴿ **قال ربِّ اجعلْ لي آية** ﴾، دلالة على حمل امرأتي، ﴿ **قال آيتك ألّا تكلّم الناس ثلاث ليالٍ سويّاً** ﴾، أي صحيحاً سليماً من غير بأس ولا خرس. قال مجاهد: أي لا يمنعك من الكلام مرض. وقيل: ثلاث ليالٍ سويّاً أي متتابعاً، والأول أصحّ. وفي القصة: أنه لم يقدر فيها أن يتكلم مع الناس فإذا أراد ذكر الله تعالى انطلق لسانه.

قوله تعالى: ﴿ **فخرج على قومه من المحراب** ﴾، وكان الناس من وراء المحراب ينتظرونه أن يفتح لهم

حتى يفتح لهم الباب فيدخلون ويصلون، إذ خرج إليهم زكريا متغيراً لونه فأنكروا ذلك عليه، وقالوا له ما لك **﴿فأوحى﴾** أي فأومأ وأشار **﴿إليهم﴾** وقيل كتب لهم في الأرض **﴿أن سبحوا﴾** أي صلوا لله **﴿بكرة وعشياً﴾** المعنى أنه كان يخرج على قومه بكرة وعشياً فيأمرهم بالصلاة، فلما كان وقت حمل امرأته ومنع من الكلام خرج إليهم فأمرهم بالصلاة إشارة. قوله عز وجل **﴿يا يحيى﴾** فيه إضمار ومعناه وهبنا له يحيى وقلنا له يا يحيى **﴿خذ الكتاب﴾** أي التوراة **﴿بقوة﴾** أي بجد واجتهاد **﴿وآتيناه الحكم﴾** قال ابن عباس: يعني النبوة **﴿صبياً﴾** وهو ابن ثلاث سنين وذلك أن الله تعالى أحكم عقله وأوحى إليه، فإن قلت كيف يصح حصول العقل والفطنة والنبوة حال الصبا. قلت لأن أصل النبوة مبني على خرق العادات، إذا ثبت هذا فلا تمنع صيرورة الصبي نبياً، وقيل أراد بالحكم فهم الكتاب فقرأ التوراة وهو صغير وعن بعض السلف قال من قرأ القرآن قبل أن يبلغ فهو من أوتي الحكم صبياً **﴿وحناناً من لدنا﴾** أي رحمة من عندنا قال الحطيئة يخاطب عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه:

تحنن علـــي هـــداك المليـــك فـــإن لكـــل مقـــام مقـــالا

أي ترحم علي **﴿وزكاة﴾** قال ابن عباس: يعني بالزكاة الطاعة والإخلاص، وقيل هي العمل الصالح، ومعنى الآية وآتيناه رحمة من عندنا وتحننا على العباد ليدعوهم إلى طاعة ربهم وعملاً صالحاً في إخلاصه **﴿وكان تقياً﴾** أي مسلماً مخلصاً مطيعاً، وكان من تقواه إنه لم يعمل خطيئة ولم يهم بها قط **﴿وبراً بوالديه﴾** أي باراً لطيفاً بهما محسناً إليهما لأنه لا عبادة بعد تعظيم الله تعالى أعظم من بر الوالدين يدل عليه قوله تعالى **﴿وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً﴾** الآية **﴿ولم يكن جباراً﴾** الجبار المتكبر وقيل الذي يقتل ويضرب على الغضب، وقيل الجبار الذي لا يرى لأحد على نفسه حقاً وهو التعظيم بنفسه يرى أن لا يلزمه قضاء لأحد **﴿عصياً﴾** قيل هو أبلغ من المعاصي والمراد وصف يحيى بالتواضع ولين الجانب وهو من صفات المؤمنين **﴿وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حياً﴾** معناه وأمان له من الله يوم ولد من أن يناله الشيطان كما ينال سائر بني آدم وأمان له يوم يموت من عذاب القبر

الباب فيدخلون ويصلّون إذْ خرج عليهم زكريا متغيّراً لونه فأنكروه، فقالوا: ما لك يا زكريا **﴿ فأوحى إليهم ﴾**، قال مجاهد: كتب لهم الأرض، **﴿ أن سبّحوا ﴾**، أي صلّوا لله، **﴿ بكرةً ﴾**، غدوة، **﴿ وعَشِيّاً ﴾**، معناه أنه كان يخرج على قومه بكرةً وعشيّاً فيأمرهم بالصلاة، فلما كان وقت حمل امرأته ومنع الكلام خرج إليهم فأمرهم بالصلاة إشارة.

قوله عزّ وجلّ: **﴿ يا يحيىٰ ﴾**، قيل: فيه حذف معناه: وهبنا له يحيىٰ وقلنا له يا يحيىٰ، **﴿ خذِ الكتاب ﴾**، يعني التوراة، **﴿ بقوّة ﴾**، بجد، **﴿ وآتيناه الحكم ﴾**، قال ابن عباس رضي الله عنهما: النبوّة: **﴿ صبياً ﴾**، وهو ابن ثلاث سنين. وقيل: أراد بالحكم فهم الكتاب، فقرأ التوراة وهو صغير. وعن بعض السلف قال: مَن قرأ القرآن قبل أن يبلغ فهو ممّن أُوتي الحكم صبياً.

﴿ وحناناً من لدنّا ﴾، رحمة من عندنا، قال الحطيئة لعمر بن الخطاب رضي الله عنه، شعر:

تَحنَنْ عليَّ هــداك المليك فــإن لكــل مقــام مقــالاً

أي: ترحّمْ، **﴿ وزكاة ﴾**، قال ابن عباس رضي الله عنهما: يعني بالزكاة الطاعة والإخلاص. وقال قتادة رضي الله عنه: هي العمل الصالح، وهو قول الضحاك ومعنى الآية وآتيناه رحمة من عندنا وتحنناً على العباد، ليدعوهم إلى طاعة ربهم ويعمل عملاً صالحاً في إخلاص. وقال الكلبي: يعني صدقة تصدّق الله بها على أبويه، **﴿ وكان تقياً ﴾**، مسلماً ومخلصاً مطيعاً، وكان من تقواه أنه لم يعمل خطيئة ولا همّ بها.

﴿ وبرّاً بوالديه ﴾، أي بارّاً لطيفاً بهما محسناً إليهما. **﴿ ولم يكن جبّاراً عصيّاً ﴾**، الجبار المتكبّر، وقيل:

ويوم يبعث حياً من عذاب يوم القيامة، وقيل أوحش ما يكون الخلق في ثلاثة مواطن يوم يولد لأنه يرى نفسه خارجاً من مكان قد كان فيه، ويوم يموت لأنه يرى قوماً ما شاهدهم قط، ويوم يبعث لأنه يرى مشهداً عظيماً فأكرم الله تعالى يحيى في هذه المواطن كلها فخصه بالسلامة فيها.

قوله عز وجل ﴿**واذكر في الكتاب**﴾ أي في القرآن ﴿**مريم إذ انتبذت**﴾ أي تنحت واعتزلت ﴿**من أهلها**﴾ أي من قومها ﴿**مكاناً شرقياً**﴾ أي مكاناً في الدار ما يلي المشرق، وكان ذلك اليوم شاتياً شديد البرد فجلست في مشرقه تفلي رأسها وقيل إن مريم كانت قد طهرت من الحيض فذهبت تغتسل، قيل ولهذا المعنى اتخذت النصارى المشرق قبلة ﴿**فاتخذت**﴾ أي فضربت ﴿**من دونهم حجاباً**﴾ قال ابن عباس أي ستراً وقيل جلست وراء جدار، وقيل إن مريم كانت تكون في المسجد فإذا حاضت تحولت إلى بيت خالتها، حتى إذا طهرت عادت إلى المسجد، فبينما هي تغتسل من الحيض قد تجردت، إذ عرض لها جبريل في صورة شاب أمرد وضيء الوجه بسوي الخلق فذلك.

قوله تعالى ﴿**فأرسلنا إليها روحنا**﴾ يعني جبريل ﴿**فتمثل لها بشراً سوياً**﴾ أي سوي الخلق لم ينقص من الصورة الآدمية شيئاً، وإنما مثل لها في صورة الإنسان لتستأنس بكلامه ولا تنفر عنه، ولو بدا لها في صورة الملائكة لنفرت عنه ولم تقدر على استماع كلامه، وقيل المراد من الروح روح عيسى جاءت في صورة بشر فحملت به والقول الأول أصح، فلما رأت مريم جبريل عليه السلام يقصد نحوها بادرته من بعيد ﴿**قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقياً**﴾ أي مؤمناً مطيعاً لله تعالى، دل تعوذها من تلك الصورة الحسنة على عفتها وورعها. فإن قلت إنما يستعاذ من الفاجر فكيف قالت إن كنت تقياً. قلت هذا كقول القائل إن كنت مؤمناً فلا تظلمني أي ينبغي أن يكون إيمانك مانعاً من الظلم، كذلك ها هنا معناه ينبغي أن تكون تقواك مانعة لك من الفجور ﴿**قال**﴾ لها جبريل عليه السلام ﴿**إنما أنا رسول**

الجبار الذي يضرب، ويقتل على الغضب، والعصي العاصي.

﴿ **وسلامٌ عليه** ﴾، أي: سلام له، ﴿ **يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيّاً** ﴾، قال سفيان بن عيينة: أوحش ما يكون الإنسان في هذه الأحوال يوم ولد فيخرج مما كان فيه، ويوم يموت فيرى قوماً لم يكن عاينهم، ويوم يُبعث حيّاً فيرى نفسه في محشر لم يرَ مثله، فخصّ يحيـىٰ بالسلامة في هذه المواطن.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ **واذكر في الكتاب** ﴾، في القرآن، ﴿ **مريم إذ انتبذت** ﴾، تنحّت واعتزلت، ﴿ **من أهلها** ﴾، من قومها، ﴿ **مكاناً شرقياً** ﴾، أي مكاناً في الدار مما يلي المشرق، وكان يوماً شاتياً شديد البرد فجلست في مشرقة تفلّي رأسها. وقيل: كانت طهرت من الحيض، فذهبت لتغتسل. قال الحسن: ومن ثم اتخذت النصارى المشرق قبلة.

﴿ **فاتخذت** ﴾، فضربتْ، ﴿ **من دونهم حجاباً** ﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما: ستراً. وقيل: جلست وراء جدار، وقال مقاتل: وراء جبل. وقال عكرمة: إن مريم كانت تكون في المسجد فإذا حاضت تحوّلت إلى بيت خالتها حتى إذا طهرت عادت إلى المسجد، فبينما هي تغتسل من الحيض قد تجردت إذ عرض لها جبريل في صورة شاب أمرد وضيء الوجه جعد الشعر سوي الخلق، فذلك قوله ﴿ **فأرسلنا إليها روحنا** ﴾، يعني جبريل عليه السلام، ﴿ **فتمثّل لها بشراً سويّاً** ﴾، وقيل: المراد بالروح عيسى عليه السلام، جاء في صورة بشر فحملت به. والأول أصحّ فلما رأت مريم جبريل يقصد نحوها نادته من بعيد.

﴿ **وقالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيّاً** ﴾، مؤمناً مطيعاً، فإن قيل: إنما يُستعاذ من الفاجر، فكيف قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيّاً؟ قيل: هذا كقول القائل: إن كنت مؤمناً فلا تظلمني أي ينبغي أن يكون

ربك لأهب﴾ أسند الفعل إليه وإن كانت الهبة من الله تعالى لأنه أرسل به ﴿لك غلاماً زكياً﴾ قال ابن عباس ولداً صالحاً طاهراً من الذنوب ﴿قالت﴾ مريم ﴿أنى يكون لي﴾ أي من أين يكون لي ﴿غلام ولم يمسسني بشر﴾ أي ولم يقربني زوج ﴿ولم أك بغياً﴾ أي فاجرة تريد أن الولد إنما يكون من نكاح أو سفاح ولم يكن ها هنا واحد منهما ﴿قال﴾ جبريل ﴿كذلك قال ربك﴾ أي هكذا قال ربك ﴿هو علي هين﴾ أي خلق ولدك بلا أب ﴿ولنجعله آية للناس﴾ أي علامة لهم ودلالة على قدرتنا ﴿ورحمة منا﴾ أي ونعمة لمن تبعه على دينه إلى بعثة محمد ﷺ ﴿وكان أمراً مقضياً﴾ أي محكوماً مفروغاً من لا يرد ولا يبدل. قوله عز وجل ﴿فحملته﴾ قيل إن جبريل رفع درعها فنفخ في جيبه فحملت حين لبست الدرع، وقيل مد جيب درعها بأصبعه ثم نفخ في الجيب، وقيل نفخ في كمها وقيل في ذيلها، وقيل في فيها، وقيل نفخ من بعيد فوصل النفخ إليها فحملت بعيسى عليه السلام في الحال ﴿فانتبذت به﴾ أي فلما حملته تنحت بالحمل وانفردت ﴿مكاناً قصياً﴾ أي بعيداً من أهلها.

قال ابن عباس: أقصى الوادي، وهو بيت لحم فراراً من أهلها وقومها أن يعيروها بولادتها من غير زوج. قال ابن عباس: كان الحمل والولادة في ساعة واحدة وقيل حملته في ساعة وصور في ساعة ووضعته في ساعة حين زالت الشمس من يومها، وقيل كانت مدته تسعة أشهر كحمل سائر الحوامل من النساء، وقيل كانت مدة حملها ثمانية أشهر، وذلك آية أخرى له لأنه لا يعيش من ولد لثمانية أشهر وولد عيسى لهذه المدة وعاش، وقيل ولد لستة أشهر وهي بنت عشر سنين وقيل ثلاث عشرة سنة وقيل ست عشرة سنة وقد كانت حاضت حيضتين قبل أن تحمل بعيسى، وقال وهب: إن مريم لما حملت بعيسى كان معها ابن عم لها يقال له يوسف النجار، وكانا منطلقين إلى المسجد الذي يمنة جبل صهيون، وكانا يخدمان ذلك المسجد ولا يعلم من أهل زمانها أحد أشد عبادة واجتهاداً منها وأول من علم بحمل مريم يوسف، فبقي متحيراً في أمرها كلما أراد أن يتهمها ذكر عبادتها وصلاحها وأنها لم تغب عنه، وإذا أراد أن يبرئها رأى ما ظهر منها من الحمل فأول ما تكلم به أن قال إنه وقع في نفسي من أمرك شيء وقد حرصت على كتمانه

إيمانك مانعاً من الظلم، وكذلك ههنا معناه: وينبغي أن يكون تقواك مانعاً لك من الفجور.

﴿ قال ﴾، لها جبريل، ﴿ إنما أنا رسول ربِّك لأهبَ لكِ ﴾، قرأ نافع وأهل البصرة: (ليهب لك) أي ليهب لك ربك، وقرأ الآخرون: ﴿ لأهب لك ﴾ أسند الفعل إلى الرسول، وإن كانت الهبة من الله تعالى، لأنه أرسل به، ﴿ غلاماً زكياً ﴾، ولداً صالحاً طاهراً من الذنوب.

﴿ قالت ﴾، مريم، ﴿ أنّى ﴾، من أين، ﴿ يكون لي غلامٌ ولم يمسسني بشر ﴾، لم يقربني زوج، ﴿ ولم أكُ بغِياً ﴾، فاجرةً، تريد أن الولد إنما يكون من نكاح أو سفاح، ولم يكن هنا واحد منهما.

﴿ قال ﴾، جبريل، ﴿ كذلكِ ﴾، قيل معناه كما قلت يا مريم ولكن، ﴿ قال ربُّكِ ﴾، وقيل هكذا قال ربك، ﴿ هو عَليَّ هيِّن ﴾، أي: خلق ولد بلا أب، ﴿ ولنجعله آيةً ﴾، علامة، ﴿ للناس ﴾، دلالة على قدرتنا، ﴿ ورحمةً منّا ﴾، ونعمة لمَن تبعه على دينه، ﴿ وكان ﴾ ذلك، ﴿ أمراً مقضياً ﴾، محكوماً مفروغاً عنه لا يردّ ولا يبدل.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ فحملتهُ ﴾، قيل: إن جبريل رفع عنها درعها فنفخ في جيبها فحملت حين لبست. وقيل: مدّ جيب درعها بأصبعه ثم نفخ في الجيب. وقيل: نفخ في كمّ قميصها. وقيل: في فيها. وقيل: نفخ جبريل عليه السلام نفخاً من بعيد فوصل الريح إليها فحملت بعيسى في الحال، ﴿ فانتبذتْ به ﴾، أي تنحّت بالحمل فلما حملته أنبذت به أي وانفردت، ﴿ مكاناً قصيّاً ﴾، أي بعيداً من أهلها. قال ابن عباس رضي الله عنهما: أقصى

فغلبني ذلك فرأيت أن أتكلم به أشفي صدري، فقالت: قل قولاً جميلاً، قال أخبريني يا مريم هل ينبت زرع بغير بذر وهل ينبت شجر بغير غيث وهل يكون ولد من غير ذكر؟ قالت نعم ألم تعلم أن الله أنبت الزرع يوم خلقه من غير بذر ألم تر أن الله أنبت الشجرة بالقدرة من غير غيث أو تقول إن الله تعالى لا يقدر على أن ينبت الشجرة حتى استعان بالماء ولولا ذلك لم يقدر على إنباتها قال يوسف: لا أقول هذا ولكني أقول إن الله تعالى يقدر على كل شيء يقول له كن فيكون، قالت له مريم: ألم تعلم أن الله خلق آدم وامرأته من غير ذكر ولا أنثى. فعند ذلك زال ما عنده من التهمة وكان ينوب عنها في خدمة المسجد لاستيلاء الضعف عليها بسبب الحمل. فلما دنت ولادتها أوحى الله إليها أن اخرجي من أرض قومك فذلك قوله تعالى ﴿فانتبذت به مكاناً قصياً﴾ قوله عز وجل:

فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾ فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾

﴿**فأجاءها المخاض**﴾ أي ألجأها وجاء بها والمخاض وجع الولادة ﴿**إلى جذع النخلة**﴾ وكانت نخلة يبست في الصحراء في شدة البرد ولم يكن لها سعف، وقيل التجأت إليها تستند إليها وتستمسك بها من شدة الطلق، ووجع الولادة ﴿**قالت يا ليتني مت قبل هذا**﴾ تمنت الموت استحياء من الناس وخوفاً من الفضيحة ﴿**وكنت نسياً منسياً**﴾ يعني شيئاً حقيراً متروكاً لم يذكر، ولم يعرف لحقارته وقيل جيفة ملقاة، وقيل معناه أنها تمنت أنها لم تخلق ﴿**فناداها من تحتها**﴾ قيل إن مريم كانت على أكمة وجبريل وراء الأكمة تحتها، وقيل ناداها من سفح الجبل وقيل هو عيسى وذلك

الوادي، وهو وادي بيت لحم، فراراً من قومها أن يعيّروها بولادتها من غير زوج، واختلفوا في مدة حملها ووقت وضعها، فقال ابن عباس رضي الله عنهما: كان الحمل والولادة في ساعة واحدة. وقيل: كان مدة حملها تسعة أشهر كحمل سائر النساء. وقيل: كان مدة ثمانية أشهر، وكان ذلك آية أخرى لأنه لا يعيش ولد يولد لثمانية أشهر، وولد عيسى لهذه المدة وعاش. وقيل: ولدت لستة أشهر. وقال مقاتل بن سليمان: حملته مريم في ساعة وصُوِّر في ساعة ووضعته في ساعة حين زالت الشمس من يومها، وهي بنت عشر سنين، وكانت قد حاضت حيضتين قبل أن تحمل بعيسى.

﴿ **فأجاءها** ﴾. أي ألجأها وجاء بها، ﴿ **المخاض** ﴾، وهو وجع الولادة، ﴿ **إلى جذع النخلة** ﴾، وكانت نخلة يابسة في الصحراء، في شدة الشتاء، لم يكن لها سعف، وقيل: التجأت إليها لتستند إليها وتتمسك بها على وجع الولادة، ﴿ **قالت يا ليتني مِتّ قبل هذا** ﴾، تمنّت الموت استحياءً من الناس وخوف الفضيحة، ﴿ **وكنتُ نسياً** ﴾، قرأ حمزة وحفص ﴿ **نسياً** ﴾ بفتح النون، والباقون بسكرها، وهما لغتان، مثل الوتر والوتر والجسر والجسر، وهو الشيء المنسي، والنسي في اللغة كل ما أُلقي ونُسي ولم يُذكَر لحقارته، ﴿ **منسيّاً** ﴾، أي: متروكاً قال قتادة: شيء لا يُعرَف ولا يُذكَر. قال عكرمة والضحاك ومجاهد: جيفة ملقاة. وقيل: تعني لم أُخلَق.

﴿ **فناداها مِنْ تحتِها** ﴾، قرأ أبو جعفر ونافع وحمزة والكسائي وحفص ﴿ **من تحتها** ﴾ بكسر الميم والتاء يعني جبريل عليه السلام، وكانت مريم على أكمة وجبريل وراء الأكمة تحتها فناداها، وقرأ الآخرون بفتح الميم والتاء

أنه لما خرج من بطن أمه ناداها ﴿**أن لا تحزني قد جعل ربك تحتك سرياً**﴾ أي نهراً.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: ضرب جبريل عليه السلام، وقيل عيسى عليه السلام برجله في الأرض فظهرت عين ماء عذبة، وجرت وقيل كان هناك نهر يابس فجرى فيه الماء بقدرة الله سبحانه وتعالى وجنت النخلة اليابسة، فأورقت وأثمرت وأرطبت وقيل معنى تحتك تحت أمرك إن أمرته أن يجري جرى، وإن أمرته بالإمساك أمسك وقيل معنى سرياً أي عيسى وكان عبداً سرياً رفيعاً ﴿**وهزي إليك**﴾ أي حركي إليك ﴿**بجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنياً**﴾ قيل الجنى الذي بلغ الغاية وجاء أوان اجتنائه. قال الربيع بن خيثم: ما للنفساء عندي خير من الرطب ولا للمريض خير من العسل ﴿**فكلي واشربي**﴾ أي مريم كلي من الرطب واشربي من النهر ﴿**وقري عيناً**﴾ أي طيبي نفساً، وقيل قري عيناً بولدك عيسى، يقال أقر الله عينك أي صادف فؤادك ما يرضيك فتقر عينيك عن النظر إلى غيره ﴿**فإما ترين من البشر أحداً**﴾ معناه يسألك عن ولدك ﴿**فقولي إني نذرت للرحمن صوماً**﴾ أي صمتاً، قيل كان في بني إسرائيل من أراد أن يجتهد صام عن الكلام كما يصوم عن الطعام فلا يتكلم حتى يمسي، وقيل إن الله أمرها أن تقول هذا إشارة وقيل أمرها أن تقول هذا القول نطقاً ثم تمسك عن الكلام بعده وإنما منعت من الكلام لأمرين أحدهما: أن يكون عيسى عليه السلام هو المتكلم عنها ليكون أقوى لحجتها في إزالة التهمة عنها وفيه دلالة على أن تفويض الكلام إلى الأفضل

وأراد جبريل عليه السلام أيضاً ناداها من سفح الجبل. وقيل: هو عيسى لمّا خرج من بطن أُمه ناداها، ﴿ **ألاّ تحزني** ﴾، وهو قول مجاهد والحسن، والأول قول ابن عباس رضي الله تعالى عنهما، والسدي وقتادة والضحاك وجماعة أن المنادي كان جبريل لما سمع كلامها وعرف جزعها ناداها ألاّ تحزني، ﴿ **قد جعل ربك تحتكِ سريّاً** ﴾، والسري: النهر الصغير. وقيل، تحتك أي جعله الله تحت أمرك إن أمرتيه أن يجري جرى وإن أمرتيه بالإمساك أمسك. قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: ضرب جبريل عليه السلام. ويقال: ضرب عيسى عليه الصلاة والسلام برجله الأرض فظهرت عين ماء عذب وجرى. وقيل: كان هناك نهر يابس أجرى الله سبحانه وتعالى فيه الماء وحييت النخلة اليابسة، فأورقت وأثمرت وأرطبت. وقال الحسن: تحتك سريّاً يعني عيسى وكان والله عبداً سرياً يعني رفيعاً.

﴿ **وهزّي إليك** ﴾، يعني قيل لمريم حرّكي ﴿**بجذع النخلة**﴾، تقول العرب هزّه وهزّ به. كما يقول حزّ رأسه وحزّ برأسه، وأمدد الجبل وأمدَدَ به، ﴿ **تساقطْ عليك** ﴾، القراءة المعروفة بفتح التاء والقاف وتشديد السين، يعني تتساقط، فأُدغمتْ إحدى التاءين في السين يعني تسقط عليك النخلة رطباً، وخفّف حمزة السين وحذف التاء التي أدغمها غيره، وقرأ حفص بضم التاء وكسر القاف خفيف على وزن تفاعل وتساقط بمعنى أسقط، والتأنيث لأجل النخلة، وقرأ يعقوب (يساقط) بالياء مشدّدة ردّه إلى الجذع، ﴿ **رُطباً جنياً** ﴾، مجنياً. وقيل: الجني هو الذي بلغ الغاية، وجاء أوان اجتنائه. قال الربيع بن خيثم: ما للنفساء عندي خير من الرطب، ولا للمريض خير من العسل.

قوله سبحانه وتعالى: ﴿ **فكلي واشربي** ﴾، يعني فكلي يا مريم من الرطب واشربي من ماء النهر، ﴿ **وقرّي عيناً** ﴾، يعني طيبي نفساً وقيل: قرّي عينك بولدك عيسى، يقال: أقرّ الله عينك يعني صادف فؤادك ما يرضيك، فتقرّ عينك من النظر إليه. وقيل: أقرّ الله عينه يعني أنامها، يقال: قرّ يقرّ إذا سكن. وقيل: إن العين إذا بكت من السرور فالدمع بارد وإذا بكت من الحزن فالدمع يكون حارّاً، فمن هذا قيل: أقرّ الله عينه وأسخن الله عينه. ﴿ **فإما ترينّ من البشر أحداً** ﴾، يعني ترينّ، فدخل عليه نون التأكيد فكسرت الياء لالتقاء الساكنين، معناه: فإما ترينّ من البشر أحداً فيسألك عن وعدك ﴿ **فقولي إني نذرتُ للرحمن صوماً** ﴾، يعني: صمتاً، وكذلك كان يقرأ ابن مسعود رضي الله عنه، والصوم في اللغة الإمساك عن الطعام والشراب والكلام. قال السدي: كان في بني إسرائيل مَن إذا

أولى. الثاني: كراهة مجادلة السفهاء وفيه أن السكوت عن السفيه واجب ﴿**فلن أكلم اليوم إنسياً**﴾ يقال إنها كانت تكلم الملائكة ولا تكلم الإنس.

قوله تعالى ﴿**فأتت به قومها تحمله**﴾ قيل إنها لما ولدت عيسى عليه السلام حملته في الحال إلى قومها وقيل إن يوسف النجار احتمل مريم وابنها عيسى إلى غار فمكث فيه أربعين يوماً حتى طهرت من نفاسها، ثم حملته إلى قومها فكلمها عيسى في الطريق فقال: يا أماه أبشري فإني عبدالله ومسيحه، فلما دخلت على أهلها ومعها الصبي بكوا وحزنوا وكانوا أهل بيت صالحين ﴿**قالوا يا مريم لقد جئت شيئاً فرياً**﴾ أي عظيماً منكراً وقيل معناه جئت بأمر عجيب بديع ﴿**يا أخت هارون**﴾ أي شبيهة هارون قيل كان رجلاً صالحاً في بني إسرائيل شبهت به في عفتها وصلاحها وليس المراد الأخوة في النسب، قيل إنه تبع جنازته يوم مات أربعون ألفاً من بني إسرائيل كلهم يسمى هارون سوى سائر الناس (م) عن المغيرة بن شعبة قال: لما قدمت خراسان سألوني فقالوا إنكم تقرؤون يا أخت هارون وموسى قبل عيسى بكذا وكذا فلما قدمت على رسول الله ﷺ سألته عن ذلك فقال: «إنهم كانوا يسمون بأسماء أنبيائهم والصالحين قبلهم».

وقيل كان هارون أخا مريم لأبيها، وقيل كان من أمثل رجل في بني إسرائيل وقيل إنما عنوا هارون أخا موسى لأنها كانت من نسله كما يقال للتميمي يا أخا تميم، وقيل كان هارون في بني إسرائيل فاسقاً أعظم الفسق فشبهوها به

أراد أن يجتهد صام عن الكلام كما يصوم عن الطعام فلا يتكلم حتى يمسي. وقيل: إن الله تعالى أمرها أن تقول هذا إشارة. وقيل: أمرها أن تقول هذا القدر نطقاً ثم تمسك عن الكلام بعده، ﴿ **فلن أُكلِّمَ اليوم إنسياً** ﴾، يقال كانت تكلّم الملائكة ولا تكلم الإنس.

﴿ **فأتتْ به قومها تحمله** ﴾، وقيل: إنه ولدته ثم حملته في الحال إلى قومها. وقال الكلبي حمل يوسف النجار مريم عليها السلام وابنها عيسى صلوات الله على نبيّنا وعليه إلى غار ومكث أربعين يوماً حتى طهرت من نفاسها، ثم حملته مريم عليها السلام إلى قومها. فكلمها عيسى عليه السلام في الطريق فقال: يا أماه أبشري فإني عبد الله ومسيحه، فلما دخلت على أهلها ومعها الصبي بكوا وحزنوا وكانوا أهل بيت صالحين، ﴿ **قالوا يا مريمُ لقد جئت شيئاً فريّاً** ﴾، عظيماً منكراً، قال أبو عبيدة: كل أمر فائق من عجب أو عمل فهو فري، قال النبي ﷺ في عمر: «فلم أرَ عبقرياً يفري فريه»، يعني عملــه.

﴿ **يا أُختَ هارون** ﴾، يريد يا شبيهة هارون، قال قتادة وغيره: كان هارون رجلاً صالحاً عابداً في بني إسرائيل. ورُوِيَ أنه اتّبع جنازته يوم مات أربعون ألفاً كلهم يسمى هارون من بني إسرائيل سوى سائر الناس، شبّهوها على معنى إنّا ظننا أنك مثله في الصلاح، وليس المراد منه الأخوّة في النسب كما قال الله تعالى: ﴿ إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين ﴾ [الإسراء: ٢٧] أي أشباههم، أخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر أنا عبد الغفار بن محمد أنا محمد بن عيسى أنا إبراهيم بن محمد بن سفيان ثنا مسلم بن الحجّاج ثنا محمد بن عبد الله بن نمير ثنا ابن إدريس عن أبيه عن سماك بن حرب عن علقمة بن وائل عن المغيرة بن شعبة قال: لمّا قَدِمتُ خراسان سألوني فقالوا إنكم تقرؤون: ﴿ **يا أُخت هارون** ﴾ وموسى قبل عيسى بكذا وكذا سنة، فلمّا قَدِمتُ على رسول الله ﷺ سألته عن ذلك فقال: «إنهم كانوا يسمّون بأنبيائهم والصالحين قبلهم». وقال الكلبي: كان هارون أخا مريم من أبيها، وكان أمثل رجل في بني إسرائيل. وقال السدي: إنما عنوا به هارون أخا موسى لأنها كانت من نسله كما يقال للتميمي يا أخا تميم. وقيل: كان هارون رجلاً فاسقاً في بني إسرائيل عظيم الفسق فشبّهوها به. ﴿ **ما كان**

﴿ما كان أبوك﴾ يعني عمران ﴿امرأ سوء﴾ قال ابن عباس: زانياً ﴿وما كانت أمك﴾ يعني حنة ﴿بغياً﴾ أي زانية فمن أين لك هذا الولد.

فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَـٰبَ وَجَعَلَنِى
نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَـٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى
جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَـٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ
ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَـٰنَهُۥٓ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى
وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾

﴿فأشارت إليه﴾ أي أشارت مريم إلى عيسى أن كلمهم، قال ابن مسعود: لما لم يكن لها حجة أشارت إليه ليكون كلامه حجة لها، وقيل لما أشارت إليه غضب القوم وقالوا مع ما فعلت أتسخرين بنا ﴿قالوا كيف نكلم من كان في المهد صبياً﴾ قيل أراد بالمهد الحجر وهو حجرها، وقيل هو المهد بعينه قيل لما سمع عيسى كلامهم ترك الرضاع وأقبل عليهم، وقيل لما أشارت إليه ترك الرضاع واتكأ على يساره وأقبل عليهم وجعل يشير بيمينه ﴿قال إني عبد الله﴾ قال وهب: أتاها زكرياء عند مناظرتها اليهود، فقال لعيسى: انطق بحجتك إن كنت أمرت بها، فقال عند ذلك عيسى وهو ابن أربعين يوماً، وقيل: بل يوم ولد إني عبد الله أقر على نفسه بالعبودية لله تعالى أول ما تكلم لئلا يتخذ إلهاً. فإن قلت إن الذي اشتدت إليه الحاجة في ذلك الوقت نفي التهمة عن أمه وأن عيسى لم ينص على ذلك، وإنما نص على إثبات عبوديته لله تعالى.

أبوك ﴾، عمران، ﴿ امرأَ سوءٍ ﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما: زانياً، ﴿ وما كانت أُمّك ﴾، حنة، ﴿ بغياً ﴾، أي زانية فمن أين لك هذا الولد؟ .

﴿ فأشارت ﴾، مريم، ﴿ إليه ﴾، أي إلى عيسى عليه السلام أن كلِّموه. قال ابن عباس رضي الله عنهما: لمّا لم تكن لها حجة أشارت إليه ليكون كلامه حجة لها، وفي القصة: لمّا أشارت إليه غضب القوم، وقالوا مع ما فعلت أتسخرين بنا؟ ثم، ﴿ قالوا كيف نُكلّم مَن كان في المهد صبياً ﴾ أي: مَن هو في المهد، وهو حجرها. وقيل: هو المهد بعينه، ﴿ كان ﴾ بمعنى هو، وقال أبو عبيدة: كان صلة أي كيف نكلم صبياً في المهد، وقد يجيء كان حشواً في الكلام لا معنى له كقوله: ﴿ هل كنت إلاّ بشراً رسولاً ﴾ [الإسراء: ٩٣] أي: هل أنا؟ قال السدي: فلما سمع عيسى كلامهم ترك الرضاع وأقبل عليهم. وقيل: لمّا أشارت إليه ترك الثدي واتكأ على يساره، وأقبل عليهم وجعل يشير بيمينه.

﴿ قال إني عبد الله ﴾، وقال وهب: أتاها زكريا عند مناظرتها اليهود فقال لعيسى انطق بحجتك إن كنت أمرت بها، فقال عند ذلك عيسى عليه السلام وهو ابن أربعين يوماً. وقال مقاتل: بل هو يوم ولد: إني عبد الله، أقرّ على نفسه بالعبودية لله عزّ وجلّ أول ما تكلم لئلا يتخذ إلَهاً، ﴿ آتاني الكتاب وجعلني نبياً ﴾، قيل: معناه سيؤتيني الكتاب ويجعلني نبيّاً. وقيل: هذا إخبار عمّا كتب في اللوح المحفوظ، كما قيل للنبي ﷺ: متى كنت نبيّاً؟ قال: «كنتُ نبيّاً وآدم بين الروح والجسد». وقال الأكثرون أُوتيَ الإنجيل وهو صغير طفل، وكان يعقل عقل الرجال. وعن الحسن: أنه قال أُلهم التوراة وهو في بطن أُمه.

قلت كأنه جعل إزالة التهمة عن الله تعالى أولى من إزالة التهمة عن أمه، فلهذا أول ما تكلم باعترافه على نفسه بالعبودية لتحصل إزالة التهمة عن الأم، لأن الله تعالى لم يختص بهذه المرتبة العظيمة من ولد في زنا، والتكلم بإزالة التهمة عن أمه لا يفيد إزالة التهمة عن الله سبحانه وتعالى فكان الاشتغال بذلك أو ﴿آتاني الكتاب وجعلني نبياً﴾ قيل معناه سيجعلني نبياً ويؤتيني الكتاب وهو الإنجيل وهذا إخبار عما كتب له في اللوح المحفوظ كما قيل للنبي ﷺ متى كنت نبياً قال: «كنت نبياً وآدم بين الروح والجسد» وقال الأكثرون إنه أوتي الإنجيل، وهو صغير وكان يعقل عقل الرجال الكمل وعن الحسن أنه ألهم التوراة وهو في بطن أمه ﴿وجعلني مباركاً أينما كنت﴾ معناه أني نفاع أينما توجهت، وقيل معلماً للخير أدعوا إلى الله وإلى توحيده وعبادته وقيل مباركاً على من يتبعني ﴿وأوصاني بالصلاة والزكاة﴾ أي أمرني بهما وكلفني فعلهما. فإن قلت كيف يؤمر بالصلاة والزكاة، في حال طفوليته وقد قال ﷺ «رفع القلم عن ثلاث الصبي حتى يبلغ» الحديث. . . قلت إن قوله وأوصاني بالصلاة والزكاة لا يدل على أنه تعالى أوصاه بأدائهما في الحال بل المراد أوصاه بأدائهما في الوقت المعين لهما وهو البلوغ، وقيل إن الله تعالى صيره حين انفصل عن أمه بالغاً عاقلاً وهذا القول أظهر في سياق قوله ﴿ما دمت حياً﴾ فإنه يفيد أن هذا التكليف متوجه إليه في زمان جميع حياته حين كان في الأرض، وحين رفع إلى السماء وحين ينزل الأرض بعد رفعه ﴿وبراً بوالدتي﴾ أي جعلني براً بوالدتي ﴿ولم يجعلني جباراً شقياً﴾ أي عاصياً لربي متكبراً على الحق بل، وأنا خاضع متواضع وروي أنه قال: قلبي لين وأنا صغير في نفسي، قال بعض العلماء لا تجد العاق إلا جباراً شقياً وتلا هذه الآية، وقيل الشقي الذي يذنب ولا يتوب.

﴿والسلام علي يوم ولدت﴾ أي السلامة عند الولادة من طعن الشيطان ﴿ويوم أموت﴾ أي عند الموت من الشرك ﴿ويوم أبعث حياً﴾ أي من أهوال يوم القيامة فلما كلمهم عيسى بذلك علموا براءة مريم ثم سكت عيسى فلم يتكلم حتى بلغ المدة التي يتكلم فيها الأطفال ﴿ذلك عيسى ابن مريم﴾ أي ذلك الذي قال إني عبدالله هو عيسى بن مريم

﴿ وجعلني مباركاً أينما كنتُ ﴾، أي نفّاعاً حيث ما توجهت. وقال مجاهد: معلماً للخير. وقال عطاء: أدعو إلى الله وإلى توحيده وعبادته. وقيل: مباركاً على مَن تبعني: ﴿ وأوصاني بالصلاة والزكاة ﴾، أي أمرني بهما، فإن قيل: لمْ يكن لعيسى مال فكيف يؤمر بالزكاة؟ قيل: معناه بالزكاة لو كان لي مال. وقيل: أوصاني بالزكاة أي أمرني أن أوصيكم بالزكاة. وقيل: بالاستكثار من الخير. ﴿ ما دمتُ حيّاً ﴾.

﴿ وبرّاً بوالدتي ﴾ أي وجعلني برّاً بوالدتي، ﴿ ولم يجعلني جبّاراً شقياً ﴾، أي عاصياً لربه. وقيل: الشقي الذي يذنب ولا يتوب.

﴿ والسلام عليَّ يوم ولدت ﴾، أي السلام عند الولادة من طعن الشيطان. ﴿ ويوم أموت ﴾، أي عند الموت من الشرك، ﴿ ويوم أبعث حيّاً ﴾، من الأهوال، فلما كلّمهم عيسى بهذا علموا براءة مريم ثم سكت عيسى عليه السلام فلم يتكلم بعد ذلك حتى بلغ المدة التي يتكلم فيها الصبيان.

﴿ ذلك عيسى ابن مريم ﴾، قال الزجّاج: أي ذلك الذي قال إني عبد الله عيسى ابن مريم، ﴿ قول الحق ﴾، قرأ ابن عامر وعاصم ويعقوب: ﴿ قول الحق ﴾ بنصب اللام وهو نصب على المصدر أي: قال: قول الحق، ﴿ الذي فيه يمترون ﴾، يختلفون فقائل يقول هو ابن الله، وقائل يقول هو الله، وقائل يقول هو ساحر كذاب. وقرأ الآخرون برفع اللام يعني هو قول الحق، أي هذا الكلام هو قول الحق، أضاف القول إلى الحق، كما قال: حقّ اليقين، ووعد الصدق، وقيل: هو نعت لعيسى ابن مريم، يعني ذلك عيسى ابن مريم كلمة الله الحق هو

﴿قول الحق﴾ أي هذا الكلام هو القول الحق أضاف القول إلى الحق، وقيل هو نعت لعيسى يعني بذلك عيسى بن مريم كلمة الله الحق والحق هو الله ﴿الذي فيه يمترون﴾ أي يشكون ويختلفون فقائل يقول هو ابن الله وقائل يقول ثالث ثلاثة تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً ثم نزه نفسه عن اتخاذ الولد ونفاه عنه فقال تعالى ﴿ما كان لله أن يتخذ من ولد﴾ أي ما كان من صفاته اتخاذ الولد ولا ينبغي له ذلك ﴿سبحانه إذا قضى أمراً﴾ أي إذا أراد أن يحدث أمراً ﴿فإنما يقول له كن فيكون﴾ أي لا يتعذر عليه اتخاذه على الوجه الذي أراده ﴿وإن الله ربي وربكم فاعبدوه﴾ هذا إخبار عن عيسى أنه قال ذلك يعني لأن الله ربي وربكم لا رب للمخلوقات سواه ﴿هذا صراط مستقيم﴾ أي هذا الذي أخبرتكم به أن الله أمرني به هو الصراط المستقيم الذي يؤدي إلى الجنة ﴿فاختلف الأحزاب من بينهم﴾ يعني النصارى سموا أحزاباً لأنهم تحزبوا ثلاث فرق في أمر عيسى النسطورية والملكانية واليعقوبية ﴿فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم﴾ يعني يوم القيامة حين.

أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴿٤٦﴾

﴿أسمع بهم وأبصر﴾ أي ما أسمعهم وأبصرهم يوم القيامة حين لا ينفعهم السمع والبصر أخبر أنهم يسمعون ويبصرون في الآخرة ما لم يسمعوا ويبصروا في الدنيا، وقيل معناه التهديد بما يسمعون ويبصرون مما يسوءهم ويصدع ويصدع قلوبهم ﴿يوم يأتوننا﴾ أي يوم القيامة ﴿لكن الظالمون اليوم في ضلال مبين﴾ قيل أراد باليوم الدنيا، يعني أنهم في الدنيا في خطأ بين وفي الآخرة يعرفون الحق، وقيل: معناه لكن الظالمون في الآخرة في ضلال عن طريق الجنة بخلاف المؤمنين.

الله الذي فيه يمترون ويشكون ويختلفون ويقولون غير الحق، ثم نفى عن نفسه الولد، ثم عظّم نفسه فقال:

﴿ ما كان لله أن يتخذ من ولد ﴾، أي ما كان من صفته اتخاذ الولد. وقيل: اللام منقولة أي ما كان الله أن يتخذ من ولد، ﴿ سبحانه إذا قضى أمراً ﴾، إذا أراد أن يحدث أمراً، ﴿ فإنّما يقول له كن فيكون ﴾.

﴿ وإنّ الله ربّي وربّكم ﴾، قرأ أهل الحجاز وأبو عمرو (أن الله) بفتح الألف يرجع إلى قوله: ﴿ وأوصاني بالصلاة والزكاة ﴾ وبأن الله ربّي وربكم، وقرأ أهل الشام والكوفة ويعقوب بكسر الألف على الاستئناف، ﴿ فاعبدوه هذا صراط مستقيم ﴾.

قوله تعالى: ﴿ فاختلف الأحزاب من بينهم ﴾، يعني النصارى سُمّوا أحزاباً لأنهم تحزبوا ثلاث فِرَق في أمر عيسى، النسطورية والملكانية واليعقوبية. ﴿ فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم ﴾، يعني يوم القيامة.

﴿ أسمعْ بهم وأبصرْ ﴾، أي ما أسمعهم وأبصرهم يوم القيامة حين لا ينفعهم السمع والبصر، أخبر أنهم يسمعون ويبصرون في الآخرة ما لم يسمعوا ولم يبصروا في الدنيا. قال الكلبي: لا أحد يوم القيامة أسمع منهم ولا أبصر حين يقول الله تعالى لعيسى: ﴿ أأنت قلتَ للناس ﴾ [المائدة: ١١٦] الآية. ﴿ يوم يأتوننا لكن الظالمون اليومَ في ضلال مبين ﴾، أي: في خطأ بيّن.

قوله تعالى ﴿وأنذرهم يوم الحسرة﴾ يعني خوف يا محمد كفار مكة يوم الحسرة، سمي بذلك لأن المسيء يتحسر هلا أحسن العمل والمحسن هلا زاد في الإحسان، يدل عليه ما روى أبو هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال «ما من أحد يموت إلا ندم قالوا ما ندمه يا رسول الله قال: إن كان محسناً ندم أن لا يكون ازداد وإن كان مسيئاً ندم أن لا يكون نزع» أخرجه الترمذي. قوله أن لا يكون نزع النزع عن الشيء: الكف عنه، وقال أكثر المفسرين يعني بيوم الحسرة حين يذبح الموت. (ق) عن أبي سعيد الخدري قال قال: رسول الله ﷺ «يؤتى بالموت كهيئة كبش أملح فينادي مناد يا أهل الجنة فيشرفون وينظرون فيقول هل تعرفون هذا فيقولون نعم هذا الموت وكلهم قد رآه، ثم ينادي مناد آخر يا أهل النار فيشرفون وينظرون، فيقول هل تعرفون هذا فيقولون نعم هذا الموت وكلهم قد رآه فيذبح بين الجنة والنار، ثم يقول يا أهل الجنة خلود بلا موت ويا أهل النار خلود بلا موت ثم قرأ.

﴿وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضي الأمر وهم في غفلة وهم لا يؤمنون﴾ وأشار بيده إلى الدنيا وزاد الترمذي فيه «فلو أن أحداً مات فرحاً لمات أهل الجنة ولو أن أحداً مات حزناً لمات أهل النار» قوله كهيئة كبش أملح الأملح: المختلط بالبياض والسواد، قوله فيشرفون يقال أشرف إلى الشيء إذا تطلع ينظر إليه ومالت نحوه نفسه. قوله فيذبح بين الجنة والنار اعلم أن الموت عرض ليس بجسم في صورة كبش أو غيره فعلى هذا يتأول الحديث، على أن الله تعالى يخلق هذا الجسم وهو حيوان فيذبح فيموت فلا يبقى يرجى له حياة ولا وجود، وكذلك حال أهل الجنة والنار بعد الاستقرار فيهما لا زوال لهما ولا انتقال (ق) عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ «إذا صار أهل الجنة إلى الجنة وأهل النار إلى النار، جيء بالموت حتى يجعل بين الجنة والنار فيذبح ثم ينادي مناد يا أهل الجنة لا موت ويا أهل النار لا موت فيزداد أهل الجنة فرحاً إلى فرحهم ويزداد أهل النار حزناً إلى حزنهم». عن أبي هريرة

﴿ وأنذرهم يوم الحسرة إذْ قضي الأمر ﴾، فرغ من الحساب وأدخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، وذبح الموت. أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا عمر بن حفص بن غياث أنا أبي أنا الأعمش أبو صالح عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «يؤتى بالموت كهيئة كبش أملح فينادي منادٍ: يا أهل الجنة فيشرفون وينظرون، فيقول: هل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم هذا الموت، وكلهم قد رآه، ثم ينادي: يا أهل النار فيشرفون وينظرون، فيقول: هل تعرفون هذا فيقولون: نعم هذا الموت، وكلهم قد رآه فيذبح، ثم يقول: يا أهل الجنة خلود فلا موت، ويا أهل النار خلود فلا موت» ثم قرأ: ﴿ وأنذرهم يوم الحسرة إذْ قُضِي الأمر وهم في غفلة وهم لا يؤمنون ﴾. ورواه أبو عيسى عن أحمد بن منيع عن النضر بن إسماعيل عن الأعمش بهذا الإسناد، وزاد: «فلولا أن الله تعالى قضى لأهل الجنة الحياة والبقاء لماتوا فرحاً، ولولا أن الله تعالى قضى لأهل النار الحياة والبقاء لماتوا ترحاً». أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا معاذ بن أسد أنا عبد الله أنا عمر بن محمد بن زيد عن أبيه أنه حدّثه عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا صار أهل الجنة إلى الجنة، وأهل النار إلى النار، جيء بالموت حتى يجعل بين الجنة والنار. ثم يذبح ثم ينادي منادٍ: يا أهل الجنة لا موت، ويا أهل النار لا موت، فيزداد أهل الجنة فرحاً إلى فرحهم، ويزداد أهل النار حزناً إلى حزنهم». أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا أبو اليمان أنا شعيب أنا أبو الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يدخل أحدٌ الجنة إلاّ رأى مقعدَه من النار لو أساء ليزداد شكراً، ولا يدخل النار أحدٌ إلاّ رأى مقعدَه من الجنة لو أحسن ليكون عليه حسرة». أخبرنا أبو الحسن عبد الرحمن بن محمد الداودي أنا أبو الحسن أحمد بن محمد بن موسى بن الصلت أنا أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الصمد الهاشمي أنا الحسين بن

قال: قال رسول الله ﷺ «لا يدخل الجنة أحد إلا رأى مقعده من النار لو أساء ليزداد شكراً ولا يدخل النار أحد إلا رأى مقعده من الجنة لو أحسن ليكون عليه حسرة» أخرجه البخاري.

وقوله تعالى ﴿**إذ قضي الأمر**﴾ أي فرغ من الحساب وأدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار وذبح الموت ﴿**وهم في غفلة**﴾ أي عما يراد بهم في الآخرة ﴿**وهم لا يؤمنون**﴾ أي لا يصدقون ﴿**إنا نحن نرث الأرض ومن عليها**﴾ أي نميت سكان الأرض جميعاً ويبقى الله سبحانه وتعالى وحده فيرثهم ﴿**وإلينا يرجعون**﴾ فنجزيهم بأعمالهم. قوله عز وجل ويبقى ﴿**واذكر في الكتاب إبراهيم إنه كان صديقاً نبياً**﴾ أي كثير الصدق وهو مبالغة في كونه صديقاً، وقيل الصدِّيق الكثير التصديق قيل من صدق الله في وحدانيته وصدق أنبياءه ورسله وصدق بالبعث بعد الموت وقام بالأوامر فعمل بها فهو صديق، ولما قربت رتبة الصديق من رتبة النبي انتقل من ذكر كونه صديقاً إلى ذكر كونه نبياً، والنبي العالي في الرتبة بإرسال الله إياه وأي رتبة أعلى من رتبة من جعله الله تعالى واسطة بينه وبين عباده ﴿**إذ قال لأبيه**﴾ يعني آزر وهو يعبد الأصنام ﴿**يا أبت لم تعبد ما لا يسمع**﴾ يعني صوتاً ﴿**ولا يبصر**﴾ لا ينظر شيئاً ﴿**ولا يغني عنك**﴾ أي يكفيك ﴿**شيئاً**﴾ وصف الأصنام بثلاثة أشياء كل واحد منها قادح في الإلهية، وذلك أن العبادة هي غاية التعظيم للمعبود فلا يستحقها إلا من له ولاية الإنعام وله أوصاف الكمال وهو الله تعالى فلا يستحق العبادة إلا هو ﴿**يا أبت إني قد جاءني من العلم**﴾ يعني بالله والمعرفة ﴿**ما لم يأتك فاتبعني**﴾ أي على ديني ﴿**أهدك صراطاً سوياً**﴾ أي مستقيماً ﴿**يا أبت لا تعبد الشيطان**﴾ أي لا تطعه فيما يزين لك من الكفر والشرك.

﴿**إن الشيطان كان للرحمن عصياً**﴾ أي عاصياً ﴿**يا أبت إني أخاف**﴾ أي أعلم، وقيل هو على ظاهره لأنه يمكن أن يؤمن فيكون من أهل الجنة، أو يصر على الكفر فيكون من أهل النار فحمل الخوف على ظاهره أولى. واعلم أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام رتب هذا الكلام في غاية الحسن مقروناً بالتلطف والرفق، فإن قوله في مقدمة كلامه يا أبت دليل على شدة الحب والرغبة في صرفه عن العقاب وإرشاده إلى الصواب، لأنه نبه أولاً على ما يدل على المنع من عبادة الأصنام ثم أمره باتباعه في الإيمان، ثم نبه على أن طاعة الشيطان غير جائزة في العقول ثم ختم الكلام

الحسن أنا ابن المبارك أنا يحيىٰ بن عبد الله قال: سمعت أبي قال: سمعت أبا هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ: «ما من أحد يموت إلّا ندم»، قالوا: فما ندمه يا رسول الله؟ قال: «إن كان محسناً ندم أن لا يكون ازداد، وإن كان مسيئاً ندم أن لا يكون نزع». ﴿ وهم في غفلة ﴾، أي عمّا يُفعل بهم في الآخرة، ﴿ وهم لا يؤمنون ﴾، لا يصدقون.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ إنّا نحنُ نرثُ الأرضَ ومَن عليها ﴾، أي نُميت سكان الأرض ونهلكهم جميعاً، ويبقى الرب وحده فيرثهم، ﴿ وإلينا يُرجعون ﴾، فنجزيهم بأعمالهم.

﴿واذكرْ في الكتاب إبراهيم إنه كان صدّيقاً نبياً﴾، الصديق الكثير الصدق القائم عليه. وقيل: مَن صـدق الله في وحدانيته، وصدّق أنبياءه ورسله، وصدق بالبعث، وقام بالأوامر فعمل بها، فهو الصديق. والنبي العالي في الرتبة بإرسال الله تعالى إيّاه.

قوله تعالى: ﴿ إذْ قال ﴾، إبراهيم، ﴿ لأبيه ﴾، آزر وهو يعبد الأصنام، ﴿ يا أبتِ لِمَ تعبدُوا ما لا يسمع ﴾، صوتاً، ﴿ ولا يبصر ﴾، شيئاً، ﴿ ولا يُغني عنك ﴾، أي لا يكفيك، ﴿ شيئاً ﴾.

﴿ يا أبتِ إنّي قد جاءني من العلم ﴾، بالله والمعرفة، ﴿ ما لم يأتِكَ فاتّبعني ﴾، على ديني، ﴿ أهدِكَ صراطاً سويّاً ﴾، مستقيماً.

بالوعيد الزاجر عن الإقدام على ما لا ينبغي بقوله إني أخاف ﴿أن يَمَسَّك﴾ أي يصيبك ﴿عذاب من الرحمن﴾ أي إن أقمت على الكفر ﴿فتكون للشيطان ولياً﴾ أي قريناً في النار، وقيل صديقاً له في النار، وإنما فعل إبراهيم عليه الصلاة والسلام هذا مع أبيه لأمور أحدها: لشدة تعلق قلبه بصلاحية أبيه وأداء حق الأبوة والرفق به، وثانيها: أن النبيّ الهادي إلى الحق لا بد أن يكون رفيقاً لطيفاً حتى يقبل منه كلامه، وثالثها: النصح لكل أحد فالأب أولى ﴿قال﴾ يعني أباه مجيباً له ﴿أراغب أنت عن آلهتي يا إبراهيم﴾ أي أتاركها أنت وتارك عبادتها ﴿لئن لم تنته﴾ أي ترجع وتسكت عن عيبك آلهتنا وشتمك إياها ﴿لأرجمنك﴾ قال ابن عباس: معناه لأضربنك، وقيل لأقتلنك بالحجارة، وقيل لأشتمنك، وقيل لأبعدنك عني بالقول القبيح والقول الأول هو الصحيح ﴿واهجرني﴾ أي اجتنبني قال ابن عباس: اعتزلني سالماً لا يصيبنك مني معرة ﴿ملياً﴾ أي دهراً طويلاً.

قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ
وَأَدْعُواْ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ
وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ
مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥١﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾
وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ
رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾

﴿قال﴾ يعني إبراهيم ﴿سلام عليك﴾ أي سلمت مني لا أصيبك بمكروه وذلك لأنه لم يؤمن بقتاله على كفره، وقيل هذا سلام هجران ومفارقة، وقيل هو سلام بر ولطف وهو جواب الحليم للسفيه ﴿سأستغفر لك ربي﴾، قيل إنه لما أعياه أمره وعده أن يراجع الله فيه فيسأله أن يرزقه التوحيد ويغفر له، وقيل معناه سأسأل لك ربي توبة تنال بها

﴿ يا أبتِ لا تعبدِ الشيطان ﴾، لا تطعه فيما يزيّن لك من الكفر والشرك، ﴿ إن الشيطان كان للرحمن عَصِيّاً ﴾، عاصياً، كان بمعنى الحال، أي هو كذلك.

﴿ يا أبت إنّي أخاف ﴾، أي أعلم، ﴿ أن يمسك ﴾، يصيبك، ﴿ عذابٌ من الرحمن ﴾، إن أقمتَ على الكفر، ﴿ فتكونَ للشيطان وليّاً ﴾، قريناً في النار.

﴿ قال ﴾ أبوه مجيباً له، ﴿ أراغبٌ أنتَ عن آلهتي يا إبراهيم لئن لم تنته ﴾، لئن لم تسكت وترجع عن عيبك آلهتنا وشتمك إيّاها، ﴿ لأرجمنّك ﴾، قال الكلبي ومقاتل والضحاك: لأشتمنّك ولأبعدنّك عني بالقول القبيح. قال ابن عباس: لأضربنّك. وقال الحسن: لأقتلنّك بالحجارة. ﴿ واهجرني مليّاً ﴾، قال الكلبي: اجتنبني طويلاً. وقال مجاهد وعكرمة: حيناً. وقال سعيد بن جبير: دهراً. أصله المكث، ومنه يقال: تملّيت حيناً، والملوان: الليل والنهار. وقال قتادة وعطاء: سالماً. وقال ابن عباس: اعتزلني سالماً لا تصيبك منّي معرّة، يقال: فلان ملي بأمر كذا إذا كان كافياً.

﴿ قال ﴾ إبراهيم ﴿ سلامٌ عليك ﴾، أي سلمت مني لا أصيبك بمكروه، وذلك أنه لم يؤمر بقتاله على كفره. وقيل: هذا سلام هجران ومفارقة. وقيل: سلام برٍّ ولطفٍ، وهو جواب الحليم للسفيه. قال الله تعالى: ﴿ وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً ﴾ [الفرقان: ٦٣]. ﴿ سأستغفرُ لكَ ربّي ﴾، قيل: إنه لمّا أعياه أمره ووعده أن

المغفرة ﴿**إنه كان بي حفياً**﴾ أي براً لطيفاً والمراد أنه يستجيب لي إذا دعوته لأنه عودني الإجابة لدعائي ﴿**وأعتزلكم وما تدعون من دون الله**﴾ أي أفارقكم وأفارق ما تعبدون من دون الله وذلك أنه فارقهم وهاجر إلى الأرض المقدسة ﴿**وأدعو ربي**﴾ أي أعبد ربي الذي خلقني وأنعم علي ﴿**عسى أن لا أكون بدعاء ربي شقياً**﴾ أي أرجو أن لا أشقى بدعاء ربي وعبادته كما تشقون أنتم بعبادة الأصنام، ففيه التواضع له مع التعريض بشقاوتهم. قوله عز وجل ﴿**فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله**﴾ أي ذهب مهاجراً ﴿**وهبنا له**﴾ أي بعد الهجرة ﴿**إسحاق ويعقوب**﴾ أي آنسنا وحشته من فراقهم بأولاد أكرم على الله من أبيه ﴿**وكلاً جعلنا نبياً**﴾ أي أنعمنا عليهما بالنبوة ﴿**ووهبنا لهم من رحمتنا**﴾ أي مع ما وهبنا لهم من النبوة وهبنا لهم المال والولد وذلك أنه بسط لهم في الدنيا من سعة الرزق وكثرة الأولاد ﴿**وجعلنا لهم لسان صدق علياً**﴾ يعني ثناء حسناً رفيعاً في أهل كل دين حتى دعا لهم أهل الأديان كلهم فهم يتولونهم ويثنون عليهم.

قوله عز وجل ﴿**واذكر في الكتاب موسى إنه كان مخلصاً**﴾ قرىء بكسر اللام أي أخلص العبادة، والطاعة لله تعالى ولم يراء وقرىء بالفتح أي مختاراً اختاره الله تعالى ثم استخلصه واصطفاه ﴿**وكان رسولاً نبياً**﴾ فهذان وصفان مختلفان فكل رسول نبي ولا عكس ﴿**وناديناه من جانب الطور الأيمن**﴾ أي من ناحية يمين موسى، والطور جبل معروف بين مصر ومدين ويقال إن اسمه الزبير، وذلك حين أقبل من مدين ورأى النار فنودي يا موسى إني أنا رب العالمين ﴿**وقربناه**﴾ قال ابن عباس: قربه وكلمه ومعنى التقريب إسماعه كلامه وقيل رفعه على الحجب حتى سمع صرير الأقلام، وقيل معناه رفع قدره ومنزلته أي وشرفناه بالمناجاة وهو قوله تعالى ﴿**نجياً**﴾ أي مناجياً ﴿**ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبياً**﴾ وذلك أن موسى دعا ربه فقال واجعل لي وزيراً من أهلي هارون أخي فأجاب الله دعوته، وأرسل إلى هارون ولذلك سماه هبة له وكان هارون أكبر من موسى.

قوله عز وجل ﴿**واذكر في الكتاب إسماعيل**﴾ هو إسماعيل بن إبراهيم وهو جد النبي ﷺ ﴿**إنه كان صادق**

يراجع الله فيه، فيسأله أن يرزقه التوحيد ويغفر له، معناه سأسأل الله تعالى لك توبة تنال بها المغفرة. ﴿ **إنّه كان بي حفيّاً** ﴾، برّاً لطيفاً. قال الكلبي: عالماً يستجيب لي إذا دعوته. قال مجاهد: عوّدني الإجابة لدعائي.

﴿ **وأعتزلكم وما تدعون من دون الله** ﴾، أي أعتزل ما تعبدون من دون الله. قال مقاتل: كان اعتزاله إيّاهم أنه فارقهم من كوثى، فهاجر منها إلى الأرض المقدسة، ﴿ **وأدعو ربّي** ﴾، أي أعبدُ ربي، ﴿ **عسى أن لا أكون بدعاء ربي شقيّاً** ﴾، أي عسى أن لا أشقى بدعائه وعبادته، كما أنتم تشقون بعبادة الأصنام. وقيل: عسى أن يجيبني إذا دعوته ولا يجيبني.

﴿ **فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله** ﴾، فذهب مهاجراً.

﴿ **ووهبنا لهم من رحمتنا** ﴾ أي: نعمتنا. قال الكلبي: المال والولد، وهو قول الأكثرين، قالوا معناه: ما بسط لهم في الدنيا من سعة الرزق. وقيل: الكتاب والنبوّة، ﴿ **وجعلنا لهم لسانَ صدق عليّاً** ﴾، يعني ثناءً حسناً رفيعاً في كل أهل الأديان، فكلهم يتولّونهم ويثنون عليهم.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ **واذكرْ في الكتاب موسى إنه كان مُخْلَصاً** ﴾، غير مراء أخلص العبادة والطاعة لله عزّ وجلّ. وقرأ أهل الكوفة ﴿ **مخلصاً** ﴾ بفتح اللام أي مختاراً اختاره الله عزّ وجلّ. وقيل: أخلصه الله من الدنس. ﴿ **وكان رسولاً نبيّاً** ﴾.

﴿ **وناديناه من جانب الطور الأيمن** ﴾، يعني يمين موسى، والطور: جبل بين مصر ومدين. ويقال اسمه الزبير، وذلك حين أقبل من مدين ورأى النار فنوديَ ﴿ يا موسى إني أنَا اللَّهُ ربُّ العالمين ﴾ [القصص: ٣٠].

الوعد﴾ قيل إنه لم يعد شيئاً إلا وفى به وقيل إنه وعد رجلاً أن يقوم مكانه حتى يرجع الرجل فوقف إسماعيل مكانه ثلاثة أيام للميعاد، حتى رجع إليه الرجل وقيل إنه وعد نفسه الصبر على الذبح فوفى به، فوصفه الله بهذا الخلق الحسن الشريف، سئل الشعبي عن الرجل يعد ميعاداً إلى أي وقت ينتظر فقال إن وعده نهاراً فكل النهار وإن وعده ليلاً فكل الليل، وسئل بعضهم عن مثل ذلك فقال إن وعده في وقت صلاة ينتظر إلى وقت صلاة أخرى **﴿وكان رسولاً﴾** إلى جرهم، وهم قبيلة من عرب اليمن نزلوا على هاجر أم إسماعيل بوادي مكة حين خلفهم إبراهيم، وجرهم هو جرهم بن قحطان بن عابر بن شالخ وقحطان أبو قبائل اليمن **﴿نبياً﴾** أي مخبراً عن الله تعالى **﴿وكان يأمر أهله﴾** أي قومه وجميع أمته **﴿بالصلاة والزكاة﴾** قال ابن عباس: يريد الصلاة المفروضة عليهم وهي الحنيفية التي افترضت علينا، وقيل كان يبدأ بأهله في الأمر بالصلاة والعبادة ليجعلهم قدوة لمن سواهم **﴿وكان عند ربه مرضياً﴾** أي قائماً لله بطاعته وقيل رضيه لنبوته ورسالته وهذا نهاية في المدح لأن المرضي عند الله هو الفائز في كل طاعة بأعلى الدرجات. قوله عز وجل **﴿واذكر في الكتاب إدريس﴾** هو جد أبي نوح واسمه أخنوخ، سمي إدريس لكثرة دراسة الكتب وكان خياطاً وهو أول من خط بالقلم، وأول من خاط الثياب ولبس المخيط وكانوا من قبل يلبسون الجلود وهو أول من اتخذ السلاح وقاتل الكفار، وأول من نظر في علم الحساب.

﴿إنه كان صديقاً نبياً﴾ وذلك أن الله تعالى شرفه بالنبوة وأنزل عليه ثلاثين صحيفة **﴿ورفعناه مكاناً علياً﴾** قيل هي الرفعة بعلو المرتبة في الدنيا، وقيل إنه رفع إلى السماء. وهو الأصح يدل عليه ما روى أنس بن مالك بن صعصعة «عن النبيّ ﷺ أنه رأى إدريس في السماء الرابعة ليلة المعراج» متفق عليه وكان سبب رفع إدريس إلى السماء الرابعة على ما

﴿ وقرّبناه نجيّاً ﴾، أي: مناجياً، فالنجي المناجي، كما يقال: جليس ونديم. قال ابن عباس: معناه قربه فكلمه، ومعنى التقريب إسماعه كلامه. وقيل: رفعه على الحجب حتى سمع صرير القلم.

﴿ ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارونَ نبيّاً ﴾، وذلك حين دعا موسى فقال: ﴿ واجعلْ لي وزيراً من أهلي هارون أخي ﴾ [طه: ٢٩]، فأجاب الله دعاءه وأرسل إلى هارون، ولذلك سمّاه هبة له.

﴿ واذكر في الكتاب إسماعيل ﴾، وهو إسماعيل بن إبراهيم جدّ النبي ﷺ **﴿ إنّه كان صادق الوعد ﴾**، قال مجاهد: لم يعد شيئاً إلاّ وفّى به. وقال مقاتل: وعد رجلاً أن يقيم مكانه حتى يرجع إليه الرجل، فأقام إسماعيل مكانه ثلاثة أيام للميعاد حتى رجع إليه الرجل، وقال الكلبي: انتظره حتى حَالَ عليه الحَوْل. **﴿ وكان رسولاً ﴾**، إلى جرهم، **﴿ نبيّاً ﴾**، مخبراً عن الله عزّ وجلّ.

﴿ وكان يأمر أهله ﴾، أي: قومه. وقيل: أهله وجميع أمته، **﴿ بالصلاة والزكاة ﴾**، قال ابن عباس: يريد التي افترضها الله تعالى عليهم، وهي الحنيفية التي افترضت علينا، **﴿ وكان عند ربه مرضياً ﴾**، قائماً لله بطاعته. قيل: رضيه الله عزّ وجلّ لنبوّته ورسالته.

قوله: **﴿ واذكر في الكتاب إدريس ﴾**، وهو جَدّ أبي نوح، واسمه أخنوخ، سُمّي إدريس لكثرة درسه الكتب. وكان خيّاطاً وهو أول مَن خطّ بالقلم، وأول مَن خاط الثياب، ولبس الثياب المَخيطة، وكانوا من قبله يلبسون الجلود، وأول مَن اتخذ السلاح، وقاتل الكفّار، وأول مَن نظر في علم النجوم والحساب، **﴿ إنه كان صديقاً نبيّاً ﴾**.

﴿ ورفعناه مكاناً عليّاً ﴾، قيل: هي الجنة. وقيل: هي الرفعة بعلو الرتبة في الدنيا. وقيل: إنه رفع إلى السماء الرابعة. روى أنس بن مالك عن مالك بن صعصعة عن النبي ﷺ أنه رأى إدريس في السماء الرابعة ليلة

قاله كعب الأحبار وغيره: أنه سار يوم في حاجة فأصابه وهج الشمس فقال: يا رب إني مشيت يوماً فكيف بمن يحملها مسيرة خمسمائة عام في يوم واحد اللهم خفف عنه من ثقلها وحرها، فلما أصبح الملك وجد من خفة الشمس وحرها ما لا يعرف فقال يا رب خلقتني لحر الشمس فما الذي قضيت فيه؟ قال إن عبدي إدريس سألني أن أخفف عنك حملها وحرها، فأجبته قال يا رب فاجمع بيني وبينه واجعل بيني وبينه خلة فأذن له حتى أتى إدريس، فكان إدريس يسأله فكان ما سأله أن قال إني أخبرت أنك أكرم الملائكة وأمكنهم عند ملك الموت فاشفع لي إليه ليؤخر أجلي لعلي ازداد شكراً وعبادة فقال الملك ﴿لا يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها﴾ وأنا مكلمه فرفعه إلى السماء ووضعه عند مطلع الشمس، ثم أتى ملك الموت فقال له إليك حاجة صديق لي من بني آدم تشفع بي إليك لتؤخر أجله، فقال ملك الموت ليس لي ذلك ولكن إن أحببت أعلمته أجله فيقدم لنفسه قال نعم فنظر في ديوانه فقال: إنك كلمتني في إنسان ما أراه يموت أبداً.

قال وكيف ذلك فقال لا أجده يموت إلا عند مطلع الشمس. قال إني أتيتك وتركته هناك قال انطلق فلا أراك تجده إلا وقد مات فوالله ما بقي من عمر إدريس شيء فرجع الملك فوجده ميتاً وقال وهب: كان يرفع لإدريس كل يوم من العبادة مثل ما يرفع لجميع أهل الأرض في زمانه، فعجب منه الملائكة واشتاق إليه ملك الموت فاستأذن ربه في زيارته فأذن له فأتاه في صورة بني آدم وكان إدريس يصوم الدهر، فلما كان وقت إفطاره دعاه إلى الطعام فأبى أن يأكل معه ففعل ذلك ثلاث ليال، فأنكره إدريس وقال له في الليلة الثالثة: إني أريد أن أعلم من أنت قال: أنا ملك الموت، استأذنت ربي أن أصحبك فقال لي إليك حاجة قال وما هي قال تقبض روحي. فأوحى الله إليه أن اقبض روحه وردها الله إليه بعد ساعة فقال له ملك الموت ما الفائدة في سؤالك قبض الروح؟ قال لأذوق كرب الموت وغمه فأكون أشد

المعراج، وكان سبب رفع إدريس على ما قاله كعب وغيره، أنه سارَ ذاتَ يومٍ في حاجة فأصابه وهج الشمس، فقال: يا رب إني مشيت فيها يوماً واحداً فأصابني المشقّة الشديدة من وهج الشمس وأضرّني حرُّها ضرراً بليغاً، فكيف بمَن يحملها مسيرة خمسمائة عام في يوم واحد، اللّهمَّ خفِّفْ عنه من ثقلها وحرّها، فلما أصبح الملك وجد من خفّة الشمس وحرّها ما لم يعرف. فقال: يا ربّ ما الذي قضيت فيه حتى خفّفت عنّي ما أنا فيه؟ قال: إن عبدي إدريس سألني أن أُخفّف عنك حملها وحرّها فأجبته، فقال: يا رب اجعل بيني وبينه خِلّة، فأذن له حتى أتى إدريس، فكان يسأله إدريس، فقال له: إن أُخبرت أنك أكرم الملائكة وأمكنهم عند ملك الموت، فاشفع لي إليه ليؤخّر أجلي، فأزداد شكراً وعبادةً، فقال الملك: لا يؤخّر الله نفساً إذا جاء أجلها، وأنا مكلّمه فرفعه إلى السماء ووضعه عند مطلع الشمس، ثم أتى ملك الموت فقال: لي حاجة إليك، فقال: وما هي؟ فقال: صديق لي من بني آدم تشفّع بي إليك لتؤخّر أجله، قال: ليس ذلك إليّ ولكن إن أحببت أعلمته أجله متى يموت، فيقدّم لنفسه، قال: نعم، فنظر في ديوانه فقال: إنك كلمتني في إنسان ما أراه يموت أبداً، قال: وكيف ذلك؟ قال: لا أجده يموت إلّا عند مطلع الشمس، قال: فإني أتيتك وتركته هناك، قال: فانطلق فلا أراك تجده إلّا وقد مات، فوالله ما بقي من أجل إدريس شيء، فرجع الملك فوجده ميتاً. واختلفوا في أنه حيّ في السماء أم ميت؟ فقال قوم: هو ميت، وقال قوم: هو حيّ، وقالوا: أربعة من الأنبياء في الأحياء اثنان في الأرض: الخضر وإلياس، واثنان في السماء: إدريس وعيسى، وقال وهب: كان يرفع لإدريس كل يوم من العبادة مثل ما يرفع لجميع أهل الأرض في زمانه فعجب منه الملائكة واشتاق إليه ملك الموت، فاستأذن ربّه عزّ وجلّ في زيارته، فأذن له فأتاه في صورة بني آدم، وكان إدريس يصوم الدهر، فلما كان وقت إفطاره دعاه إلى طعامه فأبى أن يأكل معه، ففعل ذلك ثلاث ليالٍ فأنكره إدريس، فقال له في الليلة الثالثة: إني أُريد أن أعلم مَن أنت؟ فقال: أنا ملك الموت استأذنت ربّي أن أصحبك، قال: فلي إليك

استعداداً له. ثم قال له إدريس لي إليك حاجة أخرى. قال وما هي قال ترفعني إلى السماء لأنظر إليها وإلى الجنة والنار فأذن الله له فرفعه فلما قرب من النار قال لي إليك حاجة قال وما هي قال أريد أن أسأل مالكاً أن يرفع أبوابها فأراها.

ففعل قال فكما أريتني النار فأرني الجنة. فذهب به إلى الجنة فاستفتح ففتحت أبوابها فأدخله الجنة ثم قال له ملك الموت اخرج لتعود إلى مقرك فتعلق بشجرة، وقال ما أخرج منها فبعث الله إليه ملكاً حكماً بينهما قال له الملك ما لك لا تخرج؟ قال لأن الله تعالى قال ﴿**كل نفس ذائقة الموت**﴾ وقد ذقته ثم قال ﴿**وإن منكم إلا واردها**﴾ فأنا وردتها وقال ﴿**وما هم منها بمخرجين**﴾ فلست أخرج فأوحى الله تعالى إلى ملك الموت بإذني دخل الجنة وبأمري لا يخرج فهو حي هناك فذلك قوله تعالى ﴿**ورفعناه مكاناً علياً**﴾ واختلفوا في أنه حي في السماء أم ميت. فقال قوم هو ميت واستدل بالأول. وقال قوم هو حي واستدل بهذا. وقالوا أربعة من الأنبياء أحياء اثنان في الأرض وهما الخضر وإلياس. واثنان في السماء وهما إدريس وعيسى. قوله عز وجل:

أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ ﴿٥٨﴾ ۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِ ۖ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴿٦٠﴾ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا ﴿٦١﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا ۖ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿٦٢﴾

﴿**أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين**﴾ أولئك إشارة إلى المذكورين في هذه السورة أنعم الله عليهم بالنبوة وغيرها ما تقدم وصفه ﴿**من ذرية آدم**﴾ يعني إدريس ونوحاً ﴿**وممن حملنا مع نوح**﴾ أي ومن ذرية من حملنا مع نوح في السفينة يريد إبراهيم لأنه ولد سام بن نوح ﴿**ومن ذرية إبراهيم**﴾ يعني إسحاق وإسماعيل ويعقوب ﴿**وإسرائيل**﴾ أي ومن ذرية إسرائيل وهو يعقوب وهم موسى ويحيى وهارون وزكريا وعيسى صلوات الله وسلامه عليهم فرتب الله

حاجة، قال: وما هي؟ قال: تقبض روحي، فأوحى الله إليه أن اقبض روحه، فقبض روحه وردّها الله إليه بعد ساعة، قال له ملك الموت: ما الفائدة في سؤالك قبض الروح؟ قال: لأذوق كرب الموت وغمّه لأكون أشدّ استعداداً له، ثم قال إدريس له: إن لي إليك حاجة أخرى، قال: وما هي؟ قال: ترفعني إلى السماء لأنظر إليها وإلى الجنة والنار، فأذن الله في رفعه، فلما قرب من النار قال: لي حاجة أخرى، قال: وما تريد؟ قال: تسأل مالكاً حتى يفتح لي أبوابها فأردُها ففعل ثم قال: فكما أريتني النار فأرني الجنة، فذهب به إلى الجنة فاستفتح ففتحت أبوابها، فأدخله الجنة، ثم قال له ملك الموت: اخرج لتعود إلى مقرك، فتعلّق بشجرة وقال: لا أخرج منها، فبعث الله ملكاً حكماً بينهما، فقال له الملك: ما لك لا تخرج؟ قال: لأن الله تعالى قال: ﴿ **كلّ نفس ذائقة الموت** ﴾ [آل عمران: ١٨٥، الأنبياء: ٣٥، العنكبوت: ٥٧]، وقد ذقتُه، وقال: ﴿ **وإنْ منكم إلّا واردها** ﴾ [مريم: ٧١]، وقد وردتُها، وقال: ﴿ **وما هم منها بمخرجين** ﴾ [الحجر: ٤٨]، فلست أخرج فأوحى الله ملك الموت بإذني دخل الجنة وبأمري لا يخرج، فهو حيّ هناك، فذلك قوله تعالى: ﴿ **ورفعناه مكاناً عليّاً** ﴾.

﴿ **أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذريّة آدم** ﴾، أي إدريس ونوحاً، ﴿ **وممّن حملنا مع نوح** ﴾، أي ومن ذرية مَن حملنا مع نوح في السفينة، يريد إبراهيم لأنه ولد سام بن نوح، ﴿ **ومن ذريّة إبراهيم** ﴾، يريد إسماعيل وإسحاق ويعقوب، قوله: ﴿ **وإسرائيل** ﴾، أي ومن ذريّة إسرائيل وهم موسى وهارون وزكريا ويحيى،

تعالى أحوال الأنبياء الذين ذكرهم على هذا الترتيب منها بذلك على أنهم كما شرفوا بالنسب ثم قال تعالى ﴿ومن هدينا واجتبينا﴾ أي هؤلاء من أرشدنا واصطفينا وقيل من هدينا إلى الإسلام واجتبينا على الأنام ﴿إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجداً﴾ جمع ساجد ﴿وبكياً﴾ جمع باك، أخبر الله تعالى أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام كانوا إذا سمعوا آيات الله سجدوا وبكوا خضوعاً وخشوعاً وخوفاً وحذراً. والمراد من الآيات ما خصهم به من الكتب المنزلة عليهم، وقيل المراد من الآيات ذكر الجنة والنار والوعد والوعيد ففيه استحباب البكاء وخشوع القلب عند سماع القرآن.

فصل

وسجدة سورة مريم من عزائم سجود القرآن، فيسن للقارىء والمستمع أن يسجد عند تلاوة هذه السجدة، وقيل يستحب لمن قرأ آية سجدة فسجد أن يدعوا بما يناسب تلك السجدة، فإن قرأ سجدة سبحان قال اللهم اجعلني من الباكين إليك والخاشعين لك. وإن قرأ سجدة مريم قال اللهم اجعلني من عبادك المنعم عليهم الساجدين لك الباكين عند تلاوة آياتك. وإن سجد سجدة ألم السجدة قال اللهم اجعلني من الساجدين لوجهك المسبحين بحمدك وأعوذ بك أن أكون من المستكبرين عن أمرك.

قوله تعالى ﴿فخلف من بعدهم﴾ أي من بعد النبيين المذكورين ﴿خلف﴾ أي قوم سواء أراد بهم اليهود ومن

﴿ وممّن هدينا واجتبينا ﴾، هؤلاء كانوا ممّن أرشدنا واصطفينا، ﴿ إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خرّوا سجداً وبُكياً ﴾، سجداً جمع ساجد وبكياً جمع باكٍ، أخبر الله أن الأنبياء كانوا إذا سمعوا بآيات الله سجدوا وبكوا.

قوله تعالى: ﴿ فخلف من بعدهم خلف ﴾، أي من بعد النبيين المذكورين خلف وهم قوم سوء والخلف بالفتح الصالح وبالجزم الطالح قال السدي: أراد بهم اليهود ومَن لحق بهم. وقال مجاهد وقتادة: هم قوم في هذه الأمة، ﴿ أضاعوا الصلاة ﴾، تركوا الصلاة المفروضة. وقال ابن مسعود وإبراهيم: أخّروها عن وقتها وقال سعيد بن المسيب: هو أن لا يصلّي الظهر حتى يأتي العصر ولا العصر حتى تغرب الشمس، ﴿ واتبعوا الشهوات ﴾، أي المعاصي وشرب الخمر، أي آثروا شهوات أنفسهم على طاعة الله. وقال مجاهد: هؤلاء قوم يظهرون في آخر الزمان ينزوا بعضهم على بعض في الأسواق والأزقّة. ﴿ فسوف يلقون غيّاً ﴾، قال ابن وهب: الغي نهر في جهنم بعيد قعره خبيث طعمه. وقال ابن عباس: الغيّ وادٍ في جهنم، وإن أودية جهنم لتستعيذ من حرّه أُعدّ للزاني المصرّ عليه، ولشارب الخمر المدمن عليها، ولآكل الربا الذي لا ينزع عنه، ولأهل العقوق ولشاهد الزور، ولامرأة أدخلت على زوجها ولداً، وقال عطاء: الغيّ وادٍ في جهنم يسيل قيحاً ودماً. وقال كعب: هو وادٍ في جهنم أبعدها قعراً، وأشدّها حرّاً فيه بئر تسمى الهيم، كلما خبت جهنم فتح الله تلك البئر فيسعر بها جهنم، أخبرنا محمد بن عبد الله بن أبي توبة أنا محمد بن أحمد الحارثي أنا محمد بن يعقوب الكسائي أنا عبد الله بن محمود أنا إبراهيم بن عبد الله الخلال وأنا عبد الله بن المبارك عن هشيم بن بشير أنا زكريا بن أبي مريم الخزاعي قال: سمعت أبي أمامة الباهلي يقول: إن ما بين شفير جهنم إلى قعرها مسيرة سبعين خريفاً من حجر يهوي أو قال صخرة تهوي عظمها كعشر عشرت وأسمان، فقال له مولى لعبد الرحمن بن خالد بن الوليد: هل تحت ذلك شيء يا أبا أمامة؟ قال: نعم غيّ وآثام. وقال الضحاك: غيّاً وخسراناً. وقيل: هلاكاً. وقيل: عذاباً. وقوله ﴿ فسوف يلقون غيّاً ﴾ ليس مراده يرون فقط بل معناه الاجتماع والملابسة مع الرؤية.

﴿ إلاّ مَن تاب وآمن وعمل صالحاً فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون شيئاً ﴾.

لحق بهم وتابعهم وقيل هم في هذه الأمة ﴿أضاعوا الصلاة﴾ أي تركوا الصلاة المفروضة. وقيل أخروها عن وقتها وهو أن لا يصلي الظهر حتى يأتي العصر ولا العصر حتى تأتي المغرب ﴿واتبعوا الشهوات﴾ أي آثروا شهوات أنفسهم على طاعة الله وقيل اتبعوا المعاصي وشرب الخمور، وقيل هؤلاء قوم يظهرون في آخر الزمان ينزو بعضهم على بعض في الأسواق والأزقة ﴿فسوف يلقون غياً﴾ قال ابن عباس: الغي واد في جهنم، وإن أودية جهنم لتستعيذ من حره أعد للزاني المصر عليه، ولشارب الخمر المدمن له ولآكل الربا الذي لا ينزع عنه ولأهل العقوق، ولشاهد الزور وقيل هو وادٍ في جهنم بعيد قعره خبيث طعمه يسيل قيحاً ودماً، وقيل: واد في جهنم أبعدها قعراً وأشدها حراً فيه بئر تسمى الهيم كلما خبت جهنم فتح الله تلك البئر فتستعر بها جهنم وقيل معنى غياً خسراناً وقيل هلاكاً وعذاباً، وليس معنى يلقون يرون فقط بل معناه الاجتماع والملابسة مع الرؤية.

قوله تعالى ﴿إلا من تاب وآمن وعمل صالحاً﴾ يعني إلا من تاب من التقصير في الصلوات والمعاصي وآمن من الكفر وعمل صالحاً بطاعة الله تعالى ﴿فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون شيئاً﴾ أي لا ينقصون شيئاً ثم وصف الجنة فقال تعالى ﴿جنات عدن﴾ أي بساتين إقامة وصفها بالدوام بخلاف جنات الدنيا فإنها لا تدوم ﴿التي وعد الرحمن عباده بالغيب﴾ أي إنهم لا يرونها فهي غائبة عنهم وهم غائبون عنها ﴿إنه كان وعده مأتياً﴾ أي آتياً وقيل معنى وعده موعود وهو الجنة مأتياً أي يأتيه أولياء الله وأهل طاعته ﴿لا يسمعون فيها لغواً﴾ أي باطلاً وفحشاً وهو فضول الكلام ﴿إلا سلاماً﴾ يعني بل يسمعون فيها سلاماً والسلام اسم جامع للخير لأنه يتضمن معنى السلامة، وذلك أن أهل الجنة لا يسمعون فيها ما يؤلمهم، إنما يسمعون تسليمهم، وقيل هو تسليم بعضهم على بعض وتسليم الملائكة عليهم، وقيل هو تسليم الله عليهم ﴿ولهم رزقهم فيها بكرة وعشياً﴾ قال أهل التفسير: يؤتون بأرزاقهم على مقدار طرفي النهار كعادتهم في الدنيا، وقيل إنهم يعرفون وقت النهار برفع الحجب، ووقت الليل بإرخاء الحجب، وقيل المراد منه رفاهية العيش وسعة الرزق من غير تضييق ولا تقتير، وقيل: كانت العرب لا تعرف أفضل من الرزق الذي يؤتى به البكرة والعشي، فوصف الله تعالى الجنة بذلك. وقوله تعالى:

تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا

﴿ جنات عدن التي وعد الرحمن عباده بالغيب ﴾، ولم يروها، ﴿ إنّه كان وعده مأتيّاً ﴾، يعني أتياً مفعول بمعنى فاعل. وقيل: لم يقل أتياً لأن كل مَن أتاك فقد أتته، والعرب لا تفرّق بين قول القائل أتت عليّ خمسون سنة وبين قوله أتيت على خمسين سنة، ويقول: وصل إليَّ الخير ووصلت إلى الخير. قال ابن جرير: وعده أي موعوده، وهو الجنة مأتياً يأتيه أولياؤه وأهل طاعته.

﴿ لا يسمعون فيها ﴾، في الجنة ﴿ لغواً ﴾، باطلاً وفحشاً وفضولاً من الكلام. وقال مقاتل: هو اليمين الكاذبة، ﴿ إلاّ سلاماً ﴾، استثناء من غير جنسه يعني بل يسمعون فيها سلاماً أي قولاً يسلمون منه، والسلام اسم جامع للخير لأنه يتضمن السلامة، معناه إن أهل الجنة لا يسمعون ما يؤثمهم، إنما يسمعون ما يسلمهم. وقيل: هو تسليم بعضهم على بعض وتسليم الملائكة عليهم. وقيل: هو تسليم الله عليهم، ﴿ ولهم رزقهم فيها بكرةً وعَشِياً ﴾، قال أهل التفسير: ليس في الجنة ليـل يُعرَف به البكرة والعشي، بل هم في نور أبداً ولكنهم يؤتون بأرزاقهم على مقدار طرفي النهار. وقيل: إنهم يعرفون وقت النهار برفع الحجب، ووقت الليل بإرخاء الحجب. وقيل: المراد منه رفاهية العيش وسعة الرزق من غير تضييق، وكان الحسن البصري يقول: كانت العرب لا تعرف من العيش أفضل من الرزق بالبكرة والعشي، فوصف الله عزّ وجلّ أهل جنته بذلك.

بَيْنَ ذَٰلِكَ ۚ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾ رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾
وَيَقُولُ الْإِنسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا ﴿٦٧﴾
فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى
الرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾

﴿**تلك الجنة التي نورث من عبادنا**﴾ أي نعطي وننزل وقيل يورث عباده المؤمنين المساكن التي كانت لأهل النار لو آمنوا ﴿**من كان تقياً**﴾ أي المتقين من عباده عز وجل ﴿**وما نتنزل إلا بأمر ربك**﴾ (خ) عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن النبي ﷺ قال: «يا جبريل ما يمنعك أن تزورنا أكثر ما تزورنا فنزلت وما نتنزل إلا بأمر ربك له ما بين أيدينا وما خلفنا» الآية قال فكان هذا جواب جبريل لمحمد ﷺ «وقيل احتبس جبريل عن النبيّ ﷺ حين سأله اليهود عن أمر الروح وأصحاب الكهف، ثم نزل بعد أيام فقال له رسول الله ﷺ «أبطأت علي حتى ساء ظني واشتقت إليك، فقال له جبريل وإني كنت أشوق إليك، ولكني عبد مأمور إذا بعثت نزلت وإذا احبست احتبست» فأنزل الله تعالى وما نتنزل إلا بأمر ربك وأنزل الله تعالى ﴿والضحى والليل إذا سجى ما ودعك ربك وما قلى﴾ وقوله ﴿**له ما بين أيدينا وما خلفنا**﴾ أي له علم ما بين أيدينا وما خلفنا، وقيل أكد ذلك بقوله ما بين أيدينا وما خلفنا أي هو المدبر لنا في كل الأوقات الماضي والمستقبل، وقيل معناه له ما بين أيدينا من أمر الآخرة والثواب والعقاب وما خلفنا أي ما مضى من الدنيا ﴿**وما بين ذلك**﴾ أي من هذا الوقت إلى أن تقوم الساعة، وقيل ما بين ذلك أي ما بين النفختين وهو مقدار أربعين سنة، وقيل ما بين أيدينا ما بقي من الدنيا وما خلفنا ما بقي منها وما بين ذلك أي مدة حياتنا ﴿**وما كان ربك نسياً**﴾ أي ناسياً أي ما نسيك ربك وما تركك ﴿**رب السموات والأرض وما بينهما**﴾ أي من يكون كذلك لا يجوز عليه النسيان لأنه لا بد أن يدبر أحوالها كلها، وفيه دليل على أن فعل العبد خلق لله لأنه حاصل بين السموات والأرض فكان لله تعالى ﴿**فاعبده**

﴿ **تلك الجنة التي نورث من عبادنا** ﴾ أي نعطي وننزل. وقيل: يورث عباده المؤمنين المساكن التي كانت لأهل النار لو آمنوا، ﴿ **مَن كان تقياً** ﴾، أي المتّقين من عباده.

﴿ **وما نتنزل إلّا بأمرِ ربّك** ﴾، أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا خلاد بن يحيىٰ أنا عمر بن ذر قال: سمعت أبي يحدّث عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «يا جبريل ما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا» فنزلت: ﴿ **وما نتنزل إلّا بأمر ربّك له ما بين أيدينا وما خلفنا** ﴾ الآية: قال: كان هذا الجواب لمحمد ﷺ. وقال عكرمة والضحاك وقتادة ومقاتل والكلبي: احتبس جبريل عن النبي ﷺ حين سأله قومه عن أصحاب الكهف وذي القرنين والروح، فقال: أُخبركم غداً ولم يقل إن شاء الله، حتى شقّ ذلك على النبي ﷺ، ثم نزل بعد أيام فقال له رسول الله ﷺ: «أبطأت عليّ حتى ساء ظني واشتقت إليك»، فقال له جبريل: إني كنت أشوق، ولكني عبد مأمور إذا بُعثت نزلت وإذا حبست احتبست، فأنزل الله ﴿ **وما نتنزل إلّا بأمر ربك** ﴾ وأنزل: ﴿ والضحى والليل إذا سجى ما ودّعك ربّك وما قلى ﴾ [الضحى: ٣]. ﴿ **له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك** ﴾، أي له علم ما بين أيدينا، واختلفوا فيه فقال سعيد بن جبير وقتادة ومقاتل: ما بين أيدينا من أمر الآخرة والثواب والعقاب، وما خلفنا ما مضى من الدنيا وما بين ذلك ما يكون هذا من الوقت إلى قيام الساعة، وقيل: ما بين أيدينا من أمر الآخرة وما خلفنا من أمر الدنيا وما بين ذلك أي ما بين النفختين وبينهما أربعون سنة. وقيل: ما بين أيدينا ما بقي من الدنيا وما خلفنا ما مضى منها، وما بين ذلك مدة

واصطبر لعبادته﴾ أي اصبر على أمره ونهيه **﴿هل تعلم له سمياً﴾** قال ابن عباس: مثلاً وقيل هل تعلم أحداً يسمى الله غير الله.

قوله تعالى **﴿ويقول الإنسان﴾** أي جنس الإنسان والمراد به الكفار الذين أنكروا البعث، وقيل هو أبي بن خلف الجمحي وكان منكراً للبعث **﴿أئذا ما مت لسوف أخرج حياً﴾** قاله استهزاءً وتكذيباً للبعث قال الله تعالى **﴿أولا يذكر الإنسان﴾** أي يتذكر ويتفكر يعني منكر البعث **﴿أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئاً﴾** والمعنى أولاً يتفكر هذا الجاحد في بدء خلقه فيستدل به على الإعادة. قال بعض العلماء: لو اجتمع كل الخلائق على إيراد حجة في البعث على هذا الاختصار ما قدروا عليه، إذ لا شك أن الإعادة ثانياً أهون من الإيجاد أولاً ثم أقسم بنفسه فقال تعالى **﴿فو ربك﴾** وفيه تشريف للنبيّ ﷺ **﴿لنحشرنهم﴾** أي لنجمعنهم في المعاد يعني المشركين المنكرين للبعث **﴿والشياطين﴾** أي مع الشياطين، وذلك أنه يحشر كل كافر مع شيطان في سلسلة **﴿ثم لنحضرنهم حول جهنم جثياً﴾** قال ابن عباس: جماعات وقيل جاثين على الركب لضيق المكان، وقيل إن البارك على ركبتيه صورته كصورة الذليل. فإن قلت هذا المعنى حاصل للكل بدليل قوله تعالى **﴿وترى كل أمة جاثية﴾**.

قلت وصفوا بالجثو على العادة المعهودة في مواقف المقالات والمناقلات، وذلك لما فيه من القلق مما يدهمهم من شدة الأمور التي لا يطيقون معها القيام على أرجلهم فيجثون على ركبهم جثواً **﴿ثم لننزعن﴾** أي لنخرجن **﴿من كل شيعة﴾** أي من كل أمة وأهل دين من الكفار **﴿أيهم أشد على الرحمن عتياً﴾** قال ابن عباس: يعني جرأة وقيل

حياتنا. وقيل: ما بين أيدينا بعد أن نموت وما خلفنا قبل أن نخلق وما بين ذلك مدة الحياة. وقيل: ما بين أيدينا من الأرض إذا أردنا النزول إليها وما خلفنا السماء إذا نزلنا منها، وما بين ذلك الهواء يريد أن ذلك كله لله عزّ وجلّ فلا نقدر على شيء إلاّ بأمره. **﴿ وما كان ربك نسياً ﴾**، أي ناسياً، يقول: ما نسيك ربك أي ما تركك، والناسي التارك.

﴿ ربُّ السمٰوات والأرض وما بينهما فاعبده واصطبر لعبادته ﴾، أي اصبر على أمره ونهيه، **﴿ هل تعلم له سمياً ﴾**، قال ابن عباس رضي الله عنهما: مثلاً. وقال سعيد بن جبير: عَدَلاً. وقال الكلبي: هل تعلم أحداً يُسمى اللّٰهُ غيره.

﴿ ويقول الإنسان ﴾، يعني أُبيّ بن خلف الجمحي كان منكراً للبعث، قال: **﴿ أئذا ما متُّ لسوف أُخرج حيّاً ﴾**، من القبر، قاله استهزاءً وتكذيباً للبعث.

قال الله عزّ وجلّ: **﴿ أو لا يذكر ﴾**، أي يتذكر ويتفكّر، وقرأ نافع وابن عامر وعاصم ويعقوب يذكر خفيف، **﴿ الإنسان ﴾**، يعني أُبيّ بن خلف **﴿ أنا خلقناه من قبل ولم يكُ شيئاً ﴾**، أي لا يتفكّر هذا الجاحد في بدء خلقه فيستدلّ به على الإعادة، ثم أقسم بنفسه، فقال:

﴿ فوربِّك لنحشرنّهم ﴾ أي لنجمعنّهم في المعاد يعني المشركين المنكرين للبعث، **﴿ والشياطين ﴾**، مع الشياطين، وذلك أنه يحشر كل كافر مع شيطانه في سلسلة، **﴿ ثم لنحضرنّهم حول جهنم ﴾**، قيل في جهنم، **﴿ جِثِيّاً ﴾**، قال ابن عباس رضي الله عنه: جماعات، جمع جثوة، وقال الحسن والضحاك: جمع جاثٍ أي جاثين على الرُّكَب. قال السدي: قائمين عل الركب لضيق المكان.

﴿ ثم لننزعنّ ﴾، لنخرجنّ، **﴿ من كل شيعة ﴾**، أي من كل أمة وأهل دين من الكفّار. **﴿ أيهم أشدّ على الرحمن عِتيّاً ﴾**، عتوّاً قال ابن عباس رضي الله عنهما: يعني جرأة. وقال مجاهد: فجوراً يريد الأعتى فالأعتى.

فجوراً وتمرداً، وقيل قائدهم رئيسهم في الشرك، والمعنى أنه يقدم في إدخال النار الأعتى ممن هو أكبر جرماً وأشد كفراً. وفي بعض الأخبار أنهم يحضرون جميعاً حول جهنم مسلسلين مغلولين، ثم يقدم الأكفر فالأكفر فمن كان أشد منهم تمرداً في كفره خص بعذاب أعظم وأشد لأن عذاب الضال المضل واجب أن يكون فوق عذاب الضال التابع لغيره في الضلال. وفائدة هذا التمييز التخصيص بشدة العذاب لا التخصيص بأصل العذاب فلذلك قال في جميعهم ﴿**ثم لنحن أعلم بالذين هم أولى بها صلياً**﴾ ولا يقال أولى إلا مع اشتراك القوم في العذاب وقيل معنى الآية أنهم أحق بدخول النار.

قوله عز وجل ﴿**وإن منكم إلا واردها**﴾ أي وما منكم إلا واردها وقيل القسم فيه مضمر أي والله ما منكم من أحد إلا واردها والورود هو موافاة المكان، واختلفوا في معنى الورود ها هنا وفيما تنصرف إليه الكناية في قوله واردها فقال ابن عباس والأكثرون: معنى الورود هنا الدخول، والكناية راجعة إلى النار، فيدخلها البر والفاجر ثم ينجي الله الذين اتقوا منها، يدل عليه ما روي أن نافع بن الأزرق سأل ابن عباس في الورود فقال ابن عباس: هو الدخول فقال نافع: ليس الورود الدخول فقرأ ابن عباس ﴿**إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون**﴾ أدخلها هؤلاء أم لا ثم قال يا نافع والله أنا وأنت سنردها وأنا أرجو أن يخرجني الله منها وما أرى الله أن يخرجك منها بتكذيبك فمن قال بدخول المؤمنين النار يقول من غير خوف ولا ضرر ولا عذاب البتة بل مع الغبطة والسرور لأن الله تعالى أخبر عنهم لا يحزنهم الفزع الأكبر. فإن قلت كيف يدفع عن المؤمنين حر النار وعذابها، قلت يحتمل أن الله تعالى يخمد

وقال الكلبي: قائدهم ورأسهم في الشرّ يريد أنه يقدم في إدخال النار مَن هو أكبر جرماً وأشدّ كفراً. وفي بعض الآثار أنهم يحضرون جميعاً حول جهنم مسلمين مغلولين، ثم يقدّم الأكفر فالأكفر، ورفع ﴿ أيهم ﴾ على معنى الذي، يقال لهم: أيّهم أشدّ على الرحمن عتيّاً. وقيل: على الاستئناف، ثم لننزعنّ يعمل في موضع من كل شيعة.

﴿ ثم لنحن أعلم بالذين هم أولى بها صلياً ﴾، أي أحقّ بدخول النار، يقال: صلي يصلى صلياً مثل لقي يلقى لقياً، وصلى يصلي صلياً مثل مضى يمضي مضياً، إذا دخل النار وقاسى حرّها.

﴿ وإنْ منكم إلاّ وارِدُها ﴾، أي وما منكم إلاّ واردها، وقيل: القسم في مضمر أي والله ما منكم من أحد إلاّ واردها، والورود هو موافاة المكان. واختلفوا في معنى الورود ههنا وفيما تنصرف إليه الكناية في قوله: ﴿ واردها ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنه وهو قول الأكثرين معنى الورود ههنا هو الدخول، والكناية راجعة إلى النار، وقالوا: النار يدخلها البرّ والفاجر، ثم ينجي الله المتّقين، فيخرجهم منها، والدليل على أن الورود هو الدخول قول الله عزّ وجلّ حكاية عن فرعون ﴿ يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار ﴾ [هود: ٩٨]، وروى ابن عيينة عن عمرو بن دينار أن نافع بن الأزرق ما روى ابن عباس رضي الله عنهما في الورود، فقال ابن عباس رضي الله عنهما: هو الدخول. وقال نافع: ليس الورود الدخول، فتلا عبد الله بن عباس رضي الله عنه قوله تعالى: ﴿ إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون ﴾ [الأنبياء: ٩٨] أدخلها هؤلاء أم لا؟ ثم قال: يا نافع أما والله أنت وأنا سنردها، وأنا أرجو أن يخرجني الله منها، وما أرى الله عزّ وجلّ أن يخرجك منها بتكذيبك. وقال قوم: ليس المراد من الورود الدخول، وقالوا: النار لا يدخلها مؤمن أبداً، لقوله تعالى: ﴿ إن الذين سبقت لهم منّا الحسنى أولئك عنها مبعدون لا يسمعون حسيسها ﴾ [الأنبياء: ١٠١ و١٠٢]، وقالوا: كلّ مَن دخلها لا يخرج منها، والمراد من قوله: ﴿ وإن منكم إلاّ واردها ﴾، الحضور والرؤية، لا الدخول، كما قال تعالى: ﴿ ولما وَرَدَ ماءَ مَدين ﴾ [القصص: ٢٣] أراد به الحضور، وقال عكرمة. . . الآية فإنهم يدخلونها ولا يخرجون منها. وروي عن ابن مسعود رضي الله عنه، أنه قال: وإن منكم إلاّ واردها يعني القيامة والكناية راجعة إليها، والأول أصحّ، وعليه أهل السُّنّة أنهم جميعاً

النار فتعبرها المؤمنون، ويحتمل أن الله تعالى يجعل الأجزاء الملاصقة لأبدان الكفار من النار محرقة والأجزاء الملاصقة لأبدان المؤمنين تكون على المؤمنين برداً وسلاماً كما كانت في حق إبراهيم عليه السلام، وكما أن الملائكة الموكلين بها لا يجدون ألمها فإن قلت إذا لم يكن على المؤمنين عذاب فما فائدة دخولهم النار.

قلت فيه وجوه، أحدها: أن ذلك مما يزيدهم سروراً إذا علموا الخلاص منه، وثانيها: أن فيه مزيد غم على أهل النار، حيث يرون المؤمنين يتخلصون منها وهم باقون فيها، وثالثها: أنهم إذا شاهدوا ذلك العذاب الذي على الكفار صار ذلك سبباً لمزيد التذاذهم بنعيم الجنة. وقال قوم ليس المراد من الورود الدخول، وقالوا لا يدخل النار مؤمن أبداً لقوله تعالى ﴿إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون لا يسمعون حسيسها﴾ فعلى هذا يكون المراد من الورود الحضور والرؤية، لا الدخول كما قال تعالى ﴿ولما ورد ماء مدين﴾ أراد به الحضور، وقال عكرمة الآية في الكفار فإنهم يدخلونها ولا يخرجون منها وروي عن ابن مسعود أنه قال وإن منكم إلا واردها، يعني القيامة والكناية راجعة إليها، والقول الأول أصح وعليه أهل السنة فإنهم جميعاً يدخلون النار ثم يخرج الله منها أهل الإيمان بدليل قوله تعالى ﴿**ثم ننجي الذين اتقوا**﴾ أي الشرك وهم المؤمنون والنجاة إنما تكون مما دخلت فيه، يدل ما روي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «لا يموت لأحد من المؤمنين ثلاثة من الولد فتمسه النار إلا تحلة القسم» وفي رواية «فيلج النار إلا تحلة القسم» أخرجاه في الصحيحين، أراد بالقسم قوله تعالى ﴿**وإن منكم إلا واردها**﴾ (م) عن أم مبشر الأنصارية أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول عند حفصة «لا يدخل النار إن شاء الله تعالى من أصحاب الشجرة أحد

يدخلون النار ثم يخرج الله عزّ وجلّ منها أهل الإيمان، بدليل قوله تعالى: ﴿ **ثم ننجي الذين اتقوا** ﴾، أي اتقوا الشرك، وهم المؤمنون. والنجاة إنّما تكون مما دخلت فيه لا ما وردت، وقرأ الكسائي ويعقوب ننجي بالتخفيف والآخرون بالتشديد، والدليل على هذا ما أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحي أنا أبو بكر أحمد بن الحسين الحيري أنا حاجب بن أحمد الطوسي أنا عبد الرحيم بن منيب أنا سفيان عن الزهري عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يموت لمسلم ثلاثة من الولد فيلج النار إلا تحلّة القسم»، وأراد بالقسم قوله: ﴿ **وإنْ منكم إلاّ واردها** ﴾، أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا مسلم بن إبراهيم أنا هشام أنا قتادة عن أنس عن النبي ﷺ قال: «يخرج من النار مَن قال لا إلّه إلاّ الله وفي قلبه وزن شعيرة من خير ويخرج من النار مَن قال لا إلّه إلاّ الله وفي قلبه وزن برّة من خير. ويخرج من النار مَن قال لا إلّه إلاّ الله وفي قلبه وزن ذرّة من خير»، وقال إبّان عن قتادة: «منْ إيمان» مكان «خير»، أخبرنا أبو المظفر محمد بن إسماعيل بن علي الشجاعي أنا أبو نصر النعمان بن محمد بن محمود الجرجاني أنا أبو عثمان عمر بن عبد الله البصري أنا محمد بن عبد الوهاب أنا محمد بن الفضل أبو النعمان أنا سلام بن مسكين أنا أبو الظلال عن أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ: «أن رجلاً في النار ينادي ألف سنة يا حنّان يا منّان فيقول الله عزّ وجلّ لجبريل اذهب فائتني بعبدي هذا، قال: فذهب جبريل فوجد أهل النار منكبّين يبكون، قال: فرجع فأخبر ربّه عزّ وجلّ، قال: اذهب فإنه في موضع كذا وكذا، قال: فجاء به، قال يا عبدي كيف وجدت مكانك ومقيلك؟ قال: يا رب شرّ مكان وشرّ مقيل، قال: ردّوا عبدي، قال: ما كنت أرجو أن تعيدني إليها إذا أخرجتني منها، قال الله تعالى لملائكته دعوا عبدي» وأما قوله عزّ وجلّ: ﴿ لا يسمعون حسيسها ﴾ [الأنبياء: ١٠٢] قيل: إن الله عزّ وجلّ أخبر عن وقت كونهم في الجنة أنهم لا يسمعون حسيسها فيجوز أن يكون قد سمعوا ذلك قبل دخولهم الجنة، لأنه لم يقل لم يسمعوا حسيسها ويجوز أن لا يسمعوا حسيسها عند دخولهم إيّاها، لأن الله عزّ وجلّ يجعلها عليهم برداً وسلاماً. وقال خالد بن معدان: يقول أهل الجنة ألم يعدنا ربنا أن نرد النار، فيقال: بلى ولكنكم مررتم بها، وهي خامدة. وفي

من الذين بايعوا تحتها قالت بلى يا رسول الله فانتهزها فقالت حفصة وإن منكم إلا واردها فقال النبي ﷺ قد قال الله تعالى ﴿ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثياً﴾.

وقال خالد بن معدان يقول أهل الجنة ألم يعدنا ربنا أن نرد النار، فيقال بلى ولكنكم مررتم بها وهي خامدة وفي الحديث «تقول النار للمؤمنين جز يا مؤمن فقد أطفأ نورك لهبي». وروي عن مجاهد في قوله تعالى ﴿**وإن منكم إلا واردها**﴾ قال من حم من المسلمين فقد وردها» وفي الخبر «الحمى كير من جهنم وهي حظ المؤمن من النار» (ق) عن عائشة أن النبيّ ﷺ قال «الحمى من فيح جهنم فأبردوها بالماء» قوله فيح جهنم وهجها وحرها. وقوله تعالى ﴿**كان على ربك حتماً مقضياً**﴾ أي كان ورود جهنم قضاء لازماً قضاه الله تعالى عليكم وأوجبه.

﴿ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّـٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾﴾

﴿**ثم ننجي الذين اتقوا**﴾ أي الشرك ﴿**ونذر الظالمين فيها جثياً**﴾ أي جميعاً، وقيل جاثين على الركب قالت المعتزله في الآية دليل على صحة مذهبهم، في أن صاحب الكبيرة والفاسق يخلد في النار بدليل أن الله بين أن الكل يردونها ثم بين صفة من ينجو منها، وهم المتقون والفاسق لا يكون متقياً فبقي في النار أبداً. وأجيب عنه بأن المتقي هو الذي يتقي الشرك بقول لا إله إلا الله ويشهد لصحة ذلك أن من آمن بالله ورسوله، صح أن يقول إنه متق من الشرك ومن صدق عليه أنه متق من الشرك صح أنه متق، لأن المتقي جزء من المتقي من الشرك ومن صدق عليه المركب صدق عليه المفرد، فثبت أن صاحب الكبيرة متق وإذا ثبت ذلك وجب أن يخرج من النار بعموم قوله تعالى ﴿**ثم ننجي الذين اتقوا**﴾ فصارت الآية التي توهموها دليلاً لهم من أقوى الدلائل على فساد قولهم، وهذا من حيث البحث وأما من حيث النص فقد وردت أحاديث تدل على إخراج المؤمن الموحد من النار (خ) عن أنس بن مالك عن النبيّ ﷺ قال «يخرج من النار من قال لا إله إلا الله وفي قلبه وزن شعيرة من خير، ويخرج من النار من قال لا إله إلا الله وفي قلبه وزن برة من خير، ويخرج من النار من قال لا إله إلا الله وفي قلبه وزن ذرة من خير وفي رواية من إيمان». (ق) عن أبي هريرة رضي الله عنه أن الناس قالوا يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة؟ قال: «هل تمارون في القمر ليلة البدر ليس دونه سحاب؟ قالوا لا. يا رسول الله. قال هل تمارون في الشمس ليس دونها سحاب؟ قالوا لا يا رسول الله.

الحديث تقول النار للمؤمنين «جزْ يا مؤمن فقد أطفأ نورك لهبي» ورُوِيَ عن مجاهد قوله عزّ وجلّ: ﴿ **وإن منكم إلاّ واردها** ﴾ قال: من حم من المسلمين فقد وردها. وفي الخبر الحمى كير من جهنم وهي حظ المؤمن من النار. أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا محمد بن المثنى أنا يحيىٰ عن هشام أخبرني أبي عن عائشة عن النبي ﷺ قال: «الحمى من فيح جهنم فأبردوها بالماء». ﴿ **كان على ربِّك حتماً مقضياً** ﴾، أي كان ورودكم جهنم حتماً لازماً مقضياً قضاه الله عليكم.

﴿ **ثم ننجي الذين اتقوا** ﴾، أي اتقُوا الشرك، وقرأ الكسائي «تنجـي» بالتخفيف، والباقون بالتشديد، ﴿ **ونذر الظالمين فيها جثياً** ﴾، جميعاً. وقيل: جاثين على الركب، وفيه دليل على أن الكل دخلوها ثم أخرج الله منها المتّقين، وترك فيها الظالمين. وهم المشركون، أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا أبو اليمان أنا شعيب عن الزهري قال أخبرني سعيد بن المسيب وعطاء بن يزيد الليثي أن أبا هريرة أخبرهما أن الناس قالوا: يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة؟ قال: «هل تضارّون في القمر ليلة البدر ليس دونه سحاب»، فقالوا: لا يا رسول الله، قال: «فهل تُمارون في الشمس ليس دونها سحاب»، قالوا: لا، قال: فإنكم ترونه كذلك يحشر الناس يوم القيامة فيقول مَن كان يعبد شيئاً فليتبعه، فمنهم مَن يتبع الشمس،

قال فإنكم ترونه كذلك يحشر الناس يوم القيامة، فيقول الله من كان يعبد شيئاً فليتبعه فمنهم من يتبع الشمس، ومنهم من يتبع القمر ومنهم من يتبع الطواغيت، وتبقى هذه الأمة فيها منافقوها فيأتيهم الله فيقول أنا ربكم فيقولون هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا. فإذا جاء ربنا عرفناه، فيأتيهم الله فيقول أنا ربكم فيقولون أنت ربنا، فيدعوهم فيضرب الصراط بين ظهراني جهنم فأكون أول من يجوز من الرسل بأمته، ولا يتكلم يومئذٍ إلا الرسل وكلام الرسل يومئذٍ اللهم سلم سلم، وفي جهنم كلاليب مثل شوك السعدان هل رأيتم شوك السعدان؟ قالوا نعم. قال فإنها مثل شوك السعدان غير أنه لا يعلم قدر عظمها إلا الله تعالى تخطف الناس بأعمالهم فمنهم من يوبق بعمله، ومنهم من ينجدل ثم ينجو، حتى إذا أراد الله رحمة من أراد من أهل النار أمر الله الملائكة أن يخرجوا من كان يعبد الله فيخرجوهم ويعرفونهم بآثار السجود وحرم الله على النار أن تأكل أعضاء السجود، فيخرجون من النار وقد امتحشوا، فيصب عليهم ماء الحياة فينبتون كما تنبت الحبة في حميل السيل، ثم يفرغ من القضاء بين العباد ويبقى رجل بين الجنة والنار، وهو آخر أهل النار دخولاً الجنة مقبل بوجهه قبل النار فيقول يا رب اصرف وجهي عن النار فقد قشبني ريحها وأحرقني ذكاؤها، فيقول هل عسيت إن فعل ذلك بك أن تسأل غير ذلك فيقول لا وعزتك فيعطي الله ما شاء من عهد وميثاق.

فيصرف الله وجهه عن النار، فإذا أقبل به على الجنة رأى نكهتها وبهجتها سكت ما شاء الله تعالى أن يسكت، ثم يقول يا رب قدمني عند باب الجنة فيقول الله أليس قد أعطيت المواثيق والعهود أن لا تسأل غير الذي كنت سألت فيقول يا رب لا أكون أشقى خلقك فيقول فما عسيت أن أعطيت ذلك أن لا تسأل غيره فيقول وعزتك لا أسأل غير ذلك فيعطي ربه ما شاء من عهد وميثاق فيقدمه إلى باب الجنة فإذا بلغ بابها رأى زهرتها وما فيها من النضرة والسرور،

ومنهم مَن يتبع القمر، ومنهم مَن يتبع الطواغيت، وتبقى هذه الأمة فيها منافقوها، فيأتيهم الله عزّ وجلّ فيقول: أنا ربكم فيقولون هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا، فإذا جاء ربنا عرفناه فيأتيهم الله فيقول: أنا ربكم، فيقولون: أنت ربنا، ويُضرب الصراط بين ظهراني جهنم، فأكون أول مَن يجوز من الرسل بأمته، ولا يتكلم يومئذ إلّا الرسل، وكلام الرسل يومئذ: اللّهمّ سلّمْ سلّمْ، وفي جهنم كلاليب مثل شوك السعدان، هل رأيتم شوك السعدان؟ قالوا: نعم، قال: فإنها مثل شوك السعدان غير أنه لا يعلم قدر عظمها إلّا الله، تخطف الناس بأعمالهم، فمنهم مَن يوبق بعمله، ومنهم مَن يخردل ثم ينجو، حتى إذا فرغ الله من القضاء بين عباده وأراد أن يخرج من النار مَن أراد أن يخرجه ممّن كان يشهد أن لا إلّه إلّا الله أمر الملائكة أن يُخرجوا مَن كان يعبد الله، فيخرجونهم ويعرفونهم بآثار السجود، وحرّم الله على النار أن تأكل أثر السجود، فكل ابن آدم تأكله النار إلّا أثر السجود، فيُخرجون من النار قد امتحشوا، فيصبّ عليهم ماء الحياة فينبتون كما تنبت الحبة في حميل السيل، ويبقى رجل بين الجنة والنار وهو آخر أهل النار دخولاً إلى الجنة مقبل بوجهه قبل النار، فيقول: يا ربِّ اصرف وجهي عن النار، قد قشبني ريحها وأحرقني ذكاؤها، فيقول: هل عسيت أن أفعل ذلك بك أن تسأل غير ذلك؟ فيقول: لا وعزّتِك فيعطي الله ما شاء الله من عهد وميثاق فيصرف الله وجهه عن النار، فإذا أقبل به على الجنة ورأى بهجتها سكت ما شاء الله أن يسكت، ثم قال: يا رب قدّمني عند باب الجنة، فيقول الله تبارك وتعالى: أليس قد أعطيتَ العهود والميثاق أن لا تسأل غير الذي كنت سألت، فيقول: يا رب لا أكون أشقى خلقك، فيقول: فما عسيتَ إن أُعطيت ذلك أن تسأل غيره؟ فيقول: لا وعزّتِك لا أسألك غير ذلك، فيعطي ربه ما شاء من عهد وميثاق، فيقدّمه إلى باب الجنة فإذا بلغ بابها فرأى زهرتها وما فيها من النضرة والسرور، فسكت ما شاء الله أن يسكت، فيقول: يا ربِّ أدخلني الجنة فيقول الله تعالى: ويلك يا ابن آدم ما أعذرك، أليس قد أعطيتَ العهود والميثاق أن لا تسأل غير الذي أُعطيتَ؟ فيقول: يا ربِّ لا تجعلني أشقى خلقك، فلا يزال يدعو حتى يضحك الله منه، فإذا ضحك أذن له في دخول الجنة، فيقول: تمنَّ فيتمنى حتى

فيسكت ما شاء الله أن يسكت، فيقول يا رب أدخلني الجنة. فيقول الله تبارك وتعالى ويحك يا ابن آدم ما أغدرك أليس قد أعطيت العهد والميثاق أن لا تسأل غير الذي أعطيت؟ فيقول يا رب لا تجعلني أشقى خلقك فيضحك الله عز وجل منه ثم يؤذن له في دخول الجنة فيقول له تمن فيتمنى. حتى إذا انقطعت أمنيته قال الله تمن كذا وكذا أقبل يذكره ربه حتى إذا انتهت به الأماني قال الله لك ذلك ومثله معه». قال أبو سعيد الخدري لأبي هريرة «وعشرة أمثاله» قال أبو هريرة لم أحفظ من رسول الله ﷺ إلا قوله لك ذلك ومثله معه. قال أبو سعيد رضي الله عنه: سمعته يقول «لك ذلك وعشرة أمثاله». وفي رواية للبخاري قال فيأتيهم الله في غير الصورة التي يعرفونها فيقول أنا ربكم، فيقولون نعوذ بالله منك هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا فإذا أتانا عرفناه. فيأتيهم الله في الصورة التي يعرفونها فيقول أنا ربكم فيقولون أنت ربنا فيتبعونه». قلت أما ما يتعلق بمعاني الحديث والكلام على الرؤية فسيأتي في تفسير سورة نٓ والقيامة ونتكلم ها هنا على شرح غريب ألفاظه، قوله مثل شوك السعدان هو نبت ذو شوك معقف وهو من أجود مراعي الإبل.

وقوله فمنهم من يوبق بعمله يقال أوبقته الذنوب أي أهلكته. والمنجدل المرمى المصروع وقيل هو المقطع. والمعنى أنه تقطعه كلاليب الصراط حتى يقع في النار. قوله وقد امتحشوا أي احترقوا، وقيل هو أن تذهب النار الجلد وتبدي العظم. قوله كما تنبت الحبة في حميل السيل، الحبة بكسر الحاء وهي البذورات جميعاً وحميل السيل هو الزبد وما يلقيه الماء على شاطئه، قوله قشبني ريحها أي آذاني والقشب السم فكأنه قال قد سمني ريحها. قوله وأحرقني ذكاؤها أي اشتعالها ولهبها قوله رأى زهرتها الزهرة الحسن والنضارة والبهجة. (ق) عن ابن مسعود قال قال رسول الله ﷺ «إني لأعلم آخر أهل النار خروجاً منها، وآخر أهل الجنة دخولاً الجنة رجل يخرج من النار حبواً، فيقول الله له اذهب فادخل الجنة فيأتيها فيخيل إليه أنها ملأى، فيرجع فيقول يا رب وجدتها ملأى. فيقول الله تعالى له اذهب فادخل الجنة فإن لك مثل الدنيا وعشرة أمثالها، أو أن لك مثل عشرة أمثال الدنيا، فيقول أتسخر بي وأنت

إذا انقطعت أمنيتُه، قال الله تعالى: تمنّ كذا وكذا أقبل يُذكّره ربّه حتى إذا انتهت به الأماني، قال الله تعالى لك ذلك ومثله معه قال أبو سعيد لأبي هريرة إن رسول الله ﷺ قال: «قال الله تعالى لك ذلك وعشرة أمثاله» قال أبو هريرة لم أحفظ من رسول الله ﷺ إلا قوله لك ذلك: «ومثله معه»، قال أبو سعيد إني سمعته يقول ذلك: «لك وعشرة أمثاله». ورواه محمد بن إسماعيل عن محمود بن غيلان أنا عبد الرزاق أنا معمر عن الزهري عن عطاء بن يزيد عن أبي هريرة بمعناه، فقال: فيأتيهم الله عزّ وجلّ في غير الصورة التي يعرفون فيقول: أنا ربكم، فيقولون نعوذ بالله منك هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا، فإذا أتانا ربنا عرفناه فيأتيهم الله في الصورة التي يعرفون، فيقول: أنا ربكم، فيقولون: أنت ربنا فيتبعونه. أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحي أنا أبو بكر أحمد بن الحسين الحيري أنا حاجب بن أحمد الطوسي أنا محمد بن حماد أنا أبو معاوية عن الأعمش عن أبي سفيان عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «يعذب أُناس من أهل التوحيد في النار حتى يكونوا حمماً ثم تدركهم الرحمة، قال: فيُخرجون فيُطرحون على أبواب الجنة، قال: فيرشّ عليهم أهل الجنة الماء فينبتون كما تنبت القثاء في حميل السيل، ثم يدخلون الجنة». أخبرنا أبو محمد عبد الله بن عبد الصمد الجوزجاني أنا أبو القاسم علي بن أحمد الخزاعي أنا أبو سعيد الهيثم بن كليب أنا أبو عيسى الترمذي أنا هنّاد بن السري أنا أبو معاوية عن الأعمش عن إبراهيم عن عبيدة السلماني عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «إني لأعرف آخر أهل النار رجل يخرج منها زحفاً فيقال له: انطلق فادخل الجنة، قال فيذهب ليدخل الجنة فيجد الناس قد أخذوا المنازل، فيرجع فيقول: يا رب قد أخذ الناس المنازل، فيقال له: أتذكر الزمان الذي كنت فيه؟ فيقول: نعم فيقال له: تمنّ، فيتمنى، فيقال له: إن لك الذي تمنيته وعشرة أضعاف الدنيا، قال فيقول: أتسخر بي وأنت الملك الجبار؟ قال: فلقد رأيت رسول الله ﷺ ضحك

الملك فلقد رأيت رسول الله ﷺ ضحك حتى بدت نواجذه» فكان يقال ذلك أدنى أهل الجنة منزلة قوله حتى بدت نواجذه أي أضراسه وأنيابه، وقيل هي آخر الأسنان.

عن جابر قال قال رسول الله ﷺ «يعذب ناس من أهل التوحيد في النار حتى يكونوا حمماً ثم تدركهم الرحمة، قال فيخرجون فيطرحون على أبواب الجنة، قال فيرش عليهم أهل الجنة من الماء فينبتون كما تنبت الحبة في حمالة السيل» أخرجه الترمذي الحمم الفحم والحمالة كل ما جاء به السيل، فدلت الآية الأولى على أن الكل دخلوا النار ودلت الآية الثانية والأحاديث أن الله تعالى أخرج منها المتقين وجميع الموحدين وترك فيها الظالمين وهم المشركون. قوله تعالى:

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا ﴿٧٤﴾ قُلْ مَن كَانَ فِى ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ﴿٧٥﴾ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ۗ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾﴾

﴿**وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات**﴾ أي دلائل واضحات ﴿**قال الذين كفروا**﴾ يعني النضر بن الحارث ومن دونه من كفار قريش ﴿**للذين آمنوا**﴾ يعني فقراء أصحاب رسول الله ﷺ وكانت فيهم قشافة وفي عيشهم خشونة وفي ثيابهم رثاثة، وكان المشركون يرجلون شعورهم ويدهنون رؤوسهم ويلبسون أفخر ثيابهم ﴿**أي الفريقين خير مقاماً**﴾ أي منزلاً ومسكناً وهو موضع الإقامة ﴿**وأحسن ندياً**﴾ أي مجلساً فأجابهم الله تعالى بقوله ﴿**وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أحسن أثاثاً**﴾ أي متاعاً وأموالاً وقيل أحسن ثياباً ولباساً ﴿**ورئياً**﴾ أي منظراً من الرؤية ﴿**قل من كان في الضلالة فليمدد**

حتى بدت نواجذه». أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحي أنا أبو بكر أحمد بن حسين الحيري أنا حاجب بن أحمد الطوسي أنا محمد بن حماد أنا أبو معاوية عن الأعمش عن أبي سفيان عن جابر عن أم مبشر عن حفصة أنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «إني لأرجو أن لا يدخل النار إن شاء الله أحد شهد بدراً والحديبية»، قالت: قلت يا رسول الله أليس قد قال الله تعالى: ﴿ وإن منكم إلّا واردها كان على ربك حتماً مقضياً ﴾ [مريم: ٧١]؟ قال: أفلم تسمعيه يقول: ﴿ ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جنياً ﴾ [مريم: ٧٢].

﴿ **وإذا تتلى عليهم آياتنا بيّنات** ﴾، واضحات، ﴿ **قال الذين كفروا** ﴾، يعني النضر بن الحارث وذويه من قريش، ﴿ **للذين آمنوا** ﴾، يعني فقراء أصحاب النبي ﷺ وكانت فيهم قشافة وفي عيشهم خشونة وفي ثيابهم رثاثة، وكان المشركون يرجلون شعارهم ويدهنون رؤوسهم ويلبسون ثيابهم، فقالوا للمؤمنين ﴿ **أيّ الفريقين خير مقاماً** ﴾، منزلاً ومسكناً، وهو موضع الإقامة، وقرأ ابن كثير: ﴿ **مقاماً** ﴾ بضم الميم أي إقامة، ﴿ **وأحسن ندياً** ﴾، أي مجلساً، ومثله النادي، فأجابهم الله تعالى فقال:

﴿ **وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أحسن أثاثاً** ﴾، أي متاعاً وأموالاً. وقال مقاتل: لباساً وثياباً، ﴿ **ورءياً** ﴾، قرأ أكثر القرّاء بالهمز أي منظراً من الرؤية، وقرأ ابن عامر وأبو جعفر ونافع غير ورش ريا مشدّداً بغير همز، وله تفسيران أحدهما هو الأول بطرح الهمز والثاني من الريّ الذي هو ضدّ العطش، ومعناه الارتواء من النعمة، فإن المتنعّم يظهر فيه ارتواء النعمة، والفقير يظهر عليه ذبول الفقر.

له الرحمن مداً﴾ هذا أمر بمعنى الخبر معناه يدعه في طغيانه ويمهله في كفره ﴿حتى إذا رأوا ما يوعدون إما العذاب﴾ أي الأسر والقتل في الدنيا ﴿وإما الساعة﴾ يعني القيامة فيدخلون النار ﴿فسيعلمون﴾ أي عند ذلك ﴿من هو شر مكاناً﴾ أي منزلاً ﴿وأضعف جنداً﴾ أي أقل ناصراً والمعنى فسيعلمون أهم خير وهم في النار أم المؤمنون وهم في الجنة وهذا رد عليهم في قولهم أي الفريقين خير مقاماً وأحسن ندياً، قوله تعالى ﴿ويزيد الله الذين اهتدوا هدى﴾ أي إيماناً وإيقاناً على يقينهم ﴿والباقيات الصالحات﴾ أي الأذكار والأعمال الصالحة التي تبقى لصاحبها ﴿خير عند ربك ثواباً وخير مرداً﴾ أي عاقبة ومرجعاً. قوله تعالى ﴿أفرأيت الذي كفر بآياتنا﴾ الآية، (ق) عن خباب بن الأرت قال كنت رجلاً قيناً في الجاهلية، وكان لي على العاص بن وائل السهمي دين فأتيته أتقاضاه، وفي رواية فعملت للعاص بن وائل السهمي سيفاً فجئته أتقاضاه، فقال لا أعطيك حتى تكفر بمحمد. فقلت لا أكفر حتى يميتك الله ثم تبعث. قال وإني لميت ثم مبعوث. قلت بلى قال دعني حتى أموت وأبعث فسأوتي مالاً وولداً فأقضيك. فنزلت ﴿أفرأيت الذي كفر بآياتنا﴾.

أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾
وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ
وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ
عَدًّا ﴿٨٤﴾ يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾ لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ
ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ
مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾

﴿أم اتخذ عند الرحمن عهداً﴾ يعني قال لا إله إلا الله محمد رسول الله وقيل يعني عمل عملاً صالحاً قدمه،

﴿ قلْ مَن كان في الضلالة فَلْيَمْدُدْ له الرحمنُ مدّاً ﴾، هذا أمر بمعنى الخبر، معناه يدعه في طغيانه ويمهله في كفره، ﴿ حتى إذا رَأوْا مَا يُوعدون إمّا العذاب ﴾، وهو الأسر والقتل في الدنيا، ﴿ وإمّا الساعة ﴾، يعني القيامة فيدخلون النار، ﴿ فسيعلمون ﴾، عند ذلك ﴿ مَن هو شرٌّ مكاناً ﴾، منزلاً، ﴿ وأضعف جنداً ﴾، أقلّ ناصراً أهم أم المؤمنون؟ لأنهم في النار والمؤمنون في الجنة. وهذا ردٌّ عليهم في قوله: ﴿ أي الفريقين خير مقاماً وأحسن ندياً ﴾.

﴿ وَيَزِيدُ اللّهُ الذينَ اهتدوا هُدىً ﴾، أي إيماناً وإيقاناً على يقينهم، ﴿ والباقيات الصالحات ﴾، الأذكار والأعمال الصالحة التي تبقى لصاحبها، ﴿ خير عند ربك ثواباً وخير مرداً ﴾ عاقبةً ومرجعاً.

قوله: ﴿ أفرأيتَ الذي كفر بآياتنا وقال لأوتينّ مالاً وولداً ﴾، أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا عمر بن حفص أنا أبي أنا الأعمش بن مسلم عن مسروق حدّثنا خبّاب قال: كنت قيناً فعملت للعاص بن وائل فاجتمع مالي عنده فأتيته أتقاضاه، فقال: لا والله لا أقضيك حتى تكفر بمحمد، فقلت: أما والله حتى تموت ثم تبعث، قال: وإني لميت ثم مبعوث؟ قلت: نعم، قال: إنه سيكون لي ثم مال وولد فأقضيك، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿ أفرأيت الذي كفر بآياتنا وقال لأوتينّ مالاً وولداً ﴾.

﴿ أطّلع الغيبَ ﴾ قال ابن عباس: أنظرَ في اللوح المحفوظ. وقال مجاهد: أعلم الغيب حتى يعلم في الجنة هو أم لا؟ ﴿ أم اتخذ عند الرحمن عهداً ﴾، يعني قال لا إله إلاّ الله. وقال قتادة: يعني أعمل عملاً صالحاً قدّمه. وقال الكلبي: أعهد إليه أن يدخل الجنة.

وقيل عهد إليه أنه يدخله الجنة ﴿**كلا**﴾ رد عليه يعني لم يفعل ذلك ﴿**سنكتب**﴾ سنحفظ عليه ما يقول فنجازيه به في الآخرة، وقيل يأمر الملائكة حتى يكتبوا ﴿**ما يقول ونمد له من العذاب مداً**﴾ أي نزيده عذاباً فوق العذاب، وقيل نطيل مدة عذابه ﴿**ونرثه ما يقول**﴾ معناه أي ما عنده من المال والولد بإهلاكنا إياه وإبطال ملكه، وقيل يزول عنه ما عنده من مال وولد فيعود الإرث إلى من خلفه وإذا سلب ذلك بقي فرداً فذلك قوله ﴿**ويأتينا**﴾ يعني يوم القيامة ﴿**فرداً**﴾ بلا مال ولا ولد فلا يصح أن يبعث في الآخرة بمال وولد. قوله تعالى ﴿**واتخذوا من دون الله آلهة**﴾ يعني مشركي قريش اتخذوا الأصنام آلهة يعبدونها ﴿**ليكونوا لهم عزاً**﴾ أي منعة يعني يكونوا شفعاء يمنعوهم من العذاب ﴿**كلا**﴾ أي ليس الأمر كما زعموا ﴿**سيكفرون بعبادتهم**﴾ يعني تجحد الأصنام والآلهة التي كانوا يعبدونها عبادة المشركين ويتبرؤون منهم ﴿**ويكونون عليهم ضداً**﴾ أي أعواناً عليهم يكذبونهم ويلعنونهم وقيل أعداء لهم وكانوا أولياءهم في الدنيا. قوله عز وجل ﴿**ألم تر أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين**﴾ أي سلطناهم عليهم ﴿**تؤزهم أزاً**﴾ أي تزعجهم إزعاجاً من الطاعة إلى المعصية والمعنى تحثهم وتحرضهم على المعاصي تحريضاً شديداً وفي الآية دليل على أن الله تعالى مدبر لجميع الكائنات ﴿**فلا تعجل عليهم**﴾ أي لا تعجل بطلب عقوبتهم ﴿**إنا نعد لهم عداً**﴾ يعني الليالي والأيام والشهور والأعوام، وقيل الأنفاس التي يتنفسونها في الدنيا إلى الأجل الذي أجل لعذابهم. قوله تعالى ﴿**يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً**﴾ أي اذكر لهم يا محمد اليوم الذي يجتمع فيه من اتقى الله في الدنيا بطاعته إلى جنته وفداً أي جماعات.

﴿ **كلا** ﴾، ردٌّ عليه يعني لم يفعل ذلك، ﴿ **سنكتبُ** ﴾، سنحفظ عليه، ﴿ **ما يقول** ﴾، فنجازيه به في الآخرة. وقيل: نأمر الملائكة حتى يكتبوا ما يقول. ﴿ **ونَمُدّ له من العذاب مدّاً** ﴾، أي نزيده عذاباً فوق العذاب. وقيل: نطيل مدة عذابه.

﴿ **ونرثه ما يقول** ﴾، أي ما عنده من المال والولد بإهلاكنا إيّاه وإبطال ملكه وقوله ما يقول لأنه زعم أن له مالاً وولداً في الآخرة، أي لا نعطيه ونعطي غيره فيكون الإرث راجعاً إلى ما تحت القول لا إلى نفس القول. وقيل: معنى قوله: ﴿ **ونرثه ما يقول** ﴾ أي: نحفظ ما يقول حتى نجازيه به، ﴿ **ويأتينا فرداً** ﴾، يوم القيامة بلا مال ولا ولد.

﴿ **واتخذوا من دون الله آلهة** ﴾ يعني مشركي قريش اتخذوا الأصنام آلهة يعبدونها، ﴿ **ليكونُوا لهم عزّاً** ﴾، أي منعة، يعني يكونون لهم شفعاء يمنعونهم من العذاب.

﴿ **كلا** ﴾، أي ليس الأمر كما زعموا، ﴿ **سيكفرون بعبادتهم** ﴾، أي يجحد الأصنام والآلهة التي كانوا يعبدونها عبادة المشركين ويتبرؤون منهم، كما أخبر الله تعالى ﴿ تبرأنا إليك ما كانوا إيّانا يعبدون ﴾ [القصص: ٦٣]، ﴿ **ويكونون عليهم ضِداً** ﴾، أي أعداءً لهم، وكانوا أولياءهم في الدنيا. وقيل: أعواناً عليهم يكذبونهم ويلعنونهم.

﴿ **ألم ترَ أنّا أرسلنا الشياطين على الكافرين** ﴾، أي سلّطناهم عليهم وذلك حين قال لإبليس: ﴿ **واستفزز مَن استطعت منهم بصوتك** ﴾ [الإسراء: ٦٤]، الآية، ﴿ **تؤزهم أزّاً** ﴾، تزعجهم إزعاجاً من الطاعة إلى المعصية، والأزّ والهزّ التحريك أي تحرّكهم وتحثّهم على المعاصي.

﴿ **فلا تعجلْ عليهم** ﴾، أي لا تطلب عقوبتهم، ﴿ **إنما نعدّ لهم عدّاً** ﴾، قال الكلبي: يعني الليالي والأيام والشهور والأعوام. وقيل: الأنفاس التي يتنفسون بها في الدنيا إلى الأجل الذي أُجّل لعذابهم.

قوله: ﴿ **يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً** ﴾ أي اذكر لهم يا محمد اليوم الذي يجتمع فيه مَن اتقى الله في الدنيا بطاعته إلى الرحمن، أي إلى جنته وفداً أي جماعات جمع وافد، مثل راكب وركب، وصاحب وصحب. وقال

قال ابن عباس: ركباناً قال أبو هريرة: على الإبل. وقال علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه: ما يحشرون والله على أرجلهم ولكن على نوق رحالها من الذهب ونجائب سروجها يواقيت إن هموا بها سارت وإن هموا بها طارت. ﴿ونسوق المجرمين﴾ أي الكافرين ﴿إلى جهنم ورداً﴾ أي مشاة عطاشاً قد تقطعت أعناقهم من العطش، والورد جماعة يردون الماء ولا يرد أحد إلا بعد العطش وقيل يساقون إلى النار بإهانة واستخفاف كأنهم نعم عطاش تساق إلى الماء(ق) عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال قال رسول الله ﷺ «يحشر الناس يوم القيامة على ثلاث طرائق راغبين وراهبين واثنان على بعير وثلاثة على بعير وأربعة على بعير وعشرة على بعير وتحشر معهم النار تقيل معهم حيث قالوا وتبيت معهم حيث باتوا وتصبح معهم حيث أصبحوا وتمضي معهم حيث أمسوا». قول تقيل معهم حيث قالوا من القيلولة وعنه قال: قال رسول الله ﷺ «يحشر الناس يوم القيامة ثلاثة أصناف صنفاً مشاة وصنفاً ركباناً وصنفاً على وجوههم. قيل يا رسول الله كيف يمشون على وجوههم قال إن الذي أمشاهم على أقدامهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم أما أنهم يتقون بوجوههم كل حدب وشوك» أخرجه الترمذي.

قوله عز وجل ﴿لا يملكون الشفاعة إلا من اتخذ عند الرحمن عهداً﴾ يعني لا إله إلا الله وقيل لا يشفع الشافعون إلا للمؤمنين، وقيل لا يشفع إلا لمن قال لا إله إلا الله، أي لا يشفع إلا للمؤمنين ﴿وقالوا اتخذ الرحمن ولداً﴾ يعني اليهود والنصارى، ومن زعم أن الملائكة بنات الله من العرب ﴿لقد جئتم شيئاً إداً﴾ قال ابن عباس منكراً، وقيل معناه لقد قلتم قولاً عظيماً ﴿تكاد السموات يتفطرن منه﴾ من الانفطار وهو الشق ﴿وتنشق الأرض﴾ أي تخسف بهم ﴿وتخر الجبال هداً﴾ أي تسقط وتنطبق عليهم ﴿أن دعوا﴾ أي من أجل أن جعلوا ﴿للرحمن ولداً﴾ فإن قلت ما معنى انفطار السموات وانشقاق الأرض وخرور الجبال ومن أين تؤثر هذه الكلمة في هذه الجمادات. قلت فيه وجهان أحدهما: أن

ابن عباس: ركباناً. وقال أبو هريرة: على الإبل. وقال علي بن أبي طالب: ما يحشرون والله على أرجلهم ولكن على نوقٍ رِحالها الذهب ونجائب سرجها يواقيت إن همّوا بها سارت وإن همّوا بها طارت.

﴿ونسوق المجرمين﴾، الكافرين الكاذبين، ﴿إلى جهنم وِرْداً﴾، أي: مشاة. وقيل: عطاشاً قد تقطعت أعناقهم من العطش. والوِرْدُ جماعة يردون الماء ولا يرد أحد الماء إلّا بعد عطش.

﴿لا يملكون الشفاعة إلّا مَن اتخذ عند الرحمن عهداً﴾، يعني: لا إله إلّا الله. وقيل: معناه لا يشفع الشافعون لمَن اتخذ عند الرحمن عهداً يعني المؤمنين، كقوله: ﴿لا يشفعون إلّا لمَن ارتضى من رسول﴾ [الأنبياء: ٢٨]، وقيل: لا يشفع إلّا مَن شهد أن لا إله إلّا الله أي لا يشفع إلّا المؤمن.

﴿وقالوا اتخذ الرحمن ولداً﴾، يعني اليهود والنصارى، ومَن زعم أن الملائكة بنات الله، وقرأ حمزة والكسائي ﴿ولداً﴾ بضم الواو وسكون اللام ههنا وفي الزخرف [٨١] وسورة نوح [٢٧]، ووافق ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب في سورة نوح، والباقون بفتح الواو ههنا، وهما لغتان مثل العرب والعرب والعجم والعجم.

﴿لقدْ جئتُم شيئاً إدّاً﴾، قال ابن عباس منكراً. وقال قتادة ومجاهد: عظيماً. وقال مقاتل: لقد قلتم قولاً عظيماً. والإدّ في كلام العرب أعظم الدواهي.

﴿تكاد السموات﴾، قرأ نافع والكسائي «يكاد» بالياء ههنا وفي حمَعَسقَ [الشورى: ٥] لتقدّم الفعل، وقرأ الباقون بالتاء لتأنيث السموات، ﴿يتفطّرنَ منه﴾، هاهنا وفي حمعسق بالنون من الانفطار، أبوعمرو وأبو بكر ويعقوب وافق ابن عامر وحمزة ههنا لقوله تعالى: ﴿إذا السماء انفطرت﴾ [الإنفطار: ١] و﴿السماء منفطر﴾ [المزّمّل: ١٨]، وقرأ الباقون بالتاء من التفطّر ومعناهما واحد، يقال: انفطر الشيء وتفطّر أي تشقّق. ﴿وتنشق

الله تعالى يقول كدت أن أفعل هذا بالسموات والأرض والجبال عند وجود هذه الكلمة غضباً مني على من تفوه بها لولا حلمي وإني لا أعجل بالعقوبة. الثاني: أن يكون استعظاماً للكلمة وتهويلاً من فظاعتها وتصويراً لأثرها في الدين وهدمها لأركانه وقواعده. قال ابن عباس فزعت السموات والأرض والجبال وجميع الخلائق إلا الثقلين وكادت أن تزول وغضبت الملائكة واستعرت جهنم حين قالوا اتخذ الله ولداً ثم نزه الله نفسه عن اتخاذ الولد ونفاه عنه فقال تعالى:

﴿وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ۝٩٢ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ۝٩٣ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ۝٩٤ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ۝٩٥ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ۝٩٦ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ۝٩٧ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًۢا ۝٩٨﴾

﴿**وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولداً**﴾ أي ما يليق به اتخاذ الولد ولا يوصف به لأن الولد لا بد أن يكون شبيهاً بالوالد، ولا شبيه لله تعالى ولأن اتخاذ الولد إنما يكون لأغراض لا تصح في الله تعالى من سرور به واستعانة وذكر جميل بعده وكل ذلك لا يليق بالله تعالى ﴿**إن كل من في السموات والأرض إلا آتي الرحمن عبداً**﴾ أي آتية يوم القيامة عبداً ذليلاً خاضعاً، والمعنى أن الخلائق كلهم عبيده ﴿**لقد أحصاهم وعدهم عداً**﴾ أي عد أنفاسهم وأيامهم وآثارهم فلا يخفى عليه شيء من أمورهم وكلهم تحت تدبيره وقهره وقدرته ﴿**وكلهم آتية يوم القيامة فرداً**﴾ أي وحيداً ليس معه من أحوال الدنيا شيء.

قوله عز وجل ﴿**إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن وداً**﴾ أي محبة قيل يحبهم الله تعالى ويحببهم إلى عباده المؤمنين (ق) عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبيّ ﷺ أنه قال «إذا أحب الله سبحانه وتعالى

الأرض وتخرّ الجبال هدّاً﴾، أي: تنكسر كسراً. وقيل تنشقّ الأرض أي تنخسف بهم، والانفطار في السماء أن تسقط عليهم وتخرّ الجبال هدّاً أي تنطبق عليهم.

﴿ **أن دعوا** ﴾، أي من أجل أن جعلوا ﴿ **للرحمن ولداً** ﴾، قال ابن عباس وكعب: فزعت السمٰوات والأرض والجبال وجميع الخلائق إلاّ الثقلين، وكادت أن تزول وغضبت الملائكة واستعرت جهنم حين قالوا: **اتخذ الله** ولداً، ثم نفى الله عن نفسه الولد فقال:

﴿ **وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولداً** ﴾، أي ما يليق به اتخاذ الولد ولا يوصف به.

﴿ **إنْ كلُّ مَن في السمٰوات والأرض إلاّ آتي الرحمن** ﴾، أي إلاّ آتيه يوم القيامة، ﴿ **عبداً** ﴾ ذليلاً خاضعاً يعني الخلق كلهم عبيده.

﴿ **لقد أحصاهم وعدّهم عدّاً** ﴾ أي عدّ أنفاسهم وأيامهم وآثارهم، فلا يخفى عليه شيء.

﴿ **وكلهم آتيه يوم القيامة فرداً** ﴾، وحيداً ليس معه من الدنيا شيء.

﴿ **إنّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن وُدّاً** ﴾ أي: محبة. قال مجاهد: **يحبّهم الله** ويحببهم إلى عباده المؤمنين. أنا أبو الحسن عبد الرحمن بن محمد الداودي أنا أبو الحسن أحمد بن محمد بن موسى بن الصلت أنا أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الصمد الهاشمي أنا أبو مصعب عن مالك عن سهيل بن

عبداً دعا جبريل عليه السلام إن الله تعالى يحب فلاناً فأحبه فيحبه جبريل فينادي جبريل في أهل السماء إن الله يحب فلاناً فأحبوه، فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض» وفي رواية لمسلم قال: قال رسول الله ﷺ «إن الله سبحانه وتعالى إذا أحب عبداً دعا جبريل فقال إني أحب فلاناً فأحبه فيحبه جبريل ثم ينادي في السماء فيقول إن الله يحب فلاناً فأحبوه فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض وإذا أبغض الله عبداً دعا جبريل عليه السلام فيقول إني أبغض فلاناً فأبغضه فيبغضه جبريل ثم ينادي في أهل السماء إن الله يبغض فلاناً فأبغضوه، ثم يوضع له البغضاء في الأرض» قال هرم بن حيان: ما أقبل عبد بقلبه إلى الله عز وجل إلا أقبل الله بقلوب المؤمنين إليه حتى يرزقه مودتهم. وقال: كعب مكتوب في التوراة لا محبة لأحد في الأرض حتى يكون ابتداؤها من الله عز وجل ينزلها على أهل السماء ثم على أهل الأرض وتصديق ذلك في القرآن «سيجعل لهم الرحمن وداً».

قوله تعالى ﴿**فإنما يسرناه**﴾ أي سهلنا القرآن ﴿**بلسانك**﴾ يا محمد ﴿**لتبشر به المتقين**﴾ يعني المؤمنين ﴿**وتنذر به**﴾ أي القرآن ﴿**قوماً لداً**﴾ أي شداداً في الخصومة. وقيل صماً عن الحق، وقيل الألد الظالم الذي لا يستقيم ولا يقبل الحق ويدعي الباطل ﴿**وكم أهلكنا قبلهم من قرن**﴾ ختم الله تعالى هذه السورة بموعظة بليغة لأنهم إذا علموا وأيقنوا أنه لا بد من زوال الدنيا بالموت خافوا ذلك وخافوا سوء العاقبة في الآية فكانوا إلى الحذر من المعاصي أقرب. ثم أكد ذلك فقال تعالى ﴿**هل تحس منهم**﴾ أي هل ترى، تجد منهم أي من القرون ﴿**من أحد أو تسمع لهم ركزاً**﴾ أي صوتاً خفياً قال الحسن: بادوا جميعاً لم يبق منهم عين ولا أثر والله أعلم بمراده وأسرار كتابه.

أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إذا أحبَّ الله العبد قال لجبرائيل: قد أحببت فلاناً فأحبَّه، فيحبَّه جبرائيل، ثم ينادي في أهل السماء: إن الله عزّ وجلّ قد أحبّ فلاناً فأحبّوه، فيحبّه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض، وإذا أبغض العبد» قال مالك لا أحسبه إلاّ قال في البغض مثل ذلك قال هرم بن حيان: ما أقبل عبد بقلبه إلى الله عزّ وجلّ إلاّ أقبل الله بقلوب أهل الإيمان إليه حتى يرزقه مودّتهم.

﴿ **فإنما يسّرناه بلسانك** ﴾، أي سهّلنا القرآن بلسانك يا محمد، ﴿ **لتبشّر به المتّقين** ﴾، يعني المؤمنين، ﴿ **وتنذر به قوماً لدّاً** ﴾ شداداً في الخصومة، جمع الألد. وقال الحسن: صمّاً عن الحق. قال مجاهد: الألدّ الظالم الذي لا يستقيم. قال أبو عبيدة الألدّ الذي لا يقبل الحق ويدّعي الباطل.

﴿ **وكم أهلكنا قبلهم من قرن هل تحسُّ** ﴾، هل ترى، وقيل: هل تجد، ﴿ **منهم من أحد أو تسمع لهم رِكْزاً** ﴾، أي صوتاً والركز الصوت الخفي قال الحسن أي بادوا جميعاً فلم يبقَ منهم عين ولا أثر.

تفسير سورة طه

وهي مكية وهي مائة وأربعة، وقيل خمس وثلاثون آية وألف وستمائة وإحدى وأربعون كلمة وخمسة آلاف ومائتان واثنان وأربعون حرفاً. عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال «أعطيت السورة التي فيها البقرة من الذكر الأول وأعطيت طه والطواسين من ألواح موسى وأعطيت فواتح القرآن وخواتيم سورة البقرة من تحت العرش وأعطيت المفصل نافلة» النافلة: الزيادة وفقنا الله لفهم ذلك.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

طه ﴿١﴾ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ﴿٤﴾ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ﴿٦﴾

قوله عز وجل ﴿طه﴾ قيل هو قسم أقسم الله بطوله وهدايته، وقيل هو من أسماء الله فالطاء افتتاح اسمه طاهر والهاء افتتاح اسمه هاد. وقيل معناه يا رجل والمراد به النبيّ ﷺ وكذلك يا إنسان، وقيل هو بالسريانية، وقيل بالقبطية، فعلى هذا يكون قد وافقت لغة العرب هذه اللغات في هذه الكلمة، وقيل هو يا إنسان بلغة عك وعك قبيلة من قبائل العرب، وقيل معناه طا الأرض بقدميك يريد به في التهجد وذلك لما نزل الوحي على رسول الله ﷺ بمكة اجتهد في العبادة حتى كان يراوح بين قدميه في الصلاة لطول قيامه، وكان يصلي الليل كله فأنزل الله تعالى هذه الآية

سُوْرَة طـــه

مكية وهي مائة وأربعة وقيل خمس وثلاثون آية.

أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أبو منصور السمعاني أنا أبو جعفر الرياني أنا حميد بن زنجويه أنا ابن أبي أُويس حدّثني أبي عن أبي بكر الهزلي عن عكرمة عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «أعطيت السورة التي ذكرت فيها البقرة من الذكر الأول، وأعطيتُ طه والطواسين من ألواح موسى، وأعطيت فواتح القرآن وخواتيم السورة التي ذكرت فيها، والبقرة من كنز تحت العرش، وأُعطيت المفصل نافلة».

﴿ طه ﴾، قرأ أبو عمرو بفتح الطاء وكسر الهاء، وبكسرهما حمزة والكسائي وأبو بكر، والباقون بفتحهما، قيل: هو قسم. وقيل: اسم من أسماء الله تعالى. وقال مجاهد والحسن وعطاء والضحاك: معناه يا رجل. وقال قتادة: هو يا رجل بالسريانية. وقال الكلبي: هو يا إنسان بلغة عك. وقال مقاتل: معناه طأ الأرض بقدميك يريد في التهجّد. وقال محمد بن كعب القرظي: هو قسم أقسم الله عزّ وجلّ بطَوْله وهدايته. قال سعيد بن جبير: الطاء افتتاح اسمه طاهر والهاء افتتاح اسمه هادٍ، قال الكلبي: لمّا نزل على رسول الله ﷺ الوحي بمكة اجتهد في العبادة

وأمره أن يخفف على نفسه فقال تعالى ﴿طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى﴾.

وقيل لما رأى المشركون اجتهاده في العبادة قالوا ما أنزل عليك القرآن يا محمد إلا لشقائك فنزلت ﴿ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى﴾ أي لتتعنى وتتعب ﴿إلا تذكرة لمن يخشى﴾ أي لكن أنزلناه عظة لمن يخشى وإنما خص من يخشى بالتذكرة لأنهم هم المنتفعون بها ﴿تنزيلاً ممن خلق الأرض والسموات العلى﴾ أي من الله الذي خلق الأرض والسموات العلية الرفيعة التي لا يقدر على خلقها في عظمتها وعلوها إلا الله تعالى ﴿الرحمن على العرش استوى﴾ تقدم الكلام عليه في سورة الأعراف مستوفى ﴿له ما في السموات وما في الأرض وما بينهما﴾ يعني الهواء ﴿وما تحت الثرى﴾ أي إنه مالك لجميع ما في الأربعة الأقسام، والثرى هو التراب الندي وقيل معناه ما وراء الثرى من شيء. وقال ابن عباس: إن الأرضين على ظهور النون والنون على بحر ورأسه وذنبه يلتقيان تحت العرش، والبحر على صخرة خضراء خضرة السماء منها وهي الصخرة التي ذكرها الله تعالى في قصة لقمان، والصخرة على قرن ثور والثور على الثرى ولا يعلم ما تحت ذلك الثرى إلا الله تعالى، وذلك الثور فاتح فاه فإذا جعل الله البحار بحراً واحداً سالت في جوف ذلك الثور فإذا وقعت في جوفه يبست. قوله تعالى:

﴿وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ۝٧ ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۝٨ وَهَلْ أَتَىٰكَ
حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝٩ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ
هُدًى ۝١٠ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَـٰمُوسَىٰٓ ۝١١ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ۝١٢ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ

حتى كان يراوح بين قدميه في الصلاة لطول قيامه وكان يصلّي الليل كله فأنزل الله هذه الآية، وأمره أن يخفّف على نفسه فقال:

﴿ ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى ﴾، وقيل: لمّا رأى المشركون اجتهاده في العبادة قالوا ما أنزل عليك القرآن يا محمد إلاّ لشقائك، فنزلت: ﴿ ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى ﴾ أي لتتعنى وتتعب، وأصل الشقاء في اللغة العنـــاء.

﴿ إلاّ تذكرةً لمَن يخشى ﴾، أي لكن أنزلناه عظة لمَن يخشى. وقيل: تقديره ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى ما أنزلناه إلاّ تذكرة لمَن يخشى.

﴿ تنزيلًا ﴾، بدل من قوله تذكرة، ﴿ ممّن خلق الأرض ﴾ أي من الله الذي خلق الأرض، ﴿ والسمٰواتِ العُلى ﴾، يعني العالية الرفيعة وهي جمع العليا كقولهم كبرى وكبر وصغرى وصغر.

﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾.

﴿ له ما في السمٰوات وما في الأرض وما بينهما ﴾، يعني الهواء، ﴿ وما تحت الثرى ﴾، والثرى هو التراب الندي. قال الضحاك: يعني ما وارى الثرى من شيء، وقال ابن عباس: إن الأرضين على ظهر النون والنون على بحر ورأسه وذنبه يلتقيان تحت العرش، والبحر على صخرة خضراء خضرة السماء منها، وهي الصخرة التي ذكر الله في قصة لقمان فتكن في صخرة، والصخرة على قرن ثور والثور على الثرى، وما تحت الثرى لا يعلمه إلاّ الله، وذلك الثور فاتح فاه فإذا جعل الله عزّ وجلّ البحار بحراً واحداً سالت في جوف ذلك الثور، فإذا وقعت في جوفه يبست.

﴿فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ ۝١٣ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ۝١٤﴾

﴿**وإن تجهر بالقول**﴾ أي تعلن به ﴿**فإنه يعلم السر وأخفى**﴾ قال ابن عباس: السر ما تسر في نفسك وأخفى من السر ما يلقيه الله في قلبك من بعد ولا تعلم أنك ستحدث به نفسك لأنك لا تعلم ما تسر اليوم ولا تعلم ما تسر غداً والله يعلم ما أسررت به اليوم وما تسر به غداً، وعنه أن السر ما أسر به ابن آدم في نفسه وأخفى ما هو فاعله قبل أن يعلمه، وقيل السر ما أسره الرجل إلى غيره وأخفى من ذلك ما أسره في نفسه، وقيل السر هو العمل الذي يسر من الناس وأخفى هو الوسوسة، وقيل السر أن يعلم الله تعالى أسرار العباد وأخفى هو سره من عباده فلا يعلم أحد سره، وقيل: مقصود الآية زجر المكلف عن القبائح ظاهرة كانت أو باطنة والترغيب في الطاعات ظاهرة كانت أو باطنة، فعلى هذا الوجه ينبغي أن يحمل السر والإخفاء على ما فيه ثواب أو عقاب، فالسر هوالذي يسره المرء في نفسه من الأمور التي عزم عليها والإخفاء هو الذي لم يبلغ حد العزيمة ثم وحد نفسه فقال تعالى ﴿**الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى**﴾ تأنيث الأحسن والذي فضلت به أسماؤه في الحسن دون سائر الأسماء، دلالتها على معنى التقديس والتحميد والتعظيم والربوبية، والأفعال التي هي النهاية في الحسن.

قوله عز وجل: ﴿**وهل أتاك حديث موسى**﴾ أي وقد أتاك لما قدم ذكر رسول الله ﷺ قفاه بقصة موسى عليه الصلاة والسلام ليتأسى به في تحمل أعباء النبوة وتكاليف الرسالة والصبر على مقاساة الشدائد، حتى ينال عند الله الفوز والمقام المحمود ﴿**إذ رأى ناراً**﴾ وذلك أن موسى استأذن شعيباً في الرجوع من مدين إلى مصر ليزور والدته

﴿ **وإن تجهر بالقول** ﴾، أي تعلن به، ﴿ **فإنه يعلم السرّ وأخفى** ﴾، قال الحسن: السرّ ما أسرّه الرجل إلى غيره، وأخفى من ذلك ما أسرّ من نفسه. وعن ابن عباس وسعيد بن جبير: السرّ ما تسرّ في نفسك وأخفى من السر ما يلقيه الله عزّ وجلّ في قلبك من بُعد ولا تعلم أنك ستحدّث به نفسك لأنك تعلم ما تسرّ به اليوم وما تعلم ما تسرّ به غداً، والله يعلم ما أسررت اليوم وما تسرّ به غداً. قال ابن أبي طلحة عن ابن عباس السرّ ما أسرّ ابن آدم في نفسه، والخفي ما خفي عليه مما هو فاعله قبل أن يعمله. وقال مجاهد السرّ: العمل الذي تسرّه من الناس، وأخفى الوسوسة. وقيل: السرّ هو العزيمة وأخفى ما يخطر على القلب ولم يعزم عليه. وقال زيد بن أسلم: يعلم السرّ وأخفى أي يعلم أسرار العباد، وأخفى سرّه من عباده فلا يعلمه أحد، ثم وحّد نفسه، فقال:

﴿ **الله لا إله إلاّ هو له الأسماء الحسنى** ﴾.

﴿ **وهل أتاك حديث موسى** ﴾، أي قد أتاك استفهام بمعنى التقرير.

﴿ **إذ رأى ناراً** ﴾، وذلك أن موسى استأذن شعيباً في الرجوع من مدين إلى مصر لزيارة والدته وأُخته، فأذن له فخرج بأهله وماله، وكانت أيام الشتاء، وأخذ على غير الطريق مخافة من ملوك الشام وامرأته في سقمها لا تدري أليلاً تضع أم نهاراً، فسار في البرية غير عارف بطرقها، فألجأه المسير إلى جانب الطور الغربي الأيمن في ليلة مظلمة مثلجة شديدة البرد، وأخذ امرأته الطلق فقدح زنده فلم يور. وقيل: إن موسى كان رجلاً غيوراً وكان يصحب الرفقة بالليل ويفارقهم بالنهار لئلا ترى امرأته فأخطأ مرة الطريق في ليلة مظلمة شاتية لما أراد الله عزّ وجلّ من كرامته، فجعل يقدح الزند فلا يورى، فأبصر ناراً من بعيد عن يسار الطريق من جانب الطور، ﴿ **فقال لأهله امكثوا** ﴾ أقيموا، قرأ حمزة بضم الهاء ههنا وفي القصص [٢٩]، ﴿**إني آنستُ**﴾، أي أبصرت، ﴿**ناراً لعلّي آتيكم منها بقبس** ﴾، قطعة من نار، والقبس قطعة من نار يأخذها في طرف عمود من معظم النار، ﴿ **أو أجد على النار هدىً** ﴾، أي أجد عند النار مَن يدلّني على الطريق.

وأخاه فأذن له، فخرج بأهله وماله وكانت أيام الشتاء فأخذ على غير الطريق مخافة ملوك الشام، وامرأته حامل في شهرها لا يدري أليلاً تضع أم نهاراً، فسار في البرية غير عارف بطرقها فألجأه المسير إلى جانب الطور الغربي الأيمن، وذلك في ليلة مظلمة مثلجة شاتية شديدة البرد لما أراد الله من كرامته فأخذ امرأته الطلق فأخذ زنده فجعل يقدح فلا يورى فأبصر ناراً من بعيد عن يسار الطريق من جانب الطور ﴿فقال لأهله امكثوا﴾ أي أقيموا ﴿إني آنست ناراً﴾ أي أبصرت ناراً ﴿لعلي آتيكم منها بقبس﴾ أي شعلة من نار في طرف عود ﴿أو أجد على النار هدى﴾ أي أجد عند النار من يدلني على الطريق ﴿فلما أتاها﴾ أي أتى النار ورأى شجرة خضراء من أعلاها إلى أسفلها أطافت بها ناراً بيضاء تتقد كأضوء ما يكون، فلا ضوء النار يغير خضرة الشجرة ولا خضرة الشجرة تغير ضوء النار، قيل كانت الشجرة ثمرة خضراء وقيل كانت من العوسج، وقيل كانت من العليق وقيل كانت شجرة من العناب، روي ذلك عن ابن عباس وقال أهل التفسير لم يكن الذي رآه موسى ناراً بل كان نوراً ذكر بلفظ النار لأن موسى عليه الصلاة والسلام حسبه ناراً.

قال ابن عباس: هو من نور الرب سبحانه وتعالى، وقيل هي النار بعينها وهي إحدى حجب الرب تبارك وتعالى، يدل عليه ما روي عن أبي موسى الأشعري عن النبي ﷺ قال: «حجابه النار لو كشفها لأهلكت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه» أخرجه مسلم قيل إن موسى أخذ شيئاً من الحشيش اليابس وقصد الشجرة فكان كلما دنا نأت عنه، وإذا نأى دنت منه، فوقف متحيراً وسمع تسبيح الملائكة وألقيت عليه السكينة فعند ذلك ﴿نودي يا موسى إني أنا ربك﴾ قال وهب: نودي من الشجرة فقيل يا موسى فأجاب سريعاً وما يدري من دعاه فقال إني أسمع صوتك ولا أرى مكانك فأين أنت؟ فقال أنا فوقك ومعك وأمامك وخلفك وأقرب إليك منك فعلم أن ذلك لا ينبغي إلا لله تعالى فأيقن به، وقيل إنه سمعه بكل أجزائه حتى إن كل جارحة منه كانت أذناً وقوله ﴿فاخلع نعليك﴾ كان السبب فيه ما روي عن ابن مسعود مرفوعاً في قوله فاخلع نعليك قال كانتا من جلد حمار ميت.

ويروى غير مدبوغ وإنما أمر بخلعها صيانة للوادي المقدس، وقيل أمر بخلعهما ليباشر بقدميه تراب الأرض

﴿ فلما أتاها ﴾، رأى شجرة خضراء من أسفلها إلى أعلاها أطافت بها نار بيضاء تتّقد كأضواء ما يكون، فلا ضوء النار يغيّر خُضرة الشجرة ولا خُضرة الشجرة تغيّر ضوء النار. قال ابن مسعود: كانت الشجرة سمرة خضراء، وقال قتادة ومقاتل والكلبي: كانت من العوسج. وقال وهب: كانت من العلّيق. وقيل: كانت شجرة العنّاب، ورُوِي ذلك عن ابن عباس عنهما، وقال أهل التفسير: لم يكن الذي رآه موسى ناراً بل كان نوراً ذكر بلفظ النار لأن موسى حسبه ناراً. قال أكثر المفسّرين: إنه نور الرب عزّ وجلّ، وهو قول ابن عباس وعكرمة وغيرهما. وقال سعيد بن جبير: هي النار بعينها وهي إحدى حجب الله تعالى، يدلّ عليه ما روينا عن أبي موسى الأشعري عن النبي ﷺ أنه قال: «حجابه النار لو كشفها الله لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصرهُ من خلقه» وفي القصة أن موسى أخذ شيئاً من الحشيش اليابس وقصد الشجرة فكان كلما دنَا نَأتْ منه النار، وإذا نأى دنتْ، فوقف متحيّراً وسمع تسبيح الملائكة، وأُلقيت عليه السكينة، ﴿ نُودِي يا موسى ﴾.

﴿إني أنا ربُّك﴾،قرأ أبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو، وإني بفتح الألف على معنى نودي بأني، وقرأ الآخرون بكسر الألف أي نودي، فقيل: إني أنا ربُّك، قال وهب نودي من الشجرة، فقيل يا موسى فأجاب سريعاً لا يدري مَن دعاه، فقال: إني أسمع صوتك ولا أرى مكانك فأين أنت؟ قال: أنا فوقك ومعك، وأمامك وخلفك وأقرب إليك من نفسك فعلم أن ذلك لا ينبغي إلا لله فأيقن به، قوله عزّ وجلّ: ﴿ فاخلعْ نعليك ﴾، وكان السبب فيه ما رُوِيَ عن ابن مسعود مرفوعاً في قوله: ﴿ فاخلع نعليك ﴾، قال: كانتا من جلد حمار ميت ويُروَى غير مدبوغ. وقال عكرمة ومجاهد: أُمر بخلع النعلين ليباشر بقدمه تراب الأرض المقدسة، فتناله بركتها لأنها قدّست مرتين، فخلعهما موسى

المقدسة لتناله بركتها فإنها قدست مرتين فخلعها موسى فألقاهما من وراء الوادي ﴿إنك بالواد المقدس﴾ أي المطهر ﴿طوى﴾ اسم للوادي الذي حصل فيه وقيل طوى واد مستدير عميق مثل المطوي في استدارته ﴿وأنا اخترتك﴾ اصطفيتك برسالاتي وبكلامي ﴿فاستمع لما يوحى﴾ فيه نهاية الهيبة والجلال له فكأنه قال له لقد جاءك أمر عظيم فتأهب له ﴿إنني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني﴾ ولا تعبد غيري ﴿وأقم الصلاة لذكري﴾ أي لتذكرني فيها وقيل لذكري خاصة لا تشوبه بذكر غيري، وقيل لإخلاص ذكري وطلب وجهي ولا ترائي فيها ولا تقصد بها غرضاً آخر، وقيل معناه إذا تركت صلاة ثم ذكرتها فأقمها، (ق) عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «من نسي صلاة فليصل إذا ذكرها لا كفارة لها إلا ذلك» وتلا قتادة ﴿وأقم الصلاة لذكري﴾ وفي رواية: «إذا رقد أحدكم في الصلاة أو غفل عنها فليصلها إذا ذكرها فإن الله عز وجل يقول ﴿وأقم الصلاة لذكري﴾.

إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ
هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ
فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا
سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾ وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴿٢٣﴾

﴿إن الساعة آتية أكاد أخفيها﴾ قال أكثر المفسرين: معناه أكاد أخفيها من نفسي فكيف يعلمها مخلوق وكيف أظهرها لكم، ذكر ذلك على عادة العرب إذا بالغوا في الكتمان للشيء يقولون كتمت سرك في نفسي، أي أخفيته غاية الإخفاء، والله تعالى لا يخفى عليه شيء. والمعنى في إخفائها التهويل والتخويف لأنهم إذا لم يعلموا متى تقوم الساعة

وألقاهما من وراء الوادي ﴿ إنك بالوادِ المقدس ﴾، أي المطهّر، ﴿ طوى ﴾، وطوى اسم الوادي، وقرأ أهل الكوفة والشام: ﴿ طوى ﴾ بالتنوين ههنا وفي سورة النازعات [١٦]، وقرأ الآخرون بلا تنوين لأنه معدول به عن طاو فلما كان معدولاً عن وجهه كان مصروفاً عن إعرابه، مثل عمر وزفر، وقال الضحاك: طوى وادٍ مستدير عميق مثل الطوى في استدارته.

﴿ وأنا اخترتُك ﴾، اصطفيتك برسالاتي، قرأ حمزة وأنا مشددة النون، اخترناك على التعظيم. ﴿ فاسْتَمِعْ لما يُوحى ﴾، إليك.

﴿ إنني أنا الله لا إلّه إلا أنا فاعبدني ﴾، ولا تعبد غيري، ﴿ وأقِم الصلاة لذكري ﴾، قال مجاهد: أقم الصلاة لتذكرني بها، وقال مقاتل: إذا تركت صلاة ثم ذكرتها، فأقمها. أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحي أنا أبو عمر بكر بن محمد المزني أنا أبو بكر بن محمد بن عبد الله الحفيد أنا الحسين بن الفضل البجلي أنا عفّان أنا همّام أنا قتادة عن أنس قال: قال النبي ﷺ: «مَن نسي صلاة فليصلّها إذا ذكرها لا كفّارة لها إلاّ ذلك»، ثم قال: سمعته يقول بعد ذلك: ﴿ أقم الصلاة لذكري ﴾.

﴿ إنّ الساعة آتية أكاد أخفيها ﴾، قيل: معناه إن الساعة آتية أُخفيها وأكاد صلة وأكثر المفسّرين قالوا: معناه أكاد أخفيها من نفسي، وكذلك هو في مصحف أُبيّ بن كعب، وعبد الله بن مسعود: أكاد أُخفيها من نفسي فكيف يعلمها مخلوق. وفي بعض القراءة فكيف أظهرها لكم، وذكر ذلك على عادة العرب إذا بالغوا في كتمان الشيء يقولون كتمت سرّك من نفسي أي أخفيته غاية الإخفاء والله تعالى لا يخفى عليه شيء وقال أكاد أي أُريد ومعنى الآية

كانوا على حذر منها كل وقت وكذلك المعنى في إخفاء وقت الموت على الإنسان لأنه إذا عرف وقت موته وانقضاء أجله اشتغل بالمعاصي إلى أن يقرب من ذلك الوقت فيتوب ويصلح العمل فيتخلص من عقاب المعاصي بتعريف وقت الموت، وأنه إذا لم يعرف وقت موته لا يزال على قدم الخوف والوجل فيترك المعاصي أو يتوب منها في كل وقت مخافة معاجلة الأجل.

قوله تعالى ﴿**لتجزى كل نفس بما تسعى**﴾ أي بما تعمل من خير وشر ﴿**فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها**﴾ أي فلا يصرفك عن الإيمان بالساعة ومجيئها من لا يؤمن بها ﴿**واتبع هواه**﴾ أي مراده وخالف أمر الله ﴿**فتردى**﴾ أي فتهلك. قوله عز وجل ﴿**وما تلك بيمينك يا موسى**﴾ سؤال تقرير والحكمة فيه تنبيهه على أنها عصا حتى إذا قلبها حية علم أنها معجزة عظيمة ﴿**قال هي عصاي**﴾ قيل كان لها شعبتان وفي أسفلها سنان ولها محجن واسمها نبعة ﴿**أتوكأ عليها**﴾ أي أعتمد عليها إذا مشيت وإذا عييت وعند الوثبة ﴿**وأهش بها على غنمي**﴾ أي أضرب بها الشجرة اليابسة ليسقط ورقها فترعاه الغنم ﴿**ولي فيها مآرب أخر**﴾ أي حاجة ومنافع أخرى، وأراد بالمآرب ما كان يستعمل فيه العصا في السفر فكان يحمل بها الزاد ويشد بها الحبل ويستقي بها الماء من البئر ويقتل بها الحيات ويحارب بها السباع ويستظل بها إذا قعد، وروي عن ابن عباس أن موسى كان يحمل عليها زاده وسقاءه فجعلت تماشيه وتحدثه، وكان

أن الساعة آتية أُريد أُخفيها، والمعنى في إخفائها التهويل والتخويف لأنهم إذا لم يعلموا متى تقوم الساعة كانوا على حذر منها كل وقت، وقرأ الحسن بفتح الألف أي أظهرها، يقال: خفيت الشيء إذا أظهرته وأخفيته إذا سترته، قوله تعالى: ﴿ **لتُجزى كل نفس بما تسعى** ﴾، أي بما تعمل من خير وشر.

﴿ **فلا يصدنّك عنها** ﴾، فلا يصرفنّك عن الإيمان بالساعة، ﴿ **مَن لا يُؤمن بها واتبع هواه** ﴾، مراده خالف أمر الله ﴿ **فتردى** ﴾، أي فتهلك.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ **وما تلك بيمينك يا موسى** ﴾، سؤال تقرير والحكمة في هذا السؤال تنبيهه وتوقيفه على أنها عصاً حتى إذا قلبها حيّة علم أنه معجزة عظيمة، وهذا على عادة العرب يقول الرجل لغيره هل تعرف هذا وهو لا يشكّ أنه يعرفه، ويريد أن ينضمّ إقراره بلسانه إلى معرفته بقلبه.

﴿ **قال هي عصاي** ﴾، قيل: وكانت لها شعبتان وفي أسفلها سنان ولها محجن، قال مقاتل: اسمها نبعة، ﴿ **أتوكأ عليها** ﴾، اعتمد عليها إذا مشيت وإذا عييت وعند الوثبة، ﴿ **وأهشُّ بها على غنمي** ﴾، أضرب بها الشجرة اليابسة ليسقط ورقها فترعاه الغنم، وقرأ عكرمة (وأهس) بالسين غير المعجمة، أي أزجرُ بها الغنم، والهس زجر الغنم، ﴿ **ولي فيها مآرب أُخرى** ﴾، حاجات ومنافع أخرى، جمع مأربة بفتح الراء، ولم يقل (أُخر) لرؤوس الآي، وأراد بالمآرب ما يستعمل فيه العصا في السفر، فكان يحمل بها الزاد ويشدّ بها الحبل فيستقي الماء من البئر، ويقتل بها الحيّات ويحارب بها السِّباع، ويستظلّ بها إذا قعد وغير ذلك. ورُوِيَ عن ابن عباس: أن موسى كان يحمل عليها زاده وسِقاءه، فجعلت تماشيه وتحادثه وكان يضرب بها الأرض فيخرج ما يأكل يومه، ويركّزها فيخرج الماء فإذا رفعها ذهب الماء وإذا اشتهى ثمرة ركّزها فجعلت تُماشيه غصناً كالشجرة وأورقت وأثمرت، وإذا أراد الاستقاء من البئر أدلاها فطالت على طول البئر وصارت شعبتاها كالدلو حتى يستقي، وكانت تضيء بالليل بمنزلة السراج، وإذا ظهر له عدو كانت تحارب وتناضل عنه.

﴿ **قال** ﴾، الله تعالى، ﴿ **ألقها يا موسى** ﴾، انبذها، قال وهب: ظن موسى أنه يقول ارفضها.

يضرب بها الأرض فيخرج له ما يأكل يومه، ويركزها فيخرج الماء فإذا رفعها ذهب الماء وكان إذا اشتهى ثمرة ركزها فتصير غصن تلك الشجرة وتورق وتثمر، وإذا أراد الاستقاء من البئر أدلاها فطالت على طول البئر وصارت شعبتاها كدلو حتى يستقي، وكانت تضيء بالليل كالسراج وإذا ظهر له عدو كانت تحارب وتناضل عنه ﴿قال﴾ الله تعالى ﴿ألقها يا موسى﴾ أي انبذها واطرحها.

قال وهب: ظن موسى أنه يقول ارفضها ﴿فألقاها﴾ أي فطرحها على وجه الرفض ثم حانت منه نظرة ﴿فإذا هي حية﴾ صفراء من أعظم ما يكون من الحيات ﴿تسعى﴾ أي تمشي بسرعة على بطنها وقال في موضع آخر كأنها جان، وهي الحية الصغيرة الجسم الخفيفة وقال في موضع آخر ثعبان وهو أكبر ما يكون من الحيات ووجه الجمع أن الحية اسم جامع للكبير والصغير والذكر والأنثى فالجان عبارة عن ابتداء حالها فإنها كانت حية على قدر العصا، ثم كانت تتورم وتنتفخ حتى صارت ثعباناً وهو انتهاء حالها، وقيل إنها كانت في عظم الثعبان وسرعة الجان، قال محمد بن إسحاق: نظر موسى فإذا العصا حية من أعظم ما يكون من الحيات، وصارت شعبتاها شدقين لها، والمحجن عنقاً وعرفاً يهتز كالنيازك، وعيناها تتقدان كالنار تمر بالصخرة العظيمة مثل الخـفة من الإبل، فتلقمها وتقصف الشجرة العظيمة بأنيابها ويسمع لأنيابها صريفاً عظيماً، فلما عاين ذلك موسى ولّى مدبراً وهرب، ثم ذكر ربه فوقف استحياء منه ثم نودي يا موسى أقبل وارجع حيث كنت، فرجع وهو شديد الخوف ﴿قال خذها﴾ يعني بيمينك ﴿ولا تخف﴾ قيل كان خوفه لما عرف ما لقي آدم من الحية، وقيل لما قال له ربه لا تخف بلغ من طمأنينة نفسه وذهاب الخوف عنه أن أدخل يده في فمها وأخذ بلحييها ﴿سنعيدها سيرتها الأولى﴾ أي إلى هيئتها فنردها عصاً كما كانت، وقيل كان على موسى مدرعة صوف قد خللها بعود فلما قال الله تعالى خذها لف طرف المدرعة على يده فأمره الله تعالى أن يكشف

﴿ فألقاها ﴾، على وجه الرفض ثم حانت منه نظرة، ﴿ فإذا هي حيّة ﴾، صفراء من أعظم ما يكون من الحيّات، ﴿ تسعى ﴾، تمشي بسرعة على بطنها وقال في موضع آخر: ﴿ كأنها جان ﴾ [القصص: ٣١، النمل: ١٠] وهي الحيّة الصغيرة الخفيفة الجسم، وقال في موضع: ﴿ ثعبان ﴾ [الأعراف: ١٠٧، الشعراء: ٣٢]، وهو أكبر ما يكون من الحيات، فأما الحيّة فإنها تجمع الصغير والكبير والذكر والأُنثى، وقيل: الجان عبارة عن ابتداء حالها فإنها كانت حيّة على قدر العصا ثم كانت تتورّم وتنتفخ حتى صارت ثعبان، والثعبان عبارة عن انتهاء حالها، وقيل: إنها كانت في عظم الثعبان وسرعة الجان. قال محمد بن إسحاق: نظر موسى فإذا العصَا حيّة من أعظم ما يكون من الحيات صارت شعبتاها شدقين لها، والمحجن عنقاً لها وعرفاً تهتزّ كالنيازك، وعيناها تتّقدان كالنّار تمرّ بالصخرة العظيمة مثل الحلقة من الإبل، فتلقمها وتقصف الشجرة العظيمة بأنيابها، ويُسمَع لأسنانها صريف عظيم، فلما عاين ذلك موسى ولّى مدبراً وهرب، ثم ذكر ربه فوقف استحياء منه، ثم نُودي أنْ يا موسى أقبل وارجع حيث كنت، فرجع وهو شديد الخوف.

﴿ قال خذها ﴾، بيمينك، ﴿ ولا تخف سنُعيدها سيرتها الأولى ﴾، هيئتها الأولى أي نردّها عصاً كما كانت، وكان على موسى مدرعة من صوف قد خلّلها بعيدان من الخلال فلما قال الله تعالى خذها لَفَّ طرف المدرعة على يده، قال فأمر الله تعالى أن يكشف يده فكشفها، وذكر بعضهم: أنه لمّا لفّ كمّ المدرعة على يده قال له ملك: أرأيت لو أذن الله بما تحاذره أكانت المدرعة تُغني عنك شيئاً؟ قال: لا ولكني ضعيف ومن ضعف خلقت، فكشف عن يده ثم وضعها فإذا هي عصاً كما كانت ويده في شعبتها في الموضع الذي كان يضعها إذا توكأ. قال المفسّرون: أراد الله عزّ وجلّ أن يُري موسى ما أعطاه من الآية التي لا يقدر عليها مخلوق لئلا يفزع منها إذا ألقاها عند فرعون. وقوله: ﴿ سيرتها ﴾ نصب بحذف إلى يريد إلى سيرتها.

يده فكشفها. وذكر بعضهم أنه لما لف كم المدرعة على يده قال له ملك أرأيت لو أمر الله بما تحاذره أكانت المدرعة تغني عنك شيئاً؟؟ قال: لا ولكني ضعيف من ضعف خلقت. قال فكشف عن يده ثم وضعها في فم الحية فإذا هي عصا كما كانت ويده في شعبتيها في الموضع الذي كان يضعها إذا توكأ. قال المفسرون:

أراد الله تعالى أن يري موسى ما أعطاه من الآية التي لا يقدر عليها مخلوق ولئلا يفزع منها إذا ألقاها عند فرعون قوله تعالى ﴿**واضمم يدك إلى جناحك**﴾ يعني إلى إبطك وقيل تحت عضدك ﴿**تخرج بيضاء**﴾ يعني نيرة مشرقة ﴿**من غير سوء**﴾ يعني من غير عيب والسوء ها هنا بمعنى البرص قال ابن عباس: كان ليده نور ساطع يضيء بالليل والنهار كضوء الشمس والقمر ﴿**آية أخرى**﴾ أي دلالة أخر على صدقك سوى العصا ﴿**لنريك من آياتنا الكبرى**﴾ قال ابن عباس: كانت يد موسى أكبر آياته. قوله عز وجل:

﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴿٣٩﴾ إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ ۖ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا ۚ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾﴾

﴿**اذهب إلى فرعون إنه طغى**﴾ يعني جاوز الحد في العصيان والتمرد وإنما خص فرعون بالذكر مع أن موسى كان مبعوثاً إلى الكل لأنه ادعى الإلهية وتكبر متبوعاً فكان ذكره الأولى قال وهب: قال الله تعالى لموسى اسمع كلامي

قوله تعالى: ﴿ **واضممْ يدكَ إلى جناحك** ﴾، يعني إبطك، قال مجاهد: تحت عضدك، وجناح الإنسان عضده إلى أصل إبطه، ﴿ **تخرج بيضاء** ﴾، نيِّرة مشرقة، ﴿ **من غير سوء** ﴾، من غير عيب والسوء ههنا بمعنى البرص. قال ابن عباس: كان ليده نور ساطع يضيء بالليل والنهار كضوء الشمس والقمر، ﴿ **آية أخرى** ﴾، يعني دلالة أخرى على صدقك سوى العصا.

﴿ **لنُريك من آياتنا الكبرى** ﴾، ولم يقل الكبر لرؤوس الآي. وقيل: فيه إضمار معناه لنُريك من آياتنا الكبرى، دليله قول ابن عباس: كانت يد موسى أكبر آياته.

قوله تعالى: ﴿ **اذهبْ إلى فرعون إنّه طغى** ﴾، يعني جاوز الحدّ في العصيان والتمرّد، فادعه إلى عبادتي.

﴿ **قال** ﴾، موسى، ﴿ **ربِّ اشرحْ لي صدري** ﴾، وسعه للحق، قال ابن عباس: يريد حتى لا أخاف غيرك، وذلك أن موسى كان يخاف فرعون خوفاً شديداً لشدة شوكته وكثرة جنوده، وكان يضيق صدراً بما كُلّف من مقاومة فرعون وجنده، فسأل الله أن يوسع قلبه للحق حتى يعلم أن أحداً لا يقدر على مضرّته إلّا بإذن الله، وإذا علم ذلك لم يخف عن فرعون وشدة شوكته وكثرة جنوده.

﴿ **ويسّر لي أمري** ﴾، يعني سهّلْ عليّ ما أمرتني به من تبليغ الرسالة إلى فرعون.

واحفظ وصيتي وانطلق برسالتي وإنك بعيني وسمعي وإن معك يدي وبصري وإني ألبسك حلة من سلطاني تستكمل بها القوة في أمري بعثتك بعزتي لولا الحجة التي وضعت بيني وبين خلقي لبطشت به بطشة جبار ولكن هان علي وسقط من عيني فبلغه رسالتي وادعه إلى عبادتي وحذره نقمتي ﴿**وقولا له قولاً ليناً**﴾ لا يغتر بلباس الدنيا فإن ناصيته بيدي ولا يتنفس إلا بعلمي قال فسكت موسى فجاء ملك وقال له أجب ربك ﴿**قال**﴾. يعني موسى ﴿**رب اشرح لي صدري**﴾ يعني وسعه للحق، قال ابن عباس: يريد حتى لا أخاف غيرك، وذلك أن موسى كان يخاف فرعون خوفاً شديداً لشدة شوكته وكثرة جنوده، فكان يضيق بما كلف من مقاومة فرعون وحده، فسأل الله تعالى أن يوسع قلبه للحق حتى يعلم أن أحداً لا يقدر على مضرته إلا بإذن الله تعالى، وإذا علم ذلك لم يخف من فرعون وشدة شوكته وكثرة جنوده ﴿**ويسر لي أمري**﴾ أي سهل علي ما أمرتني به من تبليغ الرسالة إلى فرعون ﴿**واحلل عقدة من لساني**﴾ وذلك أن موسى كان في حجرة فرعون ذات يوم في صغره فلطم فرعون لطمة وأخذ بلحيته، فقال فرعون لامرأته آسية إن هذا عدوي وأراد أن يقتله، فقالت له آسية إنه صبي لا يعقل، وقيل إن أم موسى لما فطمته ردته إلى فرعون فنشأ في حجره وحجر امرأته يربيانه واتخذاه ولداً، فبينما هو يلعب بين يدي فرعون وبيده قضيب إذ رفعه فضرب به رأس فرعون فغضب فرعون وتطير منه حتى همَّ بقتله، فقالت آسية: أيها الملك إنه صبي لا يعقل جربه إن شئت، فجاءت بطشتين في أحدهما جمر وفي الآخر جوهر فوضعهما بين يدي موسى، فأراد أن يأخذ الجوهر فأخذ جبريل يد موسى فوضعها على الجمر فأخذ جمرة فوضعها في فيه فاحترق لسانه وصارت فيه عقدة ﴿**يفقهوا قولي**﴾ يعني احلل العقدة كي يفهموا قولي ﴿**واجعل لي وزيراً من أهلي**﴾ يعني معيناً وظهيراً، والوزير من يوازرك ويحتمل عنك بعض ثقل عملك ثم بين من هو فقال ﴿**هارون أخي**﴾ وكان هارون أكبر من موسى وأفصح لساناً وأجمل وأوسم وكان أبيض اللون وكان موسى آدم أقنى

﴿ **واحلل عقدةً من لساني** ﴾، وذلك أن موسى كان في حجر فرعون ذات يوم في صغره، فلطم فرعون لطمة وأخذ بلحيته، فقال فرعون لآسية امرأته: إن هذا عدوّي وأراد أن يقتله، فقالت آسية: إنه صبي لا يعقل ولا يميّز. وفي رواية أن أُمّ موسى لمّا فطمته ردّته فنشأ موسى في حجر فرعون وامرأته آسية يربّيانه، واتخذاه ولداً فبينما هو يلعب يوماً بين يدي فرعون وبيده قضيب يلعب به إذ رفع القضيب فضرب به رأس فرعون، فغضب فرعون وتطيّر بضربه، حتى همّ بقتله، فقالت آسية: أيها الملك إنه صغير لا يعقل فجرّبه إن شئت، فجاءت بطشتين في أحدهما الجمر وفي الآخر الجواهر، فوضعتها بين يدي موسى فأراد أن يأخذ الجواهر، فأخذ جبريل بيد موسى فوضعها على النار فأخذ جمرة فوضعها في فمه فأحرقت لسانه وصارت عليه عقدة.

﴿ **يفقهوا قولي** ﴾، يقول احلل العقدة كي يفقهوا كلامي.

﴿ **واجعلْ لي وزيراً** ﴾، معيناً وظهيراً، ﴿ **من أهلي** ﴾ والوزير مَن يؤازرك ويعينك ويتحمّل عنك بعض ثقل عملك، ثم بيّـن مَن هو فقال:

﴿ **هارون أخي** ﴾، وكان هارون أكبر من موسى بأربع سنين وكان أفصح منه لساناً وأجمل وأوسم، أبيض اللون، وكان موسى آدم أقنى أجعد.

﴿ **اشددْ به أزري** ﴾، قوِّ به ظهري.

﴿ **وأشركه في أمري** ﴾، يعني في النبوّة وتبليغ الرسالة، وقرأ ابن عامر ﴿ **اشدد** ﴾ بفتح الألف ﴿ **وأشركه** ﴾ بضمها على الجواب حكاية عن موسى يعني أفعل ذلك، وقرأ الآخرون على الدعاء، والمسألة عطفاً على ما تقدّم من قوله: ﴿ **ربِّ اشرح لي صدري ويسّر لي أمري** ﴾.

جعداً ﴿اشدد به أزري﴾ يعني قو به ظهري ﴿وأشركه في أمري﴾ يعني في أمر النبوة وتبليغ الرسالة ﴿كي نسبحك كثيراً﴾ يعني نصلي كثيراً ﴿ونذكرك كثيراً﴾ يعني نحمدك ونثني عليك بما أوليتنا من جميل نعمك ﴿إنك كنت بنا بصيراً﴾ يعني خبيراً عليماً ﴿قال﴾ الله تعالى ﴿قد أوتيت سؤلك يا موسى﴾ أي أعطيت جميع ما سألته ﴿ولقد مننا عليك مرة أخرى﴾ يعني قيل هذه المرة ثم بين تلك المنة بقوله تعالى ﴿إذ أوحينا إلى أمك ما يوحى﴾ يعني ما يلهم ثم فسر ذلك الإلهام وعدد نعمه عليه فقال ﴿أن اقذفيه في التابوت﴾ يعني ألهمناها أن اجعليه في التابوت ﴿فاقذفيه في اليم﴾ يعني نهر النيل ﴿فليلقه اليم بالساحل﴾ يعني شاطىء البحر ﴿يأخذه عدو لي وعدو له﴾ يعني فرعون.

فأخذت تابوتاً وجعلت فيه قطناً ووضعت فيه موسى، وقيرت رأسه وشقوقه ثم ألقته في النيل. وكان يشرع منه نهر كبير في دار فرعون. فبينما فرعون جالس على البركة مع امرأته آسية، إذ هو بتابوت يجيء به الماء فأمر الغلمان والجواري بإخراجه، فأخرجوه وفتحوا رأسه فإذا بصبي من أصبح الناس وجهاً، فلما رآه فرعون أحبه بحيث لم يتمالك نفسه وعقله فذلك قوله تعالى ﴿وألقيت عليك محبة مني﴾ قال ابن عباس: أحبه وحببه إلى خلقه، قيل ما رآه أحد إلا أحبه لملاحة كانت في عيني موسى ﴿ولتصنع على عيني﴾ لتربى ويحسن إليك وأنا مراعيك ومراقبك كما يراعي الرجل الشيء بعينه إذا اعتنى به ونظر إليه ﴿إذ تمشي أختك﴾ واسمها مريم متعرفة خبره ﴿فتقول هل أدلكم على

﴿ كي نسبّحك كثيراً ﴾، قال الكلبي: نصلّي لك كثيراً.

﴿ ونذكرك كثيراً ﴾، نحمدك ونثني عليك بما أوليتنا من نّعمك.

﴿ إنّك كنت بنا بصيراً ﴾، خبيراً عليماً.

﴿ قال ﴾، الله تعالى ﴿ قد أُوتيتَ ﴾، أعطيتَ، ﴿ سؤلك ﴾، جميع ما سألته، ﴿ يا موسى ﴾.

﴿ ولقد مننا عليك ﴾، أنعمنا عليك، ﴿ مرّة أخرى ﴾، يعني قبل هذه المرة وهي.

﴿ إذْ أوحينا إلى أُمك ﴾، وحي إلهام، ﴿ ما يوحى ﴾، ما يلهم. ثم فسّر ذلك الإلهام وعدّد نعمه عليك فقال:

﴿ أنِ اقْذفيهِ في التابوت ﴾، يعني ألهمناها أن اجعليه في التابوت، ﴿ فاقذفيه في اليمِّ ﴾، يعني نهر النيل، ﴿ فليلقه اليمّ بالساحل ﴾، يعني شاطىء النهر، لفظه أمرٌ ومعناه خبر، ومجازه حتى يلقيه اليمّ بالساحل، ﴿ يأخذه عدوٌ لي وعدوٌ له ﴾، يعني فرعون، فاتخذت تابوتاً وجعلت فيه قطناً محلوجاً ووضعت فيه موسى وقيّرت رأسه وخصاصه يعني شقوقه ثم ألقته في النيل، وكان يشرع منه نهر كبير في دار فرعون، فبينما فرعون جالس على رأس البركة مع امرأته آسية إذ تابوت يجيء به الماء فأمر الغلمان والجواري بإخراجه، فأخرجوه وفتحوا رأسه فإذا صبي من أصبح الناس وجهاً، فلما رآه فرعون أحبّه بحيث لم يتمالك، فذلك قوله تعالى: ﴿ وألقيت عليك محبّةً منّي ﴾، قال ابن عباس: أحبّه وحبّبه إلى خلقه. قال عكرمة: ما رآه أحد إلاّ أحبّه. قال قتادة: ملاحة كانت في عيني موسى، ما رآه أحد إلاّ عشقه. ﴿ ولتصنع على عيني ﴾، يعني لتُربّى بمرآي ومنظر منّي، قرأ أبو جعفر ﴿ ولتصنع ﴾ بالجزم.

﴿ إذْ تمشي أُختك ﴾، واسمها مريم متعرّفة خبره، ﴿ فتقول هل أدلّكم على مَن يكفله ﴾، يعني على امرأة ترضعه وتضمّه إليها، وذلك أنه كان لا يقبل ثدي امرأة فلما قالت ذلك لهم أُخته قالوا نعم، فجاءت بالأم فقبل ثديها، فذلك قوله تعالى: ﴿ فرجعناك إلى أُمك كي تقرعينها ﴾، بلقائك، ﴿ ولا تحزن ﴾، أي ليذهب عنها الحزن،

من **يكفله﴾** أي على امرأة ترضعه وتضمه إليها، وذلك أنه كان لا يقبل ثدي امرأة فلما قالت لهم أخته ذلك قالوا نعم. فجاءت بالأم فقبل ثديها فذلك قوله تعالى **﴿فرجعناك إلى أمك كي تقر عينها﴾** أي بلقائك ورؤيتك **﴿ولا تحزن﴾** أي وليذهب عنها الحزن **﴿وقتلت نفساً﴾**.

قال ابن عباس: كان قتل قبطياً كافراً قيل كان عمره إذ ذاك اثنتي عشرة سنة **﴿فنجيناك من الغم﴾** أي من غم القتل وكربه **﴿وفتناك فتوناً﴾** قال ابن عباس: اختبرناك اختباراً وقيل ابتليناك ابتلاء، قال ابن عباس: الفتون وقوعه في محنة بعد محنة وخلصه الله تعالى، منها أولها أن أمه حملته في السنة التي كان فرعون يذبح فيها الأطفال، ثم إلقاؤه في البحر في التابوت، ثم منعه من الرضاع إلا من ثدي أمه، ثم أخذه بلحية فرعون حتى هم قتله، ثم ناوله الجمرة بدل الجوهرة، ثم قتله القبطي وخروجه إلى مدين خائفاً **﴿فلبثت﴾** أي مكثت **﴿سنين في أهل مدين﴾** هي بلدة شعيب على ثمان مراحل من مصر، هرب إليها موسى قال وهب: لبث موسى عند شعيب. ثمانياً وعشرين سنة عشر سنين منها يرعى الغنم مهر زوجته صفوراء ابنة شعيب وثمان عشرة سنة أقام عنده بعد ذلك حتى ولد له وخرج من مصر ابن اثنتي عشرة سنة هارباً **﴿ثم جئت على قدر يا موسى﴾** أي جئت على القدر الذي قدرت أن تجيء فيه. قيل على رأس أربعين سنة وهو القدر الذي يوحى إلى الأنبياء فيه.

وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴿٤١﴾ اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي ﴿٤٢﴾ اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾
فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي
مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ

﴿ وقتلتَ نفساً ﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما: كان قتل قبطياً كافراً. قال كعب الأحبار: كان إذْ ذاك ابن اثنتي عشرة سنة، **﴿ فنجيناك من الغمّ ﴾**، أي من غمّ القتل وكربه، **﴿ وفتنّاك فتوناً ﴾**، قال ابن عباس رضي الله عنه اختبرناك اختباراً. وقال الضحاك ومقاتل: ابتليناك ابتلاءً. وقال مجاهد: أخلصناك إخلاصاً. وعن ابن عباس في رواية سعيد بن جبير: أنّ الفتون وقوعه في محنة بعد محنة خلّصه الله منها، أولها أن أُمه حملته في السنة التي كان فرعون يذبح فيها الأطفال، ثم إلقاؤه في البحر في التابوت، ثم منعه الرضاع إلّا من ثدي أُمه، ثم أخذ بلحية فرعون حتى همّ بقتله، ثم تناوله الجمرة بدل الدرّة، ثم قتله القبطي، وخروجه إلى مدين خائفاً فكان ابن عباس يقصّ القصة على سعيد بن جبير، فعلى هذا معنى فتنّاك خلّصناك من تلك المِحَن كما يفتن الذهب من النار فيخلص من كل خبث فيه، والفتون مصدر، **﴿ فلبثتَ ﴾**، فمكثت أي فخرجت من أرض مصر إلى مدين فلبثت، **﴿ سنين في أهل مدين ﴾**، يعني ترعى الأغنام عشر سنين، ومدين بلدة شعيب عليه السلام على ثمان مراحل من مصر، هرب إليها موسى. وقال وهب: لبث عند شعيب عليه السلام ثمانياً وعشرين سنة، عشر سنين منها مهر زوجته صفوراء بنت شعيب، وثمان عشرة سنة أقام عنده حتى ولد له، **﴿ ثم جئتَ على قدرٍ يا موسى ﴾**، قال مقاتل: على موعد ولم يكن هذا الموعد مع موسى وإنما كان موعداً في تقدير الله، قال محمد بن كعب: جئت على القدر الذي قدّرت لك أنـك تجيء إليّ فيه. وقـال عبد الـرحمن بن كيسان: على رأس أربعين سنـة، وهو القـدر الذي يُوحى فيه إلى الأنبياء، وهذا معنى قول أكثر المفسّرين، أي على الموعد الذي وعده الله وقدّره أنه يوحى إليه بالرسالة، وهو أربعون سنة.

مِن رَّبِّكَ وَالسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾

﴿واصطنعتك لنفسي﴾ اخترتك واصطفيتك لوحيي ورسالتي لتتصرف على إرادتي ومحبتي. وذلك أن قيامه بأداء الرسالة تصرف على إرادة الله ومحبته. وقيل معناه اخترتك لأمري وجعلتك القائم بحجتي والمخاطب بيني وبين خلقي كأني الذي أقمت عليهم الحجة وخاطبتهم ﴿اذهب أنت وأخوك بآياتي﴾ أي بدلائلي. قال ابن عباس: يعني الآيات التسع الذي بعث بها موسى عليه السلام ﴿ولا تنيا﴾ أي لا تضعفا وقيل لا تفترا ولا تقصراً ﴿في ذكري﴾ أي لا تقصراً في ذكري بالإحسان إليكما والإنعام عليكما ومن ذكر النعمة شكرها ﴿اذهبا إلى فرعون إنه طغى فقولا له قولاً ليناً﴾ أي دارياه وارفقا به. قال ابن عباس: لا تعنفا في قولكما، وقيل كنياه فقولا له يا أبا العباس وقيل يا أبا الوليد وقيل أراد بالقول اللين قوله ﴿هل لك إلى أن تزكى﴾ وقيل الآية إنما أمرهما باللطافة لماله من حق تربية موسى، وقيل عداه على قبول الإيمان شباباً لا يهرم وملكاً لا ينزع منه إلا بالموت وتبقى عليه لذة المطعم والمشرب والمنكح إلى حين موته، وإذا مات دخل الجنة فلما أتاه موسى ووعده بذلك أعجبه وكان لا يقطع أمراً دون هامان وكان غائباً فلما قدم أخبره بالذي دعاه إليه موسى وقال أردت أن أقبل منه فقال له هامان كنت أرى أن لك عقلاً ورأياً، أنت رب تريد أن تكون مربوباً، وأنت تعبد تريد أن تعبد، فقال فرعون صواب ما قلت فغلبه على رأيه.

وكان هارون بمصر فأمر الله موسى أن يأتي هارون وأوحى الله إلى هارون وهو بمصر أن يتلقى موسى فتلقاه إلى مرحلة وأخبره بما أوحي إليه. وقوله تعالى ﴿لعله يتذكر أو يخشى﴾ أي يتعظ ويخاف ويسلم فإن قلت كيف قال لعله يتذكر وقد سبق في علمه أنه لا يتذكر ولا يسلم. قلت معناه اذهبا على رجاء منكما وطمع وقضاء الله وراء أمركما،

قوله عزّ وجلّ: ﴿واصْطنعتك لنفسي﴾، أي اخترتك واصطفيتك لوحيي ورسالتي، يعني لتتصرف على إرادتي ومحبتي وذلك أن قيامه بأداء الرسالة تصرف على إرادة الله ومحبته، قال الزجّاج: اخترتك لأمري وجعلتك القائم بحجّتي والمخاطب بيني وبين خلقي، كأني الذي أقمت بك عليهم الحجّة وخاطبتهم.

﴿ اذهبْ أنت وأخوك بآياتي ﴾، بدلالاتي، وقال ابن عباس: يعني الآيات التسع التب بعث بها موسى ﴿ ولَا تَنِيَا ﴾، ولا تضعفا، وقال السدي: لا تَفْتُرا. وقال محمد بن كعب: لا تقصرًا، ﴿ في ذكري ﴾.

﴿ اذهبَا إلى فرعون إنه طغى ﴾، قرأ أبو عمرو وأهل الحجاز: «لنفسي اذهب»، «وذكري اذهبا» و«إن قومي اتخذوا»، «من بعدي اسمه»، بفتح الياء فيهنّ ووافقهم أبو بكر: « من بعدي اسمه »، وقرأ الباقون بإسكانها.

﴿ فقولا له قولاً ليناً ﴾، يقول دارياه وارفقا به، قال ابن عباس رضي الله عنه: لا تعنفا في قولكما، وقال السدي وعكرمة: كنّياه فقولا يا أبا العباس، وقيل: يا أبا الوليد، وقال مقاتل: يعني بالقول اللين: ﴿ هل لك إلى أن تزكى وأهديك إلى ربّك فتخشى ﴾ [النازعات: ١٨ و١٩]، وقيل: أمرهما باللطافة في القول لما له من حق التربية. وقال السدي: القول اللين أن موسى أتاه ووعده على قبول الإيمان شباباً لا يهرم معه وملكاً لا ينزع منه إلا بالموت، ويبقى له لذّة المطعم والمشرب والمنكح إلى حين موته، وإذا مات دخل الجنة فأعجبه ذلك وكان لا يقطع أمراً دون هامان، وكان غائباً فلما قَدِمَ أخبره بالذي دعاه إليه موسى، وقال أردت أن أقبل منه، فقال له هامان: كنت أرى أن لك عقلاً ورأياً أنت رب تريد أن تكون مربوباً وأنت تُعبد تريد أن تعبد، فغلبه على رأيه، وكان هارون يومئذ بمصر، فأمر الله موسى أن يأتي هارون وأوحى إلى هارون وهو بمصر أن يتلقى موسى فتلقاه إلى مرحلة وأخبره بما أوحى إليه، ﴿ لعلّه يتذكّر أو يخشى ﴾، أي يتّعظ ويخاف ويسلم، فإن قيل: كيف قال: ﴿ لعلّه يتذكر ﴾ وقد سبق في

وقيل هو إلزام الحجة وقطع المعذرة كقوله تعالى ﴿**ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولاً فتتبع آياتك**﴾، وقيل هو ينصرف إلى غير فرعون مجازه لعله يتذكر متذكراً ويخشى خاش إذا رأى بري والطافي بمن خلقته وأنعمت عليه ثم ادعى الربوبية، وقيل لعل من الله واجب ولقد تذكر فرعون وخشي حين لم تنفعه الذكرى والخشية وذلك حين ألجمه الغرق وقرأ رجل عند يحيى بن معاذ الرازي ﴿**فقولا له قولاً ليناً**﴾ الآية فبكى يحيى وقال إلهي هذا رفقك بمن يقول أنا الإله فكيف رفقك بمن يقول أنت الإله ﴿**قالا**﴾ يعني موسى وهارون ﴿**ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا**﴾.

قال ابن عباس: يعجل علينا بالقتل والعقوبة ﴿**أو أن يطغى**﴾ أي يجاوز الحد في الإساءة إلينا ﴿**قال**﴾ الله تعالى ﴿**لا تخافا إنني معكما أسمع وأرى**﴾ قال ابن عباس: أسمع دعاءكما فأجيبه وأرى ما يراد بكما فأمنع لست بغافل عنكما فلا تهتما ﴿**فأتياه فقولا إنا رسولا ربك**﴾ أي أرسلنا إليك ربك ﴿**فأرسل معنا بني إسرائيل**﴾ أي خل عنهم وأطلقهم من أعمالك ﴿**ولا تعذبهم**﴾ أي لا تتعبهم في العمل، وكان فرعون يستعملهم في الأعمال الشاقة كالبناء وقطع الصخور مع قتل الولدان وغير ذلك ﴿**قد جئناك بآية من ربك**﴾ قال فرعون وما هي فأخرج موسى يده لها شعاع كشعاع الشمس، وقيل معناه قد جئناك بمعجزة وبرهان يدل على صدقنا على ما ادعيناه من الرسالة ﴿**والسلام على من اتبع الهدى**﴾ ليس المراد منه سلام التحية بل إنما معناه سلم من العذاب من أسلم ﴿**إنا قد أوحي إلينا أن العذاب على من كذب وتولى**﴾ أي إنما يعذب الله من كذب بما جئنا به وأعرض عنه.

قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ

علمه أنه لا يتذكر ولا يسلم؟ قيل: معناه اذهبا على رجاء منكما وطمع وقضاء الله وراء أمركما. وقال الحسين بن الفضل: هو ينصرف إلى غير فرعون مجازه لعله يتذكر ويخشى خاشٍ إذا رأى برّي وألطافي بمَن خلقته وأنعمت عليه ثم ادّعى الربوبية. وقال أبو بكر محمد بن عمر الوراق: لعلّ من الله واجب، ولقد تذكّر فرعون وخشي حين لم تنفعه الذكرى والخشية وذلك حين ألجمه الغرق، قال: آمنت أنه لا إلَه إلاّ الذي آمنت به بنو إسرائيل، وأنا من المسلمين، وقرأ رجل عند يحيىٰ بن معاذ هذه الآية: فقالا له قولاً ليّناً، فبكى يحيىٰ، وقال: إلّهي هذا برّك بمَن يقول أنا الإلّه، فكيف برّك بمَن يقول أنت الإلّه؟!.

﴿ **قالا** ﴾، يعني موسى وهارون، ﴿ **ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا** ﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما: يعجل علينا بالقتل والعقوبة، يقال: فرط عليه فلان إذا عجل بمكروه، وفرط منه أمرٌ أي بدرَ وسبقَ، ﴿ **أو أن يطغى** ﴾، أي يجاوز الحدّ في الإساءة إلينا.

﴿ **قال لا تخافا إنني معكما أسمعُ وأرى** ﴾، قال ابن عباس: أسمع دعاءكما فأُجيبه وأرى ما يراد بكما فأمنعه لست بغافل عنكما فلا تهتمّا.

﴿ **فأتياه فقولا إنّا رسولاَ ربِّك** ﴾، أرسلنا إليك، ﴿ **فأرسلْ معنا بني إسرائيل** ﴾، أي خلِّ عنهم وأطلقهم من أعمالك، ﴿ **ولا تعذبهم** ﴾، لا تتعبهم في العمل، وكان فرعون يستعملهم في الأعمال الشاقّة، ﴿ **قد جئناك بآية من ربِّك** ﴾، قال فرعون: وما هي فأخرج يده لها شعاع كشعاع الشمس، ﴿ **والسلام على مَن اتّبَع الهدى** ﴾، ليس المراد منه التحية إنما معناه يسلم من عذاب الله مَن أسلم.

﴿**إنّا قد أُوحي إلينا أنّ العذاب على مَن كذّب وتولى**﴾، أي إنما يعذّب الله مَن كذب بما جئنا به وأعرض عنه.

ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ
فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِي
ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ ۞ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾ وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾
قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ
نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ
ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴿٦١﴾

﴿**قال**﴾ يعني فرعون ﴿**فمن ربكما يا موسى**﴾ أي فمن إلهكما الذي أرسلكما ﴿**قال ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى**﴾ أي كل شيء يحتاجون إليه ويرتفقون به، وقيل أعطى كل شيء صلاحه وهداه، وقيل أعطى كل شيء صورته فخلق اليد للبطش والرجل للمشي واللسان للنطق والعين للنظر والأذن للسمع ثم هداه إلى منافعه من المطعم والمشرب والمنكح، وقيل يعني جعل زوجة الرجل المرأة والبعير الناقة والفرس الرمكة وهي الحجرة والحمار الأتان ثم هدى ألهمه كيف يأتي الذكر الأنثى ﴿**قال**﴾ يعني فرعون ﴿**فما بال القرون الأولى**﴾ أي فما حال القرون الماضية والأمم الخالية مثل قوم نوح وعاد وثمود فإنها كانت تعبد الأوثان وتنكر البعث، وإنما قال فرعون ذلك لموسى حين

﴿ **قال فمَن ربكما يا موسى** ﴾، مَن إلٰهكما الذي أرسلكما.

﴿ **قال ربُّنا الذي أعطى كل شيء خَلْقَهُ ثم هدى** ﴾، قال الحسن وقتادة: أعطى كل شيء صلاحه وهداه لما يصلحه. وقال مجاهد: أعطى كل شيء صورته لم يجعل خلق الإنسان كخلق البهائم، ولا خلق البهائم كخلق الإنسان ثم هداه إلى منافعه من المطعم والمشرب والمنكح. وقال الضحاك: أعطى كل شيء خلقه يعني اليد للبطش والرِّجل للمشي واللسان للنطق والعين للنظر والأُذن للسمع. وقال سعيد بن جبير: أعطى كل شيء خلقه يعني زوج الإنسان المرأة، والبعير الناقة والحمار الأتان والفرس الرمكة، ثم هدى أي ألهمه كيف يأتي الذكر الأُنثـى.

﴿ **قال** ﴾ فرعون، ﴿ **فما بال القرون الأولى** ﴾، ومعنى البال الحال، أي ما حال القرون الماضية والأمم الخالية مثل قوم نوح وعاد وثمود فيما تدعونني إليه فإنها كانت تعبد الأوثان وتنكر البعث.

﴿ **قال** ﴾، موسى، ﴿ **علمها عند ربي** ﴾، أي أعمالهم محفوظة عند الله يجازي بها. وقيل: إنما ردَّ موسى علم ذلك إلى الله لأنه لم يعلم ذلك، فإن التوراة أُنزلت إليه بعد هلاك فرعون وقومه. ﴿ **في كتاب** ﴾، يعني في اللوح المحفوظ، ﴿ **لا يضلّ ربّي** ﴾، أي لا يخطىء. وقيل: لا يغيب عنه شيء ولا يغيب عن شيء، ﴿ **ولا ينسى** ﴾، ما كان من أمرهم حتى يجازيهم بأعمالهم وقيل: لا ينسى أي لا يترك الانتقام فينتقم من الكفّار ويجازي المؤمن.

﴿**الذي جعل لكم الأرض مهداً**﴾، قرأ أهل الكوفة: ﴿**مهداً**﴾، ههنا وفي الزخرف [١٠] فيكون مصدراً أي فرشاً، وقرأ الآخرون: «مهـاداً»، كقوله تعالى: ﴿ ألم نجعل الأرض مهاداً ﴾ [النبأ: ٦] أي فراشاً وهو اسم يفرش كالبساط اسم لما يبسط، ﴿ **وسلك لكم فيها سبلاً** ﴾ السلك إدخال الشيء في الشيء والمعنى أدخل في الأرض لأجلكم طرقاً تسلكونها. قال ابن عباس: سلك لكم فيها طرقاً تسلكونها، ﴿ **وأنزل من السماء ماءً** ﴾، يعني

خوفهم مصارع الأمم الخالية فحينئذٍ قال فرعون فما بال القرون الأولى ﴿قال﴾ يعني موسى ﴿علمها عند ربي﴾ أي أعمالهم محفوظة عند الله يجازي بها، وقيل إنما رد موسى علم ذلك إلى الله تعالى لأنه لم يعلم ذلك لأن التوراة إنما نزلت بعد هلاك فرعون وقومه ﴿في كتاب﴾ يعني اللوح المحفوظ ﴿لا يضل ربي﴾ أي لا يخطىء وقيل لا يغيب عنه شيء ﴿ولا ينسى﴾ أي فيتذكر وقيل لا ينسى ما كان من أعمالهم حتى يجازيهم بها ﴿الذي جعل لكم الأرض مهداً﴾ أي فراشاً وقيل مهدها لكم ﴿وسلك لكم فيها سبلاً﴾ أي أدخل في الأرض لأجلكم طرقاً وسهلها لكم لتسلكوها ﴿وأنزل من السماء ماء﴾ يعني المطر ثم الأخبار عن موسى ثم قال الله تعالى ﴿فأخرجنا به﴾ أي بذلك الماء ﴿أزواجاً﴾ أي أصنافاً ﴿من نبات شتى﴾ أي مختلف الألوان والطعوم والمنافع فمنها ما هو للناس ومنها ما هو للدواب ﴿كلوا وارعوا أنعامكم﴾ أي أخرجنا أصناف النبات للانتفاع بالأكل والرعي ﴿إن في ذلك﴾ أي الذي ذكر ﴿لآيات لأولي النهى﴾ أي لذوي العقول، قيل هم الذين ينتهون عما حرم الله عليهم ﴿منها خلقناكم﴾ أي من الأرض خلقنا آدم، وقيل إن الملك ينطلق فيأخذ من التراب الذي يدفن فيه فيذره في النطفة فيخلق من التراب ومن النطفة ﴿وفيها نعيدكم﴾ أي عند الموت والدفن ﴿ومنها نخرجكم تارة أخرى﴾ أي يوم القيامة للبعث والحساب.

قوله تعالى ﴿ولقد أريناه﴾ يعني فرعون ﴿آياتنا كلها﴾ يعني الآيات التسع التي أعطاها الله موسى ﴿فكذب وأبى﴾ يعني فرعون وزعم أنها سحر وأبى أن يسلم ﴿قال﴾ يعني فرعون ﴿أجئتنا لتخرجنا من أرضنا﴾ يعني مصر

المطر ثم الإخبار عن موسى ثم أخبر الله عن نفسه بقوله: ﴿ فأخرجنا به ﴾، بذلك الماء ﴿ أزواجاً ﴾، أصنافاً، ﴿ من نبات شتى ﴾، مختلف الألوان والطعوم والمنافع من أبيض وأحمر وأخضر وأصفر، فكل صنف منها زوج، فمنها للناس ومنها للدواب.

﴿ كلوا وارْعَوا ﴾ أي وارتعوا، ﴿ أنعامكم ﴾، تقول العرب: رعيت الغنم فرعت أي أسيموا أنعامكم ترعى، ﴿ إنّ في ذلك ﴾، الذي ذكرت، ﴿ لآيات لأُولي النُّهَى ﴾، لذوي العقول، واحدتها نهية سُمّيت نهية لأنها تنهى صاحبها عن القبائح والمعاصي. قال الضحاك: لأولي النُّهى الذين ينتهون عمّا حرّم الله عليهم، قال قتادة: لذوي الورع.

﴿ منها ﴾ أي من الأرض، ﴿ خلقناكم ﴾، يعني أباكم آدم. وقال عطاء الخراساني: إن الملك ينطلق فيأخذ من تراب المكان الذي يدفن فيذره على النطفة فيخلق من التراب ومن النطفة فذلك قوله تعالى: ﴿ منها خلقناكم، وفيها نُعيدكم ﴾، أي عند الموت والدفن، ﴿ ومنها نُخرجكم تارةً أخرى ﴾، يوم البعث.

قوله تعالى: ﴿ ولقد أريناه ﴾، يعني فرعون، ﴿ آياتنا كلها ﴾، يعني الآيات التسع التي أعطاها الله موسى، ﴿ فكذّب ﴾، بها وزعم أنها سحر، ﴿ وأبى ﴾، أن يسلم.

﴿ قال ﴾، يعني فرعون ﴿ أجئتنا لتخرجنا من أرضنا ﴾، يعني أرض مصر، ﴿ بسحرك يا موسى ﴾، أي تريد أن تغلب على ديارنا فيكون لك المُلْك وتخرجنا منها.

﴿ فلنأتينّك بسحر مثله فاجعلْ بيننا وبينك موعداً ﴾، أي فاضرب بيننا وبينك أجلاً وميقاتــاً، ﴿ لا نخلفه ﴾، قرأ أبو جعفر (لا نخلفه) جزماً لا نجاوزه، ﴿ نحن ولا أنت مكاناً سُوىً ﴾، قرأ ابن عامر وعاصم وحمزة ويعقوب: ﴿ سوى ﴾ بضم السين، وقرأ الآخرون بكسرها وهما لغتان مثل عدى وعدى وطوى وطوى، قال مقاتل وقتادة: مكاناً عدلاً بيننا وبينك. وعن ابن عباس: ونصفاً، ومعناه تستوي مسافة الفريقين إليه. قال أبو عبيدة

﴿بسحرك يا موسى﴾ يريد أن تغلب على ديارنا فيكون لك الملك وتخرجنا منها ﴿فلنأتينك بسحر مثله فاجعل بيننا وبينك موعداً﴾ أي اضرب أجلاً وميقاتاً ﴿لا نخلفه﴾ لا نجاوزه ﴿نحن ولا أنت مكاناً سوىً﴾ أي مكاناً عدلاً وقال ابن عباس: نصفاً تستوي مسافة الفريقين إليه وقيل معناه سوى هذا المكان ﴿قال﴾ يعني موسى ﴿موعدكم يوم الزينة﴾ قيل كان يوم عيد لهم يتزينون فيه ويجتمعون في كل سنة وقيل هو يوم النيروز وقال ابن عباس يوم عاشوراء ﴿وأن يحشر الناس ضحى﴾ أي وقت الضحوة نهاراً جهاراً ليكون أبعد من الريبة ﴿فتولى فرعون فجمع﴾ يعني فرعون ﴿كيده﴾ يعني مكره وسحره وحيله ﴿ثم أتى﴾ يوم المعاد ﴿قال لهم موسى﴾ يعني للسحرة الذين جمعهم فرعون وكانوا اثنين وسبعين ساحراً مع كل ساحر حبل وعصا وقيل كانوا أربعمائة وقيل كانوا اثني عشر ألفاً ﴿ويلكم لا تفتروا على الله كذباً فيسحتكم بعذاب﴾ أي فيهلكنكم ويستأصلكم ﴿وقد خاب من افترى﴾ أي خسر من ادعى مع الله إلهاً آخر وقيل معناه خسر من كذب على الله تعالى. قوله تعالى:

﴿فَتَنَٰزَعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجۡوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوٓاْ إِنۡ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخۡرِجَاكُم مِّنۡ أَرۡضِكُم بِسِحۡرِهِمَا وَيَذۡهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلۡمُثۡلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجۡمِعُواْ كَيۡدَكُمۡ ثُمَّ ٱئۡتُواْ صَفّٗاۚ وَقَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡيَوۡمَ مَنِ ٱسۡتَعۡلَىٰ ﴿٦٤﴾﴾

﴿فتنازعوا أمرهم بينهم﴾ أي تناظروا وتشاوروا، يعني السحرة في أمر موسى سراً من فرعون وقالوا إن غلبنا موسى اتبعناه، معناه لما قال لهم موسى ويلكم لا تفتروا على الله كذباً. قال بعضهم لبعض ما هذا بقول ساحر

والقتيبي وسطاً بين الفريقين. قال مجاهد: منصفاً. وقال الكلبي: يعني سوى هذا المكان.

﴿ قال موعدكم يوم الزينة ﴾، قال مجاهد وقتادة ومقاتل والسدي: كان يوم عيد لهم يتزينون فيه ويجتمعون في كل سنة، وقيل: هو يوم النيروز. وقال ابن عباس وسعيد بن جبير: يوم عاشوراء، ﴿ وأنْ يُحشر الناسُ ضحىً ﴾، أي وقت الضحوة نهاراً جهاراً ليكون من الريبة.

﴿ فتولّى فرعون فجمع كيده ﴾، مكره وحيلته وسَحَرَته، ﴿ ثم أتى ﴾، أي الميعاد.

﴿ قال لهم موسى ﴾، يعني للسَّحرة الذين جمعهم فرعون وكانوا اثنين وسبعين ساحراً مع كل واحد حبل وعصا. وقيل: كانوا أربعمائة. وقال كعب: كانوا اثني عشر ألفاً. وقيل: أكثر من ذلك، ﴿ ويلكم لا تفتروا على الله كذباً فيسحتكم بعذاب ﴾، قرأ حمزة والكسائي وحفص: ﴿ فيُسحتكم ﴾ بضم الياء وكسر الحاء، وقرأ الباقون بفتح الياء والحاء وهما لغتان. قال مقاتل والكلبي: فيهلككم. وقال قتادة: فيستأصلكم، ﴿ وقد خاب مَن افترى ﴾.

﴿ فتنازعوا أمرهم بينهم ﴾، أي تناظروا وتشاوروا، يعني السَّحرة في أمر موسى سرّاً من فرعون. قال الكلبي: قالوا سرّاً إن غلبنا موسى اتبعناه. وقال محمد بن إسحاق: لمّا قال لهم موسى لا تفتروا على الله كذباً، قال بعضهم لبعض: ما هذا بقول السحر. ﴿ وأسرّوا النجوى ﴾، أي المناجاة يكون مصدراً واسماً.

ثم ﴿ قالوا ﴾، وأسرّ بعضهم إلى بعض يتناجون، ﴿ إن هذانِ لساحران ﴾، يعني موسى وهارون، وقرأ ابن كثير وحفص: ﴿ إن ﴾ بتخفيف النون، ﴿ هذان ﴾ أي ما هذان إلّا ساحران، كقوله: ﴿ إن نظنك لَمِنَ الكاذبين ﴾ [الشعراء: ١٨٦]، أي ما نظنك إلّا من الكاذبين، وشدّد ابن كثير النون من هذان، وقرأ أبو عمرو إن بتشديد النون هذين بالياء على الأصل، وقرأ الآخرون: ﴿ إن ﴾ بتشديد النون، هذان بالألف واختلفوا فيه، قرأ هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة أُم المؤمنين: أنه خطأ من الكاتب. وقال قوم: هو لغة الحارث بن كعب وخثعم وكنانة فإنهم يجعلون الاثنين في موضع الرفع والنصب والخفض بالألف، يقولون: أتاني الزيدان ورأيت الزيدان ومررت

﴿وأسروا النجوى﴾ أي المناجاة ﴿قالوا﴾ قال بعضهم لبعض سراً ﴿إن هذان لساحران﴾ يعني موسى وهارون ﴿يريدان أن يخرجاكم من أرضكم﴾ يعني من مصر ﴿بسحرهما ويذهبا بطريقتكم المثلى﴾ قال ابن عباس: يعني بسراة قومكم وأشرافكم، وقيل معناه يصرفان وجوه الناس عنكم، وقيل أراد أهل طريقتكم المثلى وهم بنو إسرائيل يعني يريد أن يذهبا بهم لأنفسهما، وقيل معناه يذهبا بسنتكم وبدينكم الذي أنتم عليه ﴿فأجمعوا كيدكم﴾ أي لا تدعو شيئاً من كيدكم إلا جئتم به، وقيل معناه اعزموا كلكم على كيده مجتمعين له ولا تختلفوا فيختل أمركم ﴿ثم ائتوا صفاً﴾ أي جمعاً مصطفين ليكون أشد لهيبتكم وقيل معناه ثم ائتوا المكان الموعود به ﴿وقد أفلح اليوم من استعلى﴾ أي فاز من غلب.

قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُواْ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ

بالزيدان، فلا يتركون ألف التثنية في شيء، وكذلك يجعلون كل ياء ساكنة انفتح ما قبلها ألف، كما في التثنية، يقولون: كسرت يداه وركبت علاه، يعني يديه وعليه. وقال شاعرهم:

تزوّد مني بين أدناه ضربة ... دعته إلى هابي التراب عقيم

يريد بين أُذنه. وقال آخر:

إن أباها وأباها ... قد بلغا في المجد غايتها

وقيل: تقدير الآية أنه هذان، فحذف الهاء، وذهب جماعة إلى أن حرف أن ههنا بمعنى نعم، أي نعم هذان. رُوِيَ أن أعرابياً سأل ابن الزبير شيئاً فحرمه، فقال: لعن الله ناقة حملتني إليك، فقال ابن الزبير: إن وصاحبها، أي نعم، وقال الشاعر:

بكرت على عواذلي ... يلحينني وألومهنه

ويقلن شيب قد علا ... ك وقد كبرت فقلت إنه

أي: نعم. ﴿ يُريدان أن يخرجاكم من أرضكم ﴾، مصر، ﴿ بسحرهما ويذهبا بطريقتكم المثلى ﴾، قال ابن عباس: يعني بسراة قومكم وأشرافكم، يقال هؤلاء طريقة قومهم أي أشرافهم، والمثل تأنيث الأمثل وهو الأفضل، حديث الشعبي عن علي، قال: يصرفان وجوه الناس إليهما. قال قتادة: طريقتهم المثلى كان بنو إسرائيل يومئذ أكثر القوم عدداً وأموالاً، فقال عدوّ الله: يريد أن يذهبا بهم لأنفسهم. وقيل: بطريقتكم المثلى أن بسنّتكم ودينكم الذي أنتم عليه، والمثلى نعت الطريق، تقول العرب: فلان على الطريقة المثلى، يعني على الصراط المستقيم.

﴿ فأجْمِعُوا كيدكم ﴾، قرأ أبو عمرو فأجمعوا بوصل الألف وفتح الميم، من الجمع أي لا تدعوا أشياء من كيدكم إلاّ جئتم به، بدليل قوله: (فجمعته) بمعنى واحد، والصحيح أن معناه العزم والإحكام، أي اعزموا كلكم على كيده مجتمعين له لا تختلفوا فيختلّ أمركم، ﴿ ثم ائتوا صفّاً ﴾ أي جميعاً، قاله مقاتل والكلبي، وقال قوم: أي مصطفين مجتمعين ليكون أشدّ لهيبتكم، وقال أبو عبيدة: الصف المجتمع، ويسمى المصلّى صفّاً معناه ثم ائتوا المكان الموعد صفّاً، ﴿ وقد أفلح اليوم مَن استعلى ﴾، أي فاز مَن غلب.

مَا صَنَعُوٓاْۖ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيۡدُ سَٰحِرٖۖ وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيۡثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ فَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدٗا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾
قَالَ ءَامَنتُمۡ لَهُۥ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحۡرَۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ
وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخۡلِ وَلَتَعۡلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابٗا وَأَبۡقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُواْ لَن نُّؤۡثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِي
فَطَرَنَاۖ فَٱقۡضِ مَآ أَنتَ قَاضٍۖ إِنَّمَا تَقۡضِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغۡفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكۡرَهۡتَنَا عَلَيۡهِ مِنَ
ٱلسِّحۡرِۗ وَٱللَّهُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُۥ مَن يَأۡتِ رَبَّهُۥ مُجۡرِمٗا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأۡتِهِۦ مُؤۡمِنٗا قَدۡ
عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلۡعُلَىٰ ﴿٧٥﴾

﴿قالوا﴾ يعني السحرة **﴿يا موسى إما أن تلقي﴾** أي عصاك **﴿وإما أن نكون أول من ألقى﴾** أي عصينا **﴿قال﴾** يعني موسى **﴿بل ألقوا﴾** يعني أنتم أولاً **﴿فإذا حبالهم﴾** فيه إضمار أي فألقوا فإذا حبالهم **﴿وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى﴾** قيل إنهم لما ألقوا الحبال والعصي أخذوا أعين الناس، فرأى موسى كأن الأرض امتلأت حيات وكانت قد أخذت ميلاً في ميل من كل جانب ورآها كأنها تسعى **﴿فأوجس﴾** أي أضمر وقيل وجد **﴿في نفسه خيفة موسى﴾** قيل هو طبع البشرية وذلك أنه ظن أنها تقصده، وقيل خاف على القوم أن يلتبس عليهم الأمر فيشكوا في أمره فلا يتبعوه **﴿قلنا لا تخف﴾** أي قال الله تعالى لموسى لا تخف **﴿إنك أنت الأعلى﴾** أي الغالب عليهم ولك الغلبة عليهم والظفر **﴿وألق ما في يمينك﴾** أي عصاك والمعنى لا يخيفنك كثرة حبالهم وعصيهم فإن في يمينك شيئاً أعظم منها كلها **﴿تلقف﴾** أي تلقم وتبتلع **﴿ما صنعوا إنما صنعوا كيد ساحر﴾** أي حيلة ساحر **﴿ولا يفلح الساحر حيث أتى﴾** أي من الأرض.

وقال ابن عباس لا يسعد حيث كان **﴿فألقي السحرة سجداً قالوا آمنا برب هارون وموسى﴾** قال صاحب الكشاف سبحان الله ما أعجب أمرهم قد ألقوا حبالهم وعصيهم للكفر والجحود، ثم ألقوا رؤوسهم بعد ساعة للشكر والسجود فما أعظم الفرق بين الإلقائين. وقيل إنهم لم يرفعوا رؤوسهم حتى رأوا الجنة والنار وقيل إنهم لما سجدوا أراهم الله تعالى في سجودهم منازلهم التي يصيرون إليها في الجنة **﴿قال﴾** يعني فرعون **﴿آمنتم له قبل أن آذن لكم إنه لكبيركم﴾**

﴿ قالوا ﴾، يعني السَّحَرَة، **﴿ يا موسى إمّا أن تُلقي ﴾**، عصاك، **﴿ وإمّا أن نكون أول مَن ألقى ﴾**، عِصيّنا.

﴿ قال ﴾، موسى، **﴿ بل ألقوا ﴾**، أنتم أولاً، **﴿ فإذا حبالهم ﴾**، وفيه إضمار، أي فألقوا فإذا حبالهم، **﴿ وعِصيّهم ﴾**، جمع العصا، **﴿ يُخيَّلُ إليه ﴾**، قرأ ابن عامر ويعقوب تخيَّل بالتاء ردّ إلى الحبال والعصي، وقرأ الآخرون بالياء ردّوه إلى الكيد والسحر، **﴿ من سحرهم أنها تسعى ﴾**، حتى تظن أنها تسعى أي تمشي وذلك أنهم كانوا لطّخوا حبالهم وعصيّهم بالزئبق، فلما أصابه حرّ الشمس انهمست واهتزّت فظن موسى أنها تقصده وفي القصة أنهم لمّا ألقوا الحبال والعصي أخذوا أعين الناس فرأى موسى والقوم كأنّ الأرض امتلأت حيّات، وكانت قد أخذت ميلاً من كل جانب ورأوا أنها تسعى.

﴿ فأوجس في نفسه خيفة موسى ﴾، أي وجد، وقيل: أضمر في نفسه خوفاً، واختلفوا في خوفه طبع البشرية وذلك أنه ظن أنها تقصده، وقال مقاتل: خاف على القوم أن يلتبس عليهم الأمر فيشكّوا في أمره فلا يتبعونه.

﴿ قلنا ﴾، لموسى، **﴿ لا تخف إنّك أنت الأعلى ﴾**، أي الغالب، يعني لك الغلبة والظفر.

﴿ وألقِ ما في يمينك ﴾، يعني العصا، **﴿ تلقف ﴾**، تلتقم، وتبتلع، **﴿ ما صنعوا ﴾**، قرأ ابن عامر تلقف

أي لرئيسكم وعظيمكم يعني أنه أسحركم وأعلاكم في صناعة السحر ومعلمكم ﴿**الذي علمكم السحر فلأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف**﴾ يعني أقطع اليد اليمنى والرجل اليسرى ﴿**ولأصلبنكم في جذوع النخل**﴾ يعني على جذوع النخل ﴿**ولتعلمن أينا أشد عذاباً**﴾ يعني على إيمانكم به أنا أو رب موسى على ترك الإيمان به ﴿**وأبقى**﴾ يعني أدوم ﴿**قالوا**﴾ يعني السحرة ﴿**لن نؤثرك**﴾ يعني لن نختارك ﴿**على ما جاءنا من البينات**﴾ يعني الدلالات الواضحات، قيل هي اليد البيضاء والعصا وقيل كان استدلالهم أنهم قالوا لو كان هذا سحر فأين حبالنا وعصينا. وقيل إنهم لما سجدوا رأوا الجنة والنار ورأوا منازلهم في الجنة فعند ذلك قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات ﴿**والذي فطرنا**﴾ قيل هو قسم، وقيل معناه لن نؤثرك على الله الذي فطرنا ﴿**فاقض ما أنت قاض**﴾ يعني فاصنع ما أنت صانع ﴿**إنما تقضي هذه الحياة الدنيا**﴾ يعني إنما أمرك وسلطانك في الدنيا سيزول عن قريب ﴿**إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر**﴾ فإن قلت كيف قالوا هذا وقد جاؤوا مختارين غير مكرهين. قلت كان فرعون أكرههم في الابتداء على تعلمهم السحر لكي لا يذهب أصله. وقيل كانت السحرة اثنين وسبعين اثنان من القبط وسبعون من بني إسرائيل، وكان فرعون أكره الذين هم من بني إسرائيل على تعلم السحر. وقيل قال السحرة لفرعون أرنا موسى إذا هو نام فأراهم

برفع الفاء ههنا، وقرأ الآخرون بالجزم على جواب الأمر، ﴿ **إنما صنعوا** ﴾، أي الذي صنعوا، ﴿ **كيد ساحر** ﴾، أي حيلة سحر هكذا قرأ حمزة والكسائي بكسر السين بلا ألف وقرأ الآخرون ﴿ **ساحر** ﴾ لأن إضافة الكيد إلى الفاعل أولى من إضافته إلى الفعل، وإن كان ذلك لا يمتنع في العربية، ﴿ **ولا يفلح الساحر حيثُ أتى** ﴾، من الأرض، قال ابن عباس: لا يسعد حيث كان. وقيل: معناه حيث احتال.

﴿ **فأُلقيَ السَّحرةُ سجداً قالوا آمنّا بربِّ هارون وموسى. قال آمنتم له قبل أن آذن لكم إنه لكبيركم** ﴾، لرئيسكم ومعلّمكم، ﴿ **الذي علّمكم السحر فلأقطعنّ أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنّكم في جذوع النخل** ﴾، يعني على جذوع النخل، ﴿ **ولتعلمنّ أيّنا أشدُّ عذاباً** ﴾، يعني على إيمانكم به أنا أو ربّ موسى على ترك الإيمان به، ﴿ **وأبقى** ﴾، يعني أدوم.

﴿ **قالوا** ﴾، يعني السَّحَرَة، ﴿ **لن نؤثرك** ﴾، لن نختارك، ﴿ **على ما جاءنا من البيّنات** ﴾، يعني الدلالات، قال مقاتل: يعني اليد البيضاء والعصا. وقيل: كان استدلالهم أنهم قالوا لو كان هذا سحراً فأين حبالنا وعصيّنا. وقيل: من البيّنات يعني من اليقين والعِلم. حُكِيَ عن القاسم بن أبي بزّة أنه قال: إنهم لمّا ألقوا سُجّداً ما رفعوا رؤوسهم حتى رأوا الجنة والنار، ورأوا ثواب أهلها ورأوا منازلهم في الجنة، فعند ذلك قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من البيّنات، ﴿ **والذي فطرنا** ﴾، يعني لن نؤثرك على الله الذي فطرنا، وقيل: هو قسم، ﴿ **فاقضِ ما أنتَ قاضٍ** ﴾، يعني فاصنع ما أنت صانع، ﴿ **إنما تقضي هذه الحياة الدنيا** ﴾، يعني أمرك وسلطانك في الدنيا وسيزول عن قريب.

﴿ **إنّا آمنّا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر** ﴾، فإن قيل كيف قالوا هذا وقد جاؤوا مختارين يحلفون بعزّة فرعون أن لهم الغلبة. قيل: رُوِيَ عن الحسن أنه قال: كان فرعون يُكره قوماً على تعلّم السحر لكيلا يذهب أصله وقد كان أكرههم في الابتداء. وقال مقاتل: كانت السَّحْرَة اثنين وسبعين اثنان من القبط وسبعون من بني إسرائيل كان عدوّ الله فرعون أكره الذين هم من بني إسرائيل على تعلّم السِّحر، فذلك قوله: ﴿ **وما أكرهتنا عليه من السّحر** ﴾، وقال عبد العزيز بن أبان: قالت السَّحَرة لفرعون أرِنا موسى إذا نام فأراهم موسى نائماً وعصاه تحرسه، فقالوا لفرعون إن هذا ليس بساحر إن الساحر إذا نام بطل سحره، فأبى عليهم إلّا أن يتعلموا، فذلك قوله

موسى نائماً وعصاه تحرسه فقالوا لفرعون هذا ليس بساحر إن الساحر إذا نام بطل سحره. فأبى عليهم فأكرههم على أن يعملوا فذلك قولهم وما أكرهتنا عليه من السحر ﴿والله خير وأبقى﴾ يعني خير منك ثواباً وأبقى عقاباً وقيل خير منك إن أطيع وأبقى عذاباً إن عصي وهذا جواب لقوله ﴿ولتعلمن أينا أشد عذاباً وأبقى﴾ ﴿إنه من يأت ربه مجرماً﴾ قيل هذا ابتداء كلام من الله تعالى وقيل هو من تمام قول السحرة معناه من مات على الشرك ﴿فإن له جهنم لا يموت فيها﴾ فيستريح ﴿ولا يحيى﴾ حياة ينتفع بها ﴿من يأته مؤمناً﴾ يعني من مات على الإيمان ﴿قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى﴾ يعني الرفيعة العلية ثم فسر الدرجات بقوله

جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾ وَلَقَدۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَسۡرِ
بِعِبَادِي فَٱضۡرِبۡ لَهُمۡ طَرِيقٗا فِي ٱلۡبَحۡرِ يَبَسٗا لَّا تَخَٰفُ دَرَكٗا وَلَا تَخۡشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلۡيَمِّ مَا
غَشِيَهُمۡ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرۡعَوۡنُ قَوۡمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ قَدۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ عَدُوِّكُمۡ وَوَٰعَدۡنَٰكُمۡ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنَ
وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰ ﴿٨٠﴾ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَلَا تَطۡغَوۡاْ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبِيۖ وَمَن يَحۡلِلۡ عَلَيۡهِ
غَضَبِي فَقَدۡ هَوَىٰ ﴿٨١﴾ وَإِنِّي لَغَفَّارٞ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ ﴿٨٢﴾ ۞ وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ
يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدۡ فَتَنَّا قَوۡمَكَ مِنۢ بَعۡدِكَ وَأَضَلَّهُمُ
ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَمۡ يَعِدۡكُمۡ رَبُّكُمۡ وَعۡدًا حَسَنًاۚ أَفَطَالَ
عَلَيۡكُمُ ٱلۡعَهۡدُ أَمۡ أَرَدتُّمۡ أَن يَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُم مَّوۡعِدِي ﴿٨٦﴾

﴿جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء من تزكى﴾ يعني تطهر من الذنوب، وقيل أعطى زكاة نفسه وقال لا إله إلا الله عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «إن أهل الدرجات العلى ليراهم من تحتهم كما ترون النجم الطالع في أفق السماء وإن أبا بكر وعمر منهم وأنعما» أخرجه الترمذي. قوله وأنعما يقال أحسن فلان إلى فلان وأنعم يعني أفضل وزاد في الإحسان، والمعنى أنهما منهم وزادوا تناهياً إلى غايته.

تعالى: ﴿ وما أكرهتنا عليه من السحر ﴾، ﴿ والله خيرٌ وأبقى ﴾، قال محمد بن إسحاق: خير منك ثواباً وأبقى عذاباً وقال محمد بن كعب خير منك ثواباً أن أُطيع وأبقى منك عذاباً أن عصى وهذا جواب لقوله: ﴿ ولتعلمنّ أيّنا أشدّ عذاباً وأبقى ﴾.

﴿ إنه مَن يأتِ ربَّه مجرماً ﴾، قيل هذا ابتداء كلام من الله تعالى، وقيل: من تمام قول السَّحَرَة مجرماً أي مشركاً يعني مَن مات على الشرك، ﴿ فإنّ له جهنم لا يموت فيها ﴾، فيستريح، ﴿ ولا يحيىٰ ﴾، حياة ينتفع بها.

﴿ ومَن يأتِهِ ﴾، قرأ أبو عمرو ساكنة الهاء، ويختلسها أبو جعفر، وقالُون ويعقوب، وقرأ الآخرون بالإشباع، ﴿ مؤمناً ﴾، أي: مَن مات على الإيمان، ﴿ قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العُلى ﴾، أي الرفيعة، والعُلى جمع والعليا تأنيث الأعلى.

﴿ جنّاتُ عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء مَن تزكّى ﴾، يعني تطهّر من الذنوب. وقال الكلبي: أعطى زكاة نفسه وقال: لا إله إلاّ الله، أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحي أنا أبو القاسم عبد الرحمن بن عبيد السمسار أنا أبو حمزة أحمد بن محمد بن عباس الدهقان أنا أحمد بن عبد الجبار العطاردي أنا أبو معاوية عن

قوله تعالى ﴿ولقد أوحينا إلى موسى أن أسر بعبادي﴾ يعني أسر بهم ليلاً من أرض مصر ﴿فاضرب لهم طريقاً﴾ يعني اجعل لهم طريقاً ﴿في البحر﴾ بالضرب بالعصا ﴿يبساً﴾ يعني يابساً ليس فيه ماء ولا طين وذلك أن الله تعالى أيبس لهم الطريق في البحر ﴿لا تخاف دركاً ولا تخشى﴾ يعني لا تخاف أن يدركك فرعون من ورائك ولا تخشى أن يغرقك البحر أمامك ﴿فأتبعهم﴾ يعني فلحقهم ﴿فرعون بجنوده فغشيهم﴾ يعني أصابهم ﴿من اليم ما غشيهم﴾ وهو الغرق وقيل علاهم وسترهم من اليم ما لم يعلم كنهه إلا الله تعالى فغرق فرعون وجنوده ونجا موسى وقومه ﴿وأضل فرعون قومه وما هدى﴾ يعني وما أرشدهم وهو تكذيب لفرعون في قوله ﴿وما أهديكم إلا سبيل الرشاد﴾.

قوله عز وجل ﴿يا بني إسرائيل قد أنجيناكم من عدوكم وواعدناكم جانب الطور الأيمن ونزلنا عليكم المن والسلوى﴾ ذكرهم الله النعمة في نجاتهم وهلاك عدوهم وفيما وعد موسى من المناجاة بجانب الطور وكتب التوراة في الألواح. وإنما قال وواعدناكم لأنها اتصلت بهم حيث كانت لنبيهم، ورجعت منافعها إليهم وبها قوام دينهم وشريعتهم وفيها أفاض الله عليهم من سائر نعمه وأرزاقه ﴿كلوا من طيبات ما رزقناكم ولا تطغوا فيه﴾ قال ابن عباس لا تظلموا، وقيل لا تكفروا النعمة فتكونوا طاغين، وقيل لا تتقوا بنعمتي على المعاصي، وقيل لا تدخروا ﴿فيحل عليكم

الأعمش عن عطية عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أهل الدرجات العُلى ليراهم من تحتهم كما ترون الكوكب الدرّي في أُفق من آفاق السماء، وإنما أبو بكر وعمر منهم وأنعما».

قوله عزّ وجلّ: ﴿ ولقد أوحينا إلى موسى أنْ أسرِ بعبادي ﴾، يعني أسرِ بهم ليلًا من أرض مصر، ﴿ فاضربْ لهم طريقاً في البحر ﴾، يعني اجعل لهم طريقاً في البحر بالضرب بالعصا، ﴿ يبساً ﴾، ليس فيه ماء ولا طين، وذلك أن الله أيبس لهم الطريق في البحر، ﴿ لا تخاف دَركاً ﴾، قرأ حمزة (لا تخفْ) بالجزم على النهي، والباقون بالألف والرفع على النفي، لقوله تعالى: ﴿ ولا تخشى ﴾، قيل: لا تخاف أن يدركك فرعون من ورائك ولا تخشى أن يغرقك البحر أمامك.

﴿ فأتبعهم ﴾، فلحقهم، ﴿ فرعون بجنوده ﴾، وقيل: معناه أمر فرعون جنوده أن يتبعوا موسى وقومه، والباء فيها زائدة وكان هو فيهم، ﴿ فغشيهم ﴾، أصابهم، ﴿ من اليمّ ما غشيهم ﴾، وهو الغرق. وقيل: غشيهم علاهم وسترهم من اليمّ ما غشيهم يريد غشيهم بعض ماء اليمّ لا كله. وقيل: غشيهم من اليمّ ما غشيهم قوم موسى فغرّقهم ونجا موسى وقومه.

﴿ وأضلّ فرعونُ قومَه وما هدَى ﴾، يعني ما أرشدهم وهذا تكذيب لفرعون في قوله: ﴿ وما أهديكم إلّا سبيل الرشاد ﴾ [غافر: ٢٩].

قوله: ﴿ يا بني إسرائيل قد أنجيناكم من عدوّكم ﴾، فرعون، ﴿ وواعدناكم جانب الطور الأيمن ونزّلنا عليكم المنّ والسلوى ﴾.

﴿ كلوا من طيبات ما رزقناكم ﴾، قرأ حمزة والكسائي أنجيتكم وواعدتكم ورزقتكم بالتاء على التوحيد، وقرأ الآخرون بالنون والألف على التعظيم، ولم يختلفوا في ونزّلنا لأنه مكتوب بالألف، ﴿ ولا تطغوا فيه ﴾، قال ابن عباس: لا تظلموا. قال الكلبي: لا تكفروا النعمة فتكونوا ظالمين طاغين. وقيل: لا تنفقوا في معصيتي. وقيل: لا تتقوّوا بنعمتي على معاصي. وقيل: لا تدّخروا فادّخروا فتدود، ﴿ فيحلّ ﴾، قرأ الأعمش والكسائي فيحلّ بضم الحاء، ومَن يحلل بضم اللام، يعني ينزل، وقرأ الآخرون بكسرها يعني يجب، ﴿ عليكم غضبي ومَن يحلل عليه غضبي فقد هوى ﴾، هلك وتردّى في النار.

غضبي﴾ يعني يجب عليكم غضبي **﴿ومن يحلل عليه غضبي فقد هوى﴾** يعني هلك وسقط في النار **﴿وإني لغفار لمن تاب﴾** قال ابن عباس تاب عن الشرك **﴿وآمن﴾** يعني وحد الله وصدق رسوله **﴿وعمل صالحاً﴾** يعني أدى الفرائض **﴿ثم اهتدى﴾** قال ابن عباس علم أن ذلك توفيق من الله تعالى، وقيل لزم الإسلام حتى مات عليه، وقيل علم أن لذلك ثواباً، وقيل أقام على السنة. قوله عز وجل **﴿وما أعجلك﴾** يعني وما حملك على العجلة **﴿عن قومك يا موسى﴾** وذلك أن موسى اختار من قومه سبعين رجلاً يذهبون معه إلى الطور ليأخذوا التوراة. فسار بهم ثم عجل موسى من بينهم شوقاً إلى ربه، وخلف السبعين وأمرهم أن يتبعوه إلى الجبل فقال الله له وما أعجلك عن قومك يا موسى؟ فأجاب ربه فـ**﴿قال هم أولاء على أثري﴾** أي هم بالقرب مني يأتون على أثري من بعدي.

فإن قلت لم يطابق السؤال الجواب فإنه سأله عن سبب العجلة فعدل عن الجواب، فقال هم أولاء بأنه لم يوجد منه إلا تقدم سيره ثم أعقبه بجواب السؤال فقال **﴿وعجلت إليك رب لترضى﴾** أي لتزداد رضاً **﴿قال فإنا قد فتنا قومك﴾** أي فإنا ابتلينا الذين خلفتهم مع هارون وكانوا ستمائة ألف فافتتنوا بالعجل غير اثني عشر ألفاً **﴿من بعدك﴾** أي من بعد انطلاقك إلى الجبل **﴿وأضلهم السامري﴾** أي دعاهم وصرفهم إلى الضلال وهو عبادة العجل، وإنما أضاف الضلال إلى السامري لأنهم ضلوا بسببه وقيل إن جميع المنشآت تضاف إلى منشئها في الظاهر، وإن كان الموجد لها في الأصل هو الله تعالى فذلك قوله هنا وأضلهم السامري، قيل كان السامري من عظماء بني إسرائيل من قبيلة يقال لها السامرة، وقيل كان من القبط وكان جاراً لموسى وآمن به، وقيل كان علجاً من علوج كرمان رفع إلى مصر وكان من قوم يعبدون البقر **﴿فرجع موسى إلى قومه غضبان أسفاً﴾** أي حزيناً جزعاً **﴿قال يا قوم ألم يعدكم ربكم وعداً حسناً﴾** أي صدقاً يعطيكم التوراة **﴿أفطال عليكم العهد﴾** أي مدة مفارقتي إياكم **﴿أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم﴾** أي أردتم أن تفعلوا فعلاً يجب عليكم الغضب من ربكم بسببه **﴿فأخلفتم موعدي﴾** يعني ما وعدوه من الإقامة على دينه إلى أن يرجع.

﴿ وإنّي لغفّار لمَن تاب ﴾، قال ابن عباس تاب من الشرك، **﴿ وآمن ﴾**، ووحّد الله وصدقه، **﴿ وعمل صالحاً ﴾**، أدّى الفرائض، **﴿ ثم اهتدى ﴾**، قال عطاء عن ابن عباس: علم أن ذلك توفيق من الله. وقال قتادة وسفيان الثوري: يعني لزم الإسلام حتى مات عليه. قال الشعبي ومقاتل والكلبي: علم أن ذلك ثواباً. وقال زيد بن أسلم: تعلّم العلم ليهتدي به كيف يعمل. قال الضحاك: استقام. وقال سعيد بن جبير: أقام على السُّنّة والجماعة.

﴿ وما أعجلك ﴾، يعني وما حملك على العجلة، **﴿ عن قومك ﴾**، وذلك أن موسى اختار من قومه سبعين رجلاً حتى يذهبوا معه إلى الجبل ليأخذوا التوراة فسار بهم ثم عجّل موسى من بينهم شوقاً إلى ربّه عزّ وجلّ وخلّف السبعين وأمرهم أن يتبعوه إلى الجبل فقال الله تعالى: **﴿ وما أعجلك عن قومك، يا موسى ﴾**.

﴿ قال ﴾، مجيباً لربّه تعالى: **﴿ هُمْ أولاءِ على أثَري ﴾**، يعني هم بالقرب منّي يأتون من بعدي، **﴿ وعجّلت إليك ربِّ لترضى ﴾**، لتزداد رضاً.

﴿ قال فإنّا قد فتنّا قومك من بعدك ﴾، أي ابتلينا الذين خلفتهم مع هارون وكانوا ستمائة ألف فافتتنوا بالعجل غير اثني عشر ألفاً من بعدك أي من بعد انطلاقك إلى الجبل، **﴿ وأضلّهم السامري ﴾**، أي دعاهم وصرفهم إلى عبادة العجل، وأضافه إلى السامري لأنهم ضلّوا بسببه.

﴿ فرجع موسى إلى قومه غضبانَ أسِفاً ﴾، حزيناً. **﴿ قال يا قوم ألم يعدْكم ربُّكم وعداً حسناً ﴾**، صدقاً أنه يعطيكم التوراة، **﴿أفطالَ عليكم العهد﴾**، مدة مفارقتي إياكم، **﴿ أم أردتم أن يحلّ عليكم غضب من ربكم ﴾**، أي أردتم أن تفعلوا فعلاً يجب عليكم به الغضب من ربكم، **﴿ فأخلفتم موعدي ﴾**.

قَالُواْ مَآ أَخۡلَفۡنَا مَوۡعِدَكَ بِمَلۡكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلۡنَآ أَوۡزَارٗا مِّن زِينَةِ ٱلۡقَوۡمِ فَقَذَفۡنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلۡقَى ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾
فَأَخۡرَجَ لَهُمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٞ فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمۡ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوۡنَ أَلَّا يَرۡجِعُ إِلَيۡهِمۡ قَوۡلٗا
وَلَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا ﴿٨٩﴾ وَلَقَدۡ قَالَ لَهُمۡ هَٰرُونُ مِن قَبۡلُ يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِي
وَأَطِيعُوٓاْ أَمۡرِي ﴿٩٠﴾ قَالُواْ لَن نَّبۡرَحَ عَلَيۡهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرۡجِعَ إِلَيۡنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذۡ رَأَيۡتَهُمۡ ضَلُّوٓاْ ﴿٩٢﴾
أَلَّا تَتَّبِعَنِۖ أَفَعَصَيۡتَ أَمۡرِي ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبۡنَؤُمَّ لَا تَأۡخُذۡ بِلِحۡيَتِي وَلَا بِرَأۡسِيٓۖ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقۡتَ بَيۡنَ بَنِيٓ
إِسۡرَٰٓءِيلَ وَلَمۡ تَرۡقُبۡ قَوۡلِي ﴿٩٤﴾ قَالَ فَمَا خَطۡبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرۡتُ بِمَا لَمۡ يَبۡصُرُواْ بِهِۦ فَقَبَضۡتُ
قَبۡضَةٗ مِّنۡ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذۡتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتۡ لِي نَفۡسِي ﴿٩٦﴾

﴿**قالوا ما أخلفنا موعدك بملكنا**﴾ أي بملك أمرنا، وقيل باختيارنا وذلك أن المرء إذا وقع في الفتنة لم يملك نفسه ﴿**ولكنا حملنا أوزاراً من زينة القوم**﴾ أي حملنا مع أنفسنا ما كنا قد استعرناه من قوم فرعون، والأوزار الأثقال سميت أوزاراً لكثرتها وثقلها وقيل الأوزار الآثام، أي **حملنا** آثاماً وذلك أن بني إسرائيل استعاروا حلياً من القبط ولم يردوها وبقيت معهم إلى حين خروجهم من مصر وقيل إن الله لما أغرق فرعون نبذ البحر حليهم فأخذها بنو إسرائيل فكانت غنيمة ولم تكن الغنائم تحل لهم ﴿**فقذفناها**﴾ أي ألقيناها قيل إن السامري قال لهم احفروا حفيرة وألقوها فيها حتى يرجع موسى فيرى رأيه فيها. وقيل إن هارون أمرهم بذلك ففعلوا ﴿**فكذلك ألقى السامري**﴾ أي ما كان معه من الحلي فيها، قال ابن عباس: أوقد هارون ناراً وقال اقذفوا ما معكم فيها، وقيل إن هارون مر على السامري وهو يصوغ العجل فقال له ما هذا قال أصنع ما ينفع ولا يضر فادع لي. فقال هارون اللهم اعطه ما سألك على ما في نفسه. فألقى السامري ما كان معه من تربة حافر فرس جبريل في فم العجل وقال كن عجلاً يخور فكان كذلك. بدعوة هارون فذلك قوله تعالى ﴿**فأخرج لهم عجلاً جسداً له خوار**﴾ اختلفوا هل كان الجسد حياً أم لا على قولين أحدهما لا لأنه لا يجوز إظهار خرق العادة على يد ضال بل السامري صور صورة على شكل العجل وجعل فيه منافذ ومخاريق بحيث إذا دخل فيها الريح صوت كصوت العجل. الثاني: أنه صار حياً وخار كما يخور العجل ﴿**فقالوا هذا إلهكم وإله موسى**﴾ يعني

﴿ **قالوا ما أخلفنا موعدك بملكنا** ﴾، قرأ نافع وأبو جعفر وعاصم: ﴿ **بملكنا** ﴾ بفتح الميم وقرأ حمزة والكسائي بضمّها، وقرأ الآخرون بكسرها أي ونحن نملك أمرنا. وقيل: باختيارنا، ومَن قرأ بالضم فمعناه بقدرتنا وسلطاننا، وذلك أن المرء إذا وقع في البليّة والفتنة لم يملك نفسه، ﴿ **ولكنّا حمّلنا** ﴾، قرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي وأبو بكر ويعقوب حملنا بفتح الحاء، وتخفيف الميم، وقرأ الآخرون بضم الحاء وتشديد الميم أي جعلونا نحملها وكلّفنا حملها، ﴿ **أوزاراً من زينة القوم** ﴾، من حلى قوم فرعون، سمّاها أوزاراً لأنهم أخذوها على وجه العارية فلم يردّها، وذلك أن بني إسرائيل كانوا قد استعاروا حليّاً من القبط وكان ذلك معهم حين خرجوا من مصر. وقيل: إن الله تعالى لمّا أغرق فرعون نبذ البحر حليّهم فأخذوها وكانت غنيمة ولم تكن الغنيمة حلالاً لهم في ذلك الزمان، فسمّاها أوزاراً لذلك، ﴿ **فقذفناها** ﴾، قيل: إن السامري قال لهم احفروا حفيرة فألقوها فيها حتى يرجع موسى، قال السدي: قال لهم هارون إن تلك غنمية لا تحلّ فاحفروا حفيرة فألقوها فيها حتى يرجع موسى، فيرى رأيه فيها، ففعلوا. قوله: ﴿ **فقذفناها** ﴾ أي طرحناها في الحفرة، ﴿ **فكذلك ألقى السامري** ﴾، ما معه من الحلى فيها، وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما: أوقد هارون ناراً وقال: اقذفوا فيها ما معكم، فألقوه فيها ثم ألقى السامري ما كان معه من تربة حافر فرس جبريل. قال قتادة: كان صرّ قبضة من ذلك التراب في عمامته.

قال ذلك السامري ومن تابعه من افتتن به. وقيل عكفوا عليه وأحبوه حباً لم يحبوا شيئاً قط مثله ﴿فنسي﴾ قيل هو إخبار عن قول السامري أي إن موسى نسي إلهه وتركه ها هنا وذهب يطلبه. وقيل معناه أن موسى إنما طلب هذا ولكنه نسيه وخالفه في طريق آخر فأخطأ الطريق وضل. وقيل هو من كلام الله تعالى وكأنه أخبر عن السامري أنه نسي الاستدلال على حدوث الأجسام وأن الإله لا يحل في شيء. ولا يحل فيه شيء ثم بين سبحانه وتعالى المعنى الذي يجب الاستدلال به فقال ﴿أفلا يرون ألا يرجع إليهم قولاً﴾ أي إن العجل لا يرد لهم جواباً إذا دعوه ولا يكلمهم ﴿ولا يملك لهم ضراً ولا نفعاً﴾ هذا توبيخ لهم إذ عبدوا ما لا يملك ضر من ترك عبادته ولا ينفع من عبده وكان العجل فتنة من الله تعالى ابتلى به بني إسرائيل.

قوله عز وجل ﴿ولقد قال لهم هارون من قبل﴾ أي من قبل رجوع موسى ﴿يا قوم إنما فتنتم به﴾ أي ابتليتم بالعجل ﴿وإن ربكم الرحمن فاتبعوني﴾ على ديني في عبادة الله ﴿وأطيعوا أمري﴾ يعني في ترك عبادة العجل. اعلم أن هارون عليه السلام سلك في هذا الوعظ أحسن الوجوه لأنه زجرهم أولاً عن الباطل بقوله ﴿إنما فتنتم به﴾ ثم دعا إلى معرفة الله تعالى بقوله ﴿إن ربكم الرحمن﴾ ثم دعاهم إلى معرفة النبوة بقوله ﴿فاتبعوني﴾ ثم دعاهم إلى الشرائع بقوله ﴿وأطيعوا أمري﴾ فهذا هو الترتيب الجيد لأنه لا بد من إماطة الأذى عن الطريق وهي إزالة الشبهات ثم معرفة الله فإنها هي الأصل ثم النبوة ثم الشريعة. وإنما قال وإن ربكم الرحمن فخص هذا الموضع بهذا الاسم لأنه ينبههم على أنهم متى تابوا قبل الله توبتهم لأنه هو التواب الرحيم فقابلوا هذا القول بالإصرار والجحود ﴿قالوا لن نبرح﴾ يعني لن نزال ﴿عليه﴾ يعني على عبادة العجل ﴿عاكفين﴾ يعني مقيمين ﴿حتى يرجع إلينا موسى﴾ كأنهم قالوا لن نقبل حجتك ولا نقبل إلا قول موسى فاعتزلهم هارون ومعه اثنا عشر ألفاً الذين لم يعبدوا العجل. فلما رجع موسى سمع الصياح والجلبة وكانوا يرقصون حول العجل فقال للسبعين الذين معه هذا صوت الفتنة، فلما رأى هارون أخذ شعر رأسه بيمينه ولحيته بشماله و﴿قال﴾ له ﴿يا هارون ما منعك إذ رأيتهم ضلوا﴾ أي أشركوا ﴿ألا تتبعن﴾ أي تتبع أمري

﴿ فأخرج لهم عجلاً جسداً له خُوار فقالوا هذا إلّهكم وإلّه موسى فنسي ﴾، أي تركه موسى ههنا وذهب يطلبه. وقيل: أخطأ الطريق وضلّ.

قال الله تعالى: ﴿ أفلا يرون ألّا يرجع إليهم قولاً ﴾، أي: لا يرون أن العجل لا يكلمهم ولا يجيبهم إذا دعوه، ﴿ ولا يملك لهم ضرّاً ولا نفعاً ﴾، وقيل: إن هارون مرّ على السامري وهو يصوغ العجل فقال له: ما هذا؟ قال: أصنع ما ينفع ولا يضرّ فادع لي، فقال هارون: اللّهمّ أعطه ما سألك على ما في نفسه، فألقى التراب في فم العجل وقال كن عجلاً يخور فكان ذلك بدعوة هارون، والحقيقة أن ذلك كان فتنة ابتلى الله بها بني إسرائيل.

﴿ ولقد قال لهم هارون من قبل ﴾، أي من قبل رجوع موسى، ﴿ يا قوم إنّما فُتِنتم به ﴾، ابتليتم بالعجل، ﴿ وإنّ ربَّكم الرحمن فاتبعوني ﴾، على ديني في عبادة الله، ﴿ وأطيعوا أمري ﴾، في ترك عبادة العجل.

﴿ قالوا لن نبرح ﴾، أي لن نزال، ﴿ عليه ﴾، على عبادته، ﴿ عاكفين ﴾، مقيمين، ﴿ حتى يرجع إلينا موسى ﴾، فاعتزلهم هارون في اثني عشر ألفاً وهم الذين لم يعبدوا العجل، فلما رجع موسى وسمع الصياح والجلبة وكانوا يرقصون حول العجل، قال للسبعين الذين كانوا معه هذا صوت الفتنة، فلما رأى هارون أخذ شعر رأسه بيمينه ولحيته بشماله.

و﴿ قال ﴾، له، ﴿ يا هارون ما منعك إذْ رأيتَهم ضلّوا ﴾، أشركوا.

﴿ ألّا تَتّبِعَنِ ﴾، أي: أن تتبعني و﴿ لا ﴾ صلة أي تتبع أمري ووصيّتي، يعني: هلّا قاتلتهم وقد علمت أني

ووصيتي وهلا قاتلتهم وقد علمت أني لو كنت فيهم لقاتلتهم على كفرهم، وقيل معناه ما منعك من اللحوق بي وإخباري بضلالتهم فتكون مفارقتك إياهم زجراً لهم عما أتوه ﴿**أفعصيت أمري**﴾ يعني خالفت أمري ﴿**قال يا بن أم لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي**﴾ يعني بشعر رأسي وكان قد أخذ بذؤابتيه ﴿**إني خشيت أن تقول**﴾ يعني لو أنكرت عليهم لصاروا حزبين يقتل بعضهم بعضاً فتقول ﴿**فرقت بين بني إسرائيل**﴾ يعني خشيت إن فارقتهم واتبعتك أن يصيروا أحزاباً فيتقاتلون، فتقول فرقت بني إسرائيل ﴿**ولم ترقب قولي**﴾ يعني لم تحفظ وصيتي حين قلت لك اخلفني في قومي أصلح وأرفق بهم ثم أقبل موسى على السامري ﴿**قال فما خطبك**﴾ يعني فما أمرك وشأنك وما الذي حملك على ما صنعت ﴿**يا سامري قال**﴾ يعني السامري ﴿**بصرت بما لم يبصروا به فقبضت قبضة من أثر الرسول**﴾ يعني من تراب حافر فرس جبريل ﴿**فنبذتها**﴾ يعني فقذفتها في فم العجل فخار. فإن قلت كيف عرف السامري جبريل ورآه من بين سائر النار. قلت ذكروا فيه وجهين.

أحدهما: أن أمه ولدته في السنة التي كان يقتل فيها البنون فوضعته في كهف حذراً عليه من القتل فبعث الله إليه جبريل ليربيه لما قضى الله على يديه من الفتنة. الوجه الثاني: أنه لما نزل جبريل إلى موسى ليذهب به إلى الطور رآه السامري من بين سائر الناس، فلما رآه قال إن لهذا لشأناً فقبض القبضة من أصل تربة أثر موطئه، فلما سأله موسى قال قبضت قبضة من أثر الرسول إليك يوم جاء للميعاد. وقيل رآه يوم فلق البحر فأخذ القبضة وجعلها في عمامته لما يريد الله أن يظهره من الفتنة على يديه وهو قوله ﴿**وكذلك سولت**﴾ يعني زينت ﴿**لي نفسي**﴾ وقيل إنه من السؤال والمعنى أنه لم يدعني إلى فعلة غيري واتبعت فيه هواي.

قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ إِنَّمَآ إِلَـٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾ كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ ءَاتَيْنَـٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ

لو كنت فيهم لقاتلتهم على كفرهم. وقيل: أن لا تتبعني أي ما منعك من اللحوق بي وإخباري بضلالتهم، فتكون مفارقتك إياهم تقريعاً وزجراً لهم عمّا أتوه، ﴿ **أفعصيت أمري** ﴾، أي خالفت أمري.

﴿ **قال يا ابنَ أمَّ لا تأخذْ بلحيتي ولا برأسي** ﴾، أي بشعر رأسي وكان قد أخذ ذوائبه، ﴿ **إني خشيتُ** ﴾، لو أنكرتُ عليهم لصاروا حزبين يقتل بعضهم بعضاً، ﴿ **أن تقولَ فرّقتَ بين بني إسرائيل** ﴾، أي خشيت إن فارقتهم واتبعتك صاروا أحزاباً يتقاتلون، فتقول أنت فرّقت بين بني إسرائيل، ﴿ **ولم تَرْقُبْ قولي** ﴾، ولم تحفظ وصيتي حين قلت لك اخلفني في قومي، وأصلح أي ارفق بهم، ثم أقبل موسى على السامري.

﴿ **قال فما خطبك** ﴾ أي ما أمرك وشأنك؟ وما الذي حملك على ما صنعت؟ ﴿ **يا سامري** ﴾.

﴿ **قال بَصُرْتُ بما لم يَبْصُرُوا به** ﴾، رأيت ما لم يروا وعرفت ما لم يعرفوا، قرأ حمزة والكسائي «ما لم تبصروا» بالتاء على الخطاب، وقرأ الآخرون بالياء على الخبر، ﴿ **فقبضتُ قبضةً من أثر الرسول** ﴾، أي من تراب أثر فرس جبريل، ﴿ **فنبذتُها** ﴾، أي ألقيتها في فم العجل، وقال بعضهم: إنما خار لهذا لأن التراب كان مأخوذاً من تحت حافر فرس جبريل، فإن قيل: كيف عرفه ورأى جبريل من بين سائر الناس؟ قيل: لأن أُمه لمّا ولدته في السنة التي يقتل فيها البنون وضعته في الكهف حذراً عليه فبعث الله جبريل ليربّيه لما قضى على يديه من الفتنة.

﴿ **وكذلك سوّلت** ﴾، أي زيّنت، ﴿ **لي نفسي** ﴾.

فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَٰلِدِينَ فِيهِ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا ﴿١٠١﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ
يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ
إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ
أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾

﴿قال﴾ يعني موسى للسامري ﴿فاذهب فإن لك في الحياة﴾ يعني ما دمت حياً ﴿أن تقول لا مساس﴾ يعني لا تخالط أحداً ولا يخالطك أحد فعوقب في الدنيا بعقوبة لا شيء أوحش منها ولا أعظم وذلك أن موسى أمر بني إسرائيل أن لا يخالطوه ولا يقربوه وحرم عليهم ملاقاته ومكالمته ومبايعته ومواجهته. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: لا مساس لك ولولدك. فصار السامري يهيم في البرية مع الوحش والسباع لا يمس أحد وقيل كان إذا مس أحداً. أو مسه أحد حما جميعاً فتحامى الناس وتحاموه وكان لا مساس حتى أن بقاياهم اليوم يقولون ذلك ﴿وإن لك﴾ يا سامري ﴿موعداً﴾ يعني بعذابك في الآخرة ﴿لن تخلفه﴾ قرىء بكسر اللام ومعناه لن تغيب عنه ولا مذهب لك عنه بل توافيه يوم القيامة، وقرىء بالفتح أي لن تكذبه ولم يخلفكه الله بل يكافئك على فعلك ﴿وانظر إلى إلهك﴾ يعني الذي تزعم ﴿الذي ظلت عليه عاكفاً﴾ يعني دمت عليه مقيماً تعبده ﴿لنحرقنه﴾ بالنار ﴿ثم لننسفنه﴾ أي لنذرينه ﴿في اليم﴾ يعني في البحر ﴿نسفاً﴾ روي أن موسى أخذ العجل فذبحه فسال منه دم وحرقه في النار ثم ذراه في البحر وقيل معناه لنحرقنه أي لنبردنه فعلى هذا التأويل لم ينقلب لحماً ودماً فإن ذلك لا يمكن أن يبرد بالمبرد ويمكن أن يقال صار لحماً ودماً ثم بردت عظامه بالمبرد حتى صارت بحيث يمكن نسفها في البحر فلما فرغ موسى من أمر العجل وإبطال ما ذهب إليه السامري رجع إلى بيان الدين الحق فقال مخاطباً لبني إسرائيل ﴿إنما إلهكم الله﴾ يعني المستحق للعبادة والتعظيم هو الله ﴿الذي لا إله إلا هو وسع كل شيء علماً﴾ يعني وسع علمه كل شيء وقيل يعلم من يعبده.

﴿ قال فاذهبْ فإنّ لك في الحياة ﴾، أي ما دمت حيّاً، ﴿ أن تقولَ لا مِسَاسَ ﴾، أي لا تخالط أحداً ولا يخالطك أحد وأمر موسى بني إسرائيل أن لا يخالطوه ولا يقربوه. قال ابن عباس: لا مساس لك ولولدك، والمساس من المماسة معناه لا يمسّ بعضنا بعضاً، فصار السامري يهيم في البرية مع الوحوش والسِّباع لا يمسّ أحداً ولا يمسّه أحد، فعاقبه الله بذلك، وكان إذا لقي أحداً يقول لا مساس، أي لا تقربني ولا تمسّني، وقيل: كان إذا مسّ أحداً أو مسّه أحد حما جميعاً حتى أن بقاياهم اليوم يقولون ذلك، وإذا مسّ أحد من غيرهم أحداً منهم حما جميعاً في الوقت، ﴿ وإنّ لك ﴾، يا سامري، ﴿ موعداً ﴾، لعذابك، ﴿ لنْ تُخْلَفَهُ ﴾، قرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب: ﴿ لن تخلفه ﴾ بكسر اللام أي لن تغيب عنه ولا مذهب لك عنه بل توافيه يوم القيامة، وقرأ الآخرون بفتح اللام أي لن تكذبه ولن يخلفك الله، ومعناه أن الله تعالى يكافئك على فعلك ولا تفوته، ﴿ وانظر إلى إلَهك ﴾، بزعمك، ﴿ الذي ظَلْتَ عليه عاكفاً ﴾، أي ظلت ودمت عليه مقيماً تعبده، والعرب تقول: ظلت أفعل كذا بمعنى ظللت ومستُ بمعنى مسستُ، وقرأ أبو جعفر بالتخفيف من الإحراق، ﴿ ثم لننسفنّه ﴾، لنذرينّه، ﴿ في اليمّ ﴾، في البحر، ﴿ نسفاً ﴾، رُوِيَ أن موسى أخذ العجل فذبحه فسال منه دم لأنه كان قد صار لحماً ودماً ثم حرقه بالنار، ثم ذراه في اليمّ، قرأ ابن محيصن: ﴿ لنحرقنّه ﴾ بفتح النون وضمّ الراء لنبردنّه بالمِبرَد، ومنه قيل للمِبرَد المحرق. وقال السدي: أخذ موسى العجل فذبحه ثم حرقه بالمِبرَد ثم ذراه في اليمّ.

﴿ إنّما إلَهكم الله الذي لا إلَه إلاّ هو وَسِعَ كل شيء علماً ﴾، وسع علمه كل شيء.

قوله عز وجل: ﴿**كذلك نقص عليك من أنباء**﴾ يعني من أخبار ﴿**ما قد سبق**﴾ يعني الأمم الخالية وقيل ما سبق من الأمور ﴿**وقد آتيناك من لدنا ذكراً**﴾ وهو القرآن ﴿**من أعرض عنه**﴾ يعني عن القرآن ولم يؤمن به ولم يعمل بما فيه ﴿**فإنه يحمل يوم القيامة وزراً**﴾ يعني حملاً ثقيلاً من الإثم ﴿**خالدين فيه**﴾ يعني مقيمين في عذاب الوزر ﴿**وساء لهم يوم القيامة حملاً**﴾ يعني بئس ما حملوا أنفسهم من الإثم ﴿**يوم ينفخ في الصور**﴾ قيل هو قرن ينفخ فيه يدعي به الناس للمحشر والمراد بهذه النفخة النفخة الثانية لأنه أتبعه بقوله ﴿**ونحشر المجرمين يومئذ زرقاً**﴾ يعني نحشر المجرمين زرق العيون سود الوجوه وقيل عمياً وقيل عطاشاً ﴿**يتخافتون**﴾ يعني يتشاورون ﴿**بينهم**﴾ ويتكلمون خفية ﴿**إن لبثتم**﴾ يعني مكثتم في الدنيا ﴿**إلا عشراً**﴾ يعني عشر ليال وقيل في القبور وقيل بين النفختين وهو مقدار أربعين سنة وذلك أن العذاب رفع عنهم بين النفختين فاستقصروا مدة لبثهم لهول ما عاينوا فقال الله تعالى ﴿**نحن أعلم بما يقولون**﴾ يعني يتشاورون فيما بينهم ﴿**إذ يقول أمثلهم طريقة**﴾ أي أوفاهم وأعدلهم قولاً ﴿**إن لبثتم إلا يوماً**﴾ قصر ذلك في أعينهم في جنب ما استقبلهم من أهوال يوم القيامة وقيل نسوا مقدار لبثهم لشدة ما دهمهم قوله عز وجل ﴿**ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفاً**﴾.

قال ابن عباس: سأل رجل من ثقيف رسول الله ﷺ فقال كيف تكون الجبال يوم القيامة فأنزل الله تعالى هذه

﴿ **كذلك نقصّ عليك من أنباء ما قدْ سبقَ** ﴾، من الأمور، ﴿ **وقد آتيناك من لدنّا ذكراً** ﴾، يعني القرآن.

﴿ **مَن أعرض عنه** ﴾، أي عن القرآن فلم يؤمن به ولم يعمل بما فيه، ﴿ **فإنه يحمل يوم القيامة وزراً** ﴾، حملاً ثقيلاً من الإثم.

﴿ **خالدين فيه** ﴾، مقيمين في عذاب الوزر، ﴿ **وساء لهم يوم القيامة حملاً** ﴾، أي بئس ما حملوا على أنفسهم من الإثم كفراً بالقرآن.

﴿ **يوم ينفخ في الصور** ﴾، قرأ أبو عمرو (ننفخ) بالنون وفتحها وضمّ الفاء لقوله: ﴿ **ونحشر** ﴾ أو قرأ الآخرون بالياء وضمّها وفتح الفاء على غير تسمية الفاعل، ﴿ **ونحشر المجرمين** ﴾، المشركين، ﴿ **يومئذٍ زُرْقاً** ﴾، والزرقة هي الخضرة في سواد العين فيحشرون زرق العيون سود الوجوه. وقيل: زرقاً أي عمياً. وقيل: عطاشاً.

﴿ **يتخافتون بينهم** ﴾، أي يتشاورون بينهم ويتكلمون خفية، ﴿ **إن لبثتم** ﴾، أي ما مكثتم في الدنيا، ﴿ **إلّا عشراً** ﴾، أي عشر ليالٍ. وقيل: في القبور. وقيل: بين النفختين، وهو أربعون سنة، لأن العذاب يرفع عنهم بين النفختين استقصروا مدة لبثهم لهول ما عاينوا.

قال الله تعالى: ﴿ **نحن أعلم بما يقولون** ﴾، أي يتشاورون بينهم، ﴿ **إذْ يقولُ أمثلُهم طريقةً** ﴾، أوفاهم عقلاً وأعدلهم قولاً، ﴿ **إن لبثتم إلّا يوماً** ﴾، قصر ذلك في أعينهم في جنب ما استقبلهم من أهوال يوم القيامة. وقيل: نسوا مقدار لبثهم لشدّة ما دهمهم.

قوله: ﴿ **ويسألونك عن الجبال فقلْ ينسفها ربي نسفاً** ﴾، قال ابن عباس سأل رجل من ثقيف رسول الله ﷺ فقال: كيف تكون الجبال يوم القيامة فأنزل الله هذه الآية، والنسف هو القلع يعني يقلعها من أصلها ويجعلها هباءً منثوراً.

﴿ **فيذرها** ﴾، يعني فيدع أماكن الجبال من الأرض، ﴿ **قاعاً صفصفاً** ﴾، يعني أرضاً ملساء مستوية لا نبات فيها، والقاع ما انبسط من الأرض والصفصف الأملس.

الآية والنسف هو القلع أي يقلعها من أصولها ويجعلها هباء منثوراً ﴿فيذرها﴾ أي يدع أماكن الجبال من الأرض ﴿قاعاً صفصفاً﴾ أي أرضاً ملساء مستوية لا نبات فيها ﴿لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً﴾ يعني لا انخفاضاً ولا ارتفاعاً يعني لا ترى وادياً ولا رابية ﴿يومئذ يتبعون الداعي﴾ أي صوت الداعي ويقف على صخرة بيت المقدس ويقول أيتها العظام البالية والجلود المتمزقة واللحوم المتفرقة هلموا إلى عرض الرحمن ﴿لا عوج له﴾ أي لا عوج لهم عن دعائه ولا يزيغون عنه يميناً ولا شمالاً بل يتبعونه سراعاً ﴿وخشعت الأصوات للرحمن﴾ يعني سكنت وذلت وخضعت وضعفت والمراد به أصحاب الأصوات وقيل خضعت الأصوات من شدة الفزع ﴿فلا تسمع إلا همساً﴾ وهو الصوت الخفي قال ابن عباس: هو تحريك الشفاه من غير نطق وقيل أراد بالهمس صوت وطء الأقدام إلى المحشر كصوت أخفاف الإبل.

يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾ ۞ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۗ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿١١٤﴾ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾

﴿يومئذ لا تنفع الشفاعة﴾ لأحد من الناس ﴿إلا من أذن له الرحمن﴾ يعني إلا من أذن له أن يشفع ﴿ورضي له قولاً﴾ قال ابن عباس: يعني قال لا إله إلا الله، وفيه دليل على أنه لا يشفع غير المؤمن، وقيل إن درجة الشافع درجة عظيمة فهي لا تحصل إلا لمن يأذن الله له فيها وكان عند الله مرضياً ﴿يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم﴾ قيل الكناية راجعة إلى الذين يتبعون الداعي، أي يعلم الله ما قدموا من الأعمال وما خلفوا من الدنيا وقيل الضمير يرجع إلى من

﴿ لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً ﴾، قال مجاهد: انخفاضاً وارتفاعاً. وقال الحسن: العوج ما انخفض من الأرض، والأمت ما نشز من الروابي، يعني لا ترى وادياً ولا رابية. قال قتادة: لا ترى فيها صدعاً ولا أكمة.

﴿ يومئذ يتّبعون الداعي ﴾، أي صوت الداعي الذي يدعوهم إلى موقف القيامة، وهو إسرافيل، وذلك أنه يضع الصور في فيه، ويقول أيتها العظام البالية والجلود المتمزقة واللحوم المتفرّقة هلمّوا إلى عرض الرحمن، ﴿ لا عِوَجَ له ﴾، يعني لدعائه، وهو من المقلوب يعني لا عوج لهم عن دعاء الداعي لا يزيغون عنه يميناً ولا شمالاً ولا يقدرون عليه بل يتّبعونه سراعا، ﴿ وخشعتِ الأصواتُ للرحمن ﴾، يعني سكتت وذلّت وخضعت ووصف الأصوات بالخشوع والمراد أهلها، ﴿ فلا تسمع إلاّ همساً ﴾، يعني صوت وطء الأقدام إلى المحشر، والهمس الصوت الخفي كصوت أخفاف الإبل في المشي. وقال مجاهد: هو تخافت الكلام وخفض الصوت. وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: تحريك الشفاه من غير منطق.

﴿ يومئذٍ لا تنفعُ الشفاعةُ ﴾، يعني لا تنفع الشفاعة أحداً من الناس، ﴿ إلاّ مَن أذن له الرحمن ﴾، يعني إلاّ مَن أذن الله له أن يشفع، ﴿ ورضي له قولاً ﴾، يعني ورضي قوله، قال ابن عباس: يعني قال لا إله إلاّ الله، وهذا يدل على أنه لا يشفع غير المؤمن.

أذن له الرحمن وهو الشافع، والمعنى لا تنفع الشفاعة إلا لمن أذن له الرحمن أن يشفع ثم قال يعلم ما بين أيديهم أي أيدي الشافعين وما خلفهم **﴿ولا يحيطون به علماً﴾** قيل الكناية ترجع إلى ما أي هو يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم وهم لا يعلمونه، والمعنى أن العباد لا يحيطون بما بين أيديهم وما خلفهم علماً وقيل الكناية راجعة إلى الله تعالى أي ولا يحيطون بالله علماً **﴿وعنت الوجوه﴾** يعني ذلت وخضعت في ذلك اليوم ويصير الملك والقهر لله تعالى دون غيره وذكر الوجوه وأراد بها المكلفين لأن عنت من صفات المكلفين لا من صفات الوجوه وإنما خص الوجوه بالذكر لأن الخضوع بها يتبين وفيها يظهر وقوله تعالى **﴿للحي القيوم﴾** تقدم تفسيره **﴿وقد خاب من حمل ظلماً﴾**.

قال ابن عباس خسر من أشرك بالله **﴿ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلماً ولا هضماً﴾** قال ابن عباس معناه لا يخاف أن يزاد على سيئاته ولا ينقص من حسناته، وقيل لا يؤخذ بذنب لم يعمله ولا تبطل عنه حسنة عملها قوله تعالى **﴿وكذلك أنزلناه﴾** أي كما بينا في هذه السورة أو هذه الآية المتضمنة للوحيد أنزلنا القرآن كله كذلك وقوله **﴿قرآناً عربياً﴾** أي بلسان العرب ليفهمون ويقفوا على إعجازه وحسن نظمه وخروجه عن كلام البشر **﴿وصرفنا فيه من الوعيد﴾** أي كررنا وفصلنا القول فيه بذكر الوعيد ويدخل تحت الوعيد بيان الفرائض والمحارم لأن الوعيد بهما يتعلق فتكريره وتصريفه يقتضي بيان الأحكام فلذلك قال تعالى **﴿لعلهم يتقون﴾** أي يجتنبون الشرك والمحارم وترك الواجبات **﴿أو يحدث لهم ذكراً﴾** أي إنما أنزلنا القرآن ليصبروا متقين مجتنبين ما لا ينبغي ويحدث لهم القرآن ذكراً يرغبهم في الطاعات وفعل ما ينبغي، وقيل معناه يجدد لهم القرآن عبرة وعظة فيعتبرون ويتعظون بذكر عقاب الله الأمم قوله تعالى **﴿فتعالى الله الملك الحق﴾** أي جل الله وعظم عن إلحاد الملحدين وعما يقوله المشركون والجاحدون وقيل

﴿ يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ﴾، الكناية راجعة إلى الذين يتبعون الداعي، أي يعلم الله ما بين أيديهم وما خلفهم وما خلفوا من أمر الدنيا. وقيل: ما بين أيديهم من الآخرة وما خلفهم من الأعمال، **﴿ ولا يحيطُون به علماً ﴾**، قيل: الكناية ترجع إلى ما أي هو يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم، وهم لا يعلمونه. وقيل: الكناية راجعة إلى الله لأن عباده لا يحيطون به علماً.

﴿ وعنت الوجوه للحيّ القوّم ﴾، أي ذلّت وخضعت، ومنه قيل للأسير: عان. وقال طلق بن حبيب: هو السجود على الجبهة للحيّ القيّوم، **﴿ وقد خابَ مَن حمل ظلماً ﴾**، قال ابن عباس: خسر مَن أشرك بالله، والظلم هو الشرك.

﴿ ومَنْ يعملْ من الصالحاتِ وهو مؤمنٌ فلا يَخافُ ﴾، قرأ ابن كثير «فلا يخف» مجزوماً على النهي جواباً لقوله تعالى: **﴿ ومَن يعمل ﴾**، وقرأ الآخرون **﴿ فلا يخاف ﴾** مرفوعاً على الخبر، **﴿ ظلماً ولا هضماً ﴾**، قال ابن عباس: لا يخاف أن يزداد على سيآته لا أن ينقص من حسناته. وقال الحسن: لا ينقص من ثواب حسناته ولا يحمل عليه ذنب مسيء. وقال الضحاك: لا يؤخذ بذنب لم يعمله وتبطل حسنة عملها، وأصل الهضم النقص والكسر، ومنه هضم الطعام.

﴿ وكذلك ﴾، أي كما بيّنا في هذه السورة، **﴿ أنزلناه ﴾**، يعني أنزلنا هذا الكتاب، **﴿ قرآناً عربياً ﴾**، لتعجل به يعني بلسان العرب، **﴿ وصرفنا ﴾** يعني بيّنا، **﴿ فيه من الوعيد ﴾**، أي صرّفنا القول فيه بذكر الوعيد، **﴿ لعلّهم يتّقون ﴾**، أي يجتنبون الشرك، **﴿ أو يحدث لهم ذكراً ﴾**، أي يجدّد لهم القرآن عبرةً وعظةً فيعتبروا ويتّعظوا بذكر عتاب الله للأمم الخالية.

﴿ فتعالى الله الملك الحق ﴾، جلّ الله عن إلحاد الملحدين وعمّا يقوله المشركون، **﴿ ولا تعجل**

فيه تنبيه على ما يلزم خلقه من تعظيمه وتمجيده، وقيل إنما وصف نفسه بالملك الحق لأن ملكه لا يزول ولا يتغير وليس بمستفاد من قبل الغير ولا غيره وأولى به منه ﴿**ولا تعجل بالقرآن**﴾ أراد النبي ﷺ كان إذا نزل عليه جبريل بالقرآن يبادره فيقرأ معه قبل أن يفرغ جبريل مما يريده من التلاوة مخافة الانفلات أو النسيان فنهاه الله تعالى عن ذلك فقال تعالى ﴿**ولا تعجل بالقرآن**﴾ أي ولا تعجل بقراءته ﴿**من قبل أن يقضى إليك وحيه**﴾ أي من قبل أن يفرغ جبريل من الإبلاغ وقيل معناه لا تقرئه أصحابك ولا تمله عليهم حتى يتبين لك معناه ﴿**وقل رب زدني علماً**﴾ فيه التواضع والشكر لله والمعنى زدني علماً إلى ما علمت فإن لك في كل شيء علماً وحكمة، قيل ما أمر الله رسوله ﷺ بطلب الزيادة في شيء إلا في العلم.

وكان ابن مسعود إذا قرأ هذه الآية يقول اللهم زدني علماً وإيماناً ويقيناً قوله عزّ وجلّ ﴿**ولقد عهدنا إلى آدم**﴾ يعني أمرناه وأوحينا إليه أن لا يأكل من الشجرة ﴿**من قبل**﴾ أي من هؤلاء الذين نقضوا عهدي وتركوا الإيمان بي وهم الذين ذكرهم الله تعالى في قوله تعالى ﴿**لعلهم يتقون**﴾ ﴿**فنسي**﴾ أي فترك ما عهدنا إليه من الاحتراز عن أكل هذه الشجرة وأكل منها، وقيل أراد النسيان الذي هو ضد الذكر ﴿**ولم نجد له عزماً**﴾ أي صبراً عما نهي عنه وحفظاً لما أمر به، وقيل معناه لم نجد له رأياً معزوماً حيث أطاع عدوه إبليس الذي حسده وأبى أن يسجد له، وقيل معناه لم نجد له عزماً على المقام على المعصية فيكون إلى المدح أقرب قوله عز وجل ﴿**وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى**﴾ أن يسجد ﴿**فقلنا يا آدم إن هذا**﴾ أي إبليس ﴿**عدو لك ولزوجك**﴾ أي حواء وسبب العداوة ما رأى من آثار نعمة الله على آدم فحسده فصار عدواً له ﴿**فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى**﴾ أسند الخروج إليه، وإن كان الله تعالى هو

بالقرآن﴾، أراد النبي ﷺ لأنه كان إذا نزل عليه جبريل بالقرآن يبادر فيقرأ معه قبل أن يفرغ جبريل مما يريد من التلاوة، ومخافة الانفلات والنسيان، فنهاه الله عن ذلك، وقال: ﴿ **ولا تعجلْ بالقرآن** ﴾ أي لا تعجل بقراءته، ﴿ **من قبل أنْ يُقضى إليك وحيُه** ﴾، أي من قبل أن يفرغ جبريل من الإبلاغ، نظيره قوله تعالى: ﴿ **لا تحرك به لسانك** ﴾ [القيامة: ١٦] وقرأ يعقوب: (نقضي) بالنون وفتحها وكسر الضاد، وفتح الياء: ﴿ **وحيه** ﴾ بالنصب، وقال مجاهد وقتادة: معناه لا تقرئه أصحابك ولا تمله عليهم حتى يتبيّن لك معانيه، ﴿ **وقلْ ربِّ زِدْني علماً** ﴾، يعني بالقرآن ومعانيه. وقيل: علماً إلى ما علمت. وكان ابن مسعود إذا قرأ هذه الآية قال: اللّهمّ زدني إيماناً ويقيناً.

قوله تعالى: ﴿ **ولقد عهدنا إلى آدم من قبل** ﴾، يعني أمرناه وأوحينا إليه أن لا يأكل من الشجرة من قبل هؤلاء الذين نقضوا عهدك وتركوا الإيمان بي، وهم الذين ذكرهم الله في قوله تعالى: ﴿ **لعلهم يتقون** ﴾ [طه: ١١٣]، ﴿ **فنسيَ** ﴾، فترك الأمر، والمعنى أنهم نقضوا العهد فإن آدم أيضاً عهدنا إليه فنسي، ﴿ **ولم نجدْ له عزما** ﴾، قال الحسن لم نجد له صبراً عمّا نُهي عنه وقال عطية العوفي: حفظاً لما أُمر به. وقال ابن قتيبة: رأياً معزوماً حيث أطاع عدوّه إبليس الذي حسده وأبى أن يسجد له، والعزم في اللغة هو توطين النفس على الفعل، قال أبو أمامة الباهلي: لو وزن حلم آدم بحلم جميع ولده لرجح حلمه، وقد قال الله: ﴿ **ولم نجد له عزماً** ﴾، فإن قيل: أتقولون إن آدم كان ناسياً لأمر الله حين أكل من الشجرة؟ قيل: يجوز أن يكون نسي أمره، ولم يكن النسيان في ذلك الوقت مرفوعاً عن الإنسان بل كان مؤخذاً به، وإنما رفع عنّا، وقيل: نسي عقوبة الله وظن أنه نهاه تنزيهاً.

قوله تعالى: ﴿ **وإذْ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلاّ إبليس أبى** ﴾، أن يسجد.

﴿ **فقلنا يا آدم إنّ هذا عدوٌّ لك ولزوجك** ﴾، حواء، ﴿ **فلا يخرجنّكما من الجنّة فتشقى** ﴾، يعني تتعب وتنصب، ويكون عيشك من كدّ يمينك بعرق جبينك. قال السدي: يعني الحرث والزرع والحصيد والطحن

المخرج لأنه لما كان بوسوسته وفعل آدم ما يترتب عليه الخروج صح ذلك. ومعنى تشقى تتعب وتنصب ويكون عيشك من كد يمينك بعرق جبينك، وهو الحرث والزرع والحصد والطحن والخبز قيل أهبط إلى آدم ثور أحمر فكان يحرث عليه ويمسح العرق عن جبينه فكان ذلك شقاءه. فإن قلت لم أسند الشقاء إلى آدم دون حواء.

قلت فيه وجهان أحدهما: أن في ضمن شقاء الرجل شقاء أهله، كما أن في سعادته سعادتهم لأنه القيم عليهم. الثاني: إنه أريد بالشقاء التعب في طلب القوت وذلك على الرجل دون المرأة لأن الرجل هو الساعي على زوجته ﴿**إن لك أن لا تجوع فيها**﴾ يعني الجنة ﴿**ولا تعرى وأنك لا تظمأ فيها**﴾ أي تعطش ﴿**ولا تضحى**﴾ أي تبرز للشمس فيؤذيك حرها لأنه ليس في الجنة شمس وأهلها في ظل ممدود والمعنى أن الشبع والري والكسوة والسكن هي الأمور التي يدور عليها كفاف الإنسان. فذكر الله تعالى حصول هذه الأشياء في الجنة وإنه مكفي لا يحتاج إلى كفاية كاف ولا إلى كسب كاسب كما يحتاج إليه أهل الدنيا.

فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا
فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ
وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا
يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ
رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ
أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى
مَسَٰكِنِهِمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿١٢٨﴾ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾

﴿**فوسوس إليه الشيطان**﴾ أي أنهى إليه الوسوسة فأسر إليه ثم بين تلك الوسوسة ما هي فقال ﴿**قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد**﴾ أي على الشجرة التي إن أكلت منها بقيت مخلداً ﴿**وملك لا يبلى**﴾ أي لا يبيد ولا يفنى رغبة في دوام الراحة، فكان الشيء الذي رغب الله فيه آدم رغبه إبليس فيه، إلا أن الله تعالى وقف ذلك على الاحتراز عن تلك الشجرة وإبليس وقفه على الإقدام عليها وآدم مع كمال علمه بأن الله تعالى هو خالقه وربه ومولاه وناصره، وإبليس هو عدوه أعرض عن قول الله تعالى ولم يرد المخالفة ومن تأمل هذا السر عرف أنه لا دفع لقضاء الله ولا مانع

والخبز. وعن سعيد بن جبير: قال أهبط إلى آدم ثور أحمر فكان يحرث عليه ويمسح العرق عن جبينه، فذلك شقاؤه، ولم يقل: فتشقيا رجوعاً به إلى آدم لأن تعبه أكثر فإن الرجل هو الساعي على زوجته. وقيل: لأجل رؤوس الآي.

﴿ **إنّ لك أنْ لا تجوع فيها** ﴾، أي في الجنة ﴿ **ولا تعرى** ﴾.

﴿ **وأنك** ﴾، قرأ نافع وأبو بكر بكسر الألف على الاستئناف، وقرأ الآخرون بالفتح نسقاً على قوله: ﴿ **ألاّ تجوع فيها** ﴾ ﴿ **لا تظمأ** ﴾، لا تعطش، ﴿ **فيها ولا تضحى** ﴾، يعني لا تبرز للشمس فيؤذيك حرّها. وقال عكرمة: لا تصيبك الشمس وأذاها، لأنه ليس في الجنة شمس، وأهلها في ظل ممدود.

﴿ **فوسوس إليه الشيطان قال يا آدم هلْ أدلُّكَ على شجرةِ الخُلْدِ** ﴾، يعني على شجرة إن أكلت منها بقيت مخلداً، ﴿ **ومُلْك لا يبلى** ﴾، لا يبيد ولا يفنى.

منه. وقوله تعالى ﴿فأكلا منها﴾ يعني أكل آدم وحواء من الشجرة ﴿فبدت لهما سوءاتهما﴾ أي عريا من الثياب التي كانت عليهما حتى بدت فروجهما وظهرت عوراتهما ﴿وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة﴾ أي يلزقان بسوءاتهما من ورق التين ﴿وعصى آدم ربه﴾ أي بأكل الشجرة ﴿فغوى﴾ أي فعل ما لم يكن له فعله وقيل أخطأ طريق الحق وضل حيث طلب الخلد بأكل ما نهي عنه فخاب ولم ينل مراده وصار من العز إلى الذل ومن الراحة إلى التعب. قال ابن قتيبة: يجوز أن يقال عصى آدم ولا يجوز أن يقال آدم عاص، لأنه إنما يقال لمن اعتاد فعل المعصية كالرجل يخيط ثوبه يقال خاط ثوبه ولا يقال هو خياط حتى يعاود ذلك مراراً ويعتاده. (ق) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «احتج آدم وموسى فقال موسى يا آدم أنت أبونا أخرجتنا من الجنة فقال له آدم أنت يا موسى اصطفاك الله بكلامه وخط لك التوراة بيده أفتلومني على أمر قدره الله تعالى علي قبل أن يخلقني بأربعين عاماً فحج آدم موسى».

وفي رواية لمسلم «قال آدم بكم وجدت الله كتب التوراة قبل أن أخلق قال موسى بأربعين سنة قال فهل وجدت فيها وعصى آدم ربه فغوى. قال له نعم قال فهل تلومني على أن عملت عملاً كتب الله علي أن أعمله قبل أن يخلقني بأربعين سنة. قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فحج آدم موسى».

الكلام على معنى الحديث وشرحه

قوله احتج آدم وموسى: المحاجة المجادلة والمخاصمة يقال حاججت فلاناً فحججته أي جادلته فغلبته. قال أبو سليمان الخطابي: قد يحسب كثير من الناس أن معنى القدر والقضاء من الله تعالى على معنى الإجبار والقهر للعبد على ما قضاه وقدره، ويتوهم أن قوله فحج آدم وموسى من هذا الوجه وليس كذلك. وإنما معناه الإخبار عن تقدم علم الله بما يكون من أفعال العباد وإكسابهم وصدورها عن تقدير منه وخلق لها خيرها شرها. والقدر اسم لما صدر مقدراً عن فعل القادر والقضاء في هذا معناه الخلق وإذا كان الأمر كذلك فقد بقي عليهم من وراء علم الله فهم أفعالهم وأكسابهم ومباشرتهم الأمور وملابستهم إياها عن قصد وتعمد وتقدم إرادة واختيار. فالحجة إنما تلزمهم بها واللائمة تلحقهم عليها وجماع القول في هذا أنهما أمران لا ينفك أحدهما عن الآخر لأن أحدهما بمنزلة الأساس والآخر بمنزلة البناء. فمن رام الفصل بينهما فقد رام هذا البناء ونقضه وإنما موضع الحجة لآدم على موسى أن الله تعالى كان قد علم من آدم أنه يتناول الشجرة ويأكل منها، فكيف يمكنه أن يرد علم الله فيه وأن يبطله بعد ذلك. وإنما كان تناوله الشجرة سبباً لنزوله إلى الأرض التي خلق لها وإنما أدلى آدم بالحجة على هذا المعنى ودفع لائمة موسى عن نفسه ولذلك قال أتلومني على أمر قدره الله علي من قبل أن يخلقني.

﴿ فأكلا ﴾، يعني آدم وحواء عليهما السلام، **﴿ منها فبدتْ لهما سوآتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وعصى آدم ربَّه ﴾**، بأكل الشجرة، **﴿ فغوى ﴾**، يعني فعل ما لم يكن له فعله. وقيل: أخطأ طريق الحق وضلّ حيث طلب الخلد بأكل ما نُهِيَ عن أكله، فخاب ولم ينل مراده. وقال ابن الأعرابي: أي فسد عليه عيشه وصار من العزِّ إلى الذل، ومن الراحة إلى التعب. قال ابن قتيبة: يجوز أن يقال عصى آدم ولا يجوز أن يقال آدم عاصٍ لأنه إنما يقال عاصٍ لِمَن اعتاد فعل المعصية، كالرجل يخيط ثوبه يقال خاط ثوبه ولا يقال هو خياط حتى يعاود ذلك ويعتاده، حدّثنا أبو الفضل زياد بن محمد الحنفي أنا أبو معاذ الشاه عبد الرحمن المزني أبو بكر عبد الله بن محمد بن زياد النيسابوري ببغداد أنا يونس بن عبد الأعلى الصدفي أنا سفيان بن عيينة بن عمرو بن دينار عن طاوس سمعَ أبا هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ: «احتجّ آدم وموسى، فقال موسى: يا آدم أنت أبونا وأخرجتنا من الجنة، فقال آدم: يا موسى اصطفاك الله بكلامه وخطّ لك التوراة بيده، أفتلومني على أمر قدّره الله عليّ قبل أن يخلقني بأربعين سنة: فحجّ آدم موسى». ورواه عبد الرحمن الأعرج عن أبي هريرة وزاد: «قال آدم يا موسى بكم

فصل: في بيان عصمة الأنبياء وما قيل في ذلك

قال الإمام فخر الدين الرازي: اختلف الناس في عصمة الأنبياء وضبط القول فيها يرجع إلى أقسام أربعة، أحدها: ما يقع في باب الاعتقاد وهو اعتقاد الكفر والضلال فإن ذلك غير جائز عليهم. الثاني: ما يتعلق بالتبليغ فقد أجمعت الأمة على كونهم معصومين عن الكذب مواظبين على التبليغ والتحريض. وإلا لارتفع الوثوق بالأداء واتفقوا على أن ذلك لا يجوز وقوعه منهم عمداً ولا سهواً ومن الناس من جوز ذلك سهواً قالوا لأن الاحتراز عنه غير ممكن. الثالث: ما يتعلق بالفتيا فأجمعوا على أنه لا يجوز خطؤهم فيها على سبيل العمد وأجازه لبعضهم على سبيل السهو. الرابع: ما يقع في أفعالهم فقد اختلفت الأمة فيه على خمسة أقوال. أحدها: قول من جوز عليهم الكبائر. الثاني: قول من منع من الكبائر وجوز الصغائر على جهة العمد وهو قول أكثر المعتزلة. الثالث: لا يجوز أن يأتوا بصغيرة ولا كبيرة البتة بل على جهة التأويل وهو قول الجبائي. الرابع: أنه لا يقع منهم الذنب إلا على جهة السهو والخطأ. الخامس: أنه لا يقع منهم لا كبيرة ولا صغيرة لا على سبيل العمد ولا على سبيل السهو ولا على سبيل التأويل، وهو قول الشيعة. واختلفت الناس في وقت العصمة على ثلاثة أقوال: أحدها: قول من ذهب إلى أنهم معصومون من حين وقت الولادة وهو قول الشيعة. الثاني: قول من ذهب إلى عصمتهم من وقت بلوغهم وهو قول أكثر المعتزلة. الثالث قول من ذهب إلى أن ذلك لا يجوز منهم بعد النبوة وهو قول أكثر أصحابنا وأبي الهزيل وأبي علي من المعتزلة.

قال الإمام والمختار عندنا لم يصدر عنهم ذنب لا صغيرة ولا كبيرة من حين جاءتهم النبوة. ويدل عليه وجوه أحدها: لو صدر الذنب عنهم لكانوا أقل درجة من أحد الأمة وذلك غير جائز لأن درجة الأنبياء غاية في الرفعة والشرف. الثاني: لو صدر منه وجب أن لا يكون مقبول الشهادة فكان أقل حالاً من عدول الأمة وذلك غير جائز أيضاً لأن معنى النبوة والرسالة هو أنه يشهد على الله أنه شرع هذا الحكم، وأيضاً فإنه يوم القيامة شاهد على الكل. الثالث: لو صدر من النبي ذنب وجب الاقتداء به فيه وذلك محال. الرابع: ثبت ببديهة العقل أنه لا شيء أقبح بمن رفع الله درجته وائتمنه على وحيه وجعله خليفته في عباده وبلاده يسمع ربه يناديه لا تفعل كذا فيقدم عليه ويفعله ترجيحاً لغرضه. واجتمعت الأمة على أن الأنبياء كانوا يأمرون الناس بطاعة الله فلو لم يطيعوه لدخلوا تحت قوله ﴿أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون﴾ وقال ﴿وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه﴾. الخامس: قال الله تعالى ﴿إنهم كانوا يسارعون في الخيرات﴾ ولفظه للعموم فيتناول الكل ويدل على فعل ما ينبغي فعله وترك ما ينبغي تركه، فثبت أن الأنبياء كانوا فاعلين لكل خير وتاركين لكل منهي وذلك ينافي صدور الذنب عنهم.

وجدت الله كتب التوراة قبل أن أخلق؟ قال موسى: بأربعين عاماً، قال آدم: **فهل وجدت فيها وعصى آدم ربه فغوى؟** قال: نعم، قال: أفتلومني على أن عملت عملاً كتبه الله عليَّ أن أعمله قبل أن يخلقني بأربعين سنة؟ قال رسول الله ﷺ: فحجّ آدم موسى».

﴿ ثم اجتباه ربُّه ﴾، اختاره واصطفاه، **﴿ فتاب عليه ﴾**، بالعفو، **﴿ وهدى ﴾**، هداه إلى التوبة حتى قالا ربنا ظلمنا أنفسنا.

﴿ قال اهبطا منها جميعاً بعضكم لبعض عدو، فإمّا يأتينّكم مني هدىً فمَن اتّبع هداي ﴾، يعني الكتاب والرسول، **﴿ فلا يضلُّ ولا يشقى ﴾**، روى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: مَن قرأ القرآن واتبع ما فيه هداه الله في الدنيا من الضلالة، ووقاه الله يوم القيامة سوء الحساب، وذلك بأن الله يقول: **﴿ فمَن اتّبع هدايَ فلا يضلُّ ولا يشقى﴾**. وقال الشعبي عن ابن عباس: أجار الله تعالى تابعَ القرآن من أن يضلّ في الدنيا ويشقى في الآخرة، وقرأ هذه الآية.

السادس: قال الله تعالى: ﴿الله يصطفي من الملائكة رسلاً ومن الناس إن الله سميع بصير﴾.

وقال تعالى: ﴿إن الله اصطفى آدم وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين﴾ وقال تعالى في حق موسى: ﴿إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي﴾ وقال تعالى: ﴿واذكر عبادنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب أولي الأيدي والأبصار إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار وإنهم عندنا لمن المصطفين الأخيار﴾ وغير ذلك من الآيات التي تدل على كونهم موصوفين بالاصطفاء والخيرة، وذلك ينافي صدور الذنب عنهم، وذكر غير ذلك من الوجوه. قال وأما المخالف فقد تمسك بآيات منها قصة آدم هذه، والجواب عنها أن نقول إن كلامهم إنما يتم أن لو بينوا بالدلالة أن ذلك كان حال النبوة وذلك ممنوع ولم لا يجوز أن يقال إن آدم حال ما صدرت عنه هذه الأشياء ما كان نبياً وإن هذه الواقعة كانت قبل النبوة وإن الله تعالى قبل توبته وشرفه بالنبوة والرسالة. وقال القاضي عياض وأما قصة آدم ﴿وعصى آدم ربه فغوى﴾ أي جهل وقيل أخطأ فقد أخبر الله تعالى بعذره في قوله: ﴿ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي ولم نجد له عزماً﴾ أي نسي عداوة إبليس له وما عهد الله إليه. وقيل لم يقصد المخالفة استحلالاً لها ولكنه اغتر بحلف إبليس له إني لكما لمن الناصحين وتوهم أن أحداً لا يحلف بالله كاذباً، وقيل نسي ولم ينو المخالفة فلذلك قال ولم نجد له عزماً أي قصداً للمخالفة، وقيل بل أكل من الشجرة متأولاً وهو لا يعلم أنها الشجرة التي نهي عنها لأنه تأول نهي الله عن شجرة مخصوصة لا على الجنس، ولهذا قيل إنما كانت التوبة من ترك التحفظ لا من المخالفة وقيل تأول أن الله تعالى لم ينه نهي تحريم.

فإن قلت إذا نفيت عنهم الذنوب والمعاصي فما معنى قوله: ﴿وعصى آدم ربه فغوى﴾ وما تكرر في القرآن والحديث من اعتراف الأنبياء بذنوبهم وتوبتهم واستغفارهم وإشفاقهم وبكائهم على ما سلف منهم وهل يتوب ويستغفر من لا شيء عليه. قلت إن درجة الأنبياء في الرفعة والعلو والمعرفة بالله وسنته في عباده وعظم سلطانه وقوة بطشه، مما يحملهم على الخوف منه جل جلاله والإشفاق من المؤاخذة بما لا يؤاخذ به غيرهم، وإنهم في تصرفهم بأمور لم ينهوا عنها ولم يؤمروا، وآتوها على وجه التأويل أو السهو وتزيدوا من أمور الدنيا المباحة أوخذوا عليها وعوتبوا بسببها أو حذروا من المؤاخذة بها فهم خائفون وجلون، وهي ذنوب بالإضافة إلى علو منصبهم ومعاص بالنسبة إلى كمال طاعتهم، لا أنها ذنوب كذنوب غيرهم ومعاصيهم كان هذا أدنى أفعالهم وأسوأ ما يجري من أحوالهم كما قيل حسنات الأبرار سيئات المقربين، أي يرونها بالإضافة إلى علو أحوالهم كالسيئات وسنذكر في كل موضع ما يليق به وما قيل فيه إن شاء الله تعالى. قوله عز وجل: ﴿ثم اجتباه ربه﴾ أي اختاره واصطفاه ﴿فتاب عليه﴾ أي عاد

﴿ ومَن أعرض عن ذكري ﴾، يعني القرآن فلم يؤمن به ولم يتبعه، **﴿ فإنّ له معيشةً ضنكاً ﴾**، ضيقاً، رُوِيَ عن ابن مسعود وأبي هريرة وأبي سعيد الخدري أنهم قالوا: هو عذاب القبر. قال أبو سعيد: يضغط حتى تختلف أضلاعه. وفي بعض المسانيد مرفوعاً. «يلتئم عليه القبر حتى تختلف أضلاعه فلا يزال يعذَّب حتى يُبعَث». وقال الحسن: هو الزقوم والضريع والغسلين في النار. وقال عكرمة: هو الحرام. وقال الضحاك: هو الكسب الخبيث. وعن ابن عباس قال: الشقاء. ورُوِيَ عنه أنه قال: كل ما أُعطي العبد قلّ أم كثر فلم يتقِ فيه فلا خير فيه، وهو الضنك في المعيشة، وإن أقواماً أعرضوا عن الحق وكانوا أُولي سعة من الدنيا مكثرين، فكانت معيشتهم ضنكاً، وذلك أنهم يرون الله ليس بمختلف لهم فاشتدّت عليهم معايشهم من سوء ظنّهم بالله، قال سعيد بن جبير: يسلبه القناعة حتى لا يشبع، **﴿ ونحشره يوم القيامة أعمى ﴾**، قال ابن عباس: أعمى البصر. وقال مجاهد: أعمى عن الحجة.

﴿ قال ربِّ لِمَ حشرتني أعمى وقد كنتُ بصيراً ﴾، بالعين أو بصيراً بالحجة.

بالعفو والمغفرة ﴿وهدى﴾ أي هداه لرشده حتى رجع إلى الندم والاستغفار ﴿قال اهبطا منها جميعاً﴾ قيل الخطاب لآدم ومعه ذريته ولإبليس ومعه ذريته فصح قوله اهبطا لاشتمال كل واحد من الجنسين على الكثرة، وقيل الخطاب لآدم وحواء لأنهما أصل البشر فجعلا كأنهما البشر فخوطبا بلفظ الجمع ﴿بعضكم لبعض عدو﴾ وقيل في تقوية هذا الظاهر حقه أن يكون إبليس والشياطين أعداء الناس، ويحتمل أن يكون بعض الفريقين لبعض عدواً ﴿فأما يأتينكم مني هدى﴾ أي كتاب ورسول ﴿فمن اتبع هدايَ﴾ أي الكتاب والرسول ﴿فلا يضل ولا يشقى﴾ قال ابن عباس: من قرأ القرآن واتبع ما فيه هداه الله من الضلالة ووقاه يوم القيامة سوء الحساب وذلك لأن الله تعالى يقول فمن اتبع هداي فلا يضل أي في الدنيا ولا يشقى أي في الآخرة ﴿ومن أعرض عن ذكري﴾ يعني القرآن فلم يؤمن به ولم يتبعه ﴿فإن له معيشة ضنكاً﴾روي عن ابن مسعود وأبي سعيد الخدري رضي الله عنهم أنهم قالوا هو عذاب القبر. قال أبو سعيد يضغط في القبر حتى تختلف أضلاعه.

وفي بعض المسانيد مرفوعاً يلتئم عليه القبر حتى تختلف أضلاعه، فلا يزال يعذب حتى يبعث وقيل هو الزقوم والضريع والغسلين في النار، وقيل الحرام والكسب الخبيث. وقال ابن عباس الشقاء وعنه قال كل ما أعطي العبد قل أم كثر فلم يتق فلا خير فيه وهو الضنك في المعيشة. وإن قوماً أعرضوا عن الحق وكانوا أولي سعة من الدنيا مكثرين منها فكانت معيشتهم وذلك أنهم يرون أن الله ليس بمخلف لهم فاشتدت عليهم معايشهم من سوء ظنهم بالله تعالى. وقيل يسلب القناعة حتى لا يشبع ﴿ونحشره يوم القيامة أعمى﴾ قال ابن عباس أعمى البصر وقيل أعمى عن الحجة ﴿قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً﴾ يعني بصيراً العين أو بصير بالحجة ﴿قال كذلك﴾ يعني كما ﴿أتتك آياتنا فنسيتها﴾ يعني فطردتها وأعرضت عنها ﴿وكذلك اليوم تنسى﴾ يعني تترك في النار وقيل نسوا من الخير والرحمة ولم ينسوا من العذاب ﴿وكذلك نجزي من أسرف﴾ يعني كما جزينا من أعرض عن القرآن كذلك نجزي من أسرف أي أشرك ﴿ولم يؤمن بآيات ربه ولعذاب الآخرة أشد﴾ يعني مما يعذبهم الله به في الدنيا والقبر ﴿وأبقى﴾ يعني وأدوم قوله تعالى: ﴿أفلم يهد لهم﴾ يعني أفلم يبين القرآن لكفار مكة ﴿كم أهلكنا قبلهم من القرون يمشون في مساكنهم﴾ يعني في ديارهم ومنازلهم إذا سافروا وذلك أن قريشاً كانوا يسافرون إلى الشام فيرون ديار المهلكين من أصحاب الحجر وهم ثمود وقريات قوم لوط ﴿إن في ذلك لآيات لأولي النهى﴾ أي لذوي العقول ﴿ولولا كلمة سبقت من ربك﴾ أي ولولا حكم سبق بتأخير العذاب عنهم ﴿لكان لزاماً وأجل مسمى﴾ تقديره ولولا كلمة سبقت من ربك وأجل مسمى وهو القيامة لكان العذاب لازماً لهم في الدنيا كما لزم القرون الماضية الكافرة.

﴿ قال كذلك ﴾، أي كما ﴿ أتتك آياتنا فنسيتها ﴾، فتركتها وأعرضت عنها، ﴿ وكذلك اليوم تُنسى ﴾، تترك في النار. قال قتادة: نسُوا من الخير ولم يُنسوْا من العذاب.

﴿ وكذلك ﴾، أي وكما جزينا مَن أعرض عن القرآن كذلك، ﴿ نجزي مَن أسرف ﴾، أشرك، ﴿ ولم يؤمن بآياتِ ربّه ولعذاب الآخرة أشدّ ﴾، مما يعذبهم به في الدنيا والقبر، ﴿ وأبقى ﴾، وأدوم.

﴿ أفلم يهدِ لهم ﴾، يبيّن لهم القرآن يعني كفّار مكة، ﴿ كم أهلكنا قبلهم من القرون يمشون في مساكنهم ﴾، ديارهم ومنازلهم إذا سافروا، والخطاب لقريش كانوا يسافرون إلى الشام فيرون ديار المهلكين من أصحاب الحِجْرِ وثمود وقريات قوم لوط، ﴿ إنّ في ذلك لآيات لأُولي النُّهى ﴾، لذوي العقول.

﴿ ولولا كلمةٌ سبقتْ من ربِّك لكان لزاماً وأجلٌ مسمىً ﴾، فيه تقديم وتأخير، تقديره: ولولا كلمة سبقت من ربك لكان لزاماً وأجل مسمى، والكلمة الحكم بتأخير العذاب عنهم، أي ولولا حكم سبق بتأخير العذاب عنهم وأجل مسمى وهو القيامة لكان لزاماً، أي لكان العذاب لازماً لهم كما لزم القرون الماضية الكافرة.

فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ
النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ
وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾ وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا
بِآيَةٍ مِّن رَّبِّهِ ۚ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾ وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا
أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾ قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ
أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَىٰ ﴿١٣٥﴾

﴿فاصبر على ما يقولون﴾ نسختها آية السيف **﴿وسبح بحمد ربك﴾** أي صل بأمر ربك **﴿قبل طلوع الشمس﴾** يعني صلاة الفجر **﴿وقبل غروبها﴾** أي صلاة العصر **﴿ومن آناء الليل﴾** أي ومن ساعاته **﴿فسبح﴾** يعني فصل المغرب والعشاء قال ابن عباس يريد أول الليل **﴿وأطراف النهار﴾** يعني صلاة الظهر سمي وقت الظهر أطراف النهار لأن وقته عند الزوال وهو طرف النصف الأول انتهاء وطرف النصف الآخر ابتداء **﴿لعلك ترضى﴾** أي ترضى ثوابه في المعاد، وقيل معناه لعلك ترضى بالشفاعة، وقرىء ترضى بضم التاء أي تعطى ثوابه، وقيل يرضاك ربك (ق) عن جرير بن عبد الله قال: «كنا عند رسول الله ﷺ فنظر إلى القمر ليلة البدر وقال إنكم سترون ربكم عياناً كما ترون هذا القمر لا

﴿ فاصبرْ على ما يقولون ﴾، نسختها آية القتال، **﴿ وسبّحْ بحمدِ ربِّك ﴾**، أي صلِّ بأمر ربك. وقيل: صلِّ لله بالحمدلة والثناء عليه، **﴿ قبل طلوع الشمس ﴾**، يعني صلاة الصبح، **﴿ وقبل غُروبها ﴾**، صلاة العصر، **﴿ ومن آناء الليل ﴾** ساعاتها واحدها أنى، **﴿ فسبّحْ ﴾**، يعني صلاة المغرب والعشاء. قال ابن عباس: يريد أول الليل، **﴿ وأطراف النهار ﴾**، يعني صلاة الظهـر، وسمّي وقت الظهر أطراف النهار لأن وقته عند الزوال، وهو النصف الأول انتهاءً وطرف النصف الآخر ابتداء، وقيل: المراد من آناء الليل صلاة العشاء ومن أطراف النهار صلاة الظهر والمغرب، لأن الظهر في آخر الطرف الأول من النهار، وفي أول الطرف الآخر من النهار، فهو في طرفين منه والطرف الثالث غروب الشمس، وعند ذلك يصلّي المغرب، **﴿لعلّك ترضى﴾**، أي ترضى ثوابه في المَعاد، وقرأ الكسائي وأبو بكر عن عاصم ترضى بضم التاء أي تعطى ثوابه. وقيل: ترضى أي يرضاك الله تعالى، كما قال: ﴿ وكان عند ربه مرضياً ﴾ [مريم: ٥٥]، وقيل: معنى الآية لعلك ترضى بالشفاعة، كما قال: ﴿ ولسوف يعطيك ربك فترضى ﴾ [الضحى: ٥]، أخبرنا أبو سعيد أحمد بن محمد بن العباس الخطيب الحميدي أنا أبو عبد الله محمد بن عبد الله الحافظ أنا أبو عبد الله محمد بن يعقوب الشيباني إملاء أنا إبراهيم بن عبد الله السعدي أنا يزيد بن هارون أنا إسماعيل بن أبي خالد عن قيس بن أبي حازم عن جرير بن عبد الله قال: كنّا جلوساً عند رسول الله ﷺ فنظر إلى القمر ليلة البدر، فقال: «إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضامون في رؤيته، فإن استطعتم أن لا تُغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا». ثم قرأ **﴿ وسبّح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ﴾**.

قوله تعالى: ﴿ ولا تمدنّ عينيك ﴾، قال أبو رافع: نزل برسول الله ﷺ ضيف فبعثني إلى يهودي فقال لي: «قلْ له إن رسول الله يقول لك يعني كذا وكذا من الدقيق وأسلفني إلى هلال رجب» فأتيته فقلت له ذلك فقال والله لا أبيعه ولا أسلفه إلّا برهن، فأتيتُ رسولَ الله ﷺ فأخبرته، فقال: «والله لئن باعني وأسلفني لقضيته وإني لأمينٌ في السماء وأمين في الأرض، اذهبْ بدرعي الحديد إليه» فنزلت هذه الآية: **﴿ ولا تمدنّ عينيك ﴾**، لا تنظر، **﴿ إلى ما

تضامون في رؤيته، فإن استطعتم أن لا تغلبوا عن صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها» قوله لا تضامون بتخفيف الميم من الضيم، وهو الظلم والمعنى أنكم ترونه جميعاً لا يظلم بعضكم بعضاً في رؤيته وروي بتشديد الميم من الانضمام والازدحام، أي لا يزدحم ولا ينضم بعضكم إلى بعض في رؤيته والكاف في قوله كما ترون هذا القمر كاف التشبيه للرؤية لا للمرئي وهي فعل الرائي، ومعناه ترون ربكم رؤية ينزاح معها الشك كرؤيتكم هذا القمر ليلة البدر ولا ترتابون فيه ولا تشكون قوله عز وجل: ﴿**ولا تمدن عينيك**﴾ قال أبو رافع نزل برسول الله ﷺ ضيف فبعثني إلى يهودي فقال قل له إن رسول الله ﷺ يقول: «بعني كذا وكذا من الدقيق أو سلفني إلى هلال رجب فأتيته فقلت له ذلك فقال والله لا أبيعه ولا أسلفه إلا برهن فأتيت رسول الله ﷺ فأخبرته فقال والله لئن باعني أو أسلفني لقضيته إني لأمين في السماء وأمين في الأرض أذهب بدرعي الحديد إليه» فنزلت هذه الآية: ﴿**ولا تمدن عينيك**﴾ أي لا تنظر نظراً تكاد تردده استحساناً للمنظور إليه وإعجاباً به وتمنياً له ﴿**إلى ما متعنا به**﴾ أي أعطينا ﴿**أزواجاً**﴾ أي أصنافاً ﴿**منهم زهرة الحياة الدنيا**﴾ أي زينتها وبهجتها ﴿**لنفتنهم فيه**﴾ أي لنجعل ذلك فتنة بأن تزيد النعمة فيزيدوا كفراً وطغياناً ﴿**ورزق ربك**﴾ أي في المعاد في الجنة ﴿**خير وأبقى**﴾ أي أدوم وقال أبي بن كعب من لم يعتز بالله تقطعت نفسه حسرات، ومن أتبع بصره ما في أيدي الناس يطل حزنه ومن ظن أن نعمة الله عليه في مطعمه ومشربه وملبسه فقد قل عمله وحضر عذابه. ق

قوله تعالى: ﴿**وأمر أهلك**﴾ أي قومك وقيل من كان على دينك ﴿**بالصلاة**﴾ يعني بالمحافظة عليها ﴿**واصطبر عليها**﴾ يعني اصبر على الصلاة فإنها تنهى عن الفحشاء والمنكر وقيل اصبر عليها فإن الوعظ بلسان الفعل أبلغ منه بلسان القول ﴿**لانسألك رزقاً**﴾ أي لا نكلفك أن ترزق أحداً من خلقنا ولا أن ترزق نفسك بل نكلفك عملاً ﴿**نحن نرزقك**﴾ أي بل نحن نرزقك ونرزق أهلك ﴿**والعاقبة للتقوى**﴾ أي الخصلة المحمودة لأهل التقوى قال ابن عباس الذين صدقوك واتبعوك وآمنوا بك وفي بعض المسانيد أن النبي ﷺ كان إذا أصاب أهله ضر أمرهم بالصلاة وتلا هذه الآية قوله تعالى؛ ﴿**وقالوا**﴾ يعني المشركين ﴿**لولا يأتينا بآية من ربه**﴾ أي الآية المقترحة فإنه كان قد أتاهم بآيات كثيرة

متّعنا به ﴾، أعطينا، ﴿ **أزواجاً** ﴾، أصنافاً، ﴿ **منهم زهرةَ الحياة الدنيا** ﴾، أي زينتها وبهجتها، وقرأ يعقوب زهرة بفتح الهاء وقرأ العامّة بجزمها، ﴿ **لنفتنهم فيه** ﴾، أي لنجعل ذلك فتنة لهم بأن أزيد لهم النعمة فيزيدوا كفراً وطغياناً، ﴿ **ورِزْقُ ربِّك** ﴾، في المعاد يعني في الجنة، ﴿ **خيرٌ وأبقى** ﴾، قال أُبيّ بن كعب: مَن لم يستعزّ بعزّ الله تقطّعت نفسه حسرات، ومَن يتبع بصره فيما في أيدي الناس بطل حزنه، ومَن ظنّ أن نعمة الله في مطعمه ومشربه وملبسه فقد قلّ عمله وحضر عذابه.

﴿ **وأمرْ أهلك بالصلاة** ﴾، أي قومك. وقيل: مَن كان على دينك، كقوله تعالى: ﴿ **وكان يأمر أهله بالصلاة** ﴾ [مريم: ٥٥]، ﴿ **واصطبر عليها** ﴾، أي اصبر على الصلاة، فإنها تنهى عن الفحشاء والمنكر. ﴿ **لا نسئلك رزقاً** ﴾، لا نكلّفك أن ترزق أحداً من خلقنا، ولا أن ترزق نفسك وإنما نكلّفك عملاً، ﴿ **نحن نرزقك والعاقبة** ﴾، الخاتمة الجميلة المحمودة، ﴿ **للتقوى** ﴾، أي لأهل التقوى. قال ابن عباس: يعني الذين صدّقوك واتّبعوك واتقوني. وفي بعض المسانيد أن النبي ﷺ: «كان إذا أصاب أهله ضرٌّ أمرهم بالصلاة وتلا هذه الآية».

قوله تعالى: ﴿ **وقالوا** ﴾، يعني المشركين، ﴿ **لولا يأتينا بآية من ربه** ﴾، أي الآية المقترحة فإنه كان قد أتاهم بآيات كثيرة، ﴿ **أو لم تأتهم بيّنة** ﴾، قرأ أهل المدينة والبصرة وحفص عن عاصم: ﴿ **تأتهم** ﴾ لتأنيث البيّنة، وقرأ الآخرون بالياء لتقدّم الفعل، ولأن البيّنة هي البيان فردّ إلى المعنى، بيّنةُ ﴿ **ما في الصحف الأولى** ﴾، يعني بيان ما فيها، وهو القرآن أقوى دلالة وأوضح آية: وقيل: أو لم يأتهم بيان ما في الصحف الأولى التوراة والإنجيل

﴿أولم تأتهم بينة ما في الصحف الأولى﴾ أي بيان ما فيها وهو القرآن لأنه أقوى دلالة وأوضح آية وقيل معنى ما في الصحف ما في التوراة والإنجيل وغيرهما من أخبار الأمم أنهم اقترحوا الآيات فلما أتتهم لم يؤمنوا فعجلنا لهم العذاب والهلاك فما يؤمنهم إن أتتهم الآية أن يكون حالهم كحال أولئك وقيل بينة ما في الصحف الأولى هي البشارة بمحمد ﷺ ونبوته وبعثته ﴿ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله﴾ أي من قبل إرسال الرسل وإنزال القرآن ﴿لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولاً﴾ أي لقالوا يوم القيامة أولاً أرسلت إلينا رسولاً يدعونا ﴿فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى﴾ بالعذاب والهوان والافتضاح ﴿قل كل متربص﴾ أي منتظر دوائر الزمان وذلك أن المشركين قالوا نتربص بمحمد ريب المنون وحوادث الدهر فإذا مات تخلصنا قال الله تعالى: ﴿فتربصوا﴾ أي فانتظروا ﴿فستعلمون﴾ أي إذا جاء أمر الله وقامت القيامة ﴿ومن أصحاب الصراط السوي﴾ يعني المستقيم ﴿ومن اهتدى﴾ يعني من الضلالة نحن أم أنتم والله أعلم بمراده وأسرار كتابه.

وغيرهما من أنباء الأمم أنهم اقترحوا الآيات، فلما أتتهم ولم يؤمنوا بها، كيف عجّلنا لهم العذاب والهلاك، فما يؤمنهم إن أتتهم الآية أن يكون حالهم كحال أولئك.

﴿ ولو أنّا أهلكناهم بعذاب من قبله ﴾، يعني من قبل إرسال الرسول وإنزال القرآن، ﴿ لقالوا ربَّنا لولا ﴾، هلاّ ﴿ أرسلتَ إلينا رسولاً ﴾، يدعونا، أي لقالوا يوم القيامة، ﴿ فنتَّبعَ آياتِك من قبل أنْ نَذِلَّ ونَخْزَى ﴾، بالعذاب والذلّ والهوان والخزي والافتضاح.

﴿ قلْ كلٌّ متربصٌ ﴾، منتظر دوائر الزمان، وذلك أن المشركين قالوا نتربص بمحمد حوادث الدهر، فإذا مات تخلصنا، قال الله تعالى: ﴿ فتربصوا ﴾، فانتظروا، ﴿ فستعلمون ﴾، إذا جاء أمر الله وقامت القيامة، ﴿ من أصحاب الصراط السّوِيِّ ﴾، المستقيم، ﴿ ومَن اهتَدَى ﴾، من الضلالة نحن أم أنتم؟.

تفسير سورة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام

وهي مكية وعدد آياتها مائة واثنتا عشرة آية وألف ومائة وثمان وستون كلمة وأربعة آلاف وثمانمائة وتسعون حرفاً.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا
ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ
ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّى يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٤﴾ بَلْ قَالُوٓا۟
أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٥﴾ مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ
أَهْلَكْنَٰهَآ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا
تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ ﴿٨﴾ ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَٰهُمْ
وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٩﴾ لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾

قوله عز وجل: ﴿اقترب للناس حسابهم﴾ أي وقت محاسبة الله إياهم على أعمالهم يوم القيامة. نزلت في منكري البعث وإنما ذكر الله هذا الاقتراب لما فيه من المصلحة للمكلفين، فيكونون أقرب إلى التأهب له، والمراد بالناس المحاسبون وهم المكلفون دون غيرهم، وقيل هم المشركون وهذا من باب إطلاق اسم الجنس على بعضه ﴿وهم في غفلة معرضون﴾ أي عن التأهب له وقيل معناه أنهم غافلون عن حسابهم ساهون لا يتفكرون في عاقبتهم مع

سُوْرَة الأَنْبِيَاءِ

مكيّة وهي مائة واثنتا عشرة آية.

﴿ اقتربَ للناس ﴾، قيل اللام بمعنى من، يعني اقترب من الناس حسابهم، يعني وقت محاسبة الله إيّاهم على أعمالهم، يعني يوم القيامة، نزلت في منكري البعث، ﴿ وهم في غفلة معرضون ﴾، عن التأهّب له.

﴿ ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث ﴾، يعني ما يحدث الله من تنزيل شيء من القرآن يذكّرهم ويعظهم به. قال مقاتل: يحدث الله الأمر بعد الأمر. وقيل: الذكر المحدث ما قاله النبي ﷺ وبيّنه من السُّنن والمواعظ سوى القرآن، وأضافه إلى الربِّ عزّ وجلّ لأنه قال بأمر الرب، ﴿ إلّا استمعوه وهم يلعبون ﴾، يعني استمعوه لاعبين لا يعتبرون ولا يتّعظون.

اقتضاء عقولهم أنه لا بد من جزاء المحسن والمسيء ثم إذا نبهوا من سنة الغفلة بما يتلى من الآيات والنذر أعرضوا عنه ﴿**ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث**﴾ يعني ما يحدث الله من تنزيل شيء من القرآن يذكرهم ويعظهم به وقيل معناه إن الله يحدث الأمر بعد الأمر فينزل الآية بعد الآية والسورة بعد السورة في وقت الحاجة لبيان الأحكام وغيرها من الأمور والوقائع وقيل الذكر المحدث ما قاله النبي ﷺ وبينه من السنن والمواعظ سوى ما في القرآن وأضافه إليه لأن الله تعالى قال وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى ﴿**إلا استمعوه وهم يلعبون**﴾ أي لاعبين لا يعتبرون ولا يتعظون ﴿**لاهية قلوبهم**﴾ أي ساهية معرضة غافلة عن ذكر الله ﴿**وأسروا النجوى الذين ظلموا**﴾ أي بالغوا في إخفاء التناجي وهم الذين أشركوا ثم بين سرهم الذي تناجوا به، فقال تعالى مخبراً عنهم ﴿**هل هذا إلا بشر مثلكم**﴾ يعني أنهم أنكروا إرسال البشر وطلبوا إرسال الملائكة والأولى إرسال البشر إلى البشر لأن الإنسان إلى القبول من أشكاله أقرب ﴿**أفتأتون السحر**﴾ يعني أتحضرون السحر وتقبلونه ﴿**وأنتم تبصرون**﴾ يعني تعلمون أنه سحر ﴿**قال**﴾ لهم محمد ﴿**ربي يعلم القول في السماء والأرض**﴾ يعني لا يخفى عليه شيء ﴿**وهو السميع**﴾ لأقوالهم ﴿**العليم**﴾ بأفعالهم. قوله عز وجل:

﴿**بل قالوا أضغاث أحلام**﴾ يعني أباطيل وأهاويل رآها في النوم ﴿**بل افتراه**﴾ يعني اختلقه ﴿**بل هو شاعر**﴾ وذلك أن المشركين اقتسموا القول في النبي ﷺ وفيما يقوله، فقال بعضهم أضغاث أحلام وقال بعضهم بل هو فرية

﴿ **لاهيةً** ﴾، ساهيةً غافلة، ﴿ **قلوبهم** ﴾، معرضة عن ذكر الله، وقوله: ﴿ **لاهية** ﴾ نعتٌ تقدم الاسم، ومن حق النعت أن يتبع الاسم في الإعراب، وإذا تقدم النعت الاسم فله حالتان فصل ووصل، فحالته في الفصل النصب كقوله تعالى: ﴿ خشعاً أبصارهم ﴾ [القمر: ٧]، ﴿ ودانية عليهم ظلالها ﴾ [الإنسان: ١٤]، و﴿ **لاهية قلوبهم** ﴾، وفي الوصل حالة ما قبله من الإعراب كقوله: ﴿ ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلُها ﴾ [النساء: ٧٥]. ﴿ **وأسرُّوا النَّجْوَى الذين ظلموا** ﴾، يعني أشركوا، قوله: ﴿ **وأسرّوا** ﴾ فعل تقدم الجمع وكان حقه وأسر، قال الكسائي: فيه تقديم وتأخير، أراد: الذين ظلموا أسرّوا النجوى. وقيل: حمل الذين رفع على الابتداء، معناه: وأسرّوا النجوى، ثم قال: وهم الذين ظلموا. وقيل: رفع على البدل من الضمير في أسرّوا. قال المبرّد: هذا كقولك إن الذين في الدار انطلقوا بنو عبد الله، على البدل مما في انطلقوا ثم بيّن سرّهم الذي تناجوا به فقال: ﴿ **هل هذا إلّا بشرٌ مثلكم** ﴾، أنكروا إرسال البشر وطلبوا إرسال الملائكة، ﴿ **أفتأتون السحر** ﴾، يعني تحضرون السحر وتقبلونه، ﴿ **وأنتم تبصرون** ﴾، تعلمون أنه سحر.

﴿ **قال** ﴾، لهم محمد، ﴿ **ربي يعلم القولَ في السماء والأرض** ﴾، قرأ حمزة والكسائي وحفص: ﴿ **قال ربي** ﴾، على الخبر عن محمد ﷺ، ﴿ **يعلم القول في السماء والأرض** ﴾ أي لا يخفى عليه شيء، ﴿ **وهو السميع** ﴾، لأقوالهم، ﴿ **العليم** ﴾، بأفعالهم.

﴿ **بل قالوا أضغاث أحلام** ﴾، أباطيلها وأقاويلها وأهاويلها رآها في النوم، ﴿ **بل افتراه** ﴾، اختلقه، ﴿ **بل هو شاعر** ﴾، يعني أن المشركين اقتسموا القول فيه وفيما يقوله، قال بعضهم: أضغاث أحلام. وقال بعضهم: بل هو فرية. وقال بعضهم: بل محمد شاعر وما جاءكم به شعر. ﴿ **فليأتنا** ﴾ محمد، ﴿ **بآية** ﴾، إن كان صادقاً ﴿ **كما أُرسل الأوّلون** ﴾، من الرسل بالآيات.

قال الله تعالى مجيباً لهم: ﴿ **ما آمنت قبلهم** ﴾، أي قبل مشركي مكة، ﴿ **من قرية** ﴾، أي من أهل قرية أتتهم الآيات، ﴿ **أهلكناها** ﴾، أهلكناهم بالتكذيب، ﴿ **أفهم يؤمنون** ﴾، إن جاءتهم آية، معناه: أولئك لم يؤمنوا بالآيات لما أتتهم أفيؤمن هؤلاء.

وقال بعضهم هو شاعر وما جاءكم به شعر ﴿فليأتنا﴾ يعني النبي ﷺ ﴿بآية﴾ يعني بحجة إن كان صادقاً ﴿كما أرسل الأولون﴾ أي من الرسل بالآيات، قال الله تعالى مجيباً لهم ﴿ما آمنت قبلهم﴾ أي قبل مشركي مكة ﴿من قرية﴾ أي من أهل قرية أتتهم الآيات ﴿أهلكناها﴾ يعني بالتكذيب ﴿أفهم يؤمنون﴾ يعني إن جاءتهم آية والمعنى أن أولئك لم يؤمنوا بالآيات لما جاءتهم أفيؤمن هؤلاء. قوله تعالى: ﴿وما أرسلنا قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم﴾ هذا جواب لقولهم هل هذا إلا بشر مثلكم، والمعنى إنا لم نرسل الملائكة إلى الأولين إنما أرسلنا رجالاً يوحى إليهم مثلك ﴿فاسألوا أهل الذكر﴾ يعني أهل التوراة والإنجيل يريد علماء أهل الكتاب، فإنهم لا ينكرون أن الرسل كانوا بشراً وإن أنكروا نبوة محمد ﷺ أمر الله المشركين بسؤال أهل الكتاب لأن المشركين أقرب إلى تصديقهم من تصديق من آمن بالنبي ﷺ وقيل أراد بالذكر القرآن يعني فاسئلوا المؤمنين العالمين من أهل القرآن ﴿إن كنتم لا تعلمون﴾ قوله عز وجل: ﴿وما جعلناهم﴾ أي الرسل ﴿جسداً لا يأكلون الطعام﴾ هذا رد لقولهم ما لهذا الرسول يأكل الطعام، والمعنى لم نجعلهم ملائكة بل جعلناهم بشراً يأكلون الطعام ﴿وما كانوا خالدين﴾ يعني في الدنيا بل يموتون كغيرهم ﴿ثم صدقناهم الوعد﴾ يعني الذي وعدناهم بإهلاك أعدائهم ﴿فأنجيناهم ومن نشاء﴾ يعني من المؤمنين الذين صدقوهم ﴿وأهلكنا المسرفين﴾ يعني المشركين لأن المشرك مسرف على نفسه. قوله عز وجل: ﴿لقد أنزلنا إليكم﴾ يعني يا معشر قريش ﴿كتاباً فيه ذكركم﴾ يعني شرفكم وفخركم وهو شرف لمن آمن به، وقيل معناه فيه حديثكم، وقيل فيه ذكر ما تحتاجون إليه من أمر دينكم وقيل فيه تذكرة لكم لتحذروا فيكون الذكر بمعنى الوعد والوعيد ﴿أفلا تعقلون﴾ فيه بعث على التدبر لأن الخوف من لوازم العقل. قوله تعالى:

وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا
يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُواْ وَٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿١٤﴾
فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ﴿١٥﴾ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ

﴿ وما أرسلنا قبلك إلّا رجالاً نُوحي إليهم ﴾، هذا جواب لقولهم: ﴿ هل هذا إلّا بشرٌ مثلكم ﴾ [الأنبياء: ٣] يعني إنّا لم نرسل الملائكة إلى الأوّلين إنما أرسلنا رجالاً نوحي إليهم، ﴿ فاسْئلوا أهلَ الذكر ﴾، يعني أهل التوراة والإنجيل يريد علماء أهل الكتاب فإنهم لا ينكرون أن الرسل كانوا بشراً، وإن أنكروا نبوّة محمد ﷺ وأمر المشركين بمسالمتهم لأنهم إلى تصديق مَن لم يؤمن بالنبي ﷺ أقرب منهم إلى تصديق مَن آمن به. وقال ابن زيد: أراد بالذكر القرآن فاسألوا المؤمنين العالمين من أهل القرآن، ﴿ إن كنتم لا تعلمون ﴾.

﴿ وما جعلناهم ﴾، أي الرسل، ﴿ جسداً ﴾، ولم يقل أجساداً لأنه اسم الجنس، ﴿ لا يأكلون الطعام ﴾، هذا ردّ لقولهم ﴿ ما لهذا الرسول يأكل الطعام ﴾ [الفرقان: ٧]، يقول لم نجعل الرسل ملائكة بل جعلناهم بشراً يأكلون الطعام، ﴿ وما كانوا خالدين ﴾، في الدنيا.

﴿ ثم صَدَقْنَاهم الوعد ﴾، الذي وعدناهم بإهلاك أعدائهم، ﴿ فأنجيناهم ومن نشاء ﴾، يعني أنجينا المؤمنين الذين صدّقوهم، ﴿ وأهلكنا المسرفين ﴾، يعني المشركين المكذبين، وكل مشرك مسرف على نفسه.

﴿ لقد أنزلنا إليكم كتاباً ﴾، يا معشر قريش، ﴿ فيه ذكركم ﴾، يعني شرفكم، كما قال: ﴿ وإنه لذكر لك ولقومك ﴾ [الزخرف: ٤٤]، وهو شرف لمَن آمن به، وقال مجاهد: فيه حديثكم وقال الحسن: فيه ذكركم أي ذكر ما تحتاجون إليه من أمر دينكم، ﴿ أفلا تعقلون ﴾.

أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ
وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا
يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوٓا۟ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ
فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾

﴿**وكم قصمنا**﴾ يعني أهلكنا ﴿**من قرية كانت ظالمة**﴾ يعني كافرة والمراد أهل القرية ﴿**وأنشأنا بعدها**﴾ أي أحدثنا بعد هلاك أهلها ﴿**قوماً آخرين فلما أحسوا بأسنا**﴾ أي عذابنا بحاسة البصر ﴿**إذا هم منها يركضون**﴾ يعني يسرعون هاربين من قريتهم لما رأوا مقدمة العذاب ﴿**لا تركضوا**﴾ يعني قيل لهم لا تهربوا ﴿**وارجعوا إلى ما أترفتم فيه**﴾ يعني تنعمتم فيه من العيش ﴿**ومساكنكم لعلكم تسألون**﴾ قال ابن عباس عن قتل نبيكم، قيل نزلت هذه الآية في أهل حضرموت قرية باليمن، وكان أهلها عرباً فبعث الله إليهم نبياً يدعوهم إلى الله فكذبوه وقتلوه، فسلط الله عليهم بختنصر فقتلهم وسباهم، فلما استمر فيهم القتل هربوا فقالت الملائكة لهم استهزاء لا تركضوا، أي لا تهربوا وارجعوا إلى مساكنكم وأموالكم لعلكم تسألون شيئاً من دنياكم فتعطون من شئتم وتمنعون من شئتم، فإنكم أهل ثروة ونعمة فأتبعهم بختنصر وأخذتهم السيوف، ونادى مناد من جو السماء يا لثارات الأنبياء فلما رأوا ذلك، أقروا بالذنوب حين لم ينفعهم ﴿**قالوا يا ويلنا إنا كنا ظالمين**﴾ يعني لأنفسنا حين كذبنا الرسل وذلك أنهم اعترفوا بالذنب حين عاينوا العذاب، وقالوا ذلك على سبيل الندامة ولم ينفعهم الندم ﴿**فما زالت تلك دعواهم**﴾ يعني تلك الكلمة وهي قولهم يا ويلنا ﴿**حتى جعلناهم حصيداً**﴾ يعني بالسيوف كما يحصد الزرع ﴿**خامدين**﴾ يعني ميتين.

﴿ **وكم قَصَمْنَا** ﴾، أهلكنا، والقصم الكسر، ﴿ **من قرية كانت ظالمة** ﴾، أي كافرة، يعني أهلها، ﴿ **وأنشأنا بعدها** ﴾، يعني: أحدثنا بعد هلاك أهلها، ﴿ **قوماً آخرين** ﴾.

﴿ **فلمّا أحسّوا بأسنا** ﴾، يعني رأوا عذابنا بحاسّة البصر، ﴿ **إذا هم منها يركضون** ﴾، يعني يُسرعون هاربين.

﴿ **لا تركضوا** ﴾، يعني قيل لهم لا تركضوا لا تهربوا لا تذهبوا، ﴿ **وارجعوا إلى ما أُترفتم فيه** ﴾، يعني نعمتم به، ﴿ **ومساكنكم لعلّكم تسئلون** ﴾، قال ابن عباس: عن قتل نبيّكم. وقيل: من دنياكم شيئاً، نزلت الآية في أهل حضرموت، وهي قرية باليمن وكان أهلها من العرب، فبعث الله إليهم نبيّاً يدعوهم إلى الله فكذّبوه وقتلوه فسلّط الله عليهم بختنصّر، حتى قتلهم وسباهم، فلما استمر فيهم القتل ندموا وهربوا وانهزموا، فقالت الملائكة لهم استهزاءً لا تركضوا وارجعوا إلى ما أترفتم فيه ومساكنكم وأموالكم لعلّكم تُسئلون، قال قتادة: لعلكم تسئلون شيئاً من دنياكم فتعطون مَن شئتم وتمنعون مَن شئتم، فإنكم أهل ثروة ونعمة، يقولون ذلك استهزاءً بهم، فاتبعهم بختنصّر وأخذتهم السيوف، ونادى منادٍ في جوّ السماء يا ثارات الأنبياء، فلما رأوا ذلك أقرّوا بالذنوب حين لم ينفعهم.

﴿ **قالوا يا ويلنا إنّا كنّا ظالمين** ﴾.

﴿ **فما زالتْ تلكَ دعواهم** ﴾، أي تلك الكلمة وهي قولهم يا ويلنا، دعاؤهم يدعون بها ويردّدونها، ﴿ **حتى جعلناهم حصيداً** ﴾، بالسيوف كما يحصد الزرع، ﴿ **خامدين** ﴾، ميّتين.

﴿ **وما خلقنا السماءَ والأرضَ وما بينهما لاعبين** ﴾، أي عبثاً وباطلاً.

﴿ **لو أردنا أن نتّخذ لهواً** ﴾، اختلفوا في اللهو، قال ابن عباس في رواية عطاء: اللهو ههنا المرأة، وهو قول

قوله عز وجل: ﴿وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين﴾ معناه ماسوينا هذا السقف المرفوع وهذا المهاد الموضوع وما بينهما من العجائب للعب واللهو، سويناهما لفوائد منها التفكر في خلقهما وما فيهما من العجائب والمنافع التي لا تعد ولا تحصى ﴿لو أردنا أن نتخذ لهواً﴾ قال ابن عباس: اللهو المرأة وعنه أنه الولد ﴿لاتخذناه من لدنا﴾ يعني من عندنا من الحور العين لا من عندكم من أهل الأرض، وقيل معناه لو كان ذلك جائزاً في حقنا لم نتخذه بحيث يظهر لكم بل نستر، ذلك حتى لا تتطلعوا عليه، وذلك أن النصارى لما قالوا، في المسيح وأمه ما قالوا رد الله عليهم بقوله لاتخذناه من لدنا لأنكم تعلمون أن ولد الرجل وزوجته يكونان عنده لا عند غيره ﴿إن كنا فاعلين﴾ يعني ما كنا فاعلين، وقيل ما كنا ممن يفعل ذلك لأنه لا يليق بالربوبية ﴿بل﴾ يعني دع ذلك الذي قالوه فإنه كذب وباطل ﴿نقذف﴾ يعني نرمي ونسلط ﴿بالحق﴾ يعني بالإيمان ﴿على الباطل﴾ يعني على الكفر، وقيل الحق قول الله أنه لا ولد له والباطل قولهم اتخذ الله ولداً ﴿فيدمغه﴾ فيهلكه ﴿فإذا هو زاهق﴾ يعني ذاهب والمعنى أنا نبطل كذبهم بما نبين من الحق حتى يذهب ويضمحل، ثم أوعدهم على كذبهم فقال تعالى (ولكم الويل) يا معشر الكفار (مما تصنعون) الله بما لا يليق من الصاحبة والولد ﴿وله من في السموات والأرض﴾ يعني عبيداً وملكاً وهو الخالق لهم والمنعم عليهم بأصناف النعم ﴿ومن عنده﴾ يعني الملائكة وإنما خص الملائكة وإن كانوا داخلين في جملة من في السموات لكرامتهم ومزيد الاعتناء بهم ﴿لا يستكبرون عن عبادته﴾ يعني لا يتكبرون ولا يتعظمون عنها ﴿ولا يستحسرون﴾ يعني لا يعيون ولا يتعبون، وقيل لا ينقطعون عن العبادة ثم وصفهم الله تعالى ﴿يسبحون الليل والنهار لا يفترون﴾ يعني لا يضعفون ولا يسأمون، وذلك أن تسبيحهم متصل دائم لا يفتر في جميع أوقاتهم لا تتخلله فترة بفراغ أو شغل أخر قال كعب الأحبار التسبيح لهم كالنفس لبني آدم ﴿أم اتخذوا آلهة من الأرض﴾ يعني الأصنام من الحجارة والخشب وغيرهما من المعادن وهي من الأرض ﴿هم ينشرون﴾ يعني يحيون الأموات، إذ لا يستحق الإلهية إلا من يقدر على الإحياء والإيجاد من العدم والإنعام بأبلغ وجوه النعم، وهو الله عز وجل ﴿لو كان فيهما﴾ يعني في السماء والأرض ﴿آلهة إلا الله﴾ يعني غير الله (لفسدنا) يعني لخربتا وهلك من فيهما الوجود والتمانع من الآلهة لأن كل أمر صدر عن الاثنين فأكثر لم يجر على النظام وقال الإمام فخر الدين الرازي قال المتكلمون القول بوجود إلهين يفضي إلى المحال، فوجب أن

الحسن وقتادة، وقال في رواية الكلبي: اللهو الولد، وهو قول السدي، وهو في المرأة أظهر لأن الوطء يسمى لهواً في اللغة، والمرأة محل الوطء. ﴿ لاتّخذناه من لدنّا ﴾، يعني من عندنا من حور العين لا من عندكم من أهل الأرض. وقيل: معناه لو كان جائزاً ذلك في صفته لم يتخذه بحيث يظهر لهم بل يستر ذلك حتى لا يطلعوا عليه، وتأويل الآية أن النصارى لمّا قالوا في المسيح وأُمه ما قالوا رَدّ الله عليهم بهذا وقال: ﴿ لاتخذناه من لدنا ﴾ لأنكم تعلمون أن ولد الرجل وزوجته يكونـان عنده، لا عند غيره، ﴿ إنْ كنّا فاعلين ﴾، قال قتادة ومقاتل وابن جريج: ﴿ إنْ ﴾ للنفي، معناه: ما كنّا فاعلين. وقيل: ﴿ إن كنّا فاعلين ﴾ للشرط أي كنّا ممّن يفعل ذلك لاتخذناه من لدنّا، ولكنّا لم نفعله لأنه لا يليق بالربوبية.

﴿ بل ﴾، يعني دع ذلك الذي قالوا فإنه كذب وباطل، ﴿ نقذف ﴾، نرمي ونسلّط، ﴿ بالحق ﴾، بالإيمان، ﴿ على الباطل ﴾، على الكفر، وقيل: الحق قول الله، فإنه لا ولد له، والباطل قولهم اتخذ الله ولداً، ﴿فيدمغه﴾، يعني يهلكه، وأصل الدمغ شجّ الرأس حتى يبلغ الدماغ، ﴿ فإذا هو زاهق ﴾، ذاهب، والمعنى: أنّا نبطل كذبهم بما تبين من الحق حتى يضمحل ويذهب، ثم أوعدهم على كذبهم فقال: ﴿ ولكم الويـل ﴾، يا معشر الكفّار. ﴿ ممّا تصفون ﴾، الله بما لا يليق به من الصاحبة والولد. وقال مجاهد: مما تكذبون.

﴿ وله مَن في السموات والأرض ﴾، عبيداً وملكاً، ﴿ ومن عنده ﴾، يعني الملائكة، ﴿ لا يستكبرون عن

يكون القول بوجود إلهين محالاً، وإنما قلنا إنه يفضي إلى المحال لأنا لو فرضنا وجود إلهين، فلا بد وأن يكون كل واحد منهما قادراً على كل المقدورات، ولو كان كذلك لكان كل واحد منهما قادراً على تحريك زيد وتسكينه.

لو فرضنا أن أحدهما أراد تحريكه وأراد تسكينه، فإما أن يقع المرادان وهو محال لاستحالة الجمع بين الضدين أو لا يقع واحد منهما وهو محال لأن المانع من وجود مراد كل واحد منهما مراد الآخر فلا يمتنع مراد هذا إلا عند وجود مراد ذلك وبالعكس فلو امتنعن معاً لوجدا معاً وذلك محال أو يقع مراد أحدهما: دون الثاني وذلك أيضاً محال لوجهين أحدهما أنه لو كان كل واحد منهما قادراً على ما لا نهاية له امتنع كون أحدهما أقدر من الآخر، بل لا بد وأن يستويا في القدرة وإذا استويا في القدرة استحال أن يصير مراد أحدهما أولى بالوقوع من مراد الثاني وإلا لزم ترجيح الممكن من غير مرجح. وثانيهما: أنه إذا وقع مراد أحدهما دون الآخر فالذي وقع مراده يكون قادراً والذي لم يقع مراده يكون عاجزاً والعجز نقص، وهو على الإله محال. ولو فرضنا إلهين، لكان كل واحد منهما قادراً على جميع المقدورات فيفضي إلى وقوع مقدور من قادرين مستقلين من وجه واحد، وهو محال لأن إسناد الفعل إلى الفاعل إنما كان لإمكانه، فإذا كان كل واحد منهما مستقلاً بالإيجاد فالفعل لكونه مع هذا يكون واجب الوقوع فيستحيل إسناده إلى هذا لكونه حاصلاً منهما جميعاً، فيلزم استغناؤه عنهما معاً واحتياجه إليهما معاً، وذلك محال وهذه حجة تامة في مسألة التوحيد فنقول القول بوجود إلهين يفضي إلى امتناع وقوع المقدور بواحد منهما، وإذا كان كذلك وجب أن لا يقع البتة وحينئذ يلزم وقوع الفساد قطعاً، أو نقول لو قدرنا إلهين فإما أن يتفقا أو يختلفا، فإن اتفقا على الشيء الواحد فذلك الواحد مقدور لهما ومراد لهما فيلزم وقوعه بهما، وهو محال وإن اختلفا فإما أن يقع المرادن أو لا يقع واحد منهما أو يقع أحدهما دون الثاني والكل محال فثبت أن الفساد لازم على كل التقديرات. واعلم أنك إذا وقفت على حقيقة هذه الدلالة عرفت أن جميع ما في العالم العلوي والسفلي من المحدثات والمخلوقات فهو دليل على وحدانية الله تعالى.

وأما الدلائل السمعية على الوحدانية فكثيرة في القرآن، واعلم أن كل من طعن في دلالة التمانع ففسر الآية بأن المراد لو كان في السماء والأرض آلهة يقول بإلٰهيتها عبدة الأصنام، لزم فساد العالم لأنها جمادات لا تقدر على تدبير العالم فلزم إفساد العالم قالوا وهذا أولى لأنه تعالى حكى عنهم في قوله: **﴿أم اتخذوا آلهة من الأرض هم ينشرون﴾** ثم ذكر الدلالة على فساد هذا فوجب أن يختص الدليل به وأما قوله **﴿فسبحان الله رب العرش عما يصفون﴾** ففيه تنزيه الله سبحانه وتعالى عما يصفه به المشركون من الشريك والولد **﴿لا يسأل عما يفعل﴾** يعني لا يسأل عما يفعله ويقضيه في

عبادته ﴾، ولا يأنفون عن عبادته ولا يتعظمون عنها، **﴿ ولا يستحسرون ﴾**، لا يعيون، يقال: حسر واستحسر إذا تعب وأعيا. وقال السدي: لا ينقطعون عن العبادة.

﴿ يُسبِّحُون الليلَ والنهارَ لا يفترون ﴾، لا يضعفون، قال كعب الأحبار: التسبيح لهم كالنَّفَسِ لبني آدم.

﴿ أمِ اتّخذُوا آلهةً ﴾ استفهام بمعنى الجحد أي لم يتخذوا، **﴿ من الأرض ﴾**، يعني الأصنام من الخشب والحجارة وهما من الأرض، **﴿ هم ينشرون ﴾**، يحيون الأموات، ولا يستحق الإلهية إلاّ مَن يقدر على الإحياء والإيجاد من العدم والإنعام بأبلغ وجوه النِّعَم.

﴿ لو كان فيهما ﴾، يعني في السماء والأرض، **﴿ آلهةٌ إلاّ الله ﴾**، يعني غير الله، **﴿ لفسدَتَا ﴾**، لخربتا وهلك مَن فيهما بوجود التمانع بين الآلهة لأن كل أمر صدر عن اثنين فأكثر لم يجرِ على النظام، ثم نزّه نفسه فقال: **﴿ فسبحانَ اللّهِ ربِّ العرشِ عمّا يصفون ﴾**، يعني عمّا يصفه به المشركون من الشريك والولد.

خلقه ﴿وهم يسألون﴾ يعني والناس عن أعمالهم، والمعنى أنه لا يسأل عما يحكم في عباده من إعزاز وإذلال وهدى وإضلال وإسعاد وإشقاء، لأنه الرب مالك الأعيان والخلق يسألون سؤال توبيخ. يقال لهم يوم القيامة لم فعلتم كذا لأنهم عبيد يجب عليهم امتثال أمر مولاهم. والله تعالى ليس فوقه أحد يقول له لشيء فعله لم فعلته قوله عز وجل:

أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ ۖ هَـٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى ۗ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ
فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ
ٱلرَّحْمَـٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَـٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا
بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ ۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ
إِلَـٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ
كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَـٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ
وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَـٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾
وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾

﴿أم اتخذوا من دونه آلهة﴾ لما أبطل الله تعالى أن تكون آلهة سواه، بقوله لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا أنكر عليهم اتخاذهم الآلهة فقال أم اتخذوا من دونه آلهة وهو استفهام إنكار وتوبيخ ﴿قل هاتوا برهانكم﴾ أي حجتكم على ذلك ثم قال مستأنفاً ﴿هذا﴾ يعني القرآن ﴿ذكر من معي﴾ يعني فيه خبر من معي على ديني ومن يتبعني إلى يوم القيامة بما لهم من الثواب على الطاعة والعقاب على المعصية ﴿وذكر﴾ يعني خبر ﴿من قبلي﴾ أي من الأمم السالفة وما فعل بهم في الدنيا وما يفعل بهم في الآخرة.

وقال ابن عباس ذكر من معي القرآن وذكر من قبلي التوراة والإنجيل، والمعنى راجعوا القرآن والتوراة والإنجيل وسائر الكتب، هل تجدون فيها أن الله اتخذ ولداً أو كان معه آلهة ﴿بل أكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون﴾ قوله

﴿ لا يُسئَلُ عمّا يفعل ﴾، ويحكم على خلقه لأنه الربُّ ﴿ وهم يُسئلون ﴾، عن أفعالهم وأعمالهم لأنهم عبيد.

﴿ أم اتخذوا من دونه آلهةً ﴾، استفهام إنكار وتوبيخ، ﴿ قلْ هاتُوا برهانَكم ﴾، يعني حجتكم على ذلك. ثم قال مستأنفاً، ﴿ هذا ﴾، يعني القرآن. ﴿ ذكر مَن معي ﴾، فيه خبر مَن معي على ديني ومَن تبعني إلى يوم القيامة بما لهم من الثواب على الطاعة والعقاب على المعصية. ﴿ وذكر ﴾، خبر، ﴿ مَنْ قبلي ﴾، من الأمم السالفة ما فعل بهم في الدنيا وما يفعل بهم في الآخرة. وعن ابن عباس في رواية عطاء: ذكر مَن معي: القرآن، وذكر مَن قبلي: التوراة والإنجيل، ومعناه: راجعوا القرآن والتوراة والإنجيل وسائر الكتب هل تجدون فيها أنّ الله اتخذ ولداً، ﴿ بل أكثرهم لا يعلمون الحق فهم مُعرِضون ﴾.

﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نُوحي إليه ﴾، قرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم نوحي إليه بالنون وكسر الحاء على التعظيم، لقوله: ﴿ وما أرسلناك ﴾ [الإسراء: ٥٤، الأنبياء: ١٠٧، الفرقان: ٥٦، سبأ: ٢٨]، وقرأ الآخرون بالياء وفتح الحاء على الفعل المجهول، ﴿ أنه لا إلَه إلاّ أنا فاعبدون ﴾، وحّدون.

عز وجل: ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون﴾ أي فوحدوني، وقيل لما توجهت الحجة عليهم، ذمهم على جهلهم بمواضع الحق، فقال بل أكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون، أي عن التأمل والتفكر وما يجب عليهم من الإيمان بأنه لا إله إلا هو. قوله تعالى: ﴿وقالوا اتخذ الرحمن ولداً﴾ نزلت في خزاعة حيث قالوا الملائكة بنات الله ﴿سبحانه﴾ نزه نفسه عما قالوا. ﴿بل عباد﴾ أي هم عباد يعني الملائكة ﴿مكرمون﴾ أي أكرمهم الله واصطفاهم ﴿لا يسبقونه﴾ أي لا يتقدمونه ﴿بالقول﴾ أي لا يتكلمون إلا بما يأمرهم به ﴿وهم بأمره يعملون﴾ المعنى أنهم لا يخالفونه قولاً ولا عملاً ﴿يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم﴾ أي ما عملوا وما هم عاملون وقيل ما كان قبل خلقهم وما يكون بعد خلقهم ﴿ولا يشفعون إلا لمن ارتضى﴾ قال ابن عباس إلا لمن قال لا إله إلا الله وقيل إلا لمن رضى الله تعالى عنه ﴿وهم من خشيته مشفقون﴾ أي خائفون وجلون لا يأمنون مكره ﴿ومن يقل منهم إني إله من دونه﴾ قيل عنى به إبليس حيث دعا إلى عبادة نفسه فإن أحداً من الملائكة لم يقل إني إله من دون الله ﴿فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزي الظالمين﴾ أي الواضعين الإلهية والعبادة في غير موضعها.

قوله عزّ وجلّ ﴿أولم ير الذين كفروا﴾ أي ألم يعلم الذين كفروا ﴿أن السموات والأرض كانتا رتقاً﴾ قال ابن عباس كانتا شيئاً واحداً ملتزقتين ﴿ففتقناهما﴾ أي فصلنا بينهما بالهواء. قال كعب: خلق الله السموات والأرض بعضها

﴿ وقالوا اتخذ الرحمن ولداً ﴾، نزلت في خزاعة حيث قال الملائكة بنات الله، ﴿ سبحانه ﴾، نزّه نفسه عمّا قالوا، ﴿ بل عبادٌ ﴾، أي هم عباد، يعني الملائكة، ﴿ مكرمون ﴾.

﴿ لا يسبقونه بالقول ﴾، لا يتقدمونه بالقول ولا يتكلمون إلّا بما يأمرهم به، ﴿ وهم بأمره يعملون ﴾، معناه أنهم لا يخالفونه قولاً ولا عملاً.

﴿ يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ﴾، أي ما عملوا وما هم عاملون. وقيل: ما كان قبل خلقهم وما يكون بعد خلقهم، ﴿ ولا يشفعون إلّا لمنِ ارتضى ﴾، قال ابن عباس: أي إلّا لمَن قال لا إلّه إلّا الله، وقال مجاهد: أي لمَن رضي عنه، ﴿ وهم من خشيته مشفقون ﴾، خائفون لا يأمنون مكره.

﴿ ومَن يقل منهم إنّي إلّهٌ من دونه ﴾، قال مقاتل: عنى به إبليس حين دعا إلى عبادة نفسه وأمر بطاعة نفسه، فإن أحداً من الملائكة لم يقل إنّي إلّهٌ من دون الله، ﴿ فذلك نجزيه جهنّم كذلك نجزي الظالمين ﴾، الواضعين الإلّهية والعبادة في غير موضعها.

﴿ أوَ لَم يرَ الذين كفروا ﴾، قرأ العامّة بالواو وقرأ ابن كثير ﴿ لَمْ يرَ ﴾ بغير واو، وكذلك هو في مصاحفهم، معناه: ألم يعلم الذين كفروا، ﴿ أنّ السمٰواتِ والأرضَ كانتا رَتْقاً ﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما والضحاك وعطاء وقتادة: كانتا شيئاً واحداً ملتزقتين، ﴿ ففتقناهما ﴾، فصلنا بينهما بالهواء والرتق في اللغة السدّ، والفتق الشق، قال كعب: خلق الله السمٰواتِ والأرض بعضها على بعض، ثم خلق ريحاً فوسطها ففتحهما بها. قال مجاهد والسدي: كانت السـمٰوات مرتقة طبقة واحدة ففتقها وجعلها سبع سـمٰوات، وكذلك الأرض كانت مرتقة طبقة واحدة ففتحها فجعلها سبع أرضين. قال عكرمة وعطية: كانت السـمٰوات السماء رتقاً لا تمطر والأرض رتقاً لا تنبت، ففتق السماء بالمطر والأرض بالنبات. وإنما قال: ﴿ رتقاً ﴾ على التوحيد وهو من نعت السـمٰوات والأرض لأنه مصدر وُضع موضع الاسم، مثل الزور والصوم ونحوهما، ﴿ وجعلنا ﴾، وخلقنا، ﴿ من الماء كل شيء حيّ ﴾، أي أحيينا بالماء الذي ينزل من السماء كل شيء حيّ أي من الحيوان ويدخل فيه النبات والشجر، يعني أنه سبب لحياة كل شيء. والمفسّرون يقولون: يعني أن كل شيء حيّ فهو مخلوق من الماء. لقوله تعالى: ﴿ والله

على بعض، ثم خلق ريحاً بوسطهما ففتحهما بها، وقيل كانت السموات مرتتقة طبقة واحدة، ففتقها وجعلها سبع سموات وكذلك الأرض، وقيل كانت السماء رتقاً لا تمطر، والأرض رتقاً لا تنبت، ففتق السماء بالمطر والأرض بالنبات ﴿**وجعلنا من الماء كل شيء حي**﴾ أي وأحيينا بالماء الذي ينزل من السماء كل شيء، من الحيوان ويدخل فيه النبات والشجر، وذلك لأنه سبب لحياة كل شيء، وقال المفسرون: معناه أن كل شيء حي فهو مخلوق من الماء وقيل يعني النطفة. فإن قلت قد خلق الله بعض ما هو حي من غير الماء كآدم وعيسى والملائكة والجان. قلت خرج هذا الأمر مخرج الأغلب والأكثر يعني أن أكثر ما على وجه الأرض مخلوق من الماء أو بقاؤه بالماء ﴿**أفلا يؤمنون**﴾ أي أفلا يصدقون ﴿**وجعلنا في الأرض رواسي**﴾ أي جبالاً ثوابت ﴿**أن تميد بهم**﴾ أي لئلا تميد بهم، قيل إن الأرض بسطت على الماء فكانت تتحرك كما تتحرك السفينة في الماء فأرساها الله فأثبتها بالجبال ﴿**وجعلنا فيها**﴾ أي في الرواسي ﴿**فجاجاً**﴾ أي طرقاً ومسالك والفج الطريق الواسع بين الجبلين ﴿**سبلاً**﴾ هو تفسير الفجاج ﴿**لعلهم يهتدون**﴾ أي إلى مقاصدهم ﴿**وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً**﴾ أي من أن يسقط ويقع وقيل محفوظاً من الشياطين بالشهب ﴿**وهم**﴾ يعني الكفار ﴿**عن آياتها معرضون**﴾ أي عما خلق الله فيها من الشمس والقمر والنجوم، وكيفية حركاتها في أفلاكها ومطالعها ومغاربها، والترتيب العجيب الدال على الحكمة البالغة والقدرة القاهرة، لا يتفكرون ولا يعتبرون بها ﴿**وهو الذي خلق الليل والنهار والشمس والقمر كل في فلك يسبحون**﴾ أي يجرون ويسيرون بسرعة كالسابح في الماء.

وإنما قال يسبحون ولم يقل تسبح، على ما يقال لما لا يعقل لأنه ذكر عنها فعل العقلاء، وهو السباحة والجري. والفلك مدار النجوم الذي يضمها وهو في كلام العرب كل شيء مستدير، وجمعه أفلاك وقيل الفلك طاحونة كهيئة فلك المغزل، يريد أن الذي تجري فيه النجوم مستدير كاستدارة الرحى، وقيل الفلك السماءالذي فيه ذلك الكوكب فكل كوكب يجري في السماء الذي قدر فيه، وقيل الفلك استدارة السماء، وقيل الفلك موج مكفوف

خلق كل دابّة من ماء ﴾ [النور: ٤٥]، قال أبو العالية: يعني النطفة، فإن قيل: قد خلق الله بعض ما هو حيّ من غير الماء؟ قيل: هذا على وجه التفكير، يعني أن أكثر الأحياء في الأرض مخلوق من الماء أو بقاؤه بالماء، ﴿ **أفلا يؤمنون** ﴾.

﴿ **وجعلنا في الأرض رواسيَ** ﴾، أي جبالاً ثوابت، ﴿ **أن تميد بهم** ﴾، لئلا تميد بهم، ﴿ **وجعلنا فيها** ﴾، في الرواسي، ﴿ **فجاجاً** ﴾، طرقاً ومسالك، والفجّ الطريق الواسع بين الجبلين، أي جعلنا بين الجبال طرقاً كي يهتدوا إلى مقاصدهم، ﴿ **سُبلاً** ﴾، تفسير للفجاج، ﴿ **لعلّهم يهتدون** ﴾.

﴿ **وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً** ﴾، من أن تسقط، دليله قوله تعالى: ﴿ ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلاّ بإذنه ﴾ [الحج: ٦٥]، وقيل: محفوظاً من الشياطين بالشهب، دليله قوله تعالى: ﴿ وحفظناها من كل شيطان رجيم ﴾ [الحجر: ١٧]، ﴿ **وهم** ﴾، يعني الكفّار، ﴿ **عن آياتها** ﴾، أي عن ما خلق الله فيها من الشمس والقمر والنجوم وغيرها، ﴿ **مُعرضون** ﴾، لا يتفكرون فيها ولا يعتبرون بها.

﴿ **وهو الذي خلق الليلَ والنهارَ والشمسَ والقمرَ كلٌّ في فلكٍ يسبحون** ﴾، يجرون ويسيرون بسرعة كالسابح في الماء، وإنما قال: ﴿ **يسبحون** ﴾، ولم يقل تسبح على ما يقال لما لا يعقل لأنه ذكر عنها فعل العقلاء من الجري والسبح، فذكر على ما يعقل، والفلك مدار النجوم الذي يضمها، والفلك في كلام العرب كل شيء مستدير وجمعه أفلاك، ومنه فلكة المغزل، وقال الحسن: الفلك طاحونة كهيئة فلكة المغزل، يريد أن الذي يجري فيه النجوم مستدير كاستدارة الطاحونة. قال الضحاك: فَلَكُها مجراها وسرعة سيرها. قال مجاهد: كهيئة حديد الرحى.

دون السماء تجري فيه الشمس والقمر والنجوم، وقال أصحاب الهيئة الأفلاك أجرام صلبة لا ثقيلة ولا خفيفة غير قابلة للخرق والالتئام والنمو والذبول، والحق أنه لا سبيل إلى معرفة صفة السموات إلا بأخبار الصادق فسبحان الخالق المدبر لخلقه بالحكمة والقدرة الباهرة غير المتناهية. قوله عزّ وجلّ:

﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٦﴾ خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾﴾

﴿وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد﴾ يعني الدوام والبقاء في الدنيا ﴿أفإن مت فهم الخالدون﴾ نزلت هذه الآية حين قالوا نتربص بمحمد ريب المنون نشمت بموته، فنفى الله الشماتة عنه بهذا والمعنى أن الله تعالى قضى أن لا يخلد في الدنيا بشراً لا أنت ولا هم فإن مت أنت أفيبقى هؤلاء وفي معناه قول القائل:

فقل للشامتين بنا أفيقوا سيلقى الشامتون كما لقينا

﴿كل نفس ذائقة الموت﴾ هذا العموم مخصوص بقوله تعالى: تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك فإن الله تعالى حي لا يموت ولا يجوز عليه الموت. والذوق هاهنا عبارة عن مقدمات الموت وآلامه العظيمة قبل حلوله ﴿ونبلوكم﴾ أي نختبركم ﴿بالشر والخير﴾ أي بالشدة والرخاء والصحة والسقم والغنى والفقر، وقيل مما تحبون وما

وقال بعضهم: الفلك السماء الذي فيه ذلك الكوكب، فكل كوكب يجري في السماء الذي قدّر فيه، وهو معنى قول قتادة، وقال الكلبي: الفلك استدارة السماء. وقال آخرون: الفلك موج مكفوف دون السماء تجري فيه الشمس والقمر والنجوم.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد ﴾، دوام البقاء في الدنيا، ﴿ أفإنْ متَّ فهم الخالدون ﴾، أي أفهم الخالدون إن متّ، قيل: نزلت هذه الآية حين قالوا نتربص بمحمد ريب المنونِ.

﴿ كلُّ نفسٍ ذائقة الموت ونبلوكم ﴾، نختبركم ﴿ بالشرّ والخير ﴾، بالشدة والرخاء والصحة والسقم والغنى والفقر، وقيل: بما تحبّون وما تكرهون، ﴿ فتنةً ﴾، ابتلاءً لننظر كيف شكرتم فيما تحبّون، وصبركم فيما تكرهون، ﴿ وإلينا ترجعون ﴾.

﴿ وإذا رآك الذين كفروا إنْ يتخذونك ﴾، ما يتخذونك، ﴿ إلاّ هُزُواً ﴾، سخرياً، قال السدي: نزلت في أبي جهل مرّ به النبي ﷺ فضحك، وقال: هذا نبيُّ بني عبد مناف، ﴿ أهذا الذي ﴾، أي يقول بعضهم لبعض أهذا الذي، ﴿ يذكر آلهتكم ﴾، أي يعيبها، يقال: فلان يذكر فلاناً أي يعيبه، وفلان يذكر الله أي يُعظّمه ويُبجّله،

تكرهون ﴿فتنة﴾ أي ابتلاء لننظر كيف شكركم فيما تحبون وصبركم فيما تكرهون ﴿وإلينا ترجعون﴾ أي للحساب والجزاء. قوله عزّ وجلّ ﴿وإذا رآك الذين كفروا إن﴾ أي ما ﴿يتخذونك إلا هزواً﴾ أي سخرياً قيل نزلت في أبي جهل مر به النبي ﷺ فضحك وقال هذا نبي بني عبد مناف ﴿أهذا الذي يذكر آلهتكم﴾ أي يقول بعضهم لبعض أهذا الذي يعيب ألهتكم والذكر يطلق على المدح والذم مع القرينة ﴿وهم بذكر الرحمن هم كافرون﴾ وذلك أنهم كانوا يقولون لا نعرف الرحمن إلا رحمن اليمامة وهو مسيلمة الكذاب قوله تعالى ﴿خلق الإنسان من عجل﴾، قيل معناه أن بنيته وخلقته من العجلة وعليها طبع، وقيل لما دخل الروح في رأس آدم وعينيه نظر إلى ثمار الجنة فلما دخل في جوفه اشتهى الطعام فوثب قبل أن تبلغ الروح إلى رجليه عجلاً إلى ثمار الجنة، فوقع فقيل خلق الإنسان من عجل وأورث بنيه العجلة وقيل معناه خلق الإنسان من تعجيل في خلق الله إياه، لأن خلقه كان بعد كل شيء في آخر النهار يوم الجمعة، فأسرع في خلقه قبل مغيب الشمس فلما أحيا الروح رأسه قال يا رب استعجل بخلقي قبل غروب الشمس، وقيل خلق بسرعة وتعجيل على غير قياس خلق بنيه لأنهم خلقوا من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة أطواراً أطواراً طوراً بعد طور وقيل خلق الإنسان من عجل أي من طين قال الشاعر:

والنـخـل ينبت بيـــن المـــاء والعـجـل

أي بين الماء والطين. وقيل أراد بالإنسان النوع الإنساني يدل عليه قوله ﴿سأريكم آياتي فلا تستعجلون﴾ وذلك أن المشركين كانوا يستعجلون العذاب، وقيل نزلت في النضر بن الحرث، ومعنى سأريكم آياتي أي مواعيدي فلا

﴿ وهم بذكر الرحمن هم كافرون ﴾، وذلك أنهم كانوا يقولون لا نعرف الرحمن إلّا مسيلمة، و﴿ هم ﴾ الثانية صلة.

﴿ خُلق الإنسانُ من عجل ﴾، اختلفوا فيه، فقال قوم: معناه أن بنيته وخلقته من العجلة وعليها طبع، كما قال الله تعالى: ﴿ وكان الإنسان عجولاً ﴾ [الإسراء: ١١] قال سعيد بن جبير والسدي: لمّا دخلت الروح في رأس آدم وعينيه نظر إلى ثمار الجنة، فلما دخلت في جوفه اشتهى الطعام، فوثب قائماً قبل أن تبلغ الروح إلى رجليه عجلاً إلى ثمار الجنة، فوقع، فقيل: ﴿ خُلق الإنسانُ من عجل ﴾، والمراد بالإنسان آدم، وأورث أولاده العجلة، والعرب تقول للذي يكثر منه الشيء: خلقت منه، كما يقول: خلقت من تعب وخلقت من غضب، تريد المبالغة في وصفه بذلك، يدلّ على هذا قوله تعالى: ﴿ وكان الإنسان عجولاً ﴾ [الإسراء: ١١]، وقال قوم: معناه خُلق الإنسانُ يعني آدم من تعجيل في خلق الله إيّاه، لأن خلقه كان بعد خلق كل شيء في آخر النهار يوم الجمعة، فأسرع في خلقه قبل مغيب الشمس. وقال مجاهد: فلما أحيا الروح رأسه يا ربِّ استعجل بخلقي قبل غروب الشمس. وقيل: بسرعة وتعجيل على غير ترتيب خلق سائر الآدميين من النطفة ثم العلقة ثم المضغة وغيرها. وقال قوم: من عجل أي من طين قال الشاعر:

والنبع في صخرة الصمّاء منبتة والنخل ينبت بين الماء والعجل

﴿ سأُريكم آياتي فلا تستعجلون ﴾، هذا خطاب للمشركين، نزل هذا في المشركين كانوا يستعجلون بالعذاب ويقولون أمطر علينا حجارة من السـماء، وقيل: نزلت في النضر بن الحارث، فقال تعالى: ﴿ سأُريكم آياتي ﴾ أي مواعيدي فلا تستعجلون، أي فلا تطلبوا العذاب من وقته، فأراهم يوم بدر، وقيل: كانوا يستعجلون القيامة.

﴿ ويقولون متى هذا الوعد إنْ كنتم صادقين ﴾، فقال تعالى: ﴿ لو يعلم الذين كفروا حين لا يَكُفُّون ﴾، لا

تطلبوا العذاب قبل وقته فأراهم يوم بدر، وقيل كانوا يستعجلون القيامة فلذلك قال تعالى ﴿**ويقولون**﴾ يعني المشركين ﴿**متى هذا الوعد إن كنتم صادقين**﴾ وهذا هو الاستعجال المذموم المذكور على سبيل الاستهزاء فبين تعالى أنهم إنما يقولون ذلك لجهلهم وغفلتهم، ثم بين ما لهؤلاء المستهزئين فقال تعالى: ﴿**لو يعلم الذين كفروا حين لا يكفون**﴾ يعني لا يدفعون ﴿**عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم**﴾ قيل السياط ﴿**ولا هم ينصرون**﴾ أي لا يمنعون من العذاب والمعنى لو علموا لما أقاموا على كفرهم ولما استعجلوا بالعذاب ولما قالوا متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ﴿**بل تأتيهم**﴾ يعني الساعة ﴿**بغتة**﴾ أي فجأة ﴿**فتبهتهم**﴾ أي تحيرهم ﴿**فلا يستطيعون ردها**﴾ أي صرفها ودفعها عنهم ﴿**ولا هم ينظرون**﴾ أي لا يمهلون للتوبة والمعذرة ﴿**ولقد استهزىء برسل من قبلك**﴾ أي يا محمد كما استهزأ بك قومك ﴿**فحاق**﴾ أي نزل وأحاط ﴿**بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون**﴾ أي عقوبة استهزائهم وفيه تسلية للنبي ﷺ أي فكذلك يحيق بهؤلاء وبال استهزائهم.

قوله تعالى ﴿**قل من يكلؤكم**﴾ أي يحفظكم ﴿**بالليل**﴾ إذا نمتم ﴿**والنهار**﴾ إذا انصرفتم في معايشكم ﴿**من الرحمن**﴾ قال ابن عباس معناه من يمنعكم من عذاب الرحمن ﴿**بل هم عن ذكر ربهم**﴾ أي عن القرآن ومواعظه ﴿**معرضون**﴾ أي لا يتأملون في شيء منها ﴿**أم لهم آلهة تمنعهم من دوننا**﴾ معناه ألهم آلهة من دوننا تمنعهم ثم وصف آلهتهم بالضعف فقال ﴿**لا يستطيعون نصر أنفسهم**﴾ أي لا يقدرون على نصر أنفسهم فكيف ينصرون من عبدهم ﴿**ولا هم منا يصحبون**﴾ قال ابن عباس يمنعون وقيل يجارون وقيل ينصرون وقيل معناه لا يصبحون من الله بخير.

بَلْ مَتَّعْنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۗ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ
أَطْرَافِهَآ ۚ أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْىِ ۚ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾
وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ

يدفعون ﴿ **عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم** ﴾، قيل: ولا عن ظهورهم السِّياط، ﴿ **ولا هم يُنصرون** ﴾، يمنعون من العذاب، وجواب لو في قوله: ﴿ **لو يعلم الذين** ﴾ محذوف معناه: وعلموا لما أقاموا على كفرهم، ولما استعجلوا، ولا قالوا متى هذا الوعد.

﴿ **بل تأتيهم** ﴾، يعني الساعة ﴿ **بغتة** ﴾، فجأة، ﴿ **فتبهتهم** ﴾، أي تحيّرهم، يقال فلان مبهوت أي متحيّر، ﴿ **فلا يستطيعون ردّها ولا هم ينظرون** ﴾، يمهلون.

﴿ **ولقد استُهزىء برسل من قبلك فحاق** ﴾، نزل، ﴿ **بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزؤون** ﴾، أي جزاء استهزائهم.

﴿ **قلْ مَن يكلؤكم** ﴾، يحفظكم، ﴿ **بالليل والنهار من الرحمن** ﴾، إن أنزل بكم عذابه، وقال ابن عباس: مَن يمنعكم من عذاب الرحمن، ﴿ **بل هم عن ذكر ربهم** ﴾، عن القرآن ومواعظ الله، ﴿ **معرضون** ﴾.

﴿ **أمْ لهم** ﴾، أي: صلة فيه، وفي أمثاله ﴿ **آلهة تمنعهم من دوننا** ﴾، فيه تقديم وتأخير، تقديره: أم لهم آلهة من دوننا تمنعهم، ثم وصف الآلهة بالضعف، فقال تعالى: ﴿ **لا يستطيعون نصر أنفسهم** ﴾، منع أنفسهم، فكيف ينصرون عابديهم، ﴿ **ولا هم منّا يُصْحَبُون** ﴾، قال ابن عباس: يمنعون. وقال عطية: عنه يجارون، تقول العرب: أنا لك جار وصاحب من فلان، أي مجير منه. وقال مجاهد: ينصرون ويحفظون. وقال قتادة: لا يصبحون من الله بخير.

ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾ وَلَقَدْ
ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ
مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ ۚ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ
عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾
قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟
مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾

﴿بل متعنا هؤلاء﴾ يعني الكفار ﴿وآباءهم﴾ أي في الدنيا بأن أنعمنا عليهم وأمهلناهم ﴿حتى طال عليهم العمر﴾ أي امتد بهم الزمان فاغتروا ﴿أفلا يرون﴾ يعني هؤلاء المشركين ﴿أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها﴾ يعني ننقص من أطراف المشركين، ونزيد من أطراف المؤمنين يريد بذلك ظهور النبي ﷺ وفتحه ديار الشرك أرضاً فأرضاً وقرية فقرية، والمعنى أفلا يرى هؤلاء المشركون بالله المستعجلون بالعذاب آثار قدرتنا في إتيان الأرض من جوانبها بأخذ الواحد، بعد الواحد وفتح البلاد والقرى مما حول مكة وإدخالها في ملك محمد ﷺ، وموت رؤوس المشركين المتنعمين بالدنيا، أما كان لهم عبرة في ذلك فيؤمنوا بمحمد ﷺ ويعلموا أنهم لا يقدرون على الامتناع منا ومن إرادتنا فيهم ثم قال ﴿أفهم الغالبون﴾ استفهام بمعنى التقريع معناه بل نحن الغالبون وهم المغلوبون ﴿قل﴾ يا محمد ﴿إنما أنذركم بالوحي﴾ أي أخوفكم بالقرآن ﴿ولا يسمع الصم الدعاء إذا ما ينذرون﴾ أي يخوفون ﴿ولئن مستهم﴾ أي أصابتهم ﴿نفحة من عذاب ربك﴾ قال ابن عباس طرف وقيل شيء قليل ﴿ليقولن يا ويلنا إنا كنا ظالمين﴾ دعوا على أنفسهم بالويل بعد ما أقروا على أنفسهم بالظلم والشرك. قوله عزّ وجلّ ﴿ونضع الموازين القسط﴾ أي ذوات العدل وصفها بذلك لأن الميزان قد يكون مستقيماً وقد يكون بخلافه فبين أن تلك الموازين تجري على حد العدل ومعنى وضعها إحضارها ﴿ليوم القيامة﴾ أي لأهل يوم القيامة قيل المراد بالميزان العدل والقسط بينهم في الأعمال، فمن أحاطت حسناته بسيئاته فاز ونجا وبالعكس ذل وخسر، والصحيح الذي عليه أئمة السلف أن الله سبحانه وتعالى يضع الموازين الحقيقية ويزن بها أعمال العباد، وقال الحسن هو ميزان له كفتان ولسان وأكثر الأقوال أنه ميزان واحد وإنما

﴿ بل متّعنا هؤلاء ﴾، الكفّار، ﴿ وآباءهم ﴾، في الدنيا أي أمهلناهم. وقيل: أعطيناهم النعمة، ﴿ حتى طال عليهم العُمُرُ ﴾، أي امتدّ بهم الزمان فاغترّوا، ﴿ أفلا يرون أنّا نأتي الأرضَ ننقصُها من أطرافها ﴾، أي ما ننقص من أطراف المشركين ونزيد في أطراف المؤمنين، يريد ظهور النبي ﷺ وفتحه ديار الشرك أرضاً فأرضاً، ﴿ أفهم الغالبون ﴾، أم نحن.

﴿ قلْ إنّما أُنذِرُكم بالوحي ﴾، أي أُخوّفكم بالقرآن، ﴿ ولا يسمع الصمُّ الدعاءَ ﴾، قرأ ابن عباس رضي الله عنهما بالتاء وضمّها وكسر الميم، «الصـمّ» نصباً، جعل الخطاب للنبي ﷺ، وقرأ الآخرون بالياء وفتحها وفتح الميم، «الصـمّ» رفع، ﴿ إذا ما يُنْذَرُون ﴾، يخوّفون.

﴿ ولئن مسّتهم ﴾، أصابتهم ﴿ نفحة ﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما طرف. وقيل: قليل. وقال ابن جريج: نصيب، من قولهم نفح فلان لفلان من ماله أي أعطاه حظّاً ونصيباً منه. وقيل: ضربة من قولهم نفحت

جمع لاعتبار تعدد الأعمال الموزونة به. وروي أن داود عليه الصلاة والسلام سأل ربه عزّ وجلّ أن يريه الميزان فأراه كل كفته ما بين المشرق والمغرب فلما رآه غشي عليه، ثم فاق فقال إلهي من الذي يقدر أن يملأ كفته حسنات؟ قال يا داود إني إذا رضيت عن عبدي ملأتها بتمرة. فعلى هذا ففي كيفية وزن الأعمال مع أنها أعراض طريقان: أحدهما: أن توضع صحائف الأعمال فتوضع صحائف الحسنات في كفة، وصحائف السيئات في كفة. والثاني: أن يجعل في كفة الحسنات جواهر بيض مشرقة، وفي كفة السيئات جواهر سود مظلمة. فإن قلت كيف تصنع بقوله ونضع الموازين القسط مع قوله فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً.

قلت هذه في حق الكفار لأنهم ليس لهم أعمال توزن مع الكفر. وقوله تعالى ﴿فلا تظلم نفس شيئاً﴾ يعني لا تبخس مما لها وما عليها من خير وشر شيئاً ﴿وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها﴾ معناه أنه لا ينقص من إحسان محسن، ولا يزاد في إساءه مسيء، وأراد بالحبة الجزء اليسير من الخردل، ومعنى أتينا بها يعني أحضرناها لنجازي بها. عن عبد الله بن عمرو ابن العاص أن رسول الله ﷺ قال «إن الله سيخلص رجلاً من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة فينشر له تسعة وتسعين سجلاً، كل سجل مد البصر، ثم يقول أتنكر من هذا شيئاً، أظلمك كتبتي الحافظون، فيقول لا يارب، فيقول أفلك عذر، فيقول لا يا رب. فيقول الله تعالى بلى إن لك عندنا حسنة فإنه لا ظلم عليك اليوم، فيخرج له بطاقة فيها أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، فيقول أحضر وزنك فيقول يا رب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات فيقال إنك لا تظلم فتوضع السجلات في كفة والبطاقة في كفة، فطاشت السجلات وثقلت البطاقة ولا يثقل مع اسم الله شيء» أخرجه الترمذي. السجل الكتاب الكبير، وأصله من التسجيل لأنه يجمع أحكاماً، والبطاقة ورقة صغيرة تجعل في طي الثوب يكتب فيها ثمنه، والطيش الخفة، قلت في الحديث دليل على أن صحائف الأعمال هي التي توزن، لا أن الأعمال تتجسد جواهر فتوزن والله أعلم. قوله تعالى: ﴿وكفى بنا حاسبين﴾ قال ابن عباس معناه كفى بنا عالمين حافظين لأن من حسب شيئاً فقد علمه وحفظه، والغرض منه التحذير فإن المحاسب

الدابّة برجلها إذا ضربت بها، ﴿ من عذاب ربِّك لَيَقُولُنَّ يا ويلنا إنّا كنّا ظالمين ﴾، أي بإهلاكنا إنّا كنّا مشركين، دعوا على أنفسهم بالويل بعدما أقرّوا بالشرك.

﴿ ونضع الموازين القسط ﴾، أي ذوات القسط والقسط العدل، ﴿ ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً ﴾، أي: لا تنقص من ثواب حسناتها ولا يُزاد على سيآتها، وفي الأخبار: إن الميزان له لسان وكفتان. رُوِيَ أن داود عليه السلام سأل ربه أن يُريه الميزان فأراه كل كفّة ما بين المشرق والمغرب، فغُشي عليه، ثم أفاق فقال: يا إلٓهي مَن الذي يقدر أن يملأ كفّته حسنات؟ فقال: يا داود إني إذا رضيت عن عبدي ملأتها بتمرة، ﴿ وإن كان ﴾، الشيء، ﴿ مثقال حبة ﴾، أي زنة مثقال حبة، ﴿ من خَرْدَلٍ ﴾، قرأ أهل المدينة ﴿ مثقال ﴾ برفع اللام ههنا وفي سورة لقمان [١٦]، يعني وإن وقع مثقال حبة من خردل، ونصبها الآخرون على معنى وإن كان ذلك الشيء مثقال حبّة من خردل، ﴿ أتينا بها ﴾ أحضرناها لنجازي بها، ﴿ وكفى بنا حاسبين ﴾، قال السدي: مُحصين، والحسب معناه: العدّ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: عالمين حافظين، لأن مَن حسب شيئاً علمه وحفظه.

﴿ ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان ﴾، يعني الكتاب المفرّق بين الحق والباطل، وهو التوراة، وقال ابن زيد: الفرقان النصر على الأعداء، كما قال الله تعالى: ﴿ وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان ﴾ [الأنفال: ٤١]، يعني يوم بدر لأنه قال: ﴿ وضياءً ﴾، أدخل الواو فيه أي آتينا موسى النصر والضياء، وهو التوراة. ومَن قال: المراد بالفرقان التوراة، قال: الواو في قوله: ﴿ وضياءً ﴾، زائدة مقحمة، معناه: آتيناه التوراة ضياءً، وقيل: هو صفة أخرى للتوراة، ﴿ وذكراً ﴾، تذكيراً، ﴿ للمتّقين ﴾.

إذا كان في العلم بحيث لا يمكن أن يشتبه عليه شيء وفي القدرة بحيث لا يعجز عن شيء فحقيق بالعاقل أن يكون بأشد الخوف منه ويروى عن الشبلي أنه رؤي في المنام فقيل له ما فعل الله بك فقال:

حاسبونا فدققوا ثم منوا فأعتقوا
هكذا سيمة الملوك بالمماليك يرفقوا

قوله عزّ وجلّ ﴿ولقد آتينا موسى وهٰرون الفرقان﴾ يعني الكتاب المفرق بين الحق والباطل وهو التوراة، وقيل الفرقان النصر على الأعداء فعلى هذا يكون ﴿وضياء﴾ يعني التوراة ومن قال الفرقان هو التوراة جعل الواو زائدة في وضياء والمعنى آتينا موسى التوراة ضياء ﴿وذكراً للمتقين﴾ يعني يتذكرون بمواعظها ويعملون بما فيها ﴿الذين يخشون ربهم بالغيب﴾ أي يخافونه ولم يروه، وقيل يخافونه في الخلوات إذا غابوا عن أعين الناس ﴿وهم من الساعة مشفقون﴾ أي خائفون ﴿وهذا ذكر مبارك أنزلناه﴾ أي كما آتينا موسى التوراة، فكذلك أنزلنا القرآن ذكراً مباركاً، أي هو ذكر لمن آمن به مبارك يتبرك به ويطلب منه الخير ﴿أفأنتم﴾ يا أهل مكة ﴿له منكرون﴾ أي جاحدون. قوله تعالى ﴿ولقد آتينا إبراهيم رشده﴾ أي صلاحه وهداه ﴿من قبل﴾ أي من قبل موسى وهٰرون، وقيل من قبل البلوغ وهو حين خرج من السرب وهو صغير ﴿وكنا به عالمين﴾ أي إنه من أهل الهداية والنبوة ﴿إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل﴾ يعني الصور والأصنام ﴿التي أنتم لها عاكفون﴾ أي مقيمون على عبادتها ﴿قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين﴾ أي فاقتدينا بهم ﴿قال﴾ يعني إبراهيم ﴿لقد كنتم أنتم وآباءكم في ضلال مبين﴾ أي في خطأ بين بعبادتكم إياها ﴿قالوا أجئتنا بالحق﴾ أي بالصدق ﴿أم أنت من اللاعبين﴾ يعنون أجاد أنت فيما تقول أم أنت لاعب ﴿قال بل ربكم رب السمٰوات والأرض الذي فطرهن﴾ أي خلقهن ﴿وأنا على ذلكم من الشاهدين﴾ أي على أنه الإله الذي يستحق العبادة، وقيل شاهد على أنه خالق السمٰوات والأرض ﴿وتالله لأكيدن أصنامكم﴾ أي لأمكرن بها ﴿بعد أن تولوا مدبرين﴾ أي منطلقين إلى عيدكم، قيل إنما قال إبراهيم هذا القول سراً في نفسه، ولم يسمع ذلك إلا رجل واحد من قومه فأفشاه

﴿ الذين يخشون ربَّهم بالغيب ﴾، أي يخافونه ولم يروه، ﴿ وهُمْ من الساعة مشفقون ﴾، خائفون.

﴿ وهذا ذكرٌ مبارك ﴾، يعني القرآن وهو ذكر لمَن تذكَّر به مبارك لمَن يتبرك به ويطلب منه الخير، ﴿ أنزلناه أفأنتم ﴾، يا أهل مكة، ﴿ له منكرون ﴾، جاحِدون، هذا استفهام توبيخ وتعبير.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ ولقد آتينا إبراهيمَ رُشدَه ﴾، قال القرطبي: أي صلاحه، ﴿ من قبل ﴾، يعني من قبل موسى وهارون، وقال المفسِّرون: رشده من قبل، أي هداه من قبلِ البلوغ، وهو حين خرج من السرب وهو صغير، يريد هَدينا صغيراً كما قال تعالى ليحيىٰ عليه السلام: ﴿ وآتيناه الحكم صبياً ﴾ [مريم: ١٢]، ﴿ وكنّا به عالمين ﴾، أنه أهل للهداية والنبوّة.

﴿ إذْ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل ﴾، أي الصور، يعني الأصنام ﴿ التي أنتم لها عاكفون ﴾، يعني على عبادتها مقيمون.

﴿ قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين ﴾، فاقتدينا بهم.

﴿ قال ﴾، إبراهيم، ﴿ لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين ﴾، خطأ بيِّن بعبادتكم إيّاها.

﴿ قالوا أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين ﴾، يعنون أجادٌ أنت فيما تقول أم لاعب؟

﴿ قال بل ربُكم ربُّ السمٰواتِ والأرض الذي فطرهنّ ﴾، خلقهنّ، ﴿ وأنا على ذلكم من الشاهدين ﴾،

عليه، وهو القائل إنا سمعنا فتى يذكرهم، وقيل كان لهم في كل سنة مجمع وعيد فكانوا إذا رجعوا من عيدهم دخلوا على الأصنام فسجدوا لها ثم رجعوا إلى منازلهم فلما كان ذلك العيد قال أبو إبراهيم يا إبراهيم لو خرجت معنا إلى عيدنا أعجبك ديننا فخرج معهم إبراهيم، فلما كان ببعض الطريق ألقى نفسه إلى الأرض وقال إني سقيم أشتكي رجلي فتركوه ومضوا، فنادى في آخرهم وقد بقي ضعفاء الناس تالله لأكيدن أصنامكم فسمعوها منه، ثم رجع إبراهيم إلى بيت الآلهة وهن في بهو عظيم، ومستقبل باب البهو صنم عظيم إلى جنبه صنم أصغر منه والأصنام جنبها إلى جنب بعض كل صنم الذي يليه أصغر منه وهكذا إلى باب البهو، وإذا هم قد جعلوا طعاماً بين يدي الآلهة وقالوا إذا رجعنا وقد بركت الآلهة عليه أكلنا منه، فلما نظر إبراهيم إليهم وإلى ما بين أيديهم من الطعام قال لهم على طريق الاستهزاء «ألا تأكلون» فلما لم يجيبوه قال «ما لكم لا تنطقون فراغ عليهم ضرباً باليمين» وجعل يكسرهن بفأس في يده حتى إذا لم يبق إلا الصنم العظيم، علق الفأس في عنقه، وقيل في يده ثم خرج فذلك قوله تعالى.

فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ
ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ
يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن
كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ
عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾
أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ
فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾

﴿**فجعلهم جذاذاً**﴾ أي كسراً وقطعاً ﴿**إلا كبيراً لهم**﴾ أي تركه ولم يكسره ووضع الفأس في عنقه، ثم خرج وقيل

يعني على أنه الإله الذي لا يستحق العبادة غيره. وقيل: من الشاهدين على أنه خالق السمٰوات والأرض.

﴿ **وتالله لأكيدنّ أصنامكم** ﴾، لأمكرنّ بها، ﴿ **بعد أن تولّوا مُدبرين** ﴾، يعني بعد أن تدبروا منطلقين إلى عيدكم. قال مجاهد وقتادة: إنما قال إبراهيم هذا سرّاً من قومه ولم يسمع ذلك إلّا رجل واحد فأفشاه عليه، وقال إنّا سمعنا فتىً يذكرهم يقال له إبراهيم. قال السدي: كان لهم في كل سنة مجمع وعيد فكانوا إذا رجعوا من عيدهم دخلوا على الأصنام فسجدوا لها، ثم عادوا إلى منازلهم، فلما كان ذلك العيد قال أبو إبراهيم له يا إبراهيم لو خرجت معنا إلى عيدنا أعجبك ديننا فخرج معهم إبراهيم فلما كان ببعض الطريق ألقى نفسه، وقال إني سقيم، يقول اشتكى رجل فلما مضوا نادى إبراهيم في آخرهم وقد بقي ضعفاء الناس، ﴿ **وتالله لأكيدنّ أصنامكم** ﴾ فسمعوها منه ثم رجع إبراهيم إلى بيت الآلهة وهنّ في بهو عظيم مستقبل باب البهو صنم عظيم إلى جنبه صنم أصغر منه والأصنام بعضها إلى جنب بعض كل صنم يليه أصغر منه إلى باب البهو، وإذا هم قد جعلوا طعاماً فوضعوه بين يدي الآلهة، وقالوا: إذا رجعنا وقد برّكت الآلهة في طعامنا أكلنا، فلما نظر إليهم إبراهيم وإلى ما بين أيديهم من الطعام، قال لهم على طريق الاستهزاء ألا تأكلون، فلما لم تجبه قال ما لكم لا تنطقون، فراغ عليهم ضرباً باليمين، وجعل يكسرهم بفأس في يده حتى إذا لم يبق إلّا الصنم الأكبر علّق الفأس في عنقه ثم خرج، فذلك قوله عزّ وجلّ.

﴿ **فجعلهم جُذاذاً** ﴾، قرأ الكسائي ﴿ **جِذاذاً** ﴾ بكسر الجيم أي كسراً وقطعاً جمع جذيذ، وهو الهشم مثل

ربطه على يده وكانت اثنين وسبعين صنماً بعضها من ذهب وبعضها من فضة وبعضها من حديد وبعضها من نحاس ورصاص وحجر وخشب وكان الصنم الكبير من الذهب مكللاً بالجواهر في عينيه ياقوتتان تتقدان وقوله ﴿**لعلهم إليه يرجعون**﴾ قيل معناه يرجعون إلى إبراهيم وإلى دينه وما يدعوهم إليه، إذا علموا ضعف الآلهة وعجزها، وقيل معناه لعلهم يرجعون إلى الصنم فيسألونه ما لهؤلاء تكسروا وأنت صحيح والفأس في عنقك، فلما رجع القوم من عيدهم إلى بيت آلهتهم ورأوا أصنامهم مكسرة ﴿**قالوا من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين**﴾ أي في تكسيرها واجترائه عليها ﴿**قالواسمعنا فتى يذكرهم**﴾ أي يسبهم ويعيبهم ﴿**يقال له إبراهيم**﴾ أي هو الذي نظن أنه صنع هذا فبلغ ذلك نمرود الجبار وأشراف قومه ﴿**قالوا فأتوا به على أعين الناس**﴾ أي جيئوا به ظاهراً بمرأى الناس وإنما قاله نمرود ﴿**لعلهم يشهدون**﴾ أي عليه بأنه الذي فعل ذلك كرهوا أن يأخذوه بغير بينة وقيل معناه لعلهم يحضرون عذابه وما يصنع به فلما أتوا به ﴿**قالوا**﴾ له ﴿**أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم قال**﴾ يعني إبراهيم ﴿**بل فعله كبيرهم هذا**﴾ غضب أن تعبدون معه هذه الصغار وهو أكبر منها فكسرهن وأراد إبراهيم بذلك إقامة الحجة عليهم فذلك قوله ﴿**فاسألوهم إن كانوا ينطقون**﴾ أي حتى يخبروا بمن فعل ذلك بهم، وقيل: معناه إن قدروا على النطق قدروا على الفعل فأراهم عجزهم عن النطق وفي ضمنه أنا فعلت ذلك (ق) عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات ثنتين منهن في ذات الله قوله إني سقيم وقوله: فعله كبيرهم هذا، وقوله لسارة: هذه أختي» لفظ الترمذي قيل في قوله إني سقيم أي: سأسقم وقيل: سقيم القلب مغتم بضلالتكم.

وأما قوله **بل** فعله كبيرهم هذا فإنه علق خبره بشرط نطقه كأنه قال: إن كان ينطق فهو على طريق التبكيت لقومه

خفيف وخفاف، وقرأ الآخرون بضمها، مثل الحطام والرفات، ﴿ **إلاّ كبيراً لهم** ﴾، فإنه لم يكسره ووضع الفأس في عنقه، وقيل ربطه بيده وكانت اثنين وسبعون صنماً بعضها من ذهب وبعضها من فضة وبعضها من حديد وبعضها من رصاص وشَبَّة وخشب وحجر، وكان الصنم الكبير من الذهب مكلّلاً بالجواهر في عينيه ياقوتتان تتّقدان. قوله تعالى: ﴿ **لعلّهم إليه يرجعون** ﴾، قيل: معناه لعلّهم يرجعون إلى دينه وإلى ما يدعوهم إليه إذا علموا ضعف الآلهة وعجزها، وقيل: لعلّهم إليه يرجعون فيسألونه، فلما رجع القوم من عيدهم إلى بيت آلهتهم ورأوما أصنامهم جُذاذاً.

﴿ **قالوا مَنْ فعلَ هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين** ﴾، يعني من المجرمين.

﴿ **قالوا** ﴾ يعني الذين سمعوا قول إبراهيم وتالله لأكيدنّ أصنامكم، ﴿ **سمعنا فتىً يذكرهم** ﴾، يعيبهم ويسبّهم، ﴿ **يُقال له إبراهيم** ﴾، هو الذي نظن أنه صنع هذا، فبلغ ذلك نمرود الجبّار وأشراف قومه.

﴿ **قالوا فأتوا به على أعين الناس** ﴾، قاله نمرود يقول جيئوا به ظاهراً بمـرأى من الناس، ﴿ **لعلّهم يشهدون** ﴾، عليه أنه الذي فعله، كرهوا أن يأخذوه بغير بيّنة، قاله الحسن وقتادة والسدي، وقال محمد بن إسحاق ﴿ **لعلّهم يشهدون** ﴾ أي يحضرون عقابه وما يصنع به فلما أتوا به.

﴿ **قالوا** ﴾، له ﴿ **أأنتَ فعلتَ هذا بآلهتنا يا إبراهيم** ﴾.

﴿ **قال** ﴾، إبراهيم، ﴿ **بل فعله كبيرهم هذا** ﴾، غضب من أن يُعبَد معه الصغار وهو أكبر منها فكسّرهنّ، وأراد بذلك إبراهيم إقامة الحجة عليهم، فذلك قوله: ﴿ **فاسئلوهم إن كانوا ينطقون** ﴾، حتى يخبروا مَن **فعل** ذلك بهم. قال القتيبي: معناه بل فعله كبيرهم **إن** كانوا ينطقون على سبيل الشرط فجعـل النطق شرطاً للفعل أي إن قدروا على النطق قدروا على الفعل، فأراهم عجزهم عن النطق، وفي ضميره أنا فعلت، ورُوِيَ عن الكسائي أنه **كان** يقف عند قوله: ﴿ **بل فعله** ﴾ ويقول معناه فعله مَن فعله، والأول أصح لما رُوِيَ عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال:

وقوله لسارة: هذه أختي، أي في الدين والإيمان قال الله تعالى: ﴿إنما المؤمنون إخوة﴾ فكل هذه الألفاظ صدق في نفسها ليس فيها كذب. فإن قلت: قد سماها النبي ﷺ كذبات بقوله: لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات وقال في حديث الشفاعة ويذكر كذباته. قلت: معناه أنه لم يتكلم بكلام صورته صورة الكذب، وإن كان حقاً في الباطن إلا هذه الكلمات ولما كان مفهوم ظاهرها خلاف باطنها أشفق إبراهيم عليه الصلاة والسلام منها بمؤاخذته بها قال البغوي: وهذه التأويلات لنفي الكذب عن إبراهيم والأولى هو الأول للحديث، ويجوز أن يكون الله أذن له في ذلك لقصد الصلاح وتوبيخهم والاحتجاج عليهم، كما أذن ليوسف حين أمر مناديه فقال: أيتها العير إنكم لسارقون ولم يكونوا سرقوا قال الإمام فخر الدين الرازي: وهذا القول مرغوب عنه، والدليل القاطع عليه أنه لو جاز أن يكذب لمصلحة ويأذن الله فيه فلنجوز هذا الاحتمال في كل ما أخبر الأنبياء عنه، وذلك يبطل الوثوق بالشرائع ويطرق التهمة إلى كلها، والحديث محمول على المعاريض، فإنه فيها مندوحة عن الكذب.

وقوله: ﴿فرجعوا إلى أنفسهم﴾ يعني تفكروا بقلوبهم ورجعوا إلى عقولهم ﴿فقالوا﴾ ما نراه إلا كما قال ﴿إنكم أنتم الظالمون﴾ يعني بعبادتكم ما لا يتكلم وقيل معناه أنتم الظالمون لهذا الرجل في سؤالكم إياه، وهذه آلهتكم حاضرة فاسألوها ﴿ثم نكسوا على رؤوسهم﴾ قال أهل التفسير أجرى الله الحق على ألسنتهم في القول الأول وهو إقرارهم على أنفسهم بالظلم ثم أدركتهم الشقاوة فرجعوا إلى حالهم الأولى وهو قوله: ثم نكسوا على رؤوسهم أي ردوا إلى الكفر وقالوا ﴿لقد علمت ما هؤلاء ينطقون﴾ يعني فكيف نسألهم، فلما اتجهت الحجة لإبراهيم عليهم ﴿قال﴾ لهم ﴿أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئاً﴾ يعني إن عبدتموه ﴿ولا يضركم﴾ يعني إن تركتم عبادته ﴿أف

«لم يكذب إبراهيم إلّا ثلاث كذبات، اثنتان مَنهنّ في ذات الله، قوله: ﴿ إني سقيم ﴾ [الصّافّات: ٨٩]، وقوله: ﴿ بل فعله كبيرهم ﴾، وقوله لسارة (هذه أُختي). وقيل في قوله: ﴿ إني سقيم ﴾ [الصّافّات: ٨٩] أي سأسقم، وقيل: سقم القلب أي مغتمّ بضلالتكم، وقوله لسارة: (هذه أُختي) أي في الدين، وهذه التأويلات لنفي الكذب عن إبراهيم، والأول هو الأولى للحديث فيه، ويجوز أن يكون الله عزّ وجلّ أذن له في ذلك لقصد الصلاح وتوبيخهم والاحتجاج عليهم، كما أذن ليوسف حتى أمر مناديه فقال لإخوته: ﴿ أيّتها العير إنكم لسارقون ﴾ [يوسف: ٧٠]. ولم يكونوا سرقوا.

﴿ فرجعوا إلى أنفسهم ﴾، أي تفكّروا بقلوبهم ورجعوا إلى عقولهم، ﴿ فقالوا ﴾، ما نراه إلّا كما قال: ﴿ إنّكم أنتم الظالمون ﴾، يعني بعبادتكم مَن لا يتكلم. وقيل: أنتم الظالمون هذا الرجل سؤالكم إيّاه وهذه آلهتكم حاضرة فاسئلوها.

﴿ ثم نُكسُوا على رُؤوسهم ﴾، قال أهل التفسير: أجرى الله الحق على لسانهم في القول الأول ثم أدركتهم الشقاوة، فهو معنى قوله: ﴿ ثم نُكِسُوا على رؤوسهم ﴾ أي ردّوا إلى الكفر بعد أن أقرّوا على أنفسهم بالظلم، يقال نكس المريض إذا رجع إلى حالته الأولى، وقالوا: ﴿ لقد علمتَ ما هؤلاء ينطقون ﴾، فكيف نسألهم؟ فلما اتجهت الحجة لإبراهيم عليه السلام.

﴿ قال ﴾، لهم، ﴿ أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئاً ﴾، إن عبدتموه، ﴿ ولا يضرّكم ﴾، إن تركتم عبادته.

﴿ أُفٍّ لكم ﴾، يعني تَبّاً وقذراً لكم، ﴿ ولِما تعبدُون من دون الله أفلا تعقلون ﴾، يعني أليس لكم عقل تعرفون به هذا، فلما لزمتهم الحجة وعجزوا عن الجواب.

لكم﴾ يعني تباً لكم **﴿ولما تعبدون من دون الله﴾** والمعنى أنه حقرهم وحقر معبودهم **﴿أفلا تعقلون﴾** يعني أليس لكم عقل تعقلون به أن هذه الأصنام لا تستحق العبادة؟ فلما لزمتهم الحجة وعجزوا عن الجواب **﴿قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم﴾** يعني أنكم لا تنصرونها إلا بتحريق إبراهيم لأنه يعيبها ويطعن فيها **﴿إن كنتم فاعلين﴾** يعني ناصرين آلهتكم. قال ابن عمر: الذي قال هذا رجل من الأكراد قيل اسمه هيزن فخسف الله به الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة. وقيل: قاله نمرود بن كنعان بن سنحاريب بن نمرود بن كوش بن حام بن نوح.

ذكر القصة في ذلك

فلما اجتمع نمرود وقومه لإحراق إبراهيم حبسوه في بيت وبنوا بنياناً كالحظيرة بقرية يقال لها كوثى ثم جمعوا له صلاب الحطب وأصناف الخشب مدة شهر حتى كان الرجل يمرض فيقول: لئن عوفيت لأجمعن حطباً لإبراهيم وكانت المرأة تنذر في بعض ما تطلب لئن أصابته لتحتطبن في نار إبراهيم، وكانت المرأة تغزل وتشتري الحطب بغزلها احتساباً في دينها، وكان الرجل يوصي بشراء الحطب من ماله لإبراهيم، فلما جمعوا ما أرادوا أشعلوا في كل ناحية من الحطب ناراً فاشتعلت النار واشتدت حتى إن الطير ليمر بها فتحرق من شدة وهجها وحرها، فأوقدوا عليها سبعة أيام، فلما أرادوا أن يلقوا إبراهيم لم يعلموا كيف يلقونه، فقيل إن إبليس جاء وعلمهم عمل المنجنيق فعملوه ثم عمدوا إلى إبراهيم فقيدوه ورفعوه على رأس البنيان ووضعوه في المنجنيق مقيداً مغلولاً، فصاحت السماء والأرض ومن فيهما من الملائكة وجميع الخلق إلا الثقلين صيحة واحدة: أي ربنا إبراهيم خليلك يلقى في النار وليس في أرضك أحد يعبدك غيره، فأذن لنا في نصرته فقال الله تعالى: إنه خليلي ليس لي خليل غيره وأنا إلٰهه ليس له إلٰه غيري فإن استغاث بأحد منكم أو دعاه فلينصره فقد أذنت له في ذلك، وإن لم يدع غيري، فأنا أعلم به وأنا وليه فخلوا بيني وبينه، فلما أرادوا إلقاءه في النار أتاه خازن المياه وقال: إن أردت أخمدت النار، وأتاه خازن الهواء وقال: إن شئت طيرت النار

﴿ قالوا حرّقوه وانصرُوا آلهتكم إن كنتم فاعلين ﴾، يعني إن كنتم ناصرين لها، وقال ابن عمر رضي الله عنهما: إن الذي قال هذا رجل من الأكراد. وقيل: إن اسمه هيزن فخسف الله به الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة، قيل: له نمرود، فلما أجمع نمرود وقومه على إحراق إبراهيم عليه السلام حبسوه في بيت وبنوا له بنياناً كالحظيرة. وقيل: بنوا أتوناً بقرية يقال لها كوثى ثم جمعوا له صلاب الحطب من أصناف الخشب مدة حتى كان الرجل يمرض فيقول لئن عافاني الله لأجمعنّ حطباً لإبراهيم، وكانت المرأة تنذر في بعض ما تطلب لئن أصابته لتحطبنّ في نار إبراهيم، وكان الرجل يُوصي بشراء الحطب وإلقائه فيها وكانت المرأة تغزل وتشتري الحطب بغزلها، فتلقيه فيه احتساباً. قال ابن إسحاق كانوا يجمعون الحطب شهراً فلما جمعوا ما أرادوا أشعلوا في كل ناحية من الحطب النار فاشتعلت النار واشتدت حتى أن كان الطير ليمرّ بها فيحترق من شدّة وهجها، فأوقدوا عليها سبعة أيام. رُوِيَ أنهم لم يعلموا كيف يلقونه فيها فجاء إبليس فعلّمهم عمل المنجنيق فعملوه ثم عمدوا إلى إبراهيم فرفعوه على رأس البنيان وقيّدوه ثم وضعوه في المنجنيق مقيداً مغلولاً، فصاحت السماء والأرض ومَن فيها من الملائكة وجميع الخلق إلاّ الثقلين صيحة واحدة، أيْ ربنا إبراهيم خليلك يُلقَى في النار وليس في أرضك أحد يعبدك غيره فأذنْ لنا في نصرته، فقال الله عزّ وجلّ: إنه خليلي ليس لي غيره خليل، وأنا إلّهه وليس له إلّه غيري، فإن استغاث بشيء منكم أو دعاه فلينصره فقد أذنت له في ذلك، وإن لم يدعُ غيري فأنا أعلم به وأنا وليّه فخلّوا بيني وبينه، فلما أرادوا إلقاءه في النار أتاه خازن المياه فقال إن أردت أخمدت النار، وأتاه خازن الرياح فقال إن شئت طيّرت النار في الهواء، فقال إبراهيم لا حاجة لي إليكم حسبي الله ونِعمَ الوكيل. ورُوِيَ عن أُبيّ بن كعب أن

في الهواء فقال إبراهيم: لا حاجة لي إليكم حسبي الله ونعم الوكيل.

وروي عن أبي بن كعب أن إبراهيم قال حين أوثقوه في النار: لا إله إلا أنت سبحانك لك الحمد ولك الملك لا شريك لك، ثم رموا به في المنجنيق إلى النار، فاستقبله جبريل فقال: يا إبراهيم ألك حاجة فقال: أما إليك فلا قال جبريل فاسأل ربك فقال إبراهيم: حسبي من سؤالي علمه بحالي (خ) عن ابن عباس في قوله تعالى ﴿وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل﴾ قال: قالها إبراهيم عليه الصلاة والسلام حين ألقي في النار وقالها محمد ﷺ حين ﴿قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم﴾ قال كعب الأحبار: جعل كل شيء يطفىء عنه النار إلا الوزغ فإنه كان ينفخ في النار (ق) عن أم شريك أن رسول الله ﷺ «أمر بقتل الأوزاغ ـ زاد البخاري ـ وقال كان ينفخ على إبراهيم» (قلنا) يعني قال عز وجل.

﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾﴾

﴿**يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم**﴾ قال ابن عباس: لو لم يقل سلاماً لمات إبراهيم من بردها، وفي بعض الآثار أنه لم يبق يومئذ نار في الأرض إلا طفئت فلم ينتفع في ذلك اليوم بنار في العالم، ولو لم يقل على إبراهيم بقيت ذات برد أبداً، وقيل: أخذت الملائكة بضبعي إبراهيم فأقعدوه على الأرض فإذا عين ماء عذب وورد أحمر ونرجس. قال كعب: ما أحرقت النار من إبراهيم إلا وثاقه قالوا: وكان إبراهيم في ذلك الموضع سبعة أيام، قاله المنهال بن عمرو وقال إبراهيم: ما كنت أياماً قط أنعم مني من الأيام التي كنت في النار. قيل: وبعث الله تعالى ملك الظل في صورة إبراهيم فقعد إلى جنب إبراهيم يؤنسه. قالوا: وبعث الله عز وجل جبريل بقميص من حرير الجنة وطنفسة فألبسه القميص وأقعده على الطنفسة وقعد معه يحدثه، وقال جبريل: يا إبراهيم إن ربك يقول: أما علمت أن النار لا تضر أحبائي. ثم نظر نمرود وأشرف على إبراهيم من صرح له فرآه جالساً في روضة والملك قاعد إلى جنبه وما حوله

إبراهيم قال حين أوثقوه ليلقوه في النار: قال: لا إله إلّا أنت سبحانك ربّ العالمين لك الحمد ولك المُلْك لا شريك لك، ثم رموا به في المنجنيق إلى النار، فاستقبله جبريل فقال: يا إبراهيم لك حاجة؟ فقال: أمّا إليك فلا، فقال جبريل: فاسأل ربك، فقال إبراهيم: حسبي من سؤالي علمه بحالي. قال كعب الأحبار: جعل كل شيء يطفىء عنها النار إلّا الوزغ فإنه كان ينفخ في النار. أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا عبد الله بن موسى وابن سلام عنه أنا ابن جريج عن عبد الحميد بن جبير عن سعيد بن المسيب عن أم شريك أن رسول الله ﷺ أمر بقتل الوزغ، وقال كان: «ينفخ النار على إبراهيم».

قال الله تعالى: ﴿ **قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم** ﴾، قال ابن عباس لو لم يقل سلاماً لمات إبراهيم من بردها، ومن المعروف في الآثار أنه لم يبق يومئذ نار في الأرض إلا طفئت، فلم ينتفع في ذلك اليوم بنار في العالم، ولو لم يقل على إبراهيم بقيت ذات برد أبداً. قال السدي: فأخذت الملائكة بضبعي إبراهيم فأقعدوه على الأرض، فإذا عين ماء عذب وورد أحمر ونرجس. قال كعب: ما أحرقت النار من إبراهيم إلّا وثاقه، قالوا: وكان إبراهيم في ذلك الموضع سبعة أيام، قال المنهال بن عمرو: قال إبراهيم ما كنت قطّ أياماً أنعم منّي من الأيام التي كنت فيها في النار. قال ابن يسار: وبعث الله ملك الظل في صورة إبراهيم فقعد فيها إلى جنب إبراهيم يؤنسه، قالوا وبعث الله جبريل إليه بقميص من حرير الجنة وطنفسة فألبسه القميص وأقعده على الطنفسة وقعد معه يحدّثه، وقال جبريل: يا إبراهيم إن ربك يقول لك أما علمت أن النار لا تضرّ أحبائي، ثم نظر نمرود وأشرف على إبراهيم

نار تحرق الحطب، فناداه يا إبراهيم كبير إلهك الذي بلغت قدرته أن حال بينك وبين النار يا إبراهيم هل تستطيع أن تخرج منها قال نعم. قال: هل تخشى إن قمت أن تضرك قال لا. قال: فقم فاخرج منها فقام إبراهيم يمشي فيها حتى خرج منها فلما وصل إليه قال له يا إبراهيم من الرجل الذي رأيته معك مثلك في صورتك قاعداً إلى جنبك؟ قال: ذلك ملك الظل أرسله إلي ربي ليؤنسني فيها فقال نمرود يا إبراهيم إني مقرب إلى إلهك قرباناً لما رأيت من قدرته وعزته فيما صنع بك حين أبيت إلا عبادته وتوحيده وإني ذابح له أربعة آلاف بقرة.

قال إبراهيم: لا يقبل الله منك ما دمت على دينك حتى تفارقه وترجع إلى ديني فقال: لا أستطيع ترك ملكي ولكن سوف أذبحها، فذبحها نمرود، وكف عن إبراهيم عليه الصلاة والسلام ومنعه الله عز وجل منه قوله عز وجل **﴿وأرادوا به كيداً﴾** يعني أرادوا أن يكيدوه **﴿فجعلناهم الأخسرين﴾** قيل: معناه أنهم خسروا السعي والنفقة ولم يحصل لهم مرادهم. وقيل: إن الله تعالى أرسل على نمرود وقومه البعوض فأكلت لحومهم وشربت دماءهم ودخلت في دماغه بعوضة فأهلكته. قوله تعالى: **﴿ونجيناه ولوطاً﴾** يعني من نمرود وقومه **﴿إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين﴾** يعني إلى أرض الشام بارك الله فيها بالخصب وكثرة الأشجار والثمار والأنهار. وقال أبي بن كعب: بارك الله فيها وسماها مباركة لأنه ما من ماء عذب إلا وينبع أصله من تحت الصخرة التي ببيت المقدس. وقيل: لأن أكثر الأنبياء منها (ق) عن أبي قتادة أن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه قال لكعب: ألا تتحول إلى المدينة فيها مهاجر رسول الله ﷺ وقبره فقال كعب: إني وجدت في كتاب الله المنزل يا أمير المؤمنين أن الشام كنز الله من أرضه وبها كنز من عباده عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ستكون هجرة بعد هجرة فخيار أهل

من صرح له فرآه جالساً في روضة والملك قاعداً إلى جنبه وما حوله نار تحرق الحطب، فناداه يا إبراهيم كبير إلَـهك الذي بلغت قدرته، أي حل بينك وبين ما أرى، يا إبراهيم هل تستطيع أن تخرج منها؟ قال: نعم، قال: هل تخشى إن أقمت فيها أن تضرّك؟ قال: لا، قال: فقم فاخرج منها، فقام إبراهيم يمشي فيها حتى خرج منها، فلما خرج إليه قال له: يا إبراهيم مَنِ الرجل الذي رأيتُه معك في مثل صورتك قاعداً إلى جنبك؟ قال: ذاك ملك الظل أرسله إليّ ربّي ليؤنسني فيها، فقال نمرود يا إبراهيم إنّي مقرّب إلى إلَـهك قرباناً لما رأيت من قدرته وعزّته فيما صنع بك حيث أبيت إلّا عبادته وتوحيده إني ذابح له أربعة آلاف بقرة، فقال له إبراهيم: إذاً لا يقبلها منك ما كنت على دينك حتى تفارقه إلى ديني، فقال: لا أستطيع ترك ملّتي ومُلكي. ولكن سوف أذبحها فذبحها له نمرود ثم كفّ عن إبراهيم، ومنعه الله منه. قال شعيب الجبائي: أُلقي إبراهيم في النار وهو ابن ستّ عشرة سنة.

قوله: **﴿ وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخسرين ﴾**، قيل: معناه أنهم خسروا السعي والنفقة ولم يحصل لهم مرادهم، وقيل: معناه إن الله عزّ وجلّ أرسل على نمرود وأهله البعوض فأكلت لحومهم وشربت دماءهم، ودخلت واحدة في دماغه فأهلكته.

قوله: **﴿ ونجّيناه ولوطاً ﴾**، من نمرود وقومه من أرض العراق، **﴿ إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين ﴾**، يعني الشام بارك الله فيها بالخصب وكثرة الأشجار والثمار والأنهار، ومنها بعث أكثر الأنبياء. وقال أُبيّ بن كعب: سمّاها مباركة لأنه ما من ماء عذب إلا وينبع أصله من تحت الصخرة التي هي ببيت المقدس، أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحي أنا أبو الحسين بن بشران أنا إسماعيل بن محمد الصفار أنا أحمد بن منصور الرمادي أنا عبد الرزاق أنا معمر عن قتادة أن عمر بن الخطاب قال لكعب: ألا تتحول إلى المدينة فبها مهاجر رسول الله ﷺ وقبره، فقال كعب: إني وجدت في كتاب الله المنزل يا أمير المؤمنين أن الشام كنز الله من أرضه، وبها كنزه من عباده، أخبرنا أبو سعيد عبد الله بن أحمد الطاهري أنا جدّي عبد الصمد بن عبد الرحمن البزاز أنا محمد بن زكريا

الأرض ألزمهم مهاجر إبراهيم» أخرجه أبو داود، أراد بالهجرة الثانية الهجرة إلى الشام يرغب في المقام بها عن زيد بن ثابت قال: قال رسول الله ﷺ: «طوبى لأهل الشام فقلت وما ذاك يا رسول الله قال لأن الملائكة باسطة أجنحتها عليها» أخرجه الترمذي عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده قال: «قلت يا رسول الله أين تأمرني؟ قال ها هنا ونحا بيده نحو الشام» أخرجه الترمذي.

قال محمد بن إسحاق: استجاب لإبراهيم رجال من قومه حين رأوا ما صنع الله تعالى به من جعل النار عليه برداً وسلاماً على خوف من نمرود وملئهم وآمنت به سارة بنت هاران الأكبر عم إبراهيم، وتبعه لوط وكان ابن أخيه وهو لوط بن هاران وهو أخو إبراهيم، وكان لهما أخ ثالث اسمه ناخور فثلاثتهم أولاد تارخ وهو آزر، فخرج إبراهيم من كوثى من أرض العراق مهاجراً إلى ربه ومعه لوط وسارة فخرج يلتمس الفرار بدينه والأمان على عبادة ربه حتى نزل حران فمكث بها ما شاء الله، ثم خرج مهاجراً حتى قدم مصر، ثم خرج ورجع إلى الشام فنزل السبع من أرض فلسطين، ونزل لوط بالمؤتفكة وهي على مسيرة يوم وليلة من السبع فبعثه الله نبياً إلى أهلها وما قرب منها فذلك قوله تعالى ﴿ونجيناه ولوطاً إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين﴾ قوله تعالى:

وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا
وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ
حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ۗ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُ
فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ
ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ
أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾
فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾

﴿ووهبنا له إسحاق ويعقوب نافلة﴾ يعني عطية من عطاء الله. قال ابن عباس: النافلة هو يعقوب لأن الله تعالى

العذافري أنا إسحاق الديري أنا عبد الرزاق أنا معمر عن قتادة عن شهر بن حوشب عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنها ستكون هجرة بعد هجرة، فخيار الناس إلى مهاجر إبراهيم»، وقال محمد بن إسحاق: استجاب لإبراهيم رجال من قومه حين رأوا ما صنع الله به من جعل النار عليه برداً وسلاماً على خوف من نمرود وملئه وأمن به لوط، وكان ابن أخيه وهو لوط بن هاران بن تارخ، وهاران هو أخو إبراهيم وكان لهما أخ ثالث يقال له ناخور بن تارخ، وآمنت به أيضاً سارة وهي بنت عمّه وهي سارة بنت هاران الأكبر، عمّ إبراهيم فخرج من كوثى من أرض العراق مهاجراً إلى ربّه، ومعه لوط وسارة، كما قال الله تعالى: ﴿ فآمن له لوط وقال إني مهاجر إلى ربي ﴾ [العنكبوت: ٢٦]، فخرج يلتمس الفرار بدينه والأمان على عبادة ربه، حتى نزل حرّان فمكث بها ما شاء الله ثم خرج منها مهاجراً حتى قدِمَ مصر، ثم خرج من مصر إلى الشام، فنزل السبع من أرض فلسطين، وهي برية الشام، ونزل لوط بالمؤتفكة وهي من السبع على مسيرة يوم وليلة، وأقرب، فبعثه الله نبيّاً فذلك قوله تعالى: ﴿ ونجّيناه ولوطاً إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين ﴾.

﴿ ووهبنا له إسحاق ويعقوب نافلةً ﴾، قال مجاهد وعطاء: معنى النافلة العطية وهما جميعاً من عطاء الله

أعطى إبراهيم إسحاق بدعائه حيث قال: رب هب لي من الصالحين وزاده يعقوب نافلة وهو ولد الولد ﴿**وكلاً جعلنا صالحين**﴾ يعني إبراهيم وإسحاق ويعقوب ﴿**وجعلناهم أئمة**﴾ يعني قدوة يهتدى بهم في الخير ﴿**يهدون بأمرنا**﴾ يعني يدعون الناس إلى ديننا بأمرنا ﴿**وأوحينا إليهم فعل الخيرات**﴾ يعني العمل بالشرائع ﴿**وإقام الصلاة**﴾ يعني المحافظة عليها ﴿**وإيتاء الزكاة**﴾ يعني الواجبة وخصهما لأن الصلاة أفضل العبادات البدنية وشرعت لذكر الله والزكاة أفضل العبادات المالية ومجموعهما التعظيم لأمر الله والشفقة على خلق الله ﴿**وكانوا لنا عابدين**﴾ يعني موحدين قوله عز وجل ﴿**ولوطاً آتيناه حكماً**﴾ أي الفصل بين الخصوم بالحق وقيل أراد الحكمة والنبوة ﴿**وعلماً ونجيناه من القرية التي كانت تعمل الخبائث**﴾ يعني قرية سدوم وأراد أهلها وأراد بالخبائث إتيان الذكور في أدبارهم، وكانوا يتضارطون في مجالسهم مع أشياء أخرى كانوا يعلمونها من المنكرات ﴿**إنهم كانوا قوم سوء فاسقين وأدخلناه في رحمتنا**﴾ قيل: أراد بالرحمة النبوة وقيل أراد بها الثواب ﴿**إنه من الصالحين**﴾ أي الأنبياء.

قوله تعالى: ﴿**ونوحاً إذ نادى من قبل**﴾ أي من قبل إبراهيم ولوط ﴿**فاستجبنا له**﴾ أي أجبنا دعاءه ﴿**فنجيناه وأهله من الكرب العظيم**﴾ قال ابن عباس من الغرق وتكذيب قومه له، وقيل: إنه كان أطول الأنبياء عمراً وأشدهم بلاء. والكرب أشد الغم ﴿**ونصرناه**﴾ أي منعناه ﴿**من القوم الذين كذبوا بآياتنا**﴾ من أن يصلوا إليه بسوء وقيل من بمعنى على ﴿**إنهم كانوا قوم سوء فأغرقناهم أجمعين**﴾. قوله عز وجل ﴿**وداود وسليمان إذ يحكما في الحرث**﴾ قال ابن عباس وأكثر المفسرين: كان الحرث كرماً قد تدلت عناقيده وقيل كان زرعاً وهو أشبه بالعرف ﴿**إذ نفشت فيه غنم القوم**﴾ أي

نافلة يعني عطاء، قال الحسن والضحاك: فضلاً. وعن ابن عباس وأُبيّ بن كعب وابن زيد وقتادة رضي الله عنهم: النافلة هو يعقوب لأن الله عزّ وجلّ أعطاه إسحاق بدعائه حيث قال: ﴿ هب لي من الصالحين ﴾ [الصّافّات: ١٠٠]، وزاد يعقوب وهو ولد الولد، والنافلة الزيادة، ﴿ **وكلًّا جعلنا صالحين** ﴾، يعني إبراهيم وإسحاق ويعقوب.

﴿ **وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا** ﴾، يقتدى بهم في الخيرات يهدون بأمرنا يدعون الناس إلى ديننا، ﴿ **وأوحينا إليهم فعل الخيرات** ﴾، يعني العمل بالشرائع، ﴿ **وإقام الصلاة** ﴾، يعني المحافظة عليها، ﴿ **وإيتاء الزكاة** ﴾، إعطاءها، ﴿ **وكانوا لنا عابدين** ﴾، موحدين.

﴿ **ولوطاً آتيناه** ﴾، يعني وآتينا لوطاً، وقيل: واذكر لوطاً آتيناه، ﴿ **حكماً** ﴾، يعني الفصل بين الخصوم بالحق، ﴿ **وعلماً** ﴾، ﴿ **ونجّيناه من القرية التي كانت تعمل الخبائث** ﴾، يعني سدوماً وكان أهلها يأتون الذكران في أدبارهم ويتضارطون في أنديتهم مع أشياء أُخَر، كانوا يعملونها من المنكرات، ﴿ **إنهم كانوا قوم سوء فاسقين** ﴾.

﴿ **وأدخلناه في رحمتنا إنه من الصالحين** ﴾.

﴿ **ونوحاً إذْ نادى** ﴾، دعا، ﴿ **من قبل** ﴾، يعني من قبل إبراهيم ولوط، ﴿ **فاستجبنا له فنجّيناه وأهله من الكرب العظيم** ﴾، قال ابن عباس: من الغرق وتكذيب قومه. وقيل: لأنه كان أطول الأنبياء عمراً وأشدّهم بلاءً والكرب أشدّ الغمّ.

﴿ **ونصرناه** ﴾، منعناه، ﴿ **من القوم الذين كذبوا بآياتنا** ﴾، أن يصلوا إليه بسوء. وقال أبو عبيدة: يعني على القوم، ﴿ **إنهم كانوا قومَ سوءٍ فأغرقناهم أجمعين** ﴾.

قوله تعالى: ﴿ **وداود وسليمان إذْ يحكمان في الحرث** ﴾، اختلفوا في الحرث، قال ابن مسعود وابن عباس

رعته ليلاً فأفسدته وكان بلا راع ﴿وكنا لحكمهم شاهدين﴾ أي كان ذلك بعلمنا ومرأى منا لا يخفى علينا علمه. وفيه دليل لمن يقول بأن أقل الجمع اثنان لقوله وكنا لحكمهم والمراد به داود وسليمان قال ابن عباس وغيره. إن رجلين دخلا على داود أحدهما صاحب حرث والآخر صاحب غنم فقال صاحب الزرع إن غنم هذا دخلت زرعي ليلاً فوقعت فيه فأفسدته فلم تبق منه شيئاً فأعطاه رقاب الغنم بالزرع، فخرجا فمرا على سليمان فقال: كيف قضى بينكما فأخبراه فقال سليمان: لو وليت أمركما لقضيت بغير هذا وروي أنه قال غير هذا أرفق بالفريقين، فأخبر بذلك داود فدعاه وقال: كيف تقضي ويروى أنه قال له بحق النبوة والأبوة إلا ما أخبرتني بالذي هو أرفق بالفريقين؟ قال أدفع الغنم إلى صاحب الحرث ينتفع بدرها ونسلها وصوفها ومنافعها، ويزرع صاحب الغنم لصاحب الحرث مثل حرثه، فاذا صار الحرث كهيئته يوم أكل دفع إلى صاحبه وأخذ صاحب الغنم غنمه فقال داود: القضاء ما قضيت وحكم بذلك، فقيل: كان لسليمان يوم حكم بذلك من العمر إحدى عشر سنة.

وحكم الإسلام في هذه المسألة أن ما أفسدته الماشية المرسلة من مال الغير بالنهار فلا ضمان على ربها وما أفسدته بالليل ضمنه ربها لأن في عرف الناس أن أصحاب الزرع يحفظونه بالنهار والمواشي تسرح بالنهار وترد بالليل إلى المراح. ويدل على هذه المسألة ما روى حرام بن سعد بن محيصة أن ناقة للبراء بن عازب دخلت حائطاً لرجل من الأنصار فأفسدت فيه فقضى رسول الله ﷺ أن على أهل الأموال حفظها بالنهار، وعلى أهل المواشي حفظها بالليل وزاد في رواية: وإن على أهل الماشية ما أصابت ماشيتهم بالليل، أخرجه أبو داود مرسلاً. وذهب أصحاب الرأي أن المالك إذا لم يكن مع ماشيته فلا ضمان عليه فيما أتلفت ليلاً كان أو نهاراً، فذلك قوله تعالى: ﴿ففهمناها سليمان﴾ أي علمناه وألهمناه حكم القضية ﴿وكلاً﴾ أي داود وسليمان ﴿آتينا حكماً وعلماً﴾ أي بوجوه الاجتهاد وطرق الأحكام

رضي الله عنهم وأكثر المفسّرين: كان الحرث كرماً قد تدلّت عناقيدُه. وقال قتادة: كان زرعاً، ﴿ إِذْ نفشتْ فيه غنمُ القوم ﴾، يعني رعته ليلاً فأفسدته، والنفش الرعي بالليل والهمل بالنهار وهما الرعي بلا راع، ﴿ وكنّا لحكمهم شاهدين ﴾، يعني كان ذلك بعلمنا وبمرأى منّا لا يخفى علينا علمه. قال الفرّاء: جمع اثنين، فقال لحكمهم وهو يريد داود وسليمان لأن الاثنين جمع وهو مثل قوله: ﴿ فإن كان له إخوة فلأمه السدس ﴾ [النساء: ١١]، وهو يريد أخوين. قال ابن عباس وقتادة والزهري: وذلك أن رجلين دخلا على داود أحدهما صاحب زرع والآخر صاحب غنم، فقال صاحب الزرع إن هذا انفلتت غنمه ليلاً ووقعت في حرثي فأفسدته فلم يبق منه شيء فأعطاه داود رقاب الغنم بالحرث، فخرجا فمرّا على سليمان فقال: كيف قضى بينكما فأخبراه، فقال سليمان لو ولّيت أمرهما لقضيت بغير هذا. ورُوِيَ أنه قال غير هذا أرفق بالفريقين فأخبر بذلك داود فدعاه فقال: كيف تقضي؟ ويُروى أنه قال بحق النبوّة والأبوّة ألا أخبرتني بالذي هو أرفق بالفريقين، قال: ادفع الغنم إلى صاحب الحرث ينتفع بدرها ونسلها وصوفها ومنافعها ويبذر صاحب الغنم لصاحب الحرث مثل حرثه، فإذا صار الحرث كهيئة يوم أكل دفع إلى أهله وأخذ صاحب الغنم غنمه، فقال داود القضاء ما قضيت وحكم بذلك. وقيل: إن سليمان يوم حكم بذلك كان ابن إحدى عشرة سنة، وأما حكم الإسلام في هذه المسألة أن ما أفسدت الماشية المرسلة بالنهار من مال الغير فلا ضمان على ربّها، وما أفسدته بالليل ضمنته بها لأن في عُرف الناس أن أصحاب الزرع يحفظونه بالنهار، والمواشي تسرح بالنهار وترد بالليل إلى المراح. أخبرنا أبو الحسن السرخسي أنا زاهر بن أحمد أنا أبو إسحاق الهاشمي أنا أبو مصعب عن مالك عن أبي شهاب عن حرام بن سعد بن محيصة أن ناقة للبراء بن عازب دخلت حائطاً فأفسدته فقضى رسول الله ﷺ أن على أهل الحوائط حفظها بالنهار وأن ما أفسدت المواشي بالليل ضمان على أهلها، وذهب أصحاب الرأي إلى أن المالك إذا لم يكن معها فلا ضمان عليه فيما أتلفت ماشيته ليلاً كان أو نهاراً.

قال الحسن لولا هذه الآية لرأيت الحكام قد هلكوا ولكن الله حمد هذا بصوابه وأثنى على هذا باجتهاده.

واختلف العلماء في أن حكم داود كان باجتهاده أم بنص، وكذلك حكم سليمان فقال بعضهم: حكماً بالاجتهاد. قال: ويجوز الاجتهاد للأنبياء ليدركوا ثواب المجتهدين والعلماء لهم الاجتهاد في الحوادث إذا لم يجدوا فيها نص كتاب أو سنة وإذا أخطؤوا فلا إثم عليهم (ق) عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا حكم الحاكم فاجتهد فأصاب فله أجران وإذا حكم فاجتهد فأخطأ فله أجر» وقال قوم إن داود وسليمان حكما بالوحي فكان حكم سليمان ناسخاً لحكم داود ومن قال بهذا يقول لا يجوز للأنبياء الحكم بالاجتهاد لأنهم مستغنون عنه بالوحي، واحتج من ذهب إلى أن كل مجتهد مصيب بظاهر هذه الآية وبالحديث حيث وعد الثواب للمجتهد على الخطأ، وهو قول أصحاب الرأي وذهب جماعة إلى أنه ليس كل مجتهد مصيباً بل إذا اختلف اجتهاد المجتهدين في حادثة كان الحق مع واحد لا بعينه، ولو كان كل واحد مصيباً لم يكن للتقسيم معنى، وقوله ﷺ: «إذا اجتهد فأخطأ فله أجر» لم يرد به أنه يؤجر على الخطأ بل يؤجر على اجتهاده في طلب الحق لأن اجتهاده عبادة والإثم في الخطأ عنه موضوع إذا لم يأل جهداً، ووجه الاجتهاد في هذا الحكم أن داود قوم قدر الضرر في الحرث فكان مساوياً لقيمة الغنم، وكان عنده أن الواجب في ذلك الضرر في الحرث قيمة المثل، فلا جرم سلم الغنم إلى المجني عليه.

وأما سليمان فإن اجتهاده أدى إلى أنه يجب مقابلة الأصول بالأصول والزوائد بالزوائد، فأما مقابلة الأصول بالزوائد فغير جائزة، ولعل منافع الغنم في تلك السنة كانت موازية لمنافع الحرث فحكم به. ومن أحكام داود وسليمان عليهما السلام ما روي عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «كانت امرأتان معهما ابناهما جاء الذئب فذهب بابن إحداهما فقالت لصاحبتها إنما ذهب بابنك وقالت الأخرى: إنما ذهب بابنك فتحاكمتا

قوله تعالى: ﴿ ففهمناها سليمان ﴾، أي علمناه القضية وألهمناها سليمان، ﴿وكلاً﴾، يعني داود وسليمان، ﴿ آتينا حكماً وعلماً ﴾، قال الحسن: لولا هذه الآية لرأيت الحكّام قد أهلكوا ولكن الله حمد هذا بصَوَابِه وأثنى على هذا باجتهاده. واختلف العلماء في أن حكم داود كان بالاجتهاد أو بالنص، وكذلك حكم سليمان، فقال بعضهم: فعلا بالاجتهاد. وقالوا: يجوز الاجتهاد للأنبياء ليدركوا ثواب المجتهدين، إلّا أن داود أخطأ وأصاب سليمان. وقالوا: يجوز الخطأ على الأنبياء إلّا أنهم لا يقرّون عليه، فأما العلماء فلهم الاجتهاد في الحوادث إذا لم يجدوا فيها نص كتاب ولا سُنّة، فإذا أخطأوا فلا إثم عليهم، فإنه موضوع عنهم، لما أخبرنا عبد الوهاب بن محمد الخطيب أنا عبد العزيز بن أحمد الخلال أنا أبو العباس الأصم أنا الربيع بن سليمان أنا الشافعي أنا عبد العزيز بن محمد عن يزيد بن عبد الله بن الهادي عن محمد بن إبراهيم التيمي عن بسر بن سعيد أبي عن قيس مولى عمرو بن العاص عن عمرو بن العاص أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إذا حكم الحاكم فاجتهد فأصاب فله أجران، وإذا حكم فاجتهد فأخطأ فله أجر»، وقال قوم: إن داود وسليمان حكما بالوحي، وكان حكم سليمان ناسخاً لحكم داود، وهذا القائل يقول لا يجوز للأنبياء الحكم بالاجتهاد لأنهم مستغنون عن الاجتهاد بالوحي، وقالوا: لا يجوز الخطأ على الأنبياء، واحتجّ مَن ذهب إلى أن كل مجتهد مصيب بظاهر الآية وبالخبر حيث وعد الثواب للمجتهد على الخطأ، وهو قول أصحاب الرأي وذهب جماعة إلى أنه ليس كل مجتهد مصيباً بل إذا اختلف اجتهاد مجتهدين في حادثة كان الحق مع واحد لا بعينه، ولو كان كل واحد مصيباً لم يكن للتقسيم معنى، وقوله عليه السلام: «وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر»، لم يرد به أنه يؤجر على اجتهاده في طلب الحق لأن اجتهاده عبادة، والإثم في الخطأ عنه موضع إذا لم يألُ جهده، أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا أبو اليمان أنا شعيب عن الزهري أنا أبو الزناد عن عبد الرحمن الأعرج أنه سمع أبا هريرة أنه

إلى داود فقضى به للكبرى فخرجتا على سليمان بن داود فأخبرتاه فقال: ائتوني بالسكين أشقه بينهما فقالت الصغرى لا تفعل يرحمك الله هو ابنها فقضى به للصغرى» أخرجاه في الصحيحين قوله تعالى ﴿وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير﴾ أي يسبحن مع داود إذا سبح قال ابن عباس كان يفهم تسبيح الحجر والشجر، قيل: كانت الجبال تجاوبه بالتسبيح وكذلك الطير وقيل معنى يسبحن يصلين معه إذا صلى وقيل كان داود إذا فتر يسمعه الله تسبيح الجبال والطير لينشط في التسبيح ويشتاق إليه ﴿وكنا فاعلين﴾ يعني ما ذكر من التفهيم وإيتاء الحكم والتسخير.

﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ۝٨٠ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ ۝٨١﴾

﴿وعلمناه صنعة لبوس لكم﴾ أي صنعة الدروع التي تلبس في الحرب قيل أول من صنع الدروع وسردها واتخذها حلقاً داود وكانت من قبل صفائح قالوا إن الله ألان الحديد لداود بأن يعمل منه بغير نار كأنه طين والدرع يجمع بين الخفة والحصانة وهو قوله تعالى: ﴿لتحصنكم﴾ أي تمنعكم ﴿من بأسكم﴾ أي حرب عدوكم وقيل من وقع السلاح فيكم وقيل ليحصنكم الله به ﴿فهل أنتم شاكرون﴾ أي يقول ذلك لداود وأهل بيته. قوله عز وجل ﴿ولسليمان الريح﴾ أي وسخرنا لسليمان الريح وهو جسم متحرك لطيف ممتنع بلطفه من القبض عليه يظهر للحسن بحركته ويخفى عن البصر بلطفه ﴿عاصفة﴾ أي شديدة الهبوب. فإن قلت: قد وصفها الله بالرخاء وهي الريح اللينة قلت: كانت الريح تحت أمره إن أراد أن تشتد اشتدت وإن أراد أن تلين لانت ﴿تجري بأمره إلى الأرض التي باركنا فيها﴾

سمع رسول الله ﷺ يقول: «كانت امرأتان معهما ابناهما فجاء الذئب فذهب بابن إحداهما فقالت صاحبتهما إنما ذهب بابنك، وقالت الأخرى إنما ذهب بابنك فتحاكمتا إلى داود فقضى به للكبرى، فخرجتا على سليمان وأخبرتاه فقال ائتوني بالسكّين أشقّه بينهما، فقالت الصغرى لا تفعل يرحمك الله فهو ابنها فقضى به للصغرى». قوله تعالى: ﴿ وسخّرنا مع داود الجبال يسبّحن والطير ﴾، أي وسخّرنا الجبال والطير يسبّحن مع داود إذا سبّح، قال ابن عباس: كان يفهم تسبيح الحجر والشجر. وقال وهب: كانت الجبال تجاوبه بالتسبيح وكذلك الطير. وقال قتادة: يسبّحن أي يصلّين معه إذا صلّى. وقيل: كان داود إذا فتر يُسمعه الله تسبيح الجِبال والطير لينشط في التسبيح ويشتاق إليه. ﴿ وكنّا فاعلين ﴾، ما ذكر من التفهيم وإيتاء الحكم والتسخير.

﴿ وعلّمناه صنعةَ لَبوس لكم ﴾، المراد باللبوس هنا الدروع لأنها تلبس وهو في اللغة اسم لكل ما يلبس ويستعمل في الأسلحة كلها، وهو بمعنى الملبوس كالجلوس والركوب، قال قتادة: أول مَن صنع الدروع وسردها وحلقها داود وكانت من قبل صفائح والدرع يجمع الخفّة والحصانة، ﴿ لِتُحْصِنَكم ﴾، لتحرزكم وتمنعكم، ﴿ من بأسكم ﴾، أي من حرب عدوّكم، قال السدي: من وقع السلاح فيكم، قرأ أبو جعفر وابن عامر وحفص عن عاصم ويعقوب: ﴿ لتحصنكم ﴾ بالتاء، يعني الصنعة، وقرأ أبو بكر عن عاصم بالنون لقوله: ﴿ وعلّمناه ﴾، وقرأ الآخرون بالياء وجعلوا الفعل للبوس، وقيل: ليحصنكم الله، ﴿ فهل أنتم شاكرون ﴾، يقول لداود وأهل بيته. وقيل: يقول لأهل مكة فهل أنتم شاكرون نعمي بطاعة الرسول.

﴿ولسليمان الريحَ عاصفةً﴾، أي وسخّرنا لسليمان الريح وهي هـواء متحرّك وهـو جسم لطيف يمتنـع بلطفه من القبض عليه، ويظهر للحسّ بحركته، والريح يذكّر ويؤنّث، عاصفة شديدة الهبوب، فإن قيل: قد قال في موضع آخر تجري بأمره رُخاءً والرخاء اللين؟ قيل: كانت الريح تحت أمره إن أراد أن تشتد اشتدّت، وإن أراد أن تلين

يعني الشام وذلك لأنها كانت تجري بسليمان وأصحابه حيث يشاء سليمان ثم يعود إلى منزله بالشام **﴿وكنا بكل شيء عالمين﴾** أي بصحة التدبير فيه وعلمنا أن ما يعطى سليمان من تسخير الريح وغيره يدعوه إلى الخضوع لربه. قال وهب: كان سليمان عليه السلام إذا خرج إلى مجلسه حلقت عليه الطير وقام له الإنس والجن حتى يجلس على سريره، وكان امرأ غزاء، قلما كان يقعد عن الغزو، ولا يسمع في ناحية من الأرض بملك إلا أتاه حتى يذله، وكان فيما يزعمون إذا أراد الغزو أمر بعسكره فضرب له بخشب، ثم نصب له على الخشب، ثم حمل عليه الناس والدواب وآلة الحرب، فإذا حمل معه ما يريد أمر العاصف من الريح فدخلت تحت ذلك الخشب فاحتملته، حتى إذا استقلت به أمر الرخاء فمرت به شهراً في روحته وشهراً في غدوته إلى حيث أراد.

وكانت تمر بعسكره الريح الرخاء وبالمزرعة فما تحركها ولا تثير تراباً ولا تؤذي طائراً. قال وهب: ذكر لي أن منزلاً بناحية دجلة مكتوب فيه كتبه بعض صحابة سليمان إما من الإنس أو من الجن نحن نزلناه وما بنيناه ومبنياً وجدناه غدونا من إصطخر فقلناه ونحن رائحون منه إن شاء الله فنازلون بالشام وقال مقاتل: نسجت الشياطين لسليمان بساطاً فرسخاً في فرسخ ذهباً في إبريسم وكان يوضع له منبر من ذهب وسط البساط فيقعد عليه وحوله ثلاثة آلاف كرسي من ذهب وفضة، تقعد الأنبياء على كراسي الذهب، والعلماء على كراسي الفضة، وحولهم الناس، وحول الناس الجن والشياطين، وتظلله الطير بأجنحتها حتى لا تقع عليه شمس، وترفع ريح الصبا البساط مسيرة شهر من الصباح إلى

لاَنَتْ، **﴿ تجري بأمره إلى الأرض التي باركنا فيها ﴾**، يعني الشام، وذلك أنها كانت تجري لسليمان وأصحابه حيث شاء سليمان، ثم يعود إلى منزله بالشام، **﴿ وكنّا بكل شيء ﴾**، علمناه، **﴿ عالمين ﴾**، بصحة التدبير فيه أي علمنا أن ما يُعطى سليمان من تسخير الريح وغيره يدعوه إلى الخضوع لربه عزّ وجلّ قال وهب بن منبّه: كان سليمان إذا خرج إلى مجلسه عكفت عليه الطير وقام له الجنّ والإنس حتى يجلس على سريره، وكان امرءاً غزّاءً قلّ ما يقعد عن الغزو ولا يسمع في ناحية من الأرض بملك أتاه حتى يذلّه، فكان فيما يزعمون أنه إذا أراد الغزو وأمر بمعسكره فضرب بخشب ثم نصب له على الخشب ثم حمل عليه الناس والدواب وآلة الحرب، فإذا حمل معه ما يريده أمر العاصفة من الريح فدخلت تحت ذلك الخشب فاحتملتهْ حتى إذا استقلّت به أمر الرخاء فمرّت به شهراً في روحة وشهراً في غدوة إلى حيث أراد، وكانت تمرّ بعسكره الريح الرخاء وبالمزرعة فما تحرّكها ولا تثير تراباً ولا تؤذي طائراً. قال وهب: ذُكر لي أن منزلاً بناحية دجلة مكتوب فيه كتبه بعض صحابة سليمان إما من الجن وإما من الإنس نحن نزّلناه وما بنيناه ومبنيّاً وجدناه غدونا من اصطخر فقلناه ونحن رائحون منه إن شاء الله فبائتون بالشام. قال مقاتل: نسجت الشياطين لسليمان بساطاً فرسخاً في فرسخ ذهباً في إبريسم وكان يوضع له منبر من الذهب في وسط البساط فيقعد عليه وحوله ثلاثة آلاف كرسي من ذهب وفضة، ويقعد الأنبياء على كراسي الذهب والعلماء على كراسي الفضة وحولهم الناس، وحول الناس الجن والشياطين، وتظلّه الطير بأجنحتها لا تقع عليه الشمس، وترفع ريح الصبا البساط مسيرة شهر من الصباح إلى الرواح ومن الرواح إلى الصباح. وعن سعيد بن جبير قال: كان يوضع لسليمان ستمائة ألف كرسي فيجلس الإنس فيما يليه ثم يليهم الجن ثم تظلّهم الطير ثم تحملهم الريح. وقال الحسن: لمّا شغلت الخيل نبيّ الله سليمان عليه السلام حتى فاتته صلاة العصر غضب الله عزّ وجلّ فعقر الخيل فأبدله الله مكانها خيراً منها، وأسرع الريح تجري بأمره كيف شاء، فكان يغدو من إيلياء فيقيل باصطخر، ثم يروح ومنها فيكون رواحها ببابل. وقال ابن زيد: كان له مركب من خشب وكان فيه ألف ركن في كل ركن ألف بيت يركب معه فيه الجن والإنس، تحت كل ركن ألف شيطان يرفعون ذلك المركب، فإذا ارتفع أتت الريح الرخاء فسارت به وبهم، يقيل عند قوم بينه وبينهم شهر ويمسي عند قوم بينه وبينهم شهر، ولا يدري القوم إلّا وقد أظلّهم معه

الرواح، وقال الحسن: لما شغلت نبي الله سليمان الخيل حتى فاتته، صلاة العصر غضب لله فعقر الخيل فأبدله الله مكانها خيراً منها وأسرع الريح تجري بأمره كيف شاء فكان يغدو من إيلياء فيقيل بإصطخر ثم يروح منها فيكون رواحه ببابل. وروي أن سليمان سار من أرض العراق فقال بمدينة بلخ متخللاً بلاد الترك، ثم جاوزهم إلى أرض الصين يغدو على مسيرة شهر ويروح على مثل ذلك ثم عطف يمنة عن مطلع الشمس على ساحل البحر حتى أتى أرض السند وجاوزها وخرج منها إلى مكران وكرمان، ثم جاوزها حتى أتى أرض فارس فنزلها أياماً، وغدا منها فقال بكسكر، ثم راح إلى الشام. وكان مستقره بمدينة تدمر وكان أمر الشياطين قبل شخوصه إلى العراق فبنوها له بالصفاح والعمد والرخام الأصفر والأبيض، وفي ذلك يقول النابغة:

إلا سليمـــان إذ قـــال المليـــك لـــه ... قـم فـي البـريـة فـاحـددهـا عـن الفنـد
وجيـش الجـن إنـي قـد أذنـت لهـم ... يبنـون تـدمـر بـالصفـاح والعمـد

﴿وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعۡمَلُونَ عَمَلٗا دُونَ ذَٰلِكَۖ وَكُنَّا لَهُمۡ حَٰفِظِينَ ٨٢ ۞وَأَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ٨٣﴾

قوله عز وجل ﴿ومن الشياطين﴾ أي وسخرنا له من الشياطين ﴿من يغوصون له﴾ أي يدخلون تحت الماء فيخرجون له من قعر البحر الجواهر ﴿ويعملون عملاً دون ذلك﴾ أي دون الغوص وهو اختراع الصنائع العجيبة كما قال ﴿يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل﴾ الآية، ويتجاوزون في ذلك إلى أعمال المدن والقصور والصناعات كاتخاذ النورة والقوارير والصابون وغير ذلك ﴿وكنا لهم حافظين﴾ يعني حتى لا يخرجوا عن أمره، وقيل: حفظناهم من أن يفسدوا ما عملوا وذلك أنهم كانوا إذا عملوا عملاً في النهار وفرغ قبل الليل أفسدوه وخربوه. قيل: إن سليمان كان إذا بعث شيطاناً مع إنسان ليعمل له عملاً قال له إذا فرغ من عمله قبل الليل اشغله بعمل آخر لئلا يفسد ما عمل ويخربه. قوله تعالى: ﴿وأيوب إذ نادى ربه﴾ يعني دعا ربه.

الجيوش. ورُوِيَ أن سليمان سار من أرض العراق غازياً فقال بمدينة مرو، وصلّى العصر بمدينة بلخ، يحمله وجنوده الريح، وتظلّهم الطير، ثم سار من مدينة بلخ متخلّلاً بلاد الترك، ثم جاءهم إلى أرض الصين يغدو على مسيرة شهر ويروح على مثل ذلك، ثم عن مطلع الشمس على ساحل البحر حتى أتى على أرض القندهار، وخرج منها إلى أرض مكران وكرمان، ثم جاوزها حوالي أرض فارس فنزلها أياماً وغدا منها إلى الشام، فقال بكسكر ثم راح وكان مستقره بمدينة تدمر، وكان أمر الشياطين قبل شخوصه من الشام إلى العراق، فبنوها له بالصفاح والعمد والرخام الأبيض والأصفر، وفي ذلك يقول النابغة:

ألا سليمـان إذْ قال المليـك له ... قم في البرية فاحددها عن العقد
وجيش الجن إني قد أذنت لهم ... يبنـون تدمـر بـالصفـاح والعمـد

قوله تعالى: ﴿ ومن الشياطين ﴾، يعني وسخّرنا له من الشياطين، ﴿ مَن يغوصون له ﴾، يعني يدخلون تحت الماء فيُخرِجون له من قعر البحر الجواهر، ﴿ ويعملون عملاً دون ذلك ﴾، يعني دون الغوص، وهو ما ذكر الله عزّ وجلّ: ﴿ يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل ﴾ [سبأ: ١٣] الآية. ﴿ وكنّا لهم حافظين ﴾، حتى لا يخرجوا من أمره. وقال الزجّاج: معناه حفظناهم من أن يفسدوا ما عملوا. وفي القصة أن سليمان كان إذا بعث شيطاناً مع إنسان ليعمل له عملاً، قال له إذا فرغ من عمله قبل الليل أشغله بعمل آخر لئلا يفسد ما عمل، وكان من عادة الشياطين أنهم إذا فرغوا من العمل ولم يشتغلوا بعمل آخر خرّبوا ما عملوا وأفسدوه.

ذكر قصة أيوب عليه السلام

قال وهب بن منبه: كان أيوب رجلاً من الروم وهو أيوب بن أموص بن تارخ بن روم ابن عيص بن اسحاق بن إبراهيم، وكانت أمه من ولد لوط بن هاران، وكان الله تعالى قد اصطفاه ونبأه وبسط له الدنيا، وكانت له البثنية من أرض البلقاء من أعمال خوازم مع أرض الشام كلها سهلها وجبلها وكان له فيها من أصناف المال كله من الإبل والبقر والغنم والخيل والحمير مالا يكون لرجل أفضل منه في العدد والكثرة، وكان له خمسمائة فدان يتبعها خمسمائة عبد لكل عبد امرأة وولد ومال ويحمل له آلة كل فدان أتان لكل أتان من الولد اثنان أو ثلاثة أو أربع أو خمس وفوق ذلك، وكان الله تعالى قد أعطاه أهلاً وولداً من رجال ونساء وكان براً تقياً رحيماً بالمساكين يطعمهم ويكفل الأيتام والأرامل ويكرم الضيف ويبلغ ابن السبيل وكان شاكراً لأنعم الله، مؤدياً لحق الله قد امتنع عن عدو الله إبليس أن يصيب منه ما يصيب من أهل الغنى من الغرة والغفلة والتشاغل عن أمر الله بما هو فيه من أمر الدنيا، وكان معه ثلاثة نفر قد آمنوا به وصدقوه: رجل من أهل اليمن يقال له النغر وقيل نغير، ورجلان من أهل بلده يقال لأحدهما تلدد والآخر صافر وكان لهؤلاء مال، وكان إبليس لا يحجب عن شيء من السموات، وكان يقف فيهن حيثما أراد حتى رفع الله عيسى فحجب عن أربع. فلما بعث محمد ﷺ حجب عن السموات كلها إلا من استرق السمع، فسمع إبليس تجاوب الملائكة بالصلاة على أيوب، وذلك حين ذكره الله وأثنى عليه، فأدرك إبليس الحسد والبغي، فصعد سريعاً حتى وقف من السماء حيث كان يقف وقال: إلهي نظرت في أمر عبدك أيوب فوجدته عبداً أنعمت عليه فشكرك وعافيته فحمدك، ولو ابتليته بنزع ما أعطيته لحال عما هو عليه من شكرك وعبادتك ولخرج عن طاعتك، قال الله تعالى: انطلق فقد سلطتك على ماله. فانقض عدو الله إبليس حتى وقع على الأرض فجمع عفاريت الجن ومردة الشياطين وقال لهم: ماذا عندكم

قوله تعالى: ﴿ وأيوبَ إذْ نادى ربَّه ﴾، يعني دعا ربّه، قال وهب بن منبّه: كان أيوب رجلاً من الروم وهو أيوب بن أموص بن تارخ بن روم بن عيص بن إسحق بن إبراهيم، وكانت أُمه من أولاد لوط بن هاران، وكان الله قد اصطفاه ونبّأه وبسط عليه الدنيا، وكانت له البثنية من أرض الشام كلها سهلها وجبلها وكان له فيها من أصناف المال كله من البقر والإبل والغنم والخيل والحمر ما لا يكون لرجل أفضل منه من العدّة والكثرة، وكان له خمسمائة فدّان يتبعها خمسمائة عبد لكل عبد امرأة وولد ومال، ويحمل آلة كل فدّان أتان وكل أتان من الولد اثنان وثلاثة وأربعة وخمسة، وفوق ذلك وكان الله أعطاه أهلاً وولداً من رجال ونساء، وكان برّاً تقياً رحيماً بالمساكين، يطعم المساكين ويكفل الأرامل والأيتام ويكرم الضيف ويبلغ ابن السبيل، وكان شاكراً لأنعم الله مؤيداً لحق الله، قد امتنع من عدو الله إبليس أن يصيب منه ما يصيب من أهل الغنى من الغرّة والغفلة والتشاغل عن أمر الله بما هو فيه من الدنيا، وكان معه ثلاثة نفر قد آمنوا به وصدّقوه رجل من أهل اليمن يقال الثغر ورجلان من أهل بلده يقال لأحدهما يلدد والآخر صافر وكانوا كهولاً وكان إبليس لا يحجب عن شيء من السمٰوات، وكان يقف فيهنّ حيث ما أراد حتى رفع الله عيسى فحجب عن أربع سمٰوات، فلما بعث محمد ﷺ حجب من الثلاث الباقية، فسمع إبليس تجاوب الملائكة بالصلاة على أيوب وذلك حين ذكره الله وأثنى عليه فأدركه البغي والحسد فصعد سريعاً حتى وقف من السماء موقفاً كان يقفه، فقال إلّهي نظرت في أمر عبدك أيوب فوجدته عبداً أنعمت عليه فشكرك وعافيته فحمدك، ولو ابتليته بنزع ما أعطيته لحال عمّا هو عليه من شكرك وعبادتك، ولخرج من طاعتك، قال الله عزّ وجلّ: انطلق فقد سلّطتك على ماله فانقضّ عدوّ الله إبليس حتى وقع إلى الأرض، ثم جمع عفاريت الجن ومردة الشياطين، وقال لهم: ماذا عندكم من القوة فإني قد سلّطت على مال أيوب وهي المصيبة الفادحة والفتنة التي لا يصبر عليها الرجال، فقال عفريت من الشياطين: أُعطيت من القوة ما إذا شئت تحوّلت إعصاراً من نار وأحرقت كل شيء آتي عليه، فقال له إبليس: فأتِ

من القوة فقد سلطت على مال أيوب وهي المصيبة الفادحة والفتنة التي لا تصبر عليها الرجال.

فقال عفريت من الشياطين: أعطيت من القوة ما إذا شئت تحولت إعصاراً من نار فأحرق كل شيء آتي عليه قال إبليس: اذهب فأت الإبل ورعاتها، فأتى الإبل حين وضعت رؤوسها ورعت فلم يشعر الناس حتى ثار من تحت الأرض إعصار من نار فأحرق الإبل ورعاتها حتى أتى على آخرها، ثم جاء عدو الله إبليس في صورة قيم ممن كانوا عليها على قعود إلى أيوب فوجده قائماً يصلي فقال يا أيوب أقبلت نار حتى غشيت إبلك وأحرقتها ومن فيها غيري، فقال أيوب بعد أن فرغ من الصلاة: الحمد لله هو أعطانيها وهو أخذها، وإنها مال الله أعارنيها وهو أولى بها، إذا شاء نزعها. قال فتركت الناس مبهوتين يتعجبون منها، منهم من يقول: ما كان أيوب يعبد شيئاً وما كان إلا في غرور، ومنهم من يقول: لو كان إله أيوب يقدر أن يمنع شيئاً لمنع وليه، ومنهم من يقول: بل هو الذي فعل ما فعل ليشمت به عدوه ويفجع صديقه، فقال أيوب: الحمد لله حين أعطاني وحين نزع مني، عرياناً خرجت من بطن أمي وعرياناً أعود إلى التراب وعرياناً أحشر إلى الله عز وجل، ليس ينبغي لك أن تفرح حين أعارك وتجزع حين قبض عاريته، الله أولى بك وبما أعطاك، ولو علم الله فيك أيها العبد خيراً لنقل روحك مع تلك الأرواح وصرت شهيداً ولكنه علم منك شراً فأخرك. فرجع إبليس إلى أصحابه خاسئاً ذليلاً فقال: ما عندكم من القوة فاني لم أكلم قلبه. قال عفريت من الجن عندي من القوة ما إذا شئت صحت صيحة لا يسمعها ذو روح إلا خرجت روحه. قال إبليس: فأت الغنم ورعاتها فانطلق حتى توسطها ثم صاح صيحة فتجثمت أمواتاً من عند آخرها ومات رعاتها، فجاء إبليس متمثلاً بقهرمان الرعاء إلى أيوب فوجده يصلي فقال له مثل القول الأول، فرد عليه أيوب مثل الرد الأول، فرجع إبليس إلى أصحابه فقال: ماذا عندكم من القوة فإني لم أكلم قلب أيوب، فقال عفريت: عندي من القوة ما إذا شئت تحولت ريحاً عاصفة تنسف

الإبل ورعاتها، فأتى الإبل حين وضعت رؤوسها وثبتت في مراعيها، فلم يشعر الناس حتى ثار من تحت الأرض إعصار من نار لا يدنوا منها أحد إلا احترق فأحرقتها ورعاتها، حتى أتى على آخرها، ثم جاء عدوّ الله إبليس في صورة قبيحة على قعود إلى أيوب فوجده قائماً يصلّي، فقال: يا أيوب أقبلت نار حتى غشيت إبلك فأحرقتها ومَن فيها غيري، فقال أيوب: الحمد لله الذي هو أعطاها وهو أخذها، وقديماً ما وطنت نفسي ومالي على الفناء، فقال إبليس: فإنّ ربّك أرسل عليها ناراً من السماء فاحترقت فتركت الناس مبهوتين يتعجبون منها، منهم مَن يقول ما كان أيوب يعبد شيئاً وما كان إلّا في غرور، ومنهم مَن يقول لو كان إلّه أيوب يقدر على أن يصنع شيئاً لمنع وليّه، ومنهم مَن يقول: بل هو الذي فعل ذلك ليشمت به عدوّه ويفجع به صديقه، فقال أيوب: الحمد لله حين أعطاني وحين نزع منّي، عرياناً خرجت من بطن أُمي وَعرياناً أعود في التراب وعرياناً أحشر إلى الله، ليس لك أن تفرح حين أعارك ولا أن تجزع حين قبض عاريته منك، الله أولى بك وبما أعطاك ولو علم الله فيك أيها العبد خير النفل روحك مع تلك الأرواح وصرت شهيداً ولكنه علم منك شرّاً فأخّرك، فرجع إبليس إلى أصحابه خائباً خاسراً ذليلاً فقال لهم: ماذا عندكم من القوة فإني لم أكلم قلبه، قال عفريت: عندي من القوة ما شئت صحت صيحة لا يسمعها ذو روح إلّا خرجت مهجة نفسه، فقال إبليس: فات الغنم ورعاتها، فانطلق حتى توسطها ثم صاح صيحة فتجثمت أمواتاً عن آخرها ومات رعاؤها، ثم جاء إبليس متمثلاً بقهرمان الرعاة إلى أيوب وهو يصلّي، فقال له مثل القول الأول فردّ عليه مثل الردّ الأول ثم رجع إبليس إلى أصحابه فقال ماذا عندكم من القوة فإني لم أُكلّم قلب أيوب فقال عفريت عندي من القوة ما إذا شئت تحوّلت ريحاً عاصفاً تنسف كل شيء تأتي عليه، قال فأتِ الفدادين والحرث فانطلق ولم يشعروا حتى هبّت ريح عاصف، فنسفت كل شيء من ذلك حتى كأنه لم يكن ثم جاء إبليس متمثلاً بقهرمان الحرث إلى أيوب وهو قائم يصلّي، فقال له مثل قوله الأول فردّ عليه أيوب، مثل ردّه الأول كلما انتهى إليه

كل شيء تأتي عليه. قال: فأت الفدادين في الحرث والزرع فانطلق يؤمهم وذلك حين شرع الفدادون في الحرث والزرع فلم يشعروا حتى هبت ريح عاصفة فنسفت كل شيء من ذلك، حتى كأنه لم يكن ثم جاء إبليس متمثلاً بقهرمانهم إلى أيوب وهو قائم يصلي، فقال له مثل قوله الأول، فرد عليه أيوب مثل رده الأول، وجعل إبليس يصف ماله مالاً مالاً حتى مر على آخره كلما انتهى إلى هلاك مال من أمواله حمد الله وأحسن الثناء عليه، ورضي عنه بالقضاء، ووطن نفسه بالصبر والبلاء حتى لم يبق له مال.

فلما رأى إبليس أنه قد أفنى ماله ولم ينجح منه بشيء صعد سريعاً حتى وقف في الموقف الذي يقف فيه وقال: إلهي إن أيوب يرى أنك ما متعته بولده فأنت معطيه المال فهل أنت مسلطي على ولده فإنها المصيبة التي لا تقوم لها قلوب الرجال قال الله عز وجل: انطلق فقد سلطتك على ولده. فانقض عدو الله حتى أتى بني أيوب وهم في قصرهم فلم يزل يزلزل بهم القصر حتى تداعى من قواعده، وجعل جدره يضرب بعضها بعضاً يرميهم بالخشب والحجارة، فلما مثل بهم كل مثلة رفع القصر وقلبه عليهم، وصاروا منكسين وانطلق إلى أيوب متمثلاً بالمعلم الذي كان يعلمهم الحكمة وهو جريح مشدوخ الوجه يسيل دمه فأخبره وقال: لو رأيت بنيك كيف عذبوا وكيف انقلبوا منكوسين على رؤوسهم تسيل دماؤهم وأدمغتهم، ولو رأيت كيف شقت بطونهم فتناثرت أمعاؤهم لتقطع قلبك عليهم، فلم يزل يقول هذا ونحوه حتى رق قلب أيوب وبكى وقبض قبضة من التراب فوضعها على رأسه وقال: يا ليت أمي لم تلدني. فاغتنم إبليس ذلك فصعد سريعاً بالذي كان من جزع أيوب مسروراً به، ثم لم يلبث أيوب أن فاء وأبصر واستغفر، فصعد قرناؤه من الملائكة بتوبته فسبقت توبته إلى الله وهو أعلم، فوقف إبليس خاسئاً ذليلاً وقال: إلهي إنما هون على أيوب المال والولد أنه يرى أنك ما متعته بنفسه فأنت تعيد له المال والولد فهل أنت مسلطي على جسده فقال الله

هلاك مال من أمواله حمدَ الله وأحسن الثناء عليه، ورضي منه بالقضاء، ووطّن نفسه بالصبر على البلاء، حتى لم يبقَ له مال فلما رأى إبليس أنه قد أفنى ماله صعد إلى السماء فقال إلٓهي إن أيوب يرى منك أنك ما متّعته بولده فأنت تعطيه المال فهل أنت مسلّطي على ولده، فإنها المصيبة التي له تقوم قلوب الرجال، قال الله تعالى: انطلق فقد سلّطتك على ولده، فانقضّ عدوّ الله إبليس حتى جاء بني أيوب وهم في قصرهم فلم يزل يزلزل بهم حتى تداعى من قواعده، ثم جعل يناطح جدرة بعضها ببعض ويرميهم بالخشب والجندل، حتى إذا مثل بهم كل مثلة رفع القصر فقلبه فصاروا منكّسين، ثم انطلق إلى أيوب متمثلاً بالمعلّم الذي كان يعلمهم الحكمة، وقال لو رأيت بنيك كيف عُذِّبوا وقُلِبوا وكانوا منكّسين على رؤوسهم تسيل دماؤهم ودماغهم، ولو رأيت كيف شُقّت بطونهم وتناثرت أمعاؤهم لقطع قلبك، فلم يزل يقول هذا ونحوه حتى رقّ أيوب فبكى وقبض قبضة من التراب فوضعها على رأسه، وقال يا ليت أمي لم تلدني فاغتنم إبلس ذلك فصعد سريعاً بالذي كان من جزع أيوب مسروراً به، ثم لم يلبث أيوب أن فاء وأبصر واستغفر، فصعد قرناؤه من الملائكة بتوبته فسبقت توبته إلى الله وهو أعلم، فوقف إبليس ذليلاً فقال: يا إلٓهي إنما هوّن على أيوب المال والولد أنه يرى منك أنك ما متّعته بنفسه فأنت تعهد له المال والولد فهل أنت مسلّطي على جسده، فقال الله عزّ وجلّ انطلق فقد سلّطتك على جسده، ولكن ليس لك سلطان على لسانه ولا على قلبه، وكان الله عزّ وجلّ أعلم به لم يسلّطه عليه إلاّ رحمة له ليعظم له الثواب ويجعله عبرة للصابرين وذكرى للعابدين في كل بلاء نزل بهم، ليتأسّوا به في الصبر ورجاءً للثواب، فانقضّ عدوّ الله إبليس سريعاً فوجد أيوب ساجداً فعجّل قبل أن يرفع رأسه فأتاه من قبل وجهه فنفخ في مِنخره نفخة اشتعل منها جميع جسده، فخرج من قرنه إلى قدمه تآليل مثل ألْيات الغنم ولو وقعت فيها حكّة فحكّها بأظفاره حتى سقطت كلها ثم حكّها بالمسوح الخشنة حتى قطعها، ثم حكّها بالفخار والحجارة الخشنة، فلم يزل يحكّها حتى نغل لحمه وتقطّع وتغيّر وأنتن، وأخرجه أهل القرية فجعلوه على

عز وجل: انطلق فقد سلطتك على جسده، ولكن ليس لك سلطان على لسانه وقلبه وعقله، وكان الله أعلم به، ولم يسلطه عليه إلا رحمة ليعظم له الثواب ويجعله عبرة للصابرين وذكرى للعابدين في كل بلاء نزل بهم ليتأسوا به في الصبر ورجاء الثواب. فانقض عدو الله إبليس سريعاً إليه فوجد أيوب ساجداً فعجل قبل أن يرفع رأسه، فأتاه من قبل وجهه فنفخ في منخريه نفخة اشتعل منها جسده فخرج من قرنه إلى قدمه ثآليل مثل أليات الغنم، ووقعت فيه حكة فحك بأظفاره حتى سقطت كلها، ثم حكها بالمسوح الخشنة حتى قطعها، ثم حكها بالفخار والحجارة الخشنة.

فلم يزل يحك حتى قرح لحمه وتقطع وتغير وأنتن فأخرجه أهل القرية فجعلوه على كناسة لهم وجعلوا له عريشة، ورفضه خلق الله كلهم غير امرأته وهي رحمة بنت أفرائيم بن يوسف بن يعقوب، فكانت تختلف إليه بما يصلحه وتلزمه، فلما رأى الثلاثة من أصحابه ما ابتلاه الله به اتهموه ورفضوه من غير أن يتركوا دينه، فلما طال به البلاء انطلق إليه أصحابه فبكتوه ولاموه وقالوا: تب إلى الله من الذنب الذي عوقبت به. قال: وحضر معهم فتى حديث السن قد آمن به وصدقه فقال لهم الفتى: إنكم تكلمتم أيها الكهول وأنتم أحق بالكلام مني لأسنانكم ولكن تركتم من القول ما هو أحسن من الذي قلتم، ومن الرأي أصوب من الذي رأيتم، ومن الأمر أجمل من الذي أتيتم، وقد كان لأيوب عليكم من الحق والذمام أفضل من الذي وصفتم، فهل تدرون أيها الكهول حق من انتقصتم، وحرمة من انتهكتم، ومن الرجل الذي عبتم واتهمتم ألم تعلموا أن أيوب نبي الله وصفوته وخيرته من أهل الأرض إلى يومكم هذا ثم لم تعلموا ولم يطلعكم الله على أنه سخط شيئاً من أمره منذ آتاه الله ما آتاه إلى يومكم هذا ولا على أنه نزع منه شيئاً من الكرامة التي أكرمه الله بها ولا أن أيوب قال على الله غير الحق في طول ما صحبتموه إلى يومكم هذا. فإن كان البلاء هو الذي أزرى به عندكم، ووضعه في أنفسكم فقد علمتم أن الله تعالى يبتلي المؤمنين والصديقين والشهداء

كناسة وجعلوا له عريشاً فرفضه خلق الله كلهم غير امرأته رحمة، وهي بنت أفرائيم بن يوسف بن يعقوب كانت تختلف إليه بما يصله وتلزمه، فلما رأى الثلاثة من أصحابه وهم النغر ويلدد وصافر ما ابتلاه الله به اتهموه ورفضوه من غير أن يتركوا دينه، فلما طال به البلاء انطلقوا إليه فبكّتوه ولاموه وقالوا له تبْ إلى الله من الذنب الذي عوقبت به، وكان ممّن حضره معهم فتى حديث السن قد آمن به وصدّقه فقال لهم إنكم تكلّمتم أيها الكهول، وكنتم أحقّ بالكلام منّي لأسنانكم، ولكن قد تركتم من القول أحسن من الذي قلتم، ومن الرأي أصوب من الذي رأيتم ومن الأمر أجمل من الذي أتيتم، وقد كان لأيوب عليكم من الحق والذمام أفضل من الذي وصفتم، فهل تدرون أيها الكهول حقّ مَن أنقصتم وحُرمة مَن انتهكتم ومَن الرجل الذي عبتم واتّهمتم؟ ألم تعلموا أن أيوب نبيّ الله وخيرته من خلقه وصفوته من أهل الأرض في يومكم هذا، ثم لم تعلموا ولم يطلعكم الله من أمره على أنه قد سخط عليه شيئاً من أمره منذ آتاه الله ما آتاه إلى يومك هذا ولا على أنه نزع منه شيئاً من الكرامة التي أكرمه بها، ولأن أيوب قال على الله غير الحق في طول ما صحبتموه إلى يومكم هذا أفإن كان البلاء هو الذي أزري به عندكم ووضعه في أنفسكم فقد علمتم أن الله يبتلي المؤمنين والصدّيقين والشهداء والصالحين، وليس بلاؤه لأولئك بدليل على سخطه عليهم ولا لهوانه لهم ولكنه كرامة وخيرة لهم، ولو كان أيوب ليس من الله بهذه المنزلة إلّا أنه أخ أحببتموه على وجه الصحبة لكان لا يجمل أن يعذل أخاه عند البلاء، ولا أن يعيّره بالمصيبة ولا أن يعيّبه بما لا يعلم وهو مكروب حزين، ولكنه يرحمه ويبكي معه ويستغفر له ويحزن لحزنه، ويدلّ على مراشد أمره وليس بحكيم ولا رشيد مَن جهل هذا، فالله الله أيها الكهول وقد كان في عظمة الله عزّ جلاله، وذكر الموت ما يقطع ألسنتكم ويكسر قلوبكم ألم تعلموا أن لله عباداً أسكتتهم خشيته من غير عيّ ولا بكم وأنهم لهم الفصحاء البلغاء النبلاء الألبّاء العالمون بالله، ولكنهم إذا ذكروا عظمة الله انقطعت ألسنتهم واقشعرّت جلودهم وانكسرت قلوبهم وطاشت عقولهم إعظاماً وإجلالاً

والصالحين، وليس بلاؤه لأولئك دليلاً على سخطه عليهم، ولا لهوانهم عليه، ولكنها كرامة وخيرة لهم، ولو كان أيوب ليس من الله بهذه إلا أنه أخ أحببتموه على وجه الصحبة لكان لا يجمل بالحليم أن يعذل أخاه عند البلاء ولا يعيره بالمصيبة ولا يعيبه بما لا يعلم وهو مكروب حزين، ولكنه يرحمه ويبكي ويستغفر له ويحزن لحزنه ويدله على مراشد أمره، وليس بحكيم ولا رشيد من جهل هذا فالله الله أيها الكهول، وقد كان في عظمة الله وجلاله وذكر الموت ما يقطع ألسنتكم ويكسر قلوبكم ألم تعلموا أن لله عباداً أسكتتهم الخشية من غير عيّ ولا بكم وإنهم لهم الفصحاء البلغاء النبلاء الألباء العالمون بالله، ولكنهم إذا ذكروا عظمة الله انقطعت ألسنتهم واقشعرت جلودهم وانكسرت قلوبهم وطاشت عقولهم إعظاماً لأمر الله وإجلالاً، فإذا اشتاقوا من ذلك استبقوا إلى الله بالأعمال الزاكية يعدون أنفسهم من الظالمين والخاطئين وإنهم لأبرار برآء ومع المقصرين المفرطين وإنهم لأكياس أقوياء.

قال أيوب عليه السلام: إن الله يزرع الحكمة بالرحمة في قلب الصغير والكبير، فإذا نبتت في القلب يظهرها الله على اللسان وليست تكون الحكمة من قبل السن ولا طول التجربة، وإذا جعل الله العبد حكيماً في الصبا لم تسقط منزلته عند الحكماء، وهم يرون من الله سبحانه وتعالى عليه نور الكرامة، ثم أقبل أيوب على الثلاثة وقال: أتيتموني غضاباً رهبتم قبل أن تسترهبوا، وبكيتم قبل أن تضربوا، كيف بي لو قلت تصدقوا عني بأموالكم لعل الله أن يخلصني، أو قربوا عني قرباناً لعل الله أن يقبله ويرضى عني وإنكم قد أعجبتكم أنفسكم، وظننتم أنكم قد عوفيتم بإحسانكم، ولو نظرتم فيما بينكم وبين ربكم ثم صدقتم لوجدتم لكم عيوباً سترها الله تعالى بالعافية التي ألبسكم. وقد كنتم فيما خلا توقرونني وأنا مسموع كلامي معروف حقي منتصف من خصمي، فأصبحت اليوم وليس لي رأي ولا كلام معكم، فأنتم كنتم أشد عليّ من مصيبتي. ثم أعرض عنهم أيوب، وأقبل على ربه مستغيثاً به متضرعاً إليه فقال: يا رب لأي شيء

لله عزّ وجلّ، فإذا استفاقوا من ذلك استبقوا إلى الله عزّ وجلّ بالأعمال الزكية يعدّون أنفسهم مع الظالمين الخاطئين وأنهم لأبرار نزهاء برءاء ومع المقصرين والمفرطين وأنهم لأكياس أقوياء، فقال: إن الله عزّ وجلّ يزرع الحكمة بالرحمة في قلب الصغير والكبير، فمتى نبتت في القلب يظهرها الله على اللسان وليست تكون الحكمة من قبل السن والشيبة ولا طول التجربة وإذا جعل الله العبد حكيماً في الصبا لم تسقط منزلته عند الحكماء وهم يرون من الله عليه نور الكرامة ثم أعرض عنهم أيوب وأقبل على ربّه مستغيثاً به متضرعاً إليه، فقال ربِّ لأيّ شيء خلقتني ليتني إذ كرهتني لم تخلقني يا ليتني قد عرفت الذنب الذي أذنبت، والعمل الذي عملت، فصرفت به وجهك الكريم عنّي لو كنت أمتّني فألحقتني بآبائي الكرام، فالموت كان أجمل بي ألم أكن للغريب داراً وللمسكين قراراً ولليتيم وليّاً وللأرملة قيّماً، إلّهي أنا عبدك إن أحسنت فالمنّ لك وإن أسأت فبيدك عقوبتي، وجعلتني للبلاء عرضاً وللفتنة نصباً وقد وقع عليّ بلاء لو سلّطته على جبل لضعف عن حمله، فكيف يحمله ضعفي وإن قضاءك هو الذي أذلّني وإن سلطانك هو الذي أسقمني وأنحل جسمي، ولو أن ربي نزع الهيبة التي في صدري وأطلق لساني حتى أتكلم بملء فمي بما كان ينبغي للعبد أن يحاجّ عن نفسه لرجوت أن يعافيني عند ذلك مما بي ولكنه ألقاني وتعالى عنّي فهو يراني ولا أراه ويسمعني ولا أسمعه فلا نظر إليّ فيرحمني ولا دنا مني ولا أدناني فأدلي بعذري وأتكلم ببراءتي وأخاصم عن نفسي، فلما قال ذلك أيوب وأصحابه عنده أظلّه غمام حتى ظن أصحابه أنه عذاب أليم، ثم نودي يا أيوب إن الله عزّ وجلّ يقول: ها أنا قد دنوت منك ولم أزل منك قريباً قم فادل بعذرك وتكلم ببراءتك وخاصم عن نفسك واشدد أزرك، وقم مقام جبار يخاصم جبار إن استطعت، فإنه لا ينبغي أن يخاصمني إلاّ جبّار مثلي ولا شبه لي لقد منّتك نفسك يا أيوب أمراً ما تبلغه بمثل قوتك أين أنت منّي يوم خلقت الأرض فوضعتها على أساسها هل كنت معي تمدّ بأطرافها وهل علمت بأيّ مقدار قدّرتها أم على أيّ شيء وضعت أكنافها أبطاعتك حمل الماء الأرض

خلقتني؟ ليتني إذ كرهتني لم تخلقني، يا ليتني عرفت الذنب الذي أذنبت والعمل الذي عملت فصرفت وجهك الكريم عني لو كنت أمتني فألحقتني بآبائي، فالموت كان أجمل بي. ألم أكن للغريب داراً وللمسكين قراراً ولليتيم ولياً وللأرملة قَيِّماً إلهي أنا عبد ذليل إن أحسنت فالمنُّ لك، وإن أسأت فبيدك عقوبتي، جعلتني للبلاء غرضاً، وللفتنة نصيباً، وقد وقع عليَّ من البلاء ما لو سلطته على جبل لضعف عن حمله فكيف يحمله ضعفي. وإن قضاءك هو الذي أذلني، وإن سلطانك هو الذي أسقمني وأنحل جسمي، ولو أن ربي نزع الهيبة التي في صدري وأطلق لساني حتى أتكلم بملء فيَّ فأدلي بعذري وأتكلم ببراءتي وأخاصم عن نفسي لرجوت أن يعافيني عند ذلك مما بي، ولكنه ألقاني وتعالى عني فهو يراني ولا أراه ويسمعني ولا أسمعه.

فلما قال ذلك أيوب وأصحابه عنده أظله غمام حتى ظن أصحابه أنه عذاب، ثم نودي يا أيوب إن الله يقول ها أنا قد دنوت منك ولم أزل منك قريباً قم فأدل بعذرك وتكلم ببراءتك وخاصم عن نفسك واشدد أزرك وقم مقام جبار يخاصم جبارا إن استطعت، فإنه لا ينبغي أن يخاصمني إلا جبار مثلي. لقد منتك نفسك يا أيوب أمراً، ما يبلغ لمثله مثلك. أين أنت مني يوم خلقت الأرض فوضعتها على أساسها؟ هل كنت معي تمد بأطرافها؟ هل علمت أي مقدار قدرتها، أم على أي شيء وضعت أكنافها. أبطاعتك حمل الماء الأرض، أم بحكمتك كانت الأرض للماء غطاء؟ أين كنت مني يوم رفعت السماء سقفاً في الهواء لا تعلق بسبب من فوقها ولا يقلها دعم من تحتها؟ هل يبلغ من حكمتك أن تجري نورها أو تسير نجومها أو يختلف بأمرك ليلها ونهارها؟ أين كنت مني يوم أنبعت الأنهار وسكبت البحار؟ أبسلطانك حبست أمواج البحار على حدودها أم بقدرتك فتحت الأرحام حين بلغت ملتها؟ أين كنت مني يوم صببت الماء على التراب ونصبت شوامخ الجبال؟ هل تدري على أي شيء أرسيتها أم بأي مثقال وزنتها؟ أم هل لك من ذراع

أم بحكمتك كانت الأرض للماء غطاءً أين كنت منّي يوم رفعت السماء سقفاً في الهواء لا تعلّق بسبب من فوقها ولا تقلها وعمّ من تحتها هل تبلغ من حكمتك أن تجري نورها أو تسيّر نجومها أو يختلف بأمرك ليلها ونهارها، أين أنت منّي يوم نبعث الأنهار وسكرت البحار أبسلطانك حبست أمواج البحار على حدودها أم بقدرتك فتحت الأرحام حين بلغت مدتها أين أنت مني يوم صببت الماء على التراب ونصبت شوامخ الجبال هل تدري على أي شيء أرسيتها أو بأيّ مثقال وزنتها أم هل لك من ذراع تطيق حملها وهل تدري من أين الماء الذي أنزلت من السماء أم هل تدري من أيّ شيء أُنشىء السحاب أم هل تدري أين خزائن الثلج، أم أين جبال البرد أم أين خزانة الليل بالنهار وخزانة النهار بالليل، وأين خزائن الريح وبأيّ لغة تتكلم الأشجار ومَن جعل العقول في أجواف الرجال، ومَن شقّ الأسماع والأبصار، ومَن ذلّت الملائكة لملكه وقهر الجبارين بجبروته، وقسم الأرزاق بحكمته في كلام كثير من آثار قدرته ذكرها لأيوب، فقال أيوب: صغر شأني وكَلَّ لساني وعقلي ورائي وضعفت قوتي عن هذا الأمر الذي تعرض عليّ يا إلّهي قد علمت أن كل الذي ذكرت صنيع يديك وتدبير حكمتك وأعمّ من ذلك وأعجب لو شئت عملت لا يعجزك شيء ولا يخفى عليك خافية إذ لقتني البلايا، إلّهي فتكلمت ولم أملك لساني وكان البلاء هو الذي نطقني فليت الأرض انشقّت لي فذهبت فيها ولم أتكلم بشيء يُسخِط ربّي، أو ليتني متّ بغمّي في أشدّ بلائي قبل ذلك، إنما تكلمت حين تكلمت لتعذرني وسكت حين سكت لترحمني كلمة زلّت مني فلن أعود وقد وضعت يدي على فمي وعضضت على لساني وألصقت بالتراب خدّي أعوذ بك اليوم منك وأستجيرك من جهد البلاء فأجرني وأستغيث بك من عقابك فأغثني وأستعين بك على أمري فأعنّي وأتوكل عليك فاكفني، وأعتصم بك فاعصمني وأستغفرك فاغفر لي فلن أعود لشيء تكرهه منّي، قال الله تعالى يا أيوب نفذ فيك علمي وسبقت رحمتي غضبي فقد غفرت لك، ورددت عليك أهلك ومالك ومثلهم معهم لتكون لمَن خلفك آية وتكون عبرة لأهل البلاء وعزّاً للصابرين، فاركض

تطيق حملها؟ أم هل تدري من أين الماء الذي أنزلت من السماء؟ أم هل تدري من أي شيء أنشأت السحاب؟ أم هل تدري أين خزانة الثلج؟ أم أين جبال البرد؟ أم أين خزانة الليل بالنهار وخزانة النهار بالليل؟ وأين خزانة الريح؟ وبأي لغة تتكلم الأشجار ومن جعل العقول في أجواف الرجال؟ وشق الأسماع والأبصار؟ ومن ذلت الملائكة لملكه وقهر الجبارين بجبروته وقسم الأرزاق بحكمته؟ في كلام كثير يدل على آثار قدرته ذكرها لأيوب فقال أيوب: صغر شأني وكل لساني وعقلي ورأيي وضعفت قوتي عن هذا الأمر الذي يعرض عليَّ إلهي. قد علمت أن كل الذي قد ذكرت صنع يديك وتدبير حكمتك وأعظم من ذلك وأعجب لو شئت عملت ولا يعجزك شيء ولا تخفى عليك خافية إلهي أوثقني البلاء فتكلمت ولم أملك نفسي فكان البلاء هو الذي أنطقني. ليت الأرض انشقت بي فذهبت فيها ولم أتكلم بشيء يسخطك. ربي وليتني مت بغمي في أشد بلائي قبل ذلك. إنما تكلمت حين تكلمت بعذري، وسكت حين سكت لترحمني كلمة زلت مني فلن أعود، وقد وضعت يدي على فمي وعضضت على لساني وألصقت بالتراب خدي، أعوذ بك اليوم منك وأستجير بك من جهد البلاء، فأجرني وأستغيث بك من عقابك فأغثني، وأستعينك عن أمري فأعني، وأتوكل عليك فاكفني، وأعتصم بك فاعصمني وأستغفرك فاغفر لي فلن أعود لشيء تكرهه مني.

قال الله تعالى: يا أيوب نفذ فيك علمي وسبقت رحمتي غضبي، فقد غفرت لك، ورددت عليك أهلك ومالك ومثلهم معهم لتكون لمن خلفك آية وتكون عبرة لأهل البلاء وعزاً للصابرين، فاركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب، فمنه تناول وقرب عن أصحابك قرباناً واستغفر لهم، فإنهم قد عصوني فيك. روي عن أنس يرفعه أن أيوب لبث ببلائه ثماني عشرة سنة، وقال وهب: ثلاث سنين لم يزد يوماً، وقال كعب: سبع سنين، وقال الحسن: مكث أيوب مطروحاً على كناسة لبني إسرائيل سبع سنين وأشهراً يختلف فيه الدود، لا يقربه أحد غير رحمة صبرت معه

برجلك هذا مغتسل بارد وشراب فيه شفاؤك وقرّب عن أصحابك قرباناً فاستغفر لهم فإنهم قد عصوني فيك، فركض برجله فانفجرت له عين فدخل فيها فاغتسل فأذهب الله عنه كل ما كان به من البلاء، ثم خرج فجلس فأقبلت امرأته تلتمسه في مضجعه فلم تجده فقامت كالوالهة مترددة ثم قالت: يا عبد الله هل لك علم بالرجل المبتلي الذي كان هاهنا، قال لها: هل تعرفينه إذا رأيتيه قالت: نعم وما لي لا أعرفه، ثم تبسم وقال: أنا هو فعرفته بضحكه فاعتنقته. قال ابن عباس: فوالذي نفس عبد الله بيده ما فارقته من عناقه حتى مرّ بهما كل مال لهما وولد، فذلك قوله تعالى: ﴿ وأيوب إذْ نادى ربه أنّي مسّني الضرّ ﴾، واختلفوا في وقت ندائه والسبب الذي قال لأجله: أني مسّني الضرّ وفي مدة بلائه، فروى ابن شهاب عن أنس يرفعه أن أيوب لبث في بلائه ثماني عشرة سنة. وقال وهب: لبث أيوب في البلاء ثلاث سنين لم يزد يوماً. وقال كعب: كان أيوب في البلاء سبع سنين وسبعة أشهر وسبع أيام. وقال الحسن: مكث أيوب مطروحاً على كناسة في مزبلة لبني إسرائيل سبع سنين وأشهراً تختلف فيه الدواب لا يقربه أحد غير امرأته رحمة صبرت معه بصدق وتـأتيه بـطعام وتحمـد الله معه إذا حمـد، وأيوب مـع ذلك لا يفتـر عن ذكر الله والصبـر على ما ابتلاه به، فصرخ إبليس صرخة جمع بها جنوده من أقطار الأرض فلما اجتمعوا إليه قالوا له ما حزّ بك قال أعياني هذا العبد أيوب الذي لم أدع له مالاً ولا ولداً فلم يزد إلا صبراً، ثم سلّطت على جسده فتركته قرحة ملقاة على كناسة لا يقربه إلّا امرأته، فاستعنت بكم لتُعينوني عليه، فقالوا له أين مكرك الذي أهلكت به مَن مضى، قال بطل ذلك كله في أيوب فأشيروا عليّ قالوا نشير عليك من أين أتيت آدم حين أخرجته من الجنة، قال من قبل امرأته قالوا فشأنك في أيوب من قبل امرأته فإنه لا يستطيع أن يعصيها وليس أحد يقربه غيرها، قال أصبتم، فانطلق حتى أتى امرأته وهي تصدق فتمثّل لها في صورة رجل فقال لها أين بعلك يا أمة الله قالت هو ذاك يحكّ قروحه وتتردّد الدواب في جسده، فلما سمع مقالتها طمع أن تكون كلمة جزع فوسوس إليها وذكّرها ما كانت فيه من النِّعَم والمال

بصدق، وكانت تأتيه بالطعام، وتحمد الله معه إذا حمد، وأيوب مع ذلك لا يفتر عن ذكر الله تعالى والصبر على بلائه، فصرخ إبليس صرخة جمع فيها جنوده من أقطار الأرض، فلما اجتمعوا إليه قالوا: ما أحزنك؟ قال: أعياني هذا العبد الذي لم أدع له مالاً ولا ولداً ولم يزدد إلا صبراً، ثم سلطت على جسده فتركته قرحة ملقاة على كناسة لا تقربه إلا امرأته، فاستعنت بكم لتعينوني عليه، فقالوا له: فأين مكرك الذي أهلكت به من مضى؟ قال: بطل ذلك كله في أيوب فأشيروا عليَّ قالوا: من أين أتيت آدم حين أخرجته من الجنة؟ قال: من قبل امرأته. قالوا فشأنك بأيوب من قبل امرأته فإنه لا يستطيع أن يعصيها وليس يقربه أحد غيرها. قال: أصبتم فانطلق إبليس حتى أتى رحمة امرأة أيوب وهي تصدق فتمثل لها في صورة رجل وقال لها: أين بعلك يا أمة الله؟ قالت هو ذاك يحك قروحه ويتردد الديدان في جسده. فلما سمعها طمع أن تكون كلمة جزع، فوسوس إليها وذكرها ما كانت فيه من النعم والمال، وذكرها جمال أيوب وشبابه وما هو فيه من الضر، وأن ذلك لا ينقطع عنه أبداً، فصرخت فعلم أنها قد جزعت فأتاها بسخلة وقال: ليذبح لي هذه أيوب ويبرأ افجاءت تصرخ يا أيوب حتى متى يعذبك ربك أين المال أين الولد أين الصديق أين لونك الحسن أين جسمك الحسن؟ اذبح هذه السخلة واسترح. قال أيوب: أتاك عدو الله فنفخ فيك؟ ويلك أرأيت ما تبكين عليه من المال والولد والصحة من أعطانيه؟ قالت الله قال كم متعنا به قالت ثمانين سنة.

قال فمنذ كم ابتلانا قالت منذ سبع سنين وأشهر قال ويلك ما أنصفت ربك ألا صبرت في البلاء ثمانين سنة كما كنا في الرخاء ثمانين سنة، والله لئن شفاني الله لأجلدنك مائة جلدة أمرتيني أن أذبح لغير الله. طعامك وشرابك الذي تأتيني به علي حرام أن أذوق منه شيئاً أعزبي عني فلا أراك، فطردها، فذهبت. فلما نظر أيوب وليس عنده طعام ولا

وذكَّرها جمال أيوب وشبابه وما هو فيه من الضرّ وأن ذلك لا ينقطع عنه أبداً، قال الحسن فصرخت فلما صرخت علم أن قد جزعت فأتاها بسخلةٍ وقال ليذبح هذه لي أيوب ويبرأ فجاءت تصرخ يا أيوب حتى متى يعذبك ربك، أين المال أين الولد أين الصديق أين لونك الحسن أين جسمك الصحيح، اذبح هذه السخلة واسترح، قال أيوب أتاك عدوّ الله فنفخ فيك ويلك أرأيت ما تبكين عليه من المال والولد والصحة مَن أعطانيه، قالت الله، قال فكم متّعنا به قالت ثمانين سنة، قال فمنذ كم ابتلانا قالت منذ سبع سنين وأشهر، قال ويلك ما أنصفت إلا صبرت في البلاء ثمانين سنة كما كنّا في الرخاء ثمانين سنة، والله لئن شفاني الله لأجلدنّك مائة جلدة أمرتيني أن أذبح لغير الله طعامك وشرابك الذي أتيتني به عليّ حرام وحرام عليّ أن أذوق شيئاً مما تأتيني به بعد إذ قلتِ لي هذا، فاعزبي عنّي، فلا أراك فطردها فذهبت فلما نظر أيوب وليس عنده طعام ولا شراب ولا صديق خرّ ساجداً لله وقال رب ﴿ أنّي مسّني الضرّ وأنت أرحم الراحمين ﴾، فقيل له ارفع رأسك فقد استجيب لك اركض برجلك فركض برجله فنبعت عين فاغتسل منها فلم يبق عليه من دائه شيء ظاهر إلاّ سقط وعاد إليه شبابه وجماله أحسن ما كان، ثم ركض برجله ركضة أخرى فنبعت عين أخرى فشرب منها فلم يبقَ في جوفه داء إلاّ خرج فقام صحيحاً وكُسِيَ حُلّة قال فجعل يلتفت فلا يرى شيئاً مما كان له من أهل ومال إلاّ وقد ضاعفه الله حتى ذكر لنا أن الماء الذي اغتسل منه تطاير منه على صدره جراداً من ذهب فجعل يضمه بيده، فأوحى الله إليه يا أيوب لم أُغنِكَ؟ قال: بلى ولكنها بركتك فمَن يشبع منها، قال فخرج حتى جلس على مكان مشرف، ثم إن امرأته قالت أرأيتك إن كان أيوب طردني إلى مَن أكله أدعه يموت جوعاً ويضيع فتأكله السّباع لأرجعنّ إليه فرجعت فلا كناسة ترى ولا تلك الحالة التي كانت وإذا الأمور قد تغيّرت فجعلت تطوف حيث كانت الكناسة وتبكي وذلك بعين أيوب وهابت صاحب الحلّة أن تأتيه فتسأله عنه، فدعاها أيوب فقال ما تريدين يا أمة الله فبكت وقالت أردت ذلك المبتلى الذي كان منبوذاً على الكناسة ولا أدري أضاع أم ما فعل، فقال أيوب ما كان منك فبكت، وقالت بعلي، قال فهل تعرفينه إذا رأيتيه فقالت وهل يخفى على

شراب ولا صديق خر ساجداً لله وقارب ﴿أني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين﴾ فقيل له ارفع رأسك فقد استجبت لك اركض برجلك، فركض برجله فنبعت عين ماء، فاغتسل منها فلم يبق عليه من درنه ودائه شيء ظاهر إلا سقط، وعاد شبابه وجماله أحسن ما كان، ثم ضرب برجله فنبعت عين أخرى فشرب منها، فلم يبق في جوفه داء إلا خرج، فقام صحيحاً وكسي حلة فجعل يلتفت فلا يرى شيئاً مما كان عليه وما كان له. من أهل ومال إلا وقد ضعفه الله له وذكر لنا أن الماء الذي اغتسل منه تطاير على صدره جراد من ذهب فجعل يضمه بيده فأوحى الله إليه يا أيوب ألم أغنك؟ قال بلى ولكنها بركتك فمن يشبع منها؟ قال: فخرج حتى جلس على مكان مشرف. ثم إن امرأته قالت: أرأيت إن كان طردني إلى من أكله؟ أدعه يموت جوعاً؟ ويضيع فتأكله السباع؟ لأرجعن إليه. فرجعت إليه فلا الكناسة رأت، ولا تلك الحالة التي كانت تعرف، وإذا الأمور قد تغيرت فجعلت تطوف حيث كانت الكناسة وتبكي وذلك بعيني أيوب، وهابت صاحب الحلة أن تأتيه فتسأله عن أيوب، فدعاها وقال: ما تريدين يا أمة الله فبكت وقالت: أردت ذلك المبتلى الذي كان منبوذاً على الكناسة لا أدري أضاع أم ما فعل به؟ فقال أيوب: ما كان منك فبكت وقالت بعلي. فقال هل تعرفينه إذا رأيتيه؟ قالت وهل يخفى على أحد رآه ثم جعلت تنظر إليه وهي تهابه ثم قالت: أما إنه أشبه خلق الله بك إذ كان صحيحاً. قال: فإني أنا أيوب الذي أمرتني أن أذبح سخلة لإبليس، وإني أطعت الله وعصيت الشيطان ودعوت الله فرد عليَّ ما ترين.

وقال وهب: لبث أيوب في البلاء ثلاث سنين، فلما غلب أيوب إبليس ولم يستطع منه شيئاً اعترض امرأته في

أحد رآه ثم جعلت تنظر إليه وهي تهابه ثم قالت أما أنه أشبه خلق الله بك إذ كان صحيحاً قال فإني أنا أيوب الذي أمرتيني أن أذبح لإبليس وإني أطعت الله وعصيت الشيطان ودعوت الله فردّ عليّ ما ترين. وقال وهب: لبث أيوب في البلاء ثلاث سنين فلما غلب أيوب إبليس ولم يستطع منه شيئاً اعترض امرأته في هيئة ليست كهيئة بني آدم في العظم والجسم والجمال على مركب ليس من مراكب الناس له عظم وبهاء وكمال، فقال لها أنت صاحبة أيوب هذا الرجل المبتلى، قالت نعم قال فهل تعرفيني قالت لا قال أنا إلّه الأرض وأنا الذي صنعت بصاحبك ما صنعت لأنه عبد الله إلّه السماء وتركني فأغضبني ولو سجد لي سجدة واحدة رددت عليه وعليك كل ما كان لكما من مال وولد، فإنه عندي ثم أراها إيّاهم ببطن الوادي الذي لقيا فيه، قال وهب: وقد سمعت أنه إنما قال لها لو أن صاحبك أكل طعاماً ولم يُسمِّ الله عليه لعوفي ما به من البلاء، والله أعلم وفي بعض الكتب: إن إبليس قال لها اسجدي لي سجدة حتى أردّ عليك المال والأولاد وأُعافي زوجك، فرجعت إلى أيوب فأخبرته بما قال لها وما أراها قال لقد أتاك عدو الله إبليس ليفتنك عن دينك، ثم أقسم لو أن الله عافاه ليضربنّها مائة جلدة، وقال عند ذلك: مسّني الضرّ من طمع إبليس في سجود حرمتي له، ودعائه إيّاها وإيّاي إلى الكفر، ثم إن الله عزّ وجلّ رحم رحمة امرأة أيوب بصبرها معه على البلاء، وخفّف عليها وأراد أن يبرّ يمين أيوب، فأمره أن يأخذ ضغثاً يشتمل على مائة عود صغار فيضربها به ضربة واحدة كما قال الله تعالى: ﴿وخذ بيدك ضغثاً فاضرب به ولا تحنث﴾ [صٓ: ٤٤]، ورُوِيَ أن إبليس اتخذ تابوتاً وجعل فيه أدوية وقعد على طريق امرأته يداوي الناس فمرّت به امرأة أيوب فقالت يا شيخ إن لي مريضاً أفتداويه؟ قال نعم والله لا أُريد شيئاً إلّا أن يقول إذا شفيته أنت شفيتني، فذكرت ذلك لأيوب فقال هو إبليس قد خدعك، ثم حلف إن شفاه الله أن يضربها مائة جلدة. وقال وهب وغيره: كانت امرأة أيوب تعمل للناس وتجيئه بقوته فلما طال عليه البلاء وسئمها الناس ولم يستعملها أحد التمست يوماً من الأيام ما تطعمه فما وجدت شيئاً فحزّت قرناً من رأسها، فباعته برغيف فأتته به فقال لها أين قرنك فأخبرته فحينئذ قال: ﴿مسّني الضرّ﴾، وقال قوم: إنما قال ذلك حين قصدت الدودة إلى قلبه ولسانه فخشي أن يفتر عن الذكر والفكر. وقال حبيب بن أبي ثابت: لم يدع الله بالكشف عنه حتى

هيئة ليست كهيئة بني آدم في العظم والجسم والجمال على مركب ليس من مراكب الناس له عظم وبهاء. فقال لها: أنت صاحبة أيوب هذا الرجل المبتلى قالت نعم. قال: هل تعرفيني؟ قالت لا. قال: أنا إله الأرض وأنا الذي صنعت بصاحبك ما صنعت لأنه عبد إله السماء وتركني فأغضبني ولو سجد لي سجدة واحدة رددت عليك وعليه كل ما كان لكما من مال وولد فإنه عندي ثم أراها إياه ببطن الوادي الذي لقيها فيه. وفي بعض الكتب أن إبليس قال لها اسجدي لي سجدة واحدة حتى أرد عليك المال والولد وأعافي زوجك. فرجعت إلى أيوب فأخبرته بما قال لها وما أراها. قال: لقد أتاك عدو الله ليفتنك عن دينك، ثم أقسم إن عافاه الله ليضربنها مائة جلدة وقال عند ذلك: مسني الضر من طمع إبليس في سجود حرمتي له ودعائه إياها وإياي إلى الكفر. ثم إن الله تعالى رحم رحمة امرأة أيوب بصبرها معه على البلاء وخفف عليها، وأراد أن يبر يمين أيوب، فأمره أن يأخذ ضغثاً يشتمل على مائة عود صغير فيضربها به ضربة واحدة. وقيل: لم يدع الله بالكشف عنه حتى ظهرت له ثلاثة أشياء: أحدها: ما قيل في حقه: لو كان لك عند الله منزلة ما أصابك هذا، والثاني: أن امرأته طلبت طعاماً فلم تجد ما تطعمه فباعت ذؤابتها فأتته بطعام، والثالث: قول إبليس: إني أداويه على أن يقول أنت شفيتني. وقيل مسني الضر أي من شماتة الأعداء حتى روي أنه قيل له بعد ما عوفي ما كان أشد عليك في بلائك؟ قال: شماتة الأعداء. فإن قلت كيف سماه الله صابراً وقد أظهر الشكوى والجزع بقوله مسني الضر وقوله مسني الشيطان بنصب وعذاب؟ قلت: ليس هذا شكاية وإنما هو دعاء بدليل.

فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾

قوله تعالى: ﴿**فاستجبنا له**﴾ والشكوى إنما تكون إلى الخلق لا إلى الخالق بدليل قول يعقوب إنما أشكو بثي وحزني إلى الله وقال سفيان بن عيينة: من أظهر الشكوى إلى الناس وهو راض بقضاء الله تعالى لا يكون ذلك جزعاً

ظهرت له ثلاثة أشياء أحدها قدم عليه صديقان حين بلغهما خبره فجاءا إليه ولم يبقَ له إلا عيناه فرأيا أمراً عظيماً فقالا لو كان لك عند الله منزلة ما أصابك هذا. والثاني: أن امرأته طلبت طعاماً فلم تجد ما تطعمه فباعت ذؤابتها وحملت إليه طعاماً. والثالث قول إبليس إني أُداويه على أن يقول أنتَ شفيتني. وقيل: إن إبليس وسوس إليه أن امرأتك زنت فقطعت ذؤابتها فحينئذ عِيلَ صبره، فدعاه وحلف ليضربنّها مائة جلدة. وقيل: معناه مسّني الضرّ من شماتة الأعداء. حتى رُوِيَ أنه قيل له بعدما عُوفي ما كان أشدّ عليك في بلائك قال شماتة الأعداء. وقيل: قال كذلك حين وقعت دودة من فخذه فردّها إلى موضعها. وقال كلي: فقد جعلني الله طعامك فعضّته عضّة زاد ألمها على جميع ما قاساه من عضّ الديدان. فإن قيل: إن الله سمّاه صابراً وقد أظهر الشكوى والجزع، بقوله: ﴿ **إني مسّني الضرّ** ﴾ و﴿ إني مسّني الشيطان بنصب ﴾ [صٓ: ٤١]، قيل: ليس هذا شكاية إنما هو دعاء بدليل قوله تعالى: ﴿ **فاستجبنا له** ﴾، على أن الجزع إنما هو في الشكوى إلى الخلق فأما الشكوى إلى الله عزّ وجلّ فلا يكون جزعاً ولا ترك صبراً كما قال يعقوب: ﴿ إنّما أشكو بثّي وحزني إلى الله ﴾ [يوسف: ٨٦]. قال سفيان بن عيينة: وكذلك مَن أظهر الشكوى إلى الناس وهو راضٍ بقضاء الله لا يكون ذلك جزعاً كما رُوِيَ أن جبريل دخل على النبي ﷺ في مرضه فقال: كيف تجدك؟ قال: «أجدني مغموماً وأجدني مكروباً». وقال لعائشة حين قالت وارأساه، «قال بل أنا وارأساه».

قوله: ﴿ **فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضرّ** ﴾، وذلك أنه قال له اركض برجلك فركض برجله فنبعت عين ماء بارد، فأمره أن يغتسل منها ففعل فذهب كل داء كان بظاهره، ثم مشى أربعين خطوة فأمره أن يركض برجله الأرض

كما «روي أن جبريل عليه السلام دخل على النبي ﷺ في مرضه فقال كيف تجدك؟ قال: أجدني مغموماً وأجدني مكروباً. وقال لعائشة حين قالت: وارأساه بل أنا وارأساه» قوله تعالى ﴿فاستجبنا له﴾ أي أجبنا دعاءه ﴿فكشفنا ما به من ضر﴾ وذلك أنه قال له ﴿اركض برجلك﴾ فركض برجله فنبعت عين ماء فأمره أن يغتسل منها ففعل فذهب كل داء كان بظاهره ثم مشى أربعين خطوة فأمره أن يضرب برجله الأرض مرة أخرى ففعل، فنبعت عين ماء بارد، فأمره أن يشرب منها، فشرب، فذهب كل داء كان بباطنه فصار كأصح ما كان ﴿وآتيناه أهله ومثلهم معهم﴾ قال ابن مسعود وابن عباس وأكثر المفسرين: رد الله إليه أهله وأولاده بأعيانهم وأحياهم الله وأعطاه مثلهم معهم، وهو ظاهر القرآن، وعن ابن عباس رواية أخرى أن الله رد إلى المرأة شبابها فولدت له ستة وعشرين ذكراً. وقيل كان له سبع بنين وسبع بنات.

وعن أنس يرفعه أن كان له أندران أندر للقمح وأندر للشعير فبعث الله سحابتين فأفرغت إحداهما على أندر القمح الذهب، وأفرغت الأخرى على أندر الشعير الورق حتى فاضا. وروى أن الله تعالى بعث إليه ملكاً وقال له: إن ربك يقرئك السلام بصبرك فاخرج إلى أندرك، فخرج إليه فأرسل الله عليه جراداً من ذهب فذهبت واحدة فاتبعها وردها إلى أندره فقال له الملك ما يكفيك ما في أندرك؟ فقال هذه بركة من بركات ربي ولا أشبع من بركاته (خ) عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «بينما أيوب يغتسل عرياناً خر عليه جراد من ذهب فجعل أيوب يحثي في ثوبه فناداه ربه يا أيوب ألم أكن أغنيتك عما ترى؟ قال: بلى يا رب ولكني لا غنى لي عن بركتك». وقيل: آتى الله أيوب مثل أهله الذين هلكوا. قال عكرمة: قيل لأيوب إن أهلك في الآخرة فإن شئت عجلناهم لك في الدنيا، وإن شئت كانوا لك في الآخرة وآتيناك مثلهم في الدنيا فقال: بل يكونون لي في الآخرة وأوتى مثلهم في الدنيا. فعلى هذا يكون معنى الآية

مرة أخرى ففعل فنبعت عين ماء بارد، فأمره فشرب منها فذهب كل داء كان بباطنه فصار كأصحّ ما يكون من الرجال وأجملهم. ﴿ وآتيناه أهله ومثلهم معهم ﴾، واختلفوا في ذلك فقال ابن مسعود وقتادة وابن عباس والحسن وأكثر المفسّرين: ردّ الله عزّ وجلّ إليه أهله وأولاده بأعيانهم أحياهم الله وأعطاهم مثلهم معهم، وهو ظاهر القرآن: قال الحسن: آتاه الله المثل من نسل ماله الذي ردّ الله إليه وأهله، يدلّ عليه ما رُوِيَ عن الضحاك عن ابن عباس: أن الله عزّ وجلّ ردّ إلى المرأة شبابها فولدت له ستّة وعشرين ذكراً. قال وهب: كان له سبع بنات وثلاثة بنين. وقال ابن يسار: كان له سبع بنين وسبع بنات. ورُوِيَ عن أنس يرفعه: أنه كان له أندران أندر للقمح وأندر للشعير، فبعث الله عزّ وجلّ سحابتين فأفرغت إحداهما على أندر القمح الذهب وأفرغت الأخرى على أندر الشعير الورق حتى فاض. ورُوِيَ أن الله تعالى بعث إليه ملكاً وقال له إن ربك يقرئك السلام بصبرك فاخرج على أندرك، فخرج إليه فأرسل الله عليه جراداً من ذهب فطارت واحدة فاتبعها وردّها إلى أندره، فقال له الملك: أما يكفيك ما في أندرك؟ فقال هذه بركة من بركات ربي ولا أشبع من بركته. أخبرنا حسّان بن سعيد المنيعي أنا أبو طاهر محمد بن محمد بن محمش الزيادي أنا محمد بن الحسين القطان أنا أحمد بن يوسف السلمي أنا عبد الرزاق أنا معمر عن همّام بن منبّه قال أنا أبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «بينا أيوب يغتسل عرياناً خرّ عليه جراداً من ذهب فجعل أيوب يحثي في ثوبه، فناداه ربّه يا أيوب ألم أكن أُغنيك عمّا ترى؟ قال: بلى وعزّتك ولكن لا غنى لي عن بركتك». وقال قوم: أتى الله أيوب في الدنيا مثل أهله الذين هلكوا فأما الذين هلكوا فإنهم لم يردّوا عليه في الدنيا قال عكرمة: قيل لأيوب إن أهلك لك في الآخرة فإن شئت عجّلناهم لك في الدنيا وإن شئت كانوا لك في الآخرة، وآتيناك مثلهم في الدنيا فقال يكونون لي في الآخرة، وأُوتي مثلهم في الدنيا، فعلى هذا يكون معنى الآية: وآتينا أهله في الآخرة ومثلهم

﴿وآتيناه أهله﴾ في الآخرة ومثلهم معهم في الدنيا وأراد بالأهل الأولاد ﴿رحمة من عندنا﴾ أي نعمة ﴿وذكرى للعابدين﴾ يعني عظة وعبرة لهم. قوله عز وجل:

﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٦﴾ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾

﴿وإسمعيل﴾ هو ابن إبراهيم ﷺ ﴿وإدريس﴾ هو أخنوخ ﴿وذا الكفل كل من الصابرين﴾ لما ذكر الله أمر أيوب وصبره على البلاء أتبعه بذكر هؤلاء الأنبياء لأنهم صبروا على المحن والشدائد والعبادة أيضاً. أما إسماعيل ﷺ فإنه صبر على الانقياد إلى الذبح. وأما ادريس فقد تقدمت قصته. وأما ذو الكفل فاختلفوا فيه فقيل نبياً من بني إسرائيل وكان ملكاً أوحى الله إليه إني أريد قبض روحك فاعرض ملكك على بني إسرائيل فمن تكفل أنه يصلي الليل ولا يفتر ويصوم النهار ولا يفطر ويقضي بين الناس ولا يغضب فادفع ملكك إليه ففعل ذلك، فقام شاب فقال: أنا أتكفل لك بهذا، فتكفل ووفى فشكر الله له ونبأه فسمي ذا الكفل. وقيل: لما كبر اليسع قال إني أستخلف رجلاً على الناس يعمل عليهم في حياتي أنظر كيف يعمل قال: فجمع الناس وقال: من يتقبل مني ثلاثاً أستخلفه يصوم النهار ويقوم الليل

معهم في الدنيا وأراد بالأهل الأولاد، ﴿ رحمةً من عندنا ﴾، أي نعمة من عندنا، ﴿ وذكرى للعابدين ﴾، أي عظة وعبرة لهم.

قوله: ﴿ وإسماعيل ﴾، يعني ابن إبراهيم، ﴿ وإدريس ﴾، وهو أخنوخ، ﴿ وذا الكفل كلٌّ من الصابرين ﴾، على أمرَ الله، واختلفوا في ذا الكفل، فقال عطاء: إن نبياً من أنبياء بني إسرائيل أوحى الله إليه أنّي أريد قبض روحك فأعرض ملكك على بني إسرائيل فمَن تكفّل لك أن يصل بالليل ولا يفتر ويصوم بالنهار ولا يفطر، ويقضي بين الناس ولا يغضب، فادفع ملكك إليه ففعل ذلك، فقام شاب فقال: أنا أتكفل لك بهذا فتكفّل، ووفّى به فشكر الله له ونبّأه فسُمّي ذا الكفل. قال مجاهد: لمّا كبر اليسع قال لو أني استخلفت رجلاً على الناس يعمل عليهم في حياتي حتى أنظر كيف يعمل، قال: فجمع الناس فقال: مَن يتقبّل منّي بثلاث أستخلفه: يصوم النهار ويقوم الليل، ويقضي بين الناس ولا يغضب، فقام رجل تزدريه العين، فقال: أنا فردّه ذلك اليوم، وقال مثلها اليوم الآخر فسكت الناس، وقام ذلك الرجل فقال: أنا فردّه ذلك اليوم، فاستخلفه فأتاه إبليس في صورة شيخ ضعيف حين أخذ مضجعه للقائلة، وكان لا ينام بالليل والنهار إلّا تلك النومة فدقّ الباب، فقال: مَن هذا؟ فقال: شيخ كبير مظلوم، فقام ففتح الباب فقال إن بيني وبين قومي خصومة وإنهم ظلموني وفعلوا وفعلوا وجعل يطول حتى حضر الرواح، وذهبت القائلة، فقال له إذا رحت فائتني حتى آخذ حقك فانطلق وراح فكان في مجلسه ينظر هل يرى الشيخ فلم يره، فقام يبتغيه فلما كان من الغد جلس يقضي بين الناس وينتظره فلا يراه، فلما رجع إلى القائلة فأخذ مضجعه أتاه فدقّ الباب، فقال: مَن هذا؟ فقال الشيخ المظلوم ففتح فقال ألم أقل لك إذا قعدت فائتني؟ فقال: إنهم أخبث قوم إذا عرفوا أنك قاعد قالوا نحن نعطيك حقك وإذا قمت جحدوني، قال فانطلق فإذا رحت فائتني، ففاتته القائلة وراح فجعل ينظر فلا يراه فشقّ عليه النعاس، فقال لبعض أهله لا تدعنّ أحداً يقرب هذا الباب حتى أنام فإنه قد شقّ عليّ النوم، فلما كان تلك الساعة جاء فلم يأذن له الرجل فلما أعياه نظر فرأى كوّة في البيت فتسوّر منها فإذا هو في البيت يدقّ الباب من داخل، فاستيقظ فقال: يا فلان ألم آمرك، فقال أما من قبلي فلم تؤت فانظر من أين أتيت، فقام

ويقضي ولا يغضب، فقام رجل تزدريه العين فقال: أنا، فاستخلفه فأتاه إبليس في صورة شيخ ضعيف حين أخذ مضجعه للقائلة، وكان لا ينام من الليل والنهار إلا تلك النومة: فدق الباب فقال: من هذا، فقال: شيخ كبير مظلوم، فقام ففتح الباب فقال إن بيني وبين قومي خصومة وإنهم ظلموني وفعلوا وفعلوا، وجعل يطول عليه ؛حتى ذهبت القائلة فقال: إذا رحت فائتني حتى آخذ حقك، فانطلق وراح فكان في مجلسه ينظر هل يرى الشيخ فلم يره فقام يبتغيه فلم يجده، فلما كان الغد جعل يقضي بين الناس وينتظره فلم يره، فلما رجع إلى القائلة وقال وأخذ مضجعه دق الباب فقال: من هذا فقال: الشيخ المظلوم ففتح له وقال له: ألم أقل إذا قعدت فائتني؟ قال: إنهم أخبث قوم إذا عرفوا أنك قاعد قالوا نحن نعطيك حقك إذا قمت جحدوني قال: فانطلق فإذا جلست فائتني وفاتته القائلة، فلما جلس جعل ينظر فلا يراه وشق عليه النعاس فلما كان اليوم الثالث قال لبعض أهله لا تدعن أحداً يقرب هذا الباب حتى أنام فإنه قد شق علي النعاس فلما كانت تلك الساعة نام فجاء فلم يأذن له الرجل فلما أعياه نظر فرأى كوة في البيت فتسور منها، فإذا هو في البيت فدق الباب من داخل فاستيقظ فقال يا فلان ألم آمرك قال أما من قبلي فلم تؤت فانظر من أين أتيت فقام إلى الباب فإذا هو مغلق كما أغلقه، وإذا الرجل معه في البيت فقال: أتنام والخصوم ببابك، فنظر إليه فعرفه فقال: أعدو الله؟ قال نعم أعييتني وفعلت ما فعلت لأغضبك فعصمك الله فسمي ذا الكفل لأنه تكفل بأمر فوفى به، واختلف

إلى الباب فإذا هو مغلق كما هو أغلقه، وإذا الرجل معه في البيت فقال أتنام والخصوم ببابك، فعرفه فقال: أعدوّ الله؟ قال: نعم أعييتني ففعلت ما ترى لأغضبك فعصمك الله مني، فسمّي ذا الكفل لأنه تكفّل أمراً فوفّى به. وقيل: إن إبليس جاءه وقال إن لي غريماً يمطلني فأحب أن تقوم معي وتستوفي حقي منه، فانطلق معه حتى إذا كان في السوق خلاه وذهب. ورُوِيَ: أنه اعتذر إليه. وقال: إن صاحبي هرب، وقيل: إن ذا الكفل رجل كفل أن يصلّي كل ليلة مائة ركعة إلى أن يقبضه الله فوفى به، واختلفوا في أنه كان نبياً، فقال بعضهم: كان نبياً. وقيل: هو إلياس. وقيل: زكريا. وقال أبو موسى لم يكن نبياً ولكن كان عبداً صالحاً.

﴿ وأدخلناهم في رحمتنا ﴾، يعني ما أنعم به عليهم في الدنيا من النبوّة وصيّرهم إليه في الجنة من الثواب، ﴿ إنهم من الصالحين ﴾.

﴿ وذا النون ﴾، أي اذكر صاحب الحوت وهو يونس بن متّى، ﴿ إذْ ذهب مغاضباً ﴾، اختلفوا في معناه فقال الضحّاك: مغاضباً لقومه، وهو رواية العوفي وغيره عن ابن عباس، قال: كان يونس وقومه يسكنون فلسطين فغزاهم ملك فسبى منهم تسعة أسباط ونصفاً وبقي سبطان ونصف، فأوحى الله إلى شعياء النبي أنْ سرْ إلى حزقيل الملك، وقل له حتى يوجّه نبياً قوياً فإني ألقي معه في قلوب أولئك حتى يرسلوا معه بني إسرائيل، فقال له الملك فمَن ترى، وكان في مملكته خمسة من الأنبياء، فقال يونس إنه قوي أمين فدعا الملك بيونس فأمره أن يخرج، فقال له يونس هل أمرك الله بإخراجي؟ قال: لا، قال: فهل سمّاني لك؟ قال: لا، فههنا غيري أنبياء أقوياء، فألحّوا عليه فخرج من بينهم مغاضباً للنبي وللملك، ولقومه فأتى بحر الروم فركبه، وقال عروة بن الزبير وسعيد بن جبير وجماعة: ذهب عن قومه مغاضباً لربّه إذ كشف عن قومه العذاب بعدما أوعدهم وكره أن يكون بين قوم قد جرّبوا عليه الخلف فيما أوعدهم واستحيا منهم ولم يعلم السبب الذي به العذاب وكان غضبه أنفة من ظهور خلف وعده، وأنه يسمى كذاباً لا كراهية لحكم الله تعالى، وفي بعض الأخبار أنه كان من عادة قومه أن يقتلوا مَن جربوا عليه الكذب فخشي أن يقتلوه لما لم يأتهم العذاب للميعاد، فغضب، والمغاضبة ههنا من المفاعلة التي تكون من واحد، كالمسافر والمعاقبة، فمعنى قوله مغاضباً أي غضبان، وقال الحسن: إنما غاضب ربّه عزّ وجلّ من أجل أنه أمره بالمسير إلى قومه لينذرهم بأسه ويدعوهم إليه فسأل ربّه أن ينظره ليتأهب للشخوص إليهم، فقيل له إن الأمر أسرع من ذلك حتى

في نبوته فقيل كان نبياً، وهو إلياس وقيل هو زكريا، وقيل إنه كان عبداً صالحاً ولم يكن نبياً ﴿**وأدخلناهم في رحمتنا**﴾ يعني ما أنعم به عليهم من النبوة وصبرهم إليه في الجنة من الثواب ﴿**إنهم من الصالحين**﴾.

قوله عز وجل: ﴿**وذا النون**﴾ أي واذكر صاحب الحوت أضيف إلى الحوت لابتلاعه إياه وهو يونس بن متى ﴿**إذ ذهب مغاضباً**﴾ قال ابن عباس في رواية عنه: كان يونس وقومه يسكنون فلسطين فغزاهم ملك فسبى منها تسعة أسباط ونصفاً وبقي منهم سبطان ونصف، فأوحى الله إلى شعياء النبي أن سر إلى حزقيل الملك وقل له يوجه نبياً قوياً فإني ألقي في قلوب أولئك حتى يرسلوا معه بني إسرائيل فقال له الملك: فمن ترى، وكان في مملكته خمسة من الأنبياء. قال: يونس إنه قوي أمين فدعا الملك يونس: وأمره أن يخرج فقال يونس هل الله أمرك بإخراجي؟ قال لا. قال فهل سماني الله لك؟ قال لا. قال ها هنا غيري أنبياء أقوياء، فألحوا عليه فخرج مغاضباً للنبي وللملك وقومه وأتى بحر الروم فركب وقيل ذهب عن قومه مغاضباً لربه لما كشف عنهم العذاب بعد ما أوعدهم وكره أن يكون بين أظهر قوم جربوا عليه الخلف فيما أوعدهم، واستحيا منهم ولم يعلم السبب الذي رفع العذاب عنهم به فكان غضبه أنفة من ظهور خلف وعده وأنه يسمى كذاباً لا كراهية لحكم الله. وفي بعض الأخبار أنه كان من عادة قومه أنهم يقتلون من جربوا عليه الكذب فخشي أن يقتلوه ما لم يأتهم العذاب للميعاد فذهب مغاضباً. قال ابن عباس: أتى جبريل يونس فقال انطلق إلى أهل نينوى فأنذرهم فقال: ألتمس دابة قال: الأمر أعجل من ذلك فغضب وانطلق إلى السفينة.

وقال وهب: إن يونس كان عبداً صالحاً وكان في خلقه ضيق فلما حمل أثقال النبوة تفسخ تحتها تفسخ الربع تحت الحمل الثقيل، فقذفها من يده وخرج هارباً منها فلذلك أخرجه الله من أولي العزم من الرسل وقال لنبيه محمد ﷺ ﴿فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل﴾ وقال ﴿ولا تكن كصاحب الحوت﴾ وقوله ﴿**فظن أن لن نقدر عليه**﴾ أي لن نقضي عليه العقوبة. قاله ابن عباس في رواية عنه وقيل معناه فظن أن لن نضيق عليه الحبس وقيل معناه

سأل أن ينظر إلاّ أن يأخذ نعلاً يلبسها فلم ينظر، وكان في خلقه ضيق فذهب مغاضباً. وعن ابن عباس، قال: أتى جبريل يونس فقال انطلق إلى أهل نينوى فأنذِرهم، فقال التمس دابّة قال الأمر أعجل من ذلك فغضب فانطلق إلى السفينة. وقال وهب بن منبّه: إن يونس بن متّى كان عبداً صالحاً وكان في خلقه ضيق، فلما حمل عليه أثقال النبوّة تفسّخ تحتها تفسّخ الربع تحت الحمل الثقيل فقذفها بين يديه، وخرج هارباً منها، فلذلك أخرجه الله من أُولي العزم من الرسل وقال لنبيّه محمد ﷺ: ﴿ فاصبرْ كما صبر أُولوا العزم من الرسل ﴾ [الأحقاف: ٣٥] ﴿ ولا تكن كصاحب الحوت ﴾ [القلم: ٤٨]. قوله: ﴿ **فظنّ أن لن نقدر عليه** ﴾، أي لن نقضي عليه بالعقوبة، قاله مجاهد وقتادة والضحاك والكلبي، وهو رواية العوفي عن ابن عباس يقال: قدّر الله الشيء تقديراً وقدّر يقدّر قدراً بمعنى واحد، ومنه قوله: ﴿ نحن قدّرنا بينكم الموت ﴾ [الواقعة: ٦٠] في قراءة مَن خفّفها دليل هذا التأويل قراءة عمر بن عبد العزيز والزهري: ﴿ **فظنّ أن لن نقدر عليه** ﴾ بالتشديد، وقال عطاء وكثير من العلماء: معناه فظن أن لن نضيق عليه الحبس، كقوله تعالى الله: ﴿ يبسط الرزق لمَن يشاء ويقـدّر ﴾ [الرعد: ٢٦]، أي يضيق. وقال ابن زيد: هو استفهام معناه فظن أنه يُعجز ربّه، فلا يقدر عليه. وقرأ يعقوب يقدر بضم الياء على المجهول خفيف. وعن الحسن قال: بلغني أن يونس لمّا أصاب الذنب انطلق مغاضباً لربه واستنزله الشيطان حتى ظن أن لن نقدر عليه، وكان له سلف وعبادة فأبى الله أن يدعه للشيطان، فقذفه في بطن الحوت فمكث فيه أربعين من بين يوم وليلة. وقال عطاء: سبعة أيام. وقيل: ثلاثة أيام. وقيل: إن الحوت ذهب به مسيرة ستة آلاف سنة. وقيل: بلغ به تخوم الأرض السابعة فتاب إلى ربّه تعالى في بطن الحوت، وراجع نفسه فقال: لا إله إلاّ أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، حين عصيتك وما صنعت من شيء فلن أعبد غيرك فأخرجه الله من بطن الحوت برحمته، والتأويلات المتقدمة أولى بحال

فظن أنه يعجز ربه فلا يقدر عليه، قيل لما انطلق يونس مغاضباً لربه واستزله الشيطان حتى ظن أن لن يقدر عليه وكان له سلف وعبادة أبى الله أن يدعه للشيطان فقذفه في بطن الحوت فمكث فيه أربعين ما بين يوم وليلة. وقيل سبعة أيام وقيام ثلاثة. وقيل: إن الحوت ذهب به حتى بلغ تخوم الأرض السابعة فتاب إلى ربه وراجع نفسه في بطن الحوت ﴿فنادى في الظلمات﴾ أي ظلمة الليل وظلمة البحر وظلمة بطن الحوت ﴿أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين﴾ أي حيث عصيتك وما صنعت من شيء فلم أعبد غيرك فأخرجه الله من بطن الحوت برحمته وروى أبو هريرة مرفوعاً قال أوحى الله تعال إلى الحوت أن خذه ولا تخدش له لحماً ولا تكسر له عظماً فأخذه ثم أهوى به إلى مسكنه في البحر فلما انتهى به إلى أسفل البحر سمع يونس حساً فقال في نفسه ما هذا فأوحى الله إليه هذا تسبيح دواب البحر قال فسبح هو في بطن الحوت فسمعت الملائكة تسبيحه فقالوا: يا ربنا نسمع صوتاً ضعيفاً بأرض غريبة وفي رواية صوتاً معروفاً من مكان مجهول فقال: ذلك عبدي يونس عصاني فحبسته في بطن الحوت فقالوا العبد الصالح الذي كان يصعد إليك منه في كل يوم وليلة عمل صالح قال نعم فشفعوا له عند ذلك فأمر الحوت فقذفه في الساحل فذلك.

فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾ وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩١﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾

قوله تعالى ﴿فاستجبنا له ونجيناه من الغم﴾ أي تلك الظلمات ﴿وكذلك ننجي المؤمنين﴾ أي من الكروب إذا دعونا واستغاثوا بنا. فإن قلت قد تمسك بمواضع من هذه القصة من أجاز وقوع الذنب من الأنبياء منها قوله ﴿إذ ذهب مغاضباً﴾ ومنها ﴿فظن أن لن نقدر عليه﴾ ومنها قوله ﴿إني كنت من الظالمين﴾ قلت أما الجواب الكلي فقد اختلفوا في هذه الواقعة هل كانت قبل الرسالة أم لا؟ فقال ابن عباس: كانت رسالته بعد أن أخرجه الله من بطن الحوت بدليل

الأنبياء أنه ذهب مغاضباً لقومه أو للملك، ﴿ فنادى في الظلمات أن لا إلَه إلّا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين ﴾، يعني ظلمة الليل وظلمة البحر وظلمة بطن الحوت. ورُوِيَ عن أبي هريرة مرفوعاً: أوحى الله إلى الحوت أن خذه ولا تخدش له لحماً ولا تكسر له عظماً فأخذه ثم هوى به إلى مسكنه في البحر، فلما انتهى به إلى أسفل البحر سمع يونس حسّاً فقال في نفسه ما هذا فأوحى الله إليه أن هذا تسبيح دواب البحر، قال فسبّح وهو في بطن الحوت فسمعت الملائكة تسبيحه، فقالوا: يا ربنا نسمع صوتاً ضعيفاً بأرض غريبة. وفي رواية صوتاً معروفاً من مكان مجهول، فقال: ذاك عبدي يونس عصاني فحبسته في بطن الحوت، فقالوا العبد الصالح الذي كان يصعد إليك منه في كل يوم وليلة عمل صالح؟ قال: نعم فشفعوا له، عند ذلك فأمر الحوت فقذفه إلى الساحل، كما قال الله تعالى: ﴿ فنبذناه بالعراء وهو سقيم ﴾ [الصّافات: ١٤٥].

فذلك قوله عزّ وجل: ﴿ فاستجبنا له ﴾، أي أجبناه، ﴿ ونجّيناه من الغمّ ﴾، من تلك الظلمات، ﴿ وكذلك نُنجّي المؤمنين ﴾، من كل كرب إذا دعونا واستغاثوا بنا قرأ ابن عامر وعاصم برواية أبي بكر: «نجّــي» بنون واحدة وتشديد الجيم وتسكين الياء لأنها مكتوبة في المصحف بنون واحدة، واختلف النحاة في هذه القراءة فذهب أكثرهم

قوله تعالى في الصافات بعد ذكر خروجه ﴿وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون﴾ فثبت بهذا أن هذه الواقعة كانت قبل النبوة وقد أجاز بعضهم عليه الصغائر قبل النبوة ومنعها بعد النبوة وهو الصحيح. وأما الجواب التفصيلي لقوله إذ ذهب مغاضباً فحمله على أنه لقومه أو للملك أولى بحال الأنبياء وأما قوله ﴿فظن أن لن نقدر عليه﴾ فقد تقدم معناه أي لن نضيق عليه وذلك أن يونس ظن أنه مخير إن شاء أقام وإن شاء خرج. وإن الله تعالى لا يضيق عليه في اختياره وقيل هو من القدر لا من القدرة وأما قوله ﴿إني كنت من الظالمين﴾ فالظلم وضع الشيء في غير موضعه وهذا اعتراف عند بعضهم بذنبه فإما أن يكون لخروجه عن قومه بغير إذن ربه أو لضعفه عما حمله، أو لدعائه بالعذاب على قومه وفي هذه الأشياء ترك الأفضل مع قدرته على تحصيله فكان ذلك ظلماً. وقيل كانت رسالته قبل هذه الواقعة بدليل قوله ﴿وإن يونس لمن المرسلين إذ أبق إلى الفلك المشحون﴾ فعلى هذا يكون الجواب عن هذه الواقعة ما تقدم من التفصيل والله أعلم.

قوله عز وجل﴿**وزكريا إذ نادى ربه**﴾ أي دعا ربه فقال ﴿**رب لا تذرني فرداً**﴾ أي وحيداً لا ولد لي يساعدني وارزقني وارثاً ﴿**وأنت خير الوارثين**﴾ هو ثناء على الله بأنه الباقي بعد فناء الخلق وأنه الوارث لهم وهذا على سبيل التمثيل والمجاز فهو كقوله وأنت خير الرازقين ﴿**فاستجبنا له ووهبنا له يحيى**﴾ أي ولداً ﴿**وأصلحنا له زوجة**﴾ أي جعلناها ولوداً بعد ما كانت عقيماً وقيل كانت سيئة الخلق فأصلحها الله تعالى له بأن رزقها حسن الخلق ﴿**إنهم كانوا يسارعون في الخيرات**﴾ يعني الأنبياء المذكورين في هذه السورة. وقيل زكريا وأهل بيته، والمسارعة في الخيرات من أكبر ما يمدح به المرء لأنها تدل على حرص عظيم في طاعة الله عز وجل ﴿**ويدعوننا رغباً ورهباً**﴾ يعني أنهم ضموا إلى فعل الطاعات أمرين: أحدهما: الفزغ إلى الله لمكان الرغبة في ثوابه والرهبة من عقابه. والثاني: الخشوع وهو قوله

إلى أنها لحن لأنه لو كان على ما لم يُسَمّ فاعله لم تسكّن الياء ورفع المؤمنين، ومنهم مَن صوّبها، وذكر الفرّاء أن لها وجهاً آخر وهو إضمار المصدر، أي نجّا النجاة المؤمنين، كقولك ضرب الضرب زيداً، ثم تقول ضرب زيداً بالنصب على إضمار المصدر، وسكّن الياء في «نجّــي» كما يسكنون في بقي ونحوها، قال القتيبي: مَن قرأ بنون واحدة والتشديد فإنما أراد ننجّي من التنجية إلّا أنه أدغم وحذف نوناً طلباً للخفّة ولم يرضه النحويون لبُعد مخرج النون من الجيم، والإدغام يكون عند قرب المخرج، وقرأ العامّة (ننجي) بنونين من الإنجاء، وإنما كتبت بنون واحدة لأن النون الثانية كانت ساكنة والساكن غير ظاهر على اللسان فحذفت كما فعلوا في إلّا حذفوا النون من إن لخفائها، واختلفوا في أن رسالة يونس بن متّى متى كانت؟ فروى سعيد بن جبير عن ابن عباس: أنها كانت بعد أن أخرجه الله من بطن الحوت، بدليل أن الله عزّ وجلّ ذكره في سورة الصّافّات، ﴿ **فنبذناه بالعراء** ﴾، ثم ذكر بعده: ﴿ وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون ﴾ [الصّافّات: ١٤٧]، وقال الآخرون: إنها كانت من قبل بدليل قوله تعالى: ﴿ وإن يونس لمِنَ المرسلين إذْ أبق إلى الفُلْك المشحونِ ﴾ [الصّافّات: ١٤٠].

قولهُ عزّ وجلّ: ﴿ **وزكريا إذْ نادى ربَّه** ﴾، أي دعا ربَّه، ﴿ **ربِّ لا تذرني فرداً** ﴾، وحيداً لا ولد لي وارزقني وارثاً، ﴿ **وأنت خير الوارثين** ﴾، أثنى على الله بأنه الباقي بعد فناء الخلق وأنه أفضل مَن بقي حيّاً.

﴿ **فاستجبنا له ووهبنا له يحيىٰ** ﴾، ولداً ﴿ **وأصلحنا له زوجه** ﴾، أي جعلناها ولوداً بعد ما كانت عقيماً، قاله أكثر المفسّرين، وقال بعضهم: كانت سيئة الخلق فأصلحها الله له بأن رزقها حُسْنَ الخلق. ﴿ **إنّهم** ﴾ الأنبياء، يعني الأنبياء الذين سمّاهم في هذه السورة، ﴿ **كانوا يسارعـون في الخيرات ويـدعوننـا رغباً** ﴾، طمعاً، ﴿ **ورهباً** ﴾، خوفاً، رغباً من رحمة الله، ورهباً من عذاب الله، ﴿ **وكانوا لنا خاشعين** ﴾، أي متواضعين، قال قتادة: ذللاً لأمر الله. قال مجاهد: الخشوع هو الخوف اللازم في القلب.

تعالى ﴿وكانوا لنا خاشعين﴾ الخشوع هو الخوف اللازم للقلب فيكون الخاشع هو الحذر الذي لا ينبسط في الأمور خوفاً من الوقوع في الإثم. قوله تعالى ﴿والتي أحصنت فرجها﴾ أي إحصاناً كلياً من الحلال والحرام جميعاً كما قالت ﴿لم يمسسني بشر ولم أك بغياً﴾ وهي مريم بنت عمران ﴿فنفخنا فيها من روحنا﴾ أمرنا جبريل حتى نفخ في جيب درعها فخلقنا بذلك النفخ المسيح في بطنها، وأضاف الروح إليه تشريفاً لعيسى كبيت الله وناقة الله ﴿وجعلناها وابنها آية﴾ أي دلالة ﴿للعالمين﴾ على كمال قدرتنا على خلق ولد من غير أب، فان قلت هما آيتان فكيف قال آية؟. قلت معنى الكلام وجعلنا شأنهما وأمرهما آية واحدة أي ولادتها إياه من غير أب آية. قوله تعالى ﴿إن هذه أمتكم﴾ أي ملتكم ودينكم ﴿أمة واحدة﴾ أي ديناً واحداً وهو الإسلام فأبطل ما سوى الإسلام من الأديان والأمة الجماعة التي هي على مقصد واحد، وجعلت الشريعة أمة لاجتماع أهلها على مقصد واحد ﴿وأنا ربكم فاعبدون﴾ أي لا دين سوى ديني ولا رب لكم غيري فاعبدوني أي وحدوني.

وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡۖ كُلٌّ إِلَيۡنَا رَٰجِعُونَ ﴿٩٣﴾ فَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَا
كُفۡرَانَ لِسَعۡيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ﴿٩٤﴾ وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَآ أَنَّهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ﴿٩٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا
فُتِحَتۡ يَأۡجُوجُ وَمَأۡجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٖ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَٱقۡتَرَبَ ٱلۡوَعۡدُ ٱلۡحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ
أَبۡصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَٰوَيۡلَنَا قَدۡ كُنَّا فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا بَلۡ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٩٧﴾ إِنَّكُمۡ وَمَا
تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمۡ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوۡ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةٗ مَّا وَرَدُوهَاۖ
وَكُلّٞ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمۡ فِيهَا زَفِيرٞ وَهُمۡ فِيهَا لَا يَسۡمَعُونَ ﴿١٠٠﴾

﴿وتقطعوا أمرهم بينهم﴾ أي اختلفوا في الدين فصاروا فرقاً وأحزاباً حتى لعن بعضهم بعضاً وتبرأ بعضهم من بعض ﴿كل إلينا راجعون﴾ فنجزيهم بأعمالهم ﴿فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا كفران لسعيه﴾ أي لا يجحد ولا يبطل سعيه بل يشكر ويثاب عليه ﴿وإنا له كاتبون﴾ أي لعمله وحافظون له. وقيل: الشكر من الله المجازاة،

﴿ والتي أحصنتْ فرجَها ﴾، حفظت من الحرام وأراد مريم بنت عمران، ﴿ فنفخنا فيه من روحنا ﴾، أي أمرنا جبرائيل حتى نفخ في جيب درعها، وأحدثنا بذلك النفخ المسيح في بطنها، وأضافَ الروح إليه تشريفاً لعيسى عليه السلام، ﴿ وجعلناها وابنها آيةً للعالمين ﴾، أي دلالة على كمال قدرتنا على خلق ولد من غير أب، ولم يقل آيتين وهما آيتان لأن معنى الكلام وجعلنا شأنهما وأمرهما آية. ولأن الآية كانت فيهما واحدة، وهي أنها أتت به من غير فحل.

قوله: ﴿ إنّ هذه أمتكم ﴾، أي ملّتكم ودينكم، ﴿ أمة واحدة ﴾، أي ديناً واحداً وهو الإسلام، فأبطل ما سوى الإسلام من الأديان، وأصل الأمة الجماعة التي هي على مقصد واحد فجعلت الشريعة أمة واحدة لاجتماع أهلها على مقصد واحد ونصب أمة على القطع. ﴿ وأنا ربّكم فاعبدون ﴾.

﴿ وتقطعوا أمرهم بينهم ﴾، أي اختلفوا في الدين فصاروا فرقاً وأحزاباً، قال الكلبي: فرّقوا دينهم بينهم يلعن بعضهم بعضاً ويتبرأ بعضهم من بعض، والتقطّع ههنا بمعنى التقطيع، ﴿ كلٌّ إلينا راجعون ﴾، فنجزيهم بأعمالهم.

﴿ فمَنْ يعملْ من الصالحات وهو مؤمن فلا كُفْرَانَ لسعيه ﴾، لا يُجحد ولا يبطل عملُهُ سعيَه بل يُشكر ويُثاب عليه، ﴿ وإنّا له كاتبون ﴾، لعمله حافظون، وقيل: معنى الشكر من الله المجازاة، ومعنى الكفران ترك المجازاة.

والكفران ترك المجازاة. قوله عز وجل ﴿وحرام على قرية أهلكناها أنهم لا يرجعون﴾ قال ابن عباس: ومعناه وحرام على أهل قرية أهلكناهم أن يرجعوا بعد الهلاك، وقيل: معناه وحرام على أهل قرية حكمنا بهلاكهم أن نقبل أعمالهم لأنهم لا يتوبون.

قوله عز وجل ﴿حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج﴾ يريد فتح السد وذلك أن الله يفتحه أخبر عن يأجوج ومأجوج وهما قبيلتان، يقال إنهما تسعة أعشار بني آدم ﴿وهم من كل حدب ينسلون﴾ أي يسرعون النزول من كل الآكام والتلال. وفي هذه الكناية وجهان: أحدهما أن المراد بهم يأجوج ومأجوج وهو الأصح بدليل ما روي عن النواس بن سمعان قال «ذكر رسول الله ﷺ الدجال ذات غداة فخفض فيه ورفع حتى ظننا أنه في طائفة النخل فلما رحنا إليه عرف ذلك فينا فقال: ما شأنكم؟ قلنا: يا رسول الله ذكرت الدجال الغداة فخفضت فيه ورفعت حتى ظنناه في طائفة النخل فقال: غير الدجال أخوفني عليكم إن يخرج وأنا فيكم فأنا حجيجه دونكم وإن يخرج ولست فيكم فكل امرىء حجيج نفسه والله خليفتي على كل مسلم إنه شاب قطط عينه طافئة كأني أشبهه بعبد العزى بن قطن فمن أدركه منكم فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف، إنه خارج خلة بين الشام والعراق فعاث يميناً وعاث شمالاً يا عباد الله فاثبتوا قلنا يا رسول الله وما لبثه في الأرض؟ قال أربعون يوماً يوم كسنة ويوم كشهر ويوم كجمعة وسائر أيامه كأيامكم قلنا: يا رسول الله فذلك اليوم الذي كسنة أتكفينا فيه صلاة يوم؟ قال لا أقدروا له قدره قلنا يا رسول الله وما إسراعه في الأرض؟ قال كالغيث استدبرته الريح فيأتي على القوم فيدعوهم فيؤمنون به ويستجيبون له فيأمر لهم السماء فتمطر والأرض فتنبت فتروح عليهم سارحتهم أطول ما كانت ذرا وأصبغه ضروعاً وأمده خواصر ثم يأتي القوم فيدعوهم فيردون عليه». قوله فينصرف عنهم فيصبحون ممحلين ليس بأيديهم شيء من أموالهم «ويمر بالخربة فيقول لها أخرجي كنوزك فتتبعه كنوزها كيعاسيب النحل ثم يدعو رجلاً ممتلئاً شباباً فيضربه بالسيف فيقطعه جزلتين رمية الغرض ثم يدعوه فيقبل ويتهلل وجهه ويضحك فبينما هو كذلك إذ بعث الله المسيح بن مريم عليه السلام فينزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق بين مهرودتين واضعاً كفيه على أجنحة ملكين إذا طأطأ رأسه قطر وإذا رفعه تحدر منه جمان كاللؤلؤ فلا يحل لكافر يجد ريح نفسه إلا مات ونفسه ينتهي إلى حيث ينتهي طرفه فيطلبه حتى يدركه بباب لد فيقتله.

ثم يأتي عيسى عليه السلام إلى قوم قد عصمهم الله منه فيمسح على وجوههم ويحدثهم بدرجاتهم في الجنة

﴿ وحرام على قرية ﴾، قرأ حمزة والكسائي وأبو بكر: «وحِـرْم» بكسر الحاء بلا ألف، وقرأ الباقون بالألف ﴿ حرام ﴾ وهما لغتان مثل حلّه وحلال، قال ابن عباس: معنى الآية وحرام على قرية أي أهل قرية، ﴿ أهلكناها ﴾، أن يرجعوا بعد الهلاك، فعلى هذا تكون ﴿ لا ﴾ صلة، وقال آخرون: الحرام بمعنى الواجب، فعلى هذا تكون ﴿ لا ﴾ ثابتة معناه واجب على أهل قرية أهلكناهم ﴿ أنّهم لا يرجعون ﴾، إلى الدنيا، وقال الزجّاج: معناه وحرام على أهل قرية أهلكناهم أي حكمنا بهلاكهم أن يتقبّل أعمالهم لأنهم لا يرجعون أي لا يتوبون، والدليل على هذا المعنى أنه قال في الآية التي قبلها فمَن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا كفران لسعيه أي يتقبل عمله، ثم ذكر هذه الآية عقيبة وبيّن أن الكافر لا يتقبل علمه.

قوله تعالى: ﴿ حتى إذا فُتحتْ ﴾، قرأ ابن عامر وأبو جعفر ويعقوب: «فتّحــت» بالتشديد على التكثير، وقرأ الآخرون بالتخفيف، ﴿ يأجوج ومأجوج ﴾، يريد فتح السدّ عن يأجوج، ﴿ وهم من كل حَدَبٍ ﴾، أي نشز وتل، والحدب المكان المرتفع، ﴿ ينسلون ﴾، يسرعون النزول من الآكام والتلال كنسلان الذئب، وهو سرعة مشيه، واختلفوا في هذه الكناية، فقال قوم: عني بها يأجوج ومأجوج بدليل ما روينا عن النواس بن سمعان عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ويبعث الله يأجوج ومأجوج من كل حدب ينسلون» وقال قوم: أراد جميع الخلق يعني أنهم

فبينما هو كذلك إذ أوحى الله إلى عيسى عليه السلام إني قد أخرجت عباداً لي لا يدان لأحد أن يقاتلهم فحرز عبادي إلى الطور ويبعث الله يأجوج ومأموج وهم من كل حدب ينسلون فيمر أوائلهم على بحيرة طبرية فيشربون ما فيها ويمر آخرهم فيقول لقد كان بهذه مرة ماء ويحضر نبي الله عيسى وأصحابه حتى يكون رأس الثور لأحدهم خيراً من مائة دينار لأحدكم اليوم فيرغب نبي الله عيسى وأصحابه إلى الله فيرسل الله فيهم النغف في رقابهم فيصبحون فرسي كموت نفس واحدة ثم يهبط نبي الله عيسى وأصحابه إلى الأرض فلا يجدون في الأرض موضع شبر إلا ملأه زهمهم ونتنهم فيرغب نبي الله عيسى وأصحابه إلى الله فيرسل الله طيراً كأعناق البخت فتحملهم فتطرحهم حيث شاء الله، ثم يرسل الله مطراً لا يكن منه بيت مدر ولا وبر فيغسل الأرض حتى يتركها كالزلفة. ثم يقال للأرض: أنبتي ثمرتك ودري بركتك فيومئذ تأكل العصابة من الرمانة ويستظلون بقحفها ويبارك في الرسل حتى أن اللقحة من الإبل لتكفي الفئام من الناس، واللقحة من البقر لتكفي القبيلة من الناس، واللقحة من الغنم لتكفي الفخذ من الناس فبينما هم كذلك إذ بعث الله ريحاً طيبة فتأخذهم تحت آباطهم فتقبض روح كل مؤمن وكل مسلم ويبقى شرار الناس يتهارجون فيها تهارج الحمر فعليهم تقوم الساعة» أخرجه مسلم.

شرح غريب ألفاظ الحديث

قوله حتى ظنناه في طائفة النخل أي ناحية النخل وجانبه والطائفة القطعة من الشيء، وقوله فخفض فيه ورفع خفض صوته ورفعه من شدة ما تكلم به في أمره. وقيل إنه خفض من أمره تهوينا له ورفع من شدة فتنته والتخويف من أمره. قوله إنه شاب قطط أي جعد الشعر وقوله طافئة أي خارجة عن حدها قوله إنه خارج خلة أي إنه يخرج قصداً وطريقاً بين جهتين والتخلل الدخول في الشيء. قوله فعاث أي أفسد. قوله اقدروا له قدره أي قدروا قدر يوم من أيامكم المعهودة وصلوا فيه بقدر أوقاته، وقوله فتروح عليهم سارحتهم أي مواشيهم، وقوله فيصبحون ممحلين أي مقحطين قد أجدبت أرضهم وغلت أسعارهم. قوله كيعاسيب النحل جمع يعسوب وهو فحل النحل ورئيسها. قوله فيقطعه جزلتين رمية الغرض أي قطعتين والغرض الهدف الذي يرمى بالنشاب. قوله بين مهرودتين رويت بالدال المهملة وبالمعجمة أي شقتين وقيل حلتين وقيل الهرد الصبغ الأصفر بالورس والزعفران. قوله لا يدان لأحد بقتالهم

يخرجون من قبورهم، ويدلّ عليه قراءة مجاهد وهم من كل جدث بالجيم والثاء كما قال: ﴿ فإذا هم من الأجداث إلى ربّهم ينسلون ﴾ [يٓس: ٥١]، أخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر الجرجاني أنا عبد الغافر بن محمد الفارسي أنا محمد بن عيسى الجلودي أنا إبراهيم بن محمد بن سفيان أنا مسلم بن الحجّاج أنا أبو خيثمة زهير بن حرب أنا سفيان بن عيينة عن فرات القزّاز عن أبي الطفيل عن حذيفة بن أسيد الغفاري، قال أطلع النبي ﷺ علينا ونحن نتذاكر الساعة، فقال: «ما تذكرون»؟ قالوا: نذكر الساعة. قال: «إنها لن تقوم حتى تروا قبلها عشر آيات، فذكر الدخان والدجال والدابّة وطلوع الشمس من مغربها ونزول عيسى ابن مريم ويأجوج ومأجوج، وثلاثة خسوف: خسفٌ بالمغرب وخسفٌ بالمشرق وخسفٌ بجزيرة العرب، وآخر ذلك نار تخرج من اليمن تطرد الناس إلى محشرهم».

قوله تعالى: ﴿ واقترب الوعد الحق ﴾، يعني القيامة، قال الفرّاء وجماعة: الواو في قوله واقترب مقحمة فمعناه حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج اقترب الوعد الحق، كما قال الله تعالى: ﴿ فلما أسلما وتلّه للجبين وناديناه ﴾ [الصّافّات: ١٠٣] أي ناديناه، والدليل عليه ما رُوِيَ عن حذيفة قال: لو أن رجلاً اقتنى فلواً بعد خروج يأجوج ومأجوج لم يركبه حتى تقوم الساعة. وقال قوم: لا يجوز طرح الواو، وجعلوا جواب حتى إذا فتحت في قوله

أي لا قدرة ولا قوة لأحد بقتالهم والنغف دود يكون في أنوف الإبل والغنم فرسى جمع فريس وهو القتيل. قوله زهمهم أي ريحهم النتنة. قوله كالزلفة أي كالمرآة وجمعها زلف ويروى بالقاف وأراد به استواءها ونظافتها. قوله تأكل العصابة أي الجماعة قيل يبلغون أربعين وقحف الرمانة في الحديث قشرها، والرسل بكسر الراء اللبن واللقحة الناقة ذات اللبن، والفئام الجماعة من الناس، والفخذ دون القبيلة، وقوله يتهارجون أي يختلفون والتهارج الاختلاف، وأصله القتل.

الوجه في تفسير قوله تعالى ﴿وهم من كل حدب ينسلون﴾

قيل جميع الخلائق يخرجون من قبورهم إلى موقف الحساب (م) عن حذيفة بن أسيد الغفاري قال: اطلع النبي ﷺ علينا ونحن نتذاكر فقال: «ما تذكرون قالوا؟ نذكر الساعة قال إنها لن تقوم حتى ترون قبلها عشر آيات فذكر الدخان والدجال والدابة وطلوع الشمس من مغربها ونزول عيسى ابن مريم ويأجوج ومأجوج وثلاث خسوف خسف بالمشرق وخسف بالمغرب وخسف بجزيرة العرب، وآخر ذلك نار تخرج من اليمن تطرد الناس إلى محشرهم». قوله عز وجل ﴿**واقترب الوعد الحق**﴾ أي القيامة قال حذيفة لو أن رجلاً اقتنى فلواً بعد خروج يأجوج ومأجوج لم يركبه حتى تقوم الساعة. الفلو المهر ﴿**فإذا هي شاخصة أبصار الذين كفروا**﴾ قيل معنى الآية أن القيامة إذا قامت شخص أبصار الذين كفروا من شدة الأهوال ولا تكاد تطرف هول ذلك اليوم ويقولون ﴿**يا ويلنا قد كنا في غفلة من هذا**﴾ يعني في الدنيا حيث كذبنا به وقلنا إنه غير كائن ﴿**بل كنا ظالمين**﴾ أي في وضعنا العبادة في غير موضعها. قوله عز وجل ﴿**إنكم**﴾ الخطاب للمشركين ﴿**وما تعبدون من دون الله**﴾ يعني الأصنام ﴿**حصب جهنم**﴾ أي حطبها ووقودها وقيل يرمي بهم في النار كما يرمي بالحصباء وأصل الحصب الرمي ﴿**أنتم لها واردون**﴾ أي فيها داخلون ﴿**لو كان هؤلاء**﴾ يعني الأصنام ﴿**آلهة**﴾ أي على الحقيقة ﴿**ما وردوها**﴾ أي ما دخل الأصنام النار وعبدوها ﴿**وكل فيها خالدون**﴾ يعني العابدين والمعبودين ﴿**لهم فيها زفير**﴾ قيل الزفير هو أن يملأ الرجل صدره غماً ثم يتنفس وقيل هو شدة ما ينالهم من

يا ويلنا، فيكون مجاز الآية. حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج واقترب الوعد الحق، قالوا يا ويلنا قد كنّا في غفلة من هذا. قوله: ﴿ **فإذا هي شاخصةٌ أبصار الذين كفرُوا** ﴾، وهي قوله هي ثلاثة أوجه أحدها أنها كناية عن الإبصار. ثم أظهر الإبصار بياناً معناه فإذا الأبصار شاخصة أبصار الذين كفروا. والثاني أنّ هي تكون عمداً كقوله: ﴿ **فإنها لا تعمي الأبصار** ﴾ [الحج: ٤٦]، والثالث أن يكون تمام الكلام عند قوله: ﴿ **هي** ﴾، على معنى فإذا هي بارزة يعني من قربها كأنها حاضرة، ثم ابتدأ: ﴿ **شاخصة أبصار الذين كفروا** ﴾، على تقديم الخبر على الابتداء، مجازها أبصار الذين كفروا شاخصة. قال الكلبي: شخصت أبصار الكفّار فلا تكاد تطرف من شدّة ذلك اليوم وهـوله، يقولون: ﴿ **يا ولينا قد كنّا في غفلة من هذا** ﴾، اليوم، ﴿ **بل كنّا ظالمين** ﴾، بوضعنا العبادة في غير موضعها.

﴿ **إنّكم** ﴾ أيها المشركون ﴿ **وما تعبدون من دون الله** ﴾، يعني الأصنام، ﴿ **حصب جهنّم** ﴾، يعني وقودها. وقال مجاهد وقتادة: حطبها، والحصب في لغة أهل اليمن الحطب. وقال عكرمة: هذا الحطب بلغة الحبشة. قال الضحاك: يعني يرمون بهم في النار كما يرمى بالحصب. وأصل الحصب المرمي، قال الله عزّ وجلّ: ﴿ **أرسلنا عليهم حاصباً** ﴾ [القمر: ٣٤] أي ريحاً ترميهم بحجارة، وقرأ علي بن أبي طالب: حطب جهنم، ﴿ **أنتم لها واردون** ﴾، أي فيها داخلون.

﴿ **لو كان هؤلاء** ﴾، يعني الأصنام، ﴿ **آلهة** ﴾ على الحقيقة، ﴿ **ما وردوها** ﴾، أي ما دخل عابدوها النار، ﴿ **وكلٌّ فيها خالدون** ﴾، يعني العابد والمعبودين.

العذاب ﴿وهم فيها لا يسمعون﴾ قال ابن مسعود في هذه الآية: إذا بقي في النار من يخلد فيها جعلوا في توابيت من نار ثم جعلت تلك التوابيت في توابيت أخر ثم تلك التوابيت في توابيت أخر عليها مسامير من نار فلا يسمعون شيئاً ولا يرى أحد منهم أن في النار أحداً يعذب غيره.

إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾ يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِى هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴿١٠٦﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾

قوله تعالى ﴿إن الذين سبقت لهم منا الحسنى﴾ قال العلماء: إن هنا بمعنى إلا أي إلا الذين سبقت لهم منا الحسنى يعني السعادة والعدة الجميلة بالجنة ﴿أولئك عنها﴾ أي عن النار ﴿مبعدون﴾ قيل: الآية عامة من كل من سبقت له من الله السعادة، وقال أكثر المفسرين عنى بذلك كل من عبد من دون الله وهو لله طائع ولعبادة من يعبده كاره وذلك أن رسول الله ﷺ دخل المسجد وصناديد قريش في الحطيم وحول الكعبة ثلاثمائة وستون صنماً فعرض له النضر بن الحارث فكلمه رسول الله ﷺ حتى أفحمه ثم تلا عليه ﴿إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم﴾ الآيات الثلاث ثم قام فأقبل عبد الله بن الزبعرى السهمي فأخبره الوليد بن المغيرة بما قال لهم رسول الله ﷺ فقال

﴿ لهم فيها زفير وهم فيها لا يسمعون ﴾، قال ابن مسعود في هذه الآية إذا بقي في النار مَن يخلد فيها جعلوا في توابيت من نار، ثم جعلت تلك التوابيت في توابيت أُخر ثم تلك التوابيت في توابيت أُخر عليها مسامير من نار، فلا يسمعون شيئاً ولا يرى أحد منهم أن في النار أحداً يعذَّب غيره، ثم استثنى فقال:

﴿ إن الذين سبقت لهم منّا الحسنى ﴾، قال بعض أهل العلم: إنّ ههنا بمعنى إلاّ معناه: إلاّ الذين سبقت لهم منّا الحسنى، يعني السعادة والعِدَةُ الجميلة بالجنة، ﴿ أولئك عنها مبعدون ﴾، قيل: الآية عامّة في كل مَن سبقت لهم من الله السعادة. وقال أكثر المفسّرين: عني بذلك كل مَن عبد من دون الله وهو لله طائع ولعبادة مَن يعبده كاره، وذلك أن رسول الله ﷺ دخل المسجد وصناديد قريش في الحطيم وحول الكعبة ثلثمائة وستّون صنماً فعرض له النضر بن الحارث، فكلّمه رسول الله ﷺ حتى أفحمه ثم تلا عليه: ﴿ إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم ﴾، أنت لها، الآيات الثلاثة ثم قام فأقبل عبد الله بن الزبعري السهمي فأخبره الوليد بن المغيرة بما قال لهم رسول الله ﷺ فقال عبد الله: أمَا والله لو وجدته لخصمته، فدعوا رسول الله ﷺ فقال له ابن الزبعري: أأنت قلت: ﴿ إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم ﴾؟ قال: نعم، قال: أليست اليهود تعبد عزيراً والنصارى تعبد المسيح، وبنو مليح تعبد الملائكة؟ فقال النبي ﷺ: «بل هم يعبدون الشياطين» فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿ إن الذين سبقت لهم منّا الحسنى ﴾، يعني عزيراً والمسيح والملائكة، ﴿ أولئك عنها مبعدون ﴾، وأنزل في ابن الزبعري: ﴿ ما ضربوه لك إلاّ جدلاً بل هم قوم خَصِمُون ﴾[الزخرف: ٥٨]، وزعم جماعة أن المراد من الآية الأصنام، لأن الله تعالى قال: ﴿ وما تعبدون من دون الله ﴾، ولو أراد الملائكة والناس لقال ومَن تعبدون من دون الله.

﴿لا يسمعون حسيسها﴾، يعني صوتها وحركة تلهبها إذا نزلوا منازلهم في الجنة، والحسّ والحسيس الصوت

ابن الزبعرى: أما والله لو وجدته لخصمته فدعوا رسول الله ﷺ فقال له ابن الزبعرى أنت قلت إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم؟ قال نعم قال أليست اليهود تعبد عزيراً والنصارى تعبد المسيح وبني مليح تعبد الملائكة فقال النبي ﷺ: بل هم يعبدون الشياطين فأنزل الله تعالى ﴿إن الذين سبقت لهم منا الحسنى﴾ يعني عزيراً والمسيح والملائكة أولئك عنها مبعدون وأنزل في ابن الزبعرى ﴿ما ضربوه لك إلا جدلاً بل هم قوم خصمون﴾ وزعم جماعة أن المراد من الآية الأصنام لأن الله تعالى قال إنكم وما تعبدون من دون الله، ولو أراد به الملائكة والناس لقال إنكم ومن تعبدون لأن من لمن يعقل وما لمن لا يعقل ﴿**لا يسمعون حسيسها**﴾ يعني صوتها وحركة تلهبها إذا نزلوا منازلهم في الجنة ﴿**وهم فيما اشتهت أنفسهم**﴾ أي من النعيم والكرامة ﴿**خالدون**﴾ أي مقيمون. قوله تعالى: ﴿**لا يحزنهم الفزع الأكبر**﴾ قال ابن عباس: يعني النفخة الأخيرة، وقيل هو حين يذبح الموت وينادى يا أهل النار خلود بلا موت وقيل هو حين يطبق على جهنم وذلك بعد أن يخرج الله منها من يريد أن يخرجه ﴿**وتتلقاهم الملائكة**﴾ أي تستقبلهم الملائكة على أبواب الجنة يهنئونهم ويقولون ﴿**هذا يومكم الذي كنتم توعدون**﴾ أي في الدنيا. قوله عز وجل ﴿**يوم نطوي السماء كطي السجل للكتب**﴾ قال ابن عباس: السجل الصحيفة والمعنى كطي الصحيفة على مكتوبها والطي هو الدرج الذي هو ضد النشر. وقيل: السجل اسم ملك يكتب أعمال العباد إذا رفعت إليه والمعنى نطوي السماء كما يطوي السجل الطومار الذي يكتب فيه والتقدير لا يحزنهم الفزع الأكبر في اليوم ﴿**كما بدأنا أول خلق نعيده**﴾ أي كما بدأناهم

الخفي، ﴿ **وهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون** ﴾، مقيمون كما قال: ﴿ وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذّ الأعين ﴾ [الزخرف: ٧١].

﴿ **لا يحزنهم الفزعُ الأكبر** ﴾، قال ابن عباس: الفزع الأكبر النفخة الأخيرة بدليل قوله عزّ وجلّ: ﴿ ويوم ينفخ في الصور ففزع مَن في السمٰوات ومَن في الأرض ﴾ [النمل: ٨٧]، قال الحسن: حين يؤمر بالعبد إلى النار. قال ابن جريج: حين يذبح الموت ويُنادى يا أهل الجنة خلود فلا موت، ويا أهل النار خلود فلا موت. وقال سعيد بن جبير والضحاك: هو أن تطبق عليهم جهنم وذلك بعد أن يُخرج الله منها مَن يريد أن يخرجه. ﴿ **وتتلقاهم الملائكة** ﴾، أي تستقبلهم الملائكة على أبواب الجنة يهنئونهم، ويقولون: ﴿ **هذا يومكم الذي كنتمُ توعدون** ﴾.

﴿ **يوم نطوي السماء** ﴾، قرأ أبو جعفر: (تطوى السماء) بالتاء وضمّها وفتح الواو، «والسماء»، رفع على المجهول، وقرأ العامّة بالنون وفتحها وكسر الواو، «والسماء» نصب، ﴿ **كطيّ السجل للكتب** ﴾، قرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم للكتب على الجمع، وقرأ الآخرون للكتاب على الواحد، واختلفوا في السجل، فقال السدي: السجل ملك يكتب أعمال العباد، واللام زائدة، أي كطيّ السجل الكتب كقوله: ﴿ ردف لكم ﴾ [النمل: ٧٢]، اللام فيه زائدة، وقال ابن عباس ومجاهد والأكثرون: السجل الصحيفة للكتب أي لأجل ما كتب معناه كطيّ الصحيفة على مكتوبها، والسجل اسم مشتق من المساجلة وهي المكاتبة، والطيّ الدرج الذي هو ضدّ النشر، ﴿ **كما بدأنا أول خلق نعيده** ﴾، أي كما بدأناهم في بطون أمهاتهم حفاة عراة غرلاً كذلك نعيدهم يوم القيامة، نظيره قوله تعالى: ﴿ ولقد جئتمونا فُرادَى كما خلقناكم أول مرة ﴾ [الأنعام: ٩٤]، ورُوِيَ عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «إنكم محشورون حفاةً عراةً غرلاً»، ثم قرأ: ﴿ **كما بدأنا أول خلق نعيده** ﴾، ﴿ **وعداً علينا إنّا كنّا فاعلين** ﴾، يعني الإعادة والبعث.

﴿ **ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر** ﴾، قال سعيد بن جبير ومجاهد: الزبور جميع الكتب المنزلة، والذكر

في بطون أمهاتهم عراة غرلاً كذلك نعيدهم يوم القيامة (ق) عن ابن عباس قال: قام فينا رسول الله ﷺ بموعظة فقال: «أيها الناس إنكم تحشرون إلى الله حفاة عراة غرلاً كما بدأنا أول خلق نعيده» قوله غرلاً أي قلفا.

وقوله تعالى ﴿**وعداً علينا إنا كنا فاعلين**﴾ يعني الإعادة والبعث بعد الموت. قوله تعالى ﴿**ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر**﴾ قيل: الزبور جميع الكتب المنزلة على الأنبياء والذكر هو أم الكتاب الذي عنده ومن ذلك الكتاب تنسخ جميع الكتب ومعنى من بعد الذكر أي بعد ما كتب في اللوح المحفوظ. وقال ابن عباس: الزبور والتوراة والذكر الكتب المنزلة من بعد التوراة. وقيل الزبور: كتاب داود والذكر هو القرآن وبعد هنا بمعنى قبل ﴿**أن الأرض يرثها عبادي الصالحون**﴾ يعني أرض الجنة يرثها أمة محمد ﷺ والمعنى أن الله تعالى كتب في اللوح المحفوظ في كتب الأنبياء: أن الجنة يرثها من كان صالحاً من عباده عاملاً بطاعته. وقال ابن عباس: أراد أن أراضي الكفار يفتحها المسلمون وهذا حكم من الله تعالى بإظهار الدين وإعزاز المسلمين، وقيل أراد الأرض المقدسة يرثها الصالحون بعد من كان فيها ﴿**إن في هذا**﴾ أي في القرآن ﴿**لبلاغاً**﴾ أي وصولاً إلى البغية يعني من اتبع القرآن وعمل بما فيه وصل إلى ما يرجو من الثواب، وقيل البلاغ الكفاية أي فيه كفاية لما فيه من الأخبار والوعد والوعيد والمواعظ البالغة فهو زاد العباد إلى الجنة وهو قوله تعالى ﴿**لقوم عابدين**﴾ يعني مؤمنين لا يعبدون أحداً من دون الله تعالى وقيل هم أمة محمد ﷺ أهل الصلوات الخمس وشهر رمضان والحج. وقال ابن عباس: عالمين وقيل: هم العالمون العاملون. قوله عز وجل ﴿**وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين**﴾ قيل: كان الناس أهل كفر وجاهلية وضلال وأهل الكتابين كانوا في حيرة من أمر دينهم لطول وانقطاع تواترهم ووقوع الاختلاف في كتبهم فبعث الله محمداً ﷺ حين لم يكن لطالب الحق سبيل إلى الفوز والثواب فدعاهم إلى الحق، وبين لهم سبيل الصواب وشرع لهم الأحكام وبين الحلال من الحرام قال الله تعالى ﴿**وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين**﴾ قيل يعني المؤمنين خاصة فهو رحمة لهم. وقال ابن عباس: هو عام في حق من آمن ومن لم يؤمن، فمن آمن فهو رحمة له في الدنيا والآخرة ومن لم يؤمن فهو رحمة له في الدنيا بتأخير

أمّ الكتاب الذي عنده، والمعنى من بعد ما كتب ذكره في اللوح المحفوظ. وقال ابن عباس والضحاك: الزبور التوراة والذكر الكتب المنزلة من بعد التوراة. وقال الشعبي: الزبور كتاب داود، والذكر التوراة. وقيل: الزبور زبور داود والذكر القرآن، وبعد بمعنى قبل، كقوله تعالى ﴿ وكان وراءهم ملك ﴾ [الكهف: ٧٩]: أي أمامهم، ﴿ والأرض بعد ذلك دحاها ﴾ [النازعات: ٣٠] قبله، ﴿ أنّ الأرض ﴾، يعني أرض الجنة، ﴿ يرثها عبادي الصالحون ﴾، قال مجاهد: يعني أمة محمد ﷺ دليله قوله تعالى: ﴿ الحمد لله الذي صدقنا وَعْدَه وأورثنا الأرض ﴾ [الزمر: ٧٤]، وقال ابن عباس: أراد أن أراضي الكفّار يفتحها المسلمون وهذا حكم من الله باظهار الدين وإعزاز المسلمين. وقيل: أراد بالأرض الأرضَ المقدسة.

﴿ إنّ في هذا ﴾، أي في هذا القرآن، ﴿ لبلاغاً ﴾، وصولاً إلى البغية أي مَن اتّبع القرآن وعمل به وصل إلى ما يرجوه من الثواب. وقيل: بلاغاً أي كفاية. يقال في هذا الشيء بلاغ وبُلغة أي كفاية. والقرآن زادُ الجنةِ كبلاغ المسافر، ﴿ لقوم عابدين ﴾، أي المؤمنين الذين يعبدون الله، وقال ابن عباس: عالمين. وقال كعب الأحبار: هم أمة محمد ﷺ أهل الصلوات الخمس وصوم شهر رمضان.

﴿ وما أرسلناك إلّا رحمةً للعالمين ﴾، قال ابن زيد: يعني رحمة للمؤمنين خاصة فهو رحمة لهم. وقال ابن عباس: هو عامّ في حق مَن آمن ومَن لم يؤمن فمَن آمن فهو رحمةٌ له في الدنيا والآخرة، ومَن لم يؤمن فهو رحمةٌ له في الدنيا بتأخير العذاب عنهم ورفع المسخ والخسف والاستئصال عنهم، وقد قال النبي ﷺ: «إنّما أنَا رحمةٌ مهداة».

العذاب عنه ورفع المسخ والخسف والاستئصال قال رسول الله ﷺ: «إنما أنا رحمة مهداة».

﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۖ وَإِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾ وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١١١﴾ قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ ۗ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾﴾

﴿**قل إنما يوحى إلي أنما إلهكم إله واحد فهل أنتم مسلمون**﴾ يعني منقادون لما يوحى إلي من إخلاص الإلهية والتوحيد لله والمراد بهذا الاستفهام الأمر أي أسلموا ﴿**فإن تولوا**﴾ أي أعرضوا ولم يسلموا ﴿**فقل آذنتكم**﴾ أي أعلمتكم بالحرب وأن لا صلح بيننا ﴿**على سواء**﴾ أي إنذاراً بيناً نستوي في علمه لا أستبد أنا به دونكم لتتأهبوا لما يراد بكم والمعنى آذنتكم على وجه نستوي نحن وأنتم في العلم به وقيل معناه لتستووا في الإيمان به وأعلمتكم بما هو الواجب عليكم من التوحيد وغيره ﴿**وإن أدري**﴾ أي وما أعلم ﴿**أقريب أم بعيد ما توعدون**﴾ يعني يوم القيامة لا يعلمه إلا الله ﴿**إنه يعلم الجهر من القول ويعلم ما تكتمون**﴾ أي لا يغيب عن علمه شيء منكم في علانيتكم وسركم ﴿**وإن أدري لعله فتنة لكم**﴾ أي لعل تأخير العذاب عنكم اختبار لكم ليرى كيف صنيعكم وهو أعلم بكم ﴿**ومتاع إلى حين**﴾ أي تتمتعون إلى انقضاء آجالكم ﴿**قال رب احكم**﴾ أي افصل بيني وبين من كذبني ﴿**بالحق**﴾ أي بالعذاب كأنه استعجل العذاب لقومه فعذبوا يوم بدر. وقيل: معناه افصل بيني وبينهم بما يظهر الحق من الجميع وهو أن تنصرني عليهم والله يحكم بالحق طلب ولم يطلب ومعنى الطلب ظهور الرغبة من الطالب ﴿**وربنا الرحمن المستعان على ما تصفون**﴾ أي من الشرك والكفر والكذب والأباطيل، كأنه سبحانه وتعالى قال قل داعياً إلى رب احكم بالحق، وقل متوعداً للكفار وربنا الرحمن المستعان على ما تصفون والله أعلم بمراده وأسرار كتابه.

﴿ قل إنما يوحى إليّ أنما إلَهكم إلَهٌ واحد فهل أنتم مسلمون ﴾، أي أسلِمُوا.

﴿ فإن تولّوا فقل آذنتُكم ﴾، أي أعلمتكم بالحرب وأنْ لا صلح بيننا، ﴿ على سواء ﴾، يعني إنذاراً بيّناً نستوي في علمه لاستبدأنا به دونكم لتتأهبوا لما يُراد بكم، يعني آذنتكم على وجه نستوي نحن وأنتم في العلم به، وقيل: لتستووا في الإيمان به، ﴿ وإنْ أدري ﴾، يعني وما أعلم. ﴿ أقريبٌ أم بعيدٌ ما تُوعدون ﴾، يعني القيامة.

﴿ إنه يعلم الجهرَ من القول ويعلم ما تكتمون ﴾.

﴿ وإن أدري لعلّه ﴾، يعني لعلّ تأخير العذاب عنكم كناية عن غير مذكور، ﴿ فتنة ﴾، اختبار، ﴿ لكم ﴾، ليرى كيف صنيعكم وهو أعلم، ﴿ ومتاع إلى حين ﴾، يعني تتمتعون إلى انقضاء آجالكم.

﴿ قال ربِّ احكم بالحق ﴾، قرأ حفص عن عاصم: ﴿ قال ربّ احكم ﴾، وقرأ الآخرون: «قل ربِّ احكـم» يعني افصل بيني وبين مَن كذّبني بالحق، فإن قيل كيف قال احكم بالحق؟ قيل: الحق ههنا بمعنى العـذاب لأنـه استعجـل لقـومـه فعـذبـوا يـومَ بـدرٍ، نـظيره قـولـه تعـالى: ﴿ربنـا افتح بيننـا وبين قـومنـا بـالحق﴾ [الأعراف: ٨٩]، قال أهل المعاني: معناه ربّ احكم بحكمك الحق فحذف الحكم وأُقيم الحق مقامه، والله تعالى يحكم بالحق طُلب منه أو لم يُطلب، ومعنى الطلب ظهور الرغبة من الطالب في حكمه من الحق، ﴿ وربُّنا الرحمن المستعان على ما تصفون ﴾، من الكذب والباطل.

﴿وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم﴾
قرآن كريم

تفسير سورة الحج

وهي مكية غير ست آيات من قوله عزّ وجلّ ﴿هذان خصمان﴾ إلى قوله ﴿وهدوا إلى صراط الحميد﴾ وهي ثمان وسبعون آية وألف ومائتان وإحدى وتسعون كلمة وخمسة آلاف وخمسة وسبعون حرفاً.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٞ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ ﴿٢﴾

قوله عزّ وجلّ **﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم﴾** يعني احذروا عقابه واعملوا بطاعته **﴿إن زلزلة الساعة شيء عظيم﴾** الزلزلة شدة الحركة على الحال الهائلة ووصفها بالعظم ولا شيء أعظم مما عظمه الله تعالى. قيل: هي من أشراط الساعة قبل قيامها. وقال ابن عباس: زلزلة الساعة قيامها فتكون معها **﴿يوم ترونها﴾** أي الساعة وقيل الزلزلة **﴿تذهل﴾** قال ابن عباس تشغل وقيل تنسي **﴿كل مرضعة عما أرضعت﴾** أي كل امرأة معها ولد ترضعه **﴿وتضع كل ذات حمل حملها﴾** أي تسقط من هول ذلك اليوم كل حامل حملها قال الحسن: تذهل المرضعة عن ولدها لغير فطام وتضع الحامل ما في بطنها بغير تمام. فعلى هذا القول تكون الزلزلة في الدنيا لأن بعد البعث لا يكون حبل ومن قال تكون الزلزلة في القيامة قال هذا على وجه تعظيم الأمر وتهويله على حقيقته كما تقول أصابنا أمر يشيب فيه الوليد تريد به شدته **﴿وترى الناس سكارى﴾** على التشبيه **﴿وما هم بسكارى﴾** على التحقيق ولكن ما رهقهم من خوف عذاب الله هو الذي أذهب عقولهم وأزال تمييزهم وقيل سكارى من الخوف وما هم بسكارى من الشراب **﴿ولكن عذاب الله شديد﴾** (ق) عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ «يقول الله سبحانه وتعالى يوم القيامة يا آدم فيقول لبيك وسعديك».

سُوْرَة الحَــجّ

مكية إلاّ ﴿ ومِنَ الناسِ مَنْ يعبدُ اللَّهَ ﴾ [١١ و١٢] الآيتين، أو إلاّ ﴿ هذان خصمان ﴾ [١٩ - ٢٥] الست آيات فمدنيات، وهي أربع أو خمس أو ست أو سبع أو ثمانٍ وسبعون آية.

﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم ﴾، أي: احذروا عقابه بطاعته، **﴿ إنّ زلزلةَ الساعة شيءٌ عظيم ﴾**، والزلزلة والزِّلْزال شدّة الحركة على الحالة الهائلة، واختلفوا في هذه الزلزلة فقال علقمة والشعبي: هي من أشراط الساعة. وقيل: قيام الساعة، وقال الحسن والسدي: هذه الزلزلة تكون يوم القيامة. وقال ابن عباس: زلزلة الساعة قيامها فتكون، معها.

زاد في رواية «والخير في يديك فينادى بصوت إن الله تعالى يأمرك أن تخرج من ذريتك بعث النار قال رب وما بعث النار قال من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون فحينئذٍ تضع الحوامل، ويشيب الوليد وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد فشق ذلك على الناس حتى تغيرت وجوههم» زاد في رواية قالوا يا رسول الله أينا ذلك الرجل فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من يأجوج ومأجوج تسعمائة وتسعة وتسعون ومنكم واحد ثم أنتم في الناس كالشعرة السوداء في جنب الثور الأبيض أو كالشعرة البيضاء في جنب الثور الأسود وفي رواية كالرقمة في ذراع الحمار وأني لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة. فكبّرنا ثم قال: ثلث أهل الجنة فكبّرنا ثم قال شطر أهل الجنة فكبّرنا» لفظ البخاري. وفي حديث عمران بن حصين وغيره أن هاتين الآيتين نزلتا في غزوة بني المصطلق ليلاً فنادى رسول الله

﴿ **يوم ترونها** ﴾، يعني الساعة، وقيل: الزلزلة، ﴿ **تذهل** ﴾ قال ابن عباس: تشغل، وقيل: تنسي، يقال: ذهلت عن كذا إذا تركته واشتغلت بغيره عنه. ﴿ **كلُّ مرضعة عمّا أرضعتْ** ﴾، أي: كل امرأة معها ولد ترضعه، يقال: امرأة مرضع بلا هاء إذا أُريد به الصفة مثل حائض وحامل، فإذا أرادوا الفعل أدخلوا الهاء. ﴿ **وتضعُ كلُّ ذاتِ حملٍ حملَها** ﴾، أي: تسقط ولدها من هول ذلك اليوم. قال الحسن: تذهل المرضعة عن ولدها بغير فطام وتضع الحامل ما في بطنها بغير تمام، وهذا يدلّ على أن هذه الزلزلة تكون في الدنيا لأن بعد البعث لا يكون حمل. ومَن قال: تكون في القيامة قال هذا على وجه تعظيم الأمر لا على حقيقته كقولهم أصابنا أمر يشيب منه الوليد يريد به شدّته. ﴿ **وترى الناسَ سُكَارَى وما همْ بسكارى** ﴾، قرأ حمزة والكسائي «سكرى وما هم بسكرى» بلا ألف وهما لغتان في جمع السكران مثل كسلى وكسالى، قال الحسن: معناه وترى الناس سكارى من الخوف وما هم بسكارى من الشراب. وقيل: معناه وترى الناس كأنهم سكارى، ﴿ **ولكنّ عذابَ اللّهِ شديدٌ** ﴾، أخبرنا الإمام أبو علي الحسين بن محمد القاضي أنا أبو طاهر محمد بن محمش الزيادي أنا أبو بكر محمد بن عمر بن حفص التاجر أنا إبراهيم بن عبد الله بن عمر بن بكير الكوفي أنا وكيع عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله عزّ وجلّ يوم القيامة يا آدم قم فابعث بَعْثَ النار من ولدك، قال فيقول: لبّيك وسعديك والخير كله في يديك، يا رب وما بعث النار؟ قال: فيقول: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين، قال: فحينئذ يشيب المولود وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد، قال فيقولون: وأيّنا ذاك الواحد؟ فقال رسول الله ﷺ: «تسعمائة وتسعة وتسعون من يأجوج ومأجوج ومنكم واحد»، فقال الناس: الله أكبر، فقال رسول الله ﷺ: «والله إني لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة والله إني لأرجو أن تكونوا ثلث أهل الجنة والله لأرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة» قال: فكبّر الناس فقال رسول الله ﷺ: «ما أنتم يومئذ في الناس إلا كالشعرة البيضاء في الثور الأسود أو كالشعرة السوداء في الثور الأبيض»، ورُوِيَ عن عمران بن حصين وأبي سعيد الخدري وغيرهما أن هاتين الآيتين نزلتا في غزوة بني المصطلق ليلاً فنادى منادي رسول الله ﷺ فحثوا المطي حتى كانوا حول رسول الله ﷺ، فقرأها عليهم فلم يرَ أكثر باكياً من تلك الليلة، فلما أصبحوا لم يحطّوا السرج عن الدواب ولم يضربوا الخيام ولم يطبخوا قدوراً، والناس ما بين باكٍ أو جالس حزين متفكّر، فقال رسول الله ﷺ: «أتدرون أيّ يوم ذلك»؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «ذاك يوم يقول الله لآدم قم فابعث بعث النار من ولدك، قال: فيقول آدم: من كل كم؟ فيقول الله عزّوجلّ: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين إلى النار وواحد إلى الجنة، قال: فكبر ذلك على المسلمين وبكوا» وقالوا: فمَن ينجوا إذاً يا رسول الله؟ فقال رسول الله ﷺ: «أبشروا وسدّدوا وقاربوا فإن معكم خليقتين ما كانتا في قوم إلاّ كثرتاه يأجوج ومأجوج، ثم قال: إني لأرجو أن تكونوا ثلث أهل الجنة فكبّروا وحمدوا الله، ثم قال: إني لأرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة، فكبّروا وحمدوا الله، ثم قال: إني لأرجو أن

صلّى الله عليه وسلم فحثوا المطى حتى كانوا حول رسول الله صلّى الله عليه وسلم فقرأ عليهم فلم ير أكثر باكياً من تلك الليلة، فلما أصبحوا لم يحطوا السروج عن الدواب ولم يضربوا الخيام ولم يطبخوا والناس من بين باكٍ وجالس حزين متفكر. فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلم: أي يوم ذلك قالوا: الله ورسوله أعلم قال: ذلك يوم يقول الله لآدم قم فابعث من ذريتك بعث النار» وذكر نحو حديث أبي سعيد وزاد فيه ثم قال «يدخل من أمتي سبعون ألفاً الجنة بغير حساب فقال عمر: سبعون ألفاً؟ قال: نعم قال ومع كل واحد سبعون ألفاً». قوله عزّ وجلّ:

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيۡطَٰنٖ مَّرِيدٖ ۝٣ كُتِبَ عَلَيۡهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهۡدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ۝٤ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗاۚ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ۝٥﴾

﴿**ومن الناس من يجادل في الله بغير علم**﴾ نزلت في النضر بن الحارث كان كثير الجدل وكان يقول للملائكة بنات الله والقرآن أساطير الأولين وكان ينكر البعث وإحياء من صار تراباً ﴿**ويتبع**﴾ يعني في جداله في الله بغير علم ﴿**كل شيطان مريد**﴾ يعني المتمرد المستمر في الشر وفيه وجهان أحدهما: أنهم شياطين الإنس وهم رؤساء الكفر الذين يدعون من دونهم إلى الكفر والثاني أنه إبليس وجنوده ﴿**كتب عليه**﴾ يعني قضى على الشيطان ﴿**أنه من تولاه**﴾ يعني اتبعه ﴿**فإنه**﴾ يعني الشيطان ﴿**يضله**﴾ يعني يضل من تولاه عن طريق الجنة ﴿**ويهديه إلى عذاب السعير**﴾ وفي الآية زجر عن اتباعه والمعنى كتب عليه أنه من يقبل منه فهو في ضلال ثم ألزم الحجة منكري البعث فقال ﴿**يا أيها الناس إن كنتم في ريب**﴾ يعني شك ﴿**من البعث**﴾ يعني بعد الموت ﴿**فإنّا خلقناكم من تراب**﴾ يعني أباكم آدم الذي هو أصل النسل ﴿**ثم من نطفة**﴾ يعني ذريته من المني وأصلها الماء القليل ﴿**ثم من علقة**﴾ يعني من دم جامد غليظ وذلك

تكونوا ثلثي أهل الجنة وإن أهل الجنة مائة وعشرون صفاً ثمانون منها أمتي، وما المسلمون في الكفّار إلّا كالشامة في جنب البعير أو كالرقمة في ذراع الدابة، بل كالشعرة السوداء في الثور الأبيض أو كالشعرة البيضاء في الثور الأسود، ثم قال: ويدخل من أمتي سبعون ألفاً الجنة بغير حساب»، فقال عمر: سبعون ألفاً؟ قال: نعم ومع كل واحد سبعون ألفاً، فقام عكاشة بن محصن فقال: يا رسول الله أدعُ الله لي أن يجعلني منهم، فقال رسول الله ﷺ: «أنت منهم»، أو قال: «اللّهمّ اجعله منهم»، فقام رجل منهم فقال رسول ﷺ: «سبقك بها عكاشة».

قوله: ﴿ **ومِنَ الناسِ مَنْ يجادلُ في الله بغير علم** ﴾، نزلت في النضر بن الحارث، وكان كثير الجدل وكان يقول الملائكة بنات الله، والقرآن أساطير الأولين، وكان ينكر البعث وإحياء مَن صار تراباً. قوله تعالى: ﴿ **ويتبع** ﴾ أي: يتبع في جداله في الله بغير علم، ﴿ **كلَّ شيطان مريد** ﴾، والمريد المتمرّد الغالي العاتي المستمر في الشر.

﴿ **كُتِبَ عليه** ﴾، قضى على الشيطان، ﴿ **أنه مَن تولّاه** ﴾، اتبعه ﴿ **فأنه** ﴾، يعني الشيطان، ﴿ **يضلّه** ﴾، أي: يضلّ مَن تولّاه، ﴿ **ويهديه إلى عذاب السعير** ﴾، ثم ألزم الحجة، منكري البعث.

فقال: ﴿ **يا أيها الناس إن كنتم في ريب** ﴾، يعني: في شكٍّ، ﴿ **من البعث فإنّا خلقناكم** ﴾ يعني: أباكم آدم الذي هو أصل النسل، ﴿ **من تراب ثم من نطفة** ﴾ يعني: ذريته والنطفة هي المني وأصلها الماء القليل وجمعها

أنّ النطفة تصير دماً غليظاً ﴿ثم من مضغة﴾ وهي لحمة قليلة قدر ما يمضغ ﴿مخلقة وغير مخلقة﴾.

قال ابن عباس: أي تامة الخلق وغير تامة الخلق وقيل مصورة وغير مصورة وهو السقط. وقيل: المخلقة الولد الذي تأتي به المرأة لوقته وغير المخلقة السقط فكأنه سبحانه وتعالى قسم المضغة إلى قسمين أحدهما تام الصورة والحواس والتخطيط، والقسم الثاني هو الناقص عن هذه الأحوال كلها. وروي عن علقمة عن ابن مسعود موقوفاً عليه قال: إن النطفة إذا استقرت في الرحم أخذها ملك بكفه وقال: أي رب مخلقة أو غير مخلقة فإن قال غير مخلقة قذفها في الرحم دماً ولم تكن نسمة وإن قال مخلقة قال الملك: أي رب أذكر أم أنثى شقي أم سعيد ما الأجل ما العمل ما الرزق بأي أرض يموت؟ فيقال له: اذهب إلى أم الكتاب فإنك تجد فيها كل ذلك فيذهب فيجدها في أم الكتاب فينسخها فلا يزال معه حتى يأتي على آخر صفته والذي أخرجاه في الصحيحين عنه قال حدّثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق إن خلق أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين يوماً نطفة ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يبعث الله ملكاً يكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد ثم ينفخ فيه الروح فوَ الذي لا إله غيره إن أحدكم ليعمل عمل أهل الجنة ما يكون بينه وبينها إلاّ ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه بعمل أهل الجنة فيدخلها» وقوله تعالى ﴿لنبين لكم﴾ أي كمال قدرتنا وحكمتنا في تصريف خلقكم ولتستدلوا بقدرته في ابتداء الخلق على قدرته على الإعادة وقيل: لنبين لكم ما تأتون وما تذرون وما تحتاجون إليه في العبادة وقيل لنبين لكم أنّ تغير المضغة إلى الخلقة هو اختيار الفاعل المختار فإنّ القادر على هذه الأشياء كيف يكون عاجزاً عن الإعادة ﴿ونقر في الأرحام ما نشاء﴾ أي لا تسقطه ولا تمجه ﴿إلى أجل مسمّى﴾ أي وقت خروجه من الرحم تام الخلق ﴿ثم نخرجكم﴾ أي وقت الولادة من بطون أمهاتكم ﴿طفلاً﴾ أي صغاراً وإنّما وحد الطفل لأن الغرض الدلالة على الجنس ﴿ثم لتبلغوا أشدكم﴾ أي كمال القوة والعقل والتمييز ﴿ومنكم من يتوفى﴾ أي قبل بلوغ الكبر ﴿ومنكم من يرد إلى أرذل العمر﴾ أي الهرم والخرف ﴿لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً﴾ أي يبلغ من السن ما يتغير به عقله فلا يعقل شيئاً فيصير كما كان في أول طفوليته ضعيف البنية

نطاف، ﴿ ثم من علقة ﴾، وهي الدم الغليظ المتجمد الطري، وجمعها علق وذلك أن النطفة تصير دماً غليظاً ثم تصير لحماً، **﴿ ثم من مضغة ﴾**، وهي لحمة قليلة قدر ما يمضغ، **﴿ مخلقة وغير مخلقة ﴾**، قال ابن عباس وقتادة: **مخلّقة** أي تامّة وغير مخلّقة غير تامّة أي ناقصة الخَلْق. وقال مجاهد: مصوّرة وغير مصوّرة يعني السقط. وقيل: المخلّقة الولد الذي تأتي به المرأة لوقته، وغير المخلقة السقط. رُوِيَ عن علقمة عن عبد الله بن مسعود قال: إن النطفة إذا استقرت في الرحم أخذها ملك بكفّه وقال: أيْ ربِّ مخلقة أو غير مخلّقة؟ فإن قال غير مخلّقة قذفها الرحم دماً ولم تكن نسمة، وإن قال مخلّقة قال الملك: أيْ ربِّ أذكر أم أُنثى أشقي أم سعيد؟ ما الأجل ما العمل ما الرزق وبأيّ أرض يموت؟ فيقال له: اذهب إلى أُمّ الكتاب فإنك تجد فيها كل ذلك فيذهب فيجدها في أُم الكتاب فينسخها فلا يزال معه حتى يأتي على آخر صفته. **﴿لنبيّن لكم﴾**، كمال قدرتنا وحكمتنا في تصريف أطوار خلقكم ولتستدلّوا بقدرته في ابتداء الخلق على قدرته على الإعادة. وقيل: لنبيّن لكم ما تأتون وما تذرون وما تحتاجون إليه في العبادة، **﴿ ونُقرُّ في الأرحام ما نشاء ﴾**، فلا تمجّه ولا تسقطه، **﴿ إلى أجل مسمى ﴾**، إلى وقت خروجها من الرحم تامة الخلق والمدة. **﴿ ثم نُخرجُكم ﴾** من بطون أُمهاتكم **﴿ طفلاً ﴾** أي: صغاراً ولم يقل أطفالاً لأن العرب تذكر الجمع باسم الواحد. وقيل: تشبيهاً بالمصدر مثل عدل وزور. **﴿ ثم لتبلغوا أشدّكم ﴾** يعني: الكمال والقوة، **﴿ ومنكم مَن يتوفى ﴾**، من قبل بلوغ الكبر، **﴿ ومنكم مَن يُردُّ إلى أرذل العمر ﴾** أي: الهرم والخرف، **﴿ لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً ﴾**، أي: يبلغ من السنّ ما يتغيّر عقله فلا يعقل شيئاً ثم ذكر دليلاً آخر على البعث فقال:

سخيف العقل قليل الفهم ثم ذكر دليلاً آخر على البعث فقال تعالى ﴿وترى الأرض هامدة﴾ أي يابسة لا نبات فيها ﴿فإذا أنزلنا عليها الماء﴾ يعني المطر ﴿اهتزت﴾ أي تحركت بالنبات ﴿وربت﴾ أي ارتفعت وذلك أنّ الأرض ترتفع بالنبات ﴿وأنبتت﴾ هو مجاز لأن الله تعالى هو المنبت وأضيف إلى الأرض توسعاً ﴿من كل زوج بهيج﴾ أي من كل صنف حسن نضير والبهيج هو المبهج وهو الشيء المشرق الجميل ثم إنّ الله تعالى لمّا ذكر هذين الدليلين رتب عليهما ما هو المطلوب فقال تعالى:

ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾ ثَانِىَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٩﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٠﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١١﴾ يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٢﴾ يَدْعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ ﴿١٣﴾

﴿ذلك﴾ أي ذكرنا ذلك لتعلموا ﴿بأن الله هو الحق﴾ وإن هذه الأشياء دالة على وجود الصانع ﴿وأنّه يحيي الموتى﴾ أي إنه إذا لم يستبعد منه إيجاد هذه الأشياء فكيف يستبعد منه إعادة الأموات ﴿وأنه على كل شيء قدير﴾ أي من كان كذلك كان قادراً على جميع الممكنات ﴿وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأنّ الله يبعث من في القبور﴾ أي ما ذكر من الدلائل لتعلموا أن الساعة كائنة لا شك فيها وأنّها حق وأنّ البعث بعد الموت حق قوله تعالى ﴿ومن الناس من يجادل في الله بغير علم﴾ يعني النضر بن الحرث ﴿ولا هدى﴾ أي ليس معه من الله بيان ولا رشاد ﴿ولا كتاب منير﴾ أي ولا كتاب من الله له نور ﴿ثاني عطفه﴾ أي لاوي جنبه وعنقه متبختراً لتكبّره معرضاً عما يدعى إليه من الحق تكبّراً ﴿ليضل عن سبيل الله﴾ أي عن دين الله ﴿له في الدنيا خزي﴾ أي عذاب وهوان وهو أنه قتل يوم بدر صبراً هو وعقبة بن

﴿ وترى الأرض هامدة ﴾، أي: يابسة لا نبات فيها، ﴿ فإذا أنزلنا عليها الماء ﴾، المطر، ﴿ اهتزّت ﴾، تحركت بالنبات وذلك أن الأرض ترتفع بالنبات فذلك تحركها، ﴿ وربت ﴾، أي: ارتفعت وزادت، وقرأ أبو جعفر: (وربأت) بالهمزة، وكذلك في ﴿ حَمّ السجدة ﴾ [فصّلت: ٣٩] أي: ارتفعت وعلت، قال المبرد: أراد اهتزور بإنباتها فحذف المضاف، والاهتزاز في النبات أظهر، يقال: اهتزّ النبات أي: طال وإنما أنّث لذكر الأرض. وقيل: فيه تقديم وتأخير معناه: ربت واهتزت، ﴿ وأنبتتْ من كل زوج بهيج ﴾، أي: صنف حسن يبهج بـه مَن رآه أي: يسرّ، فهذا دليل آخر على البعث.

﴿ ذلك بأن الله هو الحق ﴾، أي: لتعلموا أن الله هو الحق، ﴿ وأنه يُحيي الموتى وأنه على كل شيء قدير ﴾.

﴿ وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث مَن في القبور ﴾.

﴿ ومن الناس مَن يجادل في الله بغير علم ﴾، يعني: النضر بن الحارث، ﴿ ولا هدى ﴾، بيان ﴿ ولا كتاب منير ﴾.

﴿ ثاني عِطْفِهِ ﴾، متبختراً لتكبّره. وقال مجاهد: وقتادة: لاَوِي عنقه. قال عطية وابن زيد: معرضاً عمّا يدّعي

أبي معيط ﴿ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق ذلك﴾ أي يقال له ذلك ﴿بما قدمت يداك وأن الله ليس بظلام للعبيد﴾ أي فيعذبهم بغير ذنب والله تعالى على أي وجه أراد يتصرف في عبده فحكمه عدل وهو غير ظالم.

قوله عزّ وجلّ ﴿ومن الناس من يعبد الله على حرف﴾ الآية نزلت في قوم من الأعراب كانوا يقدمون المدينة مهاجرين من باديتهم فكان أحدهم إذا قدم المدينة فصح بها جسمه ونتجت بها فرسه مهراً وولدت امرأته غلاماً وكثر ماله، قال هذا دين حسن وقد أصبت فيه خيراً واطمأن له وإن صابه مرض وولدت امرأته جارية ولم تلد فرسه وقل ماله قال ما أصبت منذ دخلت في هذا الدين إلاّ شراً فينقلب عن دينه وذلك هو الفتنة فأنزل الله تعالى ﴿ومن الناس من يعبد الله على حرف﴾ أي على شك وأصله من حرف الشيء وهو طرفه نحو حرف الجبل والحائط الذي غير مستقر فقيل للشاك في الدين أنه يعبد الله على حرف لأنه لم يدخل فيه على الثبات والتمكن. وهذا مثل لكونهم على قلق واضطراب في دينهم على سكينة وطمأنينة ولو عبدوا الله بالشكر على السراء والصبر على الضراء لم يكونوا على حرف وقيل هو المنافق يعبد الله بلسانه دون قبل ﴿فإن أصابه خير﴾ أي صحة في جسمه وسعة في معيشته ﴿اطمأن به﴾ أي رضي به وسكن إليه ﴿وإن أصابته فتنة﴾ أي بلاء في جسمه وضيق في معيشته ﴿انقلب على وجهه﴾ أي ارتد ورجع على عقبه إلى الوجه الذي كان عليه من الكفر ﴿خسر الدنيا والآخرة﴾ أي خسر في الدنيا العز والكرامة ولا يبقى دمه وماله مصوناً.

إليه تكبّراً. وقال ابن جريج: يعرض عن الحق تكبّراً. والعطف: الجانب، وعطفا الرجل: جانباه عن يمين وشمال وهو الموضع الذي يعطفه الإنسان أي يلويه ويميله عند الإعراض عن الشيء، نظيره قوله تعالى: ﴿ وإذا تتلى عليه آياتنا ولّى مستكبراً ﴾ [لقمان: ٧]، وقال تعالى: ﴿ وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لووا رؤوسهم ﴾ [المنافقون: ٥]. ﴿ ليضلّ عن سبيل الله ﴾، عن دين الله، ﴿ له في الدنيا خزي ﴾، عذاب وهوان هو القتل ببدر، فقتل النضر بن الحارث وعقبة بن أبي مُعيط يوم بدر صبراً. ﴿ ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق ﴾.

ويقال له: ﴿ ذلك بما قدّمت يداك وأن الله ليس بظلّام للعبيد ﴾، فيعذّبهم بغير ذنب وهو جلّ ذكره على أيّ وجه شاء تصرف في عبده فحكمه عدل وهو غير ظالم.

قوله تعالى: ﴿ ومن الناس مَن يعبد الله على حرف ﴾، الآية نزلت في قوم من الأعراب كانوا يقدمون المدينة مهاجرين من باديتهم فكان أحدهم إذا قَدِمَ المدينة فصحّ بها جسمه ونتجت فرسه مهراً حسناً وولدت امرأته ذكراً وكثر ماله قال هذا دين حسن وقد أصبت فيه خيراً واطمأنّ إليه، وإن أصابه مرض وولدت امرأته جارية وأجهضت فرسه وقلّ مالهُ قال ما أصبت منذ دخلت في هذا الدين إلاّ شرّاً فينقلب عن دينه، وذلك الفتنة فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿ ومن الناس مَن يعبد الله على حرف ﴾، وأكثر المفسّرين قالوا على شك وأصله من حرف الشيء وهو طرفه نحو حرف الجبل والحائط الذي، كالقائم عليه غير مستقر، فقيل للشاكّ في الدين أنه يعبد الله على حرف لأنه على طرف وجانب من الدين لم يدخل فيه على الثبات والتمكّن كالقائم على حرف الجبل مضطرب غير مستقر يعرض أن يقع في أحد جانبي الطرف لضعف قيامه، ولو عبدوا الله في الشكر على السرّاء والصبر على الضرّاء لم يكونوا على حرف، قال الحسن: هو المنافق يعبده بلسانه دون قلبه. ﴿ فإن أصابه خير ﴾، صحة في جسمه وسعة في معيشته، ﴿ اطمأن به ﴾، أي: رضي به وسكن إليه، ﴿ وإن أصابته فتنة ﴾، بلاء في جسده وضيق في معيشته، ﴿ انقلب على وجهه ﴾، ارتدّ ورجع على عقبه إلى الوجه الذي كان عليه من الكفر، ﴿ خسر الدنيا ﴾، يعني هذا الشاكّ خسر الدنيا بفوات ما كان يؤمله، ﴿ والآخرة ﴾، بذهاب الدين والخلود في النار. قرأ يعقوب «خاسر» بالألف ﴿ والآخرة ﴾ جَرٌّ. ﴿ ذلك هو الخسران المبين ﴾، الظاهر.

وقيل خسر في الدنيا ما كان يؤمل والآخرة بذهاب الدين والخلود في النار ﴿ذلك هو الخسران المبين﴾ أي الظاهر ﴿يدعو من دون الله ما لا يضره﴾ إن عصاه ولم يعبده ﴿وما لا ينفعه﴾ أي إن أطاعه وعبده ﴿ذلك هو الضلال البعيد﴾ أي عن الحق والرشد ﴿يدعو لمن ضره أقرب من نفعه﴾ فإن قلت قد قال الله تعالى في الآية الأولى ﴿يدعو من دون الله ما لا يضره وما لا ينفعه﴾ وقال في هذه الآية ﴿يدعو لمن ضره أقرب نفعه﴾ وهذا تناقض فكيف الجمع بينهما. قلت إذا حصل المعنى ذهب هذا الوهم وذلك أنّ الله تعالى قال في الآية الأولى: ما لا يضره أي لا يضره ترك عبادته وقوله لمن ضره أي ضر عبادته وقيل: إنها لا تضر ولا تنفع بأنفسها ولكن عبادتها سبب الضرر وذلك يكفي في إضافة الضرر إليها وقيل: إن الله تعالى سفه الكافر حيث عبد جماداً لا يضر ولا ينفع وهو يعتقد بجهله وضلاله أنه ينتفع به حين يستشفع وقيل الآية في الرؤساء وهم الذين كانوا يفزعون إليهم لأنه يصح منهم أن يضروا وينفعوا وحجة هذا القول أن الله تعالى بين في الآية الأولى أنّ الأوثان لا تضر ولا تنفع وهذه الآية تقتضي كون المذكور فيها ضاراً نافعاً، فلو كان المذكور في هذه الأوثان لزم التناقض فثبت أنهم الرؤساء بدليل قوله ﴿لبئس المولى ولبئس العشير﴾ أي الناصر والمصاحب المعاشر. قوله عزّ وجلّ:

إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿١٤﴾ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأٓخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يُرِيدُ ﴿١٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ

﴿ يدعوا من دون الله ما لا يضرّه ﴾، إن عصاه ولم يعبده، ﴿ وما لا ينفعه ﴾، إن أطاعه وعبده، ﴿ ذلك هو الضلال البعيد ﴾، عن الحق والرشد.

﴿يدعوا لَمَنْ ضرّه أقرب من نفعه ﴾، هذه الآية من مشكلات القرآن وفيها أسئلة أولها قالوا قد قال الله في الآية السابقة يدعو من دون الله ما لا يضرّه وما لا ينفعه وقال ههنا لَمن ضرّه أقرب من نفعه فكيف التوفيق بينهما قيل قوله في الآية الأولى ﴿ يدعوا من دون الله ما لا يضرّه ﴾ أي: لا يضرّه ترك عبادته، وهو قوله: ﴿ لَمَنْ ضَرُّه أقربُ من نفعه ﴾ أي: ضرّ عبادته، فإن قيل: قد قال لمن ضرّه أقرب من نفعه ولا نفع في عبادة الصنم أصلاً؟ قيل: هذا على عادة العرب فإنهم يقولون لِما لا يكون أصلاً بعيد، كقوله: ﴿ ذلك رجع بعيد ﴾ [قٓ: ٣] أي: لا رجع أصلاً فلما كان نفع الصنم بعيداً على معنى أنه لا نفع فيه أصلاً قيل ضرّه أقرب من نفعه لأنه كائن السؤال الثالث: قوله: ﴿ لَمن ضرّه أقرب من نفعه ﴾ ما وجه هذا الكلام؟ اختلفوا فيه فقال بعضهم: هي صلة مجازها يدعو مَن ضرّه أقرب، وكذلك قرأها ابن مسعود. وقيل: يدعو بمعنى يقول: والخبر محذوف أي يقول لَمن ضرّه أقرب من نفعه هو إله. وقيل: معناه يدعو لَمن ضرّه أقرب من نفعه يدعو، فحذف يدعو الأخيرة اجتزاء بالأولى ولو قلت يضرب لَمن خيره أكثر من شرّه يضرب، ثم يحذف الأخير جاز. وقيل: على التوحيد معناه يدعو والله لَمَنْ ضرّه أقرب من نفعه. وقيل: ﴿ يدعو مَن ﴾ صلة قوله ذلك هو الضلال البعيد يقول ذلك هو الضلال البعيد يدعو، ثم استأنف فقال لَمن ضرّه أقرب من نفعه فيكون ﴿ من ﴾ في محل رفع بالابتداء وخبره، ﴿ لبئس المولى ﴾: أي: الناصر. وقيل: المعبود. ﴿ ولبئس العشير ﴾، أي: الصاحب والمخالط يعني الوثن، والعرب تسمّي الزوج العشير لأجل المخالطة.

عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ۩ ﴿١٨﴾

﴿إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار إنّ الله يفعل ما يريد﴾ أي بأوليائه وأهل طاعته من الكرامة وبأهل معصيته من الهوان قوله تعالى ﴿من كان يظن أن لن ينصره الله﴾ يعني نبيه محمداً صلّى الله عليه وسلّم ﴿في الدنيا﴾ أي بإعلاء كلمته وإظهار دينه ﴿والآخرة﴾ أي وفي الآخرة بإعلاء درجته والانتقام ممن كذبه ﴿فليمدد بسبب﴾ أي بحبل ﴿إلى السماء﴾ أي سقف البيت على قول الأكثرين والمعنى ليشدّد حبلاً في سقف بيته فليختنق به حتى يموت ﴿ثم ليقطع﴾ أي الحبل بعد الاختناق وقيل ليمد الحبل حتى ينقطع فيموت مختنقاً ﴿فلينظر هل يذهبن كيده﴾ أي صنيعه وحيلته ﴿ما يغيظ﴾ أي فليختنق غيظاً. وليس هذا على سبيل الحتم لأنه لا يمكنه القطع والنظر بعد الاختناق ولكنه كما يقال للحاسد مت غيظاً وقيل المراد بالسماء السماء المعروفة والمعنى من كان يظن أن لن ينصر الله نبيه ويكيد في أمره ليقطعه عنه فليقطعه من أصله فإنّ أصله في السماء فليطلب سبباً يصل به إلى السماء، ثم ليقطع عن النبي ﷺ الوحي الذي يأتيه فلينظر هل يتهيّأ له الوصول إلى السماء بحيلة وهل يقدر على إذهاب غيظه بهذا الفعل فإذا كان ذلك ممتنعاً كان غيظه عديم الفائدة.

وفي الآية زجر للكافر عن الغيظ فيما لا فائدة فيه. روي أنّ الآية نزلت في قوم من أسد وغطفان دعاهم النبيّ ﷺ

﴿ إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنّات تجري من تحتها الأنهار إن الله يفعل ما يريد ﴾.

﴿ مَن كان يظن أن لن ينصره الله ﴾، يعني نبيّه محمداً ﷺ ﴿ في الدنيا والآخرة فليمدد بسبب ﴾، أي: بحبل ﴿ إلى السماء ﴾ أراد بالسماء سقف البيت على قول الأكثرين أي: ليشدد حبلاً في سقف بيته فليختنق به حتى يموت، ﴿ ثم ليقطع ﴾ الحبل بعد الاختناق. وقيل: ثم ليقطع أي ليمدّ الحبل حتى ينقطع فيموت مختنقاً، ﴿ فلينظر هل يذهبنّ كيده ﴾، صنعه وحيلته، ﴿ ما يغيظ ﴾ ﴿ ما ﴾ بمعنى المصدر أي: هل يذهبنّ كيده وحيلته غيظه معناه فليختنق غيظاً حتى يموت، وليس هذا على سبيل الحتم أن يفعله لأنه لا يمكنه القطع والنظر بعد الاختناق والموت، ولكنه كما يقال للحاسد إن لم ترضَ هذا فاختنق ومت غيظاً. وقال ابن زيد المراد من السماء السماء المعروفة ومعنى الآية: مَن كان يظن أن لن ينصر الله نبيّه ويكيد في أمره ليقطعه عنه فليقطعه من أصله فإن أصله من السماء فليمدد بسبب إلى السماء ثم ليقطع. عن النبي ﷺ الوحي الذي يأتيه من السماء فلينظر هل يقدر على إذهاب غيظه بهذا الفعل. ورُوِيَ أن هذه الآية نزلت في قوم من أسد وغطفان دعاهم النبي ﷺ إلى الإسلام وكان بينهم وبين اليهود حلف وقالوا لا يمكننا أن نسلم لأنّا نخاف أن لا ينصر محمد ولا يظهر أمره فينقطع الحلف بيننا وبين اليهود، فلا يميرونا ولا يؤوونا فنزلت هذه الآية. وقال مجاهد: النصر بمعنى الرزق والهاء راجعة إلى ﴿ من ﴾ ومعناه مَن كان يظن أن لن يرزقه الله في الدنيا والآخرة نزلت في مَن أساء الظن بالله وخاف ألّا يرزقه، فليمدد بسبب إلى السماء أي إلى سماء البيت فلينظر هل يذهبن فعله ذلك ما يغيظ، وهو خيفة أن لا يرزق وقد يأتي النصر بمعنى الرزق، تقول العرب: مَن ينصرني نصره الله أي مَن يعطني أعطاه الله، قال أبو عبيدة: تقول العرب أرض منصورة أي ممطورة، قرأ أبو عمرو ونافع وابن عامر ويعقوب ﴿ ثم ليقطع ﴾ ثم ليقضوا بكسر اللام، والباقون بجزمها لأن الكل لام الأمر، زاد ابن عامر ﴿وليوفوا وليطوفوا﴾ [الحج: ٢٩] بكسر اللام فيهما، ومَن كسر في ثم ليقطع وفي ثم ليقضوا فرق بأن ثم مفصول من الكلام والواو كأنها من نفس الكلمة كالفاء في قوله فلينظر.

إلى الإسلام وكان بينهم وبين اليهود محالفة فقالوا: لا يمكننا أن نسلم لأنّنا نخاف أن لا ينصر محمد ولا يظهر أمره فتنقطع المحالفة بيننا وبين اليهود فلا يميرونا ولا يؤوونا وقيل النصر معناه الرزق. ومعنى الآية من كان يظن أن لن يرزقه الله في الدنيا والآخرة فليبلغ غاية الجزع وهو الاختناق فإنّ ذلك لا يجعله مرزوقاً تقول العرب من ينصرني نصره الله أي من يعطني أعطاه الله **﴿وكذلك أنزلناه﴾** يعني القرآن **﴿آيات بينات وأن الله يهدي من يريد إنّ الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا﴾** يعني عبدة الأوثان وقيل الأديان ستة واحد لله وهو الإسلام وخمسة للشياطين وهو ما عدا الإسلام **﴿إن الله يفصل بينهم﴾** أي يحكم بينهم **﴿يوم القيامة﴾** وقيل يفصل بينهم في الأحوال والأماكن جميعاً فلا يجازيهم جزاء واحداً بغير تفاوت ولا يجمعهم في موطن واحد **﴿إنّ الله على كل شيء شهيد﴾** أي إنه عالم بما يستحقه كل واحد منهم فلا يجزي في ذلك الفصل ظلم ولا حيف وقد تقدّم بسط الكلام على معنى هذه الآية في تفسير سورة البقرة. قوله عزّ وجلّ **﴿ألم ترَ﴾** أي لم تعلم وقيل ألم تر بقلبك **﴿أنّ الله يسجد له من في السموات ومن في الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب﴾** قيل سجود هذه الأشياء تحول ظلالهما وقيل ما في السماء نجم ولا شمس ولا قمر إلا يقع ساجداً حين يغيب ثم لا ينصرف حتى يؤذن له فيأخذ ذات اليمين حتى يرجع إلى مطلعه وقيل معنى سجودها الطاعة فإنه ما من جماد إلاّ وهو مطيع لله تعالى خاشع ومسبح له كما وصفهم بالخشية والتسبيح: وهذا مذهب أهل السنة وهو أنّ هذه الأجسام لما كانت قابلة لجميع الأعراض التي خلقها الله تعالى فيها من غير امتناع البتة أشبهت بمطاوعتها أفعال المكلف وهو السجود الذي كل خضوع دونه.

﴿ وكذلك ﴾ أي مثل ذلك يعني ما تقدم من آيات القرآن، **﴿ أنزلناه ﴾**، يعني: القرآن **﴿ آيات بيّنات وأن الله يهدي مَن يُريد ﴾**.

﴿ إنّ الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا ﴾، يعني: عَبَدَة الأوثان، **﴿ إن الله يفصِلُ بينهم ﴾**، يحكم بينهم، **﴿ يوم القيامة إن الله على كل شيء شهيد ﴾**.

﴿ ألم ﴾، ألم تعلم، وقيل: ألم **﴿ ترَ ﴾** بقلبك **﴿ أن الله يسجد له مَنْ في السمواتِ ومَنْ في الأرضِ والشمسُ والقمرُ والنجومُ والجبالُ والشجرُ والدوابُّ ﴾**، قال مجاهد: سجودها تحوّل ظلالها. وقال أبو العالية: ما في السماء نجم ولا شمس ولا قمر إلاّ يقع ساجداً حين يغيب ثم لا ينصرف حتى يؤذن له، فيأخذ ذات اليمين حتى يرجع إلى مطلعه. وقيل: سجودها بمعنى الطاعة فإنه ما من جماد إلاّ وهو مطيع لله خاشع لله مسبّح له كما أخبرنا الله تعالى عن السموات والأرض **﴿ قالتا أتينا طائعين ﴾** [فصّلت: ١١]، وقال في وصف الحجارة: **﴿ وإنّ منها لَما يَهبِطُ من خشية الله ﴾** [البقرة: ٧٤]، وقال تعالى: **﴿ وإنْ من شيء إلاّ يسبّح بحمده ولكنْ لا تفقهون تسبيحهم ﴾** [الإسراء: ٤٤]، وهذا مذهب حسن موافق لأهل السُّنّة. قوله: **﴿ وكثيرٌ من الناس ﴾**، أي: من هذه الأشياء كلها تسبّح الله عزّ وجلّ وكثير من الناس يعني المسلمين. **﴿ وكثير حقّ عليه العذاب ﴾**، وهم الكفّار لكفرهم وتركهم السجود وهم مع كفرهم تسجد ظلالهم لله عزّ وجلّ والواو في قوله: **﴿ وكثير حق عليه العذاب ﴾**، واو الاستئناف.

﴿ ومَنْ يُهنِ اللّهُ ﴾ أي: يهنه الله **﴿ فما له من مكرم ﴾** أي: مَن يذلّه الله فلا يكرمه أحد، **﴿ إن الله يفعل ما يشاء ﴾**، أي: يكرم ويهين فالسعادة والشقاوة بإرادته ومشيئته. قوله تعالى: **﴿ هذان خصمان اختصموا في ربهم ﴾** أي: جادلوا في دينه وأمره والخصم اسم شبيه بالمصدر، فلذلك قال: **﴿اختصموا﴾** بلفظ الجمع كقوله: **﴿وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوّروا المحراب﴾** [صٓ: ٢١]، واختلفوا في هذين الخصمين. أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا يعقوب بن إبراهيم أنا هشيم أنا أبو هشام عن أبي مجلز عن قيس بن عبادة قال: سمعت أبا ذرّ يقسم قسماً أن هذه الآية: **﴿هذان خصمان اختصموا في ربهم﴾** نزلت في

فإن قلت هذا التأويل يبطله قوله ﴿**وكثير من الناس**﴾ فإن السجود بالمعنى الذي ذكر عام في الناس كلهم فإسناده إلى كثير من الناس يكون تخصيصاً من غير فائدة. قلت المعنى الذي ذكرته وإن كان عاماً في حق الكل إلاّ أن بعضهم تمرد وتكبّر وترك السجود في الظاهر فهذا وإن كان ساجداً بذاته لكنه متمرد بظاهره وأمّا المؤمن فإنه ساجد بذاته وبظاهره أيضاً فلأجل هذا الفرق حصل التخصيص بالذكر وقيل معنى الآية ﴿**ولله يسجد من في السموات ومن في الأرض**﴾ ويسجد له كثير من الناس فيكون السجود الأول: بمعنى الانقياد، والثاني: بمعنى الطاعة والعبادة. فإن قلت قوله من في السموات ومن في الأرض لفظ عموم فيدخل فيه الناس فلم قال وكثير من الناس. قلت لو اقتصر على ما تقدّم لأوهم أن كل الناس يسجدون طوعاً دون بعض وهم الذين قال فيهم ﴿**وكثير حق عليه العذاب**﴾ وهم الكفار أي حق عليهم العذاب بكفرهم وتركهم السجود ومع كفرهم وامتناعهم من السجود تسجد ظلالهم لله عزّ وجلّ ﴿**ومن يهن الله فما له من مكرم**﴾ أي من يذله الله فلا يكرمه أحد ﴿**إنّ الله يفعل ما يشاء**﴾ أي يكرم الله بالسعادة من يشاء ويهين بالشقاوة من يشاء وقيل هو الذي يصح منه الإكرام والهوان يوم القيامة بالثواب والعقاب.

(فـصـل):

هذه السجدة من عزائم سجود القرآن فيسن للقارىء والمستمع أن يسجد عند تلاوتها أو سماع تلاوتها. قوله عزّ وجلّ:

الذين برزوا يوم بدر حمزة وعلي وعبيدة بن الحارث وعتبة وشيبة ابني ربيعة والوليد بن عتبة، أخبرنا عبد الواحد أنا أحمد أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا حجّاج بن منهال ثنا المعتمر بن سليمان قال: سمعتُ أبي قال أنا أبو مجلز عن قيس بن عبادة عن علي بن أبي طالب قال أنا أول مَن يجثو بين يدي الرحمن للخصومة يوم القيامة، قال قيس وفيهم نزلت: ﴿ **هذان خصمان اختصموا في ربهم** ﴾ قال: هم الذين بارزوا يوم بدر علي وحمزة وعبيدة وشيبة بن ربيعة وعتبة بن ربيعة والوليد بن عتبة قال محمد بن إسحاق خرج يعني يوم بدر عتبة بن ربيعة بين أخيه شيبة بن ربيعة وابنه الوليد بن عتبة ودعا إلى المبارزة فخرج إليه فتية من الأنصار ثلاثة عوف ومعوذ ابنا الحارث وأمهما عفراء، وعبد الله بن رواحة فقالوا: مَن أنتم؟ فقالوا: رهط من الأنصار، فقالوا حين انتسبوا: أكفّاء كرام، ثم نادى مناديهم: يا محمد أخرج إلينا أكفّاءنا من قومنا، فقال رسول الله ﷺ: قم يا عبيدة بن الحارث ويا حمزة بن عبد المطلب ويا علي بن أبي طالب، فلما دنوا قالوا مَن أنتم؟ فذكروا فقالوا: نعم أكفّاء كرام فبارز عبيدة وكان أسنّ القوم عتبة، وبارز حمزة شيبة، وبارز علي الوليد بن عتبة، فأما حمزة فلم يمهل أن قتل شيبة، وعلي الوليد بن عتبة، واختلف عبيدة وعتبة بينهما ضربتان كلاهما أثبت صاحبه، فكرّ حمزة وعلي بأسيافهما على عتبة فذففا عليه واحتملا عبيدة إلى أصحابه، وقد قطعت رجله ومخّها يسيل، فلما أتوا بعبيدة إلى رسول الله ﷺ قال: ألستُ شهيداً يا رسول الله؟ قال: «بلى»، فقال عبيدة: لو كان أبو طالب حيّاً لعلم أنا أحقّ بما قال منه حيث يقول:

ونسلمـه حتى نصرع حـولـه ونذهل عن أبنائنا والحـلائل

وقال ابن عباس وقتادة: نزلت الآية في المسلمين وأهل الكتاب فقال أهل الكتاب: نحن أولى بالله منكم وأقدم منكم كتاباً، ونبيّنا قبل نبيّكم، وقال المؤمنون: نحن أحقّ بالله آمنّا بنبيّنا محمد ﷺ ونبيّكم وبما أنزل الله من كتاب وأنتم تعرفون نبيّنا وكتابنا وكفرتم به حسداً، فهذه خصومتهم في ربّهم. وقال مجاهد وعطاء بن أبي رباح والكلبي: هم المؤمنون والكافرون كلهم من أيّ ملّة كانوا. وقال بعضهم: جعل الأديان ستّة في قوله تعالى: ﴿ إن الذين آمنوا والذين هادوا ﴾ [الحج: ١٧] الآية فجعل خمسة للنار وواحداً للجنة.

﴿۞ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾ وَهُدُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾﴾

﴿**هذان خصمان اختصموا في ربهم**﴾ أي جادلوا في دينه وأمره واختلفوا في هذين الخصمين فروي عن قيس بن عبادة قال: سمعت أبا ذر يقسم قسماً أن هذه الآية ﴿**هذا خصمان اختصموا في ربهم**﴾ نزلت في الذين برزوا يوم بدر حمزة وعلي وعبيدة بن الحارث وعتبة وشيبة ابنا ربيعة والوليد بن عتبة أخرجاه في الصحيحين (خ) عن علي بن أبي طالب قال: أنا أول من يجثو للخصومة بين يدي الرحمن يوم القيامة. قال قيس بن عبادة فيهم نزلت «هذان خصمان اختصموا في ربهم» قال هم الذين تبارزوا يوم بدر علي وحمزة وعبيدة بن الحارث وشيبة بن ربيعة وعتبة بن ربيعة وابنه الوليد بن عتبة. قال محمد بن إسحاق: خرج يوم بدر عتبة بن ربيعة بين أخيه شيبة بن ربيعة وابنه الوليد بن عتبة، ودعوا إلى المبارزة فخرج إليهم فئة من الأنصار ثلاثة عوف ومعوذ ابنا الحارث وأمهما عفراء وعبد الله بن رواحة فقالوا رهط من الأنصار فقالوا حين انتسبوا أكفاء كرام ثم نادى مناديهم يا محمد اخرج إلينا أكفاءنا من قومنا فقال رسول الله ﷺ «قم يا عبيدة بن الحارث ويا حمزة بن عبد المطلب ويا علي بن أبي طالب فلما دنوا منهم قالوا: من أنتم فذكروا أنفسهم قالوا نعم أكفاء كرام فبارز عبيدة وكان أسن القوم عتبة وبارز حمزة شيبة وبارز علي الوليد ابن عتبة فأما حمزة فلم يمهل أن قتل شيبة وعلي الوليد واختلف عبيدة وعتبة بينهما ضربتان كلاهما أثبت صاحبه فكرّ حمزة وعلي بأسيافهما على عتبة فذففا واحتملا عبيدة إلى أصحابه وقد قطعت رجله ومخها يسيل. فلما أتوا به إلى رسول الله ﷺ قال: ألست شهيداً يا رسول الله قال: بلى فقال عبيدة: لو كان أبو طالب حياً لعلم أنا أحق بما قال منه حيث يقول:

ونسلمه حتى نصرع حوله ... ونذهل عن أبنائنا والحلائل

وقال ابن عباس: نزلت الآية في المسلمين وأهل الكتاب قال أهل الكتاب نحن أولى بالله وأقدم منكم كتاباً ونبينا قبل نبيكم وقال المسلمون نحن أحق بالله آمنا بنبينا محمد صلى الله عليه وسلم ونبيكم وبما أنزل الله من كتاب وأنتم

فقوله تعالى: ﴿ هذان خصمان اختصموا في ربهم ﴾ ينصرف إليهم فالمؤمنون خصم وسائر الخمسة خصم. وقال عكرمة: هما الجنة والنار اختصمتا كما أخبرنا حسان بن سعيد المنيعي أنا أبو طاهر الزيادي أنا أبو بكر القطان أنا أحمد بن يوسف السلمي أنا عبد الرزاق أنا معمر عن همّام بن منبّه قال حدّثنا أبو هريرة: قال: قال رسول الله ﷺ: «تحاجّتِ الجنّةُ والنارُ» فقالت النار: أُوثرت بالمتكبرين والمتجبرين، وقالتِ الجنةُ فما لي لا يدخلني إلا ضعفاء الناسِ وسقطهم وعِجزاتهم؟ قال الله عزّ وجلّ للجنة: إنما أنت رحمتي أرحم بكِ مَن أشاء من عبادي، وقال للنار: إنما أنت عذابي أُعذّب بك مَن أشاء من عِبادي، ولكل واحدة منكما ملؤها فأما النار فلا تمتلىء حتى يضع الله فيها رجله فتقول قطّ قطّ، فهنالك تمتلىء ويزوي بعضها إلى بعض، ولا يظلم الله من خلقه أحداً، وأما الجنة فإن الله عزّ وجلّ ينشىء لها خلقاً ثم بيّن الله عزّ وجلّ ما للخصمين فقال: ﴿ فالذين كفروا قُطّعتْ لهم ثيابٌ من نار ﴾ قال سعيد بن جبير: ثياب من نحاس مُذاب وليس من الآنية شيء إذا حمي أشدّ حرّاً منه وسُمّي باسم الثياب لأنها تحيط بهم كإحاطة الثياب. وقال بعضهم: يلبس أهل النار مقطعات من النار، ﴿ يُصبّ من فوق رؤوسهم

تعرفون نبينا وكتابنا وكفرتم حسداً فهذه خصومتهم في ربهم وقيل هم المؤمنون والكافرون من أي ملة كانوا فالمؤمنون خصم والكفار خصم وقيل الخصمان الجنة والنار (ق) عن أبي هريرة قال قال النبيّ ﷺ «تحاجت الجنة والنار فقالت النار أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين. وقالت الجنة: فما لي لا يدخلني إلاّ ضعفاء الناس وسقطهم» زاد في رواية «وغزاتهم فقال الله عزّ وجلّ للجنة أنت رحمتي أرحم بك من أشاء من عبادي وقال للنار إنّما أنت عذابي أعذب بك من أشاء من عبادي ولكل واحدة منكما ملؤها فأما النار فلا تمتلىء حتى يضع الله تبارك وتعالى رجله فتقول قط قط فهنالك تمتلىء ويزوي بعضها إلى بعض ولا يظلم ربك من خلقه أحداً.

وأما الجنة فإنّ الله تعالى ينشىء لها خلقاً» وللبخاري «اختصمت الجنة والنار» وهذا القول ضعيف والأقوال الأولى أولى بالصحة لأن حمل الكلام على ظاهره أولى وقوله هذان كالإشارة إلى سبب تقدم ذكره وهو أهل الأديان الستة وأيضاً فإنه ذكر صنفين أهل طاعته وأهل معصيته وذكر مآل الخصمين فقال تعالى: ﴿**فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار**﴾ قال سعيد بن جبير: **ثياب** من نحاس مذاب وليس من الآنية شيء إذا حمي أشد حراً منه وسمي باسم الثياب. لأنها تحيط بهم كإحاطة الثياب وقيل يلبس أهل النار مقطعات من نار ﴿**يصب من فوق رؤوسهم الحميم**﴾ أي الماء الحار الذي انتهت حرارته ﴿**يصهر به**﴾ أي يذاب بالحميم الذي يصب من فوق رؤوسهم ﴿**ما في بطونهم**﴾ من الشحوم والأحشاء ﴿**والجلود**﴾ عن أبي هريرة أنّ رسول الله ﷺ قال «إنّ الحميم ليصب على رؤوسهم فينفذ حتى يخلص إلى جوف أحدهم، فيسلت ما في جوفه حتى يمرق من قدميه وهو الصهر ثم يعاد كما كان» أخرجه الترمذي وقال: حديث حسن غريب صحيح ﴿**ولهم مقامع من حديد**﴾ يعني سياط من حديد وهي الجزر من الحديد. وفي الخبر «لو وقع مقمع من حديد في الأرض ثم اجتمع عليه الثقلان ما أقلوه من الأرض» ﴿**كلما أرادوا أن يخرجوا منها**

الحميم ﴾، الحميم: هو الماء الحارّ الذي انتهت حرارته.

﴿ **يُصهر به** ﴾، أي: يُذاب بالحميم، ﴿ **ما في بطونهم** ﴾، يقال: صهرت الإلية والشحم بالنار إذا أذبتهما أصهرها صهراً معناه يُذاب بالحميم الذي يصبّ من فوق رؤوسهم حتى يسقط ما في بطونهم من الشحوم والأحشاء، ﴿ **والجلود** ﴾ أي: يشوي حرّها جلودهم فتتساقط. أخبرنا أبو بكر بن محمد بن عبد الله الخلال أنا عبد الله بن المبارك عن سعيد بن زيد عن أبي السمح عن أبي جحيرة واسمه عبد الرحمن عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «إن الحميم ليصبّ على رؤوسهم فينفذ الجمجمة حتى يخلص إلى جوفه فيسلت ما في جوفه حتى يمرق من قدميه وهو الصهر ثم يُعاد كما كان».

قوله تعالى: ﴿ **ولهم مقامع من حديد** ﴾، سِياط من حديد واحدتها مقمعة، قال الليث: المقمعة شبه الجزر من الحديد، من قولهم: قمعت رأسه إذا ضربته ضرباً عنيفاً وفي الخبر: «لو وضع مقمع من حديد في الأرض ثم اجتمع عليه الثقلان ما أقلوه من الأرض».

﴿ **كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غمٍّ** ﴾ يعني: كلما حاولوا الخروج من النار لما يلحقهم من الغمّ والكرب الذي يأخذ بأنفاسهم ﴿ **أعيدوا فيها** ﴾، يعني: ردّوا إليها بالمقامع. وفي التفسير: إن جهنم لتجيش بهم فتلقيهم إلى أعلاها فيريدون الخروج منها فتضربهم الزبانية بمقامع الحديد فيهوون فيها سبعين خريفاً. ﴿ **وذُوقوا عذابَ الحريق** ﴾، أي: تقول لهم الملائكة ذوقوا عذاب الحريق، أي: المحرق مثل الأليم والوجيع، قال الزجّاج: هؤلاء أحد الخصمين. وقال في الآخر وهم المؤمنون.

﴿ **إن الله يُدخِل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنّات تجري من تحتها الأنهار يُحلّون فيها من أساور من**

من غم﴾ يعني كلما حاولوا الخروج من النار لما يلحقهم من الغم والكرب الذي يأخذ بأنفاسهم ﴿أعيدوا فيها﴾ يعني ردوا إليها بالمقامع.

قيل إن جهنم لتجيش بهم فتلقيهم إلى أعلاها فيريدون الخروج منها فتضربهم الزبانية بمقامع الحديد فيهوون فيها سبعين خريفاً ﴿وذوقوا عذاب الحريق﴾ يعني تقول لهم الملائكة ذلك والحريق بمعنى المحرق فهذا وصف حال أحد الحصمين وهم الكفار وقال تعالى في وصف الخصم الآخر وهم المؤمنون ﴿إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤاً ولباسهم فيها حرير﴾ وهو الإبريسم الذي حرم لبسه على الرجال في الدنيا. عن معاوية هو جد بهز بن حكيم عن النبيّ ﷺ قال: «إن في الجنة بحر الماء وبحر العسل وبحر اللبن وبحر الخمر ثم تشقق الأنهار بعد». أخرجه الترمذي وقال: حديث صحيح (ق) عن أبي موسى أن رسول الله ﷺ قال: «جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن» عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ «إن عليهم التيجان أدنى لؤلؤة منها لتضيء ما بين المشرق والمغرب» أخرجه الترمذي وقال حديث غريب (ق) عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «من لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة». قوله تعالى ﴿وهدوا﴾ من الهداية يعني أرشدوا ﴿إلى الطيب من القول﴾ قال ابن عباس: هو شهادة أن لا إله إلاّ الله. وقيل هو لا إله إلاّ الله والله أكبر والحمد لله وسبحان الله وقيل إلى القرآن وقيل هو قول أهل الجنة «والحمد لله الذي صدقنا وعده» ﴿وهدوا إلى صراط الحميد﴾ يعني إلى دين الله وهو الإسلام والحميد هو الله المحمود في أفعاله. قوله عزّ وجلّ:

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُواْ ٱسْمَ

ذهب﴾، جمع سِوار، ﴿ولؤلؤاً﴾، قرأ أهل المدينة وعاصم ﴿ولؤلؤاً﴾ ههنا وفي سورة الملائكة [فاطر: ٣٣] بالنصب وافق يعقوب ههنا على معنى ويحلّون لؤلؤاً ولأنها مكتوبة في المصاحف بالألف وقرأ الآخرون بالخفض عطفاً على قوله من ذهب وترك الهمزة الأولى في كل القرآن أبو جعفر وأبو بكر، واختلفوا في وجه إثبات الألف فيه فقال أبو عمرو: أثبتوها فيها كما أثبتوا في: قالوا وكانوا، وقال الكسائي: أثبتوها للهمزة لأن الهمزة حرف من الحروف ﴿ ولباسهم فيها حرير ﴾ أي: أنهم يلبسون في الجنة ثياب الإبريسم وهو الذي حُرّم لبسه في الدنيا على الرجال. أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا عبد الرحمن بن أبي شريح أنا أبو القاسم البغوي أنا علي بن الجعد أنا شعبة عن قتادة عن داود السراج عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال: «مَن لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه الله إيّاه في الآخرة، فإن دخل الجنة لبسه أهل الجنة ولم يلبسه هو».

قوله تعالى: ﴿ وهُدوا إلى الطيب من القول ﴾، قال ابن عباس: هو شهادة أن لا إله إلاّ الله. وقال ابن زيد: لا إله إلاّ الله والله أكبر والحمد لله وسبحان الله. وقال السدي: أي القرآن. وقيل: هو قول أهل الجنة الحمد لله الذي صدقنا وعده. ﴿ وهُدوا إلى صراط الحميد ﴾، إلى دين الله وهو الإسلام والحميد هو الله المحمود في أفعاله.

ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۖ فَكُلُواْ مِنۡهَا وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡبَآئِسَ ٱلۡفَقِيرَ ﴿٢٨﴾

﴿إنّ الذين كفروا﴾ يعني بما جاء به محمد ﷺ ﴿ويصدّون عن سبيل الله﴾ أي بالمنع من الهجرة والجهاد والإسلام ﴿والمسجد الحرام﴾ يعني ويصدون عن المسجد الحرام ﴿الذي جعلناه للناس﴾ أي قبلة لصلاتهم ومنسكاً ومتعبداً ﴿سواء العاكف﴾ أي المقيم ﴿فيه﴾ قال بعضهم ويدخل فيه الغريب إذا جاور وأقام به ولزم التعبد فيه ﴿والباد﴾ أي الطارىء المنتاب إليه من غيره واختلفوا في معنى الآية فقيل سواء العاكف فيه والبادي في تعظيم حرامته وقضاء النسك به. وإليه ذهب مجاهد والحسن وجماعة قالوا: والمراد منه نفس المسجد الحرام ومعنى التسوية هو التسوية في تعظيم الكعبة وفي فضل الصلاة فيه والطواف به. وعن جبير بن مطعم أنّ النبيّ ﷺ قال: «يا بني عبد مناف لا تمنعوا أحداً طاف بهذا البيت وصلّى أية ساعة شاء من ليل أو نهار» أخرجه الترمذي وأبو داود والنسائي. وقيل: المراد منه جميع الحرم ومعنى التسوية أنّ المقيم والبادي سواء في النزول به ليس أحدهما أحق بالمنزل من الآخر غير أنه لا يزعج أحد أحداً إذا كان قد سبق إلى منزله وقول ابن عباس وسعيد بن جبير وقتادة وابن زيد قالوا: هما سواء في البيوت والمنازل قال عبد الرحمن بن سابط: كان الحجاج إذا قدموا مكة لم يكن أحد من أهل مكة بأحق منهم وكان عمر بن الخطاب ينهى الناس أن يغلقوا أبوابهم في الموسم فعلى هذا القول لا يجوز بيع دور مكة وإجارتها قالوا: إنّ أرض مكة لا تملك لأنها لو ملكت لم يستو العاكف فيها والبادي فلما استويا ثبت أن سبيلها سبيل المساجد وإليه ذهب أبو حنيفة. قالوا: والمراد بالمسجد الحرام جميع الحرم وعلى القول الأول الأقرب إلى الصواب أنه يجوز بيع دور

قوله تعالى: ﴿ إن الذين كفروا ويصدّون عن سبيل ﴾، عطف المستقبل عن الماضي لأن المراد من لفظ المستقبل الماضي كما قال تعالى في موضع آخر: ﴿ الذين كفروا وصدّوا عن سبيل الله ﴾ [محمد: ١، النحل: ٨٨]، وقيل: معناه إن الذين كفروا فيما تقدّم ويصدّون عن سبيل الله في الحال، أي: وهم يصدّون. ﴿ والمسجدِ الحرامِ ﴾، أي: ويصدّون عن المسجد الحرام. ﴿ الذي جعلناه للناس ﴾، قبلة لصلاتهم ومنسكاً ومتعبداً كما قال: ﴿ وُضِعَ للناس ﴾ [آل عمران: ٩٦]. ﴿ سواءً ﴾، قرأ حفص عن عاصم ويعقوب: ﴿ سواء ﴾ نصباً بإيقاع الجعل عليه يتعدّى إلى مفعولين. وقيل: معناه مستوياً فيه، ﴿ العاكف فيه والباد ﴾، وقرأ الآخرون بالرفع على الابتداء وما بعده خبر، وتمّ الكلام عند قوله: ﴿ للناس ﴾ وأراد بالعاكف المقيم فيه، وبالبادي الطارىء المنتاب إليه من غيره، واختلفوا في معنى الآية فقال قوم: سواء العاكف فيه والباد يعني في تعظيم حُرمته وقضاء النسك فيه، وإليه ذهب مجاهد والحسن وجماعة، وقالوا: المراد منه نفس المسجد الحرام ومعنى التسوية هو التسوية في تعظيم الكعبة في فضل الصلاة في المسجد الحرام والطواف بالبيت، وقال الآخرون المراد منه جميع الحرم، ومعنى التسوية أن المقيم والبادي سواء في النزول به ليس أحدهما أحقّ بالمنزل يكون فيه من الآخر غير أنه لا يزعج فيه أحد إذا كان قد سبق إلى منزل، وهو قول ابن عباس وسعيد بن جبير وقتادة وابن زيد، قالوا: هما سواء في البيوت والمنازل. وقال عبد الرحمن بن سابط: كان الحجّاج إذا قَدِموا مكة لم يكن أحد من أهل مكة بأحقّ بمنزله منهم. وكان عمر بن الخطاب ينهى الناس أن يغلقوا أبوابهم في الموسم وعلى هذا القول لا يجوز بيع دور مكة وإجارتها، وعلى القول الأول وهو الأقرب إلى الصواب يجوز لأن الله تعالى قال: ﴿ الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق ﴾ [الحج: ٤٠]، وقال النبي ﷺ يوم فتح مكة: «مَن دخل دار أبي سفيان فهو آمن»، فنسب الدار إليه نسب ملك، واشترى عمر داراً للسجن بمكة بأربعة آلاف درهم، فدلّ على جواز بيعها وهذا قول طاووس وعمر بن دينار وبه قال الشافعي. قوله عزّ وجلّ: ﴿ ومَن يُردْ فيه بإلحادٍ بظلم ﴾ أي: في المسجد الحرام وهو الميل إلى الظلم، والباء في قوله: ﴿ بإلحاد ﴾ زائدة كقوله: ﴿ تنبت بالدهن ﴾ [المؤمنون: ٢٠]، ومعناه مَن يرد فيه إلحاداً بظلم، قال

مكة وإجارتها وهو قول طاوس وعمرو بن دينار. وإليه ذهب الشافعي احتج الشافعي في ذلك قوله تعالى: «الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق». أضاف الديار إلى مالكيها وقال النبيّ ﷺ يوم فتح مكة: «من أغلق بابه فهو آمن ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن» فنسب الديار إليهم نسبة ملك واشترى عمر بن الخطاب دار السجن بأربعة آلاف درهم فدلت هذه النصوص على جواز بيعها وقوله تعالى ﴿ومن يرد فيه﴾ أي في المسجد الحرام ﴿بإلحاد بظلم﴾ أي يميل إلى الظلم قيل الإلحاد فيه هو الشرك وعبادة غير الله. وقيل: هو كل شيء كان منهياً عنه من قول أو فعل حتى شتم الخادم. وقيل هو دخول الحرم بغير إحرام أو ارتكاب شيء من محظورات الحرم من قتل صيد وقطع شجر. وقال ابن عباس: هو أن تقتل فيه من لا يقتلك أو تظلم فيه من لا يظلمك. وقال مجاهد: تضاعف السيئات بمكة كما تضاعف الحسنات وقيل: احتكار الطعام بمكة بدليل ما روى يعلى بن أمية أنّ رسول الله ﷺ قال: «إنّ احتكار الطعام في الحرم إلحاد فيه». أخرجه أبو داود وقال عبد الله بن مسعود في قوله ومن يرد فيه بإلحاد بظلم ﴿نذقه من عذاب أليم﴾ قال لو أنّ رجلاً همّ بخطيئة لم تكتب عليه ما لم يعملها ولو أنّ رجلاً همّ بقتل رجل بمكة وهو بعدن أبين أو ببلد آخر أذاقه الله من عذاب أليم. قال السدي: إلاّ أن يتوب. وروي عن عبدالله بن عمرو أنّه كان له فسطاطان أحدهما في الحل والآخر في الحرم فإذا أراد أن يعاتب أهله عاتبهم في الحل فسئل عن ذلك فقال كنا نحدث أن من الإلحاد فيه أن يقول الرجل كلا والله وبلى والله. قوله تعالى ﴿وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت﴾ قال ابن عباس: جعلنا وقيل وطأنا وقيل بينا وإنما ذكر مكان البيت لأن الكعبة رفعت إلى السماء زمن الطوفان فلما أمر الله تعالى إبراهيم عليه السلام ببناء البيت لم يدر أي جهة يبني فبعث الله تعالى ريحاً خجوجاً[1] فكنست له ما حول البيت عن الأساس وقيل بعث الله سحابة بقدر البيت

الأعشى: ضمنت برزق عيالنا أرماحنا، أي: رزق عيالنا. وأنكر المبرّد أن تكون الباء زائدة وقال: معنى الآية مَن تكن إرادته فيه بأن يلحد بظلم. واختلفوا في هذا الإلحاد فقال مجاهد وقتادة: هو الشرك وهو عبادة غير الله. وقال قوم: هو كل شيء كان منهيّاً عنه من قول أو فعل حتى شتم الخادم. وقال عطاء: هو دخول الحرم غير محرم أو ارتكاب شيء من محظورات الحرم من قتل صيد أو قطع شجر. وقال ابن عباس: هو أن تقتل فيه مَن لا يقتلك أو تظلم مَن لا يظلمك، وهذا معنى قول الضحاك. وعن مجاهد أنه قال: تضاعف السيئات بمكة كما تضاعف الحسنات. وقال حبيب بن أبي ثابت: وهو احتكار الطعام بمكة. وقال عبد الله بن مسعود في قوله تعالى: ﴿ وَمَن يُرِدْ فيه بإلحاد بظلم نُذِقْه من عذاب أليم ﴾، قال: لو أن رجلاً همّ بخطيئة لم تُكتَب عليه ما لم يعملها، ولو أن رجلاً همّ بقتل رجل بمكة وهو بعدن أبين أو ببلد آخر أذاقه الله من عذاب أليم. قال السدي: إلّا أن يتوب. ورُوِيَ عن عبد الله بن عمر أنه كان له فسطاطان أحدهما في الحلّ والآخر في الحرم، فإذا أراد أن يعاتب أهله عاتبهم في الآخر، فسُئِلَ عن ذلك فقال: كنّا نحدّث أن من الإلحاد فيه أن يقول الرجل كلا والله وبلى والله.

قوله تعالى: ﴿ وإذْ بوّأنا لإبراهيم مكان البيت ﴾، أي: وطّأنا. قال ابن عباس: وقيل: بينا. قال الزجّاج: جعلنا مكان البيت معبداً لإبراهيم. وقال مقاتل بن حيّان: هيّأنا. وإنما ذكر مكان البيت لأن الكعبة رفعت إلى السماء زمان الطوفان ثم لمّا أمر الله تعالى إبراهيم ببناء البيت لم يدرِ أين يبني فبعث الله ريحاً خجوجاً فكنّست له ما حول البيت على الأساس. وقال الكلبي: بعث الله سحابة بقدر البيت فقامت بحيال البيت وفيها رأس يتكلم يا إبراهيم ابنِ على قدري فبنى عليه. قوله تعالى: ﴿ أن لا تشرك بي شيئاً ﴾ أي: عهدنا إلى إبراهيم وقلنا له لا تشرك بي شيئاً، ﴿ وطهّر بيتيَ للطائفين ﴾، أي: الذين يطوفون بالبيت، ﴿ والقائمين ﴾ أي: المقيمين، ﴿ والرُّكّع السجود ﴾، أي: المصلّين.

---

(١) الخجوج للريح الشديد، المراد الملتوية في هبوبها كالخجوجات. اهـ قاموس.

فقامت بحيال البيت وفيها رأس يتكلم يا إبراهيم ابن على قدري فبنى عليه ﴿أن لا تشرك بي شيئاً﴾ أي عهدنا إلى إبراهيم وقلنا له: لا تشرك بي شيئاً ﴿وطهر بيتي﴾ أي من الشرك والأوثان والأقذار ﴿للطائفين﴾ أي الذين يطوفون بالبيت ﴿والقائمين﴾ أي المقيمين فيه ﴿والركع السجود﴾ أي المصلين. قوله عزّ وجلّ ﴿وأذن﴾ أي أعلم وناد، والأذان في اللغة الإعلام ﴿في الناس﴾ قال ابن عباس: أراد بالناس أهل القبلة ﴿بالحج﴾ فقال إبراهيم عليه السلام وما يبلغ صوتي فقال الله عليك الأذان وعلينا الإبلاغ فقام إبراهيم على المقام حتى صار كأطول الجبال وأدخل أصبعيه في أذنيه وأقبل بوجهه يميناً وشمالاً وشرقاً وغرباً وقال يا أيُّها الناس ألا إن ربكم قد بنى بيتاً وكتب عليكم الحج إلى البيت فأجيبوا ربكم فأجابه كل من يحج من أصلاب الآباء وأرحام الأمهات: لبيك اللهم لبيك. قال ابن عباس: فأول من أجابه أهل اليمن فهم أكثر الناس حجاً وروي أنّ إبراهيم صعد أبا قبيس ونادى. وزعم الحسن أن المأمور بالتأذين هو محمد صلّى الله عليه وسلّم أمر أن يفعل ذلك في حجة الوداع (م) عن أبي هريرة قال: «خطبنا رسول الله ﷺ فقال: يا أيُّها الناس قد فرض الله عليكم الحج فحجوا» ﴿يأتوك رجالاً﴾ أي مشاة على أرجلهم جمع راجل ﴿وعلى كل ضامر﴾ أي ركباناً على الإبل المهزولة من كثرة السير وبدأ بذكر المشاة تشريفاً لهم ﴿يأتين﴾ أي جماعة الإبل ﴿من كل فج عميق﴾ أي من كل طريق بعيد فمن أتى مكة حاجاً فكأنه قد أتى إبراهيم لأنه مجيب نداءه.

قوله تعالى ﴿ليشهدوا منافع لهم﴾ قيل العفو والمغفرة وقيل: التجارة وقال ابن عباس: الأسواق وقيل ما يرضى به الله من أمر الدنيا والآخرة ﴿ويذكروا اسم الله في أيام معلومات﴾ يعني عشر ذي الحجة في قول أكثر المفسرين قيل لها معلومات للحرص عليها من أجل وقت الحج في آخرها. وعن ابن عباس أنها أيام عرفة والنحر وأيام التشريق وقيل: إنها يوم النحر وثلاثة أيام بعده ﴿على ما رزقهم من بهيمة الأنعام﴾ يعني الهدايا والضحايا من النعم وهي الإبل والبقر والغنم وفيه دليل على أنّ الأيام المعلومات يوم النحر وأيام التشريق لأنه التسمية على بهيمة الأنعام عند نحرها

﴿ وأذنْ في الناس ﴾ أي: أعلم ونادي في الناس، ﴿ بالحج ﴾، فقال إبراهيم وما يبلغ صوتي؟ فقال: عليك الأذان وعلينا البلاغ، فقام إبراهيم على المقام فارتفع المقام حتى صار كأطول الجبال فأدخل أصبعيه في أُذنيه وأقبل بوجهه يميناً وشمالاً وشرقاً وغرباً وقال: يا أيها الناس ألا إن ربّكم قد بنى لكم بيتاً وكتب عليكم الحج إلى البيت فأجيبوا ربكم فأجابه كلّ مَن كان يحجّ من أصلاب الآباء وأرحام الأمهات: لبّيك اللّهمَّ لبيك، قال ابن عباس: فأول مَن أجابه أهل اليمن فهم أكثر الناس حجّاً. ورُوِيَ أن إبراهيم صعد أبا قبيس ونادى. وقال ابن عباس عنى بالناس في هذه الآية أهل القبلة وزعم الحسن أن قوله: ﴿ وأذّن في الناس بالحج ﴾ كلام مستأنف وإن المأمور بهذا التأذين محمد ﷺ أمر أن يفعل ذلك في حجّة الوداع. وروى أبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أيها الناس قد فُرض عليكم الحجّ فحجّوا». قوله تعالى: ﴿ يأتوك رجالاً ﴾، أي: مشاة على أرجلهم جمع راجل، مثل قائم وقيام وصائم وصيام، ﴿ وعلى كل ضامر ﴾، أي: ركباناً على كل ضامر، والضامر: البعير المهزول. ﴿ يأتينَ من كل فجٍّ عميق ﴾ أي: من كل طريق بعيد، وإنما جمع يأتين لمكان كل وارد النوق.

﴿ ليشهدوا ﴾، ليحضروا، ﴿ منافع لهم ﴾، قال سعيد بن المسيب ومحمد بن علي الباقر: العفو والمغفرة. وقال سعيد بن جبير: التجارة، وهي رواية ابن زيد عن ابن عباس، قال الأسواق. وقال مجاهد: التجارة وما يَرضى الله به من أمر الدنيا والآخرة. ﴿ ويذكروا اسم الله في أيام معلومات ﴾، يعني عشر ذي الحجة في قول أكثر المفسّرين. قيل: لها معلومات للحرص على علمها بحسابها من أجل وقت الحج في آخرها. ويُروى عن علي رضي الله عنه أنها يوم النحر وثلاثة أيام بعده، وفي رواية عطاء عن ابن عباس: أنها يوم عرفة والنحر وأيام التشريق وقال مقاتل: المعلومات أيام التشريق. ﴿ على ما رزقهم من بهيمة الأنعام ﴾، يعني الهدايا والضحايا تكون من

ونحر الهدايا يكون في هذه الأيام ﴿فكلوا منها﴾ أمر إباحة ليس بواجب وذلك أن أهل الجاهلية كانوا لا يأكلون من لحوم هداياهم شيئاً فأمر الله بمخالفتهم. واتفق العلماء على أن الهدي إذا كان تطوعاً يجوز للمهدي أن يأكل منه وكذلك أضحية التطوع لما روى عن جابر بن عبد الله في قصة تطوعاً يجوز للمهدي أن يأكل منه وكذلك أضحية التطوع لما روى عن جابر بن عبد الله في قصة حجة الوادع قال «وقدم علي ببدن من اليمن وساق رسول الله ﷺ مائة بدنة فنحر منها رسول الله ﷺ ثلاثاً وستين بدنة ونحر علي ما غبر وأشركه في بدنه ثم أمر من كل بدنة ببضعة فجعلت في قدر وطبخت فأكل من لحمها وشرب من مرقها» أخرجه مسلم قوله ما غبر أي ما بقي قوله ببضعة أي بقطعة. واختلف العلماء في الهدي الواجب بالشرع مثل دم التمتع والقرآن والدم الواجب بإفساد الحج وفوته وجزاء الصيد هل يجوز للمهدي أن يأكل منه شيئاً قال الشافعي: لا يأكل منه شيئاً وكذلك ما أوجبه على نفسه بالنذر وقال ابن عمر: لا يأكل من جزاء الصيد والنذر ويأكل مما سوى ذلك وبه قال أحمد وإسحاق. وقال مالك يأكل من هدي التمتع ومن كل هدي وجب عليه إلّا من فدية الأذى وجزاء الصيد والمنذور وعند إصحاب الرأي أنه يأكل من دم التمتع والقران ولا يأكل من واجب سواهما. وقوله تعالى ﴿وأطعموا البائس الفقير﴾ يعني الزمن الذي لا شيء له وقوله تعالى:

﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾﴾

﴿ثم ليقضوا تفثهم﴾ أي ليزيلوا أدرانهم وأوساخهم والمراد منه الخروج عن الإحرام بالحلق وقص الشارب

النِّعَم، وهي الإبل والبقر والغنم. واختار الزجّاج أن الأيام المعلومات يوم النحر وأيام التشريق لأن الذكر على بهيمة الأنعام يدلّ على التسمية على نحرها ونحر الهدايا يكون في هذه الأيام. ﴿ فكلوا منها ﴾ أمر إباحة وليس بواجب، وإنما قال ذلك لأن أهل الجاهلية كانوا لا يأكلون من لحوم هداياهم شيئاً واتفق العلماء على أن الهدي إذا كان تطوعاً يجوز للمهدي أن يأكل منه وكذلك أُضحية التطوع لِما أخبرنا أبو عبد الله محمد بن الفضل الخرقي أنا أبو الحسن علي بن عبد الله الطيسفوني أنا عبد الله بن عمر الجوهري أنا أحمد بن علي الكشمهيني أنا علي بن حجر أنا إسماعيل بن جعفر عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جابر بن عبد الله قال في قصة حجة الوداع: وقَدِمَ عليّ ببدن من اليمن وساق رسول الله ﷺ مائة بدنة فنحر منها رسول الله ﷺ ثلاث وستّين بدنة بيده ونحر عليّ ما بقي، ثم أمر النبي ﷺ أن تؤخذ بضعة من كل بدنة فتجعل في قدر فأكلا من لحمها وحَسِيا من مرقها. واختلفوا في الهدي الواجب بالشرع هل يجوز للمهدي أن يأكل منه شيئاً مثل دم التمتّع والقِرَان والدم الواجب بإفساد الحج وفواته وجزاء الصيد، فذهب قوم إلى أنه لا يجوز أن يأكل منه شيئاً وبه قال الشافعي، وكذلك ما أوجبه على نفسه بالنذر، وقال ابن عمر: لا يأكل من جزاء الصيد والنذر، ويأكل مما سوى ذلك، وبه قال أحمد وإسحاق، وقال مالك: يأكل من هدي التمتّع ومن كل هدي وجب عليه إلّا من فدية الأذى وجزاء الصيد والمنذور، وعند أصحاب الرأي يأكل من دم التمتّع والقِرَان ولا يأكل من واجب سواهما. قوله عزّ وجلّ: ﴿ وأطعموا البائسَ الفقير ﴾، يعني: الزَّمِن الفقير الذي لا شيء له والبائس الذي اشتدّ بؤسه، والبؤس شدّة الفقر.

﴿ ثمّ لْيَقْضُوا تفثهم ﴾، التفث الوسخ والقذارة من طول الشعر والأظفار والشعث، تقول العرب لمَن تستقذره: ما أتفثك أي ما أوسخك. والحاج أشعث أغبر أي: لم يحلق شعره ولم يقلّم ظفره فقضاء التفث إزالة هذه

ونتف الإبط وقلم الأظفار والاستحداد ولبس الثياب والحاج أشعث أغبر إذا لم يزل هذه الأوساخ. وقال ابن عمر وابن عباس: قضاء التفث مناسك الحج كلها ﴿وليوفوا نذورهم﴾ أراد نذر الحج والهدي وما ينذر الإنسان من شيء يكون في الحج أي ليتموها بقضائها. وقيل المراد منه الوفاء بما نذر وهو على ظاهره وقيل: أراد به الخروج عمّا وجب عليه نذره أو لم ينذره ﴿وليطوفوا بالبيت العتيق﴾ أراد به طواف الواجب وهو طواف الإفاضة ووقته يوم النحر بعد الرمي والحلق. والطواف ثلاثة طواف القدوم وهو أنّ من قدم مكة يطوف بالبيت سبعاً يرمل ثلاثاً من الحجر الأسود إلى أن ينتهي إليه ويمشي أربعاً وهذا الطواف سنة لا شيء على من تركه (ق) عن عائشة: «إن أول شيء بدأ به حين قدم النبيّ ﷺ أنه توضأ ثم طاف ثم لم تكن عمرة ثم حجّ أبو بكر وعمر مثله» (ق) عن ابن عمر «أنّ رسول الله ﷺ كان إذا طاف الطواف الأول خب ثلاثاً ومشى أربعاً». زاد في رواية «ثم يصلي ركعتين يعني بعد الطواف بالبيت ثم يطوف بين الصفا والمروة». ولفظ أبي داود «أن رسول الله ﷺ كان إذا طاف في الحج أو العمرة أول ما يقدم فإنه يسعى ثلاثة أشواط ويمشي أربعاً ثم يصلي سجدتين». والطواف الثاني هو طواف الإفاضة وذلك يوم النحر بعد الرمي والحلق (ق) عن عائشة قالت: «حاضت صفية ليلة النفر فقالت: ما أراني إلا حابستكم قال النبيّ صلّى الله عليه وسلّم عقرى حلقى أطافت يوم النحر قيل نعم قال فانفري». قوله عقرى وحلقى معناه عقرها الله أي أصابها بالعقر وبوجع في حلقها وقيل معناه مشئومة مؤذية ولم يرد به الدعاء عليها وإنّما هو شيء يجري على ألسنة العرب كقولهم: لا أم لك وتربت يمينك وفيه دليل على أن من لم يطف يوم النحر طواف الإفاضة لا يجوز له أن ينفر. الثالث طواف الوداع لا رخصة لمن أراد

الأشياء ليقضوا تفثهم، أي: ليزيلوا أدرانهم، والمراد منه الخروج عن الإحرام بالحلق وقصّ الشارب ونتف الإبط والاستحداد وقَلْم الأظفار ولبس الثياب. قال ابن عمر وابن عباس: قضاء التفث مناسك الحج كلها. وقال مجاهد: هو مناسك الحج وأخذ الشارب ونتف الإبط وحلق العانة وقَلْم الأظفار. وقيل: التفث هٰهنا رمي الجمار. قال الزجّاج: لا نعرف التفث ومعناه إلّا من القرآن. قوله تعالى: ﴿ وَلْيوفُوا نذورَهم ﴾، قال مجاهد: أراد نذر الحج والهدي وما ينذر الإنسان من شيء يكون في الحج أي: ليتمّوها بقضائها. وقيل: المراد منه الوفاء بما نذر على ظاهره. وقيل: أراد به الخروج عمّا وجب عليه نذراً ولم ينذر. والعرب تقول لكل مَن خرج عن الواجب عليه وَفّى بنذره. وقرأ عاصم برواية أبي بكر ﴿ وليوفوا ﴾ بنصب الواو وتشديد الفاء، ﴿ وَلْيَطَّوَفُوا بالبيت العتيق ﴾، أراد به الطواف الواجب عليه وهو طواف الإفاضة يوم النحر بعد الرمي والحلق، والطواف ثلاثة، طواف القدوم، وهو أن مَن قَدِمَ مكة يطوف بالبيت سبعاً يرمل ثلاثاً من الحجر الأسود إلى أن ينتهي إليه ويمشي أربعاً، وهذا الطواف سُنّة لا شيء على مَن تركه. أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا أحمد هو أبو عيسى أنا ابن وهب أنا عمرو بن الحارث عن محمد بن عبد الرحمن بن نوفل القرشي سأل عروة بن الزبير فقال: قد حجّ النبي ﷺ فأخبرتني عائشة أنه أول شيء بدأ به حين قَدِمَ أنه توضأ ثم طاف بالبيت ثم لم يكن عمرة ثم حجّ أبو بكر فكان أول شيء بدأ به الطواف بالبيت ثم لم يكن عمرة ثم عمر مثل ذلك، ثم حجّ عثمان فرأيته أول شيء بدأ به الطواف بالبيت. أخبرنا عبد الوهاب بن محمد الخطيب أنا عبد العزيز بن أحمد الخلال أنا أبو العباس الأصم أنا الربيع أنا الشافعي أنا أنس بن عياض عن موسى بن عقبة عن نافع عن ابن عمر عن رسول الله ﷺ أنه كان إذا طاف في الحج أو العمرة أول ما يقدم يسعى ثلاثة أطواف ويمشي أربعاً ثم يصلّي سجدتين ثم يطوف بين الصفا والمروة سبعاً والطواف الثاني هو طواف الإفاضة يوم النحر بعد الرمي والحَلْق، وهو واجب لا يحصل التحلّل من الإحرام ما لم يأتِ به. أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا عمر بن حفص ثنا أبي أنا الأعمش أنا إبراهيم عن الأسود عن عائشة قالت: حاضت صفيّة ليلة النفر فقالت: ما

مفارقة مكة إلى مسافة القصر في أن يفارقها حتى يطوف سبعاً فمن تركه فعليه دم إلا المرأة الحائض فإنه يجوز لها تركه للحديث المتقدم ولما روى ابن عباس قال «أمر الناس أن يكون الطواف آخر عهدهم بالبيت إلا أنه رخص للمرأة الحائض» متفق عليه. الرمل سنة تختص بطواف القدوم ولا رمل في طواف الإفاضة والوداع وقوله «بالبيت العتيق» قال ابن عباس وغيره سمي عتيقاً لأن الله أعتقه من أيدي الجبابرة أن يصلوا إلى تخريبه فلم يظهر عليه جبار قط، وقيل لأنه أول بيت وضع للناس وقيل لأن الله أعتقه من الغرق فإنه رفع أيام الطوفان وقيل لأنه لم يملك. قوله عزّ وجلّ ﴿**ذلك**﴾ أي الأمر ذلك يعني ما ذكر من أعمال الحج ﴿**ومن يعظم حرمات الله**﴾ أي ما نهى الله عنه من معاصيه وتعظيمها ترك ملابستها وقيل: حرمات الله ما لا يحل انتهاكه وقيل الحرمة ما وجب القيام به وحرم التفريط فيه وقيل: الحرمات هنا مناسك الحج وتعظيمها إقامتها وإتمامها وقيل الحرمات هنا البيت الحرام والبلد الحرام والمسجد الحرام والشهر الحرام ومعنى التعظيم العلم بأنه يجب القيام بمراعاتها وحفظ حرمتها ﴿**فهو خير له عند ربه**﴾ أي ثواب تعظيم الحرمات خير له عند الله في الآخرة ﴿**وأحلت لكم الأنعام**﴾ أي أن تأكلوها بعد الذبح وهي الإبل والبقر والغنم ﴿**إلا ما يتلى عليكم**﴾ أي تحريمه وهو قوله في سورة المائدة ﴿حرمت عليكم الميتة والدم﴾ الآية ﴿**فاجتنبوا الرجس من الأوثان**﴾ أي اتركوا عبادتها فإنها سبب الرجس وهو العذاب وقيل سمى الأوثان رجساً لأنّ عبادتها أعظم من التلوث بالنجاسات ﴿**واجتنبوا قول الزور**﴾ يعني الكذب والبهتان.

وقال ابن عباس: هي شهادة الزور وروي عن أيمن بن خريم قال: «إنّ النبيّ ﷺ قام خطيباً فقال أيها الناس

أراني إلّا حابستكم قال النبي ﷺ: «عقرى حلقى أطافت يوم النحر»؟ قيل: نعم، قال: «فانفري»، فثبت بها إنْ لم يطف يوم النحر طواف الإفاضة لا يجوز له أن ينفر، والطواف الثالث هو طواف الوداع لا رخصة فيه لمَن أراد مفارقة مكة إلى مسافة القصر أن يفارقها حتى يطوف بالبيت سبعاً فمَن تركه فعليه دم إلا المرأة الحائض يجوز لها ترك طواف الوداع. أخبرنا عبد الوهاب بن محمد الخطيب أنا عبد العزيز بن أحمد الخلال أنا أبو العباس الأصم أنا الربيع أنا الشافعي أنا سفيان عن سليمان الأحـول عن طاوس قال: أمر الناس أن يكون آخر عهدهم الطواف بالبيت إلّا أنه رخّصَ للمرأة الحائض. والرمل مختصٌّ بطواف القدوم ولا رمل في طواف الإفاضة والوداع. قوله: ﴿ بالبيت العتيق ﴾ واختلفوا في معنى العتيق، فقال ابن عباس وابن الزبير ومجاهد وقتادة: سُمّي عتيقاً لأن الله أعتقه من أيدي الجبابرة أن يصلوا إلى تخريبه، فلم يظهر عليه جبّار قطّ. وقال سفيان بن عُيَيْنَة: سُمّي عتيقاً لأنه لم يُملك قطُّ وقال الحسن وابن زيد: سُمّي به لأنه قديم وهو أول بيت وضع للناس، يقال دينار عتيق أي قديم، وقيل: سُمّي عتيق لأن الله أعتقه من الغرق فإنه رفع أيام الطوفان.

﴿ ذلك ﴾ أي: الأمر ذلك يعني ما ذكر من أعمال الحج، ﴿ ومَنْ يُعظّم حرماتِ الله ﴾، أي معاصي الله وما نهى عنه وتعظيمها ترك ملابستها. قال الليث: حرمات الله ما لا يحلّ انتهاكها. وقال الزجّاج: الحرمة ما وجب القيام به وحرم التفريط فيه، وذهب قوم إلى أن معنى الحرمات ههنا المناسك بدليل ما يتصل بها من الآيات. وقال ابن زيد: الحرمات ههنا البيت الحرام، والبلد الحرام والشهر الحرام والمسجد الحرام والإحرام. ﴿ فهو خير له عند ربّه ﴾، أي: تعظيم الحرمات، خير له عند الله في الآخرة، ﴿ وأُحلّتْ لكم الأنعامُ ﴾، أن تأكلوها إذا ذبحتموها وهي الإبل والبقر والغنم، ﴿ إلا ما يتلى عليكم ﴾، تحريمه وهو قوله في سورة [المائدة: ٣] ﴿ حُرِّمت عليكم الميتة والدم ﴾، الآية، ﴿ فاجتنبوا الرجس من الأوثان ﴾ أي: عبادتها يقول كونوا على جانب منها فإنها رجس، أي: سبب الرجس، وهو العذاب والرجس: بمعنى الرجز. وقال الزجّاج: ﴿ من ﴾ ههنا للتجنيس أي: اجتنبوا الأوثان التي هي رجس، ﴿ واجتنبوا قول الزور ﴾، يعني: الكذب والبهتان. وقال ابن مسعود: شهادة الزور،

عدلت شهادة الزور الإشراك بالله ثم قرأ رسول الله ﷺ: فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور» أخرجه الترمذي وقال قد اختلفوا في روايته ولا نعرف لأيمن سماعاً من النبيّ ﷺ وأخرجه أبو داود عن خريم بن فاتك بنحوه وقيل: هو قول المشركين في تلبيتهم لبيك لا شريك لك إلّا شريك هو لك تملكه وما ملك. قوله تعالى:

حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾

﴿حنفاء لله﴾ يعني مخلصين له ﴿غير مشركين به﴾ فدل ذلك على أن المكلف ينوي بما يأتيه من العبادة الإخلاص لله بها لا غيره وقيل كانوا في الشرك يحجون ويحرمون البنات والأمهات والأخوات وكانوا حنفاء فنزلت «حنفاء لله غير مشركين به» أي حجوا لله مسلمين موحدين ومن أشرك لا يكون حنيفاً ﴿ومن يشرك بالله فكأنّما خر﴾ أي سقط ﴿من السماء﴾ إلى الأرض ﴿فتخطفه الطير﴾ يعني تسلبه وتذهب به ﴿أو تهوي به الريح﴾ يعني تميل وتذهب به ﴿في مكان سحيق﴾ يعني بعيد. ومعنى الآية أنّ من أشرك بالله بعيد من الحق والإيمان كبعد من سقط من السماء فذهبت به الطير أو هوت به الريح فلا يصل إليه بحال وقيل شبه حال المشرك بحال الهاوي من السماء لأنه لا يملك

ورُوِيَ أن النبي ﷺ قام خطيباً فقال: «يا أيها الناس عدلت شهادة الزور الإشراك بالله»، ثم قرأ هذه الآية. وقيل: هو قول المشركين في تلبيتهم لبّيك لا شريك لك لبّيك إلّا شريكاً هو لك تملكه وما ملك.

﴿ حنفاء لله ﴾، مخلصين له، ﴿ غير مشركين به ﴾، قال قتادة: كانوا في الشرك يحجّون ويحرمون البنات والأمهات والأخوات وكانوا يُسمّون حنفاء، فنزلت: ﴿ حنفاء لله غير مشركين به ﴾ أي: حجّاجاً لله مسلمين موحدين يعني: مَنْ أشرك لا يكون حنيفاً. ﴿ ومَن يشرك بالله فكأنما خرّ ﴾، أي: سقط، ﴿ من السماء ﴾، إلى الأرض، ﴿ فتخطّفه الطير ﴾، أي: تستلبه الطير وتذهب به، والخطف والاختطاف تناول الشيء بسرعة، وقرأ أهل المدينة فتخطفه بفتح الخاء وتشديد الطاء، أي: يتخطفه، ﴿ أو تهوي به الريح ﴾، أي: تميل وتذهب به، ﴿ في مكان سحيق ﴾، أي: بعيد معناه أن بعد مَن أشرك بالحق كبعد مَن سقط من السماء فذهبت به الطير، أو هَوت به الريح، فلا يصل بحال. وقيل: شبّه حال المشرك بحال الهاوي من السماء في أنه لا يملك لنفسه حيلة حتى يقع بحيث تُسقطه الريح، فهو هالك لا محالة إما باستلاب الطير لحمه وإما بسقوطه إلى المكان السحيق، وقال الحسن: شبّه أعمال الكفّار بهذه الحال في أنها تذهب وتبطل فلا يقدرون على شيء منها.

﴿ ذلك ﴾، يعني: الذي ذكرت من اجتناب الرجس وقول الزور، ﴿ ومَن يعظّم شعائرَ الله فإنها من تقوى القلوب ﴾، قال ابن عباس: شعائر الله البُدْن والهدي وأصلها من الإشعار وهو إعلامها ليُعلم أنها هدي وتعظيمها استسمانها واستحسانها، وقيل: شعائر الله أعلام دينه فإنها من تقوى القلوب، أي: فإن تعظيمها من تقوى القلوب.

﴿ لكم فيها ﴾ أي: في البدن قبل تسميتها للهدي، ﴿ منافعُ ﴾، في درّها ونسلها وأصوافها وأوبارها وركوب ظهورها، ﴿ إلى أجل مسمى ﴾، وهو أن يسمّيها ويوجبها هدياً فإذا فعل ذلك لم يكن له شيء من منافعها، هذا قول مجاهد، وقول قتادة والضحاك، ورواهمقسم عن ابن عباس. وقيل: معناه لكم في الهدايا منافع بعد إيجابها وتسميتها هدياً بأن تركبوها وتشربوا ألبانها عند الحاجة إلى أجل مسمى، يعني إلى أن تنحروها وهو قول عطاء بن أبي رباح

لنفسه حيلة حتى يقع حيث تسقط الريح فهو هالك لا محالة. إما باستلاب الطير لحمه أو بسقوطه في المكان السحيق. وقيل معنى الآية من أشرك بالله فقد أهلك نفسه إهلاكاً ليس وراءه إهلاك بأن صور حاله بصورة حال من خر من السماء فاختطفته الطير ففرقت أجزاءه في حواصلها أو عصفت به الريح حتى هوت به في بعض المهالك البعيدة. وقيل شبه الإيمان بالسماء في علوه والذي ترك الإيمان بالساقط من السماء والأهواء التي توزع أفكاره بالطير المختطفة والشياطين التي تطرحه في وادي الضلالة بالريح التي تهوي بما عصفت به في بعض المهاوي المتلفة. قوله عزّ وجلّ **﴿ذلك﴾** يعني الذي ذكر من اجتناب الرجس وقول الزور **﴿ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب﴾** يعني تعظيم شعائر الله من تقوى القلوب قال ابن عباس: شعائر الله البدن والهدي وأصلها من الإشعار، وهو العلامة التي يعرف بها أنها هدى وتعظيمها استسمانها واستحسانها وقيل شعائر الله أعلام دينه وتعظيمها من تقوى القلوب **﴿لكم فيها﴾** أي في البدن **﴿منافع﴾** قيل هي درها ونسلها وصوفها ووبرها وركوب ظهرها **﴿إلى أجل مسمى﴾** أي إلى أن يسميها ويوجبها هدياً فإذا فعل ذلك لم يكن له شيء من منافعها. وهو قول مجاهد وقتادة والضحّاك ورواية عن ابن عباس وقيل معناه لكم في الهدايا منافع بعد إيجابها وتسميتها هدايا بأن تركبوها وتشربوا من ألبانها عند الحاجة إلى أجل مسمى يعني إلى أن تنحروها وهو قول عطاء. واختلف العلماء في ركوب الهدي فقال مالك والشافعي وأحمد وإسحاق: يجوز ركوبها والحمل عليها من غير ضرر بها لما روي عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ رأى رجلاً يسوق بدنة فقال: «اركبها فقال يا رسول الله إنّها بدنة فقال: اركبها ويلك في الثانية أو الثالثة». أخرجاه في الصحيحين. وكذلك يجوز له أن يشرب من لبنها بعد ما يفضل عن ري ولدها. وقال أصحاب الرأي: لا يركبها إلاّ أن يضطر إليه وقيل أراد بالشعائر المناسك ومشاهدة مكة لكم فيها منافع يعني بالتجارة والأسواق **﴿إلى أجل مسمى﴾** يعني إلى الخروج من مكة وقيل **﴿لكم فيها منافع﴾** يعني بالأجر والثواب في قضاء المناسك إلى انقضاء أيام الحج **﴿ثم محلها إلى البيت العتيق﴾** يعني منحرها عند البيت العتيق يريد به جميع أرض الحرم. وروي عن جابر في حديث حجة الوداع أنّ رسول الله ﷺ قال «نحرت

واختلف أهل العلم في ركوب الهدي، فقال قوم: يجوز له ركوبها والحمل عليها غير مضرٍّ بها، وهو قول مالك والشافعي وأحمد وإسحاق، لِما أخبرنا أبو الحسن السرخسي أنا أبو علي زاهر بن أحمد أنا أبو إسحاق الهاشمي أنا أبو مصعب عن مالك عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ رأى رجلاً يسوق بدنة فقال: «اركبها»، فقال إنها بدنة، قال: «اركبها»، فقال إنها بدنة، قال: «اركبها ويلك في الثانية أو الثالثة»، وكذلك قال له: «اشرب لبنها بعدما فضل عن رَيِّ ولدها». وقال أصحاب الرأي: لا يركبها. وقال قوم: لا يركبها إلا أن يضطر إليه. وقال بعضهم: أراد بالشعائر المناسك ومشاهدة مكة، لكم فيها منافع بالتجارة والأسواق إلى أجل مسمى وهو الخروج من مكة. وقيل: لكم فيها منافع بالأجر والثواب في قضاء المناسك إلى أجلٍ مسمى، أي: إلى انقضاء أيام الحج، ﴿ ثم مَحِلُّها ﴾ أي: منحرها، ﴿ إلى البيت العتيق ﴾ أي: منحرها عند البيت العتيق، يريد أرض الحرم كلها، كما قال: ﴿ فلا يقربوا المسجد الحرام ﴾ [التوبة: ٢٨] أي: الحرم كله. ورُوِيَ عن جابر في قصة حجة الوداع أن رسول الله ﷺ قال: «نحرتُ ههنا ومِنًى كلها منحر فانحروا في رحالكم» ومَن قال الشعائر المناسك قال: معنى قوله: ﴿ ثم محلها إلى البيت العتيق ﴾ أي: محل الناس من إحرامهم إلى البيت العتيق، أي: أن يطوفوا به طواف الزيارة يوم النحر.

قال الله تعالى: ﴿ **ولكل أمة** ﴾، يعني جماعة مؤمنة سلفت قبلكم، ﴿ **جعلنا مَنْسَكاً** ﴾، قرأ حمزة والكسائي بكسر السين ههنا وفي آخر السورة، على معنى الاسم مثل المسجد والمطلع، يعني مذبحاً وهو موضع القربان، وقرأ الآخرون بفتح السين على المصدر، مثل المدخل والمخرج يعني إراقة الدماء وذبح القرابين، ﴿ **ليذكروا اسم**

ها هنا ومنًى كلها منحر فانحروا في رحالكم» ومن قال الشعائر المناسك قال معنى ثم محلها يعني محل الناس من إحرامهم إلى البيت العتيق يطوفون به طواف الزيارة. قوله تعالى ﴿ولكل أمة﴾ يعني جماعة مؤمنة سلفت قبلكم ﴿جعلنا منسكاً﴾ قرىء بكسر السين يعني مذبحاً وهو موضع القربان منسكاً بفتح السين وهو إراقة الدم وذبح القرابين ﴿ليذكروا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الأنعام﴾ يعني عند ذبحها ونحرها سماها بهيمة لأنها لا تتكلم وقيد بالأنعام لأن ما سواها لا يجوز ذبحه في القرابين وإن جاز أكله. قوله عزّ وجلّ ﴿فإلهكم إله واحد﴾ يعني سموا على الذبح اسم الله وحده فإنّ إلهكم إله واحد ﴿فله أسلموا﴾ يعني أخلصوا وانقادوا وأطيعوا ﴿وبشر المخبتين﴾ قال ابن عباس: المتواضعين وقيل المطمئنين إلى الله وقيل الخاشعين الرقيقة قلوبهم وقيل هم الذين لا يظلمون وإذا ظلموا لا ينتصرون ثم وصفهم فقال تعالى:

﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾﴾

﴿الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم﴾ يعني خافت من عقاب الله فيظهر عليها الخشوع والتواضع لله تعالى ﴿والصابرين على ما أصابهم﴾ يعني من البلاء والمرض والمصائب ونحو ذلك مما كان من الله تعالى وما كان من غير الله فله أن يصبر عليه وله أن ينتصر لنفسه ﴿والمقيمي الصلاة﴾ يعني في أوقاتها محافظة عليها ﴿ومما رزقناهم ينفقون﴾ يعني يتصدّقون. قوله تعالى ﴿والبدن﴾ جمع بدنة سميت بدنة لعظمها وضخامتها، يريد الإبل الصحاح

الله على ما رزقهم من بهيمة الأنعام﴾، عند نحرها وذبحها وسمّاها بهيمة لأنها لا تتكلم، وقال: ﴿بهيمة الأنعام﴾ وقيّدها بالنَّعم لأن من البهائم ما ليس من الأنعام كالخيل والبِغال والحمير، لا يجوز ذبحها في القرابين. ﴿فإلهكم إلهٌ واحدٌ﴾، أي: سمّوا على الذبائح اسم الله وحده فإن إلهكم إله واحد، ﴿فله أسلِمُوا﴾، انقادوا وأطيعوا، ﴿وبشِّرِ المخبتين﴾، قال ابن عباس وقتادة: المتواضعين. وقال مجاهد: المطمئنين إلى الله عزّ وجلّ، والخبت المكان المطمئن من الأرض. وقال الأخفش: الخاشعين. وقال النخعي: المخلصين. وقال الكلبي: هم الرقيقة قلوبهم. وقال عمر بن أوس: هم الذين لا يظلمون وإذا ظلموا لم يقتصروا.

﴿الذين إذا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قلوبُهم والصابرين على ما أصابهم﴾، من البلاء والمصائب، ﴿والمقيمي الصلاة﴾، أي: المقيمين للصلاة في أوقاتها، ﴿ومما رزقناهم ينفقون﴾، أي: يتصدقون.

﴿والبُدْنَ﴾، جمع بدنة سُمِّيت بدنة لعظمها وضخامتها يريد الإبل العِظام الصِحاح الأجسام، يقال بَدُنَ الرجل بدناً وبدانةً إذا ضخم، فأما إذا أسنّ واسترخى يقال بدن تبديناً. قال عطاء والسدي: البُدن والبقر أما الغنم فلا

الأجسام والبقر ولا تسمى الغنم بدنة لصغرها ﴿جعلناها لكم من شعائر الله﴾ يعني من أعلام دينه قيل لأنها تشعر وهو أن تطعن بحديدة في سنامها فيعلم بذلك أنها هدي ﴿لكم فيها خير﴾ يعني نفع في الدنيا وثواب في العقبى ﴿فاذكروا اسم الله عليها﴾ يعني عند نحرها ﴿صواف﴾ يعني قياماً على ثلاث قوائم قد صفت رجليها ويدها اليمنى والأخرى معقولة فينحرها كذلك (ق) عن زياد بن جبير قال: «رأيت ابن عمر أتى على رجل قد أناخ بدنة ينحرها قال ابعثها قياماً مقيدة سنّة محمد ﷺ» ﴿فإذا وجبت جنوبها﴾ يعني سقطت بعد النحر ووقع جنبها على الأرض ﴿فكلوا منها﴾ أمر إباحة ﴿وأطعموا القانع والمعتر﴾ قيل القانع الجالس في بيته المتعفف يقنع بما يعطى ولا يسأل. والمعتر هو الذي يسأل وعن ابن عباس القانع هو الذي لا يسأل ولا يتعرض. وقيل: القانع هو الذي يسأل والمعتر هو الذي يريك نفسه ويتعرض ولا يسأل وقيل القانع المسكين والمعتر الذي ليس بمسكين ولا تكون له ذبيحة يجيء إلى القوم فيتعرض لهم لأجل لحمهم ﴿كذلك﴾ يعني مثل ما وصفنا من نحرها قياماً ﴿سخرناها لكم﴾ يعني لتتمكنوا من نحرها ﴿لعلكم تشكرون﴾ يعني إنعام الله عليكم ﴿لن ينال الله لحومها ولا دماؤها﴾ وذلك أن أهل الجاهلية كانوا إذا نحروا البدن لطخوا الكعبة بدمائها يزعمون أن ذلك قربة إلى الله تعالى فأنزل الله ﴿لن ينال الله لحومها ولا دماؤها﴾ يعني لن ترفع

تسمى بدنة. ﴿جعلناها لكم من شعائر الله﴾، من أعلام دينه، سُمّيت شعائر لأنها تشعر، وهو أن تُطعَن بحديدة في سنامها فيعلم أنها هدي، ﴿ لكم فيها خير ﴾، النفع في الدنيا والأجْر في العقبى، ﴿ فاذكروا اسمَ اللَّهِ عليها ﴾. أي: عند نحرها، ﴿ صوافّ ﴾، أي: قياماً على ثلاث قوائم قد صُفّت رجليها وإحدى يديها ويدها اليسرى معقولة فينحرها كذلك، أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا عبد الله بن مسلمة أنا يزيد بن زريع عن يونس عن زياد بن جبير قال: رأيت ابن عمر أتى على رجل قد أناخ بدنة ينحرها، قال: ابعثها قياماً مقيّدة سُنّة محمد ﷺ. وقال مجاهد: الصواف إذا عقلت رجلها اليسرى وقامت على ثلاث قوائم، وقرأ ابن مسعود «صوافن» وهي أن تعقل منها وتنحر على ثلاث، وهو مثل صواف وقرأ أُبيّ والحسن ومجاهد (صــوافي) باليـاء أي صافية خالصة لله لا شريك له فيها، ﴿ فإذا وَجَبَتْ جُنُوبُها ﴾، يعني: سقطت بعد النحر فوقعت جنوبها على الأرض، وأصل الوجوب: الوقوع. يقال: وجبت الشمس إذا سقطت للمغيب، ﴿ فكلوا منها ﴾، أمر إباحة، ﴿ وأطعِمُوا القانِعَ والمُعْتَرَّ ﴾، اختلفوا في معناهما، فقال عكرمة وإبراهيم وقتادة: القانع الجالس في بيته المتعفّف يقنع بما يُعطى ولا يسأل، والمعترّ الذي يسأل. وروى العوفي عن ابن عباس: القانع الذي لا يعترض ولا يسأل، والمعترّ الذي يُريك نفسه ويعترض ولا يسأل، فعلى هذين التأويلين يكون القانع من القناعة يقال قنع قناعة إذ رضي بما قُسم له. وقال سعيد بن جبير والحسن والكلبي: القانع الذي يسأل والمعترّ الذي يتعرّض ولا يسأل، فيكون القانع من قنع يقنع قنوعاً إذا سأل. وقرأ الحسن (والمعتــري) وهــو مثل المعترّ، يقال: عره واعتره وعراه واعتراه إذ أتى يطلب معروفه، إمّا سؤالاً وإمّا تعرّضاً. وقال ابن زيد: القانع المسكين، والمعترّ الذي ليس بمسكين، ولا يكون له ذبيحة يجيء إلى القوم فيتعرّض لهم لأجل لحمهم. ﴿ كذلك ﴾ يعني: مثل ما وصفنا من نحرها قياماً، ﴿ سخّرناها لكم ﴾، نعمة منّا لتتمكّنوا من نحرها، ﴿ لعلّكم تشكرون ﴾، لكي تشكروا أنعامي عليكم.

﴿ لنْ ينالَ اللَّهَ لحومُها ولا دماؤُها ﴾، وذلك أن الجاهلية كانوا إذا نحروا البدن لطخوا الكعبة بدمائها قربة إلى الله فأنزل الله هذه الآية: ﴿ لنْ ينال الله لحومُها ولا دماؤُها ﴾ قرأ يعقوب (تنال وتناله) بالتاء فيهما، وقرأ العامّة بالياء، قال مقاتل لن يُرفع إلى الله لحومُها ولا دماؤُها، ﴿ ولكن يناله التقوى منكم ﴾، ولكن تُرفع إليه منكم الأعمال الصالحة والتقوى، والإخلاص ما أُريد به وجه الله، ﴿ كذلك سخّرها لكم ﴾، يعني: البدن، ﴿ لتكبِّروا الله على ما

إلى الله لحومها ولا دماؤها ﴿ولكن يناله التقوى منكم﴾ يعني ولكن ترفع إليه الأعمال الصالحة والإخلاص وهو ما أريد به وجه الله ﴿كذلك سخرها لكم﴾ يعني البدن ﴿لتكبروا الله على ما هداكم﴾ وأرشدكم لمعالم دينه ومناسك حجه وهو أن يقول الله: أكبر على ما هدانا والحمد لله على ما أولانا ﴿وبشر المحسنين﴾ قال ابن عباس الموحدين.

قوله تعالى ﴿إنّ الله يدافع عن الذين آمنوا﴾ أي يدفع غائلة المشركين عن المؤمنين ويمنعهم منهم وينصرهم عليهم ﴿إنّ الله لا يحب كل خوان كفور﴾ أي خوان في أمانة الله كفور لنعمته. قال ابن عباس: خانوا الله فجعلوا منه شريكاً وكفروا نعمه. وقيل من تقرّب إلى الأصنام بذبيحته وسمى غير الله عليها فهو خوان كفور. قوله عزّ وجلّ ﴿أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا﴾ أي أذن الله لهم بالجهاد ليقاتلوا المشركين قال المفسرون كان مشركوا أهل مكة يؤذون أصحاب رسول الله ﷺ فلا يزالون يجيئون من بين مضروب ومشجوج ويشكون ذلك إلى رسول الله ﷺ فيقول لهم: «اصبروا فإني لم أومر بقتال» حتى هاجر رسول الله ﷺ فأنزل الله تعالى هذه الآية وهي أول آية أذن الله فيها بالقتال. وقيل نزلت هذه الآية في قوم بأعيانهم خرجوا مهاجرين من مكة إلى المدينة فاعترضهم مشركو مكة فأذن الله لهم في قتال الكفار الذين يمنعون من الهجرة بأنهم ظلموا أي بسبب ما ظلموا واعتدوا عليهم بالإيذاء ﴿وإن الله على نصرهم لقدير﴾ فيه وعد من الله بنصر المؤمنين ثم وصفهم. فقال تعالى ﴿الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله﴾ يعني أنهم أخرجوا بغير موجب سوى التوحيد الذي ينبغي أن يكون موجب الإقرار والتعظيم والتمكين لا موجب الإخراج ﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض﴾ أي بالجهاد وإقامة الحدود ﴿لهدمت صوامع﴾ هي معابد الرهبان

هداكم﴾، أرشدكم لمعالم دينه ومناسك حجّه، وهو أن يقول: الله أكبر على ما هدانا والحمد لله على ما أبلانا وأولانا، ﴿وبشّر المحسنين﴾، قال ابن عباس: الموحدين.

قوله تعالى: ﴿إنّ الله يدافع عن الذين آمنوا﴾، قرأ ابن كثير وأهل البصرة «يدفع»، وقرأ الآخرون ﴿يدافع﴾ بالألف يريد يدفع غائلة المشركين عن المؤمنين ويمنعهم عن المؤمنين. ﴿إنّ الله لا يُحبُّ كلَّ خوّانٍ كفور﴾، يعني: خوان في أمانة الله كفور لنعمته، قال ابن عباس: خانوا الله فجعلوا معه شريكاً وكفروا نِعَمه. قال الزجّاج: مَن تقرّب إلى الأصنام بذبيحته وذكر عليها اسم غير الله فهو خوّان كفور.

﴿أُذِنَ﴾، قرأ أهل المدينة والبصرة وعاصم أذن بضم الألف والباقون بفتحها، أي: أذن الله، ﴿للذين يُقاتَلُون﴾، قرأ أهل المدينة وابن عامر وحفص ﴿يقاتلون﴾ بفتح التاء يعني المؤمنين الذين يقاتلهم المشركون، وقرأ الآخرون بكسر التاء يعني الذين أذن لهم بالجهاد ﴿يقاتلون﴾ المشركين، قال المفسّرون: كان مشركو أهل مكة يؤذون أصحاب رسول الله ﷺ فلا يزالون محزونين من بين مضروب ومشجوج، ويشكون ذلك إلى رسول الله ﷺ، فيقول لهم: «اصبروا فإني لم أُومر بالقتال» حتى هاجر رسول الله ﷺ فأنزل الله عزّ وجلّ هذه الآية، وهي أول آية أَذِنَ الله فيها بالقتال، فنزلت هذه الآية بالمدينة. وقال مقاتل: نزلت هذه الآية في قوم بأعيانهم خرجوا مهاجرين من مكة إلى المدينة. فكانوا يمنعون فأذِنَ اللَّهُ لهم في قتال الكفّار الذين يمنعونهم من الهجرة، ﴿بأنهم ظلموا﴾، يعني: بسبب ما ظلموا واعتدوا عليهم بالإيذاء، ﴿وإنّ الله على نصرهم لقدير﴾.

﴿الذين أُخرِجُوا من ديارهم بغير حق﴾، بدل من الذين الأولى ﴿إلّا أن يقولوا ربُّنا الله﴾، يعني: لم يخرجوا من ديارهم إلّا لقولهم ربنا الله وحده، ﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض﴾، بالجهاد وإقامة الحدود، ﴿لهُدِّمت﴾، قرأ أهل المدينة بتخفيف الدال وقرأ الآخرون بالتشديد على التكثير فالتخفيف يكون للتقليل والتكثير والتشديد يختصّ بالتكثير، ﴿صَوَامِعُ﴾، قال مجاهد والضحاك: يعني: صوامع الرهبان. وقال قتادة:

المتخذة في الصحراء ﴿وبيع﴾ هي معابد النصارى في البلد وقيل الصوامع للصابئين والبيع للنصارى ﴿وصلوات﴾ هي كنائس اليهود ويسمونها بالعبرانية صلوتاً ﴿ومساجد﴾ يعني مساجد المسلمين ﴿يذكر فيها اسم الله كثيراً﴾ يعني في المساجد. ومعنى الآية ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدم في شريعة كل نبي مكان صلواتهم فهدم في زمن موسى الكنائس وفي زمن عيسى البيع والصوامع وفي زمن محمد ﷺ المساجد ﴿ولينصرن الله من ينصره﴾ أي ينصر دينه ونبيه ﴿إنّ الله لقوي﴾ أي على نصر من ينصر دينه ﴿عزيز﴾ أي لا يضام ولا يمنع مما يريده. قوله عزّ وجلّ:

﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ ۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ ۖ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ ۚ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾﴾

﴿الذين إن مكناهم في الأرض﴾ أي نصرناهم على عدوهم تمكنوا من البلاد ﴿أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر﴾ هذا وصف أصحاب محمد ﷺ وقيل: هم جميع هذه الأمة وقيل هم المهاجرون وهو الأصح لأنه قوله «الذين إن مكناهم» صفة لمن تقدم ذكرهم وهو قوله «الذين أخرجوا من ديارهم» وهم المهاجرون ﴿ولله عاقبة الأمور﴾ أي آخر أمور الخلق مصيرها إليه وذلك أنه يبطل فيها كل ملك سوى ملكه فتصير الأمور إليه بلا منازع. قوله تعالى ﴿وإن يكذبوك﴾ فيه تسلية وتعزية للنبيّ ﷺ والمعنى وإن كذبك قومك ﴿فقد كذبت قبلهم قوم نوح و عاد وثمود وقوم إبراهيم وقوم لوط وأصحاب مدين وكذب موسى﴾ فإن قلت لم قال وكذب موسى ولم يقل وقوم

صوامع الصابئن، ﴿ وبيَع ﴾، يعني: بيع النصارى جمع بيعة وهي كنيسة النصارى، ﴿ وصلوات ﴾، يعني كنائس اليهود ويسمّونها بالعبرانية صلوتا، ﴿ ومساجد يُذكرُ فيها اسم الله كثيراً ﴾، يعني مساجد المسلمين من أمة محمد ﷺ، ومعنى الآية ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدم في شريعة كل نبي مكان صلاتهم، لهدم في زمن موسى الكنائس، وفي زمن عيسى البِيَع والصوامع، وفي زمن محمد ﷺ المساجد. وقال ابن زيد: أراد بالصلوات صلوات أهل الإسلام فإنها لا تنقطع إذا دخل العدو عليهم. ﴿ ولينصرنّ اللّهُ مَن ينصره ﴾، يعني: ينصر دينه ونبيّه، ﴿ إنّ الله لقوي عزيز ﴾.

﴿ الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ﴾، قال الزجّاج: هذا من صفة ناصريه ومعنى مكنّاهم نصرناهم على عدوّهم حتى يتمكّنوا في البلاد قال هم أصحاب محمد ﷺ. قال الحسن: هذه الأمة ﴿ ولله عاقبة الأمور ﴾، يعني: آخر أمور الخلق ومصيرهم إليه يعني يبطل كل ملك سوى ملكه فتصير الأمور إليه بلا منازع ولا مدّعٍ.

قوله تعالى: ﴿ وإن يكذبوك ﴾، يعزّي نبيّه ﷺ، ﴿ فقد كذّبت قبلهم قومُ نوحٍ وعادٌ وثمودُ ﴾.

﴿ وقومُ إبراهيمَ وقومُ لوطٍ ﴾.

موسى؟. قلت فيه وجهان أحدهما: أن موسى لم يكذبه قومه وهم بنو إسرائيل وإنما كذبه غير قومه وهو القبط الثاني: كأنه قيل بعد ما ذكرت تكذيب كل قوم رسولهم قال وكذب موسى أيضاً مع وضوح آياته وعظم معجزاته فما ظنك بغيره ﴿**فأمليت للكافرين**﴾ أي أمهلتهم وأخرت العقوبة عنهم ﴿**ثم أخذتهم**﴾ أي عاقبتهم ﴿**فكيف كان نكير**﴾ أي إنكاري عليهم ما فعلوا من التكذيب بالعذاب والهلاك يخوف به من خالف رسول الله ﷺ وكذبه. قوله عزّ وجلّ ﴿**فكأين من قرية أهلكتها**﴾ وقرىء أهلكناها على التعظيم ﴿**وهي ظالمة**﴾ أي وأهلها ظالمون ﴿**فهي خاوية**﴾ أي ساقطة ﴿**على عروشها**﴾ أي على سقوفها ﴿**وبئر معطلة**﴾ أي وكم من بئر معطلة أي متروكة مخلاة عن أهلها ﴿**وقصر مشيد**﴾ أي رفيع طويل عال وقيل مجصص وقيل إن البئر المعطلة والقصر المشيد باليمن. أما القصر فعلى قمة جبل والبئر في سفحه ولكل واحد منهما قوم كانوا في نعمة فكفروا فأهلكهم الله وبقي البئر والقصر خاليين. وقيل إن هذه البئر كانت بحضرموت في بلدة يقال لها: حاضوراء وذلك أن أربعة آلاف نفر ممن آمن بصالح عليه السلام لما نجوا من العذاب أتوا إلى حضرموت ومعهم صالح فلما حضروه مات صالح فسمي المكان حضرموت. لذلك ولما مات صالح بنو حاضوراء وقعدوا على هذه البئر وأمروا عليهم رجلاً منهم فأقاموا دهراً وتناسلوا حتى كثروا وعبدوا الأصنام وكفروا فأرسل الله تعالى إليهم نبياً يقال له حنظلة بن صفوان. وكان حمالاً فيهم فقتلوه في السوق فأهلكهم الله وعطلت بئرهم وخرب قصرهم. قوله تعالى ﴿**أفلم يسيروا في الأرض**﴾ يعني كفار مكة فينظروا إلى مصارع المكذبين من الأمم الخالية ﴿**فتكون لهم قلوب يعقلون بها**﴾ أي يعلمون بها ﴿**أو آذان يسمعون بها**﴾ يعني ما يذكر لهم من أخبار القرون

﴿ **وأصحاب مَدْيَنَ وكُذِّب موسى، فأمليتُ للكافرين** ﴾، يعني: أمهلتهم وأخّرت عقوبتهم، ﴿ **ثم أخذتُهم** ﴾، عاقبتُهم، ﴿ **فكيف كان نكير** ﴾، يعني: إنكاري، أي: كيف أنكرت عليهم ما فعلوا من التكذيب بالعذاب والهلاك يخوّف به مَن يُخالِفُ النبيَّ ﷺ ويكذبه.

﴿ **فكأيِّن** ﴾، فكم ﴿ **من قريةٍ أهلكتها** ﴾، بالتاء، هكذا قرأ أهل البصرة ويعقوب، وقرأ الآخرون ﴿ **أهلكناها** ﴾ بالنون والألف على التعظيم، ﴿ **وهي ظالمة** ﴾، يعني: وأهلها ظالمون، ﴿ **فهي خاوية** ﴾ ساقطة ﴿ **على عروشها** ﴾، على سقوفها، ﴿ **وبئرٍ مُعَطَّلةٍ** ﴾: يعني وكم من بئر معطّلة متروكة مخلاة عن أهلها ﴿ **وقصرٍ مَشِيْدٍ** ﴾، قال قتادة والضحاك ومقاتل: رفيع طويل، من قولهم شاد بناءه إذا رفعه. وقال سعيد بن جبير ومجاهد وعطاء: مجصّص من مشيد، وهو الجص. وقيل: إن البئر المعطّلة والقصر المشيّد باليمن أما القصر فعلى قلّة جبل والبئر في سفحه، ولكل واحد منهما قوم كانوا في نعمة فكفروا فأهلكهم الله، وبقي البئر والقصر خاليين. وروى أبو روق عن الضحاك: أن هذه البئر كانت بحضرموت في بلدة يقال لها حاضوراء، وذلك أن أربعة آلاف نفر ممّن آمن بصالح نجوا من العذاب أتوا حضرموت ومعهم صالح فلما حضروه مات صالح، فسمي حضرموت لأن صالحاً لمّا حضره مات فبنوا حاضوراء وقعدوا على هذه البئر وأمّروا عليهم رجلاً فأقاموا دهراً وتناسلوا حتى كثروا، ثم إنّهم عبدوا الأصنام وكفروا فأرسل الله عليهم نبيّاً يقال له حنظلة بن صفوان كان حمّالاً فيهم فقتلوه في السوق فأهلكهم الله وعطّلت بئرهم وخربت قصورهم.

﴿ **أفلم يسيروا في الأرض** ﴾، يعني: كفّار مكة فينظروا إلى مصارع المكذبين من الأمم الخالية، ﴿ **فتكونَ لهم قلوبٌ يعقلون بها أو آذانٌ يسمعون بها** ﴾، يعني: ما يذكر لهم من أخبار القرون الماضية فيعتبرون بها، ﴿ **فإنها** ﴾، الهاء عماد، ﴿ **لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور** ﴾، ذكر التي في الصدور تأكيداً كقوله: ﴿ يطير بجناحيه ﴾ [الأنعام: ٣٨] معناه أن العمى الضارّ هو عمى القلب، فأمّا عمى البصر فليس بضارٍّ في

الماضية فيعتبرون بها ﴿**فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور**﴾ المعنى أن عمى القلب هو الضار في أمر الدين لا عمى البصر لأن البصر الظاهر بلغة ومتعة وبصر القلوب النافع ﴿**ويستعجلونك بالعذاب**﴾ نزلت في النضر بن الحارث ﴿**ولن يخلف الله وعده**﴾ أي إنه أنجز ذلك يوم بدر ﴿**وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون**﴾ قال ابن عباس: يعني يوماً من الأيام الستة التي خلق الله فيها السموات والأرض. وقيل يوماً من أيام الآخرة يدل عليه ما روي عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ «أبشروا يا معشر صعاليك المهاجرين بالنور التام يوم القيامة تدخلون الجنة قبل أغنياء الناس بنصف يوم وذلك مقدار خمسمائة سنة» أخرجه أبو داود بزيادة فيه وأخرج الترمذي نحوه ومعنى الآية أنهم يستعجلون بالعذاب وإن يوماً من أيام عذابهم في الآخرة كألف سنة. وقيل إن يوماً من أيام العذاب في الثقل والاستطالة كألف سنة فكيف يستعجلونه وقيل معناه أن يوماً عنده وألف سنة في الإمهال سواء لأنه قادر متى شاء أخذهم لا يفوته شيء بالتأخير فيستوي في قدرته وقوع ما يستعجلونه من العذاب وتأخيره وهذا معنى قول ابن عباس.

وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٥١﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾

﴿**وكأين من قرية أمليت لها**﴾ يعني أمهلتها ﴿**وهي ظالمة**﴾ يعني مع استمرار أهلها على الظلم ﴿**ثم أخذتها**﴾

أمر الدين، قال قتادة: البصر الظاهر بلغة ومتعة وبصر القلب هو البصر النافع.

﴿ **ويستعجلونك بالعذاب** ﴾، نزلت في النضر بن الحارث حيث قال: إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء. ﴿ **ولن يخلف الله وعده** ﴾، فأنجز ذلك يوم بدر. ﴿ **وإنَّ يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدّون** ﴾، قرأ ابن كثير وحمزة والكسائي يعدّون بالياء ههنا لقوله: ﴿ **يستعجلونك** ﴾، وقرأ الباقون بالتاء لأنه أعمّ لأنه خطاب للمستعجلين والمؤمنين واتفقوا في تنزيل السجدة [٥] أنه بالتاء، قال ابن عباس: يعني يوماً من الأيام الستّة التي خلق الله فيها السمٰوات والأرض. وقال مجاهد وعكرمة: يوماً من أيام الآخرة، والدليل عليه ما رُوِيَ عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «أبشروا يا معاشر صعاليك المهاجرين بالنور التامّ يوم القيامة تدخلون الجنة قبل أغنياء الناس بنصف، يوم وذلك مقدار خمسمائة سنة» قال ابن زيد: ﴿ **وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدّون** ﴾ هذه أيام الآخرة. وقوله: ﴿ مقداره خمسين ألف سنة ﴾ [المعارج: ٤] ﴿ مما تعدّون ﴾ [السجدة: ٥] يوم القيامة. والمعنى على هذا أنهم يستعجلون بالعذاب، وإن يوماً من أيام عذابهم في الآخرة ألف سنة. وقيل: معناه وإن يوماً من أيام العذاب الذي استعجلوه في الثقل والاستطالة والشدّة كألف سنة مما تعدّون، فكيف تستعجلونه هذا؟ كما يقال: أيام الهموم طوال، وأيام السرور قِصار. وقيل: معناه إن يوماً عنده وألف سنة في الإمهال سواء لأنه قادر متى شاء أخذهم لا يفوتُه شيء بالتأخير فيستوي في قدرته وقوع ما يستعجلون به من العذاب وتأخّره، وهذا معنى قول ابن عباس في رواية عطاء.

﴿ **وكأيِّن من قرية أمليتُ لها** ﴾، يعني أمهلتها، ﴿ **وهي ظالمة ثم أخذتها وإليّ المصير** ﴾.

يعني أنزلت بهم العذاب ﴿وإلي المصير﴾ يعني مصيرهم إلي في الآخرة ففيه وعيد وتهديد. قوله عزّ وجلّ ﴿**قل يا أيها الناس إنما أنا لكم نذير مبين**﴾ أمر رسول الله أن يديم لهم التخويف والإنذار وأن يقول لهم إنما بعثت لكم منذراً ﴿**فالذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة ورزق كريم**﴾ لما أمر الله الرسول ﷺ بأن يقول «إنما أنا نذير مبين» أردف ذلك بأن أمره بوعد من آمن ووعيد من عصى فقال «فالذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة» يعني ستر لصغائر ذنوبهم وقيل للكبائر أيضاً مع التوبة ورزق كريم يعني لا ينقطع أبداً وقيل هو الجنة ﴿**والذين سعوا في آياتنا**﴾ يعني عملوا في إبطال آياتنا ﴿**معاجزين**﴾ يعني مثبطين الناس عن الإيمان وقرىء معاجزين يعني معاندين مشاقين وقيل معناه ظانين ومقدرين أنهم يعجزوننا ويفوتوننا فلا نقدر عليهم بزعمهم أن لا بعث ولا نشور ولا جنة ولا نار ﴿**أولئك أصحاب الجحيم**﴾ قوله تعالى ﴿**وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته**﴾ قال ابن عباس وغيره من المفسرين: لما رأى رسول الله ﷺ تولي قومه عنه وشق عليه ما رأى من مباعدتهم عما جاءهم به من الله تعالى تمنى في نفسه أن يأتيه من الله ما يقارب بينه وبين قومه لحرصه على إيمانهم فكان يوماً في مجلس لقريش فأنزل الله عزّ وجلّ سورة والنجم فقرأها رسول الله ﷺ حتى بلغ «أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى» ألقى الشيطان على لسانه ما كان يحدث به نفسه ويتمناه تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتهن لترتجى. فلما سمعت قريش ذلك فرحوا به ومضى رسول الله ﷺ في قراءته فقرأ السورة كلها وسجد في آخرها وسجد المسلمون بسجوده وسجد جميع من في المسجد من المشركين فلم يبق في المسجد مؤمن ولا كافر إلا سجد غير الوليد بن المغيرة وأبي أحيحة سعيد بن العاص فإنهما أخذا حفنة من البطحاء ورفعاها إلى جبهتهما وسجدا عليها لأنهما كانا شيخين كبيرين فلم يستطيعا السجود وتفرقت قريش وقد سرّهم ما سمعوا من ذكر آلهتهم ويقولون قد ذكر محمد آلهتنا بأحسن الذكر وقالوا: قد عرفنا أن الله يحيي ويميت ويرزق ولكن آلهتنا هذه تشفع لنا عنده فإن جعل لها محمد نصيباً فنحن معه فلما

﴿ **قلْ يا أيها الناس إنّما أنا لكم نذير مبين** ﴾.

﴿ **فالذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة ورزق كريم** ﴾، الرزق الكريم الذي لا ينقطع أبداً. وقيل: هو الجنة.

﴿ **والذين سعوا في آياتنا** ﴾، يعني عملوا في إبطال آياتنا، ﴿ **معاجزين** ﴾، قرأ ابن كثير وأبو عمرو (معجّزين) بالتشديد ههنا وفي سورة سبأ [٥] يعني مثبطين الناس عن الإيمان، وقرأ الآخرونِ ﴿**معاجزين**﴾ بالألف يعني معاندين مشاقّين. وقال قتادة: معناه ظانّين ومقدّرين أنهم يعجزوننا بزعمهم أن لا بعث ولا نشور ولا جنة ولا نار، ومعنى يعجزوننا أي يفوتوننا فلا نقدر عليهم. وهذا كقوله تعالى: ﴿ أمْ حسَبَ الذين يعملون السيئات أن يسبقونا ﴾ [العنكبوت: ٤]، ﴿ **أولئك أصحاب الجحيم** ﴾، وقيل: معاجزين مغالبين يريد كل واحد أن يُظهر عجز بصاحبه.

قوله تعالى: ﴿ **وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلّا إذا تمنّى الشيطان في أُمنيته** ﴾، الآية. قال ابن عباس ومحمد بن كعب القرظي وغيرهما من المفسّرين: لمّا رأى رسول الله ﷺ توليَ قومه عنه وشقّ عليه ما رأى من مباعدتهم عمّا جاءهم به من الله تمنّى في نفسه أن يأتيه من الله ما يقارب بينه وبين قومه لحرصه على إيمانهم، فكان يوماً في مجلس لقريش فأنزل الله تعالى سورة والنجم فقرأها رسول الله ﷺ حتى بلغ قوله: ﴿ أفرأيتم اللاّت والعزّى ومناة الثالثة الأخرى ﴾ [النجم: ١٩ و٢٠] ألقى الشيطان على لسانه بما كان يحدّث به نفسه ويتمناه: تلك الغرانيق العلى وإنّ شفاعتهنّ لتُرتجى فلما سمعت قريش ذلك فرحوا به ومضى رسول الله ﷺ في قراءته، فقرأ السورة كلها وسجد في آخر السورة فسجد المسلمون بسجوده وسجد جميع مَن في المسجد من المشركين، فلم يبقَ في المسجد مؤمن ولا كافر إلّا سجد إلّا الوليد بن المغيرة وأبو أُحيحة سعيد بن العاص فإنهما أخذا حفنة من البطحاء ورفعاها

أمسى رسول الله ﷺ أتاه جبريل فقال: يا محمد ماذا صنعت؟ لقد تلوت على الناس ما لم آتك به عن الله تعالى فحزن رسول الله ﷺ حزناً شديداً وخاف من الله تعالى خوفاً كبيراً فأنزل الله تعالى هذه الآية يعزيه وكان به رحيماً وسمع بذلك من كان بأرض الحبشة من أصحاب النبيّ ﷺ. وبلغهم سجود قريش وقيل قد أسلمت قريش وأهل مكة فرجع أكثرهم إلى عشائرهم وقالوا: هم أحب إلينا حتى إذا دنوا من مكة بلغهم أن الذي كانوا يحدثوا به من إسلام أهل مكة كان باطلاً فلم يدخل أحد منهم إلاّ بجوار أو مستخفياً. فلما نزلت هذه الآية قالت قريش: ندم محمد على ما ذكر من منزلة آلهتنا عند الله فغير ذلك وكان الحرفان اللذان ألقى الشيطان على لسان رسول الله ﷺ قد وقعا في فم كل مشرك فازدادوا شراً إلى ما كانوا عليه وشدة على من أسلم وقوله ﴿**وما أرسلنا من قبلك من رسول**﴾ الرسول هو الذي يأتيه جبريل بالوحي عياناً ﴿**ولا نبي**﴾ النبي هو الذي تكون نبوته إلهاماً، أو مناماً فكل رسول نبي وليس كل نبي رسولاً إلا إذا تمنى يعني أحب شيئاً واشتهاه وحدث به نفسه مما لم يؤمر به ﴿**ألقى الشيطان في أمنيته**﴾ يعني في مراده وقال ابن عباس: إذا حدّث ألقى الشيطان في حديثه ووجد إليه سبيلاً. والمعنى ما من نبي «إلا تمنى» أن يؤمن قومه ولم يتمن ذلك نبي إلا ألقى الشيطان عليه ما يرضى قومه فينسخ الله ما يلقي الشيطان. وقال أكثر المفسرين معنى تمنى قرأ وتلا كتاب الله ألقى الشيطان في أمنيته يعني في تلاوته قال حسان في عثمان حين قتل:

تمنى كتاب الله أول ليلة وآخرها لاقى حمام المقادر

فإن قلت: قد قامت الدلائل على صدقة وأجمعت الأمة فيما كان طريقه البلاغ أنه معصوم فيه من الإخبار عن شيء منه بخلاف ما هو به لا قصداً ولا عمداً ولا سهواً ولا غلطاً قال الله تعالى: ﴿**وما ينطق عن الهوى**﴾ وقال تعالى: ﴿**لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد**﴾ فكيف يجوز الغلط على النبيّ ﷺ في التلاوة وهو معصوم منه؟. قلت ذكر العلماء عن هذا الإشكال أجوبة: أحدها: توهين أصل هذه القصة وذلك أنه لم يروها أحد من

إلى جبهتيهما وسجدا عليها لأنهما كانا شيخين كبيرين فلم يستطيعا السجود، وتفرقت قريش وقد سرّهم ما سمعوا من ذكر آلهتهم ويقولون قد ذكر محمد آلهتنا بأحسن الذكر، وقالوا قد عرفنا أن الله يحيي ويميت ويخلق ويرزق ولكن آلهتنا هذه تشفع لنا عنده، فإن جعل لها محمد نصيباً فنحن معه، فلما أمسى رسول الله ﷺ أتاه جبريل فقال: يا محمد ماذا صنعت لقد تلوت على الناس ما لم آتك به عن الله عزّ وجلّ فحزن رسول الله ﷺ حزناً شديداً وخاف من الله خوفاً كثيراً فأنزل الله هذه الآية يعزّيه وكان به رحيماً، وسمع بذلك مَن كان بأرض الحبشة من أصحاب النبي ﷺ وبلغهم سجود قريش. وقيل: أسلمت قريش وأهل مكة فرجع أكثرهم إلى عشائرهم، وقالوا: هم أحبّ إلينا حتى إذا دنوا من مكة بلغهم أن الذي كانوا يحدثونه من إسلام أهل مكة كان باطلاً فلم يدخل أحد إلاّ بجوار أو مستخفياً فلما نزلت هذه الآية قالت قريش: ندم محمد على ما ذكر من منزلة آلهتنا عند الله فغيّر ذلك وكان الحرفان اللذان ألقى الشيطان على لسان رسول الله ﷺ قد وقعا في فم كل مشرك فازدادوا شرّاً إلى ما كانوا عليه، وشدّة على مَن أسلم، قال الله تعالى: ﴿ **وما أرسلنا من قبلك من رسول** ﴾ وهو الذي يأتيه جبريل بالوحي عياناً، ولا نبي، وهو الذي يكون نبوّته إلهاماً أو مناماً، وكل رسول نبي، وليس كل نبي رسولاً. إلاّ إذا تمنى، قال بعضهم: أي: أحب شيئاً واشتهاه وحدّث به نفسه مما لم يؤمر به ألقى الشيطان في أمنيته يعني مراده. وعن ابن عباس قال: إذا حدّث ألقى الشيطان في حديثه ما وجد إليه سبيلاً، وما من نبي إلاّ تمنى أن يؤمن به قومه ولم يتمنى ذلك نبي إلاّ ألقى الشيطان عليه ما يرضى به قومه فينسخ الله ما يلقي الشيطان. وأكثر المفسّرين قالوا: معنى قوله: ﴿ **تمنى** ﴾ يعني تلا وقرأ كتاب الله تعالى ألقى الشيطان في أُمنيته يعني في تلاوته، قال الشاعر في عثمان حين قتل:

تمنّى كتـابَ الله أوّلَ ليلةٍ وآخرها لاقى حمامَ المقادر

أهل الصحة ولا أسندها ثقة بسند صحيح أو سليم متصل وإنما رواها المفسرون والمؤرخون المولعون بكل غريب الملفقون من الصحف كل صحيح وسقيم والذي يدل على ضعيف هذه القصة اضطراب رواتها وانقطاع سندها واختلاف ألفاظها فقائل يقول إنّ النبيّ ﷺ كان في الصلاة وآخر يقول قرأها وهو في نادي قومه وآخر يقول قرأها وقد أصابته سنة وآخر يقول بل حدث نفسه بها فجرى ذلك على لسانه وآخر يقول إن الشيطان قالها على لسان النبيّ ﷺ وإن النبي ﷺ لمّا عرضها على جبريل قال ما هكذا أقرأتك إلى غير ذلك من اختلاف ألفاظها والذي جاء في الصحيح من حديث عبد الله بن مسعود أن النبيّ ﷺ قرأ والنجم فسجد فيها وسجد من كان معه غير أن شيخاً من قريش أخذ كفاً من حصى أو تراب فرفعه إلى جبهته قال عبد الله فلقد رأيته بعد قتل كافراً». أخرجه البخاري ومسلم وصح من حديث ابن عباس أن رسول الله ﷺ «سجد بالنجم وسجد معه المسلمون والمشركون والجن والإنس». رواه البخاري فهذا الذي جاء في الصحيح لم يذكر فيه أن النبيّ ﷺ ذكر تلك الألفاظ ولا قرأها والذي ذكره المفسرون عن ابن عباس في هذه القصة. فقد رواه عنه الكلبي وهو ضعيف جداً فهذا توهين هذه القصة الجواب الثاني: وهو من حيث المعنى هو أنّ الحجة قد قامت بالدليل الصحيح وإجماع الأمة على عصمة النبيّ ﷺ ونزاهته عن مثل هذه الرذيلة وهو تمنيه أن ينزل عليه مدح إله غير الله أو أن يتسور عليه الشيطان ويشبه القرآن حتى يجعل فيه ما ليس منه حتى نبهه جبريل عن ذلك فهذا كله ممتنع في حقه ﷺ قال الله عزّ وجلّ «ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين». الآية الجواب الثالث: في تسليم وقوع هذه القصة وسبب سجود الكفار أن النبيّ ﷺ كان إذا قرأ يرتل القرآن ترتيلاً ويفصل الآي تفصيلاً كما صح عنه في قراءته فيحتمل أن الشيطان ترصد لتلك السكنات فدس فيها ما اختلقه من تلك الكلمات محاكياً لصوت النبيّ ﷺ، فسمعه من دنا منه من الكفار فظنوها من قول النبيّ ﷺ فسجدوا معه لسجوده فأما المسلمون فلم يقدح ذلك عندهم لتحققهم من حال النبيّ ﷺ ذم الأوثان وعيبها وإنهم كانوا يحفظون السورة كما أولها الله عزّ وجلّ الجواب الرابع: في تحقيق تفسير الآية وقد تقدم أنّ التمني يكون بمعنى حديث النفس وبمعنى التلاوة فعلى الأول: يكون معنى قوله ﴿إلاّ إذا تمنى﴾ أي خطر بباله وتمنى بقلبه بعض الأمور ولا يبعد أنه إذا قوي التمني اشتغل الخاطر فحصل السهو في الأفعال الظاهرة وعلى الثاني: وهو تفسير التمني بالتلاوة فيكون معنى قوله «إلا إذا تمنى» أي تلا وهو ما يقع للنبيّ ﷺ من السهو في إسقاط آية أو آيات أو كلمة أو نحو ذلك ولكنه لا يقر على هذا السهو بل ينبه عليه ويذكر به للوقت والحين كما صح في الحديث «لقد أذكرني كذا كذا آية كنت أنسيتها من سورة كذا» وحاصل هذا أن الغرض من هذه الآية أن الأنبياء والرسل وإن عصمهم الله عن الخطأ في العلم فلم يعصمهم من جواز السهو عليهم بل حالهم في ذلك كحال سائر البشر والله تعالى أعلم. قوله عزّ وجلّ **﴿فينسخ الله ما يلقي الشيطان﴾** أي يبطله ويذهبه **﴿ثم يحكم الله آياته﴾** أي يثبتها **﴿والله عليم حكيم﴾** قوله عزّ وجلّ **﴿ليجعل ما يلقي الشيطان فتنة﴾** أي

واختلفوا في أنه هل كان يقرأ في الصلاة أو في غير الصلاة، فقال قوم: كان يقرأ في الصلاة. وقال قوم: كان يقرأ في غير الصلاة. فإن قيل كيف يجوز الغلط في التلاوة على النبي ﷺ وكان معصوماً من الغلط في أصل الدين وقال جلّ ذكره في القرآن: ﴿ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ﴾ [فصّلت: ٤٢] يعني إبليس؟ قيل: قد اختلف الناس في الجواب عنه فقال بعضهم: إن الرسول ﷺ لم يقرأ ولكن الشيطان ذكر ذلك بين قراءته فظن المشركون أن الرسول ﷺ قرأه وقرّأه. وقال قتادة: أُغفي النبي ﷺ إغفاءةً فجرى ذلك على لسانه بإلقاء الشيطان ولم يكن له خبر، والأكثرون قالوا: جرى ذلك على لسانه بإلقاء الشيطان على سبيل السهو والنسيان ولم يلبث أن نبّهه الله عليه وقيل: إن شيطاناً يقال له أبيض عمل هذا العمل، وكان ذلك فتنة ومحنة من الله تعالى والله تعالى يمتحن عباده بما يشاء **﴿ فينسخ الله ما يلقي الشيطان ﴾** أي: يُبطله ويُذهِبه، **﴿ ثم يُحكم الله آياته ﴾**، فيثبتها، **﴿ والله عليم حكيم ليجعل ما يلقي الشيطان فتنة ﴾**، أي: محنة وبليّة، **﴿ للذين في قلوبهم مرض ﴾**، شك ونفاق،

محنة وبلية والله تعالى يمتحن عباده بما يشاء ﴿للذين في قلوبهم مرض﴾ أي شك ونفاق ﴿والقاسية قلوبهم﴾ أي الجافية قلوبهم عن قبول الحق وهم المشركون ﴿وإن الظالمين لفي شقاق بعيد﴾ أي في خلاف شديد.

وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓا۟ أَوْ مَاتُوا۟ لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٥٨﴾

﴿وليعلم الذين أوتوا العلم﴾ أي التوحيد والقرآن والتصديق ينسخ الله ما يشاء ﴿أنه الحق من ربك﴾ أي الذي أحكم الله من آيات القرآن هو الحق من ربك ﴿فيؤمنوا به﴾ أي يعتقدوا أنه من الله عزّ وجلّ ﴿فتخبت له قلوبهم﴾ أي تسكن إليه ﴿وإن الله لهادي الذين آمنوا إلى صراط مستقيم﴾ أي إلى طريق قويم وهو الإسلام. قوله عزّ وجلّ ﴿ولا يزال الذين كفروا في مرية منه﴾ أي في شك من القرآن وقيل من الدين الذي هو صراط مستقيم ﴿حتى تأتيهم الساعة بغتة﴾ أي فجأة وقيل أراد بالساعة الموت ﴿أو يأتيهم عذاب يوم عقيم﴾ أي عذاب يوم لا ليلة له وهو يوم القيامة وقيل هو يوم بدر سمي عقيماً لأنه لم يكن في ذلك اليوم للكفار خير كالريح العقيم لا تأتي بخير وقيل لأنه لا مثل له في عظم أمره لقتال الملائكة فيه ﴿الملك يومئذ﴾ يعني يوم القيامة ﴿لله﴾ وحده من غير منازع ولا مشارك فيه ﴿يحكم﴾ أي يفصل ﴿بينهم﴾ ثم بين ذلك الحكم فقال تعالى ﴿فالذين آمنوا وعملوا الصالحات في جنات النعيم والذين كفروا

﴿ والقاسية ﴾، يعني: الجافية، ﴿ قلوبهم ﴾، عن قبول الحق وهم المشركون، وذلك أنهم افتتنوا لمّا سمعوا ذلك، ثم نُسخ ورفع فازدادوا عُتوّاً، وظنوا أن محمداً يقوله من تلقاء نفسه ثم يندم فيبطل، ﴿ وإنّ الظالمين ﴾، المشركين، ﴿ لفي شقاق ﴾، ضلال، ﴿ بعيد ﴾ أي: في خلاف شديد.

﴿ وليعلم الذين أُوتوا العلم ﴾، التوحيد والقرآن. وقال السدي: التصديق بنسخ الله تعالى، ﴿ أنه ﴾، يعني: الذي أحكم الله من آيات القرآن هو ﴿ الحق من ربك فيؤمنوا به ﴾، أي: يعتقدوا أنه من الله، ﴿ فتخبت له قلوبهم ﴾، يعني: فتسكن إليه قلوبهم، ﴿ وإنّ الله لهادي الذين آمنوا إلى صراط مستقيم ﴾، أي: طريق قويم هو الإسلام.

﴿ ولا يزال الذين كفروا في مرية منه ﴾، يعني في شكٍّ مما ألقى الشيطان على لسان رسول الله ﷺ يقولون: ما باله ذكرها بخير ثم ارتدّ عنها. وقال ابن جريج: منه أي من القرآن. وقيل: من الدين وهو الصراط المستقيم. ﴿ حتى تأتيهم الساعةُ بغتةً ﴾، يعني: القيامة. وقيل: الموت، ﴿ أو يأتيهم عذابُ يوم عقيم ﴾، قال الضحاك وعكرمة: عذاب يوم لا ليلة له وهو يوم القيامة. والأكثرون على أن اليوم العقيم يوم بدر لأنه ذكر الساعة من قبل وهو يوم القيامة. وسُمّي يوم بدر عقيماً لأنه لم يكن في ذلك اليوم للكفّار خير، كالريح العقيم التي لا تأتي بغير سحاب ولا مطر، والعقم في اللغة: المنع، يقال: رجل عقيم إذا مُنِع من الولد، وقيل: لأنه لا مثل له في عظم أمره لقتال الملائكة فيه. وقال ابن جريج: لأنهم لم يُنظروا فيه إلى الليل حتى قتلوا قبل المساء.

﴿ الملك يومئذ ﴾، يعني يوم القيامة، ﴿ لله ﴾، من غير منازع، ﴿ يحكم بينهم ﴾، ثم بيّن الحكم، فقال

وكذبوا بآياتنا فأولئك لهم عذاب مهين﴾. قوله تعالى ﴿والذين هاجروا في سبيل الله﴾ أي فارقوا أوطانهم وعشائرهم في طاعة الله وطلب رضاه ﴿ثم قتلوا أو ماتوا ليرزقنهم الله رزقاً حسناً﴾ أي لا ينقطع أبداً وهو رزق الجنة لأنه فيها ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين ﴿وإن الله لهو خير الرازقين﴾ فإن قلت الرازق في الحقيقة هو الله عزّ وجلّ لا رازق للخلق غيره فكيف قال وإن الله لهو خير الرازقين. قلت قد يسمى غير الله رازقاً على المجاز كقوله رزق السلطان الجند أي أعطاهم أرزاقهم وإن الرزاق في الحقيقة هو الله تعالى وقيل لأنه الله تعالى يعطي الرزق ما لا يقدر عليه غيره.

لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾ ۞ ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا
عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى
ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ
مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً
فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ
ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن
تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ
يُحْيِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ ۖ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِى ٱلْأَمْرِ ۚ وَٱدْعُ
إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾ وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾ ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ
ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ
إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن
نَّصِيرٍ ﴿٧١﴾

﴿ليدخلنهم مدخلاً يرضونه﴾ يعني الجنة يكرمون به ولا ينالهم فيه مكروه ﴿وإن الله لعليم﴾ بنياتهم ﴿حليم﴾ بالعفو عنهم. قوله عزّ وجلّ ﴿ذلك﴾ أي الأمر ذلك الذي قصصنا عليك ﴿ومن عاقب بمثل ما عوقب به﴾ يعني جازى الظالم بمثل ظلمه وقيل يعني قاتل المشركين كما قاتلوه ﴿ثم بغى عليه﴾ يعني ظلم بإخراجه من منزله يعني ما أتاه

تعالى: ﴿ فالذين آمنوا وعملوا الصالحات في جنات النعيم ﴾.

﴿ والذين كفروا وكذبوا بآياتنا فأولئك لهم عذاب مهين ﴾.

﴿ والذين هاجروا في سبيل الله ﴾، فارقوا أوطانهم وعشائرهم في طاعة الله وطلب رضاه، ﴿ ثم قتلوا أو ماتوا ﴾، وهم كذلك، قرأ ابن عامر ﴿ قتلوا ﴾ بالتشديد ﴿ ليرزقنّهم الله رزقاً حسناً ﴾، والرزق الحسن الذي لا ينقطع أبداً وهو رزق الجنة، ﴿ وإنّ الله لهو خير الرازقين ﴾، قيل: هو قوله: ﴿ بل أحياء عند ربهم يُرزقون ﴾ [آل عمران: ١٦٩].

﴿ ليدخلنّهم مُدْخلاً يرضونه ﴾، لأن لهم فيه ما تشتهيه الأنفس وتلذّ الأعين، ﴿ وإن الله لعليم ﴾، بنيّاتهم، ﴿ حليم ﴾، عنهم.

المشركون من البغي على المسلمين حتى أحوجوهم إلى مفارقة أوطانهم نزلت في قوم من المشركين أتوا قوماً من المسلمين لليلتين بقيتا في المحرم فكره المسلمون قتالهم وسألوهم أن يكفوا عن القتال من أجل الشهر الحرام فأبى المشركون وقاتلوهم فذلك بغيهم عليهم وثبت المسلمون فنصرهم الله عليهم فذلك قوله تعالى ﴿**لينصرنه الله إنّ الله لعفو**﴾ يعني عن مساوي المؤمنين ﴿**غفور**﴾ يعني لذنوبهم ﴿**ذلك**﴾ يعني ذلك النصر ﴿**بأن الله**﴾ القادر على ما يشاء فمن قدرته أنه ﴿**يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل**﴾ في معنى هذا الإيلاج قولان، أحدهما: أنه يجعل ظلمة الليل مكان ضياء النهار وذلك بغيبوبة الشمس ويجعل ضياء النهار مكان ظلمة الليل بطلوع الشمس. القول الثاني: هو ما يزيد في أحدهما وينقص من الآخر من الساعات وذلك لا يقدر عليه إلا الله تعالى ﴿**وأن الله سميع بصير ذلك بأن الله هو الحق**﴾ أي ذو الحق في قوله وفعله، ودينه حق وعبادته حق ﴿**وأن ما يدعون**﴾ يعني المشركين ﴿**من دونه هو الباطل**﴾ يعني الأصنام التي ليس عندها ضر ولا نفع ﴿**وأن الله هو العلي**﴾ أي العالي على كل شيء ﴿**الكبير**﴾ أي العظيم في قدرته وسلطانه. قوله عزّ وجلّ ﴿**ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة**﴾ يعني بالنبات ﴿**إن الله لطيف**﴾ يعني باستخراج النبات من الأرض رزقاً للعباد والحيوان ﴿**خبير**﴾ يعني بما في قلوب العباد إذا تأخر المطر عنهم ﴿**له ما في السموات وما في الأرض**﴾ يعني عبيداً وملكاً ﴿**وإن الله لهو الغني الحميد**﴾ يعني الغني عن عباده الحميد في أفعاله ﴿**ألم تر أنّ الله سخر لكم ما في الأرض**﴾ يعني الدواب التي تركب في البر ﴿**والفلك**﴾ أي وسخر لكم السفن ﴿**تجري في البحر بأمره**﴾ يعني سخر لها الماء والرياح ولولا ذلك ما جرت ﴿**ويمسك السماء أن تقع**﴾ أي

﴿ **ذلك** ﴾، يعني: الأمر ذلك الذي قصصنا عليكم، ﴿ **ومَن عاقب بمثل ما عُوقِبَ به** ﴾، جازى الظالم بمثل ظلمه. قال الحسن: يعني قاتل المشركين كما قاتلوه، ﴿ **ثم بُغِيَ عليه** ﴾، يعني ظلم بإخراجه من منزله يعني، ما آتاه المشركون من البغي على المسلمين حتى أحوجوهم إلى مفارقة أوطانهم، نزلت في قوم من المشركين أتوا قوماً من المسلمين لليلتين بقيتا من المحرّم فكره المسلمون قتالهم وسألوهم أن يكفّوا عن القتال من أجل الشهر الحرام فأبى المشركون وقاتلوهم فذلك بغيهم عليهم، وثبت المسلمون لهم فنُصروا عليهم، قال الله تعالى: ﴿ **لَيَنصرنّه اللّهُ** ﴾، والعقاب الأول بمعنى الجزاء، ﴿ **إنّ الله لعفوّ غفور** ﴾، عفا عن مساوىء المؤمنين وغفر لهم ذنوبهم.

﴿ **ذلك** ﴾ يعني ذلك النصر ﴿ **بأن الله** ﴾، القادر على ما يشاء فمن قدرته أنه، ﴿ **يُولج الليلَ في النهار ويُولج النهارَ في الليل وأن الله سميع بصير** ﴾.

﴿ **ذلك بأن الله هو الحقُّ وإنّ ما يدعون** ﴾، قرأ أهل البصرة وحمزة والكسائي وحفص بالياء وقرأ الآخرون بالتاء، يعني المشركين، ﴿ **من دونه هو الباطل وأنّ الله هو العليُّ** ﴾، العالي على كل شيء، ﴿ **الكبير** ﴾، العظيم الذي كل شيء دونه.

﴿ **ألم ترَ أن الله أنزل من السماء ماءً فتصبحُ الأرضُ مخضرّةً** ﴾، بالنبات، ﴿ **إنّ اللّهَ لطيفٌ** ﴾، بأرزاق عباده واستخرج النبات من الأرض، ﴿ **خبير** ﴾، بما في قلوب العباد إذا تأخّر المطر عنهم.

﴿ **له ما في السمٰوات وما في الأرض** ﴾، عبيداً ومُلْكاً، ﴿ **وإنّ الله لهو الغني** ﴾، عن عباده، ﴿ **الحميد** ﴾، في أفعاله.

﴿ **أَلَم تَرَ أن الله سخّرَ لكم ما في الأرض والفُلْكَ** ﴾ يعني وسخّر لكم الفلك، ﴿ **تجري في البحر بأمره** ﴾، وقيل: ما في الأرض الدواب التي تركب في البرّ، والفلك التي تركب في البحر، ﴿ **ويمسك السماء أن تقعَ على الأرض** ﴾، لكيلا تسقط على الأرض، ﴿ **إلاّ بإذنه إنّ الله بالناس لرؤوف رحيم** ﴾.

لكيلا تسقط ﴿على الأرض إلا بإذنه إن الله بالناس لرؤوف رحيم﴾ يعني أنه أنعم بهذه النعم الجامعة بمنافع الدنيا والدين وقد بلغ الغاية في الإنعام والإحسان فهو إذن رؤوف رحيم بكم ﴿وهو الذي أحياكم﴾ أي أنشأكم ولم تكونوا شيئاً ﴿ثم يميتكم﴾ أي عند انقضاء آجالكم ﴿ثم يحييكم﴾ أي يوم البعث للثواب والعقاب ﴿إن الإنسان لكفور﴾ أي لجحود لنعم الله عزّ وجلّ. قوله تعالى ﴿لكل أمة جعلنا منسكاً﴾ قال ابن عباس شريعة ﴿هم ناسكوه﴾ هم عاملون بها وعنه أنه قال عيداً وقيل موضع قربان يذبحون فيه وقيل موضع عبادة ﴿فلا ينازعنك في الأمر﴾ أي في أمر الذبائح نزلت في بديل بن ورقاء وبشر بن سفيان ويزيد بن خنيس قالوا لأصحاب النبيّ ﷺ: ما لكم تأكلون مما تقتلون بأيديكم ولا تأكلون مما قتله الله؟ وقيل معناه لا تنازعهم أنت. قوله تعالى ﴿وادع إلى ربك﴾ أي إلى الإيمان به وإلى دينه ﴿إنك لعلى هدى مستقيم﴾ أي على دين واضح قويم ﴿وإن جادلوك﴾ يعني خاصموك في أمر الذبح وغيره ﴿فقل الله أعلم بما تعملون﴾ أي من التكذيب ﴿الله يحكم بينكم يوم القيامة فيما كنتم فيه تختلفون﴾ يعني فتعلمون حينئذٍ الحق من الباطل وقيل حكم يوم القيامة يتردّد بين جنة وثواب لمن قبل وبين نار وعقاب لمن رد وأبى. قوله عزّ وجلّ ﴿ألم تعلم﴾ الخطاب للنبيّ ﷺ ويدخل فيه الأمة ﴿أن الله يعلم ما في السماء والأرض إن ذلك في كتاب﴾ يعني في اللوح المحفوظ ﴿إن ذلك﴾ يعني علمه بجميعه ﴿على الله يسير﴾ أي هين وقيل: إن كتب الحوادث مع أنها من الغيب على الله يسير ﴿ويعبدون من دون الله ما لم ينزل به سلطاناً﴾ يعني حجة ظاهرة من دليل سمعي ﴿وما ليس لهم به علم﴾ يعني أنهم فعلوا ما فعلوه عن جهل لا عن علم ولا دليل عقلي ﴿وما للظالمين﴾ يعني المشركين ﴿من نصير﴾ يعني مانع يمنعهم من العذاب.

﴿ وهو الذي أحياكم ﴾، يعني: أنشأكم ولم تكونوا شيئاً، ﴿ ثم يُميتكم ﴾، عند انقضاء آجالكم، ﴿ ثم يحييكم ﴾، يوم البعث للثواب والعقاب، ﴿ إنّ الإنسان لكفور ﴾، لنعم الله.

﴿ لكل أُمة جعلنا منسكاً هم ناسكوه﴾، قال ابن عباس: يعني شريعة هم عاملون بها. ورُوِيَ عنه أنه قال: عيداً. قال قتادة ومجاهد: موضع قربان يذبحون فيه. وقيل: موضع عبادة. وقيل: مَألفاً يألفونه. والمنسك في كلام العرب: الموضع المعتاد لعمل خير أو شرّ، ومنه مناسك الحج لتردد الناس إلى أماكن أعمال الحج. ﴿ فلا ينازعنّك في الأمر ﴾، يعني في أمر الذبائح. نزلت في بديل بن ورقاء وبشر بن سفيان ويزيد بن خنيس قالوا لأصحاب النبي ﷺ ما لكم تأكلون مما تقتلون بأيديكم ولا تأكلون مما قتله الله؟ قال الزجّاج: معنى قوله: ﴿ لا ينازعنّك ﴾ أي: لا تنازعهم أنت، كما يقال: لا يخاصمك فلان، أي، لا تخاصمه، وهذا جائز فيما يكون بين الاثنين، ولا يجوز لا يضربنّك فلان وأنت تريد لا تضربه وذلك أن المنازعة والمخاصمة لا تتم إلا باثنين، فإذا ترك أحدهما فلا مخاصمة هناك. ﴿ وادْعُ إلى ربِّك ﴾، إلى الإيمان بربّك، ﴿ إنّك لعلى هدىً مستقيم ﴾.

﴿ وإن جادلوك فقل الله أعلم بما تعملون ﴾.

﴿ اللَّهُ يحكم بينكم يوم القيامة فيما كنتم فيه تختلفون ﴾، فتعرفون حينئذ الحق من الباطل. والاختلاف ذهاب كل واحد من الخصمين إلى خلاف ما ذهب إليه الآخر.

﴿ ألم تعلم أنّ الله يعلم ما في السماء والأرض إنّ ذلك ﴾، كله، ﴿ في كتاب ﴾، يعني اللوح المحفوظ، ﴿ إن ذلك ﴾ يعني: علمه لجميع ذلك، ﴿ على الله يسير ﴾.

﴿ ويعبدون من دون الله ما لم ينزل به سلطاناً ﴾، حجة وبرهاناً، ﴿ وما ليس لهم به علم ﴾، يعني أنهم فعلوا ما فعلوا عن جهل لا عن علم، ﴿ وما للظالمين ﴾، للمشركين، ﴿ من نصير ﴾، مانع يمنعهم من عذاب الله.

وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ
بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۗ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۗ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ وَبِئْسَ
ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا
وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا۟
ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ
سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٧٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾

﴿**وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات**﴾ يعني القرآن وصفه بذلك لأنه فيه بيان الأحكام والفصل بين الحلال والحرام ﴿**تعرف في وجوه الذين كفروا المنكر**﴾ يعني الإنكار والكراهية يتبين ذلك في وجوههم ﴿**يكادون يسطون**﴾ يعني يقعون ويبسطون إليكم أيديهم بالسوء وقيل يبطشوه ﴿**بالذين يتلون عليهم آياتنا**﴾ أي بمحمد وأصحابه من شدة الغيظ ﴿**قل**﴾ يعني قل لهم يا محمد ﴿**أفأنبئكم بشر من ذلكم**﴾ يعني بشر لكم وأكره إليكم من هذا القرآن الذي تستمعون ﴿**النار**﴾ يعني هي النار ﴿**وعدها الله الذين كفروا وبئس المصير**﴾ قوله تعالى ﴿**يا أيها الناس ضرب مثل**﴾ فإن قلت الذي جاء به ليس بمثل فكيف سماه مثلاً. قلت لما كان المثل في الأكثر نكتة عجيبة غريبة جاز أن يسمى كل كلام كان كذلك مثلاً. وقال في الكشاف قد سميت الصفة والقصة الرائقة المتلقاة بالاستحسان والاستغراب مثلاً تشبيهاً لها ببعض الأمثال المسيرة لكونها مسيرة عندهم مستحسنة مستغربة ﴿**فاستمعوا له**﴾ يعني تدبروه حق تدبره فإنّ الاستماع بلا تدبر وتعقل لا ينفع والمعنى جعل لي شبيه وشبه به الأوثان أي جعل المشركون الأصنام شركائي يعبدونها ثم بين

﴿ **وإذا تتلى عليهم آياتنا بيّنات** ﴾، يعني: القرآن، ﴿ **تعرف في وجوه الذين كفروا المنكر** ﴾، يعني الإنكار يتبين ذلك في وجوههم من الكراهية والعبوس، ﴿ **يكادون يَسْطُون** ﴾، يعني: يقعون ويبسطون إليكم أيديهم بالسوء. وقيل: يبطشون، ﴿ **بالذين يتلون عليهم آياتنا** ﴾، يعني: بمحمد وأصحابه من شدّة الغيظ. يقال: سطا عليه وسطا به إذا تناوله بالبطش والعنف، وأصل السطو القهر. ﴿ **قل** ﴾، يا محمد، ﴿ **أفأنبئكم بشر من ذلكم** ﴾، يعني بشرٍّ لكم وأكره إليكم من القرآن الذي تستمعون، ﴿ **النار** ﴾ يعني: هي النار، ﴿ **وعدها الله الذين كفروا وبئس المصير** ﴾.

﴿ **يا أيها الناس ضُرب مثل** ﴾، معنى: ضرب جعل كقولهم ضرب السلطان البعث على الناس وضرب الجزية على أهل الذمّة أي جعل ذلك عليهم. ومعنى الآية: جعل لي شبه وشبّه بي الأوثان، أي: جعل المشركون الأصنام شركائي فعبدوها ومعنى ﴿ **فاستمعوا له** ﴾، يعني: فاستمعوا حالها وصفتها، ثم بيّن ذلك فقال: ﴿ **إن الذين تدعون من دون الله** ﴾، يعني: الأصنام، قرأ يعقوب بالياء والباقون بالتاء ﴿ **لن يخلقوا ذباباً** ﴾، واحداً في صغره وقلّته لأنها لا تقدر عليه والذُّباب واحد وجمعه القليل أذبّة والكثير ذُباب مثل غراب وأغربة وغربان، ﴿ **ولو اجتمعوا له** ﴾، يعني خلقه، ﴿ **وإن يسلبهم الذُباب شيئاً لا يستنقذوه منه** ﴾، قال ابن عباس كانوا يطلون الأصنام بالزعفران، فإذا جفّ جاء الذُباب فاستلب منه. وقال السدي: كانوا يضعون الطعام بين يدي الأصنام فتقع الذُباب عليه فيأكلن منه. وقال ابن زيد: كانوا يحلّون الأصنام باليواقيت واللآلىء وأنواع الجواهر، ويطيّبونها بألوان الطيب

حالها وصفتها فقال تعالى ﴿إن الذين تدعون من دون الله﴾ يعني الأصنام ﴿لن يخلقوا ذباباً﴾ يعني واحداً في صغره وضعفه وقلته لأنها لا تقدر على ذلك ﴿ولو اجتمعوا له﴾ يعني لخلقه، والمعنى أن هذه الأصنام لو اجتمعت لم يقدروا على خلق ذبابة على ضعفها وصغرها فكيف يليق بالعاقل جعلها معبوداً له ﴿وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه﴾ قال ابن عباس: كانوا يطلون الأصنام بالزعفران فإذا جف جاء الذباب فاستلبه منه. وقيل: كانوا يضعون الطعام بين أيدي الأصنام فيقع الذباب عليه ويأكل منه ﴿ضعف الطالب والمطلوب﴾ قال ابن عباس الطالب الذباب يطلب ما يسلب من الطيب الذي على الصنم والمطلوب هو الصنم وقيل الطالب الصنم والمطلوب الذباب أي لو طلب الصنم أن يخلق الذباب لعجز عنه وقيل الطالب عابد الصنم والمطلوب هو الصنم ﴿ما قدروا الله حق قدره﴾ يعني ما عظموه حق عظمته وما عرفوه حق معرفته ولا وصفوه حق صفته حيث أشركوا به ما لا يمتنع من الذباب ولا ينتصف منه ﴿إن الله لقوي عزيز﴾ يعني غالب لا يقهر. قوله عزّ وجلّ ﴿الله يصطفي من الملائكة﴾ يعني يختار من الملائكة ﴿رسلاً﴾ جبريل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل وغيرهم ﴿ومن الناس﴾ يعني يختار الله من الناس رسلاً مثل إبراهيم وعيسى ومحمد وغيرهم من الأنبياء والرسل صلّى الله عليهم أجمعين. نزلت حين قال المشركون أأنزل عليه الذكر من بيننا فأخبر الله تعالى أن الاختيار إليه يختار من يشاء من عباده لرسالته ﴿إن الله سميع﴾ يعني بأقوالهم ﴿بصير﴾ يعني لأفعالهم لا تخفى عليه خافية. قوله تعالى ﴿يعلم ما بين أيديهم﴾ قال ابن عباس: ما قدموا ﴿وما خلفهم﴾ يعني ما خلفوا وقيل يعلم ما عملوا ما هم عاملون وقيل يعلم ما بين أيدي ملائكته ورسله قبل أن يخلقهم ويعلم ما هو كائن بعد فنائهم ﴿وإلى الله ترجع الأمور﴾ يعني في الآخرة. قوله تعالى ﴿يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا﴾ يعني صلوا لأن الصلاة لا تكون إلا بالركوع والسجود ﴿واعبدوا ربكم﴾ يعني وحدوه وقيل أخلصوا له العبادة ﴿وافعلوا الخير﴾ قال ابن عباس: صلة الأرحام ومكارم الأخلاق وقيل فعل الخير ينقسم إلى خدمة المعبود الذي هو عبارة عن التعظيم لأمر الله تعالى وإلى الإحسان الذي هو عبارة عن الشفقة على خلق الله ويدخل فيه البر والمعروف والصدقة وحسن القول وغير ذلك من أعمال البر ﴿لعلكم تفلحون﴾ يعني لكي تسعدوا وتفوزوا بالجنة.

فربما تسقط منها واحدة فيأخذها طائر أو ذُباب فلا تقدر الآلهة على استردادها، فذلك قوله: ﴿ وإنْ يسلبهم الذُباب شيئاً ﴾ أي: وإن يسلب الذُباب الأصنام شيئاً مما عليها لا يقدرون أن يستنقذوه منه، ﴿ ضعف الطالب والمطلوب ﴾، قال ابن عباس: الطالب الذُباب يطلب ما يُسلَب من الطيب من الصنم، والمطلوب الصنم يطلب الذُباب منه السلب. وقيل: على العكس: الطالب الصنم والمطلوب الذُباب. وقال الضحّاك: الطالب العابِد والمطلوب المعبود.

﴿ ما قدّروا الله حقَّ قدره ﴾، ما عظّموه حقّ عظمته وما عرفوه حقّ معرفته، ولا وصفوه حقّ صفته إن أشركوا به ما لا يمتنع من الذُباب ولا ينتصف منه، ﴿ إنّ الله لقويٌّ عزيز ﴾.

﴿ الله يصطفي ﴾، يعني: يختار ﴿ من الملائكة رسلاً ﴾، وهم جبريل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل وغيرهم، ﴿ ومن الناس ﴾، يعني: يختار من الناس رسلاً مثل إبراهيم وموسى وعيسى ومحمد ﷺ وغيرهم من الأنبياء عليهم السلام، نزلت حيَن قال المشركون: أأنزل عليه الذكر من بيننا، فأخبر أن الاختيار إليه يختار مَن يشاء من خلقه، ﴿ إنَّ الله سَميعٌ بصير ﴾، يعني: سميع لقولهم بصير بمَن يختاره لرسالته.

﴿ يعلم ما بين أيديهم ﴾، قال ابن عباس: ما قدّموا، ﴿ وما خلفهم ﴾، ما خلفوا. وقال الحسن: ما بين أيديهم ما عملوا وما خلفهم ما هم عاملون من بعد. وقيل: ما بين أيديهم ملائكته وكتبه ورسله قبل أن خلقهم وما

فصل: في حكم سجود التلاوة هنا

لم يختلف العلماء في السجدة الأولى من هذه السورة واختلفوا في السجدة الثانية فروي عن عمر وعلي وابن عمر وابن مسعود وابن عباس وأبي الدرداء وأبي موسى أنهم قالوا في الحج سجدتان وبه قال ابن المبارك والشافعي وأحمد وإسحاق، يدل عليه ما روي عن عقبة بن عامر قال: قلت يا رسول الله في الحج سجدتان قال: «نعم ومن لم يسجدهما فلا يقرأهما» أخرجه الترمذي وأبو داود. وعن عمر بن الخطاب أنه قرأ سورة الحج فسجد فيها سجدتين وقال: إن هذه السورة فضلت بسجدتين. أخرجه مالك في الموطأ وذهب قوم إلى أنّ في الحج سجدة واحدة وهي الأولى وليس هذه بسجدة وهو قول الحسن وسعيد بن المسيب وسعيد بن جبير وسفيان الثوري وأبي حنيفة ومالك بدليل أنه قرن السجود بالركوع فدل ذلك أنها سجدة صلاة لا سجدة تلاوة واختلف العلماء في عدة سجود التلاوة. فذهب الشافعي وأحمد وأكثر أهل العلم إلى أنها أربع عشرة سجدة لكن الشافعي قال في الحج سجدتان وأسقط سجدة صّ. وقال أبو حنيفة في الحج سجدة وأثبت سجدة صّ وبه قال أحمد في إحدى الروايتين عنه فعنده أن السجدات خمس عشرة سجدة. وذهب قوم إلى أن المفصل ليس فيه سجود يروى ذلك عن أبيّ بن كعب وابن عباس وبه قال مالك فعلى هذا يكون سجود القرآن إحدى عشرة سجدة يدل عليه ما روي عن أبي الدرداء أنّ النبيّ ﷺ قال: «في القرآن إحدى عشرة سجدة» أخرجه أبو داود وقال إسناده واهٍ. ودليل من قال في القرآن خمس عشرة سجدة ما روي عن عمرو بن العاص قال: أقرأني رسول الله ﷺ في القرآن خمس عشرة سجدة منها ثلاث في المفصل وفي سورة الحج سجدتان. أخرجه أبو داود وصح من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: «سجدنا مع رسول الله ﷺ في اقرأ وإذا السماء انشقت». أخرجه مسلم وسجود التلاوة سنة للقارىء والمستمع. وبه قال الشافعي وقال أبو حنيفة هو واجب. قوله عزّ وجلّ:

خلفهم أي ويعلم ما هو كائن بعد فنائهم. ﴿ **وإلى الله تُرجع الأمور** ﴾.

﴿**يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا**﴾، يعني صلّوا لأن الصلاة لا تكون إلّا بالركوع والسجود ﴿ **واعبدوا ربكم** ﴾، أي: وحّدوه، ﴿ **وافعلوا الخير** ﴾، قال ابن عباس: صلة الرحم ومكارم الأخلاق، ﴿ **لعلّكم تفلحون** ﴾، لكي تسعدوا وتفوزوا بالجنة. واختلف أهل العلم في سجود التلاوة عقيب قراءة هذه الآية، فذهب قوم إلى أنه يسجد عندها وهو قول عمرو وعلي وابن مسعود وابن عباس، وبه قال ابن المبارك والشافعي وأحمد وإسحاق، واحتجّوا بما أخبرنا أبو عثمان سعيد بن إسماعيل الضبّي أنا أبو محمد عبد الجبّار بن محمد الجراحي أنا أبو العباس محمد بن أحمد المحبوبي أنا أبو عيسى الترمذي أنا قتيبة أنا ابن لهيعة عن مشرح بن عاهان عن عقبة بن عامر قال: قلت يا رسول الله فضّلت سورة الحج بأنّ فيها سجدتين؟ قال: «نعم، ومَن لم يسجدهما فلا يقرأهما». وذهب قوم إلى أنه لا يسجد ههنا وهو قول سفيان الثوري وأصحاب الرأي، وعدة سجود القرآن أربعة عشر عند أكثر أهل العلم منها ثلاث في المفصل. وذهب قوم إلى أنه ليس في المفصل سجود. رُوِيَ ذلك عن أُبيّ بن كعب وابن عباس، وبه قال مالك. وقد صحّ عن أبي هريرة قال سجدنا مع رسول الله ﷺ في إقرأ، وإذا السماء انشقّت وأبو هريرة من متأخري الإسلام. واختلفوا في سجود صاد فذهب الشافعي إلى أنه سجود شكر ليس من عزائم السجود، ويروي عن ذلك ابن عباس وذهب قوم إلى أنه يسجد فيها، رُوِيَ ذلك عن عمر، وبه قال سفيان الثوري وابن المبارك وأصحاب الرأي وأحمد وإسحاق، فعند ابن المبارك وإسحاق وأحمد وجماعة سجود القرآن خمسة عشر سجدة فعدّوا سجدتي الحج وسجدتي صّ، ورُوِيَ عن عمرو بن العاص أن النبي ﷺ أقرأه خمسَ عشرةَ سجدةً في القرآن.

﴿وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾﴾

﴿**وجاهدوا في الله حق جهاده**﴾ أي جاهدوا في سبيل الله أعداء الله ومعنى حق جهاده هو استفراغ الطاقة فيه قاله ابن عباس: وعنه قال لا تخافوا في الله لومة لائم فهو حق الجهاد كما تجاهدون في سبيل الله ولا تخافون لومة لائم وقيل معناه اعملوا لله حق عمله واعبدوه حق عبادته قيل نسخها قوله تعالى: ﴿**فاتقوا الله ما استطعتم**﴾ وقال أكثر المفسرين حق الجهاد أن يكون بنية صادقة خالصة لله ولتكون كلمة الله هي العليا بدليل قوله ﷺ: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله» أخرجاه في الصحيحين من حديث أبي موسى الأشعري وقيل مجاهدة النفس والهوى هو حق الجهاد وهو الجهاد الأكبر روي أنّ النبيّ ﷺ لما رجع من غزوة تبوك قال: «رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر» ذكره البغوي بغير سند قيل أراد بالأصغر جهاد الكفار وبالأكبر جهاد النفس ﴿**هو اجتباكم**﴾ يعني اختاركم لدينه والاشتغال بخدمته وعبادته وطاعته فأي رتبة أعلى من هذا وأي سعادة فوق هذا ﴿**وما جعل عليكم في الدين من حرج**﴾ أي ضيق وشدة وهو أن المؤمن لا يبتلى بشيء من الذنوب إلا جعل الله له منه مخرّجاً بعضها بالتوبة وبعضها برد المظالم والقصاص وبعضها بأنواع الكفارات من الأمراض والمصائب وغير ذلك فليس في دين الإسلام ما لا يجد العبد فيه سبيلاً إلى الخلاص من الذنوب ومن العقاب لمن وفق. وقيل: معناه رفع الضيق في أوقات فروضكم مثل هلال شهر رمضان والفطر ووقت الحج إذا التبس عليكم وسع ذلك عليكم حتى تتيقنوا. وقيل: معناه الرخص عند

قوله: ﴿ **وجاهدوا في الله حقَّ جهاده** ﴾، قيل: جاهدوا في سبيل الله أعداء الله حقّ جهاده هو استفراغ الطاقة فيه، قاله ابن عباس، وعنه أيضاً أنه قال: لا تخافوا في الله لومة لائم فهو حق الجهاد، كما قال تعالى: ﴿ يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ﴾ [المائدة: ٥٤]. قال الضحاك ومقاتل: اعملوا لله حقّ عمله واعبدوه حقّ عبادته. وقال مقاتل بن سليمان: نسخها قوله: ﴿ فاتقوا الله ما استطعتم ﴾ [التغابن: ١٦]، وقال أكثر المفسّرين: حقّ الجهاد أن تكون نيّته خالصة صادقة لله عزّ وجلّ. وقال السدي: هو أن يُطاع فلا يُعصى. وقال عبد الله بن المبارك: هو مجاهدة النفس والهوى وهو الجهاد الأكبر وهو حقّ الجهاد. وقد رُوِيَ أن رسول الله ﷺ لمّا رجع من غزوة تبوك قال: «رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر»، وأراد بالجهاد الأصغر الجهاد مع الكفّار وبالجهاد الأكبر الجهاد مع النفس. ﴿ **هو اجتباكم** ﴾ يعني: اختاركم لدينه، ﴿ **وما جعل عليكم في الدين من حرج** ﴾، ضيق، معناه أن المؤمن لا يبتلى بشيء من الذنوب إلّا جعل الله له منه مخرجاً بعضها بالتوبة وبعضها بردّ المظالم والقصاص، وبعضها بأنواع الكفّارات، فليس في دين الإسلام ما لا يجد العبد سبيلاً إلى الخلاص من العقاب فيه. وقيل: من ضيق في أوقات فروضكم مثل هلال شهر رمضان والفطر ووقت الحج إذا التبس ذلك عليكم وسّع الله عليكم حتى تتيقنوا. وقال مقاتل: يعني الرخص عند الضرورات كقصر الصلاة في السفر والتيمّم عند فَقْد الماء وأكل الميتة عند الضرورة والإفطار بالسفر والمرض والصلاة قاعداً عند العجز عن القيام. وهو قول الكلبي ورُوِيَ عن ابن عباس أنه قال: الحَرَجُ ما كان على بني إسرائيل من الأعمال التي كانت عليهم وضعها الله عن هذه الأمة. ﴿ **مِلّة أبيكم إبراهيم** ﴾، يعني كلمة أبيكم نصب بنزع حرف الصفة وقيل: نصب على الإغراء، يعني اتبعوا مِلّة أبيكم إبراهيم، وإنما أمرنا باتّباع ملّة إبراهيم لأنها داخلة في ملّة محمد ﷺ فإن قيل: فما وجه قوله: ﴿ ملّة أبيكم ﴾ وليس كل المسلمين يرجع نسبهم إلى إبراهيم؟ قيل: خاطب به العرب وهم كانوا من نسل إبراهيم. وقيل: خاطب به جميع

الضرورات كقصر الصلاة والفطر في السفر والتيمم عند عدم الماء وأكل الميتة عند الضرورة والصلاة قاعداً والفطر مع العجز بعذر المرض ونحو ذلك من الرخص التي رخص الله لعباده، قيل أعطى الله هذه الأمة خصلتين لم يعطهما أحداً غيرهم جعلهم شهداء على الناس وما جعل عليهم في الدين من حرج. وقال ابن عباس: الحرج ما كان على بني إسرائيل من الآصار التي كانت عليهم وضعها الله عن هذه الأمة **﴿ملة أبيكم إبراهيم﴾** لأنها داخلة في ملة محمد صلّى الله عليه وسلم. فإن قلت لم يكن إبراهيم أباً للأمة كلها فكيف سماه أباً في قوله «ملة أبيكم إبراهيم». قلت إن كان الخطاب للعرب فهو أبو العرب قاطبة وإن كان الخطاب لكل المسلمين فهو أبو المسلمين. والمعنى وجوب احترامه وحفظ حقه يجب كما يجب احترام الأب فهو كقوله «وأزواجه أمهاتهم» وقد قال رسول الله ﷺ «إنما أنا لكم كالوالد» وفي قوله **﴿هو سماكم المسلمين من قبل﴾** قولان أحدهما: أن الكناية ترجع إلى الله تعالى يعني أن الله سماكم المسلمين في الكتب القديمة من قبل نزول القرآن القول الثاني: أن الكناية راجعة إلى إبراهيم يعني أنّ إبراهيم سماكم المسلمين في أيامه من قبل هذا الوقت وهو قوله **﴿ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك﴾** فاستجاب الله دعاءه فينا **﴿وفي هذا﴾** أي وفي القرآن سماكم المسلمين **﴿ليكون الرسول شهيداً عليكم﴾** يوم القيامة أن قد بلغكم **﴿وتكونوا شهداء على الناس﴾** أي تشهدون يوم القيامة على الأمم أن رسلهم قد بلغتهم **﴿فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واعتصموا بالله﴾** يعني ثقوا به وتوكلوا عليه وقيل تمسكوا بدين الله. وقال ابن عباس: سلوا ربكم أن يعصمكم من كل ما يكره وقيل معناه ادعوا ربكم أن يثبتكم على دينه. وقيل: الاعتصام هو التمسك بالكتاب والسنة **﴿هو مولاكم﴾** يعني وليكم وناصركم وحافظكم **﴿فنعم المولى ونعم النصير﴾** أي الناصر لكم والله تعالى أعلم.

المسلمين وإبراهيم أب لهم على معنى وجوب احترامه وحفظ حقه كما يجب احترام الأب، وهو كقوله تعالى: ﴿ وأزواجه أمهاتهم ﴾ [الأحزاب: ٦]، وقال النبي ﷺ: «إنّما أنا لكم مثل الوالد»، ﴿ هو سمّاكم ﴾، يعني أن الله تعالى سمّاكم ﴿ المسلمين من قبل ﴾، يعني من قبل نزول القرآن في الكتب المتقدمة. ﴿ وفي هذا ﴾ يعني: وفي الكتاب، هذا قول أكثر المفسّرين. وقال ابن زيد هو يرجع إلى إبراهيم سمّاكم المسلمين في أيامه، من قبل هذا الوقت وفي هذا الوقت، وهو قوله: ﴿ ربّنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمةً مسلمةً لك ﴾ [البقرة: ٢١٨]، ﴿ ليكون الرسول شهيداً عليكم ﴾، يوم القيامة أن قد بلغكم، ﴿ وتكونوا ﴾، أنتم، ﴿ شهداء على الناس ﴾، أن رسلهم قد بلغتهم، ﴿ فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاةَ واعتصموا بالله ﴾، ثقوا بالله وتوكلوا عليه. قال الحسن: تمسكوا بدين الله. ورُوِيَ عن ابن عباس قال: سلوا ربكم أن يعصمكم من كل ما يكره. وقيل: معناه ادعوه ليثبتكم على دينه. وقيل: الاعتصام بالله هو التمسّك بالكتاب والسُّنّة، ﴿ هو مولاكم ﴾، وليّكم وناصركم وحافظكم، ﴿ فنِعمَ المولى ونِعمَ النصير ﴾، الناصر لكم.

تفسير سورة المؤمنين

وهي مكية وهي مائة وثمان عشرة آية وألف وثمانمائة وأربعون كلمة وأربعة آلاف وثمانمائة حرف وحرفان.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾

عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «كان رسول الله صلّى الله عليه وسلم إذا نزل عليه الوحي يسمع عند وجهه دوي كدوي النحل فأنزل الله عليه يوماً فمكث ساعة ثم سري عنه فقرأ قد أفلح المؤمنون إلى عشر آيات من أولها. وقال: من أقام هذه العشر آيات دخل الجنة ثم استقبل القبلة ورفع يديه وقال اللهم زدنا ولا تنقصنا وأكرمنا ولا تهنا وأعطنا ولا تحرمنا وآثرنا ولا تؤثر علينا اللهم أرضنا وارض عنا» أخرجه الترمذي. قوله عزّ وجلّ ﴿**قد أفلح المؤمنون**﴾ قال ابن عباس قد سعد المصدقون بالتوحيد وبقوا في الجنة وقيل الفلاح البقاء والنجاة ﴿**الذين هم في صلاتهم خاشعون**﴾ قال ابن عباس: مخبتون أذلّاء خاضعون. وقيل خائفون وقيل: متواضعون وقيل الخشوع من أفعال القلب كالخوف والرهبة وقيل هو من أفعال الجوارح كالسكون وترك الالتفات وغض البصر. وقيل لا بد من الجمع بين أفعال القلب والجوارح وهو الأولى فالخاشع في صلاته لا بد وأن يحصل له الخشوع في جميع الجوارح، فأما ما يتعلق بالقلب من الأفعال فنهاية الخضوع والتذلل للمعبود ولا يلتفت الخاطر إلى شيء سوى ذلك التعظيم. وأما ما يتعلق بالجوارح فهو أن يكون ساكناً مطرقاً ناظراً إلى موضع سجوده. وقيل الخشوع هو أن لا يعرف من على يمينه ولا من على شماله (ق) عن عائشة قالت: «سألت رسول الله ﷺ عن الالتفات في الصلاة فقال هو اختلاس

سُوْرَةَ المُؤْمِنُوْن

مكيّة وهي مائة وثماني عشرة آية.

أخبرنا أبو حامد أحمد بن عبد السلام الصالحي أنا أحمد بن الحسين الحيري أنا حاجب بن أحمد الطوسي أنا محمد بن حماد أنا عبد الرزاق أنا يونس بن سليمان أملى عليّ يونس صاحب أيلة عن ابن شهاب عن عروة بن الزبير عن عبد الرحمن بن عبد القاري قال: سمعت عمر بن الخطاب يقول: كان إذا نزل على النبي ﷺ الوحي يُسمع عند وجهه دويٌّ كدويّ النحل، فمكثنا ساعة. وفي رواية. فنزل عليه يوماً فمكثنا ساعة فاستقبل القِبلة ورفع يديه وقال: اللّهمّ زدنا ولا تنقصنا وأكرمنا وآثرنا ولا تؤثر علينا وارضَ عنّا، ثم قال: لقد أُنزل عليّ عشر آيات مَن أقامهنّ دخل الجنة، ثم قرأ ﴿ **قد أفلح المؤمنون** ﴾ إلى عشر آيات. ورواه أحمد بن حنبل وعلي بن المديني وجماعة عن عبد الرزاق، وقالوا: وأعطنا ولا تحرمنا وأرضِنا وارضَ عنّا.

قوله تعالى: ﴿ **قد أفلح المؤمنون** ﴾، قد حرف تأكيد، وقال المحققون قد يقرب الماضي من الحال، يدلّ

يختلسه الشيطان من صلاة العبد» الاختلاس هو الاختطاف عن أبي ذر عن النبيّ ﷺ قال: «لا يزال الله مقبلاً على العبد وهو في صلاته ما لم يلتفت فإذا التفت انصرف عنه». وفي رواية «أعرض عنه» أخرجه أبو داود والنسائي. وقيل الخشوع هو أن لا يرفع بصره إلى السماء (خ) عن أنس بن مالك قال قال رسول الله ﷺ «ما بال أقوام يرفعون أبصارهم إلى السماء في صلاتهم فاشتد قوله في ذلك حتى قال: لينتهن عن ذلك أو لتخطفن أبصارهم» وقال أبو هريرة كان أصحاب رسول الله ﷺ يرفعون أبصارهم إلى السماء في الصلاة فلما نزل الذين هم في صلاتهم خاشعون» رمقوا بأبصارهم إلى موضع السجود. وقيل الخشوع هو أن لا يعبث بشيء من جسده في الصلاة لما روي «أنّ النبيّ ﷺ أبصر رجلاً يعبث بلحيته في الصلاة فقال: لو خشع قلب هذا خشعت جوارحه». ذكره البغوي بغير سند. عن أبي ذر عن النبيّ ﷺ قال «إذا قام أحدكم إلى الصلاة فلا يمسح الحصى فإن الرحمة تواجهه» أخرجه أبو داود والترمذي والنسائي. وقيل الخشوع في الصلاة هو جمع الهمة والإعراض عمّا سوى الله والتدبر فيما يجري على لسانه من القراءة والذكر. قوله تعالى:

على أن الفلاح قد حصل لهم وأنهم عليه في الحال وهو أبلغ من تجريد ذكر الفعل، والفلاح: النجاة والبقاء، قال ابن عباس: قد سعد المصدّقون بالتوحيد وبقوا في الجنة.

﴿ **الذين هم في صلاتهم خاشعون** ﴾، اختلفوا في معنى الخشوع، فقال ابن عباس: مخبتون أذلّاء. وقال الحسن وقتادة: خائفون. وقال مقاتل: متواضعون. وقال مجاهد: هو غضّ البصر وخفض الصوتَ، والخشوع قريب من الخضوع إلّا أن الخضوع في البدن والخشوع في القلب والبصر والصوت، قال الله عزّ وجلّ: ﴿ وخشعت الأصوات للرحمن ﴾ [طه: ١٠٨]، وعن عليّ رضي الله عنه: هو أن لا يلتفت يميناً ولا شمالاً. وقال سعيد بن جبير: هو أن لا يعرف مَن على يمينه ولا مَن على شماله، ولا يلتفت من الخشوع لله عزّ وجلّ. أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل حدّثنا مسدد أنا أبو الأحوص أنا أشعث بن سليم عن أبيه. عن مسروق عن عائشة قالت: سألت رسول الله ﷺ عن الالتفات في الصلاة فقال: «هو اختلاسٌ يختلسه الشيطان من صلاة العبد». وأخبرنا أبو الحسن السرخسي أنا أبو علي زاهر بن أحمد أنا أبو الحسن القاسم بن بكر الطيالسي ببغداد أنا أبو أُميّة محمد بن إبراهيم الطرسوسي أنا عبد الغفّار بن عبيد الله أنا صالح بن أبي الأخضر عن الزهري عن أبي الأحوص عن أبي ذرّ عن النبي ﷺ قال: «لا يزال الله مقبلاً على العبد وهو في صلاته ما لم يلتفت فإذا التفت انصرف عنه». وقال عمرو بن دينار: هو السكون وحُسْن الهيئة. وقال ابن سيرين وغيره: هو أن لا ترفع بصرك عن موضع سجودك. وقال أبو هريرة: كان أصحاب رسول الله ﷺ يرفعون أبصارهم إلى السماء في الصلاة فلما نزل: ﴿ **الذين هم في صلاتهم خاشعون** ﴾ رموا بأبصارهم إلى مواضع السجود. أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا علي بن عبد الله أنا يحيىٰ بن سعيد أنا ابن أبي عروبة أنا قتادة أن أنس بن مالك حدّثهم قال: قال النبي ﷺ: «ما بال أقوام يرفعون أبصارهم إلى السماء في صلاتهم»، فاشتدّ قوله في ذلك حتى قال: «لينتهنّ عن ذلك أو لتخطفن أبصارهم». وقال عطاء: هو أن لا تعبث بشيء من جسدك في الصلاة. ورُوِيَ أن النبي ﷺ أبصر رجلاً يعبث بلحيته في الصلاة فقال: «لو خشع قلب هذا خشعت جوارحه». أخبرنا أبو عثمان الضبي أنا أبو محمد الجراحي أنا أبو العباس المحبوبي أنا أبو عيسى الترمذي أنا سعيد عن عبد الرحمن المخزومي أنا سفيان بن عيينة عن الزهري عن أبي الأحوص عن أبي ذرّ عن النبي ﷺ قال: «إذا قام أحدكم إلى الصلاة فلا يمسح الحصى فإن الرحمة تواجهه». وقيل: الخشوع في الصلاة هو جمع الهمّة والإعراض عمّا سواها، والتدبّر فيما يجري على لسانه من القراءة والذكر.

وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ
حَٰفِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ
ٱلْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ
ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾

﴿**والذين هم عن اللغو معرضون**﴾ قال ابن عباس عن الشرك وقيل عن المعاصي وقيل هو كل باطل ولهو وما لا يجمل من القول والفعل وقيل هو معارضة الكفار الشتم والسب ﴿**والذين هم للزكاة فاعلون**﴾ أي الزكاة الواجبة مؤدّون فعبر عن التأدية بالفعل لأنها فعل وقيل الزكاة ها هنا هي العمل الصالح والأول أولى ﴿**والذين هم لفروجهم حافظون**﴾ الفرج اسم لسوأة الرجل والمرأة وحفظه التعفف عن الحرام ﴿**إلّا على أزواجهم**﴾ على بمعنى من ﴿**أو ما ملكت أيمانهم**﴾ يعني الإماء والجواري والآية في الرجال خاصة لأن المرأة لا يجوز لها أن تستمتع بفرج مملوكها ﴿**فإنهم غير ملومين**﴾ يعني بعدم حفظ فرجه من امرأته وأمته فإنه لا يلام على ذلك وإنما لا يلام فيما إذا كان على وجه أذن فيه الشرع دون الإتيان في غير المأتي وفي حال الحيض والنفاس فإنه محظور فلا يجوز ومن فعله فإنه ملوم ﴿**فمن ابتغى وراء ذلك**﴾ أي التمس وطلب سوى الأزواج والولائد وهن الجواري المملوكة ﴿**فأولئك هم العادون**﴾ أي الظالمون المجاوزون الحد من الحلال إلى الحرام. وفيه دليل على أن الاستمناء باليد حرام وهو قول أكثر العلماء. سئل عطاء عنه فقال: مكروه سمعت أن قوماً يحشرون وأيديهم حبالى فأظن أنهم هؤلاء وقال سعيد بن جبير عذب الله أمة كانوا

قوله تعالى: ﴿ والذين هم عن اللغو مُعرِضون ﴾ قال عطاء عن ابن عباس: عن الشرك وقال الحسن: عن المعاصي. وقال الزجّاج: عن كل باطل ولهو وما لا يجمل من القول والفعل. وقيل: هو معارضة الكفّار بالشتم والسبّ: قال الله تعالى: ﴿ وإذا مرّوا باللغو مرّوا كِراماً ﴾ [الفرقان: ٧٢]، أي: إذا سمعوا الكلام القبيح أكرموا أنفسهم عن الدخول فيه.

﴿ **والذين هم للزكاة فاعلون** ﴾، أي: للزكاة الواجبة مؤدّون، فعبّر عن التأدية بالفعل لأنها فعل. وقيل: الزكاة ههنا هو العمل الصالح، أي: والذين هم للعمل الصالح فاعلون.

﴿ **والذين هم لفروجهم حافظون** ﴾، الفرج اسم يجمع سوأة الرجل والمرأة، وحفظ الفرج التعفّف عن الحرام.

﴿ **إلّا على أزواجهم** ﴾، أي: من أزواجهم، وعلى بمعنى من. ﴿ **أو ما ملكت أيمانهم** ﴾، ﴿ **ما** ﴾ في محل الخفض يعني أو مما ملكت أيمانهم، والآية في الرجال خاصّة بدليل قوله: ﴿ **أو ما ملكت أيمانهم** ﴾ والمرأة لا يجوز أن تستمتع بفرج مملوكها. ﴿ **فإنّهم غير ملومين** ﴾، يعني يحفظ فرجه إلّا من امرأته أو أمته فإنه لا يُلام على ذلك، وإنما لا يُلام فيهما إذا كان على وجه أذِنَ فيه الشرع دون الإتيان في غير المأتي، وفي حال الحيض والنفاس، فإنه محظور وهو على فعله ملوم.

﴿ **فمَن ابتغى وراءَ ذلك** ﴾، أي: التمس وطلب سوى الأزواج والولائد المملوكة، ﴿ **فأولئك هُمُ العادون** ﴾، الظالمون المتجاوزون من الحلال والحرام، وفيه دليل على أن الاستمناء باليد حرام، وهو قول أكثر العلماء. قال ابن جريج: سألت عطاء عنه فقال: مكروه، سمعت أنّ قوماً يحشرون وأيديهم حُبالى فأظن أنهم هؤلاء. وعن سعيد بن جبير قال: عذّب الله أُمّةً كانوا يعبثون بمذاكيرهم.

يعبثون بمذاكيرهم. قوله عزّ وجلّ ﴿والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون﴾ أي حافظون يحفظون ما ائتمنوا عليه والعقود التي عاقدوا الناس عليها يقومون بالوفاء بها. والأمانات تختلف فمنها ما يكون بين العبد وبين الله تعالى كالصلاة والصوم وغسل الجنابة وسائر العبادات التي أوجبها الله تعالى على العباد فيجب الوفاء بجميعها. ومنها ما يكون بين العباد كالودائع والصنائع والأسرار وغير ذلك فيجب الوفاء به أيضاً ﴿والذين هم على صلواتهم يحافظون﴾ أي يداومون ويراعون أوقاتها وإتمام أركانها وركوعها وسجودها وسائر شروطها. فإن قلت كيف كرر ذكر الصلاة أولاً وآخراً. قلت هما ذكران مختلفان فليس تكراراً وصفهم أولاً بالخشوع في الصلاة وآخراً بالمحافظة عليها. قوله عزّ وجلّ ﴿أولئك﴾ يعني أهل هذه الصفة ﴿هم الوارثون﴾ يعني يرثون منازل أهل النار من الجنة. عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «ما منكم من أحد إلا وله منزلان منزل في الجنة ومنزل في النار فمن مات ودخل النار ورث أهل الجنة منزله» وذلك قوله تعالى: ﴿أولئك هم الوارثون﴾ ذكره البغوي بغير سند وقيل معنى الوراثة هو أن يؤول أمرهم إلى الجنة وينالوها كما يئول أمر الميراث إلى الوارث.

﴿ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ ﴿١٧﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴿١٨﴾﴾

﴿الذين يرثون الفردوس﴾ هو أعلى الجنة. عن عبادة بن الصامت أن رسول الله ﷺ قال «إنّ في الجنة مائة درجة

﴿والذين هم لأماناتهم﴾، قرأ ابن كثير ﴿لأمانتهم﴾ على التوحيد ههنا وفي سورة المعارج [٣٢]، كقوله تعالى: ﴿ وعهدهم ﴾ والباقون بالجمع، كقوله عزّ وجلّ: ﴿ إن الله يأمركم أن تؤدّوا الأمانات إلى أهلها ﴾ [النساء: ٥٨]، ﴿ وعهدِهم راعون ﴾، حافظون، أي يحفظون ما ائتمنوا عليه، والعقود التي عاقدوا الناس عليها، يقومون بالوفاء بها، والأمانات تختلف فتكون بين الله تعالى وبين العباد كالصلاة والصيام والعبادات التي أوجبها الله عليه، ويكون من العبيد كالودائع والصنائع فعلى العبد الوفاء بجميعها.

﴿ والذين هم على صلواتِهم ﴾، قرأ حمزة والكسائي «صلاتهم» على التوحيد، والآخرون صلواتهم على الجمع. ﴿يحافِظُون﴾، أي: يداومون على حفظها ويراعون أوقاتها، كرّر ذكر الصلاة ليبيّن أن المحافظة عليها واجبة كما أن الخشوع فيها واجب.

﴿ أولئك ﴾، أهل هذه الصفة، ﴿ هم الوارثون ﴾، يرثون منازل أهل النار من الجنة. ورُوِيَ عن أبي صالح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما منكم من أحد إلاّ وله منزلان منزل في الجنة ومنزل في النار، فإن مات ودخل النار ورث أهل الجنة منزله» وذلك قوله تعالى: ﴿ أولئك هم الوارثون ﴾ وقال مجاهد: لكل واحد منزلاً منزل في الجنة ومنزل في النار، فأما المؤمن فيبني منزله الذي له في الجنة ويهدّم منزله الذي له في النار، وأما الكافر فيهدم منزله الذي في الجنة ويبني منزله الذي في النار. وقال بعضهم: معنى الوراثة هو أنه يـؤل أمرهم إلى الجنة وينالونها كما يـؤل أمر الميراث إلى الوارث.

قوله تعالى: ﴿ الذين يـرثون الفـردوس﴾، وهو أعلى الجنـة قد ذكـرناه في سـورة الكهف [١٠٧]، ﴿هم فيها

ما بين كل درجة ودرجة كما بين السماء والأرض والفردوس أعلاها درجة ومنها تفجر أنهار الجنة الأربعة ومن فوقها يكون العرش فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس» أخرجه الترمذي ﴿هم فيها خالدون﴾ أي لا يخرجون منها ولا يموتون.

قوله عزّ وجلّ ﴿ولقد خلقنا الإنسان﴾ يعني ولد آدم الإنسان اسم جنس ﴿من سلالة من طين﴾ قال ابن عباس السلالة صفوة الماء وقيل هي المني لأن النطفة تسل من الظهر من طين يعني طين آدم لأن السلالة تولدت من طين خلق منه آدم وقيل: المراد من الإنسان هو آدم، وقوله من سلالة أي سل من كل تربة ﴿ثم جعلناه نطفة﴾ يعني الذي هو الإنسان جعلناه نطفة ﴿في قرار مكين﴾ أي حريز وهو الرحم وسمي مكيناً لاستقرار النطفة فيه إلى وقت الولادة ﴿ثم خلقنا النطفة علقة﴾ أي صيرنا النطفة قطعة دم جامد ﴿فخلقنا العلقة مضغة﴾ أي جعلنا الدم الجامد قطعة لحم صغيرة ﴿فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً﴾ وذلك لأن اللحم يستر العظم فجعله كالكسوة له. قيل إن بين كل خلق وخلق أربعين يوماً ﴿ثم أنشأناه خلقاً آخر﴾ أي مبايناً للخلق الأول قال ابن عباس: هو نفخ الروح فيه وقيل جعله حيواناً بعد ما كان جماداً وناطقاً بعدما كان أبكم وسميعاً وكان أصم وبصيراً وكان أكمه وأودع باطنه وظاهره عجائب صنعه وغرائب فطره وعن ابن عباس قال: إن ذلك تصريف أحواله بعد الولادة من الاستهلال إلى الرضاع إلى القعود والقيام إلى المشي إلى الفطام إلى أن يأكل ويشرب إلى أن يبلغ الحلم ويتقلب في البلاد إلى ما بعدها ﴿فتبارك الله﴾ أي استحق التعظيم والثناء بأنه لم يزل ولا يزال ﴿أحسن الخالقين﴾ أي المصورين والمقدرين. فإن قلت كيف الجمع بين هذه الآية وبين قوله تعالى ﴿الله خالق كل شيء﴾ وقوله ﴿هل من خالق غير الله؟﴾. قلت الخلق له معان: منها الإيجاد والإبداع ولا موجد ولا مبدع إلاّ الله تعالى. ومنها التقدير كما قال الشاعر:

ولأنـــت تفـــري مـــا خلقـــت وبعـــ ـــض القـــوم يخلـــق ثـــم لا يفـــري

خالدون﴾، لا يموتون ولا يُخرجون، وجاء في الحديث: «أن الله تعالى خلق ثلاثة أشياء بيده خلق آدم بيده وكتب التوراة بيده وغرس الفردوس بيده، ثم قال: وعزّتي لا يدخلها مدمن خمر ولا ديوث».

وقوله عزّ وجلّ: ﴿ولقد خلقنا الإنسان﴾، يعني: ولد آدم. والإنسان اسم الجنس يقع على الواحد والجمع، ﴿من سلالة﴾، رُوِيَ عن ابن عباس أنه قال: السلالة صفوة الماء. وقال مجاهد: من بني آدم. وقال عكرمة: هو يسيل من الظهر، والعرب تسمّي النطفة سلالةً والولد سليلاً وسلالة لأنهما مسلولانِ منه. قوله: ﴿من طين﴾، يعني: طين آدم. والسلالة: تولدت من طين خلق آدم منه. قال الكلبي: من نطفة سلّت من طين والطين آدم عليه السلام وقيل المراد من الإنسان هو آدم. وقوله: ﴿من سلالة﴾ أي: سلّ من كل تربة.

﴿ثم جعلناه نطفة﴾، يعني الذي هو الإنسان جعلناه نطفة، ﴿في قرارٍ مكين﴾، حريز وهو الرحم مُكّن وهُيّء لاستقرارها فيه إلى بلوغ أَمَدها.

﴿ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاماً﴾، قرأ ابن عامر وأبو بكر «عظمـاً»، ﴿فكسونا العظام﴾ بسكون الظاء على التوحيد فيهما، وقرأ الآخرون بالجمع لأن الإنسان ذو عظام كثيرة. وقيل: بين كل خلقتين أربعون عاماً. ﴿فكسونا العظام لحماً﴾. أي ألبسنا، ﴿ثم أنشأناه خلقاً آخر﴾، اختلف المفسّرون فيه، فقال ابن عباس ومجاهد والشعبي وعكرمة والضحاك وأبو العالية: هو نفخ الروح فيه. وقال قتادة: نبات الأسنان والشعر. وروى ابن جريج عن مجاهد: أنه استواء الشباب. وعن الحسن قال: ذكراً أو أُنثى. وروى العوفي عن ابن عباس: أن ذلك تصريف أحواله بعد الولادة من الاستهلال إلى الارتضاع، إلى القعود إلى القيام، إلى المشي إلى الفطام، إلى أن يأكل ويشرب، إلى أن يبلغ الحلم، ويتقلّب في البلاد إلى ما بعدها. ﴿فتبارك

معناه أنت تقدّر الأمور وتقطعها وغيرك لا يفعل ذلك فعلى هذا يكون معنى الآية الله أحسن المقدرين. وجواب آخر وهو أنّ عيسى عليه الصلاة والسلام خلق طيراً وسمّى نفسه خالقاً بقوله ﴿**إني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير**﴾ فقال ﴿**فتبارك الله أحسن الخالقين**﴾ ﴿**ثم إنكم بعد ذلك**﴾ أي بعد ما ذكر من تمام الخلق ﴿**لميتون**﴾ أي عند انقضاء آجالكم ﴿**ثم إنكم يوم القيامة تبعثون**﴾ أي للحساب والجزاء. قوله عزّ وجلّ ﴿**ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق**﴾ يعني سبع سموات طرائق لأن بعضها فوق بعض وقيل لأنها طرائق الملائكة في الصعود والهبوط ﴿**وما كنا عن الخلق غافلين**﴾ يعني بل كنا لهم حافظين من أن تسقط السماء عليهم فتهلكهم. وقيل معناه بنينا فوقهم سماء أطلعنا فيها الشمس والقمر والكواكب. وقيل ما تركناهم سدى بغير أمر ونهي وقيل معناه إنما خلقنا السماء فوقهم لتنزل عليهم الأرزاق والبركات منها. وقيل معناه وما كنا عن الخلق غافلين أي عن أعمالهم وأقوالهم وضمائرهم لا تخفى علينا خافية ﴿**وأنزلنا من السماء ماء بقدر**﴾ أي يعلمه الله من حاجتهم إليه وقيل بقدر ما يكفيهم لمعايشهم في الزرع والغرس والشرب وأنواع المنفعة ﴿**فأسكناه في الأرض**﴾ يعني ما يبقى في الغدران والمستنقعات مما ينتفع به الناس في الصيف عند انقطاع المطر. وقيل أسكناه في الأرض ثم أخرجناه منها ينابيع كالعيون والآبار فكل ماء في الأرض من السماء ﴿**وإنّا على ذهاب به لقادرون**﴾ وصح من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنّ رسول الله ﷺ قال: «سيحان وجيحان والفرات والنيل كل من أنهار الجنة» أخرجه مسلم. وعن ابن عباس عن النبيّ ﷺ قال: «إنّ الله عزّ وجلّ أنزل من الجنة خمسة أنهار سيحون وجيحون ودجلة والفرات والنيل، أنزلها الله عزّ وجلّ من عين واحدة من عيون الجنة من أسفل

الله ﴾، أي: استحقّ التعظيم والثناء بأنه لم يزل ولا يزال. ﴿ **أحسنُ الخالقين** ﴾، المصوّرين والمقدّرين. والخلق في اللغة التقدير. وقال مجاهد: يصنعون ويصنع الله والله خير الصانعين، يقال: رجل خالق أي: صانع. وقال ابن جريج: إنما جمع الخالقين لأنّ عيسى كان يخلق كما قال: ﴿إني أخلق لكم من الطين﴾ [آل عمران: ٤٩] فأخبر الله عن نفسه بأنه أحسن الخالقين. ﴿ **ثم إنّكم بعد ذلك لميتون** ﴾، والميت بالتشديد، والمائت الذي لم يمت بعد وسيموت، والميت بالتخفيف من مات، ولذلك لم يجز التخفيف ههنا.

كقوله: ﴿ إنّك ميت وإنّهم ميتون ﴾ [الزّمر: ٣٠].

﴿ **ثم إنكم يوم القيامة تُبعثون** ﴾.

﴿ **ولقد خلقنا فوقكم سبعَ طرائق** ﴾، أي: سبع سمٰوات، سُمّيت طرائق لتطارقها وهو أن بعضها فوق بعض، يقال: طارقت النعل إذا جعلت بعضه فوق بعض. وقيل: سُمّيت طرائق لأنها طرائق الملائكة. ﴿ **وما كنّا عن الخلق غافلين** ﴾، أي كنّا لهم حافظين من أن تسقط السماء عليهم فتهلكهم كما قال الله تعالى: ﴿ ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلّا بإذنه ﴾ [الحج: ٦٥]. وقيل: ما تركناهم سدىً بغير أمر ونهي. وقيل: وما كنّا عن الخلق غافلين أي بنينا فوقهم سماء أطلعنا فيها الشمس والقمر والكواكب.

﴿ **وأنزلنا من السماء ماء بقدر** ﴾، يعلمه الله. قال مقاتل: بقدر ما يكفيهم للمعيشة، ﴿ **فأسكنّاه في الأرض** ﴾، يريد ما يبقى في الغدران والمستنقعات ينتفع به الناس في الصيف عند انقطاع المطر. وقيل: فأسكنّاه في الأرض ثم أخرجنا منها ينابيع، فماء الأرض كله في السماء، ﴿ **وإنّا على ذهابٍ به لقادرون** ﴾، حتى تهلكوا عطشاً وتهلك مواشيكم وتخرب أراضيكم. وفي الخبر: أن الله عزّ وجلّ أنزل أربعة أنهار من الجنة سيحان وجيجان ودجلة والفرات. وروى مقاتل بن حيان عن عكرمة عن ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال: «إنّ الله عزّ وجلّ أنزل من الجنة خمسة أنهار جيحون وسيحون ودجلة والفرات والنيل أنزلها الله عزّ وجلّ من عين واحدة من عيون الجنة من

درجة من درجاتها على جناحي جبريل استودعها الجبال وأجراها في الأرض وجعل فيها منافع للناس فذلك قوله ﴿**وأنزلنا من السماء ماء بقدر فأسكناه في الأرض**﴾ فإذا كان عند خروج يأجوج ومأجوج أرسل الله عزّ وجلّ جبريل فرفع من الأرض القرآن والعلم كله والحجر الأسود من ركن البيت ومقام إبراهيم وتابوت موسى بما فيه وهذه الأنهار الخمسة فيرفع كل ذلك إلى السماء فذلك قوله تعالى ﴿**وإنّا على ذهاب به لقادرون**﴾ فإذا رفعت هذه الأشياء كلها من الأرض فقد أهلها خير الدين والدنيا وروى هذا الحديث البغوي في تفسيره. وقال روى هذا الحديث الإمام الحسن بن سفيان بن عثمان بن سعيد بالإجازة عن سعيد بن سابق الإسكندراني عن مسلمة بن علي عن مقاتل بن حيّان عن عكرمة عن ابن عباس. ثم ذكر ما أنبت بالماء فقال تعالى:

فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ
سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ
وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ
إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ
شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ
حِينٍ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا
وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَٰطِبْنِى
فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ
ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾

﴿**فأنشأنا لكم به**﴾ أي بالماء ﴿**جنات**﴾ أي بساتين ﴿**من نخيل وأعناب**﴾ إنما أفردهما بالذكر لكثرة منافعهما فإنهما يقومان مقام الطعام والإدام والفواكه رطباً ويابساً ﴿**لكم فيها**﴾ أي في الجنات ﴿**فواكه كثيرة ومنها تأكلون**﴾ أي شتاءً وصيفاً ﴿**وشجرة**﴾ أي وأنشأنا لكم شجرة وهي الزيتون ﴿**تخرج من طور سيناء**﴾ أي من جبل مبارك وقيل من

أسفل درجة من درجاتها على جناحي جبريل استودعها الله الجبال وأجراها في الأرض وجعل فيها منافع للناس، فذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿ **وأنزلنا من السماء ماء بقدر فأسكنّاه في الأرض** ﴾، فإذا كان عند خروج يأجوج ومأجوج أرسل الله جبريل فرفع من الأرض القرآن، والعلم كله والحجر الأسود من ركن البيت، ومقام إبراهيم وتابوت موسى بما فيه، وهذه الأنهار الخمسة فيرفع كل ذلك إلى السماء، فذلك قوله تعالى: ﴿ **وإنّا على ذهاب به لقادرون** ﴾ «فإذا رفعت هذه الأشياء من الأرض فقد أهلها خير الدين والدنيا». وروى هذا الحديث الإمام الحسن بن سفيان عن عثمان بن سعيد بالإجازة عن سعيد بن سابق الإسكندراني عن مسلمة بن علي عن مقاتل بن حيان.

قوله تعالى: ﴿ **فأنشأنا لكم به** ﴾، يعني بالماء، ﴿ **جنّات من نخيل وأعناب لكم فيها** ﴾، في الجنّات، ﴿ **فواكه كثيرة ومنها تأكلون** ﴾، شتاءً وصيفاً، وخصّ النخيل والأعناب بالذكر لأنها أكثر فواكه العرب.

﴿ **وشجرة** ﴾ أي: أنشأ لكم شجرة ﴿ **تخرج من طور سيناء** ﴾، وهي الزيتون، قرأ أهل الحجاز وأبو عمرو ﴿ **سيناء** ﴾ بكسر السين. وقرأ الآخرون بفتحها، واختلفوا في معناه وفي ﴿ سنين ﴾ [المؤمنون: ١١٢] في قوله

جبل حسن قيل هو بالنبطية وقيل بالحبشية وقيل السريانية ومعناه الجبل الملتف بالأشجار. وقيل كل جبل فيه أشجار مثمرة يسمى سيناء وسينين وقيل هو من السناء وهو الارتفاع وهو الجبل الذي منه نودي موسى بين مصر وأيلة وقيل هو جبل فلسطين وقيل سيناء اسم حجارة بعينها أضيف الجبل إليها لوجودها عنده. وقيل هو اسم المكان الذي فيه هذا الجبل ﴿**تنبت بالدهن**﴾ أي تنبت وفيها الدهن وقيل تنبت بثمر الدهن وهو الزيت ﴿**وصبغ للآكلين**﴾ الصبغ الأدام الذي يكون مع الخبز ويصبغ به جعل الله في هذه الشجرة المباركة أدماً وهو الزيتون ودهناً وهو الزيت وخصّ جبل الطور بالزيتون لأنه منه نشأ وقيل إن أول شجرة نبتت بعد الطوفان الزيتون وقيل إنها تبقى في الأرض نحو ثلاثة آلاف سنة. قوله عزّ وجلّ ﴿**وإن لكم في الأنعام لعبرة**﴾ أي آية تعتبرون بها ﴿**نسقيكم مما في بطونها**﴾ أي ألبانها ووجه الاعتبار فيه أن اللبن يخلص إلى الضرع من بين فرث ودم بإذن الله تعالى ليس فيه منهما شيء فيستحيل إلى الطهارة وإلى طعم يوافق الشهوة والطبع ويصير غذاء، وتقدّم بسط الكلام بما فيه كفاية في سورة النحل ﴿**ولكم فيها منافع كثيرة ومنها تأكلون**﴾ يعني كما تنتفعون بها وهي حية فكذلك تنتفعون بها بعد الذبح للأكل ﴿**وعليها**﴾ أي وعلى الإبل ﴿**وعلى الفلك تحملون**﴾ أي على الإبل في البر وعلى السفن في البحر. قوله تعالى ﴿**ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره**﴾ أي ما لكم معبوداً سواه ﴿**أفلا تتقون**﴾ أي أفلا تخافون عقابه إذا عبدتم غيره ﴿**فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما هذا إلا بشر مثلكم**﴾ أي آدمي مثلكم مشارك لكم في جميع الأمور ﴿**يريد أن**

تعالى: ﴿ وطور سينين ﴾ [التين: ٢] قال مجاهد: معناه البركة، أي: من جبل مبارك. وقال قتادة: معناه الحسن، أي من الجبل الحسن. وقال الضحاك: هو بالنبطية، ومعناه الحسن: وقال عكرمة: هو بالحبشية. وقال الكلبي: معناه الشجر، أي: جبل ذو شجر. وقيل: هو بالسريانية الملتفّة بالأشجار. وقال مقاتل: كل جبل فيه أشجار مثمرة فهو سينا، وسينين بلغة النبط. وقيل: هو فيعال من السناء وهو الارتفاع قال ابن زيد: هو الجبل الذي نُودي منه موسى بين مصر وأيلة. وقال مجاهد: سينا اسم حجارة بعينها أُضيف الجبل إليها لوجودها عنده. وقال عكرمة: هو اسم المكان الذي فيه هذا الجبل، ﴿**تَنْبُتُ بالدُّهن**﴾، قرأ ابن كثير وأهل البصرة ويعقوب تنبت بضمّ التاء وكسر الباء وقرأ الآخرون بفتح التاء وضمّ الباء، فمَن قرأ بفتح التاء فمعناه تنبت تثمر الدهن وهو الزيتون. وقا : تنبت ومعها الدهن، ومَن قرأ بضم التاء، اختلفوا فيه فمنهم مَن قال: الباء زائدة معناه تنبت الدهن كما يقال أخذت ثوبه وأخذت بثوبه، ومنهم مَن قال: نبت وأنبت لغتان بمعنى واحد، كما قال زهير:

رأيتُ ذوي الحاجاتِ حولَ بيوتهم قطيناً لهم حتى إذا أنبت البقل

أي: نبت، ﴿ **وصِبْغٍ للآكلين** ﴾، الصبغ والصباغ الإدام الذي لون الخبز إذا غُمِّس فيه ينصبـغ، والإدام كلّ ما يُؤكل مع الخبز سواء ينصبغ به الخبز ولا يُصبَغ. قال مقاتل: جعل الله في هذه الشجرة أدماً ودُهناً، فالأدم: الزيتون، والدهن: الزيت، وقال: خُصّ الطور بالزيتون لأن أول الزيتون نبت بها. ويقال: لأن الزيتون أول شجرة نبتت في الدنيا بعد الطوفان.

قوله سبحانه وتعالى: ﴿ **وإنّ لكم في الأنعام لعبرة** ﴾، يعني: آية تعتبرون بها، ﴿ **نسقيكم** ﴾، قرأ العامّة بالنون، وقرأ أبو جعفر ههنا بالتاء وفتحها، ﴿ **مما في بطونها ولكم فيها منافعُ كثيرةٌ ومنها تأكلون** ﴾.

﴿ **وعليها وعلى الفلك تحملون** ﴾، يعني: على الإبل في البر وعلى الفلك في البحر.

﴿ **ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله** ﴾، وحّدوه، ﴿ **ما لكم من إلَهٍ غيـره** ﴾، معبود سواه، ﴿ **أفلا تتقون** ﴾، أفلا تخافون عقوبته إذا عبدتم غيره.

يتفضل عليكم أي إنه يحب الشرف والرياسة متبوعاً وأنتم له تبع **﴿ولو شاء الله لأنزل ملائكة﴾** يعني بإبلاغ الوحي **﴿ما سمعنا بهذا﴾** يعني الذي يدعونا إليه نوح **﴿في آبائنا الأولين إن هو إلا رجل به جنة﴾** يعني جنون **﴿فتربصوا به حتى حين﴾** يعني إلى الموت فتستريحوا منه **﴿قال رب انصرني بما كذبون﴾** يعني أعني بإهلاكهم بتكذيبهم إياي **﴿فأوحينا إليه أن اصنع الفلك بأعيننا﴾** يعني بمرأى منا قاله ابن عباس. وقيل بعلمنا وحفظنا لئلا يتعرض له أحد ولا يفسد عليه عمله **﴿ووحينا﴾** قيل: إن جبريل علمه عمل السفينة ووصف له كيفية اتخاذها **﴿فإذا جاء أمرنا﴾** يعني عذابنا **﴿وفار التنور﴾** قيل هو التنور الذي يخبز فيه وكان من حجارة، وقيل التنور هو وجه الأرض والمعنى أنك إذا رأيت الماء يفور من التنور **﴿فاسلك فيها﴾** يعني فأدخل في السفينة **﴿من كل زوجين اثنين﴾** يعني من كل حيوان ذكر وأنثى **﴿وأهلك﴾** يعني وسائر من آمن بك **﴿إلا من سبق عليه القول﴾** يعني وجب عليه العذاب **﴿منهم﴾** يعني الكفار وقيل أراد بأهله أهل بيته خاصة والذي سبق عليه القول منهم هو ابنه كنعان **﴿ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون﴾** قوله عزّ وجلّ **﴿فإذا استويت﴾** يعني اعتدلت **﴿أنت ومن معك على الفلك﴾** يعني في السفينة **﴿فقل الحمد لله الذي نجانا من القوم الظالمين﴾** يعني الكافرين **﴿وقل رب أنزلني منزلاً مباركاً﴾** قيل موضع النزول وهو السفينة عند الركوب. وقيل هو وجه الأرض بعد الخروج من السفينة وأراد بالبركة النجاة من الغرق وكثرة النسل بعد الإنجاء **﴿وأنت خير المنزلين﴾** معناه أنه قد يكون الإنزال من غير الله كما يكون من الله فحسن أن يقول وأنت خير المنزلين لأنه يحفظ من أنزله ويكلؤه في سائر أحواله ويدفع عنه المكره بخلاف منزل الضيف فإنه لا يقدر على ذلك.

إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ۝٣٠ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ۝٣١ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُوا۟

﴿ فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما هذا إلّا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم ﴾، يعني: يتشرّف بأن يكون له الفضل عليكم فيصير متبوعاً وأنتم له تُبَع، **﴿ ولو شاء الله ﴾**، أن لا يعبد سواه، **﴿ لأنزل ملائكة ﴾**، يعني بإبلاغ الوحي **﴿ ما سمعنا بهذا ﴾**، الذي يدعونا إليه نوح **﴿ في آبائنا الأوّلين ﴾**، وقيل: ما سمعنا بهذا أي: بإرسال بشر رسولاً.

﴿ إنْ هو إلّا رجل بِهِ جِنَّةٌ ﴾، يعني: جنون، **﴿ فتربصوا به حتى حين ﴾**، يعني إلى أن يموت فتستريحوا منه.

﴿ قال ربِّ انصرني بما كذبون ﴾، يعني: أعني بإهلاكهم لتكذيبهم إيّاي.

﴿ فأوحينا إليه أن اصنع الفلك بأعيننا ووحينا فإذا جاء أمرنا وفار التنّور فاسلك فيها ﴾، أدخل فيها، يقال سلكته في كذا وأسلكته فيه، **﴿ من كل زوجين اثنين وأهلك إلّا مَن سبق عليه القول منهم ﴾**، يعني مَن سبق عليه الحكم بالهلاك.

﴿ ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون ﴾.

﴿ فإذا استويت ﴾، اعتدلت **﴿ أنت ومَن معك على الفلك فقل الحمد لله الذي نجّانا من القوم الظالمين ﴾**، يعني الكافرين.

﴿ وقل ربِّ أنزلني منزلاً مباركاً ﴾، قرأ أبو بكر عن عاصم **﴿ منزلاً ﴾** بفتح الميم وكسر الزاي، أي يريد موضع النزول، وقيل: هذا هو السفينة بعد الركوب، وقيل: هو الأرض بعد النزول، ويحتمل أنه أراد في السفينة، ويحتمل بعد الخروج، وقرأ الباقون منزلاً بضمّ الميم وفتح الزاي، أي إنزالاً مباركاً، فالبركة في السفينة النجاة وفي النزل بعد الخروج كثرة النسل من أولاده الثلاثة، **﴿ وأنت خير المنزلين ﴾**.

ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ
ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا
لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ ۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ
هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ
بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ ﴿٤٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ
فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ ﴿٤٢﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا
يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٤٣﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا
لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾

﴿إن في ذلك﴾ يعني الذي ذكر من أمر نوح والسفينة وإهلاك أعداء الله ﴿لآيات﴾ يعني دلالات على قدرتنا ﴿وإن كنا﴾ يعني وما كنا ﴿لمبتلين﴾ يعني إلا مختبرين إياهم بإرسال نوح ووعظه وتذكيره لننظر ما هم عاملون قبل نزول العذاب بهم. قوله تعالى ﴿ثم أنشأنا من بعدهم﴾ يعني من بعد إهلاكهم ﴿قرناً آخرين﴾ يعني عاداً ﴿فأرسلنا فيهم رسولاً منهم﴾ يعني هوداً قاله أكثر المفسرين وقيل القرن ثمود والرسول صالح والأول أصح ﴿أن اعبدوا الله ما لكم من

﴿ إن في ذلك ﴾، يعني الذي ذكرت من أمر نوح والسفينة وإهلاك أعداء الله، ﴿ لآيات ﴾، لدلالات على قدرته، ﴿ وإنْ كنّا لمبتَلين ﴾، يعني: وقد كنّا. وقيل: وما كنّا إلّا مبتلين أي: مختبرين إيّاهم بإرسال نوح ووعظه وتذكيره لننظر ما هم عاملون قبل نزول العذاب بهم.

﴿ ثم أنشأنا من بعدهم ﴾، من بعد إهلاكهم، ﴿ قرناً آخرين ﴾.

﴿فأرسلنا فيهم رسولاً منهم ﴾، يعني هوداً وقومه. وقيل: صالحاً وقومه. والأول أظهر، ﴿ أن اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون ﴾.

﴿ وقال الملأ من قومه الذين كفروا وكذّبوا بلقاء الآخرة ﴾، أي المصير إلى الآخرة، ﴿ وأترفناهم ﴾، نعمناهم ووسعنا عليهم، ﴿ في الحياة الدنيا ما هذا إلّا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون ﴾، يعني مما تشربون منه.

﴿ ولئن أطعتم بشراً مثلكم إنكم إذاً لخاسرون ﴾، لمغبونون.

﴿ أيعدكم أنكم إذا متّم وكنتم تراباً وعظاماً أنكم مخرجون ﴾، من قبوركم أحياءً وأعاد أنكم لمّا طال الكلام، ومعنى الكلام: أيعدكم أنكم إذا متّم وكنتم تراباً وعظاماً مخرجون؟ وكذلك هو في قراءة عبد الله، نظيره في القرآن ﴿ ألم يعلموا أنه مَن يحادد الله ورسولَه فأن له نار جهنّم خالداً فيها ﴾[التوبة: ٦٣].

﴿هيهاتَ هيهات لِما تُوعدون﴾، قال ابن عباس: هي كلمة بُعد، أي: بعيد ما توعدون، قرأ أبو جعفر ﴿ هيهات هيهات ﴾ بكسر التاء، وقرأ نصر بن عاصم بالضم، وكلها لغات صحيحة فمَن نصب جعله مثله أين وكيف، ومَن رفع جعله مثل منذ وقطّ وحيث، ومَن كسر جعله مثل أمس وهؤلاء، ووقف عليها أكثر القرّاء بالتاء، ويُروى عن الكسائي الوقف عليها بالهاء.

إله غيره أفلا تتقون﴾ يعني هذه الطريقة التي أنتم عليها مخافة العذاب ﴿وقال الملأ من قومه الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة﴾ يعني بالمصير إليها ﴿وأترفناهم﴾ يعني نعمناهم ووسعنا عليهم ﴿في الحياة الدنيا ما هذا إلا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون ويشرب مما تشربون﴾ يعني من مشربكم ﴿ولئن أطعتم بشراً مثلكم إنكم إذاً لخاسرون﴾ يعني لمغبونون ﴿أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم تراباً وعظاماً أنكم مخرجون﴾ يعني من قبوركم أحياء ﴿هيهات هيهات﴾ قال ابن عباس أي بعيد بعيد ﴿لما توعدون﴾ استبعد القوم بعثهم بعد الموت إغفالاً منهم للتفكر في بدء أمرهم وقدرة الله على إيجادهم وأرادوا بهذا الاستبعاد أنه لا يكون أبداً ﴿إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا﴾ قيل معناه نحيا ونموت لأنهم كانوا ينكرون البعث وقيل يموت الآباء ويحيا الأبناء وقيل معناه يموت قوم ويحيا قوم ﴿وما نحن بمبعوثين﴾ يعني بعد الموت ﴿إن هو﴾ يعنون رسولهم ﴿إلا رجل افترى على الله كذباً وما نحن له بمؤمنين﴾ يعني بمصدقين بالبعث بعد الموت ﴿قال رب انصرني بما كذبون قال عمّا قليل ليصبحن﴾ يعني ليصيرن ﴿نادمين﴾ على كفرهم وتكذيبهم ﴿فأخذتهم الصيحة بالحق﴾ يعني صيحة العذاب وقيل صاح بهم جبريل فتصدعت قلوبهم وقيل أراد بالصيحة الهلاك ﴿فجعلناهم غثاء﴾ هو ما يحمله السيل من حشيش وعيدان شجر، والمعنى صيرناهم هلكى فيبسوا يبس الغثاء من نبات الأرض ﴿فبعداً﴾ يعني ألزمنا بعداً من الرحمة ﴿للقوم الظالمين﴾. قوله عز وجل ﴿ثم أنشأنا من بعدهم قروناً آخرين﴾ يعني أقواماً آخرين ﴿ما تسبق من أمة أجلها﴾ يعني وقت هلاكها ﴿وما يستأخرون﴾ يعني عن وقت هلاكهم

﴿ إنْ هي ﴾، يعنون الدنيا، ﴿ إلاّ حياتنا الدنيا نموت ونحيا ﴾، قيل فيه تقديم وتأخير، أي: نحيا ونموت لأنهم كانوا ينكرون البعث بعد الموت. وقيل: يموت الآباء ويحيا الأبناء. وقيل: يموت قوم ويحيا قوم. ﴿ وما نحن بمبعوثين ﴾، بمنشَرين بعد الموت.

﴿ إنْ هو ﴾، يعني الرسول، ﴿ إلاّ رجل افترى على الله كذباً وما نحن له بمؤمنين ﴾، بمصدّقين بالبعث بعد الموت.

﴿ قال ربِّ انصرني بما كذبون ﴾. ﴿ قال عمّا قليل ﴾، أي: عن قليل ﴿ وما ﴾ صلة، ﴿ ليصبِحُنّ ﴾، ليصيرنّ، ﴿ نادمين ﴾، على كفرهم وتكذيبهم.

﴿ فأخذتهم الصيحة ﴾، يعني صيحة العذاب، ﴿ بالحق ﴾، قيل: أراد بالصيحة الهلاك. وقيل: صاح بهم جبريل صيحة فتصدّعت قلوبهم، ﴿ فجعلناهم غُثاءً ﴾، وهو ما يحمله السيل من حشيش وعيدان شجر، معناه: صيّرناهم هلكَى فيبسوا يبس الغثاء من نبات الأرض، ﴿ فبُعداً للقوم الظالمين ﴾.

﴿ ثم أنشأنا من بعدهم قروناً آخرين ﴾، يعني: أقواماً آخرين.

﴿ ما تسبق من أمة أجلَها ﴾، يعني: ما تسبق أمة أجلها، ﴿ ومن ﴾ صلة أي: وقت هلاكها، ﴿ وما يستأخِرُون ﴾، وما يتأخرون عن وقت هلاكهم.

﴿ ثم أرسلنا رسلنا تترى ﴾، يعني: مترادفين يتبع بعضهم بعضاً غير متواصلين، لأن بين كل نبيّين زماناً طويلاً وهي فعلى من المواترة، قال الأصمعي: يقال واترت الخبر إذا اتّبعت بعضه بعضاً وبين الخبرين مهملة. واختلف القرّاء فيه، فقرأ أبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو بالتنوين ويعقوب بالألف، ولا يميله أبو عمرو في الوقف فيها كالألف في قولهم رأيت زيداً، وقرأ الباقون بلا تنوين، والوقف عندهم يكون بالياء ويميله حمزة والكسائي، وهو مثل قولهم غضبَى وسكرَى، وهو اسم جمع مثل شتّى، وعلى القراءتين التاء الأولى بدل من الواو وأصله وترى من المواترة والتواتر، فجعلت الواو وتاء مثل التقوى والتكلان، ﴿ كل ما جاء أمة رسولها كذّبوه فأتبعنا بعضهم بعضاً ﴾،

﴿ثم أرسلنا رسلنا تترى﴾ يعني مترادفين يتبع بعضهم بعضاً غير متواصلين لأن بين كل رسولين زمناً طويلاً ﴿كلما جاء أمة رسولها كذبوه فأتبعنا بعضهم بعضاً﴾ يعني بالهلاك فأهلكنا بعضهم في أثر بعض ﴿وجعلناهم أحاديث﴾ يعني سمراً وقصصاً يتحدث من بعدهم بأمرهم وشأنهم ﴿فبعداً لقوم لا يؤمنون﴾. قوله تعالى:

ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾ فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾

﴿ثم أرسلنا موسى وأخاه هارون بآياتنا وسلطان مبين﴾ يعني بحجة بينة كالعصا واليد وغيرهما ﴿إلى فرعون وملئه فاستكبروا﴾ يعني تعظموا عن الإيمان ﴿وكانوا قوماً عالين﴾ يعني متكبرين قاهرين غيرهم بالظلم ﴿قالوا﴾ يعني فرعون وقومه ﴿أنؤمن لبشرين مثلنا﴾ يعنون موسى وهارون ﴿وقومهما لنا عابدون﴾ يعني مطيعون متذللون ﴿فكذبوهما فكانوا من المهلكين﴾ يعني بالغرق ﴿ولقد آتينا موسى الكتاب﴾ يعني التوراة ﴿لعلهم يهتدون﴾ يعني لكي يهتدي به قومه. قوله عزّ وجلّ ﴿وجعلنا ابن مريم وأمه آية﴾ يعني دلالة على قدرتنا لأنه خلقه من غير ذكر وأنطقه في المهد. فإن قلت لم قال آية ولم يقل آيتين. قلت معناه جعلنا شأنهما آية لأن عيسى ولد من غير ذكر وكذلك مريم ولدته من غير ذكر فاشتركا في هذه الآية فكانت آية واحدة ﴿وآويناهما إلى ربوة﴾ يعني مكان مرتفع قيل هي دمشق وقيل هي

بالهلاك: أي: أهلكنا بعضهم في إثر بعض، ﴿وجعلناهم أحاديث﴾، يعني سمراً وقصصاً يتحدث مَن بعدهم بأمرهم وشأنهم، وهي جمع أُحدوثة، وقيل: جمع حديث. قال الأخفش: إنما هو في الشر وأما في الخير فلا يقال جعلتهم أحاديث وأُحدوثة إنما يقال صار فلان حديثاً، ﴿فبُعداً لقوم لا يؤمنون﴾.

﴿ثم أرسلنا موسى وأخاه هارون بآياتنا وسلطان مبين﴾، يعني بحجة بيِّنة من اليد والعصا. وغيرهما.

﴿إلى فرعون وملئه فاستكبروا﴾، تعظموا عن الإيمان، ﴿وكانوا قوماً عالين﴾، متكبّرين قاهرين بالظلم.

﴿فقالوا﴾، يعني فرعون وقومه، ﴿أنؤمن لبشرين مثلنا﴾، يعني: موسى وهارون، ﴿وقومُهما لنا عابدون﴾، مطيعون متذلّلون والعرب تسمّي كلّ مَن دان للملك عابداً له.

﴿فكذّبوهما فكانوا من المهلَكين﴾، بالغرق.

﴿ولقد آتينا موسى الكتاب﴾، التوراة، ﴿لعلّهم يهتدون﴾، أي لكي يهتدي به قومه.

﴿وجعلنا ابنَ مريمَ وأُمَّه آيةً﴾، دلالة على قدرتنا، ولم يقل آيتين: قيل: معناه شأنهما آية. وقيل: معناه جعلنا كل واحد منهما آية، كقوله تعالى: ﴿كلتا الجنتين آتت أُكلها﴾ [الكهف: ٣٣]. ﴿وآويناهما إلى ربوةٍ﴾،

الرملة وقيل أرض فلسطين وقال ابن عباس هي بيت المقدس. قال كعب بيت المقدس أقرب الأرض إلى السماء بثمانية عشر ميلاً. وقيل هي مصر وسبب الأيواء أنها فرت بابنها إليها. وقوله ﴿**ذات قرار**﴾ يعني منبسطة واسعة يستقر عليها ساكنوها ﴿**ومعين**﴾ هو الماء الجاري الذي تراه العيون. قوله تعالى ﴿**يا أيها الرسل كلوا من الطيبات**﴾ قيل أراد بالرسل محمداً ﷺ وحده وقيل أراد به عيسى عليه السلام وقيل أراد جميع الرسل وأراد بالطيبات الحلال ﴿**واعملوا صالحاً**﴾ أي استقيموا على ما يوجبه الشرع ﴿**إني بما تعملون عليم**﴾ فيه تحذير من مخالفة ما أمرهم به وإذا كان الرسل مع علو شأنهم كذلك فلأن يكون تحذيراً لغيرهم أولى لما روي عن أبي هريرة أنّ رسول الله ﷺ قال: «إنّ الله تعالى طيب لا يقبل إلا طيباً وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال ﴿**يا أيها الرسل كلوا من الطيبات**﴾ وقال ﴿**يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم**﴾ ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يده إلى السماء يا رب يا رب ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغذي بالحرام فأنّى يستجاب لذلك» أخرجه مسلم. قوله عزّ وجلّ ﴿**وإن هذه أمتكم**﴾ أي ملتكم وشريعتكم التي أنتم عليها ﴿**أمة واحدة**﴾ أي ملة واحدة وهي الإسلام ﴿**وأنا ربكم**

الربوة المكان المرتفع من الأرض، واختلفت الأقوال فيها، فقال عبد الله بن سلام: هي دمشق، وهو قول سعيد بن المسيب ومقاتل، وقال الضحاك: غوطة دمشق. وقال أبو هريرة: هي الرملة. وقال عطاء عن ابن عباس: هي بيت المقدس، وهو قول قتادة وكعب. وقال كعب: هي أقرب الأرض إلى السماء بثمانية عشر ميلاً. وقال ابن زيد: هي مصر. وقال السدي: أرض فلسطين. ﴿ ذات قرارٍ ﴾ أي: مستوية منبسطة واسعة يستقرّ عليها ساكنوها. ﴿ ومعين ﴾، فالمعين الماء الجاري الظاهر الذي تراه العيون، مفعول من عانه يعينه إذا أدركه البصر. قوله: ﴿ يا أيها الرُّسل ﴾، قال الحسن ومجاهد وقتادة والسدي والكلبي وجماعة: أراد به محمد ﷺ وحده على مذهب العرب في مخاطبة الواحد بلفظ الجماعة. وقال بعضهم: أراد به عيسى. وقيل: أراد به جميع الرسل عليهم السلام، ﴿ كُلُوا من الطيبات ﴾، أي الحلالات، ﴿ واعملوا صالحاً ﴾، الصلاح هو الاستقامة على ما توجبه الشريعة، ﴿ إني بما تعملون عليم ﴾.

﴿ وإنّ هذه ﴾ قرأ أهل الكوفة وإن بكسر الألف على الابتداء وقرأ الباقون بفتح الألف وخفّف ابن عامر النون وجعل إن صلة مجازه وهذه ﴿ أمتكم ﴾، وقرأ الباقون بتشديد النون على معنى وبأن هذا تقديره بأن هذه أمتكم، أي ملّتكم وشريعتكم التي أنتم عليها، ﴿ أمة واحدة ﴾، أي ملّة واحدة وهي الإسلام، ﴿ وأنا ربّكم فاتّقون ﴾، أي: اتقوني لهذا، وقيل: معناه أمرتكم بما أمرت به المرسلين من قبلكم فأمركم واحد ﴿ وأنا ربكم فاتقون ﴾، فاحذرون وقيل: هو نصب بإضمار فعل، أي: اعلموا أن هذه أمتكم أي ملّتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون.

﴿ فتقطعوا أمرهم ﴾، دينهم، ﴿ بينهم ﴾، أي: تفرّقوا فصاروا فِرقاً يهوداً ونصارى ومجوساً، ﴿ زُبراً ﴾ أي: فرقاً وقطعاً مختلفة، واحدها زبور وهو الفرقة والطائفة، ومثله الزبرة وجمعها زبر، ومنه: ﴿ زبر الحديد ﴾ [الكهف: ٩٦] أي: صاروا فرقاً كزبر الحديد. وقرأ بعض أهل الشام ﴿ زبراً ﴾ بفتح الباء، قال قتادة ومجاهد ﴿ زبراً ﴾ أي: كتباً يعني دان كل فريق بكتاب غير الكتاب الذي دان به الآخرون. وقيل: جعلوا كتبهم قطعاً مختلفة آمنوا بالبعض وكفروا بالبعض وحرّفوا البعض، ﴿ كل حزب بما لديهم ﴾، أي: بما عندهم منهم الذين، ﴿ فرحون ﴾، معجبون ومسرورون.

﴿ فذرهم في غمرتهم ﴾، قال ابن عباس: في كفرهم وضلالتهم، وقيل: عمايتهم، وقيل: غفلتهم ﴿ حتى حين ﴾، إلى أن يموتوا.

فاتقون﴾ أي فاحذورن وقيل معناه أمرتكم بما أمرت به المرسلين قبلكم فأمركم واحد وأنا ربكم فاتقون **﴿فتقطعوا﴾** أي تفرقوا فصاروا فرقاً يهوداً ونصارى ومجوساً وغير ذلك من الأديان المختلفة **﴿أمرهم﴾** أي دينهم **﴿بينهم زبراً﴾** أي فرقاً وقطعاً مختلفة وقيل معنى زبراً أي كتباً، والمعنى تمسك كل قوم بكتاب فآمنوا به وكفروا بما سواه من الكتب **﴿كل حزب بما لديهم فرحون﴾** أي مسرورون معجبون بما عندهم من الدين **﴿فذرهم﴾** الخطاب للنبيّ ﷺ **﴿في غمرتهم﴾** قال ابن عباس في كفرهم وضلالتهم وقيل في عمايتهم وغفلتهم **﴿حتى حين﴾** أي إلى أن يموتوا **﴿أيحبسون أنما نمدهم به من مال وبنين﴾** أي ما نعطيهم ونجعله لهم مدداً من المال والبنين في الدنيا **﴿نسارع لهم في الخيرات﴾** أي نعجل لهم ذلك في الخيرات ونقدمه ثواباً لأعمالهم لمرضاتنا عنهم **﴿بل لا يشعرون﴾** أي إن ذلك استدراج لهم ثم ذكر المسارعين في الخيرات فقال تعالى **﴿إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون﴾** أي خائفون، والمعنى أنّ المؤمنين بما هم عليه من خشية الله خائفون من عقابه. قال الحسن البصري المؤمن جمع إحساناً وخشية والمنافق جمع إساءة وأمناً **﴿والذين هم بآيات ربهم يؤمنون﴾** يعني يصدقون **﴿والذين هم بربهم لا يشركون والذين يؤتون ما آتوا﴾** أي يعطون ما أعطوا من الزكاة والصدقات. وقيل معناه يعملون ما عملوا من أعمال البر **﴿وقلوبهم وجلة﴾** أي خائفة أن ذلك لا ينجيهم من عذاب الله وأنّ أعمالهم لا تقبل منهم **﴿أنهم إلى ربهم راجعون﴾** أي إنهم يوقنون أنهم إلى الله صائرون. قال الحسن عملوا والله بالطاعات واجتهدوا فيها وخافوا أن ترد عليهم. عن عائشة قالت: «قلت يا رسول الله والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة هم الذين يشربون الخمر ويسرقون قال لا يا بنت الصدّيق ولكن هم الذين يصومون ويتصدّقون ويخافون أن لا يقبل منهم أولئك يسارعون في الخيرات» أخرجه الترمذي، وقوله:

﴿ أيحسبون أنما نمدّهم به من مال وبنين ﴾ ما نعطيهم ونجعله مدداً لهم من المال والبنين في الدنيا.

﴿ نُسارع لهم في الخيرات ﴾، أي: نعجل لهم في الخيرات ونقدّمها ثواباً لأعمالهم لمرضاتنا عنهم، **﴿ بل لا يشعرون ﴾**، إنّ ذلك استدراج لهم. ثم ذكر المسارعين في الخيرات فقال:

﴿ إنّ الذين هم من خشية ربهم مشفقون ﴾، أي: خائفون، والإشفاق: الخوف، والمعنى أن المؤمنين بما هم عليه من خشية الله خائفون من عقابه قال الحسن البصري: المؤمن مَن جمع إحساناً وخشيةً، والمنافق مَن جمع إساءة وأمناً.

﴿ والذين هم بآيات ربهم يؤمنون ﴾، يُصدِّقون.

﴿ والذين هم بربهم لا يشركون ﴾.

﴿ والذين يؤتون ما آتوا ﴾، أي: يعطون ما أُعطوا من الزكاة والصدقات، ورُوِيَ عن عائشة أنها كانت تقرأ **﴿ والذين يأتون ما أتوا ﴾** أي: يعملون ما عملوا من أعمال البرّ، **﴿ وقلوبهم وَجِلَة ﴾**، أن ذلك لا ينجيهم من عذاب الله وأن أعمالهم لا تُقبل منهم، **﴿ أنهم إلى ربهم راجعون ﴾**، لأنهم يوقنون أنهم يرجعون إلى الله عزّ وجلّ. وقال الحسن: عملوا لله بالطاعات واجتهدوا فيها، وخافوا أن تردّ عليهم. أخبرنا أبو سعيد الشريحي أنا أبو إسحاق الثعلبي أنا عبد الله بن يوسف أنا محمد بن حامد حدّثنا محمد بن الجهم أنا عبد الله بن عمرو، أنا وكيع عن مالك بن معون عن عبد الرحمن بن سعيد بن وهب عن عائشة رضي الله عنها قالت: قلت يا رسول الله: **﴿ والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وَجِلة ﴾** أهو الذي يزني ويشرب الخمر ويسرق؟ قال: «لا يا بنت الصدّيق، ولكنه الرجل يصوم ويصلّي ويتصدّق ويخاف أن لا يُقبَل منه».

أُولَٰئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾ وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ ﴿٦٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ ﴿٦٤﴾ لَا تَجْـَٔرُوا۟ ٱلْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾ قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾

﴿**أولئك يسارعون في الخيرات**﴾ أي يبادرون إلى الأعمال الصالحة ﴿**وهم لها سابقون**﴾ أي إليها وقال ابن عباس سبقت لهم من الله السعادة وقيل سبقوا الأمم إلى الخيرات. قوله عزّ وجلّ ﴿**ولا نكلف نفساً إلا وسعها**﴾ أي طاقتها من الأعمال، فمن لم يستطع القيام فليصل قاعداً ومن لم يستطع الصوم فليفطر ﴿**ولدينا كتاب**﴾ هو اللوح المحفوظ ﴿**ينطق بالحق**﴾ أي يبين الصدق والمعنى قد أثبتنا عمل كل عامل في اللوح المحفوظ فهو ينطق به ويبينه وقيل هو كتاب أعمال العباد التي تكتبها الحفظة ﴿**وهم لا يظلمون**﴾ أي لا ينقص من حسناتهم ولا يزاد على سيئاتهم ثم ذكر الكفار فقال تعالى ﴿**بل قلوبهم في غمرة**﴾ أي غفلة وجهالة ﴿**من هذا**﴾ يعني القرآن ﴿**ولهم أعمال**﴾ أي للكفار أعمال خبيثة من المعاصي والخطايا محكومة عليهم ﴿**من دون ذلك**﴾ يعني من دون أعمال المؤمنين التي ذكرها الله في

قوله عزّ وجلّ: ﴿ **أولئك يُسارعون في الخيرات** ﴾، يبادرون إلى الأعمال الصالحات، ﴿ **وهم لها سابقون** ﴾، أي: إليها سابقون، كقوله تعالى: ﴿ لما نهوا ﴾ [الأنعام: ٢٨، المجادلة: ٨] أي: إلى ما نهوا، ولمّا قالوا ونحوها، وقال ابن عباس في معنى هذه الآية: سبقت لهم من الله السعادة. وقال الكلبي: سبقوا الأمم إلى الخيرات.

قوله: ﴿ **ولا نُكلّف نفساً إلّا وسعها** ﴾، أي: طاقتها فمَن لم يستطع القيام فليصلِّ قاعداً ومَن لم يستطع الصوم فليفطر، ﴿ **ولدينا كتاب ينطق بالحق** ﴾، وهو اللوح المحفوظ ينطق بالحق يبيّن بالصدق، ومعنى الآية لا يكلّف الله نفساً إلّا وسعها إلّا ما أطاقت من العمل، وقد أثبتنا عمله في اللوح المحفوظ، فهو ينطق به ويبيّنه. وقيل: هو كتب أعمال العباد التي تكتبها الحفظة، ﴿ **وهم لا يظلمون** ﴾، ولا ينقص من حسناتهم ولا يُزاد على سيئاتهم، ثم ذكر الكفّار.

فقال: ﴿ **بل قلوبهم في غمرة** ﴾، أي: في غفلة وجهالة، ﴿ **من هذا** ﴾، أي: من القرآن، ﴿ **ولهم أعمال من دون ذلك** ﴾، أي: للكفّار أعمال خبيثة من المعاصي، والخطايا محكومة عليهم من دون ذلك، يعني من دون أعمال المؤمنين التي ذكرها الله تعالى في قوله: ﴿ **إن الذين هم من خشية ربّهم مشفقون** ﴾، ﴿ **هم لها عاملون** ﴾، لا بدّ لهم من أن يعملوها فيدخلوا بها النار لما سبق لهم من الشقاوة هذا قول أكثر المفسّرين. وقال قتادة: هذا ينصرف إلى المسلمين وأن لهم أعمالاً سوى ما عملوا من الخيرات هم لها عاملون، والأول أظهر.

﴿ **حتى إذا أخذنا مُترَفيهم** ﴾، أي: أخذنا أغنياءهم ورؤساءهم، ﴿ **بالعذاب** ﴾، قال ابن عباس: هو السيف يوم بدر. وقال الضحاك: يعني الجوع حين دعا عليهم رسول الله ﷺ، فقال: «اللّهمّ اشدد وَطْأتك على مُضَر،

قوله ﴿إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون﴾ ﴿هم﴾ يعني الكفار ﴿لها﴾ أي لتلك الأعمال الخبيثة ﴿عاملون﴾ أي لا بد لهم من أن يعملوها فيدخلوا بها النار لما سبق لهم في الأزل من الشقاوة ﴿حتى إذا أخذنا مترفيهم﴾ أي رؤساءهم وأغنياءهم ﴿بالعذاب﴾ قال ابن عباس: هو السيف يوم بدر وقيل هو الجوع حين دعا عليهم رسول الله ﷺ فقال: «اللهم اشدد وطأتك على مضر واجعلها سنين كسني يوسف فابتلاهم الله بالقحط حتى أكلوا الكلاب والجيف» ﴿إذا هم يجأرون﴾ أي يصيحون ويستغيثون ويجزعون ﴿لا تجأروا اليوم﴾ يعني لا تجزعوا ولا تضجوا اليوم ﴿إنكم منا لا تنصرون﴾ يعني لا تمنعون منا ولا ينفعكم تضرعكم ﴿قد كانت آياتي تتلى عليكم﴾ يعني القرآن ﴿فكنتم على أعقابكم تنكصون﴾ يعني ترجعون القهقرى وتتأخرون عن الإيمان ﴿مستكبرين به﴾ قال ابن عباس: أي بالبيت الحرام كناية عن غير مذكور أي مستعظمين بالبيت وذلك أنهم كانوا يقولون نحن أهل حرم الله وجيران بيته فلا يظهر علينا أحد ولا نخاف أحداً فيأمنون فيه وسائر الناس في الخوف. وقيل مستكبرين به أي بالقرآن فلم يؤمنوا به والقول الأول أظهر ﴿سامراً﴾ يعني أنهم يسمرون بالليل حول البيت وكان عامة سمرهم ذكر القرآن وتسميته سحراً أو شعراً ونحو ذلك من القول فيه وفي النبيّ ﷺ وهو قوله ﴿تهجرون﴾ من الإهجار وهو الإفحاش في القول وقيل معنى تهجرون تعرضون عن النبيّ ﷺ وعن الإيمان به وبالقرآن وقيل هو من الهجر وهو القول القبيح أي تهذون وتقولون ما لا تعلمون ﴿أفلم يدبروا القول﴾ يعني أفلم يتدبروا ما جاءهم من القرآن فيعتبرون بما فيه من الدلالات الواضحة على صدق محمد ﷺ ﴿أم جاءهم ما لم يأت آباءهم الأولين﴾ يعني فأنكروا يريد إنا قد بعثنا من قبلهم رسلاً إلى قومهم فكذلك بعثنا

واجعلها عليهم سنين كسِنِي يوسف» فابتلاهم الله عزّ وجلّ بالقحط حتى أكلوا الكلاب والجيف. ﴿ إذا هم يجأرون ﴾ يجزعون ويستغيثون وأصل الجأر رفع الصوت بالتضرّع.

﴿ لا تجأروا اليوم ﴾، أي لا تضجّوا، ﴿ إنّكم منّا لا تنصرون ﴾، لا تمنعون منّا ولا ينفعكم تضرعكم.

﴿ قد كانت آياتي تُتلى عليكم ﴾، يعني القرآن، ﴿ فكنتم على أعقابكم تنكصون ﴾ ترجعون القهقرى تتأخرون عن الإيمان.

﴿ مستكبرين به ﴾، اختلفوا في هذه الكناية فأظهر الأقاويل أنها تعود إلى البيت الحرام كناية عن غير مذكور، أي: مستكبرين متعظّمين بالبيت الحرام وتعظّمهم به أنهم كانوا يقولون نحن أهل حرم الله وجيران بيته فلا يظهر علينا أحد ولا نخاف أحد فيأمنون فيه وسائر الناس في الخوف، هذا قول ابن عباس ومجاهد وجماعة، وقيل: مستكبرين به أي بالقرآن فلم يؤمنوا به. والأول أظهر، المراد منه الحرم، ﴿ سامراً ﴾، نصب على الحال، أي أنهم يسمرون بالليل في مجالسهم حول البيت، ووحّد سامراً وهو بمعنى السمار لأنه وضع موضع الوقت، أراد تهجرون ليلاً. وقيل: وجد سامر، ومعناه الجمع، كقوله ﴿ ثم نخرجكم طفلاً ﴾ [الحج: ٥]، ﴿ تهجرون ﴾، قرأ نافع ﴿ تهجرون ﴾ بضم التاء وكسر الجيم من الإهجار وهو الإفحاش في القول، أي تفحشون وتقولون الخنا، وذكر أنهم كانوا يسبّون النبي ﷺ وأصحابه، وقرأ الآخرون ﴿ تهجرون ﴾ بفتح التاء وضم الجيم، أي: تعرضون عن النبي ﷺ وعن الإيمان والقرآن، وترفضونها. وقيل: هو من الهجر وهو القول القبيح، يقال هجر يهجر هجراً إذا قال غير الحق. وقيل: تهزؤون وتقولون ما لا تعلمون، من قولهم هجر الرجل في منامه إذا هذى.

﴿ أفلم يدبروا ﴾، يعني يتدبروا، ﴿ القول ﴾، يعني: ما جاءهم من القول وهو القرآن، فيعرفوا ما فيه من الدلالات على صدق محمد ﷺ، ﴿ أم جاءهم ما لم يأتِ آباءهم الأوّلين ﴾، فأنكروا، يريد إنّا قد بعثنا من قبلهم رسلاً إلى قومهم كذلك بعثنا محمداً ﷺ إليهم. وقيل: أم بمعنى بل يعني جاءهم ما لم يأتِ آباءهم الأوّلين فلذلك أنكروا.

محمداً ﷺ ﴿أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون﴾ قال ابن عباس: أليس قد عرفوا محمداً صلّى الله عليه وسلم صغيراً وكبيراً وعرفوا نسبه وصدقه وأمانته ووفاءه بالعهود وهذا على سبيل التوبيخ لهم على الإعراض عنه بعد ما عرفوه بالصدق والأمانة ﴿أم يقولون به جنة﴾ أي جنون وليس هو كذلك ﴿بل جاءهم بالحق﴾ بالصدق والقول الذي لا تخفى صحته وحسنه على عاقل ﴿وأكثرهم للحق كارهون﴾. قوله عزّ وجلّ ﴿ولو اتبع الحق أهواءهم﴾ قيل الحق هو الله تعالى والمعنى ولو اتبع الله مرادهم فيما يفعل. وقيل: لو سمى لنفسه شريكاً وولداً كما يقولون وقيل: الحق هو القرآن أي لو نزل القرآن بما يحبون وما يعتقدون ﴿لفسدت السموات والأرض ومن فيهن﴾ أي لفسد العالم ﴿بل أتيناهم بذكرهم﴾ قال ابن عباس بما فيه شرفهم وفخرهم وهو القرآن ﴿فهم عن ذكرهم﴾ أي شرفهم ﴿معرضون﴾.

أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ ﴿٧٤﴾ ۞ وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾ حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٧﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾ وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾ بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾ قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾

﴿أم تسألهم﴾ أي على ما جئتهم به ﴿خرجاً﴾ أي أجراً وجعلاً ﴿فخراج ربك خير﴾ أي ما يعطيك الله من رزقه

﴿ أم لم يعرفوا رسولهم ﴾، محمداً ﷺ، ﴿ فهم له منكرون ﴾، قال ابن عباس: أليس قد عرفوا محمداً ﷺ صغيراً وكبيراً وعرفوا نسبه وصدقه وأمانته ووفاءه بالعهود، وهذا على سبيل التوبيخ لهم على الإعراض عنه بعدما عرفوه بالصدق والأمانة.

﴿ أم يقولون به جِنَّة ﴾، جنون وليس كذلك، ﴿ بل جاءهم بالحق ﴾، يعني بالصدق والقول الذي لا تخفى صحته وحُسنه على عاقل، ﴿ وأكثرهم للحق كارهون ﴾.

﴿ ولو اتّبع الحق أهواءهم ﴾، قال ابن جريج ومقاتل والسدي وجماعة: الحق هو الله أي لو اتّبع الله مرادهم فيما يُفعل، وقيل: لو اتّبع مرادهم، فسمّى لنفسه شريكاً وولداً كما يقولون: ﴿ لفسدتِ السمٰواتُ والأرض ﴾، وقال الفرّاء والزجّاج: والمراد بالحق القرآن أي لو نزل القرآن بما يحبّون من جعل الشريك والولد على ما يعتقدونه ﴿ لفسدتِ السمٰواتُ والأرضُ ومَن فيهنّ ﴾، وهو كقوله تعالى: ﴿ لو كان فيهما آلهة إلّا الله لفسدتا ﴾ [الأنبياء: ٢٢]. ﴿ بل آتيناهم بذكرهم ﴾، بما يذكرهم، قال ابن عباس: أي بما فيه فخرهم وشرفهم يعني القرآن، فهو كقوله تعالى: ﴿ لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذكركم ﴾ [الأنبياء: ١٠]، أي: شرفكم ﴿ وإنه لذكرٌ لك ولقومك ﴾ [الزخرف: ٤٤]، أي شرف لك ولقومك. ﴿ فهم عن ذكرهم ﴾، يعني عن شرفهم، ﴿ معرضون ﴾.

﴿ أم تسئلهم ﴾، على ما جئتهم به، ﴿ خرجاً ﴾، أجراً وجعلاً، ﴿ فخراج ربك خير ﴾، يعني ما يعطيك الله

وثوابه خير ﴿وهو خير الرازقين﴾ تقدم تفسيره ﴿وإنك لتدعوهم إلى صراط مستقيم﴾ أي إلى دين الإسلام ﴿وإن الذين لا يؤمنون بالآخرة عن الصراط﴾ أي عن دين الحق ﴿لناكبون﴾ أي لعادلون عنه ومائلون ﴿ولو رحمناهم وكشفنا ما بهم من ضر﴾ أي قحط وجدوبة ﴿للجوا﴾ أي لتمادوا ﴿في طغيانهم يعمهون﴾ أي لم ينزعوا عنه ﴿ولقد أخذناهم بالعذاب﴾ وذلك أنّ النبيّ ﷺ دعا على قريش أن يجعل الله عليهم سنين كسني يوسف فأصابهم القحط. فجاء أبو سفيان إلى النبيّ ﷺ فقال أنشدك الله والرحم ألست تزعم أنك بعثت رحمة للعالمين فقال بلى فقال: إنهم قد أكلوا القد والعظام وشكا إليه الضر فادع الله أن يكشف عنا هذا القحط فدعا فكشف عنهم فأنزل الله هذه الآية ﴿فما استكانوا لربهم﴾ ما خضعوا وما ذلوا لربهم ﴿وما يتضرعون﴾ أي لم يتضرعوا إلى ربهم بل مضوا على تمردهم ﴿حتى إذا فتحنا عليهم باباً ذا عذاب شديد﴾ قال ابن عباس يعني القتل يوم بدر وقيل هو الموت وقيل هو قيام الساعة ﴿إذا هم فيه مبلسون﴾ أي آيسون من كل خير. قوله عزّ وجلّ ﴿وهو الذي أنشأ لكم السمع والأبصار والأفئدة﴾ أي لتسمعوا بها

من رزقه وثوابه خير، ﴿ وهو خير الرازقين ﴾، قرأ حمزة والكسائي (خراجاً) (فخرج) كلاهما بالألف وقرأ ابن عامر كلاهما بغير ألف وقرأ الآخرون ﴿ خرجاً ﴾ بغير ألف ﴿ فخراج ﴾ بالألف.

﴿ وإنّك لتدعوهم إلى صراط مستقيم ﴾، وهو الإسلام.

﴿ وإنّ الذين لا يؤمنون بالآخرة عن الصراط ﴾، أي عن دين الحق، ﴿ لناكِبُون ﴾، لعادلون مائلون.

﴿ ولو رحمناهم وكشفنا ما بهم من ضرٍّ ﴾، قحط وجدوبة ﴿ للجّوا ﴾، تمادوا، ﴿ في طغيانهم يعمهون ﴾، ولم ينزعوا عنه.

﴿ ولقد أخذناهم بالعذاب ﴾، وذلك أن النبي ﷺ دعا على قريش أن يجعل عليهم سنين كسني يوسف فأصابهم القحط، فجاء أبو سفيان إلى النبي ﷺ وقال أنشدك الله والرحم، ألستَ تزعم أنك بُعِثت رحمة للعالمين؟ فقال: «بلى»، فقال: قد قتلت الآباء بالسيف والأبناء بالجوع فادع الله أن يكشف عنّا هذا القحط، فدعا فكشف عنهم، فأنزل الله هذه الآية: ﴿ فما استكانُوا لِربِّهم ﴾، أي: ما خضعوا وما ذلّوا لربهم، وأصله طلب السكون، ﴿ وما يتضرعون ﴾، أي: لم يتضرّعوا إلى ربهم بل مضوا على تمرّدهم.

﴿ حتى إذا فتحنا عليهم باباً ذا عذاب شديد ﴾، قال ابن عباس: يعني القتل يوم بدر وهو قول مجاهد، وقيل: هو الموت. وقيل: هو قيام الساعة، ﴿ إذ هم فيه مبلسون ﴾، آيسون من كل خير.

﴿ وهو الذي أنشأ لكم السمع ﴾، أي: أنشأ لكم الأسماع ﴿ والأبصار والأفئدة ﴾، لتسمعوا وتبصروا وتعقلوا، ﴿ قليلاً ما تشكرون ﴾، أي: لم تشكروا هذه النِّعَم.

﴿ وهو الذي ذرأكم ﴾، خلقكم، ﴿ في الأرض وإليه تُحشرون ﴾، تُبعَثون .

﴿ وهو الذي يُحي ويُميت وله اختلاف الليل والنهار ﴾، أي: تدبير الليل والنهار في الزيادة والنقصان، قال الفرّاء: جعلهما مختلفين يتعاقبان ويختلفان في السواد والبياض، ﴿ أفلا تعقلون ﴾، ما ترون من صنعه فتعتبرون.

﴿ بل قالوا مثل ما قال الأوّلون ﴾، أي: كذبوا كما كذب الأوّلون.

﴿ قالوا أئذا متنا وكنّا تراباً وعظاماً أئنّا لمبعوثون ﴾، لمحشورون،قالوا ذلك على طريق الإنكار في التعجّب.

﴿ لقد وُعِدْنا نحن وآباؤنا هذا ﴾، الوعد، ﴿ من قبل ﴾، أي: وعد آباءنا قوم زعموا أنهم رسل الله فلم نرَ له

وتبصروا وتعقلوا ﴿**قليلاً ما تشكرون**﴾ أي لم تشكروا هذه النعم ﴿**وهو الذي ذرأكم في الأرض**﴾ أي خلقكم ﴿**وإليه تحشرون**﴾ أي تبعثون ﴿**وهو الذي يحيي ويميت وله اختلاف الليل والنهار**﴾ أي تدبير الليل والنهار في الزيادة والنقصان وقيل جعلهما مختلفين يتعاقبان ويختلفان في السواد والبياض ﴿**أفلا تعقلون**﴾ أي ما ترون من صنعه فتعتبروا ﴿**بل قالوا مثل ما قال الأولون**﴾ أي كذبوا كما كذب الأولون، وقيل معناه أنكروا البعث مثل ما أنكر الأولون مع وضوح الأدلة ﴿**قالوا أئذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمبعوثون**﴾ أي لمحشورون قالوا ذلك على طريق الإنكار والتعجب ﴿**لقد وعدنا نحن**﴾ أي هذا الوعد ﴿**وآباؤنا هذا من قبل**﴾ أي وعد آباؤنا قوم ذكروا أنهم رسل الله فلم نر له حقيقة ﴿**إن هذا إلّا أساطير الأولين**﴾ أي أكاذيب الأولين. قوله تعالى ﴿**قل**﴾ أي يا محمد لأهل مكة ﴿**لمن الأرض ومن فيها**﴾ من الخلق ﴿**إن كنتم تعلمون**﴾ أي خالقها ومالكها ﴿**سيقولون لله**﴾ أي لا بد لهم من ذلك لأنهم يقرون أنها مخلوقة لله ﴿**قل**﴾ أي قل لهم يا محمد إذا أقروا بذلك ﴿**أفلا تذكرون**﴾ أي فتعلموا أن من قدر على خلق الأرض ومن فيها ابتداء يقدر على إحيائهم بعد الموت ﴿**قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم سيقولون لله قل أفلا تتقون**﴾ أي عبادة غيره وقيل معناه أفلا تحذرون عقابه ﴿**قل من بيده ملكوت كل شيء**﴾ أي ملك كل شيء ﴿**وهو يجير**﴾ أي يؤمن من يشاء ﴿**ولا يجار عليه**﴾ أي لا يؤمن من أخافه الله وقيل يمنع هو من يشاء من السوء ولا يمتنع منه من أراده بسوء ﴿**إن كنتم تعلمون**﴾ أي فأجيبوا.

سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٩٠﴾ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا
كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَٰلِمِ
ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾ قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي
ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٤﴾ وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَٰدِرُونَ ﴿٩٥﴾ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا
يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ

حقيقةً، ﴿ **إنْ هذا إلّا أساطير الأوّلين** ﴾، أكاذيب الأوّلين.

﴿ **قلْ** ﴾، يا محمد مُجيباً لهم يعني أهل مكة، ﴿ **لمنِ الأرضُ ومَن فيها** ﴾، من الخلق، ﴿ **إن كنتم تعلمون** ﴾، خالقها ومالكها.

﴿ **سيقولون لله** ﴾، ولا بدّ لهم من ذلك لأنهم يقرّون أنها مخلوقة، ﴿ **قل** ﴾ لهم إذا أقرّوا بذلك، ﴿ **أفلا تذكرون** ﴾، فتعلمون أن مَن قدر على خلق الأرض ومَن فيها ابتداءً يقدر على إحيائهم بعد الموت.

﴿ **قلْ مَن ربُّ السمٰوات السبع وربُّ العرش العظيم** ﴾.

﴿ **سيقولون لله** ﴾، قرأ العامّة ﴿ **لله** ﴾ ومثله ما بعده فجعلوا الجواب على المعنى كقول القائل للرجل: مَن مولاك؟ فيقول: لفلان، أي أنا لفلان وهو مولاي، وقرأ أهل البصرة فيها (الله) وكذلك هو في مصحف أهل البصرة وفي سائر المصاحف مكتوب بالألف كالأول، ﴿ **قلْ أفلا تتقون** ﴾، تحذرون.

﴿ **قلْ مَن بيده ملكوت كل شيء** ﴾، الملكوت الملك والتاء فيه للمبالغة، ﴿ **وهو يُجير** ﴾، أي: يؤمن مَن يشاء ﴿ **ولا يُجار عليه** ﴾، أي: لا يؤمن مَن أخافه الله أو يمنع هو من السوء مَن يشاء ولا يمنع منه مَن أراده بسوء، ﴿ **إن كنتم تعلمون** ﴾، قيل: معناه أجيبوا إن كنتم تعلمون.

أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُۚ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾

﴿**سيقولون لله قل فأنى تسحرون**﴾ أي فأنّى تخدعون وتصرفون عن توحيده وطاعته وكيف يخيل لكم الحق باطلاً ﴿**بل أتيناهم بالحق**﴾ أي بالصدق ﴿**وإنهم لكاذبون**﴾ أي فيما يدعون من الشريك والولد ﴿**ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله**﴾ أي من شريك ﴿**إذاً لذهب كل إله بما خلق**﴾ أي لانفرد كل واحد من الآلهة بخلقه الذي خلقه ولم يرض أن يضاف خلقه وإنعامه إلى غيره ومنع كل إله الآخر عن الاستيلاء على ما خلقه هو ﴿**ولعلا بعضهم على بعض**﴾ أي طلب بعضهم مغالبة بعض كفعل ملوك الدنيا فيما بينهم وإذا كان كذلك فاعلموا أنه إله واحد بيده ملكوت كل شيء ويقدر على كل شيء ثم نزه نفسه تعالى فقال ﴿**سبحان الله عمّا يصفون**﴾ أي من إثبات الولد والشريك ﴿**عالم الغيب والشهادة فتعالى عما يشركون**﴾ أي تعظم من أن يوصف بما لا يليق به. قوله عزّ وجلّ ﴿**قل رب**﴾ أي يا رب ﴿**إما تريني ما يوعدون**﴾ أي ما وعدتهم من العذاب ﴿**رب**﴾ أي يا رب ﴿**فلا تجعلني في القوم الظالمين**﴾ أي تهلكني بهلاكهم ﴿**وإنا على أن نريك ما نعدهم**﴾ أي من العذاب ﴿**لقادرون ادفع بالتي هي أحسن**﴾ يعني بالخلة التي هي أحسن وهي الصفح والإعراض والصبر ﴿**السيئة**﴾ يعني أذاهم أمر بالصبر على أذى المشركين والكف عن المقاتلة ثم نسخها الله بآية السيف ﴿**نحن أعلم بما يصفون**﴾ أي يكذبون ويقولون من الشرك.

﴿ **سيقولون لله قلْ فأنّى تُسحرون** ﴾، أي: تخدعون وتصرفون عن توحيده وطاعته، والمعنى: كيف يخيّل لكم الحق باطلاً؟

﴿ **بل أتيناهم بالحق** ﴾ بالصدق ﴿ **وإنّهم لكاذبون** ﴾ فيما يدعون من الشريك والولد.

﴿ **ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إلّه** ﴾، أي: من شريك، ﴿ **إذاً لذهب كل إلّه بما خلق** ﴾، أي: تفرّد بما خلقه فلم يرضَ أن يُضاف خلقه وإنعامه إلى غيره، ومَنَعَ الإلّه الآخر عن الاستيلاء على ما خلق. ﴿ **ولعلا بعضهم على بعض** ﴾، أي: طلب بعضهم مغالبةَ بعض كفعل ملوك الدنيا فيما بينهم، ثم نزّه نفسه فقال: ﴿ **سبحان الله عمّا يصفون** ﴾.

﴿ **عالم الغيب والشهادة** ﴾ قرأ أهل المدينة والكوفة غير حفص ﴿ **عالم** ﴾ برفع الميم على الابتداء، وقرأ الآخرون بجرّها على نعت الله في سبحان الله، ﴿ **فتعالى عمّا يُشركون** ﴾، أي: تعظم عمّا يشركون، ومعناه أنه أعظم من أن يوصف بهذا الوصف.

قوله: ﴿ **قلْ ربِّ إمّا تُريَنّي** ﴾، أي: إن أريتني، ﴿ **ما يوعدون** ﴾، أي: ما أوعدتهم من العذاب.

﴿ **ربِّ** ﴾، أي: يا رب، ﴿ **فلا تجعلني في القوم الظالمين** ﴾، أي: لا تهلكني بهلاكهم.

﴿ **وإنّا على أن نريك ما نعدهم** ﴾، من العذاب لهم، ﴿ **لقادرون** ﴾.

﴿ **ادفع بالتي هي أحسن** ﴾، أي: ادفع بالخلّة التي هي أحسن هي الصفح والإعراض والصبر، ﴿ **السيئة** ﴾، يعني أذاهم، أمرهم بالصبر على أذى المشركين والكفّ عن المقاتلة، نسختها آية السيف. ﴿ **نحن أعلم بما يصفون** ﴾، يكذبون ويقولون من الشرك.

قوله عزّ وجلّ ﴿**وقل رب أعوذ بك**﴾ أي أمتنع وأعتصم بك ﴿**من همزات الشياطين**﴾ قال ابن عباس نزغاتهم وقيل وساوسهم وقيل نفخهم ونفثهم وقيل دفعهم بالإغواء إلى المعاصي ﴿**وأعوذ بك رب أن يحضرون**﴾ أي في شيء من أموري وإنما ذكر الحضور لأن الشيطان إذا حضره يوسوس له عن جبير بن مطعم أنه رأى النبيّ ﷺ يصلي صلاة قال عمر ولا أدري أي صلاة هي قال: «الله أكبر كبيراً والحمد لله كثيراً ثلاثاً وسبحان الله بكرة وأصيلاً ثلاثاً أعوذ بالله من الشيطان من نفخه ونفثه وهمزه. قال نفثه الشعر ونفخه الكبر وهمزه الموتة». أخرجه أبو داود وقد جاء تفسير هذه الألفاظ في متن الحديث وتزيده إيضاحاً قوله نفثه الشعر أي لأن الشعر تخرج من القلب فيلفظ به اللسان وينفثه كما ينفث الريق. قوله ونفخه الكبر وذلك أن المتكبر ينتفخ ويتعاظم ويجمع نفسه فيحتاج إلى أن ينفخ. وقوله وهمزه الموتة الموتة الجنون لأنه المجنون ينخسه الشيطان ثم أخبر الله عزّ وجلّ أن هؤلاء الكفار الذين ينكرون البعث يسألون الرجعة إلى الدنيا عند معاينة الموت فقال تعالى ﴿**حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون**﴾ قيل المراد به الله وهو على عادة العرب فإنهم يخاطبون الواحد بلفظ الجمع على وجه التعظيم. وقيل هذا خطاب مع الملائكة الذين يقبضون روحه فعلى هذا يكون معناه أنه استغاث بالله أولاً ثم رجع إلى مسألة الملائكة الرجوع إلى الدنيا. وقيل ذكر الرب للقسم فكأنه قال عند المعاينة بحق الله ارجعون ﴿**لعلي أعمل صالحاً فيما تركت**﴾ أي ضيعت وقيل تركت أي منعت وقيل خلفت من التركة أو المعنى أقول لا إله إلاّ الله وأعمل بطاعته فيدخل فيه الأعمال البدنية والمالية قال قتادة ما تمنى أن يرجع إلى أهله وعشيرته ولا ليجمع الدنيا ويقضي الشهوات ولكن تمنى أن يرجع فيعمل بطاعة الله فرحم الله

﴿ **وقلْ ربِّ أعوذُ بك** ﴾، أي: أمتنع وأعتصم بك، ﴿ **من همزات الشياطين** ﴾، قال ابن عباس: نزعاتهم. وقال الحسن: وساوسهم. وقال مجاهد: نفخهم ونفثهم. وقال أهل المعاني: دفعهم بالإغواء إلى المعاصي، وأصل الهمز شدّة الدفع.

﴿ **وأعوذ بك ربِّ أن يحضرون** ﴾، في شيء من أموري، وإنما ذكر الحضور لأن الشيطان إذا حضره يوسوسه، ثم أخبر أن هؤلاء الكفّار الذين ينكرون البعث يسألون الرجعة إلى الدنيا عند معاينة الموت.

فقال: ﴿ **حتى إذا جاء أحدهم الموت قال ربِّ ارجعون** ﴾، ولم يقل ارجعني وهو يسأل الله وحده الرجعة على عادة العرب فإنهم يخاطبون الواحد بلفظ الجمع على وجه التعظيم كما أخبر الله تعالى عن نفسه فقال إنّا نحن نزّلنا الذكر وإنّا له الحافظون، ومثله كثير في القرآن. وقيل: هذا الخطاب مع الملائكة الذين يقبضون روحه ابتداء بخطاب الله لأنهم استغاثوا بالله أولاً ثم رجعوا إلى مسئلة الملائكة الرجوع إلى الدنيا.

قوله تعالى: ﴿ **لعلّي أعمل صالحاً فيما تركت** ﴾، أي: ضيّعت أن أقول لا إلّه إلاّ الله. وقيل: أعمل بطاعة الله. قال قتادة: ما تمنى أن يرجع إلى أهله وعشيرته ولا ليجمع الدنيا ويقضي الشهوات، ولكن تمنى أن يرجع فيعمل بطاعة الله، فرحم الله امرءاً أعمل فيما يتمنّاه الكافر إذا رأى العذاب، ﴿ **كلا** ﴾، كلمة ردع وزجر، أي: لا يرجع إليها، ﴿ **إنها** ﴾ يعني: سؤاله الرجعة، ﴿ **كلمةٌ هو قائلها** ﴾، ولا ينالها، ﴿ **ومن ورائهم برزخ** ﴾، أي أمامهم وبين أيديهم حاجز، ﴿ **إلى يوم يبعثون** ﴾، والبرزخ الحاجز بين الشيئين، واختلفوا في معناه ههنا، فقال مجاهد: حجاب بينهم وبين الرجوع إلى الدنيا. وقال قتادة: بقية الدنيا. وقال الضحاك: البرزخ ما بين الموت إلى البعث. وقيل: هو القبر وهم فيه إلى يوم يُبعَثون.

﴿ **فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم** ﴾، اختلفوا في هذه النفخة، فروى سعيد بن جبير عن ابن عباس: أنها النفخة الأولى ﴿ ونفخ في الصور فصعق مَن في السمٰوات ومَن في الأرض ﴾ [الزمر: ٦٨] ﴿ **فلا أنساب بينهم**

امرأ عمل فيما تمناه الكافر إذ رأى العذاب ﴿**كلا**﴾ كلمة ردع وزجر أي لا يرجع إليها ﴿**إنها**﴾ يعني مسألته الرجعة ﴿**كلمة هو قائلها**﴾ أي لا ينالها ﴿**ومن ورائهم برزخ**﴾ أي من أمامهم ومن بين أيديهم حاجز ﴿**إلى يوم يبعثون**﴾ معناه أن بينهم وبين الرجعة حجاباً ومانعاً عن الرجوع وهو الموت وليس المعنى أنهم يرجعون يوم البعث وإنما هو إقناط كلي لما علم أنه لا رجعة يوم البعث إلا إلى الآخرة. قوله تعالى ﴿**فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم**﴾ قال ابن عباس إنها النفخة الأولى نفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض فلا أنساب بينهم ﴿**يومئذٍ ولا يتساءلون**﴾ ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون وعن ابن مسعود أنها النفخة الثانية. قال: «يؤخذ بيد العبد والأمة يوم القيامة فينصب على رؤوس الأولين والآخرين ثم ينادي منادٍ هذا فلان ابن فلان فمن كان له قبله حق فليأت إلى حقه فيفرح المرء أن يكون له الحق على والده أو ولده أوزوجته أو أخيه فيأخذ منه ثم قرأ ابن مسعود ﴿**فلا أنساب بينهم يومئذٍ ولا يتساءلون**﴾ وفي رواية عن ابن عباس أنها النفخة الثانية فلا أنساب بينهم يعني لا يتفاخرون بالأنساب يومئذٍ كما كانوا يتفاخرون في الدنيا ولا يتساءلون سؤال تواصل كما كانوا يتساءلون في الدنيا من أنت ومن أي قبيلة أنت ولم يرد أن الأنساب تنقطع. فإن قلت قد قال ها هنا ولا يتساءلون وقال في موضع آخر وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون. قلت قال ابن عباس إن للقيامة أحوالاً ومواطن ففي موطن يشتد عليهم الخوف فيشغلهم عظم الأمر عن التساؤل فلا يتساءلون وفي موطن يفيقون إفاقة فيتساءلون. قوله عزّ وجلّ:

فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ
فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا
تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾ قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا
ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا
وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّى جَزَيْتُهُمُ
ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾ قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ

يومئذ ولا يتساءلون ﴾، ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون. وعن ابن مسعود: أنها النفخة الثانية، قال: يؤخذ بيد العبد والأمة يوم القيامة فينصب على رؤوس الأوّلين والآخرين ثم ينادي منادٍ: هذا فلان ابن فلان فمَن كان له قبله حق فليأتِ إلى حقه فيفرح المرء أن يكون له الحق على والده وولده وزوجته أو أخيه فيأخذ منه، ثم قرأ ابن مسعود فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون. وفي رواية عطاء عن ابن مسعود: أنها الثانية فلا أنساب بينهم أي: لا يتفاخرون بالأنساب يومئذ كما كانوا يتفاخرون في الدنيا ولا يتساءلون سؤال تواصل كما كانوا يتساءلون في الدينا: مَن أنت ومن أيّ قبيلة أنت؟ ولم يرد أن الأنساب تنقطع، فإن قيل: أليس قد جاء في الحديث كل سبب ونسب ينقطع يوم القيامة إلا نسبي وسببي؟ قيل: معناه ينقطع يوم القيامة كل سبب ونسب إلّا سببه ونسبه، وهو الإيمان والقرآن، فإن قيل: قد قال ههنا: ﴿ **ولا يتساءلون** ﴾وقال في موضع آخر: ﴿ وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون ﴾ [الصّافّات: ٢٧، الطور: ٢٥]؟ الجواب: ما رُوِيَ عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن للقيامة أحوالاً ومواطن ففي موطن يشتدّ عليهم الخوف فيشغلهم عظم الأمر عن التساؤل فلا يتساءلون، وفي موطن يفيقون إفاقة فيتساءلون.

﴿فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ۝١١٣ قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝١١٤﴾

﴿فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا﴾ أي غبنوا ﴿أنفسهم في جهنم خالدون تلفح﴾ أي تسفح وقيل تحرق ﴿وجوههم النار وهم فيها كالحون﴾ أي عابسون وقد بدت أسنانهم وتقلصت شفاههم كالرأس المشوي على النار عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبيّ ﷺ: «وهم فيها كالحون قال تشويه النار فتنقلص شفته العليا حتى تبلغ وسط رأسه وتسترخي شفته السفلى حتى تضرب سرته». أخرجه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح غريب. قوله تعالى ﴿ألم تكن آياتي تتلى عليكم﴾ يعني قوارع القرآن وزواجره تخوفون بها ﴿فكنتم بها تكذبون قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا﴾ أي التي كتبت علينا فلم نهتد ﴿وكنا قوماً ضالين﴾ أي عن الهدى ﴿ربنا أخرجنا منها﴾ أي من النار ﴿فإن عدنا﴾ أي لما تكره ﴿فإنا ظالمون قال اخسؤوا فيها﴾ أي أبعدوا فيها كما يقال للكلب إذا طرد اخسأ ﴿ولا تكلمون﴾ أي في رفع العذاب فإني لا أرفعه عنكم فعند ذلك أيس المساكين من الفرج.

قال الحسن: هو آخر كلام يتكلم به أهل النار ثم لا يتكلمون بعد ذلك ما هو إلا الزفير والشهيق وعواء كعواء الكلاب لا يفهمون ولا يفهمون. وروي عن عبدالله بن عمرو «إن أهل جهنم يدعون مالكاً خازن جهنم أربعين عاماً يا

قوله: ﴿ فمَن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ﴾.

﴿ ومَن خفّت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم في جهنم خالدون ﴾.

﴿ تلفح وجوههم النار ﴾. أي: تسفع، وقيل: تحرق، ﴿ وهم فيها كالحون ﴾، عابسون، أخبرنا أبو بكر محمد بن عبد الله بن أبي توبة أنا محمد بن أحمد الحارثي أنا محمد بن يعقوب الكسائي أنا عبد الله بن محمود أنا إبراهيم بن عبد الله الخلال أنا عبد الله بن المبارك عن سعيد بن يزيد عن أبي السمح عن أبي الهيثم عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال: «وهم فيها كالحون، قال: تشويه النار، فتقلص شفته العليا حتى تبلغ وسط رأسه وتسترخي شفته السفلى حتى تضرب سرّته»، وبهذا الإسناد عن عبد الله بن المبارك عن حاجب بن عمر عن الحكم عن الأعرج عن أبي هريرة قال: يعظم الكافر في النار مسيرة سبع ليالٍ فيصير ضرسه مثل أحد وشفاهم عند سرورهم، سود زرق مقبوحين.

قوله تعالى: ﴿ ألم تكن آياتي تُتلى عليكم ﴾، يعني القرآن تخوفون بها، ﴿ فكنتم بها تكذبون ﴾.

﴿ قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا ﴾، قرأ حمزة والكسائي شقاوتنا بالألف وفتح الشين وهما لغتان أي: غلبت علينا شقوتنا التي كتبت علينا فلم نهتدِ. ﴿ وكنّا قوماً ضالّين ﴾، عن الهدى.

﴿ ربنا أخرجنا منها ﴾، أي: من النار، ﴿ فإن عدنا ﴾، لما تكره ﴿ فإنّا ظالمون ﴾.

﴿ قال اخسئوا ﴾، أبعدوا، ﴿ فيها ﴾، كما يقال للكلب إذا طرد إخسأ، ﴿ ولا تكلمون ﴾، في رفع العذاب فإني لا أرفعه عنكم فعند ذلك أيِسَ المساكين من الفرج، قال الحسن: هو آخر كلام يتكلم به أهل النار ثم لا يتكلمون بعدها إلاّ الشهيق والزفير، ويصير لهم عِواء كعِواء الكلاب لا يفهَمون ولا يُفهِمون، رُوِيَ عن عبد الله بن عمرو: أن أهل جهنم يدعون مالكاً خازن النار أربعين عاماً ﴿ يا مالك ليقضِ علينا ربك ﴾ [الزخرف: ٧٧] فلا يجيبهم، ثم يقول: ﴿ إنكم ماكثون ﴾ [الزخرف: ٧٧]، ثم ينادون ربهم: ﴿ ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنّا ظالمون ﴾، فيدعهم مثل عمر الدنيا مرتين ثم يردّ عليهم: ﴿ اخسئوا فيها ولا تكلمون ﴾، فلا ينبسّ القوم بعد ذلك بكلمة إن كان إلاّ الزفير والشهيق. وقال القرطبي: إذا قيل لهم اخسئوا فيها ولا تكلمون انقطع رجاؤهم وأقبل بعضهم ينبح في وجه بعض وأطبقت عليهم.

﴿ إنه ﴾ الهاء في ﴿ إنه ﴾ عماد وتسمى أيضاً المجهولة، ﴿ كان فريق من عبادي ﴾، وهم المؤمنون

مالك ليقض علينا ربك فلا يجيبهم ثم يقول إنكم ما كثون ثم ينادون ربهم ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون فيدعهم مثل عمر الدنيا مرتين ثم يرد عليهم اخسؤوا فيها ولا تكلمون فيما ينبس القوم بعد ذلك بكلمة إن كان إلا الزفير والشهيق». ذكره البغوي بغير سند وأخرجه الترمذي بمعناه عن أبي الدرداء قوله فما ينبس القوم بعد ذلك بكلمة أي سكتوا ولم يتكلموا بكلمة وقيل إذا قال لهم اخسؤوا فيها ولا تكلمون انقطع رجاؤهم وأقبل بعضهم ينبح في وجه بعض وأطبقت عليهم جهنم ﴿إنه كان فريق من عبادي﴾ يعني المؤمنين ﴿يقولون ربنا آمناً فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين فاتخذتموهم سخرياً﴾ أي تسخرون منهم وتستهزئون بهم ﴿حتى أنسوكم ذكري﴾ اشتغالكم بالاستهزاء بهم ذكري ﴿وكنتم منهم تضحكون﴾ نزل في كفار قريش كانوا يستهزئون بالفقراء من أصحاب رسول الله ﷺ مثل بلال وعمار وصهيب وخباب ثم قال الله ﴿إني جزيتهم اليوم بما صبروا﴾ أي على أذاكم واستهزائكم في الدنيا ﴿أنهم هم الفائزون﴾ أي جزيتهم بصبرهم الفوز بالجنة ﴿قال﴾ يعني أن الله قال للكفار يوم البعث ﴿كم لبثتم في الأرض﴾ أي في الدنيا وفي القبور ﴿عدد سنين قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم﴾ معناه أنهم نسوا مدة لبثهم في الدنيا لعظم ما هم بصدده من العذاب ﴿فاسأل العادين﴾ يعني الملائكة الذين يحفظون أعمال بني آدم ويحصونها عليهم ﴿قال إن لبثتم﴾ أي ما لبثتم

﴿ يقولون ربنا آمنّا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين ﴾.

﴿فاتخذتموهم سخرياً﴾، قرأ أهل المدينة وحمزة والكسائي ﴿سخرياً﴾ بضم السين ههنا وفي صورة صۤ[٦٣]، وقرأ الباقون بكسرهما واتفقوا على الضم في سورة الزخرف[٣٢]. قال الخليل: هما لغتان مثل قولهم: بحر لجي، ولجى بضم اللام وكسرها، مثل كوكب دُريّ ودِريّ، قال الفرّاء والكسائي: الكسر بمعنى الاستهزاء بالقول، والضمّ بمعنى التسخير والاستعباد بالفعل واتفقوا في سورة الزخرف بأنه بمعنى التسخير، ﴿ حتى أَنْسَوْكم ﴾ أي: أنساكم اشتغالكم بالاستهزاء بهم وتسخيرهم، ﴿ ذكري وكنتم منهم تضحكون ﴾ نظيره: ﴿ إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون ﴾ [المطففين: ٢٩] قال مقاتل: نزلت في بلال وعمّار وخبّاب وصهيب وسلمان والفقراء من الصحابة، كان كفّار قريش يستهزؤون بهم.

﴿ إني جزيتهم اليوم بما صبروا ﴾، على أذاكم واستهزائكم في الدنيا، ﴿ أنهم هم الفائزون ﴾، قرأ حمزة والكسائي ﴿ أنهم ﴾ بكسر الألف على الإستئناف، وقرأ الآخرون بفتحها، فيكون في موضع المفعول الثاني إني جزيتهم اليوم بصبرهم الفوز بالجنة.

﴿ قال كم لبثتم ﴾، قرأ حمزة والكسائي: وقل إن، على الأمر والنهي. ومعنى الآية قولوا أيّها الكافرون، فأخرج الكلام مخرج الواحد، والمراد منه الجماعة إذ كان معناه مفهوماً ويجوز أن يكون الخطاب لكل واحدِ منهم، أي قل يا أيها الكافرون وقرأ ابن كثير: قل كم على الأمر، وقال أن على الخبر لأن الثانية جواب، وقرأ الآخرون قال فيهما جميعاً أي قال تعالى للكفّار يوم البعث كم لبثتم، ﴿ في الأرض ﴾، أي: في الدنيا وفي القبور ﴿ عدد سنين ﴾.

﴿ قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم ﴾، نسوا مدة لبثهم في الدنيا لعظم ما هم بصدده من العذاب، ﴿ فاسئل العادين ﴾، الملائكة الذين يحفظون أعمال بني آدم ويحصونها عليهم.

﴿قال إنْ لبثتم﴾، أي: ما لبثتم في الدنيا، ﴿ إلاّ قليلاً ﴾، سمّاه قليلاً لأن الواحد وإن طال مكثه في الدنيا فإنه يكون قليلاً في جنب ما يلبث في الآخرة لأن لبثه في الدنيا والقبر متناه، ﴿ لو أنكم كنتم تعلمون ﴾، قدر لبثكم في الدنيا.

في الدنيا ﴿إلّا قليلا﴾ سماه قليلا لأن المرء وإن طال لبثه في الدنيا. فإنه يكون قليلا في جنب ما يلبث في الآخرة ﴿لو أنكم كنتم تعلمون﴾ يعني قدر لبثكم في الدنيا قوله عزّ وجلّ:

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾ وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١١٨﴾﴾

﴿أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً﴾ أي لعباً وباطلاً لا لحكمة وقيل العبث معناه لتلعبوا وتعبثوا كما خلقت البهائم لا ثواب لها ولا عقاب وإنما خلقتم للعبادة وإقامة أوامر الله عزّ وجلّ ﴿وأنكم إلينا لا ترجعون﴾ أي في دار الآخرة للجزاء. روى البغوي بسنده عن الحسن: «أن رجلاً مصاباً مرّ به على ابن مسعود فرقاه في أذنه أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون حتى ختم السورة فبرأ فقال رسول الله ﷺ بماذا رقيت في أذنه فأخبره فقال رسول الله ﷺ: والذي نفسي بيده لو أن رجلاً موقناً قرأها على الجبل لزال» ثم نزه الله تعالى عمّا يصفه به المشركون فقال عزّ وجلّ ﴿فتعالى الله الملك الحق﴾ أي هو التام الملك الجامع لأصناف المملوكات ﴿لا إله إلا هو رب العرش الكريم﴾ أي الحسن وقيل الرفيع المرتفع وإنما خصّ العرش بالذكر لأنه أعظم المخلوقات ﴿ومن يدع مع الله إلهاً آخر لا برهان له به﴾ يعني لا حجة ولا بينة له به إذ لا يمكن إقامة برهان ولا دليل على إلهية غير الله ولا حجة في دعوى الشرك ﴿فإنما حسابه﴾ أي جزاؤه ﴿عند ربه﴾ أي هو مجازيه بعلمه ﴿إنه لا يفلح الكافرون﴾ يعني لا يسعد من جحد وكذب ﴿وقل رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين﴾.

﴿ أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً ﴾، لعباً وباطلاً لا لحكمة، وهو نصب على الحال، أي: عابثين. وقيل: للعبث، أي: لتلعبوا وتعبثوا كما خلقت البهائم لا ثواب لها ولا عقاب، وهو مثل قوله: ﴿ أيحسب الإنسان أن يترك سُدىً ﴾ [القيامة: ٣٦] وإنما خلقتم للعبادة وإقامة أوامر الله تعالى، ﴿ وأنّكم إلينا لا ترجعون ﴾، أي: أفحسبتم أنكم إلينا لا ترجعون في الآخرة للجزاء، وقرأ حمزة والكسائي ويعقوب لا ترجعون بفتح التاء وكسر الجيم، أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أبو منصور محمد بن محمد بن سمعان أنا أبو جعفر محمد بن أحمد بن عبد الجبّار الرياني أنا حمد بن زنجويه أنا بشر بن عمر أنا عبد الله بن لهيعة أنا عبد الله بن هبيرة عن خنش أن رجلاً مُصاباً مُرّ به على ابن مسعود فرقاه في أُذنيه: ﴿ أفحسبتم أنّما خلقناكم عبثاً ﴾ حتى ختم السورة فبرأ، فقال رسول الله ﷺ: «بماذا رقيت في أُذنه»؟ فأخبره فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده لو أن رجلاً موقناً قرأها على جبل لزال». ثم نزّه الله نفسه عمّا يصفه به المشركون.

فقال جلّ ذكره: ﴿ فتعالى الله الملك الحق لا إله إلاّ هو ربُّ العرشِ الكريم ﴾، يعني السرير الحسن. وقيل: المرتفع.

﴿ ومَن يدْعُ مع الله إلَهاً آخر لا برهان له به ﴾، أي: لا حجة له به ولا بيّنة لأنه لا حجة في دعوى الشرك، ﴿ فإنما حسابه ﴾، جزاؤه، ﴿ عند ربه ﴾. يجازيه بعمله كما قال تعالى: ﴿ ثم إنّ علينا حسابهم ﴾ [الغاشية: ٢٦]، ﴿ إنه لا يفلح الكافرون ﴾، لا يسعد من حجة وكذب.

﴿ وقلْ ربِّ اغفرْ وارحمْ وأنتَ خيرُ الراحمين ﴾.

تفسير سورة النور

وهي مدنية وهي اثنتان وقيل أربع وستون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝١﴾

قوله عزّ وجلّ ﴿سورة أنزلناها وفرضناها﴾ أي أوجبنا ما فيها من الأحكام وألزمناكم العمل بها وقيل معناه قدرنا ما فيها من الحدود وقيل أوجبناها عليكم وعلى من بعدكم، إلى قيام الساعة ﴿وأنزلنا فيها آيات بينات﴾ أي واضحات ﴿لعلكم تذكرون﴾ يعني تتعظون. قوله تعالى:

﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ۝٢ الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ۝٣﴾

﴿الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة﴾ الزنا هو من الكبائر وموجب للحد وهو إيلاج فرج في فرج مشتهى طبعاً محرم شرعاً. والشروط المعتبرة في وجوب الحد العقل والبلوغ ويشترط الإحصان في الرجم ويجب على العبد والأمة نصف الحد ولا رجم عليهما لأنه لا يتنصف وقوله فاجلدوا أي فاضربوا يقال جلده إذا ضرب جلده

سُوْرَة النور

مدنية وهي ثنتان أو أربع وستّون آية.

﴿ سورة ﴾، أي: هذه سورة، ﴿ أنزلناها وفرضناها ﴾، قرأ ابن كثير وأبو عمر وفرضناها بتشديد الراء، وقرأ الآخرون بالتخفيف، أي: أوجبنا ما فيها من الأحكام وألزمناكم العمل بها. وقيل: معناه قدّرنا ما فيها من الحدود والفرض التقدير، قال الله عزّ وجلّ: ﴿ فنصف ما فرضتم ﴾ [البقرة: ٢٣٧] أي: قدرتم، ودليل التخفيف قوله: ﴿ إن الذي فرض عليك القرآن ﴾ [القصص: ٨٥]، وأما التشديد فمعناه وفصّلناه وبيّناه. وقيل: هو بمعنى الفرض الذي هو بمعنى الإيجاب أيضاً والتشديد للتكثير لكثرة ما فيها من الفرائض، أي أوجبناها عليكم وعلى مَن بعدكم إلى قيام الساعة. ﴿ وأنزلنا فيها آيات بيّنات ﴾، واضحات، ﴿ لعلّكم تذكرون ﴾، تتّعظون.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ﴾، أراد إذا كانا حرّين بالغين عاقلين بكْرين غير محصنين، فاجلدوا فاضربوا كل واحد منهما مائة جلدة، يقال جلده إذا ضربَ جِلْده، كما يقال رأسه وبطنه، إذا ضرب رأسه وبطنه، وذكر بلفظ الجلد لئلا يبرح ولا يضرب بحيث يبلغ اللحم، وقد وردت السُّنّة أنه

ولا يضرب بحيث يبلغ اللحم كل واحد منهما أي الزانية والزاني مائة جلدة. وقد وردت السنة بجلد مائة وتغريب عام وبه قال الشافعي وقال أو حنيفة التغريب إلى رأي الإمام وقال مالك يجلد الرجل مائة جلدة ويغرب وتجلد المرأة ولا تغرب وإن كان الزاني محصناً فعليه الرحم ﴿ولا تأخذكم بهما رأفة﴾ أي رحمة ورقة فتعطلوا الحدود ولا تقيموها. وهذا قول مجاهد وعكرمة وعطاء وسعيد بن جبير والنخعي والشعبي وقيل معنى الرأفة أن تحفظوا الضرب بل أوجعوهما ضرباً وهو قول سعيد بن المسيب والحسن. قال الزهري يجتهد في حد الزنا والفرية أي القذف ويخفف في حد الشرب وقيل يجتهد في حد الزنا ويخفف دون ذلك في حد الفرية دون ذلك في حد الشرب ﴿في دين الله﴾ أي في حكم الله. وروي أن عبد الله بن عمر جلد جارية له زنت فقال للجلاد اضرب ظهرها ورجليها فقال له ابنه ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله فقال يا بني إن الله لم يأمرني بقتلها وقد ضربت فأوجعت ﴿إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر﴾ معناه أن المؤمن لا تأخذه الرأفة إذا جاء أمر الله وقيل هو من باب التهييج، والتهاب التغضب لله تعالى ولدينه ومعناه إن كنتم تؤمنون فلا تتركوا إقامة الحدود ﴿وليشهد﴾ يعني وليحضر ﴿عذابهما﴾ أي حدهما إذا أقيم عليهما ﴿طائفة﴾ يعني نفر ﴿من المؤمنين﴾ قيل أقله رجل واحد فصاعداً وقيل رجلان وقيل ثلاثة وقيل أربعة بعدد شهود الزنا. قوله عزّ وجلّ ﴿الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة والزانية لا ينكحها إلا زانٍ أو مشرك وحرم ذلك على المؤمنين﴾ اختلف العلماء في معنى الآية وحكمها فقال قوم قدم المهاجرون المدينة وفيهم فقراء لا مال لهم ولا عشائر وفي المدينة نساء بغايا هنّ أخصب أهل المدينة فرغب ناس من فقراء المسلمين في نكاحهن لينفقن عليهم فاستأذنوا رسول الله ﷺ في

يُجلَد مائة ويغرّب عاماً وهو قول أكثر أهل العلم، وإن كان الزاني محصناً فعليه الرجم، ذكرناه في سورة النساء [٢٥]، ﴿ولا تأخذكم بهما رأفة﴾، أي: رحمة ورقّة، وقرأ ابن كثير ﴿رأفة﴾ بفتح الهمزة ولم يختلفوا في سورة الحديد [٢٧] أنها ساكنة لمجاورة قوله ورحمة، والرأفة معنىً يكون في القلب، لا ينهى عنه لأنه لا يكون باختيار الإنسان. رُوِيَ أن عبد الله بن عمر جلد جارية له زنت، فقال للجلّاد: اضرب ظهرها ورجليها، فقال له ابنه لا تأخذكم بهما رأفة في دين الله، فقال يا بُنيّ إن الله عزّ وجلّ لم يأمرني بقتلها وقد ضُربت فأوجعت. واختلفوا في معنى الآية، فقال قوم: لا تأخذكم بهما رأفة فتعطّلوا الحدود ولا تُقيموها، وهذا قول مجاهد وعكرمة وعطاء وسعيد بن جبير والنخعي والشعبي. وقال جماعة: معناها ولا تأخذكم بهما رأفة فتخفّفوا الضرب ولكن أوجعوهما ضرباً وهو قول سعيد بن المسيب والحسن، قال الزهري: يجتهد في حدّ الزنا والفرية ويخفّف في حدّ الشرب. وقال قتادة: يجتهد في حدّ الزنا ويخفّف في الشرب والفرية. ﴿ في دين الله ﴾، أي: في حكم الله، ﴿ إنْ كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ﴾، معناه أن المؤمن لا تأخذه الرأفة إذا جاء أمر الله تعالى، ﴿ وليشهدْ ﴾، وليحضر، ﴿ عذابهما ﴾ حدّهما إذا أُقيم عليهما ﴿ طائفة ﴾، نفر، ﴿ من المؤمنين ﴾، قال مجاهد والنخعي: أقلّه رجل واحد فما فوقه وقال عكرمة وعطاء رجلان فصاعداً. وقال الزهري وقتادة: ثلاثة فصاعداً. وقال مالك وابن زيد: أربعة بعدد شهود الزنا. قوله:

﴿ الزاني لا ينكح إلاّ زانية أو مشركة والزانية لا ينكحها إلاّ زانٍ أو مشرك وحُرِّم ذلك على المؤمنين ﴾، اختلف العلماء في معنى الآية وحكمها، فقال قوم: قَدِمَ المهاجرون المدينة وفيهم فقراء لا مال لهم ولا عشائر، وبالمدينة نساء بغايا يكرين أنفسهنّ وهنّ يومئذ أخصب أهل المدينة فرغب أُناس من فقراء المسلمين في نكاحهنّ لينفقن عليهم، فاستأذنوا رسول الله ﷺ فنزلت هذه الآية ﴿ وحُرِّم على المؤمنين ﴾ أن يتزوجوا تلك البغايا لأنهنّ كنّ مشركات، وهذا قول مجاهد وعطاء بن أبي رباح وقتادة والزهري والشعبي، ورواية العوفي عن ابن عباس، وقال عكرمة: نزلت في نساء بمكة والمدينة، منهنّ تسع لهنّ رايات كرايات البيطار يعرفن بها، منهنّ أُمّ مهزول جارية السائب بن أبي السائب المخزومي، فكان الرجل ينكح الزانية في الجاهلية يتخذها مالكة، فأراد ناس من المسلمين

ذلك فنزلت هذه الآية فحرم على المؤمنين أن يتزوجوا تلك البغايا لأنهنّ كن مشركات. وهذا قول مجاهد وعطاء وقتادة والزهري والشعبي ورواية عن ابن عباس. وقال عكرمة نزلت في نساء كن بمكة والمدينة لهن رايات يعرفن بها منهن أم مهزول جارية السائب بن أبي السائب المخزومي. وكان في الجاهلية ينكح الزانية يتخذها مأكله فأراد ناس من المسلمين نكاحهن على تلك الصفة فاستأذن رجل رسول الله ﷺ في نكاح أم مهزول واشترطت له أن تنفق عليه فأنزل الله عزّ وجلّ هذه الآية وروى عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: «كان رجل يقال له مرثد بن مرثد الغنوي وكان يحمل الأسارى من مكة حتى يأتي بهم المدينة وكانت بمكة بغي يقال لها عناق وكانت صديقة له في الجاهلية فلما أتى مكة دعته عناق إلى نفسها. فقال مرثد إن الله حرم الزنا قالت فانكحني فقال حتى أسأل رسول الله ﷺ قال: فأتيت النبيّ ﷺ فقلت يا رسول الله أنكح عناقاً؟ فأمسك رسول الله ﷺ فلم يرد شيئاً فنزلت الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة والزانية لا ينكها إلا زانٍ أو مشرك فدعاني فقرأها علي وقال لا تنكحها». أخرجه الترمذي والنسائي وأبو داود بألفاظ متقاربة المعنى فعلى قول هؤلاء كان التحريم خاصاً في حق أولئك دون سائر الناس. وقال قوم المراد من النكاح هو الجماع ومعنى الآية الزاني لا يزني إلا بزانية أو مشركة والزانية لا تزني إلا بزانٍ أو مشرك. وهذا قول سعيد بن جبير والضحاك ورواية عن ابن عباس قال يزيد بن هارون إن جامعها وهو مستحل فهو مشرك وإن جامعها وهو محرم فهو زانٍ. وكان ابن مسعود يحرم نكاح الزانية ويقول إذا تزوج الزاني الزانية فهما زانيان وقال سعيد بن المسيب وجماعة إن حكم الآية منسوخ وكان نكاح الزانية حراماً بهذه الآية ثم نسخت بقوله تعالى ﴿**وأنكحوا الأيامى منكم**﴾ فدخلت الزانية في هذا العموم واحتج من جوز نكاح الزانية بما روي عن جابر: «أن رجلاً أتى النبيّ ﷺ فقال يا رسول الله إن امرأتي لا تمنع يد لامس فقال طلقها قال إني أحبها وهي جميلة قال استمتع بها» وفي رواية غيره فأمسكها إذاً وروى هذا الحديث أبو داود والنسائي عن ابن عباس قال النسائي رفعه أحد الرواة إلى ابن عباس ولم يرفعه بعضهم قال وهذا الحديث ليس بثابت. وروي أنّ عمر بن الخطاب ضرب رجلاً وامرأة في زنا وحرص على أن يجمع بينهما فأبى الغلام(١) وقيل في

نكاحهنّ على تلك الجهة، فاستأذن رجل من المسلمين رسول الله ﷺ في نكاح أُم مهزول واشترطت له أن تنفق عليه، فأنزل الله هذه الآية. وروى عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه قال: كان رجل يقال له مرثد بن أبي مرثد الغنوي كان يحمل الأسارى من مكة حتى يأتي بهم المدينة وكانت بمكة بغي يقال لها عناق، وكانت صديقة له في الجاهلية، فلما أتى مكة دعته عناق إلى نفسها، فقال مرثد: إن الله حرّم الزنا، قالت: فانكحني، فقال: حتى أسأل رسول الله ﷺ، قال: فأتيت النبي ﷺ فقلت: يا رسول الله أنكح عناقاً؟ فأمسك رسول الله ﷺ فلم يردّ شيئاً، فنزلت: ﴿ **والزانية لا ينكحها إلّا زانٍ أو مشرك** ﴾ فدعاني النبيّ ﷺ فقرأها عليّ وقال لي: «لا تنكحها»، فعلى قول هؤلاء كان التحريم خاصّاً في حق أولئك دون سائر الناس. وقال قوم: المراد من النكاح هو الجماع، ومعناه أن الزاني لا يزني إلّا بزانية أو مشركة والزانية لا تزني إلّا بزانٍ أو مشرك، وهو قول سعيد بن جبير والضحّاك بن مزاحم. ورواه الوالبي عن ابن عباس، قال يزيد بن هارون: إن جامعها وهو مستحلّ فهو مشرك، وإن جامعها وهو مُحرِّم فهو زانٍ، وكان ابن مسعود يحرّم نكاح الزانية ويقول: إذا تزوج الزاني بالزانية فهما زانيان أبداً. وقال الحسن: الزاني المجلود لا ينكح إلا زانية مجلودة والزانية المجلودة لا ينكحها إلّا زانٍ مجلود. قال سعيد بن المسيب وجماعة: إن حكم الآية منسوخ، فكان نكاح الزانية حراماً بهذه الآية فنسخها قوله: ﴿ وأنكحوا الأيامى منكم ﴾ [النور: ٣٢] فدخلت الزانية في أيامى المسلمين. واحتجّ مَن جوّز نكاح الزانية بما أخبرنا أبو الفرج المظفر بن إسماعيل التميمي أنا أبو القاسم حمزة بن يوسف السهمي أنا أبو أحمد عبد الله بن عدي الحافظ أنا الحسن بن فرج أنا عمرو بن خالد

---

(١) ظن أن المراد بالغلام هنا الشاب الذي قد زنى بها أبى الزواج منها بعد إقامة الحد عليهما اهـ مصححة.

معنى الآية إن الفاجر الخبيث لا يرغب في نكاح الصالحة من النساء وإنما يرغب في نكاح فاجرة خبيثة مثله أو مشركة والفاسقة الخبيثة لا ترغب في نكاح الصلحاء من الرجال وإنما ترغب في نكاح فاسق خبيث مثلها أو مشرك وحرم ذلك على المؤمنين أي صرف الرغبة بالكلية إلى نكاح الزواني وترك الرغبة في الصالحات العفائف محرم على المؤمنين ولا يلزم من حرمة هذا حرمة التزوج بالزانية. قوله:

﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥﴾ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٦﴾ وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٧﴾﴾

﴿والذين يرمون﴾ أي يقذفون بالزنا **﴿المحصنات﴾** يعني المسلمات الحرائر العفائف **﴿ثم لم يأتوا بأربعة شهداء﴾** أي يشهدون على الزنا **﴿فاجلدوهم ثمانين جلدة﴾** بيان حكم الآية أن من قذف محصناً أو محصنة بالزنا فقال له: يا زاني أو يا زانية أو زنيت فيجب عليه جلد ثمانين إن كان القاذف حراً وإن كان عبداً يجلد أربعين وإن كان المقذوف غير محصن فعلى القاذف التعزير. وشرائط الإحصان خمسة الإسلام والعقل والبلوغ والحرية والعفة من الزنا حتى لو زنى في عمره مرة واحدة ثم تاب وحسنت توبته بعد ذلك ثم قذفه قاذف فلا حد عليه فإن أقر المقذوف على نفسه بالزنا أو أقام القاذف أربعة يشهدون عليه بالزنا سقط الحد عن القاذف لأن الحد إنما وجب عليه لأجل الفرية. وقد ثبت صدقه وأما الكنايات مثل أن يقول يا فاسق أو يا فاجر أو يا خبيث أو يا مؤاجر أو قال امرأتي لا ترديد لامس فهذا ونحوه لا يكون قذفاً إلا أن يريد ذلك. وأما التعريض مثل أن يقول أما أنا فما زنيت أو ليست امرأتي زانية فليس بقذف عند الشافعي وأبي حنيفة. وقال مالك يجب فيه الحد وقال أحمد هو قذف في حال الغضب دون حال

الحرّاني أنا عبيد الله عن عبد الكريم الجزري عن أبي الزبير عن جابر أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله إنّ امرأتي لا تمنع يَدَ لَامِس؟ قال: «طلّقها»، قال: فإني أُحبّها وهي جميلة، قال: «استمتع بها». وفي رواية غيره «فأمسكها إذاً» ورُوِيَ أن عمر بن الخطاب ضرب رجلاً وامرأة في زنا وحرص أن يجمع بينهما فأبى الغلام.

قوله: **﴿ والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة﴾**، أراد بالرمي القذف بالزنا وكلّ مَن رمى محصناً أو محصنة بالزنا، فقال له: زنيت أو يا زاني فيجب عليه جلد ثمانين جلدة، إن كان حرّاً وإن كان عبداً فيجلد أربعين وإن كان المقذوف غير محصن، فعلى القاذف التعزير وشرائط الإحصان خمسة: الإسلام والعقل والبلوغ والحرية والعفّة من الزاني حتى أن مَن زنى مرة في أول بلوغه ثم تاب وحَسُنت حالته وامتدّ عمره فقذفه قاذف فلا حدّ عليه. فإن أقرّ المقذوف على نفسه بالزنا أو أقام القاذف أربعة من الشهود على زناه سقط الحدّ عن القاذف لأن الحدّ الذي وجب عليه حدّ الفرية وقد ثبت صدقه، وقوله: **﴿ والذين يرمون المحصنات ﴾** أي: يقذفون بالزنا المحصنات يعني المسلمات الحرائر العفائف ثم لم يأتوا بأربعة شهداء يشهدون على زناهنّ فاجلدوهم ثمانين جلدة، أي: اضربوهم ثمانين جلدة. **﴿ ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً وأولئك هم الفاسقون ﴾**.

﴿ إلّا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم ﴾، اختلف العلماء في قبول شهادة القاذف بعد التوبة وفي حكم هذا الاستثناء فذهب قوم إلى أن القاذف ترد شهادته بنفس القذف وإذا تاب وندم على ما قال وحَسُنَت حالته قُبلت شهادته، سواء تاب بعد إقامة الحدّ عليه أو قبلها، لقوله تعالى: **﴿ إلّا الذين تابوا ﴾** وقالوا:

الرضا. قوله تعالى ﴿ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً وأولئك هم الفاسقون﴾ فيه دليل على أنّ القذف من الكبائر لأن اسم الفاسق لا يقع إلا على صاحب كبيرة ﴿إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإنّ الله غفور رحيم﴾ اختلف العلماء في قبول شهادة القاذف بعد التوبة وفي حكم هذا الاستثناء فذهب قوم إلى أنّ القاذف ترد شهادته بنفس القذف وإذا تاب وندم على ما قال وحسنت حالته بعد التوبة قبلت شهادته سواء تاب بعد إقامة الحد عليه أو قبله لقول تعالى ﴿إلا الذين تابوا﴾ وقالوا هذا الاستثناء يرجع إلى رد الشهادة وإلى الفسق وإذا تاب تقبل شهادته ويزول عنه اسم الفسق. يروى ذلك عن عمر وابن عباس وهو قول سعيد بن جبير ومجاهد وعطاء وطاوس وسعيد بن المسيب وسليمان بن يسار والشعبي وعكرمة وعمر بن عبدالعزيز والزهري وبه قال مالك والشافعي. وذهب قوم إلى أنّ شهادة المحدود في القذف لا تقبل أبداً وإن تاب وقالوا الاستثناء يرجع إلى قوله «وأولئك هم الفاسقون» وهو قول النخعي وشريح وأصحاب الرأي قالوا بنفس القذف لا ترد شهادته ما لم يحد قال الشافعي هو قبل أن يحد شر منه حين يحد لأن الحدود كفارات فكيف تردونها في أحسن حاليه وتقبلونها في شر حاليه. وذهب الشافعي إلى أنّ حد القذف يسقط بالتوبة. وقال: الاستثناء يرجع إلى الكل وعامة العلماء على أنه لا يسقط الحد بالتوبة إلا أن يعفو عنه المقذوف فيسقط كالقصاص يسقط بالعفو ولا يسقط بالتوبة. فإن قلت إذا قبلت شهادته بعد التوبة فما معنى قوله أبداً. قلت معنى أبداً ما دام مصرًّا على القذف لأنه أبد كل إنسان مدته على ما يليق به كما يقال شهادة الكافر لا تقبل أبداً يراد بذلك ما دام على كفره فإذا أسلم قبلت شهادته. قوله عزّ وجلّ ﴿والذين يرمون﴾ أي يقذفون ﴿أزواجهم ولم يكن لهم شهداء﴾ أي يشهدون على صحة ما قالوا ﴿إلا أنفسهم﴾ أي غير أنفسهم ﴿فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين﴾ سبب نزول هذه الآية ما روي عن سهل بن الساعدي أن عويمر العجلاني جاء إلى عاصم بن عدي فقال لعاصم: أرأيت

الاستثناء يرجع إلى ردِّ الشهادة وإلى الفسق فبعد التوبة تقبل شهادته ويزول عنه اسم الفسق، يُروَى ذلك عن ابن عباس وعمر، وهذا قول سعيد بن جبير ومجاهد وعطاء وطاوس وسعيد بن المسيّب وسليمان بن يسار والشعبي وعكرمة وعمر بن عبد العزيز والزهري وبه قال مالك والشافعي: وذهب قوم إلى أن الشهادة المحدودة في القذف لا تقبل أبداً وإن تاب، وقالوا: الاستثناء يرجع إلى قوله: ﴿ وأولئك هم الفاسقون ﴾، وهو قول النخعي وشريح وأصحاب الرأي، وقالوا: بنفس القذف لا ترد شهادته ما لم يحدّ قال الشافعي: وهو قبل أن يحدّ شرّ منه حين يحدّ لأن الحدود كفّارات فكيف يردّونها في أحسن حاليه ويقبلونها في شرّ حاليه، وذهب الشعبي إلى أن حدّ القذف يسقط بالتوبة، وقال : الاستثناء يرجع إلى الكل وعامّة العلماء على أنه لا يسقط بالتوبة إلاّ أن يعفو عنه المقذوف فيسقط كالقصاص يسقط بالعفو، ولا يسقط بالتوبة. فإن قيل إذا قبلتم شهادته بعد التوبة فما معنى قوله: ﴿ أبداً ﴾ قيل: معناه لا تقبل شهادته أبداً ما دام هو مصرّاً على قذفه لأن أبد كل إنسان مدته على ما يليق بحاله، كما يقال: لا تُقبَل شهادة الكافر أبداً: يُراد ما دام كافراً.

قوله: ﴿ والذين يرمون أزواجهم ﴾، يقذفون نساءهم، ﴿ ولم يكن لهم شهداء ﴾، يشهدون على صحة ما قالوا، ﴿ إلاّ أنفسهم ﴾، غير أنفسهم، ﴿ فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله إنّه لمن الصادقين ﴾، قرأ حمزة والكسائي وحفص ويعقوب ﴿ أربع شهادات ﴾ برفع العين على خبر الابتداء، أي: فشهادة أحدهم التي تدرأ الحدّ أربع شهادات، وقرأ الآخرون بالنصب أي: فشهادة أحدهم أن يشهد أربع شهادات بالله إنّه لمِنَ الصادقين.

﴿ والخامسة أنّ لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين ﴾، قرأ نافع ويعقوب ﴿ أن ﴾ خفيفة وكذلك الثانية ﴿ لعنة الله ﴾ رفع، ثم يعقوب قرأ ﴿ غضب ﴾ [النور: ٩] بالرفع، وقرأ نافع (غضب) بكسر الضاد وفتح الباء على الفعل الماضي ﴿ الله ﴾ رفع، وقرأ الآخرون ﴿ أن ﴾ بالتشديد فيهما، ﴿ لعنة ﴾ نصب، و(غضب)

لو أن رجلاً وجد مع امرأته رجلاً أيقتله فتقتلونه أم كيف يفعل سل لي عن ذلك رسول الله ﷺ فسأل عاصم رسول الله ﷺ عن ذلك فكره رسول الله ﷺ المسألة وعابها حتى كبر على عاصم ما سمع من رسول الله ﷺ فلما رجع عاصم إلى أهله جاءه عويمر فقال يا عاصم ماذا قال لك رسول الله ﷺ فقال عاصم لعويمر لم تأتني بخير قد كره رسول الله ﷺ المسألة التي سألت عنها فقال عويمر: والله لا أنتهي حتى أسأله عنها فجاء عويمر ورسول الله صلّى الله عليه وسلّم وسط الناس فقال: يا رسول الله أرأيت رجلاً وجد مع امرأته رجلاً أيقتله فتقتلونه أم كيف يفعل فقال رسول الله ﷺ قد أنزل الله فيك وفي صاحبتك قرآناً فاذهب فأت بها قال سهل: فتلاعنا وأنا مع الناس عند رسول الله ﷺ فلما فرغا من تلاعنهما قال عويمر: كذبت عليها يا رسول الله إن أمسكتها فطلقها ثلاثاً قبل أن يأمره رسول الله ﷺ قال مالك قال ابن شهاب فكانت تلك سنة المتلاعنين». أخرجاه في الصحيحين زاد في رواية ثم قال رسول الله ﷺ انظروا إن جاءت به أسحم أدعج العينين عظيم الأليتين خدلج الساقين فلا أحسب عويمراً إلا وقد صدق عليها. وإن جاءت به أحيمر كأنه وحرة فلا أحسب عويمراً إلا قد كذب عليها فجاءت به على النعت الذي نعت رسول الله ﷺ من تصديق عويمر فكان بعد ينسب إلى أمه قوله أسحم أي أسود الأدعج الشديد سواد العين مع سعتها وقوله خدلج الساقين أي ممتلىء الساقين غليظهما وقوله، كأنه وحرة بفتح الحاء دويبة كالعظاءة تلصق بالأرض وأراد بها في الحديث المبالغة في قصره (خ) عن ابن عباس «أن هلال بن أمية قذف امرأته عند النبيّ ﷺ بشريك بن سحماء فقال النبيّ ﷺ: البينة أو حد في ظهرك فقال يا رسول الله إذا رأى أحد على امرأته رجلاً ينطلق يلتمس البينة فجعل النبيّ ﷺ يقول: البينة والحد في

[النور: ٩] بفتح الضاد على الاسم، ﴿الله﴾ جرّ، وقرأ حفص عن عاصم ﴿والخامسة﴾ الثانية نصب، أي: ويشهد الشهادة الخامسة، وقرأ الآخرون بالرفع على الابتداء وخبره في أن كالأولى، وسبب نزول هذه الآية ما أخبرنا أبو الحسن السرخسي أخبرنا زاهر بن أحمد أنا أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الصمد الهاشمي أنا أبو مصعب عن مالك عن ابن شهاب أن سهل بن سعد الساعدي أخبره أن عويمر العجلاني جاء إلى عاصم بن عديّ الأنصاري فقال له: يا عاصم أرأيت لو أن رجلاً وجد مع امرأته رجلاً أيقتله فتقتلونه، أم كيف يفعل؟ سَلْ لي عن ذلك يا عاصم رسول الله ﷺ، قال: فسأل عاصم رسول الله ﷺ عن ذلك، فكره رسول الله ﷺ المسائل وعليها حتى كبر على عاصم ما سمع من رسول الله ﷺ، فلما رجع عاصم إلى أهله جاء عويمر فقال له: يا عاصم ماذا قال لك رسول الله ﷺ فقال عاصم لعويمر: لم تأتني بخير، قد كره رسول الله المسئلة التي سألته عنها، فقال عويمر، والله لا أنتهي حتى أسأله عنها، فجاء عويمر ورسول الله ﷺ وسط الناس فقال: يا رسول الله أرأيت رجلاً وجد مع امرأته رجلاً أيقتله فتقتلونه أم كيف يفعل؟ فقال رسول الله ﷺ: «قد أنزل فيك وفي صاحبتك فاذهب فأْتِ بها»، فقال سهل: فتلاعنا وأنا مع الناس عند رسول الله ﷺ، فلما فرغا من تلاعنهما قال عويمر: كذبتُ عليها يا رسول الله أن أمسكتها فطلقها ثلاثاً قبل أن يأمره رسول الله ﷺ، قال مالك: قال ابن شهاب: فكانت تلك سُنّة المتلاعنين. وقال محمد بن إسماعيل أنا إسحق أنا محمد بن يوسف أنا الأوزاعي أنا الزهري بهذا الإسناد بمثل معناه وزاد ثم قال رسول الله ﷺ: «انظروا فإن جاءت به أسحم أدعج العينين عظم الإليتين خدلج الساقين فلا أحسب عويمراً إلّا قد صدق عليها، وإن جاءت به أُحيمر كأنه وحرة فلا أحسب عويمر إلّا قد كذب عليها»، فجاءت على النعت الذي نعت رسول الله ﷺ من تصديق عويمر. فكان بعد ينسب إلى أُمه. أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا محمد بن عبد الله النعيمي أنا أحمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا محمد بن بشّار أنا ابن أبي عديّ عن هشام بن حسان أنا عكرمة عن ابن عباس أن هلال بن أُميّة قذف امرأته عند رسول الله ﷺ بشريك بن سحماء، فقال النبي ﷺ: البيّنة أو حدّ في ظهرك»، فقال: يا رسول الله إذا رأى أحدنا على امرأته رجلاً ينطلق يلتمس البيّنة؟ فجعل النبي ﷺ يقول: «البيّنة

ظهرك فقال هلال بن أمية: والذي بعثك بالحق إني لصادق ولينزلن الله ما يبرىء ظهري من الحد فنزل جبريل عليه السلام وأنزل عليه ﴿والذين يرمون أزواجهم﴾ فقرأ حتى بلغ إن كان من الصادقين فانصرف النبيّ ﷺ فأرسل إليهما. فجاء فقام هلال بن أمية فشهدوا النبي ﷺ يقول الله يعلم إن أحدكما كاذب فهل منكما تائب ثم قامت فشهدت فلما كانت عند الخامسة وقفها وقال: إنها موجبة قال ابن عباس: فتلكأت ونكصت حتى ظننا أنها ترجع ثم قالت لا أفضح قومي سائر اليوم فمضت فقال النبيّ ﷺ: انظروها فإن جاءت به أكحل العينين سابغ الأليتين خدلج الساقين فهو لشريك بن سحماء فجاءت به كذلك فقال النبيّ ﷺ: لولا ما مضى من كتاب الله لكان لي ولها شأن». وفي رواية غير البخاري عن ابن عباس قال «لما نزلت والذين يرمون المحصنات» الآية قال سعد بن عبادة لو أتيت لكاع وقد تفخذها رجل لم يكن لي أن أهيجه حتى آتي بأربعة شهداء فوالله ما كنت لآتي بأربعة شهداء حتى يفرغ حاجته ويذهب وإن قلت ما رأيت إن في ظهري لثمانين جلدة. فقال رسول الله ﷺ: يا معشر الأنصار ألا تسمعون ما يقول سيدكم قالوا لا تلمه فإنه رجل غيور ما تزوج امرأة قط إلا بكراً ولا طلق امرأة له واجترأ رجل منا أن يتزوجها. فقال سعد يا رسول الله بأبي أنت وأمي والله إني لا أعرف أنها من الله وأنها حق ولكن عجبت من ذلك لما أخبر الله فقال النبيّ ﷺ: فإنّ الله يأبى إلاّ ذلك فقال صدق الله ورسوله قال فلم يلبثوا إلا يسيرا حتى جاء ابن عم له يقال له هلال بن أمية من حديقة له فرأى رجلاً مع امرأته يزني بها فأمسك حتى أصبح فلما أصبح غدا على رسول الله ﷺ وهو جالس مع أصحابه فقال: يا رسول الله إني جئت إلى أهلي عشاء فوجدت مع امرأتي رجلاً رأيت بعيني وسمعت بأذني فكره رسول الله ﷺ وهو

وإلّا حدّ في ظهرك»، فقال هلال: والذي بعثك بالحق إني لصادق ولينزلنّ الله ما يبرىء ظهري من الحدّ فنزل جبريل وأنزل عليه: ﴿ والذين يرمون أزواجهم ﴾ فقرأ حتى بلغ ﴿ إنْ كان من الصادقين ﴾ [النور: ٩] فانصرف النبي ﷺ فأرسل إليهما فجاء هلال فشهد والنبي ﷺ يقول: «إن الله يعلم أن أحدكما كاذب، فهل منكما تائب»؟ ثم قامت فشهدت فلما كانت عند الخامسة وقفوها وقالوا إنها موجبة، قال ابن عباس فتلكأت ونكصت حتى ظننا أنها ترجع ثم قالت لا أفضح قومي سائر اليوم، فمضت، فقال النبي ﷺ: «أبصروها فإن جاءت به أكحل العينين سابغ الإليتين خدلج الساقين فهو لشريك بن سحماء»، فجاءت به كذلك، فقال النبي ﷺ: «لولا ما مضى من كتاب الله لكان لي ولها شأن»، وقال عكرمة عن ابن عباس: قال لما نزلت: ﴿ والذين يرمون المحصنات ﴾ الآية. قال سعد بن عبادة: لو أتيت لكاع وقد تفخذها رجل لم يكن لي أن أهيجه حتى آتي بأربعة شهداء، فوالله ما كنت لآتي بأربعة شهداء حتى يفرغ من حاجته ويذهب، وإن قلت ما رأيت إن في ظهري لثمانين جلدة، فقال رسول الله ﷺ: «يا معشر الأنصار ألا تسمعون ما قال سيدكم»؟ قالوا: لا تلمه فإنه رجل غيور ما تزوّج امرأة قطّ إلّا بكراً ولا طلّق امرأة له فاجترأ رجل منّا أن يتزوجها، فقال سعد: يا رسول الله بأبي أنت وأُمي والله إني لأعرف أنها من الله وأنها حق ولكن عجبت من ذلك لما أخبرك الله، فقال النبي ﷺ: «فإن الله يأبى إلّا ذلك»، فقال صدق الله ورسوله، قال: فلم يلبثوا إلّا يسيراً حتى جاء ابن عمّ له يقال له هلال بن أُميّة من حديقة له فرأى رجلاً مع امرأته يزني بها، فأمسك حتى أصبح فلما أصبح غدا على رسول الله ﷺ وهو جالس مع أصحابه، فقال: يا رسول الله إني جئت أهلي عشاءً فوجدت رجلاً مع امرأتي، رأيت بعيني وسمعت بأُذني، فكره رسول الله ﷺ ما أتاه به وثقل عليه حتى عرف ذلك في وجهه، فقال هلال: والله يا رسول الله إني لأرى الكراهية في وجهك مما أتيتك به، والله يعلم إني لصادق وما قلت إلّا حقاً وإني لأرجو أن يجعل الله لي فرجاً، فهمّ رسول الله ﷺ بضربه، فقال: واجتمعت الأنصار فقالوا ابتلينا بما قال سعد يجلد هلال وتبطل شهادته، وإنهم لكذلك، ورسول الله ﷺ يريد أن يأمر بضربه، إذْ نزل عليه الوحي فأمسك أصحابه عن كلامه حين عرفوا أن الوحي قد نزل عليه، حتى فرغ رسول الله ﷺ فأمسكوا، فأنزل الله عزّ

جالس مع أصحابه فقال يا رسول الله إني جئت إلى أهلي عشاءً فوجدت مع امرأتي رجلاً رأيت بعيني وسمعت بأذني فكره رسول الله ﷺ ما أتاه به وثقل عليه حتى عرف ذلك في وجهه فقال هلال: والله يا رسول الله إني لأرى الكراهة في وجهك مما أتيتك به والله يعلم إني لصادق. وما قلت إلا حقاً وإني لأرجو أن يجعل الله لي فرجاً فهم رسول الله ﷺ بضربه قال: واجتمعت الأنصار فقالوا: ابتلينا بما قال سعد بجلد هلال وتبطل شهادته فبينما هم كذلك ورسول الله ﷺ يريد أن يأمر بضربه إذ نزل عليه الوحي فأمسك أصحابه عن كلامه حين عرفوا أن الوحي قد نزل حتى فرغ فأنزل الله والذين يرمون أزوجهم إلى آخر الآيات فقال رسول الله ﷺ أبشر يا هلال فإنّ الله تعالى قد جعل لك فرجاً. فقال: كنت أرجو ذلك من الله فقال رسول الله ﷺ: أرسلوا إليها فجاءت فلما اجتمعا عند رسول الله ﷺ قيل فكذبت فقال رسول الله ﷺ: إنّ الله يعلم أنّ أحدكما كاذب فهل منكما تائب فقال يا رسول الله قد صدقت وما قلت إلاّ حقاً فقال رسول الله ﷺ لاعنوا بينهما فقيل لهلال فشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين فقال له عند الخامسة: يا هلال اتق الله فإنّ عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة وإن عذاب الله أشد من عذاب الناس وإن هذه الخامسة هي الموجبة التي توجب عليك العذاب فقال هلال والله لا يعذبني الله عليها كما لم يحدني عليها رسول الله ﷺ فشهد ﴿**والخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين**﴾ ثم قال للمرأة اشهدي فشهدت أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين فقال لها عند الخامسة ووقفها اتقى الله إن الخامسة موجبة وإن عذاب الله أشد من عذاب الناس فتلكأت ساعة وهمت بالاعتراف ثم قالت: والله لا أفضح قومي فشهدت الخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين ففرق رسول الله ﷺ بينهما. وقضى أن الولد لها ولا يدعى لأب ولا يرمى ولدها ثم قال رسول الله ﷺ: إن جاءت به كذا وكذا فهو لزوجها وإن جاءت به كذا

وجلّ: ﴿ **والذين يرمون أزواجهم** ﴾، إلى آخر الآيات فقال رسول الله ﷺ: «أبشر يا هلال فإن الله قد جعل لك فـرجاً»، فقال: لقد كنت أرجو ذلك من الله، فقال رسول الله ﷺ: «أرسلوا إليها فجاءت فلما اجتمعا عند رسول الله ﷺ قيل لها فكذبت، فقال رسول الله ﷺ: «إن الله يعلم أن أحدكما كاذب فهل منكما تائب»؟ فقال هلال: يا رسول الله بأبي أنت وأمي قد صدقت وما قلت إلاّ حقاً، فقال رسول الله ﷺ: «لاعنوا بينهما»، فقيل لهلال: اشهدْ فشهدَ أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين، فقال له عند الخامسة: يا هلال اتقِ الله فإن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة، وإن عذاب الله أشدّ من عذاب الناس، وإن هذه الخامسة هي الموجبة التي توجب عليك العذاب، فقال هلال: والله لا يعذبني الله عليها كما لم يحدّني عليها رسول الله ﷺ، فشهد الخامسة أنّ لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين، ثم قال للمرأة: اشهدي فشهدت أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين، فقال لها عند الخامسة ووقفها: اتقي الله فإن الخامسة موجبة وإن عذاب الله أشدّ من عذاب الناس فتلكأت ساعة وهمّت بالاعتراف ثم قالت: والله لا أفضح قومي فشهدت الخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين، ففرّق رسول الله ﷺ بينهما وقضى بأن الولد لها ولا يدعى لأب ولا يرمى ولدها، ثم قال رسول الله ﷺ: «إن جاءت به كذا وكذا فهو لزوجها وإن جاءت به كذا وكذا فهو للذي قيل فيه»، فجاءت به غلاماً كأنه جمل أورق على الشبه المكروه، وكان بعد أميراً على مصر، لا يدري مَن أبوه، وقال ابن عباس في سائر الروايات ومقاتل: لما نزلت: ﴿ **والذين يرمون المحصنات** ﴾ الآية، فقرأها رسول الله ﷺ يوم الجمعة على المنبر فقـام عاصم بن عدي الأنصاري فقال: جعلني الله فداك إن رأى رجل منّا مع امرأته رجلاً فأخبر بما رأى جُلدَ ثمانين جلدة وسمّاه المسلمون فاسقاً ولا تقبل شهادته أبداً فكيف لنا بالشهداء ونحن إذا التمسنا الشهداء كان الرجل فرغ من حاجته ومرّ؟ وكان لعاصم هذا ابن عمّ يقال له عويمر وله امرأة يقال لها خولة بنت قيس بن محصن فأتى عويمر عاصماً وقال: لقد رأيت شريك بن السمحاء على بطن امرأتي خولة فاسترجع عاصم وأتى رسول الله ﷺ في الجمعة الأخرى، فقال: يا رسول الله ما أسرع ما ابتليت بالسؤال الذي

وكذا فهو للذي قيل فيه فجاءت به غلاماً كأنه جمل أورق على الشبه المكروه، وكان أميراً بمصر لا يدرى من أبوه» الأورق هو الأبيض وروى ابن عباس «أن عويمراً لما لاعن زوجته خولة أمر رسول الله ﷺ حتى نودي الصلاة جامعة فصلّى العصر ثم قال لعويمر: قم فقام فقال: أشهد بالله إن خولة لزانية وإني لمن الصادقين ثم قال في الثانية أشهد بالله إني رأيت شريكاً على بطنها وإني لمن الصادقين. ثم قال في الثالثة أشهد بالله إنها لحبلى من غيري وإني لمن الصادقين. ثم قال في الرابعة أشهد بالله إني ما قربتها منذ أربعة أشهر وإني لمن الصادقين ثم قال في الخامسة لعنة الله على عويمر يعني نفسه إن كان من الكاذبين فيما قال ثم أمره بالقعود فقعد. ثم قال لخولة قومي فقامت فقالت: أشهد بالله ما أنا بزانية وإن عويمراً لمن الكاذبين ثم قالت في الثانية: أشهد بالله إنه ما رأى شريكاً على بطني وإنه لمن الكاذبين. ثم قالت في الثالثة أشهد بالله إني حبلى منه وإنه لمن الكاذبين ثم قالت في الرابعة: أشهد بالله إنه ما رآني قط على فاحشة وإنه لمن الكاذبين ثم قالت في الخامسة: غضب الله على خولة تعني نفسها إن كان من الصادقين ففرق رسول الله ﷺ بينهما وقال لولا هذه الأيمان لكان لي في أمرهما رأي ثم قال: تحينوا الولادة فإن جاءت به أصيهب أثيبج يضرب إلى السواد فهو لشريك بن سحماء وإن جاءت به أورق جعداً جمالياً خدلج الساقين فهو لغير الذي رميت به» قال ابن عباس: فجاءت بأشبه خلق بشريك.

بيان حكم الآية

إن الرجل إذا قذف امرأته فموجبه موجب قذف الأجنبية وجوب الحد عليه إن كانت محصنة أو التعزير إن كانت غير محصنة غير أن المخرج منهما مختلف، فإذا قذف أجنبياً أو أجنبية يقام عليه الحد إلا أن يأتي بأربعة يشهدون بالزنا

سألت في الجمعة الماضية في أهل بيتي، فأخبره وكان عويمر وخولة وشريك كلهم بني عمّ عاصم، فدعا رسول الله ﷺ بهم جميعاً، وقال لعويمر: «اتق الله في زوجتك وابنة عمّك ولا تقذفها بالبهتان» فقال: يا رسول الله أُقسم بالله إني رأيت شريكاً على بطنها وإني ما قربتها منذ أربعة أشهر، وإنها حبلى من غيري، فقال رسول الله ﷺ للمرأة: «اتقي الله ولا تخبري إلّا بما صنعت» فقالت: يا رسول الله إن عويمراً رجلاً غيور وإنه رآني وشريكاً يطيل السمر ونتحدث فحملته الغيرة على ما قال، فقال رسول الله ﷺ لشريك: «ما تقول»؟ فقال: ما تقوله المرأة كذب، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿ والذين يرمون أزواجهم ﴾ الآية، فأمر رسول الله ﷺ حتى نُودِيَ الصلاة جامعة فصلّى العصر ثم قال لعويمر: «قم» فقام فقال: أشهَدُ بالله بأن خولة لزانية وإني لمن الصادقين، ثم قال في الثانية: أشهد بالله إني رأيت شريكاً على بطنها، وإني لمن الصادقين، ثم قال في الثالثة: أشهد بالله إنها حبلى من غيري وإني لمن الصادقين، ثم قال في الرابعة: أشهد بالله إني ما قربتها منذ أربعة أشهر وإني لمن الصادقين، ثم قال في الخامسة: لعنة الله على عُويمر يعني نفسه إن كان من الكاذبين، فيما قال ثم أمره بالقعود وقال لخولة: «قومي» فقامت، فقالت: أشهد بالله ما أنا بزانية وإن عويمراً لمن الكاذبين، ثم قالت في الثانية: أشهد بالله أنه ما رأى شريكاً على بطني وإنه لمن الكاذبين، ثم قالت في الثالثة: أشهد بالله إني حبلى منه وإنه من لمن الكاذبين، ثم قالت في الرابعة: أشهد بالله إنه ما رآني قطّ على فاحشة وإنه لمن الكاذبين، ثم قالت في الخامسة: غضب الله على خولة تعني نفسها إن كان من الصادقين، ففرّق رسول الله ﷺ بينهما، وقال: «لولا هذه الأيمان لكان لي في أمرهما رأي»، ثم قال: «تحينوا بها الولادة فإن جاءت بِهِ أُصيهب أُثيبج يضرب إلى السواد فهو لعويمر، وإن جاءت به أورق جعداً حمالياً خدلج الساقين فهو للذي رُميت به». قال ابن عباس فجاءت بأشبه خلق الله بشريك. والكلام في حكم الآية أن الرجل إذا قذف امرأته فموجبه موجب قذف الأجنبي في وجوب الحدّ عليه إن كانت محصنة أو التعزير إن لم تكن محصنة، غير أن المخرج منها مختلف فإذا قذف أجنبياً يُقام الحدّ عليه، إلّا أن يقيم أربعة من الشهود على زناها، أو

أو يقر المقذوف بالزنا فيسقط عنه الحد. وفي الزوجة إذا وجد أحد هذين أو لاعن سقط عنه الحد فاللعان في قذف الزوجة بمنزلة البينة لأنه الرجل إذا رأى مع امرأته رجلاً بما لا يمكنه إقامة البينة ولا يمكنه الصبر على العار، فجعل الله اللعان حجة له على صدقه فقال تعالى: ﴿فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين﴾ وإذا أقام الزوج بينة على زناها أو اعترفت هي بالزنا سقط عنه الحد واللعان إلا أن يكون هناك ولد يريد نفيه فله أن يلاعن لنفيه وإذا أراد الإمام أن يلاعن بينهما بدأ بالرجل فيقيمه ويلقنه كلمات اللعان فيقول: قل أشهد بالله إني لمن الصادقين فيما رميت به زوجتي فلانه من الزنا وإن كان قد رماها برجل بعينه سماه في اللعان ويقول كما يلقنه الإمام. وإن كان ولد أو حمل يريد نفيه يقول وإن هذا الولد أو هذا الحمل لمن الزنا ما هو مني. ويقول في الخامسة علي لعنة الله إن كنت من الكاذبين فيما رميت به فلانة وإذا أتى بكلمة من كلمات اللعان من غير تلقين الإمام لا تحسب فإذا فرغ الرجل من اللعان وقعت الفرقة بينه وبين الزوجة وحرمت عليه على التأبيد وانتفى عنه النسب وسقط عنه الحد ووجب على المرأة حد الزنا، فهذه خمسة أحكام تتعلق بلعان الزوج. قوله عزّ وجلّ:

﴿وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٨﴾ وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٩﴾﴾

﴿ويدرأ﴾ أي يدفع ﴿عنها العذاب﴾ أي الحد ﴿أن تشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين والخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين﴾ حكم الآية أن الزوج إذا لاعن وجب على المرأة حد الزنا فإن أرادت إسقاطه عن نفسها فإنها تلاعن فتقوم وتشهد بعد تلقين الحاكم أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين فيما رماني به وتقول في الخامسة علي غضب الله إن كان زوجي من الصادقين فيما رماني به ولا يتعلق بلعانها إلا هذا الحكم الواحد وهو إسقاط الحد عنها. ولو أقام الزوج بينة لم يسقط الحد عنها باللعان. وعند أصحاب الرأي لا حد على من قذف زوجته بل موجبه اللعان

يقرّ به المقذوف فيسقط عنه حدّ القذف، وفي الزوجة إذا وجد أحد هذين أو لاَعَنَ يسقط عنه الحدّ، فاللعان في قذف الزوجة بمنزلة البيّنة لأن الرجل إذا رأى مع امرأته رجلاً ربما لا يمكنه إقامة البيّنة عليه ولا يمكنه الصبر على العار، فجعل الله اللعان حجة له على صدقه، فقال تعالى: ﴿ فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين ﴾، وإذا أقام الزوج البيّنة على زناها أو اعترفت بالزنا سقط عنه الحدّ واللعان، إلا أن يكون هناك ولد يريد نفيه فله أن يلاعن لنفيه، وإذا أراد الإمام أن يلاعن بينهما يبدأ فيقيم الرجل ويلقّنه كلمات اللعان، فيقول: قل أشهد بالله إني لمن الصادقين فيما رميت به فلانة بالزنا، وإن كان قد رماها برجل بعينه سمّاه بعينه باللعان، وإن رماها بجماعة سمّاهم ويقول الزوج كما يلقنه الإمام وإن كان ولد أو حمل يريد نفيه يقول وإن هذا الولد أو الحمل لمن الزنا ما هو منّي، ويقول في الخامسة: عليّ لعنة الله إن كنت من الكاذبين فيما رميت به فلانة، وإذا أتى بكلمة منها من غير تلقين الحاكم لا تكون محسوبة، فإذا فرغ الرجل من اللعان وقعت الفرقة بينه وبين زوجته وحُرِّمت عليه على التأبيد، وانتفى عنه النسب وسقط عنه حدّ القذف، ووجب على المرأة حدّ الزنا، إن كانت محصنة ترجم، وإن كانت غير محصنة تُجلَد وتغرَّب فهذه خمسة أحكام تتعلق كلها بلعان الزوج.

قوله: ﴿ ويدرؤا ﴾، يدفع، ﴿ عنها العذاب أن تشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين ﴾.

﴿ والخامسة أنَّ غضبَ الله عليها إن كان من الصادقين ﴾. وأراد بالعذاب الحدّ كما قال في أول السورة: ﴿ وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين ﴾ أي: أحدهما ومعنى الآية أن الزوج إذ لاعَـنَ وجب على المرأة حدّ الزنا، وإذا وجب عليها حدّ الزنا بلعانه فأرادت إسقاطه عن نفسها فإنها تلاعن فتقوم وتشهد بعد تلقين الحاكم أربع

فإن لم يلاعن حبس حتى يلاعن فإذا لاعن الزوج وامتنعت المرأة من اللعان حبست حتى تلاعن. وعند الآخرين اللعان حجة صدقه والقاذف إذا قعد عن إقامة البينة على صدقه لا يحبس بل يحد كقاذف الأجنبي إذا قعد عن إقامة البينة. وعن أبي حنيفة موجب اللعان وقوع الفرقة ونفي النسب وهما لا يحصلان إلا بلعان الزوجين جميعاً وقضاء القاضي وفرقة اللعان فرقة فسخ عند الأكثرين وبه قال الشافعي وتلك الفرقة متأبدة حتى لو أكذب الزوج نفسه يقبل ذلك فيما عليه لا فيما له فيلزمه الحد ويلحقه الولد لكن لا يرتفع تأبيد التحريم. وعند أبي حنيفة فرقة اللعان فرقة طلاق فإذا أكذب نفسه جاز له أن ينكحها وإذا أتى ببعض كلمات اللعان لا يتعلق به الحكم وعند أبي حنيفة إذا أتى بأكثر كلمات اللعان قام مقام الكل وكل من صح يمينه صح لعانه حراً كان أو عبداً مسلماً كان أو ذمياً. وهو قول سعيد بن المسيب وسليمان بن يسار والحسن وبه قال ربيعة ومالك والثوري والشافعي وأكثر أهل العلم. وقال الزهري والأوزاعي وأصحاب الرأي لا يجري اللعان إلا بين مسلمين حرين غير محدودين فإن كان أحد الزوجين رقيقاً أو ذمياً أو محدوداً في قذف فلا لعان بينهما وظاهر القرآن حجة لمن قال: يجري اللعان بينهما لأن الله تعالى قال والذين يرمون أزواجهم ولم يفصل بين الحر والعبد والمحدود وغيره ولا يصح اللعان إلا عند الحاكم أو نائبه ويغلظ اللعان بأربعة أشياء بتعدد الألفاظ وبالمكان والزمان وأن يكون بمحضر جماعة من الناس، أما تعدد الألفاظ فيجب ولا يجوز الإخلال بشيء منها، وأما المكان فهو أن يلاعن في أشرف الأماكن فإن كان بمكة فبين الركن والمقام وإن كان بالمدينة فعند منبر النبيّ ﷺ وفي سائر البلاد في الجامع عند المنبر، وأما الزمان فهو أن يكون بعد العصر، وأما الجمع فأقله أربعة

شهادات بالله إنه لمن الكاذبين فيما رماني به، وتقول في الخامسة عليَّ غضبُ الله إن كان زوجي من الصادقين فيما رماني به، ولا يتعلق بلعانها إلاّ حكم واحد وهو سقوط الحدّ عنها ولو أقام الزوج بيّنة على زناها فلا يسقط الحدّ عنها باللعان، وعند أصحاب الرأي لا حدّ على مَن قذف زوجته بل موجبه اللعان، فإن لم يلاعن يحبس حتى يلاعن فإذا لاعن الزوج وامتنعت المرأة عن اللعان حبست حتى تلاعن، وعند الآخرين اللعان حجة على صدقه والقاذف إذا قعد عن إقامة الحجة على صدقه لا يحبس بل يحد كقاذف الأجنبي إذا قعد عن إقامة البيّنة، وعند أبي حنيفة موجب اللعان وقوع الفرقة ونفي النسب، وهما لا يحصلان إلاّ بلعان الزوجين جميعاً، وقضاء القاضي وفرقة اللعان فرقة فسخ عند كثير من أهل العلم وبه قال الشافعي، وتلك الفرقة متأبّدة حتى لو أكذب الزوج نفسه يقبل ذلك فيما عليه دون ما له فيلزمه الحدّ ويلحقه الولد ولكن لا يرتفع تأبيد التحريم، وعند أبي حنيفة فرقة اللعان فرقة طلاق فإذا أكذب الزوج نفسه جاز له أن ينكحها وإذا أتى ببعض كلمات اللعان لا يتعلق به الحكم، وعند أبي حنيفة إذا أتى بأكثر كلمات اللعان قام مقام الكل في خلق الحكم به، فكل مَن صحّ يمينه صحّ لعانه حرّاً أو عبداً مسلماً كان أو ذميّاً، وهو قول سعيد بن المسيب وسليمان بن يسار والحسن. وبه قال ربيعة ومالك والثوري والشافعي وأكثر أهل العلم. وقال الزهري والأوزاعي وأصحاب الرأي لا يجري اللعان إلاّ بين مسلمين حرّين غير محدودين فإن كان الزوجان أو أحدهما رقيقاً أو ذميّاً أو محدوداً في قذف فلا لعان بينهما، وظاهر القرآن حجة لمَن قال يجري اللعان بينهما، لأن الله تعالى قال: ﴿ والذين يرمون أزواجهم ﴾، ولم يفصل بين الحرّ والعبد والمحدود وغيره كما قال: ﴿ الذين يظاهرون من نسائهم ﴾ [المجادلة: ٣]، ثم يستوي الحرّ والعبد هنا في الظهار، ولا يصحّ اللعان إلا عند الحاكم أو خليفته، ويغلظ اللعان بأربعة أشياء بعدد الألفاظ والمكان والزمان وأن يكون بمحضر جماعة من الناس، أما الألفاظ المستحقة فلا يجوز الإخلال بها، وأما المكان فهو أن يلاعن في أشرف الأماكن إن كان بمكة فبين الركن والمقام وإن كان بالمدينة فعند المنبر، وفي سائر البلاد ففي المسجد الجامع عند المنبر، والزمان هو أن يكون بعد صلاة العصر، وأما الجمع فأقلّهم أربعة والتغليظ بالجمع مستحب، حتى لو لاعَنَ الحاكم بينهما وحده جاز وهل التغليظ بالمكان واجب أو مستحب فيه قولان.

والتغليظ بالجمع مستحب فلو لاعن الحاكم بينهما وحده جاز وفي التغليظ بالزمان والمكان قولان. قوله تعالى:

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُو بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾﴾

﴿ولولا فضل الله عليكم ورحمته﴾ أي لعاجلكم بالعقوبة ولكنه ستر عليكم ودفع عنكم الحد باللعان **﴿وأن الله تواب﴾** أي يعود على من يرجع عن المعاصي بالرحمة **﴿حكيم﴾** أي فيما فرضه من الحدود. قوله عزّ وجلّ **﴿إن الذين جاؤوا بالإفك عصبة منكم﴾** الآيات سبب نزولها ما روي عن ابن شهاب قال حدّثني عروة بن الزبير وسعيد بن المسيب وعلقمة بن وقاص وعبدالله بن عبدالله بن عتبة بن مسعود عن عائشة زوج النبيّ ﷺ حين قال لها أهل الإفك ما قالوا. وكلهم حدثني طائفة من حديثها وبعضهم كان أوعى لحديثها من بعض وأثبت له اقتصاصاً وقد وعيت عن كل رجل منهم الحديث الذي حدثني عن عائشة وبعض حديثهم يصدق بعضاً قالوا: قالت عائشة رضي الله عنها: «كان رسول رسول الله ﷺ إذا أراد سفراً أقرع بين أزواجه فأيها خرج سهمها خرج بها رسول الله ﷺ قالت عائشة: أقرع بيننا في غزوة غزاها فخرج فيها سهمي فخرجت مع رسول الله ﷺ بعد ما أنزل الحجاب فكنت أحمل في هودج وأنزل فيه فسرنا حتى إذا فرغ رسول الله ﷺ من غزوه وقفل ودنونا من المدينة آذن ليلة بالرحيل فقمت حين آذنوا بالرحيل فمشيت حتى جاوزت الجيش، فلما قضيت من شأني أقبلت إلى رحلي فلمست صدري فإذا عقد لي من جزع ظفار قد انقطع فرجعت فالتمست عقدي فحبسني ابتغاؤه قالت: وأقبل الرهط الذي كانوا يرحلون بي فاحتملوا هودجي فرحلوه على بعيري الذي كنت أركب وهم يحسبون أني فيه وكان النساء إذ ذاك خفافاً لم يهبلن ولم يغشهن اللحم إنما يأكلن العلقة من الطعام، فلم يستنكر القوم خفة الهودج حين رفعوه وحملوه وكنت جارية حديثة السن فبعثوا الجمل وساروا

قوله: ﴿ ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله توّابٌ حكيم ﴾، جواب لولا محذوف يعني لعاجلكم بالعقوبة ولكنه ستر عليكم ورفع عنكم الحدّ باللعان، وإن الله توّاب يعود على مَن يرجع عن المعاصي بالرحمة حكيم فيما فرض من الحدود.

قوله: ﴿ إنّ الذين جاؤوا بالإفكِ عُصْبةٌ منكم ﴾ الآيات، سبب نزول هذه الآية ما أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا عبد العزيز بن عبد الله أنا إبراهيم بن سعد عن صالح عن ابن شهاب قال: حدّثني عروة بن الزبير وسعيد بن المسيب وعلقمة بن وقّاص وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود عن عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ حين قال لها أهل الإفك ما قالوا، وكلهم حدّثني طائفة من حديثها وبعضهم كان أوعى لحديثها من بعض وأثبت له اقتصاصاً وقد وعيت عن كل رجل منهم الحديث الذي حدّثني عن عائشة، وبعض حديثهم يُصدّق بعضاً وإن كان بعضهم أوعى له من بعض، قالوا: قالت عائشة: كان رسول الله ﷺ إذا أراد سفراً أقرع بين أزواجه وأيهنّ خرج سهمها خرج بها النبي ﷺ معه، قالت عائشة فأقرع بيننا في غزوة غزاها فخرج فيها سهمي، فخرجت مع رسول الله ﷺ بعدما أُنزل الحجاب، فكنت أُحمَل في هودج وأنزل فيه فسرنا حتى إذا فرغ رسول الله ﷺ من غزوته تلك، وقفل ودنونا من المدينة قافلين آذن ليلة بالرحيل فقمت حين آذنوا بالرحيل فمشيت حتى جاوزت الجيش، فلما قضيت شأني أقبلت إلى رحلي فلمست صدري فإذا عقد لي من جزع ظفار قد انقطع فرجعت، فالتمست عقدي فحبسني ابتغاؤه، قالت: وأقبل الرهط الذين كانوا يرحلون بي فاحتملوا هودجي فرحلوه على بعيري الذي كنت أركب عليه وهم يحسبون أنّي فيه، وكان النساء إذ ذاك خفافاً لم يهبلن ولم يغشهنّ اللحم إنما يأكلن العلقة من الطعام، فلم يستنكر القوم خفّة الهودج حين رفعوه وحملوه وكنت جارية حديثة

ووجدت عقدي بعد ما استمر الجيش فجئت منازلهم وليس بها داع ولا مجيب فتيممت منزلي الذي كنت به وظننت أنهم سيفقدونني فيرجعون إلي. فبينا أنا جالسة في منزلي غلبتني عيني فنمت وكان صفوان بن المعطل السلمي ثم الذكواني قد عرس من وراء الجيش فأدلج فأصبح عند منزلي فرأى سواد إنسان نائم فأتاني فعرفني حين رآني وكان يراني قبل أن يضرب الحجاب عَلي فاستيقظت باسترجاعه حين عرفني فخمرت وجهي بجلبابي، والله ما كلمني كلمة ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه وهوى حتى أناخ راحلته فوطىء على يديها فركبتها فانطلق يقود بي الراحلة حتى أتينا الجيش بعد ما نزلوا معرسين».

وفي رواية «موغرين في نحر الظهيرة قالت فهلك من هلك في شأني وكان الذي تولى كبره عبدالله بن أبي ابن سلول فقدمنا المدينة فاشتكيت حين قدمنا المدينة شهراً والناس يفيضون في قول أصحاب الإفك ولا أشعر بشيء من ذلك وهو يريبني في وجعي أني لا أرى من النبيّ ﷺ اللطف الذي كنت أرى منه حين أشتكي إنما يدخل فيسلم ثم يقول: كيف تيكم ثم ينصرف فذلك الذي يريبني منه ولا أشعر بالشر حتى نقهت فخرجت أنا وأم مسطح قبل المناصع وهو متبرزنا وكنا لا نخرج إلا ليلاً إلى ليل، وذلك قبل أن نتخذ الكنف قريباً من بيوتنا وأمرنا أمر العرب الأول في التنزه وكنا نتأذى بالكنف أن نتخذها عند بيوتنا فانطلقت أنا وأم مسطح وهي ابنة أبي رهم بن المطلب بن عبد مناف وأمها بنت صخر بن عامر خالة أبي بكر الصديق وابنها مسطح بن أثاثة بن عباد بن المطلب حين فرغنا من شأننا نمشي فعثرت أم مسطح في مرطها فقالت: تعس مسطح فقلت لها بئس ما قلت: أتسبين رجلاً قد شهد بدراً؟ فقالت: يا هنتاه

السن، فبعثوا الجمل وساروا ووجدت عقدي بعدما استمر الجيش فجئت منازلهم وليس بها منهم داعٍ ولا مجيب، فتيمّمت منزلي الذي كنت به وظننت أنهم سيفقدونني فيرجعون إليّ فبينا أنا جالسة في منزلي غلبتني عيني فنمت، وكان صفوان بن المعطل السلمي ثم الذكواني من وراء الجيش فأصبح عند منزلي فرأى سواد إنسان نائم فعرفني حين رآني وكان قد رآني قبل الحجاب، فاستيقظت باسترجاعه حين عرفني فخمرت وجهي بجلبابي ووالله ما تكلمنا بكلمة ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه، وهوى حتى أناخ راحلته فوطىء على يدها فقمت إليها فركبتها فانطلق يقود بي الراحلة حتى أتينا الجيش موغرين في نحر الظهيرة وهم نزول، قالت: فهلك مَن هلك في شأني وكان الذي تولّى كبر الإفك عبد الله بن أُبيّ بن سلول، قال عروة أخبرت أنه كان يُشاع ويتحدث به عنده فيقرّه ويستمعه ويستوشيه، وقال عروة أيضاً: لم يُسَمَّ من أهل الإفك أيضاً إلاّ حسان بن ثابت ومسطح بن أثاثة وحمنة بنت جحش في ناس آخرين لا علم لي بهم غير أنهم عصبة، كما قال الله تعالى: ﴿ والذي تولى كبره ﴾ عبد الله بن أُبيّ بن سلول، قال عروة: كانت عائشة تكره أن يُسَبّ عندها حسان، وتقول: إنه الذي قال:

فإن أبي ووالدتي وعرضي لعرض محمد منكم وِقاء

قالت عائشة: فقَدِمنا المدينة فاشتكيت حين قَدِمت شهراً والناس يفيضون في قول أصحاب الإفك لا أشعر بشيء من ذلك، وهو يريبني في وجعي إني لا أعرف من رسول الله ﷺ اللطف الذي أرى منه حين أشتكي، إنما يدخل عليّ رسول الله ﷺ فيسلّم ثم يقول: «كيف تيكم»؟ ثم ينصرف، فذلك الذي يريبني ولا أشعر بالشرّ حتى خرجت حين نقهت فخرجت مع أم مسطح قبل المناصع ونكان متبر زنا، وكنّا لا نخرج إلاّ ليلاً إلى ليل، وذلك قبل أن نتّخذ الكنف قريباً من بيوتنا، وأمرنا أمر العرب الأول في التنزّه قبل الغائط وكنّا نتأذّى بالكنف أن نتخذها بيوتنا، قالت: فانطلقت، أنا وأُم مسطح وهي ابنة أبي رهم بن المطلب بن عبد مناف وأُمها بنت صخر بن عامر خالة أبي بكر الصديق، وابنها مسطح بن أثاثة بن عباد بن المطلب، فأقبلتُ أنا وأُم مسطح قبل بيتي حين فرغنا من شأننا،

أولم تسمعي ما قال؟ قلت: وما قال فأخبرتني بقول أهل الإفك فازددت مرضاً إلى مرضي فلما رجعت إلى بيتي فدخل علي رسول الله ﷺ ثم قال: كيف تيكم قلت: أتأذن لي أن آتي أبوي؟ قال وأنا حينئذٍ أريد أن أتيقن الخبر من قبلهما فأذن لي رسول الله ﷺ فأتيت أبوي قالت فقلت لأمي يا أمتاه ماذا يتحدث الناس به فقالت: يا بنية هوني على نفسك فوالله لقلما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل يحبها ولها ضرائر إلا كثرن عليها قالت: فقلت سبحان الله وقد تحدث الناس بهذا قالت فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم ثم أصبحت أبكي قالت: ودعا رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب وأسامة ابن زيد حين استلبث الوحي يستشيرهما في فراق أهله قالت: فأما أسامة فأشار عليه بما يعلم براءة أهله وبالذي يعلم لهم في نفسه من الود فقال أسامة هم أهلك يا رسول الله ولا نعلم والله إلا خيراً وأما علي بن أبي طالب فقال يا رسول الله لم يضيق الله عليك والنساء سواها كثير وسل الجارية تصدقك قالت: فدعا رسول الله ﷺ بريرة فقال: أي بريرة هل رأيت من شيء يريبك من عائشة؟ قالت له بريرة: لا والذي بعثك بالحق إن رأيت منها أمراً قط أغمصه عليها أكثر من أنها جارية حديثة السن تنام عن عجين أهلها فيأتي الداجن فيأكله قالت: فقام رسول الله ﷺ من يومه فاستعذر من عبدالله بن أبي ابن سلول فقال رسول الله ﷺ وهو على المنبر: من يعذرني من رجل قد بلغني أذاه في أهلي وفي رواية في أهل بيتي فوالله ما علمت على أهلي إلا خيراً ولقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلا خيراً وما كان يدخل على أهلي إلا معي قالت: فقام سعد بن معاذ أحد بني عبد الأشهل فقال: أنا أعذرتك منه يا رسول الله إن كان من الأوس ضربنا عنقه وإن كان من إخواننا من الخزرج. أمرتنا ففعلنا فيه أمرك فقام سعد بن عبادة وهو سيد الخزرج وكانت أم حسان بنت عمه من فخذه وكان رجلاً صالحاً ولكن احتملته الحمية فقال لسعد بن معاذ:

فعثرت أم مسطح في مرطها، فقالت: تعس مسطح، فقلت لها: بئس ما قلت أتسبّين رجلاً شهد بدراً؟ فقالت: أي هنتاه أوَ لم تستمعي ما قال؟ قالت: فقلت: ما قال؟ فأخبرتني بقول أهل الإفك، قالت فازددت مرضاً على مرضي، فلما رجعت إلى بيتي دخل عليّ رسول الله ﷺ، ثم قال: «كيف تيكم»؟ فقلت له: أتأذن لي أن آتي أبويّ؟ قلت وأنا أُريد أن أستيقن الخبر من قِبَلِهما، قالت فأذِن لي رسول الله ﷺ، فقلت لأمي: يا أُمّتاه ماذا يتحدّث الناس؟ قالت: يا بُنيّة هوّني عليك فوالله لقلّ ما كانت امرأة قطّ وضيئة عند رجل يحبها لها ضرائر إلّا أكثرن عليها، قالت: فقلت: سبحان الله أوَ لقد تحدث الناس بهذا؟ قالت: فبكيت تلك الليلة حتى أُصبحت لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم، ثم أصبحت أبكي، قالت: ودعا رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب وأُسامة بن زيد حين استلبث الوحي يسألهما ويستشيرهما في فراق أهله، قالت: فأما أسامة فأشار على رسول الله ﷺ بالذي يعلم من براءة أهله وبالذي يعلم لهم في نفسه، فقال أسامة: أهلك ولا نعلم إلّا خيراً، وأما علي فقال: يا رسول الله لم يضيق عليك والنساء سواها كثير وسَلْ الجارية تصدقك الخبر، قالت: فدعا رسول الله ﷺ بريرة، فقال: «أيْ بريرة هل رأيت من شيء يريبك»؟ قالت له بريرة: والذي بعثك بالحق ما رأيت عليها أمراً قطّ أُغمصه غير أنها جارية حديثة السن تنام عن عجين أهلها فتأتي الداجن فتأكله فقام رسول الله ﷺ من يومه فاستعذر من عبد الله بن أُبيّ وهو على المنبر، فقال: يا معشر المسلمين مَن يذرني من رجل قد بلغني عنه أذاه في أهلي والله ما علمت على أهلي إلّا خيراً، ولقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلّا خيراً وما يدخل على أهلي إلا معي، قالت: فقام سعد بن معاذ أخو بني عبد الأشهل، فقال أنا يا رسول الله أعذرك فإن كان من الأوس ضربت عنقه وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك، قالت: وقام رجل من الخزرج وكانت أُم حسان بنت عمّه من فخذه وهو سعد بن عبادة وهو سيد الخزرج، قالت عائشة: وكان قبل ذلك رجلاً صالحاً ولكن احتملته الحمية فقال لسعد كذبت لعمر الله لا تقتله ولا تقدر على قتله ولو كان من رهطك ما أحببت أن يقتل، فقام أُسيد بن حضير وهو ابن عمّ لسعد بن عبادة فقال: كذبت لعمر الله لنقتلنّه فإنّك

كذبت لعمر الله لا تقتله ولا تقدر على ذلك فقام أسيد بن حضير وهو ابن عم سعد يعني ابن معاذ فقال لسعد بن عبادة: كذبت لعمر الله لنقتلنه فإنك منافق تجادل عن المنافقين فتثاور الحيان الأوس والخزرج حتى هموا أن يقتتلوا ورسول الله ﷺ قائم على المنبر فلم يزل رسول الله ﷺ يخفضهم حتى سكتوا وسكت قالت: وبكيت يومي ذلك لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم ثم بكيت ليلتي المقبلة لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم فأصبح عندي أبواي وقد بكيت ليلتين ويوماً حتى أظن أن البكاء فالق كبدي قالت فبينما هما جالسان عندي وأنا أبكي إذ استأذنت علي امرأة من الأنصار فأذنت لها فجلست تبكي معي فبينا نحن كذلك إذ دخل رسول الله ﷺ فسلّم ثم جلس ولم يجلس عندي من يوم قيل لي ما قيل قبلها وقد مكث شهراً لا يوحى إليه في شأني بشيء قالت فتشهّد رسول الله ﷺ حين جلس ثم قال: أما بعد يا عائشة فإنه بلغني عنك كذا وكذا فإن كنت بريئة فسيبرئك الله وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله وتوبي إليه فإنّ العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب تاب الله عليه. فلما قضى رسول الله ﷺ مقالته قلص دمعي حتى ما أحس منه قطرة وقلت لأبي أجب عني رسول الله ﷺ فيما قال: قال والله ما أدري ما أقول لرسول الله فقلت لأمي أجيبي عني رسول الله ﷺ فيما قال قالت: والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ فقلت أنا جارية حديثة السن لا أقرأ كثيراً من القرآن إني والله لقد علمت أنكم سمعتم ما تحدث به الناس حتى استقر في أنفسكم وصدقتم به فلئن قلت لكم إني بريئة والله يعلم أني بريئة لا تصدقوني بذلك، ولئن اعترفت لكم بأمر والله يعلم إني منه بريئة لتصدقني فوالله ما أجد لي ولكم مثلاً إلا أبا يوسف إذ قال «فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون» ثم تحولت فاضطجعت على فراشي وأنا والله حينئذ أعلم أني بريئة وإن الله مبرئي ببراءتي ولكن والله ما كنت أظن أن ينزل الله في شأني وحياً يتلى ولشأني في نفسي كان

منافق تجادل عن المنافقين، قالت: فثار الحيّان الأوسُ والخزرج حتى همّوا أن يقتتلوا ورسول الله ﷺ قائم على المنبر، قالت: فلم يزل رسول الله ﷺ يخفضهم حتى سكتوا وسكت، قالت: فبكيت يومي ذلك كله لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم، قالت وأصبح أبواي عندي، قالت: وقد بكيت ليلتين ويوماً لا أكتحل بنوم ولا يرقأ لي دمع حتى إني لأظنُّ أن البكاء فالق كبدي فبينا أبواي جالسان عندي، وأنا أبكي فاستأذنت عليّ امرأة من الأنصار فأذنت لها، فجلست تبكي معي، فبينا نحن على ذلك دخل رسول الله ﷺ، فسلّم علينا ثم جلس، قالت: ولم يجلس عندي منذ قيل ما قيل قبلها، وقد لبث شهراً لا يُوحى إليه في شأني بشيء، قالت: فتشهّد رسول الله ﷺ حين جلس ثم قال: «أما بعد يا عائشة إنه بلغني عنك كذا وكذا فإن كنت بريئة فسيُبرئك الله، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله وتوبي إليه، فإن العبد إذا اعترف ثم تـاب تاب الله عليه»، قالت: فلما قضـى رسول الله ﷺ مقالته قلّص دمعي حتى ما أحسّ منه قطرة، فقلت لأبي أجب رسول الله ﷺ فيما قال، فقال أبي: والله ما أدري. ما أقول لرسول الله ﷺ فقلت لأمي: أجيبي رسول الله ﷺ، قالت أمي: والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ، فقلت وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ من القرآن كثيراً إني والله لقد علمت لقد سمعتم هذا الحديث حتى استقر في أنفسكم وصدّقتم به، فلئن قلت لكم إني بريئة لا تصدقوني، ولئن اعترفت لكم بأمر والله يعلم إني بريئة لتصدقني، فوالله لا أجد لي ولكم مثلاً إلّا أبا يوسف حين قال: ﴿ فصبرٌ جميل والله المستعان على ما تصفون ﴾ [يوسف: ١٨]، ثم تحوّلت واضطجعت على فراشي والله يعلم إني حينئذ بريئة وإن الله مُبرئي ببراءتي ولكن والله ما كنت أظن أن الله مُنزل في شأني وحياً يُتلى، لشأني في نفسي كان أحقر من أن يتكلم الله فيّ بأمر، ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ في النوم رؤيا يبرّئني الله بها، فوالله ما رام رسول الله ﷺ مجلسه ولا خرج أحد من أهل البيت حتى أنزل عليه فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء حتى إنه ليتحدّر منه العرق مثل الجمان وهو في يوم شاتٍ من ثقل القول الذي أُنزل عليه، قالت: فسُرّيَ عن رسول الله ﷺ وهو يضحك فكانت أول كلمة تكلم بها أن قال: أبشري يا عائشة أما الله فقد

أحقر من أن يتكلم والله في بأمر يتلى ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ في النوم رؤيا يبرئني الله بها قالت: فوالله ما رام رسول الله ﷺ مجلسه ولا خرج أحد من أهل البيت حتى أنزل الله على نبيه ﷺ فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء حتى إنه ليتحدر منه مثل الجمان من العرق في اليوم الشاتي من ثقل القول الذي أنزل عليه قال فسري عن رسول الله ﷺ وهو يضحك فكان أول كلمة تكلم بها أن قال لي: يا عائشة احمدي الله وفي رواية قال أبشري يا عائشة أما الله فقد برأك فقالت لي أمي: قومي إلى رسول الله ﷺ فقلت: لا والله لا أقوم إليه ولا أحمد إلا الله هو الذي أنزل براءتي قالت: فأنزل الله عزّ وجلّ ﴿**إن الذين جاؤوا بالإفك عصبة منكم**﴾ العشر الآيات فأنزل الله عزّ وجلّ هذه الآيات في براءتي قالت فقال أبو بكر وكان ينفق على مسطح بن أثاثة لقرابته منه وفقره والله لا أنفق عليه شيئاً أبداً بعد الذي قال لعائشة فأنزل الله ﴿**ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة ـ إلى قوله ـ غفور رحيم**﴾ فقال أبو بكر بلى والله إني لأحب أن يغفر الله لي فرجع إلى مسطح الذي كان يجري عليه وقال والله لا أنزعها منه أبداً قالت عائشة وكان رسول الله ﷺ سأل زينب بنت جحش عن أمري فقال يا زينب ما علمت أو ما رأيت؟ فقالت: يا رسول الله أحمي سمعي وبصري والله ما علمت عليها إلا خيراً قالت عائشة وهي التي كانت تساميني من أزواج النبيّ ﷺ فعصمها الله بالورع وطفقت أختها حمنة تحارب لها فهلكت فيمن هلك من أصحاب الإفك. قال ابن شهاب: فهذا الذي بلغني من حديث هؤلاء الرهط زاد في رواية قالت عائشة: والله إن الرجل الذي قيل له ما قيل ليقول سبحان الله فو الذي نفسي بيده ما كشفت من كنف أنثى قط قالت: ثم قتل بعد في سبيل الله شهيداً». هذا حديث متفق على صحته أخرجاه في الصحيحين زاد البخاري في رواية عن عروة: عن عائشة «والذي تولى كبره منهم عبدالله بن أبي ابن سلول وقال عروة أخبرت أنه كان يشاع

برّأك، قالت: فقالت لي أُمي قومي إليه فقلت والله لا أقوم إليه فإني لا أحمد إلاّ الله قالت وأنزل الله تعالى ﴿ **إن الذين جاؤوا بالإفك عصبة منكم** ﴾ العشر الآيات ثم أنزل الله في براءتي؟ قال أبو بكر الصدّيق وكان ينفق على مسطح بن أثاثة لقرابته منه وفقره: والله لا أُنفق على مسطح شيئاً أبداً بعد الذي قال لعائشة ما قال، فأنزل الله: ﴿ ولا يأتل أُولو الفضل منكم والسعة ﴾ إلى قوله: ﴿ غفور رحيم ﴾ [النور: ٢٢]، قال أبو بكر الصدّيق: بل والله إني لأحبّ أن يغفر الله لي، فرجع إلى مسطح النفقة التي كان ينفق عليه، وقال: والله لا أنزعها منه أبداً، قالت عائشة: وكان رسول الله ﷺ سأل زينب بنت جحش عن أمري فقال لزينب: ماذا علمت أو رأيت فقالت: يا رسول الله أحمي سمعي وبصري، والله ما علمت إلاّ خيراً، قالت عائشة، وهي التي كانت تساميني من أزواج النبي ﷺ فعصمها الله بالورع، قالت: وطفقت أُختها حمنة تحارب لها فهلكت فيمَن هلك. قال ابن شهاب: فهذا الذي بلغني من حديث هؤلاء الرهط، قالت عائشة: والله إن الرجل الذي قيل له ما قيل ليقول سبحان الله فوالذي نفسي بيده ما كشفت عن كنف أُنثى قطّ ثم قتل بعد ذلك في سبيل الله. ورواه محمد بن إسماعيل عن يحيىٰ بن بكير أنا الليث عن يونس عن ابن شهاب بإسناد مثله، وقال: وإنْ كنتِ ألممتِ بذنب فاستغفري الله وتوبي إليه فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب تاب الله عليه، إلى قوله: فهلكت فيمن هلك من أصحاب الإفك. ورواه أبو أسامة عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة فقالت: ولقد جاء رسول الله ﷺ بيتي فسأل عني خادمتي، فقالت: لا والله ما علمت عليها عيباً إلاّ أنها كانت ترقد حتى تدخل الشاة فتأكل خميرها أو عجينها، فانتهرها بعض أصحابه، فقال: أصدقي رسول الله حتى أسقطوا المهابة، فقالت: سبحان الله والله ما علمت عليها إلاّ كما يعلم الصائغ على تبر الذهب الأحمر، وفيه قالت: وأُنزل على رسول الله ﷺ، فرُفعَ عنه وإني لأتبيّن السرور في وجهه وهو يمسح جبينه، ويقول: «أبشري يا عائشة فقد أنزل الله براءتك»، فقال لي أبواي: قومي إليه، فقلت: لا والله لا أقوم إليه ولا أحمده ولا أحمد أحداً ولكن أحمد الله الذي أنزل براءتي، لقد سمعتموه فما أنكرتموه ولا غيّرتموه.

ويتحدث به عنده فيقرره ويشيعه ويستوشيه قال عروة لم يسم لي من أهل الإفك إلا حسان بن ثابت ومسطح بن أثاثة وحمنة بنت جحش في ناس آخرين لا علم لي بهم غير أنهم عصبة كما قال الله تعالى. قال عروة كانت عائشة تكره أن يسب عندها حسان وتقول إنه الذي قال:

فـــإن أبـــي ووالـــدتـــي وعـــرضـــي لعـــرض محمـــد منكـــم وقـــاء

أخرجاه من حديث مسروق قال: دخلت على عائشة وعندها حسان ينشدها شعراً ببيت من أبياته فقال:

حصـــان رزان مـــا تـــزن بـــريبـــة وتصبـــح غـــرثـــى مـــن لحـــوم الغـــوافـــل

فقالت عائشة: لكنك لست كذلك قال مسروق فقلت لها: تأذنين له أن يدخل عليك وقد قال الله **﴿والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم﴾** قالت وأي عذاب أشد من العمى. وقالت: إنه كان ينافح أو يهاجي عن رسول الله ﷺ.

حل غريب ألفاظ هذا الحديث

قوله: وكلهم حدثني طائفة أي قطعة من حديثها، قوله كان أوعى أي أحفظ له، قولها آذن أي أعلم بالرحيل، قولها فإذا عقد لي من جزع أظفار وهو نوع من الخرز وهو الحجر اليماني المعروف، قولها لم يهبلن أي يكثر لحمهن فيثقلن، قولها إنما يأكلن العلقة من الطعام هو بضم العين أي البلغة من الطعام وهو قدر ما يمسك الرمق، قولها وليس بها منهم داع ولا مجيب أي ليس بها أحد لا من يدعو ولا من يرد جواباً، قولها فتيممت أي قصدت قولها قد عرس من وراء الجيش فأدلج، التعريس نزول المسافر في آخر الليل للراحة والإدلاج بالتشديد سير آخر الليل وبالتخفيف سير

أما تفسير قوله: **﴿ إنّ الذين جاؤوا بالإفك ﴾** بالكذب وهو أسوأ الكذب سُمّي إفكاً لكونه مصروفاً عن الحق، من قولهم: **أفك الشيء** إذا قلبه عن وجهه، وذلك أن عائشة كانت تستحق الثناء لما كانت عليه من الحصانة والشرف فمَن رماها بالسوء قلب الأمر عن وجهه، **﴿ عصبة منكم ﴾** أي جماعة منهم عبد الله بن أُبيّ بن سلول ومِسطح بن أثاثة وحسان بن ثابت وحمنة بنت جحش زوجة طلحة بن عبيد الله وغيرهم، **﴿ لا تحسبوه شراً لكم ﴾**، يا عائشة ويا صفوان، وقيل: هو خطاب لعائشة ولأبويها وللنبي ﷺ ولصفوان، يعني: لا تحسبوا الإفك شرّاً لكم، **﴿ بل هو خير لكم ﴾**، لأن الله يأجركم على ذلك ويُظهِر براءتكم، وسُمّي الإفك إفكاً لكونه مصروفاً عن الحق، من قولهم **أفك الشيء** إذا قلبه عن وجهه، وذلك أن عائشة كانت تستحق الثناء بما كانت عليه من الحصانة والشرف فمَن رماها بالسوء قلب الأمر عن وجهه.

قوله تعالى: **﴿ لكل امرىء منهم ﴾**، يعني من العصبة الكاذبة **﴿ ما اكتسبَ من الإثم ﴾**، أي: جزاء ما اجترح من الذنب على قدر ما خاض فيه، **﴿ والذي تولى كِبْرَهُ ﴾**، أي: تحمّل معظمه فبدأ بالخوض فيه، قرأ يعقوب **﴿ كبره ﴾** بضم الكاف، وقرأ العامّة بالكسر، قال الكسائي: هما لغتان. قال الضحاك: قام بإشاعة الحديث، وهو عبد الله بن أُبيّ بن سلول. وروى الزهري عن عروة عن عائشة **﴿ والذي تولى كبره منهم﴾** قالت عبد الله بن أُبيّ بن سلول، والعذاب الأليم هو النار في الآخرة، وقد روى ابن أبي مُليكة عن عروة عن عائشة في حديث الإفك قالت: ثم ركبت وأخذ صفوان بالزمام فمررنا بملأ من المنافقين وكانت عادتهم أن ينزلوا منتبذين من الناس، فقال عبد الله بن أُبيّ رئيسهم: مَنْ هذه؟ قالوا: عائشة قال: والله ما نجت منه وما نجا منها، وقال امرأة نبيّكم باتت مع رجل حتى أصبحت ثم جاء يقود بها. وشرع في ذلك أيضاً حسان بن ثابت ومسطح وحمنة، فهو الذي تولّى كبره. وقال قوم: هو حسان بن ثابت. أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا

الليل كله، قولها باسترجاعه هو قوله «إنا لله وإنا إليه راجعون» قولها فخمرت أي غطيت وجهي بجلبابي أي إزاري، قولها موغرين في نحر الظهيرة الوغرة شدة الحر وكذا نحر الظهيرة أي أولها، قولها والناس يفيضون أي يخوضون ويتحدثون، قولها وهو يريبني يقال رابني الشيء يريبني أي شككت فيه، قولها ولا أرى من النبيّ ﷺ اللطف أي الرفق بها واللطف في الأفعال الرفق وفي الأقوال لين الكلام، قولها حتى نقهت أي أفقت من المرض والمناصع المواضع الخالية تقضي فيها الحاجة من غائط وبول وأصله المكان الواسع الخالي والمرط كساء من صوف أوخز، قولها تعس مسطح أي عثر وهو من الدعاء على الإنسان أي سقط لوجهه، قولها يا هنتاه أي بلهاء كأنها تنسبها إلى البله وقلة المعرفة، قولها لا يرقأ لي دمع أي لا ينقطع وقول بريرة إن رأيت بمعنى النفي أي ما رأيت منها أمراً أغمصه بالصاد المهملة أي أعيب والداجن الشاة التي تألف البيت وتقيم به: قوله ﷺ: من يعذرني أي من يقوم بعذري إن أنا كافأته على سوء صنيعه إن عاتبت أو عاقبت فلا تلوموني على ذلك قولها وكانت أم حسان بنت عمه من فخذه أي من قبيلته قولها ولكن احتملته الحمية أي حمله الغضب والأنفة والتعصب على الجهل للقرابة، قولها فتثاور الحيان أي ثاروا ونهضوا للقتال والمخاصمة، قولها فلم يزل يخفضهم أي يهون عليهم ويسكن، قوله ﷺ إن كنت ألممت قيل هو من اللمم وهو صغائر الذنوب وقيل معناه مقارفة الذنب من غير فعل، قولها قلص دمعي أي انقطع جريانه، قولها ما رام أي ما برح من مكانه والبرحاء الشدة والكرب والجمانة وجمعها جمان فسرى عنه أي كشف عنه وقول زينب أحمي سمعي وبصري أي أمنعهما أن أخبر بما لم أسمع ولم أبصر، قولها وهي التي كانت تساميني من السمو وهو العلو والغلبة فعصمها الله أي منعها من الوقوع في الشر بالورع وقول الرجل ما كشفت من كنف أي من ستر أنثى قوله ويستوشيه أي يستخرجه بالبحث عنه والاستقصاء فيه وقول حسان في عائشة حصان بفتح الحاء يقال امرأة حصان أي متعففة رزان أي ثابتة ما تزن أي ترمي ولا تتهم بريبة أي بأمر يريب الناس حيية وتصبح غرثى أي جائعة والغرث الجوع

محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا بشر بن خالد أنا محمد بن جعفر عن شعبة عن سليمان عن أبي الضحى عن مسروق قال: دخلت على عائشة وعندها حسان بن ثابت ينشد شعراً يشبب بأبيات له وقال:

حصان رزان ما تزن بريبة وتصبح غرثي من لحوم الغوافل

فقالت له عائشة: لكنك لست كذلك، قال مسروق فقلت لها: لِمَ تأذنين له أن يدخل عليك وقد قال الله تعالى ﴿والذي تولى كبرهُ منهم له عذاب عظيم﴾؟ قلت: وأيّ عذاب أشدّ من العمى، وقالت: إنه كان ينافح أو يهاجي عن رسول الله ﷺ. ويُروَى أن النبي ﷺ أمر بالذين رموا عائشة فجلدوا الحدَّ جميعاً ثمانين ثمانين.

قوله: ﴿ **لولا** ﴾، هلاّ، ﴿ **إذْ سمعتموه ظنّ المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم** ﴾، بإخوانهم، ﴿ **خيراً** ﴾، قال الحسن: بأهل دينهم لأن المؤمنين كنفس واحدة، نظيره قوله تعالى: ﴿ ولا تقتلوا أنفسكم ﴾ [النساء: ٢٩]، ﴿ فسلّموا على أنفسكم ﴾ [النور: ٦١]. ﴿ **وقالوا هذا إفك مبين** ﴾، أي كذب بيّن.

﴿ **لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء** ﴾، على ما زعموا، ﴿ **فإذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون** ﴾، فإن قيل: كيف يصيرون عند الله كاذبين إذ لم يأتوا بالشهداء ومَن كذب فهو عند الله كاذب سواء أتى بالشهداء أو لم يأتِ؟ قيل: عند الله أي في حكم الله وقيل: معناه كذّبوهم بأمر الله. وقيل: هذا في حق عائشة ومعناه أولئك هم الكاذبون في غيبي وعلمي.

﴿ **ولولا فضل الله عليكم ورحمته في الدينا والآخرة لمسّكم فيما أفضتم** ﴾، خضتم، ﴿ **فيه** ﴾، من الإفك، ﴿ **عذاب عظيم** ﴾، قال ابن عباس أي: عذاب لا انقطاع له يعني في الآخرة لأنه ذكر عذاب الدنيا من قبل، فقال

من لحوم الغوافل جمع غافلة، والمعنى أنها لا تغتاب أحداً مما هو غافل عن مثل هذا الفعل وقول عائشة في حسان إنه كان ينافح أي يناضل ويخاصم عن الله ورسوله: وأما التفسير فقوله عزّ وجلّ ﴿**إن الذين جاؤوا بالإفك**﴾ أي بالكذب والإفك أسوأ الكذب لكونه مصروفاً عن الحق وذلك أن عائشة كانت تستحق الثناء والمدح بما كانت عليه من الحصانة والشرف والعقل والعلم والديانة فمن رماها بالسوء فقد قلب الحق بالباطل وجاء بالإفك، عصبة أي جماعة منكم أي عبدالله بن أبي ابن سلول ومسطح بن أثاثة وحسان بن ثابت وحمنة بنت جحش زوجة طلحة ابن عبيدالله. فإن قلت عبدالله بن أبي ابن سلول كان رأس المنافقين فكيف قال منكم. قلت كان ينسب إلى الإيمان في الظاهر وقيل قوله منكم خرج مخرج الأغلب فإنّ حسان بن ثابت ومسطح بن أثاثة وحمنة كانوا من المؤمنين المخلصين ﴿**لا تحسبوه شراً لكم**﴾ يعني الإفك الخطاب لعائشة وصفوان وقيل لعائشة ولأبويها وللنبيّ ﷺ ولصفوان ﴿**بل هو خير لكم**﴾ يعني أن الله آجركم على ذلك وأظهر براءتكم وشهد بكذب العصبة وأوجب لهم الذم وهذا غاية الشرف والفضل لكم ﴿**لكل امرىء منهم**﴾ أي من العصبة الكاذبة ﴿**ما اكتسب من الإثم**﴾ أي جزاء ما اجترح من الذنب على قدر ما خاض فيه ﴿**والذي تولى كبره**﴾ يعني تحمل معظمه وبدأ بالخوض فيه وأقام بإشاعته وهو عبدالله بن أبي ابن سلول ﴿**منهم**﴾ من العصبة ﴿**له عذاب عظيم**﴾ يعني عذاب النار في الآخرة روي «أنّ النبيّ ﷺ أمر بالذين رموا عائشة فجلدوا جميعاً ثمانين ثمانين». قوله عزّ وجلّ:

لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ
شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا
وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ
وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ
عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ
حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ
وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا
تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا

تعالى: ﴿والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم﴾ [النور: ١١]، وقد أصابهم فإنه قد جُلد وحُدّ، وقد روت عمرة عن عائشة أن النبي ﷺ لمّا نزلت هذه الآية حدّ أربعة نفر: عبد الله بن أُبيّ وحسان بن ثابت، ومسطح بن أثاثة وحمنة بنت حجش.

قوله تعالى: ﴿ إِذْ تلقونه ﴾، تقولونه، ﴿ بألسنتكم ﴾، قال مجاهد ومقاتل: يرويه بعضكم عن بعض. وقال الكلبي: وذلك أن الرجل منهم يلقى الرجل فيقول بلغني كذا وكذا يتلقونه تلقياً، وكذا قرأه أُبيّ بن كعب وقال الزجّاج: يلقيه بعضكم إلى بعض، وقرأت عائشة ﴿تلقونه﴾ بكسر اللام وتخفيف القاف من الولق وهو الكذب، ﴿ وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم وتحسبونه هيّناً ﴾، تظنون أنه سهل لا إثم فيه، ﴿ وهو عند الله عظيم ﴾، في الوزر.

زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾

﴿لولا إذ سمعتموه﴾ يعني الحديث الكذب وهو قول أهل الإفك **﴿ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم﴾** بإخوانهم وأهل دينهم **﴿خيراً﴾** والمعنى كان الواجب على المؤمنين إذ سمعوا قول أهل الإفك أن يكذبوه ويحسنوا الظن ولا يسرعوا في التهمة وقول الزور فيمن عرفوا عفته وطهارته وفيه معاتبة للمؤمنين **﴿وقالوا هذا إفك مبين﴾** يعني كذب بين لا حقيقة له **﴿لولا﴾** يعني هلا **﴿جاؤوا عليه﴾** يعني على ما زعموا **﴿بأربعة شهداء﴾** يعني يشهدون بذلك **﴿فإذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله﴾** يعني في حكم الله **﴿هم الكاذبون﴾** وهذا من باب الزواجر. فإن قلت كيف يصيرون عند الله كاذبين إذا لم يأتوا بالشهداء ومن كذب فهو عند الله كاذب سواء أتى بالشهداء أو لم يأت. قلت قيل هذا في حق الذين رموا عائشة خاصة ومعناه فأولئك هم الكاذبون في غيبي. وعلمي وقيل معناه فأولئك عند الله في حكم الكاذبين فإن الكاذب يجب زجره عن الكذب والقاذف إذا لم يأت بالشهود يجب زجره. قوله تعالى **﴿لولا فضل الله عليكم ورحمته في الدنيا والآخرة لمسكم فيما أفضتم فيه عذاب عظيم﴾** معناه لولا أني قضيت أن أتفضل عليكم في الدنيا بضروب النعم التي من جملتها الإمهال للتوبة وأن أترحم عليكم في الآخرة بالعفو والمغفرة لعاجلتكم بالعقاب على ما خضتم به من حديث الإفك والخطاب للقذفة وهذا الفضل هو تأخير العذاب وقبول التوبة ممن تاب **﴿إذ تلقونه بألسنتكم﴾** أي يرويه بعضكم عن بعض وذلك أن الرجل منهم يلقى الرجل فيقول بلغني كذا وكذا فيتلقونه تلقياً يلقيه بعضهم إلى بعض **﴿وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم﴾** أي من غير أن تعلموا أنه حق **﴿وتحسبونه هيناً﴾** أي وتظنون أنه سهل لا إثم فيه **﴿وهو عند الله عظيم﴾** أي في الوزر **﴿ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك﴾** قيل هو للتعجب وقيل هو للتنزيه **﴿هذا بهتان عظيم﴾** أي كذب عظيم يبهت ويحير من عظمه. روي أن أم أيوب الأنصاري قالت لأبي أيوب الأنصاري: ما بلغك ما يقول الناس في عائشة فقال: سبحانك هذا بهتان عظيم فنزلت الآية على وفق قوله **﴿يعظكم الله﴾** قال ابن عباس يحرم الله عليكم وقيل ينهاكم الله **﴿أن تعودوا لمثله أبداً إن كنتم مؤمنين ويبين الله لكم الآيات﴾** أي في الأمر والنهي **﴿والله عليم﴾** أي بأمر عائشة وصفوان **﴿حكيم﴾** أي حكم

﴿ لولا إذْ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك ﴾، هذا اللفظ ههنا بمعنى التعجّب، **﴿ هذا بهتان عظيم ﴾**، يعني كذب عظيم يبهت ويتحيّر من عظمته. وفي بعض الأخبار أن أُم أيوب قالت لأبي أيوب الأنصاري: أما بلغك ما يقول الناس في عائشة؟: فقال أبو أيوب: سبحانك هذا بهتان عظيم، فنزلت الآية على وفق قوله:

﴿ يعظكم الله ﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما: يحرّم الله عليكم وقال مجاهد: ينهاكم الله. **﴿ أن تعودوا لمثله أبداً إن كنتم مؤمنين ﴾**.

﴿ ويبيّن الله لكم الآيات ﴾، بالأمر والنهي، **﴿ والله عليم ﴾** بأمر عائشة وصفوان بن المعطل، **﴿ حكيم ﴾**، حكم ببراءتهما.

قوله تعالى: **﴿ إن الذين يحبّون أن تشيع الفاحشة ﴾**، يعني يظهر ويذيع الزنا، **﴿ في الذين آمنوا لهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة ﴾**، يعني عبد الله بن أُبيّ وأصحابه المنافقين، والعذاب في الدنيا الحدّ وفي الآخرة النار، **﴿ والله يعلم ﴾**، كذبهم وبراءة عائشة وما خاضوا فيه من سخط الله، **﴿ وأنتم لا تعلمون ﴾**.

﴿ ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأنّ الله رؤوف رحيم ﴾، جواب **﴿ لولا ﴾** محذوف يعني: لعاجلكم بالعقوبة، قال ابن عباس: يريد مسطحاً وحسان بن ثابت وحمنة.

ببراءتهما. قوله عزّ وجلّ ﴿إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة﴾ أي يظهر الزنا ويذيع ﴿في الذين آمنوا﴾ قيل الآية مخصوصة بمن قذف عائشة والمراد بالذين آمنوا جميع المؤمنين ﴿لهم عذاب أليم في الدنيا﴾ يعني الحد والذم على فعله ﴿والآخرة﴾ أي وفي الآخرة لهم النار ﴿والله يعلم﴾ أي كذبهم وبراءة عائشة وما خاضوا فيه من سخط الله ﴿وأنتم لا تعلمون﴾ وقيل معناه يعلم ما في قلب من يحب أن تشيع الفاحشة فيجازيه على ذلك وأنتم لا تعلمون ذلك ﴿ولولا فضل الله عليكم ورحمته﴾ يعني لولا إنعامه عليكم لعاجلكم بالعقوبة قال ابن عباس يريد مسطحاً وحسان بن ثابت وحمنة ﴿وأن الله رؤوف رحيم﴾. قوله تعالى:

﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان﴾ يعني آثاره ومسالكه ﴿ومن يتبع خطوات الشيطان فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر﴾ يعني بالقبائح من الأقوال والأفعال وكل ما يكره الله عزّ وجلّ والآية عامة في حق كل أحد لأن كل مكلف ممنوع من ذلك ﴿ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبداً﴾ يعني ما طهر ولا صلح والآية عند بعض المفسرين على العموم قالوا أخبر الله تعالى أنه لولا فضله ورحمته بالعصمة ما صلح منكم أحد وقيل الخطاب للذين خاضوا في الإفك ومعناه ما طهر من هذا الذنب ولا صلح أمره بعد الذي فعل. وهذا قول ابن عباس قال معناه ما قبل توبة أحد منكم أبداً ﴿ولكن الله يزكي﴾ يعني يطهر ﴿من يشاء﴾ من الذنب بالرحمة والمغفرة ﴿والله سميع﴾ يعني لأقوالكم ﴿عليم﴾ يعني بما في قلوبكم قوله:

﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأٓخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ﴿٢٥﴾ ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾﴾

﴿ولا يأتل﴾ يعني ولا يحلف من الألية وهي القسم ﴿أولوا الفضل منكم والسعة﴾ يعني الغنى يعني أبا بكر الصديق ﴿أن يؤتوا أولي القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله﴾ يعني مسطحاً وكان مسكيناً مهاجراً بدرياً ابن خالة أبي بكر الصديق حلف أبو بكر أن لا ينفق عليه فأنزل الله هذه الآية ﴿وليعفوا وليصفحوا﴾ يعني عن خوض مسطح

قوله: ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتبعوا خُطوات الشيطان ومَن يتبع خطوات الشيطان فإنه يأمر بالفحشاء ﴾، يعني بالقبائح من الأفعال، ﴿ والمنكر ﴾، كل ما يكرهه الله، ﴿ ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى ﴾، قال مقاتل: ما صلح. وقال ابن قتيبة: ما طهر، ﴿ منكم من أحد ﴾، والآية على العموم عند بعض المفسرين، قالوا: أخبر الله أنه لولا فضله ورحمته بالعصمة ما صلح منكم أحد. وقال قوم: هذا الخطاب للذين خاضوا في الإفك، ومعناه: ما طهر من هذا الذنب ولا صلح أمره بعد الذي فعل، وهذا قول ابن عباس في رواية عطاء، قال: ما قبل توبة أحد منكم، ﴿ أبداً ولكن الله يزكّي ﴾، يُطَهِّرُ، ﴿ مَن يشاء ﴾، من الذنب بالرحمة والمغفرة، ﴿ والله سميع عليم ﴾.

قوله تعالى: ﴿ ولا يأتل ﴾، يعني ولا يحلف، وهو يفعل من الألية وهي القسم، وقرأ أبو جعفر يتأل بتقديم التاء وتأخير الهمزة، وهو يتفعّل من الألية وهي القسم. ﴿أولوا الفضل منكم والسَّعة﴾، يعني أُولـوا الغنى والسعة يعني أبا بكر الصديق ﴿أن يؤتوا أولي القربى والمساكين والمهاجرين في سبيـل الله﴾، يعني مسطحـاً وكان مسكينـاً مهاجـراً

في أمر عائشة ﴿ألا تحبون﴾ يخاطب أبا بكر ﴿أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم﴾ فلما قرأها رسول الله ﷺ على أبي بكر قال بل أنا أحب أن يغفر الله لي ورجع إلى مسطح بنفقته التي كان ينفق عليه وقال والله لا أنزعها عنه أبداً. وفي الآية أدلة على فضل أبي بكر الصديق لأن الفضل المذكور في الآية ذكره تعالى في معرض المدح وذكره بلفظ الجمع في قوله أولوا الفضل وقوله ألا تحبون أن يغفر الله لكم وهذا يدل على علو شأنه ومرتبته منها أنه احتمل الأذى من ذوي القربى ورجع عليه بما كان ينفقه عليه وهذا من أشد الجهاد لأنه جهاد النفس. ومنها أنه تعالى قال في حق رسول الله ﷺ «فاعف عنهم واصفح» وقال في حق أبي بكر: «وليعفوا وليصفحوا» فدل أن أبا بكر كان ثاني اثنين لرسول الله ﷺ في جميع الأخلاق. وفي الآية دليل على أن من حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها فليأت الذي هو خير ويكفّر عن يمينه ومنه الحديث الصحيح «من حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها فليأت الذي هو خير وليكفر عن يمينه». قوله تعالى:

﴿إن الذين يرمون المحصنات﴾ يعني العفائف ﴿الغافلات﴾ يعني عن الفواحش والغافلة، عن الفاحشة هي التي لا يقع في قلبها فعل الفاحشة وكذلك كانت عائشة رضي الله عنها ﴿المؤمنات﴾ وصفها بالمؤمنات لعلو شأنها ﴿لعنوا﴾ يعني عذبوا ﴿في الدنيا﴾ بالحد ﴿والآخرة﴾ يعني وفي الآخرة بالنار ﴿ولهم عذاب عظيم﴾ وهذا في حق عبدالله بن أبي ابن سلول المنافق، وروي عن حصيف قال قلت لسعيد بن جبير من قذف مؤمنة يلعنه الله في الدنيا والآخرة قال ذاك لعائشة وأزواج النبيّ ﷺ خاصة دون سائر المؤمنات ليس في ذلك توبة ومن قذف امرأة مؤمنة فقد جعل الله له توبة ثم قرأ «والذين يرمون المحصنات» إلى قوله تابوا فجعل لهؤلاء توبة ولم يجعل لأولئك توبة وقيل بل لهم توبة أيضاً للآية ﴿يوم تشهد عليهم ألسنتهم﴾ هذا قبل أن يختم على أفواههم ﴿وأيديهم وأرجلهم﴾ يروي أنه يختم

بدرياً ابن خالة أبي بكر حلف أبو بكر أن لا ينفق عليه، ﴿ وليعفوا وليصفحوا ﴾، عنهم خوضهم في أمر عائشة، ﴿ ألا تحبّون ﴾، يخاطب أبا بكر، ﴿ أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم ﴾، فلما قرأها النبي ﷺ على أبي بكر قال: بلى أنا أُحبّ أن يغفر الله لي ورجع إلى مِسطح نفقته التي كان ينفقها عليه، وقال والله لا أنزعها منه أبداً. وقال ابن عباس والضحاك: أقسم ناس من الصحابة فيهم أبو بكر أن لا يتصدقون على رجل تكلم بشيء من الإفك ولا ينفعوهم، فأنزل الله هذه الآية.

﴿ إنّ الذين يرمون المحصنات ﴾، العفائف، ﴿ الغافلات ﴾، عن الفواحش، ﴿ المؤمنات ﴾، والغافلة عن الفاحشة التي لا يقع في قلبها فعل الفاحشة وكانت عائشة كذلك، قوله تعالى: ﴿ لُعنوا ﴾، عذّبوا، ﴿ في الدنيا ﴾، بالحدّ، ﴿ والآخرة ﴾، بالنار، ﴿ ولهم عذاب عظيم ﴾، قال مقاتل: هذا خاصّ في عبد الله بن أبي المنافق. ورُوِيَ عن خصيف قال: قلت لسعيد بن جبير: مَن قذف مؤمنة يلعنه الله في الدنيا والآخرة، فقال ذلك لعائشة خاصة. وقال قوم: هي لعائشة وأزواج النبي ﷺ خاصة دون سائر المؤمنات. رُوِيَ عن العوّام بن حوشب عن شيخ من بني كاهل عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: هذه في شأن عائشة وأزواج النبي ﷺ خاصة ليس فيها توبة. ومَن قذف امرأة مؤمنة فقد جعل الله له توبة ثم قرأ: ﴿ والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء ﴾ إلى قوله: ﴿ إلاّ الذين تابوا ﴾ [النور: ٤ و٥] فجعل لهؤلاء توبة، ولم يجعل لأولئك توبة. وقال الآخرون: نزلت هذه الآية في أزواج النبي ﷺ وكان ذلك كذلك حتى نزلت الآية التي في أول السورة ﴿ والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء ﴾ [النور: ٤ و٥] إلى قوله: ﴿ فإن الله غفور رحيم ﴾ فأنزل الجلد والتوبة.

﴿ يوم تشهد عليهم ﴾، قرأ حمزة والكسائي بالياء لتقديم الفعل وقرأ الآخرون بالتاء، ﴿ ألسنتهم ﴾، وهذا

على الأفواه فتتكلم الأيدي والأرجل بما عملت في الدنيا وهو قوله ﴿**بما كانوا يعملون يومئذٍ يوفيهم الله دينهم الحق**﴾ يعني جزاءهم الواجب وقيل حسابهم العدل ﴿**ويعلمون أن الله هو الحق المبين**﴾ يعني الموجود الظاهر الذي بقدرته وجود كل شيء وقيل معناه يبين لهم حقيقة ما كان يعدهم في الدنيا وقال ابن عباس وذلك أن عبدالله بن أبي ابن سلول كان يشك في الدين فيعلم يوم القيامة أن الله هو الحق المبين. قوله عزّ وجلّ ﴿**الخبيثات للخبيثين**﴾ قال أكثر المفسرين معنى الخبيثات الكلمات والقول للخبيثين من الناس ومثله ﴿**والخبيثون**﴾ أي من الناس ﴿**للخبيثات**﴾ من القول ﴿**والطيبات**﴾ أي من القول ومعنى الآية أن الخبيث من القول لا يليق إلا بالخبيث من الناس. والطيب من القول لا يليق إلا بالطيب من الناس وعائشة لا يليق بها. الخبيث من القول لأنها طيبة فيضاف إليها طيب القول من الثناء والمدح وما يليق بها وقيل معناه لا يتكلم بالخبيث إلا الخبيث من الرجال والنساء وهذا ذم للذين قذفوا عائشة ولا يتكلم بالطيب من القول إلا الطيب من الرجال والنساء. وهذا مدح للذين يرونها بالطاهر والمدح لها وقيل معنى الآية الخبيثات من النساء للخبيثين من الرجال والخبيثون من الرجال للخبيثات من النساء أمثال عبدالله بن أبي المنافق والشاكين في الدين والطيبات من النساء ﴿**للطيبين والطيبون للطيبات**﴾ يريد عائشة طيبها الله لرسوله ﷺ ﴿**أولئك مبرؤون**﴾ يعني عائشة وصفوان ذكرهما الله بلفظ الجمع منزهون ﴿**مما يقولون**﴾ يعني أصحاب الإفك ﴿**لهم مغفرة**﴾ أي عفو لذنوبهم ﴿**ورزق كريم**﴾ يعني الجنة روي أنّ عائشة كانت تفتخر بأشياء أعطيتها لم تعطها امرأة غيرها منها أن جبريل عليه السلام أتى بصورتها في سرقة حرير وقال هذه: زوجتك.

وروي أنه أتى بصورتها في راحته. ومنها أن النبيّ ﷺ لم يتزوج بكراً غيرها وقبض رسول الله ﷺ في حجرها

قبل أن يختم على أفواههم، ﴿ **وأيديهم وأرجلهم** ﴾، يُروَى أنه يختم على الأفواه فتتكلم الأيدي والأرجل بما عملت في الدنيا. وقيل: معناه تشهد ألسنة بعضهم على بعض وأيديهم وأرجلهم، ﴿ **بما كانوا يعملون** ﴾.

﴿ **يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق** ﴾، جزاءهم الواجب. وقيل: حسابهم العدل. ﴿ **ويعلمون أن الله هو الحق المبين** ﴾، يبيّن لهم حقيقة ما كان يعدهم في الدينا. قال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: وذلك أن عبد الله بن أبيّ كان يشكّ في الدين فيعلم يوم القيامة إن الله هو الحق المبين.

قوله سبحانه وتعالى: ﴿ **الخبيثات للخبيثين** ﴾. قال أكثر المفسّرين: الخبيثات من القول والكلام للخبيثين من الناس. ﴿ **والخبيثون** ﴾، من الناس، ﴿ **للخبيثات** ﴾، من القول، ﴿ **والطيبات** ﴾، من القول: ﴿ **للطّيبين** ﴾، من الناس، ﴿**والطيبون**﴾، من الناس. ﴿ **للطيبات** ﴾، من القول، والمعنى: أن الخبيث من القول لا يليق إلاّ بالخبيث من الناس والطيب لا يليق إلاّ بالطيب، فعائشة لا تليق بها الخبيثات من القول لأنها طيبة فتضاف إليها طيبات الكلام من المدح والثناء الحسن وما يليق بها. قال الزجّاج: معناه لا يتكلم بالخبيثات إلا الخبيث من الرجال والنساء ولا يتكلم بالطيبات إلاّ الطيب من الرجال والنساء، وهذا ذمّ للذين قذفوا عائشة، ومدح للذين برّؤوها بالطهارة. وقال ابن زيد: معناه الخبيثات من النساء للخبيثين من الرجال والخبيثون من الرجال للخبيثات من النساء أمثال عبد الله بن أبيّ والشاكّين في الدين، والطيبات من النساء للطيبين من الرجال، والطيبون من الرجال للطيبات من النساء. يريد عائشة طيّبها الله لرسوله الطيب ﷺ. ﴿ **أولئك مبرءون** ﴾، يعني: عائشة وصفوان ذكرهما بلفظ الجمع كقوله تعالى: ﴿ فإن كان له إخوة ﴾ [النساء: ١١] أي إخوان. وقيل: أولئك مبرؤون يعني الطيبين والطيبات منزّهون، ﴿ **مما يقولون لهم مغفرة ورزق كريم** ﴾، فالمغفرة هي العفو عن الذنوب والرزق الكريم الجنة. ورُوِيَ أن عائشة كانت تفتخر بأشياء أُعطيتها لم تُعطَها امرأة غيرها، منها أن جبريل أتى بصورتها في سرقة من حرير، وقال هذه

وفي يومها ودفن في بيتها وكان ينزل عليه الوحي وهي معه في اللحاف ونزلت براءتها من السماء وأنها ابنة الصديق وخليفة رسول الله ﷺ وخلقت طيبة ووعدت مغفرة ورزقاً كريماً. وكان مسروق إذا حدث عن عائشة يقول حدثتني الصديقة بنت الصدّيق حبيبة رسول الله ﷺ المبرأة من السماء. قوله تعالى:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝٢٧ فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُواْ فَٱرْجِعُواْ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ۝٢٨ لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَـٰعٌ لَّكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ۝٢٩ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ۝٣٠﴾

﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا**﴾ أي تستأذنوا وكان ابن عباس يقرأ حتى تستأذنوا ويقول تستأنسوا خطأ من الكاتب وفي هذه الرواية نظر لأن القرآن ثبت بالتواتر والاستئناس في اللغة الاستئذان. وقيل الاستئناس طلب الإنس وهو أن ينظر هل في البيت إنسان فيؤذنه إني داخل وقيل هو من آنست أي أبصرت وقيل هو أن يتكلم بتسبيحة أو يتنحنح حتى يعرف أهل البيت ﴿**وتسلموا على أهلها**﴾ بيان حكم الآية أنه لا يدخل بيت الغير إلا بعد الاستئذان والسلام. واختلفوا في أيهما يقدم فقيل يقدم الاستئذان فيقول أدخل سلام عليكم كما في الآية من تقديم الاستئذان قبل السلام. وقال الأكثرون يقدم السلام فيقول سلام عليكم أأدخل وتقدير الآية حتى تسلموا على أهلها وتستأذنوا وكذا هو في مصحف ابن مسعود وروي عن كند بن حنبل قال: «دخلت على النبيّ ﷺ: ولم أسلّم ولم أستأذن فقال النبيّ ﷺ ارجع فقل السلام عليكم أأدخل» أخرجه أبو داود والترمذي وعن ربعي بن حراش قال «جاء رجل من بني عامر فاستأذن على رسول الله ﷺ وهو في البيت فقال أألج فقال رسول الله ﷺ لخادمه اخرج إلى هذا

زوجتك. ورُوِيَ أنه أتى بصورتها في راحته وأن النبي ﷺ لم يتزوج بكراً غيرها، وقبض رسول الله ﷺ ورأسه في حجرها، ودفن في بيتها، وكان ينزل عليه الوحي وهو معها في لحافه، ونزلت براءتها من السماء، وأنها ابنة خليفة رسول الله ﷺ وصديقه، وخلقت طيبة، ووُعدت مغفرة ورزقاً كريماً، وكان مسروق إذا روى عن عائشة قال حدّثتني الصدِّيقة بنت الصدّيق حبيبة رسول الله ﷺ المبرّأة من السماء.

قوله: ﴿ **يا أيّها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلّموا على أهلها ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون** ﴾، قيل: معنى قوله: ﴿ **حتى تستأنسوا** ﴾ أي: حتى تستأذنوا وكان ابن عباس يقرأ حتى تستأذنوا ويقول: تستأنسوا خطأ من الكاتب. وكذلك كان يقرأ أُبيّ بن كعب، والقراءة المعروفة تستأنسوا وهو بمعنى الاستئذان. وقيل: الاستئناس طلب الأنس وهو أن ينظر هل في البيت ناس فيؤذنهم إني داخل. وقال الخليل: الاستئناس الاستبصار من قوله: آنست ناراً أي: أبصرتها. وقيل: هو أن يتكلم بتسبيحة أو تكبيرة أويتنحنح ،يؤذن أهل البيت. وجملة حكم الآية أنه لا يدخل بيت الغير إلّا بعد السلام والاستئذان. واختلفوا في أنه يقدّم الاستئذان أم السلام؟ فقال قوم: يقدّم الاستئذان فيقول: أأدخل سلام عليكم، لقوله تعالى: ﴿ **حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها** ﴾ والأكثرون على أنه يقدّم السلام فيقول: سلام عليكم أأدخل وفي الآية تقديم وتأخير، تقديرها: حتى تسلموا على أهلها وتستأذنوا. وكذلك هو في مصحف عبد الله بن مسعود. ورُوِيَ عن كند بن حنبل قال: دخلت على النبي ﷺ ولم أُسلّم ولم أستأذن، فقال النبي ﷺ: «ارجع فقل: السلام عليكم أأدخل» ورُوِيَ عن ابن عمر أن

فعلمه الاستئذان فقل له قل السلام عليكم أأدخل فسمع الرجل ذلك من رسول الله ﷺ فقال السلام عليكم أأدخل فأذن له رسول الله ﷺ». أخرجه أبو داود (ق) عن أبي سعيد وأبيّ بن كعب عن أبي موسى قال أبو سعيد: «كنت في مجلس من مجالس الأنصار إذ جاء أبو موسى كأنه مذعور فقال: استأذنت على عمر ثلاثاً فلم يؤذن لي فرجعت قال ما منعك قلت استأذنت ثلاثاً فلم يؤذن لي فرجعت وقد قال رسول الله ﷺ إذا استأذن أحدكم ثلاثاً فلم يؤذن له فليرجع قال والله لتقيمن عليه بينة أمنكم أحد سمعه من النبيّ ﷺ قال أبي بن كعب فوالله لا يقوم معك إلا أصغر القوم فكنت أصغر القوم فقمت معه فأخبرت عمر أنّ النبيّ ﷺ قال ذلك.

قال الحسن الأول إعلام والثاني مؤآمرة والثالث استئذان بالرجوع عن عبدالله بن بسر قال «كان رسول الله ﷺ إذا أتى باب قوم لم يستقبل الباب من تلقاء وجهه ولكن من ركنه الأيمن أو الأيسر ويقول السلام عليكم السلام عليكم» وذلك أن الدور لم يكن عليها يومئذٍ ستور أخرجه أبو داود وعن أبي هريرة قال: «قال رسول الله ﷺإذا دعي أحدكم فجاء مع الرسول فإن ذلك له إذن» أخرجه أبو داود وقيل إذا وقع بصره على إنسان قدم السلام وإلاّ قدم الاستئذان ثم يسلم. وقال أبو موسى الأشعري وحذيفة يستأذن على ذوات المحارم يدل عليه ما روي «عن عطاء بن يسار أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ فقال: أستأذن على أمي؟ قال نعم فقال الرجل إني معها في البيت فقال رسول الله ﷺ. استأذن عليها فقال الرجل إني خادمها فقال رسول الله ﷺ استأذن عليها أتحب أن تراها عريانة قال لا قال فاستأذن عليها» أخرجه مالك في الموطأ مرسلاً وقوله تعالى ﴿ذلكم خير لكم﴾ أي فعل الاستئذان خير لكم وأولى بكم من التهجم بغير إذن ﴿لعلكم تذكرون﴾ أي هذه الآداب فتعملوا بها. قوله عزّ وجلّ ﴿فإن لم تجدوا فيها﴾ أي البيوت ﴿أحداً﴾ أي

رجلاً استأذن عليه فقال: أأدخل؟ فقال ابن عمر: لا، فأمر بعضهم الرجل أن يسلّم فأذن له. وقال بعضهم: إن وقع بصره على إنسان قدم السلام، وإلاّ قدم الاستئذان، ثم سلّم، وقال أبو موسى الأشعري وحذيفة: يستأذن على ذوات المحارم، ومثله عن الحسن، فإن كانوا في دار واحدة يتنحنح ويتحرّك أدنى حركة، أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحي أنا أبو الحسن علي بن محمد عبد الله بن بشران أنا إسماعيل بن محمد الصفّار أنا أحمد بن منصور الرمادي أنا عبد الرزّاق أنا معمر عن سعيدالجريري عن أبي نضرة عن أبي سعيد الخدري قال: سلم عبد الله بن قيس على عمر بن الخطاب ثلاث مرات فلم يأذن له فرجع فأرسل عمر في أثره فقال: لِمَ رجعت؟ قال: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا سلّم أحدكم ثلاثاً فلم يجب فليرجع». قال عمر: لتأتينّ على ما تقول بيّنة وإلاّ لأفعلنّ بك كذا وكذا غير أنه قد أوعده، قال: فجاء أبو موسى الأشعري ممتقعاً لونه وأنا في حلقة جالس، فقلنا: ما شأنك؟ فقال: سلّمت على عمر، فأخبرنا خبره، فهل سمع أحد منكم من رسول الله ﷺ: قالوا: نعم كلّنا قد سمعه، قال: فأرسلوا معه رجلاً منهم حتى أتى عمر فأخبره بذلك. ورواه بشر بن سعيد عن أبي سعيد الخدري، وفيه: قال أبو موسى الأشعري: قال رسول الله ﷺ: «إذا استأذن أحدكم ثلاثاً فلم يُؤذن له فليرجعْ»، قال الحسن: الأول إعلام والثاني مؤامرة، والثالث استئذان بالرجوع.

قوله: ﴿ فإن لم تجدوا فيها أحداً فلا تدخلوها ﴾، أي إن لم تجدوا في البيوت أحداً يأذن لكم في دخولها فلا تدخلوها، ﴿ حتى يؤذن لكم وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا ﴾، يعني إذا كان في البيت قوم فقالوا ارجع فليرجع ولا يقعد على الباب ملازماً، ﴿ هو أزكى لكم ﴾، يعني الرجوع أطهر وأصلح لكم، قال قتادة: إذا لم يؤذن له فلا يقعد على الباب فإن للناس حاجات، وإذا حضر ولم يستأذن وقعد على الباب منتظراً جاز. وكان ابن عباس يأتي باب الأنصار لطلب الحديث فيقعد على الباب حتى يخرج ولا يستأذن، فيخرج الرجل ويقول: يا ابن عمّ رسول الله لو أخبرتني، فيقول: هكذا أمرنا أن نطلب العلم. وإذا وقف فلا ينظر من شقّ الباب إذا كان الباب مردود، أخبرنا

يأذن لكم في دخولها ﴿فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم﴾ أي في الدخول ﴿وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا﴾ يعني إذا كان في البيت قوم وكرهوا دخول الداخل عليهم فقالوا ارجع فليرجع ولا يقف على الباب ملازماً ﴿هو أزكى لكم﴾ أي الرجوع هو أطهر وأصلح لكم فإنّ للناس أحوالاً وحاجات يكرهون الدخول عليهم في تلك الأحوال وإذا حضر إلى الباب فلم يستأذن وقعد على الباب منتظراً جاز. كان ابن عباس يأتي دور الأنصار لطلب الحديث فيقعد على الباب ولا يستأذن حتى يخرج إليه الرجل فإذا خرج ورآه قال يا ابن عم رسول الله لو أخبرتني بمكانك فيقول هكذا أمرنا أن نطلب العلم. وإذا وقف على الباب فلا ينظر من شقه إذا كان الباب مردوداً (ق) «عن سهل بن سعد قال «اطلع رجل من جحر في باب النبيّ ﷺ ومع رسول الله ﷺ مدري يرجل وفي رواية يحك به رأسه فقال رسول الله ﷺ لو علمت أنك تنظر لطعنت به في عينك إنما جعل الإذن من أجل البصر»(ق) عن أبي هريرة أنّ رسول الله ﷺ «من اطلع في بيت قوم بغير إذنهم فقد حل لهم أن يفقؤوا عينه» وفي رواية النسائي قال «لو أن امرأً أطلع عليك بغير إذن فحذفته ففقأت عينه ما كان عليك حرج» وقال مرة أخرى جناح ﴿والله بما تعملون عليم﴾ يعني من الدخول بالإذن ولما نزلت آية الاستئذان قالوا كيف بالبيوت التي بين مكة والمدينة والشام على ظهر الطريق ليس فيها ساكن فأنزل الله تعالى ﴿ليس عليكم جناح﴾ يعني إثم ﴿ أن تدخلوا بيوتاً غير مسكونة﴾ يعني بغير استئذان ﴿فيها متاع لكم﴾ يعني منفعة لكم قيل إن هذه البيوت هي الخانات والمنازل المبنية للسابلة ليأووا إليها ويؤوا أمتعتهم فيها فيجوز دخولها بغير استئذان ولمنفعة النزول بها واتقاء الحر والبرد وإيواء الأمتعة بها.

وقيل بيوت التجار وحوانيتهم في الأسواق يدخلها للبيع والشراء وهو منفعتها فليس فيها استئذان. وقيل هي جميع البيوت التي لا ساكن فيها لأن الاستئذان إنما جعل لئلا يطلع على عورة فإن لم يخف ذلك جاز له الدخول بغير استئذان ﴿والله يعلم ما تبدون وما تكتمون﴾ قوله تعالى ﴿قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم﴾ يعني عما لا يحل النظر إليه قيل معناه يغضوا أبصارهم. وقيل من هنا للتبعيض لأنه لا يجب الغض عما يحل إليه النظر وإنما أمروا أن يغضوا عما لا يحل النظر إليه(م) عن جرير قال سألت رسول الله ﷺ عن نظرة الفجأة قال: « اصرف بصرك» عن بريدة قال: قال رسول الله ﷺ لعلي: «يا علي لا تتبع النظرة النظرة فإن لك الأولى وليست لك الثانية» أخرجه أبو داود والترمذي (م) عن أبي سعيد الخدري أنّ رسول الله ﷺ قال: لا ينظر الرجل إلى عورة الرجل ولا المرأة إلى عورة المرأة ولا يفضي الرجل إلى الرجل في ثوب واحد ولا تفضي المرأة إلى المرأة في ثوب واحد» وقوله تعالى ﴿ويحفظوا فروجهم﴾ يعني عما لا يحل. قال أبو العالية كل ما في القرآن من حفظ الفرج فهو عن الزنا إلا في هذا الموضع فإن

أحمد بن عبد الله الصالحي أنا أبو الحسين بن بشران أنا إسماعيل بن محمد الصفّار أنا أحمد بن منصور أنا عبد الرزّاق أنا معمر عن الزهري عن سهل بن سعد الساعدي أن رجلاً اطّلع على النبي ﷺ من ستر الحجرة في يد النبي ﷺ مدرى، فقال: «لو علمت أن هذا ينظرني حتى آتيه لطعنت بالمدرى في عينيه، وهلْ جُعل الاستئذان إلّا من أجل البصر». أخبرنا عبد الوهاب بن محمد الخطيب أنا عبد العزيز بن أحمد الخلال أنا أبو العباس الأصمّ أنا الربيع أنا الشافعي أنا سفيان عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لو أن امرءاً اطّلَعَ عليك بغير إذن فحذفته بحصاة ففقأت عينه ما كان عليك جناح». قوله تعالى: ﴿ والله بما تعملون عليم ﴾، من الدخول بالإذن وغير الإذن، ولمّا نزلت آية الاستئذان قالوا: كيف بالبيوت التي بين مكة والمدينة والشام وعلى ظهر الطريق، ليس فيها ساكن؟

فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿ ليس عليكم جناح أن تدخلوا بيوتاً غير مسكونة ﴾ أي: بغير استئذان، ﴿ فيها متاع لكم ﴾، يعني منفعة لكم واختلفوا في هذه البيوت، فقال قتادة: هي الحانات والبيوت والمنازل المبنيّة للسابلة

أراد به الاستتار حتى لا يقع بصر الغير عليه. فإن قلت كيف أدخل من على غض البصر دون حفظ الفرج. قلت فيه دلالة على أن أمر النظر أوسع ألا ترى أن المحارم لا بأس بالنظر إلى شعورهن وثديهن وأعضادهن وأقدامهن وكذلك الجواري المستعرضات في البيع والأجنبية يجوز النظر إلى وجهها وكفيها للحاجة إلى ذلك وأما أمر الفروج فمضيق وكفاك أن أبيح النظر إلّا ما استثنى منه وحظر الجماع إلا ما استثنى منه. فإن قلت كيف قدم غض البصر على حفظ الفرج. قلت لأن النظر بريد الزنا ورائد الفجور والبلوى فيه أشد ولا يكاد أحد يقدر على الاحتراس منه ﴿**ذلك أزكى لهم**﴾ يعني غض البصر وحفظ الفرج ﴿**إنّ الله خبير بما يصنعون**﴾ يعني أنه خبير بأحوالهم وأفعالهم وكيف يجيلون أبصارهم وكيف يصنعون بسائر حواسهم وجوارحهم قوله عزّ وجلّ:

﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾

﴿**وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن**﴾ يعني عما لا يحل لهن. روي عن أم سلمة قالت: كنت عند رسول الله ﷺ وعنده ميمونة بنت الحارث إذ أقبل ابن أم مكتوم فدخل عليه وذلك بعد ما أمرنا بالحجاب فقال رسول الله ﷺ: «احتجبا منه فقلنا: يا رسول الله أعمى لا يبصرنا ولا يعرفنا فقال رسول الله ﷺ أفعمياوان أنتما

ليأووا إليها ويؤووا أمتعتهم إليها فيجوز دخولها بغير استئذان والمنفعة فيها بالنزول وإيواء المتاع والاتّقاء من الحرّ والبرد. وقال ابن زيد: هي بيوت التجّار وحوانيتهم التي بالأسواق يدخلونها للبيع والشراء وهو المنفعة. وقال إبراهيم النخعي: ليس على حوانيت السوق إذن، وكان ابن سيرين إذا جاء إلى حانوت السوق يقول السلام عليكم أأدخل ثم يلج. وقال عطاء: هي البيوت الخربة، والمتاع هو قضاء الحاجة فيها من البول والغائط. وقيل: هي جميع البيوت التي لا ساكن لها لأن الاستئذان إنما جاء لئلا يطّلع على عورة فإن لم يخف ذلك فله الدخول بغير استئذان، ﴿ **والله يعلم ما تبدون وما تكتمون** ﴾.

قوله تعالى: ﴿ **قل للمؤمنين يغضّوا من أبصارهم** ﴾، أي: عن النظر إلى ما يحلّ النظر إليه. وقيل: ﴿ **من** ﴾ صلة يعني يغضّوا أبصارهم. وقيل: هو ثابت لأن المؤمنين غير مأمورين بغضّ البصر أصلاً لأنه لا يجب الغضّ عمّا يحلّ النظر إليه، وإنما أمروا بأن يغضّوا عمّا لا يحلّ النظر إليه، ﴿ **ويحفظوا فروجهم** ﴾، عمّا لا يحلّ، قال أبو العالية: كلّ ما في القرآن من حفظ الفرج فهو عن الزنا والحرام، إلّا في هذا الموضع فإنه أراد به الاستتار حتى لا يقع بصر الغير عليه، ﴿ **ذلك** ﴾ يعني غضّ البصر وحفظ الفرج، ﴿ **أزكى لهم** ﴾، يعني خير لهم وأطهر، ﴿ **إن الله خبير بما يصنعون** ﴾، يعني عليم بما يفعلون، رُوِيَ عن بريدة قال: قال رسول الله ﷺ لعليّ: «يا عليّ لا تُتبعِ النظرةَ النظرة فإنّ لك الأولى وليست لك الآخرة». ورُوِيَ عن جرير بن عبد الله قال: سألت النبي ﷺ عن نظرة الفجأة فقال: «اصرف بصرك». أخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر أنا عبد الغافر بن محمد حدّثنا محمد بن عيسى الجلودي حدّثنا إبراهيم بن محمد بن سفيان حدّثنا مسلم بن الحجّاج أنا أبو بكر بن أبي شيبة أنا زيد بن الحباب عن الضحاك بن عثمان قال أخبرني زيد بن أسلم عن عبد الرحمن بن أبي سعيد الخدري عن أبيه أن رسول الله ﷺ

ألستما تبصرانه» أخرجه الترمذي وأبو داود. قوله تعالى ﴿ولا يبدين﴾ يعني لا يظهرن ﴿زينتهن﴾ يعني لغير المحرم وأراد بالزينة الخفية مثل الخلخال والخضاب في الرجل والسوار في المعصم والقرط في الأذن والقلائد في العنق فلا يجوز للمرأة إظهارها ولا يجوز للأجنبي النظر إليها والمراد من الزينة النظر إلى مواضعها من البدن ﴿إلا ما ظهر منها﴾ يعني من الزينة قال سعيد بن جبير والضحاك والأوزاعي الوجه والكفان. وقال ابن مسعود هي الثياب. وقال ابن عباس هي الكحل والخاتم والخضاب في الكف فما كان من الزينة الظاهرة يجوز للرجل الأجنبي النظر إليه للضرورة مثل تحمل الشهادة ونحوه من الضرورات إذا لم يخف فتنة وشهوة فإن خاف شيئاً من ذلك غض البصر وإنما رخص في هذا القدر للمرأة أن تبديه من بدنها لأنه ليس بعورة وتؤمر بكشفه في الصلاة وسائر بدنها عورة ﴿وليضربن بخمرهن﴾ يعني ليلقين بمقانعهن ﴿على جيوبهن﴾ يعني موضع الجيب وهو النحر والصدر يعني ليسترن بذلك شعورهن وأعناقهن وأقراطهن وصدورهن (خ) عن عائشة قالت: «يرحم الله نساء المهاجرات الأول لما أنزل الله «وليضربن بخمرهن على جيوبهن شققن مروطهن فاختمرن بها» المرط كساء من صوف أو خز أو كتان وقيل هو الإزار وقيل هو الدرع ﴿ولا يبدين زينتهن﴾ يعني الخفية التي لم يبح لهن كشفها في الصلاة ولا للأجانب وهي ما عدا الوجه والكفين ﴿إلا لبعولتهن﴾ قال ابن عباس لا يضعن الجلباب والخمار إلا لأزواجهن أو آبائهن ﴿أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو إخوانهن أو بني إخوانهن أو بني أخواتهن﴾ فيجوز لهؤلاء أن ينظروا إلى الزينة الباطنية ولا ينظرون إلى ما بين السرة والركبة. ويجوز للزوج أن ينظر إلى جميع بدن زوجته غير أنه يكره له النظر إلى فرجها ﴿أو

قال: «لا ينظر الرجل إلى عورة الرجل ولا المرأة إلى عورة المرأة، ولا يفضي الرجل إلى الرجل في ثوب واحد، ولا تفضي المرأة إلى المرأة في ثوب واحد».

قوله عزّ وجلّ: ﴿ وقلْ للمؤمنات يغضضنَ من أبصارهنّ ﴾، عمّا لا يحلّ، ﴿ ويحفظنَ فروجهنّ ﴾، عمّن لا يحلّ. وقيل أيضاً يحفظن فروجهنّ يعني يسترنها حتى لا يراها أحد. ورُوِيَ عن أُم سلمة أنها كانت عند رسول الله ﷺ وميمونة إذا أقبل ابن أُم مكتوم فدخل عليه، وذلك بعدما أُمرنا بالحجاب، فقال رسول الله ﷺ: «احتجبا منه»، فقلت: يا رسول الله أليس هو أعمى لا يبصرنا؟ فقال رسول الله ﷺ: «أفعمياً وإن أنتما ألستما تبصرانه»؟ قوله تعالى: ﴿ ولا يُبدين زينتهنّ ﴾، يعني لا يظهرن زينتهنّ لغير محرم، وأراد بها الزينة الخفيّة وهما زينتان خفيّة وظاهرة، فالخفية مثل الخلخال والخضاب في الرجل والسِوار في المِعصَم والقرط والقلائد، فلا يجوز لها إظهارها، ولا للأجنبي النظر إليها، والمراد من الزينة موضع الزينة. قوله تعالى: ﴿ إلّا ما ظهر منها ﴾، أراد به الزينة الظاهرة، واختلف أهل العلم في هذه الزينة الظاهرة التي استثناها الله تعالى، قال سعيد بن جبير والضحاك والأوزاعي: هو الوجه والكفّان. وقال ابن مسعود: هي الثياب بدليل قوله تعالى: ﴿ خذوا زينتكم عند كل مسجد ﴾ [الأعراف: ٣١]، وأراد بها الثياب وقال الحسن: الوجه والثياب. وقال ابن عباس: الكحل والخاتم والخضاب في الكفّ، فما كان من الزينة الظاهرة جاز للرجل الأجنبي النظر إليه إذا لم يخف فتنة وشهوة، فإن خاف شيئاً منها غضّ البصر وإنما رُخّص في هذا القدر أن تُبديه المرأة من بدنها لأنه ليس بعورة وتؤمر بكشفه في الصلاة، وسائر بدنها عورة يلزمها ستره. قوله عزّ وجلّ: ﴿ وليضربن بخمرهنّ ﴾، يعني: ليلقين بمقانعهنّ، ﴿ على جيوبهنّ ﴾، وصدورهنّ ليسترن بذلك شعورهنّ وصدورهنّ وأعناقهنّ وأقراطهنّ. قالت عائشة: رحم الله نساء المهاجرات الأُوَل لما أنزل الله عزّ وجلّ: ﴿ وليضربنَ بخمرهنّ علىٰ جيوبهنّ ﴾ شققن مروطهنّ فاختمرن بها. ﴿ ولا يُبدين زينتهنّ ﴾ يعني: الزينة الخفيّة التي لم يبح لهنّ كشفها في الصلاة ولا للأجانب وهو ما عدا الوجه والكفّين ﴿ إلا لبعولتهنّ ﴾، قال ابن عباس ومقاتل: يعني لا يضعن الجلباب ولا الخمار إلّا لبعولتهنّ، أي إلّا لأزواجهنّ، ﴿ أو آبائهنّ أو آباء

نسائهن﴾ يعني المؤمنات من أهل دينهن أراد به أن يجوز للمرأة أن تنظر إلى بدن المرأة ما بين السرة والركبة ولا يجوز للمرأة المؤمنة أن تتجرد من ثيابها عند الذمية أو الكافرة لأن الله تعالى قال أو نسائهن والذمية أو الكافرة ليست من نسائنا ولأنها أجنبية في الدين فكانت أبعد من الرجل الأجنبي كتب عمر بن الخطاب إلى أبي عبيدة بن الجراح أن يمنع نساء أهل الكتاب أن يدخلن الحمام مع المسلمات.

وقيل يجوز كما يجوز أن تنكشف للمرأة المسلمة لأنها من جملة النساء **﴿أو ما ملكت أيمانهن﴾** قيل هو عبد المرأة فيجوز له الدخول عليها إذا كان عفيفاً وأن ينظر إلى مولاته إلا ما بين السرة والركبة كالمحارم. وهو ظاهر القرآن يروى ذلك عن عائشة وأم سلمة: وروى أنس أنّ النبي ﷺ «أتى إلى فاطمة بعبد قد وهبه لها وعلى فاطمة ثوب إذا قنعت به رأسها لم يبلغ رجليها وإذا غطت به رجليها لم يبلغ رأسها فلما رأى رسول الله ﷺ ما تلقى قال: إنه ليس عليك بأس إنما هو أبوك وغلامك» وقيل: هو كالأجنبي معها وهو قول سعيد بن المسيب. قال والمراد من الآية الإماء دون العبيد **﴿أو التابعين غير أولي الإربة من الرجال﴾** قرىء غير بنصب الراء وقيل هو بمعنى الاستثناء ومعناه يبدين زينتهن للتابعين إلا ذا الإربة منهم فانهن لا يبدين زينتهن لمن كان منهم ذا إربة وقرىء غير بالجر على نعت التابعين والإربة والأرب الحاجة والمراد بالتابعين غير أولي الأربة هم الذين يتبعون القوم ليصيبوا من فضل طعامهم لا همة لهم إلا ذلك ولا حاجة لهم في النساء وقال ابن عباس هو الأحمق العنين وقيل هو الذي لا يستطيع غشيان النساء ولا

بعولتهنّ أو أبنائهنّ أو أبناء بعولتهنّ أو إخوانهنّ أو بني إخوانهنّ أو بني أخواتهنّ ﴾، فيجوز لهؤلاء أن ينظروا إلى الزينة الباطنة ولا ينظرون إلى ما بين السرّة والركبة، ويجوز للزوج أن ينظر إلى جميع بدنها غير أنه يكره له النظر إلى فرجها. قوله تعالى: **﴿ أو نسائهنّ ﴾** أراد أنه يجوز للمرأة أن تنظر إلى بدن المرأة إلاّ ما بين السرّة والركبة كالرجل المحرم، هذا إذا كانت المرأة مسلمة، فإن كانت كافرة فهل يجوز للمسلمة أن تنكشف لها. اختلف أهل العلم فيه، فقال بعضهم: يجوز كما يجوز أن تنكشف للمرأة المسلمة لأنها من جملة النساء، وقال بعضهم: لا يجوز لأن الله تعالى قال: **﴿ أو نسائهنّ ﴾** والكافرة ليست من نسائنا ولأنها أجنبية في الدين، وكانت أبعد من الرجل الأجنبي، كتب عمر بن الخطاب إلى أبي عبيدة بن الجراح أن يمنع نساء أهل الكتاب أن يدخلن الحمام مع المسلمات. قوله تعالى: **﴿ أو ما ملكت أيمانُهنّ ﴾**، اختلفوا فيها، فقال قوم: عبد المرأة محرم لها، فيجوز له الدخول عليها إذا كان عفيفاً وأن ينظر إلى بدن مولاته إلاّ ما بين السرّة والركبة، كالمحارم وهو ظاهر القرآن. ورُوِيَ ذلك عن عائشة وأُم سلمة، وروى ثابت عن أنس عن النبي ﷺ أنه أتى فاطمة بعبد قد وهبه لها وعلى فاطمة ثوب إذا أقنعت به رأسها لم يبلغ رجليها وإذا غطّت رجليها لم يبلغ رأسها، فلما رأى رسول الله ﷺ ما تلقى قال: «إنه ليس عليك بأس إنما هو أبوك وغلامك». وقال قوم: هو كالأجنبي معها، وهو قول سعيد بن المسيب، وقال: المراد من الآية الإماء دون العبيد، وعن ابن جريج أنه قال: أو نسائهنّ أو ما ملكت أيمانهنّ أنه لا يحلّ لامرأة مسلمة أن تتجرّد بين يدي امرأة مشركة إلاّ أن تكون تلك المرأة المشركة أمة لها. قوله: **﴿ أو التابعين غير أُولي الإِرْبة من الرجال ﴾**، قرأ أبو جعفر وابن عامر وأبو بكر غير بنصب الراء على القطع لأن **﴿ التابعين ﴾** معرفة و**﴿ غير ﴾** نكرة. وقيل: بمعنى **﴿ إلا ﴾** فهو استثناء معناه: يبدين زينتهنّ للتابعين إلاّ ذا الإربة منهم فإنهنّ لا يُبدين زينتهنّ لمَن كان منهم ذا إربة. وقرأ الآخرون بالجرّ على نعت **﴿ التابعين ﴾** والإربة والأرب الحاجة، والمراد **﴿ بالتابعين غير أُولي الإربة ﴾** هم الذين يتبعون القوم ليصيبوا من فضل طعامهم لا همّة لهم إلاّ ذلك، ولا حاجة لهم في النساء، وهو قول مجاهد وعكرمة والشعبي. وعن ابن عباس أنه الأحمق العنين. وقال الحسن: هو الذي لا ينتشر ولا يستطيع غشيان النساء ولا يشتهيهنّ. وقال سعيد بن جبير: هو المعتوه وقال عكرمة المجبوب. وقيل هو المخنث. وقال مقاتل: الشيخ الهرم

يشتهيهن وقيل هو المجبوب والخصي وقيل هو الشيخ الهرم الذي ذهبت شهوته وقيل هو المخنث (م) عن عائشة رضي الله عنها: «قالت كان يدخل على أزواج النبيّ ﷺ مخنث وكانوا يعدونه من غير أولي الإربة فدخل رسول الله ﷺ يوماً وهو عند بعض نسائه وهو ينعت امرأة قال: إذا أقبلت أقبلت بأربع وإذا أدبرت أدبرت بثمان فقال النبيّ ﷺ: ألا أرى هذا يعرف ما ها هنا لا يدخل عليكن هذا فاحجبوه زاد أبو داود في رواية وأخرجوه إلى البيداء يدخل كل جمعة فيستطعم» قوله أقبلت بأربع أي أن لها في بطنها أربع عكن فهي تقبل إذا أقبلت بها وأراد بالثمان أطراف العكن الأربع من الجانبين وذلك صفة لها بالسنون ﴿**أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء**﴾ أي لم يكشفوا عن عورات النساء للجماع فيطلعوا عليها وقيل: لم يعرفوا العورة من غيرها من الصغر وقيل لم يطيقوا أمر النساء وقيل لم يبلغوا حد الشهوة وقيل الطفولية اسم للصبي ما لم يحتلم ﴿**ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن**﴾ قيل كانت المرأة إذا مشت ضربت برجلها ليسمع صوت خلخالها أو يتبين خلخالها فنهين عن ذلك وقيل إن الرجل تغلب عليه

والعنين والخصي والمجبوب ونحوه. أخبرنا الإمام أبو علي الحسين بن محمد القاضي أنا أحمد بن الحسين الحيري أنا محمد بن أحمد بن محمد بن معقل بن محمد الميداني أنا محمد يحيىٰ أنا عبد الرزاق أنا معمر عن الزهري عن عروة عن عائشة قالت: كان رجل يدخل على أزواج النبي ﷺ مخنث وكانوا يعدّونه من غير أُولي الإربة، فدخل النبي ﷺ يوماً وهو عند بعض نسائه وهو ينعت امرأة فقال: إنها إذا أقبلت أقبلت بأربع وإذا أدبرت أدبرت بثمان، فقال النبي ﷺ: «ألا أرى هذا يعلم ما ههنا لا يدخلنّ عليكنّ هذا» فحجبوه. ﴿ **أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء** ﴾، أراد بالطفل الأطفال يكون واحداً وجمعاً، أي: لم يكشفوا عن عورات النساء للجماع فيطّلعوا عليها. وقيل: لم يعرفوا العورة من غيرها من الصغر، وهو قول مجاهد. وقيل: لم يطيقوا أمر النساء. وقيل: لم يبلغوا حدّ الشهوة. ﴿ **ولا يضربنَ بأرجلهـنّ ليُعلمَ ما يُخفينَ من زينتهنّ** ﴾، كانت المرأة إذا مشت ضربت برجلها ليُسمَع صوت خلخالها أو يتبيّن خلخالها، فنُهِيَت عن ذلك. ﴿ **وتوبوا إلى الله جميعاً** ﴾، من التقصير الواقع في أمره ونهيه. وقيل راجعوا طاعة الله فيما أمركم به ونهاكم عنه من الآداب المذكورة في هذه السورة، ﴿ **أيّها المؤمنون لعلّكم تفلحون** ﴾، قرأ ابن عامر «أيـهُ المؤمنـون» و﴿ بآيهُ الساحر ﴾ [الزخرف: ٤٩] و﴿ **آيهُ الثقلان** ﴾ [الرحمن: ٣١] بضم الهاء فيهنّ ويقف بلا ألف على الخط، وقرأ الآخرون بفتح الهاآت على الأصل، أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أبو منصور محمد بن السمعان أنا أبو جعفر محمد بن أحمد بن عبد الجبّار الرياني أنا حميد بن زنجويه أنا وهب بن جرير أنا شعبة عن عمرو بن مرّة عن أبي بردة أنه سمع الأغرّ يحدّث عن ابن عمر أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «يا أيها الناس توبوا إلى الله فإني أتوب إليه في اليوم مائة مرة». أخبرنا أبو الحسن عن عبد الرحمن بن الداودي أنا محمد بن عبد الله بن أحمد بن حمويه السرخسي أنا أبو إسحاق إبراهيم بن حريم الشاشي أنا أبو محمد عبد الله بن حميد الليثي حدّثني ابن أبي شيبة أنا عبد الله بن نمير عن مالك بن مغول عن محمد بن سوقة عن نافع عن ابن عمر قال: إن كنّا لنعدّ لرسول الله ﷺ في المجلس يقول: ربّ اغفر لي وتب عليّ إنك أنت التوّاب الرحيم، مائة مرة وجملة الكلام في بيان العورات أنه لا يجوز للناظر أن ينظر إلى عورة الرجل وعورته ما بين السرّة إلى الركبة، وكذلك المرأة مع المرأة ولا بأس بالنظر إلى سائر البـدن إذا لم يكن خوف فتنـة، وقال مالك وابن أبي ذئب: الفخذ ليس بعورة لما رُوِيَ عن عبد العزيز بن صهيب عن أنس قال أجرى نبيّ الله ﷺ فرساً في زقاق خيبر وإن ركبتي لتمسّ فخذ نبيّ الله ﷺ، ثم حسر الإزار عن فخذه حتى إني لأنظر إلى بياض فخذ نبي الله ﷺ. وأكثر أهل العلم على أن الفخذ عورة. لما أخبرنا أبو محمد عبد الله بن محمد الفضل الخرقي أنا أبو الحسن الطيسفوني أنا عبد الله بن عمر الجوهري ثنا أحمد بن علي الكشمهيني أنا علي بن حجر أنا إسماعيل بن

شهوة النساء إذا سمع صوت الخلخال ويصير ذلك داعية له زائدة في مشاهدتهن وقد علل ذلك بقوله تعالى: ﴿**ليعلم ما يخفين من زينتهن**﴾ فنبه به على أن الذي لأجله نهى عنه أن يعلم به ما عليهن من الحلي وغيره ﴿**وتوبوا إلى الله جميعاً**﴾ أي من التقصير الواقع في أمره ونهيه وراجعوا طاعته فيما أمركم به ونهاكم عنه من الآداب المذكورة في هذه السورة قيل إن أوامر الله ونواهيه في كل باب لا يقدر العبد الضعيف على مراعاتها وإن ضبط نفسه واجتهد فلا ينفك عن تقصير يقع منه فلذلك وصى المؤمنين بالتوبة والاستغفار ووعد بالفلاح إذا تابوا واستغفروا فذلك قوله تعالى ﴿**أيها المؤمنون لعلكم تفلحون**﴾ (م) عن الأغر أغر مزينة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول «توبوا إلى ربكم فوالله إني لأتوب إلى ربي تبارك وتعالى مائة مرة في اليوم» عن ابن عمر قال إن كنا لنعد لرسول الله ﷺ في المجلس يقول: «رب اغفر لي وتب علي إنك أنت التواب الرحيم مائة مرة» أخرجه عبد الرحمن بن حميد الكشي (ق) عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «الله أفرح بتوبة عبده من أحدكم سقط على بعيره وقد أضله في أرض فلاة» (م) عن أبي هريرة أنّ رسول الله ﷺ قال «من تاب قبل طلوع الشمس من مغربها تاب الله عليه». قوله عزّ وجلّ:

وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾

﴿**وأنكحوا الأيامى منكم**﴾ جمع الأيم يطلق على الذكر والأنثى وهو من لا زوج له من رجالكم ونسائكم ﴿**والصالحين من عبادكم**﴾ أي من عبيدكم ﴿**وإمائكم**﴾ بيان حكم الآية الأمر المذكور في الآية أمر ندب واستحباب لإجماع السلف عليه فيستحب لمن تاقت نفسه إلى النكاح ووجد أهبته أن يتزوج وإن لم يجد أهبته يكسر شهوته بالصوم (ق) عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء». الباءة النكاح ويكنى به عن الجماع أيضاً والوجاء

جعفر عن العلاء بن أبي كثير عن محمد بن جحش، قال: مرّ رسول الله ﷺ على معمر وفخذاه مكشوفتان، قال: «يا معمر غطِّ فخذيك فإن الفخذين عورة» ورُوِيَ عن ابن عباس وجوهر بن خويلد كان من أصحاب الصفة أن النبي ﷺ قال: «إن الفخذ عورة، قال محمد بن إسماعيل: حديث أنس أسند، وحديث جوهر أحوط، أما المرأة مع الرجل فإن كانت أجنبية حرّة فجميع بدنها في حق الأجنبي عورة ولا يجوز النظر إلى شيء منها إلّا الوجه والكفّين، وإن كانت أمة فعورتها مثل عورة الرجل ما بين السرّة إلى الركبة، وكذلك المحارم بعضهم مع بعض، والمرأة في النظر إلى الرجل الأجنبي كهو معها. ويجوز للرجل أن ينظر إلى جميع بدن امرأته وأمته التي تحلّ له، وكذلك هي منه إلا نفس الفرج فإنه يكره النظر إليه، وإذا زوّج الرجل أمته حُرّم عليه النظر إلى عورتها كالأَمَة الأجنبية، ورُوِيَ عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه أن رسول الله ﷺ قال: «إذا زوّج أحدكم عبده أمته فلا ينظرنّ إلى ما دون السرّة وفوق الركبة».

قوله تعالى: ﴿ **وأنكحوا الأيامى منكم** ﴾، الأيامى جمع أيّم وهو مَن لا زوج له من رجل أو امرأة، يقال رجل أيّم وامرأة أيّمة، وأيّم، ومعنى الآية: زوّجوا أيها المؤمنون من أحرار رجالكم ونسائكم، ﴿**والصالحين من عبادكم وإمائكم** ﴾، وهذا الأمر أمر ندب واستحباب. يستحبّ لمَن تاقت نفسه إلى النكاح ووجد أُهبة النكاح أن يتزوج، وإن لم يجد أُهبة النكاح يكسر شهوته بالصوم، لما أخبرنا أبو بكر محمد بن علي بن الحسين الطوسي أنا أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن إبراهيم الإسفرايني أنا أبو بكر محمد بن مروان بن مسعود أنا أبو عبد الله محمد بن أيوب البجلي أنا محمد بن كثير أنا سفيان عن الأعمش عن عمارة بن عمير عن عبد الرحمن بن يزيد عن عبد الله بن

بكسر الواو رض الأنثيين وهو نوع من الخصاء شبه الصوم في قطعه شهوة النكاح بالوجاء الذي يقطع النسل عن معقل بن يسار قال قال رسول الله ﷺ: «تزوجوا الودود الولود فإني مكاثر بكم الأمم يوم القيامة» أخرجه أبو داود والنسائي (م) عن عبدالله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «الدنيا متاع وخير متاعها المرأة الصالحة» أما من لا تتوق نفسه إلى النكاح وهو قادر عليه فالتخلي للعبادة أفضل له من النكاح عند الشافعي وعند أصحاب الرأي النكاح أفضل. قال الشافعي: قد ذكر الله عبداً أكرمه فقال وسيداً حصوراً وهو الذي لا يأتي النساء وذكر القواعد من النساء ولم يندبهن إلى النكاح وفي الآية دليل على أن تزويج الأيامى إلى الأولياء لأن الله خاطبهم به كما أن تزويج العبيد والإماء إلى السادات. وهو قول أكثر أهل العلم من الصحابة فمن بعدهم روي ذلك عن عمر وعلي وعبدالله بن مسعود وعبدالله بن عباس وأبي هريرة وعائشة. وبه قال سعيد بن المسيب والحسن وشريح وإبراهيم النخعي وعمر بن عبدالعزيز وإليه ذهب الثوري والأوزاعي وعبدالله بن المبارك والشافعي وأحمد وإسحاق وجوز أصحاب الرأي للمرأة تزويج نفسها وقال مالك إن كانت المرأة دنيئة يجوز لها تزويج نفسها وإن كانت شريفة فلا والدليل على أن الولي شرط في النكاح ما روي عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «لا نكاح إلا بولي» أخرجه أبو داود والترمذي ولهما عن عائشة عن النبيّ ﷺ أنه قال: «أيما امرأة نكحت بغير إذن وليها فنكاحها باطل ثلاثاً فإن أصابها فلها المهر بما استحل من فرجها فإن تشاحوا فالسلطان ولي من لا ولي له». وقوله تعالى ﴿إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله﴾ قيل الغنى هنا القناعة وقيل: هو اجتماع الرزقين رزق الزوج والزوجة وقال عمر بن الخطاب. عجبت لمن يبتغي الغنى بغير

مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «يا معشر الشباب مَن استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغضّ للبصر وأحصن للفرج و مَن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وِجاء» وقال رسول الله ﷺ: «تناكحوا تكثروا فإني أُباهي بكم الأُمم حتى بالسِّقط»، وقال ﷺ: «مَن أحبَّ فطرتي فليستنّ بسُنّتي، ومن سُنّتي النكاح». أما مَن لا تتوق نفسه إلى النكاح وهو قادر عليه فالتخلّي للعبادة له أفضل من النكاح عند الشافعي رحمه الله، وعند أصحاب الرأي النكاح أفضل. قال الشافعي: وقد ذكر الله تعالى عبداً كرّمه فقال: ﴿ وسيداً وحصوراً ونبيّاً من الصالحين ﴾ [آل عمران: ٣٩]، والحصور الذي لا يأتي النساء مع القدرة عليه، وذكر القواعد من النساء ولم يندبهنّ إلى النكاح. في الآية دليل على أن تزويج النساء الأيامى إلى الأولياء لأن الله تعالى خاطبهم به، كما أن تزويج العبيد والإماء إلى السادات، لقوله تعالى: ﴿ **والصالحين من عبادكم وإمائكم** ﴾، وهو قول أكثر أهل العلم من الصحابة ومن بعدهم، رُوِيَ ذلك عن عمر وعليّ وعبد الله بن مسعود وعبد الله بن عباس وأبي هريرة وعائشة، وبه قال سعيد بن المسيب والحسن وشريح وإبراهيم النخعي وعمر بن عبد العزيز، وإليه ذهب الثّوري والأوزاعي وعبد الله بن المبارك والشافعي وأحمد وإسحاق، وجوّز أصحاب الرأي للمرأة الحرّة تزويج نفسها، وقال مالك: إن كانت المرأة دنيئة جاز لها تزويج نفسها، وإن كانت شريفة فلا، والدليل على أن الولي شرط من جهة الأخبار ما أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا محمد بن الحسن بن أحمد المخلدي أنا أبو العباس محمد بن إسحاق السراج أنا قتيبة بن سعيد أنا أبو عوانة عن أبي إسحاق عن أبي بردة عن أبي موسى عن النبي ﷺ قال: «لا نكاح إلاّ بوليّ». أخبرنا عبد الوهاب بن محمد الخطيب أنا عبد العزيز بن أحمد الخلال أنا أبو العباس الأصم أنا الربيع أنا الشافعي أنا سعيد بن سالم عن ابن جريج عن سليمان بن موسى عن ابن شهاب عن عروة عن عائشة عن النبي ﷺ أنه قال: «أيما امرأة نكحت نفسها بغير إذن وليّها فنكاحها باطل» ثلاثاً، فإن أصابها فلها المهر بما استحلّ من فرجها، فإن اشتجروا فالسلطان وليّ مَن لا وليّ له، قوله تعالى: ﴿ **إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله والله واسع عليم** ﴾، قيل: الغنَى ههنا القناعة. وقيل اجتماع الرزقين رزق الزوج ورزق الزوجة. وقال عمر: عجبت لمَن ابتغى الغنى بغير النكاح، والله عزّ وجلّ يقول: .

النكاح والله تعالى يقول إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله وقال بعضهم إن الله وعد الغنى بالنكاح وبالتفرق فقال تعالى «إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله» وقال «وإن يتفرقا يغني كلا من سعته» ﴿والله واسع﴾ يعني أنه ذو الإفضال والجود﴿عليم﴾ أي بما يصلح خلقه من الرزق قوله تعالى:

وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ۚ وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾

﴿وليستعفف الذين لا يجدون نكاحاً﴾ يعني ليطلب العفة عن الزنا والحرام الذين لا يجدون ما ينكحون به من الصدق والنفقة ﴿حتى يغنيهم الله من فضله﴾ يعني يوسع عليهم من رزقه ﴿والذين يبتغون الكتاب﴾ يعني يطلبون المكاتبة ﴿مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم﴾ سبب نزول هذه الآية أن غلاماً لحويطب بن عبدالعزى سأل مولاه أن يكاتبه فأبى عليه فأنزل الله تعالى هذه الآية فكاتبه حويطب على مائة دينار ووهب له منها عشرين ديناراً فأداها وقتل يوم حنين في الحرب، بيان حكم الآية وكيفية المكاتبة وذلك أن يقول الرجل لمملوكه: كاتبتك على كذا من المال ويسمى مالاً معلوماً تؤدي ذلك في نجمين أو في نجوم معلومة في كل نجم كذا فإذا أديت ذلك فأنت حر ويقبل العبد ذلك، فإذا أدى العبد ذلك المال عتق ويصير العبد أحق بمكاسبه بعد الكتابة وإذا عتق بأداء المال فما فضل في يده من المال فهو له ويتبعه أولاده الذين حصلوا في الكتابة في العتق وإذا عجز عن أداء المال كان لمولاه أن يفسخ كتابته ويرده إلى الرق وما في يده من المال فهو لسيده لما روي عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله ﷺ «المكاتب عبد

﴿ إنْ يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله ﴾. ورُوِيَ عن بعضهم: أن الله تعالى وعد الغني بالنكاح وبالتفرّق فقال تعالى: ﴿ إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله ﴾، وقال تعالى: ﴿ وإن يتفرّقا يغني الله كـلاً من سَعته ﴾ [النساء: ١٣٠].

﴿ وليستعفف الذين لا يجدون نكاحاً ﴾ أي: ليطلب العفّة عن الحرام والزنا الذين لا يجدون ما لا ينكحون به للصداق والنفقة، ﴿ حتى يغنيهم الله من فضله ﴾ أي يوسع عليهم من رزقه. قوله تعالى: ﴿ والذين يبتغون الكتاب ﴾، أي: يطلبون المكاتبة، ﴿ مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم ﴾، سبب نزول هذه الآية ما رُوِيَ أن غلاماً لحويطب بن عبد العزيز سأل مولاه أن يكاتبه فأبى عليه، فأنزل الله هذه الآية فكاتبه حويطب على مائة دينار، ووهب له منها عشرين ديناراً فأدّاها، وقتل يوم حنين في الحرب، والكتابة أن يقول الرجل لمملوك كاتبتك على كذا من المال ويسمّي مالاً معلوماً يؤدّي ذلك في نجمين أو نجوم معلومة في كل نجم كذا، فإذا أدّيت فأنت حرّ، والعبد يقبل ذلك، فإذا أدّى المال عتق ويصير العبد أحقّ بمكاسبه بعد أداء المال، وإذا أعتق بعد أداء المال فمـا فضل في يـده من المال، يكون له ويتبعه أولاده الذين حصلوا في حال الكتابة في العتق، وإذا عجز عن أداء المال كان لمولاه أن يفسخ كتابته ويردّه إلى الرقّ، وما في يده من المال يكون لمولاه، لِما أخبرنا أبو الحسن السرخسي أنا زاهر بن أحمد أنا أبو إسحق الهاشمي أنا أبو مصعب عن مالك عن نافع أنا عبد الله بن عمر كان يقول: المكاتب عبد ما بقي عليه من كتابته شيء. ورواه عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه مرفوعاً: «المكاتب عبد ما بقي عليه من كتابته درهم»، وذهب بعض أهل العلم إلى أن قوله تعالى: ﴿فكاتبوهم﴾ أمراً يجب على المولى أن يكاتب عبده الذي علم فيه خيـراً إذا سأل العبد ذلك، على قيمته أو أكثر، وإن سأل عن أقلّ من قيمته فلا يجب، وهـو قول عـطاء وعمرو بن دينـار، ولما رُوِيَ أنّ سيرين سأل أنس بن مالك أن يكاتبه فتلكأ عنه فشكا إلى عمر، فعلاه بالدرّة وأمره بالكتابة فكاتبه وذهب أكثر أهل

ما بقي عليه درهم» أخرجه أبو داود وذهب بعض أهل العلم إلى أن قوله تعالى ﴿فكاتبوهم﴾ أمر إيجاب يجب على السيد أن يكاتب عبده الذي علم فيه خيراً إذا سأل العبد ذلك على قيمته أو على أكثر من قيمته وإن سأل على أقل من قيمته لا يجب وهو قول عطاء وعمرو بن دينار لما روي أن سيرين أبا محمد بن سيرين سأل أنس بن مالك أن يكاتبه وكان كثير المال فانطلق سيرين إلى عمر فشكاه فدعاه عمر فقال له: كاتبه فأبى فضربه بالدرة وتلا فكاتبوهم ﴿إن علمتم فيهم خيراً﴾ فكاتبه وذهب أكثر أهل العلم إلى أنه أمر ندب واستحباب ولا تجوز الكتابة على أقل من نجمين عند الشافعي لأنه عقد جوز إرفاقاً بالعبد ومن تتمة الإرفاق أن يكون ذلك المال عليه إلى أجل حتى يؤديه على مهل فيحصل المقصود. وجوز أبو حنيفة الكتابة إلى نجم وحالة واحدة واختلفوا في معنى قوله ﴿إن علمتم فيهم خيراً﴾ فقال ابن عمر قوة على الكسب وهو قول مالك والثوري وقيل مالاً، روي أن عبداً لسلمان الفارسي قال له: كاتبني قال ألك مال قال لا قال تريد أن تطعمني من أوساخ الناس ولم يكاتبه قيل لو أراد به المال لقال أن علمتم لهم خيراً وقيل صدقاً وأمانة. وقال الشافعي: أظهر معاني الخير في العبد الاكتساب مع الأمانة فأحب أن لا يمنع من المكاتبة إذا كان

العلم إلى أنه أمر ندب واستحباب، ولا تجوز الكتابة على أقل من نجمين عند الشافعي لأنه عقد جوز إرْفاقاً بالعبد، ومن تتمة الإرفاق أن يكون ذلك المال عليه إلى أجل حتى يؤدّيه على مهل فيحصل المقصود كالديّة في قتل الخطأ وجبت على العاقلة على سبيل المواساة فكانت عليهم مؤجلة منجمة، وجوّز أبو حنيفة الكتابة على نجم واحد وحالة. قوله تعالى: ﴿ إنْ علمتم فيهم خيراً ﴾، اختلفوا في معنى الخير، فقال ابن عمر: قوة على الكسب. وهو قول مالك والثّوري، وقال الحسن ومجاهد والضحاك: مالاً، كقوله تعالى: ﴿ إن ترك خيراً ﴾ [البقرة: ١٨٠] أي: مالاً، ورُوِيَ أنّ عبداً لسلمان الفارسي قال له كاتبني، قال: ألك مال؟ قال: لا، قال: تريد أن تطعمني من أوساخ الناس، ولم يكاتبه. قال الزجّاج: لو أراد به المال لقال إن علمتم لهم خيراً، وقال إبراهيم وابن زيد وعبيدة صدقاً وأمانة. وقال طاوس وعمر وابن دينار: مالاً وأمانة. وقال الشافعي: وأظهر معاني الخير في العبد الاكتساب مع الأمانة، فأحبّ أن لا يمنع من كتابته إذا كان هكذا. أخبرنا أبو الحسن علي بن يوسف الجويني أنا أبو الحسن بن علي بن شريك الشافعي أنا عبد الله بن محمد بن مسلم أنا أبو بكر الجورمندي أنا يونس بن عبد الأعلى أنا ابن وهب أخبرني الليث عن محمد بن عجلان عن سعيد بن أبي سعيد المقبري عن أبي هرُيرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ثلاثة حق على الله عونهم المكاتب الذي يريد الأداء، والناكح يريد العفاف، والمجاهد في سبيل الله».

وحكى محمد بن سيرين عن عبيدة: إن علمتم فيهم خيراً أي: أقاموا الصلاة. وقيل: هو أن يكون العبد بالغاً عاقلاً، فأما الصبي والمجنون فلا تصحّ كتابتهما لأن الابتغاء منهما لا يصحّ، وجوّز أبو حنيفة كتابة الصبي المراهق.

قوله سبحانه وتعالى ﴿ وآتوهم من مال الله الذي آتاكم ﴾، اختلفوا فيه فقال بعضهم: هذا خطاب للموالي يجب على المولى أن يحطّ عن مكاتبه من مال كتابته شيئاً، وهو قول عثمان وعلي والزبير وجماعة، وبه قال الشافعي، ثم اختلفوا في قدره فقال قوم: يحطّ عنه ربع مال الكتابة، وهو قول علي ورواه بعضهم عن علي مرفوعاً، وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما يحطّ عنه الثلث. وقال الآخرون: ليس له حدّ بل عليه أن يحطّ عنه ما شاء، وهو قول الشافعي، قال نافع: كاتب عبد الله بن عمر غلاماً له على خمسة وثلاثين ألف درهم فوضع عنه من آخر كتابته خمسة آلاف درهم. وقال سعيد بن جبير: كان ابن عمر إذا كاتب مكاتبه لم يضع عنه شيئاً من أول نجومه مخافة أن يعجز فيُرجِع إليه صدقته، ويضع من آخر كتابته ما أحبّ، وقال بعضهم هو أمر استحباب، والوجوب أظهر، قوم: أراد بقوله وآتوهم من مال الله أي سهمهم الذي جعله الله لهم من الصدقات المفروضات، بقوله تعالى: ﴿ وفي الرقاب ﴾ [البقرة: ١٧٧، التوبة: ٦٠] وهو قول الحسن وزيد بن أسلم، وقال إبراهيم: هو حثٌّ لجميع الناس على

هكذا وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «ثلاث حق على الله عونهم المكاتب الذي يريد الأداء والناكح الذي يريد العفاف والمجاهد في سبيل الله». أخرجه الترمذي والنسائي وقيل معنى الخير أن يكون العبد عاقلاً بالغاً فأما الصبي والمجنون فلا تصح كتابتهما لأن الابتغاء منهما لا يصح وجوز أبو حنيفة كتابة الصبي المراهق وقوله تعالى ﴿**وآتوهم من مال الله الذي آتاكم**﴾ قيل هو خطاب للموالي فيجب على السيد أن يحط عن مكاتبه من مال الكتابة شيئاً وهو قول عثمان وعلي والزبير و جماعة. وبه قال الشافعي ثم اختلفوا في قدر ما يحط فقيل يحط الربع وهو قول علي ورواه بعضهم مرفوعاً. وقال ابن عباس: يحط الثلث وقال الآخرون: ليس له حد بل عليه أن يحط عنه ما شاء وبه قال الشافعي قال نافع: كاتب عبدالله بن عمر غلاماً له على خمسة وثلاثين ألف درهم فوضع من آخر كتابته خمسة آلاف درهم أخرجه مالك في الموطأ. وقال سعيد بن جبير: كان ابن عمر إذا كاتب مكاتبه لم يضع عنه شيئاً من أول نجومه مخافة أن يعجز فيرجع إليه صدقته ويضع عنه من آخر كتابته ما أحب وقال بعضهم هو أمر استحباب والوجوب أظهر وقيل أراد بقوله ﴿**وآتوهم من مال الله**﴾ أي سهمهم الذي جعله الله لهم من الصدقات المفروضات وهو قوله وفي الرقاب أراد به المكاتب وهو قول الحسن وزيد بن أسلم. وقيل: هو حث لجميع الناس على مؤنتهم واختلف العلماء فيما إذا مات المكاتب قبل أداء النجوم فذهب كثير منهم إلى أنه يموت رقيقاً وترتفع الكتابة سواء ترك مالاً أو لم يترك وهو قول عمر وابن عمر وزيد بن ثابت وبه قال عمر بن عبدالعزيز والزهري وقتادة وإليه ذهب الشافعي وأحمد، وقال قوم: إن ترك وفاء ما بقي عليه من مال الكتابة كان حراً وإن فضل له مال كان لأولاده الأحرار. وهو قول عطاء وطاوس والنخعي والحسن وبه قال مالك والثوري وأصحاب الرأي ولو كاتب عبده كتابة فاسدة يعتق بأداء المال لأن عتقه معلق بالأداء وقد وجد وتتبعه أولاده وأكسابه كما في الكتابة الصحيحة لأن الكتابة الصحيحة لا يملك المولى فسخها ما لم يعجز المكاتب عن أداء النجوم. وقوله تعالى:

معونتهم، ولو مات المكاتب قبل أداء النجوم اختلف أهل العلم فيه فذهب كثير منهم إلى أنه يموت رقيقاً وترتفع الكتابة سواء ترك مالاً أو لم يترك، كما لو تلف المبيع قبل القبض يرتفع البيع، وهو قول عمر وابن عمر وزيد بن ثابت، وبه قال عمر بن عبد العزيز والزهري وقتادة، وإليه ذهب الشافعي وأحمد، وقال قوم: إن ترك وفاءً بما بقي عليه من الكتابة كان حرّاً، وإن كان فيه فضل فالزيادة لأولاده الأحرار، وهو قول عطاء وطاوس والنخعي والحسن، وبه قال مالك والثّوري وأصحاب الرأي ولو كاتب عبده كتابة فاسدة يُعتق بأداء المال لأن عتقه معلّق بالأداء، وقد وجد وتبعه الأولاد والاكتساب كما في الكتابة الصحيحة ويفترقان في بعض الأحكام وهي أن الكتابة الصحيحة لا يملك المولى فسخها ما لم يعجز المكاتب عن أداء النجوم، ولا تبطل بموت المولى، ويعتق بالإبراء عن النجوم، والكتابة الفاسدة يملك المولى فسخها قبل أداء المال، حتى لو أدّى المال بعد الفسخ لا يعتق ويبطل بموت المولى، ولا يعتق بالإبراء عن النجوم، وإذا عتق المكاتب بأداء المال لا يثبت التراجع في الكتابة الصحيحة ويثبت في الكتابة الفاسدة فيرجع المولى عليه بقيمة رقبته، وهو يرجع على المولى بما دفع إليه إن كان مالاً. قوله تعالى: ﴿ **ولا تُكرهوا فتياتِكم على البغاء إن أردنَ تحصناً** ﴾ الآية، نزلت في عبد الله بن أُبيّ بن سلول المنافق كانت له جاريتان معاذة ومسيكة، وكان يكرههما على الزنا بالضريبة يأخذها منهما، وكذلك كانوا يفعلون في الجاهلية يؤجرون إماءهم، فلما جاء الإسلام قالت معاذة لمسيكة: إن هذا الأمر الذي نحن فيه لا يخلو من وجهين فإن يكُ خيراً فقد استكثرنا منه وإن يكُ شرّاً فقد آن لنا أن ندعه، فأنزل الله هذه الآية ورُوِيَ أنه جاءت إحدى الجاريتين يوماً ببُرْدٍ وجاءت الأخرى بدينار، فقال لهما: ارجعا فازنيا، قالتا والله لا نفعل قد جاء الإسلام وحرّم الزنا فأتيا رسول الله ﷺ وشكتا إليه، فأنزل هذه الآية: ﴿ **ولا تُكرهوا فتياتكم** ﴾ إماءكم ﴿ **على البغاء** ﴾ أي الزنا ﴿ **إن أردن تحصناً** ﴾

﴿ولا تكرهوا فتياتكم﴾ أي إماءكم ﴿على البغاء﴾ أي الزنا ﴿إن أردن تحصناً﴾ الآية (م) عن جابر قال كان عبدالله بن أبي ابن سلول يقول لجاريته اذهبي فابغينا شيئاً قال فأنزل الله ﴿ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصناً﴾ وفي رواية أخرى أن جارية لعبدالله بن أبي يقال لها مسيكة وأخرى يقال لها أميمة كان يكرههما على الزنا فشكتا ذلك إلى رسول الله ﷺ فأنزل الله ﴿ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء﴾ إلى قوله ﴿غفور رحيم﴾ وقال المفسرون: نزلت في عبد الله بن أبي ابن سلول المنافق كانت له جاريتان يقال لهما مسيكة ومعاذة وكان يكرههما على الزنا لضريبة يأخذها منهما، وكذلك كانوا يفعلون في الجاهلية يؤجرون إماءهم فلما جاء الإسلام قالت معاذة لمسيكة: إن هذا الأمر الذي نحن فيه لا يخلو من وجهين فإن يك خيراً فقد استكثرنا منه، وإن يك شراً فقد آن لنا أن ندعه فأنزل الله هذه الآية وروي أن إحدى الجاريتين جاءت ببرد، وجاءت الأخرى بدينار فقال لهما ارجعا فازنيا فقالتا: والله لا نفعل قد جاء الإسلام، وحرم الزنا فأتيا رسول الله ﷺ وشكتا إليه فأنزل الله هذه الآية واختلف العلماء في معنى قوله إن أردن تحصناً على أقوال أحدها: أن الكلام ورد على سبب وهو الذي ذكر في سبب نزول الآية، فخرج النهي على صفة السبب وإن لم يكن شرطاً فيه الثاني: إنما شرط إرادة التحصن لأن الإكراه لا يتصور إلا عند إرادة التحصن، فأمّا إذا لم ترد المرأة التحصن فإنها تبغي بالطبع طوعاً الثالث: أن إن بمعنى إذا أي إذا أردن وليس معناه الشرط لأنه لا يجوز إكراههن على الزنا إن لم يردن تحصناً، كقوله ﴿وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين﴾ أي إذا كنتم القول الرابع: أن في هذه الآية تقديماً وتأخيراً تقديره وأنكحوا الأيامى منكم إن أردتم تحصناً، ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء ﴿لتبتغوا﴾ أي لتطلبوا ﴿عرض الحياة الدنيا﴾ أي من أموال الدنيا يريد كسبهن، وبيع أولادهن ﴿ومن يكرههن﴾ يعني على الزنا ﴿فإن الله من بعد إكراههن غفور رحيم﴾ يعني للمكرهات والوزر على المكره، وكان الحسن إذا قرأ هذه الآية قال لهن والله لهن والله. قوله تعالى:

﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾ ۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾﴾

﴿ولقد أنزلنا إليكم آيات مبينات﴾ أي من الحلال والحرام ﴿ومثلاً من الذين خلوا من قبلكم﴾ أي شبهاً من حالكم بحالهم أيها المكذبون، وهذا تخويف لهم أن يلحقهم ما لحق من كان قبلهم من المكذبين ﴿وموعظة للمتقين﴾

أي إذا أردن، وليس معناه الشرط لأنه لا يجوز إكراههنّ على الزنا وإن لم يردن تحصناً، كقوله تعالى: ﴿ وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين ﴾ [آل عمران: ١٣٩] أي إذا كنتم مؤمنين. وقيل: شرط إرادة التحصّن لأن الإكراه إنما يكون عند إرادة التحصّن، فإذا لم ترد التحصّن بغت طوعاً، والتحصّن التعفّف، وقال الحسن بن الفضل في الآية تقديم وتأخير تقديرها: وأنكحوا الأيامى منكم إن أردن تحصناً ولا تُكرِهوا فتياتكم على البغاء. ﴿ لتبتغوا عرض الحياة الدنيا ﴾، أي: لتطلبوا من أموال الدنيا يريد من كسبهنّ وبيع أولادهنّ. ﴿ ومَن يكرههنّ فإن الله من بعد إكراههنّ غفورٌ رحيم ﴾، يعني للمكرهات، والوزر على المُكره. وكان الحسن إذا قرأ هذه الآية قال: لهنّ والله لهنّ والله.

قوله تعالى: ﴿ ولقد أنزلنا إليكم آيات مبينات ﴾، من الحلال والحرام، ﴿ ومثلاً من الذين خلقوا من قبلكم ﴾، أي شبهاً من حالكم بحالهم أيها المكذبون، وهذا تخويف لهم أن يلحقهم ما لحق مَن قبلهم من

أي المؤمنين الذين يتقون الشرك والكبائر. قوله عزّ وجلّ ﴿الله نور السموات والأرض﴾ قال ابن عباس: معناه الله هادي السموات والأرض فهم بنوره إلى الحق يهتدون، وبهدايته من حيرة الضلالة ينجون وقيل معناه الله منور السموات والأرض، نور السماء بالملائكة ونور الأرض بالأنبياء وقيل: معناه مزين السموات والأرض زين السماء بالشمس والقمر والنجوم، وزين الأرض بالأنبياء والعلماء والمؤمنين، ويقال: زين الأرض بالنبات والأشجار، وقيل: معناه إن الأنوار كلها منه وقد يذكر هذا اللفظ على طريق المدح كما قال الشاعر:

إذا سـار عبـدالله عـن مـرو ليلـة فقـد سـار عنهـا نـورهـا وجمـالهـا

﴿مثل نوره﴾ أي مثل نور الله عز وجل في قلب المؤمن، وهو النور الذي يهتدي به وقال ابن عباس مثل نوره الذي أعطى المؤمن، وقيل الكناية عائدة إلى المؤمن أي مثل نور قلب المؤمن وقيل أراد بالنور القرآن وقيل هو محمد ﷺ وقيل هو الطاعة سمي طاعة الله نوراً، وأضاف هذه الأنوار إلى نفسه تشريفاً وتفصيلاً ﴿كمشكاة﴾ هي الكوة التي لا منفذ لها قيل: هي بلغة الحبشة ﴿فيها مصباح﴾ أي سراج وأصله من الضوء ﴿المصباح في زجاجة﴾ يعني القنديل وإنما ذأر الزجاجة لأن النور، وضوء النار فيها أبين من كل شيء وضوءه يزيد في الزجاج ثم وصف الزجاجة، فقال تعالى ﴿الزجاجة كأنها كوكب دري﴾ من درأ الكوكب إذا اندفع منقضاً، فيتضاعف نوره في تلك الحال، وفي ذلك الوقت وقيل هو من درأ النجم إذا طلع، وارتفع وقيل دري أي شديد الإنارة نسب إلى الدر، في صفائه وحسنه وإن كان الكوكب أضوأ من الدر لكنه يفضل الكوكب بصفائه كما يفضل الدر على سائر اللؤلؤ وقيل الكوكب الدري

المكذبين، ﴿ وموعظة للمتقين ﴾، للمؤمنين الذين يتّقون الشرك والكبائر.

قوله تعالى: ﴿ اللَّهُ نورُ السمٰواتِ والأرض ﴾، قال ابن عباس: هادي أهل السمٰوات والأرض، فهم بنوره إلى الحق يهتدون وبهداه من الضلالة ينجون. وقال الضحاك: منوّر السمٰوات والأرض، يقال: نوّر السماء بالملائكة ونوّر الأرض بالأنبياء. وقال مجاهد: مدبّر الأمور في السمٰوات والأرض. وقال أُبيّ بن كعب والحسن وأبو العالية: مزيِّن السمٰوات والأرض، زيّن السماء بالشمس والقمر والنجوم، وزيّن الأرض بالأنبياء والعلماء والمؤمنين. ويقال: بالنبات والأشجار. وقيل: معناه الأنوار كلها منه، كما يقال: فلان رحمة أي منه الرحمة، وقد يذكر مثل هذا اللفظ على طريق المدح كما قال القائل «شعر»:

إذا سـار عبـد الله عن مـر وليلة فقـد سـار منهـا نـورهـا وجمـالهـا

قوله تعالى: ﴿ مثل نوره ﴾ أي مثل نور الله تعالى في قلب المؤمن وهو النور الذي يهتدي به كما قال فهو على نور من ربه، وكان ابن مسعود يقرأ مثل نوره في قلب المؤمن. وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس: مثل نوره الذي أعطى المؤمن. وقال بعضهم: الكناية عائدة إلى المؤمن، أي: مثل نور قلب المؤمن، وكان أُبيّ يقرأ: (مثل نور مَن آمن به) وهو عبد جعل الإيمان والقرآن في صدره. وقال الحسن وزيد بن أسلم: أراد بالنور القرآن. وقال سعيد بن جبير والضحاك هو محمد ﷺ. وقيل: أراد بالنور الطاعة، سمّى طاعةَ الله نوراً وأضاف هذه الأنوار إلى نفسه تفضيلاً، ﴿ كمشكاة ﴾، وهي الكوّة التي لا منفذ لها فإن كان لها منفذ فهي كوّة. وقيل: المشكاة حبشية قال مجاهد: هي القنديل ﴿ فيها مصباح ﴾ أي: سراج، أصله من الضوء، ومنه الصبح، ومعناه: كمصباح في مشكاة، ﴿ المصباح في زجاجة ﴾، يعني القنديل، قال الزجّاج: إنما ذكر الزجاجة لأن النور وضوء النار فيها أبين من كل شيء، وضوء يزيد في الزجاج، ثم وصف الزجاجة، فقال: ﴿ الزجاجة كأنها كوكب دُرّي ﴾، قرأ أبو عمر والكسائي (دريء) بكسر الدال والهمزة، وقرأ حمزة وأبو بكر بضم الدال والهمزة، فمَن كسر الدال فهو فعيل من الدرء وهو

أحد الكواكب الخمسة السيارة، التي هي زحل والمريخ والمشتري والزهرة وعطارد، قيل: شبهه بالكواكب ولم يشبهه بالشمس والقمر، لأنهما يلحقهما الكسوف بخلاف الكواكب ﴿**يوقد**﴾ أي اتقد المصباح ﴿**من شجرة مباركة زيتونة**﴾ أي من زيت شجرة مباركة كثيرة البركة، وفيها منافع كثيرة لأن الزيت يسرج به ويدهن به وهو إدام وهو أصفى الأدهان وأضوأها، وقيل: إنها أول شجرة نبتت بعد الطوفان وقيل: أراد به زيتون الشام لأنها هي الأرض المباركة، وهي شجرة لا يسقط ورقها، عن أسيد بن ثابت أو أبي أسيد الأنصاري قال: قال رسول الله ﷺ «كلوا الزيت وادهنوا به فإنه من شجرة مباركة» أخرجه الترمذي. وقوله ﴿**لا شرقية ولا غربية**﴾ أي ليست شرقية وحدها فلا تصيبها الشمس إذا غربت ولا غربية وحدها فلا تصيبها الشمس بالغداة، إذا طلعت بل مصاحبة للشمس طول النهار تصيبها الشمس عند طلوعها، وعند غروبها فتكون شرقية غربية تأخذ حظها من الأمرين فيكون زيتها أضوأ، وهذا معنى قول ابن عباس وقيل معناه أنها ليست في مقنأة لا تصيبها الشمس، ولا في مضحاة لا يصيبها الظل فهي لا تضرها شمس ولا ظل وقيل معناه أنها معتدلة ليست في شرق يضرها الحر، ولا في غرب يضرها البرد وقيل معناه هي شامية لأن الشام وسط الأرض، لا شرقي ولا غربي وقيل ليست هذه الشجرة من أشجار الدنيا لأنها لو كانت في الدنيا لكانت شرقية أو غربية، وإنما هو مثل ضربه الله لنوره ﴿**يكاد زيتها يضيء**﴾ أي من صفائه ﴿**ولو لم تمسسه نار**﴾ أي قبل أن تمسه النار ﴿**نور على نور**﴾ أي نور المصباح على نور الزجاجة.

الدفع لأن الكوكب يدفع الشياطين من السماء، وشبّهه بحالة الدفع لأنه يكون في تلك الحالة أضوأ وأنور، ويُقال: هو من درأ الكوكب إذا اندفع منقبضاً فيتضاعف ضوءه في ذلك الوقت. وقيل: دُرّيّ مكرر أي طالع، يقال درأ النجم إذا طلع وارتفع. ويقال: درأ علينا فلان أي طلع وظهر، فأما رفع الدال مع الهمزة كما قرأ حمزة قال أكثر النحاة: هو لحن لأنه ليس في كلام العرب فعيل بضم الفاء وكسر العين، قال أبو عبيدة: وأنا أرى لها وجهاً وذلك أنها دروء على وزن فعول، مثل سبّوح وقدّوس، وقد استثقلوا كثرة الضمّات فردّوا بعضها إلى الكسر، كما قالوا: عتياً وهو فعول من عتوت، وقرأ الآخرون ﴿**دُرِّيٌّ**﴾ بضم الدال وتشديد الياء بلا همز، أي: شديد الإنارة نسبت إلى الدرّ في صفائه وحُسنه، وإن كان الكوكب أكثر ضوءاً من الدرّ لكنه يفضل الكواكب بضيائه، كما يفضل الدرّ سائر الحب. وقيل: الكوكب الدريّ واحد من الكواكب الخمسة العظام، وهي زُحَل والمرّيخ والمشتري والزُّهرة وعُطارد. وقيل: شبّهه بالكوكب، ولم يشبّهه بالشمس والقمر لأن الشمس والقمر يلحقهما الخسوف والكواكب لا يلحقها الخسوف. ﴿ **يُوقد** ﴾ قرأ أبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب «تـوقد» بالتاء وفتحها وفتح الواو والدال أو تشديد القاف على الماضي يعني المصباح، أي: اتّقد يقال توقّدت النار إذا اتّقدت. وقرأ أهل الكوفة غير حفص **توقد** بالتاء وضمها وفتح القاف خفيفاً، يعني الزجاجة أي: نار الزجاجة لأن الزجاجة لا توقد، وقرأ الآخرون بالياء وضمّها خفيفاً يعني المصباح، ﴿ **من شجرة مباركة زيتونة** ﴾، أي من زيت شجرة مباركة، فحذف المضاف بدليل قوله تعالى: ﴿ **يكاد زيتها يضيء** ﴾، وأرا بالشجرة المباركة الزيتونة وهي كثيرة البركة، وفيها منافع كثيرة لأن الزيت يسرج به وهو أضوأ وأصفى الأدهان، وهو إدام وفاكهة، ولا يحتاج في استخراجه إلى إعصار بل كل أحد يستخرجه، وجاء في الحديث: «أنه مصحة من الباسور»، وهي شجرة تورق من أعلاها إلى أسفلها، أخبرنا أبو الحسن السرخسي أنا زاهر بن أحمد أنا أبو الحسن القاسم بن بكر الطيالسي أنا أبو أُمية الطوسي أنا أبي قبيصة بن عقبة أنا سفيان الثوري عن عبد الله بن عيسى عن عطاء الذي كان بالشام، وليس بابن أبي رباح عن أسد بن ثابت وأبي أسلم الأنصاري قال: قال رسول الله ﷺ: «كلوا الزيتَ وادّهِنوا به فإنه من شجرة مباركة». قوله تعالى: ﴿ **لا شرقية ولا غربية** ﴾، أي: ليست شرقية وحدها حتى لا تصيبها الشمس إذا غربت ولا غربية وحدها فلا تصيبها الشمس بالغداة

فصل في بيان التمثيل المذكور في الآية

اختلف أهل العلم في معنى هذا التمثيل، فقيل: المراد به الهدى ومعناه أن هداية الله تعالى قد بلغت في الظهور والجلاء إلى أقصى الغايات، وصار ذلك بمنزلة المشكاة التي فيها زجاجة صافية وفي تلك الزجاجة مصباح يتقد بزيت بلغ النهاية في الصفاء، والرقة والبياض فإذا كان كذلك كان كاملاً في صفائه، وصلح أن يجعل مثلاً لهداية الله تعالى وقيل وقع هذا التمثيل لنور محمد ﷺ قال ابن عباس لكعب الأحبار: أخبرني عن قوله تعالى ﴿**مثل نوره كمشكاة**﴾ قال كعب: هذا مثل ضربه الله لنبيه ﷺ فالمشكاة صدره والزجاجة قلبه والمصباح فيه النبوة توقد من شجرة مباركة هي شجرة النبوة يكاد نور محمد ﷺ وأمره يتبين للناس ولو لم يتكلم به أنه نبيّ كما يكاد ذلك الزيت يضيء، ولو لم تمسسه نار وروي عن ابن عمر في هذه الآية قال المشكاة: جوف محمد ﷺ والزجاجة قلبه والمصباح النور الذي جعله الله فيه لا شرقية ولا غربية، لا يهودي ولا نصراني توقد من شجرة مباركة إبراهيم نور على نور قلب إبراهيم ونور قلب محمد ﷺ: وقال محمد بن كعب القرظي: المشكاة إبراهيم، والزجاجة إسماعيل والمصباح محمد ﷺ وعليهم أجمعين سمى الله محمداً مصباحاً، كما سماه سراجاً منيراً والشجرة المباركة إبراهيم عليه السلام لأن أكثر الأنبياء من صلبه لا شرقية ولا غربية، يعني إبراهيم لم يكن يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً لأن اليهود تصلّي إلى الغرب، والنصارى تصلّي إلى الشرق يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار تكاد محاسن محمد ﷺ تظهر للناس قبل أن يوحى إليه نور على نور نبي من نسل نبي نور محمد على نور إبراهيم، وقيل وقع هذا التمثيل لنور قلب المؤمن قال أبيّ بن كعب، هذا مثل المؤمن فالمشكاة نفسه، والزجاجة قلبه والمصباح ما جعله الله فيه من الإيمان والقرآن توقد

إذا طلعت، بل هي ضاحية الشمس طول النهار تصيبها الشمس عند طلوعها وعند غروبها فتكون شرقية وغربية تأخذ حظها من الأمرين، فيكون زيتها أضوأ وهذا كما يقال: فلان ليس بأسود ولا بأبيض يريد ليس بأسود خالص ولا بأبيض خالص، بل اجتمع فيه كل واحد منهما، وهذا الرمّان ليس بحلو ولا حامض أي اجتمعت فيه الحلاوة والحموضة، هذا قول ابن عباس في رواية عكرمة والكلبي، والأكثرين. وقال السديّ وجماعة: معناه أنها ليست في مقناة لا تصيبها الشمس ولا في مضحاة لا يصيبها الظل، فهي لا تضرّها شمس ولا ظل. وقيل: معناه أنها معتدلة ليست في شرق يضرّها الحرّ، ولا في غرب يضرّها البرد. وقيل: معناه هي شامية لأن الشام لا شرقي ولا غربي. وقال الحسن: ليست هذه من أشجار الدنيا ولو كانت في الدنيا لكانت شرقية أو غربية وإنما هو مثل ضربه الله لنوره. ﴿ **يكاد زيتها** ﴾، دهنها، ﴿ **يضيء** ﴾، من صفائه، ﴿ **ولو لم تمسسه نار** ﴾، أي: قبل أن تصيبه النار، ﴿ **نور على نور** ﴾، يعني نور المصباح على نور الزجاجة. واختلف أهل العلم في معنى هذا التمثيل، فقال بعضهم: وقع هذا التمثيل لنور محمد ﷺ، قال ابن عباس لكعب الأحبار: أخبرني عن قوله تعالى: ﴿ **مثل نوره كمشكاة** ﴾ فقال كعب: هذا مثل ضربه الله لنبيّه ﷺ، فالمشكاة صدره والزجاجة قلبه والمصباح فيه النبوّة توقد من شجرة مباركة هي شجرة النبوّة، يكاد نور محمد وأمره يتبيّن للناس ولو لم يتكلم أنه نبيّ كما يكاد ذلك الزيت يُضيء ولو لم تمسسه نار. وروى سالم عن ابن عمر في هذه الآية قال: المشكاة جوف محمد والزجاجة قلبه والمصباح النور الذي جعله الله فيه، لا شرقية ولا غربية ولا يهودي ولا نصراني، توقد من شجرة مباركة إبراهيم نور على نور قلب إبراهيم ونور قلب محمد ﷺ، وقال محمد بن كعب القرظي: المشكاة إبراهيم والزجاجة إسماعيل والمصباح محمد صلوات الله عليهم أجمعين سمّاه الله مصباحاً كما سمّاه سراجاً، فقال تعالى: ﴿ وسراجاً منيراً ﴾ [الأحزاب: ٤٦] توقد من شجرة مباركة وهي إبراهيم سمّاه مباركة لأن أكثر الأنبياء من صلبه، لا شرقية ولا غربية يعني إبراهيم لم يكن يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً، لأن اليهود تصلّي قِبَلَ المغرب والنصارى تصلّي قِبَلَ المشرق يكاد زيتها يضيء

من شجرة مباركة هي شجرة الإخلاص لله وجده فمثله مثل شجرة التف بها الشجر فهي خضراء ناعمة نضرة، لا تصيبها الشمس إذا طلعت ولا إذا غربت فكذلك المؤمن، قد احترس أن يصيبه شيء من الفتن فهو بين أربع خلال إن أعطي شكر وإن ابتلي صبر وإن حكم عدل وإن قال صدق يكاد زيتها يضيء أي يكاد قلب المؤمن يعرف الحق قبل أن يتبين له لموافقته إياه، نور على نور قال أبي: فهو يتقلب في خمسة أنوار قوله نور، وعمله نور ومدخله نور، ومخرجه نور ومصيره إلى النور يوم القيامة وقال ابن عباس: هذا مثل نور الله وهداه في قلب المؤمن كما يكاد الزيت الصافي يضيء قبل أن تمسسه النار، فإذا مسته النار ازداد ضوءاً على ضوئه كذلك يكاد قلب المؤمن يعمل بالهدى قبل أن يأتيه العلم، فإذا جاءه العلم ازداد هدى على هدى ونور على نور، وقال الكلبي: نور على نور يعني إيمان المؤمن وعمله. وقيل نور الإيمان ونور القرآن وقيل هذا مثل القرآن فالمصباح هو القرآن فكما يستضاء بالمصباح فكذلك يهتدى بالقرآن والزجاجة قلب المؤمن، والمشكاة فمه ولسانه والشجرة المباركة شجرة المعرفة في قلبه، يكاد زيتها يضيء أي نور المعرفة يشرق في قلب المؤمن، ولو لم يمسسه النار وقيل تكاد حجة القرآن تتضح، وإن لم يقرأ نور على نور يعني القرآن نور من الله لخلقه مع ما أقام لهم من الدلائل والإعلام قبل نزول القرآن فازدادوا بذلك نوراً على نور. قوله تعالى ﴿**يهدي الله لنوره من يشاء**﴾ قال ابن عباس: لدين الإسلام وهو نور البصيرة ﴿**ويضرب الله الأمثال للناس**﴾ أي يبين الله الأشياء للناس تقريباً إلى الأفهام، وتسهيلاً لسبيل الإدراك ﴿**والله بكل شيء عليم**﴾ قوله عزّ وجلّ:

﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿٣٦﴾﴾

﴿**في بيوت**﴾ أي ذلك المصباح يوقد في بيوت والمراد بالبيوت جميع المساجد، قال ابن عباس: المساجد

ولو لم تمسسه نار، تكاد محاسن محمد ﷺ تظهر للناس قبل أن يُوحى إليه نور على نور، نبي من نسل نبي، نور محمد على نور إبراهيم. وقال بعضهم: وقع هذا التمثيل لنور قلب المؤمن. روى أبو العالية عن أُبيّ بن كعب قال: هذا مثل المؤمن، فالمشكاة نفسه والزجاجة صدره، والمصباح ما جعل الله فيه من الإيمان، والقرآن في قلبه يوقد من شجرة مباركة وهي الإخلاص لله وحده، فمثله كمثل الشجرة التي التفّ بها الشجر خضراء ناعمة لا تصيبها الشمس لا إذا طلعت ولا إذا غربت فكذلك المؤمن، قد احترس من أن يصيبه شيء من الفتن فهو بين أربع خلال إن أُعطيَ شكر وإن ابْتلي صَبر، وإن حكم عدل، وإن قال صدق، يكاد زيتها يضيء أي يكاد قلب المؤمن يعرف الحق قبل أن يتبيّن له لموافقته إيّاه نور على نور. قال أُبيّ فهو يتقلّب في خمسة أنوار. قوله: ﴿ **نور** ﴾ وعمله نور ومدخله نور ومخرجه نور ومصيره إلى النور يوم القيامة. قال ابن عباس: هذا مثل نور الله وهداه في قلب المؤمن كما يكاد الزيت الصافي يضيء قبل أن تمسّه النار، فإذا مسّته النار ازداد ضوءاً على ضوئه، كذلك يكاد قلب المؤمن يعمل بالهدى قبل أن يأتيه العلم، فإذا جاءه العلم ازداد هدىً على هدى ونوراً على نور، يعني إيمان المؤمن وعمله. وقال السدي: نور الإيمان ونور القرآن. وقال الحسن وابن زيد: هذا مثل القرآن، فالمصباح هو القرآن فكما يُستضاء بالمصباح يُهتدى بالقرآن، والزجاجة قلب المؤمن والمشكاة فمه ولسانه والشجرة المباركة شجرة الوحي، ﴿ **يكاد زيتها يضيء** ﴾ تكاد حجّة القرآن تتّضح وإن لم يقرأ نور على نور يعني القرآن نور من الله لخلقه مع ما أقام لهم من الدلائل والإعلام قبل نزول القرآن، فازداد بذلك نوراً على نور قوله تعالى: ﴿ **يهدي الله لنوره مَن يشاء** ﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما: لدينُ الإسلام وهو نور البصيرة وقيل القرآن ﴿ **ويضرب الله الأمثال للناس** ﴾، يبيّن الله الأشياء للناس تقريباً للأفهام وتسهيلاً لسُبُل الإدراك، ﴿ **والله بكل شيء عليم** ﴾.

قوله: ﴿ **في بيوت أذن الله** ﴾، أي ذلك المصباح في بيوت. وقيل: يوقد في بيوت، والبيوت: هي المساجد،

بيوت الله في الأرض تضيء لأهل السماء كما تضيء النجوم لأهل الأرض وقيل: المراد بالبيوت أربعة مساجد لم يبنها إلا نبي الكعبة بناها إبراهيم وإسماعيل، فجعلاها قبلة، وبيت المقدس بناه داود وسليمان ومسجد المدينة بناه رسول الله ﷺ ومسجد قباء أسس على التقوى وبناه رسول الله ﷺ أيضاً ﴿أذن الله أن ترفع﴾ أي تبنى وقيل: تعظم فلا يذكر فيها الخنى من القول وتطهر عن الأنجاس والأقذار ﴿ويذكر فيها اسمه﴾ قال ابن عباس يتلى فيها كتابه ﴿يسبح له فيها﴾ أي يصلي له فيها ﴿بالغدو والآصال﴾ بالغداة والعشي قال أهل التفسير: أراد به الصلاة المفروضة فالتي تؤدّى بالغداة صلاة الفجر والتي تؤدى بالآصال صلاة الظهر والعصر والعشاءين، لأن اسم الأصيل يقع على هذا الوقت كله وقيل: أراد به الصبح والعصر. عن أبي موسى الأشعري عن النبيّ ﷺ قال «من صلى صلاة البردين دخل الجنة أراد بالبردين صلاة الصبح، وصلاة العصر» وقال ابن عباس: التسبيح بالغدو صلاة الضحى والآصال صلاة العصر عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ «من خرج من بيته متطهراً إلى صلاة مكتوبة كان أجره كأجر الحاج المحرم، ومن خرج إلى المسجد إلى تسبيح الضحى لا يعنيه إلا ذاك كان أجره كأجر المعتمر وصلاة على أثر صلاة لا لغو بينهما كتاب في عليين» أخرجه أبو داوود.

رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَـٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَـٰرُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَـٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ

قال سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: المساجد بيوت الله في الأرض، وهي تضيء لأهل السماء كما تضيء النجوم لأهل الأرض. وروى صالح بن حيّان عن ابن بريدة في قوله تعالى: ﴿ في بيوت أذن الله ﴾، قال: إنما هي أربعة مساجد لم يبنها إلاّ نبيّ الكعبة بناها إبراهيم وإسماعيل فجعلاها قبلة، وبيت المقدس بناه داود وسليمان، ومسجد المدينة بناه رسول الله ﷺ، ومسجد قباء أسّس على التقوى بناه رسول الله ﷺ. قوله: ﴿ أن ترفع ﴾، قال مجاهد أن تُبنى نظيره قوله تعالى: ﴿ وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت ﴾ [البقرة: ١٢٧] قال الحسن: أي تعظم أي لا يذكر فيه الخنَا مِنَ القول. ﴿ ويذكر فيها اسمه ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: يتلى فيها كتابه، ﴿ يسبّح ﴾، قرأ ابن عامر وأبو بكر ﴿ يسبَّح ﴾ بفتح الباء على غير تسمية الفاعل والوقف على هذه القراءة عند قوله: ﴿ والآصال ﴾ [النور: ٣٦] وقرأ الآخرون بكسر الباء جعلوا التسبيح فعلاً للرجال، ﴿ يسبّح له ﴾ أي: يصلّي، ﴿ له فيها بالغدو والآصال ﴾، أي بالغداة والعشي. قال أهل التفسير أراد به الصلوات المفروضات. فالتي تؤدّى بالغداة صلاة الصبح والتي تؤدّى بالآصال صلاة الظهر والعصر والعشاءين لأن اسم الأصيل يجمعهما. وقيل: أراد به صلاة الصبح والعصر. أخبرنا الإمام أبو علي الحسين بن محمد القاضي أنا أبو بكر أحمد بن الحسين الحيري أنا محمد بن أحمد بن محمد بن معقل الميداني ثنا ومحمد بن يحيىٰ أنا عبد الله بن رجاء أنا همّام بن أبي حمزة أن أبا بكر بن عبد الله بن قيس حدّثه عن أبيه عن النبي ﷺ قال: «مَن صلّى البردين دخل الجنّة»، ورُوِيَ عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: التسبيح بالغدو صلاة الضحى، أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أبو منصور محمد بن محمد بن السمعان أنا أبو جعفر الرياني أنا حميد بن زنجويه أنا عبد الله بن يوسف أنا الهيثم بن حميد أخبرني يحيىٰ بن الحارث عن القاسم بن عبد الرحمن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن مشى إلى صلاة مكتوبة وهو متطهّر فأجرُه كأجْر الحاجّ المحرم، ومَن مشى إلى تسبيح الضحى لا ينصبه إلاّ إيّاه فأجره كأجر المعتمر، وصلاة على أثر صلاة لا لغو بينهما كتاب في عليين».

حِسَابَهُۥ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾

﴿**رجال**﴾ قيل خص الرجال بالذكر في هذه المساجد، لأن النساء ليس عليهن حضور المساجد لجمعة ولا جماعة ﴿**لا تلهيهم**﴾ أي لا تشغلهم ﴿**تجارة**﴾ وقيل خص التجارة بالذكر لأنها أعظم ما يشتغل الإنسان به عن الصلوات، والطاعات وأراد بالتجارة الشراء وإن كان اسم التجارة يقع على البيع والشراء جميعاً، لأنه ذكر البيع بعده وقيل التجارة لأهل الجلب والبيع ما باعه الرجل على يده ﴿**ولا بيع**﴾ أي ولا يشغلهم بيع ﴿**عن ذكر الله**﴾ أي حضور المساجد لإقامة الصلوات ﴿**وإقام الصلاة**﴾ يعني إقامة الصلاة في وقتها لأن من أخر الصلاة عن وقتها لا يكون من مقيمي الصلاة، وروي عن ابن عمر أنه كان في السوق فأقيمت الصلاة فقام الناس وأغلقوا حوانيتهم، ودخلوا المسجد فقال ابن عمر فيهم نزلت هذه الآية «رجال لا تلهيهم تجارة، ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة» ﴿**وإيتاء الزكاة**﴾ يعني المفروضة قال ابن عباس إذا حضر، وقت أداء الزكاة لا يحبسونها ﴿**يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار**﴾ يعني أن هؤلاء الرجال، وإن بالغوا في ذكر الله والطاعات فإنهم مع ذلك وجلون خائفون لعلمهم بأنهم ما عبدوا الله حق عبادته. قيل: إن القلوب تضطرب من الهول والفزع وتشخص الأبصار. وقيل: **تتقلب** القلوب عما كانت عليه في الدنيا من الشك إلى اليقين وترفع عن الأبصار الأغطية. وقيل: تتقلب القلوب بين الخوف والرجاء فتخشى الهلاك وتطمع في النجاة، وتتقلب الأبصار من هول ذلك اليوم، من أي ناحية يؤخذ بهم أمن ذات اليمين، أم من ذات الشمال ومن أي يؤتون كتبهم أمن اليمين أم من قبل الشمال؟ وقيل: يتقلب القلب في الجوف، فيرتفع إلى الحنجرة فلا ينزل ولا يخرج **ويتقلب** البصر فيشخص من هول الأمر وشدته ﴿**ليجزيهم الله أحسن ما عملوا**﴾ يعني أنهم اشتغلوا بذكر الله وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة ليجزيهم الله أحسن ما عملوا والمراد بالأحسن الحسنات كلها وهي الطاعات فرضها ونفلها، وذكر الأحسن تنبيهاً على أنه لا يجازيهم على مساوىء أعمالهم، بل يغفرها لهم وقيل: إنه سبحانه وتعالى يجزيهم جزاء أحسن من أعالهم، على الواحد من عشرة إلى سبعمائة ضعف ﴿**ويزيدهم من فضله**﴾ يعني أنه سبحانه وتعالى يجزيهم بأحسن أعمالهم ولا يقتصر على ذلك بل يزيدهم من فضله ﴿**والله يرزق من يشاء بغير حساب**﴾ فيه تنبيه على كمال قدرته وكمال جوده وسعة إحسانه وفضله. قوله تعالى:

﴿**والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة**﴾ لما ضرب مثلاً لحال المؤمن وأنه في الدنيا والآخرة في نور، وأنه فائز بالنعيم المقيم، أتبعه بضرب مثل لأعمال الكفار، وشبهه بالسراب وهو شبه ماء يرى نصف النهار عند شدة الحر في البراري يظنه من رآه ماء، فإذا قرب منه لم ير شيئاً. والقيعة القاع وهو المنبسط من الأرض وفيه يكون السراب ﴿**يحسبه**﴾ أي يتوهمه ﴿**الظمآن**﴾ أي العطشان ﴿**ماء حتى إذا جاءه**﴾ أي جاء ما قدر أنه ماء وقيل: جاء إلى موضع السراب ﴿**لم يجده شيئاً**﴾ أي لم يجده على ما قدره وظنه ووجه التشبيه أن الذي يأتي به الكافر من أعمال البر، يعتقد

قوله: ﴿ **رجال** ﴾، قيل: خصّ الرجال بالذكر في هذه المساجد لأنه ليس على النساء جمعة ولا جماعة في

ثم ابتدأ فقال: ﴿ **ظلمات** ﴾، ﴿ **بعضها فوق بعض** ﴾، ظلمة السحاب وظلمة الموج وظلمة البحر بعضها فوق بعض، أي: ظلمة الموج على ظلمة البحر وظلمة الموج فوق الموج، وظلمة السحاب على ظلمة الموج، وأراد بالظلمات أعمال الكافر وبالبحر اللجي قلبه، وبالموج ما يغشى قلبه من الجهل والشك والحيرة، وبالسحاب الختم والطبع على قلبه. قال أُبيّ بن كعب: في هذه الآية الكافر ينقلب في خمسة من الظلم: فكلامه ظلمة: وعمله ظلمة، ومدخله ظلمة، ومخرجه ظلمة، ومصيره إلى الظلمات يوم القيامة إلى النار. ﴿ **إذا أخرج** ﴾، يعني الناظر،

أنه له ثواباً عند الله وليس كذلك فإذا وافى عرصات القيامة لم يجد الثواب الذي كان يظنه، بل وجد العقاب العظيم والعذاب الأليم فعظمت حسرته، وتناهى غمه فشبه حاله بحال الظمآن الذي اشتدت حاجته إلى الماء، فإذا شاهد السراب في البر تعلق قلبه به فإذا جاءه لم يجده شيئاً فكذلك حال الكافر يحسب أن عمله، نافعة فإذا احتاج إلى عمله لم يجده أغنى عنه شيئاً ولا نفعه ﴿**ووجد الله عنده**﴾ أي وجد الله بالمرصاد وقيل: قدم على الله ﴿**فوفاه حسابه**﴾ أي جزاء عمله ﴿**والله سريع الحساب**﴾ معناه أنه عالم بجميع المعلومات فلا تشغله محاسبة واحد عن واحد. ثم ضرب للكفار مثلاً آخر فقال تعالى ﴿**أو كظلمات**﴾ أعلم الله سبحانه وتعالى أن أعمال الكفار إن كانت حسنة، فهي كسراب بقيعة وإن كانت قبيحة فهي كظلمات، وقيل: معناه إن مثل أعمالهم في فسادها، وجهالتهم فيها كظلمات ﴿**في بحر لجي**﴾ أي عميق كثير الماء ولجة البحر معظمه ﴿**يغشاه**﴾ أي يعلوه ﴿**موج من فوقه موج**﴾ أي متراكم ﴿**من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض**﴾ معناه أن البحر اللجي يكون قعره مظلماً جداً بسبب غمورة الماء، فإذا ترادفت الأمواج ازدادت الظلمة فإذا كان فوق الأمواج سحاب بلغت الظلمة النهاية القصوى ﴿**إذا أخرج يده لم يكد يراها**﴾ أي لم يقرب أن يراها لشدة الظلمة وقيل: معناه لم يرها إلا بعد الجهد وقيل: لما كانت اليد من أقرب شيء يراه الإنسان قال: لم يكد يراها، ووجه التشبيه أن الله ذكر ثلاثة أنواع من الظلمات: ظلمة البحر وظلمة الأمواج وظلمة السحاب، وكذلك الكافر له ثلاث ظلمات ظلمة الاعتقاد وظلمة القول وظلمة العمل وقيل: شبه بالبحر اللجي قلبه، وبالموج ما يتغشى قلبه من الجهل والشك والحيرة، وبالسحاب الختم والطبع على قلبه. قال أبيّ بن كعب: الكافر يتقلب في خمس من الظلم كلامه ظلمة وعمله ظلمة، ومدخله ظلمة ومخرجه ظلمة، ومصيره إلى الظلمات يوم القيامة في النار ﴿**ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور**﴾ قال ابن عباس من لم يجعل الله له ديناً وإيماناً، فلا دين له وقيل من لم يهده الله فلا هادي له قيل نزلت هذا الآية في عتبة بن ربيعة بن أمية، كان يلتمس الدين في الجاهلية ولبس المسوح فلما جاء الإسلام كفر وعاند، والأصح أن الآية عامة في حق جميع الكفار. قوله عزّ وجلّ:

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٤﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ ۖ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ ۚ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾

﴿**ألم تر أن الله يسبح له من في السموات والأرض والطير صافات**﴾ أي باسطات أجنحتهن في الهواء قيل خص

﴿ **يده لم يكد يراها** ﴾، يعني لم يقرب من أن يراها من شدّة الظلمة. وقال الفرّاء: ﴿ **يكد** ﴾ صلة أي لم يرها، قال المبرّد: يعني لم يرها إلّا بعد الجهد، كما يقول القائل: ما كدت أراك من الظلمة وقد رآه، ولكن بعد يأس وشدّة. وقيل: معناه قرب من رؤيتها ولم يرها، كما يقال: كاد النعام يطير. ﴿ **وَمَن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور** ﴾، قال ابن عباس: مَن لم يجعل الله له ديناً وإيماناً فلا دين له. وقيل: مَن لم يهده الله فلا إيمان له ولا يهديه أحد. وقال مقاتل: نزلت هذه الآية في عتبة بن ربيعة بن أمية كان يلتمس الدين في الجاهلية ويلبس المسوح فلما جاء الإسلام كفر. والأكثرون على أنه عامّ في جميع الكفّار.

قوله تعالى: ﴿ **ألم ترَ أن الله يسبّح له مَن في السمٰوات والأرضِ والطيرُ صافّاتٍ** ﴾، باسطات أجنحتهنّ

الطير بالذكر من جملة الحيوان لأنها تكون بين السماء والأرض، فتكون خارجة عن حكم من في السموات والأرض ﴿كل قد علم صلاته وتسبيحه﴾ قيل: الصلاة لبني آدم والتسبيح لسائر الخلق وقيل إن ضرب أجنحة الطير صلاته وتسبيحه، وقيل: معناه إن كل مصل ومسبح علم الله صلاته وتسبيحه وقيل معناه كل مصل ومسبح منهم قد علم صلاة نفسه وتسبيحه ﴿والله عليم بما يفعلون ولله ملك السموات والأرض﴾ أي إن جميع الموجودات ملكه وفي تصرفه وعنه نشأت ومنه بدأت فهو واجد الوجود وقيل معناه أن خزائن المطر والرزق بيده ولا يملكها أحد سواه ﴿وإلى الله المصير﴾ أي وإلى الله مرجع العباد بعد الموت. قوله تعالى ﴿ألم تر أن الله يزجي﴾ أي يسوق ﴿سحاباً﴾ بأمره إلى حيث يشاء من أرضه وبلاده ﴿ثم يؤلف بينه﴾ أي يجمع بين قطع السحاب المتفرقة بعضها إلى بعض ﴿ثم يجعله ركاماً﴾ أي متراكماً بعضه فوق بعض ﴿فترى الودق﴾ أي المطر ﴿يخرج من خلاله﴾ أي من وسطه وهو مخارج القطر ﴿وينزل من السماء من جبال فيها من برد﴾ قيل معناه وينزل من جبال من السماء وتلك الجبال من برد. قال ابن عباس: أخبر الله أن في السماء جبالاً من برد وقيل معناه وينزل من السماء مقدار جبال في الكثرة من برد. فإن قلت: ما الفرق بين من الأولى والثانية والثالثة. قلت: من الأولى لابتداء الغاية لأن ابتداء الإنزال من السماء والثانية للتبعيض لأن ما ينزله الله بعض تلك الجبال التي في السماء، والثالثة للتجنيس لأن تلك الجبال من جنس البرد ﴿فيصيب به﴾ أي البرد ﴿من يشاء﴾ فيهلكه وأمواله ﴿ويصرفه عمن يشاء﴾ أي فلا يضره ﴿يكاد سنا برقه﴾ أي ضوء

بالهواء. قيل: خصّ الطير بالذكر من جملة الحيوان لأنها تكون بين السماء والأرض فتكون خارجة عن حكم مَن في السماء والأرض، ﴿ كلٌّ قد علم صلاتَه وتسبيحه ﴾، قال مجاهد: الصلاة لبني آدم، والتسبيح لسائر الخلق. وقيل إن ضرب الأجنحة صلاة الطير وصوته تسبيحه. قوله: ﴿ كلٌّ قد علم ﴾ أي: كلّ مُصَلٍّ ومسبِّح علم الله صلاته وتسبيحه. وقيل: معناه كل مُصَلٍّ ومُسبِّح منهم قد علم صلاة نفسه وتسبيحه، ﴿ والله عليم بما يفعلون ﴾.

﴿ ولله ملكُ السمٰوات والأرض وإلى الله المصير ﴾.

﴿ ألم ترَ أن الله يُزجي ﴾، يعني يسوق بأمره، ﴿ سحاباً ﴾، إلى حيث يريد، ﴿ ثم يُؤلّف بينه ﴾، يعني يجمع بين قطع السحاب المتفرّقة بعضها إلى بعض، ﴿ ثم يجعله ركاماً ﴾، متراكماً بعضه فوق بعض، ﴿ فترى الودق ﴾، يعني المطر، ﴿ يخرج من خلاله ﴾، وسطه وهو جمع الخلل، كالجبال جمع الجبل. ﴿ ويُنزّل من السماء من جبال فيها من برد ﴾، يعني: ينزل البرد، و﴿ من ﴾ صلة، وقيل: معناه وينزل من السماء من جبال أي مقدار جبال في الكثرة من البرد، و﴿من﴾ في قوله: ﴿من جبال﴾ صلة أي: وينزل من السماء جبالاً من برد. وقيل المسجد، ﴿ لا تُلهيهم ﴾، لا تشغلهم، ﴿ تجارة ﴾، قيل: خصّ التجارة بالذكر لأنها أعظم ما يشتغل به الإنسان عن الصلاة والطاعات، وأراد بالتجارة الشراء وإن كان اسم التجارة يقع على البيع والشراء جميعاً لأنه ذكر البيع بعد هذا، كقوله: ﴿ وإذا رأوا تجارة ﴾ [الجمعة: ١١] يعني الشراء، وقال الفرّاء: التجارة لأهل الجلب والبيع ما باعه الرجل على يديه. قوله: ﴿ ولا بيعٌ عن ذكر الله ﴾، عن حضور المساجد لإقامة الصلاة، ﴿ وإقام ﴾، أي: لإقامة، ﴿ الصلاة ﴾، حذف الهاء وأراد أداءها في وقتها لأن من أخّر الصلاة عن وقتها لا يكون من مُقيمي الصلاة وأعاد ذكر إقامة الصلاة مع أن المراد من ذكر الله الصلوات الخمس لأنه أراد بإقام الصلاة حفظ المواقيت. روى سالم عن ابن عمر أنه كان في السوق فأُقيمت الصلاة فقام الناس وأغلقوا حوانيتهم فدخلوا المسجد، فقال ابن عمر: فيهم نزلت: ﴿ رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام ﴾. ﴿ وإيتاء الزكاة ﴾، المفروضة، قال ابن عباس رضي الله عنه: إذا حضر وقت أداء الزكاة لم يحبسوها. وقيل: هي الأعمال الصالحة. ﴿ يخافون يوماً تتقلّب فيه القلوب

برق السحاب ﴿يذهب بالأبصار﴾ أي من شدة ضوئه وبريقه ﴿يقلب الله الليل والنهار﴾ أي يصرفهما في اختلافهما وتعاقبهما فيأتي بالليل ويذهب بالنهار ويأتي بالنهار ويذهب بالليل (ق) عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ قال الله تعالى «يؤذيني ابن آدم يسب الدهر، وأنا الدهر بيدي الأمن أقلب الليل والنهار». معنى هذا الحديث: أن العرب كانوا يقولون عند النوازل والشدائد أصابنا الدهر ويذمونه في أشعارهم فقيل لهم: لا تسبوا الدهر فإن فاعل ذلك هو الله عز وجل والدهر مصرف تقع فيه التأثيرات كما تقع بكم، وقوله تعالى ﴿إن في ذلك﴾ أي الذي ذكر من هذه الأشياء ﴿لعبرة لأولي الأبصار﴾ أي دلالة لأهل العقول والبصائر على قدرة الله وتوحيده.

قوله عز وجل ﴿والله خلق كل دابة من ماء﴾ أي من نطفة وأراد به كل حيوان يشاهد في الدنيا ولا يدخل فيه الملائكة والجن، لأنا لا نشاهدهم وقيل: إن أصل جميع الخلق من الماء وذلك أن الله خلق ماء فجعل بعضه ريحاً ونوراً فخلق منه الملائكة وجعل بعضه ناراً فخلق منه الجن، وجعل بعضه طيناً فخلق منه آدم ﴿فمنهم من يمشي على

والأبصار ﴾، قيل: تتقلّب القلوب عمّا كانت عليه في الدنيا من الشرك والكفر، وتنفتح أبصار من الأغطية، وقيل: تتقلب القلوب بين الخوف والرجاء تخشى الهلاك وتطمع في النجاة، وتقلب الأبصار من هَوْله أي: ناحيةً ويؤخذ بهم ذات اليمين أم ذات الشمال، ومن أين يؤتون الكتب أم من قبل الإيمان أم من قبل الشمائل، وذلك يوم القيامة. وقيل: فتقلّب القلوب في الجوف فترتفع إلى الحنجرة فلا تنزل ولا تخرج، وتقلب البصر شخوصه من هول الأمر وشدّته.

﴿ **ليجزيهم الله أحسنَ ما عملوا** ﴾، يريد أنهم اشتغلوا بذكر الله وإقامَ الصلاة وإيتاء الزكاة ليجزيهم الله أحسن ما عملوا، أي بأحسن ما عملوا، يريد يجزيهم بحسناتهم، وما كان من مساوىء أعمالهم لا يجزيهم بها، ﴿ **ويزيدهم من فضله** ﴾، ما لم يستحقّوه بأعمالهم، ﴿ **والله يرزق مَن يشاء بغير حساب** ﴾، ثم ضرب لأعمال الكفّار مثلاً.

فقال تعالى: ﴿ **والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة** ﴾، السراب الشعاع الذي يرى نصف النهار عند شدّة الحرّ في البراري، يشبه الماء الجاري على الأرض يظنه مَن رآه ماء، فإذا قرب منه انفشّ فلم يَرَ شيئاً، والأل ما ارتفع من الأرض وهو شعاع يرى بين السماء والأرض بالغدوات شبه الملاءة يرفع فيه الشخوص يرى فيه الصغير كبيراً والقصير طويلاً، والرقراق يكون بالعشايا وهو ما ترقرق من السراب، أي جاء وذهب. والقيعة: جمع القاع وهو المنبسط الواسع من الأرض، وفيه يكون السراب، ﴿ **يحسبه الظمآن** ﴾، أي يتوهمه العطشان، ﴿ **ماءً حتى إذا جاءه** ﴾ أي: جاء ما قدر رأى أنه ماء. وقيل: جاء موضع السراب، ﴿ **لم يجده شيئاً** ﴾، على ما قدّره وحسبه، كذلك الكافر يحسب أن عمله نافعه فإذا أتاه ملك الموت واحتاج إلى عمله لم يجد عمله أغنى منه شيئاً ولا نفعه. ﴿ **ووجد الله عنده** ﴾، أي عند عمله، أي وجد الله بالمرصاد. وقيل: قَدِمَ على الله، ﴿ **فوفاه حسابه** ﴾، أي جزاء عمله، ﴿ **والله سريع الحساب** ﴾.

﴿ **أو كظلمات** ﴾، وهذا مثل آخر ضربه الله لأعمال الكفّار، يقول مثل أعمالهم من فسادها وجهالتهم فيها كظلمات، ﴿ **في بحر لجي** ﴾، وهو العميق الكثير الماء، ولجة البحر معظمه، ﴿ **يغشاه** ﴾، يعلوه، ﴿ **موج من فوقه موج** ﴾، متراكم، ﴿ **من فوقه سحاب** ﴾، قرأ ابن كثير برواية القواس ﴿ **سحاب** ﴾ بالرفع والتنوين، ﴿ **ظلمات** ﴾، بالجر على البدل من قوله: ﴿ **أو كظلمات** ﴾. وروى أبو الحسن البري عنه: ﴿ **سحاب ظلمات** ﴾ بالإضافة، وقرأ الآخرون ﴿ **سحاب ظلمات** ﴾ كلاهما بالرفع والتنوين، فيكون تمام الكلام عند قوله: ﴿ **سحاب** ﴾

بطنه﴾ أي كالحيات والحيتان والديدان ونحو ذلك **﴿ومنهم من يمشي على رجلين﴾** يعني مثل بني آدم والطير **﴿ومنهم من يمشي على أربع﴾** يعني كالبهائم والسباع. فإن قلت كيف قال: خلق كل دابة من ماء مع أن كثيراً من الحيوانات يتولد من غير نطفة. قلت ذلك المخلق من غير نطفة، لا بد أن يتكون من شيء، وذلك الشيء أصله من الماء فكان من الماء. فإن قلت: فمنهم من يمشي ضمير العقلاء، فلم يستعمل في غير العقلاء. قلت ذكر الله تعالى ما لا يعقل مع من يعقل لأن جعل الشريف أصلاً، والخسيس تبعاً أولى. فإن قلت: لم قدم ما يمشي على بطنه على غيره من المخلوقات. قلت قدم الأعجب، والأعرف في القدرة وهو الماشي بغير آلة المشي، وهي الأرجل والقوائم ثم ذكر ما يمشي على رجلين ثم ما يمشي على أربع. فإن قلت: لم اقتصر على ذكر الأربع وفي الحيوانات ما يمشي على أكثر من أربع، كالعناكب والعقارب والرتيلا وما له أربع وأربعون رجلاً ونحو ذلك. قلت هذا القسم كالنادر فكان ملحقاً بالأغلب وقيل: إن هذه الحيوانات اعتمادها على أربع في المشي والباقي تبع لها **﴿يخلق الله ما يشاء﴾** أي مما لا يعقل ولا يعلم **﴿إن الله على كل شيء قدير﴾** أي هو القادر على الكل العالم بالكل المطلع على الكل، يخلق ما يشاء كما يشاء لا يمنعه مانع ولا دافع.

معناه وينزل من جبال في السماء تلك الجبال من برد. وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: أخبر الله عزّ وجلّ أن في السماء جبالاً من برد، ومفعول الإنزال محذوف تقديره: وينزل من السماء من جبال فيها برد، فاستغنى عن ذكر المفعول للدلالة عليه. قال أهل النحو ذكر الله تعالى ﴿ من ﴾ ثلاث مرات في هذه الآية فقوله: **﴿ من السماء ﴾** لابتداء الغاية لأن ابتداء الإنزال من السماء، وقوله تعالى: **﴿ من جبال ﴾** للتبعيض لأن ما ينزله الله تعالى بعض تلك الجبال التي في السماء، وقوله تعالى: **﴿ من برد ﴾** للتجنيس لأن تلك الجبال من جنس البرد. **﴿ فيصيب به ﴾**، يعني بالبرد **﴿ مَن يشاء ﴾**، فيهلك زروعه وأمواله، **﴿ ويصرفه عمّن يشاء ﴾**، فلا يضرّه، **﴿ يكاد سنا برقه ﴾** يعني ضوء برق السحاب، **﴿يذهب بالأبصار﴾**، من شدّة ضوئه وبريقه، وقرأ أبو جعفر يذهب بضم الياء وكسر الهاء.

﴿ يُقلِّب اللَّهُ الليلَ والنهارَ ﴾، يصرفهما في اختلافهما وتعاقبهما يأتي بالليل ويذهب بالنهار ويذهب بالليل، أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا عبد الحميد أنا سفيان أنا الزهري عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: قال الله تعالى: «يؤذيني ابن آدم، يسبّ الدهر وأنا الدهر بيدي الأمر، أُقلّب الليل والنهار». قوله تعالى: **﴿ إنّ في ذلك ﴾**، يعني في ذلك الذي ذكرت من هذه الأشياء، **﴿ لعبرة لأولي الأبصار ﴾**، يعني دلالة لأهل العقول والبصائر على قدرة الله تعالى وتوحيده.

قوله تعالى: **﴿ والله خلق كلّ دابّة ﴾**، قرأ حمزة والكسائي «خالق كل» بالإضافة، وقرأ الآخرون **﴿ خلق كل ﴾** على الفعل، **﴿ من ماء ﴾**، يعني من نطفة وأراد به كل حيوان يشاهد في الدنيا ولا يدخل فيه الملائكة ولا الجن، لأنّا لا نشاهدهم. وقيل: أصل جميع الخلق من الماء، وذلك أن الله تعالى خلق ماء ثم جعل بعضه ريحاً فخلق منها الملائكة، وبعضه ناراً فخلق منها الجن، وبعضها طيناً فخلق منها آدم، **﴿ فمنهم مَن يمشي على بطنه ﴾**، كالحيّات والحيتان والديدان، **﴿ ومنهم مَن يمشي على رجلين ﴾**، مثل بني آدم والطير، **﴿ ومنهم مَن يمشي على أربع ﴾**، كالبهائم والسّباع، ولم يذكر مَن يمشي على أكثر من أربع مثل حشرات الأرض لأنها في الصورة كالتي يمشي على الأربع، وإنما قال: **﴿ مَن يمشي ﴾**، و﴿ مَن ﴾ إنما تستعمل فيمن يعقل دون مَن لا يعقل من الحيات والبهائم، لأنه ذكر كل دابّة، فدخل فيه الناس وغيرهم، وإذا جمع اللفظ مَن يعقل ومَن لا يعقل تجعل الغلبة لمَن يعقل. **﴿ يخلق الله ما يشاء إنّ الله على كل شيء قدير ﴾**.

لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍۚ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ
وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا
فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ
عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥۚ بَلْ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟
سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾
۞ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّۖ قُل لَّا تُقْسِمُوا۟ۖ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾ قُلْ
أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟ۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ
إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٥٤﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا
ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًاۚ يَعْبُدُونَنِى لَا
يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔاۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾

﴿لقد أنزلنا آيات مبينات﴾ يعني القرآن هو المبين للهدى والأحكام والحلال والحرام ﴿والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم﴾ يعني إلى دين الإسلام الذي هو دين الله وطريقه إلى رضاه وجنته. قوله تعالى ﴿ويقولون﴾ يعني المنافقين ﴿آمنا بالله وبالرسول وأطعنا﴾ أي يقولونه: بألسنتهم من غير اعتقاد ﴿ثم يتولى فريق منهم﴾ أي يعرض عن طاعة الله ورسوله ﴿من بعد ذلك﴾ أي من بعد قولهم آمنا، ويدعو إلى غير حكم الله قال الله تعالى ﴿وما أولئك بالمؤمنين﴾ نزلت هذا الآية في بشر المنافق، كان بينه وبين يهودي خصومة في أرض، فقال اليهودي: نتحاكم إلى محمد ﷺ وقال المنافق بل نتحاكم إلى كعب بن الأشرف فإن محمداً يحيف فأنزل الله هذه الآية ﴿وإذا دعوا إلى الله

﴿ لقد أنزلنا ﴾، إليك، ﴿ آياتٍ مبيّناتٍ والله يهدي مَن يشاء إلى صراط مستقيم ﴾.

﴿ ويقولون آمنّا بالله وبالرسول وأطعنا ﴾. يعني المنافقين. يقولونه، ﴿ ثم يتولى ﴾، يعرض عن طاعة الله ورسوله، ﴿ فريقٌ منهم من بعد ذلك ﴾، أي من بعد قولهم آمنّا، ويدعو إلى غير حكم الله. قال الله تعالى: ﴿ وما أولئك بالمؤمنين ﴾، نزلت هذه الآية في بشر المنافق كانت بينه وبين رجل من اليهود خصومة في أرض، فقال اليهودي: نتحاكم إلى محمد ﷺ، وقال المنافق نتحاكم إلى كعب بن الأشرف، فإن محمداً يحيف علينا، فأنزل الله هذه الآية.

﴿ وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم ﴾، الرسول يحكم بحكم الله، ﴿ إذا فريقٌ منهم مُعرِضون ﴾، يعني عن الحكم. وقيل: عن الإجابة.

﴿ وإنْ يكن لهم الحق يأتوا إليه مُذعنين ﴾، مطيعين منقادين لحكمه، يعني إذا كان الحق لهم على غيرهم أسرعوا إلى حكمه لثقتهم بأنه كما يحكم عليهم بالحق يحكم لهم أيضاً بالحق.

﴿ أفي قلوبهم مرض أمِ ارْتابُوا ﴾، يعني شكّوا، هذا استفهام ذمّ وتوبيخ، يعني هم كذلك، ﴿ أم يخافون أن يَحِيفَ اللّهُ عليهم ورسولهُ ﴾، يعني بظلم، ﴿ بلْ أولئك همُ الظالمون ﴾ لأنفسهم بإعراضهم عن الحق.

ورسوله ليحكم بينهم﴾ أي الرسول يحكم بحكم الله بينهم **﴿إذا فريق منهم معرضون﴾** يعني عن الحكم وقيل عن الإجابة **﴿وإن لم يكن لهم الحق يأتوا إليه مذعنين﴾** أي مطيعين منقادين لحكمه أي إذا كان الحكم لهم على غيرهم أسرعوا إلى حكمه لثقتهم أنه، كما يحكم عليهم بالحق يحكم لهم أيضاً **﴿في قلوبهم مرض﴾** أي كفر ونفاق **﴿أم ارتابوا﴾** أي شكوا وهذا استفهام ذم وتوبيخ، والمعنى هم كذلك **﴿أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله﴾** أي بظلم **﴿بل أولئك هم الظالمون﴾** أي لأنفسهم بإعراضهم عن الحق. قوله عزّ وجلّ **﴿إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله﴾** أي إلى كتاب الله **﴿ورسوله ليحكم بينهم﴾** هذا تعليم أدب الشرع على معنى أن المؤمنين كذا ينبغي أن يكونوا وهو **﴿أن يقولوا سمعنا﴾** أي الدعاء **﴿وأطعنا﴾** أي بالإجابة **﴿وأولئك﴾** أي من هذه صفته **﴿هم المفلحون ومن يطع الله ورسوله﴾** قال ابن عباس فيما ساءه وسره **﴿ويخش الله﴾** أي على ما عمل من الذنوب **﴿ويتقه﴾** أي فيما بعد **﴿فأولئك هم الفائزون﴾** يعني الناجون.

قوله تعالى **﴿وأقسموا بالله جهد أيمانهم﴾** قيل: جهد اليمين أن يحلف بالله ولا يزيد على ذلك شيئاً **﴿لئن أمرتهم ليخرجن﴾** وذلك أن المنافقين كانوا يقولون لرسول الله ﷺ أينما كنت نكن معك لئن خرجت خرجنا، ولئن أقمت أقمنا، ولئن أمرتنا بالجهاد جاهدنا وقيل لما نزل بيان كراهتهم لحكم الله ورسوله قالوا للنبيّ ﷺ لو أمرتنا أن نخرج من ديارنا، وأموالنا ونسائنا لخرجنا، فكيف لا نرضى بحكمك فقال الله تعالى **﴿قل﴾** لهم **﴿لا تقسموا﴾** يعني لا تحلفوا، وتم الكلام ثم ابتدأ فقال **﴿طاعة معروفة﴾** يعني هذه طاعة القول باللسان دون الاعتقاد بالقلب، وهي معروفة يعني أمر عرف منكم أنكم تكذبون، وتقولون ما لا تفعلون وقيل: معناه طاعة معروفة بنية خالصة أفضل وأمثل من يمين باللسان

﴿ إنّما كان قول المؤمنين إذا دُعوا إلى الله ورسوله ﴾، إلى كتاب الله ورسوله، **﴿ ليحكم بينهم ﴾**، هذا ليس على طريق الخبر لكنه تعليم أدب الشرع على معنى أن المؤمنين كذا ينبغي أن يكونوا، ونصب القول على الخبر واسمه في قوله تعالى: **﴿ أن يقولوا سمعنا وأطعنا ﴾**، يعني سمعنا الدعاء وأطعنا بالإجابة. **﴿ وأولئك همُ المفلحون ﴾**.

﴿ ومَن يطع الله ورسولَه ويخشَ اللّهَ ﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما: فيما ساءه وسرّه ويخشى الله على ما عمل من الذنوب. **﴿ ويتّقه ﴾**، فيما بعده، **﴿ فأولئك همُ الفائزون ﴾**، الناجون، قرأ أبو عمرو وأبو بكر **﴿ يتّقه ﴾** ساكنة الهاء، ويختلسها أبو جعفر ويعقوب وقالون، كما في نظائرها ويشبعها الباقون كسراً، وقرأ حفص **﴿ يتّقه ﴾** بسكون القاف واختلاس الهاء، وهذه اللغة إذا سقطت الياء للجزم يسكّنون ما قبلها يقولون لم أشترْ طعاماً بسكون الراء.

قوله تعالى: **﴿ وأقسموا بالله جهد أيمانهم ﴾**، جهد اليمين أن يحلف بالله ولا حلف فوق الحلف بالله، **﴿ لئن أمرتهم ليخرجنّ ﴾**، وذلك أن المنافقين كانوا يقولون لرسول الله ﷺ: أينما كنت نكن معك، لئن خرجتَ خرجنا وإن أقمت أقمنا وإن أمرتنا بالجهاد جاهدنا، فقال تعالى: **﴿ قلْ ﴾**، لهم **﴿ لا تُقسموا ﴾**، لا تحلفوا، وقد تمّ الكلام، ثم قال: **﴿ طاعةٌ معروفة ﴾**، يعني هذه طاعة بالقول وباللسان دون الاعتقاد، وهي معروفة يعني أمر عـرف منكم أنكم تكذبون وتقولون ما لا تفعلون، هذا معنى قول مجاهد رضي الله عنه. وقيل: معناه طاعة معروفة بنيّة خالصة أفضل وأمثل من يمين باللسان لا يوافقها الفعل. وقال مقاتل بن سليمان لكن منكم طاعة معروفة. **﴿ إن الله خبير بما تعملون ﴾**.

﴿ قلْ أطيعوا اللّهَ وأطيعوا الرسولَ فإن تولّوا ﴾، يعني تولّوا عن طاعة الله ورسوله، **﴿ فإنما عليه ما حُمِّلَ ﴾**،

لا يوافقها الفعل ﴿إن الله خبير بما تعلمون﴾ يعني من طاعتكم بالقول ومخالفتكم بالفعل ﴿قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول﴾ يعني بقلوبكم وصدق نياتكم ﴿فإن تولوا﴾ يعني أعرضوا عن طاعة الله ورسوله ﴿فإنما عليه﴾ أي على الرسول ﴿ما حمل﴾ أي ما كلف وأمر به من تبليغ الرسالة ﴿وعليكم ما حملتم﴾ أي ما كلفتم من الإجابة والطاعة ﴿وإن تطيعوه تهتدوا﴾ أي تصيبوا الحق والرشد في طاعته ﴿وما على الرسول إلا البلاغ المبين﴾ أي التبليغ الواضح البين. قوله عزّ وجلّ ﴿وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض﴾ قيل مكث النبيّ ﷺ بمكة بعد الوحي عشر سنين مع أصحابه، وأمروا بالصبر على أذى الكفار فكانوا يصبحون ويمسون خائفين ثم أمروا بالهجرة إلى المدينة وأمروا بالقتال وهم على خوفهم لا يفارق أحد منهم: سلاحه فقال رجل منهم أما يأتي علينا يوم نأمن فيه ونضع السلاح فأنزل الله هذه الآية، ومعنى ليستخلفنهم والله ليورثنهم أرض الكفار من العرب والعجم، فجعلهم ملوكها وساستها وسكانها ﴿كما استخلف الذين من قبلهم﴾ أي كما استخلف داوُد وسليمان وغيرهما من الأنبياء، وكما استخلف بني إسرائيل وأهلك الجبابرة بمصر والشام وأورثهم أرضهم وديارهم ﴿وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى﴾ أي اختاره ﴿لهم﴾ قال ابن عباس يوسع لهم في البلاد حتى يملكوها ويظهر دينهم على سائر الأديان ﴿وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً يعبدونني﴾ آمنين ﴿لا يشركون بي شيئاً﴾ فأنجز الله وعده وأظهر دينه ونصر أولياءه وأبدلهم بعد الخوف أمناً وبسطاً في الأرض (خ) عن عدي بن حاتم قال: بينا أنا عند النبيّ ﷺ إذ أتاه رجل فشكا إليه الفاقة ثم أتاه آخر فشكا إليه قطع السبيل فقال: «يا عدي هل رأيت الحيرة قلت: لم أرها ولقد أنبئت عنها قال فإن طالت بك حياة فلترين الظعينة ترحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف أحداً إلا الله قلت فيما بيني وبين نفسي،

يعني على الرسول ما كُلِّف وأُمر به من تبليغ الرسالة، ﴿ وعليكم ما حُمِّلتم ﴾، من الإجابة والطاعة، ﴿ وإن تطيعوه تهتدوا وما على الرسول إلاّ البلاغ المبين ﴾، أي التبليغ البيّن.

قوله تعالى: ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحاتِ ليستخلفنَّهم في الأرض ﴾، قال أبو العالية: في هذه الآية مكث النبي ﷺ بمكة بعد الوحي عشر سنين مع أصحابه، وأُمروا بالصبر على أذى الكفّار، وكانوا يصبِحُون ويُمسُون خائفين ثم أُمروا بالهجرة إلى المدينة، وأُمروا بالقتال وهم على خوفهم لا يفارق أحد منهم سلاحه فقال رجل منهم: أمَا يأتي علينا يوم نؤمن فيه ونضع السلاح، فأنزل الله هذه الآية: ﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنّهم ﴾ أدخل اللام لجواب اليمين المضمرة، يعني والله ليستخلفنّهم أي ليورثنّهم أرض الكفّار من العرب والعجم، فيجعلهم ملوكها وساستها وسكّانها، ﴿ كما استخلف الذين من قبلهم ﴾، قرأ أبو بكر عن عاصم ﴿ كما استخلف ﴾ بضم التاء وكسر اللام على ما لم يُسَمَّ فاعله، وقرأ الآخرون بفتح التاء واللام لقوله تعالى: ﴿ وعد الله ﴾ قال قتادة: ﴿ كما استخلف ﴾ داود وسليمان وغيرهما من الأنبياء. وقيل: كما استخلف الذين من قبلهم أي بني إسرائيل حيث أهلك الجبابرة بمصر والشام وأورثهم أرضهم وديارهم، ﴿ وليمكننّ لهم دينهم الذي ارتضى لهم ﴾، أي اختار، قال ابن عباس: يوسع لهم في البلاد حتى يملكوها ويُظهِر دينهم على سائر الأديان، ﴿ وليبدلنّهم ﴾، قرأ ابن كثير وأبو بكر ويعقوب بالتخفيف من الإبدال، وقرأ الآخرون بالتشديد من التبديل، وهما لغتان، وقال بعضهم: التبديل تغيّر حال إلى حال، والإبدال رفع الشيء وجعل غيره مكانه، ﴿ من بعد خوفهم أمناً يعبدونني ﴾، آمنين، ﴿ لا يشركون بي شيئاً ﴾ فأنجز الله وعده وأظهر دينه ونصر أوليائه وأبدلهم بعد الخوف أمناً وبسطاً في الأرض. أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا محمد بن الحكم أنا النضر أنا إسرائيل أنا سعيد الطاهري أنا محمد بن خليفة عن عديّ بن حاتم قال: بينا أنا عند النبي ﷺ إذ أتاه رجل فشكى إليه الفاقة، ثم أتاه رجل فشكى إليه قطع السبيل، فقال: «يا

فأين دعار طيىء الذين قد سعروا البلاد، ولئن طالت بك حياة لتفتحن كنوز كسرى قلت كسرى بن هرمز قال كسرى بن هرمز ولئن طالت بك حياة لترين الرجل يخرج ملء كفه من ذهب أو فضة يطلب من يقبله منه وليلقين الله أحدكم يوم القيامة، وليس بينه وبينه ترجمان يترجم فليقولن ألم أبعث إليك رسولاً، فيبلغك فيقول بلى يا رب، ألم أعطك مالاً وأفضل عليك فيقول بلى فينظر عن يمينه فلا يرى إلا جهنم، وينظر عن شماله فلا يرى إلا جهنم» قال عدي سمعت رسول الله ﷺ يقول: «اتقوا النار ولو بشق تمرة فمن لم يجد شق تمرة فبكلمة طيبة» قال عدي: فرأيت الظعينة ترحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف إلا الله وكنت فيمن افتتح كنوز كسرى بن هرمز، ولئن طالت بكم حياة لترون ما قال أبو القاسم ﷺ: يخرج الرجل ملء كفه ذهباً إلخ.

وفي الآية دليل على صحة خلافة أبي بكر الصديق والخلفاء الراشدين بعده، لأن في أيامهم كانت الفتوحات العظيمة وفتحت كنوز كسرى وغيره من الملوك، وحصل الأمن والتمكين وظهور الدين عن سفينة قال سمعت رسول الله ﷺ يقول «الخلافة بعدي ثلاثون سنة ثم تكون ملكاً» ثم قال: أمسك خلافة أبي بكر سنتين وخلافة عمر عشر سنين، وخلافة عثمان اثنتي عشرة سنة وعلي ستاً قال علي: قلت لحماد القائل لسعيد أمسك سفينة قال نعم» أخرجه أبو داود والترمذي بنحو هذا اللفظ. قلت: كذا ورد هذا الحديث بهذا التفصيل، وفيه إجمال وتفصيله أن خلافة أبي بكر كانت سنتين وثلاثة أشهر، وخلافة عمر كانت عشر سنين وستة أشهر وخلافة عثمان اثنتي عشرة سنة كما ذكر في الحديث، وخلافة علي أربع سنين وتسعة أشهر ولهذا جاء في بعض روايات الحديث على كذا، ولم يبين تعيين مدته فعلى هذا التفصيل تكون مدة خلافة الأئمة الأربعة تسعة وعشرين سنة وستة أشهر، وكملت ثلاثين سنة بخلافة الحسن كانت ستة أشهر ثم نزل عنها والله أعلم، وقوله تعالى ﴿**ومن كفر بعد ذلك**﴾ أراد به كفران النعمة ولم يرد الكفران بالله ﴿**فأولئك هم الفاسقون**﴾ أي العاصون قال أهل التفسير: أول من كفر بهذه النعمة وجحد حقها الذين قتلوا عثمان، فلما قتلوه غير الله ما بهم وأدخل عليهم الخوف حتى صاروا يقتلون بعد أن كانوا إخواناً. عن ابن أخي

عديّ هل رأيت الحيرة؟ قلت: لم أرَها وقد أُنبئت عنها، قال: فإن طالت بك حياة فلترينّ الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف أحداً إلاّ الله، قلت فيما بيني وبين نفسي فأين دعار طيء الذين قد سعروا البلاد، ولئن طالت بك حياة لتفتحنّ كنوز كسرى، قلت: كسرى بن هرمز؟ قال: كسرى بن هرمز، لئن طالت بك حياة لترينّ الرجل يخرج ملء كفّه من ذهب وفضة يطلب مَن يقبله منه فلا يجد أحداً يقبله منه، وليَلْقَيَنَّ اللَّهَ أحدكم يوم القيامة وليس بينه وبينه ترجمان يترجم، فليقولنّ له ألم أبعث إليك رسولاً فيبلغك؟ فيقول: بلى، فيقول ألم أُعطِك مالاً وأُفضِل عليك؟ فيقول: بلى فينظر عن يمينه فلا يرى إلا جهنّم وينظر عن يساره فلا يرى إلاّ جهنم»، قال عدي: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «اتقوا النار ولو بشقّ تمرة فمَن لم يجد فبكلمة طيبة»، قال عدي فرأيت الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف إلاّ الله، وكنت ممّن افتتح كنوز كسرى بن هرمز، ولئن طالت بكم حياة لترون ما قال النبي أبو القاسم ﷺ: «يخرج ملء كفّه». وفي الآية دلالة على خلافة الصدّيق وإمامة الخلفاء الراشدين، أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أبو محمد عبد الرحمن بن أبي شريح أنا أبو القاسم البغوي أنا علي بن الجعد أخبرني حمّاد هو ابن سلمة بن دينار عن سيد جمهان عن سفينة قال سمعت النبي ﷺ يقول: «الخلافة بعدي ثلاثون سنة ثم تكون ملكاً». ثم قال: أمسك خلافة أبي بكر سنتين، وخلافة عمر عشراً، وعثمان اثني عشر، وعلي ستّة قال علي: قلت لحمّاد سفينة القائل لسعيد أمسك؟ قال: نعم. قوله تعالى: ﴿ **ومَن كفر بعد ذلك** ﴾، أراد به كفران النعمة، ولم يرد الكفر بالله، ﴿ **فأولئك هم الفاسقون** ﴾، العاصون لله، قال أهل التفسير: أول مَن كفر بهذه النعمة وجحد حقها الذين قتلوا عثمان رضي الله عنه، فلما قتلوه غيّر الله ما بهم وأدخل عليهم الخوف حتى صاروا

عبدالله بن سلام قال: «لما أريد قتل عثمان جاء عبدالله بن سلام فقال عثمان: ما جاء بك قال: جئت في نصرك قال: اخرج إلى الناس فاطردهم عني فإنك خارجاً خير لي منك داخلاً، فخرج عبدالله إلى الناس فقال: أيّها الناس إن لله سيفاً مغموداً وإن الملائكة قد جاورتكم في بلدكم هذا الذي نزل فيه رسول الله ﷺ فالله الله في هذا الرجل أن تقتلوه فوالله إن قتلتموه لتطردن جيرانكم الملائكة، وليسلن الله سيفه المغمود عنكم فلا يغمد إلى يوم القيامة قالوا: اقتلوا اليهودي واقتلوا عثمان» أخرجه الترمذي زاد في رواية غير الترمذي «فما قتل نبي قط إلا قتل به سبعون ألفاً، ولا خليفة إلا قتل به خمسة وثلاثون ألفاً». قوله تعالى:

﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٥٧﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَـٰثَ مَرَّٰتٍ ۚ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ۚ ثَلَـٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ ۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾﴾

﴿وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الرسول لعلكم ترحمون﴾ أي افعلوا هذه الأشياء على رجاء الرحمة ﴿لا تحسبن الذين كفروا معجزين﴾ أي فائتين عنا ﴿في الأرض ومأواهم النار ولبئس المصير﴾ قوله تعالى ﴿يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم﴾ قال ابن عباس وجه رسول الله ﷺ غلاماً من الأنصار يقال له: مدلج بن عمرو إلى عمر بن الخطاب وقت الظهيرة ليدعوه، فدخل فرأى عمر بحالة كره عمر رؤيته عند ذلك فأنزل الله هذه الآية وقيل: نزلت في أسماء بنت مرثد كان لها غلام كبير فدخل عليها في وقت كرهته فأتت رسول الله ﷺ فقالت إن خدمنا

يقتتلون بعد أن كانوا إخواناً. أخبرنا أبو المظفر محمد بن أحمد النعيمي أنا أبو محمد عبد الرحمن بن عثمان بن القاسم المعروف بابن نصر أنا أبو الحسن خيثمة بن سليمان بن حيدرة المعروف بالطرابلسي أنا إسحاق بن إبراهيم بن عبّاد عن عبد الرزّاق عن معمر عن أيوب عن حميد بن هلال قال: قال عبد الله بن سلام في عثمان: إن الملائكة لم تزل محيطة بمدينتكم هذه منذ قَدِمَها رسول الله ﷺ حتى اليوم، فوالله لئن قتلتموه ليذهبون ثم لا يعودون أبداً، فوالله لا يقتلنّه رجل منكم إلاّ لقي الله أجذم لا يَدَ لهُ، وإن سيف الله لم يزل مغموداً عنكم، والله لئن قتلتموه ليسلنّه الله ثم لا يغمده عنكم، إما قال أبداً وإما قال إلى يوم القيامة، فما قتل نبيّ قطّ إلاّ قتل به سبعون ألفاً ولا خليفة إلا قتل به خمسة وثلاثون ألفاً.

قوله تعالى: ﴿ **وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الرسول لعلّكم تُرحَمون** ﴾، أي افعلوها على رجاء الرحمة.

﴿ **لا تحسبنّ الذين كفروا** ﴾، قرأ عامر وحمزة (لا يحسبنّ) بالياء أي لا يحسبنّ الذين كفروا أنفسهم، ﴿ **مُعجزين في الأرض** ﴾، وقرأ الآخرون بالتاء يقول لا تحسبنّ يا محمد الذين كفروا مُعجِزين فائتين عنّا، ﴿ **ومأواهم النار ولبئس المصير** ﴾.

قوله تعالى: ﴿ **يا أيّها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم** ﴾، الآية. قال ابن عباس رضي الله عنهما وجّه رسول الله ﷺ غلاماً من الأنصار يُقال له مدلج بن عمرو إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه وقت الظهيرة

وغلماننا يدخلون علينا في حال نكرهها، فأنزل الله تعالى ﴿**يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم**﴾ واللام لام الأمر وفيه قولان أحدهما: أنه على الندب والاستحباب والثاني: أنه على الوجوب وهو الأولى الذين ملكت أيمانكم يعني العبيد والإماء ﴿**والذين لم يبلغوا الحلم منكم**﴾ يعني الأحرار وليس المراد منهم الذين لم يظهروا على عورات النساء، بل المراد الذين عرفوا أمر النساء ولكنهم لم يبلغوا الحلم وهو سن التمييز والعقل وغيرهما، واتفق العلماء على أن الاحتلام بلوغ واختلفوا فيما إذا بلغ خمس عشرة سنة، ولم يحتلم فقال أبو حنيفة لا يكون بالغاً حتى يبلغ ثمان عشرة سنة ويستكملها والجارية سبع عشرة سنة وقال الشافعي وأبو يوسف ومحمد وأحمد في الغلام والجارية بخمسة عشرة سنة يصير مكلفاً، وتجري عليه الأحكام وإن لم يحتلم ﴿**ثلاث مرات**﴾ أي ليستأذنوا في ثلاثة أوقات ﴿**من قبل صلاة الفجر وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة**﴾ أي وقت المقيل ﴿**ومن بعد صلاة العشاء**﴾ وإنما خص هذه الثلاثة الأوقات، لأنها ساعات الخلوات ووضع الثياب، فربما يبدو من الإنسان ما لا يجوز أن يراه أحد من العبيد والصبيان، فأمرهم بالاستئذان في هذه الأوقات وغير العبيد والصبيان يستأذن في جميع الأوقات ﴿**ثلاث عورات لكم**﴾ سميت هذه الأوقات عورات لأن الإنسان يضع فيها ثيابه فتبدو عورته ﴿**ليس عليكم ولا عليهم**﴾ يعني العبيد والخدم والصبيان ﴿**جناح**﴾ أي حرج في الدخول عليكم بغير استئذان ﴿**بعدهن**﴾ أي بعد هذه الأوقات الثلاثة ﴿**طوافون عليكم**﴾ أي العبيد والخدم يترددون ويدخلون ويخرجون في أشغالكم بغير إذن ﴿**بعضكم على بعض**﴾ أي يطوف بعضكم على بعض ﴿**كذلك يبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم**﴾ اختلف العلماء في حكم هذه الآية فقيل: إنها منسوخة حكي ذلك عن سعيد بن المسيب، روى عكرمة أن نفراً من أهل العراق قالوا يا ابن العباس كيف ترى في هذه الآية التي أمرنا بها، ولا يعمل بها أحد قول الله عزّ وجلّ ﴿**يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم**﴾ الآية فقال ابن عباس: إن الله حليم رحيم بالمؤمنين يحب الستر وكان الناس ليس لبيوتهم ستور ولا حجاب فربما دخل الخدم أو الولد أو يتيم الرجل والرجل على أهله فأمرهم الله بالاستئذان في تلك العورات، فجاءهم الله بالستور والخير» فلم أر أحداً يعمل بذلك بعد. أخرجه أبو داود في رواية عنه نحوه وزاد فرأيي أن ذلك أغنى عن الاستئذان في تلك العورات، وذهب قوم إلى أنها غير منسوخة روى سفيان عن موسى بن أبي عائشة قال: «سألت الشعبي عن هذه

ليدعوه، فدخل فرأى عمر بحالة رؤيته ذلك فأنزل الله هذه الآية. وقال مقاتل: نزلت في أسماء بنت مرثد كان لها غلام كبير فدخل عليها في وقت كرهته، فأتت رسول الله ﷺ فقالت: إن خدمنا وغلماننا يدخلون علينا في حال نكرهها، فأنزل الله تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم**﴾ اللام لام الأمر ﴿**الذين ملكت أيمانكم**﴾ يعني العبيد والإماء، ﴿**والذين لم يبلغوا الحلم منكم**﴾، من الأحرار، ليس المراد منهم الأطفال الذين لم يظهروا على عورات النساء، بل الذين عرفوا أمر النساء ولكن لم يبلغوا. ﴿**ثلاثَ مراتٍ**﴾، أي ليستأذنوا في ثلاث أوقات، ﴿**من قبل صلاة الفجر وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة**﴾، يريد المقيل، ﴿**ومن بعد صلاة العشاء**﴾، وإنما خصّ هذه الأوقات لأنها ساعات الخلوة ووضع الثياب فربما يبدو من الإنسان ما لا يحبّ أن يراه أحد، أمر العبيد والصبيان بالاستئذان في هذه الأوقات، وأما غيرهم فليستأذنوا في جميع الأوقات ﴿**ثلاثُ عورات لكم**﴾، قرأ حمزة والكسائي ﴿**ثلاث**﴾ بنصب الثاء بدلاً من قوله: ﴿**ثلاثَ مرات**﴾، وقرأ الآخرون بالرفع، أي هذه **الأوقات ثلاث** عورات لكم، سُمّيت هذه الأوقات عورات لأن الإنسان يضع فيها ثيابه فتبدو عورته، ﴿**ليس عليكم**﴾، جناح، ﴿**ولا عليهم**﴾، على العبيد والخدم والصبيان، ﴿**جُناح**﴾، في الدخول عليكم من غير استئذان، ﴿**بعدهنّ**﴾، أي بعد هذه الأوقات الثلاثة، ﴿**طوّافون عليكم**﴾، أي: العبيد والخدم يطوفون عليكم فيتردّدون ويدخلون ويخرجون في أشغالهم بغير إذن، ﴿**بعضكم على بعض**﴾ أي يطوف ﴿**بعضكم على بعض كذلك يبيّن الله لكم الآيات والله عليم حكيم**﴾، واختلف العلماء في حكم هذه الآية، فقال قوم: منسوخ. قال ابن عباس رضي الله

الآية ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم أمنسوخة هي؟ قال: لا والله قلت إن الناس لا يعملون بها قال الله تعالى المستعان وقال سعيد بن جبير في هذه الآية أن ناساً يقولون: نسخت والله ما نسخت ولكنها مما تهاون به الناس قيل ثلاث آيات ترك الناس العمل بهن هذه الآية وقوله ﴿**إن أكرمكم عند الله أتقاكم**﴾ والناس يقولون أعظمكم بيتاً ﴿**وإذا حضر القسمة أولو القربى**﴾ الآية. وقوله عزّ وجلّ:

وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾ وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ ۖ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٠﴾ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ۚ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾

﴿**وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم**﴾ أي ا لاحتلام يريد الأحرار الذين بلغوا ﴿**فليستأذنوا**﴾ أي يستأذنوا في جميع الأوقات في الدخول عليكم ﴿**كما استأذن الذين من قبلهم**﴾ أي الأحرار الكبار ﴿**كذلك يبين الله لكم آياته**﴾ أي دلالته وقيل أحكامه ﴿**والله عليم**﴾ أي بأمور خلقه ﴿**حكيم**﴾ بما دبر وشرع قال سعيد بن المسيب: يستأذن الرجل على أمه فإنما أنزلت هذه الآية في ذلك، وسئل حذيفة أيستأذن الرجل على والدته قال نعم إن لم تفعل رأيت منها ما تكره قوله ﴿**والقواعد من النساء**﴾ يعني اللاتي قعدن عن الحيض والولد من الكبر فلا يلدن ولا يحضن ﴿**اللاتي لا يرجون**

عنه: لم يكن للقوم ستور ولا حجاب، فكان الخدم والولائد يدخلون فربما يرون منهم ما لا يحبّون، فأُمِروا بالاستئذان، وقد بسط الله الرزق واتخذ الناس الستور فرأى أن ذلك أغنى عن الاستئذان، وذهب قوم إلى أنها غير منسوخة، روى سفيان عن موسى بن عائشة قالت: سألت الشعبي عن هذه الآية ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم أمنسوخة هي؟ قال: لا والله، قلت: إن الناس لا يعملون بها، قال: الله المُستعان. وقال سعيد بن جبير في هذه الآية: أن ناساً يقولون نسخت والله ما نسخت، ولكنها مما تهاون به الناس.

قوله تعالى: ﴿ **وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم** ﴾ أي: الاحتلام يريد الأحرار الذين بلغوا، ﴿ **فليستأذنوا** ﴾، أي يستأذنون في جميع الأوقات في الدخول عليكم، ﴿ **كما استأذن الذين من قبلهم** ﴾، من الأحرار والكبار. وقيل: يعني الذين كانوا مع إبراهيم وموسى وعيسى، ﴿ **كذلك يبيّن الله لكم آياته** ﴾، دلالاته. وقيل: أحكامه، ﴿ **والله عليم** ﴾، بأمور خلقه، ﴿ **حكيم** ﴾، بما دَبَّر لهم. قال سعيد بن المسيب: يستأذن الرجل على أمه فإنما أنزلت هذه الآية في ذلك. وسُئِلَ حذيفة أيستأذن الرجل على والدته؟ قال: نعم إن لم يفعل رأى منها ما يكره.

قوله تعالى: ﴿ **والقواعدُ من النساء** ﴾، يعني اللاتي قعدن على الولد والحيض من الكِبَر لا يلدن ولا يحضن، واحدتها قاعد بلا هاء. وقيل: قعدن عن الأزواج، وهذا معنى قوله: ﴿ **اللاتي لا يرجون نكاحاً** ﴾، أي لا يردن الرجال لكبرهنّ، قال ابن قتيبة: سُمّيت المرأة قاعداً إذا كبرت لأنها تكثر القعود. وقال ربيعة الرأي: هنّ

نكاحاً﴾ أي لا يردن الأزواج لكبرهن، وقيل: هن العجائز اللواتي إذا رآهن الرجال استقذروهن فأما من كانت فيها بقية جمال وهي محل الشهوة فلا تدخل في حكم هذه الآية ﴿فليس عليهن جناح أن يضعن ثيابهن﴾ أي عند الرجال والمعنى بعض ثيابهن وهو الجلباب والرداء الذي فوق الثياب، والقناع الذي فوق الخمار فأما الخمار فلا يجوز وضعه ﴿غير متبرجات بزينة﴾ أي من غير أن يردن بوضع الجلباب والرداء إظهار زينتهن. والتبرج هو أن تظهر المرأة من محاسنها ما يجب عليها أن تستره ﴿وأن يستعففن﴾ أي فلا يلقين الجلباب ولا الرداء ﴿خير لهن والله سميع عليم﴾ قوله عز وجل ﴿ليس على الأعمى حرج﴾ اختلف العلماء في هذه الآية فقال ابن عباس: لما أنزل الله ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل﴾ تحرج المسلمون عن مؤاكلة المرضى، والزمنى والعمى والعرج وقالوا الطعام أفضل الأموال وقد نهانا الله عز وجل عن أكل الأموال بالباطل، والأعمى لا يبصر موضع الطعام الطيب والأعرج لا يتمكن من الجلوس، ولا يستطيع المزاحمة على الطعام والمريض يضعف عن التناول فلا يستوفي من الطعام حقه فأنزل الله هذه الآية فعلى هذا التأويل يكون على بمعنى في أي ليس في الأعمى، والمعنى ليس عليكم في مؤاكلة الأعمى والمريض والأعرج حرج وقيل كان العميان والعرجان والمرضى يتنزهون عن مؤاكلة الأصحاء لأن الناس يقذرونهم ويكرهون مؤاكلتهم، وكان الأعمى يقول ربما آكل أكثر من ذلك ويقول الأعرج والأعمى ربما أجلس مكان اثنين فنزلت هذه الآية، وقيل: نزلت ترخيصاً لهؤلاء في الأكل من بيوت من سماهم الله في باقي الآية، وذلك أن هؤلاء كانوا يدخلون على الرجل في طلب الطعام فإذا لم يكن عنده شيء، ذهب بهم إلى بيت أبيه أو بيت أمه أو بعض من سمى الله تعالى

العُجّز اللائي إذا رأوهنّ الرجال استقذروهنّ، فأما مَن كانت فيها بقية من جمال وهي محل الشهوة فلا تدخل في هذه الآية، ﴿ فليس عليهنّ جناح أن يضعن ثيابهنّ ﴾، عند الرجال، يعني يضعن بعض ثيابهنّ، وهي الجلباب والرداء الذي فوق الثياب، والقناع الذي فوق الخمار، فأما الخمار فلا يجوز وضعه، وفي قراءة ابن مسعود رضي الله عنه وأُبيّ بن كعب ﴿ أن يضعن من ثيابهنّ ﴾، ﴿ غيرَ مُتبرجات بزينة ﴾، أي من غير أن يردن بوضع الجلباب، والرداء إظهار زينتهنّ، والتبرّج هو أن تُظهِر المرأة من محاسنها ما ينبغي لها أن تتنزّه عنه. ﴿ وأن يستعففن ﴾، فلا يلقين الجلباب والرداء، ﴿ خيرٌ لهنّ والله سميع عليم ﴾.

قوله تعالى: ﴿ ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج ﴾ الآية، اختلف العلماء في هذه الآية، فقال ابن عباس رضي الله عنهما لمّا أنزل الله عزّ وجلّ قوله: ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل ﴾ [البقرة: ١٨٨، النساء: ٢٩] تحرّج المسلمون عن مؤاكلة المرضى والزَّمِنَ والعُمي، وقالوا الطعام أفضل الأموال، وقد نهانَا الله عن أكل المال بالباطل. والأعمى لا يُبصِر موضع الطعام الطيب، والأعرج لا يتمكّن من الجلوس ولا يستطيع المزاحمة على الطعام، والمريض يضعف عن التناول فلا يستوفي الطعام، فأنزل الله هذه الآية، وعلى هذا التأويل يكون ﴿على﴾ بمعنى في، أي ليس في الأعمى يعني ليس عليكم في مؤاكلة الأعمى والأعرج والمريض. وقال سعيد بن جبير والضحّاك وغيرهما كان العرجان والعميان والمرضى يتنزّهون عن مؤاكلة الأصحاء لأن الناس يتقذرون منهم ويكرهون مؤاكلتهم، ويقول الأعمى ربما أكل أكثر، ويقول الأعرج ربما أخذ مكان الاثنين، فنزلت هذه الآية. وقال مجاهد نزلت الآية ترخّصاً لهؤلاء في الأكل من بيوت مَن سمّى الله في هذه الآية، وذلك أن هؤلاء كانوا يدخلون على الرجل لطلب الطعام فإذا لم يكن عنده ما يطعمهم ذهب بهم إلى بيوت آبائهم وأُمهاتهم أو بعض مَن سمّى الله في هذه الآية، فكان أهل الزمانة يتحرّجون من ذلك الطعام ويقولون أذهب بنا إلى بيت غيره؟ فأنزل الله هذه الآية. وقال سعيد بن المسيب: كان المسلمون إذا غزوا خلفوا زَمْناهم ويدفعون إليهم مفاتيح أبوابهم ويقولون قد أحللنا لكم أن تأكلوا مما في بيوتنا، فكانوا يتحرّجون من ذلك

فكان أهل الزمانة يتحرجون من ذلك، ويقولون ذهب بنا إلى غير بيته فأنزل الله هذا الآية وقيل: كان المسلمون إذا غزوا دفعوا مفاتيح بيوتهم إلى الزمنى ويقولون لهم قد أحللنا لكم أن تأكلوا مما في بيوتنا، فكانوا يتحرجون من ذلك ويقولون لا ندخلها وأصحابها غيب فأنزل الله هذه الآية رخصة لهم وقيل نزلت رخصة لهؤلاء في التخلف عن الجهاد فعلى هذا تم الكلام عند قوله **﴿ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج﴾** وقوله تعالى **﴿ولا على أنفسكم﴾** كلام مستأنف قيل لما نزلت **﴿ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل﴾** قالوا: لا يحل لأحد منا أن يأكل من أحد فأنزل الله تعالى **﴿ولا على أنفسكم﴾** **﴿أن تأكلوا من بيوتكم﴾** أي لا حرج عليكم أن تأكلوا من بيوتكم، قيل أراد من أموال عيالكم وبيوت أزواجكم لأن بيت المرأة كبيت الزوج، وقيل بيوت أولادكم ونسب بيوت الأولاد إلى الآباء لما جاء في الحديث «أنت ومالك لأبيك» **﴿أو بيوت آبائكم أو بيوت أمهاتكم أو بيوت إخوانكم أو بيوت أخواتكم أو بيوت أعمامكم أو بيوت عماتكم أو بيوت أخوالكم أو بيوت خالاتكم أو ما ملكتم مفاتحه﴾** قال ابن عباس: عني بذلك وكيل الرجل وقيمه في ضيعته وماشيته لا بأس عليه أن يأكل من ثمرة ضيعته، ويشرب من لبن ماشيته ولا يحمل ولا يدخر، وقيل يعني بيوت عبيدكم ومماليككم، وذلك أن السيد يملك منزل عبده، والمفاتح الخزائن ويجوز أن يكون المفتاح الذي يفتح به، وإذا ملك الرجل المفتاح فهو خازن فلا بأس أن يأكل الشيء اليسير، وقيل: ما ملكتم مفاتحه أي ما خزنتموه عندكم وما ملكتموه **﴿أو صديقكم﴾** الصديق هو الذي صدقك في المودة؛ قال ابن عباس نزلت في الحارث بن عمرو خرج غازياً مع رسول الله ﷺ وخلف مالك بن زيد على أهله، فلما رجع وجده مجهوداً فسأله عن

ويقولون لا ندخلها وهم غُيّب، فأنزل الله هذه الآية رخصة لهم. قال الحسن: نزلت هذه الآية رخصة لهؤلاء في التخلّف عن الجهاد. قال: تمّ الكلام عند قوله: ﴿ **ولا على المريض حرج** ﴾، وقوله تعالى: ﴿ **ولا على أنفسكم** ﴾ كلام منقطع عمّا قبله. وقيل: لمّا نزل قوله: ﴿ لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل ﴾ [البقرة: ١٨٨، النساء: ٢٩] قالوا: لا يحلّ لأحد منّا أن يأكل عند أحد، فأنزل الله عزّ وجلّ ﴿ **ولا على أنفسكم أن تأكلوا من بيوتكم** ﴾، أي لا حرج عليكم أن تأكلوا من بيوتكم. قيل: أراد من أموال عيالكم وأزواجكم، وبيت المرأة كبيت الزوج. وقال ابن قتيبة: أراد من بيوت أولادكم نسب الأولاد إلى الآباء، كما جاء في الحديث: «أنت ومالك لأبيك»، ﴿ **أو بيوت آبائكم أو بيوت أمهاتكم أو بيوت أخوانكم أو بيوت أخواتكم أو بيوت أعمامكم أو بيوت عمّاتكم أو بيوت أخوالكم أو بيوت خالاتكم أو ما ملكتم مفاتحه** ﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما: عنى بذلك وكيل الرجل وقيّمه في ضيعته وماشيته، لا بأس عليه أن يأكل من ثمر ضيعتـه ويشرب من آن ماشيته، ولا يحمل ولا يدّخر. وقال الضحاك: يعني في بيوت عبيدكم ومماليككم، وذلك أن السيد يملك منزل عبده والمفاتيح الخزائن، لقوله تعـالى: ﴿ وعنده مفاتح الغيب ﴾ [الأنعام: ٥٩] ويجوز أن يكون الذي يفتح به. قال عكرمة: إذا ملك الرجل المفتاح فهو خازن، فلا بأس أن يطعم الشيء اليسير. وقال السدي: الرجل يولي طعامه غيره يقوم عليه فلا بأس أن يأكل منه. وقال قوم وما ملكتم مفاتحه ما خزنتموه عندكم. قال مجاهد وقتادة: من بيوت أنفسكم مما أحرزتم وملكتم، ﴿ **أو صديقكم** ﴾، الصديق الذي صدقك في المودّة. قال ابن عباس: نزلت في الحارث بن عمرو رضي الله عنه خرج غازياً مع رسول الله ﷺ وخلف مالك بن زيد على أهله. فلما رجع وجده مجهوداً فسأله عن حاله فقال تحرّجت أن آكل طعامك بغير إذنك فأنزل الله هذه الآيـة. وكان الحسن وقتـادة يريـان دخول الـرجل بيت صديقه والتحـرم بطعامه من غير استئذان منه في الأكل بهذه الآية، والمعنى ﴿ **ليس عليكم جناح أن تأكلوا** ﴾، من منازل هؤلاء إذا دخلتموها وإن لم يحضروا، من غير أن تتزوّدوا وتحملوا. قوله: ﴿ **ليس عليكم جناح أن تأكلوا جميعاً أو أشتاتاً** ﴾، نزلت في بني ليث بكر بن عمرو، وهم حيّ من بني كنانة كان الرجل منهم لا يأكل وحده حتى

حاله فقال: تحرجت أن آكل من طعامك بغير إذنك فأنزل الله تعالى هذه الآية، والمعنى أنه ليس عليكم جناح أن تأكلوا من منازل هؤلاء إذا دخلتموها وإن لم يحضروا من غير أن تتزودوا وتحملوا ﴿**ليس عليكم جناح أن تأكلوا جميعاً أو أشتاتاً**﴾ نزلت في بني ليث بن عمرو، وهم حي من كنانة كان الرجل منهم لا يأكل وحده حتى يجد ضيفاً يأكل معه فربما قعد الرجل والطعام بين يديه من الصباح إلى الرواح، ربما كانت معه الإبل الحفل فلا يشرب من ألبانها حتى يأتي من يشاربه، فإذا أمسى ولم يجد أحداً أكل وقال ابن عباس: كان الغني يدخل على الفقير من ذوي قرابته وصداقته فيدعوه إلى طعامه فيقول: والله إني لأجنح أي أتحرج أن آكل معك، وأنا غني وأنت فقير فنزلت هذه الآية وقيل: نزلت في قوم من الأنصار كانوا لا يأكلون إذا أنزل بهم ضيف إلا مع ضيفهم، فرخص لهم أن يأكلوا كيف شاؤوا جميعاً، أي مجتمعين أو أشتاتاً أي متفرقين ﴿**فإذا دخلتم بيوتاً فسلموا على أنفسكم**﴾ أي ليسلم بعضكم على بعض هذا في دخول الرجل بيت نفسه يسلم على أهله، ومن في بيته قال قتادة: إذا دخلت بيتك فسلم على أهلك فهم أحق من سلمت عليه، وإذا دخلت بيتاً ليس فيه أحد فقل السلام علينا، وعلى عباد الله الصالحين السلام على أهل البيت ورحمة الله وبركاته، حدثنا أن الملائكة ترد عليه وقال ابن عباس إذا لم يكن في البيت أحد، فليقل السلام علينا من ربنا السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين السلام على أهل البيت ورحمة الله وبركاته وعن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿**فإذا دخلتم بيوتاً فسلموا على أنفسكم**﴾ قال: إذا دخلت المسجد فقل السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ﴿**تحية من عند الله مباركة طيبة**﴾ قال ابن عباس حسنة جميلة وقيل ذكر البركة والطيب ها هنا لما فيه من الثواب والأجر ﴿**كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تعقلون**﴾ أي عن الله أمره ونهيه وآدابه. قوله عز وجل:

إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾ لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ

يجد ضيفاً يأكل معه، فربما قعد الرجل والطعام بين يديه من الصباح إلى الرواح، وربما كانت معه الإبل الحفل فلا يشرب من ألبانها حتى يجد مَن يُشاربه، فإذا أمسى ولم يجد أحداً أكل، هذا قول قتادة والضحاك وابن جريج، وقال عطاء الخراساني عن ابن عباس رضي الله عنهما: كان الغني يدخل على الفقير من ذوي قرابته وصداقته فيدعوه إلى طعامه، فيقول: والله إنّي لأجنح أي أتحرّج أن آكل معك وأنا غني وأنت فقير، فنزلت هذه الآية. وقال عكرمة وأبو صالح: نزلت في قوم من الأنصار كانوا لا يأكلون إذا نزل بهم ضيف إلّا مع ضيفهم، فرخّص لهم أن يأكلوا كيف شاؤوا جميعاً أو أشتاتاً متفرقين، ﴿ **فإذا دخلتم بيوتاً فسلّموا على أنفسكم** ﴾، أي يسلّم بعضكم على بعض، هذا في دخول الرجل ببيت نفسه يسلّم على أهله ومَن في بيته، وهو قول جابر وطاوس والزهري وقتادة والضحاك وعمرو بن دينار، وقال قتادة: إذا دخلت بيتك فسلّم على أهلك فهو أحق مَن سلّمت عليه، وإذا دخلت بيتاً لا أحد فيه فقل السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين. حُدِّثنا أن الملائكة تردّ عليه. وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: إن لم يكن في البيت أحد فليقل السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، السلام على أهل البيت ورحمة الله. وروى عمرو بن دينار عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿ **فإذا دخلتم بيوتاً فسلّموا على أنفسكم** ﴾ قال: إذا دخلت المسجد فقل السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين. ﴿ **تحيةً من عند الله** ﴾، نصب على المصدر أي تحيّون تحية، ﴿ **مباركةً طيبةً** ﴾، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: حسنة جميلة. وقيل: ذكر البركة والطيبة ههنا لما فيه من الثواب والأجر. ﴿ **كذلك يبيّن الله لكم الآيات لعلّكم تعقلون** ﴾.

﴿يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾

﴿إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله وإذا كانوا معه﴾ أي مع رسول الله ﷺ ﴿على أمر جامع﴾ أي يجمعهم من حرب أو صلاة حضرت، أو جمعة أو عيد أو جماعة أو تشاور في أمر نزل ﴿لم يذهبوا﴾ أي لم يتفرقوا عنه ولم ينصرفوا عما اجتمعوا له ﴿حتى يستأذنوه﴾ قال المفسرون «وكان رسول الله ﷺ إذا صعد المنبر يوم الجمعة، وأراد الرجل أن يخرج من المسجد لحاجة أو عذر لم يخرج حتى يقوم بحيال رسول الله ﷺ، بحيث يراه فيعرف أنه إنما قام ليستأذن فيأذن لمن شاء منهم» قال مجاهد: وإذن الإمام يوم الجمعة أن يشير بيده قال أهل العلم وكذلك كل أمر اجتمع عليه المسلمون مع الإمام لا يخالفونه، ولا يرجعون عنه إلا بإذن وإذا استأذن الإمام إن شاء أذن له وإن شاء لم يأذن وهذا إذا لم يكن حدث سبب يمنعه من المقام فإن حدث سبب يمنعه من المقام، بأن يكون في المسجد فتحيض امرأة منهم أو يجنب رجل أو يعرض له مرض فلا يحتاج إلى الاستئذان ﴿إن الذين يستأذنونك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله فإذا استأذنوك لبعض شأنهم﴾ أي أمرهم ﴿فأذن لمن شئت منهم﴾ أي في الانصراف والمعنى إن شئت فأذن إن شئت فلا تأذن ﴿واستغفر لهم الله﴾ أي إن رأيت لهم عذراً في الخروج عن الجماعة ﴿إن الله غفور رحيم﴾ قوله عز وجل ﴿لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: يقول احذروا دعاء الرسول إذا أسخطتموه فإن دعاءه موجب ليس كدعاء غيره وقيل معناه لا تدعوه باسمه، كما يدعو بعضكم بعضاً يا محمد يا عبدالله، ولكن فخموه وعظموه وشرفوه وقولوا يا نبيّ الله يا رسول الله في لين وتواضع ﴿قد يعلم الله الذين يتسللون﴾ أي يخرجون ﴿منكم لواذاً﴾ أي يستتر بعضهم ببعض ويروغ في خفية فيذهب قيل كانوا في حفر الخندق

﴿ إنّما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله وإذا كانوا معه ﴾، أي مع رسول الله ﷺ، ﴿ على أمرٍ جامعٍ ﴾، يجمعهم من حرب حضرت أو صلاة أو جمعة أو عيد أو جماعة أو تشاور في أمر نزل، ﴿ لم يذهبوا ﴾، لم يتفرقوا عنه لم ينصرفوا عمّا اجتمعوا له من الأمر، ﴿ حتى يستأذنوه ﴾، قال المفسّرون: كان رسول الله ﷺ إذا صعد المنبر يوم الجمعة وأراد الرجل أن يخرج من المسجد لحاجة أو عذر لم يخرج حتى يقوم بحيال رسول الله ﷺ حيث يراه فيعرف أنه إنما قام يستأذن، فيأذن لمَن شاء منهم، قال مجاهد: وإذْنُ الإمام يوم الجمعة أن يشير بيده. قال أهل العلم: وكذلك كل أمر اجتمع عليه المسلمون مع الإمام لا يخالفونه ولا يرجعون عنه إلاّ بإذن، وإذا استأذن فللإمام إن شاء أذن له وإن شاء لم يأذن، وهذا إذا لم يكن له سبب يمنعه من المقام، فإن حدث سبب يمنعه من المقام بأن يكون في المسجد فتحيض منهم امرأة أو يجنب رجل أو يعرض له مرض فلا يحتاج إلى الاستئذان. ﴿ إنّ الذين يستأذنونك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله فإذا استأذنوك لبعض شأنهم ﴾، أي أمرهم، ﴿ فأذن لمَن شئت منهم ﴾، في الانصراف، معناه إن شئت فأذن وإن شئت فلا تأذن، ﴿ واستغفر لهمُ اللَّهَ إنّ الله غفور رحيم ﴾.

﴿ لا تجعلوا دُعاءَ الرسولِ بينكم كدُعَاءِ بعضكم بعضاً ﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما: يقول احذروا دعاء الرسول عليكم إذا أسخطتموه فإن دعاءه موجب لنزول البلاء بكم ليس كدعاء غيره. وقال مجاهد وقتادة: لا تدعوه باسمه كما يدعو بعضكم بعضاً يا محمد يا عبد الله ولكن فَخِّمُوه وشرِّفوه، فقولوا: يا نبيّ الله يا رسول الله في لِيْنٍ وتواضع، ﴿ قد يعلم اللَّهُ الذين يتسلّلون ﴾، أي: يخرجون ﴿ مِنْكُم لِوَاذاً ﴾، أي يستر بعضكم بعضاً ويروغ في خيفة، فيذهب، واللواذ مصدر لَاوَذَ يُلَاوِذُ مُلَاوَذَةً، ولواذاً، قيل: كان هذا في حفر الخندق فكان المنافقون ينصرفون عن رسول الله ﷺ مختفين، قال ابن عباس رضي الله عنهما: لواذاً أي يلوذ بعضهم ببعض، وذلك أن

فكان المنافقون ينصرفون عن رسول الله ﷺ مختفين وقال ابن عباس لواذاً أي يلوذ بعضهم ببعض، وذلك أن المنافقين كان يثقل عليهم المقام في المسجد يوم الجمعة واستماع خطبة النبيّ ﷺ فكانوا يلوذون ببعض أصحابه، فيخرجون من المسجد في استتار وقوله قد يعلم فيه التهديد بالمجازاة ﴿**فليحذر الذين يخالفون عن أمره**﴾ أي يعرضون عن أمره وينصرفون عنه بغير إذنه ﴿**أن تصيبهم فتنة**﴾ أي لئلا تصيبهم فتنة أي بلاء في الدنيا ﴿**أو يصيبهم عذاب أليم**﴾ أي وجيع في الآخرة، ثم عظم الله نفسه فقال تعالى:

أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٦٤﴾

﴿**ألا إن لله ما في السموات والأرض**﴾ أي ملكاً وعبيداً ﴿**قد يعلم ما أنتم عليه**﴾ أي من الإيمان والنفاق ﴿**ويوم يرجعون إليه**﴾ يعني يوم القيامة ﴿**فينبئهم بما عملوا**﴾ أي من الخير والشر ﴿**والله بكل شيء عليم**﴾ عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت قال رسول الله ﷺ «لا تنزلوا النساء الغرف، ولا تعلموهن الكتابة وعلموهن الغزل وسورة النور» أخرجه أبو عبدالله بن السبع في صحيحه والله سبحانه وتعالى أعلم.

المنافقين كان يثقل عليهم المقام في المسجد يوم الجمعة واستماع خطبة النبي ﷺ فكانوا يلوذون ببعض أصحابه فيخرجون من المسجد في استتار، ومعنى قوله: ﴿ قد يعلم الله ﴾ للتهديد بالمجازاة، ﴿ فليحذرِ الذين يُخالفون عن أمره ﴾، أي أمره، و﴿ عن ﴾ صلة. وقيل: معناه يُعرضون عن أمره وينصرفون عنه بغير إذنه. ﴿ أن تصيبهم فتنة ﴾ أي لئلا تصيبهم فتنة، قال مجاهد: بلاء في الدنيا، ﴿ أو يصيبهم عذاب أليم ﴾، وجيع في الآخرة. وقيل: عذاب أليم عاجل في الدنيا. ثم عظّم نفسه.

فقال: ﴿ ألَا إنّ لله ما في السمٰوات والأرض﴾، ملكاً وعبيداً، ﴿ قد يعلم ما أنتم عليه ﴾، من الإيمان والنفاق أي يعلم، و﴿ قد ﴾ صلة ﴿ ويوم يرجعون إليه ﴾، يعني يوم البعث، ﴿ فينبئهم بما عملوا ﴾، من الخير والشرّ، ﴿ والله بكل شيء عليم ﴾. أخبرنا أبو سعيد الشريحي أنا أبو إسحق الثعلبي أخبرني الحسين بن محمد بن فنجويه حدّثنا عبد الله بن محمد بن شيبة حدّثنا محمد بن إبراهيم الكرابيسي حدّثنا سليمان بن توبة حدّثنا أبو داود الأنصاري أنا محمد بن إبراهيم الشامي ثنا شعيب بن إسحاق عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «لا تُنزلوا النساء الغرف، ولا تعلّموهنّ الكتابة وعلّموهنّ الغزلَ، وسورة النور».

تفسير سورة الفرقان

مكية وهي سبع وسبعون آية وثمانمائة واثنتان وتسعون كلمة وثلاثة آلاف وسبعمائة وثلاثون حرفاً

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾

قوله عزّ وجلّ ﴿**تبارك**﴾ تفاعل من البركة قيل: معناه جاء بكل بركة وخير وقيل معناه تعظم ﴿**الذي نزل الفرقان**﴾ أي القرآن سماه فرقاناً لأنه فرق بين الحق، والباطل والحلال والحرام وقيل لأنه نزل مفرقاً في أوقات كثيرة ولهذا قال نزل بالتشديد لتكثير التفريق ﴿**على عبده**﴾ يعني محمداً ﷺ ﴿**ليكون للعالمين**﴾ أي للإنس والجن ﴿**نذيراً**﴾ قيل هو القرآن وقيل النذير هو محمد ﷺ ﴿**الذي له ملك السموات والأرض**﴾ أي هو المتصرف فيهما كيف يشاء ﴿**ولم يتخذ ولداً**﴾ أي هو الفرد في وحدانيته، وفيه رد على النصارى ﴿**ولم يكن له شريك في الملك**﴾ يعني هو المنفرد بالإلهية، وفيه رد على الثنوية وعباد الأصنام ﴿**وخلق كل شيء**﴾ مما تطلق عليه صفة المخلوق ﴿**فقدره تقديراً**﴾ أي سواه وهيأه لما يصلح له لا خلل فيه ولا تفاوت، وقيل: قدر كل شيء تقديراً من الأجل والرزق فجرت المقادير على ما خلق. قوله تعالى:

وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ

سُورَة الفُرْقَانْ

مكية وهي سبع وسبعون آية.

﴿ **تبارك** ﴾، تفاعل، من البركة، عن ابن عباس: معناه جاء بكل بركة، دليله قول الحسن: مجيء البركة من قبله. وقال الضحاك: تعظم، ﴿ **الذي نَزَّلَ الفرقانَ** ﴾، أي القرآن، ﴿ **على عبده** ﴾، محمد ﷺ. ﴿ **ليكون للعالمين نذيراً** ﴾، أي: للجن والإنس. قيل: النذير هو القرآن. وقيل: محمد ﷺ.

﴿ **الذي له مُلكُ السمواتِ والأرض ولم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في المُلْك وخلق كلِ شيء** ﴾، مما يطلق عليه صفة المخلوق، ﴿ **فقدّره تقديراً** ﴾، فسوّاه وهيّأه لِما يصلح له لا خلل فيه ولا تفاوت، وقيل: قدّر لكل شيء تقديراً من الأجل والرزق، فجرت المقادير على ما خلق. قوله عزّ وجلّ:

فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾ وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾

﴿واتخذوا﴾ يعني عبدة الأوثان ﴿من دونه آلهة﴾ يعني الأصنام ﴿لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون ولا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً﴾ يعني دفع ضر ولا جر نفع ﴿ولا يملكون موتاً﴾ أي إماتة ﴿ولا حياة﴾ أي إحياء ﴿ولا نشوراً﴾ أي بعثاً بعد الموت ﴿وقال الذين كفروا﴾ يعني النضر بن الحارث وأصحابه ﴿إن هذا﴾ أي ما هذا القرآن ﴿إلا إفك﴾ أي كذب ﴿افتراه﴾ أي اختلقه محمد ﷺ ﴿وأعانه عليه قوم آخرون﴾ قيل: هم اليهود وقيل عبيد بن الخضر الحبشي الكاهن، وقيل جبر ويسار وعداس بن عبيد كانوا بمكة من أهل الكتاب، فزعم المشركون أن محمداً ﷺ يأخذ منهم قال الله تعالى ﴿فقد جاؤوا﴾ يعني قائلي هذه المقالة ﴿ظلماً وزوراً﴾ أي بظلم وزور، وهو تسميتهم كلام الله بالإفك والافتراء ﴿وقالوا أساطير الأولين اكتتبها﴾ يعني النضر بن الحارث كان يقول: إن هذا القرآن ليس من الله وإنما هو مما سطره الأولون مثل حديث رستم واسفنديار ومعنى اكتتبها انتسخها محمد ﷺ من جبر ويسار وعداس وطلب أن تكتب له لأنه كان لا يكتب ﴿فهي تملى عليه﴾ أي تقرأ عليه ليحفظها لأنه لا يكتب ﴿بكرة وأصيلاً﴾ يعني غدوة وعشية قال الله

﴿ واتخذوا ﴾، يعني عبدة الأوثان، ﴿ من دونه آلهة ﴾، يعني: الأصنام، ﴿ لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون ولا يملكون لأنفسهم ضَرّاً ولا نفعاً ﴾، أي دفع ضرٍّ ولا جلب نفع، ﴿ ولا يملكون موتاً ولا حياة ﴾، أي إماتةً وإحياءً، ﴿ ولا نشوراً ﴾، أي بعثاً بعد الموت.

﴿ وقال الذين كفروا ﴾، يعني المشركين، يعني النضر بن الحارث وأصحابه، ﴿ إن هذا ﴾، ما هذا القرآن، ﴿ إلاّ إفك ﴾، كذب، ﴿ افتراه ﴾، اختلقه محمد ﷺ، ﴿ وأعانه عليه قوم آخرون ﴾، قال مجاهد: يعني اليهود. وقال الحسن: هو عبيد بن الخضر الحبشي الكاهن. وقيل: جبر ويسار وعداس بن عبيد، كانوا بمكة من أهل الكتاب، فزعم المشركون أن محمداً ﷺ يأخذ منهم، قال الله تعالى: ﴿ فقد جاؤوا ﴾، يعني قائلي هذه المقالة، ﴿ ظلماً وزُوراً ﴾، أي بظلم وزور. فلما حذف الباء انتصب، يعني جاؤوا شركاً وكذباً بنسبتهم كلام الله تعالى إلى الإفك والافتراء.

﴿ وقالوا أساطير الأوّلين اكتتبها ﴾، يعني النضر بن الحارث كان يقول: إنّ هذا القرآن ليس من الله وإنما هو مما سطّره الأوّلون مثل حديث رستم وإسفنديار، اكتتبها انتسخها محمد من جبر ويسار وعداس، ومعنى اكتتب يعني طلب أن يكتب له لأنه كان لا يكتب، ﴿ فهي تُملى عليه ﴾، يعني تقرأ عليه ليحفظها لا ليكتبها، ﴿ بُكرةً وأصيلاً ﴾، غدوةً وعشياً. قال الله عزّ وجلّ ردّاً عليهم:

﴿ قلْ أنزله ﴾، يعني القرآن، ﴿ الذي يعلم السرّ ﴾، يعني الغيب ﴿ في السموات والأرض إنه كان غفوراً رحيماً ﴾.

﴿وقالوا مَالِ هذا الرسولِ ﴾، يعنون محمداً ﷺ، ﴿ يأكل الطعام ﴾، كما نأكل نحن، ﴿ ويمشي في الأسواق ﴾، يلتمس المعاش كما نمشي فلا يجوز أن يمتاز عنّا بالنبوّة، وكانوا يقولون له لست أنت بمَلَك ولا

تعالى رداً عليهم ﴿**قل**﴾ يا محمد ﴿**أنزله**﴾ يعني القرآن ﴿**الذي يعلم السر**﴾ أي الغيب ﴿**في السموات والأرض إنه كان غفوراً رحيماً**﴾ أي لولا ذلك لعاجلهم بعذابه ﴿**وقالوا مال هذا الرسول**﴾ يعنون محمداً ﷺ ﴿**يأكل الطعام**﴾ أي كما نأكل نحن ﴿**ويمشي في الأسواق**﴾ أي يلتمس المعاش كما نمشي نحن وإذا كان كذلك فمن أين له الفضل علينا، ولا يجوز أن يمتاز عنا بالنبوة وكانوا يقولون له لست بملك لأنك بشر مثلنا، والملك لا يأكل ولا يملك لأن الملك لا يتسوق وأنت تتسوق وتبتذل وما قالوه فاسد لأن أكله الطعام لكونه آدميا، ولم يدع أنه ملك ومشيه في الأسواق لتواضعه وكان ذلك صفته في التوراة ولم يكن سخابا في الأسواق وليس شيء من ذلك ينافي النبوة ولأنه لم يدع أنه ملك من الملوك ﴿**لولا أنزل إليه ملك**﴾ أي يصدقه ويشهد له ﴿**فيكون معه نذيراً**﴾ أي داعياً ﴿**أو يلقى إليه كنز**﴾ أي ينزل عليه كنز من السماء ينفقه فلا يحتاج إلى التصرف في طلب المعاش ﴿**أو تكون له جنة**﴾ يعني بستان ﴿**يأكل منها**﴾ أي هو فلا أقل من ذلك إن لم يكن له كنز ﴿**وقال الظالمون إن تتبعون إلا رجلاً مسحوراً**﴾ يعني مخدوعاً وقيل مصروفاً عن الحق.

انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَـٰلَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾ تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ
لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًۢا ﴿١٠﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَن
كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا
مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾ قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ
جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَـٰلِدِينَ ۚ كَانَ عَلَىٰ
رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا ﴿١٦﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَـٰٓؤُلَآءِ أَمْ
هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾

﴿**انظر**﴾ يا محمد ﴿**كيف ضربوا لك الأمثال**﴾ أي الأشباه التي لا فائدة لها فقالوا مسحور محتاج ﴿**فضلوا**﴾ أي عن الحق ﴿**فلا يستطيعون سبيلاً**﴾ إلى الهدى ومخرجاً عن الضلالة. قوله تعالى ﴿**تبارك الذي إن شاء جعل لك خيراً من ذلك**﴾ أي من الذي قالوا: وأفضل من البستان الذي ذكروا وقال ابن عباس يعني خيراً من المشي في الأسواق

بملك، لأنك تأكل والمَلَك لا يأكل، ولست بملك لأن الملك لا يتسوّق، وأنت تتسوق وتتبذّل. وما قالوه فاسد لأن أكله الطعام لكونه آدمياً ومشيه في الأسواق لتواضعه، وكان ذلك صفة له وشيء من ذلك لا ينافي النبوّة. ﴿ **لولا أنزل إليه ملك** ﴾، فيصدّقه، ﴿ **فيكون معه نذيراً** ﴾. داعياً.

﴿ **أو يلقى إليه كنز** ﴾، أي: ينزل عليه كنز من السماء ينفقه فلا يحتاج إلى التردّد والتصرّف في طلب المعاش، ﴿ **أو تكون له جنة** ﴾، بستان، ﴿ **يأكل منها** ﴾، قرأ حمزة والكسائي (نأكل) بالنون أي نأكل نحن منها، ﴿ **وقال الظالمون إنْ تتبعون إلّا رجلاً مسحوراً** ﴾، مخدوعاً. وقيل: مصروفاً عن الحق.

﴿ **انظر** ﴾، يا محمد، ﴿ **كيف ضربُوا لَكَ الأمثال** ﴾، يعني الأشباه، فقال: مسحور محتاج وغيره، ﴿ **فضلّوا** ﴾، عن الحق، ﴿ **فلا يستطيعون سبيلاً** ﴾، إلى الهدى ومخرجاً عن الضلالة.

﴿ **تبارك الذي إن شاء جعل لك خيراً من ذلك** ﴾، الـذي قالوا أو أفضل من الكنز والبستان الذي ذكروا، وروى عكرمة عن ابن عباس قال: يعني خيراً من المشي في الأسواق والتماس المعاش، ثم بيّن ذلك الخير فقال:

والتماس المعاش ثم بين ذلك الخير فقال ﴿جنات تجري من تحتها الأنهار ويجعل لك قصوراً﴾ أي بيوتاً مشيدة عن أبي أمامة أن النبيّ ﷺ قال «عرض عليَّ ربي ليجعل لي بطحاء مكة ذهباً قلت لا يا رب ولكن أشبع يوماً وأجوع يوماً أو قال ثلاثاً أو نحو هذا، فإذا جعت تضرعت إليك وذكرتك وإذا شبعت حمدتك وشكرتك» عن عائشة قالت: «قال رسول الله ﷺ: لو شئت لسارت معي جبال مكة ذهباً جاءني ملك إن حجزته لتساوي الكعبة فقال يا محمد إن ربك يقرئك السلام ويقول: إن شئت نبياً عبداً وإن شئت نبياً ملكاً فنظرت إلى جبريل فأشار إلي أن ضع نفسك، فقلت: نبياً عبداً قالت فكان رسول الله ﷺ بعد ذلك لا يأكل متكئاً يقول: أنا عبد آكل كما يأكل العبد وأجلس كما يجلس العبد» ذكر هذين الحديثين البغوي بسنده. قوله تعالى: ﴿بل كذبوا بالساعة﴾ أي القيامة ﴿وأعتدنا لمن كذب بالساعة سعيراً﴾ أي ناراً مسعرة ﴿إذا رأتهم من مكان بعيد﴾ قيل: من مسيرة عام وقيل من مسيرة مائة عام. فإن قلت: كيف تتصور الرؤية من النار وهو قوله إذا رأتهم. قلت يجوز أن يخلق الله لها حياة وعقلاً ورؤية وقيل: معناه رأتهم زبانيتها ﴿سمعوا لها تغيظاً﴾ أي غلياناً كالغضبان إذا غلى صدره من الغضب ﴿وزفيراً﴾ أي صوتاً فإن قلت كيف يسمع التغليظ. قلت: معناه رأوا وعلموا لها تغيظاً وسمعوا لها زفيراً كما قال الشاعر:

ورأيت زوجك في الوغى ... متقلداً سيفاً ورمحا

﴿ جنّاتٍ تجري من تحتها الأنهار ويجعل لك قصوراً ﴾، بيوتاً مشيّدة، والعرب تسمّي كل بيت مشيّد قصراً، وقرأ ابن كثير وابن عامر وعاصم برواية أبي بكر، ويجعل برفع اللام، وقرأ الآخرون بجزمها على محل الجزاء في قوله: ﴿ إن شاء جعل لك ﴾، أخبرنا أبو بكر محمد بن عبد الله بن أبي توبة الكشمهيني أنا أبو طاهر محمد بن الحارث أنا أبو الحسن محمد بن يعقوب الكسائي أنا عبد الله بن محمود أنا إبراهيم بن عبد الله الخلال ثنا عبد الله بن المبارك عن يحيىٰ بن أيوب حدّثني عبد الله بن زخر عن علي بن زيد عن القاسم بن أبي عبد الرحمن عن أبي أمامة عن النبي ﷺ قال: «عرض عليَّ ربّي ليجعل لي بطحاء مكة ذهباً فقلت: لا يا رب، ولكن أشبع يوماً وأجوع يوماً، وقال ثلاثاً أو نحو هذا، فإذا جعت تضرّعتُ إليك وذكرتُك، وإذا شبعتُ حمدتُك وشكرتُك»، حدّثنا أبو طاهر المطهر بن علي ابن عبيد الله الفارسي أنا أبو ذرّ محمد بن إبراهيم الصالحاني أنا أبو محمد عبد الله بن محمد بن جعفر بن حيان المعروف بأبي الشيخ أنا أبو يعلى ثنا محمد بن بكّار ثنا أبو معشر عن سعيد يعني المقبري عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «يا عائشة لو شئت لسارت معي جبال الذهب جاءني ملك أن حجزتة لتساوي الكعبة، فقال: إن ربك يقرأ عليك السلام ويقول إن شئت نبيّاً عبداً، وإن شئت نبيّاً ملكاً فنظرت إلى جبريل فأشار إليّ أن ضع نفسك، وفي رواية ابن عباس: فالتفت رسول الله ﷺ إلى جبريل كالمستشير له فأشار جبريل بيده أن تواضع، فقلت: نبيّاً عبداً» قال: فكان رسول الله ﷺ بعد ذلك لا يأكل متكئاً يقول: «آكل كما يأكل العبد وأجلس كما يجلس العبد».

قوله عزّ وجلّ: ﴿ بل كذبوا بالساعة ﴾، بالقيامة، ﴿ وأعتدنا لمَن كذب بالساعة سعيراً ﴾، ناراً مستعرّة.

﴿ إذا رأتهم من مكان بعيد ﴾، قال الكلبيّ والسدي: من مسيرة عام. وقيل: من مسيرة مائة سنة. وقيل: خمسمائة سنة. وثبت عن رسول الله ﷺ أنه قال: «مَن كذب عليّ متعمداً فليتبوأ بين عيني جهنّم مقعداً». قالوا: وهل لها من عينين؟ قال: نعم ألم تستمعوا قول الله تعالى: ﴿ إذا رأتهم من مكان بعيد ﴾، وقيل: إذا رأتهم زبانيتها. ﴿ سمعوا لها تغيظاً ﴾ غلياناً كالغضبان إذا غلى صدره من الغضب. ﴿ وزفيراً ﴾ صوتاً فإن قيل: كيف يسمع التغيّظ؟ قيل: معناه رأوا وعلموا أن لها تغيظاً وسمعوا لها زفيراً، كما قال الشاعر:

ورأيت زوجك في الوغى ... متقلّداً سيفاً ورمحاً

أي وحاملاً رمحاً، وقيل: سمعوا لها صوت التغيظ من التلهب والتوقد، وقال عبيد بن عمير: تزفر جهنم يوم القيامة زفرة فلا يبقى ملك مقرب، ولا نبي مرسل إلا خر لوجهه ﴿وإذا ألقوا منها مكاناً ضيقاً﴾ قال ابن عباس تضيق عليه كما يضيق الزج في الرمح ﴿مقرنين﴾ أي مصفدين قد قرنت أيديهم إلى أعناقهم في الأغلال، وقيل: مقرنين مع الشياطين في السلاسل ﴿دعوا هنالك ثبوراً﴾ قال ابن عباس: ويلاً وقيل هلاكاً وفي الحديث «إن أول من يكسى حلة من النار إبليس، فيضعها على حاجبيه ويسحبها من خلفه وذريته من خلفه وهو يقول يا ثبوراه وهم ينادون يا ثبورهم حتى يقفوا على النار فينادي يا ثبوراه وهم ينادون يا ثبورهم فيقال لهم ﴿لا تدعوا اليوم ثبوراً واحداً وادعوا ثبوراً كثيراً﴾» هكذا ذكره البغوي بغير سند، وقيل معناه هلاككم أكثر من أن تدعوا مرة واحدة فادعوا أدعية كثيرة. قوله عز وجل ﴿قل أذلك خير﴾ أي الذي ذكرت من صفة النار وأهلها ﴿أم جنة الخلد التي وعد المتقون كانت لهم جزاءً ومصيراً﴾ أي ثواباً ومرجعاً لهم قال تعالى ﴿لهم فيها ما يشاؤون﴾ أي أن جميع المرادات لا تحصل إلا في الجنة، لا في غيرها. فإن قلت: قد يشتهي الإنسان شيئاً، وهو لا يحصل في الجنة كأن يشتهي الولد ونحوه وليس هو في الجنة قلت إنّ الله يزيل ذلك الخاطر عن أهل الجنة، بل كل واحد من أهل الجنة مشتغل بما هو فيه من اللذات الشاغلة عن الالتفات إلى غيره ﴿خالدين﴾ أي في نعيم الجنة ومن تمام النعيم أن يكون دائماً، إذ لو انقطع لكان مشوباً بضرب من الغم وأنشد في المعنى:

أشد الغم عندي في سرور ... تيقن عنه صاحبه انتقالا

﴿كان على ربك وعداً مسؤولاً﴾ أي مطلوباً، وذلك أن المؤمنين سألوا ربهم في الدنيا حين قالوا «ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة» وقالوا «ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك» يقول كان إعطاء الله المؤمنين جنة وعداً،

أي وحاملاً رمحاً. وقيل: سمعوا لها تغيظاً أي: صوت التغيّظ من التلهّب والتوقّد. قال عبيد بن عمير: تزفر جهنّم يوم القيامة زفرة فلا يبقى ملك مقرّب ولا نبيّ مرسل إلا خرّ لوجهه.

﴿ وإذا ألقوا منها مكاناً ضيقاً ﴾، قال ابن عباس: يضيق عليهم الزجّ في الرمح، ﴿ مُقرّنين ﴾، مصفّدين قد قرنت أيديهم إلى أعناقهم في الأغلال. وقيل: مقرنين مع الشياطين في السلاسل، ﴿ دعوا هُنالِكَ ثبوراً ﴾، قال ابن عباس: ويلاً. وقال الضحاك: هلاكاً، وفي الحديث: «إنّ أول مَن يُكسى حلّة من النار إبليس»، فيضعها على حاجبيه ويسحبها من خلفه وذريّته من خلفه وهو يقول: يا ثبوراه، وهم ينادون يا ثبورهم حتى يقفوا على النار فينادون يا ثبوراه وينادي يا ثبورهم، فيقال لهم:

﴿ لا تدعوا اليوم ثبوراً واحداً وادعوا ثبوراً كثيراً ﴾، قيل: أي هلاككم أكثر من أن تدعوا مرة واحدة فادعوا أدعية كثيرة.

قوله عزّ وجلّ: ﴿قلْ أذلك﴾، يعني الذي ذكرته من صفة النار وأهلها، ﴿خير أم جنّة الخلد التي وعد المتّقون كانت لهم جزاء ﴾، ثواباً، ﴿ ومصيراً ﴾، مرجعاً.

﴿ لهم فيها ما يشاؤون خالدين كان على ربك وعداً مسؤولاً ﴾، مطلوباً، وذلك أن المؤمنين سألوا ربّهم في الدنيا حين قالوا ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك، يقول: كان أعطى الله المؤمنين جنّة خلد وعداً وعدهم على طاعتهم إيّاه في الدنيا ومسألتهم إياه ذلك. قال محمد بن كعب القرظي: الطلب من الملائكة للمؤمنين وذلك قولهم ربنا وأدخلهم جنّات عدن التي وعدتم.

﴿ ويوم يحشرهم ﴾، قرأ ابن كثير وأبو جعفر ويعقوب وحفص ﴿ يحشرهم ﴾ بالياء وقرأ الباقون بالنون،

وعدهم على طاعتهم إياه في الدنيا ومسألتهم إياه ذلك الوعد وقيل الطلبة من الملائكة للمؤمنين وذلك قولهم ﴿ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم﴾. قوله تعالى ﴿ويوم نحشرهم وما يعبدون من دون الله﴾ يعني من الملائكة والإنس والجن مثل عيسى والعزير، وقيل يعني الأصنام ثم يخاطبهم ﴿فيقول أأنتم أضللتم عبادي هؤلاء أم هم ضلوا السبيل﴾ أي أخطؤوا الطريق.

﴿قَالُواْ سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُواْ الذِّكْرَ وَكَانُواْ قَوْمًا بُورًا ﴿١٨﴾ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾ ۞ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾

﴿قالوا﴾ يعني المعبودين ﴿سبحانك﴾ نزهوا الله سبحانه وتعالى من أن يكون معه آلهة ﴿ما ينبغي لنا أن نتخذ من دونك من أولياء﴾ يعني ما كان ينبغي لنا أن نوالي أعداءك، بل أنت ولينا من دونهم وقيل معناه، ما كان لنا أن نأمرهم بعبادتنا ونحن نعبدك ونحن عبيدك ﴿ولكن متعتهم وآباءهم﴾ أي بطول العمر والصحة والنعمة في الدنيا ﴿حتى نسوا الذكر﴾ معناه تركوا المواعظ والإيمان بالقرآن وقيل تركوا ذكرك وغفلوا عنه ﴿وكانوا قوماً بوراً﴾ معناه هلكى أي غلب

﴿ وما يعبدون من دون الله ﴾، قال مجاهد: من الملائكة والجنّ والإنس وعيسى وعزير. وقال عكرمة والضحاك والكلبي: يعني الأصنام ثم يخاطبهم، ﴿ فيقول ﴾، قرأ ابن عامر بالنون والآخرون بالياء، ﴿ أأنتم أضللتم عبادي هؤلاء أم هم ضلّوا السبيل ﴾، أخطئوا الطريق.

﴿ قالوا سبحانك ﴾، نزّهوا الله من أن يكون معه إلّه، ﴿ ما كان ينبغي لنا أن نتّخذ من دونك من أولياء ﴾، يعني ما كان ينبغي لنا أن نوالي أعداءك بل أنت وليّنا من دونهم. وقيل: ما كان لنا أن نأمرهم بعبادتنا ونحن نعبدك. وقرأ أبو جعفر ﴿ أن نُتّخذ ﴾ بضم النون وفتح الخاء فتكون ﴿ من ﴾ الثاني صلة، ﴿ ولكن متعتهم وآباءَهم ﴾، في الدنيا بطول العمر والصحة والنعمة، ﴿ حتى نسوا الذكر ﴾، تركوا الموعظة والإيمان بالقرآن. وقيل: تركوا ذكرك وغفلوا عنه، ﴿ وكانوا قوماً بوراً ﴾، يعني هلكى غلب عليهم الشقاء والخذلان، رجل يقال له بائر، وقوم بور، وأصله من البوار وهو الكساد والفساد، ومنه بوار السلعة وهو كسادها. وقيل هو اسم مصدر كالزور يستوي فيه الواحد والاثنان والجمع والمذكّر والمؤنّث.

﴿ قد كذّبوكم ﴾، هذا خطاب مع المشركين، أي: كذّبكم المعبودون، ﴿ بما تقولون ﴾، إنهم آلهة، ﴿ فما تستطيعون ﴾، قرأ حفص بالتاء يعني العابدين، وقرأ الآخرون بالياء يعني: الآلهة. ﴿ صرفاً ﴾ يعني صرف العذاب عن أنفسهم، ﴿ ولا نصراً ﴾ يعني ولا نصر أنفسهم. وقيل: ولا نصركم أيها العابدون من عذاب الله بدفع العذاب عنكم وقيل الصرف الحيلة، ومنه قول العرب: إنه ليصرف أي يحتال، ﴿ ومَن يظلم ﴾، يشرك، ﴿ منكم نُذقه عذاباً كبيراً ﴾.

عليهم الشقاء والخذلان ﴿**فقد كذبوكم**﴾ هذا خطاب مع المشركين أي كذبكم المعبودون ﴿**بما تقولون**﴾ يعني أنهم آلهة ﴿**فما يستطيعون**﴾ أي الآلهة ﴿**صرفاً**﴾ أي صرف العذاب عن أنفسهم ﴿**ولا نصراً**﴾ يعني ولا نصر أنفسهم وقيل لا ينصرونكم أيها العابدون بدفع العذاب عنكم ﴿**ومن يظلم منكم**﴾ يعني يشرك ﴿**نذقه عذاباً كبيراً**﴾.

قوله عز وجل ﴿**وما أرسلنا قبلك**﴾ أي يا محمد ﴿**من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق**﴾ قال ابن عباس: لما عير المشركون رسول الله ﷺ وقالوا ﴿ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق﴾ أنزل الله تعالى على هذه الآية والمعنى أن هذه عادة مستمرة من الله تعالى على رسله فلا وجه لهذا الطعن ﴿وما أنا إلا رسول﴾ ﴿وما كنت بدعاً من الرسل﴾ وهم كانوا بشراً مثلي، يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق ﴿**وجعلنا بعضكم لبعض فتنة**﴾ أي بلية قال ابن عباس أي جعلنا بعضكم بلاء بعض، لتصبروا على ما تسمعون منهم وترون من خلافهم وتتبعوا أنتم الهدى، قيل: نزلت في ابتلاء الشريف بالوضيع وذلك أن الشريف إذا أراد أن يسلم رأى الوضيع، قد أسلم قبله فأنف وقال: أسلم بعده فيكون له السابقة والفضل علي فيقيم على كفره ويمتنع من الإسلام فذلك افتتان بعضهم ببعض وقيل: نزلت في أبي جهل والوليد بن عقبة والعاص بن وائل السهمي والنضر بن الحارث وذلك أنهم رأوا أبا ذر وابن مسعود وعمار بن ياسر وبلالاً، وصهيباً وعامر بن فهيرة وذويهم، قد أسلموا قبلهم فقالوا: نسلم فنكون مثل هؤلاء

قوله عزّ وجلّ: ﴿ **وما أرسلنا قبلك من المرسلين** ﴾، يا محمد، ﴿ **إلاّ أنهم ليأكلون الطعام** ﴾، روى الضحاك عن ابن عباس قال: لمّا عيّر المشركون رسول الله ﷺ وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق، أنزل الله عزّ وجلّ هذه الآية، يعني ما أنا إلاّ رسول وما كنتُ بِدَعاً من الرسل، وهم كانوا بشراً يأكلون الطعام، ﴿ **ويمشون في الأسواق** ﴾. وقيل: معناه وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلاّ قيل لهم مثل هذا أنهم يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق كما قال في موضع آخر: ما يقال لك إلاّ ما قد قيل للرسل من قبلك، ﴿ **وجعلنا بعضكم لبعض فتنة** ﴾، أي بليّة فالغني فتنة للفقير، يقول الفقير ما لي لم أكن مثله، والصحيح فتنة للمريض، والشريف فتنة للوضيع. وقال ابن عباس: أي جعلت بعضكم بلاءً لبعض لتصبروا على ما تسمعون منهم، وترون من خلافهم، وتتبعوا الهدى. وقيل: نزلت في ابتلاء الشريف بالوضيع، وذلك أن الشريف إذا أراد أن يسلم فرأى الوضيع قد أسلم قبله أنف، وقال أسلم بعده فيكون له عليّ السابقة والفضل، فيقيم على كفره ويمتنع من الإسلام، فذلك افتتان بعضهم ببعض، وهذا قول الكلبي. وقال مقاتلَ: نزلت في أبي جهل والوليد بن عقبة والعاص بن وائل والنضر بن الحارث. وذلك أنهم لما رأوا أبا ذرّ وابن مسعود وعمّاراً وبلالاً وصهيباً وعامر بن فهيرة وذويهم قالوا نسلم فنكون مثل هؤلاء. وقال مقاتل نزلت في ابتلاء فقراء المؤمنين بالمستهزئين من قريش، كانوا يقولون انظروا إلى هؤلاء الذين اتّبعوا محمداً من موالينا وأراذلنا، فقال الله تعالى لهؤلاء المؤمنين: ﴿ **أتصبرون** ﴾ يعني على هذه الحالة من الفقر والشدّة والأذى، ﴿ **وكان ربّك بصيراً** ﴾، بمَن صبر وبمَن جزع، أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحي أنا أبو بكر أحمد بن الحسن أنا أبو العباس الأصم ثنا زكريا بن يحيىٰ المروزي ثنا سفيان بن عيينة عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة يبلغ به النبي ﷺ قال: «إذا نظر أحدكم إلى مَن فضل عليه في المال والجسم فلينظر إلى مَن دونه في المال والجسم».

﴿ **وقال الذين لا يرجون لقاءنا** ﴾، أي لا يخافون البعث، قال الفرّاء: الرجاء بمعنى الخوف لغة تهامة، ومنه قوله تعالى: ﴿ ما لكم لا ترجون لله وقاراً ﴾ [نوح: ١٣] أي: لا تخافون لله عظمة. ﴿ **لولا أُنزل علينا الملائكة** ﴾، فتخبرنا أن محمداً صادق، ﴿ **أو نرى ربنا** ﴾، فيخبرنا بذلك، ﴿ **لقد استكبروا** ﴾، أي تعظموا. ﴿ **في أنفسهم** ﴾، بهذه المقالة، ﴿ **وعَتَوْا عتوّاً كبيراً** ﴾. قال مجاهد: عتوا طغوا في القول والعتوّ أشدّ الكفر

وقيل: نزلت في ابتلاء فقراء المسلمين بالمستهزئين من قريش كانوا يقولون: انظروا إلى هؤلاء الذين تبعوا محمداً ﷺ من موالينا وأراذلنا فقال الله تعالى لهؤلاء المؤمنين ﴿**أتصبرون**﴾ أي على هذه الحالة من الفقر والشدة والأذى وقيل إن الغني فتنة الفقير يقول ما لي لم أكن مثله والصحيح فتنة المريض والشريف فتنة الوضيع ﴿**وكان ربك بصيراً**﴾ أي بمن صبر وبمن جزع (ق) عن أبي هريرة يبلغ به النبيّ ﷺ قال: «إذا نظر أحدكم إلى من فضل عليه بالمال والجسم فلينظر إلى من هو دونه في المال والجسم» لفظ البخاري ولمسلم «انظروا إلى من هو أسفل منكم، ولا تنظروا إلى من هو فوقكم فهو أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم».

قوله تعالى ﴿**وقال الذين لا يرجون لقاءنا**﴾ أي يخافون البعث والرجاء، بمعنى الخوف لغة تهامة ﴿**لولا أنزل علينا الملائكة**﴾ فتخبرنا أن محمداً صادق ﴿**أو نرى ربنا**﴾ فيخبرنا بذلك ﴿**لقد استكبروا**﴾ أي تعظموا ﴿**في أنفسهم**﴾ بهذه المقالة ﴿**وعتوا عتواً كبيراً**﴾ أي طغوا وقيل عتواً في القول وهو أشد الكفر والفحش وعتوهم، طلبهم رؤية الله حتى يؤمنوا به. قوله تعالى ﴿**يوم يرون الملائكة**﴾ أي عند الموت وقيل يوم القيامة ﴿**لا بشرى يومئذٍ للمجرمين**﴾ وذلك أن الملائكة يبشرون المؤمنين، يوم القيامة ويقولون للكفار: لا بشرى لكم وقيل: لا بشارة لهم بالجنة كما بشر المؤمن ﴿**ويقولون حجراً محجوراً**﴾ قال ابن عباس تقول الملائكة حراماً محرماً أن يدخل الجنة، إلا من قال لا إله إلا الله محمد رسول الله، وقيل: إذا خرج الكفار من قبورهم تقول لهم الملائكة حراماً محرماً عليكم أن تكون لكم البشرى وقيل هذا قول: الكفار للملائكة وذلك أن العرب كانت إذا نزلت بهم شدة ورأوا ما يكرهون قالوا حجراً محجوراً فهم يقولون ذلك إذا عاينوا الملائكة. قوله عز وجل ﴿**وقدمنا إلى ما عملوا من عمل**﴾ يعني من أعمال البر التي عملوها في حال الكفر ﴿**فجعلناه هباء منثوراً**﴾ أي باطلاً لا ثواب له لأنهم لم يعملوه لله عز وجل ومنه الحديث الصحيح كل عمل ليس عليه أمرنا، فهو رد والهباء هو ما يرى في الكوة كالغبار، إذا وقعت الشمس فيها فلا يمس بالأيدي، ولا يرى في الظل والمنثور المفرق قال ابن عباس هو ما تسقيه الرياح، وتذريه من التراب كحطام الشجر وقيل هو ما يسطع من حوافر الدواب عند السير من الغبار. قوله تعالى:

وأفحش الظلم، وعتوهم طلبهم رؤية الله حتى يؤمنوا به.

﴿ **يوم يرون الملائكة** ﴾ عند الموت. وقيل: في القيامة. ﴿ **لا بُشرى يومئذٍ للمجرمين** ﴾، للكافرين، وذلك أن الملائكة يبشّرون المؤمنين يوم القيامة، ويقولون للكفّار لا بشرى لكم، هكذا قال عطية، وقال بعضهم: معناه أنه لا بشرى يوم القيامة للمجرمين، أي لا بشارة لهم بالجنة، كما يُبَشَّرُ المؤمنون. ﴿ **ويقولون حِجْراً محجوراً** ﴾، قال عطاء عن ابن عباس: تقول الملائكة حراماً محرماً أن يدخل الجنة، إلاّ مَن قال لا إلَه إلاّ الله. وقال مقاتل: إذا خرج الكفّار من قبورهم قالت لهم الملائكة حراماً محرّماً عليكم أن يكون لكم البشرى. وقال بعضهم: هذا قول الكفّار للملائكة. قال ابن جريج: كانت العرب إذا نزلت بهم شدّة رأوا ما يكرهون، قالوا حجراً محجوراً، فهم يقولونه إذا عاينوا الملائكة قال مجاهد: يعني عوذاً معاذاً يستعيذون به من الملائكة.

﴿ **وقَدِمْنَا** ﴾، وعمدنا، ﴿ **إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباءً منثوراً** ﴾، أي باطلاً لا ثواب له، فهم لم يعملوه لله عزّ وجلّ. واختلفوا في الهباء قال علي: هو ما يرى في الكوّة إذا وقع ضوء الشمس فيها كالغبار يمسّ بالأيدي، ولا يرى في الظل، وهو قول الحسن وعكرمة ومجاهد، والمنثور والمفرّق، وقال ابن عباس وقتادة وسعيد بن جبير: هو ما تسفيه الرياح وتذريه من التراب وحطام الشجر. وقال مقاتل: هو ما يسطع من حوافر الدواب عند السير. وقيل: الهباء المنثور ما يرى في الكوّة والهباء المنبثّ هو ما تطيّره الرياح من سنابك الخيل.

أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾

﴿أصحاب الجنة يومئذٍ﴾ أي يوم القيامة **﴿خير مستقراً﴾** أي من هؤلاء المشركين المستكبرين **﴿وأحسن مقيلاً﴾** أي موضع القائلة، وذلك أن أهل الجنة لا يمر بهم يوم القيامة إلا قدر من أول النهار إلى وقت القائلة حتى يسكنوا مساكنهم في الجنة قال ابن مسعود لا ينتصف النهار يوم القيامة حتى يقيل أهل الجنة في الجنة، وأهل النار في النار والقيلولة الاستراحة نصف النهار وإن لم يكن مع ذلك نوم لأن الله تعالى قال **﴿وأحسن مقيلاً﴾** والجنة لا نوم فيها قال ابن عباس الحساب في ذلك اليوم في أوله، ويروى أن يوم القيامة يقصر على المؤمنين حتى يكون، كما بين العصر إلى غروب الشمس. قوله تعالى **﴿ويوم تشقق السماء بالغمام﴾** أي عن الغمام وهو غمام أبيض مثل الضبابة، ولم يكن إلا لبني إسرائيل في تيههم **﴿ونزل الملائكة تنزيلاً﴾** قال ابن عباس تشقق السماء الدنيا فينزل أهلها، وهم أكثر ممن في الأرض من الإنس والجن ثم تتشقق السماء الثانية فينزل أهلها وهم أكثر ممن في السماء الدنيا ومن الجن والإنس ثم كذلك حتى تتشق السماء السابعة وأهل كل سماء يزيدون على أهل السماء التي تليها ثم تنزل الكروبيون ثم حملة العرش **﴿الملك يومئذٍ الحق للرحمن﴾** أي الملك الذي هو الملك حقاً ملك الرحمن يوم القيامة، قال ابن عباس:

قوله عزّ وجلّ: **﴿ أصحاب الجنة يومئذ خير مستقراً ﴾** أي: من هؤلاء المشركين المتكبّرين ، **﴿ وأحسن مقيلاً ﴾**، موضع قائلة يعني أهل الجنة لا يمرّ بهم يوم القيامة إلّا قدر النهار من أوله إلى وقت القائلة حتى يسكنوا مساكنهم في الجنة، قال ابن مسعود: لا ينتصف النهار يوم القيامة حتى يقيل أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار، وقرأ (ثم إن مقيلهم لا إلى الجحيم) هكذا كان يقرأ، وقال ابن عباس في هذه الآية الحساب ذلك اليوم في أوله، قال القوم حين قالوا في منازلهم في الجنة. قال الأزهري: القيلولة والمقيل الاستراحة نصف النهار، وإن لم يكن مع ذلك نوم، لأن الله تعالى قال: **﴿ وأحسن مقيلاً ﴾** والجنة لا نوم فيها. ويُروى أن يوم القيامة يقصر على المؤمنين حتى يكون كما بين العصر إلى غروب الشمس.

قوله عزّ وجلّ: **﴿ ويوم تشقّق السماء بالغمام ﴾**، أي عن الغمام الباء وعن يتعاقبان كما يقال رميت عن القوس وبالقوس وتشقّق بمعنى تتشقّق، أدغموا إحدى التاءين في الأخرى، وقرأ أبو عمرو وأهل الكوفة بتخفيف الشين ههنا، وفي سورة **﴿ قٓ ﴾** [٤٤] بحذف إحدى التاءين، وقرأ الآخرون بالتشديد، أي تنشقّ بالغمام وهو غمام أبيض رقيق مثل الضبابة، ولم يكن إلا لبني إسرائيل في تيههم. **﴿ ونُزِّلَ الملائكةُ تنزيلاً ﴾**، قرأ ابن كثير و(ننزل) بنونين خفيف ورفع اللام، **﴿ الملائكة ﴾** نصب، قال ابن عباس: تشقّق السماء الدنيا فينزل أهلها وهم أكثر ممّن في الأرض من الجنّ والإنس، ثم تشقّق السماء الثانية فينزل أهلها وهم أكثر ممّن في السماء الدنيا، ومن الجن والإنس، ثم كذلك حتى تشقّق السماء السابعة وأهل كل سماء يزيدون على أهل السماء التي قبلها، ثم ينزل الكروبيون ثم حملة العرش.

﴿ الملك يومئذ الحق للرحمن ﴾ أي الملك الذي هو الملك الحق حقاً ملك الرحمن يوم القيامة قال ابن عباس يريد أن يوم القيامة لا ملك يقضى غيره. **﴿ وكان يوماً على الكافرين عسيراً ﴾**، شديداً فهذا الخطاب يدلّ

يريد أن يوم القيامة لا ملك يقضي غيره ﴿وكان يوماً على الكافرين عسيراً﴾ أي شديد وفيه دليل على أنه لا يكون على المؤمنين عسيراً وجاء في الحديث «أنه يهون يوم القيامة على المؤمن حتى يكون عليه أخف من صلاة مكتوبة صلاها في الدنيا».

قوله تعالى ﴿ويوم يعض الظالم على يديه﴾ أراد بالظالم عقبة بن أبي معيط، وذلك أنه كان لا يقدم من سفر، إلا صنع طعاماً ودعا إليه أشراف قومه وكان يكثر مجالسة النبيّ ﷺ فقدم ذات يوم من سفر، فصنع طعاماً ودعا الناس إليه ودعا رسول الله ﷺ فلما قرب الطعام، قال رسول الله ﷺ: ما أنا بآكل طعامك حتى تشهد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله فقال عقبة: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله. فأكل رسول الله ﷺ من طعامه. وكان عقبة صديقاً لأبيّ بن خلف، فلما أخبر أبيّ بن خلف، قال له: يا عقبة صبأت، قال لا والله ما صبأت ولكن دخل علي رجل فأبى أن يأكل طعامي إلا أن أشهد له، فاستحييت أن يخرج من بيتي، ولم يطعم فشهدت له فطعم، فقال: ما أنا بالذي أرضى عنك أبداً إلا أن تأتيه فتبزق في وجهه، ففعل ذلك عقبة فقال عليه الصلاة والسلام، لا أراك خارجاً من مكة إلا علوت رأسك بالسيف، فقتل عقبة يوم بدر صبراً وأما أبيّ بن خلف فقتله النبيّ ﷺ بيده يوم أُحد، وقيل: لما بزق عقبة في وجه النبيّ ﷺ عاد بزاقه في وجهه، فاحترق خداه فكان أثر ذلك في وجهه، حتى قتل وقيل كان عقبة بن أبي معيط خليل أمية بن خلف، فأسلم عقبة فقال له أمية: وجهي من وجهك حرام إن تابعت محمداً فكفر وارتد، فأنزل الله فيه

على أنه لا يكون على المؤمن عسيراً، وجاء في الحديث: «أنه يهون يوم القيامة على المؤمنين حتى يكون عليهم أخفّ من صلاة مكتوبة صلّوها في الدنيا».

﴿ ويوم يعضّ الظالم على يديه ﴾ أراد بالظالم عقبة بن أبي معيط، وذلك أن عقبة كان لا يقدم من سفر إلّا صنع طعاماً فدعا إليه أشراف قومه، وكان يكثر مجالسة النبي ﷺ فقَدِمَ ذات يوم من سفر يصنع طعاماً فدعا الناس ودعا رسول الله ﷺ، فلما قرب الطعام قال رسول الله ﷺ: «ما أنا بآكل طعامك حتى تشهد أن لا إله إلّا الله وأني رسول الله» فقال عقبة: أشهد أن لا إله إلّا الله وأن محمداً رسول الله فأكل رسول الله ﷺ من طعامه، وكان عقبة صديقاً لأُبيّ بن خلف فلما أخبر أُبيّ بن خلف قال له: يا عقبة صبأت؟ قال: لا والله ما صبأت ولكن دخل عليّ رجل فأبى أن يأكل طعامي إلّا أن أشهد له فاستحييت أن يخرج من بيتي ولم يطعم. فشهدت له فطعم، فقال: ما أنا بالذي أرضى عنك أبداً إلّا أن تأتيه فتبزق في وجهه، ففعل ذلك عقبة فقال عليه السلام: «لا ألقاك خارجاً من مكة إلّا علوتُ رأسك بالسيف» فقتل عقبة يوم بدر صبراً وأما أُبيّ بن خلف فقتله النبي ﷺ يوم أُحُد بيده. وقال الضحاك: لما بزق عقبة في وجه رسول الله ﷺ عاد بُزاقه في وجهه فاحترق خدّاه، وكان أثر ذلك فيه حتى الموت. وقال الشعبي: كان عقبة بن أبي معيط خليل أمية بن خلف فأسلم عقبة فقال أُميّة وجهي من وجهك حرام أن بايعت محمداً فكفر وارتدّ فأنزل الله عزّ وجلّ ﴿ ويوم يعضّ الظالم ﴾ يعني عقبة بن أبي معيط بن عبد شمس بن مناف على يديه ندماً وأسفاً على ما فرط في جنب الله، وأوبق نفسه بالمعصية والكفر بالله بطاعة خليله الذي سدّه عن سبيل ربّه قال عطاء: يأكل يديه حتى تبلغ مرفقيه ثم تنبتان ثم يأكل هكذا كلما نبتت يده أكلها تحسّراً على ما فعل ﴿ يقول يا ليتني اتخذت ﴾، في الدنيا، ﴿ مع الرسول سبيلاً ﴾، ليتني اتّبعت محمداً ﷺ واتخذت معه سبيلاً إلى الهدى، قرأ أبو عمرو ﴿ يا ليتني اتخذت ﴾ بفتح الياء، والآخرون بإسكانها.

﴿ يا ويلتا ليتني لم أتخذ فلاناً خليلاً ﴾، يعني أُبيّ بن خلف.

﴿ لقد أضلّني عن الذكر ﴾، عن الإيمان والقرآن، ﴿ بعد إذْ جاءني ﴾ يعني الذكر مع الرسول، ﴿ وكان

﴿ويوم يعض الظالم﴾ يعني عقبة بن أبي معيط بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، على يديه، أي ندماً وأسفاً على ما فرط في جنب الله، وأوبق نفسه بالمعصية والكفر لطاعة خليله الذي صده عن سبيل ربه، قال عطاء: يأكل يديه حتى يبلغ مرفقيه ثم ينبتان، ثم يأكلهما هكذا كلما نبتت يده أكلها على ما فعل، تحسراً وندامة ﴿يقول يا ليتني اتخذت﴾ أي في الدنيا ﴿مع الرسول سبيلاً﴾ أي ليتني اتبعت محمداً ﷺ واتخذت معه طريقاً إلى الهداية ﴿يا ويلتى﴾ دعا على نفسه بالويل ﴿ليتني لم أتخذ فلاناً خليلاً﴾ قيل يعني أبي بن خلف ﴿لقد أضلني عن الذكر﴾ أي عن الإيمان والقرآن ﴿بعد إذ جاءني﴾ يعني الذكر مع الرسول صلّى الله عليه وسلّم ﴿وكان الشيطان﴾ وهو كل متمرد عات صد عن سبيل الله من الجن والإنس ﴿للإنسان خذولاً﴾ أي كثير الخذلان يتركه ويتبرأ منه عند نزول البلاء والعذاب به وحكم الآية عام في كل خليلين، ومتحابين اجتمعا على معصية الله (ق) عن أبي موسى الأشعري عن النبيّ ﷺ قال «مثل الجليس الصالح وجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير فحامل المسك إما أن يحذيك، وإما أن تبتاع منه وإما أن تجد منه ريحاً طيباً ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك، وإما أن تجد منه ريحاً خبيثة» عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل» أخرجه أبو داود والترمذي. ولهما عن أبي سعيد الخدري قال: قال الرسول صلّى الله عليه وسلّم «لاتصاحب إلا مؤمناً ولا يأكل طعامك إلا تقي». قوله عز وجل:

وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ
ٱلْمُجْرِمِينَ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً كَذَٰلِكَ
لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ
عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٣٤﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ
أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا
كَذَّبُواْ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَأَصْحَٰبَ
ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ أَتَوْاْ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ

الشيطان﴾، وهو كل متمرّد عاتٍ من الإنس والجن وكلّ مَن صدّ عن سبيل الله فهو شيطان. ﴿للإنسان خذولاً﴾، أي تاركاً يتركه ويتبرأ منه عند نزول البلاء والعذاب وحكم هذه الآية عامّ في حق كل متحابّين اجتمعا على معصية الله. أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا محمد بن العلاء أنا أبو أسامة عن يزيد عن أبي بردة عن أبي موسى عن النبي ﷺ قال: «مثل الجليس الصالح والسوء، كحامل المسك ونافخ الكير، فحامل المسك إمّا أن يحذيك وإمّا أن تبتاع منه، وإمّا أن تجد منه ريحاً طيبة، ونافخ الكير إمّا أن يحرق ثيابك، وإمّا تجد منه ريحاً خبيثة». أخبرنا أبو بكر محمد بن عبد الله بن أبي توبة أنا أبو طاهر محمد بن أحمد بن الحارث ومحمد بن يعقوب الكسائي أنا عبد الله بن محمود أنا إبراهيم بن عبد الله الخلال ثنا عبد الله بن المبارك عن حياة بن شريح أخبرني سالم بن غيلان أن الوليد بن قيس التجيبي أخبره أنه سمع أبا سعيد الخدري قال سالم أو عن أبي الهيثم عن أبي سعيد أنه سمع النبي ﷺ يقول: «لا تصاحب إلاّ مؤمناً ولا يأكل طعامك إلاّ تقي»، أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أبو بكر محمد بن أحمد بن كسّاب النيسابوري أنا أبو العباس الأصمّ ثنا حميد بن عياش الرملي أنا مؤمل بن إسماعيل ثنا زهير بن محمد الخراساني ثنا موسى بن وردان عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «المرء على دين خليله فلينظر أحدكم مَن يخالل».

أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِۚ أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَاۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤٠﴾

﴿**وقال الرسول**﴾ يعني ويقول الرسول في ذلك اليوم ﴿**يا رب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجوراً**﴾ أي متروكاً وأعرضوا عنه، ولم يؤمنوا به ولم يعملوا بما فيه وقيل جعلوه بمنزلة الهجر وهو السيىء من القول فزعموا أنه سحر وشعر، والمعنى أن محمداً صلّى الله عليه وسلّم، يشكو قومه إلى الله عز وجل يا رب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجوراً، فعزاه الله تعالى فقال ﴿**وكذلك جعلنا**﴾ أي وكما جعلت لك أعداء من مشركي مكة، وهم قومك كذلك جعلنا ﴿**لكل نبي عدواً من المجرمين**﴾ أي المشركين والمعنى لا يكبرن عليك ذلك فإن الأنبياء قبلك قد لقوا هذا من قومهم، فصبروا فاصبر أنت كما صبروا فإني ناصرك، وهاديك وهو قوله تعالى ﴿**وكفى بربك هادياً ونصيراً**﴾ قوله تعالى ﴿**وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة**﴾ أي كما أنزلت التوراة على موسى والإنجيل على عيسى والزبور على داود صلوات الله عليهم أجمعين قال الله ﴿**كذلك**﴾ فعلنا ذلك ﴿**لنثبت به فؤادك**﴾ أي أنزلناه مفرقاً لنقوي به قلبك، فتعيه وتحفظه فإن الكتب المتقدمة نزلت على أنبياء، يكتبون ويقرؤون وأنزلنا القرآن على نبي أمي لا يكتب ولا يقرأ ولأن من القرآن الناسخ والمنسوخ، ومنه ما هو جواب لمن سأل عن أمور تحدث في أوقات مختلفة ففرقناه ليكون أوعى لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وأيسر على العامل به ﴿**ورتلناه ترتيلاً**﴾.

﴿ **وقال الرسول** ﴾، يعني: ويقول الرسول في ذلك اليوم: ﴿ **يا ربِّ إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجوراً** ﴾، يعني متروكاً فأعرضوا عنه، ولم يؤمنوا به ولم يعملوا بما فيه. وقيل: جعلوه بمنزلة الهجر وهو الهذيان، والقول السيء، فزعموا أنه شعر وسحر، وهو قول النخعي ومجاهد. وقيل: قال الرسول يعني محمداً ﷺ يشكوا قومه إلى الله يا رب: إنّ قومي اتخذوا هذا القرآن مهجوراً فعزّاه الله تعالى فقال:

﴿ **وكذلك جعلنا** ﴾، يعني كما جعلنا لك أعداء من مشركي قومك كذلك جعلنا، ﴿ **لكل نبي عدوّاً من المجرمين** ﴾، يعني المشركين. قال مقاتل: يقول لا يكبرنّ عليك فإن الأنبياء قبلك قد لقوا هذا من قومهم فاصبرْ لأمري كما صبروا فإني ناصرك وهاديك، ﴿ **وكفى بربّك هادياً ونصيراً** ﴾.

﴿ **وقال الذين كفروا لولا نُزِّل عليه القرآن جملة واحدة** ﴾، كما أنزلت التوراة على موسى والإنجيل على عيسى والزبور على داود، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ **كذلك** ﴾، فعلنا، ﴿ **لنثبتَ به فؤادَك** ﴾، يعني أنزلناه متفرّقاً ليقوى به قلبك فتعيه وتحفظه فإن الكتب أُنزلت على الأنبياء يكتبون ويقرؤون، وأنزل الله القرآن على نبيّ أُميّ لا يكتب ولا يقرأ، ولأن من القرآن الناسخ والمنسوخ، ومنه ما هو جواب إن سأل عن أمور ففرّقناه ليكون أوعى لرسول الله ﷺ وأيسر على العامل به. ﴿ **ورتّلناه ترتيلاً** ﴾، قال ابن عباس بيّناه بياناً، والترتيل التبيين في ترتّل وتثبّت. وقال السدي: فصّلناه تفصيلاً. وقال ومجاهد: بعضه في إثر بعض. وقال النخعي والحسن: فرّقناه تفريقاً آية بعد آية.

﴿ **ولا يأتونك** ﴾، يا محمد يعني هؤلاء المشركين، ﴿ **بمثل** ﴾، يضربونه في إبطال أمرك ﴿ **إلاّ جئناك بالحق** ﴾، يعني بما ترد به ما جاؤوا به من المثل وتبطله، فسُمّي ما يردون من الشبه مثلاً، وسُمّي ما يدفع به الشبه حقّاً، ﴿ **وأحسن تفسيراً** ﴾، يعني بياناً وتفصيلاً، والتفسير تفعيل من الفسر وهو كشف ما قد غطي، ثم ذكرَ ما لهؤلاء المشركين فقال:

﴿ **الذين** ﴾، أي: هم الذين، ﴿ **يُحشرون على وجوههم** ﴾، فيُساقون ويُجرّون، ﴿ **إلى جهنّم أولئك شرّ مكاناً** ﴾، يعني مكانةً ومنزلةً، ويقال منزلاً ومصيراً، ﴿ **وأضلّ سبيلاً** ﴾، أخطأ طريقاً.

قال ابن عباس: وبيناه بياناً والترتيل التبيين في ترسل وتثبت وقيل فرقناه تفريقاً آية بعد آية ﴿**ولا يأتونك**﴾ يعني يا محمد هؤلاء المشركون ﴿**بمثل**﴾ يعني يضربونه لك في إبطال أمرك ﴿**إلا جئناك بالحق**﴾ أي بما ترد به ما جاؤوا به من ما يوردون المثل، وتبطله فسمي ما يوردون من الشبه مثلاً، وسمي ما يدفع به الشبه حقاً ﴿**وأحسن تفسيراً**﴾ يعني أحسن بياناً وتفصيلاً ثم ذكر ما لهؤلاء المشركين فقال تعالى ﴿**الذين**﴾ يعني هم الذين ﴿**يحشرون**﴾ أي يساقون ويجرون ﴿**على وجوههم إلى جهنم أولئك شر مكاناً**﴾ يعني منزلاً ومصيراً ﴿**وأضل سبيلاً**﴾ أي أخطأ طريقاً. قوله تعالى ﴿**ولقد آتينا موسى الكتاب وجعلنا معه أخاه هارون وزيراً**﴾ أي معيناً وظهيراً ﴿**فقلنا اذهبا إلى القوم الذين كذبوا بآياتنا**﴾ يعني القبط ﴿**فدمرناهم**﴾ فيه إضمار أي فكذبوهما فدمرناهم ﴿**تدميراً**﴾ يعني أهلكناهم إهلاكاً ﴿**وقوم نوح لما كذبوا الرسل**﴾ يعني رسولهم ومن كذب رسولاً واحداً فقد كذب جميع الرسل فلذلك ذكره بلفظ الجمع ﴿**أغرقناهم وجعلناهم للناس آية**﴾ أي عبرة لمن بعدهم ﴿**وأعتدنا للظالمين**﴾ في الآخرة ﴿**عذاباً أليماً**﴾ يعني سيرى ما حل بهم من عاجل العذاب في الدنيا ﴿**وعاداً وثمود**﴾ أي أهلكنا عاداً وثمود ﴿**وأصحاب الرس**﴾ قال وهب بن منبه كان أهل بئر الرس نزولاً عليها، وكانوا أصحاب مواش يعبدون الأصنام فبعث الله إليهم شعيباً، يدعوهم إلى الإسلام فتمادوا في طغيانهم وآذوا شعيباً فبينما هم حول البئر في منازلهم، انهارت البئر وخسف بهم وبديارهم ورباعهم وقيل: الرس بئر بفلج اليمامة قتلوا نبيهم فأهلكهم الله. وقال سعيد بن جبير: كان لهم نبي يقال له حنظلة بن صفوان فقتلوه فأهلكهم الله

﴿ **ولقد آتينا موسى الكتاب وجعلنا معه أخاه هارون وزيراً** ﴾، مُعيناً وظهيراً.

﴿ **فقلنا اذهبا إلى القوم الذين كذّبوا بآياتنا** ﴾، يعني القبط، ﴿ **فدمّرناهم** ﴾، فيه إضمار، أي: فكذّبوهما فدمّرناهم، ﴿ **تدميراً** ﴾، أهلكناهم إهلاكاً.

﴿ **وقوم نوح لما كذبوا الرسل** ﴾، أي: الرسول، ومَن كذب رسولاً واحداً فقد كذّب جميع الرسل، فلذلك ذكر بلفظ الجمع. ﴿ **أغرقناهم وجعلناهم للناس آية** ﴾، يعني لمَن بعدهم عبرة، ﴿ **وأعتدنا للظالمين** ﴾، في الآخرة، ﴿ **عذاباً أليماً** ﴾، سوى ما حلّ به من عاجل العذاب. ﴿ **وعاداً وثمودَاْ** ﴾، يعني وأهلكنا عاداً وثمود، ﴿ **وأصحاب الرس** ﴾، اختلفوا فيهم، قال وهب بن منبّه: كانوا أهل بئر قعوداً عليها وأصحاب مواشي يعبدون الأصنام فوجّه الله إليهم شعيباً يدعوهم إلى الإسلام فتمادوا في طغيانهم. وفي أذى شعيب عليه السلام فبينما هم حوالي البئر في منازلهم انهارت بهم البئر فخسف اللَّهُ بهم وبديارهم ورباعهم، فهلكوا جميعاً، والرس: البئر وكل ركية لم تطوَ بالحجارة والآجر فهو رس. وقال قتادة والكلبي: الرس بئر بأرض اليمامة قتلوا نبيّهم فأهلكهم الله عزّ وجلّ، وقال بعضهم: هم بقية ثمود وقوم صالح، وهم أصحاب البئر التي ذكر الله تعالى في قوله: ﴿ **وبئرٍ معطّلةٍ وقَصْرٍ مَشِيْد** ﴾ [الحج: ٤٥]. وقال سعيد بن جبير: كان لهم نبي يقال له حنظلة بن صفوان فقتلوه فأهلكهم الله تعالى. وقال كعب ومقاتل والسدي: الرس بئر بإنطاكية قتلوا فيها حبيباً النجّار، وهم الذين ذكرهم الله في سورة يّس. وقيل هم: أصحاب الأخدود، والرس هو الأخدود الذي حفروه. وقال عكرمة: هم قوم رسّوا نبيّهم في بئر. وقيل: الرس المعدن وجمعه رساس، ﴿ **وقُرُوناً بين ذلك كثيراً** ﴾، يعني وأهلكنا قروناً كثيراً بين عاد وأصحاب الرس.

﴿ **وكلًّا ضربنا له الأمثال** ﴾، يعني الأشباه في إقامة الحجة عليهم، فلم نهلكهم إلاّ بعد الإنذار، ﴿ **وكلًّا تبّرنا تتبيراً** ﴾، يعني أهلكنا إهلاكاً. وقال الأخفش: كسرنا تكسيراً. قال الزجّاج: كل شيء كسّرته وفتّته فقد تبّرته.

وقيل الرس بأنطاكية قتلوا فيها حبيباً النجار هم الذين ذكرهم الله في سورة «يسٓ» وقيل هم أصحاب الأخدود والرس الأخدود ﴿وقروناً بين ذلك كثيراً﴾ أي وأهلكنا قروناً كثيراً بين عاد وثمود وأصحاب الرس ﴿وكلاً ضربنا له الأمثال﴾ أي الأشباه في إقامة الحجة عليهم فلم نهلكهم إلا بعد الإنذار ﴿وكلاً تبرنا تتبيراً﴾ أي أهلكناهم إهلاكاً قوله تعالى ﴿ولقد أتوا على القرية التي أمطرت مطر السوء﴾ يعني الحجارة وهي قريات قوم لوط، وهي خمس قرى أهلك الله منها أربعاً ونجت واحدة. وهي أصغرها وكان أهلها لا يعملون العمل الخبيث ﴿أفلم يكونوا يرونها﴾ يعني إذا مروا بها في أسفارهم فيعتبروا ويتعظوا لأن مدائن قوم لوط كانت على طريقهم في ممرهم إلى الشأم ﴿بل كانوا لا يرجون نشوراً﴾ يعني لا يخافون بعثاً. قوله تعالى:

وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾

﴿وإذا رأوك إن يتخذونك إلا هزواً﴾ نزلت في أبي جهل كان إذا مر مع أصحابه قال مستهزئاً ﴿أهذا الذي بعث الله رسولاً إن كاد ليضلنا﴾ يعني قد قارب أن يضلنا ﴿عن﴾ عبادة ﴿آلهتنا لولا أن صبرنا عليها﴾ يعني على عبادتها والمعنى لو لم نصبر عليها لصرفنا عنها ﴿وسوف يعلمون حين يرون العذاب﴾ أي في الآخرة عياناً ﴿من أضل سبيلاً﴾ أي أخطأ طريقاً ﴿أرأيت من اتخذ إلهه هواه﴾ وذلك أن الرجل من المشركين كان يعبد حجراً، فإذا رأى حجراً أحسن منه رماه وأخذ الأحسن منه وعبده وقال ابن عباس: أرأيت من ترك عبادة الله خالقه، ثم هوى حجراً فعبده ما حاله

﴿ ولقد أتوا على القرية التي أمطرت مطر السوء ﴾، يعني الحجارة وهي قريات قوم لوط وكانت خمس قرى فأهلك الله أربعاً منها وبقيت واحدة، وهي أصغرها وكان أهلها لا يعملون العمل الخبيث، ﴿ أفلم يكونوا يرونها ﴾، إذ مرّوا بهم في أسفارهم فيعتبروا ويتفكّروا لأنّ مدائن قوم لوط كانت على طريقهم عند ممرّهم إلى الشام، ﴿ بل كانوا لا يرجون ﴾، لا يخافون، ﴿ نشوراً ﴾ بعثاً.

قوله عزّ وجلّ: ﴿وإذا رأوك إنْ يتخذونَك﴾، يعني ما يتخذونك، ﴿ إلاّ هُزُواً ﴾، يعني مهزوءاً به، نزلت في أبي جهل كان إذا مرّ بأصحابه على رسول الله ﷺ قال مستهزئاً: ﴿ أهذا الذي بعث الله رسولاً ﴾.

﴿ إنْ كادَ ليضلّنا ﴾، يعني قد قارب أن يضلّنا، ﴿ عن آلهتنا لولا أن صبرنا عليها ﴾، يعني لو لم نصبر عليها لصرفنا عنها، ﴿ وسوف يعلمون حين يرون العذاب مَن أضلّ سبيلاً ﴾، مَن أخطأ طريقاً.

﴿ أرأيت مَن اتخذ إلّهه هواه ﴾، وذلك أن الرجل من المشركين كان يعبد الحجر فإذا رأى حجراً أحسن منه طرح الأول وأخذ الآخر، فعبدوه. وقال ابن عباس: أرأيت مَن ترك عبادة الله وخالقه ثم هوى حجراً فعبده ما حاله عندي، ﴿ أفأنت تكون عليه وكيلاً ﴾، يعني حافظاً يقول أفأنت عليه كفيل تحفظه من اتّباع هواه وعبادة مَن يهوى من دون الله، أي لست كذلك. قال الكلبي: نسختها آية القتال.

عندي وقيل الهوى إله يعبد ﴿أفأنت تكون عليه وكيلاً﴾ أي حافظاً تحفظه من اتباع الهوى وعبادة ما يهواه من دون الله والمعنى لست كذلك وقال الكلبي نسختها آية القتال ﴿أم تحسب أن أكثرهم يسمعون﴾ أي ما تقول سماع طالب الإفهام ﴿أو يعقلون﴾ يعني ما يعاينون من الحجج والأعلام وهذه المذمة أعظم من التي تقدمت، لأنهم لشدة عنادهم لا يسمعون القول وإذا سمعوه لا يتفكرون فيه، فكأنهم لا سمع لهم ولا عقل البتة فعند ذلك شبههم بالأنعام فقال تعالى ﴿إن هم﴾ ﴿أي ما هم إلا كالأنعام﴾ أي في عدم انتفاعهم بالكلام وعدم إقدامهم على التدبر والتفكير ثم قال تعالى ﴿بل هم أضل سبيلاً﴾ لأن البهائم تهتدي لمراعيها ومشاربها وتنقاد لأربابها الذين يتعاهدونها، وهؤلاء الكفار لا يعرفون طريق الحق ولا يطيعون ربهم الذي خلقهم ورزقهم لأن الأنعام تسجد وتسبح والكفار لا يفعلون ذلك.

قوله تعالى ﴿ألم تر إلى ربك كيف مد الظل﴾ هو ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس جعله ممدوداً، لأنه ظل لا شمس معه ﴿ولو شاء لجعله ساكناً﴾ يعني دائماً ثابتاً لا يزول ولا تذهبه الشمس ﴿ثم جعلنا الشمس عليه دليلاً﴾ معنى دلالتها عليه أنه لو لم تكن الشمس لما عرف الظل، ولولا النور لما عرفت الظلمة، والأشياء تعرف بضدها ﴿ثم قبضناه﴾ يعني الظل ﴿إلينا قبضاً يسيراً﴾ يعني بالشمس التي تأتي عليه والمعنى أن الظل يعم جميع الأرض قبل طلوع الشمس فإذا طلعت الشمس قبض الله الظل جزأ فجزأ قبضاً خفيفاً ﴿وهو الذي جعل لكم الليل لباساً﴾ يعني ستراً

﴿ أم تحسب أن أكثرهم يسمعون ﴾ ما تقول سماع طالب الإفهام، ﴿ أو يعقلون ﴾، ما يعاينون من الحجج والإعلام، ﴿ إنْ هم ﴾، ما هم، ﴿ إلاّ كالأنعام بل هم أضلّ سبيلاً ﴾، لأن البهائم تهتدي لمراعيها ومشاربها وتنقاد لأربابها الذين يتعهدونها، وهؤلاء الكفّار لا يعرفون طريق الحق ولا يطيعون ربَّهم الذي خلقهم، ورزقهم، ولأن الأنعام تسجد وتسبّح لله وهؤلاء الكفّار لا يفعلون.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ ألم ترَ إلى ربِّك كيف مَدَّ الظل ﴾، معناه ألم ترَ إلى مَدِّ ربِّك الظلَّ وهو ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس، جعله ممدوداً لأنه ظلٌّ لا شمس معه، كما قال: (في ظل الجنّة)، ﴿ وظلٍّ ممدود ﴾ [الواقعة: ٣٠] لم يكن معه شمس. ﴿ ولو شاء لجعله ساكناً ﴾، أي: دائماً ثابتاً لا يزول ولا تُذهِبه الشمس. قال أبو عبيدة: الظل ما نسخته الشمس. وهو بالغداة والفيء ما نسخ الشمس، وهو بعد الزوال، سُمّي فيئاً لأنه فاء من جانب المشرق إلى جانب المغرب، ﴿ ثم جعلنا الشمس عليه دليلاً ﴾، يعني على الظل. ومعنى دلالتها عليه أنه لو لم تكن الشمس لما عرف الظل ولولا النور لما عرفت الظلمة، والأشياء تُعرَف بأضدادها.

﴿ ثم قبضناه ﴾، يعني الظل، ﴿ إلينا قبضاً يسيراً ﴾، بالشمس التي تأتي عليه، والقبض جمع المنبسط من الشيء معناه أن الظل، يعمّ جميع الأرض قبل طلوع الشمس، فإذا طلعت الشمس قبض الله الظلَّ جزءاً فجزءاً قبضاً يسيراً أي خفيّاً.

﴿ وهو الذي جعل لكم الليل لباساً ﴾ أي ستراً تستترون به، يريد أن ظلمته تغشى كل شيء، كاللباس الذي يشتمل على لابسه، ﴿ والنومَ سُباتاً ﴾، راحةً لأبدانكم وقطعاً لعملكم، وأصل السبت القطع، والنائم مسبوت لأنه انقطع عمله وحركته. ﴿وجعل النهار نشوراً﴾، أي يقظةً وزماناً تنتشرون فيه لابتغاء الرزق وتنتشرون لأشغالكم.

﴿ وهو الذي أرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته ﴾، يعني المطر ﴿ وأنزلنا من السماء ماءً طهوراً ﴾، والطَّهور هو الطاهر في نفسه المطهّر لغيره، فهو اسم لما يتطهّر به كالسحور اسم لما يتسحّر به والفطور اسم لما يفطر به، والدليل عليه ما روينا أن النبي ﷺ قال في البحر: «هو الطهور ماؤه الحلّ ميتته» وأراد به المطهّر فالماء مطهّر لأنه يطهّر الإنسان من الحَدَث والنجاسة، كما قال في آية أخرى: ﴿ ويُنزِّل عليكم من السماء ماءً ليطهّركم

تستَرون به والمعنى أن الظلمة الليل تغشى كل شيء كاللباس، الذي يشتمل على لابسه ﴿والنوم سباتاً﴾ يعني راحة لأبدانكم وقطعاً لأعمالكم ﴿وجعل النهار نشوراً﴾ يعني يقظة وزماناً تنتشرون فيه لابتغاء رزقكم وطلب الاشتغال ﴿وهو الذي أرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته﴾ يعني المطر ﴿وأنزلنا من السماء ماء طهوراً﴾ الطهور هو الطاهر في نفسه المطهر لغيره فهو اسم لما يتطهر به بدليل ما روي عن النبي ﷺ قال في البحر «هو الطهور ماؤه الحل ميتته» أخرجه أبو داود والترمذي والنسائي. وأراد به المطهر والماء المطر لأنه يطهر الإنسان من الحدث والنجاسة فثبت أن التطهير مختص بالماء وذهب أصحاب الرأي إلى أن الطهور وهو الطاهر حتى جوزوا إزالة النجاسة بالمائعات الطاهرة مثل الخل والريق ونحوها، ولو جاز إزالة النجاسة بها لجاز إزالة الحدث بها وذهب بعضهم إلى أن الطهور ما تكرر منه التطهير، وهو قول مالك حتى جوز الوضوء بالماء إذا توضىء به مرة، وإن وقع في الماء شيء غير طعمه أو لونه أو ريحه هل تزول طهوريته نظر إن كان الواقع شيئاً لا يمكن صون الماء عنه، كالطين والتراب وأوراق الأشجار فتجوز الطهارة به كما لو تغير بطول المكث في قراره، وكذلك لو وقع فيه ما لا يختلط كالدهن يصب فيه فيتروح الماء برائحته تجوز الطهارة به لأن تغيره للمجاورة لا للمخالطة، وإن كان شيئاً يمكن صون الماء عنه، ومخالطته كالخل والزعفران ونحوهما تزول طهوريته فلا يجوز الوضوء به وإن لم يتغير أحد أوصافه نظر إن كان الواقع شيئاً طاهراً لا يزيل طهوريته يجوز الوضوء به سواء كان الماء قليلاً أو كثيراً، وإن كان الواقع شيئاً نجساً نظر فيه فإن كان الماء، أقل من قلتين نجس الماء وإن كان قدر قلتين فأكثر فهو طاهر يجوز الوضوء به والقلتان خمسمائة رطل بالبغدادي يدل عليه ما روي عن ابن عمر عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم أنه سئل عن الماء يكون في الفلاة، ترده السباع والذئاب فقال: «إذا كان الماء قلتين لم يحمل الخبث» أخرجه أبو داود والترمذي. وهذا قول الشافعي وأحمد وإسحاق وجماعة من أهل الحديث، أن الماء إذا بلغ هذا الحد لا ينجس بوقوع النجاسة فيه ما لم يتغير أحد أوصافه، وذهب جماعة إلى أن الماء القليل لا

به﴾ [الأنفال: ١١] فثبت به أن التطهير يختصّ بالماء، وذهب أصحاب الرأي إلى أن الطهور هو الطاهر حتى جوّزوا إزالة النجاسة بالمائعات الطاهرة، مثل الخلّ وماء الورد والمرق ونحوها، ولو جاز إزالة النجاسة بها لجاز إزالة الحدث بها، وذهب بعضهم إلى أن الطهور ما يتكرّر منه التطهير كالصبور اسم لمَن يتكرّر منه الصبر والشكور اسم لمَن يتكرر منه الشكر، وهو قول مالك حتى جوّز الوضوء بالماء الذي توضأ منه مرة. وإن وقع في الماء شيء غير طعمه أو لونه أو ريحه هل تزول طهوريته أم لا نظر؟ إن كان الواقع شيئاً لا يمكن صون الماء عنه كالطين والتراب وأوراق الأشجار لا يزول فيجوز الطهارة به كما لو تغيّر لطول المكث في قراره، وكذلك لو وقع فيه ما لا يخالطه كالدهن يُصَبّ فيه فيتروّح الماء برائحته يجوز الطهارة به، لأن تغيّره للمجاوزة لا للمخالطة، وإن كان شيئاً يمكن صون الماء منه ويخالطه كالخلّ والزعفران ونحوهما يزول طهوريته ولا يجوز الوضوء به، وإن لم يتغير أحد أوصافه ينظر إن كان الواقع فيه شيئاً طاهراً لا تزول طهوريته فتجوز الطهارة به سواء كان الماء قليلاً أو كثيراً، وإن كان الواقع فيه شيئاً نجساً ينظر فإن كان الماء قليلاً أقل من القلّتين ينجس الماء وإن كان قدر قلّتين فأكثر فهو طاهر يجوز الوضوء به، والقلّتان خمس قُرَب ووزنه خمسمائة رطل، والدليل عليه ما أخبرنا أحمد بن عبدالله الصالحي أنا أبو بكر أحمد بن الحسن الحيري أنا حاجب بن أحمد الطوسي ثنا عبد الرحيم بن المنيب أنا جرير عن محمد بن إسحاق عن محمد بن جعفر بن الزبير عن عبيد الله بن عبد الله بن عمر عن أبيه عن النبي ﷺ أنه سُئِلَ عن الماء يكون في الفلاة من الأرض وما ينوبه من الدواب والسِّباع فقال: «إذا كان الماء قُلّتين لم يحمل الخبث»، وهذا قول الشافعي وأحمد وإسحاق وجماعة من أهل الحديث أن الماء إذا بلغ هذا الحدّ فلا ينجس بوقوع النجاسة فيه ما لم يتغيّر أحد أوصافه الثلاثة، وذهب جماعة إلى أن الماء القليل لا ينجس بوقوع النجاسة فيه ما لم يتغيّر طعمه أو لونه أو ريحه،

ينجس بوقوع النجاسة فيه ما لم يتغير طعمه أو لونه أو ريحه، وهذا قول الحسن وعطاء والنخعي والزهري واحتجوا بما روي عن أبي سعيد الخدري قال: «قيل يا رسول الله إنه يستقى لك من بئر بضاعة ويلقى فيها لحوم الكلاب وخرق الحيض وعذر النساء، فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إن الماء طهور لا ينجسه شيء» وفي رواية قال «قلت يا رسول الله أيتوضأ من بئر بضاعة، وهي بئر تطرح فيها خرق الحيض ولحوم الكلاب والنتن فقال رسول الله ﷺ «الماء طهور لا ينجسه شيء» وقوله تعالى:

لِّنُحْـِۧيَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُواْ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾

﴿**لنحيي به**﴾ أي بالمطر ﴿**بلدة ميتاً**﴾ قيل: أراد به موضع البلدة ﴿**ونسقيه مما خلقنا**﴾ أي نسقي من ذلك الماء ﴿**أنعاماً وأناسيّ كثيراً**﴾ أي بشراً كثيراً والأناسي جمع إنسي وقيل جمع إنسان قوله عز وجل ﴿**ولقد صرفناه بينهم**﴾ يعني المطر مرة ببلدة ومرة ببلدة أخرى وقال ابن عباس ما عام بأمطر من عام ولكن الله يصرفه في الأرض وقرأ هذه الآية، وهذا كما روي مرفوعاً «ما من ساعة من ليل ولا نهار إلا والسماء تمطر فيها يصرفه الله حيث يشاء» وروي عن

وهو قول الحسن وعطاء والنخعي والزهري، واحتجّوا بما أخبرنا أبو القاسم بن عبد الله بن محمد الحنفي أنا أبو الحارث طاهر بن محمد الطاهري ثنا أبو محمد الحسن بن محمد بن حكيم ثنا أبو الموجّه بن محمد بن عمرو بن الموجّه ثنا صدقة بن الفضل أنا أبو أسامة عن الوليد بن كثير عن محمد بن كعب القرظي عن عبد الله بن عبد الرحمن ثنا رافع بن خديج عن أبي سعيد الخدري قال: قيل يا رسول الله أنتوضأ من بئر بضاعة؟ وهي بئر يلقي في الحيض ولحوم الكلاب والنتن، فقال رسول الله ﷺ: «إن الماء طهور لا ينجسه شيء».

قوله عزّ وجلّ: ﴿**لنحيي به**﴾، أي: بالمطر، ﴿ **بلدةً ميتاً** ﴾، ولم يقل ميتة لأنه رجع به إلى الموضع والمكان، ﴿ **ونسقيه مما خلقنا أنعاماً** ﴾، نسقي من ذلك الماء أنعاماً، ﴿ **وأناسيَّ كثيراً** ﴾، أي بشراً كثيراً، والأناسي جمع أنسي، وقيل جمع إنسان، وأصله أناسين مثل بستان وبساتين، فجعل الياء عوضاً عن النون.

﴿ **ولقد صرفناه بينهم** ﴾، يعني المطر مرة ببلد ومرة ببلد آخر. قال ابن عباس: ما من عام بأمطر من عام ولكن الله يصرفه في الأرض. وقرأ هذه الآية وهذا كما رُوِيَ مرفوعاً ما من ساعة من ليل أو نهار إلّا والسماء تمطر فيها يصرفه الله حيث يشاء. وذكر ابن إسحاق وابن جريج ومقاتل وبلغوا به، وابن مسعود يرفعه قال: «ليس من سنة بأمطر من أخرى ولكنّ الله قسم هذه الأرزاق فجعلها في السماء الدنيا في هذا القطر ينزل منه كل سنة بكيل معلوم ووزن معلوم، وإذا عمل قوم بالمعاصي حوّل الله ذلك إلى غيرهم، فإذا عصوا جميعاً صرف الله ذلك إلى الفيافي والبحار». وقيل: المراد من تصريف المطر تصريفه وابلاً وطلاًّ ورذاذاً ونحوها. وقيل: التصريف راجع إلى الريح.
﴿ **ليذكّروا** ﴾ أي ليتذكروا ويتفكّروا في قدرة الله تعالى، ﴿ **فأبى أكثر الناس إلاّ كُفُوراً** ﴾، جحوداً، وكفرانهم هو

ابن مسعود يرفعه، قال: ليس من سنة بأمطر من سنة أخرى ولكن الله عزّ وجلّ قسم هذه الأرزاق فجعلها في هذه السماء الدنيا في هذا القطر ينزل منه كل سنة بكيل معلوم، ووزن معلوم وإذا عمل قوم بالمعاصي حول الله ذلك إلى غيرهم وإذا عصوا جميعاً صرف الله ذلك المطر إلى الفيافي والبحار، وقيل: المراد من تصريف المطر تصريفه وابلاً وطشاً ورذاذاً ونحوها وقيل التصريف راجع إلى الريح ﴿ليذكروا﴾ أي ليتذكروا ويتفكروا في قدرة الله تعالى ﴿فأبى أكثر الناس إلا كفوراً﴾ أي جحوداً في كفرهم هو أنهم إذا مطروا قالوا أمطرنا بنوء كذا (ق) عن زيد بن خالد الجهني أنه قال: صلّى بنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح بالحديبية في أثر سماء من الليل، فلما انصرف أقبل على الناس فقال «هل تدرون ماذا قال ربكم قالوا الله ورسوله أعلم قال أصبح عن عبادي مؤمن بي وكافر فأما من قال مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي وكافر بالكواكب وأما من قال مطرنا بنوء كذا وكذا فذلك كافر بي مؤمن بالكواكب»

قوله تعالى: ﴿ولو شئنا لبعثنا في كل قرية نذيراً﴾ أي رسولاً ينذرهم ولكن بعثناك إلى القرى كلها وحملناك ثقل النذارة لتستوجب بصبرك ما أعددنا لك من الكرامة والدرجة الرفيعة ﴿فلا تطع الكافرين﴾ فيما يدعونك إليه من موافقتهم ومداهنتهم ﴿وجاهدهم به﴾ أي بالقرآن ﴿جهاداً كبيراً﴾ أي شديداً. قوله تعالى: ﴿وهو الذي مرج البحرين﴾ أي خلطهما وأفاض أحدهما على الآخر وقيل أرسلهما في مجاريهما ﴿هذا عذب فرات﴾ أي شديد العذوبة يميل إلى الحلاوة ﴿وهذا ملح أجاج﴾ أي شديد الملوحة وقيل مر ﴿وجعل بينهما برزخاً﴾ أي حاجزاً بقدرته فلا يختلط العذب بالملح ولا الملح بالعذب ﴿وحجراً محجوراً﴾ أي ستراً ممنوعاً فلا يبغي أحدهما على الآخر ولا يفسد الملح العذب. قوله تعالى: ﴿وهو الذي خلق من الماء﴾ أي من النطقة ﴿بشراً فجعله نسباً وصهراً﴾ أي جعله ذا نسب وصهر وقيل

أنهم إذا مطروا قالوا مطرنا بنوء كذا وكذا. أخبرنا أبو الحسن السرخسي أنا زاهر بن أحمد أنا أبو إسحاق الهاشمي أنا أبو مصعب عن مالك بن أنس عن صالح بن كيسان عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود عن زيد بن خالد الجهني أنه قال: صلّى بنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح بالحديبية في أثر سماء كانت من الليل فلما انصرف أقبل على الناس فقال: هل تدرون ماذا قال ربّكم؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأمّا مَن قال مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي، وكافر بالكواكب، وأمّا مَن قال: مطرنا بنوء كذا وكذا فذلك كافر بي مؤمن بالكواكب».

قوله عزّ وجلّ: ﴿ ولو شئنا لبعثنا في كل قرية نذيراً ﴾، رسولاً ينذرهم، ولكن بعثناك إلى القرى كلها وحملناك ثقل النذارة جميعها لتستوجب بصبرك على ما أعددنا لك من الكرامة والدرجة الرفيعة.

﴿ فلا تطعِ الكافرين ﴾ فيما يدعونك فيه من موافقتهم ومداهنتهم. ﴿ وجاهدهمْ به ﴾ أي: بالقرآن، ﴿ جهاداً كبيراً ﴾، شديداً.

﴿ وهو الذي مرج البحرين ﴾، أي: خلطهما وأفاض أحدهما في الآخر، وقيل: أرسلهما في مجاريهما وخلاهما كما يرسل الخيل في المرج، وأصل المرج الخلط والإرسال، يقال: مرجت الدابّة وأمرجتها إذا أرسلتها في المرعى وخلّيتها تذهب حيث تشاء، ﴿ هذا عذبٌ فُرَاتٌ ﴾، شديد العذوبة والفرات أعذب المياه، ﴿ وهذا مِلْحٌ أجاج ﴾، شديد الملوحة. وقيل: أجاج أي مرّ، ﴿ وجعل بينهما برزخاً ﴾ أي: حاجزاً بقدرته لئلا يختلط العذب بالملح ولا الملح بالعذب، ﴿ وحِجْراً محجوراً ﴾ أي: ستراً ممنوعاً فلا يبغيان، فلا يفسد الملح العذب.

﴿ وهو الذي خلق من الماء ﴾، من النطفة، ﴿ بشراً فجعله نسباً وصهراً ﴾ أي: جعله ذا نسب وذا صهر، قيل: النسب ما لا يحلّ نكاحه والصهر ما يحلّ نكاحه، فالنسب ما يوجب الحُرمة والصهر ما لا يوجبها، وقيل: هو

النسب ما لا يحل نكاحه والصهر ما يحل نكاحه والنسب ما يوجب الحرمة والصهر ما لا يوجبها وقيل النسب من القرابة والصهر الخلطة التي تشبه القرابة وهو النسب المحرم للنكاح وقد حرم الله بالنسب سبعاً وبالسبب سبعاً ويجمعها قوله ﴿حرمت عليكم أمهاتكم﴾ الآية وقد تقدم تفسير ذلك وبيانه في تفسير سورة النساء **﴿وكان ربك قديراً﴾** على ما أراد حيث خلق من النطفة الواحدة نوعين من البشر الذكر والأنثى **﴿ويعبدون من دون الله﴾** يعني هؤلاء المشركين **﴿ما لا ينفعهم﴾** أي إن عبدوه **﴿ولا يضرهم﴾** أي إن تركوه **﴿وكان الكافر على ربه ظهيراً﴾** أي معيناً أعان الشيطان على ربه بالمعاصي لأن عبادتهم الأصنام معاونة للشيطان وقيل معنى ظهيراً هيناً ذليلاً من قولك ظهرت بفلان إذا جعلته وراء ظهرك ولم تلتفت إليه وقيل أراد بالكافر أبا جهل والأصح أنه عام في كل كافر. وقوله تعالى: **﴿وما أرسلناك إلا مبشراً﴾** أي بالثواب على الإيمان والطاعة **﴿ونذيراً﴾** منذراً بالعقاب على الكفر والمعصية **﴿قل﴾** يا محمد **﴿ما أسألكم عليه﴾** أي على تبليغ الوحي **﴿من أجر﴾** فتقولون إنما يطلب محمد أموالنا بما يدعوننا إليه فلا نتبعه **﴿إلا من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلاً﴾** معناه لكن من شاء أن يتخذ بإنفاق ماله سبيلاً إلى ربه فعلى هذا يكون المعنى لا أسألكم لنفسي أجراً، ولكن أمنع من إنفاق المال إلا في طلب مرضاة الله، واتخاذ السبيل إلى جنته. قوله عز وجل:

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۩ ﴿٦٠﴾ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾﴾

﴿وتوكل على الحي الذي لا يموت﴾ معناه أنه سبحانه وتعالى لما أمر نبيه صلّى الله عليه وسلّم بأن لا يطلب

الصحيح النسب من القرابة والصهر الخلطة التي تشبه القرابة، وهو السبب المحرّم للنكاح، وقد ذكرنا أن الله تعالى حكّم بالنسب سبعاً وبالسبب سبعاً في قوله: ﴿ حُرِّمَتْ عليكم أُمّهاتُكم ﴾ [النساء: ٢٣]. **﴿ وكان ربّك قديراً ﴾**.

﴿ ويعبدون من دون الله ﴾، يعني هؤلاء المشركين، **﴿ ما لا ينفعهم ﴾**، إن عبدوه، **﴿ ولا يضرّهم ﴾**، إن تركوه، **﴿ وكان الكافر على ربّه ظهيراً ﴾**، أي: مُعيناً للشيطان على ربّه بالمعاصي. وقال الزجّاج: أي يعاون الشيطان على معصية الله لأن عبادتهم الأصنام معاونة للشيطان. وقيل: معناه وكان الكافر على ربّه ظهيراً أي هيّناً ذليلاً كما يقال الرجل جعلني بظهير أي جعلني هيّناً. ويقال: ظهر به إذا جعله خلف ظهره فلم يلتفت إليه.

﴿ وما أرسلناك إلّا مبشّراً ونذيراً ﴾، أي: منذراً.

﴿ قلْ ما أسألكم عليه ﴾، أي على تبليغ الوحي، **﴿ من أجر ﴾**، فتقولوا إنما يطلب محمد أموالنا بما يدعونا إليه فلا نتّبعه، **﴿ إلّا مَن شاء أن يتخذ إلى ربّه سبيلاً ﴾**، هذا من الاستثناء المنقطع، مجازه: لكن مَن شاء أن يتخذ إلى ربّه سبيلاً بالإنفاق من ماله في سبيله فعل ذلك، والمعنى: لا أسألكم لنفسي أجراً ولكن لا أمنع من إنفاق المال في طلب مرضاة الله واتخاذ السبيل إلى جنته.

﴿ وتوكّلْ على الحيّ الذي لا يموت وسبّحْ بحمده ﴾، أي صلِّ له شكراً على نعمه. وقيل: قل سبحان الله

منهم أجراً البتة أمره أن يتوكل عليه في جميع أموره، وإنما قال على الحي الذي لا يموت لأن من توكل على حي يموت انقطع توكله عليه بموته، وأما الله سبحانه وتعالى فإنه حي لا يموت فلا ينقطع توكل من توكل عليه، ولا يضيع البتة ﴿**وسبح بحمده**﴾ أي صل له شكراً على نعمه وقيل: معناه قل سبحان الله والحمد لله ﴿**وكفى به بذنوب عباده خبيراً**﴾ يعني أنه تعالى عالم بجميع ذنوب عباده فيجازيهم بها. وقيل: معناه أنه لا يحتاج معه إلى غيره لأنه خبير عالم قادر على مكافأتهم وفيه وعيد شديد، كأنه إذا قدمتم على مخالفة أمره كفاكم علمه في مجازاتكم بما تستحقون من العقوبة. قوله عز وجل ﴿**الذي خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش الرحمن فاسأل به خبيراً**﴾ أي فاسأل الخبير بذلك، يعني بما ذكر من خلق السموات والأرض والاستواء على العرش. وقيل: معناه أيها الإنسان لا ترجع في طلب العلم، بهذا إلى غيري وقيل معناه فاسأل عنه خبيراً وهو الله تعالى وقيل: هو جبريل عليه السلام ﴿**وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن**﴾ أي ما نعرف الرحمن إلا رحمان اليمامة يعنون مسيلمة الكذاب كانوا يسمونه رحمان اليمامة ﴿**أنسجد لما تأمرنا**﴾ أنت يا محمد ﴿**وزادهم**﴾ يعني قول القائل اسجدوا للرحمن ﴿**نفوراً**﴾ يعني عن الإيمان والسجود.

والحمد لله، ﴿ **وكفى به بذنوب عباده خبيراً** ﴾، عالماً بصغيرها وكبيرها فيجازيهم بها.

﴿ **الذي خلق السمٰواتِ والأرضَ وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش الرحمن فاسأل به خبيراً** ﴾، أي بالرحمن، قال الكلبي: يقول فاسأل الخبير بذلك يعني بما ذكرنا من خلق السمٰوات والأرض والاستواء على العرش. وقيل: الخطاب للرسول والمراد منه غيره لأنه كان مصدّقاً به، والمعنى: أيها الإنسان لا ترجع في طلب العلم بهذا إلى غيري. وقيل: الباء بمعنى عن أي: فاسأل عنه خبيراً وهو الله عزّ وجلّ. وقيل: جبريل عليه السلام.

﴿ **وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن** ﴾، ما نعرف الرحمن إلّا رحمن اليمامة، يعنون مسيلمة الكذّاب، كانوا يسمّونه رحمن اليمامة. ﴿ **أنسجد لما تأمرنا** ﴾، قرأ حمزة والكسائي «يأمرنا» بالياء أي لما يأمرنا محمد بالسجود له، وقرأ الآخرون بالتاء أي لما تأمرنا أنت يا محمد، ﴿ **وزادهم** ﴾ يعني زادهم قول القائل لهم: ﴿ **اسجدوا للرحمن** ﴾ ﴿ **نفوراً** ﴾، عن الدين والإيمان.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ **تبارك الذي جعل في السماء بروجاً** ﴾، قال الحسن ومجاهد وقتادة: النجوم هي النجوم الكبار سُمّيت بروجاً لظهورها، وقال عطية العوفي: بروجاً أي قصوراً فيها الحرس، كما قال: ﴿ ولو كنتم في بُروج مشيّدة ﴾ [النساء: ٧٨]، وقال عطاء عن ابن عباس: هي البروج الإثنا عشر التي هي منازل الكواكب السبعة السيّارة، وهي الحمل والثور والجوزاء والسرطان والأسد والسنبلة والميزان والعقرب والقوس والجدي والدلو والحوت، فالحمل والعقرب بيتا المريخ، والثور والميزان بيتا الزهرة، والجوزاء والسنبلة بيتا عطارد، والسرطان بيت القمر، والأسد بيت الشمس، والقوس والحوت بيتا المشتري، والجدي والدلو بيتا زُحَل. وهذه البروج مقسومة على الطبائع الأربع فيكون نصيب كل واحد منها ثلاثة بروج تسمى المثلثات، فالحمل والأسد والقوس مثلثه نارية، والثور والسنبلة والجدي مثلثه أرضية والجوزاء والميزان والدلو مثلثه هوائية، والسرطان والعقرب والحوت مثلثه مائية. ﴿ **وجعل فيها سراجاً** ﴾، يعني الشمس كما قال: ﴿ وجعل الشمس سراجاً ﴾ [نوح: ١٦] وقرأ حمزة والكسائي (سرجاً) بالجمع يعني النجوم. ﴿ **وقمراً منيراً** ﴾، والقمر قد دخل في السرج على قراءة مَن قرأ بالجمع، غير أنه خصّه بالذكر لنوع فضيلة، كما قال: ﴿ فيهما فاكهة ونخل ورمّان ﴾ [الرحمن: ٦٨]، خصّ النخل والرمّان بالذكر مع دخولهما في الفاكهة.

فصل

وهذه السجدة من عزائم السجدات فيسن للقارىء، والمستمع أن يسجدا عند سماعها وقراءتها. قوله تعالى ﴿**تبارك الذي جعل في السماء بروجاً**﴾ قيل: البروج هي النجوم الكبار سميت بروجاً لظهورها، وقيل: البروج قصور فيها الحرس. وقال ابن عباس: هي البروج الاثنا عشر التي هي منازل الكواكب السبعة السيارة، وهي الحمل والثور والجوزاء والسرطان والأسد والسنبلة والميزان والعقرب والقوس والجدي والدلو والحوت سميت بالبروج، التي هي القصور العالية لأنها للكواكب كالمنازل لسكانها ﴿**وجعل فيها سراجاً**﴾ يعني الشمس ﴿**وقمراً منيراً وهو الذي جعل الليل والنهار خلفة**﴾ قال ابن عباس معناه خلفاً، وعوضاً يقوم أحدهما مقام صاحبه فمن فاته عمله في أحدهما قضاه في الآخر. قال شقيق: جاء رجل إلى عمر بن الخطاب. قال فاتتني الصلاة الليلة قال أدرك ما فاتك من ليلتك في نهارك، فإنّ الله جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر. وقيل جعل كل واحد منهما مخالفاً لصاحبه فجعل هذا أسود وهذا أبيض وقيل يخلف أحدهما صاحبه إذا ذهب هذا جاء هذا فهما يتعقبان في الضياء، والظلمة والزيادة والنقصان ﴿**لمن أراد أن يذكر**﴾ أي يتذكر ويتعظ ﴿**أو أراد شكوراً**﴾ يعني شكر نعمة ربه عليه فيهما. قوله عز وجل ﴿**وعباد الرحمن**﴾ قيل هذه الإضافة للتخصيص، والتفضيل وإلا فالخلق كلهم عباد الله ﴿**الذين يمشون على الأرض هوناً**﴾ يعني بالسكينة والوقار متواضعين غير أشرين، ولا مرحين ولا متكبرين بل علماء حكماء، أصحاب وقار وعفة ﴿**وإذا خاطبهم الجاهلون**﴾ يعني السفهاء بما يكرهونه ﴿**قالوا سلاماً**﴾ يعني سداداً من القول يسلمون فيه لا يسفهون

﴿ **وهو الذي جعل الليلَ والنهارَ خِلْفَةً** ﴾، اختلفوا فيها قال ابن عباس والحسن وقتادة: يعني خلفاً وعوضاً يقوم أحدهما مقام صاحبه، فمَن فاته عمله في أحدهما قضاه في الآخر. قال شقيق: جاء رجل إلى عمر بن الخطاب، قال فاتتني الصلاة الليلة، فقال أدرك ما فاتك من ليلتك في نهارك، فإن الله عزّ وجلّ جعل الليل والنهار خلفة لمَن أراد أن يذكر. قال مجاهد: يعني جعل كل واحد منهما مخالفاً لصاحبه فجعل هذا أسود وهذا أبيض، وقال ابن زيد وغيره يعني يخلف أحدهما صاحبه إذا ذهب أحدهما جاء الآخر فهما يتعاقبان في الضياء والظلمة والزيادة والنقصان، ﴿ **لمَن أراد أن يذكر** ﴾، قرأ حمزة بتخفيف الدال والكاف وضمّها من الذكر، وقرأ الآخرون بتشديدهما أي يتذكّر ويتّعظ ﴿ **أو أراد شكوراً** ﴾، قال مجاهد: أي شكر نعمة ربّه عليه فيهما.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ **وعباد الرحمن** ﴾، يعني أفاضل العباد. وقيل: هذه الإضافة للتخصيص والتفضيل، وإلا فالخلق كلهم عباد الله. ﴿ **الذين يمشون على الأرض هوناً** ﴾، يعني بالسكينة والوقار متواضعين غير أشرين ولا مرحين، ولا متكبرين، وقال الحسن: علماء وحكماء. وقال محمد بن الحنفية: أصحاب وقار وعفّة لا يسفهون، وإن سُفّه عليهم حلموا، والهون في اللغة والرفق واللين، ﴿ **وإذا خاطبهم الجاهلون** ﴾، يعني السفهاء بما يكرهون، ﴿ **قالوا سلاماً** ﴾، قال مجاهد: سداداً من القول. وقال مقاتل بن حيان: قولاً يسلمون فيه من الإثم. وقال الحسن: إن جهل عليهم جاهل حلموا ولـم يجهلوا، وليس المراد منه السلام المعروف. ورُوِيَ عن الحسن: معناه سلّموا عليهم، دليله قوله عزّ وجلّ: ﴿ وإذا سمعوا اللغوَ أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم ﴾ [القصص: ٥٥]، قال الكلبي وأبو العالية: هذا قبل أن يؤمر بالقتال، ثم نسختها آية القتال: ورُوِيَ عن الحسن البصري أنه كان إذا قرأ هذه الآية قال: هذا وصف نهارهم، ثم قرأ ﴿ **والذين يبيتون لربهم سجّداً وقياماً** ﴾، قال: هذا وصف ليلهم.

قوله تعالى: ﴿ **والذين يبيتون لربِّهم** ﴾، يقال لمَن أدرك الليل: بات نام أو لم ينم، يقال: بات فلان قلقاً،

وإن سفه عليهم حلموا ولم يجهلوا وليس المراد منه السلام المعروف وقيل هذا قبل أن يؤمروا بالقتال ثم نسختها آية القتال ويروى عن الحسن البصري أنه كان إذا قرأ هذه الآية قال: هذا وصف نهارهم ثم إذا قرأ ﴿**والذين يبيتون لربهم سجداً وقياماً**﴾ قال هذا وصف ليلهم، والمعنى يبيتون لربهم في الليل بالصلاة سجداً على وجوههم وقياماً على أقدامهم. قال ابن عباس، من صلّى بعد العشاء الأخيرة ركعتين أو أكثر فقد بات لله ساجداً وقائماً (م) عن عثمان بن عفان رضي الله عنه: قال: قال رسول الله ﷺ «من صلى العشاء في جماعة كان كقيام نصف الليل ومن صلى الفجر في جماعة كان كقيام ليلة» قوله عز وجل:

﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ۝٦٥ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ۝٦٦ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ۝٦٧ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ۝٦٨ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ۝٦٩ إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝٧٠﴾

﴿**والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراماً**﴾ أي ملحاً دائماً لازماً غير مفارق من عذب من الكفار. قال محمد بن كعب القرظي: سأل الله الكفار ثمن نعمته فلم يؤدوه فأغرمهم فبقوا في النار، وقال كل غريمه مفارق غريم إلا جهنم: وقيل: الغرام الشر اللازم والهلاك الدائم ﴿**إنها**﴾ يعني جهنم ﴿**ساءت**﴾ بئست ﴿**مستقراً ومقاماً**﴾ أي موضع قرار وإقامة ﴿**والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا**﴾ قيل الإسراف النفقة في معصية الله، وإن

والمعنى يبيتون لربهم بالليل في الصلاة، ﴿ **سُجّداً** ﴾، على وجوههم، ﴿ **وقياماً** ﴾ على أقدامهم. قال ابن عباس: مَن صلّى بعد العشاء الآخرة ركعتين أو أكثر فقد بات لله ساجداً. وقائماً، أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أبو منصور محمد بن سمعان أنا أبو جعفر محمد بن أحمد بن عبد الجبّار الرياني ثنا حميد بن زنجويه ثنا أبو نعيم عن سفيان عن عثمان بن حكيم عن عبد الرحمن بن أبي عمرة عن عثمان بن عفّان قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَن صلّى العشاء في جماعة** فكأنما قام نصف الليل، ومَن صلّى الصبح في جماعة فكأنما صلّى الليل كله».

قوله عزّ وجلّ: ﴿ **والذين يقولون ربّنا اصرفْ عنّا عذاب جهنّم إن عذابها كان غراماً** ﴾، يعني ملحاً دائماً لازماً غير مفارق مَن عذّب به من الكفّار، ومنه سُمّي الغريم لطلبه حقه والحاجة على صاحبه وملازمته إياه. قال محمد بن كعب القرظي: سأل الله الكفّار ثمن نعمه فلم يؤدّوا فأغرمهم فيه، فبقوا في النار. قال الحسن: كل غريم يفارق غريمه إلّا جهنّم. والغرام الشرّ اللازم، وقيل: غراماً هلاكاً.

﴿ **إنها** ﴾، يعني جهنم، ﴿ **ساءتْ مُستقراً ومُقاماً** ﴾، يعني بئس موضع قرار وإقامة.

﴿ **والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا** ﴾، قرأ ابن كثير وأهل البصرة ﴿ **يقتروا** ﴾ بفتح الياء وكسر التاء، وقرأ أهل المدينة وابن عامر بضم الياء وكسر التاء، وقرأ الآخرون بفتح الياء وضمّ التاء، وكلها لغات صحيحة. يقال: أقتر وقتّر بالتشديد، وقتَر يقتُر، واختلفوا في معنى الإسراف والإقتار، فقال بعضهم: الإسراف النفقة في معصية الله وإن قلّت، والإقتار منع حق الله تعالى. وهو قول ابن عباس ومجاهد وقتادة وابن جريج وقال الحسن في هذه الآية لم ينفقوا في معاصي الله ولم يمسكوا عن فرائض الله. وقال قوم: الإسراف مجاوزة الحدّ في الإنفاق، حتى يدخل في حدّ التبذير والإقتار التقصير عمّا لا بدّ منه، وهذا معنى قول إبراهيم لا يجيعهم ولا يُعرّيهم ولا ينفق

قلت والإقتار منع حقوق الله تعالى وهو قول ابن عباس. وقيل: الإسراف مجاوزة الحد في الإنفاق، حتى يدخل في حد التبذير والإقتار التقصير عما لا بد منه وهو أن لا يجيع عياله ولا يعريهم ولا ينفق نفقة يقول الناس قد أسرف ﴿وكان بين ذلك قواماً﴾ أي قصداً وسطاً بين الإسراف والإقتار وحسنة بين السيئتين قيل: هذه الآية في صفة أصحاب محمد ﷺ كانوا لا يأكلون الطعام للتنعم واللذة لا يلبسون ثوباً للجمال، ولكن كانوا يريدون من الطعام ما يسد عنهم الجوع ويقويهم على عبادة ربهم ومن الثياب ما يسترون به العورة، ويقيهم من الحر والبرد. قال عمر بن الخطاب كفى سرفاً أن لا يشتهي شيئاً إلا اشتراه فأكله ﴿والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر﴾ (ق) عن ابن عباس «أن أناساً من أهل الشرك كانوا قد قتلوا فأكثروا وزنوا فأكثروا فأتوا محمداً ﷺ فقالوا: إن الذي تقول وتدعونا إليه لحسن لو تخبرنا أن لما عملنا كفارة فنزل ﴿والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون﴾ ونزل ﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله﴾ (ق) عن عبدالله بن مسعود قال: قال رجل «يا رسول الله أي الذنب أكبر عند الله قال: أن تدعو لله نداً وهو خلقك، قال: ثم أي قال أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك. قال: ثم أي قال أن تزاني حليلة جارك، فأنزل الله تعالى تصديقه، والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون» ﴿ومن يفعل ذلك يلق أثاماً﴾ أي ومن يفعل شيئاً من ذلك يلق أثاماً قال ابن عباس إنما يريد جزاء الإثم، وقيل عقوبة وقيل: الأثام واد في جهنم ويروى في الحديث «أن الغي والأثام بئران في

نفقة يقول الناس قد أسرف، ﴿ وكان بين ذلك قواماً ﴾، قصداً وسطاً بين الإسراف والإقتار، حسنةٌ بين السيئتين. وقال يزيد بن أبي حبيب في هذه الآية: أولئك أصحاب محمد ﷺ كانوا يأكلون طعاماً للتنعّم واللذّة ولا يلبسون ثوباً للجمال، ولكن كانوا يريدون من الطعام ما يسدّ عنهم الجوع ويقوّيهم على عبادة ربّهم، ومن الثياب ما يستر عوراتهم ويكنهم من الحرّ والقرّ. قال عمر بن الخطاب: كفى سرفاً أن لا يشتهي الرجل شيئاً إلاّ اشتراه فأكله.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ والذين لا يدعون مع الله إلَهاً آخر ﴾ الآية. أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا إبراهيم بن موسى أنا هشام بن يوسف بن جريج أخبرهم قال: قال يعلى وهو يعلى بن مسلم أنا سعيد بن جبير أخبره عن ابن عباس أن ناساً من أهل الشرك كانوا قد قتلوا فأكثروا وزنوا فأكثروا فأتوا محمداً ﷺ فقالوا: إن الذي تقول وتدعو إليه لحسن لو تخبرنا بأن لنا عملنا كفّارة، فنزل: ﴿ والذين لا يدعون مع الله إلَهاً آخر ﴾، ﴿ ولا يقتلون النفس التي حرّم الله إلاّ بالحق ولا يزنون ﴾، ونزل: ﴿ قلْ يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ﴾ [الزّمر: ٥٣]. أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا قتيبة بن سعيد ثنا جرير عن الأعمش عن أبي وائل عن عمرو بن شرحبيل قال: قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رجل: يا رسول الله أيّ الذنب أكبر عند الله؟ قال: «أن تدعوا لله ندّاً وهو خلقك» قال: ثم أيّ؟ قال: «أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك»، قال: ثم أيّ؟ قال: «أن تزاني حليلة جارك»، فأنزل الله تصديقها: ﴿ والذين لا يدعون مع الله إلَهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرّم الله إلاّ بالحق ولا يزنون ومَنْ يفعلْ ذلك يلقَ أثاماً ﴾. قوله عزّ وجلّ: ﴿ ومَن يفعل ذلك ﴾، أي شيئاً من هذه الأفعال، ﴿ يلقَ آثاماً ﴾، يوم القيامة، قال ابن عباس رضي الله عنهما إنما يريد جزاء الإثم. وقال أبو عبيدة الآثام العقوبة. وقال مجاهد: الآثام وادٍ في جهنم. يُروى ذلك عن عبد الله بن عمرو بن العاص، ويُروَى في الحديث: «الغيّ والآثام بئران يسيل فيها صديد أهل النار».

﴿ يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مُهاناً ﴾، قرأ ابن عامر وأبو بكر ﴿ يضاعف ﴾ و﴿ يخلد ﴾برفع الفاء والدال على الابتداء، وشدّاد بنُ عامر (يضعف)، وقرأ الآخرون بجزم الفاء والدال على جواب الشرط.

جهنم يسيل فيهما صديد أهل النار» ﴿يضاعف له العذاب يوم القيامة﴾ وسبب تضعيف العذاب، أن المشرك إذا ارتكب المعاصي مع الشرك يضاعف له العذاب على شركه ومعصيته ﴿ويخلد فيه مهاناً﴾ أي ذليلاً.

قوله تعالى ﴿إلا من تاب﴾ أي عن ذنبه ﴿وآمن﴾ يعني بربه ﴿وعمل عملاً صالحاً﴾ أي فيما بينه وبين ربه روي عن ابن عباس رضي الله عنه عنهما قال: قرأناها على عهد رسول الله ﷺ سنين والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر الآية ثم نزلت إلا من تاب فما رأيت النبيّ ﷺ فرح بشيء قط مثل ما فرح بها وفرحه بإنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر». وقوله تعالى ﴿فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفوراً رحيماً﴾ قال ابن عباس: يبدلهم الله بقبائح أعمالهم في الشرك محاسن الأعمال في الإسلام فيبدلهم بالشرك إيماناً، وبقتل المؤمنين قتل المشركين، وبالزنا عفة وإحصاناً وقيل يبدل الله سيئاتهم التي عملوها في الإسلام حسنات يوم القيامة (م) عن أبي ذر قال قال رسول الله ﷺ «إني لأعلم آخر أهل الجنة دخولاً الجنة، وآخر أهل النار خروجاً منها رجل يؤتى به يوم القيامة فيقال أعرضوا عليه صغار ذنوبه وارفعوا عنه كبارها فتعرض عليه صغارها فيقال له: عملت يوم كذا وكذا كذا وكذا وعملت يوم كذا وكذا كذا وكذا فيقول نعم لا يستطيع أن ينكر، وهو مشفق من كبار ذنوبه أن تعرض عليه فيقال له إن لك مكان كل سيئة حسنة فيقول يا رب قد عملت أشياء لا أراها ها هنا قال فلقد رأيت رسول الله ﷺ ضحك حتى بدت نواجذه وقيل إن الله تعالى يمحو بالندم جميع السيئات ثم يثبت مكان كل سيئة حسنة.

وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا

﴿ إلاّ مَن تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً ﴾، قال قتادة: إلاّ مَن تاب وآمن بربّه وعمل عملاً صالحاً فيما بينه وبين ربه، أخبرنا أبو سعيد الشريحي أنا أبو إسحاق الثعلبي أخبرني أبو الحسين بن محمد بن عبد الله ثنا موسى بن محمد ثنا موسى بن هارون الحمّال ثنا إبراهيم بن محمد الشافعي ثنا عبد الله بن رجاء عن عبيد الله بن عمر عن علي بن يزيد عن يوسف محمد بن مهران عن ابن عباس قال: قرأناها على عهد رسول الله ﷺ سنتين: ﴿ والذين لا يدعون مع الله إلَهاً آخر ﴾ الآية، ثم نزلت: ﴿ إلاّ مَن تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً ﴾، فما رأيت النبي ﷺ فرح بشيء قطّ كفرحه بها وفرحه: ﴿ بإنّا فتحنا لك فتحاً مُبيناً ليغفر لك الله ما تقدّم من ذنبك وما تأخر ﴾ [الفتح: ١ و٢]، ﴿ فأولئك يبدّل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفوراً رحيماً ﴾، فذهب جماعة إلى أن هذا التبديل في الدنيا. قال ابن عباس وسعيد بن جبير والحسن ومجاهد والسدي والضحاك: يبدلهم الله بقبائح أعمالهم في الشرك محاسن الأعمال في الإسلام، فيبدلهم بالشرك إيمانهم وبقتل المؤمنين قتل المشركين، وبالزنا عفةً وإحصاناً. وقال قوم: يبدل الله سيآتهم التي عملوها في الإسلام حسنات يوم القيامة، وهو قول سعيد بن المسيب ومكحول، يدلّ عليه ما أخبرنا أبو محمد عبد الله بن عبد الصمد الجورجاني أنا أبو القاسم علي بن أبي أحمد الخزاعي أنا الهيثم بن كليب أنا أبو عيسى الترمذي ثنا أبو عمّار الحسين بن خرّيت ثنا وكيع ثنا الأعمش عن المعرور بن سويد عن أبي ذرّ قال: قال النبي ﷺ: «إني لأعلم آخر رجل يخرج من النار، يؤتى به يوم القيامة فيقال: اعرضوا عليه صغار ذنوبه ويخبأ عنه كبارها، فيقال عملت يوم كذا وكذا كذا وكذا وهو مُقرٌّ لا ينكر وهو مشفق من كبارها، فيقال أعطوه مكان كل سيئة عملها حسنة، فيقول: ربِّ إن لي ذنوباً ما أراها ههنا»، قال أبو ذرّ: لقد رأيتُ رسولَ الله ﷺ ضحك حتى بدتْ نواجذه، وقال بعضهم: إن الله عزّ وجلّ يمحو بالندم جميع السيئات، ثم يثبت مكان كل سيئة حسنة.

صَبَرُواْ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ﴿٧٥﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾ قُلْ مَا يَعْبَؤُاْ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَآؤُكُمْۖ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًۢا ﴿٧٧﴾

﴿ومن تاب وعمل صالحاً﴾ قيل هذا في التوبة من غير ما سبق ذكره في الآية الأولى من القتل والزنا ومعناه، ومن تاب من الشرك وعمل صالحاً يعني أدّى الفرائض ممن لم يقتل ولم يزن ﴿فإنه يتوب إلى الله﴾ أي يعود إليه بعد الموت ﴿متاباً﴾ أي حسناً يفضل على غيره ممن قتل وزنى فالآية الأولى وهي قوله: ومن تاب رجوع عن الشرك والثانية رجوع إلى الله للجزاء والمكافأة. وقيل: هذه الآية أيضاً في التوبة عن جميع السيئات ومعناه ومن أراد التوبة، وعزم عليها فليتب إلى الله فقوله يتوب إلى الله خبر بمعنى الأمر أي تب إلى الله وقيل معناه فليعلم أن توبته ومصيره إلى الله تعالى. قوله تعالى ﴿والذين لا يشهدون الزور﴾ يعني الشرك وقيل هي شهادة الزور (ق) عن أبي بكر قال قال رسول الله ﷺ: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر قلنا: بلى يا رسول الله قال: الإشراك بالله وعقوق الوالدين، وكان متكئاً فجلس فقال ألا وقول الزور وشهادة الزور فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت» وكان عمر بن الخطاب يجلد شاهد الزور أربعين جلدة، ويسخم وجهه ويطوف به في الأسواق وقيل: لا يشهدون الزور يعني أعياد المشركين وقيل: الكذب وقيل: النوح وقيل لا يساعد أهل الباطل على باطلهم وقيل الزور اللهو واللعب والغناء. قال ابن مسعود: الغناء ينبت النفاق في ا لقلب كما ينبت الماء الزرع. وأصل الزور حقيقة تحسين الشيء ووصفه بخلاف صفته فهو تمويه الباطل بما يوهم أنه حق ﴿وإذا مروا باللغو﴾ هو كل ما يجب أن يلغى ويترك ﴿مروا كراماً﴾ يعني إذا سمعوا من

قوله عزّ وجلّ: ﴿ ومَن تاب وعمل صالحاً ﴾، قال بعض أهل العلم هذا في التوبة عن غير ما سبق ذكره في الآية الأولى من القتل والزنا، يعني مَن تاب من الشرك وعمل صالحاً أي: أدّى الفرائض ممّن لم يقتل ولم يزن، ﴿ فإنه يتوب إلى الله ﴾، أي يعود إليه بالموت، ﴿ متاباً ﴾، حسناً يفضل به على غيره ممّن قتل وزنا فالتوبة الأولى وهو قوله: ﴿ ومَن تاب ﴾ رجوع عن الشرك والثاني رجوع إلى الله للجزاء والمكافأة. وقال بعضهم: هذه الآية أيضاً في التوبة عن جميع السيئات. ومعناه: ومَن أراد التوبة وعزم عليها فليتب لوجه الله. وقوله: ﴿ يتوب إلى الله ﴾ خبر بمعنى الأمر، أي: ليتب إلى الله. وقيل: معناه فليعلم أن توبته ومصيره إلى الله.

﴿ والذين لا يشهدون الزور ﴾، قال الضحاك وأكثر المفسّرين: يعني الشرك. وقال علي بن طلحة: يعني شهادة الزور. وكان عمر بن الخطاب: يجلد شاهد الزور أربعين جلدة ويسخم وجهه ويطوف به في السوق. وقال ابن جريج: يعني الكذب. وقال مجاهد: يعني أعياد المشركين. وقيل النوح قال قتادة: لا يساعدون أهل الباطل على باطلهم. وقال محمد بن الحنفية لا يشهدون اللهو والغنا. قال ابن مسعود: الغناء ينبت النفاق في القلب كما ينبت الماء الزرع. وأصل الزور تحسين الشيء ووصفه بخلاف صفته، فهو تمويه الباطل بما يوهم أنه حق، ﴿ وإذا مرّوا باللغو مرّوا كراماً ﴾، قال مقاتل: إذا سمعوا من الكفّار الشتم والأذى أعرضوا وصفحوا، وهي رواية ابن أبي نجيح عن مجاهد، نظيره قوله: ﴿ وإذا سمعوا اللغوَ أعرضوا عنه ﴾ [القصص: ٥٥]، قال السدي: وهي منسوخة بآية القتال. قال الحسن والكلبي: اللغو المعاصي كلها يعني إذا مرّوا بمجلس اللهو والباطل مرّوا كراماً مسرعين مُعرِضين. يقال: تكرّم فلان عمّا يشينه إذا تنزّه وأكره نفسه عنه.

﴿ والذين إذا ذُكّروا بآيات ربهم لم يخرّوا ﴾، لم يقعوا ولم يسقطوا، ﴿ عليها صُمّاً وعمياناً ﴾، كأنهم صُمٌّ عُمْيٌ بل يسمعون ما يذكرون به فيفهمونه ويرون الحق فيه فيتبعونه. قال القتيبي: لم يتغافلوا عنها كأنهم صُمٌّ لم يسمعوها وعُمْيٌ لم يروها.

الكفار الشتم والأذى أعرضوا وصفحوا فعلى هذا التفسير، تكون الآية منسوخة بآية القتال. وقيل: اللغو المعاصي كلها، والمعنى إذا مروا بمجالس اللهو والباطل مروا كراماً أي مسرعين معرضين، وهو أن ينزه المرء نفسه ويكرمها عن هذه المجالس السيئة ﴿**والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صماً وعمياناً**﴾ قيل: معناه أنه ليس فيه نفي الخرور إنما هو إثبات له ونفي الصمم والعمى والمعنى إذا ذكروا بها أكبوا على استماعها بآذان واعية وأقبلوا على المذكر بها بعيون مبصرة راعية. وقيل: معناه لم يخروا أي لم يسقطوا ولم يقعوا عليها صماً وعمياناً، كأنهم بآذانهم صمم وبأعينهم عمى بل يسمعون ما يذكرون به، فيفهمونه ويرون الحق فيه فيتبعونه.

قوله عز وجل ﴿**والذي يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين**﴾ يعني أبراراً أتقياء فيقرون أعيننا بذلك قيل: ليس شيء أقر لعين المؤمن من أن يرى زوجته، وأولاده مطيعين لله عز وجل فيطمع أن يحلوا معه في الجنة فيتم سروره، وتقر عينه بذلك وقيل: إن العرب تذكر قرة العين عند السرور والفرح وسخنة العين عند الغم والحزن. ويقال: دمع العين عند السرور والفرح بارد وعند الحزن حار وقيل معنى قرة العين أن يصادف قلبه من يرضاه، فتقر عينه به عن النظر إلى غيره ﴿**واجعلنا للمتقين إماماً**﴾ يعني يقتدون في الخير بنا. وقيل: معناه نقتدي بالمتقين وتقتدي بنا المتقون وقال ابن عباس: اجعلنا أئمة هدى وقيل: معناه أنهم سألوا الله أن يبلغهم في الطاعات المبلغ الذي يشار إليهم فيه ويقتدي بهم. قال بعضهم: فيه دليل على أن الرياسة في الدين مطلوبة مرغوب فيها وقيل هذا من المقلوب معناه، واجعل المتقين لنا إماماً واجعلنا مقتدين مؤتمين بهم ﴿**أولئك يجزون**﴾ أي يثابون ﴿**الغرفة**﴾ الدرجة العالية الرفيعة في الجنة وقيل: يريد غرف الدر والزبرجد واللؤلؤ والياقوت في الجنة ﴿**بما صبروا**﴾ يعني على طاعة الله تعالى

﴿ **والذين يقولون ربنا هبْ لنا من أزواجنا وذريّاتنا** ﴾، قرأ بغير ألف أبو عمر وحمزة والكسائي وأبو بكر وقرأ الباقون بالألف على الجمع، ﴿ **قُرّةَ أعين** ﴾، يعني أولاداً أبراراً أتقياء، يقولون اجعلهم صالحين فتقرّ أعينُنا بذلك. قال القرظي: ليس شيء أقرّ لعين المؤمن من أن يرى زوجته وأولاده مطيعين لله عزّ وجلّ. وقاله الحسن، ووحّد القرّة لأنها مصدر وأصلها من القرّ لأن العرب تتأذّى من الحرّ وتستروح إلى البرد وتذكر قرّة العين عند السرور وسخنة العين عند الحزن، ويقال: دمع العين عند السرور بارد، وعند الحزن حارّ. وقال الأزهري: معنى قرّة الأعين أن يصادف قلبه مَن يرضاه فتقرّ عينه به عن النظر إلى غيره. ﴿ **واجعلنا للمتّقين إماماً** ﴾، يعني أئمة يقتدون في الخير بنا ولم يقل أئمة. كقوله تعالى: ﴿ أنا رسول ربِّ العالمين ﴾[الشعراء: ١٦]، وقيل: أراد أئمة كقوله: ﴿ فإنهم عدوٌّ لي ﴾ [الشعراء: ٧٧] يعني أعداء، ويقال أميرنا هؤلاء أي أمراؤنا. وقيل: لأنه مصدر كالصيام والقيام، يقال أمّ إماماً كما يقال قام قياماً وصام صياماً. قال الحسن: نقتدي بالمتّقين ويقتدي بنا المتّقون. وقال ابن عباس: اجعلنا أئمة هداة، كما قال: ﴿ وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا ﴾ [الأنبياء: ٧٣]، ولا تجعلنا أئمة ضلالة كما قال: ﴿ وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ﴾ [القصص: ٤١]، وقيل هذا من المقرّب يعني واجعل المتّقين لنا إماماً واجعلنا مؤتمّين مقتدين بهم، وهو قول مجاهد.

﴿ **أولئك يُجزون** ﴾، يعني ينالون، ﴿ **الغُرْفَةَ** ﴾، يعني الدرجة الرفيعة في الجنة والغرفة كل بناء مرتفع عالٍ وقال عطاء: يريد غرف الدرّ والزبرجد في الجنة، ﴿ **بما صبروا** ﴾، على أمر الله تعالى وطاعته. وقيل: على أذى المشركين. وقيل: عن الشهوات ﴿ **ويلقون فيها** ﴾، قرأ حمزة والكسائي وأبو بكر بفتح الياء وتخفيف القاف كما قال فسوف يلقون غيّاً. وقرأ الآخرون بضم الياء وتشديد القاف كما قال: ﴿ ولقاهم نضرةً وسروراً ﴾ [الإنسان: ١١] وقوله: ﴿ **تحيةً** ﴾، أي ملكاً وقيل بقاءً دائماً، ﴿ **وسلاماً** ﴾، أي: يسلم بعضهم على بعض. وقال الكلبي: يحيّي بعضهم بالسلام، ويرسل الرب إليهم بالسلام. وقيل: سلاماً أي سلامة من الآفات.

وأوامره وعلى أذى المشركين وقيل: بما صبروا عن الشهوات ﴿ويلقون فيها تحية﴾ أي ملكاً وقيل بقاء دائماً ﴿وسلاماً﴾ أي يسلم بعضهم على بعض أو يرسل الرب عز وجل إليهم السلام وقيل سلاماً أي سلامة من الآفات. قوله تعالى ﴿خالدين فيها حسنت مستقراً ومقاماً﴾ أي موضع قرار وإقامة. قوله تعالى ﴿قل ما يعبأ بكم ربي﴾ أي ما يصنع ما يفعل بكم فوجودكم وعدمكم سواء، وقيل: معناه أي وزن ومقدار لكم عنده ﴿لولا دعاؤكم﴾ إياه. قيل معناه لولا عبادتكم إياه وقيل: لولا إيمانكم وقيل لولا دعاؤه إياكم إلى الإيمان فإذا آمنتم ظهر لكم عنده قدر. وقيل: معناه ما يعبأ بخلقكم ربي لولا عبادتكم وطاقتكم، والمعنى أنه خلقكم لطاعته وعبادته وهذا قول ابن عباس وقيل: معنى ما يعبأ أي ما يبالي بمغفرتكم ربي لولا دعاؤكم معه آلهة. وقيل معناه ما خلقتكم ولي إليكم حاجة إلا أن تسألوني، فأعطيكم وتستغفروني فأغفر لكم ﴿فقد كذبتم﴾ أيها الكافرون يخاطب أهل مكة يعني أن الله دعاكم إلى توحيده وعبادته على لسان رسول الله ﷺ فكذبتم الرسول ولم تجيبوه إلى الإيمان ﴿فسوف يكون لزاماً﴾ هذا تهديد لهم أي يكون تكذيبهم لزاماً قال ابن عباس: موتاً وقيل هلاكاً وقيل: قتالاً والمعنى يكون التكذيب لازماً لمن كذب فلا يعطى التوبة حتى يجازى بعمله. وقيل: معناه عذاباً دائماً وهلاكاً لازماً لمن كذب مفنياً يلحق بعضكم بعضاً وقيل: هو يوم بدر قتل منهم سبعون وأسر سبعون وهو قول عبدالله بن مسعود وأبي بن كعب، يعني أنهم قتلوا يوم بدر واتصل بهم عذاب الآخرة لازماً لهم (ق) عن عبدالله بن مسعود قال «خمس قد مضين الدخان واللزام والروم والبطشة والقمر وفي رواية الدخان والقمر والروم واللزام والبطشة» والله سبحانه وتعالى أعلم.

﴿ خالدين فيها حَسُنَتْ مستقراً ومُقاماً ﴾ أي: موضع قرار وإقامة.

﴿ قلْ ما يعبأ بكم ربّي ﴾، قال مجاهد وابن زيد: أي ما يصنع وما يفعل بكم، قال أبو عبيدة يقال: ما عبأت به شيئاً أي لم أعدّه، فوجوده وعدمه سواء، مجازه: أيّ وزن وأيّ مقدار لكم عنده، ﴿ لولا دعاؤكم ﴾ إيّاه، وقيل: لولا إيمانكم، وقيل: لولا عبادتكم، وقيل: لولا دعاؤه إيّاكم إلى الإسلام، فإذا آمنتم ظهر لكم قدر. وقال قوم: معناها قلّ ما يعبأ بخلقكم ربّي لولا عبادتكم وطاعتكم إيّاه يعني إنه خلقكم لعبادته، كما قال: ﴿ وما خلقت الجنّ والإنس إلّا ليعبدون ﴾ [الذاريات: ٥٦]. وهذا قول ابن عباس ومجاهد، وقال قوم: قلْ ما يعبأ ما يبالي بمغفرتكم لولا دعاؤكم معه آلهة، أو ما يفعل بعذابكم لولا شرككم، كما قال الله تعالى: ﴿ ما يفعل الله بعذابكم إنْ شكرتم وآمنتم ﴾ [النساء: ١٤٧] وقيل: ما يعبأ بعذابكم لولا دعاؤكم إيّاه في الشدائد، كما قال: ﴿ فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله ﴾ [العنكبوت: ٦٥]، وقال: ﴿ فأخذناهم بالبأساء والضرّاء لعلّهم يتضرعون ﴾ [الأنعام: ٤٢]. وقيل: ﴿ قلْ ما يعبأ بكم ربّي لولا دعاؤكم ﴾ يقول: ما خلقتكم ولي إليكم حاجة إلّا أن تسألوني فأُعطيكم وتستغفروني فأغفر لكم. ﴿ فقد كذبتم ﴾، أيها الكافرون يخاطب أهل مكة يعني إن الله دعاكم بالرسول إلى توحيده وعبادته فقد كذبتم الرسول ولم تجيبوه. ﴿ فسوف يكون لِزاماً ﴾، هذا تهديد لهم أي يكون تكذيبكم لزاماً، قال ابن عباس موتاً. وقال أبو عبيدة: هلاكاً. وقال ابن زيد: قتالاً. والمعنى: يكون التكذيب لازماً لمَن كذب فلا يُعطى التوبة حتى يُجازى بعمله. وقال ابن جرير عذاباً دائماً وهلاكاً مقيماً يلحق بعضكم ببعض واختلفوا فيه فقال قوم: هو يوم بدر قتل منهم سبعون وأسر سبعون. وهو قول عبد الله بن مسعود وأُبيّ بن كعب ومجاهد ومقاتل، يعني أنهم قتلوا يوم بدر واتصل بهم عذاب الآخرة، لازماً لهم، أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا عمر بن حفص بن غياث أنا أبي أنا الأعمش عن مسروق قال: قال عبد الله خمس قد مضين الدخان والقمر والروم والبطشة واللزام. وقيل: اللزام هو عذاب الآخرة.

تفسير سورة الشعراء

وهي مكية إلا أربع آيات من آخر السورة من قوله تعالى ﴿والشعراء يتبعهم الغاوون﴾ وهي مائتان وسبع وعشرون آية وألف ومائتان وتسع وسبعون كلمة وخمسة آلاف وخمسمائة وأربعون حرفاً، روي عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال: «أعطيت طه والطواسين من ألواح موسى عليه الصلاة والسلام».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾

قوله عز وجل ﴿طسمٓ﴾ قال ابن عباس: عجزت العلماء عن علم تفسيرها وفي رواية أخرى عنه أنه قسم، وهو من أسماء الله تعالى وقيل اسم من أسماء القرآن، وقيل اسم السورة وقيل أقسم بطوله وسنائه وملكه ﴿تلك آيات﴾ أي هذه الآيات آيات ﴿الكتاب المبين﴾ قيل لما كان القرآن فيه دلائل التوحيد، والإعجاز الدالة على نبوة محمد ﷺ ودلائل الأحكام أجمع ثبت بذلك أن آيات القرآن كافية مبينة لجميع الأحكام.

لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴿٤﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴿٥﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦﴾ أَوَلَمْ

سُورَة الشّعَرَاء

﴿ سورة الشعراء ﴾ مكية إلّا أربع آيات من آخر السورة من قوله: ﴿ والشعراء يتبعهم الغاوون ﴾ [٢٢٤ ـ ٢٢٧] وهي مائتان وسبع وعشرون آية. وروينا عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال: «أعطيت طَه والطواسين من ألواح موسى عليه الصلاة والسلام».

﴿ طسٓمٓ ﴾، قرأ حمزة والكسائي وأبو بكر طِسٓمٓ وطِسٓ [النمل: ١]، وحِمٓ [غافر: ١، فصّلت: ١، الشورى: ١، الزخرف: ١، الدخان: ١، الجاثية: ١، الأحقاف: ١]، ويِسٓ [يس: ١]، بكسر الطاء والياء والحاء، وقرأ أهل المدينة بين الفتح والكسر، وقرأ الآخرون بالفتح على التفخيم، وأظهر النون من السين عند الميم في طسٓم أبو جعفر وحمزة، وأخفاها الآخرون. ورُوِيَ عن عكرمة عن ابن عباس قال: طسٓم عجزت العلماء عن تفسيرها. وروى علي بن طلحة الوالبي عن ابن عباس: أنه قسم وهو من أسماء الله تعالى: وقال قتادة: اسم من أسماء القرآن. وقال مجاهد: اسم للسورة. وقال محمد بن كعب القرظي: أقسم الله بطَوْله وسنائه ومُلكه.

﴿ تلك ﴾، أي هذه، ﴿ آيات الكتاب المبين ﴾.

يَرَوْا إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾

﴿لعلك باخع نفسك﴾ أي قاتل نفسك ﴿ألا يكونوا مؤمنين﴾ أي إن لم يؤمنوا وذلك حين كذبه أهل مكة فشق عليه ذلك وكان يحرص على إيمانهم، فأنزل الله عز وجل هذه الآية ﴿إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين﴾ أي لو شاء الله لأنزل عليهم آية يذلون منها فلا يلوي أحد منهم عنقه إلى معصية الله سبحانه وتعالى. وقيل: معناه لو شاء الله لأراهم أمراً من أمره لا يعمل أحد منهم بعده معصية. فإن قلت: كيف صح مجيء خاضعين خبراً عن الأعناق. قلت أصل الكلام فظلوا لها خاضعين، فأقحمت الأعناق لبيان الخضوع وترك الكلام على أصله أو لما، وصفت بالخضوع الذي هو للعقلاء قيل خاضعين. وقيل: أعناق الناس رؤساؤهم ومقدموهم أي فظلت كبراؤهم لها خاضعين وقيل أراد بالأعناق الجماعات، يقال جاء عنق من الناس أي جماعة قوله تعالى ﴿وما يأتيهم من ذكر من الرحمن﴾ أي وعظ وتذكير ﴿محدث﴾ أي محدث إنزاله فهو محدث التنزيل وكلما نزل شيء من القرآن بعد شيء فهو أحدث من الأول ﴿إلا كانوا عنه معرضين﴾ أي عن الإيمان به ﴿فقد كذبوا فسيأتيهم﴾ أي فسوف يأتيهم ﴿أنباء﴾ أي أخبار وعواقب ﴿ما كانوا به يستهزئون أولم يروا إلى الأرض﴾ يعني المشركين ﴿كم أنبتنا فيها﴾ أي بعد أن لم يكن فيها نبات ﴿من كل زوج كريم﴾ أي جنس ونوع وصنف حسن من النبات مما يأكل الناس والأنعام، قال الشعبي: الناس من

﴿ لعلّك باخعٌ ﴾، قاتل، ﴿ نفسك ألاّ يكونوا مؤمنين ﴾، إن لم يؤمنوا ذلك حين كذّبه أهل مكة فشقّ عليه وكان يحرص على إيمانهم، فأنزل الله هذه الآية.

﴿ إن نشأ نُنزّل عليهم من السماء آية فظلّت أعناقهم لها خاضعين ﴾، قال قتادة: لو شاء الله لأنزل عليهم آية يذلّون بها فلا يلوي أحد منهم عنقه إلى معصية الله. وقال ابن جريج: معناه لو شاء الله لأراهم أمراً من أمره لا يعمل أحد منهم بعده معصية. وقوله عزّ وجلّ: ﴿ خاضعين ﴾ ولم يقل خاضعة وهي صفة الأعناق، ففيه أقاويل أحدها أراد أصحاب الأعناق فحذف الأصحاب وأقام الأعناق مقامهم، لأن الأعناق إذا خضعت فأربابها خاضعون، جعل الفعل أولاً للأعناق ثم جعل خاضعين للرجال. وقال الأخفش: ردُّ الخضوع على المضمر الذي أضاف الأعناق إليه. وقال قوم: ذكر الصفة لمجاورتها المذكر، وهو قوله: على عادة العرب في تذكير المؤنث إذا أضافوه إلى مذكر، وتأنيث المذكّر إذا أضافوه إلى مؤنث. وقيل: أراد فظلوا خاضعين فعبروا بالعنق عن جميع البدن، كقوله ذلك بما قدّمت يداك وألزمناه طائره في عنقه. وقال مجاهد أراد بالأعناق الرؤساء والكبراء، أي: فظلّت كبراؤهم خاضعين. وقيل: أراد بالأعناق الجماعات، يقال: جاء القوي عنقاً عنقاً أي جماعات وطوائف. وقيل: إنما قال خاضعين على وفاق رؤوس الآي ليكون على نسق واحد.

﴿ وما يأتيهم من ذكر ﴾، وعظ وتذكير، ﴿ من الرحمن محدث ﴾، أي محدث إنزاله، فهو محدث في التنزيل. قال الكلبي: كلما نزل شيء من القرآن بعد شيء فهو أحدث من الأول، ﴿ إلاّ كانوا عنه مُعرِضين ﴾، أي عن الإيمان به.

﴿ فقد كذبوا فسيأتيهم ﴾، أي: فسوف يأتيهم، ﴿ أنباء ﴾، أخبار وعواقب، ﴿ ما كانوا به يستهزؤون ﴾.

﴿ أو لم يروا إلى الأرض كم أنبتنا فيها من كل زوج ﴾، صنف وضرب، ﴿ كريم ﴾، حسن من النبات مما يأكل الناس والأنعام، يقال: نخلة كريمة إذا طاب حملها، وناقة كريمة إذا كثر لبنها. قال الشعبي: الناس من نبات الأرض فمَن دخل الجنة فهو كريم، ومَن دخل النار فهو لئيم.

نبات الأرض فمن دخل الجنة فهو كريم ومن دخل النار فهو لئيم ﴿إن في ذلك﴾ أي الذي ذكر ﴿لآية﴾ تدل على أنه واحد أي دلالة على كمال قدرتنا وتوحيدنا كما قيل:

وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

و ﴿وما كان أكثرهم مؤمنين﴾ أي سبق علمي فيهم أن أكثرهم لا يؤمنون ولا يصدقون.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٩ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٠ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ۝١١ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ۝١٢ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ۝١٣ وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ۝١٤ قَالَ كَلَّا ۖ فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ ۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ۝١٥ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٦ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ۝١٧ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ۝١٨ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝١٩ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ۝٢٠ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٢١ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ۝٢٢﴾

﴿وإن ربك لهو العزيز﴾ أي المنتقم من أعدائه ﴿الرحيم﴾ ذو الرحمة لأوليائه. قوله تعالى ﴿وإذ نادى﴾ أي واذكر يا محمد إذ نادى ﴿ربك موسى﴾ أي حين رأى الشجرة والنار ﴿أن ائت القوم الظالمين﴾ يعني الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والمعاصي وظلموا بني إسرائيل باستعبادهم وسومهم سوء العذاب ﴿قوم فرعون﴾ يعني القبط ﴿ألا يتقون﴾ أي يصرفون عن أنفسهم عقوبة الله بطاعته والإيمان به ﴿قال﴾ يعني موسى ﴿رب﴾ أي يا رب ﴿إني أخاف أن يكذبون ويضيق صدري﴾ أي بتكذيبهم إياي ﴿ولا ينطلق لساني﴾ أي للعقدة التي كانت على لسانه ﴿فأرسل إلى هارون﴾ ليوازرني ويعينني على تبليغ الرسالة ﴿ولهم عليّ ذنب﴾ أي دعوى ذنب وهو قتله القبطي ﴿فأخاف أن

﴿ إن في ذلك ﴾، الذي ذكرت، ﴿ لآية ﴾، دلالة على وجودي وتوحيدي وكمال قدرتي، ﴿ وما كان أكثرهم مؤمنين ﴾، مصدّقين أي سبق علمي فيهم أن أكثرهم لا يؤمنون. وقال سيبويه: كان ههنا صلة مجازه: وما أكثرهم مؤمنين.

﴿ وإن ربّك لهو العزيز ﴾، العزيز بالنقمة من أعدائه، ﴿ الرحيم ﴾، ذو الرحمة بأوليائه.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ وإذ نادى ربُّك موسى ﴾، واذكر يا محمد إذ نادى ربك موسى حين رأى الشجرة والنار، ﴿ أنِ ائتِ القومَ الظالمين ﴾، يعني الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والمعصية، وظلموا بني إسرائيل باستعبادهم وسومهم سوء العذاب.

﴿ قوم فرعون ألاَ يتّقون ﴾، ألا يصرفون عن أنفسهم عقوبة الله بطاعته.

﴿ قال ﴾، يعني موسى، ﴿ ربِّ إني أخاف أن يكذبون ﴾.

﴿ ويضيق صدري ﴾، بتكذيبهم إيّاي، ﴿ولا ينطلق لساني ﴾، قال: هذا للعقدة التي كانت على لسانه، قرأ يعقوب ﴿ ويضيق ﴾، ﴿ ولا ينطلق ﴾ بنصب القافين على معنى وأن يضيق، وقرأ العامّة ويرفعهما ردّاً على قوله: ﴿ إني أخاف ﴾، ﴿ فأرسلْ إلى هارون ﴾، ليؤازرني ويظاهرني على تبليغ الرسالة.

﴿ ولهم عليّ ذنب ﴾، أي دعوى ذنب، وهو قتله القبطي، ﴿ فأخاف أن يقتلون ﴾، أي يقتلونني به.

يقتلون﴾ أي به **﴿قال﴾** الله تعالى **﴿كلا﴾** أي لن يقتلوك **﴿فاذهبا بآياتنا إنا معكم مستمعون﴾** أي سامعون ما تقولون وما يقال لكم. فإن قلت: كيف ذكرهم بلفظ الجمع في قوله معكم وهما اثنان. قلت: أجراهما مجرى الجماعة، وهو جائز في لغة العرب **﴿فائتيا فرعون فقولا إنا رسول رب العالمين﴾** فإن قلت هلا ثنى الرسول كما في قوله: فائتياه فقولا إنا رسولا ربك. قلت: الرسول قد يكون بمعنى المرسل وبمعنى الرسالة فجعله ثم بمعنى المرسل فلم يكن بد من تثنيته، وجعله هنا بمعنى الرسالة فجازت التسوية فيه، إذا وصف به الواحد والتثنية والجمع والمعنى أنا ذو رسالة كما قال كثير:

لقد كذب الواشون ما فهت عندهم ... بشيء ولا أرسلتهم برسول

أي برسالة وقيل إنهما لاتفاقهما في الرسالة، والشريعة والإخوة فصارا كأنهما رسول واحد وقيل كل واحد منا رسول رب العالمين **﴿أن أرسل معنا بني إسرائيل﴾** أي خلهم وأطلقهم معنا إلى أرض فلسطين، ولا تستعبدهم وكان فرعون قد استعبدهم أربعمائة سنة وكانوا في ذلك الوقت ستمائة ألف وثلاثين ألفاً، فانطلق موسى برسالة ربه إلى مصر وهارون بها فأخبره بذلك، وفي القصة أن موسى رجع إلى مصر وعليه جبة صوف وفي يده عصاه والمكتل معلق في

﴿ قال ﴾، الله تعالى، **﴿ كلا ﴾**، أي لن يقتلوك، **﴿ فاذهبا بآياتنا إنّا معكم مستمعون ﴾**، سامعون ما يقولون، ذكر معكم بلفظ الجمع، وهما اثنان أجراهما مجرى الجماعة. وقيل: أراد معكما ومع بني إسرائيل نسمع ما يجيبكم فرعون.

﴿ فأْتيا فرعون فقولا إنّا رسولُ ربِّ العالمين ﴾، ولم يقل رسولا ربّ العالمين لأنه أراد الرسالة أنا ذُو رسالة ربّ العالمين، كما قال كثير:

لقد كذب الواشون ما بحث عندهم ... بسر ولا أرسلتهم برسول

أي بالرسالة، وقال أبو عبيدة: يجوز أن يكون الرسول بمعنى الاثنين والجمع، تقول العرب: هذا رسولي ووكيلي وهذان وهؤلاء رسولي ووكيلي، كما قال الله تعالى: ﴿ وهو لكم عدو ﴾ [الكهف: ٥٠]، وقيل: معناه كل واحد منّا رسول ربّ العالمين.

﴿ أن أرسل ﴾، أي بأن أرسلْ، **﴿ معنا بني إسرائيل ﴾**، أي إلى فلسطين، ولا تستعبدهم، وكان فرعون استعبدهم أربعمائة سنة، وكانوا في ذلك الوقت ستمائة ألف وثلاثين ألفاً، فانطلق موسى إلى مصر وهارون بها فأخبره بذلك، وفي القصة أن موسى رجع إلى مصر وعليه جبّة صوف وفي يده عصا والمكتل معلّق في رأس العصا، وفيه زاده فدخل دار نفسه وأخبر هارون بأن الله أرسلني إلى فرعون وأرسلني إليك حتى تدعو فرعون إلى الله، فخرجتْ أُمهما وصاحت وقالت: إن فرعون يطلبك ليقتلك فلو ذهبتما إليه قتلكما فلم يمتنعا لقولها، وذهبا إلى باب فرعون ليلاً ودقّ الباب ففزع البوّابون وقال: مَن بالباب؟ ورُوِيَ أنه اطّلع البوّاب عليهما فقال مَن أنتما؟ فقال موسى: أنا رسول ربّ العالمين، فذهب البوّاب إلى فرعون وقال: إنّ مجنوناً بالباب يزعم أنه رسول ربّ العالمين، فنزل حتى أصبح ثم دعاهما. ورُوِيَ أنهما انطلقا جميعاً إلى فرعون فلم يؤذن لهما سنة في الدخول عليه، فدخل البوّاب وقال لفرعون ههنا إنسان يزعم أنه رسول ربّ العالمين، فقال فرعون: ائذن له لعلّنا نضحك منه، فدخلا عليه وأدّيا رسالة الله عزّ وجلّ فعرف فرعون موسى لأنه نشأ في بيته.

﴿ قال ألم نُربِّك فينا وليداً ﴾، صبيّاً، **﴿ ولبثت فينا من عمرك سنين ﴾**، وهو ثلاثون سنة.

رأس العصا، وفيه زاده فدخل دار نفسه وأخبر هارون أن الله قد أرسلني إلى فرعون وأرسل إليك ندعو فرعون إلى الله تعالى فخرجت أمهما فصاحت وقالت: إن فرعون يطلبك ليقتلك فإذا ذهبت إليه، قتلك فلم يمتنع لقولها وذهبا إلى باب فرعون وذلك بالليل فدقا الباب ففزع البوابون، وقالوا: من بالباب فقال أنا موسى رسول رب العالمين فذهب البوابون إلى فرعون وقالوا إن مجنوناً بالباب يزعم أنه رسول رب العالمين فترك حتى أصبح ثم دعاهما وقيل إنهما انطلقا جميعاً إلى فرعون فلم يؤذن لهما سنة في الدخول، ثم دخل البواب فقال لفرعون ها هنا إنسان يزعم أنه رسول رب العالمين فقال فرعون: ائذن له لعلنا نضحك منه فدخلا على فرعون وأديا رسالة الله تعالى فعرف فرعون موسى لأنه نشأ في بيته فـ ﴿**قال**﴾ له ﴿**ألم نربك فينا وليداً**﴾ يعني صبياً ﴿**ولبثت فينا من عمرك سنين**﴾ أي ثلاثين سنة ﴿**وفعلت فعلتك التي فعلت**﴾ يعني قتلت القبطي ﴿**وأنت من الكافرين**﴾ قال أكثر المفسرين من الجاحدين لنعمتي وحق تربيتي يقول ربيناك فينا فكافأتنا أن قتلت منا نفساً، وكفرت نعمتنا وهي رواية عن ابن عباس قال إن فرعون لم يكن يعلم الكفر بالربوبية ولأن الكفر غير جائز على الأنبياء لا قبل النبوة، ولا بعدها وقيل معناه وأنت من الكافرين بفرعون وإلهيته ﴿**قال**﴾ يعني موسى ﴿**فعلتها إذاً وأنا من الضالين**﴾ أي من الجاهلين بأن ذلك يؤدي إلى قتله لأن فعل الوكزة على وجه التأديب لا على وجه القتل وقيل من الضالين عن طريق الصواب وقيل من المخطئين ﴿**ففررت منكم**﴾ أي إلى مدين ﴿**لما خفتكم فوهب لي ربي حكماً**﴾ يعني النبوة وقيل العلم والفهم ﴿**وجعلني من المرسلين وتلك نعمة تمنها علي أن عبدت بني إسرائيل**﴾ أي اتخذتهم عبيداً قيل: عدها موسى نعمة منه عليه حيث رباه لم يقتله كما قتل ولدان بني إسرائيل، ولم يستعبده كما استعبد بني إسرائيل فيكون معنى الآية، وتلك نعمة تمنها علي أن عبدت بني

﴿ وفعلت فعلتك التي فعلت ﴾، يعني قتل القبطي، **﴿ وأنت من الكافرين ﴾**، قال الحسن والسدي: يعني وأنت من الكافرين بإلهك الذي تدّعيه، ومعناه: على ديننا هذا الذي تعيبه. وقال أكثر المفسّرين: معنى قوله وأنت من الكافرين يعني من الجاحدين لنعمتي وحق تربيتي، تقول ربّيناك فينا فكافأتنا أن قتلت منّا نفساً وكفرت بنعمتنا. وهذا رواية العوفي عن ابن عباس: إن فرعون لم يكن يعلم ما الكفر بالربوبية.

﴿ قال ﴾، موسى، **﴿ فعلتها إذاً ﴾**، أي فعلت ما فعلت حينئذ، **﴿ وأنا من الضالّين ﴾**، أي من الجاهلين، لم يأتِ من الله شيئاً، وقيل: من الجاهلين بأن ذلك يؤدّي إلى قتله. وقيل: من الضالّين عن طريق الصواب من غير تعمّد. وقيل: من المخطئين.

﴿ ففَررتُ منكم لمّا خِفتُكم ﴾، إلى مدين، **﴿ فوهب لي ربّي حكماً ﴾**، يعني النبوّة، وقال مقاتل: يعني العلم والفهم، **﴿ وجعلني من المرسلين ﴾**.

﴿ وتلك نعمةٌ تمنّها عَلَيَّ أن عَبَّدتَّ بني إسرائيل ﴾، اختلفوا في تأويلها فحملها بعضهم على الإقرار وبعضهم على الإنكار، فمَن قال هو إقرار قال عدّها موسى نعمة منه عليه حيث ربّاه، ولم يقتله كما قتل سائر غلمان بني إسرائيل، ولم يستعبده كما استعبد بني إسرائيل، مجازه: بلى وتلك نعمة لك عليّ أن عبّدت بني إسرائيل، وتركتني فلم تستعبدني. ومَن قال: هو إنكار قال قوله: وتلك نعمة هو على طريق الاستفهام أي: أوَ تلك نعمة؟ حذف ألف الاستفهام، كقوله: ﴿ فهم الخالدون ﴾ [الأنبياء: ٣٤]؟ قال الشاعر:

تروح من الحيّ أم تتبكّر وماذا يضرّك لو تنتظر

أي: تروح من الحيّ. قال عمر بن عبد الله بن أبي ربيعة:

إسرائيل وتركتني فلم تستعبدني، وقيل هو على طريق الإنكار ومعنى الآية أو تلك نعمة على طريق الاستفهام، فحذف الألف كما قال عمر بن عبدالله بن ربيعة:

لم أنس يوم الرحيل وقفتها وطرفها من دموعها غرق
وقولها والركاب واقفة تتركني هكذا وتنطلق

أي أتتركني، والمعنى أتمن علي أن ربيتني، وتنسى جنايتك على بني إسرائيل بالاستعباد والمعاملات القبيحة أو يريد كيف تمن علي بالتربية، وقد استعبدت قومي ومن أهين قومه فقد ذل فتعبد بني إسرائيل قد أحبط حسناتك إلي، ولو لم تستعبدهم ولم تقتل أولادهم لم أرفع إليك حتى تربيني وتكلفني، ولكان لي من أهلي من يربيني ولم يلقوني في اليم.

قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُوا۟ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾

﴿قال فرعون وما رب العالمين﴾ يقول أي شيء رب العالمين الذي تزعم أنك رسوله أي يستوصفه إلهه الذي أرسله إليه، وهو سؤال عن جنس الشيء، والله تعالى منزه عن الجنسية والماهية فلهذا عدل موسى عن جوابه، وأجابه بذكر أفعاله وآثار قدرته التي تعجز الخلائق عن الإتيان بمثلها ﴿قال رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين﴾

لم أنسَ يوم الرحيل وقفتها وطرفها في دموعها غرق
وقولها والركاب واقفة تتركني هكذا وتنطلق

أي: أتتركني، يقول تمنّ عليّ أن ربيتني وتنسى جنايتك على بني إسرائيل بالاستعباد والمعاملات القبيحة؟ أو يريد: كيف تمنّ عليّ بالتربية وقد استعبدت قومي، ومَن أُهين قومه ذُلّ، فتعبيدك بني إسرائيل قد أحبط إحسانك إليّ، وقيل معناه تمنّ عليّ بالتربية. وقوله: ﴿ أنْ عبَّدتَّ بني إسرائيل ﴾ أي: باستعبادك بني إسرائيل وقتلك أولادهم، دُفعت إليك حتى ربيتني وكفلتني ولو لم تستعبدهم وتقتلهم كانَ لِي من أهلي مَن يربيني ولم يلقوني في اليم، فأيّ نعمة لك عليّ؟ قوله: ﴿ عبَّدتَّ ﴾ أي اتخذتهم عبيداً، يقال عبَّدتُّ فلاناً وأعبدته وتعبّدته واستعبدته، أي اتخذته عبداً.

﴿ قال فرعون وما ربُّ العالمين ﴾، يقول: أي شيء ربّ العالمين الذي تزعم أنك رسوله إليّ يستوصفه إلٓهه الذي أرسله إليه مما هو سؤال عن جنس الشيء، والله منزّه عن الجنسية، فأجابه موسى عليه السلام بذكر أفعاله التي يعجز عن الإتيان بمثلها.

أنه خالقهما فاعرفوا أنه لا يمكن تعريفة إلا بما ذكرته لكم، فإن أيقنتم بذلك لزمكم أن تقطعوا أنه لا جواب لكم عن هذا السؤال إلا ما ذكرته من الجواب، وقال أهل المعاني أي كما توقنون هذه الأشياء التي تعاينونها، فأيقنوا أن إله الخلق هو الله تعالى الذي خلقها وأوجدها فلما قال ذلك موسى تحير فرعون في جواب موسى ﴿**قال لمن حوله**﴾ أي من أشراف قومه قال ابن عباس: كانوا خمسمائة رجل عليهم الأسورة ﴿**ألا تستمعون**﴾ وإنما قال فرعون: ذلك على سبيل التعجب من جواب موسى، يعني أني إنما أطلب منه الماهية وخصوصية الحقيقة وهو يجيبني بأفعاله وآثاره وقيل: إنهم كانوا يعتقدون إن آلهتهم ملوكهم ثم زادهم موسى في البيان ﴿**قال ربكم ورب آبائكم الأولين**﴾ يعني أن موسى ذكر ما هو أقرب فقال ربكم يعني أنه خالقكم وخالق آبائكم الأولين ﴿**قال**﴾ يعني فرعون ﴿**إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون**﴾ يعني المقصود من السؤال طلب الماهية، وهو يجيب بالآثار الخارجة وهذا لا يفيد البتة فهذا الذي يدعي الرسالة مجنون لا يفهم السؤال فضلاً عن أن يجيب عنه، ويتكلم بكلام لا نقبله ولا نعرف صحته، وكان عندهم أن من لا يعتقد ما يعتقدون ليس بعاقل فزاد في البيان ﴿**قال رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون**﴾ فعدل إلى طريق ثالث أوضح من الثاني، ومعنى إن كنتم تعقلون قد عرفتم أنه لا جواب عن سؤالك إلا ما ذكرت ﴿**قال**﴾ فرعون حين لزمته الحجة، وانقطع عنه الجواب تكبراً عن الحق ﴿**لئن اتخذت إلهاً غيري لأجعلنك من المسجونين**﴾ قيل كان سجن فرعون أشد من القتل، لأنه كان يأخذ الرجل فيطرحه في مكان يهوي فيه إلى الأرض وحده فرداً لا يسمع ولا يبصر فيه ﴿**قال**﴾ له موسى حين توعده بالسجن ﴿**أولو جئتك بشيء مبين**﴾ أي بآية بينة والمعنى أتفعل ذلك، ولو جئتك بحجة بينة وإنما قال ذلك موسى لأن من أخلاق الناس السكون إلى الإنصاف

﴿ **قال ربُّ السمٰوات والأرضِ وما بينهما إن كنتم موقنين** ﴾، إنه خالقهما. قال أهل المعاني: أي كما توقنون هذه الأشياء التي تعاينونها فأيقنوا أن إلٰه الخلق هو الله عزّ وجلّ، فلما قال موسى ذلك تحيّر فرعون في جواب موسى.

﴿ **قال لمَن حوله** ﴾، من أشراف قومه. قال ابن عباس: كانوا خمس مائة رجل عليهم الأصورة، قال لهم فرعون استبعاداً لقول موسى، ﴿ **ألا تستمعون** ﴾، وذلك أنهم كانوا يعتقدون أن آلهتهم ملوكهم، فزادهم موسى في البيان.

﴿ **قال ربُّكم وربُّ آبائكم الأوّلين** ﴾.

﴿ **قال** ﴾، يعني فرعون، ﴿ **إنّ رسولكم الذي أُرسل إليكم لمجنون** ﴾، يتكلم بكلام لا نعقله ولا نعرف صحته، وكان عندهم أن مَن لا يعتقد ما يعتقدون ليس بعاقل، فزاد موسى في البيان.

﴿ **قال ربُّ المشرقِ والمغربِ وما بينهما إنْ كنتمُ تعقِلُون** ﴾.

﴿ **قال** ﴾، فرعون حين لزمته الحجّة وانقطع عن الجواب تكبّراً عن الحق:

﴿ **لئن اتخذت إلهاً غيري لأجعلنّك من المسجونين** ﴾، من المحبوسين، قال الكلبي: كان سجنه أشدّ من القتل، لأنه كان يأخذ الرجل فيطرحه في مكان وحده فرداً لا يسمع ولا يبصر فيه شيئاً، من عمقه يهوي في الأرض.

﴿ **قال** ﴾له موسى حين توعّده بالسجن ﴿ **أوَلَو جِئتُك** ﴾ أي: وإن جئتك، ﴿ **بشيء مبين** ﴾، بآية مبينة، ومعنى الآية أتفعل ذلك وإن أتيتك بحجة بيّنة، وإنما قال ذلك موسى لأن من أخلاق الناس السكون إلى الإنصاف والإجابة إلى الحق بعد البيان.

والإجابة إلى الحق بالبيان ﴿**قال**﴾ يعني فرعون ﴿**فأت به**﴾ أي إنا لن نسجنك حينئذٍ ﴿**إن كنت من الصادقين فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين**﴾ قيل إنها لما صارت حية ارتفعت في السماء، قدر ميل ثم انحطت مقبلة إلى فرعون فقال: بالذي أرسلك ألا أخذتها فأخذها موسى، فعادت عصاً كما كانت فقال وهل غيرها قال نعم وأراه يده ثم أدخلها في جيبه ثم أخرجها، فإذا هي بيضاء من غير برص لها شعاع كشعاع الشمس وهو قوله ﴿**ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين**﴾ فعند ذلك ﴿**قال**﴾ فرعون ﴿**للملأ حوله إن هذا**﴾ يعني موسى ﴿**لساحر عليم**﴾ وكان زمان السحر فلهذا روج فرعون هذا القول على قومه ثم قال ﴿**يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره**﴾ قال هذا القول على سبيل التنفير لئلا يقبلوا قول موسى ﴿**فماذا تأمرون**﴾ يعني ما رأيكم فيه وما الذي أعمله فعند ذلك ﴿**قالوا أرجه وأخاه**﴾ أي أخره وأخاه ﴿**وابعث في المدائن حاشرين يأتوك بكل سحار عليم**﴾ قيل إن فرعون أراد قتل موسى فقالوا لا تفعل فإنك إن قتلته دخلت الناس شبهة في أمره ولكن أخره واجمع له سحرة ليقاوموه ولا تثبت له عليك حجة. قوله تعالى ﴿**فجمع لسحرة لميقات يوم معلوم**﴾ يعني يوم الزينة قال ابن عباس وافق ذلك يوم السبت في أول يوم من السنة، وهو يوم النيروز ﴿**وقيل للناس هل أنتم مجتمعون**﴾ أي لتنظروا ما يفعل الفريقان، ولمن تكون الغلبة ﴿**لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين**﴾ لموسى قيل أراد بالسحرة موسى وهارون وقالوا: ذلك على طريقة الاستهزاء ﴿**فلما جاء السحرة قالوا لفرعون أئن لنا لأجراً إن كنا نحن الغالبين**﴾ طلبوا من فرعون الجزاء، وهو بذل المال والجاه فبذل لهم ذلك كله، وأكده بقوله:

قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ

﴿ **قال** ﴾ له فرعون، ﴿ **فأتِ به** ﴾، فإنّا لن نسجنك حينئذ، ﴿ **إن كنت من الصادقين** ﴾.

﴿ **فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مُبين** ﴾، فقال وهل غيرها، ﴿ **ونزع** ﴾، موسى، ﴿ **يده فإذا هي بيضاء للناظرين** ﴾.

﴿ **قال** ﴾ فرعون، ﴿ **للملأ حوله إنّ هذا لسَاحِرٌ عليم** ﴾.

﴿ **يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره فماذا تأمرون** ﴾.

﴿ **قالوا أرْجِهْ وأخاه وابعث في المدائن حاشرين** ﴾.

﴿ **يأتوك بكل سحّار عليم** ﴾.

﴿ **فجُمِعَ السحرةُ لميقات يوم معلوم** ﴾، وهو يوم الزينة. ورُوِيَ عن ابن عباس قال: وافق ذلك اليوم يوم السبت في أول يوم من السنة وهو يوم النيروز.

﴿ **وقيل للناس هل أنتم مجتمعون** ﴾، لتنظروا إلى ما يفعل الفريقان ولمَن تكون الغلبة.

﴿ **لعلّنا نتبعُ السحرةَ إن كانوا هم الغالبين** ﴾، لموسى، وقيل: إنما قالوا ذلك على طريق الاستهزاء، وأرادوا بالسحرة موسى وهارون وقومهما.

﴿ **فلما جاء السحرةُ قالوا لفرعون أئنّ لنا لأجراً إنْ كنّا نحن الغالبين** ﴾.

ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُوا۟ لَا ضَيْرَ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا
مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾ ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم
مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ
حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ فَأَتْبَعُوهُم
مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾

﴿قال نعم وإنكم لمن المقربين قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون فألقوا حبالهم وعصيهم وقالوا بعزة فرعون﴾ أي بعظمة فرعون **﴿إنا لنحن الغالبون فألقى موسى عصاه فإذا هي تلقف ما يأفكون﴾** أي ما يقلبونه عن وجهه وحقيقته بسحرهم قيل: إن عصى موسى صارت حية وابتلعت كل ما رموه من حبالهم وعصيهم ثم أخذها موسى فإذا هي كما كانت أول مرة **﴿فألقي السحرة ساجدين﴾** قيل إنهم لما رأوا ما جاوز حد السحر علموا أنه ليس بسحر، ثم لم يتمالكوا أن خروا ساجدين ثم إنهم **﴿قالوا آمنا برب العالمين رب موسى وهارون﴾** وإنما قالوا رب موسى وهارون، لأن فرعون كان يدعي الربوبية فأرادوا عزله **﴿قال آمنتم له قبل أن آذن لكم إنه لكبيركم الذي علمكم السحر فلسوف تعلمون﴾** فيه وعيد مطلق وتهديد شديد ثم بين ذلك الوعيد فقال **﴿لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم أجمعين قالوا لا ضير إنا إلى ربنا منقلبون﴾** أي لا ضرر علينا فيما ينالنا في الدنيا، لأنا ننقلب ونصير إلى ربنا في الآخرة مؤمنين مؤملين غفرانه وهو قولهم **﴿إنا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا﴾** أي الكفر والسحر **﴿أن﴾** أي لأن **﴿كنا أول المؤمنين﴾** أي من أهل زماننا وقيل أول المؤمنين أي من الجماعة الذين حضروا ذلك الجمع. قوله تعالى **﴿وأوحينا إلى موسى أن أسر بعبادي إنكم متبعون﴾** أي يتبعكم فرعون وقومه ليحولوا بينكم وبين الخروج، قيل: أوحى الله إلى موسى أن اجمع بني إسرائيل، كل أهل أربعة أبيات في بيت ثم اذبحوا أولاد الضأن فاضربوا بدمائها على أبوابكم فإني سآمر الملائكة فتقتل أبكار آل فرعون من أنفسهم وآمرهم أن لا يدخلوا بيتاً على بابه دم، ثم اخبزوا فطيراً فإنه أسرع لكم ثم اسر بعبادي حتى تنتهي إلى البحر، فيأتيك أمري ففعل ذلك موسى، ثم إن قوم موسى قالوا لقوم فرعون إن لنا في هذه الليلة عيداً

﴿ قال نعم وإنكم لمن المقرَّبين ﴾.

﴿ قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون ﴾.

﴿ فألقوا حبالَهم وعِصِيَّهم وقالوا بِعزَّةِ فرعون إنّا لنحنُ الغالبون ﴾.

﴿ فألقى موسى عصاه فإذا هي تلقفُ ما يأفِكُون ﴾.

﴿ فأُلقِيَ السحرةُ ساجدين ﴾.

﴿ قالوا آمنّا بربِّ العالمين ﴾.

﴿ ربِّ موسى وهارون ﴾.

﴿ قال آمنتم له قبل أنْ آذنَ لكم إنّه لكبيركم الذي علّمكم السحرَ فلسوفَ تعلمون لأُقطعنّ أيدِيَكم وأرجلَكم من خلاف ولأصلبنّكم أجمعين ﴾.

﴿ قالوا لا ضير ﴾، لا ضرر، **﴿ إنّا إلى ربِّنا منقلبون ﴾.**

فاستعاروا منهم حليهم، ثم خرجوا بتلك الأموال في الليل إلى جهة البحر فلما سمع فرعون ذلك، قال: هذا عمل موسى وقومه قتلوا أبكارنا من أنفسنا وأخذوا أموالنا ﴿**فأرسل فرعون في المدائن حاشرين**﴾ يعني الشرط يحشرون الجيش قيل: كانت المدائن ألف مدينة واثني عشر ألف قرية، فأرسل فرعون في أثر موسى وقومه ألف ألف وخمسمائة ألف، وخرج فرعون في الكرسي العظيم في مائتي ألف ملك مسورين مع كل ملك ألف فلذلك قال ﴿**إن هؤلاء لشرذمة قليلون**﴾ قال أهل التفسير كانت الشرذمة الذين قللهم فرعون ستمائة ألف مقاتل، لم يعدوا دون العشرين وفوق الستين سنة وقال ابن مسعود كانت ستمائة ألف وسبعين ألفاً، ولا يحصى عدد أصحاب فرعون. ﴿**وإنهم لنا لغائظون**﴾ الغيظ الغضب يعني أنهم أغضبونا بمخالفتهم فينا وقتلهم أبكارنا وذهابهم بأموالنا التي استعاروها، وخروجهم من أرضنا بغير إذن منا ﴿**وإنا لجميع حاذرون**﴾ أي خائفون من شرهم وقرىء حذرون، أي ذوو قوة وأداة شاكو السلاح وقيل الحاذر الذي يحذرك الآن بالتحقيق من المتلبس بحمل السلاح، والحذر الذي لا تلقاه إلا خائفاً ﴿**فأخرجناهم من جنات وعيون**﴾ قيل: كانت البساتين ممتدة في حافتي النيل فيها عيون وأنهار جارية ﴿**وكنوز**﴾ يعني الأموال الظاهرة من

﴿ إنّا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا أن كُنّا ﴾ ﴿ أول المؤمنين ﴾، من أهل زماننا.

﴿ وأوحينا إلى موسى أن أسرِ بعبادي إنكمُ مُتَّبَعُون ﴾، يتبعكم فرعون وقومه ليحولوا بينكم وبين الخروج من مصر. ورُوِيَ عن ابن جريج قال: أوحى الله تعالى إلى موسى أن اجمع بني إسرائيل كل أهل أربعة أبيات في بيت ثم اذبحوا أولاد الضأن فاضربوا بدمائها على أبوابكم، فإني سآمر الملائكة فلا يدخلوا بيتاً على بابه دم، وسآمرها فتقتل أبكار آل فرعون من أنفسهم وأموالهم، ثم اخبزوا خبزاً فطيراً فإنه أسرع لكم ثم أسرِ بعبادي حتى تنتهي إلى البحر، فيأتيك أمري ففعل ذلك، فلما أصبحوا قال فرعون هذا عمل موسى وقومه قتلوا أبكارنا من أنفسنا وأخذوا أموالنا فأرسل في أثره ألف ألف وخمسائة ألف ملك مسور مع كل ملك ألف، وخرج فرعون في الكرسي العظيم.

﴿ فأرسل فرعونِ في المدائن حاشرين ﴾، يحشرون الناس يعني الشرط ليجمعوا السحرة. وقيل: حتى يجمعوا له الجيش، وذكر بعضهم: أنه كان له ألف مدينة واثنا عشرة ألف قرية. وقال لهم.

﴿ إنّ هؤلاء لِشرْذِمة ﴾، عصابة **﴿ قليلون ﴾**، والشرذمة القطعة من الناس غير الكثير، وجمعها شراذم. قال أهل التفسير: كانت الشرذمة الذين قلّلهم فرعون ستمائة ألف. وعن ابن مسعود قال: كانوا ستمائة وسبعين ألفاً ولا يحصى عدد أصحاب فرعون.

﴿ وإنهم لنا لغائظون ﴾، يقال غاظه وأغاظه وغيظه إذا أغضبه، والغيظ والغضب واحد، يقول: أغضبونا بمخالفتهم ديننا وقتلهم أبكارنا وذهابهم بأموالنا التي استعاروها، وخروجهم من أرضنا بغير إذن منّا.

﴿ وإنّا لجميع حاذِرُون ﴾، قرأ أهل الحجاز والبصرة (حذرون) و﴿ فرهين ﴾ [الشعراء: ١٤٩] بغير ألف وقرأ الآخرون ﴿حاذرون﴾ و﴿فارهين﴾ بالألف فيهما، وهما لغتان. وقال أهل التفسير: حاذرون أي مؤدّون ومقوون، أي: ذوو أداة وقوة مستعدون شاكون في السلاح، ومنه حذرون أي خائفون شرّهم. وقال الزجّاج: الحاذر المستعد، والحذر المستيقظ. وقال الفرّاء: الحاذر الذي يحذرك الآن، والحذر المخوف. وكذلك لا تلقاه إلّا حذراً. والحذر اجتناب الشيء خوفاً منه.

﴿ فأخرجناهم من جنات ﴾، وفي القصة البساتين كانت ممتدة على حافّتي النيل، **﴿ وعيون ﴾**، أنهار جارية.

الذهب والفضة، وسماها كنوزاً لأنه لم يؤد حق الله منها وكل مال لم يعط، ولم يؤد حق الله منه فهو كنز وإن كان ظاهراً قيل كان لفرعون ثمانمائة ألف غلام كل غلام على فرس عتيق، في عنق كل فرس طوق من ذهب قال الله تعالى ﴿**ومقام كريم**﴾ أي مجلس حسن قيل: أراد مجالس الأمراء والرؤساء التي كانت لهم وقيل إنه كان إذا قعد على سريره وضع بين يديه ثلاثمائة كرسي من ذهب يجلس عليها الأشراف من قومه والأمراء وعليهم أقبية الديباج مخوصة بالذهب والمعنى أنا أخرجناهم من بساتينهم التي فيها العيون وأموالهم ومجالسهم الحسنة ﴿**كذلك**﴾ أي كما وصفنا ﴿**وأورثناها بني إسرائيل**﴾ وذلك أن الله عز وجل رد بني إسرائيل إلى مصر بعد هلاك فرعون، وقومه، فأعطاهم جميع ما كان لفرعون، وقومه من الأموال والأماكن الحسنة ﴿**فأتبعوهم مشرقين**﴾ أي لحق فرعون وقومه موسى، وأصحابه وقت شروق الشمس وهو إضاءتها ﴿**فلما تراءى الجمعان**﴾ يعني تقابلا بحيث يرى كل فريق صاحبه ﴿**قال أصحاب موسى إنا لمدركون**﴾ أي سيدركنا فرعون وقومه ولا طاقة لنا بهم.

قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾

﴿**قال**﴾ أي موسى لثقته وعد الله تعالى إياه ﴿**كلا**﴾ أي لن يدركونا ﴿**إن معي ربي سيهدين**﴾ يعني يدلني على

﴿ **وكنوز** ﴾، يعني الأموال الظاهرة من الذهب والفضة قال مجاهد سمّاها كنوزاً لأنه لم يعطِ حق الله منها وما لم يعطَ حقّ الله منها فهو كنز وإن كان ظاهراً قيل كان لفرعون ثمانمائة ألف غلام كل غلام على فرس عتيق في عنق كل فرس طوق من ذهب، ﴿ **ومقام كريم** ﴾، أي مجلس حسن، قال المفسّرون: أراد مجالس الأمراء والرؤساء التي كانت تحفّها الأتباع. وقال مجاهد وسعيد بن جبير: هي المنابر. وذكر بعضهم: أنه كان إذا قعد على سريره وضع بين يديه ثلاثمائة كرسي من ذهب يجلس عليها الأشراف عليهم الأقبية من الديباج مُخُوصة بالذهب.

﴿ **كذلك** ﴾، كما وصفنا، ﴿ **وأورثناها** ﴾، بهلاكهم، ﴿ **بني إسرائيل** ﴾، وذلك أن الله تعالى ردّ بني إسرائيل إلى مصر بعدما أغرق فرعون وقومه فأعطاهم جميع ما كان لفرعون وقومه من الأموال والمساكن.

﴿ **فأتبعوهم مشرقين** ﴾، يعني لحقوهم في وقت إشراق الشمس، وهو إضاءتها أي أدرك قوم فرعون موسى وأصحابه وقت شروق الشمس.

﴿ **فلما تراءى الجمعان** ﴾، يعني تقابلا بحيث يرى كل فريق صاحبه، وكير حمزة الراء من تراءى وفتحها الآخرون. ﴿ **قال أصحاب موسى إنّا لمدْركون** ﴾، يعني سيدركنا قوم فرعون ولا طاقة لنا بهم.

﴿ **قال** ﴾، موسى ثقة بوعد الله إيّاه ﴿ **كلا** ﴾، لن يدركونا، ﴿ **إنّ معي ربي سيهدين** ﴾، يدلّني على طريق النجاة.

طريق النجاة ﴿فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق﴾ أي فضربه فانشق ﴿فكان كل فرق﴾ أي قطعة من الماء ﴿كالطود﴾ أي الجبل ﴿العظيم﴾ قيل لما انتهى موسى ومن معه إلى البحر هاجت الرياح فصار البحر يرمي بموج كالجبال، قال يوشع: يا كليم الله أين أمرت فقد غشينا فرعون من خلفنا، والبحر أمامنا قال موسى، ها هنا فخاض يوشع الماء لا يواري حافر دابته، وقال: الذي يكتم إيمانه يا كليم الله أين أمرت قال: ها هنا فكبح فرسه فصكه بلجامه حتى طار الزبد من شدقه، ثم أقحمه البحر فارتسب في الماء وذهب القوم يصنعون مثل ذلك فلم يقدروا فجعل موسى لا يدري كيف يصنع فأوحى الله إليه أن اضرب بعصاك البحر فضربه فانفلق، فإذا الرجل واقف على فرسه لم يبتل سرجه ولا لبده ﴿وأزلفنا ثم الآخرين﴾ يعني قربنا فرعون وجنوده إلى البحر وقدمناهم إلى الهلاك وقيل إن جبريل كان بين بني إسرائيل، وبين قوم فرعون يقول لبني إسرائيل ليلحق آخركم أولكم، ويقول للقبط رويداً ليلحق آخركم أولكم، فكان بنو إسرائيل يقولون ما رأينا أحسن سياقة من هذا الرجل، وكان قوم فرعون يقولون ما رأينا أحسن دعة من هذا الرجل ﴿وأنجينا موسى ومن معه أجمعين ثم أغرقنا الآخرين﴾ يعني أنه تعالى جعل البحر يبساً حتى خرج موسى وقومه، منه وأغرق فرعون وقومه، وذلك أنهم لما تكاملوا في البحر انطبق عليهم فأغرقهم ﴿إن في ذلك لآية﴾ يعني ما حدث في البحر من انفلاقه آية من الآيات العظام الدالة على قدرته ومعجزة لموسى عليه السلام ﴿وما كان أكثرهم مؤمنين﴾ يعني أهل مصر قيل: لم يؤمن منهم إلا آسية امرأة فرعون، وحزقيل مؤمن آل فرعون، ومريم ابنة ماموبا التي دلت على قبر يوسف حين أخرجه موسى من البحر ﴿وإن ربك لهو العزيز الرحيم﴾ قوله تعالى ﴿واتل

﴿ فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحرَ فانفلق ﴾ يعني فضربه فانفلق فانشقّ، ﴿ فكان كلُّ فِرْقٍ ﴾، قطعة من الماء، ﴿ كالطودِ العظيم ﴾، كالجبل الضخم، قال ابن جريج وغيره: لمّا انتهى موسى إلى البحر هاجت الريح والبحر يرمي بموج مثل الجبال، فقال يوشع: يا مكلّم الله أين أُمرتَ فقد غشينا فرعون والبحر أمامنا؟ قال موسى: ههنا فخاض يوشع الماء وجاز البحر ما يواري حافر دابّته الماء. وقال الذي يكتم إيمانه يا مكلّم الله أين أُمرتَ؟ قال ههنا فكبح فرسه بلجامه حتى طار الزبد من شدقيه، ثم أقحمه البحر فارتسب في الماء وذهب القوم يصنعون مثل ذلك فلم يقدروا فجعل موسى لا يدري كيف يصنع، فأوحى الله إليه أن اضرب بعصاك البحر فضربه فانفلق فإذا الرجل واقف على فرسه لم يبتلّ سرجه ولا لبده.

﴿وأزلفنا﴾، يعني وقرّبنا﴿ ثَمَّ الآخرين ﴾، يعني قوم فرعون يقول قدمناهم إلى البحر وقرّبناهم إلى الهلاك، وقال أبو عبيدة: وأزلفنا: جمعنا، ومنه ليلة المزدلفة أي ليلة الجمع. وفي القصة أن جبريل كان بين بني إسرائيل وبين قوم فرعون وكان يسوق بني إسرائيل ويقولون ما رأينا أحسن سياقة من هذا الرجل، وكان يرع قوم فرعون، وكانوا يقولون ما رأينا أحسن رعة من هذا.

﴿ وأنجينا موسى ومَن معه أجمعين ﴾.

﴿ ثم أغرقنا الآخرين ﴾، فرعون وقومه. وقال سعيد بن جبير: كان البحر ساكناً قبل ذلك فلما ضربه موسى بالعصا اضطرب فجعل يمدّ ويجزر.

﴿ إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين ﴾، أي من أهل مصر، قيل: لم يكن آمن من أهل مصر إلا آسية امرأة فرعون وحزقيل المؤمن، ومريم بنت ماموبا التي دلّت على عظام يوسف عليه السلام.

﴿ وإن ربك لهو العزيز الرحيم ﴾، العزيز في الانتقام من أعدائه، الرحيم بالمؤمنين حين أنجاهم.

قوله: ﴿ واتلُ عليهم نبأ إبراهيم ﴾.

عليهم نبأ إبراهيم إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون﴾ يعني أي شيء تعبدون وإنما قال إبراهيم ذلك مع علمه بأنهم عبدة لأصنام، ليريهم أن ما يعبدونه ليس من استحقاق العبادة في شيء ﴿قالوا نعبد أصناما فنظل لها عاكفين﴾ يعني نقيم على عبادتها وإنما قالوا: نظل لأنهم كانوا يعبدونها بالنهار دون الليل ﴿قال هل يسمعونكم﴾ يعني يسمعون دعاءكم ﴿إذ تدعون أو ينفعونكم﴾ يعني بالرزق ﴿أو يضرون﴾ يعني إن تركتم عبادتهم وإذا كان كذلك، فكيف يستحقون العبادة؟ فلما لزمتهم الحجة القاطعة ﴿قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون﴾ المعنى أنها لا تسمع قولاً ولا تجلب نفعاً ولا تدفع ضراً ولكن اقتدينا بآبائنا في ذلك، وفي الآية دليل على إبطال التقليد في الدين وذمه ومدح الأخذ بالاستدلال ﴿قال أفرأيتم ما كنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الأقدمون﴾ أي الأولون ﴿فإنهم عدو لي﴾ أي أعداء لي وإنما وحده على إرادة الجنس. فإن قلت: كيف وصف الأصنام بالعداوة؟ وهي جمادات لا تعقل. قلت: معناه فإنهم عدو لي يوم القيامة لو عبدتهم في الدنيا وقيل: إن الكفار لما عبدوها ونزلوها منزلة الأحياء العقلاء أطلق إبراهيم لفظ العداوة عليها وقيل: هو من المقلوب أراد فإني عدو لهم لأن من عاديته فقد عاداك ﴿إلا رب العالمين﴾ أي ولكن رب العالمين، فإنه ربي وولي وقيل إنهم كانوا يعبدون الأصنام مع الله تعالى فقال إبراهيم كل ما تعبدون أعداء لي إلا رب العالمين ثم وصف معبوده الذي يستحق العبادة فقال ﴿الذي خلقني فهو يهدين﴾ إلى طريق النجاة ﴿والذي هو يطعمني ويسقين﴾

﴿ إذْ قال لأبيه وقومه ما تعبدون ﴾، أي: شيء تعبدون.

﴿ قالوا نعبد أصناماً فنظلُّ لها عاكفين ﴾، يعني نقيم على عبادتها. قال بعض أهل العلم: إنما قال: ﴿ فنظلّ ﴾ لأنهم كانوا يعبدونها بالنهار، دون الليل، يقال: ظل يفعل كذا إذا فعل بالنهار.

﴿ قال هل يسمعونكم ﴾، أي هل يسمعون دعاءكم، ﴿ إذْ تدعون ﴾، قال ابن عباس يسمعون لكم.

﴿ أو ينفعونكم ﴾، قيل بالرزق، ﴿ أو يضرّون ﴾، إن تركتم عبادتها.

﴿ قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون ﴾، معناه إنها لا تسمع قولاً ولا تجلب نفعاً ولا تدفع ضرّاً لكن اقتدينا بآبائنا، فيه إبطال التقليد في الدين.

﴿ قال أفرأيتم ما كنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الأقدمون ﴾، الأوّلون.

﴿ فإنهم عدوٌّ لي ﴾، يعني أعدائي ووحده على معنى أن كل معبود لكم عدوٌّ لي، فإن قيل: كيف وصف الأصنام بالعداوة وهي جمادات؟ قيل: معناه فإنهم عدوٌّ لي لو عبدتهم يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿ سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدّاً ﴾ [مريم: ٨٢]، وقال الفرّاء: هو من المقلوب أراد فإنهم عدوٌّ لهم لأن مَن عاديته فقد عاداك. وقيل: فإنهم عدوٌّ لي على معنى إني لا أتوهم ولا أطلب من جهتهم نفعاً كما لا يتولى العدو ولا يطلب من جهته النفع، قوله: ﴿ إلاّ ربَّ العالمين ﴾، اختلفوا في هذا الاستثناء، قيل: هو استثناء منقطع، كأنه قال: فإنهم عدوٌّ لي لكن ربَّ العالمين وليّي. وقيل: إنهم كانوا يعبدون الأصنام مع الله، فقال إبراهيم: كلّ مَن تعبدون أعدائي إلاّ ربَّ العالمين. وقيل: إنهم غير معبود لي إلاّ ربَّ العالمين، فإني أعبده. وقال الحسين بن الفضل: معناه إلاّ من عند ربِّ العالمين، ثم وصف معبوده فقال.

﴿ الذي خلقني فهو يهدين ﴾، أي يرشدني إلى طريق النجاة.

﴿ والذي هو يطعمني ويسقين ﴾، أي يرزقني ويغذني بالطعام والشراب، فهو رازقي ومن عنده رزقي.

﴿ وإذا مرضتُ ﴾، أضاف المرض إلى نفسه وإن كان المرض والشفاء كله من الله، استعمالاً لحُسْن الأدب

أي يرزقني ويغذيني بالطعام والشراب ﴿وإذا مرضت﴾ أصابني مرض أضاف المرض إلى نفسه استعمالاً للأدب وإن كان المرض والشفاء من الله ﴿فهو يشفين﴾ أي يبرئني ويعافيني من المرض ﴿والذي يميتني ثم يحيين﴾ أي يميتني في الدنيا ثم يحييني في الآخرة.

﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾

﴿والذي أطمع﴾ أي أرجو ﴿أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين﴾ أي يوم الجزاء والحساب قيل: خطيئته كذباته الثلاث وتقدم الكلام عليها (م) عن عائشة رضي الله عنها قالت: قلت يا رسول الله ابن جدعان كان في الجاهلية يصل الرحم، ويطعم المسكين أكان ذلك نافعا له؟ قال «لا ينفعه إنه لم يقل يوماً رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين» وهذا كله احتجاج من إبراهيم على قومه، أنه لا يصلح للإلهية إلا من يفعل هذه الأفعال ﴿رب هب لي حكما﴾ قال ابن عباس: معرفة حدود الله وأحكامه وقيل: العلم والفهم ﴿وألحقني بالصالحين﴾ أي بمن سلف قبلي من الأنبياء في المنزلة والدرجة العالية ﴿واجعل لي لسان صدق في الآخرين﴾ أي ثناءً حسناً وذكراً جميلاً وقبولاً عاماً في الأمم التي تجيء

كما قال الخضر: ﴿ فأردتُ أن أعِيبَها ﴾ [الكهف: ٧٩]، وقال: ﴿ فأراد ربك أن يبلغا أشدّهما ﴾ [الكهف: ٨٢]. ﴿ فهو يشفين ﴾، أي يبرئني من المرض.

﴿ والذي يُميتني ثم يُحيين ﴾ أدخل ﴿ ثم ﴾ ههنا للتراخي أي يميتني في الدنيا ويحييني في الآخرة.

﴿ والذي أطمع ﴾، أرجو، ﴿ أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين ﴾، أي خطاياي يوم الحساب. قال مجاهد: هو قوله إني سقيم، وقوله: ﴿ بل فعله كبيرهم هذا ﴾ [الأنبياء: ٦٣]، وقوله لسارة: هذه أُختي، وزاد الحسن وقوله للكواكب: ﴿ هذا ربّي ﴾ [الأنعام: ٧٧]، وأخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر أنا عبد الغافر بن محمد الفارسي أنا محمد بن عيسى الجلودي أنا إبراهيم بن محمد بن سفيان ثنا مسلم بَن الحجّاج ثنا أبو بكر بن أبي شيبة ثنا حفص بن غياث عن داود عن الشعبي عن مسروق عن عائشة قال: قلت يا رسول الله ابن جدعان كان في الجاهلية يصل الرحم ويطعم المساكين فهل ذلك نافعه؟ قال: «لا ينفعه إن لم يقل يوماً ربِّ اغفرْ لي خطيئتي يوم الدين»، وهذا كله احتجاج من إبراهيم على قومه وإخبار أنه لا تصلح الإلّهية إلاّ لمَن يفعل هذه الأفعال.

﴿ ربِّ هبْ لي حكماً ﴾، قال ابن عباس معرفة حدود الله وأحكامه. وقال مقاتل: الفهم والعلم. وقال الكلبي: النبوّة، ﴿ وألحقني بالصالحين ﴾، بمَن قبلي من النبيِّين في المنزلة والدرجة.

﴿ واجعل لي لسان صدق في الآخرين ﴾، أي ثناءً حسناً وذكراً جميلاً وقبولاً عامّاً في الأمم التي تجيء

بعدي، فأعطاه الله ذلك وجعل كل الأديان يتولونه، ويثنون عليه ﴿واجعلني من ورثة جنة النعيم﴾ أي ممن تعطيه جنة النعيم لأنها السعادة الكبرى ﴿واغفر لأبي إنه كان من الضالين﴾ قيل دعا لأبيه على رجاء أن يسلم فيغفر له فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه ﴿ولا تخزني﴾ أي ولا تفضحني ﴿يوم يبعثون﴾ وهو يوم القيامة ﴿يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم﴾ أي خالص من الشرك والشك فأما الذنوب فلا يسلم منها أحد قال سعيد بن المسيب القلب السليم هو الصحيح وهو قلب المؤمن لأن قلب الكافر والمنافق مريض وقيل: القلب السليم هو الخالي من البدعة المطمئن إلى السنة ﴿وأزلفت الجنة﴾ أي قربت ﴿للمتقين وبرزت الجحيم﴾ أي أظهرت ﴿للغاوين﴾ أي للكافرين ﴿وقيل لهم﴾ يعني يوم القيامة ﴿أين ما كنتم تعبدون من دون الله هل ينصرونكم﴾ أي يمنعونكم من عذاب الله ﴿أو ينتصرون﴾ لأنفسهم ﴿فكبكبوا﴾ قال ابن عباس جمعوا وقيل قذفوا وطرحوا بعضهم على بعض وقيل: ألقوا على رؤوسهم ﴿فيها﴾ أي في جهنم ﴿هم والغاوون﴾ يعني الآلهة والعابدين وقيل: الجن والكافرين ﴿وجنود إبليس

بعدي، فأعطاه الله ذلك فجعل كل أهل الأديان يتولّونه ويثنون عليه. قال القتيبي: وضع اللسان موضع القول على الاستعارة لأن القول يكون به.

﴿ واجعلني من ورثة جنّة النعيم ﴾، أي ممّن تعطيه جنة النعيم.

﴿ واغفرْ لأبي إنه كان من الضالّين ﴾، وقال هذا قبل أن يتبيّن له أنه عدو الله، كما سبق ذكره في سورة التوبة.

﴿ ولا تخزني ﴾ لا تفضحني ﴿ يوم يبعثون ﴾.

﴿ يوم لا ينفع مال ولا بنون إلاّ مَن أتى الله بقلب سليم ﴾، أي خالص من الشرك والشك فأما الذنوب فليس يسلم منها أحد، هذا قول أكثر المفسّرين قال سعيد بن المسيب: القلب السليم هو الصحيح، وهو قلب المؤمن لأن قلب الكافر والمنافق مريض. قال الله تعالى: ﴿ في قلوبهم مرض ﴾ [البقرة: ١٠] قال ابن عثمان النيسابوري: هو القلب الخالي من البدعة المطمئن على السُّنّة.

﴿ وأُزلفتِ ﴾ قربت ﴿ الجنةُ للمتّقين وبرِّزتِ ﴾، أظهرت، ﴿ الجحيم للغاوين ﴾، للكافرين.

﴿ وقيل لهم ﴾، يوم القيامة، ﴿ أينما كنتم تعبدون من دون الله هل ينصروكم ﴾، يمنعونكم من العذاب، ﴿ أو ينتصرون ﴾ لأنفسهم.

﴿ فكُبكبوا فيها ﴾، قال ابن عباس: جمعوا. وقال مجاهد: دهوراً. وقال مقاتل: قذفوا. وقال الزجّاج: طرح بعضهم على بعض. وقال القتيبي: أُلقوا على رؤوسهم. ﴿ هم الغاوون ﴾، يعني الشياطين، قال قتادة ومقاتل وقال الكلبي: كَفَرَة الجن.

﴿ وجنود إبليس أجمعون ﴾، وهم أتباعه ومَن أطاعه من الجنّ والإنس. ويقال: ذريّته.

﴿ قالوا ﴾ أي: قال الغاوون للشياطين والمعبودين، ﴿ وهم فيها يختصمون ﴾، مع المعبودين ويجادل بعضهم بعضاً.

﴿ تالله إنْ كنّا لفي ضلال مبين ﴾.

﴿ إذ نسوّيكم ﴾، نعدلكم، ﴿ بربِّ العالمين ﴾، فنعبدكم .

أجمعون﴾ يعني أتباعه ومن أطاعه من الإنس والجن وقيل ذريته ﴿قالوا وهم فيها يختصمون﴾ يعني العابدين والمعبودين ﴿تالله إن كنا لفي ضلال مبين إذ نسويكم﴾ أي نعدلكم ﴿برب العالمين﴾ فنعبدكم ﴿وما أضلنا﴾ يعني دعانا إلى الضلال ﴿إلا المجرمون﴾ يعني من دعاهم إلى عبادة الأصنام من الجن والإنس، وقيل: الأولون الذين اقتدينا بهم وقيل يعني إبليس وابن آدم الأول وهو قابيل، وهو أول من سن القتل وأنواع المعاصي ﴿فما لنا من شافعين﴾ يعني من يشفع لنا يعني كما أن للمؤمنين شافعين من الملائكة والأنبياء ﴿ولا صديق حميم﴾ أي قريب يشفع لنا، يقول ذلك الكفار حين يشفع الملائكة والنبيون والمؤمنون، والصديق هو الصادق في المودة مع موافقة الدين عن جابر بن عبدالله قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الرجل يقول في الجنة ما فعل بصديقي فلان وصديقه في الجحيم، فيقول الله عز وجل أخرجوا له صديقه إلى الجنة، فيقول من بقي فما لنا من شافعين ولا صديق حميم» رواه البغوي بإسناد الثعلبي. وقال الحسن: استكثروا من الأصدقاء المؤمنين فإن لهم شفاعة يوم القيامة ﴿فلو أن لنا كرة﴾ أي رجعة إلى الدنيا ﴿فنكون من المؤمنين﴾ أي أنهم تمنوا الرجعة حين لا رجعة لهم.

إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾
إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ
أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١١٠﴾ ۞ قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا
كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي ۖ لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٥﴾ قَالُوا
لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ
مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَأَنجَيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ
أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾ كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾

﴿ وما أضلّنا ﴾ أي: ما دعانا إلى الضلال، ﴿ إلاّ المجرمون ﴾. قال مقاتل: يعني الشياطين. وقال الكلبي: إلاّ ولونا الذين اقتدينا بهم. وقال أبو العالية وعكرمة: يعني إبليس وابن آدم الأول وهو قابيل، لأنه أول مَن سنّ القتل، وأنواع المعاصي.

﴿ فما لنا من شافعين ﴾، أي: مَن يشفع لنا من الملائكة والنبيّين والمؤمنين.

﴿ ولا صديق حميم ﴾، أي قريب يشفع لنا بقوله الكفار حين تشفع الملائكة والنبيّون والمؤمنون، والصديق هو الصادق في المودّة بشرط الدين، أخبرنا أبو سعيد الشريحي أنا أبو إسحاق الثعلبي أخبرني الحسين بن محمد بن فنجويه ثنا محمد بن الحسين اليقطيني أنا أحمد بن عبد الله يزيد العقيلي ثنا صفوان بن صالح ثنا الوليد بن مسلم ثنا مَن سمع أبا الزبير يقول أشهد لسمعت جابر بن عبد الله يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الرجل ليقول في الجنة ما فعل صديقي فلان، وصديقه في الجحيم، فيقول الله تعالى: أخرجوا له صديقه إلى الجنة، فيقول مَن بقي: فما لنا من شافعين ولا صديق حميم» قال الحسن: استكثروا من الأصدقاء المؤمنين فإن لهم شفاعة يوم القيامة.

﴿ فلو أنّ لنا كرّة ﴾، أي: رجعة إلى الدنيا، ﴿ فنكون من المؤمنين ﴾.

﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۝١٢٥ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝١٢٦ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝١٢٧ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ۝١٢٨ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ۝١٢٩﴾

﴿إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين﴾ أي مع هذه الدلائل والآيات ﴿وإن ربك لهو العزيز الرحيم﴾ أي المنتقم الذي لا يغالب وهو في وصف عزته رحيم. قوله وعز وجل ﴿كذبت قوم نوح المرسلين﴾ أي كذبت جماعة قوم نوح، قيل: القوم مؤنثة وتصغيرها قويمة. فإن قلت: كيف قال المرسلين وإنما هو رسول واحد وكذلك باقي القصص. قلت: لأن دين الرسل واحد وإن الآخر منهم جاء بما جاء به الأول فمن كذب واحد من الأنبياء فقد كذب جميعهم ﴿إذ قال لهم أخوهم نوح﴾ أي أخوهم في النسب لا في الدين ﴿ألا تتقون﴾ أي ألا تخافون فتتركوا الكفر والمعاصي ﴿إني لكم رسول أمين﴾ أي على الوحي، وكان معروفاً عندهم بالأمانة ﴿فاتقوا الله﴾ أي بطاعته وعبادته ﴿وأطيعون﴾ أي فيما أمرتكم به من الإيمان والتوحيد ﴿وما أسألكم عليه من أجر﴾ أي من جعل وجزاء ﴿إن أجري﴾ أي ثوابي ﴿إلا على رب العالمين فاتقوا الله وأطيعون﴾ قيل: كرره ليؤكده عليهم ويقرره في نفوسهم وقيل ليس فيه

﴿ إنَّ في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين ﴾.

﴿ وإنَّ ربَّك لهو العزيز الرحيم ﴾ العزيز الذي لا يغالب، فالله عزيزٌ وهو في وصف عزّته رحيم.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ كذّبت قوم نوح المرسلين ﴾، قيل للحسن البصري: يا أبا سعيد أرأيت قوله: ﴿ كذّبت قوم نوح المرسلين ﴾ و﴿ كذّبت عاد المرسلين ﴾ و﴿ كذبت ثمود المرسلين ﴾ [الشعراء: ١٤١]، وإنما أرسل إليهم رسول واحد؟ قال: إن الآخر جاء بما جاء به الأول، فإذا كذبوا واحداً فقد كذّبوا الرسل أجمعين.

﴿ إذْ قال لهم أخوهم ﴾. في النسب لا في الدين. ﴿ نوح ألَا تتّقون ﴾.

﴿ إني لكم رسول أمين ﴾، على الوحي.

﴿ فاتقوا الله ﴾، بطاعته وعبادته، ﴿ وأطيعون ﴾، فيما آمركم به من الإيمان والتوحيد.

﴿ وما أسألكم عليه من أجر إنْ أجري ﴾، ثوابي ﴿ إلّا على ربِّ العالمين ﴾.

﴿ فاتقوا الله ﴾ بطاعته وعبادته ﴿ وأطيعون ﴾.

﴿ قالوا أنؤمنُ لك واتّبعك الأرذلون ﴾، قرأ يعقوب: (وأتباعك الأرذلون) السفلة. وعن ابن عباس قال: الصاغة. وقال عكرمة: الحاكَة والأساكفة.

﴿ قال ﴾، نوح، ﴿ وما علمي بما كانوا يعملون ﴾، أي ما أعلم أعمالهم وصنائعهم، وليس عليّ من دناءة مكاسبهم وأحوالهم شيء إنما كُلِّفت أن أدعوهم إلى الله ولي منهم ظاهرُ أمرهم.

﴿ إنْ حسابهم ﴾، ما حسابهم، ﴿ إلّا على ربي لو تشعُرُون ﴾، لو تعلمون ذلك ما عبتموهم بصنائعهم. قال الزجّاج: الصناعات لا تضرّ في الديانات. وقيل: معناه أي لم أعلم أن الله يهديهم ويضلّكم ويوفّقهم ويخذلكم.

﴿ وما أنا بطاردِ المؤمنين إنْ أنا إلّا نذير مبين ﴾.

﴿ قالوا لئن لم تنته يا نوح ﴾، عمّا تقول، ﴿ لتكوننّ من المرجومين ﴾، قال مقاتل والكلبي: من المقتولين بالحجارة. وقال الضحاك: من المشتومين.

تكرار ومعنى الأول ألا تتقون الله في مخالفتي وأنا رسول الله ومعنى الثاني ألا تتقون الله في مخالفتي وإني لست آخذ منكم أجراً ﴿**قالوا أنؤمن لك واتبعك الأرذلون**﴾ أي السفلة قال ابن عباس: يعني القافة وقيل هم الحاكة والأساكفة ﴿**قال**﴾ يعني نوحاً ﴿**وما علمي بما كانوا يعملون**﴾ أي وما أعلم أعمالهم وصنائعهم، وليس علي من دناءة مكاسبهم وأحوالهم شيء إنما كلفت أن أدعوهم إلى الله تعالى، وما لي إلا ظواهر أمرهم وقال الزجاج الصناعات لا تضر في الديانات وقيل: معناه إني لم أعلم أن الله يهديهم ويضلكم ويوفقهم ويخذلكم ﴿**إن حسابهم إلا على ربي لو تشعرون**﴾ أي لو تعلمون ذلك ما عيرتموهم بصنائعهم ﴿**وما أنا بطارد المؤمنين**﴾ أي عني وقد آمنوا ﴿**إن أنا إلا نذير مبين**﴾ معناه أخوف من كذبني فمن آمن فهو القريب مني، ومن لم يؤمن فهو البعيد عني ﴿**قالوا لئن لم تنته يا نوح**﴾ أي عما تقول ﴿**لتكونن من المرجومين**﴾ أي من المقتولين بالحجارة وهو أسوأ القتل وقيل من المشتومين ﴿**قال رب إن قومي كذبون فافتح**﴾ أي احكم ﴿**بيني وبينهم فتحاً**﴾ أي حكماً ﴿**ونجني ومن معي من المؤمنين فأنجيناه ومن معه في الفلك المشحون**﴾ أي الموقر المملوء من الناس والطير والحيوان ﴿**ثم أغرقنا بعد الباقين**﴾ أي بعد إنجاء نوح ومن معه ﴿**إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وإن ربك لهو العزيز الرحيم**﴾ قوله تعالى ﴿**كذبت عاد المرسلين إذ قال لهم أخوهم هود ألا تتقون إني لكم رسول أمين**﴾ أي أمين على الرسالة فكيف تتهموني اليوم ﴿**فاتقوا الله وأطيعون وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين أتبنون بكل ريع**﴾ قال ابن عباس: أي بكل شرف وفي رواية عنه بكل طريق، وقيل: هو الفج بين الجبلين وقيل: المكان المرتفع ﴿**آية**﴾ أي علامة وهي العلم ﴿**تعبثون**﴾ يعني بمن مر بالطريق والمعنى، أنهم كانوا: يبنون بالمواضع المرتفعة ليشرفوا على المارة والسابلة فيسخروا منهم ويعبثوا بهم،

﴿ **قال رَبِّ إنَّ قومي كذّبون فافتح** ﴾، فاحكم، ﴿ **بيني وبينهم فتحاً** ﴾، حكماً، ﴿ **ونجني ومَن معي من المؤمنين** ﴾.

﴿ **فأنجيناه ومَن معه في الفلك المشحون** ﴾، الموقّر المملوء من الناس والطير والحيوان كلها.

﴿ **ثم أغرقنا بعد الباقين** ﴾، أي أغرقنا بعد إنجاء نوح، وأهله: مَن بقي من قومه.

﴿ **إنّ في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين** ﴾.

﴿ **وإنّ ربَّك لهوَ العزيز الرحيم** ﴾.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ **كذبتْ عادٌ المرسلين** ﴾.

﴿ **إذ قال لهم أخوهم** ﴾، يعني في النسب لا في الدين، ﴿ **هودٌ ألَا تتّقون** ﴾.

﴿ **إنّي لكم رسول أمين** ﴾، على الرسالة، قال الكلبي: أمين فيكم قبل الرسالة فكيف تتّهموني اليوم.

﴿ **فاتقوا الله وأطيعون** ﴾.

﴿ **وما أسئلكم عليه من أجر إن أجريَ إلّا على ربِّ العالمين** ﴾.

﴿ **أتَبْنُونَ بكلِ ريعٍ** ﴾، قال الوالبي عن ابن عباس: بكل شرف. وقال الضحاك ومقاتل والكلبي: بكل طريق، وهو رواية العوفي عن ابن عباس، وعن مجاهد قال: هو الفجّ بين الجبلين. وعنه أيضاً: أنه المنظرة. ﴿ **آيةً** ﴾، علامة ﴿ **تَعْبَثُون** ﴾، بمَن مرّ بالطريق، والمعنى: أنهم كانوا يبنون المواضع المرتفعة ليُشرِفوا على المارّة والسابلة فيسخروا منهم ويعبثوا بهم. وعن سعيد بن جبير ومجاهد: هذا في بروج الحمام أنكر عليهم هود اتخاذها بدليل قوله: ﴿ **تعبثون** ﴾، أي تلعبون، وهم كانوا يلعبون بالحمام. وقال أبو عبيدة: الرِّيع المكان المرتفع.

وقيل إنهم بنوا بروج الحمام فأنكر عليهم هود باتخاذها، ومعنى تعبثون تلعبون بالحمام ﴿وتتخذون مصانع﴾ قال ابن عباس أبنية وقيل قصوراً مشيدة وحصوناً مانعة، وقيل مآخذ الماء يعني الحياض ﴿لعلكم تخلدون﴾ أي كأنكم تبقون فيها خالدين لا تموتون.

وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ
وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ
الْوَاعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ
أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا
تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ
الْعَالَمِينَ ﴿١٤٥﴾ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ
مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا
يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ
هَذِهِ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾

﴿وإذا بطشتم﴾ أي وإذا أخذتم وسطوتم ﴿بطشتم جبارين﴾ أي قتلاً بالسيف وضرباً بالسوط والجبار الذي يضرب ويقتل على الغضب، وهو مذموم في وصف البشر ﴿فاتقوا الله وأطيعون﴾ فيه زيادة زجر عن حب الدنيا والشرف والتفاخر ﴿واتقوا الذي أمدكم بما تعلمون﴾ أي أعطاكم من الخير ما تعلمون ثم ذكر ما أعطاهم فقال

﴿ وتتّخذون مصانعَ ﴾، قال ابن عباس: أبنية. وقال مجاهد: قصوراً مشيّدة. وعن الكلبي: أنها الحصون. وقال قتادة: مآخذ الماء يعني الحياض، واحدتها مصنعة، ﴿ لعلّكم تَخْلُدون ﴾، أي كأنكم تبقون فيها خالدين. والمعنى: أنهم كانوا يستوثقون المصانع كأنهم لا يموتون.

﴿ وإذا بطشتم ﴾، أخذتم وسطوتم، ﴿ بطشتم جبّارين ﴾، قتلاً بالسيف وضرباً بالسوط، والجبار الذي يقتل ويضرب على الغضب.

﴿ فاتقوا الله وأطيعون ﴾.

﴿ واتقوا الذي أمدّكم بما تعلمون ﴾، أي أعطاكم من الخير ما تعلمون ثم ذكر ما أعطاهم فقال:

﴿ أمدّكم بأنعام وبنين وجنّات وعيون ﴾، يعني بساتين وأنهار.

﴿ إني أخاف عليكم ﴾، قال ابن عباس: إن عصيتموني، ﴿ عذاب يوم عظيم ﴾.

﴿ قالوا سواء علينا ﴾، يعني مستوٍ عندنا، ﴿ أوَعَظْتَ أم لم تكن من الواعظين ﴾، الوعظ كلام يليّن القلب بذكر الوعد والوعيد. قال الكلبي: نهيتنا أم لم تكن من الناهين لنا.

﴿ إنْ هذا ﴾، ما هذا، ﴿ إلاّ خُلُقُ الأوّلين ﴾، قرأ ابن كثير وأبو جعفر وأبو عمرو والكسائي ويعقوب ﴿ خلق ﴾ بفتح الخاء وسكون اللام أي اختلاق الأوّلين وكذبهم، دليل هذه القراءة قوله تعالى: ﴿ وتخلقون إفكاً ﴾

﴿أمدكم بأنعام وبنين وجنات وعيون﴾ فيه التنبيه على نعمة الله تعالى عليهم ﴿إني أخاف عليكم﴾ قال ابن عباس إن عصيتموني ﴿عذاب يوم عظيم﴾ فكان جوابهم أن ﴿قالوا سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين﴾ أي أنهم أظهروا قلة اكتراثهم بكلامه، واستخفافهم بما أورده من المواعظ والوعظ كلام يلين القلب يذكر الوعد والوعيد ﴿إن هذا إلا خلق الأولين﴾ قرىء بفتح الخاء أي اختلاق الأولين وكذبهم وقرىء خلق بضم الخاء، واللام أي عادة الأولين من قبلنا أنهم يعيشون ما عاشوا ثم يموتون ولا بعث ولا حساب وقولهم ﴿وما نحن بمعذبين﴾ أي أنهم أظهروا بذلك تقوية نفوسهم فيما تمسكوا به من إنكارهم المعاد ﴿فكذبوه فأهلكناهم إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وإن ربك لهو العزيز الرحيم﴾ قوله تعالى ﴿كذبت ثمود المرسلين إذ قال لهم أخوهم صالح ألا تتقون إني لكم رسول أمين فاتقوا الله وأطيعون وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين أتتركون فيما ها هنا آمنين﴾ أي في الدنيا من العذاب ﴿في جنات وعيون وزروع ونخل طلعها﴾ أي ثمرها الذي يطلع منها ﴿هضيم﴾ قال ابن عباس: لطيف وعنه يانع نضيج وقيل: هو اللين الرخو. وقيل: متهشم يتفتت إذا مس. وقيل: الهضيم هو الذي دخل بعضه في بعض من النضج أو النعومة وقيل هو المدرك ﴿وتنحتون من الجبال بيوتاً فارهين﴾ وقرىء فرهين قيل: الفاره الحاذق بنحتها والفره قال

[العنكبوت: ١٧]، وقرأ الآخرون ﴿ خلق ﴾ بضم الخاء واللام، أي عادة الأوّلين من قبلنا، وأمرهم أنهم يعيشون ما عاشوا ثم يموتون ولا بعث ولا حساب.

﴿ وما نحن بمعذبين ﴾.

﴿ فكذّبوه فأهلكناهم إنّ في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين ﴾.

﴿ وإن ربّك لهو العزيز الرحيم ﴾.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ كذّبت ثمود المرسلين * إذْ قال لهم أخوهم صالح ألاَ تتّقون * إنّي لكم رسول أمين * فاتقوا الله وأطيعون * وما أسألكم عليه من أجْر إن أجريَ إلاّ على ربِّ العالمين * أتتركون فيما ههنا ﴾، يعني في الدنيا ﴿ آمنين ﴾، من العذاب.

﴿ في جنّاتٍ وعيونٍ * وزروعٍ ونخلٍ طلعها ﴾، ثمرها يريد ما يطلع منها من الثمر، ﴿ هضيم ﴾، قال ابن عباس: لطيف، ومنه هضيم الكشح إذا كان لطيفاً. وروى عطية عنه: يانع نضيج. وقال عكرمة: هو اللين. وقال الحسن: هو الرخو. وقال مجاهد: متهشّم متفتّت إذا مس، وذلك أنه ما دام رطباً فهو هضيم، فإذا يبس فهو هشيم. وقال الضحّاك ومقاتل: قد ركب بعضه بعضاً حتى هضم بعضه بعضاً، أي كسره. وقال أهل اللغة: هو المنضمّ بعضه إلى بعض في وعائه قبل أن يظهر. وقال الأزهري: الهضيم هو الداخل بعضه في بعض من النضج والنعومة. وقيل: هضيم أي هاضم يهضم الطعام. وكل هذا للطافته.

﴿ وتنحِتُون من الجبال بيوتاً فارِهين ﴾، وقرىء: «فـرهين»، قيل: معناهما واحد. وقيل: فارهين أي حاذقين بنحتها، من قولهم فره الرجل فراهة فهو فاره، ومَن قرأ «فـرهين» قال ابن عباس: أشرين بطرين. وقال عكرمة: ناعمين. وقال مجاهد: شرهين. قال قتادة: معجبين بصنيعكم قال السدي: متجبّرين. وقال أبو عبيدة: مرحين. وقال الأخفش فرحين. والعرب تعاقب بين الهاء والحاء مثل مدحته ومدهته. قال الضحاك: كيّسين.

﴿ فاتقوا الله وأطيعون * ولا تطيعوا أمر المسرفين ﴾، قال ابن عباس: المشركين. وقال مقاتل: هم التسعة الذين عقروا الناقة وهم.

ابن عباس: الأشر والبطر وقيل: معناه متجبرين فرحين معجبين بصنعكم ﴿**فاتقوا الله وأطيعون ولا تطيعوا أمر المسرفين**﴾ قال ابن عباس: أي المشركين وقيل يعني التسعة الذين عقروا الناقة ﴿**الذين يفسدون في الأرض**﴾ أي بالمعاصي ﴿**ولا يصلحون**﴾ أي لا يطيعون الله فيما أمرهم ﴿**قالوا إنما أنت من المسحرين**﴾ أي من المسحورين المخدوعين وقال ابن عباس: من المخلوقين المعللين بالطعام والشراب ﴿**ما أنت إلا بشر مثلنا**﴾ والمعنى أنت بشر مثلنا ولست بملك ﴿**فأت بآية**﴾ يعني على صحة ما تقول ﴿**إن كنت من الصادقين**﴾ يعني أنك رسول إلينا ﴿**قال هذه ناقة لها شرب**﴾ أي حظ من الماء ﴿**ولكم شرب يوم معلوم**﴾.

وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابُ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَأَصۡبَحُواْ نَٰدِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ إِنَّ فِي
ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾ كَذَّبَتۡ قَوۡمُ لُوطٍ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذۡ
قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ ﴿١٦٢﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ
أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٦٤﴾ أَتَأۡتُونَ ٱلذُّكۡرَانَ مِنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُمۚ بَلۡ أَنتُمۡ
قَوۡمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ قَالُواْ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُخۡرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلۡقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهۡلِي
مِمَّا يَعۡمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَنَجَّيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥٓ أَجۡمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزٗا فِي ٱلۡغَٰبِرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَّرۡنَا ٱلۡأٓخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِم مَّطَرٗاۖ فَسَآءَ
مَطَرُ ٱلۡمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾ كَذَّبَ أَصۡحَٰبُ
لۡـَٔيۡكَةِ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذۡ قَالَ لَهُمۡ شُعَيۡبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ ﴿١٧٨﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ
عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٨٠﴾ ۞ أَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُخۡسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُواْ بِٱلۡقِسۡطَاسِ
ٱلۡمُسۡتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلۡجِبِلَّةَ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾
قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسۡقِطۡ عَلَيۡنَا كِسَفٗا مِّنَ
ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١٨٨﴾

﴿**ولا تمسوها بسوء**﴾ أي بعقر ﴿**فيأخذكم عذاب يوم عظيم فعقروها فأصبحوا نادمين**﴾ أي على عقرها لما رأوا

﴿ **الذين يفسدون في الأرض** ﴾، بالمعاصي، ﴿ **ولا يصلحون** ﴾، لا يطيعون الله فيما أمرهم به.

﴿ **قالوا إنّما أنت من المسحَّرين** ﴾، قال مجاهد وقتادة: من المسحورين المخدوعين، أي ممّن يسحر مرة بعد مرة. وقال الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس أي من المخلوقين المعلّلين بالطعام والشراب، يقال: سحّره أي علّله بالطعام والشراب، يريد إنك تأكل الطعام والشراب ولست بملك، بل:

﴿ **ما أنت إلا بشر مثلنا فأتِ بآية** ﴾، على صحة ما تقول. ﴿ **إن كنت من الصادقين** ﴾، أنك رسول الله إلينا.

﴿ **قال هذه ناقة لها شرب** ﴾، حظ ونصيب من الماء، ﴿ **ولكم شربُ يومٍ معلوم** ﴾.

﴿ **ولا تَمسُّوها بسوء** ﴾، بعقر، ﴿ **فيأخُذكم عذابُ يومٍ عظيم** ﴾.

﴿ **فعقروا فأصبحوا نادمين** ﴾، على عقرها حين رأوا العذاب.

العذاب ﴿فأخذهم العذاب إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وإن ربك لهو العزيز الرحيم﴾ قوله عز وجل ﴿كذبت قوم لوط المرسلين إذ قال لهم أخوهم لوط ألا تتقون إني لكم رسول أمين فاتقوا الله وأطيعون وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين أتأتون الذكران من العالمين﴾ يعني نكاح الرجال من بني آدم ﴿وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم﴾ يعني أتتركون العضو المباح من النساء وتميلون إلى أدبار الرجال ﴿بل أنتم قوم عادون﴾ أي معتدون مجاوزون الحلال إلى الحرام ﴿قالوا لئن لم تنه يا لوط لتكونن من المخرجين﴾ أي من قريتنا ﴿قال إني لعملكم من القالين﴾ أي من التاركين المبغضين ﴿رب نجني وأهلي مما يعملون﴾ أي من العمل الخبيث قال الله تعالى ﴿فنجيناه وأهله أجمعين إلا عجوزاً﴾ أي امرأته ﴿في الغابرين﴾ أي بقيت في المهلكين ﴿ثم دمرنا الآخرين﴾ أي أهلكناهم ﴿وأمطرنا عليهم مطراً﴾ يعني الكبريت والنار ﴿فساء مطر المنذرين إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين

﴿ فأخذهم العذابُ إنّ في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين ﴾.

﴿ وإنّ ربَّك لهو العزيز الرحيم ﴾.

قوله تعالى: ﴿ كذّبتْ قومُ لوطٍ المرسلين * إذْ قال لهم أخوهم لوطٌ ألاَ تتّقون * إنّي لكم رسول أمين * فاتقوا الله وأطيعون * وما أسألكم عليه من أجر إنْ أجريَ إلاّ على ربِّ العالمين * أتأتون الذُّكْرَانَ ﴾، قال مقاتل: يعني جماع الرجال. ﴿ من العَالَمِين ﴾، يعني من بني آدم.

﴿ وتذَرُون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم ﴾، قال مجاهد: تركتم أقبال النساء إلى أدبار الرجال، ﴿ بل أنتم قوم عادون ﴾، معتدون مجاوزون الحلال إلى الحرام.

﴿ قالوا لئن لم تنته يا لوطُ لتكوننّ من المخرَجين ﴾، من قريتنا.

﴿ قال إنّي لِعَمَلِكم من القَالِين ﴾، المبغضين، ثم دعا فقال:

﴿ ربِّ نجّني وأهلي مما يعملون ﴾، من العمل الخبيث.

قال الله تعالى: ﴿ فنجّيناه وأهله أجمعين * إلاّ عجوزاً في الغابرين ﴾ وهي امرأة لوط بقيت في العذاب والهلاك.

﴿ ثم دمّرنا الآخَرِين ﴾، أي: أهلكناهم.

﴿ وأمطرنا عليهم مطراً فساءَ مطر المُنذَرِين ﴾، قال وهب بن منبّه: الكبريت والنار.

﴿ إنّ في ذلك لآيةً وما كان أكثرهم مؤمنين ﴾.

﴿ وإنّ ربَّك لهو العزيز الرحيم ﴾.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ كذّب أصحابُ الأيكة المرسلين ﴾، وهم قوم شعيب عليه السلام، قرأ العراقيون: «الأيكة» هنها وفي صّ [١٣] بالهمزة وسكون اللام وكسر التاء، وقرأ الآخرون «ليكة» بفتح اللام والتاء غير مهموز، جعلوها اسم البلدة، وهو لا ينصرف، ولم يختلفوا في سورة الحجر [٧٨] وقّ [١٤] أنهما مهموزان مكسوران، والأيكة: الغيضة من الشجر الملتفّ.

﴿ إذْ قال لهم شعيب ﴾، ولم يقل أخوهم لأنه لم يكن من أصحاب الأيكة في النسب، فلما ذكر مدين قال أخاهم شعيباً لأنه كان منهم، وكان الله تعالى بعثه إلى قومه أهل مدين وإلى أصحاب الأيكة. ﴿ ألاَ تتّقون ﴾.

﴿وإن ربك لهو العزيز الرحيم﴾ قوله عز وجل ﴿كذب أصحاب الأيكة المرسلين﴾ أي الغيضة الملتفة من الشجر وقيل هو اسم البلد ﴿إذ قال لهم شعيب﴾ لم يقل لهم أخوهم لأنه لم يكن منهم وإنما كان من مدين وأرسل إليهم ﴿ألا تتقون إني لكم رسول أمين فاتقوا الله وأطيعون وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين﴾ إنما كانت دعوة هؤلاء الأنبياء فيما حكي عنهم على صيغة واحدة لاتفاقهم على تقوى الله وطاعته، والإخلاص في العبادة والامتناع من أخذ الأجر على تبليغ الرسالة، ﴿أوفوا الكيل ولا تكونوا من المخسرين﴾ أي الناقصين لحقوق الناس في الكيل والوزن ﴿وزنوا بالقسطاس﴾ أي بالميزان العدل ﴿المستقيم ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين واتقوا الذي خلقكم والجبلة الأولين﴾ يعني الخليقة والأمم المتقدمة ﴿قالوا إنما أنت من المسحرين وما أنت إلا بشر مثلنا وإن نظنك لمن الكاذبين فأسقط علينا كسفاً﴾ يعني قطعاً ﴿من السماء إن كنت من الصادقين قال ربي أعلم بما تعملون﴾ يعني من نقصان الكيل والوزن وهو مجازيكم بأعمالكم، وليس العذاب إلي وما علي إلا الدعوة والتبليغ.

فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُوا۟ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٠٩﴾ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾

﴿فكذبوه فأخذهم عذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم﴾ وذلك أنهم أصابهم حر شديد فكانوا يدخلون

﴿ إنّي لكم رسولٌ أمين * فاتّقوا الله وأطيعون * وما أسألكم عليه من أجر إنْ أجريَ إلّا على ربِّ العالمين ﴾، وإنما كانت دعوة هؤلاء الأنبياء كلهم فيما حكى الله عنهم على صيغة واحدة لاتفاقهم على الأمر بالتقوى والطاعة والإخلاص في العبادة والامتناع من أخذ الأجر على الدعوة وتبليغ الرسالة.

﴿ أوفوا الكيل ولا تكونوا من المخسِرين ﴾، الناقصين لحقوق الناس بالكيل والوزن.

﴿ وزِنُوا بالقسطاس المستقيم * ولا تبخسوا الناس أشياءَهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين * واتقوا الذي خلقكم والجِبلّة ﴾، الخليقة، ﴿ الأوّلين ﴾، يعني الأمم المتقدمين، والجبلّة: الخلُق، يقال: جُبل أي خُلق.

﴿ قالوا إنّما أنتَ من المسحَّرين وما أنت إلّا بشرٌ مثلنا وإنْ نظنّك لمنَ الكاذبين * فأسقطْ علينا كِسَفاً من السماء إن كنت من الصادقين * قال ربِّي أعلمُ بما تعملون ﴾. أي من نقصان الكيل والوزن، وهو مجازيكم بأعمالكم، وليس العذاب إليّ وما عليّ إلّا الدعوة.

﴿ فكذّبوه فأخذهم عذابُ يومِ الظُّلّة ﴾، وذلك أنه أخذهم حرٌّ شديد، فكانوا يدخلون الأسراب فإذا دخلوها

الأسراب، فيجدونها أحر من ذلك فيخرجون فأظلتهم سحابة فاجتمعوا تحتها فأمطرت عليهم ناراً فاحترقوا جميعاً **﴿إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وإن ربك لهو العزيز الرحيم﴾** وقد تقدم الكلام على هذه القصص في سورة الأعراف وهود فأغنى عن الإعادة هنا والله أعلم بمراده قوله عز وجل **﴿وإنه﴾** يعني القرآن **﴿لتنزيل رب العالمين﴾** يعني أن فيه من أخبار الأمم الماضية ما يدل على أنه من رب العالمين **﴿نزل به الروح الأمين﴾** يعني جبريل عليه السلام سماه زوجاً لأنه خلق من الروح وسماه أميناً، لأنه مؤتمن على وحيه لأنبيائه **﴿على قلبك﴾** يعني على قلبك حتى تعيه وتفهمه ولا تنساه وإنما خص القلب لأنه هو المخاطب في الحقيقة، وأنه موضع التمييز والعقل والاختيار وسائر الأعضاء مسخرة له ويدل عليه قوله ﷺ «ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب» أخرجاه في الصحيحين. ومن المعقول أن موضع الفرح والسرور، والغم والحزن هو القلب، فإذا فرح القلب أو حزن يتغير حال سائر الأعضاء فكأن القلب كالرئيس لها، ومنه أن موضع العقل هو القلب على الصحيح من القولين فإذا ثبت ذلك كان القلب هو الأمير المطلق، وهو المكلف والتكليف مشروط بالعقل والفهم. قوله تعالى **﴿لتكون من المنذرين﴾** أي المخوفين **﴿بلسان عربي مبين﴾** قال ابن عباس بلسان قريش ليفهموا ما فيه **﴿وإنه﴾** يعني القرآن وقيل ذكر محمد ﷺ وصفته ونعته **﴿لفي زبر الأولين﴾** أي كتب الأولين **﴿أولم يكن لهم آية﴾** يعني أولم يكن لهؤلاء المتكبرين علامة ودلالة على صدق محمد ﷺ **﴿أن يعلمه﴾** يعني يعلم محمداً ﷺ **﴿علماء بني إسرائيل﴾**.

وجدوها أشدّ حرّاً فخرجوا فأظلّتهم سحابة وهي الظلة فاجتمعوا تحتها فأمطرت عليهم ناراً فاحترقوا، ذكرناه في سورة هود. **﴿ إنّه كان عذاب يوم عظيم ﴾**.

﴿ إنّ في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين ﴾.

﴿ وإنّ ربّك لهو العزيز الرحيم ﴾.

قوله عزّ وجلّ: **﴿ وإنّه ﴾**، يعني القرآن. **﴿ لتنزيل ربّ العالمين نزل به الروح الأمين ﴾**، قرأ أهل الحجاز وأبو عمرو وحفص: **﴿ نزل ﴾** خفيف الروح الأمين برفع الحاء والنون، أي نزل جبريل بالقرآن. وقرأ الآخرون بتشديد الزاي وفتح الحاء والنون أي: نزّل الله به جبريل لقوله عزّ وجلّ: **﴿ وإنه لتنزيل ربِّ العالمين ﴾**.

﴿ على قلبك ﴾، يا محمد حتى وعيته، **﴿ لتكون من المنذرين ﴾**، المخوّفين.

﴿ بلسانٍ عربيّ مبين ﴾، قال ابن عباس: بلسان قريش ليفهموا ما فيه.

﴿ وإنه ﴾، أي ذكر إنزال القرآن، قاله أكثر المفسّرين، وقال مقاتل: ذكر محمد ﷺ ونعته، **﴿ لفي زُبُرِ ﴾** كتب **﴿ الأوّلين ﴾**.

﴿ أوَ لَمْ يكنْ لهم آية ﴾، قرأ ابن عامر: (تكــن) بالتاء آية بالرفع، جعل الآية اسماً وخبره: **﴿ أنْ يعلَمَه ﴾**، وقرأ الآخرون بالياء، **﴿ آية ﴾** نصب، جعلوا الآية خبر يكن، معناه: أوَ لم يكن لهؤلاء المتكبّرين علم بني إسرائيل آية، أي علامة ودلالة على نبوّة محمد ﷺ، لأن العلماء الذين كانوا من بني إسرائيل كانوا يخبرون بوجود ذكره في كتبهم، وهم عبد الله بن سلام وأصحابه. قال ابن عباس: بعث أهل مكة إلى اليهود وهم بالمدينة فسألوهم عن محمد ﷺ، فقالوا: إن هذا لزمانه وإنّا نجد في التوراة نعتَه وصفته، فكان ذلك آية على صدقه. قوله تعالى: **﴿ أنْ يعلَمَه ﴾**، يعني يعلم محمد ﷺ، **﴿ علماءُ بني إسرائيل ﴾**، قال عطيّة: كانوا خمسة عبد الله بن سلام وابن يامين وثعلبة وأسد وأسيد.

قال ابن عباس: بعث أهل مكة إلى اليهود وهم بالمدينة يسألونهم عن محمد ﷺ فقالوا إن هذا لزمانه وإنا نجد في التوراة نعته وصفته فكان ذلك آية على صدقه ﷺ قيل كانوا خمسة عبدالله بن سلام وابن يامين وثعلبة وأسد وأسيد. قوله تعالى ﴿**ولو نزلناه**﴾ يعني القرآن ﴿**على بعض الأعجمين**﴾ جمع أعجمي وهو الذي لا يفصح ولا يحسن العربية، وإن كان عربياً في النسب ومعنى الآية، وأنزلنا القرآن على رجل ليس بعربي اللسان ﴿**فقرأه عليهم**﴾ يعني القرآن ﴿**ما كانوا به مؤمنين**﴾ أي لقالوا لا نفقه قولك وقيل معناه لما آمنوا به أنفة من اتباع من ليس من العرب ﴿**كذلك سلكناه**﴾ قال ابن عباس: يعني أدخلنا الشرك والتكذيب ﴿**في قلوب المجرمين لا يؤمنون به**﴾ أي القرآن ﴿**حتى يروا العذاب الأليم فيأتيهم بغتة وهم لا يشعرون فيقولوا هل نحن منظرون**﴾ أي لنؤمن ونصدق وتمنوا الرجعة ولا رجعة لهم ﴿**أفبعذابنا يستعجلون**﴾ قيل لما وعدهم النبيّ ﷺ بالعذاب قالوا إلى متى توعدنا بالعذاب ومتى هذا العذاب، فأنزل الله أفبعذابنا يستعجلون ﴿**أفرأيت إن متعناهم سنين**﴾ أي كفار مكة في الدنيا ولم نهلكهم ﴿**ثم جاءهم ما كانوا يوعدون**﴾ يعني العذاب ﴿**ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون**﴾ أي في تلك السنين الكثيرة والمعنى أنهم وإن طال تمتعهم بنعيم الدنيا، فإذا أتاهم العذاب لم يغن عنهم طول التمتع شيئاً ويكونوا كأنهم لم يكونوا في نعيم قط ﴿**وما أهلكنا من قرية إلا لها منذرون**﴾ أي رسل ينذرونهم ﴿**ذكرى**﴾ أي تذكره ﴿**وما كنا ظالمين**﴾ أي في تعذيبهم حيث قدمنا الحجة عليهم ﴿**وما**

﴿ **ولو نزّلناه** ﴾، يعني القرآن، ﴿ **على بعض الأعجمين** ﴾، جمع الأعجمي، وهو الذي لا يُفصِح ولا يُحسِن العربية وإن كان عربياً في النسب، والعجمي: منسوب إلى العجم، وإن كان فصيحاً. ومعنى الآية: ولو نزّلناه على رجل ليس بعربي اللسـان.

﴿ **فقرأه عليهم** ﴾، بغير لغة العرب، ﴿ **ما كانوا به مؤمنين** ﴾، وقالوا: ما نفقه قولك، نظيره قوله عزّ وجلّ: ﴿ ولو جعلناه قرآناً أعجمياً لقالوا لولا فُصِّلتْ آياتُه ﴾ [فصّلت: ٤٤]، وقيل: معناه ولو نزّلناه على رجل ليس من العرب لما آمنوا به أنفةً من اتّباعه.

﴿ **كذلك سلكناه** ﴾، قال ابن عباس والحسن ومجاهد أدخلنا الشرك والتكذيب ﴿ **في قلوب المجرمين** ﴾.

﴿ **لا يؤمنون به** ﴾، أي بالقرآن، ﴿ **حتى يَروا العذابَ الأليم** ﴾، يعني عند الموت.

﴿ **فيأتيهم** ﴾، يعني العذاب، ﴿ **بغتةً** ﴾، فجأة، ﴿ **وهم لا يشعرون** ﴾، به في الدنيا.

﴿ **فيقولوا هَلْ نحنُ مُنْظَرُون** ﴾، أي لنؤمن ونصدق، يتمنّون الرجعة والنظرة. قال مقاتل: لمّا أوعدهم النبي ﷺ بالعذاب، قالوا: إلى متى توعدنا بالعذاب متى هذا العذاب؟ قال الله تعالى:

﴿ **أفبعذابنا يستعجلون * أفرأيت إن متّعناهم سنين** ﴾، كثيرة في الدنيا يعني كفّار مكة ولم نهلكهم.

﴿ **ثم جاءهم ما كانوا يُوعدون** ﴾، يعني بالعذاب.

﴿ **ما أغنى عنهم ما كانوا يمتّعون** ﴾، به في تلك السنين. والمعنى أنهم وإن طال تمتّعهم بنعيم الدنيا فإذا أتاهم العذاب لم يُغنِ عنهم طول التمتّع شيئاً، ويكون كأنّهم لم يكونوا في نعيم قطّ.

﴿ **وما أهلكنا من قرية إلاّ لها مُنْذِرُون** ﴾، رسل ينذرونهم.

﴿ **ذكرى** ﴾، محلها نصب أي ينذرونهم، تذكرة، وقيل: رفع أي تلك ذكرى، ﴿ **وما كنّا ظالمين** ﴾، في تعذيبهم حيث قدّمنا الحجة عليهم وأعذرنا إليهم.

تنزلت به الشياطين﴾ يعني أن المشركين كانوا يقولون: إن الشياطين يلقون القرآن على قلب محمد ﷺ ذلك **﴿وما ينبغي لهم﴾** أن ينزلوا بالقرآن **﴿وما يستطيعون﴾** أي ذلك، ثم إنه تعالى ذكر سبب ذلك فقال **﴿إنهم عن السمع لمعزولون﴾** أي محجوبون بالرمي بالشهب فلا يصلون إلى استراق السمع **﴿فلا تدع مع الله إلهاً آخر فتكون من المعذبين﴾** الخطاب للنبي ﷺ والمراد به غيره لأنه معصوم من ذلك.

قال ابن عباس: يحذر به غيره يقول أنت أكرم الخلق علي، ولو اتخذت إلهاً غيري لعذبتك. قوله تعالى **﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾** روى محمد بن إسحاق بسنده عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: «لما نزلت هذه الآية على رسول الله ﷺ قال يا علي إن الله أمرني أن أنذر عشيرتي الأقربين فضقت بذلك ذرعاً وعرفت أني متى أباديهم بهذا الأمر أرى منهم ما أكره فصمت عليها حتى جاءني جبريل فقال: يا محمد أن لا تفعل ما تؤمر يعذبك ربك فاصنع لنا طعاماً واجعل لنا عليه رجل شاة واملأ لنا عساً من لبن ثم اجمع لي بني عبدالمطلب حتى أبلغهم ما أمرت به، ففعلت ما أمرني به، ثم دعوتهم له وكانوا يومئذٍ نحو أربعين رجلاً يزيدون رجلاً أو ينقصونه فيهم أعمامه أبو طالب وحمزة والعباس وأبو لهب فلما اجتمعوا دعاني بالطعام الذي صنعت فجئت به، فتناول رسول الله ﷺ جذبة من اللحم فشقها بأسنانه ثم ألقاها في نواحي الصحفة ثم قال: خذوا باسم الله فأكل القوم حتى ما لهم بشيء من حاجة وايم الله أن كان

﴿ وما تنزّلتْ به الشياطين ﴾، وذلك أن المشركين كانوا يقولون إن الشياطين يلقون القرآن على لسان محمد ﷺ، فقال جلّ ذكره: **﴿ وما تنزّلت ﴾** به أي بالقرآن الشياطين.

﴿ وما ينبغي لهم ﴾، أي ينزلوا بالقرآن، **﴿ وما يستطيعون ﴾**، ذلك.

﴿ إنّهم عن السمع ﴾ أي عن استراق السمع من السماء، **﴿ لمعزولون ﴾**، أي محجوبون بالشهب مرجومون.

﴿ فلا تدعُ مع الله إلَهاً آخر فتكون من المعذَّبين ﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما يحذّر به غيره، يقول: أنت أكرم الخلق عليّ ولو اتخذت إلَهاً غيري لعذّبتك.

﴿ وأنذِرْ عشيرتَك الأقربين ﴾، روى محمد بن إسحاق عن عبد الغفّار بن القاسم عن المنهال بن عمرو عن عبد الله بن الحارث بن نوفل بن الحارث بن عبد المطّلب عن عبد الله بن عباس عن عليّ بن أبي طالب. قال: لمّا نزلت هذه الآية على رسول الله ﷺ: **﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾**، دعاني رسول الله ﷺ فقال: «يا عليّ إن الله يأمرني أن أنذر عشيرتي الأقربين فضقت بذلك ذرعاً وعرفت أني متى أُباديهم بهذا الأمر أرى منهم ما أكره، فصمتُ عليها حتى جاءني جبريل»، فقال لي: يا محمد إلاّ تفعل ما تُؤمر يعذّبك ربُّك فاصنع لنا صاعاً من طعام واجعل عليه رِجْل شاة، واملأ لنا عسّاً من لبن، ثم اجمع لي بني عبد المطّلب حتى أُبلغهم ما أُمرتُ به، ففعلتُ ما أمرني به، ثم دعوتهم له وهم يومئذ أربعون رجلاً يزيدون رجلاً أو ينقصونه، فيهم أعمامه أبو طالب وحمزة والعباس رضي الله عنهما، وأبو لهب فلما اجتمعوا إليه دعاني بالطعام الذي صنعته فجئت به، فلما وضعته تناول رسول الله ﷺ جذبة من اللحم، فشقّها بأسنانه ثم ألقاها في نواحي الصحفة، ثم قال: «خذوا باسم الله» فأكل القوم حتى ما لهم بشيء حاجة، وإيْمُ الله إن كان الرجل الواحد منهم ليأكل مثل ما قدّمت لجميعهم، ثم قال: «اسقِ القومَ» فجئتهم بذلك العِسِّ فشربوا حتى رَووا جميعاً، وإيْمُ الله إن كان الرجل الواحد منهم ليشرب مثله. فلما أراد رسول الله ﷺ أن يكلّمهم بدره أبو لهب فقال: سحركم صاحبكم فتفرّق القوم ولم يكلّمهم رسول الله ﷺ، فقال الغد: «يا عليّ إن هذا الرجل قد سبقني إلى ما سمعت من القوم فتفرّق القوم قبل أن أُكلّمهم، فعُدَّ لنا من الطعام مثل ما صنعت ثم

الرجل الواحد ليأكل، مثل ما قدمت لجميعهم ثم قال اسق القوم فجئتهم بذلك العس فشربوا حتى رووا جميعاً، وايم الله أن كان الرجل الواحد ليشرب مثله فلما أراد رسول الله ﷺ أن يكلمهم بدره أبو لهب فقال: سحركم صاحبكم فتفرق القوم ولم يكلمهم رسول الله ﷺ فقال الغد يا: علي فإن هذا الرجل قد سبقني إلى ما سمعت من القول فتفرق القوم قبل أن أكلمهم، فاعدد لنا من الطعام مثل ما صنعت ثم أجمعهم ففعلت ثم جمعتهم ثم دعاني بالطعام فقربته، ففعل كما فعل بالأمس فأكلوا وشربوا ثم تكلم رسول الله ﷺ فقال: يا بني عبد المطلب إني قد جئتكم بخبري الدنيا والآخرة، وقد أمرني الله عز وجل أن أدعوكم إليه فأيكم يوازرني على أمري هذا، ويكون أخي ووصيي وخليفتي فيكم فأحجم القوم عنها جميعاً، وأنا أحدثهم سناً فقلت أنا يا رسول الله أكون وزيرك عليه فأخذ برقبتي، ثم قال هذا أخي ووصيي وخليفتي فيكم فاسمعوا له وأطيعوا فقام القوم يضحكون، ويقولون لأبي طالب قد أمرك أن تسمع لعلي وتطيعه» (ق) عن ابن عباس رضي الله عنهما: لما نزلت وأنذر عشيرتك الأقربين صعد النبيّ ﷺ على الصفا فجعل ينادي: يا بني فهر يا بني عدي لبطون من قريش، حتى اجتمعوا فجعل الذي لم يستطع أن يخرج يرسل رسولاً لينظر ما هو فجاء أبو لهب وقريش فقال أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي قالوا ما جربنا عليك كذباً قال فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد.

اجمعهم» ففعلت ثم جمعت فدعاني بالطعام فقرّبته ففعل كما فعل بالأمس، فأكلوا وشربوا ثم تكلم رسول الله ﷺ فقال: «يا بني عبد المطّلب إني قد جئتكم بخيريّ الدنيا والآخرة. وقد أمرني الله تعالى أن أدعوكم إليه فأيّكم يؤازرني على أمري هذا؟ ويكون أخي ووصيّي وخليفتي فيكم، فاسمعوا له وأطيعوا» فقام القوم يضحكون، ويقولون لأبي طالب: قد أمرك أن تسمع لعلي وتطيع. أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف حدّثنا محمد بن إسماعيل حدّثنا يوسف بن موسى حدّثنا أبو أسامة حدّثنا الأعمش حدّثنا عمرو بن مرّة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لمّا نزلت ﴿ وأنذِرْ عشيرتك الأقربين ﴾ ورهطك منهم المخلصين خرج رسول الله ﷺ حتى صعد الصفا، فهتف يا صاحباه، فقالوا: مَن هذا فاجتمعوا إليه فقال: «أرأيتكم إنْ أخبرتكم أنّ خيلاً تخرج من سفح هذا الجبل أكنتم مصدّقيّ»؟ قالوا: ما جرّبنا عليك كذباً قال: «فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد» فقال أبو لهب: تبّاً لك ما جمعتنا إلّا لهذا، ثم قال: فنزلت ﴿ تبّتْ يدا أبي لهب وتبّ ﴾ [اللهب: ١] هكذا قرأ الأعمش يومئذ: أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبدالله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا عمر بن حفص بن غياث ثنا أبي ثنا الأعمش حدّثني عمرو بن مرّة عن سعيد بن جبير عن ابن عبّاس قال: لما نزلت ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾، صعد النبي ﷺ على الصفا فجعل ينادي: «يا بني فهر يا بني عديّ، لبطون قريش حتى اجتمعوا، فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولاً لينظر ما هو، فجاء أبو لهب وقريش، وقال أرأيتُكم لو أخبرتُكم أنّ خيلاً بالوادي تريد أن تُغير عليكم أكنتم مصدقيّ؟ قالوا: نعم ما جرّبنا عليك كذباً، قال: فإني نذيرٌ لكم بين يدي عذاب شديد»، فقال أبو لهب: تبّاً لك سائر اليوم ألهذا جمعتنا؟ فنزلت: ﴿ تبّت يدا أبي لهب وتبّ ما أغنى عنه ماله وما كسب ﴾ [اللهب: ١ و٢]، أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبدالله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا أبو اليمان أنا شعيب عن الزهري أخبرني سعيد بن المسيب وأبو سلمة بن عبد الرحمن أن أبا هريرة قال: قام رسول الله ﷺ حين أنزل الله تعالى: ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾، فقال: «يا معشر قريش أو كلمة نحوها، اشتروا أنفسكم لا أُغني عنكم من الله شيئاً، يا بني عبد مناف لا أُغني عنكم من الله شيئاً يا عباس بن عبد المطّلب لا أُغني عنك من الله شيئاً، يا صفيّة عمّة رسول الله لا أُغني عنك من الله شيئاً، ويا فاطمة بنت محمد سَليني ما شئت من مالي لا أُغني

فقال أبو لهب: تباً لك سائر اليوم ألهذا جمعتنا فنزلت ﴿تبت يدا أبي لهب وتب ما أغنى عنه ماله وما كسب﴾ وفي رواية قد تب وفي رواية للبخاري، لما نزلت ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾ ورهطك منهم المخلصين خرج رسول الله ﷺ، حتى صعد الصفا فهتف يا صباحاه، فقالوا من هذا واجتمعوا إليه وذكر نحوه (ق) عن أبي هريرة قال قام رسول الله ﷺ حين أنزل الله تعالى «وأنذر عشيرتك الأقربين وقال يا معشر قريش أو كلمة نحوها اشتروا أنفسكم لا أغنى عنكم من الله شيئاً، يا بني عبد المطلب لا أغني عنكم من الله شيئاً يا عباس بن عبدالمطلب لا أغني عنك من الله شيئاً، ويا صفية عمة رسول الله لا أغنى عنك من الله شيئاً ويا فاطمة بنت رسول الله سليني ما شئت من مالي لا أغنى عنك من الله شيئاً» (م) عن قبيصة بنت مخارق وزهير بن عمرو قالا لما نزلت ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾ انطلق رسول الله ﷺ إلى رضمة جبل فعلا أعلاها حجراً ثم نادى «يا بني عبد مناف إني نذير لكم إنما مثلي ومثلكم كمثل رجل رأى العدو فانطلق يريد أهله فخشي أن يسبقوه، فجعل يهتف يا صباحاه» ومعنى الآية أن الإنسان إذا بدأ بنفسه أولاً وبالأقرب فالأقرب من أهله ثانياً لم يكن لأحد عليه طعن البتة وكان قوله أنفع وكلامه أنجع.

وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾ وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾

﴿واخفض﴾ أي ألن ﴿جناحك لمن اتبعك من المؤمنين﴾ فإن قلت ما معنى التبعيض في قوله «من المؤمنين» وقلت: معناه لمن اتبعك من المؤمنين المصدقين بقلوبهم وألسنتهم دون المؤمنين بألسنتهم وهم المنافقون ﴿فإن

عنك من الله شيئاً». أخبرنا أبو سعيد عبد الله بن أحمد الطاهري أنا جدّ أبو سهل بن عبد الصمد بن عبد الرحمن البزاز أنا أبو بكر محمد بن زكريا العذافري أنا أبو إسحاق بن إبراهيم الدبري ثنا عبد الرزّاق أنا معمر عن قتادة عن مطرف بن عبد الله بن الشخير عن عياض بن جمان المجاشعي قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله عزّ وجلّ أمرني أن أُعلمكم ما جهلتم مما علّمني يومي هذا وإنه قال إن كل مال نحلته عبادي فهو لهم حلال، وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم، فأتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرّمتْ عليهم ما أحللتُ لهم، وأمرتهم أن يشركُوا بي ما لم أُنزل به سلطاناً وإن الله نظر إلى أهل الأرض فَمقَتَهم عربَهم وعجمَهم إلاّ بقايا من أهل الكتاب، وإن الله تعالى أمرني أن أُحوّف قريشاً، فقلت: يا رب إنهم إذا يثلغوا رأسي حتى يدعوه خبزه، فقال: إنما بعثتك لأبتليك وأبتلي بك، وقد أنزلت عليك كتاباً لا يغسله الماء، تقرؤه في المنام واليقظة، فاغزهم نغزك وأنفق ننفق عليك، وابعث جيشاً نمددك بخمسة أمثالهم، وقاتل بمَن أطاعك مَن عصاك، ثم قال أهل الجنة ثلاثة: إمام مُقسِط، ورجل رحيم رقيق القلب بكل ذي قربى، ومسلم ورجل غني متعفّف متصدّق، وأهل النار خمسة الضعيف الذي لا زبر له، الذين هم فيكم تُبَع لا يبتغون بذلك أهلاً ولا مالاً، ورجل إن أصبح أصبح يخادعك عن أهلك ومالك، ورجل لا يُخفى له طمع وإن دقّ إلاّ ذهب به، والشنظير الفاحش»، وذكر البخل والكذب.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ واخفضْ جناحك ﴾، يعني ألِنْ جانبك، ﴿ لمَن اتّبعك من المؤمنين ﴾.

عصوك﴾ يعني فيما تأمرهم به ﴿فقل إني بريء مما تعملون﴾ يعني من الكفر والمخالفة ﴿وتوكل على العزيز الرحيم﴾ التوكل عبارة عن تفويض الرجل أمره إلى من يملك أمره، ويقدر على نفعه وضره وهو الله تعالى العزيز الذي يقهر أعداءك، بعزته الرحيم الذي ينصرك عليهم برحمته ﴿الذي يراك حين تقوم﴾ إلى صلاتك وقيل يراك أينما كنت وقيل يراك حين تقوم لدعائك ﴿وتقلبك في الساجدين﴾ قال ابن عباس: ويرى تقلبك في صلاتك في حال قيامك وركوعك وسجودك وقعودك وقيل مع المصلين في الجماعة يقول يراك إذا صليت وحدك ومع الجماعة، وقيل: معناه يرى تقلب بصرك في المصلين فإنه كان ﷺ يبصر من خلفه كما يبصر من قدامه عن أبي هريرة أن النبيّ ﷺ قال: «هل ترون قبلتي ها هنا فوالله ما يخفى علي خشوعكم ولا ركوعكم إني لأراكم من وراء ظهري» وقيل: معناه يرى تصرفك وذهابك ومجيئك في أصحابك المؤمنين. وقيل: تصرفك في أحوالك كما كانت الأنبياء من قبلك وقال ابن عباس أراد وتقلبك في أصلاب الأنبياء من نبي إلى نبي حتى أخرجك في هذه الأمة ﴿إنه هو السميع﴾ يعني لقولك ودعائك ﴿العليم﴾ يعني بنيتك وعملك قل يا محمد ﴿هل أنبئكم﴾ يعني أخبركم ﴿على من تنزل الشياطين﴾ هذا جواب لقولهم ينزل عليه شيطان ثم بين على من تنزل الشياطين فقال تعالى ﴿تنزل على كل أفاك﴾ يعني كذاب ﴿أثيم﴾ يعني فاجر وهم الكهنة وذلك أن الشياطين كانوا يسترقون السمع، ثم يلقون ذلك إلى أوليائهم من الإنس وهو قوله تعالى ﴿يلقون السمع﴾ يعني ما يسمعون من الملائكة فيلقونه إلى الكهنة ﴿وأكثرهم كاذبون﴾ لأنهم يخلطون به كذباً كثيراً ﴿والشعراء يتبعهم الغاوون﴾ قال أهل التفسير أراد شعراء الكفار الذين كانوا يهجون النبي ﷺ منهم عبدالله بن الزبعرى السهمي،

﴿ فإن عَصَوْكَ فقل إني بريءٌ مما تعملون ﴾، من الكفر وعبادة غير الله.

﴿ وتوكّل ﴾، قرأ أهل المدينة والشام فتوكّل بالفاء، وكذلك هو في مصاحفهم، وقرأ الباقون بالواو ﴿ وتوكّل ﴾، ﴿ على العزيز الرحيم ﴾، ليكفيك كيد الأعداء.

﴿ الذي يراك حين تقوم ﴾، إلى صلاتك، عن أكثر المفسّرين. وقال مجاهد: الذي يراك أينما كنت. وقيل: حين تقوم لدعائهم.

﴿ وتقلّبك في الساجدين ﴾، يعني يرى تقلّبك في صلاتك في حال قيامك وركوعك وسجودك وقعودك. قال عكرمة وعطية عن ابن عباس: في الساجدين أي في المصلّين. وقال مقاتل والكلبي: أي مع المصلّين في الجماعة، يقول يراك حين تقوم وحدك للصلاة ويراك إذا صلّيت مع المصلّين في الجماعة. وقال مجاهد: يرى تقلّب بصرك في المصلّين، فإنه كان يبصر مَن خلفه كما يبصر مَن أمامه. أخبرنا أبو الحسن السرخسي أنا زاهر بن أحمد أنا إسحاق الهاشمي أنا أبو مصعب عن مالك عن أبي الزِّناد عن الأعرج عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «هل ترون قبلتي ههنا فوالله ما يخفى عليّ خشوعكم ولا ركوعكم إني لأراكم من وراء ظهري». وقال الحسن: وتقلّبك في الساجدين أي تصرّفك وذهابك ومجيئك في أصحابك المؤمنين. وقال سعيد بن جبير: يعني وتصرّفك في أحوالك كما كانت الأنبياء من قبلك. والساجدون: هم الأنبياء. وقال عطاء عن ابن عباس: أراد تقلّبك في أصلاب الأنبياء من نبي إلى نبي حتى أخرجك في هذه الأمة.

﴿ إنّه هو السميع العليم ﴾.

﴿ هل أُنبئكم ﴾، أُخبركم، ﴿ على مَن تنزّل الشياطين ﴾، هذا جواب قولهم: (تتنزّل عليه الشياطين). ثم بيّن فقال:

وهبيرة بن أبي وهب المخزومي ومسافع بن عبد مناف وأبو عمرو بن عبدالله الجمحي وأمية بن أبي الصلت الثقفي تكلموا بالكذب، والباطل وقالوا نحن نقول مثل ما يقول محمد وقالوا الشعر، واجتمع إليهم غواة قومهم يسمعون أشعارهم حين يهجون محمداً ﷺ، وأصحابه وكانوا يروون عنهم قولهم فذلك قوله ﴿يتبعهم الغاوون﴾ فهم الرواة الذين يروون هجاء المسلمين، وقيل الغاوون هم الشياطين وقيل هم السفهاء الضالون وفي رواية أن الرجلين أحدهما من الأنصار تهاجيا على عهد رسول الله ﷺ ومع كل واحد غواة من قومه، وهم السفهاء فنزلت هذه الآية **﴿ألم تر أنهم في كل واد﴾** من أودية الكلام **﴿يهيمون﴾** يعني حائرين وعن طريق الحق حائدين، والهائم الذاهب على وجهه لا مقصد له وقال ابن عباس في كل لغو يخوضون، وقيل يمدحون بالباطل ويهجون بالباطل وقيل أنهم يمدحون الشيء ثم يذمونه لا يطلبون الحق والصدق، فالوادي مثل لفنون الكلام والغوص في المعاني والقوافي **﴿وأنهم يقولون ما لا يفعلون﴾** أي أنهم يكذبون في شعرهم وقيل إنهم يمدحون الجود والكرم ويحثون عليه وهم لا يفعلونه ويذمون البخل ويصرون عليه ويهجون الناس بأدنى شيء صدر منهم (ق) عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال «لأن يمتلىء جوف أحدكم قيحاً حتى يريه خير له من أن يمتلىء شعراً» ثم استثنى شعراء المسلمين الذين كانوا يجتنبون شعر الكفار، ويهجون وينافحون عن محمد ﷺ وأصحابه منهم حسان بن ثابت وعبدالله بن رواحة وكعب بن مالك فقال تعالى **﴿إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾** روي أن كعب بن مالك قال للنبيّ ﷺ: إن الله أنزل في الشعر ما أنزل فقال رسول الله ﷺ «إن المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه والذي نفسي بيده لكأن ما ترمونهم به نضح النبل» عن أنس بن مالك

﴿ تنزّل ﴾، أي تتنزّل، **﴿ على كل أفّاك ﴾**، كذّاب، **﴿ أثيم ﴾**، فاجر، قال قتادة: هم الكهنة يسترقّ الجنّ السمع ثم يلقون إلى أوليائهم من الإنس. وهو قوله عزّ وجلّ.

﴿ يُلقون السمع ﴾، أي يستمعون من الملائكة مسترقّين فيلقون إلى الكهنة، **﴿ وأكثرهم كاذبون ﴾**، لأنهم يخلطون به كذباً كثيراً.

قوله عزّ وجلّ: **﴿ والشعراءُ يتّبِعُهم الغاوون ﴾**. قال أهل التفسير: أراد شعراء الكفّار الذين كانوا يهجون رسول الله ﷺ وذكر مقاتل أسماءهم، فقال: منهم عبد الله بن الزبعري السهمي، وهبيرة بن أبي وهب المخزومي، ومشافع بن عبد مناف. وأبو عز بن عبد الله الجمحي، وأُميّة بن أبي الصلت الثقفي، تكلموا بالكذب على رسول الله ﷺ وبالباطل، وقالوا: نحن نقول مثل ما يقول محمد. وقالوا الشعر، واجتمع إليهم غواة من قومهم يستمعون أشعارهم حين يهجون النبي ﷺ وأصحابه، ويروون عنهم وذلك. قوله: **﴿ والشعراء يتّبعهم الغاوون ﴾**، هم الرواة الذين يروون هجاء النبي ﷺ والمسلمين. وقال قتادة ومجاهد: الغاوون هم الشياطين. وقال الضحاك: تهاجى رجلان على عهد رسول الله ﷺ أحدهما من الأنصار والآخر من قوم آخرين، ومع كل واحد منهما غواة من قومه، وهم السفهاء فنزلت هذه الآية. وهي رواية عطية عن ابن عباس.

﴿ ألم ترَ أنّهم في كل وادٍ ﴾، من أودية الكلام، **﴿ يهيمُون ﴾**، حائرون وعن طريق الحق جائرون، والهائم: الذاهب على وجهه لا مقصد له. قال ابن عباس رضي الله عنهما في هذه الآية: في كل لغو يخوضون. وقال مجاهد: في كل فنٍّ يفتنون. وقال قتادة: يمدحون بالباطل ويستمعون ويهجون بالباطل، فالوادي مثلٌ لفنون الكلام، كما يقال: أنا في وادٍ وأنت في واد. وقيل: في كل وادٍ يهيمون أي على كل حرف من حروف الهجاء يصُوغُون القوافي.

﴿ وأنّهم يقولون ما لا يفعلون ﴾، أي: يكذبون في شعرهم يقولون فعلنا وفعّلنا وهم كذبة. أخبرنا

رضي الله عنه «أن النبي ﷺ دخل مكة في عمرة القضاء وابن رواحة يمشي بين يديه وهو يقول:

خلـوا بنـي الكفـار عـن سبيلـه اليـوم نضـربكـم علـى تنـزيلـه
ضـربـاً يـزيـل الهـام عـن مقيلـه ويـذهـل الخليـل عـن خليلـه

فقال عمر يا ابن رواحة بين يدي رسول الله ﷺ وفي حرم الله تقول الشعر؟ فقال رسول الله ﷺ «خل عنه يا عمر فلهي أسرع فيهم من نضح النبل» أخرجه الترمذي والنسائي. وقال الترمذي: وقد روي في غير هذا الحديث أن النبيّ ﷺ دخل مكة في عمرة القضاء وكعب بن مالك بين يديه، وهذا أصح عند بعض أهل الحديث لأن عبدالله بن رواحة قتل يوم مؤتة، وكانت عمرة القضاء بعد ذلك قلت الصحيح، هو الأول لأن عمرة القضاء كانت سنة سبع ويوم مؤتة سنة ثمان والله أعلم (ق) عن البراء أن رسول الله ﷺ قال يوم قريظة لحسان: «أهج المشركين فإن جبريل معك» (خ) عن عائشة قالت «كان رسول الله ﷺ يضع لحسان منبراً في المسجد يقوم عليه قائماً يفاخر عن رسول الله ﷺ وينافح ويقول رسول الله ﷺ: إن الله يؤيد حسان بروح القدس ما نافح أو فاخر عن رسول الله» (م) عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال «اهجوا قريشاً فإنه أشد عليها من رشق النبل فأرسل إلى ابن رواحة فقال: أهجهم فهجاهم فلم يرض فأرسل إلى كعب بن مالك ثم أرسل إلى حسان بن ثابت فلما دخل عليه حسان: قال: قد آن لكم أن ترسلوا إلى هذا الأسد الضارب بذنبه ثم أدلع لسانه فجعل يحركه فقال: والذي بعثك بالحق لأفرينهم بلساني فري الأديم فقال النبيّ ﷺ لا تعجل فإن أبا بكر أعلم قريش بأنسابها، وإن لي فيهم نسباً حتى يلخص لك نسبي فأتاه حسان ثم رجع فقال: يا رسول الله قد لخص لي نسبك والذي بعثك بالحق نبياً لأسلنك منهم كما تسل الشعرة من العجين قالت

عبد الواحد المليحي أنا أبو محمد عبد الرحمن بن أبي شريح أنا أبو القاسم البغوي ثنا علي بن الجعد أنا شعبة عن الأعمش عن ذكوان عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «لأن يمتلىء جوف أحدكم قيحاً حتى يُرِيه، خيرٌ له من أن يمتلىء شعراً»، ثم استثنى شعراء المسلمين الذين كانوا يُجيبون شعراء الجاهلية، ويهجون شعراء الكفّار، وينافِحُون عن النبي ﷺ وأصحابه،منهم حسّان بن ثابت وعبد الله بن رواحة وكعب بن مالك، فقال:

﴿ إلاّ الذين آمنوا وعمِلُوا الصالحات ﴾، أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحي أنا أبو الحسين علي بن عبد الله بن بشران أنا إسماعيل بن محمد الصفّار ثنا أحمد بن منصور الرمادي ثنا عبد الرزاق أنا معمر عن الزهري عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك عن أبيه أنه قال للنبي ﷺ: إن الله قد أنزل في الشعر ما أنزل فقال النبي ﷺ: «إن المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه، والذي نفسي بيده لكأنّما ترمونهم به نَضْحَ النَّبل». أخبرنا عبد الله بن عبد الصمد الجورجاني أنا أبو القاسم علي بن أحمد الخزاعي أنا الهيثم بن كليب أنا أبو عيسى الترمذي ثنا إسحاق بن منصور أنا عبد الرزاق أنا جعفر بن سليمان ثنا ثابت عن أنس أن النبي ﷺ دخل مكة في عمرة القضاء وابن رواحة يمشي بين يديه ويقول:

خلّوا بني الكفّار عن سبيله اليوم نضربكم على تنزيله
ضرباً يُزيل الهام عن مقيله ويذهل الخليل عن خليله

فقال له عمر: يا ابن رواحة بين يدي رسول الله ﷺ وفي حرم الله تقول الشعر؟ فقال النبيّ ﷺ: «خلِّ عنه يا عمر، فلهي أسرع فيهم من نضح النبل». أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا حجّاج بن منهال ثنا شعبة أخبرني عديّ أنه سمع البراء قال: قال رسول الله ﷺ لحسّان: «اهجهم أو هاجهم وجبريل معك». أخبرنا عبد الله بن عبد الصمد الجورجاني أنا أبو القاسم الخزاعي أنا

عائشة: فسمعت رسول الله ﷺ يقول لحسان: إن روح القدس لا يزال يؤيدك ما نافحت عن الله ورسوله قالت وسمعت رسول الله ﷺ يقول هجاهم حسان فشفى واشتفى» فقال حسان:

هجـوت محمـداً فـأجبـت عنـه ... وعنـد الله فـي ذاك الجـزاء
هجـوت محمـداً بـراً تقيـاً ... رسـول الله شيمتـه الـوفـاء
فـإن أبـي ووالـدتـي وعـرضـي ... لعـرض محمـد منكـم وقـاء
ثكلـت بنيتـي إن لمـم تـروهـا ... تثيـر النقـع مـوعـدهـا كـداء
يبـاريـن الأعنـة مصعـدات ... علـى أكتـافهـا الأسـل الظمـاء
تظـل جيـادهـا متمطـرات ... تلطمهـن بـالخمـر النسـاء
فـإن أعـرضتـم عنـا اعتمـرنـا ... وكـان الفتـح وانكشـف الغطـاء
وإلا فـاصبـروا لضـراب يـوم ... يعـز الله فيـه مـن يشـاء
وقـال الله قـد أرسلـت عبـداً ... يقـول الحـق ليـس بـه خفـاء
وقـال الله قـد سيـرت جنـداً ... هـم الأنصـار عـرضتهـا اللقـاء
لنـا فـي كـل يـوم مـن معـد ... سبـاب أو قتـال أو هجـاء
فمـن يهجـو رسـول الله منكـم ... ويمـدحـه وينصـره سـواء

الهيثم بن كليب ثنا أبو عيسى ثنا إسماعيل بن موسى الفزاري وعلي بن حجر، المعنى واحد، قالا: ثنا عبد الرحمن بن أبي الزناد عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ يضع لحسان بن ثابت مِنبراً في المسجد يقوم عليه قائماً يفاخر عن رسول الله ﷺ أو ينافح عن رسول الله ﷺ، ويقول رسول الله ﷺ: «إن الله يُؤيِّد حسّانَ بروح القدس، ما ينافح أو يفاخر عن رسول الله». أخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر أنا عبد الغافر بن محمد ثنا محمد بن عيسى الجلودي ثنا إبراهيم بن محمد بن سفيان ثنا مسلم بن الحجّاج ثنا عبد الملك بن شعيب بن الليث حدّثني أبي عن جدّي ثنا خالد بن زيد حدّثني سعيد بن أبي هلال عن عمّار بن غزية عن محمد بن إبراهيم عن أبي سلمة بن عبد الرحمن عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال: «اهجُو قريشاً فإنه أشدّ عليهم من رشق النبل»، فأرسل إلى ابن رواحة فقال: «اهجهم»، فهجاهم فلم يرضَ، فأرسل إلى كعب بن مالك ثم أرسل إلى حسان بن ثابت، فلما دخل عليه قال حسان: قد آن لكم أن ترسلوا إلى هذا الأسد الضارب بذنبه ثم أدلع لسانه، فجعل يحرّكه، فقال: الذي بعثك بالحق لأفرينّهم بلساني فريَ الأديم، فقال رسول الله ﷺ: «لا تعجل فإن أبا بكر أعلم قريش بأنسابها، وإنّ لي فيهم نسباً حتى يلخّص لك نسبي»، فأتاه حسّان ثم رجع، فقال: يا رسول الله قد لخّص لي نسبك والذي بعثك بالحق لأسلنّك منهم كما تُسَلّ الشعرة من العجين. قالت عائشة: فسمعتُ رسول الله ﷺ يقول لحسان: «إن روح القدس لا يزال يؤيدك ما نافحت عن الله ورسوله»، وقالت: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «هجاهم حسان فشفي واشتفى»، قال حسان:

هجوتَ محمداً فأجبتُ عنه ... وعند الله في ذاك الجزاء
هجوتَ محمداً برّاً حنيفاً ... رسول الله شيمته الوفاء
فإن أبي ووالدتي وعرضي ... لعرض محمد منكم وِقاء
فمَن يهجو رسولَ الله منكم ... ويمدحه وينصره سواء
وجبريل رسول الله فينا ... وروح القدس ليس له كِفاء

وجبريل رسول الله فينا وروح القدس ليس له كفاء

فصل في مدح الشعر

(خ) عن أبي بن كعب أن رسول الله ﷺ قال «إن من الشعر لحكمة» عن ابن عباس رضي الله عنهما قال جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فجعل يتكلم بكلام فقال «إن من البيان سحراً وإن من الشعر حكماً» أخرجه أبو داود (م) عن عمرو بن الشريد عن أبيه قال: «ردفت وراء النبي ﷺ يوماً فقال هل معك من شعر أمية بن أبي الصلت شيء، قلت نعم قال: هيه: فأنشدته بيتاً فقال: هيه ثم أنشدته بيتاً قال: هيه حتى أنشدته مائة بيت زاد في رواية لقد كاد يسلم في شعره» عن جابر بن سمرة قال: «جالست النبيّ ﷺ أكثر من مائة مرة فكان أصحابه يتناشدون الشعر ويتذاكرون أشياء من أمر الجاهلية، وهو ساكت وربما تبسم معهم» أخرجه الترمذي. وقال حديث حسن صحيح. وقالت عائشة: الشعر كلام فمنه حسن ومنه قبيح فخذ منه الحسن ودع منه القبيح. وقال الشعبي: كان أبو بكر يقول الشعر وكان عمر يقول الشعر وكان علي أشعر منهما وروي عن ابن عباس أنه كان ينشد الشعر ويستنشده في المسجد، فيروى أنه دعا عمر بن ربيعة المخزومي، فاستنشده القصيدة التي قالها فقال:

أمن آلِ نعمٍ أنت غادٍ فمبكر غداة غدٍ أم رائح فمهجر

فأنشده القصيدة إلى آخرها، وهي قريب من تسعين بيتاً ثم إن ابن عباس أعاد القصيدة جميعها، وكان حفظها بمرة واحدة. قوله تعالى ﴿وذكروا الله كثيراً﴾ أي لم يشغلهم الشعر عن ذكر الله ﴿وانتصروا من بعد ما ظلموا﴾ أي انتصروا من المشركين لأنهم بدؤوا بالهجاء، ثم أوعد شعراء المشركين فقال تعالى ﴿وسيعلم الذين ظلموا﴾ أي أشركوا وهجوا رسول الله ﷺ وهو الطاهر المطهر من الهجاء ﴿أي منقلب ينقلبون﴾ أي أيَّ مرجع يرجعون إليه بعد الموت قال ابن عباس: إلى جهنم وبئس المصير والله أعلم بمراده وأسرار كتابه.

أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا أبو اليمان أنا شعيب عن الزهري أخبرني أبو بكر بن عبد الرحمن أن مروان بن الحكم أخبره أن عبد الرحمن بن الأسود بن عبد يغوث أخبره أن أُبيّ بن كعب أخبره أن رسول الله ﷺ قال: «إن من الشعر لحكمة». قالت عائشة رضي الله تعالى عنها: الشعر كلام فمنه حسن ومنه قبيح فخذ الحسن ودع القبيح. وقال الشعبي: كان أبو بكر رضي الله تعالى عنه يقول الشعر، وكان عمر رضي الله تعالى عنه يقول الشعر، وكان علي رضي الله تعالى عنه أشعر الثلاثة ورُوِيَ عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه كان ينشد الشعر في المسجد ويستنشده، فرُوِيَ أنه دعا عمر بن أبي ربيعة المخزومي فاستنشده القصيدة التي قالها فقال:

أمن آل نعم أنت غادٍ فمبكر غداة غدٍ أم رائح فمهجّر

فأنشده ابن أبي ربيعة القصيدة إلى آخرها، وهي قريبة من تسعين بيتاً، ثم إن ابن عباس أعاد القصيدة جميعها، وكان حفظها بمرة واحدة. ﴿ وذكروا الله كثيراً ﴾، أي لم يشغلهم الشعر عن ذكر الله، ﴿ وانتصروا من بعد ما ظُلِمُوا ﴾، قال مقاتل انتصروا من المشركين لأنهم بدؤوا بالهجاء، ثم أوعد شعراء المشركين فقال: ﴿ وسيعلمُ الذين ظَلَمُوا ﴾، أشركوا وهجوا رسول الله ﷺ ﴿ أيَّ منقلب ينقلبون ﴾، أي مرجع يرجعون بعد الموت. قال ابن عباس رضي الله عنهما: إلى جهنم والسعير. والله أعلم.

تفسير سورة النمل

مكية وهي ثلاث وتسعون آية وألف وثلاثمائة وسبع عشرة كلمة وأربعة آلاف وسبعمائة وتسعة وتسعون حرفاً

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

طسٓ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ
ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٣﴾

قوله عز وجل ﴿طسٓ تلك آيات القرآن﴾ أي هذه آيات القرآن ﴿وكتاب مبين﴾ أي وآيات كتاب مبين ﴿هدى وبشرى للمؤمنين﴾ أي هو هدى من الضلالة، وبشرى لهم بالجنة ﴿الذين يقيمون الصلاة﴾ أي الخمس بشرائطها ﴿ويؤتون الزكاة﴾ أي إذا وجبت عليهم طيبة بها أنفسهم ﴿وهم بالآخرة هم يوقنون﴾ يعني أن هؤلاء الذين يعملون الصالحات هم الموقنون بالآخرة.

إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ وَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ
هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٥﴾ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٦﴾ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ
أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ
ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨﴾ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾ وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰ لَا
تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾

﴿إن الذين لا يؤمنون بالآخرة زينا لهم أعمالهم﴾ أي القبيحة حتى رأوها حسنة وقيل: إن التزين هو أن يخلق الله

سُورَة النَّمل

مكيّة وهي ثلاث وتسعون آية.

﴿ طسٓ ﴾، قال ابن عباس: هو اسم من أسماء الله تعالى، وقد سبق الكلام في حروف الهجاء. ﴿ تلك آياتُ القرآن ﴾، أي هذه آيات القرآن، ﴿ وكتاب مُبين ﴾، يعني وآيات كتاب مبين.

﴿ هدىً وبشرى للمؤمنين ﴾، يعني هو هدىً من الضلالة وبشرى للمؤمنين المصدقين به بالجنة.

﴿ الذين يُقيمون الصلاة ﴾، أي يؤدّون الصلاة بأركانها وشروطها، ﴿ ويؤتُون الزكاةَ ﴾، يعطون ما وجب عليهم من زكاة أموالهم لأربابها، ﴿ وهم بالآخرة هم يوقنون ﴾.

﴿ إن الذين لا يؤمنون بالآخرة زينّا لهم أعمالهم ﴾، القبيحة حتى رأوها حسنة، ﴿ فهم يعمهون ﴾، أي يترددون فيها متحيّرين.

العلم في القلب بما فيه المنافع واللذات ولا يخلق العلم بما فيه المضار والآفات ﴿فهم يعمهون﴾ أي يترددون فيها متحيرين ﴿أولئك الذين لهم سوء العذاب﴾ أي أشده وهو القتل والأسر ﴿وهم في الآخرة هم الأخسرون﴾ أي أنهم خسروا أنفسهم وأهليهم وساروا إلى النار. قوله تعالى ﴿وإنك لتلقى القرآن﴾ أي تؤتاه وتلقنه وحياً ﴿من لدن حكيم عليم﴾ أي حكيم عليم بما أنزل إليك. فإن قلت: ما الفرق بين الحكمة والعلم. قلت: الحكمة هي العلم بالأمور العلمية فقط والعلم أعم منه لأنه العلم قد يكون علماً، وقد يكون نظراً والعلوم النظرية أشرف ﴿إذ قال﴾ أي واذكر يا محمد إذ قال ﴿موسى لأهله﴾ أي في مسيره بأهله من مدين إلى مصر ﴿إني آنست﴾ أي أبصرت ﴿ناراً سآتيكم منها بخبر﴾ أي امكثوا مكانكم سآتيكم بخبر عن الطريق، وقد كان ضل عن الطريق ﴿أو آتيكم بشهاب قبس﴾ الشهاب شعلة النار والقبس النار المقبوسة منها، وقيل: القبس هو العود الذي في أحد طرفيه نار ﴿لعلكم تصطلون﴾ يعني تستدفئون من البرد وكان في شدة الشتاء ﴿فلما جاءها نودي أن بورك من في النار﴾ يعني يورك على من في النار وقيل: البركة راجعة إلى موسى والملائكة والمعنى من في طلب النار وهو موسى ﴿ومن حولها﴾ وهم الملائكة الذين حول

﴿ أولئك الذين لهم سوء العذاب ﴾، شدّة العذاب في الدنيا بالقتل والأسْر ببدر، ﴿ وهم في الآخرة هُمُ الأخسرون ﴾ لأنهم خسروا أنفسهم وأهليهم وصاروا إلى النار.

﴿ وإنّك لَتُلَقَّى القرآن ﴾، أي تُؤتى القرآن، ﴿ من لدن حكيم عليم ﴾، أي وحياً من عند الله الحكيم العليم.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ إذْ قال موسى لأهله ﴾، أي واذكر يا محمد إذ قال موسى لأهله في مسيره من مدين إلى مصر، ﴿ إني آنستُ ناراً ﴾، أي أبصرت ناراً، ﴿ سآتيكم منها بخبر ﴾، أي امكثوا مكانكم سآتيكم بخبر عن الطريق أو النار، وكان قد ترك الطريق، ﴿ أو آتيكم بشهابٍ قبسٍ ﴾، قرأ أهل الكوفة بشهاب بالتنوين جعلوا القبس نعتاً للشهاب، وقرأ الأخرون بلا تنوين على الإضافة، وهو إضافة الشيء إلى نفسه، لأن الشهاب والقبس متقاربان في المعنى، وهو العود الذي في أحد طرفيه فيه نار، وليس في الطرف الآخر نار. وقال بعضهم: الشهاب هو شيء ذو نور، مثل العمود، والعرب تسمّي كل أبيض ذي نور شهاباً، والقبس: القطعة من النار، ﴿ لعلّكم تصطلون ﴾، تستدفئون من البرد وكان ذلك في شدّة الشتاء.

﴿ فلما جاءها نُودي أنْ بورك مَنْ في النار ومَن حولها ﴾، أي بورك على مَن في النار أو مَن في النار، والعرب تقول: باركه الله وبارك فيه وبارك عليه، بمعنى واحد. وقال قوم: البركة راجعة إلى موسى والملائكة، معناه: بورك في مَن طلب النار، وهو موسى عليه السلام، ومَن حولها وهم الملائكة الذين حول النار، ومعناه: بورك فيك يا موسى وفي الملائكة الذين حول النار، وهذا تحية من عند الله عزّ وجلّ لموسى بالبركة، كما حيّا إبراهيم على ألسنة الملائكة حين دخلوا عليه فقالوا رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت. ومذهب أكثر المفسّرين أن المراد بالنار النور، وذكر بلفظ النار لأن موسى حسبه ناراً، ومَن في النار هم الملائكة، وذلك أن النور الذي رآه موسى كان فيه ملائكة لهم زجل بالتقديس والتسبيح، ومَن حولها موسى لأنه كان بالقرب منها، ولم يكن فيها. وقيل: مَن في النار ومَن حولها جميعاً الملائكة. وقيل: مَن في النار موسى ومَن حولها الملائكة، وموسى وإن لم يكن في النار كان قريباً منها كما يقال بلغ فلان المنزل إذا قرب منه، وإن لم يبلغه بعد، وذهب بعضهم إلى أن البركة راجعة إلى النار. وروى مجاهد عن ابن عباس أنه قال: معناه بُوركتِ النار، وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: سمعت أُبيّاً يقرأ: أن بوركت النار ومَن حولها، و﴿ مَن ﴾ قد يأتي بمعنى ما، كقوله تعالى: ﴿ فمنهم

النار وهذه تحية من الله عز وجل لموسى بالبركة، وقيل: المراد من النار النور وذكر بلفظ النار لأن موسى حسبه ناراً ومن في النار هم الملائكة وذلك أن النور الذي رآه موسى كان فيه ملائكة لهم زجل بالتسبيح والتقديس، ومن حولها موسى، لأنه كان بالقرب منها وقيل البركة راجعة إلى النار، وقال ابن عباس: معناه بوركت النار والمعنى بورك من في النار ومن حولها وهم الملائكة وموسى وروي عن ابن عباس في قوله بورك من في النار يعني قدس من في النار وهو الله تعالى عنى به نفسه على معنى أنه نادى موسى وأسمعه من جهتها كما روي أنه مكتوب في التوراة جاء الله من سيناء، وأشرف من ساعين واستعلى من جبال فاران ومعنى مجيئه من سيناء بعثه موسى منه، ومن ساعين بعثة المسيح ومن جبال فاران بعثة محمد ﷺ وفاران اسم مكة، وقيل كانت النار بعينها وهي إحدى حجب الله عز وجل كما صح في الحديث «حجابه النار لو كشفها لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه» ثم نزه الله سبحانه وتعالى نفسه، وهو المنزه من كل سوء وعيب فقال تعالى ﴿**وسبحان الله رب العالمين**﴾ ثم تعرف إلى موسى بصفاته فقال: الله يا موسى ﴿**إنه أنا الله العزيز الحكيم**﴾ قيل معناه أن موسى قال: من المنادي قال: إنه أنا الله وهذا تمهيد لما أراد الله أن يظهره على يده من المعجزات، والمعنى أنا القوي القادر على ما يبعد من الأوهام كقلب العصا حية وهو قوله ﴿**وألق عصاك**﴾ تقديره فألقاها فصارت حية ﴿**فلما رآها تهتز**﴾ أي تتحرك ﴿**كأنها جان**﴾ وهي الحية الصغيرة التي يكثر اضطرابها ﴿**ولى مدبراً**﴾ يعني هرب من الخوف ﴿**ولم يعقب**﴾ يعني لم يرجع، ولم يلتفت قال الله تعالى ﴿**يا موسى لا تخف إني لا يخاف لدي المرسلون**﴾ يريد إذا أمنتهم لا يخافون أما الخوف الذي هو شرط الإيمان، فلا يفارقهم قال النبيّ ﷺ «أنا أخشاكم لله».

إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ فِي

مَن يمشي على بطنه ﴾ [النور: ٤٥]، و﴿ **ما** ﴾ قد يكون صلة في الكلام، كقولـه: ﴿ **جندٌ مـا هنالـك** ﴾ [صٓ: ١١]، ومعناه: بورك في النار وفيمن حولها، وهم الملائكة وموسى عليه السلام، وسمّى النار مباركة كما سمّى البقعة مباركة فقال: ﴿ **في البقعة المباركة** ﴾ [القصص: ٣٠]، ورُوِيَ عن ابن عباس وسعيد بن جبير والحسن في قوله: ﴿ **بُورِكَ مَن في النار** ﴾، يعني قُدّس مَن في النار، وهو الله عنى به نفسه، على معنى أنه نادى موسى منها وأسمعه كلامه من جهتها، كما رُوِيَ: أنه مكتوب في التوراة جاء الله من سيناء وأشرف من ساعين واستعلى من جبال فاران، فمجيئه من سيناء بعثة موسى منها، ومن ساعين بعثة المسيح منها، ومن جبال فاران بعثة المصطفى منها، وفاران مكة. قيل: كان ذلك نوره عزّ وجلّ. قال سعيد بن جبير: كانت النار بعينها، والنار إحدى حجب الله تعالى، كما جاء في الحديث: «حجابه النار لو كشفها لأحرقت سُبحَاتُ وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه»، ثم نزّه الله نفسه وهو المنزّه من كل سوء وعيب، فقال جلّ ذكره. ﴿ **وسبحان الله ربّ العالمين** ﴾، ثم تعرّف إلى موسى بصفاته، فقال:

﴿ **يا موسى إنّه أنا الله العزيز الحكيم** ﴾، والهاء في قوله: ﴿ **إنه** ﴾ عماد وليس بكناية، وقيل: هي كناية عن الأمر والشأن، أي الأمر والشأن أي المعبود أنا، ثم أرى موسى آية على قدرته، فقال:

﴿ **وألقِ عصاك فلمـا رآها تهتزّ** ﴾، تتحرّك، ﴿ **كأنّها جان** ﴾، وهي الحية الصغيرة التي يكثر اضطرابها، ولّى مدبراً ﴾، وهرب من الخوف، ﴿ **ولم يُعقّب** ﴾، ولم يرجع، يقال: عقّب فلان إذا رجع، وكلّ راجع معقّب. وقال قتادة: ولم يلتفت، فقال الله عزّ وجلّ: ﴿ **يا موسى لا تخف إني لا يخاف لديَّ المرسَلُون** ﴾، يريد إذا آمنهم لا يخافون أما الخوف الذي هو شرط الإيمان فلا يفارقهم، قال النبي ﷺ: «أنا أخشاكم لله».

﴿تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿١٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾﴾

﴿إلا من ظلم ثم بدل حسناً بعد سوء فإني غفور رحيم﴾ قيل: هو ما يصدر من الأنبياء من ترك الأفضل والصغيرة وقيل يحتمل أن يكون المراد منه التعريض بما وجد من موسى من قتل القبطي وهو من التعريضات اللطيفة وسماه ظلماً لقول موسى ﴿إني ظلمت نفسي﴾ ثم إنه خاف من ذلك فتاب قال: ﴿رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي فغفر له﴾ قال ابن جريج: قال الله تعالى لموسى إنما أخفتك لقتلك النفس، ومعنى الآية لا يخيف الله الأنبياء إلا بذنب يصيبه أحدهم فإن أصابه أخافه حتى يتوب، فعلى هذا التأويل يكون صحيحاً وتناهى الخبر عن الرسل عند قوله إلا من ظلم ثم ابتدأ الخبر عن حالة من ظلم من الناس كافة وفي الآية متروك استغنى عن ذكره لدلالة الكلام عليه تقديره: فمن ظلم ثم بدل حسناً بعد سوء فإني غفور رحيم وقيل ليس هذا الاستثناء من المرسلين، لأنه لا يجوز عليهم الظلم بل هو استثناء من المتروك ومعناه: لا يخاف لدي المرسلون إنما الخوف عليهم من الظالمين وهذا الاستثناء المنقطع معناه لكن من ظلم من سائر الناس فإنه يخاف فإن تاب وبدل حسناً بعد سوء فإني غفور رحيم أي أغفر له وأزيل خوفه وقيل: إلا هنا بمعنى ولا معناه ولا يخاف لدي المرسلون ولا من ظلم، ثم بدل حسناً بعد سوء يعني تاب من ظلمه فإني غفور رحيم ثم إن الله تعالى أراه آية أخرى فقال تعالى ﴿وأدخل يدك في جيبك تخرج بيضاء﴾ قيل كانت عليه

وقوله: ﴿ إلاّ مَن ظَلَمَ ثم بدّل حُسناً بعد سوء فإني غفور رحيم ﴾، واختلف في هذا الاستثناء، قيل: هذا إشارة إلى أن موسى حين قتل القبطي خاف من ذلك، ثم تاب فقال: ربِّ إني ظلمتُ نفسي فاغفر لي، فغفر له، قال ابن جريج: قال الله تعالى لموسى: إنما أخفتُك لقتلِك النفس. وقال معنى الآية: لا يخيف الله الإنبياء إلا بذنب يصيبه أحدهم، فإن أصابه أخافه حتى يتوب، فعلى هذا التأويل يكون الاستثناء صحيحاً وتناهى الخبر عن الرُّسل عند قوله: ﴿ إلاّ مَن ظلم ﴾ ثم ابتدأ الخبر عن حال مَن ظلم من الناس كافّة، وفي الآية متروك استُغني عن ذكره بدلالة الكلام عليه، تقديره: فمَن ظَلَمَ ثم بدّل حسناً بعد سوء فإنّي غفور رحيم. قال بعض العلماء: ليس هذا باستثناء من المرسلين لأنه لا يجوز عليهم الظلم، بل هو استثناء من المتروك في الكلام، معناه لا يخاف لديّ المرسلون، إنما الخوف على غيرهم من الظالمين، إلاّ مَن ظلم ثم تاب، وهذا من الاستثناء المنقطع، معناه: لكن مَن ظلم من سائر الناس فإنه يخاف، فإن تاب وبدّل حسناً بعد سوء فإن الله غفور رحيم، يعني يغفر الله له ويُزيل الخوف عنه. وقال بعض النحويين: إلاّ ههنا بمعنى ولا، يعني: لا يخاف لديّ المرسلون ولا مَن ظلم ثم بدّل حسناً بعد سوء يقول لا يخاف لديّ انمرسلون ولا المذنبون التائبون كقوله تعالى: ﴿ لئلا يكون للناس عليكم حجّة إلاّ الذين ظلموا منهم ﴾ [البقرة: ١٥٠] يعني ولا الذين ظلموا، ثم أراه الله آية أخرى فقال:

﴿ وأدخلْ يدكَ في جيبك ﴾، والجيب حيث جبب من القميص، أي قطع، قال أهل التفسير: كانت عليه مدرّعة من صوف لا كمّ لها ولا أزرار فأدخل يده في جيبه وأخرجها، فإذا هي تبرق مثل البرق، فذلك قوله: ﴿ تخرج بيضاءَ من غير سوء ﴾، من غير برص، ﴿ في تسع آيات ﴾، يقول هذه آية مع تسع آيات أنت مرسل بهنّ، ﴿ إلى فرعون وقومه إنّهم كانوا قوماً فاسقين ﴾.

مدرعة صوف لا كمَّ لها، ولا أزرار فأدخل يده في جيبها وأخرجها فإذا هي تبرق مثل شعاع الشمس أو البرق ﴿**من غير سوء**﴾ يعني من غير برص ﴿**في تسع آيات**﴾ يعني آية مع تسع آيات أنت مرسل بهن فعلى هذا تكون الآيات إحدى عشرة العصا واليد البيضاء والفلق والطوفان والجراد، والقمل والضفادع والدم والطمس والجدب في بواديهم، والنقصان في مزارعهم، وقيل: في بمعنى من أي من تسع آيات فتكون اليد البيضاء من التسع ﴿**إلى فرعون وقومه إنهم كانوا قوماً فاسقين**﴾ يعني خارجين عن الطاعة ﴿**فلما جاءتهم آياتنا مبصرة**﴾ يعني بينة واضحة يبصرونها ﴿**قالوا هذا**﴾ يعني الذي نراه ﴿**سحر مبين**﴾ يعني ظاهر ﴿**وجحدوا بها**﴾ يعني أنكروا الآيات، ولم يقروا أنها من عند الله ﴿**واستيقنتها أنفسهم**﴾ يعني علموا أنها من عند الله والمعنى أنهم جحدوا بها بألسنتهم واستيقنوها بقلوبهم وضمائرهم ﴿**ظلماً وعلواً**﴾ أي شركاً وتكبراً عن أن يؤمنوا بما جاء به موسى ﴿**فانظر كيف كان عاقبة المفسدين**﴾ يعني الغرق.

قوله تعالى ﴿**ولقد آتينا داود وسليمان علماً**﴾ يعني علم القضاء والسياسة وعلم داود تسبيح الطير، والجبال وعلم سليمان منطق الطير والدواب ﴿**وقالا الحمد لله الذي فضلنا**﴾ يعني بالنبوة والكتاب والملك وتسخير الجن والإنس ﴿**على كثير من عباده المؤمنين**﴾ أراد بالكثير الذين فضلا عليهم من لم يؤت علماً أو لم يؤت مثل علمهما، وفيه أنهما فضلا على كثير وفضل عليهما كثير وقيل إنهما لم يفضلا أنفسهما على الكل، وذلك يدل على حسن

﴿ **فلما جاءتْهم آياتُنا مبصرةً** ﴾، بيِّنة واضحة يبصر بها، ﴿ **قالوا هذا سحرٌ مبين** ﴾، ظاهر.

﴿ **وجحدوا بها** ﴾، أي أنكروا الآيات ولم يقرّوا أنها من عند الله، ﴿ **واستيقنتها أنفسهم** ﴾، يعني علموا أنها من عند الله، قوله: ﴿ **ظلماً وعُلوّاً** ﴾، يعني شركاً وتكبّراً عن أن يؤمنوا بما جاء به موسى، ﴿ **فانظرْ كيفَ كان عاقبة المفسدين** ﴾.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ **ولقد آتينا داود وسليمان علماً** ﴾، يعني علم القضاء ومنطق الطير والدواب وتسخير الشياطين وتسبيح الجبال، ﴿ **وقالا الحمد لله الذي فضّلنا** ﴾، بالنبوّة والكتاب وتسخير الشياطين والجن والإنس ﴿ **على كثيرٍ من عباده المؤمنين** ﴾.

﴿ **وورث سليمان داود** ﴾، نبوّته وعلمه وملكه دون سائر أولاده، وكان لداود تسعة عشر ابناً، وأُعطي سليمان ما أُعطي داود من المُلْك، وزِيدَ له تسخير الريح وتسخير الشياطين. وقال مقاتل: كان سليمان أعظم ملكاً من داود وأقضى منه، وكان داود أشدّ تعبّداً من سليمان، وكان سليمان شاكراً. لنِعَم الله تعالى، ﴿ **وقال يا أيّها الناس عُلِّمنا منطقَ الطير** ﴾، سمّى صوت الطير منطقاً لحصول الفهم منه، كما يُفهم من كلام الناس. رُوِيَ عن كعب قال: صاح ورشان عند سليمان عليه السلام، فقال: أتدرون ما يقول؟ قالوا: لا، قال: إنه يقول لدُوا للموت وابنُوا للخراب، وصاحت فاختة، فقال: أتدرون ما تقول؟ قالوا: لا، قال: إنها تقول ليت ذا الخلق لم يخلقوا، وصاح طاوس، فقال: أتدرون ما يقول؟ قالوا: لا، قال: فإنه يقول كما تدين تُدان، وصاح هدهد، فقال: أتدرون ما يقول هذا؟ قالوا: لا، قال: فإنه يقول مَن لا يَرحم لا يُرحَم، وصاح صرد، فقال: أتدرون ما يقول؟ قالوا؟ لا، قال: فإنه يقول استغفروا الله يا مذنبين، قال: وصاحت طيطوى، فقال: أتدرون ما تقول؟ قالوا: لا، فإنها تقول: كل حيّ ميت وكل جديد بالٍ، وصاح خطّاف، فقال: أتدرون مايقول؟ قالوا: لا، قال: فإنه يقول: قدِّموا خيراً تجدوه، وهدرت حمامة، فقال: أتدرون ما تقول: قالوا: لا، فإنها تقول: سبحان ربّي الأعلى ملء سمائه وأرضه، وصاح قمري، فقال: أتدرون ما يقول؟ قالوا: لا، قال: فإنه يقول: سبحان ربّي الأعلى، قال: والغراب يدعو على العشار، والحدأة تقول: كل شيء هالك إلاّ الله، والقطاة تقول: مَن سكت سَلِمَ، والببّغاء تقول: ويل لمَن الدنيا همّه،

التواضع. قوله تعالى ﴿وورث سليمان داود﴾ يعني نبوته وعلمه، وملكه دون سائر أولاده وكان لداود تسعة عشر ابناً وأعطي سليمان ما أعطى داود وزيد له تسخير الريح، والجن والشياطين قال مقاتل: كان سليمان أعظم ملكاً من داود، وأقضى منه وكان داود أشد تعبداً من سليمان وكان سليمان شاكراً لنعم الله تعالى ﴿وقال﴾ يعني سليمان ﴿يا أيها الناس علمنا منطق الطير﴾ سمى صوت الطير منطقاً لحصول الفهم منه، وروي عن كعب الأحبار قال: صاح ورشان عند سليمان، فقال: أتدرون ما يقول هذا؟ قالوا: لا قال إنه يقول لدوا للموت وابنوا للخراب وصاحت فاختة فقال: أتدرون ما تقول؟ قالوا لا قال إنها تقول ليت الخلق لم يخلقوا وصاح طاووس فقال أتدرون ما يقول؟ قالوا: لا قال: إنه يقول كما تدين تدان وصاح هدهد فقال: أتدرون ما يقول هذا؟ قالوا: لا قال: إنه يقول من لا يرحم لا يرحم وصاح صرد فقال: أتدرون ما يقول هذا؟ قالوا: لا قال إنه يقول استغفروا ربكم يا مذنبين وصاحت طيطوى فقال أتدرون ما تقول؟ قالوا: لا قال: فإنها تقول كل حي ميت وكل جديد بال وصاح خطاف فقال: أتدرون ما يقول قالوا: لا قال: إنه يقول قدموا خيراً تجدوه وهدرت حمامة قال: أتدرون ما تقول قالوا: لا قال: إنها تقول سبحان ربي الأعلى ملء سمائه وأرضه وصاح قمري قال أتدرون ما يقول؟ قالوا: لا قال إنه يقول سبحان ربي الدائم قال والغراب يدعو على العشار والحدأة تقول كل شيء هالك إلا وجهه، والقطاة تقول من سكت سلم والببغاء تقول: ويل لمن كانت الدنيا همه. والضفدع يقول سبحان ربي القدوس والبازي يقول: سبحان ربي وبحمده والضفدعة تقول: سبحان المذكور بكل لسان.

وعن مكحول قال صاح دراج عند سليمان فقال: أتدرون ما يقول قالوا: لا قال إنه يقول الرحمن على العرش استوى وقال فرقد مر سليمان على بلبل فوق شجرة يحرك رأسه، ويميل ذنبه فقال: لأصحابه أتدرون ما يقول هذا البلبل؟ قالوا الله ونبيه أعلم قال إنه يقول أكلت نصف تمرة فعلى الدنيا العفاء وروي أن جماعة من اليهود قالوا لابن عباس: إنا سائلوك عن سبعة أشياء إن أخبرتنا آمنا وصدقنا قال: سلوا تفقهاً لا تعنتاً قالوا أخبرنا ما تقول القنبرة في صفيرها والديك في صعيقه، والضفدع في نقيقه والحمار في نهيقه، والفرس في صهيله وماذا يقول الزرزور والدراج قال نعم أما القنبر فإنه يقول: اللهم العن مبغض محمد وآل محمد والديك يقول اذكروا الله يا غافلين وأما

والضفدع يقول: سبحان ربّي القدّوس، والبازي يقول: سبحان ربي وبحمده، والضفدعة تقول: سبحان المذكور بكل لسان، وعن مكحول قال: صاح درّاج عند سليمان، فقال: هل تدرون ما يقول؟ قالوا: لا، قال: فإنه يقول: الرحمن على العرش استوى، وعن فرقد السنجي قال: مرّ سليمان على بلبل فوق شجرة يحرّك رأسه ويُمِيل ذنبه، فقال لأصحابه: أتدرون ما يقول هذا البلبل؟ فقالوا: الله ونبيّه أعلم، قال: يقول: أكلت نصف تمرة فعلى الدنيا العفاء. ورُوِيَ أن جماعة من اليهود قالوا لابن عباس: إنّا سائلوك عن سبعة أشياء فإن أخبرتنا آمنّا وصدّقنا، قال: سَلوا تفقهاً ولا تسألوا تعنّتاً، قالوا: أخبرنا ما يقول القنبر في صفيره والديك في صعيقه والضفدع في نقيقه والحمار في نهيقه والفرس في صهيله، وماذا يقول الزرزور والدراج، قال: نعم، أما القنبر فيقول: اللّهمّ العن مُبغِضي محمد وآل محمد، وأما الديك فيقول: اذكروا الله يا غافلون، وأما الضفدع فيقول: سبحان المعبود في لجج البحار، وأما الحمار فيقول: اللّهمَّ العن العشار، وأما الفرس فيقول إذا التقى الصفّان سبّوح قدّوس ربّ الملائكة والروح، وأما الزرزور فيقول: اللّهمَّ إني أسألك قوت يوم بيوم يـا رازق، وأما الدراج فيقول: الرحمن على العرش استوى، قال: فأسلم اليهود وحَسُنَ إسـلامهم، ورُوِيَ عن جعفر بن محمـد الصادق عن أبيـه عن جدّه عن الحسين عن علي قـال: إذا صاح النسر قال: يا ابن آدم عش ما شئت آخره الموت، وإذا صاح العقاب قال: في البعد من الناس أنس، وإذا صاح القنبر قال: إلّهي العن مُبغِضي محمد، وإذا صاح الخطاف قرأ الحمد لله ربّ العالمين، ويمدّ الضالّين كما

الضفدع، فإنه يقول سبحان الله المعبود في البحار وأما الحمار فإنه يقول اللهم العن العشار وأما الفرس، فإنه يقول إذا التقى الجمعان سبوح قدوس رب الملائكة والروح وأما الزرزور، فإنه يقول اللهم إني أسألك قوت يوم بيوم يا رزاق وأما الدراج فإنه يقول الرحمن على العرش استوى، فأسلم هؤلاء اليهود وحسن إسلامهم وروي عن جعفر الصادق عن أبيه عن جده الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم، قال: إذا صاح النسر قال: يا ابن آدم عشت ما شئت آخره الموت، وإذا صاح العقاب قال البعد من الناس أنس، وإذا صاح القنبر قال إلهي العن مبغضي محمد وآل محمد وإذا صاح الخطاف قال الحمد لله رب العالمين ويمد العالمين كما يمد القارىء. وقوله تعالى ﴿**وأوتينا من كل شيء**﴾ أي مما أوتي الأنبياء، والملوك قال ابن عباس: من أمر الدنيا والآخرة وقيل النبوة والملك وتسخير الرياح والجن والشياطين ﴿**إن هذا لهو الفضل المبين**﴾ يعني الزيادة الظاهرة على ما أعطي غيرنا وروي أن سليمان أعطي مشارق الأرض ومغاربها فملك ذلك أربعين سنة فملك جميع الدنيا من الجن والإنس والشياطين والطير، والدواب والسباع وأعطي مع هذا منطق الطير ومنطق كل شيء وفي زمنه صنعت الصنائع العجيبة.

وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾

﴿**وحشر**﴾ أي جمع ﴿**لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير**﴾ من الأماكن المختلفة في مسير له ﴿**فهم يوزعون**﴾ أي يحبسون حتى يرد أولهم على آخرهم، قيل: كان على جنوده وزعة من النقباء ترد أولها على آخرها لئلا يتقدموا في المسير قال محمد بن كعب القرظي كان معسكر سليمان مائة فرسخ خمسة وعشرون منها للإنس وخمسة وعشرون للجن وخمسة وعشرون للوحش، وخمسة وعشرون للطير والفرسخ اثنا عشر ألف خطوة فالبريد ثمانية وأربعون ألف خطوة لأنه أربع فراسخ فجملة ذلك خمسة وعشرون بريداً وقيل نسجت الجن له بساطاً من ذهب

يمدّ القارىء. قوله تعالى: ﴿ **وأُوتينا من كل شيء** ﴾، يُؤتى الأنبياء والملوك، قال ابن عباس: من أمر الدنيا والآخرة. وقال مقاتل: يعني النبوّة والمُلْك وتسخير الجنّ والشياطين والرياح، ﴿ **إن هذا لهو الفضل المُبين** ﴾، الزيادة الظاهرة على ما أعطى غيرنا، ورُوِيَ أن سليمان عليه السلام أُعطِيَ مُلْك مشارق الأرض ومغاربها، فملك سبعمائة سنة وستّة أشهر، مَلَكَ جميع أهل الدنيا من الجن والإنس والدواب والطير والسِّباع، وأُعطي على ذلك منطق كل شيء، وفي زمانه صُنِعَت الصنائع العجيبة.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ **وحُشر لسليمان** ﴾، وجُمِعَ لسليمان، ﴿ **جنوده من الجن والإنس والطير** ﴾ في مسيره، ﴿**فهم يُوزَعون**﴾، فهم يكفون. قال قتادة كان على كل صف من جنوده وزعة ترد أولها إلى آخرها لئلا يتقدموا في المسير، والوازع الحابس، وهو النقيب، وقال مقاتل: يوزعون يُساقون، وقال السدي: يوقفون. وقيل: يجمعون. وأصل الوزع الكفّ والمنع، قال محمد بن كعب القرظي: كان معسكر سليمان مائة فرسخ خمسة وعشرون منها للإنس، وخمسة وعشرون للجن، وخمسة وعشرون للوحش، وخمسة وعشرون للطير، وكان له ألف بيت من قوارير على الخشب، فيها ثلثمائة منكوحة، وسبعمائة سَرِيّة يأمر الريح العاصف فترفعه، ويأمر الرخاء فتسير به، فأوحى الله إليه وهو يسير بين السماء والأرض، إني قد زدت في مُلْكك أنه لا يتكلم أحد من الخلائق بشيء إلّا جاءت به الريح، فأخبرتك.

وحرير، فرسخاً في فرسخ وكان يوضع كرسيه في وسطه، فيقعد وحوله كراسي الذهب والفضة فيقعد الأنبياء على كراسي الذهب والعلماء على كراسي الفضة، والناس حوله والجن والشياطين حول الناس والوحوش حولهم وتظله الطير بأجنحتها، حتى لا تقع عليه شمس وكان له ألف بيت من قوارير على الخشب فيها ثلاثمائة منكوحة يعني حرة وسبعمائة سرية فيأمر الريح العاصف فترفعه ثم يأمر الرخاء فتسير به وأوحى الله إليه، وهو يسير بين السماء والأرض أني قد زدت في ملكك أنه لا يتكلم أحد من الخلائق بشيء إلا جاءت الريح وأخبرتك به. قوله عز وجل ﴿**حتى إذا أتوا على وادي النمل**﴾ أي أشرفوا على وادي النمل روي عن كعب الأحبار قال: كان سليمان إذا ركب حمل أهله وخدمه وحشمه، وقد اتخذ مطابخ ومخابز فيها تنانير الحديد والقدور العظام تسع كل قدر عشرة من الإبل، فيطبخ الطباخون ويخبز الخبازون وهو بين السماء والأرض واتخذ ميادين للدواب فتجري بين يديه والريح تهوي به فسار من اصطخر يريد اليمن فسلك على مدينة الرسول ﷺ فقال سليمان: هذه دار هجرة نبي يكون في آخر الزمان طوبى لمن آمن به، وطوبى لمن اتبعه ولما وصل مكة رأى حول البيت، أصناماً تعبد فجاوزه سليمان فلما جاوزه بكى البيت فأوحى الله إليه ما يبكيك قال يا رب أبكاني هذا نبي من أنبيائك ومعه قوم من أوليائك مروا علي، ولم يهبطوا ولم يصلوا عندي والأصنام تعبد حولي من دونك فأوحى الله إليه لا تبك، فإني سوف أملؤك وجوهاً سجداً وأنزل فيك قرآناً جديداً، وأبعث منك نبياً في آخر الزمان أحب أنبيائي إلي، وأجعل فيك عماراً من خلقي يعبدونني، وأفرض عليهم فريضة يزفون إليك زفيف النسر إلى وكرها ويحنون إليك حنين الناقة إلى ولدها والحمامة إلى بيضها، وأطهرك من الأوثان والأصنام والشيطان ثم مضى سليمان حتى مر بوادي السدير وادٍ من الطائف فأتى على وادي النمل كذا قال كعب الأحبار. وقيل: إنه بالشأم هو واد يسكنه الجن وذلك النمل مراكبهم. وقيل: إن ذلك النمل أمثال الذباب. وقيل

قوله عزّ وجلّ: ﴿ **حتى إذا أتوا على وادِ النَّمل** ﴾، رُوِيَ عن وهب بن منبّه عن كعب قال: كان سليمان إذا ركب حمل أهله وخدمه وحشمه، وقد اتخذ مطابخ ومخابز يحمل فيها تنانير الحديد وقدور عظام يسع كل قدر عشر جزائر، وقد اتخذ ميادين للدواب أمامه فيطبخ الطبّاخون ويخبز الخبّازون وتجري الدواب بين يديه بين السماء والأرض، والريح تهوي بهم فسار من اصطخر إلى اليمن فسلك مدينة رسول الله ﷺ، فقال سليمان: هذه دار هجرة نبي في آخر الزمان طوبى لمَن آمن به وطوبى لمَن اتّبعه، ورأى حول البيت أصناماً تُعبَد من دون الله فلما جاوز سليمان البيت بكى البيت، فأوحى الله إلى البيت ما يُبكِيك؟ فقال: يا ربِّ أبكاني أن هذا نبي من أنبيائك وقوم من أوليائك مرّوا عليّ فلم يهبطوا ولم يصلّوا عندي، والأصنام تُعبَد حولي من دونك فأوحى الله إليه أنْ لا تبكِ، فإني سوف أملؤك وجوهاً سُجّداً وأنزل فيك قرآناً جديداً، وأبعث منك نبياً في آخر الزمان أحبَّ أنبيائي إليّ وأجعل فيك عمّاراً من خلقي يعبدونني، وأفرض على عبادي فريضة يزفّون إليك زفيف النسور إلى وكرها، ويحنّون إليك حنين الناقة إلى ولدها والحمامة إلى بيضتها، وأُطهّرك من الأوثان وعَبَدَة الشياطين، ثم مضى سليمان حتى مرّ بوادي السدير وادٍ من الطائف، فأتى على وادي النمل، هكذا قال كعب: إنه وادٍ بالطائف، وقال قتادة ومقاتل: هو أرض بالشام. وقيل: وادٍ كان يسكنـه الجنّ، وأولئك النمل مراكبهم. وقال نوف الحميري: كان نمل ذلك الوادي أمثال الذُباب. وقيل: كالبخاتي. والمشهور: أنه النمل الصغير. وقال الشعبي: كانت تلك النملة ذات جناحين. وقيل: كانت نملة عرجاء فنادت، ﴿ **قالت نملةٌ يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم** ﴾، ولم تقل ادخلن لأنه لمّا جعل لهم قولاً كالآدميين خوطبوا بخطاب الآدميين، ﴿ **لا يحطِمَنّكم** ﴾، لا يكسرنّكم، ﴿ **سليمان وجنوده** ﴾، والحطم الكسر، ﴿ **وهم لا يشعرون** ﴾، فسمع سليمان قولها، وكان لا يتكلم خلق إلا حملت الريح ذلك فألقته في مسامع سليمان، قال مقاتل: سمع سليمان كلامها من ثلاثة أميال، قال الضحاك: كان اسم تلك النملة طاخية، قال مقاتل: كان

كالبخاتي والمشهور أنه النمل الصغير ﴿قالت نملة﴾ قيل: كانت عرجاء وكانت ذات جناحين وقيل اسمها طاخية وقيل جرمى ﴿يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم﴾ ولم يقل ادخلن لأنه جعل لهم عقولاً كالآدميين فخوطبوا خطاب الآدميين وهذا ليس بمستبعد أن يخلق الله فيها عقلاً ونطقاً فإنه قادر على ذلك ﴿لا يحطمنكم﴾ أي لا يكسرنكم ﴿سليمان وجنوده وهم لا يشعرون﴾ قال أهل التفسير. علمت النملة أن سليمان نبي ليس فيه جبروتية ولا ظلم، ومعنى الآية أنكم لو لم تدخلوا وطؤوكم، ولم يشعروا فسمع سليمان قولها من ثلاثة أميال وكان لا يتكلم أحد بشيء إلا حملته الريح حتى تلقيه إلى مسامع سليمان، فلما بلغ وادي النمل حبس جنوده حتى دخلوا بيوتهم. فإن قلت: كيف يتصور الحطم من سليمان وجنوده وهو فوق البساط على متن الريح، قلت كأنهم أرادوا النزول عند منقطع الوادي، فلذلك قالت نملة: لا يحطمنكم سليمان وجنوده لأنهم ما دامت الريح تحملهم لا يخاف حطمهم ﴿فتبسم ضاحكاً من قولها﴾ قيل أكثر ضحك الأنبياء تبسم وقيل معنى ضاحكاً متبسماً، وقيل: كان أوله التبسم وآخره الضحك (ق) عن عائشة رضي الله عنها قالت: «ما رأيت النبي صلّى الله عليه وسلّم مستجمعاً قط ضاحكاً حتى أرى منه لهواته إنما كان يتبسم» عن عبدالله بن الحارث بن جزء قال «ما رأيت أحداً أكثر تبسماً من رسول الله صلّى الله عليه وسلّم» أخرجه الترمذي. فإن قلت: ما كان سبب ضحك سليمان. قلت شيئان: أحدهما ما دل من قولها على ظهور رحمته ورحمة جنوده وشفقتهم، وذلك قولها وهم لا يشعرون يعني أنهم لو شعروا ما يفعلون. الثاني سروره بما آتاه الله مما لم يؤت أحداً من إدراك سمعه، ما قالته النملة وقيل: إن الإنسان إذا رأى أو سمع ما لا عهد له به تعجب وضحك، ثم إن سليمان حمد ربه على ما أنعم به عليه ﴿وقال رب أوزعني﴾ أي ألهمني ﴿أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي وأن أعمل صالحاً ترضاه وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين﴾ أي أدخلني في جملتهم، وأثبت اسمي مع أسمائهم واحشرني في زمرتهم.

اسمها جرمى، فإن قيل كيف يتصوّر الحطم من سليمان وجنوده وكانت الريح تحمل سليمان وجنوده على بساط بين السماء والأرض؟ قيل: كان جنوده ركباناً وفيهم مشاة على الأرض تُطوَى لهم. وقيل: يحتمل أن يكون هذا قبل تسخير الله الريح لسليمان: قال أهل التفسير: علم النمل أن سليمان نبي ليس فيه جبرية ولا ظلم. ومعنى الآية أنكم لو لم تدخلوا مساكنكم وطؤوكم ولم يشعروا بكم، ويُروَى أن سليمان لمّا بلغ وادي النمل حبس جنوده حتى دخل النمل بيوتهم.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ فتبسّم ضاحكاً من قولها ﴾، قال الزجّاج: أكثر ضحك الأنبياء التبسّم وقوله: ﴿ ضاحكاً ﴾ أي متبسّماً. قيل: كان أوله التبسّم وآخره الضحك، أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا يحيىٰ بن سليمان حدّثني ابن وهب أنا عمرو وهو ابن الحارث أنا أبي النضر حدّثه عن سليمان بن يسار عن عائشة قالت: ما رأيت رسول الله ﷺ مستجمعاً قطّ ضاحكاً حتى أرى منه لهواته إنما كان يتبسّم، أخبرنا عبد الله بن عبد الصمد الجورجاني أنا أبو القاسم الخزاعي أنا الهيثم بن كليب ثنا أبو عيسى ثنا قتيبة بن سعيد ثنا ابن لهيعة عن عبد الله بن المغيرة عن عبد الله بن الحارث بن جزء قال: ما رأيتُ أحداً أكثر تبسّماً من رسول الله ﷺ. قال مقاتل: كان ضحك سليمان من قول النملة تعجّباً لأن الإنسان إذا رأى ما لا عهد له به تعجّب وضحك ثم حمد سليمان ربّه على ما أنعم عليه، ﴿ وقال ربِّ أوزعني ﴾، ألهمني، ﴿ أن أشكر نعمتَك التي أنعمتَ عليّ وعلى والديّ وأنْ أعمل صالحاً ترضاه، وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين ﴾، أي أدخلني في جملتهم، وأثبت اسمي مع أسمائهم واحشرني في زمرتهم، قال ابن عباس: يريد مع إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب، ومَن بعدهم من النبيّين. وقيل: أدخلني الجنة برحمتك من عبادك الصالحين.

قال ابن عباس: يريد مع إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب ومن بعدهم من النبيين وقيل: أدخلني الجنة مع عبادك الصالحين. قوله عز وجل ﴿**وتفقد الطير**﴾ أي طلبها وبحث عنها والمعنى أنه طلب ما فقد من الطير ﴿**فقال ما لي لا أرى الهدهد**﴾ وكان سبب تفقده الهدهد وسؤاله عنه إخلاله بالنوبة، وذلك أن سليمان كان إذا نزل منزلاً تظله وجنده الطير من الشمس، فأصابته الشمس من موضع الهدهد فنظر فرآه خالياً. وروي عن ابن عباس أنه كان دليله على الماء وكان يعرف موضع الماء ويرى الماء تحت الأرض كما يرى في الزجاجة، ويعرف قربه من بعده فينقر الأرض فتجيء الشياطين فيحفرونه ويستخرجون الماء منه قال سعيد بن جبير: لما ذكر ابن عباس هذا، قال نافع بن الأزرق بأوصاف، انظر ما تقول إن الصبي منا يضع الفخ ويحثو عليه التراب، فيجيء بالهدهد، وهو لا يبصر الفخ حتى يقع في عنقه، فقال له ابن عباس ويحك إذا جاء القدر حال دون البصر وفي رواية إذا نزل القضاء والقدر ذهب اللب، وعمي البصر فنزل سليمان منزلاً واحتاج إلى الماء، فطلبوه فلم يجدوه فتفقد الهدهد ليدله على الماء فقال ما لي لا أرى الهدهد على تقدير أنه مع جنوده، وهو لا يراه ثم إنه أدركه الشك فقال ﴿**أم كان من الغائبين**﴾ أي أكان وقيل بل كان من أهل الغائبين، ثم أوعده على غيبته فقال:

﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾﴾

﴿**لأعذبنه عذاباً شديداً**﴾ قيل هو أن ينتف ريشه وذنبه ويلقيه في الشمس ممعطاً لا يمتنع من النمل ولا من غيره وقيل لأودعنه القفص ولأحبسنه مع ضده، وقيل لأفرقنَّ بينه وبين إلفه ﴿**أو لأذبحنه أو ليأتيني بسلطان مبين**﴾ أي بحجة بينة على غيبته وكان سبب غيبة الهدهد على ما ذكره العلماء أن سليمان لما فرغ من بناء بيت المقدس، عزم على

قوله عزّ وجلّ: ﴿ **وتفقّد الطير** ﴾، أي: طلبها وبحث عنها، والتفقّد طلب ما فُقِدَ، ومعنى الآية: طلب ما فقد من الطير، ﴿ **فقال ما لي لا أرى الهدهد** ﴾، أي ما للهدهد لا أراه، تقول العرب: ما لي أراك كئيباً؟ أي ما لك؟ **والهدهد**: طائر معروف، وكان سبب تفقّد الهدهد وسؤاله عنه، قيل: إخلاله بالنوبة، وذلك أن سليمان كان إذا نزل منزلاً **يظلّه** وجنده جناح **الطير** من الشمس فأصابته الشمس من موضع الهدهد، فنظر فرآه خالياً. ورُوِيَ عن ابن عباس: أن **الهدهد** كان دليل سليمان على الماء وكان يعرف موضع الماء ويرى الماء تحت الأرض، كما يُرَى في الزجاجة، ويعرف قُرْبَه وبُعْدَه فينقر الأرض ثم تجيء الشياطين فيسلخونه ويستخرجون الماء. قال سعيد بن جبير: لمّا ذكر ابن عباس هذا قال له نافع بن الأزرق: يا وصّاف انظر ما تقول إن الصبي منّا يضع الفخ ويحنو عليه التراب فيجيء الهدهد ولا يبصر الفخ حتى يقع في عنقه، فقال له ابن عباس: ويحك إن القـدر إذا جاء حـال دون البصر. وفي رواية: إذا نزل القضاء والقدر ذهب اللبّ وعَمِيَ البصر. فنزل سليمان منزلاً فاحتاج إلى الماء فطلبوا فلم يجدوا، فتفقّد الهدهد ليدلّ على الماء، فقال: ما لي لا أرى الهدهد، على تقرير أنه مع جنوده، وهو لا يراه ثم أدركه الشكّ في غيبته، فقال: ﴿ **أم كان من الغائبين** ﴾، يعني أكان من الغائبين، والميم صلة، وقيل: أم بمعنى بل، ثم أوعده على غيبته، فقال:

﴿ **لأعذبنّه عذاباً شديداً** ﴾، واختلفوا في العذاب الذي أوعده به، فأظهر الأقاويل أن ينتف ريشه وذنبه ويلقيه في الشمس ممعطاً لا يمتنع من النمل ولا من هوام الأرض. وقال مقاتل وابن حيّان: لأطلينّه بالقطران ولأشمسنّه وقيل: لأودعنّه القفص. وقيل: لأفرقنّ بينه وبين ألفه. وقيل: لأحبسنّه مع ضدّه. ﴿ **أو لأذبحنّه** ﴾، لأقطعن حلقه، ﴿ **أو لَيأتيني بسلطان مبين** ﴾، بحجة بيّنة في غيبته، وعذر ظاهر، قرأ ابن كثير ﴿ **ليأتينني** ﴾ بنونين الأولى مشدّدة،

الخروج إلى أرض الحرم فتجهز للمسير واستصحب جنوده من الجن والإنس، والطير والوحش فحملتهم الريح فلما وافى الحرم أقام ما شاء الله أن يقيم، وكان في كل يوم ينحر طول مقامه خمسة آلاف ناقة ويذبح خمسة آلاف ثور وعشرين ألف شاة وقال لمن يحضر من أشراف قومه إن هذا المكان يخرج منه نبي عربي صفته كذا وكذا، يعطى النصرة على جميع من ناوأه وتبلغ هيبته مسيرة شهر، القريب والبعيد عنده في الحق سواء لا تأخذه في الله لومة لائم قالوا فبأي دين يدين يا نبي الله؟ قال: بدين الحنيفية فطوبى لمن أدركه وآمن به قالوا كم بيننا وبين خروجه يا نبي الله قال مقدار ألف سنة فليبلغ الشاهد الغائب، فإنه سيد الأنبياء وخاتم الرسل قال فأقام بمكة حتى قضى نسكه ثم خرج من مكة صباحاً، وسار نحو اليمن فوافى صنعاء زوالاً أي وقت الزوال، وذلك مسيرة شهر فرأى أرضاً حسناء تزهو خضرتها فأحب النزول بها ليصلي ويتغذى فلما نزل قال الهدهد: اشتغل سليمان بالنزول فارتفع نحو السماء لينظر إلى الدنيا، وعرضها فبينما هو ينظر يميناً وشمالاً رأى بستاناً لبلقيس فنزل إليه فإذا هو بهدهد آخر وكان اسم هدهد سليمان يعفور واسم هدهد اليمن يعفير، فقال يعفير ليعفور: من أين أقبلت وأين تريد قال أقبلت من الشام مع صاحبي سليمان بن داود قال ومن سليمان بن داود؟ قال: ملك الإنس والجن والشياطين، والطير والوحش والرياح فمن أين أنت يا يعفير قال أنا من هذه البلاد قال: ومن ملكها؟ قال: امرأة يقال لها بلقيس وإن لصاحبك ملكاً عظيماً، ولكن

وقرأ الآخرون بنون واحدة مشدّدة، وكان سبب غيبته على ما ذكر العلماء أن سليمان لمّا فرغ من بناء بيت المقدس عزم على الخروج إلى أرض الحرم، فتجهّز للمسير واستصحب من الجن والإنس والشياطين والطيور والوحوش ما بلغ معسكره مائة فرسخ، فحملهم الريح فلما وافى الحرم أقام به ما شاء الله أن يقيم، وكان ينحر كل يوم بمقامه بمكة خمسة آلاف ناقة ويذبح خمسة آلاف ثور وعشرين ألف كبش، وقال لمَن حضره من أشراف قومه: إن هذا مكان يخرج منه نبي عربي صفته كذا وكذا يُعطى النصر على جميع مَن ناوأه، وتبلغ هيبته مسيرة شهر، القريب والبعيد عنده في الحق سواء، لا تأخذه في الله لومة لائم، قالوا: فبأيّ دين يدين يا نبيّ الله؟ قال: يدين بدين الحنيفية البيضاء، فطوبى لمَن أدركه وآمن به، فقالوا: كم بيننا وبين خروجه يا نبيّ الله؟ قال: مقدار ألف عام فليبلغ الشاهد منكم الغائب، فإنه سيّد الأنبياء وخاتم الرُّسل، قال: فأقام بمكة حتى قضى نسكه، ثم خرج من مكة صباحاً وسار نحو اليمن فوافى صنعاء وقت الزوال، وذلك مسيرة شهر، فرأى أرضاً حسناء تزهو خضرتها فأحبّ النزول بها ليصلّي ويتغدى ، فلما نزل قال الهدهد إن سليمان قد اشتغل بالنزول فارتفع نحو السماء لينظر إلى طول الدنيا وعرضها، ففعل ذلك فنظر يميناً وشمالاً فرأى بستاناً لبلقيس، فمال إلى الخضرة فوقع فيه فإذا هو بهدهد فهبط عليه، وكان اسم هدْهد سليمان يعفور واسم هدهد اليمن يعفير فقال يعفير اليمن ليعفور سليمان: من أين أقبلت وأين تريد؟ قال: أقبلت من الشام مع صاحبي سليمان بن داود، فقال: ومَن سليمان؟ قال ملك الجن والإنس والشياطين والطير والوحش والرياح: فمن أين أنت؟ قال: أنا من هذه البلاد، قال: ومَن ملكها؟ قال: امرأة يقال لها بلقيس، وإن لصاحبكم ملكاً عظيماً ولكن ليس ملك بلقيس دونه، فإنها ملكة اليمن كلها وتحت يدها اثنا عشر ألف قائد تحت يد كل قائد مائة ألف مقاتل، فهل أنت منطلق معه حتى تنظر إلى ملكها، قال أخاف أن يتفقدني سليمان في وقت الصلاة إذا احتاج إلى الماء، قال الهدهد اليماني: إن صاحبك يسرّه أن تأتيه بخبر هذه الملكة، فانطلق معه ونظر إلى بلقيس وملكها وما رجع إلى سليمان إلاّ في وقت العصر، قال: فلما نزل سليمان ودخل عليه وقت الصلاة وكان نزل على غير ماء، فسأل الإنس والجنّ والشياطين عن الماء فلم يعلموا، فتفقّد الطير ففقد الهدهد فدعا عريف الطير وهو النسر فسأله عن الهدهد، فقال: أصلح الله الملك ما أدري أين هو وما أرسلته إلى مكان فغضب عند ذلك سليمان، وقال: ﴿ لأعذبنّه عذاباً شديداً ﴾ الآية ثم دعا العقاب سيد الطير فقال: عليّ بالهدهد الساعة فرفع العقاب

ليس ملك بلقيس دونه، فإنها تملك اليمن وتحت يدها أربعمائة ملك كل ملك على كورة مع كل ملك أربعة آلاف مقاتل، ولها ثلاثمائة وزير يديرون ملكها ولها اثنا عشر ألف قائد مع كل قائد اثنا عشر ألف مقاتل، فهل أنت منطلق معي حتى تنظر إلى ملكها قال أخاف أن يفقدني سليمان في وقت الصلاة إذا احتاج إلى الماء قال الهدهد اليماني إن صاحبك يسره أن تأتيه بخبر هذه الملكة. قال فانطلق معه ونظر إلى بلقيس وملكها، وأما سليمان فإنه نزل على غير ماء فسأل عن الماء الإنس والجن فلم يعلموا فتفقد الهدهد فلم يره فدعا بعريف الطير، وهو النسر فسأله عن الهدهد فقال أصلح الله الملك ما أدري أين هو، وما أرسلته إلى مكان فغضب سليمان وقال لأعذبنه الآية ثم دعا العقاب وهو أشد الطير، فقال له عليّ بالهدهد هذه الساعة فرفع العقاب في الهواء حتى رأى الدنيا كالقصعة بين يدي أحدكم، ثم التفت يميناً وشمالاً فرأى الهدهد مقبلاً من نحو اليمن فانقض العقاب يريده، فعلم الهدهد أن العقاب يقصده بسوء فقال له بحق الله الذي قواك وأقدرك علي إلا ما رحمتني، ولم تتعرض لي بسوء فتركه العقاب وقال ويحك ثكلتك أمك إن نبي الله قد حلف أن يعذبك، أو أن يذبحك ثم طارا متوجهين نحو سليمان فلما انتهيا إلى العسكر تلقاه النسر والطير، فقالوا: ويلك أين غبت في يومك هذا فلقد توعدك نبي الله وأخبروه بما قال سليمان. فقال الهدهد: أو ما استثنى نبي الله قالوا بلى ولكنه قال أو ليأتيني بسلطان مبين. قال نجوت إذاً فانطلق به العقاب: حتى أتيا سليمان وكان قاعداً على كرسيه فقال العقاب قد أتيتك به يا نبي الله فلما قرب منه الهدهد رفع رأسه وأرخى ذنبه وجناحيه يجرهما على الأرض تواضعاً لسليمان، فلما دنا منه أخذ برأسه فمده إليه. وقال له: أين كنت لأعذبنك عذاباً شديداً فقال يا نبي الله اذكر وقوفك بين يدي الله فلما سمع سليمان ذلك ارتعد وعفا عنه، ثم قال ما الذي أبطأك عني فقال الهدهد ما أخبر الله عنه بقوله تعالى ﴿**فمكث غير بعيد**﴾ معناه أي غير طويل ﴿**فقال أحطت بما لم تحط به**﴾ أي عملت ما لم تعلم وبلغت ما لم تبلغ أنت ولا جنودك ألهم الله الهدهد هذا الكلام فكافح سليمان تنبيهاً على أن أدنى خلق الله قد أحاط علماً بما لم يحط به ليكون لطفاً له في ترك الإعجاب. والإحاطة بالشيء علماً أن يعلمه من جميع جهاته حتى لا يخفى عليه منه

نفسه دون السماء حتى التزق بالهواء فنظر إلى الدنيا كالقصعة بين يدي أحدكم ثم التفت يميناً وشمالاً فإذا هو بالهدهد مقبلاً من نحو اليمن، فانقضّ العقاب نحوه يريده، فلما رأى الهدهد ذلك علم أن العقاب يقصده بسوء فناشده فقال: بحق الله الذي قوّاك وأقدرك عليّ إلّا رحمتني ولم تتعرض لي بسوء، قال فولّى عنه العقاب، وقال له ويلك ثكلتك أُمك إن نبيّ الله قد حلف أن يعذبك أو يذبحك، ثم طارا متوجهين نحو سليمان، فلما انتهيا إلى المعكسر تلقّاه النسر والطير، فقالوا له: ويلك أين غبت في يومك هذا، ولقد توعدك نبيّ الله وأخبراه بما قال، فقال الهدهد: أوَ ما استثنى رسول الله؟ قالوا: بلى، قال: أو ليأتيّني بسلطان مُبين، قال: فنجوت إذاً، ثم طار العقاب والهدهد حتى أتيا سليمان وكان قاعداً على كرسيّه، فقال العقاب: قد أتيتك به يا نبيّ الله فلما قرب الهدهد منه رفع رأسه وأرخى ذنبه وجناحيه يجرّهما على الأرض تواضعاً لسليمان، فلما دنا منه أخذ برأسه فمدّه إليه وقال: أين كنت لأعذبنّك عذاباً شديداً؟ فقال الهدهد: يا نبيّ الله اذكر وقوفك بين يدي الله تعالى، فلما سمع سليمان ذلك ارتعد وعفا عنه، ثم سأله فقال: ما الذي أبطأ بك عنّي؟ فقال الهدهد: ما أخبر الله عنه في قوله:

﴿ **فمكث** ﴾ قرأ عاصم ويعقوب ﴿ **فمكث** ﴾ بفتح الكاف، وقرأ الآخرون بضمّها وهما لغتان، ﴿ **غير بعيد** ﴾، أي غير طويل، ﴿ **فقال أحطتُ بما لم تُحطْ به** ﴾، والإحاطة العلم بالشيء من جميع جهاته، يقول: علمت ما لم تعلم وبلغت ما لم تبلغه أنت ولا جنودك، ﴿ **وجئتُك من سبأ** ﴾ قرأ أبو عمرو والبزّي عن ابن كثير من ﴿ **سبأ** ﴾ و﴿ **لسبأ** ﴾ في سورة سبأ [١٥]، مفتوحة الهمزة، وقرأ القواص عن ابن كثير ساكنة بلا همزة، وقرأ الآخرون بالجرّ، فمَن لم يجرّه جعله اسم البلد، ومَن أجراه جعله اسم رجل، فقد جاء في الحديث أن النبيّ ﷺ سُئِلَ عن

معلوم ﴿وجئتك من سبأ﴾ قيل: هو اسم للبلد وهي مأرب والأصح أنه أسم رجل وهو سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان، وقد جاء في الحديث أن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم سئل عن سبأ فقال: رحل له عشرة من البنين تيامن منهم ستة وتشاءم أربعة ﴿بنبأ﴾ أي بخبر ﴿يقين﴾ فقال سليمان وما ذاك فقال:

﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩ ﴿٢٦﴾ ۞ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾

﴿إني﴾ أي الهدهد ﴿وجدت امرأة تملكهم﴾ هي بلقيس بنت شراحيل من نسل يعرب بن قحطان، وكان أبوها ملكاً عظيم الشأن قد ولد له أربعون ملكاً هو آخرهم، وكان يملك أرض اليمن كلها وكان يقول لملوك الأطراف ليس أحد منكم كفؤاً لي وأبى أن يتزوج منهم فخطب إلى الجن فزوجوه منهم امرأة يقال لها ريحانة بنت السكن. قيل في سبب وصوله إلى الجن حتى خطب منهم، أنه كان كثير الصيد فربما اصطاد الجن، وهم على صورة الظباء فيخلي عنهم فظهر له ملك الجن وشكره على ذلك واتخذه صديقاً، فخطب ابنته فزوجه إياها وقيل إنه خرج متصيداً فرأى حيتين يقتتلان بيضاء وسوداء، وقد ظهرت السوداء على البيضاء، فقتل السوداء وحمل البيضاء وصب عليها الماء فأفاقت، وأطلقها فلما رجع إلى داره وجلس وحده منفرداً، فإذا معه شاب جميل فخاف منه، قال: لا تخف أنا الحية البيضاء التي أحييتني والأسود الذي قتلته هو عبد لنا تمرد علينا، وقتل عدة منا وعرض عليه المال فقال: المال لا حاجة لي به. ولكن إن كان لك بنت فزوجنيها فزوجه ابنته، فولدت له بلقيس وجاء في الحديث «إن أحد أبوي بلقيس كان جنياً: فلما مات أبو بلقيس طمعت في الملك وطلبت قومها أن يبايعوها فأطاعها قوم وأبى آخرون، وملكوا عليهم

سبأ فقال: «كان رجلاً له عشرة من البنين تَيامَنَ منهم ستّة وتشاءم أربعة». ﴿ بنبأ ﴾، بخبر ﴿ يقين ﴾، فقال سليمان: وما ذاك؟ قال:

﴿ إنّي وجدت امرأة تملكهم ﴾، وكان اسمها بلقيس بنت شراحيل من نسل يعرب بن قحطان، وكان أبوها ملكاً عظيم الشأن، قد ولد له أربعون ملكاً هو آخرهم، وكان يملك أرض اليمن كلها، وكان يقول الملوك الأطراف ليس أحد منكم كفؤاً لي، وأبى أن يتزوّج فيهم فزوّجوه امرأة من الجن يقال لها ريحانة بنت السكن، فولدت له بلقيس، ولم يكن له ولد غيرها، وجاء في الحديث: إن إحدى أبويّ بلقيس كان جنيّاً. فلما مات أبو بلقيس طمعت في الملك فطلبت من قومها أن يبايعوها فأطاعها قوم وعصاها قوم آخرون، فملكوا عليهم رجلاً وافترقوا فرقتين كل فرقة استولت على طرف من أرض اليمن، ثم إن الرجل الذي ملكوه أساء السيرة في أهل مملكته حتى كان يمدّ يده إلى حرم رعيّته ويفجر بهنّ فأراد قومه خلعه فلم يقدروا عليه، فلما رأت ذلك بلقيس أدركتها الغيرة فأرسلت إليه تعرض نفسها عليه، فأجابها الملك، وقال: ما منعني أن أبتدئك بالخطبة إلاّ اليأس منك، فقالت لا أرغب عنك كفؤ كريم، فاجمع رجال قومي واخطبني إليهم، فجمعهم وخطبها إليهم، فقالوا ألا تراها تفعل هذا، فقال لهم إنها ابتدأتني فإنه أحبّ أن تسمعوا قولها فجاؤها فذكروا لها، فقالت: نعم أحببت الولد. فزوّجوها منه، فلما زُفّت إليه خرجت في أُناس كثير من حشمها فلما جاءته سقته الخمر حتى سكر، ثم جزّت رأسه وانصرفت من الليل إلى

رجلاً آخر يقال: إنه ابن أخي الملك وكان خبيثاً سيء السيرة في أهل مملكته، حتى كان يمد يده إلى حريم رعيته، ويفجر بهن فأراد قومه خلعه فلم يقدروا عليه فلما رأت بلقيس ذلك، أدركتها الغيرة فأرسلت إليه فعرضت نفسها عليه فأجابها الملك وقال: ما منعني أن أبتدئك بالخطبة إلا اليأس منك فقالت لا أرغب عنك لأنك كَفؤ كَريم، فاجمع رجال أهلي واخطبني منهم، وخطبها فقالوا لا نراها تفعل فقال: بلى إنها قد رغبت فيّ فذكروا ذلك لها فقالت: نعم فزوجوها منه فلما زفت إليه خرجت في ملأ كثير من خدمها وحشمها، فلما دخلت به سقته الخمر حتى سكر ثم قتلته وحزت رأسه وانصرفت إلى منزلها من الليل، فلما أصبحت أرسلت إلى وزرائه وأحضرتهم وقرعتهم وقالت أما كان فيكم من يأنف لكريمته أو كرائم عشيرته، ثم أرتهم إياه قتيلاً وقالت اختاروا رجلاً تملكونه عليكم فقالوا لا نرضى غيرك فملكوها وعلموا أن ذلك النكاح كان مكراً وخديعة منها (خ) عن أبي بكرة قال لما بلغ رسول الله ﷺ أن أهل فارس قد ملكوا عليهم بنت كسرى قال «لن يفلح قوم ملكوا عليهم امرأة». قوله تعالى ﴿**وأوتيت من كل شيء**﴾ يعني ما تحتاج إليه الملوك من المال والعدة ﴿**ولها عرش عظيم**﴾ أي سرير ضخم عال. فإن قلت: كيف استعظم الهدهد عرشها على ما رأى من عظمة ملك سليمان. قلت: يحتمل أنه استعظم ذلك بالنسبة إليها، ويحتمل أنه لم يكن لسليمان مع عظم ملكه مثله وكان عرش بلقيس من الذهب مكللاً بالدر، والياقوت الأحمر والزبرجد الأخضر، وقوائمه من الياقوت والزمرد، وعليه سبعة أبيات على كل بيت باب مغلق قال ابن عباس: كان عرش بلقيس ثلاثين ذراعاً، في ثلاثين ذراعاً وطوله في السماء ثلاثون ذراعاً. وقيل كان طوله ثمانين في ثمانين وعلوه ثمانون وقيل: كان طوله ثمانين وعرضه أربعين وارتفاعه ثلاثون ذراعاً. قوله عز وجل إخباراً عن الهدهد ﴿**وجدتها وقومها يسجدون**

منزلها، فلما أصبح الناس رأوا الملك قتيلاً ورأسه منصوب على باب دارها، فلما رأوا وعلموا أن تلك المناكحة كانت مكراً وخديعةً منها، فاجتمعوا إليها وقالوا أنت بهذا المُلْك أحق من غيرك فملّكوها. أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا عثمان بن الهيثم أنا عوف عن الحسن عن أبي بكرة رضي الله عنه قال لمّا بلغ رسول الله ﷺ أن أهل فارس ملكوا عليهم بنت كسرى قال: «لن يفلح قوم ولّوا أمرهم امرأة». قوله تعالى: ﴿ **وأوتيت من كل شيء** ﴾، يحتاج إليه الملوك من الآلة والعُدّة، ﴿ **ولها عرش عظيم** ﴾، سرير ضخم كان مضروباً من الذهب مكلّلاً بالدرّ والياقوت الأحمر والزبرجد الأخضر، وقوائمه من الياقوت والزمرّد عليه سبعة أبيات على كل بيت باب مغلق، قال ابن عباس: كان عرش بلقيس ثلاثين ذراعاً في ثلاثين، وطوله في السماء ثلاثون ذراعاً. وقال مقاتل: كان طوله ثمانين ذراعاً وطوله في الهواء ثمانين ذراعاً. وقيل: كان طوله ثمانين ذراعاً وعرضه أربعين ذراعاً وارتفاعه ثلاثين ذراعاً.

﴿ **وجدتُها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزيّن لهم الشيطان أعمالهم فصدّهم عن السبيل فهم لا يهتدون** ﴾.

﴿ **ألاّ يسجدوا** ﴾، قرأ أبو جعفر والكِسائي: «ألاَ يســجدوا» بالتخفيف وإذا وقفوا يقولون: ألاَ يأثم يبتدئون: اسجدوا، على معنى: ألا يا هؤلاء اسجدوا، وجعلوه أمراً من عند الله مستأنفاً، وحذفوا هؤلاء اكتفاءً بدلالة يا عليها، وذكر بعضهم سماعاً من العرب ألاَ يا ارحمونا، يريدون ألاَ يا قوم، قال الأخطل:

ألاَ يـا اسلمي يا هنـد هند بني بـدر   وإن كـان حيٌّ قـاعـداً آخر الـدهـر

يريد ألاَ يا هند اسلمي، وعلى هذا يكون قوله ألاَ كلاماً معترضاً من غير القصة إما من الهدهد وإما من سليمان. قال أبو عبيدة: هذا أمر من الله مستأنف يعني يا أيها الناس اسجدوا. وقرأ الآخرون ألاّ يسجدوا بالتشديد

للشمس من دون الله﴾ وذلك أنهم كانوا يعبدون الشمس، وهم مجوس ﴿وزين لهم الشيطان أعمالهم﴾ المزين هو الله لأنه الفعال لما يريد، وإنما ذكر الشيطان لأنه سبب الإغواء ﴿فصدهم عن السبيل﴾ أي عن طريق الحق الذي هو دين الإسلام ﴿فهم لا يهتدون﴾ أي إلى الصواب ﴿ألا يسجدوا﴾ قرىء بالتخفيف ومعناه ألا يا أيها الناس اسجدوا وهو أمر من الله مستأنف، وقرىء بالتشديد ومعناه وزين لهم الشيطان أعمالهم لئلا يسجدوا ﴿لله الذي يخرج الخبء﴾ يعني الخفي المخبأ ﴿في السموات والأرض﴾ قيل خبء السموات المطر وخبء الأرض النبات ﴿ويعلم ما تخفون وما تعلنون﴾ والمقصود من هذا الكلام الرد على من يعبد الشمس وغيرها، من دون الله لأنه لا يستحق العبادة إلا من هو قادر على من في السموات والأرض، عالم بجميع المعلومات ﴿الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم﴾ أي هو المستحق للعبادة والسجود لا غيره.

فصل

وهذه السجدة من عزائم السجود، يستحب للقارىء والمستمع أن يسجد عند قراءتها. فإن قلت: قد وصف عرش بلقيس بالعظم وعرش الله بالعظم، فما الفرق بينهما. قلت وصف عرش بلقيس بالعظم بالنسبة إليها وإلى أمثالها من ملوك الدنيا وأما عرش الله تعالى فهو بالنسبة إلى جميع المخلوقات من السموات والأرض، فحصل الفرق بينهما فلما فرغ الهدهد من كلامه ﴿قال﴾ سليمان ﴿سننظر أصدقت﴾ أي فيما أخبرت ﴿أم كنت من الكاذبين﴾ ثم إن الهدهد دلهم على الماء فاحتفروا الركايا وروى الناس والدواب، ثم إن سليمان كتب كتاباً: من عبدالله سليمان بن داود إلى

بمعنى، وزيّن لهم الشيطان أعمالهم لئلا يسجدوا، ﴿ لله الذي يُخرِج الخبء ﴾، أي الخفي المخبّأ، ﴿ في السمٰوات والأرض ﴾، أي ما خبّأت. قال أكثر المفسّرين: خبء السماء: المطر، وخبء الأرض: النبات. وفي قراءة عبد الله: (يُخرِج الخبء من السمٰوات والأرض)، ومن وفي يتعاقبان تقول العرب لأستخرجنّ العلم فيكم يريد منكم. وقيل: معنى الخبء الغيب، يريد يعلم غيب السمٰوات والأرض، ﴿ ويعلم ما تُخفون وما تُعلنون ﴾، قرأ الكسائي وحفص عن عاصم بالتاء فيهما لأن أول الآية خطاب على قراءة الكسائي بتخفيف ألَا، وقرأ الآخرون بالياء.

﴿ الله لا إلٰه إلّا هو ربُّ العرش العظيم ﴾، أي هو المستحقّ للعبادة والسجود لا غيره. وعرش ملكة سبأ وإن كان عظيماً فهو صغير حقير في جنب عرشه عزّ وجلّ، تمّ ههنا كلام الهدهد، فلما فرغ الهدهد من كلامه.

﴿ قال ﴾، سليمان للهدهد ﴿ سننظرُ أصدقتَ ﴾، فيما أخبرت، ﴿ أم كنتَ من الكاذبين ﴾، فدلّهم الهدهد على الماء فاحتفروا الركايا وروي الناس والدواب، ثم كتب سليمان كتاباً من عبد الله سليمان بن داود إلى بلقيس ملكة سبأ: بسم الله الرحمن الرحيم السلام على مَن اتّبع الهدى أما بعد فلا تعلوا عليّ وأتوني مسلمين، قال ابن جريج لم يزد سليمان على ما قصّ الله في كتابه. وقال قتادة: وكذلك كل الأنبياء كانت تكتب جُمَلاً لا يُطيلون ولا يُكثِرون، فلما كتب الكتاب طبعه بالمِسك وختمه بخاتمه. فقال للهدهد:

﴿ اذهبْ بكتابي هذا فألقهْ إليهم ﴾، قرأ أبو عمرو وعاصم وحمزة ساكنة الهاء ويختلسها أبو جعفر ويعقوب وقالون كسراً، ﴿ ثم تولّ عنهم ﴾، تَنَحَّ عنهم فكنْ قريباً منهم، ﴿ فانظرْ ماذا يرجعون ﴾، يردّون من الجواب. وقال ابن زيد: في الآية تقديم وتأخير مجازها: اذهبْ بكتابي هذا فألقه إليهم فانظر ماذا يرجعون، ثم تولّ عنهم، أي انصرف إليّ فأخذ الهدهد الكتاب فأتى به إلى بلقيس، وكانت بأرض يقال لها مأرب من صنعاء على ثلاثة أيام، فوافاها في قصرها وقد غلّقت الأبواب وكانت إذا رقدت غلّقت الأبواب وأخذت المفاتيح فوضعتها تحت رأسها،

بلقيس ملكة سبأ «بسم الله الرحمن الرحيم السلام على من اتبع الهدى، أما بعد أن لا تعلوا علي وأتوني مسلمين قيل لم يزد على ما نص الله في كتابه، وكذلك الأنبياء كانوا يكتبون جملاً، لا يطيلون ولا يكثرون فلما كتب سليمان الكتاب طبعه بالمسك وختمه بخاتمه، وقال للهدهد ﴿**اذهب بكتابي هذا فألقه إليهم**﴾ إنما قال: إليهم بلفظ الجمع لأنه جعله جواباً لقول الهدهد وجدتها وقومها يسجدون للشمس فقال: فألقه إلى الذين هذا دينهم ﴿**ثم تول عنهم**﴾ أي تنح عنهم فقف قريباً منهم ﴿**فانظر ماذا يرجعون**﴾ أي يردون من الجواب وقيل: تقدير الآية فألقه إليهم فانظر ماذا يرجعون ثم تول عنه، أي انصرف إلي فأخذ الهدهد الكتاب وأتى به إلى بلقيس وكانت بأرض مأرب من اليمن على ثلاث مراحل من صنعاء، فوجدها نائمة مستلقية على قفاها وقد غلقت الأبواب، ووضعت المفاتيح تحت رأسها وكذلك كانت تفعل إذا رقدت فأتى الهدهد وألقى الكتاب على نحرها وقيل: حمل الهدهد الكتاب بمنقاره حتى وقف على المرأة وحولها القادة والوزراء والجنود، فرفرف ساعة والناس ينظرون فرفعت بلقيس رأسها فألقى الكتاب في حجرها وقال وهب بن منبه: كانت لها كوة مستقبلة الشمس تقع فيها حين تطلع فإذا نظرت إليها سجدت لها فجاء الهدهد، وسد الكوة بجناحيه فارتفعت الشمس، ولم تعلم فلما استبطأت الشمس قامت تنظر، فرمى بالصحيفة إليها فأخذت بلقيس الكتاب، وكانت قارئة فلما رأت الخاتم ارتعدت، وخضعت لأن ملك سليمان كان في خاتمه وعرفت أن الذي أرسل الكتاب أعظم ملكاً منها فقرأت الكتاب وتأخر الهدهد غير بعيد وجاءت هي حتى قعدت على سرير ملكها، وجمعت الملأ من قومها وهم الأشراف وقال ابن عباس كان مع بلقيس مائة قيل مع كل قيل مائة ألف والقيل ملك دون الملك الأعظم وقيل كان أهل مشورتها ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً، كل رجل منهم على عشرة آلاف فلما جاؤوا وأخذوا مجالسهم.

قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟
عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ
وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ
أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾

﴿**قالت**﴾ لهم بلقيس ﴿**يا أيها الملأ إني ألقي إلي كتاب كريم**﴾ قيل سمته كريماً لأنه كان مختوماً، روى ابن

فأتاها الهدهد وهي نائمة مستلقية على قفاها، فألقى الكتاب على نحرها، هذا قول قتادة، وقال مقاتل: حمل الهدهد الكتاب بمنقاره حتى وقف على رأس المرأة وحولها القادة والجنود فرفرف ساعة والناس ينظرون إليه، حتى رفعت المرأة رأسها فألقى الكتاب في حجرها، وقال ابن منبّه وابن زيد: كانت لها كوّة مستقبِلة الشمس تقنع الشمس فيها حين تطلع، فإذا نظرت إليها سجدت لها، فجاء الهدهد الكوّة فسدّها بجناحه فارتفعت الشمس ولم تعلم فلما استبطأت الشمس قامت تنظر، فرمى بالصحيفة إليها فأخذت بلقيس الكتاب وكانت قارئة فلما رأت الخاتم ارتعدت وخضعت لأن ملك سليمان كان في خاتمه، وعرفت أن الذي أرسل الكتاب إليها أعظم ملكاً منها، فقرأت الكتاب وتأخر الهدهد غير بعيد فجاءت حتى قعدت على سرير ملكها وجمعت الملأ من قومها، وهم اثنا عشر ألف قائد مع كل قائد مائة ألف مقاتل. وعن ابن عباس قال: كان مع بلقيس مائة ألف، قيل: كان مع كل مائة ألف، والفيل الملك دون الملك الأعظم. وقال قتادة ومقاتل: كان أهل مشورتها ثلثمائة وثلاثة عشر رجلاً كل رجل منهم على عشرة آلاف، قال: فجاؤوا وأخذوا مجالسهم.

﴿ قالت ﴾، لهم بلقيس، ﴿ يا أيها الملأ ﴾، وهم أشراف الناس وكبراؤهم ﴿ إني أُلقيَ إليّ كتاب كريم ﴾،

عباس عن النبيّ ﷺ قال «كرامة الكتاب ختمه» وقال ابن عباس: كريم أي شريف لشرف صاحبه، ثم بينت ممن الكتاب فقالت ﴿إنه من سليمان﴾ قرأت المكتوب فيه فقالت ﴿وإنه بسم الله الرحمن الرحيم﴾ فإن قلت لم قدم إنه من سليمان على بسم الله. قلت: ليس هو كذلك بل ابتدأ سليمان ببسم الله الرحمن الرحيم وإنما ذكرت بلقيس، أن هذا الكتاب من سليمان ثم ذكرت ما في الكتاب فقالت: وإنه بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ألا تعلوا علي﴾ قال ابن عباس: لا تتكبروا علي. والمعنى لا تمتنعوا من الإجابة فإن ترك الإجابة، من العلو والتكبر ﴿وأتوني مسلمين﴾ أي طائعين مؤمنين وقيل من الاستسلام وهو الانقياد ﴿قالت يا أيها الملأ أفتوني في أمري﴾ أي أشيروا علي فيما عرض لي ﴿ما كنت قاطعة أمراً﴾ أي قاضية وفاصلة ﴿حتى تشهدون﴾ أي تحضرون ﴿قالوا﴾ يعني الملأ مجيبين لها ﴿نحن أولو قوة﴾ أي في الجسم على القتال ﴿وأولو بأس شديد﴾ أي عند الحرب وقيل أرادوا بالقوة كثرة العدد والبأس والشجاعة وهذا تعريض منهم بالقتال أي إن أمرتهم بذلك ثم قالوا ﴿والأمر إليك﴾ أيتها الملكة أي في القتال وتركه ﴿فانظري ماذا تأمرين﴾ أي تجدين مطيعين لأمرك ﴿قالت﴾ بلقيس مجيبة لهم عن التعريض للقتال وما يؤول إليه أمره ﴿إن الملوك إذا دخلوا قرية﴾ أي عنوة ﴿أفسدوها﴾ أي خربوها ﴿وجعلوا أعزة أهلها أذلة﴾ أي أهانوا أشرافها وكبراءها كي يستقيم لهم الأمر تحذرهم بذلك مسير سليمان إليهم ودخوله بلادهم ثم تناهى الخبر عنها هنا، وصدق الله قولها فقال تعالى ﴿وكذلك يفعلون﴾ أي كما قالت هي يفعلون وقيل هو من قولها وهو للتأكيد لما قالت ثم قالت ﴿وإني مرسلة إليهم بهدية﴾ يعني

قال عطاء والضحاك: سمّته كريماً لأنه كان مختوماً. وروى ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال: «كرامة الكتاب ختمه» وقال قتادة ومقاتل: كتاب كريم أي حَسَن، وهو اختيار الزجّاج، وقال حسن ما فيه، ورُوِيَ عن ابن عباس: كريم أي شريف لشرف صاحبه، وقيل: سمّته كريماً لأنه كان مُصَدّراً ببسم الله الرحمن الرحيم، ثم بيّنت الكتاب.

فقالت: ﴿ إنّه من سليمان ﴾، وبيّنت المكتوب فقالت: ﴿ وإنّه بسم الله الرحمن الرحيم ﴾.

﴿ ألّا تعلُوا عليّ ﴾، قال ابن عباس: أي لا تتكبّروا عليّ. وقيل: لا تتعظّموا ولا ترفعوا عليّ. وقيل: معناه لا تمتنعوا عليّ من الإجابة، فإن ترك الإجابة من العلوّ والتكبّر، ﴿ وأتوني مسلمين ﴾، مؤمنين طائعين. قيل هو من الإسلام، وقيل: هو من الاستسلام.

﴿ قالتْ يا أيها الملأ أفتوني في أمري ﴾، أشيروا عليّ فيما عرض لي وأجيبوني فيما أُشاوركم فيه ﴿ ما كنتُ قاطعةً ﴾، قاضيةً وفاصلةً، ﴿ أمراً حتى تشهدون ﴾، أي تحضرون.

﴿ قالوا ﴾، مجيبين لها، ﴿ نحنُ أُولوا قوّة ﴾، في القتال، ﴿ وأُولوا بأس شديد ﴾، عند الحرب، قال مقاتل: أرادوا بالقوة كثرة العدد وبالبأس الشديد الشجاعة، وهذا تعريض منهم بالقتال إن أمرتهم بذلك ثم قالوا: ﴿ والأمر إليك ﴾، أيتها الملكة في القتال وتركه، ﴿ فانظري ﴾، من الرأي، ﴿ ماذا تأمرين ﴾، تجدين لأمرك مطيعين.

﴿ قالت ﴾، بلقيس مُجيبة لهم عن التعريض للقتال، ﴿ إنّ الملوك إذا دخلوا قرية ﴾، عنوة، ﴿ أفسدوها ﴾، خرّبوها، ﴿ وجعلوا أعزّة أهلها أذلّة ﴾، أي أهانوا أشرافها وكُبَراءها، كي يستقيم لهم الأمر تحذّرهم مسير سليمان إليهم ودخوله بلادهم، وتناهى الخبر عنها ههنا، فصدّق الله قولها فقال ﴿ وكذلك يفعلون ﴾، أي كما قالت هي يفعلون.

إلى سليمان وقومه آصانعه بها على ملكي، وأختبره بها أملك هو أم نبي فإن كان ملكاً قبل الهدية ورجع، وإن كان نبياً لم يقبل الهدية، ولم يرضه منا إلا أن نتبعه في دينه وهو قولها ﴿فناظرة بم يرجع المرسلون﴾ وذلك أن بلقيس كانت امرأة لبيبة عاقلة قد ساست الأمور، وجربتها فأهدت وصفاء ووصائف.

قال ابن عباس: مائة وصيف ومائه وصيفة قال وهب وغيره عمدت بلقيس إلى خمسمائة غلام وخمسمائة جارية، فألبست الجواري لبس الغلمان الأقبية والمناطق، وألبست الغلمان لبس الجواري وجعلت في أيديهم أساور الذهب، وفي أعناقهم أطواق الذهب وفي آذانهم أقرطة، وشنوفاً مرصعات بأنواع الجواهر وحملت الجواري على خمسمائة رمكة، والغلمان على خمسمائة برذون على كل فرس سرج من الذهب مرصع بالجواهر، وأغشية الديباج وبعثت إليه لبنات من الذهب ولبنات من الفضة وتاجاً مكللاً بالدر والياقوت، وأرسلت بالمسك والعنبر والعود اليلنجوج وعمدت إلى حق جعلت فيه درة بقيمة ثمينة غير مثقوبة، وخرزة جزع معوجة الثقب ودعت رجلاً من أشراف قومها يقال له: المنذر بن عمرو وضمت إليه رجالاً من قومها أصحاب عقل ورأي وكتبت مع المنذر كتاباً تذكر فيه الهدية، وقالت: إن كنت نبياً ميز بين الوصفاء والوصائف، وأخبرنا بما في الحق قبل أن تفتحه واثقب الدرة ثقباً

ثم قالت: ﴿ وإني مُرسلة إليهم بهدية ﴾، والهدية هي العطية على طريق الملاطفة، وذلك أن بلقيس كانت امرأة لبيبة قد سِيست وساست، فقالت للملأ من قومها: إني مُرسِلة إليهم أي إلى سليمان وقومه بهدية أُصانعه بها عن مُلكي وأختبره بها أملكٌ هو أو نبي؟ فإن يكن ملكاً قبل الهدية وانصرف، وإن كان نبيّاً لم يقبل الهدية ولم يُرضِه منّا إلّا أن نتّبعه على دينه، فذلك قوله تعالى: ﴿ فناظرةٌ بِمَ يرجعُ المرسلون ﴾، فأهدت إليه وصفاء ووصائف، قال ابن عباس: ألبستهم لباساً واحداً كي لا يعرف الذَّكر من الأنثى. وقال مجاهد: أُلبِسَ الغلمان لباس الجواري وأُلبِسَ الجواري ألبسة الغلمان، واختلفوا في عددهم، فقال ابن عباس: مائة وصيف ومائة وصيفة، وقال مجاهد ومقاتل: مائتا غلام ومائتا جارية. وقال قتادة وسعيد بن جبير: أرسلت إليه بلَبِنة من ذهب في حرير وديباج. وقال ثابت البناني: أهدت إليه صفائح من الذهب في أوعية الديباج. وقيل: كانت أربع لَبِنات من ذهب. وقال وهب وغيره: عمدت بلقيس إلى خمسمائة غلام وخمسمائة جارية، فألبست الغلمان لباسَ الجواري، وجعلت في سواعدهم أساور من ذهب، وفي أعناقهم أطواقاً من ذهب وفي آذانهم أقراطاً وشنوفاً مرصّعات بأنواع الجواهر، وألبست الجواري لباس الغلمان الأقبية والمناطِق، وحملت الجواري على خمسمائة رمكة والغلمان على خمسمائة برذون، على كل فرس لجام من ذهب مرصّع بالجواهر وغواشيها من الديباج الملوّن، وبعثت إليه خمسمائة لَبِنة من ذهب وخمسمائة لَبِنة من فضة وتاجاً مكلّلاً بالدرّ والياقوت المرتفع، وأرسلت إليه المسك والعنبر والعود اليلنجوج وعمدت إلى حقّة فجعلت فيها درّة ثمينة غير مثقوبة وخرزة جزعية مثقوبة معوجّة الثقب، ودعت رجلاً من أشراف قومها يُقال له المنذر بن عمرو، وضمّت إليه، رجالاً من قومهما أصحاب رأي وعقل، وكتبت معه كتاباً بنسخة الهدية، وقالت فيه إن كنت نبيّاً فميزْ لي بيْنِ الوصائف والوصفاء، وأخبرني بما في الحقّة قبل أن تفتحها واثقب الدرّ ثقباً مستوياً وأدخل خيطاً في الخرزة المثقوبة من غير علاج إنس ولا جنّ، وأمرت بلقيس الغلمان فقالت إذا كلّمكم سليمان فكلّموه بكلام تأنيث وتخنيث يشبه كلام النساء، وأمرت الجواري أن يكلّمنه بكلام فيه غلظة يشبه كلام الرجال، ثم قالت للرسول: انظر إلى الرجل إذا دخلت عليه فإن نظر إليك نظر غضب فاعلم أنه ملك ولا يهولنّك منظره، فإنّا أعزّ منه، وإن رأيت الرجل بشّاشاً لطيفاً فاعلم أنه نبيّ مُرسَل فتفهّم قوله، وردّ الجواب، فانطلق الرسول بالهدايا، وأقبل الهدهد مسرعاً إلى سليمان فأخبره الخبر كله فأمر سليمان الجن أن يضربوا لَبِنات الذهب ولَبِنات الفضة ففعلوا، ثم أمرهم أن يبسطوا من موضعه الذي هو فيه إلى تسعة فراسخ ميداناً واحداً بلَبِنات الذهب والفضة وأن يجعلوا حول

مستوياً وأدخل في الخرزة خيطاً من غير علاج إنس ولا جن، وأمرت بلقيس الغلمان فقالت: إذا كلمكم سليمان فكلموه بكلام تأنيث وتخنيث يشبه كلام النساء، وأمرت الجواري أن يكلمنه بكلام فيه غلظة يشبه كلام الرجال، ثم قالت للرسول انظر إذا دخلت، فإن نظر إليك نظراً فيه غضب فاعلم أنه ملك فلا يهولنك أمره ومنظره فأنا أعز منه وإن رأيت الرجل بشاشاً لطيفاً فافهم أنه نبي فتفهم قوله ورد الجواب فانطلق الرسول بالهدايا، وأقبل الهدهد مسرعاً إلى سليمان، فأخبره فأمر سليمان الجن أن يضربوا لبناً من الذهب والفضة، ففعلوا وأمرهم بعمل ميدان مقدار تسعة فراسخ وأن يفرشوا لبن الذهب والفضة، وأن يخلوا مقدار تلك اللبنات التي معهم وأن يعملوا حائطاً شرفه من الذهب والفضة، ففعلوا ثم قال أي دواب البر والبحر أحسن فقالوا يا نبي الله ما رأينا أحسن من دابة من دواب البحر يقال لها كذا وكذا مختلفة ألوانها لها أجنحة وأعراف ونواص، قال: علي بها الساعة فأتوا بها قال شدوها بين يمين الميدان وشماله ثم قال للجن علي بأولادكم، فاجتمع منهم خلق كثير فأقامهم على يمين الميدان، وعلى شماله وأمر الإنس والجن والشياطين، والوحوش والطير والسباع فاصطفوا فراسخ عن يمينه وشماله، فلما دنا القوم إلى الميدان ونظروا إلى ملك سليمان رأوا أول الأمر الدواب، التي لا يرى مثلها تروث في لبنات الذهب والفضة، فلما رأوا ذلك تقاصرت أنفسهم وخبؤوا ما معهم من الهدايا وقيل إن سليمان فرش الميدان بلبنات الذهب والفضة، وترك على طريقهم موضعاً على قدر ما معهم من اللبن في ذلك الموضع فلما رأى الرسل موضع اللبنات خالياً خافوا أن يتهموا بذلك، فوضعوا ما معهم من اللبن في ذلك الموضع، ولما رأوا الشياطين هالهم ما رأوا وفزعوا فقالت لهم الشياطين جوزوا لا بأس عليكم، فكانوا يمرون على كردايس الإنس والجن والوحش والطير حتى وقفوا بين يدي سليمان، فأقبل عليهم بوجه طلق وتلقاهم تلقياً حسناً، وسألهم عن حالهم فأخبره رئيس القوم بما جاؤوا فيه وأعطوه كتاب الملكة فنظر فيه، وقال

الميدان حائطاً شُرفها من الذهب والفضة، ثم قال أيّ الدواب أحسن مما رأيتم في البرّ والبحر، قالوا: يا نبيّ الله إنّا رأينا دواب في بحر كذا وكذا منقّطة مختلفة ألوانها لها أجنحة وأعراف ونواص، فقال: عليّ بها الساعة، فأتوا بها، فقال شدّوها عن يمين الميدان وعن يساره على لَبِنات الذهب والفضة، وألقُوا لها علوفَتها فيها، ثم قال للجن: عليّ بأولادكم فاجتمع خلق كثير فأقامهم على يمين الميدان ويساره، ثم قعد سليمان في مجلسه على سريره ووضع له أربعة آلاف كرسي عن يمينه ومثلها عن يساره، وأمر الشياطين أن يصطفّوا صفوفاً فراسخ، وأمر الإنس فاصطفّوا فراسخ وأمر الوحوش والسِّباع والهوام والطير، فاصطفّوا فراسخ عن يمينه وعن يساره، فلما دنا القوم من الميدان ونظروا إلى ملك سليمان ورأوا الدواب التي لم ترَ أعينُهم مثلها تروث على لَبِنِ الذهب والفضة، تقاصرت أنفسهم ورموا بما معهم من الهدايا، وفي بعض الروايات أن سليمان لمّا أمر بفرش الميدان بلَبِنات الذهب والفضة أمرهم أن يتركوا على طريقهم موضعاً على قدر موضع اللَّبِنات التي معهم، فلما رأى الرُّسل موضع اللَّبِنات خالياً وكانت الأرض مفروشة خافوا أن يُتّهموا بذلك فطرحوا ما معهم في ذلك المكان، فلما رأوا الشياطين نظروا إلى منظر عجيب ففزعوا فقالت لهم الشياطين جوزوا فلا بأس عليكم، فكانوا يمرّون على كردوس كردوس من الجن والإنس والطير والهوام والسِّباع والوحوش، حتى وقفوا بين يدي سليمان، فنظر إليهم سليمان نظراً حسناً بوجه طلق، وقال: ما وراءكم فأخبره رئيس القوم بما جاؤوا له وأعطاه كتاب الملكة فنظر فيه، ثم قال: أين الحقّة فأُتِيَ به فحرّكها وجاء جبريل فأخبره بما في الحقّة، فقال: إن فيها درّة ثمينة غير مثقوبة وجزعة مثقوبة معوجّة الثقب، فقال الرسول: صدقت فاثقب الدرّة، وأدخل الخيط في الخرزة، فقال سليمان: مَن لي بثقبها فسأل سليمان الإنس ثم الجن فلم يكن عندهم علم ذلك ثم سأل الشياطين، فقالوا: نرسل إلى الأرضة فجاءت الأرضة فأخذت شعرة في فِيْها فدخلت فيها حتى خرجت من الجانب الآخر فقال لها سليمان: ما حاجتك؟ فقالت: تصيّر رزقي في الشجرة، فقال: لك

أين الحق؟ فأتى به فحركه فجاءه جبريل فأخبره بما فيه، فقال لهم: أن فيه درة ثمينة غير مثقوبة وخرزة معوجة الثقب قال الرسول: صدقت فاثقب الدرة وأدخل الخيط في الجزعة فقال سليمان: من لي بثقبها وسأل الإنس والجن، فلم يكن عندهم علم ثم سأل الشياطين فقالوا: نرسل إلى الأرضة فلما جاءت الأرضة أخذت شعرة في فيها ودخلت فيها حتى خرجت من الجانب الآخر فقال سليمان ما حاجتك قالت: تصير رزقي في الشجر. فقال: لك ذلك ثم قال من لي بهذه الخرزة فقالت دودة بيضاء أنا لها يا نبي الله فأخذت الدودة الخيط في فيها ودخلت الثقب حتى خرجت من الجانب الآخر. فقال لها سليمان: ما حاجتك فقالت يكون رزقي في الفواكه قال: لك ذلك ثم ميز بين الغلمان والجواري، بأن أمرهم أن يغسلوا وجوههم وأيديهم فجعلت الجارية تأخذ الماء بيدها، تضرب بها الأخرى وتغسل وجهها والغلام يأخذ الماء بيديه ويغسل به وجهه، وكانت الجارية تصب الماء على باطن ساعدها والغلام على ظاهره فميز بين الغلمان والجواري، ثم رد سليمان الهدية كما أخبر الله تعالى فقال تعالى:

﴿فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾ قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾﴾

﴿فلما جاء سليمان قال أتمدونن بمال فما آتاني الله﴾ أي ما أعطاني من الدين والنبوة والحكمة والملك **﴿خير﴾** أي أفضل **﴿مما آتاكم بل أنتم بهديتكم تفرحون﴾** معناه أنتم أهل مفاخرة ومكاثرة بالدنيا تفرحون بإهداء بعضكم إلى بعض، وأما أنا فلا أفرح بالدنيا وليست الدنيا من حاجتي لأن الله قد أعطاني منها ما لم يعط أحداً ومع ذلك أكرمني بالدين والنبوة، ثم قال للمنذر بن عمرو أمير الوفد **﴿ارجع إليهم﴾** أي بالهدية **﴿فلنأتينهم بجنود لا قبل﴾** أي لا طاقة

ذلك. ورُوِيَ أنها جاءت دودة تكون في الصفصاف فقالت: أنا أُدخل الخيط في الثقب على أن يكون رزقي في الصفصاف، فجعل لها ذلك فأخذت الخيط بفِيْها ودخلت الثقب وخرجت من الجانب الآخر، ثم قال: مَن لهذه الخرزة فيسلكها في الخيط؟ فقالت دودة بيضاء: أنا لها يا رسول الله فأخذت الدودة الخيط في فِيها ودخلت الثقب حتى خرجت من الجانب الآخر، فقال لها سليمان: ما حاجتك؟ فقالت: تجعل رزقي في الفواكه، قال: لك ذلك، ثم ميّز بين الجواري والغلمان، بأن أمرهم أن يغسلوا وجوههم وأيديهم، فجعلت الجارية تأخذ الماء من الآنية بإحدى يديها ثم تجعله على اليد الأخرى ثم تضرب به الوجه، والغلام كما يأخذه من الآنية يضرب به وجهه، وكانت الجارية تصبّ الماء على بطن ساعدها والغلام على ظهر الساعد، وكانت الجارية تصبّ الماء صبّاً وكان الغلام يحدر الماء على يديه حدراً، فميّز بينهم بذلك، ثم ردّ سليمان الهدية.

كما قال الله تعالى: **﴿ فلما جاء سليمان قال أتمِدُّونَنِ بمالٍ ﴾**، قرأ حمزة ويعقوب (أتمدوني) بنون واحدة مشدّدة وإثبات الياء، وقرأ الآخرون بنونين خفيفتين، ويثبت الياء أهل الحجاز والبصرة، والآخرون يحذفونها، **﴿ فما آتاني الله ﴾**، أعطاني الله من النبوّة والدين والحكمة والمُلْك، **﴿ خير ﴾** أفضل، **﴿ مما آتاكم بل أنتم بهديتكم تفرحون ﴾**، لأنكم أهل مفاخرة في الدنيا ومكاثرة بها تفرحون بإهداء بعضكم إلى بعض، فأما أنا فلا أفرح بها وليست الدنيا من حاجتي لأن الله تعالى قد مكّنني فيها وأعطاني منها ما لم يُعطِ أحداً، ومع ذلك أكرمني بالدين والنبوّة، ثم قال للمنذر بن عمرو وأمير الوفد:

﴿ ارجعْ إليهم ﴾، بالهدية، **﴿فلنأتينّهم بجنود لا قِبَلَ لهم ﴾**، لا طاقة لهم، **﴿ بها ولنخرجنّهم منها ﴾**، أي

﴿لهم بها ولنخرجنهم منها﴾ أي من أرض سبأ ﴿أذلة وهم صاغرون﴾ أي إن لم يأتوني مسلمين قال وهب وغيره من أهل الكتاب: لما رجعت رسل بلقيس إليها أي من عند سليمان، وبلغوها ما قال سليمان قالت والله لقد عرفت ما هذا بملك وما لنا به من طاقة. فبعثت إلى سليمان إني قادمة عليك بملوك قومي حتى أنظر ما أمرك، وما الذي تدعو إليه من دينك، ثم أمرت بعرشها فجعلته في آخر سبعة أبيات بعضها داخل بعض ثم أغلقت عليه سبعة أبواب، ووكلت به حراساً يحفظونه ثم قالت لمن خلفت على ملكها احتفظ بما قبلك وسرير ملكي لا يخلص إليه أحد، ثم أمرت منادياً ينادي في أهل مملكتها تؤذنهم بالرحيل، وشخصت إلى سليمان في اثني عشر ألف قيل من ملوك اليمن كل قيل تحت يده ألوف كثيرة، قال ابن عباس: وكان سليمان رجلاً مهيباً لا يبتدأ بشيء حتى يكون هو الذي يسأل عنه. فخرج يوماً فجلس على سريره فرأى رهجاً قريباً منه قال ما هذا؟ قالوا: بلقيس قد نزلت منا بهذا المكان وكان على مسيرة فرسخ من سليمان فأقبل سليمان على جنوده ﴿قال يا أيها الملأ أيكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين﴾ قال ابن عباس يعني طائعين وقيل مؤمنين. قيل: غرض سليمان في إحضار عرشها ليريها قدرة الله تعالى وإظهار معجزة دالة على نبوته، وقيل أراد أن ينكره ويغيره قبل مجيئها ليختبر بذلك عقلها وقيل: إن سليمان علم أنها إن أسلمت يحرم عليه مالها فأراد أن يأخذ سريرها قبل أن يحرم عليه أخذه لأنه أعجبه وصفه، لما وصفه له الهدهد وقيل أراد أن يعرف قدر ملكها لأن السرير على قدر المملكة ﴿قال عفريت من الجن﴾ وهو المارد القوي، وقال ابن عباس العفريت الداهية قال وهب: اسمه كوذي. وقيل: ذكوان. وقيل: هو صخر المارد وكان مثل الجبل يضع قدمه عند منتهى طرفه ﴿أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك﴾ أي مجلس قضائك قال ابن عباس: وكان له في الغداة مجلس يقضي فيه إلى متسع

من أرضهم وبلادهم وهي سبأ، ﴿ أذلَّةً وهم صاغرون ﴾، ذليلون إن لم يأتوني مسلمين، قال وهب وغيره من أهل الكتب: فلما رجعت رسل بلقيس إليها من عند سليمان قالت قد عرفت والله ما هذا بملك وما لنا به طاقة، فبعثت إلى سليمان إني قادمة عليك بملوك قومي حتى أنظر ما أمرك وما تدعو إليه من دينك، ثم أمرت بعرشها فجُعِلَ في آخر سبعة أبيات بعضها في بعض في آخر قصر من سبعة قصور لها ثم أغلقت دونه الأبواب ووكّلت به حرّاساً يحفظونه ثم قالت لمَن خلفت على سلطانها احتفظ بما قبلك وسرير مُلْكي لا يخلص إليه أحد ولا يقربه حتى آتيك، ثم أمرت مُنادياً ينادي في أهلِ مملكتها يؤذنهم بالرحيل، وشخصت إلى سليمان في اثني عشر ألف، قيل: من ملوك اليمن، تحت يدي كلِّ قيلٍ ألوفٌ كثيرة، قال ابن عباس: وكان سليمان رجلاً مهيباً لا يبتدأ بشيء حتى يكون هو الذي يسأل عنه، فخرج يوماً فجلس على سرير مُلْكه فرأى وهجاً قريباً منه، فقال: ما هذا؟ قالوا بلقيس وقد نزلت منّا بهذا المكان، وكان على مسيرة فرسخ من سليمان، قال ابن عباس وكان بين الكوفة والحيرة مسيرة قدر فرسخ، فأقبل سليمان حينئذ على جنوده.

﴿ قال يا أيها الملأ أيّكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين ﴾، أي مؤمنين، وقال ابن عباس: طائعين، واختلفوا في السبب الذي لأجله أمر سليمان بإحضار عرشها، فقال أكثرهم: لأن سليمان علم أنها إن أسلمت يحرم عليه مالها فأراد أن يأخذ سريرها قبل أن يحرم عليه أخذه بإسلامها، وقيل: ليُرِيها قدرة الله وعظم سلطانه في معجزة يأتي بها في عرشها، وقال قتادة لأنه أعجبته صفته لما وصفه الهدهد فأحبَّ أن يراه. قال ابن زيد: أراد أن يأمر بتنكّره وتغييره ليختبر بذلك عقلها.

﴿ قال عفريتٌ من الجن ﴾، وهو المارد القَوي، قال وهب: اسمه كوذى، وقيل: ذكوان، قال ابن عباس: العفريت الداهية. وقال الضحاك: هو الخبيث. وقال الربيع: الغليظ، قال الفرّاء: القوي الشديد، وقيل: هو صخرة الجني، وكان بمنزلة جبل يضع قدمه عند منتهى طرفه، ﴿ أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك ﴾، أي من

النهاروقيل نصفه ﴿وإني عليه﴾ أي على حمله ﴿لقوي أمين﴾ أي على ما فيه من الجواهر وغيرها قال سليمان: أريد أسرع من ذلك.

قَالَ ٱلَّذِي عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِيٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ قَالَ نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِيٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ ۖ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ ۚ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾ قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ ۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ۗ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾

﴿قال الذي عنده علم من الكتاب﴾ قيل هو جبريل. وقيل: هو ملك أيد الله به سليمان وقيل هو آصف بن برخيا وكان صديقاً يعلم اسم الله الأعظم الذي إذا دعي به أجاب وإذا سئل به أعطى وقيل هو سليمان نفسه لأنه أعلم بني إسرائيل بالكتاب وكان الله قد آتاه علماً وفهماً، فعلى هذا يكون المخاطب العفريت الذي كلمه فأراد سليمان إظهار معجزة، فتحداهم أولاً ثم بين للعفريت أنه يتأتى له من سرعة الإتيان بالعرش ما لا يتأتى للعفريت قيل: كان الدعاء الذي دعا به: يا ذا الجلال والإكرام وقيل: يا حي يا قيوم. وروي ذلك عن عائشة وروي عن الزهري قال دعاء الذي عنده علم من الكتاب: يا إلهنا وإله كل شيء إلهاً واحداً لا إله إلا أنت، ائتني بعرشها، وقال ابن عباس: إن آصف قال لسليمان حين صلى مد عينيك حتى ينتهي طرفك فمد سليمان عينيه ونظر نحو اليمن ودعا آصف، فبعث الله الملائكة فحملوا السرير يجرون به تحت الأرض، حتى نبع من بين يدي سليمان وقيل: خر سليمان ساجداً ودعا باسم الله الأعظم فغاب العرش تحت الأرض حتى ظهر عند كرسي سليمان فقال: ما قال ﴿أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك﴾ قال سليمان: هات قال أنت النبي ابن النبي وليس أحد عند الله أوجه منك فإن دعوت الله كان عندك: قال صدقت ففعل ذلك فجيء بالعرش في الوقت ﴿فلما رآه﴾ يعني رأى سليمان العرش ﴿مستقراً عنده﴾ أي محولاً إليه من مأرب إلى

مجلسك الذي تقضي فيه، قال ابن عباس: وكان له كل غداة مجلس يقضي فيه إلى متّسع النهار، ﴿ وإني عليه ﴾، أي على حمله ﴿ لقويٌّ أمين ﴾، علي ما فيه من الجواهر، فقال سليمان: أريد أسرع من هذا.

فـ ﴿ قال الذي عنده علم من الكتاب ﴾، واختلفوا فيه فقال بعضهم: هو جبريل. وقيل: هو ملك من الملائكة أيّد الله به نبيّه سليمان. وقال أكثر المفسّرين: هو آصف ابن برخيا، وكان صديقاً يعلم اسم الله الأعظم الذي إذا دُعِيَ به أجاب وإذا سُئِلَ به أعطى. وروى جويبر ومقاتل عن الضحاك عن ابن عباس قال: إن آصف قال لسليمان حين صلّى مدّ عينيك حتى ينتهي طرفك، فمدّ سليمان عينيه، فنظر نحو اليمين فدعا آصف فبعث الله الملائكة فحملوا السرير من تحت الأرض يخدّون به خدّاً حتى انخرقت الأرض بالسرير بين يدي سليمان. وقال الكلبي: خرّ آصف ساجداً ودعا باسم الله الأعظم فغار عرشها تحت الأرض حتى نبع عند كرسي سليمان. وقيل: كانت المسافة مقدار شهرين، واختلفوا في الدعاء الذي دعا آصف، فقال مجاهد ومقاتل: يا ذا الجلال والإكرام. وقال الكلبي: يا حيّ يا قيّوم. ورُوِيَ ذلك عن عائشة. ورُوِيَ عن الزهري قال: دعاء الذي عنده علم من الكتاب: يا إلٰهنا وإلٰه كل شيء إلٰهاً واحداً لا إلٰه إلّا أنت ائتني بعرشها. وقال محمد بن المنكدر: إنما هو سليمان، قال له عالم من بني إسرائيل آتاه الله علماً وفهماً. ﴿ أنا آتيك به قبل أن يرتدّ إليك طرفك ﴾، قال سليمان هات، قال أنت

الشام في قدر ارتداد الطرف ﴿قال هذا من فضل ربي ليبلوني﴾ يعني لتمكن من حصول المراد ﴿أأشكر﴾ أي نعمته علي ﴿أم أكفر﴾ فلا أشكرها ﴿ومن شكر فإنما يشكر لنفسه﴾ أي يعود نفع شكره إليه وهو أن يستوجب به تمام النعمة، ودوامها لأن الشكر قيد النعمة الموجودة وصيد النعمة المفقودة ﴿ومن كفر فإن ربي غني﴾ أي عن شكره لا يضره ذلك الكفران ﴿كريم﴾ يعني بالإفضال عليه لا يقطع نعمة عنه بسبب إعراضه عن الشكر وكفران النعمة ﴿قال نكروا لها عرشها﴾ يعني غيروا سريرها إلى حال تنكره إذا رأته قيل: هو أن يزاد فيه أو ينقص منه وقيل: إنما يجعل أسفله أعلاه ويجعل مكان الجوهر الأحمر أخضر ومكان الأخضر أحمر ﴿ننظر أتهتدي﴾ إلى معرفة عرشها ﴿أم تكون من الذين لا يهتدون﴾ إلى معرفته، وإنما حمل سليمان على ذلك ما قال وهب ومحمد بن كعب، وغيرهما أن الشياطين خافت أن يتزوجها سليمان فتفشي إليه أسرار الجن، لأن أمها كانت جنية وإذا ولدت ولداً لا ينفكون من تسخير سليمان وذريته من بعده فأساءوا الثناء عليها ليزهدوه فيها، وقالوا: إن في عقلها شيئاً وإن رجلها كحافر الحمار، وإنها شعراء الساقين فأراد سليمان، أن يختبر عقلها بتنكير عرشها وينظر إلى قدميها ببناء الصرح ﴿فلما جاءت قيل﴾ لها ﴿أهكذا عرشك قالت كأنه هو﴾ قيل: إنها عرفته ولكن شبهت عليهم كما شبهوا عليها، وقيل: إنها كانت حكيمة لم تقل نعم خوفاً من الكذب ولا قالت: لا خوفاً من التكذيب أيضاً فقالت: كأنه هو فعرف سليمان كمال عقلها بحيث لم تقر ولم تنكر اشتبه عليها أمر العرش، لأنها تركته في بيت عليه سبعة أبواب مغلقة والمفاتيح معها قيل فإنه عرشك فما أغنى عنك إغلاق الأبواب ثم قالت ﴿وأوتينا العلم من قبلها﴾ يعني من قبل الآية في العرش ﴿وكنا مسلمين﴾ يعني منقادين مطيعين خاضعين لأمر سليمان وقيل: قوله تعالى وأوتينا العلم أي بالله وبصحة نبوة سليمان بالآيات المتقدمة من أمر الهدهد والرسل من قبلها أي من قبل الآية في العرش، وكنا مسلمين أو معناه وأوتينا العلم بالله، وبقدرته على ما يشاء من قبل

النبي ابن النبي، وليس أحد أوجه عند الله منك فإن دعوت الله وطلبت إليه كان عندك، فقال صدقت ففعل ذلك فجيء بالعرش في الوقت، وقوله تعالى: ﴿ قبل أن يرتدّ إليك طرفك ﴾ قال سعيد بن جبير: يعني من قبل أن يرجع إليك أقصى مَن ترى، وهو أن يصل إليك مَن كان منك على مدّ بصرك. قال قتادة: قبل أن يأتيك الشخص من مدّ البصر. وقال مجاهد: يعني إدامة النظر حتى يرتدّ الطرف خاسئاً. قال وهب: تمدّ عينيك فلا ينتهي طرفك إلى مداه، حتى أمثله بين يديك، ﴿ فلما رآه ﴾، يعني رأى سليمان العرش، ﴿ مستقراً عنده ﴾، محمولاً إليه من مأرب إلى الشام في قدرِ ارْتدادِ الطرف، ﴿ قال هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكُرُ ﴾، نعمه، ﴿ أم أكفرُ ﴾، فلا أشكرها، ﴿ ومَن شكرَ فإنّما يشكر لنفسه ﴾، أي يعود نفع شكره إليه وهو أن يستوجب به تمام النعمة ودوامها، لأن الشكر قَيْدُ النعمة الموجودة وصيد النعمة المفقودة، ﴿ ومَن كفر فإن ربّي غنيٌّ﴾، عن شكره، ﴿ كريم ﴾، بإفضال على مَن يكفر نعمه.

قوله تعالى: ﴿ قال نكّروا لها عرشها ﴾، يقول غيّروا سريرها إلى حال تنكره إذا رأته، قال قتادة ومقاتل: هو أن يُزاد فيه ويُنقَص منه، ورُوِيَ أنه جعل أسفله أعلاه وأعلاه أسفله، وجعل مكان الجوهر الأحمر أخضر ومكان الأخضر أحمر، ﴿ ننظرْ أتهتدي ﴾، إلى عرشها فتعرفه، ﴿ أم تكون من ﴾، الجاهلين، ﴿ الذين لا يهتدون ﴾، إليه، وإنما حمل سليمان على ذلك كما ذكره وهب ومحمد بن كعب وغيرهما: أن الشياطين خافت أن يتزوّجها سليمان فتفشي إليه أسرار الجن وذلك أن أُمها كانت جنيّة، وإذا ولدت له ولداً لا ينفكّون من تسخير سليمان وذريّته من بعده، فأساؤا الثناء عليها ليزهّدوه فيها، وقالوا: إن في عقلها شيئاً وإن رجلها كحافر الحمار وأنها شعراء الساقين فأراد سليمان أن يختبر عقلها بتنكير عرشها، وينظر إلى قدميها ببناء الصرح.

﴿ فلما جاءت قيل ﴾، لها، ﴿ أهكذا عرشُكِ قالتْ كأنّه هو ﴾، قال مقاتل: عرفته لكنها شبّهت عليهم كما

هذه المرأة وكنا مسلمين ويكون الغرض من هذا شكر نعمة الله عليه أن خصه بمزيد العلم، والتقدم في الإسلام وقيل معناه وأوتينا العلم بإسلامها ومجيئها طائعة من قبل مجيئها طائعة وكنا مسلمين لله.

قوله تعالى ﴿**وصدها ما كانت تعبد من دون الله**﴾ يعني منعتها عبادة الشمس عن التوحيد وعبادة الله وقيل معناه صدها سليمان، عما كانت تعبد من دون الله وحال بينها وبينه ﴿**إنها كانت من قوم كافرين**﴾ أخبر الله أنها كانت من قوم يعبدون الشمس، فنشأت بينهم ولم تعرف إلا عبادة الشمس ﴿**قيل لها ادخلي الصرح**﴾ وذلك أن سليمان لما اختبر عقلها بتنكير العرش وأراد أن ينظر إلى قدميها وساقيها من غير أن يسألها كشفهما لما أخبرته الجن أن رجليها كحافر حمار، وهي شعراء الساقين أمر الشياطين، فعملوا لها قصراً من الزجاج الأبيض كالماء وقيل: الصرح صحن الدار وأجرى تحته الماء، وألقى فيه السمك والضفادع وغيرهما من دواب البحر ثم وضع سريره في صدر المجلس وجلس عليه وقيل إنما عمل الصرح ليختبر به فهمها كما فعلت في الوصفاء والوصائف. فلما جلس على السرير دعا بلقيس، ولما جاءت قيل لها ادخلي الصرح ﴿**فلما رأته حسبته لجة**﴾ أي ماء عظيماً ﴿**وكشفت عن ساقيها**﴾ لتخوض الماء إلى سليمان، فإذا هي أحسن النساء ساقاً وقدماً إلا أنها كانت شعراء الساقين فلما نظر سليمان ذلك صرف بصره عنها ﴿**قال إنه صرح ممرد**﴾ أي مملس ﴿**من قوارير**﴾ زجاج وليس بماء فحينئذٍ سترت ساقيها وعجبت من ذلك وعلمت أن ملك سليمان من الله تعالى واستدلت بذلك على التوحيد والنبوة ﴿**قالت رب إني ظلمت نفسي**﴾ بعبادة غيرك ﴿**وأسلمت مع**

شبّهوا عليها. وقال عكرمة: كانت حكيمة لم تقل نعم خوفاً من أن تكذب، ولم تقل لا خوفاً من التكذيب، قالت: كأنه هو فعرف سليمان كمال عقلها حيث لم تقرّ ولم تنكرَ، وقيل اشتبه عليها أمر العرش لأنها تركته في بيت خلف سبعة أبواب مغلقة والمفاتيح معها، قيل لها فإنه عرشك فما أغنى عنك إغلاق الأبواب، فقالت ﴿ **وأُوتينا العلم** ﴾، بصحّة نبوّة سليمان بالآيات المتقدمة من أمر الهدية والرسل، ﴿ **من قبلها** ﴾، من قبل الآية في العرش ﴿ **وكنّا مسلمين** ﴾، منقادين طائعين لأمر سليمان، وقيل: قوله وأُوتينا العلم من قبلها قاله سليمان، يقول وأُوتينا العلم بالله وبقدرته على ما يشاء من قبل هذه المرأة، وكنّا مسلمين، هذا قول مجاهد. وقيل: معناه وأُوتينا العلم بإسلامها ومجيئها طائعة من قبل مجيئها وكنّا مسلمين طائعين لله.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ **وصدّها ما كانت تعبد من دون الله** ﴾، أي منعها ما كانت تعبد من دون الله وهو الشمس أن تعبد الله، أي صدّها عبادة الشمس عن التوحيد وعبادة الله، فعلى هذا التأويل يكون ﴿ **ما** ﴾ في محل الرفع. وقيل: معناه ما صدّها عن عبادة الله نقصان عقلها كما قالت الجن: إن في عقلها شيئاً بل ما كانت تعبد من دون الله. وقيل: معناه وصدّها سليمان ما كانت تعبد من دون الله أي منعها من ذلك وحال بينها وبينه فيكون محل ﴿ **ما** ﴾ نصباً، ﴿ **إنّها كانتْ من قوم كافرين** ﴾، هذا استئناف أخبر الله تعالى أنها كانت من قوم يعبدون الشمس، فنشأت بينهم ولم تعرف إلّا عبادة الشمس.

قوله: ﴿ **قيل لها ادْخلي الصرح** ﴾ الآية، وذلك أن سليمان أراد أن ينظر إلى قدميها وساقيها من غير أن يسألها كشفها لما قالت الشياطين إن رجليها كحافر الحمار وهي شعراء الساقين، أمر الشياطين فبنوا له صرحاً أي قصراً من زجاج، وقيل بيتاً من زجاج كأنه الماء بياضاً وقيل الصرح صحن الدار وأجرى تحته الماء وألقى فيه كل شيء من دواب البحر السمك والضفادع وغيرهما، ثم وضع سريره في صدره وجلس عليه وعكفت عليه الطير والجن والإنس وقيل: اتخذ صحناً من قوارير وجعل تحتها تماثيل من الحيتان والضفادع، فكان الواحد إذا رآه ظنّه ماء. وقيل: إنما بُنِيَ الصرح ليختبر عقلها وفهمها كما فعلت هي بالوصائف والوصيفات، فلما جلس على السرير دعا

سليمان رب العالمين﴾ أي أخلصت له التوحيد والعبادة، وقيل: إنها لما بلغت الصرح وظنته لجة قالت: في نفسها إن سليمان يريد أن يغرقني وكان القتل أهون من هذا فلما تبين لها خلاف ذلك قالت: رب إني ظلمت نفسي بذلك الظن. واختلفوا في أمر بلقيس بعد إسلامها، فقيل انتهى أمرها إلى قولها أسلمت لله رب العالمين ولا عمل لأحد وراء ذلك، لأنه لم يذكر في الكتاب ولا في خبر صحيح وقال بعضهم: تزوجها سليمان وكره ما رأى من كثرة شعر ساقيها، فسأل الإنس عما يذهب ذلك فقالوا الموسى. فقالت المرأة إني لم يمسني حديد قط فكره سليمان الموسى وقال: إنها تقطع ساقيها فسأل الجن فقالوا لا ندري فسأل الشياطين. فقالوا: نحتال لك حتى تكون كالفضة البيضاء فاتخذوا النورة، والحمام فكانت النورة والحمامات من يومئذٍ. فلما تزوجها سليمان أحبها حباً شديداً، وأقرها على ملكها وأمر الجن فابتنوا لها بأرض اليمن ثلاثة حصون لم ير الناس مثلها ارتفاعاً وحسناً، وهي سلحين وبيسنون وغمدان ثم كان سليمان يزورها في كل شهر مرة، ويقيم عندها ثلاثة أيام يبكر من الشام إلى اليمن ومن اليمن إلى الشام وولدت له ولداً ذكراً. وقال وهب: زعموا أن بلقيس لما أسلمت قال لها سليمان اختاري رجلاً من قومك حتى أزوجك إياه، فقالت: ومثلي يا نبي الله ينكح الرجال وقد كان لي من قومي الملك والسلطان، قال: نعم إنه لا يكون في الإسلام إلا ذلك ولا ينبغي لك أن تحرمي ما أحل الله قالت: فإن كان ولا بد فزوجني ذا تبع ملك همدان فزوجها إياه وذهب بها إلى اليمن، وملك زوجها ذا تبع على اليمن، ودعا زوبعة ملك الجن وقال له اعمل لذي تبع ما استعملك فيه فلم يزل يعمل له ما أراد إلى

بلقيس، فلما جاءت قيل لها ادخلي الصرح، ﴿فلما رأته حسبته لُجَّةً﴾، وهي معظم الماء، ﴿وكشفت عن ساقيها﴾، لتخوضه إلى سليمان فنظر سليمان فإذا هي أحسن الناس قدماً وساقاً إلاّ أنها كانت شعراء الساقين، فلما رأى سليمان ذلك صرف بصره عنه وناداها، ﴿قال إنّه صرح ممرد﴾، مملس مستوٍ، ﴿من قوارير﴾، وليس بماء، ثم إن سليمان دعاها إلى الإسلام وكانت قد رأت حال العرش والصرح فأجابت، و﴿قالت ربِّ إني ظلمتُ نفسي﴾، بالكفر، وقال مقاتل: لما رأت السرير والصرح علمت أن مُلك سليمان من الله فقالت: ربِّ إني ظلمت نفسي بعبادة غيرك، ﴿وأسلمتُ مع سليمان لله ربِّ العالمين﴾، أي أخلصت له التوحيد، وقيل: إنها لمّا بلغت الصرح فظنّته لجّة، قالت في نفسها إن سليمان يريد أن يُغرقني، وكان القتل عليّ أهون من هذا، فقولها ظلمت نفسي تعني بذلك الظن واختلفوا في أمرها بعد إسلامها، فقال عون بن عبد الله سأل رجل عبد الله بن عتبة: هل تزوّجها سليمان؟ فقال: انتهى أمرها إلى قولها أسلمت مع سليمان لله ربّ العالمين، يعني لا علم لنا وراء ذلك، وقال بعضهم: تزوّجها ولمّا أراد أن يتزوجها كره ما رأى من كثرة شعر ساقيها، فسأل الإنس ما يذهب هذا قالوا الموسى، فقالت المرأة لم تمسّني حديدة قطّ، فكره سليمان الموسى، وقال: إنها تقطع ساقيها، قال الحسن: فسأل الجن فقالوا: لا ندري، ثم سأل الشياطين فقال إنّا نحتال لك حتى تكون كالفضة البيضاء، فاتخذوا النورة والحمام فكانت النورة والحمامات من يومئذ، فلما تزوجها سليمان أحبّها حبّاً شديداً وأقرّها على مُلكها وأمر الجن فابتنوا لها بأرض اليمن ثلاثة حصون لم يرَ الناسُ مثلها ارتفاعاً وحُسْناً وهي سلحين وبيسنون وعمدان، ثم كان سليمان يزورها في كل شهر مرة بعد أن ردّها إلى مُلْكها ويقيم عندها ثلاثة أيام يبتكر من الشام إلى اليمن ومن اليمن إلى الشام، وولدت له فيما ذُكِرَ ورُوِيَ عن وهب قال: زعموا أن بلقيس لمّا أسلمت قال لها سليمان: اختاري رجلاً من قومك أُزوّجكه، قالت: ومثلي يا نبيّ الله يتنكح الرجال وقد كان لي في قومي من المُلْك والسلطان ما كان، قال: نعم إنه لا يكون في الإسلام إلا ذلك ولا ينبغي لك أن تحرّمي ما أحلّ الله لك، فقالت زوّجني إن كان لا بدّ من ذلك ذا تبع ملك همدان فزوّجها إيّاه ثم، ردّها إلى اليمن وسلّط زوجها ذا تبع على اليمن ودعا زوبعة أمير الجن باليمن، فقال: اعمل لذي تبع ما استعملك فيه فلم يزل بها ملكاً يعمل له فيها ما أراد حتى مات سليمان، فلما أن

آن مات سليمان وحال الحول، وعلم الجن موت سليمان، فأقبل رجل منهم حتى بلغ جوف اليمن وقال بأعلى صوته: يا معشر الجن إن الملك سليمان قد مات فارفعوا أيديكم فرفعوا أيديهم وتفرقوا وانقضى ملك سلمان وملك ذي تبع وملك بلقيس، وبقي الملك لله الواحد القهار قيل إن سليمان ملك وهو ابن ثلاث عشرة سنة ومات وهو ابن ثلاث وخمسين سنة. قوله عز وجل:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾ وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾﴾

﴿ولقد أرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحاً أن اعبدوا الله﴾ أي وحدوه لا تشركوا به شيئاً ﴿فإذاهم فريقان﴾ أي مؤمن وكافر ﴿يختصمون﴾ أي في الدين كل فريق يقول الحق معنا ﴿قال﴾ يعني صالحاً للفريق المكذب ﴿يا قوم لم تستعجلون بالسيئة﴾ أي بالبلاء والعقوبة ﴿قبل الحسنة﴾ أي العافية والرحمة ﴿لولا﴾ أي هلا ﴿تستغفرون الله﴾ أي بالتوبة إليه من الكفر ﴿لعلكم ترحمون﴾ أي لا تعذبون في الدنيا ﴿قالوا اطيرنا﴾ أي تشاءمنا ﴿بك وبمن معك﴾ قيل: إنما قالوا ذلك لتفرق كلمتهم وقيل: لإمساك القطر عنهم قالوا إنما أصابنا هذا الضر والشدة من شؤمك وشؤم

حال الحول وتبينت الجن موت سليمان أقبل رجل منهم فسلك تهامة حتى إذا كان في جوف اليمن صرخ بأعلى صوته: يا معشر الجن إن الملك سليمان قد مات، فارفعوا أيديكم فرفعوا أيديهم وتفرّقوا وانقضى ملك ذي تبع، ومُلْك بلقيس مع مُلْك سليمان. وقيل: إن الملك وصل إلى سليمان وهو ابن ثلاث عشرة سنة ومات وهو ابن ثلاث وخمسين سـنـة.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ ولقد أرسلنا إلى ثمودَ أخاهم صالحاً أنِ ﴾، أي أنِ، ﴿ اعبدوا الله ﴾، وحده، ﴿ فإذا هم فـريقـان ﴾، مؤمن وكـافـر، ﴿ يختصمـون ﴾، في الـديـن، قـال مقـاتـل واختصـامهـم مـا ذكـر في سـورة الأعراف [٧٥ ـ ٧٧]: ﴿ قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمَن آمن منهم ﴾، إلى قوله: ﴿ يا صالح ائتِنَا بِمَا تَعِدُنا إنْ كنتَ من المرسلين ﴾ [الأعراف: ٧٥ ـ ٧٧].

فـ ﴿ قال ﴾، لهم صالح، ﴿ يا قوم لِمَ تستعجلون بالسيئة ﴾، بالبلاء والعقوبة، ﴿ قبلَ الحسنة ﴾، العافية والرحمة، ﴿ لولا ﴾، هلاّ ﴿ تستغفرون الله ﴾، بالتوبة من كفركم، ﴿ لعلّكم ترحمون ﴾.

﴿ قالوا اطَّيّرنا ﴾، أي تشاءمنا، وأصله تطيّرنا، ﴿ بك وبمَن معك ﴾، قيل: إنما قالوا ذلك لتفرّق كلمتهم. وقيل: لأنه أمسك عنهم المطر في ذلك الوقت وقحطوا فقالوا: أصابنا هذا الضرّ والشدّة من شؤمك وشؤم أصحابك، ﴿ قال طائركم عند الله ﴾، أي ما يصيبكم من الخير والشر عند الله بأمره وهو مكتوب عليكم، سُمّي طائراً لسرعة نزوله بالإنسان فإنه لا شيء أسرع من قضاء محتوم، قال ابن عباس: الشؤم أتاكم من عند الله لكفركم. وقيل طِائركم أي عملكم عند الله، سُمّي طائراً لسرعة صعوده إلى السماء. ﴿ بل أنتم قوم تُفْتَنُون ﴾، قال ابن عباس: تختبرن وبالخير والشر، نظيره قوله تعالى: ﴿ ونبلوكم بالشر والخير فتنة ﴾ [الأنبياء: ٣٥]، وقال محمد بن كعب القرظي: تعذّبون.

أصحابك ﴿قال طائركم عند الله﴾ أي ما يصيبكم من الخير والشر بأمر الله مكتوب عليكم، سمي طائراً لأنه لا شيء أسرع من نزول القضاء المحتوم وقال ابن عباس الشؤم الذي أتاكم من عند الله بكفركم وقيل طائركم أي عملكم، عند الله، سمي طائراً لسرعة صعوده إلى السماء ﴿بل أنتم قوم تفتنون﴾ قال ابن عباس تختبرون بالخير والشر وقيل معناه تعذبون. قوله تعالى ﴿وكان في المدينة﴾ يعني مدينة ثمود وهي الحجر ﴿تسعة رهط﴾ يعني من أبناء أشرافهم ﴿يفسدون في الأرض﴾ أي بالمعاصي ﴿ولا يصلحون﴾ أي لا يطيعون وهم غواة قوم صالح الذين اتفقوا على عقر الناقة ورأسهم قدار بن سالف ﴿قالوا تقاسموا بالله﴾ يعني يقول بعضهم لبعض احلفوا بالله أيها القوم ﴿لنبيتنه﴾ أي لنقتلنه ليلاً ﴿وأهله﴾ يعني قومه الذين آمنوا معه ﴿ثم لنقولن لوليه﴾ أي لولي دمه ﴿ما شهدنا﴾ يعني ما حضرنا ﴿مهلك أهله﴾ أي ما ندري من قتله ولا هلاك أهله ﴿وإنا لصادقون﴾ يعني في قولنا ما شهدنا ذلك.

وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ
أَنَّا دَمَّرْنَـٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ
يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ
ٱلْفَـٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾ ۞ فَمَا
كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَنجَيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ
إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَـٰهَا مِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٥٨﴾ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَـٰمٌ عَلَىٰ
عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ
مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ
يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَـٰلَهَآ أَنْهَـٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ
أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ
خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَـٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن

قوله تعالى: ﴿ وكان في المدينة ﴾ يعني مدينة ثمود وهي الحِجْر، ﴿ تسعةُ رهطٍ ﴾، من أبناء أشرافهم، ﴿ يفسدون في الأرض ولا يصلحون ﴾، وهم الذين اتفقوا على عقر الناقة وهم غواة قوم صالح ورأسهم قدار بن سالف، وهو الذي تولّى عقرها؛ كانوا يعملون بالمعاصي.

﴿ قالوا تقاسموا بالله ﴾، تحالفوا، يقول بعضهم لبعض: احلفوا بالله أيها القوم، وموضع تقاسموا جزم على الأمر، وقال قوم محله نصب على الفعل الماضي، يعني أنهم تحالفوا وتواثقوا، تقديره: قالوا متقاسمين بالله، ﴿ لَنُبَيِّتَنَّهُ ﴾ أي: لنقتلنّه بَيَاتاً أي ليلاً، ﴿ وأهله ﴾، أي قومه الذين أسلموا معه، وقرأ الأعمش وحمزة والكسائي (لتبيّتنّه) و(لتقولنّ) بالتاء فيهما وضمّ لام الفعل على الخطاب، وقرأ الآخرون بالنون فيهما وفتح لام الفعل، ﴿ ثم لنقولنّ لوليّه ﴾، أي لوليّ دمه، ﴿ ما شهدنا ﴾، ما حضرنا، ﴿ مَهْلِكَ أهله ﴾، أي إهلاكهم، ولا ندري مَن قتله، ومَن فتح الميم فمعناه هلاك أهله، ﴿ وإنّا لصادقون ﴾، في قولنا ما شهدنا ذلك.

يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾

﴿ومكروا مكراً﴾ أي غدروا غدراً حين قصدوا تبيت صالح وأهله ﴿ومكرنا مكراً﴾ يعني جازيناهم على مكرهم بتعجيل العذاب ﴿وهم لا يشعرون فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم﴾ يعني أهلكناهم أي التسعة قال ابن عباس: أرسل الله الملائكة تلك الليلة إلى دار صالح يحرسونه فأتت التسعة دار صالح شاهرين سلاحهم، فرمتهم الملائكة بالحجارة وهم يرون الحجارة ولا يرون الملائكة فقتلتهم وأهلك الله جميع القوم بالصيحة ﴿وقومهم أجمعين، فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا﴾ أي بظلمهم وكفرهم ﴿إن في ذلك لآية﴾ أي لعبرة ﴿لقوم يعلمون﴾ أي قدرتنا ﴿وأنجينا الذين آمنوا، وكانوا يتقون﴾ يقال إن الناجين كانوا أربعة آلاف. قوله تعالى ﴿ولوطاً إذ قال لقومه: أتأتون الفاحشة﴾ أي الفعلة القبيحة ﴿وأنتم تبصرون﴾ أي تعلمون أنها فاحشة وهو من بصر القلب وقيل: معناه يبصر بعضكم بعضاً وكانوا لا يستترون عتواً منهم ﴿أئنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم تجهلون﴾ فإن قلت إذا فسر تبصرون بالعلم وقد قال: بعده «قوم تجهلون» فيكون العلم جهلاً. قلت: معناه تفعلون فعل الجاهلين وتعلمون أنه فاحشة. وقيل: تجهلون العاقبة وقيل أراد بالجهل السفاهة التي كانوا عليها ﴿فما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوا آل لوط من قريتكم إنهم أناس يتطهرون﴾ يعني من أدبار الرجال ﴿فأنجيناه وأهله إلا امرأته قدرناها من الغابرين﴾ أي قضينا عليها بأن جعلناها من الباقين في العذاب ﴿وأمطرنا عليهم مطراً﴾ أي الحجارة ﴿فساء﴾ أي فبئس ﴿مطر المنذرين﴾ قوله عز وجل ﴿قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى﴾ هذا خطاب لرسول الله ﷺ أن يحمد

﴿ ومكروا مكراً ﴾، غدروا غدراً حين قصدوا تبييت صالح والفتك به، ﴿ ومكرنا مكراً ﴾، جزيناهم على مكرهم بتعجيل عقوبتهم، ﴿ وهم لا يشعرون ﴾.

﴿ فانظرْ كيفَ كان عاقبةُ مكرهم أنّا ﴾، قرأ أهل الكوفة ﴿ أنا ﴾بفتح الألف ردّاً على العاقبة، أي أنّا دمّرناهم، وقرأ الآخرون (إنّا) بالكسر على الاستئناف، ﴿ دمّرناهم ﴾، أي أهلكناهم التسعة. واختلفوا في كيفية هلاكهم، قال ابن عباس رضي الله عنهما: أرسل الله الملائكة تلك الليلة إلى دار صالح يحرسونه فأتى التسعة دار صالح شاهِرين سيوفهم فرمتهم الملائكة بالحجارة من حيث يرون الملائكة، فقتلهم. قال مقاتل: نزلوا في سفح جبل ينظر بعضهم بعضاً ليأتوا دار صالح، فجثم عليهم الجبل فأهلكهم، ﴿ وقومهم أجمعين ﴾، أهلكهم الله بالصيحة.

﴿ فتلك بيوتُهم خاويةً ﴾، نصب على الحال أي خالية، ﴿ بما ظلموا ﴾ أي بظلمهم وكفرهم، ﴿ إنّ في ذلك لآية ﴾، لعبرة، ﴿ لقوم يعلمون ﴾، قدرتنا.

﴿ وأنجينا الذين آمنوا وكانوا يتّقون ﴾، يقال: كان الناجون منهم أربعة آلاف.

قوله تعالى: ﴿ ولوطاً إذْ قال لقومه أتأتون الفاحشة ﴾، وهي الفعلة القبيحة، ﴿ وأنتم تبصرون ﴾، أي تعلمون أنها فاحشة. وقيل: معناه يرى بعضكم بعضاً وكانوا لا يستترون عتوّاً منهم.

﴿ أئنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم تجهلون ﴾.

﴿ فما كان جواب قومه إلّا أن قالوا أخرجوا آل لوط من قريتكم إنهم أُناس يتطهّرون ﴾، من أدبار الرجال.

﴿ فأنجيناه وأهله إلّا امرأته قدّرناها ﴾، قضينا عليها وجعلناها بتقديرنا، ﴿ من الغابرين ﴾، أي الباقين في العذاب.

الله على هلاك كفار الأمم الخالية، وقيل: يحمده على جميع نعمه وسلام على عباده الذين اصطفى يعني الأنبياء والمرسلين وقال ابن عباس: هم أصحاب محمد ﷺ وقيل: هم كل المؤمنين من السابقين واللاحقين **﴿آلله خير أما يشركون﴾** فيه تبكيت للمشركين وإلزام الحجة عليهم بعد هلاك الكفار. والمعنى آلله خير لمن عبده أم الأصنام لمن عبدها فإن الله خير لمن عبده وآمن به لإغنائه عنه من الهلاك والأصنام، لم تغن شيئاً عن عابديها عند نزول العذاب، ولهذا السبب ذكر أنواعاً تدل على وحدانيته وكمال قدرته.

فالنوع الأول قوله تعالى: **﴿أمن خلق السموات والأرض﴾** ذكر أعظم الأشياء المشاهدة الدالة على عظيم قدرته. والمعنى الأصنام خير أم الذي خلق السموات والأرض ثم ذكر نعمه فقال **﴿وأنزل لكم من السماء ماء﴾** يعني المطر **﴿فأنبتنا به حدائق﴾** أي بساتين جمع حديقة، وهو البستان المحيط عليه فإن لم يكن عليه حائط فليس بحديقة **﴿ذات بهجة﴾** أي ذات منظر حسن والبهجة الحسن يبتهج به من يراه **﴿ما كان لكم أن تنبتوا شجرها﴾** يعني ما ينبغي لكم، لأنكم لا تقدرون على ذلك لأن الإنسان قد يقول: أنا المنبت للشجرة بأن أغرسها وأسقيها الماء فأزال هذه الشبهة بقوله ﴿ما كان لكم أن تنبتوا شجرها﴾ لأن إنبات الحدائق المختلفة الأصناف، والطعوم والروائح المختلفة والزروع تسقى بماء واحد، لا يقدر عليه إلا الله تعالى؛ ولا يتأتى لأحد وإن تأتى ذلك لغيره محال **﴿أإله مع الله﴾** يعني هل معه معبود أعانه على صنعه **﴿بل﴾** يعني ليس معه إله ولا شريك **﴿هم قوم﴾** يعني كفار مكة **﴿يعدلون﴾** يشركون وقيل يعدلون عن هذا الحق الظاهر إلى الباطل. النوع الثاني قوله عز وجل **﴿أمن جعل الأرض قراراً﴾** أي دحاها وسواها للاستقرار عليها، وقيل لا تميد بأهلها **﴿وجعل خلالها أنهاراً﴾** أي وسطها بأنهار تطرد بالمياه **﴿وجعل لها رواسي﴾** أي جبالاً ثوابت **﴿وجعل بين البحرين﴾** يعني العذب والملح **﴿حاجزاً﴾** أي مانعاً لا يختلط أحدهما بالآخر **﴿أإله مع الله بل أكثرهم لا يعلمون﴾** أي توحيد ربهم وقدرته وسلطانه. النوع الثالث قوله تعالى **﴿أمن يجيب**

﴿ وأمطرنا عليهم مطراً ﴾ وهو الحجارة، **﴿ فساء ﴾** فبئس، **﴿ مطر المنذَرِين ﴾**.

قوله تعالى: **﴿ قل الحمدُ لله ﴾**، هذا خطاب لرسول الله ﷺ أمر أن يحمد الله على هلاك كفّار الأمم الخالية. وقيل: على جميع نِعَمه. **﴿ وسلامٌ على عباده الذين اصطفى ﴾**، قال مقاتل: هم الأنبياء والمرسلون، دليله قوله عزّ وجلّ: ﴿ وسلام على المرسلين ﴾ [الصّافّات: ١٨١]، وقال ابن عباس في رواية أبي مالك هم أصحاب محمد ﷺ. وقال الكلبي: هم أُمة محمد ﷺ. وقيل: هم كل المؤمنين من السابقين واللاحقين، **﴿ آللَّهُ خيرٌ أمّا يُشركون ﴾**، قرأ أهل البصرة وعاصم: **﴿ يشركون ﴾** بالياء، وقرأ الآخرون بالتاء، يخاطب أهل مكة وفيه إلزام الحجة على المشركين بعد هلاك الكفّار، يقول آلله خير لمَن عبده أم الأصنام خير لمَن عبدها والمعنى: أن الله نجّى مَنْ عَبَدَه مِنَ الهلاك، والأصنام لم تُغْنِ شيئاً عن عابدِيها عند نزول العذاب بهم.

﴿ أمّن خلق السمٰواتِ والأرضَ ﴾، معناه آلهتكم خيرٌ أمِ الذي خلق السمٰوات والأرض، **﴿ وأنزل لكم من السماء ماءً ﴾**، يعني المطر، **﴿ فأنبتنا به حدائق ﴾**، بساتين جمع حديقة، قال الفرّاء: الحديقة البستان المُحاط عليه، فإن لم يكن عليه حائط فليس بحديقة، **﴿ ذات بهجة ﴾**، أي منظر حسن، والبهجة: الحُسْن يبتهج به مَن يراه، **﴿ ما كان لكم أن تُنْبِتُوا شجرَها ﴾**، أي ما ينبغي لكم، لأنكم لا تقدرون عليها. **﴿ أَإِلَهٌ معَ الله ﴾**، استفهام على طريق الإنكار أي هل معه معبود سواه يُعينه على صنعه بل ليس معه إله. **﴿بل هم قوم﴾**، يعني كفّار مكة، **﴿ يعدِلُون ﴾**، يشركون.

﴿ أمّن جعَل الأرضَ قراراً ﴾، لا تميد بأهلها، **﴿ وجعل خلالها ﴾**، وسطها **﴿ أنهاراً ﴾**، تطرد بالمياه،

﴿المضطر﴾ أي المكروب المجهود، وقيل: المضرور بالحاجة المحوجة من مرض أو نازلة من نوازل الدهر يعني إذا نزلت بأحد بادر إلى الالتجاء والتضرع إلى الله تعالى وقيل: هو المذنب إذا استغفر ﴿إذا دعاه﴾ يعني فيكشف ضره ﴿ويكشف السوء﴾ أي الضر لأنه لا يقدر على تغيير حال من فقر إلى غنى، ومن مرض إلى صحة ومن ضيق إلى سعة إلا القادر، الذي لا يعجز والقاهر الذي لا يغلب ولا ينازع ﴿ويجعلكم خلفاء الأرض﴾ أي سكانها، وذلك أنه ورثهم سكانها والتصرف فيها قرناً بعد قرن وقيل يجعل أولادكم خلفاء لكم وقيل: جعلكم خلفاء الجن في الأرض ﴿أإله مع الله قليلاً ما تذكرون﴾ أي تتعظون. النوع الرابع قوله عز وجل ﴿أمن يهديكم في ظلمات البر والبحر﴾ أي يهديكم بالنجوم والعلامات إذا جن عليكم الليل مسافرين في البر والبحر ﴿ومن يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته﴾ أي قدام المطر ﴿أإله مع الله تعالى عما يشركون﴾ النوع الخامس قوله تعالى:

أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ
صَـٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ
فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا
لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا هَـٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّآ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ
فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ
هَـٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٧١﴾ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى
ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾ وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ
وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٧٥﴾ إِنَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُۥ
لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾

﴿أمن يبدأ الخلق﴾ أي نطفاً في الأرحام ﴿ثم يعيده﴾ بعد الموت ﴿ومن يرزقكم من السماء والأرض﴾ أي من السماء بالمطر ومن الأرض بالنبات ﴿أإله مع الله قل هاتوا برهانكم﴾ أي حجتكم على قولكم إن مع الله إلهاً آخر ﴿إن

﴿ وجعل لها رواسي ﴾ جبالاً ثوابت، ﴿ وجعل بين البحرين ﴾، العذب والمالح، ﴿ حاجزاً ﴾، مانعاً لئلا يختلط أحدهما بالآخر، ﴿ أإله مع الله بل أكثرهم لا يعلمون ﴾، توحيد ربهم وسلطانه.

﴿ أمّن يجيبُ المضطر ﴾، المكروب المجهود، ﴿ إذا دعاه ويكشف السوء ﴾، الضرّ، ﴿ ويجعلكم خلفاء الأرض ﴾، سكانها يهلك قرناً وينشىء آخر. وقيل: يجعل أولادكم خلفائكم وقيل: جعل خلفاء الجنّ في الأرض. ﴿ أإلَهٌ مع الله قليلاً ما تذكرون ﴾، قرأ أبو عمرو بالياء والآخرون بالتاء.

﴿ أمّن يهديكم في ظلمات البرّ والبحر ﴾، إذا سافرتم، ﴿ ومَن يُرسلُ الرياحَ بشراً بين يدي رحمته ﴾ أي قدّام المطر، ﴿ أإله مع الله تعالى الله عمّا يشركون ﴾.

﴿ أمّن يبدأ الخلق ثم يعيده ﴾، بعد الموت، ﴿ ومَن يرزقكم من السماء والأرض ﴾، أي من السماء المطر ومن الأرض النبات. ﴿ أإله مَع الله قلْ هاتُوا بُرهانَكم ﴾، حجّتكم على قولكم أنّ مع الله إلَهاً آخر. ﴿ إن كنتم صادقيــن ﴾.

كنتم صادقين﴾ قوله تعالى ﴿قل لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله﴾ نزلت في المشركين حين سألوا رسول الله ﷺ عن وقت الساعة. والمعنى أن الله هو الذي يعلم الغيب وحده ويعلم متى تقوم الساعة ﴿وما يشعرون أيان يبعثون﴾ يعني أن من في السموات وهم الملائكة ومن في الأرض وهم بنو آدم لا يعلمون متى يبعثون والله تعالى تفرد بعلم ذلك ﴿بل ادارك علمهم﴾ أي بلغ ولحق علمهم ﴿في الآخرة﴾ هو ما جهلوه في الدنيا وسقط عنهم علمه. وقيل بل علموا في الآخرة حين عاينوها ما شكوا فيه وعلموا عنه في الدنيا وهو قوله تعالى ﴿بل هم في شك منها﴾ أي هم اليوم في شك من الساعة ﴿بل هم منها عمون﴾ جمع عم وهو أعمى القلب وقيل معنى الآية أن الله أخبر عنهم إذا بعثوا يوم القيامة يستوي علمهم في الآخرة، وما وعدوا فيها من الثواب والعقاب وإن كانت علومهم مختلفة في الدنيا.

﴿ قلْ لا يعلم مَن في السمٰوات والأرض الغيبَ إلاّ الله ﴾، نزلت في المشركين حيث سألوا النبيّ ﷺ عن وقت قيام الساعة، ﴿ وما يشعرون أيّان ﴾، متى، ﴿ يُبعثون ﴾.

﴿ بل ادّارك علمهم ﴾، قرأ أبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو: (أدرك) على وزن أفعل أي بلغ ولحق، كما يقال: أدركه علمي إذا لحقه وبلغه، يريد ما جهلوا في الدنيا وسقط علمه عنهم أعلموه في الآخرة. وقال مجاهد: يدرك علمهم، ﴿ في الآخرة ﴾، ويعلمونها إذا عاينوها حين لا ينفعهم علمهم. قال مقاتل: بل علموا في الآخرة حين عاينوها ما شكّوا وعمُوا عنه في الدنيا وهو قوله: ﴿ بلْ هم في شكٍّ منها ﴾، يعني هم اليوم في شكٍّ من الساعة وقرأ الآخرون بل ادّارك موصولاً مشدّداً مع الألف بعد الدال المشدّد، يعني تدارك وتتابع علمهم في الآخرة وتلاحق، وقيل: معناه اجتمع علمهم حين عاينوها في الآخرة أنها كائنة، وهم في شكٍّ منها في وقتهم، فيكون بمعنى الأول، وقيل: هو على طريق الاستفهام، معناه: هل تدارك وتتابع علمهم بذلك في الآخرة؟ يعني: لم يتتابع وضلّ وغاب علمهم به فلم يبلغوه ولم يدركوه، لأن في الاستفهام ضرباً من الجحد يدلّ عليه، قراءة ابن عباس ﴿ بلى ﴾ بإثبات الياء، ﴿ أَدّارك ﴾ بفتح الألف على الاستفهام، يعني: لم يدرك، وفي حرف أُبيّ «أم تدرك علمهم»، والعرب تضع بل موضع أم وأم موضع بل، وجملة القول فيه أن الله أخبر أنهم إذا بعثوا يوم القيامة يستوي علمهم في الآخرة وما وعدوا فيها من الثواب والعقاب، وإن كانت علومهم مختلفة في الدنيا، وذكر علي بن عيسى أن معنى ﴿ بل ﴾ ههنا لو ومعناه لو أدركوا في الدنيا ما أدركوا في الآخرة لم يشكّوا بل هم في شكٍّ منها، بل هم اليوم في الدنيا في شكٍّ من الساعة، ﴿ بل هم منها عمون ﴾، جمع عَمٍ وهو الأعمى القلب. قال الكلبي: يقول هم جهلة بها.

﴿ وقال الذين كفروا ﴾، يعني مشركي مكة، ﴿ أئذا كنّا تراباً وآباؤنا أئنّا لمخرجون ﴾، من قبورنا أحياء، قرأ أهل المدينة «إذا» غير مستفهم ﴿ أئنّا ﴾ بالاستفهام، وقرأ ابن عامر والكسائي ﴿ أئنّا ﴾ بهمزتين أننا بنونين، وقرأ الآخرون باستفهامها.

﴿ لقد وُعدنا هذا ﴾، أي هذا البعث، ﴿نحن وآباؤنا من قبل﴾، أي من قبل محمد وليس ذلك بشيء ﴿ إن هذا ﴾، ما هذا ﴿ إلا أساطير الأوّلين ﴾ أحاديثهم وأكاذيبهم التي كتبوها.

﴿ قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المجرمين ﴾.

﴿ ولا تحزنْ عليهم ﴾، على تكذيبهم إياك وإعراضهم عنك، ﴿ ولا تكنْ في ضيق مما يمكرون ﴾، نزلت في المستهزئين الذين اقتسموا أعقاب مكة.

قوله تعالى ﴿وقال الذين كفروا﴾ أي مشركو مكة ﴿أإذا كنا تراباً وآباؤنا أإنا لمخرجون﴾ أي من قبورنا أحياء ﴿لقد وعدنا هذا﴾ أي هذا البعث ﴿نحن وآباؤنا من قبل﴾ أي من قبل محمد ﷺ وليس ذلك بشيء ﴿إن هذا﴾ أي ما هذا ﴿إلا أساطير الأولين﴾ أي أحاديثهم وأكاذيبهم التي كتبوها ﴿قيل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المجرمين ولا تحزن عليهم﴾ أي بتكذيبهم إياك وإعراضهم عنك. ﴿ولا تكن في ضيق مما يمكرون﴾ نزلت في المستهزئين الذي اقتسموا عقاب مكة ﴿ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين قل عسى أن يكون ردف﴾ أي دنا وقرب ﴿لكم﴾ وقيل معناه ردفكم ﴿بعض الذي تستعجلون﴾ أي من العذاب فحل بهم ذلك يوم بدر. قوله عز وجل ﴿وإن ربك لذو فضل على الناس﴾ يعني على أهل مكة حيث لم يعجل لهم بالعذاب ﴿ولكن أكثرهم لا يشكرون﴾ أي ذلك ﴿وإن ربك ليعلم ما تكن صدورهم﴾ أي تخفي ﴿وما يعلنون﴾ أي من عداوة رسول الله ﷺ ﴿وما من غائبة﴾ أي من جملة غائبة من مكتوم سر وخفي أمر وشيء غائب ﴿في السماء والأرض إلا في كتاب مبين﴾ يعني في اللوح المحفوظ ﴿إن هذا القرآن يقص على بني إسرائيل﴾ أي يبين لهم ﴿أكثر الذين هم فيه يختلفون﴾ أي من أمر الدين، وذلك أن أهل الكتاب اختلفوا فيما بينهم فصاروا أحزاباً يطعن بعضهم على بعض فنزل القرآن ببيان ما اختلفوا فيه ﴿وإنه﴾ يعني القرآن ﴿لهدى ورحمة للمؤمنين إن ربك يقضي بينهم﴾ أي يفصل بينهم ويحكم بين المختلفين في الدين يوم القيامة ﴿بحكمه﴾ أي الحق ﴿هو العزيز﴾ الممتنع الذي لا يرد له أمر ﴿العليم﴾ أي بأحوالهم فلا يخفى عليه شيء منها.

فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَآ

﴿ ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ﴾.

﴿ قلْ عسى أن يكون رَدِفَ ﴾، أي دنا وقرب، ﴿ لكم ﴾، وقيل تبعكم والمعنى ردفكم أدخل فيه اللام كما أدخل في قوله: ﴿ لربهم يرهبون ﴾ [الأعراف: ١٥٤] قال الفرّاء: اللام صلة زائدة كما تقول نقدته مائة ونقدت له ﴿ بعض الذي تستعجلون ﴾ من العذاب فحلّ بهم ذلك يوم بدر.

﴿ وإنّ ربَّك لذُو فضلٍ على الناس ﴾، قال مقاتل: على أهل مكة حيث لم يعجل عليهم العذاب، ﴿ ولكن أكثرهم لا يشكرون ﴾، ذلك.

﴿ وإنّ ربك ليعلم ما تكنّ ﴾، تخفي، ﴿ صدورهم ومايعلنون ﴾.

﴿ وما من غائبة ﴾، أي جملة غائبة من مكتوم سرّ وخفي أمرٍ وشيءٍ غائب، ﴿ في السماء والأرض إلاّ في كتاب مُبين ﴾، أي في اللوح المحفوظ.

﴿ إنّ هذا القرآن يقصّ على بني إسرائيل ﴾، أي يبيّن لهم، ﴿ أكثر الذي هم فيه يختلفون ﴾، من أمر الدين، قال الكلبي: إن أهل الكتاب اختلفوا فيما بينهم فصاروا أحزاباً يطعن بعضهم على بعض، فنزل القرآن ببيان ما اختلفوا فيه.

﴿ وإنه ﴾، يعني القرآن ﴿ لهدىً ورحمةً للمؤمنين ﴾.

﴿ إنّ ربك يقضي ﴾، يفصل ﴿ بينهم ﴾، أي بين المختلفين في الدين يوم القيامة، ﴿ بحكمه ﴾، الحق، ﴿ وهو العزيز ﴾، المنيع فلا يردّ له أمر، و﴿ العليم ﴾، بأحوالهم فلا يخفى عليه شيء.

أَنتَ بِهَٰدِي ٱلْعُمْيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ ۞ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾

﴿فتوكل على الله﴾ أي فثق به ﴿إنك على الحق المبين﴾ أي البين ﴿إنك لا تسمع الموتى﴾ يعني موتى القلوب وهم الكفار ﴿ولا تسمع الصم الدعاء، إذا ولوا مدبرين﴾ أي معرضين. فإن قلت ما معنى مدبرين والأصم لا يسمع صوتاً سواء أقبل أو أدبر؟. قلت: هو تأكيد ومبالغة وقيل: إن الأصم إذا كان حاضراً قد يسمع برفع الصوت، أو يفهم بالإشارة فإذا ولى لم يسمع ولم يفهم. ومعنى الآية إنه لفرط إعراضهم عما يدعون إليه كالميت الذي لا سبيل إلى سماعه، وكالأصم الذي لا يسمع ولا يفهم ﴿وما أنت بهادي العمي عن ضلالتهم﴾ معناه ما أنت بمرشد من أعماه الله عن الهدى وأعمى قلبه عن الإيمان ﴿إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا﴾ إلا من يصدق بالقرآن أنه من الله ﴿فهم مسلمون﴾ أي مخلصون. قوله تعالى: ﴿وإذا وقع القول عليهم﴾ يعني إذا وجب عليهم العذاب وقيل: إذا غضب الله عليهم وقيل إذا وجبت الحجة عليهم، وذلك أنهم لم يأمروا بالمعروف، ولم ينهوا عن المنكر وقيل إذا لم يرج صلاحهم وذلك في آخر الزمان قبل قيام الساعة ﴿أخرجنا لهم دابة من الأرض﴾. (م) عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال «بادروا بالأعمال قبل ست: طلوع الشمس من مغربها والدخان والدجال والدابة وخويصة أحدكم وأمر العامة» (م) عن

﴿ فتوكل على الله إنّك على الحق المبين ﴾، البيّن.

﴿ إنـك لا تسمع الموتى ﴾، يعني الكفّار، ﴿ ولا تسمع الصُمَّ الدعاء ﴾، قرأ ابن كثير لا يسمع بالياء وفتحها وفتح الميم الصم رفع وكذلك في سورة الروم [٥٢]، وقرأ الباقـون بالتـاء وضمّها وكسـر الميم الصُمّ نصب. ﴿إذا ولّوا مُدبرين ﴾، مُعرضين، فإن قيل ما معنى قوله: ﴿ ولّوا مدبرين ﴾، وإذا كانوا صُمّاً لا يسمعون سواء ولّوا أو لم يولّوا؟ قيل: ذكره على سبيل التأكيد والمبالغة. وقيل: الأصمّ إذا كان حاضراً فقد يسمع برفع الصوت ويفهم بالإشارة، فإذا ولّى لم يسمع ولم يفهم. قال قتادة: الأصمّ إذا ولّى مدبراً ثم ناديته لم يسمع، كذلك الكافر لا يسمع ما يدعى إليه من الإيمان، ومعنى الآية أنهم لفرط إعراضهم عمّا يدعون إليه كالميت الذي لا سبيل إلى إسماعه، والأصمّ الذي لا يسمع.

﴿ وما أنت بهادي العُمْي ﴾، قرأ الأعمش وحمزة (تهدي) بالتاء وفتحها على الفعل ﴿ العمي ﴾ بنصب الياء ههُنا وفي الروم [٥٣]، وقرأ الآخرون بهادي باليـاء على الاسم، ﴿ العمي ﴾ بكسر اليـاء، ﴿ عن ضلالتهم ﴾، أي مـا أنت بمرشد مَن أعماه الله عن الهدى وأعمى قلبه عن الإيمان، ﴿ إنْ تُسْمِعُ ﴾، ما تسمع، ﴿ إلاّ مَن يُؤمنُ بآياتنا ﴾، إلاّ مَن يصدق بالقرآن أنه من الله، ﴿ فهم مسلمون ﴾، مخلصون.

قوله تعالى: ﴿ وإذا وقع القول عليهم ﴾، وجب العذاب عليهم، وقال قتادة إذا غضب الله عليهم، ﴿ أخرجنا لهم دابّة من الأرض تكلّمهم ﴾، واختلفوا في كلامها، فقال السدي: تكلمهم ببطلان الأديان سوى دين الإسلام. وقال بعضهم: كلامها أن تقول لواحد هذا مؤمن، وتقول لآخر هذا كافر، وقيل: كلامها ما قال الله تعالى: ﴿ أن الناس كانوا بآياتنا لا يُوقِنُون ﴾، قال مقاتل تكلمهم بالعربية، فتقول إن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون تخبر الناس أن أهل مكة لم يؤمنوا بالقرآن والبعث، قرأ أهل الكوفة ﴿ أن الناس ﴾ بفتح الألف أي بأن الناس، وقرأ الباقون بالكسر على الاستئناف، أي إن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون قبل خروجها، قال ابن عمر: وذلك حين لا يؤمر بمعروف ولا ينهى عن منكر، وقرأ سعيد بن جبير وعاصم الجحدري وأبو رجاء العطاردي: ﴿ تكلمهم ﴾ وبفتح التاء

عبدالله بن عمرو بن العاص قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول «إن أول الآيات خروجاً طلوع الشمس من مغربها وخروج الدابة على الناس ضحى، وأيتهما كانت قبل صاحبتها فالأخرى على أثرها قريباً» عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «تخرج الدابة ومعها خاتم سليمان وعصا موسى فتجلو وجه المؤمن وتخطم أنف الكافر بالخاتم: حتى إن أهل الحق ليجتمعون فيقول هذا يا مؤمن ويقول هذا يا كافر» أخرجه الترمذي. وقال حديث حسن، وروى البغوي بإسناده عن الثعلبي عن النبيّ ﷺ قال: «يكون للدابة ثلاث خرجات من الدهر فتخرج خروجاً بأقصى اليمن فيفشو ذكرها بالبادية لا يدخل ذكرها القرية، يعني مكة ثم تمكث زمناً طويلاً، ثم تخرج خرجة أخرى قريباً من مكة فيفشو ذكرها بالبادية، ويدخل ذكرها القرية يعني مكة ثم بينا الناس يوماً في أعظم المساجد على الله حرمة، وأكرمها على الله يعني المسجد الحرام لم يرعهم، إلا وهي في ناحية المسجد تدنو وتدنو، كذا قال عمر وما بين الركب الأسود إلى باب

وتخفيف اللام من الكَلِم وهو الجرح، وقال أبو الجوزاء: سألت ابن عباس رضي الله عنهما عن هذه الآية ﴿ تكلمهم أو تكلم ﴾ قال: كل ذلك تفعل، تكلم المؤمن وتكلم الكافر، أخبرنا أبو عبد الله محمد بن الفضل الخرقي أنا أبو الحسن الطيسفوني أنا عبد الله بن عمر الجوهري أنا أحمد بن علي الكشمهيني أنا علي بن حجر أنا إسماعيل بن جعفر أنا العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «بادرُوا بالأعمال ستّاً: طلوع الشمس من مغربها والدخان والدجّال ودابّة الأرض وخاصة أحدكم وأمر العامّة»، أخبرنا إسماعيل بن عبد الله أنا عبد الغافر بن محمد الفارسي أنا محمد بن عيسى الجلودي أنا إبراهيم بن محمد بن سفيان أنا مسلم بن الحجّاج أنا أبو بكر بن أبي شيبة أنا محمد بن بشر عن أبي حيان عن أبي زرعة عن عبد الله بن عمر قال: سمعت رسول الله ﷺ: «إن أوّل الآيات خروجاً طلوع الشمس من مغربها، وخروج الدابّة على الناس ضحىً وآيتهما ما كانت قبل صاحبتها فالأخرى على أثرها قريباً»، وأخبرنا أبو سعيد الشريحي أنا أبو إسحاق الثعلبي أنا أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن فنجويه أنا أبو بكر بن خرجة أنا محمد بن عبد الله بن سليمان الحضرمي أنا هشيم بن حمّاد أنا عمرو بن محمد العبقري عن طلحة عن عمرو عن عبد الله بن عمير الليثي عن أبي شريحة الأنصاري عن النبي ﷺ قال: «يكون للدابّة ثلاث خرجات من الدهر فتخرج خروجاً بأقصى اليمن فيفشو ذكرها في البادية ولا يدخل ذكرها القرية»، يعني مكة، «ثم تمكث زماناً طويلاً ثم تخرج خرجة أخرى قريباً من مكة فيفشو ذكرها في البادية ويدخل ذكرها القرية»، يعني مكة، «فبينما الناس يوماً في أعظم المساجد على الله حُرمة وأكرمها على الله عزّ وجلّ يعني المسجد الحرام لم يرعهم إلاّ وهي في ناحية المسجد تدنو وتدنو» كذا قال ابن عمر وما بين الركن الأسود إلى باب بني مخزوم عن يمين الخارج في وسط من ذلك فارفضّ الناس عنها وتثبت لها عصابة عرفوا أنهم لن يعجزوا الله، فخرجت عليهم تنفض رأسها من التراب فمرّت بهم فجلت عن وجوههم حتى تركتها كأنها الكوكب الدريّة، ثم ولّت في الأرض لا يدركها طالب ولا يفوتها هارب، حتى أن الرجل ليقوم فيتعوّذ منها بالصلاة فتأتيه من خلفه فتقول يا فلان الآن تصلّي فيقبل عليها بوجهه فتسمّه في وجهه، فيتجاور والناس في ديارهم ويصطحبون في أسفارهم ويشتركون في الأموال، يُعرف الكافر من المؤمن، فيقال للمؤمن يا مؤمن ويقال للكافر يا كافر. أخبرنا أبو سعيد الشريحي أنا أبو إسحاق الثعلبي أخبرني الحسن بن محمد أنا أبو بكر بن مالك العطيفي أنـا عبد الله بن أحمـد بن حنبل أنا أبي ثنا بهز ثنا حمّاد هو ابن أبي سلمة أنا علي بن زيد عن أوس بن خالد عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «تخرج الدابّة ومعها عصى موسى وخاتم سليمان فتجلو وجه المؤمن بالعصا وتحطّم أنف الكافر بالخاتم، حتى أن أهل الخوان ليجتمعون فيقول هذا يا مؤمن ويقول هذا يا كافر» ورُوِيَ عن علي قال: ليست بدابّة لها ذنب ولكن لها لحية كأنه يشير إلى أنه رجل، والأكثرون على أنها دابّة. وروى ابن جريـج عن ابن الزبير أنه وصف الدابّة فقال:

بني مخزوم، عن يمين الخارج في وسط من ذلك فارفض الناس عنها وتثبت لها عصابة عرفوا أنهم لم يعجزوا الله، فخرجت عليهم تنفض رأسها من التراب فمرت بهم فجلت وجوههم حتى تركتها كأنها الكواكب الدرية، ثم ولت في الأرض لا يدركها طالب ولا يعجزها هارب حتى أن الرجل، ليقوم فيعوذ منها بالصلاة فتأتيه من خلفه فتقول يا فلان الآن تصلي فيقبل عليها بوجهه فتسمه في وجهه، فيتجاور الناس في ديارهم ويصطحبون في أسفارهم ويشتركون في الأموال يعرف الكافر من المؤمن فيقال للمؤمن يا مؤمن وللكافر يا كافر» وبإسناد الثعلبي عن حذيفة بن اليمان ذكر رسول الله ﷺ الدابة قلت: يا رسول الله من أين تخرج قال «من أعظم المساجد حرمة على الله فبينما عيسى يطوف بالبيت ومعه المسلمون إذ تضطرب الأرض، وينشق الصفا مما يلي المسعى وتخرج الدابة من الصفا أول ما يخرج منها رأسها ملمعة ذات وبر وريش لن يدركها الطالب، ولن يفوتها هارب تسم الناس مؤمناً وكافراً؛ فأما المؤمن فتترك وجهه كأنه كوكب دري وتكتب بين عينيه مؤمن؛ وأما الكافر فتنكت بين عينيه نكتة سوداء وتكتب بين عينيه كافر» وروي عن ابن عباس أنه قرع الصفا بعصاه وهو محرم وقال: إن الدابة لتسمع قرع عصاي هذه وعن ابن عمر قال تخرج الدابة ليلة جمع والناس يسيرون إلى منى، وعن أبي هريرة عن النبيّ ﷺ قال «بئس الشعب شعب أجياد مرتين أو ثلاثاً قيل: ولم ذاك يا رسول الله؟ قال: تخرج منه الدابة تصرخ ثلاث صرخات يسمعها من بين الخافقين» وروي عن ابن الزبير أنه وصف الدابة فقال: رأسها رأس ثور وعينها عين خنزير، وأذنها أذن فيل وقرنها قرن إيل وصدرها صدر أسد ولونها لون نمر وخاصرتها خاصرة هر، وذنبها ذنب كبش وقوائمها قوائم بعير بين كل مفصلين اثنا عشر ذراعاً. وعن عبدالله بن عمرو قال: تخرج الدابة من شعب أجياد فتمس رأسها السحاب ورجلاها في الأرض وروي عن علي قال: ليست بدابة لها ذنب ولكن لها لحية وقال وهب: وجهها وجه رجل وسائر خلقها كخلق الطير فتخبر من رآها أن

رأسها رأس الثور وعينها عين الخنزير، وأُذنها أُذن فيل وقرنها قرن إيل، وصدرها صدر أسد ولونها لون نمر، وخاصرتها خاصرة هرّ، وذنبها ذنب كبش وقوائمها قوائم بعير، بين كل مِفصلين اثنا عشر ذراعاً معها عصا موسى وخاتم سليمان، فلا يبقى مؤمن إلاّ نكتته في مسجده بعصا موسى نكتة بيضاء يضيء بها وجهه، ولا يبقى كافر إلاّ نكتت وجهه بخاتم سليمان فيسودّ بها وجهه، حتى إن الناس يتبايعون في الأسواق: بكم يا مؤمن؟ بكم يا كافر؟ ثم تقول لهم الدابّة: يا فلان أنت من أهل الجنة ويا فلان أنت من أهل النار، فذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿ **وإذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابّة من الأرض** ﴾ الآية، أخبرنا أبو سعيد الشريحي أنا أبو إسحاق الثعلبي أخبرني عقيل بن محمد الجرجاني الفقيه أنا أبو الفرج المعافى بن زكريا البغدادي أنا أبو جعفر محمد بن جرير الطبري أنا أبو كريب أنا الأشجعي عن فضيل بن مرزوق عن عطية عن ابن عمر قال: تخرج الدابّة من صدع في الصفا كجرس الفرس ثلاثة أيام وما خرج ثلثها، وبه عن محمد بن جرير الطبري قال: حدّثني عصام بن داود الجرّاح ثنا أبي سفيان بن سعيد أنا منصور بن المعتمر عن ربعي بن خراش عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال: ذكر رسول الله ﷺ الدابّة، قلت: يا رسول الله من أين تخرج ؟ قال: «من أعظم المساجد حُرمة على الله، بينما عيسى يطوف بالبيت ومعه المسلمون إذ تضرب الأرض تحتهم وتنشقّ الصفا مما يلي المشعر، وتخرج الدابّة من الصفا أول ما يبدر منها رأسها ملمعة ذات وبرٍ وريش، لن يدركها طالب ولن يفوتها هارب، تُسمّي الناس مؤمناً وكافراً، أما المؤمن فتترك وجهه كوكب درّيّ وتكتب بين عينيه مؤمن، وأما الكافر تكتب بين عينيه نكتة سوداء، وتكتب بين عينيه كافراً»، ورُوِيَ عن ابن عباس: أنه قرع الصفا بعصاه وهو محرم وقال إن الدابّة لتسمع قرع عصاي هذه. وعن عبد الله بن عمر قال: تخرج الدابّة من شعب فيمسّ رأسها في السحاب ورجلاها في الأرض، فخرجنا فتمرّ بالإنسان يصلّي فتقول ما الصلاة من حاجتك فتخطمه. وعن ابن عمر قال: تخرج الدابّة ليلة جمع والناس يسيرون إلى منى. وعن

أهل مكة، كانوا بمحمد والقرآن لا يوقنون ﴿تكلمهم﴾ أي بكلام فصيح قيل تقول هذا مؤمن وهذا كافر. وقيل: تقول ما أخبر الله تعالى ﴿إن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون﴾ تخبر الناس عن أهل مكة أنهم لم يؤمنوا بالقرآن والبعث. وقرىء تكلمهم بتخفيف اللام من الكلم، وهو الجرح وقال ابن الجوزي: سئل ابن عباس عن هذه الآية تكلمهم وتكلمهم فقال: كل ذلك تفعل تكلم المؤمن وتكلم الكافر. قوله تعالى:

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَـٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾﴾

﴿ويوم نحشر من كل أمة فوجاً﴾ أي نحشر من كل قرن جماعة ﴿ممن يكذب بآياتنا فهم يوزعون﴾ أي يحبس أولهم على آخرهم حتى يجتمعون ثم يساقوا إلى النار ﴿حتى إذا جاؤوا﴾ يعني يوم القيامة ﴿قال﴾ الله تعالى لهم ﴿أكذبتم بآياتي ولم تحيطوا بها علماً﴾ أي ولم تعرفوها حق معرفتها ﴿أم ماذا كنتم تعملون﴾ أي حين لم تتفكروا فيها وقيل: معنى الآية أكذبتم بآياتي غير عالمين بها ولم تتفكروا في صحتها بل كنتم بها جاهلين ﴿ووقع القول﴾ أي وجب العذاب ﴿عليهم بما ظلموا﴾ أي بما أشركوا ﴿فهم لا ينطقون﴾ أي بحجة وقيل إن أفواههم مختومة ﴿ألم يروا أنا جعلنا﴾ أي أنا خلقنا ﴿الليل ليسكنوا فيه والنهار مبصراً﴾ أي مضيئاً يبصر فيه. وفي الآية دليل على البعث بعد الموت لأن القادر على قلب الضياء ظلمة، والظلمة ضياء قادر على الإعادة بعد الموت ﴿إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون﴾ أي يصدقون فيعتبرون. قوله تعالى ﴿ويوم ينفخ في الصور﴾ هو قرن ينفخ فيه إسرافيل قال الحسن: الصور هو القرن ومعنى كلامه إن الأرواح تجتمع في القرن ثم ينفخ فيه فتذهب في الأجساد فتحيا بها الأجساد ﴿ففزع﴾ أي فصعق ﴿من في السموات ومن في الأرض﴾ أي ماتوا. والمعنى أنه يلقى عليهم الفزع إلى أن يموتوا. وقيل ينفخ إسرافيل في الصور ثلاث نفخات، نفخة الفزع ونفخة الصعق ونفخة القيام لرب العالمين ﴿إلا من شاء الله﴾ روى أبو هريرة أن

سهيل بن صالح عن أبيه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «بئس الشعب شعب أجياد»، مرتين أو ثلاثاً، قيل: ولِمَ ذلك يا رسول الله؟ قال: «تخرج منه الدابّة فتصرخ ثلاث صرخات يسمعها مَنْ بين الخافقين»، وقال وهب: وجهها وجه رجل وسائر خلقها كخلق الطير، فتخبر مَن رآها أن أهل مكة كانوا بمحمد والقرآن لا يوقنون.

قوله تعالى: ﴿ ويوم نحشر من كل أمة فوجاً ﴾ أي من كل قرن جماعة، ﴿ ممّن يكذب بآياتنا ﴾، وليس من هٰهنا للتبعيض لأن جميع المكذّبين يُحشرون، ﴿ فهم يوزعون ﴾، يحبس أولهم على آخرهم حتى يجتمعوا ثم يُساقون إلى النار.

﴿ حتى إذا جاؤوا ﴾، يوم القيامة، ﴿ قال ﴾، الله لهم، ﴿ أكذبتم بآياتي ولم تُحيطوا بها علماً ﴾، ولم تعرفوها حقّ معرفتها، ﴿ أم ماذا كنتم تعملون ﴾، حين لم تفكّروا فيها ومعنى الآية أكذبتم بآياتي غير عالمين بها ولم تفكّروا في صحيّتها بل كذبتم بها جاهلين.

﴿ ووقع القول ﴾، وجب العذاب، ﴿ عليهم بما ظلموا ﴾، بما أشركوا، ﴿ فهم لا ينطقون ﴾، قال قتادة: كيف ينطقون ولا حجّة لهم، نظيره قوله تعالى: ﴿ هذا يوم لا ينطقون ولا يُؤذَنُ لهم فيعتذرون ﴾ [المرسلات: ٣٦]، وقيل: لا ينطقون لأن أفواههم مختومة.

النبيّ ﷺ سئل عن قوله تعالى «إلا من شاء الله» قال هم الشهداء متقلدون أسيافهم حول العرش وقال ابن عباس: هم الشهداء لأنهم أحياء عند ربهم لا يصل إليهم الفزع. وقيل: يعني جبريل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل فلا يبقى بعد النفخة إلا هؤلاء الأربعة ويروى أن الله تعالى يقول لملك الموت خذ نفس إسرافيل فيأخذ نفسه ثم يقول: من بقي يا ملك الموت فيقول: سبحانك ربي تباركت وتعاليت يا ذا الجلال والإكرام، وجهك الباقي الدائم بقي جبريل وميكائيل، وملك الموت فيقول: خذ نفس ميكائيل. فيأخذ نفس ميكائيل فيقع، كالطود العظيم فيقول من بقي من خلقي فيقول: سبحانك ربي تباركت وتعاليت بقي جبريل، وملك الموت فيقول مت يا ملك الموت فيموت فيقول يا جبريل من بقي فيقول: تباركت وتعاليت يا ذا الجلال والإكرام بقي وجهك الدائم الباقي وجبريل، الميت الفاني فيقول الله: يا جبريل لا بد من موتك فيقع ساجداً يخفق بجناحيه. فيروى أن فضل خلقه على ميكائيل كفضل الطود العظيم على ظرب من الظراب. ويروى أنه يبقى مع هؤلاء الأربعة حملة العرش ثم روح ملك الموت، فإذا لم يبق أحد إلا الله تبارك وتعالى طوى السماء كطي السجل للكتاب ثم يقول الله «أنا الجبار لمن الملك اليوم فلا يجيبه أحد فيقول الله تعالى: لله الواحد القهار» (ق) عن أبي هريرة أنّ رسول الله ﷺ قال «ينفخ في الصور فيصعق من في السموات ومن في

قوله عزّ وجلّ: ﴿ **ألم يروا أنّا جعلنا** ﴾، خلقنا، ﴿ **الليل ليسكنوا فيه والنهار مبصراً** ﴾، مضيئاً يبصر فيه، ﴿ **إنّ في ذلك لآيات لقوم يؤمنون** ﴾، يصدقون فيعتبرون.

قوله تعالى: ﴿ **ويوم ينفخ في الصور** ﴾، والصور قرن ينفخ فيه إسرافيل، وقال الحسن: الصور هي القرن، وأوّل بعضهم كلامه أن الأرواح تجمع في القرن ثم ينفخ فيه فتذهب الأرواح إلى الأجساد فتحيا بالأجساد، قوله: ﴿ **ففزع مَنْ في السمواتِ ومَن في الأرض** ﴾، أي فصعق كما قال في آية أخرى: ﴿ فصعق مَن في السموات ومَن في الأرض ﴾ [الزمر: ٦٨]، أي ماتوا، والمعنى أنه يلقى عليهم الفزع إلى أن يموتوا وقيل: ينفخ إسرافيل في الصور ثلاث نفخات نفخة الفزع ونفخة الصعق ونفخة القيام لربّ العالمين، قوله: ﴿ **إلّا مَن شاء الله** ﴾، اختلفوا في هذا الاستثناء، رُوِيَ عن أبي هريرة أن النبي ﷺ سأل جبريل عن قوله: ﴿ **إلّا مَن شاء الله** ﴾، قال: هم الشهداء المقلّدون أسيافهم حول العرش، وروى سعيد بن جبير وعطاء عن ابن عباس: هم الشهداء لأنهم أحياء عند ربّهم لا يصل الفزع إليهم، وفي بعض الآثار: الشهداء ثنية الله. أي الذين استثناهم الله تعالى. وقال الكلبي ومقاتل: يعني جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت، فلا يبقى بعد النفخة إلّا هؤلاء الأربعة ثم يقبض الله روح ميكائيل ثم روح ملك الموت ثم روح جبريل فيكون آخرهم موتاً جبريل. ويُروَى أن الله تعالى يقول لملك الموت: خذ نفسَ إسرافيل ثم يقول مَن بقي يا ملك الموت؟ فيقول سبحانك ربّي تباركت وتعاليت يـا ذا الجلال والإكـرام، بقي جبرائيـل وميكائيل وملك الموت، فيقول: خذ نفس ميكائيل، فيأخذ نفسه فيقع كالطود العظيم، فيقول: مَن بقي؟ فيقول: سبحانك ربي تباركت وتعاليت، بقي جبريل وملك الموت، فيقول: مت يا ملك الموت فيموت، فيقول: يا جبريل مَن بقي؟ فيقول: تباركت وتعاليت يا ذا الجلال والإكرام وجهك الباقي الدائم وجبريل الميت الفاني، قال فيقول: يا جبريل لا بدّ من موتك فيقع ساجداً يخفق بجناحيه فيُروَى أنه فضّل خلقه على خلق ميكائيل كالطود العظيم على ظرب من الظراب. ويُروَى أنه يبقى مع هؤلاء الأربعة حَمَلَة العرش، فيقبض روح جبريل وميكائيل ثم أرواح حَمَلَة العرش ثم روح إسرافيل ثم روح ملك الموت، أخبرنا أبو عبد الله محمد بن الفضل الخرقي أنا أبو الحسن علي بن عبد الله الطيسفوني أنا عبد الله بن علي الجوهري أنا أحمد بن علي الكشمهيني أنا علي بن حجر أنا إسماعيل بن جعفر أنا محمد بن عمرو ثنا علقمة عن أبي سلمة عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «ينفخ في الصور فيصعق مَن في السموات ومَن في الأرض إلّا مَن شاء الله، ثم ينفخ فيه أخرى فأكون أول مَن يرفع رأسه فإذا موسى آخذ

الأرض إلا من شاء الله ثم ينفخ فيه أخرى، فأكون أول من رفع رأسه فإذا موسى آخذ بقائمة من قوائم العرش فلا أدري أكان ممن استثنى الله عز وجل أم رفع رأسه قبلي، ومن قال أنا خير من يونس بن متى فقد كذب» وقيل الذين استثنى الله هم رضوان والحور ومالك والزبانية. وقوله تعالى ﴿وكل﴾ أي وكل الذين أحيوا بعد الموت ﴿أتوه﴾ أي جاؤوه ﴿داخرين﴾ أي صاغرين.

﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾

قوله تعالى ﴿وترى الجبال تحسبها جامدة﴾ أي قائمة واقفة ﴿وهي تمر مر السحاب﴾ أي تسير سير السحاب حتى تقع على الأرض فتستوي بها وذلك أن كل شيء عظيم وكل جسم كبير وكل جمع كثير يقصر عنه البصر لكثرته وعظمه وبعد ما بين أطرافه فهو في حساب الناظر واقف وهو سائر كذلك سير الجبال يوم القيامة لا يرى لعظمها كما أن سير السحاب لا يرى لعظمه ﴿صنع الله الذي أتقن كل شيء﴾ يعني أنه تعالى، لما قدم هذه الأشياء كلها التي لا يقدر عليها غيره جعل ذلك الصنع من الأشياء التي أتقنها وأحكمها وأتى بها على وجه الحكمة والصواب ﴿إنه خبير بما تفعلون﴾. قوله تعالى ﴿من جاء بالحسنة﴾ أي بكلمة الإخلاص ،وهي شهادة أن لا إله إلا الله وقيل الإخلاص في العمل، وقيل الحسنة كل طاعة عملها لله عز وجل ﴿فله خير منها﴾ قال ابن عباس فيها يصل إلى الخير بمعنى أن له من تلك الحسنة خير يوم القيامة وهو الثواب والأمن من العذاب أما من يكون له شيء خير من الإيمان فلا، لأنه لا شيء خير من لا إله إلا الله، وقيل: هو جزاء الأعمال والطاعات الثواب والجنة وجزاء الإيمان والإخلاص رضوان الله والنظر إليه لقوله «ورضوان من الله» وقيل: معنى خير منها الأضعاف أعطاه الله بالواحدة عشر أضعافها، لأن الحسنة استحقاق

بقائمة من قوائم العرش، فلا أدري، أكان مَن استثنى الله عزّ وجلّ أم رفع رأسه قبلي، ومَن قال أنا خير من يونس بن متّى فقد كذب». قال الضحاك: هم رضوان والحور ومالك والزبانية. وقيل: عقارب النار وحيّاتها. قوله عزّ وجلّ: ﴿ وكل ﴾ أي كل الذين أحيوا بعد الموت، ﴿ أتوه ﴾، قرأ الأعمش وحمزة وحفص ﴿ أتوه ﴾ مقصوراً بفتح التاء على الفعل أي جاؤوه، وقرأ الآخرون بالمدّ وضمّ التاء كقوله تعالى: ﴿ وكلهم آتيه يوم القيامة فرداً ﴾ [مريم: ٩٥]، ﴿ داخرين ﴾، صاغرين.

قال الله تعالى: ﴿ وترى الجبال تحسبها جامدة ﴾، قائمة واقفة، ﴿ وهي تمرّ مرّ السحاب ﴾، أي تسير سير السحاب حتى تقع على الأرض، فتستوي بها وذلك إن كل شيء عظيم وكل جمع كثير يقصر عنه البصر لكثرته وبعد ما بين أطرافه فهو في حسبان الناظر واقف وهو سائر كذلك سير الجبال لا يرى يوم القيامة لعظمها كما أن سير السحاب لا يُرَى لعظمه وهو سائر، ﴿ صنع الله ﴾، نصب على المصدر، ﴿ الذي أتقن كل شيء ﴾، يعني أحكم، ﴿ إنه خبير بما تفعلون ﴾، قرأ ابن كثير وأهل البصرة بالياء والباقون بالتاء.

﴿ مَن جاء بالحسنة ﴾، بكلمة الإخلاص وهي شهادة أن لا إله إلاّ الله، قال أبو معشر: كان إبراهيم يحلف

العبد والتضعيف تفضيل الرب تبارك وتعالى ﴿وهم من فزع يومئذٍ آمنون﴾ فإن قلت كيف نفى الفزع هنا وقد قال قبله ففزع من في السموات ومن في الأرض. قلت: إن الفزع الأول هو ما لا يخلو عنه أحد عند الإحساس بشدة تقع وهول يفجأ من رعب وهيبة وإن كان المحسن يأمن وصول ذلك الضرر إليه فأما الفزع الثاني فهو الخوف من العذاب فهم آمنون منه. وأما ما يلحق الإنسان من الرعب عند مشاهدة الأهوال فلا ينفك منه أحد ﴿ومن جاء بالسيئة﴾ يعني بالشرك ﴿فكبت وجوههم في النار﴾ عبر بالوجه عن جميع البدن كأنه قال كبوا وطرحوا جميعهم في النار ﴿هل تجزون إلا ما كنتم تعملون﴾ أي تقول لهم خزنة جهنم «هل تجزون إلا ما كنتم تعملون» في الدنيا من الشرك.

وقوله تعالى ﴿إنما أمرت﴾ يعني يقول الله تعالى لرسوله قل إنما أمرت ﴿أن أعبد رب هذه البلدة﴾ يعني أمرت أن أخص بعبادتي وتوحيدي الله الذي هو رب هذه البلدة يعني مكة، وإنما خصها من بين سائر البلاد بالذكر لأنها مضافة إليه وأحب البلاد وأكرمها عليه، وأشار إليها إشارة تعظيم لأنها موطن نبيه ومهبط وحيه ﴿الذي حرمها﴾ أي جعلها الله حرماً آمناً لا يسفك فيها دم ولا يظلم فيها أحد ولا يصاد صيدها ولا يختلى خلاها ولا يدخلها إلا محرم، وإنما ذكر أنه هو الذي حرمها لأن العرب كانوا معترفين بفضيلة مكة، وأن تحريمها من الله لا من الأصنام ﴿وله كل شيء﴾ أي خلقاً وملكاً ﴿وأمرت أن أكون من المسلمين﴾ لله المطيعين له ﴿وأن أتلو القرآن﴾ أي أمرت أن أتلو القرآن ولقد قام ﷺ بكل ما أمر به أتم قيام على ما أمر به ﴿فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه﴾ أي نفع اهتدائه يرجع إليه ﴿ومن

ولا يستثني أن الحسنة لا إلٓه إلّا الله. وقال قتادة: بالإخلاص. وقيل: هي كل الطاعة، ﴿ فله خير منها ﴾، قال ابن عباس فمنها يصل الخير إليه يعني له من تلك الحسنة خير يوم القيامة، وهو الثواب والأمن من العذاب، إما أن يكون له شيء خير من الإيمان فلا لأنه ليس شيء خيراً من قوله لا إلٓه إلّا الله. وقيل: فله خير منها يعني رضوان الله، قال تعالى: ﴿ ورضوان من الله أكبر ﴾ [التوبة: ٧٢]، وقال محمد بن كعب: قال عبد الرحمن بن زيد: فله خير منها يعني الأضعاف أعطاه الله تعالى بالواحدة عشراً فصاعداً، وهذا حسن لأن للأضعاف خصائص منها أن العبد يسأل عن عمله ولا يسأل عن الأضعاف، ومنها أن للشيطان سبيلاً إلى عمله وليس له سبيل إلى الأضعاف ولا مطمع للخصوم في الأضعاف ولأن الحسنة على استحقاق العبد والتضعيف كما يليق بكرم الرب تبارك وتعالى، ﴿ وهم من فزع يومئذ آمنون ﴾، قرأ أهل الكوفة من فزع بالتنوين يومئذ بفتح الميم، وقرأ الآخرون بالإضافة لأنه أعمّ فإنه يقتضي الأمن من جميع فزع ذلك اليوم، وبالتنوين كأنه فزع دون فزع، ويفتح أهل المدينة الميم من يومئذ.

﴿ ومَن جاء بالسيئة ﴾، يعني الشرك، ﴿ فكُبّتْ وجوههم في النار ﴾، يعني ألقوا على وجوههم، يقال: كَبَبْتُ الرجلَ إذا ألقيتُه على وجهه فانكبّ وأكبّ، وتقول لهم خَزَنَة جهنم: ﴿ هل تجزون إلّا ما كنتم تعملون ﴾، في الدنيا من الشرك.

قوله تعالى: ﴿ إنما أُمرت ﴾، يقول الله لرسوله ﷺ قل إنما أُمرت، ﴿ أن أعبد ربّ هذه البلدة ﴾، يعني مكة، ﴿ الذي حرّمها ﴾، يعني جعلها الله حرماً آمناً لا يسفك فيها دم ولا يظلم فيها أحد ولا يُصاد صيدها ولا يختلى خلاهـا، ﴿ وله كل شيء ﴾، خلقاً وملكاً، ﴿ وأُمرت أن أكون من المسلمين ﴾، لله.

﴿ وأن أتلوا القرآن ﴾، يعني وأُمرت أن أتلو القرآن، ﴿ فمَن اهتدى فإنّما يهتدي لنفسه ﴾، أي نفع اهتدائه يرجع إليه، ﴿ ومَن ضلّ ﴾، عن الإيمان وأخطأ عن طريق الهدى، ﴿ فقلْ إنّما أنا من المنذرين ﴾، من المخوفين فليس عليّ إلّا البلاغ، نسختها آية القتال.

﴿ وقل الحمد لله ﴾، على نعمه، ﴿ سيُريكم آياتِه ﴾، يعني يوم بدر من القتل والسبي وضرب الملائكة

ضل﴾ أي عن الإيمان وأخطأ طريق الهدى ﴿فقل إنما أنا من المنذرين﴾ أي من المخوفين، وما علي إلا البلاغ نسختها آية القتال ﴿وقل الحمد لله﴾ أي على جميع نعمه، وقيل: على ما وفقني من القيام بأداء الرسالة والإنذار ﴿سيريكم آياته﴾ الباهرة ودلائله القاهرة قيل: هو يوم بدر وهو ما أراهم من القتل والسبي وضرب الملائكة وجوههم وأدبارهم وقيل: آياته في السموات والأرض وفي أنفسكم ﴿فتعرفونها﴾ أي فتعرفون الآيات والدلالات ﴿وما ربك بغافل عما تعملون﴾ فيه وعيد بالجزاء على أعمالهم والله سبحانه وتعالى أعلم.

وجوههم وأدبارهم، نظيره قوله عزّ وجلّ: ﴿ سأُريكم آياتي فلا تستعجلون ﴾ [الأنبياء: ٣٧]، وقال مجاهد: سيُريكم آياته في السماء والأرض وفي أنفسكم، كما قال: ﴿ سنُريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم ﴾ [فصّلت: ٥٣]، ﴿ فتعرفونها ﴾، يعني تعرفون الآيات والدلالات، ﴿ وما ربّك بغافل عمّا تعملون ﴾، وعيد لهم بالجزاء على أعمالهم.

تفسير سورة القصص

وهي مكية إلا قوله تعالى ﴿الذين آتيناهم الكتاب﴾ إلى قوله ﴿لا نبتغي الجاهلين﴾ وفيها آية نزلت بين مكة والمدينة وهي قوله ﴿إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد﴾ وهي ثمان وثمانون آية وأربعمائة وإحدى وأربعون كلمة وخمسة آلاف وثمانمائة حرف.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾

قوله عز وجل ﴿طسمٓ تلك﴾ إشارة إلى آيات السورة ﴿آيات الكتاب المبين﴾ قيل هو اللوح المحفوظ وقيل هو الكتاب الذي أنزله على نبيه ﷺ ووصفه بأنه مبين لأنه بين فيه الحلال والحرام والحدود والأحكام.

نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ
أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَن
نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ
فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ
عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾

﴿نتلو عليك من نبأ﴾ أي خبر ﴿موسى وفرعون بالحق﴾ أي بالصدق ﴿لقوم يؤمنون﴾ أي يصدقون بالقرآن ﴿إن فرعون علا﴾ أي تجبر وتكبر ﴿في الأرض﴾ أي أرض مصر ﴿وجعل أهلها شيعاً﴾ أي فرقاً في أنواع الخدمة والتسخير

سُوْرَة القصص

مكية إلاّ قوله عزّ وجلّ: ﴿ الذين آتيناهم الكتاب ﴾ إلى قوله: ﴿ لا نبتغي الجاهلين ﴾ [٥٢ ـ ٥٥] وفيها آية نزلت بين مكة والمدينة، وهي قوله عزّ وجلّ: ﴿ إنّ الذي فرض عليك القرآن لرادّك إلى معاد ﴾ [٨٥]، وهي ثمان وثمانون آية.

﴿ طسم ﴾.

﴿ تلك آيات الكتاب المبين ﴾.

﴿ نتلوا عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق ﴾، بالصدق، ﴿ لقوم يؤمنون ﴾، يصدقون بالقرآن.

﴿ إنّ فرعون علا ﴾، استكبر وتجبّر وتعظّم، ﴿ في الأرض ﴾، أرض مصر، ﴿ وجعل أهلها شيعاً ﴾. فرقاً

﴿يستضعف طائفة منهم﴾ يعني بني إسرائيل ﴿يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم﴾ سمى هذا استضعافاً لأنهم عجزوا وضعفوا عن دفعه عن أنفسهم ﴿إنه كان من المفسدين﴾ أي بالقتل والتجبر في الأرض ﴿ونريد أن نمن﴾ أي ننعم ﴿على الذين استضعفوا في الأرض﴾ يعني بني إسرائيل ﴿ونجعلهم أئمة﴾ أي قادة في الخير يقتدى بهم وقيل ولاة ملوكاً ﴿ونجعلهم الوارثين﴾ يعني أملاك فرعون، وقومه بأن نجعلهم في مساكنهم ﴿ونمكن لهم في الأرض﴾ أي نوطن لهم أرض مصر والشام، ونجعلها لهم سكناً ﴿ونري فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون﴾ أي يخافون وذلك أنهم أخبروا أن هلاكهم على يد رجل من بني إسرائيل وكانوا على حذر منه فأراهم الله ما كانوا يحذرون. قوله تعالى ﴿وأوحينا إلى أم موسى﴾ هو وحي إلهام، وذلك بأن قذف في قلبها واسمها يوحانذ من نسل لاوي بن يعقوب ﴿أن أرضعيه﴾ قيل أرضعته ثمانية أشهر وقيل أربعة وقيل ثلاثة وكانت ترضعه، وهو لا يبكي ولا يتحرك في حجرها ﴿فإذا خفت عليه﴾ أي الذبح ﴿فألقيه في اليم﴾ أي في البحر وأراد نيل مصر ﴿ولا تخافي﴾ أي عليه من الغرق وقيل الضيعة ﴿ولا تحزني﴾ أي على فراقه ﴿إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين﴾ قال ابن عباس إن بني إسرائيل لما كثروا بمصر استطالوا على الناس، وعملوا بالمعاصي ولم يأمروا بالمعروف، ولم ينهوا عن المنكر فسلط الله عليهم القبط فاستضعفوهم إلى أن أنجاهم الله على يد نبيه موسى عليه الصلاة والسلام.

ذكر القصة في ذلك

قال ابن عباس: إن أم موسى لما تقاربت ولادتها، كانت قابلة من القوابل التي وكلهن فرعون بحبالى بني إسرائيل مصافية لأم موسى فلما ضربها الطلق أرسلت إليها، وقالت لها: قد نزل بي ما نزل فلينفعني حبك إياي اليوم،

وأصنافاً في الخدمة والتسخير، ﴿ **يستضعف طائفةً منهم** ﴾، أراد بالطائفة بني إسرائيلِ، ثم فسّر الاستضعاف فقال: ﴿ **يُذبِّح أبناءَهم ويستحيي نساءَهم** ﴾. سمّى هذا استضعافاً لأنهم عجزوا أو ضعفوا عن دفعه عن أنفسهم، ﴿ **إنه كان من المفسدين** ﴾.

﴿ **ونريد أنْ نمنّ على الذين استضعفوا في الأرض** ﴾، يعني بني إسرائيل، ﴿ **ونجعلهم أئمةً** ﴾، قادة في الخير يقتدى بهم. وقال قتادة: لا ملوكاً دليله قوله عزّ وجلّ: ﴿ وجعلكم ملوكاً ﴾ [آل عمران: ٢٠]، وقال مجاهد: دعاة إلى الخير. ﴿ **ونجعلهم الوارثين** ﴾، يعني أملاك فرعون وقومه يخلفونهم في مساكنهم.

﴿ **ونمكّن لهم في الأرض** ﴾، أوطّن لهم في أرض مصر والشام، ونجعلها لهم مكاناً يستقرّون فيه، ﴿ **ونُري فرعون** ﴾، قرأ الأعمش وحمزة والكسائي (يري) بالياء وفتحها، ﴿ **فرعون وهامان وجنودهما** ﴾، مرفوعات على أن الفعل لهم، وقرأ الآخرون بالنون وضمّها وكسر الراء ونصب الياء ونصب ما بعده يوقع الفعل عليه، ﴿ **منهم ما كانوا يحذرون** ﴾، والحذر هو التوقّي من الضرر، وذلك أنهم أخبروا أن هلاكهم على يد رجل من بني إسرائيل فكانوا على وجل منه، فأراهم الله ما كانوا يحذرون.

﴿ **وأوحينا إلى أُمّ موسى** ﴾. وهو وحي إلهام لا وحي نبوّة، قال قتادة: قذفنا في قلبها، وأُم موسى يوحانذ بنت لاوى بن يعقوب، ﴿ **أنْ أرضعيه** ﴾، واختلفوا في مدّة الرضاع، قيل: ثمانية أشهر. وقيل: أربعة أشهر. وقيل: ثلاثة أشهر كانت ترضعه في حُجرها، وهو لا يبكي ولا يتحرك، ﴿ **فإذا خِفْتِ عليه** ﴾، يعني من الذبح، ﴿ **فألقيه في اليمّ** ﴾، واليمّ البحر وأراد ههنا النيل، ﴿ **ولا تخافي** ﴾، قيل: لا تخافي عليه من الغرق، وقيل: من الضيعة، ﴿ **ولا تحزني** ﴾، على فراقه، ﴿ **إنّا رادُّوه إليك وجاعِلوه من المرسلين** ﴾، روى عطاء عن الضحاك عن ابن عباس رضي

فعالجت قبالها فلما وقع موسى بالأرض هالها نور عيني موسى فارتعش كل مفصل فيها، ودخل حب موسى قلبها ثم قالت لها يا هذه ما جئت إليك حين دعوتني إلا مرادي قتل ولدك، ولكن وجدت لولدك حباً ما وجدت حب شيء مثل حبه فاحفظي ابنك، فإني أراه عدونا فلما خرجت القابلة من عندها أبصرها بعض العيون فجاؤوا إلى بابها ليدخلوا إلى أم موسى، فقالت أخته: يا أماه هذا الحرس بالباب فلفته بخرقة وألقته في التنور وهو مسجور، وطاش عقلها فلم تعقل ما تصنع قال فدخلوا فإذا التنور مسجور ورأوا أم موسى ولم يتغير لها لون، ولم يظهر لها لبن فقالوا ما أدخل القابلة قالت هي مصافية لي فدخلت علي زائرة، فخرجوا من عندها فرجع إليها عقلها فقالت لأخته فأين الصبي؟ فقالت: لا أدري فسمعت بكاء الصبي في التنور فانطلقت إليه وقد جعل الله النار عليه برداً وسلاماً فاحتملته، قال: ثم إن أم موسى لما رأت إلحاح فرعون في طلب الولدان خافت على ابنها، فقذف الله في قلبها أن تتخذ تابوتاً له ثم تقذف التابوت في النيل فانطلقت إلى رجل نجار من قوم فرعون، فاشترت منه تابوتاً صغيراً فقال النجار ما تصنعين بهذا التابوت؟ فقالت: ابن لي أخبئه في التابوت، وكرهت الكذب قال ولم تقل أخشى عليه كيد فرعون، فلما اشترت التابوت وحملته، وانطلقت به انطلق النجار إلى الذباحين ليخبرهم بأمر أم موسى فلما هم بالكلام أمسك الله لسانه، فلم يطلق الكلام وجعل يشير بيديه فلم تدر الأمناء ما يقول، فلما أعياهم أمره قال كبيرهم: اضربوه فضربوه وأخرجوه فلما انتهى النجار إلى موضعه رد الله عليه لسانه فتكلم فانطلق أيضاً يريد الأمناء فأتاهم ليخبرهم فأخذ لسانه وبصره فلم يطق الكلام، ولم يبصر شيئاً فضربوه وأخرجوه، وبقي حيران فجعل لله عليه إن رد عليه لسانه وبصره أن لا يدل عليه وأن يكون معه فيحفظه، حيثما كان فعرف الله صدقه فرد عليه لسانه وبصره فخر لله ساجداً فقال يا رب: دلني على هذا العبد الصالح فدله عليه فآمن به وصدقه وقال وهب لما حملت أم موسى بموسى، كتمت أمرها عن جميع الناس فلم

الله عنهما قال: إن بني إسرائيل لمّا كثروا بمصر استطالوا على الناس وعملوا بالمعاصي ولم يأمروا بالمعروف ولم ينهوا عن المنكر فسلّط الله عليهم القبط فاستضعفوهم إلى أن أنجاهم الله على يد نبيّه. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: إن أُم موسى لمّا تقاربت ولادتها وكانت قابِلَة من القوابل التي وكّلهنّ فرعون بحُبالى بني إسرائيل مصافية لأم موسى، فلما ضرب بها الطَّلْق أرسلت إليها فقالت قد نزل بي ما نزل فلينفعني حبّك إيّاي اليوم، قالت فعالجت قبالتها فلما وقع موسى بالأرض هَالَها نورٌ بين عيني موسى. فارتعش كل مِفصَل منها ودخل حبّ موسى قلبها. ثم قالت لها يا هذه ما جئت إليك حين دعوتِني إلاّ ومرادي قتل مولودك، ولكن وجدت لابنك هذا حبّاً ما وجدت حبّ شيء مثل حبّه، فاحفظي ابنك فإني أراه عدوّنا، فلما خرجت القابِلة من عندها أبصرها بعض العيون فجاؤوا إلى بابها ليدخلوا على أم موسى فقالت أُخته يا أُمّاه هذا الحرس بالباب فلفّت موسى في خِرقة فوضعته في التنّور وهو مسجور وطاش عقلها، فلم تعقل ما تصنع، قال فدخلوا فإذا التنّور مسجور ورأوا أُم موسى لم يتغيّر لها لون ولم يظهر لها لبن، فقالوا لها ما أدخلَ عليك القابِلَة؟ قالت: هي مصافية لي فدخلت عليّ زائرة فخرجوا من عندها، فرجع إليها عقلها فقالت لأُخت موسى: فأين الصبي؟ قالت لا أدري، فسمعت بكاء الصبي من التنّور فانطلقت إليه وقد جعل الله سبحانه وتعالى النار عليه برداً وسلاماً، فاحتملته، قال: ثم إن أُم موسى لمّا رأت إلحاح فرعون في طلب الولدان خافت على ابنها، فقذف الله في قلبها أن تتّخذ له تابوتاً فتجعله فيه ثم تقذف التابوت في اليمّ وهو النيل، فانطلقت إلى رجل نجّار من قوم فرعون فاشترت منه تابوتاً صغيراً فقال لها النجّار ما تصنعين بهذا التابوت، قالت: ابن لي أُخبئه في التابوت، وكرهت الكذب، قال ولم تقل أخشى عليه كيد فرعون، فلما اشترت التابوت وحملته وانطلقت به انطلق النجار إلى الذبّاحين ليخبرهم بأمر أُم موسى فلما همّ بالكلام أمسك الله لسانه فلم ينطق الكلام، وجعل يشير بيده فلم يدرِ الأمناء ما يقول، فلما أعياهم أمره قال كبيرهم اضربوه فضربوه وأخرجوه، فلما

يطلع على حملها أحد من خلق الله تعالى، وذلك شيء ستره الله تعالى لما أراد أن يمن به على بني إسرائيل فلما كانت السنة التي ولد فيها، بعث فرعون القوابل وتقدم الأمين ففتش النساء تفتيشاً لم يفتش قبل ذلك مثله، وحملت بموسى ولم يتغير لونها ولم ينب بطنها فكانت القوابل لا تتعرض لها فلما كانت الليلة التي ولد فيها ولدته ولا رقيب عليها ولا قابلة ولم يطلع عليها أحد إلا أخته مريم وأوحى الله إليها **﴿أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه في اليم﴾** فكتمته ثلاثة أشهر فلما خافت عليه عملت تابوتاً، مطبقاً، ثم ألقته في اليم وهو البحر ليلاً.

قال ابن عباس وغيره: كان لفرعون يومئذٍ بنت ولم يكن له ولد غيرها وكانت من أكرم الناس عليه وكان لها كل يوم ثلاث حاجات ترفعها إليه وكان بها برص شديد وكان فرعون قد جمع لها الأطباء والسحرة فنظروا في أمرها فقالوا: أيها الملك لا تبرأ إلا من قبل البحر يوجد فيه شبه الإنسان فيؤخذ من ريقه فيلطخ به برصها فتبرأ من ذلك وذلك في يوم كذا في ساعة كذا حين تشرق الشمس فلما كان ذلك اليوم غدا فرعون إلى مجلس كان له على شفير النيل ومعه امرأته آسية بنت مزاحم وأقبلت بنت فرعون في جواريها حتى جلست على شاطىء البحر مع جواريها تلاعبهن وتنضح الماء على وجوههن إذ أقبل النيل بالتابوت تضربه الأمواج فقال فرعون: إن هذا الشيء في البحر قد تعلق بالشجر ائتوني به فابتدروه بالسفن من كل ناحية حتى وضعوه بين يديه فعالجوا فتح الباب فلم يقدروا عليه وعالجوا كسره فلم يقدروا عليه. فدنت آسية فرأت في جوف التابوت نوراً لم يره غيرها فعالجته ففتحت الباب فإذا هي بصبي صغير في التابوت وإذا نور بين عينيه وقد جعل الله رزقه في إبهامه يمص منه لبناً فألقى الله محبته في قلب آسية وأحبه

انتهى النجّار إلى موضعه ردّ الله عليه لسانه فتكلم، فانطلق أيضاً يريد الأمناء فأتاهم ليخبرهم فأخذ الله لسانه وبصره فلم يطق الكلام ولم يبصر شيئاً، فضربوه وأخرجوه فوقع في وادٍ يهوى فيه حيران، فجعل لله عليه أن ردّ لسانه وبصره أن لا يدلّ عليه وأن يكون معه يحفظه حيث ما كان، فعرف الله منه الصدق فردّ عليه لسانه وبصره فخرّ لله ساجداً، فقال: يا ربّ دلّني على هذا العبد الصالح فدلّه الله عليه فخرّ من الوادي فآمن به وصدّقه، وعلم أن ذلك من الله عزّ وجلّ. وقال وهب بن منبّه: لمّا حملت أم موسى بموسى كتمت أمرها جميع الناس فلم يطّلع على حبلها أحد من خلق الله وذلك شيء ستره الله لما أراد أن يمنّ به على بني إسرائيل، فلما كانت السنة التي يولد فيها بعث فرعون القوابل وتقدّم إليهنّ يفتّشن النساء تفتيشاً لم يُفَتّشن قبل ذلك مثله، وحملت أم موسى فلم ينتأ بطنها ولم يتغير لونها ولم يظهر لبنها، فكانت القوابل لا تتعرض لها فلما كانت الليلة التي ولد فيها ولدته ولا رقيب عليها ولا قابلة، ولم يطّلع عليها أحد إلاّ أُخته مريم، فأوحى الله إليها أن أرضعيه فإذا خفت عليه الآية، فكتمته أُمه ثلاثة أشهر ترضعه في حجرها لا يبكي ولا يتحرك، فلما خافت عليه عملت تابوتاً له مطبقاً ثم ألقته في البحر ليلاً. قال ابن عباس وغيره: وكان لفرعون يومئذ بنت لم يكن له ولد غيرها وكانت من أكرم الناس عليه، وكان لها كل يوم ثلاث حاجات ترفعها إلى فرعون وكان بها برص شديد، وكان فرعون قد جمع لها أطباء مصر والسَّحَرَة فنظروا في أمرها فقالوا أيها الملك لا تبرأ إلاّ من قبل البحر يوجد فيه شبه الإنسان فيؤخذ من ريقه فيُلطّخ به برصها فتبرأ من ذلك، وذلك في يوم كذا وساعة كذا حين تشرق الشمس، فلما كان يوم الاثنين غدا فرعون إلى مجلس كان على شفير النيل ومعه امرأته آسية بنت مزاحم، وأقبلت ابنة فرعون في جواريها حتى جلست على شاطىء النيل مع جواريها تلاعبهنّ وتنضح الماء على وجوههنّ، إذ أقبل النيل بالتابوت تضربه الأمواج فقال فرعون إن هذا الشيء في البحر قد تعلّق بالشجرة إيتوني به، فابتدروه بالسفن من كل جانب حتى وضعوه بين يديه، فعالجوا فتح الباب فلم يقدروا عليه وعالجوا كسره فلم يقدروا عليه، فدنت منه آسية فرأت في جوف التابوت نوراً لم يره غيرها فعالجته ففتحت الباب فإذا هي بصبي صغير في مهده، وإذا نور بين عينيه وقد جعل الله رزقه في إبهامه يمصّه لبناً فألقى الله لموسى

فرعون وعطف عليه. وأقبلت بنت فرعون فلما أخرجوا الصبي من التابوت عمدت إلى ما يسيل من أشداقه من ريقه فلطخت به برصها فبرأت ثم قبلته وضمته إلى صدرها فقالت: الغواة من قوم فرعون أيها الملك إنا نظن أن ذلك المولود الذي تحذر منه من بني إسرائيل هو هذا رمي به في البحر فزعاً منك فهم فرعون بقتله فقالت آسية: قرة عين لي ولك لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أي فنصيب منه خيراً أو نتخذه ولداً وكانت لا تلد فاستوهبت موسى من فرعون فوهبه لها. وقال فرعون: أما أنا فلا حاجة لي فيه قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «لو قال يومئذٍ قرة عين لي كما هو لك لهداه الله كما هداها الله» فقيل لآسية سميه فقالت سميته موسى لأنا وجدناه في الماء والشجر لأن موسى هو الماء وهو الشجر فذلك قوله تعالى:

﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ۖ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ ۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾﴾

﴿فالتقطه آل فرعون﴾ الالتقاط هو وجود الشيء من غير طلب ﴿ليكون لهم عدواً وحزناً﴾ أي عاقبة أمرهم إلى ذلك لأنهم لم يلتقطوه ليكون لهم عدواً وحزناً ﴿إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين﴾ أي آثمين وقيل: هو من الخطأ ومعناه أنهم لم يشعروا أنه الذي يذهب بملكهم ﴿وقالت امرأة فرعون قرة عين لي ولك لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً وهم لا يشعرون﴾ قال وهب لما نظر إليه فرعون قال عبراني من الأعداء فغاظه ذلك وقال كيف أخطأ هذا

المحبة في قلب آسية وأحبّه فرعون وعطف عليه، وأقبلت بنتِ فرعون فلما أخرجوا الصبي من التابوت عمدت بنت فرعون إلى ما كان يسيل من ريقه فلطخت به برصها فبرأت فقبّلته وضمّته إلى صدرها فقال الغواة من قوم فرعون: أيها الملكِ إنّا نظن أن ذلك المولود الذي تحذر منه من بني إسرائيل هو هذا رُمِيَ به في البحر خوفاً منك فاقتله، فهمّ فرعون بقتله، فقالت آسية قرّة عين لي ولك لا تقتله عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً وكانت لا تلد، فاستوهبت موسى من فرعون فوهبه لها، وقال فرعونِ أما أنا فلا حاجة لي فيه، قال رسول الله ﷺ: «لو قال فرعون يومئذ هو قرّة عين لي كما هو لك لهداه الله كما هداها» فقيل لآسية سمّيه فقالت قد سمّيته موسى لأنّا وجدناه في الماء والشجر فمو الماءِ وسى هو الشجر، فذلك قوله عزّ وجلّ.

﴿ فالتقطه آلُ فرعون ﴾، والالتقاط هو وجود الشيء من غير طلب، ﴿ ليكونَ لهم عدوّاً وحَزَناً ﴾، وهذه اللام تسمى لام العاقبة ولام الصيرورة لأنهم لم يلتقطوه ليكون لهم عدوّاً وحزناً ولكن صار عاقبة أمرهم إلى ذلك، قرأ حمزةِ والكسائي ﴿ حزنا ﴾ بضم الحاء وسكون الزاي، وقرأ الآخرون بفتح الحاء والزاي وهما لغتان، ﴿ إنّ فرعون وهامانِ وجنودهما كانوا خاطئين ﴾، عاصين آثمين.

قوله تعالىٰ: ﴿ وقالتِ امرأة فرعون قرّة عين لي ولك ﴾، قال وهب: لمّا وُضِع التابوت بين يدي فرعون فتحوه فوجدوا فيه موسى فلما نظرِ إليه قال عبراني من الأعداء فغاظه ذلك، وقال: كيف أخطأ هذا الغلام الذبح؟ وكان فرعون قد استنكح امرأة من بني إسرائيل فقال لها آسية بنت مزاحم وكانت من خيار النسّاء ومن بنات الأنبياء وكانت أمّاً للمساكين ترحمهم وتتصدّق عليهم وتعطيهم، فقالت لفرعون وهي قاعدة إلى جنبه: هذا الوليد أكبر من

الغلام الذبح وكانت آسية امرأة فرعون من خيار النساء ومن بنات الأنبياء. وكانت أماً للمساكين ترحمهم وتتصدق عليهم فقالت لفرعون وهي قاعدة إلى جنبه هذا الوليد أكبر من ابن سنة وأنت أمرت أن تذبح ولدان هذه السنة فدعه يكون عندي. وقيل: إنها قالت إنه أتانا من أرض أخرى وليس هو من بني إسرائيل فاستحياه فرعون وألقى الله محبته عليه قال ابن عباس لو أن عدو الله قال في موسى كما قالت آسية عسى أن ينفعنا لنفعه الله ولكنه أبى للشقاء الذي كتبه الله عليه قوله تعالى **﴿وأصبح فؤاد أم موسى فارغاً﴾** أي خالياً من كل شيء إلا من ذكر موسى وهمه وقيل معناه ناسياً للوحي الذي أوحى الله عز وجل إليها حين أمرها أن تلقيه في اليم ولا تخاف ولا تحزن والعهد الذي عهد إليها أن يرده إليها ويجعله من المرسلين، فجاءها الشيطان وقال كرهت أن يقتل فرعون ولدك فيكون لك أجره وثوابه وتوليت أنت قتله وألقيته في البحر وأغرقته. ولما أتاها الخبر بأن فرعون أصابه في النيل قالت إنه قد وقع في يد عدوه الذي فررت منه فأنساها عظم البلاء ما كان من عهد الله إليها **﴿إن كادت لتبدي به﴾** أي لتصرح بأنه ابنها من شدة وجلها.

قال ابن عباس كادت تقول وا ابناه وقيل لما رأت التابوت ترفعه موجة وتحطه أخرى خشيت عليه الغرق فكادت تصيح من شدة شفقتها عليه. وقيل كادت تظهر أنه ابنها حين سمعت الناس يقولون موسى ابن فرعون فشق عليها ذلك وكادت تقول هو ابني وقيل كادت تبدي بالوحي الذي أوحى الله إليها **﴿لولا أن ربطنا على قلبها﴾** أي بالعصمة والصبر

ابن سنة وإنما أمرت أن تذبح الولدان لهذه السنة فدعه يكون قرّة عين لي ولك، **﴿ لا تقتلوه ﴾**، ورُوِيَ أنها قالت له إنه أتانا من أرض أُخرى ليس من بني إسرائيل، **﴿ عسى أن ينفعنا أو نتّخذه ولداً وهم لا يشعرون ﴾**، أن هلاكهم على يديه فاستحياه فرعون وألقى الله عليه محبته وقال لامرأته عسى أن ينفعك فأما أنا فلا أُريد نفعه، قال وهب: قال ابن عباس رضي الله عنهما: لو أن عدوّ الله قال في موسى كما قالت آسية عسى أن ينفعنا لنفعه الله ولكنه أبى للشقاء الذي كتبه الله عليه.

وقوله تعالى: **﴿ وأصبح فؤاد أُم موسى فارغاً ﴾**، أي خالياً من كل شيء إلّا من ذكر موسى، وهمّه هذا قول أكثر المفسّرين. وقال الحسن: فارغاً أي ناسياً للوحي الذي أوحى الله إليها حين أمرها أن تلقيه في البحر ولا تخاف ولا تحزن، والعهد الذي عهد أن يردّه إليها ويجعله من المرسلين، فجاءها الشيطان فقال كرهت أن يقتل فرعون ولدك فيكون لك أجره وثوابه وتولّيت أنتِ قتله فألقيته في البحر، وأغرقته، فلما أتاها الخبر بأن فرعون أصابه في النيل قالت: إنه وقع في يد عدوّه الذي فررت مِنه، فأنساها عظم البلاء ما كان من عهد الله إليها. وقال أبو عبيدة: فارغاً أي فارغاً من الحزن لعلمها بصدق وعد الله تعالى وأنكر القتيبي هذا وقال كيف يكون هذا والله تعالى يقول: **﴿ إنْ كادتْ لتُبدي به لولا أن ربطنا على قلبها ﴾**، والأول أصحّ قوله عزّ وجلّ: **﴿ إنْ كادتْ لتبدي به ﴾**، قيل الهاء في به راجعة إلى موسى أي كادت لتبدي به أنه ابنها من شدّة وجدها. وقال عكرمة عن ابن عباس: كادت تقول وابناه. وقال مقاتل: لمّا رأت التابوت يرفعه موج ويضعه آخر خشيت عليه الغرق فكادت تصيح من شفقتها. وقال الكلبي: كادت تُظهِر أنه ابنها وذلك حين سمعت الناس يقولون لموسى بعدما شبّ موسى بن فرعون، فشقّ عليها وكادت تقول بلى هو ابني. وقال بعضهم: الهاء عائدة إلى الوحي أي كادت تُبدي بالوحي الذي أوحى الله إليها أن يردّه إليها، **﴿ لولا أن ربطنا على قلبها ﴾**، بالعصمة والصبر والتثبيت، **﴿ لتكون من المؤمنين ﴾**، المصدّقين لوعد الله حين قال لها: **﴿ إنّا رادّوه إليك ﴾**.

﴿ وقالت لأُخته ﴾، أي لمريم أُخت موسى **﴿ قصّيه ﴾**، اتبعي أثره حتى تعلمي خبره، **﴿ فَبَصُرَتْ به عن جُنُبٍ ﴾**، أي عن بُعد، وفي القصة أنها كانت تمشي جانباً وتنظر اختلاساً تُري أنها لا تنظره، **﴿ وهم لا**

والتثبت ﴿**لتكون من المؤمنين**﴾ أي من المصدقين بوعد الله إياها ﴿**وقالت لأخته**﴾ أي لمريم أخت موسى ﴿**قصيه**﴾ أي اتبعي أثره حتى تعطي خبره ﴿**فبصرت به عن جنب**﴾ أي عن بعد قيل كانت تمشي جانباً وتنظره اختلاساً ترى أنها لا تنظره ﴿**وهم لا يشعرون**﴾ أنها أخته وأنها ترقبه ﴿**وحرمنا عليه المراضع**﴾ المراد به المنع قيل مكث موسى ثمان ليال لا يقبل ثدياً قال ابن عباس إن امرأة فرعون كان همها من الدنيا أن تجد من ترضعه كلما أتوا بمرضعة لم يأخذ ثديها وهم في طلب من يرضعه لهم ﴿**من قبل**﴾ أي قبل مجيء أم موسى وذلك لما رأته أخت موسى التي أرسلتها أمه في طلب ذلك ﴿**فقالت**﴾ يعني أخت موسى ﴿**هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم**﴾ أي يضمونه ويرضعونه وهي امرأة قتل ولدها فأحب ما تدعى إليه أن تجد صغيراً ترضعه ﴿**وهم له ناصحون**﴾ أي لا يمنعونه ما ينفعه من تربيته وغذائه والنصح إخلاص العمل من شوائب الفساد. قيل لما قالت: وهم له ناصحون قالوا: إنك قد عرفت هذا الغلام فدلينا على أهله قالت ما أعرفه ولكن قلت وهم للملك ناصحون وقيل: إنها قالت إنما قلت ذلك رغبة في سرور الملك واتصالنا به. وقيل قالوا من هم قالت أمي قالوا ولأمك ولد قالت نعم هارون وكان هارون ولد في السنة التي لا يقتل فيها قالوا صدقت فأتينا بها فانطلقت إليها وأخبرتها بحال ابنها وجاءت بها إليهم فلما وجد الصبي ريح أمه قبل ثديها وجعل يمصه حتى امتلأ جنباه رياً قيل كانوا يعطونها كل يوم ديناراً فذلك قوله تعالى:

فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا
يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ
غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى
مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى
فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾

يشعرون ﴾، أنها أُخته وأنها ترقبه، قال ابن عباس: إن امرأة فرعون كل همّها من الدنيا أن تجد له مُرضِعة وكلما أتوا بمُرضِعة لم يأخذ ثديها، فذلك قوله عزّ وجلّ:

﴿ **وحرّمنا عليه المراضع** ﴾، والمراد من التحريم المنع والمراضع جمع المُرضِع. ﴿ **من قبل** ﴾، أي من قبل مجيء أُم موسى فلما رأت أُخت موسى التي أرسلتها أُمه في طلبه ذلك قالت لهم هل أدلّكم؟ وفي القصة أن موسى مكث ثمان ليالٍ لا يقبل ثدياً ويصيح وهم في طلب مُرضِعة له، ﴿ **فقالت** ﴾، يعني أُخت موسى، ﴿ **هل أدلكم على أهل بيتٍ يكفلونه** ﴾، أي يضمونه ﴿ **لكم** ﴾، ويرضعونه، وهي امرأة قد قتل ولدها فأحبّ شيء إليها أن تجد صغيراً ترضعه، ﴿ **وهم له ناصحون** ﴾، والنصح ضدّ الغشّ وهو تصفية العمل من شوائب الفساد، قالوا: نعم فأتينا بها، قال ابن جريج والسدي: لمّا قالت أُخت موسى وهم له ناصحون أخذوها وقالوا إنك قد عرفت هذا الغلام فدلّينا على أهله فقالت ما أعرفه، وقلت هم للملك ناصحون. وقيل: إنها قالت إنما قلت هذا رغبة في سرور الملك واتصالنا به، وقيل إنها لمّا قالت هل أدلّكم على أهل بيت قالوا لها مَن؟ قالت: أُمي، قالوا: ولأمك ابن؟ قالت: نعم هارون، وكان هارون وُلد في سنة لا يُقتَل فيها الولدان، قالوا صدقت فأتينا بها فانطلقت إلى أُمها وأخبرتها بحال ابنها وجاءت بها إليهم، فلما وجد الصبي ريح أُمه قبل ثديها وجعل يمصّه حتى امتلأ جنباه ريّاً. قال السدي: كانوا يعطونها كل يوم دينار فذلك قوله تعالى:

﴿فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾﴾

﴿فرددناه إلى أمه كي تقر عينها﴾ أي برد موسى إليها **﴿ولا تحزن﴾** أي لئلا تحزن **﴿ولتعلم أن وعد الله حق﴾** أي برده إليها **﴿ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾** أن الله وعدها أن يرده إليها **﴿ولما بلغ أشده﴾** قيل الأشد ما بين ثمانية عشر إلى ثلاثين سنة وقيل الأشد ثلاث وثلاثون سنة **﴿واستوى﴾** أي بلغ أربعين سنة قاله ابن عباس: وقيل انتهى شبابه وتكامل **﴿آتيناه حكماً وعلماً﴾** أي عقلاً وفهماً في الدين فعلم وحكم موسى قبل أن يبعث نبياً **﴿وكذلك نجزي المحسنين﴾** قوله تعالى **﴿ودخل المدينة﴾** يعني موسى والمدينة قيل هي منف من أعمال مصر وقيل هي قرية يقال لها حابين على رأس فرسخين من مصر وقيل هي مدينة شمس **﴿على حين غفلة من أهلها﴾** قيل هي نصف النهار واشتغال الناس بالقيلولة وقيل دخلها ما بين المغرب والعشاء وقيل سبب دخول المدينة في ذلك الوقت أن موسى كان يسمى ابن فرعون وكان يركب في مراكب فرعون ويلبس لباسه فركب فرعون يوماً وكان موسى غائباً فلما جاء قيل له إن فرعون قد ركب فركب موسى في أثره فأدركه المقيل بأرض منف فدخلها وليس في أطرافها أحد. وقيل كان لموسى شيعة من بني إسرائيل يسمعون منه ويقتدون به فلما عرف ما هو عليه من الحق رأى فراق فرعون وقومه فخالفهم في دينه حتى أنكروا ذلك منه وخافوه وخافهم فكان لا يدخل قرية إلا خائفاً مستخفياً على حين غفلة من أهلها.

وقيل لما ضرب موسى فرعون بالعصا في صغره فأراد فرعون قتله قالت امرأته هو صغير فتركه وأمر بإخراجه من مدينته فأخرج منها فلم يدخل عليهم حتى كبر وبلغ أشده فدخل على حين غفلة من أهلها يعني عن ذكر موسى ونسيانهم خبره لبعد عهدهم به. وعن علي أنه كان يوم عيد لهم قد اشتغلوا بلهوهم ولعبهم **﴿فوجد فيها رجلين**

﴿ فرددناه إلى أُمه كي تقرَّ عينُها ﴾، بردِّ موسى إليها، **﴿ ولا تحزن ﴾**، أي لئلا تحزن، **﴿ ولتعلم أن وعد الله حق ﴾**، بردِّه إليها، **﴿ ولكنَّ أكثرهم لا يعلمون ﴾**، أن الله وعدها ردَّه إليها.

﴿ ولما بلغ أشدَّه ﴾، قال الكلبي: الأشدّ ما بين ثماني عشرة سنة إلى ثلاثين سنة. وقال مجاهد وغيره: ثلاث وثلاثون سنة، **﴿ واستوى ﴾**، أي بلغ أربعين سنة، وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس، وقيل: استوى انتهى شبابه **﴿ آتيناه حكماً وعلماً ﴾**، أي الفقه والعقل والعلم في الدين، فعلم موسى وحكم قبل أن يُبعَث نبيّاً، **﴿ وكذلك نجزي المُحسنين ﴾**.

قوله تعالى: **﴿ ودخل المدينة ﴾**، يعني دخل موسى المدينة، قال السدي: هي مدينة منف من أرض مصر. وقال مقاتل: كانت قرية يقال لها حابين على رأس فرسخين من مصر. وقيل: مدينة عين الشمس، **﴿ على حين غفلة من أهلها ﴾**، وهو وقت القائلة واشتغال الناس بالقيلولة. وقال محمد بن كعب القرظي: دخلها فيما بين المغرب والعشاء. واختلفوا في السبب الذي من أجله دخل المدينة في هذا الوقت. قال السدي: وذلك أن موسى كان يُسمى ابن فرعون، فكان يركب مراكب فرعون ويلبس مثل ملابسه فركب فرعون يوماً وليس عنده موسى، فلما جاء موسى قيل له إن فرعون قد ركب فركب في أثره فأدركه المقبل بأرض منف فدخلها نصف النهار وليس في طرفها أحد، فذلك قوله عزّ وجلّ: **﴿ ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها ﴾**، قال محمد بن إسحاق كان لموسى شيعة من بني إسرائيل يستمعون منه ويقتدون به فلما عرف ما هو عليه من الحق رأى فراق فرعون وقومه فخالفهم في دينهم حتى ذكر ذلك منه وخافوه وخافهم، فكان لا يدخل قرية إلّا خائفاً مستخفياً فدخلها يوماً على حين غفلة من أهلها. وقال ابن زيد: لمّا علا موسى فرعون بالعصا في صغره فأراد فرعون قتله قالت امرأته هو صغير فترك قتله وأمر بإخراجه من مدينته، فلما كبر وبلغ أشدّه فدخل المدينة على حين غفلة من أهلها، يعني عن ذكر أمر موسى من بعد نسيانهم

يقتتلان﴾ أي يتخاصمان ويتنازعان ﴿هذا من شيعته﴾ أي من بني إسرائيل ﴿وهذا من عدوه﴾ يعني من القبط وقيل هذا مؤمن وهذا كافر وقيل الذي كان من الشيعة هو السامري والذي من عدوه هو طباخ فرعون واسمه فاتون وكان القبطي يريد أن يأخذ الإسرائيلي يحمله الحطب. وقال ابن عباس: لما بلغ موسى أشده لم يكن أحد من آل فرعون يخلص إلى أحد من بني إسرائيل بظلم حتى امتنعوا كل الامتناع وكان بنو إسرائيل قد عزوا بمكان موسى لأنهم كانوا يعلمون أنه منهم فوجد موسى رجلين يقتتلان أحدهما من بني إسرائيل والآخر من القبط ﴿فاستغاثه الذي من شيعته﴾ يعني الإسرائيلي ﴿على الذي من عدوه﴾ يعني الفرعوني والاستغاثة طلب الغوث والمعنى أنه سأله أن يخلصه منه وأن ينصره عليه فغضب موسى واشتد غضبه لأنه أخذه وهو يعلم منزلة موسى من بني إسرائيل وحفظه لهم ولا يعلم الناس إلا أنه من قبل الرضاعة فقال موسى للفرعوني: خلِّ سبيله فقال: إنما أخذته ليحمل الحطب إلى مطبخ أبيك فنازعه فقال الفرعوني لقد هممت أن أحمله عليك وكان موسى قد أوتي بسطة في الخلق وشدة في القوة ﴿فوكزه موسى﴾ يعني ضربه بجميع كفه وقيل الوكز الضرب في الصدر وقيل الوكز الدفع بأطراف الأصابع ﴿فقضى عليه﴾ يعني قتله وفرغ من أمره فندم موسى عليه ولم يكن قصد القتل فدفنه في الرمل ﴿قال هذا من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين﴾ يعني بين الضلالة وقيل في قوله هذا إشارة إلى عمل المقتول لا إلى عمل نفسه، والمعنى أن عمل هذا المقتول من عمل الشيطان والمراد منه بيان كونه مخالفاً لله سبحانه وتعالى مستحقاً للقتل وقيل هذا إشارة إلى المقتول يعني أنه من جند الشيطان وحزبه ﴿قال رب إني ظلمت نفسي﴾ يعني بقتل القبطي من غير أمر وقيل هو على سبيل الاتضاع لله تعالى

خبره وأمره لبُعد عهدهم، ورُوِيَ عن علي في قوله: ﴿ حين غفلة ﴾ فإنه كان يوم عيد لهم قد اشتغلوا بلهوهم ولعبهم، ﴿ فوجد فيها رجلين يقتتلان ﴾، يختصمان ويتنازعان، ﴿ هذا من شيعته ﴾، من بني إسرائيل ﴿ وهذا من عدوّه ﴾، من القبط، قيل: الذي كان من شيعته السامري والذي من عدوّه من القبط، قيل: طبّاخ فرعون اسمه فاتون. وقيل: هذا من شيعته وهذا من عدوّه أي هذا مؤمن وهذا كافر، وكان القبطي يسخّر الإسرائيلي ليحمل الحطب إلى المطبخ، قال سعيد بن جبير عن ابن عباس: لمّا بلغ موسى أشدّه لم يكن أحد من آل فرعون يخلص إلى أحد من بني إسرائيل بظلم حتى امتنعوا كل الامتناع، وكان بنو إسرائيل قد عزّوا بمكان موسى لأنهم كانوا يعلمون أنه منهم، فوجد موسى رجلان يقتتلان أحدهما من بني إسرائيل والآخر من آل فرعون، ﴿ فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوّه ﴾، فاستغاثه الإسرائيلي على الفرعوني، والاستغاثة طلب الغوث فغضب موسى واشتدّ غضبه لأنه تناوله وهو يعلم منزلة موسى من بني إسرائيل وحفظه لهم، ولا يعلم الناس إلاّ أنه من قِبَل الرضاعة من أُم موسى، فقال للفرعوني خلِّ سبيله، فقال إنما أخذته ليحمل الحطب إلى مطبخ أبيك فنازعه، فقال الفرعوني: لقد هممت أن أحمله عليك، وكان موسى قد أُتي بسطة في الخلق وشدّة في القوة والبطش، ﴿ فوكزه موسى ﴾، وقرأ ابن مسعود (فلكزه موسى)، ومعناهما واحد وهو الضرب بجميع الكفّ، وقيل: الوكز الضرب في الصدر واللكز في الظهر. وقال الفرّاء: معناهما واحد وهو الدفع، قال أبو عبيدة: الوكز الدفع بأطراف الأصابع، وفي بعض التفاسير: عقد موسى ثلاثاً وثمانين وضربه في صدره، ﴿ فقضى عليه ﴾، أي فقتله وفرغ من أمره، وكل شيء فرغت منه فقد قضيته وقضيت عليه، فندم موسى عليه ولم يكن قصدُه القتل فدفنه في الرمل، ﴿ قال هذا من عمل الشيطان إنه عدوٌّ مُضِلٌّ مبين ﴾، أي بيّن الضلالة.

﴿ قال ربِّ إني ظلمت نفسي ﴾، بقتل القبطي من غير أمر، ﴿ فاغفرْ لي فغفر له إنه هو الغفور الرحيم ﴾.

﴿ قال ربِّ بما أنعمت عليّ ﴾، بالمغفرة، ﴿ فلن أكونَ ظهيراً ﴾، عوناً، ﴿ للمجرمين ﴾، قال ابن عباس: للكافرين وهذا يدلّ على أن الإسرائيلي الذي أعانه موسى كان كافراً، وهو قول مقاتل، قال قتادة: لن أُعين بعدها

والاعتراف بالتقصير عن القيام بحقوقه وإن لم يكن هناك ذنب. وقوله ﴿فاغفر لي﴾ يعني ترك هذا المندوب وقيل يحتمل أن يكون المراد «رب إني ظلمت نفسي» حيث فعل هذا فإن فرعون إذا عرف ذلك قتلني به فقال أي فاستره علي ولا توصل خبره إلى فرعون ﴿فغفر له﴾ أي فستره عن الوصول إلى فرعون ﴿إنه هو الغفور الرحيم قال رب بما﴾ أي بالمغفرة والستر الذي ﴿أنعمت عليّ فلن أكون ظهيراً للمجرمين﴾ معناه فأنا لا أكون معاوناً لأحد من المجرمين قال ابن عباس الكافرين وفيه دليل على أن الإسرائيلي الذي أعانه موسى كان كافراً.

قال ابن عباس لم يستثن فابتلي في اليوم الثاني أي لم يقل فلم أكن إن شاء الله ظهيراً للمجرمين ﴿فأصبح في المدينة﴾ أي التي قتل فيها القبطي ﴿خائفاً يترقب﴾ أي ينتظر سوءاً والترقب انتظار المكروه وقيل ينتظر متى يؤخذ به ﴿فإذا الذي استنصره بالأمس يستصرخه﴾ أي يستغيث به من بعد. قال ابن عباس: أتي فرعون فقيل له إن بني إسرائيل قتلوا منا رجلاً فخذ لنا بحقنا فقال اطلبوا قاتله ومن يشهد عليه فبينما هم يطوفون لا يجدون بينة إذ مر موسى من الغد فرأى ذلك الإسرائيلي يقاتل فرعونياً فاستغاثه على الفرعوني وكان موسى قد ندم على ما كان منه بالأمس من قتل القبطي ﴿قال له موسى﴾ للإسرائيلي ﴿إنك لغوي مبين﴾ أي ظاهر الغواية قاتلت رجلاً بالأمس فقتلته بسببك وتقاتل اليوم آخر وتستغيثني عليه.

﴿فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ۖ قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ ۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾

﴿فلما أن أراد أن يبطش بالذي هو عدو لهما﴾ وذلك أن موسى أخذته الغيرة والرقة للإسرائيلي فمد يده ليبطش

على خطيئة، قال ابن عباس: لم يستثن فابتلي به في اليوم الثاني.

﴿ فأصبح في المدينة ﴾، أي في المدينة التي قتل فيها القبطي ﴿ خائفاً ﴾، من قتله القبطي، ﴿ يترقب ﴾، ينتظر سوأً، والترقّب انتظار المكروه، قال الكلبي: ينتظر متى يؤخذ به، ﴿ فإذا الذي استنصره بالأمس يستصرخه ﴾، يستغيثه ويصيح به من بُعْدٍ. قال ابن عباس: أتى فرعون فقيل له إن بني إسرائيل قتلوا منّا رجلاً فخذ لنا بحقّنا، فقال ابغوا لي قاتله ومَن يشهد عليه فلا يستقيم أن يُقضى بغير بيّنة، فبينما هم يطوفون لا يجدون بيّنة إذ مرّ موسى من الغد فرأى ذلك الإسرائيلي يقاتل فرعونياً فاستغاثه على الفرعوني فصادف موسى، وقد ندم على ما كان منه بالأمس من قتل القبطي، ﴿ قال له موسى ﴾، للإسرائيلي، ﴿ إنك لغويٌّ مبين ﴾، ظاهر الغواية قاتلت بالأمس رجلاً فقتلته بسببك، وتقاتل اليوم آخر وتستغيثني عليه، وقيل: إنما قال موسى للفرعوني إنك لغويٌّ مبين بظلمك، والأول أصوب وعليه الأكثرون أنه قال ذلك للإسرائيلي.

﴿ فلما أن أرادَ أن يبطش بالذي هو عدوٌّ لهما ﴾، وذلك أن موسى أدركته الرقّة بالإسرائيلي فمدّ يده ليبطش

بالقبطي فظن الإسرائيلي أنه يريد أن يبطش به لما رأى من غضب موسى وسمع قوله إنك لغوي مبين ﴿**قال يا موسى أتريد أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس**﴾ معناه أنه لم يكن علم أحد من قوم فرعون أن موسى هو الذي قتل القبطي حتى أفشى عليه الإسرائيلي ذلك فسمعه القبطي فأتى فرعون فأخبره بذلك ﴿**إن تريد إلا أن تكون جباراً في الأرض**﴾ أي بالقتل ظلماً وقيل الجبار هو الذي يقتل ويضرب ولا ينظر في العواقب وقيل هو الذي يتعاظم ولا يتواضع لأمر الله تعالى ﴿**وما تريد أن تكون من المصلحين**﴾ ولما فشا أن موسى قتل القبطي أمر فرعون بقتله فخرجوا في طلبه وسمع بذلك رجل من شيعة موسى يقال إنه مؤمن آل فرعون واسمه حزقيل وقيل شمعون وقيل سمعان وهو قوله تعالى ﴿**وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى**﴾ أي يسرع في مشيه وأخذ طريقاً قريباً حتى سبق إلى موسى وأخبره وأنذره بما سمع ﴿**قال يا موسى إن الملأ يأتمرون بك**﴾ يعني يتشاورون فيك ﴿**ليقتلوك**﴾ وقيل يأمر بعضهم بعضاً بقتلك ﴿**فاخرج**﴾ يعني من المدينة ﴿**إني لك من الناصحين**﴾ يعني في الأمر بالخروج ﴿**فخرج منها**﴾ يعني موسى ﴿**خائفاً**﴾ على نفسه من آل فرعون ﴿**يترقب**﴾ يعني ينتظر الطلب هل يلحقه فيأخذه ثم لجأ إلى الله تعالى لعلمه أنه لا ملجأ إلا إليه ﴿**قال رب نجني من القوم الظالمين**﴾ يعني الكافرين.

بالفرعوني فظن الإسرائيلي أنه يريد أن يبطش به لما رأى من غضبه وسمع قوله إنك لغويٌّ مبين، ﴿ **قال يا موسى أتريد أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس إنْ تريد** ﴾، ما تريد، ﴿ **إلّا أن تكون جبّاراً في الأرض** ﴾، بالقتل ظلماً، ﴿ **وما تريد أن تكون من المصلحين** ﴾، فلما سمع القبطي ما قال الإسرائيلي علم أن موسى هو الذي قتل ذلك الفرعوني فانطلق إلى فرعون وأخبره بذلك، وأمر فرعون بقتل موسى. قال ابن عباس: فلما أرسل فرعون الذبّاحين لقتل موسى أخذوا الطريق الأعظم.

﴿ **وجاء رجل** ﴾، من شيعة موسى، ﴿ **من أقصى المدينة** ﴾، أي من آخرها، قال أكثر أهل التأويل: اسمه حزقيل مؤمن من آل فرعون، وقيل: اسمه شمعون، وقيل: سمعان، ﴿ **يسعى** ﴾، أي يسرع في مشيه فأخذ طريقاً قريباً حتى سبق إلى موسى فأخبـره وأنذره حتى أخذ طريقاً آخر، ﴿ **قال يا موسى إنّ الملأ يأتمرون بك** ﴾، يعني أشراف قوم فرعون يتشاورون فيك، ﴿ **ليقتلوك** ﴾، قال الزجّاج: يأمر بعضهم بعضاً بقتلك، ﴿ **فاخرجْ** ﴾، من المدينة، ﴿ **إني لك من الناصحين** ﴾، في الأمر لك بالخروج.

﴿ **فخرج منها** ﴾، موسى، ﴿ **خائفاً يترقّبُ** ﴾، أي ينتظر الطلب، ﴿ **قال ربِّ نجِّني من القوم الظالمين** ﴾، الكافرين، وفي القصة أن فرعون بعث في طلبه حين أُخبر بهربِهِ فقال اركبوا بنيات الطريق فإنه لا يعرف كيف الطريق.

﴿ **ولما توجّه تلقاء مَدْيَن** ﴾، أي قصد نحوها ماضياً يقال داره تلقاء دار فلان إذا كانت محاذيتها، وأصله من اللقاء، قال الزجّاج يعني سلك الطريق التي يلقى مدين فيها، ومدين هو مدين بن إبراهيم سُمّيت البلدة باسمه، وكان موسى قد خرج خائفاً بلا ظهر ولا حذاء ولا زاد، وكانت مدين على مسير ثمانية أيام من مصر، ﴿ **قال عسى ربّي أن يهديني سواء السبيل** ﴾، أي قصد الطريق إلى مدين، قال ذلك لأنه لم يكن يعرف الطريق إليها، قيل: فلما دعا جاء ملك بيده عنزة فانطلق به إلى مدين. قال المفسّرون: خرج موسى من مصر ولم يكن له طعام إلّا ورق الشجر والبقل حتى أنه يرى خضرته في بطنه وما وصل إلى مدين حتى وقع خفّ قدميه. قال ابن عباس: وهو أول ابتلاء من الله عزّ وجلّ لموسى عليه الصلاة والسلام.

﴿ **ولما ورد ماء مدين** ﴾، وهو بئر كانوا يسقون منها مواشيهم، ﴿ **وجد عليه أُمّةً** ﴾، جماعة، ﴿ **من الناس**

قوله تعالى ﴿ولما توجه تلقاء مدين﴾ يعني قصد نحوها ماضياً قيل إنه وقع في نفسه أن بينهم وبينه قرابة لأن أهل مدين من ولد إبراهيم وموسى من ولد إبراهيم ومدين هو مدين بن إبراهيم سميت البلد باسمه وبين مدين ومصر مسيرة ثمانية أيام، قيل خرج موسى خائفاً بلا ظهر ولا زاد ولا أحد ولم يكن له طعام إلا ورق الشجر ونبات الأرض حتى رأى خضرته في بطنه وما وصل إلى مدين حتى وقع خف قدميه قال ابن عباس وهو أول ابتلاء من الله لموسى ﴿قال﴾ يعني موسى ﴿عسى ربي أن يهديني سواء السبيل﴾ يعني قصد الطريق إلى مدين وذلك أنه لم يكن يعرف الطريق إليها قيل لما دعا موسى جاءه ملك بيده عنزة فانطلق به إلى مدين. قوله عز وجل ﴿ولما ورد ماء مدين﴾ هو بئر كانوا يسقون منها مواشيهم ﴿وجد عليه﴾ يعني على الماء ﴿أمة﴾ يعني جماعة﴿من الناس يسقون﴾ يعني مواشيهم ﴿ووجد من دونهم﴾ يعني سوى الجماعة وقيل بعيداً من الجماعة ﴿امرأتين تذودان﴾ أي تحبسان وتمنعان أغنامهما عن أن تند وتذهب والقول الأول أولى لما بعده وهو قوله ﴿قال﴾ يعني موسى للمرأتين ﴿ما خطبكما﴾ أي ما شأنكما لا تسقيان مواشيكما مع الناس ﴿قالتا لا نسقي﴾ يعني أغنامنا ﴿حتى يصدر الرعاء﴾ أي حتى يرجع الرعاء من الماء والمعنى أنا امرأتان لا نستطيع أن نزاحم الرجال فإذا صدروا سقينا نحن مواشينا من فضل ما بقي منهم في الحوض ﴿وأبونا شيخ كبير﴾ أي لا يقدر أن يسقي مواشيه فلذلك احتجنا نحن إلى سقي الغنم، قيل أبوهما هو شعيب عليه الصلاة والسلام. وقيل هو بيرون ابن أخي شعيب وكان شعيب قد مات بعدما كف بصره وقيل هو رجل ممن آمن بشعيب فلما سمع موسى كلامهما رق لهما ورحمهما فاقتلع صخرة من على رأس بئر أخرى كانت بقربهما لا يطيق رفعها إلا جماعة من الناس. وقيل زاحم القوم ونحاهم كلهم عن البئر وسقى لهما الغنم وقيل لما فرغ الرعاء من السقي غطوا رأس البئر بحجر لا يرفعه إلا عشرة نفر فجاء موسى فرفع الحجر ونزع دلواً واحداً فيه بالبركة وسقى الغنم فرويت فذلك قوله تعالى

يسقون ﴾، مواشيهم، **﴿ ووجد من دونهم ﴾**، يعني سوى الجماعة، **﴿ امرأتين تذودان ﴾**، يعني تحبسان وتمنعان أغنامهما عن الماء حتى يفرغ الناس وتخلو لهما البئر، قال الحسن: تكفّان الغنم عن أن تختلط بأغنام الناس، وقال قتادة: تكفّان الناس عن أغنامهما. وقيل: تمنعان أغنامهما عن أن تشذّ وتذهب. والقول الأول أصوبهما لما بعده وهو قوله: **﴿ قال ﴾**، يعني موسى للمرأتين، **﴿ ما خطبكما ﴾، ما شأنكما** لا تسقيان مواشيكما مع الناس، **﴿ قالتا لا نسقي ﴾**، أغنامنا، **﴿ حتى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ ﴾**، قرأ أبو جعفر وأبو عمرو وابن عامر **﴿يصدر﴾** بفتح الياء وضم الدال على اللزوم، أي حتى يرجع الرعاء عن الماء، وقرأ الآخرون بضم الياء وكسر الدال أي حتى يصرفوا هم مواشيهم عن الماء، والرعاء جمع راعٍ مثل تاجر وتجّار، ومعنى الآية: لا نسقي مواشينا حتى يصدر الرعاء لأنّا امرأتان لا نطيق أن نستسقي ولا نستطيع أن نزاحم الرجال، فإذا صدروا سقينا مواشينا ما أفضلت مواشيهم في الحوض، **﴿ وأبونا شيخ كبير ﴾**، لا يقدر أن يسقي مواشيه، فلذلك احتجنا نحن إلى سقي الغنم. واختلفوا في اسم أبيهما، فقال مجاهد والضحاك والسدي والحسن: شعيب النبي عليه السلام. وقال وهب بن منبّه وسعيد بن جبير: هو بيرون بن أخي شعيب، وكان شعيب قد مات قبل ذلك بعدما كُفَّ بصره، فدفن بين المقام وزمزم، وقيل: رجل ممّن آمن بشعيب، قالوا فلما سمع موسى قولهما رحمهما فاقتلع صخرة من رأس بئر أخرى كانت بقربهما لا يطيق رفعها إلّا جماعة من الناس. وقال ابن إسحاق: إن موسى زاحم القوم ونحّاهم عن رأس البئر فسقى غنم المرأتين. ويُروى: أن القوم لمّا رجعوا بأغنامهم غطّوا رأس البئر بحجر لا يرفعه إلّا عشرة نفر فجاء موسى ورفع الحجر وحده وسقى غنم المرأتين. ويقال: إنه نزع ذنوباً واحداً ودعا فيه بالبركة فروَى منه جميع الغنم، فذلك قوله:

﴿ فسقى لهما ثم تولّى إلى الظلّ ﴾، ظلّ شجرة فجلس في ظلّها من شدّة الحرّ وهو جائع، **﴿ فقال ربِّ إنِّي لِمَا أنزلتَ إليّ من خير ﴾** من طعام، **﴿ فقير ﴾**، قال أهل اللغة اللام بمعنى إلى يقال هو فقير له وفقير إليه يقول إني

﴿**فسقى لهما ثم تولى إلى الظل**﴾ يعني عدل إلي رأس الشجرة فجلس في ظلها من شدة الحر وهو جائع ﴿**فقال رب لما أنزلت إلي من خير فقير**﴾ معناه أنه طلب الطعام لجوعه واحتياجه إليه.

قال ابن عباس: إن موسى سأل الله فلقة خبز يقيم بها صلبة وعن ابن عباس قال: لقد قال موسى: «رب إني لما أنزلت إلي من خير فقير» وهو أكرم خلقه عليه ولقد افتقر إلى شق تمرة وقيل ما سأل إلا الخبز فلما رجعتا إلى أبيهما سريعاً قبل الناس وأغنامهما حفل بطان قال لهما ما أعجلكما؟ قالتا وجدنا رجلاً صالحاً رحمنا فسقى لنا أغنامنا فقال لإحداهما اذهبي فادعيه إلي قال الله تعالى:

﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ ۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ۚ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ ۖ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَىَّ ۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾﴾

﴿**فجاءته إحداهما تمشي على استحياء**﴾ قيل هي الكبرى واسمها صفوراء وقيل صفراء وقيل بل هي الصغرى واسمها ليا وقيل صفيراء وقال عمر بن الخطاب ليست بسلفع من النساء خراجة ولاجة ولكن جاءت مستترة قد وضعت كم درعها على وجهها استحياء وقيل استحيت منه لأنها دعته لتكافئه وقيل لأنها رسول أبيها ﴿**قالت إن أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا**﴾ قيل لما سمع موسى ذلك كره أن يذهب معها ولكن كان جائعاً فلم يجد بدأ من الذهاب فمشت المرأة ومشى موسى خلفها فكانت الريح تضرب ثوبها فتصف ردفها فكره موسى أن يرى ذلك منها فقال لها

لما أنزلت إليّ من خير أي طعام فقير محتاج، كان يطلب الطعام لجوعه. قال ابن عباس: سأل الله تعالى فلقة خبز يُقيم بها صلبه. قال محمد الباقر: لقد قالها وإنه لمحتاج إلى شقّ تمرة. وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس: لقد قال موسى: ﴿ **ربِّ إني لِما أنزلتَ إليّ من خير فقير** ﴾ وهو أكرم خلقه عليه، ولقد افتقر إلى شقّ تمرة. وقال مجاهد: ما سأله إلاّ الخبز، قالوا فلما رجعتا إلى أبيهما سريعاً قبل الناس وأغنامهما حفل بطان قال لهما: ما أعجلكما قالتا وجدنا رجلاً صالحاً رحمنا فسقى لنا أغنامنا، فقال لإحداهما اذهبي فادعيه لي.

قال الله تعالى: ﴿ **فجاءتْهُ إحداهما تمشي على استحياء** ﴾، قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: ليست بسلع من النساء خرّاجة ولاّجة ولكن جاءت مستترة قد وضعت كم درعها على وجهها استحياء، ﴿ **قالت إن أبي يدعوك ليجزيَك أجرَ ما سقيتَ لنا** ﴾، قال أبو حازم سلمة بن دينار لما سمع ذلك موسى أراد أن لا يذهب ولكن كان جائعاً فلم يجد بدّاً من الذهاب، فمشت المرأة ومشى موسى خلفها، فكانت الريح تضرب ثوبها فتصف ردفها فكره موسى أن يرى ذلك منها، فقال لها امشي خلفي ودلّيني على الطريق إن أخطأت ففعلت ذلك، فلما دخل على شعيب إذا هو بالعشاء مهيّأ فقال اجلس يا شاب فتعشَ، فقال موسى أعوذ بالله، فقال شعيب: ولِمَ ذاكَ ألستَ بجائع؟ قال: بلى ولكن أخاف أن يكون هذا عِوَضاً لما سقيت لهما وإنّا أهل بيت لا نطلب على عمل من أعمال الآخرة عوضاً من الدنيا، فقال له شعيب: لا والله يا شاب ولكنها عادتي وعادة آبائي نقري الضيف ونطعم الطعام فجلس موسى وأكل. ﴿ **فلما جاءه وقصّ عليه القصص** ﴾، يعني أمره أجمع، من قتله القبطي وقصد فرعون قتله،

امشي خلفي ودليني على الطريق إذا أخطأت ففعلت ذلك فلما دخل موسى على شعيب إذا هو بالعشاء مهيئاً فقال: اجلس يا فتى فتعش فقال موسى أعوذ بالله فقال شعيب ولم ذاك ألست بجائع؟ قال بلى ولكني أخاف أن يكون هذا عوضاً من الدنيا فقال له شعيب: لا والله يا فتى ولكنها عادتي وعادة آبائي نقري الضيف ونطعم الطعام فجلس وأكل فذلك قوله عز وجل ﴿**فلما جاءه**﴾ أي موسى ﴿**وقص عليه القصص**﴾ أي أخبره بأمره أجمع من خبر ولادته وقتله القبطي وقصد فرعون قتله ﴿**قال لا تخف نجوت من القوم الظالمين**﴾ يعني من فرعون وقومه وإنما قال ذلك لأنه لم يكن لفرعون سلطان على مدين ﴿**قالت إحداهما يا أبت استأجره**﴾ أي اتخذه أجيراً ليرعى أغنامنا ﴿**إن خير من استأجرت القوي الأمين**﴾ يعني إن خير من استعملت من قوي على العمل وأدى الأمانة فقال لها أبوها ما أعلمك بقوته وأمانته؟ قالت أما قوته فإنه رفع الحجر من على رأس البئر ولا يرفعه إلا عشرة.

وقيل أربعون رجلاً وأما أمانته فإنه قال لي امشي خلفي حتى لا تصف الريح بدنك ﴿**قال**﴾ شعيب عند ذلك ﴿**إني أريد أن أنكحك**﴾ أي أزوجك ﴿**إحدى ابنتي هاتين**﴾ قيل زوجه الكبرى وقال الأكثرون إنه زوجه الصغرى منهما واسمها صفوراء وهي التي ذهبت في طلب موسى ﴿**على أن تأجرني ثماني حجج**﴾ أي تكون لي أجيراً ثمان سنين ﴿**فإن أتممت عشراً فمن عندك**﴾ أي فإن أتممت العشر سنين فذلك تفضل منك وتبرع ليس بواجب عليك ﴿**وما أريد أن أشق عليك**﴾ أي ألزمك تمام العشر إلا أن تتبرع ﴿**ستجدني إن شاء الله من الصالحين**﴾ أي في حسن الصحبة والوفاء بما قلت وقيل يريد بالصلاح حسن المعاملة ولين الجانب وإنما قال إن شاء الله للاتكال على توفيقه ومعونته ﴿**قال**﴾ يعني موسى ﴿**ذلك بيني وبينك**﴾ يعني ما شرطت علي فلك وما شرطت من تزوج إحداهما فلي والأمر بيننا على ذلك

﴿ **قال لا تخفْ نجوتَ من القوم الظالمين** ﴾، يعني فرعون وقومه، وإنما قال هذا لأنه لم يكن لفرعون سلطان على أهل مدين.

﴿ **قالت إحداهما يا أبتِ استأجرْهُ** ﴾، اتخذه أجيراً ليرعى أغنامنا، ﴿ **إنّ خيرَ مَن استأجرتَ القويُّ الأمين** ﴾، يعني خير مَن استعملت من قوي على العمل وأداء الأمانة، فقال لها أبوها وما علمك بقوته وأمانته؟ قالت: أمّا قوته فإنه رفع حجراً من رأس البئر لا يرفعه إلاّ عشرة، وقيل إلاّ أربعون رجلاً، وأمّا أمانته فإنه قال لي امشي خلفي حتى لا تَصِف الريح بدنك.

﴿ **قال** ﴾ شعيب عند ذلك، ﴿ **إني أُريد أن أُنكحك إحدى ابنتيّ هاتين** ﴾، واسمها صفوراء وليا في قول شعيب الجبائي وقال ابن إسحاق صفورة وشرقا وقال غيرهما الكبرى صفراء والصغرى صفيراء. وقيل زوّجه الكبرى وذهب أكثرهم إلى أنه زوّجه الصغرى منهما واسمها صفورة وهي التي ذهبت لطلب موسى، ﴿ **على أن تأجرني ثماني حجج** ﴾، يعني أن تكون جيراً لي ثمان سنين، قال الفرّاء: يعني أجعل ثوابي من تزويجها أن ترعى غنمي ثماني حجج، تقول العرب: أجرك الله بأجرك أي أثابك، والحجج السنون واحدتها حجّة، ﴿ **فإن أتممتَ عشراً فمن عندك** ﴾، أي إن أتممت عشر سنين فذلك تفضّل منك وتبرّع، وليس بواجب عليك، ﴿ **وما أُريد أن أشقَّ عليك** ﴾، أن أُلزمك تمام العشر إلاّ أن تتبرّع، ﴿ **ستجدني إن شاء الله من الصالحين** ﴾، قال عمر: يعني في حُسْن الصحبة والوفاء بما قلت.

﴿ **قال** ﴾، موسى ﴿ **ذلك بيني وبينك** ﴾، يعني هذا الشرط بيني وبينك، فما شرطت عليّ فلك وما شرطتَ من تزويج إحداهما فلي، والأمر بيننا، تمّ الكلام، ثم قال: ﴿ **أيّما الأجلين قضيتُ** ﴾، يعني أيّ الأجلين، ﴿ **وما** ﴾ صلة قضيت يعني أتممت أو فرغت من الثمان أو العشر، ﴿ **فلا عدوان عليّ** ﴾ لا ظلم عليّ بأن أُطالب بأكثر منهما،

﴿أيما الأجلين قضيت﴾ أي أيّ الأجلين أتممت وفرغت منه الثمانية أو العشرة ﴿فلا عدوان علي﴾ أي لا ظلم علي بأن أطالب بأكثر منه ﴿والله على ما نقول وكيل﴾ قال ابن عباس شهيد بيني وبينك (خ) عن سعيد بن جبير قال: سألني يهودي من أهل الحيرة أي الأجلين قضى موسى؟ قلت لا أدري حتى أقدم على خير العرب فاسأله فقدمت فسألت ابن عباس فقال: قضي أكثرهما وأطيبهما لأن رسول الله إذا قال فعل وروي عن أبي ذر مرفوعاً: «إذا سئلت أي الأجلين قضى موسى فقل خيرهما وأبرهما وإذا سئلت أي المرأتين تزوج فقل الصغرى منهما وهي التي جاءت فقالت يا أبت استأجره فتزوج صغراهما وقضى أوفاهما». وقال وهب أنكحه الكبرى وروى شداد بن أوس مرفوعاً بكى شعيب النبيّ ﷺ حتى عمي فرد الله عليه بصره ثم بكى حتى عمي فرد الله عليه بصره ثم بكى حتى عمي فرد الله عليه بصره فقال الله له: ما هذا البكاء أشوقاً إلى الجنة أم خوفاً من النار فقال: لا يا رب ولكن شوقاً إلى لقائك فأوحى الله إليه إن يكن ذلك فهنيئاً لك لقائي يا شعيب لذلك أخدمتك كليمي موسى ولما تعاقدا هذا العقد بينهما أمر شعيب ابنته أن تعطي موسى عصاه يدفع بها السباع عن غنمة قيل كانت من آس الجنة حملها آدم معه فتوارثها الأنبياء وكان لا يأخذها غير نبي إلا أكلته فصارت من آدم إلى نوح ثم إلى إبراهيم حتى وصلت إلى شعيب فأعطاها موسى.

ثم إن موسى لما قضى الأجل سلم شعيب إليه ابنته فقال لها موسى اطلبي من أبيك أن يجعل لنا بعض الغنم

﴿ والله على ما نقول وكيل ﴾، قال ابن عباس ومقاتل: شهيد فيما بيني وبينك. وقيل: حفيظ. أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا محمد بن عبد الرحيم أنا سعيد بن سليمان أنا مروان بن شجاع عن سالم الأفطس عن سعيد بن جبير قال سألني يهودي من أهل الحيرة أيّ الأجلين قضى موسى؟ قلت لا أدري حتى أَقْدُمَ على حَبْر العرب فأسأله، فقَدِمتُ على ابن عباس فسألته، فقال: قضى أكثرهما وأطيبهما، إنّ رسول الله ﷺ إذا قال فعل. ورُوِيَ عن أبي ذرٍّ مرفوعاً: إذا سُئِلتَ أيُّ الأجلين قضى موسى فقل خيرهما وأبرّهما، وإذا سُئِلتَ بأيِّ المرأتين تزوج فقل الصغرى منهما، وهي التي جاءت، فقالت يا أبتِ استأجره، فتزوّج أصغرهما وقضى أوفاهما. وقال وهب: أنكحه الكبرى. رُوِيَ عن شدّاد بن أوس مرفوعاً: بكى شعيب النبي ﷺ حتى عَمِيَ فردّ الله عليه بصره، ثم بكى حتى عَمِيَ فردّ الله عليه بصره، ثم بكى حتى عَمِيَ فردّ الله عليه بصره، فقال الله ما هذا البكاء أشوقاً إلى الجنة أم خوفاً من النار؟ فقال: لا يا ربّ، ولكن شوقاً إلى لقائك، فأوحى الله إليه إن يكن ذلك فهنيئاً لك لقائي يا شعيب، لذلك أخدمتك موسى كليمي ولمّا تعاقد هذا العقد بينهما أمر شعيب ابنته أن تعطي موسى عصاً يدفع بها السِّباع عن غنمه، واختلفوا في تلك العصا، قال عكرمة: خرج بها آدم من الجنة فأخذها جبريل بعد موت آدم فكانت معه حتى لقي بها موسى ليلاً فدفعها إليه. وقال آخرون: كانت من آس الجنة حملها آدم من الجنة فتوارثها الأنبياء وكان لا يأخذها غير نبي إلاّ أكلته فصارت من آدم إلى نوح ثم إلى إبراهيم حتى وصلت إلى شعيب، وكانت عصا الأنبياء عنده فأعطاها موسى. وقال السدي: كانت تلك العصا استودعها إيّاه ملك صورة رجل فأمر ابنته أن تأتيه بعصاً فدخلت فأخذت العصا فأتته بها فلما رآها شعيب قال لها ردّي هذه العصا، وأتيه بغيرها فألقتها وأرادت أن تأخذ غيرها فلا تقع في يدها إلاّ هي، حتى فعلت ذلك ثلاث مرات فأعطتها موسى فأخرجها موسى معه، ثم إن الشيخ ندم وقال كانت وديعة، فذهب في أثره وطلب أن يردّ العصا فأبى موسى أن يعطيه. وقال: هي عصاي فرضيا أن يجعلا بينهما أول رجل يلقاهما فلقيهم ملك في صورة آدمي فحكم أن يطرح العصا فمَن حملها فهي له فطرح موسى العصا فعالجها الشيخ ليأخذها فلم يطقها، فأخذها موسى بيده فرفعها فتركها له الشيخ، ثم إن موسى لما أتمّ الأجل وسلّم شعيب ابنته إليه، قال موسى للمرأة: اطلبي من أبيك أن يجعل لنا بعض الغنم فطلبت من أبيها فقال شعيب لكما كل ما ولدت هذا العام على غير

فطلبت من أبيها ذلك فقال لكما كل ما ولدت هذا العام على غير شيتها وقيل إن شعيباً أراد أن يجازي موسى على حسن رعيه إكراماً وصلة لا بنته فقال له: إني قد وهبت لك ولد أغنامي كل أبلق وبلقاء في هذه السنة فأوحى الله تعالى إلى موسى في النوم أن اضرب بعصاك الماء، ثم اسق الأغنام منه ففعل ذلك فما أخطأت واحدة إلا وضعت حملها ما بين أبلق وبلقاء فعلم شعيب أن هذا رزق ساقه الله إلى موسى وامرأته فوفى له بشرطه وأعطاه الأغنام. قوله عز وجل:

۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَـٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَـٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَـٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْـَٔامِنِينَ ﴿٣١﴾ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ فَذَٰنِكَ بُرْهَـٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِى هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَـٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِـَٔايَـٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾

﴿**فلما قضى موسى الأجل**﴾ أي أتمه وفرغ منه ﴿**وسار بأهله**﴾ قيل مكث موسى بعد الأجل عند شعيب عشر سنين أخرى ثم استأذنه في العود إلى مصر فأذن له فسار بأهله أي بزوجته قاصداً إلى مصر ﴿**آنس**﴾ أي أبصر ﴿**من جانب الطور ناراً**﴾ وذلك أنه كان في البرية في ليلة مظلمة شديدة البرد وأخذ امرأته الطلق ﴿**قال لأهله امكثوا إني آنست ناراً لعلي آتيكم منها بخبر**﴾ أي عن الطريق لأنه كان قد أخطأ الطريق ﴿**أو جذوة من النار**﴾ أي قطعة وشعلة من النار وقيل: الجذوة العود الذي اشتعل بعضه ﴿**لعلكم تصطلون**﴾ أي تستدفئون ﴿**فلما أتاها نودي من شاطىء الواد الأيمن**﴾ يعني من جانب الوادي الذي عن يمين موسى ﴿**في البقعة المباركة**﴾ جعلها الله مباركة لأن الله تعالى كلم موسى هناك وبعثه نبياً وقيل يريد البقعة المقدسة ﴿**من الشجرة**﴾ يعني من ناحية الشجرة قال ابن مسعود: كانت سمرة

شيتها. وقيل: أراد شعيب أن يجازي موسى على حُسْن رعيته إكراماً له وصلةً لابنته، فقال له إني قد وهبت لك من الجدايا التي تضعها أغنامي هذه السنة كل أبلق وبلقاء، فأوحى الله إلى موسى في المنام أن اضرب بعصاك الماء الذي في مستسقى الأغنام فضرب موسى بعصاه الماء ثم سقى الأغنام منه فما أخطأت واحدة منها إلاّ وضعت حملها ما بين أبلق وبلقاء فعلم فقال له أن ذلك رزق ساقه الله عزّ وجلّ إلى موسى وامرأته فوفّى له شرطه وسلّم الأغنام إليه.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ **فلما قضى موسى الأجلَ** ﴾، يعني أتمّه وفرغ منه، ﴿ **وسار بأهله** ﴾، قال مجاهد: لما قضى الأجل مكث بعد ذلك عند صهره عشراً آخر فأقام عنده عشرين سنة ثم استأذنه في العود إلى مصر فأذِنَ له، فخرج بأهله إلى جانب مصر، ﴿ **آنسَ** ﴾، يعني أبصر، ﴿ **من جانب الطور ناراً** ﴾، وكان في البرية في ليلة مظلمة شاتية شديدة البرد وأخذَ امرأته الطلقُ، ﴿ **قال لأهله امكثوا إني آنستُ ناراً لعلّي آتيكم منها بخبر** ﴾، يعني عن الطريق لأنه كان قد أخطأ الطريق، ﴿ **أو جَذْوَةٍ من النار** ﴾، يعني قطعة وشعلة من النار، وفيها ثلاث لغات قرأ عاصم ﴿ **جذوة** ﴾ بفتح الجيم، وقرأ حمزة بضمها وقرأ الآخرون بكسرها، قال قتادة ومقاتل: هي العود الذي قد احترق بعضه وجمعها أجذى، ﴿ **لعلّكم تصطلون** ﴾، تستدفئون.

خضراء تبرق وقيل كانت غوسجة وقيل كانت من العليق وعن ابن عباس إنها العناب ﴿أن يا موسى إني أنا الله رب العالمين﴾ قيل إن موسى لما رأى النار في الشجرة الخضراء علم أنه لا يقدر على الجمع بين النار وخضرة الشجرة إلا الله تعالى فعلم بذلك أن المتكلم هو الله تعالى. وقيل: إن الله تعالى خلق في نفس موسى علماً ضرورياً بأن المتكلم هو الله تعالى وأن ذلك الكلام كلام الله تعالى. وقيل: إنه قيل لموسى كيف عرفت أنه نداء الله قال إني سمعته بجميع أجزائي فلما وجد حس السمع من جميع الأجزاء علم بذلك أنه لا يقدر عليه أحد إلا الله تعالى ﴿وأن ألق عصاك﴾ يعني فألقاها ﴿فلما رآها تهتز﴾ يعني تتحرك ﴿كأنها جان﴾ هي الحية الصغيرة والمعنى أنها في سرعة حركتها كالحية السريعة الحركة ﴿ولى مدبراً﴾ يعني هارباً منها ﴿ولم يعقب﴾ يعني ولم يرجع قال وهب إنها لم تدع شجرة، ولا صخرة إلا بلعتها حتى إن موسى سمع صرير أسنانها وقعقعة الشجر والصخر في جوفها فحينئذ ولى مدبراً ولم يعقب فنودي عند ذلك ﴿يا موسى أقبل ولا تخف إنك من الآمنين﴾.

قوله عز وجل ﴿اسلك يدك﴾ يعني أدخل يدك ﴿في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء﴾ يعني برص والمعنى أنه أدخل يده فخرجت ولها شعاع كضوء الشمس ﴿واضمم إليك جناحك من الرهب﴾ يعني من الخوف والمعنى إذا هالك

﴿ فلما أتاها نُودي من شاطىء الوادي الأيمن ﴾، يعني من جانب الوادي الذي عن يمين موسى، ﴿ في البقعة المباركة ﴾، لموسى جعلها الله مباركة لأن الله كلّم موسى هناك وبعثه نبيّاً. وقال عطاء: يريد المقدسة، ﴿ من الشجرة ﴾، من ناحية الشجرة، قال ابن مسعود: كانت سمرة خضراء تبرق، وقال قتادة ومقاتل والكلبي: كانت عوسجة، قال وهب من العليق، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: إنها العنّاب، ﴿ أن يا موسى إنّي أنا الله ربّ العالمين ﴾.

﴿ وأن ألقِ عصاكَ فلمّا رآها تهتز ﴾، تتحرك، ﴿ كأنّها جانّ ﴾، وهي الحيّة الصغيرة من سرعة حركتها، ﴿ ولّى مدبراً ﴾، هارباً منها، ﴿ ولم يُعقّب ﴾، لم يرجع فنودي، ﴿ يا موسى أقبلْ ولا تخفْ إنّك من الآمنين ﴾.

﴿ أسلكْ ﴾، أدخل ﴿ يدك في جيبك تخرجْ بيضاءَ من غير سوء ﴾، برص فخرجت ولها شعاع كضوء الشمس، ﴿واضممْ إليك جناحك من الرهب﴾، قرأ أهل الكوفة والشام بضم الراء وسكون الهاء وبفتح الراء حفص، وقرأ الآخرون بفتحهما وكلها لغات بمعنى الخوف، وكلها الآية إذا هَالَكَ أمرُ يدك ما ترى من شعاعها فأدخلها في جيبك تعدْ إلى حالتها الأولى، والجناح اليد كلها. وقيل: هو العضد. وقال عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهم: أمره الله بضمّ يده إلى صدره فيذهب عنه ما ناله من الخوف عند معاينة الحيّة، وقال: ما من خائف بعد موسى إلّا إذا وضع يده على صدره زال خوفه. وقال مجاهد: كلّ مَن فزع فضمّ جناحه إليه ذهب عنه الفزع. وقيل: المراد من ضمّ الجناح الكون يعني سكن روعك واخفض عليك جأشك لأن من شأن الخائف أن يضطرب قلبه ويرتعد بدنه، ومثله قوله: ﴿ واخفضْ لهما جناح الذلّ من الرحمة ﴾ [الإسراء: ٢٤]، يريد الرفق، وقوله: ﴿ واخفض جناحك لمَن اتّبعك من المؤمنين ﴾ [الشعراء: ٢١٥] أي ارفق بهم وألِنْ جانبك لهم، وقال الفرّاء: أراد بالجناح العصا، معناه أضمم إليك عصاك. وقيل: الرهب الكَلِم بلغة حمير، قال الأصمعي: سمعت بعض الأعراب يقول أعطني ما في رهبك أي في كمّك، معناه أضمم إليك يدك وأخرجها من الكم، لأنه تناول العصا ويده في كمّه، ﴿ فذانِكَ ﴾، يعني العصا واليد البيضاء، ﴿ برهانان ﴾، آيتان، ﴿ من ربك إلى فرعون وملئه إنهم كانوا قوماً فاسقين ﴾.

﴿ قال ربِّ إني قتلتُ منهم نفساً فأخاف أن يقتلون ﴾.

أمر يدك وما تراه من شعاعها فأدخلها في جيبك تعد إلى حالتها الأولى وقال ابن عباس: أمر الله موسى أن يضم يده إلى صدره فيذهب عنه ما ناله من الخوف عند معاينة الحية وما من خائف بعد موسى إلا إذا وضع يده على صدره زال خوفه. وقيل المراد من ضم الجناح السكون أي سكن روعك واخفض عليك جناحك لأن من شأن الخائف أن يضطرب قلبه ويرتعد بدنه. وقيل الرهب الكم بلغة حمير ومعناه اضمم إليك يدك وأخرجها من كمك لأنه تناول العصا ويده في كمه **﴿فذانك﴾** يعني العصا واليد البيضاء **﴿برهانان﴾** يعني آيتان **﴿من ربك إلى فرعون وملئه إنهم كانوا قوماً فاسقين﴾** يعني خارجين عن الحق **﴿قال رب إني قتلت منهم نفساً﴾** يعني القبطي **﴿فأخاف أن يقتلون﴾** يعني به **﴿وأخي هارون هو أفصح مني لساناً﴾** يعني بياناً وإنما قال ذلك للعقدة التي كانت في لسانه من وضع الجمرة في فيه **﴿فأرسله معي ردءاً﴾** يعني عوناً **﴿يصدقني﴾** يعني فرعون وقيل تصديق هارون هو أن يلخص الدلائل ويجيب عن الشبهات ويجادل الكفار فهذا هو التصديق المفيد **﴿إني أخاف أن يكذبون﴾** يعني فرعون وقومه **﴿قال سنشد عضدك بأخيك﴾** يعني سنقويك به وكان هارون بمصر **﴿ونجعل لكما سلطاناً﴾** يعني حجة وبرهاناً **﴿فلا يصلون إليكما﴾** أي بقتل ولا سوء **﴿بآياتنا﴾** قيل معناه نعطيكما من المعجزات فلا يصلون إليكما **﴿أنتما ومن اتبعكما الغالبون﴾** يعني لكما ولأتباعكما الغلبة على فرعون وقومه.

فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٖ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّفۡتَرٗى وَمَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا
ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ مِنۡ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ
ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي فَأَوۡقِدۡ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ
فَٱجۡعَل لِّي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَٱسۡتَكۡبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِي
ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ إِلَيۡنَا لَا يُرۡجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذۡنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّۖ فَٱنظُرۡ
كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا
يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتۡبَعۡنَٰهُمۡ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا لَعۡنَةٗۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلۡمَقۡبُوحِينَ ﴿٤٢﴾ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا
مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَهۡلَكۡنَا ٱلۡقُرُونَ ٱلۡأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لَّعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾
وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلۡغَرۡبِيِّ إِذۡ قَضَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلۡأَمۡرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَٰكِنَّآ أَنشَأۡنَا قُرُونٗا فَتَطَاوَلَ

﴿ وأخي هارون هو أفصح منّي لساناً ﴾، وإنما قال ذلك للعقدة التي كانت في لسانه من وضع الجمرة في فِيْه، **﴿ فأرسله معي ردءاً ﴾**، عوناً، يقال ردأته أي أعنته، قرأ نافع (ردًا) بفتح الدال من غير همز طلباً للخفّة، وقرأ الباقون بسكون الدال مهموزاً، **﴿ يُصدِّقني ﴾**، قرأ ابن عمر وعامر وحمزة برفع القاف على الحال، أي ردّاً مصدِّقاً، وقرأ الآخرون بالجزم على جواب الدعاء والتصديق لهارون في قول الجميع، قال مقاتل: لكي يصدقني فرعون، **﴿ إني أخاف أن يكذبون ﴾**، يعني فرعون وقومه.

﴿ قال سنشدّ عضدَك بأخيك ﴾، أي نقوّيك بأخيك وكان هارون يومئذ بمصر، **﴿ ونجعلُ لكما سلطاناً ﴾**، حجةً وبرهاناً، **﴿ فلا يصلون إليكما بآياتنا ﴾**، أي لا يصلون إليكما بقتل ولا سوء لمكان آياتنا، وقيل: فيه تقديم وتأخير، تقديره: ونجعل لكما سلطاناً بآياتنا بما نعطيكما من المعجزات فلا يصلون إليكما، **﴿ أنتما ومَن اتّبعكما الغالبون ﴾**، أي لكما ولأتباعكما الغلبة على فرعون وقومه.

عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾

﴿فلما جاءهم موسى بآياتنا بينات﴾ يعني واضحات ﴿قالوا ما هذا إلا سحر مفترى﴾ يعني مختلق ﴿وما سمعنا بهذا﴾ يعني بالذي تدعونا إليه ﴿في آبائنا الأولين وقال موسى ربي أعلم بمن جاء بالهدى من عنده﴾ يعني أنه يعلم المحق من المبطل ﴿ومن تكون له عاقبة الدار﴾ يعني العقبى المحمودة في الدار الآخرة ﴿إنه لا يفلح الظالمون﴾ يعني الكافرون ﴿وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري﴾ فيه إنكار لما جاء به موسى من توحيد الله وعبادته ﴿فأوقد لي يا هامان على الطين﴾ يعني اطبخ لي الآجر قيل إنه أول من اتخذ آجراً وبنى به ﴿فاجعل لي صرحاً﴾ أي قصراً عالياً وقيل منارة. قال أهل السير لما أمر فرعون وزيره هامان ببناء الصرح جمع هامان العمال والفعلة حتى اجتمع عنده خمسون ألف بناء سوى الأتباع والأجراء وطبخ الآجر والجص ونجر الخشب وضرب المسامير، وأمر بالبناء فبنوه ورفعوه وشيدوه حتى ارتفع ارتفاعاً لم يبلغه بنيان أحد من الخلق وأراد الله أن يفتنهم فيه فلما فرغوا منه ارتقى فرعون فوقه، وأمر بنشابة فرمى بها نحو السماء فردت إليه وهي ملطخة دماً فقال: قد قتلت إله موسى وكان فرعون يصعده راكباً على البراذين فبعث الله جبريل عند غروب الشمس فضربه بجناحه فقطعه ثلاث قطع فوقعت قطعة

﴿ فلما جاءهم موسى بآياتنا بيِّنات ﴾، واضحات، ﴿ قالوا ما هذا إلاّ سحرٌ مفترى ﴾، مختلق ﴿ وما سمعنا بهذا ﴾، بالذي تدعونا إليه، ﴿ في آبائنا الأوّلين ﴾.

﴿ وقال موسى ﴾، قرأ المكّي بغير واو وكذلك هو في مصاحفهم، ﴿ ربِّي أعلم بمَن جاء بالهدى من عنده ﴾، بالمحق من المبطل، ﴿ ومَن تكون له عاقبة الدار ﴾، يعني العقبى المحمودة في الدار الآخرة، ﴿ إنه لا يفلح الظالمون ﴾، يعني الكافرون.

﴿وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم من إلَهٍ غيري فأوقدْ لي يا هامان على الطين﴾، يعني فاطبخ لي الآجر، وقيل: إنه أول مَن اتخذ الآجر وبنى به، ﴿ فاجعلْ لي صرحاً ﴾، قصراً عالياً، وقيل: منارة، قال أهل السير: لما أمر فرعون وزيره هامان ببناء الصرح جمع هامان العمّال والفَعَلَة حتى اجتمع خمسون ألف بنّاء سوى الأتباع والأجراء، ومَن يطبخ الآجر والجص وينجر الخشب ويضرب المسامير، فرفعوه وشيّدوه حتى ارتفع ارتفاعاً لم يبلغه بنيان أحد من الخلق، أراد الله عزّ وجلّ أن يفتنهم فيه، فلما فرغوا منه ارتقى فرعون فوقه وأمر بنشابة فرمى بها نحو السماء فرُدّت إليه وهي ملطّخةً دماً، فقال قد قتلتُ إلَهَ موسى، وكان فرعون يصعد على البراذين فبعث الله جبريل جنح غروب الشمس فضربه بجناحه فقطّعه ثلاث قطع فوقعت قطعة منها على عسكر فرعون فقتلت منهم ألف ألف رجل، ووقعت قطعة في البحر وقطعة في المغرب، ولم يبق أحد ممّن عمل فيه بشيء إلاّ هلك، فذلك قوله تعالى: ﴿ فأوقد لي يا هامان على الطين فاجعل لي صرحاً لعلّي أطّلعُ على إلَه موسى ﴾، أنظر إليه وأقف على حاله، ﴿ وإني لأظنّه ﴾، يعني موسى، ﴿ من الكاذبين ﴾، في زعمه أن للأرض وللخلق إلَهاً غيري، وأنه رسوله.

﴿ واستكبر هو وجنوده في الأرض بغير الحق وظنّوا أنهم إلينا لايُرْجَعُون ﴾، قرأ نافع وحمزة والكسائي ويعقوب: ﴿ يرجعون ﴾ بفتح الياء وكسر الجيم، والباقون بضم الياء وفتح الجيم.

﴿ فأخذناه وجنوده فنبذناهم ﴾، فألقيناهم، ﴿ في اليمّ فانظرْ كيفَ كان عاقبة الظالمين ﴾.

﴿ وجعلناهم أئمة ﴾، قادة ورؤساء، ﴿ يدعون إلى النار ويوم القيامة لا يُنْصَرُون ﴾، لا يمنعون من العذاب.

منه على عسكره فقتلت منهم ألف رجل ووقعت قطعة منه في البحر وقطعة في المغرب فلم يبق أحد عمل شيئاً فيه إلا هلك فذلك قوله ﴿**لعلي أطلع إلى إله موسى**﴾ يعني أنظر إليه وأقف على حاله ﴿**وإني لأظنه**﴾ يعني موسى ﴿**من الكاذبين**﴾ يعني في زعمه أن للأرض والخلق إلهاً غيري وأنه أرسله ﴿**واستكبر هو وجنوده في الأرض**﴾ يعني تعظموا عن الإيمان ولم ينقادوا للحق بالباطل والظلم ﴿**بغير الحق وظنوا أنهم إلينا لا يرجعون**﴾ يعني للحساب والجزاء ﴿**فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم**﴾ يعني فألقيناهم في البحر وهو القلزم ﴿**فانظر كيف كان عاقبة الظالمين**﴾ يعني حين صاروا إلى الهلاك ﴿**وجلعناهم أئمة**﴾ يعني قادة ورؤساء ﴿**يدعون إلى النار**﴾ أي الكفر والمعاصي التي يستحقون بها النار لأن من أطاعهم ضل ودخل النار ﴿**ويوم القيامة لا ينصرون**﴾ يعني لا يمنعون من العذاب ﴿**وأتبعناهم في هذه الدنيا لعنة**﴾ يعني خزياً وبعداً وعذاباً ﴿**ويوم القيامة هم من المقبوحين**﴾ يعني المبعدين وقيل المهلكين.

وقال ابن عباس من المشوهين بسواد الوجوه وزرقة العيون. وقوله عز وجل ﴿**ولقد آتينا موسى الكتاب**﴾ يعني التوراة ﴿**من بعد ما أهلكنا القرون الأولى**﴾ يعني قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم ممن كانوا قبل موسى ﴿**بصائر للناس**﴾ ليبصروا ذلك فيهتدوا به ﴿**وهدى**﴾ يعني من الضلالة لمن عمل به ﴿**ورحمة**﴾ يعني لمن آمن به ﴿**لعلهم يتذكرون**﴾ يعني بما فيه من المواعظ ﴿**وما كنت**﴾ الخطاب للنبي ﷺ أي وما كنت يا محمد ﴿**بجانب الغربي**﴾ يعني بجانب الجبل الغربي قال ابن عباس يريد حيث ناجى موسى ربه ﴿**إذ قضينا إلى موسى الأمر**﴾ يعني عهدنا إليه وأحكمنا الأمر معه بالرسالة إلى فرعون ﴿**وما كنت من الشاهدين**﴾ يعني الحاضرين ذلك المقام الذي أوحينا إلى موسى فيه فتذكره من ذات نفسك ﴿**ولكنا أنشأنا قروناً**﴾ يعني خلقنا بعد موسى أمماً ﴿**فتطاول عليهم العمر**﴾ يعني طالت عليهم المدة فنسوا عهد الله وتركوا أمره وذلك أن الله عهد إلى موسى وقومه عهوداً في محمد والإيمان به فلما طال عليهم العمر وخلفت القرون بعد القرون نسوا تلك العهود وتركوا الوفاء بها ﴿**وما كنت ثاوياً**﴾ أي مقيماً ﴿**في أهل مدين**﴾ أي كمقام موسى وشعيب فيهم ﴿**تتلو عليهم آياتنا**﴾ يعني تذكرهم بالوعد والوعيد وقيل معناه لم تشهد أهل مدين فتقرأ على أهل مكة

﴿ **وأتبعناهم في هذه الدنيا لعنةً** ﴾، خزياً وعذاباً، ﴿ **ويوم القيامة هم من المقبُوحِين** ﴾، من المُبعَدين الملعونين، وقال أبو عبيدة: من المهلكين. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: من المشوّهين بسواد الوجوه وزُرقة العيون، يقال: قبّحه الله وقبّحه إذا جعله قبيحاً، ويقال: قبّحه قبحاً وقبوحاً، إذا أبعده من كل خير.

قوله تعالى: ﴿ **ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى** ﴾، يعني قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم كانوا قبل موسى، ﴿ **بصائرَ للناس** ﴾، يعني ليبصروا بذلك الكتاب ويهتدوا به، ﴿ **وهدىً** ﴾، من الضلال لمَن عمل به، ﴿ **ورحمةً** ﴾، لمَن آمن به، ﴿ **لعلّهم يتذكرون** ﴾، بما فيه من المواعظ والبصائر.

﴿ **وما كنتَ** ﴾ يا محمد ﴿ **بجانب الغربي** ﴾، يعني بجانب الجبل الغربي، قاله قتادة والسدي، وقال الكلبي: بجانب الوادي الغربي. قال ابن عباس رضي الله عنهما: يريد حيث ناجى موسى ربَّه، ﴿ **إذ قضينا إلى موسى الأمر** ﴾، يعني عهدنا إليه وأحكمنا الأمر معه بالرسالة إلى فرعون وقومه، ﴿ **وما كنتَ من الشاهدين** ﴾، الحاضرين ذلك المقام فتذكره من ذات نفسك.

﴿ **ولكنّا أنشأنا قروناً** ﴾، خلقنا أُمماً من بعد موسى عليه السلام، ﴿ **فتطاول عليهم العُمُـرُ** ﴾، أي طالت عليهم المهلة فنسوا عهد الله وميثاقه وتركوا أمره، وذلك أن الله تعالى قد عهد إلى موسى وقومه عهوداً في محمد ﷺ والإيمان به، فلما طال عليهم العمر وخلفت القرون بعد القرون نسوا تلك العهود وتركوا الوفاء بها، ﴿ **وما كنتَ ثاوياً** ﴾، مقيماً، ﴿ **في أهل مدين** ﴾، كمقام موسى وشعيب فيهم، ﴿ **تتلوا عليهم آياتنا** ﴾، تذكّرهم بالوعد

خبرهم ﴿ولكنا كنا مرسلين﴾ أي أرسلناك رسولاً وأنزلنا إليك كتاباً فيه هذه الأخبار لتتلوها عليه ولولا ذلك لما علمتها أنت ولم تخبرهم بها.

وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُواْ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُواْ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُواْ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓاْ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ فَأْتُواْ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾ ۞ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾

﴿وما كنت بجانب الطور﴾ أي بناحية الجبل الذي كلم الله موسى عليه ﴿إذ نادينا﴾ أي موسى خذ الكتاب بقوة وقال وهب قال موسى: يا رب أرني محمداً وأمته قال إنك لن تصل إلى ذلك ولكن إن شئت ناديت أمته وأسمعتك صوتهم قال بلى يا رب قال الله تعالى: يا أمة محمد فأجابوه من أصلاب آبائهم. وقال ابن عباس قال الله تعالى: يا أمة محمد فأجابوه من أصلاب الآباء والأرحام أي أرحام الأمهات لبيك اللهم لبيك إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك. قال الله تعالى: يا أمة محمد إن رحمتي سبقت غضبي وعفوي سبق عقابي قد أعطيتكم قبل أن تسألوني وقد أجبتكم قبل أن تدعوني وقد غفرت لكم قبل أن تستغفروني ومن جاءني يوم القيامة بشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبدي ورسولي دخل الجنة وإن كانت ذنوبه أكثر من زبد البحر ﴿ولكن رحمة من ربك﴾ أي رحمناك رحمة

والوعيد، قال مقاتل: يقول لم تشهد أهل مدين فتقرأ على أهل مكة خبرهم، ﴿ ولكنّا كنّا مُرْسِلين ﴾، أي أرسلناك رسولاً وأنزلنا عليك كتاباً فيه هذه الأخبار، فتتلوها عليهم ولولا ذلك لما علمتها ولم تخبرهم بها.

﴿ وما كنتَ بجانب الطور ﴾، بناحية الجبل الذي كلّم الله عليه موسى، ﴿ إذ نادينا ﴾، قيل: إذْ نادَيْنَا موسى خذِ الكتاب بقوّة، وقال وهب: قال موسى يا ربِّ أرني محمداً، قال: إنك لن تصل إلى ذلك وإن شئت ناديت أمته وأسمعتك أصواتهم، قال: بلى يا رب، قال الله تعالى: يا أمة محمد فأجابوه من أصلاب آبائهم. وقال أبو زرعة بن عمرو بن جرير: نادى يا أمة محمد قد أجبتكم قبل أن تدعوني وأعطيتكم قبل أن تسألوني. ورُوِيَ عن ابن عباس رضي الله عنهما ورفعه بعضهم، قال الله: يا أمة محمد فأجابوه من أصلاب الآباء وأرحام الأمهات، لبّيك اللّهمَّ لبّيك لبّيك إن الحمد والنعمة لك والمُلْك لا شريك لك، قال الله تعالى: يا أمة محمد إن رحمتي سبقت غضبي وعفوي سبقَ عقابي، قد أعطيتكم من قبل أن تسألوني وقد أجبتكم من قبل أن تدعوني، وقد غفرت لكم من قبل أن تستغفروني، مَن جاءني يوم القيامة بشهادة أن لا إلَه إلاّ الله وأن محمداً عبدي ورسولي دخل الجنة، وإن كانت ذنوبه أكثر من زبد البحر. قوله تعالى: ﴿ ولكن رحمةً من ربِّك ﴾ أي ولكن رحمناك رحمة بإرسالك وبالوحي إليك وإطلاعك على الأخبار الغائبة عنك، ﴿ لتنذر قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك ﴾، يعني أهل مكة، ﴿ لعلّهم يتذكرون ﴾.

بإرسالك والوحي إليك وإطلاعك على الأخبار الغائبة عنك ﴿لتنذر قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك﴾ يعني أهل مكة ﴿لعلهم يتذكرون﴾ اعلم أن الله تعالى لما بين قصة موسى عليه الصلاة والسلام لرسوله ﷺ فجمع بين هذه الأحوال الثلاثة العظيمة التي اتفقت لموسى؛ فالمراد بقوله: «إذ قضينا إلى موسى الأمر» هو إنزال التوراة عليه حتى تكامل دينه واستقر شرعه والمراد بقوله «وما كنت ثاوياً في أهل مدين» أول أمر موسى والمراد بقوله إذ نادينا ليلة المناجاة فهذه أعظم أحوال موسى ولما بينها لرسوله ولم يكن في هذه الأحوال حاضراً بين الله أنه بعثه وعرفه هذه الأحوال الدالة على نبوته ﷺ ومعجزته كأنه قال في إخبارك عن هذه الأشياء من غير حضور ولا مشاهدة دلالة ظاهرة على نبوتك.

قوله تعالى ﴿ولولا أن تصيبهم مصيبة﴾ أي عقوبة ونقمة ﴿بما قدمت أيديهم﴾ يعني من الكفر والمعاصي ﴿فيقولوا ربنا لولا﴾ أي هلاّ ﴿أرسلت إلينا رسولاً فنتبع آياتك ونكون من المؤمنين﴾ ومعنى الآية لولا أنهم يحتجون بترك الإرسال إليهم لعاجلناهم بالعقوبة على كفرهم وقيل معناه لما بعثناك إليهم رسولاً ولكنا بعثناك إليهم لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ﴿فلما جاءهم الحق من عندنا﴾ يعني محمداً ﷺ ﴿قالوا﴾ يعني كفار مكة ﴿لولا﴾ أي هلا ﴿أوتي﴾ محمد ﴿مثل ما أوتي موسى﴾ يعني من الآيات كالعصا واليد البيضاء. وقيل: أوتي كتاباً جملة واحدة كما أوتي موسى التوراة قال الله تعالى ﴿أولم يكفروا بما أوتي موسى من قبل﴾ قيل إن اليهود أرسلوا إلى قريش أن يسألوا محمداً ﷺ مثل ما أوتي موسى فقال الله تعالى: أولم يكفروا بما أوتي موسى من قبل يعني اليهود الذين استخرجوا هذا السؤال ﴿قالوا سحران تظاهرا﴾ يعني التوراة والقرآن يقوي كل واحد منهما الآخر وقيل ساحران يعني محمداً وموسى. وقيل إن مشركي مكة بعثوا إلى رؤوس اليهود بالمدينة يسألونهم عن محمد ﷺ فأخبروهم أن نعته في كتابهم التوراة

﴿ ولولا أن تصيبهم مصيبة ﴾، عقوبة ونقمة، ﴿ بما قدّمت أيديهم ﴾ من الكفر والمعصية، ﴿ فيقولوا ربنا لولا ﴾، هلّا، ﴿ أرسلت إلينا رسولاً فنتّبع آياتك ونكون من المؤمنين ﴾، وجواب لولا محذوف أي لعاجلناهم بالعقوبة، يعني لولا أنهم يحتجّون بترك الإرسال إليهم لعاجلناهم بالعقوبة بكفرهم، وقيل: معناه لمّا بعثناك إليهم رسولاً ولكن بعثناك إليهم لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل.

﴿ فلما جاءهم الحق من عندنا ﴾، يعني محمداً ﷺ، ﴿ قالوا ﴾، يعني كفّار مكة، ﴿ لولا ﴾، هلّا، ﴿ أُوتي ﴾، محمد، ﴿ مثل ما أُوتي موسى ﴾، من الآيات كاليد البيضاء والعصا، وقيل: مثل ما أُوتي موسى كتاباً جملة واحدة. قال الله تعالى: ﴿ أوَ لَمْ يكفروا بما أُوتي موسى من قبل ﴾، أي فقد كفروا بآيات موسى كما كفروا بآيات محمد، ﴿ قالوا سِحْرَانِ تظاهرا ﴾، قرأ أهل الكوفة: ﴿ سحران ﴾ أي التوراة والقرآن تظاهرا يعني كل سحر يقوّي الآخر نسب التظاهر إلى السحرين على الاتّساع، قال الكلبي: كانت مقالتهم تلك حين بعثوا في أمر رسول الله ﷺ إلى رؤوس اليهود بالمدينة، فسألوهم عن محمد فأخبروهم أن نعته في كتابهم التوراة، فرجعوا فأخبروهم بقول اليهود، فقالوا سِحْرَانِ تظاهرا، وقرأ الآخرون: ﴿ ساحران ﴾، يعنون محمداً وموسى عليهما السلام، لأن معنى التظاهر بالناس وأفعالهم أشبه منه بالكتب، ﴿ وقالوا إنّا بكلّ كافرون ﴾.

﴿ قلْ ﴾ لهم يا محمد، ﴿ فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما ﴾، يعني من التوراة والقرآن، ﴿ أتبعه إن كنتم صادقين ﴾.

﴿ فإن لم يستجيبوا لك ﴾، أي لم يأتوا بما طلبت، ﴿ فاعلم أنّما يتبعون أهواءهم ومَن أضلّ ممّن اتبع هواه بغير هدى من الله إن الله لا يهدي القوم الظالمين ﴾.

﴿ ولقد وصَّلْنَا لهم القول ﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما: بينا، قال الفرّاء: أنزلنا آيات القرآن يتبع

فرجعوا فأخبروهم بقول اليهود فقالوا ساحران تظاهرا ﴿**وقالوا إنا بكل كافرون**﴾ يعني بالتوراة والقرآن وقيل بمحمد وموسى ﴿**قل**﴾ يا محمد ﴿**فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما**﴾ يعني من التوراة والقرآن ﴿**أتبعه**﴾ يعني الكتاب الذي تأتون به من عند الله وهذا تنبيه على عجزهم عن الإتيان بمثله ﴿**إن كنتم صادقين فإن لم يستجيبوا لك**﴾ أي فإن لم يأتوا بما طلبت ﴿**فاعلم أنما يتبعون أهواءهم**﴾ يعني أن ما ركبوه من الكفر لا حجة لهم فيه وإنما آثروا أتباعهم ما هم عليه من الهوى ﴿**ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله إن الله لا يهدي القوم الظالمين**﴾ قوله عز وجل ﴿**ولقد وصلنا لهم القول**﴾ قال ابن عباس: بينا وقيل أنزلنا آيات القرآن يتبع بعضها بعضاً، وقيل بينا لكفار مكة بما في القرآن من أخبار الأمم الخالية كيف عذبوا بتكذيبهم، وقيل وصلنا لهم خبر الدنيا بخبر الآخرة حتى كأنهم عاينوا الآخرة في الدنيا ﴿**لعلهم يتذكرون**﴾ أي يتعظون ﴿**الذين آتيناهم الكتاب من قبلة**﴾ أي من قبل محمد ﷺ وقيل من قبل القرآن ﴿**هم به يؤمنون**﴾ نزلت في مؤمني أهل الكتاب عبدالله بن سلام وأصحابه وقيل بل هم أهل الإنجيل الذين قدموا من الحبشة وآمنوا بالنبيّ ﷺ وهم أربعون رجلاً قدموا مع جعفر بن أبي طالب فلما رأوا ما بالمسلمين من الحاجة والخصاصة قالوا: يا رسول الله إن لنا أموالاً فإن أذنت لنا انصرفنا فجئنا بأموالنا فواسينا بها المسلمين فأذن لهم فانصرفوا فأتوا فواسوا بها المسلمين. فنزلت هذه الآيات إلى قوله «ومما رزقناهم ينفقون» وقال ابن عباس: نزلت في ثمانين من أهل الكتاب أربعون من نجران واثنان وثلاثون من الحبشة وثمانية من الشام ثم وصفهم الله تعالى فقال ﴿**وإذا يتلى عليهم**﴾ يعني القرآن ﴿**قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا**﴾ وذلك أن ذكر النبي ﷺ كان مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل ﴿**إنا كنا من قبله مسلمين**﴾ أي من قبل القرآن مخلصين لله التوحيد ومؤمنين بمحمد ﷺ إنه نبي حق.

أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ

بعضها بعضاً قال قتادة: وصل لهم القول في هذا القرآن يعني كيف صنع بمَن مضى. قال مقاتل: بينّا لكفّار مكة بما في القرآن من أخبار الأمم الخالية كيف عذّبوا بتكذيبهم، وقال ابن زيد وصلنا لهم خبر الدنيا بخبر الآخرة حتى كأنهم عاينوا الآخرة في الدنيا، ﴿ **لعلّهم يتذكّرون** ﴾.

﴿ **الذين آتيناهم الكتاب من قبله** ﴾، من قبل محمد صلّى الله عليه وآله وسلّم، وقيل من قبل القرآن، ﴿ **هم به يؤمنون** ﴾، نزلت في مؤمني أهل الكتاب عبد الله بن سلام وأصحابه، وقال مقاتل: بل هم أهل الإنجيل الذين قَدِموا من الحبشة وآمنوا بالنبي ﷺ. وقال سعيد بن جبير: هم أربعون رجلاً قَدِموا مع جعفر من الحبشة على النبي ﷺ فلما رأوا ما بالمسلمين من الخصاصة قالوا: يا نبيّ الله إن لنا أموالاً فإن أذنت لنا انصرفنا وجئنا بأموالنا فواسينا المسلمين بها فأذِنَ لهم فانصرفوا فأتوا بأموالهم فواسوا بها المسلمين، فنزل فيهم: ﴿ **الذين آتيناهم الكتاب** ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ **ومما رزقناهم ينفقون** ﴾، وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: نزلت في ثمانين من أهل الكتاب أربعون من نجران واثنان وثلاثون من الحبشة وثمانية من الشام، ثم وصفهم الله فقال:

﴿ **وإذا يُتلى عليهم** ﴾، يعني القرآن، ﴿ **قالوا آمنّا به إنّه الحقُّ من ربنا** ﴾، وذلك أن ذكر النبي ﷺ كان مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل، ﴿ **إنّا كنّا من قبله مسلمين** ﴾، أي من قبل القرآن مسلمين مخلصين لله بالتوحيد مؤمنين بمحمد ﷺ أنه نبي حق.

﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾﴾

﴿**أولئك يؤتون أجرهم مرتين**﴾ يعني بإيمانهم بالكتاب الأول والكتاب الآخر ﴿**بما صبروا**﴾ أي على دينهم وعلى أذى المشركين (ق) عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة لهم أجران رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بمحمد ﷺ والعبد المملوك إذا أدى حق الله وحق مواليه ورجل كانت عنده أمة يطؤها فأدبها فأحسن تأديبها وعلمها فأحسن تعليمها ثم أعتقها ثم تزوجها فله أجران» ﴿**ويدرؤون بالحسنة السيئة**﴾ قال ابن عباس: يدفعون بشهادة أن لا إله إلا الله وقيل يدفعون ما سمعوا من أذى المشركين وشتمهم بالصفح والعفو ﴿**ومما رزقناهم ينفقون**﴾ أي في الطاعة ﴿**وإذا سمعوا اللغو**﴾ أي القول القبيح ﴿**أعرضوا عنه**﴾ وذلك أن المشركين كانوا يسبون مؤمني أهل مكة ويقولون تباً لكم تركتم دينكم فيعرضون عنهم ولا يردون عليهم ﴿**وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم**﴾ أي لنا ديننا ولكم دينكم ﴿**سلام عليكم**﴾ ليس المراد منه سلام التحية ولكن سلام المتاركة والمعنى سلمتم منا لا نعارضكم بالشتم ﴿**لا نبتغي الجاهلين**﴾ يعني لا نحب دينكم الذي أنتم عليه. وقيل: لا نريد أن نكون من أهل

﴿ **أولئك يؤتون أجرهم مرتين** ﴾، لإيمانهم بالكتاب الأول وبالكتاب الآخر، ﴿ **بما صبروا** ﴾، على دينهم، قال مجاهد: نزلت في قوم من أهل الكتاب أسلموا فأوذُوا، أخبرنا أبو الحسن محمد بن محمد السرخسي أنا أبو علي زاهر بن أحمد أنا أبو عبد الله محمد بن جعفر الجويني أنا أحمد بن سعيد الدارمي أنا عثمان أنا شعبة عن صالح عن الشعبي عن أبي بردة عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة يُؤتون أجرهم مرتين: رجل كانت له جارية فأدّبها فأحسن تأديبها ثم أعتقها وتزوجها، ورجل من أهل الكتاب آمن بكتابه وآمن بمحمد ﷺ، وعبدٌ أحسن عبادةَ الله ونصحَ لسيِّده». قوله عزّ وجلّ: ﴿ **ويدرؤون بالحسنة السيئة** ﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما: يدفعون بشهادة أن لا إله إلاّ الله الشرك، قال مقاتل: يدفعون ما سمعوا من الأذى والشتم من المشركين بالصفح والعفو والمغفرة، ﴿ **مما رزقناهم ينفقون** ﴾، في الطاعة.

﴿ **وإذا سمعوا اللغو** ﴾، القبيح من القول، ﴿ **أعرضوا عنه** ﴾، وذلك أن المشركين كانوا يسبّون مؤمني أهل الكتاب ويقولون تبّاً لكم تركتم دينكم فيعرضون عنهم ولا يردّون عليهم، ﴿ **وقالوا لنا أعمالُنا ولكم أعمالكم** ﴾، لنا ديننا ولكم دينكم، ﴿ **سلامٌ عليكم** ﴾، ليس المراد منه سلام التحية ولكنه سلام المتاركة، معناه سلمتمُ منّا لا نُعاوضكم بالشتم والقبح من القول، ﴿ **لا نبتغي الجاهلين** ﴾، أي دين الجاهلين، يعني لا نحب دينكم الذي أنتم عليه. وقيل: لا نريد أن نكون من أهل الجهل والسَّعة، وهذا قبل أن يؤمر المسلمون بالقتال.

قوله تعالى: ﴿ **إنك لا تهدي مَن أحببت** ﴾، أي أحببت هدايته. وقيل: أحببته لقرابته، ﴿ **ولكن الله يهدي مَن يشاء وهو أعلم بالمهتدين** ﴾، قال مجاهد ومقاتل: بمَن قُدِّر له الهدى، نزلت في أبي طالب قال له النبي ﷺ: قل

الجهل والسفه وهذا قبل أن يؤمر المسلمون بالقتال ثم نسخ ذلك بالقتال. قوله تعالى ﴿**إنك لا تهدي من أحببت**﴾ أي هدايته وقيل أحببته لقرابته ﴿**ولكن الله يهدي من يشاء**﴾ وذلك أن الله تعالى يقذف في القلب نور الهداية فينشرح الصدر للإيمان ﴿**وهو أعلم بالمهتدين**﴾ أي بمن قدر له الهدى (م) عن أبي هريرة قال «إنك لا تهدي من أحببت، نزلت في رسول الله ﷺ حيث راود عمه أبا طالب على الإسلام وذلك أن النبي ﷺ قال لأبي طالب عند الموت: «يا عم قل لا إله إلا الله أشهد لك بها يوم القيامة قال لولا أن تعيرني قريش يقولون إنما حمله على ذلك الجزع لأقررت بها عينك» ثم أنشد:

ولقد علمت بأن دين محمد ... من خير أديان البرية دينا
لولا الملامة أو حذار مسبة ... لوجدتني سمحاً بذاك مبينا

ولكن على ملة الأشياخ عبدالمطلب وعبدمناف ثم مات فأنزل الله هذه الآية ﴿**وقالوا إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا**﴾ يعني نزلت في الحارث بن عثمان بن نوفل بن عبدمناف وذلك أنه قال للنبي ﷺ: إنا لنعلم أن الذي تقول حق ولكن إن اتبعناك على دينك خفنا أن تخرجنا العرب من أرض مكة قال الله تعالى ﴿**أو لم نمكن لهم حرماً آمناً**﴾ وذلك أن العرب كانت في الجاهلية يغير بعضهم على بعض ويقتل بعضهم بعضاً وأهل مكة آمنون حيث كانوا لحرمة الحرم. ومن المعروف أنه كان تأمن فيه الظباء من الذئاب والحمام من الحدأة ﴿**يجبى إليه**﴾ يعني يجلب ويجمع إليه ويحمل إلى الحرم من الشام ومصر والعراق واليمن ﴿**ثمرات كل شيء رزقاً من لدنا ولكن أكثرهم لا يعلمون**﴾ يعني أن أكثر أهل مكة لا يعلمون ذلك. قوله عز وجل ﴿**وكم أهلكنا من قرية**﴾ يعني من أهل قرية ﴿**بطرت معيشتها**﴾ ي أشرت وطغت وقيل عاشوا في البطر فأكلوا رزق الله وعبدوا الأصنام ﴿**فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلاً**﴾ قال ابن عباس: لم يسكنها إلا المسافرون سكوناً قليلاً وقيل لم يعمروا منها إلا أقلها وأكثرها خراب ﴿**وكنا نحن**

لا إلَه إلّا الله أشهد لك بها يوم القيامة، قال: لولا أن تعيّرني قريش يقولون إنما حمله على ذلك الجزع لأقررتُ بها عينك، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

﴿ **وقالوا إنْ نتَّبعِ الهُدَى معكَ نُتَخطَّفَ من أرضنا** ﴾، أرض مكة، نزلت في الحرث بن عثمان بن نوفل بن عبد مناف وذلك أنه قال للنبي ﷺ: إنّا لنعلم أن الذي تقول حق ولكنّا إن اتّبعناك على دينك خفنا أن تخرجنا العرب من أرضنا مكة، وهو معنى قوله: ﴿ **نتخطف من أرضنا** ﴾، والاختطاف الانتزاع بسرعة، قال الله تعالى: ﴿ **أوَ لم نمكّنْ لهم حرماً آمناً** ﴾، وذلك أن العرب في الجاهلية كانت تُغِير بعضهم عَلى بعض ويقتل بعضهم بعضاً وأهل مكة آمنون حيث كانوا، لحُرمة الحرم، ومن المعروف أنه كان يأمن فيه الظباء من الذئاب والحمام من الحدأة، ﴿ **يُجْبَى** ﴾، قرأ أهل المدينة ويعقوب: (تجبى) بالتاء لأجل الثمرات، والآخرون بالياء للحائل بين الاسم المؤنث والفعل، أي يجلب ويجمع، ﴿ **إليه** ﴾، يقال: جبيت الماء في الحوض أي جمعته، قال مقاتل: يحمل إلى الحرم، ﴿ **ثمرات كل شيء رزقاً منْ لدنّا ولكنّ أكثرهم لا يعلمون** ﴾، أنّ ما يقوله حق.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ **وكم أهلكنا من قرية** ﴾ أي من أهل قرية، ﴿ **بطرت معيشتها** ﴾، أي في معيشتها، أي أشرت وطغت، قال عطاء: عاشوا في البطر فأكلوا رزق الله وعبدوا الأصنام، ﴿ **فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلاّ قليلاً** ﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما: لم يسكنها إلاّ المسافرون وما رأوا الطريق يوماً أو ساعة، معناه لم تسكن من بعدهم إلاّ سكوناً قليلاً. وقيل: معناه لم يعمر منها إلاّ أقلّها وأكثرها خراب، ﴿ **وكنّا نحن الوارثين** ﴾، كقوله: ﴿ إنّا نحن نرث الأرض ومَن عليها ﴾ [مريم: ٤٠].

الوارثين﴾ يعني لم يخلفهم فيها أحد بعد هلاكهم وصار أمرها إلى الله تعالى لأنه الباقي بعد فناء الخلق **﴿وما كان ربك مهلك القرى﴾** يعني الكافرة أهلها **﴿حتى يبعث في أمها رسولاً﴾** ينذرهم وخص الأم ببعثة الرسول لأنه يبعث إلى الأشراف وهم سكان المدن وقيل حتى يبعث في أم القرى وهي مكة رسولاً يعني محمداً ﷺ لأنه خاتم الأنبياء **﴿يتلو عليهم آياتنا﴾** أي أنه يؤدي إليهم ويبلغهم وقيل يخبرهم أن العذاب نازل بهم إن لم يؤمنوا **﴿وما كنا مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون﴾** أي مشركون.

قوله عز وجل **﴿وما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا وزينتها﴾** أي تتمتعون بها أيام حياتكم ثم هي إلى فناء وانقضاء **﴿وما عند الله خير وأبقى﴾** لأن منافع الآخرة خالصة عن الشوائب وهي دائماً غير منقطعة ومنافع الدنيا كالذرة بالقياس إلى البحر العظيم **﴿أفلا تعقلون﴾** أي أن الباقي خير من الفاني وقيل من لم يرجح الآخرة على الدنيا فليس بعاقل. ولهذا قال الشافعي: من أوصى بثلث ماله لأعقل الناس صرف ذلك الثلث إلى المشتغلين بطاعة الله لأن أعقل الناس من أعطي القليل وأخذ الكثير وما هم إلا المشتغلون بطاعة الله تعالى **﴿أفمن وعدناه وعداً حسناً﴾** يعني الجنة **﴿فهو لاقيه﴾** أي مصيبه وصائر إليه **﴿كمن متعناه متاع الحياة الدنيا﴾** أي وتزول عنه عن قريب **﴿ثم هو يوم القيامة من المحضرين﴾** أي في النار، قيل هذا في المؤمن والكافر وقيل نزلت في النبي ﷺ وأبي جهل، وقيل في علي وحمزة وأبي جهل وقيل في عمار بن ياسر والوليد بن المغيرة. قوله عز وجل:

وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ۖ تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ وَقِيلَ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۚ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿٦٦﴾ فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ

﴿ وما كان ربك مُهلِك القرى ﴾، أي القرى الكافر أهلها، **﴿حتى يبعث في أُمها رسولاً﴾**، يعني في أكبرها وأعظمها رسولاً ينذرهم وخصّ الأعظم ببعثة الرسول فيها، لأن الرسول يبعث إلى الأشراف والأشراف يسكنون المدائن، والمواضع التي هي أمّ ما حولها، **﴿يتلوا عليهم آياتنا﴾**، قال مقاتل: يخبرهم الرسول أن العذاب نازل بهم إن لم يؤمنوا، **﴿ وما كنّا مُهلِكي القرى إلاّ وأهلها ظالمون ﴾**، مشركون، يريد أهلكهم بظلمهم.

﴿ وما أُوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا وزينتها ﴾، تتمتعون بها أيام حياتكم ثم هي إلى فناء وانقضاء، **﴿ وما عند الله خير وأبقى أفلا تعقلون ﴾**، أن الباقي خير من الفاني، قرأ عامّة القرّاء: **﴿ تعقلون ﴾** بالتاء وأبو عمرو بالخيار بين التاء والياء.

﴿ أفمنْ وعدناه وعداً حسناً ﴾، أي الجنة، **﴿ فهو لاقيه ﴾**، مصيبه ومدركه وصائر إليه، **﴿ كمَن متّعناه متاع الحياة الدنيا ﴾**، ويزول عن قريب **﴿ ثم هو يوم القيامة من المحضرين ﴾**، النار قال قتادة يعني المؤمن والكافر، قال مجاهد: نزلت في النبي ﷺ وأبي جهل، وقال محمد بن كعب نزلت في حمزة وعلي وأبي جهل، وقال السدي: نزلت في عمّار والوليد بن المغيرة.

تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا
تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ
يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ
وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾
وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾

﴿**ويوم يناديهم فيقول أين شركائي الذين كنتم تزعمون**﴾ أي في الدنيا أنهم من شركائي ﴿**قال الذين حق عليهم القول**﴾ أي وجب عليهم العذاب وهم رؤوس الضلالة ﴿**ربنا هؤلاء الذين أغوينا**﴾ أي دعوناهم إلى الغي وهم الأتباع ﴿**أغويناهم كما غوينا**﴾ أي أضللناهم كما ضللنا ﴿**تبرأنا إليك ما كانوا إيانا يعبدون**﴾ معناه تبرأ بعضهم من بعض وصاروا أعداء ﴿**وقيل**﴾ يعني للكفار ﴿**ادعوا شركاءكم**﴾ أي الأصنام لتخلصكم من العذاب ﴿**فدعوهم فلم يستجيبوا لهم**﴾ أي لم يجيبوهم ﴿**ورأوا العذاب لو أنهم كانوا يهتدون**﴾ معناه لو أنهم كانوا يهتدون في الدنيا ما رأوا العذاب في الآخرة ﴿**ويوم يناديهم**﴾ أي يسأل الكفار ﴿**فيقول ماذا أجبتم المرسلين**﴾ أي ما كان جوابكم لمن أرسل إليكم من النبيين ﴿**فعميت عليهم**﴾ أي خفيت واشتبهت عليهم ﴿**الأنباء**﴾ يعني الأخبار والأعذار والحجج ﴿**يومئذ**﴾ فلم يكن لهم عذر ولا حجة ﴿**فهم لا يتساءلون**﴾ أي لا يجيبون ولا يحتجون وقيل يسكتون فلا يسأل بعضهم بعضاً ﴿**فأما من تاب وآمن وعمل صالحاً فعسى أن يكون من المفلحين**﴾ أي من السعداء الناجين وعسى من الله واجب.

﴿ **ويوم يناديهم فيقول أين شركائي الذين كنتم تزعمون** ﴾، في الدنيا أنهم شركائي.

﴿ **قال الذين حقَّ عليهم القول** ﴾، وجب عليهم العذاب وهم رؤوس الضلالة، ﴿ **ربّنا هؤلاء الذين أغوينا** ﴾، أي دعوناهم إلى الغنى وهم الأتباع، ﴿ **أغويناهم كما غوينا** ﴾، أضللناهم كما ضللنا، ﴿ **تبرأنا إليك** ﴾، منهم، ﴿ **ما كانوا إيّانا يعبدون** ﴾، برىء بعضهم من بعض وصاروا أعداء كما قال تعالى: ﴿ **الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو** ﴾ [الزخرف: ٦٧].

﴿ **وقيل** ﴾، للكفّار، ﴿ **ادعوا شركاءكم** ﴾، أي الأصنام لتخلّصكم من العذاب، ﴿ **فدعوهم فلم يستجيبوا لهم** ﴾، لم يجيبوهم، ﴿ **ورأوا العذاب لو أنهم كانوا يهتدون** ﴾، وجواب لو محذوف على تقدير لو أنهم كانوا يهتدون في الدنيا ما رأوا العذاب.

﴿ **ويوم يناديهم** ﴾، أي يسأل الله الكفّار، ﴿ **فيقول ماذا أجبتم المرسلين** ﴾.

﴿ **فعميت** ﴾، خفيت واشتبهت، ﴿ **عليهم الأنباء** ﴾، أي الأخبار والأعذار، وقال مجاهد: الحجج، ﴿ **يومئذ** ﴾ فلا يكون لهم عذر ولا حجة، ﴿ **فهم لا يتساءلون** ﴾: لا يجيبون، وقال قتادة: لا يحتجّون، وقيل: يسكتون لا يسأل بعضهم بعضاً.

﴿ **فأما مَن تاب وآمن وعمل صالحاً فعسى أن يكون من المفلحين** ﴾، من السعداء الناجين.

قوله تعالى: ﴿ **وربُّك يخلق ما يشاء ويختار** ﴾، نزلت هذه الآية جواباً للمشركين حين قالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم يعني الوليد بن المغيرة أو عروة بن مسعود الثقفي، أخبر الله تعالى أنه لا يبعث الرسل باختيارهم. قوله عزّ وجلّ: ﴿ **ما كان لهم الخيرة** ﴾، قيل: ﴿ **ما** ﴾ للإثبات، معناه: ويختار الله ما كان لهم

قوله تعالى ﴿وربك يخلق ما يشاء ويختار﴾ نزلت هذه الآية جواباً للمشركين حين قالوا «لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم» يعني الوليد بن المغيرة أو عروة بن مسعود الثقفي أخبر الله تعالى أنه لا يبعث الرسل باختيارهم لأنه المالك المطلق وله أن يخص ما يشاء بما يشاء لا اعتراض البتة ﴿ما كان لهم الخيرة﴾ أي ليس لهم الاختيار، أو ليس لهم أن يختاروا على الله. وقيل معناه ويختار الله ما كان هو الأصلح والخير لهم فيه، ثم نزه الله تعالى نفسه فقال ﴿سبحان الله وتعالى عما يشركون وربك يعلم ما تكن﴾ أي تخفي ﴿صدورهم وما يعلنون﴾ أي يظهرون ﴿وهو الله لا إله إلا هو له الحمد في الأولى والآخرة﴾ أي يحمده أولياؤه في الدنيا ويحمدونه في الآخرة في الجنة ﴿وله الحكم﴾ أي فصل القضاء بين الخلق وقال ابن عباس يحكم لأهل طاعته بالمغفرة ولأهل المعصية بالشقاوة ﴿وإليه ترجعون﴾ قوله عز وجل ﴿قل﴾ أي قل يا محمد لأهل مكة ﴿أرأيتم﴾ يعني أخبروني ﴿إن جعل الله عليكم الليل سرمداً﴾ أي دائماً ﴿إلى يوم القيامة﴾ لا نهار فيه ﴿من إله غير الله يأتيكم بضياء﴾ أي بنهار تطلبون فيه المعيشة ﴿أفلا تسمعون﴾ أي سماع فهم وقبول ﴿قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمداً إلى يوم القيامة﴾ أي لا ليل فيه ﴿من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون﴾ أي ما أنتم عليه من الخطأ قيل إن من نعمة الله تعالى على الخلق أن جعل الليل والنهار يتعاقبان لأن المرء في حال الدنيا وفي حال التكليف مدفوع إلى التعب ليحصل ما يحتاج إليه ولا يتم له ذلك لولا ضوء النهار ولأجله يحصل الاجتماع فتمكن المعاملات ومعلوم أن ذلك لا يتم إلا بالراحة والسكون بالليل فلا بد منهما فأما في الجنة فلا تعب ولا نصب فلا حاجة بهم إلى الليل ولذلك يدوم لهم الضياء أبداً فبين الله تعالى أنه القادر على ذلك ليس غيره فقال ﴿ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار﴾ أي يتعاقبان بالظلمة والضياء

الخيرة، أي يختار ما هو الأصلح والخير. وقيل: هو للنفي أي ليس إليهم الاختيار أو ليس لهم أن يختاروا على الله كما قال تعالى: ﴿ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة ﴾ [الأحزاب: ٣٦]، والخيرة اسم من الاختيار يُقام مقام المصدر، وهي اسم للمختار أيضاً كما يُقال: محمدٌ خيرةُ اللّهِ من خلقه، ثم نزّه نفسه فقال: ﴿ سبحانَ الله وتعالى عمّا يشركون ﴾.

﴿ وربُّك يعلم ما تُكِنّ صدورهم وما يُعلنون ﴾، يُظهرون .

﴿ وهو الله لا إلَه إلاّ هو له الحمد في الأُولى والآخرة ﴾، يحمده أولياؤه في الدنيا ويحمدونه في الآخرة في الجنة، ﴿ وله الحكم ﴾، فصل القضاء بين الخلق قال ابن عباس رضي الله عنهما: حكم لأهل طاعته بالمغفرة ولأهل معصيته بالشقاء، ﴿ وإليه ترجعون ﴾.

قوله: ﴿ قلْ أرأيتم ﴾، أخبروني يا أهل مكة، ﴿ إنْ جعل الله عليكم الليل سرمداً ﴾، دائماً، ﴿ إلى يوم القيامة ﴾، لا نهارَ معه، ﴿ مَنْ إلَهٌ غيرُ الله يأتيكم بضياء ﴾، بنهار تطلبون فيه المعيشة، ﴿ أفلا تسمعون ﴾، سماع فهم وقبول.

﴿ قل أرأيتم ﴾ أخبروني يا أهل مكة ﴿ إنْ جعل الله عليكم النهار سرمداً إلى يوم القيامة ﴾، لا دليل فيه، ﴿ مَنْ إلَهٌ غيرُ الله يأتيكم بليلٍ تسكنون فيه أفلا تُبصرون ﴾، ما أنتم عليه من الخطأ.

﴿ ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ﴾، أي في الليل، ﴿ ولتبتغوا من فضله ﴾، بالنهار، ﴿ ولعلّكم تشكرون ﴾، نِعَم الله عزّ وجلّ.

﴿ ويوم يناديهم فيقول أين شركائي الذين كنتم تزعمون ﴾، كرّر ذكر النداء للمشركين لزيادة التقريع والتوبيخ.

﴿لتسكنوا فيه﴾ أي في الليل ﴿ولتبتغوا من فضله﴾ أي بالنهار ﴿ولعلكم تشكرون﴾ أي نعم الله فيهما ﴿ويوم يناديهم فيقول أين شركائي الذين كنتم تزعمون﴾ كرر ذلك النداء للمشركين لزيادة التقريع والتوبيخ ﴿ونزعنا﴾ يعني أخرجنا وقيل ميزنا ﴿من كل أمة شهيداً﴾ يعني رسولهم يشهد عليهم بأنه بلغهم رسالة ربهم ونصح لهم ﴿فقلنا﴾ يعني للأمم المكذبة لرسلهم ﴿هاتوا برهانكم﴾ أي حجتكم بأن معي شريكاً ﴿فعلموا أن الحق لله﴾ أي التوحيد لله ﴿وضل عنهم ما كانوا يفترون﴾ أي يختلقون في الدنيا من الكذب على الله. قوله عز وجل:

﴿إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَـٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾

﴿إن قارون كان من قوم موسى﴾ قيل كان ابن عم موسى لأنه قارون بن يصهر بن قاهث بن لاوي بن يعقوب وموسى بن عمران بن قاهث. وقيل كان عم موسى ولم يكن في بني إسرائيل أقرأ منه للتوراة ولكنه نافق كما نافق السامري ﴿فبغى عليهم﴾ قيل كان عاملاً لفرعون على بني إسرائيل فظلمهم وبغى عليهم وقيل بغى عليهم بكثرة ماله وقيل زاد في طول ثيابه شبراً (ق) عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «لا ينظر الله يوم القيامة إلى من جر ثيابه خيلاء». أخرجاه في الصحيحين وقيل بغى عليهم بالكبر والعلو ﴿وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه﴾ جمع مفتح وهو الذي يفتح به الباب وقيل مفاتحه يعني خزائنه ﴿لتنوء بالعصبة أولي القوة﴾ معناه لتثقلهم وتميل بهم إذا حملوها لتثقلها. قيل

﴿ ونزعنا ﴾، أخرجنا، ﴿ من كل أمة شهيداً ﴾، يعني رسولهم الذي أرسل إليهم كما قال فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد، ﴿ فقلنا هاتوا برهانكم ﴾، حجّتكم بأن معي شريكاً. ﴿ فعلموا أن الحق ﴾، التوحيد، ﴿ لله وضلّ عنهم ما كانوا يفترون ﴾، في الدنيا.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ إنّ قارون كان من قوم موسى ﴾. كان ابن عمّه لأنه قارون بن يصهر بن قاهث بن لاوى بن يعقوب عليه السلام، وموسى بن عمران بن قاهث، وقال ابن إسحاق: كان قارون عمّ موسى كان أخا عمران، وهما ابنا يصهر، ولم يكن في بني إسرائيل أقرأ للتوراة من قارون، ولكنه نافق كما نافق السامري، ﴿ فبغى عليهم ﴾، قيل كان عاملاً لفرعون على بني إسرائيل، فكان يبغي عليهم ويظلمهم، وقال قتادة: بغى عليهم بكثرة المال. وقال الضحاك: بغى عليهم بالشرك، وقال شهر بن حوشب: زاد في طول ثيابه شبراً وروينا عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «مَن جرّ ثوبه خيلاء لم ينظر الله إليه يوم القيامة»، وقيل: بغى عليهم بالكبر والعلو، ﴿ وآتيناه من الكنوز ما إنّ مفاتِحه ﴾، هي جمع مفتح وهو الذي يفتح به الباب، هذا قول قتادة ومجاهد وجماعة، وقيل: مفاتح خزائنه، كما قال: ﴿ وعنده مفاتح الغيب ﴾ [الأنعام: ٥٩] أي خزائنه، ﴿ لَتَنُوءُ بالعُصْبَةِ أُولي القوّة ﴾، لتثقلهم أي وتميل بهم إذا حملوها لثقلها، قال أبو عبيدة: هذا من المقلوب تقديره ما إن العصبة لتنوء بها، يقال ناء فلان بكذا إذا نهض به مثقلاً، واختلفوا في عدد العصبة، قال مجاهد: ما بين العشرة إلى خمسة عشر، وقال

العصبة ما بين العشرة إلى الخمسة عشر وقال ابن عباس: ما بين الثلاثة إلى العشرة وقيل إلى الأربعين. وقيل إلى السبعين قال ابن عباس: كان يحمل مفاتيحه أربعون رجلاً أقوى ما يكون من الرجال وقيل كان قارون أينما ذهب تحمل معه مفاتيح كنوزه وكانت من حديد فلما كثرت وثقلت عليه جعلها من خشب فثقلت فجعلها من جلود البقر كل مفتاح على قدر الأصبع وكانت تحمل معه إذا ركب على أربعين بغلاً ﴿إذ قال له قومه لا تفرح﴾ يعني لا تبطر ولا تأشر ولا تمرح ﴿إن الله لا يحب الفرحين﴾ يعني الأشرين البطرين الذين لا يشكرون الله على ما أعطاهم قيل إنه لا يفرح بالدنيا إلا من رضي بها واطمأن إليها فأما من يعلم أنه سيفارق الدنيا عن قريب لم يفرح ولقد أحسن من قال:

أشد الغم عندي في سرور ... تيقن عنه صاحبه انتقالا

﴿وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة﴾ يعني اطلب فيما أعطاك الله من الأموال الجنة وهو أن تقوم بشكر الله فيما أنعم عليك وتنفقه في رضا الله ﴿ولا تنس نصيبك من الدنيا﴾ أي لا تترك أن تعمل في الدنيا للآخرة حتى تنجو من العذاب لأن حقيقة نصيب الإنسان من الدنيا أن يعمل فيها للآخرة بالصدقة وصلة الرحم وقيل لا تنس صحتك وقوتك

الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما: ما بين الثلاثة إلى العشرة. وقال قتادة: ما بين العشرة إلى الأربعين. وقيل: أربعون رجلاً. وقيل: سبعون. ورُوِيَ عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان يحمل مفاتحه أربعون رجلاً أقوى ما يكون من الرجال. وقال جرير عن منصور عن خيثمة، قال وجدت في الإنجيل أن مفاتيح خزائن قارون وقر ستّين بغلاً ما يزيد منها مفتاح على أصبع لكل مفتاح كنز، ويقال: كان قارون أينما ذهب يحمل معه مفاتيح كنوزه وكانت من حديد فلما ثقلت عليه جعلها من خشب فثقلت فجعلها من جلود البقر على طول الأصابع وكانت تُحمَل معه إذا ركب على أربعين بغلاً، ﴿ إذْ قال له قومُه ﴾، قال لقارون قومه من بني إسرائيل، ﴿ لا تفرح ﴾، لا تبطر ولا تأشر ولا تمرح، ﴿ إنّ الله لا يحبّ الفرحين ﴾، الأشرين البطرين الذين لايشكرون الله على ما أعطاهم.

﴿ وابتغِ فيما آتاكَ اللّهُ الدارَ الآخرة ﴾، اطلب فيما أعطاك الله من الأموال والنعمة الجنة وهو أن تقوم بشكر الله فيما أنعم عليك وتنفقه في رضا الله، ﴿ ولا تنسَ نصيبك من الدنيا ﴾، قال مجاهد وابن زيد: لا تترك أن تعمل في الدنيا للآخرة حتى تنجو من العذاب لأن حقيقة نصيب الإنسان من الدنيا أن يعمل للآخرة. وقال السدي: بالصدقة وصلة الرحم، وقال علي: لا تنسَ صحتك وشبابك وغِناك أن تطلب بها الآخرة، أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أبو الحسن أحمد بن محمد بن شاذان أنا أبو يزيد حاتم بن محبوب الشامي أنا الحسن المروزي أنا عبد الله بن المبارك أنا جعفر بن برقان عن زياد بن الجراح عن عمرو بن ميمون الأزدي قال: قال رسول الله ﷺ لرجل وهو يعظه: «اغتنم خمساً قبل خمس: شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك» الحديث صحيح مُرسَل، قال الحسن أمر أن يقدّم الفضل ويمسك ما يُغنيه، قال منصور بن زاذان في قوله: ﴿ ولا تنسَ نصيبك من الدنيا ﴾ قال قوتك وقوت أهلك، ﴿ وأحسنْ كما أحسنَ الله إليك ﴾، أي أحسن بطاعة الله كما أحسن الله إليك بنعمته وقيل: أحسنْ إلى الناس كما أحسنَ الله إليك، ﴿ ولا تبغِ ﴾، لا تطلب، ﴿ الفسادَ في الأرض ﴾، وكل مَن عصى الله فقد طلب الفساد في الأرض، ﴿ إن الله لا يحبّ المفسدين ﴾.

﴿ قال ﴾، يعني قارون، ﴿ إنما أُوتيتهُ على علم عندي ﴾ أي على فضل وخير علمه الله عندي فرآني أهلاً لذلك ففضّلني بهذا المال عليكم كما فضّلني بغيره، قيل: هو علم الكيمياء، قال سعيد بن المسيب: كان موسى يعلم الكيمياء فعلم يوشع بن نون ثلث ذلك العلم وعلم كالب بن يوقنا ثلثه وعلم قارون ثلثه، فخدعهما قارون حتى أضاف علمهما إلى علمه وكان ذلك سبب أمواله. وقيل: ﴿ على علم عندي ﴾ بالتصرّف في التجارات والزراعات

وشبابك وغناك أن تطلب بها الآخرة. عن عمرو بن ميمون الأزدي قال: قال رسول الله ﷺ لرجل وهو يعظه: «اغتنم خمساً قبل خمس شبابك قبل هرمك وصحتك قبل سقمك وغناك قبل فقرك وفراغك قبل شغلك وحياتك قبل موتك» هذا حديث مرسل وعمرو بن ميمون لم يلق النبي ﷺ **﴿وأحسن كما أحسن الله إليك﴾** أي أحسن بطاعة الله كما أحسن إليك بنعمته وقيل أحسن إلى الناس **﴿ولا تبغ﴾** أي ولا تطلب **﴿الفساد في الأرض﴾** وكل من عصى الله فقد طلب الفساد في الأرض **﴿إن الله لا يحب المفسدين قال﴾** يعني قارون **﴿إنما أوتيته على علم عندي﴾** أي على فضل وخير علمه الله عندي فرآني أهلاً لذلك ففضلني بهذا المال عليكم كما فضلني بغيره. وقيل هو علم الكيمياء وكان موسى يعلمه فعلم يوشع بن نون ثلث ذلك العلم وعلم كالب بن يوقنا ثلثه وعلم قارون ثلثه فخدعهما قارون حتى أضاف علمهما إلى علمه، فكان يصنع من الرصاص فضة ومن النحاس ذهباً وكان ذلك سبب كثرة أمواله وقيل كان علمه حسن التصرف في التجارات والزراعات وأنواع المكاسب قال الله عز وجل **﴿ألم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعاً﴾** أي للأموال **﴿ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون﴾** قيل معناه أن الله تعالى إذا أراد عقاب المجرمين فلا حاجة به إلى سؤالهم لأنه عالم بحالهم وقيل لا يسألون سؤال استعلام وإنما يسألون سؤال توبيخ وتقريع وقيل لا تسأل الملائكة عنهم لأنهم يعرفونهم بسيماهم. قوله عز وجل **﴿فخرج على قومه في زينته﴾** قيل: خرج هو وقومه وهم سبعون ألفاً عليهم الثياب الحمر والصفر والمعصفرات وقيل خرج على براذين بيض عليها سرج الأرجوان. وقيل: خرج على بغلة شهباء عليها سرج من ذهب وعليه الأرجوان ومعه أربعة آلاف فارس وعليهم وعلى دوابهم الأرجوان ومعه ثلاثمائة جارية بيضاء عليهم الحلي والثياب الحمر وهن على البغال الشهب **﴿قال الذين يريدون الحياة الدنيا يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون إنه لذو حظ عظيم﴾** أي من المال.

وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْاْ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾

﴿الذين أوتوا العلم﴾ أي بما وعد الله في الآخرة وقال ابن عباس: يعني الأحبار من بني إسرائيل للذين تمنوا مثل

وأنواع المكاسب. قوله تعالى: **﴿ أوَ لَمْ يعلم أن الله قد أهلكَ مِنْ قبله من القرون ﴾**، الكافرة، **﴿ مَنْ هو أشدّ منه قوة وأكثر جمعاً ﴾**، للأموال، **﴿ ولا يسئل عن ذنوبهم المجرمون ﴾**، قال قتادة: يدخلون النار بغير حساب ولا سؤال، وقال مجاهد: يعني لا يسأل الملائكة عنهم لأنهم يعرفونهم بسيماهم. قال الحسن: لا يسألون سؤال استعلام وإنما يسألون سؤال تقريع وتوبيخ.

﴿ فخرج على قومه في زينته ﴾، قال إبراهيم النخعي خرج هو وقومه في ثياب حمر وصفر، قال ابن زيد: في سبعين ألفاً عليهم المعصفرات. قال مجاهد: على براذين بيض عليها سرج الأرجوان. قال مقاتل: خرج على بغلة شهباء عليها سرج من ذهب عليه الأرجوان ومعه أربعة آلاف فارس عليهم وعلى دوابّهم الأرجوان، ومعه ثلثمائة جارية بيض عليهنّ الحلي والثياب الحمر وهنّ على البِغال الشُهب، **﴿ قال الذين يريدون الحياة الدنيا يا ليت لنا مثل ما أُوتي قارون إنّه لذُة حظٍّ عظيم ﴾**، من المال.

﴿ وقال الذين أُوتوا العلم ﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما: يعني الأحْبار من بني إسرائيل. وقال مقاتل:

ما أوتي قارون ﴿**ويلكم ثواب الله**﴾ أي ما عند الله من الثواب والخير ﴿**خير لمن آمن**﴾ أي صدق بتوحيد الله ﴿**وعمل صالحاً**﴾ أي ذلك خير مما أوتي قارون في الدنيا ﴿**ولا يلقاها إلا الصابرون**﴾ أي لا يؤتى الأعمال الصالحة إلا الصابرون وقيل لا يؤتى هذه الكلمة وهي قوله ﴿ويلكم ثواب الله خير﴾ ﴿إلا الصابرون﴾ أي على طاعة الله وعن زينة الدنيا. قوله تعالى ﴿**فخسفنا به وبداره الأرض**﴾.

ذكر قصة قارون

قال أهل العلم بالأخبار والسير: كان قارون أعلم بني إسرائيل بعد موسى وهارون وأقرأهم للتوراة وأجملهم وأغناهم. وكان حسن الصوت فبغى وطغى وكان أول طغيانه وعصيانه أن الله تعالى أوحى إلى موسى أن يأمر قومه أن يعلقوا في أرديتهم خيوطاً أربعة في كل طرف خيطاً أخضر كلون السماء يذكرونني به إذا نظروا إلى السماء ويعلمون أني منزل منها كلامي. فقال موسى: يا رب أفلا تأمرهم أن يجعلوا أرديتهم كلها خضراً فإن بني إسرائيل تستصغر هذه الخيوط فقال له ربه يا موسى إن الصغير من أمري ليس بصغير فإذا لم يطيعوني في الأمر الصغير لم يطيعوني في الأمر الكبير فدعاهم موسى فقال إن الله يأمركم أن تعلقوا في أرديتكم خيوطاً كلون السماء لكي تذكروا ربكم إذا رأيتموها ففعل بنو إسرائيل ما أمرهم به موسى واستكبر قارون فلم يطعه وقال: إنما يفعل هذا الأرباب بعبيدهم لكي يتميزوا عن غيرهم فكان هذا بدء عصيانه وبغيه فلما قطع موسى ببني إسرائيل البحر جعلت الحبورة لهارون، وهي رئاسة المذبح

أُوتوا العلم بما وعد الله في الآخرة قالوا للّذين تمنّوا مثل ما أُوتي قارون في الدنيا. ﴿ **ويلكم ثواب الله خير** ﴾، يعني ما عند الله من الثواب والجزاء خير ﴿ **لمَن آمن** ﴾، وصدّق بتوحيد الله، ﴿ **وعمل صالحاً** ﴾، مما أُوتي قارون في الدنيا، ﴿ **ولا يلقاها إلاّ الصابرون** ﴾، قال مقاتل: لا يؤتاها يعني الأعمال الصالحة. وقال لكلبي لا يعطاها في الآخرة. وقيل: لا يؤتى هذه الكلمة وهي قوله ويلكم ثواب الله خير إلاّ الصابرون على طاعة الله وعن زينة الدنيا.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ **فخسفنا به وبداره الأرض** ﴾، قال أهل العلم بالأخبار: كان قارون أعلم بني إسرائيل بعد موسى وهارون عليهما السلام وأقرأهم للتوراة وأجملهم وأغناهم وكان حسن الصوت فبغى وطغى، وكان أول طغيانه وعصيانه أن الله أوحى إلى موسى أن يؤمر قومه أن يعلّقوا في أرديتهم خيوطاً أربعة في كل طرف خيطاً أخضر كلون السماء يذكرونني به إذا نظروا إلى السماء ويعلمون أنّ مُنزِل منها كلامي، فقال موسى: يا رب أفلا تأمرهم أن يجعلوا أرديتهم كلها خضراً فإن بني إسرائيل تحقّر هذه الخيوط، فقال له ربّه: يا موسى إن الصغير من أمري ليس بصغير فإذا هم لم يطيعوني في الأمر الصغير لم يطيعوني في الأمر الكبير، فدعاهم موسى عليه السلام وقال: إن الله يأمركم أن تعلّقوا في أرديتكم خيوطاً خضراً كلون السماء لكي تذكروا ربكم إذا رأيتموها ففعلت بنو إسرائيل ما أمرهم به موسى واستكبر قارون فلم يُطِعْه وقال إنما يفعل هذه الأرباب بعبيدهم لكي يتميّزوا عن غيرهم فكان هذا بدء عصيانه وبغيه فلما قطع موسى ببني إسرائيل البحر جعلت الحبورة لهارون وهي رياسة المذبح فكان بنو إسرائيل يأتون بهديهم إلى هارون فيضعه على المذبح فتنزل نار من السماء فتأكله، فوجد قارون من ذلك من نفسه وأتى موسى فقال: يا موسى لك الرسالة ولهارون الحبورة ولست في شيء من ذلك، وأنا أقرأ التوراة لا صبر لي على هذا، فقال له موسى: ما أنا جعلتها في هارون بل الله جعلها له، فقال قارون: والله لا أصدقك حت تُريني بيانه فجمع موسى رؤوس بني إسرائيل فقال هاتوا عصيكم فحزمها وألقاها في قبّته التي كان يعبد الله فيها، فجعلوا يحرسون عصيهم حتى أصبحوا فأصبحت عصا هارون قد اهتزّ لها ورق أخضر وكانت من شجر اللوز، فقال موسى: يا قارون ترى هذا؟ فقال قارون: والله ما هذا بأعجب مما تصنع من السحر، واعتزل قارون موسى بأتباعه، وجعل

فكان بنو إسرائيل يأتون بقربانهم إلى هارون فيضعها على المذبح فتنزل نار من السماء فتأكله فوجد قارون من ذلك في نفسه فأتى إلى موسى فقال له يا موسى لك الرسالة ولهارون الحبورة ولست في شيء من ذلك، وأنا أقرأ التوراة لا صبر لي على هذا فقال أما أنا ما جعلتها لهارون بل الله جعلها له فقال له قارون: والله لا أصدقك حتى تريني بيانه فجمع موسى رؤساء بني إسرائيل فقال هاتوا عصيكم فحزمها وألقاها في قبته التي يتعبد فيها وجعلوا يحرسون عصيهم حتى أصبحوا فأصبحت عصا هارون قد اهتز لها ورق أخضر وكانت من شجر اللوز فقال موسى يا قارون ترى هذا فقال له قارون والله ما هذا بأعجب مما تصنع من السحر واعتزل قارون موسى بأتباعه وجعل موسى يداريه للقرابة التي بينهما وهو يؤذيه كل وقت ولا يزيد إلا عتواً وتجبراً ومعاداة لموسى حتى بنى داراً وجعل لها باباً من الذهب. وضرب على جدرانها صفائح الذهب وكان الملأ من بني إسرائيل يغدون ويروحون فيطعمهم الطعام ويحدثونه ويضاحكونه.

قال ابن عباس: فلما نزلت الزكاة على موسى أتاه قارون فصالحه على كل ألف دينار عنها دينار وعلى كل ألف درهم عنها درهم وكل ألف شاة عنها شاة وكذلك سائر الأشياء ثم رجع إلى بيته فحسبه فوجده شيئاً كثيراً فلم تسمح نفسه بذلك فجمع بني إسرائيل وقال لهم إن موسى قد أمركم بكل شيء فأطعتموه وهو يريد أن يأخذ أموالكم فقالوا: أنت كبيرنا فمرنا بما شئت قال آمركم أن تجيئوا فلانة البغي وتجعلوا عليكم لها جعلاً على أن تقذف موسى بنفسها فإذا فعلت ذلك خرج عليه بنو إسرائيل فرفضوه فدعوها فجعل لها قارون ألف دينار وألف درهم. وقيل طستاً من ذهب

موسى يداريه للقرابة التي بينهما وهو يؤذيه في كل وقت ولا يزيد إلّا عتوّاً وتجبّراً ومعاداةً لموسى حتى بنى داراً وجعل بابها من الذهب، وضرب على جدرانها صفائح الذهب، وكان الملأ من بني إسرائيل يغدون إليه ويروحون فيطعمهم الطعام ويحدّثونه ويضاحكونه، قال ابن عباس رضي الله عنهما: فلما نزلت الزكاة على موسى أتاه قارون فصالحه عن كل ألف دينار على دينار، وعن كل ألف درهم على درهم، وعن كل ألف شاة على شاة، وعن كل ألف شيء على شيء، ثم رجع إله بيته فحسبه فوجده كثيراً فلم تسمح بذلك نفسه، فجمع بني إسرائيل فقال لهم: يا بني إسرائيل إن موسى قد أمركم بكل شيء فأطعتموه، وهو الآن يريد أن يأخذ أموالكم، فقالوا: أنت كبيرنا فمُرْنا بما شئت، فقال: آمركم أن تجيئوا بفلانة البغي فنجعل لها جعلاً حتى تقذف موسى بنفسها، فإذا فعلت ذلك خرج بنو إسرائيل عليه ورفضوه، فدعاها فجعل لها قارون ألف درهم، وقيل ألف دينار، وقيل طستاً من ذهب، وقيل قال لها إني أموّلك وأخلطك بنسائي على أن تقذفي موسى بنفسك غداً إذا حضر بنو إسرائيل، فلما كان من الغد جمع قارون بني إسرائيل ثم أتى موسى فقال: إن بني إسرائيل ينتظرون خروجك فتأمرهم وتنهاهم، فخرج إليهم موسى وهم في براح من الأرض، فقام فقال: يا بني إسرائيل مَن سرق قطعنا يده ومَن افترى جلدناه ثمانين، ومَن زنا وليست له امرأة جلدناه مائة، ومَن زنا وله امرأة رجمناه حتى يموت، فقال لـه قارون: وإن كنت أنتَ؟ قال: وإن كنتُ أنا، قال: فإن بني إسرائيل يزعمون أنك فجرت بفلانة فقال ادعوها فإن قالت فهو كما قالت، فلما جاءت قال لها موسى يا فلانة أنا فعلت بك ما يقول هؤلاء؟ وعظّم عليها القَسَم وسألها بالذي فلق البحر لبني إسرائيل وأنزل التوراة إلّا صدقت فتداركها الله تعالى بالتوفيق وقالت في نفسها أحدث اليوم توبة أفضل من أن أُوذي رسول الله ﷺ، فقالتْ لا كذبوا ولكن جعل لي قارون جعلاً على أن أقذفك بنفسي، فخرّ موسى ساجداً يبكي ويقول اللّهمّ إن كنتُ رسولك فاغضبْ لي، فأوحى الله تعالى: إني أمرتُ الأرض أن تطيعك، فمُرها بما شئت، فقال موسى: يا بني إسرائيل إن الله بعثني إلى قارون كما بعثني إلى فرعون فمَن كان معه فليثبت مكانه ومَن كان معي فليعتزل، فاعتزلوا ولم يبقَ مع قارون إلّا رجلان، ثم قال موسى: يا أرض خذيهم فأخذت الأرض بأقدامهم. وفي رواية: كان على سريره وفرشه

وقيل قال لها قارون أنزلك وأخلطك بنسائي على أن تقذفي موسى بنفسك غداً إذا حضر بنو إسرائيل فلما كان من الغد جمع قارون بني إسرائيل ثم أتى موسى فقال: إن بني إسرائيل ينتظرون خروجك لتأمرهم وتنهاهم فخرج إليهم موسى وهم في مرج من الأرض فقام فيهم فقال: يا بني إسرائيل من سرق قطعنا يده ومن افترى جلدناه ثمانين ومن زنى وليست له امرأة جلدناه مائة جلدة ومن زنى وله امرأة رجمناه إلى أن يموت فقال قارون وإن كنت أنت؟ قال: وإن كنت أنا قال فإن بني إسرائيل يزعمون أنك فجرت بفلانة البغي قال: ادعوها فلما جاءت قال لها موسى: بالذي فلق البحر لبني إسرائيل وأنزل التوراة إلا صدقت فتداركها الله بالتوفيق فقالت في نفسها أحدث توبة أفضل من أن أوذي رسول الله فقالت لا والله ولكن قارون جعل لي جعلاً على أن أقذفك بنفسي فخرّ موسى ساجداً يبكي. ويقول: اللهم إن كنت رسولك فاغضب لي فأوحى الله إليه أني أمرت الأرض أن تطيعك فمرها بما شئت فقال موسى: يا بني إسرائيل إن الله بعثني إلى قارون كما بعثني إلى فرعون فمن كان معه فليثبت مكانه ومن كان معي فليعتزل فاعتزلوا فلم يبق مع قارون إلا رجلان ثم قال موسى يا أرض خذيهم فأخذتهم بأقدامهم. وقيل كان على سريره وفرشه فأخذته الأرض حتى غيبت سريره ثم قال: يا أرض خذيهم فأخذتهم إلى الركب ثم قال يا أرض خذيهم فأخذتهم إلى الأوساط ثم قال يا أرض خذيهم فأخذتهم إلى الأعناق وأصحابه في ذلك يتضرعون إلى موسى ويناشده قارون الله والرحم، حتى قيل إنه ناشده أربعين مرة. وقيل سبعين مرة وموسى في ذلك لا يلتفت إليه لشدة غضبه ثم قال يا أرض خذيهم فأطبقت عليهم الأرض فأوحى الله إلى موسى ما أغلظ قلبك يستغيث بك قارون سبعين مرة فلم تغثه أما وعزتي وجلالي لو استغاث بي مرة لأغثته وفي بعض الآثار لا أجعل الأرض بعدك طوعاً لأحد.

قال قتادة خسف به الأرض فهو يتجلجل في الأرض كل يوم قامة رجل لا يبلغ قرارها إلى يوم القيامة وأصبح بنو إسرائيل يقولون فيما بينهم إنما دعا موسى على قارون ليستبد بداره وكنوزه وأمواله فدعا الله موسى حتى خسف بداره

فأخذته حتى غيّبت سريره ثم قال: يا أرض خذيهم فأخذتهم إلى الركب، ثم قال: يا أرض خذيهم فأخذتهم إلى الأوساط، ثم قال: يا أرض خذيهم فأخذتهم إلى الأعناق، وقارون وأصحابه في كل ذلك يتضرعون إلى موسى ويناشده قارون الله والرحم، حتى رُوِيَ أنه ناشده سبعين مرة وموسى عليه السلام في كل ذلك لا يلتفت إليه لشدّة غضبه، ثم قال: يا أرض خذيهم فانطبقت عليهم الأرض فأوحى الله إلى موسى ما أغلظ قلبك استغاث بك سبعين مرة فلم تغثه، أما وعزّتي وجلالي لو استغاث بي مرة لأغثته. وفي بعض الآثار: لا أجعل الأرض بعدك طوعاً لأحد. قال قتادة: خسف به فهو يتجلجل في الأرض كل يوم قامة رجل لا يبلغ قعرها إلى يوم القيامة. قال: وأصبحت بنو إسرائيل يتناجون فيما بينهم أن موسى إنما دعا على قارون ليستبدّ بداره وكنوزه وأمواله فدعا الله موسى حتى خسف بداره وكنوزه وأمواله الأرض، فذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿ **فخسفنا به وبداره الأرض** ﴾، ﴿ **فما كان له من فئة** ﴾، من جماعة، ﴿ **ينصرونه من دون الله** ﴾، يمنعونه من الله، ﴿ **وما كانوا من المتنَصِرين** ﴾ الممتنعين مما نزل به من الخسف.

﴿ **وأصبح الذين تمنّوا مكانه بالأمس** ﴾، صار أولئك الذين تمنّوا ما رزقه الله من المال والزينة يتندمون على على ذلك التمنّي، والعرب تعبّر عن الصيرورة بأضحى وأمسى وأصبح تقول أصبح فلان عالماً وأضحى معدماً وأمسى حزيناً، ﴿ **يقولون ويْكأنّ الله** ﴾، اختلفوا في معنى هذه اللفظة، قال مجاهد: ألم تعلم، وقال قتادة: ألم ترَ. قال الفرّاء: هي كلمة تقرير كقول الرجل أما ترى إلى صنع الله وإحسانه. وذكر أنه أخبره مَن سمع أعرابية تقول لزوجها: أين ابنك؟ فقال: ويكأنه وراء البيت، يعني أما ترينه وراء البيت. وعن الحسن: أنه كلمة ابتداء تقديره أن

وكنوزه وأمواله الأرض فذلك قوله تعالى ﴿فما كان له من فئة﴾ يعني جماعة ﴿ينصرونه من دون الله﴾ يعني يمنعونه من الله ﴿وما كان من المنتصرين﴾ من الممتنعين مما نزل به من الخسف ﴿وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس﴾ يعني صار أولئك الذين تمنوا ما رزقه الله من الأموال والزينة يندمون على ذلك التمني ﴿يقولون ويكأن الله﴾ ألم تعلم وقيل ألم تر. وقيل هي كلمة تقرير معناها أما ترى صنع الله وإحسانه وقيل ويك، بمعنى ويلك اعلم أن الله. وروي أن وي مفصولة من كأن والمعنى أن القوم ندموا فقالوا متندمين على ما سلف منهم وي وكأن معناها أظن وأقدر أن الله ﴿يبسط الرزق لمن يشاء من عبادة ويقدر﴾ قال ابن عباس أي يوسع لمن يشاء ويضيق على من يشاء ﴿لولا أن من الله علينا﴾ أي بالإيمان ﴿لخسف بنا ويكأنه لا يفلح الكافرون﴾ قوله عز وجل:

﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾ وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾﴾

﴿تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض﴾ أي استكباراً عن الإيمان وقيل علواً واستطالة على الناس وتهاوناً بهم وقيل يطلبون الشرف والعز عند ذي سلطان وعن علي أنها نزلت في أهل التواضع من الولاة وأهل المقدرة ﴿ولا فساداً﴾ قيل الذين يدعون إلى غير عبادة الله تعالى وقيل أخذ أموال الناس بغير حق وقيل العمل بالمعاصي ﴿والعاقبة للمتقين﴾ أي العاقبة المحمودة لمن اتقى عقاب الله بأداء أوامره واجتناب نواهيه وقيل عاقبة المتقين الجنة ﴿من جاء بالحسنة فله خير منها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الذين عملوا السيئات إلا ما كانوا يعملون﴾

الله يبسط الرزق. وقيل: هو تنبيه بمنزلة إلّا وقال قطرب ويك بمعنى ويلك حذفت اللام منه كما قال عنترة:

ولقـد شفى وأبـرأ سقمهـا قول الفوارس ويك عنتر أقدم

أي ويلك، وإن منصوب بإضمار، واعلم أن الله، وقال الخليل: وي مفصولة من كأن ومعناها التعجّب كما يقول وي لِمَ فعلت ذلك، وذلك أن القوم تندموا فقالوا: وي متندمين على ما سلف منهم وكأن معناه أظن ذلك وأقدّره، كما تقول كان الفرح قد أتاك أي أظن ذلك وأقدّره، ﴿ يبسط الرزق لمَن يشـاء من عباده ويقـدر ﴾، أي يوسـع ويضيق، ﴿ لولا أنْ منّ الله علينا لخسف بنا ﴾، قرأ حفص ويعقوب بفتح الخاء والسين وقرأ العامّة بضم الخاء وكسر السين، ﴿ ويكأنه لا يفلح الكافرون ﴾.

قوله تعالى: ﴿ تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوّاً في الأرض ﴾، قال الكلبي ومقاتل: استكباراً عن الإيمان، وقال عطاء: علوّاً واستطالةً على الناس وتهاوناً بهم، وقال الحسن: لم تطلبوا الشرف والعزّ عند ذي سلطانها. وعن علي رضي الله عنه: أنها نزلت في أهل التواضع من الولادة وأهل القدرة، ﴿ ولا فساداً ﴾ قال الكلبي: هو الدعاء إلى عبادة غير الله. وقال عكرمة: أخذ أموال الناس بغير حق. قال ابن جريج ومقاتل: العمل

تقدم تفسيره. قوله تعالى ﴿إن الذي فرض عليك القرآن﴾ أي أنزل عليك القرآن وقيل معناه أوجب عليك العمل بالقرآن ﴿لرادك إلى معاد﴾ قال ابن عباس إلى مكة. أخرجه البخاري عنه قال القتيبي: معاد الرجل بلده لأنه ينصرف فيعود إلى بلده وذلك أن النبيّ ﷺ لما خرج من الغار مهاجراً إلى المدينة سار على غير الطريق مخافة الطلب فلما أمن رجع في الطريق ونزل الجحفة بين مكة والمدينة وعرف الطريق إلى مكة فاشتاق إليها فأتاه جبريل عليه السلام وقال له: أتشتاق إلى بلدك؟ قال نعم قال: فإن الله تعالى يقول الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد وهذه الآية نزلت بالجحفة ليست بمكية ولا مدنية. وقال ابن عباس أيضاً لرادك إلى الموت وقيل إلى القيامة، وقيل إلى الجنة ﴿قل ربي أعلم من جاء بالهدى﴾ هذا جواب لكفار مكة لما قالوا للنبيّ ﷺ إنك لفي ضلال مبين فقال الله تعالى لهم ﴿ربي أعلم من جاء بالهدى﴾ يعني نفسه ﴿ومن هو في ضلال مبين﴾ يعني المشركين ومعناه هو أعلم بالفريقين. قوله عز وجل ﴿وما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب﴾ أي يوحى إليك القرآن ﴿إلا رحمة من ربك﴾ فأعطاك القرآن ﴿فلا تكونن ظهيراً﴾ أي معيناً ﴿للكافرين﴾ على دينهم ذلك حين دعوه إلى دين آبائه فذكره نعمه عليه ونهاه عن مظاهرتهم على ما هم عليه ﴿ولا يصدنك عن آيات الله﴾ يعني القرآن ﴿بعد إذ أنزلت إليك وادع إلى ربك﴾ إلى معرفته وتوحيده ﴿ولا تكونن من المشركين﴾ قال ابن عباس: الخطاب في الظاهر للنبيّ ﷺ والمراد به أهل دينه أي ولا تظاهرِ الكفار ولا توافقهم ﴿ولا

بالمعاصي، ﴿ والعاقبة للمتّقين ﴾، أي العاقبة المحمودة لمَن اتقى عقاب الله بأداءِ أمرِهِ واجتناب معاصيه. قال قتادة: الجنّة للمتّقين.

﴿ مَن جاء بالحسنة فله خير منها ومَن جاء بالسيئة فلا يُجزى الذين عملوا السيئات إلاّ ما كانوا يعملون ﴾.

قوله تعالى: ﴿ إنّ الذي فرض عليك القرآن ﴾، أي أنزل عليك القرآن على قول أكثر المفسّرين، وقال عطاء: أوجب عليك العمل بالقرآن، ﴿ لرادّكَ إلى معاد ﴾، إلى مكة، وهو رواية العوفي عن ابن عباس رضي الله عنهما، وهو قول مجاهد، قال القتيبي: معاد الرجل بلده لأنه ينصرف ثم يعود إلى بلده، وذلك أن النبي ﷺ لمّا خرج من الغار مُهاجراً إلى المدينة سار في غير الطريق مخافة الطلب فلما أمن ورجع إلى الطريق نزل الجحفة بين مكة والمدينة، وعرف الطريق إلى مكة اشتاق إليها، فأتاه جبريل وقال: أتشتاق إلى بلدك ومولدك؟ قال: «نعم»، قال: فإن الله تعالى يقول: ﴿ إنّ الذي فرضَ عليك القرآن لرادّكَ إلى معاد ﴾ وهذه الآية نزلت بالجحفة ليست بمكيّة ولا مدنية. وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما لرادّك إلى معاد إلى الموت. وقال الزهري وعكرمة: إلى القيامة. وقيل: إلى الجنة. ﴿ قلْ ربي أعلم مَن جاء بالهدى ﴾، أي يعلم مَن جاء بالهدى وهذا جواب لكفّار مكة لما قالوا للنبي ﷺ إنك لفي ضلال، فقال الله عزّ وجلّ: قل لهم ربّي أعلم مـن جاء بالهدى أي يعلم مَن جاء بالهدى يعني نفسه، ﴿ ومَن هو في ضلال مبين ﴾، يعني المشركين ومعناه أعلم بالفريقين.

قوله تعالى: ﴿وما كنت أرجوا أن يُلقى إليك الكتاب ﴾، أي يوحى إليك القرآن، ﴿ إلاّ رحمةً من ربك ﴾، قال الفرّاء: هذا من الاستثناء المنقطع معناه لكن ربـك رحمك فـأعطاك القـرآن، ﴿ فلا تكـوننّ ظهيراً للكـافرين ﴾، أي مُعيناً لهم على دينهم. وقال مقاتل: وذلك حين دعي إلى دين آبائه فذكر الله نعمه ونهاه عن مظاهرتهم على ما هم عليه.

﴿ ولا يصدّنّك عن آيات الله ﴾، يعني القرآن، ﴿ بعد إذ أنزلت إليك وادعُ إلى ربِّك ﴾، إلى معرفته وتوحيده، ﴿ ولا تكوننّ من المشركين ﴾. قال ابن عباس رضي الله عنهما: الخطاب في الظاهر للنبي ﷺ والمراد

تدع مع الله إلهاً آخر﴾ معناه أنه واجب على الكل إلا أنه خاطبه به مخصوصاً لأجل التعظيم. فإن قلت النبيّ ﷺ كان معصوماً من أن يدعو مع الله إلهاً آخر فما فائدة هذا النهي. قلت الخطاب معه والمراد به غيره وقيل معناه لا تتخذ غيره وكيلاً على أمورك كلها ولا تعتمد على غيره ﴿لا إله إلا هو كل شيء هالك﴾ أي فان ﴿إلا وجهه﴾ أي إلا هو والوجه يعبر به عن الذات وقيل معناه إلا ما أريد به وجهه لأن عمل كل شيء أريد به غير الله فهو هالك ﴿له الحكم﴾ أي فصل القضاء بين الخلق ﴿وإليه ترجعون﴾ أي تردون في الآخرة فيجزيكم بأعمالكم والله أعلم بمراده.

به أهل دينه أي لا تظاهروا الكفّار ولا توافقوهم.

﴿ ولا تدعُ مع الله إلَهاً آخر لا إلَه إلّا هو كل شيء هالك إلّا وجهه ﴾، أي إلّا هو، وقيل: إلّا مُلكه، قال أبو العالية: إلّا ما أريد به وجهه، ﴿ له الحكم ﴾، أي فصل القضاء، ﴿ وإليه ترجعون ﴾، تردون في الآخرة فيجزيكم بأعمالكم.

تفسير سورة العنكبوت

وهي مكية وآياتها تسع وستون آية وكلماتها تسعمائة وثمانون كلمة وحروفها أربعة آلاف ومائة وخمسة وستون حرفاً.

بسم الله الرحمن الرحيم

الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ
ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٤﴾
مَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَءَاتٍ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٥﴾ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ
عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُوا۟
يَعْمَلُونَ ﴿٧﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ
فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾

قوله عز وجل ﴿الم أحسب الناس﴾ أي أظن الناس ﴿أن يتركوا﴾ أي بغير اختبار وابتلاء ﴿أن﴾ أي بأن ﴿يقولوا آمنا وهم لا يفتنون﴾ أي لا يبتلون في أموالهم وأنفسهم كلا لنختبرنهم لنبين المخلص من المنافق والصادق من الكاذب. قيل: نزلت هذه الآية في أناس كانوا بمكة قد أقروا بالإسلام فكتب إليهم أصحاب النبي ﷺ أنه لا يقبل منكم الإقرار بالإسلام حتى تهاجروا فخرجوا عامدين إلى المدينة فأتبعهم المشركون فقاتلهم الكفار، فمنهم من قتل ومنهم

سُورَة العَنْكبُوت

مكيّة وهي تسع وستّون آية.

﴿ الٓم أَحسِبَ الناسُ ﴾، أظن الناس، ﴿ أن يُتركوا ﴾ بغير اختبار ولا ابتلاء، ﴿ أنْ يقولوا ﴾، أي بأن يقولوا، ﴿ آمنّا وهم لا يفتنون ﴾، لا يبتلون في أموالهم وأنفسهم كلا لنختبرنّهم ليبين المخلص من المنافق والصادق من الكاذب، واختلفوا في سبب نزول هذه الآية قال الشعبي: نزلت في أُناس كانوا بمكة قد أقرّوا بالإسلام فكتب إليهم أصحاب رسول الله ﷺ: أنه لا يُقبَل فيكم الإقرار بالإسلام حتى تهاجروا، فخرجوا عامدين إلى المدينة فتبعهم المشركون فقاتلوهم فمنهم مَن قتل ومنهم مَن نجا، فأنزل الله هاتين الآيتين، قال ابن عباس رضي الله عنهما: وأراد بالناس الذين آمنوا بمكة سلمة بن هشام وعياش بن ربيعة والوليد بن الوليد وعمّار بن ياسر وغيرهم. وقال ابن جريج: نزلت في عمّار بن ياسر كان يعذّب في الله عزّ وجلّ: وقال مقاتل: نزلت في مهجع بن عبد الله

من نجا فنزل الله هاتين الآيتين. وقال ابن عباس: أراد بالناس الذين آمنوا بمكة سلمة بن هشام وعياش بن أبي ربيعة والوليد بن الوليد وعمار بن ياسر وغيرهم. وقيل في عمار كان يعذب في الله تعالى وقيل في مهجع بن عبدالله مولى عمر وكان أول من قتل من المسلمين يوم بدر فقال النبيّ ﷺ: «سيد الشهداء مهجع وهو أول من يدعى إلى باب الجنة من هذه الأمة» فجزع أبواه وامرأته فأنزل الله هذه الآية ثم عزاهم فقال تعالى ﴿**ولقد فتنا الذين من قبلهم**﴾ يعني الأنبياء فمنهم من نشر بالمنشار ومنهم من قتل وابتلي بنو إسرائيل بفرعون فكان يسومهم سوء العذاب ﴿**فليعلمن الله الذين صدقوا**﴾ أي في قولهم ﴿**وليعلمن الكاذبين**﴾ والله تعالى عالم بهم قبل الاختبار ومعنى الآية فليظهرن الله الصادقين من الكاذبين حتى يوجد معلومه. وقيل إن آثار أفعال الحق صفة يظهر فيها كل ما يقع وما هو واقع. قوله تعالى ﴿**أم حسب الذين يعملون السيئات**﴾ يعني الشرك ﴿**أن يسبقونا**﴾ أي يعجزونا فلا نقدر على الانتقام منهم ﴿**ساء ما يحكمون من كان يرجو لقاء الله**﴾ قال ابن عباس من كان يخشى البعث والحساب وقيل من كان يطمع في ثواب الله ﴿**فإن أجل الله لآت**﴾ يعني ما وعد الله من الثواب والعقاب. وقيل يوم القيامة لكائن والمعنى أن من يخشى الله ويؤمله فليستعد له وليعمل لذلك اليوم ﴿**وهو السميع العليم**﴾ أي يعلم ما يعمل العباد من الطاعة والمعصية فيثيبهم أو يعاقبهم أو يعفو.

قوله تعالى ﴿**ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه**﴾ أي له ثوابه وهذا بحكم الوعد لا بحكم الاستحقاق فإن الكريم إذا وعد وفى والجهاد هو الصبر على الأعداء والشدة وقد يكون في الحرب وقد يكون على مخالفة النفس ﴿**إن الله لغني**

مولى عمر كان أول قتيل من المسلمين يوم بدر، فقال النبي ﷺ: «سيد الشهداء مهجع بن عبد الله، وهو أول مَن يدعى إلى باب الجنة من هذه الأمة»، فجزع أبواه وامرأته فأنزل الله فيهم هذه الآية. وقيل: ﴿ **وهم لا يفتنون** ﴾ بالأوامر والنواهي، وذلك أن الله تعالى أمرهم في الابتداء بمجرد الإيمان ثم فرض عليهم الصلاة والزكاة وسائر الشرائع فشقّ على بعضهم، فأنزل الله هذه الآية، ثم عزّاهم فقال:

﴿ **ولقد فتنّا الذين من قبلهم** ﴾، يعني الأنبياء والمؤمنون فمنهم مَن نشر بالمِنشار ومنهم مَن قتل، وابتلي بنو إسرائيل بفرعون فكان يسومهم سوء العذاب، ﴿ **فليعلمنّ الله الذين صدقوا**﴾، في قولهم آمنّا، ﴿ **وليعلمنّ الكاذبين** ﴾، والله أعلم بهم قبل الاختبار، ومعنى الآية: وليظهرنّ الله الصادقين من الكاذبين حتى يُوجدَ معلومَه، وقال مقاتل: فليرينّ الله. وقيل: ليميّز الله كقوله: ﴿ ليميز الله الخبيث من الطيب ﴾ [الأنفال: ٣٧].

﴿ **أم حسب الذين يعملون السيئات** ﴾، يعني الشرك، ﴿ **أن يسبقونا** ﴾، يُعْجِزونا ويفوتونا فلا نقدر على الانتقام منهم، ﴿ **ساءَ ما يحكمون** ﴾، أي بئس ما حكموا حين ظنّوا ذلك.

﴿ **مَن كان يرجوا لقاءَ الله** ﴾، قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ومقاتل: مَن كان يخشى البعث والحساب، والرجاء بمعنى الخوف، وقال سعيد بن جبير رضي الله عنه: مَن كان يطمع في ثواب الله، ﴿ **فإنّ أجل الله لآتٍ** ﴾. يعني ما وعد الله من الثواب والعقاب. وقال مقاتل: يعني يوم القيامة لكائن. ومعنى الآية أن مَن يخشى الله أو يأمله فليستعدّ له وليعمل لذلك اليوم، كما قال: ﴿ فمَن كان يرجوا لقاء ربه فليعملْ عملاً صالحاً ﴾ [الكهف: ١١٠]، الآية، ﴿ **وهو السميع العليم** ﴾.

﴿ **ومَن جاهد فإنّما يجاهد لنفسه** ﴾، له ثوابه، والجهاد هو الصبر على الشدّة ويكون ذلك في الحرب وقد يكون على مخالفة النفس. ﴿ **إنّ الله لغنيٌّ عن العالمين** ﴾، عن أعمالهم وعباداتهم.

﴿ **والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنكفرنّ عنهم سيئاتهم** ﴾، لنبطلنّها يعني حتى تصير بمنزلة ما لم يعمل،

عن العالمين﴾ أي عن أعمالهم وعبادتهم وفيه بشارة وتخويف أما البشارة فلأنه إذا كان غنياً عن الأشياء فلو أعطي جميع ما خلقه لعبد من عبيده لا شيء عليه لاستغنائه عنه. وهذا يوجب الرجاء التام وأما التخويف فلأن الله إذا كان غنياً عن العالمين فلو أهلكهم بعذابه فلا شيء عليه لاستغنائه عنهم **﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنكفرن عنهم سيئاتهم﴾** أي لنطلبنها حتى تصير بمنزلة ما لم يعمل والتكفير إذهاب السيئة بالحسنة **﴿ولنجزينهم أحسن الذي كانوا يعملون﴾** أي بأحسن أعمالهم وهو الطاعة وقيل يعطيهم أكثر مما عملوا. قوله عز وجل **﴿ووصينا الإنسان بوالديه حسناً﴾** معناه براً بهما وعطفاً عليهم والمعنى ووصينا الإنسان بوالديه أن يفعل بهما ما يحسن نزلت هذه الآية والتي في سورة لقمان والأحقاف في سعد بن أبي وقاص. وقال ابن إسحاق: سعد بن مالك الزهري وأمه حمنة بنت أبي سفيان بن أمية بن عبدشمس لما أسلم وكان من السابقين الأولين وكان باراً بأبيه. قالت له أمه: ما هذا الذي أحدثت والله ما آكل ولا أشرب حتى ترجع إلى ما كنت عليه أو أموت فتعير بذلك أبد الدهر ويقال يا قاتل أمه ثم إنها مكثت يوماً وليلة لم تأكل ولم تشرب ولم تستظل فأصبحت وقد جهدت ثم مكثت كذلك يوماً آخر وليلة فجاءها فقال: يا أماه لو كانت لك مائة نفس فخرجت نفساً نفساً ما تركت ديني فكلي إن شئت وإن شئت فلا تأكلي فلما أيست منه أكلت وشربت فأنزل الله هذه الآية وأمره بالبر بوالديه والإحسان إليهما وأن لا يطيعهما في الشرك فذلك قوله تعالى **﴿وإن جاهداك لتشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعمها﴾** وفي الحديث «لا طاعة لمخلوق في معصية الله» ثم أوعد بالمصير إليه فقال تعالى **﴿إلي مرجعكم فأنبئكم﴾** أي فأخبركم **﴿بما كنتم تعملون﴾** أي بصالح أعمالكم وسيئاتها أي فأجازيكم عليها.

وَالَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٩﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴿١١﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَىْءٍ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٢﴾

فالتكفير إذهاب السيئة بالحسنة، **﴿ولنجزينّهم أحسن الذي كانوا يعملون﴾**، أي بأحسن أعمالهم وهو الطاعة، وقيل: نعطيهم أكثر مما عملوا وأحسن، كما قال: **﴿مَن جاء بالحسنة فله عشر أمثالها﴾** [الأنعام: ١٦٠].

قوله عزّ وجلّ: **﴿ووصّينا الإنسان بوالديه حُسْناً﴾**، أي برّاً بهما عطفاً عليهما معناه ووصّينا الإنسان أن يفعل بوالديه ما يحسن، نزلت هذه الآية والتي في سورة لقمان [١٤] والأحزاب [٧٢] في سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه وهو سعد بن مالك وإسحاق الزهري وأمه حمنة بنت أبي سفيان بن أمية بن عبد شمس لمّا أسلم، وكان من السابقين الأوّلين وكان بارّاً بأمه قالت له أمه: ما هذا الدين الذي أحدثت والله لا آكل ولا أشرب حتى ترجع إلى ما كنتَ عليه أو أموت فتعيّر بذلك أبد الدهر، يقال: يا قاتل أمه، ثم إنها مكثت يوماً وليلة لم تأكل ولم تشرب ولم تستظلّ فأصبحت قد جهدت ثم مكثت يوماً آخر وليلة لم تأكل ولم تشرب، فجاء سعد إليها وقال: يا أمّاه لو كانت لك مائة نفس فخرجت نفساً نفساً ما تركت ديني فكلي وإن شئت فلا تأكلي، فلما أيِسَت منه أكلت وشربت، فأنزل الله تعالى هذه الآية، وأمره بالبرّ بوالديه والإحسان إليهما وأن لا تطعهما في الشرك، فذلك قوله عزّ وجلّ: **﴿وإنْ جاهداك لتشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما﴾**، جاء في الحديث: «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق» ثم أوعد بالمصير إليه فقال: **﴿إليّ مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون﴾**، أخبركم بصالح أعمالكم وسيئها فأجازيكم عليها.

وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ
قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ
ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٥﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن
كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا
يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ
كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٨﴾

﴿**والذين آمنوا وعملوا الصالحات لندخلنهم في الصالحين**﴾ أي في زمرة الصالحين وهم الأنبياء والأولياء وقيل في مدخل الصالحين وهو الجنة. قوله تعالى ﴿**ومن الناس من يقول آمنا بالله فإذا أوذي**﴾ يعني أصابه بلاء من الناس افتتن ﴿**في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله**﴾ أي جعل أذى الناس وعذابهم كعذاب الله في الآخرة والمعنى أنه جزع من أذى الناس ولم يصبر عليه فأطاع الناس كما يطيع الله من يخاف عذابه وهو المنافق إذا أوذي في الله رجع عن الدين وكفر ﴿**ولئن جاء نصر من ربك**﴾ أي فتح ودولة للمؤمنين ﴿**ليقولن**﴾ أي هؤلاء المنافقون للمؤمنين ﴿**إنا كنا معكم**﴾ أي على عدوكم وكنا مسلمين وإنما أكرهنا حتى قلنا ما قلنا فأكذبهم الله تعالى فقال ﴿**أوليس الله بأعلم بما في صدور العالمين**﴾ أي من الإيمان والنفاق ﴿**وليعلمن الله الذين آمنوا**﴾ أي صدقوا فثبتوا على الإيمان والإسلام عند البلاء. ﴿**وليعلمن المنافقين**﴾ أي بترك الإسلام عند البلاء قيل نزلت هذه الآية في أناس كانوا يؤمنون بألسنتهم فإذا أصابهم بلاء من الناس أو مصيبة في أنفسهم افتتنوا. وقال ابن عباس: نزلت في الذين أخرجهم المشركون معهم إلى بدر وهم

﴿ **والذين آمنوا وعملوا الصالحات لندخلنّهم في الصالحين** ﴾، في زمرة الصالحين وهم الأنبياء والأولياء، وقيل: في مدخل الصالحين، وهو الجنة.

قوله تعالى: ﴿ **ومِنَ الناس مَنْ يقول آمنّا بالله فإذا أُوذيَ في الله** ﴾، أصابه بلاء من الناس افتتن، ﴿ **جعل فتنة الناس كعذاب الله** ﴾، أي جعل أذى الناس وعذابهم كعذاب الله في الآخرة، أي جزع من عذاب الناس ولم يصبر عليه، فأطاع الناس كما يطيع الله مَن يخاف عذابه، هذا قول السدي وابن زيد، قالا هو المنافق إذا أُوذي في الله رجع عن الدين وكفر، ﴿ **ولئن جاء نصرٌ من ربك** ﴾، أي فتح ودولة للمؤمنين، ﴿ **لَيَقُولُنَّ** ﴾، يعني هؤلاء المنافقين للمؤمنين، ﴿ **إنّا كنّا معكم** ﴾، على عدوّكم وكنّا مسلمين وإنما أُكرهنا حتى قلنا ما قلنا فكذّبهم الله وقال: ﴿ **أوَ ليس الله بأعلمَ بما في صدور العالمين** ﴾، من الإيمان والنفاق.

﴿ **وليعلمنّ الله الذين آمنوا** ﴾، صدقوا فثبتوا على الإسلام عند البلاء، ﴿ **وليعلمنّ المنافقين** ﴾، بترك الإسلام عند نزول البلاء، واختلفوا في نزول هذه الآية، قال مجاهد: نزلت في ناس كانوا يؤمنون بألسنتهم فإذا أصابهم بلاءٌ من الناس أو مصيبة في أنفسهم افتتنوا. وقال عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنه: نزلت في الذين أخرجهم المشركون فأصابهم البلاء معهم في بدر، وهم الذين نزلت فيهم: ﴿ إن الذين توفّاهم الملائكة ظالمي أنفسهم ﴾ [النساء: ٩٧]، وقال قتادة: نزلت في القوم الذين ردّهم المشركون إلى مكة، قال الشعبي: هذه الآيات العشر من أول السورة إلى ههنا مدنية وباقي السور مكيّة.

﴿ **وقال الذين كفروا للذين آمنوا اتّبعُوا سبيلنا** ﴾، قال مجاهد: هذا من قول كفّار مكة لمَن آمن منهم. وقال

الذين نزلت فيهم ﴿الذين تتوفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم﴾ وقيل هذه الآيات العشر من أول السورة إلى ها هنا مدنية وباقي السورة مكية ﴿**وقال الذين كفروا**﴾ يعني من أهل مكة قيل قاله أبو سفيان ﴿**للذين آمنوا**﴾ أي من قريش ﴿**اتبعوا سبيلنا**﴾ يعني ديننا وملة آبائنا ونحن الكفلاء بكل تبعة من الله تصيبكم فذلك قوله ﴿**ولنحمل خطاياكم**﴾ أي أوزاركم والمعنى إن اتبعتم سبيلنا حملنا خطاياكم فأكذبهم الله عز وجل بقوله ﴿**وما هم بحاملين من خطاياهم من شيء إنهم لكاذبون**﴾ في قولهم نحمل خطاياكم ﴿**وليحملن أثقالهم**﴾ أي أوزار أعمالهم التي عملوها بأنفسهم ﴿**وأثقالاً مع أثقالهم**﴾ أي أوزار من أضلوا وصدوا عن سبيل الله مع أوزار أنفسهم. فإن قلت قد قال أولاً وما هم بحاملين من خطاياهم من شيء وقال ها هنا وليحملن أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم فكيف الجمع بينهما. قلت: معناه إنهم لا يرفعون عنهم خطيئة بل كل واحد يحمل خطيئة نفسه ورؤساء الضلال يحملون أوزارهم ويحملون أوزاراً بسبب إضلال غيرهم فهو كقوله ﷺ: «من سن في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء» رواه مسلم ﴿**وليسألن يوم القيامة عما كانوا يفترون**﴾ أي سؤال توبيخ وتقريع لأنه تعالى عالم بأعمالهم وافترائهم. قوله تعالى ﴿**ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فلبث**﴾ أي فأقام ﴿**فيهم**﴾ يدعوهم إلى عبادة الله وتوحيده ﴿**ألف سنة إلا خمسين عاماً**﴾ فإن قلت فما فائدة هذا الاستثناء وهلا قال تسعمائة وخمسين سنة قلت فيه فائدتان إحداهما: أن الاستثناء يدل على التحقيق. وتركه يظن به التقريب فهو كقول القائل عاش فلان مائة سنة فقد يتوهم السائل أنه يقول مائة سنة تقريباً لا تحقيقاً فإن قال مائة سنة إلا شهراً أو إلا سنة زال ذلك التوهم وفهم منه التحقيق الفائدة الثانية: هي لبيان أن نوحاً صبر على أذى قومه صبراً كثيراً وأعلى مراتب العدد ألف سنة. وكان المراد التكثير فلذلك أتى بعقد الألف لأنه أعظم وأفخم هذه تسلية للنبي ﷺ حيث أعلم أن الأنبياء قد ابتلوا قبله وأن نوحاً لبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعوهم فصبر في الدعاء ولم يؤمن من قومه إلا قليل فأنت أولى بالصبر لقلة مدة لبثك وكثرة من آمن بك.

الكلبي ومقاتل: قاله أبو سفيان لمَن آمن من قريش اتّبعوا سبيلنا ديننا وملّة آبائنا ونحن الكفلاء بكل تَبِعَة من الله تصيبكم، فذلك قوله: ﴿ **ولنحملْ خطاياكم** ﴾ أوزاركم، قال الفرّاء: لفظه أمر معناه خبر، مجازه: إن اتّبعتم سبيلنا حملنا خطاياكم، كقوله: ﴿ فليلقه اليمّ بالساحل ﴾ [طه: ٣٩]، وقيل: هو جزم على الأمر كأنهم أمروا أنفسهم بذلك فأكذبهم الله عزّ وجلّ فقال: ﴿ **وما هم بحاملين من خطاياهم من شيء إنهم لكاذبون** ﴾، أي فيما قالوا من حمل خطاياهم.

﴿ **ولَيَحْمِلُنّ أثقالهم** ﴾، أوزار أعمالهم التي عملوها بأنفسهم، ﴿ **وأثقالاً مع أثقالهم** ﴾، أي أوزار مَن أضلّوا وصدّوا عن سبيل الله مع أوزارهم، نظيره قولهُ عزّ وجلّ: ﴿ ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلّونهم بغير علم ﴾ [النحل: ٢٥]. ﴿ **ولَيُسْئَلُنّ يوم القيامة عمّا كانوا يفترون** ﴾، سؤال توبيخ وتقريع.

قوله تعالى: ﴿ **ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فلبث فيهم ألف سنة إلّا خمسين عاماً فأخذهم الطوفان** ﴾، فغرقوا، ﴿ **وهم ظالمون** ﴾، قال ابن عباس: مشركون.

﴿ **فأنجيناه وأصحابَ السفينة** ﴾، يعني من الغرق، ﴿ **وجعلناها** ﴾، يعني السفينة ﴿ **آية** ﴾، أي عبرة، ﴿ **للعالمين** ﴾، فإنها كانت باقية على الجودي مدة مديدة. وقيل: جعلنا عقوبتهم للغرق عبرة. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: بعث نوح لأربعين سنة وبقي في قومه يدعوهم ألف سنة إلّا خمسين عاماً وعاش بعد الطوفان ستّين سنة حتى كثر الناس وفشوا وكان عمره ألفاً وخمسين سنة.

قال ابن عباس: بعث نوح لأربعين سنة وبقي في قومه يدعوهم ألف سنة إلا خمسين عاماً وعاش بعد الطوفان ستين سنة حتى كثر الناس فكان عمره ألفاً وخمسين عاماً. وقيل في عمره غير ذلك. قوله تعالى ﴿**فأخذهم الطوفان**﴾ أي فأغرقهم ﴿**وهم ظالمون**﴾ قال ابن عباس مشركون ﴿**فأنجيناه وأصحاب السفينة**﴾ يعني من الغرق ﴿**وجعلناها**﴾ يعني السفينة ﴿**آية**﴾ أي عبرة ﴿**للعالمين**﴾ قيل إنها بقيت على الجودي مدة مديدة وقيل جعلنا عقوبتهم بالغرق عبرة. قوله تعالى ﴿**وإبراهيم**﴾ أي وأرسلنا إبراهيم ﴿**إذ قال لقومه اعبدوا الله واتقوه**﴾ أي أطيعوا الله وخافوه ﴿**ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون**﴾ أي ما هو خير لكم مما هو شر لكم ولكنكم لا تعلمون ﴿**إنما تعبدون من دون الله أوثاناً وتخلقون إفكاً**﴾ أي تقولون كذباً وقيل تصنعون أصناماً بأيديكم وتسمونها آلهة ﴿**إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقاً**﴾ أي لا يقدرون أن يرزقوكم ﴿**فابتغوا**﴾ أي فاطلبوا ﴿**عند الله الرزق**﴾ فإنه القادر على ذلك ﴿**واعبدوه**﴾ أي وحدوه ﴿**واشكروا له**﴾ لأنه المنعم عليكم بالرزق ﴿**إليه ترجعون**﴾ أي في الآخرة ﴿**وإن تكذبوا فقد كذب أمم من قبلكم**﴾ أي مثل قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم فأهلكهم الله ﴿**وما على الرسول إلا البلاغ المبين**﴾ قوله تعالى:

أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ
فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ
وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ
مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَٰئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ
أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ
لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾ وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ
يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٢٥﴾
۞ فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا
فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٢٧﴾ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ
إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ
وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا ائْتِنَا

قوله تعالى: ﴿ **وإبراهيم** ﴾، أي وأرسلنا إبراهيم، ﴿ **إذْ قال لقومه اعبدوا الله واتقوه** ﴾، أطيعوه وخافوه، ﴿ **ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون** ﴾.

﴿ **إنما تعبدون من دون الله أوثاناً** ﴾ أصناماً، ﴿ **وتخلقون إفكاً** ﴾، تقولون كذباً، قال مقاتل: تصنعون أصناماً بأيديكم فتسمّونها آلهة، ﴿ **إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقاً** ﴾، لا يقدرون أن يرزقوكم، ﴿ **فابتغوا** ﴾، فاطلبوا، ﴿ **عند الله الرزق واعبدوه واشكروا إليه تُرجعون** ﴾.

﴿ **وإن تُكذبوا فقد كذب أُممٌ من قبلكم** ﴾، مثل عاد وثمود وغيرهم فأهلكوا، ﴿ **وما على الرسول إلاّ البلاغ المبين** ﴾.

بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾

﴿أو لم يروا﴾ قيل هذه الآيات إلى قوله فما كان جواب قومه يحتمل أن تكون من تمام قول إبراهيم لقومه وقيل إنها وقعت معترضة في قصة إبراهيم وهي في تذكير أهل مكة وتحذيرهم ومعنى أو لم يروا أو لم يعلموا ﴿كيف يبدىء الله الخلق﴾ أي يخلقهم نطفة ثم علقة ثم مضغة ﴿ثم يعيده﴾ أي في الآخرة عند البعث ﴿إن ذلك على الله يسير﴾ أي الخلق الأول والخلق الثاني ﴿قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق﴾ أي انظروا إلى ديارهم وآثارهم كيف بدأ خلقهم ﴿ثم الله ينشىء النشأة الآخرة﴾ أي ثم إن الله الذي خلقهم ينشئهم نشأة ثانية بعد الموت والمعنى فكما لم يتعذر عليه إحداثهم مبدئاً كذلك لا يتعذر عليه إنشاؤهم معيداً بعد الموت ثانياً ﴿إن الله على كل شيء قدير﴾ أي من البداءة والإعادة ﴿يعذب من يشاء﴾ عدلاً منه ﴿ويرحم من يشاء﴾ تفضلاً ﴿وإليه تقلبون﴾ أي تردون ﴿وما أنتم بمعجزين في الأرض ولا في السماء﴾ قيل معناه ولا من في السماء بمعجزين والمعنى أنه لا يعجزه أهل الأرض في الأرض ولا أهل السماء في السماء وقيل معنى قوله ولا في السماء لو كنتم فيها ﴿وما لكم من دون الله من ولي﴾ أي يمنعكم مني ﴿ولا نصير﴾ أي ينصركم من عذابي ﴿والذين كفروا بآيات الله﴾ يعني بالقرآن ﴿ولقائه﴾ أي البعث ﴿أولئك يئسوا من رحمتي﴾ يعني الجنة ﴿وأولئك لهم عذاب أليم﴾ فهذا آخر الآيات في تذكير أهل مكة ثم عاد إلى قصة إبراهيم

﴿ أو لم يروا كيف يُبدىءُ الله الخلقَ ﴾، كيف يخلقهم ابتداء نطفة ثم علقة ثم مضغة ﴿ ثم يعيده ﴾ في الآخرة بعد البعث ﴿ إن ذلك على الله يسير ﴾.

﴿ قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ﴾ فانظروا إلى ديارهم وآثارهم كيف بدأ خلقهم، ﴿ ثم الله ينشىء النشأة الآخرة ﴾، أي ثم الله الذي خلقها ينشئها نشأة ثانية بعد الموت، فكما لم يتعذّر عليه إحداثها مبدئاً لا يتعذر عليه إنشاؤها مُعيداً، قرأ ابن كثير وأبو عمرو: ﴿ النشأة ﴾ بفتح الشين ممدودة حيث وقعت، وقرأ الآخرون بسكون الشين مقصورة نظيرها الرأفة والرآفة، ﴿ إن الله على كل شيء قدير ﴾.

﴿ يعذب مَن يشاء ويرحم مَن يشاء وإليه تقلبون ﴾، تردون.

﴿ وما أنتم بمعجزين في الأرض ولا في السماء ﴾، فإن قيل ما وجه قوله: ﴿ ولا في السماء ﴾ والخطاب مع الآدميين وهم ليسوا في السماء؟ قال الفرّاء: معناه ولا مَن في السماء بمُعجِز كقول حسّان بن ثابت:

فمَن يهجو رسول الله منكم ويمدحه وينصره سواء

أراد مَن يمدحه ومَن ينصره فأضمر من، يريد لا يعجزه أهل الأرض في الأرض ولا أهل السماء في السماء. وقال قطرب: معناه وما أنتم بمعجزين في الأرض ولا في السماء لو كنتم فيها، كقول القائل: ما يفوتني فلان ههنا ولا بالبصرة أي ولا بالبصرة لو كان بها، ﴿ وما لكم من دون الله من وليّ ولا نصير ﴾، أي من وليّ يمنعكم منّي ولا نصير ينصركم من عذابي.

﴿ والذين كفروا بآيات الله ولقائه ﴾ بالقرآن وبالبعث، ﴿ أولئك يَئِسُوا من رحمتي ﴾، جنتي، ﴿ وأولئك لهم عذاب أليم ﴾، فهذه الآيات في تذكير أهل مكة وتحذيرهم، وهي معترضة في قصة إبراهيم ثم عاد إلى قصة إبراهيم، فقال جلّ ذكره:

﴿ فما كان جواب قومه إلاّ أن قالوا اقتلوه أو حرّقوه فأنجاه الله من النار ﴾، وجعلها عليه برداً وسلاماً، ﴿ إنّ في ذلك لآيات لقوم يؤمنون ﴾، يصدقون.

عليه السلام فقال تعالى ﴿فما كان جواب قومه إلا أن قالوا اقتلوه أو حرقوه﴾ قال ذلك بعضهم لبعض وقيل قال الرؤساء للأتباع ﴿اقتلوه أو حرقوه﴾ ﴿فأنجاه الله من النار﴾ أي بأن جعلها برداً وسلاماً قيل إن ذلك اليوم لم ينتفع أحد بنار ﴿إن في ذلك لآيات لقومم يؤمنون﴾ يصدقون ﴿وقال﴾ يعني إبراهيم لقومه ﴿إنما اتخذتم من دون الله أوثاناً مودة بينكم في الحياة الدنيا﴾ أي ثم تنقطع ولا تنفع في الآخرة وقيل معناه إنكم تتوادون على عبادتها وتتواصلون عليها في الدنيا ﴿ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضاً﴾ تتبرأ الأوثان من عابديها وتتبرأ القادة من الأتباع ويلعن الأتباع القادة ﴿ومأواكم النار﴾ يعني العابدين والمعبودين جميعاً ﴿وما لكم من ناصرين﴾ أي مانعين من عذابه ﴿فآمن له لوط﴾ أي صدقه برسالته لما رأى معجزاته وهو أول من صدق إبراهيم وأما في أصل التوحيد فإنه كان مؤمناً لأن الأنبياء لا يتصور فيهم الكفر ﴿وقال﴾ يعني إبراهيم ﴿إني مهاجر إلى ربي﴾ إلى حيث أمرني ربي فهاجر من كوثى وهي من سواد الكوفة إلى حران ثم هاجر إلى الشام ومعه لوط وامرأته سارة وهو أول من هاجر إلى الله تعالى وترك بلده وسار إلى حيث أمره الله بالمهاجرة إليه. قيل هاجر وهو ابن خمس وسبعين سنة ﴿إنه هو العزيز﴾ أي الذي لا يغلب والذي يمنعني من أعدائي ﴿الحكيم﴾ الذي لا يأمرني إلا بما يصلحني.

قوله تعالى ﴿ووهبنا له إسحاق ويعقوب وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب﴾ يقال إن الله تعالى لم يبعث نبياً بعد إبراهيم إلا من نسله ﴿وآتيناه أجره في الدنيا﴾ هو الثناء الحسن فكل أهل الأديان يتولونه ويحبونه ويحبون الصلاة عليه

﴿ وقال ﴾، يعني إبراهيم لقومه، ﴿ إنما اتخذتم من دون الله أوثاناً مودّةَ بينكم ﴾، قرأ ابن كثير والكسائي وأبو عمرو ويعقوب: ﴿ مودّة ﴾ رفعاً بلا تنوين، ﴿ بينكم ﴾ خفضاً بالإضافة على معنى: إن الذين اتخذتم من دون الله أوثاناً هي مودّة بينكم، ﴿ في الحياة الدنيا ﴾، ثم هي تنقطع ولا تنفع في الآخرة، وقرأ حمزة وحفص: ﴿ مودّة ﴾ نصباً بغير تنوين على الإضافة بوقوع الاتخاذ عليها، وقرأ الآخرون ﴿ مودّة ﴾ منصوبة منوّنة بينكم بالنصب، معناه إنكم اتخذتم هذه الأوثان مودّةً بينكم في الحياة الدنيا تتواردون على عبادتها وتتواصلون عليها في الدنيا، ﴿ ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضاً ﴾، تتبرأ الأوثان من عابديها وتتبرأ القادة من الأتباع وتلعن الأتباعُ القادة، ﴿ ومأواكم ﴾، جميعاً العابدون والمعبودون، ﴿ النار وما لكم من ناصرين ﴾.

﴿ فآمن له لوط ﴾، يعني صدّقه وهو أول مَن صدّق إبراهيم وكان ابن أخيه، ﴿ وقال ﴾ يعني إبراهيم ﴿ إني مهاجرٌ إلى ربّي ﴾، فهاجر من كوثى وهو من سواد الكوفة إلى حرّان ثم إلى الشام، ومع لوط امرأته سارة وهو أول مَن هاجر، قال مقاتل: هاجر إبراهيم عليه السلام وهو ابن خمس وسبعين سنة، ﴿ إنه هو العزيز الحكيم ﴾.

﴿ ووهبنا له إسحاق ويعقوب وجعلنا في ذريته النبوّة والكتاب ﴾، يقال: إن الله لم يبعث نبيّاً بعد إبراهيم إلاّ من نسله، ﴿وآتيناه أجره في الدنيا ﴾، وهو الثناء الحسن فكل أهل الأديان يتولّونه، وقال السدي: هو الولد الصالح، وقيل: هو أنه رأى مكانه في الجنة، ﴿ وإنه في الآخرة لمن الصالحين ﴾، أي في زمرة الصالحين. قال ابن عباس مثل آدم ونوح.

قوله تعالى: ﴿ ولوطاً إذ قال لقومه أئنكم ﴾، قرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي وأبو بكر: ﴿ أئنكم ﴾ بالاستفهام، وقرأ الباقون بلا استفهام، واتفقوا على استفهام الثانية، ﴿ لتأتون الفاحشة ﴾، وهي إتيان الرجال، ﴿ ما سبقكم بها من أحد من العالمين ﴾.

﴿ أئنكم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل ﴾، وذلك أنهم كانوا يفعلون الفاحشة بمَن يمرّ بهم من المسافرين.

والذرية الطيبة والنبوة من نسله هذا له في الدنيا ﴿**وإنه في الآخرة لمن الصالحين**﴾ أي في زمرة الصالحين قال ابن عباس مثل آدم ونوح. قوله عز وجل ﴿**ولوطاً إذ قال لقومه إنكم لتأتون الفاحشة**﴾ أي الفعلة القبيحة ﴿**ما سبقكم بها من أحد من العالمين**﴾ أي لم يفعلها أحد قبلكم ثم فسر الفاحشة فقال ﴿**أئنكم لتأتون الرجال**﴾ يعني أنكم تقضون الشهوة من الرجال ﴿**وتقطعون السبيل**﴾ وذلك أنهم كانوا يأتون الفاحشة بمن مر بهم من المسافرين فترك الناس الممر بهم لأجل ذلك وقيل معناه تقطعون سبيل النسل بإيثار الرجال على النساء ﴿**وتأتون في ناديكم المنكر**﴾ أي مجالسكم والنادي مجلس القوم ومتحدثهم عن أم هانىء بنت أبي طالب عن النبي ﷺ في قوله وتأتون في دنياكم المنكر قال «كانوا يحذفون أهل الأرض ويسخرون منهم» أخرجه الترمذي وقال حديث حسن غريب الحذف هو رمي الحصى بين الأصابع قيل إنهم كانوا يجلسون في مجالسهم وعند كل رجل منهم قصعة فيها حصى فإذا مر بهم عابر سبيل حذفوه فأيهم أصابه قال: أنا أولى به وقيل: إنه كان يأخذ ما معه وينكحه ويغرمه ثلاثة دراهم وقيل إنهم كانوا يجامعون بعضهم بعضاً في مجالسهم وقيل إنهم كانوا يتضارطون في مجالسهم وعن عبدالله بن سلام كان يبزق بعضهم على بعض. وقيل كان أخلاق قوم لوط مضغ العلك وتطريف الأصابع بالحناء وحل الإزار والصفير والحذف والرمي بالجلاهق واللوطية ﴿**فما كان جواب قومه**﴾ أي لما أنكر عليهم لوط ما يأتونه من القبائح ﴿**إلا أن قالوا**﴾ أي استهزاء ﴿**ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين**﴾ أي إن العذاب نازل بنا فعند ذلك

قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِي عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓاْ إِنَّا مُهْلِكُوٓاْ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُواْ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُواْ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱرْجُواْ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَلَا

فترك الناس الممر بهم. وقيل: تقطعون سبيل النسل بإيثار الرجال على النساء، ﴿ **وتأتون في ناديكم المنكر** ﴾، النادي والندى والمنتدى مجلس القوم ومتحدثهم، أخبرنا أبو سعيد الشريحي أنا أبو إسحاق الثعلبي أنا أبو العباس بن سهل بن محمد المروزي أنا جدي لأمي أبو الحسن المحمودي أنا محمد بن إسحاق بن خزيمة أن بشر بن معاذ حدّثهم أنا يزيد بن زريع أنا حاتم بن أبي صغيرة عن سماك بن حرب عن أبي صالح مولد أُم هانىء بنت أبي طالب عن أُم هانىء قالت: سألت رسول الله ﷺ عن قوله: ﴿ **وتأتون في ناديكم المنكر** ﴾، قلت: ما المنكر الذي كانوا يأتونه؟ قال: «كانوا يحذفون أهل الطرق ويسخرون بهم»، ورُوِيَ أنهم كانوا يجلسون في مجالسهم وعند كل رجل منهم قصعة فيه حصى فإذا مرّ بهم عابر سبيل حذفوه فأيّهم أصابه كان أولى بهم. وقيل: إنه كان يأخذ ما معه وينكحه ويغرمه ثلاثة دراهم، ولهم قاضٍ بذلك، وقال القاسم بن محمد: كانوا يتضارطون في مجالسهم. وقال مجاهد: كان يجامع بعضهم بعضاً في مجالسهم. وعن عبد الله بن سلام قال: كان يبزق بعضهم على بعض. وعن مكحول قال: كان من أخلاق قوم لوط مضغ العلك وتطريف الأصابع بالحنّاء وحلّ الإزار والصفير والحذف واللواطية، ﴿ **فما كان جواب قومه** ﴾، لما أنكر عليهم لوط ما يأتونه من القبائح، ﴿ **إلاّ أن قالوا** ﴾، له استهزاء ﴿ **ائتنا بعذاب الله إن كنتَ من الصادقين** ﴾، أن العذاب نازل بنا، فعند ذلك.

تَعْثَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٣٧﴾
وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ
ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُواْ
فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُواْ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ
ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَاۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ
أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾

﴿قال رب انصرني على القوم المفسدين﴾ أي بتحقيق قولي إن العذاب نازل بهم. قوله عز وجل ﴿ولما جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى﴾ أي من الله بإسحاق ويعقوب ﴿قالوا إنا مهلكو أهل هذه القرية﴾ أي قوم لوط والقرية سدوم ﴿إن أهلها كانوا ظالمين قال﴾ يعني إبراهيم إشفاقاً على لوط وليعلم حاله ﴿إن فيها لوطاً قالوا﴾ أي قالت الملائكة ﴿نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين﴾ أي من الباقين في العذاب ﴿ولما أن جاءت رسلنا لوطاً سيء بهم﴾ أي ظنهم من الإنس فخاف عليهم ومعناه أنه جاءه ما ساءه ﴿وضاق بهم ذرعاً﴾ أي عجز عن تدبير أمرهم فحزن لذلك ﴿وقالوا لا تخف﴾ أي من قومك ﴿ولا تحزن﴾ علينا ﴿إنا منجوك وأهلك﴾ أي إنا مهلكوهم ومنجوك وأهلك ﴿إلا امرأتك كانت من الغابرين إنا منزلون على أهل هذه القرية رجزاً﴾ أي عذاباً ﴿من السماء﴾ قيل هو الخسف والحصب بالحجارة ﴿بما كانوا يفسقون ولقد تركنا منها﴾ أي من قريات لوط ﴿آية بينة﴾ أي عبرة ظاهرة

﴿ قال ﴾، لوط، ﴿ ربِّ انصرني على القوم المفسدين ﴾، بتحقيق قولي في العذاب.

﴿ ولما جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى ﴾، من الله بإسحاق ويعقوب، ﴿ قالوا إنَّا مُهلكوا أهلَ هذه القرية ﴾، يعني قوم لوط، والقرية سدوم، ﴿ إن أهلها كانوا ظالمين ﴾.

﴿ قال ﴾، إبراهيم للرسل، ﴿ إن فيها لوطاً قالوا ﴾، قالت الملائكة، ﴿ نحن أعلم بمَن فيها لَنُنَجِّيَنَّه ﴾، قرأ حمزة والكسائي ويعقوب: (لننجيه) بالتخفيف، وقرأ الباقون بالتشديد، ﴿ وأهله إلَّا امرأَته كانتْ من الغابرين ﴾، أي الباقين في العذاب.

﴿ ولما أن جاءتْ رسلُنا لوطاً ﴾، ظن أنهم من الإنس، ﴿ سيء بهم ﴾، حزن بهم، ﴿ وضاق بهم ﴾، بمجيئهم ﴿ ذرعاً وقالوا لا تخفْ ﴾، من قومك علينا، ﴿ ولا تحزن ﴾، بإهلاكنا إيَّاهم، ﴿ إنَّا مُنجُّوك وأهلك إلَّا امرأتك كانت من الغابرين ﴾، قرأ ابن كثير وحمزة والكسائي وأبو بكر ويعقوب: «منجـوك» بالتخفيف، وقرأ الآخرون بالتشديد.

﴿ إنَّا منزلون ﴾، قرأ ابن عامر بالتشديد، وقرأ الآخرون بالتخفيف، ﴿ على أهل هذه القرية رِجْزاً ﴾، عذاباً، ﴿ من السماء ﴾، قال مقاتل: الخسف والحصب، ﴿ بما كانوا يفسقون ﴾.

﴿ ولقد تركنا منها ﴾، من قريات لوط، ﴿ آية بيِّنة ﴾، عبرة ظاهرة، ﴿ لقوم يعقلون ﴾، يتدبرون الآيات تدبّر ذوي العقول، قال ابن عباس: الآية البيِّنة هي آثار منازلهم الخربة. وقال قتادة: هي الحجارة التي أهلكوا بها أبقاها الله حتى أدركها أوائل هذه الأمة. وقال مجاهد: هي ظهور الماء الأسود على وجه الأرض.

﴿لقوم يعقلون﴾ يعني أفلا يتدبرون الآيات تدبر ذوي العقول قال ابن عباس الآية البينة آثار منازلهم الخربة وقيل هي الحجارة التي أهلكوا بها أبقاها الله حتى أدركها أوائل هذه الأمة. وقيل هي ظهور الماء الأسود على وجه الأرض. قوله تعالى **﴿وإلى مدين﴾** أي وأرسلنا إلى مدين؛ ومدين اسم رجل وقيل اسم المدينة؛ فعلى القول الأول يكون المعنى وأرسلنا إلى ذرية مدين وأولاده؛ وعلى القول الثاني وأرسلنا إلى أهل مدين **﴿أخاهم شعيباً فقال يا قوم اعبدوا الله وارجوا اليوم الآخر﴾** أي افعلوا فعل من يرجوا اليوم الآخر وقيل معناه اخشوا اليوم الآخر وخافوه **﴿ولا تعثوا في الأرض مفسدين فكذبوه فأخذتهم الرجفة﴾** أي الزلزلة وذلك أن جبريل صاح فرجفت الأرض رجفة **﴿فأصبحوا في دارهم جاثمين﴾** أي باركين على الركب ميتين **﴿وعاداً وثمود﴾** أي وأهلكنا عاداً وثمود **﴿وقد تبين لكم﴾** يا أهل مكة **﴿من مساكنهم﴾** أي منازلهم بالحجر واليمن **﴿وزين لهم الشيطان أعمالهم﴾** أي عبادتهم لغير الله **﴿فصدهم عن السبيل﴾** أي عن سبيل الحق **﴿وكانوا مستبصرين﴾** أي عقلاء ذوي بصائر. وقيل كانوا معجبين في دينهم وضلالتهم يحسبون أنهم على هدى وهم على باطل وضلالة والمعنى أنهم كانوا عند أنفسهم مستبصرين **﴿وقارون وفرعون وهامان﴾** أي أهلكنا هؤلاء **﴿ولقد جاءهم موسى بالبينات﴾** أي بالدلالات الواضحات **﴿فاستكبروا في الأرض وما كانوا سابقين﴾** أي فائتين من عذابنا **﴿فكلاً أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً﴾** وهم قوم لوط رموا بالحصباء وهي الحصى الصغار **﴿ومنهم من أخذته الصيحة﴾** يعني ثمود **﴿ومنهم من خسفنا به الأرض﴾** يعني قارون وأصحابه **﴿ومنهم من أغرقنا﴾** يعني قوم نوح وفرعون وقومه **﴿وما كان الله ليظلمهم﴾** أي بالهلاك **﴿ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾** أي بالإشراك. قوله تعالى:

مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ خَلَقَ ٱللَّهُ

﴿ وإلى مدين أخاهم شعيباً ﴾، أي وأرسلنا إلى مدين أخاهم شُعيباً، **﴿ فقال يا قوم اعبدوا الله وارجوا اليوم الآخر ﴾**، أي واخشوا اليوم الآخر، **﴿ ولا تَعْثَوا في الأرض مفسدين ﴾**.

﴿ فكذبوه فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين ﴾.

﴿ وعاداً وثموداً ﴾، أي وأهلكنا عاداً وثمود، **﴿ وقد تبيّن لكم ﴾**، يا أهل مكة، **﴿ من مساكنهم ﴾**، منازلهم بالحجر واليمن، **﴿ وزيّن لهم الشيطان أعمالهم فصدّهم عن السبيل ﴾**، عن سبيل الحق **﴿ وكانوا مستبصرين ﴾**، قال مقاتل والكلبي وقتادة: كانوا معجبين في دينهم وضلالتهم يحسبون أنهم على هدى، وهم على الباطل، والمعنى أنهم كانوا عند أنفسهم مستبصرين، قال الفرّاء: كانوا عقلاء ذوي بصائر.

﴿ وقارون وفرعون وهامان ﴾، أي وأهلكنا هؤلاء، **﴿ ولقد جاءهم موسى بالبيّنات ﴾**، بالدلالات، **﴿ فاستكبروا في الأرض وما كانوا سابقين ﴾**، أي فائتين من عذابنا.

﴿ فكلًا أخذنا بذنبه فمنهم مَن أرسلنا عليه حاصباً ﴾، وهم قوم لوط، والحاصب الريح التي تحمل الحصا وهي الحصا الصغار، **﴿ ومنهم مَن أخذته الصيحة ﴾**، يعني ثمود، **﴿ ومنهم مَن خسفنا به الأرض ﴾**، يعني قارون وأصحابه، **﴿ ومنهم مَن أغرقنا ﴾**، يعني قوم نوح وفرعون وقومه، **﴿ وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾**.

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾ ٱتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾

﴿مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء﴾ يعني الأصنام يرجون نصرها ونفعها **﴿كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً﴾** لنفسها تأوي إليه وإن بيتها في غاية الضعف والوهن لا يدفع عنها حراً ولا برداً فكذلك الأوثان لا تملك لعابدها نفعاً ولا ضراً. وقيل معنى هذا المثل أن المشرك الذي يعبد الأصنام بالقياس إلى المؤمن الذي يعبد الله مثل العنكبوت تتخذ بيتاً من نسجها بالإضافة إلى رجل بنى بيتاً بآجر وجص أو نحته من صخر فكما أن أوهن البيوت إذا استقريتها بيتاً بيتاً بيت العنكبوت فكذلك أضعف الأديان إذا استقريتها ديناً ديناً عبادة الأوثان لأنها لا تضر ولا تنفع **﴿وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت﴾** أشار إلى ضعفه فإن الريح إذا هبت عليه أو لمسه لامس فلا يبقى له عين ولا أثر فقد صح أن أوهن البيوت لبيت العنكبوت وقد تبين أن دينهم أوهن الأديان **﴿لو كانوا يعلمون﴾** أي أن هذا مثلهم وأن أمر دينهم بلغ هذه الغاية من الوهن **﴿إن الله يعلم ما يدعون من دونه من شيء﴾** هذا توكيد للمثل وزيادة عليه يعني إن الذي يدعون من دونه ليس بشيء **﴿وهو العزيز الحكيم﴾** معناه كيف يجوز للعاقل أن يترك عبادة الله العزيز الحكيم القادر على كل شيء ويشتغل بعبادة من ليس بشيء أصلاً **﴿وتلك الأمثال﴾** أي الأشباه يعني أمثال القرآن التي شبه بها أحوال الكفار من هذه الأمة بأحوال كفار الأمم السابقة **﴿نضربها﴾** أي نبينها **﴿للناس﴾** أي لكفار مكة **﴿وما يعقلها إلا العالمون﴾** يعني ما يعقل الأمثال إلا العلماء الذين يعقلون عن الله عز وجل. روى البغوي بإسناد الثعلبي عن جابر بن عبدالله أن النبي ﷺ تلا هذه الآية. **﴿وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون﴾** قال: «العالم من عقل عن الله فعمل بطاعته

﴿ مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء ﴾، أي الأصنام يرجون نصرها ونفعها، **﴿ كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً ﴾**، لنفسها تأوي إليه، وإن بيتها في غاية الضعف والوهن، لا يدفع عنها حرّاً ولا برداً، فكذلك الأوثان لا تملك لعابديها نفعاً ولا ضرّاً. **﴿ وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون ﴾**.

﴿ إنّ الله يعلم ما يدعون من دونه من شيء وهو العزيز الحكيم ﴾، قرأ أهل البصرة وعاصم يدعون بالياء لذكر الأمم قبلها، وقرأ الآخرون بالتاء.

﴿ وتلك الأمثال ﴾ الأشباه والمثل كلام سائر يتضمن تشبيه الآخر بالأول يريد أمثال القرآن التي شبّه بها أحوال كفّار هذه الأمة بأحوال كفّار الأمم المتقدمة، **﴿ نضربها ﴾**، نبيّنها، **﴿ للناس ﴾**، قال عطاء ومقاتل لكفّار مكة، **﴿ وما يعقلها إلاّ العالمون ﴾**، أي ما يعقل الأمثال إلاّ العلماء الذين يعقلون عن الله، أخبرنا أبو سعيد الشريحي أنا أبو إسحاق الثعلبي أخبرني ابن فنجويه أنا ابن بردة أنا الحرب بن أبي أسامة أنا داود بن المحبر أنا عباد بن كثير عن ابن جريج عن عطاء وأبي الزبير عن جابر أن النبي ﷺ تلا هذه الآية: **﴿ وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلاّ العالمون ﴾**، قال: العالم مَن عقل عن الله فعمل بطاعته واجتنب سخطه.

قوله عزّ وجلّ: **﴿ خلق الله السموات والأرض بالحق ﴾**، أي للحق وإظهار الحق، **﴿ إن في ذلك ﴾**، في خلقها، **﴿ لآية ﴾**، لدلالة **﴿ للمؤمنين ﴾**، على قدرته وتوحيده.

﴿ اتل ما أُوحي إليك من الكتاب ﴾، يعني القرآن، **﴿ وأقم الصلاةَ إنّ الصلاةَ تنهى عن الفحشاء والمنكر ﴾**، الفحشاء ما قبح من الأعمال والمنكر ما لا يعرف في الشرع، قال ابن مسعود وابن عباس: في الصلاة منتهي ومزدجر عن معاصي الله فمَن لم تأمره صلاته بالمعروف ولم تنهه عن المنكر لم يزدد بصلاته من الله إلاّ بُعداً.

واجتنب سخطه» ﴿خلق الله السموات والأرض بالحق﴾ أي للحق وإظهار الحق ﴿إن في ذلك لآية﴾ أي دلالة ﴿للمؤمنين﴾ على قدرته وتوحيده.

وقوله تعالى ﴿اتل ما أوحي إليك من الكتاب﴾ يعني القرآن ﴿وأقم الصلاة﴾ فإن قلت: لم أمر بهذين الشيئين تلاوة الكتاب وإقامة الصلاة فقط؟ قلت لأن العبادة المختصة بالعبد ثلاثة: قلبية وهي الاعتقاد الحق ولسانية وهي الذكر الحسن وبدنية وهي العمل الصالح، لكن الاعتقاد لا يتكرر فإن اعتقد شيئاً لا يمكنه أن يعتقده مرة أخرى بل ذلك يدوم مستمراً فبقي الذكر والعبادة البدنية وهما ممكنا التكرار فلذلك أمر بهما ﴿إن الصلاة تنهى عن الفحشاء﴾ أي ما قبح من الأعمال ﴿والمنكر﴾ أي ما لا يعرف في الشرع. قال ابن مسعود وابن عباس في الصلاة منتهى ومزدجر عن معاصي الله، فمن لم تأمره صلاته بالمعروف ولم تنهه عن المنكر لم تزده صلاته من الله إلا بعداً. وقال الحسن وقتادة: من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر فصلاته وبال عليه وقيل من داوم على الصلاة جره ذلك إلى ترك المعاصي والسيئات كما روي عن أنس قال: «كان فتى من الأنصار يصلي الصلوات مع رسول الله ﷺ ثم لم يدع من الفواحش شيئاً إلا ركبه فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال إن صلاته ستنهاه يوماً فلم يلبث أن تاب وحسنت حاله» وقيل: معنى الآية أنه ما دام في صلاته فإنها تنهاه عن الفحشاء والمنكر ومنه قوله: «إن في الصلاة لشغلاً» وقيل أراد بالصلاة القرآن وفيه ضعف لتقدم ذكر القرآن وعلى هذا يكون معناه أن القرآن ينهاه عن الفحشاء والمنكر كما روي عن جابر قال: قال رجل لرسول الله ﷺ «إن رجلاً يقرأ القرآن الليل كله فإذا أصبح سرق قال ستنهاه قراءته». وفي رواية «أنه قيل يا رسول الله إن فلاناً يصلي بالنهار ويسرق بالليل فقال إن صلاته لتردعه» وعلى كل حال فإن المراعي للصلاة لا بد وأن يكون أبعد عن الفحشاء والمنكر ممن لا يراعيها ﴿ولذكر الله أكبر﴾ أي أنه أفضل الطاعات. عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ «ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم وأرفعها في درجاتكم وخير لكم من إعطاء الذهب والورق وخير لكم

وقال الحسن وقتادة: مَن لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر فصلاته وِبال عليه. ورُوِيَ عن أنس قال: كان فتىً من الأنصار يصلّي الصلوات الخمس مع رسول الله ﷺ ثم لا يدع شيئاً من الفواحش إلاّ ركبه فوصف لرسول الله ﷺ حاله فقال: «إن صلاته تنهاه يوماً» فلم يلبث أن تاب وحسُنَ حاله، فقال رسول الله ﷺ: «ألم أقل لكم إن صلاته تنهاه يوماً»، وقال ابن عون: معنى الآية أن الصلاة تنهى صاحبها عن الفحشاء والمنكر ما دام فيها. وقيل: أراد بالصلاة القرآن، كما قال تعالى: ﴿ ولا تجهرْ بصلاتك ﴾ [الإسراء: ١١٠] أي بقراءتك. وقيل: أراد أن يقرأ القرآن في الصلاة فالقرآن ينهاه عن الفحشاء والمنكر، أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا عبد الرحمن بن أبي شريح أنا أبو القاسم البغوي أنا علي بن الجعد أنا القيس بن الربيع عن الأعمش عن أبي سفيان عن جابر قال: قال رجل للنبي ﷺ: إن رجلاً يقرأ القرآن الليل كله فإذا أصبح سرق، قال: «ستنهاه قراءته»، وفي رواية قيل: يا رسول الله إن فلاناً يصلّي بالنهار ويسرق بالليل، فقال: «إن صلاته لتردعه»، قوله عزّ وجلّ: ﴿ ولذكر الله أكبر ﴾، أي ذكر الله أفضل الطاعات، أخبرنا أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري أنا أبو الحسن علي بن محمد بن بشر أن ببغداد أنا أبو علي الحسين بن صفوان البرادعي أنا أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي الدنيا أنا هارون بن معروف أنا أبوعلي الضرير أنا أنس بن عياض ثنا عبد الله بن سعيد بن أبي هند عن زياد بن أبي زياد مولى عبد الله بن عباس عن أبي مخرمة عن أبي الدرداء رضي الله عنهم، قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم وأرفعها في درجاتكم وخيرٌ لكم من إنفاق الذهب والوَرِق وخيرٌ لكم من أن تلقوا عدوّكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم»؟ قالوا: بلى، قال: «ذكر الله»، أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا منصور محمد بن سمعان أنا أبو جعفر محمد بن أحمد بن عبد الجبّار الرياني أنا حميد بن زنجويه أنا أبو الأسود أنا أبو لهيعة عن دراج عن أبي

من أن تلقوا أعداءكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم قالوا بلى يا رسول الله قال ذكر الله». أخرجه الترمذي وله عن أبي سعيد الخدري قال: «إن رسول الله ﷺ سئل أي العباد أفضل درجة عند الله يوم القيامة؟ قال الذاكرون الله كثيراً قالوا يا رسول الله والغازي في سبيل الله؟ فقال لو ضرب بسيفه الكفار والمشركين حتى ينكسر ويختضب في سبيل الله دماً لكان الذاكرون الله كثيراً أفضل منه درجة» (م) عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ «سبق المفردون قالوا وما المفردون يا رسول الله؟ قال: الذاكرون الله كثيراً والذاكرات» يروي المفردون بتشديد الراء وتخفيفها والتشديد أتم يقال فرد الرجل بتشديد الراء إذا تفقه واعتزل الناس وحده مراعياً للأمر والنهي وقيل هم المتخلفون عن الناس بذكر الله لا يخلطون به غيره (خ) عن أبي هريرة وأبي سعيد أنهما شهدا على رسول الله ﷺ أنه قال: «لا يقعد قوم يذكرون الله إلا حفتهم الملائكة وغشيتهم الرحمة ونزلت عليهم السكينة وذكرهم الله فيمن عنده». وروي «أن أعرابياً قال يا رسول الله أي الأعمال أفضل قال أن تفارق الدنيا ولسانك رطب بذكر الله» وقال ابن عباس: معنى ولذكر الله أكبر ذكر الله إياكم أفضل من ذكركم إياه ويروى ذلك مرفوعاً عن ابن عمر عن النبيّ ﷺ وقال ابن عطاء ولذكر الله أكبر أي لن تبقى معه معصية ﴿**والله يعلم ما تصنعون**﴾ يعني لا يخفى عليه شيء من أمركم. قوله عز وجل:

۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ وَمِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤۡمِنُ بِهِۦۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا كُنتَ تَتۡلُواْ مِن قَبۡلِهِۦ مِن كِتَٰبٖ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ إِذٗا لَّٱرۡتَابَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلۡ هُوَ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَٰتٞ مِّن رَّبِّهِۦۖ قُلۡ إِنَّمَا

السمح عن الهيثم عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ سُئِلَ أيّ العباد أفضل درجة عند الله يوم القيامة؟ قال: «الذاكرون الله كثيراً والذاكرات»، قيل: يا رسول الله والغازي في سبيل الله؟ قال: «لو ضرب بسيفه في الكفّار والمشركين حتى ينكسر ويختضب دماً لكان الذاكر لله أفضل منه درجة»، وروينا أن أعرابياً قال: يا رسول الله أيّ الأعمال أفضل؟ قال: «أن تفارق الدنيا ولسانك رطب من ذكر الله»، أخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر الجرجاني أنا عبد الغافر بن محمد الفارسي أنا محمد بن عيسى الجلودي أنا إبراهيم بن محمد بن سفيان أنا مسلم بن الحجّاج القشيري أنا أميّة بن بسطام العبسي أنا يزيد بن زريع أنا روح بن القاسم عن العلاء عن أبيه عن أبي هريرة قال: كان رسول الله ﷺ يسير في طريق مكة فمرّ على جبل يقال له جمدان، فقال: «سيروا هذا حمدان سبق المفردون»، قالوا: وما المفردون يا رسول الله؟ قال: «الذاكرون الله كثيراً والذاكرات»، أخبرنا أبو الحسن عبد الرحمن بن محمد الداودي أنا أبو الحسن أحمد بن محمد بن موسى بن الصلت أنا أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الصمد الهاشمي أنا خلّاد بن أسلم ثنا النضر أنا شعبة عن أبي إسحاق قال: سمعت الأغر قال أشهد على أبي هريرة وأبي سعيد أنهما شهدا على رسول الله ﷺ، قال: «لا يقعد قوم يذكرون الله إلاّ حفّتهم الملائكة وغشيتهم الرحمة ونزلت عليهم السكينة وذكرهم الله فيمن عنده». وقال قوم: معنى قوله ولذكر الله أكبر أي ذكر الله إيّاكم أفضل من ذكركم إيّاه. ويُروَى ذلك عن ابن عباس وهو قول مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير، ويُروى ذلك مرفوعاً عن موسى بن عقبة عن نافع عن ابن عمر عن النبي ﷺ، وقال عطاء في قوله: «إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر»، قال: ولذكر الله أكبر من أن تبقى معه معصية. ﴿ **والله يعلم ما تصنعون** ﴾، قال عطاء: يريد لا يخفى عليه شيء.

ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِى
ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِى
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٥٢﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ
بِٱلْعَذَابِ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾

﴿ولا تجادلوا أهل الكتاب﴾ أي ولا تخاصموهم ﴿إلا بالتي هي أحسن﴾ أي القرآن والدعاء إلى الله بآياته والتنبيه على حججه وأراد بهم من قبل الجزية منهم ﴿إلا الذين ظلموا منهم﴾ يعني أبوا أن يعطوا الجزية ونصبوا الحرب فافجؤوهم بالسيف حتى يسلموا أو يعطوا الجزية ومعنى الآية إلا الذين ظلموكم لأن جميعهم ظالم بالكفر وقيل هم أهل الحرب ومن لا عهد له. وقيل الآية منسوخة بآية السيف ﴿وقولوا﴾ أي للذين قبلوا الجزية إذا حدثوكم بشيء مما في كتبكم ﴿آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون﴾ (خ) عن أبي هريرة قال كان أهل الكتاب يقرؤون التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام فقال النبي ﷺ: «لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا» الآية.

قوله عز وجل ﴿وكذلك﴾ أي كما أنزلنا إليهم الكتاب ﴿أنزلنا إليك الكتاب فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به﴾ يعني مؤمني أهل الكتاب كعبدالله بن سلام وأصحابه ﴿ومن هؤلاء﴾ يعني أهل مكة ﴿من يؤمن به وما يجحد بآياتنا إلا الكافرون﴾ وذلك أن اليهود عرفوا أن رسول الله ﷺ نبي والقرآن حق فجحدوا والجحود إنما يكون بعد المعرفة ﴿وما كنت تتلو﴾ يا محمد ﴿من قبله من كتاب﴾ معناه من كتب أي من قبل ما أنزلنا إليك الكتاب ﴿ولا تخطه بيمينك﴾ يعني

قوله تعالى: ﴿ولا تُجادِلُوا أهل الكتاب﴾، لا تخاصموهم، ﴿إلاّ بالتي هي أحسن﴾، أي بالقرآن والدعاء إلى الله بآياته والتنبيه على حججه، وأراد مَن قَبِلَ الجزية منهم، ﴿إلاّ الذين ظلموا منهم﴾، أي أبوا أن يعطوا الجزية ونصبوا الحرب، فجادلوهم بالسيف حتى يسلموا أو يعطوا الجزية، ومجاز الآية إلاّ الذين ظلموكم لأن جميعهم ظالم بالكفر. وقال سعيد بن جبير هم: أهل الحرب ومَن لا عهد له. قال قتادة ومقاتل: صارت منسوخة بقوله: ﴿قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله﴾ [التوبة: ٢٩]. ﴿وقولوا آمنّا بالذي أُنزل إلينا وأُنزل إليكم﴾، يريد إذا أخبركم واحد منهم مما قبل الجزية بشيء مما في كتبهم فلا تجادلوهم عليه، ولا تصدقوهم ولا تكذبوهم، وقولوا: آمنّا بالذي أُنزل إلينا وأُنزل إليكم، ﴿وإلٰهنا وإلٰهكم واحد ونحن له مسلمون﴾، أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا محمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا محمد بن يسار أنا عثمان بن عمر أنا علي بن المبارك عن يحيىٰ بن أبي كثير عن أبي سلمة عن أبي هريرة قال: كان أهل الكتاب يقرؤون التوراة بالعبرانية ويفسّرونها بالعربية لأهل الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: «لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم، وقولوا: آمنّا بالله وما أُنزل إلينا وما أُنزل إليكم»، أخبرنا أبو سعيد عبد الله بن أحمد الطاهري أنا عبد الصمد بن عبد الرحمن البزار أنا محمد بن زكريا العذافري أنا إسحٰق بن إبراهيم الدبري أنا عبد الرزاق أنا معمر عن الزهري أنا ابن أبي نملة الأنصاري أن أباه أبا نملة الأنصاري أخبره أنه بينا هو جالس عند رسول الله ﷺ جاء رجل من اليهود ومرّ بجنازة، فقال: يا محمد هل تتكلم هذه الجنازة؟ فقال رسول الله ﷺ: «الله أعلم»، فقال اليهودي: إنها تتكلم، فقال رسول الله ﷺ: «ما حدّثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذّبوهم، وقولوا آمنّا بالله وكتبه ورسله، فإن كان باطلاً لم تصدقوه وإن كان حقّاً لم تكذبوه».

ولا تكتبه والمعنى لم تكن تقرأ ولم تكتب قبل الوحي ﴿إذاً لارتاب المبطلون﴾ معناه لو كنت تكتب أو تقرأ قبل الوحي إليك لارتاب المشركون من أهل مكة، وقالوا إنه يقرأه من كتب الأولين أو ينسخه منها وقيل المبطلون هم اليهود ومعناه أنهم إذاً لشكوا فيه واتهموك وقالوا إن الذي نجد نعته في التوراة لا يقرأ ولا يكتب وليس هذا على ذلك النعت ﴿بل هو آيات بينات﴾ يعني القرآن ﴿في صدور الذين أوتوا العلم﴾ يعني المؤمنين الذين حملوا القرآن وقال ابن عباس يعني محمداً ﷺ ذو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم من أهل الكتاب لأنهم يجدون نعته وصفته في كتبهم ﴿وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون﴾ يعني اليهود ﴿وقالوا﴾ يعني كفار مكة ﴿لولا أنزل عليه آية من ربه﴾ أي كما أنزل على الأنبياء من قبل وقيل: أراد بالآيات معجزات الأنبياء مثل ناقة صالح ومائدة عيسى ونحو ذلك ﴿قل إنما الآيات عند الله﴾ أي هو القادر على إنزالها إن شاء أنزلها ﴿وإنما أنا نذير مبين﴾ أي إنما كلفت الإنذار وليس إنزال الآيات بيدي ﴿أولم يكفهم أنا أنزلنا﴾ هذا جواب لقولهم لولا أنزل عليه آية من ربه قال أولم يكفهم أنا أنزلنا ﴿عليك الكتاب يتلى عليهم﴾ معناه أن القرآن معجزة أتم من معجزة من تقدم من الأنبياء لأن معجزة القرآن تدوم على ممر الدهور والزمان ثابتة لا تضمحل كما تزول كل آية بعد كونها ﴿إن في ذلك﴾ يعني القرآن ﴿لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون﴾ أي تذكيراً وعظة لمن آمن به وعمل صالحاً ﴿قل كفى بالله بيني وبينكم شهيدا﴾ قال ابن عباس معناه يشهد لي أني رسوله والقرآن كتابه ويشهد عليكم بالتكذيب، وشهادة الله إثبات المعجزة له بإنزال الكتاب عليه ﴿يعلم ما في السموات والأرض﴾ أي

قوله تعالى: ﴿ **وكذلِكَ** ﴾ يعني كما أنزلنا إليهم الكتاب، ﴿ **أنزلنا إليك الكتاب فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به** ﴾، يعني مؤمني أهل الكتاب عبد الله بن سلام وأصحابه، ﴿ **ومن هؤلاء** ﴾، يعني أهل مكة، ﴿ **مَن يؤمن به** ﴾، وهم مؤمنوا أهل مكة، ﴿ **وما يجحد بآياتنا إلّا الكافرون** ﴾، وذلك أن اليهود وأهل مكة عرفوا أن محمداً نبي والقرآن حق فجحدوا. وقال قتادة: الجحود إنما يكون بعد المعرفة.

﴿ **وما كنت تتلوا** ﴾، يا محمد، ﴿ **من قبله من كتاب** ﴾، يعني من قبل ما أُنزل إليك الكتاب، ﴿ **ولا تخطّه بيمينك** ﴾، يعني ولا تكتبه يعني لم تكن تقرأ ولا تكتب قبل الوحي، ﴿ **إذاً لارتاب المبطلون** ﴾، يعني لو كنت تقرأ أو تكتب قبل الوحي لشكّ المبطلون المشركون من أهل مكة، وقالوا: إنه يقرؤه من كتب الأولين وينسخه منها، قاله قتادة. وقال مقاتل: المبطلون هم اليهود، ومعناه إذاً لشكّوا فيك واتّهموك، وقالوا إن الذي نجد نعته في التوراة أُمّي لا يقرأ ولا يكتب وليس هذا على ذلك النعت.

﴿ **بل هو آيات بيّنات** ﴾، قال الحسن يعني القرآن آيات بيّنات، ﴿ **في صدور الذين أُوتوا العلم** ﴾، يعني المؤمنين الذين حملوا القرآن، وقال ابن عباس رضي الله عنهما وقتادة: بل هو يعني محمداً ﷺ ذو آيات بيّنات في صدور الذين أُوتوا العلم من أهل الكتاب، لأنهم يجدونه بنعته وصفته في كتبهم، ﴿ **وما يجحد بآياتنا إلّا الظالمون** ﴾.

﴿ **وقالوا لولا أُنزل عليه آية من ربه** ﴾، كما أنزل على الأنبياء من قبل، قرأ ابن كثير وحمزة والكسائي وأبو بكر آية على التوحيد، وقرأ الآخرون آيات من ربه. قوله عزّ وجلّ: ﴿ **قل إنما الآيات عند الله** ﴾، وهو القادر على إرسالها إذا شاء أرسلها، ﴿ **وإنما أنا نذير مبين** ﴾، أنذر أهل المعصية بالنار، وليس إنزال الآيات بيدي.

﴿ **أوَ لم يكفهم** ﴾، هذا الجواب لقولهم: ﴿ لولا نزّل عليه آية من ربه ﴾ [الأنعام: ٣٧] قال: ﴿ **أوَ لم يكفهم أنّا أنزلنا عليك الكتاب يُتلى عليهم** ﴾، يعني أوَ لم يكفهم من الآيات القرآن يُتلى عليهم، ﴿ **إن في ذلك** ﴾، في إنزال القرآن، ﴿ **لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون** ﴾، أي تذكيراً وعظة لمَن آمن وعمل به.

هو المطلع على أمري وأمركم ويعلم حقي وباطلكم لا تخفى عليه خافية ﴿والذين آمنوا بالباطل﴾ قال ابن عباس: بغير الله وقيل بعبادة الشيطان وقيل بما سوى الله لأن ما سوى الله باطل ﴿وكفروا بالله﴾. فإن قلت من آمن بالباطل فقد كفر بالله فهل لهذا العطف فائدة غير التأكيد. قلت نعم فائدته أن ذكر الثاني لبيان قبح الأول فهو كقول القائل أتقول الباطل وتترك الحق لبيان أن الباطل قبيح ﴿أولئك هم الخاسرون﴾ أي المغبونون في صفقتهم حيث اشتروا الكفر بالإيمان. قوله عز وجل ﴿ويستعجلونك بالعذاب﴾ نزلت في النضر بن الحارث حيث قال «فأمطر علينا حجارة من السماء» ﴿ولولا أجل مسمى﴾ قال ابن عباس ما وعدتك أني لا أعذب قومك ولا استأصلهم وأؤخر عذابهم إلى يوم القيامة وقيل مدة أعمارهم لأنهم إذا ماتوا صاروا إلى العذاب وقيل يوم بدر ﴿لجاءهم العذاب وليأتينهم﴾ يعني العذاب، وقيل الأجل ﴿بغتة وهم لا يشعرون﴾ بإتيانه.

يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٤﴾ يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرْضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّٰيَ فَٱعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ كُلُّ نَفْسٖ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۖ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفٗا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٖ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾

﴿يستعجلونك بالعذاب﴾ أعاده تأكيداً ﴿وإن جهنم لمحيطة بالكافرين﴾ أي جامعة لهم لا يبقى منهم أحد إلا دخلها ﴿يوم يغشاهم العذاب﴾ أي يصيبهم ﴿من فوقهم ومن تحت أرجلهم ويقول ذوقوا ما كنتم تعملون﴾ أي جزاء ما كنتم تعملون. قوله تعالى ﴿يا عبادي الذين آمنوا إن أرضي واسعة فإياي فاعبدون﴾ قيل نزلت في ضعفاء مسلمي أهل مكة يقول الله تعالى إن كنتم في ضيق بمكة من إظهار الإيمان فاخرجوا منها إلى أرض المدينة فإنها واسعة آمنة، وقيل

﴿ قل كفى بالله بيني وبينكم شهيداً ﴾، أني رسوله وهذا القرآن كتابه، ﴿ يعلم ما في السموات والأرض والذين آمنوا بالباطل ﴾، قال ابن عباس: بغير الله. وقال قتادة: بعبادة الشيطان، ﴿ وكفروا بالله أولئك هم الخاسرون ﴾.

﴿ ويستعجلونك بالعذاب ﴾، نزلت في النضر بن الحارث حين قال: فأمطر علينا حجارة من السماء، ﴿ ولولا أجل مسمى ﴾، قال ابن عباس: ما وعدتك أني لا أُعذّب قومك ولا أستأصلهم وأُؤخّر عذابهم يعني لأنهم إذا ماتوا صاروا إلى العذاب، وقيل: يوم بدر، ﴿ لجاءهم العذاب وليأتينّهم ﴾، يعني العذاب وقيل الأجل، ﴿ بغتة وهم لا يشعرون ﴾، بإتيانه.

﴿ يستعجلونك بالعذاب ﴾، أعاده تأكيداً، ﴿ وإن جهنّم لمحيطة بالكافرين ﴾، جامعة لهم لا يبقى أحد منهم إلّا دخلها.

﴿ يوم يغشاهم ﴾، يصيبهم، ﴿ العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم ﴾، يعني إذا غشيهم العذاب أحاطت بهم جهنم كما قال لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش، ﴿ ويقول ذوقوا ﴾، قرأ نافع وأهل الكوفة: ﴿ ويقول ﴾ بالياء أي ويقول لهم الموكل بعذابهم ذوقوا، وقرأ الآخرون بالنون لأنه لما كان بأمره نسب إليه، ﴿ ما كنتم تعملون ﴾، أي جزاء ما كنتم تعملون.

نزلت في قوم تخلفوا عن الهجرة وقالوا نخشى إن هاجرنا من الجوع وضيق المعيشة فأنزل الله تعالى هذه الآية ولم يعذرهم بترك الخروج وقيل المعنى فهاجروا فيها أي فجاهدوا فيها. وقال سعيد بن جبير: إذا عملوا في الأرض بالمعاصي فاهربوا منها فإن أرضي واسعة وقيل إذا أمرتم بالمعاصي فاهربوا فإن أرضي واسعة وكذلك يجب على كل من كان في بلد يعمل فيه بالمعاصي ولا يمكنه تغيير ذلك أن يهاجر إلى بلد تتهيأ له فيها العبادة وقيل معنى إن أرضي واسعة يعني رزقي لكم واسع فاخرجوا ﴿كل نفس ذائقة الموت﴾ يعني كل أحد ميت خوفهم بالموت لتهون الهجرة عليهم فلا يقيموا بدار الشرك خوفاً من الموت ﴿ثم إلينا ترجعون﴾ فنجزيكم بأعمالكم.

قوله تعالى ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنبوئنهم من الجنة غرفاً﴾ أي علالي جمع غرفة وهي العلية ﴿تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها نعم أجر العالمين﴾ أي لله بطاعته ﴿الذين صبروا﴾ على الشدائد ولم يتركوا دينهم لشدة لحقتهم وقيل صبروا على الهجرة ومفارقة الأوطان وعلى أذى المشركين وعلى المحن والمصائب وعلى الطاعات وعن المعاصي ﴿وعلى ربهم يتوكلون﴾ أي يعتمدون على الله في جميع أمورهم. قوله عز وجل ﴿وكأين من دابة لا تحمل رزقها﴾ وذلك أن النبي ﷺ قال للمؤمنين الذين كانوا بمكة وقد آذاهم المشركون «هاجروا إلى المدينة

﴿ يا عبادي الذين آمنوا إنّ أرضي واسعة فإياي فاعبدون ﴾، قال مقاتل والكلبي: نزلت في ضعفاء مسلمي مكة يقول إن كنتم في ضيق بمكة من إظهار الإيمان فاخرجوا منها إلى أرض المدينة إن أرضي يعني المدينة واسعة آمنة، قال مجاهد: إنّ أرضي واسعة فهاجروا وجاهدوا فيها. وقال سعيد بن جبير: إذا عمل في الأرض بالمعاصي فاخرجوا منها فإن أرضي واسعة. وقال عطاء: إذا أمرتم بالمعاصي فاهربوا فإن أرضي واسعة، وكذلك يجب على كل مَن كان في بلد يعمل فيها بالمعاصي ولا يمكنه تغيير ذلك أن يهاجر إلى حيث يتهيأ له العبادة. وقيل: نزلت في قوم تخلّفوا عن الهجرة بمكة وقالوا نخشى إن هاجرنا من الجوع وضيق المعيشة، فأنزل الله هذه الآية ولم يعذرهم بترك الخروج. وقال مطرف بن عبد الله: أرضي واسعة أي رزقي لكم واسع فاخرجوا.

﴿ كل نفس ذائقة الموت ﴾، خوّفهم بالموت لتهون عليهم الهجرة أي كل واحد ميت أينما كان فلا تقيموا بدار الشرك خوفاً من الموت، ﴿ ثم إلينا ترجعون ﴾، فنجزيكم بأعمالكم، وقرأ أبو بكر: (يرجعون) بالياء.

﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنبوِّئنّهم ﴾، قرأ حمزة والكسائي بالثاء ساكنة من غير همز فقال: ثوى الرجل إذا أقام وأثوبته إذا أنزلته منزلاً يقيم فيه، وقرأ الآخرون بالباء وفتحها وتشديد الواو وهمزة بعدها أي لننزلنّهم، ﴿ من الجنة غرفاً ﴾، علالي، ﴿ تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها نعم أجر العاملين ﴾.

﴿ الذين صبروا ﴾، على الشدائد ولم يتركوا دينهم لشدّة لحقتهم، ﴿ وعلى ربّهم يتوكلون ﴾، يعتمدون.

﴿ وكأيّن من دابّة لا تحمل رزقها ﴾، وذلك أن النبي ﷺ قال للمؤمنين الذين كانوا بمكة وقد آذاهم المشركون: «هاجروا إلى المدينة»، فقالوا: كيف نخرج إلى المدينة وليس لنا بها دار ولا مال، فمَن يطعمنا بها ويسقينا؟ فأنزل الله: ﴿ وكأيّن من دابّة ﴾ ذات حاجة إلى غداء، ﴿ لا تحمل رزقها ﴾ أي لا ترفع رزقها معها ولا تدّخر شيئاً لغد مثل البهائم والطير، ﴿ الله يرزقها وإيّاكم ﴾، حيث كنتم، ﴿ وهو السميع العليم ﴾، السميع لأقوالكم لا نجد ما ننفق بالمدينة، العليم بما في قلوبكم، وقال سفيان عن علي بن الأقمر: وكأيّن من دابّة لا تحمل رزقها، قال: لا تدّخر شيئاً لغد. قال سفيان: ليس شيء من خلق الله يخبأ إلّا الإنسان والفأرة والنملة. أخبرنا أحمد بن إبراهيم الشريحي أنا أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي أخبرني أبو عبد الله الحسين بن محمد الثقفي أنا

فقالوا كيف نخرج إلى المدينة وليس لنا بها دار ولا مال فمن يطعمنا بها ويسقينا فأنزل الله: وكأين من دابة لا تحمل رزقها أي لا ترفع رزقها معها لضعفها ولا تدخر شيئاً لغد مثل البهائم والطير ﴿الله يرزقها وإياكم﴾ حيث كنتم ﴿وهو السميع﴾ أي لأقوالكم ﴿العليم﴾ بما في قلوبكم عن عمر بن الخطاب قال سمعت رسول الله ﷺ يقول «لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً». أخرجه الترمذي وقال حديث حسن ومعناه أنها تذهب أول النهار جياعاً ضامرة البطون وتروح آخر النهار إلى أوكارها شباعاً ممتلئة البطون ولا تدخر شيئاً قال سفيان بن عيينة ليس شيء من خلق الله يخبأ إلا الإنسان والفأرة والنملة. عن ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال: «أيها الناس ليس من شيء يقاربكم من الجنة ويباعدكم من النار إلا وقد أمرتكم به وليس شيء يقربكم من النار ويباعدكم من الجنة إلا وقد نهيتكم عنه ألا وإن الروح الأمين نفث في روعي» الروح: بضم الراء وبالعين المهملة هو القلب والعقل وبفتح الراء هو الخوف قال الله تعالى «فلما ذهب عن إبراهيم الروع» أي الخوف «أنه ليس من نفس تموت حتى تستوفي رزقها فاتقوا الله وأجملوا في الطلب ولا يحملنكم استبطاء الرزق أن تطلبوه بمعاصي الله عز وجل فإنه لا يدرك ما عند الله إلا بطاعته» قوله عز وجل:

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾ وَمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ

عبد الله بن عبد الرحمن الدقاق أنا محمد بن عبد العزيز أنا إسماعيل بن زرارة الرقي أنا أبو العطوف الجراح بن منهال عن الزهري عن عطاء بن أبي رباح عن ابن عمر قال: دخلت مع رسول الله ﷺ حائطاً من حوائط الأنصار، فجعل رسول الله ﷺ يلقط الرطب بيده ويأكل، فقال كلْ يا ابن عمر، قلت: لا أشتهيه يا رسول الله، قال: لكني أشتهيه وهذه صبح رابعة منذ لم أطعم طعاماً ولم أجده، فقلت إنّا لله، الله المستعان، قال: يا ابن عمر لو سألت ربّي لأعطاني مثل ملك كسرى وقيصر أضعافاً مضاعفة، ولكن أجوع يوماً وأشبع يوماً فكيف بك يا ابن عمر إذا عمّرت وبقيت في حثالة من الناس يخبئون رزق سنة ويضعف اليقين، فنزلت هذه الآية: ﴿**وكأيّن من دابّة لا تحمل رزقها**﴾، أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أبو محمد الحسين بن أحمد المخلدي أنا أبو العباس السراج أنا قتيبة بن سعيد أنا جعفر بن سليمان عن ثابت عن أنس عن النبي ﷺ: كان لا يدّخر شيئاً لغد. وروينا أن النبي ﷺ قال: «لو أنكم تتوكّلون على الله حقّ توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً». أخبرنا أبو منصور محمد بن عبد الملك المظفري أنا أبو سعيد أحمد بن محمد بن الفضل الفقيه أنا أبو نصر بن حمدونة المطوعي أنا أبو الموجّه محمد بن عمرو أنا عبدان عن أبي حمزة عن إسماعيل هو ابن أبي خالد عن رجلين أحدهما زبيد اليامي عن عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ أنه قال: «أيها الناس ليس من شيء يقرّبكم إلى الجنة ويباعدكم من النار إلّا وقد أمرتكم به، وليس شيء يقرّبكم إلى النار ويباعدكم من الجنة إلّا وقد نهيتكم عنه، وإن الروح الأمين قد نفث في رُوعي أنه ليس من نفس تموت حتى تستوفي رزقها، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب ولا يحملنّكم استبطاء الرزق أن تطلبوه بمعاصي الله فإنه لا يدرك ما عند الله إلا بطاعته». وقال هشيم عن إسماعيل عن زبيد عمّن أخبره عن ابن مسعود.

ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا
أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ
ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا فِينَا
لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾

﴿ولئن سألتهم﴾ يعني كفار مكة **﴿من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر﴾** ذكر أمرين أحدهما: إشارة إلى اتحاد الذات والثاني إشارة إلى اتحاد الصفات وهي الحركة في الشمس والقمر **﴿ليقولن الله فأنى يؤفكون﴾** قيل معناه أنهم يعتقدون هذا فكيف يصرفون عن عبادة الله مع إقرارهم أنه خلق السموات والأرض **﴿الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده﴾** لما ذكر الخلق ذكر الرزق لأن كمال الخلق ببقائه وبقاء الخلق بالرزق والله تعالى هو المتفضل بالرزق على الخلق فله الفضل والإحسان والطول والامتنان **﴿ويقدر له﴾** أي يضيق عليه إذا شاء **﴿إن الله بكل شيء عليم﴾** أي يعلم مقادير الحاجات ومقادير الأرزاق **﴿ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد موتها ليقولن الله﴾** ذكر سبب الرزق وموجد السبب موجد المسبب فالرزق من الله تعالى **﴿قل الحمد لله﴾** أي على أن الفاعل لهذه الأشياء هو الله تعالى: وقيل قل الحمد لله على إقرارهم ولزوم الحجة عليهم بأنه خالق لهم **﴿بل أكثرهم لا يعقلون﴾** أي أنهم ينكرون التوحيد مع إقرارهم بأنه خالق هذه الأشياء. قوله تعالى **﴿وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب﴾** اللهو هو الاستمتاع بلذة الدنيا وقيل هو الاشتغال بما لا يعنيه وما لا يهمه واللعب هو العبث وفي هذا تصغير للدنيا وازدراء بها ومعنى الآية أن سرعة زوال الدنيا عن أهلها وتقلبهم فيها وموتهم عنها كما يلعب الصبيان ساعة ثم ينصرفون **﴿وإن الدار الآخرة لهي الحيوان﴾** أي الحياة الدائمة الخالدة التي لا موت فيها **﴿لو كانوا يعلمون﴾** فناء الدنيا وبقاء الآخرة لما آثروا الفاني على الباقي. قوله عز وجل **﴿فإذا ركبوا في الفلك﴾** معناه هم على ما وصفوا به من الشرك والعناد فإذا ركبوا في الفلك وخافوا الغرق **﴿دعوا الله مخلصين له الدين﴾** أي تركوا الأصنام ولجأوا إلى الله تعالى بالدعاء **﴿فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون﴾** أي عادوا إلى ما كانوا عليه من الشرك والعناد. وقيل: كان أهل

قوله تعالى **﴿ ولئن سألتهم ﴾**، يعني كفّار مكة، **﴿ مَن خلق السموات والأرض وسخّر الشمس والقمر ليقولنّ الله فأنّى يُؤفكون ﴾**.

﴿ الله يبسط الرزق لمَن يشاء من عباده ويقدر له إن الله بكل شيء عليم ﴾.

﴿ ولئن سألتهم مَن نزّل من السماء ماءً فأحيا به الأرضَ من بعد موتها ليقولنّ الله قلِ الحمد لله ﴾، على أن الفاعل لهذه الأشياء هو الله، **﴿ بل أكثرهم لا يعقلون ﴾**، وقيل: قل الحمد لله على إقرارهم لزوم الحجة عليهم، **﴿ بل أكثرهم لا يعقلون ﴾**، ينكرون التوحيد مع إقرارهم أنه الخالق لهذه الأشياء. قوله تعالى:

﴿ وما هذه الحياة الدنيا إلّا لهوٌ ولعب ﴾، اللهو هو الاستمتاع بلذات الدنيا، واللعب العبث سُمّيت بهما لأنها فانية. **﴿ وإنّ الدارَ الآخرةَ لهي الحيوان ﴾**، أي الحياة الدائمة الباقية، والحيوان بمعنى الحياة أي فيها الحياة الدائمة، **﴿ لو كانوا يعلمون ﴾**، فناء الدنيا وبقاء الآخرة.

قوله تعالى: **﴿ فإذا ركبوا في الفُلْكِ ﴾**، وخافوا الغرق، **﴿ دعوا الله مخلصين له الدين ﴾**، وتركوا الأصنام، **﴿ فلما نجّاهم إلى البرّ إذا هم يشركون ﴾**، هذا إخبار عن عنادهم وأنهم عند الشدائد يقرّون أن القادر على كشفها هو الله عزّ وجلّ وحده، فإذا زالت عادوا إلى كفرهم، قال عكرمة: كان أهل الجاهلية إذا ركبوا البحر حملوا معهم

الجاهلية إذا ركبوا البحر حملوا الأصنام فإذا اشتد الريح ألقوها في البحر وقالوا يا رب يا رب ﴿ليكفروا بما آتيناهم﴾ أي ليجحدوا نعمة الله في إجابته إياهم ومعناه التهديد والوعيد ﴿وليتمتعوا﴾ معناه لا فائدة لهم في الإشراك إلا التمتع بما يستمتعون به في العاجلة ولا نصيب لهم في الآخرة ﴿فسوف يعلمون﴾ يعني عاقبة أمرهم ففيه تهديد ووعيد. قوله عز وجل ﴿أو لم يروا أنا جعلنا حرماً آمنا ويتخطف الناس من حولهم﴾ يعني العرب يسبي بعضهم بعضاً وأهل مكة آمنون ﴿أفبالباطل﴾ يعني الشيطان والأصنام ﴿يؤمنون وبنعمة الله يكفرون﴾ أي بمحمد ﷺ والإسلام يكفرون ﴿ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً﴾ أي فزعم أن له شريكاً فإنه منزه عن الشركاء ﴿أو كذب بالحق﴾ أي بمحمد ﷺ والقرآن ﴿لما جاءه أليس في جهنم مثوى للكافرين﴾ معناه أما لهذا الكافر المكذب مأوى في جهنم. قوله عز وجل ﴿والذين جاهدوا فينا﴾ معناه جاهدوا المشركين لنصر ديننا ﴿لنهدينم سبلنا﴾ لنثيبنهم ما قاتلوا عليه. وقيل لنزيدنهم هدى وقيل لنوفينهم لإصابة الطرق المستقيمة وهي التي توصل إلى رضا الله تعالى. قال سفيان بن عيينة: إذا اختلف الناس فانظروا ما عليه أهل الثغور فإن الله تعالى يقول: ﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا﴾ وقيل المجاهدة الصبر على الطاعات ومخالفة الهوى وقال الفضيل بن عياض والذين جاهدوا في طلب العلم لنهدينهم سبل العلم والعمل به وقال سهل بن عبدالله والذين جاهدوا فينا بإقامة السنة لنهدينهم سبل الجنة. وقال ابن عباس: والذين جاهدوا في طاعتنا لنهدينهم سبل ثوابنا ﴿وإن الله لمع المحسنين﴾ أي بالنصرة والمعونة في دنياهم والمغفرة في عقباهم في الآخرة وثوابهم الجنة والله أعلم.

الأصنام فإذا اشتدت بهم الريح ألقوها في البحر وقالوا يا رب يا رب.

﴿ ليكفروا بما آتيناهم ﴾، هذا لام الأمر ومعناه التهديد والوعيد، كقوله: ﴿ اعملوا ما شئتم ﴾ [فصّلت: ٤٠]، أي ليجحدوا نعمة الله في إنجائه إيّاهم، ﴿ وليَتَمتَّعُوا ﴾، قرأ حمزة والكسائي ساكنة اللام، وقرأ الباقون بكسرها نسقاً على قوله ليكفروا، ﴿ فسوف يعلمون ﴾، وقيل: مَنْ كسر اللام جعلها لام كي وكذلك في ليكفروا، والمعنى لا فائدة لهم في الإشراك إلّا الكفر والتمتّع بما يتمتعون به في العالجة من غير نصيب في الآخرة.

﴿ أوَ لم يروا أنّا جعلنا حَرَماً آمناً ويُتخطّف النّاسُ من حولهم ﴾، يسبي بعضهم بعضاً، وأهل مكة آمنون، ﴿ أفبالباطل ﴾، بالأصنام والشياطين، ﴿ يؤمنون وبنعمة الله ﴾، بمحمد والإسلام، ﴿ يكفرون ﴾.

﴿ ومَن أظلم ممّن افترى على الله كذباً ﴾، فزعم أن لله شريكاً وأنه أمر بالفواحش، ﴿ أو كذّب بالحق ﴾، بمحمد ﷺ والقرآن، ﴿ لمّا جاءه أليس في جهنم مثوىً للكافرين ﴾، استفهام بمعنى التقرير، معناه: أما لهذا الكافر المكذب مأوى في جهنم.

﴿ والذين جاهدوا فينا ﴾، الذين جاهدوا المشركين لنصرة ديننا، ﴿ لنهدينّهم سُبلنا ﴾، لنثبتهم على ما قاتلوا عليه، وقيل: لنزيدنّهم هدىً كما قال: ﴿ ويزيد الله الذين اهتدوا هدىً ﴾ [مريم: ٧٦]، وقيل: لنوفقنّهم لإصابة الطريق المستقيمة هي التي توصل بها إلى رضا الله عزّ وجلّ. قال سفيان بن عيينة: إذا اختلف الناس فانظروا ما عليه أهل الثغور، موضع المخافة في بروج البلدان، فإن الله قال: ﴿ والذين جاهدوا فينا لنهدينّهم سبُلنا ﴾، وقيل: المجاهدة هي الصبر على الطاعات. قال الحسن: أفضل الجهاد مخالفة الهوى. وقال الفضيل بن عياض: والذين جاهدوا في طلب العلم لنهدينّهم سُبل العمل به. وقال سهل بن عبد الله: والذين جاهدوا في إقامة السُّنّة لنهدينّهم سُبُل الجنة. ورُوِيَ عن ابن عباس: والذين جاهدوا في طاعتنا لنهدينّهم سُبل ثوابنا. ﴿ وإن الله لمع المحسنين ﴾، بالنصر والمعونة في دنياهم وبالثواب والمغفرة في عُقْباهم.

تفسير سورة الروم

مكية وهي ستون آية وتسع عشرة كلمة وثلاثة آلاف وخمسمائة وأربعة وثلاثون حرفاً.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾

قوله عز وجل ﴿**الٓمٓ غلبت الروم في أدنى الأرض**﴾ سبب نزول هذه الآية على ما ذكره المفسرون أنه كان بين فارس والروم قتال وكان المشركون يودون أن تغلب فارس الروم لأن فارساً كانوا مجوساً أميين والمسلمون يودون غلبة الروم على فارس لكونهم أهل كتاب فبعث كسرى جيشاً إلى الروم واستعمل عليهم رجلاً يقال له شهرمان وبعث قيصر رجالاً وجيشاً وأمر عليهم رجلاً يدعى بخين فالتقيا بأذرعات وبصرى وهي أدنى الشام إلى أرض العرب والعجم فغلبت فارس الروم فبلغ ذلك المسلمين بمكة فشق عليهم وفرح به كفار مكة، وقالوا للمسلمين: إنكم أهل كتاب والنصارى أهل كتاب ونحن أميون وفارس أميون وقد ظهر إخواننا من أهل فارس على إخوانكم من الروم فإنكم إن قاتلتمونا لنظهرن عليكم فأنزل الله هذه الآيات فخرج أبو بكر الصديق إلى كفار مكة فقال: فرحتم بظهور إخوانكم فلا تفرحوا فوالله ليظهرن الروم على فارس. أخبرنا بذلك نبينا محمد ﷺ فقام إليه أبي بن خلف الجمحي فقال كذبت: فقال أنت أكذب يا عدو الله فقال: اجعل بيننا أجلاً أناحبك عليه والمناحبة بالحاء المهملة القمار والمراهنة أراهنك على عشر قلائص مني وعشر قلائص منك فإذا ظهرت فارس على الروم غرمت وإذا ظهرت الروم على فارس غرمت ففعلوا وجعلوا الأجل ثلاث سنين فجاء أبو بكر إلى النبي ﷺ وأخبره بذلك قبل تحريم القمار. فقال النبيّ ﷺ: ما

سُوْرَة الرُّوم

مكيّة وهي ستّون آية وقيل تسع وخمسون آية.

﴿ **الٓمٓ غُلِبت الروم في أدنى الأرض** ﴾، سبب نزول هذه الآية على ما ذكره المفسّرون أنه كان بين فارس والروم قتال وكان المشركون يودّون أن تغلب فارس الروم لأن أهل فارس كانوا مجوساً أُمّيّين، والمسلمون يودّون غلبة الروم على فارس لكونهم أهل كتاب، فبعث كسرى جيشاً إلى الروم واستعمل عليها رجلاً يقال له شهرمان، وبعث قيصر جيشاً عليهم رجل يدعى بخين، فالتقيا بأذرعات وبصرى وهي أدنى الشام إلى أرض العرب والعجم، فغلبت فارسُ الروم فبلغ ذلك المسلمون بمكة فشقّ عليهم، وفرح به كفّار مكة وقالوا للمسلمين إنكم أهل كتاب والنصارى أهل كتاب ونحن أُميُّون وقد ظهر إخواننا من أهل فارس على إخوانكم من أهل الروم، وإنكم إن قاتلتمونا لنظهرنّ عليكم فأنزل الله تعالى هذه الآيات، فخرج أبو بكر الصديق إلى الكفّار فقال: فرحتم بظهور إخوانكم فلا تفرحوا فوالله لنظهرنّ على فارس على ما أخبرنا بذلك نبيّنا، فقام إليه أُبيّ بن خلف الجمحي فقال: كذبت، فقال:

هكذا ذكرت إنما البضع ما بين الثلاث إلى التسع فزايده في الخطر وماده في الأجل فخرج أبو بكر فلقي أبياً فقال لعلك ندمت فقال لا فتعال أزايدك في الخطر وأماددك في الأجل فاجعلها مائة قلوص ومائة قلوص إلى تسع سنين فقال قد فعلت فلما خشي أبي بن خلف أن يخرج أبو بكر من مكة أتاه ولزمه وقال: إني أخاف أن تخرج من مكة فأقم لي ضامناً كفيلاً فكفله ابنه عبدالله بن أبي بكر فلما أراد أبي بن خلف أن يخرج إلى أحد أتاه عبدالله بن أبي بكر فلزمه وقال والله لا أدعك حتى تعطيني كفيلاً فأعطاه كفيلاً ثم خرج إلى أحد قال: ثم رجع أبي بن خلف إلى مكة ومات بها من جراحته التي جرحه النبيّ ﷺ حين بارزه وظهرت الروم على فارس يوم الحديبية وذلك على رأس سبع سنين من مناحبتهم وقيل كان يوم بدر وربطت الروم خيولهم بالمدائن وبنوا بالعراق مدينة وسموها رومية فقمر أبو بكر أبياً وأخذ مال الخطر من ورثته وجاء به للنبي ﷺ وذلك قبل أن يحرم القمار فقال النبيّ ﷺ: تصدق به. وكان سبب غلبة الروم فارساً على ما قال عكرمة وغيره: أن شهرمان لما غلب الروم لم يزل يطؤهم ويخرب مدائنهم حتى بلغ الخليج فبينا أخوه فرحان جالس ذات يوم يشرب قال لأصحابه: لقد رأيت كأني جالس على سرير كسرى فبلغت كلمته كسرى فكتب إلى شهرمان إذا أتاك كتابي فابعث إلي برأس أخيك فرحان فكتب إليه أيها الملك إنك لم تجد مثل فرحان إن له لنكاية وصولة في العدو، فلا تفعل فكتب إليه إن في رجال فارس خلفاً عنه فعجل إليَّ برأسه فراجعه فغضب كسرى

أنت أكذب يا عدوّ الله، فقال: اجعل بيننا أجلاً أُناحِبُك عليه، والمناحبة المراهنة على عشر قلائص مني وعشر قلائص منك، فإن ظهرت الروم على فارس غرمت وإن ظهرت فارس غرمت، ففعلوا وجعلوا الأجل ثلاث سنين فجاء أبو بكر إلى النبي ﷺ فأخبره بذلك، وذلك قبل تحريم القمار، فقال النبي ﷺ: «ما هكذا ذكرت إنما البضع ما بين الثلاثة إلى التسع فزايده في الخطر وماده في الأجل» فخرج أبو بكر ولقي أُبيّاً، فقال: لعلك ندمت؟ قال: لا، فقال: لا فتعال أُزايدك في الخطر وأمادّك في الأجل فاجعلها مائة قلوص ومائة قلوص إلى تسع سنين، وقيل إلى سبع سنين، قال قد فعلت، فلما خشي أُبيّ بن خلف أن يخرج أبو بكر من مكة أتاه فلزمه وقال إني أخاف أن تخرج من مكة فأقم لي كفيلاً فكفل له ابنه عبد الله بن أبي بكر فلما أراد أُبيّ بن خلف أن يخرج إلى أُحُد أتاه عبدالله بن أبي بكر فلزمه فقال لا والله لا أدعك حتى تعطيني كفيلاً فأعطاه كفيلاً، ثم خرج إلى أُحُد ثم رجع أُبيّ بن خلف فمات بمكة من جراحته التي جرحه رسول الله ﷺ حين بارزه، وظهرت الروم على فارس يوم الحديبية وذلك عند رأس سبع سنين من مناحبتهم. وقيل: كان يوم بدر. قال الشعبي: لم تمضِ تلك المدة التي عقدوا المناحبة بين أهل مكة وفيها صاحب قمارهم أُبيّ بن خلف والمسلمون وصاحب قمارهم أبو بكر، وذلك قبل تحريم القمار، حتى غلبت الروم فارس وربطوا خيولهم بالمدائن وبنوا الرومية فقمر أبو بكر أُبيّاً وأخذ مال الخطر من ورثته، فجاء به يحمله إلى النبي ﷺ، فقال له النبي ﷺ: «تصدّق به» وكان سبب غلبة الروم فارساً على ما قال عكرمة وغيره: أن شهرمان بعدما غلبت الروم لم يزل يطأهم ويخرّب مدائنهم حتى بلغ الخليج، فبينا أخوه فرحان جالس ذات يوم يشرب فقال لأصحابه لقد رأيت كأني جالس على سرير كسرى، فبلغت كلمته كسرى فكتب إلى شهرمان إذا أتاك كتابي فابعث إليّ برأس فرحان، فكتب إليه أيها الملك إنك لن تجد مثل فرحان إن له نكاية وصوتاً في العدو، فلا تفعل البتّة، فكتب إليه إن في رجال فارس خلفاً منه، فعجّلْ عليّ برأسه فراجعه فغضب كسرى ولم يُجِبْه، وبعث بريد إلى أهل فارس أني قد نزعت عنكم شهرمان واستعملت عليكم فرحان الملك، ثم رفع إلى البريد صحيفة صغيرة أمره فيها بقتل شهرمان، وقال إذا ولّى فرحان الملك وانقاد له أخوه فأعطه فلما قرأ شهرمان الكتاب قال سمعاً وطاعةً، ونزل عن سريره وجلس فرحان ورفع إليه الصحيفة، فقال ائتوني بشهرمان فقدّمه ليضرب عنقه، فقال لا تعجل عليّ حتى أكتب وصيتي، قال: نعم فدعا بالسفط فأعطاه ثلاث صحائف وقال كل هذا رجعت فيك كسرى

ولم يجبه وبعث بريداً إلى أهل فارس إني قد عزلت عنكم شهرمان واستعملت عليكم فرحان ثم بعث مع البريد صحيفة صغيرة وأمره فيها بقتل شهرمان. وقال إذا ولي فرحان الملك وانقاد له أخوه فأعطه الصحيفة، فلما وصل البريد إلى شهرمان عرض عليه كتاب كسرى فلما قرأه قال: سمعاً وطاعة ونزل عن سرير الملك وأجلس عليه أخاه فرحان فدفع البريد الصحيفة إلى فرحان فلما قرأها: استدعى بأخيه شهرمان وقدمه ليضرب عنقه فقال له لا تعجل حتى أكتب وصيتي قال نعم فدعا بسفط ففتحه وأعطاه ثلاث صحائف منه وقال كل هذا راجعت فيك كسرى وأنت تريد قتلي بكتاب واحد فرد فرحان الملك إلى أخيه شهرمان فكتب إلى قيصر ملك الروم؛ أما بعد إن لي إليك حاجة لا تحملها البرد ولا تبلغها الصحف فالقني في خمسين رومياً حتى ألقاك في خمسين فارسياً فأقبل قيصر في خمسمائة ألف رومي وجعل يضع العيون بين يديه في الطرق مخافة أن يريد أن يمكر به حتى أتاه عيونه فأخبروا أنه ليس معه إلا خمسون فارسياً، فلما التقيا ضربت لهما فيها ديباج فدخلاها ومع كل واحد سكين ودعوا بترجمان يترجم بينهما فقال شهرمان: إن الذي خرب بلادك أنا وأخي بكيدنا وشجاعتنا وإن كسرى حسدنا وأراد بأن يقتل أخي فأبيت عليه ثم أمر أخي بقتلي فأبى عليه، وقد خلعناه جميعاً ونحن نقاتله معك فقال: قد أصبتما وأشار أحدهما إلى صاحبه أن السر بين اثنين فإذا جاوزهما فشا. فقتلا الترجمان معاً بسكينيهما فأديلت الروم على فارس عند ذلك وغلبوهم وقتلوهم ومات كسرى وجاء الخبر إلى رسول الله ﷺ يوم الحديبية ففرح ومن كان معه من المسلمين بذلك فذلك قوله عز وجل ﴿**الٓمٓ غلبت الروم في أدنى الأرض**﴾ يعني أقرب أرض الشام إلى فارس وقيل هي أذرعات وقيل الأردن وقيل الجزيرة ﴿**وهم من بعد غلبهم**﴾ أي فارس لهم ﴿**سيغلبون**﴾ أي الروم لفارس.

فِي بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾

﴿**في بضع سنين**﴾ البضع ما بين الثلاث إلى السبع وقيل إلى التسع وقيل ما دون العشر ﴿**لله الأمر من قبل ومن**

وأنت تريد أن تقتلني بكتاب واحد، فردّ الملك إلى أخيه وكتب شهرمان إلى قيصر ملك الروم إن لي إليك حاجة لا تحملها البرد ولا تبلغها الصحف فالقني ولا تلقني إلاّ في خمسين رومياً فإني ألقاك في خمسين فارسياً، فأقبل قيصر في خمسمائة ألف رومي وجعل يضع العيون بين يديه في الطرق وخاف أن يكون قد مكر به حتى أتاه عيونه أنه ليس معه إلاّ خمسون رجلاً ثم بسط لهم فالتقيا في قبة ديباج ضُربت لهما ومع كل واحد منهم سكّين فدعوا بترجمان بينهما فقال شهرمان إن الذين خربوا مدائنك أنا وأخي بكيدنا وشجاعتنا وإن كسرى حسدنا وأراد أن أقتل أخي فأبيت ثم أمر أخي أن يقتلني، فقد خلعناه جميعاً فنحن نقاتله معك، قال قد أصبتما ثم أشار أحدهما إلى صاحبه أن السرّ بين اثنين فإذا جاوز اثنين فشا فقتلا الترجمان معاً بسكينهما فأُديلت الروم على فارس عند ذلك فاتبعوهم يقتلونهم، ومات كسرى وجاء الخبر إلى رسول الله ﷺ يوم الحديبية ففرح ومَن معه فذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿ **الٓمٓ غُلبت الروم في أدنى الأرض** ﴾، أي أقرب أرض الشام إلى أرض فارس، قال عكرمة: هي أذرعات وكسكر، وقال مجاهد: أرض الجزيرة. وقال مقاتل: الأردن وفلسطين. ﴿ **وهم من بعد غَلَبِهم** ﴾، أي الروم من بعد غلبة فارس إياهم، والغلب والغلبة لغتان، ﴿ **سيغلِبُون** ﴾، فارس.

﴿ **في بضع سنين** ﴾، والبضع ما بين الثلاث إلى السبع، وقيل: ما بين الثلاث إلى التسع: وقيل: ما دون العشرة. وقرأ عبد الله بن عمر وأبو سعيد الخدري والحسن وعيسى بن عمر: ﴿ **غلبت** ﴾ بفتح الغين واللام،

بعد﴾ أي من قبل دولة الروم على فارس ومن بعدها فمن غلب فهو بأمر الله تعالى وقضائه وقدره ﴿**ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله**﴾ أي الروم على فارس وقيل فرح النبي ﷺ والمؤمنون بظهورهم على المشركين يوم بدر وفرحوا بظهور أهل الكتاب على أهل الشرك ﴿**ينصر من يشاء**﴾ أي بيده النصر ينصر من يشاء ﴿**وهو العزيز**﴾ الغالب ﴿**الرحيم**﴾ أي بالمؤمنين قوله تعالى ﴿**وعد الله**﴾ أي وعد الله وعداً بظهور الروم على فارس ﴿**لا يخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون**﴾ أي أن الله لا يخلف وعده؛ ثم قال تعالى ﴿**يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا**﴾ يعني أمر معاشهم كيف يكسبون ويتجرون ومتى يغرسون ويزرعون ويحصدون وقال الحسن إن أحدهم لينقر الدرهم بطرف ظفره فيذكر وزنه لا يخطىء وهو لا يحسن يصلي. وقيل: لا يعلمون الدنيا بحقيقتها إنما يعلمون ظاهرها وهو ملاذها وملاعبها ولا يعلمون باطنها وهو مضارها ومتاعبها. وقيل يعلمون وجودها الظاهر ولا يعلمون فناءها ﴿**وهم عن الآخرة هم غافلون**﴾ أي ساهون عنها لا يتفكرون فيها ولا يعلمون بها. قوله عز وجل:

أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ﴿٨﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَىٰ أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٠﴾ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ ﴿١٣﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾ فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ

﴿ **سيغلبون** ﴾ بضم الياء وفتح اللام، وقالوا نزلت حين أخبر النبي ﷺ عن غلبة الروم فارس، ومعنى الآية: آلم غلبت الروم فارس في أدنى الأرض إليكم وهم من بعد غلبهم سيغلبهم المسلمون في بضع سنين، وعند انقضاء هذه المدة أخذ المسلمون في جهاد الروم. والأول أصحّ وهو قول أكثر المفسّرين. ﴿ **لله الأمر من قبل ومن بعد** ﴾، من بعد دولة الروم على فارس ومن بعدها فأيّ الفريقين كان لهم الغلبة فهو بأمر الله وقضائه وقدره. ﴿ **ويومئذ يفرح المؤمنون** ﴾.

﴿ **بنصر الله** ﴾، الروم على فارس، قال السدي: فرح النبي ﷺ والمؤمنون بظهورهم على المشركين يوم بدر وظهور أهل الكتاب على أهل الشرك، ﴿ **ينصر مَن يشاء وهو العزيز** ﴾، الغالب، ﴿ **الرحيم** ﴾، بالمؤمنين.

﴿ **وَعْدَ الله** ﴾، نصب على المصدر أي وعد الله وعداً بظهور الروم على فارس، ﴿ **لا يخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون** ﴾.

﴿ **يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا** ﴾، يعني أمر معاشهم كيف يكتسبون ويتجرون ومتى يغرسون ويزرعون ويحصدون وكيف يبنون ويعيشون، وقال الحسن: إن أحدهم لينقر الدرهم بطرف ظفره فيذكر وزنه ولا يخطىء وهو لا يحسن أن يصلّي ﴿ **وهم عن الآخرة هم غافلون** ﴾، ساهون عنها جاهلون لا يتفكّرون فيها ولا يعملون لها.

تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾

﴿أو لم يتفكروا في أنفسهم ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق﴾ يعني لإقامة الحق **﴿وأجل مسمى﴾** أي لوقت معلوم إذا انتهت إليه فنيت وهو يوم القيامة **﴿وإن كثيراً من الناس بلقاء ربهم لكافرون أولم يسيروا في الأرض﴾** أي يسافروا فيها **﴿فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم﴾** أي ينظروا إلى مصارع الأمم قبلهم فيعتبروا **﴿كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الأرض﴾** أي حرثوها وقلبوها للزراعة **﴿وعمروها﴾** يعني الأمم الخالية **﴿أكثر مما عمروها﴾** يعني أهل مكة **﴿وجاءتهم رسلهم بالبينات﴾** أي فلم يؤمنوا فأهلكهم الله **﴿فما كان الله ليظلمهم﴾** أي بنقص حقوقهم **﴿ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾** أي ببخس حقوقهم **﴿ثم كان عاقبة الذين أساءوا﴾** أي أساءوا العمل فاستحقوا **﴿السوأى﴾** يعني الخلة التي تسوءهم وهي النار وقيل السوء اسم لجهنم، ومعنى الآية أن عاقبة الذين عملوا السوء النار **﴿أن كذبوا﴾** أي لأنهم كذبوا وقيل معنى الآية ثم كان عاقبة المسيئين أن حملتهم تلك السيئات على أن كذبوا **﴿بآيات الله وكانوا بها يستهزئون﴾** قوله تعالى **﴿الله يبدأ الخلق ثم يعيده﴾** أي خلقهم ابتداء ثم يعيدهم بعد الموت أحياء **﴿ثم إليه يرجعون﴾** أي فيجزيهم بأعمالهم **﴿ويوم تقوم الساعة يبلس المجرمون﴾** قيل: معناه أنهم ييأسون من كل خير وقيل: ينقطع كلامهم وحججهم وقيل يفتضحون **﴿ولم يكن لهم من شركائهم﴾** يعني أصنامهم التي عبدوها **﴿شفعاء﴾** أي يشفعون لهم **﴿وكانوا بشركائهم كافرين﴾** أي جاحدين متبرئين يتبرؤون منها وتتبرأ منهم **﴿ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون﴾** أي يتميز أهل الجنة من أهل النار. وقيل يتفرقون بعد الحساب أهل الجنة إلى الجنة وأهل النار إلى النار فلا يجتمعون أبداً فهو قوله تعالى **﴿فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم في روضة﴾** أي في جنة وقيل الروضة البستان الذي هو في غاية النضارة **﴿يحبرون﴾** قال ابن عباس يكرمون وقيل يتنعمون ويسرون

﴿ أوَ لم يتفكّروا في أنفسهم ما خلق الله السمٰوات والأرض وما بينهما إلاّ بالحق ﴾، أي للحق، وقيل: لإقامة الحق، **﴿ وأجل مسمى ﴾**، أي لوقت معلوم إذ انتهت إليه فنيت وهو القيامة، **﴿ وإنّ كثيراً من الناس بلقاء ربهم لكافرون ﴾**.

﴿ أوَ لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ﴾، أوَ لم يسافروا في الأرض فينظروا إلى مصارع الأمم قبلهم فيعتبروا، **﴿ كانوا أشدّ منهم قوة وأثاروا الأرض ﴾**، حرثوها وقلبوها للزراعة، **﴿ وعَمَرُوها أكثرَ ممّا عَمَروها ﴾**، أي أكثر مما عمّرها أهل مكة، قيل: قال ذلك لأنه لم يكن لأهل مكة حرث، **﴿ وجاءتهم رسلهم بالبيّنات ﴾**، فلم يؤمنوا فأهلكهم الله، **﴿ فما كان الله ليظلمهم ﴾**، بنقص حقوقهم، **﴿ ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾**، ببخس حقوقهم.

﴿ ثم كان عاقبة الذين أساءوا ﴾ أي أساءوا العمل، **﴿ السُّوْأى ﴾**، يعني الخلّة التي تسوءهم وهي النار، وقيل: السوء اسم لجهنم كما أن الحسنى اسم للجنة، **﴿ أن كذبوا ﴾**، أي لأن كذبوا، وقيل تفسير السوء ما بعده وهو قوله أن كذبوا يعني ثم كان عاقبة المسيئين التكذيب حملهم تلك السيئات على أن كذبوا، **﴿ بآيات الله وكانوا بها يستهزؤون ﴾**، قرأ أهل الحجاز والبصرة: **﴿ عاقبة ﴾** بالرفع أي ثم كان آخر أمرهم السوء، وقرأ الآخرون بالنصب على خبر كان، وتقديره: ثم كان السوء عاقبة الذين أساءوا.

قوله تعالى: **﴿ اللَّهُ يبدأ الخلق ثم يُعيده ﴾**، أي يخلقهم ابتداءً ثم يعيدهم بعد الموت أحياءً، ولم يقل يعيدهم، ردّه إلى الخلق، **﴿ ثم إليه ترجعون ﴾**، فيجزيهم بأعمالهم، قرأ أبو عمرو وأبو بكر: (يرجعون) بالياء والآخرون بالتاء.

والحبرة السرور. وقيل في معنى يحبرون: هو السماع في الجنة. قال الأوزاعي: ليس أحد من خلق الله أحسن صوتاً من إسرافيل فإذا أخذ في السماع قطع على أهل سبع سموات صلاتهم وتسبيحهم وقال: إذا أخذ في السماع فلا يبقى في الجنة شجرة إلا وردته، وسأل أبا هريرة رجل: هل لأهل الجنة من سماع؟ فقال: نعم شجرة أصلها من ذهب وأغصانها من فضة وثمارها اللؤلؤ والزبرجد والياقوت يبعث الله ريحاً فيجاوب بعضها بعضاً فما يسمع أحد أحسن منه ﴿**وأما الذين كفروا وكذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة**﴾ أي البعث يوم القيامة ﴿**فأولئك في العذاب محضرون**﴾ قوله تعالى ﴿**فسبحان الله**﴾ أي فسبحوا الله ومعناه صلوا لله ﴿**حين تمسون**﴾ أي تدخلون في المساء وهي صلاة المغرب والعشاء ﴿**وحين تصبحون**﴾ أي تدخلون في الصباح وهي صلاة الصبح ﴿**وله الحمد في السموات والأرض**﴾ قال ابن عباس يحمده أهل السموات والأرض ويصلون له﴿**وعشيّاً**﴾ أي وصلوا لله عشيّاً يعني صلاة العصر ﴿**وحين تظهرون**﴾ أي تدخلون في الظهيرة وهي صلاة الظهر. قال نافع ابن الأزرق لابن عباس: هل تجد الصلوات الخمس في القرآن؟ قال: نعم وقرأ هاتين الآيتين وقال: جمعتا الصلوات الخمس ومواقيتها. واعلم أنه إنما خص هذه الأوقات بالتسبيح لأن أفضل الأعمال أدومها والإنسان لا يقدر أن يصرف جميع أوقاته إلى التسبيح لأنه محتاج إلى ما يعيشه من مأكول ومشروب وغير ذلك فخفف الله عنه العبادة في غالب الأوقات وأمره بها في أول النهار وفي أول الليل وآخره فإذا صلى العبد ركعتي الفجر فكأنما سبح قدر ساعتين وكذلك باقي الركعات وهي سبع عشرة ركعة مع ركعتي الفجر فإذا صلى الإنسان الصلوات الخمس في أوقاتها فكأنما سبح الله سبع عشرة ساعة من الليل والنهار بقي عليه سبع ساعات في جميع الليل والنهار وهي مقدار النوم والنائم مرفوع عنه القلم فيكون قد صرف جميع أوقاته في التسبيح والعبادة.

﴿ **ويوم تقوم الساعة يُبْلِسُ المجرمون** ﴾، قال قتادة والكلبي: ييأس المشركون من كل خير. وقال الفرّاء: ينقطع كلامهم وحجّتهم. وقال مجاهد: يفتضحون.

﴿ **ولم يكن لهم من شركائهم شفعاءُ وكانوا بشركائهم كافرين** ﴾، جاحدين متبرئين يتبرؤون منها وتتبرأ منهم.

﴿ **ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون** ﴾، أي يتميز أهل الجنة من أهل النار. وقال مقاتل: يتفرقون بعد الحساب إلى الجنة والنار فلا يجتمعون أبداً.

﴿ **فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم في روضة** ﴾، وهي البستان الذي في غاية النضارة، ﴿ **يُحْبَرُون** ﴾، قال ابن عباس: يكرمون. وقال مجاهد وقتادة: ينعمون. وقال أبو عبيدة يسرّون، والحبرة السرور، وقيل: الحبرة في اللغة كل نعمة حسنة والتحبير التحسين، وقال الأوزاعي عن يحيىٰ بن أبي كثير: تحبرون هو السماع في الجنة. وقال الأوزاعي إذا أخذ في السماع لم يبق في الجنة شجرة إلّا وردت، وقال: ليس أحد من خلق الله أحسن صوتاً من إسرافيل، فإذا أخذ في السماع قطع على أهل سبع سمٰوات صلاتهم وتسبيحهم.

﴿ **وأمّا الذين كفروا وكذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة** ﴾، أي البعث يوم القيامة، ﴿ **فأولئك في العذاب مُحضَرُون** ﴾.

قوله تعالى: ﴿ **فسبحانَ اللّهِ** ﴾، أي سبّحوا الله ومعناه صلّوا لله، ﴿ **حين تُمسون** ﴾، أي تدخوا في المساء وهو صلاة المغرب والعشاء، ﴿ **وحين تُصبحون** ﴾، أي تدخلون في الصباح، وهو صلاة الصبح.

﴿ **وله الحمد في السمٰوات والأرض** ﴾، قال ابن عباس: يحمده أهل السمٰوات والأرض ويصلّون له، ﴿ **وعشياً** ﴾، أي صلّوا لله عشياً يعني صلاة العصر، ﴿ **وحين تُظْهِرُون** ﴾، تدخلون في الظهيرة وهو الظهر، قال نافع بن الأزرق لابن عباس: هل تجد صلاة الخمس في القرآن؟ قال: نعم، وقرأ هاتين الآيتين، وقال: جمعت

فصل في فضل التسبيح

عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «من قال سبحان الله وبحمده في كل يوم مائة مرة حطت خطاياه وإن كانت مثل زبد البحر». وعنه عن النبي ﷺ قال: «من قال حين يصبح وحين يمسي سبحان الله وبحمده مائة مرة لم يأت أحد يوم القيامة بأفضل مما جاء به إلا أحد قال مثل ما قال أو زاد عليه». أخرجهما الترمذي وقال فيهما حسن صحيح (ق) عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان حبيبتان إلى الرحمن سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم». وهذا الحديث أخرجه في صحيح البخاري (م) عن جويرية بنت الحارث زوج النبي ﷺ رضي الله عنها: «أن النبي ﷺ خرج ذات غداة من عندها وهي في مسجدها فرجع بعدما تعالى النهار فقال ما زلت في مجلسك هذا مذ خرجت بعد؟ قالت نعم فقال: لقد قلت بعدك أربع كلمات ثلاث مرار لو وزنت بكلماتك لوزنتهن سبحان الله وبحمده عدد خلقه ورضاء نفسه وزنة عرشه ومداد كلماته» (م) عن سعد بن أبي وقاص قال: كنا عند رسول الله ﷺ فقال «أيعجز أحدكم أن يكتسب كل يوم ألف حسنة فسأله سائل من جلسائه قال كيف يكتسب ألف حسنة؟ قال: يسبح الله مائة تسبيحة فيكتب له ألف حسنة ويحط عنه ألف خطيئة». وفي رواية غير مسلم «يحط عنه أربعين ألفاً» قوله تعالى:

﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ
أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟
إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ

الآية صلاة الخمس ومواقيتها، أخبرنا أبو الحسن السرخسي أنا زاهر بن أحمد أنا أبو إسحاق الهاشمي أنا أبو مصعب عن مالك عن سُمَيّ مولى أبي بكر بن عبد الرحمن عن أبي صالح السمّان عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «مَن قال سبحان الله وبحمده في أول النهار وآخره مائة مرة حطّت خطاياه وإن كانت مثل زبد البحر»، أخبرنا الإمام أبو علي الحسين بن محمد القاضي أنا أبو طاهر محمد بن محمد بن محمش الزيادي أنا أبو بكر محمد بن عمر بن حفص التاجر ثنا السري بن خزيمة البيرودي ثنا المعلى بن أسعد أنا عبد العزيز بن المختار عن سهيل عن سُميّ عن أبي صالح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن قال حين يصبح وحين يُمسي سبحان الله وبحمده مائة مرة لم يأتِ أحد يوم القيامة بأفضل مما جاء به إلاّ أحد قال مثل ما قال أو زاد». أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا قتيبة بن سعيد أنا محمد بن فضيل أنا عمارة بن القعقاع عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم». أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أبو منصور محمد بن محمد بن سمعان أنا أبو جعفر محمد بن أحمد بن عبد الجبار الرياني أنا حميد بن زنجويه أنا علي بن المديني أنا ابن عيينة عن محمد بن عبد الرحمن مولى آل طلحة قال: سمعت كريباً أبا رشدين يحدّث عن ابن عباس عن جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار أن النبي ﷺ خرج ذات غداة من عندها وكان اسمها برّة فحوّله رسول الله ﷺ وسمّاها جويرية، وكره أن يقال خرج من عند برّة، فخرج وهو في مسجدها ورجع بعدما تعالى النهار فقال: ما زلتِ في مجلسكِ هذا منذ خرجتُ بعد؟ قالت نعم، فقال: «لقد قلتُ بعدكِ أربع كلمات ثلاث مرات لو وزِنَتْ بما قلتِ منذ اليوم لوزنتهنّ: سبحان الله وبحمده عددَ خلقه، ورضاءَ نفسِه، وزِنَةَ عرشِه، ومدادَ كلماتِه».

وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ
وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا
وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْ
ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾

﴿**يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي**﴾ أي يخرج النطفة من الحيوان ويخرج الحيوان من النطفة. وقيل: يخرج الدجاجة من البيضة والبيضة من الدجاجة. وقيل يخرج المؤمن من الكافر ويخرج الكافر من المؤمن ﴿**ويحيي الأرض بعد موتها**﴾ أي بالمطر وإخراج النبات منها ﴿**وكذلك تخرجون**﴾ أي مثل إخراج النبات من الأرض تخرجون من القبور للبعث والحساب ﴿**ومن آياته أن خلقكم من تراب**﴾ أي خلق أصلكم وهو آدم من تراب ﴿**ثم إذا أنتم بشر تنتشرون**﴾ أي تنبسطون في الأرض ﴿**ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً**﴾ أي جنسكم من بني آدم وقيل خلق حواء من ضلع آدم ﴿**لتسكنوا إليها**﴾ أي لتميلوا للأزواج وتألفوهن ﴿**وجعل بينكم مودة ورحمة**﴾ أي جعل بين الزوجين المودة والرحمة فهما يتوادان ويتراحمان من غير سابقة معرفة ولا قرابة ولا سبب يوجب التعاطف وما شيء أحب إلى أحدهما من الآخر من غير تراحم بينهما إلا الزوجان ﴿**إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون**﴾ أي في عظمة الله وقدرته ﴿**ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم**﴾ أي اختلاف اللغات العربية والعجمية وغيرهما وقيل أراد أجناس النطق وأشكاله خالف بينهما حتى لا تكاد تسمع منطقين حتى لو تكلم جماعة من وراء حائط يعرف

قوله تعالى: ﴿ **يُخرج الحيّ من الميت ويُخرج الميت من الحيّ ويحيي الأرضَ بعد موتها وكذلك تُخرَجُون** ﴾، قرأ حمزة والكسائي﴿ **تَخرجون** ﴾بفتح التاء وضمّ الراء، وقرأ الباقون بضم التاء وفتح الراء.

﴿ **ومن آياته أن خلقكم من تراب** ﴾، أي خلق أصلكم يعني آدم من تراب، ﴿ **ثم إذا أنتم بشر تنتشرون** ﴾، تنبسطون في الأرض.

﴿ **ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً** ﴾، قيل من جنسكم من بني آدم، وقيل: خلق حوّاء من ضلع آدم، ﴿ **لتسكنُوا إليها وجعل بينكم مودّة ورحمة** ﴾، جعل بين الزوجين المودّة والرحمة فهما يتوادّان ويتراحمان وما شيء أحبّ إلى أحدهما من الآخر من غير رحم بينهما، ﴿ **إنَّ في ذلك لآياتٍ لقومٍ يتفكّرون** ﴾، في عظمة الله وقدرته.

﴿ **ومن آياته خَلْقُ السمٰواتِ والأرض واختلافُ ألسنتكم** ﴾، يعني اختلاف اللغات من العربية والعجمية وغيرهما، ﴿ **وألوانكم** ﴾، أبيض وأسود وأحمر وأنتم ولد رجل واحد وامرأة واحدة، ﴿ **إن في ذلك لآيات للعالمين** ﴾، قرأ حفص: ﴿ **للعالمين** ﴾ بكسر اللام.

﴿ **ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله** ﴾، أي منامكم بالليل وابتغاؤكم من فضله بالنهار أي تصرفكم في طلب المعيشة، ﴿ **إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون** ﴾، سماع تدبّر واعتبار.

﴿ **ومن آياته يُريكم البرق خوفاً** ﴾، للمسافر من الصواعق، ﴿ **وطمعاً** ﴾، للمقيم في المطر، ﴿ **وينزّل من**

كل منهم بنطقه ونغمته لا يشبه صوت أحد صوت الآخر ﴿وألوانكم﴾ أي أسود وأبيض وأشقر وأسمر وغير ذلك من اختلاف الألوان وأنتم بنو رجل واحد ومن أصل واحد وهو آدم عليه السلام. والحكمة في اختلاف الأشكال والأصوات للتعارف أي ليعرف كل واحد بشكله وحليته وصوته وصورته فلو اتفقت الأصوات والصور وتشاكلت وكانت ضرباً واحداً لوقع التجاهل والالتباس ولتعطلت مصالح كثيرة وليعرف صاحب الخلق من غيره والعدو من الصديق والقريب من البعيد فسبحان من خلق الخلق على ما أراد وكيف أراد. وفي ذلك دليل على سعة القدرة وكمال العظمة ﴿**إن في ذلك لآيات للعالمين**﴾ أي لعموم العلم فيهم ﴿**ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله**﴾ أي منامكم الليل للراحة وابتغاؤكم من فضله وهو طلب أسباب المعيشة بالنهار ﴿**إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون**﴾ أي سماع تدبر واعتبار ﴿**ومن آياته يريكم البرق خوفاً**﴾ أي للمسافر ليستعد للمطر ﴿**وطمعاً**﴾ أي للمقيم ليستعد المحتاج إليه من أجل الزرع وتسوية طرق المصانع ﴿**وينزل من السماء ماء فيحيي به الأرض بعد موتها إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون**﴾ أي قدرة الله وأنه القادر عليه ﴿**ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره**﴾ قال ابن عباس وابن مسعود قامتا على غير عمد وقيل يدوم قيامهما بأمره ﴿**ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض**﴾ قال ابن عباس من القبور ﴿**إذا أنتم تخرجون**﴾ أي منها وقيل معنى الآية ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون من الأرض ﴿**وله من في السموات والأرض كل له قانتون**﴾ مطيعون قال ابن عباس كل له مطيعون في الحياة والبقاء والموت والبعث وإن عصوا في العبادة ﴿**وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده**﴾ أي يخلقهم أولاً ثم يعيدهم بعد الموت للبعث ﴿**وهو أهون عليه**﴾ أي هو هين عليه وما من شيء عليه بعزيز وقيل معناه وهو أيسر عليه فإن الذي يقع في عقول الناس أن الإعادة تكون أهون من الإنشاء وقيل: هو أهون على الخلق وذلك لأنهم يقومون بصيحة واحدة فيكون أهون عليهم من أن يكونوا نطفاً ثم علقاً ثم مضغاً إلى أن يصيروا رجالاً ونساء. وهو رواية عن ابن عباس ﴿**وله المثل الأعلى**﴾ أي الصفة العليا قال ابن عباس:

السماء ماءً فيُحيي به ﴾، يعني بالمطر، ﴿ **الأرض بعد موتها** ﴾، أي بعد يبسها وجدوبتها، ﴿ **إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون** ﴾.

﴿ **ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره** ﴾. قال ابن مسعود: قامتا على غير عمد بأمره. وقيل: يدوم قيامهما بأمره، ﴿ **ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض** ﴾، قال ابن عباس: من القبور، ﴿ **إذا أنتم تخرجون** ﴾، منها وأكثر العلماء على أن معنى الآية ثم إذا دعاكم دعوة إذا أنتم تخرجون من الأرض.

﴿ **وله مَن في السموات والأرض كلٌّ له قانتون** ﴾، مطيعون، قال الكلبي: هذا خاصّ لمَن كان منهم مطيعاً. عن ابن عباس: كلٌّ له مطيعون في الحياة والبقاء والموت والبعث وإن عصوا في العبادة.

﴿ **وهو الذي يبدؤا الخلق ثم يعيده** ﴾، يخلقهم أولاً ثم يعيدهم بعد الموت للبعث، ﴿ **وهو أهون عليه** ﴾، قال الربيع بن خيثم وقتادة والكلبي: أي هو هيّن عليه وما شيء عليه بعزيز، وهو رواية العوفي عن ابن عباس، وقد يجيء أفعل بمعنى الفاعل كقول الفرزدق:

إن الذي سمك السماء بنى لنا بيتاً دعائمه أعزّ وأطول

أي عزيزة طويلة. وقال مجاهد وعكرمة: وهو أهون عليه أي أيسر ووجهه أنه على طريق ضرب المثل أي هو أهون عليه على ما يقع في عقولكم، فإن الذي يقع في عقول الناس أن الإعادة تكون أهون من الإنشاء، أي الابتداء، وقيل: هو أهون عليه عندكم. وقيل: هو أهون عليه أي على الخلق يقومون بصيحة واحدة فيكون أهون عليهم من أن يكونوا نطفاً، ثم علقاً ثم مضغاً إلى أن يصيروا رجالاً ونساءً، وهذا معنى رواية ابن حيان عن الكلبي عن أبي صالح

ليس كمثله شيء وقيل هو الذي لا إله إلا هو ﴿في السموات والأرض وهو العزيز﴾ أي في ملكه ﴿الحكيم﴾ في خلقه.

قوله عز وجل:

ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾ وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾

﴿ضرب لكم مثلاً﴾ أي بين لكم شبهاً بحالكم ذلك المثل ﴿من أنفسكم﴾ ثم بين المثل فقال تعالى ﴿هل لكم من ما ملكت أيمانكم﴾ أي عبيدكم وإمائكم ﴿من شركاء فيما رزقناكم﴾ أي من المال ﴿فأنتم فيه سواء﴾ يعني هل يشارككم عبيدكم في أموالكم التي أعطيناكم ﴿تخافونهم كخيفتكم أنفسكم﴾ أي تخافون أن يشاركوكم في أموالكم ويقاسموكم كما يخاف الحر من شريكه الحر في المال يكون بينهما أن ينفرد فيه بأمره دون شريكه ويخاف الرجل شريكه في الميراث وهو يحب أن ينفرد به. وقال ابن عباس: تخافونهم أن يرثوكم كما يرث بعضكم بعضاً فإذا لم تخافوا هذا من مماليككم ولا ترضوه لأنفسكم فكيف ترضون أن تكون آلهتكم التي تبعدونها شركائي وهم عبيدي ﴿كذلك نفصل الآيات﴾ أي الدلالات والبراهين والأمثال ﴿لقوم يعقلون﴾ أي ينظرون في هذه الدلائل والأمثال

عن ابن عباس، ﴿وله المثل الأعلى﴾، أي الصفة العليا ﴿في السمٰوات والأرض﴾، قال ابن عباس: هي أنه ليس كمثله شيء، وقال قتادة هي أنه لا إلّه إلّا هو، ﴿وهو العزيز﴾، في ملكه، ﴿الحكيم﴾، في خلقه.

﴿ضرب لكم مثلاً من أنفسكم﴾، أي بيّن لكم شبهاً بحالكم، وذلك المثل من أنفسكم ثم بيّن المثل فقال: ﴿هل لكم من ما ملكت أيمانكم﴾، أي عبيدكم وإمائكم، ﴿من شركاء فيما رزقناكم﴾، من المال، ﴿فأنتم﴾، وهم، ﴿فيه سواء﴾، أي شرع أي هل يشارككم عبيدكم في أموالكم التي أعطيناكم، ﴿تخافونهم كخيفتكم أنفسكم﴾، أي تخافون أن يشاركوكم في أموالكم ويقاسموكم كما يخاف الحرّ شريكه الحرّ في المال يكون بينهما أن ينفرد فيه بأمر دونه وكما يخاف الرجل شريكه في الميراث، وهو يحبّ أن ينفرد به، قال ابن عباس: تخافونهم أن يرثوكم كما يرث بعضكم بعضاً فإذا لم تخافوا هذا من ماليككم ولم ترضوا ذلك لأنفسكم فكيف رضيتم أن تكون آلهتكم التي تعبدونها شركائي وهم عبيدي، ومعنى قوله: ﴿أنفسكم﴾ أي أمثالكم من الأحرار كقوله: ﴿ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً﴾ [النور: ١٢] أي بأمثالهم، ﴿وكذلك نُفصِّل الآيات لقوم يعقلون﴾، ينظرون إلى هذه الدلائل بعقولهم.

﴿بل اتّبع الذين ظلموا﴾، أشركوا بالله، ﴿أهواءهم﴾، في الشرك، ﴿بغير علم﴾، جهلاً بما يجب عليهم، ﴿فمَن يهدي مَن أضلّ الله﴾، أي أضلّه الله، ﴿وما لهم من ناصرين﴾، مانعين يمنعونهم من عذاب الله عزّ وجلّ.

بعقولهم ﴿بل اتبع الذين ظلموا﴾ يعني أشركوا بالله ﴿أهواءهم﴾ أي في الشرك ﴿بغير علم﴾ جهلاً بما يجب عليهم ﴿فمن يهدي من أضل الله﴾ أي عن طريق الهدى ﴿وما لهم من ناصرين﴾ أي مانعين يمنعونهم عن عذاب الله. قوله تعالى ﴿فأقم وجهك للدين﴾ يعني أخلص دينك لله وقيل سدد عملك والوجه ما يتوجه إلى الله تعالى به الإنسان ودينه وعمله مما يتوجه إليه ليسدده قوله تعالى ﴿حنيفاً﴾ أي مائلاً إليه مستقيماً عليه ﴿فطرة الله﴾ أي دين الله والمعنى الزموا فطرة ﴿الله التي فطر الناس عليها﴾ قال ابن عباس خلق الناس عليها والمراد بالفطرة الدين وهو الإسلام (ق) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من مولود إلا يولد على الفطرة ثم قال ﴿اقرؤوا فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم﴾». زاد البخاري «فأبواه يهوادنه أو ينصرانه أو يمحسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء» ثم يقول أبو هريرة: اقرؤوا فطرة الله الآية ولهما في رواية «قالوا: يا رسول الله أفرأيت من يموت صغيراً قال الله أعلم بما كانوا عاملين». قوله: «ما من مولود يولد إلا على الفطرة» يعني على العهد الذي أخذ الله عليهم بقوله: ﴿ألست بربكم قالوا بلى﴾ فكل مولود في العالم على ذلك الإقرار وهي الحنيفية التي وضعت الخلقة عليها وإن عبد غير الله قال الله تعالى ﴿ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله﴾ ولكن لا اعتبار بالإيمان الفطري في أحكام الدنيا وإنما يعتبر الإيمان الشرعي المأمور به المكتسب بالإرادة

قوله تعالى: ﴿ فأقِمْ وجهكَ للدِّين ﴾، أي أخلص دينك لله، قاله سعيد بن جبير، وإقامة الوجه إقامة الدين، وقال غيره: سدّد عملك، والوجه ما يتوجّه إليه الإنسان ودينه وعمله مما يتوجّه إليه لتسديده، ﴿ حنيفاً ﴾ مائلاً مستقيماً عليه، ﴿ فطرةَ الله ﴾، دين الله وهو نصب على الإغراء أي إلزمْ فطرة الله، ﴿ التي فطر الناس عليها ﴾، أي خلق الناس عليها وهذا قول ابن عباس وجماعة من المفسّرين أن المراد بالفطرة الدين وهو الإسلام وذهب قوم إلى أن الآية خاصّة في المؤمنين هم الذين فطرهم الله على الإسلام أخبرنا أبو علي حسان بن سعيد المنيعي أنا أبو طاهر محمد بن محمش الزيادي أنا أبو بكر محمد بن الحسين القطّان أنا أحمد بن يوسف السلمي أنا عبد الرزاق أنا معمر عن همّام بن منبّه قال: ثنا أبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن يُولد يُولد على الفطرة، فأبواه يُهوّدانه أو يُنصّرانه أو يُمجّسانه كما تنتج البهيمة هل تجدون فيها من جدعاء حتى تكونوا أنتم تجدعونها»، قالوا: يا رسول الله أفرأيت مَن يموت وهو صغير؟ قال: «الله أعلم بما كانوا عاملين»، ورواه الزهري عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة من غير ذكر مَن يموت وهو صغير وزاد ثم يقول أبو هريرة اقرؤوا إن شئتم ﴿ فطرةَ الله التي فطر الناس عليها ﴾، قوله: «مَن يولد يولد على الفطرة» يعني على العهد الذي أخذ الله عليهم بقوله: ﴿ ألستُ بربكم قالوا بلى ﴾ [الأعراف: ١٧٢]، وكلّ مولود في العالم على ذلك الإقرار وهو الحنيفية التي وقعت الخلقة عليها وإن عبد غيره كما قال تعالى: ﴿ ولئن سألتهم مَن خلقهم ليقولنّ الله ﴾ [الزخرف: ٨٧]، وقالوا: ﴿ ما نعبدهم إلاَّ ليقرّبونا إلى الله زلفى ﴾ [الزمر: ٣]، ولكن لا عبرة بالإيمان الفطري في أحكام الدنيا وإنما يعتبر الإيمان الشرعي المأمور به المكتسب بالإرادة والفعل ألاّ ترى أنه يقول: «فأبواه يهوّدانه»، فهو مع وجود الإيمان الفطري فيه محكوم له بحكم أبويه الكافرين، وهذا معنى قوله ﷺ: «يقول الله تعالى إني خلقت عبادي حنفاء فاجتالتهم الشياطين عن دينهم»، ويُحكى هذا عن الأوزاعي وحمّاد بن سلمة وحُكِيَ عن عبد الله بن المبارك أنه قال معني الحديث إن كل مولود يولد على فطرته أي على خلقته التي جُبِلَ عليها في علم الله تعالى من السعادة والشقاوة فكلٌّ منهم صائر في العاقبة إلى ما فطر عليها في الدنيا بالعمل المشاكل لها فمن أمارات الشقاوة للطفل أن يُولد بين يهوديين أو نصرانيين فيحملانه لشقائه على اعتقاد دينهما، وقيل: معناه أن كل مولود يولد في مبدأ الخلقة على الفطرة أي على الجبلة السليمة والطبع المتهيء لقبول الدين فلو تُرِكَ عليها لاستمر على لزومها لأن هذا الدين موجود حسنه في العقول وإنما يعدل

والفعل ألا ترى إلى قوله: «فأبواه يهودانه أو ينصرانه» فهو مع وجود الإيمان الفطري فإنه محكوم له بحكم أبويه الكافرين وهذا معنى قول النبيّ ﷺ في حديث آخر «يقول الله عز وجل: إني خلقت عبادي حنفاء فاجتالتهم الشياطين عن دينهم» وحكي عن عبدالله بن المبارك أنه قال: معنى الحديث أن كل مولود يولد على فطرته أي خلقته التي خلقه الله عليها في علم الله تعالى من السعادة والشقاوة فكل منهم صائر في العاقبة إلى ما فطر عليه وعامل في الدنيا بالعمل المشاكل لها فمن أمارات الشقاوة للطفل أن يولد بين يهوديين أو نصرانيين فيحملانه على اعتقاد دينهما. وقيل معناه أن كل مولود في مبدأ الخلقة على الفطرة أي على الجبلة السليمة والطبع المتهيىء لقبول الدين، فلو ترك عليها لاستمرت على لزومها لأن هذا الدين موجود حسنه في العقول السليمة وإنما يعدل عنه من عدل إلى غيره لأنه من آفات التقليد ونحوه فمن سلم من تلك الآفات لم يعتقد غيره. ثم تمثل لأولاد اليهود والنصارى واتباعهم لآبائهم والميل إلى أديانهم فيزلون بذلك عن الفطرة السليمة والحجة المستقيمة بقوله «كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء». أي كما تلد البهيمة بهيمة مستوية لم يذهب من بدنها شيء وقوله «هل تحسون فيها من جدعاء يعني هل تشعرون أو تعلمون فيها من جدعاء وهي المقطوعة الأذن والأنف. قوله عز وجل ﴿لا تبديل لخلق الله﴾ أي لا تبدلوا دين الله وقيل معنى الآية الزموا فطرة الله ولا تبدلوا التوحيد بالشرك. وقيل معنى لا تبديل لخلق الله هو جبل عليه الإنسان من السعادة والشقاوة فلا يصير السعيد شقياً ولا الشقي سعيداً. وقيل الآية في تحريم إخصاء البهائم ﴿ذلك الدين القيم﴾ أي المستقيم ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ قوله عز وجل ﴿منيبين إليه﴾ أي فأقم وجهك أنت وأمتك منيبين إليه لأن خطاب النبيّ ﷺ يدخل فيه الأمة والمعنى راجعين إلى الله تعالى بالتوبة مقبلين إليه بالطاعة ﴿واتقوه﴾ أي ومع ذلك خافوه ﴿وأقيموا الصلاة﴾ أي داوموا على أدائها في أوقاتها ﴿ولا تكونوا من المشركين من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً﴾ أي صاروا فرقاً مختلفة وهم اليهود والنصارى وقيل هم أهل البدع من هذه الأمة ﴿كل حزب بما لديهم فرحون﴾ أي راضون بما عندهم. قوله تعالى ﴿وإذا مس الناس ضر﴾ أي قحط وشدة ﴿دعوا ربهم منيبين إليه﴾ أي مقبلين إليه بالدعاء ﴿ثم إذا أذاقهم منه رحمة﴾ أي خصباً ونعمة ﴿إذا فريق منهم بربهم يشركون﴾

عنه مَن يعدل إلى غيره لآفة من آفات النشوء والتقليد فلو سَلِمَ من تلك الآفات لم يعتقد غيره، ثم يتمثّل بأولاد اليهود والنصارى وأتباعهم لإبائهم والميل إلى أديانهم فيزلّون بذلك عن الفطرة السليمة والحجة المستقيمة، ذكر أبو سليمان الخطابي هذه المعاني في كتابه. قوله: ﴿ لا تبديلَ لخلق الله ﴾ فمَن حمل الفطرة على الدين قال معناه لا تبديل لدين الله وهو خبر بمعنى النهي أي لا تبدلوا دين الله، قال مجاهد وإبراهيم: معنى الآية الزموا فطرة الله أي دين الله واتّبعوه ولا تبدلوا التوحيد بالشرك، ﴿ ذلك الدِّين القيّم ﴾، المستقيم، ﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾، وقيل لا تبديل لخلق الله أي ما جُبِلَ عليه الإنسان من السعادة والشقاء لا يبدل فلا يصير السعيد شقياً ولا الشقيّ سعيداً. وقال عكرمة ومجاهد: معناه تحريم إخصاء البهائم.

﴿ منيبين ﴾ أي فأقم وجهك أنت وأُمتك منيبين إليه لأن المخاطبة للنبي ﷺ ويدخل معه فيها الأمة كما قال: ﴿ يا أيها النبي إذا طلّقتم النساء ﴾ [الطلاق: ١]، ﴿ منيبين إليه ﴾، أي راجعين إليه بالتوبة مُقبِلين إليه بالطاعة، ﴿ واتقوه وأقيموا الصلاة ولا تكونوا من المشركين ﴾.

﴿ من الذين فرّقوا دينهم وكانوا شيعاً ﴾ أي صاروا فِرَقاً مختلفة وهم اليهود والنصارى. وقيل: هم أهل البِدَع من هذه الأمة، ﴿ كل حزب بما لديهم فرحون ﴾، أي راضون بما عندهم.

قوله تعالى: ﴿ وإذا مسَّ الناسَ ضُرٌّ ﴾، قحط وشدّة، ﴿ دَعَوْا ربَّهم مُنيبين إليه ﴾، مُقبِلين إليه بالدعاء، ﴿ ثم إذا أذاقهم منه رحمة ﴾، خصباً ونعمةً، ﴿ إذا فريق منهم بربِّهم يُشركون ﴾.

لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا۟ بِهِۦ
يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟
أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾ فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ
ٱلسَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ
فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ
رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۖ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا
يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ
يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾

﴿ليكفروا بما آتيناهم﴾ أي ليجحدوا نعمة الله عليهم ﴿فتمتعوا﴾ فيه تهديد ووعيد خاطب به الكفار ﴿فسوف تعلمون﴾ أي حالكم هذه في الآخرة ﴿أم أنزلنا عليهم سلطاناً﴾ قال ابن عباس حجة وعذراً وقيل كتاباً ﴿فهو يتكلم﴾ أي ينطق ﴿بما كانوا به يشركون﴾ أي بشركهم ويأمرهم به ﴿وإذا أذقنا الناس رحمة﴾ أي الخصب وكثرة المطر ﴿فرحوا بها﴾ أي فرحوا وبطروا ﴿وإن تصبهم سيئة﴾ أي جدب وقلة مطر وقيل خوف وبلاء ﴿بما قدمت أيديهم﴾ من السيئات إذا ﴿هم يقنطون﴾ أي ييأسون من رحمة الله وهذا خلاف وصف المؤمن فإنه يشكر ربه عند النعمة ويرجوه عند الشدة ﴿أو لم يروا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون﴾ تقدم تفسيره. قوله عز وجل ﴿فآت ذا القربى حقه﴾ أي من البر والصلة ﴿والمسكين﴾ أي حقه وهو التصدق عليه ﴿وابن السبيل﴾ أي المسافر

﴿ ليكفروا بما آتيناهم ﴾، ثم خاطب هؤلاء الذين فعلوا، هذا خطاب تهديد فقال: ﴿ فتمتعوا فسوف تعلمون ﴾، حالكم في الآخرة.

﴿ أم أنزلنا عليهم سلطاناً ﴾، قال ابن عباس: حجّةً وعذراً، وقال قتادة: كتاباً، ﴿ فهو يتكلم ﴾، ينطق، ﴿ بما كانوا به يشركون ﴾، أي ينطق بشركهم ويأمرهم به.

﴿ وإذا أذقنا الناس رحمة ﴾، أي الخصب وكثرة المطر، ﴿ فرحوا بها ﴾، يعني فرح البطر، ﴿ وإن تصبهم سيئة ﴾، أي الجدب وقلّة المطر ويقال الخوف والبلاء ﴿ بما قدّمت أيديهم ﴾، من السيئات، ﴿ إذا هم يَقْنُطون ﴾، ييأسون من رحمة الله، وهذا خلاف وصف المؤمن فإنه يشكر الله عند النعمة ويرجو ربّه عند الشدّة.

﴿ أوَ لم يروا أن الله يبسط الرزق لمَن يشاء ويقدر إنّ في ذلك لآيات لقوم يؤمنون ﴾.

قوله تعالى: ﴿ فآتِ ذَا القُربَى حقَّه ﴾، من البرّ والصلة، ﴿ والمسكين ﴾، وحقّه أن يتصدق عليه، ﴿ وابن السبيل ﴾، يعني المسافر، وقيل: هو الضعيف، ﴿ ذلك خير للذين يريدون وجه الله ﴾، يطلبون ثواب الله بما يعملون، ﴿ وأولئك هم المفلحون ﴾.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ وما آتيتم من ربا ﴾، قرأ ابن كثير: (أتيتم) مقصوراً وقرأ الآخرون بالمدّ أي أعطيتم، ومَن قصر فمعناه ما جئتم من ربا ومجيئهم ذلك على وجه الإعطاء كما يقول أتيت خطئاً وأتيت صواباً فهو يؤول في معنى إلى قول مَنْ مدّ. ﴿ ليربوا في أموال الناس ﴾، قرأ أهل المدينة ويعقوب لتربوا بالتاء وضمّها وسكون الواو على

وقيل الضيف ﴿ذلك خير للذين يريدون وجه الله﴾ أي يطلبون ثواب الله بما كانوا يعملون ﴿وأولئك هم المفلحون﴾ قوله عز وجل ﴿وما آتيتم﴾ أي أعطيتم ﴿من ربا ليربو في أموال الناس﴾ أي في اجتلاب أموال الناس واجتذابها قيل في معنى الآية هو الرجل يعطي غيره العطية ليثيبه أكثر منها فهو جائز حلال ولكن لا يثاب عليها في القيامة وهذا قوله ﴿فلا يربو عند الله﴾ وكان هذا حراماً على النبي خاصة لقوله تعالى ﴿ولا تمنن تستكثر﴾ أي لا تعط وتطلب أكثر مما أعطيت وقيل هو الرجل يعطي صديقه أو قريبه ليكثر ماله لا يريد به وجه الله. وقيل: هو الرجل يلتزق بالرجل فيخدمه ويسافر معه فيجعل ربح ماله لالتماس عونه لا لوجه الله تعالى فلا يربو عند الله لأنه لم يرد بعمله وجه الله ﴿وما آتيتم من زكاة﴾ أي أعطيتم من صدقة ﴿تريدون وجه الله﴾ أي بتلك الصدقة ﴿فأولئك هم المضعفون﴾ أي يضاعف لهم الثواب فيعطون بالحسنة عشر أمثالها فالمضعف ذو الأضعاف من الحسنات.

قوله تعالى ﴿الله الذي خلقكم ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شيء سبحانه وتعالى عما يشركون﴾ تقدم تفسيره. قوله تعالى ﴿ظهر الفساد في البر والبحر﴾ أي بسبب الشرك والمعاصي ظهر قحط المطر وقلة النبات في البراري والبوادي والمفاوز والقفار والبحر. قيل المدائن والقرى التي هي على المياه الجارية والعرب تسمي المصر بحراً تقول: أجدب البر وانقطعت مادة البحر وقيل البر ظهر الأرض الأمصار وغيرها والبحر هو المعروف وقلة المطر كما تؤثر في البر تؤثر في البحر بخلو أجواف الأصداف من اللؤلؤ وذلك لأن الصدف إذا جاء المطر ترتفع على وجه الماء وتفتح أفواهها فما وقع فيه من المطر صار لؤلؤاً ﴿بما كسبت أيدي الناس﴾ أي

الخطاب أي لتربوا أنتم وتصيروا ذوي زيادة في أموال الناس، وقرأ الآخرون بالياء وفتحها، ونصب الواو وجعلوا الفعل للربا لقوله: ﴿ فلا يربُوا عند الله ﴾، في أموال الناس أي في اختطاف أموال الناس واجتذابها، واختلفوا في معنى الآية، فقال سعيد بن جبير ومجاهد وطاوس وقتادة والضحاك وأكثر المفسّرين: هو الرجل يعطي غيره العطية ليثيبه أكثر منها فهذا جائز حلال لكن لا ثواب عليها في القيامة، وهو معنى قوله عزّ وجلّ فلا يربوا عند الله، وكان هذا حراماً على النبي ﷺ خاصة لقوله تعالى: ﴿ ولا تمننْ تستكثرْ ﴾ [المدّثر: ٦]، أي لا تُعطِ وتطلب أكثر مما أعطيت، وقال النخعي: هو الرجل يعطي صديقه أو قريبه ليُكثِر ماله ولا يريد به وجه الله. وقال الشعبي: هو الرجل يلتزق بالرجل فيخدمه ويسافر معه فيجعل له ربح ماله التماس عونه لوجـه الله فلا يـربوا عنـد الله لأنه لم يـرد به وجـه الله تعالى، ﴿ وما آتيتم من زكاة ﴾، أعطيتم من صدقة ﴿ تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون ﴾، فيضاعف لهم الثواب فيعطون بالحسنة عشر أمثالها، فالمضعف ذو الأضعاف من الحسنات، تقول العرب: القوم مهزولون ومسمونون إذا هزلت أو سمنت إبلهم.

﴿ الله الـذي خلقكم ثم رزقكم ثم يُميتكم ثم يُحييكم هل من شركائكم مَن يفعل من ذلكم من شيء سبحانه وتعالى عمّا يشركون ﴾.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ ظهر الفساد في البرّ والبحر ﴾، يعني قحط المطر وقلّة النبات وأراد بالبرّ البوادي والمفاوز وبالبحر المدائن والقرى التي هي على المياه الجارية. قال عكرمة: العرب تسمّي المصر بحراً يقال أجدب البرّ وانقطعت مادة البحر، ﴿ بما كسبت أيدي الناس ﴾، أي بشؤم ذنوبهم، وقال عطية وغيره: البرّ ظهر الأرض الأمصار وغيرها والبحر هو البحر المعروف وقلّة المطر كما تؤثّر في البرّ تؤثّر في البحر فتخلـو أجواف الأصداف إذا جاء المطر يرتفع إلى وجه البحر ويفتح فاه فما يقع في فِيه من المطر صار لؤلؤاً، وقال ابن عباس وعكرمة ومجاهد: الفساد في البرّ قتل أحد بني آدم أخاه، وفي البحر غصب الملك الجائر السفينة، قال الضحاك: كانت الأرض خضرة مونقة لا

بسبب شؤم ذنوبهم وقال ابن عباس الفساد في البر قتل أحد ابني آدم أخاه وفي البحر غصب الملك الجائر السفينة. قيل كانت الأرض خضرة مونقة لا يأتي ابن آدم شجرة إلا وجد عليها ثمرة وكان البحر عذباً وكان لا يقصد البقر الغنم فلما قتل قابيل هابيل اقشعرت الأرض وشاكت الأشجار وصار ماء البحر ملحاً زعافاً وقصد الحيوان بعضها بعضاً. وقيل: إن الأرض امتلأت ظلماً وضلالة قبل مبعث النبي ﷺ فلما بعث رجع راجعون من الناس وقيل أراد بالناس كفار مكة ﴿ليذيقهم بعض الذي عملوا﴾ يعني عقوبة الذي عملوا من الذنوب ﴿لعلهم يرجعون﴾ يعني عن الكفر وأعمالهم الخبيثة ﴿قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل﴾ أي لتروا منازلهم ومساكنهم خاوية ﴿كان أكثرهم مشركين﴾ يعني فأهلكوا بكفرهم قوله عز وجل:

فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٥﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾

﴿فأقم وجهك للدين القيم﴾ يعني لدين الإسلام ﴿من قبل أن يأتي يوم لا مرد له من الله﴾ يعني يوم القيامة لا يقدر أحد على رده من الخلق ﴿يومئذ يصدعون﴾ يعني يتفرقون ثم ذكر الفريقين فقال تعالى ﴿من كفر فعليه كفره﴾ يعني وبال كفره ﴿ومن عمل صالحاً فلأنفسهم يمهدون﴾ أي يوطئون المضاجع ويسوونها في القبور ﴿ليجزي الذين

يأتي ابن آدم شجرة إلّا وجد عليها ثمرة وكان ماء البحر عذباً وكان يقصد الأسد البقر والغنم، فلما قتل قابيل هابيل اقشعرّت الأرض وشاكت الأشجار وصار ماء البحر ملحاً زعافاً وقصد الحيوان بعضها بعضاً، قال قتادة هذا قبل مبعث النبي ﷺ امتلأت الأرض ظلماً وضلالةً، فلما بعث الله محمد ﷺ رجع راجعون من الناس بما كسبت أيدي الناس من المعاصي، يعني كفّار مكة ﴿ لِيُذيقهم بعض الذي عملوا ﴾، أي عقوبة بعض الذي عملوا من الذنوب، ﴿ لعلّهم يرجعون ﴾، عن الكفر وأعمالهم الخبيثة.

﴿ قلْ سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل ﴾، لتروا منازلهم ومساكنهم خاوية، ﴿ كان أكثرهم مشركين ﴾، فأهلكوا بكفرهم.

﴿ فأقم وجهك للدين القيّم ﴾، المستقيم وهو دين الإسلام ﴿ من قبل أن يأتي يوم لا مردّ له من الله ﴾،

آمنوا وعلموا الصالحات من فضله﴾ قال ابن عباس: ليثيبهم الله ثواباً أكثر من أعمالهم ﴿إنه لا يحب الكافرين﴾ فيه تهديد ووعيد لهم. قوله تعالى ﴿ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات﴾ أي تبشر بالمطر ﴿وليذيقكم من رحمته﴾ أي بالمطر وهو الخصب ﴿ولتجري الفلك﴾ أي بهذه الرياح ﴿بأمره ولتبتغوا من فضله﴾ معناه لتطلبوا رزقه بالتجارة في البحر ﴿ولعلكم تشكرون﴾ أي هذه النعم. قوله تعالى ﴿ولقد أرسلنا من قبلك رسلاً إلى قومهم فجاءوهم بالبينات﴾ أي بالدلالات الواضحات على صدقهم ﴿فانتقمنا من الذين أجرموا﴾ يعني أنا عذبنا الذين كذبوهم ﴿وكان حقاً علينا نصر المؤمنين﴾ أي مع إنجائهم من العذاب ففيه تبشير للنبي ﷺ بالظفر في العاقبة والنصر على الأعداء عن أبي الدرداء قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «ما من مسلم يرد عن عرض أخيه إلا من كان حقاً على الله أن يرد عنه نار جهنم يوم القيامة؛ ثم تلا هذه الآية: وكان حقاً علينا نصر المؤمنين». أخرجه الترمذي ولفظه: «من رد عن عرض أخيه رد الله عن وجهه النار يوم القيامة». وقال حديث حسن. قوله عز وجل ﴿الله الذي يرسل الرياح فتثير سحاباً﴾ يعني تنشره ﴿فيبسطه في السماء كيف يشاء﴾ يعني مسيرة يوم أو يومين أو أكثر على ما يشاء ﴿ويجعله كسفاً﴾ أي قطعاً متفرقة ﴿فترى الودق﴾ أي المطر ﴿يخرج من خلاله﴾ أي من وسطه ﴿فإذا أصاب به﴾ يعني بالودق ﴿من يشاء من عباده إذاهم

يعني يوم القيامة لا يقدر أحد على ردّه من الله، ﴿ يومئذ يَصَّدَّعُون ﴾، أي يتفرقون فريق في الجنة وفريق في السعير.

﴿ مَن كفر فعليه كفره ﴾، أي وِبال كفره، ﴿ ومَن عمل صالحاً فلأنفسهم يمهدون ﴾، يوطئون المضاجع ويسوّونها في القبور.

﴿ ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات من فضله ﴾، قال ابن عباس: لِيُثيبهم الله أكثر من ثواب أعمالهم، ﴿ إنه لا يحبّ الكافرين ﴾.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ ومن آياته أن يرسل الرياح مبشّرات ﴾، تبشّر بالمطر، ﴿ وليذيقكم من رحمته ﴾، نعمة المطر وهي الخصب، ﴿ ولتجري الفُلْكُ ﴾ في البحر، بهذه الرياح، ﴿ بأمره ولتبتغوا من فضله ﴾، لتطلبوا من رزقه بالتجارة في البحر، ﴿ ولعلّكم تشكرون ﴾، ربّ هذه النِّعَم.

قوله تعالى: ﴿ ولقد أرسلنا من قبلك رُسلاً إلى قومهم فجاءوهم بالبيّنات ﴾، بالدلالات الواضحات على صدقهم، ﴿ فانتقمنا من الذين أجرموا ﴾، عذّبنا الذين كذّبوهم، ﴿ وكان حقّاً علينا نصر المؤمنين ﴾، إنجاؤهم من العذاب ففي هذا تبشير للنبي ﷺ بالظفر في العاقبة والنصر على الأعداء، قال الحسن: أنجاهم مع الرسول من عذاب الأمم، أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أبو منصور محمد بن محمد بن سمعان أنا أبو جعفر محمد بن أحمد بن عبد الجبّار الرياني أنا أحمد بن زنجويه أنا أبو شيخ الحرّاني أنا أبو موسى بن أعين عن ليث بن أبي سليم عن شهر بن حوشب عن أم الدرداء عن أبي الدرداء قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من مسلم يردّ عن عِرض أخيه إلّا كان حقّاً على الله أن يردّ عنه نار جهنم يوم القيامة»، ثم تلا هذه الآية ﴿ وكان حقّاً علينا نصر المؤمنين ﴾.

﴿ الله الذي يرسل الرياح فتثير سحاباً ﴾، أي ينشره، ﴿ فيبسطه في السماء كيف يشاء ﴾، مسيرة يوم أو يومين أو أكثر على مَن يشاء، ﴿ ويجعله كِسَفاً ﴾، قطعاً متفرقة، ﴿ فترى الوَدْقَ ﴾، المطر، ﴿ يخرج من خلاله ﴾، وسطه، ﴿ فإذا أصاب به مَن يشاء ﴾، أي بالودق، ﴿ من عباده إذا هم يستبشرون ﴾، يفرحون بالمطر.

﴿ وإن كانوا ﴾، وقد كانوا، ﴿ من قَبل أن ينزل عليهم من قبله لمبلسين ﴾، أي آيسين، وقيل: وإن كانوا أي

يستبشرون﴾ يعني يفرحون بالمطر ﴿وإن كانوا﴾ أي وقد كانوا ﴿من قبل أن ينزل عليهم من قبله لمبلسين﴾ يعني آيسين ﴿فانظر إلى آثار رحمة الله﴾ يعني المطر والمعنى انظر حسن تأثيره في الأرض وهو قوله تعالى ﴿كيف يحيي الأرض بعد موتها إن ذلك لمحيي الموتى﴾ يعني إن الذي أحيا الأرض بعد موتها قادر على إحياء الموتى ﴿وهو على كل شيء قدير ولئن أرسلنا ريحاً فرآه مصفراً﴾ أي الزرع بعد الخضرة ﴿لظلوا من بعده﴾ أي من بعد اصفرار الزرع ﴿يكفرون﴾ أي يجحدون ما سلف من النعمة والمعنى أنهم يفرحون عند الخصب ولو أرسلت عذاباً على زرعهم لجحدوا سالف نعمتي ﴿فإنك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولو مدبرين وما أنت بهادي العمي عن ضلالتهم إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون﴾ تقدم تفسيره. قوله تعالى ﴿الله الذي خلقكم من ضعف﴾ أي بدأكم وأنشأكم على ضعف وقيل من ماء ذي ضعف وقيل هو إشارة إلى أحوال الإنسان كان جنيناً ثم طفلاً مولوداً ومفطوماً فهذه أحوال الضعف ﴿ثم جعل من بعد ضعف قوة﴾ يعني من بعد ضعف الصغر شباباً وهو وقت القوة ﴿ثم جعل من بعد قوة ضعفاً﴾ يعني هرماً ﴿وشيبة﴾ وهو تمام النقصان ﴿يخلق ما يشاء﴾ أي من الضعف والقوة والشباب والشيبة وليس ذلك من أفعال الطبيعة بل بمشيئة الله وقدرته ﴿وهو العليم﴾ بتدبير خلقه ﴿القدير﴾ على ما يشاء. قوله تعالى:

وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ

وما كانوا إلّا مبلسين، وأعاد قوله من قبله تأكيداً، وقيل: الأولى ترجع إلى إنزال المطر والثانية إلى إنشاء السّحاب، وفي حرف عبد الله بن مسعود: وإن كانوا من قبل أن ينزل عليهم لمبلسين، غير مكرر.

﴿ فانظرْ إلى آثارِ رحمة الله ﴾، هكذا قرأ أهل الحجاز والبصرة وأبو بكر، وقرأ الآخرون: ﴿ إلى آثار رحمة الله ﴾، على الجمع أراد برحمة الله المطر أي انظر إلى حُسْن تأثيره في الأرض، قال مقاتل: أثر رحمة الله أي نعمته وهو النبت، ﴿ كيف يُحيي الأرضَ بعد موتها إنّ ذلك لمُحيي الموتى ﴾، يعني أن ذلك الذي يُحيي الأرض لمُحيي الموتى، ﴿ وهو على كل شيء قدير ﴾.

﴿ ولئن أرسلنا ريحاً ﴾ باردة مُضِرّة فأفسدت الزرع، ﴿ فرأوه مصفرّاً ﴾ أي والنبت والزرع مصفرّاً بعد الخُضرة، ﴿ لظلّوا ﴾، لصاروا، ﴿ من بعده ﴾ أي من بعد اصفرار الزرع، ﴿ يكفرون ﴾، يجحدون ما سلف من النعمة يعني أنهم يفرحون عند الخصب ولو أرسلت عذاباً على زرعهم جحدوا سالف نعمتي.

﴿ فإنك لا تُسمع الموتى ولا تُسمِع الصُمَّ الدعاء إذا ولّوا مدبرين ﴾.

﴿ وما أنت بهادي العُمْي عن ضلالتهم إنْ تُسمِع إلاّ مَن يُؤمن بآياتنا فهم مسلمون ﴾.

﴿ الله الذي خلقكم من ضعف ﴾، قرىء بضم الضاد وفتحها، فالضم لغة قريش، والفتح لغة تميم، ومعنى من ضعف أي من نطفة يريد من ذي ضعف أي من ماء ذي ضعف كما قال تعالى: ﴿ ألم نخلقكم من ماء مهين ﴾ [المرسلات: ٢٠]، ﴿ ثم جعل من بعد ضعف قوة ﴾، من بعد ضعف الطفولية شباباً وهو وقت القوة، ﴿ ثم جعل من بعد قوة ضعفاً ﴾، ﴿ وشيبة يخلق ما يشاء ﴾، من الضعف والقوة والشباب والشيبة، ﴿ وهو العليم ﴾، بتدبير خلقه، ﴿ القدير ﴾، على ما يشاء.

مَثَلٍ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾

﴿**ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون**﴾ أي يحلف المشركون ﴿**ما لبثوا**﴾ أي في الدنيا ﴿**غير ساعة**﴾ معناه أنهم استقلوا أجل الدنيا لما عاينوا الآخرة وقيل معناه ما لبثوا في قبورهم غير ساعة ﴿**كذلك كانوا يؤفكون**﴾ يعني يصرفون عن الحق في الدنيا وذلك أنهم كذبوا في قولهم ما لبثوا غير ساعة كما كذبوا في الدنيا أن لا يبعثوا. والمعنى أن الله أراد أن يفضحهم فحلفوا على شيء تبين لأهل الجمع أنهم كاذبون فيه وكان ذلك بقضاء الله وقدره ثم ذكر إنكار المؤمن عليهم كذبتهم فقال تعالى ﴿**وقال الذين أوتوا العلم والإيمان لقد لبثتم في كتاب الله إلى يوم البعث**﴾ أي فيما كتب الله لكم في سابق علمه من اللبث في القبور وقيل معنى الآية وقال الذين أوتوا العلم في كتاب الله والإيمان يعني الذين يقيمون كتاب الله قالوا للمنكرين قد لبثتم إلى يوم البعث أي في قبوركم ﴿**فهذا يوم البعث**﴾ أي الذي كنتم تنكرونه في الدنيا ﴿**ولكنكم كنتم لا تعلمون**﴾ أي وقوعه في الدنيا فلا ينفعكم العلم به الآن بدليل قوله تعالى ﴿**فيومئذ لا ينفع الذين ظلموا معذرتهم ولا هم يستعتبون**﴾ أي لا تطلب منهم العتبى والرجوع في الآخرة وقيل لا تطلب منهم التوبة التي تزيل الجريمة لأنها لا تقبل منهم. قوله تعالى ﴿**ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل**﴾ فيه إشارة إلى إزالة الأعذار والإتيان بما فوق الكفاية من الإنذار ﴿**ولئن جئتهم بآية ليقولن الذين كفروا إن أنتم إلا مبطلون**﴾ يعني ما أنتم إلا على باطل وذلك على سبيل العناد. فإن قلت ما معنى توحيد الخطاب في قوله: ولئن جئتهم والجمع في قوله: إن أنتم إلا

﴿ **ويوم تقوم الساعة يُقسم المجرمون** ﴾، يحلف المشركون، ﴿ **ما لبثوا** ﴾، في الدنيا، ﴿ **غيرَ ساعة** ﴾، إلّا ساعة استقلّوا أجل الدنيا لمّا عاينوا الآخرة، وقال مقاتل والكلبي: ما لبثوا في قبورهم غير ساعة كما قال: ﴿ كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلّا ساعة من نهار ﴾ [الأحقاف: ٣٥]. ﴿ **كذلك كانوا يُؤفكون** ﴾، يصرفون عن الحق في الدنيا، قال الكلبي ومقاتل: كذبوا في قولهم غير ساعة كما كذبوا في الدنيا أن لا بعث، والمعنى أن الله أراد أن يفضحهم فحلفوا على شيء يتبيّن لأهل الجمع أنهم كاذبون فيه، وكان ذلك بقضاء الله وبقدره بدليل قوله: ﴿ **يؤفكون** ﴾ أي يصرفون عن الحق، ثم ذكر إنكار المؤمنين عليهم كذبهم فقال:

﴿ **وقال الذين أُوتوا العلم والإيمان لقد لبثتم في كتاب الله** ﴾، أي فيما كتب الله لكم في سابق علمه من اللبث في القبور، وقيل: في كتاب الله أي في حكم الله، وقال قتادة ومقاتل: فيه تقديم وتأخير تقديره: وقال الذين في كتاب الله والإيمان لقد لبثتم إلى يوم البعث يعني الذين يعلمون كتاب الله، وقرأوا قوله تعالى: ﴿ ومن ورائهم برزخ إلى يوم يُبعثون ﴾ [المؤمنون: ١٠٠]، أي قالوا للمتكبرين لقد لبثتم، ﴿ **إلى يوم البعث فهذا يوم البعث** ﴾، الذي كنتم تنكرونه في الدنيا، ﴿ **ولكنكم كنتم لا تعلمون** ﴾، وقوعه في الدنيا فلا ينفعكم العلم به الآن بدليل.

قوله تعالى: ﴿ **فيومئذ لا ينفع الذين ظلموا معذرتهم** ﴾، يعني عذرهم، ﴿ **ولا هم يُستعتبون** ﴾، لا يطلب منهم العُتبى والرجوع إلى الدنيا، قرأ أهل الكوفة: ﴿ **لا ينفع** ﴾ بالياء ههنا وفي حمٓ المؤمن[٥٢]، وقرأ الباقون بالتـــاء فيهما.

﴿ **ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل ولئن جئتم بآية ليقُولَنّ الذين كفروا إنْ أنتم إلّا مبطلون** ﴾، ما أنتم إلّا على باطل.

﴿ **كذلك يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون** ﴾ توحيد الله.

مبطلون. قلت فيه لطيفة وهي أن الله تعالى قال ولئن جئتهم بكل آية جاءت بها الرسل ويمكن أن يقال معناه أنكم كلكم أيها الرسل مبطلون ﴿**كذلك يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون**﴾ أي توحيد الله ﴿**فاصبر إن وعد الله حق**﴾ أي في نصرك وإظهارك على عدوك ﴿**ولا يستخفنك**﴾ يعني لا يحملنك على الجهل وقيل لا يستخفن رأيك ﴿**الذين لا يوقنون**﴾ يعني بالبعث والحساب؛ والله سبحانه وتعالى أعلم بمراده.

﴿ **فاصبر إن وعد الله حق** ﴾، في نصرتك وإظهارك على عدوّك ﴿ **ولا يستخفنّك** ﴾، لا يستجهلنّك معناه لا يحملنّك الذين لا يوقنون على الجهل واتباعهم في الغي وقيل لا يستخفنّ رأيك وحلمك، ﴿ **الذين لا يوقنون** ﴾، بالبعث والحساب.

تفسير سورة لقمان

مكية وهي أربع وثلاثون آية وخمسمائة وثمان وأربعون كلمة وألفان ومائة وعشرة أحرف.

بسم الله الرحمن الرحيم

الٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴿٣﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦﴾

قوله عز وجل ﴿الم تلك آيات الكتاب الحكيم هدى ورحمة للمحسنين﴾ يعني الذين يعملون الحسنات، ثم ذكرهم فقال ﴿الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم يوقنون أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون﴾. قوله تعالى ﴿ومن الناس من يشتري لهو الحديث﴾ الآية قيل: نزلت في النضر بن الحارث بن كلدة وكان يتجر فيأتي الحيرة ويشتري أخبار العجم ويحدث بها قريشاً ويقول إن محمداً يحدثكم بحديث عاد وثمود وأنا أحدثكم بحديث رستم واسفنديار وأخبار الأكاسرة فيستمعون حديثه ويتركون استماع القرآن. فأنزل الله هذه الآية وقيل هو شراء القينات والمغنين، ومعنى الآية ومن الناس من يشتري ذات لهو أو ذا لهو الحديث؛ وروى البغوي بإسناد الثعلبي عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «لا يحل تعليم المغنيات ولا بيعهن وأثمانهن حرام» وفي مثل ذلك نزلت هذه الآية ﴿ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله﴾ وما من رجل يرفع صوته بالغناء إلا بعث الله له شيطانين أحدهما على هذا المنكب والآخر على هذا المنكب فلا يزالان يضربانه بأرجلهما حتى يكون هو الذي

سُوْرَة لقْمَان

مكيّة وهي أربع وثلاثون آية.

﴿ الٓمٓ تلك آياتُ الكتاب الحكيم هدىً ورحمةً ﴾، قرأ حمزة ورحمة بالرفع على الابتداء أي هو هدىً ورحمةً، وقرأ الآخرون بالنصب على الحال ﴿ للمحسنين ﴾.

﴿ الذين يقيمون الصلاة ويُؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم يُوقنون * أولئك على هدىً من ربهم وأولئك هم المفلحون ﴾.

﴿ ومن الناس مَن يشتري لَهْوَ الحديث ﴾، الآية. قال الكلبي ومقاتل: نزلت في النضر بن الحارث بن كلدة كان يتجر فيأتي الحيرة ويشتري أخبار العجم فيحدث بها قريشاً ويقول: إن محمداً يحدّثكم بحديث عاد وثمود وأنا أُحدّثكم بحديث رستم وإسفنديار وأخبار الأكاسرة، فيستملِحُون حديثه ويتركون استماع القرآن، فأنزل الله هذه الآية

يسكت أخرجه الترمذي وهذا لفظه عن أبي أسامة أن رسول الله ﷺ قال «لا تبيعوا القينات ولا تشتروهن ولا تعلموهن ولا خير في تجارة فيهن وثمنهن حرام» وفي مثل هذا نزلت ﴿ومن الناس من يشتري لهو الحديث﴾ الآية وعن أبي هريرة «أن النبي ﷺ نهى عن ثمن الكلب وكسب المزمار» وقال مكحول من اشترى جارية ضرابة ليمسكها لغنائها وضربها مقيماً عليه حتى يموت لم أصل عليه إن الله تعالى يقول: ﴿ومن الناس من يشتري لهو الحديث﴾ الآية وعن ابن مسعود وابن عباس والحسن وعكرمة وسعيد بن جبير قالوا لهو الحديث هو الغناء والآية نزلت فيه ومعنى يشتري يستبدل ويختار الغناء والمزامير والمعازف على القرآن. وقال أبو الصهباء: سألت ابن مسعود عن هذه الآية فقال هو الغناء والله الذي لا إله إلا هو يرددها ثلاث مرات وقال إبراهيم النخعي الغناء ينبت النفاق وقيل: هو كل لهو ولعب وقيل: هو الشرك ﴿ليضل عن سبيل الله﴾ يعني عن دين الإسلام وسماع القرآن ﴿بغير علم﴾ يعني يفعله عن جهل وحسب المرء من الضلالة أن يختار حديث الباطل على حديث الحق ﴿ويتخذها هزواً﴾ أي يتخذ آيات الله مزحاً ﴿أولئك﴾ يعني الذين هذه صفتهم ﴿لهم عذاب مهين﴾.

وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا

وقال مجاهد يعني شراء القِيان والمغنّين، ووجه الكلام على هذا التأويل من يشتري ذات لَهْو أو ذَا لَهْو الحديث، أخبرنا أبو سعيد الشريحي أنا أبو إسحق الثعلبي أنا أبو طاهر محمد بن الفضل بن محمد بن إسحق المزني ثنا جدّي محمد بن إسحق بن خزيمة أنا علي بن حجر أنا مشمعل بن ملحان الطائي عن مطرح بن يزيد عن عبد الله بن زحر عن علي بن يزيد عن القاسم عن أبي عبد الرحمن عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يحلّ تعليم المغنيات ولا بيعهنّ وأثمانهنّ حرام»، وفي مثل هذا أُنزلت هذه الآية ﴿ ومن الناس مَن يشتري لَهْوَ الحديث لِيُضلّ عن سبيل الله ﴾، وما من رجل يرفع صوته بالغناء إلّا بعث الله عليه شيطانين أحدهما على هذا المنكب والآخر على هذا المنكب فلا يزالاَنِ يضربانه بأرجلهما حتى يكون هو الذي يسكت أخبرنا عبد الرحمن بن أحمد القفّال أنا أبو منصور أحمد بن الفضل البروجُردي أنا أبو أحمد بكر بن محمد بن حمدان الصيرفي أنا محمد بن غالب بن تمام أنا خالد بن مرثد أنا حمّاد بن زيد عن هشام هو ابن حسان عن محمد هو ابن سيرين عن أبي هريرة أن النبي ﷺ «نهى عن ثمن الكلبِ وكسب الزمارة» قال مكحول: مَن اشترى جارية ضرّابة ليمسكها لغنائها وضربها مقيماً عليه حتى يموت لم أُصلِّ عليه إن الله يقول: ﴿ ومن الناس مَن يشتري لهو الحديث ﴾ الآية، وعن عبد الله بن مسعود وابن عباس والحسن وعكرمة وسعيد بن جبير قالوا: لهو الحديث هو الغناء والآية نزلت فيه، ومعنى قوله: ﴿ يشتري لهو الحديث ﴾ أي يستبدل ويختار الغناء والمزامير والمعازف على القرآن، قال أبو الصباء البكري سألت ابن مسعود عن هذه الآية فقال: هو الغناء والله الذي لا إلّه إلّا هو، يردّدها ثلاث مرات. وقال إبراهيم النخعي الغناء يُنبِت النفاق في القلب وكان أصحابنا يأخذون بأفواه السكك يخرقون الدفوف. وقيل: الغناء رُقيةُ الزنا. وقال ابن جريج: هو الطبل. وعن الضحاك قال: هو الشرك. وقال قتادة: هو كل لهو ولعب، ﴿ ليضلّ عن سبيل الله بغير علم ﴾، يعني يفعله عن جهل قال قتادة: بحسب المرء من الضلالة أن يختار حديث الباطل على حديث الحق. قوله تعالى: ﴿ ويتخذها هُزُواً ﴾، قرأ حمزة والكسائي وحفص ويعقوب: ﴿ ويتخذها ﴾ بنصب الذال عطفاً على قوله: ﴿ ليضلّ ﴾ وقرأ الآخرون بالرفع نسقاً على قوله: ﴿ يشتري ﴾، ﴿ أولئك لهم عذاب مهين ﴾.

فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٍ
مُّبِينٍ ﴿١١﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ
حَمِيدٌ ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا
ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِي عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن
جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَاۖ وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًاۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ
إِلَيَّۚ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾

﴿وإذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبراً﴾ أي لا يعبأ بها ولا يرفع لها رأساً ﴿كأن لم يسمعها﴾ أي يشبه حاله في ذلك حال من لم يسمعها وهو سامع ﴿كأن في أذنيه وقراً﴾ أي ثقلاً ولا وقر فيهما ﴿فبشره بعذاب أليم إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات النعيم خالدين فيها وعد الله حقاً﴾ يعني وعدهم الله ذلك وعداً حقاً وهو لا يخلف الميعاد ﴿وهو العزيز الحكيم﴾ قوله تعالى ﴿خلق السموات بغير عمد﴾ قيل إن السماء خلقت مبسوطة كصحفة مستوية وهو قول المفسرين وهي في الفضاء والفضاء لا نهاية له وكون السماء في بعضه دون بعض ليس ذلك إلا بقدرة قادر مختار وإليه الإشارة بقوله بغير عمد ﴿ترونها﴾ أي ليس لها شيء يمنعها الزوال من موضعها وهي ثابتة لا تزول وليس ذلك إلا بقدرة الله تعالى. وفي قوله ترونها وجهان: أحدهما أنه راجع إلى السموات أي ليست هي بعمد وأنتم ترونها كذلك بغير عمد. الوجه الثاني أنه راجع إلى العمد ومعناه بغير عمد مرئية ﴿وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم﴾ أي لئلا تتحرك بكم ﴿وبث فيها﴾ أي في الأرض ﴿من كل دابة﴾ أي يسكنون فيها ﴿وأنزلنا من السماء ماء﴾ يعني المطر وهو من إنعام الله على عبادة وفضله ﴿فأنبتنا فيها من كل زوج كريم﴾ أي من كل صنف حسن ﴿هذا﴾ يعني الذي ذكرت مما تعاينون ﴿خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه﴾ أي آلهتكم التي تعبدونها ﴿بل الظالمون في ضلال مبين﴾ قوله عز وجل ﴿ولقد آتينا لقمان الحكمة﴾ قيل هو لقمان بن باعوراء بن ناحور بن تارخ وهو آزر. وقيل كان ابن أخت أيوب. وقيل كان ابن خالته. وقيل إنه عاش ألف سنة حتى أدرك داود وقيل إنه كان قاضياً في بني إسرائيل. واتفقت العلماء على أنه كان حكيماً ولم يكن نبياً إلا عكرمة فإنه قال: كان نبياً وقيل خير بين النبوة والحكمة فاختار الحكمة.

﴿ وإذا تتلى عليه آياتُنا ولّى مستكبراً كأنْ لم يسمعها كأنّ في أُذنيه وقراً فبشّره بعذاب أليم ﴾.

﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنّات النعيم ﴾.

﴿ خالدين فيها وعد الله حقاً وهو العزيز الحكيم ﴾.

﴿ خلق السمٰوات بغير عمد ترونها وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم ﴾، ﴿ وبثّ فيها من كل دابّة وأنزلنا من السماء ماء فأنبتنا فيها من كل زوج كريم ﴾، حسن.

﴿ هذا ﴾، يعني الذي ذكرت مما تعاينون، ﴿ خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه ﴾. من آلهتكم التي تعبدونها، ﴿ بل الظالمون في ضلال مبين ﴾.

قوله تعالى: ﴿ ولقد آتينا لقمان الحكمة ﴾، يعني العقل والعلم والعمل به والإصابة في الأمور، وقال محمد بن إسحاق، وهو لقمان بن ناعور بن ناحور بن تارخ وهو آزر. وقال وهب: إنه كان ابن أخت أيوب وقال مقاتل ذكر أنه كان ابن خالة أيوب. قال الواقدي: كان قاضياً في بني إسرائيل. واتفق العلماء على أنه كان حكيماً

وروي أنه كان نائماً نصف الليل فنودي يا لقمان هل لك أن نجعلك خليفة في الأرض فتحكم بين الناس فأجاب الصوت فقال إن خيرني ربي قبلت العافية ولم أقبل البلاء وإن عزم علي فسمعاً وطاعة وإني أعلم أن الله إن فعل بي ذلك أعانني وعصمني فقالت الملائكة بصوت لا يراهم لم يا لقمان؟ قال إن الحاكم بأشد المنازل وأكدرها يغشاها الظلم من كل مكان إن عدل فبالحرى أن ينجو وإن أخطأ الطريق أخطأ طريق الجنة ومن يكن في الدنيا ذليلاً خير من أن يكون شريفاً، ومن يختر الدنيا على الآخرة تفتنه الدنيا ولم يصب الآخرة فعجبت الملائكة من حسن منطقه فنام نومة فأعطي الحكمة فانتبه وهو يتكلم بها ثم نودي داود بعده، فقبلها ولم يشترط ما اشترط لقمان فهوى في الخطيئة غير مرة كل ذلك يعفو الله عنه وكان لقمان يوازر داود لحكمته وقيل كان لقمان عبداً حبشياً نجاراً وقيل كان خياطاً وقيل كان راعي غنم فروي أنه لقيه رجل وهو يتكلم بالحكمة فقال ألست فلاناً الراعي قال: بلى قال فبم بلغت ما بلغت؟ قال بصدق الحديث وأداء الأمانة وترك ما لا يعنيني، وقيل كان عبداً أسود عظيم الشفتين مشقق القدمين وقيل: خير السودان بلال بن رباح ومهجع مولى عمر ولقمان والنجاشي رابعهم أوتي الحكمة والعقل والفهم وقيل العلم والعمل به ولا يسمى الرجل حكيماً حتى يجمعها وقيل الحكمة المعرفة والإصابة في الأمور وقيل: الحكمة شيء يجعله الله في القلب ينوره كما ينور البصر فيدرك المبصر. وقوله ﴿**أن اشكر لله**﴾ وذلك لأن المراد من العلم العمل به والشكر عليه ﴿**ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه**﴾ أي عليه يعود نفع ذلك وكذلك كفرانه ﴿**ومن كفر**﴾ عليه يعود وبال كفره ﴿**فإن الله غني**﴾ أي غير محتاج إلى شكر الشاكرين ﴿**حميد**﴾ أي هو حقيق بأن يحمد وإن لم يحمده أحد. وقوله تعالى ﴿**وإذ قال لقمان لابنه**﴾ قيل اسمه أنعم وقيل أشكم ﴿**وهو يعظه**﴾ وذلك لأن أعلى مراتب الإنسان أن يكون كاملاً في نفسه مكملاً لغيره فقوله ﴿**ولقد آتينا لقمان الحكمة أن اشكر لله**﴾ إشارة إلى الكمال وقوله وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه إشارة إلى التكميل لغيره وبدأ بالأقرب إليه وهو ابنه وبدأ في وعظه بالأهم وهو المنع من الشرك وهو قوله ﴿**يا بني لا تشرك بالله**

ولم يكن نبيًا إلاّ عكرمة فإنه قال كان لقمان نبياً وتفرّد بهذا القول. وقال بعضهم: خيّر لقمان بين النبوّة والحكمة فاختار الحكمة. ورُوِيَ أنه كان نائماً نصف النهار فنُودي يا لقمان هل لك أن يجعلك الله خليفة في الأرض لتحكم بين الناس بالحق فأجاب الصوت فقال: إن خيّرني ربي قبلت العافية ولم أقبل البلاء، وإن عزم عليّ فسمعاً وطاعة فإني أعلم إن فعل ذلك بي أعانني وعصمني، فقالت الملائكة بصوت لا يراهم: لما يا لقمان؟ قال: لأن الحاكم بأشد المنازل وأكدرها يغشاها الظلم من كل مكان أن يعن فبالأحرى أن ينجو وإن أخطأ أخطأ طريق الجنة، ومَن يكن في الدنيا ذليلاً خير من أن يكون شريفاً، ومَن تخيّر الدنيا على الآخرة تفتنه الدنيا ولا يصيب الآخرة، فعجبت الملائكة من حُسْن منطقه، فنام نومة أُعطي الحكمة فانتبه وهو يتكلم بها، ثم نُودي داود بعده فقبلها ولم يشترط ما اشترطه لقمان، فهوى في الخطيئة غير مرة كل ذلك يعفو عنه، وكان لقمان يؤازره بحكمته. وعن خالد الربعي قال: كان لقمان عبداً حبشياً نجّاراً. وقال سعيد بن المسيب: كان خيّاطاً. وقيل: كان راعي غنم. فرُوِيَ أنه لقيه رجل وهو يتكلم بالحكمة فقال: ألست فلاناً الراعي فبِمَ بلغت ما بلغت؟ قال: بصدق الحديث وأداء الأمانة وترك ما لا يعنيني. وقال مجاهد: كان عبداً أسود عظيم الشفتين مشقّق القدمين. قوله عزّ وجلّ: ﴿ **أن اشكر الله ومَنْ يشكرْ فإنّما يشكر لنفسه ومَن كفر فإن الله غنيٌّ حميد** ﴾.

﴿ **وإذْ قال لقمان لابنه** ﴾، واسمه أنعم ويقال مشكم، ﴿ **وهو يعظه يا بني لا تشركْ بالله إنّ الشركَ لظلم عظيم** ﴾، قرأ ابن كثير: ﴿ **يا بني لا تشرك بالله** ﴾ بإسكان الياء، وفتحها حفص، والباقون بالكسر، ﴿ **يا بني** ﴾ إنها بفتح الياء حفص، والباقون بالكسر، ﴿ يا بني أقم الصلاة ﴾ [لقمان: ١٧] بفتح الياء البزّي عن ابن كثير وحفص، وبإسكانها القوّاس، والباقون بكسرها.

إن الشرك لظلم عظيم﴾ لأن التسوية بين من يستحق العبادة وبين من لا يستحقها ظلم عظيم لأنه وضع العبادة في غير موضعها. قوله عز وجل **﴿ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهناً على وهن﴾** قال ابن عباس شدة بعد شدة وقيل إن المرأة إذا حملت توالى عليها الضعف والتعب والمشقة وذلك لأن الحمل ضعف والطلق ضعف والوضع ضعف والرضاعة ضعف **﴿وفصاله في عامين﴾** أي فطامه في سنتين **﴿أن اشكر لي ولوالديك إليَّ المصير﴾** لما جعل الله بفضله للوالدين صورة التربية الظاهرة وهو الموجد والمربي في الحقيقة جعل الشكر بينهما فقال اشكر لي ولوالديك ثم فرق فقال إلي المصير يعني أن نعمتهما مختصة بالدنيا ونعمتي عليك في الدنيا والآخرة وقيل لما أمر بشكره وشكر الوالدين قال الجزاء علي وقت المصير إلي، قال سفيان بن عيينة في هذه الآية من صلى الصلوات الخمس فقد شكر الله ومن دعا للوالدين في أدبار الصلوات الخمس فقد شكر الوالدين **﴿وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما﴾** قال النخعي: يعني أن طاعتهما واجبة فان أفضى ذلك إلى الاشراك بي فلا تطعهما في ذلك لأن لا طاعة للمخلوق في معصية الخالق **﴿وصاحبهما في الدنيا معروفاً﴾** أي بالمعروف وهو البر والصلة والعشرة الجميلة **﴿واتبع سبيل من أناب إلي﴾** أي اتبع دين من أقبل إلى طاعتي وهو النبي ﷺ وأصحابه وقيل من أناب إلي يعني أبا بكر الصديق قال ابن عباس: وذلك أنه حين أسلم أتاه عثمان وطلحة والزبير وسعد بن أبي وقاص وعبد الرحمن بن عوف وقالوا له قد صدقت هذا الرجل وآمنت به قال نعم إنه صادق فآمنوا به ثم حملهم إلى النبي ﷺ حتى أسلموا فهؤلاء لهم سابقة الإسلام أسلموا بإرشاد أبي بكر **﴿ثم إلي مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون﴾**.

يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾ أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ

﴿ ووصّينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهناً على وهن ﴾، قال ابن عباس: شدّة بعد شدّة. وقال الضحاك: ضعفاً على ضعف. قال مجاهد: مشقّة على مشقّة. وقال الزجّاج: المرأة إذا حملت توالى عليها الضعف والمشقّة. ويقال: الحمل ضعف والطلق ضعف والوضع ضعف. **﴿ وفصاله ﴾**، أي فطامه، **﴿ في عامين أن اشكر لي ولوالديك إليّ المصير ﴾**، المرجع، قال سفيان بن عيينة في هذه الآية: مَن صلّى الصلوات الخمس فقد شكر الله، ومَن دعا للوالدين في أدبار الصلوات الخمس فقد شكر الوالدين.

﴿ وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفاً ﴾، أي بالمعروف، وهو البرّ والصلة والعِشرة الجميلة، **﴿ واتّبعْ سَبيلَ مَن أنابَ إليّ ﴾**، أي دين مَن أقبل إلى طاعتي وهو النبي ﷺ وأصحابه، قال عطاء عن ابن عباس: يريد أبا بكر وذلك أنه حين أسلم أتاه عثمان وطلحة والزبير وسعد بن أبي وقاص وعبد الرحمن بن عوف، فقالوا له: قد صدّقت هذا الرجل وآمنت به؟ قال: نعم هو صادق فآمنوا به ثم حملهم إلى النبي ﷺ حتى أسلموا فهؤلاء لهم سابقة الإسلام أسلموا بإرشاد أبي بكر، قال الله تعالى: **﴿ واتبعْ سبيل مَن أناب إليّ ﴾**، يعني أبا بكر، **﴿ ثم إليّ مرجعكم فأُنبئكم بما كنتم تعملون ﴾**، وقيل: نزلت هاتان الآيتان في سعد بن أبي وقاص وأمه، وقد مضت القصة وقيل: الآية عامّة في حق كافّة الناس.

وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾

﴿**يا بني إنها إن تك مثقال حبة من خردل**﴾ وذلك أن ابن لقمان قال لأبيه يا أبت إن عملت الخطيئة حيث لا يراني أحد كيف يعلمها الله؟ قال يا بني إنها أي الخطيئة إن تك مثقال حبة من خردل أي في الصغر ﴿**فتكن**﴾ أي مع صغرها ﴿**في صخرة**﴾ قال ابن عباس: صخرة تحت الأرضين السبع وهي التي يكتب فيها أعمال الفجار وخضرة السماء منها وقيل خلق الله الأرض على حوت وهو النون والحوت في الماء والماء على ظهر صفاة والصفاة على ظهر ملك وقيل على ظهر ثور وهو على صخرة وهي التي ذكر لقمان ليست في الأرض ولا في السماء فلذلك قال ﴿**أو في السموات أو في الأرض**﴾ والصخرة على متن الريح والريح على القدرة ﴿**يأت بها الله**﴾ معناه الله عالم بها قادر على استخراجها وهو قوله ﴿**إن الله لطيف**﴾ أي باستخراجها ﴿**خبير**﴾ أي بمكانها ومعنى الآية الإحاطة بالأشياء صغيرها وكبيرها قيل إن هذه الكلمة آخر كلمة قالها لقمان فانشقت مرارته من هيبتها وعظمتها فمات ﴿**يا بني أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك**﴾ من الأذى ﴿**إن ذلك من عزم الأمور**﴾ يعني إقامة الصلاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والصبر على الأذى من الأمور الواجبة التي أمر الله بها ﴿**ولا تصعر**﴾ وقرىء تصاعر ﴿**خدك للناس**﴾ قال ابن عباس لا تتكبر فتحقر الناس وتعرض عنهم بوجهك إذا كلموك وقيل هو الرجل يكون بينك

﴿ **يا بُنَيَّ إنها إن تكُ مثقالَ حبةٍ من خردل** ﴾، الكناية في قوله: ﴿ **إنها** ﴾ راجعة إلى الخطيئة، وذلك أن ابن لقمان قال لأبيه يا أبت إن عملت الخطيئة حيث لا يراني أحد كيف يعلمها الله؟ فقال: ﴿ **يا بنيّ إن تكُ مثقالَ حبة من خردل فتكن في صخرة** ﴾، قال قتادة تكن في جبل. وقال ابن عباس: في صخرة تحت الأرضين السبع وهي التي يكتب فيها أعمال الفجّار وخضرة السماء منها. قال السدي: خلق الله الأرض على حوت وهو النون الذي ذكر الله عزّ وجلّ في القرآن نۤ والقلم والحوت في الماء والماء على ظهر صفاة والصفاة على ظهر ملك والملك على صخرة وهي الصخرة التي ذكرها لقمان ليست في السماء ولا في الأرض، والصخرة على الريح. ﴿ **أو في السموات أو في الأرض يأتِ بها الله إنّ الله لطيف** ﴾، باستخراجها، ﴿ **خبير** ﴾، عالم بمكانها، قال الحسن: معنى الآية هي الإحاطة بالأشياء صغيرها وكبيرها وفي بعض الكتب إن هذه الكلمة آخر كلمة تكلّم بها لقمان فانشقّت مرارته من هيبتها فمات رحمه الله.

﴿ **يا بُنَيَّ أقم الصلاةَ وأمرْ بالمعروف وانْهَ عن المنكر واصبرْ على ما أصابك** ﴾، يعني من الأذى، ﴿ **إن ذلك من عزم الأمور** ﴾، يريد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والصبر على الأذى فيهما من الأمور الواجبة التي أمر الله بها أو من الأمور التي يعزم عليها لوجوبها.

﴿ **ولا تُصعِّرْ خدَّكَ للناس** ﴾، قرأ ابن كثير وابن عامر وعاصم وأبو جعفر ويعقوب: ﴿ **ولا تصعّر** ﴾ بتشديد العين من غير ألف وقرأ الآخرون (تصاعر) بالألف يقال صعّر وجهه وصاعر إذا مال وأعرض تكبّراً ورجل أصعر أي مائل العنق. قال ابن عباس: يقول لا تتكبر فتحقّر الناس وتعرض عنهم بوجهك إذا كلّموك. وقال مجاهد: هو الرجل يكون بينك وبينه إحنة فتلقاه فيعرض عنك بوجهه. وقال عكرمة: هو الذي إذا سُلِّم عليه لَوَى عنقه تكبراً. وقال الربيع بن أنس وقتادة: ولا تحتقرنّ الفقراء ليكن الفقر والغنى عندك سواء، ﴿ **ولا تمشِ في الأرض مرحاً** ﴾، خيلاء تكبراً، ﴿ **إن الله لا يحبّ كلّ مختال** ﴾، في مشيه ﴿ **فخور** ﴾، على الناس.

﴿ **واقصد في مشيك** ﴾، أي ليكن مشيك قصداً لا تخيّلاً ولا إسراعاً. وقال عطاء: امشِ بالوقار والسكينة، كقوله: ﴿ يَمشون على الأرض هوناً ﴾ [الفرقان: ٦٣]، ﴿ **واغضض من صوتك** ﴾، وقال مقاتل: اخفض صوتك،

وبينه محبة فيلقاك فتعرض عنه وقيل هو الذي إذا سلم عليه لوى عنقه تكبراً وقيل معناه لا تحتقر الفقراء فليكن الفقير والغني عندك سواء ﴿ولا تمش في الأرض مرحاً﴾ أي خيلاء ﴿إن الله لا يحب كل مختال﴾ في مشيه ﴿فخور﴾ أي على الناس ﴿واقصد في مشيك﴾ أي ليكن في مشيتك قصد بين الإسراع والتأني أما الإسراع فهو من الخيلاء وأما التأني فهو أن يرى في نفسه الضعف تزهداً وكلا الطرفين مذموم بل ليكن مشيك بين السكينة والوقار ﴿واغضض﴾ أي اخفض وقيل وانقص ﴿من صوتك إن أنكر﴾ أي أقبح ﴿الأصوات لصوت الحمير﴾ لأن أوله زفير وآخره شهيق وهما صوت أهل النار وعن الثوري في هذه الآية قال صياح كل شيء تسبيح إلا الحمار وقيل معنى الآية هو العطسة القبيحة المنكرة قال وهب: تكلم لقمان باثني عشر ألف باب من الحكمة أدخلها الناس في كلامهم وقضاياهم ومن حكمته قيل: إنه كان عبداً حبشياً فدفع إليه مولاه شاة وقال له: اذبحها وائتني بأطيب مضغتين منها فاتاه باللسان والقلب ثم دفع إليه أخرى وقال له اذبحها وائتني بأخبث مضغتين منها فأتاه باللسان والقلب فسأله مولاه فقال ليس شيء أطيب منهما إذا طابا ولا أخبث منهما إذا خبثا وقال لقمان ليس مال كصحة ولا نعيم كطيب نفس. وقيل للقمان أي الناس شر قال الذي لا يبالي أن يراه الناس مسيئاً. قوله عز وجل ﴿ألم تروا أن الله سخر لكم ما في السموات وما في الأرض وأسبغ﴾ أي أتم وأكمل ﴿عليكم نعمه ظاهرة وباطنة﴾ قال ابن عباس النعمة الظاهرة الإسلام والقرآن والباطنة ما ستر عليكم من الذنوب ولم يعجل عليكم بالنقمة؛ وقيل الظاهرة تسوية الأعضاء وحسن الصورة والباطنة الاعتقاد بالقلب وقيل الظاهرة الرزق والباطنة حسن الخلق وقيل الظاهرة تخفيف الشرائع والباطنة الشفاعة وقيل الظاهرة ظهور الإسلام والنصر على الأعداء والباطنة الامداد بالملائكة وقيل الظاهرة اتباع الرسول والباطنة محبته ﴿ومن الناس من يجادل في

﴿ إن أنكر الأصوات ﴾، أقبح الأصوات، ﴿ لصوت الحمير ﴾، أوله زفير وآخره شهيق، وهما صوتا أهل النار، وقال موسى بن أعين: سمعت سفيان الثوري يقول في قوله: ﴿ إن أنكر الأصوات لصوت الحمير ﴾، قال صياح كل شيء تسبيح لله إلّا الحمار. وقال جعفر الصادق في قوله: ﴿ إن أنكر الأصوات لصوت الحمير ﴾ قال: هي العطسة القبيحة المنكرة. قال وهب: تكلم لقمان باثني عشر ألف باب من الحكمة أدخلها الناس في كلامهم وقضاياهم، وحكمه قال خالد الربيعي: كان لقمان عبداً حبشياً فدفع مولاه إليه شـاة وقال: اذبحها وائتني بأطيب مضغتين منها، فأتاه باللسان والقلب، ثم دفع إليه شاة أخرى، وقال: اذبحها وائتني بأخبث مضغتين منها فأتاه باللسان والقلب، فسأله مولاه، فقال: ليس شيء أطيب منهما إذا طابا ولا أخبث منهما إذا خبثا.

قوله تعالى: ﴿ ألم تَرَوْا أنّ الله سخّر لكم ما في السمٰوات وما في الأرض وأسبغ عليكم ﴾، أتمّ وأكمل، ﴿ نعمه ﴾، قرأ أهل المدينة وأبو عمرو وحفص ﴿ نعمه ﴾ بفتح العين وضمّ الهاء على الجمع، وقرأ الآخرون منوّنة على الواحد ومعناها الجمع أيضاً كقوله: ﴿ وإن تعدّوا نعمت الله لا تحصوها ﴾ [إبراهيم: ٣٤]، ﴿ ظاهرة وباطنة ﴾، قال عكرمة عن ابن عباس: النعمة الظاهرة الإسلام والقرآن والباطنة ما ستر عليك من الذنوب ولم يعجّل عليك بالنقمة. وقال الضحّاك: الظاهرة حسن الصورة وتسوية الأعضاء والباطنة المعرفة. وقال مقاتل: الظاهرة تسوية الخلق والرزق والإسلام، والباطنة الإيمان. وقال الربيع: الظاهرة الجوارح والباطنة القلب، وقيل الظاهرة الإقرار باللسان والباطنة الاعتقاد بالقلب. وقيل: الظاهرة تمام الرزق والباطنة حسن الخلق. وقال عطاء: الظاهرة تخفيف الشرائع والباطنة الشفاعة. وقال مجاهد: الظاهرة ظهور الإسلام والنصر على الأعداء والباطنة الإمداد بالملائكة. وقيل: الظاهرة الإمداد بالملائكة والباطنة إلقاء الرعب في قلوب الكفّار. وقال سهل بن عبد الله: الظاهرة اتّباع الرسول والباطنة محبته. ﴿ ومن الناس مَن يجادل في الله بغير علم ﴾، نزلت في النضر بن الحارث

الله بغير علم﴾ نزلت في النضر بن الحارث وأبي بن خلف وأمية بن خلف وأشباههم كانوا يجادلون النبي ﷺ في الله وفي صفاته بغير علم ﴿ولا هدى ولا كتاب منير﴾.

وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى
عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿٢١﴾ ۞ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ
الْأُمُورِ ﴿٢٢﴾ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٢٣﴾
نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ
الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ أَنَّمَا فِي
الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾
مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ
النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ
اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ
بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَاتِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ
مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾

﴿وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه أباءنا﴾ قال الله تعالى ﴿أو لو كان الشيطان يدعوهم﴾ معناه أفيتبعونهم وإن كان الشيطان يدعوهم ﴿إلى عذاب السعير﴾ قوله عز وجل ﴿ومن يسلم وجهه إلى الله﴾ أي يخلص لله دينه ويفوض إليه أمره ﴿وهو محسن﴾ أي في عمله ﴿فقد استمسك بالعروة الوثقى﴾ أي اعتصم بالعهد الأوثق الذي لا يخلف عهده ولا يخاف انقطاعه ويرتقي بسببه إلى أعلى المراتب والغايات ﴿وإلى الله عاقبة الأمور﴾ أي مصير جميع الأشياء إليه ﴿ومن كفر فلا يحزنك كفره إلينا مرجعهم فننبئهم بما عملوا إن الله عليم بذات

وأبيّ بن خلف وأُميّة بن خلف وأشباههم كانوا يجادلون النبي ﷺ في الله وفي صفاته بغير علم، ﴿ ولا هدى ولا كتاب منير ﴾.

﴿ وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتّبع ما وجدنا عليه آباءنا ﴾، قال الله عزّ وجلّ: ﴿ أوَ لو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير ﴾، وجواب لو محذوف ومجازه يدعوهم فيتبعونه، يعني يتبعون الشيطان وإن كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير.

قوله تعالى: ﴿ ومَنْ يُسلم وجهَهُ إلى الله ﴾، يعني لله أي يخلص دينه لله ويفوّض أمره إلى الله، ﴿ وهو مُحسنٌ ﴾، في عمله، ﴿ فقدِ استمسك بالعروة الوثقى ﴾، أي اعتصم بالعهد الأوثق الذي لا يخاف انقطاعه، ﴿ وإلى الله عاقبة الأمور ﴾.

﴿ ومَن كفر فلا يحزنك كفره إلينا مرجعهم فننبِّئُهم بما عملوا إن الله عليم بذات الصدور ﴾.

﴿ نُمتّعهم قليلاً ﴾، أي: نمهلهم ليتمتعوا بنعيم الدنيا قليلاً إلى انقضاء آجالهم، ﴿ ثم نضطرهم ﴾، ثم

الصدور﴾ أي لا يخفى عليه سرهم وعلانيتهم. قوله تعالى ﴿نمتعهم قليلاً﴾ أي نمهلهم ليتمتعوا بنعيم الدنيا إلى انقضاء آجالهم ﴿ثم نضطرهم﴾ أي نلجئهم ونردهم ﴿إلى عذاب غليظ﴾ إلي النار في الآخرة ﴿ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون لله ما في السموات والأرض إن الله هو الغني الحميد﴾ تقدم تفسيره. قوله تعالى ﴿ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام﴾ قال المفسرون لما نزلت بمكة ﴿ويسألونك عن الروح﴾ الآية وهاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة أتاه أحبار اليهود وقالوا يا محمد بلغنا أنك تقول ﴿وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً﴾ أتعنينا أم قومك فقال عليه الصلاة والسلام كلا قد عنيت قالوا ألست تتلو فيما جاءك أنا أوتينا التوراة فيها علم كل شيء فقال رسول الله ﷺ هي في علم الله قليل وقد أتاكم الله بما إن علمتم به انتفعتم به قالوا كيف تزعم هذا وأنت تقول ﴿ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً﴾ فكيف يجتمع علم قليل مع خير كثير فأنزل الله هذه الآية فعلى هذا تكون هذه الآية مدنية وقيل إن اليهود أمروا وفد قريش أن يسألوا رسول الله ﷺ ويقولوا له ذلك وهو بمكة وقيل إن المشركين قالوا إن القرآن وما يأتي به محمد يوشك أن ينفد فينقطع فأنزل الله تعالى ﴿ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام﴾ أي بريت أقلاماً وقيل بعدد كل شجرة قلم ﴿والبحر يمده﴾ أي يزيده وينصب إليه ﴿من بعده سبعة أبحر﴾ أي مداداً والخلائق يكتبون به كلام الله ﴿ما نفدت كلمات الله﴾ لأنها لا نهاية لها ﴿إن الله عزيز حكيم﴾.

قوله تعالى ﴿ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة﴾ أي إلا كخلق نفس واحدة وبعثها لا يتعذر عليه شيء ﴿إن الله سميع﴾ أي لأقوالكم ﴿بصير﴾ بأعمالكم ﴿ألم تر أن الله يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وسخر الشمس

نلجئهم ونردّهم في الآخرة، ﴿ إلى عذاب غليظ ﴾، وهو عذاب النار.

﴿ ولئن سألتهم مَن خلق السمٰوات والأرض لَيَقُولَنَّ الله قلِ الحمد لله بلْ أكثرهم لا يعلمون ﴾.

﴿ لله مـا في السمٰوات والأرض إن الله هو الغني الحميد ﴾. قوله سبحانه وتعالى.

﴿ ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام ﴾، الآية. قال المفسّرون: نزلت بمكة، قوله سبحانه وتعالى: ﴿ ويسئلونك عن الروح ﴾ إلى قوله: ﴿ وما أُوتيتم من العلم إلاّ قليلاً ﴾ [الإسراء: ٨٥] فلما هاجر رسول الله ﷺ إلي المدينة أتاه أحبار اليهود فقالوا يا محمد بلغنا عنك أنك تقول وما أُوتيتم من العلم إلاّ قليلاً أفعنيتنا أم قومك؟ فقال عليه الصلاة والسلام: «كلاّ قد عنيت»، قالوا ألست تتلوا فيما جاءك أنّا أُوتينا التوراة وفيها علم كل شيء؟ فقال رسول الله ﷺ: «هي في علم الله قليل وقد آتاكم الله ما إن عملتم به انتفعتم»، قالوا: يا محمد كيف تزعم هذا وأنت تقول: ﴿ ومَن يُؤتَ الحكمة فقد أُوتي خيراً كثيراً ﴾ [البقرة: ٢٦٩] فكيف يجتمع هذا علم قليل وخير كثير؟ فأنزل الله هذه الآية. قال قتادة: إن المشركين قالوا إن القرآن وما يأتي به محمد يوشك أن ينفد فينقطع، فنزلت: ﴿ ولو أنّ ما في الأرض من شجرة أقلام ﴾ أيْ بُرِيَت أقلاماً، ﴿ والبحر يمدّه ﴾، قرأ أبو عمرو ويعقوب: ﴿ والبحر ﴾ بالنصب عطفاً على ﴿ ما ﴾، والباقون بالرفع على الاستئناف ﴿ يمدّه ﴾ أي يزيده، وينصب فيه ﴿ من بعده ﴾ من خلفه، ﴿ سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله ﴾، وفي الآية اختصار تقديره: ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمدّه من بعده سبعة أبحر يكتب بها كلام الله ما نفدت كلمات الله. ﴿ إن الله عزيز حكيم ﴾، وهذه الآية على قول عطاء بن يسار مدنيّة وعلى قول غيره مكيّة، وقالوا: إنما أمر اليهود وفد قريش أن يسألوا رسول الله ﷺ ويقولوا له ذلك وهو بعدُ بمكة والله أعلم.

﴿ وما خلقكم ولا بعثكم إلاّ كنفس واحدة ﴾، أي كخلق نفس واحدة وبعثها لا يتعذّر عليه شيء، ﴿ إن الله سميع بصير ﴾.

والقمر كل يجري إلى أجل مسمى وأن الله بما تعملون خبير ذلك بأن الله هو الحق﴾ يعني ذلك الذي هو قادر على هذه الأشياء التي ذكرت هو الحق المستحق للعبادة **﴿وأن ما يدعون من دونه الباطل﴾** يعني لا يستحق العبادة **﴿وأن الله هو العلي﴾** يعني في صفاته له الصفات العليا والأسماء الحسنى **﴿الكبير﴾** في ذاته أنه أكبر من كل كبير. قوله تعالى **﴿ألم تر أن الفلك﴾** يعني السفن والمراكب **﴿تجري في البحر بنعمة الله﴾** يعني ذلك من نعمة الله عليكم **﴿فيريكم من آياته﴾** يعني من عجائب صنائعه **﴿إن في ذلك لآيات لكل صبار﴾** يعين على ما أمر الله **﴿شكور﴾** لإنعامه **﴿وإذا غشيهم موج كالظلل﴾** يعني كالجبال وقيل كالسحاب شبه بها الموج في كثرتها وارتفاعها **﴿دعوا الله مخلصين له الدين﴾** معناه أن الإنسان إذا وقع في شدة ابتهل إلى الله بالدعاء وترك كل من عداه ونسي جميع ما سواه فاذا نجا من تلك الشدة فمنهم من يبقى على تلك الحالة وهو المقتصد وهو قوله تعالى **﴿فلما نجاهم إلى البر فمنهم مقتصد﴾** يعني عدل موفٍ في البر بما عاهد عليه الله في البحر من التوحيد والثبوت على الإيمان وقيل نزلت في عكرمة بن أبي جهل وذلك أنه هرب عام الفتح إلى البحر فجاءهم ريح عاصف فقال عكرمة: لئن أنجانا الله من هذا لأرجعن إلى محمد ﷺ ولأضعن يده في يدي فسكت الريح ورجع عكرمة إلى مكة وأسلم وحسن إسلامه ومنهم من لم يوف بما عاهد وهو المراد بقوله **﴿وما يجحد بآياتنا إلا كل ختار﴾** يعني غدار **﴿كفور﴾** يعني جحود لأنعمنا عليه. قوله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴿٣٤﴾﴾

﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم﴾ يعني خافوا ربكم **﴿واخشوا﴾** يعني وخافوا **﴿يوماً لا يجزي﴾** يعني لا يقضي ولا

﴿ ألم تَرَ أنّ الله يُولج الليل في النهار ويُولج النهار في الليل وسخّر الشمس والقمر كلٌّ يجري إلى أجل مسمى وأن الله بما تعملون خبير ﴾.

﴿ ذلك بأن الله هو الحق ﴾، أي ذلك الذي ذكرت لتعلموا أن الله هو الحق، **﴿ وأنّ ما يدعون من دونه الباطل وأن الله هو العليّ الكبير ﴾.**

﴿ ألم ترَ أنّ الفُلْكَ تجري في البحر بنعمة الله ﴾، إن ذلك من نعمة الله عليكم، **﴿ ليُريكم من آياته ﴾**، عجائبه، **﴿ إن في ذلك لآيات لكل صبّار ﴾**، على أمر الله، **﴿ شكور ﴾**، لنِعمه.

﴿ وإذا غشيهم موج كالظلل ﴾، قال مقاتل: كالجبال. وقال الكلبي: كالسحاب. والظل جمع الظلة شبّه بها الموج في كثرتها وارتفاعها وجعل الموج وهو واحد كالظل وهي جمع، لأن الموج يأتي منه شيء بعد شيء، **﴿ دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجّاهم إلى البرّ فمنهم مقتصد ﴾**، أي عدل موف في البر بما عاهد الله عليه في البحر من التوحيد له يعني ثبت على إيمانه قيل، نزلت في عكرمة بن أبي جهل هرب عام الفتح إلى البحر فجاءتهم ريح عاصف، فقال عكرمة: لئن أنجانا الله من هذا لأرجعنّ إلى محمد ﷺ ولأضعن يدي في يده فسكنت الريح، فرجع عكرمة إلى مكة فأسلم وحَسُنَ إسلامه. وقال مجاهد: فمنهم مقتصد في القول مضمر للكفر. وقال الكلبي: مقتصد في القول أي من الكفّار لأن بعضهم كان أشدّ قولاً وأغلى في الافتراء من بعض، **﴿ وما يجحد بآياتنا إلاّ كل ختّارٍ كفور ﴾**، والختر أسوأ الغدر.

﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوماً لا يجزي ﴾، لا يقضي ولا يُغني، **﴿ والدٌ عن ولده ولا مولود هو**

يغني ﴿والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً﴾ قيل معنى الآية إن الله ذكر شخصين في غاية الشفقة والمحبة وهما الوالد والولد فنبه بالأعلى على الأدنى وبالأدنى على الأعلى فالوالد يجزي عن ولده لكمال شفقته عليه والولد يجزي عن والده لما له من حق التربية وغيرها فإذا كان يوم القيامة فكل إنسان يقول نفسي ولا يهتم بقريب ولا بعيد كما قال ابن عباس كل امرىء تهمه نفسه ﴿إن وعد الله حق﴾ قيل إنه تحقيق اليوم معناه اخشوا يوماً هذا شأنه وهو كائن بوعد الله به ووعده حق وقيل الآية تحقيق بعدم الجزاء يعني لا يجزي والد عن ولده في ذلك اليوم والقول الأول أحسن وأظهر ﴿فلا تغرنكم الحياة الدنيا﴾ يعني لأنها فانية ﴿ولا يغرنكم بالله الغرور﴾ يعني الشيطان. قال سعيد بن جبير يعمل بالمعاصي ويتمنى المغفرة. قوله تعالى ﴿إن الله عنده علم الساعة﴾ الآية نزلت في الحارث بن عمرو بن حارثة بن حفصة من أهل البادية أتى النبي ﷺ فسأله عن الساعة ووقتها وقال إن أرضنا أجدبت فقل لي متى ينزل الغيث وتركت امرأتي حبلى فمتى تلد ولقد علمت أين ولدت فبأي أرض أموت فأنزل الله هذه الآية (ق) عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «مفاتيح الغيب خمس إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام وما تدري نفس ماذا تكسب غداً وما تدري نفس بأي أرض تموت إن الله عليم خبير» ومعنى الآية إن الله عنده علم الساعة فلا يدري أحد من الناس متى تقوم الساعة في أي سنة أو أي شهر أو أي يوم ليلاً أو نهاراً ﴿وينزل الغيث﴾ فلا يعلم أحد متى ينزل الغيث ليلاً أو نهاراً إلا الله ﴿ويعلم ما في الأرحام﴾ أذكر أم أنثى أحمر أم أسود تام الخلقة أم ناقص ﴿وما تدري نفس ماذا تكسب غداً﴾ من خير أو شر ﴿وما تدري نفس بأي أرض تموت﴾ يعني ليس أحد من الناس يعلم أين مضجعه من الأرض في بر أو بحر في سهل أو جبل ﴿إن الله عليم﴾ يعني بهذه الأشياء وبغيرها ﴿خبير﴾ أي ببواطن الأشياء كلها ليس علمه محيطاً بالظاهر فقط بل علمه محيط بالظاهر والباطن قال ابن عباس: هذه الخمسة لا يعلمها ملك مقرب ولا نبي مصطفى فمن ادعى أنه يعلم شيئاً من هذه فإنه كفر بالقرآن لأنه خالفه والله تعالى أعلم بمراده وأسرا كتابه.

جازٍ ﴾، مُغْنٍ، **﴿ عن والده شيئاً ﴾**، قال ابن عباس: كل امرىء تهمّه نفسه، **﴿ إنّ وعد الله حقٌّ فلا تغرنّكم الحياة الدنيا ولا يغرنّكم بالله الغرور ﴾**، يعني الشيطان. قال سعيد بن جبير: هو أن يعمل المعصية ويتمنى المغفرة. قوله:

﴿ إن الله عنده علم الساعة ﴾، الآية نزلت في الحارث بن عمرو بن حارثة بن محارب بن حفصة من أهل البادية أتى النبي ﷺ فسأله عن الساعة ووقتها وقال إن أرضنا أجدبت فمتى ينزل الغيث وتركتُ امرأتي حبلى، فمتى تلد، وقد علمتُ أين ولدتُ فبأي أرض أموت؟ فأنزل الله هذه الآية: **﴿ إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام وما تدري نفس ماذا تكسب غداً وما تدري نفس بأيّ أرض تموت ﴾**، وقرأ أُبيّ بن كعب «بآية أرض» والمشهور «بأيّ أرض» لأن الأرض ليس فيها من علامات التأنيث شيء، وقيل: أراد بالأرض المكان، أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا عبد العزيز بن عبد الله أنا إبراهيم بن سعد أنا ابن شهاب عن سالم بن عبد الله عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال: «مفاتيح الغيب خمس: إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام وما تدري نفس ماذا تكسب غداً وما تدري نفس بأيّ أرض تموت». **﴿ إن الله عليم خبير ﴾**.

تفسير سورة السجدة

وهي مكية قال عطاء إلا ثلاث آيات من قوله أفمن كان مؤمناً وهي تسع وعشرون آية وقيل ثلاثون آية وثلاثمائة وثمانون كلمة وألف وخمسمائة وثمانية عشر حرفاً.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۚ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾

قوله عز وجل ﴿**الم تنزل الكتاب لا ريب فيه**﴾ يعني لا شك في أنه ﴿**من رب العالمين أم يقولون**﴾ يعني بل يقولون يعني المشركين ﴿**افتراه**﴾ يعني اختلقه محمد ﷺ من تلقاء نفسه ﴿**بل هو الحق**﴾ يعني القرآن ﴿**من ربك لتنذر قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك**﴾ يعني العرب كانوا أمة أمية لم يأتهم نذير قبل محمد ﷺ. وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما وذلك في الفترة التي كانت بين عيسى ومحمد ﷺ. فإن قلت إذا لم يأتهم رسول لم تقم عليهم حجة. قلت: أما قيام الحجة بالشرائع التي لا يدرك علمها إلا من جهة الرسل فلا وأما قيام الحجة بمعرفة الله وتوحيده فنعم لأن معهم أدلة العقل الموصلة إلى ذلك في كل زمان ﴿**لعلهم يهتدون**﴾ يعني تنذرهم راجياً اهتداءهم ﴿**الله الذي خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش ما لكم من دونه من ولي ولا شفيع أفلا تتذكرون**﴾ تقدم تفسيره. قوله تعالى ﴿**يدبر الأمر**﴾ يعني يحكم الأمر وينزل القضاء والقدر وقيل ينزل الوحي مع جبريل عليه

سُوْرَةُ السَّجْدَة

مكيّة وهي ثلاثون آية.

قال عطاء: إلّا ثلاث آيات من قوله: ﴿ أفمن كان مؤمناً ﴾ [١٨] إلى آخر ثلاث آيات.

﴿ **الٓمٓ تنزيل الكتاب لا ريب فيه من ربّ العالمين** ﴾، قال مقاتل: لا شك فيه أنه تنزيل من ربّ العالمين.

﴿ **أم يقولون** ﴾، بل يقولون: ﴿ **افتراه** ﴾، وقيل الميم صلة أي أيقولون افتراه، استفهام توبيخ، وقيل: أم بمعنى الواو أي ويقولون افتراه، وقيل: فيه إضمار مجاز فهم يؤمنون، أم يقولون افتراه، ثم قال: ﴿ **بل هو** ﴾، يعني القرآن، ﴿ **الحق من ربك لتُنذر قوماً ما أتاهم** ﴾، يعني لم يأتهم، ﴿ **من نذير من قبلك** ﴾، قال قتادة: كانوا أمة أُمّيّة لم يأتهم نذير قبل محمد ﷺ. وقال ابن عباس ومقاتل: ذاك في الفترة التي كانت بين عيسى عليه السلام وبين محمد ﷺ، ﴿ **لعلّهم يهتدون** ﴾.

السلام ﴿من السماء إلى الأرض ثم يعرج﴾ يعني يصعد ﴿إليه﴾ جبريل بالأمر ﴿في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون﴾ يعني مسافة ما بين السماء والأرض خمسمائة سنة فيكون مقدار نزوله إلى الأرض ثم صعوده إلى السماء في مقدار ألف سنة لو ساره أحد من بني آدم وجبريل ينزل ويصعد في مقدار يوم من أيام الدنيا وأقل من ذلك وكذلك الملائكة كلهم أجمعون وقيل معنى الآية أنه يدبر الأمر من السماء إلى الأرض مدة أيام الدنيا ثم يعرج إليه أي يرجع الأمر والتدبير إليه بعد فناء الدنيا وانقطاع أمر الآمر وحكم الحاكم في يوم كان مقداره ألف سنة وهو يوم القيامة. فإن قلت قد قال في موضع آخر: تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة فكيف الجمع بينهما. قلت أراد بقوله خمسين ألف سنة مدة المسافة بين الأرض وسدرة المنتهى التي هي مقام جبريل عليه السلام يقول يسير جبريل والملائكة الذين معه من أهل مقامه مسيرة خمسين ألف سنة في يوم واحد من أيام الدنيا. وقيل كلها في القيامة فيكون على بعضهم مثل ألف سنة وعلى بعضهم خمسين ألف سنة وهذا في حال الكفار وأما على المؤمنين فدون ذلك كما جاء في الحديث: «إنه يكون على المؤمن كقدر صلاة مكتوبة صلاها في الدنيا». قال إبراهيم التيمي: لا يكون على المؤمنين إلا كما يكون ما بين الظهر والعصر وقيل يحتمل أن يكون هذا إخباراً عن شدته وهوله ومشقته وقال ابن أبي مليكة: دخلت أنا وعبد الله بن فيروز مولى عثمان على ابن عباس فسأله ابن فيروز عن هذه الآية وعن مقدار خمسين ألف سنة. فقال ابن عباس: رضي الله عنهما أيام سماها الله تعالى لا أدري ما هي وأكره أن أقول في كتاب الله ما لا أعلم.

﴿ الله الذي خلق السمٰوات والأرضَ وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش ما لكم من دونه من وليّ ولا شفيع أفلا تتذكّرون ﴾.

﴿ يدبر الأمر ﴾ أي يحكم الأمر وينزل القضاء والقدر، ﴿ من السماء إلى الأرض ﴾، وقيل: ينزل الوحي مع جبريل من السماء إلى الأرض، ﴿ ثم يعرج ﴾، يصعد، ﴿ إليه ﴾، جبريل بالأمر، ﴿ في يوم كان مقداره ألف سنة ممّا تعدّون ﴾، أي في يوم واحد من أيام الدنيا وقدره مسيرة سنة خمسمائة نزوله وخمسمائة صعوده لأن ما بين السماء والأرض خمسمائة عام، يقول: لو سار فيه أحد من بني آدم لم يقطعه إلاّ في ألف سنة، والملائكة يقطعون في يوم واحد، هذا في وصف عروج الملك من الأرض إلى السماء، وأما قوله: ﴿ تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ﴾ [المعارج: ٤]، أراد مدة المسافة من الأرض إلى السماء إلى سدرة المنتهى التي هي مقام جبريل يسير جبريل والملائكة الذين معه من أهل مقامه مسيرة خمسين ألف سنة في يوم واحد من أيام الدنيا، هذا كله معنى قول مجاهد والضحاك. وقوله إليه أي إلى الله. وقيل: هذا على التأويل إلى مكان الملك الذي أمره الله عزّ وجلّ أن يعرج إليه. وقال بعضهم: ألف سنة وخمسون ألف سنة كلها في القيامة يكون على بعضهم أطول وعلى بعضهم أقصر، معناه يدبّر الأمر من السماء إلى الأرض مدة أيام الدنيا، ثم يعرج أي يرجع الأمر والتدبير إليه بعد فناء الدنيا، وانقطاع أمر الأمراء وحكم الحكّام في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة وهو يوم القيامة، وأما قوله خمسين ألف سنة فإنه أراد على الكافر يجعل الله ذلك اليوم عليه مقدار خمسين ألف سنة، وعلى المؤمن دون ذلك حتى جاء في الحديث «أنه يكون على المؤمن كقدر صلاة مكتوبة صلّاها في الدنيا». وقال إبراهيم التيمي: لا يكون على المؤمن إلاّ كما بين الظهر والعصر، ويجوز أن يكون هذا إخبار عن شدّته وهوله ومشقّته، وقال ابن أبي مليكة: دخلت أنا وعبد الله بن فيروز مولى عثمان بن عفّان على ابن عباس وسأله ابن فيروز عن هذه الآية وعن قوله خمسين ألف سنة، فقال له ابن عباس: أيام سمّاها الله لا أدري ما هي وأكره أن أقول في كتاب الله ما لا أعلم.

ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦﴾ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن
طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ
وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾ وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ ۚ بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ
كَٰفِرُونَ ﴿١٠﴾ ۞ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ
ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾ وَلَوْ
شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾
فَذُوقُوا۟ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ ۖ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾

﴿**ذلك عالم الغيب والشهادة**﴾ يعني الذي صنع ما ذكر من خلق السموات والأرض هو عالم الغيب والشهادة أي ما غاب عن خلقه لا تخفى عليه خافية والشهادة بمعنى ما حضر وظهر ﴿**العزيز**﴾ أي الممتنع المنتقم من أعدائه ﴿**الرحيم**﴾ بأوليائه وأهل طاعته. قوله تعالى ﴿**الذي أحسن كل شيء خلقه**﴾ قال ابن عباس أتقنه وأحكمه وقيل علم كيف يخلق كل شيء وقيل خلق كل حيوان على صورة لم يخلق البعض على صورة البعض فكل حيوان كامل في صورته حسن في شكله وكل عضو من أعضائه مقدر على ما يصلح به معاشه وقيل معناه ألهم خلقه ما يحتاجون إليه وعلمهم إياه. وقيل معناه أحسن إلى كل خلقه ﴿**وبدأ خلق الإنسان من طين**﴾ يعني آدم ﴿**ثم جعل نسله**﴾ يعني ذريته ﴿**من سلالة**﴾ أي من نطفة تنسل من الإنسان ﴿**من ماء مهين**﴾ أي ضعيف ﴿**ثم سواه**﴾ أي سوى خلقه ﴿**ونفخ فيه من روحه**﴾ أضاف إليه الروح إضافة تشريف كبيت الله وناقة الله ثم ذكر ما يترتب على نفخ الروح في الجسد فقال ﴿**وجعل**

﴿ **ذلك عالم الغيب والشهادة** ﴾، معنى ذلك الذي صنع ما ذكره من خلق السموات والأرض عالم مَا غابَ عن عيان الخلق وما حضر، ﴿ **العزيز الرحيم** ﴾.

﴿ **الذي أحسن كل شيء خلقه** ﴾، قرأ نافع وأهل الكوفة ﴿ **خلقه** ﴾ بفتح اللام على الفعل وقرأ الآخرون بسكونها، أي أحسنَ خلقَ كل شيء، قال ابن عباس: أتقنه وأحكمه. قال قتادة: حسّنه. وقال مقاتل: علم كيف يخلق كل شيء، من قولك فلان يحسن كذا إذا كان يعلمه. وقيل: خلق كل حيوان على صورته لم يخلق البعض على صورة البعض، فكل حيوان كامل في خلقه حسن، وكل عضو من أعضائه مقدّر بما يصلح به معاشه. ﴿ **وبدأ خلق الإنسان من طين** ﴾، يعني آدم.

﴿ **ثم جعل نسله** ﴾، يعني ذريته، ﴿ **من سلالة** ﴾، نطفة سُمّيت سلالة لأنها تسلّ من الإنسان ﴿ **من ماء مهين** ﴾، أي ضعف وهو نطفة الرجل.

﴿ **ثم سوّاه** ﴾، ثم سوّى خلقه، ﴿ **ونفخ فيه من روحه** ﴾، ثم عاد إلى ذريته، فقال: ﴿ **وجعل لكم** ﴾، بعد أن كنتم نطفاً، ﴿ **السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون** ﴾، يعني لا تشكرون ربَّ هذه النِّعم فتوحّدونه.

﴿ **وقالوا** ﴾، يعني مُنكِري البعث، ﴿ **أئذا ضللنا** ﴾، هلكنا، ﴿ **في الأرض** ﴾، وصرنا تراباً وأصله من قولهم ضلّ الماء في اللبن إذا ذهب، ﴿ **أئنّا لفي خلق جديد** ﴾، استفهام إنكار. قال الله عزّ وجلّ: ﴿ **بل هم بلقاء ربهم كافرون** ﴾، أي بالبعث بعد الموت.

لكم﴾ أي خلق بعد أن كنتم نطفاً مواتاً **﴿السمع والأبصار والأفئدة﴾** قيل قدم السمع لأن الإنسان يسمع أوّلا كلاماً فينظر إلى قائله ليعرفه ثم يتفكر بقلبه في ذلك الكلام ليفهم معناه ووحد السمع لأن الإنسان يسمع الكلام من أي جهة كان **﴿قليلاً ما تشكرون﴾** يعني أنكم لا تشكرون رب هذه النعمة فتوحدوه إلا قليلا. قوله تعالى **﴿وقالوا﴾** يعني منكري البعث **﴿أئذا ضللنا﴾** هلكنا **﴿في الأرض﴾** والمعنى صرنا تراباً **﴿أئنا لفي خلق جديد﴾** استفهام إنكاري قال الله تعالى: **﴿بل هم بلقاء ربهم كافرون﴾** أي بالبعث بعد الموت **﴿قل يتوفاكم﴾** أي يقبض أرواحكم حتى لا يبقى أحد ممن كتب عليه الموت **﴿ملك الموت﴾** وهو عزرائيل عليه السلام **﴿الذي وكل بكم﴾** أي أنه لا يغفل عنكم وإذا جاء أجل أحدكم لا يؤخر ساعة ولا شغل له إلا ذلك. روي أن ملك الموت جعلت له الدنيا مثل راحة اليد يأخذ منها صاحبها ما أحب من غير مشقة، فهو يقبض أرواح الخلائق من مشارق الأرض ومغاربها وله أعوان من الملائكة ملائكة الرحمة وملائكة العذاب. وقال ابن عباس إن خطوة ملك الموت ما بين المشرق والمغرب، وقال مجاهد: جعلت له الأرض مثل الطست يتناول منها حيث يشاء، وقيل إن ملك الموت على معراج بين السماء والأرض فتنزع أعوانه روح الإنسان، فإذا بلغ ثغرة نحره قبضه ملك الموت. عن معاذ بن جبل قال: إن لملك الموت حربة تبلغ ما بين المشرق والمغرب، وهو يتصفح وجوه الناس فما من أهل بيت إلا وملك الموت يتصفحهم في كل يوم مرتين، فإذا رأى إنساناً قد انقضى أجله ضرب رأسه بتلك الحربة وقال له الآن تنزل بك سكرات الموت. وقوله **﴿ثم إلى ربكم ترجعون﴾** أي تصيرون إلى ربكم أحياء فيجزيكم بأعمالكم. قوله عز وجل **﴿ولو ترى إذ المجرمون﴾** أي المشركون **﴿ناكسو رؤوسهم عند ربهم﴾** أي يطأطئونها حياء من ربهم وندماً على ما فعلوا عند ربهم يقولون **﴿ربنا أبصرنا﴾** أي ما كنا به مكذبين **﴿وسمعنا﴾** يعني منك تصديق ما أتتنا به رسلك وقيل أبصرنا معاصينا وسمعنا ما قيل فيها **﴿فارجعنا﴾** أي فارددنا إلى الدنيا **﴿نعمل صالحاً إنا موقنون﴾** أي في الحال آمنا ولكن لا ينفع ذلك الإيمان **﴿ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها﴾** أي

﴿ قل يتوفاكم ﴾، يقبض أرواحكم، **﴿ ملك الموت الذي وُكّل بكم ﴾**، أي وكل بقبض أرواحكم وهو عزرائيل، والتوفّي استيفاء العدد المضروب للخلق في الأزل، معناه أنه يقبض أرواحهم حتى لا يبقى أحد من العدد الذي كتب عليه الموت. ورُوِيَ أن ملك الموت جعلت له الدنيا مثل راحة اليد يأخذ منها صاحبها ما أحبّ من غير مشقّة، فهو يقبض أنفس الخلق في مشارق الأرض ومغاربها، وله أعوان من ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، فملائكة الرحمة للمؤمنين وملائكة العذاب للكافرين وقال ابن عباس: إن خطوة ملك الموت ما بين المشرق والمغرب. وقال مجاهد: جعلت له الأرض مثل طست يتناول منها حيث يشاء. وفي بعض الأخبار: أن ملك الموت على معراج بين السماء والأرض فينزع أعوانه روح الإنسان فإذا بلغ ثغره نحره قبضه ملك الموت. وروى خالد بن معدان عن معاذ بن جبل قال إن لملك الموت حِربة تبلغ ما بين المشرق والمغرب وهو يتصفّح وجوه الناس فما من أهل بيت إلاّ وملك الموت يتصفحهم في كل يوم مرتين، فإذا رأى إنساناً قد انقضى أجله ضرب رأسه بتلك الحربَة، وقال الآن تنزل بك سكرات الموت. قوله: **﴿ ثم إلى ربكم ترجعون ﴾**، أي تصيرون إليه أحياءً فيجزيكم بأعمالكم.

﴿ ولو ترى إذِ المجرمون ﴾، المشركون، **﴿ ناكسوا رؤوسهم ﴾**، مطأطئوا رؤوسهم، **﴿ عند ربهم ﴾**، حياءً منه وندماً، **﴿ ربنا ﴾**، أي يقولون ربنا، **﴿ أبصرنا ﴾**، ما كنّا به مكذبين، **﴿ وسمعنا ﴾**، منك تصديق ما آتتنا به رسلك. وقيل: أبصرنا معاصينا وسمعنا ما قيل فينا، **﴿ فارجعنا ﴾**، فأردِدنا إلى الدنيا، **﴿ نعمل صالحاً إنّا موقنون ﴾**، وجواب لو مضمر مجازه لرأيت العجب.

﴿ ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ﴾، رشدها وتوفيقها للإيمان، **﴿ ولكن حق ﴾**، وجب، **﴿ القول منّي**

رشدها وتوفيقها للإيمان ﴿ولكن حق القول مني﴾ أي وجب القول مني ﴿لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين﴾ أي من كفار الجن والإنس ﴿فذوقوا﴾ يعني فإذا دخلوا النار قالت لهم الخزنة ذوقوا ﴿بما نسيتم لقاء يومكم﴾ أي تركتم الإيمان في الدنيا ﴿هذا إنا نسيناكم﴾ يعني تركناكم بالكلية غير ملتفت إليكم كما يفعل بالناس قطعاً لرجائكم ﴿وذوقوا عذاب الخلد بما كنتم تعملون﴾ أي من الكفر والتكذيب. قوله تعالى:

إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدًا وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾

﴿إنما يؤمن بآياتنا الذين إذا ذكروا بها﴾ أي وعظوا بها ﴿خروا سجداً﴾ يعني سقطوا على وجوههم ساجدين ﴿وسبحوا بحمد ربهم﴾ يعني صلوا بأمر ربهم وقيل قالوا سبحان الله وبحمده ﴿وهم لا يستكبرون﴾ يعني عن الإيمان به والسجود له (ق) عن ابن عمر قال «كان رسول الله ﷺ يقرأ السورة التي فيها السجدة فيسجد ويسجدون حتى ما يجد أحدنا مكاناً لوضع جبهته في غير وقت الصلاة». (م) عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «إذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد اعتزل الشيطان يبكي ويقول يا ويلنا أمر ابن آدم بالسجود فسجد فله الجنة، وأمرت بالسجود فأبيت فلي النار». وهذه من عزائم سجود القرآن فتسن للقارىء وللمستمع. قوله تعالى ﴿تتجافى جنوبهم﴾ يعني ترتفع وتنبو ﴿عن المضاجع﴾ جمع مضجع وهو الموضع الذي يضطجع عليه يعني الفرش، وهم المتهجدون بالليل الذي يقيمون الصلاة، وقال أنس نزلت فينا معاشر الأنصار كنا نصلي المغرب فلا نرجع إلى رحالنا حتى نصلي العشاء مع رسول الله ﷺ. عن أنس في قوله ﴿تتجافى جنوبهم عن المضاجع﴾ نزلت في انتظار الصلاة التي تدعى العتمة أخرجه الترمذي وقال الحديث حسن غريب صحيح. وفي رواية أبي داود عنه قال كانوا يتنفلون ما بين المغرب والعشاء أي يصلون، وهو قول أبي حازم ومحمد بن المنكدر وقيل هي صلاة الأوابين. روي عن ابن عباس قال: إن الملائكة لتحف بالذين يصلون بين المغرب والعشاء وهي صلاة الأوابين وقال عطاء: هم الذين لا ينامون حتى يصلوا العشاء

لأملأنّ جهنّم من الجنّة والناس أجمعين ﴾، وهو قوله لإبليس: ﴿ لأملأنّ جهنّم منك وممّن تبعك منهم أجمعين ﴾ [صٓ: ٨٥]، ثم يقال لأهل النار، وقال مقاتل: إذا دخلوا النار قالت لهم الخَزَنَة:

﴿ **فذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا** ﴾، أي تركتم الإيمان به في الدنيا، ﴿ **إنّا نسيناكم** ﴾، تركناكم، ﴿ **وذوقوا عذابَ الخلْدِ بما كنتم تعملون** ﴾، من الكفر والتكذيب. قوله عزّ وجلّ:

﴿ **إنّما يُؤمن بآياتنا الذين إذا ذُكّروا بها** ﴾، وعظوا بها، ﴿ **خَرّوا سُجّداً** ﴾، سقطوا على وجوههم ساجدين، ﴿ **وسبّحوا بحمد ربّهم** ﴾، قيل صلّوا بأمر ربهم، وقيل: قالوا سبحان الله وبحمده، ﴿ **وهم لا يستكبرون** ﴾، عن الإيمان والسجود له.

﴿ **تتجافى** ﴾، ترتفع وتنبوا، ﴿ **جنوبهم عن المضاجع** ﴾، جمع مضجع وهو الموضع الذي يضطجع عليه يعني الفرش وهم المتهجدون بالليل، الذين يقومون للصلاة، واختلفوا في المراد بهذه الآية، قال أنس: نزلت فينا معشر الأنصار كنّا نصلّي المغرب فلا نرجع إلى رِحالنا حتى نصلّي العشاء مع النبي ﷺ، وعن أنس أيضاً قال: نزلت في أُناس من أصحاب النبي ﷺ كانوا يصلّون من صلاة المغرب إلى صلاة العشاء، وهو قول أبي حازم ومحمد بن المنكدر، وقالا: هي صلاة الأوّابين. ورُوِيَ عن ابن عباس رضي الله عنه قال: إن الملائكة لتحفّ بالذين يصلّون بين المغرب والعشاء، وهي صلاة الأوّابين، وقال عطاء: هم الذين لا ينامون حتى يصلوا العشاء الآخرة. وعن أبي الدرداء وأبي ذرّ وعبادة بن الصامت رضي الله عنهم: هم الذين يصلّون العشاء الآخرة والفجر

الأخيرة والفجر في جماعة بدليل قوله ﷺ «من صلى العشاء في جماعة فكأنما قام نصف الليل ومن صلى الصبح في جماعة فكأنما صلى الليل كله» أخرجه مسلم من حديث عثمان بن عفان. (ق) عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال «لو يعلمون ما في العتمة والصبح لأتوهما ولو حبوا». وأشهر الأقاويل أن المراد منه صلاة الليل وهو قول الحسن ومجاهد ومالك والأوزاعي وجماعة.

فصل في فضل قيام الليل والحث عليه

عن معاذ بن جبل قال كنت مع رسول الله ﷺ في سفر فأصبحت يوماً قريباً منه وهو يسير، فقلت يا رسول الله أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني من النار. قال: «سألت عن عظيم وإنه ليسير على من يسره الله تعالى عليه، تعبد الله ولا تشرك به شيئاً وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت، ثم قال ألا أدلك على أبواب الخير الصوم جنة والصدقة تطفىء الخطيئة وصلاة الرجل في جوف الليل، ثم قرأ ﴿تتجافى جنوبهم عن المضاجع﴾ حتى بلغ ﴿جزاء بما كانوا يعملون﴾، ثم قال ألا أخبرك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه؟ قلت بلى يا رسول الله. قال رأس الأمر الإسلام وعموده الصلاة وذروة سنامة الجهاد، ثم قال ألا أخبرك بملاك ذلك كله؛ قلت بلى يا رسول الله قال فأخذ بلسانه وقال اكفف عليك هذا. فقلت يا رسول الله وإنا لمؤاخذون بما نتكلم فقال: ثكلتك أمك يا معاذ، وهل يكب الناس في النار على وجوههم أو قال على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم» أخرجه الترمذي عن أبي أمامة الباهلي

في جماعة. وروينا أن النبي ﷺ قال: «مَن صلّى العشاء في جماعة كان كمَن قام نصف ليلة، ومَن صلّ الفجر في جماعة كان كقيام ليلة». أخبرنا أبو الحسن السرخسي أنا زاهر بن أحمد أنا أبو إسحاق الهاشمي أنا أبو مصعب عن مالك عن سميّ مولى أبي بكر بن عبد الرحمن عن ابن صالح السمان عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: «لو يعلم الناس ما في النداء والصفّ الأول ثم لم يجدوا إلّا أن يستهمُوا عليه لاستهموا، ولو يعلمون ما في التهجير لاستبقوا إليه، ولو يعلمون ما في العتمة والصبح لأتوهما ولو حبواً»، وأشهر الأقاويل أن المراد منه صلاة الليل، وهو قول الحسن ومجاهد ومالك والأوزاعي وجماعة أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحي أنا أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الله بن بشران أنا أبو علي إسماعيل بن محمد الصفار أنا أحمد بن منصور الرمادي أنا عبد الرزاق أنا معمر عن عاصم بن أبي النجود عن أبي وائل عن معاذ بن جبل قال: كنت مع النبي ﷺ في سفرنا فأصبحت يوماً قريباً منه وهو يسير فقلت: يا رسول الله أخبرني بعمل يُدخلني الجنة ويُباعدني من النار، قال: «لقد سألت عن أمر عظيم وإنه ليسير على مَن يسّره الله عليه، تعبدُ الله ولا تشرك به شيئاً وتقيمُ الصلاةَ وتُؤتي الزكاةَ وتصوم رمضانَ وتحجُّ البيتَ»، ثم قال: «ألا أدلّك على أبواب الخير: الصوم جنّة، والصدقة تطفىء الخطيئة، وصلاة الرجل في جوف الليل»، ثم تلا ﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع ﴾ حتى بلغ ﴿ جزاء بما كانوا يعملون ﴾، ثم قال: «ألا أدلّك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه»: قلت: بلى يا رسول الله، قال: «رأس الأمر الإسلام وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد»، ثم قال: «ألا أخبرك بملاك ذلك كله»؟ قلت: بلى يا نبيّ الله، قال: «فأخذ بلسانه فقال: اكفف عليك هذا»، فقلت: يا نبيّ الله وإنّا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ قال: «ثكلتك أُمك يا معاذ وهل يُكبّ الناس في النار على وجوههم أو قال على مناخرهم إلّا حصائد ألسنتهم». حدّثنا أبو الفضل زياد بن محمد بن زياد الحنفي أنا أبو محمد عبد الرحمن بن أحمد المخلدي أنا محمد بن أحمد بن عبد الجبّار الرياني أنا حميد بن زنجويه أنا أبو عبد الله بن صالح، حدّثني معاوية بن صالح حدّثني ربيعة بن يزيد عن أبي إدريس الخولاني عن أبي أمامة الباهلي عن رسول الله ﷺ قال: «عليكم بقيام الليل فإنه دأب الصالحين قبلكم، وقُربة لكم إلى ربكم، وتكفير للسيئات، ومنها عن الإثم»، أخبرنا عبد الواحد المليحي أخبرنا أبو منصور محمد بن محمد بن سمعان أبو جعفر محمد بن أحمد بن

عن رسول الله ﷺ قال «عليكم بقيام الليل فإنه دأب الصالحين قبلكم وقربة إلى ربكم وتكفير السيئات ومنهاة عن الآثام ومطردة الداء عن الجسد» أخرجه الترمذي. عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ «عجب ربنا من رجلين رجل ثار عن وطائه ولحافه من بين جنبيه وأهله إلى صلاته فيقول الله عز وجل لملائكته انظروا إلى عبدي ثار عن فراشه ووطائه من بين جنبيه وأهله إلى صلاته رغبة فيما عندي وشفقة مما عندي، ورجل غزا في سبيل الله وانهزم مع أصحابه فعلم ما عليه في الانهزام وما له في الرجوع فرجع حتى أهريق دمه. فيقول الله تعالى لملائكته انظروا إلى عبدي رجع رغبة فيما عندي وشفقة مما عندي حتى أهريق دمه أخرجه الترمذي بمعناه (م) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ «أفضل الصيام بعد شهر رمضان شهر الله المحرم وأفضل الصلاة بعد الفريضة صلاة الليل». (ق) عن عائشة قالت «كان رسول الله ﷺ يقوم الليل حتى تورمت قدماه فقلت لم تصنع هذا يا رسول الله وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر قال أفلا أكون عبداً شكوراً». عن علي قال قال رسول الله ﷺ «إن في الجنة غرفاً يرى باطنها من ظاهرها وظاهرها من باطنها أعدها الله لمن ألان الكلام وأطعم الطعام وتابع الصيام وصلى بالليل والناس نيام». أخرجه الترمذي. (خ) عن الهيثم بن أبي سنان أنه سمع أبا هريرة رضي الله عنه في قصة يذكر النبي ﷺ يقول «إن أخاً لكم لا يقول الرفث يعني بذلك ابن رواحة قال:

وفينـــا رســـول الله يتلـــو كتـــابـــه ... إذا انشـق معـروف مـن الفجـر سـاطـع
أرانـــا الهـــدى بعـــد العمـــى فقلـــوبنـــا ... بـــه مـــوقنـــات مـــا إذا قـــال واقـــع
يبيـــت يجـــافـــي جنبـــه عـــن فـــراشـــه ... إذا استثقلـت بـالكـافـريـن المضـاجـع»

عبد الجبار الرياني أنا حميد بن زنجويه أنا روح بن أسلم أنا حمّاد بن سلمة أنا عطاء بن السائب عن مرة الهمداني عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «عجب ربُّنا من رجلين ثار عن وطائه ولحافه من بين جنبيه وأهله إلى صلاته»، فيقول الله لملائكته: انظروا إلى عبدي ثار عن فراشه ووطائه من بين جنبيه وأهله إلى صلاته رغبةً فيما عندي وشفقاً مما عندي، ورجل غزا في سبيل الله فانهزم معه أصحابه، فعلم ما عليه في الانهزام وما له فى الرجوع، فرجع فقاتل حتى أُهريق دمه، فيقول الله لملائكته: «انظروا إلى عبدي رجع رغبة فيما عندي وشفقاً مما عندي حتى أُهريق دمه»، أخبرنا أبو عثمان الضبي أنا أبو محمد الجراح أنا أبو العباس المحبوبي أنا أبو عيسى الترمذي أنا قتيبة بن سعيد أنا أبو عوانة عن أبي بشر عن حميد بن عبد الرحمن الحميري عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أفضل الصيام بعد شهر رمضان شهر الله المحرّم، وأفضل الصلاة بعد الفريضة صلاة الليل». أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحي أنا أبو الحسين بن بشران أنا إسماعيل بن محمد الصفّار أنا أحمد بن منصور الرمادي أنا عبد الرزاق أنا معمر عن يحيى بن أبي كثير عن ابن معانق عن أبي مالك الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «إن في الجنة غرفاً يُرى ظاهرُها من باطنها، وباطنُها من ظاهرها أعدّها الله لمَن ألان الكلام وأطعم الطعام، وتابع الصيام وصلّى بالليل والناس نيام» أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا إصبغ أخبرني عبد الله بن وهب أخبرني يونس عن ابن شهاب أنا الهيثم بن أبي سنان أخبرني أنه سمع أبا هريرة في قصصه يذكر عن النبي ﷺ أنه كان يقول: «إن أخاً لكم لا يقول الرفث» يعني بذلك عبد الله بن رواحة، قال:

وفينـا رسـول الله يـتلو كـتـابـه ... إذا انشقّ معروف من الفجر ساطع
أرانـا الهـدى بعـد العمى فقلوبنـا ... بـه موقنـات أن مـا قـال واقـع
يبيت يجـافي جنبـه عن فـراشـه ... إذا استثقلت بالكافرين المضاجع

أخرجه البخاري وليس للهيثم بن سنان. عن أبي هريرة في الصحيحين غير هذا الحديث. وقوله تعالى ﴿يدعون ربهم خوفاً وطمعاً﴾ قال ابن عباس خوفاً من النار وطمعاً في الجنة ﴿ومما رزقناهم ينفقون﴾ قيل أراد به الصدقة المفروضة وقيل بل هو عام في الواجب والتطوع. قوله عز وجل:

فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًاۚ
لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴿١٨﴾ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ
فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ
تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن
ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِي
مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦۖ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُواْۖ وَكَانُواْ
بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ
أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمْۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍۚ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾

﴿فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين﴾ أي مما تقربه أعينهم فلا يلتفتون إلى غيره قال ابن عباس هذا مما لا تفسير له وقيل أخفوا أعمالهم فأخفى الله ثوابهم **﴿جزاء بما كانوا يعملون﴾** أي من الطاعات في دار الدنيا (ق) عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال «يقول الله تبارك وتعالى أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر واقرؤوا إن شئتم: فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين». قوله تعالى **﴿أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً لا يستوون﴾** نزلت في علي بن أبي طالب والوليد بن عقبة بن أبي معيط، كان بينهما تنازع وكلام في شيء، فقال الوليد لعلي اسكت فانك صبي وأنا شيخ وإني أبسط منك لسانا، وأحد منك سناناً وأشجع منك جناناً وأملأ منك حشواً في الكتيبة، فقال له علي اسكت فانك فاسق، فأنزل الله هذه الآية وقوله لا يستوون أراد جنس المؤمنين وجنس الفاسقين ولم يرد مؤمناً واحداً ولا فاسقاً واحداً **﴿أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم جنات المأوى﴾** أي التي يأوي إليها المؤمنون **﴿نزلاً﴾** هو ما يهيأ للضيف عند نزوله **﴿بما كانوا يعملون﴾** يعني من الطاعات في دار الدنيا **﴿وأما الذين فسقوا فمأواهم النار كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذي كنتم به تكذبون﴾**.

قوله عزّ وجلّ: **﴿ يدعون ربَّهم خوفاً وطمعاً ﴾** قال ابن عباس خوفاً من النار وطمعاً في الجنة، **﴿ ومما رزقناهم ينفقون ﴾**، قيل أراد به الصدقة المفروضة. وقيل: في الواجب والتطوّع.

﴿ فلا تعلم نفس ما أُخفي لهم ﴾، قرأ حمزة ويعقوب **﴿ أُخفيْ لهم ﴾** ساكنة الياء أي أنا أخفي لهم، ومن حجّته قراءة ابن مسعود «نخفــي» بالنون، وقرأ الآخرون بفتحها، **﴿ من قُرّةِ أعين ﴾**، مما تقرّ به أعينهم، **﴿ جزاءً بما كانوا يعملون ﴾**، أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا إسحاق بن نصر أنا أبو أُسامة عن الأعمش أنا أبو صالح عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «**يقول الله** تبارك وتعالى أعددت لعبادي الصالحين ما لا عينٌ رأت ولا أُذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ذخراً بله ما اطّلعتم عليه»، ثم قرأ **﴿ فلا تعلم نفسٌ ما أُخفي لهم من قُرّة أعين جزاءً بما كانوا يعملون ﴾** قال ابن عباس: هذا مما لا تفسير له. وعن بعضهم قال: أخفوا أعمالهم فأخفى الله ثوابهم.

قوله تعالى ﴿ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر﴾ أي سوى العذاب الأكبر، قال ابن عباس العذاب الأدنى مصائب الدنيا وأسقامها، وعنه أنه الحدود وقيل هو الجوع بمكة حتى أكلوا الجيف والعظام والكلاب سبع سنين، وقال ابن مسعود هو القتل بالسيف يوم بدر والأكبر هو عذاب جهنم ﴿لعلهم يرجعون﴾ أي إلى الإيمان يعني من بقي منهم بعد القحط وبعد بدر ﴿ومن أظلم﴾ أي لا أحد أظلم ﴿ممن ذكر بآيات ربه﴾ أي بدلائل وحدانيته وإنعامه عليه ﴿ثم أعرض عنها﴾ أي ترك الإيمان بها ﴿إنا من المجرمين﴾ يعني المشركين ﴿منتقمون﴾ معناه أنهم لما لم يرجعوا بالعذاب الأدنى فانا منهم منتقمون بالعذاب الأكبر. قوله تعالى ﴿ولقد آتينا موسى الكتاب﴾ أي التوراة ﴿فلا تكن في مرية﴾ أي في شك ﴿من لقائه﴾ أي من لقاء موسى ليلة المعراج، قاله ابن عباس (ق) عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال «رأيت ليلة أسري بي موسى رجلاً آدم طوالاً جعداً كأنه من رجال شنوءة ورأيت عيسى رجلاً موبوعاً مربوع الخلق إلى الحمرة وإلى البياض سبط الشعر، ورأيت مالكاً خازن النار، والدجال في آيات أراهن الله إياه فلا تكن في مرية من لقائه (م) عن أنس أن رسول الله ﷺ قال «أتيت على موسى ليلة المعراج ليلة أسري بي عند الكثيب الأحمر وهو قائم يصلي في قبره». فإن قلت قد صح في حديث المعراج أنه رآه في السماء السادسة عند مراجعته في الصلوات فكيف الجمع بين هذين الحديثين. قلت يحتمل أن تكون رؤيته في قبره عند الكثيب الأحمر، كان قبل صعوده إلى السماء وذلك في طريقه إلى بيت المقدس، ثم لما صعد إلى السماء السادسة وجده هناك قد سبقه لما يريد الله عز وجل وهو على كل شيء قدير. فإن قلت كيف تصح منه الصلاة في قبره وهو ميت وقد سقط عنه التكليف وهو

قوله عزّ وجلّ: ﴿ أفمن كان مؤمناً كمَن كان فاسقاً لا يستوون ﴾، نزلت في علي بن أبي طالب والوليد بن عقبة بن أبي مُعيط أخي عثمان لأمه، وذلك أنه كان بينهما تنازع وكلام في شيء، فقال الوليد بن عقبة لعلّي أسكت فإنك صبي وأنا والله أنشط منك لساناً وأحدّ منك سناناً وأشجع منك جناناً وأملأ منك حشواً في الكتيبة، فقال له علي: اسكت فإنك فاسق، فأنزل الله تعالى: ﴿ أفمن كان مؤمناً كمَن كان فاسقاً لا يستوون ﴾، ولم يقل لا يستويان لأنه لم يرد مؤمناً واحداً وفاسقاً واحداً بل أراد جميع المؤمنين وجميع الفاسقين.

﴿ أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم جنّات المأوى ﴾، التي يأوي إليها المؤمنون، ﴿ نزلاً بما كانوا يعملون ﴾.

﴿ وأمّا الذين فسقوا فمأواهم النار كلما أرادوا أن يخرجوا منها أُعيدوا فيها وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذي كنتم به تكذبون ﴾.

﴿ ولنذيقنّهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر ﴾، أي سوى العذاب الأكبر، ﴿ لعلّهم يرجعون ﴾، قال أُبيّ بن كعب والضحاك والحسن وإبراهيم: العذاب الأدنى مصائب الدنيا وأسقامها، وهو رواية الوالبي عن ابن عباس. وقال عكرمة عنه: الحدود. وقال مقاتل: الجوع سبع سنين بمكة حتى أكلوا الجيف والعظام والكلاب. وقال ابن مسعود: هو القتل بالسيف يوم بدر، وهو قول قتادة والسدي، ﴿ دون العذاب الأكبر ﴾ يعني عذاب الآخرة، ﴿ لعلّهم يرجعون ﴾، إلى الإيمان، يعني مَن بقي منهم بعد بدر وبعد القحط.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ ومَن أظلم ممّن ذُكّر بآياتِ ربّه ثم أعرض عنها إنّا من المجرمين ﴾، يعني المشركين، ﴿ منتقمون ﴾.

﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب فلا تكن في مِرية من لقائه ﴾، يعني فلا تكن في شكٍّ من لقاء موسى ليلة المعراج، قاله ابن عباس وغيره، أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا محمد بن بشار أنا غندر عن شعبة عن قتادة رحمهما الله قال: وقال لي خليفة أنا

في دار الآخرة وليست دار عمل، وكذلك رأى النبي ﷺ جماعة من الأنبياء وهم يحجون فما الجواب عن هذا؟ قلت يجاب عنه بأجوبة أحدها: أن الأنبياء كالشهداء بل هم أفضل منهم والشهداء أحياء عند ربهم يرزقون، فلا يبعد أن يحجوا أو يصلوا كما صح في الحديث وأن يتقربوا إلى الله بما استطاعوا وإن كانوا قد ماتوا لأنهم بمنزلة الأحياء في هذه الدار التي هي دار العمل، إلى أن تفنى ثم يرحلون إلى دار الجزاء التي هي الجنة. الجواب الثاني: أنه ﷺ رأى حالهم الذي كانوا عليه في حياتهم ومثلوا له كيف كانوا وكيف كان حجهم وصلاتهم. الجواب الثالث: أن التكليف وإن ارتفع عنهم في الآخرة لكن الذكر والشكر والدعاء لا يرتفع، قال الله تعالى ﴿دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام﴾ وقال ﷺ «يلهمون التسبيح كما يلهمون النفس» فالعبد يعبد ربه في الجنة أكثر مما كان يعبده في الدنيا وكيف لا يكون ذلك وقد صار حاله مثل حال الملائكة الذين قال الله في حقهم ﴿يسبحون الليل والنهار لا يفترون﴾، غاية ما في الباب أن العبادة ليست عليهم بتكليف بل هي على مقتضى الطبع والله أعلم، وقيل في قوله ﴿فلا تكن في مرية من لقائه﴾ أي من تلقى موسى كتاب الله بالرضا والقبول ﴿وجعلناه﴾ أي الكتاب **﴿هدى لبني إسرائيل وجعلنا منهم﴾** أي من بني إسرائيل **﴿أئمة﴾** أي قادة للخير يقتدى بهم وهم الأنبياء الذين كانوا في بني إسرائيل وقيل هم أتباع الأنبياء **﴿يهدون بأمرنا﴾** يعني يدعون الناس إلى طاعتنا **﴿لما صبروا﴾** يعني على دينهم وعلى البلاء من عدوهم بمصر **﴿وكانوا بآياتنا يوقنون﴾** يعني أنها من الله تعالى **﴿إن ربك هو يفصل﴾** أي يقضي ويحكم **﴿بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون﴾** قيل هم الأنبياء وأممهم وقيل هم المؤمنون والمشركون قوله تعالى **﴿أو لم يهد لهم﴾** أي نبين لهم **﴿كم أهلكنا﴾** يعني كثرة من أهلكنا **﴿من قبلهم من القرون﴾** يعني الأمم الخالية **﴿يمشون في مساكنهم﴾** يعني أهل مكة يسيرون في بلادهم ومنازلهم إذا سافروا **﴿إن في ذلك لآيات أفلا يسمعون﴾** يعني آيات الله ومواعظه فيتعظون بها. قوله عز وجل:

أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا

يزيد بن زريع أنا سعيد عن قتادة عن أبي العالية قال أنا ابن عمّ نبيّكم يعني ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «رأيت ليلة أُسري بي موسى رجلاً آدم طوالاً جعداً كأنه من رجال شنوءة، ورأيت عيسى رجلاً مربوعاً مربوع الخلق إلى الحمرة والبياض سبط الرأس، ورأيت مالكاً خازن النار، والدجال في آيات أراهنّ الله إيّاه فلا تكن في مِرية من لقائه». أخبرنا أبو صالح أحمد بن عبد الملك المؤذن أنا عبد الله المحاملي أنا أبو بكر محمد بن عبد الله بن إبراهيم البزار أنا محمد بن يونس أنا عمر بن حبيب القاضي أنا سليمان التيمي عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «لمّا سُرِيَ بي إلى السماء رأيت موسى يصلّي في قبره»، وروينا في المعراج أنه رآه في السماء السادسة ومراجعته في أمر الصلاة، قال السدي: فلا تكن في مِرية من لقائه أي من تلقّي موسى كتاب الله بالرضا والقبول، **﴿ وجعلناه ﴾**، يعني الكتاب وهو التوراة، وقال قتادة: موسى، **﴿ هدى لبني إسرائيل وجعلنا منهم ﴾**، يعني من بني إسرائيل، **﴿ أئمة ﴾**، قادة في الخير يقتدى بهم، يعني الأنبياء الذين كانوا فيهم. وقال قتادة: أتباع الأنبياء، **﴿ يهدون ﴾**، يدعون، **﴿ بأمرنا لمّا صبروا ﴾**، قرأ حمزة والكسائي بكسر اللام وتخفيف الميم أي لصبرهم، وقرأ الباقون بفتح اللام وتشديد الميم، أي حين صبروا على دينهم وعلى البلاء من عدوّهم بمصر، **﴿ وكانوا بآياتنا يُوقنون ﴾**.

﴿ إنّ ربّك هو يَفْصِلُ ﴾، يقضي، **﴿ بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون ﴾**.

﴿ أوَ لم يهدِ ﴾، لم يتبيّن، **﴿ لهم كم أهلكنا من قبلهم من القرون يمشون في مساكنهم إنّ في ذلك لآيات أفلا يسمعون ﴾**، آيات الله وعظائه فيتّعظون بها.

يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٨﴾ قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَٱنتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴿٣٠﴾

﴿أو لم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز﴾ أي الأرض اليابسة الغليظة التي لا نبات فيها قال ابن عباس هي أرض باليمن وقيل هي أبين ﴿فنخرج به﴾ أي بذلك الماء ﴿زرعاً تأكل منه أنعامهم﴾ يعني العشب والتبن ﴿وأنفسهم﴾ أي من الحبوب والأقوات ﴿أفلا يبصرون﴾ يعني فيعتبروا. قوله تعالى ﴿ويقولون متى هذا الفتح إن كنتم صادقين﴾ قيل أراد بيوم الفتح يوم القيامة الذي فيه الحكم والقضاء بين العباد، وذلك أن أصحاب النبي ﷺ قالوا للكفار إن لنا يوماً ننعم فيه ونستريح ويحكم فيه بيننا وبينكم. فقال الكفار استهزاء متى هذا الفتح أي القضاء والحكم، وقيل هو فتح مكة وقيل يوم بدر، وذلك أن أصحاب النبي ﷺ كانوا يقولون للكفار إن الله ناصرنا ومظهرنا عليكم فيقولون متى هذا الفتح ﴿قل يوم الفتح﴾ يعني يوم القيامة ﴿لا ينفع الذين كفروا إيمانهم﴾ يعني لا يقبل منهم الإيمان ومن حمل يوم الفتح على فتح مكة أو القتل يوم بدر، قال معناهم لا ينفع الذين كفروا إيمانهم إذا جاءهم العذاب وقتلوا ﴿ولا هم ينظرون﴾ يعني يمهلون ليتوبوا ويعتذروا ﴿فأعرض عنهم﴾ قال ابن عباس نسختها آية السيف ﴿وانتظر﴾ يعني موعدي لك بالنصر عليهم ﴿إنهم منتظرون﴾ أي بك حوادث الزمان وقيل معناه انتظر عذابنا إياهم فهم منتظرون ذلك. (ق) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال «كان رسول الله ﷺ يقرأ في الفجر يوم الجمعة الم تنزيل الكتاب وهل أتى على الإنسان». عن جابر أن النبي ﷺ «كان لا ينام حتى يقرأ الم تنزيل الكتاب وتبارك الذي بيده الملك» أخرجه الترمذي. وقال طاوس تفضلان عن كل سورة في القرآن بسبعين حسنة أخرجه الترمذي. والله سبحانه وتعالى أعلم بمراده وأسرار كتابه.

﴿ أوَ لم يرَوا أنّا نسوق الماء إلى الأرض الجُرز ﴾، أي اليابسة الغليظة التي لا نبات فيها، قال ابن عباس: هي أرض باليمن. وقال مجاهد: هي أرض أبين، ﴿ فنُخرِج به زرعاً تأكل منه أنعامُهم ﴾، من العشب والتبن، ﴿ وأنفسُهم ﴾، من الحبوب والأقوات، ﴿ أفلا يبصرون ﴾.

﴿ ويقولون متى هذا الفتح إن كنتم صادقين ﴾، قيل: أراد بيوم الفتح يوم القيامة الذي فيه الحكم بين العباد، قال قتادة: قال أصحاب النبي ﷺ للكفّار: إن لنا يوماً نتنعم فيه ونستريح ويحكم بيننا وبينكم، فقالوا استهزاء: متى هذا الفتح؟ أي القضاء والحكم، وقال الكلبي: يعني فتح مكة. وقال السدي: يوم بدر لأن أصحاب النبي ﷺ كانوا يقولون لهم: إن الله ناصرنا ومُظهِرنا عليكم، فيقولون متى هذا الفتح؟.

﴿ قلْ يوم الفتح ﴾، يوم القيامة، ﴿ لا ينفع الذين كفروا إيمانهم ﴾، ومَن حمل الفتح على فتح مكة والقتل يوم بدر قال معناه لا ينفع الذين كفروا إيمانهم إذا جاءهم العذاب وقتلوا، ﴿ ولا هم ينظرون ﴾، لا يمهلون ليتوبوا ويعتذروا.

﴿ فأعرضْ عنهم ﴾، قال ابن عباس: نسختها آية السيف، ﴿ وانتظر إنهم منتظرون ﴾، قيل: انتظر موعدي لك بالنصر إنهم منتظرون بك حوادث الزمان. وقيل: انتظر عذابنا فيهم فإنهم منتظرون ذلك، أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا أبو نعيم أنا سفيان عن سعد بن إبراهيم عن عبد الرحمن بن هرمز عن أبي هريرة أنه قال كان النبي ﷺ يقرأ في الفجر يوم الجمعة ﴿ الٓمٓ تنزيل ﴾ [السجدة: ١ و٢] و﴿ هل أتى على الإنسان ﴾ [الإنسان: ١] أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أبو منصور السمعاني أنا أبو جعفر الرياني أنا حميد بن زنجويه أنا أبو نعيم أنا سفيان عن ليث عن أبي الزبير عن جابر قال: كان النبي ﷺ لا ينام حتى يقرأ ﴿ الٓمٓ تنزيل ﴾ [السجدة: ١ و٢] و﴿ تبارك الذي بيده المُلك ﴾ [الملك: ١].

تفسير سورة الأحزاب

مدنية وهي ثلاث وسبعون آية وألف ومائتان وثمانون كلمة وخمسون آلاف وسبعمائة وتسعون حرفاً.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٣﴾ مَّا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ ۖ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ﴿٤﴾

قوله عز وجل ﴿**يا أيها النبي اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين**﴾ نزلت في أبي سفيان بن حرب وعكرمة بن أبي جهل وأبي الأعور عمرو بن سفيان السلمي، وذلك أنهم قدموا المدينة فنزلوا على عبد الله بن أبي بن سلول رأس المافقين بعد قتال أحد، وقد أعطاهم النبي ﷺ الأمان على أن يكلموه فقام معهم عبد الله بن سعد بن أبي سرح وطعمة بن أبيرق فقالوا للنبي ﷺ وعنده عمر بن الخطاب ارفض ذكر آلهتنا اللات والعزى ومناة، وقل إن لها شفاعة لمن عبدها وندعك وربك، فشق ذلك على النبي ﷺ فقال عمر يا رسول الله ائذن لي في قتلهم. فقال إني أعطيتهم الأمان. فقال عمر اخرجوا في لعنة الله وغضبه فأمر النبي ﷺ عمر أن يخرجهم من المدينة. فأنزل الله تعالى ﴿**يا أيها النبي ﷺ اتق الله**﴾ أي دم على التقوى وقيل معناه اتق الله ولا تنقض العهد بينك وبينهم وقيل الخطاب مع النبي ﷺ والمراد به أمته ولا ﴿**تطع الكافرين**﴾ يعني من أهل مكة يعني أبا سفيان وعكرمة وأبا الأعور والمنافقين يعني من أهل

سُورَة الأحْزَاب

مدنيّة وهي ثلاث وسبعون آية.

﴿ **يا أيها النبي اتق الله** ﴾، نزلت في أبي سفيان بن حرب وعكرمة بن أبي جهل وأبي الأعور وعمرو بن سفيان السلمي، وذلك أنهم قَدِموا المدينة فنزلوا على عبد الله بن أُبيّ بن سلّول رأس المنافقين بعد قتال أُحُد، وقد أعطاهم النبي ﷺ الأمان أن يكلّموه، فقام معهم عبد اللهبن سعد بن أبي سرح وطعمة بن أبيرق، فقالوا للنبي ﷺ وعنده عمر بن الخطاب: ارفض ذكر آلهتنا اللاّت والعزّى ومناة، وقل إن لها شفاعة لمَن عبدها، وندعك وربك، فشقّ ذلك على النبي ﷺ فقال عمر: يا رسول الله ائذن لنا في قتلهم، فقال: «إني قد أعطيتهم الأمان»، فقال عمر: اخرجوا في لعنة الله وغضبه، فأمر النبي ﷺ عمر أن يُخرجهم من المدينة فأنزل الله تعالى: ﴿ **يا أيّها النبي اتّقِ الله** ﴾ أي دُمْ على التقوى، كالرجل يقول لغيره وهو قائم قم ههنا أي اثبت قائماً. وقيل الخطاب مع النبي ﷺ والمراد به الأمة. وقال الضحاك: معناه اتق الله ولا تنقض العهد الذي بينك وبينهم. ﴿ **ولا تطع الكافرين** ﴾ من أهل مكة

المدينة عبد الله بن أبي وعبد الله بن سعد وطعمة ﴿إن الله كان عليماً﴾ أي بخلقه قبل أن يخلقهم ﴿حكيماً﴾ أي فيما دبره لهم ﴿واتبع ما يوحى إليك من ربك﴾ يعني من وفاء العهد وترك طاعة الكافرين والمنافقين ﴿إن الله كان بما يعملون خبيراً وتوكل على الله﴾ أي ثق بالله وكل أمرك إليه ﴿وكفى بالله وكيلاً﴾ يعني حافظاً لك وقيل كفيلاً برزقك.

قوله تعالى ﴿ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه﴾ نزلت في أبي معمر جميل بن معمر الفهري، وكان رجلاً لبيباً حافظاً لما يسمع فقالت قريش ما حفظ أبو معمر هذه الأشياء إلا وله قلبان، وكان يقول إن لي قلبين أعقل بكل واحد منهما أفضل من عقل محمد، فلما هزم الله المشركين يوم بدر انهزم أبو معمر فيهم فلقيه أبو سفيان وإحدى نعليه في يده والأخرى في رجله، فقال له يا أبا معمر ما حال الناس. فقال انهزموا فقال له فما بال إحدى نعليك في يدك والأخرى في رجلك. فقال أبو معمر ما شعرت إلا أنهما في رجلي. فعلموا يومئذ أنه لو كان له قلبان لما نسي نعله في يده. وعن أبي ظبيان قال: قلنا لابن عباس أرأيت قول الله ﴿ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه﴾ ما عنى بذلك؟ قال «قام نبي الله ﷺ يوماً يصلي فخطر خطرة. فقال المنافقون الذين يصلون معه ألا ترون أن له قلبين قلباً معكم وقلباً معهم فأنزل الله ﴿ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه﴾ «أخرجه الترمذي. وقال حديث حسن قوله خطر خطرة يريد الوسوسة التي تحصل للإنسان في صلاة. قيل في معنى الآية أنه لما قال الله تعالى ﴿يا أيها النبي اتق الله﴾ فكان ذلك أمراً بالتقوى. فكأنه قال ومن حقها أن لا يكون في قلبك تقوى غير الله، فإن المرء ليس له قلبان حتى يتقي الله بأحدهما وبالآخر غيره، وقيل إن هذا مثل ضربه الله تعالى للمظاهر من امرأته وللمتبني ولد غيره، فكما لا يكون لرجل قلبان لأنه لا يخلو إما أن يفعل بأحدهما ما يفعل بالآخر من أفعال القلوب، فالآخر فضله عليه محتاج إليه، وإما أن يفعل

يعني أبا سفيان وعكرمة وأبا الأعور، ﴿ والمنافقين ﴾، من أهل المدينة عبد الله بن أُبيّ وعبد الله بن سعد وطعمة ﴿ إن الله كان عليماً ﴾، لخلقه، قبل أن يخلقهم، ﴿ حكيماً ﴾ فيما دبّره لهم.

﴿ واتّبع ما يُوحى إليك من ربك إنّ الله كان بما تعملون خبيراً ﴾، قرأ أبو عمرو «يعملون خبيراً» و«يعملون بصيراً» بالياء فيهما وقرأ غيره بالتاء.

﴿ وتوكلْ على الله ﴾ ثق بالله، ﴿ وكفى بالله وكيلاً ﴾، حافظاً لك، وقيل كفيلاً برزقك، قوله عزّ وجلّ:

﴿ ما جعلَ الله لرجل من قلبين في جوفه ﴾، نزلت في أبي معمر جميل بن معمر الفهري، وكان رجلاً لبيباً حافظاً لما يسمع، فقالت قريش ما حفظ أبو معمر هذه الأشياء إلّا وله قلبان، وكان يقول: إن لي قلبين أعقل بكل واحدٍ منهما أفضل من عقل محمد، فلما هزم الله المشركين يوم بدر انهزم أبو معمر فيهم فلقيه أبو سفيان وإحدى نعليه في يده والأخرى في رجله، فقال له يا أبا معمر ما حال الناس؟ قال انهزموا، قال: فما لك إحدى نعليك في يدك والأخرى في رجلك؟ فقال أبو معمر ما شعرت إلّا أنهما في رجلي فعلموا يومئذ أنه لو كان له قلبان لما نسي نعله في يده. وقال الزهري ومقاتل هذا مثل ضربه الله عزّ وجلّ للمظاهر من امرأته وللمتبنّي ولد غيره، يقول: فكما لا يكون لرجل قلبان كذلك لا تكون امرأة المظاهر أمّه حتى تكون له أمان، ولا يكون له ولد واحد ابن رجلين.

﴿وما جعل أزواجكم اللائي تُظاهرون منهنّ أُمّهاتكم ﴾، قرأ أهل الشام والكوفة (اللاتي) ههنا وسورة الطلاق [٤] بياء بعد الهمزة، وقرأ قالون عن نافع ويعقوب بغير ياء بعد الهمزة، وقرأ الآخرون بتليين الهمزة، وكلها لغات معروفة، ﴿ تظاهرون ﴾ وقرأ عاصم بالألف وضمّ التاء وكسر الهاء مخفّفاً، وقرأ حمزة والكسائي بفتح التاء والهاء مخفّفاً، وقرأ ابن عامر بفتحها وتشديد الظاء، وقرأ الآخرون بفتحها وتشديد الظاء والهاء من غير ألف بينهما، وصورة الظهار أن يقول الرجل لامرأته أنت عليّ كظهر أُمي، يقول الله تعالى: ما جعل نساءكم اللائي تقولون لهنّ هذا في التحريم كأمّهاتكم، ولكنه منكر وزور، وفيه كفّارة نذكرها إن شاء الله تعالى في سورة المجادلة [٣ و٤]. ﴿ وما

بهذا ما لا يفعل بذاك، فذلك يؤدي إلى اتصاف الجملة بكونه مريداً كارهاً عالماً جاهلاً موقناً شاكاً في حالة واحدة، وهما حالتان متنافيتان فكذلك لا تكون امرأة المظاهر أمه حتى يكون له أمان ولا يكون ولد واحد ابن رجلين. قوله تعالى ﴿**وما جعل أزواجكم اللائي تظاهرون منهن أمهاتكم**﴾ وصورة الظهار أن يقول الرجل لامرأته أنت علي كظهر أمي، يقول الله وما جعل نساءكم التي تقولون لهن هذا في التحريم كأمهاتكم، ولكنه منكم منكر وزور وفيه كفارة، وسيأتي الكلام عليه إن شاء الله في سورة المجادلة. قوله تعالى ﴿**وما جعل أدعياءكم**﴾ يعني الذين تتبنونهم ﴿**أبناءكم**﴾ وفيه نسخ التبني، وذلك أن الرجل كان في الجاهلية يتبنى الرجل فيجعله كالابن المولود يدعوه إليه الناس ويرث ميراثه، وكان النبي ﷺ أعتق زيد بن حارثة بن شراحيل الكلبي وتبناه قبل الوحي، وآخى بينه وبين حمزة بن عبد المطلب، فلما تزوج رسول الله ﷺ زينب بنت جحش وكانت تحت زيد بن حارثة، قال المنافقون تزوج محمد امرأة ابنه وهو ينهى الناس عن ذلك فأنزل الله هذه الآية ونسخ بها التبني ﴿**ذلكم قولكم بأفواهكم**﴾ أي لا حقيقة له يعني قولهم زيد بن محمد وادعاء النسب لا حقيقة له ﴿**والله يقول الحق**﴾ يعني قوله الحق ﴿**وهو يهدي السبيل**﴾ يعني يرشد إلى سبيل الحق.

ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥﴾ ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ۗ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴿٦﴾

﴿**ادعوهم لآبائهم**﴾ يعني الذين ولدوهم فقولوا زيد بن حارثة ﴿**هو أقسط عند الله**﴾ يعني أعدل عند الله (ق) عن ابن عمر قال: إن زيد بن حارثة مولى رسول الله ﷺ ما كنا ندعوه إلا زيد بن محمد حتى نزل ﴿**ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله**﴾ الآية ﴿**فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم في الدين**﴾ يعني فهم إخوانكم ﴿**ومواليكم**﴾ أي كانوا محررين

جعل أدعياءكم ﴾، يعني مَن تبنيتموه ﴿ **أبناءكم** ﴾، فيه نسخ التبنّي، وذلك أن الرجل في الجاهلية كان يتبنى الرجل فيجعله كالابن المولود له يدعوه الناس إليه ويرث ميراثه، وكان النبي ﷺ أعتق زيد بن حارثة بن شراحيل الكلبي، وتبنّاه قبل الوحي وآخى بينه وبين حمزة بن عبد المطلب، فلما تزوج رسول الله ﷺ زينب بنت جحش وكانت تحت زيد بن حارثة، قال المنافقون تزوّج محمد امرأة ابنه وهو ينهى الناس عن ذلك، فأنزل الله هذه الآية ونسخ التبنّي، ﴿ **ذلكم قولكم بأفواهكم** ﴾، لا حقيقة له يعني قولهم زيد بن محمد ﷺ نسب لا حقيقة له، ﴿ **والله يقول الحق** ﴾، يعني قوله الحق، ﴿ **وهو يهدي السبيل** ﴾، أي يرشدهم إلى سبيل الحق.

﴿ **ادعوهم لآبائهم** ﴾، الذين ولدوهم، ﴿ **هو أقسط** ﴾، أعدل، ﴿ **عند الله** ﴾، أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا معلى بن أسد أنا عبد العزيز بن المختار أنا موسى بن عقبة حدّثني سالم عن عبد الله بن عمر أن زيد بن حارثة مولى رسول الله ﷺ قال: ما كنّا ندعو إلّا زيد بن محمد حتى نزل القرآن.

﴿**ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله**﴾، ﴿ **فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم** ﴾، يعني فهم إخوانكم، ﴿ **في الدين ومواليكم** ﴾، إن كانوا محرّرين وليسوا بَنِيْكُم، أي سمّوهم بأسماء إخوانكم في الدين. وقيل: مواليكم أي أولياءكم في الدين، ﴿ **وليس عليكم جُناح فيما أخطأتم به** ﴾، قبل النهي فنسبتموه إلى غير أبيه، ﴿**ولكن ما**

وليسوا ببنيكم أي فسموهم بأسماء إخوانكم في الدين، وقيل معنى مواليكم أولياؤكم في الدين ﴿**وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به**﴾ أي قبل النهي فنسبتموه إلى غير أبيه ﴿**ولكن ما تعمدت قلوبكم**﴾ أي من دعائهم إلى غير آبائهم بعد النهي وقيل فيما أخطأتم به أن تدعوه إلى غير أبيه وهو يظن أنه كذلك ﴿**وكان الله غفوراً رحيماً**﴾. (ق) عن سعد بن أبي وقاص وأبي بكرة أن النبي ﷺ قال «من ادعى إلى غير أبيه وهو يعلم أنه غير أبيه فالجنة عليه حرام» قوله عز وجل ﴿**النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم**﴾ يعني من بعضهم ببعض في نفوذ حكمه، عليهم ووجوب طاعته وقال ابن عباس إذا دعاهم النبي ﷺ ودعتهم أنفسهم إلى شيء كانت طاعة النبي ﷺ أولى بهم من طاعة أنفسهم، وهذا صحيح لأن أنفسهم تدعوهم إلى ما فيه هلاكهم، ورسول الله ﷺ يدعوهم إلى ما فيه نجاتهم، وقيل هو أولى بهم في الحمل على الجهاد وبذل النفس دونه، وقيل كان النبي ﷺ يخرج إلى الجهاد فيقول قوم نذهب فنستأذن من آبائنا وأمهاتنا، فنزلت الآية. (ق) عن أبي هريرة قال إن رسول الله ﷺ قال «ما من مؤمن إلا وأنا أولى الناس به في الدنيا والآخرة، واقرؤوا إن شئتم ﴿النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم﴾ فأيما مؤمن ترك مالاً فلترثه عصبته من كانوا ومن ترك ديناً أو ضياعاً فليأتني فأنا مولاه». عصبة الميت من يرثه سوى من له فرض مقدر وقوله أو ضياعاً أي عيالاً وأصله مصدر ضاع يضيع ضياعاً، وإن كسرت الضاد كان جمع ضائع.

قوله تعالى ﴿**وأزواجه أمهاتهم**﴾ يعني أمهات المؤمنين في تعظيم الحرمة وتحريم نكاحهن على التأبيد لا في

تعمدتْ قلوبُكم ﴾، ومن دعائهم إلى غير آبائهم بعد النهي. وقال قتادة: فيما أخطأتم به أن تدعوه لغير أبيه وهو يظن أنه كذلك ومحل ﴿ **ما** ﴾ في قوله تعالى: ﴿ **ما تعمدت** ﴾ خفض ردّاً على ﴿ **ما** ﴾ التي في قوله: ﴿ **فيما أخطأتم به** ﴾ مجازه ولكن فيما تعمدت قلوبكم، ﴿ **وكان الله غفوراً رحيماً** ﴾، أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا محمد بن بشار أنا غندر أنا شعبة عن عاصم قال سمعت أبا عثمان قال سمعت سعداً وهو أول مَن رمى بسهم في سبيل الله وأبا بكرة وكان قد تسوّر حصن الطائف في أُناس فجاء إلى النبي ﷺ فقالا سمعنا النبي ﷺ يقول: «مَن ادّعى إلى غير أبيه وهو يعلمه فالجنة عليه حرام».

قوله عزّ وجلّ: ﴿ **النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم** ﴾، يعني من بعضهم ببعض في نفوذ حكمه فيهم ووجوب طاعته عليهم. وقال ابن عباس وعطاء: يعني إذا دعاهم النبي ﷺ ودعتهم أنفسهم إلى شيء كانت طاعة النبي ﷺ أولى بهم من أنفسهم. قال ابن زيد: النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم فيما قضى فيهم، كما أنت أولى بعبدك فيما قضيت عليه. وقيل: هو أولى بهم في الحمل على الجهاد وبذل النفس دونه. وقيل: كان النبي ﷺ يخرج إلى الجهاد فيقول قوم نذهب فنستأذن من آبائنا وأمهاتنا، فنزلت الآية، أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا عبد الله بن محمد أنا أبو عامر أنا فليح عن هلال بن علي بن عبد الرحمن بن أبي عمرو عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «ما من مؤمن إلاّ أنا أولى به في الدنيا والآخرة»، اقرأوا إن شئتم «﴿ **النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم** ﴾ فأيما مؤمن مات وترك مالاً فليرثه عصبته مَنْ كانوا، ومَن ترك دَيناً أو ضَياعاً فليأتني فأنا مولاه». قوله عزّ وجلّ: ﴿ **وأزواجه أُمهاتهم** ﴾، وفي حرف أبي (وأزواجه وأُمهاتهم)، وهو لهم وهنّ أُمهات المؤمنين في تعظيم حقّهنّ وتحريم نكاحهنّ على التأبيد، لا في النظر إليهنّ والخلوة بهنّ، فإنه حرام في حقّهنّ كما في حق الأجانب، قال الله تعالى: ﴿ وإذا سألتموهنّ متاعاً فاسألوهنّ من وراء حجاب ﴾ [الأحزاب: ٥٣]، ولا يقال لبناتهنّ هنّ أخوات المؤمنين ولا لأخوانهم وأخواتهنّ، هم أخوال المؤمنين وخالاتهم، قال الشافعي: تزوّج الزبير أسماء بنت أبي بكر وهي أُخت أُم المؤمنين، ولم يقل هي خالة

النظر إليهن والخلوة بهن، فإنه حرام في حقهن كما في حق الأجانب ولا يقال لبناتهن هن أخوات المؤمنين ولا لإخوانهن وأخواتهن هن أخوال المؤمنين وخالاتهم. قال الشافعي تزوج الزبير أسماء بنت أبي بكر وهي أخت عائشة أم المؤمنين ولم يقل هي خالة المؤمنين، وقيل إن أزواج النبي ﷺ كن أمهات المؤمنين والمؤمنات الرجال والنساء وقيل كن أمهات الرجال دون النساء، بدليل ما روي عن مسروق أن امرأة قالت لعائشة يا أمه. فقالت لست لك بأم إنما أنا أم رجالكم. فبان بذلك أن معنى الأمومة إنما هو تحريم نكاحهن ﴿**وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض**﴾ يعني في الميراث قيل كان المسلمون يتوارثون بالهجرة، وقيل آخى رسول الله ﷺ بين الناس فكان يؤاخي بين الرجلين فإذا مات أحدهما ورثه الآخر دون عصبته، حتى نزلت ﴿وأولي الأرحام بعضهم أولى ببعض﴾ وقيل في معنى الآية لا توارث بين المسلم والكافر ولا بين المهاجر وغير المهاجر ﴿**في كتاب الله**﴾ أي في حكم الله ﴿**من المؤمنين**﴾ الذين آخى رسول الله ﷺ بينهم ﴿**والمهاجرين**﴾ يعني أن ذوي القرابات أولى بعضهم ببعض فنسخت هذه الآية الموارثة بالمؤاخاة والهجرة وصارت الموارثة بينهم بالقرابة ﴿**إلا أن تفعلوا إلى أوليائكم معروفاً**﴾ يعني الوصية للذين يتولونه من المعاقدين، وذلك أن الله تعالى لما نسخ التوارث بالخلف والإخاء والهجرة، أباح أن يوصي لمن يتولاه بما أحب من ثلث ماله، وقيل أراد بالمعروف النصر وحفظ الحرمة بحق الإيمان والهجرة، وقيل معناه إلا أن توصوا إلى قرابتكم بشيء وإن كانوا من غير أهل الإيمان والهجرة ﴿**كان ذلك**﴾ أي الذي ذكر من أن أولي الأرحام بعضهم أولى ببعض ﴿**في الكتاب**﴾ أي في اللوح المحفوظ وقيل في التوراة ﴿**مسطوراً**﴾ أي مكتوباً مثبتاً. قوله تعالى:

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾ لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّـٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ۚ وَأَعَدَّ لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٨﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ

المؤمنين، واختلفوا في أنهنّ هل كنّ أُمهات النساء المؤمنات؟ قيل: كنّ أُمهات المؤمنين والمؤمنات جميعاً. وقيل: كنّ أُمهات المؤمنين دون النساء، وروى الشعبي عن مسروق أن امرأة قالت لعائشة رضي الله عنها قالت: يا أُمّه فقالت لست لك بأُم إنما أنا أُم رجالكم، فبان بهذا أن معنى هـذه الأمـومة تحريم نكاحهنّ. قوله عزّ وجلّ: ﴿ **وأُولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله** ﴾، يعني في الميراث، قال قتادة: كان المسلمون يتوارثون بالهجرة. قال الكلبي: آخى رسول الله ﷺ بين الناس، فكان يؤاخي بين رجلين فإذا مات أحدهما ورثه الآخر دون عصبته، حتى نزلت هذه الآية ﴿ **وأُولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله** ﴾ في حكم الله، ﴿ **من المؤمنين** ﴾، الذين آخى رسول الله ﷺ بينهم، ﴿ **والمهاجرين** ﴾، يعني ذوي القرابات بعضهم أولى بميراث بعض من أن يرث بالإيمان والهجرة، نسخت هذه الآية الموارثة بالمؤاخاة والهجرة وصارت بالقرابة. قوله: ﴿ **إلاّ أن تفعلوا إلى أوليائكم معروفاً** ﴾، أراد بالمعروف الوصية للذين يتولّونه من المعاقدين، وذلك أن الله لمّا نسخ التوارث بالحلف والهجرة أباح أن يوصي الرجل لمَن يتولاّه بما أحبّ من ثلثه. وقال مجاهد: أراد بالمعروف النصرة وحفظ الحرمة لحق الإيمان والهجرة. وقيل: أراد بالآية: إثبات الميراث بالإيمان والهجرة، يعني وأُولوا الأرحام من المؤمنين والمهاجرين بعضهم أولى ببعض، أي لا توارث بين المسلم والكافر ولا بين المهاجر وغير المهاجر إلاّ أن تفعلوا إلى أوليائكم معروفاً يعني إلاّ أن توصوا لذوي قراباتكم بشيء وإن كانوا من غير أهل الإيمان والهجرة، وهذا قول قتادة وعطاء وعكرمة. ﴿ **كان ذلك في الكتاب مسطوراً** ﴾، أي كان الذي ذكرت من أن أُولي الأرحام بعضهم أولى ببعض في اللوح المحفوظ مسطوراً مكتوباً. وقال القرظي: في التوراة. قوله عزّ وجلّ:

عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾

﴿**وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم**﴾ أي على الوفاء بما حملوا وأن يصدق بعضهم بعضاً ويبشر بعضهم ببعض، وقيل على أن يعبدوا الله ويدعوا الناس إلى عبادته وينصحوا لقومهم ﴿**ومنك**﴾ يعني يا محمد ﴿**ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم**﴾ خص هؤلاء الخمسة بالذكر من بين النبيين لأنهم أصحاب الكتب والشرائع وأولو العزم من الرسل، وقدم النبي ﷺ في الذكر تشريفاً له وتفضيلاً. ولما روى البغوي بإسناد الثعلبي عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال «كنت أول النبيين في الخلق وآخرهم في البعث». قال قتادة وذلك قول الله ﴿وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح﴾ فبدأ به ﷺ ﴿**وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً**﴾ أي عهداً شديداً على الوفاء بما حملوا من تبليغ الرسالة ﴿**ليسأل الصادقين عن صدقهم**﴾ يعني أخذ ميثاقهم لكي يسأل الصادقين يعني النبيين عن تبليغهم الرسالة والحكمة في سؤالهم مع علمه سبحانه وتعالى صادقون تبكيت من أرسلوا إليهم وقيل ليسأل الصادقين عن صدقهم عن عملهم لله عز وجل وقيل ليسأل الصادقين بأفواههم عن صدقهم في قلوبهم ﴿**وأعد للكافرين عذاباً أليماً**﴾ قوله تعالى ﴿**يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم**﴾ وذلك حين حوصر المسلمون مع النبي ﷺ بالمدينة أيام الخندق ﴿**إذ جاءتكم جنود**﴾ يعني الأحزاب وهم قريش وغطفان ويهود قريظة والنضير ﴿**فأرسلنا عليهم ريحاً**﴾ يعني الصبا قال عكرمة قالت الجنوب للشمال ليلة الأحزاب انطلقي ننصر رسول الله ﷺ. فقالت الشمال إن الحرة لا تسري بالليل. فكانت الريح التي أرسلت عليهم الصبا (ق) عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال «نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور». وقيل الصبا ريح فيها روح ما هبت على محزون إلا ذهب حزنه. قوله تعالى ﴿**وجنوداً لم تروها**﴾ يعني الملائكة، ولم

﴿ **وإذْ أخذنا من النبيين ميثاقهم** ﴾، على الوفاء بما حملوا وأن يُصدّق بعضهم بعضاً ويبشّر بعضهم ببعض. قال مقاتل: أخذ ميثاقهم على أن يعبدوا الله ويدعوا إلى عبادة الله ويصدّق بعضهم بعضاً وينصحوا لقومهم: ﴿ **ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم** ﴾، خصّ هؤلاء الخمسة بالذكر من بين النبيين لأنهم أصحاب الكتب والشرائع وأولوا العزم من الرسل وقدّم النبي ﷺ بالذكر لِما أخبرنا أحمد بن إبراهيم الشريحي أنا أبو إسحاق الثعلبي أخبرني الحسين بن محمد الحديثي أنا عبد الله بن أحمد بن يعقوب المقرىء أنا محمد بن محمد بن سليمان الساعدي أنا هارون بن محمد بن بكّار بن بلال أنا أبي أنا سعيد يعني ابن بشير عن قتادة عن الحسن عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «كنتُ أول النبيّين في الخلق وآخرهم في البعث»، قال قتادة: وذلك قول الله عزّ وجلّ: ﴿ **وإذْ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح** ﴾، فبدأ به ﷺ قبلهم ﴿ **وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً** ﴾، عهداً شديداً على الوفاء بما حمّلُوا.

﴿ **ليسألَ الصادقين عن صدقهم** ﴾، يقول أخذنا ميثاقهم لكي يسأل الصادقين يعني النبيين عن تبليغهم الرسالة والحكمة في سؤالهم مع علمه أنهم صادقون تبكيت مَن أرسلوا إليهم. وقيل: ليسأل الصادقين عن عملهم لله عزّ وجلّ. وقيل: ليسأل الصادقين بأفواههم عن صدقهم في قلوبهم. ﴿ **وأعدّ للكافرين عذاباً أليماً** ﴾.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم** ﴾، وذلك حين حُوصر المسلمون مع رسول الله ﷺ أيام الخندق، ﴿ **إذْ جاءتكم جنود** ﴾، يعني الأحزاب وهم قريش وغطفان ويهود قريظة والنضير، ﴿ **فأرسلنا عليهم ريحاً** ﴾، وهي الصبا، قال عكرمة: قالت الجنوب للشمال ليلة الأحزاب انطلقي ننصر رسول الله ﷺ فقالت الشمال إن الحرّة لا تسري بالليل، وكانت الريح التي أُرسلت عليهم الصبا، أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا آدم أنا شعبة عن الحكم عن مجاهد عن

تقاتل ملائكة يومئذ فبعث الله عز وجل تلك الليلة ريحاً باردة فقلعت الأوتاد وقطعت أطناب الفساطيط وأطفأت النيران وأكفأت القدور وماجت الخيل بعضها في بعض وكثر تكبير الملائكة في جوانب عسكرهم، حتى كان سيد كل حي يقول يا بني فلان النجاء النجاء هلموا إلي فإذا اجتمعوا عنده قال النجاء النجاء فانهزموا من غير قتال لما بعث الله عليهم من الرعب ﴿ **وكان الله بما تعملون بصيراً**﴾.

ذكر غزوة الخندق وهي الأحزاب

قال: البخاري قال موسى بن عقبة: كانت في شوال سنة أربع من الهجرة. وروى محمد بن إسحاق عن مشايخه قال: دخل حديث بعضهم في بعض أن نفراً من اليهود منهم سلام بن أبي الحقيق وحيي بن أخطب وكنانة بن الربيع بن أبي الحقيق وهو ابن قيس وأبو عمار الوائلي في نفر من بني النضير ونفر من بني وائل، وهم الذين حزبوا الأحزاب على رسول الله ﷺ خرجوا حتى قدموا على قريش بمكة، فدعوهم إلى حرب رسول الله ﷺ وقالوا إنا سنكون معكم عليه حتى نستأصله، فقالت لهم قريش يا معشر اليهود إنكم أهل الكتاب الأول والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد، فديننا خير أم دينه؟ قالوا دينكم خير من دينه وأنتم أولى بالحق منه فهم الذين قال الله تعالى فيهم ﴿ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت﴾ إلى قوله ﴿وكفى بجهنم سعيراً﴾. قال فلما قالوا ذلك لقريش سرهم ما قالوا ونشطوا لما دعوهم إليه من حرب رسول الله ﷺ. فاجتمعوا على ذلك ثم خرج أولئك النفر من اليهود حتى جاؤوا غطفان وقيساً وغيلان فاجتمعوا على ذلك وأخبروهم أنهم سيكونون معهم عليه، وإن قريشاً قد بايعوهم على ذلك فأجابوهم وخرجت قريش وقائدهم أبو سفيان بن حرب، وخرجت غطفان وقائدهم عيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر في بني فزارة، والحارث بن عوف بن أبي حارثة المري في بني مرة، ومسعر بن رخيلة بن نويرة بن طريف فيمن تابعه من قومه من أشجع. فلما سمع بهم رسول الله ﷺ وبما اجتمعوا له من الأمر ضرب

ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: «نُصرت بالصبا وأُهلكت عاد بالدبور». قوله تعالى: ﴿ **وجنوداً لم تروها** ﴾، وهم الملائكة ولم تقاتل الملائكة يومئذ، فبعث الله عليهم تلك الليلة ريحاً باردةً فقلعت الأوتاد وقطعت أطناب الفساطيط وأطفأت النيران وأكفأت القدور، وجالت الخيل بعضها في بعض، وكثر تكبير الملائكة في جوانب عسكرهم، حتى كان سيد كل حيّ يقول يا بني فلان هلمّ إليّ فإذا اجتمعوا عنده قال النجاء النجاء، لِما بعث الله عليهم من الرعب فانهزموا من غير قتال. ﴿ **وكان الله بما تعملون بصيراً** ﴾، قال محمد بن إسحاق حدّثني يزيد بن رومان مولى آل الزبير عن عروة بن الزبير ومَن لا أتهم عن عبيد الله بن كعب بن مالك وعن الزهري وعاصم بن عمر بن قتادة عن عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم وعن محمد بن كعب القرظي وعن غيرهم من علمائنا، دخل حديث بعضهم في بعض: أن نفراً من اليهود منهم سلام بن أبي الحقيق وَحُيَي بن أخطب وكنانة بن الربيع بن أبي الحقيق وهودة بن قيس وأبي عمّار الوائلي في نفر من بني النضير ونفر من بني وائل، وهم الذين حزّبوا الأحزاب على رسول الله ﷺ، خرجوا حتى قَدِموا على قريش بمكة فدعوهم إلى حرب رسول الله ﷺ، وقالوا: إنّا سنكون معكم عليه حتى نستأصله، فقالت لهم قريش: يا معشر يهود إنكم أهل الكتاب الأول والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد، فديننا خير أم دينه؟ قالوا: بل دينكم خير من دينه، وأنتم أولى بالحق منهم، قال فهم الذين أنزل الله فيهم: ﴿ ألم ترَ إلى الذين أُوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ﴾ [النساء: ٥١]، إلى قوله: ﴿ وكفى بجهنّم سعيراً ﴾ [النساء: ٥٥]، فلما قالوا ذلك لقريش سرّهم ما قالوا ونشطوا لِما دَعوهم إليه من حرب رسول الله ﷺ، فاجتمعوا لذلك ثم خرج أُولئك النفر من اليهود حتى جاؤوا غطفان من قيس عيلان فدعوهم إلى ذلك وأخبروهم أنهم سيكونون معهم عليه، وإن قريشاً قد بايعوهم على ذلك فأجابوهم، فخرجت قريش وقائدها أبو

الخندق على المدينة، وكان الذي أشار على رسول الله ﷺ بالخندق سلمان الفارسي وكان أول مشهد شهده سلمان مع رسول الله ﷺ وهو يومئذ حر. فقال يا رسول الله إنا كنا بفارس إذا حوصرنا ضربنا خندقاً علينا، فعمل فيه رسول الله ﷺ والمسلمون حتى أحكموه. وروي «أن رسول الله ﷺ خط الخندق عام الأحزاب ثم قطع لكل عشرة أربعين ذراعاً فاختلف المهاجرون والأنصار في سلمان الفارسي، وكان رجلاً قوياً فقال المهاجرون سلمان منا وقال الأنصار سلمان منا فقال النبي ﷺ سلمان منا أهل البيت».

قال عمرو بن عوف كنت أنا وسلمان وحذيفة والنعمان بن مقرن المزني وستة من الأنصار في أربعين ذراعاً فحفرنا، حتى إذا كنا تحت أخرج الله من بطن الخندق صخرة مروة حتى كسرت حديدنا وشقت علينا، فقلنا يا سلمان ارق إلى رسول الله ﷺ وأخبره بخبر هذه الصخرة، فإما أن يعدل عنها فإن المعدل قريب وإما أن يأمرنا فيها أمره فإنا لا نحب أن نجاوز خطه، قال فرقي سلمان إلى رسول الله ﷺ وهو ضارب عليه قبة تركية، فقال يا رسول الله خرجت لنا صخرة بيضاء مروة من بطن الخندق فكسرت حديدنا وشقت علينا حتى ما يجيبنا منها شيء قليل ولا كثير فمرنا فيها بأمرك فإنا لا نحب أن نجاوز خطك، فهبط رسول الله ﷺ مع سلمان إلى الخندق واستند على شق الخندق وأخذ عليه الصلاة والسلام المعول من سلمان وضربها به ضربة صدعها وبرق منها برق أضاء ما بين لابتيها يعني المدينة، حتى كأنه مصباح في جوف بيت مظلم فكبر رسول الله ﷺ تكبير فتح وكبر المسلمون معه، ثم ضربها رسول الله ﷺ الثانية فبرق منها برق حتى أضاء ما بين لابتيها حتى لكأن مصباحاً في جوف بيت مظلم، فكبر رسول الله ﷺ تكبير فتح وكبر

سفيان بن حرب، وخرجت غطفان وقائدها عيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر في فزارة، والحارث بن عوف بن أبي حارثة المري في بني مرة، ومِسعَر بن رخيلة بن نويرة بن طريف فيمن تابعه من قومه من أشجع، فلما سمع رسول الله ﷺ وبما اجتمعوا له من الأمر ضرب الخندق على المدينة وكان الذي أشار على رسول الله ﷺ بالخندق سلمان الفارسي، وكان أول مشهد شهده سلمان مع رسول الله ﷺ وهو يومئذ حرّ، فقال: يا رسول الله إنّا كنّا بفارس إذا حصرنا خندقنا عليه، فعمل فيه رسول الله ﷺ والمسلمون حتى أحكموه، أخبرنا أبو سعيد الشريحي أنا أبو إسحاق الثعلبي أنا عبد الله بن حامد الأصبهاني أنا محمد بن جعفر الطبري ثنا حماد بن الحسن ثنا محمد بن خالد بن عثمة ثنا كثير بن عبد الله عن عمرو بن عوف حدّثني أبي عن أبيه قال: خطّ رسول الله ﷺ الخندق عام الأحزاب ثم قطع لكل عشرة أربعين ذراعاً، قال: فاحتجّ المهاجرون والأنصار في سلمان الفارسي وكان رجلاً قوياً، فقال المهاجرون: سلمان منّا، وقال الأنصار: سلمان منّا، فقال النبي ﷺ: «سلمان منّـا أهـل البيت»، قال عمرو بن عوف: كنت أنا وسلمان وحذيفة والنعمان بن مقرن المازني وستّة من الأنصار في أربعين ذراعاً، فحفرنا حتى إذا كنّا بجنب ذي باب أخرج الله من بطن الخندق صخرة مروة كسرت حديدنا وشقّت علينا، فقلنا: يا سلمان إرقَ إلى رسول الله ﷺ وأخبره خبر هذه الصخرة، فأما أن يعدل عنها فإن المعدل قريب، وإما أن يأمرنا فيه بأمره فإنّا لا نحب أن نجاوز خطّه، قال: فرقى سلمان إلى رسول الله ﷺ وهو ضارب عليه قبّة تركية، فقال: يا رسول الله خرجت صخرة بيضاء مروة من بطن الخندق فكسرت حديدنا وشقّت علينا حتى ما يجيبك فيها قليل ولا كثير، فمُرنا فيها بأمرك فإنّا لا نحبّ أن نتجاوز خطّك، فهبط رسول الله ﷺ مع سلمان إلى الخندق، فأخذ رسول الله ﷺ المِعوَل من يد سلمان فضربها ضربة صدعها وبرق منها برق أضاء ما بين لابتيها، يعني المدينة، حتى لكان مصباحاً في جوف بيت مظلم، فكبّر رسول الله ﷺ تكبيراً فكبّر المسلمون، ثم ضربها رسول الله ﷺ الثانية وبرق عنها برقٌ أضاء ما بين لابتيها حتى لكأن مصباحاً في جوف بيت مظلم، فكبّر رسول الله ﷺ تكبير فتح وكبّر المسلمون، ثم ضربها رسول الله ﷺ الثالثة فكسرها، وبرق منها برق أضاء ما بين لابتيها حتى لكأن مصباحاً في جوف بيت مظلم، فكبّر رسول

المسلمون معه ثم ضربها رسول الله ﷺ فكسرها وبرق منها برق أضاء ما بين لابتيها حتى لكأن مصباحاً في جوف بيت مظلم فكبر رسول الله ﷺ تكبير فتح وكبر المسلمون معه وأخذ بيد سلمان ورقي فقال: بأبي أنت وأمي يا رسول الله لقد رأيت شيئاً ما رأيت مثله قط فالتفت رسول الله ﷺ إلى القوم وقال: أرأيتم ما يقول سلمان قالوا نعم يا رسول الله قال: ضربت ضربتي الأولى فبرق البرق الذي رأيتم فأضاء لي منها قصور الحيرة ومدائن كسرى كأنها أنياب الكلاب وأخبرني جبريل أن أمتي ظاهرة عليها، ثم ضربت ضربتي الثانية فبرق الذي رأيتم أضاء لي منها قصور قيصر من أرض الروم، كأنها أنياب الكلاب فأخبرني جبريل أن أمتي ظاهرة عليها، ثم ضربت الثالثة فبرق الذي رأيتم أضاء لي منها قصور صنعاء كأنها أنياب الكلاب فأخبرني جبريل أن أمتي ظاهرة عليها فأبشروا فاستبشر المسلمون وقالوا: الحمد لله موعد صدق وعدنا النصر بعد الحصر فقال المنافقون ألا تعجبون يمنيكم ويعدكم الباطل ويخبركم أنه ينظر من يثرب قصور الحيرة ومدائن كسرى وأنها تفتح لكم وأنتم إنما تحفرون الخندق من الفرق لا تستطيعون أن تبرزوا قال: فنزل القرآن: ﴿**وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً**﴾. وأنزل الله: ﴿**قل اللهم مالك الملك الآية**﴾ (ق) عن أنس قال «خرج رسول الله ﷺ إلى الخندق فإذا المهاجرون والأنصار يحفرون في غداة باردة ولم يكن لهم عبيد يعملون ذلك لهم، فلما رأى ما بهم من النصب والجوع قال «اللهم إن العيش عيش الآخرة؛ فاغفر للأنصار والمهاجرة» فقالوا مجيبين له:

نحن الذين بايعوا محمدا ... على الجهاد ما حيينا أبدا

الله ﷺ تكبير فتح، وكبّر المسلمون معه، فأخذ بيد سلمان ورقى فقال سلمان: بأبي أنت وأُمي يا رسول الله لقد رأيت شيئاً ما رأيت مثله قطّ، فالتفت رسول الله ﷺ إلى القوم فقال: «أرأيتم ما يقول سلمان»؟ قالوا: نعم يا رسول الله، قال: «ضربت ضربتي الأولى فبرق الذي رأيتم أضاءت لي منها قصور الحيرة ومدائن كسرى كأنها أنياب الكلاب، فأخبرني جبريل أن أُمتي ظاهرة عليها، ثم ضربت ضربتي الثانية فبرق البرق الذي رأيتم أضاءت لي منها قصور الحيرة من أرض الروم كأنها أنياب الكلاب، فأخبرني جبريل أن أُمتي ظاهرة عليها، ثم ضربت ضربتي الثالثة فبرق الذي رأيتم أضاءت لي منها قصور صنعاء كأنها أنياب الكلاب، وأخبرني جبريل عليه السلام أن أمتي ظاهرة عليها، فأبشروا». فاستبشر المسلمون وقالوا: الحمد لله موعد صدق وعدنا النصر بعد الحصر، فقال المنافقون: ألا تعجبون من محمد يعدكم ويمنّيكم الباطل ويخبركم أنه يبصر من يثرب قصور الحيرة ومدائن كسرى، وأنها تفتح لكم وأنتم إنما تحفرون الخندق من الفرق لا تستطيعون أن تبرزوا؟ قال فنزل القرآن: ﴿ وإذْ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلّا غروراً ﴾ [الأحزاب: ١٢]، وأنزل الله في هذه القصة: ﴿ قلِ اللّهمَّ مالك الملك ﴾ [آل عمران: ٢٦] الآية، أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا عبد الله بن محمد أنا معاوية بن عمرو أنا أبو إسحاق عن حميد قال سمعت أنساً يقول: خرج رسول الله ﷺ إلى الخندق فإذا المهاجرون والأنصار يحفرون في غداة باردة، فلم يكون لهم عبيد يعملون ذلك عنهم، فلما رأى ما بهم من النصب والجوع، قال: «اللّهمَّ إن العيش عيش الآخرة فاغفر للأنصار والمهاجرة»، فقالوا مجيبين له:

نحن الذين بايعوا محمداً ... على الجهاد ما بقينا أبداً

وأخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا مسلم بن إبراهيم أنا شعبة عن أبي إسحاق عن البراء قال: كان النبي ﷺ ينقل التراب يوم الخندق حتى اغبرّ بطنه أو اغبرّ صدره وهو يقول:

عن البراء بن عازب قال «رأيت النبي ﷺ ينقل معنا التراب وهو يقول:

والله لـــولا الله مـــا اهتـــدينـــا ولا تصـــدقنـــا ولا صلينـــا
فـــأنـــزلـــن سكينـــة علينـــا وثبـــت الأقـــدام إن لاقينـــا
والمشـــركـــون قـــد بغـــوا علينـــا إذا أرادوا فتنـــــة أبينـــا

ويرفع بها صوته. «وفي رواية قد وارى التراب بياض إبطيه» رجعنا إلى حديث ابن إسحاق قال «فلما فرغ رسول الله ﷺ من الخندق أقبلت قريش حتى نزلت بمجتمع الأسيال من دومة من الجرف والغابة في عشرة آلاف من أحابيشهم ومن تابعهم من بني كنانة وأهل تهامة، وأقبلت غطفان ومن تابعهم من أهل نجد حتى نزلوا بذنب نعمى إلى جانب أحد، وخرج رسول الله ﷺ والمسلمون معه حتى جعلوا ظهورهم إلى سلع في ثلاثة آلاف من المسلمين، فضرب هنالك عسكره والخندق بينه وبين القوم وأمر بالذراري والنساء فرفعوا إلى الآطام، وخرج عدو الله حييّ بن أخطب من بني النضير حتى أتى كعب بن أسد القرظي صاحب عقد بني قريظة وكان قد واعد رسول الله ﷺ على قومه وعاهده على ذلك، فلما سمع صوت ابن أخطب أغلق دونه حصنه فاستأذن عليه فأبى أن يفتح له، فناداه حييّ يا كعب افتح لنا فقال: ويحك يا حييّ إنك امرؤ مشؤوم إني قد عاهدت محمداً فلست بناقض ما بيني وبينه ولم أر منه إلا وفاء وصدقاً فقال: ويحك افتح أكلمك قال: ما أنا بفاعل. قال: والله إن أغلقت دوني إلا خوفاً أن آكل معك فأحفظ الرجل ففتح له فقال ويحك يا كعب جئتك بعز الدهر وبحر طام جئتك بقريش على قادتها وسادتها حتى أنزلتهم بمجتمع الأسيال من دومة وبغطفان على قادتها وسادتها حتى أنزلتهم بذنب نعمى إلى جانب أحد قد عاهدوني وعاقدوني أن لا يبرحوا حتى يستأصلوا محمداً ومن معه. فقال: له كعب جئتني والله بذلّ الدهر وبجام قد يهرق ماؤه ويرعد ويبرق ليس فيه شيء دعني ومحمداً وما أنا عليه فإني لم أر من محمد إلا صدقاً ووفاء. فلم يزل حييّ بن أخطب بكعب يفتله في الذروة والغارب حتى سمح له على أن أعطاه من الله عهداً وميثاقاً لئن رجعت قريش ولم يصيبوا محمداً

والله لـولا الله مـا اهـتـدينـا ولا تـصـدقـنـا ولا صـلّينـا
فـأنـزلَنْ سـكـيـنـةً عـلـيـنـا وثـبّـت الأقـدام إنْ لاقـيـنـا
إن الألى قـد بغُـوا عـلـيـنـا إذا أرادوا فـتـنـة أبـيـنـا

ورفع بها صوته أبينا أبينا. رجعنا إلىَ حديث ابن إسحاق قال: فلما فرغ رسول الله ﷺ من الخندق أقبلت قريش حتى نزلت بمجتمع الأسيال من رومة من الجرف والغابة في عشرة آلاف من أحابيشهم ومن تابعهم من بني كنانة وأهل تهامة، وأقبلت غطفان ومَن تابعهم من أهل نجد، حتى نزلوا بذنب نعمى إلى جانب أُحُد، وخرج رسول الله ﷺ والمسلمون حتى جعلوا ظهورهم إلى سلع في ثلاثة آلاف من المسلمين، فضرب هنالك عسكره والخندق بينه وبين القوم، وأمر بالنساء والذراري فرُفعوا في الآطام، وخرج عدّو الله حيي بن أخطب من بني النضير حتى أتى كعب بن أسد القرظي صاحب عقد بني قريظة وعهدهـم، وكان قد وادع رسول الله ﷺ على قومه وعاهده على ذلك، فلما سمع كعب بِحُيَي بن أخطب أغلق دونه حصنه، فاستأذن عليه حُيي فأبى أن يفتح له فناداه حُيي: يا كعب افتح لي، فقال: وَيْحَكَ يا حُيي إنك امرؤ مشؤوم وإني قد عاهدت محمداً فلست بناقض ما بيني وبينه، ولم أرَ منه إلا وفاءً وصدقاً، قال: ويحك افتح لي أُكلّمك، قال: ما أنا بفاعل، قال: والله إن أغفلت دوني إلّا على حشيشتك أن آكل معك منها فاحفظ الرجل، ففتح له، فقال: ويحك يا كعب جئتك بعزّ الدهر وبحر طام جئتك بقريش على قادتها وسادتها حتى أنزلتهم بمجتمع الأسيال من دومة، بغطفان على قادتها وسادتها حتى أنزلتهم بذنب نعمى إلى جانب أُحُد، وقد عاهدوني وعاقدوني أن لا يبرحوا حتى يستأصلوا محمداً ومَن معه، قال له كعب بن

أن أدخل معك في حصنك حتى يصيبني ما أصابك. فنقض كعب بن أسد العهد وبرىء مما كان عليه فيما بينه وبين رسول الله ﷺ. فلما انتهى الخبر إلي رسول الله ﷺ وإلى المسلمين بعث رسول الله ﷺ سعد بن معاذ أحد بني عبد الأشهل، وهو يومئذ سيد الأوس وسعد بن عبادة أحد بني ساعدة وهو يومئذ سيد بني الخزرج، ومعهما عبد الله بن رواحة أخو الحارث بن الخزرج وخوات بن جبير أخو بني عمرو بن عوف. فقال: انطلقوا حتى تنظروا ما بلغنا عن هؤلاء القوم أحق أم لا فإن كان حقاً فالحنوا لي لحناً أعرفه، ولا تفتوا أعضاد الناس وإن كانوا على الوفاء فيما بيننا وبينهم فاجهروا للناس، فخرجوا حتى أتوهم فوجدوهم على أخبث ما بلغهم عنهم ونالوا من رسول الله ﷺ وقالوا: لا عقد بيننا وبينه ولا عهد فشاتمهم سعد بن عبادة وشاتموه وكان رجلاً عنده حدة، فقال له سعد بن معاذ: دع عنك مشاتمتهم فما بيننا وبينهم أربى من المشاتمة ثم أقبل سعد وسعد ومن معهما إلى رسول الله ﷺ فسلموا وقالوا: عضل والقارة لغدر، عضل والقارة بأصحاب رسول الله ﷺ وأصحاب الرجيع خبيب بن عدي وأصحابه. فقال: رسول الله ﷺ الله أكبر أبشروا يا معشر المسلمين، وعظم عند ذلك البلاء واشتد الخوف وأتاهم عدوهم من فوقهم ومن أسفل منهم حتى ظن المؤمنون كل ظن ونجم النفاق من بعض المنافقين، حتى قال معتب بن قشير أخو بني عمرو بن عوف: كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر وأحدنا لا يقدر أن يذهب إلى الغائط ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً. وقال: أوس بن قيظي أحد بني حارثة يا رسول الله إن بيوتنا لعورة من العدو، وذلك على ملأ من رجال قومه، فأذن لنا فلنرجع إلى ديارنا فإنها خارجة من المدينة، فأقام رسول الله ﷺ، وأقام المشركون عليها بضعاً وعشرين ليلة قريباً من شهر ولم يكن بين القوم حرب إلا الرمي بالنبل والحصى، فلما اشتد البلاء على الناس بعث

أشدّ: جئتني والله بذلّ الدهر وبجام قد هراق ماؤه برعد وبرق، وليس فيه شيء، فدعني ومحمداً وما أنا عليه فإني لم أرَ من محمد إلا صدقاً ووفاءً، فلم يزل حُيَي بن أخطب بكعب يفتله في الذروة والغارب حتى سمح له، على أن أعطاه من الله عهداً وميثاقاً ووفاءً لئن رجعت قريش وغطفان ولم يصيبوا محمداً أن أدخل معك في حصنك حتى يصيبني ما أصابك، فنقض كعب بن أسد عهده وتبرأ مما كان عليه فيما كان بينه وبين رسول الله ﷺ، فلما انتهى إلى رسول الله ﷺ الخبر وإلى المسلمين بعث رسول الله ﷺ سعد بن معاذ أحد بني عبد الأشهل، وهو يومئذ سيد الأوس وسعد بن عبادة أحد بني ساعدة، وهو يومئذ سيد الخزرج، ومعهما عبد الله بن رواحة أخو الحرث بن الخزرج، وخوات بن جبير أخو بني عمرو بن عوف، فقال: انطلقوا حتى تنظروا أحقٌّ ما بلغنا عن هؤلاء القوم أم لا؟ فإن كان حقاً فالحنوا لي لحناً أعرفه، ولا تفتّوا في أعضاد الناس، وإن كانوا على الوفاء فيما بيننا وبينهم فاجهروا به جهراً للناس، فخرجوا حتى أتوهم فوجدوهم على أخبث ما بلغهم منهم، ونالوا من رسول الله ﷺ وقالوا: لا عقد بيننا وبين محمد ولا عهد، فشاتمهم سعد بن عبادة وشاتموه، وكان رجلاً فيه حِدّة، فقال له سعد بن معاذ: دعْ عنك مشاتمتهم فإن ما بيننا وبينهم أربى من المشاتمة، ثم أقبل سعد وسعد ومَن معهما إلى رسول الله ﷺ فسلّموا عليه وقالوا: عضل والقارة لغدر عضل والقارة بأصحاب رسول الله ﷺ أصحاب الرجيع خبيب بن عدي وأصحابه، فقال رسول الله ﷺ: «الله أكبر أبشروا يا معشر المسلمين، وعظم عند ذلك البلاء واشتد الخوف، وأتاهم عدوّهم من فوقهم ومن أسفل منهم حتى ظن المؤمنون كل ظن ونجم النفاق من بعض للمنافقين حتى قال معتب بن قشير أخو بني عمرو بن عوف: كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر، وأحدنا لا يقدر أن يذهب إلى الغائط، ما وعدنا الله ورسوله إلّا غروراً، وحتى قال أوس بن قيظي أحد بني حارثة بن قيظي: يا رسول الله إن بيوتنا عورة من العدو، وذلك على ملأ من رجال قومه، فائذن لنا فلنرجع إلى ديارنا فإنها خارجة من المدينة، فأقام رسول الله ﷺ وأقام المشركون بضعاً وعشرين ليلة قريباً من شهر، ولم يكن بين القوم حرب إلّا الرمي بالنبل والحصى، فلما اشتدّ البلاء

رسول الله ﷺ إلى عيينة بن حصن وإلى الحارث بن عوف وهما قائدا غطفان فأعطاهما ثلث ثمار المدينة على أن يرجعا بمن معهما عن رسول الله ﷺ وأصحابه، فجرى بينهما الصلح حتى كتبوا الكتاب ولم تقع الشهادة فذكر ذلك رسول الله ﷺ لسعد بن معاذ وسعد بن عبادة فاستشارهما فيه. فقالا: يا رسول الله أشيء أمرك الله به لا بدلنا من العمل به أم أمر تحبه فتصنعه أم شيء تصنعه لنا. قال بل شيء أصنعه لكم والله ما أصنع ذلك إلا أني قد رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة وكالبوكم من كل جانب فأردت أن أكسر عنكم شوكتهم. فقال: له سعد بن معاذ يا رسول الله قد كنا نحن وهؤلاء القوم على شرك بالله وعبادة الأصنام لا نعبد الله ولا نعرفه ولا يطمعون أن يأكلوا منا تمرة واحدة إلا قرى أو بيعاً فحين أكرمنا الله بالإسلام وأعزنا بك نعطيهم أموالنا ما لنا بهذا من حاجة والله ما نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم. فقال رسول الله ﷺ أنت وذاك فتناول سعد الصحيفة فمحا ما فيها من الكتابة ثم قال ليجهدوا علينا فأقام رسول الله ﷺ والمسلمون وعدوهم محاصروهم ولم يكن بينهم قتال، إلا أن فوارس من قريش عمرو بن عبد ود أخو بني عامر بن لؤي وعكرمة بن أبي جهل وهبيرة بن أبي وهب المخزوميان ونوفل بن عبد الله بن ضرار بن الخطاب ومرداس أخو بني محارب بن فهر قد تلبسوا للقتال وخرجوا على خيلهم، فمروا على بني كنانة فقالوا تهيؤوا للحرب يا بني كنانة فستعلمون اليوم من الفرسان، ثم أقبلوا نحو الخندق حتى وقفوا عليه فلما رأوه قالوا والله هذه مكيدة ما كانت العرب تكيدها، ثم تيمموا مكاناً من الخندق ضيقاً وضربوا خيولهم فاقتحمت منه فجالت بهم في السبخة بين الخندق وسلع، وخرج علي بن أبي طالب في نفر من المسلمين حتى أخذوا عليه الثغرة التي اقتحموا منها وأقبلت الفرسان تعنق نحوهم، وكان عمرو بن عبد ود قاتل يوم بدر حتى أثبتته الجراحة فلم يشهد

على الناس بعث رسول الله ﷺ إلى عيينة بن حصن، وإلى الحرث بن عمر وهما قائدا غطفان فأعطاهما ثلث ثمار المدينة على أن يرجعا بمَن معهما عن رسول الله ﷺ وأصحابه فجرى بينه وبينهم الصلح على ذلك، حتى كتبوا الكتاب ولم تقع الشهادة فذكر ذلك رسول الله ﷺ لسعد بن معاذ وسعد بن عبادة واستشارهما فيه، فقالا: يا رسول الله أشيء أمرك الله به لا بدّ لنا من العمل به أم أمر تحبه فتصنعه، أم شيء تصنعه لنا؟ قال: «بل شيء أصنعه لكم والله ما أصنع ذلك إلاّ أني رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة وكالبوكم من كل جانب، فأردت أن أكسر عنكم شوكتهم»، فقال له سعد بن معاذ: يا رسول الله قد كنّا نحن وهؤلاء القوم على شرك بالله وعبادة الأوثان لا نعبد الله ولا نعرفه، وهم لا يطمعون أن يأخذوا منّا تمرةً واحدةً، إلاّ قرىً أو بيعاً فحين أكرمنا الله بالإسلام وأعزّنا بك نعطيهم أموالنا، ما لنا بهذا من حاجة والله لا نعطيهم إلاّ السيف، حتى يحكم الله بيننا وبينهم، فقال رسول الله ﷺ: «فأنت وذاك» فتناول سعد الصحيفة فمحا ما فيها من الكتابة، ثم قال ليجهدوا علينا فأقام رسول الله ﷺ والمسلمون وعدوّهم مُحاصروهم، ولم يكن بينهم قتال إلاّ أن فوارس من قريش منهم عمرو بن عبد ود أخو بني عامر بن لؤي وعكرمة بن أبي جهل وهبيرة بن أبي وهب المخزوميان ونوفل بن عبد الله وضرار بن الخطاب ومرداس أخو بني محارب بن فهر، قف تلبسوا للقتال وخرجوا على خيلهم ومرّوا على بني كنانة فقالوا: تهيئوا للحرب يا بني كنانة فستعلمون اليوم من الفرسان، ثم أقبلوا نحو الخندق حتى وقفوا على الخندق فلما رأوه قالوا: والله إن هذه لمكيدة ما كانت العرب تكيدها، ثم تيمّموا مكاناً من الخندق ضيقاً فضربوا خيولهم فاقتحمت منه، فجالت بهم في السبخة بين الخندق وسلع، وخرج على بن أبي طالب في نفر من المسلمين حتى أخذوا عليهم الثغرة التي أقحموا منها خيلهم، وأقبلت الفرسان تعنق نحوهم، وكان عمرو بن عبد ودٍ قاتل يوم بدر حتى أثبتـه الجراحـة فلم يشهد أُحُداً فلما كان يوم الخندق خرج مُعلّماً ليرى مكانه، فلما وقف هو وخيله قال له عليّ: يا عمرو إنك كنت تعاهد الله أن لا يدعوك رجل من قريش إلى خلّتين إلاّ أخذت منه إحداهما، قال: أجل، فقال له علي بن أبي طالب: فإني أدعوك

أحداً، فلما كان يوم الخندق خرج معلماً ليرى مكانه فلما وقف هو وخيله، قال علي يا عمرو إنك كنت تعاهد الله لا يدعوك رجل من قريش إلى خلتين إلا أخذت منه إحداهما. قال: أجل قال له علي: فإني أدعوك إلى الله ورسوله وإلى الإسلام قال لا حاجة لي بذلك. قال: إني أدعوك إلى النزال قال: ولم يا ابن أخي فوالله ما أحب أن أقتلك. فقال علي: لكني والله أحب أن أقتلك فحمي عمرو عند ذلك فاقتحم عن فرسه فعقره وضرب وجهه ثم أقبل علي علي فتناولا وتجاولا فقتله علي وخرجت خيله منهزمة حتى اقتحمت من الخندق هاربة، وقتل مع عمرو رجلان منبه بن عثمان بن عبيد بن السباق بن عبد الدار أصابه سهم فمات بمكة ونوفل بن عبد الله بن المغيرة المخزومي وكان اقتحم الخندق فتورط فيه فرموه بالحجارة. فقال: يا معشر العرب قتلة أحسن من هذه فنزل إليه علي فقتله فغلب المسلمون على جسده فسألوا رسول الله ﷺ أن يبيعهم جسده فقال رسول الله ﷺ لا حاجة لنا في جسدهم وثمنه فشأنكم به فخلى بينهم وبينه قالت عائشة أم المؤمنين: كنا يوم الخندق في حصن بني حارثة وكان من أحرز حصون المدينة وكانت أم سعد بن معاذ معنا في الحصن، وذلك قبل أن يضرب علينا الحجاب فمر سعد بن معاذ وعليه درع مقلصة قد خرجت منها ذراعه كلها وفي يده حربة وهو يقول:

لا بأس بالموت إذا حان الأجل

فقالت: له أمه الحق يا بني فقد والله أجزت. قالت عائشة: يا أم سعد والله لوددت أن درع سعد كانت أسبغ مما هي وخفت عليه حيث أصاب السهم منه. قالت: فرمي سعد يومئذ بسهم فقطع منه الأكحل رماه خباب بن قيس بن

إلى الله وإلى رسوله وإلى الإسلام، قال: لا حاجة لي بذلك، قال: فإني أدعوك إلى النزال، قال: ولِمَ يا ابن أخي فوالله ما أُحب أن أقتلك، قال علي: ولكني والله أُحب أن أقتلك، فحمي عمرو عند ذلك فاقتحم عن فرسه فعقره وضرب وجهه، ثم أقبل على علي فتناولا وتجاولا، فقتله علي فخرجت خيله منهزمة حتى اقتحمت من الخندق هاربة، وقتل مع عمرو رجلان منبّه بن عثمان بن عبيد بن السباق بن عبد الدار أصابه سهم، فمات منه بمكة، ونوفل بن عبد الله بن المغيرة المخزومي ، وكان اقتحم الخندق فتورّط فيه فرموه بالحجارة، فقال: يا معشر العرب قتله أحسن من هذا، فنزل إليه عليّ فقتله، فغلب المسلمون على جسده، فسألوا رسول الله ﷺ أن يبيعهم جسده، فقال رسول الله ﷺ: «لا حاجة لنا في جسد وثمنه فشأنكم به» فخلّى بينهم وبينه، قالت عائشة أُم المؤمنين: كنّا يوم الخندق في حصن بني حارثة، وكان من أحرز حصون المدينة، وكانت أُم سعد بن معاذ معنا في الحصن وذلك قبل أن يضرب علينا الحجاب، فمرّ سعد بن معاذ وعليه درع مقلّصة، قد خرجت منها ذراعه كلها، وفي يده حربة وهو يقول شعر:

لبث قليــلاً نـدرك الهيجـا حمـل   لا بـأس بالمـوت إذا حان الأجـل

فقالت له أُمه: الحق يا بني فقدْ والله أجزت، قالت عائشة فقلت لها: يا أُم سعد والله لوددت أن درع سعد كانت أسبغ مما هي، قالت: وخفتُ عليه حيث أصاب السهم منه، قالت: فأرمي سعد يومئذ بسهم وقُطع منه الأكحل، رماه خبّاب بن قيس العرقة أحد بني عامر بن لؤي، فلما أصابه قال: خذها وأنا ابن العرقة، فقال سعد: عرّق الله وجهك في النار، ثم قال سعد: اللّهمَّ إن كنت أبقيت من حرب قريش شيئاً فأبقني لها فإنه لا قوم أحبّ إليّ من أن أُجاهدهم من قوم هو آذوا رسولك وكذّبوه وأخرجوه، وإن كنت قد وضعتَ الحربَ بيننا وبينهم فاجعله لي شهادة ولا تُمِتني حتى تقرّ عيني من بني قريظة وكانوا خلفاءه ومواليه في الجاهلية، وقال محمد بن إسحاق عن يحيىٰ بن عباد بن عبد الله بن الزبير عن أبيه عباد قال: كانت صفيّة بنت عبد المطلب في قارع حصن حسان بن

العرقة أحد بني عامر بن لؤي فلما أصابه قال خذها وأنا ابن العرقة. قال سعد: عرق الله وجهك في النار، ثم قال سعد: اللهم إن كنت أبقيت من حرب قريش شيئاً فابقني لها فإنه لا قوم أحب لي أن أجاهدهم من قوم آذوا رسولك وكذبوه وأخرجوه وإن كنت وضعت الحرب بيننا وبينهم فاجعلها لي شهادة ولا تمتني حتى تقر عيني من بني قريظة، وكانوا حلفاءه ومواليه في الجاهلية. قال محمد بن إسحاق: فيما بلغه أن صفية بنت عبد المطلب كانت في فارع حصن حسان بن ثابت قالت وكان حسان معنا مع النساء والصبيان، قالت صفية: فمر بنا رجل من اليهود فجعل يطوف بالحصن وقد حاربت بنو قريظة وقطعت ما بينها وبين رسول الله ﷺ، والمسلمون في نحر عدوهم لا يستطيعون أن ينصرفوا إلينا عنهم إذا أتانا آتٍ، قالت: فقلت يا حسان إن هذا اليهودي كما ترى يطيف بالحصن وإني والله ما آمنه أن يدل على عورتنا من وراءنا من اليهود وقد شغل عنا رسول الله ﷺ وأصحابه فانزل إليه فاقتله. فقال: يغفر الله لك يا بنت عبد المطلب، والله لقد عرفت ما أنا بصاحب هذا. قالت فلما قال لي ذلك ولم أر عنده شيئاً اعتجرت ثم أخذت عموداً ثم نزلت من الحصن إليه فضربته بالعمود حتى قتلته، فلما فرغت منه رجعت إلى الحصن. فقلت يا حسان انزل إليه فاسلبه فإنه لم يمنعني من سلبه إلا أنه رجل، قال: ما لي بسلبه حاجة يا بنت عبد المطلب قالوا: وأقام رسول الله ﷺ وأصحابه فيما وصف الله من الخوف والشدة لتظاهر عدوهم وإتيانهم من فوقهم ومن أسفل منهم، ثم إن نعيم بن مسعود بن عامر بن غطفان أتى رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله إني قد أسلمت وإن قومي لم يعلموا بإسلامي فأمرني بما شئت. فقال رسول الله ﷺ إنما أنت فينا رجل واحد فخذل عنا إن استطعت فإن الحرب خدعة.

ثابت، قالت: وكان حسّان معني فيه مع النساء والصبيان، قالت صفية: فمرّ بنا رجل من اليهود فجعل يطيف بالحصن، وقد حاربت بنو قريظة، فقطعت ما بيننا وبين رسول الله ﷺ، وليس بيننا وبين أحد يدفع عنّا، ورسول الله ﷺ والمسلمون في نحور عدوّهم لا يستطيعون أن ينصرفوا إلينا عنهم، إذا أتانا آتٍ، قالت: فقلت يا حسّان إن هذا اليهودي كما ترى يطيف بالحصن وإني والله لم آمنه بأن يدلّ على عوراتنا من وراءنا من يهود، وقد شُغل عنّا رسولُ الله ﷺ وأصحابُه، فانزلْ إليه فاقتله، فقال: يغفر الله لك يا ابنة عبدالمطّلب والله لقد عرفت ما أنا بصاحب هذا، قالت: فلما قال لي ذلك ولم أرَ عنده شيئاً اعتجرت، ثم أخذتُ عموداً ونزلت من الحصن إليه فضربته بالعمود حتى قتلته، فلما فرغت منه رجعت إلى الحصن، فقلت: يا حسان انزلْ إليه فاسلبه فإنهم لم يمنعون من سلبه لأنه رجل، قال: ما لي بسلبه من حاجة يا بنت عبد المطلب، قالوا: أقام رسول الله ﷺ وأصحابه فيما وصف الله تعالى من الخوف والشدّة لتظاهرِ عدوهم وإتيانهم من فوقهم ومن أسفل منهم، ثم إن نُعيم بن مسعود بن عامر من بني غطفان أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إني قد أسلمت وإن قومي لم يعلموا بإسلامي، فمُرني بما شئت، فقال له رسول الله ﷺ: «إنما أنت فينا رجل واحد فخذلْ عنّا إنِ استطعتَ فإن الحرب خدعة»، فخرج نعيم بن مسعود حتى أتى بني قريظة، وكان لهم نديماً في الجاهلية، فقال لهم: يا بني قريظة قد عرفتم وُدّي إيّاكم وخاصة ما بيني وبينكم، قالوا: صدقت لست عندنا بمتّهم، فقال لهم: إن قريشاً وغطفان جاؤوا لحرب محمد وقد ظاهرتموهم عليه، وإن قريشاً وغطفان ليسوا كهيئتكم البلد بلدكم فيه أموالكم وأولادكم ونساؤكم لا تقدرون على أن تتحوّلوا منه إلى غيره، وإن قريشاً وغطفان أموالهم وأولادهم ونساؤهم بعيدة إن رأوا نهزةً وغنيمةً أصابوها، وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم وخلّوا بينكم وبين الرجل، والرجل ببلدكم لا طاقة لكم به إن خلا بكم، فلا تقاتلوا مع القوم حتى تأخذوا منهم رهناً من أشرافهم حتى تكون بأيديكم ثقة لكم على أن يقاتلوا معكم محمداً، حتى تناجزوه، قالوا: لقد أشرت برأي ونصح، ثم خرج حتى أتى قريشاً فقال لأبي سفيان بن حرب ومَن معه من رجال قريش: يا معشر قريش قد عرفتم وُدّي إيّاكم وفراقي محمداً وقد بلغني أمرٌ رأيت أن حقّاً عليّ أن أُبلغكم نصحاً لكم فاكتموا عليّ قالوا:

فخرج نعيم بن مسعود حتى أتى بني قريظة وكان نديماً لهم في الجاهلية. فقال لهم: يا بني قريظة قد عرفتم ودي إياكم وخاصة ما بيني وبينكم، قالوا صدقت لست عندنا بمتهم فقال لهم إن قريشاً وغطفان جاؤوا لحرب محمد وقد ظاهرتموهم عليه وإن قريشاً وغطفان ليسوا كهيئتكم البلد بلدكم به أموالكم وأولادكم ونساؤكم لا تقدرون على أن تتحولوا منه إلى غيره وإن قريشاً وغطفان أموالهم وأبناؤهم ونساؤهم بغيره إن رأوا نهزة وغنيمة أصابوها، وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم وخلوا بينكم وبين هذا الرجل والرجل ببلدكم لا طاقة لكم به، إن خلا بكم فلا تقاتلوا مع القوم حتى تأخذوا منهم رهناً من أشرافهم يكونون بأيديكم ثقة لكم على أن يقاتلوا معكم محمداً حتى تناجزوه، قالوا لقد أشرت برأي ونصح ثم خرج حتّى أتى قريشاً فقال لأبي سفيان بن حرب ومن معه من رجال قريش: قد عرفتم ودي إياكم وفراقي محمداً فقد بلغني أمر رأيت حقاً على أن أبلغكم نصحاً لكم فاكتموا علي. قالوا نفعل. قال: تعلمون أن معشر يهود قد ندموا على ما صنعوا بينهم وبين محمد وقد أرسلوا إليه أن قد ندمناعلى ما فعلنا فهل يرضيك عنا أن نأخذ من قريش وغطفان رجالاً من أشرافهم فنعطيكهم فنضرب أعناقهم ثم نكون معك على من بقي منهم. فأرسل إليهم أن نعم. فإن بعث إليكم يهود يلتمسون رهناً من رجالكم فلا تدفعوا إليهم منكم رجلاً واحداً. ثم خرج حتى أتى غطفان فقال: يا معشر غطفان أنتم أهلي وعشيرتي وأحب الناس إلي ولا أراكم تتهمونني. قالوا: صدقت قال فاكتموا علي. قالوا نفعل فقال لهم مثل ما قال لقريش وحذرهم مثلما حذرهم. فلما كانت ليلة السبت من شوال سنة خمس وكان مما صنع الله لرسوله ﷺ أرسل أبو سفيان ورؤوس غطفان إلى بني قريظة عكرمة بن أبي جهل في نفر من قريش وغطفان. فقالوا لهم إنا لسنا بدار مقام قد هلك الخف والحافر فاغدوا للقتال حتى نناجز محمداً ونفرغ مما بيننا وبينه فأرسلوا إليهم أن اليوم السبت وهو يوم لا نعمل فيه شيئاً. وقد كان أحدث فيه بعضنا حدثاً فأصابهم ما لم يخف عليكم

نفعل، قال: تعلمون أن معشر يهود قد نَدِمُوا على ما صنعوا بينهم وبين محمد، وقد أرسلوا إليه أن قد نَدِمنا على ما فعلنا فهل يرضيك عنّا أن نأخذ من القبيلتين من قريش وغطفان رجالاً من أشرافهم فنعطيكم فتضرب أعناقهم ثم نكون معك على مَن بقي منهم، فأرسلَ إليهم أنْ نعم، فإن بعثت إليكم يهود يلتمسون رهناً من رجالكم فلا تدفعوا إليهم منكم رجلًا واحداً، ثم خرج حتى أتى غطفان فقال: يا معشر غطفان أنتم أصلي وعشيرتي وأحبّ الناس إليّ ولا أراكم تتّهموني، قالوا: صدقت، قال: فاكتموا عليّ، قالوا: نفعل، ثم قال لهم مثل ما قال لقريش وحذّرهم ما حذّرهم، فلما كانت ليلة السبت من شوّال سنة خمس وكان مما صنع لرسول الله ﷺ أرسل أبو سفيان رؤوس غطفان إلى بني قريظة عكرمة بن أبي جهل في نفر من قريش وغطفان، فقالوا لهم: إنّا لسنا بدار مقام قد هلك الخفّ والحافر فاغدوا للقتال حتى تناجزوا محمداً ونفرغ مما بيننا وبينه، فقالوا لهم: إن اليوم يوم السبت وهو يوم لا نعمل فيه شيئاً، وقد كان أحدث بعضنا فيه حدثاً فأصابه ما لم يخفَ عليكم، ولسنا مع ذلك بالذين نقاتل معكم حتى تعطونا رهناً من رجالكم يكونون بأيدينا ثقة لنا حتى نناجز محمداً، فإنّا نخشى إن ضَرَسَتْكم الحربُ واشتد عليكم القتال أن تسيروا إلى بلادكم وتتركونا والرجل في بلدنا ولا طاقة لنا بذلك من محمد، فلما رجعت إليهم الرسل بذلك الذي قالت بنو قريظة، قالت قريش وغطفان: تعلمون والله أن الذي حدّثكم نعيم بن مسعود لحق، فأرسلوا إلى بني قريظة وإنّا والله لا ندفع إليكم رجلًا واحداً من رجالنا وإن كنتم تريدون القتال فاخرجوا فقاتلوا، فقالت بنو قريظة حين انتهت إليهم الرسل بهذا: إن الذي ذكر لكم نعيم بن مسعود لحق ما يريد القوم إلّا أن يقاتلوا فإن وجدوا فرصة انتهزوها، وإن كان غير ذلك استمروا إلى بلادهم وخلّوا بينكم وبين الرجل في بلادكم فأرسلوا إلى قريش وغطفان إنّا والله لا نسائل معكم حتى تأتونا رهناً، فأبوا عليهم وخذل الله بينهم، وبعث الله عليهم الريح في ليالٍ شاتية شديدة البرد، فجعلت تكفأ قدورهم وتطرح آنيتهم، فلما انتهى إلى رسول الله ﷺ ما اختلف من أمرهم دعا

ولسنا مع ذلك بالذين نقاتل معكم حتى تعطونا رهناً من رجالكم يكون بأيدينا ثقة لنا حتى نناجز محمداً فإننا نخشى إن ضرستكم الحرب واشتد عليكم القتال أن تسيروا إلى بلادكم وتتركونا والرجل في بلدنا ولا طاقة لنا بذلك من محمد، فلما رجعت إليهم الرسل بالذي قالت بنو قريظة قالت قريش وغطفان تعلمن والله إن الذي حدثكم به نعيم بن مسعود لحقّ فأرسلوا إلى بني قريظة إنا والله لا ندفع إليكم رجلاً واحداً من رجالنا فإن كنتم تريدون القتال فاخرجوا فقاتلوا. فقالت بنو قريظة حين انتهت اليهم الرسل بهذا إن الذي ذكر لكم نعيم بن مسعود لحق ما يريد القوم إلا أن يقاتلوا فإن وجدوا فرصة انتهزوها وإن كان غير ذلك شمروا إلى بلادهم وخلوا بينكم وبين الرجل في بلدكم، فأرسلوا إلى قريش وغطفان إنا والله لا نقاتل معكم حتى تعطونا رهناً فأبوا عليهم. وخذل الله عز وجل بينهم وبعث عليهم الريح في ليال شاتية شديدة البرد فجعلت تكفأ قدورهم وتطرح آنيتهم فلما انتهى إلى رسول الله ﷺ ما اختلف من أمرهم دعا حذيفة بن اليمان فبعثه إليهم لينظر ما فعل القوم ليلاً. وروى محمد بن إسحاق عن يزيد بن زياد عن محمد بن كعب القرظي وروى غيره عن إبراهيم التيمي عن أبيه قالا قال فتى من أهل الكوفة لحذيفة بن اليمان يا أبا عبد الله رأيتم رسول الله ﷺ وصحبتموه قال نعم يا ابن أخي. قال: كيف كنتم تصنعون قال والله لقد كنا نجهد. قال الفتى والله لو أدركناه ما تركناه يمشي على الأرض ولحملناه على أعناقنا ولخدمناه وفعلنا معه وفعلنا فقال حذيفة: يا ابن أخي لقد رأيتني ليلة الأحزاب مع رسول الله ﷺ فقال من يذهب إلى هؤلاء القوم فيأتينا بخبرهم أدخله الله الجنة فما قام منا رجل ثم صلى رسول الله ﷺ هوناً من الليل ثم التفت إلينا فقال مثله فسكت القوم وما قام منا رجل ثم صلى رسول الله ﷺ هوناً من الليل ثم التفت إلينا فقال: هل من رجل يقوم فينظر لنا ما فعل القوم على أن يكون رفيقي في الجنة؟ فما قام رجل من شدة الخوف وشدة الجوع وشدة البرد فلما لم يقم أحد دعاني رسول الله ﷺ فقال يا حذيفة

حذيفة بن اليمان فبعثه إليهم لينظر ما فعل القوم ليلاً، فروى محمد بن إسحاق عن يزيد بن أبي زياد عن محمد بن كعب القرظي وروى غيره عن إبراهيم التميمي عن أبيه قالا: قال فتى من أهل الكوفة لحذيفة بن اليمان: يا أبا عبد الله رأيتم رسول الله ﷺ وصحبتموه، قال نعم يا ابن أخي، قال: كيف كنتم تصنعون؟ قال: والله لقد كنّا نجهد، فقال الفتى: والله لو أدركناه ما تركناه يمشي على الأرض ولحملناه على أعناقنا ولخدمناه وفعلنا وفعلنا، فقال حذيفة: يا ابن أخي والله لقد رأيتني ليلة الأحزاب مع رسول الله ﷺ، فقال: «مَن يقوم فيذهب إلى هؤلاء القوم فيأتينا بخبرهم أدخله الله الجنة»، فما قام منّا رجل، ثم صلّى رسول الله ﷺ هوناً من الليل، ثم التفت إلينا فقال مثله فسكت القوم، وما قام منّا رجل ثم صلّى رسول الله ﷺ هوناً من الليل، ثم التفت إلينا فقال: «هل من رجل يقوم فينظر ما فعل القوم على أن يكون رفيقي في الجنة»؟ فما قام رجل من شدّة الخوف وشدّة الجوع وشدّة البرد، فلما لم يقم أحد دعاني رسول الله ﷺ فقال: «يا حذيفة» فلم يكن لي بدّاً من المقام إليه حين دعاني، فقلت: إليك يا رسول الله وقمت حتى أتيته، وإن جنبيّ ليضطربانِ فمسح رأسي ووجهي، ثم قال: «إئت هؤلاء القوم حتى تأتيني بخبرهم ولا تُحدثنّ شيئاً حتى ترجع إليّ»، ثم قال: «اللّهمّ احفظه من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله، ومن فوقه ومن تحته»، فأخذت سهمي وشددت عليّ سلاحي ثم انطلقتُ أمشي نحوهم كأنما أمشي في حمام، فذهبت فدخلت في القوم، وقد أرسل الله عليهم ريحاً وجنوداً لله تفعل بهم ما تفعل، لا تُقرّ لهم قدراً ولا ناراً ولا بناءً وأبو سفيان قاعد يصطلي فأخذت سهماً فوضعته في كبد قوسي فأردت أن أرميه ولو رميتُه لأصبته، فذكرتُ قول النبي ﷺ: «لا تحدثنّ حدثاً حتى ترجع إليّ» فرددت سهمي في كنانتي، فلما رأى أبو سفيان ما تفعل الريح وجنود الله بهم لا تقرّ لهم قدراً ولا ناراً ولا بناء قام فقال: يا معشر قريش ليأخذ كل رجل منكم بيد جليسه فلينظر مَن هو، فأخذت بيد جليسي فقلت مَن أنت، فقال: سبحان الله أما تعرفني أنا فلان ابن فلان، فإذا هو رجل من هوازن، فقال

ولم يكن لي بد من القيام حين دعاني رسول الله ﷺ فقلت: لبيك يا رسول الله، وقمت حتى أتيته فأخذني بيدي ومسح رأسي ووجهي ثم قال ائت هؤلاء القوم حتى تأتيني بخبرهم ولا تحدثن شيئاً حتى ترجع إلي. ثم قال: اللهم احفظه من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله ومن فوقه ومن تحته. فأخذت سهمي وشددت على أسلابي انطلقت أمشي نحوهم كأنما أمشي في حمام فذهبت فدخلت في القوم وقد أرسل الله عليهم ريحاً وجنوداً وجنود الله تفعل بهم ما تفعل لا تقر لهم قدراً ولا ناراً ولا بناء قال وأبو سفيان قاعد يصطلي فأخذت سهماً فوضعته في كبد قوسي فأردت أن أرميه ولو رميته لأصبته فذكرت قول رسول الله ﷺ لا تحدثن حدثاً حتى ترجع، فرددت سهمي في كنانتي، فلما رأى أبو سفيان ما تفعل الريح وجنود الله بهم لا تقر لهم قدراً ولا ناراً ولا بناء قام فقال يا معشر قريش ليأخذ كل منكم بيد جليسه فلينظر من هو؟ فأخذت بيد جليسي فقلت: من أنت؟؟ فقال سبحان الله أما تعرفني أنا فلان بن فلان رجل من هوازن فقال أبو سفيان يا معشر قريش إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام لقد هلك الكراع والخف وأخلفتنا بنو قريظة وبلغنا عنهم الذي نكره ولقينا من هذه الريح ما ترون فارتحلوا فإني مرتحل. ثم قام: إلى جمله وهو معقول فجلس عليه ثم ضربه فوثب على ثلاث فما أطلق عقاله إلا وهو قائم. وسمعت غطفان بما فعلت قريش فاستمروا راجعين إلى بلادهم. قال: فرجعت إلى رسول الله ﷺ كأني أمشي في حمام فأتيته وهو قائم يصلي فلما سلم أخبرته فضحك حتى بدت أنيابه في سواد الليل، فلما أخبرته وفرغت قررت وذهب عني الدفء فأدفأني النبي ﷺ فأنامني عند رجليه وألقى عليَّ طرف ثوبه وألصق صدري ببطن قدميه، فلم أزل نائماً حتى أصبحت فلما أصبحت، قال: قم يا نومان فذلك قوله عز وجل:

﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾﴾

﴿**إذ جاؤوكم من فوقكم**﴾ أي من فوق الوادي من قبل المشرق وهم أسد وغطفان وعليهم مالك بن عوف النصري وعيينة بن حصن الفزاري في ألف من غطفان ومعهم طليحة بن خويلد الأسدي في بني أسد وحيي بن أخطب

أبو سفيان يا معشر قريش إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام ولقد هلكنا وهلك الكراع والخفّ وأخلفتنا بنو قريظة وبلغنا منهم الذي نكره ولقينا من هذه الريح ما ترون فارتحلوا فإني مرتحل، ثم قام إلى جمله وهو معقول فجلس عليه، ثم ضربه فوثب به على ثلاث فما أطلق عقاله إلّا وهو قائم، وسمعتْ غطفان بما فعلتْ قريش فاستمروا راجعين إلى بلادهم، قال فرجعت إلى رسول الله ﷺ كأني أمشي في حمام فأتيته وهو قائم يصلّي، فلما سلم أخبرته الخبر فضحك حتى بَدَت أنيابه في سواد الليل، قال: فلما أخبرته وفرغت قررت وذهب عنّي الدفاء فأدناني النبي ﷺ منه وأنامني عند رجليه وألقى عليّ طرف ثوبه وألزق صدري ببطن قدميه فلم أزل نائماً حتى أصبحت فلما أصبحت قال: «قمْ يا نومان».

قوله عزّ وجلّ: ﴿ **إذْ جاؤوكم من فوقكم** ﴾، أي من فوق الوادي من قِبَل المشرق وهم أسد وغطفان وعليهم مالك بن عوف النصري وعُيينة بن حصن الفزاري في ألف من غطفان ومعهم طليحة بن خويلد الأسدي في بني أسد وحيي بن أخطب في يهود بني قريظة، ﴿ **ومن أسفل منكم** ﴾، يعني من بطن الوادي من قبل المغرب، وهم قريش وكنانة عليهم أبو سفيان بن حرب في قريش ومَن تبعه، وأبو الأعور عمرو بن سفيان السلمي من قبل الخندق، وكان السبب الذي جرّ غزوة الخندق فيما قيل إجلاء رسول الله ﷺ بني النضير من ديارهم، ﴿ **وإذْ زاغتِ الأبصار** ﴾، مالت وشخصت من الرعب، وقيل: مالت عن كل شيء فلم تنظر إلى غدوها، ﴿ **وبلغتِ القلوبُ الحناجر** ﴾،

في يهود قريظة ﴿ومن أسفل منكم﴾ يعني من بطن الوادي من قبل المغرب وهم قريش وكنانة عليهم أبو سفيان بن حرب من قريش ومن تبعه، وأبو الأعور عمرو بن سفيان السلمي من قبل الخندق وكان الذي جر غزوة الخندق فيما قيل إجلاء رسول الله ﷺ بني النضير من ديارهم ﴿وإذ زاغت الأبصار﴾ أي مالت وشخصت من الرعب وقيل مالت عن كل شيء فلم تنظر إلى عدوها ﴿وبلغت القلوب الحناجر﴾ أي زالت عن أماكنها حتى بلغت الحلوق من الفزع والحنجرة جوف الحلقوم، وهذا على التمثيل عبر به عن شدة الخوف، وقيل معناه أنهم جبنوا وسبيل الجبان إذا اشتد خوفه أن تنتفخ رئته وإذا انتفخت رئته رفعت القلب إلى الحنجرة فلهذا يقال: للجبان انتفخ سحره ﴿وتظنون بالله الظنونا﴾ أي اختلفت الظنون بالله فظن المنافقون استئصال محمد وأصحابه وظن المؤمنون النصر والظفر لهم.

هُنَالِكَ ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُواْ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُواْ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُواْ ٱلْفِتْنَةَ لَأٓتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُواْ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُواْ عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَٰرَ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴿١٥﴾ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾ ۞ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾

﴿هنالك ابتلي المؤمنون﴾ أي عند ذلك اختبر المؤمنون بالحصر والقتال ليتبين المخلصون من المنافقين ﴿وزلزلوا زلزالاً شديداً﴾ أي حركوا حركة شديدة ﴿وإذ يقول المنافقون﴾ يعني معتب بن قشير وقيل عبد الله بن أبيّ وأصحابه ﴿والذين في قلوبهم مرض﴾ أي شك وضعف اعتقاد ﴿ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً﴾ هو قول أهل النفاق يعدنا محمد فتح قصور الشام وفارس وأحدنا لا يستطيع أن يجاوز رحله هذا هو الغرور. قوله تعالى ﴿وإذ قالت طائفة منهم﴾ أي من المنافقين وهم أوس بن قيظي وأصحابه ﴿يا أهل يثرب﴾ يعني يا أهل المدينة وقيل يثرب اسم الأرض

فزالت عن أماكنها حتى بلغت الحلوق من الفزع، والحنجرة جوف الحلقوم وهذا على التمثيل عبّر به عن شدة الخوف، قال الفرّاء: معناه أنهم جبنوا وسبيل الجبان إذا اشتدّ خوفه أن تنتفخ رئته فإذا انتفخت الرئة رفعت القلب إلى الحنجرة، ولهذا يقال للجبان انتفخ سحره، ﴿ وتظنون بالله الظنونا ﴾، أي اختلفت الظنون فظن المنافقون استئصال محمد ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم، وظن المؤمنون النصر والظفر لهم، قرأ أهل المدينة والشام وأبو بكر: الظنونا والرسولا والسبيلا بإثبات الألف وصلاً ووقفاً لأنها مثبتة في المصاحف بالألف، وقرأ أهل البصرة وحمزة بغير الألف في الحالين على الأصل، وقرأ الآخرون بالألف في الوقف دون الوصل لموافقة رؤوس الآي.

﴿ هنالك ابْتُلي ﴾، أي عند ذلك اختبر، ﴿ المؤمنون ﴾، بالحصر والقتال ليتبيّن المخلص من المنافق، ﴿ وزُلزلوا زلزالاً شديداً ﴾، حرّكوا حركة شديدة.

﴿ وإذْ يقول المنافقون ﴾، معتب بن قشير، وقيل: عبد الله بن أُبيّ وأصحابه، ﴿ والذين في قلوبهم مرض ﴾ شك وضعف اعتقاد، ﴿ ما وعدنا الله ورسوله إلاّ غروراً ﴾، وهو قول أهل النفاق: يعدنا محمد فتح قصور الشام وفارس وأحدنا لا يستطيع أن يجاوزَ رحله، هذا والله الغرور.

ومدينة الرسول ﷺ في ناحية منها سميت يثرب باسم رجل من العماليق كان قد نزلها في قديم الزمان. وفي بعض الأخبار أن النبي ﷺ نهى أن تسمى المدينة يثرب وقال هي طيبة كأنه كره هذه اللفظة لما فيها من التثريب وهو التقريع والتوبيخ ﴿لا مقام لكم﴾ أي لا مكان لكم تنزلون وتقيمون فيه ﴿فارجعوا﴾ أي إلى منازلكم وقيل عن اتباع محمد ﷺ وقيل عن القتال ﴿ويستأذن فريق منهم النبي﴾ يعني بني حارثة وبني سلمة ﴿يقولون إن بيوتنا عورة﴾ أي خالية ضائعة وهي مما يلي العدو ونخشى عليها السراق فكذبهم الله تعالى بقوله ﴿وما هي بعورة إن يريدون إلا فراراً﴾ أي أنهم لا يخافون ذلك إنما يريدون الفرار من القتال ﴿ولو دخلت عليهم من أقطارها﴾ يعني لو دخل هؤلاء الجيوش الذين يريدون قتالهم وهم الأحزاب من نواحي المدينة وجوانبها ﴿ثم سئلوا الفتنة﴾ أي الشرك ﴿لأتوها﴾ أي لجاؤوها وفعلوها ورجعوا عن الإسلام ﴿وما تلبثوا بها﴾ أي ما احتبسوا عن الفتنة ﴿إلا يسيرا﴾ أي لأسرعوا الإجابة إلى الشرك طيبة به نفوسهم، وقيل معناه وما أقاموا بالمدينة بعد إعطاء الكفر إلا قليلا حتى يهلكوا. قوله عز وجل ﴿ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل﴾ أي من قبل غزوة الخندق ﴿لا يولون الأدبار﴾ أي لا ينهزمون، قيل هم بنو حارثة هموا يوم أحد أن يفشلوا مع بني سلمة، فلما نزل فيهم ما نزل عاهدوا الله أن لا يعودوا لمثلها، وقيل هم أناس غابوا عن وقعة بدر

﴿ وإذْ قالت طائفة منهم ﴾، أي من المنافقين وهم أوس بن قيظي وأصحابه، ﴿ يا أهل يثرب ﴾، يعني المدينة، قال أبو عبيدة: يثرب، وقال: هي مدينة الرسول ﷺ في ناحية منها، وفي بعض الأخبار أن النبي ﷺ نهى أن تسمى المدينة يثرب، وقال: «هي طابة»، كأنه كره هذا اللفظ ﴿ لا مقام لكم ﴾، قرأ العامّة بفتح الميم أي لا مكان لكم تنزلون وتقيمون فيه، وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي وحفص بضم الميم أي لا إقامة لكم، ﴿ فارجعوا ﴾ إلى منازلكم عن اتّباع محمد ﷺ، وقيل: عن القتال إلى مساكنكم، ﴿ ويستأذن فريق منهم النبي ﴾، وهم بنو حارثة وبنو سلمة، ﴿ يقولون إنّ بيوتنا عورة ﴾، أي خالية ضائعة، وهو مما يلي العدو ونخشى عليها السرّاق، وقرأ أبو رجاء العطاردي ﴿ عورة ﴾ بكسر الواو، أي قصيرة الجدران يسهل دخول السرّاق عليها، فكذّبهم الله فقال: ﴿ وما هي بعورة إنْ يريدون إلاّ فراراً ﴾، أي ما يريدون إلاّ الفرار.

﴿ ولو دخلت عليهم ﴾ أي لو دخل عليهم المدينة هؤلاء الجيوش الذين يريدون قتالهم وهم الأحزاب، ﴿ من أقطارها ﴾، جوانبها ونواحيها جمع قطر، ﴿ ثم سئلوا الفتنة ﴾، أي الشرك، ﴿ لأتوها ﴾، لأعطوها، وقرأ أهل الحجاز لأتوها مقصوراً، أي لجاؤوها وفعلوها ورجعوا عن الإسلام، ﴿ وما تلبثوا بها ﴾، أي ما احتبسوا عن الفتنة، ﴿ إلاّ يسيراً ﴾، ولأسرعوا الإجابة إلى الشرك طيّبة به أنفسهم، هذا قول أكثر المفسّرين. وقال الحسن والفرّاء: وما أقاموا بالمدينة بعد إعطاء الكفر إلاّ قليلاً حتى يهلكوا.

﴿ ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل ﴾، أي من قبل غزوة الخندق، ﴿ لَا يُوَلُّونَ الأدبارَ ﴾، من عدوهم أي لا ينهزمون، قال يزيد بن رومان: هم بنو حارثة همّوا يوم أُحُد أن يفشلوا مع بني سلمة، فلما نزل فيهم ما نزل عاهدوا الله أن لا يعودوا لمثلها. وقال قتادة: هم ناس كانوا قد غابوا عن وقعة بدر ورأوا ما أعطى الله أهل بدر من الكرامة والفضيلة، قالوا لئن أشهدنا الله قتالاً لنقاتلنّ فساق الله إليهم ذلك، وقال مقاتل والكلبي: هم سبعون رجلاً بايعوا رسول الله ﷺ ليلة العقبة، وقالوا اشترط لربك ولنفسك ما شئت، فقال النبي ﷺ: «أشترطُ لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، وأشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأولادكم»، قالوا: فإذا فعلنا ذلك فما لنا يا رسول الله؟ قال: «لكم النصر في الدنيا والجنة في الآخرة»، قالوا: قد فعلنا ذلك فذلك عهدهم. وهذا القول ليس بمرضي لأن الذين بايعوا محمداً ﷺ ليلة العقبة كانوا سبعين نفراً لم يكن فيهم شاكٌّ ولا مَن يقول مثل

فلما رأوا ما أعطى الله أهل بدر من الكرامة والفضيلة قالوا لئن أشهدنا الله قتالاً لنقاتلن فساق الله إليهم ذلك ﴿**وكان عهد الله مسؤولاً**﴾ أي عنده في الآخرة ﴿**قل لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل**﴾ أي الذي كتب عليكم لأن من حضر أجله مات أو قتل لا بد من ذلك ﴿**وإذاً لا تمتعون**﴾ أي بعد الفرار ﴿**إلا قليلاً**﴾ أي مدة آجالكم وهي قليل ﴿**قل من ذا الذي يعصمكم**﴾ أي يمنعكم ﴿**من الله إن أراد بكم سوءاً**﴾ أي هزيمة ﴿**أو أراد بكم رحمة**﴾ أي نصراً ﴿**ولا يجدون لهم من دون الله ولياً ولا نصيراً**﴾ أي ناصراً يمنعهم ﴿**قد يعلم الله المعوقين منكم**﴾ أي المثبطين الناس عن رسول الله ﷺ ﴿**والقائلين لإخوانهم هلم إلينا**﴾ أي ارجعوا إلينا ودعوا محمداً ﷺ فلا تشهدوا معه الحرب فإنا نخاف عليكم الهلاك، قيل هم أناس من المنافقين كانوا يثبطون أنصار النبي ﷺ ويقولون لهم ما محمد وأصحابه إلا أكلة رأس ولو كانوا لحماً لالتهمهم أي ابتلعهم أبو سفيان وأصحابه دعوا الرجل فإنه هالك. وقيل نزلت في المنافقين وذلك أن اليهود أرسلت إليهم ما الذي يحملكم على قتل أنفسكم بيد أبي سفيان ومن معه، فإنهم إن قدروا عليكم في هذه المرة لم يستبقوا منكم أحداً وإنا نشفق عليكم فأنتم إخواننا وجيراننا هلموا إلينا فأقبل عبد الله بن أبيّ ابن سلول وأصحابه على المؤمنين يعوقونهم ويخوفونهم بأبي سفيان ومن معه، وقالوا لئن قدر اليوم عليكم لم يستبق منك أحداً أما ترجعون عن محمد ما عنده خير ما هو إلا أن يقتلنا ها هنا انطلقوا بنا إلى إخواننا يعني اليهود، فلم يزدد المؤمنين بقول المنافقين إلا إيماناً واحتساباً وقوله تعالى ﴿**ولا يأتون البأس**﴾ يعني الحرب ﴿**إلا قليلاً**﴾ أي رياء وسمعة من غير احتساب ولو كان ذلك القليل لله لكان كثيراً.

أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ

هذا القول، وإنما الآية في قوم عاهدوا الله أن يقاتلوا ولا يفرّوا فنقضوا العهد، ﴿ **وكان عهد الله مسؤولاً** ﴾، أي مسؤولاً عنه.

﴿ **قلْ** ﴾، لهم ﴿ **لنْ ينفعكم الفرار إنْ فررتم من الموت أو القتل** ﴾، الذي كتب عليكم لأن مَن حضر أجله مات أو قتل، ﴿ **وإذاً لا تُمتَّعُون إلاّ قليلاً** ﴾، أي لا تمتعون بعد هذا الفرار إلاّ مدّة آجالكم وهي قليل.

﴿ **قلْ مَن ذَا الذي يعصمكم من الله** ﴾، أي يمنعكم من عذابه، ﴿ **إن أراد بكم سوءاً** ﴾، هزيمة، ﴿ **أو أراد بكم رحمةً** ﴾، نصرة، ﴿ **ولا يجدون لهم من دون الله وليّاً** ﴾، أي قريباً ينفعهم، ﴿ **ولا نصيراً** ﴾، أي ناصراً يمنعهم.

﴿ **قد يعلم الله المعوّقين منكم** ﴾، أي المثبطين للناس عن رسول الله ﷺ ﴿ **والقائلين لإخوانهم هلمَّ إلينا** ﴾، أي ارجعوا إلينا ودعوا محمداً فلا تشهدوا معه الحرب فإنّا نخاف عليكم الهلاك، قال قتادة: هؤلاء ناس من المنافقين كانوا يثبطون أنصار النبي ﷺ ويقولون لإخوانهم ما محمد وأصحابه إلاّ أكَلَة رأس ولو كانوا لحماً لالتهمهم أي ابتلعهم أبو سفيان وأصحابه دعوا الرجل فإنه هالك، وقال مقاتل: نزلت في المنافقين وذلك أن اليهود أرسلت إلى المنافقين وقالوا ما الذي يحملكم على قتل أنفسكم بيد أبي سفيان ومَن معه، فإنهم إن قدروا عليكم في هذه المرّة لم يَسْتَبْقُوا منكم أحداً وإنّا نشفق عليكم أنتم إخواننا وجيراننا هلمُّوا إلينا، فأقبل عبد الله بن أُبيّ وأصحابه على المؤمنين يعوّقونهم ويخوّفونهم بأبي سفيان ومَن معه، وقالوا: لئن قدروا عليكم لم يَسْتَبْقُوا منكم أحداً ما ترجون من محمد؟ ما عنده خير، ما هو إلاّ أن يقتلنا ههنا، انطلقوا بنا إلى إخواننا يعني اليهود، فلم يزدد المؤمنين بقول المنافقين إلاّ إيماناً واحتساباً. قوله عزّ وجلّ: ﴿ **ولا يأتون البأسَ** ﴾، الحرب، ﴿ **إلاّ قليلاً** ﴾، رياءً وسمعةً من غير احتساب ولو كان ذلك القليل لله لكان كثيراً.

ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُواْ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ
يَسِيرًا ﴿١٩﴾ يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُواْ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّواْ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ
أَنۢبَآئِكُمْ وَلَوْ كَانُواْ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓاْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ
ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ
وَرَسُولُهُۥ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ
وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾

﴿**أشحة عليكم**﴾ أي بخلاء بالنفقة في سبيل الله والنصرة وصفهم الله بالبخل والجبن ﴿**فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم**﴾ أي في رؤوسهم من الخوف والجبن ﴿**كالذي يغشى عليه من الموت**﴾ أي كدوران عين الذي قرب من الموت وغشيه أسبابه فإنه يذهب عقله ويشخص بصره فلا يطرف ﴿**فإذا ذهب الخوف**﴾ أي زال ﴿**سلقوكم**﴾ أي آذوكم. ورموكم في حالة الأمن ﴿**بألسنة حداد**﴾ أي ذربة تفعل كفعل الحديد قال ابن عباس معناه عضوكم وتناولوكم بالنقص والغيبة، وقيل بسطوا ألسنتهم فيكم وقت قسمة الغنيمة يقولون أعطونا فإنا شهدنا معكم القتال فلستم بأحق بالغنيمة منا فهم عند الغنيمة أشجع قوم وعند الحرب أجبن قوم ﴿**أشحة على الخير**﴾ أي يشاحون المؤمنين عند الغنيمة فعلى هذا المعنى يكون المراد بالخير المال ﴿**أولئك لم يؤمنوا**﴾ أي لم يؤمنوا حقيقة الإيمان وإن

﴿ **أشحّة عليكم** ﴾، بخلاء بالنفقة في سبيل الله، وقال قتادة: بخلاء عند الغنيمة وصفهم الله بالبخل والجبن، فقال: ﴿ **فإذا جاء الخوفُ رأيتَهم ينظرون إليك تدور أعينهم** ﴾، في الرؤوس من الخوف والجبن، ﴿ **كالذي يُغْشَى عليه من الموت** ﴾، أي كدوران عين الذي يُغشى عليه من الموت، وذلك أن مَن قَرُبَ من الموت وغشيه أسبابه يذهب عقله ويشخص بصره، فلا يطرف، ﴿ **فإذا ذهب الخوف سلقوكم** ﴾، آذوكم ورموكم في حال الأمن، ﴿ **بألسنة حِداد** ﴾، ذربة، جمع حديد، يقال للخطيب الفصيح: الذرب اللسان مسلق ومصلق وسلاق وصلاق، قال ابن عباس: سلقوكم أي عضدوكم وتناولوكم بالنقص والغيبة. وقال قتادة: بسطوا ألسنتهم فيكم وقت قسمة الغنيمة، يقولون: أعطونا فإنّا قد شهدنا معكم القتال، فلستم أحقّ بالغنيمة منّا، فهم عند الغنيمة أشحّ قوم وعند البأس أجبن قوم، ﴿ **أشحّة على الخير** ﴾، أي عند الغنيمة يشاحّون المؤمنين، ﴿ **أولئك لم يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم** ﴾، قال مقاتل: أبطل الله جهادهم، ﴿ **وكان ذلك على الله يسيراً** ﴾.

﴿ **يحسبون** ﴾، يعني هؤلاء المنافقين، ﴿ **الأحزاب** ﴾، يعني قريشاً وغطفان اليهود، ﴿ **لم يذهبوا** ﴾، لم ينصرفوا عن قتالهم جبناً وفرقاً وقد انصرفوا، ﴿ **وإنْ يأتِ الأحزاب** ﴾، أي يرجعوا إليهم للقتال بعد الذهاب، ﴿ **يودّوا لو أنهم بادون في الأعراب** ﴾، أي يتمنوا لو كانوا في بادية مع الأعراب من الخوف والجبن، يقال: بدا يبدو بداوةً إذا خرج إلى البادية، ﴿ **يسألون عن أنبائكم** ﴾، أخباركم وما آل إليه أمركم، وقرأ يعقوب: «يسّاءلون» مشدّدة ممدودة أي يتساءلون، ﴿ **ولو كانوا** ﴾، يعني هؤلاء المنافقين، ﴿ **فيكم ما قاتلوا إلّا قليلاً** ﴾، تعذيراً، أي يقاتلون قليلاً يقيمون به عذرهم، فيقولون قد قاتلنا. قال الكلبي: إلّا قليلاً أي رمياً بالحجارة. وقال مقاتل: إلّا رياءً وسمعةً من غير احتساب. قوله عزّ وجلّ:

﴿ **لقد كان لكم في رسول الله أُسوة حسنة** ﴾، قرأ عاصم: ﴿ **أُسوة** ﴾حيث كانت بضم الهمزة والباقون

أظهروا الإيمان لفظاً ﴿فأحبط الله أعمالهم﴾ أي التي كانوا يأتون بها مع المسلمين قيل هي الجهاد وغيره ﴿وكان ذلك على الله يسيراً﴾ أي إحباط أعمالهم مع أن كل شيء على الله يسير. قوله تعالى ﴿يحسبون﴾ يعني هؤلاء المنافقين ﴿الأحزاب﴾ يعني قريشاً وغطفان واليهود ﴿لم يذهبوا﴾ أي لم ينصرفوا عن قتالهم جبناً وفرقاً وقد انصرفوا عنهم ﴿وإن يأت الأحزاب﴾ أي يرجعوا إليهم للقتال بعد الذهاب ﴿يودوا لو أنهم بادون في الأعراب﴾ أي يتمنون لو أنهم كانوا في بادية مع الأعراب من الجبن والخوف ﴿يسألون عن أنبائكم﴾ أي عن أخباركم وما آل إليه أمركم ﴿ولو كانوا فيكم﴾ يعني هؤلاء المنافقين ﴿ما قاتلوا إلا قليلاً﴾ يعني يقاتلون قليلاً يقيمون به عذرهم فيقولون قد قاتلنا معكم وقيل هو الرمي بالحجارة وقيل رياء من غير احتساب.

قوله عز وجل ﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة﴾ أي قدوة صالحة أي اقتدوا به اقتداء حسناً وهو أن تنصروا دين الله وتؤازروا رسوله ولا تتخلفوا عنه وتصبروا على ما يصيبكم كما فعل هو إذ قد كسرت رباعيته وجرح وجهه وقتل عمه وأوذي بضروب الأذى فصبر وواساكم مع ذلك بنفسه فافعلوا أنتم كذلك أيضاً واستنوا بسنته ﴿لمن كان يرجو الله﴾ يعني أن الأسوة برسول الله ﷺ لمن كان يرجو الله قال ابن عباس يرجو ثواب الله ﴿واليوم الآخر﴾ يعني ويخشى يوم البعث الذي فيه الجزاء ﴿وذكر الله كثيراً﴾ أي في جميع المواطن على السراء والضراء ثم وصف حال المؤمنين عند لقاء الأحزاب فقال تعالى ﴿ولمّا رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله﴾ أي قالوا ذلك تسليماً لأمر الله وتصديقاً بوعده ﴿وصدق الله ورسوله﴾ أي فيما وعدا وهو في مقابلة قول المنافقين «ما وعدنا الله

بكسرها، وهما لغتان، أي قدوة صالحة، وهي فعلة من الإئتساء، كالقدوة من الاقتداء اسم وضع موضع المصدر، أي به اقتداء حسن إن تنصروا دين الله وتؤازروا الرسول ولا تتخلفوا عنه، وتصبروا على ما يصيبكم كما فعل هو إذْ كُسِرَتْ رُباعيته وجُرح وجهه، وقُتل عمّه وأُوذي بضروب من الأذى فَوَاسَاكم مع ذلك بنفسه، فافعلوا أنتم كذلك أيضاً واستنّوا بسُنّته، ﴿ لِمَن كان يرجوا الله ﴾، بدل من قوله لكم وهو تخصيص بعد تعميم للمؤمنين، يعني أن الأسوة برسولِ الله ﷺ لِمَن كان يرجو الله، قال ابن عباس: يرجو ثواب الله. وقال مقاتل: يخشى الله، ﴿ واليومَ الآخر ﴾، أي يخشى يوم البعث الذي فيه جزاء الأعمال، ﴿ وذكر الله كثيراً ﴾ في جميع المواطن على السرّاء والضرّاء، ثم وصف حال المؤمنين عند لقاء الأحزاب فقال:

﴿ ولمّا رأى المؤمنون الأحزاب قالوا ﴾، تسليماً لأمر الله وتصديقاً لوعده، ﴿ هذا ما وعدَنا الله ورسولُه وصدقَ الله ورسوله ﴾، وعد الله إيّاهم ما ذكر في سورة [البقرة: ٢١٤]: ﴿ أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولمّا يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم ﴾، إلى قوله: ﴿ ألا إنَّ نصر الله قريب ﴾، فالآية تتضمن أن المؤمنين يلحقهم مثل ذلك البلاء، فلما رأوا الأحزاب وما أصابهم من الشدّة قالوا: هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله، ﴿ وما زادهم إلاّ إيماناً وتسليماً ﴾، أي تصديقاً لله وتسليماً لأمر الله. قوله عزّ وجلّ:

﴿ من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ﴾، أي قاموا بما عاهدوا الله عليه ووفوا به، ﴿ فمنهم مَن قضى نحبه ﴾، أي فرغ من نذره ووفّى بعهده فصبر على الجهاد حتى استشهد، والنحب: النذر، والنحب: الموت أيضاً، قال مقاتل: قضى نحبه يعني أجله فقتل على الوفاء يعني حمزة وأصحابه. وقيل: قضى نحبه أي بذل جهده في الوفاء بالعهد من قول العرب: نحب فلان في سَيْره يومه وليله أجمع إذا مدّ فلم ينزل، ﴿ ومنهم مَن ينتظر ﴾، الشهادة، وقال محمد بن إسحاق: فمنهم مَن قضى نحبه مَن استشهد يوم بدر وأُحُد ومنهم مَن ينتظر يعني مَن بقي بعد هؤلاء من المؤمنين ينتظرون أحد الأمرين إمّا الشهادة أو النصر، ﴿ وما بدّلوا ﴾، عهدهم، ﴿ تبديلاً ﴾، أخبرنا

ورسوله إلا غروراً» وقولهم «وصدق الله ورسوله» ليس إشارة إلى ما وقع فإنهم كانوا يعرفون صدق الله ورسوله قبل الوقوع، وإنما هو إشارة إلى البشارة في جميع ما وعد فيقع الكل مثل فتح مكة وفتح الروم وفارس، وقيل إنهم وعدوا أن تلحقهم شدة وبلاء فلما رأوا الأحزاب وما أصابهم من الشدة قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله **﴿وما زادهم إلا إيماناً﴾** أي تصديقاً لله **﴿وتسليماً﴾** أي لأمره. قوله تعالى **﴿من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه﴾** أي قاموا بما جاهدوا الله عليه ووفوا به **﴿فمنهم من قضى نحبه﴾** أي فرغ من نذره ووفى بعهده وصبر على الجهاد حتّى استشهد، وقيل قضى نحبه يعني أجله فقتل على الوفاء يعني حمزة وأصحابه، وقيل قضى نحبه أي بذل جهده في الوفاء بالعهد وقيل قضى نحبه استشهد يوم بدر وأحد **﴿ومنهم من ينتظر﴾** يعني من بقي بعد هؤلاء من المؤمنين ينتظرون أحد الأمرين إما الشهادة أو النصر على الأعداء **﴿وما بدلوا﴾** يعني عهدهم **﴿تبديلاً﴾** (ق) عن أنس قال غاب عمي أنس بن النضر عن قتال بدر فقال يا رسول الله غبت عن أول قتال قاتلت المشركين لئن أشهدني الله قتال المشركين ليرين الله ما أصنع فلما كان يوم أحد انكشف المسلمون قال اللهم إني اعتذر إليك مما صنع هؤلاء يعني أصحابه وابرأ إليك مما صنع هؤلاء يعني المشركين، ثم تقدم فاستقبله سعد بن معاذ، فقال يا سعد بن معاذ الجنة ورب النضر إني أجد ريحاً من دون أحد فقال سعد فما استطعت يا رسول الله ما صنع قال أنس فوجدنا به بضعاً وثمانين ضربة بالسيف أو طعنة برمح أو رمية بسهم ووجدناه قد قتل وقد مثل به المشركون فما عرفه أحد إلا أخته ببنانه قال أنس كنا نرى أو نظن أن هذه الآية نزلت فيه وفي أشباهه: من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه إلى آخر الآية. (ق) عن خباب بن الأرت قال «هاجرنا مع رسول الله ﷺ نلتمس وجه الله. فوقع أجرنا على الله فمنا من مات ولم يأكل من أجره شيئاً منهم مصعب بن عمير قتل يوم أحد وترك نمرة وكنا إذا غطينا بها رأسه بدت رجلاه وإذا غطينا رجليه بدت رأسه، فأمرنا رسول الله ﷺ أن نغطي رأسه ونجعل على رجليه من الأذخر ومنا من أينعت له ثمرته فهو

عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا محمد بن سعيد الخزاعي أنا عبد الأعلى عن حميد قال: سألت انساح وحدّثني عمرو بن زرارة أنا زياد حدّثني حميد الطويل عن أنس قال: غاب عمّي أنس بن النضر عن قتال بدر، فقال: يا رسول الله غبت عن أول قتال قاتلت المشركين لئن أشهدني الله قتال المشركين ليرَيَنَّ اللَّهُ ما أصنع، فلما كان يوم أُحُد وانكشف المسلمون فقال: اللّهمَّ إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء، يعني أصحابه وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء يعني المشركين، ثم تقدّم فاستقبله سعد بن معاذ، فقال: يا سعد بن معاذ الجنة وربِّ النضر إني أجد ريحها من دون أحد، قال سعد: فما استطعت يا رسول الله ما صنع، قال أنس: فوجدنا به بضعاً وثمانين ضربة بالسيف أو طعنة بالرمح أو رمية بسهم، ووجدناه قد قتل وقد مثّل به المشركون، فما عرفه أحد إلاّ أُخته ببنانه، قال أنس: كنّا نظن أو نرى أن هذه الآية نزلت فيه وفي أشباهه: **﴿ من المؤمنين رجالٌ صدقوا ما عاهدوا الله عليه ﴾** إلى آخر الآية، أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحي أنا أبو بكر أحمد بن الحسن الحيري أنا حاجب بن أحمد الطوسي أنا محمد بن حماد أنا معاوية عن الأعمش عن سفيان عن شقيق عن خبّاب بن الأرت قال: هاجرنا مع رسول الله ﷺ في سبيل الله نبتغي وجه الله فوجب أجرنا على الله فمنّا مَن مضى لم يأكل من أجره شيئاً منهم مصعب بن عمير قتل يوم أُحُد، فلم أجد له شيء يكفّن فيه إلاّ ثمرة، فكنّا إذا وضعناها على رأسه خرجت رجلاه، وإذا وضعناها على رجليه خرج رأسه، فقال رسول الله ﷺ: «ضعوها مما يلي رأسه واجعلوا على رجليه شيئاً من الإذخر، قال: ومَن أينعت له ثمرته فهو يهد بها». أخبرنا أبو المظفر محمد بن أحمد النعيمي أنا أبو محمد عبد الرحمن بن عثمان المعروف بابن أبي نصر أنا خيثمة بن سليمان بن حيدرة الأطرابلسي أنا محمد بن سليمان الجوهري بأنطاكية أنا مسلم بن إبراهيم أنا الصلت بن دينار عن أبي نصرة

يهدبها» النمرة كساء ملون من صوف، وقوله ومنا من أينعت أي أدركت ونضجت له ثمرته، وهذه استعارة لما فتح الله لهم من الدنيا، وقوله يهدبها أي يجتنيها ويقطعها. عن أبي موسى بن طلحة قال «دخلت على معاوية فقال ألا أبشرك سمعت رسول الله ﷺ يقول: طلحة ممن قضى نحبه». أخرجه الترمذي. وقال هذا حديث غريب (خ) عن قيس بن أبي حازم قال «رأيت يد طلحة شلاء وقى بها النبي ﷺ يوم أحد». قوله عز وجل:

﴿لِّيَجْزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾﴾

﴿ليجزي الله الصادقين بصدقهم﴾ أي جزاء صدقهم وصدقهم هو الوفاء بالعهد ﴿ويعذب المنافقين إن شاء أو

عن جابر بن عبد الله قال: نظر النبي ﷺ إلى طلحة بن عبد الله فقال: «مَن أحبَّ أن ينظر إلى رجل يمشي على وجه الأرض وقد قضى نحبه فلينظر إلى هذا»، أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا عبد الله بن أبي شيبة أنا وكيع بن إسماعيل عن قيس قال: رأيت يد طلحة شلاء وقى بها النبي ﷺ يوم أُحُد.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ ليجزي الله الصادقين بصدقهم ﴾، أي جزاء صدقهم، وصدقهم هو الوفاء بالعهد، ﴿ ويعذب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم ﴾، فيهديهم إلى الإيمان، ﴿ إنّ الله كان غفوراً رحيماً ﴾.

﴿ وردّ الله الذين كفروا ﴾، من قريش وغطفان، ﴿ بغيظهم ﴾، لم يشفِ صدورهم بنيل ما أرادوا، ﴿ لم ينالوا خيراً ﴾، ظفراً، ﴿ وكفى الله المؤمنين القتال ﴾، بالملائكة والريح، ﴿ وكان الله قوياً عزيزاً ﴾، قوياً في ملكه عزيزاً في انتقامه.

﴿ وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب ﴾، أي عاونوا الأحزاب من قريش وغطفان على رسول الله ﷺ والمسلمين وهم بنو قريظة، ﴿من صياصيهم﴾، حصونهم ومعاقلهم، واحدها صيصية، ومنه قيل للقرن ولشوكة الديك والحاكة صيصية، وذلك أن رسول الله ﷺ لمّا أصبح من الليلة التي انصرف الأحزاب فيها راجعين إلى بلادهم وانصرف النبي ﷺ والمؤمنون عن الخندق إلى المدينة، ووضعوا السلاح فلما كان الظهر أتى جبريل رسولَ الله ﷺ معتجراً بعمامة من إستبرق على بغلة عليها رحالة وعليها قطيفة من ديباج، ورسول الله ﷺ عند زينب بنت جحش وهي تغسل رأسه وقد غسلت شقّه، فقال: قد وضعت السلاح يا رسول الله؟ قال: «نعم»، فقال جبريل: عفا الله عنك ما وضعت الملائكة السلاح منذ أربعين ليلة، وما رجعت الآن إلّا من طلب القوم، ورُوِيَ أنه كان الغبار علس وجه جبريل عليه السلام وفرسه فجعل النبي ﷺ يمسح الغبار عن وجهه وعن فرسه، فقال: إن الله يأمرك بالسير إلى بني قريظة وأنا عامد إلى بني قريظة فانهز إليهم فإني قد قطعت أوتارهم وفتحت أبوابهم وتركتهم في زلزال وبلبال، فأمر النبي ﷺ منادياً فأذّن أن مَن كان سامعاً مطيعاً فلا يصلين العصر إلّا في بني قريظة، وقدِمَ رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب رضي الله عنه برايته إليهم، وابتدرها الناس فسار عليٌّ رضي الله عنه حتى إذا دنا من الحصون سمع منها مقالة قبيحة لرسول الله ﷺ فرجع حتى لقي رسول الله ﷺ بالطريق، فقال: يا رسول الله لا عليك أن لا تدنو من هؤلاء الأخابث، قال: «لِمَ، أظنك سمعتَ لي منهم أذىً»؟ قال: نعم يا رسول الله، قال: «لو

يتوب عليهم﴾ أي فيهديهم إلى الإيمان ويشرح له صدورهم ﴿إن الله كان غفوراً رحيماً ورد الله الذين كفروا﴾ يعني من

قد رأوني لم يقولوا من ذلك شيئاً»، فلما دنا رسول الله ﷺ من حصونهم قال: «يا إخوان القردة والخنازير هل أخزاكم الله وأنزل بكم نقمته»؟ قالوا: يا أبا القاسم ما كنت جهولاً، ومرّ رسول الله ﷺ على أصحابه بالصور من قبل أن يصل إلى بني قريظة، فقال هل مرّ بكم أحد؟ فقالوا: نعم يا رسول الله مرّ بنا دحية بن خليفة الكلبي على بغلة بيضاء عليها رحّالة عليها قطيفة ديباج، فقال عليه السلام: ذاك جبريل بُعث إلى بني قريظة يزلزل بهم حصونهم ويقذف الرعب في قلوبهم، فلما أتى رسول الله ﷺ بني قريظة نزل على بئر من آبارها في ناحية من أموالهم، فتلاحق به الناس فأتاه رجال من بعد صلاة العشاء الآخرة ولم يصلّوا العصر لقول رسول الله ﷺ: «لا يصلّينّ أحد العصر إلاّ في بني قريظة»، فصلّوا العصر بها بعد العشاء الآخرة فما عابهم الله بذلك ولا عنّفهم به رسول الله ﷺ، قال وحاصرهم رسول الله ﷺ خمساً وعشرين ليلة حتى جهدهم الحصار، وقذف الله في قلوبهم الرعب وكان حُيي بن أخطب دخل على بني قريظة في حصنهم حين رجعت عنهم قريش وغطفان وفاءً لكعب بن أسد بما كان عاهده، فلما أيقنوا أن رسول الله ﷺ غير منصرف عنهم حتى يناجزهم، قال كعب بن أسد يا معشر يهود إنه قد نزل بكم من الأمر ما ترون وإني عارض عليكم خلالاً ثلاثاً فخذوا أيّها شئتم، قالوا: وما هنّ؟ قال: نتابع هذا الرجل ونصدّقه فوالله إنه لقد تبيّن لكم أنه مُرسَل وأنه الذي تجدونه في كتابكم، فتأمنوا على دياركم وأموالكم وأبنائكم ونسائكم، قالوا: لا نفارق حكم التوراة أبداً ولا نستبدل به غيره، قال كعب: فإذا أبيتم هذه فهلمّ فلنقتل أبناءنا ونساءنا ثم نخرج إلى محمد رجالاً مصلتين بالسيوف ولم نترك وراءنا ثقلاً يهمنا حتى يحكم الله بيننا وبين محمد، فإن نهلك ولم نترك وراءنا شيء نخشى عليه، وإن نظهر فلعمري لنتخذنّ النساء والأبناء، فقالوا نقتل هؤلاء المساكين فما خير في العيش بعدهم، قال: فإن أبيتم هذه فإن الليلة ليلة السبت وإنه عسى أن يكون محمد وأصحابه قد أمِنُوا فيها فانْزِلُوا لعلّنا أن نصيب من محمد وأصحابه غرّة، قالوا: أنفسد سبتنا ونحدث فيه ما لم يكن أحدث فيه مَن كان قبلنا إلاّ مَن قد عملت فأصابهم من المسخ ما لم يخفَ عليك، فقال: ما بات رجل منكم منذ ولدته أُمه ليلة واحدة من الدهر حازماً؟ قال: ثم إنهم بعثوا إلى رسول الله ﷺ أن ابعثْ إلينا أبا لبابة بن عبد المنذر أخا بني عمرو بن عوف، وكانوا حلفاء الأوس نستشيره في أمرنا، فأرسله رسول الله ﷺ إليهم، فلما رأوه قام إليه الرجال وهشّ إليه النساء والصبيان يبكون في وجهه فرقّ لهم، فقالوا: يا أبا لبابة أترى لنا أن ننزل على حكم محمد؟ قال: نعم، قالوا: ماذا يفعل بنا إذا نزلنا؟ فأشار بيده إلى حلقه أنه الذبح، قال أبو لبابة فوالله ما زالت قدماي حتى عرفت أني قد خنت الله ورسوله، ثم انطلق أبو لبابة على وجهه ولم يأتِ رسول الله ﷺ حتى ارتبط في المسجد إلى عمود من عمده، وقال: لا أبرح من مكاني حتى يتوب الله عليّ مما صنعت، وعاهد الله أن لا يطأ أرض بني قريظة أبداً ولا يراني الله في بلد خنت الله ورسوله فيه أبداً، فلما بلغ رسول الله ﷺ خبره وأبطأ عليه، قال: «أما لو قد جاءني لاستغفرتُ له فأما إذا فعل ما فعل فما أنا بالذي أطلقه من مكانه حتى يتوب الله عليه»، ثم إن الله تعالى أنزل توبة أبي لبابة على رسول الله ﷺ وهو في بيت أُم سلمة، قالت أُم سلمة: فسمعت رسول الله ﷺ يضحك فقلت: مما تضحك يا رسول الله أضحك الله سنّك؟ قال: «تِيبَ على أبي لبابة»، فقلت: ألا أُبشّره بذلك يا رسول الله؟ فقال: «بلى إن شئت»، فقامتْ على باب حجرتها وذلك قبل أن يُضرب عليهنّ الحجاب، فقالت يا با لبابة أبشر فقد تاب الله عليك، قال فثار الناس عليه ليطلقوه فقال: لا والله حتى يكون رسول الله هو الذي يطلقني بيده، فلما مرّ عليه رسول الله ﷺ خارجاً إلى الصبح أطلقه، قال: ثم إن ثعلبة بن سعيد وأُسيد بن سعيد وأُسيد بن عبيد وهم نفر من بني هذيل ليسوا من بني قريظة ولا النضير نسبهم فوق ذلك هم بنو عمّ القوم أسلموا تلك الليلة التي نزلت فيها

قريش وغطفان ﴿بغيظهم﴾ أي لم يشف صدورهم بنيل ما أرادوا ﴿لم ينالوا خيراً﴾ أي ظفراً ﴿وكفى الله المؤمنين

بنو قريظة على حكم رسول الله ﷺ، وخرج في تلك الليلة عمرو بن سعدى القرظي فمرّ بحرس رسول الله ﷺ وعليه محمد بن سلمة الأنصاري تلك الليلة، فلما رآه قال: مَن هذا؟ قال: عمرو بن سعدى، وكان عمرو قد أبى أن يدخل مع بني قريظة في غدرهم برسول الله ﷺ، فقال: لا أغدر بمحمد أبداً، فقال محمد بن مسلمة حين عرفه: اللّهمَّ لا تحرمني من عثرات الكِرام ثم خلّى سبيله، فخرج على وجهه حتى بات في مسجد رسول الله ﷺ بالمدينة تلك الليلة ثم ذهب فلا يدري أين ذهب من أرض الله، فذكر لرسول الله ﷺ شأنه، فقال: ذاك رجل قد أنجاه الله بوفائه. وبعض الناس يزعم أنه كان قد أوثق برمّة فيمن أوثق من بني قريظة حين نزلوا على حكم رسول الله ﷺ، فأصبحت رمّته ملقاة لا يدري أين ذهب، فقال فيه رسول الله ﷺ تلك المقالة، والله أعلم. فلما أصبحوا نزلوا على حكم رسول الله فتواثبت الأوس فقالوا يا رسول الله إنهم موالينا دون الخزرج وقد فعلت في موالي الخزرج بالأمس ما قد علمت، وقد كان رسول الله ﷺ قبل بني قريظة حاصر بني قينقاع وكانوا حلفاء الخزرج، فنزلوا على حكمه فسألهم إيّاه عبد الله بن أُبيّ بن سلول، فوهبهم إيّاه فلما كلّمه الأوس قال رسول الله ﷺ: «ألا ترضون يا معشر الأوس أن يحكم فيكم رجل منكم؟» قالوا: بلى، قال: «فذاك إلى سعد بن معاذ»، وكان سعد بن معاذ قد جعله رسول الله ﷺ في خيمة امرأة من المسلمين يقال لها رفيدة في مسجده وكانت تداوي الجرحى، وتحتسب بنفسها على خدمة مَن كانت به ضيعة من المسلمين، وكان رسول الله ﷺ قد قال لقومه حين أصابه السهم بالخندق اجعلوه في خيمة رفيدة حتى أعوده من قريب، فلما حكّمه رسول الله ﷺ في بني قريظة أتاه قومه فاحتملوه على حمار قد وطأوا له بوسادة من أدم، وكان رجلاً جسيماً ثم أقبلوا معه إلى رسول الله ﷺ وهم يقولون يا أبا عمرو أحسن في مواليك، فإن رسول الله ﷺ إنّما ولاّك ذلك لتُحسِن فيهم، فلما أكثروا عليه قال: قد آن لسعد أن لا تأخذه في الله لومة لائم، فرجع بعض مَن كان معه من قومه إلى دار بني عبد الأشهل فنعى لهم رجال بني قريظة من قبل أن يصل إليهم سعد بن معاذ عن كلمته التي سمع منه، فلما انتهى سعد إلى رسول الله ﷺ قال: قوموا إلى سيّدكم فأنزلوه، فقاموا إليه فقالوا: يا أبا عمرو إن رسول الله ﷺ قد ولاّك مواليك لتحكم فيهم، فقال سعد: عليكم بذلك عهد الله وميثاقه أنّ الحكم فيها ما حكمت؟ قالوا: نعم، قال: وعلى مَن ههنا في الناحية التي فيها رسول الله ﷺ، وهو مُعرِض عن رسول الله ﷺ إجلالاً له، فقال رسول الله ﷺ: «نعم»، قال سعد: فإني أحكم فيهم أن تقتل الرجال وتقسم الأموال وتُسبى الذراري والنساء، فقال رسول الله ﷺ لسعد: «لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة»، ثم استُنزلوا فحبسهم رسول الله ﷺ في دار بنت الحارث امرأة من بني النجار، ثم خرج رسول الله ﷺ إلى سوق المدينة التي هي سوقها اليوم، فخندق بها خندقاً ثم بعث إليهم فضربت أعناقهم في تلك الخنادق، يخرج بهم إليه أرسالاً أرسالاً وفيهم عدوّ الله حيي بن أخطب وكعب بن أسد رئيسا القوم، وهم ستمائة أو سبعمائة، والمكثر لهم يقول كانوا بين ثمانمائة إلى تسعمائة، وقد قالوا لكعب بن أسد وهم يُذهب بهم إلى رسول الله ﷺ أرسالاً: يا كعب ما ترى ما يصنع بنا فقال كعب: أفي كل موطن لا تعقلون أما ترون الداعي لا ينزع وإن مَن يذهب به منكم لا يرجع، هو والله القتل، فلم يزل ذلك الدأب حتى فرغ منهم النبي ﷺ وأتي حُيي بن أخطب عدوّ الله عليه حلّة تفاحيّة قد شققها عليه من كل ناحية كموضع الأنملة أنملة أنملة لئلا يسلبها مجموعة يداه إلى عنقه بحبل، فلما نظر إلى رسول الله ﷺ قال أما والله ما لمت نفسي في عداوتك ولكنه مَن يخذل الله يخذل، ثم أقبل على الناس فقال أيها الناس إنه لا بأس بأمر الله كتاب وقدر وملحمة كتبت على بني إسرائيل، ثم جلس فضربت عنقه. وروى عروة بن الزبير عن عائشة رضي الله عنها قالت لم يقتل من نساء بني قريظة إلاّ امرأة واحدة قالت والله إنها عندي تتحدث معي

القتال﴾ أي بالملائكة والريح ﴿وكان الله قوياً﴾ أي في ملكه ﴿عزيزاً﴾ أي في انتقامه. قوله تعالى ﴿وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب﴾ أي عاونوا الأحزاب من قريش وغطفان على رسول الله ﷺ وعلى المسلمين وهم بنو

وتضحك ظهراً وبطناً، ورسول الله ﷺ لم يزل يقتل رجالهم بالسيوف إذ هتف هاتف باسمها: أين فلانة قالت: أنا والله هي، قالت: قلت ويلك ما لك؟ قالت: أقتل، قلت: ولِمَ؟ قالت: حدثٌ أحدثتُه، قالتْ: فانطلق بها فضُربت عنقُها، وكانت عائشة تقول: ما أنسى عجباً منها طيب نفس وكثرة ضحك، وقد عرفت أنها تقتل. قال الواقدي: وكان اسم تلك المرأة بنانة امرأة الحكم القرظي وكانت قتلت خلّاد بن سويد، رمتْ عليه رحىً فدعا رسول الله ﷺ بها فضربت عنقها بخلاد بن سويد، قال وكان عليّ والزبير يضربان أعناق بني قريظة، ورسول الله ﷺ جالس هنالك. وروى محمد بن إسحاق عن الزهري أن الزبير بن باطا القرظي وكان يكنّى أبا عبد الرحمن، كان قد منّ على ثابت بن قيس بن شماس في الجاهلية يوم بُعاث أخذه فجزّ ناصيته، ثم خلّى سبيله فجاءه يوم قريظة وهو شيخ كبير فقال: يا أبا عبد الرحمن هل تعرفني؟ قال: وهل يجهل مثلي مثلك؟ قال: إني أردت أن أجزيك بيدك عندي، قال: إن الكريم يجزي الكريم، قال: ثم أتى ثابت رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله قد كانت للزبير عندي يد وله عليّ منّة، وقد أحببت أن أجزيه بها فهَبْ لي دمه، فقال رسول الله ﷺ: «هو لك» فأتاه فقال له إن رسول الله ﷺ قد وهب لي دمك، قال شيخ كبير لا أهل له ولا ولد فما يصنع بالحياة، فأتى ثابت رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله أهله وماله؟ قال: «هم لك» فأتاه فقال: إن رسول الله ﷺ أعطاني امرأتك وولدك فهم لك، قال: أهل بيت بالحجاز لا مال لهم فما بقاؤهم على ذلك، فأتى ثابت رسول الله ﷺ فقال: ماله يا رسول الله؟ قال: «هو لك»، قال: فأتاه فقال إن رسول الله ﷺ قد أعطاني مالك فهو لك، فقال: أيْ ثابت ما فعل الله بمَن كان وجهه مرآة مضيئة تتراءى فيها عذارى الحيّ كعب بن أسد، قال: قتل، قال: فما فعل سيد الحاضر والبادي حيي بن أخطب؟ قال: قتل، قال: فما فعل مقدمتنا إذا شددنا وحامينا إذ كررنا عزال بن شموال؟ قال: قتل، قال: فما فعل المجلسان يعني بني كعب بن قريظة وبني عمرو بن قريظة؟ قال: ذهبوا وقتلوا، قال: فإني أسألك بيدي عندك يا ثابت إلّا ما ألحقتني بالقوم، فوالله ما في العيش بعد هؤلاء من خير، فما أنا بصابر حتى ألقى الأحبّة فقدمه ثابت فضرب عنقه، فلما بلغ أبا بكر الصديق قوله ألقى الأحبّة، قال: يلقاهم والله في نار جهنم خالداً فيها مخلداً أبداً. قالوا: وكان رسول الله ﷺ قد أمر بقتل مَن أنبت منهم، ثم قسم أموال بني قريظة ونساءهم وأبناءهم على المسلمين وأعزل في ذلك اليوم سهمان الخيل وسهمان الرجال وأخرج منهما الخمس، فكان للفارس ثلاثة أسهم للفرس سهمان وللفارس سهم وللراجل ممّن ليس له فرس سهم، وكانت الخيل ستّة وثلاثين فرساً وكان أول فيء وقع فيه السهمان، ثم بعث رسول الله ﷺ سعد بن زيد الأنصاري أخا بني عبد الأشهل بسبايا من سبايا بني قريظة إلى نجد فابتاع لهم بهم خيلاً وسلاحاً، وكان رسول الله ﷺ قد اصطفى لنفسه من نسائهم ريحانة بنت عمرو بن خنانة إحدى نساء بني عمرو بن قريظة، فكانت عند رسول الله ﷺ حتى توفي عنها وهي في ملكه، وقد كان رسول الله ﷺ يحرص علبها أن يتزوجها ويضرب عليها الحجاب، فقالت: يا رسول الله بل تتركني في ملكك فهو أخفّ عليّ وعليك. فتركها وقد كانت حين سباها كرهت الإسلام وأبت إلّا اليهودية، فعزلها رسول الله ﷺ ووجد في نفسه بذلك من أمرها، فبينا هو مع أصحابه إذ سمع وقع نعلين خلفه فقال: «إن هذا لثعلبة بن شعبة يبشّرني بإسلام ريحانة»، فجاء فقال: يا رسول الله قد أسلمت ريحانة، فبشّره بذلك فلما انقضى شأن بني قريظة انفجر جرح سعد بن معاذ، وذلك أنه دعا بعد أن حكم في بني قريظة ما حكم فقال: اللّهمّ إنك قد علمت أنه لم يكن قوم أحبّ إليّ أن أُجاهدهم من قوم كذّبوا رسولك، اللّهمّ إن كنت أبقيت من حرب قريش على رسولك شيئاً فأبقني لها وإن كنت قد قطعت الحرب بينه وبينهم فاقبضني

قريظة ﴿من صياصيهم﴾ أي من حصونهم ومعاقلهم واحدها صيصية ﴿وقذف في قلوبهم الرعب﴾ أي الخوف ﴿فريقاً تقتلون﴾ يعني الرجال يقال كانوا ستمائة ﴿وتأسرون فريقاً﴾ يعني النساء والذراري يقال كانوا سبعمائة قيل وخمسين.

﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَـٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾﴾

﴿وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضاً لم تطؤوها﴾ يعني بعد قيل هي خيبر ويقال إنها مكة وقيل فارس والروم وقيل هي كل أرض تفتح على المسلمين إلى يوم القيامة ﴿وكان الله على كل شيء قديراً﴾.

قيل كانت في آخر ذي القعدة سنة خمس. وعلى قول البخاري المتقدم في غزوة الخندق عن موسى بن عقبة أنها كانت في سنة أربع. قال العلماء بالسير إن رسول الله ﷺ لما أصبح من الليلة التي انصرف الأحزاب راجعين إلى بلادهم انصرف ﷺ والمؤمنون عن الخندق إلى المدينة ووضعوا السلاح، فلما كان الظهر أتى جبريل عليه السلام رسول الله ﷺ متعمماً بعمامة من إستبرق على بغلة بيضاء عليها رحالة وعليها من قطيفة من ديباج، ورسول الله ﷺ عند زينب بنت جحش وهي تغسل رأسه وقد غسلت شقه فقال جبريل يا رسول الله قد وضعت السلاح؟ قال: نعم قال: جبريل عفا الله عنك ما وضعت الملائكة السلاح منذ أربعين ليلة وما رجعت الآن إلا من طلب القوم. وروى أنه كان الغبار على وجه جبريل وفرسه فجعل النبي ﷺ يمسح الغبار عن وجهه ووجه فرسه فقال إن الله تعالى يأمرك بالمسير إلى بني قريظة وأنا عامد إلى بني قريظة فانهز إليهم فإني قد قطعت أوتارهم وفتحت أبوابهم وتركتهم في زلزال وبلبال، فأمر النبي ﷺ منادياً فأذن أن من كان سامعاً مطيعاً فلا يصلين العصر إلا في بني قريظة، وقدم رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب برايته إليهم وابتدرها الناس، وسار علي حتى إذا دنا من الحصون سمع منها مقالة قبيحة

إليك، فانفجر كَلْمُهُ فرجعه رسول الله ﷺ إلى خيمته التي ضُربت عليه في المسجد، قالت عائشة: فحضره رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر فوالذي نفسي بيده إني لأعرف بكاء عمر من بكاء أبي بكر وإني لفي حجرتي، قالت: وكانوا كما قال الله تعالى: ﴿ رحماء بينهم ﴾ [الفتح: ٢٩]، وكان فتح بني قريظة في آخر ذي القعدة سنة خمس من الهجرة أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا عبد الله بن محمد أنا يحيىٰ بن آدم أنا إسرائيل سمعت أبا إسحاق يقول سمعت سليمان بن صرد يقول سمعت النبي ﷺ يقول حين أجلى الأحزاب عنه: «الآن نغزوهم ولا يغزونا نحن نسير إليهم»، أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا قتيبة أنا الليث عن سعيد بن أبي سعيد عن أبيه عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ كان يقول: «لا إلّه إلّا الله وحده أعزّ جنده ونصر عبده وغلب الأحزاب وحده فلا شيء بعده»، قال الله تعالى في قصة بني قريظة: ﴿ وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم وقذف في قلوبهم الرعب فريقاً تقتلون ﴾، وهم الرجال يقال كانوا ستمائة، ﴿ وتأسرون فريقاً ﴾، وهم النساء والذراري، يقال: كانوا سبعمائة وخمسين، ويقال: سبعمائة.

﴿ وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضاً لم تطؤها ﴾، بعد، قال ابن زيد ومقاتل: يعني خيبر، قال قتادة: كنّا نحدّث أنها مكة. وقال الحسن: فارس والروم. وقال عكرمة كل أرض تفتح إلى يوم القيامة. ﴿ وكان الله على كل شيء قديراً ﴾.

لرسول الله ﷺ فرجع حتى لقي رسول الله ﷺ بالطريق فقال: يا رسول الله لا عليك أن لا تدنو من هؤلاء الأخابث. قال: أظنك سمعت لي منهم أذى قال: نعم يا رسول الله قال: لو قد رأوني لم يقولوا من ذلك شيئاً فلما دنا رسول الله ﷺ من حصونهم قال «يا إخوان القردة قد أخزاكم الله وأنزل بكم نقمته». قالوا: يا أبا القاسم ما كنت جهولاً؛ ومر رسول الله ﷺ على أصحابه بالصورين قبل أن يصل إلى بني قريظة فقال «هل مر بكم أحد؟» فقالوا: يا رسول الله مر بنا دحية بن خليفة على بغلة بيضاء عليها رحالة وعليها قطيفة ديباج. فقال ﷺ «ذاك جبريل عليه السلام بعث إلى بني قريظة يزلزل بهم حصونهم ويقذف الرعب في قلوبهم» فلما أتى رسول الله ﷺ بني قريظة نزل على بئر من آبارها في ناحية أموالهم وتلاحق به الناس فأتاه رجال بعد صلاة العشاء الأخيرة ولم يصلوا العصر لقول النبي ﷺ «لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة»، فصلوا العصر بها بعد العشاء الأخيرة فما عابهم الله بذلك ولا عنفهم به رسول الله ﷺ قال العلماء: حاصرهم رسول الله ﷺ خمساً وعشرين ليلة حتى جهدهم الحصار، وقذف الله في قلوبهم الرعب وكان حيي بن أخطب دخل على بني قريظة حصنهم حين رجعت عنهم قريش وغطفان ووفى لكعب بن أسد بما كان عاهده، فلما أيقنوا أن رسول الله ﷺ غير منصرف عنهم حتى يناجزهم قال كعب بن أسد يا معشر يهود إنكم قد نزل من الأمر ما ترون وإني عارض عليكم خلالاً ثلاثاً فخذوا أيها شئتم. قالوا: وما هن؟ قال نتابع هذا الرجل ونصدقه فوالله لقد تبين لكم أنه نبي مرسل وأنه الذي تجدونه في كتابكم فتؤمنون على دياركم وأموالكم وأبنائكم ونسائكم. فقالوا: لا نفارق حكم التوراة أبداً ولا نستبدل به غيره. قال: فإذا أبيتم هذه فهلم فلنقتل أبناءنا ونساءنا ثم نخرج إلى محمد وأصحابه رجالاً مصلتين بالسيوف ولا نترك وراءنا ثقلاً يهمنا حتى يحكم الله بيننا وبين محمد، فإن نهلك نهلك ولم نترك وراءنا شيئاً نخشى عليه وإن نظهر فلعمري لنتخذن النساء والأبناء. قالوا: نقتل هؤلاء المساكين فما في العيش بعدهم خير. قال: فإن أبيتم هذه الليلة ليلة السبت وإنه عسى أن يكون محمد وأصحابه قد أمنوا فانزلوا فلعلنا أن نصيب من محمد وأصحابه غرة. قالوا: نفسد سبتنا ونحدث فيه ما لم يكن أحدث فيه من قبلنا إلا ما قد علمت فأصابهم من المسخ ما لم يخف عليك. قال: ما بات رجل منكم منذ ولدته أمه حازماً ليلة من الدهر ثم إنهم بعثوا إلى رسول الله ﷺ أن ابعث لنا أبا لبابة بن عبد المنذر أخا بني عمرو بن عوف وكانوا حلفاء الأوس نستشيره في أمرنا. فأرسله رسول الله ﷺ إليهم. فلما رأوه قام إليه الرجال والنساء والصبيان يبكون في وجهه فرق لهم. فقالوا: يا أبا لبابة أترى أن ننزل على حكم محمد قال نعم وأشار بيده إلى حلقه أنه الذبح، قال أبو لبابة فوالله ما زالت قدماي حتى عرفت أني قد خنت الله ورسوله ثم انطلق أبو لبابة على وجهه ولم يأت النبي ﷺ حتى ربط في

قوله تعالى: ﴿ يا أيها النبي قل لأزواجك إنْ كنتنّ تردْنَ الحياة الدنيا وزينتها فتعالينَ أُمتّعكنّ ﴾، متعة الطلاق، ﴿ وأُسرّحكنّ سراحاً جميلاً ﴾.

﴿ وإن كنتنّ تردنَ اللّهَ ورسولَه والدارَ الآخرة فإنّ الله أعدّ للمحسناتِ منكنّ أجراً عظيماً ﴾، سبب نزول هذه الآية أن نساء النبي ﷺ سألته شيئاً من عرض الدنيا وطلبن منه زيادة في النفقة وآذينه بغيرة بعضهنّ على بعض، فهجرهنّ رسول الله ﷺ وآلى أن لا يقربهنّ شهراً ولم يخرج إلى أصحابه، فقالوا ما شأنه؟ وكانوا يقولون طلّق رسول الله ﷺ نساءه، فقال عمر لأعلمنّ لكم شأنه، قال: فدخلت على رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله أطلقتهنّ؟ قال: «لا»، قلت: يا رسول الله إني دخلت المسجد والمسلمون يقولون طلّق رسول الله ﷺ نساءه، أفأنزل فأُخبرهم أنك لم تطلقهنّ؟ قال: «نعم إن شئت»، قال فقمت على باب المسجد وناديت بأعلى صوتي لم يطلّق رسول الله ﷺ نسائه، فنزلت هذه الآية: ﴿ وإذا جاءهم أمرٌ من الأمنِ أو الخوفِ أذاعوا به ولو ردُّوه إلى الرسولِ وإلى أُولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم ﴾ [النساء: ٨٣]، قال فكنت أنا استنبطت ذاك الأمر، وأنزل الله آية التخيير،

المسجد إلى عمود من عمده وقال والله لا أبرح مكاني حتى يتوب الله علي مما صنعت وعاهد الله لا يطأ أرض بني قريظة أبداً ولا يراني الله في بلد قد خنت الله ورسوله فيه أبداً. فلما بلغ رسول الله ﷺ خبره وأبطأ عليه قال أما لو قد جاءني لاستغفرت له فأما إذ فعل فما أنا بالذي أطلقه من مكانه حتى يتوب الله عليه، ثم إن الله أنزل توبة أبي لبابة على رسول الله ﷺ وهو في بيت أم سلمة قالت أم سلمة فسمعت رسول الله ﷺ يضحك فقلت: مم ضحكت يا رسول الله أضحك الله سنك؟ قال: تيب على أبي لبابة. فقلت: ألا أبشره بذلك يا رسول الله قال بلى إن شئت قال فقامت على باب حجرتها وذلك قبل أن يضرب عليهن الحجاب. فقالت: يا أبا لبابة أبشر فقد تاب الله عليك. قال: فثار الناس إليه ليطلقوه فقال لا والله حتى يكون رسول الله هو الذي يطلقني بيده فلما مر عليه خارجاً إلى الصبح أطلقه. قال: ثم إن ثعلبة بن سعيد وأسيد بن سعيد وأسيد بن عبيد وهم نفر من بني هذيل ليسوا من قريظة ولا النضير نسبهم من فوق ذلك هم بنو عم القوم أسلموا تلك الليلة التي نزلت فيها بنو قريظة على حكم رسول الله ﷺ. وخرج في تلك الليلة عمرو بن السعدي القرظي فمر بحرس رسول الله ﷺ وعليهم محمد بن مسلمة الأنصاري تلك الليلة، فلما رآه قال: من هذا قال: عمرو بن السعدي وكان عمرو قد أبى أن يدخل مع بني قريظة في غدرهم برسول الله ﷺ وقال لا أغدر بمحمد ﷺ أبداً فقال محمد بن مسلمة اللهم لا تحرمني من عثرات الكرام، فخلى سبيله فخرج على وجهه حتى بات في مسجد رسول الله ﷺ في المدينة تلك الليلة ثم ذهب فلا يدري أين ذهب من أرض الله فذكر لرسول الله ﷺ شأنه فقال ذاك رجل نجاه الله بوفائه؛ وبعض الناس يزعم أنه كان أوثق برمة فيمن أوثق من بني قريظة حين نزلوا على حكم رسول الله ﷺ فأصبحت برمته ملقاة ولا يدري أين ذهب. فقال: فيه رسول الله ﷺ تلك المقالة فلما أصبحوا نزلوا على حكم رسول الله ﷺ فتواثب الأوس وقالوا يا رسول الله إنهم موالينا دون الخزرج وقد فعلت في موالي الخزرج بالأمس ما قد علمت.

وقد كان رسول الله ﷺ قبل بني قريظة حاصر بني قينقاع وكانوا حلفاء الخزرج فنزلوا على حكمه. فسأله إياهم عبد الله بن أبي بن سلول فوهبهم له. فلما كلمه الأوس قال رسول الله ﷺ ألا ترضون يا معشر الأوس أن يحكم فيهم رجل منكم قالوا بلى. قال: فذلك إلى سعد بن معاذ وكان سعد جعله رسول الله ﷺ في مسجده في خيمة امرأة من المسلمين يقال لها رفيدة وكانت تداوي الجرحى وتحتسب بنفسها على خدمة من كانت به ضيعة من المسلمين وكان رسول الله ﷺ قد قال لقومه حين أصابه السهم بالخندق اجعلوه في خيمة رفيدة حتى أعوده من قريب، فلما حكمه رسول الله ﷺ في بني قريظة أتاه قومه فحملوه على حمار قد وطئوا له وسادة من أدم وكان رجلاً جسيماً ثم أقبلوا معه

وكانت تحت رسول الله ﷺ يومئذ تسع نسوة خمس من قريش: عائشة بنت أبي بكر الصديق، وحفصة بنت عمرو، وأم حبيبة بنت أبي سفيان، وأم سلمة بنت أبي أمية، وسودة بنت زمعة، وغير القرشيات: زينب بنت جحش الأسدية، وميمونة بنت الحارث الهلالية، وصفية بنت حُيي بن أخطب الخيبرية، وجويرية بنت الحارث المصطلقيّة رضوان الله عليهنّ، فلما نزلت آية التخيير بدأ رسول الله ﷺ بعائشة، وكانت أحبهنّ إليه فخيّرها وقرأ عليها القرآن فاختارت الله ورسوله والدار الآخرة، فرُؤِيَ الفرح في وجه رسول الله ﷺ وتابعتها على ذلك. قال قتادة: فلما اخترن الله ورسوله شكرهنّ الله على ذلك فقال: ﴿ لا يحلّ لك النساء من بعد ﴾ [الأحزاب: ٥٢]، أخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر أنا عبد الغفّار بن محمد أنا محمد بن عيسى الجلودي أنا إبراهيم بن محمد بن سفيان أنا مسلم بن الحجّاج أنا زهير بن حرب أنا روح بن عُبادة أنا زكريا بن إسحق أنا أبو الزبير عن جابر بن عبد الله قال: **دخل أبو بكر يستأذن على رسول الله ﷺ، فوجد الناس جلوساً ببابه ولم يؤذن لأحد منهم، قال: فأذن لأبي بكر فدخل ثم أقبل عمر فاستأذن له فوجد النبي ﷺ جالساً حوله نساؤه واجماً ساكتاً، فقال: لأقولنّ شيئاً أُضحِك به النبي ﷺ، فقال: يا** رسول الله لو رأيت بنت خارجة سألتني النفقة فقمت إليها فوجأت عنقها، فضحك رسول الله ﷺ، وقال: «هنّ حولي

إلى رسول الله ﷺ، وهم يقولون يا أبا عمرو أحسن في مواليك فإن رسول الله ﷺ إنما ولاك ذلك لتحسن فيهم فلما أكثروا عليه. قال: قد آن لسعد أن تأخذه في الله لومة لائم فرجع بعض من كان معه من قومه إلى دار بني الأشهل فنعى لهم رجال بني قريظة قبل أن يصل إليهم سعد بن معاذ عن كلمته التي سمع منه، فلما انتهى سعد إلى رسول الله ﷺ قال قوموا إلى سيدكم فأنزلوه فقاموا إليه وقالوا: يا أبا عمرو إن رسول الله ﷺ قد ولاك مواليك فتحكم فيهم. فقال سعد عليكم بذلك عهد الله وميثاقه أن الحكم فيهم ما حكمت. قالوا: نعم قال وعلى من ها هنا في الناحية التي فيها رسول الله ﷺ، وهو معرض عن رسول الله ﷺ إجلالاً له فقال رسول الله ﷺ نعم. قال سعد: فاني أحكم فيهم أن تقتل الرجال وتقسم الأموال وتسبى الذراري والنساء. فقال رسول الله ﷺ لسعد «لقد حكمت بحكم الله من فوق سبعة أرقعة» ثم استنزلوا فحبسهم رسول الله ﷺ في دار بنت الحارث من نساء بني النجار ثم خرج رسول الله ﷺ إلى سوق المدينة التي هي سوقها اليوم فخندق بها خنادق ثم بعث إليهم فضربت أعناقهم في تلك الخنادق يخرج بهم أرسالاً وفيهم عدو الله ورسوله حيي بن أخطب وكعب بن أسد رأس القوم وهم ستمائة أو سبعمائة والمكثر لهم يقول: كانوا بين الثمانمائة إلى التسعمائة وقد قالوا لكعب بن أسد وهم يذهب بهم إلى رسول الله ﷺ أرسالاً يا كعب ما ترى ما يصنع بنا قال أفي كل موطن لا تعقلون ألا ترون الداعي لا ينزع وأن من يذهب به منكم لا يرجع هو والله القتل فلم يزل ذلك الدأب حتى فرغ منهم النبي ﷺ وأتى بحيي بن أخطب عدو الله وعليه حلة تفاحية قد شققها عليه من كل ناحية كموضع الأنملة أنملة أنملة لئلا يسلبها مجموعة يداه إلى عنقه بحبل فلما نظر إلى رسول الله ﷺ قال والله ما لمت نفسي في عداوتك ولكنه من يخذل الله يخذل ثم أقبل على الناس فقال أيها الناس إنه لا بأس بأمر الله كتاب وقدر وملحمة كتبت على بني إسرائيل ثم جلس فضرب عنقه وروي عن عائشة قالت لم يقتل من نساء بني قريظة إلا امرأة واحدة قالت والله إنها لعندي تتحدث معي وتضحك ظهراً وبطناً ورسول الله ﷺ يقتل رجالهم بالسيف إذ هتف هاتف باسمها أين فلانة قالت أنا والله قلت ويلك مالك قالت أقتل قلت ولم قالت حدثا أحدثته قالت فانطلق بها فضرب عنقها وكانت عائشة تقول ما أنسى عجباً منها طيب نفس وكثرة ضحك وقد عرفت أنها تقتل قال الواقدي وكان اسم المرأة بنانة امرأة الحكم القرظي وكانت قتلت خلاد بن سويد قال وكان علي والزبير يضربان أعناق بني قريظة ورسول الله ﷺ جالس هناك.

وروى محمد بن إسحاق عن الزهري أن الزبير بن باطا القرظي ويكنى أبا عبد الرحمن كان قد مَنَّ على ثابت بن قيس بن شماس في الجلية يوم بعاث أخذه فجز ناصيته ثم خلى سبيله فجاءه يوم قريظة وهو شيخ كبير فقال يا أبا عبد الرحمن هل تعرفني قال وهل يجهل مثلي مثلك قال إني أريد أن أجزيك بيدك عندي قال إن الكريم يجزي الكريم قال ثم أتى ثابت إلى رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله قد كان للزبير عندي يد وله عليَّ منة وقد أحببت أن أجزيه بها فهب لي دمه فقال رسول الله ﷺ «هولك» فأتاه فقال له إن رسول الله ﷺ قد وهب لي دمك قال شيخ كبير لا أهل له ولا ولد فما يصنع بالحياة فأتى ثابت رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله أهله وأولاده فقال «هم لك» فأتاه فقال إن

كما ترى يسألنني النفقة»، فقام أبو بكر إلى عائشة يجأ عنقها، وقام عمر إلى حفصة يجأ عنقها، كلاهما يقول لا تسألي رسول الله شيئاً أبداً ليس عنده، ثم اعتزلهنّ شهراً أو تسعاً وعشرين، ثم نزلت هذه الآية: ﴿ **يا أيها النبي قل لأزواجك** ﴾، حتى بلغ: ﴿ **للمحسنات منكنّ أجراً عظيماً** ﴾، قال فبدأ بعائشة فقال: «يا عائشة إني أريد أن أعرض عليك أمراً أُحبّ أن لا تعجلي فيه حتى تستشيري أبويك»، قالت: وما هو يا رسول الله فتلا عليها الآية، قالت: أفيك يارسول الله أستشير أبويّ؟ بل أختار اللّهَ ورسولَه وأختار الدارَ الآخرة، وأسألك أن لا تخبر امرأة من نسائك بالذي قلت، قال: «لا تسألني امرأةٌ منهنّ إلاّ أخبرتُها أن الله لم يبعثني معنتاً ولا متعنتاً ولكن بعثني معلّماً مبشِّراً»، أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحي أنا أبو الحسين بن بشران أنا إسماعيل بن محمد الصفار أخبرنا أحمد بن منصور

رسول الله ﷺ أعطاني امرأتك وولدك فهم لك فقال أهل بيت بالحجاز لا مال لهم فما بقاؤهم على ذلك فأتى ثابت رسول الله ﷺ فقال ما له يا رسول الله قال هو لك فأتاه فقال إن رسول الله ﷺ قد أعطاني مالك فهو لك فقال أي ثابت ما فعل الذي كان وجهه مرآة صينية يتراءى فيه عذارى الحي كعب بن أسد قال قتل قال فما فعل مقدمتنا إذا شددنا وحاميتنا إذا كررنا عزال بن شموال قال قتل قال فما فعل المجلسان يعني بني كعب بن قريظة وبني عمرو بن قريظة قال قتلوا قال فإني أسألك بيدي عندك يا ثابت إلا ما ألحقتني بالقوم فوالله ما في العيش بعد هؤلاء من خير فما أنا بصابر حتى ألقى الأحبة فقدمه ثابت فضربت عنقه فلما بلغ أبا بكر الصديق قوله حتى يلقى الأحبة قال يلقاهم والله في نار جهنّم خالداً مخلداً أبداً قال وكان رسول الله ﷺ قد أمر بقتل من أنبت منهم ثم قسم أموال بني قريظة ونساءهم على المسلمين وأغنم في ذلك اليوم سهمين للخيل وسهماً للرجال فكان للفارس ثلاثة أسهم سهمان للفرس ولفارسه سهم وللراجل ممن ليس له فرس سهم وكانت الخيل ستة وثلاثين فرساً وكان أول يوم وقع فيه السهمان ثم بعث رسول الله ﷺ سعد بن زَيد الأنصاري أخا بني الأشهل بسبايا من سبايا بني قريظة إلى نجد فابتاع له بهم خيلا وسلاحاً وكان رسول الله ﷺ قد اصطفى لنفسه من نسائهم ريحانة بنت عمرو بن خنانة إحدى نساء بني عمرو بن قريظة فكانت عند رسول الله ﷺ حتى توفي عنها وهي في ملكه وقد كان رسول الله ﷺ يحرص على أن يتزوجها ويضرب عليها الحجاب. فقالت: يا رسول الله بل تتركني في ملكك فهو أخف علي وعليك فتركها، وقد كانت حين سباها كرهت الإسلام وأبت إلا اليهودية فعزلها رسول الله ﷺ ووجد في نفسه بذلك من أمرها. فبينما هو بين أصحابه إذ سمع وقع نعلين خلفه فقال إن هذا لثعلبة بن شعبة يبشرني بإسلام ريحانة، فجاءه فقال: يا رسول الله قد أسلمت ريحانة فسره ذلك فلما قضي شأن بني قريظة انفجر جرح سعد بن معاذ وذلك أنه دعا بعد أن حكم في بني قريظة ما حكم فقال اللهم إنك علمت أنه لم يكن قوم أحب إلي أن أجاهدهم من قوم كذبوا رسولك اللهم إن كنت أبقيت من حرب قريش على رسولك شيئاً فأبقني له وإن كنت قد قطعت الحرب بينه وبينهم فاقبضني إليك فانفجر كلمه فرجعه رسول الله ﷺ إلى خيمته التي ضربت عليه في المسجد. قالت: عائشة فحضره رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر فو الذي نفس محمد بيده إني لأعرف بكاء عمر من بكاء أبي بكر وإني لفي حجرتي. قالت: وكانوا كما قال الله تعالى فيهم ﴿رحماء بينهم﴾.
(خ) عن سلمان بن صرد قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول حين أجلى الأحزاب «الآن نغزوهم ولا يغزوننا نحن نسير إليهم». (ق) عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ كان يقول «لا إله إلا الله وحده لا شريك له أعز جنده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده فلا شيء بعده».

قوله تعالى ﴿**يا أيها النبي قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن**﴾ أي متعة الطلاق ﴿**وأسرحكن سراحاً جميلًا**﴾ أي من غير ضرر ﴿**وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعد للمحسنات منكن أجراً عظيماً**﴾ سبب نزول هذه الآية أن نساء النبي ﷺ سألنه من عرض الدنيا شيئاً وطلبن منه زيادة في النفقة وآذينه بغيرة بعضهن على بعض فهجرهن رسول الله ﷺ وآلى أن لا يقربهن شهراً، ولم يخرج إلى أصحابه فقالوا ما شأنه

الرمادي أنا عبد الرزاق أنا معمر عن الزهري أن النبي ﷺ أقسم أنْ لا يدخل على أزواجه شهراً، قال الزهري فأخبرني عروة بن الزبير عن عائشة أنها قالت: فلما مضت تسع وعشرون أعدهنّ دخل عليّ رسول الله ﷺ فقلت حين بدأ بي: يا رسول الله إنك أقسمت ألّا تدخل علينا شهراً وإنك دخلت في تسع وعشرين أعدهنّ؟ فقال: «إن الشهر تسع وعشرون»، واختلف العلماء في هذا الخيار أنه هل كان ذلك تفويض الطلاق إليهنّ حتى يقع بنفس الاختيار أم لا؟ فذهب الحسن وقتادة وأكثر أهل العلم إلى أنه لم يكن تفويض الطلاق وإنما خيّرهنّ على أنهنّ إذا اخترن الدنيا فارقهنّ، لقوله تعالى: ﴿ **فتعالين أمتعكنّ وأسرّحكنّ سراحاً جميلاً** ﴾، بدليل أنه لم يكن جوابهنّ على الفور فإنه قال لعائشة: «لا تعجلي حتى تستشيري أبويك»، وفي تفويض الطلاق يكون الجواب على الفور، وذهب

وكانوا يقولون طلق رسول الله ﷺ نساءه. فقال عمر: لأعلمن لكم شأنه قال فدخلت على رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله أطلقتهن قال: «لا» قلت: يا رسول الله إني دخلت المسجد والمسلمون يقولون طلق رسول الله ﷺ نساءه أفأنزل فأخبرهم أنك لم تطلقهن. قال: «نعم إن شئت» فقمت على باب المسجد وناديت بأعلى صوتي لم يطلق رسول الله ﷺ نساءه ونزلت هذه الآية ﴿ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم﴾ فكنت أنا استنبطت هذا الأمر. وأنزل الله آية التخيير وكان تحت رسول الله ﷺ يومئذ تسع نسوة خمسة من قريش وهن: عائشة بنت أبي بكر وحفصة بنت عمر وأم حبيبة بنت أبي سفيان وأم سلمة بنت أبي أمية وسودة بنت زمعة، وأربع من غير قرشيات وهن زينب بنت جحش الأسدية وميمونة بنت الحارث الهلالية وصفية بنت حيي بن أخطب الخيبرية وجويرية بنت الحارث المصطلقية، فلما نزلت آية التخيير بدأ رسول الله ﷺ بعائشة، وكانت أحبهن إليه فخيرها وقرأ عليها القرآن فاختارت الله ورسوله والدار الآخرة فرؤي الفرح في وجه رسول الله ﷺ، وتابعتها على ذلك فلما اخترن الله ورسوله شكرهن الله على ذلك وقصره عليهن فقال تعالى ﴿لا يحل لك النساء من بعد﴾ (م) عن جابر بن عبد الله قال «دخل أبو بكر يستأذن على رسول الله ﷺ فوجد الناس جلوساً ببابه لم يؤذن لأحد منهم، فأذن لأبي بكر فدخل، ثم أقبل عمر فاستأذن فأذن له فوجد رسول الله ﷺ جالساً وحوله نساؤه واجماً ساكتاً. فقال: لأقولن شيئاً أضحك به النبي ﷺ فقلت: يا رسول الله لقد رأيت بنت خارجة سألتني النفقة فقمت إليها فوجأت عنقها فضحك النبي ﷺ فقال «هن حولي كما ترى يسألنني النفقة» فقام أبو بكر إلى عائشة فوجأ عنقها وقام عمر إلى حفصة فوجأ عنقها كلاهما يقول: تسألن رسول الله ﷺ ما ليس عنده فقلن والله لا نسأل رسول الله ﷺ شيئاً أبداً ليس عنده ثم اعتزلهن شهراً أو تسعاً وعشرين حتى نزلت هذه الآية: ﴿يا أيها النبي قل لأزواجك إن كنتن﴾ حتى بلغ: ﴿للمحسنات منكن أجراً عظيماً﴾ قال: فبدأ بعائشة فقال: يا عائشة إني أريد أن أعرض عليك أمراً أحب أن لا تعجلي فيه حتى تستشيري أبويك قالت: وما هو يا رسول ﷺ فتلا عليها الآية قالت أفيك يا رسول الله أستشير أبوي بل أختار الله ورسوله والدار الآخرة وأسألك أن لا تخبر امرأة من نسائك بالذي قلت: قال: «لا تسألني امرأة منهن إلا أخبرتها إن الله لم يبعثني معنتاً ولا متعنتاً ولكن بعثني معلماً مبشراً» قوله واجماً أي مهتماً، والواجم الذي أسكته الهم وعلته الكآبة وقيل الوجوم الحزن. قولهم فوجأت عنقها أي دققته وقوله لم يبعثني معنتاً العنت المشقة والصعوبة (م) عن الزهري أن النبي ﷺ أقسم أن لا يدخل على أزواجه شهراً قال الزهري فأخبرني عروة عن عائشة قالت: لما مضت تسع وعشرون ليلة أعدهن دخل علي رسول الله ﷺ بدأ بي فقلت: يا رسول الله، أقسمت أن لا تدخل علينا شهراً وإنك دخلت من تسع وعشرين؛ أعدهن قال: إن الشهر تسع وعشرون.

فصل في حكم الآية

اختلف العلماء في هذا الخيار هل كان ذلك تفويض الطلاق إليهن، حتى يقع بنفس الاختيار أم لا فذهب الحسن وقتادة وأكثر أهل العلم، إلى أنه لم يكن تفويض الطلاق وإنما خيرهن على أنهن إذ اخترن الدنيا فارقهن لقوله تعالى **﴿فتعالين أمتعكن وأسرحكن﴾** بدليل أنه لم يكن جوابهن على الفور، وأنه قال لعائشة: «لا تعجلي حتى تستشيري أبويك» وفي تفويض الطلاق يكون الجواب على الفور، وذهب قوم إلى أنه كان تفويض الطلاق ولو اخترن أنفسهن كان طلاقاً. التفريع على حكم الآية اختلف أهل العلم في حكم التخيير، فقال عمر وابن مسعود، وابن عباس: إذا

قوم إلى أنه كان تفويض الطلاق لو اخترن أنفسهنّ كان طلاقها، واختلف أهل العلم في حكم التخيير، فقال عمر وابن مسعود وابن عباس: إذا خيّر الرجل امرأته فاختارت زوجها لا يقع شيء وإن اختارت نفسها يقع طلقة واحدة، وهو قول عمر بن عبد العزيز وابن أبي ليلى وسفيان والشافعي وأصحاب الرأي، إلّا أن عند أصحاب الرأي تقع طلقة

خير الرجل امرأته فاختارت زوجها لا يقع شيء وإن اختارت نفسها يقع طلقة واحدة، وهو قول عمر بن عبد العزيز وابن أبي ليلى وسفيان والشافعي وأصحاب الرأي إلا أن عند أصحاب الرأي يقع طلقة بائنة إذا اختارت نفسها وعند الآخرين رجعية وقال زيد بن ثابت: إذا اختارت الزوج يقع طلقة واحدة وإذا اختارت نفسها فثلاث وهو قول الحسن وبه قال مالك. وروي عن علي أنها إذا اختارت زوجها يقع طلقة واحدة، وإذا اختارت نفسها فطلقة بائنة وأكثر العلماء على أنها إذا اختارت زوجها لا يقع شيء (ق) عن مسروق قال: ما أبالي خيرت امرأتي واحدة أو مائة أو ألفاً بعد أن تختارني، ولقد سألت عائشة رضي الله عنها، فقالت خيرنا رسول الله ﷺ فما كان طلاقاً وفي رواية فاخترناه فلم يعد ذلك شيئاً. قوله تعالى:

﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأۡتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ ضِعۡفَيۡنِۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا ۝٣٠ ۞ وَمَن يَقۡنُتۡ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا نُّؤۡتِهَآ أَجۡرَهَا مَرَّتَيۡنِ وَأَعۡتَدۡنَا لَهَا رِزۡقٗا كَرِيمٗا ۝٣١ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّۚ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ۝٣٢﴾

﴿يا نساء النبي من يأت منكن بفاحشة مبينة﴾ أي بمعصية ظاهرة قيل: هو كقوله ﴿لئن أشركت ليحبطن عملك﴾ أي لأن منهن من أتت بفاحشة، فإن الله تعالى صان أزواج الأنبياء عن الفاحشة وقال ابن عباس المراد بالفاحشة النشوز وسوء الخلق ﴿يضاعف لها العذاب ضعفين﴾ أي مثلين وسبب تضعيف العقوبة، لهن لشرفهن كتضعيف عقوبة الحرة على الأمة وذلك لأن نسبة النبي ﷺ إلى غيره من الرجال كنسبة الحرة إلى الأمة ﴿وكان ذلك على الله يسيراً﴾ أي عذابها ﴿ومن يقنت منكن لله ورسوله﴾ أي تطع الله ورسوله ﴿وتعمل صالحاً نؤتها أجرها مرتين﴾ أي مثلي أجر غيرها قيل: الحسنة بعشرين حسنة وتضعيف ثوابهن لرفع منزلتهن وفيه إشارة إلى أنهن أشرف نساء العالمين ﴿وأعتدنا لها رزقاً كريماً﴾ أي الجنة. قوله تعالى ﴿يا نساء النبي لستن كأحد من النساء﴾ قال ابن عباس: يريد ليس قدركن عندي

بائنة إذا اختارت نفسها، وعند الآخرين رجعية، وقال زيد بن ثابت: إذا اختارت الزوج تقع طلقة واحدة، وإذا اختارت نفسها فثلاث، وهو قول الحسن وبه قال مالك، ورُوِيَ عن علي أيضاً إذا اختارت زوجها تقع طلقة واحدة وإن اختارت نفسها فطلقة بائنة، وأكثر العلماء على أنها إذا اختارت زوجها لا يقع شيء، أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن إسماعيل أنا عمر بن حفص أنا أبي أنا الأعمش أنا مسلم عن مسروق عن عائشة قالت: خيّرنا رسول الله ﷺ فاخترنا اللَّهَ ورسولَه فلم يعدّ ذلك علينا شيئاً.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ يا نساء النبي مَن يأت منكنّ بفاحشةٍ مُبيِّنَةٍ ﴾، بمعصية ظاهرة، قيل: هي كقوله عزّ وجلّ: ﴿ لئن أشركت ليحبطنّ عملك ﴾ [الزّمر: ٦٥] لا أن منهنّ مَن أتت بفاحشة. وقال ابن عباس: المراد بالفاحشة النشوز وسوء الخلق. ﴿ يضاعفْ لها العذاب ضعفين ﴾، قرأ ابن كثير وابن عامر: «نضعـف» بالنون وكسر العين وتشديدها. ﴿ العذاب ﴾ نصب، وقرأ الآخرون بالياء وفتح العين ﴿ العذاب ﴾ رفع ويشدّدها أبو جعفر وأهل البصرة، وشدّد أبو عمرو هذه وحدها لقوله: ﴿ ضعفين ﴾، وقرأ الآخرون: ﴿ يضاعف ﴾ بالألف وفتح العين، ﴿ العذاب ﴾ رفع، وهما لغتان مثل بعد وباعد، قال أبو عمرو وأبو عبيدة : ضعفت الشيء إذا جعلته مثليه وضاعفته جعلته أمثاله. ﴿ وكان ذلك على الله يسيراً ﴾، قال مقاتل: كان عذابها على الله ههنا وتضعيف عقوبتهنّ على المعصية لشرفهنّ كتضعيف عقوبة الحرّة على الأمة وتضعيف ثوابهنّ لرفع منزلتهنّ، وفيه إشارة إلى أنهنّ أشرف نساء العالمين.

مثل قدر غيركن من النساء الصالحات، أنتن أكرم علي وثوابكن أعظم لدي ﴿إن اتقيتن﴾ أي الله فأطعتنه فإن الأكرم عند الله هو الأتقى ﴿فلا تخضعن بالقول﴾ أي لا تلن بالقول للرجال ولا ترققن الكلام ﴿فيطمع الذي في قلبه مرض﴾ أي فجور وشهوة وقيل نفاق والمعنى لا تقلن قولاً يجد المنافق والفاجر به سبيلا إلى الطمع فيكن والمرأة مندوبة إلى الغلظة في المقال إذا خاطبت الأجانب لقطع الأطماع فيهن ﴿وقلن قولاً معروفاً﴾ أي يوجبه الدين والإسلام عند الحاجة إليه، ببيان من غير خضوع وقيل القول المعروف ذكر الله تعالى. قوله عز وجل:

وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾

﴿وقرن في بيوتكن﴾ أي إلزمن بيوتكن وقيل هو أمر من الوقار أي كن أهل وقار وسكون ﴿ولا تبرجن تبرج﴾ قيل: هو التكسر والتغنج والتبختر وقيل: هو إظهار الزينة وإبراز المحاسن للرجال ﴿الجاهلية الأولى﴾ قيل الجاهلية الأولى هو ما بين عيسى ومحمد ﷺ وقيل: هو زمن داود وسليمان عليهما السلام كانت المرأة تلبس قميصاً من الدر

﴿ ومَن يقنتْ ﴾، يطع، ﴿ منكنّ لله ورسوله ﴾، قرأ يعقوب: «من تأت منكنّ، وتقنت» بالتاء فيهما، وقرأ العامّة بالياء لأن ﴿ من ﴾ أداةٌ تقوم مقام الاسم يعبّر به عن الواحد والجمع والمذكّر والمؤنث، ﴿ وتعمل صالحاً نُؤتِها أجرَها مرتين ﴾، أي مثل أجر غيرها، قال مقاتل: مكان كل حسنة عشرين حسنة. وقرأ حمزة والكسائي: «يعمل يؤتها» بالياء فيهما نسقاً على قوله: ﴿ ومَن يأتِ، ويقنت ﴾ قرأ الآخرون «تعمل» بالتاء، ﴿ وأعتدنا لها رِزْقاً كريماً ﴾، حسناً يعني الجنة.

﴿ يا نساء النبي لستنّ كأحدٍ من النساء ﴾، قال ابن عباس: يريد ليس قَدْرُكنّ عندي مثل قدر غيركنّ النساء الصالحات أنتنّ أكرم عليّ وثوابكنّ أعظم لديّ ولم يقل كواحدة لأن الأحد عامّ يصلح للواحد والاثنين والجمع والمذكّر والمؤنث، قال الله تعالى: ﴿ لا نفرّق بين أحد من رسله ﴾ [البقرة: ٢٨٥] وقال: ﴿ فما منكم من أحد عنه حاجزين ﴾ [الحاقّة: ٤٧]، ﴿ إنِ اتّقيتنّ ﴾، الله أطعنه، ﴿ فلا تخضعنَ بالقول ﴾، لا تلن بالقول للرجال ولا ترقّقن الكلام، ﴿ فيطمع الذي في قلبه مرض ﴾، أي فجور وشهوة، وقيل نفاق، والمعنى لا تقلن قولاً يجد منافق أو فاجر به سبيلاً إلى الطمع فيكنّ، والمرأة مندوبة إلى الغلظة في المقالة إذا خاطبت الأجانب لقطع الأطماع، ﴿ وقلنَ قولاً مَعْرُوفاً ﴾، ما يوجبه الدين والإسلام بتصريح وبيان من غير خضوع.

﴿ وقرنَ في بيوتكنّ ﴾، قرأ أهل المدينة وعاصم ﴿ وقرن ﴾ بفتح القاف، وقرأ الآخرون بكسرها فمَن فتح القاف فمعناه: أقررن أي الزمن بيوتكنّ من قولهم قررت بالمكان أقرّ قرّاً ويقال قررت أقَرّ وقررت أقِرّ وهما لغتان، فحذفت الراء الأولى التي هي عين الفعل لثقل التضعيف ونقلت حركتها إلى القاف كقولهم: في ظللت ظلّت، قال الله تعالى: ﴿ فظلتم تفكهون ﴾ [الواقعة: ٦٥]، ﴿ ظلت عليه عاكفاً ﴾ [طه: ٩٧]، ومَن كسر القاف فقد قيل هو من قررت أقِرّ معناه أقررن بكسر الراء فحذفت الأولى ونقلت حركتها إلى القاف كما ذكرنا، وقيل: هو الأصح أنه أمر

غير مخيط الجانبين، فيرى خلفها منه وقيل كان في زمن نمرود الجبار كانت المرأة، تتخذ الدرع من اللؤلؤ فتلبسه وتمشي به وسط الطريق ليس عليها شيء غيره وتعرض نفسها على الرجال وقال ابن عباس: الجاهلية الأولى ما بين نوح وإدريس، وكانت ألف سنة وقيل: إن بطنين من ولد آدم عليه السلام كان أحدهما يسكن السهل والآخر يسكن الجبل وكانت رجال الجبال صباحاً وفي النساء دمامة وكان نساء السهل صباحاً وفي الرجال دمامة وإن إبليس أتى رجلاً من أهل السهل وأجره نفسه وكان يخدمه واتخذ شيئاً مثل الذي يزمر به الرعاة فجاء بصوت لم يسمع الناس مثله فبلغ ذلك من حولهم فأتوهم يستمعون إليه، واتخذوا عيداً يجتمعون إليه في السنة فتتبرج النساء للرجال وتتزين الرجال لهن، وإن رجلاً من أهل الجبل، هجم عليهم في عيدهم ذلك فرأى النساء وصباحتهن، فأتى أصحابه فأخبرهم بذلك فتحولوا إليهم فنزلوا معهم وظهرت الفاحشة فيهن فذلك قوله تعالى «ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى» وقيل الجاهلية الأولى ما قبل الإسلام والجاهلية الأخرى، قوم يفعلون مثل فعلهم في آخر الزمان وقيل قد تذكر الأولى وإن لم تكن لها أخرى ﴿**وأقمن الصلاة**﴾ أي الواجبة ﴿**وآتين الزكاة**﴾ أي المفروضة ﴿**وأطعن الله ورسوله**﴾ أي فيما أمر وفيما نهى ﴿**إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس**﴾ أي الإثم الذي نهى الله النساء عنه.

وقال ابن عباس: يعني عمل الشيطان وما ليس لله فيه رضا، وقيل: الرجس الشك وقيل السوء ﴿**أهل البيت ويطهركم تطهيراً**﴾ هم نساء النبي ﷺ لأنهن في بيته وهو رواية سعيد بن جبير عن ابن عباس وتلا قوله تعالى ﴿**واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة**﴾ وهو قول عكرمة ومقاتل وذهب أبو سعيد الخدري وجماعة من التابعين منهم مجاهد وقتادة وغيرهم إلى أنهم علي وفاطمة والحسن والحسين رضي الله عنهم، يدل عليه ما روي من عائشة أم المؤمنين قالت «خرج النبي ﷺ ذات غداة وعليه مرط مرجل من شعر أسود فجلس فأتت فاطمة فأدخلها فيه ثم جاء علي فأدخله فيه ثم جاء الحسن فأدخله فيه، ثم جاء الحسين فأدخله فيه ثم قال: ﴿**إنما يريد الله ليذهب عنكم**

من الوقار كقولهم من الوعد عدن ومن الوصل صلن أي أهل وقار وسكون، من قولهم وقر فلان يقرّ وقوراً إذا سكن واطمأن، ﴿ **ولا تبرجنَ** ﴾ قال مجاهد وقتادة: التبرّج هو التكسّر والتغنّج، وقال ابن أبي نجيح: هو التبختر. وقيل: هو إظهار الزينة وإبراز المحاسن للرجال، ﴿ **تبرّجَ الجاهلية الأولى** ﴾، اختلفوا في الجاهلية الأولى. قال الشعبي: هي ما بين عيسى ومحمد ﷺ. وقال أبو العالية: هي في زمن داود وسليمان عليهما السلام كانت المرأة تلبس قميصاً من الدرّ غير مَخيط من الجانبين فيُرى حلقها فيه. وقال الكلبي: كان ذلك في زمن نمرود الجبّار، كانت المرأة تتّخذ الدرع من اللؤلؤ فتلبسه وتمشي وسط الطريق ليس عليها شيء غيره وتعرض نفسها على الرجال. ورُوِيَ عن عكرمة عن ابن عباس أنه قال: الجاهلية الأولى بين نوح وإدريس، وكانت ألف سنة وأن بطنين من ولد آدم كان أحدهما يسكن السهل والآخر يسكن الجبل، وكان رجال الجبل صَبَاحاً وفي النساء دمامة، وكان نساء السهل صباحاً وفي الرجال دمامة، وأن إبليس أتى رجلاً من أهل السهل وأجر نفسه منه، فكان يخدمه واتخذ شيئاً مثل الذي يزمّر به الرعاء فجاء بصوت لم يسمع الناس بمثله، فبلغ ذلك من حولهم فأتوهم يستمعون إليه فاتخذوا عيداً يجتمعون إليه فيه في السنة فتتبرج النساء للرجال ويتزينّ الرجال لهنّ، وإن رجلاً من أهل الجبل هجم عليهم في عيدهم ذلك فرأى النساء وصباحتهنّ فأتى أصحابه فأخبرهم بذلك فتحوّلوا إليهم فنزلوا معهم فظهرت الفاحشة فيهم، فذلك قوله تعالى: ﴿ **ولا تبرجنَ تبرُّجَ الجاهلية الأولى** ﴾، وقال قتادة: هي ما قبل الإسلام. وقيل: الجاهلية الأولى ما ذكرنا والجاهلية الأخرى قوم يفعلون مثل فعلهم في آخر الزمان. وقيل: قد تذكر الأولى وإن لم يكن لها أخرى، كقوله تعالى: ﴿ وأنّه أهلك عاداً الأولى ﴾ [النجم: ٥٠]، ولم يكن لها أخرى. قوله تعالى: ﴿ **وأقمنَ الصلاةَ وآتينَ الزكاة وأطعنَ اللَّهَ ورسولَه إنّما يُريد اللَّهُ ليذهبَ عنكم الرجسَ أهلَ البيت** ﴾، أراد بالرجس الإثم الذي نهى الله

الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً﴾ أخرجه مسلم. المرط الكساء والمرحل بالحاء المنقوش عليه صور الرجال، وبالجيم المنقوش عليه صور الرجال، عن أم سلمة قالت: إن هذه الآية نزلت في بيتها، ﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً﴾ قالت وأنا جالسة عند الباب فقلت يا رسول الله ألست من أهل البيت فقال: إنك إلى خير أنت من أزواج النبي ﷺ قالت: وفي البيت رسول الله ﷺ وعلي وفاطمة وحسن وحسين فجللهم بكساء وقال: «اللهم هؤلاء أهل بيتي فأذهب عنه الرجس وطهرهم تطهيراً» أخرجه الترمذي. وقال حديث صحيح غريب عن أنس بن مالك «أن رسول الله ﷺ كان يمر بباب فاطمة ستة أشهر، إذا خرج إلى صلاة الفجر يقول الصلاة يا أهل البيت إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت، ويطهركم تطهيراً» أخرجه الترمذي. وقال حديث حسن غريب وقال زيد بن أرقم أهل البيت من حرم الصدقة بعده آل علي وآل عقيل وآل جعفر وآل عباس.

قوله تعالى ﴿واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله﴾ يعني القرآن ﴿والحكمة﴾ قيل هي السنة وقيل هي أحكام القرآن ومواعظه ﴿إن الله كان لطيفاً﴾ يعني بأوليائه وأهل طاعته ﴿خبيراً﴾ أي بجميع خلقه. قوله عز وجل ﴿إن المسلمين والمسلمات﴾ الآية وذلك أن أزواج النبي ﷺ قلن يا رسول الله ذكر الله الرجال في القرآن، ولم يذكر النساء بخير فما فينا خير نذكر به إنا نخاف أن لا تقبل منا طاعة فأنزل الله هذه الآية عن أم عمارة الأنصارية قالت: أتيت النبي ﷺ فقلت مالي أرى كل شيء إلى الرجال وما أرى النساء يذكرن بشيء فنزلت ﴿إن المسلمين والمسلمات﴾

النساء عنه، قال مقاتل، وقال ابن عباس: يعني عمل الشيطان وما ليس لله في رضاً، وقال قتادة: يعني السوء. وقال مجاهد: الرجس الشك، وأراد بأهل البيت نساء النبي ﷺ لأنهنّ في بيته، وهو رواية سعيد بن جبير عن ابن عباس، وتلا قوله: ﴿ واذكرنَ ما يُتلى في بيوتكنّ من آيات الله ﴾، وذهب أبو سعيد الخدري وجماعة من التابعين منهم مجاهد وقتادة وغيرهما إلى أنهم عليّ وفاطمة والحسن والحسين، ثنا أبو الفضل زياد بن محمد الحنفي أنا أبو محمد عبد الرحمن بن محمد الأنصاري أنا أبو محمد يحيىٰ بن محمد بن صاعدي أنا أبو همّام الوليد بن شجاع أنا يحيىٰ بن زكريا بن زائدة أنا أبي عن مصعب بن شيبة عن صفيّة بنت شيبة الحجبية عن عائشة أُم المؤمنين قالت: خرج رسول الله ﷺ ذات غداة وعليه مرط مرجل من شعر أسود، فجلس فأتت فاطمة فأدخلها فيه ثم جاء عليّ فأدخله فيه، ثم جاء حسن فأدخله فيه، ثم جاء حسين فأدخله فيه، ثم قال: ﴿ إنّما يريد الله ليُذهبَ عنكم الرِّجسَ أهلَ البيتِ ويطهِّركم تطهيراً ﴾، أخبرنا أبو سعيد أحمد بن محمد الحميدي أنا عبد الله الحافظ أنا أبو العباس محمد بن يعقوب الحسن بن مكرم أنا عثمان بن عمر أنا عبد الرحمن بن عبد الله بن دينار عن شريك بن أبي نمر عن عطاء بن يسار عن أُم سلمة قالت: في بيتي نزلت: ﴿ إنما يريد الله ليذهبَ عنكم الرجسَ أهل البيت ﴾، قالت: فأرسل رسول الله ﷺ إلى فاطمة وعلي والحسن والحسين، فقال: «هؤلاء أهل بيتي»، قالت: فقلت يا رسول الله أمَا أنا من أهل البيت؟ قال: «بلى إن شاء الله»، قال زيد بن أرقم: أهل بيته مَنْ حَرُمَ الصدقةُ عليه بعده، آل علي وآل عقيل وآل جعفر وآل عباس.

قوله تعالى: ﴿ واذكرنَ ما يُتلى في بيوتِكُنَّ من آياتِ الله ﴾، أي القرآن، ﴿ والحكمة ﴾، قال قتادة: يعني السُّنّة. وقال مقاتل: أحكام القرآن ومواعظه. ﴿ إنّ الله كان لطيفاً خبيراً ﴾، أي لطيفاً بأوليائه خبيراً بجميع خلقه.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ إنّ المسلمين والمسلمات ﴾، الآية. وذلك أن أزواج النبي ﷺ قلن: يا رسول الله إن الله ذكر الرجال في القرآن ولم يذكر النساء بخير، فما فينا خير نُذكر به، إنّا نخاف أن لا يقبل الله منّا طاعةً، فأنزل الله هذه الآية. قال مقاتل: قالت أُم سلمة بنت أبي أُمية وأنيسة بنت كعب الأنصارية للنبي ﷺ: ما بال ربّنا يذكر الرجال

أخرجه الترمذي. وقال حديث غريب وقيل إن أم سلمة بنت أبي أمية وأنيسة بنت كعب الأنصارية قالتا للنبي ﷺ ما بال ربنا يذكر الرجال، ولا يذكر النساء في شيء في كتابه ونخشى أن لا يكون فيهن خير فنزلت هذه الآية وروي أن أسماء بنت عميس رجعت من الحبشة مع زوجها جعفر بن أبي طالب، فدخلت على نساء النبي ﷺ فقالت هل نزل فينا شيء من القرآن قلن لا فأتت النبي ﷺ فقالت يا رسول الله: إن النساء لفي خيبة وخسار قال «ومم ذلك» قالت: لأنهن لم يذكرن بخير كما ذكر الرجال فأنزل الله إن المسلمين والمسلمات فذكر لهن عشر مراتب مع الرجال، فمدحهن بها معهم الأولى الإسلام وهو الانقياد لأمر الله تعالى وهو قوله: إن المسلمين والمسلمات، الثانية الإيمان بما يراد به أمر الله تعالى وهو تصحيح الاعتقاد وموافقة الظاهر للباطن، وهو قوله ﴿**والمؤمنين والمؤمنات**﴾ الثالثة الطاعة وهو قوله ﴿**والقانتين والقانتات**﴾ الرابعة الصدق في الأقوال والأفعال وهو قوله﴿**والصادقين والصادقات**﴾ الخامسة الصبر على ما أمر الله وفيما ساء وسر وهو قوله ﴿**والصابرين والصابرات**﴾ السادسة الخشوع في الصلاة وهو أن لا يلتفت وقيل: هو التواضع وهو قوله ﴿**والخاشعين والخاشعات**﴾ السابعة الصدقة مما رزق الله وهو قوله ﴿**والمتصدقين والمتصدقات**﴾ الثامنة المحافظة على الصوم وهو قوله ﴿**والصائمين والصائمات**﴾ التاسعة العفة وهو قوله ﴿**والحافظين فروجهم**﴾ يعني عما لا يحل ﴿**والحافظات**﴾ العاشرة كثرة الذكر وهو قوله ﴿**والذاكرين الله كثيراً والذكرات**﴾ وقيل لا يكون العبد منهم حتى يذكر الله قائماً وقاعداً ومضطجعاً، وروي عن النبي ﷺ أنه قال «سبق المفردون قالوا: يا رسول الله وما المفردون قال الذاكرون الله كثيراً والذكرات» وقال عطاء بن أبي رباح من فوّض أمره إلى الله، فهو داخل في قوله إن المسلمين والمسلمات ومن أقر بأن الله ربه ومحمداً رسوله، ولم يخالف قلبه لسانه فهو داخل في قوله والمؤمنين والمؤمنات ومن أطاع الله في الفرض والرسول في السنة، فهو داخل في قوله والقانتين والقانتات، ومن صان قوله عن الكذب، فهو داخل في قوله والصادقين والصادقات ومن صبر على الطاعة وعن المعصية وعلى الرزية، فهو داخل في قوله والصابرين والصابرات ومن صلى، فلم يعرف من عن يمينه وعن شماله،

ولا يذكر النساء في شيء من كتابه نخشى أن لا يكون فيهنّ خير. فنزلت هذه الآية. ورُوِيَ أن أسماء بنت عميس رجعت من الحبشة مع زوجها جعفر بن أبي طالب فدخلت على نساء النبي ﷺ فقالت: هل نزل فينا شيء من القرآن؟ قلن: لا، فأتت النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله إن النساء لفي خيبة وخسار، قال: «وممَّ ذلك»؟ قالت: لأنهنّ لا يُذكَرن بخير كما يُذكَر الرجال، فأنزل الله هذه الآية ﴿ **إنّ المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين** ﴾، المطيعين ﴿ **والقانتات والصادقين** ﴾، في إيمانهم وفيما ساءهم وسَرّهم، ﴿ **والصادقات والصابرين** ﴾، على ما أمر الله به، ﴿ **والصابرات والخاشعين** ﴾، المتواضعين، ﴿ **والخاشعات** ﴾، وقيل: أراد به الخشوع في الصلاة ومن الخشوع أن لا يلتفت، ﴿ **والمتصدقين** ﴾، ممّا رزقهم الله، ﴿ **والمتصدقات والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم** ﴾، عمّا لا يحلّ، ﴿ **والحافظات والذاكرين الله كثيراً والذاكرات** ﴾، قال مجاهد: لا يكون العبد من الذاكرين الله كثيراً حتى يذكر الله قائماً وقاعداً ومضطجعاً، وروينا أن النبي ﷺ قال: «قد سبق المفردون»، قالوا: وما المفردون يا رسول الله؟ قال: «الذاكرون الله كثيراً والذاكرات»، قال عطاء بن أبي رباح مَن فوّض أمره إلى الله عزّ وجلّ فهو داخل في قوله: ﴿ **إن المسلمين والمسلمات** ﴾، ومَن أقرّ بأن الله ربُّه ومحمداً رسولُه ولم يخالف قلبه لسانه فهو داخل في قوله: ﴿ **والمؤمنين والمؤمنات** ﴾، ومَن أطاع الله في الفرض والرسول في السُّنّة فهو داخل في قوله: ﴿ **والقانتين والقانتات** ﴾، ومَن صان نفسه عن الكذب فهو داخل في قوله: ﴿ **والصادقين والصادقات** ﴾، ومَن صبر على الطاعة وعن المعصية وعلى الرزيّة فهو داخل في قوله: ﴿**والصابرين والصابرات** ﴾، ومَن صلّى فلم يعرف مَن عن يمينه وعن يساره فهو داخل في قوله: ﴿ **والخاشعين والخاشعات** ﴾،

فهو داخل في قوله والخاشعين والخاشعات ومن تصدق في كل أسبوع بدرهم، فهو داخل في قوله والمتصدقين والمتصدقات ومن صام في كل شهر أيام البيض، وهي الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر فهو داخل في قوله والصائمين والصائمات، ومن حفظ فرجه عما لا يحل فهو داخل في قوله والحافظين فروجهم والحافظات ومن صلى الصلوات الخمس بحقوقها فهو داخل في قوله والذاكرين الله كثيراً والذاكرات ﴿أعد الله لهم مغفرة﴾ أي بمحو ذنوبهم ﴿وأجراً عظيماً﴾ يعني الجنة. قوله تعالى:

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾﴾

﴿وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم﴾ نزلت هذه الآية في زينب بنت جحش الأسدية وأخيها عبد الله بن جحش، وأمهما أمية بنت عبد المطلب عمة رسول الله ﷺ وذلك أن النبي ﷺ خطب زينب لمولاه زيد بن حارثة وكان رسول الله ﷺ اشترى زيداً في الجاهلية بعكاظ وأعتقه، وتبناه فلما خطب رسول الله ﷺ زينب رضيت وظنت أنه يخطبها لنفسه فلما علمت أنه يخطبها لزيد بن حارثة أبت وقالت: أنا ابنة عمتك يا رسول الله فلا أرضاه لنفسي، وكانت بيضاء جميلة وفيها حدة وكذلك كره أخوها ذلك فأنزل الله تعالى ﴿وما كان لمؤمن﴾ يعني عبد الله بن جحش ﴿ولا مؤمنة﴾ يعني أخته زينب ﴿إذا قضى الله ورسوله أمراً﴾ يعني نكاح زيد لزينب ﴿أن تكون لهم الخيرة من أمرهم﴾ أي الاختيار على ما قضى، والمعنى أن يريد غير ما أراد الله أو يمتنع مما أمر الله ورسوله به ﴿ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالاً مبيناً﴾ أي أخطأ خطأ ظاهراً فلما سمعت بذلك زينب وأخوها رضيا وسلما وجعلت أمرها بيد رسول الله ﷺ، فأنكحها زيداً ودخل بها وساق رسول الله ﷺ إليهما عشرة دنانير وستين درهماً وخماراً، ودرعاً وملحفة وخمسين مداً من طعام وثلاثين صاعاً من تمر. قوله عز وجل ﴿وإذ تقول للذي أنعم

ومَن تصدّق في كل أسبوع بدرهم فهو داخل في قوله: ﴿ والمتصدقين والمتصدقات ﴾، ومَن صام في كل شهر أيام البيض الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر فهو داخل في قوله: ﴿ والصائمين والصائمات ﴾، ومَن حفظ فرجه عمّا لا يحلّ فهو داخل في قوله: ﴿ والحافظين فروجهم والحافظات ﴾، ومَن صلّى الصلوات الخمس بحقوقها فهو داخل في قوله: ﴿ والذاكرين الله كثيراً والذاكرات ﴾، ﴿ أعدّ الله لهم مغفرةً وأجراً عظيماً ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى اللّهُ ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ﴾، الآية نزلت في زينب بنت جحش الأسدية وأخيها عبد الله بن جحش وأُمهما أُميّة بنت عبد المطلب عمّة النبي ﷺ، خطب رسول الله ﷺ زينب لمولاه زيد بن حارثة وكان رسول الله ﷺ اشترى زيداً في الجاهلية بعكاظ فأعتقه وتبنّاه، فلما خطب رسول الله ﷺ زينب رضيت وظنّت أنه يخطبها لنفسه فلما علمت أنه يخطبها لزيد أبت وقالت: أنا ابنة عمّتك يا رسول الله فلا أرضاه لنفسي، وكانت بيضاء جميلة فيها حدّة، وكذلك كره أخوها ذلك، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿ وما كان لمؤمن ﴾، يعني عبد الله بن جحش، ﴿ ولا مؤمنة ﴾ يعني أُخته زينب، ﴿ إذا قضى الله ورسوله أمراً ﴾، أي إذا أراد الله ورسوله أمراً وهو نكاح زينب لزيد، ﴿أن يكون لهم الخيرة من أمرهم﴾، قرأ أهل الكوفة أن يكون بالياء للحائل بين التأنيث والفعل، وقرأ الآخرون بالتاء لتأنيث الخيرة من أمرهم، والخيرة الاختيار، والمعنى أن يريد غير

الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك﴾ الآية نزلت في زينب، وذلك أن رسول الله ﷺ لما زوجها من زيد مكثت عنده حيناً، ثم إن رسول الله ﷺ أتى زيداً ذات يوم لحاجة فأبصر زينب في درع وخمار وكانت بيضاء جميلة، ذات خلق من أتم نساء قريش وقعت في نفسه وأعجبه حسنها فقال «سبحان الله مقلب القلوب» وانصرف فلما جاء زيد ذكرت له ذلك ففطن زيد وألقى في نفسه كراهيتها في الوقت وأتى رسول الله ﷺ فقال: إني أريد أن أفارق صاحبتي فقال له «مالك أرابك منها شيء» قال: لا والله يا رسول الله ما رأيت منها إلا خيراً ولكنها تتعظم علي بشرفها وتؤذيني بلسانها فقال له النبي ﷺ: «أمسك عليك زوجك واتق الله في أمرها» ثم إن زيداً طلقها فذلك قوله عز وجل ﴿وإذ تقول للذي أنعم الله عليه﴾ أي بالإسلام ﴿وأنعمت عليه﴾ أي بالإعتاق وهو زيد بن حارثة مولاه ﴿أمسك عليك زوجك﴾ يعني زينب بنت جحش ﴿واتق الله﴾ أي فيها ولا تفارقها ﴿وتخفي في نفسك﴾ أي تسر وتضمر في نفسك ﴿ما الله مبديه﴾ أي مظهره قيل كان في قلبه لو فارقها تزوجها قال ابن عباس: حبها وقيل ود أنه طلقها ﴿وتخشى الناس﴾ قال ابن عباس تستحييهم وقيل تخاف لائمتهم أن يقولوا أمر رجلاً بطلاق امرأته ثم نكحها ﴿والله أحق أن تخشاه﴾ قال عمر وابن مسعود وعائشة: ما نزلت على رسول الله ﷺ آية هي أشد من هذه الآية، وعن عائشة قالت: لو كتم رسول الله ﷺ شيئاً من الوحي لكتم هذه الآية: ﴿وإذ تقول للذي أنعم الله عليه وأنعمت عليه﴾ أخرجه الترمذي. وقال حديث حسن غريب.

فصل:

فإن قلت: ما ذكروه في تفسير هذه الآية، وسبب نزولها من وقوع محبتها في قلب النبي ﷺ عندما رآها وإرادته طلاق زيد لها فيه أعظم الحرج، وما لا يليق بمنصبه ﷺ من مد عينيه لما نهى عنه من زهرة الحياة الدنيا. قلت: هذا إقدام عظيم من قائله وقلة معرفة بحق النبي ﷺ وبفضله وكيف يقال رآها فأعجبته وهي بنت عمته ولم يزل يراها منذ

ما أراد الله أو يمتنع ممّا أمر الله ورسوله به، ﴿ وَمَن يعصِ اللَّهَ ورسولَه فقد ضلَّ ضلالاً مبيناً ﴾، أي أخطأ خطأً ظاهراً فلما سمعا ذلك رضيا بذلك وسلّما، وجعلت أمرها بيد رسول الله ﷺ وكذلك أخوها، فأنكحها رسول الله ﷺ زيداً فدخل بها وساق رسول الله ﷺ إليها عشرة دنانير وستّين درهماً وخماراً ودرعاً وإزاراً وملحفة وخمسين مـدّاً من طعام وثلاثين صاعاً من تمر.

قوله تعالى: ﴿ وإذْ تقول للذي أنعمَ الله عليه وأنعمتَ عليه أمسك عليك زوجك ﴾، الآية نزلت في زينب وذلك أن رسول الله ﷺ لمّا زوّج زينب من زيد مكثت عنده حيناً ثم إن رسول الله ﷺ أتى زيداً ذات يوم لحاجة فأبصر زينب قائمة في درع وخمار وكانت بيضاء جميلة ذات خلق من أتمّ نساء قريش فوقعت في نفسه وأعجبه حُسْنها، فقال: «سبحان الله مقلّب القلوب وانصرف»، فلما جاء زيد ذكرت ذلك له، ففطن زيد فألقى في نفس زيد كراهيتها في الوقت فأتى رسول الله ﷺ فقال: إنـي أُريد أن أُفارق صاحبي، قال: «ما لك أَرَابَكَ منها شيء»؟ قال: لا والله يا رسول الله ما رأيت منها إلاّ خيراً، ولكنها تتعظّم عليّ لشرفها وتؤذيني بلسانها، فقال له النبي ﷺ: «أمسك عليك زوجك»، ﴿ واتقِ الله ﴾، في أمرها، ثم طلّقها زيد، فذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿ وإذْ تقول للذي أنعم الله عليه ﴾، بالإسلام ﴿ وأنعمتَ عليه ﴾ بالتربية والإعتاق وهو زيد بن حارثة ﴿ أمسك عليك زوجك ﴾، يعني زينب بنت جحش، ﴿ واتّقِ الله ﴾ فيها ولا تفارقها، ﴿ وتخفي في نفسك ما الله مُبديه ﴾، أي تسرّ في نفسك ما الله مُظهِره، أي كان في قلبه لو فارقها لتزوجهـا، وقال ابن عباس: حبّها. وقال قتادة: ودَّ أنه طلّقها. ﴿ وتخشى الناس ﴾، قال ابن عباس والحسن: تستحييهم. وقيل: تخشى لائمة الناس أن يقولوا أمر رجلاً بطلاق امرأته ثم

ولدت ولا كان النساء يحتجبن منه ﷺ وهو زوجها لزيد، فلا يشك في تنزيه النبي ﷺ عن أن يأمر زيداً بإمساكها، وهو يحب تطليقه إياها ذكر عن جماعة من المفسرين. وأصح ما في هذا الباب ما روي عن سفيان بن عيينة عن علي بن زيد بن جدعان قال: سألني زين العابدين بن علي بن الحسين قال ما يقول الحسن في قوله تعالى ﴿وتخفي في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه﴾ قلت: يقول لما جاء زيد إلى رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله إني أريد أن أطلق زينب أعجبه ذلك، وقال أمسك عليك زوجك واتق الله فقال علي بن الحسين ليس كذلك فإن الله عز وجل، قد أعلمه أنها ستكون من أزواجه وأن زيداً سيطلقها فلما جاء زيد قال: إني أريد أن أطلقها قال له: أمسك عليك زوجك فعاتبه الله تعالى وقال لم قلت أمسك عليك زوجك وقد أعلمتك أنها ستكون من أزواجك وهذا هو الأولى والأليق بحال الأنبياء وهو مطابق للتلاوة لأن الله تعالى أعلم أنه يبدي ويظهر ما أخفاه ولم يظهر غير تزويجها منه فقال تعالى «زوجناكها» فلو كان الذي أضمره رسول الله ﷺ محبتها أو إرادة طلاقها لكان يظهر ذلك لأنه لا يجوز أن يخبر أنه يظهره ثم يكتمه، ولا يظهره فدل على أنه إنما عوتب على إخفاء ما أعلمه الله أنها ستكون زوجته وإنما أخفى ذلك استحياء أن يخبر زيداً أن التي تحتك وفي نكاحك ستكون زوجتي وهذا قول حسن مرضي، وكم من شيء يتحفظ منه الإنسان ويستحي من اطلاع الناس عليه وهو في نفسه مباح متسع، وحلال مطلق لا مقال فيه ولا عيب عند الله وربما كان الدخول في ذلك المباح سلماً إلى حصول واجبات يعظم أثرها في الدين وهو إنما جعل الله طلاق زيد لها، وتزويج النبي ﷺ إياها لإزالة حرمة التبني وإبطال سنته كما قال الله تعالى ﴿ما كان محمد أبا أحد من رجالكم﴾ وقال ﴿لكيلا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم﴾ فإن قلت فما الفائدة في أمر النبي ﷺ زيداً بإمساكها. قلت: هو أن الله تعالى أعلم نبيه أنها زوجته فنهاه النبي ﷺ، عن طلاقها وأخفى في نفسه ما أعلمه الله به فلما طلقها

نكحها. ﴿ **والله أحقُّ أن تخشاه** ﴾، قال ابن عمر وابن مسعود وعائشة: ما نزلت على رسول الله ﷺ آية هي أشدّ عليه من هذه الآية. ورُوِيَ عن مسروق قال: قالت عائشة: لو كتم النبي ﷺ شيئاً مما أُوحي إليه لكتم هذه الآية: ﴿ **وتُخفي في نفسك ما الله مُبديه** ﴾، وروى سفيان بن عيينة عن علي بن زيد بن جدعان قال: سألني علي بن الحسين زيد العابدين ما يقول الحسن في قوله: ﴿ **وتخفي في نفسك ما الله مُبديه وتخشى الناس واللّهُ أحق أن تخشاه** ﴾؟ قلت: يقول لمّا جاء زيد إلى النبي ﷺ فقال: يا نبيّ الله إني أُريد أن أُطلّق زينب فأعجبه ذلك، فقال: «أمسك عليك زوجك واتّقِ الله»، فقال عليّ بن الحسين: ليس كذلك بل كان الله تعالى قد أعلمه أنها ستكون من أزواجه وأن زيداً سيطلّقها، فلما جاء زيد وقال إني أُريد أن أُطلّقها قال له: «أمسك عليك زوجك»، فعاتبه الله وقال لِمَ قلت أمسك عليك زوجك وقد أعلمتُك أنها ستكون من أزواجك، وهذا هو الأولى والأليق بحال الأنبياء وهو مطابق للتلاوة لأن الله علـم أنه يُبدي ويُظهِر ما أخفاه ولم يُظهِر غير تزويجها منه فقال: ﴿ **زوّجناكها** ﴾ فلو كان الذي أضمره رسول الله ﷺ محبتها أو إرادة طلاقها لأظهر ذلك لأنه لا يجوز أن يخبر أنه يُظهِره ثم يكتمه فلا يُظهِره، فدلّ على أنه إنما عُوتِب على إخفاء ما أعلمه الله أنها ستكون زوجة له وإنما أخفاه استحياءَ أن يقول لزيد التي تحتك وفي نكاحك ستكون زوجتي، وهذا قول حسن مُرضٍ، وإن كان القول الآخر وهو أنه أخفى محبتها ونكاحها لو طلّقها لا يقدح في حال الأنبياء لأن العبد غير معلوم على ما يقع في قلبه في مثل هذه الأشياء ما لم يقصد فيه المآثم، لأن الودّ وميل النفس من طبع البشر. وقوله: ﴿ **أمسك عليك زوجك واتقِ الله** ﴾ أمر بالمعروف وهو حسن لا إثم فيه، قوله تعالى: ﴿ **والله أحقّ أن تخشاه** ﴾، لم يرد به أنه لم يكن يخشى الله فيما سبق فإنه عليه السلام قد قال: «أنا أخشاكم لله وأتقاكم»، ولكنه لما ذكر الخشية من الناس ذكر أن الله تعالى أحقّ بالخشية في عموم الأحوال وفي جميع الأشياء. قوله عزّ وجلّ: ﴿ **فلما قضى زيد منها وطراً** ﴾، أي حاجة من نكاحها، ﴿ **زوّجناكَها** ﴾، وذكر قضاء الوطر

زيد خشي قول الناس يتزوج امرأة ابنه فأمره الله تعالى بزواجها ليباح مثل ذلك لأمته، وقيل: كان في أمره بإمساكها قمعاً للشهوة ورداً للنفس عن هواها وهذا إذا جوزنا القول المتقدم الذي ذكره المفسرون وهو أنه أخفى محبتها أو نكاحها لو طلقها زيد، ومثل ذلك لا يقدح في حال الأنبياء، مع أن العبد غير ملوم على ما يقع في قلبه من مثل هذه الأشياء، وأنه رآها فجأة فاستحسنها ومثل هذه لا نكرة فيه لما طبع عليه البشر من استحسان الحسن، ونظرة الفجأة معفو عنها ما لم يقصد مأثماً لأن الود وميل النفس من طبع البشر والله أعلم.

وقوله ﴿**أمسك عليك زوجك واتق الله**﴾ أمر بالمعروف، وهو حسن لا إثم فيه وقوله ﴿**والله أحق أن تخشاه**﴾ لم يرد به أنه لم يكن يخشى الله فيما سبق فإنه عليه الصلاة والسلام، قد قال أنا أخشاكم لله وأتقاكم له ولكنه لما ذكر الخشية من الناس، ذكر أن الله أحق بالخشية في عموم الأحوال في جميع الأشياء. قوله عز وجل ﴿**فلما قضى زيد منها وطراً**﴾ أي حاجته منها، ولم يبق له فيها أرب وتقاصرت همته عنها وطابت عنها نفسه وطلقها، وانقضت عدتها وذكر قضاء الوطر ليعلم أن زوجة المتبني تحل بعد الدخول بها ﴿**زوجناكها**﴾ قال أنس: كانت زينب تفتخر على أزواج النبي ﷺ تقول: زوجكن آباؤكن وزوجني الله من فوق سبع سموات، وقال الشعبي: «كانت زينب تقول للنبي ﷺ إني لأدل عليك بثلاث ما من امرأة من نسائك تدل بهن جدي وجدك واحد وإني أنكحنيك الله في السماء وإن السفير جبريل عليه السلام» (م) عن أنس قال لما انقضت عدة زينب، قال رسول الله ﷺ، لزيد: اذهب فاذكرها علي قال فانطلق زيد حتى أتاها وهي تخمر عجينها قال: فلما رأيتها عظمت في صدري حتى ما أستطيع أن أنظر إليها لأن رسول الله ذكرها فوليتها ظهري ونكصت على عقبي فقلت يا زينب أرسل رسول الله يذكرك قالت ما أنا بصانعة شيئاً حتى أؤامر ربي فقامت إلى مسجدها ونزل القرآن وجاء رسول الله ﷺ، فدخل عليها بغير إذن قال: فلقد رأيتنا أن رسول الله ﷺ أطعمنا الخبز واللحم حتى امتد النهار فخرج الناس، وبقي أناس يتحدثون في البيت بعد الطعام فخرج رسول الله ﷺ واتبعته فجعل يتتبع حجر نسائه يسلم عليهن ويقلن يا رسول الله كيف وجدت أهلك قال: فما أدري أنا أخبرته أن

ليعلم أن زوجة المتبني تحل بعد الدخول بها، قال أنس: كانت زينب تفتخر على أزواج النبي ﷺ فتقول: زوَّجْكُنَّ أهالِيكُنَّ وزوّجني الله من فوق سبع سمٰوات. وقال الشعبي: كانت زينب تقول للنبي ﷺ: إنه لأدلُّ عليك بثلاث ما من نسائك امرأة تدلي بهنّ: جدّي وجدّك واحد، إني أنكحنيك الله في السماء، وإن السفير لجبريل عليه السلام. أخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر أنا عبد الغفّار بن محمد أنا محمد بن عيسى الجلودي أنا إبراهيم بن محمد بن سفيان أنا مسلم بن الحجّاج حدّثني محمد بن حاتم بن ميمون أنا بهز أنا سليمان بن المغيرة عن ثابت عن أنس قال: لمّا انقضت عدّة زينب قال رسول الله ﷺ لزيد: «فاذكرها عليّ»، قال: فانطلق زيد حتى أتاها وهي تخمّر عجينها، قال فلما رأيتها عظمت في صدري حتى ما أستطيع أن أنظر إليها لأن رسول الله ﷺ ذكرها، فولّيتُها ظهري ونكصت على عقبي، فقلت: يا زينب أرسلني رسول الله ﷺ إليك يذكرك، قالت: ما أنا بصانعة شيئاً حتى أؤامر ربّي، فقامت إلى مسجدها، ونزل القرآن، وجاء رسول الله ﷺ فدخل عليها بغير إذن، قال: ولقد رأيتنا وأن رسول الله ﷺ أطعمنا الخبز واللحم عليهنّ، حتى امتدّ النهار، فخرج الناس وبقي الرجال يتحدثون في البيت بعد الطعام، فخرج رسول الله ﷺ فاتبعته فجعل يتتبع حُجُرَ نسائه يسلّم عليهنّ، ويقلن: يا رسول الله كيف وجدت أهلك؟ قال: فما أدري أنا أخبرته أن القوم قد خرجوا أو أخبرني، قال فانطلق حتى دخل البيت فذهبت أدخل معه فألقى الستر بيني وبينه، ونزل الحجاب. أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا سليمان بن حرب أنا حماد عن ثابت عن أنس قال: ما أَوْلَمَ النبي ﷺ على شيء من نسائه ما أَوْلَم على زينب، أولَمَ بشاة. أخبرنا محمد بن عبد الله الصالحي أنا أبو سعيد محمد بن موسى الصيرفي أنا أبو العباس الأصم أنا محمد بن

القوم قد خرجوا أم غيري قال فانطلق حتى دخل البيت، وذهبت لأدخل معه فألقى الستر بيني وبينهم ونزل الحجاب (ق) عن أنس قال ما أولم النبي ﷺ على شيء من نسائه، ما أولم على زينب أولم بشاة وفي رواية أكثر وأفضل، ما أولم على زينب قال ثابت: بم أولم قال أطعمهم خبزاً ولحماً حتى تركوه. قوله عز وجل ﴿**لكيلا يكون على المؤمنين حرج**﴾ أي إثم ﴿**في أزواج أدعيائهم**﴾ جمع الدعي وهو المتبني ﴿**إذا قضوا منهن وطراً**﴾ يقول: يقول زوجناك زينب وهي امرأة زيد الذي كنت تبنيته، ليعلم أن زوجة المتبنى حلال للمتبني وإن كان قد دخل بها المتبني بخلاف امرأة ابن الصلب فإنها لا تحل للأب ﴿**وكان أمر الله مفعولاً**﴾ أي قضاء الله ماضياً وحكمه نافذاً وقد قضى في زينب أن يتزوجها رسول الله ﷺ. قوله تعالى:

﴿مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾﴾

﴿**ما كان على النبي من حرج فيما فرض الله له**﴾ أي فيما أحل الله له من النكاح، وغيره ﴿**سنة الله في الذين خلوا من قبل**﴾ معناه سن الله سنة في الأنبياء، وهو أن لا حرج عليهم في الإقدام على ما أباح لهم ووسع عليهم في باب النكاح، وغيره فإنه كان لهم الحرائر والسراري فقد كان لداود عليه السلام مائة امرأة، ولسليمان ثلثمائة امرأة وسبعمائة سرية فكذلك سن لمحمد ﷺ في التوسعة عليه كما سن لهم ووسع عليهم ﴿**وكان أمر الله قدراً مقدوراً**﴾ يعني قضاء مقضياً أن لا حرج على أحد فيما أحل له ثم أثنى الله على الأنبياء بقوله ﴿**الذين يبلغون رسالات الله**﴾ يعني فرائض

هشام بن ملاس النمري أنا مَرْوَان الفزاري أنا حميد عن أنس قال: أَوْلَمَ رسول الله ﷺ حين ابتنى بزينب بنت جحش فأشبع المسلمين خبزاً ولحماً، قوله تعالى: ﴿ **لكيلا يكون على المؤمنين حرج** ﴾، إثم، ﴿ **في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهنّ وطراً** ﴾، والأدعياء جميع الدعي وهو المتبنى، يقول: زوّجناك زينب وهي امرأة زيد الذي تبنّيته ليتعلّم أن زوجة المتبنى حلال للمتبنّي، وإن كان قد دخل بها المتبنى بخلاف امرأة ابن الصلب فإنها لا تحلّ للأب. ﴿ **وكان أمرُ الله مفعولاً** ﴾، أي كان قضاء الله ماضياً وحكمه نافذاً وقد قضى في زينب أن يتزوجها رسول الله ﷺ.

قوله تعالى: ﴿ **ما كان على النبي من حرج فيما فرض الله له** ﴾، أي فيما أحلّ الله له، ﴿ **سُنَّةَ الله** ﴾، أي كسُنّة الله، نصب بنزع الخافض، وقيل: نصب على الإغراء أي ألزموا سُنّة الله، ﴿ **في الذين خلوا من قبل** ﴾، أي في الأنبياء الماضين أن لا يؤاخذهم بما أحلّ لهم. قال الكلبي ومقاتل: أراد داود حين جمع بينه وبين المرأة التي هو بها فكذلك جمع بين محمد ﷺ وبين زينب. وقيل: أراد بالسُّنّة إلى النكاح فإنه من سُنّة الأنبياء عليهم السلام. وقيل: إلى كثرة الأزواج مثل داود وسليمان عليهما السلام، ﴿ **وكان أمر الله قدراً مقدوراً** ﴾، قضاءً مقضيّاً كائناً ماضياً.

﴿ **الذين يُبلّغون رسالاتِ الله** ﴾، يعني سُنّة الله في الأنبياء الذين يبلغون رسالات الله، ﴿ **ويخشونه ولا يخشون أحداً إلاّ الله** ﴾، أي لا يخشون قالة الناس ولائمتهم فيما أحلّ الله لهم وفرض عليهم، ﴿ **وكفى بالله**

الله وسننه وأوامره ونواهيه إلى من أرسلوا إليهم ﴿ويخشونه﴾ يعني يخافونه ﴿ولا يخشون أحداً إلا الله﴾ يعني لا يخافون قالت: الناس ولائمتهم فيما أحل لهم وفرض عليهم ﴿وكفى بالله حسيباً﴾ أي حافظاً لأعمال خلقه ومحاسبهم. قوله عز وجل ﴿ما كان محمد أبا أحد من رجالكم﴾ وذلك أن رسول الله ﷺ لما تزوج زينب قال: الناس إن محمداً تزوج امرأة ابنه فأنزل الله ﴿ما كان محمد أبا أحد من رجالكم﴾ يعني زيد بن حارثة والمعنى أنه لم يكن أبا رجل منكم على الحقيقة، حتى يثبت بينه وبينه ما يثبت بين الأب وولده من حرمة الصهر والنكاح. فإن قلت: قد كان له أبناء القاسم والطيب والطاهر وإبراهيم وقال للحسن: إن ابني هذا سيد. قلت: قد أخرجوا من حكم النفي بقوله من رجالكم وهؤلاء لم يبلغوا مبلغ الرجال وقيل: أراد بالرجال الذي لم يلدهم ﴿ولكن رسول الله﴾ أي إن كل رسول هو أبو أمته فيما يرجع إلى وجوب التوقير والتعظيم له ووجوب الشفقة والنصيحة لهم عليه ﴿وخاتم النبيين﴾ ختم الله به النبوة فلا نبوة بعده أي ولا معه قال ابن عباس: يريد لو لم أختم به النبيين لجعلت له ابناً ويكون بعده نبياً وعنه قال: إن الله لما حكم أن لا نبي بعده، لم يعطه ولداً ذكراً يصير رجلاً ﴿وكان الله بكل شيء عليماً﴾ أي دخل في علمه أنه لا نبي بعده. فإن قلت: قد صح أن عيسى عليه السلام ينزل في آخر الزمان بعده وهو نبي قلت إن عيسى عليه السلام ممن نبيء قبله وحين ينزل في آخر الزمان ينزل عاملاً بشريعة محمد ﷺ ومصلياً إلى قبلته كأنه بعض أمته (ق) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي، كمثل رجل بنى بنياناً فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية من زواياه فجعل الناس يطوفون ويتعجبون له، ويقولون هلا وضعت هذه اللبنة فأنا اللبنة، وأنا

حسيباً ﴾، حافظاً لأعمال خلقه ومحاسبهم، ثم إن رسول الله ﷺ لمّا تزوج زينب قال الناس: إن محمداً تزوج امرأة ابنه.

فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿ **ما كان محمداً أبا أحد من رجالكم** ﴾، يعني زيد بن حارثة، أي ليس أبا أحد من رجالكم الذين لم يلدهم فيحرم عليه نكاح زوجته بعد فراقه إيّاها، فإن قيل: أليس أنه كان له أبناء القاسم والطيب والطاهر وإبراهيم وكذلك الحسن والحسين، فإن النبي ﷺ قال للحسن: «إن ابني هذا سيد»؟ قيل: هؤلاء كانوا صغاراً لم يكونوا رجالاً. والصحيح ما قلنا: إنه أراد أبا أحد من رجالكم، ﴿ **ولكنْ رسولَ اللّهِ وخاتَم النبيين** ﴾، ختم الله به النبوّة، وقرأ ابن عامر وابن عاصم: ﴿ **خاتم** ﴾ بفتح التاء على الاسم، أي آخرهم، وقرأ الآخرون بكسر التاء على الفاعل لأنه ختم به النبيين فهو خاتمهم. قال ابن عباس: يريد لو لم أختم به النبيِّين لجعلت له ابناً يكون بعده نبيّاً. ورُوِيَ عن عطاء عن ابن عباس: أن الله تعالى لما حكم أن لا نبي بعده لم يعطه ولداً ذكراً يصير رجلاً، ﴿ **وكان الله بكل شيء عليماً** ﴾، أخبرنا أبو الحسن علي بن يوسف الجويني أنا أبو محمد محمد بن علي بن محمد الخداشاهي أنا عبد الله بن محمد بن مسلم أبكر الجوريدي أنا يونس بن عبد الأعلى أنا ابن وهب أخبرني يونس عن يزيد عن ابن شهاب عن أبي سلمة قال: كان أبو هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ: «مثلي ومثل الأنبياء كمثل قصر أحسن بنيانه، ترك منه موضع لَبِنَةٍ فطاف به النظّار يتعجبون من حُسْن بنيانه إلاّ موضع تلك اللَّبِنَة لا يعيبون سواها فكنت أنا سددت موضع اللَّبِنَة، ختم بي البنيان وختم بي الرسل». أخبرنا عبد الله بن عبد الصمد الجوزجاني أنا علي بن أحمد الخزاعي أنا الهيثم بن كلب الشاشي أنا أبو عيسى الترمذي أنا سعيد بن عبد الرحمن المخزومي وغير واحد قالوا أنا سفيان عن الزهري عن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن لي أسماء أنا محمد وأنا أحمد وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي، وأنا العاقب، والعاقب الذي ليس بعده نبي».

قوله تعالى: ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً** ﴾، قال ابن عباس: لم يفرض الله تعالى فريضة على

خاتم النبيين» وعن جابر نحوه وفيه جئت فختمت الأنبياء (ق) عن جبير بن مطعم قال قال رسول الله ﷺ «لي خمسة أسماء أنا محمد وأنا أحمد وأنا الماحي الذي يمحو الله الكفر بي وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي، وأنا العاقب الذي ليس بعده نبي» وقد سماه الله رؤوفاً رحيماً (م) عن أبي موسى قال: كان النبي ﷺ يسمي، لنا نفسه أسماء فقال «أنا محمد وأنا أحمد وأنا المقفي وأنا الماحي ونبي التوبة ونبي الرحمة» المقفي هو المولى الذاهب، يعني آخر الأنبياء المتبع لهم فإذا قفي فلا نبي بعده.

قوله تعالى ﴿**يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً**﴾ قال ابن عباس: لم يفرض الله عز وجل على عباده فريضة إلا جعل لها حداً معلوماً ثم عذر أهلها في حال العذر غير الذكر، فإنه لم يجعل له حداً ينتهي إليه ولم يعذر أحداً في تركه إلا مغلوباً على عقله، وأمرهم به في الأحوال كلها فقال تعالى ﴿فاذكروا الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبكم﴾ وقال تعالى ﴿**اذكروا الله ذكراً كثيراً**﴾ يعني بالليل والنهار في البر والبحر وفي الصحة والسقم وفي السر والعلانية، وقيل الذكر الكثير أن لا ينساه أبداً ﴿**وسبحوه**﴾ معناه إذا ذكرتموه ينبغي لكم أن يكون ذكركم إياه على وجه التعظيم والتنزية عن كل سوء ﴿**بكرة وأصيلاً**﴾ فيه إشارة إلى المداومة لأن ذكر الطرفين يفهم منه الوسط أيضاً وقيل: معناه صلوا له بكرة صلاة الصبح وأصيلاً يعني صلاة العصر وقيل صلاة الظهر والعصر والمغرب والعشاء، وقيل: معنى سبحوه قولوا سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله زاد في نسخة العلي العظيم فعبر بالتسبيح عن أخواته والمراد بقوله: كثيراً هذه الكلمات يقولها الطاهر والجنب والحائض والمحدث ﴿**هو الذي يصلي عليكم وملائكته**﴾ الصلاة من الله الرحمة ومن الملائكة الاستغفار للمؤمنين وقيل الصلاة من الله على العبد هي إشاعة الذكر الجميل له في عباده والثناء عليه قال أنس: لما نزلت ﴿إن الله وملائكته يصلون على النبي﴾ قال أبو بكر: ما خصك الله يا رسول الله بشرف إلا وقد أشركنا فيه فأنزل الله هذه الآية ﴿**ليخرجكم من الظلمات إلى النور**﴾ يعني أنه برحمته

عباده إلّا جعل لها حدّاً معلوماً وعذر أهلها في حال العذر غير الذكر فإنه لم يجعل له حدّاً يُنتهَى إليه، ولم يعذر أحداً في تركه إلّا مغلوباً على عقله فلذلك أمرهم به في كل الأحوال، فقال: ﴿ فاذكروا الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبكم ﴾ [النساء: ١٠٣]. وقال: ﴿ **اذكروا الله ذكراً كثيراً** ﴾ أي بالليل والنهار، في البرّ والبحر وفي الصحة والسَّقم، وفي السرّ والعلانية. وقال مجاهد: الذكر الكثير أن لا تنساه أبداً.

﴿ **وسبّحوه** ﴾، أي صَلُّوا له، ﴿ **بكرة** ﴾، يعني صلاة الصبح، ﴿ **وأصيلاً** ﴾، يعني صلاة العصر. وقال الكلبي: وأصيلاً صلاة الظهر والعصر والعشائين. وقال مجاهد: يعني قولوا سبحان الله والحمد لله ولا إلّه إلّا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلّا بالله العليّ العظيم، فعبّر بالتسبيح عن أخواته. وقيل: المراد من قوله ذكراً كثيراً هذه الكلمات يقولها الطاهر والجُنُب والمُحدِث.

﴿ **هو الذي يصلّي عليكم وملائكته** ﴾، فالصلاة من الله الرحمة ومن الملائكة الاستغفار للمؤمنين قال السدي قالت بنو إسرائيل لموسى: أيصلّي ربنا فكبر هذا الكلام على موسى، فأوحى الله إليه أن قلْ لهم إني أُصلّي وأن صلاتي رحمتي، وقد وسِعَت رحمتي كلَّ شيء، وقيل: الصلاة من الله على العبد هي إشاعة الذكر الجميل له في عباده. وقيل: الثناء عليه. قال أنس: لمّا نزلت: ﴿ إن الله وملائكته يصلّون على النبي ﴾ [الأحزاب: ٥٦]، قال أبو بكر ما خصّك الله يا رسول الله بشرف إلّا وقد أشركنا فيه، فأنزل الله هذه الآية. قوله: ﴿ **ليخرجكم من الظلمات إلى النور** ﴾، أي من ظلمة الكفر إلى نور الإيمان، يعني أنه برحمته وهدايته ودعاء الملائكة لكم أخرجكم من ظلمة الكفر إلى النور، ﴿ **وكان بالمؤمنين رحيماً** ﴾.

وهدايته، ودعاء الملائكة لكم أخرجكم من ظلمة الكفر إلى نور الإيمان ﴿وكان بالمؤمنين رحيماً﴾ فيه بشارة لجميع المؤمنين وإشارة إلى أن قوله يصلي عليكم غير مختص بالسامعين، وقت الوحي بل هو عام لجميع المسلمين ﴿تحيتهم﴾ يعني تحية المؤمنين ﴿يوم يلقونه﴾ أي يرون الله يوم القيامة ﴿سلام﴾ أي يسلم الرب تعالى عليهم ويسلمهم من جميع الآفات وروي عن البراء بن عازب قال ﴿تحيتهم يوم يلقونه سلام﴾ يعني يلقون ملك الموت، لا يقبض روح مؤمن إلا يسلم عليه عن ابن مسعود قال إذا جاء ملك الموت لقبض روح المؤمن قال ربك يقرئك السلام وقيل: تسلم عليهم الملائكة حين يخرجون من قبورهم تبشرهم ﴿وأعد لهم أجراً كريماً﴾ يعني الجنة. قوله عز وجل:

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ
الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى
بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ
عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٤٩﴾ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي
آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ
خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ
دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ
حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٥٠﴾

﴿يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً﴾ أي للرسل بالتبليغ وقيل شاهدا على الخلق كلهم يوم القيامة ﴿ومبشراً﴾ أي لمن آمن بالجنة ﴿ونذيراً﴾ أي لمن كذب بالنار ﴿وداعياً إلى الله﴾ أي إلى توحيده وطاعته ﴿بإذنه﴾ أي بأمره ﴿وسراجاً منيراً﴾ سماه سراجاً منيراً لأنه جلا به ظلمات الشرك واهتدى به الضالون كما يجلى ظلام الليل بالسراج المنير، وقيل معناه أمد الله بنور نبوته نور البصائر كما يمد بنور السراج نور الأبصار ووصفه بالإنارة لأن من السراج ما لا يضيء. فإن

﴿ تحيتهم ﴾، أي تحية المؤمنين، ﴿ يوم يلقونه ﴾، أي يرون الله، ﴿ سلام ﴾، أي يسلّم الله عليهم، ويسلّمهم من جميع الآفات. ورُوِيَ عن البراء بن عازب قال: ﴿ تحيتهم يوم يلقونه ﴾ يعني يلقون ملك الموت، لا يقبض روح مؤمن إلّا يسلّم عليه. وعن ابن مسعود قال: إذا جاءك ملك الموت ليقبض روح المؤمن قال: إن ربك يقرئك السلام. وقيل: تسلّم عليهم الملائكة وتبشّرهم حين يخرجون من قبورهم، ﴿ وأعدّ لهم أجْراً كريماً ﴾، يعني الجنة.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ يا أيّها النبي إنّا أرسلناك شاهداً ومبشّراً ونذيراً ﴾، أي شاهداً للرسل بالتبليغ ومبشّراً لِمَن آمن بالجنة ونذيراً لِمَن كذب بآياتنا بالنار.

﴿ وداعياً إلى الله ﴾، إلى توحيده وطاعته، ﴿ بإذنه ﴾، بأمره، ﴿ وسراجاً منيراً ﴾، سمّاه سراجاً لأنه يهتدى به كالسراج يُستضاء به في الظلمة.

﴿ وبشّر المؤمنين بأن لهم من الله فضلاً كبيراً ﴾.

﴿ ولا تُطِعِ الكافرين والمنافقين ﴾، ذكرنا تفسيره في أول السورة، ﴿ ودعْ أذاهم ﴾، قال ابن عباس وقتادة:

قلت لم سماه سراجاً، ولم يسمه شمساً والشمس أشد إضاءة من السرج وأنور. قلت: نور الشمس لا يمكن أن يؤخذ منه شيء بخلاف نور السراج فإنه يؤخذ منه أنوار كثيرة ﴿**وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلاً كبيراً**﴾ أي ما تفضل به عليهم زيادة على الثواب وقيل: الفضل هو الثواب وقيل هو تفضيل هذه الأمة على سائر الأمم ﴿**ولا تطع الكافرين والمنافقين ودع أذاهم**﴾ قال ابن عباس: اصبر على أذاهم لا تجازهم عليه وهذا منسوخ بآية القتال ﴿**وتوكل على الله وكفى بالله وكيلاً**﴾ أي حافظاً. قوله تعالى ﴿**يا أيها الذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن**﴾ أي تجامعوهن، ففي الآية دليل على أن الطلاق قبل النكاح غير واقع لأن الله تعالى رتب الطلاق على النكاح حتى لو قال لامرأة أجنبية إذا نكحتك فأنت طالق، أو قال: كل امرأة أنكحها فهي طالق فنكح لا يقع الطلاق، وهذا قول علي وابن عباس وجابر ومعاذ وعائشة وبه قال سعيد بن المسيب وعروة وشريح وسعيد بن جبير والقاسم وطاوس، الحسن وعكرمة وعطاء وسليمان بن يسار، ومجاهد والشعبي وقتادة وأكثر أهل العلم، وبه قال الشافعي وروي عن ابن مسعود أنه يقع الطلاق، وهو قول إبراهيم النخعي وأصحاب الرأي وقال ربيعة ومالك والأوزاعي: إن عين امرأة وقع وإن عمم فلا يقع وروى عكرمة عن ابن عباس أنه قال: كذبوا على ابن مسعود، وإن كان قالها فزلة من عالم الرجل يقول إن تزوجت فلانة فهي طالق والله يقول ﴿إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن﴾ ولم يقل إذا طلقتموهن ثم نكحتموهن، روى عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله ﷺ قال «لا طلاق فيما لا تملك ولا عتق فيما لا تملك ولا بيع فيما لا تملك» أخرجه أبو داود والترمذي بمعناه (خ) عن ابن عباس قال: جعل الله الطلاق

اصبر على أذاهم. وقال الزجّاج: لا تُجازِهم عليه وهذا منسوخ بآية القتال. ﴿ **وتوكّلْ على الله وكفَى بالله وكيلاً** ﴾، حافظاً.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات ثم طلّقتموهنّ** ﴾، فيه دليل على أن الطلاق قبل النكاح غير واقع لأن الله تعالى رتّب الطلاق على النكاح، حتى لو قال لامرأة أجنبية إذا نكحتك فأنت طالق، وقال كل امرأة أنكِحُها فهي طالق، فنكح لا يقع الطلاق. وهو قول علي وابن عباس وجابر ومعاذ وعائشة، وبه قال سعيد بن المسيب وعروة وشريح وسعيد بن جبير والقاسم وطاوس والحسن وعكرمة وعطاء وسليمان بن يسار ومجاهد والشعبي وقتادة، وأكثر أهل العلم رضي الله عنهم، وبه قال الشافعي، ورُوِيَ عن ابن مسعود أنه يقع الطلاق، وهو قول إبراهيم النخعي وأصحاب الرأي، وقال ربيعة ومالك والأوزاعي: إن عيّن امرأة يقع، وإن عمّ فلا يقع. وروى عكرمة عن ابن عباس أنه قال: كذبوا على ابن مسعود، إن كان قالها فزلّة من عالِم في الرجل يقول إن تزوجت فلانة فهي طالق، يقول الله تعالى: ﴿ **إذا نكحتم المؤمنات ثم طلّقتموهنّ** ﴾، ولم يقل إذا طلّقتموهنّ ثم نكحتموهنّ، أخبرنا أبو سعيد الشريحي أنا أبو إسحاق الثعلبي أنا الحسين بن محمد الديموري أنا عمر بن أحمد بن القاسم النهاوندي أنا أبو بكر محمد بن إبراهيم بن المنذر النيسابوري بمكة أنا الربيع بن سليمان أنا أيوب بن سويد أنا ابن أبي ذئب عن عطاء عن جابر قال رسول الله ﷺ: «لا طلاق قبل النكاح». قوله عزّ وجلّ: ﴿ **من قبل أن تمسّوهنّ** ﴾، تجامعوهنّ، ﴿ **لما لكم عليهنّ من عدّة تعتدّونها** ﴾، تحصونها بالأقراء والأشهر، ﴿ **فمتّعوهنّ** ﴾، أي أعطوهنّ ما يستمتعن به، قال ابن عباس: هذا إذا لم يكن سمّى لها صداقاً فلها المتعة فإن كان قد فرض لها صداقاً فلها نصف الصداق ولا متعة لها. وقال قتادة: هذه الآية منسوخة بقوله: ﴿ فنصف ما فرضتم ﴾ [البقرة: ٢٣٧]، وقيل: هذا أمر ندب فالمتعة مستحبّة لها مع نصف المهر. وذهب بعضهم إلى أنها تستحق المتعة بكل حال لظاهر الآية، ﴿ **وسرّحوهنّ سراحاً جميلاً** ﴾، خلّوا سبيلهنّ بالمعروف من غير ضرار.

بعد النكاح آخرجه البخاري في ترجمة باب بغير إسناد عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ «لا طلاق قبل النكاح» **﴿فما لكم عليهم من عدة تعتدونها﴾** أي تحصونها بالأقراء والأشهر، أجمع العلماء أنه إذا كان الطلاق قبل المسيس والخلوة، فلا عدة وذهب أحمدإلى أن الخلوة توجب العدة والصداق **﴿فمتعوهن﴾** أي أعطوهن ما يستمتعن به قال ابن عباس: هذا إذا لم يكن سمى لها صداقاً فلها المتعة وإن كان قد فرض لها صداقا فلها نصف الصداق، ولا متعة لها وقال قتادة هذه الآية منسوخة بقوله «فنصف ما فرضتم» وقيل: هذا أمر ندب فالمتعة مستحبة لها مع نصف المهر وقيل: إنها تستحق المتعة بكل حال لظاهر الآية **﴿وسرحوهن سراحاً جميلاً﴾** أي خلوا سبيلهن بالمعروف من غير إضرار بهن.

قوله عز وجل **﴿يا أيها النبي إنا أحللنا لك أزواجك اللاتي آتيت أجورهن﴾** أي مهورهن **﴿وما ملكت يمينك مما أفاء الله عليك﴾** أي من السبي فتملكها مثل صفية وجويرية، وقد كانت مارية مما ملكت يمينه فولدت له إبراهيم **﴿وبنات عمك وبنات عماتك﴾** يعني نساء قريش **﴿وبنات خالك وبنات خالاتك﴾** يعني نساء بني زهرة **﴿اللاتي هاجرن معك﴾** إلى المدينة فمن لم تهاجر، منهن لم يجز له نكاحها عن أم هانيء بنت أبي طالب قالت: خطبني رسول الله ﷺ فاعتذرت إليه فعذرني ثم أنزل الله **﴿إنا أحللنا لك أزواجك﴾** الآية قالت: فلم أكن أحل له لأني لم أهاجر كنت من الطلقاء أخرجه الترمذي وقال: حديث حسن ثم نسخ شرط الهجرة في التحليل **﴿وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي إن أراد النبي أن يستنكحها خالصة لك من دون المؤمنين﴾** أي أحللنا لك امرأة مؤمنة، وهبت نفسها لك بغير صداق

قوله تعالى: ﴿ **يا أيها النبي إنّا أحللنا لك أزواجك اللاتي آتيت أُجورهنّ** ﴾، أي مهورهنّ، ﴿ **وما ملكت يمينك مما أفاء الله عليك**﴾، ردّ عليك من الكفّار بأن تسبي فتملك مثل صفية وجويرية، وقد كانت مارية مما ملكت يمينه فولدت له، ﴿ **وبنات عمّك وبنات عمّاتك** ﴾، يعني نساء قريش، ﴿ **وبنات خالك وبنات خالاتك** ﴾، يعني نساء بني زهرة، ﴿ **اللاتي هاجرنَ معك** ﴾، إلى المدينة فمَن لم تهاجر منهنّ معه لم يجز له نكاحها. وروى أبو صالح عن أُم هانيء أن رسول الله ﷺ لمّا فتح مكة خطبني فأنزل الله هذه الآية فلم أحلّ له لأني لم أكن من المهاجرات وكنت من الطلقاء، ثم نسخ شرط الهجرة في التحليل، ﴿ **وامرأة مؤمنة إن وهبتْ نفسَها للنبي إن أراد النبي أن يستنكحها خالصة لك من دون المؤمنين** ﴾، أي أحللنا لك امرأة مؤمنة وهبت نفسها لك بغير صداق، فأما غير المؤمنة فلا تحلّ له إذا وهبت نفسها منه، واختلفوا في أنه هل كان يحلّ للنبي ﷺ نكاح اليهودية والنصرانية بالمهر فذهب جماعة إلى أنه كان لا يحلّ له ذلك، لقوله: ﴿ **وامرأة مؤمنة** ﴾، وأوّل بعضهم الهجرة في قوله: ﴿ **اللاتي هاجرن معك** ﴾ على الإسلام أي أسلمن معك، فيدلّ ذلك على أنه لا يحلّ له نكاح غير المسلمة وكان النكاح ينعقد في حقه بمعنى الهبة من غير وليّ ولا شهود ولا مهر، وكان ذلك من خصائصه ﷺ في النكاح لقوله تعالى: ﴿ **خالصة لك من دون المؤمنين** ﴾ كالزيادة على الأربع ووجوب تخيير النساء كان من خصائصه لا مشاركة لأحد معه فيه، واختلف أهل العلم في انعقاد النكاح بلفظ الهبة في حق الأمة فذهب أكثرهم إلى أنه لا ينعقد إلّا بلفظ الإنكاح أو التزويج، وهو قول سعيد بن المسيب والزهري ومجاهد وعطاء، وبه قال ربيعة ومالك والشافعي، وذهب قوم إلى أنه ينعقد بلفظ الهبة والتمليك، وهو قول إبراهيم النخعي وأهل الكوفة، ومَن قال لا ينعقد إلا بلفظ الإنكاح أو التزويج اختلفوا في نكاح النبي ﷺ، فذهب قوم إلى أنه كان ينعقد في حقه بلفظ الهبة، لقوله تعالى: ﴿ **خالصة لك من دون المؤمنين** ﴾، وذهب آخرون إلى أنه لا ينعقد إلّا بلفظ الإنكاح أو التزويج كما في حق الأمة لقوله عزّ وجلّ: ﴿ **إنْ أراد النبي أن يستنكحها** ﴾، وكان اختصاصه ﷺ في ترك المهر لا في لفظ النكاح، واختلفوا في التي وهبتْ نفسَها لرسول الله ﷺ وهل كانت عنده امرأة منهنّ، فقال عبد الله بن عباس

فأما غير المؤمنة، فلا تحل له إذا وهبت نفسها منه وهل تحل الكتابية بالمهر، فذهب جماعة إلى أنها لا تحل له لقوله ﴿وامرأة مؤمنة﴾ فدل ذلك على أنه لا يحل له نكاح غير المسلمة، وكان من خصائصه ﷺ أن النكاح ينعقد في حقه بمعنى الهبة من غير ولي ولا شهود ولا مهر لقوله ﴿**خالصة لك من دون المؤمنين**﴾ والزيادة على أربع ووجوب تخيير النساء واختلفوا في انعقاد النكاح بلفظ الهبة في حق الأمة فذهب أكثرهم إلى أنه لا ينعقد إلا بلفظ الإنكاح أو التزويج، وهو قول سعيد بن المسيب والزهري ومجاهد وعطاء وبه قال ربيعة ومالك والشافعي: وقال إبراهيم النخعي وأهل الكوفة، ينعقد بلفظ التمليك والهبة، ومن قال بالقول الأول اختلفوا في نكاح النبي ﷺ فذهب قوم إلى أنه كان ينعقد في حقه ﷺ بلفظ الهبة، لقوله تعالى ﴿**خالصة لك من دون المؤمنين**﴾ وذهب آخرون إلى أنه لا ينعقد إلا بلفظ الإنكاح أو التزويج، كما في حق سائر الأمة لقوله تعالى ﴿**إن أراد النبي أن يستنكحها**﴾ وكان اختصاصه في ترك المهر لا في لفظ النكاح واختلفوا في التي وهبت نفسها للنبي ﷺ، وهل كانت عنده امرأة منهن فقال ابن عباس ومجاهد: لم يكن عند النبي ﷺ امرأة وهبت نفسها منه ولم يكن عنده امرأة إلا بعقد النكاح، أو بملك يمين وقوله ﴿**إن وهبت نفسها**﴾ على سبيل الفرض والتقدير، وقال آخرون: بل كانت عنده موهوبة، واختلفوا فيها فقال الشعبي هي زينب بنت خزيمة الأنصارية الهلالية أم المساكين، وقال قتادة هي ميمونة بنت الحارث وقال علي بن الحسين والضحاك ومقاتل هي أم شريك بنت جابر: من بني أسد وقال عروة بن الزبير: هي خولة بنت حكيم من بني سليم. وقوله تعالى ﴿**قد علمنا ما فرضنا عليهم**﴾ أي أوجبنا على المؤمنين ﴿**في أزواجهم**﴾ أي من الأحكام وهو أن لا يتزوجوا أكثر من أربع ولا يتزوجوا إلا بولي وشهود ومهر ﴿**وما ملكت أيمانهم**﴾ أي ما أوجبنا من الأحكام في ملك اليمين ﴿**لكيلا يكون عليك حرج**﴾ وهذا يرجع إلى أول الآية معناه أحللنا لك أزواجك وما ملكت يمينك والموهوبة لكي لا يكون عليك ضيق ﴿**وكان الله غفوراً**﴾ أي للواقع في الحرج ﴿**رحيماً**﴾ أي بالتوسعة على عبادة.

۞ تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ۖ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴿٥١﴾ لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا ﴿٥٢﴾

قوله تعالى ﴿**ترجي**﴾ يعني تؤخر ﴿**من تشاء منهن وتؤوي إليك**﴾ أي تضم إليك ﴿**من تشاء**﴾ قيل هذا للقسم بينهن وذلك أن التسوية بينهن في القسم كانت واجبة عليه ﷺ، فلما نزلت هذه الآية سقط عنه الوجوب وصار الاختيار

ومجاهد: لم يكن عند النبي ﷺ امرأة وهبت نفسها منه، ولم يكن عنده امرأة إلّا بعقد نكاح أو ملك يمين، وقوله: ﴿ **إن وهبت نفسها** ﴾ على طريق الشرط والجزاء، وقال آخرون: بل كانت عنده موهوبة واختلفوا فيها فقال الشعبي: هي زينب بنت خزيمة الهلالية، يقال لها أُم المساكين. وقال قتادة: هي ميمونة بنت الحرث. وقال علي بن الحسين والضحاك ومقاتل: هي أُم شريك بنت جابر من بني أسد. وقال عروة بن الزبيرة: هي خولة بنت حكيم من بني سليم. قوله تعالى: ﴿ **قد علمنا ما فرضنا عليهم** ﴾، أي أوجبنا على المؤمنين، ﴿ **في أزواجهم** ﴾، من الأحكام أن لا يتزوجوا أكثر من أربع ولا يتزوجوا إلّا بوليّ وشهود ومهر، ﴿ **وما ملكت أيمانهم** ﴾، أي ما أوجبنا من الأحكام في ملك اليمين، ﴿ **لكيلا يكون عليك حرج** ﴾، وهذا يرجع إلى أول الآية أي أحللنا لكِ أزواجك وما ملكت يمينك والموهوبة لك لكي لا يكون عليك حرج وضيق، ﴿ **وكان الله غفوراً رحيماً** ﴾.

﴿ **تُرْجِي** ﴾، أي تؤخر، ﴿ **مَن تشاء منهنّ وتُؤوي** ﴾، أي تضمّ، ﴿ **إليك مَن تشاء** ﴾، اختلف المفسّرون

إليه فيهن، وقيل نزلت هذه الآية حين غار بعض أمهات المؤمنين على النبي ﷺ وطلب بعضهن زيادة النفقة فهجرهن شهراً حتى نزلت آية التخيير فأمره الله تعالى أن يخيرهن فمن اختارت الدنيا فارقها، ويمسك من اختارت الله ورسوله على أنهن أمهات المؤمنين، لا ينكحن أبداً وعلى أنه يؤوي إليه من يشاء منهن ويرجي من يشاء فيرضين به قسم لهن أو لم يقسم أو قسم لبعضهن، دون بعض، أو فضل بعضهن في النفقة والكسوة فيكون الأمر في ذلك إليه يفعل كيف يشاء وكان ذلك من خصائصه فرضين بذلك واخترنه على هذا الشرط. واختلفوا في أنه هل أخرج أحداً منهن من القسم فقال بعضهم: لم يخرج أحداً بل كان ﷺ مع ما جعل الله له من ذلك يسوي بينهن في القسم، إلا سودة فإنها رضيت بترك حقها من القسم، وجلت يومها لعائشة وقيل: أخرج بعضهن. روي عن أبي رزين، قال: لما نزل التخيير أشفقن أن يطلقن فقلن يا نبي الله اجعل لنا من مالك ونفسك ما شئت، ودعنا على حالنا فأرجى رسول الله ﷺ بعضهن، وآوى إليه بعضهن فكان ممن آوى إليه عائشة وحفصة وأم سلمة وزينب، وكان يقسم بينهن سواء وأرجى منهن خمساً أم حبيبة وميمونة وسودة وجويرة وصفية، فكان يقسم لهن ما يشاء وقال ابن عباس تطلق من تشاء منهن، وتمسك من تشاء وقال الحسن: تترك نكاح من شئت وتنكح من شئت من النساء قال وكان النبي ﷺ إذا خطب امرأة لم يكن لغيره خطبتها حتى يتركها رسول الله ﷺ وقيل تقبل من تشاء من المؤمنات اللاتي يهبن أنفسهن فتؤويها إليك وتترك من تشاء فلا تقبلها (ق) عن عروة قال: كانت خولة بنت حكيم من اللاتي، وهبن أنفسهن للنبي ﷺ فقالت عائشة أما تستحي المرأة أن تهب نفسها للرجل فلما نزلت ترجي من تشاء منهن قلت يا رسول الله ما أرى ربك إلا يسارع في هواك ﴿**ومن ابتغيت ممن عزلت**﴾ أي طلبت أن تؤوي إليك امرأة ممن عزلتهن عن القسمة ﴿**فلا جناح عليك**﴾ أي لا إثم عليك فأباح الله له ترك القسم، لهن، حتى إنه ليؤخر من يشاء منهن في نوبتها ويطأ من يشاء منهن في

في معنى الآية فأشهر الأقاويل أنه في القسم بينهنّ وذلك أن التسوية بينهنّ في القسم كانت واجبة عليه، فلما نزلت هذه الآية سقط عنه وصار الاختيار إليه فيهنّ، قال أبو رزين وابن زيد: نزلت هذه الآية حين غار بعض أُمهات المؤمنين على النبي ﷺ وطلب بعضهنّ زيادة النفقة فهجرهنّ النبي ﷺ شهراً حتى نزلت آية التخيير فأمره الله عزّ وجلّ أن يخيّرهنّ بين الدنيا والآخرة، وأن يخلي سبيل مَن اختارت الدنيا ويمسك مَن اختارت الله ورسوله والدار الآخرة، على أنهنّ أُمهات المؤمنين ولا ينكحن أبداً وعلى أنه يؤوي إليه مَن يشاء منهنّ ويرجي مَن يشاء فيرضين به قسم لهنّ أو لم يقسم، أو قسم لبعضهنّ دون بعض أو فضل بعضهنّ في النفقة والقسمة، فيكون الأمر في ذلك إليه يفعل كيف يشاء، وكان ذلك من خصائصه فرضين بذلك واخترنه على هذا الشرط، واختلفوا في أنه هل أخرج أحداً منهم عن القسم فقال بعضهم لم يخرج أحداً بل كان رسول الله ﷺ مع ما جعله الله له من ذلك يسوّي بينهنّ في القسم إلّا سودة فإنها رضيت بترك حقها من القسم، وجعلت يومها لعائشة، وقيل: أخرج بعضهنّ. روى جرير عن منصور عن أبي رزين قال: لمّا نزلت آية التخيير أشفقن أن يطلقهنّ فقلن يا نبي الله اجعل لنا من مالك ونفسك ما شئت ودعنا على حالنا، فنزلت هذه الآية، فأرجى رسول الله ﷺ بعضهنّ وآوى إليه بعضهنّ، وكان ممّن آوى إليه عائشة وحفصة وزينب وأُم سلمة، فكان يقسم بينهنّ سواء، وأرجى منهنّ خمساً أُم حبيبة وميمونة وسودة وصفية وجويرية، فكان يقسم لهنّ ما شاء، وقال مجاهد: ترجي مَن تشاء منهنّ يعني تعزل مَن تشاء منهنّ بغير طلاق وتردّ إليك مَن تشاء بعد العزل بلا تجديد عقد. وقال ابن عباس: تطلّق منهنّ وتمسك مَن تشاء. وقال الحسن: تترك نكاح مَن شئت وتنكح مَن شئت من نساء أُمتك، قال: وكان النبي ﷺ إذا خطب امرأة لم يكن لغيره خطبتها حتى يتركها رسول الله ﷺ. وقيل: تقبل مَن تشاء من المؤمنات اللاتي يهبن أنفسهنّ لك فتؤويها إليك وتترك مَن تشاء فلا تقبلها، أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا

غير نوبتها ويرد إلى فراشه من عزل منهن، تفضيلاً له على سائر الرجال ﴿ذلك أدنى أن تقر أعينهن ولا يحزن﴾ أي ذلك التخيير الذي خيرتك في صحبتهن أقرب إلى رضاهن وأطيب لأنفسهن، وأقل لحزنهن إذا علمن أن ذلك من الله تعالى ﴿ويرضين بما آتيتهن﴾ أي أعطيتهن ﴿كلهن﴾ من تقريب وإرجاء وعزل وإيواء ﴿والله يعلم ما في قلوبكم﴾ أي من أمر النساء والميل إلى بعضهن ﴿وكان الله عليماً﴾ أي مما في ضمائركم ﴿حليماً﴾ أي عنكم.

قوله تعالى ﴿لا يحل لك النساء من بعد﴾ أي من بعد هؤلاء التسع اللاتي اخترنك وذلك أن النبي ﷺ لما خيرهن فاخترن الله ورسوله شكر الله لهن ذلك وحرم عليه النساء سواهن، ونهاه عن تطليقهن وعن الاستبدال بهن، قاله ابن عباس: واختلفوا هل أبيح له النساء بعد ذلك فروي عن عائشة أنها قالت «ما مات رسول الله ﷺ حتى أحل له النساء» أخرجه الترمذي. وقال حديث حسن صحيح، وللنسائي عنها «حتى أحل له أن يتزوج من النساء ما يشاء» وقال أنس «مات رسول الله ﷺ على التحريم» وقيل لأبي بن كعب لو مات نساء النبي ﷺ أكان يحل له أن يتزوج قال: وما يمنعه من ذلك قيل له قوله تعالى ﴿لا يحل لك النساء من بعد﴾ قال: إنما أحل له ضرباً من النساء فقال تعالى ﴿يا أيها النبي إنا أحللنا لك أزواجك﴾ الآية ثم قال ﴿لا تحل لك النساء من بعد﴾ وقيل معنى الآية لا تحل لك اليهوديات ولا

محمد بن سلام أنا ابن فضيل أنا هشام عن أبيه قال: كانت خولة بنت حكيم من اللائي وهبن أنفسهنّ للنبي ﷺ فقالت عائشة: أما تستحي المرأة أن تهب نفسها للرجل؟ فلما نزلت: ﴿ ترجي مَن تشاء منهنّ ﴾، قلت: يا رسول الله ما أرى ربّك إلّا يسارع في هواك قوله تعالى: ﴿ ومَن ابتغيت ممّن عزلت ﴾، أي طلبت وأردت أن تؤوي إليك امرأة ممّن عزلتهنّ عن القسم، ﴿ فلا جُناح عليك ﴾، لا إثم عليك فأباح الله له ترك القسم لهنّ حتى إنه ليؤخر مَن يشاء منهنّ في نوبتها ويطأ مَن يشاء منهنّ في غير نوبتها، ويرد إلى فراشه من عزلها تفضيلاً له على سائر الرجال، ﴿ ذلك أدنى أن تقرّ أعينهنّ ولا يحزن ﴾، أي التخيير الذي خيّرتك في صحبتهنّ أقرب إلى رضاهنّ وأطيب لأنفسهنّ وأقل لحزنهنّ إذا علمن أن ذلك من الله عزّ وجلّ، ﴿ ويَرْضَيْنَ بما آتيتهنّ ﴾، أعطيتهنّ، ﴿ كلّهنّ ﴾، من تقرير وإرجاء وعزل وإيواء، ﴿ والله يعلم ما في قلوبهم ﴾، من أمر النساء والميل إلى بعضهنّ، ﴿ وكان الله عليماً حكيماً ﴾.

قوله تعالى: ﴿ لا يحلّ لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهنّ من أزواج ﴾، قرأ أبو عمرو ويعقوب (لا تحلّ) بالتاء، وقرأ الآخرون بالياء من بعد يعني من بعد هؤلاء التسع اللاتي خيّرتهنّ فاخترنك، وذلك أن النبي ﷺ لمّا خيّرهنّ فاخترن الله ورسوله شكر لهنّ وحرّم عليه النساء سواهنّ ونهاه عن تطليقهنّ وعن الاستبدال بهنّ، هذا قول ابن عباس وقتادة، واختلفوا في أنه هل أُبيح له النساء من بعد؟ قالت عائشة: ما مات رسول الله ﷺ حتى أُحلّ له النساء سواهنّ. وقال أنس: مات على التحريم. وقال عكرمة والضحاك: معنى الآية لا يحلّ لك النساء إلّا اللاتي أحللنا لك وهو قوله: ﴿ إنّا أحللنا لك أزواجك ﴾ [الأحزاب: ٥٠] الآية، ثم قال: ﴿ لا يحلّ لك النساء من بعد ﴾ إلّا التي أحللنا لك بالصفة التي تقدّم ذكرها. وقيل لأُبيّ بن كعب: لو مات نساء النبي ﷺ أكان يحلّ له أن يتزوج؟ قال: وما يمنعه من ذلك؟ قيل: قوله عزّ وجلّ: ﴿ لا يحلّ لك النساء من بعد ﴾، قال: إنما أحلّ الله له ضرباً من النساء، فقال: ﴿ يا أيها النبي إنّا أحللنا لك أزواجك ﴾ [الأحزاب: ٥٠]، ثم قال: ﴿ لا يحلّ لك النساء من بعد ﴾، قال أبو صالح: أُمر أن لا يتزوج أعرابية ولا عربية، ويتزوج من نساء قومه من بنات العمّ والعمّة والخالة إن شاء ثلثمائة: وقال مجاهد: معناه لا يحلّ لك اليهوديات ولا النصرانيات بعد المسلمات ولا أن تبدل بهنّ، يقول ولا أن تبدل بالمسلمات غيرهنّ من اليهود والنصارى، يقول لا تكون أُم المؤمنين يهودية ولا نصرانية، إلّا ما ملكت يمينك، أحلّ له ما ملكت يمينه من الكتابيات أن يتسرى بهنّ. ورُوِيَ عن الضحاك: يعني ولا أن تبدل بهنّ ولا أن

النصرانيات بعد المسلمات ﴿ولا أن تبدل بهن من أزواج﴾ أي بالمسلمات غيرهن من الكتابيات، لأنه لا تكون أم المؤمنين يهودية ولا نصرانية إلا ما ملكت يمينك أي من الكتابيات فتسري بهن وقيل في قوله ﴿ولا أن تبدل بهن من أزواج﴾ كانت العرب في الجاهلية يتبادلون بأزواجهم، يقول الرجل للرجل انزل لي عن امرأتك وأنزل عن امرأتي فأنزل الله تعالى ﴿ولا أن تبدل بهن من أزواج﴾ أي تبادل بهن من أزواج أي تبادل بأزواجك غيرك بأن تعطية زوجتك وتأخذ زوجته فحرم ذلك ﴿إلا ما ملكت يمينك﴾ أي لا بأس أن تبادل بجاريتك ما شئت، فأما الحرائر فلا ﴿ولو أعجبك حسنهن﴾ يعني ليس لك أن تطلق أحد من نسائك، وتنكح بدلها أخرى، ولو أعجبك جمالها، قال ابن عباس: يعنيْ أسماء بنت عميس الخثعمية امرأة جعفر بن أبي طالب لما استشهد جعفر أراد رسول الله ﷺ أن يخطبها فنهي عن ذلك ﴿إلا ما ملكت يمينك﴾ قال ابن عباس: ملك بعد هؤلاء مارية ﴿وكان الله على كل شيء رقيباً﴾ أي حافظاً وفي الآية دليل على جواز النظر إلى من يريد نكاحها من النساء، ويدل عليه ما روى عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا خطب أحدكم المرأة فان استطاع آن ينظر إلى ما يدعوه إلى نكاحها فليفعل» أخرجه أبو داود. (م) عن أبي هريرة «أن رجلاً أراد أن يتزوج امرأة من الأنصار فقال له النبي ﷺ انظر إليها فإن في أعين الأنصار شيئاً» قال الحميدي: يعني هو الصغر عن المغيرة بن شعبة قال: «خطبت امرأة فقال لي النبي ﷺ هل نظرت إليها قلت: لا قال

تبدل بأزواجك اللاتي هنّ في حيالك أزواجاً غيرهنّ بأن تطلقهن فتنكح غيرهنّ فحرّم عليه طلاق النساء اللواتي كنّ عنده إذ جعلهنّ أُمهات المؤمنين، وحرّمهنّ على غيره حين اخترنه، فأما نكاح غيرهنّ فلم يمنع عنه. وقال ابن زيد في قوله: ﴿ ولا أن تبدل بهنّ من أزواج ﴾، كانت العرب في الجاهلية يتبادلون بأزواجهم، يقول الرجل للرجل بادلني بامرأتك وأُبادلك بامرأتي تنزل لي عن امرأتك وأنزل لك عن امرأتي، فأنزل الله: ﴿ ولا أن تبدل بهنّ من أزواج ﴾، يعني لا تبادل بأزواجك غيرك بأن تعطيه زوجك وتأخذ زوجته، إلّا ما ملكت يمينك لا بأس أن تبدل بجاريتك ما شئت، فأما الحرائر فلا، ورُوِيَ عن عطاء بن يسار عن أبي هريرة قال: دخل عيينة بن حصن على النبي ﷺ بغير إذن وعنده عائشة فقال له النبي ﷺ: «يا عيينة فأين الاستئذان»؟ قال: يا رسول الله ما استأذنت على رجل من مضر منذ أدركت، ثم قال: مَن هذه الحميراء إلى جنبك؟ فقال: «هذه عائشة أُم المؤمنين». فقال عيينة: أفلا أنزل لك عن أحسن الخلق وتنزل لي عن هذه؟ فقال رسول الله ﷺ: «إن الله قد حرّم ذلك»، فلما خرج قالت عائشة: مَن هذا يا رسول الله؟ فقال: «هذا أحمق مطاوع وإنه على ما ترين لسيد قومه». قوله تعالى: ﴿ ولو أعجبك حسنهنّ ﴾، يعني ليس لك أن تطلّق أحداً من نسائك وتنكح بدلها أُخرى ولو أعجبك جمالها. قال ابن عباس: يعني أسماء بنت عميس الخثعمية امرأة جعفر بن أبي طالب، فلما استشهد جعفر أراد رسول الله ﷺ أن يخطبها فنُهِيَ عن ذلك، ﴿ إلّا ما ملكت يمينك ﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما: ملك بعد هؤلاء مارية، ﴿ وكان الله على كل شيء رقيباً ﴾، حافظاً. وفي الآية دليل على جواز النظر إلى مَن يريد نكاحها من النساء. رُوِيَ عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا خطب أحدكم المرأة فإن استطاع أن ينظر إلى ما يدعوه إلى نكاحها فليفعل»، أخبرنا أبو الحسن علي بن يوسف الجويني أنا محمد بن محمد بن علي بن شريك الشافعي أنا عبد الله بن محمد بن مسلم الجورندي قال: أنا أحمد بن حرب أنا أبو معاوية عن عاصم هو ابن سليمان عن بكر بن عبد الله عن المغيرة بن شعبة قال: خطبتُ امرأةً، فقال لي النبي ﷺ: «هل نظرتَ إليها؟» قلت: لا، قال: «فانظرْ إليها فإنه أحرى أن يُؤدم بينكما»، أخبرنا أبو سعيد الشريحي أنا أبو إسحاق الثعلبي أنا عبد الله بن حامد أنا حامد بن محمد أنا بشر بن موسى أنا الحميدي أنا سعيد أنا يزيد بن كيسان عن أبي حازم عن أبي هريرة أن رجلاً أراد أن يتزوج امرأة من الأنصار، فقال له النبي ﷺ: «انظرْ إليها فإن في أعين نساء الأنصار شيئاً»، قال الحميدي: يعني الصغر.

فانظر إليها فانه أحرى أن يؤدم بينكما» أخرجه الترمذي: وقال حديث حسن. قوله عز وجل:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيۡرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنۡ إِذَا دُعِيتُمۡ فَٱدۡخُلُواْ فَإِذَا طَعِمۡتُمۡ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسۡتَـٔۡنِسِينَ لِحَدِيثٍۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ يُؤۡذِي ٱلنَّبِيَّ فَيَسۡتَحۡيِۦ مِنكُمۡۖ وَٱللَّهُ لَا يَسۡتَحۡيِۦ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ وَإِذَا سَأَلۡتُمُوهُنَّ مَتَٰعٗا فَسۡـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٖۚ ذَٰلِكُمۡ أَطۡهَرُ لِقُلُوبِكُمۡ وَقُلُوبِهِنَّۚ وَمَا كَانَ لَكُمۡ أَن تُؤۡذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزۡوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦٓ أَبَدًاۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ٥٣﴾

﴿يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم﴾ الآية قال أكثر المفسرين نزلت هذه الآية في شأن وليمة زينب بنت جحش حين بنى بها رسول الله ﷺ (ق) عن أنس بن مالك: أنه كان ابن عشر سنين مقدم النبي ﷺ المدينة، قال فكانت أم هانيء تواظبني على خدمة رسول الله ﷺ، فخدمته عشر سنين وتوفي رسول الله ﷺ وأنا ابن عشرين سنة، وكنت أعلم الناس بشأن الحجاب حين أنزل، وكان أول ما نزل في مبتنى رسول الله ﷺ بزينب بنت جحش حين أصبح النبي ﷺ بها عروساً فدعا القوم فأصابوا من الطعام ثم خرجوا، وبقي رهط عند النبي ﷺ فأطالوا المكث فقام النبي ﷺ فخرج وخرجت معه لكي يخرجوا فمشى النبي ﷺ ومشيت معه حتى جاء عتبة حجرة عائشة ثم ظن أنهم قد خرجوا، فرجع ورجعت معه حتى إذا دخل على زينب فإذا هم جلوس لم يقوموا فرجع النبي ﷺ ورجعت، حتى إذا بلغ عتبة حجرة عائشة، وظن أنهم قد خرجوا فرجع ورجعت معه فإذا هم قد خرجوا فضرب

قوله عزّ وجلّ: ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلاّ أن يُؤذن لكم ﴾، الآية. قال أكثر المفسّرين: نزلت هذه الآية في شأن وليمة زينب بنت جحش حين بنى بها رسول الله ﷺ، أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا يحيىٰ بن بكير أنا الليث عن عقيل عن ابن شهاب أخبرني أنس بن مالك أنه كان ابن عشر سنين مقدم رسول الله ﷺ المدينة، قال: وكانت أُم هانيء تواظبني على خدمة النبي ﷺ، فخدمته عشر سنين وتوفي النبي ﷺ وأنا ابن عشرين سنة فكنت أعلم الناس بشأن الحجاب حين أنزل فكان أول ما أنزل في مبتنى رسول الله ﷺ بزينب بنت جحش، أصبح النبي ﷺ بها عروساً فدعا القوم فأصابوا من الطعام ثم خرجوا، وبقي رهط منهم عند النبي ﷺ فأطالوا المكث، فقام النبي ﷺ فخرج وخرجت معه لكي يخرجوا، فمشى النبي ﷺ ومشيت حتى جاء حجرة عائشة، ثم ظن أنهم خرجوا فرجع ورجعت معه حتى إذا دخل على زينب فإذا هم جلوس لم يقوموا، فرجع النبي ﷺ، ورجعت معه حتى إذا بلغ عتبة حجرة عائشة وظن أنهم قد خرجوا فرجع ورجعت معه فإذا هم قد خرجوا، فضرب النبي ﷺ بيني وبينه الستر، وأنزل الحجاب. وقال أبو عثمان، واسمه الجعد عن أنس قال: فدخل رسول الله ﷺ البيت وأرخى الستر وإني لفي الحجرة، وهو يقول: ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلاّ أن يُؤذن لكم ﴾ إلى قوله: ﴿ والله لا يستحي من الحق ﴾. ورُوِيَ عن ابن عباس أنها نزلت في ناس من المسلمين كانوا يتحينون طعام رسول الله ﷺ فيدخلون عليه قبل الطعام إلى أن يدرك ثم يأكلون ولا يخرجون، وكان رسول الله ﷺ يتأذّى بهم، فنزلت: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تـدخلوا بيوت النبي إلاّ أن يؤذن لكم ﴾ يقول إلاّ أن تُدْعَوْا، ﴿ إلى طعام ﴾، فيؤذن لكم فتأكلونه، ﴿ غير ناظرين إناه ﴾، غير منتظرين إدراكه ووقت نضجه، يقال أَنَى الحميم إذا انتهى حرّه، وإَنى أن يفعل ذلك إذا حان، إِنى بكسر الهمزة مقصورة، فإذا فتحتها مددت فقلت الإِناء، وفيه لغتان إنى يأنى وآن يئين مثل حان يحين، ﴿ ولكن إذا دعيتم فادخلوا فإذا

النبي ﷺ بيني وبينه بالستر وأنزل الحجاب زاد في رواية قال دخل يعني النبي ﷺ البيت وأرخى الستر، وإني لفي الحجرة وهو يقول ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم﴾ إلى قوله ﴿والله لا يستحيي من الحق﴾ (ق) عن عائشة «أن أزواج النبي ﷺ كن يخرجن بالليل، إذا تبرزن إلى المناصع وهو صعيد أفيح، وكان عمر رضي الله عنه يقول للنبي ﷺ، احجب نساءك فلم يكن رسول الله ﷺ يفعل، فخرجت سودة بنت زمعة زوج النبي ﷺ ليلة من الليالي عشاء وكانت امرأة طويلة فناداها عمر ألا قد عرفناك يا سودة حرصاً على أن ينزل الحجاب فأنزل الله الحجاب» المناصع المواضع الخالية، لقضاء الحاجة من البول أو الغائط والصعيد وجه الأرض والأفيح الواسع (ق)، عن أنس وابن عمر أن عمر قال «وافقت ربي في ثلاث قلت يا رسول الله لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى فنزل ﴿واتخذوا من مقام إبراهيم مصلي﴾ وقلت: يا رسول الله يدخل على نسائك البر والفاجر فلو أمرتهن أن يحتجبن فنزلت الآية الحجاب واجتمع نساء النبي ﷺ في الغيرة فقلت عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكن فنزلت كذلك. وقال ابن عباس: إنها نزلت في ناس من المسلمين كانوا يتحينون طعام رسول الله ﷺ فيدخلون عليه قبل الطعام قبل أن يدرك ثم يأكلون، ولا يخرجون وكان رسول الله ﷺ يتأذى بهم، فنزلت الآية ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم**﴾ يعني إلا أن تدعوا ﴿**إلى طعام**﴾ فيؤذن لكم فتأكلون ﴿**غير ناظرين إناه**﴾ يعنى منتظرين نضجه ووقت إدراكه ﴿**ولكن إذا دعيتم فادخلوا فإذا طعمتم**﴾ أي أكلتم الطعام ﴿**فانتشروا**﴾ أي فاخرجوا من منزله وتفرقوا ﴿**ولا مستأنسين لحديث**﴾ أي لا تطيلوا الجلوس ليستأنس بعضكم بحديث بعض، وكانوا يجلسون بعد الطعام يتحدثون فنهوا عن ذلك ﴿**إن ذلكم كان يؤذي النبي فيستحيي منكم**﴾ أي فيستحيي من إخراجكم ﴿**والله لا يستحيي من الحق**﴾ أي لا يترك تأديبكم وبيان الحق حياء ولما كان الحياء مما يمنع الحيي من بعض الأفعال، قال لا يستحيي من الحق بمعنى لا يمتنع منه ولا يتركه ترك الحيي منكم وهذا أدب أدب الله به الثقلاء، وقيل: بحسبك من الثقلاء أن الله لم يحتملهم ﴿**وإذا سألتموهن متاعا**﴾ أي وإذا سألتم نساء النبي ﷺ حاجة ﴿**فاسألوهن من وراء حجاب**﴾ أي من وراء

طعمتم ﴾، أكلتم الطعام، ﴿ **فانتشروا** ﴾، تفرقوا واخرجوا من منزله، ﴿ **ولا مستأنسين لحديث** ﴾، ولا طالبين الأنس للحديث، وكانوا يجلسون بعد الطعام يتحدثون طويلاً فنُهوا عن ذلك، ﴿ **إن ذلكم كان يُؤذي النبي فيستحيي منكم والله لا يستحي من الحق** ﴾، أي لا يترك تأديبكم وبيان الحق حياءً، ﴿ **وإذا سألتموهنّ متاعاً فاسئلوهنّ من وراء حجاب** ﴾، أي من وراء ستر، فبعد آية الحجاب لم يكن لأحد أن ينظر إلى امرأة رسول الله ﷺ متنقّبة كانت أو غير متنقّبة، ﴿ **ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهنّ** ﴾ من الريب، وقد صحّ في سبب نزول آية الحجاب ما أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا يحيىٰ بن بكير أنا الليث حدّثني عقيل عن ابن شهاب عن عروة عن عائشة أن أزواج النبي ﷺ كنّ يخرجن بالليل إذا تبرزن إلى المناصع وهو صعيد أفيح، وكان عمر يقول للنبي ﷺ: احجب نساءك فلم يكن رسول الله ﷺ يفعل، فخرجت سودة بنت زمعة زوج النبي ﷺ ليلة من الليالي عشاء وكانت امرأة طويلة، فناداها عمر: ألا قد عرفناك يا سودة حرصاً على أن ينزل الحجاب، فأنزل الحجاب. أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحي أنا أبو بكر محمد بن الحسن الحيري أنا حاجب بن أحمد الطوسي أنا عبد الرحيم بن مُنيب أنا يزيد بن هارون أنا حميد عن أنس قال: قال عمر: وافقني ربي في ثلاث، قلت: يا رسول الله لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى، وقلت: يا رسول الله إنه يدخل عليك البَرُّ والفاجر فلو أمرت أُمهات المؤمنين بالحجاب، فأنزل الله آية الحجاب، قال: وبلغني بعض ما آذى به رسولَ الله ﷺ نساؤُه، قال: فدخلتُ عليهنّ فجعلت أستقرّ بهنّ واحدة واحدة، قلت: والله لتنتهُنّ أو ليبدّلنّه الله أزواجاً خيراً منكنّ، حتى أتيت على زينب فقالت: يا عمر ما كان في رسول الله ﷺ ما يعظ نساءه حتى تعظهنّ أنت، قال: فخرجت فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿ عسى ربه إن طلقكنّ أن يبدله أزواجاً خيراً منكنّ ﴾ [التحريم: ٥]، إلى آخر الآية. قوله عزّ

ستر فبعد آية الحجاب لم يكن لأحد أن ينظر إلى امرأة من نساء رسول الله ﷺ متنقبة كانت أو غير متنقبة ﴿ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن﴾ أي من الريب ﴿وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله﴾ أي ليس لكم أذاه في شيء من الأشياء ﴿ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبداً﴾ نزلت في رجل من أصحاب رسول الله ﷺ، قال إذا: قبض رسول الله ﷺ فلأنكحن عائشة. قيل هو طلحة بن عبيد الله فأخبر الله أن ذلك محرم، وقال ﴿إن ذلكم كان عند الله عظيماً﴾ أي ذنباً عظيماً وهذا من إعلام تعظيم الله لرسوله الله ﷺ، وإيجاب حرمته حياً وميتاً وإعلامه بذلك مما طيب نفسه وسر قلبه واستفرغ شكره فإن من الناس من تفرط غيرته على حرمه حتى يتمنى لها الموت قبله لئلا تنكح بعده.

﴿إِن تُبْدُواْ شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٤﴾ لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِىٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ ۗ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾﴾

﴿إن تبدو شيئاً﴾ أي من أمر نكاحهن على ألسنتكم ﴿أو تخفوه﴾ أي في صدوركم ﴿فإن الله كان بكل شيء عليماً﴾ أي يعلم سركم وعلانيتكم، نزلت فيمن أضمر نكاح عائشة بعد رسول الله ﷺ وقيل: قال رجل من الصحابة ما بالنا نمنع من الدخول على بنات أعمامنا، فنزلت هذه الآية، ولما نزلت آية الحجاب قال الآباء والأبناء والأقارب لرسول الله، ونحن أيضاً يا رسول الله نكلمهن من وراء حجاب فأنزل الله عز وجل ﴿لا جناح عليهن في آبائهن ولا أبنائهن ولا إخوانهن ولا أبناء إخوانهن ولا أبناء أخواتهن﴾ أي لا إثم عليهن في ترك الحجاب عن هؤلاء الأصناف من الأقارب ﴿ولا نسائهن﴾ قيل أراد به النساء المسلمات، حتى لا يجوز للكتابيات الدخول على أزواج رسول الله ﷺ وقيل هو عام في المسلمات والكتابيات وإنما قال ولا نسائهن لأنهن من أجناسهن ﴿ولا ما ملكت أيمانهن﴾ اختلفوا

وجلّ: ﴿ وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ﴾، ليس لكم أذاه في شيء من الأشياء، ﴿ ولا تنكحوا أزواجه من بعده أبداً ﴾، نزلت في رجل من أصحاب النبي ﷺ، قال: لئن قبض رسول الله ﷺ لأنكحنّ عائشة، قال مقاتل بن سليمان: هو طلحة بن عبيد الله فأخبره الله عزّ وجلّ أن ذلك محرّم، وقال: ﴿ إنّ ذلكم كان عند الله عظيماً ﴾، أي ذنباً عظيماً. وروى معمر عن الزهري أن العالية بنت ظبيان التي طلّقها النبي ﷺ تزوجت رجلاً وولدت له وذلك قبل تحريم أزواج النبي ﷺ على الناس.

﴿إنْ تبدوا شيئاً أو تخفوه فإن الله كان بكل شيء عليماً ﴾، نزلت فيمن أضمر نكاح عائشة بعد رسول الله ﷺ، وقيل: قال رجل من الصحابة ما بالنا نمنع من الدخول على بنات أعمامنا، فنزلت هذه الآية، ولما نزلت آية الحجاب قال الآباء والأبناء والأقارب: ونحن أيضاً نكلّمهنّ من وراء الحجاب؟

فأنزل الله: ﴿ لا جُناح عليهنّ في آبائهنّ ولا أبنائهنّ ولا إخوانهنّ ولا أبناء إخوانهنّ ولا أبناء أخواتهنّ ﴾، أي لا إثم عليهنّ في ترك الاحتجاب من هؤلاء، ﴿ ولا نسائهنّ ﴾، قيل أراد به النساء المسلمات حتى لا يجوز للكتابيات الدخول عليهنّ، وقيل: هو عامّ في المسلمات والكتابيات، وإنما قال: ﴿ ولا نسائهنّ ﴾، لأنهنّ بين أجناسهنّ، ﴿ ولا ما ملكت أيمانهنّ ﴾، واختلفوا في أن عبد المرأة هل يكون محرّماً لها أم لا؟ فقال قوم يكون محرّماً لقوله عزّ وجلّ: ﴿ ولا ما ملكت أيمانهنّ ﴾، وقال قوم: هو كالأجانب، والمراد من الآية الإماء دون العبيد، ﴿ واتّقين الله ﴾ أن يراكنّ غير هؤلاء، ﴿ إن الله كان على كل شيء ﴾، من أعمال العباد ﴿ شهيداً ﴾.

في أن عبد المرأة هل يكون محرماً لها أم لا فقال قوم بل يكون محرماً لقوله تعالى ولا ما ملكت أيمانهن، وقال قوم العبد كالأجانب والمراد من الآية الإماء دون العبيد ﴿واتقين الله﴾ أي أن يراكن أحد غير هؤلاء ﴿إن الله كان على كل شيء﴾ أي من أعمال العباد ﴿شهيداً﴾ قوله عز وجل ﴿إن الله وملائكته يصلون على النبي﴾ قال ابن عباس: أراد أن الله يرحم النبي، والملائكة يدعون له وعنه أيضاً يصلون يتبركون وقيل الصلاة من الله الرحمة ومن الملائكة الاستغفار فصلاة الله ثناؤه عليه عند ملائكته وصلاة الملائكة الدعاء ﴿يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه﴾ أي ادعوا له بالرحمة ﴿وسلموا تسليماً﴾ أي حيوه بتحية الإسلام.

فصل في صفة الصلاة على النبي ﷺ وفضلها

اتفق العلماء على وجوب الصلاة على النبي ﷺ ثم اختلفوا فقيل تجب في العمر مرة وهو الأكثر، وقيل: تجب في كل صلاة في التشهد الأخير وهو مذهب الشافعي وإحدى الروايتين عن أحمد وقيل: تجب كلما ذكر واختاره الطحاوي من الحنفية والحليمي من الشافعية والواجب اللهم صل على محمد وما زاد سنة (ق) عن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال: لقيني كعب بن عجرة فقال ألا أهدي لك هدية إن النبي ﷺ خرج علينا فقلنا يا رسول الله قد علمنا كيف نسلم عليك فكيف نصلي عليك؟ قال: قولوا «اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد» (ق) عن أبي حميد الساعدي قال: قالوا يا رسول الله كيف نصلي عليك قال «قولوا اللهم صل على محمد

قوله تعالى: ﴿ إن الله وملائكته يصلّون على النبي ﴾، قال ابن عباس أراد إن الله يرحم النبي، والملائكة يدعون له. وعن ابن عباس أيضاً: يصلّون يتبرّكون. وقيل: الصلاة من الله الرحمة ومن الملائكة الاستغفار، ﴿ يا أيها الذين آمنوا صلّوا عليه ﴾، أي ادعوا له بالرحمة، ﴿ وسلّموا تسليماً ﴾، أي حيّوه بتحية الإسلام. وقال أبو العالية: صلاة الله ثناؤه عليه عند الملائكة وصلاة الملائكة الدعاء. أخبرنا أبو سعيد أحمد بن محمد بن العباس الحميدي أنا عبد الله بن محمد بن عبد الله الحافظ أنا أبو بكر أحمد بن سليمان الفقيه ببغداد أنا أبو بكر أحمد بن زهير بن حرب أنا موسى بن إسماعيل أنا أبو سلمة أنا عبد الواحد بن زياد أنا أبو فروة حدّثني عبد الله بن عيسى بن عبد الرحمن بن أبي ليلى سمع عبد الرحمن بن أبي ليلى يقول: لقيني كعب بن عجرة فقال: ألا أهدي لك هدية سمعتها من النبي ﷺ؟ فقلت: بلى فاهدوها لي، فقال: سألنا رسول الله ﷺ، فقلنا: يا رسول الله كيف الصلاة عليكم أهل البيت فإن الله قد علّمنا كيف نسلّم عليك؟ قال: «قولوا اللّهمَّ صلِّ على محمد وعلى آل محمد كما صلّيت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد، اللّهمَّ بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد»، أخبرنا أبو الحسن السرخسي أنا زاهر بن أحمد أنا أبو إسحاق الهاشمي أنا مصعب عن مالك عن عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم عن أبيه عن عمرو بن سليم الزرقي أنه قال أخبرني أبو حميد الساعدي، قال: قالوا: يا رسول الله كيف نصلّي عليك؟ فقال رسول الله ﷺ: «قولوا اللّهمَّ صلِّ على محمد وأزواجه وذرّيّته كما صلّيت على إبراهيم وبارك على محمد وأزواجه وذرّيّته كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد»، أخبرنا أبو عمرو ومحمد بن عبد الرحمن النسوي أنا أبو بكر أحمد بن الحسن الحيري أنا محمد بن يعقوب أنا العباس بن محمد الدورقي أنا خالد بن مخلد القطواني أنا موسى بن يعقوب الزمعي عن عبد الله بن كيسان أخبرني عبد الله بن شداد عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أولى الناس بي يوم القيامة أكثرهم عليّ صلاة»، أخبرنا أبو عبد الله بن الفضل الخرقي أنا أبو الحسن علي بن عبد الله الطيسفوني أنا عبد الله بن عمر الجوهري أنا أحمد بن علي الكشميهني أنا علي بن حجر أنا إسماعيل بن جعفر أنا العلاء بن

وعلى أزواجه وذريته، كما صليت على إبراهيم وبارك على محمد وعلى أزواجه وذريته، كما باركت على إبراهيم إنك حميد مجيد» (م) عن أبي مسعود البدري؛ قال أتانا رسول الله ﷺ ونحن في مجلس سعد بن عبادة فقال له بشير بن سعد: أمرنا الله أن نصلي عليك يا رسول الله فكيف نصلي عليك، فسكت رسول الله ﷺ حتى تمنينا أنه لم يسأله ثم قال رسول الله ﷺ قولوا «اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم في العالمين، إنك حميد مجيد والسلام كما قد علمتم» (م) عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «من صلى علي واحدة صلى الله عليه بها عشراً» عن أنس أن رسول الله ﷺ قال «من صلى علي صلاة واحدة صلى الله عليه بها عشراً، وحطت عنه عشر خطيئات ورفعت له عشر درجات» أخرجه الترمذي وله عن أبي طلحة «أن رسول الله ﷺ جاء ذات يوم والبشر في وجهه فقلت إنا لنرى البشر في وجهك قال: أتاني الملك فقال يا محمد إن ربك يقول أما يرضيك أنه لا يصلي عليك أحد إلا صليت عليه عشراً، ولا يسلم عليك أحد إلا سلمت عليه عشراً» وله عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لله ملائكة سياحين في الأرض، يبلغوني عن أمتي السلام» عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال «إن أولى الناس بي يوم القيامة أكثرهم علي صلاة» أخرجه الترمذي وقال حديث حسن غريب. وله عن علي بن أبي طالب قال: قال رسول الله ﷺ «البخيل الذي ذكرت عنده فلم يصل علي» أخرجه الترمذي: وقال حديث حسن غريب صحيح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «من سره أن يكتال بالمكيال الأوفى إذا صلى علينا أهل البيت فليقل اللهم صلي على محمد النبي الأمي، وأزواجه أمهات المؤمنين وذريته وأهل بيته كما صليت على إبراهيم إنك حميد مجيد» أخرجه أبو داود. قوله عز وجل:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٩﴾ ۞ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا

عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «مَن صلّى عليّ واحدة صلّى الله عليه عشراً»، أخبرنا أبو بكر بن عبد الله بن أبي توبة أنا أبو طاهر محمد بن أحمد بن الحرث أنا أبو الحسن محمد بن يعقوب الكسائي أنا عبد الله بن محمود أنا إبراهيم عبد الله الخلال أنا عبد الله بن المبارك عن حمّاد بن سلمة عن ثابت البناني عن سليمان مولى الحسن بن علي عن عبد الله بن أبي طلحة عن أبيه عن رسول الله ﷺ أنه جاء ذات يوم والبشر في وجهه، فقال: «إنه جاءني جبريل فقال إن ربك يقول أما يرضيك يا محمد أن لا يصلِّ عليك أحد من أمتك إلاّ صلّيت عليه عشراً ولا يسلّم عليك أحد من أُمتك إلاّ سلّمت عليه عشراً»، أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أبو محمد عبد الرحمن بن أبي شريح القاضي أنا أبو القاسم البغوي أنا علي بن الجعد أنا شعبة عن عاصم هو ابن عبيد قال: سمعت عبد الله بن ربيعة عن أبيه أنه سمع النبي ﷺ يقول: «مَن صلّى عليّ صلاة صلّتْ عليه الملائكة ما صلّى عليّ فليقللِ العبد من ذلك أو ليكثر»، حدّثنا أبو القاسم يحيى بن علي الكشميهني أنا ابن يزيد المحاربي بالكوفة أنا أبو جعفر محمد بن علي بن دحيم الشبستاني أنا أحمد بن حازم أنا عبد الله بن موسى وأبو نعيم عن سفيان عن عبد الله بن السائب عن زاذان عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لله ملائكة سيّاحين في الأرض يبلغوني من أُمتي السلام».

﴿يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ۝٦٠ مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ۝٦١ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۝٦٢ يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ۝٦٣ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ۝٦٤ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ۝٦٥ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَـٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ۝٦٦ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ۝٦٧﴾

﴿إن الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله في الدنيا والآخرة وأعد لهم عذاباً مهيناً﴾ قال ابن عباس هم اليهود والنصارى والمشركون فأما اليهود فقالوا: عزير ابن الله ويد الله مغلولة وقالوا إن الله فقير ونحن أغنياء وأما النصارى فقالوا المسيح ابن الله وثالث ثلاثة وأما المشركون فقالوا: الملائكة بنات الله والأصنام شركاؤه (خ) عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ «يقول الله عز وجل كذبني ابن آدم، ولم يكن له ذلك وشتمني ولم يكن له ذلك فأما تكذيبه إياي فقوله لن يعيدني كما بدأني، وليس أول الخلق بأهون علي من إعادته وأما شتمه إياي، فقوله اتخذ الله ولداً وأنا الأحد الصمد الذي لم يلد، ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد» (ق) عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: قال الله عز وجل «يؤذيني ابن آدم يسب الدهر وأنا الدهر بيدي أقلب الليل والنهار» معنى هذا الحديث: أنه كان من عادة العرب في الجاهلية أن يذموا الدهر ويسبوه عند النوازل، لاعتقادهم أن الذي يصيبهم من أفعال الدهر فقال الله تعالى أنا الدهر أي أنا الذي أحل بهم النوازل، وأنا فاعل لذلك الذي تنسبونه إلى الدهر في زعمكم، وقيل معنى يؤذون الله يلحدون في أسمائه وصفاته وقيل: هم أصحاب التصاوير (ق) عن أبي هريرة قال سمعت النبي ﷺ. يقول «قال الله عز وجل ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي فليخلقوا ذرة وليخلقوا حبة أو شعيرة» وقيل: يؤذون الله أي يؤذون أولياء الله، كما روي عن النبي ﷺ قال «قال الله تعالى من آذى لي ولياً فقد آذنته بالحرب» وقال تعالى: من أهان لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة ومعنى الأذى هو مخالفة أمر الله تعالى وارتكاب معاصيه، ذكر ذلك على ما يتعارفه الناس بينهم لأن الله تعالى منزه

قوله تعالى: ﴿إنّ الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله في الدنيا والآخرة وأعدّ لهم عذاباً مهيناً﴾، قال ابن عباس هم اليهود والنصارى والمشركون فأما اليهود فقالوا عزير ابن الله ويد الله مغلولة، وقالوا إن الله فقير، وأما النصارى فقالوا المسيح ابن الله وثالث ثلاثة، وأما المشركون فقالوا الملائكة بنات الله والأصنام شركاؤه. وروينا أن النبي ﷺ قال: «يقول الله سبحانه وتعالى شتمني عبدي يقول اتخذ الله ولداً وأنا الأحد الصمد الذي لم ألد ولم أُولد ولم يكن لي كفواً أحد وروينا عن النبي ﷺ قال: قال الله تعالى: «يؤذيني ابن آدم يسبّ الدهر وأنا الدهر، بيدي الأمر أُقلّب الليل والنهار»، وقيل: معنى يؤذون الله أي يلحدون في أسمائه وصفاته، وقال عكرمة هم أصحاب التصاوير، أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا محمد بن العلاء أنا ابن فضيل عن عمارة عن أبي زرعة سمع أبا هريرة قال سمعت النبي ﷺ يقول: «قال الله تعالى وَمَن أظلم ممّن ذهب يخلق كخلقي، فليخلقوا ذرّة أو ليخلقوا حبّة أو شعيرة»، وقال بعضهم: يؤذون الله أي يؤذون أولياء الله، كقوله تعالى: ﴿واسئلِ القرية﴾ [يوسف: ٨٢]، أي أهلَ القرية. وروينا عن النبي ﷺ قال: قال الله تعالى: «مَن عادى لي وليّاً فقد آذنته بالحرب، وقال مَن أهان لي وليّاً فقد بارزني بالمحاربة»، ومعنى الأذى هو مخالفة أمر الله تعالى وارتكاب معاصيه، ذكره على ما يتعارفه الناس بينهم، والله عزّ وجلّ منزّه عن أن يلحقه أذىً من أحد، وإيذاء الرسول قال ابن عباس: هو أنه شجّ في وجهه وكسرت رباعيته. وقيل: شاعر ساحر معلّم مجنون.

عن أن يلحقه أذى من أحد، وأما إيذاء الرسول فقال ابن عباس هو أنه شج وجهه وكسرت رباعيته وقيل ساحر شاعر معلم مجنون ﴿**والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا**﴾ أي من غير أن عملوا ما أوجب أذاهم وقيل يقعون فيهم ويرمونهم بغير جرم ﴿**فقد احتملوا بهتاناً وإثماً مبيناً**﴾ قيل إنها نزلت في علي بن أبي طالب كانوا يؤذونه، ويشتمونه وقيل نزلت في شأن عائشة وقيل نزلت في الزناة الذين يمشون في طرق المدينة يتبعون النساء، إذا برزن بالليل لقضاء حوائجهن فيتبعون المرأة فإن سكتت تبعوها، وإن زجرتهم انتهوا عنها ولم يكونوا يطلبون إلا الإماء ولكن كانوا لا يعرفون الحرة من الأمة لأن زي الكل كان واحداً تخرج الحرة والأمة في درع وخمار فشكوا ذلك إلى أزواجهن، فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ فنزلت ﴿**والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات**﴾ الآية، ثم نهى الحرائر أن يتشبهن بالإماء، فقال تعالى، ﴿**يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين**﴾ أي يرخين ويغطين ﴿**عليهن من جلابيبهن**﴾ جمع جلباب وهو الملاءة التي تشمل بها المرأة فوق الدرع والخمار، وقيل هو الملحفة وكل ما يستتر به من كساء، وغيره.

قال ابن عباس: أمر نساء المؤمنين أن يغطين رؤوسهن ووجوههن بالجلابيب إلا عينا واحدة ليعلم أنهن حرائر وهو قوله تعالى ﴿**ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين**﴾ أي لا يتعرض لهن ﴿**وكان الله غفوراً رحيماً**﴾ أي لما سلف منهن قال أنس: مرت بعمر بن الخطاب جارية متنقبة فعلاها بالدرة، وقال يالكاع اتتشبهين بالحرائر ألق القناع. لكاع كلمة تقال لمن يستحقر به مثل العبد والأمة والخامل والقليل العقل مثل قولك يا خسيس. قوله تعالى ﴿**لئن لم ينته المنافقون**﴾ أي عن نفاقهم ﴿**والذين في قلوبهم مرض**﴾ أي فجور وهم الزناة ﴿**والمرجفون في المدينة**﴾ أي بالكذب

﴿ **والذين يُؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا** ﴾، من غير أن عملوا ما أوجب أذاهم، وقال مجاهد: يقعون فيهم ويرمونهم بغير جرم، ﴿ **فقد احتملوا بهتاناً وإثماً مُبيناً** ﴾، وقال مقاتل: نزلت في علي بن أبي طالب كانوا يؤذونه ويشتمونه. وقيل: نزلت في شأن عائشة. وقال الضحاك والكلبي: نزلت في الزناة الذين كانوا يمشون في طرق المدينة يتبعون النساء إذا برزن بالليل لقضاء حوائجهنّ، فيغمزون المرأة فإن سكتت اتبعوها وإن زجرتهم انتهوا عنها، ولم يكونوا يطلبون إلا الإماء، ولكن كانوا لا يعرفون الحرّة من الأمة لأن زيّ الكل كان واحد، يخرجن في درع وخمارة الحرّة والأمة كذلك فشكون ذلك إلى أزواجهن فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ فنزلت هذه الآية: ﴿ **والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات** ﴾ الآية ثم نهى الحرائر أن يتشبّهن بالإماء.

فقال جلّ ذكره: ﴿ **يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهنّ من جلابيبهنّ** ﴾، جمع الجلباب وهو الملاءة التي تشتمل بها المرأة فوق الدرع والخمار، وقال ابن عباس وأبو عبيدة: أمر نساء المؤمنين أن يغطّين رؤوسهنّ ووجوههنّ بالجلابيب إلّا عيناً واحدة ليُعلَم أنهنّ حرائر، ﴿ **ذلك أدنى أن يعرفن** ﴾، أنهنّ حرائر، ﴿ **فلا يُؤْذَيْنَ** ﴾، فلا يتعرّض لهنّ، ﴿ **وكان الله غفوراً رحيماً** ﴾، قال أنس: مرّت بعمر بن الخطاب جارية متقنّعة فعلاها بالدرة، وقال يا لكاع أتتشبهين بالحرائر، ألقي القناع.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ **لئن لم ينته المنافقون** ﴾، عن نفاقهم، ﴿ **والذين في قلوبهم مرض** ﴾، فجور، يعني الزنا، ﴿ **والمرجفون في المدينة** ﴾، بالكذب وذلك أن ناساً منهم كانوا إذا خرجتْ سرايا رسول الله ﷺ يوقعون في الناس الرعب وإذا التحم القتال ولّوا وانهزموا، ويقولون قد أتاكم العدو ونحوها. وقال الكلبي: كانوا يحبّون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا ويفشون الأخبار ﴿ **لَنُغرينّك بهم** ﴾، لنحرشنّك بهم ولنسلطنّك عليهم، ﴿ **ثم لا يجاورونك فيها** ﴾، لا يساكنوك في المدينة ﴿ **إلّا قليلاً** ﴾، حتى يخرجوا منها، وقيل: لنسلّطنّك عليهم حتى تقتلهم وتُخلي منهم المدينة.

وذلك أن ناساً منهم كانوا إذا خرجت سرايا رسول الله ﷺ يوقعون في الناس أنهم قد قتلوا وهزموا ويقولون: قد أتاكم العدو ونحو هذا من الأراجيف، وقيل: كانوا يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا وتفشو الأخبار ﴿**لنغرينك بهم**﴾ يعني لنحرشنك بهم ولنسلطنك عليهم ﴿**ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلاً**﴾ أي لا يساكنونك في المدينة إلا قليلاً أي حتى يخرجوا منها وقيل لنسلطنك عليهم حتى تقتلهم وتخلي منهم المدينة ﴿**ملعونين**﴾ أي مطرودين ﴿**أينما ثقفوا**﴾ أي وجدوا وأدركوا ﴿**أخذوا وقتلوا تقتيلاً**﴾ أي الحكم فيهم هذا على الأمر به ﴿**سنة الله**﴾ أي كسنة الله ﴿**في الذين خلوا من قبل**﴾ أي في المنافقين والذين فعلوا مثل ما فعل هؤلاء أن يقتلوا حيثما ثقفوا ﴿**ولن تجد لسنة الله تبديلاً**﴾ قوله عز وجل ﴿**يسألك الناس عن الساعة**﴾ قيل إن المشركين كانوا يسألون رسول الله ﷺ، عن وقت قيام الساعة استعجالاً على سبيل الهزء وكان اليهود يسألونه عن الساعة امتحاناً، لأن الله تعالى عمى عليهم علم وقتها في التوراة فأمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يجيبهم بقوله ﴿**قل إنما علمها عند الله**﴾ يعني إن الله تعالى قد استأثر به ولم يطلع عليه نبياً ولا ملكاً ﴿**وما يدريك**﴾ أي أي شيء يعلمك أمر الساعة ومتى يكون قيامها ﴿**لعل الساعة تكون قريباً**﴾ أي إنها قريبة الوقوع وفيه تهديد للمستعجلين، وإسكات للممتحنين ﴿**إن الله لعن الكافرين وأعد لهم سعيراً خالدين فيها أبداً لا يجدون ولياً ولا نصيراً يوم تقلب وجوههم في النار**﴾ أي تتقلب ظهر البطن حين يسحبون عليها ﴿**يقولون يا ليتنا أطعنا الرسولا**﴾ أي في الدنيا ﴿**وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا**﴾ يعني رؤوس الكفر الذين لقنوهم الكفر، وزينوه لهم ﴿**فأضلونا السبيلا**﴾ يعني عن سبيل الهدى.

رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ ۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَـٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾

﴿**ربنا آتهم**﴾ يعنون السادة والكبراء ﴿**ضعفين من العذاب**﴾ يعني ضعفي عذاب غيرهم ﴿**والعنهم لعناً كبيراً**﴾ يعني لعنا متتابعاً.

﴿ **ملعونين** ﴾، مطرودين، نصب على الحال، ﴿ **أينما ثقفوا** ﴾، وجدوا وأدركوا، ﴿ **أخذوا وقتلوا تقتيلاً** ﴾، أي الحكم فيهم هذا على جهة الأمر به.

﴿ **سُنّة الله** ﴾، أي كسُنّة الله، ﴿ **في الذين خلوا من قبل** ﴾، من المنافقين والذين فعلوا مثل هؤلاء، ﴿ **ولنْ تجدَ لسُنّة الله تبديلاً** ﴾.

قوله تعالى: ﴿ **يسئلك الناس عن الساعة قلْ إنما علمها عند الله وما يدريك** ﴾، أي: أيُّ شيء يعلمك أمر الساعة، ومتى يكون قيامها أي أنت لا تعرفه، ﴿ **لعلّ الساعة تكون قريباً** ﴾.

﴿ **إنّ الله لعن الكافرين وأعدّ لهم سعيراً * خالدين فيها أبداً لا يجدون وليّاً ولا نصيراً يوم تقلب وجوههم في النار** ﴾، ظهراً لبطن حين يسحبون عليها، ﴿ **يقولون يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا** ﴾، في الدنيا.

﴿ **وقالوا ربّنا إنّا أطعنا سادتنا** ﴾، قرأ ابن عامر ويعقوب ساداتنا بكسر التاء وألف قبلها على جمع الجمع، وقرأ الآخرون بفتح التاء بلا ألف قبلها، ﴿ **وكبراءنا فأضلّونا السبيلا** ﴾.

﴿ **ربنا آتهم ضعفين من العذاب** ﴾، أي ضعفي عذاب غيرهم. قوله تعالى: ﴿ **والعنهم لعناً كبيراً** ﴾ قرأ

قوله تعالى ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين أذوا موسى فبرأه الله مما قالوا﴾ يعني فطهره الله مما قالوه فيه ﴿وكان عند الله وجيهاً﴾ يعني كريماً ذا جاه وقد قال ابن عباس كان حظياً عند الله لا يسأل الله شيئاً إلا أعطاه، وقيل كان مستجاب الدعوة وقيل كان محببا مقبولاً واختلفوا فيما أوذي به موسى، فروى أبو هريرة أن رسول الله ﷺ قال «كان بنو إسرائيل يغتسلون عراة ينظر بعضهم إلى سوأة بعض وكان موسى عليه السلام يغتسل، وحده فقالوا والله ما يمنع موسى أن يغتسل معنا إلا أنه آدر قال فذهب مرة يغتسل فوضع ثوبه على حجر ففر الحجر بثوبه قال فجمع موسى، بأثره يقول ثوبي حجر ثوبي حجر حتى نظرت بنو إسرائيل إلى سوأة موسى فقالوا: والله ما بموسى من بأس فقام الحجر حتى نظر إليه قال فأخذ ثوبه فطفق بالحجر ضرباً» قال أبو هريرة والله إن بالحجر ندباً ستة أو سبعة من ضرب موسى الحجر أخرجه البخاري ومسلم وللبخاري، قال قال رسول الله ﷺ «إن موسى كان رجلاً حيياً ستيراً لا يرى شيء من جسده استحياء منه، فآذاه من آذاه من بني إسرائيل فقالوا ما يستتر هذا التستر إلا من عيب بجلده، إما برص وإما أدرة وإما آفة وأن الله أراد أن يبرئه مما قالوا لموسى فخلا يوماً وحده، فوضع ثيابه على الحجر ثم اغتسل فلما فرغ أقبل إلى ثيابه ليأخذها وأن الحجر عدا بثوبه، فأخذ موسى العصا وطلب الحجر وجعل يقول ثوبي حجر ثوبي حجر حتى انتهى إلى ملأ من بني إسرائيل، ورأوه عرياناً أحسن ما خلق الله، وبرأه مما يقولون وقام الحجر فأخذ ثوبه ولبسه وطفق بالحجر ضرباً بعصاه فوالله إن بالحجر لندباً من أثر الضرب ثلاثاً أو أربعاً أو خمساً» فذلك قوله تعالى ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيهاً﴾ الأدرة عظم الخصية لنفخة فيها، وقوله فجمح أي أسرع وقوله ثوبي حجر أي دع ثوبي يا حجر قوله وطفق أي جعل يضرب الحجر، وقوله ندباً هو بفتح

عاصم كبيراً بالباء قال الكلبي أي عذاباً كثيراً، وقرأ الآخرون بالثاء كقوله تعالى: ﴿ أولئك عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ﴾ [البقرة: ١٦١]، وهذا يشهد للكثرة أي مرة بعد مرة.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرّأه الله مما قالوا ﴾، فطهّره الله مما قالوا، ﴿ وكان عند الله وجيهاً ﴾، أي كريماً ذَا جاهٍ، يقال: وجه الرجل يوجه وجاهة فهو وجيه، إذا كان ذا جاه وقدر. قال ابن عباس: كان حظيّاً عند الله لا يسأل الله شيئاً إلاّ أعطاه. وقال الحسن: كان مُستجاب الدعوة. وقيل: كان محبّباً مقبولاً. واختلفوا فيما أُوذي به موسى فأخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا إسحاق بن إبراهيم أنا روح بن عبادة أنا عوف عن الحسن ومحمد وخلاس عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن موسى كان رجلاً حييّاً ستّيراً لا يُرى من جلده شيء استحياءً فآذاه مَن آذاه من بني إسرائيل، فقالوا ما تستّر موسى هذا التستّر إلاّ من عيب بجلده، إمّا برص أو أدرة، وإن الله أراد أن يبرئه مما قالوا، فخلا يوماً وحده ليغتسل فوضع ثيابه على الحجر، ثم اغتسل فلما فرغ أقبل إلى ثيابه ليأخذها وإن الحجرَ عَدَا بثوبه، فأخذ موسى عصاه وطلب الحجر، فجعل يقول ثوبي حجر، ثوبي حجر، حتى انتهى إلى ملإٍ من بني إسرائيل فرأوه عرياناً أحسن ما خلق الله، وبرّأه مما يقولون، وقام الحجر فأخذ ثوبه فلبسه وطفق بالحجر ضرباً بعصاه، فوالله إن بالحجر لندباً من أثر ضربه ثلاثاً أو أربعاً أو خمساً». فذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرّأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيهاً ﴾، وقال قوم: أذاهـم إيّاه أنه لمّا مات هارون في التيه ادّعوا على موسى أنه قتله فأمر الله الملائكة حتى مرّوا به على بني إسرائيل فعرفوا أنه لم يقتله، فبرّأ الله مما قالوا وقال أبو العالية: هو أن قارون استأجر مومسة لتقذف موسى بنفسها على رأس الملإ فعصمها الله وبرأ موسى من ذلك، وأهلك قارون. أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا أبو الوليد أنا شعبة عن الأعمش قال: سمعت أبا وائل قال: سمعت عبد الله قال: قسَمَ

النون والدال وهو الأصح وأصله أثر الجرح، إذا لم يرتفع عن الجلد فشبه به الضرب، بالحجر، والمحدثون يقولون ندبا بسكون الدال وقيل في معنى الآية أن أذاهم إياه، أنه لما مات هارون في التيه ادعوا على موسى أنه قتله فأمر الله تعالى الملائكة حتى مروا به على بني إسرائيل فعرفوا أنه لم يقتله فبرأه الله مما قالوا: وقيل إن قارون استأجر بغياً لتقذف موسى بنفسها على رأس الملأ فعصمها الله، وبرأ موسى من ذلك وأهلك قارون (ق) عن عبد الله بن مسعود قال «لما كان يوم حنين آثر رسول الله ﷺ ناساً في القسمة فأعطى الأقرع بن حابس مائة من الإبل وأعطى عيينة بن حصن مثل ذلك وأعطى ناساً من أشراف العرب وآثرهم في القسمة فقال رجل والله إن هذه القسمة ما عدل فيها، وما أريد بها وجه الله فقلت والله لأخبرن رسول الله ﷺ قال فأتيته فأخبرته بما قال: فتغير وجهه حتى كان كالصرف ثم قال فمن يعدل إذا لم يعدل الله ورسوله ثم قال: يرحم الله موسى قد أوذي بأكثر من هذا فصبر» الصرف بكسر الصاد صبغ أحمر يصبغ به الأديم. قوله تعالى ﴿**يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سديداً**﴾.

قال ابن عباس صواباً وقيل عدلاً وقيل صدقاً وقيل: قول هو لا إله إلا الله ﴿**يصلح لكم أعمالكم**﴾ قال ابن عباس: يتقبل حسناتكم ﴿**ويغفر لكم ذنوبكم ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً**﴾ أي ظفر بالخير العظيم. قوله عز وجل ﴿**إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال**﴾ الآية قال ابن عباس: أراد بالأمانة الطاعة والفرائض التي فرضها الله على عباده عرضها على السموات والأرض والجبال على أنهم إذا أدوها أثابهم، وإن ضيعوها عذبهم وقال ابن مسعود: الأمانة أداء الصلوات وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت وصدق الحديث، وقضاء الدين والعدل في المكيال والميزان وأشد من هذا كله الودائع وقيل: جميع ما أمروا به ونهوا عنه وقيل هي الصوم وغسل الجنابة وما يخفي من الشرائع وقال عبد الله بن عمرو بن العاص أول ما خلق الله من الإنسان الفرج وقال: هذه الأمانة

النبي ﷺ قَسْماً، فقال رجل: إن هذه لقسمة ما أُريدَ بها وجه الله، فأتيت النبي ﷺ فأخبرته، فغضب حتى رأيت الغضب في وجهه، ثم قال: «رحم الله موسى لقد أُوذي أكثر من هذا فصبر».

قوله تعالى: ﴿ **يا أيّها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سديداً** ﴾، قال ابن عباس: صواباً. وقال قتادة: عدلاً. وقال الحسن: صدقاً. وقيل: مستقيماً. وقال عكرمة هو: قول لا إلّه إلاّ الله.

﴿ **يصلح لكم أعمالكم** ﴾، قال ابن عباس: يتقبل حسناتكم. وقال مقاتل: يُزَكِّ أعمالكم، ﴿ **ويغفر لكم ذنوبكم ومَن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً** ﴾، أي ظفر بالخير كله.

قوله تعالى: ﴿ **إنّا عرضنا الأمانة على السمٰوات والأرضِ والجبال** ﴾، الآية. أراد بالأمانة الطاعة والفرائض التي فرضها الله على عباده، عرضها على السمٰوات والأرض والجبال على أنهم إن أدّوها أثابهم وإن ضيّعوها عذّبهم، وهذا قول ابن عباس، وقال ابن مسعود: الأمانة أداء الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحجّ البيت وصدق الحديث وقضاء الدين والعدل في المِكيال والميزان، وأشدّ من هذا كله الودائع، وقال مجاهد: الأمانة الفرائض. وحدود الدِّين. وقال أبو العالية: ما أُمِروا به ونُهوا عنه. وقال زيد بن أسلم: هو الصوم والغسل من الجنابة، وما يُخفى من الشرائع. وقال عبد الله بن عمرو بن العاص: أول ما خلق الله من الإنسان فرجه وقال هذه أمانة أستودعتكها، فالفرج أمانة والأُذن أمانة والعين أمانة واليد أمانة والرِّجل أمانة ولا إيمان لمَن لا أمانة له. وقال بعضهم: هي أمانات الناس والوفاء بالعهد، فحقٌّ على كل مؤمن أن لا يغشّ مؤمناً ولا مُعاهِداً في شيء قليل ولا كثير، وهي رواية الضحاك عن ابن عباس، فعرض الله هذه الأمانة على أعيان السمٰوات والأرض والجبال، هذا قول ابن عباس وجماعة من التابعين وأكثر السلف، فقال لهنّ أتحملن هذه الأمانة بما فيها: قلن: وما فيها: قال: إن

استودعكها فالفرج أمانة والأذن أمانة والعين أمانة واليد أمانة والرجل أمانة، ولا إيمان لمن لا أمانة له، وفي رواية عن ابن عباس هي أمانات الناس والوفاء بالعهود فحق على كل مؤمن أن لا يغش مؤمناً، ولا معاهداً في شيء لا في قليل ولا كثير فعرض الله تعالى هذه الأمانة على أعيان السموات والأرض والجبال وهذا قول جماعة من التابعين وأكثر السلف فقال لهن: أتحملن هذه الأمانة بما فيها قلن وما فيها قال: إن أحسنتن جوزيتن وإن عصيتن عوقبتن قلن يا رب نحن مسخرات لأمرك لا نريد ثواباً ولا عقاباً وقلن ذلك خوفاً وخشية وتعظيماً لدين الله تعالى: أن لا يقوموا بها لا معصية ولا مخالفة لأمره، وكان العرض عليهم تخييراً لا إلزاماً، ولو ألزمهن لم يمتنعن من حملها والجمادات كلها خاضعة لله عز وجل، مطيعة لأمره ساجدة له قال بعض أهل العلم ركب الله تعالى فيهن العقل وألفهم حين عرض عليهن الأمانة، حتى عقلن الخطاب وأجبن بما أجبن وقيل المراد من العرض على السموات والأرض، هو العرض على أهلها من الملائكة دون أعيانها، والقول الأول أصح وهو قول العلماء ﴿**فأبين أن يحملنها وأشفقن منها**﴾ أي خفن من الأمانة أن لا يؤدينها فيلحقهن العقاب ﴿**وحملها الإنسان**﴾ يعني آدم قال الله عز وجل لآدم إني عرضت الأمانة على السموات والأرض والجبال فلم تطقها، فهل أنت آخذها بما فيها قال يا رب، وما فيها قال: إن أحسنت جوزيت وإن أسأت عوقبت فتحملها آدم فقال: بين أذني وعاتقي قال الله أما إذا تحملت فسأعينك واجعل لبصرك حجاباً فإذا خشيت أن لا تنظر إلى ما لا يحل فارخ عليه حجابه واجعل للسانك لحيين وغلاقاً فإذا خشيت فأغلقه، واجعل لفرجك لباساً فلا تكشفه على ما حرمت عليك قال مجاهد فما كان بين أن تحملها، وبين أن أخرج من الجنة إلا مقدار ما بين الظهر والعصر وقيل إن ما كلف الإنسان حمله بلغ من عظمه، وثقل محمله أنه عرض على أعظم ما خلق الله تعالى من الإجرام، وأقواه وأشده أن يحتمله ويستقل به فأبى حمله وأشفق منه وحمله الإنسان على ضعفه وضعف قوته ﴿**إنه كان ظلوماً جهولاً**﴾.

قال ابن عباس: إنه كان ظلوماً لنفسه جهولاً بأمر ربه وما تحمل من الأمانة وقيل ظلوماً حين عصى ربه جهولاً أي لا يدري ما العقاب في ترك الأمانة وقيل ظلوماً جهولاً حيث حمل الأمانة، ثم لم يف بها وضمنها ولم يف بضمانها

أحسنتنّ جُوزِيتنّ وإن عصيتنّ عُوقبتنّ، فقلن: لا يا رب نحن مسخّرات لأمرك لا نريد ثواباً ولا عقاباً، وقلن ذلك خوفاً وخشيةً وتعظيماً لدين الله أن لا يقيمنّ بها لا معصية ولا مخالفة، وكان العرض عليهنّ تخييراً لا إلزاماً ولو ألزمهنّ لم يمتنعن من حملها، والجمادات كلها خاضعة لله عزّ وجلّ مطيعة ساجدة له كما قال جلّ ذكره في السموات والأرض: ﴿ ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين ﴾ [فصّلت: ١١]، وقال للحجارة وإن منها لمّا يهبط من خشية الله وقال تعالى: ﴿ ألم ترَ أن الله يسجد له مَن في السموٰاتِ ومَن في الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب ﴾ [الحج: ١٨] الآية. وقال بعض أهل العلم: ركّب الله عزّ وجلّ فيهنّ العقل والفهم حين عرض الأمانة عليهنّ حتى عقلن الخطاب وأجبنَ بما أجبنَ، وقال بعضهم: المراد من العرض على السموٰات والأرض هو العرض على أهل السموٰات والأرض، عرضها على مَن فيها من الملائكة. وقيل: على أهلها كلها دون أعيانها، كقوله تعالى: ﴿ واسئل القرية ﴾ [يوسف: ٨٢] أي أهل القرية. والأول أصحّ، وهو قول العلماء ﴿ **فأبينَ أن يحملنَها وأشفقنَ منها** ﴾، أي خفـن من الأمانة أن لا يؤدّينهافيلحقهن العقاب،﴿ **وحملها الإنسان** ﴾، يعني آدم عليه السلام، فقال الله لآدم: إنّا عرضنا الأمانة على السموٰاتِ والأرض والجبال فلم تُطِقْها فهل أنت آخذها بما فيها؟ قال: يا ربِّ وما فيها؟ قال: إن أحسنت جُوزِيت، وإن أسأت عُوقبت، فتحمّلها آدم، وقال: بين أُذني وعاتقي، قال الله تعالى أمّا إذا تحمّلت فسأُعينك أجعل لبصرك حجاباً فإذا خشيت أن تنظر إلى ما لا يحلّ لك فأرخِ عليه حجابه، وأجعل للسانك لحيين وغلاقاً فإذا غشيت فأغلق، وأجعل لفرجك لباساً فلا تكشفه على ما حرّمت

وقيل في تفسير الآية أقوال أخر، وهو أن الله تعالى ائتمن السموات والأرض والجبال على كل شيء، وائتمن آدم وأولاده على شيء فالأمانة في حق الأجرام العظام هي الخضوع والطاعة لما خلقهن له، وقوله فأبين أن يحملنها أي أدين الأمانة ولم يخن فيها وأما الأمانة في حق بني آدم، فهي ما ذكر من الطاعة والقيام بالفرائض وقوله وحملها الإنسان أي خان فيها، وعلى هذا القول حكي عن الحسن أنه قال الإنسان هو الكافر والمنافق حملا الأمانة وخانا فيها، والقول الأول هو قول السلف وهو الأولى.

فصل

في الأمانة (ق) عن حذيفة بن اليمان قال حدثنا رسول الله ﷺ حديثين قد رأيت أحدهما وأنا انتظر الآخر حدثنا «إن الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال، ثم نزل القرآن فعلموا من القرآن وعلموا من السنة» ثم حدثنا عن رفع الأمانة فقال: «ينام الرجل النومة فتقبض الأمانة من قلبه، فيظل أثرها مثل الوكت ثم ينام الرجل النومة، فتقبض الأمانة من قلبه فيظل أثرها مثل المجل كجمر دحرجته على رجلك فنفط فتراه منتبرا، وليس فيه شيء ثم أخذ حصاة فدحرجها على رجله، فيصبح الناس يتبايعون لا يكاد أحد يؤدي الأمانة حتى يقال: إن في بني فلان رجلاً أميناً حتى يقال: للرجل ما أجلده ما أظرفه ما أعقله وما في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان ولقد أتى على زمان وما أبالي أيكم بايعت لئن كان مسلما ليردنه على دينه، ولئن كان نصرانياً أو يهودياً ليردنه على ساعيه وأما اليوم فما كنت لأبايع منكم إلا فلاناً وفلاناً» قوله: نزلت الأمانة في جذر قلوب الرجال جذر الشيء أصله والوكت الأثر اليسير، كالنقطة في الشيء من غير لونه، والمجل غلظ الجلد من أثر العمل وقيل إنما هو النفطات في الجلد، وقد فسره الحديث والمنتبر المنتفخ وليس فيه شيء (خ) عن أبي هريرة قال «بينما رسول الله ﷺ في مجلس يحدث القوم فجاء أعرابي فقال متى الساعة فمضى رسول الله ﷺ يحدث فقال بعض القوم سمع ما قال فكره ما قال وقال بعضهم لم يسمع حتى إذا قضى حديثه قال: أين السائل عن الساعة قال: ها أنا يا رسول الله قال إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة قال: كيف إضاعتها يا رسول الله قال: إذا وسد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة» وعنه قال قال النبي ﷺ «أد الأمانة إلى من ائتمنك ولا

عليك. قال مجاهد: فما كان بين أن تحمّلها وبين أن خرج من الجنة إلاّ مقدار ما بين الظهر والعصر. وحكى النقاش بإسناده عن ابن مسعود أنه قال: مُثِّلَتِ الأمانة كصخرة ملقاة، ودُعيت السمٰواتُ والأرض والجبال إليها فلم يقربوا منها، وقالوا: لا نطيق حملها، وجاء آدم من غير أن يُدعى، وحرّكَ الصخرة، وقال: لو أُمِرت بحملها لحملتُها، فقيل له: احملها، فحملها إلى ركبتيه ثم وضعها، وقال والله لو أردت أن أزداد لزدت، فقيل له: احملها فحملها إلى حقوه، ثم وضعها، وقال: والله لو أردت أن أزداد لزدت، قيل له: احمل فحملها حتى وضعها على عاتقه، فأراد أن يضعها فقال الله: مكانك فإنها في عنقك وعنق ذرّيتك إلى يوم القيامة. ﴿ إنه كان ظلوماً جهولاً ﴾، قال ابن عباس: ظلوماً لنفسه جهولاً لأمر الله وما احتمل من الأمانة. وقال الكلبي: ظلوماً حين عصى ربّه، جهُولاً لا يدري ما العقاب في ترك الأمانة. وقال مقاتل: ظلوماً لنفسه جهولاً بعاقبة ما تحمّل. وذكر الزجّاج وغيره من أهل المعاني في قوله وحملها الإنسان قولان، فقالوا: إن الله ائتمن آدم وأولاده على شيء وائتمن السمٰوات والأرض والجبال على شيء، فالأمانة في حق بني آدم ما ذكرنا في الطاعة والقيام بالفرائض، والأمانة في حقّ السمٰوات والأرض والجبال هي الخضوع والطاعة لما خلقن له. وقيل: قوله: ﴿ فأبينَ أن يحملنَها ﴾، أي أدّينَ الأمانة، يقال: فلان لم يحتمل الأمانة أي لم يخن فيها وحملها الإنسان أي خان فيها، يقال: فلان حمل الأمانة أي أَثِمَ فيها بالخيانة. قال الله تعالى: ﴿ وليحملُنَّ أثقالهم ﴾ [العنكبوت: ١٣]، إنه كان ظلوماً جهولاً، حُكِيَ عن الحسن على

تخن من خانك» أخرجه أبو داود والترمذي. وقال حديث حسن غريب. قوله تعالى:

﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًۢا ﴿٧٣﴾﴾

﴿ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات﴾ أي بما خانوا الأمانة ونقضوا العهد **﴿ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات﴾** أي يهديهم ويرحمهم بما أدوا من الأمانة. وقيل: عرضنا الأمانة ليظهر نفاق المنافق وشرك المشرك فيعذبهما الله، ويظهر إيمان المؤمن فيتوب عليه أي يعود عليه بالرحمة والمغفرة إن حصل منه تقصير في بعض الطاعات **﴿وكان الله غفوراً رحيماً﴾** والله أعلم بمراده وأسرار كتابه.

هذا التأويل: إنه قال وحملها الإنسان يعني الكافر والمنافق، حملاً الأمانة أي خانا. وقول السلف ما ذكرنا.

قوله عزّ وجلّ: **﴿ليعذّب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات﴾**، قال مقاتل ليعذّبهم بما خانوا الأمانة ونقضوا الميثاق، **﴿ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات وكان الله غفوراً رحيماً﴾**، يهديهم ويرحمهم بما أدُّوا من الأمانة. وقال ابن قتيبة أي عرضنا الأمانة ليظهر نفاق المنافق وشرك المشرك فيعذبهما الله، ويُظهر إيمان المؤمن فيتوب الله عليه أي يعود عليه بالرحمة والمغفرة إن حصل منه تقصير في بعض الطاعات.

سورة سبأ

مكية وهي أربع وخمسون آية وثمانمائة وثلاثة وثلاثون كلمة وألف وخمسمائة واثنا عشر حرفاً.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١﴾ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٣﴾ لِّيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾

قوله عز وجل ﴿**الحمد لله الذي له ما في السموات وما في الأرض**﴾ معناه أن كل نعمة من الله، فهو الحقيق بأن يحمد ويثنى عليه من أجلها، ولما قال: الحمد لله وصف ملكه فقال: الذي له ما في السموات وما في الأرض أي ملكاً وخلقاً ﴿**وله الحمد في الآخرة**﴾ أي كما هو له في الدنيا لأن النعم في الدارين كلها منه، فكما أنه المحمود على نعم الدنيا فهو المحمود على نعم الآخرة وقيل: الحمد في الآخرة هو حمد أهل الجنة كما ورد ﴿**يلهمون التسبيح والحمد كما يلهمون النفس**﴾ ﴿**وهو الحكيم**﴾ أي الذي أحكم أمور الدارين ﴿**الخبير**﴾ أي بكل ما كان وما يكون ﴿**يعلم ما يلج في الأرض**﴾ أي من المطر والكنوز والأموات ﴿**وما يخرج منها**﴾ أي من النبات والشجر والعيون والمعادن والأموات

سُوْرَة سَـبَأ

مكيّة وهي أربع وخمسون آية.

﴿ **الحمد لله الذي له ما في السمٰوات وما في الأرض** ﴾، ملكاً وخلقاً، ﴿ **وله الحمد في الآخرة** ﴾ كما هو له في الدنيا، لأن النِّعَم في الدارين كلها منه، وقيل الحمد لله في الآخرة هو حمد أهل الجنة كما قال الله تعالى: ﴿ وقالوا الحمد لله الذي أذهب عنّا الحزن ﴾ [فاطر: ٣٤]، و﴿ الحمد لله الذي صدقنا وعده ﴾ [الزّمر: ٧٤]. ﴿ **وهو الحكيم الخبير** ﴾.

﴿ **يعلم ما يلج في الأرض** ﴾، أي يدخل فيها من الماء والأموات، ﴿ **وما يخرج منها** ﴾، من النبات والأموات إذا حُشروا، ﴿ **وما ينزل من السماء** ﴾، من الأمطار، ﴿ **وما يعرج** ﴾، يصعد، ﴿ **فيها** ﴾، من الملائكة وأعمال العباد، ﴿ **وهو الرحيمُ الغفور** ﴾.

إذا بعثوا ﴿وما ينزل من السماء﴾ أي من المطر والثلج والبرد، وأنواع البركات والملائكة ﴿وما يعرج فيها﴾ أي في السماء من الملائكة وأعمال العباد ﴿وهو الرحيم الغفور﴾ أي للمفرطين في أداء ما وجب عليهم من شكر نعمه قوله تعالى ﴿وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة﴾ معناه أنهم أنكروا البعث وقيل: استبطؤوا ما وعدوه من قيام الساعة على سبيل اللهو والسخرية ﴿قل بلى وربي لتأتينكم﴾ يعني الساعة ﴿عالم الغيب﴾ أي لا يفوت علمه شيء من الخفيات وإذا كان كذلك اندرج في علمه، وقت قيام الساعة وأنها آتية ﴿لا يعزب عنه﴾ أي لا يغيب عنه ﴿مثقال ذرة﴾ يعني وزن ذرة ﴿في السموات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك﴾ أي من الذرة ﴿ولا أكبر إلا من كتاب مبين﴾ يعني في اللوح المحفوظ ﴿ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة﴾ أي لذنوبهم ﴿ورزق كريم﴾ يعني الجنة.

وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾ أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ ﴿٨﴾ أَفَلَمْ يَرَوْاْ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٩﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾

﴿والذين سعوا في آياتنا﴾ يعني في ابطال أدلتنا معجزين يعني يحسبون أنهم يفوتوننا ﴿أولئك لهم عذاب من رجز أليم﴾ قيل الرجز سوء العذاب ﴿ويرى الذين أوتوا العلم﴾ يعني مؤمني أهل الكتاب عبد الله بن سلام وأصحابه، وقيل هم أصحاب النبي ﷺ ﴿الذي أنزل إليك من ربك﴾ يعني القرآن ﴿هو الحق﴾ يعني أنه من عند الله ﴿ويهدي﴾ أي القرآن ﴿إلى صراط العزيز الحميد﴾ أي إلى دين الإسلام ﴿وقال الذين كفروا﴾ أي المنكرين للبعث المتعجبين منه ﴿هل ندلكم﴾ أي قال بعضهم لبعض هل ندلكم ﴿على رجل ينبئكم﴾ يعنون محمداً ﷺ معناه يحدثكم بأعجوبة من

﴿ وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعةُ قلْ بلى وربّي لتأتينّكم ﴾، الساعة، ﴿ عالمِ الغيبِ ﴾، قرأ أهل المدينة والشام: ﴿ عالم ﴾ بالرفع على الاستئناف، وقرأ الآخرون بالجرّ على نعت الرب، أي وربّي عالم الغيب، وقرأ حمزة والكسائي: «عـلاّم» على وزن فعّال، وجرّ الميم، ﴿ لا يعزب ﴾، لا يغيب، ﴿ عنه مثقال ذرّة في السمٰوات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ﴾، أي من الذرّة، ﴿ ولا أكبر إلاّ في كتاب مبين ﴾.

﴿ ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك ﴾، يعني الذين آمنوا وعملوا الصالحات، ﴿ لهم مغفرة ورزق كريم ﴾، حسن يعني في الجنة.

﴿ والذين سَعَوْا في آياتنا ﴾، في إبطال أدلّتنا، ﴿ معاجزين ﴾، يحسبون أنهم يفوتوننا، ﴿ أولئك لهم عذاب من رِجْزٍ أليم ﴾، قرأ ابن كثير وحفص ويعقوب: ﴿أليم﴾ بـالرفـع هٰهنا وفي الجـاثية [١١] على نعت العـذاب، وقـرأ الآخرون بالخفض على نعت الرجز، وقال قتادة الرجز سوء العذاب.

الأعاجيب وهي أنكم ﴿إذا مزقتم كل ممزق﴾ أي قطعتم كل تقطيع وفرقتم كل تفريق، وصرتم تراباً ﴿إنكم لفي خلق جديد﴾ أي يقول إنكم تبعثون وتنشئون خلقاً جديداً بعد أن تكونوا رفاتاً وتراباً ﴿أفترى على الله كذباً﴾ أي أهو مفتر على الله كذبا فيما ينسب إليه من ذلك؟ ﴿أم به جنة﴾ أي جنون يوهمه ذلك ويلقيه على لسانه قال الله تعالى: رداً عليهم ليس بمحمد ﷺ من الافتراء والجنون شيء وهو مبرأ منهما ﴿بل الذين لا يؤمنون بالآخرة﴾ يعني منكري البعث ﴿في العذاب والضلال البعيد﴾ أي عن الحق في الدنيا ﴿أفلم يروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض﴾ أي فيعلموا أنهم حيث كانوا في أرضي وتحت سمائي، فإن أرضي وسمائي محيطة بهم لا يخرجون من أقطارها، وأنا قادر عليهم ﴿إن نشأ نخسف بهم الأرض﴾ أي كما خسفنا بقارون ﴿أو نسقط عليهم كسفاً من السماء﴾ أي كما فعلنا بأصحاب الأيكة ﴿إن في ذلك﴾ أي فيما ترون في السماء والأرض ﴿لآية﴾ أي تدل على قدرتنا على البعث بعد الموت ﴿لكل عبد منيب﴾ أي تائب راجع إلى الله تعالى بقلبه. قوله عز وجل ﴿ولقد آتينا داود منا فضلاً﴾ يعني النبوة والكتاب. وقيل الملك وقيل هو جميع ما أوتي من حسن الصوت، وغير ذلك مما خص به ﴿يا جبال أوبي معه﴾ أي وقلنا يا جبال سبحي معه إذا سبح وقيل: رجعي معه إذا رجع ونوحي معه إذا ناح ﴿والطير﴾ أي وأمرنا الطير أن تسبح

﴿ ويَرَى الذين ﴾، أي ويرى الذين، ﴿ أُوتوا العلم ﴾، يعني مؤمني أهل الكتاب عبد الله بن سلام وأصحابه. وقال قتادة: هم أصحاب محمد ﷺ، ﴿ الذي أُنزل إليك من ربّك ﴾، يعني القرآن، ﴿ هو الحق ﴾، يعني أنه من عند الله، ﴿ ويهدي ﴾، يعني القرآن، ﴿ إلى صراط العزيز الحميد ﴾، وهو الإسلام.

﴿ وقال الذين كفروا ﴾، منكرين للبعث متعجبين منه، ﴿ هل ندلّكم على رجل ينبئكم ﴾، أي يخبركم يعنون محمداً ﷺ، ﴿ إذا مُزِّقتُم كلَّ ممزَّقٍ ﴾، قُطّعتم كل تقطيع وفُرِّقْتُم كل تفريق وصرتم تراباً ﴿ إنكم لفي خلق جديد ﴾، يقول لكم إنكم لفي خلق جديد.

﴿ أفْتَرَى ﴾، ألف استفهام دخلت على ألف الوصل ولذلك نصبت، ﴿ على الله كذباً أم به جِنَّة ﴾، يقولون أزعم كذباً أم به جنون، قال الله تعالى ردّاً عليهم: ﴿ بلِ الذين لا يؤمنون بالآخرة في العذاب والضلال البعيد ﴾، من الحق في الدنيا.

قوله تعالى: ﴿ أفلم يروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض ﴾، فيعلموا أنهم حيث كانوا فإن أرضي وسمائي محيطة بهم لا يخرجون من أقطارها وأنا القادر عليهم، ﴿ إنْ نشأ نخسِفْ بهم الأرض ﴾، قرأ الكسائي ﴿ نخسف بهم ﴾ بإدغام الفاء في الباء، ﴿ أو نُسْقِطْ عليهم كِسَفاً من السماء ﴾، قرأ حمزة والكسائي. (إن يشأ يخسف أو يسقط)، بالياء فيهنّ لذكر الله من قبل، وقرأ الآخرون بالنون فيهنّ، ﴿ إن في ذلك ﴾، أي فيما ترون من السماء والأرض، ﴿ لآيةً ﴾، تدلّ على قدرتنا على البعث، ﴿ لكل عبدٍ مُنِيب ﴾، تائب راجع إلى الله بقلبه.

قوله تعالى: ﴿ ولقد آتينا داود منّا فضلاً ﴾، يعني النبوّة والكتاب، وقيل: الملك. وقيل: جميع ما أُوتي من حُسْن الصوت وتليين الحديد وغير ذلك مما خُصّ به، ﴿ يا جبال ﴾، أي وقلنا يا جبال، ﴿ أوّبي ﴾، أي سبّحي، ﴿ معه ﴾، إذا سبّح، وقال القتيبي: أصله من التأويب في السير وهو أن يسير النهار كله فينزل ليلاً بالتسبيح معه. وقال وهب: نوحي معه، ﴿ والطير ﴾، عطف على موضع الجبال، لأن كلّ منادًى في موضع النصب. وقيل: معناه وسخّرنا وأمرنا الطير أن تسبّح معه. وقرأ يعقوب: ﴿ والطير ﴾ بالرفع ردّاً على الجبال أي أوّبي أنت والطير. وكان داود إذا نادى بالناحية أجابته الجبال بصداها وعكفت الطير عليه من فوقه، فصدى الجبال الذي يسمعه الناس اليوم

معه فكان داود إذا نادى بالتسبيح أو بالنياحة أجابته الجبال بصداها، وعكفت الطير عليه من فوقه وقيل كان داود إذا لحقه ملل أو فتور أسمعه الله تعالى تسبيح الجبال فينشط له ﴿**وألنا له الحديد**﴾ يعني كان الحديد في يده كالشمع أو كالعجين يعمل منه ما يشاء من غير نار ولا ضرب مطرقة قيل سبب ذلك أن داود عليه السلام لما ملك بني إسرائيل كان من عادته أن يخرج إلى الناس متنكراً فإذا رأى إنسانا لا يعرفه تقدم إليه، وسأله عن داود فيقول له ما تقول في داود وإليكم هذا أي رجل هو فيثنون عليه ويقولون خيرا فقيض الله له ملكا في صورة آدمي، فلما رآه داود تقدم إليه على عادته فسأله فقال الملك: نعم الرجل هو لولا خصلة فيه فراع داود عليه الصلاة والسلام، ذلك، وقال ما هي يا عبد الله قال: إنه يأكل ويطعم عياله من بيت المال قال فتنبه لذلك وسأل الله تعالى أن يسبب له سبباً يستغني به عن بيت المال فيتقوت منه ويطعم عياله فألان الله له الحديد وعلمه صنعة الدروع وأنه أول من اتخذها، وكانت قبل ذلك صفائح وقيل إنه كان يبيع كل درع بأربعة آلاف فيأكل منها، ويطعم عياله ويتصدق منها على الفقراء والمساكين وقد صح في الحديث أن رسول الله ﷺ «قال كان داود عليه السلام لا يأكل إلا من عمل يده» ﴿**أن اعمل سابغات**﴾ أي دروعاً كوامل واسعات طوالاً تسحب في الأرض قيل: كان يعمل كل يوم درعاً ﴿**وقدر في السرد**﴾ أي ضيق في نسخ الدرع وقيل قدر المسامير في حلق الدرع ولا تجعل المسامير دقاقا فتفلت ولا تثبت، ولا غلاظا فتكسر الحلق وقيل قدر في السرد أي اجعله على القصد وقدر الحاجة ﴿**واعملوا صالحاً**﴾ يريد داود وآله ﴿**إني بما تعملون بصير**﴾.

قوله تعالى ﴿**ولسليمان الريح**﴾ أي وسخرنا لسليمان الريح ﴿**غدوها شهر ورواحها شهر**﴾ معناه أن مسير غدو تلك الريح المسخرة له مسيرة شهر ومسير رواحها مسيرة شهر فكانت تسير به في يوم واحد مسيرة شهرين، قيل كان

من ذلك. وقيل: كان داود إذا تخلّل الجبال فسبّح الله جعلت الجبال تجاوبه بالتسبيح نحو ما يسبّح. وقيل: كان داود عليه السلام إذا لحقه فتور أسمعه الله تسبيح الجبال تنشيطاً له. ﴿ **وألَنَّا له الحديد** ﴾، حتى كان الحديد في يده كالشمع والعجين يعمل فيه ما يشاء من غير نار ولا ضرب مِطرقة، وكان سبب ذلك على ما رُوِيَ من الأخبار أنِ داود عليه السلام لمّا ملك بني إسرائيل كان من عادته أن يخرج للناس متنكّراً فإذا رأى رجلاً لا يعرفه يقدم إليه ويسأله عن داود ويقول له: ما تقول في داود واليكم هذا أي رجل هو فيثنون عليه، ويقولون خيراً فقيّض الله له ملكاً في صورة آدمي فلما رآه داود تقدم إليه على عادته فسأله، فقال الملك نِعْمَ الرجل هو لولا خصلة فيه، فراعَ داود ذلك وقال: ما هي يا عبد الله؟ قال: إنه يأكل ويطعم عياله من بيت المال، قال فتنبّه لذلك وسأل الله أن يسبّب له سبباً يستغني به عن بيت المال، فيتقوّت منه ويطعم عياله، فألَانَ الله تعالى له الحديد وعلّمه صنعة الدرع، وإنه أول مَن اتخذها. ويقال: إنه كان يبيع كل درع بأربعة آلاف درهم. فيأكل ويطعم منها عياله ويتصدّق منها على الفقراء والمساكين. ويقال إنه كان يعمل كل يوم درعاً يبيعها بستّة آلاف درهم، فينفق ألفين منها على نفسه وعياله، ويتصدق بأربعة آلاف على فقراء بني إسرائيل، قال رسول الله ﷺ: «كان داود عليه السلام لا يأكل إلّا من عمل يده».

﴿ **أنِ اعملْ سابغَاتٍ** ﴾، دروعاً كوامل واسعات طِوالاً تسحب في الأرض، ﴿ **وقدرْ في السرد** ﴾، والسرد نسج الدروع، يقال لصانعه: السراد والزراد، يقول: قدر المسامير في حلق الدرع أي لا تجعل المسامير دقاقاً فتفلت ولا غلاظاً فتكسر الحلق، ويقال السرّ المسمار في الحلقة، يقال: درع مسرودة أي مسمورة الحلق، وقدر في السرد اجعله على القصدِ وقدرِ الحاجة، ﴿ **واعملوا صالحاً** ﴾، يريد داود وآله، ﴿ **إني بما تعملون بصير** ﴾.

﴿ **ولسليمان الريح** ﴾، أي وسخّرنا لسليمان الريح، وقرأ أبو بكر عن عاصم الريح بالرفع أي سخّر لِه الريح، ﴿ **غدوها شهرٌ ورواحها شهرٌ** ﴾، أي سير غُدوٍّ تلك الريح المسخّرة له مسيرة شهر وسير رواحها مسيرة شهر،

يغدو من دمشق فيقيل باصطخر وبينهما مسيرة شهر، ثم يروح من اصطخر فيبيت بكابل وبينهما مسيرة شهر للراكب المسرع وقيل إنه كان يتغذي بالري ويتعشى بسمرقندى ﴿**وأسلنا له عين القطر**﴾ أي أذبنا له عين النحاس قال أهل التفسير: أجريت له عين النحاس ثلاثة أيام بلياليهن كجري الماء، وكان بأرض اليمن وقيل أذاب الله لسليمان النحاس كما ألان لداود الحديد ﴿**ومن الجن من يعمل بين يديه باذن ربه**﴾ أي بأمر ربه قال ابن عباس سخر الله الجن لسليمان عليه الصلاة والسلام، وأمرهم بطاعته فيما يأمرهم به ﴿**ومن يزغ**﴾ أي يعدل ﴿**منهم**﴾ من الجن ﴿**عن أمرنا**﴾ أي الذي أمرناه به من طاعة سليمان ﴿**نذقه من عذاب السعير**﴾ قيل هذا في الآخرة وقيل: في الدنيا وذلك أن الله تعالى وكل بهم ملكاً بيده سوط من نار فمن زاغ منهم عن طاعة سليمان ضربه بذلك السوط ضربة أحرقته.

﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٖ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٖ رَّاسِيَٰتٍۚ ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرٗاۚ وَقَلِيلٞ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُواْ فِي ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾﴾

﴿**يعملون له ما يشاء من محاريب**﴾ أي مساجد وقيل: هي الأبنية المرتفعة والقصور والمجالس الشريفة المصونة عن الابتذال، وكان مما عملوا له بيت المقدس وذلك أن داود عليه الصلاة والسلام ابتدأه ورفعه قامة رجل، فأوحى الله إليه لم أقض ذلك على يدك ولكن ابن لك أملكه بعدك اسمه سليمان أقضي إتمامه على يديه فلما توفي داود عليه السلام واستخلف سليمان عليه الصلاة والسلام أحب إتمام بيت المقدس فجمع الجن والشياطين وقسم عليهم الأعمال، وخص كل طائفة بعمل فأرسل الجن والشياطين في تحصيل الرخام والبلور من معادنهما وأمر ببناء المدينة بالرخام والصفائح وجعلها اثني عشر ربضا وأنزل على كل ربض منها سبطاً من الأسباط، فلما فرغ من بناء المدينة ابتدأ في بناء المسجد فوجه الشياطين فرقاً منهم من يستخرج الذهب والفضة من معادنهما، ومنهم من يستخرج

وكانت تسير به في يوم واحد مسيرة شهرين. قال الحسن: كان يغدو من دمشق فيقبل بإصطخر وبينهما مسيرة شهر، ثم يروح من إصطخر فيبيت بكابل وبينهما مسيرة شهر للراكب المسرع. وقيل: إنه كان يتغذى بالريّ ويتعشى بسمرقند، ﴿ **وأَسَلْنا له عينَ القِطْرِ** ﴾، أي أَذَبْنَا له عين النحاس، والقِطْرُ النحاس، قال أهل التفسير: أجريت له عين النحاس ثلاثة أيام بلياليهنّ كجري الماء، وكان بأرض اليمن، وإنما ينتفع الناس اليوم بما أخرج الله لسليمان، ﴿ **ومن الجن مَن يعمل بين يديه بإذن ربّه** ﴾، بأمر ربّه قال ابن عباس سخّر الله الجن لسليمان وأمرهم بطاعته فيما يأمرهم به، ﴿ **ومَن يزغ** ﴾، أي يعدل، ﴿ **منهم** ﴾، من الجن، ﴿ **عن أمرنا** ﴾، الذي أمرنا به من طاعة سليمان، ﴿ **نُذِقْه من عذاب السعير** ﴾، في الآخرة، وقال بعضهم: في الدنيا وذلك أن الله عزّ وجلّ وكّل بهم ملكاً بيده سوط من نار فمَن زاغ منهم عن أمر سليمان ضربه ضربة أحرقته.

﴿ **يعملون له ما يشاء من محاريب** ﴾، أي مساجد والأبنية المرتفعة وكان مما عملوا في بيت المقدس ابتدأه داود ورفعه قدر قامة رجل، فأوحى الله إليه إني لم أقضِ ذلك على يدك ولكن ابن لك أُملّكه بعدك اسمه سليمان أقضي تمامه على يده، فلما توفّاه الله استخلف سليمان فأحبّ إتمام بناء بيت المقدس، فجمع الجنّ والشياطين وقسّم عليهم الأعمال فخصّ كل طائفة منهم بعمل يستصلحه لهم، فأرسل الجن والشياطين في تحصيل الرخام والميها الأبيض من معادنه، وأمر ببناء المدينة بالرخام والصفاح وجعلها اثني عشر ربضاً وأنزل كل ربض منها سبطاً من الأسباط، وكانوا اثني عشر سبطاً، فلما فرغ من بناء المدينة ابتدأ في بناء المسجد فوجد الشياطين فرقاً فرقاً يستخرجون الذهب والفضة والياقوت من معادنها والدرّ الصافي من البحر، وفرقاً يقلعون الجواهر والحجارة من

الجواهر واليواقيت والدر الصافي من أماكنها، ومنهم من يأتيه بالمسك والعنبر والطيب من أماكنها فأتى من ذلك بشيء كثير لا يحصيه إلا الله تعالى ثم أحضر الصناع وأمرهم بنحت تلك الأحجار وتصييرها ألواحاً وإصلاح تلك الجواهر وثقب اليواقيت واللآلىء فبنى المسجد بالرخام الأبيض والأصفر والأخضر وعمده بأساطين البلور الصافي وسقفه بأنواع الجواهر الثمينة، وفصص سقوفه وحيطانه باللآلىء واليواقيت وسائر الجواهر وبسط أرضه بألواح الفيروزج فلم يكن على وجه تلك الأرض يومئذ بيت أبهى ولا أنور من ذلك المسجد فكان يضيء في الظلمة، كالقمر ليلة البدر فلما فرغ منه جمع إليه أحبار بني إسرائيل، وأعلمهم أنه بناه لله تعالى وأن كل شيء فيه خالص له واتخذ ذلك اليوم عيداً. روى عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ «أن سليمان بن داود لما بنى بيت المقدس سأل الله عز وجل، حكماً يوافق حكمه فأوتيه وسأل الله تعالى ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده فأوتيه، وسأل الله عز وجل حين فرغ من بناء المسجد أن لا يأتيه أحد لا ينهزه إلا الصلاة فيه إلا أخرجه من خطيئته كيوم ولدته أمه» أخرجه النسائي ولغير النسائي، «سأل ربه ثلاثاً فأعطاه اثنتين، وأنا أرجو أن يكون أعطاه الثالثة» وذكر نحوه قوله لا ينهزه أي لا ينهضه إلا الصلاة قالوا: فلم يزل بيت المقدس على ما بناه سليمان عليه الصلاة والسلام حتى غزاه بختنصر فخرب المدينة، وهدم المسجد وأخذ ما فيه من الذهب والفضة وسائر أنواع الجواهر، وحمله إلى دار ملكه بالعراق وبنى الشياطين لسليمان باليمن قصوراً وحصوناً عجيبة من الصخر.

وقوله عز وجل ﴿وتماثيل﴾ أي ويعملون له تماثيل أي صوراً من نحاس ورخام وزجاج قيل كانوا يصورون

أماكنها، وفرقاً يأتونه بالمِسك والعنبر وسائر الطيب من أماكنها، فأتى من ذلك بشيء لا يُحصيه إلّا الله عزّ وجلّ، ثم أحضر الصنّاعين وأمرهم بنحت تلك الحجارة المرتفعة وتصييرها ألواحاً وإصلاح تلك الجواهر وثقب اليواقيت واللآلىء، فبنى المسجد بالرخام الأبيض والأصفر والأخضر وعمّده بأساطين الميها الصافي وسقفه بألواح الجواهر الثمينة وفصّص سقوفه وحيطانه باللآلىء واليواقيت وسائر الجواهر، وبسط أرضه بألواح الفيروزج فلم يكن يومئذ في الأرض بيت أبهى ولا أنور من ذلك المسجد، وكان يضيء في الظلمة كالقمر ليلة البدر، فلما فرغ منه جمع إليه أحبار بني إسرائيل فأعلمهم أنه بناه لله عزّ وجلّ، وأن كل شيء فيه خالص لله، واتخذ ذلك اليوم الذي فرغ منه عيداً. وروى عبد الله بن عمرو بن العاص عن رسول الله ﷺ قال: «لمّا فرغ سليمان من بناء بيت المقدس سأل ربه ثلاثاً فأعطاه اثنين وأنا أرجو أن يكون أعطاه الثالثة، سأل حكماً يصادف حكمه، فأعطاه إيّاه، وسأله ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده، فأعطاه إيّاه وسأله أن لا يأتي هذا البيت أحد يصلي فيه ركعتين إلّا خرج من ذنوبه كيوم ولدته أُمه، وأنا أرجو أن يكون قد أعطاه ذلك»، قالوا: فلم يزل بيت المقدس على ما بناه سليمان حتى غزاه بختنصّر فخرّب المدينة وهدمها ونقض المسجد وأخذ ما كان في سقوفه وحيطانه من الذهب والفضة والدرّ والياقوت وسائر الجواهر فحمله إلى دار مملكته من أرض العراق، وبنى الشياطين لسليمان باليمن حصوناً كثيرة عجيبة من الصخر. قوله: ﴿ وتماثيل ﴾ أي كانوا يعملون له تماثيل أي صوراً من نحاس وصفر وشبّة وزجاج ورخام. وقيل: كانوا يصوّرون السِّباع والطيور. وقيل: كانوا يتّخذون صور الملائكة والأنبياء والصالحين في المسجد ليراها لناس فيزدادوا عبادة، ولعلّها كانت مُباحة في شريعتهم، كما أن عيسى كان يتخذ صوراً من الطين فينفخ فيها فتكون طيراً بإذن الله. ﴿ وجفانٍ ﴾، أي قِصاع واحدتها جفنة، ﴿ كالجَوَابِ ﴾، كالحياض التي يُجبى فيها الماء أي يُجمَع واحدتها جابية، يقال: كان يعقد على الجفنة الواحد ألف رجل يأكلون ثابتات لها قوائم لا تحرّكن عن أماكنها لعظمهنّ ولا ينزلن ولا يقلعن، وكان يصعد عليها بالسلالم، جمع السلّم وكانت باليمن، ﴿ اعملوا آلَ داودَ شكراً ﴾، أي وقلنا اعملوا آل داود شكراً، مجازه: اعملوا يا آل داود بطاعة الله شكراً له على نعمه، ﴿ وقليلٌ من عبادي الشكور ﴾،

السباع والطيور وغيرها، وقيل كانوا يصورون صور الملائكة والأنبياء والصالحين في المساجد ليراها الناس فيزدادوا عبادة قيل: يحتمل أن اتخاذ الصور كان مباحاً في شريعتهم وهذا مما يجوز أن يختلف فيه الشرائع، لأنه ليس من الأمور القبيحة في العقل كالقتل والظلم والكذب، ونحوها مما يقبح في كل الشرائع قيل: عملوا له أسدين تحت كرسيه ونسرين فوقه فإذا أراد أن يصعد بسط له الأسدان ذراعيهما، وإذا جلس أظله النسران بأجنحتهما وقيل: عملوا له الطواويس والعقبان والنسور على درجات سريره وفوق كرسيه لكي يهابه من أراد الدنو منه ﴿**وجفان**﴾ أي قصاع ﴿**كالجواب**﴾ أي كالحياض التي يجبى فيها الماء أي يجتمع قيل كان يقعد على الجفنة الواحدة ألف رجل يأكلون منها ﴿**وقدور راسيات**﴾ أي ثابتات على أثافيها لا تحرك، ولا تنزل عن أماكنها لعظمهن وكان يصعد إليها بالسلالم وكان باليمن ﴿**اعملوا آل داود شكراً**﴾ أي وقلنا يا آل داود اعملوا بطاعة الله تعالى شكراً على نعمه قيل: المراد من آل داود نفسه وقيل داود وسليمان وأهل بيته قال ثابت البناني كان داود نبي الله عليه الصلاة والسلام قد جزأ ساعات الليل والنهار على أهله فلم تكن تأتي ساعة من ليل أو نهار إلا وإنسان من آل داود قائم يصلي ﴿**وقليل من عبادي الشكور**﴾ أي قليل العامل بطاعتي شكراً لنعمتي. قوله تعالى ﴿**فلما قضينا عليه الموت**﴾ أي على سليمان قال: العلماء: كان سليمان يتجرد للعبادة في بيت المقدس السنة والسنتين والشهر والشهرين، وأقل من ذلك وأكثر فيدخل فيه ومعه طعامه وشرابهم فدخله المرة التي مات فيها وكان سبب ذلك أنه كان لا يصبح يوماً إلا وقد نبتت في محرابه ببيت المقدس شجرة فيسألها: ما اسمك؟ فتقول: كذا وكذا فيقول لأي شيء خلقت؟ فتقول: لكذا وكذا فيأمر بها فتقطع.

أي العامل بطاعتي شكراً لنعمتي قيل: المراد من آل داود هو داود نفسه. وقيل: داود وسليمان وأهل بيته. وقال جعفر بن سليمان: سمعت ثابتاً يقول: كان داود نبيّ عليه السلام قد جزّأ ساعات الليل والنهار على أهله فلم يكن تأتي ساعة من ساعات الليل والنهار إلاّ وإنسان من آل داود قائم يصلّي.

﴿ **فلما قضينا عليه الموت** ﴾، أي على سليمان، قال أهل العلم: كان سليمان عليه السلام يتجرّد في بيت المقدس السنة والسنتين، والشهر والشهرين، وأقلّ من ذلك وأكثر يدخل فيه طعامه وشرابه، فأدخل في المرة التي مات فيها وكان بدء ذلك أنه كان لا يصبح يوماً إلاّ نبتت في محراب بيت المقدس شجرة، فيسألها: ما اسمك؟ فتقول: اسمي كذا، فيقول: لأيّ شيء أنت؟ فتقول: لكذا وكذا، فيأمر بها فتُقطَع، فإن كانت نبتت لغرس غرسها وإن كانت لدواء كتب، حتى نبتت الخرّوبة، فقال لها: ما أنت؟ قالت: الخرّوبة، قال: لأيّ شيء نبت؟ قالت: لخراب مسجدك، فقال سليمان: ما كان الله ليخرّبه وأنا حيّ أنت التي على وجهك هلاكي وخراب بيت المقدس، فنزعها وغرسها في حائط له، ثم قال: اللّهمّ عم على الجن موتي حتى يعلم الإنس أن الجن لا يعلمون الغيب، وكانت الجن تخبر الإنس أنهم يعلمون من الغيب أشياء ويعلمون ما في غد، ثم دخل المحراب فقام يصلّي متكئاً على عصاه فمات قائماً وكان للمحراب كوى بين يديه وخلفه وكانت الجن يعملون تلك الأعمال الشاقّة التي كانوا يعملون في حياته وينظرون إليه يحسبون أنه حيّ ولا ينكرون احتباسه عن الخروج إلى الناس لطول صلاته قبل ذلك، فمكثوا يدأبون له بعد موته حولاً كاملاً حتى أكلت الأَرَضَةُ عصا سليمان، فخرّ ميتاً فعلموا بموته. قال ابن عباس: فشكرت الجن الأرضة فهم يأتونها بالماء والطين في جوف الخشب، فذلك قوله: ﴿ **ما دلّهم على موته إلاّ دابّة الأرض** ﴾، وهي الأرضة التي، ﴿ **تأكل منسأته** ﴾، يعني عصاه، قرأ أهل المدينة وأبو عمر ﴿**منسأته**﴾ بغير همز، وقرأ الباقون بالهمز وهما لغتان، ويسكّن ابن عامر الهمز، وأصلها من نسأت الغنم أي زجرتها وسقتها ومنه نسأ الله في أجله أي أخّره، ﴿ **فلما خرّ** ﴾، أي سقط على الأرض، ﴿ **تبيّنت الجن** ﴾، أي علمت الجن وأيقنت، ﴿ **أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين** ﴾، أي في التعب والشقاء مسخّرين لسليمان وهو ميت يظنونه

فإن كانت لغرس أمر بها فغرست وإن كانت لدواء كتب ذلك حتى نبتت الخروبة فقال لها: ما أنت قالت أنا الخروبة قال ولأي شيء نبت قالت لخراب مسجدك، قال سليمان: ما كان الله ليخربه وأنا حي أنت التي على وجهك هلاكي وخراب بيت المقدس، ثم نزعها وغرسها في حائط له ثم قال: اللهم عم على الجن موتي حتى تعلم الإنس أن الجن لا يعلمون الغيب، وكانت الجن تخبر الإنس أنهم يعلمون من الغيب شيئاً، ويعلمون ما في غد ثم دخل المحراب وقام يصلي على عادته متكئاً على عصاه فمات قائماً، وكان للمحراب كوى من بين يديه، ومن خلفه فكان الجن يعملون تلك الأعمال الشاقة التي كانوا يعملون في حياة سليمان، وينظرون إليه ويحسبون أنه حي ولا ينكرون احتباسه عن الخروج إلى الناس لطول صلاته، وانقطاعه قبل ذلك فمكثوا يدأبون بعد موته حولاً كاملاً حتى أكلت الأرضة عصا سليمان، فخر ميتاً فعلموا بموته قال ابن عباس: فشكرت الجن الأرضة فهم يأتونها بالماء والطين في جوف الخشب فذلك قوله تعالى ﴿**ما دلهم على موته إلا دابة الأرض**﴾ يعني الأرضة ﴿**تأكل منسأته**﴾ قال البخاري يعني عصاه ﴿**فلما خر تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين**﴾ معناه علمت الجن وأيقنت أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في التعب والشقاء مسخرين لسليمان، وهو ميت ويظنونه حياً أراد الله تعالى بذلك أن يعلم الجن أنهم لا يعلمون الغيب لأنهم كانوا يظنون ذلك لجهلهم وقيل في معنى الآية أنه ظهر أمر الجن وانكشف للانس أنهم لا يعلمون الغيب لأنهم كانوا قد شبهوا على الإنس ذلك ذكر أهل التاريخ أن سليمان ملك، وهو ابن ثلاث عشرة سنة، وبقي في الملك مدة أربعين سنة وشرع في بناء بيت المقدس لأربع سنين مضين من ملكه، وتوفي وهو ابن ثلاث وخمسين.

وقوله عز وجل:

لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا لَهُۥ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾

﴿**لقد كان لسبأ في مسكنهم آية**﴾ عن فروة بن مسيك المرادي قال: «لما أنزل في سبأ ما أنزل قال رجل يا رسول الله: وما سبأ أرض أو امرأة قال: ليس بأرض ولا امرأة ولكنه رجل ولد عشرة من العرب فتيامن منهم ستة

حيّاً، أراد الله بذلك أن يُعلِم الجن أنهم لا يعلمون الغيب، لأنهم كانوا يظنون أنهم يعلمون الغيب، لغلبة الجهل عليهم. وذكر الأزهري: أن معناه تبيّنت الجن، أي ظهرت وانكشفت الجن للإنس، أي ظهر أمرهم أنهم لا يعلمون لأنهم كانوا قد شبّهوا على الإنس ذلك، وفي قراءة ابن مسعود وابن عباس تبيّنت الإنس أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين أي علمت الإنس وأيقنت ذلك، وقرأ يعقوب: (تُبيِّنت) بضم التاء وكسر الياء أي أعلمت الإنس الجن، ذكر بلفظ ما لم يُسَمَّ فاعله، وتبيّن لازم ومتعدٍّ، وذكر أهل التاريخ أن سليمان كان عمره ثلاثاً وخمسين سنة، ومدة ملكه أربعون سنة، وملك يوم ملك وهو ابن ثلاث عشر سنة، وابتدأ في بناء بيت المقدس لأربع سنين مضين من مُلْكه.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ **لقد كان لسبإ** ﴾، روى أبو سبرة النخعي عن فروة بن مسيك القطيعي، قال: قال رجل: يا رسول الله أخبرني عن سبأ كان رجلاً أو امرأة أو أرضاً؟ قال: كان رجلاً من العرب وله عشرة من الولد تيامن منهم ستّة وتشاءم أربعة فأما الذين تيامنوا فكندة والأشعريون، والأرض ومذحج وإنمار وحمير، فقال رجل: وما إنمار؟ فقال: الذين تشاءموا فعاملة وجذام ولخم وغسان، وسبأ هو ابن يشحب بن يعرب بن قحطان. ﴿ **في مسكنهم** ﴾، قرأ حمزة وحفص ﴿ **مسكنهم** ﴾ بفتح الكاف على الواحد وقرأ الكسائي بكسر الكاف وقرأ الآخرون «مساكنهم» على الجمع وكانت مساكنهم بمأرب من اليمن، ﴿ **آية** ﴾، دلالة على وحدانيتنا وقدرتنا، ثم فسّر الآية فقال:

وتشاءم منهم أربعة فأما الذين تشاءموا فلخم وجذام وغسان وعاملة، وأما الذين تيامنوا فالأزد والأشعريون وحمير وكندة ومذحج وأنمار، فقال رجل: يا رسول الله وما أنمار؟ قال الذين منهم خثعم وبجيلة» أخرجه الترمذي مع زيادة. وقال حديث حسن غريب وسبأ هو ابن يشجب بن يعرب بن قحطان في مسكنهم أي بمأرب من أرض اليمن، آية أي دلالة على وحدانيتنا وقدرتنا ثم فسر الآية فقال تعالى ﴿**جنتان**﴾ أي بستانان ﴿**عن يمين وشمال**﴾ يعني عن يمين الوادي وشماله وقيل عن يمين من أتاهما وشماله وقيل كان لهم واد قد أحاطت به الجنتان ﴿**كلوا**﴾ أي قيل لهم كلوا ﴿**من رزق ربكم**﴾ أي من ثمار الجنتين قيل كانت المرأة تحمل مكتلها على رأسها وتمر بالجنتين فيمتلىء المكتل من أنواع الفواكه من غير أن تمس بيدها شيئاً ﴿**واشكروا له**﴾ أي على ما رزقكم من النعمة واعملوا بطاعته ﴿**بلدة طيبة**﴾ أي أرض مأرب، وهي سبأ بلدة طيبة فسيحة، ليست بسبخة وقيل: لم يكن يرى في بلدتهم بعوضة ولا ذباب ولا برغوث ولا حية، ولا عقرب وكان الرجل يمر ببلدتهم، وفي ثيابه القمل فيموت القمل من طيب الهواء ﴿**ورب غفور**﴾ قال وهب أي وربكم إن شكرتم على ما رزقكم رب غفور لمن شكره. قوله عز وجل: ﴿**فأعرضوا**﴾ قال وهب: أرسل الله إليهم ثلاثة عشر نبياً فدعوهم إلى الله تعالى وذكروهم نعمه عليهم وأنذروهم عقابه فكذبوهم وقالوا ما نعرف لله علينا نعمة فقولوا لربكم فليحبس هذه النعمة عنا إن استطاع فذلك إعراضهم ﴿**فأرسلنا عليهم سيل العرم**﴾ العرم الذي لا يطاق قيل: كان ماء أحمر أرسله الله تعالى عليهم من حيث شاء وقيل: العرم السكر الذي يحبس الماء وقيل: العرم الوادي.

﴿ **جنّتان** ﴾، أي هي جنّتان بستانان، ﴿ **عن يمين وشمال** ﴾، أي عن يمين الوادي وشماله. وقيل عن يمين مَن أتاهما وشماله، وكان لهما وادٍ قد أحاطت الجنّتان بذلك الوادي ﴿ **كلوا** ﴾، أي وقيل لهم كلوا، ﴿ **من رزق ربكم** ﴾، يعني من ثمار الجنّتين، قال السديّ ومقاتل: كانت المرأة تحمل مكتلها على رأسها وتمرّ بالجنّتين فيمتلىء مكتلها من أنواع الفواكه من غير أن تمسّ شيئاً بيدها، ﴿ **واشكرُوا له** ﴾، أي على ما رزقكم من النّعمة والمعنى اعملوا بطاعته، ﴿ **بلدة طيبة** ﴾، أي أرض سبأ بلدة طيبة ليست بسبخة، قال ابن زيد لم يكن يرى في بلدتهم بعوضة ولا ذُباب ولا برغوث ولا عقرب ولا حيّة، وكان الرجل يمرّ ببلدهم وفي ثيابه القمل فيموت القمل كله من طيب الهواء، فذلك قوله تعالى: ﴿ **بلدة طيبة** ﴾، أي طيبة الهواء، ﴿ **وربٌّ غفور** ﴾، قال مقاتل: وربُّكم إنْ شكرتموه فيما رزقكم ربٌّ غفور للذنوب.

﴿ **فأعرضوا** ﴾، قال وهب: أرسل الله إلى سبأ ثلاثة عشر نبيّاً فدعوهم إلى الله وذكّروهم نِعَمَه عليهم وأنذروهم عقابه فكذّبوهم، وقالوا: ما نعرف لله عزّ وجلّ علينا نعمة فقولوا لربكم فليحبس هذه النِّعَم عنّا إن استطاع، فذلك قوله تعالى: ﴿ **فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العَرِم** ﴾، والعَرِم جمع عرمة وهي السكر الذي يحبس به الماء، وقال ابن الإعرابي العَرِم السيل الذي لا يُطاق، وقيل كان ماء أحمر أرسله الله عليهم من حيث شاء، وقيل العَرِم الوادي وأصله من العرامة وهي الشدّة والقوّة، وقال ابن عباس ووهب وغيرهما: كان ذلك السدّ بَنَتْه بلقيس، وذلك أنهم كانوا يقتتلون على ماء واديهم فأمرت بواديهم فسُدّ بالعَرِم وهو المسنّاة بلغة حمير، فسدّت بين الجبلين بالصخر والقار وجعلت له أبواباً ثلاثة بعضها فوق بعض، وبنت من دونه بركة ضخمة وجعلت فيها اثني عشر مخرجاً على عدة أنهارهم يفتحونها إذا احتاجوا إلى الماء، وإذا استغنوا سدّوها، فإذا جاء المطر اجتمع إليه ماء أودية اليمن، فاحتبس السيل من وراء السدّ فأمرت بالباب الأعلى ففتح فجرى ماؤه في البركة، فكانوا يسقون من الباب الأعلى ثم من الثاني ثم من الثالث الأسفل فلا ينفد الماء حتى يثوب الماء من السنة المقبلة فكانت تقسمه بينهم على ذلك، فبقوا على ذلك بعدها مدة فلما طغوا وكفروا سلّط الله عليهم جرذاً يسمى الخُلْد فنقب السدّ من

قال ابن عباس ووهب وغيرهما، كان لهم سد بنته بلقيس وذلك أنهم كانوا يقتتلون على ماء واديهم، فأمرت بواديهم فسد بالصخر والقار بين الجبلين وجعلت لهم ثلاثة أبواب بعضها فوق بعض، وبنت دونه بركة ضخمة وجعلت فيها اثني عشر مخرجاً على عدة أنهار هم يفتحونها إذا احتاجوا إلى الماء، وإذا استغنوا عنه سدوها فإذا جاءهم المطر اجتمع إليهم ماء أودية اليمن فاحتبس السيل من وراء السد فأمرت بالباب الأعلى ففتح فجرى ماؤه إلى البركة، فكانوا يسقون من الباب الأعلى ثم من الثاني ثم من الثالث الأسفل فلا ينفد الماء حتى يثوب الماء من السنة المقبلة، فكانت تقسمه بينهم على ذلك فبقوا بعدها مدة، فلما طغوا وكفروا سلط الله عليهم جرذاً يسمى الخلد فنقب السد من أسفله فغرق الماء جنانهم وأخرب أرضهم وقال وهب رأوا فيما يزعمون ويجدون في علمهم أن الذي يخرب سدهم فأرة فلم يتركوا فرجة بين حجرين إلا ربطوا عندها هرة فلما جاء زمان ما أراد الله تعالى بهم من التغريق أقبلت فيما يذكرون فارة حمراء كبيرة إلى هرة من تلك الهرار فساورتها، حتى استأخرت عنها الهرة فدخلت في الفرجة التي كانت عندها فتغلغلت في السد، وحفرت حتى أوهنت المسيل وهم لا يعلمون بذلك فلما جاء السيل وجد خللاً فدخل منه حتى اقتلع السد، وفاض الماء حتى علا أموالهم فغرقها ودفن بيوتهم الرمل فغرقوا ومزقوا كل ممزق، حتى صاروا مثلاً عند العرب يقولون ذهبوا أيدي سبا، وتفرقوا أيادي سبا فذلك قوله تعالى فأرسلنا عليهم سيل العرم **﴿وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتي أكل خمط﴾** قيل هو شجر الأراك وثمرة البربر وقيل: كل نبت أخذ طعماً من المرارة حتى لا يمكن أكله، فهو خمط وقيل هو ثمر شجر يقال له فسوة الضبع على صور الخشخاش يتفرك ولا ينتفع به **﴿وأثل﴾** قيل هو الطرفاء وقيل شجر يشبه الطرفاء إلا أنه أعظم منه **﴿وشيء من سدر قليل﴾** هو شجر معروف ينتفع بورقة في الغسل وثمره النبق ولم يكن السدر الذي بدلوه مما ينتفع به بل كان سدراً برياً لا يصلح لشيء قيل: كان شجر القوم من خير الشجر فصيره الله من شر الشجر بأعمالهم وهو قوله تعالى:

﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ ۖ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى

أسفله فغرّق الماء جنّاتهم وخرّب أرضهم. قال وهب: وكان مما يزعمون ويجدون في علمهم وكهانتهم أنه يخرّب سدّهم فأرة فلم يتركوا فرجة بين حجرين إلاّ ربطوا عندها هرّة فلما جاء زمانه وما أراد الله عزّ وجلّ بهم من التغريق أقبلت فيما يذكرون فأرة حمراء كبيرة إلى هرّة من تلك الهِرَر فساورتها حتى استأخرت منها الهرّة فدخلت في الفرجة التي كانت عندها فتغلغلت في السد فثقبت وحفرت حتى أوهنته للسيل، وهم لا يدرون بذلك فلما جاء السيل وجد خللاً فدخل فيه حتى قطع السدّ، وفاض على أموالهم فغرّقها ودفن بيوتهم الرمل، فتفرّقوا وتمزقوا حتى صاروا مثلاً عند العرب، يقولون صار بنو فلان أيدي سبأ وأيادي سبأ أي تفرّقوا وتبدّدوا، فذلك قولـه تعالى: **﴿فأرسلنا عليهم سيل العَرِم﴾**، **﴿وبدّلناهم بجنّتيهم جنّتين ذواتي أُكل خمْطٍ﴾**، وقرأ العامّة بالتنوين، وقرأ أهل البصرة: **﴿أكل خمط﴾** بالإضافة، الأُكل الثمر، والخمط الأراك وثمره يقال له البرير، هذا قول أكثر المفسّرين، وقال المبرد والزجّاج: كل نبت قد أخذ طعماً من المرارة حتى لا يمكن أكله هو خمط. وقال ابن الأعرابي: الخمط ثمر شجرة يقال له فسوة الضبع، على صورة الخشخاش يتفرّك ولا يُنتَفع به، فمَن جعل الخمط اسماً للمأكول فالتنوين في أُكل حسن، ومَن جعله أصلاً وجعل الأُكل ثمرة فالإضافة فيه ظاهرة، والتنوين سائغ تقول العرب: في بستان فلان أعناب كرم، يترجم عن الأعناب بالكرم لأنها منه، **﴿وأثْلٍ وشيءٍ من سدرٍ قليل﴾**، فالأثل هو الطرفاء، وقيل: هو شجر يشبه الطرفاء إلاّ أنه أعظم منه، والسدر شجر النبق ينتفع بورقه لغسل اليد ويغرس في البساتين، ولم يكن هذا من ذلك، بل كان سدراً بريّاً لا يُنتفَع به ولا يصلح ورقه لشيء، قال قتادة: كان شجر القوم من خير الشجر فصيّره الله من شرّ الشجر بأعمالهم.

ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ ۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾

﴿ذلك جزيناهم بما كفروا﴾ أي ذلك فعلنا بهم جزاء كفرهم ﴿وهل نجازي إلا الكفور﴾ أي هل يكافأ بعمله إلا الكفور لله في نعمه، قيل المؤمن يجزي ولا يجزى يجازى بحسناته، ولا يكافأ بسيئاته ﴿وجعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا فيها﴾ أي بالماء والشجر، وهي قرى الشام ﴿قرى ظاهرة﴾ أي متواصلة تظهر الثانية من الأولى لقربها منها قيل: كان متجرهم من اليمن إلى الشام فكانوا يبيتون بقرية ويقيلون بأخرى وكانوا لا يحتاجون إلى حمل زاد من سبأ إلى الشام، وقيل: كانت قراهم أربعة آلاف وسبعمائة قرية متصلة من سبأ إلى الشام ﴿وقدرنا فيها السير﴾ أي قدرنا سيرهم بين هذه القرى فكان سيرهم في الغدو والرواح على قدر نصف يوم، فإذا ساروا نصف يوم وصلوا إلى القرية ذات مياه وأشجار، فكان ما بين اليمن والشام كذلك ﴿سيروا﴾ أي وقلنا لهم سيروا ﴿فيها ليالي وأياماً﴾ أي في أي

﴿ ذلك جزيناهم بما كفروا ﴾، أي ذلك الذي فعلنا بهم جزيناهم بكفرهم، ﴿ وهل نجازي إلاّ الكفور ﴾، قرأ حمزة والكسائي وحفص ويعقوب، ﴿ وهل نجازي ﴾ بالنون وكسر الزاي، ﴿ الكفور ﴾ نصب لقوله: ﴿ ذلك جزيناهم ﴾ وقرأ الآخرون بالياء وفتح الزاي، ﴿ الكفور ﴾ رفع أي وهل يجازى مثل هذا الجزاء إلاّ الكفور، وقال مجاهد: يجازي أي يعاقب. ويقال في العقوبة: يجازي، وفي المثوبة يجزي. قال مقاتل: هل يكافأ بعمله السيىء إلاّ الكفور لله في نِعَمه. قال الفرّاء: المؤمن يُجزى ولا يُجازى أي يُجزى للثواب بعمله ولا يكافأ بسيئاته.

﴿ وجعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا فيها ﴾، بالماء والشجر هي قرى الشام، ﴿ قرىً ظاهرة ﴾، متواصلة تظهر الثانية من الأولى لقربها منها، وكان متجرهم من اليمن إلى الشام فكانوا يبيتون بقرية ويقيلون بأخرى وكانوا لا يحتاجون إلى حمل زاد من سبأ إلى الشام. وقيل: كانت قراهم أربعة آلاف وسبعمائة قرية متّصلة من سبأ إلى الشام، ﴿ وقدّرنا فيها السير ﴾، أي قدّرنا سيرهم بين هذه القرى وكان مسيرهم في الغدو والرواح على قدر نصف يوم، فإذا ساروا نصف يوم وصلوا إلى قرية ذات مياه وأشجار، وقال قتادة: كانت المرأة تخرج ومعها مِغزَلها وعلى رأسها مِكتلها فتمتهن بمِغزلها فلا تأتي بيتهـا حتى يمتلىء مِكتلها من الثمار، وكان ما بين اليمن والشام كذلك، ﴿ سيروا فيها ﴾، أي وقلنا لهم سيروا فيها، وقيل: هو أمر بمعنى الخبر أي مكّنّاهم من السير فكانوا يسيرون فيها، ﴿ ليالي وأياماً ﴾، أي بالليالي والأيام أيّ وقت شئتم، ﴿ آمنين ﴾، لا تخافون عدوّاً ولا جوعاً ولا عطشاً، فبطروا وطغوا ولم يصبروا على العافية، وقالوا: لو كانت جنّاتنا أبعد مما هي كان أجدر أن تشتهيه.

﴿ فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا ﴾، فاجعل بيننا وبين الشام فلوات ومفاوز لنركب فيها الرواحل ونتزوّد الأزواد، فعجّل الله لهم الإجابة. وقال مجاهد: بطروا النعمة وسئموا الراحة، قرأ ابن كثير وأبو عمرو بعد التشديد من التبعيد وقرأ الآخرون باعد بالألف وكلٌّ على وجه الدعاء والسؤال، وقرأ يعقوب: ﴿ ربّنا ﴾ برفع الباء، ﴿ باعد ﴾ بفتح العين والدال على الخبر كأنهم استبعدوا أسفارهم القريبة بطروا وأشِروا، ﴿ وظلموا أنفسهم ﴾، بالبطر

وقت شئتم ﴿آمنين﴾ أي لا تخافون عدواً ولا جوعاً ولا عطشاً فبطروا النعمة، وسئموا الراحة وطغوا ولم يصبروا على العافية فقالوا: لو كانت جناتنا أبعد مما هي كان أجدر أن نشتهيها وطلبوا الكد والتعب في الأسفار ﴿**فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا**﴾ وقرىء باعد بين أسفارنا أي اجعل بيننا وبين الشام مفاوز وفلوات لنركب فيها الرواحل، ونتزود الأزواد فلما تمنوا ذلك عجل الله لهم الإجابة ﴿**وظلموا أنفسهم**﴾ أي بالبطر والطغيان ﴿**فجعلناهم أحاديث**﴾ أي عبرة لمن بعدهم يتحدثون بأمرهم وشأنهم ﴿**ومزقناهم كل ممزق**﴾ أي فرقناهم في كل وجه من البلاد كل التفريق قيل: لما غرقت قراهم تفرقوا في البلاد فأما غسان فلحقوا بالشام ومر الأزد إلى عمان وخزاعة إلى تهامة ومر الأوس والخزرج إلى يثرب، وكان الذي قدم منهم المدينة عمرو بن عامر، وهو جد الأوس والخزرج ولحق آل خزيمة بالعراق ﴿**إن في ذلك لآيات**﴾ أي لعبراً ودلالات ﴿**لكل صبار**﴾ أي عن المعاصي ﴿**شكور**﴾ أي لله على نعمه قيل، المؤمن صابر على البلاء شاكر للنعماء وقيل: المؤمن إذا أعطى شكر وإذا ابتلي صبر. قوله عز وجل ﴿**ولقد صدق عليهم إبليس ظنه**﴾ قيل على أهل سبأ وقيل على الناس كلهم ﴿**فاتبعوه إلا فريقاً من المؤمنين**﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما يعني المؤمنين كلهم لأنهم لم يتبعوه في أصل الدين، وقيل هو خاص بالمؤمنين الذين يطيعون الله ولا يعصونه، قال ابن قتيبة: إن إبليس لما سأل النظرة فأنظره الله قال لأغوينهم ولأضلنهم ولم يكن مستيقناً وقت هذه المقالة أن ما قاله فيهم يتم وإنما قاله ظنا فلما اتبعوه وأطاعوه صدق عليهم ما ظنه فيهم وقال الحسن إنه لم يسل عليهم سيفاً، ولا ضربهم بسوط إنما وعدهم ومناهم فاغتروا ﴿**وما كان له عليهم من سلطان**﴾ يعني ما كان تسليطنا إياه عليهم ﴿**إلا لنعلم من يؤمن بالآخرة ممن هو منها في شك**﴾ يعني لنرى ونميز المؤمن من الكافر وأراد علم الوقوع، والظهور إذ كان

والطغيان. قوله تعالى: ﴿ **فجعلناهم أحاديث** ﴾، عبرة لمَن بعدهم يتحدثون بأمرهم وشأنهم، ﴿ **ومزّقناهم كل ممزّق**﴾، فرّقناهم في كل وجه من البلاد كل التفريق. قال الشعبي: لمّا غرقت قراهم تفرّقوا في البلاد، أما غسان فلحقوا بالشام ومرَّ الأزد إلى عمّان، وخزاعة إلى تهامة، ومرَّ آل خزيمة إلى العراق، والأوس والخزرج إلى يثرب، وكان الذي قَدِمَ منهم المدينة عمرو بن عامر وهو جدّ الأوس والخزرج. ﴿ **إن في ذلك لآيات** ﴾، لعِبَراً ودلالات، ﴿ **لكل صبّار** ﴾، عن معاصي الله، ﴿ **شكور** ﴾، لأنعمه، قال مقاتل: يعني المؤمن من هذه الأمة صبورٌ على البلاء شاكرٌ للنعماء. قال مطرف: هو المؤمن إذا أُعْطِيَ شكر وإذا ابْتُلِيَ صبر.

قوله تعالى: ﴿ **ولقد صدق عليهم إبليس ظنه** ﴾، قرأ أهل الكوفة: ﴿ **صدق** ﴾ بالتشديد أي ظن فيهم ظنّاً حيث قال: ﴿ **فبعزّتك لأغوينّهم أجمعين** ﴾ [صٓ: ٨٢] ﴿ **ولا تجد أكثرهم شاكرين** ﴾ [الأعراف: ١٧] فصدق ظنه وحققه بفعله ذلك بهم واتباعهم إياه، وقرأ الآخرون بالتخفيف أي صدق عليهم في ظنه بهم أي على أهل سبأ. وقال مجاهد: على الناس كلهم إلاّ مَن أطاع الله، ﴿ **فاتّبعوه إلاّ فريقاً من المؤمنين** ﴾، قال السدي عن ابن عباس: يعني المؤمنين كلهم لأن المؤمنين لم يتّبعوه في أصل الدين، وقد قال الله تعالى: ﴿ **إنّ عبادي ليس لك عليهم سلطان** ﴾ [الحجر: ٤٢، الإسراء: ٦٥]، يعني المؤمنين. وقيل: هو خاصّ بالمؤمنين الذين يطيعون الله ولا يعصونه. قال ابن قتيبة: إن إبليس لمّا سأل النظرة فأنظره الله، قال لأغوينّهم أجمعين ولأضلنّهم، لم يكن مستيقناً وقت هذه المقالة أن ما قاله فيهم يتم وإنما قاله ظنّاً فيهم، فلما اتّبعوه وأطاعوه صدق عليهم ما ظنه. قال الحسن: إنه لم يسلَّ عليهم سيفاً ولا ضربهم بسوط وإنما وعدهم ومنّاهم فاغترّوا.

قال الله تعالى: ﴿ **وما كان له عليهم من سلطان** ﴾، أي ما كان تسليطنا إياه عليهم، ﴿ **إلاّ لنعلم مَن يؤمن بالآخرة ممّن هو منها في شكٍّ** ﴾، أي إلاّ لنعلم أي لنرى ونميّز المؤمن من الكافر، وأراد علم الوقوع والظهور، وقد كان معلوماً عنده بالغيب، ﴿ **وربّك على كل شيء حفيظ** ﴾، رقيب.

معلوماً عنده لأنه عالم الغيب ﴿**وربك على كل شيء حفيظ**﴾ يعني رقيب وقيل حفيظ بمعنى حافظ. قوله تعالى ﴿**قل**﴾ يعني قل يا محمد لكفار مكة ﴿**ادعوا الذين زعمتم**﴾ يعني أنهم آلهة ﴿**من دون الله**﴾ والمعنى ادعوهم ليكشفوا عنكم الضر الذي نزل بكم في سني الجوع، ثم وصف عجز الآلهة فقال تعالى ﴿**لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض**﴾ يعني من خير وشر ونفع وضر ﴿**وما لهم**﴾ يعني للآلهة ﴿**فيهما**﴾ يعني في السموات، الأرض ﴿**من شرك**﴾ يعني من شركة ﴿**وما له**﴾ يعني لله ﴿**منهم**﴾ يعني من الآلهة ﴿**من ظهير**﴾ عون.

وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَـٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ
ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾ ۞ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى
ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا
بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ قُلْ أَرُونِىَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ ۖ كَلَّا ۚ بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾
وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ
هَـٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالَ
ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّـٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ
رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا
مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾

﴿**ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له**﴾ يعني أذن الله له في الشفاعة قاله تكذيبا للكفار حيث قالوا: هؤلاء شفعاؤنا عند الله وقيل: يجوز أن يكون المعنى إلا لمن أذن الله في أن يشفع له ﴿**حتى إذا فزع عن قلوبهم**﴾ معناه كشف الفزع وأخرج عن قلوبهم قيل هم الملائكة وسبب ذلك من غشية تصيبهم عند سماع كلام الله تعالى (خ) عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ قال: «إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها» فإذا فزع عن قلوبهم ﴿**قالوا ماذا قال ربكم قالوا**﴾ الذي قال ﴿**الحق وهو العلي الكبير**﴾ وللترمذي «إذا قضى الله في السماء أمراً ضربت

﴿ **قل** ﴾، يا محمد لكفّار مكة، ﴿ **ادعوا الذين زعمتم** ﴾، أنهم آلهة، ﴿ **من دون الله** ﴾، وفي الآية حذف أي ادعوهم ليكشفوا الضُرّ الذي نزل بكم في سِنِي الجوع، ثم وصفها فقال: ﴿ **لا يملكون مثقال ذرّة في السمٰواتِ ولا في الأرض** ﴾، من خير وشر ونفع وضرّ ﴿ **وما لهم** ﴾، أي للآلهة، ﴿ **فيهما** ﴾، في السمٰوات والأرض، ﴿ **من شرك** ﴾، من شركة، ﴿ **وما له** ﴾، أي وما لله، ﴿ **منهم من ظهير** ﴾، عون.

﴿ **ولا تنفع الشفاعة عنده إلّا لمَن أذِن له** ﴾، الله في الشفاعة، قاله تكذيباً لهم حيث قالوا: هؤلاء شفعاؤنا عند الله ويجوز أن يكون المعنى إلّا لمَن أذِنَ الله له أن يشفع له، وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي: ﴿ **أُذن** ﴾ بضم الهمزة، ﴿ **حتى إذا فُزِّعَ عن قلوبهم** ﴾، قرأ ابن عامر ويعقوب بفتح الفاء وكسر الزاي أي كشف الفزع وأخرج عن قلوبهم، فالتفزيع إزالة الفزع كالتمريض والتفريد، واختلفوا في الموصوفين بهذه الصفة، فقال قوم: هم الملائكة، ثم اختلفوا في ذلك السبب فقال بعضهم: إنما يفزع عن قلوبهم من غشية تصيبهم عند سماع كلام الله عزّ وجلّ. وروينا عن أبي هريرة أن نبي الله ﷺ قال: «إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله

الملائكة بأجنحتها خضعاً لقوله كأنه سلسلة على صفوان، فإذا فزع عن قلوبهم قالوا: ماذا قال ربكم قالوا الحق وهو العلي الكبير» قال الترمذي حديث حسن صحيح قوله: خضعاً جمع خاضع وهو المنقاد المطمئن والصفوان الحجر الأملس عن ابن مسعود رضي الله عنه قال «إذا تكلم الله بالوحي سمع أهل السموات صلصلة كجر السلسلة على الصفاة، فيصعقون فلا يزالون كذلك حتى يأتيهم جبريل فإذا جاء فزع عن قلوبهم فيقولون يا جبريل ماذا قال ربك؟ فيقول الحق فيقولون الحق» أخرجه أبو داود. الصلصلة صوت الأجراس الصلبة بعضها على بعض، وقيل: إنما يفزعون حذراً من قيام الساعة، قيل كانت الفترة بين عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام خمسمائة سنة أو ستمائة، لم تسمع الملائكة فيها صوت وحي فلما بعث الله محمداً ﷺ كلم جبريل بالرسالة إلى محمد ﷺ فلما سمعت الملائكة ظنوا أنها الساعة، لأن محمداً ﷺ، عند أهل السموات من أشراط الساعة، فصعقوا مما سمعوا خوفاً من قيام الساعة فلما انحدر جبريل جعل يمر بأهل كل سماء، فيكشف عنهم فيرفعون رؤوسهم ويقول بعضهم لبعض: ماذا قال ربكم: قالوا قال الحق يعني الوحي وهو العلي الكبير وقيل: الموصوفون بذلك هم المشركون وقيل إذا كشف الفزع عن قلوبهم عند نزول الموت قالت الملائكة لهم ماذا قال ربكم في الدنيا لإقامة الحجة عليهم؟ قالوا: الحق فأقروا به حين لم ينفعهم الإقرار وهو العلي الكبير أي ذو العلو والكبرياء.

قوله عز وجل ﴿قل من يرزقكم من السموات والأرض﴾ يعني المطر والنبات ﴿قل الله﴾ يعني إن لم يقولوا إن رزاقنا هو الله فقل: أنت إن رازقكم هو الله ﴿وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين﴾ معناه ما نحن وأنتم على أمر واحد بل أحد الفريقين مهتد والآخر ضال، وهذا ليس على طريق الشك بل جهة الإلزام والإنصاف في الحجاج، كما يقول القائل أحدنا كاذب، وهو يعلم أنه صادق وصاحبه كاذب فالنبي ﷺ ومن اتبعه على الهدى ومن خالفه في ضلال فكذبهم من غير أن يصرح بالتكذيب ومنه بيت حسان:

أتهجوه ولست له بكفء فشركما لخيركما الفداء

كأنه سلسلة على صفوان فإذا فزع عن قلوبهم ﴿ قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق وهو العليّ الكبير ﴾»، أخبرنا أبو سعيد الشريحي أنا أبو إسحق الثعلبي قال أنبأني محمد بن الفضل بن محمد أنا أبو بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة أنا زكريا بن يحيىٰ بن أبّان المصري أنا نعيم بن حمّاد أنا أبو الوليد بن مسلم عن عبد الرحمن بن يزيد بن جابر عن ابن أبي زكريا عن رجاء بن حيوة عن النواس بن سمعان قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أراد الله أن يوحي بالأمر تكلم بالوحي أخذت السمٰوات منه رجفة أو قال رعدة شديدة خوفاً من الله تعالى، فإذا سمع بذلك أهل السمٰوات صعقوا وخرّوا لله سُجّداً فيكون أول مَن يرفع رأسه جبريل فيكلّمه الله من وحيه بما أراد، ثم يمرّ جبريل على الملائكة كلما مرّ على سماء سأله ملائكتها ماذا قال ربّنا يا جبريل؟ فيقول جبريل: قال الحق وهو العليّ الكبير، قال فيقولون كلهم مثل ما قال جبريل، فينتهي جبريل بالوحي حيث أمره الله» وقال بعضهم إنما يفزعون حذراً من قيام الساعة. قال مقاتل والكلبي والسدي: كانت الفترة بين عيسى ومحمد عليهما السلام، خمسمائة وخمسين سنة وقيل ستمائة سنة لم تسمع الملائكة فيها وحياً فلما بعث الله محمداً ﷺ كُلِّم جبريل عليه السلام بالرسالة إلى محمد ﷺ فلما سمعت الملائكة ظنّوا أنها الساعة لأن محمداً ﷺ عند أهل السمٰوات بعثته من أشراطِ الساعة فصُعِقوا مما سمعوا خوفاً من قيام الساعة فلما انحدر جبريل جعل يمرّ بأهل كل سماء فيكشف عنهم فيرفعون رؤوسهم ويقول بعضهم لبعض ماذا قال ربّكم؟ قالوا: قال الحق، يعني الوحي وهو العليّ الكبير وقال جماعة الموصوفون بذلك المشركين. قال الحسن وابن زيد حتى إذا كشف الفزع عن قلوب المشركين عند نزول الموت بهم إقامة للحجّة عليهم قالت الملائكة ماذا قال ربّكم في الدنيا قالوا الحق فأقرّوا به حين لا ينفعهم الإقرار.

وقيل أو بمعنى الواو، ومعنى الآية إنا لعلى هدى وإنكم لفي ضلال مبين ﴿**قل لا تسألون عما أجرمنا**﴾ أي لا تؤاخذون به ﴿**ولا نسأل عما تعملون**﴾ أي من الكفر والتكذيب وقيل أراد بالإجرام الصغائر والزلات التي لا يخلو منها مؤمن وبالعمل الكفر والمعاصي العظام ﴿**قل يجمع بيننا ربنا**﴾ أي يوم القيامة ﴿**ثم يفتح**﴾ يعني يقضي ويحكم ﴿**بيننا بالحق**﴾ يعني بالعدل ﴿**وهو الفتاح**﴾ يعني القاضي ﴿**العليم**﴾ يعني بما يقضي ﴿**قل أروني**﴾ أعلموني ﴿**الذين ألحقتم به**﴾ يعني بالله ﴿**شركاء**﴾ يعني الأصنام التي أشركوها معه في العبادة هل يخلقون أو يرزقون وأراد بذلك أن يريهم الخطأ العظيم في إلحاق الشركاء بالله ﴿**كلا**﴾ كلمة ردع لهم عن مذهبهم والمعنى ارتدعوا فإنهم لا يخلقون ولا يرزقون ﴿**بل هو الله العزيز**﴾ أي الغالب على أمره ﴿**الحكيم**﴾ أي في تدبير خلقه فأنى يكون له شريك في ملكه. قوله عز وجل ﴿**وما أرسلناك إلا كافة للناس**﴾ يعني للناس كلهم عامة أحمرهم وأسودهم عربيهم وعجميهم وقيل الرسالة عامة لهم لأنها إذا شملتهم فقد كفتهم أن يخرج منها أحد (ق) عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي، نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهور، فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي، وأعطيت الشفاعة وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة». في الحديث بيان الفضائل التي خص الله بها نبينا محمداً ﷺ دون سائر الأنبياء، وأن هذه الخمسة لم تكن لأحد ممن كان قبله من الأنبياء، وفيه اختصاصه بالرسالة العامة لكافة الخلق الإنس والجن وكان النبي قبله يبعث إلى قومه أو إلى أهل بلده فعمت رسالة نبينا ﷺ، جميع الخلق وهذه درجة خص بها دون سائر الأنبياء عليه وعليهم أفضل الصلاة والسلام، وقيل في معنى كافة أي كافاًتكفهم عماهم عليه من الكفر فتكون الهاء للمبالغة ﴿**بشيراً**﴾ أي لمن آمن بالجنة ﴿**ونذيراً**﴾ أي لمن كفر بالنار ﴿**ولكن أكثر الناس لا يعلمون ويقولون متى هذا الوعد إن**

قوله تعالى: ﴿ **قلْ مَن يرزقكم من السمٰوات والأرض** ﴾، فالرزق من السمٰوات المطر ومن الأرض النبات، ﴿ **قل الله** ﴾، أي إن لم يقولوا رازقنا الله فقل أنت إن رازقكم هو الله، ﴿ **وإنّا أو إيّاكم لعلى هدىً أو في ضلال مبين** ﴾، ليس هذا على طريق الشك ولكن على جهة الإنصاف في الحجاج كما يقول القائل للآخر أحدنا كاذب وهو يعلم أنه صادق وصاحبه كاذب، ومعنى ما نحن وأنتم على أمر واحد بل أحد الفريقين مُهتدٍ والآخر ضالّ، فالنبي ﷺ ومَن اتّبعه على الهدى، ومَن خالفه في ضلال، فكذّبهم من غير أن يصرّح بالتكذيب. وقال بعضهم: أو بمعنى الواو والألف فيه صلة، كأنه قال: وإنّا وإيّاكم لعلى هدىً أو في ضلالٍ مبين يعني نحن على الهدى وأنتم في الضلال.

﴿ **قلْ لا تُسئلون عمّا أجرمنا ولا نُسئل عمّا تعملون** ﴾.

﴿ **قل يجمع بيننا ربنا** ﴾، يعني يوم القيامة، ﴿ **ثم يفتح** ﴾، يقضي، ﴿ **بيننا بالحق وهو الفتّاح العليم** ﴾.

﴿ **قل أروني الذين ألحقتم به شركاء** ﴾، أي أعلموني الذين ألحقتموهم به أي بالله شركاء في العبادة معه هل يخلقون وهل يرزقون، ﴿ **كلا** ﴾، لا يخلقون ولا يرزقون، ﴿ **بل هو الله العزيز** ﴾، الغالب على أمره، ﴿ **الحكيم** ﴾ في تدبيره لخلقه فأنّى يكون له شريك في مُلكه.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ **وما أرسلناك إلّا كافّة للناس** ﴾، يعني للناس أحمرهم وأسودهم، ﴿ **بشيراً ونذيراً** ﴾، أي مبشّراً ومنذراً، ﴿ **ولكن أكثر الناس لا يعلمون** ﴾، وروينا عن جابر أن النبي ﷺ قال: «كان النبي يبعث إلى قومه خاصّة وبُعِثتُ إلى الناس عامّة»، وقيل: كافّة أي كافّاً يكفّهم عمّا هم عليه من الكفر، والهاء للمبالغة.

﴿ **ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين** ﴾، يعني القيامة.

كنتم صادقين﴾ يعني يوم القيامة ﴿قل لكم ميعاد يوم لا تستأخرون عنه ساعة ولا تستقدمون﴾ معناه لا تتقدمون على يوم القيامة وقيل: عن يوم الموت ولا تتأخرون عنه بأن يزاد في آجالهم أو ينقص منها ﴿وقال الذين كفروا لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذي بين يديه﴾ يعني التوراة والإنجيل ﴿ولو ترى﴾ أي يا محمد ﴿إذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم إلى بعض القول﴾ معناه ولو ترى في الآخرة موقفهم وهم يتجاذبون أطراف المحاورة ويتراجعونها بينهم لرأيت العجب ﴿يقول الذين استضعفوا﴾ وهم الأتباع ﴿للذين استكبروا﴾ وهو القادة والأشراف ﴿لولا أنتم لكنا مؤمنين﴾ يعني أنتم منعتمونا عن الإيمان بالله ورسوله.

قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾
وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ
وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾
وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا
وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَآ
أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ
فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ
ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ ۚ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٣٩﴾

﴿قال الذين استكبروا﴾ أي أجاب المتبوعون في الكفر ﴿للذين استضعفوا أنحن صددناكم﴾ أي منعناكم ﴿عن الهدى﴾ أي عن الإيمان ﴿بعد إذ جاءكم بل كنتم مجرمين﴾ أي بترك الإيمان ﴿وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار﴾ أي مكركم بنا في الليل والنهار وقيل مكر الليل والنهار هو طول السلامة في الدنيا وطول الأمل فيها ﴿إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أنداداً﴾ أي هو قول القادة للأتباع إن ديننا الحق وإن محمد كذاب ساحر وهذا

﴿ قل لكم ميعاد يومٍ لا تستأخِرُون عنه ساعةً ولا تستقدمون ﴾، أي لا تتقدمون عليه يعني يوم القيامة، وقال الضحّاك: يوم الموت لا تتأخرون عنه ولا تتقدمون بأن يُزاد في أجلكم أو ينقص منه.

﴿ وقال الذين كفروا لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذي بين يديه ﴾، يعني التوراة والإنجيل، ﴿ ولو ترى ﴾، يا محمد، ﴿ إذ الظالمون موقوفون ﴾، محبوسون، ﴿ عند ربهم يرجع بعضهم إلى بعض القول ﴾، يردّ بعضهم إلى بعض القول في الجدال، ﴿ يقول الذين استضعفوا ﴾، استحقروا وهم الأتباع، ﴿ للذين استكبروا ﴾، وهم القادة والأشراف، ﴿ لولا أنتم لكنّا مؤمنين ﴾، أي أنتم منعتمونا عن الإيمان بالله ورسوله.

﴿ قال الذين استكبروا ﴾، أجابهم المتبوعون في الكفر، ﴿ للذين استضعفوا أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذْ جاءكم بل كنتم مجرمين ﴾، بترك الإيمان.

﴿ وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار ﴾، أي مكركم بنَا في الليل والنهار، والعرب تضيف الفعلَ إلى الليل والنهار على توسّع الكلام كما قال الشاعر:

ونمـت ومـا ليـل المطى بنائـم

تنبيه للكفار أن تصير طاعة بعضهم لبعض في الدنيا سبب عداوتهم في الآخرة ﴿وأسروا الندامة﴾ أي أظهروها وقيل: أخفوها وهو من الأضداد ﴿لما رأوا العذاب وجعلنا الأغلال في أعناق الذين كفروا﴾ أي في النار الأتباع والمتبوعين جميعاً ﴿هل يجزون إلا ما كانوا يعملون﴾ أي من الكفر والمعاصي في الدنيا. قوله عز وجل ﴿وما أرسلنا في قرية من نذير إلا قال مترفوها﴾ أي رؤساؤها وأغنياؤها ﴿إنا بما أرسلتم به كافرون وقالوا﴾ يعني المترفين والأغنياء للفقراء الذين آمنوا ﴿نحن أكثر أموالاً وأولاداً﴾ يعني لو لم يكن الله راضياً بما نحن عليه من الدين والعمل الصالح لم يخولنا أموالاً ولا أولاداً ﴿وما نحن بمعذبين﴾ أي إن الله قد أحسن إلينا في الدنيا بالمال والولد فلا يعذبنا في الآخرة ﴿قل إن ربي يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر﴾ يعني أنه تعالى يبسط الرزق ابتلاء وامتحاناً ولا يدل البسط على رضا الله تعالى ولا التضييق على سخطه ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ أي إنها كذلك ﴿وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقربكم عندنا زلفى﴾ أي بالتي تقربكم عندنا تقريباً ﴿إلا﴾ أي لكن ﴿من آمن وعمل صالحاً﴾ قال ابن عباس يريد إيمانه وعلمه يقربه مني ﴿فأولئك لهم جزاء الضعف بما علموا﴾ أي يضعف الله لهم حسناتهم فيجزي بالحسنة الواحدة عشر إلى سبعمائة

وقيل: مكر الليل والنهار هو طول السلامة وطول الأمل فيهما، كقوله تعالى: ﴿ فطال عليهم الأمد فقَسَت قلوبهم ﴾ [الحديد: ١٦]. ﴿ إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أنداداً وأسرّوا ﴾، وأظهروا ﴿ الندامة ﴾، وقيل: أخفوا، وهو من الأضداد، ﴿ لمّا رأوا العذاب وجعلنا الأغلال في أعناق الذين كفروا ﴾، في النار الأتباع والمتبوعين جميعاً، ﴿ هل يُجزَون إلّا ما كانوا يعملون ﴾ من الكفر والمعاصي في الدنيا.

﴿ وما أرسلنا في قرية من نذير إلّا قال مُترَفوها ﴾، رؤساؤها وأغنياؤها، ﴿ إنّا بما أرسلتم به كافرون ﴾.

﴿ وقالوا ﴾، يعني قال مترفوها للفقراء الذين آمنوا، ﴿ نحن أكثر أموالاً وأولاداً ﴾، ولو لم يكن الله راضياً بما نحن عليه من الدين والعمل لم يخوّلنا الأموال والأولاد، ﴿ وما نحن بمعذَّبين ﴾، أي إن الله أحسن إلينا في الدنيا بالمال والولد فلا يعذبنا.

﴿ قل إن ربّي يبسط الرزق لمَن يشاء ويقدر﴾، يعني أن الله يبسط الرزق ويقدر ابتلاءً وامتحاناً لا يدلّ البسط على رضا الله عنه ولا التضييق على سخطه، ﴿ ولكنّ أكثر الناس لا يعلمون ﴾، أنها كذلك.

﴿ وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقرّبكم عندنا زُلفى ﴾، أي قُربى، قال الأخفش قُربى اسم مصدر كأنه قال بالتي تقرّبكم عندنا تقريباً، ﴿ إلّا مَن آمن ﴾، يعني مَن آمن، ﴿ وعمل صالحاً ﴾، قال ابن عباس يريد إيمانه وعمله يقرّبه منّي، ﴿ فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا ﴾، أي يضعف الله لهم حسناتهم فيجزي بالحسنة الواحدة عشر إلى سبعمائة قرأ يعقوب: ﴿ جزاء ﴾ منصوباً منوّناً و﴿ الضعف ﴾ رفع تقديره لهم الضعف جزاء وقرأ العامّة بالإضافة، ﴿ وهم في الغُرفات آمِنُون ﴾، قرأ حمزة: (في الغُرفة) على واحدة، وقرأ الآخرون بالجمع لقوله: ﴿ لنبوأنّهم من الجنة غُرفاً ﴾ [العنكبوت: ٥٨].

﴿ والذين يسعون ﴾، يعملون، ﴿ في آياتنا ﴾، في إبطال حجّتنا، ﴿ معاجزين ﴾، معاندين يحسبون أنهم يُعجزوننا ويفوتوننا، ﴿ أولئك في العذاب محضرون ﴾.

﴿ قلْ إن ربي يبسط الرزق لمَن يشاء من عباده ويقدر لـه وما أنفقتم من شيء فهو يُخلفه ﴾، يعطي خَلَفَه، قال سعيد بن جبير: ما كان في غير إسراف ولا تقتير فهو يخلفه. وقال الكلبي: ما تصدقتم من صدقة وأنفقتم في الخير من نفقة فهو يخلفه على المنفق، إمّا أن يعجّله في الدنيا وإمّا أن يدّخره له في الآخرة، ﴿ وهو خير

﴿وهم في الغرفات آمنون والذين يسعون في آياتنا﴾ أي يعملون في إبطال حججنا ﴿معاجزين﴾ أي معاندين يحسبون أنهم يعجزوننا ويفوتنا ﴿أولئك في العذاب محضرون﴾. قوله عز وجل ﴿قل إن ربي يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه﴾ أي يعطي خلفه إذا كان في غير إسراف ولا تقتير فهو يخلفه ويعوضه لا معوض سواه إما عاجلاً بالمال أو بالقناعة التي هي كنز لا ينفد، وإما بالثواب في الآخرة الذي كل خلف دونه، وقيل ما تصدقتم من صدقة وأنفقتم من خير فهو يخلفه على المنفق. قال مجاهد: من كان عنده من هذا المال ما يقيمه فليقتصد، فإن الرزق مقسوم ولعل ما قسم له قليل، وهو ينفق نفقة الموسع عليه فينفق جميع ما في يده ثم يبقى طول عمره في فقره، ولا يتأولن وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه فإن هذا في الآخرة ومعنى الآية ما كان من خلف فهو منه (ق) عن ابن هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «قال الله تبارك وتعالى: أنفق ينفق عليك» ولمسلم «يا ابن آدم أنفق أنفق عليك» (ق) عنه أن رسول الله ﷺ قال «ما من يوم يصبح العباد فيه إلا وملكان ينزلان يقول أحدهما اللهم أعط منفقاً خلفاً، ويقول الآخر اللهم أعط ممسكاً تلفاً» (م) عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ما نقصت صدقة من مال وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله» ﴿وهو خير الرازقين﴾ أي خير من يعطي ويرزق لأن كل ما رزق غيره من سلطان يرزق جنده أو سيد يرزق مملوكه أو رجل يرزق عياله فهو من رزق الله أجراه الله على أيدي هؤلاء وهو الرزاق الحقيقي الذي لا رازق سواه. قوله تعالى:

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ

الرازقين﴾، خير مَن يعطي ويرزق. وروينا عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله تعالى أنفق يا ابن آدم أُنفق عليك»، أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل ثنا إسماعيل ثنا أبي عن سليمان هو ابن بلال عن معاوية بن أبي مزرد عن أبي الحبحاب عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «ما من يوم يصبح العباد فيه إلّا ملكان ينزلان فيقول أحدهما اللّهمَّ أعطِ منفقاً خلفاً، ويقول الآخر اللّهمَّ أعطِ ممسكاً تلفاً»، أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أبو منصور محمد بن محمد بن سمعان أنا أبو جعفر محمد بن أحمد بن عبد الجبّار الرياني أنا حميد بن زنجويه أنا ابن أبي أُويس أنا عبد العزيز بن محمد عن العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «ما نقصتْ صدقةٌ من مال، وما زاد الله عبداً بعفو إلّا عزّاً، وما تواضع أحد لله إلّا رفعه الله». أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أبو منصور السمعاني أنا أبو جعفر الرياني أنا حميد بن زنجويه أنا أبو الربيع أنا عبد الحميد بن الحسن الهلالي أنا محمد بن المنكدر عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «كل معروف صدقة وكل ما أنفق الرجل على نفسه وأهله كُتب له صدقة، وما وقى الرجل به عرضه كتب له به صدقة»، قلت: ما يعني وقى الرجـل عرضه؟ قال: «ما أعطى الشاعر وذا اللسان للتقى، وما أنفق المؤمن من نفقة فعلى الله خَلَفُها ضامناً إلّا ما كان من نفقة في بنيان أو في معصية الله عزّ وجلّ». قوله: «قلت ما يعني» يقول عبد الحميد لمحمد بن المنكدر قال مجاهد: إذا كان في يَدِ أحدكم شيء فليقتصد، ولا يتأوّل هذه الآية: ﴿وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه﴾ [سبأ: ٣٩]، فإن الرزق مقسوم لعلّ رزقه قليل، وهو ينفق نفقة الموسع عليه. ومعنى الآية: وما كان من خلف فهو منه.

أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا
سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾ وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾ وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ
وَمَا بَلَغُواْ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَكَذَّبُواْ رُسُلِى ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾ ۞ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ
مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾ قُلْ مَا
سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَّٰمُ
ٱلْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾ قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾

﴿ويوم نحشرهم جميعاً﴾ يعني هؤلاء الكفار **﴿ثم نقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون﴾** أي في الدنيا وهذا استفهام تقريع وتقرير للكفار فتتبرأ الملائكة منهم من ذلك وهو قوله تعالى **﴿قالوا سبحانك﴾** أي تنزيها لك **﴿أنت ولينا من دونهم﴾** أي نحن نتولاك ولا نتولاهم فبينوا بإثبات موالاة الله ومعاداة الكفار براءتهم من الرضا بعبادتهم لهم **﴿بل كانوا يعبدون الجن﴾** يعني الشياطين. فان قلت قد عبدوا الملائكة فكيف وجه قوله بل كانوا يعبدون الجن. قلت أراد أن الشياطين زينوا لهم عبادة الملائكة فأطاعوهم في ذلك فكانت طاعتهم للشياطين عبادة لهم وقيل صوروا لهم صوراً وقالوا لهم هذه صور الملائكة فاعبدوها فعبدوها وقيل كانوا يدخلون في أجواف الأصنام فيعبدون بعبادتها **﴿أكثرهم بهم مؤمنون﴾** يعني مصدقون للشياطين قال الله تعالى **﴿فاليوم لا يملك بعضكم لبعض نفعاً﴾** أي شفاعة **﴿ولا ضراً﴾** أي بالعذاب يريد أنهم عاجزون ولا نفع عندهم ولا ضر **﴿ونقول للذين ظلموا ذوقوا عذاب النار التي كنتم بها تكذبون وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قالوا ما هذا إلا رجل﴾** يعنون محمداً ﷺ **﴿يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم وقالوا ما هذا إلا إفك مفترى﴾** يعنون القرآن **﴿وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم إن هذا إلا سحر مبين وما آتيناهم﴾** يعني هؤلاء المشركين **﴿من كتب يدرسونها﴾** أي يقرؤونها **﴿وما أرسلنا إليهم قبلك من نذير﴾** أي لم يأت

قوله تعالى: **﴿ ويوم يحشرهم ﴾**، قرأ يعقوب وحفص (يحشرهم)، ويقول بالياء فيهما، وقرأ الآخرون بالنون، **﴿ جميعاً ﴾**، يعني هؤلاء الكفّار، **﴿ ثم يقول للملائكة أهؤلاء إيّاكم كانوا يعبدون ﴾**، في الدنيا، قال قتادة: هذا استفهام تقرير: كقوله تعالى لعيسى: **﴿ أأنتَ قلتَ للناس اتخذوني وأُمّي إلّهين من دون الله ﴾** [المائدة: ١١٦]، فتتبرأ منهم الملائكة.

﴿ قالوا سبحانك ﴾، تنزيهاً لك، **﴿ أنت وليّنا من دونهم ﴾**، أي نحن نتولاك ولا نتولاهم، **﴿ بل كانوا يعبدون الجن ﴾**، يعني الشياطين، فإن قيل لهم كانوا يعبدون الملائكة فكيف وجه قوله: **﴿ يعبدون الجن ﴾**، قيل: أراد الشياطين زيّنوا لهم عبادة الملائكة، فهم كانوا يطيعون الشياطين في عبادة الملائكة، فقوله: **﴿ يعبدون ﴾** أي يطيعون الجن، **﴿ أكثرهم بهم مؤمنون ﴾**، يعني مصدقون للشياطين.

ثم يقول الله: **﴿ فاليوم لا يملك بعضكم لبعض نفعاً ﴾**، بالشفاعة، **﴿ ولا ضرّاً ﴾** بالعذاب، يريد أنهم عاجزون لا نفع عندهم ولا ضر، **﴿ ونقول للذين ظلموا ذُوقُوا عذابَ النار التي كنتم بها تكذبون ﴾**.

﴿ وإذا تُتلى عليهم آياتنا بيّنات قالوا ما هذا ﴾، يعنون محمد ﷺ، **﴿ إلاّ رجل يريد أن يصدّكم عمّا كان يعبد آباؤكم وقالوا ما هذا إلاّ إفْكٌ مُفترى ﴾**، يعنون القرآن، **﴿ وقال الذين كفروا للحق لمّا جاءهم إنْ هذا إلاّ سحر مبين ﴾**، أي بيّن.

العرب قبلك نبي ولا أنزل إليهم كتاب ﴿وكذب الذين من قبلهم﴾ أي من الأمم السالفة رسلنا ﴿وما بلغوا﴾ يعني هؤلاء المشركين ﴿معشار﴾ أي عشر ﴿ما آتيناهم﴾ أي أعطينا الأمم الخالية من القوة والنعمة وطول الأعمار ﴿فكذبوا رسلي فكيف كان نكير﴾ أي إنكاري عليهم يحذر بذلك كفار هذه الأمة عذاب الأمم الماضية. قوله عز وجل ﴿قل إنما أعظكم﴾ أي آمركم وأوصيكم ﴿بواحدة﴾ أي بخصلة واحدة ثم بين تلك الخصلة فقال تعالى ﴿أن تقوموا لله﴾ أي لأجل الله ﴿مثنى﴾ أي اثنين ﴿وفرادى﴾ أي واحداً واحداً ﴿ثم تتفكروا﴾ أي تجتمعوا جميعاً فتنظروا وتتحاوروا وتتفكروا في حال محمد ﷺ فتعلموا أن ﴿ما بصاحبكم من جنة﴾ ومعنى الآية إنما أعظكم بواحدة إن فعلتموها أصبتم الحق وتخلصتم وهي أن تقوموا لله وليس المراد به القيام على القدمين ولكن هو الانتصاب في الأمر والنهوض فيه بالهمة فتقوموا لوجه الله خالصاً ثم تتفكروا في أمر محمد ﷺ وما جاء به أما الاثنان فيتفكران، ويعرض كل منهما محصول فكره على صاحبه لينظرا فيه نظر متصادقين متناصفين لا يميل بهما اتباع الهوى وأما الفرد فيفكر في نفسه أيضاً بعدل ونصفة هل رأينا في هذا الرجل جنوناً قط أو جربنا عليه كذباً قط وقد علمتم أن محمداً ﷺ ما به من جنة بل قد علمتم أنه من أرجح قريش عقلاً وأوزنهم حلماً وأحدهم ذهناً وأرصنهم رأياً وأصدقهم قولاً وأزكاهم نفساً، وأجمعهم لما يحمد عليه الرجال ويمدحونه به وإذا علمتم ذلك كفاكم أن تطالبوه بآية وإذا جاء بها تبين أنه نبي نذير مبين صادق فيما جاء به وقيل: تم الكلام عند قوله: ثم تتفكروا أي في السموات والأرض فتعلموا أنه خالقها واحد لا شريك له ثم ابتدأ فقال ما بصاحبكم من جنة ﴿إن هو إلا نذير لكم بين يدي عذاب شديد قل ما سألتكم﴾ أي على تبليغ

﴿ وما أتيناهم ﴾، يعني هؤلاء المشركين، ﴿ من كتب يدرسونها ﴾، يقرؤونها، ﴿ وما أرسلنا إليهم قبلك من نذير ﴾، أي لم يأتِ العرب قبلك نبي ولا نزل عليهم كتاب.

﴿ وكذب الذين من قبلهم ﴾، من الأمم رسلنا وهم عاد وثمود وقوم إبراهيم وقوم لوط وغيرهم، ﴿ وما بلغوا ﴾ يعني هؤلاء المشركين، ﴿ معشار ﴾، أي عشر، ﴿ ما آتيناهم ﴾، أي أعطينا الأمم الخالية من القوة والنعمة وطول العمر، ﴿ فكذبوا رسلي فكيف كان نكير ﴾، أي إنكاري وتغييري عليهم، يُحذّر كفّار هذه الأمة عذاب الأمم الماضية.

﴿ قلْ إنما أعظكم بواحدة ﴾، أي بخصلة واحدة، ثم بيّن تلك الخصلة فقال: ﴿ أن تقوموا لله ﴾، أي لأجل الله، ﴿ مثنى ﴾، أي اثنين اثنين، ﴿ وفُرادى ﴾، أي واحداً واحداً، ﴿ ثم تتفكروا ﴾، جميعاً أي تجتمعون فتنظرون وتتحاورون وتنفردون، فتفكّرون في حال محمد ﷺ فتعلموا، ﴿ ما بصاحبكم من جِنّة ﴾، أي جنون، وليس المراد من القيام القيام الذي هو ضدّ الجلوس وإنما هو قيام بالأمر الذي هو في طلب الحق، كقوله: ﴿ وأن تقوموا لليتامى بالقسط ﴾ [النساء: ١٢٧]. ﴿ إنْ هو ﴾، ما هو، ﴿ إلاّ نذير لكم بين يدي عذاب شديد ﴾، قال مقاتل: تمّ الكلام عند قوله ثم تتفكّروا أي في خلق السمٰوات والأرض فتعلموا أن خالقها واحد لا شريك له ثم ابتدأ فقال ما بصاحبكم من جِنّة.

﴿ قلْ ما سألتكم عليه ﴾، على تبليغ الرسالة، ﴿ من أجر ﴾، جعل ﴿ فهو لكم ﴾، يقول: قل لا أسألكم على تبليغ الرسالة أجراً فتفهموني، ومعنى قوله: ﴿ فهو لكم ﴾ أي لم أسألكم شيئاً كقول القائل: ما لي من هذا فقد وهبته لك يريد ليس لي فيه شيء، ﴿ إنْ أجري ﴾، ما ثوابي، ﴿ إلاّ على الله وهو على كل شيء شهيد ﴾.

﴿ قلْ إنّ ربي يقذف بالحق ﴾، والقذف الرمي بالسهم والحصى، والكلام، ومعناه أتى بالحق وبالوحي ينزله من السماء فيقذفه إلى الأنبياء، ﴿ علاّم الغيوب ﴾، رفع بخبر أن أي وهو علاّم الغيوب.

الرسالة ﴿من أجر﴾ أي جعل ﴿فهو لكم﴾ أي لم أسألكم شيئاً ﴿إن أجري﴾ أي ثوابي ﴿إلا على الله وهو على كل شيء شهيد قل إن ربي يقذف بالحق﴾ أي يأتي بالوحي من السماء فيقذفه إلى الأنبياء ﴿علام الغيوب﴾ أي خفيات الأمور ﴿قل جاء الحق﴾ أي القرآن والإسلام ﴿وما يبدىء الباطل وما يعيد﴾ أي ذهب الباطل وزهق فلم تبق منه بقية تبدىء شيئاً أو تعيده وقيل الباطل هو إبليس والمعنى لا يخلق إبليس أحداً ابتداء ولا يبعثه إذا مات وقيل الباطل الأصنام.

قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِيۖ وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِيٓ إِلَيَّ رَبِّيٓۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُواْ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُواْ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾ وَقَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ وَقَدْ كَفَرُواْ بِهِۦ مِن قَبْلُۖ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُۚ إِنَّهُمْ كَانُواْ فِي شَكٍّ مُّرِيبٍۭ ﴿٥٤﴾

﴿قل إن ضللت فإنما أضل على نفسي﴾ وذلك أن كفار مكة كانوا يقولون له إنك قد ضللت حين تركت دين آبائك فقال الله تعالى قل إن ضللت فيما تزعمون أنتم فإنما أضل على نفسي أي إثم ضلالتى على نفسي ﴿وإن اهتديت فبما يوحي إليَّ ربي﴾ أي في القرآن والحكمة ﴿إنه سميع قريب﴾ قوله عز وجل ﴿ولو ترى﴾ أي يا محمد ﴿إذ فزعوا﴾ أي عند البعث أي حين يخرجون من قبورهم وقيل عند الموت ﴿فلا فوت﴾ أي لا يفوتوننا ولا نجاة لهم ﴿وأخذوا من مكان قريب﴾ قيل من تحت أقدامهم، وقيل أخذوا من بطن الأرض إلى ظهرها وحيثما كانوا فإنهم من الله قريب لا يفوتونه، ولا يعجزونه وقيل: من مكان قريب يعني عذاب الدنيا وهو القتل يوم بدر وقيل: هو خسف بالبيداء ومعنى

﴿ قلْ جاء الحق ﴾، يعني القرآن والإسلام، ﴿ وما يُبدىء الباطل وما يُعيد ﴾، أي ذهب الباطل وزهق فلم يبقَ منه بقية يبدىء شيئاً أو يُعيد، كما قال تعالى: ﴿ بل نقذف بالحق على الباطل فيدفعه ﴾ [الأنبياء: ١٨]، وقال قتادة: الباطل هو إبليس، وهو قول مقاتل والكلبي، وقيل: الباطل الأصنام.

﴿ قلْ إنْ ضللت فإنّما أضلّ على نفسي ﴾، وذلك أن كفّار مكة يقولون له: إنك قد ضللت حين تركت دين آبائك، قال الله تعالى: ﴿ قل إن ضللت فإنما أضلّ على نفسي ﴾ أي إثم ضلالتي على نفسي، ﴿ وإنِ اهتديتُ فبما يُوحي إليّ ربّي ﴾، منَ القرآن والحكمة، ﴿ إنه سميع قريب ﴾.

﴿ ولو ترى إذ فزعوا ﴾، قال قتادة عند البعث حين يخرجون من قبورهم، ﴿ فلا فوت ﴾، أي فلا يفوتوننى كما قال: ﴿ ولاتَ حينَ مناص ﴾ [صٓ: ٣]، وقيل: إذا فزعوا فلا فوت ولا نجاة، ﴿ وأُخذوا من مكان قريب ﴾، قال الكلبي من تحت أقدامهم، وقيل: أُخذوا من بطن الأرض إلى ظهرها، وحيثما كانوا فهم من الله قريب، لا يفوتونه. وقيل: مَن كان قريب يعني عذاب الدنيا، وقال الضحاك: يوم بدر. وقال ابن بزّي: خسف بالبيداء، وفي الآية حذف تقديره: ولو ترى إذْ فزعوا لرأيتَ أمراً تعتبرُ به.

﴿ وقالوا آمنّا به ﴾، حين عاينوا العذاب، قيل: عند اليأس. وقيل: عند البعث. ﴿ وأنّى ﴾، من أين، ﴿ لهم التناوش ﴾، قرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي وأبو بكر: التناوش بالمدّ والهمزة، وقرأ الآخرون بواو صافية من غير مدّ ولا همز، ومعناه التناول أي كيف لهم تناول ما بَعُدَ عنهم، وهو الإيمان والتوبة، وقد كان قريباً في الدنيا فضيّعوه، ومَن همز قيل: معناه هذا أيضاً. وقيل: التناوش بالهمزة من النبش وهو حركة في إبطاء، يقال: جاء نبشاً أي مبطئاً متأخراً، والمعنى من أين لهم الحركة فيما لا حيلة لهم فيه، وعن ابن عباس قال: يسألون الردّ إلى الدنيا فيقال وأنّى لهم الردّ إلى الدنيا، ﴿ من مكان بعيد ﴾، أي من الآخرة إلى الدنيا.

الآية ولو ترى إذ فزعوا لرأيت أمراً تعتبر به ﴿**وقالوا آمنا به**﴾ أي حين عاينوا العذاب قيل هو عند اليأس وقيل هو عند البعث ﴿**وأنى لهم التناوش**﴾ أي التناول والمعنى كيف لهم تناول ما بعد عنهم وهو الإيمان والتوبة وقد كان قريباً منهم في الدنيا فضيعوه وقال ابن عباس يسألون الرد إلى الدنيا فيقال وأنى لهم الرد إلى الدنيا ﴿**من مكان بعيد**﴾ أي من الآخرة إلى الدنيا ﴿**وقد كفروا به من قبل**﴾ أي القرآن وقيل بمحمد ﷺ من قبل أن يعاينوا العذاب وأهوال القيامة ﴿**ويقذفون بالغيب من مكان بعيد**﴾ قيل هو الظن لأن علمه غاب عنهم والمكان البعيد بعدهم عن علم ما يقولون، والمعنى يرمون محمداً ﷺ بما لا يعلمون من حيث لا يعلمون وهو قولهم إنه شاعر ساحر كاهن لا علم له بذلك وقيل يرجمون بالظن يقولون لا بعث ولا جنة ولا نار ﴿**وحيل بينهم وبين ما يشتهون**﴾ أي الإيمان والتوبة والرجوع إلى الدنيا ونعيمها وزهرتها ﴿**كما فعل بأشياعهم**﴾ أي بنظرائهم ومن كان على مثل حالهم من الكفار ﴿**من قبل**﴾ أي لم تقبل منهم التوبة في وقت اليأس ﴿**إنهم كانوا في شك**﴾ أي من البعث ونزول العذاب بهم ﴿**مريب**﴾ أي موقع الريبة والتهمة، والله أعلم بمراده وأسرار كتابه.

﴿ **وقد كفروا به من قبل** ﴾، أي بالقرآن، وقيل: بمحمد ﷺ، من قبل أن يعاينوا العذاب وأهوال القيامة، ﴿ **ويقذفون بالغيب من مكان بعيدٍ** ﴾، قال مجاهد: يرمون محمداً بالظن لا باليقين، وهو قولهم ساحر وعاشق وكاهن، ومعنى الغيب: هو الظن لأنه غاب علمه عنهم، والمكان البعيد بعدهم عن علم ما يقولون، والمعنى يرمون محمداً بما لا يعلمون من حيث لا يعلمون. وقال قتادة: يرجمون بالظن يقولون لا بعث ولا جنة ولا نار.

﴿ **وحيل بينهم وبين ما يشتهون** ﴾، أي الإيمـان والتوبة والرجوع إلى الدنيا. وقيل: نعيم الدنيا وزهرتها، ﴿ **كما فعل بأشياعهم** ﴾، يعني بنظرائهم ومَن كان على مثل حالهم من الكفّار، ﴿ **من قبل** ﴾، أي لم يقبل منهم الإيمان والتوبة في وقت اليأس، ﴿ **إنهم كانوا في شكٍّ** ﴾، من البعث ونزول العذاب بهم، ﴿ **مُريب** ﴾، موقع لهم الريبة والتّهمة.

تفسير سورة فاطر

وتسمى سورة الملائكة مكية وهي خمس وأربعون آية وتسعمائة وسبعون كلمة وثلاثة آلاف ومائة وثلاثون حرفاً

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ۚ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢)﴾

قوله عز وجل ﴿**الحمد لله فاطر السموات والأرض**﴾ أي خالقهما ومبدعهما على غير مثال سبق ﴿**جاعل الملائكة رسلاً**﴾ أي إلى الأنبياء ﴿**أولي أجنحة**﴾ أي ذوي أجنحة ﴿**مثنى وثلاث ورباع**﴾ أي بعضهم له جناحان وبعضهم له ثلاثة أجنحة وبعضهم له أربعة ﴿**يزيد في الخلق ما يشاء**﴾ أي يزيد في خلق الأجنحة ما يشاء. قال عبد الله بن مسعود في قوله ﴿لقد رأى من آيات ربه الكبرى﴾ قال رأى جبريل في صورته له ستمائة جناح، وقيل في قوله ﴿يزيد في الخلق ما يشاء﴾ هو حسن الصوت وقيل حسن الخلق وتمامه وقيل هو الملاحة في العينين وقيل هو العقل والتمييز ﴿**إن الله على كل شيء قدير**﴾ أي مما يريد أن يخلقه. قوله تعالى ﴿**ما يفتح الله للناس من رحمة**﴾ قيل المطر وقيل من خير ورزق ﴿**فلا ممسك لها**﴾ أي لا يستطيع أحد حبسها ﴿**وما يمسك فلا مرسل له من بعده**﴾ أي لا

سُورَة فَاطِر

مكيّة وهي خمس وأربعون آية.

﴿ **الحمد لله فاطرِ السمٰواتِ والأرضِ** ﴾، خالقهما ومُبدعهما على غير مثال سبق، ﴿ **جاعلِ الملائكة رُسُلاً أُولي أجنحة** ﴾، ذوي أجنحة ﴿ **مثنى وثلاث ورُباع** ﴾، قال قتادة ومقاتل: بعضهم له جناحان وبعضهم له ثلاثة أجنحة وبعضهم له أربعة أجنحة، ويزيد فيها ما يشاء وهو قوله، ﴿ **يزيد في الخلق ما يشاء** ﴾، وقال ابن مسعود في قوله عزّ وجلّ: ﴿ لقد رأى من آيات ربّه الكبرى ﴾ [النجم: ١٨]، قال رأى جبريل في صورته له ستمائة جناح، وقال ابن شهاب في قوله يزيد في الخلق ما يشاء قال: حسن الصوت. وعن قتادة قال: هو الملاحة في العينين. وقيل: هو العقل والتمييز. ﴿ **إنّ الله على كل شيء قدير** ﴾.

﴿ **ما يفتح الله للناس من رحمة** ﴾، قيل: من مطر ورزق، ﴿ **فلا ممسك لها** ﴾، لا يستطيع أحد حبسها، ﴿ **وما يمسك فلا مرسل له من بعده وهو العزيز** ﴾، فيما أمسك ﴿ **الحكيم** ﴾، فيما أرسل من مطر ورزق، أخبرنا الإمام أبو الحسن عبد الرحمن بن محمد الداودي أنا أبو الحسن أحمد بن محمد بن موسى بن الصلت أنا أبو

يقدر أحد على فتح ما أمسك ﴿وهو العزيز﴾ يعني فيما أمسك ﴿الحكيم﴾ أي فيما أرسل (م) عن المغيرة بن شعبة أن رسول الله ﷺ كان يقول في دبر كل صلاة «لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على شيء قدير، اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت ولا ينفع ذا الجد منك الجد» والجد الغنى والبخت أي لا ينفع المبخوت والغني حظه وغناه لأنهما منك إنما ينفعه الإخلاص والعمل بطاعتك. قوله عز وجل:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾ وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴿٩﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ۚ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُو۟لَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾﴾

﴿**يا أيها الناس اذكروا نعمة الله عليكم**﴾ قيل الخطاب لأهل مكة ونعمة الله عليهم إسكانهم الحرم ومنع الغارات عنهم ﴿**هل من خالق غير الله**﴾ أي لا خالق إلا الله وهو استفهام تقرير وتوبيخ ﴿**يرزقكم من السماء**﴾ أي المطر ﴿**والأرض**﴾ أي النبات ﴿**لا إله إلا هو فأنى تؤفكون**﴾ أي من أين يقع لكم الإفك والتكذيب بتوحيد الله وإنكار البعث وأنتم مقرون بأن الله خالقكم ورازقكم ﴿**وإن يكذبوك فقد كذبت رسل من قبلك**﴾ يعزي نبيه ﷺ ﴿**وإلى الله ترجع الأمور**﴾ أي فيجزي المكذب من الكفار بتكذيبه. قوله تعالى ﴿**يا أيها الناس إن وعد الله حق**﴾ أي وعد القيامة ﴿**فلا**

إسحاق إبراهيم بن عبد الصمد الهاشمي أنا عبيد الله بن أسباط أنا أبي أنا عبد الملك بن عمير عن وارد عن المغيرة بن شعبة أن رسول الله ﷺ كان يقول في دُبر كل صلاة مكتوبة: «لا إلَه إلاّ الله وحده لا شريك له، له المُلْك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، اللّهمَّ لا مانع لما أعطيت ولا مُعطي لما منعت ولا ينفع ذا الجدّ منك الجد».

﴿ **يا أيها الناس اذكروا نعمة الله عليكم هلْ من خالق غير الله** ﴾، قرأ حمزة والكسائي ﴿ **غير** ﴾ بجر الراء، وقرأ الآخرون برفعها على معنى هل خالق غير الله، لأن ﴿ **من** ﴾ زيادة، وهذا استفهام على طريق التقرير كأنه قال لا خالق غير الله، ﴿ **يرزقكم من السماء والأرض** ﴾، أي من السماء المطر ومن الأرض النبات، ﴿ **لا إلَه إلاّ هو فأنّى تُؤفكـون** ﴾.

﴿ **وإن يكذبوك فقد كُذّبتْ رسلٌ من قبلك** ﴾، يُعزّي نبيّه ﷺ، ﴿ **وإلى الله تُرجع الأمور** ﴾.

﴿ **يا أيها الناس إنّ وعد الله حق** ﴾، يعني وعد القيامة، ﴿ **فلا تغرّنّكم الحياة الدنيا ولا يغرّنّكم بالله الغرور** ﴾، وهو الشيطان.

﴿ **إن الشيطان لكم عدوٌّ فاتخذوه عدوّاً** ﴾، أي عادوه بطاعة الله ولا تطيعوه، ﴿ **إنما يدعوا حزبه** ﴾، أي

تغرنكم الحياة الدنيا﴾ أي لاتخد عنكم بلذاتها وما فيها عن عمل الآخرة وطلب ما عند الله **﴿ولا يغرنكم بالله الغرور﴾** أي لا يقل لكم اعملوا ما شئتم فان الله يغفر كل ذنب وخطيئة ثم بين الغرور من هو فقال تعالى **﴿إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً﴾** أي عادوه بطاعة الله ولا تطيعوه فيما يأمركم به من الكفر والمعاصي **﴿إنما يدعوا حزبه﴾** أي أشياعه وأولياءه **﴿ليكونوا من أصحاب السعير﴾** ثم بين حال موافقيه ومخالفته فقال تعالى **﴿الذين كفروا لهم عذاب شديد والذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة وأجر كبير﴾**.

قوله عز وجل **﴿أفمن زين له سوء عمله﴾** قال ابن عباس نزلت في أبي جهل ومشركي مكة وقيل نزلت في أصحاب الأهواء والبدع ومنهم الخوارج الذين يستحلون دماء المسلمين وأموالهم وليس أصحاب الكبائر من الذنوب منهم لأنهم لا يستحلونها ويعتقدون تحريمها مع ارتكابهم إياها ومعنى زين له شبه له وموه عليه قبيح عمله **﴿فرآه حسناً﴾** وفي الآية حذف مجازه أفمن زين له سوء عمله فرأي الباطل حقاً كمن هداه الله فرأى الحق حقاً والباطل باطلاً **﴿فان الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء﴾** وقيل مجاز الآية أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً **﴿فلا تذهب نفسك**

أشياعه وأولياءه ﴿ **ليكونوا من أصحاب السعير** ﴾، أي ليكونوا في السعير، ثم بيّن حال موافقيه ومُخالفيه فقال:

﴿ **الذين كفروا لهم عذابٌ شديد والذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرةٌ وأجْرٌ كبير** ﴾.

قوله تعالى: ﴿ **أفمن زُيّن له سوء عمله** ﴾، قال ابن عباس: نزلت في أبي جهل ومشركي مكة، وقال سعيد بن جبير: نزلت في أصحاب الأهواء والبِدَع. وقال قتادة: منهم الخوارج الذين يستحلّون دماء المسلمين وأموالهم فأما أهل الكبائر فليسوا منهم لأنهم لا يستحلّون الكبائر، ﴿ **أفمن زُيِّن** ﴾ شبِّه وموِّه عليه وحُسِّنَ ﴿ **له سوء عمله** ﴾ أي قبيح عمله، ﴿ **فرآه حسناً** ﴾، زيّن له الشيطان ذلك بالوسواس، وفي الآية حذف مجازه: أفمن زُيِّن له سوءاً عمله فرأى الباطل حقّاً كمَن هداه الله فرأى الحق حقاً والباطل باطلاً، ﴿ **فإن الله يُضلّ مَن يشاء ويهدي مَن يشاء** ﴾، وقيل: جوابه تحت قوله: ﴿ **فلا تَذْهَبْ نفسُك عليهم حسرات** ﴾، فيكون معناه أفمن زُيِّن له سوء عمله فأضلّه الله ذهبت نفسك عليه حسرة، أي تتحسّر عليه فلا تذهب نفسك عليهم حسرات. وقال الحسن بن الفضل: فيه تقديم وتأخير مجازه: أفمَن زُيِّن له سوء عمله فرآه حسناً فلا تذهب نفسك عليهم حسرات، فإن الله يُضلّ مَن يشاء ويهدي مَن يشاء، والحسرة شدّة الحزن على ما فات من الأمر، ومعنى الآية: لا تهتمّ بكفرهم وهلاكهم إن لم يؤمنوا، وقرأ أبو جعفر فلا تذهب بضم التاء وكسر الهاء نفسك نصب، ﴿ **إن الله عليم بما يصنعون** ﴾.

﴿ **والله الذي أرسل الرياح فتثير سحاباً فسقناه إلى بلد ميت فأحيينا به الأرض بعد موتها كـذلك النشور** ﴾، من القبور.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ **مَن كان يريد العزّة فللّه العزّة جميعاً** ﴾، قال الفرّاء معنى الآية مَن كان يريد أن يعلم لمَن العزّة **فللّه العزّة جميعاً**، وقال قتادة مَن كان يريد **العزّة** فليتعزّز بطاعة الله معناه الدعاء إلى طاعة مَن له العزّة، أي فليطلب العزّة من عند الله بطاعته، كما يقال: مَن كان يريد المال لفلان، أي فليطلبه من عنده وذلك أن الكفّار عبدوا الأصنام وطلبوا بها التعزّز كما قال الله: ﴿ واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزّاً كلّا ﴾ [مريم: ٨١]، وقال: ﴿ الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيبتغـون عندهم العـزّة فإن العـزّة لله جميعاً ﴾ [النساء: ١٣٩]، ﴿ **إليه** ﴾، أي إلى الله، ﴿ **يصعد الكَلِم الطيب** ﴾، وهو قوله لا إلّه إلّا الله، وقيل: هو قول الرجل: سبحان الله والحمد لله ولا إلّه إلّا الله والله أكبر. أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أبو منصور السمعاني أنا أبو

عليهم حسرات﴾ فان الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء والحسرة شدة الحزن على ما فات والمعنى لا تغتم بكفرهم وهلاكهم إن لم يؤمنوا **﴿إن الله عليم بما يصنعون﴾** فيه وعيد بالعقاب على سوء صنيعهم **﴿والله الذي أرسل الرياح فتثير سحاباً﴾** أي تزعجه من مكانه وقيل تجمعه وتجيء به **﴿فسقناه﴾** أي فنسوقه **﴿إلى بلد ميت فأحيينا به الأرض بعد موتها كذلك النشور﴾** أي مثل إحياء الموات نشور الأموات روى ابن الجوزي في تفسيره عن أبي رزين العقيلي قال: قلت يا رسول الله كيف يحيي الله الموتى وما آية ذلك في خلقه فقال «هل مررت بواد أهلك محلا ثم مررت به يهتز خضراً قلت نعم قال كذلك يحيي الله الموتى وتلك آيته في خلقه» قوله تعالى **﴿من كان يريد العزة فلله العزة جميعاً﴾** قيل معناه من كان يريد أن يعلم لمن العزة فلله العزة جميعاً وقيل معناه من كان يريد العزة فليتعزز بطاعة الله وهو دعاء إلى طاعة من له العزة أي فليطلب العزة من عند الله بطاعته، وذلك أن الكفار عبدوا الأصنام وطلبوا بها التعزز، فبين الله أن لا عزة إلا لله ولرسوله ولأوليائه المؤمنين **﴿إليه﴾** يعني إلى الله **﴿يصعد الكلم الطيب﴾** قيل هو قول لا إله إلا الله وقيل هو سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر روى البغوي باسناده عن ابن مسعود قال «إذا حدثتكم حديثاً أنبأتكم بمصداقه من كتاب الله عز وجل ما من عبد مسلم يقول خمس كلمات سبحانه الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر وتبارك الله، إلا أخذهن ملك تحت جناحه ثم يصعد بهن فلا يمر بهن على جمع من الملائكة إلا استغفروا لقائلهن حتى يجيء بها وجه رب العالمين، ومصداقه من كتاب الله قوله: إليه يصعد الكلم الطيب» هذا حديث موقوف على ابن مسعود وفي إسناده الحجاج بن نصير ضعيف، وقيل الكلم الطيب ذكر الله تعالى وقيل معنى إليه **يصعد** أي يقبل الله الكلم الطيب **﴿والعمل الصالح يرفعه﴾** قال ابن عباس أي يرفع العمل الصالح الكلم الطيب، وقيل الكلم الطيب ذكر الله والعمل الصالح أداء الفرائض فمن ذكر الله، ولم يؤد فرائضه رد كلامه على عمله وليس الإيمان بالتمني وليس بالتحلي ولكن ما وقرفي القلوب وصدقته الأعمال فمن قال حسناً وعمل غير صالح رد الله عليه قوله ومن قال حسناً وعمل صالحاً يرفعه العمل ذلك بأن الله يقول إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه وجاء في الحديث «لا يقبل

جعفر الرياني أنا حميد بن زنجويه أنا الحجّاج بن نصر أنا المسعودي عن عبد الله بن المحارق عن أبيه عن ابن مسعود قال: إذا حدّثتكم حديثاً أنبأتكم بمصداقه من كتاب الله عزّ وجلّ: ما من عبد مسلم يقول خمس كلمات سبحان الله والحمد لله ولا إلّه إلّا الله والله أكبر وتبارك الله إلّا أخذهنّ ملك فجعلهنّ تحت جناحه ثم صعد بهنّ فلا يمرّ بهنّعلى جمع من الملائكةإلّا استغفروا لقائلهنّ حتى يجيء بها وجه ربّ العالمين، ومصداق ذلك من كتاب الله عزّ وجلّ قوله: ﴿ **إليه يصعد الكَلِم الطيب** ﴾، ذكره ابن مسعود. وقيل: الكَلِم الطيب ذكر الله. وعن قتادة: إليه يصعد الكَلِـم الطيب أي يقبل الله الكَلِم الطيب. قوله: ﴿ **والعمل الصالح يرفعه** ﴾، أي يرفع العمل الصالح الكَلِم الطيب، فالهاء في قوله يرفعه راجعة إلى الكَلِم الطيب. وهو قول ابن عباس وسعيد بن جبير والحسن وعكرمة وأكثر المفسّرين. وقال الحسن وقتادة: الكَلِم الطيب ذكر الله والعمل الصالح أداء فرائضه، فمَن ذكر الله ولم يؤدِّ فرائضه رُدّ كلامُه على عمله، وليس الإيمان بالتمنّي ولا بالتحلّي ولكن ما وقر في القلوب وصدقته الأعمال، فمَن قال حسناً وعمل غير صالح رَدّ الله عليه قوله، ومَن قال حسناً وعمل صالحاً يرفعه العمل ذلك بأن الله يقول: ﴿ **إليه يصعد الكَلِم الطيب والعمل الصالح يرفعه** ﴾، وجاء في الحديث: «لا يقبل الله قولاً إلّا بعمل ولا قولاً ولا عملاً إلّا بنيّة» وقال قوم: الهاء في قوله يرفعه راجعة إلى العمل الصالح أي الكَلِم الطيب يرفع العمل الصالح فلا يقبل عمل إلّا أن يكون صادراً عن التوحيد، وهذا معنى قول الكلبي ومقاتل، وقيل: الرفع من صفة الله عزّ وجلّ معناه: **العمل الصالح** يرفعه الله عزّ وجلّ. وقال سفيان بن عُيينة العمل الصالح الخالص يعني أن الإخلاص سبب قبول الخيرات من الأقوال والأفعال، دليله قوله عزّ وجلّ: ﴿ فليعمل عملاً صالحاً ولا يشركْ بعبادة ربّه أحداً ﴾ [الكهف: ١١٠]،

الله قولاً إلا بعمل ولا قولاً ولا عملاً إلا بنية» وقيل الهاء في يرفعه راجعة إلى العمل الصالح أي الكلم الطيب يرفع العمل الصالح فلا يقبل عملا إلا أن يكون صادراً عن توحيد وقيل معناه العمل الصالح يرفعه الله وقيل العمل الصالح هو الخالص، وذلك أن الإخلاص سبب قبول الخيرات من الأقوال والأفعال ﴿**والذين يمكرون السيئات**﴾ أي يعملون السيئات أي الشرك وقيل يعني الذين مكروا برسول الله ﷺ في دار الندوة وقيل هم أصحاب الرياء ﴿**لهم عذاب شديد ومكر أولئك هو يبور**﴾ أي يبطل ويهلك في الآخرة. قوله عز وجل:

﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا ۚ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ (١١) وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ۖ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢) يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۚ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ (١٣) إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ (١٤) ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ (١٥) إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (١٦) وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ (١٧) وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَىْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ ۗ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ (١٨) وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ (١٩)﴾

﴿**والله خلقكم من تراب**﴾ يعني آدم ﴿**ثم من نطفة**﴾ يعني ذريته ﴿**ثم جعلكم أزواجاً**﴾ يعني أصنافا ذكراناً واناثاً وقيل زوج بعضكم بعضاً ﴿**وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه وما يعمر من معمر**﴾ يعني لا يطول عمر أحد ﴿**ولا ينقص من عمره**﴾ يعني عمر آخر، وقيل ينصرف إلى الأول قال سعيد بن جبير، مكتوب في أم الكتاب عمر فلان كذا وكذا سنة، ثم يكتب أسفل من ذلك ذهب يوم ذهب يومان، ذهب ثلاثة أيام حتى ينقطع عمره، وقيل معناه لا يطول

فجعل نقيض الصالح الشرك والرياء، ﴿ **والذين يمكرون السيئات** ﴾، قال الكلبي: أي الذين يعملون السيئات. وقال مقاتل: يعني الشرك. وقال أبو العالية: يعني الذين مكروا برسول الله ﷺ في دار الندوة، كما قال الله تعالى: ﴿ وإذْ يمكر بك الذين كفروا ليُثبتوك ﴾ [الأنفال: ٣٠]، وقال مجاهد وشهر بن حوشب: هم أصحاب الرياء. ﴿ **لهم عذاب شديد ومكر أولئك هو يبور** ﴾، يبطل ويهلك في الآخرة.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ **والله خلقكم من تراب** ﴾، أي آدم، ﴿ **ثم من نطفة** ﴾، يعني نسله، ﴿ **ثم جعلكم أزواجاً** ﴾، ذكراناً وإناثاً، ﴿ **وما تحمل من أُنثى ولا تضع إلاّ بعلمه وما يعمّر من معمّر** ﴾، لا يطول عمره، ﴿ **ولا ينقص من عمره** ﴾، يعني من عمر آخر، كما يقال لفلان عندي درهم ونصفه أي نصف درهم آخر، ﴿ **إلاّ في كتاب** ﴾، وقيل قوله ولا ينقص من عمره منصرف إلى الأول، قال سعيد بن جبير: مكتوب في أُم الكتاب عمر فلان كذا وكذا سنة ثم يُكتَب أسفل من ذلك ذهب يوم ذهب يومان ذهب ثلاثة أيام حتى ينقطع عمره. وقال كعب الأحبار حين حضر عمر رضي الله عنه الوفاة: والله لو دعا عمر ربّه أن يؤخّر أجَلَه لأخر، فقيل له إن الله عزّ وجلّ يقول:

عمر إنسان ولا يقصر إلا في كتاب قال كعب الأحبار حين حضرت عمر الوفاة والله لو دعا عمر ربه أن يؤخر أجله لأخر، فقيل له إن الله تعالى يقول ﴿فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون﴾ قال: هذا إذا حضر الأجل فأما قبل ذلك فيجوز أن يزاد ذلك وقرأ هذه الآية ﴿**إلا في كتاب**﴾ يعني اللوح المحفوظ ﴿**إن ذلك على الله يسير**﴾ أي كتابة الآجال والأعمال على الله هين. قوله تعالى ﴿**وما يستوي البحران**﴾ يعني العذب والمالح ثم وصفهما فقال ﴿**هذا عذب فرات**﴾ أي طيب يكسر العطش ﴿**سائغ شرابه**﴾ أي سهل في الحلق هنيء مريء ﴿**وهذا ملح أجاج**﴾ أي شديد الملوحة يحرق الحلق بملوحته وقيل هو المر ﴿**ومن كل**﴾ يعني من البحرين ﴿**تأكلون لحماً طرياً**﴾ يعني السمك ﴿**وتستخرجون**﴾ يعني من الملح دون العذب ﴿**حلية تلبسونها**﴾ يعني اللؤلؤ والمرجان وقيل نسب اللؤلؤ إليهما لأنه يكون في البحر المالح عيون عذبة فتمتزج بالملح فيكون اللؤلؤ منهما ﴿**وترى الفلك فيه مواخر**﴾ يعني جواري مقبلة ومدبرة بريح واحدة ﴿**لتبتغوا من فضله**﴾ يعني بالتجارة ﴿**ولعلكم تشكرون**﴾ يعني تشكرون الله على نعمه ﴿**يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى ذلكم الله ربكم له الملك والذين تدعون من دونه**﴾ يعني الأصنام ﴿**ما يملكون من قطمير**﴾ هو لفافة النواة وهي القشرة الرقيقة التي تكون على النواة ﴿**إن تدعوهم**﴾ يعني الأصنام ﴿**لا يسمعوا دعاءكم**﴾ يعني أنهم جماد ﴿**ولو سمعوا**﴾ أي على سبيل الفرض والتمثيل ﴿**ما استجابوا لكم**﴾ أي ما أجابوكم وقيل ما نفعوكم ﴿**ويوم القيامة يكفرون بشرككم**﴾ أي يتبرؤون منكم ومن عبادتكم إياها ﴿**ولا ينبئك مثل خبير**﴾ يعني نفسه أي لا ينبئك أحد مثلي لأني عالم بالأشياء قوله تعالى ﴿**يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله**﴾ يعني إلى فضله وإحسانه والفقير المحتاج إلى من سواه والخلق كلهم محتاجون إلى الله فهم الفقراء ﴿**والله هو الغني**﴾ عن خلقه لا يحتاج إليهم ﴿**الحميد**﴾ يعني المحمود في إحسانه إليهم المستحق بإنعامه عليهم أن

﴿ فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ﴾ [النحل: ٦١] فقال: هذا إذا أحضر الأجل فأما قبل ذلك فيجوز أن يُزاد وينقص، وقرأ هذه الآية ﴿ **إنّ ذلك على الله يسير** ﴾، أي كتابة الأجل والأعمار على الله هيّن.

قوله تعالى: ﴿ **وما يستوي البحران** ﴾، يعني العذب والمالح ثم ذكرهما فقال: ﴿ **هذا عـذْبٌ فرات** ﴾، طيب، ﴿ **سائغٌ شرابه** ﴾، أي جائز في الحلق هنيء، ﴿ **وهذا ملح أجاج** ﴾، شديد الملوحة. وقال الضحاك: هو المرّ. ﴿ **ومن كلٍّ تأكلون لحماً طرياً** ﴾، يعني الحيتان من العذب والمالح جميعاً، ﴿ **وتستخرجون حلية** ﴾، أي من المالح دون العذب ﴿ **تلبسونها** ﴾، يعْني اللؤلؤ. وقيل: نسب اللؤلؤ إليهما، عيون عذبة تمتزج بالملح فيكون اللؤلؤ من ذلك، ﴿ **وترى الفلك فيه مواخر** ﴾، جواري مقبلة ومدبِرة بريح واحدة، ﴿ **لتبتغُوا من فضله** ﴾، بالتجارة، ﴿ **ولعلّكم تشكرون** ﴾، الله على نِعَمه.

﴿ **يُولج الليلَ في النهار ويُولج النهار في الليل وسخّر الشمس والقمر كلٌّ يجري لأجلٍ مسمّى ذلكم الله ربكم له المُلْك والذين تدعون من دونه** ﴾، يعني الأصنام، ﴿ **ما يملكون من قطمير** ﴾، وهو لفافة النواة، وهي القشرة الرقيقة التي تكون على النواة.

﴿ **إن تدعوهم** ﴾، يعني إن تدعوا الأصنام، ﴿ **لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا مااستجابوا لكم** ﴾، ما أجابوكم، ﴿ **ويوم القيامة يكفرون بشرككم** ﴾، يتبرؤون منكم ومن عبادتكم إياها، يقولون: ما كنتم إيّانا تعبدون. ﴿ **ولا يُنبئك مثل خبير** ﴾، يعني نفسه أي لا ينبئك أحد مثلي خبير عالم بالأشياء.

﴿ **يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله** ﴾، إلى فضل الله والفقير المحتاج، ﴿ **والله هو الغني الحميد** ﴾، الغني عن خلقه المحمود في إحسانه إليهم.

يحمدوه ﴿إن يشأ يذهبكم﴾ لاتخاذكم أنداداً وكفركم بآياته ﴿ويأت بخلق جديد﴾ يعني يخلق بعدكم من يعبده ولا يشرك به شيئاً ﴿وما ذلك على الله بعزيز﴾ أي يمتنع ﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾ يعني أن كل نفس يوم القيامة لا تحمل إلا وزرها الذي اقترفته لا تؤاخذ بذنب غيرها فان قلت كيف الجمع بين هذه الآية وبين قوله وليحملن أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم. قلت هذه الآية في الضالين وتلك في المضلين أنهم يحملون أثقال من أضلوه من الناس مع أثقال أنفسهم وذلك كله من كسبهم ﴿وإن تدع مثقلة إلى حملها﴾ معناه وإن تدع نفس مثقلة بذنوبها إلى حمل ذنوب غيرها ﴿لا يحمل منه شيء ولو كان ذا قربى﴾ يعني ولو كان المدعو ذا قرابة كالأب والأم والابن والأخ قال ابن عباس يعلق الأب والأم بالابن فيقول يا بني احمل عني بعض ذنوبي فيقول لا أستطيع حسبي ما علي ﴿إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب﴾ يعني يخافون ربهم ﴿بالغيب﴾ يعني لم يروه والمعنى وإنما ينفع إنذارك الذين يخشون ربهم بالغيب ﴿وأقاموا الصلاة ومن تزكى﴾ يعني أصلح وعمل خيراً ﴿فانما يتزكى لنفسه﴾ يعني لها ثوابه ﴿وإلى الله المصير وما يستوي الأعمى والبصير﴾ يعني الجاهل والعالم وقيل الأعمى عن الهدى وهو الشرك والبصير بالهدى وهو المؤمن.

وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن
يَشَآءُ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا
فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ
ٱلْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ
مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ
وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ
يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾
لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾ وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ
هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا

﴿ إن يشأ يُذهبكم ويأتِ بخلق جديد * وما ذلك على الله بعزيز ﴾، شديد.

﴿ولا تزر وازرةٌ وِزْرَ أُخرى وإنْ تَـدْعُ مُثْقلةٌ﴾، أي نفس مثقلة بذنـوبها غيـرها، ﴿إلى حملهـا﴾، أي حمل مـا عليها من الذنوب، ﴿ لا يُحمَلْ منه شيءٌ ولو كان ذا قربى ﴾، أي ولو كان المدعو ذا قرابة له ابنه أو أباه أو أُمه أو أخاه، قال ابن عباس: يلقى الأب والأُم ابنه فيقول: يابني احمل عنّي بعض ذنوبي، فيقول: لا أستطيع حسبي ما عليّ. ﴿ إنما تنذر الذين يخشون ﴾، يخافون، ﴿ ربهم بالغيب ﴾، ولم يروه. وقال الأخفش: تأويله أي إنذارك إنما ينفع الذين يخشون ربهم بالغيب، ﴿ وأقاموا الصلاة ومَن تزكّى ﴾، أصلح وعمل خيراً، ﴿ فإنما يتزكّى لنفسه ﴾، لها ثوابه، ﴿ وإلى الله المصير ﴾.

﴿ وما يستوي الأعمى والبصير ﴾، يعني الجاهل والعالِم. وقيل: الأعمى عن الهدى والبصير بالهدى، أي المؤمن والمشرك.

فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾

﴿**ولا الظلمات ولا النور**﴾ يعني الكفر والإيمان ﴿**ولا الظل ولا الحرور**﴾ يعني الجنة والنار وقال ابن عباس: الحرور الريح الحارة بالليل والسموم بالنهار ﴿**وما يستوي الأحياء ولا الأموات**﴾ يعني المؤمنين والكفار وقيل العلماء والجهال ﴿**إن الله يسمع من يشاء**﴾ يعني حتى يتعظ ويجيب ﴿**وما أنت بمسمع من في القبور**﴾ يعني الكفار شبههم بالأموات في القبور لأنهم لا يجيبون إذا دعوا ﴿**إن أنت إلا نذير**﴾ أي ما أنت إلا منذر تخوفهم بالنار ﴿**إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً**﴾ يعني بشيراً بالثواب لمن آمن ونذيراً بالعقاب لمن كفر ﴿**وإن من أمة**﴾ أي من جماعة كثيرة فيما مضى ﴿**إلا خلا**﴾ أي سلف ﴿**فيها نذير**﴾ أي نبي منذر. فان قلت كم من أمة في الفترة بين عيسى ومحمد ﷺ لم يخل فيها نذير. قلت: إذا كانت آثار النذارة باقية لم تخل من نذير إلا أن تندرس، وحين اندرست آثار رسالة عيسى عليه السلام بعث الله محمد ﷺ وآثار نذارته باقية إلى يوم للقيامة لأنه لا نبي بعده ﴿**وإن يكذبوك فقد كذب الذين من قبلهم جاءتهم رسلهم بالبينات**﴾ أي بالمعجزات الدالة على نبوتهم ﴿**وبالزبر**﴾ أي الصحف ﴿**وبالكتاب المنير**﴾ أي الواضح قيل أراد بالكتاب التوراة والإنجيل والزبور وقيل ذكر الكتاب بعد الزبر تأكيدا ﴿**ثم أخذت الذين كفروا فكيف كان نكير ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء**﴾ يعني المطر ﴿**فأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها**﴾ يعني أجناسها من الرمان والتفاح والتين والعنب والرطب ونحوها وقيل يعني ألوانها في الحمرة والصفرة والخضرة وغير ذلك مما لا يحصر ولا يعد ﴿**ومن الجبال جدد بيض وحمر**﴾ يعني الخطط والطرق في الجبال ﴿**مختلف ألوانها**﴾ يعني منها ما هو أبيض ومنها ما

﴿ **ولا الظلمات ولا النور** ﴾، يعني الكفر والإيمان.

﴿ **ولا الظِّلُّ ولا الحَرُور** ﴾، يعني الجنة والنار، قال ابن عباس: الحرور الريح الحارّة بالليل والسموم بالنهار. وقيل: الحرور يكون بالنهار مع الشمس.

﴿ **وما يستوي الأحياء ولا الأموات** ﴾، يعني المؤمنين والكفّار. وقيل: العلماء والجهّال. ﴿ **إن الله يُسمع مَن يشاء** ﴾، حتى يتّعظ ويجيب، ﴿ **وما أنت بمسمِعٍ مَنْ في القبور** ﴾، يعني الكفّار شبّههم بالأموات في القبور حين لم يجيبوا.

﴿ **إنْ أنت إلّا نذيرٌ** ﴾، ما أنت إلّا منذرٌ تخوّفهم بالنار.

﴿ **إنّا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً وإن من أمة** ﴾، ما من أمة فيما مضى ﴿ **إلّا خلا** ﴾، سلف، ﴿ **فيها نذير** ﴾، نبي منذر.

﴿ **وإن يكذبوك فقد كذّب الذين من قبلهم جاءتهم رسلهم بالبيّنات وبالزُّبر** ﴾، بالكتب، ﴿ **وبالكتاب المنير** ﴾، الواضح كرّر ذلك الكتاب بعد ذكر الزبر على طريق التأكيد.

﴿ **ثم أخذتُ الذين كفروا فكيف كان نكير** ﴾، أي إنكاري.

﴿ **ألم ترَ أنّ الله أنزل من السماء ماءً فأخرجنا به ثمراتٍ مختلفاً ألوانُها ومن الجبال جُدَدٌ** ﴾، طرق وخطط واحدتها جدّة مثل مدّة ومدد، ﴿ **بيضٌ وحُمْرٌ مختلفٌ ألوانها وغرابيبُ سود** ﴾، يعني سود غرابيب على التقديم والتأخير، يقال أسود غربيب أي شديد السواد تشبيهاً بلون الغراب، أي طرائق سود.

﴿ **ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه** ﴾، ذكر الكناية لأجل ﴿ **من** ﴾، وقيل: ردّ الكناية إلى ما في

هو أحمر ومنها ما هو أصفر ﴿وغرابيب سود﴾ يعني شديدة السواد كما يقال أسود غربيب تشبيهاً بلون الغراب ﴿ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه﴾ يعني خلق مختلف ألوانه ﴿كذلك﴾ يعني كاختلاف الثمرات والجبال وتم الكلام ها هنا، ثم ابتدأ فقال تعالى ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾ قال ابن عباس يريد إنما يخافني من خلقي من علم جبروتي وعزتي وسلطاني وقيل: عظموه وقدروا قدره وخشوه حق خشيته ومن ازداد به علماً ازداد به خشية (ق) عن عائشة قالت صنع رسول الله ﷺ شيئاً فرخص فيه فتنزه عنه قوم فبلغ ذلك النبي ﷺ فخطب فحمد الله ثم قال «ما بال أقوام يتنزهون عن الشيء أصنعه فوالله إني لأعلمهم بالله وأشدهم له خشية» قولها فرخص فيه أي لم يشدد فيه قولها فتنزه عن أقوام أي تباعد عنه وكرهه قوم (ق) عن أنس قال خطب رسول الله ﷺ خطبة ما سمعت مثلها قط فقال «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً» فغطى أصحاب رسول الله ﷺ، وجوههم لهم خنين الخنين بالخاء المعجمة، هو البكاء مع غنة وانتشاق الصوت من الأنف وقال مسروق كفى بخشية الله علماً وكفى بالاغترار بالله جهلاً وقال رجل للشعبي أفتني أيها العالم فقال الشعبي إنما العالم من خشي الله عز وجل وقال مقاتل أشد الناس خشية لله أعلمهم به، وقال الربيع بن أنس: من لم يخش الله فليس بعالم ﴿إن الله عزيز﴾ أي من ملكه ﴿غفور﴾ يعني لذنوب عباده وهو تعليل لوجوب الخشية لأنه المثيب المعاقب وإذا كان كذلك فهو أحق أن يخشى ويتقى. قوله عز وجل ﴿إن الذين يتلون كتاب الله﴾ أي يداومون على قراءته ويعلمون ما فيه ويعملون به ﴿وأقاموا الصلاة﴾ أي ويقيمون الصلاة في أوقاتها ﴿وأنفقوا مما رزقناهم﴾ يعني في سبيل الله ﴿سراً وعلانية يرجون تجارة لن تبور﴾ يعني لن تفسد ولن تهلك والمراد من التجارة ما وعد الله من الثواب ﴿ليوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله﴾ قال ابن عباس سوى الثواب يعني مما لم تر عين ولم تسمع أذن ﴿إنه غفور شكور﴾ قال ابن عباس: يغفر العظيم من ذنوبهم ويشكر اليسير من أعمالهم ﴿والذي أوحينا إليك من الكتاب﴾ يعني القرآن ﴿هو الحق مصدقاً لما بين يديه﴾ يعني من الكتب ﴿إن الله بعباده لخبير بصير﴾.

الإضمار، مجازه: ومن الناس والدواب والأنعام ما هو مختلف ألوانه، ﴿ كذلك ﴾، يعني كما اختلف ألوان الثمار والجبال، وتمّ الكلام ههنا ثم ابتدأ فقال: ﴿ إنما يخشى اللَّهَ من عباده العلماءُ ﴾، قال ابن عباس: يريد إنما يخافني من خلقي مَن علم جبروتي وعزّتي وسلطاني أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا عمر بن حفص أنا أبي الأعمش أنا مسلم عن مسروق عن عائشة رضي الله عنها: صنع رسول الله ﷺ شيئاً فرخّص فيه، فتنزّه عنه قوم، فبلغ ذلك النبي ﷺ فخطب فحمد الله ثم قال: «ما بال أقوام يتنزّهون عن الشيء أصنعه فوالله إني لأعلمهم بالله وأشدّهم له خشية»، وقال النبي ﷺ: «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً». وقال مسروق: كفى بخشية الله علماً وكفى بالاغترار بالله جهلاً. وقال رجلاً للشعبي: افتِني أيها العالم، فقال الشعبي: إنما العالم مَن خشي الله عزّ وجلّ: ﴿ إن الله عزيز غفور ﴾، أي عزيز في مُلكه غفور لذنوب عباده.

قوله تعالى: ﴿ إن الذين يتلون كتاب الله ﴾، يعني قرأوا القرآن، ﴿ وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سرّاً وعلانيةً يرجون تجارةً لن تبور ﴾، لن تفسد ولن تهلك، والمراد من التجارة ما وعد الله من الثواب، قال الفرّاء: قوله يرجون جواب لقوله: ﴿ إن الذين يتلون كتاب الله ﴾.

﴿ لِيُوَفِّيهم أُجورهم ﴾، جزاء أعمالهم بالثواب، ﴿ ويزيدهم من فضله ﴾، قال ابن عباس: يعني سوى الثواب مما لم ترَ عين ولم تسمع أُذن، ﴿ إنه غفور شكور ﴾، قال ابن عباس: يغفر العظيم من ذنوبهم ويشكر اليسير من أعمالهم.

قوله تعالى ﴿ثم أورثنا الكتاب﴾ يعني أوحينا إليك الكتاب وهو القرآن ثم أورثناه يعني حكمنا بتوريثه وقيل أورثناه بمعنى نورثه ﴿الذين اصطفينا من عبادنا﴾ قال ابن عباس يريد أمة محمد ﷺ، لأن الله اصطفاهم على سائر الأمم واختصهم بكرامته بأن جعلهم أتباع سيد الرسل وخصهم بحمل أفضل الكتب ثم قسمهم ورتبهم فقال تعالى ﴿فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات﴾ روي عن أسامة بن زيد قال قال رسول الله ﷺ «كلهم من هذه الأمة» ذكره البغوي بغير سند وعن أبي سعيد الخدري أن النبي ﷺ قال في هذه الآية» ﴿ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا، فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد، ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله﴾ قال هؤلاء كلهم بمنزلة واحدة وكلهم في الجنة» أخرجه الترمذي. وقال حديث حسن غريب. وعن عمر بن الخطاب أنه قرأ هذه الآية على المنبر ثم ﴿أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا﴾ فقال قال رسول الله ﷺ: «سابقنا سابق ومقتصدنا ناج وظالمنا مغفور له» قال أبو قلابة أحد رواته فحدثت به يحيى بن معين فجعل يتعجب منه أخرجه البغوي بسنده وروى بسنده عن ثابت «أن رجلاً دخل المسجد فقال اللهم ارحم غربتي وآنس وحشتي وسق إلي جليساً صالحاً فقال أبو الدرداء لئن كنت صادقاً لأنا أسعد بك منك سمعت رسول الله ﷺ قرأ هذه الآية ﴿ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات﴾ قال أما السابق بالخيرات فيدخل الجنة بغير حساب وأما المقتصد

﴿ والذي أوحينا إليك من الكتاب ﴾، يعني القرآن، ﴿ وهــو الحق مصدقاً لما بين يديه ﴾، من الكتب، ﴿ إن الله بعباده لخبير بصير ﴾.

﴿ ثم أورثنا الكتاب ﴾، يعني الكتاب الذي أنزلنا إليك الذي ذكر في الآية الأولى وهو القرآن جعلناه ينتهي إلى، ﴿ الذين اصطفينا من عبادنا ﴾، ويجوز أن يكون ﴿ ثم ﴾ بمعنى الواو، أي وأورثنا، كقوله: ﴿ ثم كان من الذين آمنوا ﴾ [البلد: ١٧]، أي وكان من الذين آمنوا، ومعنى أورثنا أعطينا لأن الميراث عطاء، قاله مجاهد وقيل: أورثنا أي أخّرنا، ومنه الميراث لأنه أخّر عن الميت، ومعناه أخّـرنا القـرآن عن الأمم السالفـة وأعطينـاكموه، وأهّلْنَـا له الذين اصطفينا من عبادنا، قال ابن عباس: يريد أمة محمد ﷺ، ثم قسمهم ورتبهم فقال: ﴿ فمنهم ظالمٌ لنفسه ومنهم مقتصدٌ ومنهم سابقٌ بالخيرات ﴾، رُوِيَ عن أُسامة بن زيد في قوله عزّ وجلّ: ﴿ فمنهم ظالم لنفسه ﴾ الآية قال: قال النبي ﷺ: «كلهم قال من هذه الأمة» أخبرنا أبو سعيد الشريحي أنا أبو إسحاق الثعلبي أخبرني الحسين بن محمد بن فنجويه أنا محمد بن علي بن الحسين بن القاضي أنا بكر بن محمد المروزي أنا أبو قلابة عمرو بن الحصين عن الفضل بن عميرة عن ميمون الكردي عن أبي عثمان النهدي قال: سمعت عمر بن الخطاب قرأ على المنبر: ﴿ ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا ﴾، الآية، فقال: قال رسول الله ﷺ: «سابقنا سابق، ومقتصدنا ناجٍ، وظالمنا مغفور له»، قال أبو قلابة فحدّثت به يحيىٰ بن معين فجعل يتعجب منه. واختلف المفسّرون في معنى الظالم والمقتصد والسابق، أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحي أخبرنا أبو سعيد محمد بن عيسى الصيرفي أخبرنا أبو عبد الله محمد بن عبد الله الصفار حدّثنا أحمد بن محمد بن عيسى البرقي حدّثنا محمد بن كثير أخبرنا سفيان عن الأعمش عن رجل عن أبي ثابت أن رجلاً دخل المسجد فقال: اللّهمَّ ارحم غربتي وآنس وحشتي وسق إليّ جليساً صالحاً، فقال أبو الدرداء: لئن كنت صادقاً لأنا أسعد بك منك، سمعت رسول الله ﷺ يقول حين قرأ هذه الآية: ﴿ ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالمٌ لنفسه ومنهم مقتصدٌ ومنهم سابقٌ بالخيرات ﴾ فقال: «أمّا السابق بالخيرات فيدخل الجنة بغير حساب، وأمّا المقتصد فيحاسب حساباً يسيراً، وأمّا الظالم لنفسه فيُحبَس في المقام حتى يدخله الهمّ، ثم يدخل الجنة» ثم قرأ هذه الآية: ﴿ وقالوا الحمد لله الذي أذهب عنّا الحزن إنّ ربنا لغفور شكور ﴾. وقال عقبة بن صهبان سألت عائشة عن قول الله عزّ وجلّ: ﴿ ثم أورثنا

فيحاسب حساباً يسيراً وأما ظالم لنفسه فيحبس في المقام حتى يدخله الهم ثم يدخل الجنة ثم قرأ هذه الآية ﴿الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور﴾ وقال عقبة بن صهبان: سألت عائشة عن قول الله عز وجل ﴿ثم أورثنا الكتاب الذين أصطفينا من عبادنا﴾ الآية. فقالت: يا بني كلهم في الجنة أما السابق فمن مضى على عهد رسول الله ﷺ وشهد له رسول الله ﷺ بالجنة وأما المقتصد فمن تبع أثره من أصحابه حتى لحق به، وأما الظالم لنفسه فمثلي ومثلكم، فجعلت نفسها معنا» وقال ابن عباس السابق المؤمن المخلص والمقتصد المرائي والظالم الكافر، نعمة الله غير الجاحد لها لأنه حكم للثلاثة بدخول الجنة فقال «جنات عدن يدخلونها» وقيل الظالم هم أصحاب المشأمة والمتقصد أصحاب الميمنة، والسابق هم السابقون المقربون من الناس كلهم وقيل: السابق من رجحت حسناته على سيئاته، والمقتصد من استوت سيئاته وحسناته والظالم من رجحت سيئاته على حسناته وقيل الظالم من كان ظاهره خيراً من باطنه والمقتصد الذي استوى ظاهره وباطنه والسابق الذي باطنه خير من ظاهره وقيل الظالم التالي للقرآن ولم يعمل به والمقتصد التالي له العامل به والسابق القارىء له العالم به العامل بما فيه وقيل الظالم أصحاب الكبائر والمقتصد أصحاب الصغائر والسابق الذي لم يرتكب صغيرة ولا كبيرة وقيل الظالم الجاهل، والمقتصد المتعلم والسابق العالم. فان قلت لم قدم الظالم ثم المقتصد ثم السابق. قلت: قال جعفر الصادق بدأ بالظالمين إخباراً بأنه لا يتقرب إليه إلا بكرمه، وأن الظلم لا يؤثر في الاصطفاء ثم ثنى بالمقتصدين، لأنهم بين الخوف والرجاء ثم ختم بالسابقين لئلا يأمن أحد مكره، وكلهم في الجنة وقيل رتبهم الترتيب على مقامات الناس، لأن أحوال العباد ثلاثة معصية وغفلة ثم توبة، ثم قربة فإذا عصى الرجل دخل في حيز الظالمين، فاذا تاب دخل في جملة المقتصدين فاذا

الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا ﴾ الآية، فقالت: يا بني كلهم في الجنة أمّا السابق بالخيرات فمَن مضى على عهد رسول الله ﷺ وشهد له رسول الله ﷺ بالجنة، وأمّا المقتصد فمَن اتّبع أثره من أصحابه حتى لحق به، وأمّا الظالم لنفسه فمثلي ومثلكم، فجعلت نفسها معنا. وقال مجاهد والحسن وقتادة: فمنهم ظالم لنفسه وهم أصحاب المشأمة، ومنهم مقتصدهم أصحاب الميمنة، ومنهم سابق بالخيرات هم السابقون المقرّبون من الناس كلهم. وعن ابن عباس قال: السابق المؤمن المخلص، والمقتصد المُرائي، والظالم الكافر نعمة الله غير الجاهد لها، لأنه حكم للثلاثة بدخول الجنة فقال: ﴿ **جنّات عدن يدخلونها** ﴾، وقال بعضهم: يذكر ذلك عن الحسن، قال: السابق مَن رجحت حسناته على سيئاته، والمقتصد مَن استوت حسناته وسيئاته، والظالم مَن رجحت سيئاته على حسناته. وقيل: الظالم مَن كان ظاهره خيراً من باطنه، والمقتصد الذي يستوي ظاهره وباطنه، والسابق الذي باطنه خير من ظاهره. وقيل: الظالم مَن وحّد الله بلسانه ولم يوافق فعله قوله، والمقتصد مَن وحّد الله بلسانه وأطاعه بجوارحه، والسابق مَن وحّد الله بلسانه وأطاعه بجوارحه وأخلص له عمله. وقيل: الظالم التالي للقرآن، والمقتصد القارىء له العالِم به، والسابق القارىء له العالِم العامل بما فيه. وقيل: الظالم أصحاب الكبائر والمقتصد أصحاب الصغائر، والسابق الذي لم يرتكب كبيرة ولا صغيرة، وقال سهل بن عبد الله: السابق العالم، والمقتصد المتعلّم، والظالم الجاهل. قال جعفرالصادق: إنه بدأ بالظالمين إخباراً بأنه لا يتقرّب إليه إلّا بكرمه، وأن الظلم لا يؤثر في الاصطفاء، ثم ثنّى بالمقتصدين لأنهم بين الخوف والرجاء، ثم ختم بالسابقين لئلا يأمن أحد مكره، وكلهم في الجنة. وقال أبو بكر الورّاق: رتّبهم هذا الترتيب على مقامات الناس لأن أحوال العبد ثلاثة معصية وغفلة ثم توبة ثم قربة، فإن عصى دخل في حيّز الظالمين، وإذا تاب دخل في جملة المقتصدين، وإذا صحّت التوبة وكثرت العبادة والمجاهدة دخل في عداد السابقين. وقال بعضهم: المراد بالظالم الكافر ذكره الكلبي. وقيل: المراد منه المنافق، فعلى هذا لا يدخل الظالم في قوله: ﴿ **جنات عدن يدخلونها** ﴾ وحمل هذا القائل الاصطفاء على الاصطفاء في

صحت توبته وكثرت عبادته ومجاهدته دخل في عداد السابقين، وقيل قدم الظالم لكثرة الظلم وغلبته ثم المقتصد قليل بالاضافة إلى الظالمين، والسابق أقل من القليل فلهذا أخرهم ومعنى سابق بالخيرات أي بالأعمال الصالحة إلى الجنة، أو إلى رحمة الله ﴿بإذن الله﴾ أي بأمر الله وإرادته ﴿ذلك هو الفضل الكبير﴾ يعني إيراثهم الكتاب، واصطفاءهم ثم أخبر بثوابهم فقال تعالى:

﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ ۝٣٣ وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَذۡهَبَ عَنَّا ٱلۡحَزَنَۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٞ شَكُورٌ ۝٣٤ ٱلَّذِيٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلۡمُقَامَةِ مِن فَضۡلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٞ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٞ ۝٣٥﴾

﴿جنات عدن يدخلونها﴾ يعني الأصناف الثلاثة ﴿يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤاً ولباسهم فيها حرير﴾ تقدم تفسيره ﴿وقالوا الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن﴾ قال ابن عباس حزن النار وقيل حزن الموت وقيل حزن الذنوب والسيئات وخوف رد الطاعات وأنهم لا يدرون ما يصنع بهم وقيل حزن زوال النعم وتقليب القلوب وخوف العاقبة وقيل حزن أهوال يوم القيامة وهموم الحصر والمعيشة في الدنيا وقيل ذهب عن أهل الجنة كل حزن كان لمعاش أو معاد. روى البغوي بسنده عن ابن عمر قال قال رسول الله ﷺ «ليس على أهل لا إله إلا الله وحشة في قبورهم ولا في نشورهم وكأني بأهل لا إله إلا الله ينفضون التراب عن رؤوسهم يقولون الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن» ﴿إن ربنا لغفور شكور﴾ يعني غفر العظيم من الذنوب وشكر القليل من الأعمال ﴿الذي أحلنا﴾ يعني أنزلنا ﴿دار المقامة﴾ أي

الخلقة وإرسال الرسول إليهم وإنزال الكتب. والأول هو المشهور أن المراد من جميعهم المؤمنون، وعليه عامّة أهل العلم. قوله: ﴿ومنهم سابق بالخيرات﴾ أي: سابق إلى الجنة وإلى رحمة الله بالخيرات أي بالأعمال الصالحات، ﴿بإذن الله﴾، أي أمر الله وإرادته، ﴿ذلك هو الفضل الكبير﴾، يعني إيراثهم الكتاب.

ثم أخبر بثوابهم فقال: ﴿جنّاتُ عدنٍ يدخلونها﴾، يعني الأصناف الثلاثة، قرأ أبو عمرو و﴿يدخلونها﴾ بضم الياء وفتح الخاء، وقرأ الآخرون بفتح الياء وضمّ الخاء، ﴿يُحلّون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤاً ولباسهم فيها حرير﴾.

﴿وقالوا﴾، أي ويقولون إذا دخلوا الجنة: ﴿الحمد لله الذي أذهب عنّا الحَزَنَ﴾، والحزن واحد كالبخل والبخل. قال ابن عباس: حزن النار. وقال قتادة: حزن الموت. وقال مقاتل: حزنوا لأنهم كانوا لا يدرون ما يصنع الله بهم. وقال عكرمة: حزن الذنوب والسيئات وخوف ردّ الطاعات. وقال القاسم: حزن زوال النِّعَم وتقليب القلب، وخوف العاقبة، وقيل: حزن أهوال يوم القيامة. وقال الكلبي: ما كان يحزنهم في الدنيا من أمر يوم القيامة. وقال سعيد بن جبير: هَمّ الخبز في الدنيا. وقيل: هَمّ المعيشة. وقال الزجّاج: أذهب الله عن أهل الجنة كل الأحزان ما كان منها لمعاشٍ أو لمعادٍ، أخبرنا أبو الحسن علي بن محمد بن الضحاك الخطيب حدّثنا أبو إسحاق إبراهيم بن أحمد الإسفرايني أخبرنا أبو بكر أحمد بن إبراهيم الإسماعيلي أنا أبو العباس أحمد بن محمد الترابي ثنا يحيىٰ بن عبد الحميد ثنا عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس على أهل لا إلّه إلّا الله وحشة في قبورهم ولا في منشرهم، وكأني بأهل لا إلّه إلّا الله ينفضون التراب عن رؤوسهم، ويقولون الحمد لله الذي أذهب عنّا الحزَنَ». قوله تعالى: ﴿إنّ ربّنا لغفورٌ شكور﴾.

﴿الذي أحلّنا﴾، أنزلنا، ﴿دار المُقامة﴾، أي الإقامة، ﴿من فضله لا يمسّنا فيها نصب﴾، أي لا يصيبنا

الإقامة ﴿من فضله﴾ أي لا بأعمالنا ﴿لا يمسنا فيها نصب﴾ أي لا يصيبنا فيها عناء ولا مشقة ﴿ولا يمسنا فيها لغوب﴾ أي إعياء من التعب. قوله تعالى:

وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٣٨﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ۚ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾ وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾

﴿والذين كفروا لهم نار جهنم لا يقضى عليهم فيموتوا﴾ أي فيستريحوا مما هم فيه ﴿ولا يخفف عنهم من عذابها﴾ أي من عذاب النار ﴿كذلك نجزي كل كفور وهم يصطرخون﴾ أي يستغيثون ويصيحون ﴿فيها﴾ يقولون ﴿ربنا أخرجنا﴾ أي من النار ﴿نعمل صالحاً غير الذي كنا نعمل﴾ أي في الدنيا من الشرك والسيئات فيقول الله تعالى توبيخاً لهم ﴿أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر﴾ قيل: هو البلوغ وقيل ثمان عشرة سنة وقيل أربعون سنة وقال ابن عباس ستون سنة ويروى ذلك عن علي وهو العمر الذي أعذر الله تعالى لابن آدم (خ) عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال «أعذر الله إلى كل امرىء آخر أجله حتى بلغ ستين سنة» عنه بإسناد الثعلبي قال: قال رسول الله ﷺ «أعمار أمتي ما

فيها عياء ولا مشقّة، ﴿ولا يمسّنا فيها لُغوب﴾، عياء من التعب.

قوله تعالى: ﴿والذين كفروا لهم نارُ جهنّم لا يُقضى عليهم فيموتوا﴾، أي لا يهلكون فيستريحوا كقوله عزّ وجلّ: ﴿فوكزه موسى فقضى عليه﴾ [القصص: ١٥]، أي قتله. وقيل: لا يقضي عليهم الموت فيموتوا، كقوله: ﴿ونادوا يا مالك ليقضِ علينا ربُّك﴾ [الزخرف: ٧٧] أي ليقضِ علينا الموت فنستريح، ﴿ولا يُخفّف عنهم من عذابها﴾، من عذاب النار، ﴿كذلك نجزي كل كفور﴾، كافر، قرأ أبو عمرو (يجزي) بالياء وضمّها وفتح الزاي ﴿كلّ﴾ رفع على غير تسمية الفاعل، وقرأ الآخرون بالنون وفتحها وكسر الزاي، ﴿كلّ﴾ نصب.

﴿وهم يصطرخون﴾، يستغيثون ويصيحون، ﴿فيها﴾ وهو افتعال من الصراخ وهو الصياح يقولون: ﴿ربّنا أخرجنا﴾، منها من النار، ﴿نعملْ صالحاً غير الذي كنّا نعمل﴾، في الدنيا من الشرك والسيئات، فيقول الله لهم توبيخاً: ﴿أوَلَمْ نعمّركم ما يتذكّر فيه مَن تذكّر﴾، قيل: هو البلوغ. وقال عطاء وقتادة والكلبي: ثمان عشرة سنة. وقال الحسن: أربعون سنة. وقال ابن عباس: ستّون سنة، يروى ذلك عن علي وهو العمر الذي أعذر الله تعالى إلى ابن آدم، أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا

بين الستين إلى السبعين» ﴿وجاءكم النذير﴾ يعني محمد ﷺ بالقرآن قاله ابن عباس: وقيل هو الشيب والمعنى أو لم نعمركم حتى شبتم. ويقال الشيب: نذير الموت وفي الأثر «ما من شعرة تبيض إلا قالت لأختها استعدي فقد قرب الموت» ﴿فذوقوا﴾ أي يقال لهم ذوقوا العذاب ﴿فما للظالمين من نصير﴾ أي لهم من مانع يمنعهم من عذابه ﴿إن الله عالم غيب السموات والأرض إنه عليم بذات الصدور﴾ يعني إنه إذا علم ذلك وهو أخفى ما يكون، فقد علم غيب كل شيء في العالم. قوله تعالى ﴿هو الذي جعلكم خلائف في الأرض﴾ أي يخلف بعضكم بعضاً وقيل جعلكم أمة خلفت من قبلها من الأمم ورأت ما ينبغي أن يعتبر به، وقيل جعلكم خلفاء في أرضه وملككم منافعها ومقاليد التصرف فيها لتشكروه بالتوحيد والطاعة ﴿فمن كفر﴾ أي جحد هذه النعمة وعظمها ﴿فعليه كفره﴾ أي وبال كفره ﴿ولا يزيد الكافرين كفرهم عند ربهم إلا مقتاً﴾ يعني غضباً وقيل المقت أشد البغض ﴿ولا يزيد الكافرين كفرهم إلا خساراً﴾ يعني في الآخرة ﴿قل أرأيتم شركاءكم الذين تدعون من دون الله﴾ يعني الأصنام جعلتموها شركاء بزعمكم ﴿أروني ماذا خلقوا من الأرض﴾ يعني أي جزء استبدوا بخلقه من الأرض ﴿أم لهم شرك في السموات﴾ أي خلق في السموات والأرض ﴿أم آتيناهم كتاباً فهم على بينة منه﴾ أي على حجة وبرهان من ذلك ﴿بل إن يعد الظالمون بعضهم﴾ يعني الرؤساء ﴿بعضاً إلا غروراً﴾ يعني قولهم هؤلاء الأصنام شفعاؤنا عند الله. قوله عز وجل ﴿إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا﴾ يعني لكي لا تزولا فيمنعهما من الزوال والوقوع وكانتا جديرتين بأن تزولا وتهدهد العظم كلمة

عبد السلام بن مطهر حدّثنا عمر بن علي عن معز بن محمد الغفاري عن سعيد بن أبي سعيد المقبري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «أعذر الله تعالى إلى امرىء أخّر أجله حتى بلّغه ستّين سنة». أخبرنا أبو سعيد الشريحي أخبرنا أبو إسحاق الثعلبي أخبرنا الحسين بن محمد بن فنجويه حدّثنا أحمد بن جعفر بن حمدان حدّثنا إبراهيم بن سهويه حدّثنا الحسن بن عرفة أنا المحاربي عن محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أعمار أُمتي ما بين الستّين إلى السبعين، وأقلّهم مَن يجوز ذلك». قوله: ﴿ **وجاءكم النذير** ﴾، يعني محمداً ﷺ، هذا قول أكثر المفسّرين. وقيل: القرآن. وقال عكرمة وسفيان بن عيينة ووكيع: هو الشيب. معناه: أوَلم نعمّركم حتى شِبتُم. ويقال: الشيب نذير الموت. وفي الأثر: ما من شعرة تبيضّ إلاّ قالت لأختها استعدي فقد قَرُبَ الموت. قوله: ﴿ **فذوقوا فما للظالمين من نصير** ﴾.

﴿ **إن الله عالمُ غيبِ السمٰواتِ والأرضِ إنّه عليم بذات الصدور** ﴾.

﴿ **هو الذي جعلكم خلائفَ في الأرض** ﴾، أي يخلف بعضكم بعضاً، وقيل: جعلكم أمة خلفت مَن قبلها. ورأت فيمَن قبلها، ما ينبغي أن تعتبرَ به. ﴿ **فمَن كفر فعليه كفره** ﴾، أي عليه وِبال كفره ﴿ **ولا يزيد الكافرين كفرهم عند ربهم إلاّ مقتاً** ﴾، غضباً ﴿ **ولا يزيد الكافرين كفرهم إلاّ خساراً** ﴾.

﴿ **قلْ أرأيتم شركاءكم الذين تدعون من دون الله** ﴾، أي جعلتموهم شركائي بزعمكم يعني الأصنام، ﴿ **أروني ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شِرْكٌ في السمٰوات أم آتيناهم كتاباً** ﴾، قال مقاتل: هل أعطينا كفّار مكة كتاباً، ﴿ **فهم على بيّنة منه** ﴾، قرأ ابن كثير وأبو عمرو وحمزة وحفص ﴿ **بيّنة** ﴾ على التوحيد، وقرأ الآخرون ﴿ **بيّنات** ﴾ على الجمع، يعني دلائل واضحة منه في ذلك الكتاب من ضروب البيان. ﴿ **بل إنْ يَعِدُ** ﴾، أي ما يَعِدُ، ﴿ **الظالمون بعضهُم بعضاً إلاّ غروراً** ﴾، والغرور مايغرّ الإنسان مما لا أصل له، قال مقاتل: يعني ما يعد الشيطان كفّار بني آدم من شفاعة الآلهة لهم في الآخرة غرور وباطل.

قوله تعالى: ﴿ **إنّ الله يُمسك السمٰواتِ والأرضَ أنْ تزولاَ** ﴾، أي كيلا تزولا، ﴿ **ولئن زالتا إن أمسكهما من**

الشرك ﴿ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده﴾ يعني ليس يمسكهما أحد سواه ﴿إنه كان حليماً غفوراً﴾ يعني غير معاجل بالعقوبة حيث أمسكهما وكانتا قد همتا بعقوبة الكفار لولا حلمه وغفرانه ﴿وأقسموا بالله جهد أيمانهم﴾ يعني كفار مكة وذلك لما بلغهم أن أهل الكتاب كذبوا رسلهم قالوا لعن الله اليهود والنصارى أتتهم الرسل فكذبوهم وأقسموا بالله لو جاءنا نذير لنكونن أهدى ديناً منهم وذلك قبل مبعث النبي ﷺ فلما بعث محمد كذبوه فأنزل الله هذه الآية ﴿وأقسموا بالله جهد أيمانهم﴾ ﴿لئن جاءهم نذير﴾ يعني رسول ﴿ليكونن أهدى من إحدى الأمم﴾ يعني اليهود والنصارى ﴿فلما جاءهم نذير﴾ يعني محمداً ﷺ ﴿ما زادهم﴾ مجيئه ﴿إلا نفوراً﴾ يعني تباعدا عن الهدى ﴿استكباراً في الأرض﴾ يعني عتواً وتكبراً عن الإيمان به ﴿ومكر السيىء﴾ يعني عمل القبيح وهو اجتماعهم على الشرك وقيل هو مكرهم برسول الله ﷺ ﴿ولا يحيق المكر السيىء إلا بأهله﴾ يعني لا يحل ولا يحيط إلا بأهله فقتلوا يوم بدر قال ابن عباس عاقبة الشرك لا تحل إلا بمن أشرك ﴿فهل ينظرون﴾ أي ينظرون ﴿إلا سنة الأولين﴾ يعني أن ينزل العذاب بهم كما نزل بمن مضى من الكفار ﴿فلن تجد لسنة الله تبديلاً﴾ أي تغييراً ﴿ولن تجد لسنة الله تحويلاً﴾ أي تحويل العذاب عنهم إلى غيرهم.

أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَـٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴿٤٥﴾

﴿أو لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم﴾ معناه أنهم يعتبرون بمن مضى وبآثارهم

أحد من بعده ﴾، أي ما يمسكهما أحد من بعده، أي أحد سواه، ﴿ إنه كان حليماً غفوراً ﴾، فإن قيل: فما معنى ذكر الحلم ههنا؟ قيل: لأن السموات والأرض همّت بما همّت به من عقوبة الكفّار فأمسكهما الله تعالى عن الزوال لحلمه وغفرانه أن يعاجلهم بالعقوبة.

﴿ وأقسموا بالله جهد أيمانهم ﴾، يعني كفّار مكة لمّا بلغهم أن أهل الكتاب كذّبوا رسلهم قالوا: لعن الله اليهود والنصارى أتتهم الرُّسل فكذبوهم، وأقسموا بالله وقالوا لو أتى رسول الله لنكوننّ أهدى ديناً منهم، وذلك قبل مبعث النبي ﷺ، فلما بعث محمد كذّبوه، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿ وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ﴾، رسول، ﴿ ليكوننّ أهدى من إحدى الأمم ﴾، يعني من اليهود والنصارى، ﴿ فلما جاءهم نذير ﴾، محمد ﷺ، ﴿ ما زادهم إلا نفوراً ﴾، أي ما زادهم مجيئه إلّا تباعداً عن الهدى.

﴿ استكباراً في الأرض ﴾، نصب ﴿ استكباراً ﴾ على البدل من النفـور، ﴿ ومكرَ السيىء ﴾، يعني العمل القبيح، أُضيف المكر إلى صفته، قال الكلبي: هو اجتماعهم على الشر وقتل النبي ﷺ، وقرأ حمزة «مكر السيىء» ساكنة الهمزة تخفيفاً وهي قراءة الأعمش، ﴿ ولا يحيق المكرُ السيىء ﴾، أي لا يحلّ ولا يحيط المكر السيىء، ﴿ إلّا بأهله ﴾، فقتلوا يوم بدر، وقال ابن عباس: عاقبة الشرك لا تحلّ إلّا بمَن أشرك. والمعنى: إن وبال مكرهم راجع إليهم، ﴿ فهل يَنْظُرُون ﴾، ينتظرون، ﴿ إلّا سُنّةَ الأوّلين ﴾، إلّا أن ينزل بهم العذاب كما نزل بمَن مضى من الكفّار، ﴿ فلنْ تجدَ لسُنّة الله تبديلاً ولن تجد لسُنّة الله تحويلاً ﴾.

﴿ أوَلَم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبةُ الذين من قبلهم وكانوا أشدَّ منهم قوةً وما كان الله

وعلامات هلاكهم ﴿**وكانوا أشد منهم قوة وما كان الله ليعجزه**﴾ أي ليفوت عنه ﴿**من شيء في السموات ولا في الأرض إنه كان عليماً قديراً ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا**﴾ أي من الجرائم ﴿**ما ترك على ظهرها**﴾ أي ظهر الأرض ﴿**من دابة**﴾ أي من نسمة تدب عليها يريد بني آدم وغيرهم كما أهلك من كان في زمن نوح بالطوفان إلا من كان في السفينة ﴿**ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى**﴾ يعني يوم القيامة ﴿**فإذا جاء أجلهم فان الله كان بعباده بصيراً**﴾ قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما يريد أهل طاعته وأهل معصيته وقيل بصيراً بمن يستحق العقوبة وبمن يستحق الكرامة والله سبحانه وتعالى أعلم بمراده وأسرار كتابه.

تم الجزء الخامس من تفسير الخازن

ويليه الجزء السادس، وأوله سورة يس عليه الصلاة والسلام

لِيُعجزه ﴾، يعني ليفوت عنه، ﴿ **من شيء في السمٰوات ولا في الأرض إنه كان عليماً قديراً** ﴾.

﴿ **ولو يُؤاخذ اللّٰهُ الناسَ بما كسبوا** ﴾، من الجرائم، ﴿ **ما ترك على ظهرها** ﴾، يعني على ظهر الأرض، كناية عن غير مذكور، ﴿ **من دابّة** ﴾، كما كان في زمان نوح أهلك الله ما على ظهر الأرض إلاّ مَن كان في سفينة نوح، ﴿ **ولكنْ يُؤخّرهم إلى أجلٍ مسمىً فإذا جاء أجلهم فإن الله كان بعباده بصيراً** ﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما: يريد أهل طاعته وأهل معصيته.

بعونه تعالى تمّ الجزء الثالث ويليه

الجزء الرابع وأوله سورة يّس

﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾
(قرآن كريم)

مكية وهي ثلاث وثمانون آية وسبعمائة وتسع وعشرون كلمة وثلاثة آلاف حرف. عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «إن لكل شيء قلباً وقلب القرآن يس، ومن قرأ يس كتب الله له بقراءتها قراءة القرآن عشر مرات» أخرجه الترمذي، وقال حديث غريب وفي إسناده شيخ مجهول. وعن معقل بن يسار قال: قال رسول الله ﷺ «اقرؤوا على موتاكم يس» أخرجه أبو داود وغيره.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يسٓ ﴿١﴾ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٥﴾ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٦﴾

قول عز وجل: ﴿يس﴾ قال ابن عباس: هو قسم، وعنه أن معناه يا إنسان بلغة طيىء يعني محمداً ﷺ، وقيل يا سيد البشر وقيل هو اسم للقرآن ﴿والقرآن الحكيم﴾ أي ذي الحكمة لأنه دليل ناطق بالحكمة وهو قسم وجوابه ﴿إنك لمن المرسلين﴾ أي أقسم بالقرآن أن محمداً ﷺ لمن المرسلين وهو رد على الكفار حيث قالوا لست مرسلاً ﴿على

سُورَة يٓس

مكيّة وهي ثلاث وثمانون آية.

﴿يٓسٓ﴾، ونٓ [القلم: ١]، قرأ بإخفاء النون فيهما ابن عامر والكسائي وأبو بكر وورش بخلف عنه في: نون والقلم، والباقون يظهرون فيهما، واختلفوا في تأويل ﴿يٓسٓ﴾ حسب اختلافهم في حروف التهجّي، قال ابن عباس رضي الله عنهما: قسمٌ، يروي عنه أن معناه: يا إنسان بلغة طيء، يعني محمداً ﷺ، وهو قول الحسن وسعيد بن جبير وجماعة. وقال أبو العالية: يا رجل. وقال أبو بكر الورّاق: يا سيّد البشر.

﴿ والقرآن الحكيم ﴾.

﴿ إنّك لمن المرسلين ﴾، أقسم الله بالقرآن بأن محمداً ﷺ من المرسلين، وهو ردٌّ على الكفّار حيث قالوا: ﴿ لست مرسلاً ﴾ [الرعد: ٤٣].

﴿ على صراط مستقيم ﴾، وهو خبر بعد خبر، أي إنك لمن المرسلين وإنك على صراط مستقيم. وقيل: معناه إنك لمن المرسلين الذين هم على صراط مستقيم.

﴿ تنزيلُ العزيز الرحيم ﴾، قرأ ابن عامر وحمزة والكسائي وحفص ﴿ تنزيل ﴾ بنصب اللام كأنه قال نزل

صراط مستقيم﴾ معناه وإنك على صراط مستقيم، وقيل معناه إنك لمن المرسلين الذين هم على طريقة مستقيمة ﴿تنزيل العزيز الرحيم﴾ يعني القرآن تنزيل العزيز في ملكه الرحيم بخلقه ﴿لتنذر قوماً ما أنذر آباؤهم﴾ يعني لم تنذر آباؤهم لأن قريشاً لم يأتهم نبي قبل محمد ﷺ، وقيل معناه لتنذر قوماً ما أنذر آباؤهم من العذاب ﴿فهم غافلون﴾ أي عما يراد بهم من الإيمان والرشد ﴿لقد حق القول﴾أي وجب العذاب.

لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾ إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَـٰقِهِمْ أَغْلَـٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَـٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾ وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَـٰنَ بِٱلْغَيْبِ ۖ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾

﴿على أكثرهم فهم لا يؤمنون﴾ فيه إشارة إلى إرادة الله تعالى السابقة فيهم فهم لا يؤمنون لما سبق لهم من القدر بذلك.

قوله عز وجل: ﴿إنا جعلنا في أعناقهم أغلالاً﴾ نزلت في أبي جهل وصاحبيه المخزوميين وذلك أن أبا جهل حلف لئن رأى محمداً ﷺ يصلي ليرضخن رأسه بالحجارة فأتاه وهو يصلي ومعه حجر ليدمغه به فلما رفعه انثنت يده إلى عنقه ولزق الحجر، بيده فلما رجع إلى أصحابه وأخبرهم بما رأى سقط الحجر فقال له رجل من بني مخزوم أنا أقتله بهذا الحجر فأتاه وهو يصلي ليرميه بالحجر فأعمى الله تعالى بصره فجعل يسمع صوته ولا يراه، فرجع إلى أصحابه فلم يرهم حتى نادوه فقالوا له ما صنعت فقال: ما رأيته ولقد سمعت صوته وحال بيني وبينه كهيئة الفحل يخطر بذنبه لو دنوت منه لأكلني. فأنزل الله تعالى ﴿إنا جعلنا في أعناقهم أغلالاً﴾ قيل هذا على وجه التمثيل، ولم يكن هناك غل، أراد منعناهم عن الإيمان بموانع، فجعل الأغلال مثلاً لذلك، وقيل حبسناهم عن الإنفاق في سبيل الله

تنزيلاً، وقرأ الآخرون بالرفع، أي هو تنزيل العزيز الرحيم.

﴿ لتنذر قوماً ما أنذر آباؤهم ﴾، قيل: ﴿ ما ﴾ للنفي أي لم تنذر آباؤهم لأن قريشاً لم يأتهم نبيٌّ قبل محمد ﷺ. وقيل: ﴿ ما ﴾ بمعنى الذي أي لتنذر قوماً بالذي أُنذر آباؤهم، ﴿ فهم غافلون ﴾، عن الإيمان والرشد.

﴿ لقد حقّ القول ﴾، وجب العذاب، ﴿ على أكثرهم فهم لا يؤمنون ﴾، هذا كقوله: ﴿ ولكن حقّتْ كلمة العذاب على الكافرين ﴾ [الزمر: ٧١].

﴿ إنّا جعلنا في أعناقهم أغلالاً ﴾، نزلت في أبي جهل وصاحبيه المخزوميين، وذلك أن أبا جهل كان قد حلف لئن رأى محمداً يصلّي ليرضخنّ رأسه بالحجر وهو يصلّي، فأتاه يوماً وهو يصلّي ومعه حجر ليدمغه به، فلما رفعه انثنت يده إلى عنقه ولزق الحجر بيده، ، فلما عاد إلى أصحابه وأخبرهم بما رأى سقط الخجر، فقال رجل من بني مخزوم: أنا أقتله بهذا الحجر، فأتاه وهو يصلّي ليرميه بالحجر، فأعمى الله تعالى بصره، فجعل يسمع صوته ولا يراه، فرجع إلى أصحابه فلم يرهم حتى نادوه فقالوا له: ما صنعت؟ فقال: ما رأيته ولقد سمعت صوته وحال بيني وبينه شيء كهيئة الفحل يخطر بذنبه، لو دنوت منه لأكلني، فأنزل الله تعالى: ﴿ إنّا جعلنا في أعناقهم أغلالاً ﴾، قال أهل المعاني: هذا على طريق المثل، ولم يكن هناك غلٌّ أراد: مَنعنَاهم عن الإيمان بموانع، فجعل الأغلال مثلاً لذلك، قال الفرّاء: معناه إنّا حبسناهم عن الإنفاق في سبيل الله كقوله تعالى: ﴿ ولا تجعل يدك مغلولة إلى

بموانع كالأغلال، وقيل إنها موانع حسية منعت كما يمنع الغل، وقيل إنها وصف في الحقيقة وهي ما سينزله الله عز وجل بهم في النار ﴿فهي﴾ يعني الأيدي ﴿إلى الأذقان﴾ جمع ذقن وهو أسفل اللحيين لأن الغل بجمع اليد إلى العنق ﴿فهم مقمحون﴾ يعني رافعو رؤوسهم مع غض البصر وقيل أراد أن الأغلال رفعت رؤوسهم فهم مرفعوا الرؤوس برفع الأغلال لها ﴿وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً﴾ معناه منعناهم عن الإيمان بموانع فهم لا يستطيعون الخروج من الكفر إلى الإيمان كالمضروب أمامه وخلفه بالأسداد، وقيل حجبناهم بالظلمة عن أذى رسول الله ﷺ وهو قوله تعالى: ﴿فأغشيناهم﴾ يعني فأعميناهم ﴿فهم لا يبصرون﴾ يعني سبيل الهدى ﴿وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون﴾ يعني من يرد الله إضلاله لم ينفعه الإنذار ﴿إنما تنذر من اتبع الذكر﴾ يعني إنما ينفع إنذارك من اتبع القرآن فعمل بما فيه ﴿وخشي الرحمن بالغيب﴾ أي خافه في السر والعلن ﴿فبشره بمغفرة﴾ يعني لذنوبه ﴿وأجر كريم﴾ يعني الجنة.

﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ (١٢) وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ (١٣)﴾

قوله تعالى: ﴿إنا نحن نحيي الموتى﴾ يعني للبعث ﴿ونكتب ما قدموا﴾ أي من الأعمال من خير وشر ﴿وآثارهم﴾ أي ونكتب ما سنوا من سنة حسنة أو سيئة (م) عن جرير بن عبد الله البجلي قال: قال رسول الله ﷺ «من سنَّ في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سنَّ في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء» وقيل نكتب خطاهم إلى المسجد، عن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه قال «كانت بنو سلمة في ناحية من المدينة فأرادوا

عنقك ﴾ [الإسراء: ٢٩] معناه لا تمسكها عن النفقة. ﴿ فهي إلى الأذقان ﴾، وهي كناية عن الأيدي وإن لم يَجْرِ لها ذكر لأن الغلّ يجمع اليد إلى العنق، معناه: إنّا جعلنا في أيديهم وأعناقهم أغلالاً فهي إلى الأذقان، ﴿ فهم مقمحون ﴾ المقمح الذي رفع رأسه وغضّ بصره، يقال: بعير قامح إذا روي من الماء فأقمح إذا رفع رأسه وغضّ بصره. قال الأزهري: أراد أن أيديهم لمّا غُلّت إلى أعناقهم رفعت الأغلال أذقانهم ورؤوسهم، فهم مرفوعوا الرؤوس برفع الأغلال إيّاها.

﴿ وجعلنا من بين أيديهم سدّاً ومن خلفهم سدّاً ﴾، قرأ حمزة والكسائي وحفص ﴿ سدّاً ﴾ بفتح السين، وقرأ الآخرون بضمّها، ﴿ فأغشيناهم ﴾، فأعميناهم من التغشية وهي التغطية، ﴿ فهم لا يبصرون ﴾، سبيل الهدى.

﴿ وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ﴾.

﴿ إنما تنذر مَن اتّبع الذكر ﴾، يعني إنما ينفع إنذارك مَن اتّبع الذكر يعني القرآن فعمل بما فيه، ﴿ وخشي الرحمن بالغيب فبشّره بمغفرة وأجْر كريم ﴾، حسن وهو الجنة.

﴿ إنّا نحن نحي الموتى ﴾، عند البعث، ﴿ ونكتب ما قدّموا ﴾، من الأعمال من خير وشرّ، ﴿ وآثارهم ﴾، أي ما سنّوا من سُنّة حسنة أو سيئة، قال النبي ﷺ: «مَنْ سَنّ في الإسلام سُنّةً حسنةً فله أجرها وأجر مَن عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أُجورهم شيء، ومَن سنّ في الإسلام سُنّة سيئة كان عليه وزرها ووزر مَن عمل بها من بعده، من غير أن ينقص من أوزارهم شيء». وقال قوم: قوله: ﴿ نكتب ما قدّموا وآثارهم ﴾ أي: خطاهم إلى المسجد. رُوِيَ عن أبي سعيد الخدري قال: شكت بنو سلمة بُعْدَ منازلهم من المسجد فأنزل الله تعالى:

النقلة إلى قرب المسجد فنزلت هذه الآية ﴿**إنا نحن نحيي الموتى ونكتب ما قدموا وآثارهم**﴾ فقال رسول الله ﷺ إن آثاركم تكتب فلم ينتقلوا» أخرجه الترمذي وقال حديث حسن غريب (خ) عن أنس رضي الله عنه قال: أراد بنو سلمة أن يتحولوا إلى قرب المسجد فكره رسول الله ﷺ أن تعرى المدينة فقال: «يا بني سلمة ألا تحتسبون آثاركم؟» فأقاموا. قوله تعرى يعني تخلى فتترك عراء وهو الفضاء من الأرض الخالي الذي لا يستره شيء (م). عن جابر قال خلت البقاع حول المسجد فأراد بنو سلمة أن ينتقلوا قرب المسجد فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال لهم: «بلغني أنكم تريدون أن تنتقلوا قرب المسجد فقالوا نعم يا رسول الله قد أرنا ذلك فقال: بني سلمة دياركم تكتب آثاركم». فقالوا ما يسرنا إذا تحولنا. قوله بني سلمة أي يا بني سلمة وقوله: دياركم أي الزموا دياركم (ق). عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «أعظم الناس أجراً في الصلاة أبعدهم فأبعدهم ممشى، والذي ينتظر الصلاة حتى يصليها مع الإمام أعظم أجراً من الذي يصلي ثم ينام».

قوله تعالى: ﴿**وكل شيء أحصيناه**﴾ أي حفظناه وعددناه وأثبتناه ﴿**في إمام مبين**﴾ يعني اللوح المحفوظ.

قوله عز وجل: ﴿**واضرب لهم مثلاً**﴾ يعني صف لهم شبهاً مثل حالهم من قصة ﴿**أصحاب القرية**﴾ يعني أنطاكية ﴿**إذ جاءها المرسلون**﴾ يعني رسل عيسى عليه الصلاة والسلام.

(ذكر القصة في ذلك) قال العلماء بأخبار الأنبياء بعث عيسى عليه السلام رسولين من الحواريين إلى أهل إنطاكية فلما قربا من المدينة رأيا شيخاً يرعى غنيمات له وهو حبيب النجار صاحب ياسين فسلما عليه فقال الشيخ لهما من أنتما فقالا رسولا عيسى عليه الصلاة والسلام ندعوكم من عبادة الأوثان إلى عبادة الرحمن فقال الشيخ لهما أمعكما آية قالا نعم نشفي المريض ونبرىء الأكمه والأبرص بإذن الله قال الشيخ إن لي ابناً مريضاً منذ سنين قالا: فانطلق بنا نطلع

﴿ **ونكتب ما قدّموا وآثارهم** ﴾، أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحي حدّثنا أبو سعيد محمد بن عيسى الصيرفي حدّثنا أبو العباس الأصم حدّثنا محمد بن هشام بن ملابس النميري حدّثنا مروان الفزاري حدّثنا حميد عن أنس رضي الله عنه قال: أراد بنو سلمة أن يتحوّلوا إلى قرب المسجد، فكره رسول الله ﷺ أن تُعرّى المدينة، فقال: «يا بني سلمة لا تحتسبون آثاركم»، فأقاموا. وأخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف حدّثنا محمد بن إسماعيل حدّثنا محمد بن العلاء حدّثنا أبو أسامة عن يزيد بن عبد الله عن أبي بردة عن أبي موسى قال: قال النبي ﷺ: «أعظم الناس أجراً في الصلاة أبعدُهم فأبعدُهم ممشىً، والذي ينتظر الصلاة حتى يصلّيها مع الإمام أعظم أجراً من الذي يصلّي ثم ينام». قوله تعالى: ﴿ **وكل شيء أحصيناه** ﴾ لحفظناه وعددناه وبيّناه، ﴿ **في إمام مبين** ﴾، وهو اللوح المحفوظ.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ **واضرب لهم مثلاً أصحاب القرية** ﴾، يعني اذكر لهم شبهاً مثل حالهم من قصة أصحاب القرية وهي أنطاكية، ﴿ **إذ جاءها المرسلون** ﴾، يعني رسل عيسى عليه الصلاة والسلام، قال العلماء: بأخبار الأنبياء بعث عيسى رسولين من الحواريين إلى أهل مدينة أنطاكية، فلما قربا من المدينة رأيا شيخاً يرعى غنمات له وهو حبيب النجّار، صاحب يٰسٓ فسلّما عليه، فقال الشيخ لهما: مَن أنتما؟ فقالا: رسولا عيسى يدعوكم من عبادة الأوثان إلى عبادة الرحمن، فقال: أمعكما آية؟ قالا: نعم نحن نشفي المريض ونبرىء الأكمه والأبرص بإذن الله، فقال الشيخ: إن لي ابناً مريضاً منذ سنين، قالا: فانطلق بنا نطّلع على حاله، فأتى بهما إلى منزله فمسحا ابنه، فقام في الوقت بإذن الله صحيحاً ففشي الخبر في المدينة، وشفى الله تعالى على أيديهما كثيراً من المرضى، وكان لهم ملك، قال وهب: كان اسمه أنطيخس، وكان من ملوك الروم يعبد الأصنام، قالوا: فانتهى الخبر إليه فدعاهما،

على حاله فأتى بهما إلى منزله فمسحا ابنه فقام في الوقت بإذن الله تعالى صحيحاً ففشا الخبر في المدينة وشفى الله تعالى على أيديهما كثيراً من المرضى، وكان لهم ملك يعبد الأصنام اسمه انطيخس وكان من ملوك الروم فانتهى خبرهما إليه فدعا بهما، وقال: من أنتما قالا رسولا عيسى عليه الصلاة والسلام، قال: وفيم جئتما قالا ندعوك من عبادة ما لا يسمع ولا يبصر إلى عبادة من يسمع ويبصر فقال ولنا إله دون آلهتنا قالا نعم الذي أوجدك وآلهتك قال لهما: قوما حتى أنظر في أمركما فتبعهما الناس فأخذوهما وضربوهما وقال وهب بعث عيسى عليه السلام هذين الرجلين إلى أنطاكية فأتياها فلم يصلا إلى ملكها وطالت مدة مقامهما فخرج الملك ذات يوم فكبرا وذكر الله تعالى فغضب الملك وأمر بهما فحبسا وجلد كل واحد منهما مائتي جلدة فلما كذبا وضربا بعث عيسى عليه الصلاة والسلام رأس الحواريين شمعون الصفا على أثرهما ليبصرهما، فدخل شمعون البلد متنكراً فجعل يعاشر حاشية الملك حتى أنسوا به فرفعوا خبره إلى الملك فدعاه وأنس به وأكرمه ورضي عشرته فقال للملك ذات يوم: بلغني أنك حبست رجلين في السجن وضربتهما حين دعواك إلى غير دينك فهل كلمتهما وسمعت قولهما، فقال: حال الغضب بيني وبين ذلك. قال: فإن رأى الملك دعاهما حتى نطلع على ما عندهما فدعاهما الملك فقال لهما شمعون: من أرسلكما إلى هاهنا؟ قالا: الله الذي خلق كل شيء وليس له شريك، فقال لهما شمعون: فصفاه وأوجزا، قالا: إنه يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، فقال شمعون: وما آيتكما؟ قال: ما تتمناه فأمر الملك حتى جاؤوا بغلام مطموس العينين وموضع عينيه كالجبهة فما زالا يدعوان ربهما حتى انشق موضع البصر، فأخذ بندقتين من طين فوضعاهما في حدقتيه فصارتا مقلتين يبصر بهما فتعجب الملك فقال شمعون للملك إن أنت سألت إلهك حتى يصنع لك مثل هذا كان لك الشرف ولإلهك، فقال له الملك ليس لي عنك سر مكتوم فإن إلهنا الذي نعبده لا يسمع ولا يبصر ولا يضر ولا ينفع وكان

فقال: مَن أنتما؟ قالا: رسولا عيسى، قال: وفِيمَ جئتما؟ قالا: ندعوك من عبادة ما لا يسمع ولا يبصر إلى عبادة مَن يسمع ويبصر، فقال لهما: ألَنا إلَه دون آلهتنا؟ قالا: نعم، مَن أوجدك وآلهتك؟ قال: قومَا حتى أنظر في أمركما، فتتبعهما الناس فأخذوهما وضربوهما في السوق. قال وهب: بعث عيسى هذين الرجلين إلى أنطاكية، فأتياها فلم يصلا إلى ملكها، وطال مدة مقامهما، فخرج الملك ذات يوم فكبّروا وذكروا الله، فغضب الملك وأمر بهما فحُبِسا وجُلِد كل واحد منهما مائتي جلدة، قالوا: فلمّا كذّبَ الرسولان وضُرِبا، بعث عيسى رأس الحواريين شمعون الصفا على أثرهما لينصرهما، فدخل شمعون البلد متنكراً فجعل يعاشر حاشية الملك حتى أنسوا به، فرفعوا خبره إلى الملك فدعاه فرضي عشرته وأنس به وأكرمه، ثم قال له ذات يوم: أيها الملك بلغني أنك حبست رجلين في السجن وضربتهما حين دعواك إلى غير دينك، فهل كلّمتهما وسمعت قولهما؟ فقال الملك: حالَ الغضبُ بيني وبين ذلك، قال: فإن رأى الملك دعاهما حتى نطّلع على ما عندهما، فدعاهما الملك، فقال لهما شمعون: مَن أرسلكما إلى ههنا؟ قالا: الله الذي خلق كل شيء وليس له شريك، فقال لهما شمعون: فصفاه وأوجزا، فقال: إنه يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، فقال شمعون: وما آيتكما؟ قالا: ما تتمنّاه فأمر الملك حتى جاؤوا بغلام مطموس العينين وموضع عينيه كالجبهة، فما زالا يدعوان ربّهما حتى انشقّ موضع البصر، فأخذا بندقتين من الطين فوضعاهما في حدقتيه فصارتا مقلتين يبصر بهما، فتعجب الملك، فقال شمعون للملك: إن أنت سألت آلهتك حتى تصنع صنيعاً مثل هذا فيكون لك الشرف ولألهتك، فقال الملك: ليس لي عنك سرٌّ إن إلَهنا الذي نعبده لا يسمع ولا يبصر، ولا يضرّ ولا ينفع، وكان شمعون إذا دخل الملك على الصنم يدخل بدخوله ويصلّي كثيراً، ويتضرّع حتى ظنوا أنه على ملّتهم، فقال الملك للمرسلين: إن قدر إلَهكم الذي تعبدانه على إحياء ميت آمنّا به وبكما، قالا: إلَهنا قادر على كل شيء، فقال الملك: إن ههنا ميتاً مات منذ سبعة أيام ابن دهقان وأنا أخّرته فلم أدفنه حتى يرجع أبوه، وكان غائباً فجاؤوا

شمعون يدخل مع الملك على الصنم ويصلي ويتضرع حتى ظنوا أنه على ملتهم، فقال الملك للرسولين إن قدر إلهكما الذي تعبدانه على إحياء ميت آمنا به وبكما قالا إلهنا قادر على كل شيء فقال الملك إن هاهنا ميتاً قد مات منذ سبعة أيام ابن دهقان وأنا أخّرته فلم أدفنه حتى يرجع أبوه وكان غائباً، فجاؤوا بالميت وقد تغيّر وأروح فجعلا يدعوان ربهما علانية وشمعون يدعو ربه سراً فقام الميت وقال: إني ميت منذ سبعة أيام ووجدت مشركاً فأدخلت في سبعة أودية من النار وأنا أحذركم ما أنتم عليه فآمنوا بالله ثم قال فتحت أبواب السماء فنظرت شاباً حسن الوجه يشفع لهؤلاء الثلاثة قال الملك ومن الثلاثة قال شمعون وهذان وأشار بيده إلى صاحبيه فعجب الملك من ذلك فلما علم شمعون أن قوله قد أثر في الملك أخبره بالحال ودعاه فآمن الملك وآمن معه قوم وكفر آخرون وقيل بل كفر الملك وأجمع على قتل الرسل هو وقومه فبلغ ذلك حبيباً وهو على باب المدينة فجاء يسعى إليهم يذكرهم ويدعوهم إلى طاعة المرسلين فذلك قوله تعالى:

﴿إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُواْ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُواْ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٧﴾ قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُواْ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾﴾

﴿إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما﴾ قال وهب اسمهما يوحنا وبولس وقال كعب صادق وصدوق ﴿فعززنا بثالث﴾ يعني قوينا برسول ثالث وهو شمعون وقيل شلوم وإنما أضاف الله تعالى الإرسال إليه لأن عيسى عليه الصلاة والسلام إنما بعثهم بإذن الله عز وجل ﴿فقالوا﴾ يعني الرسل جميعاً لأهل أنطاكية ﴿إنا إليكم مرسلون قالوا ما أنتم إلا بشر مثلنا وما أنزل الرحمن من شيء﴾ يعني لم يرسل رسولاً ﴿إن أنتم إلا تكذبون﴾ يعني فيما تزعمون ﴿قالوا ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون﴾ يعني وإن كذبتمونا ﴿وما علينا إلا البلاغ المبين﴾ أي بالآيات الدالة على صدقنا ﴿قالوا إنا تطيرنا بكم﴾ أي تشاءمنا منكم وذلك لأن المطر حبس عنهم فقالوا أصابنا ذلك بشؤمكم ﴿لئن لم تنتهوا﴾ أي تسكتوا

بالميت وقد تغيّر وأروح فجعلا يدعوان ربّهما علانية، وجعل شمعون يدعو ربّه سرّاً، فقام الميت، وقال: إني قَدِمت منذ سبعة أيام ووجدت مشركاً فأُدخلت في سبعة أودية من النار، وأنا أُحذّركم ما أنتم فيه آمنوا بالله، ثم قال: فتحت لي أبواب السماء فنظرت فرأيت شاباً حسن الوجه يشفع لهؤلاء الثلاثة، قال الملك: ومَن الثلاثة؟ قال: شمعون وهذان وأشار إلى صاحبيه، فتعجب الملك لمّا علم، فلما علم شمعون أن قوله أثّر في الملك خبّره بالحال، ودعاه إلى الإسلام فآمن الملك وآمن قوم كثير، وكفر آخرون. وقيل: إن ابنة للملك كانت قد توفيت ودفنت، فقال شمعون للملك: اطلب من هذين الرجلين أن يحييا ابنتك، فطلب منهما الملك ذلك فقاما وصلّيا ودعوا وشمعون معهما في السرّ، فأحيا الله المرأة وانشقّ القبر عنها فخرجت، وقالت: أسلموا فإنهما صادقان، قالت: ولا أظنكم تسلمون ثم طلبت من الرسولين أن يردّاها إلى مكانها فذرّا تُراباً على رأسها وعادت إلى قبرها كما كانت. وقال ابن إسحاق عن كعب ووهب: بل كفر الملك، وأجمع هو وقومه على قتل الرّسل فبلغ ذلك حبيباً، وهو على باب المدينة الأقصى، فجاء يسعى إليهم يذكّرهم ويدعوهم إلى طاعة المرسلين.

فذلك قوله تعالى: ﴿إذ أرسلنا إليهم اثنين﴾، وقال وهب: اسمهما يوحنا وبولس، ﴿فكذبوهما فعززنا﴾، يعني فقوّينا، ﴿بثالث﴾، برسول ثالث وهو شمعون، وقرأ أبو بكر عن عاصم فعززنا بالتخفيف وهو بمعنى الأول كقولك: شددنا وشدّدنا، بالتخفيف والتثقيل، وقيل: أي فغلبناهم من قولهم من عزيز. وقال كعب: الرسول صادق

عنا ﴿لنرجمنكم﴾ يعني لنقتلنكم وقيل بالحجارة ﴿وليمسنكم منا عذاب أليم قالوا طائركم معكم﴾ يعني شؤمكم معكم بكفركم وتكذيبكم يعني أصابكم الشؤم من قبلكم وقال ابن عباس حظكم من الخير والشر ﴿أئن ذكرتم﴾ معناه أطيرتم لأن ذكرتم ووعظتم ﴿بل أنتم قوم مسرفون﴾ أي في ضلالكم وشرككم متمادون في غيكم.

قوله عز وجل: ﴿وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى﴾ هو حبيب النجار وقيل كان قصاراً وقال وهب كان يعمل الحرير وكان سقيماً قد أسرع فيه الجذام وكان منزله عند أقصى باب من أبواب المسجد وكان مؤمناً ذا صدقة يجمع كسبه فإذا أمسى قسمه نصفين نصف لعياله ويتصدق بنصفه فلما بلغه أن قومه كذبوا الرسل وقصدوا قتلهم جاءهم ﴿قال يا قوم اتبعوا المرسلين﴾ وقيل كان في غار يعبد ربه فلما بلغه خبر الرسل أتاهم وأظهر دينه وقال لهم أتسألون على هذا أجراً قالوا لا فأقبل على قومه وقال يا قوم اتبعوا المرسلين.

اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّي إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾

﴿اتبعوا من لا يسألكم أجراً وهم مهتدون﴾ أي لا تخسرون معهم شيئاً من دنياكم وتربحون صحة دينكم فيحصل

وصدوق، والثالث شلوم، وإنما أضاف الله الإرسال إليه لأن عيسى إنما بعثهم بأمره تعالى، ﴿ فقالوا ﴾، جميعاً لأهل أنطاكية، ﴿ إنّا إليكم مرسلون ﴾.

﴿ قالوا ما أنتم إلاّ بشرٌ مثلنا وما أنزل الرحمن من شيء إن أنتم إلاّ تكذبون ﴾، ما أنتم إلاّ كاذبون فيما تزعمون.

﴿ قالوا ربنا يعلم إنّا إليكم لمرسلون ﴾.

﴿ وما علينا إلاّ البلاغ المبين ﴾.

﴿ قالوا إنّا تطيرنا بكم ﴾، تشاءمنا بكم وذلك أن المطر حبس عنهم حين قَدِمَ الرّسل عليهم، فقالوا: أصابنا هذا بشؤمكم، ﴿ لئن لم تنتهوا لنرجمنّكم ﴾، لنقتلنّكم، وقال قتادة: بالحجارة، ﴿ وليمسنّكم منّا عذاب أليم ﴾.

﴿ قالوا طائركم معكم ﴾، يعني شؤمكم معكم بكفركم وتكذيبكم يعني أصابكم الشؤم من قبلكم. وقال ابن عباس والضحاك: حظكم من الخير والشر، ﴿ أئن ذكرتم ﴾، يعني وعظتم بالله وهذا استفهام محذوف، الجواب: إن ذكرتم وعظتم بالله تطيرتم بنا وقرأ أبو جعفر أن بفتح الهمزة الملّينة ذكرتم بالتخفيف، ﴿ بل أنتم قوم مُسرفون ﴾، مشركون مجاوزون الحدّ.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى ﴾، وهو حبيب النجّار، وقال السدي: كان قصّاراً. وقال وهب: كان رجلاً يعمل الحرير وكان سقيماً قد أسرع فيه الجذام، وكان منزله عند أقصى باب من أبواب المدينة، وكان مؤمناً ذا صدقة يجمع كسبه إذا أمسى فيقسمه نصفين، فيطعم نصفاً لعياله ويتصدّق بنصفه، فلما بلغه أن قومه قد قصدوا قتل الرّسل جاءهم، ﴿ قال يا قوم اتّبعوا المرسلين ﴾.

﴿ اتّبعوا مَن لا يسئلكم أجراً وهم مهتدون ﴾، قال قتادة: كان حبيب في غار يعبد الله، فلما بلغه خبر الرّسل

لكم خير الدنيا والآخرة فلما قال ذلك قالوا له أو أنت مخالف لديننا ومتابع دين هؤلاء الرسل ومؤمن بإلههم فقال ﴿**ومالي لا أعبد الذي فطرني وإليه ترجعون**﴾ قيل أضاف الفطرة إلى نفسه والرجوع إليهم لأن الفطرة أثر النعمة وكانت عليه أظهر والرجوع فيه معنى الزجر فكان بهم أليق وقيل معناه وأي شيء بي إذا لم أعبد خالقي وإليه تردون عند البعث فيجزيكم بأعمالكم ﴿**أأتخذ من دونه آلهة**﴾ أي لا أتخذ من دونه آلهة ﴿**إن يردن الرحمن بضر**﴾ أي بسوء ومكروه ﴿**لا تغن عني**﴾ أي لا تدفع عني ﴿**شفاعتهم شيئاً**﴾ أي لا شفاعة لها فتغني عني ﴿**ولا ينقذون**﴾ أي من ذلك المكروه وقيل من العذاب ﴿**إني إذاً لفي ضلال مبين**﴾ أي خطأ ظاهر ﴿**إني آمنت بربكم فاسمعون**﴾ أي فاشهدوا لي بذلك قيل هو خطاب للرسل وقيل هو خطاب لقومه فلما قال ذلك وثب القوم عليه وثبة رجل واحد فقتلوه. قال ابن مسعود ووطئوه بأرجلهم حتى خرج قصبه من دبره وقيل كانوا يرمونه بالحجارة وهو يقول اللهم اهد قومي حتى أهلكوه وقبره بأنطاكية فلما لقي الله تعالى: ﴿**قيل**﴾ له ﴿**ادخل الجنة**﴾ فلما أفضى إلى الجنة ورأى نعيمها ﴿**قال يا ليت قومي يعلمون بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين**﴾ تمنى أن يعلم قومه أن الله تعالى غفر له وأكرمه ليرغبوا في دين الرسل فلما قتل غضب الله عز وجل له فعجَّل لهم العقوبة فأمر جبريل عليه الصلاة والسلام فصاح بهم صيحة واحدة فماتوا عن آخرهم فذلك قوله تعالى:

أتاهم فأظهر دينه، فلما انتهى حبيب إلى الرّسل قال لهم: تسألون عن هذا أجراً؟ قالوا: لا، فأقبل على قومه فقال: ﴿ **يا قوم اتّبعوا المرسلين اتّبعوا مَن لا يسألكم أجراً وهم مهتدون** ﴾، فلما قال ذلك قالوا له: وأنت مخالف لديننا ومتابع دين هؤلاء الرّسل ومؤمن بإلههم؟

فقال: ﴿ **وما لي لا أعبد الذي فطرني وإليه تُرجعون** ﴾، قرأ حمزة ويعقوب ﴿ **ما لي** ﴾ بإسكان الياء، والآخرون بفتحها. قيل: أضاف الفطرة إلى نفسه والرجوع إليهم، لأن الفطرة أثر النعمة، وكانت عليه أظهر، وفي الرجوع معنى الزجر وكان بهم أليق. وقيل: إنهم لمّا قال: اتبعوا المرسلين أخذوه فرفعوه إلى الملك، فقال له الملك: أفأنت تتبعهم؟ فقال: ﴿ **وما لي لا أعبد الذي فطرني** ﴾، يعني وأيّ شيء لي إذا لم أعبد الخالق وإليه ترجعون تُرَدّون عند البعث فيجزيكم بأعمالكم.

﴿ **أتتخذ من دونه آلهةً** ﴾، استفهام بمعنى الإنكار، أي لا أتخذ من دونه آلهة، ﴿ **إنْ يردنِ الرحمنُ بضرٍّ** ﴾، بسوء ومكروه، ﴿ **لا تغنِ عنّي** ﴾، لا تدفع عنّي، ﴿ **شفاعتهم شيئاً** ﴾ أي لا شفاعة لها أصلاً فتغني ﴿ **ولا ينقذون** ﴾ من ذلك المكروه وقيل لا ينقذون من العذاب لو عذبني الله إن فعلت ذلك.

﴿ **إني إذاً لفي ضلال مبين** ﴾، خطأ ظاهر.

﴿ **إنّي آمنت بربّكم فاسمعون** ﴾، يعني فاسمعوا مني، فلما قال ذلك وثب القوم عليه وثبة رجل واحد فقتلوه. قال ابن مسعود: وطؤوه بأرجلهم حتى خرج قصبه من دبره. قال السدي: كانوا يرمونه بالحجارة وهو يقول: اللّهمّ اهدِ قومي حتى قطعوه وقتلوه. وقال الحسن: خرقوا خرقاً في حلقة فعلّقوه بسور من سور المدينة، وقبره بأنطاكية فأدخله الله الجنة، وهو حيّ فيها يُرزَق.

فذلك قوله: ﴿ **قيل ادخل الجنة** ﴾، فلما أفضى إلى الجنة، ﴿ **قال يا ليت قومي يعلمون** ﴾.

﴿ **بما غفر لي ربّي** ﴾، يعني بغفران ربّي لي، ﴿ **وجعلني من المكرمين** ﴾، تمنى أن يعلم قومه أن الله غفر له وأكرمه، ليرغبوا في دين الرسل، فلما قتل حبيب غضب الله له وعجّل لهم النقمة، فأمر جبريل فصاح بهم صيحة واحدة فماتوا عن آخرهم.

﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ۝٢٨ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ ۝٢٩ يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٣٠ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ۝٣١ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ۝٣٢﴾

﴿وما أنزلنا على قومه من بعده من جند من السماء﴾ يعني الملائكة ﴿وما كنا منزلين﴾ أي ما كنا لنفعل هذا بل الأمر في إهلاكهم كان أيسر مما تظنون ثم بيَّن عقوبتهم فقال تعالى: ﴿إن كانت إلا صيحة واحدة﴾ قال المفسرون أخذ جبريل بعضادتي باب المدينة وصاح بهم صيحة واحدة ﴿فإذا هم خامدون﴾ أي ميتون ﴿يا حسرة على العباد﴾ يعني يا لها حسرة وندامة وكآبة على العباد والحسرة أن يركب الإنسان من شدة الندم ما لا نهاية له حتى يبقى قلبه حسيراً، قيل تحسروا على أنفسهم لما عاينوا من العذاب حيث لم يؤمنوا بالرسل الثلاثة فتمنوا الإيمان حيث لم ينفعهم وقيل تتحسر عليهم الملائكة حيث لم يؤمنوا بالرسل وقيل يقول الله تعالى يا حسرة على العباد يوم القيامة حيث لم يؤمنوا بالرسل ثم بين سبب تلك الحسرة فقال تعالى: ﴿ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون﴾ قوله تعالى: ﴿ألم يروا﴾ أي ألم يخبروا خطاب لأهل مكة ﴿كم أهلكنا قبلهم من القرون﴾ أي من الأمم الخالية من أهل كل عصر سموا بذلك لاقترانهم في الوجود ﴿أنهم إليهم لا يرجعون﴾ أي لا يعودون إلى الدنيا أفلا يعتبرون بهم ﴿وإن كل لما جميع لدينا محضرون﴾ يعني أن جميع الأمم يحضرون يوم القيامة.

فذلك قوله: ﴿ وما أنزلنا على قومه من بعده من جند من السماء ﴾، يعني الملائكة، ﴿ وما كنّا منزلين ﴾، وما كنّا نفعل هذا بل الأمر في إهلاكهم كان أيسر مما يظنون. وقيل: معناه ﴿ وما أنزلنا على قومه من بعده ﴾ أي على قوم حبيب من بعد قتله من جند وما كنّا منزلين، ننزلهم على الأمم إذا أهلكناهم، كالطوفان والصاعقة والريح، ثم بيّن عقوبتهم.

فقال تعالى: ﴿ إن كانت إلاّ صيحة واحدة ﴾، وقرأ أبو جعفر: صيحة واحدة، بالرفع جعل الكون بمعنى الوقوع. قال المفسّرون: أخذ جبريل بعضادتي باب المدينة ثم صاح بهم صيحة واحدة، ﴿ فإذا هم خامدون ﴾، ميتون.

﴿ يا حسرةً على العباد ﴾، قال عكرمة: يعني يا حسرتهم على أنفسهم والحسرة شدّة الندامة، وفيه قولان أحدهما يقول الله تعالى: ﴿ يا حسرة ﴾ وندامة وكآبة على العباد يوم القيامة حين لم يؤمنوا بالرّسل، والآخر أنه من قول الهالكين. قال أبو العالية: لمّا عاينوا العذاب قالوا: يا حسرة أي ندامة على العباد، يعني على العباد يعني الرّسل الثلاثة حيث لم يؤمنوا بهم، فتمنّوا الإيمان حين لم ينفعهم. قال الأزهري: الحسرة لا تدعى ودعاؤها تنبيه المخاطبين. وقيل العرب تقول: يا حسرتي ويا عجباً على طريق المبالغة والنداء عندهم بمعنى التنبيه، فكأنه يقول: أيها العجب هذا وقتك؟ وأيتها الحسرة هذا أوانك؟ حقيقة المعنى أن هذا زمان الحسرة والتعجّب، وثم بيّن سبب الحسرة والندامة، فقال: ﴿ ما يأتيهم من رسول إلاّ كانوا به يستهزؤون ﴾.

﴿ ألم يَروْا ﴾، ألم يخبروا يعني أهل مكة، ﴿ كم أهلكنا قبلهم من القرون ﴾، والقرن أهل كل عصر، سُمّوا بذلك لاقترانهم في الوجود، ﴿ أنهم إليهم لا يرجعون ﴾، أي لا يعودون إلى الدنيا أفلا يعتبرون بهم.

﴿ وإنْ كلٌّ لمّا جميع ﴾، قرأ عاصم وحمزة ﴿ لمّا ﴾ بالتشديد هنا وفي الزخرف [٣٥] والطارق [٤]، ووافق ابن عامر إلاّ في الزخرف، ووافق أبو جعفر في الطارق، وقرأ الآخرون بالتخفيف، فمَن شدّد جعل ﴿ إن ﴾ بمعنى الجحد، و﴿ لمّا ﴾ بمعنى إلاّ، تقديره: وما كل إلاّ جميعٌ، ومَن خفّف جعل ﴿ إن ﴾ للتحقيق و﴿ ما ﴾ صلة، مجازه: كلٌّ جميعٌ، ﴿ لدينا محضرون ﴾.

وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن
نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾
سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ
نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾
وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ
ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا
يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾

﴿**وآية لهم**﴾ يعني تدلهم على كمال قدرتنا على إحياء الموتى ﴿**الأرض الميتة أحييناها**﴾ أي بالمطر ﴿**وأخرجنا منها**﴾ أي من الأرض ﴿**حباً**﴾ يعني الحنطة والشعير وما أشبههما ﴿**فمنه يأكلون**﴾ أي من الحب ﴿**وجعلنا فيها**﴾ يعني في الأرض ﴿**جنات**﴾ يعني بساتين ﴿**من نخيل وأعناب وفجرنا فيها من العيون ليأكلوا من ثمره**﴾ يعني من الثمر الحاصل بالماء ﴿**وما عملته أيديهم**﴾ يعني من الزرع والغرس الذي تعبوا فيه وقرىء عملت بغير هاء، وقيل ما للنفي والمعنى ولم تعمله أيديهم وليس من صنيعهم بل وجدوها معمولة وقيل أراد العيون والأنهار التي لم تعملها يد خلق مثل النيل والفرات ودجلة ﴿**أفلا يشكرون**﴾ يعني نعمة الله تعالى ﴿**سبحان الذي خلق الأزواج كلها**﴾ يعني الأصناف كلها ﴿**مما تنبت الأرض**﴾ أي من الأشجار والثمار والحبوب ﴿**ومن أنفسهم**﴾ يعني الذكر والأنثى ﴿**ومما لا يعلمون**﴾ يعني مما خلق الله تعالى من الأشياء في البر والبحر من الدواب.

قوله عز وجل: ﴿**وآية لهم**﴾ يعني تدلهم على قدرتنا ﴿**الليل نسلخ**﴾ أي ننزع ونكشط ﴿**منه النهار فإذا هم**

﴿ **وآية لهم الأرض الميتة أحييناها** ﴾، بالمطر، ﴿ **وأخرجنا منها حباً** ﴾، يعني الحنطة والشعير وما أشبههما، ﴿ **فمنه يأكلون** ﴾، أي من الحبّ.

﴿ **وجعلنا فيها جنّات** ﴾ بساتين، ﴿ **من نخيل وأعناب وفجّرنا فيها** ﴾، في الأرض، ﴿ **من العيون** ﴾.

﴿ **ليأكلوا من ثمره** ﴾، أي من الثمرِ الحاصل بالماء، ﴿ **وما عملته** ﴾، قرأ حمزة والكسائي وأبو بكر عملت بغيرها، وقرأ الآخرون عملته بالهاء أي يأكلون من الذي عملته، ﴿ **أيديهم** ﴾، من الزرع والغرس والهاء عائدة إلى ﴿ **ما** ﴾ التي هي بمعنى الذي. وقيل: ما للنفي في قوله ما عملته أيديهم أي وجدوها معمولة ولم تعمله أيديهم، ولا صنع لهم فيها، وهذا معنى قول الضحاك ومقاتل، وقيل: أراد العيون والأنهار التي لم تعملها يد خلق مثل دجلة والفرات والنيل ونحوها، ﴿ **أفلا يشكرون** ﴾، نعمة الله.

﴿ **سبحان الذي خلق الأزواج كلها** ﴾، أي الأصناف كلها، ﴿ **مما تنبت الأرض** ﴾، من الثمار والحبوب، ﴿ **ومن أنفسهم** ﴾، يعني الذكور والإناث، ﴿ **ومما لا يعلمون** ﴾، مما خلق من الأشياء من دوابّ البرّ والبحر.

﴿ **وآية لهم** ﴾، تدلّ على قدرتنا، ﴿ **الليل نسلخ** ﴾، ننزع ونكشط، ﴿ **منه النهار فإذا هم مظلمون** ﴾، داخلون في الظلمة، ومعناه نذهب النهار ونجيء بالليل، وذلك أن الأصل هي الظلمة والنهار داخل عليها، فإذا غربت الشمس سلخ النهار من الليل، فتظهر الظلمة.

مظلمون﴾ يعني فإذا هم في الظلمة وذلك أن الأصل هي الظلمة والنهار داخل عليها فإذا غربت الشمس سلخ النهار من الليل فتظهر الظلمة ﴿والشمس تجري لمستقر لها﴾ يعني إلى مستقر لها قيل إلى انتهاء سيرها عند انقضاء الدنيا وقيام الساعة وقيل تسير في منازلها حتى تنتهي إلى مستقرها، الذي لا تجاوزه ثم ترجع إلى أول منازلها وهو أنها تسير حتى تنتهي إلى أبعد مغاربها ثم ترجع فذلك مستقرها وقيل مستقرها نهاية ارتفاعها في السماء في الصيف ونهاية هبوطها في الشتاء. وقرأ ابن مسعود والشمس تجري لا مستقر لها أي لا قرار ولا وقوف فهي جارية أبداً إلى يوم القيامة وقد صح عن النبي ﷺ فيما رواه أبو ذر قال «سألت النبي ﷺ عن قوله والشمس تجري لمستقر لها قال مستقرها تحت العرش: وفي رواية قال النبي ﷺ لأبي ذر حين غربت الشمس أتدري أين تذهب الشمس قال الله ورسوله أعلم قال إنها تذهب حتى تسجد تحت العرش فتستأذن فيؤذن لها ويوشك أن تسجد فلا يقبل منها وتستأذن فلا يؤذن لها فيقال لها ارجعي من حيث جئت فتطلع من مغربها فذلك قوله تعالى: ﴿والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم﴾ أخرجاه في الصحيحين، قال الشيخ محيي الدين النووي اختلف المفسرون فيه فقال جماعة بظاهر الحديث. قال الواحدي فعلى هذا القول إذا غربت الشمس كل يوم استقرت تحت العرش إلى أن تطلع، وقيل تجري إلى وقت لها وأصل لا تتعداه وعلى هذا مستقرها انتهاء سيرها عند انقضاء الدنيا وأما سجود الشمس فهو تمييز وإدراك يخلقه الله تعالى فيها والله أعلم ﴿ذلك﴾ يعني الذي ذكر من جرى الشمس على ذلك التقدير والحساب الذي يكل النظر عن استخراجه وتتحير الأفهام عن استنباطه ﴿تقدير العزيز﴾ يعني الغالب بقدرته على كل شيء مقدور ﴿العليم﴾ يعني المحيط علماً بكل شيء.

قوله تعالى: ﴿والقمر قدرناه منازل﴾ يعني قدرنا له منازل وهي ثمانية وعشرون منزلاً ينزل كل ليلة في منزل منها لا يتعداه يسير فيها من ليلة المستهل إلى الثامنة والعشرين ثم يستتر ليلتين أو ليلة إذا نقص فإذا كان في آخر منازله رقّ وتقوس فذلك قوله تعالى: ﴿حتى عاد كالعرجون القديم﴾ وهو العود الذي عليه شماريخ العذق إلى منبته من النخلة

﴿ والشمسُ تجري لمستقرٍ لها ﴾، أي إلى مستقر لها. قيل: إلى انتهاء سيرها عند انقضاء الدنيا وقيام الساعة. وقيل: إنها تسير حتى تنتهي إلى أبعد مغاربها، ثم ترجع فذلك مستقرها لأنها لا تجاوزها. وقيل: مستقرها نهاية ارتفاعها في السماء في الصيف، ونهاية هبوطها في الشتاء، وقد صحّ عن النبي ﷺ أنه قال: «مستقرها تحت العرش»، أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا الحميدي أنا وكيع عن الأعمش عن إبراهيم التيمي عن أبيه عن أبي ذر قال: سألت رسول الله ﷺ عن قوله: ﴿ والشمس تجري لمستقر لها ﴾ قال: «مستقرها تحت العرش». أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا الحميدي أنا وكيع ثنا سفيان عن الأعمش عن إبراهيم عن أبيه عن أبي ذرّ قال: قال رسول الله ﷺ لأبي ذرّ حين غربت الشمس: «أتدري أين تذهب»؟ قال: قلت الله ورسوله أعلم، قال: «فإنها تذهب حتى تسجد تحت العرش، فتستأذن فيؤذن لها ويوشك أن تسجد فلا يقبل منها، وتستأذن فلا يؤذن لها، فيُقالُ لها: ارجعي من حيث جئت فتطلع من مغربها، فذلك قوله تعالى: ﴿والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم ﴾، وروى عمرو بن دينار عن ابن عباس: والشمس تجري لا مستقر لها، وهي قراءة ابن مسعود أي لا قرار لها ولا وقوف فهي جارية أبداً ذلك تقدير العزيز العليم.

﴿ والقمر قدّرناه ﴾، أي قدّرنا له قرأ ابن كثير ونافع وأهل البصرة القمر برفع الراء لقوله: ﴿ وآية لهم الليل ﴾ والشمس والقمر، وقرأ الآخرون بالنصب لقوله: ﴿ قدّرناه ﴾ أي قدّرنا القمر، ﴿ منازل ﴾، وقد ذكرنا أسامي المنازل في سورة يونس [٥] فإذا صار القمر إلى آخر المنازل دقّ فذلك قوله: ﴿ حتى عاد كالعرجون القديم ﴾،

والقديم الذي أتى عليه الحول فإذا قدم عتق ويبس وتقوس واصفر فشبه القمر به عند انتهائه إلى آخر منازله ﴿**لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر**﴾ يعني لا يدخل النهار على الليل قبل انقضائه ولا يدخل الليل على النهار قبل انقضائه وهو قوله تعالى: ﴿**ولا الليل سابق النهار**﴾ يعني هما يتعاقبان بحساب معلوم لا يجيء أحدهما قبل وقته. وقيل لا يدخل أحدهما في سلطان الآخر فلا تطلع الشمس بالليل ولا يطلع القمر بالنهار وله ضوء فإذا اجتمعا وأدرك أحدهما صاحبه قامت القيامة. وقيل معناه أن الشمس لا تجتمع مع القمر في فلك واحد ولا يتصل ليل بليل لا يكون بينهما نهار فاصل ﴿**وكل في فلك يسبحون**﴾ أي والشمس والقمر في فلك يسيرون.

قوله عز وجل: ﴿**وآية لهم أنا حملنا ذريتهم**﴾ يعني أولادهم ﴿**في الفلك المشحون**﴾ يعني المملوء ﴿**وخلقنا لهم من مثله**﴾ يعني مثل الفلك ﴿**ما يركبون**﴾ يعني من الإبل، وهي سفائن البر. وقيل أراد بالفلك المشحون سفينة نوح عليه الصلاة والسلام ومعنى الآية أن الله عز وجل حمل آباءهم الأقدمين في أصلاب الذين كانوا في السفينة فكانوا ذرية لهم ومنه قول العباس:

بل نطفة تركب السفين وقد ... ألجم نسراً وأهله الغرق

وإنما ذكر ذريتهم دونهم لأنه أبلغ في الامتنان عليهم وأبلغ في التعجب من قدرته فعلى هذا القول يكون قوله من مثله أي من مثل ذلك الفلك ما يركبون أي من السفن والزوارق في الأنهار الكبار والصغار

وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا

والعرجون عود العذق الذي عليه الشماريخ فإذا قَدِمَ عتق يبس وتقوّس واصفرّ، فشبّه القمر في دقّته وصُفرته في آخر المنازل به.

﴿ **لا الشمسُ ينبغي لها أن تدركَ القمرَ** ﴾، أي لا يدخل النهار على الليل قبل انقضائه، ولا يدخل الليل على النهار قبل انقضائه، وهو قوله تعالى: ﴿ **ولا الليل سابق النهار** ﴾، أي هما يتعاقبان بحساب معلوم لا يجيء أحدهما قبل وقته. وقيل: لا يدخل أحدهما في سلطان الآخر، لا يطلع الشمس بالليل ولا يطلع القمر بالنهار وله ضوء، وإذا اجتمعا وأدرك كل واحد منهما صاحبه قامت القيامة. وقيل: ﴿ **لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر** ﴾ أي تجتمع معه في فلك واحد ﴿ **ولا الليل سابق النهار** ﴾ أي لا يتصل ليل بليل لا يكون بينهما فاصل، ﴿ **وكلٌ في فلك يسبحون** ﴾، يجرون.

﴿ **وآية لهم أنّا حملنا ذريتهم** ﴾، قرأ أهل المدينة والشام ويعقوب (ذرياتهم) بجمع، وقرأ الآخرون ﴿ **ذريتهم** ﴾ على التوحيد، فمَن جمع كسر التاء ومَن لم يجمع نصبها والمراد بالذريّة الآباء والأجداد، واسم الذريّة يقع على الآباء كما يقع على الأولاد، ﴿ **في الفلك المشحون** ﴾، أي المملوء، وأراد سفينة نوح، وهؤلاء من نسل مَن حُمل مع نوح، وكانوا في أصلابهم.

﴿ **وخلقنا لهم من مثله ما يركبون** ﴾، قيل: أراد به السفن التي عملت بعد سفينة نوح على هيئتها. وقيل: أراد بالسفن التي تجري في الأنهار فهي في الأنهار كالفلك الكبار في البحار، هذا قول قتادة والضحاك وغيرهما، ورُوِيَ عن ابن عباس: أنه قال: ﴿ **وخلقنا لهم من مثله ما يركبون** ﴾، يعني الإبل، فالإبل في البرّ كالسفن في البحر.

﴿قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى
ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ
يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾﴾

﴿وإن نشأ نغرقهم فلا صريخ لهم﴾ يعني لا مغيث لهم ﴿ولا هم ينقذون﴾ يعني ينجون من الغرق قال ابن عباس ولا أحد ينقذهم من عذابي ﴿إلا رحمة منا ومتاعاً إلى حين﴾ يعني إلا أن يرحمهم الله ويمتعهم إلى انقضاء آجالهم ﴿وإذا قيل لهم اتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم﴾ قال ابن عباس ﴿ما بين أيديكم﴾ يعني الآخرة فاعملوا لها ﴿وما خلفكم﴾ يعني الدنيا فاحذروها ولا تغتروا بها.

وقيل ﴿ما بين أيديكم﴾ يعني وقائع الله تعالى بمن كان قبلكم من الأمم ﴿وما خلفكم﴾ يعني الآخرة ﴿لعلكم ترحمون﴾ أي لتكونوا على رجاء الرحمة وجواب إذا محذوف تقديره وإذا قيل لهم اتقوا أعرضوا ويدل على الحذف قوله تعالى: ﴿وما تأتيهم من آية من آيات ربهم﴾ أي دلالة على صدق محمد ﷺ ﴿إلا كانوا عنها معرضين﴾ قوله عز وجل: ﴿وإذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم﴾ أي مما أعطاكم ﴿الله﴾ نزلت في كفار قريش وذلك أن المؤمنين قالوا لكفار مكة أنفقوا على المساكين مما زعمتم أنه لله تعالى من أموالكم وهو ما جعلوه لله من حروثهم وأنعامهم ﴿قال الذين كفروا للذين آمنوا أنطعم﴾ أي أنرزق ﴿من لو يشاء الله أطعمه﴾ أي رزقه قيل كان العاص بن وائل السهمي إذا سأله المسكين قال له اذهب إلى ربك فهو أولى مني بك، ويقول قد منعه أفأطعمه أنا ومعنى الآية أنهم قالوا لو أراد الله أن يرزقهم لرزقهم فنحن نوافق مشيئة الله فيهم فلا نطعم من لم يطعمه وهذا مما يتمسك به البخلاء، يقولون لا نعطي من حرمه الله وهذا الذي يزعمون باطل لأن الله تعالى أغنى بعض الخلق وأفقر بعضهم ابتلاء فمنع الدنيا من الفقير لا بخلاً وأعطى الدنيا الغني لا استحقاقاً وأمر الغني بالإنفاق لا حاجة إلى ماله ولكن ليبلو الغني بالفقير فيما فرض له من مال

﴿ وإنْ نشأ نغرقهم فلا صريخ ﴾، أي لا مُغيث، ﴿ لهم ولا هم ينقذون ﴾، ينجون من الغرق. قال ابن عباس: ولا أحد ينقذهم من عذابي.

﴿ إلاّ رحمةً منّا ومتاعاً إلى حين ﴾، إلى انقضاء آجالهم، يعني إلاّ أن يرحمهم ويمتّعهم إلى حين آجالهم.

﴿ وإذا قيل لهم اتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم ﴾، قال ابن عباس: ما بين أيديكم يعني الآخرة، فاعملوا لها وما خلفكم يعني من الدنيا فاحذروها، ولا تغترّوا بها. وقيل: ما بين أيديكم وقائع الله فيمن كان قبلكم من الأمم، وما خلفكم عذاب الآخرة، وهو قول قتادة ومقاتل. ﴿ لعلّكم تُرحمون ﴾، والجواب محذوف تقديره: إذا قيل لهم هذا أعرضوا عنه، دليله ما بعده.

﴿ وما تأتيهم من آية من آيات ربّهم ﴾، أي دلالة على صدق محمد ﷺ، ﴿ إلاّ كانوا عنها مُعرضين ﴾.

﴿ وإذا قيل لهم أنفقوا ممـا رزقكم الله ﴾، أعطاكم الله، ﴿ قـال الذين كفـروا للذين آمنوا أنـطعم ﴾، أنرزق، ﴿ مَن لو يشاء الله أطعمه ﴾، وذلك أن المؤمنين قالوا لكفّار مكة: أنفقوا على المساكين مما زعمتم من أموالكم أنه لله، وهو ما جعلوه لله من حروثهم وأنعامهم، قالوا: أنطعم أنرزق مَن لو يشاء الله أطعمه رزقه، ثم لم يرزقه مع قدرته عليه، فنحن نوافق مشيئة الله فلا نطعم مَن لم يطعمه الله، وهذا مما يتمسك به البخلاء، يقولون: لا نعطي مَن حرمه الله، وهذا الذي يزعمون لأن الله أغنى بعض الخلق وأفقر بعضهم ابتلاء، فمنع الدنيا من الفقير لا بخلا وأمر الغني بالإنفاق لا حاجة إلى ماله، ولكن ليبلوَ الغنيَّ بالإنفاق لا حاجةً إلى ماله، ولكن ليبلو الغني بالفقير فيما

الغني ولا اعتراض لأخذ في مشيئة الله وحكمته في خلقه والمؤمن يوافق أمر الله تعالى وقيل قالوا هذا على سبيل الاستهزاء ﴿إن أنتم إلا في ضلال مبين﴾ قيل هو من قول الكفار للمؤمنين ومعناه ما أنتم إلا في خطأ بيِّن باتباعكم محمداً وترك ما نحن عليه. وقيل هو من قول الله تعالى للكفار لما ردوا من جواب المؤمنين ﴿ويقولون متى هذا الوعد﴾ يعني يوم القيامة والبعث ﴿إن كنتم صادقين﴾ قال الله تعالى: ﴿ما ينظرون﴾ أي ينتظرون ﴿إلا صيحة واحدة﴾ قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما يريد النفخة الأولى ﴿تأخذهم وهم يخصمون﴾ أي في أمر الدنيا من البيع والشراء ويتكلمون في الأسواق والمجالس وفي متصرفاتهم فتأتيهم الساعة أغفل ما كانوا عنها، وقد صح في حديث أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ قال «ولتقومن الساعة وقد نشر الرجلان ثوباً بينهما فلا يتبايعانه ولا يطويانه، ولتقومن الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لقحته فلا يطعمه، ولتقومن الساعة وهو يليط حوضه فلا يسقى فيه ولتقومن الساعة وقد رفع أكلته إلى فيه فلا يطعمها» أخرجه البخاري وهو طرف من حديث. ولمسلم من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال «ثم ينفخ في الصور فلا يسمعه أحد إلا أصغى ليتاً فأول من يسمعه رجل يلوط حوض إبله فيصعق ويصعق الناس» اللقحة بفتح اللام وكسرها الناقة القريبة العهد من النتاج وقوله وهو يليط حوضه يعني يطينه ويصلحه، وكذلك يلوط حوض إبله وأصله من اللوط. وقوله أصغى ليتاً الليت صفحة العنق وأصغى يعني أمال عنقه يسمع.

﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا۟ يَـٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَـٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾ إِنَّ أَصْحَـٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَـٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فلا يستطيعون توصية﴾ أي لا يقدرون على الإيصاء بل أعجلوا عن الوصية فماتوا ﴿ولا إلى أهلهم يرجعون﴾ يعني لا يقدرون على الرجوع إلى أهلهم لأن الساعة لا تمهلهم بشيء ﴿ونفخ في الصور﴾ هذه النفخة الثانية

أمر وفرض له في مال الغني، ولا اعتراض لأحد على مشيئة الله وحكمه في خلقه، ﴿ إن أنتم إلاّ في ضلال مبين ﴾، يقول الكفّار للمؤمنين: ما أنتم إلاّ في خطأ بيّن في اتّباعكم محمداً وترك ما نحن عليه.

﴿ ويقولون متى هذا الوعد ﴾، أي القيامة والبعث، ﴿ إن كنتم صادقين ﴾.

قال الله تعالى: ﴿ ما ينظرون ﴾، أي ما ينتظرون، ﴿ إلاّ صيحةً واحدة ﴾، قال ابن عباس: يريد النفخة الأولى، ﴿ تأخذهم وهم يخصِمُون ﴾، يعني يختصمون في أمر الدنيا من البيع والشراء، ويتكلمون في المجالس والأسواق، قرأ حمزة ﴿ يخصمون ﴾ بسكون الخاء وتخفيف الصاد، أي يغلب بعضهم بعضاً بالخصام، وقرأ الآخرون بتشديد الصاد، أي يختصمون، أُدغمت التاء في الصاد، ثم ابن كثير ويعقوب وورش يفتحون الخاء بنقل حركة التاء المدغمة إليها، ويجزمها أبو جعفر وقالون، ويروم فتحة الخاء أبو عمرو، وقرأ الباقون بكسر الخاء، وروينا أن النبي ﷺ قال: «لَتقُومَنَّ الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما بينهما فلا يتبايعانه ولا يطويانه، ولَتَقُومَنَّ الساعة وقد رفع رجل أكلته إلى فِيْه فلا يطعمها».

قوله عزّ وجلّ: ﴿ فلا يستطيعون توصية ﴾، أي لا يقدرون الإيصاء. قال مقاتل: عجّلوا عن الوصية فماتوا، ﴿ ولا إلى أهلهم يرجعون ﴾، ينقلبون، والمعنى أن الساعة لا تمهلهم لشيء.

وهي نفخة البعث وبين النفختين أربعون سنة (ق) عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ «ما بين النفختين أربعون، قالوا يا أبا هريرة أربعين يوماً قال أبيت، قالوا أربعين شهراً قال أبيت، قالوا أربعين سنة قال أبيت ثم ينزل من السماء ماء فينبتون كما ينبت البقل وليس من الإنسان شيء لا يبلى إلا عظماً واحداً وهو عجب الذنب ومنه يركب الخلق يوم القيامة» **﴿فإذا هم من الأجداث﴾** أي القبور **﴿إلى ربهم ينسلون﴾** أي يخرجون منها أحياء **﴿قالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا﴾** قال ابن عباس إنما يقولون هذا لأن الله تعالى يرفع عنهم العذاب بين النفختين فيرقدون فإذا بعثوا بعد الثانية وعاينوا أهوال القيامة دعوا بالويل. وقيل إذا عاين الكفار جهنم وأنواع عذابها صار عذاب القبر في جنبها كالنوم فقالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا **﴿هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون﴾** أقروا حين لا ينفعهم الإقرار. وقيل قالت لهم الملائكة ذلك، وقيل يقول الكفار من بعثنا من مرقدنا فيقول المؤمنون هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون **﴿إن كانت إلا صيحة واحدة﴾** يعني النفخة الأخيرة **﴿فإذا هم جميع لدينا محضرون﴾** أي للحساب **﴿فاليوم لا تظلم نفس شيئاً ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون﴾** قوله تعالى: **﴿إن أصحاب الجنة اليوم في شغل﴾** قال ابن عباس في افتضاض الأبكار وقيل في زيارة بعضهم بعضاً وقيل في ضيافة الله تعالى، وقيل في السماع وقيل شغلوا بما في الجنة من النعيم عما فيه أهل النار من العذاب الأليم **﴿فاكهون﴾** قال ابن عباس فرحون وقيل ناعمون وقيل معجبون بما هم فيه.

﴿ ونفخ في الصور ﴾، وهي الأخيرة نفخة البعث، وبين النفختين أربعون سنة، **﴿ فإذا هم من الأجداث ﴾**، يعني القبور، واحدها: جدث، **﴿ إلى ربّهم ينسلون ﴾**، يخرجون من القبور أحياء، ومنه قيل للولد: نسل لخروجه من بطن أمه.

﴿ قالوا ياويلنا مَن بعثنا من مرقدنا ﴾، قال أُبيّ بن كعب وابن عباس وقتادة: إنما يقولون هذا لأن الله تعالى يرفع عنهم العذاب بين النفختين، فيرقدون فإذا بُعثوا بعد النفخة الأخيرة وعاينوا القيامة دعوا بالويل. وقال أهل المعاني: إن الكفّار إذا عاينوا جهنم وأنواع عذابها صار عذاب القبر في جنبها كالنوم، فقالوا: يا ولينا مَن بعثنا من مرقدنا؟ ثم قالوا: **﴿ هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون ﴾**، أقرّوا حين لم ينفعهم الإقرار. وقيل: قالت الملائكة لهم: **﴿ هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون ﴾**. قال مجاهد: يقول الكفّار: **﴿ مَن بعثنا من مرقدنا ﴾** فيقول المؤمنون: **﴿ هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون ﴾**.

﴿ إن كانت ﴾، ما كانت، **﴿ إلاّ صيحة واحدة ﴾**، يعني النفخة الأخيرة، **﴿ فإذا هم جميعٌ لدينا مُحضرون ﴾**.

﴿ فاليوم لا تُظلمُ نفسٌ شيئاً ولا تجزون إلاّ ما كنتم تعملون ﴾.

﴿ إن أصحاب الجنة اليوم في شغل ﴾، قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو **﴿ في شغل ﴾** بسكون الغين، والباقون بضمها، وهما لغتان، مثل السحت والسحت، واختلفوا في معنى الشغل، قال ابن عباس: في افتضاض الأبكار. وقال وكيع بن الجرّاح: في السّماع. وقال الكلبي: في شغل عن أهل النار وعمّاهم فيه لا يهمّهم أمرهم ولا يذكرونهم. وقال الحسن: شُغلوا بما في الجنة من النعيم عمّا فيه أهل النار من العذاب. وقال ابن كيسان: في زيارة بعضهم بعضاً. وقيل: في ضيافة الله تعالى. **﴿ فاكهون ﴾**، قرأ أبو جعفر «فكهـون» حيث كان، وافقه حفص في المطففين [٣١]؛ وهما لغتان مثل الحاذر والحذر، أي ناعمون. قال مجاهد والضحاك: معجبون بما هم فيه. وعن ابن عباس قال: فرحون.

هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾ وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾ ۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾

﴿**هم وأزواجهم في ظلال**﴾ يعني أكنان القصور ﴿**على الأرائك**﴾ يعني السرر في الحجال ﴿**متكئون**﴾ يعني ذوو اتكاء تحت تلك الظلال ﴿**لهم فيها فاكهة**﴾ أي في الجنة ﴿**ولهم ما يدعون**﴾ يعني ما يتمنون ويشتهون والمعنى أن كل ما يدعون أي أهل الجنة يأتيهم ﴿**سلام قولاً من رب رحيم**﴾ يعني يسلم الله عز وجل عليهم روى البغوي بإسناد الثعلبي عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ «بينا أهل الجنة في نعيمهم إذ سطع لهم نور فرفعوا رؤوسهم فإذا الرب عز وجل قد أشرف عليهم من فوقهم فقال السلام عليكم يا أهل الجنة فذلك قوله عز وجل ﴿**سلام قولاً من رب رحيم**﴾ ينظر إليهم وينظرون إليه فلا يلتفتون إلى شيء من النعيم ما داموا ينظرون إليه حتى يحتجب عنهم فيبقى نوره وبركته عليهم في ديارهم» وقيل تسلم الملائكة عليهم من ربهم وقيل تدخل الملائكة على أهل الجنة من كل باب يقولون سلام عليكم من ربكم الرحيم وقيل يعطيهم السلامة يقول اسلموا السلام الأبدية ﴿**وامتازوا اليوم أيها المجرمون**﴾ يعني اعتزلوا واتفردوا وتميزوا اليوم من المؤمنين الصالحين وكونوا على حدة، وقيل إن لكل كافر في النار بيتاً فيدخل ذلك البيت ويردم بابه فيكون فيه أبد الآبدين لا يرى ولا يرى فعلى هذا القول يمتاز بعضهم عن بعض.

قوله عز وجل: ﴿**ألم أعهد إليكم يا بني آدم**﴾ أي ألم آمركم وأوصيكم يا بني آدم ﴿**أن لا تعبدوا الشيطان**﴾ يعني

﴿ **هم وأزواجهم** ﴾، أي حلائلهم، ﴿ **في ظلال** ﴾، قرأ حمزة والكسائي ظلل بضم الظاء من غير ألف، جمع ظلّة، وقرأ العامّة ﴿ **في ظلال** ﴾ بالألف وكسر الظاء على جمع ظل، ﴿ **على الأرائك** ﴾، يعني السرر في الحجال واحدتها أريكة. قال ثعلب: لا تكون أريكة حتى يكون عليها حجلة. ﴿ **متكئون** ﴾، ذَوُو اتكاة.

﴿ **لهم فيها فاكهةٌ ولهم ما يدعون** ﴾، يتمنون ويشتهون.

﴿ **سلامٌ قولاً من ربٍّ رحيم** ﴾، أي يقول الله لهم قولاً، أخبرنا أبو سعيد أحمد بن إبراهيم الشريحي أنا إسحاق أحمد بن محمد إبراهيم الثعلبي أنا عبد الخالق بن علي بن عبد الخالق المؤذن حدّثني أبو بكر أحمد بن محمد بن موسى الملحمي الأصفهاني أنا الحسن بن أبي علي الزعفراني أنا ابن أبي الشوارب أنا أبو عاصم العبادَاني أنا الفضل الرقاشي عن محمد بن المنكدر عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «بينا أهل الجنة في نعيمهم إذْ سطع لهم نورٌ فرفعوا رؤوسهم، فإذا الربُّ تعالى قد أشرف عليهم من فوقهم، فقال: السلام عليكم يا أهل الجنة، فذلك قوله: ﴿ **سلامٌ قولاً من ربٍّ رحيم** ﴾، فينظر إليهم وينظرون إليه، فلا يلتفتون إل شيء من النعيم ما داموا ينظرون إليه حتى يحتجب عنهم فيبقى نورُه وبركتهُ عليهم في ديارهم». وقيل: يسلّم عليهم في ديارهم. وقيل: تسلّم عليهم الملائكة من ربهم. وقال مقاتل: تدخل الملائكة على أهل الجنة من كل باب يقولون: سلام عليكم يا أهل الجنة من ربكم الرحيم. وقيل: يعطيهم السلامة يقول: أسلموا السلامة الأبدية.

﴿ **وامتازوا اليوم أيها المجرمون** ﴾، قال مقاتل: اعتزلوا اليوم من الصالحين. قال أبو العالية: تميزوا. وقال السدي: كونوا على حِدَة. وقال الزجّاج: انفردوا عن المؤمنين. قال الضحاك: إنّ لكل كافر في النار بيتاً يدخل ذلك البيت ويردم بابه بالنار فيكون فيه أبد الأبدين، لا يَرى ولا يُرى.

﴿ **ألم أعهد إليكم يا بني آدم** ﴾، ألم آمركم يا بني آدم، ﴿ **أنْ لا تعبدوا الشيطان** ﴾، أي لا تطيعوا الشيطان

لا تطيعوه فيما يوسوس ويزين لكم من معصية الله ﴿إنه لكم عدو مبين﴾ أي ظاهر العداوة.

﴿وَأَنِ اعْبُدُونِي هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ هَٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾﴾

﴿وأن اعبدوني﴾ أي أطيعوني ووحدوني ﴿هذا صراط مستقيم﴾ أي لا صراط أقوم منه قوله تعالى: ﴿ولقد أضل منكم جبلاً كثيراً﴾ أي خلقاً كثيراً ﴿أفلم تكونوا تعقلون﴾ يعني ما أتاكم من هلاك الأمم الخالية بطاعة إبليس ويقال لهم لما دنوا من النار ﴿هذه جهنم التي كنتم توعدون﴾ يعني بها في الدنيا ﴿اصلوها﴾ يعني ادخلوها ﴿اليوم بما كنتم تكفرون﴾ قوله تعالى: ﴿اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون﴾ معنى الآية أن الكفار ينكرون ويجحدون كفرهم وتكذيبهم الرسل، ويقولون والله ربنا ما كنا مشركين فيختم الله على أفواههم وتنطق جوارحهم ليعلموا أن أعضاءهم التي كانت عوناً لهم على المعاصي صارت شاهدة عليهم وذلك أن إقرار الجوارح أبلغ من إقرار اللسان.

فإن قلت ما الحكمة في تسمية نطق اليد كلاماً ونطق الرجل شهادة؟

قلت إن اليد مباشرة والرجل حاضرة وقول الحاضر على غيره شهادة بما رأى وقول الفاعل إقرار على نفسه بما فعل (م) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال «سأل الناس رسول الله ﷺ فقالوا يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة قال:

في معصية الله، ﴿ إنّه لكم عدوٌ مبين ﴾، ظاهر العداوة.

﴿ وأنِ اعبدوني ﴾، أطيعوني ووحّدوني، ﴿ هذا صراطٌ مستقيم ﴾.

﴿ ولقد أضلّ منكم جبلًّا كثيراً ﴾، قرأ أهل المدينة وعاصم ﴿ جبلًّا ﴾ بكسر الجيم والباء وتشديد اللام، وقرأ يعقوب ﴿ جبلًّا ﴾ بضم الجيم والباء وتشديد اللام، وقــرأ عامـر وأبو عمرو بضم الجيم ساكنة الباء خفيفة اللام، وقرأ الآخرون بضم الجيم والباء خفيفة اللام، وكلها لغات صحيحة، ومعناها: الخلق والجماعة أي خلقاً كثيراً، ﴿ أفلم تكونوا تعقلون ﴾، ما أتاكم من هلاك الأمم الخالية بطاعة إبليس، ويقال لهم لمّا دنوا من النار.

﴿ هذه جهنم التي كنتم توعدون ﴾، بها في الدنيا.

﴿ اصلوها ﴾، ادخلوها. ﴿ اليوم بما كنتم تكفرون ﴾.

﴿ اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون ﴾، هذا حين ينكر الكفّار كفرهم وتكذيبهم الرسل بقولهم: ﴿ ما كنّا مشركين ﴾ [الأنعام: ٢٣]، فيختم على أفواههم وتشهد عليهم جوارحهم، أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أبو الحسن محمد بن عمرو بن حفصويه السرخسي سنة خمس وثلاثين وثلاثمائة أنا أبو زيد حاتم بن محبوب أنا عبد الجبّار العلاء أنا سفيان عن سهيل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة قال: سأل الناسُ رسولَ الله ﷺ، قالوا: يا رسول الله هل نرى ربّنا يوم القيامة؟ قال: «هل تضارّون في رؤية الشمس في الظهيرة ليست في سحابة»؟ قالوا: لا، قال: «فهل تضارّون في رؤية القمر ليلة البدر ليس في سحابة»؟ قالوا: لا، قال: «فوالذي نفسي بيده لا تضارّون في رؤية ربّكم إلّا كما تضارّون في رؤية أحدهما»، قال: «فيلقى العبد فيقول أي يقول الله ألم أُكرمك؟ وأُسوّدْك وأُزوّجك وأُسخّر لك الخيل والإبل وأذرك تترأس وتتربع؟

هل تضارون في رؤية الشمس في الظهيرة ليست في سحابه قالوا لا يا رسول الله قال فهل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر ليس في سحابة قالوا لا قال فوالذي نفسي بيده لا تضارون في رؤية ربكم إلا كما تضارون في رؤية أحدهما قال فيلقى العبد ربه فيقول أي فل ألم أكرمك وأسودك وأزوجك وأسخر لك الخيل والإبل وأذرك ترأس وتربع فيقول بلى يا رب، فيقول أفظننت أنك ملاقي، فيقول لا فيقول اليوم أنساك كما نسيتني، ثم يلقى الثاني فيقول أي فل ألم أكرمك وأسودك وأزوجك وأسخر لك الخيل والإبل وأذرك ترأس وتربع فيقول بلى يا رب فيقول أفظننت أنك ملاقي فيقول لا فيقول اليوم أنساك كما نسيتني، ثم يلقى الثالث فيقول له مثل ذلك فيقول يارب آمنت بك وبكتابك وبرسلك وصليت وصمت وتصدقت ويثني بخير ما استطاع فيقول هاهنا إذا قال ثم يقول له الآن نبعث شاهدنا عليك فيتفكر في نفسه من ذا الذي يشهد عليَّ فيختم على فيه ويقال لفخذه ولحمه وعظامه انطقي فتنطق فخذه ولحمه وعظامه بعمله وذلك الذي يسخط الله عليه» قوله أي فل يعني يا فلان قوله وأسودك أي أجعلك سيداً قوله وأذرك ترأس أي تتقدم على القوم بأن تصير رئيسهم وتربع أي تأخذ المرباع وهو ما يأخذه رئيس الجيش لنفسه من الغنائم وهو ربعها، وروى ترتع بتاءين أي تتنعم وتنبسط من الرتع قوله وذلك ليعذر من نفسه أي ليقيم الحجة عليها بشهادة أعضائه عليه (م) عن أنس بن مالك قال «كنا عند رسول الله ﷺ فضحك فقال هل تدرون مم أضحك، قلنا الله ورسوله أعلم قال من مخاطبة العبد ربه فيقول يارب ألم تجرني من الظلم قال يقول بلى قال فيقول فإني لا أجيز على نفسي إلا شاهداً مني قال فيقول كفى بنفسك اليوم عليك شهيداً وبالكرام الكاتبين شهوداً قال فيختم على فيه ويقال لأركانه انطقي قال فتنطق بأعماله ثم يخلى بينه وبين الكلام فيقول بعداً لكن وسحقاً فعنكن كنت أناضل» قوله لا أجيز أي لا أقبل شاهداً على قوله بعداً لكن وسحقاً أي هلاكاً، قوله فعنكن كنت أناضل أي أجادل وأخاصم قوله تعالى:

﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ

فيقول: بلى، فيقول: أفظننت أنك مُلاقيّ؟ فيقول: لا فيقول فإني قد أنساك كما نسيتني، ثم يلقى الثاني فيقول: ألم أُكرمك وأُسوّدْك وأُزوّجك وأُسخّر لك الخيل والإبل وأذرك تترأس وتتربع»؟ وقال غيره عن سفيان ترأس وتربع في الموضعين، «قال: فيقول: بلى، فيقول: أفظننت أنك مُلاقيّ؟ فيقول: لا، فيقول: قد أنساك كما نسيتني، ثم يلقى الثالث، فيقول له مثل ذلك، فيقول: يا ربِّ آمنتُ بك وبكتابك وبرسلك وصلّيتُ وصمتُ وتصدّقتُ ويثني بخير ما استطاع، فيقول: ههنا إذاً؟ قال: ثم يقال: الآن نبعث شاهداً عليك ويتفكّر في نفسه مَن ذا الذي يشهد عليّ، فيختم على فِيْه، ويقال لفخذه: انطقي فتنطق فخذه ولحمه وعظامه بعمله. وذلك ليعذر من نفسه، وذلك المنافق وذلك الذي سَخِطَه الله». أخبرنا أبو سعيد عبد الله بن أحمد الطاهري أنا جدّي أبو سهل عبد الصمد بن عبد الرحمن البزاز أنا محمد بن زكريا العذافري أنا إسحاق بن إبراهيم الدَّبْري أنا عبد الرزّاق أنا مَعْمَر عن بهز بن حكيم بن معاوية عن أبيه عن جدّه عن النبي ﷺ قال: «إنكم تدعون فيفدم على أفواهكم بالفدام فأول يسأل عن أحدكم فخذه وكفّه». أخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر أنا عبد الغافر بن محمد أنا محمد بن عيسى الجلودي أنا إبراهيم بن محمد بن سفيان أنا مسلم بن الحجّاج أنا أبو بكر بن أبي النضر حدّثني هاشم بن القاسم أنا عبيد الله الأشجعي عن سفيان الثّوري عن عبيد المكتب عن فضيل عن الشعبي عن أنس بن مالك قال: كنّا عند رسول الله ﷺ فضحك فقال: «هل تدرون مِمَّ أضحك»؟ قال: قلنا: اللَّهُ ورسولُهُ أعلم، قال: «من مخاطبة العبدِ ربَّه»، يقول: يا ربِّ ألم تجزني من الظلم؟ قال: يقول: بلى، قال: فيقول: فإنّي لا أُجيز على نفسي إلّا شاهداً منّي، قال: فيقول كفى بنفسك اليوم عليك شهيداً وبالكرام الكاتبين شهوداً، قال: فيختم على فِيْه، فيقال لأركانه: انطقي، قال: فتنطق بأعماله، قال: ثم يُخلّى بينه وبين الكلام، فيقول: بُعداً لَكُنَّ وسحقاً فَعَنْكنّ كنتُ أُناضل.

مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾
وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾

﴿ولو نشاء لطمسنا على أعينهم﴾ أي أذهبنا أعينهم الظاهرة بحيث لا يبدو لها جفن ولا شق والمعنى ولو نشاء لأعمينا أعينهم الظاهرة كما أعمينا قلوبهم ﴿فاستبقوا الصراط﴾ أي فبادروا إلى الطريق ﴿فأنى يبصرون﴾ أي كيف يبصرون وقد أعمينا أعينهم والمعنى ولو نشاء لأضللناهم عن الهدى وتركناهم عمياً يترددون فكيف يبصرون الطريق حينئذ وقال ابن عباس يعني لو نشاء لفقأنا أعين ضلالتهم فأعميناهم عن غيهم وحولنا أبصارهم من الضلالة إلى الهدى فأبصروا رشدهم فأنى يبصرون ولم نفعل ذلك بهم ﴿ولو نشاء لمسخناهم على مكانتهم﴾ يعني ولو نشاء لجعلناهم قردة وخنازير في منازلهم وقيل لجعلناهم حجارة لا أرواح فيها ﴿فما استطاعوا مضياً﴾ أي لا يقدرون أن يبرحوا ﴿ولا يرجعون﴾ أي إلى ما كانوا عليه وقيل لا يقدرون على الذهاب ولا الرجوع ﴿ومن نعمره ننكسه في الخلق﴾ أي نرده إلى أرذل العمر شبه الصبي في أول الخلق وقيل نضعف جوارحه بعد قوتها ونقصها بعد زيادتها وذلك أن الله تعالى خلق الإنسان في ضعف من جسده وخلو من عقل وعلم في حال صغره ثم جعله يتزايد وينتقل من حال إلى حال إلى أن بلغ أشده واستكمل قوته وعقله وعلم ما له وما عليه فإذا انتهى إلى الغاية واستكمل النهاية رجع ينقص حتى يرد إلى ضعفه الأول فذلك نكسه في الخلق ﴿أفلا يعقلون﴾ أي فيعتبرون ويعلمون أن الذي قدر على تصريف أحوال الإنسان قادر على البعث بعد الموت قوله عز وجل: ﴿وما علمناه الشعر وما ينبغي له﴾ قيل إن كفار قريش قالوا إن محمداً شاعر وما يقوله شعر فأنزل الله تعالى تكذيباً لهم وما علمناه الشعر وما ينبغي له أي ما يسهل له ذلك وما يصلح منه بحيث لو أراد نظم شعر لم يتأت له ذلك كما جعلناه أمياً لا يكتب ولا يحسب لتكون الحجة أثبت والشبهة أدحض قال العلماء ما كان يتزن له بيت شعر وإن تمثل ببيت شعر جرى على لسانه منكسراً كما روي عن الحسن «أن النبي ﷺ كان يتمثل بهذا البيت: كفى بالإسلام والشيب للمرء ناهياً، فقال أبو بكر رضي الله تعالى عنه يا نبي الله إنما قال الشاعر: كفى الشيب والإسلام للمرء ناهياً: أشهد أنك رسول الله ﷺ وما علمناه الشعر وما ينبغي له» هذا حديث مرسل وروى عن عائشة رضي الله تعالى عنها وقد قيل لها «هل كان النبي ﷺ يتمثل بشيء من الشعر قالت كان يتمثل بشعر ابن رواحة ويقول: ويأتيك بالأخبار من لم تزود».

﴿ ولو نشاء لطمسنا على أعينهم ﴾، أي أذهبنا أعينهم الظاهرة بحيث لا يبدو لها جفن ولا شق، وهو معنى الطمس كما قال الله: ﴿ ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم ﴾ [البقرة: ٢٠] يقول كما أعمينا قلوبهم لو شئنا أعمينا أبصارهم الظاهرة، ﴿ فاستبقوا الصراط ﴾، فتبادروا إلى الطريق، ﴿ فأنّى يبصرون ﴾، فكيف يبصرون وقد أعمينا أعينهم؟ يعني: لو نشاء لأضللناهم عن الهدى، وتركناهم عمياً يترددون، فكيف يبصرون الطريق حينئذ؟ هذا قول الحسن والسدي، وقال ابن عباس وقتادة ومقاتل وعطاء: معناه لو نشاء لفقأنا أعين ضلالتهم، فأعميناهم عن غيّهم، وحوّلنا أبصارهم من الضلالة إلى الهدى، فأبصروا رشدهم ﴿ فأنّى يبصرون ﴾ ولم أفعل ذلك بهم؟

﴿ ولو نشاء لمسخناهم على مكانتهم ﴾، يعني مكانهم، يريد: لو نشاء لجعلناهم قِرَدَة وخنازير في منازلهم، وقيل: لو نشاء لجعلناهم حجارة، وهم قعود في منازلهم لا أرواح لهم. ﴿ فما استطاعوا مضياً ولا يرجِعُون ﴾، يعني إلى ما كانوا عليه، وقيل: لا يقدرون على ذهاب ولا رجوع.

﴿ ومَن نعمّره ننكسه في الخلق ﴾، قرأ عاصم وحمزة بالتشديد، وقرأ الآخرون بفتح النون الأولى وضمّ الكاف مخففاً، أي نردّه إلى أرذل العمر شبه الصبي في أول الخلق. وقيل: ننكسه في الخلق أي نضعف جوارحه

أخرجه الترمذي وفي رواية لغيره «أن عائشة رضي الله عنها سئلت هل كان النبي ﷺ يتمثل بشيء من الشعر قالت كان الشعر أبغض الحديث إليه ولم يتمثل إلا بيت أخي بني قيس طرفة:

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً ويأتيك بالأخبار من لم يزود

فجعل يقول ويأتيك من لم تزود بالأخبار فقال أبو بكر رضي الله عنه ليس هكذا يا رسول الله فقال: «إني لست بشاعر ولا ينبغي لي».

فإن قلت قد صح من حديث جندب بن عبد الله قال «بينما نحن مع رسول الله ﷺ إذ أصابه حجر فدمت أصبعه فقال:

هل أنت إلا أصبع دميت وفي سبيل الله ما لقيت»

أخرجاه في الصحيحين ولهما من حديث أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال:

«اللهم إن العيش عيش الآخره فأكرم الأنصار والمهاجره»

بعد قوتها ونردّها إلى نقصانها بعد زيادتها. ﴿ **أفلا يعقلون** ﴾، فيعتبروا ويعلموا أن الذي قدر على تصريف أحوال الإنسان يقدر على البعث بعد الموت.

قوله تعالى: ﴿ **وما علّمناه الشعر وما ينبغي له** ﴾، قال الكلبي: إنّ كفّار مكة قالوا: إن محمداً شاعر، وما يقوله شعر، فأنزل الله تكذيباً لهم: ﴿ **وما علّمناه الشعر وما ينبغي له** ﴾ أي ما يتسهّل له ذلك وما كان يتّزن له بيت من الشعر، حتى إذا تمثّل ببيت شعر جرى على لسانه منكسراً، أخبرنا أبو سعيد الشريحي أنا أبو إسحاق الثعلبي أنا الحسين بن محمد الثقفي أنا أحمد بن جعفر بن همدان ثنا يوسف بن عبد الله بن ماهان أنا موسى بن إسماعيل أنا حمّاد بن سلمة عن علي بن همدان ثنا يوسف بن أبي زيد عن الحسن أن النبي ﷺ كان يتمثّل بهذا البيت:

كفى بالإسلام والشيب للمرء ناهياً

فقال أبو بكر: يا رسول الله إنما قال الشاعر:

كفى الشيب والإسلام للمرء ناهياً

فقال أبو بكر وعمر: أشهد أنك رسول الله، يقول الله تعالى: ﴿ **وما علّمناه الشعر وما ينبغي له** ﴾، أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أبو محمد عبد الرحمن بن أبي شريح أنا أبو القاسم البغوي أنا علي بن الجعد أنا شريك عن المقدام بن شريح عن أبيه قال: قلتُ لعائشة: أكان رسول الله ﷺ يتمثّل بشيء من الشعر؟ قالت: كان يتمثّل من شعر عبد الله بن رواحة، قالت وربما قال:

ويأتيك بالأخبار مَن لم تزوّد

فأنشد رسول الله ﷺ:

ويأتيك مَن تزوّد بالأخبار

وقالت: وربما قال: «ويأتيك بالأخبار مَن لم تزوّد»، وقال معمر عن قتادة: بلغني أن عائشة سُئِلَت: هل كان

وروي أن النبي ﷺ قال:

«أنـــــا النبــــــي لا كــــــذب أنــــا ابـــــن عبـــد المطلـــــب»

قلت ما هذا إلا من كلامه الذي يرمي به من غير صنعة فيه ولا تكلف له إلا أن اتفق كذلك من غير قصد إليه وإن جاء موزوناً كما يتفق في كثير من إنشاءات الناس في خطبهم ورسائلهم ومحاوراتهم كلام موزون يدخل في وزن البحور، ومع ذلك فإن الخليل لم يعدّ المشطور من الرجز شعراً ولما نفي أن يكون القرآن من جنس الشعر قال تعالى: ﴿إن هو إلا ذكر﴾ يعني ما هو إلا ذكر من الله تعالى يعظ به الإنس والجن ليس بشعر لأنه ليس على أساليب الشعر ولا يدخل في بحوره ﴿وقرآن مبين﴾ أي إنه كتاب سماوي يقرأ في المحاريب ويتلى في المتعبدات وينال بتلاوته الثواب والدرجات، وفيه بيان الحدود والأحكام وبيان الحلال والحرام فكم بينه وبين الشعر الذي هو من همزات الشياطين وأقاويل الشعراء الكاذبين.

﴿لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا فَهُمْ لَهَا مَـٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَـٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ وَمَشَارِبُ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ۘ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَـٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾﴾

﴿لتنذر﴾ أي يا محمد وقرىء بالياء أي القرآن ﴿من كان حياً﴾ يعني مؤمناً حي القلب لأن الكافر كالميت الذي لا يتدبر ولا يتفكر ﴿ويحق القول﴾ أي وتجب حجة العذاب ﴿على الكافرين﴾ قوله عز وجل: ﴿أولم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا﴾ أي تولينا خلقه بإبداعنا له من غير إعانة أحد في إنشائه كقول القائل عملت هذا بيدي إذا تفرد به ولم يشاركه فيه أحد وقيل عملناه بقوتنا وقدرتنا وإنما قال ذلك لبدائع الفطرة التي لا يقدر عليها إلا هو ﴿أنعاماً﴾ إنما خص الأنعام بالذكر وإن كانت الأشياء كلها من خلق الله تعالى وإيجاده لأن النعم أكثر أموال العرب والنفع بها أعم

النبي ﷺ يتمثّل بشيء من الشعر؟ قالت: كان الشعر أبغض الحديث إليه، قالت: ولم يتمثّل بشيء من الشعر إلاّ ببيت أخي بني قيس طرفة:

ستُبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً ويـأتيك بـالأخبار مَن لم تـزوّد

فجعل يقول: «ويأتيك مَن لم تزوّد بالأخبار» فقال أبو بكر رضي الله عنه: ليس هكذا يا رسول الله، فقال: «إني لستُ بشاعر ولا ينبغي لي» ﴿ إنْ هو ﴾، يعني ما القرآن، ﴿ إلاّ ذكر ﴾، موعظة، ﴿ وقرآنٌ مبين ﴾، فيه الفرائض والحدود والأحكام.

﴿ لينذرَ ﴾، قرأ أهل المدينة والشام ويعقوب (لتنذر) بالتاء وكذلك في الأحقاف، وافق ابن كثير في الأحقاف [١٢]، أي: لتنذر يا محمد، وقرأ الآخرون بالياء أي لينظر القرآن، ﴿ مَن كان حيّاً ﴾، يعني مؤمناً حتى القلب لأن الكافر كالميت في أنه لا يتدبّر ولا يتفكّر، ﴿ ويحقّ القول ﴾، ويجب حجّة العذاب قوله: ﴿ على الكافرين ﴾.

﴿ أوَ لم يروا أنّا خلقنا لهم مما عملت أيدينا ﴾، تولّينا خلقه بإبداعنا من غير إعانة أحد، ﴿ أنعاماً فهم لها

﴿فهم لها مالكون﴾ أي خلقناها لأجلهم فملكناهم إياها يتصرفون فيها تصرف الملاك.

وقيل معناه فهم لها ضابطون قاهرون ومنه قول بعضهم:

أصبحت لا أحمل السلاح ولا أملك رأس البعير إن نفرا

أي لا أضبط رأس البعير والمعنى لم تخلق الأنعام وحشية نافرة من بني آدم لا يقدرون على ضبطها بل خلقناها مذللة مسخرة لهم وهو قوله تعالى: **﴿وذللناها لهم فمنها ركوبهم﴾** أي الإبل **﴿ومنها يأكلون﴾** أي الغنم **﴿ولهم فيها منافع﴾** أي من أصوافها وأوبارها وأشعارها وجلودها ونسلها **﴿ومشارب﴾** أي من ألبانها **﴿أفلا يشكرون﴾** أي رب هذه النعم **﴿واتخذوا من دون الله آلهة﴾** يعني الأصنام **﴿لعلهم ينصرون﴾** أي لتمنعهم من عذاب الله ولا يكون ذلك قط **﴿لا يستطيعون نصرهم﴾** قال ابن عباس لا تقدر الأصنام على نصرهم ومنعهم من العذاب **﴿وهم لهم جند محضرون﴾** أي الكفار جند الأصنام يغضبون لها ويحضرونها في الدنيا وهي لا تسوق إليهم خيراً ولا تستطيع لهم نصراً وقيل هذا في الآخرة يؤتى بكل معبود من دون الله ومعه أتباعه الذين عبدوه في الدنيا كأنهم جند محضرون في النار **﴿فلا يحزنك قولهم﴾** يعني قول كفار مكة في تكذيبك يا محمد **﴿إنا نعلم ما يسرون﴾** أي في ضمائرهم من التكذيب **﴿وما يعلنون﴾** أي من عبادة الأصنام وقيل ما يعلنون بألسنتهم من الأذى.

قوله تعالى: **﴿أولم ير الإنسان أن خلقناه من نطفة﴾** أي من نطفة قذرة خسيسة **﴿فإذا هو خصيم مبين﴾** أي جدل بالباطل بين الخصومة والمعنى العجب من جهل هذا المخاصم مع مهانة أصله كيف يتصدى لمخاصمة الجبار ويبرز

مالكون ﴾، ضابطون قاهرون، أي لم يخلق الأنعام وحشية نافرة من بني آدم لا يقدرون على ضبطها بل هي مسخّرة لهم.

وهي قوله: **﴿ وذلّلناها لهم ﴾**، سخّرنا لهم، **﴿ فمنها رَكُوبُهم ﴾**، أي ما يركبون وهي الإبل، **﴿ ومنها يأكلون ﴾**، من لحمانها.

﴿ ولهم فيها منافعُ ﴾، أي من أصوافها وأوبارها وأشعارها ونسلها، **﴿ ومشارب ﴾**، من ألبانها، **﴿ أفلا يشكرون ﴾**، ربَّ هذه النِّعَم.

﴿ واتخذوا من دون الله آلهة لعلّهم ينصرون ﴾، يعني: لتمنعهم من عذاب الله، ولا يكون ذلك قطّ.

﴿ لا يستطيعون نصرهم ﴾، قال ابن عباس: لا تقدر الأصنام على نصرهم ومنعهم من العذاب. **﴿ وهم لهم جندٌ محضرون ﴾**، أي الكفّار جندٌ للأصنام يغضبون لها ويحضرونها في الدنيا وهي لا تسوق إليهم خيراً ولا تستطيع لهم نصراً. وقيل: هذا في الآخرة يُؤتى بكل معبود من دون الله تعالى ومعه أتباعه الذين عبدوه كأنهم جند محضرون في النار.

﴿ فلا يحزنك قولهم ﴾، يعني قول كفّار مكة في تكذيبك، **﴿ إنّا نعلم ما يسرّون ﴾**، في ضمائرهم من التكذيب، **﴿ وما يعلنون ﴾**، من عبادة الأصنام أو ما يعلنون بألسنتهم من الأذى. قوله تعالى: **﴿ أوَ لم يرَ الإنسان أنّا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم ﴾**، جدل بالباطل، **﴿ مبين ﴾**، بيِّن الخصومة، يعني إنه مخلوق من نطفة ثم يخاصم، فكيف لا يتفكّر في بدء خلقه حتى يدع الخصومة، نزلت في أُبيّ بن خلف الجمحي خاصم النبي ﷺ في إنكار البعث، وأتاه بعظم قد بَلِيَ ففتّته بيده، فقال: أترى يحيىٰ اللَّهُ هذا بعد ما رمّ؟ فقال النبي ﷺ: «نعم ويبعثك ويدخلك النار»، فأنزل الله هذه الآيات.

لمجادلته في إنكاره البعث، وكيف لا يتفكر في بدء خلقه وأنه من نطفة قذرة ويدع الخصومة، نزلت في أبي بن خلف الجمحي خاصم النبي ﷺ في إنكار البعث وأتاه بعظم قد رم وبلي ففتته بيده وقال أترى يحيي الله هذا بعد ما رم فقال النبي ﷺ نعم ويبعثك ويدخلك النار فأنزل الله تعالى هذه الآيات ﴿وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه﴾ أي بدأ أمره ﴿قال من يحيي العظام وهي رميم﴾ أي بالية والمعنى وضرب لنا مثلاً في إنكار البعث بالعظم البالي حين فتته بيده وتعجب ممن يقول إن الله تعالى يحييه ونسي أول خلقه وأنه مخلوق من نطفة.

قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾

﴿قيل يحييها الذي أنشأها أول مرة﴾ أي خلقها أول مرة وابتدأ خلقها ﴿وهو بكل خلق﴾ أي من الابتداء والإعادة ﴿عليم﴾ أي يعلم كيف يخلق لا يتعاظمه شيء من خلق المبدأ أو المعاد ﴿الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما هما شجرتان يقال لإحداهما المرخ بالراء والخاء المعجمة والأخرى العفار بالعين المهملة فمن أراد النار قطع منهما غصنين مثل السواكين وهما خضراوان يقطر منهما الماء فيسحق المرخ على العفار فتخرج منهما النار بإذن الله تعالى، تقول العرب في كل شجر نار واستمجد المرخ والعفار أي استكثر منها وذلك أن هاتين الشجرتين من أكثر الشجر ناراً وقال الحكماء في كل شجر نار إلا العناب ﴿فإذا أنتم منه توقدون﴾ أي تقدحون فتوقدون النار من ذلك الشجر ثم ذكر ما هو أعظم من خلق الإنسان فقال تعالى: ﴿أوليس الذي خلق السموات

﴿ **وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه** ﴾، بدأ أمره ثم، ﴿ **قال مَن يحيي العظام وهي رميم** ﴾، بالية، ولم يقل رميمة لأنه معدول عن فاعله وكلّ ما كان معدولاً عن وجهه ووزنه كان مصروفاً عن أخواته، كقوله: ﴿ وما كانت أُمك بغياً ﴾ [مريم: ٢٨]، أسقط الهاء لأنها كانت مصروفة عن باغية.

﴿ **قلْ يُحييها الذي أنشأها** ﴾، خلقها، ﴿ **أول مرة وهو بكل خلق عليم** ﴾.

﴿ **الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً** ﴾، قال ابن عباس: هما شجرتان يقال لأحدهما: المرخ والأخرى العفار، فمَن أراد منهم النار قطع منهما غصنين مثل السواكين وهما خضراوان يقطر منهما الماء، فيسحق المرخ على العفار فيخرج منهما النار بإذن الله عزّ وجلّ، تقول العرب في كل شجر نار واستمجد: المرخ والعفار، وقال الحكماء: في كل شجرٍ نارٌ إلاّ العنّاب. ﴿ **فإذا أنتم منه توقدون** ﴾، تقدحون وتوقدون النار من ذلك الشجر، ثم ذكر ما هو أعظم من خلق الإنسان.

فقال: ﴿ **أوَ ليسَ الذي خلق السمٰواتِ والأرضَ بقادر** ﴾، قرأ يعقوب يقدّر بالياء على الفعل، ﴿ **على أن يخلق مثلهم بلى** ﴾، أي قل بلى هو قادر على ذلك، ﴿ **وهو الخلاّق** ﴾، يخلق خلقاً بعد خلق، ﴿ **العليم** ﴾ بجميع ما خلق.

﴿ **إنّما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون** ﴾.

﴿ **فسبحان الذي بيده ملكوت** ﴾، أي ملك، ﴿ **كل شيء وإليه ترجعون** ﴾، أخبرنا الإمام أبو علي

والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى﴾ أي هو القادر على ذلك ﴿وهو الخلاق﴾ يعني يخلق خلقاً بعد خلق ﴿العليم﴾ أي بجميع ما خلق ﴿إنما أمره إذا أراد شيئاً﴾ أي إحداث شيء وتكوينه ﴿أن يقول له كن﴾ أن يكونه من غير توقف ﴿فيكون﴾ أي فيحدث ويوجد لا محالة ﴿فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء﴾ أي هو مالك كل شيء والمتصرف فيه ﴿وإليه ترجعون﴾ أي تردون بعد الموت والله أعلم.

الحسين بن محمد القاضي أنا أبو الطاهر الزيادي أنا أبو بكر محمد بن الحسين القطّان حدّثنا علي بن الحسين الدرابجردي حدّثنا عبد الله بن عثمان أخبرنا عبد الله بن المبارك عن سليمان التيمي عن أبي عثمان وليس بالنهدي عن معقل بن يسار قال: قال رسول الله ﷺ: «إقرؤوا على موتاكم سورة يسٓ». ورواه محمد بن العلاء عن ابن المبارك، وقال عن أبي عثمان وليس بالنهدي عن أبيه عن معقل بن يسار.

سورة والصافات

مكية وهي مائة واثنتان وثمانون آية وثمانمائة وستون كلمة وثلاثة آلاف وثمانمائة وستة وعشرون حرفاً.

بسم الله الرحمن الرحيم

وَالصَّافَّاتِ صَفًّا (١) فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا (٢) فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا (٣) إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ (٤) رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ (٥) إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ (٦)

قوله عز وجل: ﴿والصافات صفاً﴾ قال ابن عباس هم الملائكة يصفون كصفوف الخلق في الدنيا للصلاة (م) عن جابر بن سمرة قال: قال رسول الله ﷺ «ألا تصفون كما تصف الملائكة عند ربهم قلنا وكيف تصف الملائكة عند ربهم قال يتمون الصفوف المتقدمة ويتراصون في الصف» لفظ أبي داود، وقيل هم الملائكة تصف أجنحتها في الهواء واقفة حتى يأمرها الله تعالى بما يريد وقيل أراد بالصافات الطير تصف أجنحتها في الهواء ﴿فالزاجرات زجراً﴾ يعني الملائكة تزجر السحاب وتسوقه وقيل هي زواجر القرآن تنهى وتزجر عن القبيح ﴿فالتاليات ذكراً﴾ يعني الملائكة يتلون ذكر الله تعالى وقيل هم قرّاء القرآن وهذا كله قسم أقسم الله عز وجل بهذه الأشياء وقيل فيه إضمار تقديره ورب الصافات والزاجرات والتاليات وجواب القسم قوله تعالى: ﴿إن إلهكم لواحد﴾ وذلك أن كفار مكة قالوا أجعل الآلهة إلهاً واحداً فأقسم الله تعالى بهذه الأشياء للتنبيه على شرف ذواتها وكمال مراتبها والرد على عبدة الأصنام في قولهم ثم

سُوْرَة الصَّافّات

مكيّة وهي مائة واثنتان وثمانون آية.

﴿ والصّافّات صفاً ﴾، قال ابن عباس، رضي الله عنهما والحسن وقتادة هم الملائكة في السماء يصفون كصفوف الخلق في الدنيا للصلاة أخبرنا عمر بن عبد العزيز القاشاني أخبرنا أبو عمر القاسم بن جعفر الهاشمي أخبرنا أبو علي محمد بن العلاء أحمد اللؤلؤي حدّثنا أبو داود سليمان بن الأشعث حدّثنا عبد الله بن محمد النفتيلي حدّثنا زهير قال: سألت سليمان الأعمش عن حديث جابر بن سَمُرة في الصفوف المقدمة فحدّثنا عن المسيّب بن رافع بن طرفة عن جابر بن سمرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا تصفون كما تصف الملائكة عند ربّهم»؟ قلنا: وكيف تصف الملائكة عند ربّهم؟ قال: «يتمّون الصفوف المقدمة ويتراصّون في الصف»، وقيل: هم الملائكة تصفّ أجنحتها في الهواء واقفة حتى يأمرها الله تعالى بما يريده. وقيل: هي الطيور دليله قوله تعالى: ﴿ والطير صافّات ﴾ [النور: ٤١].

قوله تعالى: ﴿ فالزاجرات زجراً ﴾، يعني تزجر السّحاب وتسوقه، وقال قتادة: هي زواجر القرآن تنهى وتزجر عن القبائح.

وصف نفسه فقال تعالى: ﴿رب السموات والأرض وما بينهما﴾ يعني أنه المالك القادر العالم المنزه عن الشريك.

وقوله ﴿ورب المشارق﴾ قيل أراد والمغارب فاكتفى بأحدهما قال السدي المشارق ثلثمائة وستون مشرقاً وكذلك المغارب فإن الشمس تطلع كل يوم في مشرق وتغرب في مغرب. فإن قلت قد قال في موضع آخر رب المشرق ورب المغربين وقال رب المشرق والمغرب فكيف وجه الجمع بين هذه الآيات.

قلت أراد بالمشرق والمغرب الجهة التي تطلع فيها الشمس وتغرب وأراد بالمشرقين مشرق الصيف ومشرق الشتاء، وبالمغربين مغرب الصيف ومغرب الشتاء وبالمشارق والمغارب ما تقدم من قول السدي وقيل كل موضع شرقت عليه الشمس فهو مشرق وكل موضع غربت عليه فهو مغرب وقيل أراد مشارق الكواكب.

قوله تعالى: ﴿إنا زينا السماء الدنيا﴾ يعني التي تلي الأرض وهي أدنى السموات إلى الأرض ﴿بزينة الكواكب﴾ قال ابن عباس بضوء الكواكب لأن الضوء والنور من أحسن الصفات وأكملها ولو لم تحصل هذه الكواكب في السماء لكانت شديدة الظلمة عند غروب الشمس، وقيل زينتها أشكالها المتناسبة والمختلفة في الشكل كشكل الجوزاء وبنات نعش وغيرها. وقيل إن الإنسان إذا نظر في الليلة المظلمة إلى السماء ورأى هذه الكواكب الزواهر مشرقة متلألئة على سطح أزرق نظر غاية الزينة.

﴿ فالتاليات ذكراً ﴾، هم الملائكة يتلون ذكر الله عزّ وجلّ. وقيل: هم جماعة قرّاء القرآن وهذا كله قَسم أقسَمَ الله تعالى به، وجواب القسم.

قوله: ﴿ إنّ إلٰهكم لواحد ﴾، وقيل: فيه إضمار، أي وربِّ الصّافّات والزاجرات والتاليات، وذلك أن كفّار مكة قالوا: ﴿ أجعلَ الآلهةَ إلٰهاً واحداً ﴾ [صٓ: ٥]؟ فأقسم الله بهؤلاء.

﴿ ربُّ السمٰوات والأرض وما بينهما وربُّ المشارق ﴾، أي مطالع الشمس، فإن قيل: قد قال في موضع: ﴿ بربِّ المشارق والمغارب ﴾ [المعارج: ٤٠]، وقال في موضع: ﴿ ربُّ المشرقين وربُّ المغربين ﴾ [الرحمن: ١٧] وقال في موضع: ﴿ ربُّ المشرق والمغرب ﴾ [المزّمّل: ٩]، فكيف وجه التوفيق بين هذه الآيات؟ قيل: أما قوله: ﴿ ربّ المشرق والمغرب ﴾، أراد به جهة المشرق وجهة المغرب. وقوله: ﴿ ربّ المشرقين وربُّ المغربين ﴾ أراد مشرق الشتاء ومشرق الصيف، وأراد بالمغربين: مغرب الشتاء ومغرب الصيف. وقوله: ﴿ بربِّ المشارق والمغارب ﴾، أراد الله تعالى أنه خلق للشمس ثلثمائة وستّين كوّة في المشرق وثلثمائة وستّين كوّة في المغرب على عدد أيام السنة، تطلع الشمس كل يوم من كوّة منها، وتغرب في كوّة منها لا ترجع إلى الكوّة التي تطلع الشمس منها من ذلك اليوم إلى العام المقبل، فهي المشارق والمغارب، وقيل: كل موضع شرقت عليه الشمس فهو مشرق وكل موضع غربت عليه الشمس فهو مغرب، كأنه أراد ربّ جميع ما شرقت عليه الشمس وغربت.

﴿ إنّا زيّنّا السماء الدنيا بزينة الكواكب ﴾، قرأ عاصم، برواية أبي بكر ﴿ بزينة ﴾ منوّنة، ﴿ الكواكب ﴾ نصب أي بتزييننا الكواكب وقرأ حمزة وحفص ﴿ بزينة ﴾ منوّنة ﴿ الكواكب ﴾ خفضاً على البدل، أي بزينة بالكواكب، أي زينّاها بالكواكب. وقرأ الآخرون ﴿ بزينة الكواكب ﴾، بلا تنوين على الإضافة. قال ابن عباس: بضوء الكواكب.

﴿وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ۝٧ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ۝٨ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ۝٩ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ۝١٠ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍۭ ۝١١﴾

﴿وحفظاً من كل شيطان مارد﴾ أي وحفظنا السماء من كل شيطان متمرد عات يرمون بالشهب ﴿لا يسمعون إلى الملأ الأعلى﴾ يعني إلى الملائكة والكتبة لأنهم سكان السماء وذلك أن شياطين يصعدون إلى قرب السماء فربما سمعوا كلام الملائكة فيخبرون به أولياءهم الإنس ويوهمون بذلك أنهم يعلمون الغيب فمنعهم الله من ذلك بهذه الشهب وهو قوله تعالى: ﴿ويقذفون﴾ أي يرمون بها ﴿من كل جانب﴾ أي آفاق السماء ﴿دحوراً﴾ أي يبعدونهم عن مجالس الملائكة ﴿ولهم عذاب واصب﴾ أي دائم ﴿إلا من خطف الخطفة﴾ أي اختلس الكلمة من كلام الملائكة ﴿فأتبعه﴾ أي لحقه ﴿شهاب ثاقب﴾ أي كوكب مضيء قوي لا يخطئه بل يقتله ويحرقه أو يخبله. وقيل سمي النجم الذي ترمى به الشياطين ثاقباً لأنه يثقبهم.

فإن قلت كيف يمكن أن تذهب الشياطين إلى حيث يعلمون أن الشهب تحرقهم ولا يصلون إلى مقصودهم ثم يعودون إلى مثل ذلك.

قلت إنما يعودون إلى استراق السمع مع علمهم أنهم لا يصلون إليه طمعاً في السلامة ورجاء نيل المقصود كراكب البحر يغلب على ظنه حصول السلامة.

وقوله عز وجل: ﴿فاستفتهم﴾ يعني سل أهل مكة ﴿أهم أشد خلقاً أم من خلقنا﴾ يعني من السموات والأرض والجبال وهو استفهام تقرير أي هذه الأشياء أشد خلقاً، وقيل ﴿أم من خلقنا﴾ يعني من الأمم الخالية والمعنى أن

﴿ وحفظاً ﴾. أي وحفظناها حفظاً. ﴿ من كل شيطان مارد ﴾، متمرّد يرمون بها.

﴿ لا يسمعون ﴾، قرأ حمزة والكسائي وحفص ﴿ يسمعون ﴾ بتشديد السين والميم، أي لا يتسمعون، فأُدغمت التاء في السين، وقرأ الآخرون بسكون السين خفيف الميم، ﴿ إلى الملأ الأعلى ﴾، أي إلى الكتيبة من الملائكة، والملأ الأعلى هم الملائكة لأنهم في السماء ومعناه أنهم لا يستطيعون الاستماع إلى الملأ الأعلى، ﴿ ويقذفون ﴾، يرمون، ﴿ من كل جانب ﴾، من كل آفاق السماء بالشُّهب.

﴿ دحوراً ﴾، يبعدونهم عن مجالس الملائكة، يقال: دحره دحراً ودحوراً إذا طرده وأبعده، ﴿ ولهم عذاب واصب ﴾، دائم، قال مقاتل: دائم إلى النفخة الأولى لأنهم يحرقون ويتخبلون.

﴿ إلاّ مَن خطف الخطفة ﴾، اختلس الكلمة من كلام الملائكة مسارقة، ﴿ فأتبعه ﴾، لحقه، ﴿ شهاب ثاقب ﴾، كوكب مضيء قوي لا يخطئه يقتله، أو يحرقه أو يخبله، وإنما يعودون إلى استراق السمع مع علمهم بأنهم لا يصلون إليه طمعاً في السلامة ونيل المراد، كراكب السفينة، قال عطاء: سُمّي النجم الذي يُرمى به الشياطين ثاقباً لأنه يثقبهم.

﴿ فاستفتهم ﴾، يعني سلهم يعني أهل مكة، ﴿ أهم أشدّ خلقاً أم من خلقنا ﴾، يعني من السمٰوات والأرض والجبال، وهذا استفهام بمعنى التقرير أي هذه الأشياء أشدّ خلقاً كما قال: ﴿ لخلقُ السمٰوات والأرض أكبر من خلق الناس ﴾ [غافر: ٥٧]، وقال: ﴿ أأنتم أشدّ خلقاً أم السماء ﴾ [النازعات: ٢٧]، وقيل: ﴿ أم من خلقنا ﴾

هؤلاء ليسوا بأحكم خلقاً من غيرهم من الأمم وقد أهلكناهم بذنوبهم فما الذي يؤمن هؤلاء من العذاب.

ثم ذكر مم خلقوا فقال الله تعالى: ﴿إنا خلقناهم من طين لازب﴾ يعني آدم من طين جيد حر لاصق لزج يعلق باليد وقيل من طين نتن.

﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ۝١٢ وَإِذَا ذُكِّرُوا۟ لَا يَذْكُرُونَ ۝١٣ وَإِذَا رَأَوْا۟ ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ ۝١٤ وَقَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝١٥ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ۝١٦ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ۝١٧ قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ ۝١٨ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ۝١٩﴾

﴿بل عجبت﴾ قرىء بالضم على إسناد التعجب إلى الله تعالى وليس هو كالتعجب من الآدميين لأن العجب من الناس محمول على إنكار الشيء وتعظيمه والعجب من الله تعالى محمول على تعظيم تلك الحالة فإن كانت قبيحة فيترتب عليها العقاب وإن كانت حسنة فيترتب عليها الثواب، وقيل قد يكون بمعنى الإنكار والذم وقد يكون بمعنى الاستحسان والرضا كما جاء في الحديث «عجب ربكم من شاب ليست له صبوة» وفي حديث آخر «عجب ربكم من إلكم وقنوطكم وسرعة إجابته إياكم»، وقوله من إلكم الإل أشد القنوط وقيل هو رفع الصوت بالبكاء. وسئل الجنيد رحمه الله تعالى عن هذه الآية فقال إن الله لا يعجب من شيء ولكن وافق رسوله ولما عجب رسوله قال «وإن تعجب فعجب قولهم» أي هو كما تقوله وقرىء بفتح التاء على أنه خطاب للنبي ﷺ أي عجبت من تكذيبهم إياك وهم

يعني من الأمم الخالية، لأن مَن يذكر فيمن يعقل، يقول: إن هؤلاء ليسوا بأحكم خلقاً من غيرهم من الأمم، وقد أهلكناهم بذنوبهم فما الذي يؤمّن هؤلاء من العذاب ثم ذكر خلق الإنسان، فقال: ﴿ إنّا خلقناهم من طين لازب ﴾، يعني جيد حرّاً لاصق يعلق باليد، ومعناه: اللازم إبدال الميم باء كأنه يلزم اليد. وقال مجاهد والضحاك: منتن.

﴿ بل عجبت ﴾، قرأ حمزة والكسائي بضم التاء، وهي قراءة ابن مسعود وابن عباس، والعجب من الله عزّ وجلّ ليس كالتعجّب من الآدميين، كما قال: ﴿ فيسخرون منهم سخر الله منهم ﴾ [التوبة: ٧٩]، وقال عزّ وجلّ: ﴿ نسوا الله فنسيهم ﴾ [التوبة: ٦٧]، والعجب من الآدميين إنكاره وتعظيمه، والعجب من الله تعالى قد يكون بمعنى الإنكار والذمّ، وقد يكون بمعنى الاستحسان والرضا، كما جاء في الحديث: «عجب ربكم من شابّ ليست له صبوة»، وجاء في الحديث: «عجب ربكم من إلّكم وقنوطكم وسرعة إجابته إياكم» وسئل الجنيد عن هذه الآية، فقال: إن الله لا يعجب من شيء ولكن الله وافق رسوله لما عجب رسوله فقال: ﴿ وإن تعجب فعجب قولهم ﴾ [الرعد: ٥] أي هو كما تقوله، وقرأ الآخرون بفتح التاء على خطاب النبي ﷺ: أي عجبت من تكذيبهم إياك، ﴿ ويسخرون ﴾، يعني وهم يسخرون من تعجّبك. قال قتادة: عجب النبي ﷺ من هذا القرآن حين أنزل وضلال بني آدم، وذلك أن النبي ﷺ كان يظن أن كل مَن يسمع القرآن يؤمن به، فلما سمع المشركون القرآن سخروا منه ولم يؤمنوا به، فعجب من ذلك النبي ﷺ، فقال الله تعالى: ﴿ بل عجبت ويسخرون ﴾.

﴿ وإذا ذُكّروا لا يَذْكرون ﴾، يعني إذا وعظوا بالقرآن لا يتّعظون.

﴿ وإذا رأوا آية ﴾، قال ابن عباس ومقاتل يعني انشقاق القمر، ﴿ يستسخرون ﴾، يسخرون ويستهزؤون، وقيل: يستدعي بعضهم عن بعض السخرية.

﴿ وقالوا إن هذا إلّا سحرٌ مبين ﴾، يعني سحر بيّن.

يسخرون من تعجبك وقيل عجب نبي الله ﷺ من هذا القرآن حين أنزل وضلال بني آدم وذلك أن النبي ﷺ كان يظن أن كل من يسمع القرآن يؤمن به فلما سمع المشركون القرآن وسخروا منه ولم يؤمنوا به عجب من ذلك النبي ﷺ فقال الله تعالى ﴿بل عجبت ويسخرون وإذا ذكروا لا يذكرون﴾ أي وإذا وعظوا لا يتعظون ﴿وإذا رأوا آية﴾ قال ابن عباس يعني انشقاق القمر ﴿يستسخرون﴾ أي يستهزؤون.

وقيل يستدعي بعضهم بعضاً إلى أن يسخر ﴿وقالوا إن هذا إلا سحر مبين﴾ أي بيِّن ﴿أئذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أإنا لمبعوثون أو آباؤنا الأولون قل نعم وأنتم داخرون﴾ أي صاغرون ﴿فإنما هي زجرة واحدة﴾ أي صيحة واحدة وهي نفخة البعث ﴿فإذا هم ينظرون﴾ يعني أحياء.

وَقَالُواْ يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿٢٠﴾ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾ ۞ ٱحْشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُواْ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾

﴿وقالوا يا ويلنا هذا يوم الدين﴾ يعني يوم الحساب والجزاء ﴿هذا يوم الفصل﴾ أي القضاء وقيل بين المحسن والمسيء ﴿الذي كنتم به تكذبون﴾ أي في الدنيا ﴿احشروا﴾ أي اجمعوا ﴿الذين ظلموا﴾ أي أشركوا وقيل هو عام في كل ظالم ﴿وأزواجهم﴾ أي أشباههم وأمثالهم فكل طائفة مع مثلها فأهل الخمر مع أهل الخمر وأهل الزنا مع أهل الزنا وقيل أزواجهم أي قرناءهم من الشياطين يقرن كل كافر مع شيطانه في سلسلة وقيل أزواجهم المشركات ﴿وما كانوا يعبدون من دون الله﴾ أي في الدنيا يعني الأصنام والطواغيت وقيل إبليس وجنوده ﴿فأهدوهم إلى صراط الجحيم﴾ قال ابن عباس أي دلوهم إلى طريق النار ﴿وقفوهم﴾ أي احبسوهم ﴿إنهم مسؤولون﴾ لما سيقوا إلى النار حبسوا عند الصراط للسؤال قال ابن عباس عن جميع أقوالهم وأفعالهم ويروى عنه عن لا إله إلا الله وروى عن أبي برزة أن رسول

﴿ أئذا متنا وكنّا تراباً وعظاماً أئنا لمبعُوثون ﴾.

﴿ أوَ آباؤُنا الأوّلون ﴾، أي وآباؤنا الأوّلون.

﴿ قلْ نعم ﴾، تبعثون، ﴿ وأنتم داخِرون ﴾، صاغرون، والدخور أشدّ الصغار.

﴿ فإنما هي ﴾ أي قصة البعث أو القيامة، ﴿زجرة﴾، أي صيحة، ﴿ واحدة ﴾، يعني نفخة البعث، ﴿ فإذا هم ينظرون ﴾، أحياء.

﴿ وقالوا يا ويلنا هذا يوم الدين ﴾، أي يوم الحساب ويوم الجزاء.

﴿ هذا يوم الفصل ﴾، يوم القضاء، وقيل: يوم الفصل بين المُحسِن والمُسيء، ﴿ الذي كنتم به تكذبون ﴾.

﴿ احشروا الذين ظلموا ﴾ أي أشركوا اجمعوهم إلى الموقف للحساب والجزاء، ﴿ وأزواجهم ﴾، أشياعهم وأتباعهم وأمثالهم، قال قتادة والكلبي: كلّ مَن عمل مثل عملهم فأهل الخمر مع أهل الخمر وأهل الزنا مع أهل الزنا. وقال الضحاك ومقاتل: وقرناءهم من الشياطين كل كافر مع شيطانه في سلسلة. وقال الحسن: وأزواجهم المشركات. ﴿ وما كانوا يعبدون من دون الله ﴾، في الدنيا، يعني الأوثان والطواغيث، وقال مقاتل: يعني إبليس وجنوده، واحتجّ بقوله: ﴿ أن لا تعبدوا الشيطان ﴾ [يس: ٦٠]، ﴿ فاهدوهم إلى صراط الجحيم ﴾، قال ابن عباس: دلّوهم إلى طريق النار. وقال ابن كيسان: قدّموهم. والعرب تسمّي السابق هادياً.

الله ﷺ قال «لا تزول قدماً عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع عن عمره فيما[1] أفناه وعن علمه ماذا عمل به وعن ماله من أين اكتسبه وفما أنفقه وعن جسمه فما أبلاه» وفي رواية «عن شبابه فيما أبلاه» أخرجه الترمذي وله عن أنس أن رسول الله ﷺ «قال ما من داع دعا إلى شيء إلا كان موقوفاً يوم القيامة لازماً به لا يفارقه وإن دعا رجل رجلاً ثم قرأ ﴿وقفوهم إنهم مسؤولون ما لكم لا تناصرون﴾ أي تقول لهم خزنة جهنم توبيخاً لهم ما لكم لاينصر بعضكم بعضاً وهذا جواب لأبي جهل حيث قال يوم بدر نحن جميع منتصر قال الله تعالى: ﴿بل هم اليوم مستسلمون﴾ قال ابن عباس خاضعون. وقيل منقادون والمعنى هم اليوم أذلاء منقادون لا حيلة لهم.

وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ قَالُوا۟ بَل لَّمْ تَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَـٰنٍۭ ۖ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَـٰغِينَ ﴿٣٠﴾ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ ۖ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ﴿٣١﴾ فَأَغْوَيْنَـٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَـٰوِينَ ﴿٣٢﴾ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾

﴿وأقبل بعضهم على بعض﴾ يعني الرؤساء والأتباع ﴿يتساءلون﴾ يعني يتخاصمون ﴿قالوا﴾ يعني الرؤساء للأتباع ﴿إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين﴾ يعني من قبل الدين فتضلوننا وتروننا أن الدين ما تضلوننا به. وقيل كان الرؤساء يحلفون لهم أن الدين الذي يدعونهم إليه هو الحق والمعنى أنكم حلفتم لنا فوثقنا بأيمانكم وقيل عن اليمين

﴿ وقفوهم ﴾، واحبسوهم، يقال: وقفته وقفاً فوقف وقوفاً. قال المفسّرون: لمّا سيقوا إلى النار حُبِسُوا عند الصراط لأن السؤال عند الصراط، فقيل: وقفوهم ﴿ إنهم مسؤولون ﴾، قال ابن عباس: عن جميع أقوالهم وأفعالهم. ورُوِيَ عنه عن لا إله إلاّ الله وفي الخبر عن النبي ﷺ قال: «لا تزول قدما ابن آدم يوم القيامة حتى يُسأَلَ عن خمس: عن عمره فيما أفناه، وعن شبابه فيما أبلاه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيمَ أنفقه، وماذا عمل فيما علم».

﴿ ما لكم لا تناصرون ﴾، أي لا تتناصرون، يقال لهم توبيخاً: ما لكم لا ينصر بعضكم بعضاً، يقول لهم خَزَنَة النار هذا جواب لأبي جهل حيث قال يوم بدر: ﴿ نحن جميعٌ منتصر ﴾ [القمر: ٤٤].

فقال الله تعالى: ﴿ بل هم اليوم مستسلمون ﴾، قال ابن عباس: خاضعون. وقال الحسن: منقادون، يقال استسلم للشيء إذا انقاد له وخضع له، والمعنى: هم اليوم أذلاّء منقادون لا حيلة لهم.

﴿ وأقبل بعضهم على بعض ﴾، أي الرؤساء والأتباع ﴿ يتساءلون ﴾، يتخاصمون.

﴿ قالوا ﴾، أي الأتباع للرؤساء، ﴿ إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين ﴾، أي من قبل الدين فتضلّوننا عنه وتروننا أن الدين ما تضلوننا به، قاله الضحاك، وقال مجاهد: عن الصراط الحق، واليمين عبارة عن الدين والحق، كما أخبر الله تعالى عن إبليس: ﴿ ثم لآتينّهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ﴾ [الأعراف: ١٧]، فمَن أتاه الشيطان من قبل اليمين أتاه من قبل الدين فلبس عليه الحق. وقال بعضهم: كان الرؤساء يحلفون لهم أن ما يدعونهم إليه هو الحق، فمعنى قوله: ﴿ تأتوننا عن اليمين ﴾ أي من ناحية الأيمان التي كنتم تحلفونها فوثقنا بها. وقيل: عن اليمين أي عن القوة والقدرة، كقوله: ﴿ لأخذنا منه باليمين ﴾ [الحاقّة: ٤٥]، والمفسّرون على القول الأول.

---

(١) قوله فيما أفناه الخ. كذا في النسخ بإثبات ألف ما الاستفهامية وهو قليل.

أي عن العزة والقدرة والقول الأول أصح ﴿قالوا﴾ يعني الرؤساء للأتباع ﴿بل لم تكونوا مؤمنين﴾ يعني لم تكونوا على حق حتى نضلكم عنه بل كنتم على الكفر ﴿وما كان لنا عليكم من سلطان﴾ يعني من قوة وقدرة فنقهركم على متابعتنا ﴿بل كنتم قوماً طاغين﴾ يعني ضالين ﴿فحق علينا﴾ يعني وجب علينا جميعاً ﴿قول ربنا﴾ يعني كلمة العذاب وهي قوله ﴿لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين﴾ ﴿إنا لذائقون﴾ يعني أن الضال والمضل جميعاً في النار ﴿فأغويناكم﴾ فأضللناكم عن الهدى ودعوناكم إلى ما كنا عليه ﴿إنا كنا غاوين﴾ أي ضالين قال الله تعالى: ﴿فإنهم يومئذ في العذاب مشتركون﴾ يعني الرؤساء والأتباع ﴿إنا كذلك نفعل بالمجرمين﴾ قال ابن عباس الذين جعلوا لله شركاء ثم بين تعالى أنهم إنما وقعوا في ذلك العذاب باستكبارهم عن التوحيد فقال تعالى: ﴿إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون﴾ أي يتكبرون عن كلمة التوحيد ويمتنعون منها ﴿ويقولون لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون﴾ يعنون محمداً ﷺ قال الله تعالى رداً عليهم ﴿بل جاء بالحق وصدق المرسلين﴾ يعني أنه أتى بما أتى به المرسلون قبله من الدين والتوحد ونفي الشرك.

إِنَّكُمْ لَذَآئِقُوا۟ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَٰكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾

﴿إنكم لذائقو العذاب الأليم وما تجزون إلا ما كنتم تعملون﴾ أي في الدنيا من الشرك والتكذيب ﴿إلا﴾ أي لكن

﴿ قالوا ﴾، يعني الرؤساء للأتباع، ﴿ بل لم تكونوا مؤمنين ﴾، لم تكونوا على الحق فنضلّكم عنه، أي إنما الكفر من قِبَلِكم.

﴿ وما كان لنا عليكم من سلطان ﴾، من قوة وقدرة فنقهركم على متابعتنا، ﴿ بل كنتم قوماً طاغين ﴾، ضالّين.

﴿ فحقَّ ﴾، وجب، ﴿ علينا ﴾، جميعاً، ﴿ قولُ ربِّنا ﴾، يعني كلمة العذاب، وهي قوله: ﴿ لأملأنّ جهنّم من الجِنّةِ والنّاسِ أجمعين ﴾ [السجدة: ١٣]. ﴿ إنّا لذائقون ﴾، العذاب، أي أن الضالّ والمُضِلّ جميعاً في النار.

﴿ فأغويناكم ﴾، فأضللناكم عن الهدى ودعوناكم إلى ما كنّا عليه، ﴿ إنّا كنّا غاوين ﴾، ضالّين.

قال الله: ﴿ فإنهم يومئذ في العذاب مشتركون ﴾، الرؤساء والأتباع.

﴿ إنّا كذلك نفعل بالمجرمين ﴾، قال ابن عباس: الذين جعلوا لله شركاء.

﴿ إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلّا الله يستكبرون ﴾، يتكبرون عن كلمة التوحيد ويمتنعون منها.

﴿ ويقولون أئنا لتاركوا آلهتنا لشاعرٍ مجنون ﴾، يعني النبي ﷺ.

قال الله عزّ وجلّ ردّاً عليهم: ﴿ بلْ جاء ﴾، محمد، ﴿ بالحقِّ وصدّق المرسلين ﴾، أي أنه أتى بما أتىٰ به الرسول قبله.

﴿ إنكم لذائقوا العذاب الأليم * وما تجزون إلّا ما كنتم تعملون ﴾، في الدنيا من الشرك.

وهو استثناء منقطع ﴿**عباد الله المخلصين**﴾ أي الموحدين ﴿**أولئك لهم رزق معلوم**﴾ يعني بكرة وعشياً وقيل حين يشتهونه يؤتون به وقيل إنه معلوم الصفة من طيب طعم ولذة ورائحة وحسن منظر ثم وصف ذلك الرزق فقال تعالى: ﴿**فواكه**﴾ جمع فاكهة وهي الثمار كلها رطبها ويابسها وكل طعام يؤكل للتلذذ لا للقوت. وقيل إن أرزاق أهل الجنة كلها فواكه لأنهم مستغنون عن حفظ الصحة بالأقوات لأن أجسادهم خلقت للأبد فكل ما يأكلونه على سبيل التلذذ ثم إن ذلك حاصل مع الإكرام والتعظيم كما قال تعالى: ﴿**وهم مكرمون**﴾ أي بثواب الله تعالى ثم وصف مساكنهم فقال تعالى: ﴿**في جنات النعيم على سرر متقابلين**﴾ يعني لا يرى بعضهم قفا بعض ثم وصف شرابهم فقال تعالى: ﴿**يطاف عليهم بكأس من معين**﴾ كل إناء فيه شراب يسمى كأساً وإذا لم يكن فيه شراب فهو إناء وقد تسمى الخمر نفسها كأساً قال الشاعر:

وكأساً شربت على لذة

ومعنى معين أي من خمر جارية في الأنهار ظاهرة تراها العيون ﴿**بيضاء**﴾ يعني أن خمر الجنة أشد بياضاً من اللبن ﴿**لذة**﴾ أي لذيذة ﴿**للشاربين لا فيها غول**﴾ أي لا تغتال عقولهم فتذهب بها وقيل لا إثم فيها ولا وجع البطن ولا صداع وقيل الغول فساد يلحق في خفاء وخمر الدنيا يحصل منها أنواع من الفساد ومنها السكر وذهاب العقل ووجع البطن وصداع الرأس والبول والقيء والخمار والعربدة وغير ذلك ولا يوجد شيء من ذلك في خمر الجنة ﴿**ولا هم عنها ينزفون**﴾ أي لا تغلبهم على عقولهم ولا يسكرون وقيل معناه لا ينفد شرابهم ثم وصف أزواجهم فقال تعالى:

﴿ **إلّا عبادَ الله المخلصين** ﴾، الموحدين.

﴿ **أولئك لهم رزقٌ معلوم** ﴾، يعني بكرةً وعشيّاً كما قال: ﴿ ولهم رزقهم فيها بكرةً وعشيّاً ﴾ [مريم: ٦٢].

﴿ **فواكه** ﴾ جمع الفاكهة وهي الثمار كلها رطبها ويابسها وهي كل طعام يؤكل للتلذّذِ لَا للقوت، ﴿ **وهم مكرمون** ﴾، بثواب الله.

﴿ **في جنّات النّعيم * على سُرر متقابلين** ﴾، لا يرى بعضهم قَفَا بعض.

﴿ **يُطاف عليهم بكأس** ﴾، إناء فيه شراب ولا يكون كأساً حتى يكون فيه شراب، وإلّا فهو إناء، ﴿ **من معين** ﴾، خمر جارية في الأنهار ظاهرة تراها العيون.

﴿ **بيضاء** ﴾، قال الحسن: خمر الجنة أشدّ بياضاً من اللبن، ﴿ **لَذّة** ﴾، أي لذيذة، ﴿ **للشاربين** ﴾.

﴿ **لا فيها غولٌ** ﴾، قال الشعبي: لا تغتال عقولهم فتذهب بها. قال الكلبي: إثم. وقال قتادة: وَجَعُ البطن. وقال الحسن: صداع. وقال أهل المعاني: الغول فساد يلحق في خفاء، يقال: اغتاله اغتيالاً إذا أفسد عليه أمره في خفية، وخمرة الدنيا يحصل منها أنواع من الفساد، منها السكر وذهاب العقل ووجوع البطن والصداع والقيء والبول، ولا يوجد شيء من ذلك في خمر الجنة. ﴿ **ولا هم عنها يُنْزَفُون** ﴾، قرأ حمزة والكسائي ﴿ **ينزفون** ﴾ بكسر الزاي وافقهما عاصم في الواقعة [١٩]، وقرأ الآخرون بفتح الزاي فيهما فمَن فتح الزاي فمعناه: لا يغلبهم على عقولهم ولا يسكرون، يقال: نزف الرجل فهو منزوف ونزيف إذا سكر، ومَن كسر الزاي فمعناه: لا ينزف شرابهم، يقال أنزف الرجل فهو منزف إذا فنيت خمره.

﴿ **وعندهم قاصرات الطرف** ﴾، حابسات الأعين غاضّات الجفون، قصرن أعينهنّ على أزواجهنّ لا ينظرن إلى غيرهم، ﴿ **عِيْن** ﴾، أي حِسان الأعين، يقال: رجل أعين وامرأة عيناء ونساءٌ عِين.

﴿وعندهم قاصرات الطرف﴾ أي حابسات الأعين غاضات العيون قصرن أعينهن على أزواجهن فلا ينظرن إلى غيرهم ﴿عين﴾ أي حسان الأعين عظامها ﴿كأنهن بيض مكنون﴾ أي مصون مستور شبههن ببيض النعام لأنها تكنها بالريش من الريح والغبار فيكون لونها أبيض في صفرة ويقال هذا من أحسن ألوان النساء وهو أن تكون المرأة بيضاء مشوبة بصفرة والعرب تشبه المرأة ببيض النعامة وتسميهن ببيضات الخدور. قوله عز وجل:

فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾
أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَٱللَّهِ إِن
كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ
بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ﴿٦١﴾ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾

﴿فأقبل بعضهم على بعض﴾ يعني أهل الجنة في الجنة ﴿يتساءلون﴾ أي يسأل بعضهم بعضاً عن حاله في الدنيا ﴿قال قائل منهم﴾ أي من أهل الجنة ﴿إني كان لي قرين﴾ أي في الدنيا ينكر البعث قيل كان قرينه شيطاناً وقيل كان من الإنس قيل كانا أخوين وقيل كانا شريكين أحدهما كافر اسمه قطروس والآخر مؤمن اسمه يهوذا وهما اللذان قص الله عز وجل خبرهما في سورة الكهف في قوله: ﴿واضرب لهم مثلاً رجلين﴾ ﴿يقول أئنك لمن المصدقين﴾ أي بالبعث ﴿أئذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمدينون﴾ أي مجزيون ومحاسبون وهذا استفهام إنكاري ﴿قال﴾ الله تعالى لأهل الجنة ﴿هل أنتم مطلعون﴾ أي إلى النار وقيل يقول المؤمن لإخوانه من أهل الجنة هل أنتم مطلعون أي لننظر كيف منزلة أخي في النار فيقول أهل الجنة أنت أعرف به منا ﴿فاطلع﴾ أي المؤمن قال ابن عباس إن في الجنة كوى ينظر منها أهلها إلى النار ﴿فرآه في سواء الجحيم﴾ أي فرأى قرينه في وسط النار سمي وسط الشيء سواء لاستواء الجوانب منه ﴿قال تالله إن كدت لتردين﴾ أي والله لقد كدت أن تهلكني وقيل تغويني ومن أغوى إنساناً فقد أرداه وأهلكه ﴿ولولا

﴿ كأنهنّ بَيْضٌ ﴾، جمع البيضة، ﴿ مكنون ﴾، مضمون مستور، وإنما ذكر المكنون والبيض جمع لأنه ردّه إلى اللفظ. قال الحسن: شبّههنّ ببيض النعامة تكنّها بالريش من الريح والغبار حين خروجها، فلونها أبيض في صفرة. ويقال: هذا أحسن ألوان النساء أن تكون المرأة (بيضاء) مُشرّبة صُفرة، والعرب تشبّهها ببيضة النعامة.

﴿ فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون ﴾، يعني أهل الجنة في الجنة يسأل بعضُهم بعضاً عن حاله في الدنيا.

﴿ قال قائل منهم ﴾، يعني من أهل الجنة، ﴿ إني كان لي قرين ﴾، في الدنيا ينكر البعث. قال مجاهد: كان شيطاناً. وقال الآخرون: كان من الإنس. وقال مقاتل: كانا أخوين. وقال الباقون: كانا شريكين أحدهما كافر اسمه قطروس والآخر مؤمن اسمه يهودا، وهما اللذان قصّ الله تعالى خبرهما في سورة الكهف [٣٢] في قوله تعالى: ﴿ واضرب لهم مثلاً رجلين ﴾.

﴿ يقول أئنك لمن المصدّقين ﴾، بالبعث.

﴿ أئذا متنا وكنّا تراباً وعظاماً أئنّا لمدينون ﴾، مجزيّون ومُحاسبون وهذا استفهام إنكار.

﴿ قال ﴾، الله تعالى لأهل الجنة: ﴿ هل أنتم مطّلعون ﴾، إلى النار. وقيل: يقول المؤمن لإخوانه من أهل الجنّة هل أنتم مطّلعون إلى النار لتنظر كيف منزلة أخي فيقول أهل الجنة أنت أعرف به منّا.

﴿ فاطّلع ﴾، قال ابن عباس: إن في الجنة كوىً ينظر أهلها منها إلى النار، فاطّلع هذا المؤمن، ﴿ فرآه في

نعمة ربي﴾ أي رحمة ربي وإنعامه علي بالإسلام ﴿لكنت من المحضرين﴾ أي معك في النار ﴿أفما نحن بميتين إلا موتتنا الأولى﴾ أي في الدنيا ﴿وما نحن بمعذبين﴾ قيل يقول هذا أهل الجنة للملائكة حين يذبح الموت فتقول الملائكة لهم لا فيقولون ﴿إن هذا لهو الفوز العظيم﴾ وإنما يقولونه على جهة التحدث بنعمة الله عليهم في أنهم لا يموتون ولا يعذبون ليفرحوا بدوام النعيم لا على طريق الاستفهام لأنهم قد علموا أنهم ليسوا بميتين ولا معذبين ولكن أعادوا الكلام ليزدادوا سروراً بتكراره وقيل يقوله المؤمن لقرينه على جهة التوبيخ بما كان ينكره قال الله تعالى: ﴿لمثل هذا﴾ أي المنزل والنعيم الذي ذكره في قوله: ﴿أولئك لهم رزق معلوم﴾ ﴿فليعمل العاملون﴾ هذا ترغيب في ثواب الله تعالى وما عنده بطاعته.

قوله تعالى: ﴿أذلك﴾ أي الذي ذكره لأهل الجنة من النعيم ﴿خير نزلاً﴾ أي رزقاً ﴿أم شجرة الزقوم﴾ التي هي نزل أهل النار والزقوم شجرة خبيثة مرة كريهة الطعم يكره أهل النار على تناولها فهم يتزقمونه على أشد كراهة وقيل هي شجرة تكون بأرض تهامة من أخبث الشجر.

إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَءَاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا۟ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٧٤﴾

﴿إنا جعلناها فتنة للظالمين﴾ أي للكافرين وذلك أنهم قالوا كيف تكون في النار شجرة والنار تحرق الشجر، وقال ابن الزبعري لصناديد قريش إن محمداً يخوفنا بالزقوم والزقوم بلسان بربر الزبد والتمر، وقيل هو بلغة أهل اليمن

سواء الجحيم﴾، فرأ قرينه في وسط النار، وإنما سُمّي وسط الشيء سواءً لاستواء الجوانب منه.

﴿ قال ﴾، له، ﴿ تالله إن كدت لتردين ﴾ والله لقد كدت أن تهلكني، قال مقاتل: والله لقد كدت أن تغويني، ومَن أغوى إنساناً فقد أهلكه.

﴿ ولولا نعمة ربّي ﴾، رحمته وإنعامه عليّ بالإسلام، ﴿ لكنتُ من المحضَرين ﴾، معك في النار.

﴿ أفما نحن بميتين * إلاّ موتتنا الأولى ﴾، في الدنيا، ﴿ وما نحن بمعذّبين ﴾، قال بعضهم: يقول هذا أهل الجنة للملائكة حين يذبح الموت: أفما نحن بميتين؟ فتقول لهم الملائكة: لا.

فيقولون: ﴿ إنَّ هذا لهوَ الفوز العظيم ﴾، وقيل: إنما يقولونه على جهة الحديث بنعمة الله عليهم في أنهم لا يموتون ولا يعذّبون. وقيل: يقوله المؤمن لقرينه على جهة التوبيخ بما كان ينكره.

قال الله تعالى: ﴿ لمثل هذا فليعمل العاملون ﴾، أي لمثل هذا المنزل ولمثل هذا النعيم الذي ذكره من قوله: ﴿ أولئك لهم رزق معلوم ﴾، إلى ﴿ فليعمل العاملون ﴾.

﴿ أذلك ﴾. أي ذلك الذي ذكر لأهل الجنة، ﴿ خيرٌ نزلاً أم شجرة الزقوم ﴾، التي هي نزل أهل النار، والزقوم: شجرة خبيثة مرّة كريهة الطعم، يُكره أهلُ النار على تناولها، فهم يتزقّمونه على أشدّ كراهية، ومنه قولهم: تزقّم الطعامَ إذا تناوله على كره ومشقّة.

﴿ إنّا جعلناها فتنة للظالمين ﴾، للكافرين وذلك أنهم قالوا: كيف يكون في النار شجرة والنار تحرق الشجر؟

فأدخلهم أبو جهل بيته وقال يا جارية زقمينا فأتتهم بالزبد والتمر فقال أبو جهل تزقموا فهذا ما يوعدكم به محمد فقال الله تعالى: ﴿**إنها شجرة تخرج في أصل الجحيم**﴾ أي في قعر النار وأغصانها ترتفع إلى دركاتها ﴿**طلعها**﴾ أي ثمرها سمي طلعاً لطلوعه ﴿**كأنه رؤوس الشياطين**﴾ قال ابن عباس هم الشياطين بأعيانهم شبهها لقبحهم عند الناس.

فإن قلت قد شبهها بشيء لم يشاهد فكيف وجه التشبيه.

قلت إنه قد استقر في النفوس قبح الشياطين وإن لم يشاهدوا فكأنه قيل إن أقبح الأشياء في الوهم والخيال رؤوس الشياطين فهذه الشجرة تشبهها في قبح المنظر والعرب إذا رأت منظراً قبيحاً قالت كأنه رأس شيطان قال امرؤ القيس:

أيقتلنـــي والمشـــرفـــي مضـــاجعـــي ومسنـــونـــة زرق كـــأنيـــاب أغـــوال

شبّه سنان الرمح بأنياب الغول ولم يرها وقيل إن بين مكة واليمن شجرة قبيحة منتنة تسمى رؤوس الشياطين فشبهها بها وقيل أراد بالشياطين الحيات والعرب تسمي الحية القبيحة المنظر شيطاناً ﴿**فإنهم لآكلون منها**﴾ أي من ثمرها ﴿**فمالئون منها البطون**﴾ وذلك أنهم يكرهون على أكلها حتى تمتلىء بطونهم ﴿**ثم إن لهم عليها لشوبا**﴾ أي خلطاً ومزاجاً ﴿**من حميم**﴾ أي من ماء شديد الحرارة يقال إنهم إذا أكلوا الزقوم وشربوا عليه الحميم شاب الحميم الزقوم في بطونهم فصار شوباً لهم ﴿**ثم إن مرجعهم لإلى الجحيم**﴾ وذلك أنهم يردون إلى الجحيم بعد شراب الحميم ﴿**إنهم ألفوا**﴾ أي وجدوا ﴿**آباءهم ضالين فهم على آثارهم يهرعون**﴾ أي يسرعون وقيل يعملون مثل عملهم ﴿**ولقد**

وقال ابن الزبعري: لصناديد قريش إن محمداً يخوّفنا بالزقوم، والزقوم بلسان بربر الزبد والتمر، فأدخلهم أبو جهل بيته، وقال يا جارية: زقّمينا فأتتهم بالزبد والتمر، فقال: تزقّموا فهذا ما يوعدكم به محمد.

فقال الله تعالى: ﴿**إنّها شجرة تخرج في أصل الجحيم**﴾، قعر النار، وقال الحسن: أصلها في قعر جهنم وأغصانها ترتفع إلى دركاتها.

﴿**طلعها**﴾، ثمرها سُمّي طلعاً لطلوعه، ﴿**كأنّه رؤوس الشياطين**﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما: هم الشياطين بأعيانهم شبّه بها لقبحها، لأن الناس إذا وصفوا شيئاً بغاية القبح قالوا: كأنه شيطان، وإن كانت الشياطين لا ترى لأن قبح صورتها متصوّر في النفس، وهذا معنى قول ابن عباس والقرظي، وقال بعضهم: أراد بالشياطين الحيّات، والعرب تُسمّي الحيّة القبيحة المنظر شيطاناً. وقيل: هي شجرة قبيحة مُرّة منتنة تكون في البادية تسمّيها العرب رؤوس الشياطين.

﴿**فإنهم لآكلون منها فمالِئون منها البطون**﴾، والملء حشو الوعاء بما لا يحتمل الزيادة عليه.

﴿**ثم إنّ لهم عليها لشوباً**﴾، خلطاً ومزاجاً، ﴿**من حميم**﴾، من ماء حارّ شديد الحرارة، يقال: إنهم إذا أكلوا الزقوم شربوا عليه الحميم فيشوب الحميم في بطونهم الزقوم فيصير شوباً له.

﴿**ثم إن مرجعهم**﴾، بعد شرب الحميم، ﴿**لإلى الجحيم**﴾، وذلك أنهم يوردون الحميم لشربه وهو خارج من الجحيم كما يورد الإبل الماء، ثم يردون إلى الجحيم، دلّ عليه قوله تعالى: ﴿ يطوفون بينها وبين حميم آن ﴾ [الرحمن: ٤٤]، وقرأ ابن مسعود: (ثم إن منقلبهم لإلى الجحيم).

﴿**إنهم ألفوا**﴾ وجدوا، ﴿**آباءهم ضالّين**﴾. ﴿**فهم على آثارهم يهرعون**﴾، يسرعون، قال الكلبي: يعملون مثل أعمالهم.

ضل قبلهم أكثر الأولين﴾ أي من الأمم الخالية ﴿ولقد أرسلنا فيهم منذرين﴾ أي وأرسلنا فيهم رسلاً منذرين ﴿فانظر كيف كان عاقبة المنذرين﴾ أي الكافرين وكانت عاقبتهم العذاب ﴿إلا عباد الله المخلصين﴾ أي الموحدين نجوا من العذاب والمعنى انظر كيف أهلكنا المنذرين إلا عباد الله المخلصين. قوله عز وجل:

﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٨٢﴾ ۞ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾

﴿ولقد نادانا نوح﴾ أي دعا ربه على قومه وقيل دعا ربه أن ينجيه من الغرق ﴿فلنعم المجيبون﴾ نحن أي دعانا فأجبناه وأهلكنا قومه ﴿ونجيناه وأهله من الكرب العظيم﴾ أي من الغم الذي لحق قومه وهو الغرق ﴿وجعلنا ذريته هم الباقين﴾ يعني أن الناس كلهم من ذرية نوح عليه السلام قال ابن عباس لما خرج نوح من السفينة مات من كان معه من الرجال والنساء إلا ولده ونساءهم، عن سمرة بن جندب عن النبي ﷺ في قول الله عز وجل ﴿وجعلنا ذريته هم الباقين﴾ قال «هم سام وحام ويافث» أخرجه الترمذي وقال حديث حسن غريب وفي رواية أخرى سام أبو العرب وحام أبو الحبش ويافث أبو الروم وقيل سام أبو العرب وفارس والروم وحام أبو السودان ويافث أبو الترك والخزر ويأجوج ومأجوج وما هنالك ﴿وتركنا عليه في الآخرين﴾ أي أبقينا له حسناً وذكراً جميلاً فيمن بعده من الأنبياء والأمم إلى يوم

﴿ ولقد ضلّ قبلهم أكثر الأوّلين ﴾، من الأمم الخالية.

﴿ ولقد أرسلنا فيهم منذرين * فانظر كيف كان عاقبة المنذرين ﴾، الكافرين أي كان عاقبتهم العذاب.

﴿ إلاّ عباد الله المخلَصين ﴾، الموحدين نجوا من العذاب.

﴿ ولقد نادانا نوح ﴾، دعا ربّه على قومه فقال: ﴿ إني مغلوب فانتصر ﴾ [القمر: ١٠] ﴿ فَلَنِعْمَ المجيبون ﴾، نحن يعني أجبنا دعاءه وأهلكنا قومه.

﴿ ونجّيناه وأهله من الكرب العظيم ﴾، الغمّ العظيم الذي لحق قومه وهو الغرق.

﴿ وجعلنا ذريّته هم الباقين ﴾، وأراد أن الناس كلهم من نسل نوح، روى الضحّاك عن ابن عباس قال: لمّا خرج نوح من السفينة مات مَن كان معه من الرجال والنساء إلاّ ولده ونساءهم، قال سعيد بن المسيب: كان ولد نوح ثلاثة: سام وحام ويافث، فسام أبو العرب وفارس والروم، وحام أبو السودان، ويافث أبو الترك والخزر ويأجوج ومأجوج وما هنالك.

﴿ وتركنا عليه في الآخرين ﴾، أي أبقينا له ثناءً حسناً وذكراً جميلاً فيمن بعده من الأنبياء والأمم إلى يوم القيامة.

﴿ سلامٌ على نوح في العالمين ﴾، أي سلام عليه منّا في العالمين. وقيل: أي تركنا عليه في الآخرين أن يُصلّى عليه إلى يوم القيامة.

القيامة ﴿سلام على نوح في العالمين﴾ أي سلام عليه منا في العالمين وقيل تركنا عليه في الآخرين أن يصلي عليه إلى يوم القيامة ﴿إنا كذلك نجزي المحسنين﴾ أي جزاه الله بإحسانه الثناء الحسن في العالمين، ﴿إنه من عبادنا المؤمنين ثم أغرقنا الآخرين﴾ يعني الكفار.

قوله عز وجل: ﴿وإن من شيعته﴾ أي من شيعة نوح ﴿لإبراهيم﴾ يعني أنه على دينه وملته ومنهاجه وسنته ﴿إذ جاء ربه بقلب سليم﴾ أي مخلص من الشرك والشك وقيل من الغل والغش والحقد والحسد يحب للناس ما يحب لنفسه ﴿إذ قال لأبيه وقومه ماذا تعبدون﴾ استفهام توبيخ ﴿أئفكا آلهة دون الله تريدون﴾ أي أتأفكون إفكاً وهو أسوأ الكذب وتعبدون آلهة سوى الله تعالى: ﴿فما ظنكم برب العالمين﴾ يعني إذا لقيتموه وقد عبدتم غيره أنه يصنع بكم ﴿فنظر نظرة في النجوم فقال إني سقيم﴾ قال ابن عباس كان قومه يتعاطون علم النجوم فعاملهم من حيث كانوا يتعاطون ويتعاملون به لئلا ينكروا عليه، وذلك أنه أراد أن يكايدهم في أصنامهم ليلزمهم الحجة في أنها غير معبودة، وكان لهم من الغد عيد ومجمع فكانوا يدخلون على أصنامهم ويقربون لهم القرابين ويضعون بين أيديهم الطعام قبل خروجهم إلى عيدهم وزعموا التبرك عليه فإذا انصرفوا من عيدهم أكلوه فقالوا لإبراهيم ألا تخرج معنا إلى عيدنا فنظر في النجوم فقال إني سقيم قال ابن عباس أي مطعون وكانوا يفرون من المطعون فراراً عظيماً وقيل مريض وقيل معناه متساقم وهو من معاريض الكلام وقد تقدم الجواب عنه في سورة الأنبياء وقيل إنه خرج معهم إلى عيدهم فلما كان ببعض الطريق ألقى نفسه وقال إني سقيم أشتكي رجلي ﴿فتولوا عنه مدبرين﴾ أي إلى عيدهم فدخل إبراهيم عليه الصلاة والسلام على الأصنام فكسرها وهو قوله تعالى: ﴿فراغ﴾ أي مال ﴿إلى آلهتهم﴾ ميلة في خفية ﴿فقال﴾ أي للأصنام استهزاء بها ﴿ألا تأكلون﴾ يعني الطعام الذي بين أيديكم.

﴿ إنّا كذلك نجزي المحسنين ﴾، قال مقاتل: جزاه الله بإحسانه الثناء الحسن في العالمين.

﴿ إنه من عبادنا المؤمنين * ثم أغرقنا الآخرين ﴾، يعني الكفّار.

قوله تعالى: ﴿ وإنّ من شيعته ﴾، أي من أهل دينه وملّته وسُنّته، ﴿ لإبراهيم ﴾. ﴿ إذْ جاء ربَّه بقلب سليم ﴾، مخلص من الشرك والشك.

﴿ إذ قال لأبيه وقومه ماذا تعبدون ﴾، استفهام توبيخ.

﴿ أئفكاً آلهةً دون الله تريدون ﴾، يعني أتأفكون إفكاً وهو أسوأ الكذب، وتعبدون آلهة سوى الله.

﴿ فما ظنّكم بربّ العالمين ﴾، إذا لقيتموه وقد عبدتم غيره أنه يصنع بكم.

﴿ فنظر نظرةً في النجوم * فقال إني سقيم ﴾. قال ابن عباس: كان قومه يتعاطون علم النجوم فعاملهم من حيث كانوا لئلا ينكروا عليه، وذلك أنه أراد أن يكايدهم في أصنامهم ليلزمهم الحجّة في أنها غير معبودة، وكان لهم من الغد عيد ومجمع وكانوا يدخلون على أصنامهم ويفرشون لهم الفراش، ويصنعون بين أيديهم الطعام قبل خروجهم إلى عيدهم، زعموا التبرّك عليه فإذا انصرفوا من عيدهم أكلوه، فقالوا لإبراهيم ألا تخرج غداً معنا إلى عيدنا، فنظر إلى النجوم فقال: إني سقيم، قال ابن عباس: مطعون، وكانوا يفرّون من الطاعون فراراً عظيماً. قال الحسن: مريض. وقال مقاتل: وجع. وقال الضحّاك: سأسقم.

﴿ فتولّوا عنه مدبرين ﴾، إلى عيدهم فدخل إبراهيم على الأصنام فكسرها.

كما قال الله تعالى: ﴿ فراغ إلى آلهتهم ﴾، مال إليها ميلة في خفية، ولا يقال راغ حتى يكون صاحبه مخفياً لذهابه ومجيئه، ﴿ فقال ﴾ استهزاءً بها. ﴿ ألا تأكلون ﴾، يعني الطعام الذي بين أيديكم.

مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوٓا۟ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾ وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾

﴿ما لكم لا تنطقون فراغ﴾ أي مال ﴿عليهم ضرباً باليمين﴾ أي ضربهم بيده اليمنى لأنها أقوى من الشمال في العمل. وقيل بالقوة والقدرة عليهم وقيل أراد باليمين القسم وهو قوله تعالى ﴿وتالله لأكيدن أصنامكم﴾ ﴿فأقبلوا إليه﴾ يعني إلى إبراهيم ﴿يزفون﴾ أي يسرعون وذلك أنهم أخبروا بصنع إبراهيم بآلهتهم فأسرعوا إليه ليأخذوه ﴿قال﴾ لهم إبراهيم على وجه الحجاج ﴿أتعبدون ما تنحتون﴾ أي بأيديكم من الأصنام ﴿والله خلقكم وما تعملون﴾ أي وعملكم. وقيل وخلق الذي تعملونه بأيديكم من الأصنام وفي الآية دليل على أن أفعال العباد مخلوقة لله تعالى ﴿قالوا ابنوا له بنياناً فألقوه في الجحيم﴾ قيل إنهم بنوا له حائطاً من الحجر طوله في السماء ثلاثون ذراعاً وعرضه عشرون ذراعاً وملأوه من الحطب وأوقدوا عليه النار وطرحوه فيها وهو قوله تعالى: ﴿فأرادوا به كيداً﴾ أي شراً وهو أن يحرقوه ﴿فجعلناهم الأسفلين﴾ يعني المقهورين حيث سلم الله إبراهيم ورد كيدهم ﴿وقال﴾ يعني إبراهيم ﴿إني ذاهب إلى ربي﴾ أي مهاجر إلى ربي وأهجر دار الكفر قاله بعد خروجه من النار ﴿سيهدين﴾ أي إلى حيث أمرني بالمصير إليه وهو أرض الشام فلما قدم الأرض المقدسة سأل ربه الولد فقال:

رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ

﴿ ما لكم لا تنطقون * فراغ عليهم ضرباً باليمين ﴾، أي كان يضربهم بيده اليمنى لأنها أقوى على العمل من الشمال. وقيل: باليمين أي بالقوة. وقيل: أراد به القسم أي بالقسم الذي سبق منه وهو قوله: ﴿ وتالله لأكيدنّ أصنامكم ﴾ [الأنبياء: ٥٧].

﴿ فأقبلوا إليه ﴾، يعني إلى إبراهيم، ﴿ يزفّون ﴾، يسرعون وذلك أنهم أُخبِروا بصنيع إبراهيم بآلهتهم فأسرعوا إليه ليأخذوه، وقرأ الأعمش وحمزة ﴿ يزفّون ﴾ بضم الياء وقرأ الآخرون بفتحها، وهما لغتان. وقيل بضم الياء: أي يحملون دوابّهم على الجدّ والإسراع.

﴿ قال ﴾، لهم إبراهيم على وجه الحجاج، ﴿ أتعبدون ما تنحِتون ﴾، يعني ما تنحتون بأيديكم.

﴿ واللَّهُ خلقكم وما تعملون ﴾، بأيديكم من الأصنام، وفيه دليل على أن أفعال العباد مخلوقة لله تعالى.

﴿ قالوا بنوا له بنياناً فألقوه في الجحيم ﴾، معظم النار، قال مقاتل: بنوا له حائطاً من الحجر طوله في السماء ثلاثون ذراعاً وعرضه عشرون ذراعاً، وملؤه من الحطب وأوقدوا فيه النار فطرحوه فيها.

﴿ فأرادوا به كيداً ﴾، شرّاً وهو أن يحرقوه، ﴿ فجعلناهم الأسفلين ﴾، أي المقهورين حيث سلّم الله تعالى إبراهيم وردّ كيدهم.

﴿ وقال ﴾، يعني إبراهيم، ﴿ إني ذاهب إلى ربّي ﴾، أي مهاجر إلى ربّي، والمعنى: أهجر دار الكفر وأذهب إلى مرضاة ربّي، قاله بعد الخروج من النار، كما قال: ﴿ إني مهاجرٌ إلى ربّي ﴾ [العنكبوت: ٢٦]، ﴿ سيهدين ﴾، إلى حيث أمرني بالمصير إليه وهو الشام. قال مقاتل: فلما قَدِمَ الأرض المقدسة سأل ربّه الولد.

﴿أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٠٢ فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ ١٠٣﴾

﴿رب هب لي من الصالحين﴾ يعني هب لي ولداً صالحاً ﴿فبشرناه بغلام حليم﴾ قيل غلام في صغره حليم في كبره وفيه بشارة أنه ابن وأنه يعيش وينتهي في السن حتى يوصف بالحلم.

قوله تعالى: ﴿فلما بلغ معه السعي﴾ قال ابن عباس يعني المشي معه إلى الجبل وعنه أنه لما شبَّ حتى بلغ سعيه سعى مع إبراهيم، والمعنى بلغ أن يتصرف معه ويعينه في عمله وقيل السعي العمل لله تعالى وهو العبادة قيل كان ابن ثلاث عشرة سنة وقيل سبع سنين ﴿قال يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك﴾ قيل إنه لم ير في منامه أنه ذبحه وإنما أمر بذبحه. وقيل بل رأى أنه يعالج ذبحه ولم ير إراقة دمه ورؤيا الأنبياء حق إذا رأوا شيئاً فعلوه واختلف العلماء من المسلمين في هذا الغلام الذي أمر إبراهيم بذبحه على قولين مع اتفاق أهل الكتابين على أنه إسحاق، قال قوم هو إسحاق وإليه ذهب من الصحابة عمر وعلي وابن مسعود والعباس ومن التابعين، ومن بعدهم كعب الأحبار وسعيد بن جبير وقتادة ومسروق وعكرمة وعطاء ومقاتل والزهري والسدي واختلفت الروايات عن ابن عباس فروى عنه أنه إسحاق وروي أنه إسماعيل، ومن ذهب إلى أنه إسحاق قال كانت هذه القصة بالشأم وروي عن سعيد بن جبير قال رأى إبراهيم ذبح إسحاق في المنام وهو بالشأم فسار به مسيرة شهر في غداة واحدة حتى أتى به المنحر من منى فلما أمره الله بذبح الكبش ذبحه وسار به مسيرة شهر في روحة واحدة طويت له الأودية والجبال، والقول الثاني أنه إسماعيل وإليه ذهب عبد الله بن سلام والحسن وسعيد بن المسيب والشعبي ومجاهد والربيع بن أنس ومحمد بن كعب القرظي والكلبي ورواية عطاء بن أبي رباح ويوسف بن ماهك عن ابن عباس قال المفدي إسماعيل، وكلا

فقال: ﴿ ربِّ هبْ لي من الصالحين ﴾، يعني هب لي ولداً صالحاً من الصالحين.

﴿ فبشّرناه بغلام حليم ﴾، قيل بغلام في صغره حليم في كبره، ففيه بشارة أنه نبي وأنه يعيش فينتهيَ في السنّ حتى يوصف بالحلم.

﴿ فلمّا بلغ معه السعي ﴾، قال ابن عباس وقتادة: يعني المشي معه إلى الجبل. وقال مجاهد عن ابن عباس: لمّا شبّ حتى بلغ سعيه سعي إبراهيم، والمعنى: بلغ أن يتصرّف معه ويعينه في عمله. قال الكلبي: يعني العمل لله تعالى، وهو قول الحسن ومقاتل بن حيّان وابن زيد، قالوا: هو العبادة لله تعالى، واختلفوا في سنّه، قيل: كان ابن ثلاث عشرة سنة. وقيل: كان ابن سبع سنين. قوله تعالى: ﴿ قال يا بُنيّ إنّي أرى في المنام أني أذبحك ﴾، واختلف العلماء من المسلمين في هذا الغلام الذي أُمر إبراهيم بذبحه بعد اتفاق أهل الكتابين على أنه إسحاق، فقال قوم: هو إسحاق وإليه ذهب من الصحابة عمر وعلي وابن مسعود وابن عباس، ومن التابعين وأتباعهم كعب الأحبار وسعيد بن جبير وقتادة ومسروق وعكرمة وعطاء ومقاتل والزهري والسدي، وهي رواية عكرمة وسعيد بن جبير عن ابن عباس، قالوا: وكانت هذه القصة بالشام. ورُوِيَ عن سعيد بن جبير قال: أرى إبراهيم ذبح إسحاق في المنام فسار به مسيرة شهر في غداة واحدة حتى أتى به المنحر بمنى، فلما أمره الله تعالى بذبح الكبش ذبحه وسار به مسيرة شهر في روحة واحدة وطويت له الأودية والجبال. وقال آخرون: هو إسماعيل، وإليه ذهب عبد الله بن عمر وهو قول سعيد بن المسيب والشعبي والحسن البصري ومجاهد والربيع بن أنس ومحمد بن كعب القرظي، والكلبي وهي رواية عطاء بن أبي رباح ويوسف بن ماهك عن ابن عباس، قال المفدّى إسماعيل، وكِلا القولين يُروَى عن رسول

القولين يروى عن رسول الله ﷺ واحتج من ذهب إلى أن الذبيح إسحاق بقوله تعالى: **﴿فبشرناه بغلام حليم فلما بلغ معه السعي﴾** أمر بذبح من بشر به وليس في القرآن أنه بشر بولد سوى إسحاق كما قال تعالى في سورة هود: **﴿فبشرناها بإسحاق﴾** وقوله **﴿وبشرناه بإسحاق نبياً من الصالحين﴾** بعد قصة الذبح يدل على أنه تعالى إنما بشره بالنبوة لما تحمل من الشدائد في قصة الذبح فثبت بما ذكرناه أن أول الآية وآخرها يدل على أن إسحاق هو الذبيح وبما ذكر أيضاً في كتاب يعقوب إلى ولده يوسف لما كان بمصر من يعقوب إسرائيل الله ابن إسحاق ذبيح الله ابن إبراهيم خليل الله.

واحتج من ذهب إلى أن الذبيح هو إسماعيل بأن الله تعالى ذكر البشارة بإسحاق بعد الفراغ من قصة الذبيح فقال تعالى: **﴿وبشرناه بإسحاق نبياً من الصالحين﴾** فدل على أن المذبوح غيره وأيضاً فإن الله تعالى قال في سورة هود **﴿فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب﴾** فكيف يأمره بذبح إسحاق وقد وعده بنافلة وهو يعقوب بعده ووصف إسماعيل بالصبر دون إسحاق في قوله **﴿وإسماعيل وإدريس وذا الكفل كل من الصابرين﴾** وهو صبره على الذبح ووصفه بصدق الوعد بقوله: **﴿إنه كان صادق الوعد﴾** لأنه وعد أباه من نفسه الصبر على الذبح فوفى له بذلك وقال القرطبي سأل عمر بن عبد العزيز رجلاً من علماء اليهود وكان أسلم وحسن إسلامه أي ابني إبراهيم أمره الله تعالى بذبحه فقال إسماعيل ثم قال يا أمير المؤمنين إن اليهود لتعلم ذلك ولكن يحسدونكم يا معشر العرب على أن يكون أباكم هو الذي أمر الله تعالى بذبحه ويدعون أنه إسحاق أبوهم ومن الدليل أيضاً أن قرني الكبش كانا معلقين على الكعبة في أيدي بني إسماعيل إلى أن احترق البيت في زمن ابن الزبير. قال الشعبي رأيت قرني الكبش منوطين بالكعبة. وقال ابن عباس: والذي نفسي بيده لقد كان أول الإسلام وإن رأس الكبش لمعلق بقرنيه في ميزاب الكعبة وقد وحش يعني يبس وقال الأصمعي سألت أبا عمرو بن العلاء عن الذبيح إسحاق كان أو إسماعيل؟ فقال يا أصمعي أين ذهب عقلك متى كان إسحاق بمكة إنما كان إسماعيل وهو الذي بنى البيت مع أبيه والله تعالى أعلم.

الله ﷺ، ومَن ذهب إلى أن الذبيح إسحاق احتجّ من القرآن بقوله: **﴿ فبشّرناه بغلام حليم فلما بلغ معه السعي ﴾** أمر بذبح مَن بُشّر به، وليس في القرآن أنه بُشّر بولد سوى إسحاق، كما قال في سورة هود[٧١]: **﴿ فبشّرناها بإسحاق ﴾**، ومَن ذهب إلى أنه إسماعيل احتجّ بأن الله تعالى ذكر البشارة بإسحاق بعد الفراغ من قصة المذبوح فقال: ﴿ وبشّرناه بإسحاق نبيّاً من الصالحين ﴾ [الصّافّات:١١٢]، دلّ على أن المذبوح غيره، وأيضاً قال الله تعالى في سورة هود[٧١]: **﴿ فبشّرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب ﴾**، فلما بشّره بإسحاق بشّره بابنه يعقوب، فكيف يأمره بذبح إسحاق وقد وعده بنافلة منه. قال القرظي: سأل عمر بن عبد العزيز رجلاً كان من علماء اليهود أسلم وحَسُنَ إسلامه: أيّ ابني إبراهيم أمر بذبحه؟ فقال: إسماعيل، ثم قال: يا أمير المؤمنين إن اليهود لتعلم ذلك ولكنهم يحسدونكم معشر العرب على أن يكون أباكم الذي كان من أمر الله تعالى بذبحه، ويزعمون أنه إسحاق بن إبراهيم، ومن الدليل عليه أن قرني الكبش كانا منوطين بالكعبة في أيدي بني إسماعيل إلى أن احترق البيت واحترق القرنان في أيام ابن الزبير والحجّاج. قال الشعبي: رأيت قرني الكبش منوطين بالكعبة. وعن ابن عباس قال: والذي نفسي بيده لقد كان أول الإسلام وأن رأس الكبش لمعلّق بقرنيه في ميزاب الكعبة، وقد وحش يعني يبس. قال الأصمعي: سألت أبا عمرو بن العلاء عن الذبيح إسحاق كان أو إسماعيل؟ فقال: يا أصيمع أين ذهب عقلك متى كان إسحاق بمكة؟ إنما كان إسماعيل بمكة، وهو الذي بنى البيت مع أبيه. وأما قصة الذبح قال السدي: لمّا دعا إبراهيم فقال: ربّ هبّ لي من الصالحين وبشّر به، قال: هو إذاً لله ذبيح، فلما ولد وبلغ معه السعي قيل له: أوفِ بنذرك، هذا هو السبب في أمر الله تعالى إيّاه بذبح ابنه، فقال عند ذلك، لإسحاق انطلق فقرّب قرباناً لله تعالى

(ذكر الإشارة إلى قصة الذبح)

قال العلماء بالسير وأخبار الماضين لما دعا إبراهيم ربه فقال: رب هب لي من الصالحين وبشر به قال هو إذاً لله ذبيح، فلما ولد وبلغ معه السعي قيل له أوفِ بنذرك. هذا هو السبب في أمر الله تعالى إياه بالذبح فقال لإسحاق انطلق نقرب لله قرباناً فأخذ سكيناً وحبلاً وانطلق معه حتى ذهب به بين الجبال فقال الغلام يا أبت أين قربانك فقال يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى، قال يا أبت افعل ما تؤمر. وقال محمد بن إسحاق كان إبراهيم عليه السلام إذا زار هاجر وإسماعيل حمل على البراق فيغدو من الشام فيقيل بمكة ويروح من مكة فيبيت عند أهله بالشام حتى إذا بلغ إسماعيل معه السعي وأخذ بنفسه ورجاه لما كان يؤمل فيه من عبادة ربه وتعظيم حرماته أمر في المنام بذبحه وذلك أنه رأى ليلة التروية كأن قائلاً يقول له إن الله يأمرك بذبح ابنك هذا فلما أصبح تروى في نفسه أي فكر من الصباح إلى الرواح أمن الله هذا الحلم أم من الشيطان؟ فمن ثم سمي ذلك اليوم يوم التروية فلما أمسى رأى في المنام ثانياً فلما أصبح عرف أن ذلك من الله تعالى فسمي ذلك اليوم يوم عرفة. وقيل رأى ذلك ثلاث ليال متتابعات فلما عزم على نحره سمي ذلك اليوم يوم النحر فلما تيقن ذلك أخبر به ابنه فقال يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك **﴿فانظر ماذا ترى﴾** أي في الرأي على وجه المشاورة.

فإن قلت: لم شاوره في أمر قد علم أنه حتم من الله تعالى وما الحكمة في ذلك.

قلت لم يشاوره ليرجع إلى رأيه وإنما شاوره ليعلم ما عنده فيما نزل به من بلاء الله تعالى وليعلم صبره على أمر الله وعزيمته على طاعته ويثبت قدمه ويصبره إن جزع ويراجع نفسه ويوطنها ويلقى البلاء وهو كالمستأنس به ويكتسب المثوبة بالانقياد لأمر الله تعالى قبل نزوله.

فإن قلت لم كان ذلك في المنام دون اليقظة وما الحكمة في ذلك؟ قلت إن هذا الأمر كان في نهاية المشقة على الذابح والمذبوح.

فأخذ سكّيناً وحبلاً فانطلق معه حتى ذهب به بين الجبال، فقال له الغلام: يا أبتِ أين قربانك؟ فقال: **﴿ يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظرْ ماذا ترى قال يا أبتِ افعلْ ما تُؤمر ﴾**، وقال محمد بن إسحاق: كان إبراهيم إذا زار هاجر وإسماعيل حُمل على البُراق فيغدو من الشام فيقبل بمكة ويروح من مكة فيبيت عند أهله بالشام، حتى إذا بلغ إسماعيل معه السعي وأخذ بنفسه ورجاه لما كان يأمل فيه من عبادة ربّه وتعظيم حرماته، أمر في المنام أن يذبحه، وذلك أنه رأى ليلة التروية كأن قائلاً يقول له: إن الله يأمرك بذبح ابنك هذا، فلما أصبح روى في نفسه أي فكّر من الصباح إلى الرواح أمِنَ الله هذا الحكم أمْ من الشيطان؟ فمن ثَمَّ سُمّي يوم التروية، فلما أمسى رأى في المنام ثانياً فلما أصبح عرف أن ذلك من الله عزّ وجلّ، فمن ثَمَّ سُمّي يوم عرفة، قال مقاتل: رأى ذلك إبراهيم ثلاث ليالٍ متواليات، فلما تيقن ذلك أخبر به ابنه، فقال: **﴿ يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظرْ ماذا ترى ﴾**، قرأ حمزة والكسائي **﴿ ترى ﴾** بضم التاء وكسر الراء ماذا تشير، وإنما أمره ليعلم صبره على أمر الله تعالى وعزيمته على طاعته، وقرأ العامّة بفتح التاء والراء إلاّ أبا عمرو فإنه يميل الراء، قال له ابنه: **﴿ يا أبت افعلْ ما تُؤمر ﴾**، وقال ابن إسحاق وغيره: فلما أمر إبراهيم بذلك قال لابنه: يا بني خذِ الحبل والمدية ننطلق إلى هذا الشعب نحتطب، فلما خلا إبراهيم بابنه في شعب ثبير أخبره بما أُمِر، **﴿ قال يا ابت افعلْ ما تُؤمر ستجدني إنْ شاء الله من الصابرين ﴾**.

﴿ فلما أسلما ﴾، انقادا وخضعا لأمر الله تعالى، قال قتادة: أسلم إبراهيم ابنه وأسلم الابن نفسه، **﴿ وتلّه للجبين ﴾**، أي صرعه على الأرض. قال ابن عباس: أضجعه على الأرض والجبهة بين الجبينين، قالوا: فقال له

فورد في المنام كالتوطئة له ثم تأكد حال النوم بأحوال اليقظة فإذا تظاهرت الحالتان كان أقوى في الدلالة ورؤيا الأنبياء وحي وحق ﴿**قال يا أبت افعل ما تؤمر**﴾ يعني قال الغلام لأبيه افعل ما أمرت به قال ابن إسحاق وغيره لما أمر إبراهيم بذلك قال لابنه يا بني خذ الحبل والمدية وانطلق إلى هذا الشعب نحتطب فلما خلا إبراهيم بابنه في الشعب أخبره بما أمر الله به فقال افعل ما تؤمر ﴿**ستجدني إن شاء الله من الصابرين**﴾ إنما علق ذلك بمشيئة الله تعالى على سبيل التبرك وأنه لا حول عن معصية الله تعالى إلا بعصمة الله تعالى ولا قوة على طاعة الله إلا بتوفيق الله ﴿**فلما أسلما**﴾ يعني انقادا وخضعا لأمر الله وذلك أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام أسلم ابنه وأسلم الابن نفسه ﴿**وتله للجبين**﴾ يعني صرعه على الأرض قال ابن عباس أضجعه على جبينه على الأرض فلما فعل ذلك قال له ابنه يا أبت أشدد رباطي كيلاً أضطرب واكفف عن ثيابك حتى لا ينتضح عليها شيء من دمي فينقص أجري وتراه أمي فتحزن واستحد شفرتك وأسرع مرَّ السكين على حلقي ليكون أهون عليّ فإن الموت شديد، وإذا أتيت أمي فاقرأ عليها السلام مني وإن رأيت أن ترد قميصي على أمي فافعل فإنه عسى أن يكون أسلى لها عني، فقال إبراهيم عليه السلام: نعم العون أنت يا بني على أمر الله ففعل إبراهيم ما أمره به ابنه ثم أقبل عليه يقبله وهو يبكي وقد ربطه والابن يبكي ثم إنه وضع السكين على حلقه فلم تحك شيئاً. ثم إنه حدها مرتين أو ثلاثاً بالحجر كل ذلك لا يستطيع أن يقطع شيئاً. قيل ضرب الله تعالى صفيحة من نحاس على حلقه والأول أبلغ في القدرة وهو منع الحديد عن اللحم، قالوا فقال الابن عند ذلك: يا أبت كبني لوجهي فإنك إذا نظرت وجهي رحمتني وأدركتك رقة تحول بينك وبين أمر الله تعالى وأنا لا أنظر إلى الشفرة فأجزع منها ففعل إبراهيم عليه الصلاة والسلام ذلك ثم وضع السكين على قفاه فانقلبت ونودي يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا. وروي عن كعب الأحبار وابن إسحاق عن رجاله قالوا لما رأى إبراهيم عليه الصلاة والسلام ذبح ابنه قال الشيطان لئن لم أفتن عند هذا آل إبراهيم لا أفتن منهم أحداً أبداً فتمثل الشيطان في صورة رجل وأتى أم الغلام فقال لها هل تدرين أين ذهب إبراهيم بابنك قالت ذهب به ليحتطب من هذا الشعب قال لا والله ما ذهب به إلا ليذبحه قالت كلا

ابنه الذي أراد ذبحه يا أبت اشددْ رباطي حتى لا أضطرب، واكفف عنّي ثيابك حتى لا ينتضح عليها من دمي شيء فينقص أجري وتراه أُمي فتحزن، واستحدّ شفرتك وأسرع مرَّ السكّين على حلقي ليكون أهون عليّ فإن الموت شديد، وإذا أتيت أُمي فاقرأ عليها السلام منّي وإن رأيت أن تردّ قميصي على أُمي فافعل، فإنه عسى أن يكون أسلى لها عنّي، فقال له إبراهيم عليه السلام: نِعْمَ العون أنت يا بني على أمر الله، ففعل إبراهيم ما أمر به ابنه، ثم أقبل عليه فقبّله وقد ربطه وهو يبكي والابن أيضاً يبكي، ثم إنه وضع السكّين على حلقه فلم تحكّ السكّين. ويُروَى أنه كان يجرّ الشفرة في حلقه ولا يقطع، فشحذها مرتين أو ثلاثة بالحجر، كل ذلك وهي لا تستطيع. قال السدّي: ضرب الله تعالى صفحة من نحاس على حلقه، قالوا: فقال الابن عند ذلك: يا أبتِ كبّني بوجهي على جبيني فإنك إذا نظرت في وجهي رحمتني وأدركتك رقّةٌ تحول بينك وبين أمر الله تعالى، وأنا لا أنظر إلى الشفرة فأجزع، ففعل ذلك إبراهيم ثم وضع الشفرة على قفاه فانقلبت السكّين ونُودي ﴿**أنْ يا إبراهيم قدْ صدّقت الرؤيا**﴾، وروى أبو هريرة عن كعب الأحبار وابن إسحاق عن رجاله: لمّا رأى إبراهيم ذبح ابنه قال الشيطان: لئن لم أفتن عند هذا آل إبراهيم لا أفتن منهم أحداً أبداً فتمثّل له الشيطان رجلاً وأتى أُم الغلام، فقال لها: هل تدرين أين ذهب إبراهيم بابنك؟ قالت: ذهب به يحتطبان من هذا الشعب، قال: لا والله ما ذهب به إلاّ ليذبحه، قالت: كلا هو أرحم به وأشدّ حبّاً له من ذلك، قال: إنه يزعم أن الله قد أمره بذلك، قالت: فإن كان ربّه أمره بذلك فقد أحسن أن يطيع ربّه، فخرج الشيطان من عِندها حتى أدرك الابن وهو يمشي على إثر أبيه، فقال: يا غلام هل تدري أين يذهب بك أبوك؟ قال: نحتطب لأهلنا من هذا الشعب، قال: والله ما يريد إلاّ أن يذبحك، قال: ولِمَ؟ قال: زعم أن ربّه أمره بذلك، قال:

هو أرحم به وأشد حباً له من ذلك قال إنه يزعم أن الله أمره بذلك قالت إن كان ربه أمره بذلك فقد أحسن أن يطيع ربه. فخرج الشيطان من عندها حتى أدرك الابن وهو يمشي على أثر أبيه فقال له يا غلام هل تدري أن يذهب بك أبوك قال نحتطب لأهلنا من هذا الشعب قال لا والله ما يريد إلا أن يذبحك قال، ولم قال إن ربه أمره بذلك قال فليفعل ما أمره به ربه فسمعاً وطاعة فلما امتنع الغلام أقبل على إبراهيم فقال له أين تريد أيها الشيخ قال هذا الشعب لحاجة لي فيه قال والله إني لأرى الشيطان قد جاءك في منامك فأمرك بذبح ابنك هذا فعرفه إبراهيم عليه الصلاة والسلام فقال إليك عني يا عدو الله فوالله لأمضين لأمر ربي فرجع إبليس بغيظه لم يصب من إبراهيم وآله شيئاً مما أراد وامتنعوا منه بعون الله تعالى وروى عن ابن عباس أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام لما أراد أن يذبح ابنه عرض له الشيطان بهذا المشعر فسابقه فسبقه إبراهيم ثم ذهب إلى جمرة العقبة فعرض له الشيطان فرماه بسبع حصيات حتى ذهب ثم عرض له عند الجمرة الوسطى فرماه بسبع حصيات حتى ذهب ثم أدركه عند الجمرة الكبرى فرماه بسبع حصيات حتى ذهب ثم مضى إبراهيم لأمر الله عز وجل وهو قوله تعالى: ﴿**فلما أسلما وتله للجبين**﴾.

وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾

﴿**وناديناه**﴾ أي فنودي من الجبل ﴿**أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا**﴾ أي حصل المقصود من تلك الرؤيا حيث ظهر منه كمال الطاعة والانقياد لأمر الله تعالى وكذلك الولد.

فإن قلت كيف قيل قد صدقت الرؤيا وكان قد رأى الذبح ولم يذبح وإنما كان تصديقها لو حصل منه الذبح.

قلت جعله مصدقاً لأنه بذل وسعه ومجهوده وأتى بما أمكنه وفعل ما يفعله الذابح فقد حصل المطلوب وهو إسلامهما لأمر الله تعالى وانقيادهما لذلك، فلذلك قال له قد صدقت الرؤيا ﴿**إنا كذلك نجزي المحسنين**﴾ يعني جزاه الله بإحسانه في طاعته العفو عن ذبح ولده والمعنى إنا كما عفونا عن ذبح ولده كذلك نجزي المحسنين في طاعتنا ﴿إن

فليفعل ما أمره به ربّه فسمعاً وطاعةً، فلما امتنع منه الغلام أقبل على إبراهيم عليه السلام فقال له: أين تريد أيها الشيخ؟ قال: أريد هذا الشعب لحاجة لي فيه، قال: والله إني لا أرى الشيطان قد جاءك في منامك فأمرك بذبح ابنك هذا، فعرفه إبراهيم عليه السلام، فقال: إليك عنّي يا عدوّ الله فوالله لأمضينّ لأمر ربّي، فرجع إبليس بغيظه لم يصب من إبراهيم وآله شيئاً مما أراد، قد امتنعوا منه بعون الله تعالى. وروى أبو الطفيل عن ابن عباس أن إبراهيم لمّا أمر بذبح ابنه عرض له الشيطان بهذا المشعر فسابقه فسبقه إبراهيم، ثم ذهب إلى جمرة العقبة فعرض له الشيطان فرماه بسبع حصيات حتى ذهب ثم عرض له عند الجمرة الوسطى فرماه بسبع حصيات حتى ذهب، ثم أدركه عند الجمرة الكبرى فرماه بسبع حصيات حتى ذهب، ثم مضى إبراهيم لأمر الله عزّ وجلّ ﴿ **فلما أسلما وتله للجبين** ﴾.

﴿ **وناديناه** ﴾، الواو في وناديناه مقحمة صلة مجازه ناديناه كقوله: ﴿ وأجمعوا أن يجلعوه في غيابت الجبّ وأوحينا إليه ﴾ [يوسف: ١٥] أي أوحينا فنودي من الجبل، ﴿ **أنْ يا إبراهيم * قدْ صدّقت الرؤيا** ﴾، تمّ الكلام ههنا ثم ابتدأ فقال: ﴿ **إنّا كذلك نجزي المحسنين** ﴾، والمعنى إنّا كما عفونا عن إبراهيم عند ذبح ولده نجزي مَن أحسن في طاعتنا، قال مقاتل: جزاه الله بإحسانه في طاعته العفو عن ذبح ابنه.

﴿ **إنّ هذا لهو البلاء المبين** ﴾، الاختيار الظاهر حيث اختبره بذبح ابنه. وقال مقاتل: البلاء ههنا النعمة، وهي أن فدي ابنه بالكبش، فإن قيل: كيف قال صدقت الرؤيا وكان قد رأى الذبح ولم يذبح؟ قيل: جعله مصدّقاً لأنه قد أتى بما أمكنه، والمطلوب إسلامهما لأمر الله تعالى وقد فعلا، وقيل: كان رأى في النوم معالجة الذبح ولم يرَ

هذا لهو البلاء المبين﴾ أي الاختبار الظاهر حيث اختبره بذبح ولده.

﴿وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي ٱلْآخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾﴾

﴿وفديناه بذبح عظيم﴾ قيل نظر إبراهيم فإذا هو بجبريل ومعه كبش أملح أقرن فقال هذا فداء ابنك فاذبحه دونه فكبر إبراهيم وكبر جبريل وكبر الكبش، فأخذه إبراهيم وأتى به المنحر من منى فذبحه قال أكثر المفسرين كان هذا الذبح كبشاً رعى في الجنة أربعين خريفاً وقال ابن عباس الكبش الذي ذبحه إبراهيم هو الذي قربه ابن آدم قيل حق له أن يكون عظيماً وقد تقبل مرتين وقيل سمي عظيماً لأنه من عند الله تعالى. وقيل لعظمه في الثواب وقيل لعظمه وسمنه وقال الحسن ما فدى إسماعيل إلا بتيس من الأروى أهبط عليه من ثبير ﴿وتركنا عليه في الآخرين﴾ أي تركنا له ثناء حسناً فيمن بعده ﴿سلام على إبراهيم كذلك نجزي المحسنين إنه من عبادنا المؤمنين﴾ قوله تعالى: ﴿وبشرناه بإسحاق نبياً من الصالحين﴾ أي بوجود إسحاق وهذا على قول من يقول إن الذبيح هو إسماعيل ومعناه أنه بشر بإسحاق بعد هذه القصة جزاءً لطاعته وصبره ومن جعل الذبيح هو إسحاق قال معنى الآية وبشرناه بنبوة إسحاق. وكذا روى عن ابن عباس قال بشر به مرتين حين ولد وحين نبيء ﴿وباركنا عليه﴾ يعني على إبراهيم في أولاده ﴿وعلى إسحاق﴾ أي يكون أكثر الأنبياء من نسله ﴿ومن ذريتهما محسن﴾ أي مؤمن ﴿وظالم لنفسه﴾ أي كافر ﴿مبين﴾ أي ظاهر الكفر، وفيه تنبيه على أنه لا يلزم من كثرة فضائل الأب فضيلة الابن.

إراقة الدم، وقد فعل في اليقظة ما رأى في النوم، ولذلك قال له: قد صدقت الرؤيا.

قوله: ﴿ وفديناه بذبح عظيم ﴾، فنظر إبراهيم فإذا هو بجبريل ومعه كبش أملح أقرن، فقال: هذا فداء لابنك فاذبحه دونه، فكبّر جبريل وكبّر الكبش وكبّر إبراهيم وكبّر ابنه، فأخذ إبراهيم الكبش فأتى به المنحر من منى فذبحه. قال أكثر المفسّرين: كان ذلك الكبش رعى في الجنة أربعين خريفاً. ورُوِيَ عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: الكبش الذي ذبحه إبراهيم هو الذي قرّبه ابن آدم. قال سعيد بن جبير: حقّ له أن يكون عظيماً. قال مجاهد: سمّاه عظيماً لأنه متقبّل. وقال الحسين بن الفضل: لأنه كان من عند الله. وقيل: عظيم في الشخص. وقيل: في الثواب. وقال الحسن: ما فدي إسماعيل إلاّ بتيس من الأروى أُهبط عليه من ثبير.

﴿ وتركنا عليه في الآخِرين ﴾، أي تركنا له في الآخرين ثناءً حسناً.

﴿ سلامٌ على إبراهيم * كذلك نجزي المحسنين * إنه من عبادنا المؤمنين * وبشّرناه بإسحاق نبيّاً من الصالحين ﴾، فمَن جعل الذبيح إسماعيل قال: بشّره بعد هذه القصة بإسحاق نبيّاً جزاءً لطاعته، ومَن جعل الذبيح إسحاق قال: بشّر إبراهيم بنبوّة إسحاق. رواه عكرمة عن ابن عباس. قال: بشّر به مرتين حين ولد وحين نُبّيء.

﴿ وباركنا عليه ﴾، يعني على إبراهيم في أولاده، ﴿ وعلى إسحاق ﴾، يكون أكثر الأنبياء من نسله، ﴿ ومن ذريتهما محسن ﴾، أي مؤمن، ﴿ وظالم لنفسه ﴾، أي كافر، ﴿ مبين ﴾، أي ظاهر الكفر.

قوله تعالى: ﴿ ولقد مننّا على موسى وهارون ﴾، أنعمنا عليهم بالنبوّة.

قوله عز وجل: ﴿**ولقد مننا على موسى وهارون**﴾ أي أنعمنا عليهما بالنبوة والرسالة ﴿**ونجيناهما وقومهما**﴾ يعني بني إسرائيل ﴿**من الكرب العظيم**﴾ يعني الذي كانوا فيه من استعباد فرعون إياهم وقيل هو إنجاؤهم من الغرق ﴿**ونصرناهم**﴾ يعني موسى وهارون وقومهما ﴿**فكانوا هم الغالبين**﴾ أي على القبط.

وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾

﴿**وآتيناهما الكتاب**﴾ يعني التوراة ﴿**المستبين**﴾ المستنير ﴿**وهديناهما الصراط المستقيم**﴾ أي دللناهما على طريق الجنة ﴿**وتركنا عليهما في الآخرين**﴾ أي الثناء الحسن ﴿**سلام على موسى وهارون إنا كذلك نجزي المحسنين إنهما من عبادنا المؤمنين**﴾ قوله عز وجل: ﴿**وإن إلياس لمن المرسلين**﴾ روي عن ابن مسعود أنه قال إلياس هو إدريس وكذلك هو في مصحفه وقال أكثر المفسرين هو نبي من أنبياء بني إسرائيل قال ابن عباس هو ابن عم اليسع وقال محمد بن إسحاق هو الياس بن بشر بن فنحاص بن العيزار بن هارون بن عمران.

(ذكر الإشارة إلى القصة)

قال محمد بن إسحاق وعلماء السير والأخبار لما قبض الله عز وجل حزقيل النبي عليه الصلاة والسلام عظمت الأحداث في بني إسرائيل وظهر فيهم الفساد والشرك ونصبوا الأصنام وعبدوها من دون الله عز وجل، فبعث الله عز

﴿ **ونجّيناهما وقومهما** ﴾، بني إسرائيل، ﴿ **من الكرب العظيم** ﴾، أي الغمّ العظيم وهو الذي كانوا فيه من استعباد فرعون إيّاهم. وقيل: من الغرق.

﴿ **ونصرناهم** ﴾، يعني موسى وهارون وقومهما، ﴿ **فكانوا هم الغالبين** ﴾، على القبط.

﴿ **وآتيناهما الكتاب المستبين** ﴾، أي المستنير وهو التوراة.

﴿ **وهديناهما الصراط المستقيم * وتركنا عليهما في الآخرين * سلام على موسى وهارون * إنّا كذلك نجزي المحسنين * إنهما من عبادنا المؤمنين** ﴾.

قوله تعالى: ﴿ **وإنّ إلياس لمن المرسلين** ﴾، رُوِيَ عن عبد الله بن مسعود قال: إلياس هو إدريس. وفي مصحفه: وإن إدريس لمن المرسلين. وهذا قول عكرمة، وقال الآخرون: هو نبيّ من أنبياء بني إسرائيل. قال ابن عباس: هو ابن عمّ أليسع. قال محمد بن إسحاق: هو إلياس بن بشر بن فنحاص بن العيزار بن هارون بن عمران. وقال أيضاً محمد بن إسحاق والعلماء من أصحاب الأحبار: لمّا قبض الله عزّ وجلّ حزقيل النبي ﷺ، عظمت الأحداث في بني إسرائيل وظهر فيهم الفساد والشرك ونصبوا الأوثان وعبدوها من دون الله، فبعث الله عزّ وجلّ إليهم إلياس نبيّاً وكانت الأنبياء من بني إسرائيل يُبعثون بعد موسى بتجديد ما نسوا من التوراة، وبنو إسرائيل كانوا متفرّقين في أرض الشام، وكان سبب ذلك أن يوشع بن نون لمّا فتح الشام بوّأها بني إسرائيل وقسمها بينهم فأحلّ سبطاً منهم ببعلبك ونواحيها، وهم السبط الذين كان منهم إلياس فبعثه الله تعالى إليهم نبيّاً، وعليهم يومئذ ملك يقال له آجب قد أضلّ قومه وأجبرهم على عبادة الأصنام وكان يعبد هو وقومه صنماً يقال له: بعل، وكان طوله عشرين ذراعاً وله أربعة وجوه، فجعل إلياس يدعوهم إلى الله عزّ وجلّ وهم لا يسمعون منه شيئاً إلاّ ما كان من أمر الملك، فإنه صدّقه وآمن به فكان إلياس يقوّم أمره ويسدّده ويرشده، وكان لآجب الملك هذا امرأة يقال لها أزبيل وكان يستخلفها على

وجل إليهم إلياس نبياً وكان الأنبياء يبعثون من بعد موسى عليه الصلاة والسلام في بني إسرائيل بتجديد ما نسوا من أحكام التوراة وكان يوشع لما فتح الشام قسمها على بني إسرائيل وإن سبطاً منهم حصل في قسمته بعلبك ونواحيها وهم الذين بعث إليهم إلياس وعليهم يومئذ ملك اسمه آجب وكان قد أضل قومه وجبرهم على عبادة الأصنام وكان له صنم من ذهب طوله عشرون ذراعاً وله أربعة وجوه اسمه بعل وكانوا قد فتنوا به وعظموه وجعلوا له أربعمائة سادن وجعلوهم أنبياء فكان الشيطان يدخل في جوف بعل ويتكلم بشريعة الضلالة والسدنة يحفظونها عنه ويبلغونها الناس وهم أهل بعلبك وكان إلياس يدعوهم إلى عبادة الله عز وجل وهم لا يسمعون له ولا يؤمنون به إلا ما كان من أمر الملك فإنه آمن به وصدقه، فكان إلياس يقوم بأمره ويسدده ويرشده وكان للملك امرأة جبارة وكان يستخلفها على ملكه إذا غاب فغصبت من رجل مؤمن جنينة كان يتعيش منها فأخذتها وقتلته فبعث الله سبحانه وتعالى إلياس إلى الملك وزوجته وأمره أن يخبرهما أن الله عز وجل قد غضب لوليه حين قتل ظلماً وآلى على نفسه أنهما إن لم يتوباعن صنيعهما ويرد الجنينة على ورثة المقتول أهلكهما في جوف الجنينة ثم يدعهما جيفتين ملقاتين فيها ولا يتمتعان فيها إلا قليلاً، فجاء إلياس فأخبر الملك بما أوحى الله إليه في أمره وأمر امرأته والجنينة فلما سمع الملك ذلك غضب واشتد غضبه عليه وقال يا إلياس والله ما أرى ما تدعونا إليه إلا باطلاً، وهمَّ بتعذيب إلياس وقتله فلما أحس إلياس

رعيته إذا غاب عنهم في غزاة أو غيرها، وكانت تبرز للناس وتقضي بين الناس، وكانت قتالة الأنبياء يقال هي التي قتلت يحيىٰ بن زكريا عليهما السلام، وكان لها كاتب رجل مؤمن حكيم يكتم إيمانه وكان قد خلّص من يدها ثلاثمائة نبي كانت تريد قتل كل واحد منهم إذا بعث سوى الذي قتلتهم، وكانت في نفسها غير محصنة وكانت قد تزوجت سبعة من ملوك بني إسرائيل، وقتلت كلهم بالاغتيال وكانت معمّرة يقال أنها ولدت سبعين ولداً، وكان لآجب هذا جار رجل صالح يقال له مزدكي، وكانت له جنينة يعيش منها ويقبل على عمارتها ومرمتها وكانت الجنينة إلى جانب قصر الملك وامرأته، وكانا يشرفان على تلك الجنينة يتنزهان فيها ويأكلان ويشربان ويقيلان فيها، وكان آجب الملك يُحسِن جوار صاحبها مزدكي ويُحسِن إليه وامرأته أزبيل تحسده لأجل تلك الجنينة، وتحتال أن تغصبها منه لما تسمع الناس يكثرون ذكرها ويتعجبون من حسنها، وتحتال أن تقتله والملك ينهاها عن ذلك ولا تجد عليه سبيلاً، ثم إنه اتفق خروج الملك إلى سفر بعيد وطالت غيبته فاغتنمته امرأته أزبيل ذلك فجمعت جمعاً من الناس وأمرتهم أن يشهدوا على مزدكي أنه سبّ زوجها آجب فأجابوها إليه، وكان في حكمهم في ذلك الزمان القتل على مَن سبّ الملك إذا قامت عليه البيّنة، فأحضرت مزدكي وقالت له: بلغني أنك شتمت الملك فأنكر مزدكي فأحضرت الشهود فشهدوا عليه بالزور، فأمرت بقتله وأخذت جنينته، فغضب الله عليهم للعبد الصالح، فلما قَدِمَ الملك من سفره أخبرته الخبر، فقال لها: ما أصبت ولا أرانا نفلح بعده، فقد جاورنا منذ زمان فأحسنّا جواره وكففنا عنه الأذى لوجوب حقه علينا، فختمت أمره بأسوأ الجوار. فقالت إنما غضبت وحكمت بحكمك، فقال لها: أو ما كان يسعه حلمك فتحفظين له جواره؟ قالت: قد كان ما كان، فبعث الله تعالى إلياس إلى آجب الملك وقومه، وأمره أن يخبرهم أن الله تعالى قد غضب لوليّه حين قتلوه ظلماً، وآل على نفسه أنهما إن لم يتوبا عن صنيعهما ويردّا الجنينة على وَرَثَة مزدكي أن يهلكهما، يعني آجب وامرأته في جوف الجنينة، ثم يدعهما جيفتين ملقاتين فيها حتى تتعرى عظامهما من لحومهما، ولا يتمتعان بها إلا قليلاً، قال: فجاء إلياس وأخبره بما أوحى الله تعالى إليه في أمره وأمر امرأته والجنينة، فلما سمع الملك ذلك استشهد غضبه عليه ثم قال له: يا إلياس والله ما أرى ما تدعو إليه إلاّ باطلاً وما أرى فلاناً وفلاناً سمّى ملوكاً منهم قد عبدوا الأوثان إلاّ على مثل ما نحن عليه يأكلون ويتمتعون مملكين ما ينقص من دنياهم أمرهم الذي تزعم أنه باطل، وما ترى لنا عليهم من فضل، قال: وهمّ الملك بتعذيب إلياس وقتله

بالشر رفضه وخرج عنه هارباً ورجع الملك إلى عبادة بعل ولحق إلياس بشواهق الجبال فكان يأوي إلى الشعاب والكهوف فبقي سبع سنين على ذلك خائفاً مستخفياً يأكل من نبات الأرض وثمار الشجر وهم في طلبه وقد وضعوا عليه العيون والله يستره منهم: فلما طال الأمر على إلياس وسكنى الكهوف في الجبال وطال عصيان قومه ضاق بذلك ذرعاً فأوحى الله تعالى إليه بعد سبع سنين وهو خائف مجهود يا إلياس ما هذا الحزن والجزع الذي أنت فيه ألست أميني على وحيي وحجتي في أرضي وصفوتي من خلقي سلني أعطك فإني ذو الرحمة الواسعة والفضل العظيم، قال يا رب تميتني وتلحقني بآبائي فإني قد مللت بني إسرائيل وملوني فأوحى الله تعالى إليه يا إلياس ما هذا باليوم الذي أعرى منك الأرض وأهلها وإنما صلاحها وقوامها بك وبأشباهك وإن كنتم قليلاً ولكن سلني أعطك فقال إلياس إن لم تمتني فأعطني ثأري من بني إسرائيل قال الله عز وجل وأي شيء تريد أن أعطيك، قال تملكني خزائن السماء سبع سنين فلا تسير عليهم سحابة إلا بدعوتي ولا تمطر عليهم قطرة إلا بشفاعتي فإنه لا يذلهم إلا ذلك قال الله عز وجل يا إلياس أنا أرحم بخلقي من ذلك وإن كانوا ظالمين، قال فست سنين قال أنا أرحم بخلقي من ذلك قال فخمس سنين قال أنا أرحم بخلقي ولكن أعطيك ثأرك ثلاث سنين أجعل خزائن المطر بيدك قال إلياس فبأي شيء أعيش يا رب قال أسخر لك جيشاً من الطير ينقل لك طعامك وشرابك من الريف والأرض التي لم تقحط قال إلياس قد رضيت فأمسك الله عز

فلما أحسّ إلياس بالشرّ والمكر به رفضه وخرج عنه، فلحق بشواهق الجبال وعاد الملك إلى عبادة بعل، وارتقى إلياس إلى أصعب جبل وأشمخه فدخل مغارة فيه، ويقال إنه بقي سبع سنين شريداً خائفاً يأوي إلى الشِعاب والكهوف يأكل من نبات الأرض وثمار الشجر وهم في طلبه قد وضعوا عليه العيون والله يستره، فلما تمّ سبع سنين أذِنَ الله في إظهاره عليهم وشفاء غيظه منهم، فأمرض الله عزّ وجلّ ابناً لآجب وكان أحبَّ ولد إليه وأشبههم به، فأدنف حتى يئس منه فدعا صنمه بعلاً وكانوا قد فتنوا ببعل وعظّموه حتى جعلوا له أربعمائة سادن، فوكّلوهم به وجعلوهم أنبياء، وكان الشيطان يدخل في جوف الصنم فيتكلم، والأربعمائة يصغون بآذانهم إلى ما يقول الشيطان ويوسوس إليهم الشيطان بشريعة من الضلالة فيبيّنونها للناس، فيعملون بها ويسمّونهم أنبياء، فلما اشتدّ مرض ابن الملك طلب إليهم الملك أن يتشفعوا إلى بعل، ويطلبوا لابنه من قبله الشفاء فدعوه فلم يُجِبْهم، ومنع الله الشيطان فلم يمكّنه الولوج في جوفه وهم مجتهدون في التضرّع إليه، فلما طال عليهم ذلك قالُوا لآجب: إن في ناحية الشام آلهة أخرى فابعث إليها أنبياءك فلعلّها تشفع لك إلى إلَهك بعل، فإنه غضبان عليك، ولولا غضبه عليك لأجابك، قال: ومن أجل ماذا غضب عليّ وأنا أُطيعه؟ قالوا: من أجل أنك لم تقتل إلياس وفرّطت فيه حتى نجا سليمان وهو كافر بإلَهك، قال آجب: وكيف لي أن أقتل إلياس وأنا مشغول عن طلبه بوجع ابني، وليس لإلياس مطلب ولا يُعرَف له موضع فيُقصَد، فلو عُوفِيَ ابني لفرغت لطلبه حتى أجده فأقتله فأُرضي إلَهي، ثم إنه بعث أنبياءه الأربعمائة إلى الآلهة التي بالشام يسألونها أن تشفع إلى صنم الملك ليشفي ابنه، فانطلقوا حتى إذا كان بحيال الجبل الذي فيه إلياس أوحى الله تعالى إلى إلياس عليه السلام أن يهبط من الجبل ويعارضهم ويكلّمهم، وقال الله: لا تخف فإني سأصرف عنك شرّهم وأُلقي الرعب في قلوبهم، فنزل إلياس من الجبل فلما لقيهم استوقفهم، فلما وقفوا قال لهم: إن الله تعالى أرسلني إليكم وإلى مَن ورائكم فاسمعوا أيها القوم رسالة ربّكم لتبلغوا صاحبكم فارجعوا إليه، وقولوا له: إنّ الله تعالى يقول لك ألستَ تعلم يا آجب إني أنا الله لا إلَه إلاّ أنا إلَه بني إسرائيل الذي خلقهم، ورزقهم وأحياهم وأماتهم، فجهلك وقلّة علمك حملك على أن تشرك بي وتطلب الشفاء لابنك من غيري ممّن لا يملكون لأنفسهم شيئاً إلاّ ما شئت، إني حلفت باسمي لأغضبنّك في ابنك ولأميتنّه في فوره غداً حتى تعلم أن أحداً لا يملك له شيئاً دوني، فلما قال لهم هذا رجعوا وقد مُلِؤوا منه رعباً، فلما صاروا إلى الملك أخبروه بأن إلياس قد انحطّ

وجل عنهم المطر حتى هلكت الماشية والهوام والشجر وجهد الناس جهداً شديداً وإلياس على حاله مستخفياً من قومه يوضع له لرزق حيث كان وقد عرف قومه ذلك. قال ابن عباس أصاب بني إسرائيل ثلاث سنين القحط فمر إلياس بعجوز فقال لها أعندك طعام قالت نعم شيء من دقيق وزيت قليل قال فدعا به ودعا فيه بالبركة ومسه حتى ملأ جرابها دقيقاً وملأ خوابيها زيتاً فلما رأوا ذلك عندها قالوا من أين لك هذا قالت مر بي رجل من حاله كذا وكذا فوصفته بصفته فعرفوه وقالوا ذلك إلياس فطلبوه فوجدوه فهرب منهم ثم إنه آوى إلى بيت امرأة من بني إسرائيل ولها ابن يقال له اليسع بن أخطوب بن ضر فآوته وأخفت أمره فدعا لابنها فعوفي من الضر الذي كان به واتبع اليسع إلياس وآمن به وصدقه ولزمه وذهب معه حيثما ذهب. وكان إلياس قد كبر وأسن واليسع غلام شاب ثم إن الله تعالى أوحى إلى إلياس إنك قد أهلكت كثيراً من الخلق ممن لم يعص من البهائم والدواب والطير والهوام بحبس المطر، فيزعمون أن إلياس قال: يا رب دعني أكن أنا الذي أدعو لهم بالفرج مما هم فيه من البلاء لعلهم يرجعون عما هم فيه ينزعون عن عبادة

عليهم، وهو رجل نحيف طوال قد نحل وتمعّط شعره وتقشّر جلده، عليه جبّة من شعر وعباءة قد خلّلها على صدره بخلال فاستوقفنا فلما صار معنا قذف له قي قلوبنا الهيبة والرعب، فانقطعت ألسنتنا ونحن في هذا العدد الكثير فلم نقدر على أن نكلّمه ونراجعه حتى رجعنا إليك، وقصّوا عليه كلام إلياس، فقال آجب: لا ننتفع بالحياة ما كان إلياس حيّاً ما يُطاق إلّا بالمكر والخديعة، فقيّض له خمسين رجلاً من قومه ذوي القوة والبأس، وعهد إليهم عهده وأمرهم بالاحتيال له والاغتيال به وأن يُطمِعوه في أنهم قد آمنوا به هم، ومن وراءهم ليستنّهم إليهم ويغترّ بهم فيمكّنهم من نفسه فيأتون به ملكهم، فانطلقوا حتى ارتقوا ذلك الجبل الذي فيه إلياس، ثم تفرّقوا فيه ينادونه بأعلى أصواتهم، ويقولون يا نبيّ الله ابرز لنا وامنن علينا بنفسك، فإنّا قد آمنّا بك وصدّقناك، وملكنا آجب وجميع قومنا، وأنت آمن على نفسك وجميع بني إسرائيل يقرؤون عليك السلام ويقولون: قد بلغتنا رسالتك وعرفنا ما قلت، فآمنّا بك وأجبناك إلى ما دعوتنا فهلمَّ إلينا وأقم بين أظهرنا واحكم فينا فإنّا ننقاد لما أمرتنا، وننتهي عمّا نهيتنا وليس يسعك أن تتخلّف عنّا مع إيماننا وطاعتنا، فارجعْ إلينا، وكلّ هذا منهم مُمَاكَرةٌ وخديعة، فلما سمع إلياس مقالتهم وقعت في قلبه وطمع في إيمانهم، وخاف الله إنْ هو لم يظهر لهم، فألهمه الله التوقّف والدعاء، فقال: اللّهمَّ إن كانوا صادقين فيما يقولون فأذن لي في البروز إليهم، وإن كانوا كاذبين فاكفنيهم وارمهم بنار تحرقهم فما استتمّ قوله حتى حُصبوا بالنار من فوقهم، فاحترقوا أجمعون، قاله وبلغ آجب وقومه الخبر فلم يرتدع من همّه بالسوء واحتال ثانياً في أمر إلياس وقيّض له فئة أخرى مثل عدد أولئك أقوى منهم وأمكن من الحيلة والرأي، فأقبلوا أي حتى توقلوا أي صعدوا قلل تلك الجبال متفرّقين، وجعلوا ينادون يا نبيّ الله إنّا نعوذ بالله وبك من غضب الله وسطواته، إنّا لسنا كالذين أتوك قبلنا وإن أولئك فرقة نافقوا فصاروا إليك ليكيدوا بك، ولو علمنا بهم لقتلناهم ولكفيناك مؤنتهم، فالآن قد كفاك ربك أمرهم وأهلكهم وانتقم لك منهم، فلما سمع إلياس مقالتهم دعا الله بدعوته الأولى فأمطر عليهم النار، فاحترقوا عن آخرهم وفي كل ذلك ابن الملك في البلاء الشديد من وجعه، فلما سمع الملك بهلاك أصحابه ثانياً ازداد غضباً على غضب وأراد أن يخرج في طلب إلياس بنفسه، إلّا أنه شغله عن ذلك مرض ابنه فلم يمكنه فوجّه نحو إلياس المؤمن الذي هو كاتب امرأته رجاء أن يأنس به إلياس فينزل معه، وأظهر للكاتب أنه لا يريد بإلياس سوءاً وإنما أظهر له لما طلع عليه من إيمانه، وكان الملك مع اطّلاعه على إيمانه مثنياً عليه لما هو عليه من الكفاية والأمانة وسداد الرأي، فلما وجّه نحوه أرسل معه فئة من أصحابه وأوعز إلى الفئة دون الكاتب أن يوثقوا إلياس ويأتوا به إن أراد التخلّف عنهم، وإن جاء مع الكاتب واثقاً به لم يروعوه، ثم أظهر مع الكاتب الإنابة وقال له إنه قد آن لي أن أتوب وقد أصابتنا بلايا من حريق أصحابنا والبلاء الذي فيه ابني، وقد عرفت أن ذلك بدعوة إلياس، ولست آمن أن يدعو

غيرك فقيل له نعم. فجاء إلياس إلى بني إسرائيل فقال: إنكم قد هلكتم جوعاً وجهداً وهلكت البهائم والدواب والطير والهوام والشجر بخطاياكم وإنكم على باطل فإن كنتم تحبون أن تعلموا ذلك فاخرجوا بأصنامكم فإن استجابت لكم فذلك كما تقولون وإن هي لم تفعل علمتم أنكم على باطل فنزعتم ودعوت الله تعالى ففرج عنكم ما أنتم فيه من البلاء، فقالوا أنصفت فخرجوا بأوثانهم ودعوها فلم تفرج عنهم ما كانوا فيه من البلاء فقالوا يا إلياس إنا قد أهلكنا فادع الله لنا، فدعا إلياس ومعه اليسع بالفرج فخرجت سحابة مثل الترس على ظهر البحر وهم ينظرون فأقبلت نحوهم وطبقت الآفاق ثم أرسل الله عز وجل عليهم المطر وأغاثهم وحييت بلادهم فلما كشف الله تعالى عنهم الضر نقضوا العهد ولم ينزعوا عن كفرهم وأقاموا على أخبث ما كانوا عليه فلما رأى ذلك إلياس دعا ربه عز وجل أن يريحه منهم، فقيل له فيما يزعمون انظر يوم كذا وكذا فاخرج إلى موضع كذا فما جاءك من شيء فاركبه ولا تهبه فخرج إلياس ومعه اليسع حتى إذا كان بالموضع الذي أمر به أقبل فرس من نار وقيل لونه كالنار حتى وقف بين أيدي إلياس فوثب عليه فانطلق به

على جميع مَن بقي منّا فنهلك بدعوته، فانطلق إليه وأخبره إنّا قد تبنا وأنبنا وأنه لا يصلحنا في توبتنا وما نريد من رضاء ربنا وخلع أصنامنا إلاّ أن يكون إلياس بين أظهرنا يأمرنا وينهانا ويخبرنا بما يرضي ربّنا، وأمر قومه فاعتزلوا الأصنام، وقال له: أخبر إلياس أنّا قد خلعنا آلهتنا التي كنّا نعبد، وأرجينا أمرها حتى ينزل إلياس فيكون هو الذي يحرقها ويهلكها بيده، وكان ذلك مكراً من الملك، فانطلق الكاتب والفئة حتى علا الجبل الذي فيه إلياس ثم ناداه فعرف إلياس صوته، فتاقت نفسه إليه وكان مشتاقاً إلى لقائه فأوحى الله تعالى إليه أن ابرز إلى أخيك الصالح فالقه، وجدّد العهد فبرز إليه وسلّم عليه وصافحه، وقال: ما الخبر؟ فقال المؤمن: إنه قد بعثني إليك هذا الجبّار الطاغي وقومه، وقصّ عليه ما قالوا ثم قال وإنّي لخائف إن رجعت إليه ولست معي فيقتلني فمُرني بما شئت أفعله، إن شئت انقطعت إليك وكنت معك وتركته، وإن شئت جاهدته معك وإن شئت ترسلني إليه بما تحبّ فأُبلغه رسالتك، وإن شئت دعوت ربك يجعل لنا من أمرنا رشداً وفرجاً ومخرجاً، فأوحى الله تعالى إلى إلياس أن كل شيء جاءك منهم مكر وكذب ليظفروا بك، وإن آجب إن أخبرته رسلُهُ أنك قد لقيتَ هذا الرجل ولم يأت بك اتّهمه وعرف أنه قد داهن في أمرك، فلم يأمن أن يقتله، فانطلق معه فإني سأشغل عنكما آجب فأُضاعف على ابنه البلاء، حتى لا يكون له همٌّ غيره، ثم أُميته على شرِّ حال، فإذا مات هو فارجع عنه، قال: فانطلق معهم حتى قَدِموا على آجب، فلما قَدِموا شدّد الله تعالى الوجع على ابنه وأخذ الموت يكظمه، فشغل الله تعالى بذلك آجب وأصحابه عن إلياس، فرجع إلياس سالماً إلى مكانه، فلما مات ابن آجب وفرغوا من أمره وقلّ جزعه انتبه لإلياس، وسأل عنه الكاتب الذي جاء به، فقال له: ليس لي علم به شغلني عنه موت ابنك والجزع عليه ولم أكن أحسبك إلاّ قد استوثقت منه، فأعرض عنه آجب وتركه لما فيه من الحزن على ابنه، فلما طال الأمر على إلياس من السكون في الجبال واشتاق إلى الناس نزل من الجبل فانطلق حتى نزل بامرأة من بني إسرائيل، وهي أُم يونس بن متّى ذي النون، استخفى عندها ستّة أشهر ويونس بن متّى يومئذ مولود يرضع، فكانت أُم يونس تخدم بنفسها وتواسيه بذات يدها، ثم إن إلياس سئم ضيق البيوت بعد تعوّد فسحة الجبال فأحبّ اللحوق بالجبال فخرج وعاد إلى مكانه، فجزعت أُم يونس لفراقه فأوحشها فقده، ثم لم تلبث إلاّ يسيراً حتى مات ابنها يونس حين فطمته، فعظمت مصيبتها فخرجت في طلب إلياس، فلم تزل ترقى الجبال وتطوف فيها حتى عثرت عليه، فوجدته وقالت له: إني قد فجعت بعدك لموت ابني فعظمت فيه مصيبتي واشتدّ لفقده بلائي، وليس لي ولد غيره فارحمني وادع لي ربّك جلّ جلاله ليُحيي لي ابني وإنّي قد تركته مُسجى لم أدفنه، وقد أخفيت مكانه، فقال لها إلياس: ليس هذا مما أُمرتُ به، وإنما أنا عبد مأمور أعمل بما يأمرني ربّي، فجزعت المرأة وتضرّعت فأعطف الله تعالى قلب إلياس لها، فقال لها: متى مات ابنك؟

الفرس فناداه اليسع يا إلياس ما تأمرني فقذف إليه إلياس بكسائه من الجو الأعلى فكان ذلك علامة استخلافه إياه على بني إسرائيل وكان ذلك آخر العهد به ورفع الله تعالى إلياس من بين أظهرهم وقطع عنه لذة المطعم والمشرب وكساه الريش فصار إنسياً ملكياً أرضياً سماوياً وسلط الله عز وجل على آجب الملك وقومه عدواً لهم فقصدهم من حيث لم

قالت: منذ سبعة أيام فانطلق إلياس معها وسار سبعة أيام أخرى حتى انتهى إلى منزلها، فوجد ابنها ميتاً له أربعة عشر يوماً، فتوضأ وصلّى ودعا، فأحيا الله تعالى يونس بن متّى، فلما عاش وجلس وثب إلياس وتركه وعاد إلى موضعه، فلما طال عصيان قومه ضاق بذلك إلياس ذرعاً فأوحى الله تعالى إليه بعد سبع سنين وهو خائف مجهود يا إلياس ما هذا الحزن والجزع الذي أنت فيه؟ ألستَ أميني على وحيي وحجّتي في أرضي وصفوتي من خلقي؟ فسلني أعطك فإني ذو الرحمة الواسعة والفضل العظيم، قال: تُميتني وتُلحِقني بآبائي فإني قد مللتُ بني إسرائيل وملّوني، فأوحى الله تعالى إليه: يا إلياس ما هذا باليوم الذي أُعرّي منك الأرض وأهلها، وإنما قوامها وصلاحها بك وبأشباهك، وإن كنتم قليلاً ولكن سَلْني فأعطك، قال إلياس: إن لم تُمِتني فأعطني ثأري من بني إسرائيل، قال الله تعالى: فأيّ شيء تريد أن أُعطيك؟ قال تمكّنّي من خزائن السماء سبع سنين فلا تنشر عليهم سحابة إلاّ بدعوتي ولا تمطر عليهم قطرة إلاّ بشفاعتي، فإنهم لا يذلّهم إلاّ ذلك، قال الله تعالى: يا إلياس أنا أرحم بخلقي من ذلك، وإن كانوا ظالمين، قال: فستّ سنين، قال: أنا أرحم بخلقي من ذلك، قال: فخمس سنين، قال: أنا أرحم بخلقي من ذلك ولكني أُعطيك ثأرك ثلاث سنين، أجعل خزائن المطر بيدك، قال إلياس فبأيّ شيء أعيش؟ قال: أُسخّر لك جيشاً من الطير ينقل إليك طعامك وشرابك من الريف والأرض التي لم تقحط، قال إلياس: قد رضيت، قال: فأمسك الله تعالى عنهم المطر حتى هلكت الماشية والدواب والهوام والشجر وجهد الناس جهداً شديداً، وإلياس على حالته مستخف من قومه يوضع له الرزق حيث ما كان، وقد عرف ذلك قومه وكانوا إذا وجدوا ريح الخبز في بيت قالوا: لقد دخل إلياس هذا المكان، فطلبوه ولقي منهم أهل ذلك المنزل شرّاً. قال ابن عباس: أصاب بني إسرائيل ثلاث سنين القحط، فمرّ إلياس بعجوز فقال لها: هل عندك طعام؟ قالت: نعم شيء من دقيق وزيت قليل، قال: فدعا به ودعا فيه بالبركة ومسّه حتى ملأ جرابها دقيقاً وملأ خوابيها زيتاً، فلما رأوا ذلك عندها قالوا: من أين لك هذا؟ قالت: مرّ بي رجل من حاله كذا وكذا، فوصفته فعرفوه، فقالوا ذلك إلياس، فطلبوه فوجدوه فهرب منهم، ثم إنه أوى إلى بيت امرأة من بني إسرائيل لها ابن يقال له أليسع بن أخطوب به ضَرٌّ فآوته وأخفت أمره، فدعا له فعُوفِي من الضرّ الذي كان به، واتّبع أليسع فآمن به وصدّقه ولزمه، وكان يذهب حيث ما ذهب وكان إلياس قد أسنّ فكبر وأليسع غلام شابّ، ثم إن الله تعالى أوحى إلى إلياس: أنك قد أهلكت كثيراً من الخلق ممّن لم يعصَ من البهائم والدواب والطير والهوام بحبس المطر، فيزعمون والله أعلم أن إلياس قال: يا ربّ دعني أكن أنا الذي أدعو لهم وآتيهم بالفرج مما هم فيه من البلاء، لعلّهم أن يرجعوا وينزعوا عمّا هم عليه من عبادة غيرك، فقيل له: نعم، فجاء إلياس إلى بني إسرائيل، فقال: إنكم قد هلكتم جوعاً وجهداً وهلكت البهائم والدواب والطير والهوام والشجر بخطاياكم، وإنكم على باطل فإن كنتم تحبّون أن تعلموا ذلك فاخرجوا بأصنامكم فإن استجابت لكم فذلك كما تقولون، وإن هي لم تفعل علمتم أنكم على باطل، فنزعتم ودعوت الله تعالى ففرّج عنكم ما أنتم فيه من البلاء، قالوا: أنصفت فخرجوا بأوثانهم فدعوها، فلم تفرج عنهم ما كانوا فيه من البلاء، ثم قالوا لإلياس: إنّا قد هلكنا فادع الله تعالى لنا، فدعا لهم إلياس ومعه أليسع بالفرج، فخرجت سحابة مثل الترس على ظهر البحر وهم ينظرون، فأقبلت نحوهم وطبّقت الآفاق ثم أرسل الله تعالى عليهم المطر فأغاثهم، وأحييت بلادهم فلما كشف الله تعالى عنهم الضرّ نقضوا العهد ولم ينزعوا عن كفرهم، وأقاموا على أخبث ما كانوا عليه، فلما رأى ذلك إلياس دعا ربّه عزّ وجلّ أن يُريحه منهم،

يشعروا به حتى رهقهم فقتل آجب وامرأته أزبيل في الجنينة التي اغتصبتها امرأة الملك من ذلك المؤمن فلم تزل جثتاهما ملقاتين في تلك الجنينة حتى بليت لحومهما ورمت عظامهما ونبأ الله سبحانه وتعالى اليسع وبعثه رسولاً إلى بني إسرائيل وأوحى إليه وأيده فآمنت به بنو إسرائيل وكانوا يعظمونه وحكم الله تعالى فيهم قائم إلى أن فارقهم اليسع، روى السدي عن يحيى بن عبد العزيز عن أبي راود قال إلياس والخضر يصومان رمضان ببيت المقدس ويوفيان الموسم في كل عام وقيل إن إلياس موكل بالفيافي والخضر موكل بالبحار فذلك قوله تعالى ﴿وإن إلياس لمن المرسلين﴾.

إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٢٥﴾ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾

﴿إذ قال لقومه ألا تتقون أتدعون بعلاً﴾ يعني أتعبدون بعلاً وهو صنم كان لهم يعبدونه ولذلك سميت مدينتهم بعلبك قيل البعل الرب بلغة أهل اليمن ﴿وتذرون﴾ أي وتتركون عبادة ﴿أحسن الخالقين﴾ فلا تعبدونه ﴿الله ربكم ورب آبائكم الأولين فكذبوه فإنهم لمحضرون﴾ أي في النار ﴿إلا عباد الله المخلصين﴾ أي من قومه الذين آمنوا به فإنهم نجوا من العذاب.

فقيل له فيما يزعمون: انظر يوم كذا وكذا فاخرج فيه إلى موضع كذا وكذا فما جاءك من شيء فاركبه ولا تهبه، فخرج إلياس ومعه أليسع حتى إذا كانا بالموضع الذي أُمر أقبل فرس من نار وقيل لونه كلون النار حتى وقف بين يديه، فوثب عليه إلياس فانطلق به الفرس فناداه أليسع يا إلياس ما تأمرني فقذف إليه إلياس بكسائه من الجوّ الأعلى، فكان ذلك علامة استخلافه إيّاه على بني إسرائيل، فكان ذلك آخر العهد به، فرفع الله تعالى إلياس من بين أظهرهم وقطع عنه لذّة المطعم والمشرب، فكساه الريش فكان إنسيّاً ملكياً أرضيّاً سماوياً، وسلّط الله تعالى على آجب الملك وقومه عدوّاً لهم فقصدهم من حيث لم يشعروا به حتى رهقهم، فقتل آجب وامرأته أزبيل في بستان مزدكي، فلم تزل جيفتاهما ملقاتين في تلك الجنينة حتى بليت لحومهما ورمت عظامهما، ونبّأ الله تعالى أليسع وبعثه رسولاً إلى بني إسرائيل، وأوحى الله تعالى إلى أليسع وأيّده، فآمنت به بنو إسرائيل فكانوا يعظّمونه، وحكم الله تعالى فيهم قائم إلى أن فارقهم أليسع. وروى السريّ بن يحيىٰ عن عبد العزيز بن أبي رواد، قال: الخضر وإلياس يصومان شهر رمضان ببيت المقدس، ويوافيان الموسم في كل عام. وقيل: إن إلياس موكل بالفيافي، والخضر موكل بالبحار، فذلك قوله تعالى: ﴿ وإن إلياس لمن المرسلين ﴾.

﴿ **إذْ قال لقومه ألا تتّقون * أتدعون** ﴾، أتعبدون، ﴿ **بعلاً** ﴾، وهو اسم صنم لهم كانوا يعبدونه، ولذلك سُمّيت مدينتهم بعلبك ، قال مجاهد وعكرمة وقتادة: البعل الربّ بلغة أهل اليمن. ﴿ **وتذرون أحسنَ الخالقين** ﴾، فلا تعبدونه.

﴿ **اللَّهَ ربَّكم وربَّ آبائكم الأوّلين** ﴾، قرأ حمزة والكسائي وحفص ويعقوب ﴿ **اللَّهَ ربَّكم وربَّ** ﴾ بنصب الهاء والباءين على البدل، وقرأ الآخرون برفعهنّ على الاستئناف.

﴿ **فكذّبوه فإنهم لَمُحضَرُون** ﴾، في النار.

﴿ **إلّا عباد الله المخلصين** ﴾، من قومه فإنهم نَجَوْا من العذاب.

وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي ٱلْآخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا
ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا
ٱلْآخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى
ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ
ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾

﴿وتركنا عليه في الآخرين سلام على الياسين﴾ قرىء آل ياسين بالقطع قيل أراد آل محمد ﷺ وقيل آل القرآن لأن ياسين من أسماء القرآن وفيه بعد وقرىء الياسين بالوصل ومعناه إلياس وأتباعه من المؤمنين **﴿إنا كذلك نجزي المحسنين إنه من عبادنا المؤمنين﴾** قوله تعالى: **﴿وإن لوطاً لمن المرسلين إذ نجيناه وأهله أجمعين إلا عجوزاً في الغابرين﴾** أي الباقين في العذاب **﴿ثم دمرنا﴾** أي أهلكنا **﴿الآخرين وإنكم﴾** أي أهل مكة **﴿لتمرون عليهم﴾** أي على آثارهم ومنازلهم **﴿مصبحين﴾** أي في وقت الصباح **﴿وبالليل﴾** أي وبالليل في أسفاركم **﴿أفلا تعقلون﴾** أي فتعتبرون بهم.

قوله عز وجل: **﴿وإن يونس لمن المرسلين﴾** أي من جملة رسل الله تعالى: **﴿إذ أبق﴾** أي هرب **﴿إلى الفلك المشحون﴾** أي المملوء قال ابن عباس ووهب كان يونس وعد قومه العذاب فتأخر عنهم فخرج كالمستور منهم فقصد البحر فركب السفينة فاحتبست السفينة فقال الملاحون هاهنا عبد آبق من سيده فاقترعوا فوقعت على يونس فاقترعوا

﴿ وتركنا عليه في الآخرين * سلامٌ على إل يَاسين﴾، قرأ نافع وابن عامر «آل ياسين» بفتح الهمزة مشبعة وكسر اللام مقطوعة لأنها في المصحف مفصولة، وقرأ الآخرون بكسر الهمزة وسكون اللام موصولة، فمَن قرأ **﴿ آل يَس ﴾**، مقطوعة قيل أراد آل محمد ﷺ، وهذا القول بعيد لأنه لم يسبق له ذكر، وقيل: أراد إلياس، والقراءة المعروفة بالوصل، واختلفوا فيه، فقد قيل: إلياسين لغة في إلياس مثل إسماعيل وإسماعين وميكائيل وميكائين، وقال الفرّاء: هو جمع أراد إلياسن وأصحابه وأتباعه من المؤمنين، فيكون بمنزلة الأشعرين والأعجمين بالتخفيف، وفي حرف عبد الله بن مسعود: سلامٌ على إدراسين يعني إدريس وأتباعه، لأنه يقرأ: وإن إدريس لمن المرسلين.

﴿ إنّا كذلك نجزي المحسنين * إنه من عبادنا المؤمنين * وإن لوطاً لمن المرسلين * إذْ نجّيناه وأهله أجمعين * إلّا عجوزاً في الغابرين ﴾، أي الباقين في العذاب.

﴿ ثم دمّرنا الآخَرين ﴾، والتدمير الإهلاك.

﴿ وَإنّكم لتمرّون عليهم ﴾، على آثارهم ومنازلهم، **﴿ مصبحين ﴾**، وقت الصباح.

﴿ وبالليل ﴾، يريد تمرّون بالنهار وبالليل عليهم إذا ذهبتم إلى أسفاركم ورجعتم، **﴿ أفلا تعقلون ﴾**، فتعتبرون.

قوله تعالى: **﴿ وإن يونس لمن المرسلين ﴾**، أي من جملة رسل الله.

﴿ إذْ أبقَ إلى الفلك المشحون ﴾، يعني هرب، قال ابن عباس رضي الله عنهما ووهب: كان يونس وعد قومه العذاب فلما تأخّر عنهم العذاب خرج كالمستور منهم، فقصد البحر فركب السفينة، فاحتبست السفينة فقال

ثلاثاً وهي تقع على يونس فقال أنا الآبق وزجَّ نفسه في الماء.

وقيل إنه لما وصل إلى البحر كانت معه امرأته وابنان له فجاء مركب فأراد أن يركب معهم فقدم امرأته ليركب بعدها فحال الموج بينه وبين المركب وذهب المركب وجاءت موجة أخرى فأخذت ابنه الأكبر وجاء ذئب فأخذ الابن الأصغر فبقي فريداً فجاء مركب فركبه وقعد ناحية من القوم فلما مرت السفينة في البحر ركدت فقال الملاحون إن فيكم عاصياً وإلا لم يحصل وقوف السفينة فيما نراه من غير ريح ولا سبب ظاهر فاقترعوا فمن خرج سهمه نغرقه فلأن يغرق واحد خير من غرق الكل فاقترعوا فخرج سهم يونس فذلك قوله تعالى: **﴿فساهم﴾** أي فقارع **﴿فكان من المدحضين﴾** يعني من المقرعين المغلوبين في سورة يونس والأنبياء **﴿فالتقمه الحوت﴾** أي ابتلعه **﴿وهو مليم﴾** أي آت بما يلام عليه **﴿فلولا أنه كان من المسبحين﴾** أي من الذاكرين الله عز وجلّ قبل ذلك وكان كثير الذكر وقال ابن عباس من المصلحين وقيل من العابدين. قال الحسن ما كانت له صلاة في بطن الحوت ولكنه قدم عملاً صالحاً فشكر الله تعالى له طاعته القديمة قال بعضهم اذكروا الله في الرخاء يذكركم في الشدة فإن يونس كان عبداً صالحاً ذاكراً لله تعالى فلما وقع في الشدة في بطن الحوت شكر الله تعالى له ذلك فقال **﴿فلولا أنه كان من المسبحين﴾**.

﴿لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ ۞ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾﴾

﴿للبث في بطنه إلى يوم يبعثون﴾ وقيل لولا أنه كان يسبح في بطن الحوت بقوله **﴿لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين﴾** للبث في بطنه إلى يوم يبعثون أي لصار بطن الحوت قبراً له إلى يوم القيامة.

قوله عز وجل: **﴿فنبذناه﴾** أي طرحناه إنما أضاف النبذ إلى نفسه وإن كان الحوت هو النابذ لأن أفعال العباد

الملاّحون ههنا عبد آبق من سيده، فاقترعوا فوقعت القرعة على يونس، فاقترعوا ثلاثاً فوقعت على يونس، فقال يونس: أنا الآبق، وزجّ نفسه في الماء. ورُوِيَ في القصة: لمّا وصل إلى البحر كانت معه امرأته وابنان له، فجاء مركب فأراد أن يركب معهم فقدّم امرأته ليركب بعدها فحال الموج بينه وبين المركب، ثم جاءت موجة أخرى وأخذت ابنه الأكبر وجاء ذئب فأخذ الابن الأصغر، فبقي فريداً، فجاء مركب آخر فركبه فقعد ناحية من القوم، فلما مرّت السفينة في البحر ركدت، فاقترعوا وقد ذكرنا القصة في سورة يونس.

فذلك قوله عزّ وجلّ: **﴿ فساهم ﴾**، فقارع والمساهمة إلقاء السهام على جهة القرعة، **﴿ فكان من المدحضين ﴾**، أي المقروعين.

﴿ فالتقمه الحوت ﴾، ابتلعه، **﴿ وهو مليم ﴾**، آت بما يلام عليه.

﴿ فلولا أنه كان من المسبّحين ﴾، من الذاكرين الله قبل ذلك وكان كثير الذكر، وقال ابن عباس: من المصلّين. وقال وهب: من العابدين. وقال الحسن: ما كانت له صلاة في بطن الحوت ولكنه قدّم عملاً صالحاً. وقال الضحاك: شكرَ اللَّهُ تعالى له طاعتَه القديمة. وقيل: فلولا أنه كان من المسبّحين في بطن الحوت. قال سعيد بن جبير: يعني قوله: **﴿ لا إلٰه إلاّ أنت سبحانك إني كنت من الظالمين ﴾** [الأنبياء: ٨٧].

﴿ لَلَبِثَ في بطنه إلى يوم يبعثون ﴾، لصار بطن الحوت له قبراً إلى يوم القيامة.

﴿ فنبذناه ﴾، طرحناه، **﴿ بالعراء ﴾**، يعني على وجه الأرض، قال السدي: بالساحل، والعراء الأرض الخالية عن الشجر والنبات. **﴿ وهو سقيم ﴾**، عليل كالفرخ الممعّط، وقيل: كان قد بليَ لحمه ورقّ عظمه ولم يبقَ

كلها مخلوقة لله تعالى: ﴿بالعراء﴾ أي بالأرض الخالية عن الشجر والنبات. وقيل بالساحل ﴿وهو سقيم﴾ أي عليل كالفرخ الممعط وقيل كان قد بلي لحمه ورق عظمه ولم تبق له قوة قيل إنه لبث في بطن الحوت ثلاثة أيام وقيل سبعة وقيل عشرين يوماً وقيل أربعين وقيل التقمه ضحى ولفظه عشية ﴿وأنبتنا عليه شجرة من يقطين﴾ يعني القرع قيل إن كل نبت يمتد وينبسط على وجه الأض كالقرع والقثاء والبطيخ ونحوه فهو يقطين، قيل أنبتها الله تعالى له ولم تكن قبل ذلك وكانت معروشة ليحصل له الظل وفي شجر القرع فائدة وهي أن الذباب لا يجتمع عندها فكان يونس يستظل بتلك الشجرة ولو كانت منبسطة على الأرض لم يكن أن يستظل بها قيل وكانت وعلة تختلف إليه فيشرب من لبنها بكرة وعشية حتى اشتد لحمه ونبت شعره وقوي فنام نومة ثم استيقظ وقد يبست الشجرة وأصابه حر الشمس فحزن حزناً شديداً وجعل يبكي فأرسل الله تعالى إليه جبريل وقال أتحزن على شجرة ولا تحزن على مائة ألف من أمتك قد أسلموا وتابوا ﴿وأرسلناه إلى مائة ألف﴾ قيل أرسله إلى أهل نينوى من أرض الموصل قبل أن يصيبه ما أصابه والمعنى وكنا أرسلناه إلى مائة ألف فلما خرج من بطن الحوت أمر أن يرجع إليهم ثانياً وقيل كان إرساله إليهم بعد خروجه من بطن الحوت وقيل يجوز أن يكون إرساله إلى قوم آخرين غير القوم الأولين ﴿أو يزيدون﴾ قال ابن عباس معناه ويزيدون وقيل معناه بل يزيدون وقيل أو على أصلها والمعنى أو يزيدون في تقدير الرائي إذا رآهم قال هؤلاء مائة ألف أو يزيدون على ذلك فالشك على تقدير المخلوقين والأصح هو قول ابن عباس الأول.

وأما الزيادة فقال ابن عباس كانوا عشرين ألفاً، ويعضده ما روي عن أبي بن كعب رضي الله عنه قال «سألت رسول الله ﷺ عن قوله تعالى ﴿وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون﴾ قال يزيدون عشرين ألفاً» أخرجه الترمذي وقال حديث حسن وقيل يزيدون بضعاً وثلاثين ألفاً وقيل سبعين ألفاً.

له قوة، واختلفوا في مدة لبثه في بطن الحوت، فقال مقاتل بن حيّان: ثلاثة أيام. وقال عطاء: سبعة أيام. وقال الضحاك: عشرين يوماً. وقال السدي والكلبي ومقاتل بن سليمان: أربعين يوماً. وقال الشعبي: التقمه ضحى ولفظه عشية.

﴿ وأنبتنا عليه ﴾، أي له، وقيل: عنده، ﴿ شجرة من يقطين ﴾، يعني القرع على قول جميع المفسّرين، وقال الحسن ومقاتل: كل نبت يمدّ وينبسط على وجه الأرض ليس له ساق ولا يبقى على الشتاء نحو القرع والقثاء والبطيخ فهو يقطين، قال مقاتل بن حيّان: فكان يونس يستظلّ بالشجرة وكانت وعلة تختلف إليه فشرب من لبنها بكرة وعشية حتى اشتدّ لحمه ونبت شعره وقوي، فنام نومة فاستيقظ وقديبستالشجرة فحزن حزناً شديداً وأصابه أذى الشمس فجعل يبكي، فبعث الله تعالى إليه جبريل وقال: أتحزن على شجرة ولا تحزن على مائة ألف من أُمتك وقد أسلموا وتابوا، فإن قيل: قال ههنا: ﴿ فنبذناه بالعراء ﴾، وقال في موضع آخر: ﴿ لولا أن تداركه نعمة من ربه لنبذ بالعراء ﴾ [القلم: ٤٩]، فهل ما يدلّ على أنه لم ينبذ، قيل: لولا هناك يرجع إلى الذم، معناه: لولا نعمة من ربّه لنبذ بالعراء وهو مذموم، ولكن تداركه النعمة فنبذ، وهو غير قوله:

﴿ وأرسلناه إلى مائة ألف ﴾، قال قتادة: أرسل إلى أهل نينوى من أرض الموصل قبل أن يصيبه ما أصابه، وقوله: ﴿ وأرسلناه ﴾ أي وقد أرسلناه مذموم، وقيل: كان إرساله بعد خروجه من بعد بطن الحوت إليهم، وقيل: إلى قوم آخرين. ﴿ أو يزيدون ﴾، قال مقاتل والكلبي: معناه بل يزيدون. وقال الزجّاج: ﴿ أو ﴾ ههنا على أصلها، ومعناه أو يزيدون على تدبركم وظنكم، كالرجل يرى قوماً فيقول هؤلاء ألف أو يزيدون فالشك على تقدير المخلوقين، والأكثرون على أن معناه ويزيدون، واختلفوا في مبلغ تلك الزيادة، فقال ابن عباس ومقاتل: كانوا عشرين ألفاً، ورواه أُبيّ بن كعب عن رسول الله ﷺ، وقال الحسن: بضعاً وثلاثين ألفاً. وقال سعيد بن جبير: سبعين ألفاً.

فَـَٔامَنُواْ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ
إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى
ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُواْ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٥٧﴾
وَجَعَلُواْ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ
ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾

﴿فآمنوا﴾ يعني الذين أرسل إليهم يونس بعد معاينة العذاب ﴿فمتعناهم إلى حين﴾ أي إلى انقضاء آجالهم.

قوله عز وجل: ﴿فاستفتهم﴾ أي فسل يا محمد أهل مكة وهو سؤال توبيخ ﴿ألربك البنات ولهم البنون﴾ وذلك أن جهينة وبني سلمة بن عبد الدار زعموا أن الملائكة بنات الله.

والمعنى جعلوا لله البنات ولهم البنين وذلك باطل لأن العرب كانوا يستنكفون من البنات والشيء الذي يستنكف منه المخلوق كيف ينسب للخالق ﴿أم خلقنا الملائكة إناثاً وهم شاهدون﴾ أي حاضرون خلقنا إياهم ﴿ألا إنهم من إفكهم﴾ أي من كذبهم ﴿ليقولون ولد الله﴾ أي في زعمهم ﴿وإنهم لكاذبون﴾ أي فيما زعموا ﴿أصطفى البنات﴾ أي في زعمكم ﴿على البنين﴾ وهو استفهام توبيخ وتقريع ﴿ما لكم كيف تحكمون﴾ أي بالبنات لله ولكم بالبنين ﴿أفلا تذكرون﴾ أي أفلا تتعظون ﴿أم لكل سلطان مبين﴾ أي برهان بين على أن لله ولداً ﴿فأتوا بكتابكم﴾ يعني الذي لكم فيه

﴿ فآمنوا ﴾، يعني الذين أرسل إليهم يونس بعد معاينة العذاب، ﴿ فمتّعناهم إلى حين ﴾، أي حين انقضاء آجالهم.

قوله تعالى: ﴿ فاستفتهم ﴾، فاسأل يا محمد أهل مكة وهو سؤال توبيخ، ﴿ ألربك البنات ولهم البنون ﴾، وذلك أن جهينة وبني سلمة بن عبد الدار زعموا أن الملائكة بنات الله، تعالى الله عمّا يقول الظالمون علوّاً كبيراً، يقول: جعلوا لله البنات ولأنفسهم البنين.

﴿ أم خلقنا الملائكة إناثاً ﴾، معناه: أخلقنا الملائكة إناثاً، ﴿ وهم شاهدون ﴾، حاضرون خلقْنَا إيّاهم، نظيره قوله: ﴿ أشهدوا خلقهم ﴾ [الزخرف: ١٩].

﴿ ألا إنهم من إفكهم ﴾، من كذبهم، ﴿ ليقولون ولد الله وإنهم لكاذبون ﴾.

﴿ اصطفى ﴾، قرأ أبو جعفر ﴿ لكاذبون ﴾، ﴿ اصطفى ﴾ موصولاً على الخبر عن قول المشركين، وعند الوقف يبتديان: اصطفى بكسر الألف، وقراءة بقطع الألف لأنها ألف استفهام دخلت على ألف الوصل، فحذفت ألف الوصل وبقيت ألف الاستفهام مفتوحة مقطوعة، مثل استكبرت ونحوها، ﴿ البنات على البنين ﴾.

﴿ ما لكم كيف تحكمون ﴾، لله بالبنات ولكم بالبنين.

﴿ أفلا تذكرون ﴾، أفلا تتّعظون.

﴿ أم لكم سلطان مبين ﴾، برهان بيّن على أن لله ولداً.

﴿ فأتوا بكتابكم ﴾، الذي لكم فيه حجة، ﴿ إنْ كنتم صادقين ﴾، في قولكم.

﴿ وجعلوا بينه وبين الجِنّة نَسباً ﴾. قال مجاهد وقتادة: وأراد بالجِنّة الملائكة سُمّوا جِنّة لاجتنانهم عن

حجة ﴿إن كنتم صادقين﴾ أي في قولكم ﴿وجعلوا بينه وبين الجنة نسباً﴾ قيل أراد بالجنة الملائكة سموا جنة لاجتنانهم عن الأبصار.

قال ابن عباس هم حي من الملائكة يقال لهم الجن ومنهم إبليس قالوا هم بنات الله فقال لهم أبو بكر الصديق رضي الله عنه فمن أمهاتهم قالوا سروات الجن.

وقيل معنى النسب أنهم أشركوا في عبادة الله تعالى.

وقيل هو قول الزنادقة الخير من الله والشر من الشيطان ﴿ولقد علمت الجنة إنهم﴾ يعني قائلي هذا القول ﴿لمحضرون﴾ أي في النار ﴿سبحان الله عما يصفون﴾ نزه الله تعالى نفسه عما يقولون ﴿إلا عباد الله المخلصين﴾ هذا استثناء من المحضرين والمعنى أنهم لا يحضرون.

فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾ وَإِن كَانُوا۟ لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾ فَكَفَرُوا۟ بِهِۦ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾

﴿فإنكم﴾ يعني يا أهل مكة ﴿وما تعبدون﴾ أي من الأصنام ﴿ما أنتم عليه﴾ أي على ما تعبدون ﴿بفاتنين﴾ أي بمضلين أحداً ﴿إلا من هو صال الجحيم﴾ أي إلا من سبق له في علم الله تعالى الشقاوة وأنه سيدخل النار.

قوله تعالى إخباراً عن حال الملائكة ﴿وما منا إلا له مقام معلوم﴾ يعني أن جبريل قال للنبي ﷺ وما منا معشر الملائكة ملك إلا له مقام معلوم يعبد ربه فيه. وقال ابن عباس ما في السموات موضع شبر إلا وعليه ملك يصلي أو يسبح. وروى أبو ذر عن النبي ﷺ قال «أطت السماء وحق لها أن تئط والذي نفسي بيده ما فيها موضع أربع أصابع إلا

الأبصار. وقال ابن عباس: حيّ من الملائكة يقال لهم الجنّ، ومنهم إبليس، قالوا: هم بنات الله. وقال الكلبي: قالوا لعنهم الله بل تزوج من الجنّ فخرج منها الملائكة تعالى الله عن ذلك، وقد كان زعم بعض قريش أن الملائكة بنات الله، فقال أبو بكر الصدّيق فمن أُمهاتهم قالوا سروات الجنّ، وقال الحسن: معنى النسب أنهم أشركوا الشياطين في عبادة الله، ﴿ ولقد علمت الجِنّة أنهم ﴾، يعني قائلي هذا القول، ﴿ لمحضرون ﴾، في النار ثم نزّه نفسه عمّا قالوا فقال:

﴿ سبحان الله عمّا يصفون * إلاّ عباد الله المخلصين ﴾، هذا استثناء من المحضرين يعني أنهم لا يحضرون.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ فإنكم ﴾، يقول لأهل مكة، ﴿ وما تعبدون ﴾، من الأصنام.

﴿ ما أنتم عليه ﴾، على ما تعبدون، ﴿ بفاتنين ﴾، بمضلّين أحداً.

﴿ إلاّ مَن هو صال الجحيم ﴾، إلاّ مَن قدّر الله أنه سيدخل النار أي سبق له في علم الله الشقاوة.

قوله تعالى: ﴿ وما منّا إلاّ له مقام معلوم ﴾، أي ما منّا ملك إلاّ له مقام معلوم في السمٰوات يعبد الله فيه، قال ابن عباس: ما في السمٰوات موضع شبر إلاّ وعليه ملك يصلّي أو يسبّح. وروينا عن أبي ذرّ عن النبي ﷺ قال: «أطتِ السماءُ وحقَّ لها أن تئط، والذي نفسي بيده ما فيها موضع أربعة أصابع إلاّ وملك واضع جبهته ساجداً لله» قال السدي: إلاّ له مقام معلوم في القربة والمشاهدة. وقال أبو بكر الورّاق: إلاّ له مقام معلوم يعبد الله عليه،

وملك واضع جبهته لله ساجداً» أخرجه الترمذي. وهو طرف من حديث قيل الأطيط أصوات الأقتاب وقيل أصوات الإبل وحنينها، ومعنى الحديث ما في السماء من الملائكة قد أثقلها حتى أطت وهذا مثل مؤذن بكثرة الملائكة وإن لم يكن ثم أطيط وقيل معنى إلا له مقام معلوم أي في القرب والمشاهدة وقيل يعبد الله على مقامات مختلفة كالخوف والرجاء والمحبة والرضا ﴿**وإنا لنحن الصافون**﴾ يعني الملائكة صفوا أقدامهم في عبادة الله تعالى كصفوف الناس في الصلاة في الأرض ﴿**وإنا لنحن المسبحون**﴾ أي المصلون لله تعالى وقيل المنزهون لله تعالى عن كل سوء يخبر جبريل النبي ﷺ أنهم يعبدون الله بالصلاة والتسبيح وأنهم ليسوا بمعبودين كما زعمت الكفار قوله عز وجل: ﴿**وإن كانوا ليقولون**﴾ يعني كفار مكة قبل بعثة النبي ﷺ ﴿**لو أن عندنا ذكراً من الأولين**﴾ يعني كتاباً مثل كتاب الأولين ﴿**لكنا عباد الله المخلصين**﴾ أي لأخلصنا العبادة لله ﴿**فكفروا به**﴾ أي فلما أتاهم الكتاب كفروا به ﴿**فسوف يعلمون**﴾ فيه تهديد لهم قوله عز وجل: ﴿**ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين**﴾ يعني تقدم وعدنا لعبادنا المرسلين بنصرهم.

إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾

﴿**إنهم لهم المنصورون**﴾ أي بالحجة البالغة ﴿**وإن جندنا**﴾ أي حزبنا المؤمنين ﴿**لهم الغالبون**﴾ أي لهم النصرة في العاقبة ﴿**فتول**﴾ أي أعرض ﴿**عنهم حتى حين**﴾ قال ابن عباس يعني الموت وقيل إلى يوم بدر وقيل حتى آمرك بالقتال وهذه الآية منسوخة بآية القتال وقيل إلى أن يأتيهم العذاب ﴿**وأبصرهم**﴾ أي إذا نزل بهم العذاب ﴿**فسوف**

كالخوف والرجاء والمحبة والرضا.

﴿ **وإنّا لنحن الصافّون** ﴾، قال قتادة: هم الملائكة صفّوا أقدامهم. وقال الكلبي: صفوف الملائكة في السماء للعبادة كصفوف الناس في الأرض.

﴿ **وإنّا لنحن المُسَبِّحون** ﴾، أي المصلّون المنزّهون اللّه عن السوء، يخبر جبريل عليه السلام النبيّ ﷺ أنهم يعبدون الله بالصلاة والتسبيح وأنهم ليسوا بمعبودين، كما زعمت الكفّار، ثم أعاد الكلام إلى الإخبار عن المشركين فقال:

﴿ **وإن كانوا** ﴾، أي وقد كانوا يعني أهل مكة، ﴿ **ليقولون** ﴾، لام التأكيد.

﴿ **لو أن عندنا ذكراً من الأوّلين** ﴾، أي كتاباً مثل كتاب الأوّلين.

﴿ **لكنّا عباد الله المخلصين * فكفروا به** ﴾، أي فلما أتاهم ذلك الكتاب كفروا به، ﴿ **فسوف يعلمون** ﴾، هذا تهديد لهم.

﴿ **ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين** ﴾، وهي قوله: ﴿ كتب الله لأغلبنّ أنا ورسلي ﴾ [المجادلة: ٢١].

﴿ **إنهم لهُم المنصورون * وإن جندنا لهم الغالبون** ﴾، أي حزب الله لهم الغلبة بالحجة والنصرة في العاقبة.

﴿ **فتولّ** ﴾، أعرض، ﴿ **عنهم حتى حين** ﴾، قال ابن عباس: يعني الموت. وقال مجاهد: يوم بدر. وقال السدي: حتى يأمرك بالقتال. وقيل: إلى أن يأتيهم عذاب الله. قال مقاتل بن حيّان: نسختها آية القتال.

يبصرون﴾ أي ذلك فعند ذلك قالوا متى هذا العذاب قال الله عز وجل: ﴿أفبعذابنا يستعجلون فإذا نزل﴾ يعني العذاب ﴿بساحتهم﴾ أي بحضرتهم وقيل بفنائهم ﴿فساء صباح المنذرين﴾ أي فبئس صباح الكافرين الذين أنذروا العذاب (ق) عن أنس رضي الله عنه «أن رسول الله ﷺ غزا خيبر فلما دخل القرية قال الله أكبر خربت خيبر إنا إذا أنزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين قالها ثلاث مرات» ثم كرر ذكر ما تقدم تأكيداً لوعيد العذاب فقال تعالى: ﴿وتول عنهم حتى حين﴾ وقيل المراد من الآية الأولى ذكر أحوالهم في الدنيا وهذه ذكر أحوالهم في الآخرة فعلى هذا القول يزول التكرار ﴿وأبصر﴾ أي العذاب إذا نزل بهم ﴿فسوف يبصرون﴾ ثم نزه نفسه فقال تعالى: ﴿سبحان ربك رب العزة﴾ أي الغلبة والقدرة وفيه إشارة إلى كمال القدرة وأنه القادر على جميع الحوادث ﴿عما يصفون﴾ أي عن اتخاذ الشركاء والأولاد ﴿وسلام على المرسلين﴾ أي الذين بلغوا عن الله عز وجل التوحيد والشرائع لأن أعلى مراتب البشر أن يكون كاملاً في نفسه مكملاً لغيره وهم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فلا جرم يجب على كل أحد الاقتداء بهم والاهتداء بهداهم ﴿والحمد لله رب العالمين﴾ أي على هلاك الأعداء ونصرة الأنبياء وقيل الغرض من ذلك تعليم المؤمنين أن يقولوه ولا يخلوا به ولا يغفلوا عنه لما روي عن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه قال «من أحب أن يكتال بالمكيال الأوفى من الأجر يوم القيامة فليكن آخر كلامه إذا قام من مجلسه سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين» والله أعلم بمراده وأسرار كتابه.

﴿ وأبصرهم ﴾، إذا نزل بهم العذاب، ﴿ فسوف يبصرون ﴾، ذلك فقالوا متى هذا العذاب؟

فقال الله عزّ وجلّ: ﴿ أفبعذابنا يستعجلون * فإذا نزل ﴾، يعني العذاب، ﴿ بساحتهم ﴾، قال مقاتل: بحضرتهم. وقيل: بفنائهم. قال الفرّاء: العرب تكتفي بذكر الساحة عن القوم، ﴿ فساء صباح المنذَرين ﴾، فبئس صباح الكافرين الذين أُنذروا بالعذاب، أخبرنا أبو الحسن السرخسي أخبرنا زاهر بن أحمد أخبرنا أبو إسحاق الهاشمي أخبرنا أبو مصعب أخبرنا مالك عن حميد الطويل عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ حين خرج إلى خيبر أتاها ليلاً وكان إذا جاء قوماً بليل لم يغزُ حتى يصبح، قال فلما أصبح خرجت يهود خيبر بمسّاحيها ومكاتلها، فلما رأوا النبي ﷺ، قالوا: محمد والله، محمد والخميس، فقال رسول الله ﷺ: «خربت خيبر، إنّا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذَرين» ثم كرّر ما ذكرنا تأكيداً لوعيد العذاب.

فقال: ﴿ وتولَّ عنهم حتى حين * وأبصرْ ﴾، العذاب إذا نزل بهم، ﴿ فسوف يُبصرون ﴾، ثم نزّه نفسه.

فقال: ﴿ سبحان ربِّك ربِّ العزّة ﴾، الغلبة والقوة، ﴿ عمّا يصفون ﴾، من اتخاذ الصاحبة والأولاد.

﴿ وسلامٌ على المرسلين ﴾، الذين بلغوا عن الله التوحيد والشرائع.

﴿ والحمد لله ربّ العالمين ﴾، على هلاك الأعداء ونصرة الأنبياء عليهم السلام، أخبرنا أبو سعيد أحمد بن إبراهيم الشريحي أنا أبو إسحاق الثعلبي أخبرني ابن فنجويه أخبرنا أحمد بن جعفر بن حمدان حدّثنا إبراهيم بن سهلوية حدّثنا علي بن محمد الطنافسي حدّثنا وكيع عن ثابت بن أبي صفيّة عن أصبغ بن بنانة عن علي قال: «مَن أحبَّ أن يكتال بالمِكيال الأوفى من الأجر يوم القيامة، فليكن آخر كلامه من مجلسه سبحان ربِّك ربِّ العزّة عمّا يصفون وسلامٌ على المرسلين والحمد لله ربّ العالمين».

سورة ص

ويقال لها سورة داود عليه الصلاة والسلام وهي مكية وهي ست وقيل ثمان وثمانون آية وسبعمائة واثنتان وثلاثون كلمة وثلاثة آلاف وسبعة وستون حرفاً.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

صٓ وَالْقُرْءَانِ ذِى الذِّكْرِ ﴿١﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴿٢﴾ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴿٣﴾

قوله عز وجل: ﴿صٓ﴾ قيل هو قسم وقيل اسم للسورة وقيل هو مفتاح اسمه الصمد وصادق الوعد والصبور وقيل معناه صدق الله وعن ابن عباس صدق محمد ﷺ ﴿والقرآن ذي الذكر﴾ قال ابن عباس أي ذي البيان وقيل ذي الشرف وهو قسم قيل وجوابه قد تقدم وهو قوله تعالى ﴿ص﴾ أقسم الله سبحانه وتعالى بالقرآن إن محمداً ﷺ لصادق وقيل جواب القسم محذوف تقديره والقرآن ذي الذكر ما الأمر كما تقول الكفار دل على هذا المحذوف، قوله تعالى: ﴿بل الذين كفروا﴾ وقيل بل الذين كفروا موضع القسم وقيل فيه تقديم وتأخير تقديره بل الذين كفروا ﴿في عزة

سُورَةُ صٓ

مكيّة وهي ثمانٍ وثمانون آية.

﴿ صٓ ﴾، قيل: هو قسم، وقيل: هو اسم للسورة كما ذكرنا في سائر حروف التهجّي في أوائل السور، وقال محمد بن كعب القرظي: ﴿ صٓ ﴾ مفتاح اسم الصمد وصادق الوعد. وقال الضحاك: معناه صدق الله. ورُوِيَ عن ابن عباس رضي الله عنهما: صدق محمد ﷺ، ﴿ والقرآن ذي الذكر ﴾، أي ذي البيان، قال ابن عباس ومقاتل وقال الضحاك: ذي الشرف، دليله قوله تعالى: ﴿ وإنه لذكر لك ولقومك ﴾ [الزخرف: ٤٤]، وهو قَسَم، واختلفوا في جواب القَسَم، قيل: جوابه قد تقدّم، وهو قوله: ﴿ صٓ ﴾ أقسم الله بالقرآن أن محمداً قد صدق. وقال الفرّاء: ﴿ صٓ ﴾ معناها وجب وحق فهي جواب قوله: ﴿ والقرآن ﴾، كما تقول: نزل والله، وقيل: جواب القسم محذوف تقديره: والقرآن ذي الذكر ما الأمر؟ كما يقول الكفّار، ودلّ على هذا المحذوف.

قوله تعالى: ﴿ بل الذين كفروا ﴾، وقال قتادة: موضع القَسَم قوله: ﴿ بل الذين كفروا ﴾، كما قال: ﴿ والقرآن المجيد بل عجبوا ﴾ [قٓ: ١ و٢]. وقيل: فيه تقديم وتأخير تقديره: بل الذين كفروا، ﴿ في عِزّة وشقاق ﴾، والقرآن ذي الذكر. وقال الأخفش: جوابه قوله تعالى: ﴿ إن كلّ إلّا كذّب الرّسل ﴾ [صٓ: ١٤]، كقوله: ﴿ تالله إن كنّا ﴾ [الشعراء: ٩٧]، وقوله: ﴿ والسماء والطارق ﴾ [الطارق: ١] إن كلُّ نفس، وقيل: جوابه قوله: ﴿ إنَّ هذا لَرِزْقُنا ﴾ [صٓ: ٥٤]، وقال الكسائي: قوله: ﴿ إنَّ ذلك لحقٌّ تخاصمُ أهلِ النار ﴾

وشقاق﴾ والقرآن ذي الذكر وقيل جوابه «إن كل إلا كذب الرسل» وقيل جوابه «إن هذا لرزقنا» وقيل «إن ذلك لحق تخاصم أهل النار» وهذا ضعيف لأنه تخلل بين القسم وهذا الجواب أقاصيص وأخبار كثيرة وقيل بل لتدارك كلام ونفي آخر ومجاز الآية أن الله تعالى أقسم بصٓ والقرآن ذي الذكر بل الذين كفروا من أهل مكة في عزة أي حمية وجاهلية وتكبر عن الحق وشقاق أي خلاف وعداوة لمحمد ﷺ ﴿كم أهلكنا من قبلهم من قرن﴾ يعني من الأمم الخالية ﴿فنادوا﴾ أي استغاثوا عند نزول العذاب وحلول النقمة ﴿ولات حين مناص﴾ أي ليس الحين حين فرار وتأخر قال ابن عباس: كان كفار مكة إذا قاتلوا فاضطروا في الحرب قال بعضهم لبعض مناص أي اهربوا وخذوا حذركم فلما نزل بهم العذاب ببدر قالوا مناص فأنزل الله عز وجل: ﴿ولات حين مناص﴾ أي ليس الحين حين هذا القول.

﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُواْ وَٱصْبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ﴿٧﴾ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ ﴿٨﴾﴾

﴿وعجبوا﴾ يعني كفار مكة ﴿أن جاءهم منذر منهم﴾ يعني رسولاً من أنفسهم ينذرهم ﴿وقال الكافرون هذا ساحر كذاب﴾ قوله عز وجل: ﴿أجعل الآلهة إلهاً واحداً﴾ وذلك أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أسلم فشق ذلك على قريش وفرح به المؤمنون فقال الوليد بن المغيرة للملأ من قريش وهم الصناديد والأشراف وكانوا خمسة وعشرين

[صٓ: ٦٤]، وهذا ضعيف لأنه تخلّل بين هذا القسم. وهذا الجواب أقاصيص وأخبار كثيرة، وقال القتيبي: بل لتدارك كلام ونفي آخر، ومجاز الآية: إن الله أقسم بصٓ والقرآن ذي الذكر أن الذين كفروا من أهل مكة في عزّة حمية وجاهلية وتكبّر عن الحق وشقاق خلاف وعداوة لمحمد ﷺ. وقال مجاهد: في عزّة تغابن.

﴿ كم أهلكنا من قبلهم من قرن ﴾، يعني من الأمم الخالية، ﴿ فنادوا ﴾، استغاثوا عند نزول العذاب وحول النقمة، ﴿ ولاتَ حين مناص ﴾، أي ليس حين نزول العذاب بهم حين فرار، والمناص مصدر ناص ينوص، وهو الفرار والتأخر، يقال: ناص ينوص إذا تأخر وباص يبوص إذا تقدم، ولات بمعنى ليس بلغة أهل اليمن، وقال النحويون: هي لا، زِيدَتْ فيها التاء، كقولهم: ربّ وربّتْ وثمّ وثمّتْ، وأصلها هاء وصلت بلا، فقالوا: لاه، كما قالوا ثمّة فجعلوها في الوصل تاء والوقف عليه بالتاء عند الزجّاج، وعند الكسائي بالهاء لاهِ، وذهب جماعة إلى أن التاء زيدت في حين والوقف على ولا، ثم يبتدىء: تحين، وهو اختيار أبي عبيد، وقال: كذلك وجدت في مصحف عثمان، وهذا كقول أبي وجزة السعدي:

«العاطفون تحين ما من عاطف والمطعمون زمان ما من مطعم»

وفي حديث ابن عمرو سأله رجل عن عثمان، فذكر مناقبه ثم قال: اذهب بها فلان إلى أصحابك، يريد الآن، قال ابن عباس رضي الله عنهما: كان كفّار مكة إذا قاتلوا فاضطروا في الحرب قال بعضهم لبعض: مناص، أي: اهربوا وخذوا حذركم، فلما أنزل الله بهم العذاب ببدر قالوا: مناص، فأنزل الله تعالى: ﴿ ولاتَ حين مناص ﴾ أي ليس الحين حين هذا القول.

﴿ وعجبوا ﴾، يعني الكفّار الذين ذكرهم الله عزّ وجلّ في قوله: ﴿ بل الذين كفروا ﴾، ﴿ أن جاءهم منذرٌ منهم ﴾، يعني رسولاً من أنفسهم ينذرهم، ﴿ وقال الكافرون هذا ساحر كذّاب ﴾.

﴿ أجعل الآلهة إلهاً واحداً ﴾، وذلك أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أسلم فشقّ ذلك على قريش، وفرح

رجلاً أكبرهم سناً الوليد بن المغيرة امشوا إلى أبي طالب فأتوا إلى أبي طالب وقالوا له أنت شيخنا وكبيرنا وقد علمت ما فعل هؤلاء السفهاء وإنما أتيناك لتقضي بيننا وبين ابن أخيك فأرسل إليه أبو طالب فدعا به فلما أتى النبي ﷺ إليه قال له يا ابن أخي هؤلاء قومك يسألونك السواء فلا تمل كل الميل على قومك فقال رسول الله ﷺ «وماذا يسألونني» قالوا ارفض آلهتنا وندعك وإلهك فقال رسول الله ﷺ «أتعطوني كلمة واحدة تملكون بها العرب وتدين لكم بها العجم» فقال أبو جهل لله أبوك لنعطينكها وعشرة أمثالها فقال رسول الله ﷺ «قولوا لا إله إلا الله» فنفروا من ذلك وقالوا أجعل الآلهة إلهاً واحداً كيف يسمع الخلق إله واحد ﴿إن هذا لشيء عجاب﴾ أي عجب ﴿وانطلق الملأ منهم﴾ أي من مجلسهم الذي كانوا فيه عند أبي طالب ﴿أن امشوا﴾ أي يقول بعضهم لبعض امشوا ﴿واصبروا على آلهتكم﴾ أي اثبتوا على عبادة آلهتكم ﴿إن هذا لشيء يراد﴾ أي لأمر يراد بنا وذلك أن عمر رضي الله عنه لما أسلم وحصل للمسلمين قوة بمكانه قالوا إن هذا الذي نراه من زيادة أصحاب محمد ﷺ لشيء يراد بنا وقيل يراد بأهل الأرض وقيل يراد بمحمد ﷺ أن يملك علينا ﴿ما سمعنا بهذا﴾ أي بالذي يقوله محمد من التوحيد ﴿في الملة الآخرة﴾ قال ابن عباس يعنون النصرانية لأنها آخر الملل وإنهم لا يوحدون الله بل يقولون ثالث ثلاثة وقيل يعنون ملة قريش وهي دينهم الذي هم عليه ﴿إن هذا إلا اختلاق﴾ أي كذب وافتعال ﴿أأنزل عليه الذكر﴾ أي القرآن ﴿من بيننا﴾ أي يقول أهل مكة ليس هو بأكبرنا ولا أشرفنا قال الله تعالى: ﴿بل هم في شك من ذكري﴾ أي وحيي وما أنزلت ﴿بل لما يذوقوا عذاب﴾ أي لو ذاقوه لما قالوا هذا القول.

به المؤمنون، فقال الوليد بن المغيرة للملأ من قريش وهم الصناديد والأشراف وكانوا خمسة وعشرين رجلاً أكبرهم سنّاً الوليد بن المغيرة، قال لهم: امشوا إلى أبي طالب فأتوا أبا طالب، وقالوا له: أنت شيخنا وكبيرنا وقد علمت ما فعل هؤلاء السفهاء، وإنّا قد أتيناك لتقضي بيننا وبين ابن أخيك، فأرسل أبو طالب إلى النبي ﷺ فدعاه، فقال: يا ابن أخي هؤلاء قومك يسألونك السَّوَاء فلا تمل كل الميل على قومك، فقال رسول الله ﷺ: «ماذا يسألوني»؟ قالوا: ارفض ذكر آلهتنا وندعك وإلٰهك، فقال النبي ﷺ: «أتعطوني كلمة واحدة تملكون بها العرب وتدين لكم بها العجم»؟ فقال أبو جهل: لله أبوك لنعطينّكها وعشراً أمثالها، فقال رسول الله ﷺ: قولوا لا إلٰه إلّا الله، فنفروا من ذلك وقاموا، وقالوا: أجعل الآلهة إلٰهاً واحداً كيف يسع الخلق كلهم إلٰه واحد، ﴿ إن هذا لشـيء عجاب ﴾، أي عجيب، والعجب والعجاب واحد، كقولهم رجل كريم وكرام وكبير وكبار وطويل وطوال وعريض وعراض.

﴿ وانطلق الملأ منهم أن امشُوا واصبروا على آلهتكم ﴾، أي انطلقوا من مجلسهم الذي كانوا فيه عند أبي طالب، ويقول بعضهم لبعض: امشوا واصبروا على آلهتكم أي اثبتوا على عبادة آلهتكم، ﴿ إنّ هذا لشيء يراد ﴾، أي لأمر يراد بنا، وذلك أن عمر لمّا أسلم وحصل للمسلمين قوة لمكانه قالوا: إن هذا الذي نراه من زيادة أصحاب محمد لشيء يُراد بنا، وقيل: يراد بأهل الأرض، وقيل: يراد بمحمد أن يملك علينا.

﴿ ما سمعنا بهذا ﴾، أي بهذا الذي يقوله محمد من التوحيد، ﴿ في الملّة الآخرة ﴾، قال ابن عباس والكلبي ومقاتل: يعنون في النصرانية لأنها آخر المِلَل وهم لا يوحّدون، بل يقولون ثالث ثلاثة. وقال مجاهد وقتادة: يعنون ملّة قريش ودينهم الذي هم عليه، ﴿ إنْ هذا إلّا اختلاق ﴾، كذب وافتعال.

﴿ أأنزل عليه الذكر ﴾، القرآن، ﴿ من بيننا ﴾، وليس بأكبرنا ولا أشرفنا، يقوله أهل مكة، قال الله عزّ وجلّ: ﴿ بل هم في شكٍّ من ذكري ﴾، أي وحيي وما أنزلت، ﴿ بل لمّا يذوقوا عذاب ﴾، أي لم يذوقوا عذابي، ولو ذاقوه لما قالوا هذا القول.

﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ۝٩ أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ ۝١٠ جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ۝١١ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ ۝١٢﴾

﴿أم عندهم خزائن رحمة ربك﴾ يعني مفاتيح النبوة يعطونها من شاؤوا ﴿العزيز﴾ أي في ملكه ﴿الوهاب﴾ الذي وهب النبوة لمحمد ﷺ ﴿أم لهم ملك السموات والأرض وما بينهما﴾ أي ليس لهم ذلك ﴿فليرتقوا في الأسباب﴾ يعني إن ادعوا شيئاً من ذلك فليصعدوا في الأسباب التي توصلهم إلى السماء ليأتوا منها بالوحي إلى من يختارون. وقيل أراد بالأسباب أبواب السماء وطرقها من سماء إلى سماء وهذا أمر توبيخ وتعجيز ﴿جند ما هنالك﴾ أي هؤلاء الذين يقولون هذا القول جند ما هنالك ﴿مهزوم﴾ أي مغلوب ﴿من الأحزاب﴾ يعني أن قريشاً من جملة الأجناد الذين تجمعوا وتحزبوا على الأنبياء بالتكذيب فقهروا وأهلكوا أخبر الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ وهو بمكة أنه سيهزم جند المشركين فجاء تأويلها يوم بدر وهناك إشارة إلى مصارعهم ببدر ثم قال عز وجل معزياً لنبيه ﷺ ﴿كذبت قبلهم قوم نوح وعاد فرعون ذي الأوتاد﴾ قال ابن عباس: ذو البناء المحكم. وقيل ذو الملك الشديد الثابت والعرب تقول هو في عز ثابت الأوتاد يريدون بذلك أنه دائم شديد وقال الأسود بن يعفر:

ولقد غنوا فيها بأنعم عيشة ... في ظل ملك ثابت الأوتاد

وقيل ذو قوة وأصل هذا أن بيوتهم تثبت بالأوتاد، وقيل ذو القوة والبطش. وفي رواية عن ابن عباس رضي الله

﴿ أم عندهم ﴾، أعندهم، ﴿ خزائن رحمة ربك ﴾، يعني نعمة ربك مفاتيح النبوّة يعطونها مَن شاؤوا، ونظيره أهم يقسمون رحمة ربّك أي نبوّة ربّك، ﴿ العزيز الوهّاب ﴾، العزيز في مُلْكه الوهّاب وهب النبوّة لمحمد ﷺ.

﴿ أم لهم مُلْك السموات والأرض وما بينهما ﴾، أي ليس لهم ذلك، ﴿ فليرتقوا في الأسباب ﴾، أي أن ادعوا شيئاً من ذلك فليصعدوا في الأسباب التي توصلهم إلى السماء فليأتوا منها بالوحي إلى مَن يختارون، قال مجاهد وقتادة: أراد بالأسباب أبواب السماء وطرقها من سماء إلى سماء، وكلّ ما يوصلك إلى شيء من باب أو طريق فهو سببه، وهذا أمر توبيخ وتعجيز.

﴿ جندٌ ما هُنَالِكَ ﴾، أي هؤلاء الذين يقولون هذا القول جند ما هنالك، و﴿ ما ﴾ صلة، ﴿ مهزومٌ ﴾، مغلوب، ﴿ من الأحزاب ﴾، أي من جملة الأجناد يعني قريشاً، قال قتادة: أخبر الله تعالى نبيّه ﷺ وهو بمكة أنه سيهزم جند المشركين، وقال سيهزم الجمع ويولّون الدّبر، فجاء تأويلها يوم بدر، وهناك إشارة إلى بدر ومصارعهم من الأحزاب، أي من جملة الأحزاب أي هم من القرون الماضية الذين تحزّبوا وتجمّعوا على الأنبياء بالتكذيب، فقهروا وأهلكوا.

ثم قال معزّياً لنبيّه ﷺ: ﴿ كذّبت قبلهم قوم نوح وعاد وفرعون ذو الأوتـاد ﴾ قال ابن عباس ومحمد بن كعب: ذو البناء المحكم، وقيـل: أراد ذو المُلْك الشديد الثابت، وقال القتيبي: تقول العرب هم في عزٍّ ثابت الأوتاد يريدون أنه دائم شديد، وقال الأسود بن يعفر:

«ولقد غنوا فيها بأنعم عيشة ... في ظل ملك ثابت الأوتاد»

وأصل هذا أن بيوتهم كانت تثبت بالأوتاد، وقال الضحّاك: ذو القوة والبطش. وقال عطية: ذو الجنود والجموع الكثيرة، يعني أنهم كانوا يقوّون أمره، ويشدّون ملكه، كما يقوّي الوتد الشيء، وسُمّيت الأجناد أوتاداً

عنهما والجنود والجموع الكثيرة يعني أنهم يقرون أمره ويشدون ملكه كما يقوي الوتد الشيء وسميت الأجناد أوتاداً لكثرة المضارب التي كانوا يضربونها ويوتدونها في أسفارهم وقيل الأوتاد جمع الوتد وكانت له أوتاد يعذب الناس عليها، فكان إذا غضب على أحد مده مستلقياً بين أربعة أوتاد يشد كل طرف منه إلى وتد فيتركه حتى يموت. وقيل يرسل عليه العقارب والحيات. وقيل كانت له أوتاد وأحبال وملاعب يلعب عليها بين يديه.

وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾ وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴿١٥﴾ وَقَالُوا۟ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿١٦﴾ ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾

﴿**وثمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة أولئك الأحزاب**﴾ أي الذين تحزبوا على الأنبياء فأعلم الله تعالى أن مشركي قريش حزب من أولئك الأحزاب ﴿**إن كل إلا كذب الرسل فحق عقاب**﴾ أي إن أولئك الطوائف والأمم الخالية لما كذبوا أنبياءهم وجب عليهم العذاب فكيف حال هؤلاء الضعفاء المساكين إذا نزل بهم العذاب وفي الآية زجر وتخويف للسامعين ﴿**وما ينظر**﴾ أي ينتظر ﴿**هؤلاء**﴾ أي كفار مكة ﴿**إلا صيحة واحدة ما لها من فواق**﴾ أي رجوع والمعنى أن تلك الصيحة التي هي ميعاد عذابهم إذا جاءت لم ترد ولم تصرف ﴿**وقالوا ربنا عجل لنا قطنا**﴾ أي حظنا ونصيبنا من

لكثرة المضارب التي كانوا يضربونها ويوتدونها في أسفارهم، وهو رواية عطية عن ابن عباس، وقال الكلبي ومقاتل: الأوتاد جمع الوتد وكانت له أوتاد يعذّب الناس عليها، وكان إذا غضب على أحد مدّه مستلقياً بين أربعة أوتاد يشدّ كل يد ورجل منه إلى سارية ويتركه كذلك في الهواء بين السماء والأرض حتى يموت. وقال مجاهد ومقاتل بن حيّان: كان يمدّ الرجل مستلقياً على الأرض ثم يشدّ يديه ورجليه ورأسه على الأرض بالأوتاد. وقال السدي: كان يمدّ الرجل ويشدّه بالأوتاد ويرسل عليه العقارب والحيّات. وقال قتادة وعطاء: كانت له أوتاد وأرسان وملاعب يلعب عليها بين يديه.

﴿ **وثمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة أولئك الأحزاب** ﴾، الذين تحزّبوا على الأنبياء، واعلم أن مشركي قريش حزب من هؤلاء الأحزاب.

﴿ **إن كل** ﴾، ما كل، ﴿ **إلاّ كذب الرّسل فحقّ عقاب** ﴾، وجب عليهم ونزل بهم عذابي.

﴿ **وما ينظر** ﴾، ينتظر، ﴿ **هؤلاء** ﴾، يعني كفّار مكة، ﴿ **إلاّ صيحة واحدة** ﴾، وهي نفخة الصّور، ﴿ **ما لها من فَوَاق** ﴾، قرأ حمزة والكسائي ﴿ **فواق** ﴾ بضم الفاء، وقرأ الآخرون بفتحها وهما لغتان، فالفتح لغة قريش، والضم لغة تميم، قال ابن عباس وقتادة: من رجوع، أي ما يرد ذلك الصوت فيكون له رجوع. وقال مجاهد: نظرة. وقال الضحاك: مثنوية، أي صَرْفٌ وردٌّ، والمعنى: أن تلك الصيحة التي هي ميعاد عذابهم إذا جاءت لم تُرَدّ ولم تُصرَف، وفرّق بعضهم بين الفتح والضم، فقال الفرّاء وأبو عبيدة: الفتح بمعنى الراحة والإفاقة، كالجواب من الإجابة وذهبا بها إلى إفاقة المريض من علّته، والفُواق بالضمّ ما بين الحَلْبَتين وهو أن تحلب الناقة ثم تترك ساعة حتى يجتمع اللبن فما بين الحلبتين فُواق، أي أن العذاب لا يمهلهم بذلك القدر، وقيل: هما أيضاً مستعارتان من الرجوع، لأن اللبن يعود إلى الضرع بين الحلبتين، وإفاقة المريض رجوعه إلى الصحة.

﴿ **وقالوا ربّنا عجّل لنا قِطّنا قبل يوم الحساب** ﴾، قال سعيد بن جبير عن ابن عباس: يعني كتابنا، والقِطّ الصحيفة التي أحصت كل شيء، قال الكلبي: لمّا نزلت في الحاقّة [١٩ و٢٥]: ﴿ فأما مَن أُوتي كتابه بيمينه ﴾،

الجنة التي تقول وقيل نصيبنا من العذاب قاله النضر بن الحارث استعجالاً منه بالعذاب وقال ابن عباس يعني كتابنا والقط الصحيفة التي حصرت كل شيء قيل لما نزلت في الحاقة ﴿**فأما من أوتي كتابه بيمينه وأما من أوتي كتابه بشماله**﴾ قالوا استهزاء عجل لنا كتابنا في الدنيا ﴿**قبل يوم الحساب**﴾ وقيل قطنا أي حسابنا يقال لكتاب الحساب قط وقيل القط كتاب الجوائز، قال الله عز وجل لنبيه ﷺ ﴿**اصبر على ما يقولون**﴾ أي على ما يقول الكفار من التكذيب ﴿**واذكر عبدنا داود ذا الأيد**﴾ قال ابن عباس ذا القوة في العبادة (ق) عن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ «إن أحب الصيام إلى الله تعالى صيام داود كان يصوم يوماً ويفطر يوماً وأحب الصلاة إلى الله صلاة داود كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه» وقيل معناه ذا القوة في الملك ﴿**إنه أواب**﴾ أي رجاع إلى الله عز وجل بالتوبة عن كل ما يكره وقال ابن عباس مطيع لله عز وجل وقيل مسبح بلغة الحبشة.

إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿٢٠﴾

﴿**إنا سخرنا الجبال معه يسبحن**﴾ أي بتسبيحه إذا سبح ﴿**بالعشي والإشراق**﴾ أي غدوة وعشية والإشراق هو أن تشرق الشمس ويتناهى ضوءها وفسره ابن عباس بصلاة الضحى وروى البغوي بإسناد الثعلبي عن ابن عباس في قوله ﴿**بالعشي والإشراق**﴾ قال كنت أمر بهذه الآية لا أدري ما هي حتى حدثتني أم هانىء بنت أبي طالب أن رسول الله ﷺ دخل عليها فدعا بوضوء فتوضأ ثم صلى الضحى فقال «يا أم هانىء إن هذه صلاة الإشراق» قلت والذي أخرجاه في

﴿ وأما مَن أُوتي كتابه بشماله ﴾، قالوا استهزاءً عجّل لنا كتابنا في الدنيا قبل يوم الحساب. وقال سعيد بن جبير: يعنون حظنا ونصيبنا من الجنّة التي تقول: وقال الحسن وقتادة ومجاهد والسدي: يعني عقوبتنا ونصيبنا من العذاب. وقال عطاء: قاله النضر بن الحارث، وهو قوله: اللّهمَّ إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء. وعن مجاهد قال: قطّنا حسابنا، ويقال لكتاب الحساب قِطّ. وقال أبو عبيدة والكسائي: القِطّ الكتاب بالجوائز.

قال الله تعالى: ﴿ **اصبرْ على ما يقولون** ﴾، أي على ما يقوله الكفّار من تكذيبك، ﴿ **واذكر عبدنا داود ذَا الأيدِ** ﴾، قال ابن عباس: أي القوة في العبادة، أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أبو منصور السمعاني أنا أبو جعفر الرياني ثنا حميد بن زنجويه ثنا أبو نعيم ثنا سفيان بن عُيينة عن عمرو بن دينار عن عمرو بن أوس عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ أحبَّ الصيام إلى الله صيام داود، وأحبَّ الصلاة إلى الله صلاة داود، كان يصوم يوماً ويفطر يوماً، وكان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه، وينام سدسه»، وقيل: ذو القوة في المُلْك. ﴿ **إنه أوّاب** ﴾، رجّاع إلى الله عزّ وجلّ بالتوبة عن كل ما يكره، قال ابن عباس: مطيع. قال سعيد بن جبير: مسبّح بلغة الحبش.

﴿ **إنّا سخّرنا الجبال معه** ﴾، كما قال: ﴿ وسخّرنا مع داود الجبال ﴾ [الأنبياء: ٧٩]. ﴿ **يسبّحن** ﴾، بتسبيحه، ﴿ **بالعشيّ والإشراق** ﴾، قال الكلبي: غدوة وعشيّة والإشراق هو أن تشرق الشمس ويتناهى ضوءها. وفسّره ابن عباس: بصلاة الضحى. أخبرنا أبو سعيد الشريحي أنا أبو إسحاق الثعلبي أخبرني ابن فنجويه ثنا ابن أبي شيبة ثنا الحسن بن حيوة ثنا أبو أُميّة محمد بن إبراهيم ثنا الحجّاج بن نصير أنا أبو بكر الهذلي عن عطاء بن أبي رباح عن ابن عباس في قوله: ﴿ **بالعشيّ والإشراق** ﴾، قال: كنت أمرّ بهذه الآية ولا أدري ما هي حتى حدّثتني أم هانىء بنت أبي طالب أن رسول الله ﷺ دخل عليها فدعا بوضوء فتوضأ ثم صلّى الضحى، فقال: «يا أم هانىء هذه صلاة الإشراق».

الصحيحين من حديث أم هانيء في صلاة الضحى، قالت أم هانيء: ذهبت إلى رسول الله ﷺ عام الفتح فوجدته يغتسل وفاطمة بنته تستره بثوب فسلمت عليه فقال من هذه قلت أم هانيء بنت أبي طالب فقال مرحباً يا أم هانيء فلما فرغ من غسله قام وصلى ثمان ركعات ملتحفاً بثوب قالت أم هانيء وذلك ضحى» ولهما عن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال «ما حدثنا أحد أنه رأى النبي ﷺ يصلي الضحى غير أم هانيء فإنها قالت إن النبي ﷺ دخل بيتها يوم فتح مكة فاغتسل وصلى ثمان ركعات فلم أر صلاة قط أخف منها غير أنه يتم الركوع والسجود».

قوله تعالى: ﴿والطير﴾ أي وسخرنا له الطير ﴿محشورة﴾ أي مجموعة إليه تسبح معه ﴿كل له أواب﴾ أي رجاع إلى طاعته مطيع له بالتسبيح معه ﴿وشددنا ملكه﴾ أي قويناه بالحرس والجنود، قال ابن عباس كان أشد ملوك الأرض سلطاناً كان يحرس محراباً كل ليلة ستة وثلاثون ألف رجل. وروي عن ابن عباس أن رجلاً من بني إسرائيل ادعى على رجل من عظمائهم، عند داود عليه الصلاة والسلام فقال هذا غصبني بقرة فسأله داود فجحده فسأل الآخر البينة فلم يكن له بينة فقال لهما داود قوما حتى أنظر في أمركما فأوحى الله إلى داود في منامه أن اقتل المدعى عليه فقال هذه رؤيا ولست أعجل عليه حتى أتثبت فأوحي إليه مرة أخرى فلم يفعل فأوحي إليه الثالثة أن يقتله أو تأتيه العقوبة فأرسل إليه داود فقال إن الله عز وجل أوحى إليّ أن أقتلك فقال تقتلني بغير بينة فقال داود نعم والله لأنفذن أمر الله فيك فلما عرف الرجل أنه قاتله، قال لا تعجل حتى أخبرك إني والله ما أخذت بهذا الذنب ولكني كنت اغتلت والد هذا فقتلته فبذلك أوخذت فأمر به داود فقتل فاشتدت هيبة بني إسرائيل عند ذلك لداود واشتد به ملكه فذلك قوله تعالى ﴿وشددنا ملكه وآتيناه الحكمة﴾ يعني النبوة والإصابة في الأمور ﴿وفصل الخطاب﴾ قال ابن عباس يعني بيان الكلام وقال ابن مسعود علم الحكم والتبصر بالقضاء وقال علي بن أبي طالب هو أن البينة على المدعي واليمين على من أنكر لأن كلام

قوله عزّ وجلّ: ﴿ والطير ﴾، أي وسخّرنا له الطير، ﴿ محشورة ﴾، مجموعة إليه تسبّح معه، ﴿ كلٌّ له أوّاب ﴾، مطيع رجّاع إلى طاعته بالتسبيح، وقيل: أوّاب معه أي مسبّح.

﴿ وشددنا ملكه ﴾، أي قوّيناه بالحرس والجنود، قال ابن عباس: كان أشدّ ملوك الأرض سلطاناً كان يحرس محرابه كل ليلة ستّة وثلاثون ألف رجل. أخبرنا أبو سعيد الشريحي أنا أبو إسحاق الثعلبي أنا عبد الله بن حامد أنا محمد بن خالد بن الحسن ثنا داود بن سليمان ثنا محمد بن حميد ثنا محمد بن الفضل ثنا داود بن أبي الفرات عن علي بن أحمد عن عكرمة عن ابن عباس: أن رجلاً من بني إسرائيل استعدى على رجل من عظمائهم عند داود عليه السلام أن هذا غصبني بقراً، فسأله داود فجحد، فقال للآخر: البيّنة؟ فلم يكن له بيّنة، فقال لهما داود: قُومَا حتى أنظر في أمركما، فأوحى الله إلى داود في منامه أن يقتل الذي استعدى عليه، فقال: هذه رؤيا ولست أعجل حتى أتثبت، فأوحى إليه مرة أخرى فلم يفعل، فأوحى الله إليه الثالثة أن يقتله أو تأتيه العقوبة، فأرسل داود إليه فقال: إن الله أوحى إليّ أن أقتلك، فقال: تقتلني بغير بيّنة؟ قال داود: نعم والله لأنفذنّ أمر الله فيك، فلما عرف الرجل أنه قاتله، قال له: لا تعجل حتى أُخبرك، إني والله ما أخذت بهذا الذنب ولكني كنت اغتلت والد هذا فقتلته، فلذلك أُخذتُ، فأمر به داود فقتل، فاشتدّتْ هيبة بني إسرائيل عند ذلك لداود، واشتدّ به مُلكه فذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿ وشددنا ملكه ﴾، ﴿ وآتيناه الحكمة ﴾، يعني النبوّة والإصابة في الأمور، ﴿ وفَصْلَ الخطاب ﴾، قال ابن عباس: بيان الكلام، وقال ابن مسعود والحسن والكلبي ومقاتل: علم الحكم والتبصّر في القضاء. وقال عليّ بن أبي طالب: هو أن البيّنة على المدّعي واليمين على مَن أنكر، لأن كلام الخصوم ينقطع وينفصل به. ويُروى ذلك عن أُبيّ بن كعب قال: فصل الخطاب الشهود والأيمان. وهو قول مجاهد وعطاء بن أبي رباح. ورُوِيَ عن الشعبي:

الخصوم ينقطع وينفصل به. وقال أبيّ بن كعب فصل الخطاب الشهود والأيمان وقيل إن فصل الخطاب هو قول الإنسان بعد حمد الله تعالى والثناء عليه أما بعد إذا أراد الشروع في كلام آخر وأول من قاله داود عليه الصلاة والسلام.

﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿وهل آتاك﴾ أي وقد أتاك يا محمد ﴿نبأ الخصم﴾ أي خبر الخصم فاستمع له نقصصه عليك. وقيل ظاهره الاستفهام ومعناه الدلالة على أنه من الأخبار العجيبة والتشويق إلى استماع كلام الخصماء والخصم يقع على الواحد والجمع ﴿إذ تسوروا المحراب﴾ أي صعدوا وعلوا المحراب أي بالبيت الذي كان يدخل فيه داود يشتغل بالطاعة والعبادة والمعنى أنهم أتوا المحراب من سوره وهو أعلاه، وفي الآية قصة امتحان داود عليه الصلاة والسلام. واختلف العلماء بأخبار الأنبياء في سبب ذلك وسأذكر ما قاله المفسرون ثم أتبعه بفصل فيه ذكر نزاهة داود عليه الصلاة والسلام عما لا يليق بمنصبه ﷺ لأن منصب النبوة أشرف المناصب وأعلاها فلا ينسب إليها إلا ما يليق بها؛ وأما ما قاله المفسرون[1] إن داود عليه الصلاة والسلام تمنى يوماً من الأيام منزلة آبائه إبراهيم وإسحاق ويعقوب وذلك أنه كان قد قسم الدهر ثلاثة أيام يوم يقضي فيه بين الناس، ويوم يخلو فيه لعبادة ربه عز وجل ويوم لنسائه وأشغاله. وكان يجد فيما يقرأ من الكتب فضل إبراهيم وإسحاق ويعقوب، فقال يا رب أرى الخير كله قد ذهب به آبائي الذين كانوا قبلي، فأوحى الله إليه أنهم ابتلوا ببلايا لم تبتل بها فصبروا عليها ابتلي إبراهيم عليه الصلاة والسلام بنمرود وذبح ابنه، وابتلي إسحاق بالذبح وبذهاب بصره وابتلي يعقوب بالحزن على يوسف. فقال داود عليه الصلاة والسلام رب لو

أن فصل الخطاب هو قول الإنسان بعد حمد الله والثناء عليه أما بعد إذا أراد الشروع في كلام آخر، وأول مَن قاله داود عليه السلام.

قوله عزّ وجلّ: ﴿وهل أتاك نبأ الخصم إذْ تسوّروا المِحراب﴾، هذه الآية في امتحان داود عليه السلام، واختلف العلماء بأخبار الأنبياء عليهم السلام في سببه، فقال قوم: كان سبب ذلك أنه عليه السلام تمنَّى يوماً من الأيام منزلة آبائه إبراهيم وإسحاق ويعقوب، وسأل ربُّه أن يمتحنه كما امتحنهم ويعطيه من الفضل مثل ما أعطاهم. فروى السدي والكلبي ومقاتل: عن أشياخهم دخل حديث بعضهم في بعض، قالوا: كان داود قد قسم الدهر ثلاثة أيام يوماً يقضي فيه بين الناس، ويوماً يخلو فيه لعبادة ربّه، ويوماً لنسائه وأشغاله، وكان يجد فيما يقرأ من الكتب فضل إبراهيم وإسحاق ويعقوب، فقال: يا ربّ أرى الخير كله قد ذهب به آبائي الذين كانوا قبلي، فأوحى الله إليه أنهم ابتلوا ببلايا لم تبتل بها فصبروا عليها، ابتُلي إبراهيم بنمرود وبذبح ابنه، وابتُلي إسحاق بالذبح وبذهاب بصره، وابتُلي يعقوب بالحزن على يوسف، فقال: ربِّ لو ابتليتني بمثل ما ابتليتهم صبرت أيضاً، فأوحى الله إليه أنك مبتلى في شهر كذا وفي يوم كذا فاحترس، فلما كان ذلك اليوم الذي وعده الله دخل داود مِحرابه وأغلق بابه، وجعل يصلّي ويقرأ الزبور، فبينا هو كذلك إذْ جاءه الشيطان قد تمثّل في صورة حمامة من ذهب فيها من كل لون حسن. وقيل: كان جناحاً لها من الدرّ والزبرجد فوقعت بين رجليه فأعجبه حُسْنها، فمدّ يده ليأخذها ويُريها بني إسرائيل فينظروا إلى قدرة الله، فلما قصد أخذها طارت غير بعيد من غير أن تؤيسه من نفسها فامتدّ إليها ليأخذها فتنحّت فتبعها فطارت حتى وقعت في كوّة فذهب ليأخذها فطارت من الكوّة فنظر داود أين تقع فيبعث من يصيدها،

---

(١) قوله وأما ما قاله المفسرون الخ لم يذكر جوابه وقد ذكره صاحب الكشاف فقال بعد ذكر القصة فهذا ونحوه ما يقبح أن يحدث به عن بعض المتسمين بالصلاح من أبناء المسلمين فضلاً عن بعض أعلام الأنبياء اهـ.

ابتليتني بمثل ما ابتليتهم صبرت أيضاً فأوحى الله عز وجلّ إنك مبتلى في شهر كذا في يوم كذا فاحترس. فلما كان اليوم الذي وعده الله به دخل داود محرابه وأغلق بابه وجعل يصلي ويقرأ الزبور فبينما هو كذلك إذ جاءه الشيطان وقد تمثل له في صورة حمامة من ذهب فيها من كل لون حسن وجناحاها من الدر والزبرجد فوقعت بين رجليه فأعجبه حسنها فمد يده ليأخذها ويريها بني إسرائيل لينظروا إلى قدرة الله تعالى فلما قصد أخذها طارت غير بعيد من غير أن تؤيسه من نفسها فامتد إليها ليأخذها فتنحت فتبعها فطارت حتى وقعت في كوة فذهب ليأخذها فطارت من الكوة فنظر داود أين تقع فيبعث من يصيدها له، فأبصر امرأة في بستان على شاطىء بركة تغتسل وقيل رآها تغتسل على سطح لها فرآها من أجمل النساء خلقاً فعجب داود من حسنها وحانت منها التفاتة فأبصرت ظله فنقضت شعرها فغطى بدنها فزاده ذلك إعجاباً بها فسأل عنها فقيل هي تشايع بنت شايع امرأة أوريا بن حنانا وزوجها في غزاة بالبلقاء مع أيوب بن صوريا ابن أخت داود فكتب داود إلى ابن أخته أن أبعث أوريا إلى موضع كذا وقدمه قبل التابوت وكان من قدم على التابوت لا يحل له أن يرجع وراءه حتى يفتح الله على يديه أو يستشهد فبعثه ففتح له فكتب إلى داود بذلك فكتب إليه أن ابعثه إلى عدو كذا وكذا أشد منه بأساً فبعثه ففتح له فكتب إلى داود بذلك فكتب إليه أن ابعثه إلى عدو كذا وكذا أشد منه بأساً فبعثه فقتل في المرة الثالثة فلما انقضت عدة المرأة تزوجها داود فهي أم سليمان عليه الصلاة والسلام. وقيل إن داود أحب أن يقتل أوريا فيتزوج امرأته فهذا كان ذنبه. وقال ابن مسعود: كان ذنب داود أنه التمس من الرجل أن ينزل له عن امرأته. وقيل كان ذلك مباحاً لهم غير أن الله عز وجل لم يرض لداود ذلك لأنه رغبة في الدنيا وازدياد من النساء وقد أغناه الله تعالى عنها بما أعطاه من غيرها. وقيل في سبب امتحان داود أنه كان جزأ الدهر أجزاء يوماً لنسائه ويوماً للعبادة ويوماً للحكم بين بني إسرائيل ويوماً يذاكرهم ويذاكرونه ويبكيهم ويبكونه فلما كان يوم بني إسرائيل ذكروا فقالوا هل يأتي على الإنسان يوم لا يصيب فيه ذنباً، فأضمر داود في نفسه أنه سيطيق ذلك وقيل إنهم ذكروا فتنة النساء

فأبصر امرأة في بستان على شطّ بركة لها تغتسل. هذا قول الكلبي وقال السدّي: رآها تغتسل على سطح لها فرأى امرأة من أجمل النساء خلقاً، فعجب داود من حُسنها وحانت منها التفاتة فأبصرت ظلّه فنقضت شعرها فغطّت بدنها، فزاده ذلك إعجاباً بها فسأل عنها، فقيل هي تشايع بنت شايع امرأة أُوريا بن حنانا، وزوجها في غزاة بالبلقاء مع أيوب بن صوريا بن أُخت داود. وذكر بعضهم أنه أحبّ أن يقتل أوريا ويتزوج امرأته، فكان ذنبه هذا القدر وذكر بعضهم أنه كتب داود إلى ابن أُخته أيوب أن ابعث أوريا إلى موضع كذا، وقدّمه قبل التابوت وكان مَن قُدّم على التابوت لا يحلّ له أن يرجع وراءه حتى يفتح الله على يديه أو يستشهد، فبعثه وقدّمه ففتح له، فكتب إلى داود بذلك فكتب إليه أيضاً أن ابعثه إلى عدوّ كذا وكذا، فبعثه ففتح له فكتب إلى داود بذلك فكتب إليه أيضاً أن ابعثه إلى عدوّ كذا وكذا أشدّ منه بأساً، فبعثه فقتل في المرة الثالثة، فلما انقضت عدّة المرأة تزوجها داود، فهي أُم سليمان عليهما السلام. ورُوِيَ عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: كان ذلك ذنب داود أنه التمس من الرجل أن ينزل له عن امرأته. وقال أهل التفسير: كان ذلك مُباحاً لهم غير أن الله تعالى لم يرضَ له ذلكَ لأنه كان ذلك رغبة في الدنيا، وازدياداً للنساء، وقد أغناه الله عنها بما أعطاه من غيرها. ورُوِيَ عن الحسن في سبب امتحان داود عليه السلام: أنه كان قد جزّأ الدهر أجزاءً يوماً لنسائه ويوماً للعبادة ويوماً للقضاء بين بني إسرائيل ويوماً لبني إسرائيل يُذاكرهم ويُذاكرونه ويبكيهم ويبكونه، فلما كان يوم بني إسرائيل ذكروه فقالوا: هل يأتي على الإنسان يوم لا يصيب فيه ذنباً، فأضمر داود في نفسه أنه سيطيق ذلك. وقيل: إنهم ذكروا فتنة النساء فأضمر داود في نفسه أنه إن ابتُلِيَ اعتصم، فلما كان يوم عبادته أغلق أبوابه وأمر أن لا يدخل عليه أحد، وأكبّ على التوراة فبينما هو يقرأ إذْ دخلت عليه حمامة من ذهب كما ذكرنا، قال: وكان قد بعث زوجها على بعض جيوشه فكتب إليه أن يسير إلى مكان كذا وكذا إذا سار

فأضمر داود في نفسه أنه إن ابتلى اعتصم فلما كان يوم عبادته أغلق عليه الأبواب وأمر أن لا يدخل عليه أحد وأكبَّ على قراءة التوراة فبينما هو يقرأ إذ دخلت حمامة وذكر نحو ما تقدم فلما دخل بالمرأة لم يلبث إلا يسيراً حتى بعث الله عز وجلّ الملكين إليه. وقيل إن داود عليه السلام ما زال يجتهد في العبادة حتى برز له حافظاه من الملائكة فكانوا يصلون معه فلما استأنس منهم قال أخبروني بأي شيء أنتم موكلون، قالوا نكتب صالح أعمالك ونوافقك ونصرف عنك السوء فقال في نفسه: ليت شعري كيف أكون لو خلوني ونفسي وتمنى ذلك ليعلم كيف يكون فأوحى الله تعالى إلى الملكين أن يعتزلاه ليعلم أنه لا غنى له عن الله تعالى فلما فقدهم جد واجتهد في العبادة إلى أن ظن أنه قد غلب نفسه فأراد الله تعالى أن يعرفه ضعفه فأرسل طائراً من طيور الجنة وذكر نحو ما تقدم. وقيل إن داود قال لبني إسرائيل لأعدلن بينكم ولم يستثن فابتلى وقيل إنه أعجبه عمله فابتلى فبعث الله إليه ملكين في صورة رجلين وذلك في يوم عبادته فطلبا أن يدخلا عليه فمنعهما الحرس فتسوروا عليه المحراب فما شعر إلا وهما بين يديه جالسان وهو يصلي يقال كانا جبريل وميكائيل فذلك قوله عز وجل: ﴿**وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب إذ دخلوا على داود ففزع منهم**﴾ أي خاف منهما حين هجما عليه في محرابه بغير إذنه فقال لهما من أدخلكما عليّ ﴿**قالوا لا تخف خصمان**﴾ أي نحن خصمان ﴿**بغى بعضنا على بعض**﴾ أي تعدى وخرج عن الحد جئناك لتقضي بيننا.

فإن قلت إذ جعلتهما ملكين مكيف يتصور البغي منهما والملائكة لا يبغي بعضهم على بعض؟.

قلت هذا من معاريض الكلام لا على تحقيق البغي من والمعنى رأيت خصمين بغى أحدهما على الآخر ﴿**فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط**﴾ أي لا تجر في حكمك ﴿**واهدنا إلى سواء الصراط**﴾ أي أرشدنا إلى طريق الحق والصواب فقال لهما داود تكلما فقال أحدهما.

﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسۡعٌ وَتِسۡعُونَ نَعۡجَةً وَلِىَ نَعۡجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكۡفِلۡنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلۡخِطَابِ ۝٢٣﴾

﴿**إن هذا أخي**﴾ على ديني وطريقتي لا من جهة النسب ﴿**له تسع وتسعون نعجة**﴾ يعني امرأة ﴿**ولي نعجة**

إليه قتل، ففعل فأُصيب فتزوّج امرأته، قالوا: فلما دخل داود بامرأة أُوريا لم يلبث إلّا يسيراً حتى بعث الله إليه ملكيـن في صورة رجلين في يوم عبادته، فطلبا أن يدخلا عليه، فمنعهما الحرس فتسوّروا المِحرَاب عليه، فما شعر وهو يصلّي إلّا وهما بين يديه جالسين، يقال: كانا جبريل وميكائيل، فذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿ **وهل أتاك نبأ الخصم** ﴾، خبر الخصم، ﴿ **إذْ تسوّروا المِحراب** ﴾، صعدوا وعلوا، يقـال: تسوّرت الحائط والسّور إذا علوته، وإنما جمع الفعل وهما اثنان لأن الخصم اسم يصلح للواحد والاثنين والجمع والمذكّر والمؤنّث، ومعنى الجمع في الاثنين موجود، لأن معنى الجمع ضمّ شيء إلى شيء هذا كما قال الله تعالى: ﴿ فقد صغت قلوبكما ﴾ [التحريم: ٤].

﴿ **إذْ دخلوا على داود ففزع منهم** ﴾، خاف منهما حين هجما عليه في محرابه بغير إذنه، فقال: ما أدخلكما عليّ، ﴿ **قالوا لا تخف خصمان** ﴾، أي نحن خصمان ﴿ **بغى بعضنا على بعض** ﴾ جئناك لتقضي بيننا، فإن قيل: كيف قال: ﴿ **بغى بعضنا على بعض** ﴾ وهما ملكان لا يبغيان؟ قيل: معناه رأيت خصمين بغى أحدهما على الآخر، وهذا من معاريض الكلام لا على تحقيق البغي من أحدهما. ﴿ **فاحكم بيننا بالحق ولا تشططْ** ﴾، أي لا تَجُرْ، يقال: شطّ الرجل شططاً وأشطّ إشطاطاً إذا جار في حكمه، ومعناه مجاوزة الحدّ، وأصل الكلمة من شطّت الدار وأشطّت إذا بعُدت. ﴿ **واهدنا إلى سواء الصراط** ﴾، أرشدنا إلى طريق الصواب والعدل، فقال داود لهما: تكلّما.

فقال أحدهما: ﴿ **إن هذا أخي** ﴾، أي على ديني وطريقتي، ﴿ **لع تسع وتسعون نعجة** ﴾، يعني امرأة،

واحدة﴾ أي امرأة واحدة والعرب تكنى بالنعجة عن المرأة وهذا على سبيل التعريض للتنبيه والتفهيم لأنه لم يكن هناك نعاج ولا بغي ﴿**فقال أكفلنيها**﴾ قال ابن عباس أي أعطنيها وقيل معناه أنزل عنها وضمها إلي واجعلني كافلها والمعنى طلقها لأتزوجها ﴿**وعزني في الخطاب**﴾ يعني غلبني وقهرني في القول لأنه أفصح مني في الكلام وإن حارب كان أبطش مني لقوة ملكه والمعنى أن الغلبة كانت له عليّ لضعفي في يده وإن كان الحق وهذا كله تمثيل لأمر داود مع أوريا زوج المرأة التي تزوجها داود حيث كان لداود تسع وتسعون امرأة ولأوريا امرأة واحدة فضمها داود إلى نسائه.

قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾

﴿**قال**﴾ داود ﴿**لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه**﴾ أي بضمها إلى نعاجه. فإن قلت كيف قال داود لقد ظلمك ولم يكن سمع قول الآخر قلت معناه إن كان الأمر كما تقول فقد ظلمك وقيل إنما قال ذلك بعد اعتراف صاحبه بما يقول ﴿**وإن كثيراً من الخلطاء**﴾ أي الشركاء ﴿**ليبغي بعضهم على بعض**﴾ أي يظلم بعضهم بعضاً ﴿**إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات**﴾ فإنهم لا يظلمون أحداً ﴿**وقيل ما هم**﴾ أي هم قليل وما صلة.

والمعنى أن الصالحين الذين لا يظلمون قليل فلما قضى داود بينهما نظر أحدهما إلى صاحبه وضحك وصعد إلى السماء فعلم داود أن الله تعالى ابتلاه فذلك قوله تعالى: ﴿**وظن داود**﴾ أي أيقن وعلم ﴿**أنما فتناه**﴾ أي ابتليناه وامتحناه وقال ابن عباس: إن داود لما دخل عليه الملكان فقضى على نفسه تحولا في صورتهما وعرجا وهما يقولان قضى الرجل على نفسه فعلم داود أنه إنما عنى به. وروى البغوي بإسناد الثعلبي عن أنس بن مالك قال سمعت رسول

﴿ **ولي نعجة واحدة** ﴾، أي امرأة واحدة، والعرب تكنّي بالنعجة عن المرأة، قال الحسين بن الفضل: هذا تعريض للتنبيه والتفهيم لأنه لم يكن هناك نِعاج ولا بغي فهو كقولهم: ضرب زيد عمراً أو اشترى بكرٌ داراً، ولا ضرب هنالك ولا شراء، ﴿ **فقال اكفلنيها** ﴾، قال ابن عباس: أعطنيها. قال مجاهد: انزل لي عنها. وحقيقته ضمّها إليّ فاجعلني كافلها، وهو الذي يعولها وينفق عليها، والمعنى: طلّقها لأتزوجها، ﴿ **وعزّني** ﴾، وغلبني، ﴿ **في الخطاب** ﴾، أي في القول. وقيل: قهرني لقوة مُلْكه. قال الضحاك: يقول إن تكلم كان أفصح منّي وإن حارب كان أبطش منّي، وحقيقة المعنى: أن الغلبة كانت له لضعفي في يده، وإن كان الحق معي وهذا كله تمثيل لأمر داود مع أوريا زوج المرأة التي تزوّجها داود حيث كان لداود تسع وتسعون امرأة ولأوريا امرأة واحدة فضمّها إلى نسائه.

﴿ **قال** ﴾، أي قال داود، ﴿ **لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه** ﴾، أي بسؤاله نعجتك ليضمّها إلى نعاجه، فإن قيل كيف قال لقد ظلمك ولم يكن سمع قول صاحبه؟ قيل معناه إن كان الأمر كما تقول فقد ظلمك، وقيل: قال ذلك بعد اعتراف صاحبه بما يقول. ﴿ **وإن كثيراً من الخلطاء** ﴾، الشركاء، ﴿ **ليبغي بعضهُم على بعض** ﴾، يظلم بعضهم بعضاً، ﴿ **إلاّ الذين آمنوا وعملو الصالحات** ﴾، فإنهم لا يظلمون أحداً، ﴿ **وقليلٌ ما هم** ﴾، أي قليل هم و﴿ **ما** ﴾ صلة يعني الصالحين الذين لا يظلمون قليل، قالوا: فلما قضى بينهما داود نظر أحدهما إلى صاحبه فضحك وصعد إلى السماء، فعلم داود أن الله تعالى ابتلاه، وذلك قوله: ﴿ **وظنّ داود** ﴾، أيقن وعلم، ﴿ **أنما فتنّاه** ﴾، إنما ابتليناه، وقال السدي بإسناده: أن أحدهما لما قال: ﴿ **إن هذا أخي** ﴾ الآية قال داود للآخر: ما تقول؟ فقال: إن لي تسعاً وتسعين نعجة ولأخي نعجة واحدة وأنا أُريد أن آخذها منه فأُكمل نعاجي مائة، وهو كاره، قال: إذاً لا ندعك وإن رمت ذلك ضربت منك هذا وهذا، يعني طرف الأنف وأصله والجبهة، فقال: يا داود

الله ﷺ يقول إن داود النبي ﷺ حين نظر إلى المرأة فهم ففظع على بني إسرائيل أوصى صاحب البعث فقال إذا حضر العدو فقرب فلاناً بين يدي التابوت وكان التابوت في ذلك الزمان يستنصر به ومن قدم بين يدي التابوت لم يرجع حتى يقتل أو يهزم عنه الجيش فقتل زوج المرأة ونزل الملكان يقصان عليه قصته ففطن داود فسجد فمكث أربعين ليلة ساجداً حتى نبت الزرع من دموعه على رأسه وأكلت الأرض من جبهته وهو يقول في سجوده: رب زل داود زلة أبعد ما بين المشرق والمغرب رب إن لم ترحم ضعف داود ولم تغفر ذنبه جعلت ذنبه حديثاً في الخلق من بعده. فجاء جبريل من بعد أربعين ليلة فقال يا داود إن الله تعالى قد غفر لك الهم الذي هممت به فقال داود: إن الرب قادر على أن يغفر لي الهم الذي هممت به وقد عرفت أن الله عدل لا يميل فكيف بفلان إذا جاء يوم القيامة فقال رب دمي الذي عند داود، فقال جبريل ما سألت ربك عن ذلك وإن شئت لأفعلن قال نعم فعرج جبريل وسجد داود ما شاء الله تعالى ثم نزل جبريل عليه الصلاة والسلام فقال سألت الله يا داود عن الذي أرسلتني فيه فقال قل لداود إن الله تعالى يجمعكما يوم القيامة فيقول له هب لي دمك الذي عند داود فيقول: هو لك يا رب فيقول الله تعالى فإن لك في الجنة ما شئت وما اشتهيت عوضاً عن دمك فهذه أقاويل السلف من أهل التفسير في قصة امتحان داود.

(فصل في تنزيه داود عليه الصلاة والسلام عما لا يليق به وما ينسب إليه)

اعلم أن من خصه الله تعالى بنبوته وأكرمه برسالته وشرفه على كثير من خلقه وائتمنه على وحيه وجعله واسطة بينه وبين خلقه لا يليق أن ينسب إليه ما لو نسب إلى آحاد الناس لاستنكف أن يحدث به عنه فكيف يجوز أن ينسب إلى بعض أعلام الأنبياء والصفوة الأمناء ذلك. روى سعيد بن المسيب والحارث الأعور عن علي بن أبي طالب رضي الله

أنت أحقّ بذلك حيث لم يكن لأوريا إلاّ امرأة واحدة، ولك تسع وتسعون امرأة، فلم تزل تعرضه للقتل حتى قتل وتزوّجت امرأته، فنظر داود فلم يرَ أحداً فعرف ما وقع فيه، وقال القائلون بتنزيه الأنبياء في هذه القصة أن ذنب داود إنما كان أنه تمنى أن تكون امرأة أُوريا حلالاً له، فاتفق غزو أُوريا وتقدمه في الحرب وهلاكه، فلما بلغ قتله داود لم يجزع عليه كما جزع على غيره من جنده إذا هلك، ثم تزوّج امرأته فعاتبه الله على ذلك لأن ذنوب الأنبياء وإن صغرت فهي عظيمة عند الله. وقيل: كان ذنب داود أن أُوريا كان خطب تلك المرأة ووطّن نفسه عليها، فلما غاب في غزاته خطبها داود فتزوّجت منه لجلالته، فاغتمّ لذلك أُوريا فعاتبه الله على ذلك حيث لم يترك هذه الواحدة لخاطبها وعنده تسع وتسعون امرأة. أخبرنا أبو سعيد الشريحي أنا أبو إسحاق الثعلبي قال: ومما يصدق ما ذكرنا عن المتقدمين ما أخبرني عقيل بن محمد بن أحمد الفقيه أن المعافى بن زكريا القاضي ببغداد أخبره عن محمد بن جرير الطبري، قال: حدّثني يونس بن عبد الأعلى الصيرفي أنا ابن وهب أخبرني ابن لهيعة عن أبي صخر عن يزيد الرقاشي عن أنس بن مالك رضي الله عنه سمعه يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن داود النبي حين نظر إلى المرأة فهمّ أن يجمع على بني إسرائيل وأوصى صاحب البعث، فقال إذا حضر العدو فقرّبْ فلاناً بين يدي التابوت، وكان التابوت في ذلك الزمان يستنصر به وبمَن قدّم بين يدي التابوت، فلم يرجع حتى يقتل أو ينهزم عنه الجيش فقتل زوج المرأة، ونزل الملكان يقصّان عليه قصته ففطن داود فسجد ومكث أربعين ليلة ساجداً حتى نبت الزرع من دموعه على رأسه وأكلت الأرض من جبينه. وهو يقول في سجوده: ربِّ زلّ داود زلّة أبعد مما بين المشرق والمغرب، ربِّ إن لم ترحم ضعف داود ولم تغفر ذنبه جعلت ذنبه حديثاً في الخلق من بعده، فجاءه جبريل من بعد أربعين ليلة فقال: يا داود إن الله قد غفر لك الهمّ الذي هممت به، فقال داود: إن الربّ قادر على أن يغفر لي الهمّ الذي هممت به، وقد عرفت أن الله عدل لا يميل فكيف بفلان إذا جاء يوم القيامة، فقال: يا ربّ دمي الذي عند داود، فقال جبريل: ما سألت ربّك عن ذلك وإن شئت لأفعلنّ، قال: نعم فعرج جبريل وسجد داود، فمكث ما شاء

عنه أنه قال من حدثكم بحديث داود على ما يرويه القصاص جلدته مائة وستين جلدة وهو حد الفرية على الأنبياء. وقال القاضي عياض: لا يجوز أن يلتفت إلى ما سطره الأخباريون من أهل الكتاب الذين بدلوا وغيروا ونقله بعض المفسرين ولم ينص الله تعالى على شيء من ذلك ولا ورد في حديث صحيح والذي نص عليه الله في قصة داود وظن داود أن ما فتناه وليس في قصة داود وأوريا خبر ثابت ولا يظن بنبي محبة قتل مسلم وهذا هو الذي ينبغي أن يعول عليه من أمر داود. قال الإمام فخر الدين حاصل القصة يرجع إلى السعي في قتل رجل مسلم بغير حق وإلى الطمع في زوجته وكلاهما منكر عظيم فلا يليق بعاقل أن يظن بداود عليه الصلاة والسلام. هذا وقال غيره إن الله تعالى أثنى على داود قبل هذه القصة وبعدها وذلك يدل على استحالة ما نقلوه من القصة فكيف يتوهم عاقل أن يقع بين مدحين ذم ولو جرى ذلك من بعض الناس في كلامه لاستهجنه العقلاء وقالوا أنت في مدح شخص كيف تجري ذمه أثناء مدحك والله تعالى منزه عن مثل هذا في كلامه القديم.

فإن قلت في الآية ما يدل على صدور الذنب منه وهو قوله تعالى وظن داود إنما فتناه وقوله فاستغفر ربه وقوله وأناب وقوله فغفرنا له ذلك.

قلت ليس في هذه الألفاظ شيء مما يدل على ذلك وذلك لأن مقام النبوة أشرف المقامات وأعلاها فيطالبون بأكمل الأخلاق والأوصاف وأسناها فإذا نزلوا من ذلك إلى طبع البشرية عاتبهم الله تعالى على ذلك وغفره لهم كما قيل. **﴿حسنات الأبرار سيئات المقربين﴾**.

فإن قلت فعلى هذا القول والاحتمال فما معنى الامتحان في الآية؟

الله ثم نزل، فقال: سألت الله يا داود عن الذي أرسلتني فيه، فقال: قل لداود إن الله يجمعكما يوم القيامة، فيقول له هب لي دمك الذي عند داود، فيقول: هو لك يا ربِّ، فيقول: فإن لك في الجنة ما شئت وما اشتهيت عوضاً عنه. ورُوِيَ عن ابن عباس وعن كعب الأحبار ووهب بن منبّه قالوا جميعاً: إن داود لمّا دخل عليه الملكان فقضى على نفسه فتحوّلا عن صورتيهما فعرجا وهما يقولان قضى الرجل على نفسه، وعلم داود أنه إنما عني به فخرّ ساجداً أربعين يوماً لا يرفع رأسه إلّا لحاجة ولوقت صلاة مكتوبة، ثم يعود ساجداً تمام أربعين يوماً لا يأكل ولا يشرب، وهو يبكي حتى نبت العشب حول رأسه وهو ينادي ربّه عزّ وجلّ، ويسأله التوبة، وكان من دعائه في سجوده: سبحان الملك الأعظم الذي يبتلي الخلق بما يشاء، سبحان خالق النور، سبحان الحائل بين القلوب، سبحان خالق النور، إلٓهي أنت خلّيت بيني وبين عدوّي إبليس فلم أقم لفتنته إذْ نزلت بي، سبحان خالق النور، إلٓهي أنت خلقتني وكان من سابق علمك ما أنا إليه صائر، سبحان خالق النور، إلٓهي الويل لداود إذا كشف عنه الغطاء، فيقال هذا داود الخاطىء، سبحان خالق النور إلٓهي بأيّ عين أنظر إليك يوم القيامة، وإنما ينظر الظالمون من طرف خفيّ، سبحان خالق النور إلٓهي بأيّ قدم أمشي أمامك وأقوم بين يديك يوم تزلّ أقدام الخاطئين، سبحان خالق النور إلٓهي من أين يطلب العبد المغفرة إلّا من عند سيّده، سبحان خالق النور إلٓهي أنا الذي لا أطيق حرَّ شمسك فكيف أطيق حرَّ نارك، سبحان خالق النور إلٓهي أنا الذي لا أطيق صوت رعدك فكيف أطيق سوط جهنم، سبحان خالق النور إلٓهي الويل لداود من الذنب العظيم الذي أصاب، سبحان خالق النور إلٓهي قد تعلم سرّي وعلانيتي فاقبل عذري، سبحان خالق النور إلٓهي برحمتك اغفر لي ذنوبي ولا تباعدني من رحمتك لهوّاي، سبحان خالق النور إلٓهي أعوذ بنور وجهك الكريم من ذنوبي التي أوبقتني، سبحان خالق النور إلٓهي قد فررتُ إليك بذنوبي واعترفت بخطيئتي فلا تجعلني من القانطين، ولا تُخزني يوم الدين، سبحان خالق النور. قال مجاهد: مكث أربعين يوماً ساجداً لا يرفع

قلت ذهب المحققون من علماء التفسير وغيرهم في هذه القصة إلى أن داود عليه الصلاة والسلام ما زاد على أن قال للرجل. انزل لي عن امرأتك واكفلنيها، فعاتبه الله تعالى على ذلك ونبهه عليه وأنكر عليه شغله بالدنيا وقيل إن داود تمنى أن تكون امرأة أو رياله فاتفق أن أوريا هلك في الحرب فلما بلغ داود قتله لم يجزع عليه كما جزع على غيره من جنده ثم تزوج امرأته، فعاتبه الله تعالى على ذلك لأن ذنوب الأنبياء وإن صغرت فهي عظيمة عند الله تعالى. وقيل إن أوريا كان قد خطب تلك المرأة ووطَّن نفسه عليها فلما غاب في غزاته خطبها داود فزوجت نفسها منه لجلالته فاغتمَّ لذلك أوريا فعاتبه الله تعالى على ذلك حيث لم يترك هذه الواحدة لخاطبها وعنده تسعة وتسعون امرأة ويدل على صحة هذا الوجه قوله وعزني في الخطاب فدل هذا على أن الكلام كان بينهما في الخطبة ولم يكن قد تقدم تزوج أوريا لها، فعوتب داود بسببين أحدهما: خطبته على خطبة أخيه والثاني: إظهار الحرص على التزوج مع كثرة نسائه. وقيل إن ذنب داود الذي استغفر منه ليس هو بسبب أوريا والمرأة وإنما هو بسبب الخصمين وكونه قضى لأحدهما قبل سماع كلام الآخر وقيل هو قوله لأحد الخصمين لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه فحكم على خصمه بكونه ظالماً بمجرد الدعوى فلما كان هذا الحكم مخالفاً للصواب اشتغل داود بالاستغفار والتوبة فثبت بهذه الوجوه نزاهة داود عليه الصلاة والسلام مما نسب إليه والله أعلم.

وقوله عز وجل: ﴿**فاستغفر ربه**﴾ أي سأل ربه الغفران ﴿**وخر راكعاً**﴾ أي ساجداً، عبَّر بالركوع عن السجود لأن كل واحد منهما فيه انحناء. وقيل معناه وخرَّ ساجداً بعد ما كان راكعاً والله تعالى أعلم بمراده.

(فصل)

اختلف العلماء في سجدة صٓ هل هي من عزائم السجود، فذهب الشافعي رحمه الله تعالى إلى أنها ليست من عزائم سجود التلاوة قال: لأنها توبة نبي فلا توجب سجدة التلاوة. وقال أبو حنيفة: هي من عزائم سجود التلاوة واستدل بهذه الآية على أن الركوع يقوم مقام السجود في سجود التلاوة، وعن أحمد: في سجدة صٓ روايتان وقد ثبت

رأسه حتى نبت المرعى من دموع عينيه وغطّى رأسه، فنودي: يا داود أجائعٌ فتطعم؟ أو ظمآن فتُسقى؟ أو عارٍ فتُكسى؟ فأُجيب في غير ما طلب، قال فنَحَبَ نَحْبَة هاج لها العود فاحترق من حرّ جوفه، ثم أنزل الله له التوبة والمغفرة. قال وهب: إن داود أتاه نداء: إني قد غفرت لك، قال: يا ربّ كيف وأنت لا تظلم أحداً؟ قال: اذهب إلى قبر أُوريا فناده، فأنا أُسمعه نداءك فتحلل منه، قال: فانطلق وقد لبس المُسُوح حتى جلس عند قبره، ثم نادى يا أُوريا، فقال: لبّيك مَن هذا الذي قطع عنّي لذّتي وأيقظني؟ قال: أنا داود، قال: ما جاء بك يا نبيّ الله؟ قال: أسألك أن تجعلني في حِلٍّ مما كان منّي إليك، قال: وما كان منك إليّ؟ قال: عرّضتُك للقتل، قال: قد عرّضتني للجنة فأنت في حِلٍّ، فأوحى الله إليه: يا داود ألم تعلم أنّي حَكَم عدل لا أقضي بالغيب ألا علمته، إنك قد تزوجت امرأته، قال فرجع إليه فناداه فأجابه فقال مَن هذا الذي قطع عنّي لذّتي؟ قال: أنـا داود، قال: يا نبيّ الله أليس قد عفوت عنك؟ قال: نعم ولكن إنما فعلت ذلك بك لمكان امرأتك وقد تزوّجتها، قال: فسكت ولم يجبه ودعاه فلم يجبه وعاودوه فلم يجبه، فقام عن قبره وجعل يحثوا التراب على رأسه، ثم نادى الويل لداود ثم الويل لداود ثم الويل الطويل لداود، سبحان خالق النور، والويل لداود إذا نصب الميزان بالقسط، سبحان خالق النور الويل لداود ثم الويل الطويل لداود حين يؤخذ بذقنه فيدفع إلى المظلوم، سبحان خالق النور الويل لداود ثم الويل الطويل لداود حين يُسحَب على وجهه مع الخاطئين إلى النار، سبحان خالق النور، فأتاه نداء من السماء: يا داود قد غفرت لك ذنبك ورحمت بكاءك واستجبت دعاءك وأقلت عثرتك، قال: يا ربّ كيف وصاحبي لم يعفُ عنّي؟ قال: يا داود أُعطيه من الثواب يوم القيامة ما لم ترَ عيناه ولم تسمع أُذناه، فأقول له رضيت عن عبدي داود؟ فيقول: يا ربّ من أين

أن النبي ﷺ سجد فيها (خ). عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: سجدة صٓ ليست من عزائم السجود وقد رأيت النبي ﷺ سجد فيها قال مجاهد قلت لابن عباس أسجد في صٓ فقرأ ومن ذريته داود وسليمان حتى أتى فبهداهم اقتده فقال نبيكم ممن أمر أن يقتدى بهم فسجدها داود فسجدها رسول الله ﷺ وللنسائي «عن ابن عباس أن النبي ﷺ سجد في صٓ وقال سجدها داود توبة فنسجدها شكراً» عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال «قرأ رسول الله ﷺ سورة صٓ وهو على المنبر فلما بلغ السجدة نزل فسجد وسجد الناس معه فلما كان يوم آخر قرأها فلما بلغ السجدة تشوف الناس لسجوده فقال رسول الله ﷺ إنما هي توبة نبي ولكني رأيتكم تشوفتم فنزل وسجد وسجدوا» أخرجه أبو داود قوله تشوف الناس يعني تهيؤا وتأهبوا واستعدوا للسجود وعن ابن عباس قال «جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال يا رسول الله رأيتني الليلة وأنا نائم كأني أصلي خلف شجرة فسجدت الشجرة لسجودي فسمعتها تقول اللهم اكتب لي بها أجراً وحطّ عني بها وزراً واجعلها لي عندك ذخراً وتقبلها مني كما تقبلتها من عبدك داود عليه الصلاة والسلام». قال ابن عباس: «سمعت رسول الله ﷺ قرأ سجدة ثم سجد فقال مثل ما أخبره الرجل عن قول الشجرة» أخرجه الترمذي قال المفسرون سجد داود أربعين يوماً لا يرفع رأسه إلا لحاجة أو لوقت صلاة مكتوبة ثم يعود ساجداً تمام أربعين يوماً لا يأكل ولا يشرب وهو يبكي حتى نبت العشب حول رأسه وهو ينادي ربه عز وجل ويسأله التوبة وكان من دعائه في سجوده سبحان الملك الأعظم الذي يبتلي الخلق بما يشاء سبحان خالق النور سبحان الحائل بين القلوب سبحان خالق النور إلهي خليت بيني وبين عدوي إبليس فلم أقم لفتنته إذ نزلت بي سبحان خالق النور إلهي أنت خلقتني وكان في سابق علمك ما أنا إليه صائر سبحان خالق النور إلهي الويل لداود يوم يكشف عنه الغطاء، فيقال هذا داود الخاطىء سبحان خالق النور إلهي بأي عين أنظر إليك يوم القيامة وإنما ينظر الظالمون من طرف خفي، سبحان خالق النور إلهي بأي قدم أقوم أمامك يوم القيامة يوم تزل أقدام الخاطئين، سبحان خالق النور إلهي من أين يطلب العبد المغفرة إلا من عند سيده سبحان خالق النور، إلهي أنا لا أطيق حر شمسك فكيف أطيق حر نارك سبحان خالق النور إلهي أنا لا أطيق صوت رعدك فكيف أطيق صوت جهنم سبحان خالق النور إلهي الويل لداود من الذنب العظيم الذي أصابه سبحان

لي هذا ولم يبلغه عملي؟ فأقول: هذا عوض من عبدي داود فأستوهبك منه فيهبك لي، قال: يا ربّ الآن قد عرفت أنك قد غفرت لي. فذلك قوله: ﴿ **فاستغفر ربّه وخرّ راكعاً** ﴾، أي ساجداً، عبّر بالركوع عن السجود لأن كل واحد منهما فيه انحناء، قال الحسين بن الفضل: سألني عبد الله بن طاهر عن قوله: ﴿ **وخرّ راكعاً** ﴾ هل يقال للراكع خرّ؟ قلت: لا ومعناه خرّ بعدما كان راكعاً أي ساجداً. ﴿ **وأناب** ﴾، أي رجع وتاب.

﴿ **فغفرنا له ذلك** ﴾، يعني ذلك الذنب، ﴿ **وإن له** ﴾، بعد المغفرة، ﴿ **عندنا** ﴾، يوم القيامة، ﴿ **لزلفى** ﴾، لقربة ومكانة، ﴿ **وحُسْن مآب** ﴾، أي حُسْن مرجع ومنقلب. وقال وهب بن منبّه: إن داود لمّا تاب الله عليه بكى على خطيئته ثلاثين سنة لا يرقأ دمعه ليلاً ولا نهاراً، وكان أصاب الخطيئة وهو ابن سبعين سنة فقسم الدهر بعد الخطيئة على أربعة أيام يوم للقضاء بين إسرائيل ويوم لنسائه ويوم يسبّح في الفيافي والجبال والسواحل، ويوم يخلو في دار له فيها أربعة آلاف مِحراب، فيجتمع إليه الرهبان فينوح معهم على نفسه، فيساعدونه على ذلك، فإذا كان يوم نياحته يخرج في الفيافي فيرفع صوته بالمزامير فيبكي ويبكي معه الشجر والرمال والطير والوحش حتى يسيل من دموعهم مثل الأنهار، ثم يجيء إلى الجبال فيرفع صوته بالمزامير فيبكي ويبكي معه الجبال والحجارة والدواب والطير، حتى تسيل من بكائهم الأودية، ثم يجيء إلى الساحل فيرفع صوته بالمزامير فيبكي وتبكي معه الحيتان ودواب البحر وطير الماء والسِّباع، فإذا أمسى رجع فإذا كان يوم نوحه على نفسه نادى مُناديه أن اليوم يوم نوح داود على نفسه فليحضر مَن يساعده، فيدخل الدار التي فيها المحاريب فيبسط له ثلاثة فرش من مُسُوح حشوها ليف فيجلس عليها ويجيء أربعة آلاف راهب عليهم البرانس وفي أيديهم العصي فيجلس في تلك المحاريب ثم يرفع

خالق النور إلهي كيف تستر الخطاؤون بخطاياهم دونك وأنت تشاهدهم حيث كانوا، سبحان خالق النور إلهي قد تعلم سري وعلانيتي فاقبل معذرتي سبحان خالق النور إلهي اغفر لي ذنوبي ولا تباعدني من رحمتك لهواني سبحان خالق النور إلهي أعوذ بوجهك الكريم من ذنوبي التي أوبقتني سبحان خالق النور إلهي فررت إليك بذنوبي واعترفت بخطيئتي فلا تجعلني من القانطين ولا تخزني يوم الدين سبحان خالق النور وقيل مكث داود أربعين يوماً لا يرفع رأسه حتى نبت المرعى من دموع عينيه حتى غطى رأسه فنودي يا داود أجائع أنت فتطعم أظمآن أنت فتسقى أمظلوم أنت فتنصر فأجيب في غير ما طلب ولم يجب في ذكر خطيئته بشيء فحزن حتى هاج ما حوله من العشب فاحترق من حرجوفه ثم أنزل الله تعالى له التوبة والمغفرة. قال وهب: إن داود أتاه نداء أني قد غفرت لك قال يا رب كيف وأنت لا تظلم أحداً قال اذهب إلى قبر أوريا فناده وأنا أسمعه نداءك فتحلل منه، قال فانطلق داود وقد لبس المسوح حتى جلس عند قبره ثم نادى يا أوريا فقال من هذا الذي قطع علي لذتي وأيقظني قال أنا داود قال ما جاء بك يا نبي الله قال أسألك أن تجعلني في حل مما كان مني إليك قال وما كان منك إليّ قال عرضتك للقتل قال بل عرضتني للجنة فأنت في حل فأوحى الله تعالى إليه يا داود ألم تعلم أني حكم عدل لا أقضي بالغيب ألا أعلمته إنك قد تزوجت امرأته، قال فرجع فناداه فأجابه فقال من هذا الذي قطع علي لذتي وأيقظني قال أنا داود قال ما جاء بك يا نبي الله أليس قد عفوت عنك قال نعم ولكن إنما فعلت ذلك بك لمكان امرأتك وقد تزوجتها قال فسكت ولم يجبه ودعاه مرة فلم يجبه وعاوده فلم يجبه فقام عند قبره وجعل التراب على رأسه ثم نادى الويل لداود ثم الويل الطويل لداود إذا وضعت الموازين بالقسط سبحان خالق النور الويل لداود ثم الويل الطويل له حين يسحب على وجهه مع الخاطئين إلى النار سبحان خالق النور فأتاه نداء من السماء يا داود قد غفرت لك ذنبك ورحمت بكاءك واستجبت دعاءك وأقلت عثرتك قال يا رب كيف وصاحبي لم يعف عني قال يا داود أعطيه يوم القيامة من الثواب ما لم تر عيناه ولم تسمع أذناه فأقول له رضيت عبدي فيقول يا رب من أين لي هذا ولم يبلغه عملي، فأقول هذا عوض من عبدي داود فأستوهبك منه فيهبك لي قال يا رب الآن قد عرفت أنك قد غفرت لي فذلك قوله فاستغفر ربه وخرَّ راكعاً **﴿وأناب﴾** أي رجع **﴿فغفرنا له ذلك﴾** أي الذنب **﴿وإن له عندنا﴾** أي يوم القيامة بعد المغفرة **﴿لزلفى﴾** أي لقربة ومكانة **﴿وحسن مآب﴾** أي حسن مرجع ومنقلب.

داود صوته بالبكاء والنوح على نفسه، ويرفع الرهبان معه أصواتهم فلا يزال يبكي حتى يفرّق الفرش من دموعه، ويقع داود فيها مثل الفرخ يضطرب، فيجيء ابنه سليمان فيحمله فيأخذ داود من تلك الدموع بكفّيه، ثم يمسح بها وجهه، ويقول: يا ربِّ اغفر ما ترى، فلو عدل بكاء داود ببكاء أهل الدنيا لعدله. قال وهب: ما رفع داود رأسه حتى قال له الملك أول أمرك تب وآخره مغفرة ارفع رأسك فرفع رأسه فمكث حياته لا يشرب ماءً إلّا مزجه بدموعه، ولا يأكل طعاماً إلّا بلّه بدموعه. وذكر الأوزاعي مرفوعاً إلى رسول الله ﷺ: «إنّ مثل عيني داود كقربتين ينطفان ماءً، ولقد خدّت الدموع في وجهه كخديد الماء في الأرض». قال وهب: لمّا تاب الله على داود قال: يا ربِّ غفرتَ لي فكيف لي أن لا أنسى خطيئتي فأستغفر منها وللخاطئين إلى يوم القيامة؟ قال: فوسم الله خطيئته في يده اليمنى فما رفع فيها طعاماً ولا شراباً إلّا بكى إذا رآها، وما كان خطيباً للناس إلّا بسط راحته فاستقبل الناس ليروا وَسْمَ خطيئته، وكان يبدأ إذا دعا فاستغفر للخاطئين قبل نفسه. وقال قتادة عن الحسن: كان داود بعد الخطيئة لا يجالس إلّا الخاطئين، يقول: تعالوا إلى داود الخاطىء فلا يشرب شراباً إلّا مزجه بدموع عينيه وكان يجعل خبز الشعير اليابس في قصعة فلا يزال يبكي عليه حتى يبتلّ بدموع عينيه، وكان يذر عليه الملح والرماد فيأكل ويقول هذا أكل الخاطئين، قال: كان داود قبل الخطيئة يقوم نصف الليل ويصوم نصف الدهر، فلما كان من خطيئته ما كان صام الدهر كله وقام الليل كله. وقال ثابت: كان داود إذ ذكر عقاب الله تخلعت أوصاله فلا يشدّها إلّا الأسر، وإذا ذكر

قال وهب بن منبه إن داود عليه الصلاة والسلام لما تاب الله عليه بكى على خطيئته ثلاثين سنة لا يرقأ دمعه ليلاً ولا نهاراً وكان أصاب الخطيئة وهو ابن سبعين سنة فقسم الدهر بعد الخطيئة على أربعة أيام يوم للقضاء بين بني إسرائيل، ويوم لنسائه ويوم يسيح في الجبال والفيافي والساحل ويوم يخلو في دار له فيها أربعة آلاف محراب فيجتمع إليه الرهبان فينوح معهم على نفسه ويساعدونه على ذلك، فإذا كان يوم سياحته يخرج إلى الفيافي ويرفع صوته بالمزامير فيبكي وتبكي الشجر والرمال والطير والوحوش حتى يسيل من دموعهم مثل الأنهار ثم يجيء إلى الجبال ويرفع صوته ويبكي فتبكي معه الجبال والحجارة والطير والدواب حتى تسيل من بكائهم الأودية ثم يجيء إلى الساحل فيرفع صوته ويبكي فتبكي معه الحيتان ودواب البحر وطين الماء فإذا أمسى رجع فإذا كان يوم نوحه على نفسه نادى مناديه إن اليوم يوم نوح داود على نفسه فليحضره من يساعده ويدخل الدار التي فيها المحاريب فيبسط فيها ثلاث فرش من مسوح حشوها ليف فيجلس عليها ويجيء أربعة آلاف راهب عليهم البرانس وفي أيديهم العصي فيجلسون في تلك المحاريب ثم يرفع داود عليه الصلاة والسلام صوته بالبكاء والنوح على نفسه ويرفع الرهبان معه أصواتهم فلا يزال يبكي حتى يغرق الفرش من دموعه ويقع داود فيها مثل الفرخ يضطرب فيجيء ابنه سليمان فيحمله ويأخذ داود من تلك الدموع بكفيه ويمسح بها وجهه ويقول يا رب اغفر ما ترى فلو عادل بكاء داود بكاء أهل الدنيا لعدله. وعن الأوزاعي مرفوعاً إلى رسول الله ﷺ «إن مثل عيني داود عليه الصلاة والسلام كالقربتين ينقطان ماء ولقد خدت الدموع في وجهه كخديد الماء في الأرض».

وقال وهب: لما تاب الله تعالى على داود قال: يا رب أغفرت لي فكيف لي أن لا أنسى خطيئتي فأستغفر منها وللخاطئين إلى يوم القيامة، قال فوسم الله تعالى خطيئته في يده اليمنى فما رفع فيها طعاماً ولا شراباً إلا بكى إذا رآها وما قام خطيباً في الناس إلا وبسط راحته فاستقبل بها الناس ليروا وسم خطيئته وكان يبدأ إذا دعا واستغفر بالخاطئين قبل نفسه. وعن الحسن قال: كان داود عليه الصلاة والسلام بعد الخطيئة لا يجالس إلا الخاطئين يقول تعالوا إلى داود الخاطىء ولا يشرب شراباً إلا مزجه بدموع عينيه وكان يجعل خبز الشعير اليابس في قصعة فلا يزال يبكي عليه حتى يبتل بدموع عينيه وكان يذر عليه الملح والرماد فيأكل ويقول هذا أكل الخاطئين قال وكان داود عليه الصلاة والسلام قبل الخطيئة يقوم نصف الليل ويصوم نصف الدهر فلما كان من خطيئته ما كان صام الدهر كله وقام الليل كله. وقال

رحمة الله تراجعت. وفي القصة: أن الوحوش والطير كانت تستمع إلى قراءته فلما فعل ما فعل كانت لا تصغي إلى قراءته، فرُوِيَ أنها قالت: يا داود ذهبت خطيئتك بحلاوة صوتك. وأخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا سليمان بن حرب وأبو النعمان قالا ثنا حمّاد بن زيد عن أيوب عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: سجدة صٓ ليست من عزائم السجود، وقد رأيت النبي ﷺ يسجد فيها. وأخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا محمد بن عبد الله ثنا محمد بن عبيد الطنافسي عن العوام قال: سألتُ مجاهداً عن سجدة صٓ فقال: سألت ابن عباس من أين سجدت؟ قال: أوَما تقرأ: ﴿ ومن ذرّيّته داود وسليمان ﴾، إلى: ﴿ أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده ﴾ [الأنعام: ٨٤ ـ ٩٠]، وكان داود ممّن أمر نبيّكم أن يقتدي به، فسجدها داود، فسجدها رسول الله ﷺ. أخبرنا أبو عثمان سعيد بن إسماعيل الضبي أنا أبو محمد عبد الجبار بن محمد الجراحي ثنا أبو العباس محمد بن أحمد المحبوبي ثنا أبو عيسى الترمذي ثنا قتيبة محمد بن زيد بن خنيس ثنا الحسن بن محمد بن عبد الله بن أبي يزيد قال: قال لي ابن جريج أخبرني عبيد الله بن أبي يزيد عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: جاء رجُل إلى النبي ﷺ قال: يا رسول الله إنّي رأيتني الليلة وأنا نائم كأني أُصلّي خلف شجرة فسجدت فسجدت الشجرة بسجودي،

ثابت كان داود إذا ذكر عقاب الله انخلعت أوصاله فلا يشهدها إلا الأسر وإذا ذكر رحمة الله تراجعت وقيل إن الوحوش والطير كانت تستمع إلى قراءته فلما فعل ما فعل كانت لا تصغي إلى قراءته.

وقيل إنها قالت يا داود ذهبت خطيئتك بحلاوة صوتك.

يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾

قوله عز وجل: ﴿**يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض**﴾ أي لتدبر أمر الناس بأمر نافذ الحكم فيهم ﴿**فاحكم بين الناس بالحق**﴾ أي بالعدل ﴿**ولا تتبع الهوى**﴾ أي لا تمل مع ما تشتهي إذا خالف أمر الله تعالى ﴿**فيضلك عن سبيل الله**﴾ أي عن دين الله وطريقه ﴿**إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب**﴾ أي بما تركوا الإيمان بيوم الحساب. وقيل بتركهم العمل بذلك اليوم وقيل بترك العدل في القضاء.

قوله تعالى: ﴿**وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً**﴾ قال ابن عباس: لا لثواب ولا لعقاب.

وقيل معناه ما خلقناهما عبثاً لا لشيء ﴿**ذلك ظن الذين كفروا**﴾ يعني أهل مكة هم الذين ظنوا أنما خلقناهم لغير شيء وأنه لا بعث ولا حساب ﴿**فويل للذين كفروا من النار أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض**﴾ قيل إن كفار قريش قالوا للمؤمنين إنما نعطي في الآخرة من الخير ما تعطون فنزلت هذه الآية ﴿**أم نجعل المتقين**﴾ يعني الذين اتقوا الشرك وهم أصحاب محمد ﷺ ﴿**كالفجار**﴾ يعني الكفار والمعنى لا نجعل الفريقين سواء في الآخرة.

فسمعتها تقول: اللّهمَّ اكتب لي بها عندك أجراً وحطّ عنّي بها وزراً واجعلها لي عندك ذخراً، وتقبّلها منّي كما تقبلتها من عبدك داود. وقال الحسن: قال ابن جريج: قال لي جدّك: قال ابن عباس: فقرأ النبي ﷺ سجدة صٓ ثم سجد صٓ، فسمعته وهو يقول مثل ما أخبره الرجل عن قول الشجر.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ **يا داود إنّا جعلناك خليفة في الأرض** ﴾ تدبّر أمور العباد بأمرنا، ﴿ **فاحكم بين الناس بالحق** ﴾، بالعدل، ﴿ **ولا تتبع الهوى فيضلّك عن سبيل الله إنّ الذين يضلّون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب** ﴾، أي بأن تركوا الإيمان بيوم الحساب. وقال الزجّاج: بتركهم العمل لذلك اليوم. وقال عكرمة والسدي: في الآية تقديم وتأخير، تقديره: لهم عذاب شديد يوم الحساب بما نسوا، أي تركوا القضاء بالعدل.

﴿ **وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً** ﴾، قال ابن عباس: لا لثواب ولا لعقاب. ﴿ **ذلك ظن الذين كفروا** ﴾، يعني أهل مكة هم الذين ظنوا أنهما خُلِقا لغير شيء، وأنه لا بعث ولا حساب. ﴿ **فويل للذين كفروا من النار** ﴾.

﴿ **أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض** ﴾، قال مقاتل: قال كفّار قريش للمؤمنين إنّا نُعطى في الآخرة من الخير ما يعطون، فنزلت هذه الآية: ﴿ **أم نجعل المتّقين كالفجّار** ﴾، أي المؤمنين كالكفّار. وقيل: أراد بالمتّقين أصحاب محمد ﷺ، أي لا نجعل ذلك.

﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾ وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴿٣٢﴾﴾

﴿كتاب أنزلناه إليك﴾ أي هذا كتاب يعني القرآن أنزلناه إليك ﴿مبارك﴾ أي كثير خيره ونفعه ﴿ليدبروا آياته﴾ أي ليتدبروا ويتفكروا في أسراره العجيبة ومعانيه اللطيفة وقيل تدبر آياته اتباعه في أوامره ونواهيه ﴿وليتذكر﴾ أي وليتعظ ﴿أولو الألباب﴾ أي ذوو العقول والبصائر.

قوله تعالى: ﴿ووهبنا لداود سليمان نعم العبد إنه أواب إذ عرض عليه بالعشي الصافنات الجياد﴾ قيل إن سليمان عليه الصلاة والسلام غزا أهل دمشق ونصيبين فأصاب منهم ما أصاب وهو ألف فرس وقيل ورثها من أبيه وقيل إنها كانت خيلاً من البحر لها أجنحة فصلى سليمان عليه الصلاة والسلام الصلاة الأولى التي هي الظهر وقعد على كرسيه وهي تعرض عليه فعرض عليه منها تسعمائة فرس فتنبه لصلاة العصر فإذا الشمس قد غربت وفاتت الصلاة ولم يعلم بذلك هيبة له فاغتمَّ لذلك وقال ردّوها عليّ فأقبل يضرب سوقها وأعناقها بالسيف تقرباً إلى الله تعالى وطلباً لمرضاته حيث اشتغل بها عن طاعته وكان ذلك مباحاً له وإن كان حراماً علينا وبقي منها مائة فرس فالذي في أيدي الناس من الخيل يقال إنه من نسل تلك المائة فلما عقرها الله تعالى أبدله الله تعالى خيراً منها وأسرع وهي الريح تجري بأمره كيف شاء، وقوله تعالى: ﴿إذ عرض عليه بالعشي الصافنات الجياد﴾ قيل هي الخيل القائمة على ثلاث قوائم مقيمة الرابعة على طرف الحافر من رجل أو يد وقيل الصافن القائم وجاء في الحديث «من سرّه أن يقوم له الناس صفونا فليتبوأ

﴿ كتابٌ أنزلناه إليك ﴾، أي هذا الكتاب أنزلناه إليك، ﴿ مبارك ﴾، كثير خيره ونفعه، ﴿ ليدبّروا ﴾، أي ليتدبروا، ﴿ آياته ﴾، وليتفكروا فيها، وقرأ أبو جعفر «ليتدبـــروا» بتاء واحدة وتخفيف الدال، قال الحسن: تدبّر آياته اتباعه، ليتّعظ، ﴿ أُولوا الألباب ﴾.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ ووهبنا لداود سليان نعم العبد إنه أوّاب * إذْ عرض عليه بالعشي الصافنات الجياد ﴾، قال الكلبي: غزا سليمان أهل دمشق ونصيبين، فأصاب منهم ألف فرس. وقال مقاتل: ورث من أبيه داود ألف فرس. وقال عوف عن الحسن: بلغني أنها كانت خيلاً أُخرِجت من البحر لها أجنحة. قالوا: فصلّى سليمان الصلاة الأولى وقعد على كرسيه وهي تعرض عليه فعرضت عليه تسعمائة فتنبّه لصلاة العصر فإذا الشمس قد غربت وفاتته الصلاة ولم يعلم بذلك فاغتمّ لذلك هيبة لله، فقال: ردّوها عليّ فردّوها عليه، فأقبل يضرب سوقها وأعناقها بالسيف تقرّباً إلى الله عزّ وجلّ وطلباً لمرضاته حيث اشتغل بها عن طاعته، وكان ذلك مُباحاً له وإن كان حراماً علينا كما أُبيح لنا ذبح بهيمة الأنعام وبقي منها مائة فرس، فما بقي في أيدي الناس اليوم من الخيل يقال من نسل تلك المائة. قال الحسن: فلما عقر الخيل أبدله الله خيراً منها وأسرع وهي الريح تجري بأمره كيف يشاء، وقال إبراهيم التيمي: كانت عشرين فرساً. وعن عكرمة: كانت عشرين ألف فرس، لها أجنحة، قال الله تعالى: ﴿ إذ عرض عليه بالعشيّ الصافنات الجياد ﴾، والصافنات هي الخيل القائمة على ثلاث قوائم وأقامت واحدة على طرف الحافر من يدٍ أو رجلٍ، يقال: صفن الفرس يصفن صفوناً إذا قام على ثلاثة قوائم، وقلب أحد حوافره. وقيل: الصافن في اللغة القائم. وقال في الحديث: «مَن سرّه أن يقوم له الرجال صفونا فليتبوّأ مقعده من النار». أي قياماً: والجياد الخيار السراع، واحدها جواد. وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: يريد الخيل السوابق.

مقعده من النار» أي قياماً الجياد: أي الخيار السراع في الجري واحده جواد قال ابن عباس يريد الخيل السوابق ﴿**فقال إني أحببت حب الخير**﴾ أي أثرت حب الخير وأراد بالخير الخيل سميت به لأنه معقود في نواصيها الخير الأجر والغنيمة وقيل حب الخير يعني المال ومنه الخيل التي عرضت عليه ﴿**عن ذكر ربي**﴾ يعني صلاة العصر ﴿**حتى توارت**﴾ أي استترت الشمس ﴿**بالحجاب**﴾ أي ما يحجبها من الأبصار يقال إن الحجاب جبل دون قاف بمسيرة سنة تغرب الشمس من ورائه.

رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾

﴿**ردوها علي**﴾ أي ردوا الخيل علي ﴿**فطفق مسحاً بالسوق**﴾ جمع ساق ﴿**والأعناق**﴾ أي جعل يضرب سوقها وأعناقها بالسيف، هذا قول ابن عباس وأكثر المفسرين وكان ذلك مباحاً له لأن نبي الله سليمان لم يكن ليقدم على محرم ولم يكن ليتوب عن ذنب وهو ترك الصلاة بذنب آخر وهو عقر الخيل، وقال محمد بن إسحاق: لم يعنفه الله تعالى على عقره الخيل إذ كان ذلك أسفاً على ما فاته من فريضة ربه عز وجلَّ، وقيل إنه ذبحها وتصدق بلحومها. وقيل معناه إنه حبسها في سبيل الله تعالى وكوى سوقها وأعناقها بكى الصدقة. وحكي عن علي رضي الله تعالى عنه أنه قال: معنى ردوها عليّ يقول بأمر الله تعالى للملائكة الموكلين بالشمس ردوها عليّ فردوها عليه فصلى العصر في وقتها قال الإمام فخر الدين بل التفسير الحق المطابق لألفاظ القرآن أن نقول إن رباط الخيل كان مندوباً إليه في دينهم كما أنه كذلك في ديننا ثم إن سليمان عليه الصلاة والسلام احتاج إلى غزو فجلس وأمر بإحضار الخيل وأمر بإجرائها وذكر أني لا أحبها لأجل الدنيا ونصيب النفس وإنما أحبها لأمر الله تعالى وتقوية دينه وهو المراد بقوله عن ذكر ربي ثم إنه عليه الصلاة والسلام أمر بإعدائها وإجرائها حتى توارت بالحجاب أي غابت عن بصره ثم أمر برد الخيل إليه وهو

﴿ **فقال إني أحببتُ حبَّ الخير** ﴾، أي آثرت حبَّ الخير وأراد بالخير الخيل، والعرب تعاقب بين الراء واللام، فتقول: ختلت الرجل وخترته، أي خدعته، وسُمِّيت الخيل خيراً لأنه معقود بنواصيها الخير، الأجْر والمغنم، قال مقاتل: يعني المال فهي الخيل التي عرضت عليه. ﴿ **عن ذكر ربِّي** ﴾، يعني عن الصلاة وهي صلاة العصر. ﴿ **حتى توارت بالحجاب** ﴾، أي توارت الشمس بالحجاب أي استترت بما يحجبها عن الأبصار، يقال: الحجاب جبل دون قاف بمسيرة سنة والشمس تغرب من ورائه.

﴿ **ردّوها عليّ** ﴾، أي ردّوا الجبل عليّ فردّوها، ﴿ **فطفق مسحاً بالسوق والأعناق** ﴾، قال أبو عبيدة: طفق يفعل مثل ما زال يفعل، والمراد بالمسح القطع، فجعل يضرب سوقها وأعناقها بالسيف، هذا قول ابن عباس والحسن وقتادة ومقاتل وأكثر المفسِّرين، وكان ذلك مُباحاً له لأن نبيّ الله لم يكن يقدم على محرَّم، ولم يكن يتوب عن ذنب بذنب آخر. وقال محمد بن إسحاق: لم يعتقه الله على عقر الخيل إذ كان ذلك أسفاً على ما فاته من فريضة ربِّه عزّ وجلّ. وقال بعضهم: إنه ذبحها ذبحاً وتصدّق بلحومها، وكان الذبح على ذلك الوجه مُباحاً في شريعته. وقال قوم: معناه أنه حبسها في سبيل الله وكوى سوقها وأعناقها بكيّ الصدقة. وقال الزهري وابن كيسان: إنه كان يمسح سوقها وأعناقها بيده يكشف الغبار عنها حبّاً لها وشفقة عليها، وهذا قول ضعيف، والمشهور هو الأول، وحُكِيَ عن علي أنه قال في معنى قوله: ﴿ **ردّوها عليّ** ﴾ يقول سليمان بأمر الله عزّ وجلّ للملائكة الموكلين بالشمس ﴿ **ردّوها عليّ** ﴾ يعني الشمس، فردّوها عليه حتى صلّى العصر في وقتها، وذلك أنه كان يعرض عليه الخيل لجهاد عدوّ حتى توارت بالحجاب.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ **ولقد فتنّا سليمان** ﴾، اختبرناه وابتليناه بسلب ملكه، وكان سبب ذلك ما ذكر محمد بن

قوله ردوها عليّ فلما عادت إليه طفق يمسح سوقها وأعناقها والغرض من ذلك المسح أمور الأول تشريف لها لكونها من أعظم الأعوان في دفع العدو الثاني أنه أراد أن يظهر أنه في ضبط السياسة والمملكة يبلغ إلى أنه يباشر الأمور بنفسه الثالث أنه كان أعلم بأحوال الخيل وأمراضها وعيوبها من غيره فكان يمسح سوقها وأعناقها حتى يعلم هل فيها ما يدل على المرض فهذا التفسير الذي ذكرناه ينطبق عليه لفظ القرآن ولا يلزمنا شيء من تلك المنكرات والمحظورات والعجب من الناس كيف قبلوا هذه الوجوه السخيفة فإن قيل فالجمهور قد فسروا الآية بتلك الوجوه فما قولك فيه، فنقول: لنا هاهنا مقامات المقام الأول أن يدعي أن لفظ الآية لا يدل على شيء من تلك الوجوه التي ذكروها وقد ظهروا الحمد لله أن الأمر كما ذكرنا ظهوراً لا يرتاب عاقل فيه، المقام الثاني: أن يقال هب أن لفظ الآية يدل عليه إلا أنه كلام ذكره الناس وأن الدلائل الكثيرة قد قامت على عصمة الأنبياء ولم يدل دليل على صحة هذه الحكايات.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿**ولقد فتنا سليمان**﴾ أي اختبرناه وابتليناه بسلب ملكه وكان سبب ذلك ما ذكر عن وهب بن منبه قال: سمع سليمان بمدينة في جزيرة من جزائر البحر يقال لها صيدون وبها ملك عظيم الشأن ولم يكن للناس إليه سبيل لمكانه في البحر وكان الله تعالى قد أتى سليمان في ملكه سلطاناً لا يمتنع عليه شيء في بر ولا بحر إنما يركب إليه الريح فخرج إلى تلك المدينة تحمله الريح على ظهر الماء حتى نزل بها بجنوده من الجن والإنس فقتل ملكها وسبى ما فيها وأصاب فيما أصاب بنتاً لذلك الملك يقال لها جرادة لم ير مثلها حسناً وجمالاً فاصطفاها لنفسه ودعاها إلى الإسلام فأسلمت على جفاء منها وقلة فقه وأحبها حباً لم يحبه شيئاً من نسائه وكانت على منزلتها عنده لا يذهب حزنها ولا يرقأ دمعها فشقَّ ذلك على سليمان، فقال لها ويحك ما هذا الحزن الذي لا يذهب والدمع الذي لا يرقأ، قالت: إني أذكر أبي وأذكر ملكه وما كان فيه وما أصابه فيحزنني ذلك فقال سليمان: فقد أبدلك الله ملكاً هو أعظم من ملكه وسلطاناً أعظم من سلطانه وهداك إلى الإسلام وهو خير من ذلك قالت إن ذلك كذلك ولكني إذ ذكرته أصابني ما

إسحاق عن وهب بن منبّه قال: سمع سليمان عليه السلام بمدينة في جزيرة من جزائر البحر يقال لها صيدون بها ملك عظيم الشأن لم يكن للناس إليه سبيلًا لمكانه، وكان الله قد آتى سليمان في ملكه سلطاناً لا يمتنع عليه شيء في برٍّ ولا بحر، إنمـا يركب إليه الريح، فخرج إلى تلك المدينة تحمله الريح على ظهر الماء، حتى نزل بها بجنوده من الجنّ والإنس، فقتل ملكها وسبى ما فيها وأصاب فيما أصاب بنتاً لذلك الملك، يقال لها جرادة لم يرَ مثلها حُسْناً وجمالاً، فاصطفاها لنفسه، ودعاها إلى الإسلام فأسلمت على جفاء منها وقلّة فقه، وأحبّها حبّاً لم يحبّه شيء من نسائه، وكانت على منزلتها عنده لا يذهب حزنها ولا يرقأ دمعها، فشقّ ذلك على سليمان فقال لها: ويحك ما هذا الحزن الذي لا يذهب، والدمع الذي لا يرقأ؟ قالت: إن أبي أذكره وأذكر ملكه وما كان فيه وما أصابه فيحزنني ذلك، قال سليمان: فقد أبدلك الله به ملكاً هو أعظم من ملكه وسلطاناً هو أعظم من سلطانه، وهداك للإسلام وهو خير من ذلك كله، قالت: إن ذلك كذلك ولكني إذا ذكرته أصابني ما ترى من الحزن، فلو أنك أمرت الشياطين فصوّروا لي صورته في داري التي أنا فيها أراها بكرةً وعشيّاً لرجوت أن يذهب ذلك حزني، وأن يسليني عن بعض ما أجد في نفسي، فأمر سليمان الشياطين، فقال: مثّلوا لها صورة أبيها في دارها حتى لا تنكر منه شيئاً فمثّلوه لها حتى نظرت إلى أبيها بعينه إلاّ أنه لا روح فيه، فعمدت إليه حين صنعوه فأزّرته وقمّصته وعمّمته وردّته بمثل ثيابه التي كان يلبس، ثم كانت إذا خرج سليمان من دارها تعدو عليه في ولائـدها حتى تسجـد له ويسجـدن له كما كانت تصنع به في ملكه، وتروح كل عشيّة بمثل ذلك وكان سليمان لا يعلم بشيء من ذلك أربعين صباحاً، وبلغ ذلك آصف بن برخيا، وكان صديقاً وكان لا يردّ عن أبواب سليمان أي ساعة أراد دخول شيء من بيوته حاضراً كان سليمان أو غائباً، فأتاه فقال: يا نبيّ الله كبر سنّي ورقّ عظمي ونفد عمري وقد حان منّي الذهاب فقد أحببت أن أقوم مقاماً قبل

تراه من الحزن فلو أنك أمرت الشياطين فصوروا لي صورته في داري التي أنا فيها أراها بكرة وعشياً لرجوت أن يذهب ذلك حزني وأن يسلي عني بعض ما أجد في نفسي فأمر سليمان الشياطين، فقال: مثلوا لها صورة أبيها في دارها حتى لا تنكر منه شيئاً فمثلوه لها حتى نظرت إلى أبيها بعينه إلا أنه لا روح فيه فعمدت إليه حين صنعوه فألبسته ثياباً مثل ثيابه التي كان يلبسها، ثم كانت إذا خرج سليمان من دارها تغدو إليه في ولائدها فتسجد له ويسجدن معها كما كانت تصنع في ملكه وتروح في كل عشية بمثل ذلك وسليمان لا يعلم بشيء من ذلك أربعين صباحاً. وبلغ ذلك آصف بن برخيا وكان صديقاً له وكان لا يرد عن أبواب سليمان أي ساعة أراد دخول شيء من بيوته دخل حاضراً سليمان أو غائباً، فأتاه فقال: يا نبي الله كبر سني ورق عظمي ونفد عمري وقد حان مني الذهاب وقد أحببت أن أقوم مقاماً قبل الموت أذكر فيه من مضى من أنبياء الله تعالى وأثني عليهم بعلمي فيهم وأعلم الناس بعض ما كانوا يجهلون من كثير أمرهم. فقال: افعل فجمع له سليمان الناس، فقام فيهم خطيباً فذكر من مضى من أنبياء الله تعالى وأثنى على كل نبي بما فيه وذكر ما فضله الله تعالى به حتى انتهى إلى سليمان فقال: ما كان أحكمك في صغرك وأورعك في صغرك وأفضلك في صغرك وأحكم أمرك في صغرك وأبعدك عن كل ما يكره الله تعالى في صغرك ثم انصرف، فوجد سليمان في نفسه من ذلك حتى مليء غضباً فلما دخل سليمان داره دعاه فقال: يا آصف ذكرت من مضى من أنبياء الله تعالى فأثنيت عليهم خيراً في كل زمانهم وعلى كل حال من أمرهم فلما ذكرتني جعلت تثني علي خيراً في صغري وسكت عما سوى ذلك من أمري في كبري فما الذي أحدثت في آخر عمري؟ قال آصف: إنَّ غير الله يعبد في دارك منذ أربعين صباحاً في هوى امرأة، فقال سليمان في داري؟ قال: في دارك قال: فإنا لله وإنا إليه راجعون قد عرفت أنك ما قلت الذي قلت إلا عن شيء بلغك.

الموت أذكر فيه مَن مضى من أنبياء الله وأُثني عليهم بعلمي فيهم، وأُعلّم الناس بعض ما كانوا يجهلون من كثير من أمورهم، فقال: افعل، فجمع له سليمان الناس فقام فيهم خطيباً فذكر مَن مضى من أنبياء الله تعالى، فأثنى على كل نبي بما فيه فذكر ما فضّله الله حتى انتهى إلى سليمان، فقال: ما أحكمك في صغرك وأورعك في صغرك وأفضلك في صغرك وأحكم أمرك في صغرك وأبعدك من كل ما تكره في صغرك، ثم انصرف، فوجد سليمان عليه السلام في نفسه من ذلك حتى ملأه غضباً، فلما دخل سليمان داره أرسل إليه، فقال: يا آصف ذكرتَ مَن مضى من أنبياء الله، فأثنيت عليهم خيراً في كل زمانهم وعلى كل حال من أمرهم، فلمّا ذكرتني جعلت تثني عليّ بخير في صغري وسكتّ عمّا سوى ذلك من أمري في كبري؟ فما الذي أحدثت في آخر أمري؟ فقال: إن غير الله لَيُعبَد في دارك منذ أربعين صباحاً في هوى امرأة، فقال: في داري؟ فقال: في دارك، فقال: إنّا لله وإنّا إليه راجعون، لقد عرفت أنك ما قلت الذي قلت ذلك إلّا عن شيء بلغك، ثم رجع سليمان إلى داره وكسر ذلك الصنم، وعاقب تلك المرأة وولائدها، ثم أمر بثياب الظهيرة فأتى بها وهي ثياب لا تغزلها إلّا الأبكار ولا تنسجها إلّا الأبكار ولا تغسلها إلّا الأبكار لم تمسسها امرأة قد رأت الدم، ثم لبسها ثم خرج إلى فلاة من الأرض وحده فأمر برماد ففرش له ثم أقبل تائباً إلى الله عزّ وجلّ، حتى جلس على ذلك الرماد وتمعك فيه بثيابه تذلّلاً لله تعالى، وتضرّعاً إليه يبكي ويدعو، ويستغفر مما كان في داره، فلم يزل كذلك يومه حتى أمسى، ثم رجع إلى داره، وكانت له أُم ولد يقال لها الأمينة، كان إذا دخل مذهبه أو أراد إصابة امرأة من نسائه وضع خاتمه عندها حتى يتطهّر، وكان لا يمسّ خاتمه إلّا وهو طاهر، وكان ملكه في خاتمه فوضعه يوماً عندها، ثم دخل مذهبه فأتاها الشيطان صاحب البحر واسمه صخر على صورة سليمان لا تنكر منه شيئاً، فقال: خاتمي أمينة فناولته إيّاه، فجعله في يده ثم خرج حتى جلس على سرير سليمان، وعكفت عليه الطير والجنّ والإنس، وخرج سليمان فأتى الأمينة وقد غيّرت حاله وهيئته عند كل مَن رآه،

ثم رجع سليمان إلى داره فكسر ذلك الصنم وعاقب تلك المرأة وولائدها ثم أمر بثياب الظهيرة فأتى بها وهي ثياب لا يغزلها إلا الأبكار ولا ينسجها إلا الأبكار ولا يغسلها إلا الأبكار لم تمسها يد امرأة قد رأت الدم فلبسها ثم خرج إلى فلاة من الأرض وحده وأمر برماد ففرش له ثم أقبل تائباً إلى الله تعالى حتى جلس على ذلك الرماد وتمعك به في ثيابه تذللاً إلى الله تعالى وتضرعاً إليه يبكي ويدعو ويستغفر مما كان في داره فلم يزل كذلك يومه حتى أمسى ثم رجع إلى داره وكانت له أم ولد يقال لها أمينة كان إذا دخل الخلاء أو أراد إصابة امرأة من نسائه وضع خاتمه عندها حتى يتطهر وكان لا يمسّ خاتمه إلا وهو طاهر وكان ملكه في خاتمه فوضعه يوماً عندها ثم دخل مذهبه، فأتاها شيطان اسمه صخر المارد في صورة سليمان لا تنكر منه شيئاً فقال: خاتمي أمينة فناولته إياه فجعله في يده ثم خرج حتى جلس على سرير سليمان وعكفت عليه الطير والوحش والجن والإنس وخرج سليمان فأتى أمينة وقد تغيرت حالته وهيأته عند كل من رآه فقال: يا أمينة خاتمي قالت من أنت قال سليمان بن داود فقالت كذبت قد جاء سليمان وأخذ خاتمه وهو جالس على سرير ملكه فعرف سليمان أن خطيئته قد أدركته فخرج فجعل يقف على الدار من دور بني إسرائيل فيقول: أنا سليمان بن داود فيحثون عليه التراب ويقولون انظروا إلى هذا المجنون أي شيء يقول يزعم أنه سليمان. فلما رأى سليمان ذلك عمد إلى البحر فكان ينقل الحيتان لأصحاب السوق ويعطونه كل يوم سمكتين فإذ أمسى باع إحدى سمكتيه بأرغفة ويشوي الأخرى فيأكلها.

فمكث على ذلك أربعين صباحاً عدة ما كان يعبد الوثن في داره ثم إن آصف وعظماء بني إسرائيل أنكروا حكم عدو الله الشيطان في تلك المدة فقال آصف يا معشر بني إسرائيل هل رأيتم من اختلاف حكم ابن داود ما رأيتم قالوا

فقال: يا أمينة خاتمي، قالت: مَن أنت؟ قال: أنا سليمان بن داود، قالت: كذبت فقد جاء سليمان فأخذ خاتمه وهو جالس على سرير ملكه، فعرف سليمان أن خطيئته قد أدركته، فخرج فجعل يقف على الدار من دور بني إسرائيل فيقول أنا سليمان بن داود فيحثون عليه التراب ويسبّونه، ويقولون انظروا إلى هذا المجنون أيّ شيء يقول يزعم أنه سليمان، فلما رأى سليمان ذلك عمد إلى البحر، فكان ينقل الحيتان لأصحاب البحر إلى السوق فيعطونه كل يوم سمكتين فإذا أمسى باع إحدى سمكتيه بأرغفة وشوى الأخرى فأكلها، فمكث بذلك أربعين صباحاً عدّة ما كان عبد الوثن في داره، فأنكر آصف وعظماء بني إسرائيل حكم عدوّ الله الشيطان في تلك الأربعين، فقال آصف: يا معشر بني إسرائيل هل رأيتم من اختلاف حكم ابن داود ما رأيت؟ قالوا: نعم، قال: أمهلوني حتى أدخل على نسائه فأسألهنّ فهل أنكرتنّ منه في خاصّة أمره ما أنكرنا في عامّة أمر الناس وعلانيته، فدخل على نسائه، فقال: ويحكنّ هل أنكرتنّ من أمر ابن داود ما أنكرنا؟ فقلن أشدّه ما يدع منّا امرأة في دمها ولا يغتسل من الجنابة، فقال: إنّا لله وإنّا إليه راجعون إن هذا لهو البلاء المبين، ثم خرج على بني إسرائيل فقال ما في الخاصّة أعظم مما في العامّة، فلما مضى أربعون صباحاً طار الشيطان عن مجلسه، ثم مرّ بالبحر فقذف الخاتم فيه فبلعته سمكة فأخذها بعض الصيادين، وقد عمل له سليمان صدر يومه ذلك حتى إذا كان العشي أعطاه سمكتيه وأعطاه السمكة التي أخذت الخاتم، فخرج سليمان بسمكتيه، فباع التي ليس في بطنها الخاتم بالأرغفة، ثم عمد إلى السمكة الأخرى فبقرها ليشويها فاستقبله خاتمه في جوفها، فأخذه فجعله في يده ووقع ساجداً، وعكفت عليه الطير والجنّ وأقبل عليه الناس، وعرف الذي كان قد دخل عليه لما كان قد أحدث في داره، فرجع إلى ملكه وأظهر التوبة من ذنبه، وأمر الشياطين فقال: ائتوني بصخر فطلبته الشياطين حتى أخذته، فأتت به وجاؤوا له بصخرة فنقرها فأدخله فيها ثم سدّ عليه بأخرى، ثم أوثقهما بالحديد والرصاص، ثم أمر به فقذف في البحر. هذا حديث وهب. وقال الحسن: ما كان الله ليسلّط الشيطان على نسائه. وقال السدي: كان سبب قصة سليمان أنه كان له مائة امرأة وكانت امرأة منهنّ يقال

نعم فقال أمهلوني حتى أدخل على نسائه فأسألهن هل أنكرن من خاصة أمره ما أنكرنا في عامة الناس وعلانيتهم فدخل على نسائه فقال: ويحكن هل أنكرتن من ابن داود ما أنكرنا؟ فقلن: أشده ما يدع امرأة منا في دمها ولا يغتسل من الجنابة، فقال: ﴿إنا لله وإنا إليه راجعون﴾. قال الحسن: ما كان الله سبحانه وتعالى ليسلط الشيطان على نساء نبيه ﷺ قال وهب: ثم إن آصف خرج على بني إسرائيل فقال ما في الخاصة أشد مما في العامة فلما مضى أربعون صباحاً طار الشيطان عن مجلسه ثم مر بالبحر فقذف الخاتم فيه فبلعته سمكة فأخذها بعض الصيادين وقد عمل له سليمان صدر يومه فلما أمسى أعطاه سمكتيه فباع سليمان إحداهما بأرغفة وبقر بطن الأخرى ليشويها، فاستقبله خاتمه في جوفها فأخذه وجعله في يده ووقع لله ساجداً وعكفت عليه الطير والجن وأقبل الناس عليه وعرف الذي كان دخل عليه لما كان أحدث في داره فرجع إلى ملكه وأظهر التوبة من ذنبه وأمر الشياطين أن يأتوه بصخر فطلبوه حتى أخذوه فأتي به فأدخله في جوف صخرة وسدَّ عليه بأخرى ثم أوثقها بالحديد والرصاص ثم أمر به فقذفوه في البحر. وقيل في سبب فتنة سليمان عليه الصلاة والسلام أن جرادة كانت أبرَّ نسائه عنده وكان يأتمنها على خاتمه، فقالت له يوماً إن أخي بينه وبين فلان خصومة فأحبَّ أن تقضي له فقال نعم ولم يفعل فابتلي بقوله نعم وذكروا نحو ما تقدم.

وقيل إن سليمان لما افتتن سقط الخاتم من يده فأعاده في يده فسقط وكان فيه ملكه فأيقن سليمان بالفتنة فأتاه آصف فقال: إنك مفتون بذلك والخاتم لا يتماسك في يدك ففرَّ إلى الله تعالى تائباً فإني أقوم مقامك وأسير بسيرتك إلى أن يتوب الله عليك. ففر سليمان إلى الله تعالى تائباً وأعطى آصف الخاتم فوضعه في يده فثبت في يده فأقام آصف في ملك سليمان بسيرته أربعة عشر يوماً إلى أن رد الله تعالى على سليمان ملكه وتاب عليه فرجع إلى ملكه وجلس على سريره وأعاد الخاتم في يده فثبت فهو الجسد الذي ألقي على كرسيه. وروي عن سعيد بن المسيب قال: احتجب سليمان عن الناس ثلاثة أيام فأوحى الله تعالى إليه احتجبت عن الناس ثلاثة أيام فلم تنظر في أمور عبادي فابتلاه الله

لها جرادة هي آثر نسائه وآمنهنّ عنده، وكان يأتمنها على خاتمه إذا أتى حاجته، فقالت له يوماً: إن أخي كان بينه وبين فلان خصومة وأنا أُحبّ أن تقضي له إذا جاءك، فقال: نعم، ولم يفعل فابتلي بقوله لزوجته نعم، فأعطاها خاتمه ودخل المخرج فجاء الشيطان في صورته فأخذه وجلس على مجلس سليمان، وخرج سليمان فسألها خاتمه فقالت: ألم تأخذه؟ قال: لا، وخرج مكانه ومكث الشيطان يحكم بين الناس أربعين يوماً، فأنكر الناس حكمه، فاجتمع قرّاء بني إسرائيل وعلماؤهم حتى دخلوا على نسائه، فقالوا: إنّا قد أنكرنا هذا، فإن كان سليمان فقد ذهب عقله، فبكى النساء عند ذلك فأقبلوا حتى أحْدَقُوا به ونشروا التوراة فقرؤوها فطار من بين أيديهم، حتى وقع على شُرفة والخاتم معه ثم طار حتى ذهب إلى البحر، فوقع الخاتم منه في البحر فابتلعه حوت، وأقبل سليمان حتى انتهى إلى صيّاد من صيّادي البحر وهو جائع قد اشتد جوعه، فاستطعمه من صيده، وقال: إني أنا سليمان فقام إليه بعضهم فضربه بعصاً فشجّه، فجعل يغسل دمه على شاطىء البحر، فلامَ الصيّادون صاحبهم الذي ضربه وأعطوه سمكتين مما قدر عندهم، فشقّ بطونهما وجعل يغسلهما، فوجد خاتمه في بطن إحداهما، فلبسه فردّ الله عليه مُلكه وبهاءه، وحامت عليه الطير فعرف القوم أنه سليمان، فقاموا يعتذرون مما صنعوا، فقال: ما أُؤاخذكم على غدركم ولا ألومكم على ما كان منكم، هذا أمر كائن لا بدّ منه، فلما أتى مملكته أمر جنيّاً أتى بالشيطان الذي أخذ خاتمه وجعله في صندوق من حديد ثم أطبق عليه وأقفل عليه بقفل وختم عليه بخاتمه، وأمر به فأُلقي في البحر وهو حيّ كذلك حتى تقوم الساعة. وفي بعض الروايات: أن سليمان لمّا افتتن سقط الخاتم من يده وكان فيه ملكه فأعاده سليمان إلى يده فسقط فأيقن سليمان بالفتنة، فأتى آصف فقال لسليمان إنك مفتون بذنبك، والخاتم لا يتماسك في يدك أربعة عشر يوماً، ففرّ إلى الله تائباً وإني أقوم مقامك وأسير بسيرتك إلى أن يتوب الله عليك. ففرّ سليمان هارباً

تعالى وذكر نحو ما تقدم من حديث الخاتم وأخذ الشيطان إياه، قال القاضي عياض وغيره من المحققين: لا يصح ما نقله الأخباريون من تشبيه الشيطان به وتسليطه على ملكه وتصرفه في أمته بالجور في حكمه وإن الشياطين لا يسلطون على مثله هذا وقد عصم الله تعالى الأنبياء من مثل هذا، والذي ذهب إليه المحققون أن سبب فتنته ما أخرجاه في الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ «قال سليمان لأطوفن الليلة على تسعين امرأة كلهن تأتي بفارس يجاهد في سبيل الله تعالى فقال له صاحبه قل إن شاء الله فلم يقل إن شاء الله، فطاف عليهن جميعاً فلم تحمل منهن إلا امرأة واحدة جاءت بشق رجل وايم الله الذي نفسي بيده لو قال إن شاء الله لجاهدوا في سبيل الله فرساناً أجمعين» وفي رواية لأطوفنّ بمائة امرأة فقال له الملك قل إن شاء الله فلم يقل ونسي قال العلماء والشق هو الجسد الذي ألقي على كرسيه وهي عقوبته ومحنته لأنه لم يستثن لما استغرقه من الحرص وغلب عليه من التمني وقيل نسي أن يستثني كما صح في الحديث لينفذ أمر الله ومراده فيه وقيل إن المراد بالجسد الذي ألقي على كرسيه أنه ولد له ولد فاجتمعت الشياطين وقال بعضهم لبعض إن عاش له ولد لم ننفك من البلاء فسبيلنا أن نقتل ولده أو نخبله، فعلم بذلك سليمان فأمر السحاب فحمله فكان يربيه في السحاب خوفاً من الشياطين فبينما هو مشتغل في بعض مهماته إذا ألقي ذلك الولد ميتاً على كرسيه فعاتبه الله على خوفه من الشياطين ولم يتوكل عليه في ذلك، فتنبه لخطئه فاستغفر ربه فذلك قوله عز وجل: ﴿**وألقينا على كرسيه جسداً ثم أناب**﴾ أي رجع إلى ملكه بعد الأربعين يوماً وقيل أناب إلى الاستغفار وهو قوله:

﴿قَالَ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَهَبۡ لِي مُلۡكٗا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ ٣٥﴾

﴿**قال ربي اغفر لي**﴾ أي سأل ربه المغفرة ﴿**وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي**﴾ أي لا يكون لأحد من

إلى ربّه وأخذ آصف الخاتم، فوضعه في أصبعه فثبت فهو الجسد الذي قال الله تعالى: ﴿ **وألقينا على كرسيه جسداً** ﴾ فأقام آصف في ملكه يسير بسيرته أربعة عشر يوماً إلى أن ردّ الله على سليمان مُلكه، فجلس على كرسيه وأعاد الخاتم في يده فثبت. ورُوِيَ عن سعيد بن المسيب قال: احتجب سليمان عن الناس ثلاثة أيام فأوحى الله إليه احتجبت عن الناس ثلاثة أيام؟ فلم تنظر في أُمور عبادي؟ فابتلاه الله عزّ وجلّ. وذكر حديث الخاتم وأخذ الشيطان إيّاه كما روينا. وقيل: قال سليمان يوماً لأطوفنّ الليلة على نسائي كلّهنّ فتأتي كل واحدة بابن يجاهد في سبيل الله ولم يستثن فجامعهنّ فما خرج له منهنّ إلاّ شقّ مولود فجاءت به القابلة فألقته على كرسيه، فذلك قوله تعالى: ﴿ **وألقينا على كرسيه جسداً** ﴾. أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا أبو اليمان أنا شعيب ثنا أبو الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «قال سُليمان: لأطوفنّ الليلة على تسعين امرأة كلّهنّ تأتي بفارس يجاهد في سبيل الله، فقال له صاحبه: قل إن شاء الله، فلم يقل ونسي، فطاف عليهنّ فلم تحمل منهنّ إلاّ امرأة واحدة، جاءت بشق رجل، وأيم الله الذي نفس محمد بيده لو قال إن شاء الله لجاهدوا في سبيل الله فرسَاناً أجمعون». وقال طاوس عن أبي هريرة: لأطوفنّ الليلة بمائة امرأة، قال له الملك: قل إن شاء الله، فلم يقل ونسي. وأشهر الأقاويل أن الجسد الذي أُلقي على كرسيّه هو صخر الجني، فذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿ **وألقينا على كرسيه جسداً ثم أناب** ﴾، أي رجع إلى ملكه بعد أربعين يوماً فلما رجع.

﴿**قال ربِّ اغفرْ لي وهبْ لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي**﴾، قال مقاتل وابن كيسان: لا يكون لأحد من بعدي، قال عطاء بن أبي رباح: يريد هبْ لي ملكاً لا تسلبنيه في آخر عمري، وتعطيه غيري كما استلبته في ما

بعدي وقيل لا تسلبنيه في باقي عمري وتعطيه غيري كما سلبته مني فيما مضى من عمري ﴿إنك أنت الوهاب﴾ فإن قلت قول سليمان لا ينبغي لأحد من بعدي مشعر بالحسد والحرص على الدنيا.

قلت لم يقل ذلك حرصاً على طلب الدنيا ولا نفاسة بها ولكن كان قصده في ذلك أن لا يسلط عليه الشيطان مرة أخرى وهذا على قول من قال إن الشيطان استولى على ملكه.

وقيل سأل ذلك ليكون علماً وآية لنبوته ومعجزة دالة على رسالته ودلالة على قبول توبته حيث أجاب الله تعالى دعاءه وردَّ ملكه إليه وزاده فيه وقيل كان سليمان ملكاً ولكنه أحب أن يخص بخاصية كما خص داود بإلانة الحديد وعيسى بإحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص فسأل شيئاً يختص به كما روى في الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال «إن عفريتاً من الجن تفلت علي البارحة ليقطع علي صلاتي فأمكنني الله منه فأخذته فأردت أن أربطه إلى سارية من سواري المسجد حتى تنظروا إليه كلكم فذكرت دعوة أخي سليمان: ﴿رب اغفر لي وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي﴾ فرددته خاسئاً قوله تعالى:

فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَـٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَـٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٠﴾ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَـٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَـٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾

﴿فسخرنا له الريح تجري بأمره رخاء﴾ أي لينة ليست بعاصفة ﴿حيث أصاب﴾ أي حيث أراد ﴿والشياطين﴾ أي وسخرنا له الشياطين ﴿كل بناء﴾ أي يبنون له ما يشاء ﴿وغواص﴾ يعني يستخرجون له اللالىء من البحر وهو أول من استخرج اللؤلؤ من البحر ﴿وآخرين﴾ أي وسخرنا له آخرين وهم مردة الشياطين ﴿مقرنين في الأصفاد﴾ أي مشدودين في القيود سخروا له حتى قرنهم في الأصفاد ﴿هذا عطاؤنا﴾ أي قلنا له هذا عطاؤها ﴿فامنن﴾ أي أحسن إلى من شئت

مضى من عمري. ﴿ إنك أنت الوهّاب ﴾، قيل: سأل ذلك ليكون آية لنبوّته ودلالة على رسالته، ومعجزة، وقيل: سأل ذلك ليكون علماً على قبول توبته حيث أجاب الله دعاءه وردّ إليه مُلكه، وزاده فيه. وقال مقاتل بن حيّان: كان لسليمان ملكاً ولكنه أراد بقول: ﴿ لا ينبغي لأحد من بعدي ﴾ تسخير الرياح والطير والشياطين، بدليل ما بعده، أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل بن بشّار ثنا محمد بن زياد عن شُعبة عن محمد بن زياد عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «إن عفريتاً من الجنّ تفلت البارحة ليقطع عليّ صلاتي فأمكنني الله منه فأخذته فأردت أن أربطه على سارية من سواري المسجد حتى تنظروا إليه كلكم، فذكرت دعوة أخي سليمان: ﴿ ربِّ هبْ لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي ﴾، فرددته خاسئاً».

قوله عزّ وجلّ: ﴿ فسخّرنا له الريح تجري بأمره رخاء ﴾، ليّنة ليست بعاصفة، ﴿ حيث أصاب ﴾، حيث أراد، تقول العرب: أصاب الصواب فأخطأ الجواب، تريد أراد الصواب.

﴿ والشياطين ﴾، أي سخّرنا له الشياطين، ﴿ كل بناء ﴾، يبنون له ما يشاء من محاريب وتماثيل، ﴿ وغواص ﴾، يستخرجون له اللآلىء من البحر، وهو أول مَن استخرج اللؤلؤ من البحر.

﴿ وآخرين مقرنين في الأصفاد ﴾، مشدودين في القيود، أي وسخّرنا له آخرين يعني مَرَدَة الشياطين سخّروا له حتى قرنهم في الأصفاد.

﴿أو أمسك﴾ أي عمن شئت ﴿بغير حساب﴾ أي لا حرج عليك فيما أعطيت ولا فيما أمسكت قال الحسن: ما أنعم الله تعالى على أحد نعمة إلا عليه تبعة إلا سليمان فإنه إن أعطى أجر وإن لم يعط لم تكن عليه تبعة وقيل هذا في أمر الشياطين يعني هؤلاء الشياطين عطاؤنا فامنن على من شئت منهم فخل عنه وأمسك أي احبس من شئت منهم في العمل وقيل في الوثاق لا تبعة عليك فيما تتعاطاه ﴿وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب﴾ لما ذكر الله تعالى ما أنعم به عليه في الدنيا أتبعه بما أنعم به عليه في الآخرة.

قوله عز وجل: ﴿واذكر عبدنا أيوب إذ نادى ربه أني مسني الشيطان بنصب﴾ أي بمشقة ﴿وعذاب﴾ أي ضر وذلك في المال والجسد وقد تقدمت قصة أيوب ﴿اركض﴾ يعني أنه لما انقضت مدة ابتلائه قيل له اركض أي اضرب ﴿برجلك﴾ يعني الأرض ففعل فنبعت عين ماء عذب ﴿هذا مغتسل بارد﴾ أمره الله تعالى أن يغتسل منه ففعل فذهب كل داء كان بظاهره ثم مشى أربعين خطوة فركض برجله الأرض مرة أخرى فنبعت عين ماء عذب أخرى فشرب منه فذهب كل داء كان في باطنه فذلك قوله عز وجل: ﴿وشراب﴾.

وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا
وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾ وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ
أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ
وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾ هَٰذَا ذِكْرٌ ۚ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ﴿٥٠﴾ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ
فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾ ۞ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴿٥٢﴾

﴿ووهبنا له أهله ومثلهم معهم رحمة منا﴾ أي إنما فعلنا ذلك معه على سبيل التفضل والرحمة لا على اللزوم

﴿ هذا عطاؤنا ﴾، أي قلنا له هذا عطاؤنا، ﴿ فامننْ أو أمسك ﴾، المنّ هو الإحسان إلى مَن تشيئه ومَن لا تشيئه، معناه: أعطِ مَن شئت وأمسك عمّن شئت، ﴿ بغير حساب ﴾، لا حرج عليك فيما أعطيت وفيما أمسكت. قال الحسن: ما أنعم الله على أحد نعمة إلّا عليه تَبِعَة، إلّا سليمان فإن أعطى أُجر، وإن لم يُعطِ لم يكن عليه تَبِعَة. وقال مقاتل: هذا في أمر الشياطين، يعني: خلِّ مَن شئت منهم وأمسك مَن شئت في وثاقك لا تَبِعَة عليك فيما تتعاطاه.

﴿ وإنّ له عندنا لزلفى وحُسْن مآب ﴾.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ واذكر عبدنا أيوبَ إذْ نادى ربَّه أنّي مسّني الشيطانُ بنُصب ﴾، بمشقّة وضرّ، قرأ أبو جعفر ﴿ بنصب ﴾، بضمّ النون والصاد، وقرأ يعقوب بفتحهما، وقرأ الآخرون بضمّ النون وسكون الصاد، ومعنى الكل واحد. قال قتادة ومقاتل: بنصب في الجسد، ﴿ وعذاب ﴾، في المال وقد ذكرنا قصة أيوب ومدة ابتلائه في سورة الأنبياء عليهم السلام.

فلما انقضت مدة بلائه قيل له: ﴿ اركضْ برِجْلك ﴾، اضرب رجلك الأرض ففعل فنبعت عين ماء، ﴿ هذا مغتسل ﴾، فأمره الله أن يغتسل منها ففعل فذهب كل داء كان بظاهره، ثم مشى أربعين خطوة فركض الأرض برجله الأخرى فنبعت عين أخرى ماء عذب بارد، فشرب منها فذهب كل داء كان بباطنه، فقوله: ﴿ هذا مُغْتَسلٌ بارد ﴾، يعني الذي اغتسل منه بارد، ﴿ وشراب ﴾ أراد الذي شرب منه.

﴿ ووهبنا له أهله ومثلهم معهم رحمةً منّا وذكرى لأُولي الألباب * وخذْ بيدك ضِغْثاً ﴾، وهو ملء الكفّ من

﴿**وذكرى لأولي الألباب**﴾ يعني سلَّطنا البلاء عليه فصبر، ثم أزلناه عنه وكشفنا ضره فشكر فهو موعظة لذوي العقول والبصائر ﴿**وخذ بيدك ضغثاً**﴾ أي ملء كفك من حشيش أو عيدان أو ريحان ﴿**فاضرب به ولا تحنث**﴾ وكان قد حلف أن يضرب امرأته مائة سوط فشكر الله حسن صبرها معه فأفتاه في ضربها وسهل له الأمر وأمره بأن يأخذ ضغثاً يشتمل على مائة عود صغار فيضربها به ضربة واحدة ففعل ولم يحنث في يمينه وهل ذلك لأيوب خاصة أم لا؟ فيه قولان أحدهما أنه عام.

وبه قال ابن عباس وعطاء بن أبي رباح والثاني أنه خاص بأيوب.

قاله مجاهد واختلف الفقهاء فيمن حلف أن يضرب عبده مائة سوط فجمعها وضربه بها ضربة واحدة.

فقل مالك والليث بن سعد وأحمد لا يبر.

وقال أبو حنيفة والشافعي إذا ضربه ضربة واحدة فأصابه كل صوت على حدة فقد بر واحتجوا بعموم هذه الآية ﴿**إنا وجدناه صابراً**﴾ أي على البلاء الذي ابتليناه به ﴿**نعم العبد إنه أواب**﴾ قوله تعالى: ﴿**واذكر عبادنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب**﴾ أي اذكر صبرهم فإبراهيم ألقي في النار فصبر وإسحاق أضجع للذبح في قول فصبر ويعقوب ابتلي بفقد ولده وذهاب بصره فصبر: ﴿**أولي الأيدي**﴾ قال ابن عباس أولي القوة في طاعة الله تعالى: ﴿**والأبصار**﴾ أي في المعرفة بالله تعالى، وقيل: المراد باليد أكثر الأعمال وبالبصر أقوى الإدراكات فعبر بهما عن العمل باليد وعن الإدراك بالبصر وللإنسان قوتان عالمية وعاملية وأشرف ما يصدر عن القوة العالمية معرفة الله تعالى وأشرف ما يصدر عن القوة العاملية طاعته وعبادته فعبر عن هاتين القوتين بالأيدي والأبصار ﴿**إنا أخلصناهم**﴾ أي اصطفيناهم وجعلناهم لنا خالصين ﴿**بخالصة ذكرى الدار**﴾ قيل معناه أخلصناهم بذكرى الآخرة فليس لهم ذكرى غيرها، وقيل نزعنا من قلوبهم حبَّ الدنيا وذكراها وأخلصناهم بحب الآخرة وذكراها وقيل كانوا يدعون إلى الآخرة وإلى الله تعالى، وقيل أخلصوا بخوف الآخرة وهو الخوف الدائم في القلب وقيل أخلصناهم بأفضل ما في الآخرة ﴿**وإنهم عندنا لمن المصطفين الأخيار**﴾ يعني من الذين اختارهم الله تعالى واتخذهم صفوة وصفاهم من الأدناس والأكدار ﴿**واذكر إسماعيل واليسع وذا الكفل**﴾ أي اذكرهم بفضلهم وصبرهم لتسلك طريقهم ﴿**وكل من الأخيار**﴾ قوله عز وجل: ﴿**هذا ذكر**﴾ أي الذي

الشجر أو الحشيش، ﴿ **فاضرب به ولا تحنث** ﴾، في يمينك وكان قد حلف أن يضرب امرأته مائة سوط فأمره الله أن يأخذ ضغثاً يشتمل على مائة عود صغار ويضربها ضربة واحدة، ﴿ **إنَّا وجدناه صابراً نِعمَ العبد إنَّه أوّاب** ﴾.

﴿ **واذكرْ عبادنا** ﴾، قرأ ابن كثير (عبدنا) علي التوحيد، وقرأ الآخرون ﴿ **عبادنا** ﴾ بالجمع، ﴿ **إبراهيم وإسحاق ويعقوب أُولي الأيدي** ﴾، قال ابن عباس: أولي القوة في طاعة الله، ﴿ **والأبصار** ﴾ في المعرفة بالله أي البصائر في الدين، قال قتادة ومجاهد: أعطوا قوة في العبادة وبصراً في الدين.

﴿ **إنّا أخلصناهم** ﴾، اصطفيناهم، ﴿ **بخالصة ذكرى الدار** ﴾، قرأ أهل المدينة ﴿ **بخالصة** ﴾ مضافاً، وقرأ الآخرون بالتنوين، فمَن أضاف فمعناه: أخلصناهم بذكر الدار الآخرة وأن يعملوا لها، والذكرى بمعنى الذكر، قال مالك بن دينار: نزعنا من قلوبهم حبَّ الدنيا وذكرها، وأَخْلَصْناهم بحبِّ الآخرة وذكرها. وقال قتادة: كانوا يدعون إلى الآخرة وإلى الله عزّ وجلّ. وقال السدي: أخلصوا بخوف الآخرة. وقيل: معناه أخلصناهم بأفضل ما في الآخرة. قال ابن زيد ومَن قرأ بالتنوين: فمعناه بخلّة خالصة، وهي ذكرى الدار، فيكون ذكرى الدار بدلاً عن الخالصة. وقيل: أخلصناهم جعلناهم مخلصين، بما أخبرنا عنهم من ذكر الآخرة.

﴿ **وإنّهم عندنا لَمِنَ المصطفين الأخيار * واذكرْ إسماعيل وآليسع وذا الكفل وكلٌّ من الأخيار * هذا ذكر** ﴾،

يتلى عليكم ذكر وقيل شرف وقيل جميل تذكرون به ﴿وإن للمتقين لحسن مآب﴾ أي حسن مرجع ومنقلب يرجعون وينقلبون إليه في الآخرة ثم ذكر ذلك فقال تعالى: ﴿جنات عدن مفتحة لهم الأبواب﴾ قيل تفتح أبوابها لهم بغير فتح لها بيد بل بالأمر يقال لها انفتحي انغلقي ﴿متكئين فيها يدعون فيها بفاكهة كثيرة وشراب وعندهم قاصرات الطرف أتراب﴾ أي مستويات الأسنان والشباب والحسن بنات ثلاث وثلاثين سنة وقيل متآخيات لا يتباغضن ولا يتغايرن ولا يتحاسدن.

هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾ هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴿٥٨﴾ هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ۖ لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ ۚ إِنَّهُمْ صَالُوا۟ ٱلنَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ ۖ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٦٠﴾

﴿هذا ما توعدون ليوم الحساب﴾ أي قيل للمؤمنين هذا ما توعدون، وقيل هذا ما يوعد به المتقون ﴿إن هذا لرزقنا ما له من نفاد﴾ أي دائم ما له من نفاد وانقطاع بل هو دائم كلما أخذ منه شيء عاد مثله في مكانه.

قوله تعالى: ﴿هذا﴾ أي الأمر الذي ذكرناه ﴿وإن للطاغين﴾ يعني الكافرين ﴿لشر مآب﴾ يعني لشر مرجع يرجعون إليه ثم بينه فقال تعالى: ﴿جهنم يصلونها﴾ أي يدخلونها ﴿فبئس المهاد﴾ أي الفراش ﴿هذا فليذوقوه حميم وغساق﴾ معناه هذا حميم وهو الماء الحار وغساق. قال ابن عباس: هو الزمهرير يحرقهم ببرده كما تحرقهم النار

أي هذا الذي يُتلى عليكم ذكر وقيل ذكر أي شرف وذكر جميل تُذكرون به ﴿ وإنّ للمتّقين لحُسن مآب ﴾.

﴿ جنّاتُ عدنٍ مفتحةً لهم الأبواب ﴾، أي أبوابها مفتّحة لهم.

﴿ متكئين فيها يدعون فيها بفاكهة كثيرة وشراب * وعندهم قاصرات الطرف أتراب ﴾، مستويات الأسنان، بنات ثلاثة وثلاثين سنة، واحدها ترب. وعن مجاهد قال: متواخيات لا يتباغضن ولا يتغايرن.

﴿ هذا ما توعدون ﴾، قرأ ابن كثير (يوعدون) بالياء ههنا وفي [قٓ: ٣٢] أي: ما يوعد المتّقون، وافق أبو عمرو ههنا وقرأ الباقون بالتاء فيهما، أي قل للمؤمنين: هذا ما توعدون، ﴿ ليوم الحساب ﴾، أي في يوم الحساب.

﴿ إن هذا لرزقنا ما له من نفاد ﴾، فناء وانقطاع.

﴿ هذا ﴾ أي الأمر هذا ﴿ وإن للطاغين ﴾، للكافرين، ﴿ لشرّ مآب ﴾، مرجع.

﴿ جهنم يصلونها ﴾، يدخلونها، ﴿ فبئس المهاد ﴾.

﴿ هذا ﴾ أي هذا العذاب، ﴿ فليذوقوه حميمٌ وغساق ﴾، قال الفرّاء: أي هذا حميم وغسّاق فليذوقوه، والحميم الماء الحارّ الذي انتهى حرّه وغسّاق، قرأ حمزة والكسائي وحفص ﴿ وغساق ﴾ حيث كان بالتشديد، وخفّفها الآخرون، فمَن شدّد جعله اسماً على فعال نحو الخبّاز والطبّاخ، ومَن خفّف جعله اسماً على فعال نحو العذاب، واختلفوا في معنى الغسّاق، قال ابن عباس: هو الزمهرير يحرقهم ببرده، كما تحرقهم النار بحرّها. قال مقاتل ومجاهد: هو الذي انتهى برده. وقيل: هو المنتن بلغة الترك. وقال قتادة: هو ما يغسق أي ما يسيل من القيح والصديد من جلود أهل النار ولحومهم وفروج الزناة، من قولهم غسقت عينه إذا انصبّت، والغسقان الانصباب.

﴿ وآخر ﴾، قرأ أهل البصرة ﴿ وآخر ﴾ بضم الألف على جمع أخرى، مثل الكبرى والكبر، واختاره أبو

بحرها وقيل هو ما يسيل من القيح والصديد من جلود أهل النار ولحومهم وفروج الزناة وقيل الغساق عين في جهنم وقيل هو البارد المنتن والمعنى هذا حميم وغساق فليذوقوه ﴿**وآخر من شكله**﴾ أي مثل الحميم والغساق ﴿**أزواج**﴾ أي أصناف أخر من العذاب ﴿**هذا فوج مقتحم معكم**﴾ قال ابن عباس هو أن القادة إذا دخلوا النار ثم دخل بعدهم الأتباع قالت الخزنة للقادة هذا فوج يعني جماعة الأتباع مقتحم معكم النار أي داخلوها كما دخلتموها أنتم قيل إنهم يضربون بالمقامع حتى يقتحموها بأنفسهم خوفاً من تلك المقامع قالت القادة ﴿**لا مرحباً بهم**﴾ أي الأتباع ﴿**إنهم صالو النار**﴾ أي داخلوها كما صليناها نحن ﴿**قالوا**﴾ أي قال الأتباع للقادة ﴿**بل أنتم لا مرحباً بكم**﴾ أي لا رحبت بكم الأرض والعرب تقول مرحباً وأهلاً وسهلاً أي أتيت رحباً وسعة ﴿**أنتم قدمتموه لنا**﴾ يعني وتقول الأتباع للقادة أنتم بدأتم بالكفر قبلنا وشرعتموه لنا وقيل معناه أنتم قدمتم لنا هذا العذاب بدعائكم إيانا إلى الكفر ﴿**فبئس القرار**﴾ أي فبئس دار القرار جهنم.

قَالُواْ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي ٱلنَّارِ ﴿٦١﴾ وَقَالُواْ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴿٦٤﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ ۖ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٦٦﴾ قُلْ هُوَ نَبَؤٌاْ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾

﴿**قالوا**﴾ يعني الأتباع ﴿**ربنا من قدم لنا هذا**﴾ أي شرعه وسنه لنا ﴿**فزده عذاباً ضعفاً في النار**﴾ أي ضعف عليه العذاب في النار.

قال ابن عباس حيات وأفاعي ﴿**وقالوا**﴾ يعني كفار قريش وصناديدهم وأشرافهم وهم في النار ﴿**ما لنا لا نرى رجالاً كنا نعدهم**﴾ أي في الدنيا﴿**من الأشرار**﴾ يعنون بذلك فقراء المؤمنين مثل عمار وخباب وصهيب وبلال

عبيدة لأنه نعته بالجمع، فقال: أزواج، وقرأ الآخرون بفتح الهمزة مشبعة على الواحد، ﴿ **من شكله** ﴾، مثله أي مثل الحميم والغسّاق، ﴿ **أزواج** ﴾، أي أصناف أُخر من العذاب.

﴿ **هذا فوج مقتحم معكم** ﴾، قال ابن عباس: هذا هو أن القادة إذا دخلوا النار ثم دخل بعدهم الأتباع قالت الخَزَنَة للكفّار: هذا يعني الأتباع فوج جماعة مقتحم معكم النار، أي داخلوها كما أنتم دخلتموها، والفوج القطيع من الناس وجمعه أفواج، والاقتحام الدخول في الشيء رمياً بنفسه فيه، قال الكلبي: إنهم يضربون بالمقامع حتى يُوقِعوا أنفسهم في النار خوفاً من تلك المقامع، فقالت القادة: ﴿ **لا مرحباً بهم** ﴾، يعني بالأتباع، ﴿ **إنهم صالوا النار** ﴾ أي داخلوها كما صلينا.

﴿ **قالوا** ﴾، فقال الأتباع للقادة، ﴿ **بل أنتم لا مرحباً بكم** ﴾، والمرحب والرحب السعة، تقول العرب: مرحباً وأهلاً وسهلاً أي أتيت رحباً وسعةً، وتقول: لا مرحباً بك أي لا رحبت عليك الأرض. ﴿ **أنتم قدّمتموه لنا** ﴾، يقول الأتباع للقادة: أنتم بدأتم بالكفر قبلنا وشرعتم وسننتموه لنا. وقيل: أنتم قدّمتم هذا العذاب لنا بدعائكم إيّانا إلى الكفر، ﴿ **فبئس القرار** ﴾، أي فبئس دار القرار جهنم.

﴿ **قالوا** ﴾، يعني الأتباع، ﴿ **ربَّنا مَن قدّم لنا هذا** ﴾، أي شرعه وسنّه لنا، ﴿ **فزدْه عذاباً ضعفاً في النار** ﴾، أي ضعّف عليه العذاب في النار. قال ابن مسعود: يعني حيّات وأفاعي.

﴿ **وقالوا** ﴾، يعني صناديد قريش وهم في النار، ﴿ **ما لنا لا نرى رجالاً كنّا نعدّهم** ﴾، في الدنيا، ﴿ **من**

وسليمان وإنما سموهم أشراراً لأنهم كانوا على خلاف دينهم ﴿أتخذناهم سخرياً أم زاغت عنهم الأبصار﴾ يعني أن الكفار إذا دخلوا النار نظروا فلم يروا فيها الذين كانوا يسخرون منهم فقالوا ما لنا لا نرى هؤلاء الذين اتخذناهم سخرياً لم يدخلوا معنا النار أم دخلوها فزاغت عنهم الأبصار أي أبصارنا فلم نرهم حين دخلوا. وقيل معناه أم هم في النار ولكن احتجبوا عن أبصارنا وقيل معناه أم كانوا خيراً منا ونحن لا نعلم فكانت أبصارنا تزيغ عنهم في الدنيا فلا نعدهم شيئاً ﴿إن ذلك﴾ أي الذي ذكر ﴿الحق﴾ ثم بين ذلك فقال تعالى: ﴿تخاصم أهل النار﴾ أي في النار وإنما سماه تخاصما لأن قول القادة للأتباع لأمر حبا بكم وقول الأتباع للقادة بل أنتم لا مرحباً بكم من باب الخصومة.

قوله عز وجل: ﴿قل﴾ أي يا محمد لمشركي مكة ﴿إنما أنا منذر﴾ أي مخوف ﴿وما من إله إلا الله الواحد﴾ يعني الذي لا شريك له في ملكه ﴿القهار﴾ أي الغالب وفيه شعار بالترهيب والتخويف ثم أردفه بما يدل على الرجاء والترغيب فقال تعالى: ﴿رب السموات والأرض وما بينهما العزيز الغفار﴾ فكونه رباً يشعر بالتربية والإحسان والكرم والجود وكونه غفاراً يشعر بأنه يغفر الذنوب وإن عظمت ويرحم ﴿قل هو نبأ عظيم﴾ يعني القرآن قاله ابن عباس وقيل يعني القيامة.

أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ

﴿الأشرار﴾، يعنون فقراء المؤمنين: عمّاراً وخبّاباً وصُهيباً وبلالاً وسلمان رضي الله عنهم، ثم ذكروا أنهم كانوا يسخرون من هؤلاء، فقالوا:

﴿اتخذناهم سخْرِيّاً﴾، قرأ أهل البصرة وحمزة والكسائي: «من الأشرار اتخذناهم» وَصْلٌ، ويكسرون الألف عند الابتداء، وقرأ الآخرون بقطع الألف وفتحها على الاستفهام، قال أهل المعاني: القراءة الأولى أولى لأنهم علموا أنهم اتخذوهم سخريّاً فلا يستقيم الاستفهام، وتكون أم على هذه القراءة بمعنى بل، ومَن فتح الألف قال هو على اللفظ لا على المعنى ليعادل أم في قوله: ﴿أم زاغت عنهم الأبصار﴾، قال الفرّاء: هذا من الاستفهام الذي معناه التوبيخ والتعجّب، ﴿أم زاغت﴾، أي مالت، ﴿عنهم الأبصار﴾، ومجاز الآية: ما لنا لا نرى هؤلاء الذين اتخذناهم سخريّاً لم يدخلوا معنا النار؟ أم دخلوها فزاغت عنهم أبصارنا فلم نرهم حين دخلوا؟ وقيل: أم هم في النار ولكن احتجبوا عن أبصارنا؟ فقال ابن كيسان: يعني أم كانوا خيراً منّا ولكن نحن لا نعلم، وكانت أبصارنا تزيغ عنهم في الدنيا فلا نعدهم شيئاً.

﴿إن ذلك﴾، الذي ذكرت، ﴿لحقٌّ﴾ ثم بيّن فقال، ﴿تخاصُمُ أهلِ النار﴾، أي تخاصم أهل النار في النار لحقٌّ.

﴿قلْ﴾، يا محمد لمشركي مكة، ﴿إنما أنا منذر﴾، مخوف، ﴿وما من إله إلّا الله الواحد القهّار﴾.

﴿ربّ السموات والأرض وما بينهما العزيز الغفّار﴾.

قوله: ﴿قلْ﴾، يا محمد، ﴿هو﴾، يعني القرآن، ﴿نبأٌ عظيم﴾، قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة، وقيل: هو يعني القيامة لقوله: ﴿عمّ يتساءلون عن النبأ العظيم﴾ [النبأ: ١].

ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾

﴿أنتم عنه معرضون﴾ أي لا تتفكرون فيه فتعلمون صدقي في نبوتي وأن ما جئت به لم أعلمه إلا بوحي من الله تعالى: ﴿ما كان لي من علم بالملأ الأعلى﴾ يعني الملائكة ﴿إذ يختصمون﴾ يعني في شأن آدم حين قال الله تعالى: ﴿إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء﴾ .

فإن قلت كيف يجوز أن يقال إن الملائكة اختصموا بسبب قولهم ﴿أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء﴾ والمخاصمة مع الله تعالى لا تليق ولا تمكن.

قلت لا شك أنه جرى هناك سؤال وجواب وذلك يشبه المخاصمة والمناظرة وهو علة لجواز المجاز فلهذا السبب حسن إطلاق لفظ المخاصمة ﴿إن يوحى إليّ﴾ أي إنما علمت هذه المخاصمة بوحي من الله تعالى إليّ ﴿إلا أنما أنا نذير مبين﴾ يعني إلا أنما أنا نبي أنذركم وأبين لكم ما تأتونه وتجتنبونه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ «أتاني ربي في أحسن صورة قال أحسبه قال في المنام فقال يا محمد هل تدري فيم يختصم الملأ الأعلى قلت لا قال فوضع يده بين كتفي حتى وجدت بردها بين ثديي أو قال في نحري فعلمت ما في السموات وما في الأرض قال يا محمد هل تدري فيم يختصم الملأ الأعلى؟ قلت نعم في الكفارات والكفارات المكث في المساجد بعد الصلوات والمشي على الأقدام إلى الجمعات وإسباغ الوضوء على المكاره ومن فعل ذلك عاش بخير ومات بخير وخرج من خطيئته كيوم ولدته أمه وقال يا محمد إذا صليت فقل: اللهم إني أسألك فعل الخيرات وترك المنكرات وحب المساكين وإذا أردت بعبادك فتنة فاقبضني إليك غير مفتون قال والدرجات إفشاء السلام وإطعام الطعام والصلاة بالليل والناس نيام» وفي رواية «فقلت لبيك وسعديك في المرتين» وفيها «فعلمت ما بين المشرق والمغرب» أخرجه الترمذي وقال حديث حسن غريب.

(فصل: في الكلام على معنى هذا الحديث)

وللعلماء في هذا الحديث وفي أمثاله من أحاديث الصفات مذهبان أحدهما وهو مذهب السلف إمراره كما جاء من غير تكييف ولا تشبيه ولا تعطيل والإيمان به من غير تأويل له والسكوت عنه وعن أمثاله مع الاعتقاد بأن الله تعالى ليس كمثله شيء وهو السميع البصير.

المذهب الثاني: هو تأويل الحديث، وقيل الكلام على معنى الحديث نتكلم على إسناده فنقول قال البيهقي: هذا حديث مختلف في إسناده فرواه زهير بن محمد عن يزيد بن يزيد عن جابر عن خالد بن الحلاج عن

﴿ أنتم عنه مُعرِضون ما كان لي من علم بالملأ الأعلى ﴾، يعني الملائكة، ﴿ إذ يختصمون ﴾ يعني في شأن آدم عليه السلام، حين قال الله تعالى: ﴿ إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها مَن يفسد فيها ﴾ [البقرة: ٣٠].

﴿ إنْ يوحى إليّ إلاّ أنّما أنا نذيرٌ مبين ﴾، قال الفرّاء: إن شئت جعلت ﴿ أنّما ﴾ في موضع رفع أي ما يوحى إليّ إلاّ الإنذار، وإن شئت جعلت المعنى: ما يُوحى إليّ إلاّ أني نذير مبين. وقرأ أبو جعفر: ﴿ إنّما ﴾ بكسر الألف، لأن الوحيَ قولٌ. أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أبو منصور السمعاني ثنا أبو جعفر الرياني ثنا حميد بن زنجويه ثنا هشام بن عمّار ثنا صدقة بن خالد ثنا عبد الرحمن بن يزيد بن جابر قال: مرّ بنا خالد بن الحلاّج

عبد الرحمن بن عائش عن رجل من أصحاب رسول الله ﷺ ورواه جهضم بن عبد الله عن يحيى بن أبي كثير عن زيد بن سلام عن عبد الرحمن بن عائش الحضرمي عن مالك بن عامر عن معاذ بن جبل عن النبي ﷺ، ورواه موسى بن خلف العمي عن يحيى عن زيد عن جده ممطور وهو أبو سلام عن ابن السكسكي عن مالك بن يخامر وقيل فيه غير ذلك، ورواه أبو أيوب عن أبي قلابة عن ابن عباس وقال فيه أحسبه قال في المنام، ورواه قتادة عن أبي قلابة عن خالد بن الحلاج عن ابن عباس قال البخاري عبد الرحمن بن عائش الحضرمي له حديث واحد إلا أنهم يضطربون فيه وهو حديث الرؤية. قال البيهقي وقد روى من طرق كلها ضعاف وفي ثبوته نظر وأحسن طريق فيه رواية جهضم بن عبد الله ثم رواية موسى بن خلف وفيهما ما يدل على أن ذلك كان في المنام.

فأما تأويله فإن الصورة هي التركيب والمصور هو المركب ولا يجوز أن يكون الباري تبارك وتعالى مصوراً ولا أن يكون له صورة لأن الصور مختلفة والهيئات متضادة ولا يجوز إضافة ذلك إليه سبحانه وتعالى فاستحال أن يكون مصوراً وهو الخالق الباري المصور فقوله أتاني ربي في أحسن صورة يحتمل وجهين أحدهما وأنا في أحسن صورة كأنه زاده جمالاً وكمالاً وحسناً عند رؤيته وفائدة ذلك تعريفه لنا أن الله تعالى زين خلقته وحسن صورته عند رؤيته لربه وإنما التغيير وقع بعد لشدة الوحي وثقله.

الوجه الثاني: أن الصورة بمعنى الصفة ويرجع ذلك إلى الله تعالى والمعنى أنه رآه في أحسن صفاته من الإنعام عليه والإقبال والاتصال إليه وأنه تلقاه بالإكرام والإعظام والإجلال. وقد يقال في صفات الله تعالى إنه جميل ومعناه أنه مجمل في أفعاله وذلك نوع من الإحسان والإكرام فذلك من حسن صفة الله تعالى وقد يكون حسن الصورة أيضاً يرجع إلى صفاته العلية من التناهي في العظمة والكبرياء والعلو والعز والرفعة حتى لا منتهى ولا غاية وراءه، ويكون معنى الحديث على هذا تعريفنا ما تزايد من معارفه ﷺ عند رؤية ربه عزَّ وجلَّ فأخبر عن عظمته وعزته وكبريائه وبهائه وبعده عن شبه الخلق وتنزيهه عن صفات النقص وأنه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير وقوله ﷺ «فوضع يده بين كتفي حتى وجدت بردها بين ثديي» فتأويله أن المراد باليد النعمة والمنة والرحمة وذلك شائع في لغة العرب فيكون معناه على هذا الإخبار بإكرام الله تعالى إياه وإنعامه عليه بأن شرح صدره ونور قلبه وعرفه ما لا يعرفه أحد حتى وجد برد النعمة والمعرفة في قلبه وذلك لما نور قلبه وشرح صدره فعلم ما في السموات وما في الأرض بإعلام الله تعالى إياه وإنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون إذ لا يجوز على الله تعالى ولا على صفات ذاته مماسة أو مباشرة أو نقص وهذا هو أليق بتنزيهه وحمل الحديث عليه وإذا حملنا الحديث على المنام وأن ذلك كان في المنام فقد زال الإشكال وحصل الغرض ولا حاجة بنا إلى التأويل.

فدعاه مكحول فقال: يا أبا إبراهيم حدّثنا حديث عبد الرحمن بن عائش، قال: سمعت عبد الرحمن بن عائش الحضرمي يقول: قال النبي ﷺ: «رأيتُ ربّي في أحسن صورة، فقال: فِيمَ يختصم الملأ الأعلى يا محمد؟ قلت: أنت أعلم أيْ ربِّ، مرتين، قال: فوضع كفّه بين كتفي فوجدت بردها بين ثديي، فعلمت ما في السماء والأرض، قال: ثم تلا هذه الآية: ﴿ وكذلك نُري إبراهيمَ ملكوتَ السمٰواتِ والأرضِ وليكونَ من الموقنين ﴾ [الأنعام: ٧٥]، ثم قال: فِيمَ يختصم الملأ الأعلى يا محمد؟ قلت: في الكفّارات، قال: وما هنّ؟ قلت: المشي على الأقدام إلى الجماعات، والجلوس في المساجد خلف الصلوات، وإبلاغ الوضوء أماكنه في المكاره، قال: ومَنْ يفعلْ ذلك يعشْ بخير ويمتْ بخير، ويكنْ من خطيئته كيوم ولدته أُمه، ومن الدرجات إطعام الطعام وبذل السلام وأن يقوم بالليل والناس نيام، قال: قلِ اللّهمَّ إني أسألك الطيباتِ وترك المنكراتِ وحبَّ المساكين، وأن تغفر لي وترحمني وتتوب عليّ وإذا أردتَ فتنةً في قوم فتوفّني غيرَ مفتون، فقال ﷺ: تعلّموهنّ فوالذي نفسي بيده إنهنّ لحق».

ورؤية الباريء عزَّ وجلَّ في المنام على الصفات الحسنة دليل على البشارة والخير والرحمة للرائي وسبب اختصام الملأ الأعلى وهم الملائكة في الكفارات وهي الخصال المذكورة في الحديث في أيها أفضل وسميت هذه الخصال كفارات لأنها تكفر الذنوب عن فاعلها فهي من باب تسمية الشيء باسم لازمه، وإنما سماه مخاصمة لأنه ورد مورد سؤال وجواب وذلك يشبه المخاصمة والمناظرة فلهذا السبب حسن إطلاق لفظ المخاصمة عليه والله تعالى أعلم.

قوله عز وجل: ﴿**إذ قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من طين**﴾ أي آدم ﴿**فإذا سويته**﴾ أي أتممت خلقه ﴿**ونفخت فيه من روحي**﴾ أضاف الروح إلى نفسه إضافة ملك على سبيل التشريف كبيت الله وناقة الله ولأن الروح جوهر شريف قدسي يسري في بدن الإنسان سريان الضوء في الفضاء وكسريان النار في الفحم ﴿**فقعوا له ساجدين فسجد الملائكة كلهم أجمعون إلا إبليس استكبر**﴾ أي تعظم ﴿**وكان من الكافرين قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي**﴾ أي توليت خلقه ﴿**أستكبرت**﴾ أي تعظمت بنفسك عن السجود له ﴿**أم كنت من العالين**﴾ أي من القوم الذين يتكبرون فتكبرت عن السجود لكونك منهم فأجاب إبليس بقوله:

قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴿٨٨﴾

﴿**قال أنا خير منه**﴾ يعني لو كنت مساوياً له في الشرف لكان يقبح أن أسجد له فكيف وأنا خير منه. ثم بين كونه خيراً منه فقال ﴿**خلقتني من نار وخلقته من طين**﴾ والنار أشرف من الطين وأفضل منه وأخطأ إبليس في القياس لأن مآل النار إلى الرماد الذي لا ينتفع به والطين أصل كل ما هو نام ثابت كالإنسان والشجرة المثمرة ومعلوم أن الإنسان والشجرة المثمرة خير من الرماد وأفضل. وقيل: هب أن النار خير من الطين بخاصية فالطين خير منها وأفضل بخواص وذلك مثل رجل شريف نسيب لكنه عار عن كل فضيلة فإن نسبه يوجب رجحانه بوجه واحد، ورجل ليس بنسيب ولكنه فاضل عالم فيكون أفضل من ذلك النسيب بدرجات كثيرة ﴿**قال فاخرج منها**﴾ أي من الجنة وقيل من السماء. وقيل من الخلقة التي كان فيها وذلك لأن إبليس تجبر وافتخر بالخلقة فغير الله تعالى خلقته فاسود وقبح بعد

قوله عزّ وجلّ: ﴿ **إذْ قال ربُّك للملائكة إني خالق بشراً من طين** ﴾، يعني آدم عليه السلام.

﴿ **فإذا سوّيته** ﴾، أتممت خلقه، ﴿ **ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين * فسجد الملائكة كلُّهم أجمعون * إلّا إبليس استكبر وكان من الكافرين * قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيديّ أستكبرت** ﴾، ألف استفهام دخلت على ألف الوصل، ﴿ **أم كنت من العالين** ﴾، المتكبّرين استفهام توبيخ وإنكار، يقول: أستكبرت بنفسك حتى أبيت السجود؟ أم كنت من القوم الذين يتكبّرون فتكبّرت عن السجود لكونك منهم؟

﴿ **قال أنا خيرٌ منه خلقتني من نار وخلقته من طين * قال فاخرجْ منها** ﴾، أي من الجنة، وقيل: من السمٰوات. وقال الحسن وأبو العالية: أي من الخلقة التي أنت فيها. قال الحسن بن الفضل: هذا تأويل صحيح لأن إبليس تجبّر وافتخر بالخلقة، فغيّر الله خلقته فاسودّ وقبح بعد حُسنه، ﴿ **فإنك رجيم** ﴾، مطرود.

حسنه ونورانيته ﴿**فإنك رجيم**﴾ أي مطرود ﴿**وإن عليك لعنتي إلى يوم الدين**﴾ فإن قلت إذا كان الرجم بمعنى الطرد وكذلك اللعنة لزم التكرار فما الفرق.

قلت الفرق أن يحمل الرجم على الطرد من الجنة أو السماء وتحمل اللعنة على معنى الطرد من الرحمة فتكون أبلغ وحصل الفرق وزال التكرار.

فإن قلت كلمة إلى لانتهاء الغاية وقوله إلى يوم الدين يقتضي انقطاع اللعنة عنه عند مجيء يوم الدين.

قلت معناه أن اللعنة باقية عليه في الدنيا فإذا كان يوم القيامة زيد له مع اللعنة من أنواع العذاب ما ينسى بذلك اللعنة فكأنهاانقطعت عنه ﴿**قال رب فأنظرني إلى يوم يبعثون قال فإنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم**﴾ يعني النفخة الأولى ﴿**قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين قال فالحق والحق أقول**﴾ أي أنا أقول الحق وقيل الأول قسم يعني فبالحق وهو الله تعالى أقسم بنفسه ﴿**لأملأن جهنم منك**﴾ أي بنفسك وذريتك ﴿**وممن تبعك منهم أجمعين**﴾ يعني من بني آدم ﴿**قل ما أسألكم عليه**﴾ أي على تبليغ الرسالة ﴿**من أجر**﴾ أي جعل ﴿**وما أنا من المتكلفين**﴾ أي المتقولين القرآن من تلقاء نفسي وكل من قال شيئاً من تلقاء نفسه فقد تكلف له (ق) عن مسروق قال «دخلنا على ابن مسعود فقال يا أيها الناس من علم شيئاً فليقل به ومن لم يعلم فليقل الله أعلم فإن من العلم أن يقول لما لا يعلم الله أعلم قال الله تعالى لنبيه ﷺ ﴿**قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين**﴾ لفظ البخاري ﴿**إن هو**﴾ يعني القرآن﴿**إلا ذكر**﴾أي موعظة﴿**للعالمين**﴾ أي للخلق أجمعين﴿**ولتعلمن**﴾يعني أنتم يا أهل مكة﴿**نبأه**﴾ أي خبر صدقه ﴿**بعد حين**﴾ قال ابن عباس: بعد الموت، وقيل يوم القيامة وقيل من بقي علم بذلك إذا ظهر أمره وعلا ومن مات علمه بعد الموت. وقال الحسن بن آدم عند الموت يأتيك الخبر اليقين والله تعالى أعلم بمراده وأسرار كتابه.

﴿ وإنّ عليك لعنتي إلى يوم الدين * قال ربِّ فأنظرني إلى يوم يبعثون * قال فإنك من المنظَرين * إلى يوم الوقت المعلوم ﴾، وهو النفخة الأولى.

﴿ قال فبعزَّتك لأغوينَّهم أجمعين * إلاّ عبادك منهم المخلصين * قال فالحقُّ والحقَّ أقول ﴾، قرأ عاصم وحمزة ويعقوب: **﴿ فالحق ﴾** برفع القاف على الابتداء وخبره محذوف تقديره: الحق منّي، ونصب الثانية أي: وأنا أقول الحق، قاله مجاهد، وقرأ الآخرون بنصبهما، واختلفوا في وجههما، قيل: نصب الأول على الإغراء كأنه قال: الزم الحق، والثاني بإيقاع القول عليه أي أقول الحق. وقيل: الأول قسم أي فبالحق وهو الله عزّ وجلّ فانتصب بنزع الخافض، وهو حرف الصفة، وانتصاب الثاني بإيقاع القول عليه. وقيل: الثاني تكرار القسم، أقسم الله بنفسه.

﴿ لأملأنّ جهنّم منك وممّن تبعك منهم أجمعين * قلْ ما أسئلكم عليه ﴾، على تبليغ الرسالة، **﴿ من أجْر ﴾**، جعل، **﴿ وما أنا من المتكلفين ﴾**، المتقوّلين القرآن من تلقاء نفسي، وكلّ مَن قال شيئاً من تلقاء نفسه فقد تكلّفه. أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا قتيبة ثنا جرير عن الأعمش عن أبي الضحى عن مسروق قال دخلنا على عبد الله بن مسعود فقال: يا أيها الناس مَن علم شيئاً فليقل به، ومَن لم يعلم فليقل الله أعلم، فإن من العلم أن يقول لما لا يعلم الله أعلم، قال الله تعالى لنبيّه: **﴿ قل ما أسئلكم عليه من أجْر وما أنا من المتكلفين ﴾**.

قوله: **﴿ إن هو ﴾**، ما هو يعني القرآن، **﴿ إلاّ ذكرٌ ﴾**، موعظة، **﴿ للعالمين ﴾**، للخلق أجمعين.

﴿ ولتعلمنّ ﴾، أنتم يا كفّار مكّة، **﴿ نبأه ﴾**، خبر صدقه، **﴿ بعد حين ﴾**، قال ابن عباس وقتادة: بعد الموت. وقال عكرمة: يعني يوم القيامة. وقال الكلبي: مَن بقي علم ذلك إذا ظهر أمره وعلا، ومَن ماتَ عَلِمَهُ بعدَ موته. قال الحسن: ابن آدم عند الموت يأتيك الخبر اليقين.

سورة الزمر

نزلت بمكة إلا قوله تعالى: ﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم﴾ وقوله تعالى: ﴿الله نزل أحسن الحديث﴾ وقيل ﴿قل يا عبادي الذين آمنوا اتقوا ربكم﴾ عوضاً عن قوله ﴿الله نزل أحسن الحديث﴾ وقيل فيها ثلاث آيات مدنيات من قوله: ﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم﴾ إلى قوله: ﴿لا تشعرون﴾ وهي اثنتان وقيل خمس وسبعون آية وألف ومائة واثنتان وسبعون كلمة وأربعة آلاف وتسعمائة وثمانية أحرف.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ
الدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ۚ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ
إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾ لَّوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن
يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ سُبْحَانَهُ ۖ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٤﴾

قوله عز وجل: ﴿**تنزيل الكتاب**﴾ أي هذا الكتاب وهو القرآن تنزيل ﴿**من الله العزيز الحكيم**﴾ أي لا من غيره ﴿**إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق**﴾ أي لم ننزله باطلاً لغير شيء ﴿**فاعبد الله مخلصاً له الدين**﴾ أي الطاعة ﴿**ألا لله الدين الخالص**﴾ أي شهادة أن لا إله إلا الله، وقيل لا يستحق الدين الخالص إلا الله وقيل يعني الخالص من الشرك وما سوى الخالص ليس بدين الله الذي أمر به لأن رأس العبادات الإخلاص في التوحيد وإتباع الأوامر واجتناب النواهي ﴿**والذين اتخذوا من دونه**﴾ أي من دون الله ﴿**أولياء**﴾ يعني الأصنام ﴿**ما نعبدهم**﴾ أي قالوا ما نعبدهم ﴿**إلا ليقربونا إلى الله زلفى**﴾ يعني قربة وذلك أنهم كانوا إذا قيل لهم من خلقكم وخلق السموات والأرض ومن ربكم قالوا الله فقيل لهم فما

سُورَة الزُّمَر

مكيّة إلّا قوله: ﴿ قلْ يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم ﴾ [٥٣] الآية، فمدنيّة، وهي خمس وسبعون آية.

﴿ **تنزيل الكتاب** ﴾، أي هذا تنزيل الكتاب. وقيل: تنزيل الكتاب مبتدأ وخبره، ﴿ **من الله العزيز الحكيم** ﴾، أي تنزيل الكتاب من الله لا من غيره.

﴿ **إنّا أنزلنا إليك الكتاب بالحق** ﴾، قال مقاتل: لم ينزله باطلاً لغير شيء، ﴿ **فاعبدِ اللّهَ مخلصاً له الدين** ﴾، الطاعة.

﴿ **ألا لله الدين الخالص** ﴾، قال قتادة: شهادة أن لا إله إلّا الله. وقيل: لا يستحقّ الدين الخالص إلّا الله. وقيل: الدين الخالص من الشرك هو لله. ﴿ **والذين اتخذوا من دونه** ﴾، أي من دون الله، ﴿ **أولياء** ﴾، يعني

معنى عبادتكم الأصنام فقالوا ليقربونا إلى الله زلفى وتشفع لنا عنده ﴿إن الله يحكم بينهم فيما هم فيه يختلفون﴾ أي من أمر الدين ﴿إن الله لا يهدي﴾ أي لا يرشد لدينه ﴿من هو كاذب﴾ أي من قال إن الآلهة تشفع له ﴿كفار﴾ أي باتخاذه الآلهة دون الله تعالى ﴿لو أراد الله أن يتخذ ولداً لاصطفى﴾ أي لاختار ﴿مما يخلق ما يشاء﴾ يعني الملائكة ثم نزه نفسه فقال تعالى: ﴿سبحانه﴾ أي تنزيهاً له عن ذلك وعما لا يليق بطهارة قلبه﴿وهو الواحد﴾ أي في ملكه الذي لا شريك له ولا ولد ﴿القهار﴾ أي الغالب الكامل القدرة.

خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٥﴾ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۚ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾ إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ ۗ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٧﴾

قوله تعالى: ﴿خلق السموات والأرض بالحق يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل﴾ يعني يغشى هذا هذا، وقيل يدخل أحدهما على الآخر وقيل ينقص من أحدهما ويزيد في الآخر فما نقص من الليل زاد في النهار وما نقص من النهار زاد في الليل ومنتهى النقصان تسع ساعات ومنتهى الزيادة خمس عشرة ساعة وقيل الليل والنهار عسكران عظيمان يكرّ أحدهما على الآخر وذلك بقدرة قادر عليهما قاهر لهما ﴿وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى﴾ يعني إلى يوم القيامة ﴿ألا هو العزيز الغفار﴾ معناه أن خلق هذه الأشياء العظيمة يدل على كونه سبحانه وتعالى عزيزاً كامل القدرة مع أنه غفار عظيم الرحمة والفضل والإحسان ﴿خلقكم من نفس واحدة﴾ يعني آدم ﴿ثم جعل منها زوجها﴾ يعني حواء، ولما ذكر الله تعالى قدرته في خلق السموات والأرض وتكوير الليل على النهار ثم أتبعه بذكر خلق الإنسان عقبه بذكر خلق الحيوان فقال تعالى: ﴿وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج﴾ يعني الإبل والبقر

الأصنام، ﴿ ما نعبدهم ﴾، أي قالوا ما نعبدهم، ﴿ إلّا ليقرّبونا إلى الله زلفى ﴾، وكذلك قرأ ابن مسعود وابن عباس، قال قتادة: وذلك أنهم كانوا إذا قيل لهم: مَنْ ربكم ومَنْ خلقكم ومَنْ خلق السمٰوات والأرض؟ قالوا: الله، فيقال لهم: فما معنى عبادتكم الأوثان؟ قالوا: ليقرّبونا إلى الله زلفى، أي قُربى، وهو اسمٌ أُقيم في مقام المصدر، كأنه قال: إلّا ليقرّبونا إلى الله تقريباً ويشفعوا لنا عند الله، ﴿ إن الله يحكم بينهم ﴾، يوم القيامة، ﴿ فيما هم فيه يختلفون ﴾، من أمر الدين، ﴿ إن الله لا يهدي مَن هو كاذبٌ كفّار ﴾، لا يرشد لدينه من كذب، فقال: إن الآلهة لتشفع وكفى باتخاذ الآلهة دونه كذباً وكفراً.

﴿ لو أراد الله أن يتخذ ولداً لاصطفى ﴾، لاختار، ﴿ مما يخلق ما يشاء ﴾، يعني الملائكة، كما قالوا: لو أردنا أن نتخذ لهواً لاتّخذناه من لدنّا، ثم نزّه نفسه فقال: ﴿ سبحانه ﴾، تنزيهاً له عن ذلك وعمّا لا يليق بطهارته، ﴿ هو الله الواحد القهّار ﴾.

﴿ خلق السمٰواتِ والأرضَ بالحق يكوّر الليل على النهار ويكوّر النهار على الليل ﴾، قال قتادة: يغشي هذا هذا، كما قال: ﴿ يُغْشي الليلَ النّهار ﴾ [الأعراف: ٥٤، الرعد: ٣]، وقيل: يدخل أحدهما على الآخر كما قال: ﴿ يُولج الليلَ في النهار ويُولج النهارَ في الليل ﴾ [فاطر: ١٣]. وقال الحسن والكلبي: يُنقِص من الليل فيزيد

والغنم والمعز والمراد بالأزواج الذكر والأنثى من هذه الأصناف، وفي تفسير الإنزال وجوه. قيل إنه هنا بمعنى الإحداث والإنشاء وقيل إن الحيوان لا يعيش إلا بالنبات والنبات لا يقوم إلا بالماء وهو ينزل من السماء فكان التقدير أنزل الماء الذي تعيش به الأنعام وقيل إن أصول هذه الأصناف خلقت في الجنة ثم أنزلت إلى الأرض ﴿**يخلقكم في بطون أمهاتكم**﴾ لما ذكر الله تعالى أصل خلق الإنسان ثم أتبعه بذكر الأنعام عقبه بذكر حالة مشتركة بين الإنسان والحيوان وهي كونها مخلوقة في بطون الأمهات وإنما قال في بطون أمهاتكم لتغليب من يعقل ولشرف الإنسان على سائر الخلق ﴿**خلقاً من بعد خلق**﴾ يعني نطفة ثم علقة ثم مضغة ﴿**في ظلمات ثلاث**﴾ قال ابن عباس ظلمة البطن وظلمة الرحم وظلمة المشيمة وقيل ظلمة الصلب وظلمة الرحم وظلمة البطن ﴿**ذلكم الله ربكم**﴾ أي الذي خلق هذه الأشياء ربكم ﴿**له الملك**﴾ أي لا لغيره ﴿**لا إله إلا هو**﴾ أي لا خالق لهذا الخلق ولا معبود لهم إلا الله تعالى: ﴿**فأنى تصرفون**﴾ أي عن طريق الحق بعد هذا البيان.

قوله عز وجل: ﴿**إن تكفروا فإن الله غني عنكم**﴾ يعني أنه تعالى ما كلف المكلفين ليجر إلى نفسه نفعاً أو ليدفع عن نفسه ضرراً وذلك لأنه تعالى غني عن الخلق على الإطلاق فيمتنع في حقه جر المنفعة ودفع المضرة ولأنه لو كان محتاجاً لكان ذلك نقصاناً والله تعالى منزه عن النقصان فثبت بما ذكرنا أنه غني عن جميع العالمين فلو كفروا وأصروا عليه فإن الله تعالى غني عنهم ثم قال الله تعالى: ﴿**ولا يرضى لعباده الكفر**﴾ يعني أنه تعالى وإن كان لا ينفعه إيمان ولا يضره كفر إلا أنه لا يرضى لعباده الكفر قال ابن عباس لا يرضى لعباده المؤمنين بالكفر وهم الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿**إن عبادي ليس لك عليهم سلطان**﴾ فعلى هذا يكون عاماً في اللفظ خاصاً في المعنى بقوله ﴿**عينا يشرب بها عباد الله**﴾ يريد بعض عباد الله وأجراه قوم على العموم، وقال لا يرضى لأحد من عباده الكفر ومعنى الآية لا يرضى لعباده أن يكفروا به وهو قول السلف، قالوا: كفر الكافر غير مرضى لله تعالى وإن كان بإرادته لأن الرضا عبارة عن مدح الشيء

في النهار، ويُنقِص من النهار فيزيد في الليل، فما نقص من الليل دخل في النهار وما نقص من النهار دخل في الليل، ومنتهى النقصان تسع ساعات ومنتهى الزيادة خمس عشرة ساعة، وأصل التكوير اللّف والجمع، ومنه: كوّر العمامة. ﴿ **وسخّر الشمسَ والقمرَ كلٌّ يجري لأجلٍ مسمّىً ألا هو العزيزُ الغفّار** ﴾.

﴿ **خلقكم من نفس واحدة** ﴾، يعني آدم، ﴿ **ثم جعل منها زوجها** ﴾، يعني حوّاء، ﴿ **وأنزل لكم من الأنعام** ﴾، معنى الإنزال ههنا: الإحداث والإنشاء، كقوله تعالى: ﴿ أنزلنا عليكم لباساً يُواري ﴾ [الأعراف: ٢٦]، وقيل: إنه أنزل الماء الذي هو سبب نبات القطن الذي يكون منه اللباس، وسبب النبات الذي تبقى به الأنعام. وقيل: ﴿ **وأنزل لكم من الأنعام** ﴾ جعلها لكم نزلاً، ورزقاً. ﴿ **ثمانية أزواج** ﴾، أصناف، مرّ تفسيرها في سورة الأنعام. ﴿ **يخلقكم في بطون أُمّهاتكم خلقاً من بعد خلق** ﴾، نطفة ثم علقة ثم مضغة، كما قال الله تعالى: ﴿ وقد خلقكم أطواراً ﴾ [نوح: ١٤]، ﴿ **في ظلمات ثلاث** ﴾، قال ابن عباس: وظلمة البطن وظلمة الرحم وظلمة المشيمة، ﴿ **ذلكُم اللهُ** ﴾، أي الذي خلق هذه الأشياء، ﴿ **ربّكم له المُلْك لا إله إلاّ هو فأنّى تُصْرَفُون** ﴾، عن طريق الحق بعد هذا البيان.

﴿ **إن تكفروا فإن الله غنيٌّ عنكم ولا يرضى لعباده الكفر** ﴾، قال ابن عباس والسدي: لا يرضى لعباده المؤمنين الكفر، وهم الذين قال الله تعالى: ﴿ إنّ عبادي ليس لك عليهم سلطان ﴾ [الحجر: ٤٢، الإسراء: ٦٥]، فيكون عامّاً في اللفظ خاصّاً في المعنى، كقوله تعالى: ﴿ عيناً يشرب بها عباد الله ﴾ [الإنسان: ٦]، يريد بعض العباد، وأجراه قوم على العموم، وقالوا: لا يرضى لأحد من عباده الكفر، ومعنى الآية: لا يرضى لعباده الكفر أن

والثناء عليه بفعله والله تعالى لا يمدح الكفر ولا يثني عليه ولا يكون في ملكه إلا ما أراد وقد لا يرضى به ولا يمدح عليه وقد بان الفرق بين الإرادة والرضا ﴿وإن تشكروا﴾ أي تؤمنوا بربكم وتطيعوه ﴿يرضه لكم﴾ فيثيبكم عليه ﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾ تقدم بيانه ﴿ثم إلى ربكم مرجعكم﴾ أي في الآخرة ﴿فينبئكم بما كنتم تعملون﴾ أي في الدنيا ﴿إنه عليم بذات الصدور﴾ يعني بما في القلوب، قوله تعالى:

﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلنَّارِ ﴿٨﴾ أَمَّنْ هُوَ قَـٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿٩﴾ قُلْ يَـٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّـٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾

﴿وإذا مس الإنسان ضر﴾ أي بلاء وشدة ﴿دعا ربه منيباً﴾ أي راجعاً ﴿إليه﴾ مستغيثاً به ﴿ثم إذا خوله﴾ أي أعطاه ﴿نعمة منه نسي﴾ أي ترك ﴿ما كان يدعو إليه من قبل﴾ والمعنى نسي الضر الذي كان يدعو الله إلى كشفه ﴿وجعل لله أنداداً﴾ يعني الأصنام ﴿ليضل عن سبيله﴾ أي ليرد عن دين الله تعالى ﴿قل﴾ أي لهذا الكافر ﴿تمتع بكفرك قليلاً﴾ أي في الدنيا إلى انقضاء أجلك ﴿إنك من أصحاب النار﴾ قيل نزلت في عتبة بن ربيعة وقيل في أبي حذيفة المخزومي وقيل هو عام في كل كافر ﴿أمن هو قانت﴾ قيل فيه حذف مجازه كمن هو غير قانت، وقيل مجازه الذي جعل لله أنداداً أخير أم من هو قانت. وقيل معنى الآية تمتع بكفرك إنك من أصحاب النار ويا من هو قانت أنت من أصحاب الجنة. قال ابن عباس: نزلت في أبي بكر وعمر. وعن ابن عمر: أنها نزلت في عثمان. وقيل: إنها نزلت في ابن مسعود وعمار وسلمان وقيل: الآية عامة في كل قانت وهو المقيم على الطاعة، وقال ابن عمر: القنوت قراءة القرآن وطول القيام، وقيل: القانت القائم بما يجب عليه ﴿آناء الليل﴾ أي ساعات الليل أوله ووسطه وآخره ﴿ساجداً وقائماً﴾ أي في الصلاة وفيه دليل على ترجيح قيام الليل على النهار وأنه أفضل منه وذلك لأن الليل أستر فيكون أبعد عن الرياء

يكفروا به، ويُروى ذلك عن قتادة، وهو قول السلف، قالوا: كفر الكافر غير مرضيّ لله عزّ وجلّ، وإن كان بإرادته، ﴿ وإن تشكروا ﴾، تؤمنوا بربكم وتطيعوه، ﴿ يرضَهُ لكم ﴾، فيثيبكم عليه، قرأ أبو عمر (يرضهْ لكم) ساكنة الهاء، ويختلسها أهل المدينة وعاصم وحمزة، والباقون بالإشباع، ﴿ ولا تزر وازرةٌ وِزْرَ أخرى ثمّ إلى ربِّكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم تعملون إنه عليم بذات الصدور ﴾.

﴿ وإذا مسّ الإنسانَ ضرٌّ دعا ربَّه مُنيباً إليه ﴾ راجعاً إليه مستغيثاً به، ﴿ ثم إذا خوّله نعمة منه ﴾، أعطاه نعمة منه، ﴿ نسي ﴾، ترك، ﴿ ما كان يدعو إليه من قبل ﴾، أي نسي الضرّ الذي كان يدعو الله إلى كشفه، ﴿ وجعل لله أنداداً ﴾، يعني الأوثان، ﴿ ليضلّ عن سبيله ﴾، ليزلّ عن دين الله، ﴿ قل ﴾، لهذا الكافر، ﴿ تمتعّ بكفرك قليلاً ﴾، في الدنيا إلى أجلك، ﴿ إنك من أصحاب النار ﴾، قيل: نزلت في عتبة بن ربيعة. وقال مقاتل: نزلت في أبي حذيفة بن المغيرة المخزومي. وقيل: عامّ في كل كافر.

﴿ أمَّنْ هو قانتٌ ﴾، قرأ ابن كثير ونافع وحمزة ﴿ أمَن ﴾ بتخفيف الميم، وقرأ الآخرون بتشديدها، فمَن شدّد فله وجهان، أحدهما: أن تكون الميم في ﴿ أم ﴾ صلة، فيكون معنى الكلام استفهاماً وجوابه محذوفاً، مجازه:

ولأن ظلمة الليل تجمع الهم وتمنع البصر عن النظر إلى الأشياء، وإذا صار القلب فارغاً عن الاشتغال بالأحوال الخارجية رجع إلى المطلوب الأصلي وهو الخشوع في الصلاة ومعرفة من يصلى له، وقيل لأن الليل وقت النوم ومظنّة الراحة فيكون قيامه أشقّ على النفس فيكون الثواب فيه أكثر ﴿**يحذر**﴾ أي يخاف ﴿**الآخرة ويرجو رحمة ربه**﴾ قيل المغفرة وقيل الجنة وفيه فائدة وهي أنه قال في مقام الخوف يحذر الآخرة فلم يضف الحذر إليه تعالى، وقال في مقام الرجاء ويرجو رحمة ربه وهذا يدل على أن جانب الرجاء أكمل وأولى أن ينسب إلى الله تعالى ويعضد. هذا ما روي عن أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه «أن النبي ﷺ دخل على شاب وهو في الموت فقال له كيف نجدك قال أرجو الله يا رسول الله وأخاف ذنوبي فقال رسول الله ﷺ لا يجتمعان في قلب عبد في مثل هذا الموطن إلا أعطاه الله تعالى ما يرجو منه وآمنه مما يخاف أخرجه الترمذي ﴿**قل هل يستوي الذين يعلمون**﴾ أي ما عند الله من الثواب والعقاب ﴿**والذين لا يعلمون**﴾ ذلك، وقيل: الذين يعلمون عمار وأصحابه. والذين لا يعلمون أبو حذيفة المخزومي، وقيل افتتح الله الآية بالعمل وختمها بالعلم لأن العمل من باب المجاهدات والعلم من باب المكاشفات وهو النهاية فإذا حصل للإنسان دلَّ ذلك على كماله وفضله ﴿**إنما يتذكر أولو الألباب**﴾ قوله تعالى: ﴿**قل يا عباد الذين آمنوا اتقوا ربكم**﴾ أي بطاعته واجتناب معاصيه ﴿**للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة**﴾ يعني للذين آمنوا وحسنوا العمل حسنة يعني الجنة وقيل الصحة والعافية في هذه الدنيا ﴿**وأرض الله واسعة**﴾ قال ابن عباس يعني ارتحلوا من مكة وفيه حثّ على الهجرة من البلد الذي يظهر فيه المعاصي وقيل من أمر بالمعاصي في بلد فليهرب منه وقيل نزلت في مهاجري الحبشة وقيل نزلت في جعفر بن أبي طالب: وأصحابه حيث لم يتركوا دينهم لما نزل بهم البلاء وصبروا وهاجروا

أمّن هو قانت كمَن هو غير قانت؟ كقوله: ﴿ أفمن شرحَ اللَّهُ صدْرَهُ للإسلام ﴾ [الزّمر: ٢٢]، يعني كمَن لم يشرح صدره. والوجه الآخر: أنه عطف على الاستفهام، مجازه: الذي جعل لله أنداداً أخيرٌ أم هو قانت؟ ومَن قرأ بالتخفيف فهو ألف استفهام دخلت على معناه: أهذا كالذي جعل لله أنداداً. وقيل: الألف في ﴿ أمن ﴾ بمعنى حرف النداء، تقديره: يا مَن هو قانت، والعرب تنادي بالألف كما تنادي بالياء، فتقول: أبني فلان ويا بني فلان، فيكون معنى الآية: قلْ تمتَّعْ بكفرك قليلاً إنك من أصحاب النار، ويا مَنْ هو قانتٌ ﴿ آناء الليل ﴾، إنك من أهل الجنة، قال ابن عباس، وفي رواية عطاء: نزلت في أبي بكر الصديق. وقال الضحّاك: نزلت في أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، وعن ابن عمر أنها نزلت في عثمان، وعن الكلبي أنها نزلت في ابن مسعود وعمّار وسلمان، والقانت: المقيم على الطاعة. قال ابن عمر: القنوت قراءة القرآن وطول القيام، وآناء الليل: ساعاته، ﴿ **ساجداً وقائماً** ﴾، يعني في الصلاة، ﴿ **يحذر الآخرة** ﴾، يخاف الآخرة، ﴿ **ويرجوا رحمة ربّه** ﴾، يعني كمَن لا يفعل شيئاً من ذلك، ﴿ **قلْ هلْ يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون** ﴾، قيل الذين يعلمون عمّار، والذين لا يعلمون أبو حذيفة المخزومي، ﴿ **إنما يتذكّر أُولوا الألباب** ﴾.

﴿ **قلْ يا عبادِ الذين آمنوا اتقوا ربّكم** ﴾، بطاعته واجتناب معاصيه، ﴿ **للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة** ﴾، أي آمنوا وأحسنوا العمل، حسنة يعني الجنة، قاله مقاتل. وقال السدي: في هذه الدنيا حسنة يعني الصحة والعافية، ﴿ **وأرض الله واسعة** ﴾، قال ابن عباس: يعني ارتحلوا من مكة. وفيه حثٌّ على الهجرة من البلد الذي يظهر فيه المعاصي. وقيل: نزلت في مُهاجِري الحبشة. وقال سعيد بن جبير: مَن أمر بالمعاصي ببلد فليهرب منها إلى غيرها. ﴿**إنما يُوفَّى الصابرون أجرهم بغير حساب**﴾، الذين صبروا على دينهم فلم يتركوه للأذى. وقيل: نزلت في جعفر بن أبي طالب وأصحابه، حيث لم يتركوا دينهم لما اشتدّ بهم البلاء، وصبروا وهاجروا. قال عليّ رضي الله عنه: كل مطيع يُكال له كيلاً ويوزن له وزناً إلّا الصابرين، فإنه يحثى لهم حثياً. ويُروى: «يؤتى بأهل

﴿إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب﴾ قال علي بن أبي طالب كل مطيع يكال له كيلاً ويوزن له وزناً إلا الصابرين فإنه يحثي لهم حثياً. وروي أنه يؤتى بأهل البلاء فلا ينصب لهم ميزان ولا ينشر لهم ديوان ويصب عليهم الأجر صباً بغير حساب حتى يتمنى أهل العافية في الدنيا لو أن أجسادهم تقرض بالمقاريض لما يذهب به أهل البلاء من الفضل.

قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِي ﴿١٤﴾ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ ۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴿١٦﴾

قوله عز وجل: ﴿قل﴾ يا محمد ﴿إني أمرت أن أعبد الله مخلصاً له الدين﴾ أي مخلصاً له التوحيد أي لا أشرك به شيئاً ﴿وأمرت لأن أكون أول المسلمين﴾ أي من هذه الأمة قيل أمره أولاً بالإخلاص وهو من عمل القلب ثم أمره ثانياً بعمل الجوارح لأن شرائع الله تعالى لا تستفاد إلا من الرسول ﷺ وهو المبلغ فكان هو أول الناس شروعاً فيها فخص الله سبحانه وتعالى رسوله ﷺ بهذا الأمر لينبه على أن غيره أحق بذلك فهو كالترغيب لغيره ﴿قل إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم﴾ وذلك أن كفار قريش قالوا للنبي ﷺ ما حملك على هذا الذي أتيتنا به ألا تنظر إلى ملة أبيك وجدك وقومك فتأخذ بها فأنزل الله تعالى هذه الآيات ومعنى الآية زجر الغير عن المعاصي لأنه مع جلالة قدره وشرف طهارته ونزاهته ومنصب نبوته إذا كان خائفاً حذراً من المعاصي فغيره أولى بذلك ﴿قل الله أعبد مخلصاً له ديني﴾ فإن قلت ما معنى التكرار في قوله ﴿قل إني أمرت أن أعبد الله مخلصاً له الدين﴾ وفي قوله ﴿قل الله أعبد مخلصاً له ديني﴾. قلت هذا ليس بتكرار لأن الأول الإخبار بأنه مأمور من جهة الله تعالى بالإتيان بالعبادة والإخلاص، والثاني أنه إخبار بأنه أمر أن يخص الله تعالى وحده بالعبادة ولا يعبد أحداً غيره مخلصاً له دينه، لأن قوله ﴿أمرت أن أعبد الله﴾ لا يفيد الحصر وقوله: ﴿الله أعبد﴾ يفيد الحضر والمعنى الله أعبد ولا أعبد أحداً غيره ثم أتبعه بقوله ﴿فاعبدوا ما شئتم من دونه﴾ ليس أمراً بل المراد منه الزجر والتهديد والتوبيخ ثم بين كمال الزجر بقوله ﴿قل إن الخاسرين الذين سخروا أنفسهم وأهليهم﴾ يعني أزواجهم وخدمهم ﴿يوم القيامة﴾ قال ابن عباس: وذلك أن الله تعالى جعل لكل إنسان منزلاً وأهلاً في الجنة فمن عمل بطاعة الله تعالى كان ذلك المنزل والأهل ومن عمل بمعصية الله تعالى دخل النار وكان ذلك المنزل والأهل لغيره ممن عمل بطاعة الله تعالى فخسر نفسه وأهله ومنزله وقيل خسران النفس بدخول النار وخسران الأهل بأن يفرق بينه وبين أهله ﴿ألا ذلك هو الخسران المبين لهم من فوقهم ظلل من النار﴾ أي أطباق وسرادقات

البلاء فلا ينصب لهم ميزان ولا ينشر لهم ديوان، ويصبّ عليهم الأجْر صبّاً بغير حساب»، قال الله تعالى: ﴿ **إنّما يوفّى الصابرون أجرهم بغير حساب** ﴾، حتى يتمنى أهل العافية في الدنيا أن أجسادهم تقرض بالمقاريض مما يذهب به أهل البلاء من الفضل.

﴿ **قلْ إني أُمرتُ أن أعبدَ اللَّهَ مخلصاً له الدين** ﴾، مخلصاً له التوحيد لا أُشرك به شيئاً.

﴿ **وأُمرت لأن أكون أول المسلمين** ﴾، من هذه الأمة.

﴿ **قلْ إني أخاف إن عصيت ربّي** ﴾، وعبدت غيره، ﴿ **عذاب يوم عظيم** ﴾، وهذا حين دُعِيَ إلى دين آبائه.

﴿ **قل اللَّهَ أعبدُ مخلصاً له ديني * فاعبدُوا ما شئتم من دونه** ﴾، أمر توبيخ وتهديد، كقوله: ﴿**اعملوا ما شئتم**﴾ [فصّلت: ٤٠]، ﴿**قلْ إنّ الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم**﴾، أزواجهم وخدمهم، ﴿**يوم القيامة ألا ذلك هو**

﴿ومن تحتهم ظلل﴾ أي فراش ومهاد وقيل أحاطت النار بهم من جميع الجهات والجوانب.

فإن قلت الظلة ما فوق الإنسان فكيف سمي ما تحته بالظلة، قلت فيه وجوه الأول أنه من باب إطلاق اسم أحد الضدين على الآخر. الثاني أن الذي تحته من النار يكون ظلة لآخر تحته في النار لأنها دركات. الثالث أن الظلة التحتانية لما كانت مشابهة للظلة الفوقانية في الإيذاء والحرارة سميت باسمها لأجل المماثلة والمشابهة ﴿ذلك يخوف الله به عباده﴾ أي المؤمنين لأنهم إذا سمعوا حال الكفار في الآخرة خافوا فأخلصوا التوحيد والطاعة لله عز وجل وهو قوله تعالى: ﴿يا عباد فاتقون﴾ أي فخافون. قوله تعالى:

﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ
فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿١٨﴾ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنتَ
تُنقِذُ مَن فِي النَّارِ ﴿١٩﴾ لَٰكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ
اللَّهُ الْمِيعَادَ ﴿٢٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ
يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٢١﴾﴾

﴿والذين اجتنبوا الطاغوت﴾ يعني الأوثان ﴿أن يعبدوها وأنابوا إلى الله﴾ أي رجعوا إلى عبادة الله تعالى بالكلية وتركوا ما كانوا عليه من عبادة غيره ﴿لهم البشرى﴾ أي في الدنيا وفي الآخرة أما في الدنيا فالثناء عليهم بصالح أعمالهم وعند نزول الموت وعند الوضع في القبر، وأما في الآخرة فعند الخروج من القبر وعند الوقوف للحساب وعند جواز الصراط وعند دخول الجنة وفي الجنة ففي كل موقف من هذه المواقف تحصل لهم البشارة بنوع من الخير والراحة والروح والريحان ﴿فبشر عبادي الذين يستمعون القول﴾ يعني القرآن ﴿فيتبعون أحسنه﴾ أي أحسن ما يؤمرون

الخسران المبين ﴾، قال ابن عباس: وذلك أن الله جعل لكل إنسان منزلاً في الجنة وأهلاً، فمَن عمل بطاعة الله كان ذلك المنزل والأهل له، ومَن عمل بمعصية الله دخل النار، وكان ذلك المنزل والأهل لغيره ممّن عمل بطاعة الله. وقيل: خسران النفس بدخول النار، وخسران الأهل بأن يفرّق بينه وبين أهله، وذلك هو الخسران المبين.

﴿ لهم من فوقهم ظلل من النار ﴾، أطباق سرادقات من النار ودخانها، ﴿ ومن تحتهم ظلل ﴾، فراش ومهاد من نار إلى أن ينتهي إلى القعر، سُمِّي الأسفل ظللاً لأنها ظلل لمَن تحتهم نظيرها قوله عزّ وجلّ: ﴿ لهم من جهنّم مهادٌ ومن فوقهم غَوَاشٌ ﴾ [الأعراف: ٤١]. ﴿ ذلك يخوّف الله به عباده يا عبادِ فاتّقون ﴾.

﴿ والذين اجتنبوا الطاغوت ﴾، الأوثان، ﴿ أن يعبدوها وأنابوا إلى الله ﴾، رجعوا إلى عبادة الله، ﴿ لهم البشرى ﴾، في الدنيا بالجنة وفي العقبى بالمغفرة، ﴿ فبشّر عبادِ * الذين يستمعون القول ﴾، القرآن، ﴿ فيتبعون أحسنه ﴾، قال السدي: أحسن ما يؤمرون به فيعملونه، وقيل: هو أن الله ذكر في القرآن الانتصار من الظالم وذكر العفو، والعفو أحسن الأمرين. وقيل: ذكر العزائم. وقيل: يستمعون القرآن وغير القرآن فيتّبعون القرآن. وقال عطاء عن ابن عباس: آمن أبو بكر بالنبي ﷺ فجاءه عثمان وعبد الرحمن بن عوف وطلحة والزبير وسعد بن أبي وقاص وسعيد بن زيد، فسألوه فأخبرهم بإيمانه فآمنوا، فنزلت فيهم: ﴿ فبشّرْ عبادِ * الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ﴾، وكله حسن. ﴿ أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب ﴾، وقال ابن زيد: نزلت ﴿ والذين اجتنبوا الطاغوت ﴾ الآيتان، في ثلاثة نفر كانوا في الجاهلية يقولون: لا إله إلاّ الله، زيد بن عمرو بن نفيل وأبو ذرٍّ الغفاري وسلمان الفارسي. والأحسن: قولُ لا إله إلاّ الله.

به فيعملون به وهو أن الله تعالى ذكر في القرآن الانتصار من الظالم وذكر العفو عنه والعفو أحسن الأمرين وقيل ذكر العزائم والرخص فيتبعون الأحسن وهو العزائم وقيل يستمعون القرآن وغيره من الكلام فيتبعون القرآن لأنه كله حسن وقال ابن عباس رضي الله عنهما لما أسلم أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه جاءه عثمان وعبد الرحمن بن عوف وطلحة والزبير وسعد بن أبي وقاص وسعيد بن زيد فسألوه فأخبرهم بإيمانه فآمنوا فنزلت فيهم ﴿**فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه**﴾ وقيل نزلت هذه الأية في ثلاثة نفر كانوا في الجاهلية يقولون لا إله إلا الله وهم زيد بن عمرو وأبو ذر وسلمان الفارسي ﴿**أولئك الذين هداهم الله**﴾ أي إلى عبادته وتوحيده ﴿**وأولئك هم أولو الألباب أفمن حق عليه كلمة العذاب**﴾ قال ابن عباس: سبق في علم الله تعالى أنه في النار وقيل كلمة العذاب قوله ﴿**لأملأن جهنم**﴾ وقيل قوله هؤلاء في النار ولا أبالي ﴿**أفأنت تنقذ من في النار**﴾ أي لا تقدر عليه، قال ابن عباس رضي الله عنهما: يريد أبا لهب وولده ﴿**لكن الذين اتقوا ربهم لهم غرف من فوقها غرف مبنية**﴾ أي منازل في الجنة رفيعة وفوقها منازل هي أرفع منها ﴿**تجري من تحتها الأنهار وعد الله لا يخلف الله الميعاد**﴾ أي وعدهم آلله تلك الغرف والمنازل وعداً لا يخلفه (ق) عن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال «إن أهل الجنة يتراءون أهل الغرف من فوقهم كما تتراءون الكوكب الدري الغابر في الأفق من المشرق أو المغرب لتفاضل ما بينهم فقالوا يا رسول الله تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم قال بلى والذي نفسي بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين» قوله الغابر أي الباقي في الأفق أي في ناحية المشرق أو المغرب.

قوله تعالى: ﴿**ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فسلكه**﴾ أي أدخل ذلك الماء ﴿**ينابيع في الأرض**﴾ أي عيوناً وركايا ومسالك ومجاري في الأرض كالعروق في الجسد قال الشعبي كل ماء في الأرض فمن السماء نزل ﴿**ثم يخرج به**﴾ أي بالماء ﴿**زرعاً مختلفاً ألوانه**﴾ أي مثل أصفر وأخضر وأحمر وأبيض وقيل أصنافه مثل البر والشعير وسائر أنواع الحبوب ﴿**ثم يهيج**﴾ أي ييبس ﴿**فتراه**﴾ أي بعد خضرته ونضرته ﴿**مصفراً ثم يجعله حطاماً**﴾ أي فتاتاً متكسراً ﴿**إن في ذلك لذكرى لأولي الألباب**﴾ قوله عز وجل:

﴿ **أفمن حقّ عليه كلمة العذاب** ﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما: مَن سبق في علم الله أنه من أهل النار. وقيل: كلمة العذاب قوله: ﴿ لأملأنّ جهنّم ﴾ [السجدة: ١٣] وقيل: كلمة العذاب قوله: «هؤلاء في النار ولا أبالي». ﴿ **أفأنت تنقذ مَن في النار** ﴾، أي لا تقدر عليه. قال ابن عباس: يريد أبا لهب وولده.

﴿ **لكن الذين اتقوا ربّهم لهم غُرَفٌ من فوقها غُرَفٌ مبنيّة** ﴾، أي منازل في الجنة رفيعة وفوقها منازل أرفع منها، ﴿ **تجري من تحتها الأنهار وعد الله لا يخلف الله الميعاد** ﴾، أي وعدهم الله تلك الغُرف والمنازل وعداً لا يخلفه، أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل حدّثني عبد العزيز بن عبد الله حدّثني مالك عن صفوان بن سليم عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال: «إن أهل الجنة يتراءون أهل الغرف من فوقهم كما تتراءون الكوكب الدرّي الغابر في الأفق من المشرق أو المغرب لتفاضل ما بينهم»، قالوا: يا رسول الله تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم، قال: «بلى والذي نفسي بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين».

قوله عزّ وجلّ: ﴿ **ألم تَرَ أن الله أنزل من السماء ماءً فسلكه** ﴾، أدخل ذلك الماء، ﴿ **ينابيع** ﴾، عيوناً وركاياً، ﴿ **في الأرض** ﴾، قال الشعبي: كل ماء في الأرض فمن السماء نزل، ﴿ **ثم يخرج به** ﴾، بالماء ﴿ **زرعاً مختلفاً ألوانه** ﴾، أحمر وأصفر وأخضر، ﴿ **ثم يهيج** ﴾، ييبس، ﴿ **فتراه** ﴾، بعد خُضرته ونضرته، ﴿ **مصفرّاً ثم يجعله حطاماً** ﴾، فتاتاً متكسّراً، ﴿ **إن في ذلك لذكرى لأولي الألباب** ﴾.

أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾

﴿أفمن شرح الله صدره﴾ أي وسعه **﴿للإسلام﴾** وقبول الحق كمن طبع الله تعالى على قلبه فلم يهتد **﴿فهو على نور من ربه﴾** أي على يقين وبيان وهداية.

روى البغوي بإسناد الثعلبي عن ابن مسعود قال «تلا رسول الله ﷺ أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه قلنا يا رسول الله كيف انشراح صدره قال إذا دخل النور القلب انشرح وانفسح قلنا يا رسول الله فما علامات ذلك قال الإنابة إلى دار الخلود والتجافي عن دار الغرور والتأهب للموت قبل نزول الموت» **﴿فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله﴾** القسوة جمودة وصلابة تحصل في القلب.

فإن قلت كيف يقسو القلب عن ذكر الله وهو سبب لحصول النور والهداية؟

قلت إنهم كلما تلي ذكر الله على الذين يكذبون به قست قلوبهم عن الإيمان به وقيل إن النفس إذا كانت خبيثة الجوهر كدرة العنصر بعيدة عن قبول الحق فإن سماعها لذكر الله لا يزيدها إلا قسوة، وكدورة كحر الشمس يلين الشمع ويعقد الملح فكذلك القرآن يلين قلوب المؤمنين عن سماعه ولا يزيد الكافرين إلا قسوة قال مالك بن ديار ما ضرب عبد بعقوبة أعظم من قسوة القلب، وما غضب الله تعالى على قوم إلا نزع منهم الرحمة **﴿أولئك في ضلال مبين﴾** قيل: نزلت هذه الآية في أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه وفي أبي بن خلف، وقيل: في علي وحمزة وفي أبي لهب وولده وقيل في رسول الله ﷺ وفي أبي جهل.

قوله عزّ وجلّ: **﴿ أفمن شرح الله صدره للإسلام ﴾**، وسعه لقبول الحق، **﴿ فهو على نور من ربه ﴾**، كمَن أقسى الله قلبه، أخبرنا أبو سعيد أحمد بن إبراهيم الشريحي أنا أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي أنا ابن فنجويه ثنا عبد الله بن محمد بن شيبة ثنا أبو جعفر محمد بن الحسن الموصلي ببغداد أنا أبو فروة واسمه يزيد بن محمد حدّثني أبي عن أبيه ثنا زيد بن أبي أنيسة عن عمرو بن مرّة عن عبد الله بن الحارث عن عبد الله بن مسعود قال: تلا رسول الله ﷺ: **﴿ أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربّه ﴾** قلنا: يا رسول الله كيف انشراح صدره؟ قال: «إذا دخل النور القلب انشرح وانفسح»، قلنا: يا رسول الله وما علامة ذلك؟ قال: «الإنابة إلى دار الخلود والتجافي عن دار الغرور والتأهّب للموت قبل نزول الموت». قوله عزّ وجلّ: **﴿ فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله أولئك في ضلال مبين ﴾**، قال مالك بن دينار ما ضرب عبد بعقوبة أعظم من قسوة قلب، وما غضب الله عزّ وجلّ على قوم إلّا نزع منهم الرحمة.

قوله عزّ وجلّ: **﴿ الله نزّل أحسنَ الحديثَ كتاباً متشابهاً ﴾**، يشبه بعضه بعضاً في الحُسْن، ويصدق بعضه بعضاً ليس فيه تناقض ولا اختلاف، **﴿ مثاني ﴾**، يُثنّى فيه ذكر الوعد والوعيد والأمر والنهي والأخبار والأحكام، **﴿ تقشعرّ ﴾**، تضطرب وتشمئز، **﴿ منه جلود الذين يخشون ربّهم ﴾**، والإقشعرار تغيّر في جلد الإنسان عند الوجل والخوف، وقيل: المراد من الجلود القلوب أي قلوب الذين يخشون ربّهم، **﴿ ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ﴾**، أي لذكر الله، أي إذا ذكرت آيات العذاب اقشعرّت جلود الخائفين لله، وإذا ذكرت آيات الرحمة لانت وسكنت قلوبهم، كما قال الله تعالى: **﴿ ألَا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾** [الرعد: ٢٨]، وحقيقة المعنى إمّا أن

قوله عز وجل: ﴿الله نزل أحسن الحديث﴾ يعني القرآن وكونه أحسن الحديث لوجهين أحدهما من جهة اللفظ والآخر من جهة المعنى، أما الأول فلأن القرآن من أفصح الكلام وأجزله وأبلغه وليس هو من جنس الشعر ولا من جنس الخطب والرسائل بل هو نوع يخالف الكل في أسلوبه، وأما الوجه الثاني وهو كون القرآن من أحسن الحديث لأجل المعنى فلأنه كتاب منزه عن التناقض والاختلاف مشتمل على أخبار الماضين وقصص الأولين وعلى أخبار الغيوب الكثيرة وعلى الوعد والوعيد والجنة والنار ﴿كتاباً متشابهاً﴾ أي يشبه بعضه بعضاً في الحسن ويصدق بعضه بعضاً ﴿مثاني﴾ أي يثني فيه ذكر الوعد والوعيد والأمر والنهي والأخبار والأحكام ﴿تقشعر﴾ أي تضطرب وتشمئز ﴿منه جلود الذين يخشون ربهم﴾ والمعنى تأخذهم قشعريرة وهي تغيير يحدث في جلد الإنسان عند ذكر الوعيد والوجل والخوف. وقيل المراد من الجلود القلوب أي قلوب الذين يخشون ربهم ﴿ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله﴾ أي لذكر الله تعالى قيل إذا ذكرت آيات الوعيد والعذاب اقشعرت جلود الخائفين لله وإذا ذكرت آيات الرعد والرحمة لانت جلودهم وسكنت قلوبهم وقيل حقيقة المعنى أن جلودهم تقشعر عند الخوف وتلين عند الرجاء. روي عن العباس بن عبد المطلب قال: قال رسول الله ﷺ «إذا اقشعر جلد العبد من خشية الله تعالى تحاتت عنه ذنوبه كما يتحات عن الشجرة اليابسة ورقها» وفي رواية «حرمه الله تعالى على النار» قال بعض العارفين: السيارون في بيداء جلال الله إذا نظروا إلى عالم الجلال طاشوا وإذا لاح لهم جمال من عالم الجمال عاشوا. وقال قتادة: هذا نعت أولياء الله الذي نعتهم الله به بأن تقشعر جلودهم وتطمئن قلوبهم بذكر الله ولم ينعتهم بذهاب عقولهم والغشيان عليهم إنما ذلك في أهل البدع وهو من الشيطان، وروي عن عبد الله بن عروة بن الزبير قال «قلت لجدتي أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنهما كيف كان أصحاب رسول الله ﷺ يفعلون إذا قرىء عليهم القرآن؟ قالت: كانوا كما نعتهم الله عز وجل تدمع أعينهم وتقشعر جلودهم، قال عبد الله: فقلت لها إن ناساً اليوم إذا قرىء عليهم القرآن خرَّ أحدهم مغشياً عليه، قالت: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم» وروي أن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما مرَّ برجل من أهل العراق ساقط فقال ما بال هذا قالوا إنه إذا قرىء عليه القرآن أو سمع ذكر الله سقط فقال ابن عمر: إنا لنخشى الله وما نسقط وقال ابن عمر: إن الشيطان يدخل في جوف أحدهم ما كان هذا صنيع أصحاب محمد ﷺ. وذكر عن ابن سيرين الذين يصرعون إذا قرىء عليهم القرآن فقال بيننا وبينهم أن يقعد أحدهم على ظهر بيت باسطاً رجليه ثم يقرأ عليه

قلوبهم تقشعرّ من الخوف وتلين عند الرجاء، أخبرنا أبو سعيد الشريحي أنا أبو إسحاق الثعلبي أخبرني الحسين بن محمد ثنا محمد بن موسى بن محمد بن علي ثنا محمد بن عبدوس بن كامل ثنا يحيىٰ بن عبد الحميد الحمامي ثنا عبد العزيز بن محمد عن يزيد بن الهادي عن محمد بن إبراهيم التيمي عن أُم كلثوم بنت عمر عن العباس بن عبد المطّلب قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا اقشعرّ جلد العبد من خشية الله تحاتّتْ عنه ذنوبُه كما يتحاتُّ عن الشجرة اليابسة ورقُها». أخبرنا أبو سعيد الشريحي أنا أبو إسحاق الثعلبي أخبرني الحسين بن محمد ثنا أحمد بن جعفر بن حمدان ثنا موسى بن إسحاق الأنصاري ثنا محمد بن معاوية ثنا الليث بن سعد ثنا يزيد بن عبد الله بن الهاد بهذا الإسناد، وقال: «إذا اقشعرّ جلد العبد من خشية الله حرّمه الله على النار» قال قتادة: هذا نعت أولياء الله نعتهم الله بأن تقشعرّ جلودهم وتطمئن قلوبهم بذكر الله، ولم ينعتهم بذهاب عقولهم والغشيان عليهم إنما ذلك في أهل البدع، وهو من الشيطان. أخبرنا أبو سعيد الشريحي أنا أبو إسحاق الثعلبي أنا الحسين بن محمد بن فنجويه ثنا ابن شيبة ثنا حمدان بن داود ثنا سلمة بن شيب ثنا خلف بن سلمة ثنا هشيم عن حصين عن عبد الله بن عروة بن الزبير قال: قلت لجدّتي أسماء بنت أبي بكر: كيف كان أصحاب رسول الله ﷺ يفعلون إذا قُرِىء القرآن؟ قالت: كانوا كما نعتهم الله عزّ وجلّ تدمع أعينهم وتقشعرّ جلودهم، قال فقلت لها: إنّ ناساً اليوم إذا قرىء عليهم القرآن خرّ أحدهم مغشياً عليه، فقالت: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم. وبه عن سلمة ثنا يحيىٰ بن يحيىٰ ثنا سعيد بن

القرآن من أوله إلى آخره فإن رمى بنفسه فهو صادق: فإن قلت لما ذكرت الجلود وحدها أولاً في جانب الخوف ثم قرنت معها القلوب ثانياً في الرجاء؛ قلت إذا ذكرت الخشية التي محلها القلوب اقشعرت الجلود من ذكر آيات الوعيد في أول وهلة وإذا ذكر الله ومبني أمره على الرأفة والرحمة استبدلوا بالخشية رجاء في قلوبهم وبالقشعريرة ليناً في جلودهم وقيل إن المكاشفة في مقام الرجاء أكمل منها في مقام الخوف لأن الخير مطلوب بالذات والخوف ليس بمطلوب وإذا حصل الخوف اقشعر منه الجلد وإذا حصل الرجاء اطمأن إليه القلب ولان الجلد ﴿ذلك﴾ أي القرآن الذي هو أحسن الحديث ﴿هدى الله يهدي به من يشاء﴾ أي هو الذي يشرح الله به صدره لقبول الهداية ﴿ومن يضلل الله﴾ أي يجعل قلبه قاسياً منافياً لقبول الهداية ﴿فما له من هاد﴾ أي يهديه. قوله عزَّ وجلَّ:

أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾ فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾

﴿أفمن يتقي بوجهه سوء العذاب﴾ أي شدته ﴿يوم القيامة﴾ قيل يجر على وجه في النار وقيل يرمى به في النار منكوساً فأول شيء تمسه النار وجهه، وقيل هو الكافر يرمى به منكوساً في النار مغلولة يداه إلى عنقه وفي عنقه صخرة من كبريت مثل الجبل العظيم فتشعل النار في تلك الصخرة وهي في عنقه فحرها ووهجها على وجهه لا يطيق دفعها عنه للأغلال التي في يديه وعنقه ومعنى الآية أفمن يتقي بوجهه سوء العذاب كمن هو آمن العذاب ﴿وقيل للظالمين﴾ أي تقول لهم الخزنة ﴿ذوقوا ما﴾ أي وبال ما ﴿كنتم تكسبون﴾ أي في الدنيا من المعاصي ﴿كذب الذين من قبلهم﴾ أي من قبل كفار مكة كذبوا الرسل ﴿فأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون﴾ يعني وهم غافلون آمنون من العذاب ﴿فأذاقهم الله الخزي﴾ أي العذاب والهوان ﴿في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون﴾ قوله عز وجل:

عبد الرحمن الجمحي أنا ابن عمر: مرّ رجل من أهل العراق ساقطاً فقال: ما بال هذا؟ قالوا: إنه إذا قُرِىء عليه القرآن أو سمع ذكر الله سقط، قال ابن عمر: إنّا لنخشى الله وما نسقط؟ وقال ابن عمر: إن الشيطان يدخل في جوف أحدهم ما كان هذا صنيع أصحاب محمد ﷺ. وذكر عن ابن سيرين: الذين يصرعون إذا قرىء عليهم القرآن؟ فقال: بيننا وبينهم أن يقعد أحدهم على ظهر بيت باسطاً رجليه ثم يُقرأ عليه القرآن من أوله إلى آخره، فإن رمى بنفسه فهو صادق. ﴿ **ذلك** ﴾، يعني أحسن الحديث، ﴿ **هُدَى الله يهدي به مَن يشاء، ومَن يضلل فما له من هادٍ** ﴾.

﴿ **أفمن يتّقي بوجهه سوء العذاب** ﴾، أي شدّته، ﴿ **يوم القيامة** ﴾، قال مجاهد: يُجَرّ على وجهه في النار. وقال عطاء: يُرمى به في النار منكوساً فأول شيء منه تمسّه النار وجهه. قال مقاتل: هو أن الكافر يُرمى به في النار مغلولة يداه إلى عنقه، وفي عنقه صخرة مثل جبل عظيم من الكبريت فتشتعل النار في الحجر، وهو معلّق في عنقه فحرّها ووهجها على وجه لا يطيق دفعها عن وجهه، للأغلال التي في عنقه ويده. ومجاز الآية: أفمن يتّقي بوجهه سوء العذاب كمَن هو آمن من العذاب؟ ﴿ **وقيل** ﴾، يعني تقول الخَزَنَة، ﴿ **للظالمين ذوقوا ما كنتم تكسبون** ﴾، أي وباله.

﴿ **كذب الذين من قبلهم** ﴾، من قبل كفّار مكة كذّبوا الرّسل، ﴿ **فأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون** ﴾، يعني وهم آمنون غافلون من العذاب.

﴿ **فأذاقهم الله الخزي** ﴾، العذاب والهوان، ﴿ **في الحياة الدنيا ولَعَذابُ الآخرة أكبرُ لو كانوا يعلمون** ﴾.

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ
يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ
أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾

﴿ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون﴾ أي يتعظون ﴿قرآناً عربياً﴾ أي فصيحاً أعجز الفصحاء والبلغاء عن معارضته ﴿غير ذي عوج﴾ أي منزهاً عن التناقض، وقال ابن عباس: غير مختلف. وقيل: غير ذي لبس وقيل: غير مخلوق ويروى ذلك عن مالك بن أنس وحكي عن سفيان بن عيينة عن سبعين من التابعين إن القرآن ليس بخالق ولا مخلوق ﴿لعلهم يتقون﴾ أي الكفر والتكذيب.

فإن قلت ما الحكمة في تقديم التذكر في الآية الأولى على التقوى في هذه الآية.

قلت سبب تقديم التذكر أن الإنسان إذا تذكر وعرف ووقف على فحوى الشيء واختلط بمعناه واتقاه واحترز منه. قوله تعالى:

﴿ضرب الله مثلاً رجلاً فيه شركاء متشاكسون﴾ أي متنازعون مختلفون سيئة أخلاقهم والشكس السيء الخلق المخالف للناس لا يرضى بالإنصاف ﴿ورجلاً سلماً لرجل﴾ أي خالصاً له فيه ولا منازع؛ والمعنى واضرب يا محمد لقومك مثلاً وقل لهم ما تقولون في رجل مملوك قد اشترك فيه شركاء بينهم اختلاف وتنازع كل واحد يدعي أنه عبده وهم يتجاذبونه في مهن شتى فإذا عنت لهم حاجة يتدافعونه فهو متحير في أمره لا يدري أيهم يرضي بخدمته وعلى أيهم يعتمد في حاجاته وفي رجل آخر مملوك قد سلم لمالك واحد يخدمه على سبيل الإخلاص وذلك السيد يعين خادمه في حاجاته فأي هذين العبدين أحسن حالاً وأحمد شأناً، وهذا مثل ضربه الله تعالى للكافر الذي يعبد آلهة شتى

﴿ ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل لعلّهم يتذكّرون ﴾، يتّعظون.

﴿ قرآناً عربياً ﴾، نصب على الحال، ﴿ غير ذي عِوج ﴾، قال ابن عباس: غير مختلف. قال مجاهد: غير ذي لَبْس. قال السدي: غير مخلوق. ويُروَى ذلك عن مالك بن أنس، وحُكِيَ عن سفيان بن عيينة عن سبعين من التابعين أن القرآن ليس بخالق ولا مخلوق. ﴿ لعلّهم يتّقون ﴾، الكفر والتكذيب.

﴿ ضرب الله مثلاً رجلاً ﴾، قال الكسائي نصب رجلاً لأنه تفسير للمثل، ﴿ فيه شركاء متشاكسون ﴾، متنازعون مختلفون سيئة أخلاقهم، يقال رجل شكس شرس إذا كان سيء الخلق مخالفاً للناس لا يرضى بالإنصاف، ﴿ ورجلاً سَلَماً لرجل ﴾، قرأ أهل مكة والبصرة (سالماً) بالألف أي خالصاً له لا شريك ولا منازع له فيه، وقرأ الآخرون ﴿ سلماً ﴾ بفتح اللام من غير ألف، وهو الذي لا ينازع فيه من قولهم: هو لك سلم، أي مسلم لا منازع لك فيه. ﴿ هل يستويان مثلاً ﴾، هذا مثل ضربه الله عزّ وجلّ للكافر الذي يعبد آلهة شتّى، والمؤمن الذي لا يعبد إلاّ الله الواحد، وهذا استفهام إنكار أي لا يستويان، ثم قال: ﴿ الحمد لله ﴾ أي لله الحمد كله دون غيري من المعبودين. ﴿ بل أكثرهم لا يعلمون ﴾، ما يصيرون إليه والمراد بالأكثر الكل.

﴿ إنك ميت ﴾، أي ستموت، ﴿ وإنهم ميّتون ﴾. أي ستموتون، قال الفرّاء والكسائي: الميت بالتشديد مَن لم يمت وسيموت، الميت بالتخفيف من فارقه الروح، ولذلك لم يخفّف ههنا.

﴿ ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون ﴾، قال ابن عباس: يعني المُحِقّ والمُبطِل والظالم والمظلوم، أخبرنا أبو سعيد الشريحي أنا أبو إسحاق الثعلبي أنا ابن فنجويه ثنا ابن مالك ثنا ابن حنبل حدّثنا أبي ثنا ابن نمير ثنا

والمؤمن الذي يعبد الله وحده فكان حال المؤمن الذي يعبد إلهاً واحداً أحسن وأصلح من حال الكافر الذي يعبد آلهة شتى وهو قوله تعالى: ﴿**هل يستويان مثلاً**﴾ وهذا استفهام إنكار أي لا يستويان في الحال والصفة قال تعالى: ﴿**الحمد لله**﴾ أي لله **الحمد** كله وحده دون غيره من المعبودين، وقيل لما ثبت أن لا إله إلا الله الواحد الأحد الحق بالدلائل الظاهرة والأمثال الباهرة قال: الحمد لله على حصول هذه البينات وظهور هذه الدلالات ﴿**بل أكثرهم لا يعلمون**﴾ أي المستحق للعبادة هو الله تعالى وحده لا شريك له.

قوله تعالى: ﴿**إنك ميت**﴾ أي ستموت ﴿**وإنهم ميتون**﴾ أي سيموتون وذلك أنهم كانوا يتربصون برسول الله ﷺ موته فأخبر الله تعالى أن الموت يعمهم جميعاً فلا معنى للتربص وشماتة الفاني بالفاني وقيل نعى إلى نبيه نفسه وإليكم أنفسكم والمعنى أنك ميت وإنهم ميتون وإن كنتم أحياء فإنكم في عداد الموتى ﴿**ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون**﴾ قال ابن عباس يعني المحق والمبطل والظالم والمظلوم عن عبد الله بن الزبير قال:

«لما نزلت ﴿ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون﴾، قال الزبير: يا رسول الله أتكون علينا الخصومة بعد الذي كان بيننا في الدنيا قال: نعم، فقال: إن الأمر إذاً لشديد» أخرجه الترمذي وقال حديث حسن صحيح وقال ابن عمر رضي الله عنهما: عشنا برهة من الدهر وكنا نرى أن هذه الآية نزلت فينا وفي أهل الكتابين ﴿**ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون**﴾ قلنا كيف نختصم وديننا واحد وكتابنا واحد حتى رأيت بعضنا يضرب وجوه بعض بالسيف فعرفت أنها فينا نزلت وعن أبي سعيد الخدري في هذه الآية قال كنا نقول ربنا واحد وديننا واحد ونبينا واحد فما هذه الخصومة فلما كان يوم صفين وشد بعضنا على بعض بالسيف قلنا نعم هو هذا وعن إبراهيم قال: لما نزلت هذه الآية ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون قالوا كيف نختصم ونحن إخوان فلما قتل عثمان قالوا هذه خصومتنا (خ) عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال «من كان عنده مظلمة لأخيه من عرض أو مال فليتحلله اليوم من قبل أن لا يكون دينار ولا درهم إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته وإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه

محمد يعني ابن عمرو عن يحيىٰ بن عبد الرحمن بن حاطب عن عبد الله بن الزبير عن الزبير بن العوّام قال: لمّا نزلت على رسول الله ﷺ ﴿ ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون ﴾ قال الزبير: يا رسول الله أيكرّر علينا ما كان بيننا في الدنيا مع خواص الذنوب؟ قال: «نعم ليكررنّ عليكم حتى يؤدّي إلى كل ذي حق حقه» قال الزبير: والله إن الأمر لشديد: وقال ابن عمر عشنا برهة من الدهر وكنّا نرى أن هذه الآية أُنزلت فينا وفي أهل الكتابين ﴿ ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون ﴾، قلنا: كيف نختصم وديننا وكتابنا واحد؟ حتى رأيت بعضنا يضرب وجوه بعض بالسيف، فعرفت أنها نزلت فينا. وعن أبي سعيد الخدري في هذه الآية قال: كنّا نقول ربّنا واحد وديننا واحد ونبيّنا واحد فما هذه الخصومة؟ فلما كان يوم صفّين وشدّ بعضنا على بعض بالسيوف قلنا: نعم هو هذا. وعن إبراهيم قال: لمّا نزلت: ﴿ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون﴾ قالوا: كيف نختصم ونحن إخوان؟ فلما قتل عثمان قال: أهذه خصومتنا؟ أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أبو محمد عبد الرحمن بن أبي شريح ثنا أبو القاسم عبد الله بن محمد بن عبد العزيز البغوي ثنا علي بن الجعد ثنا ابن أبي ذئب عن سعيد المقبري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «مَن كانت لأخيه عنده مظلمة من عرض أو مال فليتحلّله اليوم قبل أن يؤخذ منه يوم لا دينار ولا درهم، فإن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته، وإن لم يكن له أخذ من سيئاته فحملت عليه». أخبرنا أبو عبد الله محمد بن الفضيل الخرقي أنا أبو الحسن الطبري أنا عبد الله بن عمر الجوهري ثنا أحمد بن علي الكشمهيني ثنا علي بن حجر ثنا إسماعيل بن جعفر عن العلاء عن أبيه عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «أتدرون مَن المفلس»؟ قالوا: المفلس فينا مَن لا درهم له ولا متاع، قال: «إن المفلس من أُمتي مَن يأتي يوم

فحملت عليه» (م) عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال «أتدرون من المفلس قالوا المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع قال إن المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ويأتي قد شتم هذا وقذف هذا وأكل مال هذا وسفك دم هذا وضرب هذا فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته فإن فنيت حسناته قبل أن يقضي ما عليه أخذت من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح في النار». قوله تعالى:

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾

﴿فمن أظلم ممن كذب على الله﴾ فزعم أن له ولداً أو شريكاً ﴿وكذب بالصدق إذ جاءه﴾ أي بالقرآن وقيل بالرسالة إليه ﴿أليس في جهنم مثوى﴾ أي منزلة ومقام ﴿للكافرين﴾.

قوله تعالى: ﴿والذي جاء بالصدق وصدق به﴾ أي والذي صدق به، قال ابن عباس: الذي جاء بالصدق هو رسول الله ﷺ جاء بلا إله إلا الله وصدق به هو رسول الله ﷺ أيضاً بلغه إلى الخلق، وقيل: الذي جاء بالصدق هو جبريل عليه الصلاة والسلام جاء بالقرآن وصدق به محمد رسول الله ﷺ. وقيل: الذي جاء بالصدق رسول الله ﷺ وصدق به أبو بكر رضي الله تعالى عنه وقيل وصدق به المؤمنون وقيل الذي جاء بالصدق الأنبياء وصدق به الأتباع. وقيل: الذي جاء بالصدق أهل القرآن وهو الصدق يجيئون به يوم القيامة وقد أدوا حقه فهم الذين صدقوا به ﴿أولئك

القيامة بصلاة وصيام وزكاة، وقد كان شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيقضي هذا من حسناته وهذا من حسناته، قال: فإن فنيت حسناته قبل أن يقضي ما عليه أُخذ من خطاياهم فطُرحتْ عليه ثم طرب في النار».

قوله عزّ وجلّ: ﴿ فمَن أظلم ممّن كذب على الله ﴾، فزعم أن له ولداً وشريكاً، ﴿ وكذب بالصدق ﴾، بالقرآن، ﴿ إذ جاءه أليس في جهنم مثوى ﴾، منزل ومقام، ﴿ للكافرين ﴾، استفهام بمعنى التقرير.

﴿ والذي جاء بالصدق وصدّق به ﴾، قال ابن عباس: والذي جاء بالصدق يعني رسول الله ﷺ جاء بلا إلّه إلّا الله وصدّق به الرسول أيضاً بلّغه إلى الخلق. وقال السدي: والذي جاء بالصدق جبريل جاء بالقرآن، وصدّق به محمد ﷺ تلقّاه بالقبول. وقال الكلبي وأبو العالية: والذي جاء بالصدق رسول الله ﷺ، وصدّق به أبو بكر رضي الله عنه. وقال قتادة ومقاتل: والذي جاء بالصدق رسول الله ﷺ، وصدّق به هم المؤمنون، لقوله عزّ وجلّ: ﴿ أولئك هم المتّقون ﴾، وقال عطاء: والذي جاء بالصدق الأنبياء وصدّق به الأتباع، وحينئذ يكون الذي بمعنى الذين كقوله تعالى: ﴿ مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً ﴾ [البقرة: ١٧]، ثم قال: ﴿ ذهب الله بنورهم ﴾ [البقرة: ١٧]. وقال الحسن: هم المؤمنون صدّقوا به في الدنيا وجاؤوا به في الآخرة. وفي قراءة عبد الله بن مسعود: والذين جاؤوا بالصدق وصدّقوا به. ﴿ أولئك هم المتّقون ﴾ .

﴿ لهم ما يشاؤون عند ربّهم ذلك جزاء المحسنين * ليكفّر الله عنهم أسوأ الذي عملوا ﴾، يسترها عليهم

هم المتقون﴾ أي الذين اتقوا الشرك ﴿لهم ما يشاؤون عند ربهم﴾ أي من الجزاء والكرامة ﴿ذلك جزاء المحسنين﴾ أي في أقوالهم وأفعالهم ﴿ليكفر الله عنهم أسوأ الذي عملوا﴾ أي يستره عليهم بالمغفرة ﴿ويجزيهم أجرهم بأحسن الذي كانوا يعملون﴾ أي يجزيهم بمحاسن أفعالهم ولا يجزيهم بمساويها.

قوله عز وجل: ﴿أليس الله بكاف عبده﴾ يعني محمداً ﷺ وقرىء عباده يعني الأنبياء عليهم الصلاة السلام قصدهم قومهم بالسوء فكفاهم الله تعالى شر من عاداهم ﴿ويخوفونك بالذين من دونه﴾ وذلك أنهم خوفوا النبي ﷺ مضرة الأوثان وقالوا لتكفن عن شتم آلهتنا أو ليصيبنك منهم خبل أو جنون ﴿ومن يضلل الله فما له من هاد﴾.

وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ﴿٣٧﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾

﴿ومن يهد الله فما له من مضل أليس الله بعزيز﴾ أي منيع في ملكه ﴿ذي انتقام﴾ أي منتقم من أعدائه ﴿ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله﴾ يعني أن هؤلاء المشركين مقرون بوجود الإله القادر العالم الحكيم، وذلك متفق عليه عند جمهور الخلائق فإن فطرة الخلق شاهدة بصحة هذا العلم فإن من تأمل عجائب السموات

بالمغفرة، ﴿ويجزيهم أجرهم بأحسن الذي كانوا يعملون﴾، قال مقاتل: يجزيهم بالمحاسن من أعمالهم ولا يجزيهم بالمساوىء.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ أليس الله بكافٍ عبده ﴾؟ يعني محمداً ﷺ، وقرأ أبو جعفر وحمزة والكسائي، «عباده» بالجمع يعني الأنبياء عليهم السلام، قصدهم قومهم بالسوء كما قال: ﴿ وهمّتْ كل أُمة برسولهم ليأخذوه ﴾ [غافر: ٥]، فكفاه الله شرّ مَن عاداهم، ﴿ ويخوّفونك بالذين من دونه ﴾، وذلك أنهم خوّفوا النبي ﷺ معرّة معاداة الأوثان. وقالوا: لتكفنّ عن شتم آلهتنا أو ليصيبنّك منهم خبل أو جنون، ﴿ ومَن يضلل الله فما له من هادٍ ﴾.

﴿ ومَن يهدِ اللَّهُ فما له من مضل أليسَ اللَّهُ بعزيزٍ ذي انتقام ﴾، منيع في مُلكه منتقم من أعدائه.

﴿ ولئن سألتم مَن خلق السمواتِ والأرضَ ليقولنّ اللَّهُ قلْ أفرأيتم ما تدعون من دون الله إن أرادنيَ اللَّهُ بضرٍّ ﴾، بشدّة وبلاء، ﴿ هل هنّ كاشفات ضرّه أو أرادني برحمة ﴾، بنعمة وبركة، ﴿ هل هنّ ممسكات رحمته ﴾، قرأ أهل البصرة ﴿ كاشفات ﴾ و﴿ ممسكات ﴾ بالتنوين، من ﴿ ضرّه ﴾ ﴿ ورحمته ﴾ بنصب الراء والتاء، وقرأ الآخرون بلا تنوين وجرّ الراء والتاء على الإضافة، قال مقاتل: فسألهم النبيّ ﷺ عن ذلك فسكتوا، فقال الله تعالى لرسوله ﷺ: ﴿ قلْ حسبي الله ﴾، ثقتي به واعتمادي عليه، ﴿ عليه يتوكّل المتوكّلون ﴾، يثق به الواثقون.

والأرض وما فيها من أنواع الموجودات علم بذلك أنها من ابتداع قادر حكيم ثم أمره الله تعالى أن يحتج عليهم بأن ما يعبدون من دون الله لا قدرة لها على جلب خير أو دفع ضر وهو قوله تعالى: ﴿**قل أفرأيتم ما تدعون من دون الله**﴾ يعني الأصنام ﴿**إن أرادني الله بضر**﴾ أي بشدة وبلاء ﴿**هل هن كاشفات ضره أو أرادني برحمة**﴾ أي بنعمة وخير وبركة ﴿**هل هن ممسكات رحمته**﴾ فسألهم النبي ﷺ عن ذلك فسكتوا فقال الله تعالى لرسوله ﷺ ﴿**قل حسبي الله**﴾ أي هو ثقتي وعليه اعتمادي ﴿**عليه يتوكل المتوكلون**﴾ أي عليه يثق الواثقون ﴿**قل يا قوم اعملوا على مكانتكم**﴾ أي اجتهدوا في أنواع مكركم وكيدكم وهو أمر تهديد وتقريع ﴿**إني عامل**﴾ أي بما أمرت به من إقامة الدين ﴿**فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه**﴾ أي أنا وأنتم ﴿**ويحل عليه عذاب مقيم**﴾ أي دائم وهو تهديد وتخويف ﴿**إنا أنزلنا عليك الكتاب**﴾ يعني القرآن ﴿**للناس بالحق**﴾ أي ليهتدي به كافة الخلق ﴿**فمن اهتدى فلنفسه**﴾ أي ترجع فائدة هدايته إليه ﴿**ومن ضل فإنما يضل عليها**﴾ أي يرجع وبال ضلالته عليه ﴿**وما أنت عليهم بوكيل**﴾ أي لم توكل بهم ولا تؤاخذ عنهم قيل هذا منسوخ بآية القتال.

قوله تعالى: ﴿**الله يتوفى الأنفس**﴾ أي الأرواح ﴿**حين موتها**﴾ أي فيقبضها عند فناء أكلها وانقضاء أجلها وهو موت الأجساد ﴿**والتي لم تمت في منامها**﴾ والنفس التي يتوفاها عند النوم وهي التي يكون بها العقل والتمييز، ولكل إنسان نفسان نفس هي التي تكون بها الحياة وتفارقه عند الموت وتزول بزوالها الحياة والنفس الأخرى هي التي يكون بها التمييز وهي التي تفارقه عند النوم ولا يزول بزوالها التنفس ﴿**فيمسك التي قضى عليها الموت**﴾ أي فلا يردها إلى جسدها ﴿**ويرسل الأخرى**﴾ أي يرد النفس التي لم يقض عليها الموت إلى جسدها ﴿**إلى أجل مسمى**﴾ أي إلى أن يأتي وقت موتها، وقيل إن للإنسان نفساً وروحاً فعند النوم تخرج النفس وتبقى الروح وقال علي بن أبي طالب: تخرج الروح عند النوم ويبقى شعاعها في الجسد فبذلك يرى الرؤيا فإذا انتبه من النوم عادت الروح إلى الجسد بأسرع من لحظة. وقيل: إن أرواح الأحياء والأموات تلتقي في المنام فتتعارف ما شاء الله تعالى فإذا أرادت الرجوع إلى أجسادها أمسك الله تعالى أرواح الأموات عنده وأرسل أرواح الأحياء إلى أجسادها إلى حين انقضاء مدة آجالها (ق). عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال قال رسول الله ﷺ «إذا آوى أحدكم إلى فراشه فلينفض فراشه بداخلة إزاره فإنه لا يدري

﴿ **قلْ يا قوم اعملوا على مكانتكم إنّي عامل فسوف تعلمون * مَن يأتيه عذاب يخزيه ويحلّ عليه عذاب مقيم** ﴾، أي ينزل عليه عذاب دائم.

﴿ **إنّا أنزلنا عليك الكتاب للناس بالحق فمَن اهتدى فلنفسه ومَن ضلّ فإنما يضلّ عليها** ﴾، وِبال ضلالته عليه، ﴿ **وما أنت عليهم بوكيل** ﴾، بحفيظ ورقيب لم توكل بهم ولا تؤخذ بهم.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ **الله يتوفّى الأنفس** ﴾، أي الأرواح، ﴿ **حين موتها** ﴾، فيقبضها عند فناء أكلها وانقضاء آجالها، وقوله: ﴿ **حين موتها** ﴾ يريد موت أجسادها. ﴿ **والتي لم تمت** ﴾، يريد يتوفّى الأنفس التي لم تمت، ﴿ **في منامها** ﴾، والتي تتوفّى عند النوم هي النفس التي يكون بها العقل والتمييز، ولكل إنسان نفسان إحداهما نفس الحياة وهي التي تفارقه عند الموت فتزول بزوالها النفس، والأخرى نفس التمييز وهي التي تفارقه إذا نام، وهو بعد النوم يتنفس. ﴿ **فيمسك التي قضى عليها الموت** ﴾، فلا يردّها إلى الجسد، قرأ حمزة والكسائي ﴿ **قضى** ﴾ بضمّ القاف وكسر الضاد وفتح الياء، ﴿ **الموت** ﴾ رفع على ما لم يُسَمّ فاعله، وقرأ الآخرون بفتح القاف والضاد، ﴿ **الموت** ﴾ نصب لقوله عزّ وجلّ: ﴿ **الله يتوفّى الأنفس** ﴾. ﴿ **ويرسل الأخرى** ﴾، ويردّ الأخرى وهي التي لم يقضِ عليها الموت إلى الجسد، ﴿ **إلى أجل مسمى** ﴾إلى أن يأتي وقت موته، ويقال للإنسان نفس وروح، فعند النوم يُخرِج النفس ويُبقي الروح. وعن علي قال: تخرج الروح عند النوم ويبقى شعاعه في الجسد، فبذلك يرى

ما خلفه عليه ثم يقول باسمك ربي وضعت جنبي وبك أرفعه إن أمسكت نفسي فارحمها وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عباذك الصالحين» .

فإن قلت: كيف الجمع بين قوله تعالى ﴿**الله يتوفى الأنفس حين موتها**﴾ وبين قوله ﴿**قل يتوفاكم ملك الموت**﴾ وبين قوله تعالى ﴿**حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا**﴾ .

قلت: المتوفي في الحقيقة هو الله تعالى وملك الموت هو القابض للروح بإذن الله تعالى ولملك الموت أعوان وجنود من الملائكة ينتزعون الروح من سائر البدن فإذا بلغت الحلقوم قبضها ملك الموت ﴿**إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون**﴾ أي في البعث وذلك أن توفي نفس النائم وإرسالها بعد التوفي دليل على البعث وقيل إن في ذلك دليلاً على قدرتنا حيث لم نغلط في إمساك ما نمسك من الأرواح وإرسال ما نرسل منها. قوله تعالى:

أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا ۖ لَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾

﴿**أم اتخذوا من دون الله شفعاء**﴾ يعني الأصنام ﴿**قل**﴾ يا محمد ﴿**أولو كانوا**﴾ يعني الآلهة ﴿**لا يملكون شيئاً**﴾ أي من الشفاعة ﴿**ولا يعقلون**﴾ أي إنكم تعبدونهم وإن كانوا بهذه الصفة ﴿**قل لله الشفاعة جميعاً**﴾ أي لا يشفع أحد إلا بإذنه فكان الاشتغال بعبادته أولى لأنه هو الشفيع في الحقيقة وهو يأذن في الشفاعة لمن يشاء من عباده ﴿**له ملك السموات والأرض**﴾ أي لا ملك لأحد فيهما سواه ﴿**ثم إليه ترجعون**﴾ أي في الآخرة.

قوله تعالى: ﴿**وإذا ذكر الله وحده اشمأزت**﴾ أي نفرت وقال ابن عباس انقبضت عن التوحيد وقيل استكبرت

الرؤيا فإذا انتبه من النوم عاد الروح إلى جسده بأسرع من لحظة. ويقال: إن أرواح الأحياء والأموات تلتقي في المنام فتتعارف ما شاء الله فإذا أرادت الرجوع إلى أجسادها أمسك الله أرواح الأموات عنده وأرسل أرواح الأحياء حتى ترجع إلى أجسادها إلى انقضاء مدة حياتها. أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا أحمد بن يونس ثنا زهير ثنا عبد الله بن عمر حدّثني سعيد بن أبي سعيد المقبري عن أبيه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا آوى أحدكم إلى فراشه فلينفض فراشه بداخله إزاره فإنه لا يدري ما خلفه عليه، ثم يقول: باسمك ربّي وضعت جنبي وبك أرفعه إن أمسكت نفسي فارحمها وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين». ﴿ **إن في ذلك لآيات لقوم يتفكّرون** ﴾، لدلالات على قدرته حيث لم يغلط في إمساك ما يمسك من الأرواح وإرسال ما يرسل منها. قال مقاتل: لعلامات لقوم يتفكّرون في أمر البعث، يعني إن توفّي نفس النائم وإرسالها بعد التوفّي دليل على البعث.

﴿ **أم اتخذوا من دون الله شفعاء قل** ﴾، يا محمد، ﴿ **أوَ لو كانوا** ﴾، وإن كانوا يعني الآلهة، ﴿ **لا يملكون شيئاً** ﴾، من الشفاعة، ﴿ **ولا يعقلون** ﴾، أنكم تعبدونهم، وجواب هذا محذوف تقديره: وإن كانوا بهذه الصفة تتّخذونهم.

﴿ **قلْ لله الشفاعة جميعاً** ﴾، قال مجاهد: لا يشفع أحد إلّا بإذنه، ﴿ **له مُلك السمٰوات والأرض ثم إليه ترجعون وإذا ذُكر اللّهُ وحده اشمأزّت** ﴾، نفرت، وقال ابن عباس ومجاهد ومقاتل: انقبضت عن التوحيد. وقال

﴿قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة﴾ قيل إذا اشمأز القلب من عظم غمه وغيظه انقبض الروح إلى داخله فيظهر على الوجه أثر ذلك مثل الغبرة والظلمة ﴿وإذا ذكر الذين من دونه﴾ يعني الأصنام ﴿إذا هم يستبشرون﴾ أي يفرحون والاستبشار أن يمتلىء القلب سروراً حتى يظهر على الوجه فيتهلل. قوله عز وجل:

﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤٨﴾ فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ ۚ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾﴾

﴿قل اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة﴾ وصف نفسه بكمال القدرة وكمال العلم ﴿أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون﴾ أي من أمر الدنيا (م) عن أبي سلمة بن عبد الرحمن قال «سألت عائشة رضي الله تعالى عنها بأي شيء كان نبي الله ﷺ يفتتح صلاته إذا قام من الليل؟ قالت كان إذا قام من الليل افتتح صلاته قال اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم».

قوله عز وجل: ﴿ولو أن للذين ظلموا ما في الأرض جميعاً ومثله معه لافتدوا به من سوء العذاب يوم القيامة وبدا

قتادة: استكبرت. وأصل الاشمئزاز النفور والاستكبار، ﴿ قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة ﴾.

﴿ وإذا ذكر الذين من دونه ﴾، يعني الأصنام، ﴿ إذا هم يستبشرون ﴾، يفرحون، قال مجاهد ومقاتل: وذلك حين قرأ النبي ﷺ سورة [النجم: ١] فألقى الشيطان في أمنيته: تلك الغرانيق العُلى، ففرح به الكفّار.

﴿ قلِ اللّهمَّ فاطر السمٰواتِ والأرضَ عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ﴾، أخبرنا الإمام أبو علي الحسين بن محمد القاضي أنا أبو نعيم الإسفرايني أنا أبو عوانة ثنا السلمي ثنا النضر بن محمد ثنا عكرمة بن عمّار أنا يحيىٰ بن أبي كثير ثنا أبو سلمة قال: سألت عائشة رضي الله عنها بِمَ كان رسول الله ﷺ يفتتح الصلاة من الليل؟ قالت: كان يقول: «اللّهمّ ربَّ جبريل وميكائيل وإسرافيل، فاطرَ السمٰوات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختلفت فيه من الحق بإذنك إنك تهدي مَن تشاء إلى صراط مستقيم».

قوله عزّ وجلّ: ﴿ ولو أنّ للذين ظلموا ما في الأرض جميعاً ومثله معه لافتدوا به من سوء العذاب يوم القيامة وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون ﴾، قال مقاتل: ظهر لهم حين بعثوا ما لم يحتسبوا في الدنيا أنه نازل بهم في الآخرة. قال السدي: ظنوا أنها حسنات فَبَدَت لهم سيئات، والمعنى أنهم كانوا يتقرّبون إلى الله بعبادة الأصنام فلما عُوقِبوا عليها بَدا لهم من الله ما لم يحتسبوا. ورُوِيَ أن محمد بن المنكدر جزع عند الموت، فقيل له في ذلك فقال: أخشى أن يبدو لي ما لم أحتسب.

﴿ وبدَا لهم سيئات ما كسبوا ﴾، أي مساوىء أعمالهم من الشرك والظلم بأولياء الله. ﴿ وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤون ﴾.

لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون﴾ يعني ظهر لهم حين بعثوا ما لم يحتسبوا أنه نازل بهم في الآخرة، وقيل ظنوا أن لهم حسنات فبدت لهم سيئات والمعنى أنهم كانوا يتقربون إلى الله تعالى بعبادة الأصنام فلما عوقبوا عليها بدا لهم من الله ما لم يحتسبوا، وروي أن محمد بن المنكدر جزع عند الموت فقيل له في ذلك فقال أخشى أن يبدو لي ما لم أكن أحتسب ﴿وبدا لهم سيئات ما كسبوا﴾ يعني مساوي أعمالهم من الشرك والظلم أولياء الله تعالى: ﴿وحاق﴾ يعني نزل ﴿بهم ما كانوا به يستهزئون فإذا مس الإنسان ضر﴾ يعني شدة ﴿دعانا ثم إذا خولناه﴾ يعني أعطيناه ﴿نعمة منا قال إنما أوتيته على علم﴾ يعني من الله تعالى علم أني له أهل وقيل على خير علمه الله عنده ﴿بل هي فتنة﴾ يعني تلك النعمة استدراج من الله تعالى وامتحان وبلية ﴿ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾ يعني أنها استدراج من الله تعالى: ﴿قد قالها الذين من قبلهم﴾ يعني قارون فإنه قال إنما أوتيته على علم عندي ﴿فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون﴾ يعني فما أغنى الكفر من العذاب شيئاً.

﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا۟ۚ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾ أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ ۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾

﴿فأصابهم سيئات ما كسبوا﴾ أي جزاؤها وهو العذاب ثم أوعد كفار مكة فقال تعالى ﴿والذين ظلموا من هؤلاء سيصيبهم سيئات ما كسبوا وما هم بمعجزين﴾ أي بفائتين لأن مرجعهم إلى الله تعالى: ﴿أو لم يعلموا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء﴾ أي يوسع الرزق لمن يشاء ﴿ويقدر﴾ أي يقتر ويقبض على من يشاء ﴿إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون﴾ أي يصدقون.

﴿ فإذا مسّ الإنسانَ ضُرٌّ ﴾، شدّة، ﴿ دعانا ثم إذا خوّلناه ﴾، أعطيناه، ﴿ نعمة منّا قال إنما أُوتيته على علم ﴾، أي على علم من الله إني له أهل. وقال مقاتل: على خير علم الله عندي، وذكر الكناية لأن المراد من النّعمة الإنعام، ﴿ بل هي فتنة ﴾، يعني تلك النعمة فتنة استدراج من الله وامتحان وبليّة. وقيل: بل الكلمة التي قالها فتنة. ﴿ ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾، أنه استدراج وامتحان.

﴿ قد قالها الذين من قبلهم ﴾، قال مقاتل: يعني قارون فإنه قال: ﴿ إنما أُوتيته على علم عندي ﴾ [القصص: ٧٨]، ﴿ فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون ﴾، فما أغنى عنهم الكفر من العذاب شيئاً.

﴿ فأصابهم سيئات ما كسبوا ﴾، أي جزاؤها يعني العذاب، ثم أوعد كفّار مكة فقال: ﴿ والذين ظلموا من هؤلاء سيصيبهم سيئات ما كسبوا وما هم بمعجزين ﴾، بفائتين لأن مرجعهم إلى الله عزّ وجلّ.

﴿ أوَ لم يعلموا أنّ الله يبسط الرزق لمَن يشاء ﴾ أي يوسع الرزق لمَن يشاء، ﴿ ويقدر ﴾ أي يقتّر على مَن يشاء، ﴿ إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون ﴾.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ قلْ يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ﴾، روى سعيد بن جبير عن ابن عباس: أن ناساً من أهل الشرك كانوا قتلوا وأكثروا، وزنوا وأكثروا فأتوا النبي ﷺ وقالوا: إن الذي تدعونا إليه لحسن لو تخبرنا أن لما عملنا كفّارة، فنزلت هذه الآية. وقال عطاء بن أبي رباح عن ابن عباس رضي الله عنهما: بعث رسول الله ﷺ إلى وحشي يدعوه إلى الإسلام، فأرسل إليه: كيف تدعوني إلى دينك وأنت تزعم أن مَن قتل أو

قوله تعالى: ﴿**قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله**﴾ روي عن ابن عباس رضي الله عنهما في سبب نزول هذه الآية «أن ناساً من أهل الشرك قتلوا فأكثروا وزنوا فأكثروا وانتهكوا الحرمات فأتوا رسول الله ﷺ فقالوا يا محمد إن الذي تقول وتدعو إليه لحسن لو تخبرنا بأن لما عملنا كفارة فنزلت والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر إلى قوله فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات قال يبدل شركهم إيماناً وزناهم إحصاناً ونزلت ﴿**قل يا عبادي الذي أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله**﴾» أخرجه النسائي. وعن ابن عباس أيضاً قال «بعث رسول الله ﷺ إلى وحشي يدعوه إلى الإسلام فأرسل إليه كيف تدعوني إلى دينك وأنت تزعم أن من قتل أو أشرك أو زنى يلق أثاماً يضاعف له العذاب وأنا قد فعلت ذلك كله فأنزل الله تعالى ﴿**إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً**﴾، فقال: وحشي هذا شرط شديد لعلي لا أقدر عليه فهل غير ذلك فأنزل الله تعالى ﴿**إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء**﴾ فقال وحشي أراني بعد في شبهة فلا أدري أيغفر لي أم لا فأنزل الله تعالى ﴿**قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله**﴾ فقال وحشي نعم هذا فجاء فأسلم» وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال نزلت هذه الآيات في عياش بن أبي ربيعة والوليد بن الوليد ونفر من المسلمين كانوا قد أسلموا ثم فتنوا وعذبوا فافتتنوا فكنا نقول لا يقبل الله من هؤلاء صرفاً ولا عدلاً أبداً قوم أسلموا ثم تركوا دينهم لعذاب عذبوا به فأنزل الله تعالى هذه الآية فكتبها عمر بن الخطاب رضي الله عنه بيده ثم بعث بها إلى عياش بن أبي ربيعة والوليد بن الوليد وإلى أولئك النفر فأسلموا جميعاً وهاجروا. وعن ابن عمر أيضاً قال كنا معشر أصحاب رسول الله ﷺ نرى أو نقول ليس شيء من حسناتنا إلا وهي مقبولة حتى نزلت ﴿**أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولا تبطلوا أعمالكم**﴾، فلما نزلت هذه الآية قلنا ما هذا الذي يبطل أعمالنا فقلنا الكبائر والفواحش قال فكنا إذا رأينا من أصاب شيئاً منها قلنا هلك فنزلت هذه الآية فكففنا عن

أشرك أو زنى يلقَ آثاماً يضاعف له العذاب، وأنا قد فعلت ذلك كله، فأنزل: ﴿ إلاّ مَن تاب وآمن وعمل صالحاً ﴾ [مريم: ٦٠] فقال وحشي: هذا شرط شديد لعلّي لا أقدر عليه فهل غير ذلك؟ فأنزل الله تعالى: ﴿ إن الله لا يغفر أن يُشرَك به ويغفر ما دون ذلك لمَن يشاء ﴾ [النساء: ٤٨ و١١٦]، فقال وحشي: أراني بعد في شُبهة، فلا أدري يغفر لي أم لا؟ فأنزل الله تعالى: ﴿ **قلْ يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله** ﴾، فقال وحشي: نعم هذا، فجاء وأسلم، فقال المسلمون: هذا له خاصّة أم للمسلمين عامّة؟ فقال: بل للمسلمين عامّة. ورُوِيَ عن ابن عمر قال: نزلت هذه الآية في عباس بن أبي ربيعة والوليد بن الوليد ونفر من المسلمين كانوا قد أسلموا ثم فُتِنوا وعُذّبوا، فافتتنوا فكنّا نقول: لا يقبل الله من هؤلاء صرفاً ولا عدلاً أبداً، قوم أسلموا ثم تركوا دينهم لعذاب عُذّبوا فيه، فأنزل الله هذه الآيات، فكتبها عمر بن الخطاب بيده ثم بعث بها إلى عيّاش بن ربيعة والوليد بن الوليد وإلى أولئك النفر فأسلموا وهاجروا. وروى مقاتل بن حيّان عن نافع عن ابن عمر قال: كنّا معاشر أصحاب رسول الله ﷺ نرى أو نقول: ليس بشيء من حسناتنا إلاّ وهي مقبولة حتى نزلت: ﴿ أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولا تبطلوا أعمالكم ﴾ [محمد: ٣٣]، فلما نزلت هذه الآية قلنا: ما هذا الذي يُبطِل أعمالنا فقلنا الكبائر والفواحش، قال: فكنّا إذا رأينا مَن أصاب شيئاً منها قلنا قد هلك، فنزلت هذه الآية، فكففنا عن القول في ذلك، وكنّا إذا رأينا أحداً أصاب منها شيئاً خفنا عليه، وإن لم يصب منها شيئاً رجونا، وأراد بالإسراف ارتكاب الكبائر. ورُوِيَ عن ابن مسعود أنه دخل المسجد فإذا قاصٌ يقصّ وهو يذكر النار والأغلال فقام على رأسه فقال: يا مذكّر لِمَ تقنّطِ الناسَ؟ ثم قرأ: ﴿ **يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله** ﴾. أخبرنا أبو بكر بن أبي الهيثم الترابي أنا أبو محمد عبد الله بن أحمد الحموي أنا أبو إسحق إبراهيم بن خزيم الشاشي ثنا عبد الله بن حميد ثنا حيّان بن هلال وسليمان بن حرب وحجّاج بن منهال قالوا ثنا حمّاد بن سلمة عن ثابت عن شهر بن حوشب عن أسماء بنت يزيد

القول في ذلك وكنا إذا رأينا من أصحابنا من أصاب شيئاً من ذلك خفنا عليه وإن لم يصب منها شيئاً رجونا له وقوله ﴿**أسرفوا على أنفسهم**﴾ أي تجاوزوا الحد في كل فعل مذموم قيل هو ارتكاب الكبائر وغيرها من الفواحش ﴿**لا تقنطوا من رحمة الله**﴾ أي لا تيأسوا من رحمة الله والقنوط من رحمة الله والأمن من مكر الله من الكبائر ﴿**إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم**﴾ فإن قلت حمل هذه الآية على ظاهرها يكون إغراء بالمعاصي وإطلاقاً في الإقدام عليها وذلك لا يمكن.

قلت المراد منها التنبيه على أنه لا يجوز أن يظن العاصي أنه لا مخلص له من العذاب، فإن اعتقد ذلك فهو قانط من رحمة الله إذ لا أحد من العصاة إلا ومتى تاب زال عقابه وصار من أهل المغفرة والرحمة فمعنى قوله ﴿**إن الله يغفر الذنوب جميعاً**﴾ أي إذا تاب وصحت التوبة غفرت ذنوبه ومن مات قبل أن يتوب فهو موكول إلى مشيئة الله تعالى فإن شاء غفر له وعفا عنه وإن شاء عذبه بقدر ذنوبه ثم يدخله الجنة بفضله ورحمته فالتوبة واجبة على كل أحد وخوف العقاب مطلوب فلعل الله تعالى يغفر مطلقاً ولعله يعذب ثم يعفو بعد ذلك والله أعلم.

(فصل في ذكر أحاديث تتعلق بالآية)

روى ابن مسعود رضي الله عنه أنه دخل المسجد فإذا قاصّ يقص وهو يذكر النار والأغلال فقام على رأسه فقال لم تقنط الناس ثم قرأ ﴿**قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً**﴾ عن أسماء بنت يزيد قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول ﴿**قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً**﴾ ولا يبالي أخرجه الترمذي، وقال حديث حسن غريب (ق). عن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ قال «كان في بني إسرائيل رجل قتل تسعة وتسعين إنساناً ثم خرج يسأل هل له توبة فأتى راهباً فسأله فقال هل لي من توبة قال لا فقتله وجعل يسأل فقال له رجل ائت قرية كذا وكذا فأدركه الموت فضرب صدره

قالت: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «﴿ **يا عبادي أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً** ﴾ ولا يبالي». أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمدبن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا محمد بن بشّار ثنا ابن أبي عديّ عن شُعبة عن قتادة عن أبي الصدّيق الناجي عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال: «كان في بني إسرائيل رجل قتل تسعاً وتسعين إنساناً، ثم خرج يسأل فأتى راهباً فسأله، فقال: هل لي من توبة؟ فقال: لا، فقتله فكمّل به المائة، فقال له رجل: إئتِ قريةَ كذا وكذا، فأدركه الموت فَنَأَى بصدره نحوها، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب فأوحى الله إلى هذه أن تقربي وأوحى إلى هذه أن تباعدي، وقال: قيسوا ما بينهما فوُجِدَ إلى هذه أقرب بشبر فغفر له»، ورواه مسلم بن الحجّاج عن محمد بن المثنى العنبري عن معاذ بن هشام عن أبيه قتادة بهذا الإسناد، وقال: «فدلّ على راهب فأتاه فقال إنّه قتل تسعة وتسعين نفساً فهل له من توبة؟ فقال: لا فقتله وكمّل به مائة، ثم سأل عن أعلم أهل الأرض فدلّ على رجل عالم، فقال: إنه قتل مائة نفس فهل له من توبة؟ فقال: نعم ومَن يحول بينه وبين التوبة؟ انطلق إلى أرض كذا وكذا فإن بها أُناساً يعبدون الله فاعبدِ اللَّهَ معهم ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء، فانطلق حتى إذا كان نصف الطريق أتاه الموت، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، فأتاهم ملك من صورة آدمي فجعلوه بينهم حكماً، فقال: قيسوا ما بين الأرضين فإلى أيّتهما كان أدنى فهو له، فقاسوا فوجدوه أدنى إلى الأرض التي أراد، فقبضته ملائكة الرحمة». أخبرنا أبو الحسن السرخسي أنا زاهر بن أحمد أنا أبو إسحق إبراهيم بن عبد الصمد الهاشمي أنا أبو مصعب عن مالك عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «قال رجل لم يعلم خيراً قطّ لأهله إذا مات فحرقوه ثم

تخوفاً فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب فأوحى الله تعالى إلى هذه أن تقربي وأوحى الله إلى هذه أن تباعدي وقال قيسوا ما بينها فوجد أقرب إلى هذه بشبر فغفر له» لفظ البخاري ولمسلم قال «فدل على راهب فأتاه فقال له إن رجلاً قتل تسعة وتسعين نفساً فهل له من توبة فقال لا فقتله فكمل به مائة، ثم سأل عن أعلم أهل الأرض فدلَّ على رجل عالم فقال إنه قتل مائة نفس فهل له من توبة قال نعم ومن يحول بينه وبين التوبة انطلق إلى أرض كذا وكذا فإن بها أناساً يعبدون الله تعالى فاعبد الله معهم ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء فانطلق حتى إذا كان نصف الطريق أتاه الموت فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب فأوحى الله إلى هذه أن تقربي وإلى هذه أن تباعدي وقال قيسوا ما بينهما فأتاهم ملك في صورة آدمي فجعلوه بينهم فقال قيسوا ما بين الأرضين فإلى أيهما كان أدنى فهو له فقاسوا فوجدوه أدنى إلى الأرض الذي أراد فقبضته ملائكة الرحمة» (ق) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «قال رسول الله ﷺ كان رجل أسرف على نفسه وفي رواية لم يعمل خيراً قط وفي رواية لم يعمل حسنة قط فلما حضره الموت قال لبنيه إذا مت فأحرقوني ثم اطحنوني ثم ذروني في الريح فوالله لئن قدر على ربي ليعذبني عذاباً ما عذبه أحداً فلما مات فعل به ذلك فأمر الله تعالى الأرض فقال اجمعي ما فيك منه ففعلت فإذا هو قائم فقال ما حملك على ما صنعت قال خشيتك يا رب أو قال مخافتك فغفر له بذلك» وعنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول «كان في بني إسرائيل رجلان متحابان أحدهما مذنب والآخر في العبادة مجتهد فكان المجتهد لا يزال يرى الآخر على ذنب فيقول له أقصر فوجده يوماً على ذنب فقال له أقصر فقال خلني وربي أبعثت عليّ رقيباً فقال والله لا يغفر لك الله أو قال لا يدخلك الجنة فقبض الله أرواحهما فاجتمعا عند رب العالمين فقال الرب تبارك وتعالى للمجتهد أكنت على ما في يدي قادراً وقال للمذنب اذهب فادخل الجنة برحمتي وقال للآخر اذهبوا به إلى النار» قال أبو هريرة «تكلم والله بكلمة أوبقت دنياه وآخرته» أخرجه أبو داود عن أنس قال سمعت رسول الله ﷺ يقول «قال الله عز وجل يا ابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك ولا أبالي يا ابن آدم لو أنك أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة» أخرجه الترمذي،

دروا نصفه في البرّ ونصفه في البحر فوالله لئن قدر الله عليه ليعذّبنّه عذاباً لا يعذّبه أحداً من العالمين، قال: فلما مات فعلوا ما أمرهم فأمر الله البحر فجمع ما فيه وأمر البرّ فجمع ما فيه، ثم قال له: لِمَ فعلتَ هذا؟ قال: من خشيتك يا ربّ وأنت أعلم، فغفر له». أخبرنا أبو بكر محمد بن عبد الله بن أبي توبة أنا أبو طاهر محمد بن أحمد بن الحارث أنا أبو الحسين محمد بن يعقوب الكسائي أنا عبد الله بن محمود أنا إبراهيم بن عبد الله الخلال ثنا عبد الله بن المبارك عن عكرمة عن عمّار ثنا ضمضم بن حوشب قال: دخلت المدينة فناداني شيخ، فقال: يا يماني تعالى وما أعرفه، فقال: لا تقولنّ لرجل والله لا يغفر الله لك أبداً ولا يُدخِلك الله الجنّة، قلت: ومَن أنت يرحمك الله؟ قال: أبو هريرة، قال: فقلت: إن هذه الكلمة يقولها أحدنا لبعض أهله إذا غضب أو لزوجته أو لخادمه، قال: فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن رجلين كانا في بني إسرائيل متحابين أحدهما مجتهد في العبادة والآخر كان مذنباً، فجعل يقول له: أقصر عمّا أنت فيه، قال فيقول خلّني وربّي، قال: حتى وجده يوماً على ذنب استعظمه، فقال: أقصر، فقال: خلّني وربّي أبعثتَ عليّ رقيباً؟ فقال: واللّهِ لا يغفر اللّهُ لك أبداً، ولا يدخلك الله الجنة أبداً، قال: فبعث الله إليهما ملكاً فقبض أرواحهما فاجتمعا عنده، فقال للمذنب: ادخل الجنة برحمتي، وقال للآخر: أتستطيع أن تحظّر على عبدي رحمتي؟ فقال: لا يا ربّ، فقال: اذهبوا به إلى النار». قال أبو هريرة: والذي نفسي بيده لقد تكلم بكلمة أوبقت دنياه وآخرته. قوله عزّ وجلّ: ﴿ **إنّ الله يغفر الذنوب جميعاً إنّه هو الغفور الرحيم** ﴾. أخبرنا عبد الرحمن بن أبي بكر القفّال أنا أبو مسعود محمد بن أحمد بن يونس الخطيب ثنا محمد بن يعقوب الأصم

قوله عنان السماء العنان السحاب وقيل هو ما عن لك منها وقراب الأرض بضم القاف هو ما يقارب ملأها. قوله عز وجل:

﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾﴾

﴿وأنيبوا إلى ربكم﴾ أي ارجعوا إليه بالتوبة والطاعة ﴿وأسلموا له﴾ أي أخلصوا له التوحيد ﴿من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون﴾ أي لا تمنعون منه ﴿واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم﴾ يعني القرآن لأنه كله حسن ومعنى الآية على ما قاله الحسن إلزموا طاعة الله واجتنبوا معصيته فإنه أنزل في القرآن ذكر القبيح ليجتنب وذكر الأدون لئلا يرغب فيه وذكر الأحسن لتؤثره وتأخذ به وقيل الأحسن إتباع الناسخ وترك العمل بالمنسوخ ﴿من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون﴾ يعني غافلين عنه.

﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾

﴿أن تقول نفس﴾ أي لئلا تقول وقيل معناه بادروا واحذروا أن تقول وقيل خوف أن تصيروا إلى حال أن تقول نفس ﴿يا حسرتى﴾ أي يا ندمي ويا حزني والتحسر الاغتمام والحزن على ما فات ﴿على ما فرطت في جنب الله﴾ أي على ما قصرت في طاعة الله، وقيل في أمر الله وقيل في حق الله وقيل على ما ضيعت في ذات الله وقيل معناه على ما

ثنا أبو قلابة ثنا أبو عاصم ثنا زكريا بن إسحاق عن عمرو بن دينار عن عطاء عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿إلاّ اللّمم﴾ [النجم: ٣٢] قال رسول الله ﷺ:

«إن تغفرِ اللّهمَّ تغفرْ جمّا وأيُّ عبدٍ لك لا ألمّا»

قوله عزّ وجلّ: ﴿وأنيبوا إلى ربكم﴾، أقبلوا وارجعوا إليه بالطاعة، ﴿وأسلموا له﴾، وأخلصوا له التوحيد، ﴿من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون﴾.

﴿واتّبعوا أحسن ما أُنزل إليكم من ربّكم﴾، يعني القرآن، والقرآن كله حسن، ومعنى الآية ما قاله الحسن: التزموا طاعته واجتنبوا معصيته فإن في القرآن ذكر القبيح لتجتنبه وذكر الأدون لئلا يرغب فيه، وذكر الأحسن لتؤثره. قال السدي: الأحسن ما أمر الله به في الكتاب، ﴿من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون﴾.

﴿أن تقول نفس﴾، يعني لئلا تقول نفس، كقوله: ﴿وألقى في الأرض رواسيَ أن تميد بكم﴾ [لقمان: ١٠] يعني لئلا تميد بكم، قال المبرّد: أي بادرُوا واحذرُوا أن تقول نفس. وقال الزجّاج: خوْف أن تصيروا إلى حال تقولون هذا القول، ﴿يا حسرتىٰ﴾ يا ندامتا، والتحسّر الاغتمام على ما فات، وأراد يا حسرتي على الإضافة، لكن العرب تحوّل ياء الكناية ألفاً في الاستغاثة، فتقول: يا ويلتي ويا ندامتا، وربما ألحقوا بها الياء بعد الألف ليدلّ على الإضافة، وكذلك قرأ أبو جعفر يا حسرتاي، وقيل: معنى قوله يا حسرتا يا أيّتها الحسرة هذا وقتك، ﴿على ما فرّطتُ في جنب الله﴾، قال الحسن: قصرت في طاعة الله. وقال مجاهد: في أمر الله. وقال سعيد بن

قصرت في الجانب الذي يؤدي إلى رضا الله تعالى: ﴿وإن كنت لمن الساخرين﴾ أي المستهزئين بدين الله وبكتابه وبرسوله وبالمؤمنين قيل لم يكفه أن ضيع طاعة الله حتى سخر بأهلها ﴿أو تقول لو أن الله هداني﴾ أي أرشدني إلى دينه وطاعته ﴿لكنت من المتقين﴾ أي الشرك ﴿أو تقول حين ترى العذاب﴾ أي عياناً ﴿لو أن لي كرة﴾ أي رجعة إلى الدنيا ﴿فأكون من المحسنين﴾ أي الموحدين ثم أجاب الله تعالى هذا التأويل بأن الأعذار زائلة والتعليل باطل وهو قوله تعالى:

﴿بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾ وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٣﴾ قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾

﴿بلى قد جاءتك آياتي﴾ يعني القرآن ﴿فكذبت بها﴾ أي قلت ليست من الله ﴿واستكبرت﴾ أي تكبرت عن الإيمان بها ﴿وكنت من الكافرين ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله﴾ أي زعموا أن له ولداً وشريكاً وقيل هم الذين يقولون الأشياء إلينا إن شئنا فعلنا وإن شئنا لم نفعل ﴿وجوههم مسودة﴾ قيل هو سواد مخالف لسائر أنواع السواد ﴿أليس في جهنم مثوى للمتكبرين﴾ أي عن الإيمان.

قوله تعالى: ﴿وينجي الله الذين اتقوا﴾ أي الشرك ﴿بمفازتهم﴾ أي الطرق التي تؤديهم إلى الفوز والنجاة وقرىء بمفازاتهم أن ينجيهم بفوزهم بالأعمال الحسنة من النار ﴿لا يمسهم السوء﴾ أي لا يصيبهم المكروه ﴿ولا هم

جبير: في حق الله. وقيل: ضيّعت في ذات الله. وقيل: معناه قصرت في الجانب الذي يردّني إلى رضاء الله. والعرب تسمّي الجنب جانباً. ﴿ وإن كنت لمن الساخرين ﴾، المستهزئين بدين الله وكتابه ورسوله والمؤمنين، قال قتادة: لم يكفه أن ضيّع طاعة الله حتى جعل يسخر بأهل طاعته.

﴿ أوْ تقولَ لو أنّ الله هداني لكنتُ من المتّقين * أو تقول حين ترى العذاب ﴾، عياناً، ﴿ لو أن لي كرّة ﴾، رجعة إلى الدنيا، ﴿ فأكون من المحسنين ﴾. الموحدين.

يقال لهذا القائل: ﴿ بل قد جاءتك آياتي ﴾، يعني القرآن، ﴿ فكذبتَ بها ﴾، وقلت إنها ليست من الله، ﴿ واستكبرت ﴾، تكبّرت عن الإيمان بها، ﴿ وكنت من الكافرين ﴾.

﴿ ويوم القيامة ترى الذين كَذَبُوا على الله ﴾، فزعموا أن له ولداً وشريكاً، ﴿ وجوههم مسودّة أليس في جهنم مثوىً للمتكبرين ﴾، عن الإيمان.

﴿ وينجي الله الذين اتقوا بمفازتهم ﴾، قرأ حمزة والكسائي وأبو بكر «بمفازاتهم» بالألف على الجمع، أي بالطرق التي تؤدّيهم إلى الفوز والنجاة، وقرأ الآخرون ﴿ بمفازتهم ﴾ على الواحد لأن المفازة بمعنى الفوز، أي يُنجيهم بفوزهم من النار بأعمالهم الحسنة. قال المبرّد: المفازة مفعلة من الفوز، والجمع حسن كالسعادة والسعادات. ﴿ لا يمسّهم السوء ﴾، لا يصيبهم المكروه، ﴿ ولا هم يحزنون ﴾.

يحزنون الله خالق كل شيء أي مما هو كائن أو يكون في الدنيا والآخرة ﴿**وهو على كل شيء وكيل**﴾ أي إن الأشياء كلها موكولة إليه فهو القائم بحفظها ﴿**له مقاليد السموات والأرض**﴾ أي مفاتيح خزائن السموات والأرض واحدها مقلاد مثل مفتاح وقيل إقليد على غير قياس قيل هو فارسي معرب قال الراجز:

لم يؤذها الديك بصوت تغريد ولم يعالج غلقها بإقليد

والمعنى أن الله تعالى مالك أمرها وحافظها وهو من باب الكناية لأن حافظ الخزائن ومدبر أمرها هو الله الذي يملك مقاليدها، وقيل مقاليد السموات خزائن الرحمة والرزق والمطر ومقاليد الأرض النبات ﴿**والذين كفروا بآيات الله**﴾ أي جحدوا بآياته الظاهرة الباهرة ﴿**أولئك هم الخاسرون**﴾ قوله عز وجل: ﴿**قل أفغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون**﴾ وذلك أن كفار قريش دعوه إلى دين آبائه فوصفهم بالجهل لأن الدليل القاطع قد قام بأنه هو المستحق للعبادة فمن عبد غيره فهو جاهل ﴿**ولقد أوحي إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك**﴾ أي الذي عملته قبل الشرك، وهذا خطاب مع رسول الله ﷺ والمراد به غيره لأن الله عز وجل عصم نبيه ﷺ من الشرك وفيه تهديد لغيره ﴿**ولتكونن من الخاسرين بل الله فاعبد وكن من الشاكرين**﴾ أي لإنعامه عليك. قوله تعالى:

وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾

﴿**وما قدروا الله حق قدره**﴾ أي ما عظموه حق عظمته حين أشركوا به غيره ثم أخبر عن عظمته فقال ﴿**والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون**﴾ (ق) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال «جاء جبريل إلى رسول الله ﷺ قال يا محمد إن الله يضع السماء على أصبع والأرض على أصبع والجبال

﴿ **الله خالق كل شيء وهو على كل شيء وكيل** ﴾، أي الأشياء كلها موكولة إليه فهو القائم بحفظها.

﴿ **له مقاليد السمٰوات والأرض** ﴾، أي مفاتيح خزائن السمٰوات والأرض، واحدها مقلاد، مثل مفتاح، ومقليد مثل منديل ومناديل. وقال قتادة ومقاتل: مفاتيح السمٰوات والأرض بالرزق والرحمة. وقال الكلبي: خزائن المطر وخزائن النبات. ﴿ **والذين كفروا بآيات الله أولئك هم الخاسرون** ﴾.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ **قل أفغير الله تأمروني أعبد أيّها الجاهلون** ﴾؟ قال مقاتل: وذلك أن كفّار قريش دعوه إلى دين آبائه. قرأ أهل الشام (تأمرونني) بنونين خفيفتين على الأصل، وقرأ أهل المدينة بنون واحدة خفيفة على الحذف، وقرأ الآخرون بنون واحدة مشدّدة على الإدغام.

﴿ **ولقد أُوحي إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطنّ عملك** ﴾، أي الذي عملته قبل الشرك وهذا خطاب مع رسول الله ﷺ، والمراد منه غيره. وقيل: هذا أدب من الله عزّ وجلّ لنبيّه وتهديد لغيره، لأن الله تعالى عصمه من الشّرك. ﴿ **ولتكوننّ من الخاسرين** ﴾.

﴿ **بل الله فاعبدْ وكن من الشاكرين** ﴾، لإنعامه عليك.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ **وما قدروا الله حقّ قدره** ﴾، ما عظّموه حقّ عظمته حين أشركوا به، أخبر عن عظمته فقال: ﴿ **والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسمٰوات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عمّا يشركون** ﴾، أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا آدم ثنا شيبان عن منصور عن

على أصبع والشجر والأنهار على أصبع وسائر الخلق على أصبع ثم يقول أنا الملك فضحك رسول الله ﷺ وقال ﴿**وما قدروا الله حق قدره**﴾ وفي رواية «والماء والثرى على أصبع وسائر الخلق على أصبع ثم يهزهن وفيه أن رسول الله ﷺ ضحك حتى بدت نواجذه تعجباً وتصديقاً له ثم قرأ ﴿**وما قدروا الله حق قدره**﴾ الآية (ق) عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «قال رسول الله ﷺ يطوي الله السموات يوم القيامة ثم يأخذهن بيده اليمنى ثم يقول: أنا الملك أين الجبارون أين المتكبرون ثم يطوي الأرضين بشماله ثم يقول: أنا الملك أين الجبارون أين المتكبرون، وفي رواية يقول: أنا الله ويقبض أصابعه ويبسطها ثم يقول أنا الملك أين الجبارون أين المتكبرون، وفي رواية يقول: أنا الله ويقبض أصابعه أنا الملك حتى نظرت إلى المنبر يتحرك من أسفل شيء منه حتى أني أقول أساقط هو برسول الله ﷺ» لفظ مسلم وللبخاري «أن الله يقبض يوم القيامة الأرضين وتكون السموات بيمينه ويقول أنا الملك» (خ) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول «يقبض الله الأرض ويطوي السماء بيمينه ثم يقول أنا الملك أين ملوك الأرض» قال أبو سليمان الخطابي ليس فيما يضاف إلى الله عز وجل من صفة اليدين شمال لأن الشمال محمل النقص والضعف وقد روى كلتا يديه يمين وليس عندنا معنى اليد الجارحة إنما هي صفة جاء بها التوقيف فنحن نطلقها على ما جاءت ولا نكيفها وننتهي إلى حيث انتهى الكتاب والأخبار المأثورة الصحيحة وهذا مذهب أهل السنة والجماعة وقال سفيان بن عيينة كل ما وصف الله به نفسه في كتابه فتفسيره تلاوته والسكوت عليه.

قوله عز وجل: ﴿**ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض**﴾ أي ماتوا من الفزع وهي النفخة الأولى ﴿**إلا من شاء الله**﴾ تقدم في سورة النمل تفسير هذا الاستثناء وقال الحسن إلا من يشاء الله يعني الله وحده ﴿ثم

إبراهيم عن عبيدة عن عبد الله بن مسعود قال: جاء حَبْر من الأحبار إلى رسول الله ﷺ فقال: «يا محمد إنّا نجد أن الله يجعل السمٰوات على إصبع، والأرضين على إصبع، والشجر على إصبع، والماء والثرى على إصبع، وسائر الخلق على إصبع، فيقول: أنا الملك، فضحك النبي ﷺ حتى بدت نواجذه تصديقاً لقول الحَبْر، ثم قرأ: ﴿ **وما قدروا الله حقّ قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة** ﴾». ورواه مسلم بن الحجّاج عن أحمد بن عبد الله بن يونس عن فضيل بن عياض عن منصور، وقال: «والجبال والشجر على إصبع، وقال يهزّهنّ هزّاً، فيقول: (أنا الملك أنا الله)». أخبرنا أحمد بن إبراهيم الشريحي أنا أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي أخبرني الحسين بن فنجويه ثنا عمر بن الخطاب ثنا عبد الله بن الفضل ثنا أبو بكر بن أبي شيبة ثنا أبو أُسامة عن عمر بن حمزة عن سالم بن عبد الله أخبرني عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «يطوي اللّهُ السمٰواتِ يوم القيامة ثم يأخذهنّ بيده اليمنى، ثم يقول: أنا الملك أين الجبّارون أين المتكبّرون، ثم يطوي الأرضين ثم يأخذهنّ بشماله، ثم يقول: أنا الملك أين الجبارون أين المتكبّرون»، هذا حديث صحيح أخرجه مسلم عن أي بكر بن أبي شيبة، أخبرنا أبو بكر محمد بن عبد الله بن أبي توبة الكشمهيني ثنا أبو طاهر محمد بن أحمد بن الحارث ثنا محمد بن يعقوب الكسائي أنا عبد الله بن محمد أنا إبراهيم بن عبد الله الخلال ثنا عبد الله بن مبارك عن يونس عن الزهري حدّثني سعيد بن المسيب عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «يقبض الله الأرض يوم القيامة ويطوي السماء بيمينه، ثم يقول: أنا الملك أين ملوك الأرض».

قوله عزّ وجلّ: ﴿ **ونفخ في الصور فصعق مَنْ في السمٰوات ومَنْ في الأرض** ﴾، أي ماتوا من الفزع، وهي النفخة الأولى، ﴿ **إلاّ مَن شاء الله** ﴾، اختلفوا في الذين استثناهم عزّ وجلّ، وقد ذكرناهم في سورة النمل [٨٧]، قال الحسن: إلاّ مَن شاء الله يعني الله وحْده، ﴿ **ثم نفخ فيه** ﴾، أي في الصّور، ﴿ **أخرى** ﴾، أي مرة أخرى، ﴿ **فإذا هم قيام ينظرون** ﴾، من قبورهم ينتظرون أمر الله فيهم، أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله

نفخ فيه﴾ أي في الصور ﴿أخرى﴾ مرة أخرى وهي النفخة الثانية ﴿فإذا هم قيام﴾ أي من قبورهم ﴿ينظرون﴾ أي ينتظرون أمر الله فيهم (ق) عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ «ما بين النفختين أربعون قالوا أربعون يوماً، قال أبو هريرة: أبيت، قالوا: أربعون شهراً، قال أبو هريرة: أبيت، قالوا: أربعون سنة قال: أبيت، ثم ينزل الله عز وجل من السماء ماء فينبتون كما ينبت البقل وليس من الإنسان شيء لا يبلى إلا عظم واحد وهو عجب الذنب ومنه يركب الخلق يوم القيامة» قوله تعالى:

﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾

﴿وأشرقت الأرض بنور ربها﴾ وذلك حين يتجلى الرب تبارك وتعالى لفصل القضاء بين خلقه فما يضارون في نوره كما لا يضارون في الشمس في اليوم الصحو وقيل بعدل ربها وأراد بالأرض عرصات القيامة ﴿ووضع الكتاب﴾ أي كتاب الأعمال وقيل اللوح المحفوظ لأن فيه أعمال جميع الخلق من المبدأ إلى المنتهى ﴿وجيء بالنبيين﴾ يعني ليكونوا شهداء على أممهم ﴿والشهداء﴾ قال ابن عباس يعني الذين يشهدون للرسل بتبليغ الرسالة وهم أمة محمد ﷺ وقيل يعني الحفظة ﴿وقضي بينهم بالحق﴾ أي بالعدل ﴿وهم لا يظلمون﴾ أي لا يزاد في سيئاتهم ولا ينقص من حسناتهم ﴿ووفيت كل نفس ما عملت﴾ أي ثواب ما عملت ﴿وهو أعلم بما يفعلون﴾ يعني أنه سبحانه وتعالى عالم بأفعالهم لا يحتاج إلى كاتب ولا إلى شاهد.

النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا محمد ثنا ابن معاوية الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما بين النفختين أربعون»، قالوا: أربعون يوماً؟ قال: «أبيت»، قالوا: أربعون شهراً؟ قال: «أبيت»، قالوا: أربعون سنة؟ قال: «أبيت»، قال: «ثم ينزل الله من السماء ماء فينبتون كما ينبت البقل ليس من الإنسان شيء إلّا يبلى إلّا عظم واحد، وهو عجب الذنب ومنه يركب الخلق يوم القيامة».

قوله عزّ وجلّ: ﴿ وأشرقتِ الأرضُ ﴾، أضاءت، ﴿ بنور ربِّها ﴾ بنور خالقها، وذلك حين يتجلّى الربّ لفصل القضاء بين خلقه فما يتضارّون في نوره كما لا يتضارّون في الشمس في اليوم الصحو. وقال الحسن والسدي: بعدلِ ربِّها، وأراد بالأرض عرصات القيامة، ﴿ ووضع الكتاب ﴾، أي كتاب الأعمال، ﴿ وجيء بالنبيّين والشهداء ﴾، قال ابن عباس: يعني الذين يشهدون للرّسل بتبليغ الرسالة، وهم أُمة محمد ﷺ. وقال عطاء: يعني الحَفَظَة يدلّ عليه قوله تعالى: ﴿ وجاءتْ كلُّ نفسٍ معها سائقٌ وشهيد ﴾ [قٓ: ٢١]، ﴿ وقضي بينهم بالحق ﴾، أي بالعدل، ﴿ وهم لا يظلمون ﴾، أي لا يُزاد في سيئاتهم ولا ينقص من حسناتهم.

﴿ ووُفِّيت كل نفس ما عملت ﴾، أي ثواب ما عملت، ﴿ وهو أعلم بما يفعلون ﴾، قال عطاء: يريد أنّي عالم بأفعالهم لا أحتاج إلى كاتب ولا إلى شاهد.

﴿ وسيق الذين كفروا إلى جهنم ﴾ سوقاً عنيفاً، ﴿ زُمراً ﴾، أفواجاً بعضها على إثر بعض، كلّ أُمة على

قوله تعالى: ﴿وسيق الذين كفروا إلى جهنم﴾ يعني سوقاً عنيفاً ﴿زمراً﴾ أفواجاً بعضهم على أثر بعض كل أمة على حدة وقيل جماعات متفرقة واحدتها زمرة ﴿حتى إذا جاؤوها فتحت أبوابها﴾ يعني السبعة وكانت قبل ذلك مغلقة ﴿وقال لهم خزنتها﴾ يعني توبيخاً وتقريعاً ﴿ألم يأتكم رسل منكم﴾ أي من أنفسكم ومن جنسكم ﴿يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا بلى ولكن حقت كلمة العذاب﴾ أي وجبت ﴿على الكافرين﴾ وهي قوله ﴿لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين﴾ ﴿قيل ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين﴾ قوله عز وجل: ﴿وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمراً﴾ فإن قلت عبر عن الفريقين بلفظ السوق فما الفرق بينهما.

قلت المراد بسوق أهل النار طردهم إلى العذاب بالهوان والعنف كما يفعل بالأسير إذا سيق إلى الحبس أو القتل، والمراد بسوق أهل الجنة سوق مراكبهم لأنهم يذهبون إليها راكبين أو المراد بذلك السوق إسراعهم إلى دار الكرامة والرضوان فشتان ما بين السوقين ﴿حتى إذا جاؤوها وفتحت أبوابها﴾ فإن قلت قال في أهل النار فتحت بغير واو وهنا زاد حرف الواو فما الفرق.

قلت فيه وجوه أحدها إنها زائدة الثاني إنها واو الحال مجازه وقد فتحت أبوابها فأدخل الواو لبيان أنها كانت مفتحة قبل مجيئهم إليها وحذف الواو في الآية الأولى لبيان أن أبواب جهنم كانت مغلقة قبل مجيئهم إليها ووجه الحكمة في ذلك أن أهل الجنة إذا جاؤوها ووجدوا أبوابها مفتحة حصل لهم السرور والفرح بذلك وأهل النار إذا رأوها مغلقة كان ذلك نوع ذل وهوان لهم. الثالث زيدت الواو هنا لبيان أن أبواب الجنة ثمانية ونقصت هناك لأن أبواب جهنم سبعة والعرب تعطف بالواو فيما فوق السبعة تقول سبعة وثمانية.

فإن قلت حتى إذا جاؤوها شرط فأين جوابه؟

قلت فيه وجوه أحدها أنه محذوف والمقصود من الحذف أن يدل على أنه بلغ في الكمال إلى حيث لا يمكن ذكره الثاني أن الجواب هو قوله ﴿وقال لهم خزنتها سلام عليكم﴾ بغير واو الثالث تقديره فادخلوها خالدين دخلوها

حِدَة. قال أبو عبيدة والأخفش: زُمراً أي جماعات في تفرقة، واحدتها زُمرة. ﴿ **حتى إذا جاءوها فتحت أبوابها** ﴾، السبعة وكانت مغلقة قبل ذلك، قرأ أهل الكوفة (فتحت، وفتحت) بالتخفيف، وقرأ الآخرون بالتشديد على التكثير ﴿ **وقال لهم خزنتها** ﴾، توبيخاً وتقريعاً لهم، ﴿ **ألمْ يأتكم رسلٌ منكم** ﴾، من أنفسكم، ﴿ **يتلون عليكم آيات ربكم ينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا بلى ولكنْ حقّتْ** ﴾، وجبت، ﴿**كلمةُ العذاب على الكافرين**﴾، وهو قوله: ﴿ **لأملأنّ** جهنم من الجنة والناس أجمعين ﴾ [السجدة: ١٣].

﴿ **قيل ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبّرين * وسِيقَ الذين اتّقوا ربّهم إلى الجنة زُمراً حتى إذا جاؤوها وفتحت أبوابها** ﴾، قال الكوفيون: هذه الواو زائدة حتى تكون جواباً لقوله: ﴿ **حتى إذا جاءوها** ﴾ كما في سوق الكفّار، وهذا كما قال الله تعالى: ﴿ ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان وضياء ﴾ [الأنبياء: ٤٨] أي ضياء، والواو زائدة، وقيل: الواو واو الحال، مجازه: وقد فتحت أبوابها، فأدخل الواو لبيان أنها كانت مفتحة قبل مجيئهم وحذفها في الآية الأولى لبيان أنها كانت مغلقة قبل مجيئهم، فإذا لم تجعل الواو زائدة في قوله: ﴿ **وفتحت أبوابها** ﴾، اختلفوا في جواب قوله: ﴿ **حتى إذا** ﴾، قيل: جوابه قوله: ﴿ **جاءوها** ﴾، وقال لهم خزنتها، والواو فيه ملغاة تقديره: حتى إذا جاؤوها وفتحت أبوابها قال لهم خَزَنَتها، وقال الزجّاج: القول عندي أن الجواب محذوف، تقديره: حتى إذا جاؤوها وفتحت أبوابها. ﴿ **وقال لهم خَزَنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين** ﴾، دخلوها فحذف دخلوها لدلالة الكلام عليه، وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم، يريد أن خزنة الجنة يسلّمون عليهم ويقولون طبتم. قال ابن عباس: طاب لكم المقام. قال قتادة: هم إذا قطعوا النار حبسوا على قنطرة بين الجنة والنار

فحذف دخلوها لدلالة الكلام عليه ﴿وقال لهم خزنتها سلام عليكم﴾ أي أبشروا بالسلامة من كل الآفات ﴿طبتم﴾ قال ابن عباس معناه طاب لكم المقام وقيل إذا قطعوا النار حبسوا على قنطرة بين الجنة والنار فيقتص بعضهم من بعض حتى إذا هذبوا وطيبوا دخلوا الجنة فيقول لهم رضوان وأصحابه ﴿سلام عليكم طبتم﴾ ﴿فادخلوها خالدين﴾ وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه إذا سيقوا إلى الجنة فإذا انتهوا إليها وجدوا عند بابها شجرة يخرج من تحتها عينان فيغتسل المؤمن من إحداهما فيطهر ظاهره ويشرب من الأخرى فيطهر باطنه وتتلقاهم الملائكة على أبواب الجنة يقولون ﴿سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين.

وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾ وَتَرَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾

وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده﴾ أي بالجنة ﴿وأورثنا الأرض﴾ أي أرض الجنة نتصرف فيها كما نشاء تشبيهاً بحال الوارث وتصرفه فيما يرثه وهو قوله تعالى: ﴿نتبوأ﴾ أي ننزل ﴿من الجنة﴾ أي في الجنة ﴿حيث نشاء﴾ فإن قلت فما معنى قوله ﴿حيث نشاء﴾ وهل يتبوأ أحدهم مكان غيره.

قلت يكون لكل واحد منهم جنة لا توصف سعة وحسناً وزيادة على الحاجة فيتبوأ من جنته حيث يشاء ولا يحتاج إلى غيره وقيل إن أمة محمد ﷺ يدخلون الجنة قبل الأمم فينزلون فيها حيث شاؤوا ثم تنزل الأمم بعدهم فيما فضل منها قال الله عز وجل: ﴿فنعم أجر العاملين﴾ أي ثواب المطيعين في الدنيا الجنة في العقبى ﴿وترى الملائكة حافين من حول العرش﴾ أي محدقين محيطين بحافته وجوانبه ﴿يسبحون بحمد ربهم﴾ وقيل هذا تسبيح تلذذ لا تسبيح تعبد لأن التكليف يزول في ذلك اليوم ﴿وقضي بينهم بالحق﴾ بين أهل الجنة وأهل النار بالعدل ﴿وقيل الحمد لله رب العالمين﴾ أي يقول أهل الجنة شكراً حين تمَّ وعد الله لهم، وقيل ابتدأ الله ذكر الخلق بالحمد في قوله ﴿الحمد لله الذي خلق السموات والأرض﴾ وختم بالحمد في آخر الأمر وهو استقرار الفريقين في منازلهم فنبه بذلك على تحميده في بداءة كل أمر وخاتمته والله تعالى أعلم بمراده وأسرار كتابه.

فيقتصّ بعضهم من بعض حتى إذا هُذِّبوا وطيِّبوا أُدخلوا الجنة، فقال لهم رضوان وأصحابه: ﴿ **سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين** ﴾. ورُوِيَ عن عليّ عليه السلام قال: سيقوا إلى الجنة فإذا انتهوا إليها وجدوا عند بابها شجرة يخرج من تحت ساقها عينان فيغتسل المؤمن من إحداهما فيطهر ظاهره، ويشرب من الأخرى فيطهر باطنه، وتلقّته الملائكة على أبواب الجنة يقولون: سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين.

﴿ **وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الأرض** ﴾، أي أرض الجنة. وهو قوله عزّ وجلّ: ﴿ ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أنّ الأرضَ يرثها عباديَ الصالحون ﴾ [الأنبياء: ١٠٥]. ﴿ **نتبوّأ** ﴾، ننزل، ﴿ **من الجنة حيث نشاء** ﴾، قال الله تعالى: ﴿ **فنِعمَ أجرُ العاملين** ﴾، ثواب المطيعين.

﴿ **وترى الملائكة حافّين من حول العرش** ﴾، أي محدقين محيطين بالعرش، المحيطين بحوافيه أي بجوانبه، ﴿ **يسبّحون بحمد ربهم** ﴾، قيل: هذا تسبيح تلذّذ لا تسبيح تعبّد لأن التكليف متروك في ذلك اليوم، ﴿ **وقضي بينهم بالحق** ﴾، أي قضي بين أهل الجنة والنار بالعدل، ﴿ **وقيل الحمد لله ربّ العالمين** ﴾، يقول أهل الجنة: شكراً حين تمّ وعدُ الله لهم.

سورة حمٓ المؤمن

وتسمى سورة غافر وهي مكية قيل غير آيتين وهما قوله تعالى: ﴿الذين يجادلون في آيات الله﴾ والتي بعدها وهي خمس وثمانون آية وألف ومائة وتسع وتسعون كلمة وأربعة آلاف وتسعمائة وستون حرفاً، عن عبد الله بن مسعود رضي الله تعالى عنه قال «إن مثل صاحب القرآن كمثل رجل انطلق يرتاد لأهله منزلاً فمر بأثر غيث فبينما هو يسير فيه ويتعجب منه إذ هبط على روضات دمثات فقال عجبت من الغيث الأول فهذا أعجب منه وأعجب فقيل له إن مثل الغيث الأول مثل هذه الروضات الدمثات مثل آل حم في القرآن» وعن ابن عباس قال: لكل شيء لباب ولباب القرآن الحواميم وقال ابن مسعود إذا وقعت في آل حم وقعت في روضات الجنة أتأنق فيهن، وقال سعد بن إبراهيم إن آل حم تسمى العرائس.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٢﴾ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٣﴾

قوله عز وجل: ﴿حمٓ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿حمٓ﴾ اسم الله الأعظم وعنه قال الرٓ وحمٓ ونٓ حروف اسمه الرحمن مقطعة وقيل حم اسم للسورة وقيل الحاء افتتاح أسمائه حليم وحميد وحي وحكيم وحنان، والميم افتتاح أسمائه ملك ومجيد ومنان، وقيل معناه حم بضم الحاء أي قضى ما هو كائن ﴿تنزيل الكتاب من الله العزيز﴾ أي

سُوْرَة غافر

مكيّة وهي خمس وثمانون آية.

أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أبو منصور محمد بن محمد بن سمعان ثنا أبو جعفر محمد بن أحمد بن عبد الجبار الريّاني ثنا حميد بن زنجويه ثنا عبد الله بن موسى ثنا إسرائيل عن أبي إسحاق عن أبي الأحوص عن عبد الله قال: إن مثل القرآن كمثل رجل انطلق يرتاد لأهله منزلاً فمرّ بأثر غيث فبينما هو يسير فيه ويتعجّب منه إذ هبط على روضات دمثال، فقال: عجبت من الغيث الأول فهذا أعجب منه وأعجب، فقيل له: إن مثل الغيث الأول مثل عظم القرآن وإن مثل هؤلاء الروضات الدمثال مثل آل حَمٓ القرآن. أخبرنا أبو سعيد الشريحي أنا أبو إسحاق الثعلبي أنا أبو محمد الرومي ثنا أبو العباس السرّاج أنا قتيبة ثنا ابن لهيعة عن يزيد بن أبي حبيب أن الجراح بن الجرّاح حدّثه عن ابن عباس قال: لكل شيء لباب ولباب القرآن الحواميم. وقال ابن مسعود: إذا وقعت في آل حَمٓ وقعت في روضات أتأنّق فيهنّ. وقال سعد بن إبراهيم: كنّ آل الحواميم يسمّين العرائس.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ حَمٓ ﴾، قد سبق الكلام في حروف التهجّي. قال السدي عن ابن عباس: حَمٓ اسم الله

الغالب القادر وقيل الذي لا مثل له ﴿العليم﴾ أي بكل المعلومات ﴿غافر الذنب﴾ يعني ساتر الذنب ﴿وقابل التوب﴾ يعني التوبة قال ابن عباس غافر الذنب لمن قال لا إله إلا الله وقابل التوب ممن قال لا إله إلا الله ﴿شديد العقاب﴾ لمن لا يقول لا إله إلا الله ﴿ذي الطول﴾ يعني السعة والغنى وقيل ذي الفضل والنعم وأصل الطول الإنعام الذي تطول مدته على صاحبه ﴿لا إله إلا هو﴾ يعني هو الموقوف بصفات الوحدانية التي لا يوصف بها غيره ﴿إليه المصير﴾ أي مصير العباد إليه في الآخرة قوله تعالى: ﴿ما يجادل﴾ يعني ما يخاصم ويحاجج في آيات الله يعني في دفع آيات الله بالتكذيب والإنكار إلا الذين كفروا قال أبو العالية آيتان ما أشدهما على الذين يجادلون في القرآن.

﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ٤ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۖ وَهَمَّتۡ كُلُّ أُمَّةِۢ بِرَسُولِهِمۡ لِيَأۡخُذُوهُۖ وَجَٰدَلُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ فَأَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ ٥ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ ٦ ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْۖ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ٧﴾

قوله تعالى: ﴿ما يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا﴾ وقوله ﴿وإن الذين اختلفوا في الكتاب لفي شقاق بعيد﴾ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال «إن جدالاً في القرآن كفر» أخرجه أبو داود وقال المراد في القرآن كفر وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال «سمع رسول الله ﷺ قوماً يتمارون فقال إنما هلك من كان قبلكم بهذا ضربوا كتاب الله عز وجل بعضه ببعض وإنما أنزل الكتاب يصدق بعضه بعضاً فلا تكذبوا بعضه ببعض فما علمتم منه فقولوه وما جهلتم منه فكلوه إلى عالمه» (م) عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: هاجرت إلى رسول الله ﷺ يوماً

الأعظم. وروى عكرمة عنه قال: الٓر وحمٓ ونون، حروف الرحمن مقطّعة. وقال سعيد بن جبير وعطاء الخراساني: الحاء افتتاح أسمائه حكيم حميد حيّ حليم حنان، والميم افتتاح أسمائه ملك مجيد منّان. وقال الضحّاك والكسائي: معناه قضى ما هو كائن كأنه أشار إلى أن معناه حُمّ بضمّ الحاء وتشديد الميم، وقرأ حمزة والكسائي وأبو بكر حِمٓ بكسر الحاء، والباقون بفتحها.

﴿ تنزيلُ الكتاب من الله العزيز العليم * غافر الذنب ﴾، ساتر الذنب، ﴿ وقابل التوب ﴾، يعني التوبة مصدر تاب يتوب توباً. وقيل: التوب جمع توبة مثل دومة ودوم وحومة وحوم. قال ابن عباس: غافر الذنب لمَن قال لا إلّه إلّا الله، وقابل التوب ممّن قال لا إلّه إلّا الله محمد رسول الله. ﴿ شديد العقاب ﴾، لمَن لا يقول لا إلّه إلّا الله، ﴿ ذي الطول ﴾، ذي الغنى عمّن لا يقول لا إلّه إلّا الله. قال مجاهد: ذي الطول ذي السّعة والغنى. وقال الحسن: ذو الفضل. قال قتادة: ذو النعم. وقيل: ذو القدرة وأصل الطول الإنعام الذي تطول مدته على صاحبه. ﴿ لا إلّه إلّا هو إليه المصير ﴾.

﴿ ما يجادل في آيات الله ﴾، في دفع آيات الله بالتكذيب والإنكار، ﴿ إلّا الذين كفروا ﴾، قال أبو العالية: آيتان ما أشدّهما على الذين يجادلون في القرآن: ﴿ ما يجادل في آيات الله إلّا الذين كفروا ﴾، و﴿ إن الذين اختلفوا في الكتاب لفي شقاق بعيد ﴾ [البقرة: ١٧٦]، أخبرنا أبو سعيد الشريحي أنا أبو إسحاق الثعلبي أنا عبد الله بن أحمد ثنا محمد بن خالد أنا داود بن سليمان أنا عبد الله بن حميد ثنا الحسين بن علي الجعفي عن زائدة عن ليث عن سعد بن إبراهيم عن أبي سلمة عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «إنّ دجّالاً في القرآن كفر» أخبرنا

فسمع أصوات رجلين اختلفا في آية فخرج رسول الله ﷺ يعرف في وجهه الغضب فقال «إنما هلك من كان قبلكم باختلافهم في الكتاب» **﴿فلا يغررك تقلبهم﴾** يعني تصرفهم **﴿في البلاد﴾** للتجارات وسلامتهم فيها مع كفرهم فإن عاقبة أمرهم العذاب **﴿كذبت قبلهم قوم نوح والأحزاب من بعدهم﴾** يعني الكفار الذين تحزبوا على أنبيائهم بالتكذيب من بعد قوم نوح **﴿وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه﴾** قال ابن عباس ليقتلوه ويهلكوه وقيل ليأسروه **﴿وجادلوا﴾** يعني خاصموا **﴿بالباطل ليدحضوا﴾** يعني ليبطلوا **﴿به الحق﴾** الذي جاءت به الرسل **﴿فأخذتهم فكيف كان عقاب﴾** يعني أنزلت بهم من الهلاك ما هموا هم بإنزاله بالرسل وقيل معناه فكيف كان عقابي إياهم أليس كان مهلكاً مستأصلاً **﴿وكذلك حقت﴾** أي وجبت **﴿كلمة ربك﴾** يعني كما وجبت كلمة العذاب على الأمم المكذبة حقت **﴿على الذين كفروا﴾** يعني من قومك **﴿إنهم﴾** يعني بأنهم **﴿أصحاب النار﴾** قوله عز وجل: **﴿الذين يحملون العرش﴾** قيل حملة العرش اليوم أربعة فإذا كان يوم القيامة أردفهم الله تعالى بأربعة أخر كما قال الله تعالى: **﴿ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية﴾** وهم أشرف الملائكة وأفضلهم لقربهم من الله عز وجل وهم على صورة الأوعال وجاء في الحديث إن لكل ملك منهم وجه رجل ووجه أسد ووجه ثور ووجه نسر، ولكل واحد منهم أربعة أجنحة جناحان منها على وجهه مخافة أن ينظر إلى العرش فيصعق وجناحان يهفو بهما في الهواء ليس لهم كلام غير التسبيح والتحميد والتمجيد ما بين أظلافهم إلى ركبهم كما بين سماء إلى سماء وقال ابن عباس: حملة العرش ما بين كعب أحدهم إلى أسفل قدميه مسيرة خمسمائة عام، ويروي أن أقدامهم في تخوم الأرضين والأرضون والسموات إلى حجزهم تسبيحهم سبحان ذي العزة والجبروت سبحان ذي الملك والملكوت سبحان الحي الذي لا يموت سبوح قدوس رب الملائكة والروح وقيل

أحمد بن عبد الله الصالحي أنا أبو الحسين بن بشران أنا إسماعيل بن محمد الصفّار ثنا أحمد بن منصور الرمادي ثنا عبد الرزاق أنا معمر عن الزهري عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه قال: سمع رسول الله ﷺ قوماً يتمارون في القرآن، فقال: «إنما هلك مَن كان قبلكم بهذا ضربوا كتاب الله بعضه ببعض، وإنما نزل كتاب الله يصدّق بعضه بعضاً، فلا تكذبوا بعضه ببعض، فما علمتم منه فقولوه، وما جهلتم فكلوه إلى عالمه». قوله تعالى: **﴿ فلا يغررْك تقلبهم في البلاد ﴾**، تصرّفهم في البلاد للتجارات وسلامتهم فيها مع كفرهم، فإن عاقبة أمرهم العذاب، نظيره قوله عزّ وجلّ: ﴿ لا يغرّنّك تقلّب الذين كفروا في البلاد ﴾ [آل عمران: ١٩٦].

﴿ كذّبت قبلهم قوم نوح والأحزاب من بعدهم ﴾، وهم الكفّار الذين تحزّبوا على أنبيائهم بالتكذيب من بعد قوم نوح، **﴿ وهمّت كل أمة برسولهم ليأخذوه ﴾**، قال ابن عباس: ليقتلوه ويهلكوه. وقيل: ليأسروه. والعرب تسمّي الأسير أخيذاً، **﴿ وجادلوا بالباطل ليدحضوا ﴾**، ليبطلوا، **﴿ به الحق ﴾**، الذي جاء به الرّسل ومجادلتهم مثل قولهم: ﴿ إن أنتم إلاّ بشرٌ مثلنا ﴾ [إبراهيم: ١٠]، و﴿ لولا أنزل علينا الملائكة ﴾ [الفرقان: ٢١]، ونحو ذلك، **﴿ فأخذتهم فكيف كان عقاب ﴾**.

﴿ وكذلك حقّت كلمة ربك ﴾، يعني كما حقّت كلمة العذاب على الأمم المكذّبة حقّت، **﴿ على الذين كفروا ﴾**، من قومك، **﴿ أنهم أصحاب النار ﴾**، قال الأخفش: لأنهم أو بأنهم أصحاب النار.

قوله عزّ وجلّ: **﴿ الذين يحملون العرش ومن حوله ﴾**، حَمَلَة العرش والطائفون به وهم الكروبيون، وهم سادة الملائكة. قال ابن عباس: حَمَلَة العرش ما بين كعب أحدهم إلى أسفل قدميه مسيرة مائة عام، ويُروَى أن أقدامهم في تخوم الأرض والأرضون والسمٰوات إلى حجزتهم، وهم يقولون سبحان ذي العزّة والجبروت، سبحان ذي الملك والملكوت، سبحان الحيّ الذي لا يموت، سُبّوحٌ قُدّوسٌ ربُّ الملائكة والروح. وقال ميسرة بن عبد

إن أرجلهم في الأرض السفلى ورؤوسهم خرقت العرش وهم خشوع لا يرفعون طرفهم وهم أشد خوفاً من أهل السماء السابعة وأهل السماء السابعة أشد خوفاً من التي تليها والتي تليها أشد خوفاً من التي تليها.

وروى جابر عن النبي ﷺ قال «أذن لي أن أحدث عن ملك من ملائكة الله عز وجل من حملة العرش إن ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام» أخرجه أبو داود وأما صفة العرش فقيل إنه جوهرة خضراء وهو من أعظم المخلوقات خلقاً وروى جعفر بن محمد عن أبيه عن جده أنه قال: إن ما بين القائمة من قوائم العرش والقائمة الثانية كخفقان الطير المسرع ثلاثين ألف عام ويكسى العرش كل يوم ألف لون من النور لا يستطيع أن ينظر إليه خلق من خلق الله تعالى والأشياء كلها في العرش كحلقة في فلاة وقال مجاهد بين السماء السابعة وبين العرش سبعون ألف حجاب حجاب نور وحجاب ظلمة وحجاب نور وحجاب ظلمة وقيل إن العرش قبلة لأهل السماء كما أن الكعبة قبلة لأهل الأرض قوله: ﴿**ومن حوله**﴾ يعني الطائفين به وهم الكروبيون وهم سادات الملائكة، قال وهب بن منبه: إن حول العرش سبعين ألف صف من الملائكة صف خلف صف يطوفون بالعرش يقبل هؤلاء ويدبر هؤلاء فإذا استقبل بعضهم بعضاً هلل هؤلاء وكبر هؤلاء ومن ورائهم سبعون ألف صف قيام أيديهم إلى أعناقهم قد وضعوها على عواتقهم فإذا سمعوا تكبير أولئك وتهليلهم رفعوا أصواتهم فقالوا سبحانك وبحمدك ما أعظمك وأجلك أنت الله لا إله غيرك أنت الأكبر والخلق كلهم إليك راجعون ومن وراء هؤلاء وهؤلاء مائة ألف صف من الملائكة قد وضعوا اليمنى على اليسرى ليس منهم أحد إلا يسبح بتحميد لا يسبحه الآخر ما بين جناحي أحدهم مسيرة ثلاثمائة عام وما بين شحمة أذنه إلى عاتقه أربعمائة عام واحتجب الله عز وجل من الملائكة الذين حول العرش بسبعين حجاباً من نار وسبعين حجاباً من ظلمة وسبعين حجاباً من نور وسبعين حجاباً من در أبيض وسبعين حجاباً من ياقوت أحمر وسبعين حجاباً من زبرجد أخضر وسبعين حجاباً من ثلج وسبعين حجاباً من ماء وسبعين حجاباً من برد وما لا يعلمه إلا الله عز وجل.

قوله تعالى: ﴿**يسبحون بحمد ربهم**﴾ أي ينزهون الله تعالى عما لا يليق بجلاله والتحميد هو الاعتراف بأنه هو

ربه: أرجلهم في الأرض السفلى، ورؤوسهم تحت العرش، وهم خشوع لا يرفعون طرفهم، وهم أشدّ خوفاً من أهل السماء السابعة، وأهل السماء السابعة أشدّ خوفاً من أهل السماء التي تليها، والتي تليها أشدّ خوفاً من التي تليها. وقال مجاهد: بين الملائكة والعرش سبعون حجاباً من نور. وروى محمد بن المنكدر عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «أُذِن لي أن أُحدّث عن ملك من ملائكة الله من حَمَلَة العرش ما بين شحمة أُذنيه إلى عاتقيه مسيرة سبعمائة عام». وروى جعفر بن محمد عن أبيه عن جدّه أنه قال: إن ما بين القائمة من قوائم العرش والقائمة الثانية خفقان الطير المسرع ثلاثين ألف عام، والعرش يُكسى كل يوم سبعين ألف لون من النور، لا يستطيع أن ينظر إليه خلق من خلق الله، والأشياء كلها في العرش كحلقة في فلاة. وقال مجاهد: بين السماء السابعة وبين العرش سبعون ألف حجاب من نور، وحجاب من ظلمة وحجاب نور وحجاب ظلمة. وقال وهب بن منبّه: إن حول العرش سبعون ألف صفّ من الملائكة، صفّ خلف صفّ يطوفون بالعرش، يقبل هؤلاء ويقبل هؤلاء فإذا استقبل بعضهم بعضاً هلّل هؤلاء وكبّر هؤلاء، ومن ورائهم سبعون ألف صف قيام أيديهم إلى أعناقهم قد وضعوها على عواتقهم، فإذا سمعوا تكبير أولئك وتهليلهم رفعوا أصواتهم، فقالوا: سبحانك وبحمدك ما أعظمك وأجلّك أنت الله لا إلّه غيرك، أنت الأكبر الخلق كلهم لك راجعون، ومن وراء هؤلاء مائة ألف صفّ من الملائكة قد وضعوا اليمنى على اليسرى ليس منهم أحد إلّا وهو يسبّح بتحميد لا يسبّحه الآخر، ما بين جناحي أحدهم مسيرة ثلثمائة عام، وما بين شحمة أُذنه إلى عاتقه أربعمائة عام، واحتجب الله من الملائكة الذين حول العرش بسبعين حجاباً من نار، وسبعين حجاباً من ظلمة، وسبعين حجاباً من نور، وسبعين حجاباً من دُرٍّ أبيض، وسبعين حجاباً من ياقوت أحمر، وسبعين

المنعم على الإطلاق ﴿**ويؤمنون به**﴾ أي يصدقون بأنه واحد لا شريك له ولا مثل له ولا نظير له.

فإن قلت قدم قوله يسبحون بحمد ربهم على قوله ﴿**ويؤمنون به**﴾ ولا يكون التسبيح إلا بعد الإيمان فما فائدة قوله ويؤمنون به.

قلت فائدته التنبيه على شرف الإيمان وفضله والترغيب فيه. ولما كان الله عز وجل محتجباً عنهم بحجب جلاله وجماله وكماله وصفهم بالإيمان به. قال شهر بن حوشب حملة العرش ثمانية أربعة منهم يقولون سبحانك اللهم وبحمدك لك الحمد على حلمك بعد علمك وأربعة منهم يقولون سبحانك اللهم وبحمدك لك الحمد على عفوك بعد قدرتك قال وكأنهم يرون ذنوب بني آدم ﴿**ويستغفرون للذين آمنوا**﴾ أي يسألون الله تعالى المغفرة لهم قيل هذا الاستغفار من الملائكة مقابل لقولهم ﴿**أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء**﴾ فلما صدر هذا منهم أولاً تداركوه بالاستغفار لهم ثانياً وهو كالتنبيه لغيرهم فيجب على كل من تكلم في أحد بشيء يكرهه أن يستغفر له ﴿**ربنا**﴾ أي ويقولون ربنا ﴿**وسعت كل شيء رحمة وعلماً**﴾ أي وسعت رحمتك وعلمك كل شيء وفيه تنبيه على تقديم الثناء على الله تعالى بما هو أهله قيل المطلوب بالدعاء فلما قدموا الثناء على الله عز وجل قالوا ﴿**فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك**﴾ أي دينك ﴿**وقهم عذاب الجحيم**﴾ قال مطرف أنصح عباد الله للمؤمنين الملائكة وأغش الخلق للمؤمنين هم الشياطين.

رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾

﴿**ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم إنك أنت العزيز الحكيم**﴾

حجاباً من ياقوت أصفر، وسبعين حجاباً من زبرجد أخضر، وسبعين حجاباً من ثلج، وسبعين حجاباً من ماء، وسبعين حجاباً من برد، وما لا يعلمه إلاّ الله تعالى. قال: ولكل واحد من حَمَلَة العرش ومَن حوله أربعة وجوه، وجه ثور ووجه أسد ووجه نسر ووجه إنسان، ولكل واحد منهم أربعة أجنحة، أما جناحان فعلى وجهه مخافة أن ينظر إلى العرش فيصعق، وأما جناحان فيهفو بها كما يهفو هذا الطائر بجناحيه إذا حرّكه، ليس لهم كلام إلاّ التسبيح والتحميد. قوله عزّ وجلّ: ﴿ **يسبّحون بحمد ربّهم ويؤمنون به** ﴾ يصدقون بأنه واحد لا شريك له، أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أبو منصور السمعاني ثنا أبو جعفر الريّاني ثنا حميد بن زنجويه ثنا عمر بن عبد الله الرقاشي ثنا جعفر بن سليمان ثنا هارون بن رباب ثنا شهر بن حوشب قال: حَمَلَة العرش ثمانية، فأربعة منهم يقولون: سبحانك اللّهمَّ وبحمدك لك الحمد على حلمك بعد علمك، وأربعة منهم يقولون: سبحانك اللّهمَّ وبحمدك لك الحمد على عفوك بعد قدرتك، وكأنهم ينظرون ذنوب بني آدم. قوله عزّ وجلّ: ﴿ **ويستغفرون للذين آمنوا ربنا** ﴾، يعني يقولون ربنا، ﴿ **وسعتَ كل شيء رحمةً وعلماً** ﴾، قيل: نصب على التفسير، وقيل: على النقل، أي وسعت رحمتك وعلمك كل شيء، ﴿ **فاغفر للذين تابوا واتّبعوا سبيلك** ﴾، دينك. ﴿ **وقِهِم عذابَ الجحيم** ﴾، قال مطرف: أنصح عباد الله للمؤمنين هم الملائكة وأغشّ الخلق للمؤمنين هم الشياطين.

﴿ **ربّنا وأدخلهم جنّاتِ عدن التي وعدتهم ومَنْ صَلَحَ** ﴾، آمن، ﴿ **من آبائهم وأزواجهم وذريّاتهم إنك أنت**

قيل إذا دخل المؤمن الجنة قال: أين أبي وأين أمي وأين ولدي وأين زوجتي، فيقال: إنهم لم يعملوا عملك، فيقول: إني كنت أعمل لي ولهم فيقال أدخلوهم الجنة فإذا اجتمع بأهله في الجنة كان أكمل لسروره ولذته ﴿**وقهم السيئات**﴾ أي عقوبات السيئات بأن تصونهم من الأعمال الفاسدة التي توجب العقاب ﴿**ومن تق السيئات يومئذ**﴾ يعني من تقه في الدنيا ﴿**فقد رحمته**﴾ يعني في القيامة ﴿**وذلك هو الفوز العظيم**﴾ يعني النعيم الذي لا ينقطع في جوار مليك لا تصل العقول إلى كنه عظمته وجلاله قوله تعالى: ﴿**إن الذين كفروا ينادون**﴾ يعني يوم القيامة وهم في النار وقد مقتوا أنفسهم حين عرضت عليهم سيئاتهم وعاينوا العذاب فيقال لهم ﴿**لمقت الله**﴾ يعني إياكم في الدنيا ﴿**أكبر من مقتكم أنفسكم إذ تدعون إلى الإيمان فتكفرون**﴾ أي اليوم عند حلول العذاب بكم.

﴿قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُواْ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِيِّ ٱلْكَبِيرِ ﴿١٢﴾﴾

﴿**قالوا ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين**﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: كانوا أمواتاً في أصلاب آبائهم فأحياهم الله تعالى في الدنيا ثم أماتهم الموتة التي لا بد منها ثم أحياهم للبعث يوم القيامة فهذه موتتان وحياتان وقيل أميتوا في الدنيا ثم أحيوا في القبر للسؤال ثم أميتوا في قبورهم ثم أحيوا للبعث في الآخرة وذلك أنهم عدوا أوقات البلاء والمحنة وهي أربعة الموتة الأولى ثم الحياة في القبر ثم الموتة الثانية فيه ثم الحياة للبعث فأما الحياة الأولى التي هي من الدنيا فلم يعدوها لأنها ليست من أقسام البلاء وقيل ذكر حياتين وهي حياة الدنيا وحياة القيامة وموتتين وهي الموتة الأولى في الدنيا ثم الموتة الثانية في القبر بعد حياة السؤال ولم يعدوا حياة السؤال لقصر مدتها ﴿**فاعترفنا بذنوبنا**﴾ يعني إنكارهم البعث بعد الموت فلما شاهدوا البعث اعترفوا بذنوبهم ثم سألوا الرجعة بقولهم ﴿**فهل إلى خروج**﴾ يعني من النار ﴿**من سبيل**﴾ والمعنى فهلاّ إلى رجوع إلى الدنيا من سبيل لنصلح أعمالنا ونعمل بطاعتك وهذا كلام من غلب

العزيز الحكيم ﴾، قال سعيد بن جبير: يدخل المؤمن الجنة فيقول أين أبي أين أُمي أين ولدي أين زوجتي؟ فيقال: إنهم لم يعملوا مثل عملك، فيقول: إني كنت أعمل لي ولهم، فيقال: أدخلوهم.

﴿ **وقِهِم السيئات** ﴾، العقوبات، ﴿ **ومَن تقِ السيئات** ﴾، أي ومَن تقه السيئات يعني العقوبات، وقيل: جزاء السيئات، ﴿ **يومئذ فقد رحمته وذلك هو الفوز العظيم** ﴾.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ **إنّ الذين كفروا يُنادَوْنَ** ﴾، يوم القيامة وهم في النار وقد مَقَتُوا أنفسَهم حين عُرضت عليهم سيئاتهم، وعاينوا العذاب، فيقال لهم: ﴿ **لمقت الله أكبر من مقتكم أنفسكم إذْ تُدعون إلى الإيمان فتكفرون** ﴾، يعني **لمقت الله** إيّاكم في الدنيا إذْ تدعون إلى الإيمان فتكفرون أكبر من مقتكم اليوم أنفسكم عند حلول العذاب بكم.

﴿ **قالوا ربّنا أمتّنا اثنتين وأحييتنا اثنتين** ﴾، قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما وقتادة والضحاك: كانوا أمواتاً في أصلاب آبائهم فأحياهم الله في الدنيا، ثم أماتهم الموتة التي لا بدّ منها ثم أحياهم للبعث يوم القيامة، فهما موتتان وحياتان، وهذا كقوله تعالى: ﴿ كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ﴾ [البقرة: ٢٨]، وقال السدي: أُميتوا في الدنيا ثم أُحيـوا في قبورهم للسؤال، ثم أُميتوا في قبورهم ثم أُحيـوا في الآخرة. ﴿ **فاعترفنا بذنوبنا فهل إلى خروج من سبيل** ﴾، أي من خروج من النار إلى الدنيا فنصلح أعمالنا ونعمل بطاعتك، نظيره: ﴿ هل إلى مَرَدٍّ من سبيل ﴾ [الشورى: ٤٤].

عليه اليأس والقنوط من الخروج وإنما قالوا ذلك تعللاً وتحيراً والمعنى فلا خروج ولا سبيل إليه ولهذا جاء الجواب على حسب ذلك وهو قوله تعالى: ﴿ذلكم بأنه إذا دعي الله وحده كفرتم﴾ معناه فأجيبوا أن لا سبيل إلى الخروج وهذا العذاب والخلود في النار بأنكم إذا دعى الله وحده كفرتم يعني إذا قيل لا إله إلا الله أنكرتم ذلك ﴿وإن يشرك به﴾ أي غيره ﴿تؤمنوا﴾ أي تصدقوا ذلك الشرك ﴿فالحكم لله العلي﴾ أي الذي لا أعلى منه ﴿الكبير﴾ أي الذي لا أكبر منه.

هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ رَفِيعُ ٱلدَّرَجَـٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُم بَـٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٧﴾ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْـَٔازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَـٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾

قوله عز وجل: ﴿هو الذي يريكم آياته﴾ أي عجائب مصنوعاته التي تدل على كمال قدرته ﴿وينزل لكم من السماء رزقاً﴾ يعني المطر الذي هو سبب الأرزاق ﴿وما يتذكر﴾ أي يتعظ بهذه الآيات ﴿إلا من ينيب﴾ أي يرجع إلى الله تعالى في جميع أموره ﴿فادعوا الله مخلصين له الدين﴾ أي الطاعة والعبادة ﴿ولو كره الكافرون﴾.

قوله تعالى: ﴿رفيع الدرجات﴾ أي رافع درجات الأنبياء والأولياء والعلماء في الجنة وقيل معناه المرتفع أي إنه سبحانه وتعالى هو المرتفع بعظمته في صفات جلاله وكماله ووحدانيته المستغني عن كل ما سواه وكل الخلق فقراء إليه ﴿ذو العرش﴾ أي خالقه ومالكه، والفائدة في تخصيص العرش بالذكر لأنه أعظم الأجسام والمقصود بيان كمال التنبيه على كمال القدرة فكل ما كان أعظم كانت دلالته على كمال القدرة أقوى ﴿يلقي الروح﴾ يعني ينزل الوحي سماه روحاً لأن به تحيا الأرواح كما تحيا الأبدان بالأرواح ﴿من أمره﴾ قال ابن عباس: من قضائه وقيل بأمره وقيل من قوله

قال الله تعالى: ﴿ ذلكم بأنه إذا دُعِيَ اللَّهُ وحده كفرتم ﴾، وفيه متروك استغني عنه لدلالة الظاهر عليه، مجازه: فأجيبوا أن لا سبيل إلى ذلك، وهذا العذاب والخلود في النار بأنكم إذا دُعِيَ الله وحده كفرتم، أي إذا قيل لا إلّه إلّا الله أنكرتم، وقلتم: ﴿ أجعل الآلهة إلّهاً واحداً ﴾ [صٓ: ٥]، ﴿ وإن يُشركْ به ﴾، غيره، ﴿ تؤمنوا ﴾، تصدقوا ذلك الشرك، ﴿ فالحكم لله العليّ الكبير ﴾. الذي لا أعلى منه ولا أكبر.

﴿ هو الذي يُريكم آياته وينزل لكم من السماء رزقاً ﴾، يعني المطر الذي هو سبب الأرزاق، ﴿ وما يتذكّر ﴾، وما يتّعظ بهذه الآيات، ﴿ إلّا مَن ينيب ﴾، يرجع إلى الله تعالى في جميع أموره.

﴿ فادعوا الله مخلصين له الدين ﴾، الطاعة والعبادة. ﴿ ولو كره الكافرون ﴾.

﴿ رفيع الدرجات ﴾، رافع درجات الأنبياء والأولياء في الجنة، ﴿ ذو العرش ﴾، خالقه ومالكه، ﴿ يُلقي الروح ﴾، ينزل الوحي، سمّاه روحاً لأنه تحيا به القلوب كما تحيا به الأبدان بالأرواح، ﴿ من أمره ﴾، قال ابن عباس: من قضائه. وقيل: من قوله. وقال مقاتل: بأمره. ﴿ على مَن يشاء من عباده لينذر ﴾، أي لينذر النبي بالوحي، ﴿ يوم التلاق ﴾، وقرأ يعقوب بالتاء أي لتنذر أنت يا محمد يوم التلاق، يوم يلتقي أهل السماء وأهل الأرض. قال قتادة ومقاتل: يلتقي فيه الخلق والخالق. قال ابن زيد: يتلاقى العباد. وقال ميمون بن مهران: يلتقي

﴿على من يشاء من عباده﴾ يعني الأنبياء ﴿لينذر يوم التلاق﴾ يعني لينذر النبي ﷺ بالوحي يوم التلاق وهو يوم القيامة لأنه يلتقي فيه أهل السماء وأهل الأرض، وقيل يلتقي الخلق والخالق وقيل يلتقي العابدون والمعبودون وقيل يلتقي المرء مع عمله وقيل يلتقي الظالم والمظلوم ﴿يوم هم بارزون﴾ أي خارجون من قبورهم ظاهرون لا يسترهم شيء ﴿لا يخفى على الله منهم شيء﴾ أي من أعمالهم وأحوالهم، فإن قلت إن الله تعالى لا يخفى عليه شيء في سائر الأيام فما وجه تخصيص ذلك اليوم، قلت كانوا يتوهمون في الدنيا إذا استتروا بالحيطان والحجب أن الله تعالى لا يراهم وتخفى عليه أعمالم وهم في ذلك اليوم صائرون من البروز والانكشاف إلى حال لا يتوهمون فيها مثل ما كانوا يتوهمونه في الدنيا ﴿لمن الملك اليوم﴾ أي يقول الله عز وجل في ذلك اليوم بعد فناء الخلق لمن الملك فلا أحد يجيبه فيجيب نفسه تعالى فيقول ﴿لله الواحد القهار﴾ أي الذي قهر الخلق بالموت وقيل إذا حضر الأولون والآخرون في يوم القيامة نادى مناد لمن الملك فيجيبه جميع الخلائق في يوم القيامة ﴿لله الواحد القهار﴾ فالمؤمنون يقولونه تلذذاً حيث كانوا يقولونه في الدنيا ونالوا به المنزلة الرفيعة في العقبى والكفار يقولونه على سبيل الذل والصغار والندامة حيث لم يقولوه في الدنيا ﴿اليوم تجزى كل نفس بما كسبت﴾ يعني يجزى المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته ﴿لا ظلم اليوم﴾ أي إن الخلق آمنون في ذلك اليوم من الظلم لأن الله تعالى ليس بظلام للعبيد ﴿إن الله سريع الحساب﴾ أي إنه تعالى لا يشغله حساب عن حساب بل يحاسب الخلق كلهم في وقت واحد.

قوله تعالى: ﴿وأنذرهم يوم الآزفة﴾ يعني يوم القيامة سميت آزفة لقرب وقتها وكل ما هو آت فهو قريب ﴿إذ القلوب لدى الحناجر﴾ وذلك أنها تزول عن أماكنها من الخوف حتى تصير إلى الحناجر فلا هي تعود إلى أماكنها ولا هي تخرج من أفواههم فيموتوا ويستريحوا ﴿كاظمين﴾ أي مكروبين ممتلئين خوفاً وحزناً حتى يضيق القلب عنه ﴿ما للظالمين من حميم﴾ أي من قريب ينفعهم ﴿ولا شفيع﴾ أي يشفع لهم ﴿يطاع﴾ أي فيهم ﴿يعلم خائنة الأعين﴾ أي خيانتها وهي مسارقة النظر إلى ما لا يحل وقيل هو نظر الأعين لما نهى الله عنه ﴿وما تخفي الصدور﴾ أي يعلم مضمرات القلوب.

الظالم والمظلوم والخصوم. وقيل: يلتقي العابدون والمعبودون. وقيل: يلتقي فيه المرء مع عمله.

﴿ **يوم هم بارزون** ﴾، خارجون من قبورهم ظاهرون لا يسترهم شيء، ﴿ **لا يخفى على الله منهم** ﴾، من أعمالهم وأحوالهم، ﴿ **شيء** ﴾، ويقول الله تعالى في ذلك اليوم بعد فناء الخلق، ﴿ **لِمَن المُلْك اليوم** ﴾، فلا أحد يُجيبه فيُجيب بنفسه فيقول، ﴿ **لله الواحد القهّار** ﴾، الذي قهر الخلق بالموت.

﴿ **اليوم تُجزى كل نفس بما كسبت** ﴾، يُجزى المحسن بإحسانه والمُسيء بإساءته، ﴿ **لا ظلم اليوم إن الله سريع الحســاب** ﴾.

﴿ **وأنذرهم يوم الآزفة** ﴾، يعني يوم القيامة سمعت بذلك لأنها قريبة إذْ كل ما هو آتٍ قريب، نظيره قوله عزّ وجلّ: ﴿ أزفت الآزفة ﴾ [النجم: ٥٧]، أي قربت القيامة، ﴿ **إذِ القلوبُ لدى الحناجر** ﴾، وذلك أنها تزول عن أماكنها من الخوف حتى تصير إلى الحناجر، فهي لا تعود إلى أماكنها وهي لا تخرج من أفواههم فيموتوا ويستريحوا. ﴿ **كاظمين** ﴾، مكروبين ممتلئين خوفاً وحزناً، والكظم تردّد الغيظ والخوف والحزن في القلب حتى يضيق به. ﴿ **ما للظالمين من حميم** ﴾، قريب ينفعهم، ﴿ **ولا شفيع يُطاع** ﴾، فيشفع فيهم.

﴿ **يعلم خائنة الأعين** ﴾، أي خيانتها وهي مسارقة النظر إلى ما يحلّ. قال مجاهد: نظر الأعين إلى ما نهى الله عنه. ﴿ **وما تُخفي الصدور** ﴾.

وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾ أَوَلَمْ
يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى
ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ
فَكَفَرُوا۟ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ إِنَّهُۥ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ
فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ
أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾

﴿**والله يقضي بالحق**﴾ أي يحكم بالعدل ﴿**والذين يدعون من دونه**﴾ يعني الأصنام ﴿**لا يقضون بشيء**﴾ لأنها لا تعلم شيئاً ولا تقدر على شيء ﴿**إن الله هو السميع**﴾ أي لأقوال الخلق ﴿**البصير**﴾ بأفعالهم ﴿**أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة وآثاراً في الأرض**﴾ أي المعنى أن العاقل من اعتبر بغيره فإن الذين مضوا من الكفار كانوا أشد قوة من هؤلاء فلم تنفعهم قوتهم ﴿**فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق**﴾ أي يدفع عنهم العذاب ﴿**ذلك**﴾ أي ذلك العذاب الذي نزل بهم ﴿**بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فكفروا فأخذهم الله إنه قوي شديد العقاب**﴾ قوله عز وجل: ﴿**ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين إلى فرعون وهامان وقارون فقالوا ساحر كذاب فلما جاءهم بالحق من عندنا قالوا**﴾ يعني فرعون وقومه ﴿**اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه**﴾ قيل هذا القتل غير القتل الأول لأن فرعون كان قد أمسك عن قتل الوالدان فلما بعث موسى عليه الصلاة والسلام أعاد القتل عليهم فمعناه أعيدوا عليهم القتل ﴿**واستحيوا نساءهم**﴾ أي استحيوا النساء ليصدوهم بذلك عن متابعة موسى عليه الصلاة والسلام ومظاهرته ﴿**وما كيد الكافرين**﴾ أي وما مكر فرعون وقومه واحتيالهم ﴿**إلا في ضلال**﴾ أي يذهب

﴿ **والله يقضي بالحق والذين يدعون من دونه** ﴾، يعني الأوثان، ﴿ **لا يقضون بشيء** ﴾، لأنها لا تعلم شيئاً ولا تقدر على شيء، قرأ نافع وابن عامر: «تـدعون»، بالتاء، وقرأ الآخرون بالياء. ﴿ **إنّ الله هو السميع البصير** ﴾.

﴿ **أو لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشدّ منهم قوة** ﴾، قرأ ابن عامر منكم بالكاف، وكذلك هو في مصاحفهم، ﴿ **وآثاراً في الأرض** ﴾، فلم ينفعهم ذلك. ﴿ **فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واقٍ** ﴾، يدفع عنهم العذاب.

﴿ **ذلك** ﴾ أي ذلك العذاب الذي نزل بهم، ﴿ **بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبيّنات فكفروا فأخذهم الله إنه قويٌّ شديد العقاب * ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين * إلى فرعون وهامان وقارون فقالوا ساحر كذّاب * فلمّا جاءهم بالحق من عندنا قالوا** ﴾، يعني فرعون وقومه، ﴿ **اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه** ﴾، قال قتادة: هذا غير القتل الأول لأن فرعون كان قد أمسك عن قتل الولدان، فلما بعث موسى عليه السلام أعاد القتل عليهم، فمعناه أعيدوا عليهم القتل، ﴿ **واستحيـوا نساءهم** ﴾، ليصدّوهم بذلك عن متابعة موسى ومظاهـرته، ﴿ **ومـا كيد الكافرين** ﴾، وما مكر فرعون وقومه واحتيالهم، ﴿ **إلّا في ضلال** ﴾، أي يذهب كيدهم باطلاً، ويحيق بهم ما يريده الله عزّ وجلّ.

كيدهم باطلاً ويحيق بهم ما يريده الله تعالى ﴿وقال فرعون﴾ أي لملئه ﴿ذروني أقتل موسى﴾ وإنما قال فرعون هذا لأنه كان في خاصة قومه من يمنعه من قتل موسى وإنما منعوه عن قتله لأنه كان فيهم من يعتقد بقلبه أنه كان صادقاً، وقيل قالوا لا تقتله فإنه هو ساحر ضعيف فلا يقدر أن يغلب سحرنا وإن قتلته قالت العامة كان محقاً صادقاً وعجزوا عن جوابه فقتلوه ﴿وليدع ربه﴾ أي وليدع موسى ربه الذي يزعم أنه أرسله إلينا فيمنعه منا ﴿إني أخاف أن يبدل دينكم﴾ يعني يقول فرعون أخاف أن يغير دينكم الذي أنتم عليه ﴿أو أن يظهر في الأرض الفساد﴾ يعني بذاك تغيير الدين وتبديله وعبادة غيره.

وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٧﴾ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾

﴿وقال موسى﴾ يعني لما توعده فرعون بالقتل ﴿إني عذت بربي وربكم﴾ يعني أن موسى عليه الصلاة والسلام لم يأت في دفع الشدة إلا بأن استعاذ بالله واعتمد عليه فلا جرم أن صانه الله عن كل بلية ﴿من كل متكبر﴾ أي متعظم عن الإيمان ﴿لا يؤمن بيوم الحساب﴾ قوله عز وجل: ﴿وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه﴾ قيل كان ابن عم فرعون وقيل كان من القبط وقيل كان من بني إسرائيل، فعلى هذا يكون معنى الآية وقال رجل مؤمن يكتم إيمانه من آل فرعون وكان اسم هذا المؤمن حزبيل عند ابن عباس وأكثر العلماء وقال إسحاق كان اسمه جبريل وقيل حبيب ﴿أتقتلون رجلاً أن يقول﴾ أي لأن يقول ﴿ربي الله﴾ وهذا استفهام إنكار وهو إشارة إلى التوحيد وقوله ﴿وقد جاءكم بالبينات من ربكم﴾ فيه إشارة إلى تقرير نبوته بإظهار المعجزة والمعنى وقد جاءكم بما يدل على صدقه ﴿وإن يك

﴿ وقال فرعون ﴾، لملئه، ﴿ ذروني أقتل موسى ﴾، وإنما قال هذا لأنه كان في خاصّة قوم فرعون مَن يمنعه من قتله خوفاً من الهلاك، ﴿ وليدع ربّه ﴾، أي وليدع موسى ربّه الذي يزعم أنه أرسله إلينا فيمنعه منّا، ﴿ إني أخاف أن يبدل ﴾، أن يغيّر، ﴿ دينكم ﴾، الذي أنتم عليه، ﴿ أو أن يُظهر في الأرض الفساد ﴾، قرأ يعقوب وأهل الكوفة ﴿ أو أن يظهر ﴾، وقرأ الآخرون (وأن يظهر)، وقرأ أهل المدينة والبصرة وحفص يظهر بضم الياء وكسر الهاء على التعدية، ﴿ الفساد ﴾ نصب لقوله: ﴿ أن يبدل دينكم ﴾، حتى يكون الفعلان على نسق واحد، وقرأ الآخرون بفتح الياء والهاء على اللزوم، ﴿ الفساد ﴾، رفع وأراد بالفساد تبديل الدين وعبادة غيره.

﴿ وقال موسى ﴾، لمّا توعده فرعون بالقتل، ﴿ إنّي عُذْتُ بربّي وربّكم من كل متكبّر لا يؤمن بيوم الحساب * وقال رجلٌ مؤمنٌ من آل فرعون يكتم إيمانه ﴾، واختلفوا في هذا المؤمن قال مقاتل والسدي: كان قبطياً ابن عمّ فرعون وهو الذي حكى الله عنه فقال: ﴿ وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى ﴾ [القصص: ٢٠]، وقال قوم: كان إسرائيلياً، ومجاز الآية: وقال رجل مؤمن يكتم إيمانه من آل فرعون، وكان اسمه حزبيل عند ابن عباس، وأكثر العلماء. وقال ابن إسحاق: كان اسمه جبريل. وقيل: كان اسم الرجل الذي آمن من آل فرعون حبيباً. ﴿ أتقتلون رجلاً أن يقول ربّي الله ﴾، لأن يقول ربّي الله، ﴿ وقد جاءكم بالبيّنات من ربّكم ﴾، أي بما يدلّ على صدقه، ﴿ وإن يكُ كاذباً فعليه كذبه ﴾، لا يضرّكم ذلك، ﴿ وإن يكُ صادقاً ﴾، فكذّبتموه وهو صادق،

كاذباً فعليه كذبه﴾ أي لا يضركم ذلك إنما يعود وبال كذبه عليه ﴿وإن يك صادقاً﴾ أي فكذبتموه ﴿يصبكم بعض الذي يعدكم﴾ قيل معناه يصبكم الذي يعدكم إن قتلتموه وهو صادق، وقيل بعض على أصلها ومعناه كأنه قاله على طريق الاحتجاج أقل ما في صدقه أن يصيبكم بعض الذي يعدكم وفيه هلاككم فذكر البعض ليوجب الكل ﴿إن الله لا يهدي﴾ يعني إلى دينه ﴿من هو مسرف كذاب﴾ أي على الله تعالى (خ) عن عروة بن الزبير قال «سألت عبد الله بن عمرو بن العاص عن أشد ما صنع المشركون برسول الله ﷺ فقال: بينا رسول الله ﷺ يصلي بفناء الكعبة إذ أقبل عقبة بن أبي معيط فأخذ بمنكب رسول الله ﷺ ولوى ثوبه في عنقه وخنقه خنقاً شديداً فأقبل أبو بكر فأخذ بمنكبه ودفعه عن رسول الله ﷺ وقال ﴿أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم﴾.

قوله عز وجل: ﴿يا قوم لكم الملك اليوم ظاهرين في الأرض﴾ يعني غالبين في الأرض أي أرض مصر ﴿فمن ينصرنا﴾ يعني يمنعنا ﴿من بأس الله إن جاءنا﴾ والمعنى لكم الملك فلا تتعرضوا لعذاب الله بالتكذيب وقتل النبي فإنه لا مانع من عذاب الله تعالى إن حل بكم ﴿قال فرعون ما أريكم﴾ أي من الرأي والنصيحة ﴿إلا ما أرى﴾ يعني لنفسي ﴿وما أهديكم إلا سبيل الرشاد﴾ أي ما أدعوكم إلا إلى طريق الهدى ثم حكى الله تعالى أن مؤمن آل فرعون رد على فرعون هذ الكلام وخوفه أن يحل به ما حل بالأمم قبله بقوله:

وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا

﴿ يصبكم بعض الذي يعدكم ﴾، قال أبو عُبيد: المراد بالبعض الكل، أي إن قتلتموه وهو صادق أصابكم ما وعدكم من العذاب. قال الليث: بعض ههنا صلة يريد يصبكم الذي يعدكم. وقال أهل المعاني: هذا على الظاهر في الحجاج كأنه قال أقلّ ما في صدقه أن يصيبكم بعض الذي يعدكم وفي بعض ذلك هلاككم، فذكر البعض ليوجب الكل، ﴿ إن الله لا يهدي ﴾، إلى دينه، ﴿ مَن هو مسرف ﴾، مشرك، ﴿ كذاب ﴾، على الله، أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا علي بن عبد الله ثنا الوليد بن مسلم حدّثني الأوزاعي حدّثني يحيىٰ بـن أبي كثير حدّثني محمد بن إبراهيم التيمي حدّثني عُروة بن الزبير قال: قلت لعبد الله بن عمرو بن العاص: أخبرني بأشدّ ما صنعه المشركون برسول الله ﷺ، قال: بينا رسـول الله ﷺ يصلّي بفناء الكعبة إذ أقبل عقبة بن أبي مُعيط فأخذ بمنكب رسول الله ﷺ ولوى ثوبه في عنقه، فخنقه به خنقاً شديداً، فأقبل أبو بكر فأخذ بمنكبه ودفعه عن رسول الله ﷺ، وقال: ﴿ أتقتلون رجلاً أن يقول رَبّيَ الله وقد جاءكم بالبيّنات من ربّكم ﴾.

﴿ يا قوم لكم الملك اليوم ظاهرين في الأرض ﴾، غالبين في أرض مصر، ﴿ فمَن ينصرنا من بأس الله ﴾، مَن يمنعنا من عذاب الله، ﴿ إنْ جاءنا ﴾، والمعنى لكم الملك اليوم فلا تعرضوا لعذاب الله بالتكذيب، وقتل النبي فإنه لا مانع من عذاب الله إن حلّ بكم، ﴿ قال فرعون ما أُريكم ﴾، من الرأي والنصيحة، ﴿ إلّا ما أرى ﴾، لنفسي. وقال الضحاك: ما أعلمكم إلّا ما أعلم، ﴿ وما أهديكم إلّا سبيل الرشاد ﴾، ما أدعوكم إلّا إلى طريق الهدى.

جَآءَكُم بِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾

﴿وقال الذي آمن يا قوم إني أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم﴾ يعني مثل عادتهم في الإقامة على التكذيب حتى أتاهم العذاب ﴿وما الله يريد ظلماً للعباد﴾ يعني لا يهلكهم إلا بعد إقامة الحجة عليهم ﴿ويا قوم إني أخاف عليكم يوم التناد﴾ يعني يوم القيامة سمي يوم القيامة يوم التناد لأنه يدعى فيه كل أناس بإمامهم وينادي بعضهم بعضاً فينادي أصحاب الجنة أصحاب النار وينادى أصحاب النار أصحاب الجنة وينادي فيه بالسعادة والشقاوة ألا إن فلان بن فلان سعد سعادة لا يشقى بعدها أبداً وفلان ابن فلان شقي شقاوة لا يسعد بعدها أبداً وينادي حين يذبح الموت يا أهل الجنة خلود بلا موت ويا أهل النار خلود بلا موت وقيل ينادي المؤمن هاؤم اقرؤوا كتابيه وينادي الكافر يا ليتني لم أوت كتابيه وقيل يوم التناد يعني يوم التنافر من ند البعير إذا نفر وهرب وذلك أنهم إذا سمعوا زفير النار ندوا هرباً فلا يأتون قطراً من الأقطار إلا وجدوا الملائكة صفوفاً عليه فيرجعون إلى المكان الذي كانوا فيه ﴿يوم تولون مدبرين﴾ يعني منصرفين عن موقف الحساب إلى النار ﴿ما لكم من الله من عاصم﴾ يعني يعصمكم من عذابه ﴿ومن يضلل الله فما له من هاد﴾ يعني يهديه ﴿ولقد جاءكم يوسف﴾ يعني يوسف بن يعقوب ﴿من قبل﴾ يعني من قبل موسى ﴿بالبينات﴾ يعني قوله «أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار» قيل مكث فيهم يوسف عشرين سنة نبياً وقيل إن فرعون يوسف هو فرعون موسى وقيل هو فرعون آخر ﴿فما زلتم في شك مما جاءكم به﴾ قال ابن عباس من عبادة الله وحده لا شريك له والمعنى أنهم بقوا شاكين في نبوته لم ينتفعوا بتلك البينات التي جاءهم بها ﴿حتى إذا هلك﴾ يعني مات ﴿قلتم لن يبعث الله من بعده رسولاً﴾ يعني أقمتم على كفركم وظننتم أن الله لا يجدد عليكم الحجة وإنما قالوا ذلك على سبيل التشهي والتمني من غير حجة ولا برهان عليه بل قالوا ذلك ليكون لهم

﴿ وقال الذي آمن يا قوم إني أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم ﴾، أي مثل عادتهم في الإقامة على التكذيب حتى أتاهم العذاب. ﴿وما الله يريد ظلماً للعباد﴾، أي لا يهلكهم قبل إيجاب الحجّة عليهم.

﴿ ويا قوم إني أخاف عليكم يوم التناد ﴾، يوم القيامة يُدعى كل أُناس بإمامهم ويُنادي بعضهم بعضاً، فينادي أصحابُ الجنة أصحابَ النار، وأصحابُ النار أصحابَ الجنة، وينادى أصحاب الأعراف، ويُنادي بالسعادة والشقاوة، ألا إن فلان بن فلان قد سعد سعادة لا يشقى بعدها أبداً، وفلان ابن فلان قد شقى شقاوة لا يسعد بعدها أبداً، وينادى حين يذبح الموت: يا أهل الجنة خلودٌ فلا موت، ويا أهل النار خلودٌ فلا موت، وقرأ ابن عباس والضحاك: يوم التناد بتشديد الدال أي يوم التنافر، وذلك أنهم هربوا فندّوا في الأرض كما تندّ الإبل إذا شردت عن أربابها. وقال الضحّاك: وكذلك إذا سمعوا زفير النار ندّوا هرباً فلا يأتون قطراً من الأقطار إلّا وجدوا الملائكة صفوفاً، فيرجعون إلى المكان الذي كانوا فيه، فذلك قوله تعالى: ﴿ والملك على أرجائها ﴾ [الحاقّة: ١٧]، وقوله: ﴿ يا معشر الجنّ والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السمٰوات والأرض فانفذوا ﴾ [الرحمن: ٣٣].

﴿ ويوم تولّون مدبرين ﴾، منصرفين عن موقف الحساب إلى النار. وقال مجاهد: فارّين غير معجزين، ﴿ ما لكم من الله من عاصم ﴾، يعصمكم من عذابه، ﴿ ومَن يضلل الله فما له من هادٍ * ولقد جاءكم يوسف من قبل ﴾، يعني يوسف بن يعقوب من قبل، أي من قبل موسى، ﴿ بالبيّنات ﴾، يعني قوله أرباب متفرّقون خير أم الله الواحد

أساساً في تكذيب الأنبياء الذين يأتون بعده وليس قولهم لن يبعث الله من بعده رسولاً تصديقاً لرسالة يوسف كيف وقد شكوا فيها وإنما هو تكذيب لرسالة من بعده مضمون إلى التكذيب لرسالته ﴿كذلك يضل الله من هو مسرف﴾ يعني في شركه وعصيانه ﴿مرتاب﴾ يعني في دينه.

ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾

﴿الذين يجادلون في آيات الله﴾ قيل هذا تفسير للمسرف المرتاب يعني الذين يجادلون في إبطال آيات الله بالتكذيب ﴿بغير سلطان﴾ أي بغير حجة وبرهان ﴿أتاهم﴾ من الله ﴿كبر﴾ أي ذلك الجدال ﴿مقتاً عند الله وعند الذين آمنوا كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار﴾ قوله عز وجل: ﴿وقال فرعون﴾ يعني لوزيره ﴿يا هامان ابن لي صرحاً﴾ يعني بناء ظاهراً لا يخفى على الناظرين وإن بعد وقد تقدم ذكره في سورة القصص ﴿لعلي أبلغ الأسباب أسباب السموات﴾ يعني طرقها وأبوابها من سماء إلى سماء ﴿فأطلع إلى إله موسى وإني لأظنه﴾ يعني موسى ﴿كاذباً﴾ أي فيما يدعي ويقول إن له رباً غيري ﴿وكذلك زين لفرعون سوء عمله وصد عن السبيل﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما صده الله تعالى عن سبيل الهدى وقرىء وصد بالفتح أي وصد فرعون الناس عن السبيل ﴿وما كيد فرعون إلا في تباب﴾ أي وما كيده في إبطال آيات موسى إلا في خسار وهلاك.

القهّار، ﴿ فما زلتم في شكٍّ مما جاءكم به ﴾، قال ابن عباس: من عبادة الله وحده لا شريك له، ﴿ حتى إذا هلك ﴾، مات، ﴿ قلتم لن يبعث الله من بعده رسولاً ﴾، أي أقمتم على كفركم وظننتم أن الله لا يجدِّد عليكم الحجة، ﴿ كذلك يضلّ الله مَن هو مسرف ﴾، مشرك، ﴿ مرتاب ﴾، شاك.

﴿ الذين يجادلون في آيات الله ﴾، قال الزجّاج: هذا تفسير للمسرف المرتاب يعني الذين يجادلون في آيات الله أي في إبطالها بالتكذيب، ﴿ بغير سلطان ﴾، حجّة، ﴿ أتاهم ﴾، من الله، ﴿ كبر مقتاً ﴾، أي كبر ذلك الجدال مقتاً، ﴿ عند الله وعند الذين آمنوا كذلك يطبع الله على كل قلب متكبّر جبّار ﴾، قرأ أبو عمرو وابن عامر ﴿ قلب ﴾ بالتنوين، وقرأ الآخرون بالإضافة، دليله قراءة عبد الله بن مسعود (على كل قلب كل متكبّر جبّار).

﴿ وقال فرعون ﴾، لوزيره، ﴿ ياهامان ابنِ لي صرحاً ﴾، والصرح البناء الظاهر الذي لا يخفى على الناظر وإن بعُد، وأصله من التصريح وهو الإظهار، ﴿ لعلّي أبلغ الأسباب * أسباب السموات ﴾، يعني طرقها وأبوابها من سماء إلى سماء، ﴿ فأطلع إلى إله موسى ﴾، قراءة العامّة برفع العين نسقاً على قوله: ﴿ أبلغ الأسباب ﴾، وقرأ حفص عن عاصم بنصب العين وهي قراءة حميد الأعرج، على جواب لعلّ بالفاء، ﴿ وإنّي لأظنه ﴾، يعني موسى، ﴿ كاذباً ﴾، فيما يقولون إن له ربّاً غيري، ﴿ وكذلك زُيّن لفرعون سوء عمله وصدّ عن السبيل ﴾، قرأ أهل الكوفة

قوله تعالى: ﴿وقال الذي آمن يا قوم اتبعون أهدكم سبيل الرشاد﴾ أي طريق الهدى ﴿يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع﴾ أي متعة ينتفعون بها مدة ثم تنقطع ﴿وإن الآخرة هي دار القرار﴾ يعني التي لا تزول والمعنى أن الدنيا فانية منقرضة لا منفعة فيها وأن الآخرة باقية دائمة والباقي خير من الفاني، قال بعض العارفين: لو كانت الدنيا ذهباً فانياً والآخرة خزفاً باقياً لكانت الآخرة خيراً من الدنيا فكيف والدنيا خزف فان والآخرة ذهب باق ﴿من عمل سيئة فلا يجزى إلا مثلها﴾ قيل معناه من عمل الشرك فجزاؤه جهنم خالداً فيها ومن عمل بالمعاصي فجزاؤه العقوبة بقدرها ﴿ومن عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب﴾ يعني لا تبعة عليهم فيما يعطون في الجنة من الخير وقيل يصب عليهم الرزق صباً بغير تقتير.

۞ وَيَٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾

﴿ويا قوم مالي أدعوكم إلى النجاة وتدعونني إلى النار﴾ معناه أنا أدعوكم إلى الإيمان الذي يوجب النجاة من النار وأنتم تدعونني إلى الشرك الذي يوجب النار ثم فسر ذلك فقال ﴿تدعونني لأكفر بالله وأشرك به ما ليس لي به علم﴾ أي لا أعلم أن الذي تدعونني إليه إله وما ليس بإله كيف يعقل جعله شريكاً للإله الحق؛ ولما بين أنهم يدعونه إلى الكفر والشرك بين أنه يدعوهم إلى الإيمان بقوله ﴿وأنا أدعوكم إلى العزيز﴾ أي في انتقامه ممن كفر ﴿الغفار﴾ أي

ويعقوب «وصُدّ» بضم الصاد نسقاً على قوله: ﴿ زُيّن لفرعون ﴾ قال ابن عباس: صدّه الله عن سبيل الهدى. وقرأ الآخرون بالفتح أي صَدّ فرعونُ الناس عن السبيل. ﴿ وما كيد فرعون إلاّ في تباب ﴾، يعني وما كيده في إبطال آيات الله وآيات موسى إلاّ في خسار وهلاك.

﴿ وقال الذي آمن يا قوم اتّبعونِ أهدكم سبيل الرشاد ﴾، طريق الهدى.

﴿ يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع ﴾، متعة تنتفعون بها مدة ثم تنقطع، ﴿ وإن الآخرة هي دار القرار ﴾، التي لا تزول.

﴿ مَن عمل سيئة فلا يُجزى إلاّ مثلها ومَن عمل صالحاً من ذَكرٍ أو أُنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب ﴾، قال مقاتل: لا تَبِعَة عليهم فيما يُعطَون في الجنة من الخير.

﴿ ويا قوم ما لي أدعوكم إلى النجاة ﴾، يعني ما لكم كما تقول العرب: ما لي أراك حزيناً؟ أي ما لك يقول أخبروني عنكم كيف هذه الحال أدعوكم إلى النجاة من النار بالإيمان بالله، ﴿ وتدعونني إلى النار ﴾، إلى الشرك الذي يوجِب النار، ثم فسّر فقال:

﴿ تدعونني لأكفر بالله وأُشرك به ما ليس لي به علم وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفّار ﴾، العزيز في انتقامه ممّن كفر، الغفّار لذنوب أهل التوحيد.

لذنوب أهل التوحيد ﴿لا جرم﴾ يعني حقاً ﴿أنما تدعونني إليه﴾ يعني الصنم ﴿ليس له دعوة في الدنيا ولا في الآخرة﴾ يعني ليست له استجابة دعوة لأحد في الدنيا ولا في الآخرة وقيل ليست له دعوة إلى عبادته في الدنيا ولا في الآخرة لأن الأصنام لا تدعي الربوبية ولا تدعو إلى عبادتها وفي الآخرة تتبرأ من عابديها ﴿وأن مردنا إلى الله﴾ يعني مرجعنا إلى الله فيجازى كلاً بما يستحقه ﴿وأن المفسرين﴾ يعني المشركين ﴿هم أصحاب النار فستذكرون ما أقول لكم﴾ أي إذا عاينتم العذاب حين لا ينفعكم الذكر ﴿وأفوض أمري إلى الله﴾ أي أرد أمري إلى الله وذلك أنهم توعدوه لمخالفته دينهم ﴿إن الله بصير بالعباد﴾ يعني يعلم المحق من المبطل ثم خرج المؤمن من بينهم فطلبوه فلم يقدروا عليه وذلك قوله تعالى: ﴿فوقاه الله سيئات ما مكروا﴾ يعني ما أرادوا به من الشر قيل إنه نجا مع موسى عليه الصلاة والسلام وكان قبطياً ﴿وحاق﴾ يعني نزل ﴿بآل فرعون سوء العذاب﴾ يعني الغرق في الدنيا والنار في الآخرة وذلك قوله تعالى: ﴿النار يعرضون عليها غدواً وعشياً﴾ يعني صباحاً ومساء قال ابن مسعود «أرواح آل فرعون في أجواف طيور سود يعرضون على النار كل يوم مرتين تغدو وتروح إلى النار ويقال يا آل فرعون هذه منازلكم حتى تقوم الساعة» وقيل تعرض روح كل كافر على النار بكرة وعشياً ما دامت الدنيا.

ويستدل بهذه الآية على إثبات عذاب القبر أعاذنا الله تعالى منه بمنة وكرمه (ق) عن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال «إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشي إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة وإن كان من أهل النار فمن أهل النار يقال هذا مقعدك حين يبعثك الله تعالى إليه يوم القيامة» ثم أخبر الله تعالى عن مستقرهم يوم القيامة

﴿ لا جَرَمَ ﴾، حقّاً، ﴿ أنّ ما تدعونني إليه ﴾، أي إلى الوثن، ﴿ ليس له دعوة في الدنيا ولا في الآخرة ﴾، قال السدي: لا يستجيب لأحد في الدنيا ولا في الآخرة، يعني ليست له استجابة دعوة. وقيل: ليست له دعوة إلى عبادته في الدنيا لأن الأوثان لا تدّعي الربوبية، ولا تدعو إلى عبادتها، وفي الآخرة تتبرّأ من عابديها. ﴿ وأنّ مردّنا إلى الله ﴾، مرجعنا إلى الله فيجازي كلاًّ بما يستحق، ﴿ وأن المسرفين ﴾، المشركين، ﴿ هم أصحاب النار ﴾.

﴿ فستذكرون ما أقول لكم ﴾، إذا عاينتم العذاب حين لا ينفعكم الذكر، ﴿ وأُفوّض أمري إلى الله ﴾، وذلك أنهم توعّدوه لمخالفته دينهم، ﴿ إن الله بصير بالعباد ﴾، يعلم المُحِقّ من المُبطِل ثم خرج المؤمن من بينهم، فطلبوه فلم يقدروا عليه.

وذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿ فوقاه الله سيئات ما مكروا ﴾، ما أرادوا به من الشرّ، قال قتادة: نجا مع موسى وكان قبطياً، ﴿ وحاق ﴾، نزل، ﴿ بآل فرعون سوء العذاب ﴾، الغرق في الدنيا والنار في الآخرة.

وذلك قوله: ﴿ النار ﴾، هي رفع على البدل من السوء، ﴿ يُعرضون عليها غُدوّاً وعشياً ﴾، صباحاً ومساءً، قال ابن مسعود: أرواح آل فرعون في أجواف طيور سود يعرضون على النار كل يوم مرتين تغدو وتروح إلى النار، ويقال: يا آل فرعون هذه مأواكم حتى تقوم الساعة. وقال قتادة ومقاتل والسدي والكلبي: تعرض روح كل كافر على النار بكرةً وعشيّاً ما دامت الدنيا. أخبرنا أبو الحسن السرخسي أنا زاهر بن أحمد أنا أبو إسحاق الهاشمي أنا أبو مصعب عن مالك عن نافع عن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «إن أحدكم إذا مات عُرِض عليه مقعدُه بالغداة والعشيّ، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار، فيُقالُ له: هذا مقعدك حتى يبعثك الله إليه يوم القيامة». ثم أخبر الله عن مستقرهم يوم القيامة فقال: ﴿ ويوم تقوم الساعة أدْخِلُوا ﴾، قرأ ابن كثير وابن عامر وأبو عمرو وأبو بكر: ﴿ الساعة ﴾، ﴿ أدخلوا ﴾ بحذف الألف والوصل وبضمّها في الابتداء وضمّ الخاء من الدخول، أي يقال لهم ادخلوا يا ﴿ آل فرعون أشدّ العذاب ﴾، وقرأ الآخرون ادخلوا

فقال تعالى: ﴿ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون﴾ أي يقال لهم أدخلوا يا آل فرعون ﴿أشد العذاب﴾ قال ابن عباس ألوان من العذاب غير الذي كانوا يعذبون بها منذ أغرقوا.

وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاؤُا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاؤُا الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٥٠﴾ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٥٢﴾

قوله تعالى: ﴿وإذ يتحاجون﴾ أي واذكر يا محمد لقومك إذ يختصمون يعني أهل النار ﴿في النار فيقول الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعاً﴾ أي في الدنيا ﴿فهل أنتم مغنون عنا نصيباً من النار قال الذين استكبروا﴾ يعني الرؤساء والقادة ﴿إنا كل فيها﴾ يعني نحن وأنتم ﴿إن الله قد حكم بين العباد﴾ أي قضى علينا وعليكم ﴿وقال الذين في النار﴾ يعني حين اشتد عليهم العذاب ﴿لخزنة جهنم ادعوا ربكم يخفف عنا يوماً من العذاب قالوا﴾ يعني الخزنة ﴿أولم تك تأتيكم رسلكم بالبينات﴾ يعني لا عذر لكم بعد مجيء الرسل ﴿قالوا بلى﴾ أي اعترفوا بذلك ﴿قالوا فادعوا﴾ يعني أنتم إنا لا نّدعوا لكم لأنهم علموا أنه لا يخفف عنهم العذاب قال الله تعالى: ﴿وما دعاء الكافرين إلا في ضلال﴾ يعني يبطل ويضل ولا ينفعهم.

قوله عز وجل: ﴿إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا﴾ قال ابن عباس بالغلبة والقهر، وقيل بالحجة

بقطع الألف وكسر الخاء من الإدخال، أي يقال للملائكة أدخلوا آل فرعون أشدّ العذاب. قال ابن عباس: يريد ألوان العذاب غير الذي كانوا يعذّبون به منذ أُغرقوا.

﴿ وإذ يتحاجّون في النار ﴾، أي اذكر يا محمد لقومك إذ يختصمون يعني أهل النار في النار، ﴿ فيقول الضعفاء للذين استكبروا إنّا كنّا لكم تبعاً ﴾، في الدنيا، ﴿ فهل مُغنون عنّا نصيباً من النار ﴾، والتبع يكون واحداً وجمعاً في قول أهل البصرة، واحدة تابع، وقال أهل الكوفة: هو جمع لا واحد له وجمعه أتباع.

﴿ قال الذين استكبروا إنّا كلٌّ فيها إن الله قد حكم بين العباد * وقال الذين في النار ﴾، حين اشتدّ عليهم العذاب، ﴿ لخزَنَة جهنم ادعوا ربَّكم يخفّفْ عنّا يوماً من العذاب ﴾.

﴿ قالوا ﴾، يعني خزَنَة جهنم لهم، ﴿ أوَ لم تكُ تأتيكم رسلكم بالبيّنات قالوا بلى قالوا فادعوا ﴾، أنتم إذاً ربكم، أي إنّا لا ندعو لكم لأنهم علموا أنه لا يخفّف عنهم العذاب. قال الله تعالى: ﴿ وما دعاء الكافرين إلاّ في ضلال ﴾، أي يبطل ويضلّ ولا ينفعهم.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ إنّا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ﴾، قال ابن عباس: بالغلبة والقهر. وقال الضحاك: بالحجة وفي الآخرة بالعذاب. وقيل: بالانتقام من الأعداء في الدنيا والآخرة، وكلّ ذلك قد كان للأنبياء والمؤمنين فهم منصورون بالحجة على مَن خالفهم، وقد نصرهم الله بالقهر على مَن ناوأهم وإهلاك أعدائهم ونصرهم بعد أن قتلوا بالانتقام من أعدائهم، كما نصر يحيى بن زكريا لمّا قتل قتل به سبعون ألفاً، فهم منصورون

وقيل بالانتقام من الأعداء في الدنيا والآخرة وكل ذلك حاصل لهم فهم منصورون بالحجة على من خالفهم تارة وقد نصرهم الله بالقهر على من عاداهم وأهلك أعداءهم بالانتقام منهم كما نصر يحيى بن زكريا لما قتل فإنه قتل به سبعين ألفاً ﴿ويوم يقوم الأشهاد﴾ يعني وننصرهم يوم القيامة يوم يقوم الأشهاد وهم الحفظة من الملائكة يشهدون للرسل بالتبليغ وعلى الكفار بالتكذيب ﴿يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم﴾ أي إن اعتذروا عن كفرهم لم يقبل منهم ﴿ولهم اللعنة﴾ أي البعد من الرحمة ﴿ولهم سوء الدار﴾ يعني جهنم.

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ ﴿٥٣﴾ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٤﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٥٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۙ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ ۚ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾

﴿ولقد آتينا موسى الهدى﴾ يعني النبوة وقيل التوراة ﴿وأورثنا بني إسرائيل الكتاب﴾ يعني التوارة وقيل سائر الكتب المنزلة على أنبيائهم ﴿هدى وذكرى لأولي الألباب﴾ قوله تعالى: ﴿فاصبر﴾ أي يا محمد على أذاهم ﴿إن وعد الله حق﴾ أي في إظهار دينك وإهلاك أعدائك قال الكلبي نسخت آية القتال آية الصبر ﴿واستغفر لذنبك﴾ يعني الصغائر وهذا على قول من يجوزها على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وقيل يعني على ترك الأولى والأفضل وقيل على ما صدر منه قبل النبوة وعند من لا يجوز الصغائر على الأنبياء يقول هذا تعبد من الله تعالى لنبيه ﷺ ليزيده درجة ولتصير سنة لغيره من بعده وذلك لأن مجامع الطاعات محصورة في قسمين التوبة عما لا ينبغي، والاشتغال بما ينبغي والأول مقدم وهو التوبة من الذنوب والثاني الاشتغال بالطاعات وهو قوله تعالى: ﴿وسبح بحمد ربك﴾ أي نزه ربك عما لا

بأحد هذه الوجوه، ﴿ ويوم يقوم الأشهاد ﴾، يعني يوم القيامة يقوم الحَفَظَة من الملائكة يشهدون للرّسل بالتبليغ وعلى الكفّار بالتكذيب.

﴿ يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ﴾، إن اعتذروا عن كفرهم لم يقبل منهم، وإن تابوا لم ينفعهم، ﴿ ولهم اللعنة ﴾، البُعد من الرحمة، ﴿ ولهم سوء الدار ﴾، يعني جهنم.

﴿ ولقد آتينا موسى الهدى ﴾، قال مقاتل: الهدى من الضلالة، يعني التوراة، ﴿ وأورثنا بني إسرائيل الكتاب ﴾، التوراة.

﴿ هدىً وذكرى لأولي الألباب ﴾.

﴿ فاصبر ﴾، يا محمد على أذاهم، ﴿ إن وعد الله ﴾، في إظهار وإهلاك أعدائك، ﴿ حق ﴾، قال الكلبي: نسخت آية القتال آية الصبر، ﴿ واستغفر لذنبك ﴾، هذا تعبّد من الله ليزيده به درجة وليصير سُنّة لمَن بعده، ﴿ وسبّح بحمد ربك ﴾، صلّي شاكراً لربك، ﴿ بالعشي والإبكار ﴾، قال الحسن: يعني صلاة العصر وصلاة الفجر. وقال ابن عباس: الصلوات الخمس.

﴿ إن الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم إنْ في صدورهم ﴾، ما في قلوبهم والصدر موضع القلب، فكنّي به عن القلب لقُرب الجوار، ﴿ إلّا كبر ﴾، قال ابن عباس: ما يحملهم على تكذيبك إلّا ما في

يليق بجلاله وقيل صل شاكراً لربك ﴿بالعشي والإبكار﴾ يعني صلاة العصر وصلاة الفجر وقال ابن عباس الصلوات الخمس ﴿إن الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم﴾ يعني كفار قريش ﴿إن في صدورهم﴾ يعني ما في قلوبهم ﴿إلا كبر﴾ قال ابن عباس ما حملهم على تكذيبك إلا ما في صدورهم من الكبر والعظمة ﴿ما هم ببالغيه﴾ يعني ببالغي مقتضى ذلك الكبر وقيل معناه إن في صدورهم إلا كبر على محمد ﷺ وطمع أن يغلبوه وما هم ببالغي ذلك وقيل نزلت في اليهود وذلك أنهم قالوا للنبي ﷺ إن صاحبنا المسيح بن داود يعنون الدجال يخرج في آخر الزمان فيبلغ سطانه البر والبحر ويرد الملك إلينا قال الله تعالى: ﴿فاستعذ بالله﴾ أي من فتنة الدجال ﴿إنه هو السميع﴾ يعني لأقوالهم ﴿البصير﴾ يعني بأفعالهم.

قوله عز وجل: ﴿لخلق السموات والأرض﴾ يعني مع عظمهما ﴿أكبر من خلق الناس﴾ أي من إعادتهم بعد الموت والمعنى أنهم مقرون أن الله تعالى خلق السموات والأرض وذلك أعظم في الصدور من خلق الناس فكيف لا يقرون بالبعث بعد الموت ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ يعني أن الكفار لا يعلمون حيث لا يستدلون بذلك على توحيد خالقها، وقال قوم معنى أكبر من خلق الناس أي أعظم من خلق الدجال ولكن أكثر الناس لا يعلمون يعني اليهود الذين يخاصمون في أمر الدجال.

(فصل في ذكر الدجال)

(م) عن هشام بن عروة قال سمعت النبي ﷺ يقول «ما بين خلق آدم إلى قيام الساعة خلق أكبر من الدجال» معناه أكبر فتنة وأعظم شوكة من الدجال (ق) عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما «أن النبي ﷺ ذكر الدجال فقال إنه أعور العين اليمنى كأنها عنبة طافئة» ولأبي داود والترمذي عنه قال «قام النبي ﷺ في الناس فأثنى على الله بما هو أهله ثم ذكر الدجال فقال إني أنذركموه وما من نبي إلا وقد أنذره قومه لقد أنذر نوح قومه ولكني سأقول لكم فيه قولاً لم يقله نبي

صدورهم من الكبر والعظمة، ﴿ ما هم ببالغيه ﴾، قال مجاهد: ما هم ببالغي مقتضى ذلك الكبر، لأن الله عزّ وجلّ مُذِلّهم. قال ابن قتيبة: إنْ في صدورهم إلّا تكبّر على محمد ﷺ، وطمع في أن يغلبوه وما هم ببالغي ذلك. قال أهل التفسير: نزلت في اليهود وذلك أنهم قالوا للنبي ﷺ: إن صاحبنا المسيح بن داود يعنون الدجّال يخرج في آخر الزمان، فيبلغ سلطانه البرّ والبحر، ويردّ المُلْك إلينا، قال الله تعالى: ﴿ فاستعذ بالله ﴾، من فتنة الدجّال، ﴿ إنه هو السميع البصيـر ﴾.

﴿ لخلقُ السمٰواتِ والأرض ﴾، مع عظمهما، ﴿ أكبر ﴾، أعظم في الصدور، ﴿ من خلق الناس ﴾، أي من إعادتهم بعد الموت، ﴿ ولكن أكثر الناس ﴾، يعني الكفّار، ﴿ لا يعلمون ﴾، حيث لا يستدلّون بذلك على توحيد خالقها. وقال قوم: أكبر أي أعظم من خلق الدجّال، ﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾، يعني اليهود الذين يخاصمون في أمر الدجّال. ورُوِيَ عن هشام بن عامر قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «ما بين خلق آدم إلى قيام الساعة خلقٌ أكبرُ فتنةً من الدجّال»، أخبرنا أبو سعيد عبد الله بن أحمد الطاهري أنا جدّي عبـد الصمد بن عبد الرحمن البزّار أنا محمد بن زكريا العذافري أنا إسحاق بن إبراهيم الدبري ثنا عبد الرزّاق ثنا معمر عن قتادة عن شهر بن حوشب عن أسماء بنت يزيد الأنصارية قالت: كان رسول الله ﷺ في بيتي فذُكِرَ الدجّال، فقال: «إن بين يديه ثلاث سنين تمسك السماء فيها أول سنة ثلث قطرها والأرض ثلث نباتها، والثانية تمسك السماء ثلثي قطرها والأرض ثلثي نباتها، والثالثة تمسك السماء قطرها كله والأرض نباتها كله، فلا يبقى ذات ظلف ولا ذات ضرس من البهائم إلّا هلك، وإنّ من أشدّ فتنته أنه يأتي الأعرابي فيقول: أرأيتَ إن أحييت لك إبلك أليس تعلم أنّي ربّك؟

لقومه تعلمون أنه أعور وأن الله ليس بأعور» (ق) عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «ما من نبي إلا وقد أنذر قومه الأعور الكذاب ألا إنه أعور وإن ربكم ليس بأعور مكتوب بين عينيه كافر» وفي رواية لمسلم «بين عينيه كافر ثم تهجى ك ف ر ويقرؤه كل مسلم» عن أسماء بنت يزيد الأنصارية قالت «كان رسول الله ﷺ في بيتي فذكر الدجال، فقال إن بين يديه ثلاث سنين سنة تمسك السماء ثلث قطرها والأرض.

والثانية تمسك السماء ثلثي قطرها والأرض ثلثي نباتها. والثالثة تمسك السماء قطرها كله والأرض نباتها كله نباتها كله فلا تبقى ذات ظلف ولا ضرس من البهائم إلا هلكت ومن أشد فتنته أنه يأتي الأعرابي فيقول: أرأيت إن أحييت لك إبلك ألست تعلم أني ربك قال: فيقول: بلى، فيتمثل الشيطان نحو إبله كأحسن ما تكون ضروعاً وأعظمه أسنمة ويأتي الرجل قد مات أخوه ومات أبوه فيقول: أرأيت إن أحييت لك أخاك وأباك ألست تعلم أني ربك فيقول بلى فيمتثل له الشيطان نحو أخيه ونحو أبيه قالت: ثم خرج رسول الله ﷺ لحاجته ثم رجع والقوم في اهتمام وغمّ مما حدثهم قالت وأخذ بلحمتي الباب فقال مهيم أسماء فقلت: يا رسول الله لقد خلعت أفئدتنا بذكر الدجال قال: إن يخرج وأنا حي فأنا حجيجه وإلا فإن ربي خليفتي على كل مؤمن، قالت أسماء: فقلت يا رسول الله والله إنا لنعجن عجيناً فما نخبزه حتى نجوع فكيف بالمؤمنين يومئذ، قال: يجزيهم ما يجزىء أهل السماء من التسبيح والتقديس» وفي رواية عنها قالت قال النبي ﷺ «يمكث الدجال في الأرض أربعين سنة السنة كالشهر والشهر كالجمعة والجمعة كاليوم واليوم كاضطرام السعفة في النار» هذا حديث أخرجه البغوي بسنده والذي جاء في صحيح مسلم قال «قلنا يا رسول الله ما لبثه في الأرض قال أربعون يوماً يوم كسنة ويوم كشهر ويوم كجمعة وسائر أيامه كأيامكم هذه قلنا يا رسول الله فذاك اليوم الذي كسنة أتكفينا له صلاة يوم قال لا أقدروا له قدره قلنا يا رسول الله وما إسراعه في الأرض قال كالغيث استذرته الريح» وفي رواية أبي داود عنه «فمن أدركه منكم فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف فإنها جواركم من فتنته وفيه ثم ينزل عيسى عليه الصلاة والسلام عند المنارة البيضاء شرقي دمشق فيدركه عند باب لد فيقتله» (ق) عن حذيفة قال سمعت رسول الله ﷺ يقول «إن مع الدجال إذا خرج ماء وناراً، فأما الذي يرى الناس أنه نار فماء بارد

فيقول: بلى، فيتمثّل له الشيطان نحو إبله كأحسن ما يكون ضروعاً وأعظمه أسنمة، قال: ويأتي الرجل قد مات أخوه ومات أبوه فيقول: أرأيتَ إن أحييت لك أباك وأخاك ألستَ تعلم أنّي ربّك؟ فيقول: بلى، فيتمثّل له الشيطان نحو أبيه ونحو أخيه». قالت: ثم خرج رسول الله ﷺ لحاجته، ثم رجع القوم في اهتمام وغمّ مما حدّثهم، قالت: فأخذ بلحمتي الباب فقال: مهيم أسماء؟ فقلت: يا رسول الله لقد خلعت أفئدتنا بذكر الدجّال، قال: «إن يخرج وأنا حيّ فأنا حجيجه، وإلاّ فإن ربّي خليفتي على كل مؤمن»، قالت أسماء فقلت: يا رسول الله والله إنّا لنعجن عجيناً فما نخبزه حتى نجوع فكيف بالمؤمنين يومئذ؟ قال: «يجزيهم ما يجزىء أهل السماء من التسبيح والتقديس». وبهذا الإسناد أخبرنا معمر عن ابن خيثم عن شهر بن حوشب عن أسماء بنت يزيد قالت: قال رسول الله ﷺ: «يمكث الدجّال في الأرض أربعين سنة، السنة كالشهر، والشهر كالجمعة، والجمعة كاليوم، واليوم كاضطرام السعفة في النار»، أخبرنا أبو سعيد الطاهري أنا جدّي عبد الصمد بن عبد الرحمن البزّار أنا محمد بن زكريا العذافري أنا إسحاق الدبري ثنا عبد الرزّاق أنا معمر عن الزهري عن سالم عن ابن عمر قال: قام رسول الله ﷺ في الناس فأثنى على الله بما هو أهله، ثم ذكر الدجّال فقال: «إني لأنذركموه، وما من نبيّ إلاّ أنذر قومه، لقد أنذر نوح قومه، ولكني سأقول لكم فيه قولاً لم يقله نبيّ لقومه، تعلمون أنه أعور وإن الله ليس بأعور». أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا جويرية عن نافع عن عبد الله قال: ذُكر الدجّال عند النبي ﷺ فقال: «إن الله لا يخفى عليكم، إن الله ليس بأعور وأشار بيده إلى عينه، وإن المسيح

والذي يرى الناس أنه ماء فنار محرقة فمن أدرك ذلك منكم فليقع في الذي يرى أنه نار فإنه ماء عذب بارد» (ق) عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ «ألا أحدثكم حديثاً عن الدجال ما حدث به نبي قومه إنه أعور وإنه يجيء بمثال الجنة والنار فالتي يقول إنها الجنة هي النار وإني أنذركم كما أنذر نوح قومه» (ق) «عن المغيرة بن شعبة قال «ما سأل أحد رسول الله ﷺ عن الدجال ما سألته وإنه قال لي ما يضرك قلت إنهم يقولون إن معه جبل خبز ونهر ماء قال هو أهون على الله من ذلك» عن عمران بن حصين أن رسول الله ﷺ قال «من سمع بالدجال فلينأ منه فوالله إن الرجل ليأتيه وهو يحسب أنه مؤمن فيتبعه مما يبعث به الشبهات أو قال لما يبعث به من الشبهات» أخرجه أبو داود (ق) عن أنس أن رسول الله ﷺ قال «ليس من بلد إلا سيطؤه الدجال إلا مكة والمدينة ليس نقب من نقابها إلا عليه الملائكة صافين يحرسونها فينزل السبخة ثم ترجف المدينة بأهلها ثلاث رجفات فيخرج إليه كل كافر ومنافق» (م) عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال «يأتي المسيح من قبل المشرق وهمته المدينة حتى ينزل دبر أحد ثم تصرف الملائكة وجهه قبل الشام وهناك يهلك» عن أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه قال: حدثنا رسول الله ﷺ قال «الدجال يخرج بأرض بالمشرق يقال لها خراسان يتبعه أقوام كأن وجوههم المجان المطرقة» أخرجه الترمذي، وقال حديث حسن غريب (م). عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ «يتبع الدجال من يهود أصبهان سبعون ألفاً عليهم الطيالسة» عن مجمع بن جارية الأنصاري قال سمعت رسول الله ﷺ يقول «يقتل ابن مريم الدجال بباب لد» أخرجه الترمذي، وقال حديث حسن صحيح. قال الشيخ محيي الدين النووي: قال القاضي عياض هذه الأحاديث التي وردت في قصة الدجال حجة للمذهب الحق في صحة وجوده وأنه شخص بعينه ابتلى الله تعالى به عباده فأقدره على أشياء من المقدورات من إحياء الميت الذي يقتله ومن ظهور زهرة الدنيا والخصب معه وجنته وناره وإتباع كنوز الأرض له وأمره السماء أن تمطر فتمطر والأرض أن تنبت فتنبت ويقع كل ذلك بقدرة الله تعالى وفتنته ثم يعجزه الله تعالى بعد ذلك فلا يقدر على قتل ذلك الرجل ولا غيره ويبطل أمره ويقتله عيسى ابن مريم عليه السلام ويثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت، هذا مذهب أهل السنة وجميع المحدثين والفقهاء خلافاً لمن أنكره وأبطل أمره من الخوارج والجهمية وبعض المعتزلة وخلافاً للجبائي المعتزلي وموافقيه من الجهمية وغيرهم في أنه صحيح الوجود ولكن الأشياء التي يأتي بها زعموا أنها مخاريق وخيالات لا حقائق لها وزعموا أنها لو كانت حقاً لضاهت معجزات الأنبياء

الدجّال أعور العين اليمنى، كأن عينه عنبة طافية». أخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر الجرجاني أنا عبد الغافر بن محمد الفارسي أنا محمد بن عيسى الجلودي ثنا إبراهيم بن محمد بن سفيان ثنا مسلم بن الحجّاج ثنا علي بن حجر ثنا شعيب بن صفوان عن عبد الملك بن عُمير عن ربعي بن حراش عن عقبة بن عمرو أبي مسعود الأنصاري قال: انطلقت معه إلى حذيفة بن اليمان فقال له عقبة: حدّثني ما سمعتَ من رسول الله ﷺ في الدجّال؟ قال: «إن الدجّال يخرج وإنَّ معه ماءً وناراً، فأما الذي يراه الناس ماءً فنارٌ تحرق، وأما الذي يراه الناس ناراً فماءٌ بارد عَذْبٌ، فمَن أدرك ذلك منكم فليقع في الذي يراه ناراً فإنه ماء عذب طيب» فقال عقبة: وأنا قد سمعته تصديقاً لحذيفة. أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل حدّثني إبراهيم بن المنذر ثنا ابن الوليد حدّثنا ابن عمرو ثنا إسحاق حدّثني أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال: «ليس من بلد إلّا سيطأه الدجّال إلّا مكة والمدينة، ليس من نقابها نقب إلا عليه الملائكة صافّين يحرسونها، ثم ترجف المدينة بأهلها ثلاث رجفات فيخرج إليه كل كافر ومنافق»، أخبرنا أبو عبد الله محمد بن الفضل الخرقي أنا أبو الحسن علي بن عبد الله الطيسفوني أنا عبد الله بن عمر الجوهري ثنا أحمد بن علي الكشمهيني ثنا علي بن حجر ثنا إسماعيل بن جعفر عن العلاء عن أبيه عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «يأتي المسيح من قِبَل المشرق وهمّته المدينة حتى ينزل دُبُرَ

وهذا غلط من جميعهم لأنه لم يدع النبوة فيكون ما معه كالتصديق له وإنما يدعي الربوبية وهو في نفس دعواه مكذب لها بصورة حاله ووجود دلائل الحدوث فيه ونقص صورته وعجزه عن إزالة العور الذي في عينه وعن إزالة الشاهد بكفره المكتوب بين عينيه ولهذه الدلائل لا يغتر به إلا عوام من الناس لشدة الحاجة والفاقة رغبة في سد الرمق أو خوفاً من فتنته لأن فتنته عظيمة جداً تدهش العقول وتحير الألباب ولهذا حذرت الأنبياء من فتنته فأما أهل التوفيق فلا يغترون به ولا يخدعون بما معه لما سبق من العلم بحاله ولهذا يقول له الذي يقتله ثم يحييه ما ازددت فيك إلا بصيرة قوله «قلت يا رسول الله إنهم يقولون إن معه جبل خبز ونهر ماء قال هو أهون على الله تعالى من ذلك» معناه هذا أهون على الله تعالى من أن يجعل ما خلقه الله عز وجل على يده مضلاً للمؤمنين ومشككاً لقلوبهم بل إنما جعله الله له ليزداد الذين آمنوا إيماناً وتثبت الحجة على الكافرين والمنافقين وليس معناه أنه ليس معه شيء من ذلك لأنه ثبت في الحديث أن معه ماء وناراً فماؤه نار وناره ماء بارد والله تعالى أعلم.

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ ۚ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿**وما يستوي الأعمى والبصير**﴾ أي الجاهل والعالم ﴿**والذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا المسيء**﴾ أي لا يستوون ﴿**قليلاً ما تتذكرون إن الساعة**﴾ يعني القيامة ﴿**لآتية لا ريب فيها**﴾ أي لا شك في قيامها ومجيئها ﴿**ولكن أكثر الناس لا يؤمنون**﴾ أي لا يصدقون بالبعث بعد الموت، قوله تعالى: ﴿**وقال ربكم ادعوني أستجب لكم**﴾ أي اعبدوني دون غيري أجبكم وأثبكم وأغفر لكم فلما عبر عن العبادة بالدعاء جعل الإثابة استجابة عن النعمان بن بشير قال سمعت رسول الله ﷺ يقول على المنبر «الدعاء هو العبادة ثم قرأ وقال ﴿**ربكم ادعوني أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين**﴾ أخرجه أبو داود والترمذي وقال حديث حسن صحيح وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «من لم يسأل الله يغضب عليه» أخرجه الترمذي وقال حديث غريب عن أنس بن مالك قال «الدعاء مخ العبادة» أخرجه الترمذي وعنه عن النبي ﷺ قال «ليس شيء أكرم على الله من الدعاء» أخرجه الترمذي وقال حديث غريب؛ فإن قلت كيف قال ادعوني أستجب لكم وقد يدعو الإنسان كثيراً

أُحد، ثم تصرف الملائكة وجهه قبل الشام، وهناك يهلك. أخبرنا أبو سعيد الطاهري أنا جدّي عبد الصمد البزار أنا محمد بن زكريا العذافري أنا إسحاق الدبْري ثنا عبد الرزّاق أنا معمر عن هارون العبدي عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «يتبع الدجّال من أُمتي سبعون ألفاً عليهم السجّان»، ويرويه أبو أمامة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «مع الدجّال يومئذ سبعون ألف يهودي كلهم ذو تاج وسيف محلّى».

قوله تعالى: ﴿ **وما يستوي الأعمى والبصير والذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا المسيء قليلاً ما تتذكرون** ﴾، قرأ أهل الكوفة ﴿ **تتذكّرون** ﴾ بالتاء، وقرأ الآخرون بالياء لأن أول الآيات وآخرها خبر عن قوم.

﴿ **إن الساعة** ﴾، أي القيامة ﴿ **لآتية لا ريب فيها ولكن أكثر الناس لا يؤمنون** ﴾.

﴿ **وقال ربُّكُمُ ادعوني أستجبْ لكم** ﴾، أي اعبدوني دون غيري أُجبكم وأُثبكم وأغفر لكم، فلما عبّر عن العبادة بالدعاء جعل الإثابة استجابة. أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أبو منصور محمد بن سمعان ثنا أبو جعفر محمد بن أحمد بن عبد الجبار الرياني ثنا حميد بن زنجويه ثنا محمد بن يوسف ثنا سفيان عن منصور عن أبي ذرّ

فلا يستجاب له، قلت الدعاء له شروط منها الإخلاص في الدعاء وأن لا يدعو وقلبه لاه مشغول بغير الدعاء وأن يكون المطلوب بالدعاء مصلحة للإنسان وأن لا يكون فيه قطيعة رحم فإذا كان الدعاء بهذه الشروط كان حقيقاً بالإجابة فإما أن يعجلها له وإما أن يؤخرها له يدل عليه ما روى عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «ما من رجل يدعو الله تعالى بدعاء إلا استجيب له فإما أن يعجل له به في الدنيا وإما أن يدخر له في الآخرة وإما أن يكفر عنه من ذنوبه بقدر ما دعا ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم أو يستعجل قالوا يا رسول الله وكيف يستعجل قال يقول دعوت ربي فما استجاب لي» أخرجه الترمذي وقال حديث غريب وقيل الدعاء هو الذكر والسؤال ﴿**إن الذين يستكبرون عن عبادتي**﴾ أي عن توحيدي وقيل دعائي ﴿**سيدخلون جهنم داخرين**﴾ أي صاغرين ذليلين.

ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾ كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾ ۞ قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِىَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّى وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٦﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ۖ وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾

قوله عز وجل: ﴿**الله الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه**﴾ أي لتحصل لكم الراحة فيه بسبب النوم والسكون ﴿**والنهار مبصراً**﴾ أي لتحصل لكم فيه مكنة التصرف في حوائجكم ومهماتكم ﴿**إن الله لذو فضل على الناس ولكن**

عن يسبيع الكندي عن النعمان بن بشير قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول على المنبر: «إن الدعاء هو العبادة»، ثم قرأ: ﴿ **ادعوني أستجب لكم** ﴾، ﴿ **إنّ الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنّم داخرين** ﴾، أخبرنا أبو بكر محمد بن أحمد بن علي الزرقي ثنا أبو الحسن علي بن يوسف الشيرازي أنا أبو الحسن أحمد بن محمد بن موسى القرشي ببغداد ثنا محمد بن عبيد بن العلاء ثنا أحمد بن بديل ثنا وكيع ثنا أبو المليح قال: سمعت أبا صالح يذكر عن أبي هريرة قال: قال النبي ﷺ: «مَن لم يدعُ اللَّهَ غضبَ اللَّهُ عليه»، وقيل: الدعاء: هو الذكر والسؤال، ﴿ **إنّ الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنّم داخرين** ﴾، قرأ ابن كثير وأبو جعفر وأبو بكر: ﴿ **سيدخلون** ﴾ بضم الياء وفتح الخاء، وقرأ الآخرون بفتح الياء وضمّ الخاء، ومعنى داخرين صاغرين ذليلين.

﴿ **الله الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصراً إنّ الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون * ذلكم اللَّهُ ربُّكم خالقُ كلِّ شيءٍ لا إله إلاّ هو فأنّى تُؤفكون كذلك** ﴾، يعني كما أفكتم عن الحق مع قيام الدلائل كذلك، ﴿ **يؤفك الذين كانوا بآيات الله يجحدون** ﴾.

أكثر الناس لا يشكرون ذلكم الله ربكم﴾ أي ذلكم المميز بالأفعال الخاصة التي لا يشاركه فيها أحد هو الله ربكم **﴿خالق كل شيء لا إله إلا هو﴾** أي هو الجامع لهذه الأوصاف من الإلهية والربوبية وخلق الأشياء كلها وأنه لا شريك له في ذلك **﴿فأنى تؤفكون﴾** أي فأنى تصرفون عن الحق **﴿كذلك﴾** أي كما أفكتم عن الحق مع قيام الدلائل كذلك **﴿يؤفك الذين كانوا بآيات الله يجحدون الله الذي جعل لكم الأرض قراراً﴾** أي فراشاً لتستقروا عليها وقيل منزلاً في حال الحياة وبعد الموت **﴿والسماء بناء﴾** أي سقفاً مرفوعاً كالقبة **﴿وصوركم فأحسن صوركم﴾** أي خلقكم فأحسن خلقكم قال ابن عباس خلق ابن آدم قائماً معتدلاً يأكل ويتناول بيده وغير ابن آدم يتناول بفيه **﴿ورزقكم من الطيبات﴾** قيل هو ما خلق الله تعالى لعباده من المأكل والمشرب من غير رزق الدواب **﴿ذلكم الله ربكم فتبارك الله رب العالمين هو الحي﴾** وهذا يفيد الحصر أي لا حي إلا هو فوجب أن يحمل ذلك على الذي يمتنع أن يموت امتناعاً تاماً ثابتاً وهو الله تعالى الذي لا يوصف بالحياة الكاملة إلا هو، والحي هو المدرك الفعال لما يريد وهذه إشارة إلى العلم التام والقدرة التامة ولما نبه على هذه الصفات نبه على كمال الوحدانية بقوله **﴿لا إله إلا هو فادعوه مخلصين له الدين الحمد لله رب العالمين﴾** أي فادعوه واحمدوه، قال ابن عباس من قال لا إله إلا الله فليقل على أثرها الحمد لله رب العالمين **﴿قل إني نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله لما جاءني البينات من ربي وأمرت أن أسلم لرب العالمين﴾** وذلك حين دعي إلى الكفر أمره الله تعالى أن يقول ذلك.

قوله تعالى: **﴿هو الذي خلقكم من تراب﴾** يعني أصلكم آدم وقيل يحتمل أن كل إنسان خلق من تراب لأنه خلق من النطفة وهي من الأغذية والأغذية من النبات والنبات من التراب **﴿ثم من نطفة ثم من علقة ثم يخرجكم طفلاً ثم لتبلغوا أشدكم ثم لتكونوا شيوخاً﴾** يعني أن مراتب الإنسان بعد خروجه من بطن أمه ثلاث الطفولية وهي حالة النمو والزيادة إلى أن يبلغ كمال الأشد من غير ضعف ثم يتناقص بعد ذلك وهي الشيوخة **﴿ومنكم من يتوفى من قبل﴾** أي من قبل أن يصير شيخاً **﴿ولتبلغوا﴾** أي جميعاً **﴿أجلاً مسمى﴾** أي وقتاً محدود لا تجاوزونه يعني أجل الحياة إلى الموت **﴿ولعلكم تعقلون﴾** أي ما في هذه الأحوال العجيبة من القدرة الباهرة الدالة على توحيده وقدرته **﴿هو الذي يحيي ويميت فإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون﴾** أي يكونه من غير كلفة ولا معاناة ولا تعب وكل ذلك من كمال

﴿ اللَّهُ الذي جعل لكم الأرض قراراً ﴾، فراشاً، **﴿ والسماء بناءً ﴾**، سقفاً كالقبّة، **﴿ وصوّركم فأحسن صوركم ﴾**، قال مقاتل: خلقكم فأحسن خلقكم. قال ابن عباس: خلق ابن آدم قائماً معتدلاً يأكل ويتناول بيده، وغير ابن آدم يتناول بفِيْه. **﴿ ورزقكم من الطيبات ﴾**، قيل: هو من غير رزق الدواب **﴿ ذلكُمُ اللَّهُ ربُّكُم فتبارك اللَّهُ ربُّ العالمين * هو الحيّ لا إله إلاّ هو فادعوه مخلصين له الدين الحمد لله ربّ العالمين ﴾**، قال الفرّاء: هو خبر وفيه إضمار الأمر، مجازه: فادعوه واحْمَدُوهُ. ورُوِيَ عن مجاهد عن ابن عباس قال: مَن قال لا إلَه إلاّ الله فليقل على إثرها الحمد لله ربّ العالمين، فذلك قوله عزّ وجلّ: **﴿ فادعوه مخلصين له الدين الحمد لله ربّ العالمين ﴾**.

﴿ قلْ إني نُهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله لمّا جاءني البيّنات من ربي وأُمرتُ أن أُسلم لربّ العالمين ﴾، وذلك حين دُعِي إلى الكفر.

﴿ هو الذي خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم يُخرجكم طفلاً ﴾، أي أطفالاً، **﴿ ثم لتبلغوا أشدّكم ثم لتكونوا شيوخاً، ومنكم مَن يُتوفّى من قبل ﴾**، أي من قبل أن يصير شيخاً، **﴿ ولتبلغوا ﴾**، جميعاً، **﴿ أجلاً مسمى ﴾**، وقتاً معلوماً محدوداً لا تجاوزنه، يريد أجل الحياة إلى الموت، **﴿ ولعلّكم تعقلون ﴾**، أي لكي تعقلوا توحيد ربكم وقدرته.

قدرته على الإحياء والإماتة وسائر ما ذكر من الأفعال الدالة على قدرته كأنه قال من الاقتدار إذا قضى أمراً كان أهون شيء وأسرعه.

قوله تعالى: ﴿ألم تر إلى الذين يجادلون في آيات الله﴾ يعني القرآن ﴿أنى يصرفون﴾ أي عن دين الحق وقيل نزلت في القدرية.

﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ
وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن
دُونِ ٱللَّهِ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا۟ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ
تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى
ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٧٧﴾
وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن
يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ قُضِىَ بِٱلْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾﴾

﴿الذين كذبوا بالكتاب وبما أرسلنا به رسلنا فسوف يعلمون﴾ فيه وعيد وتهديد ثم وصف ما أوعدهم به فقال تعالى: ﴿إذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل يسحبون﴾ يعني يجرون بتلك السلاسل ﴿في الحميم ثم في النار يسجرون﴾ يعني توقد بهم النار ﴿ثم قيل لهم أين ما كنتم تشركون من دون الله﴾ يعني الأصنام ﴿قالوا ضلوا عنا﴾ أي فقدناهم فلم نرهم ﴿بل لم نكن ندعو من قبل شيئاً﴾ قيل إنهم أنكروا عبادتها، وقيل لم نكن ندعوا شيئاً ينفع ويضر، وقيل ضاعت عبادتنا لها فكأنا لم نكن ندعو من قبل شيئاً ﴿كذلك يضل الله الكافرين﴾ أي كما أضل هؤلاء ﴿ذلكم﴾ أي العذاب الذي نزل بكم ﴿بما كنتم تفرحون﴾ أي تبطرون وتأشرون ﴿في الأرض بغير الحق وبما كنتم تمرحون﴾ أي

﴿ هو الذي يُحيي ويُميت فإذا قضى أمراً فإنّما يقول له كن فيكون * ألم تَرَ إلى الذين يجادلون في آيات الله ﴾، يعني القرآن يقولون ليس من عند الله، ﴿ أنّى يُصرفون ﴾، كيف يصرفون عن دين الحق. قيل: هم المشركون. وعن محمد بن سيرين وجماعة: إنها نزلت في القدرية.

﴿ الذين كذّبوا بالكتاب وبما أرسلنا به فسوف يعلمون * إذِ الأغلالُ في أعناقهم والسلاسل يُسحبون ﴾، يجرّون.

﴿ في الحميم ثم في النار يُسجرون ﴾، قال مقاتل: توقد بهم النار. وقال مجاهد: يصيرون وقوداً للنار.

﴿ ثم قيل لهم أين ما كنتم تشركون * من دون الله ﴾؟ يعني الأصنام، ﴿ قالوا ضلّوا عنّا ﴾، فقدناهم فلا نراهم، ﴿بل لم نكن ندعوا من قبل شيئاً ﴾، قيل: أنكروا. وقيل: معناه بل لم نكن ندعـوا من قبل شيئـاً ينفع ويضـرّ. وقال الحسين بن الفضل: أي لم نكن نصنع من قبل شيئاً أي ضاعت عبادتنا لها، كما يقولُ مَنْ ضاعَ عمله: ما كنتُ أعمل شيئاً. قال الله عزّ وجلّ: ﴿ كذلك ﴾ أي كما أُضلّ هؤلاء، ﴿ يضلّ الله الكافرين ﴾.

﴿ ذلكم ﴾ العذاب الذي نزل بكم، ﴿ بما كنتم تفرحون ﴾ تبطرون وتأشرون، ﴿في الأرض بغير الحق وبما كنتم تمرحون ﴾ تفرحون وتختالون.

تختالون وتفرحون به ﴿ادخلوا أبواب جهنم﴾ يعني السبعة ﴿خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين﴾ يعني عن الإيمان.

قوله تعالى: ﴿فاصبر إن وعد الله حق﴾ الخطاب للنبي ﷺ أي بنصرك على الأعداء ﴿فإما نرينك بعض الذي نعدهم﴾ أي من العذاب في حياتك ﴿أو نتوفينك﴾ أي قبل أن يحل ذلك بهم ﴿فإلينا يرجعون ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك منهم من قصصنا عليك﴾ أي خبره وحاله في القرآن ﴿ومنهم من لم نقصص عليك﴾ أي لم نذكر لك حال الباقين منهم وليس منهم أحد إلا أعطاه الله تعالى آيات ومعجزات، وقد جادله قومه وكذبوه فيها وما جرى عليهم يقارب ما جرى عليك فصبروا وهذا تسلية لنبيه ﷺ ﴿وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله﴾ يعني بأمره وإرادته ﴿فإذا جاء أمر الله﴾ أي قضاؤه بين الأنبياء والأمم ﴿قضي بالحق﴾ يعني بالعدل ﴿وخسر هنالك المبطلون﴾ يعني الذين يجادلون في آيات الله بغير حق وفيه وعيد وتهديد لهم.

ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَـٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ وَلِتَبْلُغُوا۟
عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ
تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ
قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا
عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا
بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَـٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ
هُنَالِكَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾

قوله تعالى: ﴿الله الذي جعل لكم الأنعام لتركبوا منها ومنها تأكلون ولكم فيها منافع﴾ أي في أصوافها وأوبارها وأشعارها وألبانها ﴿ولتبلغوا عليها حاجة في صدوركم﴾ أي تحمل أثقالكم من بلد إلى بلد في أسفاركم وحاجاتكم ﴿وعليها وعلى الفلك تحملون﴾ أي على الإبل في البر وعلى السفن في البحر ﴿ويريكم آياته﴾ أي دلائل قدرته ﴿فأي آيات الله تنكرون﴾ يعني أن هذه الآيات التي ذكرها ظاهرة باهرة فليس شيء منها يمكن إنكاره.

﴿ ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبّرين * فاصبر إن وعد الله ﴾، بنصرك، ﴿ حق فإمّا نُرينّك بعض الذي نعدهم ﴾، من العذاب في حياتك، ﴿ أو نتوفينّك ﴾، قبل أن يحلّ ذلك بهم، ﴿ فإلينا يرجعون ﴾.

﴿ ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك منهم مَن قصصنا عليك ﴾، خبرهم في القرآن، ﴿ ومنهم مَن لم نقصص عليك وما كان لرسول أن يأتي بآية إلاّ بإذن الله ﴾، بأمر الله وإرادته، ﴿ فإذا جاء أمرُ الله ﴾، قضاؤه بين الأنبياء والأمم، ﴿ قُضي بالحق وخسر هنالك المبطلون ﴾.

﴿ الله الذي جعل لكم الأنعام لتركبوا منها ﴾، بعضها، ﴿ ومنها تأكلون * ولكم فيها منافع ﴾، في أصوافها وأوبارها وأشعارها وألبانها. ﴿ ولتبلغوا عليها حاجة في صدوركم ﴾، تحمل أثقالكم من بلد إلى بلد ولتبلغوا عليها حاجاتكم، ﴿ وعليها وعلى الفلك تحملون ﴾، أي على الإبل في البرّ وعلى السفن في البحر، نظيره قوله تعالى: ﴿ وحملناهم في البرّ والبحر ﴾ [الإسراء: ٧٠].

قوله تعالى: ﴿أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أكثر منهم وأشد قوة وآثاراً في الأرض﴾ يعني مصانعهم وقصورهم والمعنى لو سار هؤلاء في أطراف الأرض لعرفوا أن عاقبة هؤلاء المنكرين المتمردين الهلاك والبوار مع أنهم كانوا أكثر عدداً وأموالاً من هؤلاء ﴿فما أغنى عنهم﴾ أي لم ينفعهم ﴿ما كانوا يكسبون﴾ أي أي شيء أغنى عنهم كسبهم ﴿فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا﴾ أي رضوا ﴿بما عندهم من العلم﴾ قيل هو قولهم لن نبعث ولن نعذب وقيل هو علمهم بأحوال الدنيا سمي ذلك علماً على ما يدعونه ويزعمونه وهو في الحقيقة جهل ﴿وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون فلما رأوا بأسنا﴾ أي عذابنا ﴿قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين﴾ أي تبرأنا مما كنا نعدل بالله ﴿فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنة الله التي قد خلت في عباده﴾ يعني أن سنة الله قد جرت في الأمم الخالية بعدم قبول الإيمان عند معاينة البأس وهو العذاب يعني بتلك السنة أنهم إذا رأوا العذاب آمنوا ولا ينفعهم إيمانهم عند معاينة العذاب ﴿وخسر هنالك الكافرون﴾ يعني بذهاب الدارين قيل الكافر خاسر في كل وقت ولكنه يتبين خسرانه إذا رأى العذاب والله سبحانه وتعالى أعلم بمراده وأسرار كتابه.

﴿ ويُريكم آياته ﴾، دلائل قدرته، ﴿ فأيَّ آياتِ الله تنكرون ﴾.

﴿ أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أكثر منهم وأشدّ قوّة وآثاراً في الأرض ﴾، يعني مصانعهم وقصورهم، ﴿ فما أغنى عنهم ﴾، لم ينفعهم، ﴿ ما كانوا يكسبون ﴾، وقيل: هو بمعنى الاستفهام، ومجازه: أي شيء أغنى عنهم كسبهم.

﴿ فلما جاءتهم رسلهم بالبيّنات فرحوا ﴾، رضوا، ﴿ بما عندهم من العلم ﴾، قال مجاهد هو قولهم نحن أعلم لن نبعث ولن نعذّب، سُمّي ذلك علماً على ما يدعونه وهو في الحقيقة جهل. ﴿ وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤون * فلما رأوا بأسنا قالوا آمنّا بالله وحده وكفرنا بما كنّا به مشركين ﴾، يعني تبرّأنا مما كنّا نعدل بالله.

﴿ فلم يكُ ينفعهم إيمانهم لمّا رأوا بأسنا ﴾، عذابنا، ﴿ سنّت الله ﴾، قال نصبها بنزع الخافض، أي كسُنّة الله. وقيل: على المصدر. وقيل: على الإغراء أي احذروا سُنّة الله، ﴿ التي قد خلت في عباده ﴾، وتلك السُنّة أنهم إذا عاينوا عذاب الله آمنوا، ولا ينفعهم إيمانهم عند معاينة العذاب. ﴿ وخسر هنالك الكافرون ﴾، بذهاب نعيم الدارين، قال الزجّاج: الكافر خاسر في كل وقت، ولكنهم يتبيّن لهم خسرانهم إذا رأوا العذاب.

سورة فصلت

وتسمى سورة السجدة وسورة المصابيح مكية وهي أربع وخمسون آية وسبعمائة وست وتسعون كلمة وثلاثة آلاف وثلاثمائة وخمسون حرفاً.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا
وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا
وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴿٥﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟
إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٧﴾

قوله عز وجل: ﴿حمٓ تنزيل من الرحمن الرحيم كتاب فصلت آياته﴾ أي بينت وميزت وجعلت معاني مختلفة من أحكام وأمثال ومواعظ ووعد ووعيد ﴿قرآناً عربياً﴾ أي باللسان العربي ﴿لقوم يعلمون﴾ أي إنما أنزلناه على العرب بلغتهم ليفهموا منه والمراد ولو كان بغير لسانهم ما فهموه ﴿بشيراً ونذيراً﴾ نعتان للقرآن أي بشيراً لأولياء الله بالثواب

سُوْرَة فُصِّلَتْ

مكيّة وهي أربع وخمسون آية.

﴿ **حمٓ * تنزيل من الرحمن الرحيم** ﴾، قال الأخفش: تنزيل مبتدأ وخبره قوله عزّ وجلّ:

﴿ **كتاب فصّلت آياته** ﴾ بيّنت آياته ﴿ **قرآناً عربياً لقوم يعلمون** ﴾، اللسان العربي ولو كان بغير لسانهم ما علموه ونصيب قرآناً بوقوع البيان عليه أي فصّلناه قرآناً.

﴿ **بشيراً ونذيراً** ﴾، نعتان للقرآن أي بشيراً لأولياء الله ونذيراً لأعدائه، ﴿ **فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون** ﴾، أي لا يصغون إليه تكبّراً.

﴿ **وقالوا** ﴾، يعني مشركي مكة: ﴿ **قلوبنا في أكنّة** ﴾، في أغطية، ﴿ **مما تدعونا إليه** ﴾، فلا نفقه ما تقول، ﴿ **وفي آذاننا وقر** ﴾، صمم فلا نسمع ما تقول، والمعنى: إنّا في ترك القبول عندك بمنزلة مَن لا يفهم ولا يسمع، ﴿ **ومن بيننا وبينك حجاب** ﴾، خلاف في الدين وحاجز في الملّة فلا نوافقك على ما تقول، ﴿ **فاعمل** ﴾، أنت على دينك، ﴿ **إننا عاملون** ﴾، على ديننا.

﴿ **قل إنّما أنا بشرٌ مثلكم** ﴾، يعني كواحد منكم ولولا الوحي ما دعوتكم، وهو قوله: ﴿ **يُوحى إليَّ أنما إلٰهكم**

ونذيراً لأعدائه بالعقاب ﴿فأعرض أكثرهم﴾ أي عنه ﴿فهم لا يسمعون﴾ أي لا يصغون إليه تكبراً ﴿وقالوا﴾ يعني مشركي مكة ﴿قلوبنا في أكنة﴾ أي أغطية ﴿مما تدعونا إليه﴾ أي فلا نفقه ما تقول ﴿وفي آذاننا وقر﴾ أي صمم فلا نسمع ما تقول والمعنى أنا في ترك القبول منك بمنزلة من لا يفهم ولا يسمع ﴿ومن بيننا وبينك حجاب﴾ أي خلاف في الدين وحاجز في الملة فلا نوافقك على ما تقول ﴿فاعمل﴾ أي أنت على دينك ﴿إننا عاملون﴾ أي على ديننا ﴿قل﴾ يا محمد ﴿أنما أنا بشر مثلكم﴾ أي كواحد منكم ﴿يوحى إليّ﴾ أي لولا الوحي ما دعوتكم، قال الحسن: علمه الله تعالى التواضع ﴿إنما إلهكم إله واحد فاستقيموا إليه﴾ أي توجهوا إليه بطاعته ولا تميلوا عن سبيله ﴿واستغفروه﴾ أي من ذنوبكم وشرككم ﴿وويل للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة﴾ قال ابن عباس: لا يقولون لا إله إلا الله لأنها زكاة الأنفس، والمعنى لا يطهرون أنفسهم من الشرك بالتوحيد. وقيل: لا يقرون بالزكاة المفروضة ولا يرون إتيانها واجباً يقال الزكاة قنطرة الإسلام فمن قطعها نجا ومن تخلف عنها هلك، وقيل: معناه لا ينفقون في طاعة الله ولا يتصدقون، وقيل: لا يزكون أعمالهم ﴿وهم بالآخرة هم كافرون﴾ أي جاحدون بالبعث بعد الموت.

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٨﴾ ۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾

﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون﴾ قال ابن عباس: غير مقطوع، وقيل: غير منقوص، وقيل: غير ممنون عليهم به، وقيل: غير محسوب. قيل نزلت هذه الآية في المرضى والزمنى والهرمى إذا عجزوا عن العمل والطاعة يكتب لهم الأجر كأصح ما كانوا يعملون فيه (خ) عن أبي موسى الأشعري قال سمعت رسول الله ﷺ غير مرة ولا مرتين يقول «إذا كان العبد يعمل عملاً صالحاً فشغله عنه مرض أو سفر كتب الله تعالى له كصالح ما كان يعمل وهو صحيح مقيم».

قوله عز وجل: ﴿قل أئنكم﴾ استفهام بمعنى الإنكار وذكر عنهم شيئين منكرين أحدهما الكفر بالله تعالى وهو

إله واحد ﴾، قال الحسن: علّمه الله التواضع، ﴿ فاستقيموا إليه ﴾، توجّهوا إليه بالطاعة ولا تميلوا عن سبيله، ﴿ واستغفروه ﴾، من ذنوبكم، ﴿ وويل للمشركين ﴾.

﴿ الذين لا يُؤتون الزكاة ﴾، قال ابن عباس: الذين يقولون لا إله إلاّ الله وهي زكاة الأنفس، والمعنى: لا يطهّرن أنفسهم من الشرك بالتوحيد. وقال الحسن وقتادة: لا يقرّون بالزكاة ولا يرون إيتاءها واجباً، وكان يقول: الزكاة قنطرة الإسلام فمَن قطعها نجا ومَن تخلّف عنها هلك. وقال الضحاك ومقاتل: لا ينفقون في الطاعة ولا يتصدقون. وقال مجاهد: لا يزكّون أعمالهم ﴿ وهم بالآخرة هم كافرون ﴾.

﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون ﴾، قال ابن عباس: غير مقطوع. وقال مقاتل: غير منقوص، ومنه المنون لأنه ينقص منّة الإنسان وقوّته، وقيل: غير ممنون عليهم به. وقال مجاهد: غير محسوب. وقال السدي: نزلت هذه الآية في المرضى والزمنى والهرمى، إذا عجزوا عن الطاعة يكتب لهم كأصحّ ما كانوا يعلمون فيه. أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحي أنا أبو الحسين بن بشران أنا إسماعيل بن محمد الصفّار ثنا أحمد بن منصور الرمادي ثنا عبد الرزاق أنا معمر عن عاصم بن أبي النجود عن خيثمة بن عبد الرحمن عن

قوله تعالى ﴿لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين﴾ وثانيهما ﴿وتجعلون له أنداداً﴾ إثبات الشركاء والأنداد له والمعنى كيف يجوز جعل هذه الأصنام الخسيسة أنداداً لله تعالى مع أنه تعالى هو الذي خلق الأرض في يومين يعني الأحد والإثنين ﴿ذلك رب العالمين﴾ أي هو رب العالمين وخالقهم المستحق للعبادة لا الأصنام المنحوتة من الخشب والحجر ﴿وجعل فيها رواسي﴾ أي جبالاً ثوابت ﴿من فوقها﴾ أي من فوق الأرض ﴿وبارك فيها﴾ أي في الأرض بكثرة الخيرات الحاصلة فيها وهو ما خلق فيها من البحار والأنهار والأشجار والثمار وخلق أصناف الحيوانات وكل ما يحتاج إليه ﴿وقدر فيها أقواتها﴾ أي قسم في الأرض أرزاق العباد والبهائم وقيل قدر في كل بلدة ما لم يجعله في الأخرى ليعيش بعضهم من بعض بالتجارة وقيل قدر البر لأهل قطر من الأرض والتمر لأهل قطر آخر والذرة لأهل قطر والسمك لأهل قطر وكذلك سائر الأقوات.

قيل إن الزراعة أكثر الحرف بركة لأن الله تعالى وضع الأقوات في الأرض قال الله تعالى: ﴿وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام﴾ أي مع اليومين الأولين فخلق الأرض في يومين وقدر الأقوات في يومين وهما يوم الثلاثاء ويوم الأربعاء فصارت أربعة أيام رد الآخر على الأول في الذكر ﴿سواء للسائلين﴾ معناه سواء لمن سأل عن ذلك أي فهكذا الأمر سواء لا زيادة فيه ولا نقصان جواباً لمن سأل في كم خلقت الأرض والأقوات ﴿ثم استوى إلى السماء﴾ أي عمد إلى خلق السماء ﴿وهي دخان﴾ ذلك الدخان كان بخار الماء، قيل كان العرش قبل خلق السموات والأرض على الماء فلما أراد الله تعالى أن يخلق السموات والأرض أمر الريح فضربت الماء فارتفع منه بخار كالدخان فخلق منه السماء ثم أيبس الماء فخلقه أرضاً واحدة ثم فتقها فجعلها سبعاً.

فإن قلت هذه الآية مشعرة بأن خلق الأرض كان قبل خلق السماء وقوله ﴿والأرض بعد ذلك دحاها﴾ مشعر بأن خلق الأرض بعد خلق السماء فكيف الجمع بينهما.

عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إن العبد إذا كان على طريقة حسنة من العبادة ثم مرض قيل للملك الموكل به اكتب له مثل عمله إذا كان طليقاً حتى أُطلقه أو أكفته إليّ».

قوله عزّ وجلّ: ﴿ قلْ أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين ﴾، يوم الأحد والاثنين، ﴿ وتجعلون له أنداداً ذلك ربّ العالمين ﴾.

﴿ وجعل فيها ﴾ أي في الأرض، ﴿ رواسي ﴾ جبالاً ثوابت، ﴿ ومن فوقها ﴾، من فوق الأرض، ﴿ وبارك فيها ﴾، أي في الأرض بما خلق فيها من البحار والأنهار والأشجار والثمار، ﴿ وقدّر فيها أقواتها ﴾، قال الحسن ومقاتل: قسم في الأرض أرزاق العباد والبهائم. وقال عكرمة والضحاك: قدّر في كل بلدة ما لم يجعله في الأخرَى ليعيش بعضهم من بعض بالتجارة من بلد إلى بلد. قال الكلبي قدّر الخبز لأهل قطر والذرة لأهل قطر والسمك لأهلِ قطر وكذلك أقواتها. ﴿ في أربعة أيام ﴾، ويريد خلق ما في الأرض وقدّر الأقوات في يومين يوم الثلاثاء والأربعاء فهما مع الأحد والاثنين أربعة أيام، ردّ الآخر على الأول في الذكر، كما تقول: تزوجت أمس امرأة واليوم ثنتين وإحداهما هي التي تزوّجها بالأمس، ﴿ سواء للسائلين ﴾ قرأ أبو جعفر ﴿ سواء ﴾ رفع على الابتداء، أي هي سواء، وقرأ يعقوب بالجرّ على نعت قوله: ﴿ في أربعة أيام ﴾، وقرأ الآخرون ﴿ سواء ﴾ نصب على المصدر استوت استواءً، ومعناه: سواء للسائلين عن ذلك. قال قتادة والسدي: مَن سأل عنه فهكذا الأمر سواء لا زيادة ولا نقصان جواباً لمَن سأل في كم خلقت الأرض والأقوات.

﴿ ثم استوى إلى السماء ﴾، أي: عمد إلى خلق السماء، ﴿ وهي دخان ﴾، وكان ذلك الدخان بخار الماء،

قلت الجواب المشهور أنه تعالى خلق الأرض أولاً ثم خلق السماء بعدها ثم بعد خلق السماء دحا الأرض ومدها.

وجواب آخر وهو أن يقال إن خلق السماء مقدم على خلق الأرض فعلى هذا يكون معنى الآية خلق الأرض في يومين، وليس الخلق عبارة عن الإيجاد والتكوين فقط بل هو عبارة عن التقدير أيضاً فيكون المعنى قضى أن يحدث الأرض في يومين بعد إحداث السماء فعلى هذا يزول الإشكال والله أعلم بالحقيقة ﴿**فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً**﴾ أي ائتيا ما أمرتكما به أي افعلاه وقيل افعلا ما أمرتكما طوعاً وإلا ألجأتكما إلى ذلك حتى تفعلاه كرهاً فأجابتا بالطوع ﴿**قالتا أتينا طائعين**﴾ معناه أتينا بما فينا طائعين فلما وصفهما بالقول أجراهما في الجمع مجرى من يعقل.

قيل قال الله تعالى لهما أخرجا ما خلقت فيكما من المنافع لمصالح العباد أما أنت يا سماء فأطلعي شمسك وقمرك ونجومك وأنت يا أرض فشقي أنهارك وأخرجي ثمرك ونباتك.

﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ قَالُوا۟ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿**فقضاهن سبع سموات**﴾ أي أتمهن وفرغ من خلقهن ﴿**في يومين**﴾ وهما الخميس والجمعة ﴿**وأوحى في كل سماء أمرها**﴾ قال ابن عباس خلق في كل سماء خلقاً من الملائكة وخلق ما فيها من البحار وجبال البرد وما لا يعلمه إلا الله تعالى وقيل أوحى إلى كل سماء ما أراد من الأمر والنهي ﴿**وزينا السماء الدنيا**﴾ أي التي تلي الأرض ﴿**بمصابيح**﴾ أي بكواكب تشرق كالمصابيح ﴿**وحفظاً**﴾ أي وجعلناها يعني الكواكب حفظاً للسماء من الشياطين الذين يسترقون السمع ﴿**ذلك**﴾ أي الذي ذكر من صنعه وخلقه ﴿**تقدير العزيز**﴾ أي في ملكه ﴿**العليم**﴾ أي بخلقه وفيه إشارة إلى كمال القدرة والعلم.

قوله تعالى: ﴿**فإن أعرضوا**﴾ يعني هؤلاء المشركين عن الإيمان بعد هذا البيان ﴿**فقل أنذرتكم**﴾ أي خوفتكم ﴿**صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود**﴾ أي هلاكاً مثل هلاكهم والصاعقة المهلكة من كل شيء ﴿**إذ جاءتهم الرسل**﴾ يعني

﴿ **فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً** ﴾، أي ائتيا ما آمركما أي افعلاه، كما يقال: إئت ما هذا الأحسن أي افعله. وقال طاوس عن ابن عباس: ائتيا أعطيا، يعني أخرجاه ما خلقت فيكما من المنافع لمصالح العباد. قال ابن عباس: قال الله عزّ وجلّ: أمّا أنتِ يا سماء فأطلعي شمسك وقمرك ونجومك، وأنت يا أرض فشقّي أنهارك وأخرجي ثمارك ونباتك، وقال لهما افعلا ما آمركما طوعاً وإلّا ألجأتكما إلى ذلك حتى تفعلاه كرهاً فأجابتا بالطوع، و﴿ **قالتا أتينا طائعين** ﴾، ولم يقل طائعتين لأنه ذهب به إلى السمٰوات والأرض ومَن فيهنّ، مجازه: أتينا بما فينا طائعين، فلما وصفهما بالقول أجراهما في الجمع مجرى مَن يعقل.

﴿ **فقضاهنّ سبع سمٰوات في يومين** ﴾، أي أتمهنّ وفرغ من خلقهنّ، ﴿ **وأوحى في كل سماء أمرها** ﴾، قال عطاء عن ابن عباس: خلق في كل سماء خلقها من الملائكة وما فيها من البحار وجبال البرد وما لا يعلمه إلّا الله. وقال قتادة والسدي: يعني خلق فيها شمسها وقمرها ونجومها. وقال مقاتل: وأوحى إلى كل سماء ما أراد من الأمر والنهي، وذلك يوم الخميس والجمعة. ﴿ **وزيّنّا السماء الدنيا بمصابيح** ﴾، وكواكب، ﴿ **وحفظاً** ﴾، لها ونصب حفظاً على المصدر، أي حفظناها بالكواكب حفظاً من الشياطين الذين يسترقون السمع، ﴿ **ذلك** ﴾، الذي ذكر من

إلى عاد وثمود ﴿من بين أيديهم﴾ يعني الرسل الذين أرسلوا إلى آبائهم ﴿ومن خلفهم﴾ يعني ومن بعد الرسل الذين أرسلوا إلى آبائهم وهم الرسل الذين أرسلوا إليهم وهما هود وصالح وإنما خص هاتين القبيلتين لأن قريشاً كانوا يمرون على بلادهم ﴿أن لا﴾ أي بأن لا ﴿تعبدوا إلا الله قالوا لو شاء ربنا لأنزل ملائكة﴾ يعني لو شاء ربنا دعوة الخلق لأنزل ملائكة بدل هؤلاء الرسل ﴿فإنا بما أرسلتم به كافرون﴾ روى البغوي بإسناد الثعلبي عن جابر بن عبد الله قال: «قال الملأ من قريش وأبو جهل قد التبس علينا أمر محمد فلو التمستم رجلاً عالماً بالشعر والكهانة والسحر فأتاه فكلمه ثم أتينا ببيان من أمره، فقال عتبة بن ربيعة: والله لقد سمعت الشعر والكهانة والسحر وعلمت من ذلك علماً وما يخفى عليّ إن كان كذلك، فأتاه فلما خرج إليه قال: يا محمد أنت خير أم هاشم أنت خير أم عبد المطلب أنت خير أم عبد الله فيم تشتم آلهتنا وتضلل آباءنا فإن كان ما بك للرياسة عقدنا لك ألويتنا فكنت رئيساً ما بقيت وإن كان بك الباءة زوجناك عشر نسوة تختارهن من أي بنات قريش وإن كان بك المال جمعنا لك ما تستغني به أنت وعقبك من بعدك ورسول الله ﷺ ساكت لا يتكلم فلما فرغ قرأ رسول الله ﷺ: ﴿حمٓ تنزيل من الرحمن الرحيم كتاب فصلت آياته﴾ إلى قوله تعالى ﴿فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود﴾ فأمسك عتبة على فيه وناشده الرحم ورجع إلى أهله ولم يخرج إلى قريش واحتبس عنهم فقال أبو جهل يا معشر قريش والله ما نرى عتبة إلا قد صبأ إلى محمد وأعجبه طعامه وما ذاك إلا من حاجة أصابته فانطلقوا بنا إليه فانطلقوا إليه فقال أبو جهل: والله يا عتبة ما حبسك عنا إلا أنك

صنعه، ﴿ تقدير العزيز ﴾، في ملكه، ﴿ العليم ﴾، بخلقه.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ فإن أعرضوا ﴾، يعني هؤلاء المشركين عن الإيمان بعد هذا البيان، ﴿ فقلْ أنذرتكم ﴾، خوّفتكم، ﴿ صاعقةً مثل صاعقة عاد وثمود ﴾، أي هلاكاً مثل هلاكهم، والصاعقة المهلكة من كل شيء.

﴿ إذ جاءتهم ﴾، يعني عاداً أو ثموداً، ﴿ الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم ﴾، أراد بقوله: ﴿ من بين أيديهم ﴾ الرسل الذين أرسلوا إلى آبائهم من قبلهم، ﴿ ومن خلفهم ﴾ يعني من بعد الرسل الذين أرسلوا إلى آبائهم الذين أرسلوا إليهم هود وصالح، فالكناية في قوله من بين أيديهم راجعة إلى عاد وثمود وفي قوله: ﴿ ومن خلفهم ﴾ راجعة إلى الرسل، ﴿ أنْ لا ﴾، بأن لا، ﴿ تعبدوا إلّا الله قالوا لو شـاء ربنا لأنزل ﴾، بدل هؤلاء الرسل، ﴿ ملائكة ﴾، أي لو شاء ربنا دعوة الخلق لأنزل ملائكة، ﴿ فإنّا بما أرسلتم به كافرون ﴾، أخبرنا أبو سعيد الشريحي أنا أبو إسحاق الثعلبي ثنا عبد الله بن حامد الأصفهاني ثنا أحمد بن محمد بن يحيـىٰ العبيدي أنا أحمد بن مجدة بن العريان ثنا الحماني ثنا ابن فضيل عن الأجلح عن الذيال بن حرملة عن جابر بن عبد الله قال: قال الملأ من قريش وأبو جهل: قد التبس علينا أمر محمد فلو التمستم رجلاً عالماً بالشعر والكهانة والسحر، فأتاه فكلّمه ثم أتانا ببيان من أمره، فقال عتبة بن ربيعة: والله لقد سمعت الشعر والكهانة والسحر وعلمت من ذلك علماً وما يخفى عليّ إن كان كذلك أو لا، فأتاه فلما خرج إليه قال: يا محمد أنت خير أم هاشم؟ أنت خير أم عبد المطّلب؟ أنت خير أم عبد الله، فيمَ تشتم آلهتنا؟ وتُضلّل آباءنا فإن كنتَ تريد الرياسة عقدنا لك ألويتنا فكنت رأساً ما بقيت، وإن كان بك الباءة زوّجناك عشر نسوة تختار من أيّ بنات قريش؟ وإن كان بك المال جمعنا لك ما تستغني أنت وعقبك من بعدك؟ ورسول الله ﷺ ساكت لا يتكلم، فلما فرغ قرأ رسول الله ﷺ: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ حمٓ تنزيل من الرحمن الرحيم كتابٌ فصّلت آياتُه ﴾، إلى قوله: ﴿ فإن أعرضوا فقـلْ أنذرتكم صاعقةً مثل صاعقة عاد وثمود ﴾، الآية فأمسك عتبة على فِيْه وناشده بالرحم ورجع إلى أهله، ولم يخرج إلى قريش فاحتبس عنهم فقال أبو جهل: يا معشر قريش والله ما نرى عتبة إلّا قد صبأ إلى دين محمد، وقد أعجبه طعـامه ومـا ذاك إلّا من حاجـة أصابتـه، فانـطلقوا

صبوت إلى محمد وأعجبك طعامه فإن كانت بك حاجة جمعنا لك من أموالنا ما يغنيك عن طعام محمد، فغضب عتبة وأقسم لا يكلم محمداً أبداً وقال: والله لقد علمتم أني من أكثر قريش مالاً ولكني أتيته وقصصت عليه القصة فأجابني بشيء والله ما هو بشعر ولا كهانة ولا سحر، وقرأ السورة إلى قوله تعالى **﴿فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود﴾** فأمسكت بفيه وناشدته الرحم أن يكف وقد علمتم أن محمداً إذا قال شيئاً لم يكذب فخفت أن ينزل بكم العذاب» وقال محمد بن كعب القرظي: حدثت أن عتبة بن ربيعة كان سيداً حليماً قال يوماً وهو جالس في نادي قريش ورسول الله ﷺ جالس وحده في المسجد يا معشر قريش ألا أقوم إلى محمد فأكلمه وأعرض عليه أموراً لعله يقبل منا بعضها فنعطيه ويكف عنا وذلك حين أسلم حمزة ورأوا أن أصحاب محمد ﷺ يزيدون ويكثرون قالوا بلى يا أبا الوليد فقم إليه وكلمه فقام عتبة حتى جلس إلى رسول الله ﷺ فقال يا ابن أخي إنك منا حيث علمت من البسطة في العشيرة والمكانة في النسب وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت جماعتهم وسفهت أحلامهم وعيبت آلهتهم وكفرت من مضى من آبائهم فاستمع مني أعرض عليك أموراً تنظر فيها فقال ﷺ قل يا أبا الوليد فقال يا ابن أخي إن كنت إنما تريد بما جئت به مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون من أكثرنا مالاً وإن كنت تريد شرفاً سودناك علينا وإن كان هذا الذي بك رئياً تراه لا تستطيع رده طلبنا لك الطب أو لعل هذا شعر جاش به صدرك فنعذرك فإنكم لعمري بني عبد المطلب تقدرون من ذلك على ما لا يقدر عليه أحد حتى إذا فرغ قال له رسول الله ﷺ: أقد فرغت يا أبا الوليد؟ قال: نعم، قال: فاستمع مني، قال: فافعل، فقال: بسم الله الرحمن الرحيم **﴿حمٓ تنزيل من الرحمن الرحيم كتاب فصلت آياته﴾** ثم مضى فيها يقرأ فلما سمعها عتبة أنصت وألقى يده خلف ظهره معتمداً عليها يستمع منه حتى انتهى

بنا إليه، فانطلقوا إليه، فقال أبو جهل: والله يا عتبة ما حبسك عنّا إلّا أنك صبوت إلى دين محمد وأعجبك طعامه، فإن كانت بك حاجة جمعنا لك من أموالنا ما يُغنيك عن طعام محمد، فغضب عتبة وأقسم أن لا يكلم محمداً أبداً، وقال: والله لقد علمتم أني من أكثر قريش مالاً ولكني أتيته وقصصت عليه القصة فأجابني بشيء، والله ما هو بشعر ولا كهانة ولا سحر، وقرأ السورة إلى قوله: **﴿ فإن أعرضوا فقلْ أنذرتكم صاعقةً مثل صاعقة عاد وثمود ﴾** الآية فأمسكت بفِيْه وناشدته بالرحم أن يكفّ، وقد علمتم أن محمداً إذا قال شيئاً لم يكذب، فخفت أن ينزل بكم العذاب. وقال محمد بن كعب القرظي: حُدّثتُ أن عتبة بن ربيعة كان سيداً حليماً، قال يوماً وهو جالس في نادي قريش ورسول الله ﷺ جالس وحده في المسجد: يا معشر قريش ألا أقوم إلى محمد وأُكلمه وأعرض عليه أموراً لعلّه يقبل منّا بعضها، فنعطيه ويكفّ عنّا، وذلك حين أسلم حمزة ورأوا أصحاب رسول الله ﷺ يزيدون ويكثرون، فقالوا: بلى يا أبا الوليد فقم إليه فكلّمه، فقام عتبة حتى جلس إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا ابن أخي إنك منّا حيث علمت من البسطة في العشيرة والمكان في النسب، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم، فرّقت جماعتهم وسفّهت أحلامهم، وعِبْت آلهتهم وكفّرت مَن مضى من آبائهم، فاسمع منّي أعرض عليك أموراً تنظر فيها، فقال رسول الله ﷺ: «قل يا أبا الوليد»، فقال: يا ابن أخي إن كنت إنما تريد بما جئت به مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت تريد شرفاً سوّدناك علينا، وإن كان هذا الذي بك رئياً تراه لا تستطيع ردّه طلبنا لك الطب، ولعلّ هذا شعر جاش به صدرك، فإنكم لعمري بني عبد المطّلب تقدرون من ذلك على ما لا يقدر عليه غيركم، حتى إذا فرغ ما عنده من سائر الأمور التي يزعم أنها تردّه عمّا يقول، فقال له رسول الله ﷺ: «أوَ قد فرغتَ يا أبا الوليد»؟ قال: نعم، قال: «فاستمع منّي»، قال: فأفعل، فقال ﷺ: «بسم الله الرحمن الرحيم **﴿ حمٓ تنزيلٌ من الرحمن الرحيم كتابٌ فصّلت آياته قرآناً عربياً ﴾**، ثم مضى فيها يقرأ فلما سمعها عتبة أنصت له وألقى يديه خلف ظهره معتمداً عليهما يستمع منه حتى انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة فسجد، ثم قال: قد سمعت يا أبا الوليد فأنت وذاك»، فقام

رسول الله ﷺ إلى السجدة فسجد ثم قال أسمعت يا أبا الوليد فأنت وذاك فقام عتبة إلى أصحابه فقال بعضهم لبعض نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به فلما جلس إليهم قالوا ما وارءك يا أبا الوليد قال ورائي أني سمعت قولاً والله ما سمعت بمثله قط ما هو بشعر ولا بسحر ولا كهانة يا معشر قريش أطيعوني يا معشر قريش خلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه واعتزلوه فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم وإن يظهر على العرب فملكه ملككم وعزه عزكم وأنتم أسعد الناس به قالوا سحرك والله محمد يا أبا الوليد بلسانه قال هذا رأيي لكم فاصنعوا ما بدا لكم».

فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ ﴿١٦﴾

قوله عز وجل: ﴿**فأما عاد فاستكبروا في الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة**﴾ وذلك أن هوداً هددهم بالعذاب فقالوا نحن نقدر على دفع العذاب عنا بفضل قوتنا وكانوا ذوي أجسام طوال قال الله تعالى رداً عليهم ﴿**أولم يروا**﴾ أي أو لم يعلموا ﴿**أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة وكانوا بآياتنا يجحدون فأرسلنا عليهم ريحاً صرصراً**﴾ أي عاصفاً شديد الصوت وقيل هي الريح الباردة فقيل إن الريح ثمانية، فأربع منها عذاب وهي الريح الصرصر والعاصف والقاصف والعقيم وأربع منها رحمة وهي الناشرات والمبشرات والمرسلات والذاريات قيل أرسل عليهم من الريح على قدر خرق الخاتم فأهلكوا جميعاً ﴿**في أيام نحسات**﴾ أي نكدات مشؤومات ذات نحس وقيل ذات غبار وتراب ثائر لا يكاد يبصر فيه وقيل أمسك الله عز وجل عنهم المطر ثلاث سنين ودأبت عليهم الريح من غير مطر ﴿**لنذيقهم عذاب الخزي**﴾ أي عذاب الذل والهوان وذلك مقابل لقوله ﴿**فاستكبروا في الأرض بغير الحق**﴾ ﴿**في الحياة الدنيا**﴾ أي ذلك الذي نزل بهم من الخزي والهوان في الحياة الدنيا ﴿**ولعذاب الآخرة أخزى**﴾ أي أشد إهانة ﴿**وهم لا ينصرون**﴾ أي لا يمنعون من العذاب.

عتبة إلى أصحابه فقال بعضهم لبعض: نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به، فلما جلس إليهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟ فقال: ورائي أني قد سمعتُ قولاً والله ما سمعت بمثله قطّ، ما هو بالشعر ولا السحر ولا الكهانة يا معشر قريش، أطيعوني خلّوا ما بين هذا الرجل وبين ما هو فيه واعتزلوه، فوالله ليكوننّ لقوله الذي سمعت نبأ، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم وعزّه عزّكم، فأنتم أسعد الناس به، فقالوا: سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه، قال: هذا رأيي لكم، فاصنعوا ما بدا لكم.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ **فأما عاد فاستكبروا في الأرض بغير الحق وقالوا مَنْ أشدّ منّا قوة** ﴾، وذلك أن هوداً هدّدهم بالعذاب، فقالوا: مَن أشدّ منّا قوّة، ونحن نقدر على دفع العذاب عنّا بفضل قوّتنا، وكانوا ذوي أجسام طِوال، قال الله تعالى ردّاً عليهم: ﴿ **أوَ لمْ يروا أن الله الذي خلقهم هو أشدّ منهم قوة وكانوا بآياتنا يجحدون** ﴾.

﴿ **فأرسلنا عليهم ريحاً صرصراً** ﴾، عاصفة شديدة الصوت، من الصرّة وهي الصيحة. وقيل: هي الباردة من الصرّ وهو البرد، ﴿ **في أيام نحسات** ﴾، قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو ويعقوب ﴿ **نحسات** ﴾ بسكون الحاء، وقرأ الآخرون بكسرها أي نكدات مشومات ذات نحوس. وقال الضحاك: أمسك الله عنهم المطر ثلاث سنين ودامت الرياح عليهم من غير مطر، ﴿ **لنذيقهم عذاب الخزي** ﴾، أي عذاب الهون والذل، ﴿ **في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى** ﴾، أشدّ إهانة ﴿ **وهم لا ينصرون** ﴾.

وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾

﴿وأما ثمود فهديناهم﴾ قال ابن عباس بينا لهم سبيل الهدى وقيل دللناهم على الخير والشر ﴿فاستحبوا العمى على الهدى﴾ أي اختاروا الكفر على الإيمان ﴿فأخذتهم صاعقة العذاب الهون﴾ أي ذي الهوان ﴿بما كانوا يكسبون﴾ أي من الشرك.

وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا
شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا
ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ
سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم
بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۖ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ
ٱلْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾

﴿ونجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون﴾ أي يتقون الشرك والأعمال الخبيثة وهم صالح ومن آمن معه من قومه.

قوله تعالى: ﴿ويوم يحشر أعداء الله إلى النار فهم يوزعون﴾ أي يساقون ويدفعون وقيل يحبس أولهم حتى يلحق آخرهم ﴿حتى إذا ما جاؤوها﴾ يعني النار ﴿شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم﴾ أي بشراتهم وقيل فروجهم ﴿بما كانوا يعملون﴾ معناه أن الجوارح تنطق بما كتمت الألسن من عملهم (م) عن أنس رضي الله تعالى عنه قال «كنا عند رسول الله ﷺ فضحك فقال: هل تدرون مم أضحك قلنا الله ورسوله أعلم قال من مخاطبة العبد ربه عز وجل

﴿ وأما ثمود فهديناهم ﴾، دعوناهم، قاله مجاهد، وقال ابن عباس: بيّنا لهم سبيل الهدى. وقيل: دللناهم على الخير والشر، كقوله: ﴿ هديناه السبيل ﴾ [الإنسان: ٣]، ﴿ فاستحبّوا العمى على الهدى ﴾، فاختاروا الكفر على الإيمان، ﴿ فأخذتهم صاعقة العذاب ﴾، أي مهلكة العذاب، ﴿ الهون ﴾، أي ذي الهوان أي الهوان وهو الذي يهينهم ويجزيهم، ﴿ بما كانوا يكسبون ﴾.

﴿ ونجّينا الذين آمنوا وكانوا يتّقون * ويوم يُحشر أعداءُ الله إلى النار ﴾، قرأ نافع ويعقوب: (نحشر) بالنون، ﴿ أعداء ﴾ نصب، وقرأ الآخرون بالياء ورفعها وفتح الشين ﴿ أعداء ﴾ رفع أي يجمع إلى النار، ﴿ فهم يُوزعون ﴾، يُساقون ويدفعون إلى النار، وقال قتادة والسدي: يُحبَس أولهم على آخرهم ليتلاحقوا.

﴿ حتى إذا ما جاؤوها ﴾، جاؤوا النار ﴿ شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم ﴾، أي بشراتهم، ﴿ بما كانوا يعملون ﴾، وقال السدي وجماعة: المراد بالجلود الفروج، وقال مقاتل: تنطق جوارحهم بما كتمت الألسن من عملهم.

﴿ وقالوا ﴾، يعني الكفّار الذين يحشرون إلى النار، ﴿ لجلودهم لِمَ شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء ﴾، تمّ الكلام ههنا. وقال الله تعالى: ﴿ وهو خلقكم أول مرة ﴾، وليس هذا من جواب الجلود، ﴿ وإليه ترجعون ﴾.

يقول يا رب ألم تجرني من الظلم، قال فيقول بلى فيقول فإني لا أجيز اليوم على نفسي إلا شاهداً مني قال فيقول كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً وبالكرام الكاتبين عليك شهوداً قال فيختم على فيه ويقال لأعضائه انطقي فتنطق بأعماله ثم يخلى بينه وبين الكلام فيقول بعداً لكنَّ وسحقاً فعنكن كنت أناضل» ﴿**وقالوا**﴾ يعني الكفار الذين يجرون إلى النار ﴿**لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء**﴾ معناه أن القادر الذي خلقكم أول مرة في الدنيا وأنطقكم ثم أعادكم بعد الموت قادر على إنطاق الأعضاء والجوارح وهو قوله تعالى: ﴿**وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون**﴾ وقيل تم الكلام عند قوله ﴿**الذي أنطق كل شيء**﴾ ثم ابتدأ بقوله ﴿**وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون**﴾ وقيل إنه ليس من جواب الجلود ﴿**وما كنتم تستترون**﴾ أي تستخفون وقيل معناه تظنون ﴿**أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم**﴾ والمعنى أنكم لا تقدرون على الاستخفاء من جوارحكم ولا تظنون أنها تشهد عليكم ﴿**ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيراً ما تعملون**﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: كان الكفار يقولون إن الله لا يعلم ما في أنفسنا ولكنه يعلم ما يظهر (ق). عن عبد الله بن مسعود رضي الله تعالى عنه قال «اجتمع عند البيت ثقفيان وقرشي أو قرشيان وثقفي كثير شحم بطونهم قليل فقه قلوبهم فقال أحدهم أترون أن الله تعالى يسمع ما نقول قال الآخر يسمع إذا جهرنا ولا يسمع إن أخفينا وقال الآخر إن كان يسمع إذا جهرنا فإنه يسمع إذا أخفينا فأنزل الله تعالى: ﴿**وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيراً مما تعملون**﴾ قيل الثقفي هو عبد ياليل وختناه القرشيان ربيعة وصفوان بن أمية.

قوله تعالى: ﴿**وذلك ظنكم الذي ظننتم بربكم**﴾ أي ظنكم أن الله لا يعلم كثيراً مما تعملون ﴿**أرداكم**﴾ أي أهلككم قال ابن عباس طرحكم في النار ﴿**فأصبحتم من الخاسرين**﴾ ثم أخبر عن حالهم بقوله بقوله تعالى ﴿**فإن يصبروا فالنار مثوى لهم**﴾ أي مسكن ﴿**وإن يستعتبوا**﴾ أي يسترضوا ويطلبوا العتبى والمعتب هو الذي قبل عتابه وأجيب إلى ما سأل ﴿**فما هم من المعتبين**﴾ أي المرضيين.

﴿ **وما كنتم تستترون** ﴾، أي تستخفون عند أكثر أهل العلم. وقال مجاهد: تتّقون. وقال قتادة تظنون. ﴿ **أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيراً مما تعملون** ﴾، أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا الحميدي أنا سفيان أنا منصور عن مجاهد عن أبي معمر عن عبد الله بن مسعود، قال: اجتمع عند البيت ثقفيان وقرشي، أو قرشيان وثقفي كثير شحم بطونهم قليل فقه قلوبهم، فقال أحدهم: أترون أن الله يسمع ما نقول؟ قال الآخر: يسمع إن جهرنا ولا يسمع إن أخفينا، وقال الآخر: إن كان يسمع إذا جهرنا فإنه يسمع إذا أخفينا، فأنزل الله تعالى: ﴿ **وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيراً مما تعملون** ﴾، قيل: الثقفي وعبد يا ليل وختناه القرشيان ربيعة وصفوان بن أُميّة.

قوله تعالى: ﴿ **وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربّكم أرداكم** ﴾، أهلككم، أي ظنكم أن الله لا يعلم كثيراً مما تعملون، أرداكم. قال ابن عباس: طرحكم في النار، ﴿ **فأصبحتم من الخاسرين** ﴾، ثم أخبر عن حالهم فقال:

﴿ **فإن يصبروا فالنّار مثوىً لهم** ﴾، مسكن لهم، ﴿ **وإن يستعتبوا** ﴾، يسترضوا ويطلبوا العتبى، ﴿ **فما هم من المعتبين** ﴾، المرضين، والمعتب الذي قُبل عتابُه وأُجيب إلى ما سأل، يقال: أعتبني فلان أي أرضاني بعد إسخاطه إيّاي، واستعتبه طلبت منه أن يعتب أي يرضى.

﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ (٢٥) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ (٢٦) فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٧) ذَٰلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ (٢٨) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ (٢٩)﴾

﴿**وقيضنا لهم**﴾ أي بعثنا ووكلنا وقيل هيأنا لهم وسببنا لهم ﴿**قرناء**﴾ أي نظراء من الشياطين حتى أضلوهم ﴿**فزينوا لهم ما بين أيديهم**﴾ أي من أمر الدنيا حتى آثروهم على الآخرة ﴿**وما خلفهم**﴾ أي فدعوهم إلى التكذيب بالآخرة وإنكار البعث وقيل حسنوا لهم أعمالهم القبيحة الماضية والمستقبلة ﴿**وحق عليهم القول**﴾ أي وجب ﴿**في أمم**﴾ أي مع أمم ﴿**قد خلت من قبلهم من الجن والإنس إنهم كانوا خاسرين**﴾ قوله تعالى: ﴿**وقال الذين كفروا**﴾ يعني مشركي قريش ﴿**لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه**﴾ قال ابن عباس: والغطوا فيه من اللغط وهو كثرة الأصوات كان بعضهم يوصي إلى بعض إذا رأيتم محمداً يقرأ فعارضوه بالرجز والشعر وقيل أكثروا الكلام حتى يتخلط عليه ما يقول وقيل والغوا فيه بالمكاء والصفير وقيل صيحوا في وجهه ﴿**لعلكم تغلبون**﴾ يعني محمداً على قراءته ﴿**فلنذيقن الذين كفروا عذاباً شديداً ولنجزينهم أسوأ**﴾ يعني بأسوأ ﴿**الذين كانوا يعملون**﴾ أي في الدنيا وهوالشرك ﴿**ذلك**﴾ أي الذي ذكر من العذاب ﴿**جزاء أعداء الله**﴾ ثم بين ذلك الجزاء فقال ﴿**النار لهم فيها دار الخلد**﴾ أي دار الإقامة لا انتقال لهم عنها ﴿**جزاء بما كانوا بآياتنا يجحدون وقال الذين كفروا**﴾ أي في النار ﴿**ربنا**﴾ أي يقولون يا ربنا ﴿**أرنا الذين أضلانا من الجن والإنس**﴾ يعنون إبليس وقابيل بن آدم الذي قتل أخاه لأنهما سنَّا المعصية ﴿**نجعلهما تحت أقدامنا**﴾ أي في

﴿ **وقضينا لهم** ﴾، أي بعثنا ووكّلنا، وقال مقاتل: هيّأنا. وقال الزجّاج: سبّبنا لهم. ﴿ **قُرناء** ﴾، نُظراء من الشياطين حتى أضلّوهم، ﴿ **فزيّنوا لهم ما بين أيديهم** ﴾، من أمر الدنيا حتى آثروه على الآخرة، ﴿ **وما خلفهم** ﴾، من أمر الآخرة فدعوهم إلى التكذيب به وإنكار البعث، ﴿ **وحقّ عليهم القول في أُمم** ﴾، مع أُمم، ﴿ **قد خلت من قبلهم من الجن والإنس إنهم كانوا خاسرين** ﴾.

﴿ **وقال الذين كفروا** ﴾، من مشركي قريش، ﴿ **لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه** ﴾، قال ابن عباس: يعني الغطوا فيه، وكان بعضهم يُوصي إلى بعض إذا رأيتم محمداً يقرأ فعارضوه بالرجز والشعر واللغو. قال مجاهد: والغوا فيه بالمُكاء والصفير. وقال الضحاك: أكثروا الكلام فيختلط عليه ما يقول: وقال السدي: صيحوا في وجهه. ﴿**لعلكم تغلبون** ﴾، محمداً على قراءته.

﴿ **فلنذيقنّ الذين كفروا عذاباً شديداً ولنجزينّهم أسوأ الذي** ﴾، يعني بأسوأ الذي، أي بأقبح الذي، ﴿ **كانوا يعملون** ﴾، في الدنيا وهو الشرك بالله.

﴿ **ذلك** ﴾، الذي ذكرت من العذاب الشديد، ﴿ **جزاء أعداء الله** ﴾، ثم بيّن ذلك الجزاء فقال: ﴿ **النار** ﴾، أي هو النار، ﴿ **لهم فيها** ﴾، أي في النار، ﴿ **دار الخلد** ﴾، دار الإقامة لا انتقال منها، ﴿ **جزاءً بما كانوا بآياتنا يجحدون** ﴾.

﴿ **وقال الذين كفروا** ﴾، أي في النار يقولون، ﴿ **ربنا أرِنا الذين أضلّانا من الجن والإنس** ﴾، يعنون إبليس

النار ﴿ليكونا من الأسفلين﴾ أي في الدرك الأسفل من النار وقال ابن عباس: ليكونا أشد عذاب منا.

إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾

قوله عز وجل: ﴿إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا﴾ قال أهل التحقيق كمال الإنسان أن يعرف الحق لذاته لأجل العمل به، ورأس المعرفة اليقينية معرفة الله تعالى وإليه الإشارة بقوله ﴿إن الذين قالوا ربنا الله﴾ ورأس الأعمال الصالحة أن يكون الإنسان مستقيماً في الوسط غير مائل إلى طرفي الإفراط والتفريط فتكون الاستقامة في أمر الدين والتوحيد فتكون في الأعمال الصالحة. سئل أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه عن الاستقامة فقال: أن لا تشرك بالله شيئاً وقال عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه الاستقامة أن تستقيم على الأمر والنهي ولا تروغ روغان الثعلب.

وقال عثمان رضي الله تعالى عنه: استقاموا أخلصوا في العمل، وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: أدوا الفرائض، وهو قول ابن عباس: وقيل استقاموا على أمر الله فعملوا بطاعته واجتنبوا معاصيه، وقيل: استقاموا على شهادة أن لا إله إلا الله حتى لحقوا بالله وكان الحسن إذا تلا هذه الآية قال اللهم أنت ربنا فارزقنا الاستقامة ﴿تتنزل عليهم الملائكة﴾ قال ابن عباس عند الموت وقيل إذا قاموا من قبورهم وقيل البشرى تكون في ثلاثة مواطن عند الموت وفي القبر وعند البعث ﴿أن لا تخافوا﴾ أي من الموت وقيل لا تخافوا على ما تقدمون عليه من أمر الآخرة ﴿ولا تحزنوا﴾ أي على ما خلفتم من أهل وولد فإنا نخلفكم في ذلك كله وقيل لا تخافوا من ذنوبكم ولا تحزنوا فأنا أغفرها لكم ﴿وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون نحن أولياؤكم﴾ أي تقول الملائكة عند نزولهم بالبشرى نحن أولياؤكم أي أنصاركم وأحباؤكم وقيل تقول لهم الحفظة نحن كنا معكم ﴿في الحياة الدنيا و﴾ نحن أولياؤكم ﴿في الآخرة﴾ لا نفارقكم حتى تدخلوا الجنة ﴿ولكم فيها﴾ أي في الجنة ﴿ما تشتهي أنفسكم﴾ أي من الكرامات واللذات ﴿ولكم فيها ما تدعون﴾ أي تتمنون ﴿نزلاً﴾ أي رزقاً والنزل رزق النزيل والنزيل هو الضيف ﴿من غفور رحيم﴾ قال أهل المعاني

وقابيل بن آدم الذي قتل أخاه لأنهما سنّا المعصية، ﴿ نجعلهما تحت أقدامنا ﴾، في النار، ﴿ ليكونا من الأسفلين ﴾، ليكونا في الدرك الأسفل من النار. قال ابن عباس: ليكونا أشدّ عذاباً منّا.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا ﴾، سُئِلَ أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه عن الاستقامة فقال: أن لا تشرك بالله شيئاً. وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: الاستقامة أن تستقيم على الأمر والنهي، ولا تروغ روغان الثعلب. وقال عثمان بن عفّان رضي الله عنه: أخلصوا العمل لله. وقال علي رضي الله عنه: أدّوا الفرائض. وقال ابن عباس: استقاموا على أداء الفرائض. وقال الحسن: استقاموا على أمر الله تعالى فعملوا بطاعته واجتنبوا معصيته. وقال مجاهد وعكرمة استقاموا على شهادة أن لا إلَه إلاّ الله حتى لحقوا بالله. وقال مقاتل: استقاموا على المعرفة ولم يرتدّوا. وقال قتادة: كان الحسن إذا تلا هذه الآية قال: اللّهمَّ أنت ربنا فارزقنا الاستقامة. قوله عزّ وجلّ: ﴿ تتنزل عليهم الملائكة ﴾، قال ابن عباس: عند الموت. وقال قتادة ومقاتل: إذا قاموا من قبورهم. قال وكيع بن الجراح: البشرى تكون في ثلاث مواطن: عند الموت وفي القبر وعند البعث. ﴿ أنْ لا تخافوا ﴾، من الموت. وقال مجاهد: لا تخافوا على ما تقدمون عليه من أمر الآخرة. ﴿ ولا تحزنوا ﴾، على ما

كل هذه الأشياء المذكورة في هذه الآية جارية مجرى النزل والكريم إذا أعطى هذا النزل فما ظنك بما بعده من الألطاف والكرامة.

قوله تعالى: ﴿**ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله**﴾ أي إلى طاعة الله تعالى وقيل هو رسول الله ﷺ دعا الناس إلى شهادة أن لا إله إلا الله، وقيل: هو المؤمن أجاب الله تعالى فيما دعاه إليه ودعا الناس إلى ما أجاب إليه ﴿**وعمل صالحاً**﴾ في إجابته وقالت عائشة رضي الله تعالى عنها: أرى أن هذه الآية نزلت في المؤذنين وقيل إن كل من دعا إلى الله تعالى بطريق من الطرق فهو داخل في هذه الآية.

وللدعوة إلى الله تعالى مراتب:

الأولى: دعوة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام إلى الله تعالى بالمعجزات وبالحجج والبراهين وبالسيف وهذه المرتبة لم تتفق لغير الأنبياء.

المرتبة الثانية: دعوة العلماء إلى الله تعالى بالحجج والبراهين فقط والعلماء أقسام علماء بالله وعلماء بصفات الله وعلماء بأحكام الله.

المرتبة الثالثة: دعوة المجاهدين إلى الله تعالى بالسيف فهم يجاهدون الكفار حتى يدخلوا في دين الله وطاعته.

المرتبة الرابعة: دعوة المؤذنين إلى الصلاة فهم أيضاً دعاة إلى الله تعالى وإلى طاعته، وعمل صالحاً، قيل: العمل الصالح على قسمين قسم يكون من أعمال القلوب وهو معرفة الله تعالى وقسم يكون بالجوارح وهو سائر الطاعات وقيل: وعمل صالحاً صلى ركعتين بين الأذان والإقامة (ق). عن عبد الله بن مغفل قال: قال رسول الله ﷺ «بين كل أذانين صلاة بين كل أذانين صلاة وقال في الثالثة لمن شاء» عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «الدعاء بين

خلفتم من أهلٍ وولد، فإنّا نخلفكم في ذلك كله. وقال عطاء بن أبي رباح: لا تخافوا ولا تحزنوا على ذنوبكم فإني أغفرها لكم، ﴿ **وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون** ﴾.

﴿ **نحن أولياؤكم** ﴾، تقول لهم الملائكة الذين تنزل عليهم بالبشارة نحن أولياؤكم أنصاركم وأحباؤكم، ﴿ **في الحياة الدنيا وفي الآخرة** ﴾، أي في الدنيا والآخرة. وقال السدي: تقول الملائكة نحن الحَفَظَة الذين كنّا معكم في الدنيا، ونحن أولياؤكم في الآخرة يقولون لا نفارقكم حتى تدخلوا الجنة. ﴿ **ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم** ﴾، من الكرامات واللذّات، ﴿ **ولكم فيها** ﴾، في الجنة ﴿ **ما تدعون** ﴾، تتمنّون.

﴿ **نزلاً** ﴾، رزقاً، ﴿ **من غفور رحيم * ومَن أحسن قولاً ممّن دعا إلى الله** ﴾، إلى طاعته، ﴿ **وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين** ﴾، قال ابن سيرين: هو رسول الله ﷺ دعا إلى شهادة أن لا إلّه إلّا الله. وقال الحسن: هو المؤمن الذي أجاب الله في دعوته، ودعا الناس إلى ما أجاب إليه، وعمل صالحاً في إجابته، وقال: إنني من المسلمين. وقالت عائشة: أرى هذه الآية نزلت في المؤذّنين. وقال عكرمة: هو المؤذّن أبو إمامة الباهلي وعمل صالحاً صلّى ركعتين بين الأذان والإقامة. وقال قيس بن أبي حازم: هو الصلاة بين الأذان والإقامة أخبرنا أبو سعيد أحمد بن محمد بن العباس الحيدي أنـا أبو عبـد الله محمد بن عبـد الله الحافظ ثنـا أبو عبـد الله الحسين بن الحسن بن أيوب الطوسي ثنا أبو يحيىٰ بن أبي ميسرة ثنا عبد الله بن زيد المقري ثنا كهمس بن الحسن عن عبـد الله بن بريـدة عن عبد الله بن مغفل قال: قال رسول الله ﷺ: «بين كل أذانين صلاة»، ثلاث مرات ثمّ قال الثالثة: «لمَن شاء». أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أبو منصور السمعاني ثنا أبو جعفر الرياني ثنا حميد بن زنجويه ثنا محمد بن يوسف ثنا

الأذان والإقامة لا يرد» أخرجه أبو داود والترمذي، وقال هذا حديث حسن. ﴿وقال إنني من المسلمين﴾ قيل ليس الغرض منه القول فقط بل يضم إليه اعتقاد القلب فيعتقد بقلبه دين الإسلام مع التلفظ به.

﴿وَلَا تَسْتَوِى الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّىٰهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ الَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِالَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ۩ ﴿٣٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ولا تستوي الحسنة ولا السيئة﴾ يعني الصبر والغضب والحلم والجهل والعفو والإساءة ﴿ادفع بالتي هي أحسن﴾ قال ابن عباس أمره بالصبر عند الغضب وبالحلم عند الجهل وبالعفو عند الإساءة ﴿فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم﴾ أي صديق قريب، قيل نزلت في أبي سفيان بن حرب وذلك حيث لأن للمسلمين بعد شدة عداوته بالمصاهرة التي حصلت بينه وبين النبي ﷺ فصار ولياً بالإسلام حميماً بالقرابة ﴿وما يلقاها﴾ أي وما يلقى هذه الخصلة والفعلة وهي دفع السيئة بالحسنة ﴿إلا الذين صبروا﴾ أي على تحمل المكاره وتجرع الشدائد وكظم الغيظ وترك الانتقام وما يلقاها ﴿إلا ذو حظ عظيم﴾ أي من الخير والثواب وقيل الحظ العظيم الجنة يعني ما يلقاها إلا من وجبت له الجنة ﴿وإما ينزغنك من الشيطان نزغ﴾ النزغ شبه النخس والشيطان ينزغ الإنسان كأنه ينخسه أي يبعثه إلى ما لا ينبغي ومعنى الآية وإن صرفك الشيطان عما وصيت به من الدفع بالتي هي أحسن ﴿فاستعذ بالله﴾ أي من شره ﴿إنه هو السميع﴾ أي لاستعاذتك ﴿العليم﴾ بأحوالك.

قوله تعالى: ﴿ومن آياته﴾ أي ومن دلائل قدرته وحكمته الدالة على وحدانيته ﴿الليل والنهار والشمس والقمر لا تسجدوا للشمس ولا للقمر﴾ أي إنهما مخلوقان مسخران فلا ينبغي السجود لهما لأن السجود عبارة عن نهاية التعظيم ﴿واسجدوا لله الذين خلقهن﴾ أي المستحق للسجود والتعظيم هو الله خالق الليل والنهار والشمس والقمر ﴿إن كنتم إياه تعبدون﴾ يعني أن ناساً كانوا يسجدون للشمس والقمر والكواكب ويزعمون أن سجودهم لهذه الكواكب هو سجود لله عز وجل فنهوا عن السجود لهذه الوسايط وأمروا بالسجود لله الذي خلق هذه الأشياء كلها ﴿فإن استكبروا﴾ أي عن

سفيان عن زيد العمي عن أبي إياس معاوية بن قرّة عن أنس بن مالك قال سفيان: لا أعلمه إلّا وقد رفعه النبي ﷺ قال: «لا يردّ الدعاءُ بين الأذان والإقامة».

قوله عزّ وجلّ: ﴿ ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ﴾، قال الفرّاء: ﴿ لا ﴾ ههنا صلة، معناه: ولا تستوي الحسنة والسيئة، يعني الصبر والغضب، والحلم والجهل، والعفو والإساءة. ﴿ ادفعْ بالتي هي أحسن ﴾، قال ابن عباس أمر بالصبر عند الغضب، وبالحلم عند الجهل، وبالعفو عند الإساءة. ﴿ فإذا الذي بينك وبينه عداوة ﴾، يعني إذا فعلت ذلك خضع لك عدوك وصار الذي بينك وبينه عداوة، ﴿ كأنه وليٌّ حميم ﴾، كالصديق والقريب. قال مقاتل بن حيان: نزلت في أبي سفيان بن حرب، وذلك أنه لان للمسلمين بعد شدّة عداوته بالمصاهرة التي حصلت بينه وبين النبي ﷺ، ثم أسلم فصار وليّاً بالإسلام، حميماً بالقرابة.

﴿ وما يلقاها ﴾، ما يلقى هذه الخصلة وهي دفع السيئة بالحسنة، ﴿ إلّا الذين صبروا ﴾، على كظم الغيظ

السجود لله ﴿فالذين عند ربك﴾ يعني الملائكة ﴿يسبحون له بالليل والنهار وهم لا يسأمون﴾ أي لا يفترون ولا يملون.

(فصل)

وهذه السجدة من عزائم سجود التلاوة وفي موضع السجود فيها قولان للعلماء وهما وجهان لأصحاب الشافعي أحدهما أنه عند قوله تعالى: ﴿إن كنتم إياه تعبدون﴾ وهو قول ابن مسعود والحسن وحكاه الرافعي عن أبي حنيفة وأحمد لأن ذكر السجدة قبله والثاني وهو الأصح عند أصحاب الشافعي وكذلك نقله الرافعي أنه عند قوله تعالى: ﴿وهم لا يسأمون﴾ وهو قول ابن عباس وابن عمر وسعيد بن المسيب وقتادة وحكاه الزمخشري عن أبي حنيفة لأن عنده يتم الكلام.

وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ۗ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾

﴿ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت إن الذي أحياها لمحيي الموتى إنه على كل شيء قدير﴾ قوله تعالى: ﴿إن الذين يلحدون﴾ أي يميلون عن الحق ﴿في آياتنا﴾ أي في أدلتنا قيل بالمكاء والتصدية واللغو واللغط وقيل يكذبون بآياتنا ويعاندون ويشاقون ﴿لا يخفون علينا﴾ تهديد ووعيد قيل نزلت في أبي جهل ﴿أفمن يلقى في النار﴾ هو أبو جهل ﴿خير أم من يأتي آمناً يوم القيامة﴾ المعنى الذين يلحدون في آياتنا يلقون في النار والذين يؤمنون بآياتنا آمنون يوم القيامة قيل هو حمزة وقيل عثمان وقيل عمار بن ياسر ﴿اعملوا ما شئتم﴾ أمر

واحتمال المكروه، ﴿ وما يلقاها إلاّ ذو حظ عظيم ﴾، في الخير والثواب، وقال قتادة: الحظ العظيم الجنة، أي ما يلقاها إلاّ مَن وجبت له الحنة.

﴿ وإمّا ينزغنَّك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه هو السميع ﴾، لاستعاذتك وأقوالك، ﴿ العليم ﴾، بأفعالك وأحوالك.

قوله: ﴿ ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر لا تسجدوا للشمس ولا للقمر، واسجدوا لله الذي خلقهنّ ﴾، إنما قال: ﴿ خلقهنّ ﴾ بالتأنيث لأنه أجراها على طريق جمع التكسير، ولم يجرها على طريق التغليب للمذكر على المؤنث، ﴿ إن كنتم إيّاه تعبدون ﴾.

﴿ فإن استكبروا ﴾، عن السجود، ﴿ فالذين عند ربك ﴾، يعني الملائكة ﴿ يسبِّحون له بالليل والنهار وهم لا يسأمون ﴾، لا يملّون ولا يفترون.

﴿ ومن آياته ﴾، دلائل قدرته، ﴿ أنك ترى الأرض خاشعة ﴾، يابسة غبراء لا نبات فيها، ﴿ فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزّت وربت إن الذي أحياها لمُحي الموتى إنه على كل شيء قدير ﴾.

﴿ إنّ الذين يُلحدون في آياتنا ﴾، يميلون عن الحق في أدلتنا، قال مجاهد: يلحدون في آياتنا بالمكاء

تهديد ووعيد ﴿إنه بما تعملون بصير﴾ أي إنه عالم بأعمالكم فيجازيكم عليها ﴿إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم﴾ يعني القرآن وفي جواب إن وجهان أحدهما أنه محذوف تقديره إن الذين كفروا بالذكر يجازون بكفرهم، والثاني جوابه أولئك ينادون من مكان بعيد ثم أخذ في وصف الذكر فقال تعالى: ﴿وإنه لكتاب عزيز﴾ قال ابن عباس: كريم على الله تعالى، وقيل: العزيز العديم النظير وذلك أن الخلق عجزوا عن معارضته وقيل أعزه الله بمعنى منعه فلا يجد الباطل إليه سبيلاً وهو قوله تعالى ﴿لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه﴾ قيل الباطل هو الشيطان فلا يستطيع أن يغيره وقيل إنه محفوظ من أن ينقص منه فيأتيه الباطل من بين يديه أو يزاد فيأتيه الباطل من خلفه فعلى هذا يكون معنى الباطل الزيادة والنقصان وقيل لا يأتيه التكذيب من الكتب التي قبله ولا يجيء بعده كتاب فيبطله وقيل معناه أن الباطل لا يتطرق إليه ولا يجد إليه سبيلاً من جهة من الجهات حتى يصل إليه وقيل: لا يأتيه الباطل عما أخبر فيما تقدم من الزمان ولا فيما تأخر ﴿تنزيل من حكيم﴾ أي في جميع أفعاله ﴿حميد﴾ أي إلى جميع خلقه بسبب نعمه عليهم ثم عزى الله تعالى نبيه ﷺ على تكذيبهم إياه فقال عز وجل: ﴿ما يقال لك﴾ أي من الأذى والتكذيب ﴿إلا ما قد قيل للرسل من قبلك﴾ يعني أنه قد قيل للأنبياء قبلك ساحر كما يقال لك وكذبوا كما كذبت ﴿إن ربك لذو مغفرة﴾ أي لمن تاب وآمن بك ﴿وذو عقاب أليم﴾ أي لمن أصر على التكذيب.

وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ

والتصدية واللغو واللغط. قال قتادة: يكذّبون في آياتنا. قال السدي: يعاندون ويشاقّون. قال مقاتل: نزلت في أبي جهل. ﴿لا يخفون علينا أفمن يُلقى في النار﴾، وهو أبو جهل، ﴿خير أم مَن يأتي آمناً يوم القيامة﴾، قيل: هو حمزة. وقيل: عثمان. وقيل: عمّار بن ياسر. ﴿اعملوا ما شئتم﴾، أمر تهديد ووعيد، ﴿إنه بما تعملون بصير﴾، عالم فيجازيكم به.

﴿إن الذين كفروا بالذكر﴾، بالقرآن، ﴿لمّا جاءهم﴾، ثم أخد في وصف الذكر وترك جواب: ﴿إن الذين كفروا﴾، على تقدير الذين كفروا بالذكر يُجازون بكفرهم. وقيل: خبره في قوله من بعد: ﴿أولئك يُنادَوْنَ من مكان بعيد﴾ [فُصّلت: ٤٤]. ﴿وإنه لكتاب عزيز﴾، قال الكلبي عن ابن عباس رضي الله عنهما: كريم على الله: قال قتادة: أعزّه الله عزّ وجلّ فلا يجد الباطل إليه سبيلاً.

وهو قوله: ﴿لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه﴾، قال قتادة والسدي: الباطل هو الشيطان لا يستطيع أن يغيّره أو يزيد فيه أو ينقص منه. قال الزجّاج: معناه أنه محفوظ من أن ينقص منه، فيأتيه الباطل من بين يديه أو يُزاد فيه فيأتيه الباطل من خلفه، وعلى هذا معنى: الباطل الزيادة والنقصان. وقال مقاتل: لا يأتيه التكذيب من الكتب التي قبله، ولا يجيء من بعده كتاب فيبطله. ﴿تنزيل من حكيم حميد﴾، ثم عزّى نبيّه ﷺ على تكذيبهم.

فقال: ﴿ما يقال لك﴾، من الأذى، ﴿إلّا ما قد قيل للرسل من قبلك﴾، يقول إنه قد قيل للأنبياء والرسل قبلك ساحر، كما يقال لك وكُذّبوا كما كُذّبت، ﴿إنّ ربك لذو مغفرة﴾، لمَن تاب وآمن بك ﴿وذو عقاب أليم﴾، لمَن أصرّ على التكذيب.

مِّنۡهُ مُرِيبٖ ﴿٤٥﴾ مَّنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَسَآءَ فَعَلَيۡهَاۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ﴿٤٦﴾ ۞إِلَيۡهِ يُرَدُّ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِۚ وَمَا تَخۡرُجُ مِن ثَمَرَٰتٖ مِّنۡ أَكۡمَامِهَا وَمَا تَحۡمِلُ مِنۡ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلۡمِهِۦۚ وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ أَيۡنَ شُرَكَآءِي قَالُوٓاْ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٖ ﴿٤٧﴾

قوله عز وجل: ﴿ولو جعلناه﴾ أي هذا الكتاب الذي تقرأه على الناس ﴿قرآناً أعجمياً﴾ يعني بغير لغة العرب ﴿لقالوا لولا فصلت آياته﴾ يعني هلا بينت آياته بالعربية حتى نفهمها ﴿أأعجمي وعربي﴾ يعني أكتاب أعجمي ورسول عربي وهذا استفهام إنكار والمعنى لو نزل الكتاب بلغة العجم لقالوا كيف يكون المنزل عليه عربياً والمنزل أعجمياً، وقيل في معنى الآية: أنا لو أنزلنا هذا القرآن بلغة العجم لكان لهم أن يقولوا كيف أنزلنا الكلام العجمي إلى القوم العرب ولصح قولهم أن يقولوا قلوبنا في أكنة وفي آذاننا وقر لأنا لا نفهمه ولا نحيط بمعناه، وأنا لما أنزلنا هذا القرآن بلغة العرب وهم يفهمونه فكيف يمكنهم أن يقولوا قلوبنا في أكنة وفي آذاننا وقر وقيل إن رسول الله ﷺ كان يدخل على يسار غلام عامر بن الحضرمي وكان يهودياً أعجمياً يكنى أبا فكيهة فقال المشركون إنما يعلمه يسار فضربه سيده وقال إنك تعلم محمداً فقال هو والله يعلمني فأنزل الله تعالى هذه الآية ﴿قل﴾ يا محمد ﴿هو﴾ يعني القرآن ﴿للذين آمنوا هدى﴾ يعني من الضلالة ﴿وشفاء﴾ يعني لما في القلوب من مرض الشرك والشك وقيل شفاء من الأوجاع والأسقام ﴿والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى﴾ يعني صموا عن استماع القرآن وعموا عنه فلا ينتفعون به ﴿أولئك ينادون من مكان بعيد﴾ يعني كما أن من دعي من مكان بعيد لم يسمع ولم يفهم كذلك هؤلاء في قلة انتفاعهم بما يوعظون به كأنهم ينادون من حيث لا يسمعون ﴿ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه﴾ يعني فمصدق به ومكذب كما اختلف قومك في كتابك ﴿ولولا كلمة سبقت من ربك﴾ يعني في تأخير العذاب عن المكذبين بالقرآن ﴿لقضى بينهم﴾ يعني لفرغ من عذابهم وعجل إهلاكهم ﴿وإنهم لفي شك منه مريب﴾ يعني من كتابك وصدقك ﴿من عمل صالحاً فلنفسه﴾ يعني يعود نفع إيمانه وعمله لنفسه ﴿ومن أساء فعليها﴾ يعني ضرر إساءته أو كفره يعود على نفسه أيضاً ﴿وما ربك بظلام للعبيد﴾ يعني فيعذب غير المسيء.

﴿ ولو جعلناه ﴾، أي جعلنا هذا الكتاب الذي تقرأه على الناس، ﴿ قرآناً أعجمياً ﴾، بغير لغة العرب، ﴿ لقالوا لولا فُصِّلتْ آياتُه ﴾، هلاّ بيِّنت آياته بالعربية حتى نفهمها، ﴿ أأعجمي وعربي ﴾، يعني: أكتاب أعجمي ورسول عربي؟ وهذا استفهام على وجه الإنكار، أي أنهم كانوا يقولون: المنزَّل عليه عربي والمنزَل أعجمي. قال مقاتل: وذلك أن رسول الله ﷺ كان يدخل على يسار غلام عامر بن الحضرمي، وكان يهودياً أعجمياً، يعني أبا فكيهة، فقال المشركون: إنما يعلمه يسار فضربه سيده، وقال: إنك تعلم محمداً، فقال يسار: هو يعلمني، فأنزل الله تعالى هذه الآية: ﴿ قلْ ﴾، يا محمد، ﴿ هو ﴾، يعني القرآن، ﴿ للذين آمنوا هدىً وشفاءً ﴾، لما في القلوب، وقيل: شفاء من الأوجاع، ﴿ والذين لا يؤمنون في آذانهم وَقْرٌ وهو عليهم عمىً ﴾، قال قتادة: عَمُوا عن القرآن وصُمُّوا عنه فلا ينتفعون به، ﴿ أولئك يُنادَوْنَ من مكان بعيد ﴾، أي أنهم لا يسمعون ولا يفهمون كما أن مَن دُعِيَ من مكان بعيد لم يسمع ولم يفهم، وهذا مثل لقلّة انتفاعهم بما يوعظون به كأنهم ينادون من حيث لا يسمعون.

﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه ﴾، فمصدّق ومكذّب كما اختلف قومك في كتابك، ﴿ ولولا كلمة سبقت من ربك ﴾، في تأخير العذاب عن المكذبين بالقرآن، ﴿ لقضي بينهم ﴾، لفرغ من عذابهم وعجّل إهلاكهم، ﴿ وإنهم لفي شكٍّ منه ﴾، من صدقك، ﴿ مُريب ﴾، موقع لهم الريبة.

قوله عز وجل: ﴿إليه يرد علم الساعة﴾ يعني إذا سأل عنها سائل قيل له لا يعلم وقت قيام الساعة إلا الله تعالى ولا سبيل للخلق إلى معرفة ذلك ﴿وما تخرج من ثمرات من أكمامها﴾ أي من أوعيتها، وقال ابن عباس: هو الكفرى قبل أن ينشق ﴿وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه﴾ أي يعلم قدر أيام الحمل وساعاته ومتى يكون الوضع وذكر الحمل هو أم أنثى ومعنى الآية كما يرد إليه علم الساعة فكذلك يرد إليه علم ما يحدث من كل شيء كالثمار والنتاج وغيره.

فإن قلت قد يقول الرجل الصالح من أصحاب الكشف قولاً فيصيب فيه وكذلك الكهان والمنجمون.

قلت أما أصحاب الكشف إذا قالوا قولاً فهو من إلهام الله تعالى وإطلاعه إياهم عليه فكان من علمه الذي يرد إليه وأما الكهان والمنجمون فلا يمكنهم القطع والجزم في شيء مما يقولونه البتة، وإنما غايته ادعاء ظن ضعيف قد لا يصيب وعلم الله تعالى هو العلم اليقين المقطوع به الذي لا يشركه فيه أحد ﴿ويوم يناديهم﴾ أي ينادي الله تعالى المشركين فيقول ﴿أين شركائي﴾ أي الذين تدعون أنها آلهة ﴿قالوا﴾ يعني المشركين ﴿آذناك﴾ أي أعلمناك ﴿ما منا من شهيد﴾ أي يشهد أن لك شريكاً وذلك لما رأوا العذاب تبرؤوا من الأصنام.

وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَدْعُونَ مِن قَبْلُ وَظَنُّوا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٤٨﴾ لَّا يَسْأَمُ الْإِنسَانُ مِن دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِن
مَّسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِن بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ
قَائِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ
غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن
كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ
وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾

﴿وضل عنهم ما كانوا يدعون من قبل﴾ أي يعبدون في الدنيا ﴿وظنوا ما لهم من محيص﴾ أي مهرب.

قوله تعالى: ﴿لا يسأم الإنسان﴾ أي لا يمل الكافر ﴿من دعاء الخير﴾ يعني لا يزال يسأل ربه الخير وهو المال

﴿ مَن عمل صالحاً فلنفسه ومَن أساء فعليها، وما ربُّك بظلّام للعبيد ﴾.

﴿ إليه يُردّ علم الساعة ﴾، أي علمها إذا سُئِل عنها مردود إليه لا يعلمه غيره، ﴿ وما تخرج من ثمرات من أكمامها ﴾، قرأ أهل المدينة والشام وحفص: ﴿ ثمرات ﴾، على الجمع، وقرأ الآخرون (ثمرة) على التوحيد، ﴿ من أكمامها ﴾ أوعيتها واحدها: كم. قال ابن عبّاس رضي الله عنهما: يعني الكفرى قبل أن تنشق. ﴿ وما تحمل من أُنثى ولا تضع إلّا بعلمه ﴾، إلّا بإذنه، يقول: يرد إليه علم الساعة كما يرد إليه علم الثمار والنتاج. ﴿ ويوم يناديهم ﴾، ينادي الله المشركين، ﴿ أينَ شركائي ﴾، الذين كنتم تزعمون أنها آلهة، ﴿ قالوا ﴾، يعني المشركين، ﴿ آذنّاك ﴾، أعلمناك، ﴿ ما منّا من شهيد ﴾، أي من شاهد بأن لك شريكاً لمّا عاينوا العذاب تبرأوا من الأصنام.

﴿ وضلّ عنهم ما كانوا يدعون ﴾، يعبدون، ﴿ من قبل ﴾، في الدنيا، ﴿ وظنوا ﴾، أيقنوا، ﴿ ما لهم من محيص ﴾، مهرب.

﴿ لا يسأم الإنسان ﴾، لا يملّ الكافر، ﴿ من دعاء الخير ﴾، أي لا يزال يسأل ربَّه الخير، يعني المال والغنى

والغنى والصحة ﴿وإن مسه الشر﴾ أي الشدة والفقر ﴿فيئوس﴾ أي من روح الله تعالى ﴿قنوط﴾ أي من رحمته ﴿ولئن أذقناه رحمة منا﴾ أي آتيناه خيراً وعافية وغنى ﴿من بعد ضراء مسته﴾ أي من بعد شدة وبلاء أصابه ﴿ليقولن هذا لي﴾ أي أستحقه بعملي ﴿وما أظن الساعة قائمة﴾ أي ولست على يقين من البعث ﴿ولئن رجعت إلى ربي﴾ يقول هذا الكافر أي فإن كان الأمر على ذلك ورددت إلى ربي ﴿إن لي عنده للحسنى﴾ أي الجنة والمعنى كما أعطاني في الدنيا سيعطيني في الآخرة ﴿فلننبئن الذين كفروا بما عملوا﴾ قال ابن عباس لنوقفنهم على مساوي أعمالهم ﴿ولنذيقنهم من عذاب غليظ وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه﴾ أي ذهب بنفسه وتكبر وتعظم ﴿وإذا مسه الشر﴾ أي الشدة والفقر ﴿فذو دعاء عريض﴾ أي كثير ﴿قل﴾ أي قل يا محمد لكفار مكة ﴿أرأيتم إن كان من عند الله﴾ أي هذا القرآن ﴿ثم كفرتم به﴾ أي جحدتموه ﴿من أضل ممن هو في شقاق بعيد﴾ أي في خلاف للحق بعيد عنه والمعنى فلا أحد أضل منكم ﴿سنريهم آياتنا في الآفاق﴾ قال ابن عباس يعني منازل الأمم الخالية ﴿وفي أنفسهم﴾ أي البلاء والأمراض وقيل ما نزل بهم يوم بدر وقيل في الآفاق هو ما يفتح من القرى والبلاد على محمد ﷺ والمسلمين وفي أنفسهم هو تفح مكة ﴿حتى يتبين لهم أنه الحق﴾ يعني دين الإسلام، وقيل يتبين القرآن أنه من عند الله وقيل يتبين لهم أن محمداً ﷺ مؤيد من قبل الله تعالى وقيل في الآفاق يعني أقطار السموات والأرض من الشمس والقمر والنجوم والأشجار والأنهار والنبات وفي أنفسهم يعني من لطيف الحكمة وبديع الصنعة حتى يتبين لهم أنه الحق يعني لا يقدر على هذه الأشياء إلا الله تعالى: ﴿أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد﴾ يعني يشهد أن القرآن من عند الله تعالى، وقيل أو

والصحة، ﴿ وإنْ مسّه الشرُّ ﴾، الشدّة والفقر، ﴿ فيؤُوسٌ ﴾، من روح الله، ﴿ قنوط ﴾، من رحمته.

﴿ ولئن أذقناه رحمةً منّا ﴾، آتيناه خيراً وعافيةً وغنىً، ﴿ من بعد ضرّاء مسّته ﴾، من بعد شدّة وبلاء أصابته، ﴿ ليقولنّ هذا لي ﴾، أي بعملي وأنا محبوب بهذا، ﴿ وما أظن الساعة قائمة ولئن رجعت إلى ربّي إنّ لي عنده للحسنى ﴾، يقول هذا الكافر لست على يقين من البعث، فإن كان الأمر على ذلك، ورددت إلى ربّي إن لي عنده للحسنى، أي الجنة أي كما أعطاني في الدنيا سيعطيني في الآخرة. ﴿ فلننبئنّ الذين كفروا بما عملوا ﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما: لنقفنّهم على مساوىء أعمالهم، ﴿ ولنذيقنّهم من عذاب غليظ ﴾.

﴿ وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه وإذا مسّه الشرّ فَذُو دُعاءٍ عريض ﴾، كثير والعرب تستعمل الطول والعرض في الكثرة، يقال: أطال فلان الكلام والدعاء وأعرض، أي أكثر.

﴿ قل أرأيتم إن كان ﴾، هذا القرآن ﴿ من عند الله ثم كفرتم به مَن أضلّ ممّن هو في شقاق بعيد ﴾، خلاف للحق بعيد عنه أي فلا أحد أضلّ منكم.

﴿ سنُريهم آياتنا في الآفاق ﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما: يعني منازل الأمم الخالية. ﴿ وفي أنفسهم ﴾، بالبلاء والأمراض. وقال قتادة: في الآفاق يعني وقائع الله في الأمم، وفي أنفسهم يوم بدر. وقال مجاهد والحسن والسدي والكلبي: في الآفاق ما يفتح من القرى على محمد ﷺ والمسلمين، وفي أنفسهم فتح مكة. ﴿ حتى يتبيّن لهم أنه الحق ﴾، يعني دين الإسلام. وقيل: القرآن يتبيّن لهم أنه من عند الله. وقيل: محمد ﷺ يتبيّن لهم أنه مؤيد من قِبَل الله تعالى. وقال عطاء وابن زيد: في الآفاق يعني أقطار السماء والأرض من الشمس والقمر والنجوم والنبات والأشجار والأنهار، وفي أنفسهم من لطيف الصّنعة وبديع الحكمة، حتى يتبيّن لهم

لم يكفهم الدلائل الكثيرة التي أوضحها الله لهم على التوحيد وأنه شاهد لا يغيب عنه شيء.

أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴿٥٤﴾

﴿ألا إنهم في مزية من لقاء ربهم﴾ أي في شك عظيم من القيامة **﴿ألا إنه بكل شيء محيط﴾** أي عالم بجميع المعلومات التي لا نهاية لها، أحاط بكل شيء علماً وأحصى كل شيء عدداً والله أعلم بمراده وأسرار كتابه.

أنه الحق. **﴿ أوَ لَمْ يكفِ بربِّك أنه على كل شيء شهيد ﴾**، قال مقاتل: أوَ لَمْ يكفِ بربّك لأنه على كل شيء شهيد شاهد لا يغيب عنه شيء.

﴿ إلاّ إنّهم في مِرية من لقاء ربهم ﴾، في شكٍّ من البعث، **﴿ ألا إنه بكل شيء محيط ﴾**، أحاط بكل شيء علماً.

سورة حمٓ عسقٓ

وتسمى سورة الشورى وهي مكية، في قول ابن عباس والجمهور وحكى عن ابن عباس إلا أربع آيات نزلت بالمدينة أولها ﴿قل لا أسألكم عليه أجراً﴾ وقيل فيها من المدني ﴿ذلك الذي يبشر الله عباده﴾ إلى قوله تعالى: ﴿بذات الصدور﴾ وقوله ﴿والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون﴾ إلى قوله ﴿من سبيل﴾ وهي ثلاث وخمسون آية وثمانمائة وستون كلمة وثلاثة آلاف وخمسمائة وثمانية وثمانون حرفاً والله أعلم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ عٓسٓقٓ ﴿٢﴾ كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾

قوله عز وجل: ﴿حمٓ عسقٓ﴾ سئل الحسين بن الفضل لم قطع حروف حمٓ عسقٓ ولم يقطع حروف المصٓ والمرٓ وكهيعصٓ، فقال: لأنها بين سور أوائلها حمٓ فجرت مجرى نظائرها فكان حمٓ مبتدأ وعسقٓ خبره لأن حمٓ عسقٓ عدت آيتين وعدت أخواتها التي لم تقطع آية واحدة. وقيل لأن أهل التأويل لم يختلفوا في كهيعصٓ وأخواتها أنها حروف التهجي واختلفوا في حمٓ فأخرجها بعضهم من حيز الحروف وجعلها فعلاً فقال معناها حم الأمر أي قضى وبقي عسق على أصله. وقال ابن عباس ح حلمه م مجده ع علمه س سناه ق قدرته أقسم الله عز وجل بها. وقيل إن العين من العزيز والسين من قدوس والقاف من قاهر وقيل ح حرب في قريش يعز فيها الذليل ويذل فيها العزيز م ملك يتحول من قوم إلى قوم ع عدو لقريش يقصدهم س سنون كسني يوسف ق قدرة الله في خلقه، وقيل هذا في شأن محمد ﷺ فالحاء حوضه المورود والميم ملكه الممدرد والعين عزه الموجود والسين سناؤه المشهود والقاف قيامه في المقام

سُوْرَةُ الشّوْرَىٰ

مكيّة وهي ثلاث وخمسون آية.

﴿ حمٓ * عٓسٓقٓ ﴾، سُئِلَ الحسين بن الفضل لِمَ يُقطّع حٓم عسٓق ولم يُقطّع كهٓيعٓصٓ؟ فقال: لأنها سوراً وائلها حمٓ فجرت مجرى نظائرها فكان حٓم مبتدأ وعسٓق خبره ولأنهما عُدّا آيتين وأخواتها مثل كهٓيعٓصٓ [مريم: ١] والمٓصٓ [الأعراف: ١] وآلمرٓ [الرعد: ١] عُدّتْ آية واحدة. وقيل: لأن أهل التأويل لم يختلفوا في كهٓيعٓصٓ وأخواتها أنها حروف التهجّي لا غير، واختلفوا في حٓمٓ فأخرجها بعضهم من حيّز الحروف وجعلها فعلاً، وقال: معناها حمّ أي قضى ما هو كائن، روى عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: حٓ حلمه، مٓ مجده، عٓ علمه، سٓ سناؤه، قٓ قدرته، أقسم الله بها. وقال شهر بن حوشب وعطاء بن أبي رباح: حٓ حرب يعزّ فيها الذليل ويذلّ فيها العزيز من قريش، مٓ ملك يتحوّل من قوم إلى قوم، عٓ عدو لقريش يقصدهم، سٓ سيء يكون فيهم، قٓ قدرة الله النافذة في خلقه. ورُوِيَ عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: ليس من نبي صاحب كتاب إلّا وقد أُوحيت إليه حٓم عسٓق.

المحمود وقربه من الملك المعبود وقال ابن عباس ليس من نبي صاحب كتاب إلا وقد أوحي إليه حم عسق فلذلك قال الله تعالى: ﴿كذلك يوحي إليك وإلى الذين من قبلك﴾ وقيل معناه كذلك نوحي إليك أخبار الغيب كما أوحينا إلى الذين من قبلك ﴿الله العزيز﴾ في ملكه ﴿الحكيم﴾ في صنعه، والمعنى كأنه قيل من يوحي فقال الله العزيز الحكيم ثم وصف نفسه وسعة ملكه فقال تعالى:

لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٤﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ ۚ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ﴿٧﴾

﴿له ما في السموات وما في الأرض وهو العلي العظيم تكاد السموات يتفطرن من فوقهن﴾ أي من فوق الأرضين وقيل تنفطر كل واحدة فوق التي تليها من عظمة الله تعالى وقيل من قول المشركين اتخذ الله ولداً ﴿والملائكة يسبحون بحمد ربهم﴾ أي ينزهونه عما لا يليق بجلاله وقيل يصلون بأمر ربهم ﴿ويستغفرون لمن في الأرض﴾ أي من المؤمنين دون الكفار، لأن الكافر لا يستحق أن تستغفر له الملائكة، وقيل يحتمل أن يكون لجميع من في الأرض أما في حق الكافرين فبواسطة طلب الإيمان لهم ويحتمل أن يكون المراد من الاستغفار لا يعاجلهم بالعقاب وأما في حق المؤمنين فبالتجاوز عن سيئاتهم، وقيل استغفارهم لمن في الأرض هو سؤال الرزق لهم فيدخل فيه المؤمن والكافر ﴿ألا إن الله هو الغفور الرحيم﴾ يعني أنه تعالى يعطي المغفرة التي سألوها ويضم إليها بمنه وكرمه الرحمة العامة الشاملة.

قوله تعالى: ﴿والذين اتخذوا من دونه أولياء﴾ أي جعلوا له شركاء وأنداداً ﴿الله حفيظ عليهم﴾ يعني رقيب على

فلذلك قال: ﴿ كذلك يُوحي إليك ﴾، وقرأ ابن كثير (يـوحَى) بفتح الحاء وحجّته قوله: ﴿ أوحينا إليك ﴾ [النساء: ١٦٣، الشورى: ٧]، ﴿ وإلى الذين من قبلك ﴾، وعلى هذه القراءة قوله: ﴿ الله العزيز الحكيم ﴾، تبيين للفاعل كأنه قيل مَن يوحي فقيل الله العزيز الحكيم، وقرأ الآخرون ﴿ يوحي ﴾ بكسر الحاء، إليك وإلى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم. قال عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما: يريد أخبار الغيب.

﴿ له ما في السمٰوات وما في الأرض وهو العلي العظيم * تكاد السمٰوات يتفطّرْنَ من فوقهنّ ﴾، أي كل واحدة منها تتفطر فوق التي تليها من قول المشركين: (اتخذ الله ولداً) نظيره في سورة مريم [٨٨]: ﴿ وقالوا اتخذ الرحمن ولداً * لقد جئتم شيئاً إدّاً * تكاد السمٰواتُ يتفطّرْنَ منه ﴾. ﴿ والملائكة يسبّحون بحمد ربهم ويستغفرون لمَن في الأرض ﴾، من المؤمنين، ﴿ ألا إن الله هو الغفور الرحيم ﴾.

﴿ والذين اتخذوا من دونه أولياء الله حفيظ عليهم ﴾، يحفظ أعمالهم ويحصيها عليهم ليجازيهم بها، ﴿ وما أنت عليهم بوكيل ﴾، لم يوكّلك الله عليهم حتى تؤخذ بهم.

﴿ وكذلك ﴾، مثل ما ذكرنا، ﴿ أوحينا إليك قرآناً عربياً لتنذر أمّ القرى ﴾، مكة يعني أهلها، ﴿ ومن حولها ﴾، يعني قرى الأرض كلها، ﴿ وتنذر يوم الجمع ﴾، أي تنذرهم بيوم الجمع وهو يوم القيامة يجمع الله الأوّلين والآخرين وأهل السمٰوات والأرضين، ﴿ لا ريب فيه ﴾، لا شك في الجمع أنه كائن ثم بعد الجمع يتفرّقون. ﴿فريق في الجنة وفريق في السعير﴾، أخبرنا أبو سعيد أحمد بن إبراهيم الشريحي أنا أبو إسحاق الثعلبي ثنا

أحوالهم وأعمالهم ﴿وما أنت عليهم بوكيل﴾ يعني لم توكل بهم حتى تؤخذ بهم إنما أنت نذير ﴿وكذلك﴾ أي ومثل ما ذكرنا ﴿أوحينا إليك قرآناً عربياً لتنذر أم القرى﴾ يعني مكة والمراد أهلها ﴿ومن حولها﴾ يعني قرى الأرض كلها ﴿وتنذر يوم الجمع﴾ أي وتنذرهم بيوم الجمع وهو يوم القيامة يجمع الله سبحانه وتعالى فيه الأولين والآخرين وأهل السموات وأهل الأرضين ﴿لا ريب فيه﴾ أي لا شك في الجمع أنه كائن ثم بعد ذلك يتفرقون وهو قوله تعالى: ﴿فريق في الجنة وفريق في السعير﴾ عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال «خرج علينا رسول الله ﷺ ذات يوم قابضاً على كفه ومعه كتابان فقال أتدرون ما هذان الكتابان قلنا لا يا رسول الله فقال للذي في يده اليمنى هذا كتاب من رب العالمين فيه أسماء أهل الجنة وأسماء آبائهم وعشائرهم وعدتهم قبل أن يستقروا نطفاً في الأصلاب وقبل أن يستقروا نطفاً في الأرحام إذ هم في الطينة منجدلون فليس بزائد فيهم ولا ناقص منهم إجمال من الله تعالى عليهم إلى يوم القيامة، ثم قال للذي في يساره هذا كتاب من رب العالمين بأسماء أهل النار وأسماء آبائهم وعشائرهم وعدتهم قبل أن يستقروا نطفاً في الأصلاب وقبل أن يستقروا نطفاً في الأرحام إذ هم في الطينة منجدلون فليس بزائد فيهم ولا ناقص منهم إجمال من الله تعالى عليهم إلى يوم القيامة فقال عبد الله بن عمرو ففيم العمل إذاً؟ قال اعملوا وسددوا وقاربوا فإن صاحب الجنة يختم له بعمل أهل الجنة وإن عمل أي عمل ثم قال فريق في الجنة وفريق في السعير عدل من الله تعالى» أخرجه أحمد بن حنبل في مسنده.

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِىُّ وَهُوَ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٩﴾ وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾ فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا ۖ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ولو شاء الله لجعلهم أمة واحدة﴾ قال ابن عباس: على دين واحد وقيل على ملة الإسلام ﴿ولكن

أبو منظور الشامي ثنا أبو العباس الأصم ثنا أبو عثمان سعيد بن عثمان التنوخي ثنا بشر بن بكر حدّثني سعيد بن عثمان عن أبي الراهوية ثنا جرير بن كريب عن عبد الله بن عمرو بن العاص، قال الثعلبي: وأخبرنا أبو عبد الله بن فنجويه الدينوري ثنا أبو بكر بن مالك القطيعي ثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل حدّثني أبي هشام بن القاسم ثنا ليث حدّثني أبو قبيل المعافري عن شفي الأصبحي عن عبد الله بن عمرو قال: خرج علينا رسول الله ﷺ ذات يوم قابضاً على كفّيه ومعه كتابان، فقال: «أتدرون ما هذان الكتابان؟» قلنا: لا يا رسول الله إلاّ أن تخبرنا، فقال: «للذي في يده اليمني: هذا كتاب من ربّ العالمين فيه أسماء أهل الجنة وأسماء آبائهم وعشائرهم وعدّتهم قبل أن يستقروا نطفاً في الأصلاب، وقبل أن يستقروا نطفاً في الأرحام إذ هم في الطينة منجدلون فليس بزائد فيهم ولا ناقص منهم أجمال من الله عليهم إلى يوم القيامة، ثم قال للذي في يساره: هذا كتاب من ربّ العالمين فيه أسماء أهل النار وأسماء آبائهم وعشائرهم وعدّتهم قبل أن يستقروا نطفاً في الأصلاب، وقبل أن يستقروا نطفاً في الأرحام إذْ هم في الطينة منجدلون، فليس بزائد فيهم ولا بناقص منهم، أجمال من الله عليهم إلى يوم القيامة»، قال عبد الله بن عمرو: ففيمَ العمل إذاً يا رسول الله؟ فقال: «اعملوا وسدّدوا وقاربوا، فإن صاحب الجنة يختم له بعمل أهل الجنة وإن عمل أيّ عمل، وإن صاحب النار يختم له بعمل أهل النار وإن عمل أيّ عمل، ثم قال: ﴿ فريق في الجنة ﴾ فضل من الله، ﴿ وفريق في السعير ﴾ عدل من الله عزّ وجلّ».

قوله تعالى: ﴿ ولو شاء الله لجعلهم أمةً واحدةً ﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما: على دين واحد. وقال

يدخل من يشاء في رحمته﴾ أي في دين الإسلام ﴿والظالمون﴾ أي الكافرون ﴿ما لهم من ولي﴾ أي يدفع عنهم العذاب ﴿ولا نصير﴾ أي يمنعهم من العذاب ﴿أم اتخذوا﴾ يعني الكفار ﴿من دونه أولياء فالله هو الولي﴾ قال ابن عباس هو وليك يا محمد وولي من تبعك ﴿وهو يحيي الموتى وهو على كل شيء قدير﴾ يعني أن من يكون بهذه الصفة فهو الحقيق بأن يتخذ ولياً ومن لا يكون بهذه الصفة فليس بولي ﴿وما اختلفتم فيه من شيء﴾ أي من أمر الدين ﴿فحكمه إلى الله﴾ أي يقضي فيه ويحكم يوم القيامة بالفصل الذي يزيل الريب وقيل علمه إلى الله وقيل تحاكموا فيه إلى رسول الله ﷺ لأن حكمه من حكم الله تعالى ولا تؤثروا حكومة غيره على حكومته ﴿ذلكم الله﴾ يعني الذي يحكم بين المختلفين هو الله ﴿ربي عليه توكلت﴾ يعني في جميع أموري ﴿وإليه أنيب﴾ يعني وإليه أرجع في كل المهمات ﴿فاطر السموات والأرض جعل لكم من أنفسكم﴾ يعني من جنسكم ﴿أزواجاً﴾ يعني حلائل، وإنما قال من أنفسكم لأن الله تعالى خلق حواء من ضلع آدم ﴿ومن الأنعام أزواجاً﴾ يعني أصنافاً ذكراناً وإناثاً ﴿يذرؤكم﴾ يعني يخلقكم وقيل يكثركم ﴿فيه﴾ يعني في الرحم وقيل في البطن لأنه قد تقدم ذكر الأزواج وقيل نسلاً بعد نسل حتى كان بين ذكورهم وإناثهم التوالد والتناسل وقيل الضمير في يذرؤكم يرجع إلى المخاطب من الناس والأنعام إلا أنه غلب جانب الناس وهم العقلاء على غير العقلاء من الأنعام، وقيل في بمعنى الباء أي يذرؤكم به أي يكثركم بالتزويج ﴿ليس كمثله شيء﴾ المثل صلة أي ليس كهو شيء وقيل الكاف صلة مجازه ليس مثله شيء، قال ابن عباس: ليس له نظير.

فإن قلت هذه الآية دالة على نفي المثل وقوله تعالى: ﴿وله المثل الأعلى في السموات والأرض﴾ يقتضي إثبات المثل فما الفرق.

قلت المثل الذي يكون مساوياً في بعض الصفات الخارجية على الماهية فقوله ليس كمثله شيء معناه ليس له نظير، كما قاله ابن عباس أو يكون معناه ليس لذاته سبحانه وتعالى مثل وقوله ﴿وله المثل الأعلى﴾ معناه وله الوصف الأعلى الذي ليس لغيره مثله ولا يشاركه فيه أحد فقد ظهر بهذا التفسير معنى الآيتين وحصل الفرق بينهما ﴿وهو السميع﴾ يعني لسائر المسموعات ﴿البصير﴾ يعني المبصرات.

مقاتل: على ملّة الإسلام كقوله تعالى: ﴿ ولو شاء الله لجمعهم على الهدى ﴾ [الأنعام: ٣٥]، ﴿ ولكنْ يُدخِل مَن يشاء في رحمته ﴾، في دين الإسلام، ﴿ والظالمون ﴾، الكافرون، ﴿ ما لهم من وليّ ﴾، يدفع عنهم العذاب، ﴿ ولا نصير ﴾، يمنعهم من النار.

﴿ أم اتخذوا ﴾، بل اتخذوا أي الكافرون، ﴿ من دونه ﴾، أي من دون الله، ﴿ أولياء فالله هو الوليّ ﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما: وليّك يا محمد ووليّ مَنِ اتّبعك، ﴿ وهو يحيي الموتى وهو على كل شيء قدير ﴾.

﴿ وما اختلفتم فيه من شيء ﴾، من أمر الدين، ﴿ فحكمه إلى الله ﴾، يقضي فيه ويحكم يوم القيامة بالفصل الذي يزيل الريب، ﴿ ذلكم الله ﴾، الذي يحكم بين المختلفين هو، ﴿ ربّي عليه توكلت وإليه أنيب ﴾.

﴿ فاطر السمٰوات والأرض جعل لكم من أنفسكم أزواجاً ﴾، من مثل خلقكم حلائل، قيل: إنما قال من أنفسكم لأنه خلق حوّاء من ضلع آدم. ﴿ ومن الأنعام أزواجاً ﴾، أصنافاً ذكوراً وإناثاً، ﴿ يذرؤكم ﴾، يخلقكم، ﴿ فيه ﴾، أي في الرحم. وقيل: في البطن. وقيل: على هذا الوجه من الخلقة. قال مجاهد: نسلاً بعد نسل من الناس والأنعام. وقيل: في بمعنى الباء أي يذرؤكم به. وقيل: معناه يكثركم بالتزويج. ﴿ ليس كمثله شيء ﴾، مثل صلة أي ليس هو كشيء فأدخل المثل للتوكيد، كقوله: ﴿ فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به ﴾ [البقرة: ١٣٧]، وقيل: الكاف صلة، مجازه: ليس مثله شيء. قال ابن عباس رضي الله عنهما: ليس له نظير: ﴿ وهو السميع البصير ﴾.

لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾ فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ۖ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ۖ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ ۖ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾

﴿**له مقاليد السموات والأرض**﴾ يعني مفاتيح الرزق في السموات يعني المطر وفي الأرض يعني النبات يدل عليه قوله تعالى: ﴿**يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر**﴾ أي أنه يوسع على من يشاء ويضيق على من يشاء لأن مفاتيح الرزق بيده ﴿**إنه بكل شيء عليم**﴾ أي من البسط والتضييق.

قوله عز وجل: ﴿**شرع لكم من الدين**﴾ أي ما بين وسن لكم طريقاً واضحاً من الدين، أي ديناً تطابقت على صحته الأنبياء وهو قوله تعالى: ﴿**ما وصى به نوحاً**﴾ أي أنه أول الأنبياء أصحاب الشرائع والمعنى قد وصيناه وإياك يا محمد ديناً واحداً ﴿**والذي أوحينا إليك**﴾ أي من القرآن وشرائع الإسلام ﴿**وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى**﴾ إنما خص هؤلاء الأنبياء الخمسة بالذكر لأنهم أكابر الأنبياء وأصحاب الشرائع المعظمة والأتباع الكثيرة وأولو العزم.

ثم فسر المشروع الذي اشترك فيه هؤلاء الأعلام من رسله بقوله تعالى: ﴿**أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه**﴾ والمراد بإقامة الدين هو توحيد الله والإيمان به وبكتبه ورسله واليوم الآخر وطاعة الله في أوامره ونواهيه وسائر ما يكون الرجل به مسلماً، ولم يرد الشرائع التي هي مصالح الأمم على حسب أحوالها فإنها مختلفة متفاوتة قال الله تعالى: ﴿**لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً**﴾ وقيل أراد تحليل الحلال وتحريم الحرام، وقيل تحريم الأمهات والبنات والأخوات فإنه مجمع على تحريمهن، وقيل لم يبعث الله نبياً إلا وصاه بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة والإقرار لله تعالى بالوحدانية والطاعة وقيل بعث الله الأنبياء كلهم بإقامة الدين والألفة والجماعة وترك الفرقة ﴿**كبر على المشركين ما**

﴿ **له مقاليد السمٰوات والأرض** ﴾، مفاتيح الرزق في السمٰوات والأرض. قال الكلبي: المطر والنبات. ﴿ **يبسط الرزق لِمَن يشاء ويَقْدِرَ** ﴾ لأن مفاتيح الرزق بيده، ﴿ **إنه بكل شيء عليم** ﴾.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ **شرع لكم من الدين** ﴾، بيّن وسنّ لكم، ﴿**ما وصّى به نوحاً** ﴾، وهو أول أنبياء الشريعة. قال مجاهد: أوصيناك وإياه يا محمد ديناً واحداً. ﴿ **والذي أوحينا إليك** ﴾، من القرآن وشرائع الإسلام، ﴿ **وما وصّينا به إبراهيم وموسى وعيسى** ﴾، واختلفوا في وجه الآية، فقال قتادة: تحليل الحلال وتحريم الحرام. وقال الحكم: تحريم الأمهات والبنات والأخوات. وقال مجاهد: لم يبعث الله نبياً إلاّ أوصاه بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة والإقرار لله بالطاعة، فذلك دينه الذي شرع لهم. وقيل: هو التوحيد والبراءة من الشرك. وقيل: هو ما ذكر من بعد وهو قوله: ﴿ **أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه** ﴾، بعث الله الأنبياء كلهم بإقامة الدين والألفة والجماعة وترك الفرقة والمخالفة، ﴿ **كبر على المشركين ما تدعوهم إليه** ﴾، من التوحيد ورفض الأوثان ثم قال: ﴿ **الله يجتبي إليه مَن يشاء** ﴾، يصطفي لدينه من عباده مَن يشاء، ﴿ **ويهدي إليه مَن ينيب** ﴾، يقبل إلى طاعته.

تدعوهم إليه﴾ أي من التوحيد ورفض الأوثان ﴿**الله يجتبي إليه من يشاء﴾** أي يصطفي لدينه من يشاء من عباده ﴿**ويهدي إليه من ينيب﴾** أي يقبل على طاعته ﴿**وما تفرقوا﴾** يعني أهل الأديان المختلفة، وقال ابن عباس: يعني أهل الكتاب ﴿**إلا من بعد ما جاءهم العلم﴾** أي بأن الفرقة ضلالة ﴿**بغياً بينهم﴾** أي ولكنهم فعلوا ذلك للبغي وقيل بغياً منهم على محمد ﷺ ﴿**ولولا كلمة سبقت من ربك﴾** أي في تأخير العذاب عنهم ﴿**إلى أجل مسمى﴾** يعني إلى يوم القيامة ﴿**لقضي بينهم﴾** أي بين من آمن وكفر يعني لأنزل العذاب بالمكذبين في الدنيا ﴿**وإن الذين أورثوا الكتاب﴾** أي اليهود والنصارى ﴿**من بعدهم﴾** أي من بعد أنبيائهم وقيل الأمم الخالية ﴿**لفي شك منه﴾** أي من أمر محمد ﷺ فلا يؤمنون به ﴿**مريب﴾** يعني مرتابين شاكين فيه ﴿**فلذلك﴾** أي إلى ذلك ﴿**فادع﴾** أي إلى ما وصى الله تعالى به الأنبياء من التوحيد وقيل لأجل ما حدث به من الاختلاف في الدين الكثير فادع أنت إلى الاتفاق على الملة الحنيفية ﴿**واستقم كما أمرت﴾** أي أثبت على الدين الذي أمرت به ﴿**ولا تتبع أهواءهم﴾** أي المختلفة الباطلة ﴿**وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب﴾** أي آمنت بكتب الله المنزلة كلها وذلك لأن المتفرقين آمنوا ببعض الكتب وكفروا ببعض ﴿**وأمرت لأعدل بينكم﴾** قال ابن عباس أمرت أن لا أحيف عليكم بأكثر مما افترض الله عليكم من الأحكام وقيل لأعدل بينكم في جميع الأحوال والأشياء وقيل لأعدل بينكم في الحكم إذا تخاصمتم وتحاكمتم إلى ﴿**الله ربنا وربكم لنا أعمالنا ولكم أعمالكم﴾** يعني أن إله الكل واحد وكل أحد مخصوص بعمل نفسه وإن اختلفت أعمالنا فكل يجازي بعمله ﴿**لا حجة﴾** أي لا خصومة ﴿**بيننا وبينكم﴾** وهذه الآية منسوخة بآية القتال إذا لم يؤمر بالقتال وأمر بالدعوة فلم يكن بينه وبين من لا يجيب خصومة ﴿**الله يجمع بيننا﴾** أي في المعاد لفصل القضاء ﴿**وإليه المصير﴾**.

وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ۗ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا

﴿ **وما تفرّقوا** ﴾، يعني أهل الأديان المختلفة، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: يعني أهل الكتاب كما ذكر في سورة المنفكّين: [البيّنة: ٤]: ﴿ وما تفرّق الذين أُوتوا الكتاب ﴾، الآية. ﴿ **إلّا من بعد ما جاءهم العلم** ﴾، بأن الفرقة ضلالة ولكنهم فعلوا ذلك، ﴿ **بغياً بينهم** ﴾، أي للبغي، قال عطاء: يعني بغياً بينهم على محمد ﷺ، ﴿ **ولولا كلمة سبقت من ربك** ﴾، في تأخير العذاب عنهم، ﴿ **إلى أجلٍ مسمى** ﴾، وهو يوم القيامة، ﴿ **لقضيَ بينهم** ﴾، بين مَن آمن وكفر، يعني أنزل العذاب بالمكذبين في الدنيا، ﴿ **وإن الذين أُورثوا الكتاب** ﴾، يعني اليهود والنصارى، ﴿ **من بعدهم** ﴾، أي من بعد أنبيائهم، وقيل: من بعد الأمم الخالية. وقال قتادة: معناه من قبلهم أي من قبل مشركي مكة. ﴿ **لفي شكٍّ منه مريب** ﴾، أي من محمد ﷺ.

﴿ **فلذلك فادْعُ** ﴾، أي فإلى ذلك كما يقال دعوت إلى فلان ولفلان، وذلك إشارة إلى ما وصّى به الأنبياء من التوحيد، ﴿ **واستقم كما أمرت** ﴾، أي اثبت على الدين الذي أمرت به، ﴿ **ولا تتبعْ أهواءهم وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب** ﴾، أي آمنت بكتب الله كلها، ﴿ **وأُمرت لأعدل بينكم** ﴾، أن أعدل بينكم، قال ابن عباس رضي الله عنهما: أُمرتُ أن لا أحيف عليكم بأكثر مما افترض الله عليكم من الأحكام. وقيل: لأعدل بينكم في جميع الأحوال والأشياء، ﴿ **الله ربُّنا وربُّكم لنا أعمالنا ولكم أعمالكم** ﴾، يعني إلٓهنا واحد وإن اختلفت أعمالنا فكلٌ يُجازَى بعمله، ﴿ **لا حجة** ﴾، لا خصومة، ﴿ **بيننا وبينكم** ﴾، نسختها آية القتال، فإذا لم يؤمر بالقتال وأمر بالدعوة لم يكن بينه وبين مَن لا يجيب خصومة، ﴿ **الله يجمع بيننا** ﴾، في المعاد لفصل القضاء، ﴿ **وإليه المصير** ﴾.

يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ ۗ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾

قوله عز وجل: ﴿والذين يحاجون في الله﴾ أي يخاصمون في دين الله قيل هم اليهود قالوا كتابنا قبل كتابكم ونبينا قبل نبيكم فنحن خير منكم فهذه خصومتهم ﴿من بعد ما استجيب له﴾ أي من بعد ما استجاب الناس لدين الله تعالى فأسلموا ودخلوا في دينه لظهور معجزة نبيه ﷺ ﴿حجتهم داحضة﴾ أي خصومتهم باطلة ﴿عند ربهم وعليهم غضب ولهم عذاب شديد﴾ أي في الآخرة ﴿الله الذي أنزل الكتاب بالحق﴾ أي الكتاب المشتمل على أنواع الدلائل والأحكام ﴿والميزان﴾ أي العدل سمي العدل ميزاناً لأن الميزان آلة الإنصاف والتسوية، قال ابن عباس رضي الله عنهما: أمر الله تعالى بالوفاء ونهى عن البخس ﴿وما يدريك لعل الساعة قريب﴾ أي وقت إتيانها قريب وذلك أن النبي ﷺ ذكر الساعة وعنده قوم من المشركين فقالوا تكذيباً له متى تكون الساعة فأنزل الله تعالى: ﴿يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها﴾ أي ظناً منهم أنها غير آتية ﴿والذين آمنوا مشفقون﴾ أي خائفون ﴿منها ويعلمون أنها الحق﴾ أي أنها آتية لا شك فيها ﴿ألا إن الذين يمارون﴾ أي يخاصمون ﴿في الساعة﴾ وقيل يشكون فيها ﴿لفي ضلال بعيد﴾ قوله عز وجل:

اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ ۖ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴿١٩﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ۗ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾ تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ ۗ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ ۖ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾ ذَٰلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ۗ قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ ۗ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾

﴿الله لطيف بعباده﴾ أي كثير الإحسان إليهم، قال ابن عباس: حفي بهم وقيل رفيق وقيل لطيف بالبر والفاجر

﴿ والذين يحاجّون في الله ﴾، يخاصمون في دينَ اللّهِ تعالى نبيَّه ﷺ، وقال قتادة: هم اليهود قالوا: كتابنا قبل كتابكم ونبيّنا قبل نبيّكم، فنحن خير منكم، فهذه خصومتهم. ﴿ من بعد ما استُجيب له ﴾، أي استجاب له الناس فأسلموا ودخلوا في دينه لظهور معجزته، ﴿ حجّتهم داحضة ﴾، خصومتهم باطلة، ﴿ عند ربهم وعليهم غضبٌ ولهم عذاب شديد ﴾، في الآخرة.

﴿ الله الذي أنزل الكتاب بالحق والميزان ﴾، قال قتادة ومقاتل: العدل، وسُمّي العدل ميزاناً لأن الميزان آلة الإنصاف والتسوية. قال ابن عباس رضي الله عنهما: أمر الله تعالى بالوفاء، ونهى عن البَخْس. ﴿ وما يُدريك لعلّ الساعة قريب ﴾، ولم يقل قريبة لأن تأنيثها غير حقيقي، ومجازه: الوقت قريب. وقال الكسائي: إتيانها قريب. قال مقاتل: ذكر النبي ﷺ الساعة ذات يوم وعنده قوم من المشركين، فقالوا تكذيباً: متى تكون الساعة؟

فأنزل الله هذه الآية: ﴿ يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها ﴾، ظنّاً منهم أنها غير آتية، ﴿ والذين آمنوا مشفقون ﴾، أي خائفون، ﴿ منها ويعلمون أنها الحق ﴾، أنها آتية لا ريب فيها، ﴿ ألا إن الذين يمارون ﴾، يخاصمون وقيل يدخلهم المرية والشك، ﴿ في الساعة لفي ضلال بعيد ﴾.

﴿ الله لطيف بعباده ﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما: حفيٌّ بهم. فقال عكرمة: بارٌّ بهم. قال السدي:

حيث لم يهلكهم جوعاً بمعاصيهم يدل عليه قوله تعالى: ﴿يرزق من يشاء﴾ يعني أن الإحسان والبر إنعام في حق كل العباد وهو إعطاء ما لا بد منه فكل من رزقه الله تعالى من مؤمن وكافر وذي روح فهو ممن يشاء الله أن يرزقه، وقيل لطفه في الرزق من وجهين أحدهما أنه جعل رزقكم من الطيبات والثاني أنه لم يدفعه إليكم مرة واحدة ﴿وهو القوي﴾ أي القادر على كل ما يشاء ﴿العزيز﴾ أي الذي لا يغالب ولا يدافع ﴿من كان يريد حرث الآخرة﴾ أي كسب الآخرة والمعنى من كان يريد بعمله الآخرة ﴿نزد له في حرثه﴾ أي بالتضعيف الواحدة إلى عشرة إلى ما يشاء الله تعالى من الزيادة، وقيل إنا نزيد في توفيقه وإعانته وتسهيل سبيل الخيرات والطاعة إليه ﴿ومن كان يريد حرث الدنيا﴾ يعني يريد بعمله الدنيا مؤثراً لها على الآخرة ﴿نؤته منها﴾ أي ما قدر وقسم له منها ﴿وما له في الآخرة من نصيب﴾ يعني لأنه لم يعمل لها، عن أبي بن كعب رضي الله عنه قال قال: رسول الله ﷺ «بشر هذه الأمة بالسنا والرفعة والتمكين في الأرض فمن عمل منهم عمل الآخرة للدنيا لم يكن له في الآخرة نصيب» ذكره في جامع الأصول ولم يعزه إلى أحد من الكتب الستة وأخرجه البغوي بإسناده.

قوله تعالى: ﴿أم لهم﴾ يعني كفار مكة ﴿شركاء﴾ يعني الأصنام وقيل الشياطين ﴿شرعوا لهم ديناً من الدين﴾ قال ابن عباس شرعوا لهم غير دين الإسلام ﴿ما لم يأذن به الله﴾ يعني أن تلك الشرائع بأسرها على خلاف دين الله تعالى الذي أمر به وذلك أنهم زينوا لهم الشرك وإنكار البعث والعمل للدنيا لأنهم لا يعلمون غيرها ﴿ولولا كلمة الفصل﴾ يعني أن الله حكم بين الخلق بتأخير العذاب عنهم إلى يوم القيامة ﴿لقضي بينهم﴾ أي لفرغ من عذاب الذين يكذبونك في الدنيا ﴿وإن الظالمين﴾ يعني المشركين ﴿لهم عذاب أليم﴾ أي في الآخرة ﴿ترى الظالمين﴾ يعني يوم القيامة ﴿مشفقين﴾ أي وجلين خائفين ﴿مما كسبوا﴾ أي من الشرك والأعمال الخبيثة ﴿وهو واقع بهم﴾ أي جزاء كسبهم واقع بهم ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات في روضات الجنات﴾ لأن هذه الروضات أطيب بقاع الجنة فلذلك

رفيق. قال مقاتل: لطيف بالبر والفاجر حيث لم يهلكهم جوعاً بمعاصيهم، يدلّ عليه قوله: ﴿ يرزق مَن يشاء ﴾، وكلُّ مَن رزقه الله من مؤمن وكافر وذي روح فهو ممّن يشاء الله أن يرزقه. قال جعفر بن محمد الصادق: اللطف في الرزق من وجهين أحدهما أنه جعل رزقك من الطيبات، والثاني أنه لم يدفعه إليك مرة واحدة. ﴿ وهو القوي العزيز ﴾.

﴿ مَن كان يريد حرث الآخرة ﴾، الحرث في اللغة: الكسب، يعني مَن كان يريد بعمله الآخرة، ﴿ نُزِدْ له في حرثه ﴾، بالتضعيف بالواحد عشرة إلى ما شاء الله من الزيادة، ﴿ ومَن كان يريد حرث الدنيا ﴾، يريد بعمله الدنيا، ﴿ نُؤته منها ﴾، قال قتادة: أي نؤته بقدر ما قَسَم الله له، كما قال: ﴿ عجّلنا له فيها ما نشاء لمَن نريد ﴾ [الإسراء: ١٨]. ﴿ وما له في الآخرة من نصيب ﴾، لأنه لم يعمل للآخرة. أخبرنا الإمام أبو علي الحسين بن محمد القاضي أنا أبو طاهر الزيادي أنا أبو حامد أحمد بن محمد بن يحيىٰ بن بلال ثنا أبو الأزهر أحمد بن منيع البغدادي ثنا محمد بن يوسف الفريابي ثنا سفيان عن المغيرة عن أُبيّ بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: «بشّرت هذه الأمة بالسنا والرِّفعَة والنصرة والتمكين في الأرض، فمَن عمل منهم عمل الآخرة للدنيا لم يكن له في الآخرة نصيب».

قوله تعالى: ﴿ أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله ﴾، يعني كفّار مكة، يقول ألهم آلهة سنُّوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله؟ قال ابن عباس رضي الله عنهما: شرعوا لهم ديناً غير دين الإسلام، ﴿ ولولا كلمة الفصل ﴾، لولا أن الله حكم في كلمة الفصل بين الخلق بتأخير العذاب عنهم إلى يوم القيامة، حيث قال: ﴿ بل الساعة موعدهم ﴾ [القمر: ٤٦]، ﴿ لقضيَ بينهم ﴾، لفُرِغَ من عذاب الذين يكذّبونك في الدنيا، ﴿ وإن

خص الذين آمنوا وعملوا الصالحات بها وفيه تنبيه على أن الجنة منازل غير الروضات هي لمن هو دون الذين عملوا الصالحات من أهل القبلة ﴿لهم ما يشاؤون عند ربهم﴾ أي من الكرامة ﴿ذلك هو الفضل الكبير ذلك﴾ أي الذي ذكر من نعيم الجنة الذي يبشر الله به عباده ﴿الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ قوله عز وجل: ﴿قل لا أسألكم عليه﴾ أي على تبليغ الرسالة ﴿أجراً﴾ أي جزاء ﴿إلا المودة في القربى﴾ (خ) عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه سئل عن قوله ﴿إلا المودة في القربى﴾ فقال سعيد بن جبير قربى آل محمد ﷺ قال ابن عباس: عجبت أن النبي ﷺ لم تكن بطن من قريش إلا وله فيهم قرابة فقال ألا تصلوا ما بيني وبينكم من القرابة، وعن ابن عباس أيضاً في قوله ﴿إلا المودة في القربى﴾: يعني أن تحفظوا قرابتي وتودوني وتصلوا رحمي، وإليه ذهب مجاهد وقتادة وعكرمة ومقاتل والسدي والضحاك (خ) عن ابن عمر أن أبا بكر قال: ارقبوا محمداً ﷺ في أهل بيته واختلفوا في قرابته، فقيل علي وفاطمة والحسن والحسين رضي الله تعالى عنهم وقيل أهل بيته من تحرم عليه الصدقة من أقاربه وهم بنو هاشم وبنو المطلب الذين لم يفترقوا في جاهلية ولا في إسلام (م). عن زيد بن أرقم أن رسول الله ﷺ قال «إني تارك فيكم ثقلين أولهما كتاب الله فيه الهدى والنور فخذوا بكتاب الله تعالى واستمسكوا به» فحثَّ على كتاب الله ورغب فيه ثم قال «وأهل بيتي أذكركم الله في أهل بيتي أذكركم الله في أهل بيتي فقال له حصين من أهل بيته يا زيد أليس نساؤه من أهل بيته قال نساؤه من أهل بيته ولكن أهل بيته من حرمت عليهم الصدقة بعده قال ومن هم قال هم آل علي وآل عقيل وآل جعفر وآل عباس».

الظالمين﴾، المشركين، ﴿**لهم عذاب أليم**﴾، في الآخرة.

﴿**ترى الظالمين**﴾، المشركين يوم القيامة، ﴿**مشفقين**﴾، وجلين، ﴿**مما كسبوا وهو واقع بهم**﴾، جزاء كسبهم واقع بهم، ﴿**والذين آمنوا وعملوا الصالحات في روضات الجنّات لهم ما يشاؤون عند ربهم ذلك هو الفضل الكبير**﴾.

﴿**ذلك الذي**﴾، ذكرت من نعيم الجنة، ﴿**يبشّر الله عباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات**﴾، بأنهم أهله، ﴿**قلْ لا أسئلكم عليه أجراً إلّا المودّة في القربى**﴾، أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا محمد بن بشار ثنا محمد بن جعفر ثنا شعبة عبد الملك بن ميسرة قال: سمعت طاوساً عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه سُئِلَ عن قوله: ﴿**إلّا المودّة في القربى**﴾، قال سعيد بن جبير: قربى آل محمد ﷺ، فقال ابن عباس رضي الله عنهما: عجبت أن النبي ﷺ لم يكن بطن من قريش إلّا كان له فيهم قرابة، فقال: إلّا أن تصلوا ما بيني وبينكم من القرابة، وكذلك روى الشعبي وطاوس عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: ﴿**إلّا المودّة في القربى**﴾ يعني أن تحفظوا قرابتي وتودّوني وتَصِلوا رحمي. وإليه ذهب مجاهد وقتادة وعكرمة ومقاتل والسدي والضحاك، رضي الله عنهم. وقال عكرمة: لا أسألكم على ما أدعوكم إليه أجراً إلّا أن تحفظوني في قرابتي بيني وبينكم، وليس كما يقول الكذّابون. وروى ابن أبي نجيح عن مجاهد عن ابن عباس في معنى الآية: إلّا أن تودُّوا الله ويتقرّبوا إليه بطاعته، وهذا قول الحسن، قال: هو القربى إلى الله، يقول إلّا التقرّب إلى الله والتودّد إليه بالطاعة والعمل الصالح. وقال بعضهم: معناه إلّا أن تودّوا قرابتي وعترتي وتحفظوني فيهم، وهو قول سعيد بن جبير وعمرو بن شعيب، واختلفوا في قرابته فاطمة الزهراء وعليّ وابناه، وفيهم نزل: ﴿إنّما يُريدُ اللَّهُ لِيُذهبَ عنكم الرِّجْسَ أهلَ البيت﴾ [الأحزاب: ٣٣]، وروينا عن يزيد بن حيّان عن زيد بن أرقم عن النبي ﷺ قال: «إنّي تارك فيكم الثقلين كتاب الله وأهل بيتي أذكركم الله في أهل بيتي»، قيل لزيد بن أرقم: مَنْ

فإن قلت طلب الأجر على تبليغ الرسالة والوحي لا يجوز لقوله في قصة نوح عليه السلام وغيره من الأنبياء ﴿**وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين**﴾.

قلت لا نزاع في أنه لا يجوز طلب الأجر على تبليغ الرسالة.

بقي الجواب عن قوله ﴿**إلا المودة في القربي**﴾.

فالجواب عنه من وجهين: الأول معناه لا أطلب منكم إلا هذه وهذا في الحقيقة ليس بأجر ومنه قول الشاعر:

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم ... بهن فلول من قراع الكتائب

معناه إذا كان هذا عيبهم فليس فيهم عيب بل هو مدح فيهم ولأن المودة بين المسلمين أمر واجب وإذا كان كذلك في حق جميع المسلمين كان في أهل بيت النبي ﷺ أولى فقوله ﴿**قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى**﴾ المودة في القربى ليست أجراً في الحقيقة لأن قرابته قرابتهم فكانت مودتهم وصلتهم لازمة لهم فثبت أن لا أجر البتة، والوجه الثاني أن هذا الاستثناء منقطع وتم الكلام عند قوله قل لا أسألكم عليه أجراً ثم ابتدأ فقال إلا المودة في القربى أي لكن أذكركم المودة في قرابتي الذين هم قرابتكم فلا تؤذوهم؛ وقيل: إن هذه الآية منسوخة وذلك لأنها نزلت بمكة وكان المشركون يؤذون رسول الله ﷺ فأنزل الله تعالى هذه الآية فأمرهم فيها بمودة رسول الله ﷺ وصلة رحمه فلما هاجر إلى المدينة وآواه الأنصار ونصروه أحب الله تعالى أن يلحقه بإخوانه من النبيين فأنزل الله تعالى: ﴿**قل ما سألتكم عليه من أجر فهو لكم إن أجري إلا على الله**﴾ فصارت هذه الآية ناسخة لقوله ﴿**قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى**﴾ وإليه ذهب الضحاك والحسين بن الفضل، والقول بنسخ هذه الآية غير مرضي لأن مودة النبي ﷺ وكف الأذى عنه ومودة أقاربه من فرائض الدين وهو قول السلف فلا يجوز المصير إلى نسخ هذه الآية. وروي عن ابن عباس في معنى الآية قول آخر قال: إلا أن توادوا الله وتتقربوا إليه بطاعته وهو قول الحسن قال هو القربى إلى الله يقول إلا التقرب إلى الله تعالى والتودد إليه بالطاعة والعمل الصالح.

أهل بيته؟ قال: هم آل علي وآل عقيل وآل جعفر وآل عباس. أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا عبد الله بن عبد الوهاب ثنا خالد ثنا شعبة عن واقد قال: سمعت أبي يحدّث عن ابن عمر عن أبي بكر قال: ارقبُوا محمداً في أهل بيته. وقيل: هم الذين تحرم عليهم الصدقة من أقاربه ويقسم فيهم الخمس، وهم بنو هاشم وبنو المطلب الذين لم يتفرّقوا في جاهلية ولا في إسلام.
وقال قوم: هذه الآية منسوخة وإنما نزلت بمكة وكان المشركون يؤذون رسول الله ﷺ، فأنزل الله هذه الآية فأمرهم فيها بمودّة رسول الله ﷺ وصلة رحمه، فلما هاجر إلى المدينة وآواه الأنصار ونصروه أحبَّ اللَّهُ عزّ وجلّ أن يلحقه بإخوانه من الأنبياء عليهم السلام حيث قال: ﴿ وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلّا على ربِّ العالمين ﴾ [الشعراء: ١٠٩، ١٢٧، ١٤٥، ١٨٠]، فأنزل الله تعالى: ﴿ قل ما سألتكم من أجر فهو لكم إن أجري إلّا على الله ﴾ [سبأ: ٤٧]، فهي منسوخة بهذه الآية، وبقوله: ﴿ قل ما أسئلكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين ﴾ [صٓ: ٨٦]، وغيرها من الآيات وإلى هذا ذهب الضحاك بن مزاحم والحسين بن الفضل، وهذا قول غير مرضي لأن مودّة النبي ﷺ وكفّ الأذى عنه ومودّة أقاربه، والتقرّب إلى الله بالطاعة، والعمل الصالح من فرائض الدين، وهذه أقاويل السلف في معنى الآية فلا يجوز المصير إلى نسخ شيء من هذه الأشياء. وقوله: ﴿ **إلّا المودّة في القربى** ﴾، ليس باستثناء متصل بالأول حتى يكون ذلك أجراً في مقابلة أداء الرسالة، بل هو منقطع، ومعناه: ولكني أُذكّركم المودّة في القربى وأُذكّركم قرابتي منكم، كما روينا في حديث زيد بن أرقم. (أُذكّركم الله في أهل بيتي).

وقوله تعالى: ﴿ومن يقترف حسنة﴾ أي يكتسب طاعة ﴿نزد له فيها حسناً﴾ أي بالتضعيف ﴿إن الله غفور﴾ للذنوب ﴿شكور﴾ أي للقليل من الأعمال حتى يضاعفها.

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ ۚ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٢٤﴾ وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾﴾

﴿أم يقولون﴾ أي بل يقول كفار مكة ﴿افترى على الله كذباً﴾ فيه توبيخ لهم معناه أيقع في قلوبهم ويجري على لسانهم أن ينسبوا مثله إلى الكذب وأنه افترى على الله كذباً وهو أقبح أنواع الكذب ﴿فإن يشأ الله يختم على قلبك﴾ أي يربط على قلبك بالصبر حتى لا يشق عليك أذاهم وقولهم إنه مفتر وقيل معناه يطبع على قلبك فينسيك القرآن وما أتاك فأخبرهم أنه لو افترى على الله بالفعل به ما أخبر به في هذه الآية ﴿ويمح الله الباطل﴾ أخبره الله تعالى أن ما يقولونه الباطل والله عز وجل يمحوه ﴿ويحق الحق بكلماته﴾ أي يحق الإسلام بما أنزل من كتابه وقد فعل الله تعالى ذلك فمحا باطلهم وأعلى كلمة الإسلام ﴿إنه عليم بذات الصدور﴾ قال ابن عباس: لما نزلت ﴿قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى﴾ وقع في قلوب قوم منها شيء وقالوا يريد أن يحثنا على أقاربه من بعده فنزل جبريل عليه الصلاة والسلام فأخبره أنهم اتهموه وأنزل الله هذه الآية فقال القوم يا رسول الله فإنا نشهد أنك صادق فنزل قوله عز وجل: ﴿وهو الذي يقبل التوبة عن عباده﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما يريد أولياؤه وأهل طاعته.

(فصل في ذكر التوبة وحكمها)

قال العلماء التوبة واجبة من كل ذنب فإن كانت المعصية بين العبد وبين الله تعالى لا تتعلق بحق آدمي فلها ثلاثة شروط:

أحدها: أن يقلع عن المعصية.

والثاني: أن يندم على فعلها.

والثالث: أن يعزم على أن لا يعود إليها أبداً.

قوله تعالى: ﴿ ومَن يقترفْ حسنةً نَزِدْ له فيها حسناً ﴾، أي: مَن يكتسب طاعةً نزد له فيها حسناً بالتضعيف، ﴿ إنّ الله غفور ﴾، الذنوب، ﴿ شكور ﴾، للقليل حتى يضاعفها.

﴿ أم يقولون ﴾، بل يقولون يعني كفّار مكة، ﴿ افترى على الله كذباً فإن يشأ الله يختم على قلبك ﴾، قال مجاهد: نربط على قلبك بالصبر حتى لا يشقّ عليك أذاهم، وقولهم إنه مُفترٍ، قال قتادة: بعني يطبع على قلبك فيُنسيك القرآن وما أتاك، فأخبرهم أنه لو افترى على الله كذباً لفعل به ما أخبر عنه في هذه الآية، ثم ابتدأ فقال: ﴿ ويمحُ الله الباطل ﴾، قال الكسائي: فيه تقديم وتأخير مجازه: والله يمحو الباطل. فهو في محل رفع ولكنه حذفت منه الواو في المصحف على اللفظ كما حذفت من قوله: ﴿ ويدع الإنسان ﴾ [الإسراء: ١١] و﴿ سندع الزبانية ﴾ [العلق: ١٧] أخبر أن ما يقولونه باطل يمحوه الله، ﴿ ويحقّ الحق بكلماته ﴾، أي الإسلام بما أنزل من كتابه، وقد فعل الله ذلك فمحا باطلهم وأعلى كلمة الإسلام، ﴿ إنه عليم بذات الصدور ﴾، قال ابن عباس: لمّا نزلت: ﴿ قل لا أسألكم عليه أجراً إلاّ المودّة في القربى ﴾، وقع في قلوب قوم منها شيء وقالوا يريد أن يحثّنا على أقاربه من بعده، فنزل جبريل فأخبره أنهم اتّهموه وأنزل هذه الآية، فقال القوم الذين اتهموه: يا رسول الله أنشهد أنك صادق؟

فإذا حصلت هذه الشروط صحت التوبة وإن فقد أحد الثلاثة لم تصح توبته وإن كانت المعصية تتعلق بحق آدمي فشروطها أربعة هذه الثلاثة والشرط الرابع أن يبرأ من حق صاحبها فهذه شروط التوبة وقيل التوبة الانتقال عن المعاصي نية وفعلاً والإقبال على الطاعات نية وفعلاً، وقال سهل بن عبد الله التستري: التوبة الانتقال من الأحوال المذمومة إلى الأحوال المحمودة (خ). عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول «والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة» (م) عن الأغر بن بشار المزني قال «قال رسول الله ﷺ يا أيها الناس توبوا إلى الله فإني أتوب إليه في اليوم مائة مرة» (ق) عن عبد الله بن مسعود قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول «لله أفرح بتوبة عبده المؤمن من رجل نزل في أرض دوية مهلكة معه راحلته عليها طعامه وشرابه فوضع رأسه فنام نومة فاستيقظ وقد ذهبت راحلته فطلبها حتى إذا اشتد الحر والعطش أو ما شاء الله قال أرجع إلى مكاني الذي كنت فيه فأنام حتى أموت فوضع رأسه على ساعده ليموت فاستيقظ فإذا راحلته عنده عليها طعامه وشرابه فالله أشد فرحاً بتوبة العبدالمؤمن من هذا براحلته وزاده الدوية الفلاة والمفازة» (ق) عن أنس رضي الله تعالى عنه قال قال رسول الله ﷺ «لله أفرح بتوبة عبده المؤمن من أحدكم سقط على بعيره وقد أضله في أرض فلاة» ولمسلم عنه قال: قال رسول الله ﷺ «لله أشد فرحاً بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه فأيس منها فأتى شجرة فاضطجع في ظلها قد أيس من راحلته فبينا هو كذلك إذ هو بها قائمة عنده فأخذ بخطامها ثم قال من شدة فرحه اللهم أنت عبدي وأنا ربك أخطأ من شدة الفرح» عن صفوان بن عسال المرادي قال: قال رسول الله ﷺ «إن الله جعل بالمغرب باباً عرضه مسيرة سبعين عاماً للتوبة لا يغلق ما لم تطلع الشمس من قبله وذلك قوله تعالى: ﴿**يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفساً إيمانها**﴾» الآية أخرجه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح، وعن ابن عمر رضي الله عنهما: عن النبي ﷺ قال «إن الله عز وجل يقبل توبة العبد ما لم يغرغر» أخرجه الترمذي وقال حديث حسن غريب (م). عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال «إن الله عز وجل يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ويبسط يده بالنهار

فنزل: ﴿ **وهو الذي يقبل التوبة عن عباده** ﴾، قال ابن عباس: يريد أولياءه وأهل طاعته، قيل: التوبة ترك المعاصي نيّةً وفعلاً، والإقبال على الطاعة نيّةً وفعلاً، قال سهل بن عبد الله: التوبة الانتقال من الأحوال المذمومة إلى الأحوال المحمودة. ﴿ **ويعفوا عن السيئات** ﴾، إذا تابوا فلا يُؤاخذهم بها، أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أبو منصور محمد بن محمد بن سمعان ثنا أبو جعفر محمد بن أحمد بن عبد الجبار الرياني أنا حميد بن زنجويه ثنا يحيىٰ بن حمّاد ثنا أبو عوانة عن سليمان الأعمش عن عمارة بن عمير عن الحارث بن سويد قال: دخلت على عبد الله أعوده، فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الله أفرح بتوبة عبده من رجل، أظنه قال: في بريّة مهلكة معه راحلته عليها طعامه وشرابه، فنزل فنام فاستيقظ وقد ضلّتْ راحلته، فطاف عليها حتى أدركه العطش، فقال أرجع إلى حيث كانت راحلتي فأموت عليه، فرجع فأغفى فاستيقظ فإذ هو بها عنده عليها طعامه وشرابه»، أخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر أنا عبد الغافر بن محمد أنا محمد بن عيسى الجلودي ثنا إبراهيم بن محمد بن سفيان ثنا مسلم بن الحجّاج ثنا محمد بن الصباح وزهير بن حرب قالا: ثنا عمر بن يونس ثنا عكرمة بن عمّار ثنا إسحاق بن أبي طلحة حدّثني أنس بن مالك وهو عمّه قال: قال رسول الله ﷺ: «الله أشدّ فرحاً بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة، فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه، فأيس منها فأتى شجرةً فاضطجع في ظلّها، وقد أيس من راحلته، فبينما هو كذلك إذْ هو بها قائمة عنده، فأخذ بخطامها ثم قال من شدّة الفرح: اللّهمَّ أنت عبدي وأنا ربك، أخطأ من شدّة الفرح». ﴿ **ويعفوا عن السيئات** ﴾ فيمحوها إذا تابوا. ﴿ **ويعلم ما تفعلون** ﴾، قرأ حمزة والكسائي وحفص ﴿ **تفعلون** ﴾ بالتاء، وقالوا: هو خطاب للمشركين، قرأ الآخرون بالياء لأنه بين خبرين

ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها» وقوله عز وجل: ﴿ويعفو عن السيئات﴾ أي يمحوها إذا تابوا ﴿ويعلم ما تفعلون﴾ يعني من خير وشر فيجازيهم عليهم.

﴿وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۚ وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾ ۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾﴾

﴿ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ يعني يجيب المؤمنون الله تعالى فيما دعاهم لطاعته وقيل معناه ويجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات إذا دعوه، وقال ابن عباس: ويثبت الذين آمنوا ﴿ويزيدهم من فضله﴾ أي سوى ثواب أعمالهم تفضلاً منه، وقال ابن عباس: يشفعهم في إخوانهم ويزيدهم من فضل، قال في إخوان إخوانهم ﴿والكافرون لهم عذاب شديد﴾ قوله عز وجل: ﴿ولو بسط الله الرزق لعباده﴾ قال خباب بن الأرت: فينا نزلت هذه الآية وذلك أنا نظرنا إلى أموال بني قريظة والنضير وبني قينقاع فتمنيناها فأنزل الله تعالى: ﴿ولو بسط الله الرزق لعباده﴾ أي وسع الله الرزق لعباده ﴿لبغوا﴾ أي لطغوا وعتوا ﴿في الأرض﴾ قال ابن عباس: بغيهم طلبهم منزلة بعد منزلة ومركباً بعد مركب وملبساً بعد ملبس، وقيل: إن الإنسان متكبر بالطبع فإذا وجد الغنى والقدرة رجع إلى مقتضى طبعه وهو التكبر وإذا وقع في شدة ومكروه وفقر انكسر فرجع إلى الطاعة والتواضع، وقيل: إن البغي مع القبض والفقر أقل ومع البسط والغنى أكثر لأن النفس مائلة إلى الشر لكنها إذا كانت فاقدة لآلاته كان الشر أقل وإذا كانت واجدة لها كان الشر أكثر فثبت أن وجدان المال يوجب الطغيان ﴿ولكن ينزل بقدر ما يشاء﴾ يعني الأرزاق نظراً لمصالح عباده وهو قوله تعالى: ﴿إنه بعباده خبير بصير﴾ والمعنى أنه تعالى عالم بأحوال عباده وبطبائعهم وبعواقب أمورهم فيقدر أرزاقهم على وفق مصالحهم يدل على ذلك ما روى أنس بن مالك عن النبي ﷺ عن جبريل عن الله عز وجل قال «يقول الله عز وجل من أهان لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة وإني لأغضب لأوليائي كما يغضب الليث الحرد، وما تقرب إلي عبدي المؤمن بمثل أداء ما افترضت عليه وما يزال عبدي المؤمن يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت له

عن قوم، فقال: قبله يقبل التوبة عن عباده، وبعده ويزيدهم من فضله.

﴿ ويستجيب الذين آمنوا ﴾، أي ويجيب الذين آمنوا، ﴿ وعملوا الصالحات ﴾، إذا دعوه، وقال عطاء عن ابن عباس: ويثبّت الذين آمنوا. ﴿ ويزيدهم من فضله ﴾، سوى ثواب أعمالهم تفضلاً منه. وقال أبو صالح عنه: يُشفّعهم في إخوانهم، ويزيدهم من فضله. قال في إخوان إخوانهم. ﴿ والكافرون لهم عذاب شديد ﴾.

﴿ ولو بسط الله الرزق لعباده ﴾، قال خبّاب بن الأرت: فينا نزلت هذه الآية، وذلك أنّا نظرنا إلى أموال بني قريظة والنضير وبني قينقاع فتمنّيناها فأنزل الله عزّ وجلّ هذه الآية ﴿ ولو بسط الله الرزق ﴾ وسع الله الرزق ﴿ لعباده ﴾، ﴿ لبغوا ﴾، لطغوا وعتوا، ﴿ في الأرض ﴾، قال ابن عباس: بغيهم طلبهم منزلةً بعد منزلة ومركباً بعد مركب وملبس بعد ملبس. ﴿ ولكن ينزل ﴾، أرزاقهم، ﴿ بقدر ما يشاء ﴾، كما يشاء نظراً منه لعباده ولحكمة اقتضتها قدرته، ﴿ إنه بعباده خبير بصير ﴾، أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحي أنا أبو عمر بكر بن محمد المزني ثنا أبو بكر محمد بن عبد الله حفيد العباس بن حمزة ثنا الحسين بن الفضل البجلي ثنا أبو حفص عمر بن سعيد الدمشقي ثنا صدقة عن عبد الله ثنا هشام الكناني عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ عن جبريل عن الله عزّ وجلّ قال: «يقول الله عزّ وجلّ مَن أهان لي وليّاً فقد بارزني بالمحاربة، وإني لأغضب لأوليائي كما يغضب الليث

سمعاً وبصراً ويداً ومؤيداً إن دعاني أجبته وإن سألني أعطيته وما ترددت في شيء أنا فاعله ترددي في قبض روح عبدي المؤمن يكره الموت وأكره مساءته ولا بد له منه وإن من عبادي المؤمنين لمن يسألني الباب من العبادة فأكفه عنه أن لا يدخله عجب فيفسده ذلك وإن من عبادي المؤمنين لمن لا يصلح إيمانه إلا الغنى لو أفقرته لأفسده ذلك وإن من عبادي المؤمنين لمن لا يصلح إيمانه إلا الفقر ولو أغنيته لأفسده ذلك وإن من عبادي المؤمنين لمن لا يصلح إيمانه إلا الصحة ولو أسقمته لأفسده ذلك وإن من عبادي المؤمنين لمن لا يصلح إيمانه إلا السقم ولو أصححته لأفسده ذلك إني أدبر أمر عبادي بعلمي بقلوبهم إني عليم خبير» أخرجه البغوي بإسناده.

قوله عز وجل: ﴿وهو الذي ينزل الغيث من بعد ما قنطوا﴾ أي يئس الناس منه وذلك أدعى لهم إلى الشكر قيل حبس الله المطر عن أهل مكة سبع سنين حتى قنطوا ثم أنزل الله عز وجل المطر فذكرهم نعمته لأن الفرح بحصول النعمة بعد الشدة أتم ﴿وينشر رحمته﴾ أي يبسط بركات الغيث ومنافعه وما يحصل به من الخصب ﴿وهو الولي﴾ أي لأهل طاعته ﴿الحميد﴾ أي المحمود على ما يوصل إلى الخلق من أقسام رحمته.

وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٣١﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾

﴿ومن آياته خلق السموات والأرض وما بث﴾ أي أوجد ﴿فيهما﴾ أي في السموات والأرض ﴿من دابة﴾.

فإن قلت كيف يجوز إطلاق لفظ الدابة على الملائكة.

الحرد، وما تقرّب إليّ عبدي المؤمن بمثل أداء ما افترضت عليه، وما يزال عبدي المؤمن يتقرّب إليّ بالنوافل حتى أُحبّه، فإذا أحببته كنت له سمعاً وبصراً ولساناً ويداً ومؤيداً، إن دعاني أجبته، وإن سألني أعطيته وما ترددت في شيء أنا فاعله تردّدي في قبض روح عبدي المؤمن يكره الموت، وأنا أكره مساءته ولا بدّ له منه، وإن من عبادي المؤمنين لمَن يسألني الباب من العبادة فأكفه عنه أنْ لا يدخله عُجبٌ فيفسده ذلك، وإنّ من عبادي المؤمنين لمَن لا يصلح إيمانه إلاّ الغنى ولو أفقرته لأفسده ذلك، وإنّ من عبادي المؤمنين لمَن لا يصلح إيمانه إلاّ الفقر ولو أغنيته لأفسده ذلك، وإنّ من عبادي المؤمنين لمَن لا يصلح إيمانه إلاّ الصحّة ولو أسقمته لأفسده ذلك، وإنّ من عبادي المؤمنين لمَن لا يصلح إيمانه إلاّ السّقم ولو أصححته لأفسده ذلك، إني أدبّر أمر عبادي بعلمي بقلوبهم إني عليم خبير».

قوله عزّ وجلّ: ﴿ وهو الذي يُنزِل الغيث ﴾، المطر، ﴿ من بعد ما قنطوا ﴾، يعني من بعد ما يئس الناس منه وذلك أدعى لهم إلى الشكر، قال مقاتل: حبس الله المطر عن أهل مكة سبع سنين حتى قنطوا، ثم أنزل الله المطر فذكّرهم الله نعمته، ﴿ وينشر رحمته ﴾، يبسط مطره، كما قال: ﴿ وهو الذي يُرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته ﴾ [الفرقان: ٤٨]. ﴿ وهو الوليّ ﴾، لأهل طاعته، ﴿ الحميد ﴾، عند خلقه.

﴿ ومن آياته خلق السمٰوات والأرض وما بثّ فيهما من دابّة وهو على جمعهم إذا يشاء قدير ﴾، يعني يوم القيامة.

قلت الدبيب في اللغة المشي الخفيف على الأرض، فيحتمل أن يكون للملائكة مشي مع الطيران فيوصفون بالدبيب كما يوصف به الإنسان، وقيل: يحتمل أن الله تعالى خلق في السموات أنواعاً من الحيوانات يدبون دبيب الإنسان ﴿**وهو على جمعهم إذا يشاء قدير**﴾ يعني يوم القيامة.

قوله عز وجل: ﴿**وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم**﴾ المراد بهذه المصائب الأحوال المكروهة نحو الأوجاع والأسقام والقحط والغلاء والغرق والصواعق وغير ذلك من المصائب فبما كسبت أيديكم من الذنوب والمعاصي ﴿**ويعفو عن كثير**﴾ قال ابن عباس: لما نزلت هذه الآية قال رسول الله ﷺ «والذي نفسي بيده ما من خدش عود ولا عثرة قدم ولا اختلاج عرق إلا بذنب وما يعفو الله عنه أكثر» وروى البغوي بإسناد الثعلبي عن أبي سخيلة قال: قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه «ألا أخبركم بأفضل آية في كتاب الله حدثنا بها رسول الله ﷺ ﴿**وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير**﴾ وسأفسرها لكم يا علي ﴿**ما أصابكم من مصيبة**﴾ أي من مرض أو عقوبة أو بلاء في الدنيا ﴿**فبما كسبت أيديكم**﴾ والله أكرم من أن يثني عليكم العقوبة في الآخرة وما عفا الله عنه في الدنيا فالله أحلم من أن يعود بعد عفوه» وقال عكرمة: ما من نكبة أصابت عبداً فما فوقها إلا بذنب لم يكن الله ليغفر له إلا بها أو درجة لم يكن الله ليرفعه لها إلا بها (ق). عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: قال رسول الله ﷺ «لا يصيب المؤمن شوكة فما فوقها إلا رفعه الله بها درجة وحط عنه بها خطيئة» ﴿**وما أنتم بمعجزين**﴾ أي بفائتين ﴿**في الأرض**﴾ هرباً يعني لا تعجزونني حيثما كنتم ﴿**وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير**﴾ قوله عز وجل: ﴿**ومن آياته الجوار**﴾ يعني السفن وهي السيارة ﴿**في البحر كالأعلام**﴾ أي كالقصور وكل شيء مرتفع عند العرب فهو علم ﴿**إن يشأ يسكن الريح**﴾ أي

﴿ **وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم** ﴾، قرأ أهل المدينة والشام (بما كسبت) بغير فاء، وكذلك هو في مصاحفهم، فمَن حذف الفاء جعل ما في أول الآية بمعنى الذي أصابكم بما كسبت أيديكم. ﴿ **ويعفوا عن كثير** ﴾، قال الحسن: لمّا نزلت هذه الآية قال رسول الله ﷺ: «والذي نفس محمد بيده ما من خدش عود ولا عثرة قدم، ولا اختلاج عرق إلّا بذنب، وما يعفوا الله عنه أكثر»، أخبرنا أبو سعيد الشريحي أنا أبو إسحاق الثعلبي أخبرني أبو عبد الله بن فنجويه ثنا أبو بكر بن مالك القطيعي ثنا بشر بن موسى الأسدي ثنا خلف بن الوليد ثنا مروان بن معاوية أخبرني الأزهر بن راشد الباهلي عن الخضر بن القوّاس البجلي عن أبي سخيلة قال: قال عليّ بن أبي طالب: ألا أُخبركم بأفضل آية في كتاب الله عزّ وجلّ حدّثنا بها رسول الله ﷺ؟ ﴿ **وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفوا عن كثير** ﴾، قال: وسأفسّرها لك يا علي: «ما أصابكم من مرض أو عقوبة أو بلاء في الدنيا فبما كسبت أيديكم، والله عزّ وجلّ أكرم من أن يثني عليهم العقوبة في الآخرة، وما عفا الله عنكم في الدنيا فالله أحلم من أن يعود بعد عفوه»، قال عكرمة: ما من نكبة أصابت عبداً فما فوقها إلّا بذنب لم يكن الله ليغفر له إلّا بها أو درجة لم يكن الله ليبلغه إلّا بها.

﴿ **وما أنتم بمعجزين** ﴾، بفائتين، ﴿ **في الأرض** ﴾، هرباً يعني لا تعجزونني حيث ما كنتم ولا تسبقونني، ﴿ **وما لكم من دون الله من وليّ ولا نصير** ﴾.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ **ومن آياته الجوار** ﴾، يعني السفن، واحدتها جارية وهي السائرة، ﴿ **في البحر كالأعلام** ﴾، أي الجبال، قال مجاهد: القصور واحدها علم، وقال الخليل بن أحمد: كل شيء مرتفع عند العرب فهو علم.

﴿ **إن يشأ يسكن الريح** ﴾، التي تجريها، ﴿ **فيظللن** ﴾، يعني الجواري، ﴿ **رواكد** ﴾، ثوابت، ﴿**على**

التي تجري بها السفن ﴿فيظللن﴾ يعني السفن الجواري ﴿رواكد﴾ أي ثوابت ﴿على ظهره﴾ أي ظهر البحر لا تجري ﴿إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور﴾ وهذه صفة المؤمن لأنه يصبر في الشدة ويشكر في الرخاء.

﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾ وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٣٥﴾ فَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾

﴿أو يوبقهن﴾ أي يغرقهن ويهلكهن ﴿بما كسبوا﴾ أي بما كسبت ركابها من الذنوب ﴿ويعف عن كثير﴾ أي من ذنوبهم فلا يعاقب عليها ﴿ويعلم الذين يجادلون في آياتنا ما لهم من محيص﴾ يعني يعلم الذين يكذبون بالقرآن إذا صاروا إلى الله تعالى ما لهم من مهرب من عذابه ﴿فما أوتيتم من شيء﴾ أي من زينة الدنيا ﴿فمتاع الحياة الدنيا﴾ أي ليس هو من زاد المعاد ﴿وما عند الله﴾ أي من الثواب ﴿خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون﴾ والمعنى أن المؤمن والكافر يستويان في متاع الحياة الدنيا فإذا صارا إلى الله تعالى كان ما عند الله من الثواب خيراً وأبقى للمؤمن ﴿والذين يجتنبون كبائر الإثم﴾ يعني كل ذنب تعظم عقوبته كالقتل والزنا والسرقة وشبه ذلك ﴿والفواحش﴾ يعني ما عظم قبحه من الأقوال والأفعال ﴿وإذا ما غضبوا هم يغفرون﴾ يعني يكظمون الغيظ ويحلمون ﴿والذين استجابوا لربهم﴾ يعني أجابوا إلى ما دعاهم إليه من طاعته ﴿وأقاموا الصلاة﴾ يعني المفروضة ﴿وأمرهم شورى بينهم﴾ يعني يتشاورون فيما يبدو لهم ولا يعجلون ولا ينفردون برأي، ما لم يجتمعوا عليه قيل.

ظهره﴾، على ظهر البحر لا تجري، ﴿ **إن في ذلك لآيات لكل صبّار شكور** ﴾، أي لكل مؤمن لأن صفة المؤمن الصبر في الشدّة والشكر في الرخاء.

﴿ **أو يُوبِقْهُنّ** ﴾، يهلكهنّ ويغرقهنّ، ﴿ **بما كسبوا** ﴾، أي بما كسبت ركبانها من الذنوب، ﴿ **ويعفُ عن كثير** ﴾، من ذنوبهم فلا يعاقب عليها.

﴿ **ويعلم** ﴾، قرأ أهل المدينة والشام: ﴿ **ويعلم** ﴾ برفع الميم على الاستئناف كقوله عزّ وجلّ في سورة براءة [١٥]: ﴿ ويتوب الله على مَن يشاء ﴾، وقرأ الآخرون بالنصب على الصرف والجزم إذا صرف عنه معطوفه نصب، وهو كقوله تعالى: ﴿ ويعلم الصابرين ﴾ [آل عمران: ١٤٢]، صرف من حال الجزم إلى النصب استخفافاً وكراهية لتوالي الجزم. ﴿ **الذين يجادلون في آياتنا ما لهم من محيص** ﴾، أي يعلم الذين يكذبون بالقرآن إذا صاروا إلى الله بعد البعث أن لا مهرب لهم من عذاب الله.

﴿ **فما أُوتيتم من شيء** ﴾، من رياش الدنيا، ﴿ **فمتاع الحياة الدنيا** ﴾، لي من زاد المعاد، ﴿ **وما عند الله** ﴾، من الثواب، ﴿ **خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون** ﴾، فيه بيان أن المؤمن والكافر يستويان في أن الدنيا متاع لهم يتمتعان بها فإذا صار إلى الآخرة كان ما عند الله خيراً للمؤمن.

﴿ **والذين يجتنبون كبائر الإثم** ﴾، قرأ حمزة والكسائي: (كبير الإثم) على الواحد ههنا، وفي سورة النجم [٣٢]، وقرأ الآخرون: ﴿ **كبائر** ﴾ بالجمع، وقد ذكرنا معنى الكبائر في سورة النساء. ﴿ **والفواحش** ﴾، قال السدي: يعني الزنا. وقال مجاهد ومقاتل: ما يوجب الحدّ. ﴿ **وإذا ما غضبوا هم يغفرون** ﴾، يحلمون ويكظمون الغيظ ويتجاوزون.

ما تشاور قوم إلا هدوا إلى أرشد أمرهم ﴿ومما رزقناهم ينفقون والذين إذا أصابهم البغي﴾ يعني الظلم والعدوان ﴿هم ينتصرون﴾ يعني ينتقمون من ظالمهم من غير تعد قال ابن زيد جعل الله تعالى المؤمنين صنفين صنف يعفون عمن ظلمهم فبدأ بذكرهم وهو قوله تعالى: ﴿وإذا ما غضبوا هم يغفرون﴾ وصنف ينتصرون من ظالمهم وهم الذين ذكروا في هذه الآية، وقال إبراهيم النخعي: كانوا يكرهون أن يذلوا أنفسهم فإذا قدروا عفوا. وقيل: إن العفو إغراء للسفيه وقال عطاء: هم المؤمنون الذين أخرجهم الكفار من مكة وبغوا عليهم ثم مكنهم الله عز وجل في الأرض حتى انتصروا ممن ظلمهم ثم بين الله تعالى أن شرعة الانتصار مشروطة برعاية المماثلة فقال تعالى:

وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعۡدَ ظُلۡمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيۡهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظۡلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴿٤٣﴾ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيّٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦۗ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ يَقُولُونَ هَلۡ إِلَىٰ مَرَدّٖ مِّن سَبِيلٖ ﴿٤٤﴾

﴿وجزاء سيئة سيئة مثلها﴾ سمي الجزاء سيئة وإن لم يكن سيئة لتشابههما في الصورة وقيل لأن الجزاء يسوء من ينزل به، وقيل هو جزاء القبيح إذا قال أخزاك الله فقل له أخزاك الله ولا تزد وإذا شتمك فاشتمه بمثلها ولا تعتدوا وقيل هو في القصاص في الجراحات والدماء يقتص بمثل ما جنى عليه وقيل إن الله تعالى لم يرغب في الانتصار بل بين أنه مشروع ثم بين أن العفو أولى بقوله تعالى: ﴿فمن عفا﴾ أي عمن ظلمه ﴿وأصلح﴾ أي بالعفو بينه وبين الظالم ﴿فأجره

﴿ والذين استجابوا لربهم ﴾، أجابوه إلى ما دعاهم إليه من طاعته، ﴿ وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ﴾، يتشاورون فيما يبدو لهم ولا يعجلون ﴿ ومما رزقناهم ينفقون ﴾.

﴿ والذين إذا أصابهم البغي ﴾، الظلم والعدوان، ﴿ هم ينتصرون ﴾، ينتقمون من ظالميهم من غير أن يعتدوا. قال ابن زيد: جعل الله المؤمنين صنفين صنف يعفون عن ظالميهم فبدأ بذكرهم، وهو قوله: ﴿ وإذا ما غضبوا هم يغفرون ﴾، وصنف ينتصرون من ظالميهم وهم الذين ذكروا في هذه الآية. قال إبراهيم: في هذه الآية كانوا يكرهون أن يستذلّوا فإذا قدروا عفوا. قال عطاء: هم المؤمنون الذين أخرجهم الكفّار من مكة وبغوا عليهم مكّنهم الله في الأرض حتى انتصروا ممّن ظلمهم، ثم ذكر الله الانتصار فقال:

﴿ وجزاءُ سيئةٍ سيئةٌ مثلها ﴾، سمّى الجزاء سيئة وإن لم يكن سيئة لتشابههما في الصورة. قال مقاتل: يعني القصاص في الجراحات والدماء. قال مجاهد والسدي: هو جواب القبيح إذا قال له أحد أخزاك الله يقول أخزاك الله، وإذا شتمك فاشتمه بمثلها من غير أن تعتدي. قال سفيان بن عيينة: قلت لسفيان الثّوري ما قوله عزّ وجلّ: ﴿ وجزاء سيئة سيئة مثلها ﴾؟ قال: إن يشتمك رجل فتشتمه أو أن يفعل بك فتفعل به، فلم أجد عنده شيئاً فسألت هشام بن حجيرة عن هذه الآية، فقال: الجارح إذا جرح يقتصّ منه وليس هو أن يشتمك فتشتمه. ثم ذكر العفو فقال: ﴿ فمَن عفا ﴾، عمّن ظلمه، ﴿ وأصلح ﴾، بالعفو بينه وبين ظالمه، ﴿ فأجره على الله ﴾، قال الحسن: إذا كان يوم القيامة نادى مُنادٍ: مَن كان له على الله أجْر فليقم فلا يقوم إلاّ مَن عفا، ثم قرأ هذه الآية. ﴿ إنه لا يحبّ الظالمين ﴾، قال ابن عباس: الذين يبدأون بالظلم.

﴿ ولمَن انتظر بعد ظلمه ﴾ أي بعد ظلم الظالم إياه، ﴿ فأولئك ﴾، يعني المنتصرين، ﴿ ما عليهم من سبيل ﴾، بعقوبة ومؤاخذة.

على الله﴾ قال الحسن: إذا كان يوم القيامة نادى مناد من كان له على الله أجر فليقم فلا يقوم إلا من عفا ثم قرأ هذه الآية **﴿إنه لا يحب الظالمين﴾** قال ابن عباس: الذين يبدؤون بالظلم **﴿ولمن انتصر بعد ظلمه﴾** أي بعد ظلم الظالم إياه **﴿فأولئك﴾** يعني المنتصرين **﴿ما عليهم من سبيل﴾** أي بعقوبة ومؤاخذة **﴿إنما السبيل على الذين يظلمون الناس﴾** أي يبدؤون بالظالم **﴿ويبغون في الأرض بغير الحق﴾** أي يعملون فيها بالمعاصي **﴿أولئك لهم عذاب أليم ولمن صبر﴾** أي لم ينتصر **﴿وغفر﴾** تجاوز عن ظالمه **﴿إن ذلك﴾** أي الصبر والتجاوز **﴿لمن عزم الأمور﴾** يعني تركه الانتصار لمن عزم الأمور الجيدة التي أمر الله عز وجل بها وقيل إن الصابر يؤتي بصبره الثواب فالرغبة في الثواب أتم عزماً **﴿ومن يضلل الله فما له من ولي من بعده﴾** يعني ما له من أحد يلي هدايته بعد إضلال الله إياه أو يمنعه من عذابه **﴿وترى الظالمين لما رأوا العذاب﴾** يعني يوم القيامة **﴿يقولون أهل إلى مرد من سبيل﴾** يعني أنهم يسألون الرجعة إلى الدنيا.

وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ ۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۚ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾ لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾

﴿وتراهم يعرضون عليها﴾ أي على النار **﴿خاشعين من الذل﴾** أي خاضعين متواضعين **﴿ينظرون من طرف خفي﴾** يعني يسارقون النظر إلى النار خوفاً منها وذلة في أنفسهم، وقيل ينظرون بطرف خفي أي ضعيف من الذل،

﴿ انما السبيل على الذين يظلمون الناس ﴾، يبدأون بالظلم، **﴿ ويبغون في الأرض بغير الحق ﴾**، يعملون فيها بالمعاصي، **﴿ أولئك لهم عذاب أليم ﴾**.

﴿ ولَمَن صبر وغفر ﴾، فلم ينتصر، **﴿ إن ذلك ﴾**، الصبر والتجاوز، **﴿ لمن عزم الأمور ﴾**، حقها وحزمها. قال مقاتل: من الأمور التي أمر الله بها. قال الزجّاج: الصابر يؤتى بصبره الثواب فالرغبة في الثواب أتمّ عزماً.

﴿ ومَن يضلل الله فما له من وليّ من بعده ﴾، فما له من أحد يلي هدايته بعد إضلال الله إيّاه أو يمنعه من عذاب الله، **﴿ وترى الظالمين لما رأوا العذاب ﴾**، يوم القيامة، **﴿ يقولون هل إلى مرد من سبيل ﴾**، يسألون الرجعة في الدنيا.

﴿ وتراهم يعرضون عليها ﴾، أي على النار، **﴿ خاشعين ﴾**، خاضعين متواضعين، **﴿ من الذلّ ينظرون من طرف خفي ﴾**، خفي النظر لما عليهم من الذلّ يسارقون النظر إلى النار خوفاً منها وذلّة في أنفسهم. وقيل: **﴿ من ﴾** بمعنى الباء أي بطرف خفي ضعيف من الذل. وقيل: إنما قال: **﴿ من طرف خفي ﴾** لأنه لا يفتح عينه إنما ينظر ببعضها. وقيل: معناه ينظرون إلى النار بقلوبهم لأنهم يحشرون عمياً والنظر بالقلب خفي. **﴿ وقال الذين آمنوا إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ﴾**، قيل: خسروا أنفسهم بأن صاروا إلى النار وأهليهم بأن صاروا لغيرهم في الجنة. **﴿ ألا إنّ الظالمين في عذاب مقيم ﴾**.

وقيل ينظرون إلى النار بقلوبهم لأنهم يحشرون عمياً والنظر بالقلب خفي ﴿**وقال الذين آمنوا إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم**﴾ يعني بأن صاروا إلى النار. ﴿**وأهليهم يوم القيامة**﴾ يعني وخسروا أهليهم بأن صاروا لغيرهم في الجنة ﴿**ألا إن الظالمين في عذاب مقيم وما كان لهم من أولياء ينصرونهم من دون الله ومن يضلل الله فما له من سبيل**﴾ أي وصول إلى الحق في الدنيا والجنة في العقبى فقد استدت عليهم طرق الخير ﴿**استجيبوا لربكم**﴾ أي أجيبوا داعي الله يعني محمداً ﷺ ﴿**من قبل من أن يأتي يوم لا مرد له من الله**﴾ أي لا يقدر أحد على دفعه وهو يوم القيامة وقيل هو يوم الموت ﴿**ما لكم من ملجأ يومئذ**﴾ أي ما لكم من مخلص من العذاب وقيل من الموت ﴿**وما لكم من نكير**﴾ أي ينكر حالكم وقيل النكير الإنكار يعني لا تقدرون أن تنكروا من أعمالكم شيئاً ﴿**فإن أعرضوا**﴾ أي عن الإجابة ﴿**فما أرسلناك عليهم حفيظاً**﴾ أي تحفظ أعمالهم ﴿**إن عليك إلا البلاغ**﴾ أي ليس عليك إلا البلاغ وفيه تسلية للنبي ﷺ ﴿**وإنا إذا أذقنا الإنسان منا رحمة**﴾ قال ابن عباس: يعني الغنى والصحة ﴿**فرح بها وإن تصبهم سيئة**﴾ أي قحط ﴿**بما قدمت أيديهم**﴾ أي من الأعمال الخبيثة ﴿**فإن الإنسان كفور**﴾ أي لما تقدم من نعمة الله تعالى عليه.

قوله عز وجل: ﴿**لله ملك السموات والأرض**﴾ يعني له التصرف فيهما بما يريد ﴿**يخلق ما يشاء**﴾ أي لا يقدر أحد أن يعترض عليه في ملكه وإرادته ﴿**يهب لمن يشاء إناثاً**﴾ أي فلا يولد له ذكر ﴿**ويهب لمن يشاء الذكور**﴾ أي فلا يولد له أنثى.

﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ ۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾﴾

﴿**أو يزوجهم ذكراناً وإناثاً**﴾ أي يجمع بينهما فيولد له الذكور والإناث ﴿**ويجعل من يشاء عقيماً**﴾ أي فلا يولد له

﴿ **وما كان لهم من أولياء ينصرونهم من دون الله ومَن يضلل الله فما له من سبيل** ﴾، طريق إلى الصواب وإلى الوصول إلى الحق في الدنيا والجنة في العقبى قد استدّت عليهم طرق الخير.

﴿ **استجيبوا لربكم** ﴾، أجيبوا داعي الله يعني محمداً ﷺ، ﴿ **من قبل أن يأتي يومٌ لا مردّ له من الله** ﴾، لا يقدر أحد على دفعه وهو يوم القيامة ﴿**ما لكم من ملجأ**﴾ تلجأون إليه ﴿ **يومئذ وما لكم من نكير** ﴾ من منكر يغيّر ما بكم.

﴿ **فإن أعرضوا** ﴾، عن الإجابة، ﴿ **فما أرسلناك عليهم حفيظاً إن عليك** ﴾، ما عليك، ﴿ **إلّا البلاغ وإنّا إذا أذقنا الإنسان منّا رحمة** ﴾، قال ابن عباس: يعني الغنى والصحة. ﴿ **فرح بها وإن تصبهم سيئة** ﴾، قحط، ﴿ **بما قدّمت أيديهم فإن الإنسان كفور** ﴾، أي لما تقدم من نعمة الله عليه ينسى ويجحد بأول شِدّة جميع ما سلف من النِّعَم.

﴿ **لله ملك السمٰوات والأرض** ﴾، له التصرّف فيهما بما يريد، ﴿ **يخلق ما يشاء يهب لمَن يشاء إناثاً** ﴾، فلا يكون له ولد ذكر، قيل: من يمن المرأة تبكيرها بالأنثى قبلَ الذكر لأن الله تعالى بدأ بالإناث، ﴿ **ويهب لمَن يشاء الذكور** ﴾، فلا يكون له أُنثى.

﴿ **أو يزوّجهم ذكراناً وإناثاً** ﴾، يجمع له بينهما فيولد له الذكور والإناث، ﴿ **ويجعل مَن يشاء عقيماً** ﴾، فلا

ولد، وقيل هذا في الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. فقوله يهب لمن يشاء إناثاً يعني لوطاً لم يولد له ذكر إنما ولد له ابنتان ويهب لمن يشاء الذكور يعني إبراهيم عليه الصلاة والسلام لم يولد له أنثى **﴿أو يزوجهم ذكراناً وإناثاً﴾** يعني محمداً ﷺ ولد له أربع بنين وأربع بنات ويجعل من يشاء عقيماً يعني يحيى وعيسى عليهما الصلاة والسلام لم يولد لهما وهذا على وجه التمثيل وإلا فالآية عامة في جميع الناس **﴿إنه عليم﴾** أي بما يخلق **﴿قدير﴾** أي على ما يريد أن يخلق.

قوله تعالى: **﴿وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً﴾** قيل في سبب نزولها: إن اليهود قالوا للنبي ﷺ ألا تكلم الله وتنظر إليه إن كنت نبياً كما كلمه موسى ﷺ ونظر إليه فقال لم ينظر موسى إلى لله تعالى فأنزل الله تعالى: **﴿وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً﴾** أي يوحي إليه في المنام أو بالإلهام كما رأى إبراهيم في المنام أن يذبح ولده وهو وحي وكما ألهمت أم موسى أن تقذفه في البحر **﴿أو من رواء حجاب﴾** أي يسمعه كلامه من وراء حجاب ولا يراه كما كلم موسى عليه الصلاة والسلام **﴿أو يرسل رسولاً﴾** يعني من الملائكة إما جبريل أو غيره **﴿فيوحي بإذنه ما يشاء﴾** يعني يوحي ذلك الرسول إلى المرسل إليه بإذن الله ما يشاء وهذه الآية محمولة على أنه لا يكلم بشراً إلا من وراء حجاب في الدنيا ويأتي بيان هذه المسألة إن شاء الله تعالى في سورة النجم **﴿إنه على﴾** أي عن صفات المخلوقين **﴿حكيم﴾** أي في جميع أفعاله.

قوله عز وجل: **﴿وكذلك﴾** أي وكما أوحينا إلى سائر رسلنا **﴿أوحينا إليك روحاً من أمرنا﴾** قال ابن عباس: نبوة، وقيل: قرآناً لأن به حياة الأرواح، وقيل: رحمة وقيل جبريل **﴿ما كنت تدري﴾** أي قبل الوحي **﴿ما الكتاب﴾** يعني القرآن **﴿ولا الإيمان﴾** اختلف العلماء في هذه الآية مع اتفاقهم على أن الأنبياء قبل النبوة كانوا مؤمنين فقيل معناه ما كنت تدري قبل الوحي شرائع الإيمان ومعالمه.

وقال محمد بن إسحاق عن ابن خزيمة الإيمان في هذا الموضع الصلاة دليله **﴿وما كان الله ليضيع إيمانكم﴾** يعني صلاتكم ولم يرد به الإيمان الذي هو الإقرار بالله تعالى لأن النبي ﷺ كان قبل النبوة يوحد الله تعالى ويحج ويعتمر

يلد ولا يولد له. قيل: هذا في الأنبياء عليهم السلام **﴿ يهب لمَن يشاء إناثاً ﴾** يعني لوطاً لم يولد له ذكر إنما ولد له ابنتان، **﴿ ويهب لمَن يشاء الذكور ﴾** يعني إبراهيم عليه السلام لم يولد له أُنثى، **﴿ أو يزوّجهم ذكراناً وإناثاً ﴾** يعني محمد ﷺ ولد له بنون وبنات، **﴿ ويجعل مَن يشاء عقيماً ﴾** يحيىٰ وعيسى عليهما السلام لم يولد لهما، وهذا على وجه التمثيل، والآية عامّة في حق كافّة الناس. **﴿ إنه عليم قدير ﴾**.

قوله عزّ وجلّ: **﴿ وما كان لبشر أن يكلمه الله إلاّ وحياً ﴾**، وذلك أن اليهود قالُوا للنبي ﷺ ألا تُكلّم الله وتنظر إليه إن كنتَ نبياً كما كلّمه موسى ونظر إليه؟ فقال: لم ينظر موسى إلى الله عزّ وجلّ، فأنزل الله تعالى: **﴿ وما كان لبشر أن يكلّمه الله إلاّ وحياً ﴾** يوحي إليه في المنام أو بالإلهام، **﴿ أو من وراء حجاب ﴾**، يُسمِعه كلامه ولا يراه كما كلّمه موسى عليه الصلاة والسلام، **﴿ أو يرسل رسولاً ﴾**، إما جبريل أو غيره من الملائكة، **﴿ فيوحي بإذنه ما يشاء ﴾**، أي يوحي ذلك الرسول إلى المرسل إليه بإذن الله ما يشاء، قرأ نافع: **﴿ أو يرسل ﴾** برفع اللام على الابتداء، **﴿ فيوحي ﴾** ساكنة الياء، وقرأ الآخرون بنصب اللام والياء عطفاً على محل الوحي لأن معناه: وما كان لبشر أن يكلّمه الله إلاّ أن يوحي إليه أو يرسل رسولاً. **﴿ إنه عليٌّ حكيم ﴾**.

﴿ وكذلك ﴾، أي كما أوحينا إلى سائر رسلنا، **﴿ أوحينا إليك روحاً من أمرنا ﴾**، قال ابن عباس: نبوّة. وقال الحسن: رحمة. وقال السدي ومقاتل: وحياً. وقال الكلبي: كتاباً. وقال الربيع: جبريل. وقال مالك بن

ويبغض اللات والعزى ولا يأكل ما ذبح على النصب وكان يتعبد على دين إبراهيم عليه الصلاة والسلام ولم تتبين له شرائع دينه إلا بعد الوحي إليه ﴿ولكن جعلناه نوراً﴾ قال ابن عباس يعني الإيمان وقيل القرآن لأنه يهتدي به من الضلالة وهو قوله تعالى: ﴿نهدي به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدي﴾ أي لتدعو ﴿إلى صراط مستقيم﴾ يعني إلى دين الإسلام.

﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾

﴿صراط الله﴾ يعني دين الله الذي شرعه لعباده ﴿الذي له ما في السموات وما في الأرض ألا إلى الله تصير الأمور﴾ يعني أمور الخلائق في الآخرة فيثيب المحسن ويعاقب المسيء والله سبحانه وتعالى أعلم بمراده وأسرار كتابه.

دينار: يعني القرآن. ﴿ ما كنت تدري ﴾، قبل الوحي، ﴿ ما الكتاب ولا الإيمان ﴾، يعني شرائع الإيمان ومعالمه، قال محمد بن إسحاق بن خزيمة: الإيمان في هذا الموضع الصلاة، ودليله قوله عزّ وجلّ: ﴿ وما كان الله ليضيّع إيمانكم ﴾ [البقرة: ١٤٣] وأهل الأصول على أن الأنبياء عليهم السلام كانوا مؤمنين قبل الوحي وكان النبي ﷺ يعبد الله قبل الوحي على دين إبراهيم، ولم يتبيّن له شرائع دينه، ﴿ ولكن جعلناه نوراً ﴾، قال ابن عباس: يعني الإيمان. وقال السدي: يعني القرآن. ﴿ نهدي به ﴾، نرشد به، ﴿ مَن نشاء من عبادنا وإنك لتهدي ﴾، أي لتدعو، ﴿ إلى صراط مستقيم ﴾، يعني الإسلام.

﴿ صراط الله الذي له ما في السمٰوات وما في الأرض ألَا إلى الله تصير الأمور ﴾، أي أمور الخلائق كلها في الآخرة.

سورة الزخرف

مكية وهي تسع وثمانون آية وثلاث وثلاثون كلمة[1] وثلاثة آلاف وأربعمائة حرف.

بسم الله الرحمن الرحيم

حمٓ ﴿١﴾ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴿٣﴾ وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾ أَفَنَضۡرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكۡرَ صَفۡحًا أَن كُنتُمۡ قَوۡمٗا مُّسۡرِفِينَ ﴿٥﴾

قوله عز وجل: ﴿**حمٓ والكتاب المبين**﴾ أقسم بالكتاب وهو القرآن الذي أبان طرق الهدى من طرق الضلالة وأبان ما تحتاج إليه الأمة من الشريعة وقيل المبين يعني الواضح للمتدبرين وجواب القسم ﴿**إنا جعلناه**﴾ أي صيرنا هذا الكتاب عربياً وقيل بيناه وقيل سميناه وقيل وصفناه وقيل أنزلناه ﴿**قرآناً عربياً لعلكم تعقلون**﴾ يعني معانيه وأحكامه ﴿**وإنه**﴾ يعني القرآن ﴿**في أم الكتاب**﴾ أي في اللوح المحفوظ، قال ابن عباس: أول ما خلق الله عز وجل القلم فأمره أن يكتب ما يريد أن يخلق في الكتاب عنده ثم قرأ ﴿**وإنه في أم الكتاب لدينا**﴾ أي عندنا فالقرآن مثبت عند الله تعالى في اللوح المحفوظ ﴿**لعلي حكيم**﴾ أخبر عن شرفه وعلو منزلته، والمعنى إن كذبتم يا أهل مكة بالقرآن فإنه عندنا لعليّ أي رفيع شريف، وقيل على علي جميع الكتب حكيم أي محكم لا يتطرق إليه الفساد والبطلان.

سُوْرَةَ الزّخرف

مكيّة وهي تسع وثمانون آية.

﴿ **حمٓ * والكتاب المبين** ﴾، أقسم بالكتاب الذي أبان طرق الهدى من طرق الضلالة وأبان ما تحتاج إليه الأمة من الشريعة.

﴿ **إنّا جعلناه قرآناً عربياً لعلّكم تعقلون** ﴾، قوله جعلناه أي صيّرنا الكتاب عربياً. وقيل: بيّناه: وقيل: سمّيناه. وقيل: وصفناه، يقال جعل فلان زيداً أعلم الناس، أي وصفه بهذا كقوله تعالى: ﴿ وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً ﴾ [الزخرف: ١٩] وقوله: ﴿ جعلوا القرآن عضين ﴾ [الحجر: ٩١]، وقال: ﴿ أجعلتم سقاية الحاج ﴾ [التوبة: ١٩]، كلها بمعنى الوصف والتسمية.

﴿ **وإنه** ﴾، يعني القرآن، ﴿ **في أمّ الكتاب** ﴾، في اللوح المحفوظ قال قتادة: أمّ الكتاب أصل الكتاب، وأم كل شيء أصله. قال ابن عباس: أول ما خلق الله القلم فأمره أن يكتب بما يريد أن يخلق، فالكتاب عنده، ثم قرأ ﴿ **وإنه في أم الكتاب** ﴾. ﴿ **لدينا** ﴾، فالقرآن مثبت عند الله في اللوح المحفوظ كما قال: ﴿ بل هو قرآن مجيد في

---

(١) (قوله وثلاث وثلاثون كلمة) كذا بالأصل ولا يخفى ما فيه ا هـ مصححه.

قوله تعالى: ﴿أفنضرب عنكم الذكر صفحاً﴾ معناه أفنترك عنكم الوحي ونمسك عن إنزال القرآن فلا نأمر ولا نناهكم من أجل أنكم أسرفتم في كفركم وتركتم الإيمان وهو قوله تعالى: ﴿أن كنتم﴾ أي لأن كنتم ﴿قوماً مسرفين﴾ والمعنى لا نفعل ذلك قال قتادة والله لو كان هذا القرآن رفع حين رده أوائل هذه الأمة لهلكوا ولكن الله عز وجل عاد بعائدته وكرامته فكرره عليهم عشرين سنة أو ما شاء الله، وقيل: معناه أفنضرب عنكم بذكرنا إياكم صافحين أي معرضين عنكم، وقيل: معناه أفنطوي الذكر عنكم طياً فلا تدعون ولا توعظون وقيل أفنترككم فلا نعاقبكم على كفركم.

﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٧﴾ فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾ وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾﴾

﴿وكم أرسلنا من نبي في الأولين وما يأتيهم من نبي إلا كانوا به يستهزئون﴾ يعني كاستهزاء قومك بك وفيه تسلية للنبي ﷺ ﴿فأهلكنا أشد منهم بطشاً﴾ أي أقوى من قومك قوة ﴿ومضى مثل الأولين﴾ أي صفتهم والمعنى أن كفار قريش سلكوا في الكفر والتكذيب مسلك من كان قبلهم فليحذروا أن ينزل بهم مثل ما نزل بالأولين من الخزي والعقوبة.

لوح محفوظ﴾ [البروج: ٢٢]. ﴿لعليٌّ حكيم﴾، قال قتادة: يخبر عن منزلته وشرفه، أي أو كذبتم بالقرآن يا أهل مكة فإنه عندنا لعليٌّ رفيعٌ شريفٌ محكم من الباطل.

﴿أفنضرب عنكم الذكر صفحاً﴾، يقال: ضربت عنه وأضربت عنه إذا تركته وأمسكت عنه، والصفح مصدر قولهم صفحت عنه إذا أعرضت عنه، وذلك حين تولّيه وصفحة وجهك وعنقك والمراد بالذكر القرآن، ومعناه: أفنترك عنكم الوحي ونمسك عن إنزال القرآن فلا نأمركم ولا ننهاكم من أجل أنكم أسرفتم في كفركم وتركتم الإيمان؟ استفهام بمعنى الإنكار، أي لا نفعل ذلك، وهذا قول قتادة وجماعة، قال قتادة: والله لو كان هذا القرآن رفع حين ردّه أوائل هذه الأمة لهلكوا، ولكن الله عاد عليهم بعائدته ورحمته، فكرّره عليهم عشرين سنة أو ما شاء الله. وقيل: معناه أفنضرب عنكم بذكرنا إيّاكم صافحين مُعرِضين. قال الكسائي والسدي: أفنطوي عنكم الذكر طيّاً فلا تدعون ولا توعظون. وقال الكلبي: أفنترككم سُدىً لا نأمركم ولا ننهاكم. وقال مجاهد والسدي: أفنعرض عنكم ونترككم فلا نعاقبكم على كفركم. ﴿إن كنتم قوماً مسرفين﴾، قرأ أهل المدينة وحمزة والكسائي بكسر الهمزة على معنى إذ كنتم كقوله: ﴿وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين﴾ [آل عمران: ١٣٩]، وقرأ الآخرون بالفتح على معنى لأن كنتم مسرفين مشركين.

﴿وكم أرسلنا من نبي في الأولين * وما يأتيهم﴾، أي وما كان يأتيهم، ﴿من نبي إلّا كانوا به يستهزؤون﴾، كاستهزاء قومك بك، يعزّي نبيّه ﷺ.

﴿فأهلكنا أشدّ منهم بطشاً﴾، أي أقوى من قومك يعني الأوّلين الذين أهلكوا بتكذيب الرسل، ﴿ومضى

قوله عز وجل: ﴿ولئن سألتهم﴾ أي ولئن سألت يا محمد قومك ﴿من خلق السموات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم﴾ يعني أنهم أقروا بأن الله تعالى خلقهما وأقروا بعزته وعلمه ومع إقرارهم بذلك عبدوا غيره وأنكروا قدرته على البعث لفرط جهلهم ثم ابتدأ تعالى دالاً على نفسه بذكر مصنوعاته فقال تعالى: ﴿الذي جعل لكم الأرض مهداً﴾ معناه واقفة ساكنة يمكن الانتفاع بها ولما كان المهد موضع راحة الصبي فلذلك سمى الأرض مهاداً لكثرة ما فيها من الراحة للخلق ﴿وجعل لكم فيها سبلاً﴾ أي طرقاً ﴿لعلكم تهتدون﴾ يعني إلى مقاصدكم في أسفاركم ﴿والذي نزل من السماء ماء بقدر﴾ أي بقدر حاجاتكم إليه لا كما أنزل على قوم نوح حتى أهلكهم ﴿فأنشرنا به﴾ أي بالمطر ﴿بلدة ميتاً﴾ أي كما أحيينا هذه البلدة الميتة بالمطر ﴿كذلك تخرجون﴾ أي من قبوركم أحياء ﴿والذي خلق الأزواج كلها﴾ أي الأصناف والأنواع كلها قيل إن كل ما سوى الله تعالى فهو زوج وهو الفرد المنزه عن الأضداد والأنداد والزوجية ﴿وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون﴾ يعني في البر والبحر.

لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَـٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾ وَجَعَلُوا لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ۚ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَـٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوَمَن يُنَشَّؤُا فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾

﴿لتستوا على ظهوره﴾ أي على ظهور الفلك والأنعام ﴿ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه﴾ يعني بتسخير المركب في البر والبحر ﴿وتقولوا سبحان الذي سخر لنا هذا﴾ أي ذلل لنا هذا ﴿وما كنا له مقرنين﴾ أي مطيقين وقيل ضابطين ﴿وإنا إلى ربنا لمنقلبون﴾ أي لمنصرفون في المعاد (م) عن ابن عمر رضي الله عنهما «أن رسول الله ﷺ كان إذا استوى على بعيره خارجاً للسفر حمد الله تعالى وسبح وكبر ثلاثاً ثم قال سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا مقرنين

مثل الأوّلين ﴾، أي صفتهم وسُنّتهم وعقوبتهم، فعاقبة هؤلاء كذلك في الأهلاك.

﴿ ولئن سألتهم ﴾، أي سألت قومك، ﴿ مَن خلق السموات والأرض ليقولنّ خلقهنّ العزيز العليم ﴾، وأقرّوا بأن الله خالقها، وأقرّوا بعزّه وعلمه ثم عبدوا غيره وأنكروا قدرته على البعث لفرط جهلهم. إلى ههنا تمّ الأخبار عنهم ثم ابتدأ دالّاً على نفسه بصنعه فقال:

﴿ الذي جعل لكم الأرض مهداً وجعل لكم فيها سبلاً لعلّكم تهتدون ﴾. إلى مقاصدكم في أسفاركم.

﴿ والذي نزل من السماء ماءً بقدر ﴾، أي بقدر حاجتكم إليه لا كما أنزل على قوم نوح بغير قدر حتى أهلكهم. ﴿ فأنشرنا ﴾، أحيينا، ﴿ به بلدة ميتاً كذلك ﴾، أي كما أحيينا هذه البلدة الميتة بالمطر كذلك، ﴿ تخرجون ﴾، من قبوركم أحياء.

﴿ والذي خلق الأزواج كلها ﴾، أي الأصناف كلها. ﴿ وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون ﴾، في البرّ والبحر.

﴿ لتستووا على ظهوره ﴾، ذكر الكناية لأنه ردّها إلى ﴿ ما ﴾. ﴿ ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه ﴾، بتسخير المراكب في البرّ والبحر، ﴿ وتقولوا سبحان الذي سخّر لنا هذا ﴾، ذلّل لنا هذا، ﴿ وما كنّا له مقرنين ﴾، مطيقين، وقيل: ضابطين.

وإنا إلى ربنا لمنقلبون اللهم إنا نسألك في سفرنا هذا البر والتقوى ومن العمل ما ترضي اللهم هون سفرنا هذا وأطو عنا بعده اللهم أنت الصاحب في السفر والخليفة في الأهل اللهم إني أعوذ بك من وعثاء السفر وكآبة المنظر وسوء المنقلب في الأهل والمال والولد وإذا رجع قالهن وزاد فيهم آيبون تائبون عابدون لربنا حامدون» قوله وعثاء السفر: يعني تعبه وشدته ومشقته وكآبة المنظر وسوء المنقلب الكآبة الحزن والمنقلب المرجع وذلك أن يعود من سفره حزيناً كئيباً أو يصادف ما يحزنه في أهل أو مال.

عن علي بن أبي ربيعة قال «شهدت علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه وقد أتي بدابة ليركبها فلما وضع رجله في الركاب قال بسم الله فلما استوى على ظهرها قال الحمد لله سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين وإنا إلى ربنا لمنقلبون ثم قال الحمد لله ثلاث مرات ثم قال الله أكبر ثلاث مرات ثم قال سبحانك إني ظلمت نفسي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت ثم ضحك فقلت يا أمير المؤمنين مم ضحكك قال رأيت رسول الله ﷺ فعل كما فعلت فقلت يا رسول الله من أي شيء ضحكت قال إن ربك يعجب من عبده إذا قال رب اغفر لي ذنوبي إنه لا يغفر الذنوب غيرك» أخرجه الترمذي، وقال حديث حسن غريب.

قوله تعالى: ﴿**وجعلوا له من عباده جزءاً**﴾ يعني ولداً وهو قولهم الملائكة بنات الله لأن الولد جزء من الأب ومعنى جعلوا هنا حكموا وأثبتوا ﴿**إن الإنسان لكفور مبين**﴾ أي لجحود نعم الله تعالى عليه ﴿**أم اتخذ مما يخلق بنات**﴾ هذا استفهام إنكار وتوبيخ يقول اتخذ ربكم لنفسه البنات ﴿**وأصفاكم**﴾ أي أخلصكم ﴿**بالبنين وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلاً**﴾ أي بالجنس الذي جعله للرحمن شبهاً لأن الولد لا يكون إلا من جنس الوالد والمعنى أنهم نسبوا إليه البنات ومن حالهم أن أحدهم إذا قيل له وقد ولد لك بنت اغتم وتربد وجهه غيظاً وأسفاً وهو قوله تعالى: ﴿**ظل**

﴿ **وإنّا إلى ربنا لمنقلبون** ﴾، لمنصرفون في المعاد، أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحي أنا أبو الحسين علي بن محمد بن عبد الله بن بشران أنا إسماعيل بن الصفّار أنا أحمد بن منصور الرمادي ثنا عبد الرزاق أنا معمر عن أبي إسحاق أخبرني علي بن أبي ربيعة أنه شهد علياً رضي الله عنه ركب فلما وضع رجله في الركاب قال: بسم الله، فلما استوى قال: الحمد لله، ثم قال: سبحان الذي سخّر لنا هذا وما كنّا له مقرنين وإنّا إلى ربنا لمنقلبون، ثم حمد ثلاثاً وكبّر ثلاثاً، ثم قال: لا إلّه إلّا الله ظلمت نفسي فاغفر لي ذنوبي، فإنه لا يغفر الذنوب إلّا أنت، ثم ضحك، فقال: ما يُضحِكك يا أمير المؤمنين؟ قال: رأيت رسول الله ﷺ فعل مثل ما فعلت، وقال مثل ما قلت، ثم ضحك، فقلنا: ما يُضحِكك يا نبيّ الله؟ قال: «العبد»، أو قال: «عجبت للعبد إذا قال لا إلّه إلّا الله ظلمت نفسي فاغفر لي إنه لا يغفر الذنوب إلّا أنت، يعلم أنه لا يغفر الذنوب إلّا هو».

قوله تعالى: ﴿ **وجعلوا له من عباده جزءاً** ﴾، أي نصيباً وبعضاً وهو قولهم: الملائكة بنات الله، ومعنى الجعل ههنا الحكم بالشيء، والقول كما تقول: جعلت زيداً أفضل الناس، أي وصفته وحكمت به، ﴿ **إنّ الإنسان** ﴾، يعني الكافر، ﴿ **لكفور** ﴾، جحود لنِعَم الله، ﴿ **مبين** ﴾، ظاهر الكفران.

﴿ **أم اتّخذ ممّا يخلق بنات** ﴾، هذا استفهام توبيخ وإنكار، يقول: اتخذ ربكم لنفسه البنات، ﴿ **وأصْفَاكم بالبنين** ﴾، كقوله: ﴿ فأصفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة إناثاً ﴾ [الإسراء: ٤٠].

﴿ **وإذا بشّر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلاً** ﴾، بما جعل لله شبهاً وذلك أن ولد كل شيء يشبهه، يعني إذا بُشّر أحدهم بالبنات كما ذكر في سورة النحل [٥٨]: ﴿ وإذا بُشّر أحدهم بالأنثى ﴾، ﴿ **ظلّ وجهه مسودّاً وهو كظيم** ﴾، من الغيظ والحزن.

وجهه﴾ أي صار وجهه ﴿مسوداً وهو كظيم﴾ أي من الحزن والغيظ قيل إن بعض العرب ولد له أنثى فهجر بيت امرأته التي ولدت فيه الأنثى فقالت المرأة:

ما لأبي حمزة لا يأتينا يظل في البيت الذي يلينا
غضبان أن لا نلد البنينا ليس لنا من أمرنا ما شينا
وإنما نأخذ ما أعطينا حكمة ربي ذي اقتدار فينا

قوله عز وجل: ﴿أو من يُنشَّأ﴾ يعني أو من يتربى ﴿في الحلية﴾ يعني في الزينة والنعمة والمعنى أو يجعل للرحمن من الولد من هذه الصفة المذمومة صفته ولولا نقصانها لما احتاجت إلى تزيين نفسها بالحلية ثم بين نقصان حالها بوجه آخر وهو قوله ﴿وهو في الخصام﴾ أي المخاصمة ﴿غير مبين﴾ للحجة وذلك لضعف حالها وقلة عقلها قال قتادة قلما تكلمت امرأة فتريد أن تتكلم بحجتها إلا تكلمت بالحجة عليها.

﴿وَجَعَلُواْ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَـٰدُ ٱلرَّحْمَـٰنِ إِنَـٰثًا ۚ أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَـٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾
وَقَالُواْ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَـٰنُ مَا عَبَدْنَـٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ ءَاتَيْنَـٰهُمْ كِتَـٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ
فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا
مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾﴾

﴿وجعلوا﴾ أي وحكموا وأثبتوا ﴿الملائكة الذين هم عباد﴾ وقرىء عند ﴿الرحمن إناثاً أشهدوا خلقهم﴾ أي حضروا خلقهم حين خلقوا وهذا استفهام إنكار أي لم يشهدوا ذلك ﴿ستكتب شهادتهم﴾ أي على الملائكة أنهم بنات

﴿أَوَ مَنْ ينشأ﴾، قرأ حمزة والكسائي وحفص: ﴿ينشأ﴾ بضم الياء وفتح النون وتشديد الشين، أي يُربّى، وقرأ الآخرون بفتح الياء وسكون النون وتخفيف الشين، أي ينبت ويكبر، ﴿في الحلية﴾، في الزينة يعني النساء، ﴿وهو في الخصام غير مبين﴾، في المخاصمة غير مبيِّن للحجة من ضعفهنّ وسفههنّ، قال قتادة: في هذه الآية قلّما تتكلم امرأة تريد أن تتكلم بحجّتها إلّا تكلمت بالحجة عليها، ﴿أوَ مَن﴾ في محل من ثلاثة أوجه: الرفع على الابتداء، والنصب على الإضمار، مجازه: أو مَن ينشأ في الحلية يجعلونه بنات الله، والخفض ردّاً على قوله: ﴿مما يخلق﴾، وقوله: ﴿بما ضرب﴾.

﴿وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً﴾، قرأ أهل الكوفة وأبو عمرو ﴿عباد الرحمن﴾ بالباء والألف بعدها ورفع الدال كقوله تعالى: ﴿بل عباد مكرمون﴾ [الأنبياء: ٢٦]، وقرأ الآخرون: (عند الرحمن) بالنون ونصب الدال على الظرف وتصديقه كقوله عزّ وجلّ: ﴿إن الذين عند ربك﴾ [الأعراف: ٢٠٦] الآية، ﴿أشهِدُوا خلقهم﴾، قرأ أهل المدينة على ما يُسَمَّ فاعله، وليّنوا الهمزة الثانية بعد همزة الاستفهام، أي أُحضِرُوا خلقهم، وقرأ الآخرون بفتح الشين أي أَحَضَرُوا خلقهم حين خُلقوا، وهذا كقوله: ﴿أم خلقنا الملائكة إناثاً وهم شاهدون﴾ [الصّافّات: ١٥٠]، ﴿ستُكتب شهادتهم﴾، على الملائكة أنهم بنات الله، ﴿ويسئلون﴾، عنها، قال الكلبي ومقاتل: لمّا قالوا هذا القول سألهم النبي ﷺ فقال: «ما يُدريكم أنهم بنات الله»؟ قالوا: سمعنا من آبائنا ونحن نشهد أنهم لم يكذبوا»، فقال الله تعالى: ﴿ستكتب شهادتهم ويسئلون﴾، عنها في الآخرة.

﴿وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم﴾، يعني الملائكة، قاله قتادة ومقاتل والكلبي، وقال مجاهد: يعني

﴿الله ويسألون﴾ أي عنها، قيل لما قالوا هذا القول سألهم النبي ﷺ فقال: وما يدريكم أنهم بنات الله، قالوا: سمعنا من آبائنا ونحن نشهد أنهم لم يكذبوا، فقال الله تعالى: ﴿ستكتب شهادتهم﴾ ويسألون عنها في الآخرة ﴿وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم﴾ يعني الملائكة وقيل الأصنام وإنما لم يعجل عقوبتنا على عبادتنا إياها لرضاه منا بذلك قال الله تعالى رداً عليهم.

﴿ما لهم بذلك من علم﴾ أي فيما يقولون ﴿إن هم إلا يخرصون﴾ يعني ما هم إلا كاذبون في قولهم إن الله رضي منا بعبادتها، وقيل يكذبون في قولهم إن الملائكة إناث وإنهم بنات الله ﴿أم آتيناهم كتاباً من قبله﴾ أي من قبل القرآن بأن يعبدوا غير الله ﴿فهم به مستمسكون﴾ أي يأخذون بما فيه ﴿بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة﴾ أي على دين وملة ﴿وإنا على آثارهم مهتدون﴾ يعني أنهم جعلوا أنفسهم مهتدين باتباع آبائهم وتقليدهم من غير حجة ثم أخبر أن غيرهم قد قال هذه المقالة بقوله تعالى: ﴿وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها﴾ أغنياؤها ورؤساؤها ﴿إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون﴾ أي بهم.

۞ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾

﴿قال أولو جئتكم بأهدى﴾ أي بدين هو أصوب ﴿مما وجدتم عليه آباءكم﴾ فأبوا أن يقبلوا ﴿قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون فانتقمنا منهم فانظر كيف كان عاقبة المكذبين﴾ قوله تعالى: ﴿وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إنني

الأوثان وإنما لم يعجّل عقوبتنا على عبادتنا إيّاها لرضاه منها بعبادتها. قال الله تعالى: ﴿ ما لهم بذلك من علم ﴾، فيما يقولون ما هم إلاّ كاذبون في قولهم: إن الله تعالى رضي منّا بعبادتها، وقيل: إن هم إلاّ يخرصون فيما يقولون، ﴿ إنْ هم إلاّ يخرصون ﴾، في قولهم: إن الملائكة إناث وأنهم بنات الله.

﴿ أم آتيناهم كتاباً من قبله ﴾، أي من قبل القرآن بأن يعبدوا غير الله، ﴿ فهم به مستمسكون ﴾.

﴿ بل قالوا إنّا وجدنا آباءنا على أمّة ﴾، على دين وملّة، قال مجاهد: على إمام. ﴿ وإنّا على آثارهم مهتدون ﴾، جعلوا أنفسهم باتّباع آبائهم الأوّلين مهتدين.

﴿ وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلاّ قال مُترَفوها ﴾، أغنياؤها ورؤساؤها، ﴿ إنّا وجدنا آباءنا على أمّة وإنّا على آثارهم مقتدون ﴾، بهم.

﴿ قال ﴾، قرأ ابن عامر وحفص: ﴿ قال ﴾ على الخبر، وقرأ الآخرون (قل) على الأمر، ﴿ أوَ لو جئتكم ﴾، قرأ أبو جعفر: (جئناكم) على الجمع، والآخرون على الواحد، ﴿ بأهدى ﴾، بدين أصوب، ﴿ مما وجدتم عليه آباءكم ﴾، قال الزجّاج: قال لهم أتتّبعون ما وجدتم عليه آباءكم وإن جئتكم بأهدى منه؟ فأبوا أن يقبلوه. ﴿ قالوا إنّا بما أرسلتم به كافرون ﴾.

﴿ فانتقمنا منهم فانظرْ كيف كان عاقبة المكذّبين ﴾.

براء﴾ أي بريء **﴿مما تعبدون إلا الذي فطرني﴾** معناه أنا أتبرأ مما تعبدون إلا من الله الذي خلقني **﴿فإنه سيهدين﴾** أي يرشدني إلى دينه **﴿وجعلها﴾** أي وجعل إبراهيم كلمة التوحيد التي تكلم بها وهي لا إله إلا الله **﴿كلمة باقية في عقبه﴾** أي في ذريته فلا يزال فيهم من يوحد الله تعالى ويدعو إلى توحيده **﴿لعلهم يرجعون﴾** أي لعل من أشرك منهم يرجع بدعاء من وحد منهم وقيل لعل أهل مكة يتبعون هذا الدين ويرجعون عما هم عليه من الشرك إلى دين إبراهيم عليه الصلاة والسلام **﴿بل متعت هؤلاء﴾** يعني كفار مكة **﴿وآباءهم﴾** في الدنيا بالمد في العمر والنعمة ولم أعاجلهم بالعقوبة على كفرهم **﴿حتى جاءهم الحق﴾** يعني القرآن وقيل الإسلام **﴿ورسول﴾** هو محمد ﷺ **﴿مبين﴾** أي يبين لهم الأحكام وقيل بين الرسالة وأوضحها بما معه من الآيات والمعجزات وكان من حق هذا الإنعام أن يطيعوه فلم يفعلوا بل كذبوا وعصوا وسموه ساحراً وهو قوله تعالى: **﴿ولما جاءهم الحق﴾** يعني القرآن **﴿قالوا هذا سحر وإنابه كافرون﴾** قوله عز وجل: **﴿وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم﴾** معناه أنهم قالوا منصب النبوة منصب عظيم شريف لا يليق إلا برجل شريف عظيم كثير المال والجاه من إحدى القريتين وهما مكة والطائف واختلفوا في هذا الرجل العظيم قيل الوليد بن المغيرة بمكة وعروة بن مسعود الثقفي بالطائف وقيل عتبة بن ربيعة من مكة وكنانة بن عبد ياليل الثقفي من الطائف، وقال ابن عباس: الوليد بن المغيرة من مكة ومن الطائف حبيب بن عمير الثقفي قال الله تعالى رداً عليهم

أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا

قوله عزّ وجلّ: **﴿ وإذْ قال إبراهيم لأبيه وقومه إنني براء ﴾**، أي بريء، ولا يُثنى البراء ولا يُجمَع ولا يُؤنّث لأنه مصدر وضع موضع النعت. **﴿ مما تعبدون إلّا الذي فطرني فإنه سيهدين ﴾**، يرشدني لدينه.

﴿ وجعلها ﴾، يعني هذه الكلمة، **﴿ كلمة باقية في عقبه ﴾**، قال مجاهد وقتادة: يعني كلمة التوحيد، وهي لا إله إلّا الله كلمة باقية في عقبة أي في ذرّيّته. قال قتادة: لا يزال في ذرّيّته مَن يعبد الله ويوحّده. وقال القرظي: يعني جعل وصية إبراهيم التي أوصى بها نبيّه باقية في نسله وذرّيّته، وهو قوله عزّ وجلّ: **﴿ ووصّى بها إبراهيمُ بنيه ويعقوبُ ﴾** [البقرة: ١٣٢]، وقال ابن زيد: يعني قوله: **﴿ أسلمت لربّ العالمين ﴾** [البقرة: ١٣١]، وقرأ: **﴿ هو سمّاكم المسلمين ﴾** [الحج: ٧٨]، **﴿ لعلّهم يرجعون ﴾**، لعلّ أهل مكة يتّبعون هذا الدين ويرجعون عمّا هم عليه إلى دين إبراهيم. وقال السدي: لعلّهم يتوبون ويرجعون إلى طاعة الله عزّ وجلّ.

﴿ بل متّعت هؤلاء وآباءهم ﴾، يعني المشركين في الدنيا ولم أُعاجلهم بالعقوبة على كفرهم، **﴿ حتى جاءهم الحق ﴾**، يعني القرآن، وقال الضحّاك: الإسلام. **﴿ ورسول مبين ﴾**، يبيّن لهم الأحكام وهو محمد ﷺ، وكان من حقّ هذه الأحكام أن يطيعوه فلم يفعلوا وعصوا.

وهو قوله: **﴿ ولمّا جاءهم الحق ﴾**، يعني القرآن، **﴿ قالوا هذا سحر وإنّا به كافرون * وقالوا لولا نُزّل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ﴾**، يعنون الوليد بن المغيرة من مكة، وعروة بن مسعود الثقفي بالطائف، قاله قتادة، وقال مجاهد: عتبة بن ربيعة من مكة، وابن عبد ياليل الثقفي من الطائف. وقيل: الوليد بن المغيرة من مكة، ومن الطائف حبيب بن عمرو بن عمير الثقفي. ويُروى هذا عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما.

يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًاۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۚ وَٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾

﴿**أهم يقسمون رحمة ربك**﴾ معناه أبأيديهم مفاتيح الرسالة فيضعوها حيث شاؤوا وفيه الإنكار الدال على تجهيلهم والتعجب من اعتراضهم وتحكمهم وأن يكونوا هم المدبرين لأمر النبوة ثم ضرب لهذا مثلاً فقال تعالى: ﴿**نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا**﴾ أي نحن أوقعنا هذا التفاوت بين العباد فجعلنا هذا غنياً وهذا فقيراً وهذا مالكاً وهذا مملوكاً وهذا قوياً وهذا ضعيفاً ثم إن أحداً من الخلق لم يقدر على تغيير حكمنا ولا على الخروج عن قضائنا فإذا عجزوا عن الاعتراض في حكمنا في أحوال الدنيا مع قلتها وذلتها فكيف يقدرون على الاعتراض على حكمنا في تخصيص بعض عبادنا بمنصب النبوة والرسالة والمعنى كما فضلنا بعضهم على بعض كما شئنا كذلك اصطفينا بالرسالة من شئنا ثم قال تعالى: ﴿**ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً**﴾ يعني لو أننا سوينا بينهم في كل الأحوال لم يخدم أحد أحداً ولم يصر أحد منهم مسخراً لغيره، وحينئذ يقضي ذلك إلى خراب العالم وفساد حال الدنيا ولكنا فعلنا ذلك ليستخدم بعضهم بعضاً فتسخر الأغنياء بأموالهم الأجراء الفقراء بالعمل فيكون بعضهم لبعض سبب المعاش فهذا بماله وهذا بعمله فيلتئم قوام العالم وقيل يملك بعضهم بما له بعضاً بالملك ﴿**ورحمة ربك**﴾ يعني الجنة ﴿**خير**﴾ يعني للمؤمنين ﴿**مما يجمعون**﴾ أي يجمع الكفار من الأموال لأن الدنيا على شرف الزوال والانقراض وفضل الله ورحمته يبقى أبد الآبدين.

قوله عز وجل: ﴿**ولولا أن يكون الناس أمة واحدة**﴾ أي لولا أن يصيروا كلهم كفاراً فيجتمعون على الكفر ويرغبون فيه إذا رأوا الكفار في سعة من الخير والرزق لأعطيت الكفار أكثر الأسباب المفيدة للتنعم وهو قوله تعالى: ﴿**لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفاً من فضة ومعارج**﴾ يعني مصاعد ودرجات من فضة ﴿**عليها يظهرون**﴾

قال الله تعالى: ﴿ **أهم يقسمون رحمةَ ربِّك** ﴾، يعني النبوّة، قال مقاتل: يقول بأيديهم مفاتيح الرسالة فيضعونها حيث شاؤوا؟ ثم قال: ﴿ **نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا** ﴾، فجعلنا هذا غنيّاً وهذا فقيراً وهذا ملكاً وهذا مملوكاً فكما فضّلنا بعضهم على بعض في الرزق كما شئنا، كذلك اصطفينا بالرسالة مَن شئنا، ﴿ **ورفعنا بعضهم فوق بعضٍ درجات** ﴾، بالغنى والمال، ﴿ **ليتخذ بعضهم بعضاً سخريّاً** ﴾، ليستخدم بعضهم بعضاً فيسخّر الأغنياء بأموالهم الأُجَرَاء الفقراء بالعمل، فيكون بعضهم لبعض سبب المعاش هذا بماله، وهذا بأعماله، فيلتئم قِوامُ أمر العالم. وقال قتادة والضحاك: يملك بعضهم بمالهم بعضاً بالعبودية والمُلْك. ﴿ **ورحمة ربّك** ﴾، يعني الجنة، ﴿ **خير** ﴾، للمؤمنين، ﴿ **مما يجمعون** ﴾، مما يجمع الكفّار من الأموال.

﴿ **ولولا أن يكون الناس أمة واحدة** ﴾، أي لولا أن يصيروا كلهم كفّاراً فيجتمعون على الكفر، ﴿ **لجعلنا لمَن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفاً من فضة** ﴾، قرأ ابن كثير وأبو جعفر وأبو عمرو: ﴿ **سقفاً** ﴾ بفتح السين وسكون القاف على الواحد، ومعناه الجمع، كقوله تعالى: ﴿ فخرّ عليهم السقف من فوقهم ﴾ [النحل: ٢٦]، وقرأ الآخرون بضمّ السين والقاف على الجمع، وهي جمع سقف مثل رهن ورهن، قال أبو عبيدة: ولا ثالث لهما. وقيل: هو جمع سقيف. وقيل: جمع سقوف جمع الجمع. ﴿ **ومعارج** ﴾، مصاعد ودرجاً من فضة، ﴿ **عليها يظهرون** ﴾، يعلون ويرتقون، يقال: ظهرت على السطح إذا علوته.

﴿ **ولبيوتهم أبواباً** ﴾، من فضة، ﴿ **وسُرُراً** ﴾ أي وجعلنا لهم سرراً من فضة، ﴿ **عليها يتّكئون** ﴾.

﴿ **وزُخْرُفاً** ﴾، أي ولجعلنا مع ذلك لهم زخرفاً وهو الذهب، نظيره: ﴿ أو يكون لك بيت من زخرف ﴾

يصعدون ويرتقون عليها ﴿ولبيوتهم أبواباً﴾ أي من فضة ﴿وسرراً﴾ أي ولجعلنا لهم سرراً من فضة ﴿عليها يتكئون وزخرفاً﴾ أي ولجعلنا من ذلك زخرفاً وهو الذهب وقيل الزخرف الزينة من كل شيء ﴿وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا﴾ يعني أن الإنسان يستمتع بذلك قليلاً ثم ينقضي لأن الدنيا سريعة الزوال والذهاب ﴿والآخرة عند ربك للمتقين﴾ يعني الجنة خاصة للمتقين الذين تركوا الدنيا.

عن سهل بن سعد قال قال رسول الله ﷺ «لو كانت الدنيا عند الله تزن جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء» أخرجه الترمذي وقال حديث حسن غريب.

وعن المستورد بن شداد جد بني فهر قال «كنت في الركب الذين وقفوا مع رسول الله ﷺ على السخلة الميتة فقال رسول الله ﷺ أترون هذه هانت على أهلها حين ألقوها قالوا من هوانها ألقوها يا رسول الله قال فإن الدنيا أهون على الله من هذه الشاة على أهلها» أخرجه الترمذي وقال حديث حسن. وعن قتادة بن النعمان أن رسول الله ﷺ قال «إذا أحبَّ الله عبداً حماه من الدنيا كما يظل أحدكم يحمي سقيمه الماء» أخرجه الترمذي وقال حديث حسن غريب (م) عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال قال رسول الله ﷺ «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر».

﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ومن يعش﴾ أي يعرض ﴿عن ذكر الرحمن﴾ أي فلم يخف عقابه ولم يرد ثوابه وقيل يول ظهره عن القرآن ﴿نقيض له شيطاناً﴾ أي نسبب له شيطاناً ونضمه إليه ونسلطه عليه ﴿فهو له قرين﴾ يعني لا يفارقه يزين له

[الإسراء: ٩٣]، ﴿وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا﴾، فكان: ﴿لما﴾ بمعنى ألا، وخفّفه الآخرون على معنى وكل ذلك متاع الحياة الدنيا، فيكون: ﴿إن﴾ للابتداء، و(ما) صلة، يريدان هذا كله متاع الحياة الدنيا يزول ويذهب، ﴿والآخرة عند ربك للمتقين﴾، خاصة يعني الجنة، أخبرنا الإمام أبو علي الحسين بن محمد القاضي أنا أبو العباس عبد الله بن محمد بن هارون الطيسفوني أنا أبو الحسن محمد بن أحمد الترابي أنا أبو بكر حمد بن عمر بن بسطام أنا أحمد بن سيّار القريشي ثنا عبد الرحمن بن يونس ثنا أبو مسلم ثنا أبو بكر بن معمر عن أبي حازم عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: «لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقي كافراً منها قطرة ماء»، أخبرنا أبو بكر محمد بن عبد الله بن أبي توبة أنا أبو طاهر محمد بن أحمد بن الحارث أنا محمد بن يعقوب الكسائي أنا عبد الله بن محمود أنا إبراهيم بن عبد الله الخلال أنا عبد الله بن المبارك عن خالد بن سعيد عن قيس بن حازم عن المستورد ابن شداد أخو بني فهر قال: كنت في الركب الذين وقفوا مع رسول الله ﷺ على السخلة الميتة، فقال رسول الله ﷺ: «أترون هذه هانت على أهلها حتى ألقوها»؟ قالوا: من هوانِها ألقوها، قال رسول الله ﷺ: «فالدنيا أهون على الله من هذه على أهلها».

قوله عزّ وجلّ: ﴿ومَن يعشُ عن ذكر الرحمن﴾، أي يُعرِض عن ذكر الرحمن فلم يَخَف عقابه، ولم يرجُ ثوابه، يقال: عشوت إلى النار أعشو عشواً، إذا قصدتها مهتدياً بها، وعشوت عنها أعرضت عنها، كما يقول: عدلت إلى فلان وعدلت عنه وملت إليه وملت عنه. قال القرظي: يولِّ ظهره عن ذكر الرحمن وهو القرآن. قال أبو عبيدة والأخفش: يظلم بصرف بصره عنه، قال الخليل بن أحمد: أصل العشو النظر ببصر ضعيف. وقرأ ابن عباس:

العمى ويخيل إليه أنه على الهدى ﴿وإنهم﴾ يعني الشياطين ﴿ليصدونهم عن السبيل﴾ يعني يمنعونهم عن الهدى ﴿ويحسبون أنهم مهتدون﴾ يعني ويحسب كفار بني آدم أنهم على الهدى ﴿حتى إذا جاءنا﴾ يعني الكافر وحده وقرىء جاءانا على التثنية يعني الكافر وقرينه وقد جعلا في سلسلة واحدة ﴿قال﴾ الكافر لقرينه الشيطان ﴿يا ليت بيني وبينك بُعد المشرقين﴾ أي بعد ما بين المشرق والمغرب، فغلب اسم أحدهما على الآخر كما يقال للشمس والقمر القمران ولأبي بكر وعمر العمران، وقيل: أراد بالمشرقين مشرق الصيف ومشرق الشتاء، والقول الأول أصح ﴿فبئس القرين﴾ يعني الشيطان قال أبو سعيد الخدري: إذا بعث الكافر زوج بقرينه من الشياطين فلا يفارقه حتى يصير إلى النار ﴿ولن ينفعكم اليوم إذا ظلمتم﴾ يعني أشركتم ﴿أنكم في العذاب مشتركون﴾ يعني لا ينفعكم الاشتراك في العذاب ولا يخفف عنكم شيئاً، لأن كل واحد من الكفار والشياطين له الحظ الأوفر من العذاب وقيل لن ينفعكم الاعتذار والندم اليوم فأنتم وقرناؤكم اليوم مشتركون في العذاب كما كنتم مشتركين في الكفر.

أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾

﴿أفأنت تسمع الصم أو تهدي العمي ومن كان في ضلال مبين﴾ يعني الكافرين الذين حقت عليهم كلمة العذاب أنهم لا يؤمنون.

﴿ ومَن يعش ﴾ بفتح الشين أي يُعْمَ، يقال عشى يعشى عشياً إذا عَمِيَ فهو أعشى، وامرأة عشواء. ﴿ نقيّض له شيطاناً ﴾، قرأ يعقوب: (يقيّض) بالياء، والباقون بالنون، نسبّب له شيطاناً ونضمّه إليه ونسلّطه عليه. ﴿ فهو له قرين ﴾، لا يفارقه يزيّن له العمى ويخيّل إليه أنه على الهدى.

﴿ وإنّهم ﴾، يعني الشياطين، ﴿ ليصدّونهم عن السبيل ﴾، أي ليمنعونهم عن الهدى وجمع الكناية لأن قوله: ﴿ ومَن يعشُ عن ذكر الرحمن نقيّض له شيطاناً ﴾ في مذهب جمع وإن كان اللفظ على الواحد، ﴿ ويحسبون أنهم مهتدون ﴾، ويحسب كفّار بني آدم أنهم على هدى.

﴿ حتى إذا جاءنا ﴾، قرأ أهل العراق غير أبي بكر: ﴿ جاءنا ﴾ على الواحد يعنون الكافر، وقرأ الآخرون: جاءانا، على التثنية يعنون الكافر وقرينه قد جُعِلا في سلسلة واحدة. ﴿ قال ﴾، الكافر لقرينه الشيطان، ﴿ يا ليت بيني وبينك بُعْدَ المشرقين ﴾، أي بُعْدَ ما بين المشرق والمغرب فغلب اسم أحدهما على الآخر كما يقال للشمس والقمر: القمران، ولأبي بكر وعمر: العُمَران. وقيل: أراد بالمشرقين مشرق الصيف ومشرق الشتاء، والأول أصحّ، ﴿ فبئس القرين ﴾، قال أبو سعيد الخدري: إذا بعث الكافر زوّج بقرينه الشيطان فلا يفارقه حتى يصير إلى النار.

﴿ ولن ينفعكم اليوم ﴾، في الآخرة، ﴿ إذا ظلمتم ﴾، أشركتم في الدنيا، ﴿ أنكم في العذاب مشتركون ﴾، يعني لا ينفعكم الاشتراك في العذاب ولا يخفّف الاشتراك عنكم العذاب، لأن لكل واحد من الكفّار والشياطين الحظ الأوفر من العذاب. وقال مقاتل: لن ينفعكم الاعتذار والندم اليوم فأنتم وقرناؤكم اليوم مشتركون في العذاب كما كنتم مشتركين في الكفر.

﴿ أفأنت تسمع الصُّمَّ أو تهدي العُمْي ومَن كان في ضلال مبين ﴾، يعني الكافرين الذين حقّت عليهم كلمة العذاب لا يؤمنون.

قوله عز وجل: ﴿فإما نذهبن بك﴾ أي بأن نميتك قبل أن نعذبهم ﴿فإنا منهم منتقمون﴾ أي بالقتل بعدك ﴿أو نرينك﴾ أي في حياتك ﴿الذي وعدناهم﴾ أي من العذاب ﴿فإنا عليهم مقتدرون﴾ أي قادرون على ذلك متى شئنا عذبناهم، وأراد به مشركي مكة وقد انتقم منهم يوم بدر وهذا يفيد التسلية للنبي ﷺ لأنه وعده الانتقام له منهم إما حال حياته أو بعد وفاته، وهذا قول أكثر المفسرين وقيل عني به ما يكون في أمته وقد كان بعد النبي ﷺ نقمة شديدة في أمته ولكن أكرم الله عز وجل نبيه ﷺ وذهب به ولم يره في أمته إلا الذي تقربه عينه وأبقى النقمة بعده وروي أن النبي ﷺ أري ما يصيب أمته بعده فما رئي ضاحكاً منبسطاً حتى قبضه الله تعالى: ﴿فاستمسك بالذي أوحي إليك﴾ يعني القرآن ﴿إنك على صراط مستقيم﴾ أي على دين مستقيم لا يميل عنه إلا الضال ﴿وإنه﴾ يعني القرآن ﴿لذكر﴾ أي لشرف عظيم ﴿لك ولقومك وسوف تسألون﴾ يعني عن حقه وأداء شكره وروى ابن عباس «أن النبي ﷺ كان إذا سئل لمن هذا الأمر بعدك لم يخبر بشيء حتى نزلت هذه الآية فكان بعد ذلك إذا سئل قال لقريش» (ق). عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ «لا يزال هذا الأمر في قريش ما بقي منهم اثنان» (خ) عن معاوية قال سمعت رسول الله ﷺ يقول «إن هذا الأمر في قريش لا يعاديهم أحد إلا أكبه الله تعالى على وجهه ما أقاموا الدين» وقيل القوم هم العرب والقرآن لهم شرف إذ نزل بلغتهم ثم يختص بذلك الشرف الأخص فالأخص من العرب حتى يكون الأكثر لقريش ولبني هاشم، وقيل ذكر لك أي ذلك شرف لك بما أعطاك الله من النبوة والحكمة ولقومك يعني المؤمنين بما هداهم الله تعالى به وسوف تسألون عن القرآن وعما يلزمكم من القيام بحقه.

﴿ فإمّا نَذْهَبَنَّ بك ﴾، بأن نُميتك قبل أن نعذّبهم، ﴿ فإنّا منهم مُنتقمون ﴾، بالقتل بعدك.

﴿ أو نُرِينّك ﴾، في حياتك، ﴿ الذي وعدناهم ﴾، من العذاب، ﴿ فإنّا عليهم مقتدرون ﴾، قادرون متى شئنا عذّبناهم وأراد به مشركي مكة انتقم منهم يوم بدر، وهذا قول أكثر المفسّرين، وقال الحسن وقتادة: عنى به أهل الإسلام من أُمة محمد ﷺ، وقد كان بعد النبي ﷺ نقمة شديدة في أُمته، فأكرم الله نبيّه وذهب به ولم يره في أُمته إلّا الذي يقرّ عينه، وأبقى النقمة بعده. ورُوِيَ أن النبي ﷺ أُرِيَ ما يُصيب أُمته بعده فما رُؤي ضاحكاً منبسطاً حتى قبضه الله لنفسه.

﴿ فاستمسك بالذي أُوحي إليك إنّك على صراط مستقيم ﴾.

﴿ وإنه ﴾، يعني القرآن، ﴿ لذكرٌ لك ﴾، أي لشرف لك، ﴿ ولقومك ﴾، من قريش، نظيره: ﴿ لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذكركم ﴾ [الأنبياء: ١٠]، أي شرفكم، ﴿ وسوف تُسئلون ﴾، عن حقّه وأداء شكره، روى الضحاك عن ابن عباس أن النبي ﷺ كان إذا سُئِل لِمَن هذا الأمر بعدك لم يجب بشيء حتى نزلت هذه الآية، فكان بعد ذلك إذا سُئِلَ لمَن هذا؟ قال: لقريش. أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا عبد الرحمن بن شريح أنا أبو القاسم البغوي ثنا علي بن الجعد أنا عاصم بن محمد بن زيد عن أبيه عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يزال هذا الأمر في قريش ما بقي اثنان»، أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل حدّثنا أبو اليمان أنا شعيب عن الزهري قال: كان محمد بن جبير بن مطعم يحدّث عن معاوية قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن هذا الأمر في قريش لا يعاديهم أحد إلّا كبّه الله على وجهه ما أقاموا الدين»، وقال مجاهد: القوم هم العرب، فالقرآن لهم شرف إذْ نزل بلغتهم، ثم يختصّ بذلك الشرف الأخصّ فالأخص من العرب، حتى يكون الأكثر لقريش ولبني هاشم. وقيل: ذلك شرف لك بما أعطاك من الحكمة ولقومك المؤمنين بما هداهم الله به، وسوف تُسألون عن القرآن وعمّا يلزمكم من القيام بحقه.

وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ۖ وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾

قوله تعالى: ﴿واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون﴾ اختلف العلماء من هؤلاء والمسؤولون فروي عن ابن عباس في رواية عنه «لما أسري بالنبي ﷺ بعث الله عز وجل له آدم وولده من المرسلين فأذن جبريل ثم أقام وقال يا محمد تقدم فصل بهم فلما فرغ من الصلاة قال له جبريل سل يا محمد من أرسلنا من قبلك من أرسلنا الآية فقال النبي ﷺ لا أسأل قد اكتفيت. وهذا قول الزهري وسعيد بن جبير وابن زيد قالوا جمع له الرسل ليلة أسري به وأمر أن يسأل فلم يشك ولم يسأل فعلى هذا القول قال بعضهم هذه الآية نزلت ببيت المقدس ليلة أسري بالنبي ﷺ وقال أكثر المفسرين معناه سل مؤمني أهل الكتاب الذين أرسلت إليهم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام هل جاءتهم الرسل إلا بالتوحيد وهو قول ابن عباس في أكثر الروايات عنه ومجاهد وقتادة والضحاك والسدي والحسن ومقاتل ومعنى الأمر بالسؤال التقرير لمشركي قريش أنه لم يأت رسول ولا كتاب بعبادة غير الله عز وجل.

قوله تعالى: ﴿ولقد أرسلنا موسى بآياتنا إلى فرعون وملئه فقال إني رسول رب العالمين فلما جاءهم بآياتنا إذا هم منها يضحكون﴾ أي يسخرون ﴿وما نريهم من آية إلا هي أكبر من أختها﴾ أي قرينتها التي قبلها ﴿وأخذناهم بالعذاب﴾ أي بالسنين والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والطمس، فكانت هذه آيات ودلالات لموسى عليه

﴿ واسئل مَن أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون ﴾، اختلفوا في هؤلاء المسؤولين، قال عطاء عن ابن عباس: لمّا أُسريَ بالنبي ﷺ بعث الله له آدم وولده من المرسلين، فأذّن جبريل ثم أقام، وقال: يا محمد تقدّم فصلِّ بهم، فلما فرغ من الصلاة قال له جبريل: سل يا محمد مَن أرسلنا قبلك من رسلنا، الآية، فقال رسول الله ﷺ: «لا أسأل فقد اكتفيت»، وهذا قول الزهري وسعيد بن جبير وابن زيد، قالوا: جمع الله له المرسلين ليلة أُسرِيَ بـه وأمره أن يسـألهـم فلم يشك ولم يسـأل. وقال أكثر المفسّرين: سَـلْ مؤمني أهل الكتاب الذين أرسلتْ إليهم الأنبياء هل جاءتهم الرسل إلّا بالتوحيد؟ وهو قول ابن عباس في سائر الروايات، ومجاهد وقتادة والضحّاك والسدي والحسن ومقاتل، يدلّ عليه قراءة عبد الله وأُبيّ: (واسئل الذين أرسلنا إليهم قبلك رسلنا)، ومعنى الأمر بالسؤال التقرير لمشركي قريش أنه لم يأتِ رسول ولا كتاب بعبادة غير الله عزّ وجلّ.

﴿ ولقد أرسلنا موسى بآياتنا إلى فرعون ومَلَئِهِ فقال إني رسول ربِّ العالمين * فلما جاءهم بآياتنا إذا هم منها يضحكون ﴾، استهزاء.

﴿ وما نُريهم من آية إلّا هي أكبر من أُختها ﴾، قرينتها وصاحبتهـا التي كانت قبلهـا، ﴿ وأخذنـاهم بالعذاب ﴾، بالسنين والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والطمس، فكانت هذه دلالات لموسى، وعذاباً لهم، فكانت كل واحدة أكبر من التي قبلها، ﴿ لعلّهم يرجعون ﴾، عن كفرهم.

﴿ وقالوا ﴾، لموسى لمّا عاينوا العذاب، ﴿ يا أَيُّهَ الساحر ﴾، يا أيها العالم الكامل الحاذق، وإنما قالوا هذا توقيراً وتعظيماً له لأن السحر عندهم كان علماً عظيماً وصفةً ممدوحة، وقيل: معناه يا أيها الذي غلبنا بسحره. وقال الزجّاج: خاطبوه به لما تقدّم له عندهم من التسمية بالساحر. ﴿ ادعُ لنا ربَّك بما عهد عندك ﴾، أي بما أخبرتنا من

الصلاة والسلام وعذاباً لهم وكانت كل واحدة أكبر من التي قبلها ﴿لعلهم يرجعون﴾ أي عن كفرهم ﴿وقالوا﴾ يعني لموسى عليه الصلاة والسلام لما عاينوا العذاب ﴿يا أيها الساحر﴾ أي العالم الكامل الحاذق وإنما قالوا ذلك له تعظيماً وتوقيراً لأن السحر كان عندهم علماً عظيماً وصنعة ممدوحة وقيل معناه يا أيها الذي غلبنا بسحره ﴿ادع لنا ربك بما عهد عندك﴾ أي بما أخبرتنا عن عهده إليك أنا إن آمنا كشف عنا العذاب فاسأله أن يكشفه عنا ﴿إننا لمهتدون﴾ أي لمؤمنون فدعا موسى ربه فكشف عنهم فلم يؤمنوا فذلك قوله سبحانه وتعالى: ﴿فلما كشفنا عنهم العذاب إذا هم ينكثون﴾ أي ينقضون عهدهم ويصرون على كفرهم.

﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴿٥٦﴾ ۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾﴾

﴿ونادى فرعون في قومه قال يا قوم أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي﴾ يعني أنهار النيل الكبار وكانت تجري تحت قصره وقيل معناه تجري بين يدي جناني وبساتيني، وقيل تجري بأمري ﴿أفلا تبصرون﴾ أي عظمتي وشدة ملكي ﴿أما أنا﴾ أي بل أنا ﴿خير﴾ وليس بحرف عطف على قول أكثر المفسرين وقيل فيه إضمار مجازه أفلا تبصرون أم تبصرون ثم ابتدأ فقال أنا خير ﴿من هذا الذي هو مهين﴾ أي ضعيف حقير يعني موسى ﴿ولا يكاد

عهده إليك إن آمنّا كشف عنّا العذاب فاسأله يكشف عنّا العذاب، ﴿ إننا لمهتدون ﴾، مؤمنون فدعى موسى فكشف عنهم فلم يؤمنوا.

فذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿ فلما كشفنا عنهم العذاب إذا هم ينكثون ﴾، ينقضون عهدهم ويصرّون على كفرهم.

﴿ ونادى فرعون في قومه قال يا قوم أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار ﴾، أنهار النيل، ﴿ تجري من تحتي ﴾، من تحت قصوري، وقال قتادة: يجري بين يدي في جناني وبساتيني. وقال الحسن: بأمري. ﴿ أفلا تبصرون ﴾، عظمتي وشدّة ملكي.

﴿ أمْ أنا خيرٌ ﴾، بل أنا خير، ﴿ أم ﴾ بمعنى بل وليس بحرف عطف على قول أكثر المفسّرين، وقال الفرّاء: الوقف على قوله ﴿ أم ﴾، وفيه إضمار مجازه أفلا تُبصرون أم تبصرون، ثم ابتدأ فقال أنا خير، ﴿ من هذا الذي هو مُهين ﴾، ضعيف حقير يعني موسى، قوله: ﴿ ولا يَكادُ يُبِيْنُ ﴾ يفصح بكلامه للثغته التي في لسانه.

﴿ فلولا أُلقي عليه ﴾، إن كان صادقاً، ﴿ أسورة من ذهب ﴾، قرأ حفص ويعقوب ﴿ أسورة ﴾ جمع سِوار، وقرأ الآخرون (أساورة) على جمع الأسورة، وهي جمع الجمع. قال مجاهد: كانوا إذا سوّدوا رجلاً سوّروه بسِوار وطوّقوه بطوق من ذهب يكون ذلك دلالة لسيادته، فقال فرعون: هلاّ ألقى ربُّ موسى عليه أسورة من ذهب إن كان سيداً تَجب علينا طاعته. ﴿ أو جاء معه الملائكة مقترنين ﴾، متتابعين يتابع بعضهم بعضاً يشهدون له بصدقه ويُعينونه على أمره.

يبين﴾ أي يفصح بكلامه للثغته التي كانت في لسانه وإنما عابه بذلك لما كان عليه أولاً وقيل معناه ولا يكاد يبين حجته التي تدل على صدقه فيما يدعي ولم يرد به أنه لا قدرة له على الكلام ﴿فلولا ألقي عليه﴾ أي إن كان صادقاً ﴿أسورة من ذهب﴾ قيل إنهم كانوا إذا سودوا رجلاً سوروه بسوار من ذهب وطوقوه بطوق من ذهب يكون ذلك دلالة لسيادته، فقال فرعون هلا ألقى رب موسى عليه أسورة من ذهب إن كان سيداً تجب طاعته ﴿أو جاء معه الملائكة مقترنين﴾ أي متتابعين يقارن بعضهم بعضاً يشهدون له بصدقه ويعينوه على أمره.

قال الله تعالى: ﴿فاستخف﴾ يعني فرعون ﴿قومه﴾ يعني القبط أي وجدهم جهالاً وقيل حملهم على الخفة والجهل ﴿فأطاعوه﴾ أي على تكذيب موسى ﴿إنهم كانوا قوماً فاسقين﴾ يعني حيث أطاعوا فرعون فيما استخفهم به ﴿فلما آسفونا﴾ أي أغضبونا وهو في حق الله وإرادته العقاب وهو قوله تعالى: ﴿انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين فجعلناهم سلفاً ومثلاً للآخرين﴾ يعني جعلنا المتقدمين الماضين عبرة وموعظة لمن يجيء من بعدهم.

قوله تعالى: ﴿ولما ضرب ابن مريم مثلاً﴾ قال ابن عباس: نزلت هذه الآية في مجادلة عبد الله بن الزبعري مع النبي ﷺ في شأن عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام وذلك لما نزل قوله تعالى: ﴿إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم﴾ وقد تقدم ذكره في سورة الأنبياء ومعنى الآية ولما ضرب عبد الله بن الزبعرى عيسى ابن مريم مثلاً وجادل رسول الله ﷺ بعبادة النصارى إياه ﴿إذا قومك﴾ يعني قريشاً ﴿منه﴾ أي من المثل ﴿يصدون﴾ أي يرتفع لهم ضجيج وصياح وفرح وقيل يقولون إن محمداً ما يريد منا إلا أن نعبده ونتخذه إلهاً كما عبدت النصارى عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام.

قال الله تعالى: ﴿ فاستخفّ قومَهُ ﴾، أي استخفّ فرعون قومه القبط، أي وجدهم جهّالاً. وقيل: حملهم على الخفّة والجهل. يقال استخفّه عن رأيه إذا حمله على الجهل وأزال عن الصواب، ﴿ فأطاعوه ﴾، على تكذيب موسى، ﴿ إنهم كانوا قوماً فاسقين ﴾.

﴿ فلما آسفونا ﴾، أغضبونا، ﴿ انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين * فجعلناهم سلفاً ﴾، قرأ حمزة والكسائي ﴿ سلفاً ﴾ بضم السين واللام، قال الفرّاء: هو جمع سليف من سلف بضم اللام يسلف، أي تقدم، وقرأ الآخرون بفتح السين واللام على جمع السالف مثل حارس وحرس وخادم وخدم وراصد ورصد، وهما جميعاً الماضُون المتقدمون من الأمم، يقال: سلف يسلف إذا تقدّم والسلف مَن تقدّم من الآباء فجعلناهم متقدّمين ليتّعظ بهم الآخرون. ﴿ ومثلاً للآخرين ﴾، عبرة وعِظَة لمَن بقي بعدهم. وقيل: سلفاً لكفّار هذه الأمة إلى النار ومثلاً لمَن يجيء بعدهم.

﴿ ولمّا ضُرِبَ ابنُ مريم مثلاً ﴾، قال ابن عباس وأكثر المفسّرين إن الآية نزلت في مجادلة عبد الله بن الزبعرَى مع النبي ﷺ في شأن عيسى عليه السلام، لمّا نزل قوله تعالى: ﴿ إنكم وما تعبدون من دون الله حَصب جهنم ﴾ [الأنبياء: ٩٨]، وقد ذكرناه في سورة الأنبياء عليهم السلام. ﴿ إذا قومك منه يصدّون ﴾، قرأ أهل المدينة والشام والكسائي ﴿ يصدّون ﴾ بضم الصاد، أي يُعرضون، نظيره قوله تعالى: ﴿ يصدّون عنك صدوداً ﴾ [النساء: ٦١]، وقرأ الآخرون بكسر الصاد، واختلفوا في معناه، قال الكسائي: هما لغتان مثل يعرشون ويعرشون، وشدّ عليه يشدّ ويشدّ، ونمّ بالحديث ينمّ وينمّ، وقال ابن عباس: معناه يضجّون. وقال سعيد بن المسيب: يصيحون. وقال الضحاك: يعجّون. وقال قتادة: يجزعون. وقال القرظي: يضجرون. ولمّا ضُرِب ابنُ مريم مثلاً إذا قومك منه يصدّون يقولون ما يريد منّا محمد إلاّ أن نعبده ونتّخذه إلَهاً كما عبدت النصارى عيسى.

وَقَالُوٓا۟ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾

﴿وقالوا أآلهتنا خير أم هو﴾ يعنون محمداً ﷺ فنعبده ونطيعه ونترك آلهتنا وقيل معنى أم هو يعني عيسى والمعنى قالوا يزعم محمد أن كل ما عبد من دون الله في النار فنحن قد رضينا أن تكون آلهتنا مع عيسى وعزير والملائكة في النار قال الله تعالى: ﴿ما ضربوه﴾ يعني هذا المثل ﴿لك إلا جدلاً﴾ أي خصومة بالباطل وقد علموا أن المراد من قوله ﴿إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم﴾ هؤلاء الأصنام ﴿بل هم قوم خصمون﴾ أي بالباطل. عن أبي أمامة رضي الله تعالى عنه قال قال رسول الله ﷺ «ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل ثم تلا رسول الله ﷺ ما ضربوه لك إلا جدلاً بل هم قوم خصمون» أخرجه الترمذي وقال حديث حسن غريب صحيح ثم ذكر عيسى فقال تعالى: ﴿إن هو﴾ أي ما عيسى ﴿إلا عبد أنعمنا عليه﴾ أي بالنبوة ﴿وجعلناه مثلاً﴾ أي آية وعبرة ﴿لبني إسرائيل﴾ يعرفون به قدرة الله على ما يشاء حيث خلقه من غير أب ﴿ولو نشاء لجعلنا منكم﴾ الخطاب لأهل مكة ﴿ملائكة﴾ معناه لو نشاء لأهلكناكم ولجعلنا بدلاً منكم ملائكة ﴿في الأرض يخلفون﴾ أي يكونون خلفاً منكم يعمرون الأرض ويعبدونني ويطيعونني، وقيل يخلف بعضهم بعضاً ﴿وإنه﴾ يعني عيسى ﴿لعلم للساعة﴾ يعني نزوله من أشراط الساعة يعلم به قربها (ق). عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ «والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً عادلاً فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويفيض المال حتى لا يقبله أحد» وفي رواية أبي داود أن رسول الله ﷺ قال «ليس بيني وبين عيسى نبي وإنه نازل فيكم فإذا رأيتموه فاعرفوه فإنه رجل مربوع إلى

﴿ وقالوا أآلهتنا خير أم هو ﴾، قال قتادة: أم هو يعنون محمداً فنعبده ونطيعه ونترك آلهتنا. وقال السدي وابن زيد أم هو يعنون عيسى، قالوا: يزعم محمد أن كل ما عبد من دون الله في النار فنحن نرضى أن تكون آلهتنا مع عيسى وعزير والملائكة في النار، وقال الله تعالى: ﴿ ما ضربوه ﴾، يعني هذا المثل، ﴿ لك إلّا جدلاً ﴾، خصومة بالباطل وقد علموا أن المراد من قوله: ﴿ وما تعبدون من دون الله حَصَبُ جهنّم ﴾ [الأنبياء: ٩٨]، هؤلاء الأصنام. ﴿ بل هم قوم خَصِمُون ﴾، أخبرنا أبو سعيد الشريحي أنا أبو إسحاق الثعلبي أنا أبو بكر عبد الرحمن بن عبد الله الجمشاوي أنا أحمد بن جعفر بن حمدان القطيعي ثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل حدّثني أبي ثنا عبد الله بن نمير ثنا حجّاج بن دينار الواسطي عن أبي غالب عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما ضلّ قوم بعد هدىً كانوا عليه إلّا أُوتوا الجدل»، ثم قرأ: ﴿ ما ضربوه لك إلا جدلاً بل هم قوم خَصِمُون ﴾.

ثم ذكر عيسى فقال: ﴿ إنْ هو ﴾، ما هو يعني عيسى عليه السلام، ﴿ إلّا عبدٌ أنعمنا عليه ﴾، بالنبوّة، ﴿ وجعلناه مثلاً ﴾، آية وعبرة، ﴿ لبني إسرائيل ﴾، يعرفون به قدرة الله عزّ وجلّ على ما يشاء حيث خلقه من غير أب.

﴿ ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة ﴾، أي ولو نشاء لأهلكناكم وجعلنا بدلاً منكم ملائكة، ﴿ في الأرض يخلفون ﴾، يكونون خلفاء منكم يعمّرون الأرض ويعبدونني ويطيعونني. وقيل: يخلف بعضهم بعضاً.

﴿ وإنه ﴾، يعني عيسى عليه السلام، ﴿ لَعلمٌ للساعة ﴾، يعني نزوله من أشراط الساعة يُعلَم به قُربها، وقرأ ابن عباس وأبو هريرة وقتادة: ﴿ إنه لعلم للساعة ﴾ بفتح اللام والعين أي أمارة وعلامة، وروينا عن النبي ﷺ أنه

الحمرة والبياض ينزل بين ممصرتين كأن رأسه يقطر وإن لم يصبه بلل فيقاتل الناس على الإسلام فيدق الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويهلك الله تعالى في زمانه الملل كلها إلا الإسلام ويهلك الدجال ثم يمكث في الأرض أربعين سنة ثم يتوفى ويصلي عليه المسلمون»(ق) عنه قال قال رسول الله ﷺ «كيف أنتم إذا نزل ابن مريم وإمامكم منكم» وفي رواية فأمكم منكم قال ابن أبي ذؤيب فأمكم بكتاب ربكم عز وجل وسنة نبيكم ﷺ ويروى أنه ينزل عيسى وبيده حربة وهي التي يقتل بها الدجال، فيأتي بيت المقدس والناس في صلاة العصر فيتأخر الإمام ليقدمه عيسى ويصلي خلفه على شريعة محمد ﷺ ثم يقتل الخنازير ويكسر الصليب ويخرب البيع والكنائس ويقتل النصارى إلا من آمن وقيل في معنى الآية وإنه أي وإن القرآن لعلم للساعة أي يعلم قيامها ويخبركم بأحوالها وأهوالها ﴿**فلا تمترن بها**﴾ أي لا تشكن فيها، وقال ابن عباس: لا تكذبوا بها ﴿**واتبعون**﴾ أي على التوحيد ﴿**هذا**﴾ أي الذي أنا عليه ﴿**صراط مستقيم**﴾.

وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾

﴿**ولا يصدنكم**﴾ أي لا يصرفنكم ﴿**الشيطان**﴾ أي عن دين الله الذي أمر به ﴿**إنه**﴾ يعني الشيطان ﴿**لكم عدو مبين ولما جاء عيسى بالبينات قال قد جئتكم بالحكمة**﴾ أي بالنبوة ﴿**ولأبين لكم بعض الذي تختلفون فيه**﴾ أي من أحكام التوراة وقيل من اختلاف الفرق الذين تحزبوا في أمر عيسى وقيل الذي جاء به عيسى الإنجيل وهو بعض الذي اختلفوا فيه فبين لهم عيسى في غير الإنجيل ما احتاجوا إليه ﴿**فاتقوا الله وأطيعون**﴾ أي فيما آمركم به ﴿**إن الله هو ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم فاختلف الأحزاب من بينهم**﴾ أي اختلف الفرق المتحزبة بعد عيسى ﴿**فويل للذين ظلموا**

قال: «ليوشكنّ أن ينزل فيكم ابن مريم حَكَماً عدلاً يكسر الصليب، ويقتل الخنزير ويضع الجزية، وتهلك في زمانه المِلَل كلها إلّا الإسلام»، ويُروى: «أنه ينزل على ثنية بالأرض المقدسة، وعليه ثوبان مصرتان، وشعر رأسه دهين، وبيده حِرِبَة وهي التي يقتل بها الدجّال، فيأتي بيت المقدس والناس في صلاة العصر، فيتأخر الإمام فيقدّمه عيسى ويصلّي خلفه على شريعة محمد ﷺ، ثم يقتل الخنازير ويكسر الصليب، ويخرّب البِيَع والكنائس، ويقتل النصارى إلّا مَن آمن به». أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا ابن بكير ثنا الليث عن يونس عن ابن شهاب عن نافع مولى أبي قتادة الأنصاري أن أبا هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «كيف أنتم إذا نزل ابن مريم فيكم وإمامُكم منكم»؟ وقال الحسن وجماعة: وإنه يعني وإن القرآن لعلم للساعة يعلمكم قيامها، ويخبركم بأحوالها وأهوالها، ﴿ **فلا تَمْتَرُنَّ بها** ﴾، فلا تشكنّ فيها، قال ابن عباس: لا تكذّبوا بها، ﴿ **واتّبعون** ﴾، على التوحيد، ﴿ **هذا** ﴾، الذي أنا عليه، ﴿ **صراط مستقيم** ﴾.

﴿ **ولا يصدّنّكم** ﴾، لا يصرفنّكم، ﴿ **الشيطان** ﴾، عن دين الله، ﴿ **إنه لكم عدوٌّ مبين** ﴾.

﴿ **ولمّا جاء عيسى بالبيِّنات قال قد جئتكم بالحكمة** ﴾، بالنبوّة، ﴿ **ولأُبيِّن لكم بعض الذي تختلفون فيه** ﴾، من أحكام التوراة، قال قتادة: يعني اختلاف الفِرَق الذين تحزّبوا على أمر عيسى. قال الزجّاج: الذي جاء به عيسى في الإنجيل إنما هو بعض الذي اختلفوا فيه، وبيّن لهم في غير الإنجيل ما احتاجوا إليه. ﴿ **فاتقوا الله وأطيعون** ﴾.

من عذاب يوم أليم هل ينظرون﴾ أي ينتظرون ﴿إلا الساعة أن تأتيهم بغتة﴾ أي فجأة والمعنى أنها تأتيهم لا محالة ﴿وهم لا يشعرون﴾.

﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۖ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٧١﴾

﴿الأخلاء﴾ أي على الكفر والمعصية في الدنيا ﴿يومئذ﴾ يعني يوم القيامة ﴿بعضهم لبعض عدو﴾ أي إن الخلة إذا كانت كذلك صارت عداوة يوم القيامة ﴿إلا المتقين﴾ أي إلا الموحدين المتحابين في الله عز وجل المجتمعين على طاعته، روي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه في الآية قال: «خليلان مؤمنان وخليلان كافران مات أحد المؤمنين فقال يا رب إن فلاناً كان يأمرني بطاعتك وطاعة رسولك ﷺ ويأمرني بالخير وينهاني عن الشر ويخبرني أني ملاقيك يا رب فلا تضله بعدي واهده كما هديتني وأكرمه كما أكرمتني فإذا مات خليله المؤمن جمع بينهما فيقول ليثن كل منكما على صاحبه فيقول نعم الأخ ونعم الخليل ونعم الصاحب، قال ويموت أحد الكافرين فيقول رب إن فلاناً كان ينهاني عن طاعتك وطاعة رسولك ويأمرني بالشر وينهاني عن الخير ويخبرني أني غير ملاقيك فيقول ليثن كل منكما على صاحبه فيقول بئس الأخ وبئس الخليل وبئس الصاحب».

قوله عز وجل: ﴿يا عباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون﴾ قيل إن الناس حين يبعثون ليس أحد منهم إلا

﴿ **إن الله هو ربّي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم * فاختلف الأحزاب من بينهم فويل للذين ظلموا من عذاب يوم أليم * هل ينظرون** ﴾، هل ينتظرون، ﴿ **إلاّ الساعة** ﴾، يعني أنها تأتيهم لا محالة فكأنهم ينتظرونها، ﴿ **أن تأتيهم بغتة** ﴾، فجأة، ﴿ **وهم لا يشعرون** ﴾.

﴿ **الأخلاّءُ** ﴾، على المعصية في الدنيا، ﴿ **يومئذ** ﴾، يوم القيامة، ﴿ **بعضهم لبعض عدوٌّ إلاّ المتّقين** ﴾، إلاّ المتحابّين في الله عزّ وجلّ على طاعة الله عزّ وجلّ. أخبرنا أحمد بن إبراهيم الشريحي أنا أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي أخبرني عقيل بن محمد بن أحمد أن أبا الفرج البغدادي القاضي أخبرهم عن محمد بن جرير ثنا ابن عبد الأعلى عن قتادة ثنا أبو ثور عن معمر عن قتادة عن أبي إسحاق أن علياً قال في هذه الآية: خليلان مؤمنان وخليلان كافران، فمات أحد المؤمنين فقال: يا ربّ إن فلاناً كان يأمرني بطاعتك وطاعة رسولك، ويأمرني بالخير وينهاني عن الشر، ويخبرني أنّي مُلاقِيك، يا ربّ فلا تضلّه بعدي واهده كما هديتني وأكرمه كما أكرمتني، فإذا مات خليله المؤمن جمع بينهما، فيقول: ليثنِ أحدكما على صاحبه، فيقول: نِعْمَ الأخ، ونِعْمَ الخليل، ونِعْمَ الصاحب، قال: ويموت أحد الكافرين، فيقول: يا ربّ إن فلاناً كان ينهاني عن طاعتك وطاعة رسولك، ويأمرني بالشرّ وينهاني عن الخير، ويخبرني أنّي غير مُلاقيك، فيقول بئس الأخ، وبئس الخليل، وبئس الصاحب.

﴿ **يا عبادِ** ﴾، أي فيقال لهم يا عبادي، ﴿ **لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون** ﴾، رُوِيَ عن المعتمر بن سليمان عن أبيه قال: سمعت أن الناس حين يُبعَثون ليس منهم أحد إلاّ فزع، فينادي منادياً: ﴿ **يا عبادِ لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون** ﴾، فيرجوها الناس كلهم فيتبعها.

﴿ **الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين** ﴾، فييأس الناس منها غير المسلمين.

فزع فينادي مناد يا عبادي لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون فيرجوها الناس كلهم فيتبعها ﴿**الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين**﴾ فييأس الناس كلهم غير المسلمين فيقال لهم ﴿**ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تحبرون**﴾ أي تسرون وتنعمون ﴿**يطاف عليهم بصحاف من ذهب**﴾ جمع صحفة وهي القصعة الواسعة ﴿**وأكواب**﴾ جمع كوب وهو إناء مستدير بلا عروة ﴿**وفيها**﴾ أي في الجنة ﴿**ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين**﴾ عن عبد الرحمن بن سابط قال «قال رجل يا رسول الله هل في الجنة خيل فإني أحب الخيل قال إن يدخلك الله الجنة فلا تشاء أن تركب فرساً من ياقوتة حمراء فتطير بك في أي الجنة شئت إلا فعلت وسأله آخر فقال يا رسول الله هل في الجنة من إبل فإني أحب الإبل قال فلم يقل ما قال لصاحبه فقال إن يدخلك الله الجنة يكن لك فيها ما اشتهت نفسك ولذت عينك» أخرجه الترمذي ﴿**وأنتم فيها خالدون**﴾.

وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾ أَمْ أَبْرَمُوٓا۟ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾

﴿**وتلك الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعملون لكم فيها فاكهة كثيرة منها تأكلون**﴾ ورد في الحديث «أنه لا ينزع أحد في الجنة من ثمرها ثمرة إلا نبت مكانها مثلاها» قوله تعالى: ﴿**إن المجرمين**﴾ يعني المشركين ﴿**في عذاب جهنم خالدون لا يفتر عنهم**﴾ أي لا يخفف عنهم ﴿**وهم فيه مبلسون**﴾ أي آيسون من رحمة الله تعالى: ﴿**وما ظلمناهم**﴾ أي

فيقال لهم: ﴿ **ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تُحبَرون** ﴾، تُسرّون وتُنعَمون.

﴿ **يُطاف عليهم بصِحاف** ﴾، جمع صحفة وهي القصعة الواسعة، ﴿ **من ذهب وأكواب** ﴾، جمع كوب وهو إناء مستدير مدوّر الرأس لا عُرى لها، ﴿ **وفيها** ﴾، أي في الجنة، ﴿ **ما تشتهيه الأنفس** ﴾، قرأ أهل المدينة والشام وحفص تشتهيه الأنفس، وكذلك في مصاحفهم، وقرأ الآخرون بحذف الهاء. ﴿ **وتلذّ الأعين وأنتم فيها خالدون** ﴾، أخبرنا أبو بكر محمد بن عبد الله بن أبي توبة أنا أبو طاهر محمد بن أحمد بن الحارث أنا محمد بن يعقوب الكسائي أنا عبد الله بن محمود أنا إبراهيم بن عبد الله الخلال ثنا عبد الله بن المبارك عن سفيان عن علقمة بن مرثد عن عبد الرحمن بن سابط قال: قال رجل: يا رسول الله أفي الجنة خيل؟ فإني أُحب الخيل، فقال: «إن يُدخِلك الله الجنّة فلا تشاء أن تركب فرساً من ياقوتة حمراء فتطير بك في أيّ الجنة شئت، إلاّ فعلتَ»، وقال أعرابي: يا رسول الله أفي الجنة إبل؟ فإني أُحبّ الإبل، فقال: «يا أعرابي إن يُدخِلك الله الجنة أصبت فيها ما اشتهت نفسك ولذّت عينك».

﴿ **وتلك الجنة التي أُورثتموها بما كنتم تعملون * لكم فيها فاكهة كثيرة ومنها تأكلون** ﴾، وفي الحديث: «لا ينزع رجل من الجنة من ثمرها إلاّ نبت مكانها مثلاها».

﴿ **إنّ المجرمين** ﴾، المشركين، ﴿ **في عذاب جهنم خالدون * لا يُفتَّرُ عنهم وهم فيه مبلسون * وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين * ونادوا يا مالك** ﴾، يدعون خازن النار، ﴿ **ليقضِ علينا ربُّك** ﴾، ليُمِتْنا ربك فنستريح فيجيبهم مالك بعد ألف سنة، ﴿ **قال إنكم ماكثون** ﴾، مُقيمون في العذاب، أخبرنا محمد بن عبد الله بن

وما عذبناهم بغير ذنب ﴿ولكن كانوا هم الظالمين﴾ أي لأنفسهم بما جنوا عليها ﴿ونادوا يا مالك﴾ يعني يدعون مالكاً خازن النار يستغيثون به فيقولون ﴿ليقض علينا ربك﴾ أي ليمتنا بل لنستريح والمعنى توسلوا به ليسأل الله تعالى لهم الموت فيجيبهم بعد ألف سنة قاله ابن عباس، وقيل بعد مائة سنة، وروي عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال «إن أهل النار يدعون مالكاً فلا يجيبهم أربعين عاماً ثم يرد عليهم» ﴿قال إنكم ماكثون﴾ قال هانت والله دعوتهم على مالك وعلى رب مالك ومعنى ماكثون مقيمون في العذاب ﴿لقد جئناكم بالحق﴾ يقول أرسلنا إليكم يا معشر قريش رسولنا بالحق ﴿ولكن أكثركم للحق كارهون أم أبرموا أمراً﴾ أي أحكموا أمراً في المكر بالرسول ﷺ ﴿فإنا مبرمون﴾ أي محكمون أمراً في مجازاتهم إن كاد شراً كدتهم بمثله ﴿أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم﴾ أي ما يسرونه من غيرهم ويتناجون به بينهم ﴿بلى﴾ نسمع ذلك كله ونعلمه ﴿ورسلنا﴾ يعني الحفظة من الملائكة ﴿لديهم يكتبون﴾ قوله عز وجل: ﴿قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين﴾ معناه إن كان للرحمن ولد في قولكم وعلى زعمكم فأنا أول من عبد الرحمن فإنه لا شريك له ولا ولد له، وقال ابن عباس: إن كان أي ما كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين الشاهدين له بذلك. وقيل: معناه لو كان للرحمن ولد فأنا أول من عبده بذلك ولكن لا ولد له، وقيل: العابدين بمعنى الآنفين أي أنا أول الجاحدين المنكرين لما قلتم وأنا أول من غضب للرحمن أن يقال له ولد. وقال الزمخشري في معنى الآية: إن كان للرحمن ولد وصح وثبت ببرهان صحيح توردونه وحجة واضحة تدلون بها فأنا أول من يعظم ذلك الولد وأسبقكم إلى طاعته كما يعظم الرجل ولد الملك لتعظيم أبيه وهذا كلام وارد على سبيل الفرض والتمثيل لغرض وهو المبالغة في نفي الولد والإطناب فيه مع الترجمة عن نفسه بثبات القدم في باب التوحيد وذلك أنه علق العبادة بكينونة الولد وهي محال في نفسها فكان المعلق عليها محالاً مثلها ثم نزه نفسه عن الولد فقال تعالى:

أبي توبة أنا محمد بن يعقوب الكسائي أنا عبد الله بن محمود أنا إبراهيم بن عبد الله الخلال ثنا عبد الله بن المبارك عن سعيد بن أبي عَرُوبة عن قتادة يذكره عن أبي أيوب عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: إنّ أهل النار يدعون مالكاً فلا يجيبهم أربعين عاماً، ثم يردّ عليهم إنكم ماكثون، قال: هانت والله دعوتهم على مالك وعلى ربّ مالك، ثم يدعون ربّهم فيقولون: ربّنا غلبت علينا شقوتنا وكنّا قوماً ضالّين ربّنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنّا ظالمون، قال: فيسكت عنهم قدر الدنيا مرتين، ثم يردّ عليهم اخسأوا فيها ولا تكلّمون، قال: فوالله ما نبس القوم بعدها بكلمة وما هو إلا الزفير والشهيق في نار جهنم تشبّه أصواتهم بأصوات الحمير أولها زفير وآخرها شهيق.

﴿ لقد جئناكم بالحق ﴾، يقول أرسلنا إليكم يا معشر قريش رسولنا بالحق، ﴿ ولكن أكثرهم للحق كارهون ﴾.

﴿ أم أبرموا ﴾، أحكموا ﴿ أمراً ﴾، في المكر برسول الله ﷺ، ﴿ فإنّا مُبْرِمُون ﴾، مُحكِمون أمراً في مُجازاتهم، قال مجاهد: إن كادُوا شرّاً كدتهم مثله.

﴿ أم يَحْسَبُون أنّا لا نسمع سرّهم ونجواهم ﴾، ما يسرّونه من غيرهم ويتناجون به بينهم، ﴿ بلى ﴾، نسمع ذلك ونعلم، ﴿ ورسلنا ﴾، أيضاً من الملائكة يعني الحَفَظَة، ﴿ لديهم يكتبون * قلْ إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين﴾، يعني إن كان للرحمن ولد في قولكم وعلى زعمكم، فأنا أول مَن عبده بأنه واحد لا شريك له ولا ولد. قال ابن عباس: ﴿ إنْ كان ﴾ أي ما كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين الشاهدين له بذلك، جعل: ﴿ إن ﴾ بمعنى الجحد. وقال السدي: معناه لو كان للرحمن ولد فأنا أول مَن أعبده بذلك، ولكن لا ولد له. وقيل: العابدين بمعنى الآنفين، يعني أول الجاحدين والمنكرين لما قلتم. ويقال: معناه أنا أول مَن غضب للرحمن أن يقال له ولد، يقال: عبد يعبد إذا أنِفَ أو غضب عبداً. وقال قوم: قلّ ما يُقال: عبدٌ فهو عابد، إنما يقال: عبدٌ فهو عبد.

سُبۡحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾ فَذَرۡهُمۡ يَخُوضُواْ وَيَلۡعَبُواْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوۡمَهُمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي فِي ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٞ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَٰهٞۚ وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ وَتَبَارَكَ ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٨٥﴾ وَلَا يَمۡلِكُ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلۡحَقِّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَهُمۡ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ﴿٨٧﴾ وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمٞ لَّا يُؤۡمِنُونَ ﴿٨٨﴾

﴿**سبحان رب السموات والأرض رب العرش عما يصفون**﴾ أي عما يقولونه من الكذب ﴿**فذرهم يخوضوا**﴾ أي في باطلهم ﴿**ويلعبوا**﴾ أي في دنياهم ﴿**حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون**﴾ يعني يوم القيامة ﴿**وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله**﴾ يعني هو الإله الذي يعبد في السماء وفي الأرض لا إله إلا هو ﴿**وهو الحكيم**﴾ يعني في تدبير خلقه ﴿**العليم**﴾ يعني بمصالحهم ﴿**وتبارك الذي له ملك السموات والأرض وما بينهما وعنده علم الساعة وإليه ترجعون ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة**﴾ قيل سبب نزولها أن النضر بن الحارث ونفراً معه قالوا إن كان ما يقول محمد حقاً فنحن نتولى الملائكة فهم أحق بالشفاعة من محمد ﷺ فنزلت هذه الآية وأراد بالذين يدعون من دونه آلهتهم ثم استثنى عيسى وعزيراً والملائكة بقوله ﴿**إلا من شهد بالحق**﴾ لأنهم عبدوا من دون الله ولهم شفاعة وقيل المراد بالذين يدعون من دونه عيسى وعزير والملائكة فإن الله تعالى لا يملك لأحد من هؤلاء الشفاعة إلا لمن شهد بالحق وهي كلمة الإخلاص وهي لا إله إلا الله فمن شهدها بقلبه شفعوا له وهو قوله ﴿**وهم يعلمون**﴾ أي بقلوبهم ما شهدوا به بألسنتهم وقيل يعلمون أن الله عز وجل خلق عيسى وعزيرا والملائكة ويعلمون أنهم عباده ﴿**ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله**﴾ يعني أنهم إذا أقروا بأن الله خالق العالم بأسره فكيف قدموا عبادة غيره ﴿**فأنى يؤفكون**﴾ يعني يصرفون عن عبادته إلى

ثم نزّه نفسه فقال: ﴿ **سبحان ربِّ السمٰوات والأرض ربِّ العرش عمّا يصفون** ﴾ عمّا يقولون من الكذب.

﴿ **فذرهم يخوضوا** ﴾، في باطلهم، ﴿ **ويلعبوا** ﴾، في دنياهم، ﴿ **حتى يُلاقوا يومهم الذي يُوعدون** ﴾، يعني يوم القيامة.

﴿ **وهو الذي في السماء إلٰهٌ وفي الأرض إلٰهٌ** ﴾، قال قتادة: يُعبد في السماء وفي الأرض لا إلٰه إلّا هو، ﴿ **وهو الحكيم** ﴾، في تدبير خلقه، ﴿ **العليم** ﴾، بمصالحهم.

﴿ **وتبارك الذي له مُلْك السمٰوات والأرض وما بينهما وعنده علم الساعة وإليه تُرجَعون** ﴾، قرأ ابن كثير والكسائي (يرجعون) بالياء، والآخرون بالتاء.

﴿ **ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة إلّا مَن شهد بالحق** ﴾، وهم عيسى وعزير والملائكة فإنهم عُبدوا من دون الله، ولهم الشفاعة، وعلى هذا يكون ﴿ من ﴾ في محل الرفع، وقيل: ﴿ من ﴾ في محل الخفض، وأراد بالذين يدعون عيسى وعزير والملائكة، يعني أنهم لا يملكون الشفاعة إلّا لمَن شَهِدَ الحق، والأول أصحّ، وأراد بشهادة الحق قوله لا إلٰه إلّا الله كلمة التوحيد، ﴿ **وهم يعلمون** ﴾، بقلوبهم ما شهدوا به بألسنتهم.

﴿ **ولئن سألتهم مَن خلقهم ليقولنّ الله فأنّى يُؤفكون** ﴾، يُصرَفون عن عبادته.

﴿ **وقيله يا رب** ﴾، يعني قول محمد ﷺ شاكياً إلى ربّه يا ربّ، ﴿ **إنّ هؤلاء قوم لا يؤمنون** ﴾، قرأ عاصم

غيره ﴿وقيله يا رب﴾ يعني قوله محمد ﷺ شاكياً الله ربه يا رب ﴿إن هؤلاء قوم لا يؤمنون﴾ قال ابن عباس: شكا إلى الله تعالى تخلف قومه عن الإيمان، وقال قتادة: هذا نبيكم يشكو قومه إلى ربه.

﴿فَٱصۡفَحۡ عَنۡهُمۡ وَقُلۡ سَلَٰمٞۚ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ۝٨٩﴾

﴿فاصفح عنهم﴾ يعني أعرض عنهم وفي ضمنه منعه من أن يدعو عليهم بالعذاب ﴿وقل سلام﴾ معناه المتاركة، وقيل معناه قل خيراً بدلاً من شرهم ﴿فسوف يعلمون﴾ يعني عاقبة كفرهم وفيه تهديد لهم وقيل معناه يعلمون أنك صادق، قال مقاتل: نسختها آية السيف والله تعالى أعلم.

وحمزة ﴿ وقيله ﴾ بجرّ اللام والهاء على معنى وعنده علم الساعة وعلم قيله يا رب، وقرأ الآخرون بالنصب، وله وجهان: أحدهما معناه: أم يحسبون أنّا لا نسمع سرّهم ونجواهم وقيله يا ربّ، والثاني: وقال قيله.

﴿ فاصفحْ عنهم ﴾، أعرض عنهم، ﴿ وقلْ سلام ﴾، معناه: المتاركة، كقوله تعالى: ﴿ سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين ﴾ [القصص: ٥٥]، ﴿ فسوف يعلمون ﴾، قرأ أهل المدينة والشام بالتاء، وقرأ الباقون بالياء، قال مقاتل: نسختها آية السيف.

سورة الدخان

مكية وهي سبع وقيل تسع وخمسون آية وثلاثمائة وست وأربعون كلمة وألف وأربعمائة وأحد وثلاثون حرفاً)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٥﴾

قوله عز وجل: ﴿حمٓ والكتاب المبين﴾ يعني المبين ما يحتاج الناس إليه من حلال وحرام وغير ذلك من الأحكام ﴿وإنا أنزلناه في ليلة مباركة﴾ قيل هي ليلة القدر أنزل الله تعالى فيها القرآن جملة من اللوح المحفوظ إلى سماء الدنيا ثم نزل به جبريل نجوماً على حسب الوقائع في عشرين سنة، وقيل هي ليلة النصف من شعبان عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: قال رسول الله ﷺ «إن الله تبارك وتعالى ينزل ليلة النصف من شعبان إلى سماء الدنيا فيغفر لأكثر من عدد شعر غنم بني كلب» أخرجه الترمذي. ﴿إنا كنا منذرين﴾ أي مخوفين عقابنا ﴿فيها﴾ أي في تلك الليلة المباركة ﴿يفرق﴾ أي يفصل ﴿كل أمر حكيم﴾ أي محكم، قال ابن عباس: يكتب من أم الكتاب في ليلة القدر ما هو كائن في السنة من الخير والشر والأرزاق والآجال حتى الحجاج يقال: يحج فلان ويحج فلان وقيل هي ليلة النصف

سُورَة الدّخَانِ

مكيّة وهي تسع وخمسون آية.

﴿ حمٓ * والكتاب المبين * إنّا أنزلناه في ليلة مباركة ﴾، قال قتادة وابن زيد: هي ليلة القدر أنزل الله القرآن في ليلة القدر من أُمّ الكتاب إلى السماء الدّنيا، ثم نزل به جبريل عن النبي ﷺ نجوماً في عشرين سنة. وقال آخرون هي ليلة النصف من شعبان أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أبو منصور السمعاني ثنا أبو جعفر الريّاني ثنا حميد بن زنجويه ثنا الأصبغ بن الفرج: أخبرني ابن وهب أخبرني عمر بن الحارث أن عبد الملك بن عبد الملك حدّثه أن ابن أبي ذئب حدّثه عن القاسم بن محمد عن أبيه أو عمّه عن رسول الله ﷺ قال: «ينزل الله جلّ ثناؤه ليلة النصف من شعبان إلى السماء الدنيا فيغفر لكل نفس إلاّ إنساناً في قلبه شحناء أو مشركاً بالله»، ﴿ إنّا كنّا منذِرين ﴾.

﴿ فيها ﴾، أي في الليلة المباركة، ﴿ يُفرق ﴾، أي يفصّل، ﴿ كل أمر حكيم ﴾، محكم، وقال ابن عباس: يكتب من أُم الكتاب في ليلة القدر ما هو كائن في السنة من الخير والشر والأرزاق والآجال حتى الحجّاج، يقال: يحجّ فلان ويحجّ فلان، قال الحسن ومجاهد وقتادة: يبرم في ليلة القدر في شهر رمضان كل أجل وعمل وخلق ورزق، وما يكون في تلك السنة. وقال عكرمة: هي ليلة النصف من شعبان يبرم فيها أمر السنة وتنسخ الأحياء من الأموات فلا يُزاد فيهم أحد ولا ينقص منهم أحد. أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أبو منصور السمعاني ثنا أبو جعفر

من شعبان يبرم فيها أمر السنة وينسخ الأحياء من الأموات، وروى البغوي بسنده أن النبي ﷺ قال «تقطع الآجال من شعبان إلى شعبان حتى إن الرجل لينكح ويولد له وقد خرج اسمه في الموتى» وعن ابن عباس «إن الله يقضي الأقضية في ليلة النصف من شعبان ويسلمها إلى أربابها في ليلة القدر» ﴿أمراً﴾ أي أنزلنا أمراً ﴿من عندنا إنا كنا مرسلين﴾ يعني محمداً ﷺ ومن قبله من الأنبياء.

﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٦ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ۝٧ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٨ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ يَلْعَبُونَ ۝٩ فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ۝١٠ يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١١﴾

﴿رحمة من ربك﴾ قال ابن عباس رأفة مني بخلقي ونعمة عليهم بما بعثنا إليهم من الرسل وقيل أنزلناه في ليلة مباركة رحمة من ربك ﴿إنه هو السميع﴾ أي لأقوالهم ﴿العليم﴾ أي بأحوالهم ﴿رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين﴾ أي إن الله رب السموات والأرض وما بينهما ﴿لا إله إلا هو يحيـي ويميت ربكم ورب آبائكم الأولين﴾ قوله تعالى: ﴿بل هم في شك﴾ أي من هذا القرآن ﴿يلعبون﴾ أي يهزؤون به لاهون عنه ﴿فارتقب﴾ أي يا محمد ﴿يوم تأتي السماء بدخان مبين يغشى الناس هذا عذاب أليم﴾ (ق) عن مسروق قال: كنا جلوساً عند عبد الله بن مسعود وهو مضطجع بيننا فأتاه رجل فقال يا أبا عبد الرحمن إن قاصاً عند باب كندة يقص ويزعم أن آية الدخان تجيء فتأخذ بأنفاس الكفار ويأخذ المؤمنين منها كهيئة الزكام فقام عبد الله وجلس وهو غضبان فقال يا أيها الناس اتقوا الله من علم منكم شيئاً فليقل به ومن لا يعلم شيئاً فليقل الله أعلم فإن من العلم أن يقول لما لا يعلم الله أعلم فإن الله عز وجل قال

الرياني ثنا حميد بن زنجويه ثنا عبد الله بن صالح حدّثني الليث حدّثني عقيل عن ابن شهاب أخبرني عثمان بن محمد بن المغيرة بن الأخنس أن رسول الله ﷺ قال: «تقطع الآجال من شعبان إلى شعبان، حتى إن الرجل لينكح ويولد له ولقد خرج اسمه في الموتى». وروى أبو الضحى عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن الله يقضي الأقضية في ليلة النصف من شعبان، ويسلّمها إلى أربابها في ليلة القدر.

﴿ أمراً ﴾، أي أنزلنا أمراً، ﴿ من عندنا ﴾، قال الفرّاء: نُصِب على معنى فيها يفرق كل أمر حكيم فرقاً وأمراً، أي تأمر أمراً ببيان ذلك. ﴿ إنّا كنّا مرسلين ﴾، محمداً ﷺ ومَن قبله من الأنبياء.

﴿ رحمة من ربّك ﴾، قال ابن عباس رأفة منّي بخلقي ونعمتي عليهم بما بعثنا إليهم من الرسل. وقال الزجّاج: أنزلناه في ليلة مباركة للرحمة، ﴿ إنه هو السميع العليم ربّ السمٰوات والأرض وما بينهما ﴾، قرأ أهل الكوفة: ﴿ ربّ ﴾ جرّاً ردّاً على قوله: ﴿ من ربّك ﴾، ورفعه الآخرون ردّاً على قوله: ﴿ هو السميع العليم ﴾، وقيل: على الابتداء، ﴿ إن كنتم موقنين ﴾، أن الله ربّ السمٰوات والأرض.

﴿ لا إله إلاّ هو يُحيي ويُميت ربّكم وربُّ آبائكم الأوّلين * بل هم في شكٍّ ﴾، من هذا القرآن، ﴿ يلعبون ﴾ يهزؤون به لاهُونَ عنه.

﴿ فارتقبْ يومَ تأتي السماء بدخان مُبين * يغشى الناسَ هذا عذابٌ أليم ﴾، تقديره: هو عذاب إلٰهي، ويجوز أن يكون حكاية لكلامهم بما بعده، أي: يقولون هذا عذاب أليم، اختلفوا في هذا الدخان، أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا محمد بن كثير عن سفيان ثنا منصور والأعمش عن أبي الضحى عن مسروق قال: بينما رجل يحدّث في كندة، فقال: يجيء دخان يوم

لنبيه ﷺ «قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين» «إن رسول الله ﷺ لما رأى من الناس إدباراً قال اللهم سبعاً كسبع يوسف» وفي رواية «لما دعا قريشاً فكذبوه واستعصوا عليه قال: اللهم أعني عليهم بسبع كسبع يوسف» فأخذتهم سنة حصت كل شيء حتى أكلوا الجلود والميتة من الجوع وينظر أحدهم إلى السماء فيرى كهيئة الدخان فأتاه أبو سفيان فقال يا محمد إنك جئت تأمر بطاعة الله وبصلة الرحم وإن قومك قد هلكوا فادع الله لهم قال الله عزوجل: ﴿فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين﴾ إلى قوله ﴿عائدون﴾ قال عبد الله فيكشف عذاب الآخرة يوم نبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون فالبطشة يوم بدر وفي رواية للبخاري قالوا:

﴿رَبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴿١٤﴾ إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا ۚ إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ﴿١٥﴾ يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾﴾

﴿ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون﴾ فقيل له إن كشفناه عنهم عادوا فدعا ربه فكشف عنهم فعادوا فانتقم الله منهم يوم بدر فذلك قوله تعالى: ﴿فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين﴾ إلى قوله ﴿إنا منتقمون﴾ قوله حصت كل شيء بالحاء والصاد المهملتين أي أهلكت واستأصلت كل شيء (ق). عن عبد الله بن مسعود قال: «خمس قد مضين اللزام والروم والبطشة والقمر والدخان قيل أصابهم من الجوع كالظلمة في أبصارهم وسبب ذلك أن في سنة القحط العظيم تيبس الأرض بسبب انقطاع المطر ويرتفع الغبار ويظلم الهواء والجو وذلك يشبه الدخان وقيل هو دخان يجيء

القيامة فيأخذ بأسماع المنافقين وأبصارهم، ويأخذ المؤمنين كهيئة الزكام، ففزعنا فأتيت ابنَ مسعود وكان متّكئاً فنهض فجلس، فقال: مَن عَلِمَ فليقل، ومَن لم يعلم فليقل: الله أعلم، فإن من العلم أن يقول لما لا يعلم: الله ورسوله أعلم، فإن الله قال لنبيّه ﷺ: ﴿ قلْ ما أسئلكم عليه من أجـر ومَا أنَـا من المتكلفين ﴾ [صٓ: ٨٦]، وإنّ قريشاً أبطؤوا عن الإسلام فدعا عليهم النبي ﷺ فقال: «اللّهمَّ أعِنِّي عليهم بسبع كسبع يوسف، فأخذتهم سنة حتى هلكوا فيها وأكلوا الميتة والعظام، ويرى الرجل ما بين السماء والأرض كهيئة الدخان» فجاء أبو سفيان فقال: يا محمد جئت تأمر بصلة الرحم، وإن قومك قد هلكُوا فادْعُ الله لهم، فقرأ: ﴿ فارتقبْ يوم تأتي السماء بدخان مبين ﴾، إلى قوله: ﴿ إنكم عائدون ﴾، أفيكشف عنهم عذاب الآخرة إذا جاء؟ ثم عادوا إلى كفرهم، فذلك قوله: ﴿ يوم نبطش البطشة الكبرى ﴾، يعني يوم بدر، ولزاماً يوم بدر، ﴿ آلم غُلِبتِ الرومُ ﴾، إلى ﴿ سيغلبون ﴾ [الروم: ١ ـ ٣]، والروم قد مضى». ورواه محمد بن إسماعيل عن يحيـىٰ عن وكيع عن الأعمش، قال:

قالوا: ﴿ ربّنا اكشفْ عنّا العذابَ إنّا مؤمنون ﴾، فقيـل له: إنْ كشفنا عنهم عادوا إلى كفرهم، فدعا ربّه فكشف عنهم فعادوا فانتقم الله منهم يوم بدر، فذلك قوله: ﴿ فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين ﴾، إلى قوله ﴿ إنّا منتقمون ﴾ أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا يحيـىٰ ثنا وكيع عن الأعمش عن مسلم عن مسروق عن عبد الله قال: خمس قد مضين اللّزامُ والرومُ والبطشةُ والقمرُ والدخانُ. وقال قوم: هو دخان يجيء قبل قيام الساعة ولم يأتِ بعد، فيدخل في أسماع الكفّار والمنافقين حتى يكون كالرأس الحنيذ، ويعتري المؤمن منه كهيئة الزكام وتكون الأرض كلها كبيت أُوقد فيه النار، وهو قول ابن عباس وابن عمر والحسن. أخبرنا أبو سعيد الشريحي أنا أبو إسحاق الثعلبي أخبرنا عقيل بن محمد الجرجاني ثنا أبو الفرج المعافي بن زكريا البغدادي ثنا محمد بن جرير الطبري حدّثني عصام بن رواد بن الجرّاح ثنا أبي أنا أبو سفيان بن سعيد ثنا منصور بن المعتمر عن ربعي بن حراش قال: سمعت حذيفة بن اليمان يقول: قال رسول

قبل قيام الساعة ولم يأت بعد فيدخل في أسماع الكفار والمنافقين حتى يكون الرجل رأسه كالرأس الحنيذ يعني المشوي ويعتري المؤمن منه كهيئة الزكام وتكون الأرض كلها كبيت أوقد فيه، وهو قول ابن عباس وابن عمر والحسن يدل عليه ما روى البغوي بإسناد الثعلبي عن حذيفة بن اليمان قال: قال رسول الله ﷺ أول الآيات الدخان ونزول عيسى ابن مريم ونار تخرج من قعر عدن أبين تسوق الناس إلى المحشر تقيل معهم إذا قالوا، قال حذيفة: يا رسول الله وما الدخان؟ فتلا هذه الآية ﴿يوم تأتي السماء بدخان مبين﴾ يملأ ما بين المشرق والمغرب يمكث أربعين يوماً وليلة أما المؤمن فيصيبه منه كهيئة الزكام وأما الكافر فكمنزلة السكران يخرج من منخريه وأذنيه ودبره» ﴿أنى لهم الذكرى﴾ أي كيف يتذكرون ويتعظون بهذه الحالة ﴿وقد جاءهم رسول مبين﴾ معناه وقد جاءهم ما هو أعظم وأدخل في وجوب الطاعة وهو ما ظهر على يد رسول الله ﷺ من المعجزات الظاهرات والآيات البينات الباهرة ﴿ثم تولوا عنه﴾ أي أعرضوا عنه ﴿وقالوا معلم﴾ أي يعلمه بشر ﴿مجنون﴾ أي تلقي إليه الجن هذه الكلمات حال ما يعرض له الغشي ﴿إنا كاشفو العذاب﴾ أي الجوع ﴿قليلاً﴾ أي زمناً يسيراً قيل إلى يوم بدر ﴿إنكم عائدون﴾ أي إلى كفركم ﴿يوم نبطش البطشة الكبرى﴾ هو يوم بدر ﴿إنا منتقمون﴾ أي منكم في ذلك اليوم، وهو قول ابن مسعود وأكثر العلماء وفي رواية عن ابن عباس أنه يوم القيامة.

۞ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَدُّوٓاْ إِلَىَّ عِبَادَ ٱللَّهِ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ
أَمِينٌ ﴿١٨﴾ وَأَن لَّا تَعْلُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِنِّىٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾ وَإِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُواْ لِى
فَٱعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾ فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ
جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾ كَمْ تَرَكُواْ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُواْ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾

قوله تعالى: ﴿ولقد فتنا قبلهم﴾ أي قبل هؤلاء ﴿قوم فرعون وجاءهم رسول كريم﴾ يعني على الله وهو

الله ﷺ: «أول الآيات الدخان، ونزول عيسى ابن مريم، ونار تخرج من قعر عدن أبين، تسوق الناس إلى المحشر تقيل معهم إذا قالوا»، قال حذيفة: يا رسول الله وما الدخان؟ فتلا هذه الآية: ﴿ يوم تأتي السماء بدخان مُبين ﴾، يملأ ما بين المشرق والمغرب يمكث أربعين يوماً وليلة، أما المؤمن فيصيبه منه كهيئة الزكام، وأما الكافر فكمنزلة السكران يخرج من مِنخريه وأذنيه ودبره.

﴿ أنى لهم الذكرى ﴾، من أين لهم التذكّر والاتّعاظ؟ يقول: كيف يتذكّرون ويتّعظون؟ ﴿ وقد جاءهم رسول مُبين ﴾، ظاهر الصدق يعني محمداً ﷺ.

﴿ ثم تولّوا عنه ﴾، أعرضوا عنه، ﴿ وقالوا مُعَلَّمٌ ﴾، أي يعلّمه بشر، ﴿ مجنون ﴾.

قال الله تعالى: ﴿ إنّا كاشفوا العذاب ﴾، أي عذاب الجوع، ﴿ قليلاً ﴾، أي زماناً يسيراً، قال مقاتل: إلى يوم بدر. ﴿ إنّكم عائدون ﴾، إلى كفركم.

﴿ يوم نَبطِشُ البطشةَ الكبرى ﴾، وهو يوم بدر، ﴿ إنّا مُنتقمون ﴾، وهذا قول ابن مسعود وأكثر العلماء، وقال الحسن: يوم القيامة، وروى عكرمة ذلك عن ابن عباس.

﴿ ولقد فتنّا ﴾، بلونا، ﴿ قبلهم ﴾، قبل هؤلاء، ﴿ قوم فرعون وجاءهم رسولٌ كريم ﴾، على الله وهو موسى بن عمران.

﴿ أن أدّوا إليّ عباد الله ﴾، يعني بني إسرائيل أطلقهم ولا تعذّبهم، ﴿ إني لكم رسول أمين ﴾، على الوحي.

موسى بن عمران عليه السلام ﴿أن أدوا إليّ عباد الله﴾ يعني أطلقوا إلي بني إسرائيل ولا تعذبوهم ﴿إني لكم رسول أمين﴾ يعني على الوحي ﴿وأن لا تعلوا على الله﴾ يعني لا تتجبروا عليه بترك طاعته ﴿إني آتيكم بسلطان مبين﴾ يعني ببرهان بيِّن على صدق قولي فلما قال ذلك توعده بالقتل فقال ﴿وإني عذت بربي وربكم أن ترجمون﴾ أن تقتلون وقال ابن عباس: تشتمون وتقولوا هو ساحر وقيل ترجموني بالحجارة ﴿وإن لم تؤمنوا لي فاعتزلون﴾ أي فاتركون لا معي ولا عليّ، وقال ابن عباس: اعتزلوا أذاي باليد واللسان فلم يؤمنوا ﴿فدعا ربه أن هؤلاء قوم مجرمون﴾ أي مشركون ﴿فأسر بعبادي ليلاً﴾ أي أجاب الله دعاءه وأمره أن يسري ببني إسرائيل بالليل ﴿إنكم متبعون﴾ أي يتبعكم فرعون وقومه ﴿واترك البحر﴾ أي إذا قطعته أنت وأصحابك ﴿رهواً﴾ أي ساكناً والمعنى لا تأمره أن يرجع بل اتركه على حالته حتى يدخله فرعون وقومه، وقيل اتركه طريقاً يابساً وذلك أنه لما قطع موسى البحر رجع ليضربه بعصاه ليلتئم وخاف أن يتبعه فرعون بجنوده فقيل لموسى اترك البحر كما هو ﴿إنهم جند مغرقون﴾ يعني أخبر موسى بإغراقهم ليطمئن قلبه في تركه البحر كما هو ﴿كم تركوا﴾ أي بعد الغرق ﴿من جنات وعيون وزروع ومقام كريم﴾ أي مجلس شريف حسن ﴿ونعمة﴾ أي وعيش لين رغد ﴿كانوا فيها﴾ أي في تلك النعمة ﴿فاكهين﴾ أي ناعمين وقرىء فكهين أي أشرين بطرين.

كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن فِرْعَوْنَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى

﴿ وأنْ لا تعلوا على الله ﴾، أي لا تتجبَّروا عليه بترك طاعته، ﴿ إني آتيكم بسلطان مبين ﴾، ببرهان بيِّن على صدق قولي، فلما قال ذلك توعدوه بالقتل.

فقال: ﴿ وإني عُذْتُ بربّي وربكم أن تَرْجُمُون ﴾، أن تُقتلون، وقال ابن عباس: تشتمون وتقولوا هو ساحر. وقال قتادة: ترجموني بالحجارة.

﴿ وإن لم تؤمنوا لي فاعتزلون ﴾، فاتركوني لا معي ولا عليّ. وقال ابن عباس: فاعتزلوا أذايَ باليد واللسان، فلم يؤمنوا.

﴿ فدعا ربّه أنّ هؤلاء قومٌ مجرمون ﴾، مشركون فأجابه الله وأمره أن يسري.

فقال: ﴿ فأسرِ بعبادي ليلاً ﴾، أي ببني إسرائيل، ﴿ إنكم متَّبعون ﴾، يتبعكم فرعون وقومه.

﴿ واترك البحرَ ﴾، إذا قطعته أنت وأصحابك، ﴿ رهواً ﴾، ساكناً على حالته وهيئته، بعد أن ضربته ودخلته، معناه لا تأمره أن يرجع اتركه حتى يدخله آل فرعون، وأصل الرهو: السكون. وقال مقاتل: معناه اترك البحر راهياً أي ساكناً، فسُمّي بالمصدر، أي ذَا رَهْوٍ. وقال كعب: اتركه طريقاً. قال قتادة: طريقاً يابساً. قال قتادة: لمّا قطع موسى البحر عطف ليضرب البحر بعصاه ليلتئم وخاف أن يتبعه فرعون وجنوده، فقيل له: اترك البحر رهواً كما هو، ﴿ إنهم جند مغرقون ﴾، أُخْبِرَ موسى أنه يغرقهم ليطمئن قلبه في تركه كما جاوزه، ثم ذكر ما تركوا بمصر.

فقال: ﴿ كم تركوا ﴾، يعني بعد الغرق، ﴿ من جنّات وعيون * وزُروع ومقام كريم ﴾، مجلس شريف، قال قتادة: الكريم الحسن.

﴿ ونَعْمَة ﴾، ومتعة وعيش ليِّن، ﴿ كانوا فيها فاكهين ﴾، ناعمين وفاكهين أشرين بطرين.

ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٢﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٦﴾ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَٰهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾

﴿كذلك﴾ أي أفعل بمن عصاني ﴿وأورثناها قوماً آخرين﴾ يعني بني إسرائيل ﴿فما بكت عليهم السماء والأرض﴾ وذلك أن المؤمن إذا مات تبكي عليه السماء والأرض أربعين صباحاً، وهؤلاء لم يكن يصعد لهم عمل صالح فتبكي السماء على فقده ولا لهم على الأرض عمل صالح فتبكي الأرض عليه.

عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ أنه قال «ما من مؤمن إلا وله بابان باب يصعد منه عمله وباب ينزل منه رزقه فإذا مات بكيا عليه» فذلك قوله تعالى: ﴿فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين﴾» أخرجه الترمذي وقال حديث غريب لا نعرفه مرفوعاً إلا من هذا الوجه، قيل: بكاء السماء حمرة أطرافها، وقال مجاهد: ما مات مؤمن إلا بكت عليه السماء والأرض أربعين صباحاً فقيل: أوتبكي، فقال: وما للأرض لا تبكي على عبد كان يعمرها بالركوع والسجود وما للسماء لا تبكي على عبد كان لتسبيحه وتكبيره فيها دوي كدوي النحل وقيل المراد أهل السماء وأهل الأرض ﴿وما كانوا منظرين﴾ أي لم يمهلوا حين أخذهم العذاب لتوبة ولا لغيرها قوله عز وجل: ﴿ولقد نجينا بني إسرائيل من العذاب المهين﴾ أي من قتل الأبناء واستحياء النساء والتعب في العمل ﴿من فرعون إنه كان عالياً﴾ أي جباراً ﴿من المسرفين ولقد اخترناهم على علم﴾ أي علمه الله تعالى فيهم ﴿على العالمين﴾ أي عالمي زمانهم ﴿وآتيناهم من الآيات ما فيه بلاء مبين﴾ أي نعمة بينة من فلق البحر وتظليل الغمام وإنزال المن والسلوى والنعم التي أنعمنا بها عليهم وقيل ابتلاؤهم بالرخاء والشدة ﴿إن هؤلاء﴾ يعني مشركي مكة ﴿ليقولون إن هي إلا موتتنا الأولى﴾ أي لا موتة لنا إلا هذه التي نموتها في الدنيا ولا بعث بعدها وهو قوله ﴿وما نحن بمنشرين﴾ أي بمبعوثين بعد موتتنا هذه

﴿ كذلك ﴾، قال الكلبي: كذلك أفعل بمَن عصاني، ﴿ وأورثناها قوماً آخرين ﴾، يعني بني إسرائيل.

﴿ فما بكت عليهم السماء والأرض ﴾، وذلك أن المؤمن إذا مات تبكي عليه السماء والأرض أربعين صباحاً، وهؤلاء لم يكن يصعد لهم عمل صالح فتبكي السماء على فقده، ولا لهم على الأرض عمل صالح فتبكي الأرض عليه، أخبرنا أبو سعيد الشريحي أنا أبو إسحاق الثعلبي أنا أبو عبد الله الفنجوي ثنا أبو علي المقري ثنا أبو يعلى الموصلي ثنا أحمد بن إسحاق البصري ثنا مكّي بن إبراهيم ثنا موسى بن عبيدة الزيدي أخبرني يزيد الرقاشي عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ أنه قال: «مَا مِنْ عبدٍ إلّا له في السماء بابان باب يخرج منه رزقه وباب يدخل فيه عمله، فإذا مات فقداه وبكيا عليه»، ثم تلا: ﴿ فما بكت عليهم السماء والأرض ﴾، قال عطاء: بكاء السماء حُمرَة أطرافها. قال السدي: لمّا قُتِل الحسين بن علي بكت عليه السماء وبكاؤها حُمرتها. ﴿ وما كانوا مُنْظَرِين ﴾، لم ينظروا حين أخذهم العذاب لتوبة ولا لغيرها.

﴿ ولقد نجّينا بني إسرائيل من العذاب المهين ﴾، قتل الأبناء واستحياء النساء والتعب في العمل.

﴿ من فرعون إنه كان عالياً من المسرفين * ولقد اخترناهم ﴾، يعني مؤمني بني إسرائيل، ﴿ على علم ﴾، بهم، ﴿ على العالمين ﴾، على عالمي زمانهم.

﴿ وآتيناهم من الآيات ما فيه بلاءُ مُبين ﴾، قال قتادة: نعمة بيّنة من فلق البحر وتظليل الغمام وإنزال المنّ والسلوى، والنِّعَم التي أنعمها عليهم. قال ابن زيد: ابتلاهم بالرخاء والشدّة، وقرأ: (ويبلوكم بالشرِّ والخير فتنة).

﴿فأتوا بآبائنا﴾ أي الذين ماتوا قبل **﴿إن كنتم صادقين﴾** أي إنا نبعث أحياء بعدالموت قيل طلبوا من النبي ﷺ أن يحيي لهم قصي بن كلاب ثم خوفهم مثل عذاب الأمم الخالية فقال تعالى: **﴿أهم خير أم قوم تبع﴾** أم ليسوا خيراً من قوم تبع يعني في الشدة والقوة والكثرة قيل هو تبع الحميري وكان من ملوك اليمن سمي تبعاً لكثرة أتباعه وقيل كل واحد من ملوك اليمن يسمى تبعاً لأنه يتبع صاحبه الذي قبله كما يسمى في الإسلام خليفة وكان تبع هذا يعبد النار فأسلم ودعا قومه وهم حمير إلى الإسلام فكذبوه.

عن سهل بن سعد قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول «لا تسبوا تبعاً فإنه كان قد أسلم» أخرجه أحمد بن حنبل في مسنده وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «ما أدري أكان تبع نبياً أو غير نبي» وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت «لا تسبوا تبعاً فإنه كان رجلاً صالحاً» وكان من قصته على ما ذكر محمد بن إسحاق وغيره، وذكر عكرمة عن ابن عباس قالوا: كان تبع الآخر وهو أبو كرب أسعد بن مليك وكان سار بالجيوش نحو المشرق حتى حير الحيرة وبنى سمرقند ورجع من قبل المشرق فجعل طريقه على المدينة وقد كان حين مر بها خلف بين أظهرهم ابناً له فقتل غيلة فقدمها وهو مجمع على خرابها واستئصال أهلها، فجمع له هذا الحي من الأنصار حين سمعوا بذلك من أمره فخرجوا لقتاله فكان الأنصار يقاتلونه بالنهار ويقرونه بالليل، فأعجبه ذلك وقال: إن هؤلاء لكرام فبينا هو كذلك إذ جاءه حبران عالمان من أحبار بني قريظة وكانا ابني عم اسم أحدهما كعب والآخر أسد حين سمعا ما يريد من إهلاك المدينة وأهلها فقالا له: أيها الملك لا تفعل فإنك إن أبيت إلا ما تريد حيل بينك وبينه ولم نأمن عليك عاجل العقوبة فإن هذه المدينة مهاجر نبي يخرج من هذا الحي من قريش اسمه محمد مولده بمكة وهذه دار هجرته ومنزلك الذي أنت فيه يكون به من القتل والجراح أمر كبير في أصحابه وفي عدوهم، قال تبع ومن يقاتله وهو نبي قالا يسير إليه قومه فيقتتلون ها هنا فتناهى لقولهما عما كان يريد بالمدينة ثم إنهما دعواه إلى دينهما فأجابهما واتبعهما على دينهما وأكرمهما وانصرف عن

﴿ إن هؤلاء ﴾، يعني مشركي مكة، **﴿ ليقولون * إنْ هي إلاّ موتتنا الأولى ﴾**، أي لا موتة إلاّ هذه التي نموتها في الدنيا، ثم لا بعث بعدها. وهو قوله: **﴿ وما نحن بمُنشَرين ﴾**، بمبعوثين بعد موتتنا.

﴿ فأتوا بآبائنا ﴾، الذين ماتوا، **﴿ إنْ كنتم صادقين ﴾**، أنّا نبعث أحياءً بعد الموت، ثم خوّفهم مثل عذاب الأمم الخالية فقال: **﴿ أهم خيرٌ أمْ قومُ تُبّع ﴾**، أي ليسوا خيراً منهم، يعني أقوى وأشدّ وأكثر من قوم تبّع. قال قتادة: هو تبع الحميري، وكان سارَ بالجيوش حتى حيّر الحيرة، وبني سمرقند وكان من ملوك اليمن، سُمّي تبّعاً لكثرة أتباعه، وكل واحد منهم يسمى تبعاً لأنه يتبع صاحبه، وكان هذا الملك يعبد النار فأسلم ودعا قومه إلى الإسلام وهم حمير، فكذّبوه وكان من خبره ما ذكره محمد بن إسحاق وغيره، وذكر عكرمة عن ابن عباس قالوا: كان تُبّع الآخر وهو أبو كرب أسعد بن مليك حين أقبل من المشرق وجعل طريقه على المدينة، وقد كان حين مرّ بها خلف بين أظهرهم ابناً له فقتل غيلة، فَقَدِمَها وهو مُجمِعٌ على خرابها واستئصال أهلها، فجمع له هذا الحيّ من الأنصار حين سمعوا ذلك من أمره، فخرجوا لقتاله وكان الأنصار يقاتلونه بالنهار ويقرّونه بالليل، فأعجبه ذلك وقال: إن هؤلاء لكرام فبينما هو كذلك إذ جاءه حَبْرَان اسمهما: كعب وأسد من أحْبَار بني قريظة، عالِمان وكانا ابني عمّ، حين سَمِعَا ما يُريد من إهلاك المدينة وأهلها، فقالا له: أيها الملك لا تفعل فإنك إن أبيت إلاّ ما تريد حيلَ بينك وبينها ولم نأمن عليك عاجل العقوبة. فإنها مهاجر نبي يخرج من هذا الحيّ من قريش اسمه محمد مولده مكة، وهذه دار هجرته ومنزلك الذي أنت به يكون به من القتل والجراح أمر كبير في أصحابه، وفي عدوّهم، قال تبّع: مَن يقاتله وهو نبيّ؟ قالا: يسير إليه قومه فيقتتلون ههنا، فتناهى لقولهما عمّا كان يريد بالمدينة، ثم إنهما دعواه إلى دينهما فأجابهما واتّبعهما على دينهما وأكرمهما وانصرف عن المدينة، وخرج بهما ونفر من اليهود عامدين إلى

المدينة، وخرج بهما ونفر من اليهود عامدين إلى اليمن فأتاه في الطريق نفر من هذيل وقالوا له إنا ندلك على بيت فيه كنز من لؤلؤ وزبرجد وفضة قال أي بيت هذا قالوا بيت بمكة وإنما أراد هذيل هلاكه لأنهم عرفوا أنه لم يرده أحد بسوء إلا هلك فذكر الملك ذلك للأحبار، فقالوا: ما نعلم لله في الأرض بيتاً غير هذا البيت الذي بمكة فاتخذه مسجداً وانسك عنده وانحرواحلق رأسك وما أراد القوم إلا هلاكك. وما ناوأه أحد قط إلا هلك فأكرمه واصنع عنده ما يصنعه أهله فلما قالوا له ذلك أخذ أولئك النفر من هذيل فقطع أيديهم وأرجلهم وسمل أعينهم ثم صلبهم فلما قدم مكة شرفها الله تعالى نزل بالشعب شعب البطائح وكسا البيت الوصائل وهي برود تصنع باليمن وهو أول من كسا البيت ونحر بالشعب ستة آلاف بدنة وأقام به ستة أيام وطاف به وحلق وانصرف، فلما دنا من اليمن ليدخلها حالت حمير بينه وبين ذلك وقالوا له لا تدخلها علينا وأنت قد فارقت ديننا فدعاهم إلى دينه وقال: إنه دين خير من دينكم قالوا فحاكمنا إلى النار. وكانت باليمن نار في أسفل جبل يتحاكمون إليها فيما يختلفون فيه فتأكل الظالم ولا تضر المظلوم. قال تبع أنصفتم فخرج القوم بأوثانهم وما يتقربون به في دينهم وخرج الحبران ومصاحفهما في أعناقهما حتى قعدوا للنار عند مخرجها الذي تخرج منه وخرجت النار فأقبلت حتى غشيتهم فأكلت الأوثان وما قربوا معها ومن حمل ذلك من رجال حمير وخرج الحبران بمصاحفهما يتلوان التوراة تعرق جباههما لم تضرهما النار ونكصت النار حتى رجعت إلى مخرجها الذي خرجت منه فأصفقت عند ذلك حمير على دينها فمن هناك كان أصل اليهودية باليمن، وقال الرياشي كان أبو كرب أسعد الحميري من التبابعة ممن آمن بالنبي ﷺ قبل أن يبعث بسبعمائة سنة.

اليمن، فأتاه في الطريق نفر من هذيل وقالوا إنّا ندلّك على بيت فيه كنز من لؤلؤ وزبرجد وفضة، قال: أيُّ بيت؟ قالوا: بيت بمكة وإنما تريد هذيل هلاكه لأنهم عرفوا أنه لم يردْهُ أحدٌ قطّ بسوء إلاّ هلك، فذكر ذلك للأحْبَار، فقالوا: ما نعلم لله في الأرض بيت غير هذا البيت، فاتخذه مسجداً وانسك عنده وانحر واحلق رأسك، وما أراد القوم إلاّ هلاكك لأنه ما ناوأهم أحدٌ قطّ إلا هلك، فأكرِمْهُ واصنع عنده ما يصنع أهله، فلما قالوا له ذلك أخذ النفر من هذيل فقطع أيديهم وأرجلهم وسمل أعينهم ثم صلبهم، فلما قَدِمَ مكة نزل الشعب شعب البطائح، وكسا البيت الوصائل، وهو أول مَن كسا البيت، ونحر بالشعب ستّة آلاف بدنة، وأقام به أيام وطاف به وحلق وانصرف، فلما دنا من اليمن ليدخلها حالت حمير بين ذلك وبينه، قالوا: لا تدخل علينا وقد فارقت ديننا، فدعاهم إلى دينه وقال إنه دينٌ خير من دينكم، قالوا: فحاكِمْنَا إلى النار، وكانت باليمن نار في أسفل جبل يتحاكمون إليها فيما يختلفون فيه، فتأكل الظالم ولا تضرّ المظلوم، فقال تُبّع: أنصفتم، فخرج القوم بأوثانهم وما يتقرّبون به في دينهم وخرج الحَبْران بمصاحفهما في أعناقهما حتى قعدُوا للنار عند مخرجها الذي تخرج منه، فخرجت النار فأقبلت حتى غشيتهم، فأكلت الأوثان وما قرّبوا معها، ومَن حمل ذلك من رجال حمير، وخرج الحَبْرَان بمصاحفهما في أعناقهما، يتلوان التوراة تعرق جباههما لم تضرّهما، ونكصت النار حتى رجعت إلى مخرجها الذي خرجت منه فأصفقت عند ذلك حمير على دينهما، فمن هنالك كان أصل اليهودية في اليمن. وذكر أبو حاتم عن الرقاشي قال: كان أبو كرب أسعد الحميري من التبابعة آمن بالنبي محمد ﷺ قبل أن يبعث بسبعمائة سنة. وذكر أن كعباً كان يقول: ذمّ الله قومه ولم يذمّه. وكانت عائشة تقول: لا تسبّوا تبّعاً فإنه كان رجلاً صالحاً. وقال سعيد بن جبير: هو الذي كسا البيت. أخبرنا أبو سعيد الشريحي أنا أبو إسحاق الثعلبي أنا أبو عبد الله بن فنجويه الدينوري ثنا أبو بكر بن مالك القطيعي ثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل ثنا أبي ثنا حسين بن موسى ثنا ابن لهيعة أبو زرعة بن عمر بن جرير عن سهل بن سعد قال: سمعتُ النبي ﷺ يقول: «لا تسبّوا تُبّعاً فإنه كان قد أسلم»، أخبرنا أبو سعيد الشريحي أنا أبو إسحاق الثعلبي أخبرني ابن فنجويه ثنا ابن أبي شيبة ثنا محمد بن علي بن سالم الهمداني ثنا أبو الأزهر أحمد بن الأزهر النيسابوري ثنا

وقال كعب ذم الله قومه ولم يذمه.

قوله تعالى: ﴿والذين من قبلهم﴾ أي من الأمم الكافرة ﴿أهلكناهم إنهم كانوا مجرمين﴾.

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾ إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾﴾

﴿وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين ما خلقناهما إلا بالحق﴾ أي بالعدل وهو الثواب على الطاعة والعقاب على المعصية ﴿ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾ قوله عز وجل: ﴿إن يوم الفصل﴾ أي الذي يفصل الله فيه بين العباد ﴿ميقاتهم أجمعين﴾ أي يوافي يوم القيامة الأولون والآخرون ﴿يوم لا يغني مولى عن مولى شيئاً﴾ أي لا ينفع قريب قريبه ولا يدفع عنه شيئاً ﴿ولا هم ينصرون﴾ أي يمنعون من عذاب الله ﴿إلا من رحم الله﴾ يعني المؤمنين فإنه يشفع بعضهم لبعض ﴿إنه هو العزيز﴾ أي في انتقامه من أعدائه ﴿الرحيم﴾ أي بأوليائه المؤمنين، قوله تعالى: ﴿إن شجرة الزقوم طعام الأثيم﴾ أي ذي الإثم وهو أبو جهل ﴿كالمهل﴾ أي كدردي الزيت الأسود﴿يغلي في البطون﴾ أي في بطون الكفار﴿كغلي الحميم﴾يعني كالماء الحار إذا اشتد غليانه عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ «في قوله كالمهل؛ قال كعكر الزيت فإذا قرب إلى وجهه سقطت فروة وجهه فيه» أخرجه الترمذي وقال لا نعرفه إلا من حديث رشدين سعد وقد تكلم فيه من قبل حفظه.

عبد الرزاق ثنا معمر عن ابن أبي ذئب عن المقبري عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أدري تُبّع أكان نبيّاً أو غير نبي». ﴿ والذين من قبلهم ﴾، من الأمم الكافرة. ﴿ أهلكناهم إنهم كانوا مجرمين ﴾.

﴿ وما خلقنا السمٰواتِ والأرض وما بينهما لاعبين * ما خلقناهما إلّا بالحق ﴾، قيل: يعني للحق وهو الثواب على الطاعة والعقاب على المعصية. ﴿ ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾.

﴿ إنّ يوم الفصل ﴾، يوم يفصل الرحمن بين العباد، ﴿ ميقاتهم أجمعين ﴾، يوافي يوم القيامة الأوّلون والآخرون.

﴿ يوم لا يُغني مولىً عن مولىً شيئاً ﴾، لا ينفع قريب قريبه ولا يدفع عنه شيئاً، ﴿ ولا هم يُنصرون ﴾، لا يُمنعون من عذاب الله.

﴿ إلّا مَنْ رَحِمَ الله ﴾، يريد المؤمنين فإنه يشفع بعضهم لبعض، ﴿ إنّه هو العزيز ﴾، في انتقامه من أعدائه، ﴿ الرحيم ﴾، بالمؤمنين.

﴿ إنّ شجرة الزقّوم * طعام الأثيم ﴾، أي ذي الإثم، وهو أبو جهل.

﴿ كالمهل ﴾، وهو دردي الزيت الأسود، ﴿ يغلي في البطون ﴾، قرأ ابن كثير وحفص ﴿ يغلي ﴾ بالياء، جَعَلا الفعلَ للمهل، وقرأ الآخرون بالتاء لتأنيث الشجرة، ﴿ في البطون ﴾ أي بطون الكفّار، ﴿ كغلي الحميم ﴾، كالماء الحارّ إذا اشتدّ غليانه، أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أبو بكر العبدوسي أنا أبو بكر محمد بن

عن ابن عباس «أن رسول الله ﷺ قرأ هذه الآية: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون﴾ ثم قال رسول الله ﷺ لو أن قطرة من الزقوم قطرت في دار الدنيا لأفسدت على أهل الدنيا معايشهم فكيف بمن تكون طعامه» أخرجه الترمذي وقال حديث حسن صحيح.

خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾

قوله تعالى: ﴿خذوه﴾ أي يقال للزبانية خذوه يعني الأثيم ﴿فاعتلوه﴾ أي دافعوه وسوقوه بالعنف ﴿إلى سواء الجحيم﴾ أي إلى وسط النار ﴿ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم﴾ قيل إن خازن النار يضرب على رأسه فينقب رأسه من دماغه ثم يصب فيه ماء حميماً قد انتهى حره ثم يقال له ﴿ذق﴾ أي هذا العذاب ﴿إنك أنت العزيز الكريم﴾ أي عند قومك بزعمك وذلك أن أبا جهل لعنه الله كان يقول أنا أعز أهل الوادي وأكرمهم فيقول له خزنة النار هذا على طريق الاستخفاف والتوبيخ ﴿إن هذا ما كنتم به تمترون﴾ أي تشكون فيه ولا تؤمنون به ثم ذكر مستقر المتقين﴿في مقام أمين﴾ أي في مجلس أمنوا فيه من الغير ﴿في جنات وعيون يلبسون من سندس وإستبرق﴾ قيل السندس ما رق من الديباج والإستبرق ما غلظ منه وهو معرب إستبر.

فإن قلت كيف ساغ أن يقع في القرآن العربي المبين لفظ أعجمي.

قلت إذا عرب خرج من أن يكون أعجمياً لأن معنى التعريب أن يجعل عربياً بالتصرف فيه وتغييره عن منهاجه

حمدون بن خالد بن يزيد ثنا سليمان بن يوسف ثنا وهب بن جرير ثنا شعبة عن الأعمش عن مجاهد عن عبد الله بن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «أيها الناس اتقوا الله حقَّ تقاته، فلو أن قطرة من الزقّوم قطرت على الأرض لأمرتْ على أهل الدنيا معيشتهم، فكيف بمَن تكون طعامه وليس لهم طعام غيره».

قوله تعالى: ﴿ خذوه ﴾، أي يقال للزبانية خذوه يعني الأثيم، ﴿ فاعتلوه ﴾، قرأ أهل الكوفة وأبو جعفر وأبو عمرو بكسر التاء، وقرأ الباقون بضمّها، وهما لغتان، أي ادفعوه وسوقوه، يقال: عتله يعتله عتلاً إذا ساقه بالعنف والدفع والجذب، ﴿ إلى سواء الجحيم ﴾، وسطه.

﴿ ثم صبّوا فوق رأسه من عذاب الحميم ﴾، قال مقاتل: إن خازن النار يضربه على رأسه فينقب رأسه عن دماغه، ثم يصبّ فيه ماءً حميماً قد انتهى حرّه.

ثم يقال له: ﴿ ذقْ ﴾، هذا العذاب، ﴿ إنّك ﴾، قرأ الكسائي ﴿ إنك ﴾ بفتح الألف، أي لأنك كنت تقول أنا العزيز الكريم، قرأ الآخرون بكسرها على الابتداء، ﴿ أنت العزيز الكريم ﴾، عند قومك بزعمك، وذلك أن أبا جهل كان يقول: أنا أعزّ أهل الوادي وأكرمهم، فتقول له هذا اللفظ خَزَنَة النار على طريق الاستهزاء والتوبيخ.

﴿ إن هذا ما كنتم به تمترون ﴾، تشكّون فيه ولا تؤمنون به ثم ذكر مستقر المتّقين، فقال:

﴿ إنّ المتّقين في مقام أمين ﴾، قرأ أهل المدينة والشام: ﴿ في مقام ﴾ بضم الميم على المصدر، أي في

وإجرائه على أوجه الإعراب ﴿متقابلين﴾ أي يقابل بعضهم بعضاً ﴿كذلك﴾ أي كما أكرمناهم بما وصفنا من الجنات والعيون واللباس كذلك ﴿و﴾ أكرمناهم بأن ﴿زوجناهم بحور عين﴾ أي قرناهم بهن وليس هو من عقد التزويج وقيل جعلناهم أزواجاً لهن أي جعلناهم اثنين واثنين الحور من النساء النقيات البيض، وقيل يحار الطرف من بياضهن وصفاء لونهن وقيل الحور الشديدات بياض العينين ﴿يدعون فيها بكل فاكهة﴾ يعني أرادوها واشتهوها ﴿آمنين﴾ أي من نفادها ومن مضرتها وقيل آمنين فيها من الموت والأوصاب والشيطان ﴿لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى﴾ أي لا يذوقون في الجنة الموت سوى الموتة التي ذاقوها في الدنيا إلا وقيل إلا بمعنى لكن، وتقديره ليذوقون فيها الموت لكن الموتة الأولى قد ذاقوها وقيل إنما استثنى الموتة من موت الجنة لأن السعداء حين يموتون يصيرون بلطف الله إلى أسباب الجنة يلقون الروح والريحان ويرون منازلهم في الجنة فكان موتهم في الدنيا كأنه في الجنة لاتصالهم بأسبابها ومشاهدتهم إياها ﴿ووقاهم عذاب الجحيم﴾.

فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾

﴿فضلاً من ربك﴾ يعني كل ما وصل إليه المتقون من الخلاص من عذاب النار والفوز بالجنة إنما حصل لهم ذلك بفضل الله تعالى وفعل ذلك بهم تفضلاً منه ﴿ذلك هو الفوز العظيم فإنما يسرناه بلسانك﴾ أي سهلنا القرآن على لسانك كناية عن غير مذكور ﴿لعلهم يتذكرون﴾ أي يتعظون ﴿فارتقب﴾ أي فانتظر النصر من ربك وقيل انتظر لهم

إقامة، وقرأ الآخرون بفتح الميم، أي في مجلس أمين، أمنوا فيه من الغير، أي من الموت ومن الخروج منه.

﴿ في جنّات وعيون * يلبسون من سندس وإستبرق متقابلين * كذلك وزوّجناهم ﴾، أي كما أكرمناهم بما وصفنا من الجنّات والعيون واللباس كذلك أكرمناهم بأن زوّجناهم، ﴿ بحور عين ﴾، أي قرنّاهم بهنّ ليس من عقد التزويج لأنه لا يقال: زوّجته بامرأة، قال أبو عبيدة: جعلناهم أزواجاً لهنّ كما يزوّج النعل بالنعل، أي جعلناهم اثنين اثنين، والحور هنّ النساء النقيّات البياض. قال مجاهد: يَحار فيهنّ الطرف من بياضهنّ وصفاء لونهنّ. وقال أبو عبيدة: الحور هُنّ شديدات بياض الأعين الشديدات سوادها، واحدها حور والمرأة حوراء، والعين جمع العيناء وهي عظيمة العينين.

﴿ يَدْعُون فيها بكل فاكهة ﴾، اشتهوها، ﴿ آمنين ﴾، من نفارها ومن مضرّتها. وقال قتادة: آمنين من الموت والأوصاب والشياطين.

﴿ لا يذوقون فيها الموت إلاّ الموتة الأولى ﴾، أي سوى الموتة الأولى التي ذاقوها في الدنيا، وبعدها وضع: ﴿ إلاّ ﴾ موضع سوى بعد، وهذا كقوله تعالى: ﴿ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلاّ ما قد سلف﴾ [النساء: ٢٢]، أي سوى ما قد سلف، وبعد ما قد سلف، وقيل: إنما استثنى الموتة الأولى وهي في الدنيا من موت في الجنة لأن السعداء حين يموتون يصيرون بلطف إلى أسباب الجنة، يلقون الروح والريحان ويرون منازلهم في الجنة، فكان موتهم في الدنيا كأنهم في الجنة لاتصالهم بأسبابهم ومشاهدتهم إيّاها. ﴿ ووقاهم عذاب الجحيم ﴾.

﴿ فضلاً من ربّك ﴾، أي فعل ذلك بهم فضلاً منه، ﴿ ذلك هو الفوز العظيم ﴾.

﴿ فإنما يسّرناه ﴾، سهّلنا القرآن كناية عن غير مذكور، ﴿ بلسانك ﴾، على لسانك، ﴿ لعلّهم يتذكّرون ﴾، يتّعظون.

العذاب ﴿إنهم مرتقبون﴾ أي منتظرون قهرك بزعمهم وقيل منتظرون موتك قيل هذه الآية منسوخة بآية السيف عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «من قرأ حم الدخان في ليلة أصبح يستغفر له سبعون ألف ملك» أخرجه الترمذي وقال حديث غريب وعمر بن خثعم أحد رواته وهو ضعيف، وقال البخاري: هو منكر الحديث وعنه قال: قال رسول الله ﷺ «من قرأ حم الدخان ليلة الجمعة غفر له» أخرجه الترمذي وقال هشام أبو المقداد أحد رواته ضعيف والله أعلم.

﴿ فارتقبْ ﴾، فانظر النصر من ربك. وقيل: فانتظر لهم العذاب. ﴿ إنّهم مرتَقِبُون ﴾، منتظرون قهرك بزعمهم أخبرنا أبو سعيد الشريحي أنا أبو إسحاق الثعلبي أخبرني الحسين بن فنجويه ثنا يحيىٰ بن محمد بن يحيىٰ ثنا أبو عيسى موسى بن علي الختلي ثنا أبو هاشم الرفاعي ثنا زيد بن الحباب ثنا عمر بن عبد الله بن أبي خثعم عن يحيىٰ بن كثير عن أبي سلمة عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن قرأ حَمّ الدخان في ليلة أصبح يستغفر له سبعون ألف مَلَك».

سورة الجاثية

وتسمى سورة الشريعة مكية وهي سبع وثلاثون آية وأربعمائة وثمان وثمانون كلمة وألفان ومائة وأحد وتسعون حرفاً

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا
يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾

قوله عز وجل: ﴿حمٓ تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم إن في السموات والأرض﴾ أي إن في خلق السموات والأرض وهما خلقان عظيمان يدلان على قدرة القادر المختار وهو قوله ﴿لآيات للمؤمنين وفي خلقكم﴾ أي وخلق أنفسكم من تراب ثم من نطفة إلى أن يصير إنساناً ذا عقل وتمييز ﴿وما يبث من دابة﴾ أي وما يفرق في الأرض من جميع الحيوانات على اختلاف أجناسها في الخلق والشكل والصورة ﴿آيات﴾ دلالات تدل على وحدانية من خلقها وأنه الإله القادر المختار ﴿لقوم يوقنون﴾ يعني أنه لا إله غيره.

وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ
يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ
ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا أُو۟لَٰٓئِكَ
لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩﴾ مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ
عَظِيمٌ ﴿١٠﴾ هَٰذَا هُدًى وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿١١﴾

﴿واختلاف الليل والنهار﴾ يعني بالظلام والضياء والطول والقصر ﴿وما أنزل الله من السماء من رزق﴾ يعني

سُورَة الجَاثِيَة

مكيّة إلّا آية ١٤ فمدنية وهي سبع وثلاثون آية نزلت بعد الدخان.

﴿ حمٓ *تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم * إنّ في السموات والأرض لآياتٌ للمؤمنين * وفي خلقكم وما يبثُّ من دابّة آيات ﴾، قرأ حمزة والكسائي ويعقوب ﴿ آيات ﴾ ﴿ وتصريف الرياح آيات ﴾ بكسر التاء فيهما ردّاً على قوله: ﴿ لآيات ﴾ وهو في موضع النصب، وقرأ الآخرون برفعهما على الاستئناف على أن العرب تقول إن لي عليك مالاً وعلى أخيك مال، ينصبون الثاني ويرفعونه، ﴿ لقوم يوقنون ﴾، أنه لا إله غيره.

﴿ واختلاف الليل والنهار وما أنزل الله من السماء من رزق ﴾، يعني الغيث الذي هو سبب أرزاق العباد،

المطر الذي هو سبب أرزاق العباد ﴿فأحيا به﴾ أي بالمطر ﴿الأرض بعد موتها﴾ أي بعد يبسها ﴿وتصريف الرياح﴾ أي في مهابها فمنها الصبا والدبور والشمال والجنوب ومنها الحارة والباردة وغير ذلك ﴿آيات لقوم يعقلون﴾ .

فإن قلت ما وجه هذا الترتيب في قوله ﴿لآيات للمؤمنين﴾ و ﴿لقوم يوقنون﴾ ﴿ويعقلون﴾ .

قلت معناه إن المنصفين من العباد إذا نظروا في هذه الدلائل النظر الصحيح علموا أنها مصنوعة وأنه لا بد لها من صانع فآمنوا به وأقروا أنه الإله القادر على كل شيء ثم إذا أمعنوا النظر ازدادوا إيقاناً وزال عنهم اللبس فحينئذٍ استحكم علمهم وعدوا في زمرة العقلاء الذين عقلوا عن الله مراده في أسرار كتابه ﴿تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق فبأي حديث بعد الله﴾ أي بعد كتاب الله ﴿وآياته يؤمنون﴾ قوله تعالى: ﴿ويل لكل أفاك أثيم﴾ أي كذاب صاحب إثم يعني النضر بن الحارث ﴿يسمع آيات الله﴾ يعني القرآن ﴿تتلى عليه ثم يصر مستكبراً كأن لم يسمعها فبشره بعذاب أليم وإذا علم من آياتنا شيئاً﴾ يعني آيات القرآن ﴿اتخذها هزوا﴾ أي سخر منها ﴿أولئك﴾ إشارة إلى من هذه صفته ﴿لهم عذاب مهين﴾ ثم وصفهم فقال تعالى: ﴿من ورائهم جهنم﴾ يعني أمامهم جهنم وذلك جهنم وذلك خزيهم في الدنيا ولهم في الآخرة النار ﴿ولا يغني عنهم ما كسبوا﴾ أي من الأموال ﴿شيئاً ولا ما اتخذوا من دون الله أولياء﴾ أي ولا يغني عنهم ما عبدوا من دون الله من الآلهة ﴿ولهم عذاب عظيم هذا﴾ يعني القرآن ﴿هدى﴾ أي هو هدى من الضلالة ﴿والذين كفروا بآيات ربهم لهم عذاب من رجز أليم﴾ .

۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى
ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا
يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِىَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ مَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ
تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَـٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَفَضَّلْنَـٰهُمْ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٦﴾

﴿ فأحيا به الأرض بعد موتها وتصريف الرياح آيات لقوم يعقلون ﴾.

﴿ تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق ﴾، يريد هذا الذي قصصنا عليك من آيات الله نقصّها عليك بالحق، ﴿ فبأيّ حديث بعد الله ﴾، بعد كتاب الله، ﴿ وآياته يؤمنون ﴾، قرأ ابن عامر وحمزة والكسائي وأبو بكر ويعقوب: «تؤمنون» بالتاء على معنى قل لهم يا محمد فبأيّ حديث تؤمنون، وقرأ الآخرون بالياء.

﴿ ويلٌ لكل أفّاك أثيم ﴾، كذّاب صاحب إثم يعني النضر بن الحارث.

﴿ يسمع آيات الله تُتلى عليه ثم يصرّ مستكبراً كأن لم يسمعها ﴾ ﴿ كأنّ في أُذنيه وقراً ﴾ [لقمان: ٧] ﴿ فبشّره بعذاب أليم * وإذا علم من آياتنا ﴾، قال مقاتل: من القرآن، ﴿ شيئاً اتخذها هُزُواً أولئك لهم عذاب مهين ﴾، وذكر بلفظ الجمع ردّاً إلى كل في قوله: ﴿ لكل أفّاكٍ أثيم ﴾.

﴿ من ورائهم ﴾، أمامهم، ﴿ جهنم ﴾، يعني أنهم في الدنيا ممتعون بأموالهم ولهم في الآخرة النار يدخلونها، ﴿ ولا يغني عنهم ما كسبوا ﴾، من الأموال، ﴿ شيئاً ولا ما اتخذوا من دون الله أولياء ﴾، ولا ما عبدوا من دون الله من الآلهة، ﴿ ولهم عذاب عظيم ﴾.

﴿ هذا ﴾، يعني هذا القرآن، ﴿ هدىً ﴾، بيان من الضلالة، ﴿ وبالذين كفروا بآيات ربّهم لهم عذاب من رجزٍ أليم ﴾.

وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾

﴿الله الذي سخر لكم البحر لتجري الفلك فيه بأمره ولتبتغوا من فضله﴾ أي بسبب التجارة واستخراج منافعه ﴿ولعلكم تشكرون﴾ نعمته على ذلك ﴿وسخر لكم ما في السموات والأرض﴾ يعني أنه تعالى خلقها ومنافعها فهي مسخرة لنا من حيث أنا ننتفع بها ﴿جميعاً منه﴾ قال ابن عباس: كل ذلك رحمه منه وقيل كل ذلك تفضل منه وإحسان ﴿إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾ .

قوله عز وجل: ﴿قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله﴾ أي لا يخافون وقائع الله ولا يبالون بمقته، قال ابن عباس: نزلت في عمر بن الخطاب وذلك أن رجلاً من بني غفار شتمه بمكة فهم عمر أن يبطش به فأنزل الله هذه الآية وأمره أن يعفو عنه وقيل نزلت في ناس من أصحاب رسول الله ﷺ من أهل مكة كانوا في أذى شديد من المشركين قبل أن يؤمروا بالقتال فشكوا ذلك إلى رسول الله ﷺ فأنزل الله هذه الآية ثم نسخها بآية القتال ﴿ليجزي قوماً بما كانوا يكسبون﴾ أي من الأعمال ثم فسر ذلك فقال تعالى: ﴿من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها ثم إلى ربكم ترجعون﴾ .

قوله تعالى: ﴿ولقد آتينا بني إسرائيل الكتاب﴾ يعني التوراة ﴿والحكم﴾ يعني معرفة أحكام الله ﴿والنبوة ورزقناهم من الطيبات﴾ أي الحلالات وهو ما وسع عليهم في الدنيا وأورثهم أموال قوم فرعون وديارهم وأنزل عليهم المن والسلوى ﴿وفضلناهم على العالمين﴾ أي على عالمي زمانهم، قال ابن عباس: لم يكن أحد من العالمين في زمانهم أكرم على الله ولا أحب إليه منهم ﴿وآتيناهم بينات من الأمر﴾ أي بيان الحلال والحرام وقيل العلم ببعث محمد ﷺ وما بين لهم من أمره ﴿فما اختلفوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم﴾ معناه التعجب من حالهم وذلك لأن

﴿ الله الذي سخّر لكم البحرَ لتجريَ الفُلْكُ فيه بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلّكم تشكرون ۞ وسخّر لكم ما في السمٰوات وما في الأرض ﴾، ومعنى تسخيرها أنه خلقها لمنافعنا فهو مسخّر لنا من حيث إنّا ننتفع به، ﴿ جميعاً منه ﴾، فلا تجعلوا لله أنداداً، قال ابن عباس: جميعاً منه كل ذلك رحمة منه. قال الزجّاج: كل ذلك تفضّل منه وإحسان. ﴿ إن في ذلك لآيات لقوم يتفكّرون ﴾.

﴿ قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيّام الله ﴾، أي لا يخافون وقائع الله ولا يبالون نقمته، قال ابن عباس ومقاتل: نزلت في عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه، وذلك أن رجلاً من بني غفار شتمه بمكة فهمّ عمر رضي الله تعالى عنه أن يبطش به، فأنزل الله هذه الآية، وأمره أن يعفو عنه. وقال القرظي والسدي: نزل في أُناس من أصحاب رسول الله ﷺ من أهل مكة كانوا في أذىً شديد من المشركين، من قبل أن يؤمروا بالقتال، فشكوا ذلك إلى رسول الله ﷺ، فأنزل الله هذه الآية ثم نسختها آية القتال. ﴿ ليجزيَ قوماً ﴾، قرأ ابن عامر وحمزة والكسائي (لنجزي) بالنون، وقرأ الآخرون بالياء، أي ليجزي الله، وقرأ أبو جعفر ﴿ ليجزي ﴾ بضم الياء الأولى وسكون الثانية وفتح الزاي، قال أبو عمرو: وهو لحن. قال الكسائي معناه ليجزي الجزاء قوماً، ﴿ بما كانوا يكسبون ﴾.

﴿ مَن عمل صالحاً فلنفسه ومَن أساء فعليها ثمّ إلى ربكم ترجعون ۞ ولقد آتينا بني إسرائيل الكتاب ﴾، التوراة، ﴿ والحكم والنبوّة ورزقناهم من الطيبات ﴾، الحلالات يعني المنّ والسلوى، ﴿ وفضّلناهم على العالمين ﴾، أي عالمي زمانهم، قال ابن عباس: لم يكن أحد من العالمين في زمانهم أكرم على الله ولا أحبّ إليه منهم.

حصول العلم يوجب ارتفاع الاختلاف وهنا صار مجيء العلم سبباً لحصول الاختلاف وذلك أنه لم يكن مقصودهم من العلم نفس العلم وإنما كان مقصودهم منه طلب الرياسة والتقدم ثم أنهم لما علموا عاندوا وأظهروا النزاع والحسد والاختلاف ﴿إن ربك يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون﴾.

ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ
مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾ هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ
يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ
وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ
لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن
يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾

﴿ثم جعلناك﴾ يا محمد ﴿على شريعة﴾ أي على طريقة ومنهاج وسنة بعد موسى ﴿من الأمر﴾ أي من الدين ﴿فاتبعها﴾ أي اتبع شريعتك الثابتة ﴿ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون﴾ يعني مراد الكافرين وذلك أنهم كانوا يقولون له أرجع إلى دين آبائك فإنهم كانوا أفضل منك قال الله تعالى: ﴿إنهم لن يغنوا عنك من الله شيئاً﴾ أي لن يدفعوا عنك من عذاب الله شيئاً إن اتبعت أهواءهم ﴿وإن الظالمين بعضهم أولياء بعض﴾ يعني إن الظالمين يتولى بعضهم بعضاً في الدنيا ولأولى لهم في الآخرة ﴿والله ولي المتقين﴾ أي هو ناصرهم في الدنيا ووليهم في الآخرة ﴿هذا﴾ يعني القرآن ﴿بصائر للناس﴾ أي معالم للناس في الحدود والأحكام يبصرون به ﴿وهدى ورحمة لقوم يوقنون أم حسب الذين اجترحوا السيئات﴾ أي اكتسبوا المعاصي والكفر ﴿أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ نزلت في نفر من مشركي مكة قالوا للمؤمنين لئن كان ما تقولون حقاً لنفضلن عليكم في الآخرة كما فضلنا عليكم في الدنيا ﴿سواء

﴿ وآتيناهم بيّنات من الأمر ﴾، يعني العلم بمبعث محمد ﷺ وما بيّن لهم من أمره، ﴿ فما اختلفوا إلّا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم إنّ ربك يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون ﴾.

﴿ ثم جعلناك ﴾، يا محمد ﴿ على شريعة ﴾، سُنّة وطريقة بعد موسى، ﴿ من الأمر ﴾، من الدين، ﴿ فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون ﴾، يعني مراد الكافرين، وذلك أنهم كانوا يقولون له ارجع إلى دين آبائك، فإنهم كانوا أفضل منك.

فقال جلّ ذكره: ﴿ إنهم لن يغنوا عنك من الله شيئاً ﴾، لن يدفعوا عنك من عذاب الله شيئاً إن اتّبعت أهواءهم، ﴿ وإن الظالمين بعضهم أولياء بعض والله وليُّ المتّقين ﴾.

﴿ هذا ﴾، يعني القرآن، ﴿ بصائر ﴾، معالم، ﴿ للناس ﴾، في الحدود والأحكام يبصرون بها، ﴿ وهدى ورحمة لقوم يوقنون ﴾.

﴿ أم حسب ﴾، بل حسب، ﴿ الذين اجترحوا السيئات ﴾، اكتسبوا المعاصي والكفر ﴿ أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾، نزلت في نفر من مشركي مكة، قالوا للمؤمنين: لئن كان ما تقولون حقاً لنفضلنّ عليكم في الآخرة كما فضّلنا عليكم في الدنيا. ﴿ سواءُ محياهم ﴾ قرأ حمزة والكسائي وحفص ويعقوب، ﴿ سواء ﴾ بالنصب أي نجعلهم سواء، يعني أحسبوا أن حياة الكافرين ﴿ ومماتهم ﴾ كحياة المؤمنين وموتهم سواءً كلّا، وقرأ

محياهم ومماتهم﴾ معناه أحسبوا أن حياة الكافرين ومماتهم كحياة المؤمنين وموتهم سواء كلا والمعنى أن المؤمن مؤمن في محياه ومماته في الدنيا والآخرة والكافر كافر في محياه ومماته في الدنيا والآخرة وشتان ما بين الحالين في الحال والمآل **﴿ساء ما يحكمون﴾** أي بئس ما يقضون قال مسروق قال لي رجل من أهل مكة هذا مقام أخيك تميم الداري ولقد رأيته ذات ليلة حتى أصبح أو قرب أن يصبح يقرأ آية من كتاب الله يركع بها ويسجد ويبكي **﴿أم حسب الذين اجترحوا السيئات﴾** الآية **﴿وخلق﴾** الله السموات والأرض بالحق أي بالعدل **﴿ولتجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون﴾** ومعنى الآية أن المقصود من خلق هذا العالم إظهار العدل والرحمة ذلك لا يتم إلا في القيامة ليحصل التفاوت بين المحقين والمبطلين في الدرجات والدركات.

قوله عز وجل: **﴿أفرأيت من اتخذه إلهه هواه﴾** قال ابن عباس: اتخذ دينه ما يهواه فلا يهوى شيئاً إلا ركبه لأنه لا يؤمن بالله ولا يخافه ولا يحرم ما حرم الله وقيل معناه اتخذ معبوده ما تهواه نفسه وذلك أن العرب كانت تعبد الحجارة والذهب والفضة فإذا رأوا شيئاً أحسن من الأول رموا بالأول وكسروه وعبدوا الآخر وقيل إنما سمي هوى لأنه يهوي بصاحبه في النار **﴿وأضله الله على علم﴾** أي علماً منه بعاقبة أمره وقيل على ما سبق في علم الله أنه ضال قبل أن يخلقه **﴿وختم على سمعه وقلبه﴾** أي فلم يسمع الهدى ولم يعقله بقلبه **﴿وجعل على بصره غشاوة﴾** يعني ظلمة فهو لا يبصر الهدى **﴿فمن يهديه من بعد الله﴾** أي من بعد أن أضله الله **﴿أفلا تذكرون﴾** قال الواحد ليس يبقى للقدرية مع هذه الآية عذر ولا حيلة لأن الله صرح بمنعه إياه عن الهدى حتى أخبر أنه ختم على سمعه وقلبه وبصره **﴿وقالوا﴾** يعني منكري البعث.

﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ

الآخرون بالرفع على الابتداء والخبر أي محياهم ومماتهم سواء فالضمير فيهما يرجع إلى المؤمنين والكافرين جميعاً، معناه المؤمن مؤمن محياه ومماته أي في الدنيا والآخرة والكافر كافر محياه ومماته في الدنيا والآخرة، **﴿ ساء ما يحكمون ﴾**، بئس ما يقضون، قال مسروق: قال لي رجل من أهل مكة: هذا مقام أخيك تميم الداري، لقد رأيته ذات ليلة حتى أصبح أو قرب أن يصبح قرأ آيةً من كتاب الله يُردِّدها يركع بها ويسجد ويبكي: **﴿ أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾** الآية.

﴿ وخلق الله السمٰوات والأرض بالحق ولتُجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون ﴾.

﴿ أفرأيت مَن اتخذ إلٰهه هواه ﴾، قال ابن عباس والحسن وقتادة: معناه ذلك الكافر اتخذ دينه ما يهواه، فلا يهوَى شيئاً إلّا ركّبه لأنه لا يؤمن بالله ولا يخافه، ولا يحرّم ما حرّم الله. وقال الآخرون: معناه اتخذ معبوده هواه فيعبد ما تهواه نفسه. قال سعيد بن جبير: كانت العرب يعبدون الحجارة والذهب والفضة، فإذا وجدوا شيئاً أحسن من الأول رموه وكسروه، وعبدوا الآخر. قال الشعبي: إنما سُمّي الهوى لأنه يَهوي بصاحبه في النار. **﴿ وأضلّه الله على علم ﴾**، منه بعاقبة أمره وقيل على ما سبق في عمله أنه ضال قبل أن يخلقه، **﴿ وختم ﴾** طبع، **﴿ على سمعه ﴾** فلم يسمع الهدى، **﴿ وقلبه ﴾**، فلم يعقل الهدى، **﴿ وجعل على بصره غشاوة ﴾**، قرأ حمزة والكسائي غشوة بفتح الغين وسكون الشين، والباقون غشاوة ظلمة فهو لا يبصر الهدى، **﴿ فمَن يهديه من بعد الله ﴾**، أي فمَن يهديه بعد أن أضلّه الله، **﴿ أفلا تذكرون ﴾**.

يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾

﴿**ما هي إلا حياتنا الدنيا**﴾ يعني ما الحياة إلا حياتنا الدنيا ﴿**نموت ونحيا**﴾ يعني يموت الآباء ويحيا الأبناء وقيل تقديره نحيا ونموت ﴿**وما يهلكنا إلا الدهر**﴾ يعني وما يفنينا إلا ممر الزمان واختلاف الليل والنهار ﴿**وما لهم بذلك من علم**﴾ يعني لم يقولوه عن علم علموه ﴿**إن هم إلا يظنون**﴾ (ق) عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ قال الله عز وجل: ﴿**يؤذيني ابن آدم يسب الدهر وأنا الدهر بيدي الأمر أقلب الليل والنهار**﴾» وفي رواية «يؤذيني ابن آدم يقول يا خيبة الدهر فلا يقولن أحدكم يا خيبة الدهر فإني أنا الدهر أقلب ليله ونهاره فإذا شئت قبضتهما» وفي رواية «يسب ابن آدم الدهر وأنا الدهر بيدي الليل والنهار» ومعنى هذه الأحاديث أن العرب كان من شأنها ذم الدهر وسبه عند النوازل لأنهم كانوا ينسبون إلى الدهر ما يصيبهم من المصائب والمكاره فيقولون أصابتهم قوارع الدهر وأبادهم الدهر كما أخبر الله عز وجل عنهم بقوله ﴿**وما يهلكنا إلا الدهر**﴾ فإذا أضافوا إلى الدهر ما نالهم من الشدائد وسبوا فاعلها كان مرجع سبهم إلى الله تعالى إذ هو الفاعل في الحقيقة للأمور التي يضيفونها إلى الدهر لا الدهر فنهوا عن سب الدهر قيل لهم لا تسبوا فاعل ذلك فإنه هو الله عز وجل والدهر متصرف فيه يقع به التأثير كما يقع بكم والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿**وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات ما كان حجتهم إلا أن قالوا ائتوا بآبائنا إن كنتم صادقين**﴾ معناه أن منكري البعث احتجوا بأن قالوا إن صح ذلك فأتوا بآبائنا الذين ماتوا ليشهدوا لنا بصحة البعث ﴿**قل الله يحييكم ثم يميتكم ثم يجمعكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه ولكن أكثر الناس لا يعلمون ولله ملك السموات والأرض ويوم تقوم**

﴿ **وقالوا** ﴾، يعني مُنكِري البعث، ﴿ **ما هي إلاّ حياتنا الدنيا** ﴾، أي ما الحياة إلاّ حياتنا الدنيا، ﴿ **نموت ونحيا** ﴾، أي يموت الآباء ويحيا الأبناء، وقال الزجّاج: يعني نموت ونحيا، فالواو للاجتماع، ﴿ **وما يهلكنا إلاّ الدهر** ﴾، أي وما يفنينا إلاّ مرُّ الزمان وطول العمر واختلاف الليل والنهار. ﴿ **وما لهم بذلك** ﴾، أي الذي قالوه، ﴿ **من علم** ﴾، أي لم يقولوه عن علم، ﴿ **إنْ هم إلاّ يظنون** ﴾، أخبرنا أبو علي حسان بن سعيد المنيعي أنا أبو طاهر محمد بن محمد محمش الزيادي أنا أبو بكر محمد بن الحسين القطّان ثنا أبو الحسن أحمد بن يوسف السلمي ثنا عبد الرزاق أنا معمر عن همّام بن منبّه ثنا أبو هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله تعالى لا يقل ابن آدم يا خيبة الدهر، فإني أنا الدهر، أرسل الليل والنهار، فإذا شئت قبضتهما»، أخبرنا أبو سعيد عبد الله بن أحمد الطاهري ثنا جدّي عبد الصمد بن عبد الرحمن البزّاز أنا محمد بن زكريا العذافري أنا إسحاق بن إبراهيم الديري ثنا عبد الرزّاق أنا معمر عن أيوب بن سيرين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يسبّ أحدكم الدهر فإن الله هو الدهر، ولا يقولنّ للعنب الكرم، فإن الكرم هو الرجل المسلم»، ومعنى الحديث: أن العرب كان من شأنهم ذمّ الدهر، وسبُّه عند النوازل، لأنهم كانوا ينسبون إليه ما يصيبهم من المصائب والمكاره، فيقولون: أصابتهم قوارع الدهر، وأبادهم الدهر، كما أخبر الله تعالى عنهم: ﴿ **وما يهلكنا إلاّ الدهر** ﴾ فإذا أضافوا إلى الدهر ما نالهم من الشدائد سبّوا فاعلها، وكان مرجع سبّهم إلى الله عزّ وجلّ، إذْ هو الفاعل في الحقيقة للأمور التي يضيفونها إلى الدهر، فنُهوا عن سبّ الدهر.

﴿ **وإذا تتلى عليهم آياتُنا بيّناتٍ ما كان حجتهم إلاّ أن قالوا ائتوا بآبائنا إن كنتم صادقين * قلِ الله يُحييكم ثم يُميتكم ثم يجمعكم إلى يوم القيامة** ﴾، أي ليوم القيامة، ﴿ **لا ريب فيه ولكنّ أكثر الناس لا يعلمون * ولله ملك**

الساعة يومئذ يخسر المبطلون﴾ يعني في ذلك اليوم يظهر خسران أصحاب الأباطيل وهم الكافرون يصيرون إلى النار.

وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَٰذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴿٣٠﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾

﴿وترى كل أمة جاثية﴾ أي باركة على الركب وهي جلسة المخاصم بين يدي الحاكم ينتظر القضاء قال سلمان الفارسي إن في القيامة ساعة هي عشر سنين يخر الناس فيها جثاة على الركب حتى إبراهيم ينادي ربه لا أسألك إلا نفسي ﴿كل أمة تدعى إلى كتابها﴾ أي الذي فيه أعمالها ويقال لهم ﴿اليوم تجزون ما كنتم تعملون﴾ أي من خير وشر ﴿هذا كتابنا﴾ يعني ديوان الحفظة.

فإن قلت كيف أضاف الكتاب إليهم أولاً بقوله ﴿تدعى إلى كتابها﴾ وإليه ثانياً بقوله ﴿هذا كتابنا﴾.

قلت لا منافاة بينهما فإضافته إليهم لأنه كتاب أعمالهم وإضافته إليه لأنه تعالى هو آمر الحفظة بكتبه ﴿ينطق عليكم بالحق﴾ أي يشهد عليكم ببيان شاف كأنه ينطق وقيل المراد بالكتاب اللوح المحفوظ ﴿إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون﴾ أي نأمر الملائكة بنسخ أعمالكم وكتابتها وإثباتها عليكم وقيل نستنسخ أي نأخذ نسخته وذلك أن الملكين يرفعان عمل الإنسان فيثبت الله منه ما كان له ثواب وعليه عقاب ويطرح منه اللغو نحو قولهم هلم واذهب، وقيل الاستنساخ من اللوح المحفوظ تنسخ الملائكة كل عام ما يكون من أعمال بني آدم والاستنساخ لا يكون إلا من أصل فينسخ كتاب من كتاب ﴿فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيدخلهم ربهم في رحمته﴾ أي جنته ﴿ذلك هو الفوز المبين﴾ أي الظفر الظاهر ﴿وأما الذين كفروا﴾ أي يقال لهم ﴿أفلم تكن آياتي تتلى عليكم﴾ يعني آيات القرآن

السموات والأرض ويوم تقوم الساعة يومئذ يخسر المبطلون ﴾، يعني الكافرين الذين هم أصحاب الأباطيل، يظهر في ذلك اليوم خسرانهم بأن يصيروا إلى النار.

﴿ وترى كلّ أمة جاثية ﴾، باركة على الرّكب وهي جلسة المخاصم بين يدي الحاكم ينتظر القضاء من الله، قال سلمان الفارسي: إن في القيامة ساعة هي عشر سنين يخرّ الناس فيها جثاة على ركبهم حتى إبراهيم عليه السلام ينادي ربّه لا أسألك إلّا نفسي. ﴿ كل أمة تدعى إلى كتابها ﴾، الذي فيه أعمالها، وقرأ يعقوب ﴿ كلَّ أمة ﴾ نصب، ويقال لهم، ﴿ اليوم تُجزون ما كنتم تعملون ﴾.

﴿ هذا كتابنا ﴾، يعني ديوان الحَفَظَة، ﴿ ينطق عليكم بالحق ﴾، يشهد عليكم ببيان شافٍ، فكأنه ينطق. وقيل: المراد بالكتاب اللوح المحفوظ. ﴿ إنّا كنّا نستنسخ ما كنتم تعملون ﴾، أي نأمر الملائكة بنسخ أعمالكم، أي بكتبها وإثباتها عليكم. وقيل تستنسخ أي تأخذ نسخه، وذلك أن المَلَكَين يرفعان عمل الإنسان فيثبت الله منه ما كان له فيه ثواب أو عقاب، ويطرح منه اللغو نحو قولهم هلمّ واذهب، وقيل: الاستنساخ من اللوح المحفوظ تنسخ الملائكة كل عام ما يكون أعمال من بني آدم، والاستنساخ لا يكون إلّا من أصل، فيُنسخ كتابٌ من كتاب. وقال الضحاك: تستنسخ أي يثبت. وقال السدي: تكتب. وقال الحسن: تحفظ.

﴿ فأمّا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيدخلهم ربّهم في رحمته ذلك هو الفوز المبين ﴾، الظفر الظاهر.

﴿فاستكبرتم﴾ أي عن الإيمان بها ﴿وكنتم قوماً مجرمين﴾ يعني كافرين منكرين قوله عز وجل: ﴿وإذا قيل إن وعد الله حق﴾ أي البعث كائن ﴿والساعة لا ريب فيها﴾ أي لا شك في أنها كائنة ﴿قلتم ما ندري ما الساعة﴾ أي أنكرتموها وقلتم ﴿إن نظن إلا ظناً﴾ أي ما نعلم ذلك إلا حدساً وتوهماً ﴿وما نحن بمستيقنين﴾ أي إنها كائنة.

﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٣﴾ وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٤﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٣٥﴾ فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾

﴿وبدا لهم﴾ أي في الآخرة ﴿سيئات ما عملوا﴾ أي في الدنيا والمعنى بدا لهم جزاء سيئاتهم ﴿وحاق بهم﴾ أي نزل بهم ﴿ما كانوا به يستهزئون وقيل اليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا﴾ أي تركتم الإيمان والعمل للقاء هذا اليوم ﴿ومأواكم النار وما لكم من ناصرين﴾ أي ما لكم من مانعين يمنعونكم من العذاب ﴿ذلكم﴾ أي هذا الجزاء ﴿بأنكم اتخذتم آيات الله هزوا وغرتكم الحياة الدنيا﴾ يعني حين قلتم لا بعث ولا حساب ﴿فاليوم لا يخرجون منها﴾ أي من النار ﴿ولا هم يستعتبون﴾ أي لا يطلب منهم أن يرجعوا إلى طاعة الله والإيمان به لأنه لا يقبل ذلك اليوم عذر ولا توبة ﴿فلله الحمد رب السموات ورب الأرض رب العالمين﴾ معناه فاحمدوا الله الذي هو ربكم ورب كل شيء من السموات والأرض والعالمين فإن مثل الربوبية والعامة توجب الحمد والثناء على كل حال ﴿وله الكبرياء﴾ أي وكبروه فإن له الكبرياء والعظمة ﴿في السموات والأرض﴾ وحق لمثله أن يكبر ويعظم ﴿وهو العزيز الحكيم﴾ (م) عن أبي سعيد وأبي هريرة قالا قال رسول الله ﷺ «العز إزاره والكبرياء رداؤه» قال الله تعالى: ﴿فمن ينازعني عذبته﴾ لفظ مسلم وأخرجه البرقاني وأبو مسعود رضي الله عنهما يقول الله عز وجل: «العز إزاري والكبرياء ردائي فمن نازعني شيئاً منهما عذبته» ولأبي داود عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ قال الله تعالى: «الكبرياء ردائي والعظمة إزاري فمن نازعني في واحد منهما قذفته في النار».

﴿ وأمّا الذين كفروا ﴾، يقال لهم، ﴿ أفلم تكن آياتي تُتلى عليكم فاستكبرتم وكنتم قوماً مجرمين ﴾، متكبرين كافرين.

﴿ وإذا قيل إنّ وعد الله حق والساعة لا ريب فيها ﴾، قرأ حمزة: ﴿ والساعة ﴾ نصب عطفها على الوعد، وقرأ الآخرون بالرفع على الابتداء، ﴿ قلتم ما ندري ما الساعة إنْ نظن إلاّ ظناً ﴾، أي ما نعلم ذلك إلاّ حدساً وتوهماً. ﴿ وما نحن بمستيقنين ﴾، أنها كائنة.

﴿ وبدا لهم ﴾ في الآخرة، ﴿سيئات ما عملوا ﴾، في الدنيا أي جزاؤها ﴿ وحاق بهم ما كانوا بـه يستهزئون ﴾.

﴿ وقيل اليوم ننساكم ﴾، نترككم في النار، ﴿ كما نسيتم لقاء يومكم هذا ﴾، تركتم الإيمان والعمل للقاء هذا اليوم، ﴿ ومأواكم النار وما لكم من ناصرين * ذلكم بأنكم اتخذتم آيات الله هُزُواً وغرّتكم الحياة الدنيا ﴾، حتى قلتم: لا بعث ولا حساب، ﴿ فاليوم لا يخرجون منها ﴾، قرأ حمزة والكسائي بفتح الياء وضمّ الراء، وقرأ الآخرون بضم الياء وفتح الراء، ﴿ ولا هم يُستعتبون ﴾، لا يطلب منهم أن يرجعوا إلى طاعة الله، لأنه لا يقبل ذلك اليوم عذراً ولا توبةً.

(شرح غريب ألفاظ الحديث)

قيل هذا الكلام خرج على ما تعتاده العرب في بديع استعاراتهم وذلك أنهم يكنون عن الصفة اللازمة بالثياب يقولون شعار فلان الزهد ولباسه التقوى فضرب الله عز وجل الإزار والرداء مثلاً له في انفراده سبحانه وتعالى بصفة الكبرياء والعظمة، والمعنى أنهما ليسا كسائر الصفات التي يتصف بها بعض المخلوقين مجازاً كالرحمة والكرم وغيرهما وشبههما بالإزار والرداء لأن المتصف بهما يشملانه كما يشمل الرداء الإنسان ولأنه لا يشاركه في إزاره وردائه أحد فكذلك الله تعالى لا ينبغي أن يشاركه فيهما أحد لأنهما من صفاته اللازمة له المختصة به التي لا تليق بغيره والله أعلم.

﴿ **فللّهِ الحمدُ ربّ السمٰوات وربّ الأرض ربّ العالمين * وله الكبرياء** ﴾، العظمة، ﴿ **في السمٰوات والأرض وهو العزيز الحكيم** ﴾، أخبرنا الإمام أبو علي الحسين بن محمد القاضي حدّثنا السيد أبو الحسن محمد بن الحسين العلوي أنا أبو حامد أحمد بن محمد بن الحسن الشرقي ثنا أحمد بن حفص وعبد الله بن محمد الفرّاء وقطن بن إبراهيم قالوا أنا حفص بن عبد الله حدّثني إبراهيم بن طهمان عن عطاء بن السائب عن الأغرّ أبي مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله عزّ وجلّ الكبرياء ردائي والعظمة إزاري فمَن نازعني في واحد منهما أدخلته النار».

سورة الأحقاف

مكية وقيل غير قوله ﴿قل أرأيتم﴾ وقيل وقوله ﴿فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل﴾ فإنهما نزلتا بالمدينة وهي أربع وقيل خمس وثلاثون آية وستمائة وأربع وأربعون كلمة وألفان وخمسمائة وخمسة وتسعون حرفاً.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ۖ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤﴾ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿٦﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ۖ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٨﴾

قوله عز وجل: ﴿حمٓ تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم ما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق﴾ أي بالعدل ﴿وأجل مسمى﴾ يعني يوم القيامة وهو الأجل الذي ينتهي إليه فناء السموات والأرض ﴿والذين كفروا عما أنذروا﴾ أي خوفوا به في القرآن من البعث والحساب ﴿معرضون﴾ أي لا يؤمنون به ﴿قل أرأيتم ما تدعون من دون الله﴾ يعني الأصنام ﴿أروني ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك في السموات ائتوني بكتاب من قبل هذا﴾ أي بكتاب

سُورَة الأحقَافِ

مكيّة وهي خمس وثلاثون آية.

﴿ حَمّ * تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم * ما خلقنا السمٰواتِ والأرض وما بينهما إلّا بالحق وأجلٍ مسمّى ﴾، يعني يوم القيامة وهو الأجل الذي تنتهي إليه السمٰوات والأرض، وهو إشارة إلى فنائهما، ﴿ والذين كفروا عمّا أنذروا ﴾، خوّفوا به في القرآن من البعث والحساب، ﴿ معرضون ﴾.

﴿ قلْ أرأيتم ما تدعون من دون الله أروني ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك في السمٰوات ائتوني بكتاب من قبل هذا ﴾، أي بكتاب جاءكم من الله قبل القرآن فيه بيان ما تقولون، ﴿ أو أثارة من علم ﴾، قال الكلبي: أي بقية من علم يؤثر عن الأوّلين، أي يسند إليهم. قال مجاهد وعكرمة ومقاتل: رواية عن الأنبياء. وقال قتادة: خاصة من

جاءكم من الله قبل القرآن فيه بيان ما تقولون ﴿أو أثارة من علم﴾ أي بقية من علم يؤثر عن الأولين ويسند إليهم وقيل برواية عن علم الأنبياء وقيل علامة من علم وقيل هو الخط وهو خط كانت العرب تخطه في الأرض ﴿إن كنتم صادقين﴾ أي في أن لله شريكاً ﴿ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له﴾ يعني الأصنام لا تجيب عابد بها إلى شيء يسألونها ﴿إلى يوم القيامة﴾ يعني لا تجيب أبداً ما دامت الدنيا ﴿وهم من دعائهم غافلون﴾ يعني لأنها جمادات لا تسمع ولا تفهم ﴿وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين﴾ أي جاحدين ﴿وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين كفروا للحق لما جاءهم هذا سحر مبين﴾ سموا القرآن سحراً ﴿أم يقولون افتراه﴾ أي اختلق القرآن محمد من قبل نفسه قال الله عزوجل ﴿قل﴾ يا محمد ﴿إن افتريته فلا تملكون لي من الله شيئاً﴾ أي لا تقدرون أن تردوا عني عذابه إن عذبني على افترائي فكيف أفتري على الله من أجلكم ﴿هو أعلم﴾ أي الله أعلم ﴿بما تفيضون فيه﴾ أي تخوضون فيه من التكذيب بالقرآن والقول فيه أنه سحر ﴿كفى به شهيداً بيني وبينكم﴾ أي إن القرآن جاء من عنده ﴿وهو الغفور الرحيم﴾ أي في تأخير العذاب عنكم وقيل هو دعاء لهم إلى التوبة ومعناه أنه غفور لمن تاب منكم رحيم به.

﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٩﴾

قوله تعالى: ﴿قل﴾ يا محمد ﴿ما كنت بدعاً﴾ أي بديعاً ﴿من الرسل﴾ أي لست بأول مرسل قد بعث قبلي كثير من الأنبياء فكيف تنكرون نبوتي ﴿وما أدري ما يفعل بي ولا بكم﴾ اختلف العلماء في معنى هذه الآية فقيل معناه ما

علم. وأصل الكلمة من الأثر وهو الرواية، يقال: أثرت الحديث أثراً وأثارة، ومنه قيل للخبر: أثر. ﴿ إن كنتم صادقين ﴾.

﴿ ومَن أضلّ ممّن يدعوا من دون الله مَن لا يستجيب له ﴾، يعني الأصنام لا تجيب عابديها إلى شيء يسألونها، ﴿ إلى يوم القيامة ﴾، يعني أبداً ما دامت الدنيا، ﴿ وهم عن دعائهم غافلون ﴾، لأنها جماد لا تسمع ولا تفهم.

﴿ وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين ﴾، جاحدين بيانه قوله: ﴿ تبرأنا إليك ما كانوا إيّانا يعبدون ﴾ [القصص: ٦٣].

﴿ وإذا تتلى عليهم آياتنا بيّنات قال الذين كفروا للحق لمّا جاءهم هذا سحر مبين ﴾، يسمّون القرآن سحراً.

﴿ أم يقولون افتراه ﴾، محمد من قبل نفسه، فقال الله عزّ وجلّ: ﴿ قلْ ﴾، يا محمد، ﴿ إن افتريته فلا تملكون لي من الله شيئاً ﴾، لا تقدرون أن تردّوا عنّي عذابه إن عذّبني على افترائي، فكيف أفتري على الله من أجلكم، ﴿ هو أعلم ﴾، الله أعلم، ﴿ بما تفيضون فيه ﴾، تخوضون فيه من التكذيب بالقرآن والقول فيه إنه سحر. ﴿ كفى به شهيداً بيني وبينكم ﴾، أن القرآن جاء من عنده، ﴿ وهو الغفور الرحيم ﴾، في تأخير العذاب عنكم، قال الزجّاج: هذا دعاء لهم إلى التوبة، معناه: إن الله عزّ وجلّ غفور لمَن تاب منكم رحيم به.

﴿قل ما كنت بِدعاً من الرسل ﴾، أي بديعاً مثل نصف ونصيف، وجمع البدع أبداع، لست بأول مرسل، قد بُعِثَ قبلي كثير من الأنبياء، فكيف تنكرون نبوّتي. ﴿ وما أدري ما يفعل بي ولا بكم ﴾، اختلف العلماء في معنى هذه الآية، فقال بعضهم: معناه ما أدري ما يفعل بي ولا بكم يوم القيامة، فلما نزلت هذه الآية فرح المشركون،

أدري ما يفعل بي ولا بكم يوم القيامة ولما نزلت هذه الآية فرح المشركون وقالوا واللات والعزى ما أمرنا وأمر محمد عند الله إلا واحد وما له علينا من مزية وفضل ولولا أنه ابتدع ما يقوله من ذات نفسه لأخبره الذي بعثه بما يفعل به فأنزل الله عز وجل: ﴿**ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر**﴾ فقالت الصحابة هنيئاً لك يا نبي الله قد علمت ما يفعل بك فماذا يفعل بنا فأنزل الله عز وجل: ﴿**ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار**﴾ الآية وأنزل ﴿**وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلاً كبيراً**﴾ فبين الله ما يفعل به وبهم وهذا قول أنس وقتادة والحسن وعكرمة قالوا: إنما قال هذا قبل أن يخبر بغفران ذنبه وإنما أخبر بغفران ذنبه عام الحديبية فنسخ ذلك (خ) عن خارجة بن زيد بن ثابت أن أم العلاء امرأة من الأنصار وكانت بايعت النبي ﷺ أخبرته أنه اقتسم المهاجرون قرعة قالت فطار لنا عثمان بن مظعون فأنزلناه في أبياتنا فوجع وجعه الذي توفي فيه فلما توفي وغسل وكفن في أثوابه دخل عليه رسول الله ﷺ فقلت: رحمة الله عليك أبا السائب فشهادتي عليك لقد أكرمك الله فقال النبي ﷺ: وما يدريك أن الله أكرمه، فقلت: بأبي أنت يا رسول الله فمن يكرمه الله فقال رسول الله ﷺ: أما هو فقد جاءه اليقين والله إني لأرجو له الخير والله ما أدري وأنا رسول الله ما يفعل بي قالت فوالله لا أزكي بعده أحد يا رسول قالت ورأيت لعثمان في النوم عيناً تجري فجئت رسول الله ﷺ فذكرت ذلك له فقال ذاك عمله» وفي رواية غير البخاري قالت «لما قدم المهاجرون المدينة اقترعت الأنصار على سكناهم قالت فطار لنا عثمان بن مظعون وفيه والله ما أدري وأنا رسول الله ما يفعل بي ولا بكم وقيل في معنى قوله ما أدري ما يفعل بي ولا بكم هذا في الدنيا أما في الآخرة فقد علم أنه في الجنة وأن من كذبه في النار» فعلى هذا الوجه فقد اختلفوا فيه فقال ابن عباس لما اشتد البلاء بأصحاب رسول الله ﷺ «رأى رسول الله ﷺ في المنام وهو بمكة أرض ذات سباخ ونخل رفعت له يهاجر إليها فقال له أصحابه متى تهاجر إلى الأرض التي أريت فسكت فأنزل الله هذه الآية وما أدري ما يفعل بي ولا بكم أأترك في مكاني أم أخرج وأنا وأنتم إلى الأرض التي رفعت لي وقيل «لا أرى إلى ماذا

فقالوا: واللاّت والعزّى ما أمْرُنا وأمر محمد عند الله إلاّ واحد، وما له علينا من مزية وفضل، ولولا أنه ابتدع ما يقوله من ذات نفسه لأخبره الذي بعثه بما يُفعَل به، فأنزل الله: ﴿ ليغفرَ لك اللَّهُ ما تقدَّمَ من ذنبك وما تأخر ﴾ [الفتح: ٢]، فقالت الصحابة: هنيئاً لك يا نبيّ الله قد علمنا ما يُفعل بك، فماذا يُفعل بنا؟ فأنزل الله تعالى: ﴿ لِيُدْخلَ المؤمنين والمؤمنات جنّات ﴾ [الفتح: ٥] الآية، وأنزل: ﴿ وبشّر المؤمنين بأنّ لهم من الله فضلاً كبيراً ﴾ [الأحزاب: ٤٧]، فبيّن الله تعالى ما يفعل به وبهم، وهذا قول أنس وقتادة والحسن وعكرمة، قالوا: إنما قال هذا قبل أن يُخبَر بغفران ذنبه وإنما أُخبِرَ بغفران ذنبه عام الحديبية، فنسخ ذلك، أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحي أنا أبو الحسين علي بن محمد بن عبد الله بن بشران أنا إسماعيل بن محمد الصفّار ثنا أحمد بن منصور الرمادي ثنا عبد الرازق أنا معمر عن الزهري عن خارجة بن زيد قال: كانت أُم العلاء الأنصارية تقول لمّا قَدِمَ المهاجرون المدينة: اقترعت الأنصار على سكناهم، قالت: فطار لنا عثمان بن مظعون في السكنى، فمرض فمرّضناه، ثم توفي فجاء رسول الله ﷺ، فدخل فقلت: رحمة الله عليك أبا السائب فشهادتي عليك لقد أكرمك الله، فقال النبي ﷺ: «وما يُدريك أن الله قد أكرمه»؟ فقلت: لا والله لا أدري فقال النبي ﷺ: «أما هو فقد أتاه اليقين من ربّه وإني لأرجو له الخير والله ما أدري وأنا رسول الله ما يفعل بي ولا بكم» قالت: فوالله لا أُزكّي بعده أحداً أبداً، قالت: ثم رأيت لعثمان بعد في النوم عيناً تجري فقصصتها على رسول الله ﷺ، فقال: «ذاك عمله»، وقالت جماعة: قوله ﴿ **وما أدري ما يُفعل بي ولا بكم** ﴾ في الدنيا، أمّا في الآخرة فقد علم أنه في الجنة، وأن مَن كذّبه فهو في النار، ثم اختلفوا فيه، قال ابن عباس رضي الله عنهما: لمّا اشتدّ البلاء بأصحاب رسول الله ﷺ رأى رسول الله ﷺ فيما يرى النائم وهو بمكة أرضاً ذات سباخ ونخل رُفِعت له يهاجر إليها، فقال له أصحابه: متى تهاجر إلى

يصير أمري وأمركم في الدنيا أما أنا فلا أدري أخرج كما أخرجت الأنبياء من قبلي أم أقتل كما قتل بعض الأنبياء من قبلي وأما أنتم أيها المصدقون فلا أدري أتخرجون معي أم تتركون أم ماذا يفعل بكم ولا أدري ما يفعل بكم أيها المكذبون أترمون بالحجارة من السماء أم يخسف بكم أم أي شيء يفعل بكم مما فعل بالأمم المكذبة ثم أخبره الله عز وجل أن يظهر دينه على الأديان كلها فقال تعالى هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله» وقال في أمته «وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون» فأعلمه ما يصنع به وبأمته وقيل معناه لا أدري إلى ماذا يصير أمري وأمركم ومن الغالب والمغلوب ثم أخبره أنه يظهر دينه على الأديان وأمته على سائر الأمم.

وقوله: ﴿**إن أتبع إلا ما يوحى إلي**﴾ معناه ما أتبع غير القرآن الذي يوحى إليّ ولا أبتدع من عندي شيئاً ﴿**وما أنا إلا نذير مبين**﴾ أي أنذركم العذاب وأبين لكم الشرائع.

قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾

﴿**قل أرأيتم**﴾ أي أخبروني ماذا تقولون ﴿**إن كان من عند الله**﴾ يعني القرآن ﴿**وكفرتم به**﴾ أيها المشركون ﴿**وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله**﴾ أي أنه من عند الله ﴿**فآمن**﴾ يعني الشاهد ﴿**واستكبرتم**﴾ أي عن الإيمان به والمعنى إذا كان الأمر كذلك أليس قد ظلمتم وتعديتم ﴿**إن الله لا يهدي القوم الظالمين**﴾ واختلفوا في هذا الشاهد فقيل هو عبد الله بن سلام آمن بالنبي ﷺ وشهد بصحة نبوته واستكبر اليهود فلم يؤمنو يدل عليه ما روى عن أنس بن مالك

الأرض التي أُريْتَ فسكت، فأنزل الله تعالى هذه الآية: ﴿ **وما أدري ما يُفعل بي ولا بكم** ﴾، أأترك في مكاني أم أخرج أنا وأنتم إلى الأرض التي رُفِعَت لي، وقال بعضهم وما أدري ما **يفعل** بي ولا بكم إلى ماذا يصير عاقبة أمري وأمركم في الدنيا، بأن أُقيم معكم في مكانكم أم أخرج كما خرجت الأنبياء من قبلي، أم أقتل كما قتل الأنبياء من قبلي، وأنتم أيها المُصدِّقون لا أدري تخرجون معي أم تتركون، أم ماذا **يفعل** بكم أيها المكذّبون، أترمون بالحجارة من السماء أم يخسف بكم، أم أي شيء يفعل بكم، كما فعل بالأمم المكذّبة؟ ثم أخبر الله عزّ وجلّ أنه **يُظهِر** دينه على الأديان، فقال: ﴿ هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق لِيُظهرَهُ على الدين كله ﴾ [التوبة: ٣٣، الفتح: ٢٨، الصفّ: ٩]، وقال في أُمته: ﴿ وما كان الله لِيُعذّبهم وأنت فيهم وما كان الله معذّبهم وهم يستغفرون ﴾ [الأنفال: ٣٣]، فأخبر الله ما يصنع به وبأُمته، هذا قول السدي. ﴿ **إنْ أتبع إلّا ما يُوحى إليّ** ﴾، أي ما أتبع إلّا القرآن، ولا أبتدع من عندي شيئاً، ﴿ **وما أنا إلّا نذير مبين** ﴾.

﴿ **قل أرأيتم** ﴾، معناه: أخبروني ماذا تقولون، ﴿ **إنْ كان** ﴾، يعني القرآن، ﴿ **من عند الله وكفرتم به** ﴾، أيها المشركون، ﴿ **وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله** ﴾، المثل: صلة، يعني عليه، أي على أنه من عند الله، ﴿ **فآمنَ** ﴾، يعني الشاهد، ﴿ **واستكبرتم** ﴾، عن الإيمان به، وجواب قوله: ﴿ **إن كان من عند الله** ﴾، محذوف على تقدير: أليس قد ظللتم يدلّ على هذا المحذوف قوله: ﴿ **إنّ الله لا يهدي القوم الظالمين** ﴾، وقال الحسن: جوابه: «فمَن أضلّ منكم» كما قال في سورة السجدة [١٠]، واختلفوا في هذا الشاهد قال قتادة والضحاك: هو عبد الله بن سلام، شهد على نبوّة المصطفى ﷺ وآمن به، واستكبر اليهود فلم يؤمنوا، أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا عبد الله بن منير سمع

قال: بلغ عبد الله بن سلام مقدم النبي ﷺ المدينة وهو في أرض يخترف النخل فأتاه وقال إني سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبي ما أول أشراط الساعة وما أول طعام يأكله أهل الجنة ومن أي شيء ينزع الولد إلى أبيه ومن أي شيء ينزع إلى أخواله؟ فقال رسول الله ﷺ أخبرني بهن آنفاً جبريل قال فقال عبد الله ذاك عدو اليهود من الملائكة فقرأ هذه الآية ﴿من كان عدواً لجبريل فإنه نزله على قلبك﴾ فقال رسول الله ﷺ: أما أول أشراط الساعة فنار تحشر الناس من المشرق إلى المغرب، وأما أول طعام يأكله أهل الجنة فزيادة كبد الحوت، وأما الشبه في الولد فإن الرجل إذا غشي المرأة فسبقها ماؤه كان الشبه له وإذا سبقت كان الشبه لها قال أشهد أنك رسول الله ثم قال يا رسول الله إن اليهود قوم بهت إن علموا بإسلامي قبل أن تسألهم عني بهتوني عندك فجاءت اليهود ودخل عبد الله البيت، فقال رسول الله ﷺ: أي رجل فيكم عبد الله بن سلام فقالوا أعلمنا وابن أعلمنا وخيرنا وابن خيرنا، فقال رسول الله ﷺ: أفرأيتم إن أسلم عبد الله قالوا أعاذه الله من ذلك زاد في رواية فأعاد عليهم فقالوا مثل ذلك فخرج عبدالله إليهم فقال أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله فقالوا شرنا وابن شرنا ووقعوا فيه» زاد في رواية «فقال يعني عبد الله بن سلام هذا الذي كنت أخاف يا رسول الله» أخرجه البخاري في صحيحه (ق). «عن سعيد بن أبي وقاص قال ما سمعت النبي ﷺ يقول لحي يمشي على الأرض أنه من أهل الجنة إلا لعبد الله بن سلام قال وفيه نزلت وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله» قال الراوي لا أدري قال مالك الآية أو في الحديث وقيل الشاهد هو موسى بن عمران عليه السلام قال مسروق في هذه الآية والله ما نزلت في عبد الله بن سلام لأن آل حم نزلت بمكة وإنما أسلم عبد الله بن سلام بالمدينة ونزلت الآية في محاجة كانت من رسول الله ﷺ لقومه ومثل القرآن التوراة فشهد موسى على التوراة ومحمد على القرآن وكل يصدق الآخر فيكون المعنى وشهد موسى على التوراة التي هي مثل القرآن إنها من عند الله كما شهد محمد ﷺ على القرآن أنه كلام الله فآمن من آمن بموسى والتوراة واستكبرتم أنتم يا معشر العرب أن تؤمنوا بمحمد والقرآن إن لا يهدي القوم

عبد الله بن أبي بكر ثنا حميد عن أنس قال: «سمع عبد الله بن سلام بمَقدَم رسول الله ﷺ وهو في أرض يخترف النخل فأتى النبي ﷺ فقال: إني سائلك عن ثلاث لا يعلمهنّ إلّا نبي: فما أول أشراط الساعة؟ وما أول طعام أهل الجنة؟ وما ينزع الولد إلى أبيه أو إلى أُمه؟ قال: أخبرني بهنّ جبريل آنفاً، قال: جبريل؟ قال: نعم، قال: ذاك عدو اليهود من الملائكة، فقرأ هذه الآية: ﴿ قلْ مَن كان عدواً لجبريل فإنه نـزّله على قلبك بإذن الله ﴾ [البقرة: ٩٧]، فأما أول أشراط الساعة فنار تحشر الناس من المشرق إلى المغرب، وأمّا أول الطعام يأكله أهل الجنة فزيادة كبد الحوت، وإذا سبق ماء الرجل ماء المرأة نزع الولد، وإذا سبق ماء المرأة نَزَعَتْ، قال: أشهد أن لا إلّه إلّا الله وأنك رسول الله، يا رسول الله إن اليهودَ قومٌ بهت، وإنهم إن يعلموا بإسلامي من قبل أن تسألهم عنّي يبهتونني، فجاءت اليهود فقال لهم: أيّ رجل عبد الله فيكم؟ قالوا: خيرنا وابن خيرنا، وسيدنا وابن سيدنا، قال: أرأيتم إن أسلم عبد الله بن سلام؟ قالوا: أعاذه الله من ذلك، فخرج عبد الله، فقال: أشهد أن لا إلّه إلّا الله وأن محمداً رسول الله، فقالوا: شرّنا وابن شرّنا، فانتقصوه، قال: هذا الذي كنت أخاف يا رسول الله». أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا عبد الله بن يوسف قال: سمعت مالكاً يحدّث عن أبي النضر مولى عمر بن عبيد الله عن عامر بن سعد بن أبي وقّاص عن أبيه قال: ما سمعت النبي ﷺ يقول لأحد يمشي على وجه الأرض إنه من أهل الجنة إلّا لعبد الله بن سلام، وفيه نزلت هذه الآية: ﴿ وشهدَ شاهدٌ من بني إسرائيل على مثله ﴾، قال: لا أدري قال مالك الآية أو في الحديث. وقال الآخرون الشاهد هو موسى بن عمران. وقال الشعبي قال مسروق في هذه الآية: والله ما نزلت في عبد الله بن سلام لأن آل حمّ نزلت بمكة وإنما أسلم عبد الله بن سلام بالمدينة، ونزلت هذه الآية في محاجّة كانت من رسول الله ﷺ لقومه،

الظالمين. قيل إنه تهديد وهو قائم مقام جواب الشرط المحذوف والتقدير قل أرأيتم إن كان من عند الله ثم كفرتم به فإنكم لا تكونون مهتدين بل تكونون ضالين.

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُواْ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓ إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾

قوله تعالى: ﴿**وقال الذين كفروا**﴾ يعني من اليهود ﴿**للذين آمنوا لو كان خيراً**﴾ يعني دين محمد ﷺ ﴿**ما سبقونا إليه**﴾ يعنون عبد الله بن سلام وأصحابه، وقيل نزلت في مشركي مكة قالوا لو كان ما يدعونا إليه محمد خيراً ما سبقنا إليه فلان وقيل الذين كفروا أسد وغطفان قالوا للذين آمنوا يعني جهينة ومزينة لو كان ما جاء به محمد خيراً ما سبقنا إليه رعاء البهم قال الله تعالى ﴿**وإذ لم يهتدوا به**﴾ يعني بالقرآن كما اهتدى به أهل الإيمان ﴿**فسيقولون هذا إفك قديم**﴾ يعني كذب متقدم ﴿**ومن قبله**﴾ يعني من قبل القرآن ﴿**كتاب موسى**﴾ يعني التوراة ﴿**إماماً**﴾ يعني جعلناه إماماً يقتدى به ﴿**ورحمة**﴾ يعني من الله لمن آمن به ﴿**وهذا كتاب**﴾ يعني القرآن ﴿**مصدق**﴾ يعني للكتب التي قبله ﴿**لساناً عربياً لينذر الذين ظلموا**﴾ يعني مشركي مكة ﴿**وبشرى للمحسنين إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولا هم**

ومثل القرآن التوراة فشهد موسى على التوراة ومحمد ﷺ على القرآن، وكل واحد يصدق الآخر. وقيل: هو نبيّ من بني إسرائيل فآمن واستكبرتم فلم تؤمنوا.

﴿ **وقال الذين كفروا** ﴾، من اليهود، ﴿ **للذين آمنوا لو كان** ﴾، دين محمد ﷺ، ﴿ **خيراً ما سبقونا إليه** ﴾، يعني عبد الله بن سلام وأصحابه، وقال قتادة نزلت في مشركي مكة، قالوا: لو كان ما يدعونا إليه محمد خيراً ما سبقنا إليه فلان وفلان. وقال الكلبي: الذين كفروا أسد وغطفان، قالوا للذين آمنوا يعني جهينة ومزينة: لو كان ما جاء به محمد خيراً ما سبقنا إليه رعاء الهيم. قال الله تعالى: ﴿ **وإذ لم يهتدوا به** ﴾، يعني بالقرآن كما اهتدى به أهل الإيمان، ﴿ **فسيقولون هذا إفك قديم** ﴾، كما قالوا أساطير الأوّلين.

﴿ **ومن قبله** ﴾ أي ومن قبل القرآن، ﴿ **كتاب موسى** ﴾، يعني التوراة، ﴿ **إماماً** ﴾، يُقتدَى به، ﴿ **ورحمةً** ﴾، من الله لمَن آمن به، ونصباً على الحال عن الكسائي، وقال أبو عبيدة: فيه إضمار، أي جعلناه إماماً ورحمةً، وفي الكلام محذوف، تقديره: وتقدّمه كتاب موسى إماماً ولم يهتدوا به، كما قال في الآية الأولى: ﴿ **وإذ لم يهتدوا به** ﴾، ﴿ **وهذا كتاب مصدّق** ﴾، أي القرآن مصدّق للكتب التي قبله، ﴿ **لساناً عربياً** ﴾، نصب على الحال، وقيل بلسان عربي، ﴿ **لينذر الذين ظلموا** ﴾، يعني مشركي مكة، قرأ أهل الحجاز والشام ويعقوب: **(لتنذر)** بالتاء على خطاب النبي ﷺ، وقرأ الآخرون بالياء يعني الكتاب، ﴿ **وبشرى للمحسنين** ﴾، ﴿ **وبشرى** ﴾ في محل الرفع، أي هذا كتاب مصدّق وبشرى.

﴿ **إنّ الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون * أولئك أصحابُ الجنة خالدين فيها**

يحزنون أولئك أصحاب الجنة خالدين فيها جزاء بما كانوا يعملون﴾ تقدم تفسيره.

قوله عز وجل: **﴿ووصينا الإنسان بوالديه حسناً﴾** أي يوصل إليهما إحساناً وهو ضد الإساءة **﴿حملته أمه كرهاً﴾** يعني حين أثقلت وثقل عليها الولد **﴿ووضعته كرهاً﴾** يريد شدة الطلق **﴿وحمله وفصاله ثلاثون شهراً﴾** يعني ومدة **حمله** إلى أن ينفصل من الرضاع وهو الفطام ثلاثون شهراً. فأقل مدة الحمل ستة أشهر وأكثر مدة الرضاع أربعة وعشرون شهراً. قال ابن عباس: إذا حملت المرأة تسعة أشهر أرضعت إحدى وعشرين شهراً وإذا حملت ستة أشهر أرضعت أربعة وعشرين شهراً **﴿حتى إذا بلغ أشده﴾** أي نهاية قوته وغاية شبابه واستوائه وهو ما بين ثمان عشرة سنة إلى أربعين سنة وهو قوله تعالى: **﴿وبلغ أربعين سنة﴾** قيل: نزلت هذه الآية في سعد بن أبي وقاص وقد تقدمت القصة. وقيل إنها على العموم والأصح أنها نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه وذلك أنه صحب النبي ﷺ وهو ابن ثمان عشرة سنة والنبي ﷺ ابن عشرين سنة في تجارة إلى الشام فنزلوا منزلاً فيه سدرة فعقد النبي ﷺ في ظلها ومضى أبو بكر إلى راهب هناك يسأله عن الدين فقال له الراهب من الرجل الذي في ظل السدرة فقال هو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب فقال الراهب: هذا والله نبي وما استظل تحتها بعد عيسى أحد إلا هذا وهو نبي آخر الزمان، فوقع في قلب أبي بكر اليقين والتصديق، فكان لا يفارق النبي ﷺ في سفر ولا حضر، فلما بلغ رسول الله ﷺ أربعين سنة أكرمه الله تعالى بنبوته واختصه برسالته فآمن به أبو بكر وصدقه وهو ابن ثمان وثلاثين سنة فلما بلغ أربعين سنة دعا ربه عز وجل: **﴿قال رب أوزعني﴾** أي ألهمني **﴿أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي﴾** أي بالإيمان والهداية. وقال علي بن أبي طالب في قوله ووصينا الإنسان بوالديه حسناً في أبي بكر أسلم أبواه جميعاً ولم يجتمع لأحد من المهاجرين أن أسلم أبواه غيره أوصاه الله بهما ولزم ذلك من بعده **﴿وأن أعمل صالحاً ترضاه﴾** قال ابن عباس: أجابه الله تعالى فأعتق تسعة من المؤمنين يعذبون في الله منهم بلال ولم يرد شيئاً من الخير إلا أعانه الله عليه ودعا أيضاً فقال **﴿وأصلح لي في ذريتي﴾** فأجابه الله تعالى فلم يكن له ولد إلا آمن فاجتمع لأبي بكر إسلام أبويه: أبوه قحافة عثمان بن

جزاءً بما كانوا يعملون ﴾.

قوله عزّ وجلّ: **﴿ ووصّينا الإنسان بوالديه حُسْناً ﴾**. وقرأ أهل الكوفة: (إحساناً) كقوله تعالى: **﴿ وبالوالدين إحساناً ﴾** [البقرة: ٨٣، النساء: ٣٦، الأنعام: ١٥١، الإسراء: ٢٣]، **﴿ حملته أُمه كُرْهاً ووضعته كرهاً ﴾**، يريد **شدّة الطّلق**، قرأ أهل الحجاز وأبو عمرو كرهاً بفتح الكاف فيهما، وقرأ الآخرون بضمّهما. **﴿ وحمله وفصاله ﴾**، **فطامه**، وقرأ يعقوب: (وفصله) بغير ألف، **﴿ ثلاثون شهراً ﴾**، يريد أقل مدة الحمل وهي ستّة أشهر وأكثر مدة الرضاع أربعة وعشرون شهراً. وروى عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنه قال: إذا حملت المرأة تسعة أشهر أرضعت إحدى وعشرين شهراً، وإذا حملت ستّة أشهر أرضعت أربعة وعشرين شهراً. **﴿ حتى إذا بلغ أشدّه ﴾**، **نهاية قوّته**، وغاية شبابة واستوائه، وهو ما بين ثماني عشرة سنة إلى أربعين سنة، فذلك قوله: **﴿ وبلغ أربعين سنة ﴾** وقال السدي والضحاك: نزلت في سعد بن أبي وقّاص، وقد مضت القصة. وقال الآخرون: نزلت في أبي بكر **الصدّيق** وأبيه أبي قحافة عثمان بن عمرو، وأُمه أم الخير بنت صخر بن عمرو. قال عليّ بن أبي طالب: الآية نزلت في أبي بكر أسلم أبواه جميعاً ولم يجتمع لأحد من المهاجرين أسلم أبواه غيره أوصاه الله بهما، ولزم ذلك من بعده، وكان أبو بكر صحب النبي ﷺ وهو ابن ثمان عشرة سنة والنبي ﷺ ابن عشرين سنة في تجارة إلى الشام، فلما بلغ أربعين سنة ونُبِّىء النبي ﷺ آمن به ودعا ربّه فـ **﴿ قال ربِّ أوزعني ﴾**، ألهمني، **﴿ أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليّ وعلى والديّ ﴾**، بالهداية والإيمان، **﴿ وأن أعمل صالحاً ترضاه ﴾**، قال ابن عباس: وأجابه الله عزّ وجلّ فأعتق تسعة من المؤمنين يعذبون في الله، ولم يرد شيئاً من الخير إلّا أعانه الله عليه، ودعا أيضاً فقال:

عمرو، وأمه أم الخير بنت صخر بن عمرو وابنه عبد الرحمن وابن عبد الرحمن أبي عتيق محمد فهؤلاء أربعة أبو بكر وأبوه وابنه عبد الرحمن وابن ابنه محمد كلهم أدركوا النبي ﷺ وأسلموا ولم يجتمع ذلك لأحد من الصحابة غير أبي بكر وقوله: ﴿إني تبت إليك﴾ أي رجعت إليك إلى كل ما تحب ﴿وإني من المسلمين﴾ أي: وأسلمت بقلبي ولساني.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنۡهُمۡ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمۡ فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَنَّةِۖ وَعۡدَ ٱلصِّدۡقِ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ ١٦ وَٱلَّذِي قَالَ لِوَٰلِدَيۡهِ أُفّٖ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِيٓ أَنۡ أُخۡرَجَ وَقَدۡ خَلَتِ ٱلۡقُرُونُ مِن قَبۡلِي وَهُمَا يَسۡتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيۡلَكَ ءَامِنۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٧﴾

﴿أولئك الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا﴾ يعني أعمالهم الصالحة التي عملوها في الدنيا وكلها حسن فالأحسن بمعنى الحسن فيثيبهم عليها ويتجاوز عن سيئاتهم فلا يؤاخذهم بها ﴿في أصحاب الجنة﴾ أي مع أصحاب الجنة ﴿وعد الصدق﴾ يعني الذي وعدهم بأن يتقبل حسناتهم ويتجاوز عن سيئاتهم ووعده صدق وقيل: وعدهم بأن يدخلهم الجنة ﴿الذي كانوا يوعدون﴾ يعني في الدنيا على لسان الرسول ﷺ. قوله تعالى: ﴿والذي قال لوالديه﴾ يعني إذ دعواه إلى الإيمان بالله والإقرار بالبعث بعد الموت ﴿أفٍّ لكما﴾ وهي كلمة كراهية ﴿أتعدانني أن أخرج﴾ يعني من قبري حياً ﴿وقد خلت القرون من قبلي﴾ يعني فلم يبعث منهم أحد ﴿وهما يستغيثان الله﴾ يعني يستصرخان بالله عليه ويقولان له ﴿ويلك آمن إن وعد الله حق﴾ يعني بالبعث ﴿فيقول ما هذا﴾ يعني الذي تدعونني إليه ﴿إلا أساطير الأولين﴾ قال ابن عباس نزلت في عبدالرحمن بن أبي بكر الصديق قبل إسلامه وكان أبواه يدعوانه إلى الإسلام وهو يأبى ويقول أحيوا لي عبد الله بن جدعان وعامر بن كعب ومشايخ قريش حتى أسألهم عما تقولون. وأنكرت عائشة أن يكون قد نزل هذا في عبد الرحمن بن أبي بكر (خ). عن يوسف بن ماهك قال: كان مروان على الحجاز استعمله معاوية فخطب فجعل يذكر يزيد بن معاوية لكي يبايع له، فقال له عبد الرحمن بن أبي بكر شيئاً، فقال: خذوه فدخل بيت عائشة فلم يقدروا عليه، فقال له مروان: هذا الذي أنزل الله فيه والذي قال لوالديه أف لكما فقالت عائشة من وراء الحجاب: ما أنزل الله فينا شيئاً من القرآن إلا ما أنزل الله في سورة النور من براءتي والقول الصحيح أنه ليس المراد من

﴿ وأصلحْ لي في ذريّتي ﴾، فأجابه الله فلم يكن له ولد إلاّ آمنوا جميعاً، فاجتمع له إسلام أبويه وأولاده جميعاً فأدرك أبو قحافة النبي ﷺ وابنه أبو بكر وابنه عبد الرحمن بن أبي بكر وابن عبد الرحمن أبو عتيق كلهم أدركوا النبي ﷺ، ولم يكن ذلك لأحد من الصحابة. قوله: ﴿ إني تبت إليك وإني من المسلمين ﴾.

﴿ أولئك الذين نتقبّل عنهم أحسن ما عملوا ﴾، يعني أعمالهم الصالحة التي عملوها في الدنيا، وكلها حسن، والأحسن بمعنى الحسن، فيثيبهم عليها، ﴿ ونتجاوز عن سيئاتهم ﴾ فلا نعاقبهم عليها، قرأ حمزة والكسائي وحفص ﴿ نتقبل ﴾ ﴿ ونتجاوز ﴾ بالنون، ﴿ أحسن ﴾ نصب، وقرأ الآخرون بالياء، وضمّها، ﴿ أحسن ﴾ رفعٌ. ﴿ في أصحاب الجنة ﴾، مع أصحاب الجنة، ﴿ وَعْدَ الصدق الذي كانوا يُوعدون ﴾، وهو قوله عزّ وجلّ: ﴿ وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنّات تجري من تحتها الأنهار ﴾ [التوبة: ٧٢].

﴿ والذي قال لوالديه ﴾، إذْ دعواه إلى الإيمان بالله والإقرار بالبعث، ﴿ أفٍ لكما ﴾، وهي كلمة كراهية، ﴿ أتعدانني أن أخرج ﴾، من قبري حيّاً، ﴿ وقد خلت القرون من قبلي ﴾، فلم يبعث منهم أحد، ﴿ وهما يستغيثان الله ﴾، يستصرخان ويستغيثان الله عليه ويقولان له: ﴿ ويلك آمنْ إنّ وعد الله حقٌّ فيقول ما هذا ﴾، ما هذا الذي تدعواني إليه، ﴿ إلاّ أساطير الأوّلين ﴾، قال ابن عباس والسدي ومجاهد: نزلت في عبد الله. وقيل في عبد الرحمن بن أبي بكر قبل إسلامه كان أبواه يدعوانه إلى الإسلام وهو يأبى، ويقول: أحيُوا لي عبد الله بن جدعان

الآية شخص معين بل المراد كل شخص كان موصوفاً بهذه الصفة وهو كل من دعاه أبواه إلى الدين الصحيح والإيمان بالبعث فأبى وأنكر. وقيل نزلت في كل كافر عاقٍّ لوالديه قال الزجاج: قول من قال إنها نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر قبل إسلامه يبطله قوله تعالى:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ خَٰسِرِينَ ١٨ وَلِكُلّٖ دَرَجَٰتٞ مِّمَّا عَمِلُواْۖ وَلِيُوَفِّيَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ١٩ وَيَوۡمَ يُعۡرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَذۡهَبۡتُمۡ طَيِّبَٰتِكُمۡ فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنۡيَا وَٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِهَا فَٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ عَذَابَ ٱلۡهُونِ بِمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَبِمَا كُنتُمۡ تَفۡسُقُونَ ٢٠﴾

﴿أولئك الذين حق عليهم القول﴾ أعلم الله أن هؤلاء قد حقت عليهم كلمة العذاب وعبد الرحمن مؤمن من أفاضل المؤمنين فلا يكون ممن حقت عليه كلمة العذاب أي وجب عليهم العذاب **﴿في أمم﴾** أي مع أمم **﴿قد خلت من قبلهم من الجن والإنس إنهم كانوا خاسرين ولكل درجات مما عملوا﴾** قال ابن عباس: يريد من سبق إلى الإسلام فهو أفضل ممن تخلف عنه ولو ساعة وقيل لكل واحد من الفريقين المؤمنين والكافرين والبار والعاق درجات يعني منازل ومراتب عند الله يوم القيامة بأعمالهم فيجازيهم عليها قيل درجات الجنة تذهب إلى علو ودرجات النار تذهب إلى أسفل **﴿وليوفيهم أعمالهم﴾** يعني جزاء أعمالهم **﴿وهم لا يظلمون﴾** قوله عز وجل: **﴿ويوم يعرض الذين كفروا على النار﴾** يعني يجاء بهم فيكشف لهم عنها ويقال لهم **﴿أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها﴾** يعني أن كل ما قدر لكم من الطيبات واللذات فقد أفنيتموه في الدنيا وتمتعتم به فلم يبق لكم بعد استيفاء حظكم منها شيء **﴿فاليوم تجزون عذاب الهون﴾** أي الذي فيه ذل وخزي **﴿بما كنتم تستكبرون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تفسقون﴾** علق هذا العذاب بأمرين، أحدهما: الاستكبار وهو الترفع، ويحتمل أن يكون عن الإيمان، والثاني: الفسق وهو المعاصي، والأول من عمل القلوب، والثاني من عمل الجوارح.

وعامر بن كعب ومشايخ قريش حتى أسألهم عمّا تقولون، وأنكرت عائشة رضي الله عنها أن يكون هذا في عبد الرحمن بن أبي بكر، والصحيح أنها نزلت في كافر عاقّ لوالديه، قاله الحسن وقتادة: وقال الزجّاج: قول مَن قال إنها نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر قبل إسلامه، يبطله قوله:

﴿ أولئك الذين حقّ عليهم القول ﴾، الآية أعلم الله تعالى أن هؤلاء قد حقّت عليهم كلمة العذاب، وعبد الرحمن مؤمن من أفاضل المسلمين فلا يكون ممّن حقّت عليه كلمة العذاب، ومعنى أولئك الذين حقّ عليهم القول وجب عليهم العذاب، **﴿ في أُمم ﴾**، مع أُمم، **﴿ قد خلت من قبلهم من الجن والإنس إنهم كانوا خاسرين ﴾**.

﴿ ولكلٍّ درجات مما عملوا ﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما: يريد مَن سبق إلى الإسلام، فهو أفضل ممّن تخلّف عنه ولو بساعة. قال مقاتل: ولكلٍّ فضائل بأعمالهم فيوفّيهم الله جزاء أعمالهم. وقيل: ولكلٍّ يعني ولكل واحد من الفريقين المؤمنين والكافرين درجات، يعني منازل ومراتب عند الله يوم القيامة بأعمالهم، فيجازيهم عليها. قال ابن زيد: في هذه الآية درج أهل النار تذهب سفالاً، ودرج أهل الجنة تذهب علوّاً. **﴿ وليوفّيهم ﴾**، قرأ ابن كثير وأهل البصرة وعاصم بالياء، وقرأ الباقون بالنون. **﴿ أعمالهم ﴾**، ليكتمل لهم ثواب أعمالهم، **﴿ وهم لا يظلمون ﴾**.

﴿ ويوم يعرض الذين كفروا على النار ﴾، فيقال لهم، **﴿ أذهبتُم طيباتكم في حياتكم الدنيا ﴾**، قرأ ابن كثير

(فصل)

لما وبخ الله تعالى الكافرين بالتمتع بالطيبات، آثر النبي ﷺ وأصحابه والصالحون بعدهم اجتناب اللذات في الدنيا رجاء ثواب الآخرة (ق) «عن عمر بن الخطاب قال: دخلت على رسول الله ﷺ فإذا هو متكيء على رمال حصير قد أثر في جنبه، فقلت: أستأنس يا رسول الله. قال: نعم فجلست، فرفعت رأسي في البيت، فوالله ما رأيت فيه شيئاً يرد البصر إلا أهبة ثلاثة، فقلت: ادع الله أن يوسع على أمتك فقد وسع على فارس والروم ولا يعبدون الله فاستوى جالساً ثم قال: أفي شك أنت يا ابن الخطاب؟ أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم في الحياة الدنيا فقلت استغفر لي يا رسول الله (ق). «عن عائشة قالت: ما شبع آل محمد من خبز شعير يومين متتابعين حتى قبض رسول الله ﷺ» (ق) «عنها قالت: كان يأتي علينا الشهر ما نوقد فيه ناراً إنما هو الأسودان التمر والماء إلا أن نؤتى باللحيم» وفي رواية أخرى قالت: «إنا كنا لننظر إلى الهلال ثم الهلال ثم الهلال ثلاثة أهلة في شهرين وما أوقد في أبيات رسول الله ﷺ نار. قال عروة: قلت: يا خالة فما كان يعيشكم؟ قالت: الأسودان التمر والماء إلا أنه قد كان لرسول الله ﷺ جيران من الأنصار وكانت لهم منائح فكانوا يرسلون إلى رسول الله ﷺ من ألبانها فيسقينا» عن ابن عباس قال: «كان رسول الله ﷺ يبيت الليالي المتتابعة طاوياً وأهله لا يجدون عشاء وكان أكثر خبزهم خبز الشعير» أخرجه الترمذي وله عن أنس

وابن عامر وأبو جعفر ويعقوب: (أأذهبتُم)، بالاستفهام، ويهمز ابن عامر همزتين، والآخرون بلا استفهام على الخبر وكلاهما فصيحان، لأن العرب تستفهم بالتوبيخ، وتترك الاستفهام فتقول: أذهبت ففعلت كذا؟ ﴿ **واستمتعتم بها** ﴾، يقول: أذهبتم طيباتكم يعني اللذّات وتمتّعتم بها؟ ﴿ **فاليومَ تُجزَون عذاب الهون** ﴾، أي العذاب الذي فيه ذلّ وخزي، ﴿ **بما كنتم تستكبرون** ﴾، تتكبّرون، ﴿ **في الأرض بغير الحق وبما كنتم تفسقون** ﴾، فلما وبّخ الله الكافرين بالتمتّع بالطيبات في الدنيا آثر النبي ﷺ وأصحابه والصالحون اجتناب اللذّات في الدنيا رجاء ثواب الآخرة. وروينا عن عمر قال: دخلتُ على رسول الله ﷺ فإذا هو مضطجع على رمال حصير قد أثر الرمال بجنبه، فقلت: يا رسول الله ادعُ اللَّهَ فليوسع على أُمّتك، فإن فارس والروم قد وسّع عليهم وهم لا يعبدون الله، فقال: «أولئك قومٌ قد عجّلوا طيباتهم في الحياة الدنيا»، أخبرنا أبو محمد عبد الله بن عبد الصمد الجوزجاني أنا أبو القاسم علي بن أحمد الخزاعي أنا أبو سعيد الهيثم بن كليب ثنا أبو عيسى الترمذي ثنا محمد بن المثنى ومحمد بن بشّار قال ثنا محمد بن جعفر ثنا شعبة عن أبي إسحاق قال: سمعت عبد الرحمن بن يزيد يحدّث عن الأسود بن يزيد عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: ما شبع آل محمد ﷺ من خبز الشعير يومين متتابعين حتى قُبض رسول الله ﷺ. أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحي أنا أبو الحسين بن بشران أنا إسماعيل بن محمد بن الصفار ثنا أحمد بن المنصور الرمادي ثنا عبد الرزاق ثنا معمر عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: لقد كان يأتي علينا الشهر ما نُوقد فيه ناراً وما لنا إلّا الماء والتمر، غير أن جزى الله نساءً من الأنصار خيراً، كنّ ربما أهدين لنا شيئاً من اللبن. أخبرنا عبد الله بن عبد الصمد الجوزجاني أنا أبو القاسم الخزاعي أنا الهيثم بن كليب ثنا أبو عيسى الترمذي ثنا عبد الله بن معاوية الجمحي ثنا ثابت بن يزيد عن هلال بن خبّاب عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يبيت الليالي المتتابعة طاوياً، وأهله لا يجدون عشاءً، وكان أكثر خبزهم خبز الشعير. أخبرنا عبد الله بن عبد الصمد الجوزجاني أنا أبو القاسم الخزاعي أنا الهيثم بن كليب ثنا أبو عيسى ثنا عبد الله بن عبد الرحمن ثنا روح بن أسلم ثنا أبو حاتم البصري ثنا حمّاد بن سلمة أنا ثابت عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «لقد أُخفت في الله وما يُخاف أحد، ولقد أُوذيت في الله وما يُؤذى أحد ولقد أتت عليّ ثلاثون من بين ليلة ويوم وما لي ولبلال طعام يأكله ذو كبد إلّا شيء من التمر يواريه إبط بلال»، أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله

قال: «قال رسول الله ﷺ لقد أخفت في الله ما لم يخف أحد وأوذيت في الله ما لم يؤذ أحد ولقد أتى عليّ ثلاثون من بين يوم وليلة وما لي ولبلال طعام إلا شيء يواري إبط بلال (خ). «عن أبي هريرة قال: لقد رأيت سبعين من أصحاب الصفة ما منهم رجل عليه رداء إما إزار وإما كساء قد ربطوا في أعناقهم فمنها ما يبلغ نصف الساقين ومنها ما يبلغ الكعبين فيجمعه بيده كراهية أن ترى عورته» (خ). «عن إبراهيم بن عبد الرحمن أن عبد الرحمن بن عوف أتي بطعام وكان صائماً فقال: قتل مصعب بن عمير وهو خير مني فكفن في بردة إن غطي رأسه بدت رجلاه، وإن غطي رجلاه بدا رأسه. قال: وأراه قال: قتل حمزة وهو خير مني، فلم يوجد ما يكفن فيه إلا برده. ثم بسط لنا من الدنيا ما بسط وقد خشيت أن تكون عجلت لنا طيباتنا في حياتنا الدنيا ثم جعل يبكي حتى ترك الطعام» وقال جابر بن عبد الله: «رأى عمر بن الخطاب لحماً معلقاً في يدي فقال ما هذا يا جابر؟ قلت: اشتهيت لحماً فاشتريته، فقال عمر: كلما اشتهيت يا جابر اشتريت، أما تخاف هذه الآية: ﴿أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا؟﴾.

۞ وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَٰكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾

قوله تعالى: ﴿واذكر أخا عاد﴾ يعني هوداً عليه السلام ﴿إذ أنذر قومه بالأحقاف﴾ قال ابن عباس: الأحقاف وادٍ بين عمان ومهرة. وقيل: كانت منازل عاد باليمن في حضرموت بموضع يقال له مهرة. وكانوا أهل عمد سيارة في

النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا يوسف بن عيسى ثنا ابن فضيل عن أبيه عن أبي حازم عن أبي هريرة أنه قال: لقد رأيتُ سبعين من أصحاب الصفة ما منهم رجل عليه رِدَاء، إمّا إزار وإمّا كساء، قد ربطوا في أعناقهم، فمنها ما يبلغ نصف الساقين، ومنها ما يبلغ الكعبين فيجمعه بيده كراهية أن تُرى عورته. أخبرنا أبو بكر محمد بن عبد الله بن أبي توبة الكشميهني ثنا أبو طاهر محمد بن الحارث ثنا أبو الحسن محمد بن يعقوب الكسائي أنا عبد الله بن محمود أنا إبراهيم بن عبد الله الخلال ثنا عبد الله بن مبارك عن شعبة بن الحجّاج عن سعد بن إبراهيم عن أبيه إبراهيم أن عبد الرحمن بن عوف أُتِيَ بطعام وكان صائماً، فقال: قتل مصعب بن عمير وهو خير منّي فكفّن في بردة إن غُطّيَ بها رأسُه بدت رجلاه، وإن غُطّي بها رجلاه بَدَا رأسُه، قال: وأراه قال: وقُتل حمزةُ وهو خير منّي، فلم يُوجد ما يُكفّن فيه إلا بردة، ثم بسط لنا من الدنيا ما بسط، أو قال أُعطينا من الدنيا ما أُعطينا وقد خشينا أن تكون حسناتنا عُجّلتْ لنا، ثم جعل يبكي حتى ترك الطعام. وقال جابر بن عبد الله: رأى عمر بن الخطاب لحماً معلّقاً في يدي، فقال: ما هذا يا جابر؟ قلت: اشتهيتُ لحماً فاشتريته، فقال عمر: أو كلما اشتهيت شيئاً يا جابر اشتريت، أما تخاف هذه الآية: ﴿ أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا ﴾.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ واذكر أخا عاد ﴾، يعني هوداً، ﴿ إذ أنذر قومه بالأحقاف ﴾، قال ابن عباس: الأحقاف وادٍ بين عمّان ومهرة. وقال مقاتل: كانت منازل عاد باليمن في حضرموت بموضع يقال له مهرة، وإليها تُنسب الإبل المهرية، وكانوا أهل عمد سيّارة في الربيع فإذا هاج العود رجعوا إلى منازلهم، وكانوا من قبيلة إرم. قال قتادة: ذكر لنا أن عاداً كانوا أحياء باليمن وكانوا أهل رمل مشرفين على البحر بأرض يقال لها الشحر والأحقاف جمع حقف وهي

الربيع فإذا هاج العود، رجعوا إلى منازلهم وكانوا من قبيلة إرم. وقيل: إن عاداً كانوا أحياء باليمن وكانوا أهل رمل مشرفين على البحر بأرض يقال لها الشحر. والأحقاف: جمع حقف وهو المستطيل من الرمل فيه اعوجاج كهيئة الجبل ولم يبلغ أن يكون جبلاً. وقيل: الأحقاف ما استدار من الرمل **﴿وقد خلت النذر﴾** أي مضت الرسل **﴿من بين يديه﴾** أي من قبل هود **﴿ومن خلفه﴾** أي من بعده **﴿ألا تعبدوا إلا الله إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم﴾** والمعنى: أن هوداً قد أنذرهم بذلك وأعلمهم أن الرسل الذين بعثوا قبله والذين سيبعثون بعده كلهم منذرون نحو إنذاره **﴿قالوا أجئتنا لتأفكنا﴾** أي لتصرفنا **﴿عن آلهتنا﴾** أي عبادتها **﴿فأتنا بما تعدنا﴾** أي من العذاب **﴿إن كنت من الصادقين﴾** يعني أن العذاب نازل بنا **﴿قال﴾** يعني هوداً **﴿إنما العلم عند الله﴾** يعني هو يعلم متى يأتيكم العذاب **﴿وأبلغكم ما أرسلت به﴾** يعني من الوحي الذي أنزله الله عليّ وأمرني بتبليغه إليكم **﴿ولكني أراكم قوماً تجهلون﴾** يعني قدر العذاب الذي ينزل بكم **﴿فلما رأوه﴾** يعني رأوا ما يوعدون به من العذاب ثم بينه فقال تعالى: **﴿عارضاً﴾** يعني رأوا سحاباً عارضاً وهو السحاب الذي يعرض في ناحية السماء ثم يطبق السماء **﴿مستقبل أوديتهم﴾** وذلك أنه خرجت عليهم سحابة سوداء من ناحية وادٍ يقال له المغيث وكان قد حبس عنهم المطر مدة طويلة فلما رأوا تلك السحابة استبشروا بها ثم **﴿قالوا هذا عارض ممطرنا﴾** قال الله رداً عليهم **﴿بل هو ما استعجلتم به﴾** يعني من العذاب ثم بين ماهية ذلك العذاب فقال تعالى: **﴿ريح فيها عذاب أليم﴾** ثم وصف تلك الريح فقال تعالى: **﴿تدمر كل شيء بأمر ربها﴾** يعني تهلك كل شيء مرت به من رجال عاد وأموالهم يقال: إن تلك الريح كانت تحمل الفسطاط وتحمل الظعينة حتى ترى كأنها جرادة فلما رأوا ذلك، دخلوا بيوتهم وأغلقوا أبوابهم، فجاءت الريح فقلعت الأبواب وصرعتهم. وأمر الله الريح، فأهالت عليهم الرمال فكانوا تحت الرمل سبع ليال وثمانية أيام لهم أنين. ثم أمر الله الريح فكشفت عنهم الرمل واحتملتهم فرمت بهم في البحر. وقيل: إن هوداً عليه السلام لما أحس بالريح، خط على نفسه وعلى من معه من المؤمنين خطاً فكانت الريح تمر بهم لينة باردة طيبة والريح التي تصيب قومه شديدة عاصفة مهلكة وهذه معجزة عظيمة لهود عليه السلام. وقيل: إن الله تعالى أمر خازن الريح أن يرسل عليهم مثل مقدار الخاتم فأهلكهم الله بهذا القدر وفي هذا إظهار كمال القدرة (ق) «عن عائشة قالت: ما رأيت رسول الله ﷺ مستجمعاً قط ضاحكاً حتى ترى منه لهواته إنما

المستطيل المعوجّ من الرمال. قال ابن زيد هي ما استطال من الرمل كهيئة الجبل ولم يبلغ أن يكون جبلاً، قال الكسائي: هي ما استدار من الرمال، **﴿ وقد خلت النذر ﴾**، مضت الرسل، **﴿ من بين يديه ﴾**، أي من قبل هود، **﴿ ومن خلفه ﴾**، إلى قومهم، **﴿ ألّا تعبدوا إلّا الله إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم ﴾**.

﴿ قالوا أجئتنا لتأفكنا ﴾، لتصرفنا، **﴿ عن آلهتنا ﴾**، أي عن عبادتها، **﴿ فأْتِنا بما تعدنا ﴾**، من العذاب، **﴿ إن كنتَ من الصادقين ﴾**، أن العذاب نازل بنا.

﴿ قال ﴾، هود، **﴿ إنّما العلم عند الله ﴾**، وهو يعلم متى يأتيكم العذاب **﴿ وأبلغكم ما أُرسلتُ به ﴾**، من الوحي إليكم، **﴿ ولكنّي أراكم قوماً تجهلون ﴾**.

﴿ فلما رأوه ﴾، يعني ما يُوعَدُون به من العذاب، **﴿ عارضاً ﴾**، سحاباً يعرض أي يبدو في ناحية من السماء ثم يطبق السماء، **﴿ مستقبل أوديتهم ﴾**، فخرجت عليهم سحابة سوداء من وادٍ لهم يقال له المغيث، وكانوا قد حبس عنهم المطر، فلما رأوها استبشروا، **﴿ قالوا هذا عارض مُمْطِرُنا ﴾**، يقول الله تعالى: **﴿ بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذابٌ أليم ﴾**، فجعلت الريح تحمل الفسطاط وتحمل الظعينة حتى ترى كأنها جرادة.

﴿ تدمّر كلَّ شيء ﴾، مرّت به من رجال عاد وأموالها، **﴿ بأمر ربها ﴾**، فأول ما عرفوا أنها عذاب رأوا ما كان

كان يتبسم» زاد في رواية: «وكان إذا رأى غيماً عرف في وجهه قالت يا رسول الله الناس إذا رأوا الغيم فرحوا رجاء أن يكون فيه المطر وأراك إذا رأيت غيماً عرف في وجهك الكراهة؟ فقال: يا عائشة وما يؤمنني أن يكون فيه عذاب قد عذب قوم بالريح وقد رأى قوم العذاب فقالوا هذا عارض ممطرنا» وفي رواية قالت «كان النبي ﷺ إذا رأى مخيلة في السماء أقبل وأدبر ودخل وخرج وتغير وجهه فإذا أمطرت السماء سري عنه فرفعته عائشة ذلك فقال وما أدري لعله كما قال قوم هود فلما رأوه عارضاً مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا» الآية وفي رواية أخرى قالت: «كان النبي ﷺ إذا عصفت الريح قال اللهم إني أسألك خيرها وخير ما فيها وخير ما أرسلت به، وأعوذ بك من شرها وشر ما فيها وشر ما أرسلت به» وإذا تخيلت السماء تغير لونه وخرج ودخل وأقبل وأدبر فإذا أمطرت السماء سري عنه فعرفت ذلك عائشة فسألته فقال: لعله يا عائشة كما قال قوم عاد فلما رأوه عارضاً مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا المخيلة: السحاب الذي يظن فيه مطر. وتخيلت السماء: إذا تغيمت. وقولها: سري عنه أي كشف وأزيل عنه ما كان به من الغم والحزن.

وقوله تعالى: ﴿**فأصبحوا لا ترى إلا مساكنهم**﴾ قرىء بالتاء مفتوحة على أنه خطاب للنبي ﷺ. والمعنى: ما ترى يا محمد إلا مساكنهم خاوية عاطلة من السكان ليس فيها أحد وقرىء بالياء مضمومة والمعنى لا يرى إلا آثار مساكنهم لأن الريح لم تبق منها إلا الآثار والمساكن المعطلة ﴿**كذلك نجزي القوم المجرمين**﴾ يخوف بذلك كفار مكة ثم قال تعالى:

وَلَقَدْ مَكَّنَّـٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّـٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَـٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَـٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ

خارجاً من ديارهم من الرجال والمواشي تطير بهم الريح بين السماء والأرض، فدخلوا بيوتهم وأغلقوا أبوابهم فجاءت الريح فقلعت أبوابهم وصرعتهم، وأمر الله الريح فأمالت عليهم الرمال، وكانوا تحت الرمال سبع ليالٍ وثمانية أيام، لهم أنينٌ، ثم أمر الله الريح فكشفت عنهم الرمال فاحتملتهم فرمت بهم في البحر أخبرنا الإمام أبو علي الحسين بن محمد القاضي أنا أبو نعيم عبد الملك بن الحسن الأسفرايني أنا أبو عوانة يعقوب بن إسحاق الحافظ أنا يونس أنا ابن وهب أنا عمرو بن الحارث أنا النضر حدّثه عن سليمان بن يسار عن عائشة أنها قالت: ما رأيت رسول الله ﷺ مستجمعاً ضاحكاً حتى أرى منه بياض لهواته، وكان إذا رأى غيماً أو ريحاً عُرِف ذلك في وجهه، فقلت: يا رسول الله إن النّاس إذا رأوا الغيم فرحوا، رجاء أن يكون فيه المطر، وإذا رأيتُه عُرِفَ في وجهك الكراهية، فقال: «يا عائشة ما يؤمّنني أن يكون فيه عذاب، قد عذّب قوم بالريح، وقد رأى قوم العذاب فقالوا: ﴿ **هذا عارض ممطرنا** ﴾، الآية». أخبرنا الإمام أبو علي الحسين بن محمد القاضي أنا أبو نعيم عبد الملك بن الحسن الإسفرايني أنا أبو عوانة ثنا يوسف هو ابن مسلم ثنا حجّاج عن ابن جريج عن عطاء قال: قالت عائشة: كان النبي ﷺ إذا رأى مخيلة تغيّر وجهه وتلوّن، ودخل وخرج وأقبل وأدبر، فإذا أمطرت السماء سُرّيَ عنه، قالت: وذكرت له الذي رأيت، قال: «وما يدريك لعلّه يا عائشة كما قال قوم عاد: ﴿ **فلما رأوه عارضاً مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا** ﴾ الآية». ﴿ **فأصبحوا لا يُرى إلّا مساكنهم** ﴾، قرأ عاصم وحمزة ويعقوب ﴿ **يُرى** ﴾ بضم الياء مسـاكنهم برفع النون يعني لا يُرى شيء إلّا مساكنهم، وقرأ الآخرون بالتاء وفتحها، ﴿ **مساكنهم** ﴾ نصبٌ يعني لا ترى أنت يا محمد إلّا مساكنهم لأن السكان والأنعام بادت بالريح، فلم يبقَ إلّا هود ومَن آمن معه. ﴿ **كذلك نجزي القوم المجرمين** ﴾.

أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةًۢ بَلْ ضَلُّوا۟ عَنْهُمْ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾

﴿ولقد مكنّاهم فيما إن مكناكم فيه﴾ الخطاب لأهل مكة يعني مكناهم فيما لم نمكنكم فيه من قوة الأبدن وطول الأعمار وكثرة الأموال ﴿وجعلنا لهم سمعاً وأبصاراً وأفئدة﴾ يعني إنا أعطيناهم هذه الحواس ليستعملوها فيما ينفعهم في أمر الدين فما استعملوها إلا في طلب الدنيا ولذاتها فلا جرم ﴿فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء﴾ يعني أنه لما أنزل بهم العذاب ما أغنى ذلك عنهم شيئاً ﴿إذ كانوا يجحدون بآيات الله وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون﴾ يعني ونزل بهم العذاب الذي كانوا يطلبونه على سبيل الاستهزاء ﴿ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى﴾ الخطاب لأهل مكة يعني أهلكنا قرى ديار ثمود وهي الحجر وسدوم وهي قرى قوم لوط بالشام وقرى قوم عاد باليمن يخوف أهل مكة بذلك ﴿وصرفنا الآيات﴾ يعني وبينا لهم الحجج والدلائل الدالة على التوحيد ﴿لعلهم يرجعون﴾ يعني عن كفرهم فلم يرجعوا فأهلكناهم بسبب كفرهم وتماديهم في الكفر ﴿فلولا﴾ يعني فهلا ﴿نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قرباناً آلهة﴾ يعني أنهم اتخذوا الأغنام آلهة يتقربون بعبادتها إلى الله تعالى والقربان كل ما يتقرب به إلى الله تعالى: ﴿بل ضلوا عنهم﴾ يعني بل ضلت الآلهة عنهم فلم تنفعهم عند نزول العذاب بهم ﴿وذلك إفكهم﴾ يعني كذبهم الذي كانوا يقولون إنها تقربهم إلى الله تعالى وتشفع لهم عنده ﴿وما كانوا يفترون﴾ يعني يكذبون بقولهم إنها آلهة وإنها تشفع لهم.

وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾

قوله عز وجل: ﴿وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن﴾ الآية.

﴿ ولقد مكنّاهم فيما إنْ مكنّاكم فيه ﴾، يعني فيما لم نمكّنكم فيه من قوة الأبدان وطول العمر وكثرة المال. قال المبرّد: ﴿ ما ﴾ في قوله ﴿ فيما ﴾ بمنزلة الذي، و﴿ إن ﴾ بمنزلة، وتقديره: ولقد مكنّاهم في الذي ما مكنّاكم فيه. ﴿ وجعلنا لهم سمعاً وأبصاراً وأفئدةً فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء إذْ كانوا يجحدون بآيات الله وحاقَ بهم ما كانوا به يستهزؤون ﴾.

﴿ ولقد أهلكنا ما حولكم ﴾، يا أهل مكة، ﴿ من القرى ﴾، كحجر ثمود وأرض سدوم ونحوهما، ﴿ وصرّفنا الآيات ﴾ الحجج والبيّنات، ﴿ لعلّهم يرجعون ﴾، عن كفرهم فلم يرجعوا، فأهلكناهم، يخوّف مشركي مكة.

﴿ فلولا ﴾، فهلاّ ﴿ نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قرباناً آلهةً ﴾، يعني الأوثان التي اتخذوها آلهة يتقربون بها إلى الله عزّ وجلّ، القربان كلّ ما يُتقَرّب به إلى الله عزّ وجلّ، وجمعه قرابين، كالرهبان والرهابين. ﴿ بل ضلّوا عنهم ﴾، قال مقاتل بل ضلّت الآلهة عنهم فلم تنفعهم عند نزول العذاب، ﴿ وذلك إفكهم ﴾، أي كذبهم الذي كانوا يقولون أنها تقرّبهم إلى الله عزّ وجلّ وتشفع لهم، ﴿ وما كانوا يفترون ﴾، يكذبون أنها آلهة.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ وإذْ صرفنا إليك نفراً من الجنّ يستمعون القرآن ﴾، الآية قال المفسّرون: لمّا مات أبو طالب خرج رسول الله ﷺ وحده إلى الطائف يلتمس من ثقيف النصر والمنعة له من قومه، فروى محمد بن إسحاق

(ذكر القصة في ذلك)

قال المفسرون: لما مات أبو طالب عم رسول الله ﷺ وكان في حياته يحوطه وينصره ويمنعه ممن يؤذيه، فلما مات وجد رسول الله ﷺ وحشة من قومه، فخرج إلى الطائف يلتمس من ثقيف النصرة له والمنعة من قومه فروى محمد بن إسحاق عن زيد بن زياد عن محمد بن كعب القرظي قال: لما انتهى رسول الله ﷺ إلى الطائف عمد إلى نفر من ثقيف، وهم يومئذ سادة ثقيف وأشرافهم، وهم إخوة ثلاثة: عبد ياليل، ومسعود، وحبيب بنو عمير. وعندهم امرأة من قريش من بني جمح، فجلس إليهم، فدعاهم إلى الله وكلمهم بما جاء له من نصرته على الإسلام والقيام معه على من خالفه من قومه فقال له أحدهم: هو يمرط ثياب الكعبة إن كان الله أرسلك. وقال الآخر: ما وجد الله أحداً يرسله غيرك وقال الثالث: لا أكلمك كلمة أبداً لئن كنت رسولاً من الله كما تقول لأنت أعظم خطراً من أن أرد عليك الكلام وإن كنت تكذب على الله فما ينبغي لي أن أكلمك فقام رسول الله ﷺ من عندهم وقد يئس من خير ثقيف فقال لهم رسول الله ﷺ: «إذ فعلتم ما فعلتم فاكتموا علي» وكره رسول الله ﷺ أن يبلغ قومه فيزيد ذلك في تجرئهم عليه فلم يفعلوا وأغروا به سفهاءهم وعبيدهم فجعلوا يسبونه ويصيحون به حتى اجتمع إليه الناس وألجؤوه إلى حائط لعتبة وشيبة ابني ربيعة وهما فيه، فرجع عنه سفهاء ثقيف ومن كان تبعه منهم، فعمد إلى ظل حبلة من عنب فجلس فيه وابنا ربيعة ينظران إليه ويريان ما لقي من سفهاء ثقيف وقد لقي رسول الله ﷺ تلك المرأة التي من بني جمح فقال لها: ماذا لقينا من أحمائك؟ فلما اطمأن رسول الله ﷺ قال: «اللهم إني أشكو إليك ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس، فأنت رؤوف وأنت أرحم الراحمين، وأنت رب المستضعفين، وأنت ربي إلى من تكلني إلى بعيد يتجهمني، أو إلى عدو ملكته أمري إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي ولكن عافيتك أوسع لي. أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن ينزل بي غضبك أو يحل عليّ سخطك لك العتبى حتى ترضى لا حول ولا قوة إلا بك» فلما رأى ابنا ربيعة ما لقي تحركت له رحمهما فدعوا غلاماً لهما نصرانياً يقال له عداس فقالا له:

عن يزيد بن زياد عن محمد بن كعب القرظي قال: لمّا انتهى رسول الله ﷺ إلى الطائف إلى نفر من ثقيف، وهم يـومئذ سادة ثقيف وأشرافهم، وهم إخوة ثلاثة عبدياليل ومسعود وحبيب بنو عمرو بن عمير، وعند أحدهم امرأة من قريش من بني جمح، فجلس إليهم فدعاهم إلى الله وكلّمهم بما جاءهم له من نصرته على الإسلام، والقيام معه على مَن خالفه من قومه، فقال له أحدهم هو يمرط ثياب الكعبة: إن كان الله أرسلك، وقال الآخر: ما وجد الله أحداً يرسله غيرك؟ وقال الثالث: والله ما أُكلّمك أبداً، لئن كنت رسولاً من الله كما تقول لأنت أعظم خطراً من أن أردّ عليك الكلام، ولئن كنتَ تكذب على الله فما ينبغي لي أن أُكلّمك، فقام رسول الله ﷺ من عندهم وقد يئس من خير ثقيف، وقال لهم: «إذ فعلتم ما فعلتم فاكتموه عليّ»، وكره رسول الله ﷺ أن يبلغ قومه فيذئلهم عليه ذلك، فلم يفعلوا وأغروا به سفهاءهم وعبيدهم يسبّونه ويصيحون به حتى اجتمع عليه الناس، وألجأوه إلى حائط لعتبة وشيبة ابني ربيعة، وهما فيه فرجع عنه سفهاء ثقيف ومَن كان تبعه، فعمد إلى ظل حبلة من عنب، فجلس فيه وابنا ربيعة ينظران إليه ويريان ما لقي من سفهاء ثقيف، ولقد لقي رسول الله ﷺ تلك المرأة التي من بني جمح، فقال لها: «ماذا لقينا من أحمائك»؟ فلما اطمأن رسول الله ﷺ قال: «اللّهمَّ إني أشكو إليك ضعف قوتي وقلّة حيلتي وهواني على الناس، أنت أرحم الراحمين أنت ربّ المستضعفين وأنت ربّي، إلى مَن تكلني إلى بعيد يتجهمني أو إلى عدو ملّكته أمري، إن لم يكن بك عليّ غضب فلا أُبالي، ولكن عافيتك هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن ينزل بي غضبك أو يحلّ عليّ سخطك، لك العُتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلّا بك»، فلما رأى ابنا ربيعة ما لقي تحرّكت له رحمهما فدعوا غلاماً لهما نصرانياً يقال له:

خذ قطفاً من هذا العنب وضعه في ذلك الطبق ثم اذهب به إلى ذلك الرجل وقل له يأكل منه. ففعل عداس ذلك ثم أقبل بالطبق حتى وضعه بين يدي رسول الله ﷺ وقال له: كل. فلما رفع رسول الله ﷺ يده قال: بسم الله ثم أكل فنظر عداس إلى وجهه ثم قال والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلدة فقال له رسول الله ﷺ: من أي البلاد أنت يا عداس وما دينك؟ فقال: أنا نصراني وأنا رجل من أهل نينوى. فقال رسول الله ﷺ: أمن قرية الرجل الصالح يونس بن متى؟ فقال له عداس: وما يدريك ما يونس بن متى؟ فقال رسول الله ﷺ: ذاك أخي كان نبياً وأنا نبي. فأكبَّ عداس على رسول الله ﷺ فقبل رأسه ويديه وقدميه قال فقال أحد ابني ربيعة: أما غلامك، فقد أفسده عليك. فلما جاءهم عداس قال له: ويلك يا عداس ما لك تقبل رأس هذا الرجل ويديه وقدميه؟ قال: يا سيدي ما في الأرض خير من هذا الرجل. لقد أخبرني بأمرٍ ما يعلمه إلا نبي. فقال له: ويحك يا عداس لا يصرفك عن دينك فإن دينك خير من دينه ثم إن رسول الله ﷺ انصرف من الطائف راجعاً إلى مكة حين يئس من خير ثقيف حتى إذا كان ببطن نخلة قام من جوف الليل يصلي فمر به نفر من جن نصيبين كانوا قاصدين اليمن وذلك حين منعوا من استراق السمع من السماء ورموا بالشهب فاستمعوا له فلما فرغ من صلاته ولوا إلى قومهم منذرين وقد آمنوا به وأجـابوا لما سمعوا القرآن فقص الله خبرهم عليه فقال تعالى: ﴿**وإذا صرفنا إليك نفراً من الجن**﴾ وفي الآية قول آخر وسيأتي في سورة الجن وهو حديث مخرج في الصحيحين من حديث ابن عباس. وروي أن الجن لما رجـموا بالشهب بعث إبليس سراياه ليعرف الخبر فكان أول بعث بعث من أهل نصيبين وهم أشراف الجن وساداتهم فبعثهم إلى تهامة. وقال أبو حمزة: بلغنا أنهم من بني الشيصبان وهم أكثر الجن

عداس، فقال له: خذ قطفاً من هذا العنب وضعه في ذلك الطبق ثم اذهب به إلى ذلك الرجل، فقل له يأكل منه، ففعل ذلك عداس، ثم أقبل به حتى وضعه بين يدي رسول الله ﷺ، فلما وضع رسول الله ﷺ يده قال: «بسم الله» ثم أكل، فنظر عداس إلى وجهه ثم قال: والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلدة، فقال له رسول الله ﷺ: «من أيِّ البلاد أنت يا عداس؟ وما دينك»؟ قال: أنا نصراني وأنا رجل من أهل نينوى، فقال له رسول الله ﷺ: «أَمِنْ قرية الرجل الصالح يونس بن متّى»؟ قال له: وما يُدريك ما يونس بن متّى؟ فقال له رسول الله ﷺ: «ذاك أخي كان نبياً وأنا نبيّ»، فأكبَّ عداس على رسول الله ﷺ فقبّل رأسه ويديه وقدميه، قال: فيقول ابنا ربيعة أحدهما لصاحبه: أما غلامك فقد أفسده عليك، فلما جاءهم عداس قالا له: ويلك يا عداس ما لك تُقبّل رأس هذا الرجل ويديه وقدميه؟ قال: يا سيدي ما في الأرض خير من هذا الرجل، لقد أخبرني بأمر ما يعلمه إلاّ نبيّ، فقال: ويحك يا عداس لا يصرفنّك عن دينك فإن دينك خير من دينه، ثم إن رسول الله ﷺ انصرف من الطائف راجعاً إلى مكة حين يئس من خير ثقيف، حتى إذا كان بنخلة قام من جوف الليل يصلّي فمرّ به نفر من جنّ أهل نصيبين اليمن، فاستمعوا له فلما فرغ من صلاته ولّوا إلى قومهم منذرين، قد آمنوا وأجابوا لما سمعوا، فقصّ الله خبرهم عليه، فقال: ﴿ **وإذْ صرفنا إليك نفراً من الجنّ** ﴾، أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا مسدد ثنا أبو عوانة عن أبي بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: انطلق النبي ﷺ في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ، وقد حِيلَ بين الشياطين وبين خبر السماء، فأرسلت عليهم الشّهب فرجعت الشياطين إلى قومهم، فقالوا: ما لكم؟ قالوا: حِيلَ بيننا وبين خبر السماء وأُرسلت علينا الشّهب، قالوا: ما حالَ بينكم وبين خبر السماء إلاّ شيء حدث، فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها، فانظروا ما هذا الذي حالَ بينكم وبين خبر السماء، فانصرف أولئك الذين توجهوا نحو تهامة إلى النبي ﷺ وهو بنخلة، عامدين إلى سوق عكاظ وهو يصلّي بأصحابه صلاة الفجر، فلما سمعوا القرآن استمعوا له، فقالوا: هذا والله الذي حالَ بينكم وبين خبر السماء، فهنالك رجعوا إلى قومهم فقالوا: يا قومنا ﴿ إنّا سمعنا قرآناً عجباً * يهدي إلى الرشد فآمنّا به ولن نشرك بربّنا

عدداً وهم عامة جنود إبليس فلما رجعوا إلى قومهم قالوا إنا سمعنا قرآنا عجباً وقال جماعة: بل أمر رسول الله ﷺ أن ينذر الجن ويدعوهم إلى الله ويقرأ عليهم القرآن فصرف الله عز وجل إليه نفراً من الجن وهم من أهل نينوى وجمعهم له فقال رسول الله ﷺ لأصحابه: إني أمرت أن أقرأ على الجن الليلة فأيكم يتبعني فأطرقوا ثم استتبعهم فأطرقوا ثم استتبعهم الثالثة فتبعه عبد الله بن مسعود قال عبدالله بن مسعود لم يحضر معه أحد غيري قال: فانطلقنا حتى إذا كنا بأعلى مكة دخل نبي الله ﷺ شعباً يقال له شعب الحجون وخط لي خطاً ثم أمرني أن أجلس فيه وقال: لا تخرج منه حتى أعود إليك فانطلق حتى قام عليهم فافتتح القرآن فجعلت أرى مثال النسور تهوي وسمعت لغطاً شديداً حتى خفت على نبي الله ﷺ وغشيته أسودة كثيرة حالت بيني وبينه حتى لا أسمع صوته ثم طفقوا يتقطعون مثل قطع السحاب ذاهبين ففرغ رسول الله ﷺ منهم مع الفجر فانطلق إليّ فقال لي نمت فقلت: لا والله يا رسول الله لقد هممت مراراً أن أستغيث بالناس حتى سمعتك تقرعهم بعصاك تقول لهم اجلسوا فقال: لو خرجت لم آمن عليك أن يتخطفك بعضهم ثم قال: هل رأيت شيئاً؟ قلت: نعم رأيت رجالاً سوداً عليهم ثياب بيض قال أولئك جن نصيبين سألوني المتاع والمتاع الزاد فمتعتهم بكل عظم حائل وروثة وبعرة فقالوا يا رسول الله يقذرها الناس علينا فنهى النبي ﷺ أن يستنجي بالعظم والروث قال: فقلت يا رسول الله وما يغني ذلك عنهم؟ فقال: إنهم لا يجدون عظماً إلا وجدوا عليه لحمه يوم أكل ولا روثة إلا وجدوا فيها حبها يوم أكلت فقلت: يا رسول الله سمعت لغطاً شديداً فقال إن الجن تدارأت في قتيل قتل بينهم فتحاكموا إليّ فقضيت بينهم بالحق قال ثم تبرز رسول الله ﷺ وأتاني فقال لهم معك ماء؟ قلت: يا رسول الله

أحداً ﴾ [الجنّ: ١]، فأنزل الله على نبيّه: ﴿ قلْ أُوحي إليّ أنه استمع نفرٌ من الجنّ ﴾ [الجنّ: ١]، وإنما أوحى إليه قول الجنّ. ورُوِيَ: أنهم لمّا رجعوا بالشّهب بعث إبليس سراياه لتعرف الخبر، وكان أول بعثٍ بعثَ ركباً من أهل نصيبين وهم أشراف الجنّ وساداتهم، فبعثهم إلى تهامة. وقال أبو حمزة اليماني: بلغنا أنهم من الشيصبان وهم أكثر الجنّ عدداً، وهم عامّة جنود إبليس، فلما رجعوا قالوا: ﴿ إنّا سمعنا قرآناً عجباً ﴾ [الجنّ: ١]. وقال جماعة: بل أُمِرَ رسول الله ﷺ أن ينذر الجنّ ويدعوهم إلى الله تعالى ويقرأ عليهم القرآن، فصرف إليه نفراً من الجنّ من أهل نينوى، وجمعهم له، فقال رسول الله ﷺ: «إني أُمرتُ أن أقرأ على الجنّ الليلة، فأيّكم يتبعني»؟ فأطرقوا ثم استتبعهم فأطرقوا، ثم استتبعهم الثالثة فأطرقوا، فاتّبعه عبد الله بن مسعود، قال عبد الله: ولم يحضر معه أحد غيري، فانطلقنا حتى إذا كنّا على مكة دخل نبيّ الله ﷺ شعباً يقال له: شعب الحجون، وخطّ لي خطّاً ثم أمرني أن أجلس فيه، وقال: لا تخرج منه حتى أعود إليك، ثم انطلق حتى قام فافتتح القرآن فجعلت أرى أمثال النسور تهوي، وسمعت لغطاً شديداً حتى خفت على نبيّ الله ﷺ، وغشيته أسودة كثيرة حالت بيني وبينه، حتى ما أسمع صوته ثم طفقوا يتقطعون مثل قطع السّحاب ذاهبين، ففرغ رسول الله ﷺ مع الفجر، فانطلق إليّ وقال لي: «أنمتَ»؟ فقلت: لا والله يا رسول الله، وقد هممت مراراً أن أستغيث بالناس حتى سمعتك تقرعهم بعصاك تقول اجلسوا، قال: «لو خرجت لم آمن عليك أن يتخطفك بعضهم، ثم قال: هـل رأيت شيئاً»؟ قلت: نعم يا رسول الله رأيتُ رجالاً سوداً مستثفري ثياب بيض، قال: «أولئك جنّ نصيبين سألوني المتاع»، والمتاع الزاد، فمتّعتهم بكل عظم حائل وروثة وبعرة. قال: فقالوا: يا رسول الله تقذرها الناس، فنهى النبي ﷺ أن يستنجى بالعظم والروث، قال: فقلت: يا رسول الله وما يغني ذلك عنهم؟ قال: «إنهم لا يجدون عظماً إلّا وجدوا عليه لحمه يوم أكله، ولا روثة إلّا وجدوا فيها حبّها يوم أُكلت»، قال: فقلت: يا سول الله سمعتُ لغطاً شديداً؟ فقال: «إن الجنّ تدارأت في قتيل قتل بينهم فتحاكموا إليّ فقضيت بينهم بالحق»، قال: ثم تبرز رسول الله ﷺ ثم أتاني، فقال: «هل معك ماء»؟ قلت: يا رسول الله معي إداوة فيها شيء من نبيذ التمر، فاستدعاه فصببتُ على يده فتوضأ وقال: «تمرةٌ طيبةٌ وماءٌ

معي أداوة فيها شيء من نبيذ التمر فاستدعاه فصببت على يديه فتوضأ وقال: تمرة طيبة وماء طهور.

قال قتادة: ذكر لنا أن ابن مسعود لما قدم الكوفة رأى شيوخاً شمطاً من الزط فأفزعوه حين رآهم ثم قال اظهروا؟ فقيل له: إن هؤلاء قوم من الزط. فقال: ما أشبههم بالنفر. الذين صرفوا إلي رسول الله ﷺ ليلة الجن قلت حديث التوضؤ بنبيذ التمر ضعيف ذكره البيهقي في كتابه الخلافيات بأسانيده وأجاب عنها كلها.

والذي صح عن علقمة قال: قلت لابن مسعود: هل صحب النبي ﷺ ليلة الجن منكم أحد؟ قال: ما صحبه منا أحد ولكنا كنا مع رسول الله ﷺ ذات ليلة ففقدناه فالتمسناه في الأودية والشعاب فقلنا استطير أو اغتيل فبتنا بشر ليلة بات بها قوم فلما أصبحنا إذا هو جـاء من قبل حراء فقلنا يا رسول الله فقدناك فطلبناك فلم نجدك فبتنا ليلة بات قوم قال أتاني داعي الجن فذهبت معه فقرأت عليهم القرآن قال: فانطلق بنا فأرانا آثارهم وآثار نيرانهم وسألوه الزاد فقال لكم كل عظم ذكر اسم الله عليه يقع في أيديكم أوفر ما يكون لحماً وكل بعرة علف لدوابكم فقال رسول الله ﷺ فلا تستنجوا بهما فإنهما طعام إخوانكم الجن. زاد في رواية قال الشعبي: وكانوا من جن الجزيرة أخرجه مسلم في صحيحه وأما تفسير الآية: فقوله تعالى: وإذ صرفنا إليك الخطاب للنبي ﷺ يعني واذكر إذ بعثنا إليك يا محمد نفراً من الجن.

واختلفوا في عدد أولئك النفر فقال ابن عباس: كانوا سبعة من جن نصيبين فجعلهم رسول الله رسلاً إلى قومهم. وقال آخرون: كانوا تسعة. وروي عن زر بن حبيش قال: كان زوبعة من التسعة الذين استمعوا القرآن. وروي أن الجن ثلاثة أصناف: صنف منهم لهم أجنحة يطيرون بها في الهواء وصنف على صور الحيات والكلاب وصنف يحلون ويظعنون ونقل بعضهم أن أولئك الجن كانوا يهوداً فأسلموا. قالوا في الجن ملل كثيرة مثل الإنس ففهم اليهود والنصارى والمجوس وعبدة الأصنام وفي مسلمهم مبتدعة ومن يقول بالقدر وخلق القرآن ونحو ذلك من المذاهب والبدع وأطبق المحققون من العلماء على أن الكل مكلفون. سئل ابن عباس هل للجن ثواب؟ فقال: نعم وعليهم عقاب ﴿**يستمعون القرآن فلما حضروه**﴾ الضمير يعود إلى القرآن يعني: فلما حضروا القرآن وقيل يحتمل أنه يعود على

طهورٌ». وقال قتادة: ذُكر لنا أن ابن مسعود لمّا قَدِمَ الكوفة رأى شيوخاً شمطاً من الزط فأفزعوه حين رآهم، فقال: اظهروا، فقيل له: إن هؤلاء قوم من الزط، فقال: ما أشبههم بالنفر الذين صُرِفوا إلى رسول الله ﷺ، يريد الجنّ. أخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر أنا عبد الغفّار بن محمد ثنا محمد بن عيسى الجلودي ثنا إبراهيم بن محمد بن سفيان ثنا مسلم بن الحجّاج ثنا محمد بن المثنى ثنا عبد الأعلى ثنا داود وهو ابن أبي هند عن عامر قال: سألت علقمة هل كان ابن مسعود شهد رسول الله ﷺ ليلة الجن؟ قال: فقال علقمة: أنا سألتُ ابن مسعود فقلتُ: هل شهد أحدٌ منكم رسولَ الله ﷺ ليلة الجن؟ قال: لا ولكنّا كنّا مع رسول الله ﷺ ذات ليلة ففقدناه فالتمسناه في الأودية والشِعاب، فقلنا: استطير أو اغتيل، قال: فبتنا بشرّ ليلة بات بها قوم، فلما أصبحنا إذا هو جاء من قبل حرّاء، قال: فقلنا: يا رسول الله فقدناك فطلبناك فلم نجدك، فبتْنا بشرّ ليلة بات بها قوم فقال: «أتاني داعي الجنّ فذهبت معه فقرأتُ عليهم القرآن»، قال: فانطلق بنا فأرانا آثارهم وآثار نيرانهم، قال: وسألوه الزاد، فقال: «لكم كل عظم ذكر اسم الله عليه يقع في أيديكم أوفر ما يكون لحماً وكل بعرة علف لدوابّكم، فقال رسول الله ﷺ: «فلا تستنجوا بهما فإنهما طعام إخوانكم»، ورواه مسلم عن علي بن حجر ثنا إسماعيل بن إبراهيم عن داود بهذا الإسناد إلى قوله وآثار نيرانهم، قال الشعبي: وسألوه الزاد وكانوا من جنّ الجزيرة إلى آخر الحديث من قول الشعبي مفصّلاً من حديث عبد الله. قوله عزّ وجلّ: ﴿ **وإذْ صرفنا إليك نفراً من الجنّ يستمعون القرآن** ﴾، اختلفوا في عدد ذلك النفر، فقال ابن عباس: كانوا سبعة من جنّ نصيبين، فجعلهم رسول الله ﷺ رسلاً إلى قومهم. وقال آخرون: كانوا تسعة. وروى عاصم عن زر بن حبيش: كان زوبعة من التسعة الذين استمعوا القرآن. ﴿ **فلما حضروه قالوا انصتوا** ﴾،

الرسول ﷺ. ويكون المعنى: فلما حضروا رسول الله ﷺ لأجل استماع القرآن ﴿قالوا أنصتوا﴾ يعني قال بعضهم لبعض اسكتوا لنسمع قراءته ولا يحول بيننا وبين سماعه شيء فأنصتوا واستمعوا القرآن حتى كاد يقع بعضهم على بعض من شدة حرصهم على سماعه ﴿فلما قضي﴾ أي فرغ من قراءته ﴿ولوا﴾ أي رجعوا ﴿إلى قومهم منذرين﴾ يعني داعين لهم إلى الإيمان مخوفين لهم من المخالفة ذلك بأمر رسول الله ﷺ لهم وذلك بعد إيمانهم لأنهم لا يدعون غيرهم إلى سماع القرآن والتصديق إلا بعد إيمانهم به وتصديقهم له.

قَالُوا يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾

﴿قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى مصدقاً﴾ قال عطاء: كان دينهم اليهودية ولذلك ﴿قالوا إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى مصدقاً لما بين يديه﴾ يعني من الكتب الإلهية المنزلة من السماء وذلك أن كتب الأنبياء كانت مشتملة على الدعوة إلى التوحيد وتصديق الأنبياء والإيمان بالمعاد والحشر والنشر وجاء هذا الكتاب وهو القرآن المنزل على محمد ﷺ كذلك فذلك هو تصديقه لما بين يديه من الكتب ﴿يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم﴾ يعني: يهدي إلى دين الحق وهو دين الإسلام ويهدي إلى طريق الجنة ﴿يا قومنا أجيبوا داعي الله﴾ يعني محمداً ﷺ لأنه لا يوصف بهذا غيره وفي الآية دليل على أنه مبعوث إلى الإنس والجن جميعاً قال مقاتل لم يبعث الله نبياً إلى الإنس والجن قبله ﴿وآمنوا به﴾.

قالوا: صه. ورُوِيَ في الحديث: أن الجنّ ثلاثة أصناف صنف لهم أجنحة يطيرون بها في الهواء، وصنف حيّات وكِلاب، وصنف يحلّون ويظعنون، فلما حضروه قال بعضُهم لبعض: انصتوا واسكتوا لنستمع إلى قراءته، فلا يحول بيننا وبين الاستماع شيء، فأنصتوا واستمعوا القرآن حتى كاد يقع بعضهم على بعض من شدّة حرصهم، ﴿ فلما قضى ﴾، فرغ من تلاوته، ﴿ ولّوا إلى قومهم ﴾، انصرفوا إليهم، ﴿ منذرين ﴾، مخوّفين داعين بأمر رسول الله ﷺ.

﴿ قالوا يا قومنا إنّا سمعنا كتاباً أُنزل من بعد موسى مصدّقاً لما بين يديه يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم ﴾، قال عطاء: كان دينهم اليهودية، لذلك قالوا: إنّا سمعنا كتاباً أُنزل من بعد موسى.

﴿ يا قومنا أجيبُوا داعي الله ﴾، يعني محمداً ﷺ، ﴿ وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ﴾، ﴿ من ﴾ صلة أي ذنوبكم، ﴿ ويجرّكم من عذاب أليم ﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما: فاستجاب لهم من قومهم نحو من سبعين رجلاً من الجن فرجعوا إلى رسول الله ﷺ فوافقوه في البطحاء، فقرأ عليهم القرآن وأمرهم ونهاهم، وفيه دليل على أنه ﷺ كان مبعوثاً إلى الجن والإنس جميعاً. قال مقاتل: لم يبعث قبله نبي إلى الإنس والجنّ جميعاً. واختلف العلماء في حكم مؤمني الجنّ، فقال قوم: ليس لهم ثواب إلّا نجاتهم من النار، وتأوّلوا قوله: ﴿ يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم ﴾، وإليه ذهب أبو حنيفة رضي الله تعالى عنه. وحكى سفيان عن ليث قال: الجنّ ثوابهم أن يُجاروا من النار، ثم يقال لهم كونوا تراباً، وهذا مثل البهائم. وعن أبي الزناد قال: إذا قُضِي بين الناس

فإن قلت قوله تعالى ﴿أجيبوا داعي الله﴾ أمر بإجابته في كل ما أمر به فيدخل فيه الأمر بالإيمان فلم أعاد ذكره بلفظ التعيين.

قلت: إنما أعاده لأن الإيمان أهم أقسام المأمور به وأشرفها فلذلك ذكره على التعيين فهو من باب ذكر العام ثم يعطف عليه أشرف أنواعه ﴿يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم﴾ قال بعضهم: لفظة من هنا زائدة والتقدير يغفر لكم ذنوبكم وقيل: هي على أصلها وذلك أن الله يغفر من الذنوب ما كان قبل الإسلام فإذا أسلموا جرت عليهم أحكام الإسلام فمن أتى بذنب أخذ به ما لم يتب منه أو يبقى تحت خطر المشيئة إن شاء الله غفر له وإن شاء آخذه بذنبه واختلف العلماء في حكم مؤمني الجن، فقال قوم: ليس لهم ثواب إلا نجاتهم من النار. وتأولوا قوله: ﴿يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم﴾. وإليه ذهب أبو حنيفة. وحكي عن الليث قال: ثوابهم أن يجاروا من النار ثم يقال لهم: كونوا تراباً مثل البهائم. وعن أبي الزناد قال: إذا قضى بين الناس، قيل لمؤمني الجن: عودوا تراباً، فيعودون، تراباً. فعند ذلك يقول الكافر: يا ليتني كنت تراباً. وقال الآخرون: لهم الثواب في الإحسان كما يكون عليهم العقاب في الإساءة كالإنس وهذا هو الصحيح وهو قول ابن عباس وإليه ذهب مالك وابن أبي ليلى. قال الضحاك: الجن يدخلون الجنة ويأكلون ويشربون. وقال أرطأة بن المنذر: سألت ضمرة بن حبيب: هل للجن ثواب؟ قال: نعم وقرأ ﴿لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان﴾ قال: فالإنسيات للإنس والجنيات للجن وقال عمر بن عبد العزيز: إن مؤمني الجن حول الجنة في ربض ورحاب وليسوا فيها يعني في الجنة.

وقوله تعالى: ﴿ومن لا يجب داعي الله فليس بمعجز في الأرض﴾ يعني لا يعجز الله فيفوته ﴿وليس له من دونه أولياء﴾ يعني أنصاراً يمنعونه من الله ﴿أولئك﴾ يعني الذين لم يجيبوا داعي الله ﴿في ضلال مبين﴾ قوله تعالى: ﴿أولم يروا أن الله الذي خلق السموات والأرض ولم يعي بخلقهن﴾ يعني أنه تعالى خلق هذا الخلق العظيم ولم يعجز عن إبداعه واختراعه وتكوينه ﴿بقادر على أن يحيي الموتى﴾ يعني أن إعادة الخلق وإحياءه بعد الموت أهون عليه من

قيل لمؤمني الجن عودوا تراباً فيعودون تراباً، فعند ذلك يقول الكافر: ﴿ يا ليتني كنتُ تراباً ﴾ [النبأ: ٤٠]، وقال الآخرون. يكون لهم الثواب في الإحسان كما يكون عليهم العقاب في الإساءة كالإنس، وإليه ذهب مالك وابن أبي ليلى، وقال جرير عن الضحاك: الجنّ يدخلون الجنة ويأكلون ويشربون، وذكر النقّاش في تفسيره حديث أنهم يدخلون الجنة. فقيل: هل يصيبون من نعيمها؟ قال: يلهمهم الله تسبيحه وذكره، فيصيبون من لذّته ما يصيبه بنو آدم من نعيم الجنة. وقال أرطاة بن المنذر: سألت ضمرة بن حبيب هل للجنّ ثواب؟ قال: نعم، وقرأ: ﴿ لم يطمثهنّ إنس قبلهم ولا جان ﴾ [الرحمن: ٥٦ و٧٤]، قال فالإنسيات للإنس والجنّيات للجنّ. وقال عمر بن عبد العزيز: إن مؤمني الجنّ حول الجنّة في ربض ورحاب وليسوا فيها.

﴿ ومَن لا يجب داعي الله فليس بمُعجِز في الأرض ﴾، لا يعجز الله فيفوته، ﴿ وليس له من دونه أولياء ﴾، أنصار يمنعونه من الله، ﴿ أولئك في ضلال مبين ﴾.

﴿ أوَ لم يروا أن الله الذي خلق السمٰوات والأرض ولم يعي بخلقهنّ ﴾، لم يعجز عن إبداعهنّ، ﴿ بقادر ﴾، هكذا قراءة العامّة، واختلفوا في وجه دخول الباء فيه، فقال أبو عبيدة والأخفش: الباء زائدة للتأكيد، كقوله: ﴿ تنبت بالدهن ﴾ [المؤمنون: ٢٠]، وقال الكسائي والفرّاء: العرب تدخل الباء في الاستفهام مع الجحد، فتقول: ما أظنك بقائم، وقرأ يعقوب يقدّر بالياء على الفعل واختار أبو عبيدة قراءة العامّة لأنها في قراءة عبد الله قادر بغير باء، ﴿ على أن يحي الموتى بلى إنّه على كل شيء قدير ﴾.

إبداعه وخلقه فالكل عليه هين إبداع الخلق وإعادته بعد الموت وهو قوله ﴿بلى إنه على كل شيء قدير﴾ يعني من إماتة الخلق وإحيائهم لأنه قادر على كل شيء.

﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلَٰغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾

﴿ويوم يعرض الذين كفروا على النار﴾ فيه إضمار تقديره فيقال لهم ﴿أليس هذا بالحق﴾ يعني هذا العذاب هو الذي وعدكم به الرسل وهو الحق ﴿قالوا بلى وربنا﴾ هذا اعتراف منهم على أنفسهم بعد ما كانوا منكرين لذلك وفيه توبيخ وتقريع لهم فعند ذلك ﴿قال﴾ لهم ﴿فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون﴾ قوله عز وجل: ﴿فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل﴾ الخطاب للنبي ﷺ أمره الله تعالى بالاقتداء بأولي العزم من الرسل في الصبر على أذى قومه قال ابن عباس ذوو الحزم وقال الضحاك ذوو الجد والصبر.

واختلفوا في أولي العزم من الرسل من هم فقال ابن زيد: كل الرسل كانوا أولي عزم لم يبعث الله نبياً إلا كان ذا عزم وحزم ورأي وكمال عقل. وهذا القول هو اختيار الإمام فخر الدين الرازي. قال: لأن لفظة من في قوله ﴿من الرسل﴾ للتبين لا للتبعيض كما تقول: ثوب من خز كأنه قيل له اصبر كما صبر الرسل من قبلك على أذى قومهم وصفهم بالعزم لقوة صبرهم وثباتهم وقال بعضهم: الأنبياء كلهم أولو العزم إلا يونس لعجلة كانت فيه ألا ترى أنه قيل للنبي ﷺ: «ولا تكن كصاحب الحوت» وقال قوم: أولي العزم هم نجباء الرسل المذكورون في سورة الأنعام وهم ثمانية عشر نبياً لقوله بعد ذكرهم ﴿أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده﴾ وقال الكلبي: هم الذين أمروا بالجهاد وأظهروا المكاشرة لأعداء الله. وقيل: هم ستة: نوح، وهود، وصالح، ولوط، وشعيب، وموسى، وهم المذكورون على النسق في سورة الأعراف والشعراء. وقال مقاتل: هم ستة: نوح صبر على أذى قومه، وإبراهيم صبر على النار، وإسحاق صبر على الذبح، في قول، ويعقوب صبر على فقد ولده وذهاب بصره، ويوسف صبر على الجب والسجن، وأيوب صبر على الضر. وقال ابن عباس وقتادة: هم: نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، أصحاب الشرائع فهم مع

﴿ ويوم يعرض الذين كفروا على النار ﴾، فيقال لهم، ﴿ أليس هذا بالحق قالوا بلى وربِّنا قال ﴾، أي فيقال لهم، ﴿ فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون ﴾.

﴿ فاصبروا كما صبر أُولوا العزم من الرسل ﴾، قال ابن عباس: ذوو الحزم. وقال الضحّاك: ذوو الجدّ والصبر. واختلفوا فيهم، فقال ابن زيد: كل الرسل. كانوا أُولي عزم لم يبعث الله نبيًّا إلّا كان ذا عزم وحزم، ورأي وكمال عقل، وإنما أدخلت من للتجنيس لا للتبعيض كما يقال: اشتريت أكسية من الخزّ وأردية من البزّ وقال بعضهم: الأنبياء كلهم أُولوا عزم إلّا يونس بن متّى لعجلة كانت منه، ألا ترى أنه قيل للنبي ﷺ: ﴿ ولا تكنْ كصاحب الحوت ﴾ [القلم: ٤٨]، وقال قوم: هم نُجباء الرسل المذكورين في سورة الأنعام [٩٠]، وهم ثمانية عشر لقوله تعالى بعد ذكرهم: ﴿ أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده ﴾ [الأنعام: ٩٠]، وقال الكلبي: هم الذين أُمروا بالجهاد وأظهروا المكاشفة مع أعداء الدين. وقيل: هم ستّة نوح وهود وصالح ولوط وشعيب وموسى، عليهم السلام، وهم المذكورون على النسق في سورة الأعراف والشعراء. وقال مقاتل: هم ستّة نوح صبر على أذى قومه، وإبراهيم صبر على النار، وإسحاق صبر على الذبح، ويعقوب صبر على فَقْد ولده وذهاب بصره، ويوسف صبر على البئر والسجن، وأيوب صبر على الضرّ. وقال ابن عباس وقتادة: هم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى أصحاب

محمد ﷺ وعليهم أجمعين وخمسة قد ذكرهم الله على التخصيص والتعيين في قوله ﴿**وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم**﴾ وفي قوله: ﴿**شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً**﴾ الآية روى البغوي بسنده عن عائشة قالت: «قال لي رسول الله ﷺ يا عائشة إن الدنيا لا تنبغي لمحمد ولا لآل محمد يا عائشة إن الله لم يرض من أولي العزم إلا بالصبر على مكروهها والصبر عن محبوبها ولم يرض إلا أن كلفني ما كلفهم فقال: ﴿**فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل**﴾ وإني والله لا بد لي من طاعته والله لأصبرن كما صبروا ولأجهدن كما جهدوا ولا قوة إلا بالله».

قوله تعالى: ﴿**ولا تستعجل لهم**﴾ يعني اصبر على أذاهم لا تستعجل بنزول العذاب عليهم فإنه نازل بهم لا محالة كأنه ﷺ ضجر بعض الضجر فأحب أن ينزل العذاب بمن أبى منهم فأمره الله تعالى بالصبر وترك الاستعجال ثم أخبر بقرب العذاب فقال تعالى: ﴿**كأنهم يوم يرون ما يوعدون**﴾ يعني من العذاب في الآخرة ﴿**لم يلبثوا**﴾ يعني في الدنيا ﴿**إلا ساعة من نهار**﴾ يعني أنهم إذا عاينوا العذاب صار طول لبثهم في الدنيا والبرزخ كأنه قدر ساعة من نهار لأن ما مضى وإن كان طويلاً فهو يسير إلى ما يدوم عليهم من العذاب وهو أبد الآبدين بلا انقطاع ولا فناء وتم الكلام عند قوله ساعة من نهار ثم ابتدأ فقال تعالى: ﴿**بلاغ**﴾ أي هذا القرآن وما فيه من البينات والهدى بلاغ من الله إليكم. والبلاغ: بمعنى التبليغ ﴿**فهل يهلك**﴾ يعني: بالعذاب إذا نزل ﴿**إلا القوم الفاسقون**﴾ يعني الخارجين عن الإيمان بالله وطاعته قال الزجاج: تأويله لا **يهلك** من رحمة الله وفضله إلا القوم الفاسقون ولهذا قال قوم ما في الرجاء لرحمة الله آية أقوى من هذه الآية والله أعلم.

الشرائع، فهم مع محمد ﷺ خمسة، قلت: ذكرهم الله على التخصيص في قوله: ﴿ وإذْ أخذنا من النبيّين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم ﴾ [الأحزاب: ٧]، وفي قوله تعالى: ﴿ شرع لكم من الدين ما وصّى به نوحاً ﴾ [الشورى: ١٣] الآية، أخبرنا أبو طاهر المطهر بن علي بن عبيد الله الفارسي ثنا أبو ذرّ محمد بن إبراهيم سبط الصالحاني أنا أبو محمد عبد الله بن محمد بن جعفر بن حيّان المعروف بأبي الشيخ الحافظ أنا عبد الرحمن بن أبي حاتم أنا محمد بن الحجّاج أنا السري بن حيّان أنا عباد بن عباد ثنا مجالد بن سعيد عن الشعبي عن مسروق قال: قالت عائشة قال لي رسول الله ﷺ: «يا عائشة إن الدنيا لا تنبغي لمحمد ولا لآل محمد، يا عائشة إن الله لم يرضَ من أُولي العزم إلّا بالصبر على مكروهها، والصبر على مجهودها ولم ترضَ إلّا أن كلّفني ما كلّفهم، وقال: ﴿ **فاصبرْ كما صبر أُولوا العزم من الرسل** ﴾ وإني والله لا بدّ لي من طاعته، والله لأصبرنّ كما صبروا، وأجهدنّ كما جهدوا، ولا قوة إلّا بالله». قوله تعالى: ﴿ **ولا تستعجلْ لهم** ﴾، أي ولا تستعجل العذاب لهم، فإنه نازل بهم لا محالة، كأنه ضجر بعض الضجر فأحبّ أن ينزل العذاب بمَن أبى فهم، فأُمر بالصبر وترك الاستعجال، ثم أخبر عن قرب العذاب فقال: ﴿ **كأنهم يوم يرون ما يوعدون** ﴾، من العذاب في الآخرة، ﴿ **لم يلبثوا** ﴾، في الدنيا، ﴿ **إلّا ساعة من نهار** ﴾، أي إذا عاينوا العذاب صار طول لبثهم في الدنيا والبرزخ كأنه ساعة من نهار، لأن ما مضى وإن كان طويلاً كأن لم يكن، ثم قال: ﴿ **بلاغ** ﴾، أي هذا القرآن وما فيه من البيان بلاغ من الله إليكم، والبلاغ بمعنى التبليغ، ﴿ **فهل يهلك** ﴾، بالعذاب إذا نزل ﴿ **إلّا القوم الفاسقون** ﴾، الخارجون من أمر الله، قال الزجّاج: تأويله لا يهلك مع رحمة الله وفضله إلّا القوم الفاسقون، ولهذا قال قوم: ما في الرجاء لرحمة الله آيةٌ أقوى من هذه الآية.

سورة محمد ﷺ

مدنية وهي ثمان وثلاثون آية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ (١) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۙ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ (٢) ذَٰلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ (٣)

قوله عز وجل: ﴿**الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أضل أعمالهم**﴾ يعني أبطلها ولم يتقبلها منهم. وأراد بالأعمال: ما كانوا يفعلون من أعمال البر في إطعام الطعام، وصلة الأرحام وفك العاني وهو الأسير، وإجارة المستجير، ونحو ذلك. وقال بعضهم: أول هذه السورة متعلق بآخر سورة الأحقاف المتقدمة كأن قائلاً قال: كيف يهلك القوم الفاسقون ولهم أعمال صالحة كإطعام الطعام ونحوه من الأعمال والله لا يضيع لعامل عمله ولو كان مثقال ذرة من خير فأخبر بأن الفاسقين هم الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أضل أعمالهم يعني أبطلها لأنها لم تكن لله ولا بأمره إنما فعلوها من عند أنفسهم ليقال عنهم ذلك فلهذا السبب أبطلها الله تعالى وقال الضحاك: أبطل كيدهم ومكرهم بالنبي ﷺ وجعل الدائرة عليهم. قال بعضهم: المراد بقوله، ﴿**الذين كفروا**﴾ هم الذين كانوا يطعمون الجيش يوم بدر وهم رؤوس كفار قريش منهم أبو جهل، والحارث بن هشام، وعتبة وشيبة ابنا ربيعة وغيرهم. وقيل: هم جميع كفار قريش وقيل هم كفار أهل الكتاب وقيل هو عام فيدخل فيه كل كافر ﴿**وصدوا عن سبيل الله**﴾ يعني ومنعوا غيرهم عن الدخول في دين الله وهو الإسلام أو منعوا أنفسهم من الدخول في الإسلام ﴿**أضل أعمالهم**﴾ يعني أبطلها لأنها كانت لغير الله ومنه قوله تعالى: ﴿**وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً**﴾ ﴿**والذين آمنوا وعملوا الصالحات**﴾ قال ابن عباس الذين كفروا مشركو قريش، والذين آمنوا هم الأنصار وقيل مؤمنو أهل الكتاب وقيل هو عام فيدخل فيه كل مؤمن آمن بالله ورسوله وهذا هو الأولى ليشمل جميع المؤمنين ﴿**وآمنوا بما نزل على محمد**﴾ يعني القرآن الذي أنزله الله على محمد وإنما ذكره بلفظ الاختصاص مع ما يجب من الإيمان بجميع ما جاء به رسول الله ﷺ عن الله

سُورَة مُحَمَّد

مدنيّة وهي ثمانٍ وثلاثون آية.

﴿ **الذين كفروا وصدّوا عن سبيل الله أضلّ أعمالهم** ﴾، أبطلها فلم يقبلها وأراد بالأعمال ما فعلوا من إطعام الطعام وصلة الأرحام، قال الضحاك: أبطل كيدهم ومكرهم بالنبي ﷺ، وجعل الدائرة عليهم.

﴿ **والذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نُزّل على محمد** ﴾، قال سفيان الثّوري: يعني لم يخالفوه في

تعظيماً لشأن القرآن الكريم وتنبيهاً على أنه لا يتم الإيمان إلا به وأكد ذلك بقوله: ﴿وهو الحق من ربهم﴾ وقيل: معناه أن دين محمد ﷺ هو الحق لأنه ناسخ للأديان كلها ولا يرد عليه نسخ وقال سفيان الثوري في قوله ﴿آمنوا بما نزل على محمد﴾ يعني لم يخالفوه في شيء ﴿كفر عنهم سيئاتهم﴾ يعني ستر بأيمانهم وعملهم الصالح ما كان منهم من الكفر والمعاصي لرجوعهم وتوبتهم منها فغفر لهم بذلك ما كان منهم ﴿وأصلح بالهم﴾ يعني حالهم وشأنهم وأمرهم بالتوفيق في أمور الدين والتسليط على أمور الدنيا بما أعطاهم من النصر على أعدائهم. وقيل أصلح بالهم يعني قلوبهم لأن القلب إذا صلح صلح سائر الجسد وقال ابن عباس عصمهم أيام حياتهم يعني أن هذا الإصلاح يعود إلى إصلاح أعمالهم حتى لا يعصوا ﴿ذلك بأن الذين كفروا اتبعوا الباطل﴾ يعني الشيطان ﴿وأن الذين آمنوا اتبعوا الحق من ربهم﴾ يعني القرآن ومعنى الآية ذلك الأمر وهو إضلال أعمال الكفار وتكفير سيئات المؤمنين كائن بسبب إتباع الكفار الباطل وإتباع المؤمنين الحق من ربهم ﴿كذلك يضرب الله للناس أمثالهم﴾ الضمير في أمثالهم راجع إلى الناس على أنه تعالى يضرب للناس أمثال أنفسهم أو أنه راجع إلى الفريقين على معنى أنه تعالى ضرب أمثال الفريقين للناس ليعتبروا بها قال الزجاج كذلك يضرب الله أمثال حسنات المؤمنين وأمثال أعمال الكافرين للناس.

﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فإذا لقيتم الذين كفروا﴾ من اللقاء وهو الحرب ﴿فضرب الرقاب﴾ يعني: فاضربوا رقابهم ضرباً. وضرب الرقاب، عبارة عن القتل، إلا أن المراد ضرب الرقاب فقط دون سائر الأعضاء وإنما خص الرقاب بالضرب، لأن قتل الإنسان أشنع ما يكون بضرب رقبته فلذلك خصت بالذكر في الأمر بالقتل ولأن الرأس من أشرف أعضاء البدن فإذا أبين عن بدنه كان أسرع إلى الموت والهلاك بخلاف غيره من الأعضاء ﴿حتى إذا أثخنتموهم﴾ يعني بالغنم في القتل وقهرتموهم مأخوذ من الشيء الثخين الغليظ. والمعنى: إذا اثقلتموهم بالقتل والجراح ومنعتموهم النهوض والحركة ﴿فشدوا الوثاق﴾ يعني في الاسرى والمعنى فأسروهم وشدوا وثاقهم حتى لا يفلتوا منكم والوثاق اسم لما يوثق به أي يشد به ﴿فإما مناً بعد وإما فداء﴾ يعني بعد الأسر إما أن تمنوا عليهم منا بإطلاقهم من غير عوض وإما أن تفادوهم فداء.

شيء، ﴿ وهو الحق من ربّهم ﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما: الذين كفروا وصدّوا مشركو مكة والذين آمنوا وعملوا الصالحات الأنصار. ﴿ كفّر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم ﴾، حالهم قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما عصمهم أيام حياتهم، يعني أن هذا الإصلاح يعود إلى إصلاح أعمالهم حتى لا يعصوا.

﴿ ذلك بأن الذين كفروا اتّبعوا الباطل ﴾، الشيطان، ﴿ وأنّ الذين آمنوا اتّبعوا الحق من ربّهم ﴾، يعني القرآن ﴿ كذلك يضرب الله للناس أمثالهم ﴾، أشكالهم، قال الزجّاج: كذلك يبيّن الله أمثال حسنات المؤمنين، وإضلال أعمال الكافرين.

﴿ فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب ﴾، نصبٌ على الإغراء، أي فاضربوا رِقابهم يعني أعناقهم. ﴿ حتى إذا أثخنتموهم ﴾، بالغنم في القتل وقهرتموهم، ﴿ فشدّوا الوَثاق ﴾، يعني في الأسْر حتى لا يفلتوا منكم. والأسر يكون بعد المبالغة في القتل، كما قال: ﴿ ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض ﴾ [الأنفال: ٦٧]، ﴿ فإمّا مَنّاً بعدُ وإمّا فداء ﴾، يعني بعد أن تأسروهم فإمّا أن تمنّوا عليهم منّاً بإطلاقهم من غير عوض، وإمّا أن تفادوهم فداء، واختلف العلماء في حكم هذه الآية، فقال قوم: هي منسوخة بقوله: ﴿ فإمّا تثقفنّهم

(فصل: في حكم الآية)

اختلف العلماء في حكم هذه الآية فقال قوم هي منسوخة بقوله ﴿فإما تثقفنهم في الحرب فشرد بهم من خلفهم﴾ وبقوله ﴿اقتلوا المشركين حيث وجدتموهم﴾ وهذا قول قتادة والضحاك والسدي وابن جريج وإليه ذهب الأوزاعي وأصحاب الرأي قالوا لا يجوز لمن على من وقع في الأسر من الكفار ولا الفداء بل إما القتل أو الاسترقاق أيهما رأى الإمام. ونقل صاحب الكشاف عن مجاهد قال ليس اليوم من ولا فداء إنما هو الإسلام أو ضرب العنق ويجوز أن يكون المراد أن يمن عليهم بترك القتل ويسترقوا أو يمن عليهم فيخلوا لقبول الجزية إن كانوا من أهل الذمة ويراد بالفداء أن يفادى بأسراهم أسرى المسلمين فقد رواه الطحاوي مذهباً عن أبي حنيفة والمشهور عنه أنه لا يرى فداءهم لا بمال ولا بغيره خيفة أن يعودوا حرباً للمسلمين وذهب أكثر العلماء إلى أن الآية محكمة والإمام بالخيار في الرجال البالغين من الكفار إذا أسروا بين أن يقتلهم أو يسترقهم أو يمن عليهم فيطلقهم بلا عوض أو يفاديهم بالمال أو بأسارى المسلمين وإليه ذهب ابن عمر وبه قال الحسن وعطاء وأكثر الصحابة والعلماء وهو قول الثوري والشافعي وأحمد وإسحاق. قال ابن عباس: لما كثر المسلمون واشتد سلطانهم أنزل الله عز وجل في الأسارى ﴿فإما منا بعد وإما فداء﴾ وهذا القول هو الصحيح ولأنه به عمل النبي ﷺ والخلفاء بعده (ق) عن أبي هريرة قال: «بعث النبي ﷺ خيلاً قبل نجد فجاءت برجل من بني حنيفة يقال له ثمامة بن أثال فربطوه في سارية من سواري المسجد فخرج إليه النبي ﷺ فقال: ما عندك يا ثمامة؟ فقال: عندي خير يا محمد إن تقتل تقتل ذا دم وإن تنعم تنعم على شاكر وإن كنت تريد المال فسل تعط منه ما شئت فتركه النبي ﷺ حتى إذا كان من الغد قال: ما عندك يا ثمامة؟ قال: ما قلت لك إن تنعم تنعم على شاكر وإن تقتل تقتل ذا دم وإن كنت تريد المال فسل تعط منه ما شئت فتركه رسول الله ﷺ حتى إذا كان من الغد قال: ما عندك يا ثمامة

في الحرب فشرِّدْ بهم من خلفهم ﴾ [الأنفال: ٥٧]، وبقوله: ﴿ اقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ﴾ [التوبة: ٥]، وإلى هذا القول ذهب قتادة والضحاك والسدي وابن جريج، وهو قول الأوزاعي وأصحاب الرأي، قالوا: لا يجوز المنّ على مَن وقع في الأسْر من الكفّار ولا الفداء، وذهب آخرون إلى أن الآية محكمة والإمام بالخيار في الرجال العاقلين من الكفّار إذا وقعوا في الأسر بين أن يقتلهم أو يسترقّهم أو يمنّ عليهم فيطلقهم بلا عوض أو يفاديهم بالمال، أو بأسارى المسلمين، وإليه ذهب ابن عمر، وبه قال الحسن وعطاء وأكثر الصحابة والعلماء، وهو قول الثّوري والشافعي وأحمد وإسحاق، قال ابن عباس: لمّا كثر المسلمون واشتدّ سلطانهم أنزل الله عزّ وجلّ في الأسارى ﴿ فإمّا منّاً بَعْدُ وإمّا فداء ﴾، وهذا هو الأصح والاختيار لأنه عمل به رسول الله ﷺ والخلفاء بعده، أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي ثنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا عبد الله بن يوسف ثنا الليث ثنا سعيد بن أبي سعيد سمع أبا هريرة قال: بعث النبي ﷺ خيلاً قبل نجا فجاءت برجل من بني حنيفة يقال له ثمامة بن أثال سيد أهل اليمامة فربطوه بسارية من سواري المسجد، فخرج إليه رسول الله ﷺ فقال: «ماذا عندك يا ثمامة»؟ فقال: عندي يا محمد خيرٌ إن تقتل تقتل ذَا دمٍ، وإن تُنعم تنعم على شاكر، وإن كنت تريد المال فَسَلْ تُعْطَ منه ما شئت، فتركه رسول الله ﷺ حتى كان الغد، فقال له: «ما عندك يا ثمامة»؟ فقال: ما عندي ما قلت لك إن تُنعم تنعم على شاكر، فتركه رسول الله ﷺ حتى كان بعد الغد، فقال له: «ما عندك يا ثمامة»؟ فقال: عندي ما قلت لك، فقال رسول الله ﷺ: «أطلقوا ثمامة» فانطلق إلى نخل قريب من المسجد فاغتسل ثم دخل المسجد، فقال: أشهد أن لا إلّه إلاّ الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، يا محمد والله ما كان على وجه الأرض وجه أبغض إليّ من وجهك، فقد أصبح وجهك أحبّ الوجوه كلها إليّ والله ما كان من دين أبغض إليّ من دينك، فأصبح دينك أحبّ الدين كله إليّ، والله ما كان من بلد أبغض إليّ من بلدك فأصبح بلدك أحبّ البلاد كلها

قال: عندي ما قلت لك إن تنعم تنعم على شاكر وإن تقتل تقتل ذا دم وإن كنت تريد المال فسل تعط منه ما شئت فقال رسول الله ﷺ: أطلقوا ثمامة. فانطلق إلى نخل قريب من المسجد فاغتسل ثم دخل المسجد فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله والله ما كان على الأرض أبغض إليّ من وجهك، فقد أصبح وجهك أحب الوجوه إلي. والله ما كان من دين أبغض من دينك فأصبح دينك أحب الدين كله إليّ والله ما كان من بلد أبغض إلي من بلدك فأصبح بلدك أحب البلاد كلها إليّ وإن خيلك أخذتني وأنا أريد العمرة فماذا ترى فبشره النبي ﷺ وأمره أن يعتمر فلما قدم مكة قال له قائل: أصبوت؟ قال: لا ولكني أسلمت مع رسول الله ﷺ ولا والله لا يأتيكم من اليمامة حبة حنطة حتى يأذن فيها رسول الله ﷺ» لفظ مسلم بطوله واختصره البخاري عن عمران بن حصين قال «أسر أصحاب رسول الله ﷺ رجلاً من بني عقيل فأوثقوه وكانت ثقيف قد أسرت رجلين من أصحاب رسول الله ﷺ ففداه رسول الله ﷺ بالرجلين للذين أسرتهما ثقيف» أخرجه الشافعي في مسنده وأخرجه مسلم وأبو داود بلفظ أطول من هذا.

وقوله تعالى: ﴿**حتى تضع الحرب أوزارها**﴾ يعني أثقالها وأحمالها والمراد أهل الحرب يعني حتى يضعوا أسلحتهم ويمسكوا عن القتال وأصل الوزر: ما يحمله الإنسان فسمى الأسلحة وزراً لأنها تحمل. وقيل: الحرب هم المحاربون مثل الشرب والركب. وقيل: الأوزار الآثام. ومعناه: حتى يضع المحاربون أوزارهم بأن يتوبوا من كفرهم فيؤمنوا بالله ورسوله. وقيل: معناه حتى تضع حربكم وقتالكم أوزار المشركين وقبائح أعمالهم بأن يسلموا. ومعنى الآية: أثخنوا المشركين بالقتل والأسر حتى يدخل أهل الملل كلها في الإسلام ويكون الدين كله لله فلا يكون بعده جهاد ولا قتال وذلك عند نزول عيسى ابن مريم عليه السلام وجاء في الحديث عن النبي ﷺ «الجهاد ماض منذ بعثني الله إلى أن يقاتل آخر متى الدجال» هكذا ذكره البغوي بغير سند قال الكلبي معناه حتى يسلموا أو يسالموا. قال الفراء: حتى لا يبقى إلا مسلم أو مسالم ﴿**ذلك**﴾ يعني الذي ذكر وبين من حكم الكفار ﴿**ولو يشاء الله لانتصر منهم**﴾ يعني ولو شاء الله لأهلكهم بغير قتال وكفاكم أمرهم ﴿**ولكن**﴾ يعني ولكن أمركم بالقتال ﴿**ليبلو بعضكم ببعض**﴾ يعني فيصير من

إليّ، وإن خيلك أخذتني وأنا أُريد العمرة، فماذا ترى؟فبشّره رسول الله ﷺ وأمره أن يعتمر فلما قَدِمَ مكة قال له قائل أصبوت؟ فقال: لا ولكن أسلمت مع رسول الله ﷺ ولا والله لا يأتيكم من اليمامة حبّة حنطة حتى يأذن فيها رسول الله ﷺ. أخبرنا عبد الوهاب بن محمد الخطيب أنا عبد العزيز بن أحمد الخلال ثنا أبو العباس الأصم أنا الربيع أنا الشافعي أنا عبد الوهاب بن عبد المجيد الثقفي عن أيوب عن أبي قلابة عن أبي المهلّب عن عمران بن حصين قال: أسر أصحاب رسول الله ﷺ رجلاً من بني عقيل فأوثقوه، وكانت ثقيف قد أسرت رجلين من أصحاب النبي ﷺ، ففداه رسول الله ﷺ بالرجلين اللذين أسرتهما ثقيف. قوله تعالى: ﴿ **حتى تضع الحرب أوزارها** ﴾، أي أثقالها وأحمالها، يعني حتى تضع أهل الحرب السلام، فيمسكوا عن الحرب، وأصل الوزر، ما يحتمل الإنسان فسمّى الأسلحة أوزاراً لأنها تحمل، وقيل: الحرب هم المحاربون كالشرب والركب، وقيل: الأوزار الآثام، ومعناه حتى يضع المحاربون آثامها، بأن يتوبوا من كفرهم فيؤمنوا بالله ورسوله. وقيل: حتى تضع حربكم وقتالكم أوزار المشركين وقبائح أعمالهم بأن يسلموا، ومعنى الآية: أثخنوا المشركين بالقتل والأسْر حتى يدخل أهل المِلَل كلها في الإسلام، ويكون الدين كله لله فلا يكون بعده جهاد ولا قتال، وذلك عند نزول عيسى ابن مريم عليهما السلام، وجاء في الحديث عن النبي ﷺ، «الجهاد ماضٍ منذ بعثني الله إلى أن يقاتل آخر أُمتي الدجّال». وقال الكلبي: حتى يسلموا أو يُسالموا. وقال الفرّاء: حتى لا يبقَ إلاّ مسلم أو مسالِم. ﴿ **ذلك** ﴾، الذي ذكرت وبيّنت من حكم الكفّار، ﴿ **ولو يشاء الله لانتصر منهم** ﴾، فأهلكهم وكفاكم أمرهم بغير قتال، ﴿ **ولكن** ﴾، أمركم بالقتال، ﴿ **ليبلو بعضكم ببعض** ﴾، فيصير ممَن قتل من المؤمنين إلى الثواب ومَن قتل من الكفّار إلى العذاب، ﴿ **والذين قتلوا في**

قتل من المؤمنين إلى الثواب ومن قتل من الكافرين إلى العذاب ﴿والذين قتلوا في سبيل الله﴾ يعني الشهداء وقرىء قاتلوا وهم المجاهدون في سبيل الله ﴿فلن يضل أعمالهم﴾ يعني فلن يبطلها بأن يوفيهم ثواب أعمالهم التي عملوها لله تعالى قال قتادة ذكر لنا أن هذه الآية نزلت في يوم أحد وقد فشت في المسلمين الجراحات والقتل.

﴿سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ۝٥ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ۝٦ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ۝٧﴾

﴿سيهديهم﴾ يعني أيام حياتهم في الدنيا إلى أرشد الأمور في الآخرة إلى الدرجات العلي ﴿ويصلح بالهم﴾ ويرضي أعمالهم ويقبلها ﴿ويدخلهم الجنة عرفها لهم﴾ يبين لهم منازلهم في الجنة حتى اهتدوا إلى مساكنهم لا يخطئونها ولا يستدلون عليها كأنهم ساكنوها منذ خلقوا فيكون المؤمن أهدى إلى درجته ومنزله وزوجته وخدمه منه إلى منزله وأهله في الدنيا هذا قول أكثر المفسرين. ونقل عن ابن عباس عرفها لهم طيبها لهم من العرف وهو الريح الطيبة وطعام معرف أي مطيب.

قوله عز وجل: ﴿يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله﴾ يعني تنصروا دين الله ورسوله وقيل: تنصروا أولياء الله وحزبه ﴿ينصركم﴾ يعني على عدوكم ﴿ويثبت أقدامكم﴾ يعني عند القتال وعلى الصراط.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ۝٨ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ۝٩ ۞ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا ۝١٠ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ۝١١ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۝١٢ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ۝١٣ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم ۝١٤﴾

﴿والذين كفروا فتعسا لهم﴾ قال ابن عباس: يعني بعداً لهم. وقال أبو العالية: سقوطاً لهم وقال الضحاك: خيبة

سبيل الله ﴾، قرأ أهل البصرة وحفص: ﴿ قتلوا ﴾ بضم القاف وكسر التاء خفيف، يعني الشهداء، وقرأ الآخرون (قاتلوا) بالألف من المقاتلة، وهم المجاهدون، ﴿ فلن يضلّ أعمالهم ﴾، قال قتادة: ذكر لنا أن هذه الآية نزلت يوم أُحُد، وقد فشت في المسلمين الجراحات والقتل.

﴿ سيهديهم ﴾، أيام حياتهم في الدنيا إلى أرشد الأمور، وفي الآخرة إلى الدرجات، ﴿ ويُصلح بالهم ﴾، يرضي خصماءهم ويقبل أعمالهم.

﴿ ويدخلهم الجنة عرفها لهم ﴾، أي بيّن لهم منازلهم في الجنة حتى يهتدوا إلى مساكنهم لا يخطؤونها ولا يستدلّون عليها أحداً كأنهم سكانها منذ خلقوا فيكون المؤمن أهدى إلى درجته، وزوجته وخدمه إلى منزله وأهله في الدنيا، هذا قول أكثر المفسّرين، وروى عطاء عن ابن عباس: ﴿ عرفها لهم ﴾ أي طيّبها لهم من العرف، وهو الريح الطيبة وطعام معرّف أي مطيب.

﴿ يا أيها الذين آمنوا إنْ تنصرُوا الله ﴾، أي دينه ورسوله، ﴿ ينصركم ﴾، على عدوّكم، ﴿ ويثبت أقدامكم ﴾، عند القتال.

﴿ والذين كفروا فَتَعْساً لهم ﴾، قال ابن عباس: بُعْداً لهم. وقال أبو العالية: سقوطاً لهم. وقال الضحاك:

لهم. وقال ابن زيد: شقاء لهم. وقيل: التعس في الدنيا العثرة وفي الآخرة التردي في النار. يقال للعاثر: تعساً إذا دعوا عليه ولم يريدوا قيامه وضده لعا إذا دعوا له وأرادوا قيامه وفي هذا إشارة جليلة وهي أنه تعالى لما قال في حق المؤمنين ﴿**ويثبت أقدامكم**﴾، يعني في الحرب والقتال، كان من الجائز أن يتوهم متوهم أن الكافر أيضاً يصبر ويثبت قدمه في الحرب والقتال فأخبر الله تعالى أن لكم الثبات أيها المؤمنون ولهم العثار والزوال والهلاك وقال في حق المؤمنين بصيغة الوعد لأن الله تعالى لا يجب عليه شيء وقال في حق الكفار بصيغة الدعاء عليهم ﴿**وأضل أعمالهم**﴾ يعني أبطل أعمالهم لأنها كانت في طاعة الشيطان ﴿**ذلك**﴾ يعني التعس والإضلال ﴿**بأنهم كرهوا ما أنزل الله**﴾ يعني القرآن الذي فيه النور والهدى وإنما كرهوه لأن فيه الأحكام والتكاليف الشاقة على النفس لأنهم كانوا قد ألفوا الإهمال وإطلاق العنان في الشهوات والملاذ فشق عليهم ذلك والأخذ بالجد والاجتهاد في طاعة الله فلهذا السبب كرهوا ما أنزل الله ﴿**فأحبط أعمالهم**﴾ يعني فأبطل أعمالهم التي عملوها في غير طاعة الله ولأن الشرك محبط للعمل.

ثم خوف الكفار فقال تعالى: ﴿**أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم**﴾ يعني من الأمم الماضية والقرون الخالية الكافرة ﴿**دمر الله عليهم**﴾ يقال: دمره الله. يعني أهلكه، ودمر عليه إذا أهلك ما يختص به والمعنى أهلك الله عليهم ما يختص بهم من أنفسهم وأموالهم وأولادهم ﴿**وللكافرين**﴾ يعني بمحمد ﷺ ﴿**أمثالها**﴾ يعني إن لم يؤمنوا بمحمد ﷺ وبما جاءهم به من عند الله وهذا التضعيف إنما يكون في الآخرة ﴿**ذلك**﴾ يعني الإهلاك والهوان ﴿**بأن**﴾ أي بسبب أن ﴿**الله مولى الذين آمنوا**﴾ يعني هو ناصرهم ووليهم ومتولي أمورهم ﴿**وأن الكافرين لا مولى لهم**﴾ يعني لا ناصر لهم وسبب ذلك أن الكفار لما عبدوا الأصنام وهي جماد لا تضر ولا تنفع ولا تنصر من عبدها فلا جرم ولا ناصر لهم والفرق بين قوله: «وأن الكافرين لا مولى لهم وبين قوله ﴿**ثم ردوا إلى الله مولاهم**﴾ الحق أن المولى هنا بمعنى الناصر والمولى هناك بمعنى الرب والمالك والله تعالى رب كل أحد من الناس ومالكهم فبان الفرق بين الآيتين ولما ذكر الله تعالى حال المؤمنين والكافرين في الدنيا ذكر حالهم في الآخرة فقال تعالى: ﴿**إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار**﴾ يعني هذا لهم في الآخرة ﴿**والذين كفروا يتمتعون**﴾ يعني في الدنيا بشهواتها ولذاتها ﴿**ويأكلون كما تأكل الأنعام**﴾ يعني ليس لهم همة إلا بطونهم وفروجهم وهم مع ذلك لاهون ساهون عما يراد بهم في غد ولهذا شبههم بالأنعام لأن الأنعام لا عقل لها ولا تمييز وكذلك الكافر لا عقل له ولا تمييز لأنه لو كان له عقل ما عبد ما يضره ولا ينفعه. قيل: المؤمن في الدنيا يتزود والمنافق يتزين والكافر يتمتع وإنما وصف الكافر بالتمتع في الدنيا لأنها جنته وهي سجن المؤمن بالنسبة إلى ما أعد الله له في الآخرة

خيبةً لهم. وقال ابن زيد: شقاءً لهم. قال الفرّاء: هو نصبٌ على المصدر، على سبيل الدعاء. وقيل: في الدنيا العثرة، وفي الآخرة التردّي في النار. ويقال للعاثر: تعساً إذا لم يريدوا قيامه، وضدّه أما إذا أرادوا قيامه، ﴿ **وأضلّ أعمالهم** ﴾، لأنها كانت في طاعة الشيطان.

﴿ **ذلك** ﴾ التعس والإضلال، ﴿ **بأنّهم كرهوا ما أنزل الله فأحبط أعمالهم** ﴾، ثم خوّف الكفّار.

فقال: ﴿ **أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم دمّر الله عليهم** ﴾، أي أهلكهم، ﴿ **وللكافرين أمثالها** ﴾، أي لم يؤمنوا يتوعّد مشركي مكة.

﴿ **ذلك** ﴾، الذي ذكرت، ﴿ **بأن الله مولى الذين آمنوا** ﴾، وليّهم وناصرهم، ﴿ **وأن الكافرين لا مولى لهم** ﴾، لا ناصر لهم، ثم ذكر مآل الفريقين فقال:

﴿ **إنّ الله يُدخِل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنّات تجري من تحتها الأنهار والذين كفروا يتمتعون** ﴾، في

من النعيم العظيم الدائم ﴿والنار مثوى لهم﴾ يعني مقام الكفار في الآخرة. والثواء: المقام في المكان مع الاستقرار فيه، فالنار مثوى الكافرين ومستقرهم.

قوله تعالى: ﴿وكأين من قرية هي أشد قوة من قريتك التي أخرجتك﴾ يعني أخرجك أهلها. والمراد بالقرية: مكة. قال ابن عباس: كم من رجال هي أشد قوة من أهل مكة أهلكهم الله يدل عليه قوله ﴿أهلكناهم﴾ ولم يقل أهلكناها ﴿فلا ناصر لهم﴾ يعني فلا مانع يمنعهم من العذاب والهلاك الذي حل بهم قال ابن عباس: لما خرج رسول الله ﷺ إلى الغار التفت إلى مكة وقال: أنتِ أحب بلاد الله تعالى إلى الله وأحب بلاد الله إليّ ولو أن المشركين لم يخرجوني لم أخرج منك، فأنزل الله هذه الآية ﴿أفمن كان على بينة من ربه﴾ يعني على يقين من دينه وهو محمد ﷺ والمؤمنون معه ﴿كمن زين له سوء عمله﴾ وهو الكافر أبو جهل ومن معه من المشركين ﴿واتبعوا أهواءهم﴾ يعني في عبادة الأوثان.

مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾

قوله عز وجل: ﴿مثل الجنة التي وعد المتقون﴾ لما بين الله عز وجل حال الفريقين في الاهتداء والضلال بيَّن في هذه الآية ما أعد لكل واحد من الفريقين فبين أولاً ما أعد للمؤمنين المتقين فقال تعالى: ﴿مثل الجنة التي وعد المتقون﴾ يعني صفة الجنة. قال سيبويه: المثل هو الوصف فمعناه وصف الجن وذلك لا يقتضي مشبهاً به. وقيل: الممثل به محذوف غير مذكور والمعنى مثل الجنة التي وعد المتقون مثل عجيب وشيء عظيم وقيل: الممثل به مذكور وهو قوله: ﴿كمن هو خالد في النار﴾ ﴿فيها﴾ يعني الجنة التي وعد المتقون ﴿إنها من ماء غير آسن﴾ يعني غير متغير ولا منتن. يقال: أسن الماء وأجن إذا تغير طعمه وريحه ﴿وأنهار من لبن لم يتغير طعمه﴾ يعني كما تتغير ألبان الدنيا فلا يعود حامضاً ولا قارصاً ولا ما يكره من الطعوم ﴿وأنهار من خمر لذة للشاربين﴾ يعني ليس فيها حموضة ولا

الدنيا، ﴿ويأكلون كما تأكل الأنعام﴾، ليس لهم همّة إلاّ بطونهم وفروجهم، وهم لاهون ساهون عمّا في غد، قيل: المؤمن في الدنيا يتزوّد والمنافق يتزيّن والكافر يتمتع، ﴿والنار مثوىً لهم﴾.

﴿وكأيّن من قرية هي أشدّ قوة من قريتك﴾، أي أشد قوة من أهل مكة، ﴿التي أخرجتك﴾، أي أخرجك أهلها، قال ابن عباس: كم رجال هم أشدّ من أهل مكة؟ يدلّ عليه قوله: ﴿أهلكناهم﴾، ولمْ يقل: أهلكناها، ﴿فلا ناصر لهم﴾، قال ابن عباس: لمّا خرج رسول الله ﷺ من مكة إلى الغار التفت إلى مكة وقال: «أنت أحبّ بلاد الله إلى الله وأحبّ بلاد الله إليَّ ولو أن المشركين لم يخرجوني لم أخرج منك» فأنزل الله هذه الآية.

﴿أفمَن كان على بيّنة من ربّه﴾، يقين من دينه محمد والمؤمنون، ﴿كمَن زُيّن له سوءُ عمله واتبعوا أهواءهم﴾، يعني عبادة الأوثان، وهم أبو جهل والمشركون.

﴿مَثَلُ الجنة التي وعد المتّقون﴾، أي صفتها، ﴿فيها أنهار من ماء غير آسن﴾، آجن متغيّر منتن، قرأ ابن كثير ﴿أسن﴾ بالقصر، والآخرون بالمدّ، وهما لغتان يقال: أسن الماء يأسن أسناً، وآسن يأسن وياسن، وأجن يأجن وياجن، أسونا وأجودنا إذا تغير، ﴿وأنهار من لبن لم يتغيّر طعمه وأنهار من خمر لَذّة﴾، لـذيدة،

عفوصة ولا مرارة ولم تدنسها الأرجل بالدوس ولا الأيدي بالعصر وليس من شرابها ذهاب عقل ولا صداع ولا خمار بل هي لمجرد الالتذاذ فقط ﴿**وأنها من عسل مصفى**﴾ يعني ليس فيه شمع كعسل الدنيا ولم يخرج من بطون النحل حتى يموت فيه بعض نحله بل هو خالص صاف من جميع شوائب عسل الدنيا.

عن حكيم بن معاوية عن أبيه عن النبي ﷺ قال: «إن في الجنة بحر الماء وبحر العسل وبحر اللبن وبحر الخمر ثم تشقق الأنهار بعد» أخرجه الترمذي وقال حديث حسن صحيح (م) عن أبي هريرة قال، قال رسول الله ﷺ: «سيحان وجيحان والفرات والنيل كل من أنهار الجنة» قال الشيخ محيي الدين النووي في شرح مسلم: سيحان وجيحان غير سيحون وجيحون فأما سيحان جيحان المذكوران في الحديث اللذان هما من أنهار الجنة فهما في بلاد الأرمن فسيحان نهر أردنة وجيحان نهر المصيصة وهما نهران عظيمان جداً أكبرهما جيحان هذا هو الصواب في موضعهما ثم ذكر كلاماً بعد هذا طويلاً. ثم قال: فأما كون هذه الأنهار من ماء الجنة، ففيه تأويلان الثاني، وهو الصحيح، أنها على ظاهرها وأن لها مادة من الجنة. فالجنة مخلوقة موجودة اليوم هذا مذهب أهل السنة. وقال كعب الأحبار: نهر دجلة نهر ماء أهل الجنة، ونهر الفرات نهر لبنهم، ونهر مصر نهر خمرهم، ونهر سيحان نهر عسلهم، وهذه الأنهار الأربعة تخرج من نهر الكوثر هكذا نقله البغوي عنه.

وقوله تعالى: ﴿**ولهم فيها من كل الثمرات**﴾ في ذكر الثمرات بعد المشروب إشارة إلى أن مأكول أهل الجنة للذة لا الحاجة فلهذا ذكر الثمار بعد المشروب لأنها للتفكه واللذة ﴿**ومغفرة من ربهم**﴾ فإن قلت: المؤمن المتقي لا يدخل الجنة إلا بعد المغفرة، فكيف يكون له فيها المغفرة.

قلت ليس بلازم أن يكون المعنى ولهم مغفرة فيها لأن الواو لا تقتضي الترتيب فيكون المعنى ولهم فيها من كل الثمرات ولهم مغفرة قبل دخولهم إليها، وجواب آخر وهو أن المعنى ولهم مغفرة فيها برفع التكاليف عنهم فيما يأكلون ويشربون بخلاف الدنيا فإن مأكولها يترتب عليه حساب وعقاب ونعيم الجنة لا حساب عليه ولا عقاب فيه قوله تعالى: ﴿**كمن هو خالد في النار**﴾ يعني من هو في هذا النعيم المقيم الدائم كمن هو خالد في النار يتجرع من حميمها وهو قوله ﴿**وسقوا ماء حميماً**﴾ يعني شديد الحر قد استعرت عليه جهنم منذ خلقت، إذا دنا منهم شوى وجوههم، ووقعت فروة رؤوسهم ﴿**فـ**﴾ إذا شربوه (قطع أمعاءهم) يعني فخرجت من أدبارهم والأمعاء جمع معي وهو جميع ما في البطن من الحوايا.

وقال الزجاج: قوله كمن هو خالد في النار راجع إلى ما تقدم كأنه تعالى قال: أفمن كان على بينة من ربه كمن زين له سوء عمله وهو خالد في النار وسقوا ماء حميماً فقطع أمعاءهم.

﴿ **للشاربين** ﴾، لم تدنسها الأرجل ولم تدنسها الأيدي، ﴿ **وأنهارٌ من عسل مصفّى** ﴾، أخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر أنا عبد الغافر بن محمد أنا محمد بن عيسى الجلودي ثنا إبراهيم بن محمد بن سفيان ثنا مسلم بن الحجّاج ثنا أبو بكر بن أبي شيبة أنا أبو أسامة وعبد الله بن نمير وعلي بن مسهر عن عبد الله بن عمر عن حبيب بن عبد الرحمن عن حفص بن عاصم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «سيحان وجيحان والنيل والفرات كلٌّ من أنهار الجنة» قال كعب الأحبار: نهر دجلة نهر ماء أهل الجنة، ونهر الفرات نهر لبنهم، ونهر مصر نهر خمرهم، ونهر سيحان نهر عسلهم، وهذه الأنهار الأربعة تخرج من نهر الكوثر، ﴿ **ولهم فيها من كل الثمرات ومغفرة من ربّهم كمَن هو خالد في النار** ﴾، أي مَن كان في هذا النعيم كمَن هو خالد في النار، ﴿ **وسقوا ماءً حميماً** ﴾، شديد الحرّ تسعر عليه جهنم منذ خلقت إذا أُدني منهم يشوي وجوههم ووقعت فروة رؤوسهم فإذا شربوه، ﴿ **فقطع أمعاءهم** ﴾، فخرجت من أدبارهم، والأمعاء جميع ما في البطن من الحوايا وأحدها معي.

عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «إن الحميم ليصب على رؤوسهم فينفذ الحميم حتى يخلص إلى جوفه فيسلت ما في جوفه حتى يمرق من قدميه وهو الصهر ثم يعاد» كما كان أخرجه الترمذي وقال: حديث غريب حسن صحيح.

عن أبي أمامة عن النبي ﷺ «في قوله يسقى من ماء صديد يتجرعه قال: يقرب إلى فيه فيكرهه فإذا دنا منه وجهه ووقعت فروة رأسه، فإذا شربه قطع أمعاءه حتى تخرج من دبره. قال الله تعالى: ﴿**ماء حميماً فقطع أمعاءهم**﴾ ويقول: وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه» أخرجه الترمذي وقال حديث غريب.

قوله تعالى: ﴿**ومنهم**﴾ يعني ومن هؤلاء الكفار ﴿**من يستمع إليك**﴾ وهم المنافقون يستمعون قولك فلا يعونه ولا يفهمونه تهاوناً به وتغافلاً عنه ﴿**حتى إذا خرجوا من عندك**﴾ يعني أن هؤلاء المنافقين الذين كانوا **عندك** يا محمد يستمعون كلامك فإذا خرجوا من عندك ﴿**قالوا**﴾ يعني المنافقين ﴿**للذين أوتوا العلم**﴾ يعني من الصحابة ﴿**ماذا قال آنفاً**﴾ يعني ما الذي قال محمد الآن وهو من الائتناف. يقال: ائتنفت الأمر أي ابتدأته قال مقاتل: وذلك أن النبي ﷺ كان يخطب ويعيب المنافقين، فإذا خرجوا من المسجد سألوا عبد الله بن مسعود استهزاء ماذا قال محمد ﷺ قال ابن عباس وقد سئلت فيمن سئل ﴿**أولئك**﴾ يعني المنافقين ﴿**الذين طبع الله على قلوبهم**﴾ يعني فلم يؤمنوا ولم ينتفعوا بما سمعوا من رسول الله ﷺ ﴿**واتبعوا أهواءهم**﴾ يعني في الكفر والنفاق والمعنى أنهم لما تركوا إتباع الحق أماتَ الله قلوبهم فلم تفهم ولم تعقل فعند ذلك اتبعوا أهواءهم في الباطل ﴿**والذين اهتدوا**﴾ يعني المؤمنين لما بين الله أن المنافق يسمع ولا ينتفع بل هو مصر على متابعة الهوى بين حال المؤمن المهتدي الذي ينتفع بما يستمع فقال تعالى: ﴿**والذين اهتدوا**﴾ يعني بهداية الله إياهم إلى الإيمان ﴿**زادهم هدى**﴾ يعني أنهم كلما سمعوا من رسول الله ﷺ مما جاء به عن الله عز جل آمنوا بما سمعوا منه وصدقوه فيزيدهم ذلك هدى مع هدايتهم وإيماناً مع إيمانهم ﴿**وآتاهم تقواهم**﴾ يعني وفقهم للعمل بما أمرهم به وهو التقوى. وقال سعيد بن جبير: آتاهم ثواب تقواهم، وقيل: آتاهم نفس تقواهم، بمعنى أنه تعالى بيَّن لهم التقوى.

﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴿١٨﴾ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿**فهل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة**﴾ يعني الكافرين والمنافقين الذين قعدوا عن الإيمان فلم

﴿ **ومنهم** ﴾، يعني من هؤلاء الكفّار، ﴿ **مَن يستمع إليك** ﴾، وهم المنافقون يستمعون قولك فلا يعونه ولا يفهمونه تهاوناً به وتغافلاً، ﴿ **حتى إذا خرجوا من عندك** ﴾، يعني فإذا خرجوا من عندك، ﴿ **قالوا للذين أُوتوا العلم** ﴾، من الصحابة، ﴿ **ماذا قال** ﴾، محمد، ﴿ **آنفاً** ﴾، يعني الآن، وهو من الائتناف ويقال: ائتنفت الأمر أي ابتدأته وأنف الشيء أوله، قال مقاتل: وذلك أن النبي ﷺ كان يخطب ويعيب المنافقين، فإذا خرجوا من المسجد سألوا عبد الله بن مسعود استهزاءً ماذا قال رسول الله ﷺ؟ قال ابن عباس: وقد سُئِلت فيمن سُئِل، ﴿ **أولئك الذين طبع الله على قلوبهم** ﴾، فلم يؤمنوا، ﴿ **واتبعوا أهواءهم** ﴾، في الكفر والنفاق.

﴿ **والذين اهتدوا** ﴾، يعني المؤمنين، ﴿ **زادهم** ﴾، ما قال الرسول، ﴿ **هدىً وآتاهم تقواهم** ﴾، وفقهم للعمل بما أمرهم به، وهو التقوى، قال سعيد بن جبير: وآتاهم ثواب تقواهم.

﴿ **فهل ينظرون إلاّ الساعة أن تأتيهم بغتة** ﴾، أخبرنا أبو الحسن عبد الرحمن بن محمد الداودي أنا أبو الحسن أحمد بن محمد بن موسى بن الصلت ثنا أبو إسحاق الهاشمي ثنا الحسين ثنا الحسن ثنا ابن المبارك أنا

يؤمنوا فالساعة بغتة تفجؤهم وهم على كفرهم ونفاقهم ففيه وعيد وتهديد والمعنى لا ينظرون إلى الساعة والساعة آتية لا محالة وسميت القيامة ساعة لسرعة قيامها.

عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ «بادروا بالأعمال سبعاً فهل تنتظرون إلا فقراً منسياً أو غنى مطغياً أو مرضاً مفسداً أو هرماً مقيداً أو موتاً مجهزاً أو الدجال فشر غائب ينتظر أو الساعة والساعة أدهى وأمر» أخرجه الترمذي وقال: حديث حسن. وقوله تعالى: **﴿فقد جاء أشراطها﴾** أي أماراتها وعلاماتها واحدها شرط.

ولما كان قيام الساعة أمراً مستبطأ في النفوس وقد قال الله تعالى: فهل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة فكأن قائلاً قال متى يكون قيام الساعة فقال تعالى: **﴿فقد جاء أشراطها﴾** قال المفسرون: من أشراط الساعة انشقاق القمر وبعثة رسول الله ﷺ (ق). عن سهل بن سعد قال: «رأيت رسول الله ﷺ قال بأصبعه هكذا الوسطى والتي تلي الإبهام وقال: بعثت أنا والساعة كهاتين وفي رواية قال بعثت أنا والساعة كهاتين ويشير بأصبعيه يمدهما» (ق) عن أنس قال قال رسول الله ﷺ: «بعثت أنا والساعة كهاتين كفضل أحدهما على الأخرى وضم السبابة والوسطى وفي رواية قال بعثت في نفس الساعة فسبقتها كفضل هذه على الأخرى» قيل معنى الحديث أن المراد أن ما بين مبعثه ﷺ وقيام الساعة شيء يسير كما بين الإصبعين في الطول وقيل هو إشارة إلى قرب المجاورة (ق) عن أنس قال عند قرب وفاته ألا أحدثكم حديثاً عن النبي ﷺ لا يحدثكم به أحد غيري سمعت رسول الله ﷺ يقول «لا تقوم الساعة أو قال من أشراط الساعة أن يرفع العلم ويظهر الجهل ويشرب الخمر ويفشو الزنا ويذهب الرجال ويبقى النساء حتى يكون لخمسين امرأة قيم. وفي رواية ويظهر الزنا ويقل الرجال ويكثر النساء» (ق) عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ «إن من أشراط الساعة أن يتقارب الزمان وينقص العلم وتظهر الفتن ويبقى الشح ويكثر الهرج قالوا وما الهرج قال القتل وفي رواية: يرفع العلم ويثبت الجهل أو قال ويظهر الجهل» (خ) عن أبي هريرة قال: «بينا رسول الله ﷺ في مجلس يحدث القوم إذ جاءه أعرابي فقال متى الساعة فمضى رسول الله ﷺ في حديثه فقال بعض القوم سمع ما قال فكره ما قال وقال بعضهم: بل لم يسمع حتى إذا قضى حديثه قال أين السائل عن الساعة قال: ها أنا ذا يا رسول الله قال: إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة قال وكيف إضاعتها؟ قال إذا وسد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة».

وقوله تعالى: **﴿فأنى لهم إذا جاءتهم ذكراهم﴾** يعني فمن أين لهم التذكر والاتعاظ والتوبة إذا جاءتهم الساعة بغتة. وقيل: معناه كيف يكون حالهم إذا جاءتهم الساعة فلا تنفعهم الذكرى ولا تقبل منهم التوبة ولا يحتسب بالإيمان في ذلك الوقت **﴿فاعلم أنه لا إله إلا الله﴾** الخطاب للنبي ﷺ.

وأورد على هذا أنه ﷺ كان عالماً بالله وأنه لا إله إلا هو فما فائدة هذا الأمر.

معمر بن راشد عمّن سمع المقبري يحدّث عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «ما ينتظر أحدكم من الدنيا إلاّ غنىً مطغيًا، أو فقراً مُنسياً، أو مرضاً مُفسداً، أو هرماً مقيداً، أو موتاً مجهّزاً، أو الدجال فالدجّال شرّ غائب ينتظر، أو الساعة والساعة أدهى وأمرّ». قوله عزّ وجلّ: **﴿ فقد جاء أشراطها ﴾**، أي أماراتها وعلاماتها واحدها شرط، وكان النبي ﷺ من أشراط الساعة، أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا أحمد بن المقدام ثنا فضل بن سليمان ثنا أبو حازم ثنا سهل بن سعد قال: رأيتُ النبي ﷺ قال بأصبعيه هكذا بالوسطى والتي تلي الإبهام: «بُعثتُ أنا والساعة كهاتين»، أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا حفص بن عمر الحوضي ثنا هشام بن قتادة عن أنس قال: لأحدّثنّكم بحديث سمعته من رسول الله ﷺ لا يحدّثنّكم به أحد غيري، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن من أشراط الساعة أن يرفع العلم، ويكثر الجهل، ويكثر الزنا، ويكثر شرب الخمر، ويقلّ الرجال ويكثر النساء، حتى

وأجيب عنه بأن معناه: دُمْ على ما أنت عليه من العلم. فهو كقول القائل للجالس: اجلس أي دم على ما أنت عليه من الجلوس أو يكون معناه ازدد علماً إلى علمك. وقيل: إن هذا الخطاب وإن كان للنبي ﷺ، فالمراد به غيره من أمته. قال أبو العالية وسفيان بن عيينة: هذا متصل بما قبله. معناه: إذا جاءتهم فاعلم أنه لا ملجأ ولا منجى ولا مفزع عند قيامها إلا إلى الله الذي لا إله إلا هو. وقيل: معناه فاعلم أنه لا إله إلا الله وأن جميع الممالك تبطل عند قيامها فلا ملك ولا حكم لأحد إلا الله الذي لا إله إلا هو ﴿واستغفر لذنبك﴾ أمر الله عز وجل نبيه ﷺ بالاستغفار مع أنه مغفور له ليستنَّ به أمته وليقتدوا به في ذلك (م) عن الأغر المزني أغر مزينة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنه ليغان على قلبي حتى أستغفر في اليوم مائة مرة وفي رواية قال: توبوا إلى ربكم فوالله إني لأتوب إلى ربي عز وجل مائة مرة في اليوم» (خ) عن أبي هريرة قال سمعت رسول الله ﷺ يقول «إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم سبعين مرة وفي رواية أكثر من سبعين مرة» قوله: إنه ليغان على قلبي الغين التغطية والستر أي يلبس على قلبي ويغطي وسبب ذلك ما أطلعه عليه من أحوال أمته بعده فأحزنه ذلك حتى كان يستغفر لهم. وقيل: إنه لما كان يشغله النظر في أمور المسلمين ومصالحهم حتى يرد أنه قد شغل بذلك وإن كان من أعظم طاعة وأشرف عبادة عن أرفع مقام مما هو فيه وهو التفرد بربه عز وجل وصفاء وقته معه وخلوص همه من كل شيء سواه فلهذا السبب كان ﷺ يستغفر الله فإن حسنات الأبرار سيئات المقربين. وقيل: هو مأخوذ من الغين وهو الغيم الرقيق الذي يغشى السماء فكان هذا الشغل والهم يغشى قلبه ﷺ ويغطيه عن غيره فكان يستغفر الله منه وقيل هذا الغين هو السكينة التي تغشى قلبه ﷺ وكأن سبب استغفاره لها إظهار العبودية والافتقار إلى الله تعالى.

وحكى الشيخ محيي الدين النووي عن القاضي عياض، أن المراد به الفترات والغفلات من الذكر الذي كان شأنه ﷺ الدوام عليه فإذا فتر وغفل عد ذلك ذنباً واستغفر منه وحكى الوجوه المتقدمة عنه. وعن غيره. وقال الحارث المحاسبي: خوف الأنبياء والملائكة خوف إعظام وإجلال وإن كانوا آمنين من عذاب الله تعالى. وقيل: يحتمل أن هذا الغبن حالة حسنة وإعظام يغشى القلب ويكون استغفاره شكراً كما قال: أفلا أكون عبداً شكوراً. وقيل في معنى الآية:

يكون لخمسين امرأة القيّم الواحد»، أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا محمد بن سنان ثنا فليح حدّثني هلال بن علي عن عطاء بن يسار عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: بينما النبي ﷺ في مجلس يحدّث القوم إذْ جاءه أعرابي فقال: متى الساعة؟ فمضى رسول الله ﷺ يحدّث، فقال بعض القوم: سمع ما قال فكره ما قال: وقال بعضهم: بل لم يسمع حتى إذا قضى حديثه، قال: أين السائل عن الساعة؟ قال: ها أنا يا رسول الله، قال: «إذا ضُيّعتِ الأمانة فانتظر الساعة»: قال: كيف إضاعتها؟ قال: «إذا وُسِدَ الأمرُ إلى غير أهله فانتظر الساعة»، قوله عزّ وجلّ: ﴿ فأنّى لهم إذا جاءتهم ذكراهم ﴾، فمن أين لهم التذكّر والاتّعاظ والتوبة إذا جاءتهم الساعة، نظيره: ﴿ يومئذ يتذكّر الإنسان وأنّى له الذكرى ﴾ [الفجر: ٢٣].

﴿ فاعْلم أنه لا إلَه إلاّ الله ﴾، قيل: الخطاب مع النبي ﷺ والمراد به غيره، وقيل: معناه فاثبتْ عليه. وقال الحسين بن الفضل: فازددْ علماً على علمك. وقال أبو العالية وابن عيينة: هو متّصل بما قبله معناه: إذا جاءتهم الساعة فاعلم أنه لا ملجأ ولا مفزع عند قيامها إلاّ إلى الله. وقيل: فاعْلمْ أنه لا إلَه إلاّ الله أن الممالك تبطل عند قيامها فلا ملك ولا حكم لأحد إلاّ الله، ﴿واستغفرْ لذنبك﴾، أمر بالاستغفار مع أنه مغفور له لتستنّ به أُمته، أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا أبو منصور السمعاني أنا أبو جعفر الرياني ثنا حميد بن زنجويه ثنا سليمان بن حرب ثنا حمّاد بن زيد عن ثابت عن أبي بردة عن الأغرّ المزني قال: قال رسول الله ﷺ: «إنه ليغان على قلبي وإنّي لأستغفر الله في كل يوم مائة مرة». قوله عزّ وجلّ: ﴿ وللمؤمنين والمؤمنات ﴾، هذا إكرام من الله

استغفر لذنبك أي لذنوب أهل بيتك ﴿وللمؤمنين والمؤمنات﴾ يعني من غير أهل بيته وهذا إكرام من الله عز وجل لهذه الأمة حيث أمر نبيه ﷺ أن يستغفر لذنوبهم وهو الشفيع المجاب فيهم ﴿والله يعلم متقلبكم ومثواكم﴾ قال ابن عباس والضحاك: متقلبكم يعني متصرفكم ومنتشركم في أعمالكم في الدنيا ومثواكم يعني مصيركم إلى الجنة أو إلى النار وقيل: متقلبكم في أشغالكم بالنهار ومثواكم بالليل إلى مضاجعكم وقيل: متقلبكم من أصلاب الآباء إلى أرحام الأمهات وبطونهن ومثواكم في الدنيا وفي القبور والمعنى أنه تعالى عالم بجميع أحوالكم فلا يخفى عليه شيء منها وإن دق وخفي.

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ويقول الذين آمنوا لولا نزلت سورة﴾ وذلك أن المؤمنين كانوا حراصاً على الجهاد في سبيل الله فقالوا: فهلا أنزلت سورة تأمرنا بالجهاد؟ لكي نجاهد ﴿فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال﴾ قال مجاهد: كل سورة ذكر فيها الجهاد فهي محكمة وهي أشد القرآن على المنافقين ﴿رأيت الذين في قلوبهم مرض﴾ يعني نفاقاً وهم المنافقون ﴿ينظرون إليك﴾ يعني شزراً وكراهية منهم للجهاد وجبنا عن لقاء العدو ﴿نظر المغشي عليه من الموت﴾ يعني كما ينظر الشاخص بصره عند معاينة الموت﴿فأولى لهم﴾ فيه وعيد وتهديد وهو معنى قولهم في التهديد وليك وقاربك ما تكره وتم الكلام عند هذا.

ثم ابتدأ بقوله ﴿طاعة وقول معروف﴾ فعلى هذا هو مبتدأ محذوف الخبر تقديره طاعة وقول معروف أمثل لهم وأولى بهم.

والمعنى: لو أطاعوا وقالوا قولاً معروفاً كان أمثل وأحسن. وقيل: هو متصل بما قبله واللام في لهم بمعنى الباء

تعالى لهذه الأمة حيث أمر نبيّهم ﷺ أن يستغفر لذنوبهم وهو الشـفيع المُجاب فيهم، ﴿ والله يعلم متقلّبكم ومثواكم ﴾، قال ابن عباس والضحاك: متقلبكم متصرّفكم ومنتشركم في أعمالكم في الدنيا، ومثواكم مصيركم في الآخرة إلى الجنة أو إلى النار. وقال مقاتل وابن جرير: متقلبكم منصرفكم لأشغالكم بالنهار ومثواكم مأواكم إلى مضاجعكم بالليل. وقال عكرمة: متقلبكم من أصلاب الآباء إلى أرحام الأمهات ومثواكم مقامكم في الأرض. وقال ابن كيسان: متقلبكم من ظهر إلى بطنٍ ومثواكم مقامكم في القبور، والمعنى: أنه عالم بجميع أحوالكم فلا يخفى عليه شيء منها.

﴿ ويقول الذين آمنوا ﴾، حرصاً منهم على الجهاد، ﴿ لولا نزلت سورة ﴾، تأمرنا بالجهاد، ﴿ فإذا أُنزلت سورة محكمة وذُكِر فيها القتال ﴾، قال قتادة: كل سورة ذُكر فيها الجهاد فهي محكمة وهي أشدّ القرآن على المنافقين، ﴿ رأيتَ الذين في قلوبهم مرض ﴾، يعني المنافقين، ﴿ ينظرون إليك ﴾، شزراً بتحديق شديد كراهية منهم للجهاد وجُبناً عن لقاء العدو، ﴿ نظر المغشي عليه من الموت ﴾، كما ينظر الشاخص بصره عند الموت، ﴿ فأولى لهم ﴾، وعيد وتهديد، ومعنى قولهم في التهديد أولى لك أي وليك وقاربك ما تكره.

ثم قال: ﴿ طاعة وقول معروف ﴾، وهذا ابتداء محذوف الخبر تقديره: طاعة، وقول معروف أمثل، أي لو

مجازة فأولى بهم طاعة الله وطاعة رسوله وقول معروف بالإجابة والمعنى لو أطاعوا وأجابوا لكانت الطاعة والإجابة أولى بهم وهذا معنى قول ابن عباس في رواية عطاء عنه ﴿فإذا عزم الأمر﴾ فيه حذف تقديره فإذا عزم صاحب الأمر وقيل: هو على أصله ومجازه كقولنا: جاء الأمر ودنا الوقت وهذا أمر متوقع. ومعنى الآية: فإذا عزم الأمر خالف المنافقون وكذبوا فيما وعدوا به﴿فلو صدقوا الله لكان خيراً لهم﴾ يعني الصدق وقيل: معناه لو صدقوا الله في إظهار الإيمان والطاعة لكان ذلك خيراً لهم ﴿فهل عسيتم﴾ أي فلعلكم ﴿إن توليتم﴾ يعني أعرضتم عن سماع القرآن وفارقتم أحكامه ﴿أن تفسدوا في الأرض﴾ يعني تعودوا إلى ما كنتم عليه في الجاهلية من الفساد في الأرض بالمعصية والبغي وسفك الدم وترجعوا إلى الفرقة بعد ما جمعكم الله بالإسلام ﴿وتقطعوا أرحامكم﴾ قال قتادة كيف رأيتم القوم حين تولوا عن كتاب الله ألم يسفكوا الدم الحرام وقطعوا الأرحام وعصوا الرحمن؟ (ق) عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال «إن الرحم شجنة من الرحمن فقال الله تعالى من وصلك وصلته ومن قطعك قطعته». وفي رواية قال: قال رسول الله ﷺ «إن الله خلق الخلق حتى إذا فرغ منهم قامت الرحم فأخذت بحقو الرحمن فقال: مَهْ فقالت: هذا مقام العائذ بك من القطيعة قال: نعم أما ترضين أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك قالت بلى قال فذلك لك ثم قال رسول الله ﷺ اقرؤوا إن شئتم: فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها» الشجنة: القرابة المشتبكة كاشتباك العروق. والحقو. مشد الإزار من الإنسان وقد يطلق على الإزار، ولما جعل الرحم شجنة من الرحمن، استعار لها الاستمساك به والأخذ كما يستمسك القريب من قريبه والنسيب من نسيبه. ومعنى صلة الرحم: مبرة الأقارب والإحسان إليهم وقطع الرحم ضد صلتها والعائذ اللائذ المستجير قال القاضي عياض: الرحم التي توصل وتقطع وتبر إنما هي معنى من المعاني وليست بجسم وإنما هي قرابة ونسب يجمعه رحم والده فيتصل بعضه ببعض فسمي ذلك الاتصال رحماً. والمعاني لا يتأتى منها القيام ولا الكلام فيكون ذكر قيامها هنا وتعلقها ضرب مثل وحسن استعارة على عادة العرب في استعمال ذلك والمراد تعظيم شأنها وفضيلة واصلها وعظيم إثم قاطعها ولهذا سمي العقوق قطعاً كأنه قطع ذلك السبب المتصل قال: ويجوز أن يكون المراد قيام ملك من الملائكة تعلق بالعرش وتكلم على لسانها بهذا بأمر الله عز وجل هذا كلام القاضي عياض في معنى هذا الحديث والله أعلم وقيل في الآية في قوله ﴿إن توليتم﴾ هو من الولاية يعني ﴿فهل عسيتم﴾ إن توليتم أمر الناس أن تفسدوا في الأرض، يعني بالظلم، وتقطعوا أرحامكم، ومعنى الاستفهام في قوله: فهل عسيتم للتقرير المذكور والمعنى هل يتوقع منكم الإفساد.

فإن قلت: عسى طمع وترج وتوقع وذلك على الله محال لأنه تعالى عالم بكل شيء فما معناه.

أطاعوا وقالوا قولاً معروفاً كان أمثل وأحسن. وقيل: مجازه يقول هؤلاء المنافقون قبل نزول السورة المحكمة طاعة رفع على الحكاية أي أمرنا طاعة أو منّا طاعة، وقول معروف حسن. وقيل: هو متصل بما قبله واللام في قولهم بمعنى الباء، مجازه: فأولى بهم طاعة الله ورسوله، وقول معروف بالإجابة، أي لو أطاعوا كانت الطاعة والإجابة أولى بهم، وهذا معنى قول ابن عباس في رواية عطاء. ﴿ فإذا عزم الأمر ﴾، أي جدّ الأمر ولزم فرض القتال وصار الأمر معزوماً، ﴿ فلو صدقوا الله ﴾، في إظهار الإيمان والطاعة، ﴿ لكان خيراً لهم ﴾، وقيل: جواب إذا محذوف تقديره فإذا عزم الأمر نكلوا وكذّبوا فيما وعدوا ولو صدقوا الله لكان خيراً لهم.

﴿ فهل عسيتم ﴾، فلعلكم، ﴿ إن تولّيتم ﴾، أعرضتم عن القرآن وفارقتم أحكامه، ﴿ أن تفسدوا في الأرض ﴾، تعودوا إلى ما كنتم عليه في الجاهلية فتفسدوا في الأرض بالمعصية والبغي وسفك الدماء، وترجعوا إلى الفرقة بعدما جمعكم الله بالإسلام. ﴿ وتُقطّعوا أرحامكم ﴾، قرأ يعقوب ﴿ وتقطعوا ﴾ بفتح التاء خفيف،

قلت: قال بعضهم معناه: يفعل بكم فعل المترجي المبتلي. وقال بعضهم معناه كل من ينظر إليهم يتوقع منهم ذلك. وقال الزمخشري: معناه أنه لما عهد منكم إحقاء بأن يقول لكم كل من ذاقكم وعرف تمريضكم ورخاوة عقدكم في الإيمان يا هؤلاء ما ترون هل يتوقع منكم إن توليتم أمور الناس وتأمرتم عليهم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم تناحراً على الملك وتهالكاً على الدنيا.

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ ﴿٢٣﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴿٢٤﴾ إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى ۙ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ ۖ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾﴾

﴿**أولئك**﴾ إشارة إلى من إذا تولى أفسد في الأرض وقطع الأرحام ﴿**الذين لعنهم الله**﴾ يعني أبعدهم من رحمته وطردهم عن جنته ﴿**فأصمهم**﴾ يعني عن سماع الحق ﴿**وأعمى أبصارهم**﴾ يعني عن طريق الهدى وذلك أنهم لما سمعوا القرآن فلم يفهموه ولم يؤمنوا به وأبصروا طريق الحق فلم يسلكوه ولم يتبعوه، فكانوا بمنزلة الصم العمى، وإن كان لهم أسماع وأبصار في الظاهر ﴿**أفلا يتدبرون القرآن**﴾ يعني يتكفرون فيه وفي مواعظه وزواجره وأصل التدبر التفكر في عاقبة الشيء وما يؤول إليه أمره. وتدبر القرآن لا يكون إلا مع حضور القلب وجمع الهم وقت تلاوته ويشترط فيه تقليل الغذاء من الحلال الصرف وخلوص النية ﴿**أم على قلوب أقفالها**﴾ يعني بل على قلوب أقفالها وجعل القفل مثلاً لكل مانع للإنسان من تعاطي فعل الطاعة. يقال: فلان مقفل عن كذا، بمعنى ممنوع منه.

فإن قلت: إذا كان الله تعالى قد أصمهم وأعمى أبصارهم وأقفل على قلوبهم وهو بمعنى الختم فكيف يمكنهم تدبر القرآن مع هذه الموانع الشديدة.

قلت: تكليف ما لا يطاق جائز عندنا، لأن الله أمر بالإيمان لمن سبق في علمه أنه لا يؤمن فكذلك هنا والله يفعل ما يريد لا اعتراض لأحد عليه. وقيل: إن قوله ﴿**أفلا يتدبرون القرآن**﴾ المراد به التأسي. وقيل: إن هذه الآية محققة للآية المتقدمة وذلك أن الله تعالى لما قال: ﴿**أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم**﴾ فكان قوله أفلا

والآخرون بالتشديد من التقطيع على التكثير لأجل الأرحام، قال قتادة: كيف رأيتم القوم حين تولّوا عن كتاب الله ألم يسفكوا الدم الحرام، وقطعوا الأرحام، وعصوا الرحمن؟ وقال بعضهم: هو من الولاية. وقال المسيب ابن شريك والفرّاء: يقول فهل عسيتُم إنْ وُلّيتم أمر الناس أن تفسدوا في الأرض بالظلم، نزلت في بني أُمية وبني هاشم، يدل عليه قراءة علي بن أبي طالب ﴿ تولّيتم ﴾ بضم التاء والواو وكسر اللام، يقول إن ولّيتكم ولاة جائرة خرجتم معهم في الفتنة وعاونتوهم.

﴿ أولئك الذين لعنهم الله فأصمّهم وأعمى أبصارهم ﴾، عن الحق.

﴿ أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها ﴾، فلا تفهم مواعظ القرآن وأحكامه، و﴿ أم ﴾ بمعنى (بل).
أخبرنا أحمد بن إبراهيم أنا أبو إسحاق الثعلبي أنبأني عقيل بن محمد أنا المعافَى بن زكريا أنا محمد بن جرير ثنا بشر ثنا حمّاد بن زيد ثنا هشام بن عروة عن أبيه قال: تلا رسول الله ﷺ: ﴿ أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها ﴾ فقال شاب من أهل اليمن: بل على قلوب أقفالها حتى يكون الله يفتحها أو يفرجها، فما زال الشابُّ في نفس عمر حتى وُلّي فاستعان به.

يتدبرون القرآن كالتهييج لهم على ترك ما هم فيه من الكفر الذي استحقوا بسببه اللعنة أو كالتبكيت لهم على إصرارهم على الكفر والله أعلم بمراده.

وروى البغوي بإسناد الثعلبي، عن عروة بن الزبير قالا: «تلا رسول الله ﷺ أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها فقال شاب من أهل اليمن: بل على قلوب أقفالها حتى يكون الله يفتحها أو يفرجها فما زال الشاب في نفس عمر حتى ولي فاستعان به» هذا حديث مرسل وعروة بن الزبير تابعي من كبار التابعين وأجلهم لم يدرك النبي ﷺ لأنه ولد سنة اثنتين وعشرين وقيل غير ذلك.

قوله عز وجل: ﴿**إن الذين ارتدوا على أدبارهم**﴾ يعني رجعوا القهقرى كفاراً ﴿**من بعد ما تبين لهم الهدى**﴾ يعني من بعد ما وضح لهم طريق الهداية. قال قتادة: هم كفار أهل الكتاب كفروا بمحمد ﷺ من بعد ما عرفوه ووجدوا نعته في كتابهم. وقال ابن عباس والضحاك والسدي: هم المنافقون آمنوا أولاً ثم كفروا ثانياً ﴿**الشيطان سول لهم**﴾ يعني زين لهم القبيح حتى رأوه حسناً ﴿**وأملى لهم**﴾ قرىء بضم الألف وكسر اللام وفتح الياء على ما لم يسم فاعله يعني أمهلوا ومد لهم في العمر وقرىء وأملى لهم بفتح الألف واللام بمعنى وأملى لهم الشيطان بأن مد لهم في الأمل.

فإن قلت: الإملاء والإمهال لا يكونان إلا من الله لأنه الفاعل المطلق وليس للشيطان فعل قط على مذهب أهل السنة، فما معنى هذه القراءة.

قلت إن المسول والمملي هو الله تعالى في الحقيقة وليس للشيطان فعل إنما أسند إليه ذلك من حيث إن الله تعالى قدر ذلك على يده ولسانه فالشيطان يمنيهم ويزين لهم القبيح ويقول لهم في آجالكم فسحة فتمتعوا بدنياكم ورياستكم إلى آخر العمر ﴿**ذلك**﴾ إشارة إلى التسويل والإملاء ﴿**بأنهم**﴾ يعني بأن أهل الكتاب أو المنافقين ﴿**قالوا للذين كرهوا ما نزل الله**﴾ وهم المشركون ﴿**سنطيعكم في بعض الأمر**﴾ يعني من التعاون على عداوة محمد ﷺ وترك الجهاد معه والقعود عنه وكانوا يقولون ذلك سراً فأخبر الله نبيه محمداً ﷺ خبرهم ثم قال: ﴿**والله يعلم إسرارهم**﴾ يعني أنه تعالى لا تخفى عليه خافية من أمرهم.

فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٢٨﴾ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ

﴿ **إنّ الذين ارتدّوا على أدبارهم** ﴾، رجعوا كفّاراً، ﴿ **من بعد ما تبيّن لهم الهدى** ﴾، قال قتادة: هم كفّار أهل الكتاب كفروا بمحمد ﷺ بعدما عرفوه وجدوا نعته في كتابهم، وقال ابن عباس والضحاك والسدي: هم المنافقون، ﴿ **الشيطان سوّل لهم** ﴾، زيّن لهم القبيح، ﴿ **وأملى لهم** ﴾، قرأ أهل البصرة بضم الألف وكسر اللام وفتح الياء على ما لم يُسَمَّ فاعله، وقرأ مجاهد بإرسال الياء على وجه الخبر من الله عزّ وجلّ عن نفسه أنه يفعل ذلك، وتُروَى هذه القراءة عن يعقوب، وقرأ الآخرون ﴿ **وأملى لهم** ﴾ بفتح الألف أي وأملى الشيطان لهم مدّ لهم في الأمل.

﴿ **ذلك بأنهم** ﴾، يعني المنافقين أو اليهود، ﴿ **قالوا للذين كرهوا ما نزّل الله** ﴾، وهم المشركون، ﴿ **سنطيعكم في بعض الأمر** ﴾، في التعاون على عداوة محمد ﷺ والقعود عن الجهاد، وكانوا يقولونه سرّاً فأخبر الله تعالى عنهم، ﴿ **والله يعلم إسرارهم** ﴾، قرأ أهل الكوفة غير أبي بكر بكسر الهمزة على المصدر والباقون بفتحها على جمع السر.

أَضْغَٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٠﴾
وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ
وَشَآقُّوا۟ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٣٢﴾

﴿فكيف إذا توفتهم الملائكة﴾ يعني فكيف يكون حالهم إذا توفتهم الملائكة **﴿يضربون وجوههم وأدبارهم ذلك﴾** يعني ذلك الضرب **﴿بأنهم﴾** يعني بسبب أنهم **﴿اتبعوا ما أسخط الله﴾** يعني ترك الجهاد مع رسول الله ﷺ وقال ابن عباس: بما كتموا من التوراة وكفروا بمحمد ﷺ **﴿وكرهوا رضوانه﴾** يعني كرهوا ما فيه رضوان الله عز وجل وهو الإيمان والطاعة والجهاد مع رسول الله ﷺ **﴿فأحبط أعمالهم﴾** التي عملوها من أعمال البر لأنها لم تكن لله ولا بأمره **﴿أم حسب الذين في قلوبهم مرض﴾** أي شك ونفاق وهم المنافقون **﴿أن لن يخرج الله أضغانهم﴾** يعني يظهر أحقادهم على المؤمنين فيبديها حتى يعرف المؤمنون نفاقهم واحدها ضغن وهو الحقد الشديد. وقال ابن عباس: حسدهم **﴿ولو نشاء لأريناكم فلعرفتهم بسيماهم﴾** لما قال تعالى: **﴿أم حسب الذين في قلوبهم مرض أن لن يخرج الله أضغانهم﴾** فكأن قائلاً قال لمَ لمْ يخرج أضغانهم ويظهرها فأخبر تعالى أنه إنما أخر ذلك لمحض المشيئة لا لخوف منهم فقال تعالى: **﴿ولو نشاء لأريناكهم﴾** لا مانع لنا من ذلك. والإراءة بمعنى التعريف والعمل. وقوله: **﴿فلعرفتهم﴾** لزيادة فائدة وهي أن التعريف قد يطلق ولا يلزم منه المعرفة الحقيقية كما يقال: عرفته فلم يعرف فكان المعنى هنا عرفناكهم تعريفاً تعرفهم به ففيه إشارة إلى قوة ذلك التعريف الذي لا يقع معه اشتباه وقوله **﴿بسيماهم﴾** يعني بعلامتهم أي نجعل لك علامة تعرفهم بها. قال أنس: ما خفي على رسول الله ﷺ بعد نزول هذه الآية شيء من المنافقين وكان يعرفهم بسيماهم **﴿ولتعرفنهم في لحن القول﴾** يعني في معنى القول وفحواه ومقصده وللحن معنيان صواب وخطأ صرف الكلام وإزالته عن التصريح إلى المعنى والتعريض وهذا محمود من حيث البلاغة ومنه قوله ﷺ: «فلعل بعضكم ألحن بحجته من بعض» وإليه قصد بقوله **﴿ولتعرفنهم في لحن القول﴾** وأما اللحن المذموم فظاهر وهو

﴿ فكيف إذا توفّتهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم ﴾.

﴿ ذلك ﴾، أي الضرب، **﴿ بأنهم اتّبعوا ما أسخط الله ﴾**، قال ابن عباس: بما كتموا من التوراة وكفروا بمحمد ﷺ، **﴿ وكرهوا رضوانه ﴾**، كرهوا ما فيه رضوان الله، وهو الطاعة والإيمان. **﴿ فأحبط أعمالهم ﴾.**

﴿ أم حسب الذين في قلوبهم مرض ﴾، يعني المنافقين، **﴿ أن لنْ يُخرجَ اللّهُ أضغانهم ﴾**، أن لن يظهر أحقادهم على المؤمنين فيُبديها حتى يعرفوا نفاقهم، واحدها ضغن، قال ابن عباس: حسدهم.

﴿ ولو نشاء لأريناكهم ﴾، أي لأعلمناكهم وعرفناكهم، **﴿ فلَعَرفتَهم بسيماهم ﴾**، بعلامتهم، قال الزجّاج: المعنى لو نشاء لجعلنا على المنافقين علامة تعرفهم بها. قال أنس: ما خفي على رسول الله ﷺ بعد نزول هذه الآية شيء من المنافقين، كان يعرفهم بسيماهم. **﴿ ولتعرفنّهم في لحن القول ﴾**، في معناه ومقصده، واللحن: وجهان صواب وخطأ، فالفعل من الصواب لحن يلحن لحناً فهو لحن إذ فطن للشيء، ومنه قول النبي ﷺ: «ولعلّ بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض»، والفعل من الخطأ لحن يلحن لحناً فهو لاحن، والأصل فيه إزالة الكلام عن جهته، والمعنى إنك تعرفهم فيما يعرضون به من تهجين أمرك وأمر المسلمين والاستهزاء بهم، فكان بعد هذا لا يتكلم منافق عند النبي ﷺ إلاّ عرفه بقوله، ويستدلّ بفحوى كلامه على فساد خلقه وعقيدته، **﴿ والله يعلم أعمالكم ﴾.**

صرف الكلام عن الصواب إلى الخطأ بإزالة الإعراب أو التصحيف. ومعنى الآية: وإنك يا محمد لتعرفن المنافقين فيما يعرضون به من القول من تهجين أمرك وأمر المسلمين وتقبيحه والاستهزاء به فكان بعد هذا لا يتكلم منافق عند النبي ﷺ إلا عرفه بقوله ويستدل بفحوى كلامه على فساد باطنه ونفاقه ثم قال الله تعالى: ﴿والله يعلم أعمالكم﴾ يعني أعمال جميع عباده فيجازي كلاً على قدر عمله.

قوله تعالى ﴿ولنبلونكم﴾ يعني ولنعاملنكم معاملة المختبر فإن الله تعالى عالم بجميع الأشياء قبل كونها ووجودها ﴿حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين﴾ يعني إنا نأمركم بالجهاد حتى يظهر المجاهد ويتبين من يبادر منكم ويصبر عليه من غيره لأن المراد من قوله: حتى نعلم، أي علم الوجود والظهور ﴿ونبلوأخباركم﴾ يعني نظهرها ونكشفها ليتبين من يأتي القتال ولا يصبر على الجهاد ﴿إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله وشاقوا الرسول﴾ يعني خالفوه فيما أمرهم به من الجهاد وغيره ﴿من بعد ما تبين لهم الهدى﴾ يعني من بعد ما ظهر لهم أدلة الهدى وصدق الرسول ﷺ ﴿لن يضروا الله شيئاً﴾ يعني إنما يضرون أنفسهم بذلك والله تعالى منزه عن ذلك ﴿وسيحبط أعمالهم﴾ يعني وسيبطل أعمالهم فلا يرون لها ثواباً في الآخرة لأنها لم تكن لله تعالى قال ابن عباس: هم لمطعمون يوم بدر.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓا۟ أَعْمَـٰلَكُمْ ﴿٣٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ
ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٤﴾ فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ
أَعْمَـٰلَكُمْ ﴿٣٥﴾ إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴿٣٦﴾ إِن
يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا۟ وَيُخْرِجْ أَضْغَـٰنَكُمْ ﴿٣٧﴾

قوله عز وجل: ﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول﴾ لما ذكر الله عز وجل الكفار بسبب مشاقتهم لرسول الله ﷺ أمر الله المؤمنين بطاعته وطاعة رسوله ﷺ ثم قال تعالى: ﴿ولا تبطلوا أعمالكم﴾ قال عطاء: يعني بالشرك والنفاق والمنى. داوموا على ما أنتم عليه من الإيمان والطاعة ولا تشركوا فتبطل أعمالكم. وقيل: لا تبطلوا أعمالكم بترك طاعة رسول الله ﷺ كما أبطل أهل الكتاب أعمالهم بتكذيب رسول الله ﷺ وعصيانه. وقال الكلبي: لا

﴿ ولنبلونّكم ﴾، ولنعاملنّكم معاملة المختبر بأن نأمركم بالجهاد والقتال، ﴿ حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ﴾، أي علم الوجود يريد حتى يتبيّن المجاهد والصابر على دينه من غيره، ﴿ ونبلو أخباركم ﴾، أي نظهرها ونكشفها بإباء مَن يأبى القتال، ولا يصبر على الجهاد، وقرأ أبو بكر عن عاصم ﴿ وليبلونّكم حتى يعلم ﴾، ويبلوا بالياء فيهنّ، لقوله تعالى: ﴿ والله يعلم أعمالكم ﴾، وقرأ الآخرون بالنون فيهنّ، لقوله تعالى: ﴿ ولو نشاء لأريناكم ﴾، وقرأ يعقوب ﴿ ونبلو ﴾ ساكنة الواو ردّاً على قوله: ﴿ ولنبلونّكم ﴾ وقرأ الآخرون بالفتح ردّاً على قوله: ﴿ حتى نعلم ﴾.

﴿ إنّ الذين كفروا وصدّوا عن سبيل الله ﴾، أي رسول الله ﷺ، ﴿ وشاقّوا الرسول من بعد ما تبيّن لهم الهدى لن يضرّوا الله شيئاً ﴾، إنما يضرّون أنفسهم، ﴿ وسيحبط أعمالهم ﴾، فلا يرون لها ثواباً في الآخرة، قال ابن عباس رضي الله عنهما: هم المطعمون يوم بدر، نظيرها قوله عزّ وجلّ: ﴿ إنّ الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدّوا عن سبيل الله ﴾ [الأنفال: ٣٦]، الآية.

﴿ يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولا تبطلوا أعمالكم ﴾، قال عطاء: بالشك والنفاق، وقال الكلبي: بالرياء والسُّمعة. وقال الحسن: بالمعاصي والكبائر. وقال أبو العالية: كان أصحاب رسول الله ﷺ يرون

تبطلوا أعمالكم بالرياء والسمعة لأن الله لا يقبل من الأعمال إلا ما كان خالصاً لوجهه الكريم. وقال الحسن: لا تبطلوا أعمالكم بالمعاصي والكبائر. قال أبو العالية: كان أصحاب رسول الله ﷺ يرون أنه لا يضرهم مع الإيمان ذنب كما لا ينفع مع الشرك عمل فنزلت هذه الآية فخافوا من الكبائر بعد أن نحبط أعمالهم واستدل بهذه الآية من يرى إحباط الطاعات بالمعاصي ولا حجة لهم فيها وذلك لأن الله تعالى يقول: ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره﴾ وقال تعالى: ﴿وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً﴾ فالله تعالى أعدل وأكرم من أن يبطل طاعات سنين كثيرة بمعصية واحدة وروى ابن عمر أنه قال: كنا نرى أنه لا شيء من حسناتنا إلا مقبولاً حتى نزل ﴿ولا تبطلوا أعمالكم﴾ فقلنا ما هذا الذي يبطل أعمالنا. فقلنا: الكبائر والفواحش حتى نزل ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾ فكففنا عن ذلك القول وكنا نخاف على من أصاب الكبيرة ونرجو لمن لم يصبها واستدل بهذه الآية من لا يرى إبطال النوافل حتى لو دخل في صلاة تطوع أو صوم تطوع لا يجوز له إبطال ذلك العمل والخروج منه ولا دليل لهم في الآية ولا حجة لأن السنة مبينة للكتاب «وقد ثبت في الصحيحين أن النبي ﷺ أصبح صائماً فلما رجع إلى البيت وجد حيساً فقال لعائشة قربيه فلقد أصبحت صائماً فأكل» وهذا معنى الحديث وليس بلفظه وفي الصحيحين أيضاً أن سلمان زار أبا الدرداء فصنع له طعاماً فلما قربه إليه قال. كل فإني صائم قال لست بآكل حتى تأكل فأكل معه وقال مقاتل في معنى الآية لا تمنوا على رسول الله ﷺ فتبطل أعمالكم نزلت في بني أسد وسنذكر القصة في تفسير سورة الحجرات إن شاء الله تعالى: ﴿إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله ثم ماتوا وهم كفار فلن يغفر الله لهم﴾ قيل نزلت في أهل القليب وهم أبو جهل وأصحابه الذين قتلوا ببدر وألقوا في قليب بدر وحكمها عام في كل كافر مات على كفره فالله لا يغفر له لقوله تعالى: ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾ ﴿فلا تهنوا﴾ الخطاب فيه لأصحاب النبي ﷺ ثم هو عام لجميع المسلمين يعني فلا تضعفوا أيها المؤمنون ﴿وتدعوا إلى السلم﴾ يعني ولا تدعوا الكفار إلى الصلح أبداً منع الله المسلمين أن يدعوا الكفار إلى الصلح وأمرهم بحربهم حتى يسلموا ﴿وأنتم الأعلون﴾ يعني وأنتم الغالبون لهم والعالون عليهم. أخبر الله تعالى أن الأمر للمسلمين والنصرة والغلبة لهم عليهم وإن غلبوا المسلمين في بعض الأوقات ﴿والله معكم﴾ يعني بالنصر والمعونة ومن كان الله معه فهو العالي

أنه لا يضرّ مع الإخلاص ذنب كما لا ينفع مع الشرك عمل، فنزلت هذه الآية فخافوا الكبائر بعد أن تحبط الأعمال، وقال مقاتل: لا تمنّوا على رسول الله ﷺ فتبطلوا أعمالكم، نزلت في بني أسد وسنذكره في سورة الحجرات إن شاء الله تعالى.

﴿ إن الذين كفروا وصدّوا عن سبيل الله ثم ماتوا وهم كفّار فلن يغفر الله لهم ﴾، هم أصحاب القليب وحكمها عامّ.

﴿ فلا تهنوا ﴾، لا تضعفوا ﴿ وتدعوا إلى السلم ﴾، أي لا تدعوا إلى الصلح، ابتداء منع الله المسلمين أن يدعوا الكفّار إلى الصلح، وأمرهم بحربهم حتى يسلموا، ﴿ وأنتم الأعلون ﴾، الغالبون، قال الكلبي: آخر الأمر لكم وإن غلبوكم في بعض الأوقات، ﴿ والله معكم ﴾، بالعون والنصرة، ﴿ ولن يَتِرَكُم أعمالكم ﴾، لن ينقصكم شيئاً من ثواب أعمالكم، يقال: وتره يتره وتراً وترة إذا نقص حقه، قال ابن عباس وقتادة ومقاتل والضحاك: لن يظلمكم أعمالكم الصالحة بل يؤتيكم أُجورها.

ثم حضّ على طلب الآخرة فقال: ﴿إنما الحياة الدنيا لعبٌ ولهو﴾، باطل وغرور، ﴿ وإن تؤمنوا وتتّقوا ﴾، الفواحش، ﴿ يؤتكم أُجوركم ﴾، جزاء أعمالكم في الآخرة، ﴿ ولا يسألكم ﴾، ربكم، ﴿ أموالكم ﴾، لإيتاء الأجر بل يأمركم بالإيمان والطاعة ليُثيبكم عليها الجنة، نظيره قوله: ﴿ ما أُريد منهم من رزق ﴾ [الذاريات: ٥٧]،

الغالب ﴿ولن يتركم أعمالكم﴾ يعني لن ينقصكم شيئاً من ثواب أعمالكم. وقال ابن عباس وغيره: لن يظلمكم أعمالكم الصالحة بل يؤتيكم أجورها ثم حض على الآخرة بذم الدنيا فقال تعالى: ﴿إنما الحياة الدنيا لعب ولهو﴾ أي باطل وغرور يعني كيف تمنعكم الدنيا عن طلب الآخرة وقد علمتم أن الدنيا كلها لعب ولهو إلا ما كان منها في عبادة الله عز وجل وطاعته واللعب ما يشغل الإنسان وليس فيه منفعة في الحال ولا في المآل ثم إذا استعمله الإنسان ولم يشغله عن غيره ولم ينسه أشغله المهمة فهو اللعب وإن أشغله عن مهمات نفسه فهو اللهو ﴿وإن تؤمنوا وتتقوا يؤتكم أجوركم﴾ يعني يؤتكم جزاء أعمالكم في الآخرة ﴿ولا يسألكم أموالكم﴾ يعني أن الله تعالى لا يسأل من العباد أموالهم لإيتاء الأجر عليهم، بل يأمرهم بالإيمان والتقوى والطاعة ليثيبهم عليها الجنة. وقيل: معناه ولا يسألكم محمد ﷺ أموالكم وقيل: معناه لا يسألكم الله ورسوله ﷺ أموالكم كلها في الصدقات إنما يسألكم غيضاً من فيض وهو ربع العشر من أموالكم وهو زكاة أموالكم ثم ترد عليكم ليس لله ورسوله فيها حاجة إنما فرضها الله تعالى في أموال الأغنياء وردها على الفقراء فطيبوا بإخراج الزكاة أنفسكم. وإلى هذا القول ذهب سفيان بن عيينة ويدل عليه سياق الآية وهو قوله تعالى: ﴿إن يسألكموها﴾ الضمير عائد إلى الأموال ﴿فيحفكم﴾ يعني يجهدكم ويطلبها كلها والإحفاء المبالغة في المسألة وبلوغ الغاية في كل شيء. يقال: أحفاه في المسألة إذا لم يترك شيئاً من الإلحاح ﴿تبخلوا﴾ يعني بالمال فلا تعطوه ﴿ويخرج أضغانكم﴾ يعني بغضكم وعداوتكم لشدة محبتكم للأموال قال قتادة علم الله أن الإحفاء بمسألة الأموال مخرج للأضغان.

﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾﴾

﴿ها أنتم هؤلاء﴾ يعني أنتم يا هؤلاء المخاطبون الموصوفون ثم استأنف وصفهم فقال تعالى: ﴿تدعون لتنفقوا في سبيل الله﴾ قيل أراد به النفقة في الجهاد والغزو وقيل المراد به إخراج الزكاة وجميع وجوه البر والكل في سبيل الله ﴿فمنكم من يبخل﴾ يعني بما فرض عليه إخراجه من الزكاة أو ندب إلى أنفاقه في وجوه البر ﴿ومن يبخل﴾ يعني بالصدقة وأداء الفريضة فلا يتعداه ضر بخله وهو قوله تعالى: ﴿فإنما يبخل عن نفسه﴾ أي على نفسه ﴿والله الغني﴾ يعني عن صدقاتكم وطاعتكم لأنه الغني المطلق الذي له ملك السموات والأرض ﴿وأنتم الفقراء﴾ يعني إليه وإلى ما عنده من الخيرات والثواب في الدنيا والآخرة ﴿وإن تتولوا﴾ يعني عن طاعة الله تعالى وطاعة رسوله ﷺ وعن القيام بما أمركم به وألزمكم إياه ﴿يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم﴾ يعني يكونون أطوع لله ورسوله ﷺ منكم. قال الكلبي: هم كندة والنخع من عرب اليمن. وقال الحسن: هم العجم. وقال عكرمة: هم فارس والروم.

وقيل: لا يسألكم محمدٌ أموالكم، نظيره: ﴿ قلْ ما أسألكم عليه من أجْر ﴾ [الفرقان: ٥٧، صٓ: ٨٦]، وقيل معنى الآية: لا يسألكم الله ورسوله أموالكم كلها في الصدقات، إنما يسألانكم غيضاً من فيض، ربع العشر فطيبوا بها نفساً، وقَرُّوا بها عيناً.

وإلى هذا القول ذهب ابن عُيينة، يدلّ عليه سياق الآية: ﴿ إنْ يسألكموها فيحفِكم ﴾، أي يجهدكم ويلحف عليكم بمسألة جميعها، يقال: أحفى فلان فلاناً إذا جهده، وألحف عليه بالمسألة، ﴿ تبخلوا ﴾، بها فلا تعطوها، ﴿ ويخرج أضغانكم ﴾، بغضكم وعداوتكم، قال قتادة: علم الله أن في مسألة الأموال خروج الأضغان.

﴿ ها أنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا في سبيل الله ﴾، يعني إخراج ما فرض الله عليكم، ﴿ فمنكم مَن يبخل ﴾، بما فرض عليه من الزكاة، ﴿ ومَن يبخل فإنما يبخل عن نفسه والله الغني ﴾، عن صدقاتكم وطاعتكم، ﴿ وأنتم

عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: تلا رسول الله ﷺ هذه الآية﴿**وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم**﴾ قالوا ومن يستبدل بنا قال فضرب رسول الله ﷺ على منكب سلمان ثم قال هذا وأصحابه» أخرجه الترمذي وقال حديث غريب وفي إسناده مقال وله رواية أخرى عن أبي هريرة قال: «قال ناس من أصحاب رسول الله ﷺ يا رسول الله من هؤلاء الذين ذكر الله عز وجل إن تولينا استبدلوا منا ثم لا يكونوا أمثالنا قال وكان سلمان بجنب رسول الله ﷺ فضرب رسول الله ﷺ فخذ سلمان فقال هذا وأصحابه والذي نفسي بيده لو كان الإيمان منوطاً بالثريا لتناوله رجال من فارس» ولهذا الحديث طرق في الصحيح ترد في سورة الجمعة إن شاء الله تعالى والله سبحانه وتعالى أعلم بمراده.

الفقراء ﴾، إليه وإلى ما عنده من الخير. ﴿ **وإن تتولّوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم** ﴾، بل يكونوا أمثل منكم وأطوع لله منكم، قال الكلبي: هم كندة والنخع، وقال الحسن: هم العجم. وقال عكرمة: فارس والروم. أخبرنا أبو بكر أحمد بن أبي نصر الكوفاتي أنا أبو محمد عبد الرحمن بن عمر بن محمد بن إسحاق النجيبي المصري المعروف بابن النحّاس أنا أبو الطيب الحسن بن محمد الرياش ثنا يونس بن عبد الأعلى ثنا ابن وهب ثنا مسلم بن خالد عن العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية: ﴿ **وإن تتولّوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم** ﴾، قالوا: يا رسول الله مَن هؤلاء الذين إن تولّينا استبدلوا بنا ثم لا يكونوا أمثالنا؟ فضرب على فخذ سلمان الفارسي ثم قال: «هذا وقومه، ولو كان الدين عند الثريا لتناوله رجال من الفرس».

سورة الفتح

وهي مدنية (خ) «عن أسلم أن رسول الله ﷺ كان يسير في بعض سفاره وعمر بن الخطاب كان يسير معه ليلاً فسأله عمر عن شيء فلم يجبه، ثم سأله فلم يجبه، ثم سأله فلم يجبه، فقال عمر: ثكلتك أمك يا عمر كررت على رسول الله ﷺ ثلاث مرات كل ذلك لا يجيبك فقال عمر: فحركت بعيري حتى تقدمت أمام الناس وخشيت أن ينزل فيّ قرآن فما لبثت أن سمعت صارخاً يصرخ بي فقلت: لقد خشيت أن يكون نزل في قرآن فجئت رسول الله ﷺ فسلمت عليه فقال: لقد أنزل عليّ الليلة سورة لهي أحب إلي مما طلعت عليه الشمس ثم قرأ: ﴿**إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً**﴾ وأخرجه الترمذي وزاد فيه «وكان في بعض أسفاره بالحديبية» (ق) عن أنس قال: لما نزلت ﴿**إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر**﴾ إلى قوله ﴿**فوزاً عظيماً**﴾ مرجعه من الحديبية وهم مخالطهم الحزن والكآبة وقد نحر الهدي بالحديبية «قال رسول الله ﷺ لقد أنزلت عليّ آية هي أحب إليّ من الدنيا جميعاً» لفظ مسلم ولفظ البخاري ﴿**إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً**﴾ قال الحديبية فقال أصحاب رسول الله ﷺ: هنيئاً مريئاً فما لنا فأنزل الله عز وجل ﴿**ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار**﴾ قال شعبة: فقدمت الكوفة فحدثت هذا كله عن قتادة ثم رجعت فذكرت له فقال: أما إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً فعن أنس وأما هنيئاً مريئاً فعن عكرمة». وأخرجه الترمذي عن قتادة عن أنس قال: أنزلت على النبي ﷺ **ليغفر** لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر مرجعه من الحديبية فقال النبي ﷺ

سُوْرَة الفتح

مدنيّة وهي تسع وعشرون آية.

أخبرنا أبو الحسن محمد بن محمد السرخسي أنا أبو علي زاهر بن أحمد الطوسي أنا أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الصمد الهاشمي أنا أبو مصعب عن مالك عن زيد بن أسلم عن أبيه أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يسير مع رسول الله ﷺ في بعض أسفاره فسأله عمر عن شيء فلم يجبه ثم سأله فلم يجبه، فقال عمر: ثكلتك أُمك يا عمر كرّرتَ على رسول الله ﷺ ثلاث مرات، كل ذلك لا يُجيبك، قال عمر فحرّكت بعيري ثم تقدّمت أمام الناس، وخشيت أن ينزل فيّ قرآن، فما لبثت أن سمعت صارخاً يصرخ بي، فقلت: لقد خشيت أن يكون نزل فيّ قرآن، فجئت رسول الله ﷺ فسلّمت عليه، فقال: «لقد أُنزلت عليّ الليلة سورة لهي أحبّ إليّ مما طلعتْ عليه الشمس، ثم قرأ: ﴿ **إنّا فتحنا لك فتحاً مُبيناً ليغفرَ لكَ اللّهُ ما تقدّم من ذنبك وما تأخر** ﴾»، أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحي أنا أبو عمر بكر بن محمد المزني ثنا أبو بكر محمد بن عبد الله حفيد العباس بن حمزة ثنا الحسين بن الفضل البجلي ثنا عفّان ثنا همّام ثنا قتادة ثنا أنس قال: نزلت على النبي ﷺ: ﴿ **إنّا فتحنا لك فتحاً مُبيناً** ﴾ إلى آخر الآية، مرجعه من الحديبية وأصحابه مخالطهم الحزن والكآبة، فقال: «نزلت عليّ آية هي أحبّ إليّ من الدنيا جميعاً»، فلما تلاها نبيّ الله ﷺ قال رجل من القوم: هنيئاً مريئاً لك قد بيّن الله ما يفعل بك، فماذا

«لقد أنزلت عليّ الليلة آية أحب إليّ مما على الأرض ثم قرأ النبي ﷺ فقالوا هنيئاً مريئاً يا رسول الله لقد بين لك ما يفعل بك فماذا يفعل بنا فنزلت عليه ﴿**ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار**﴾ حتى بلغ ﴿**فوزاً عظيماً**﴾.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾

قوله عز وجل: ﴿**إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً**﴾ الخطاب للنبي ﷺ وحده والمعنى إنا قضينا وحكمنا لك فتحاً مبيناً ظاهراً بغير قتال ولا تعب. واختلفوا في هذا الفتح فروى قتادة عن أنس أنه فتح مكة وقال مجاهد: إنه فتح خيبر. وقيل: هو فتح فارس والروم وسائر بلاد الإسلام التي يفتحها الله عز وجل له.

فإن قلت على هذه الأقوال هذه البلاد مكة وغيرها لم تكن قد فتحت بعد فكيف قال تعالى: ﴿**إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً**﴾ بلفظ الماضي.

قلت: وعد الله تعالى نبيه ﷺ بالفتح وجيء به بلفظ الماضي جرياً على عادة الله تعالى في أخباره، لأنها في تحققها وتيقنها بمنزلة الكائنة الموجودة كأنه تعالى قال: إنا فتحنا لك في حكمنا وتقديرنا وما قدره وحكم به فهو كائن لا محالة. وقال أكثر المفسرين: إن المراد بهذا الفتح صلح الحديبية وهو الأصح، وهو رواية عن أنس. ومعنى الفتح: فتح المغلق المستصعب وكان الصلح مع المشركين يوم الحديبية مستصعباً متعذراً حتى فتحه الله عز وجل ويسره وسهله بقدرته ولطفه. عن البراء قال: تغدون أنتم الفتح فتح مكة ولقد كان فتح مكة فتحاً ونحن نعد الفتح بيعة الرضوان يوم الحديبية كنا مع رسول الله ﷺ أربع عشرة مائة والحديبية بئر فنزحناها ولم نترك فيها قطرة فبلغ ذلك النبي ﷺ فأتاها فجلس على شفيرها ثم دعا بإناء من ماء فتوضأ ثم تمضمض ودعا ثم صبه فيها فتركناها غير بعيد ثم إنها أصدرتنا وماشيتنا وركابنا. وقال الشعبي في قوله ﴿**إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً**﴾ قال: فتح الحديبية وغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر وأطعموا نخل خيبر وبلغ الهدي محله وظهرت الروم على فارس ففرح المؤمنون بظهور أهل الكتاب على المجوس وقال الزهري: لم يكن فتح أعظم من صلح الحديبية وذلك أن المشركين اختلطوا بالمسلمين فسمعوا

يفعل بنا؟ فأنزل الله هذه الآية التي بعدها: ﴿ ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنّات تجري من تحتها الأنهار ﴾، حتى ختم الآية.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ **إنّا فتحنا لك فتحاً مبيناً** ﴾، اختلفوا في هذا الفتح، ورُوِيَ عن أبي جعفر الرازي عن قتادة عن أنس: أنه فتح مكة، وقال مجاهد: فتح خيبر، والأكثرون على أنه صلح الحديبية، ومعنى الفتح فتح المنغلق، والصلح مع المشركين بالحديبية كان متعذّراً حتى فتحه الله عزّ وجلّ. وروى شعبة عن قتادة عن أنس: ﴿ **إنّا فتحنا لك فتحاً مبيناً** ﴾، قال: صلح الحديبية، أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا عبيد الله بن موسى عن إسرائيل عن أبي إسحاق عن البراء قال: تعدّون أنتم الفتح فتح مكة، وقد كان فتح مكة فتحاً، ونحن نعدّ الفتح بيعة الرضوان، يوم الحديبية كنّا مع النبي ﷺ أربع عشرة مائة، والحديبية بئر، فنزحناها فلم نترك فيها قطرة، فبلغ ذلك النبي ﷺ فأتاها فجلس على شفيرها، ثم دعا بإناء من ماء فتوضأ ثم تمضمض ودعا ثم صبّه فيها فتركناها غير بعيد، ثم إنها أصدرتنا ما شئنا نحن وركابنا. وقال الشعبي في

كلامهم فتمكن الإسلام في قلوبهم فأسلم في ثلاث سنين خلق كثير، فعز الإسلام بذلك وأكرم الله عز وجل رسوله ﷺ.

وقوله عز وجل: ﴿ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر﴾ قيل اللام في قوله ليغفر لك الله لام كي والمعنى فتحنا لك فتحاً مبيناً لكي يجتمع لك مع المغفرة تمام النعمة بالفتح، وقال الحسن بن الفضل: هو مردود إلى قوله تعالى: ﴿واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات﴾ ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر وليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات» وقال ابن جريج: هو راجع إلى قوله في سورة النصر ﴿واستغفره إنه كان تواباً﴾ ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك. وقيل: إن الفتح لم يجعل سبباً للمغفرة ولكن لاجتماع ما قدر له من الأمور الأربعة المذكورة وهي: المغفرة، وإتمام النعمة، وهداية الصراط المستقيم، والنصر العزيز. كأنه قال: يسرنا لك الفتح ونصرناك على عدوك وغفرنا لك ذنبك وهديناك صراطاً مستقيماً ليجتمع لك عز الدارين وأغراض العاجل والآجل. وقيل: يجوز أن يكون الفتح سبباً للغفران لأنه جهاد للعدو وفيه الثواب والمغفرة مع الظفر بالعدو والفوز بالفتح. وقيل: لما كان هذا الفتح سبباً لدخول مكة والطواف بالبيت، كان ذلك سبباً للمغفرة. ومعنى الآية: ليغفر لك الله جميع ما فرط منك ما تقدم من ذنبك يعني قبل النبوة وما تأخر، يعني بعدها وهذا على قول ما يجوز الصغائر على الأنبياء. وقال عطاء الخراساني: ما تقدم من ذنبك يعني من ذنب أبويك آدم وحواء ببركتك، وما تأخر من ذنوب أمتك بدعائك لهم. وقال سفيان الثوري: ما تقدم من ذنبك مما كان منك قبل النبوة، وما تأخر يعني كل شيء لم تعمله ويذكر مثل هذا على طريق التأكيد كما تقول: أعط من تراه ومن لم تره واضرب من لقيت ومن لم تلقه فيكون المعنى: ما وقع لك من ذنب وما لم يقع فهو مغفور لك. وقيل المراد منه ما كان من سهو وغفلة، وتأول لأن النبي ﷺ لم يكن له ذنب كذنوب غيره فالمراد بذكر الذنب هنا ما عسى أن يكون وقع منه من سهو ونحو ذلك لأن حسنات الأبرار سيئات المقربين فسماه ذنباً فما كان من هذا القبيل وغيره فهو مغفور له فأعلمه الله عز وجل بذلك وإنه مغفور له ليتم نعمته عليه وهو قوله تعالى: ﴿ويتم نعمته عليك﴾ يعني بالنبوة وما أعطاك من الفتح والنصر والتمكين ﴿ويهديك صراطاً مستقيماً﴾ يعني ويهديك إلى صراط مستقيم وهو الإسلام ويثبتك عليه والمعنى ليجمع لك من الفتح تمام النعمة بالمغفرة والهداية إلى صراط مستقيم وهو الإسلام. وقيل: معناه ويهدي بك إلى صراط مستقيم ﴿وينصرك الله نصراً عزيزاً﴾ يعني غالباً ذا عز ومنعة وظهور على الأعداء وقد ظهر النصر بهذا الفتح المبين وحصل الأمن بحمد الله تعالى.

قوله: ﴿ إنّا فتحنا لك فتحاً مبيناً ﴾، قال: فتح الحديبية، غفر الله له ما تقدّم من ذنبه وما تأخّر، وأطعموا نخل خيبر وبلغ الهدي محله وظهرت الروم على فارس، ففرح المؤمنون بظهور أهل الكتاب على المجوس، قال الزهري: لم يكن فتح أعظم من صلح الحديبية، وذلك أن المشركين اختلطوا بالمسلمين فسمعوا كلامهم فتمكّن الإسلام في قلوبهم أسلم في ثلاث سنين خلق كثير، وكثر بهم سواد الإسلام. قوله عزّ وجلّ: ﴿ إنّا فتحنا لك فتحاً مبيناً ﴾، أي قضينا لك قضاءً بيّناً. وقال الضحاك: إنّا فتحنا لك فتحاً مبيناً بغير قتال، وكان الصلح من الفتح المبين، قيل: اللام في قوله: ﴿ ليغفر ﴾ لام كي معناه إنّا فتحنا لك فتحاً مبيناً لكي يجتمع لك مع المغفرة تمام النعمة في الفتح. وقال الحسين بن الفضل: هو مردود إلى قوله: ﴿ واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات ﴾ [محمد: ١٩].

﴿ ليغفرَ لكَ اللّهُ ما تقدّم من ذنبك وما تأخّر ﴾، وليُدخِل المؤمنين والمؤمنات جنّات الآية، وقال محمد بن جرير: هو راجع إلى قوله: ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح * ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجاً * فسبّحْ بحمد ربِّك واستغفرْهُ ﴾ [النصر: ٢]، ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك في الجاهلية قبل الرسالة، وما تأخر إلى وقت نزول

فإن قلت: وصف الله تعالى النصر بكونه عزيزاً والعزيز هو المنصور صاحب النصر فما معناه؟.

قلت: معناه ذا عزة كقوله ﴿عيشة راضية﴾ أي ذات رضا. وقيل: وصف النصر بما يوصف به المنصور إسناداً مجازياً. يقال: هذا كلام صادق كما يقال متكلم صادق. وقيل: معناه نصراً عزيزاً صاحبه فحذف المضاف إيجازاً واختصاراً وقيل إنما يحتاج إلى هذه التقديرات إذا كانت العزة من الغلبة. والعزيز: الغالب.

أما إذا قلنا إن العزيز هو النفيس القليل أو العديم النظير، فلا يحتاج إلى هذه التقديرات، لأن النصر الذي هو من الله تعالى عزيز في نفسه لكونه من الله تعالى فصحَّ وصف كونه نصراً عزيزاً.

هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾ لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾

قوله تعالى: ﴿هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين﴾ يعني الطمأنينة والوقار في قلوبهم لئلا تنزعج نفوسهم. قال ابن عباس: كل سكينة في القرآن طمأنينة إلا التي في سورة البقرة وقد تقدم تفسيرها في موضعها. ولما قال الله تعالى: ﴿وينصرك الله نصراً عزيزاً﴾، بيّن وجه هذا النصر كيف هو، وذلك أنه تعالى جعل السكينة التي هي الطمأنينة والثبات في قلوب المؤمنين ويلزم من ذلك ثبات الأقدام عند اللقاء في الحروب وغيرها فكان ذلك من أسباب النصر الذي وعد الله تعالى نبيه ﷺ ثم قال تعالى: ﴿ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم﴾ وذلك أنه تعالى جعل السكينة والطمأنينة في قلوب المؤمنين سبباً لزيادة الإيمان في قلوبهم، وذلك أنه كلما ورد عليهم أمر أو نهي، آمنوا به وعملوا بمقتضاه، فكان ذلك زيادة في إيمانهم. وقال ابن عباس: بعث الله عز وجل رسوله ﷺ بشهادة أن لا إله إلا الله فلما آمنوا به وصدقوه زادهم الصلاة ثم الزكاة ثم الصوم ثم الحج ثم الجهاد حتى أكمل دينهم، فكلما أمروا بشيء وصدقوه، ازدادوا تصديقاً إلى تصديقهم، وقال الضحاك: يقيناً مع يقينهم. وقال الكلبي: هذا في أمر الحديبية حين صدق الله رسوله الرؤيا بالحق. وقيل: لما آمنوا بالأصول وهو التوحيد وتصديق الرسول ﷺ فيما أخبر به عن الله عز وجل وآمنوا بالبعث بعد الموت والجنة والنار وآمنوا بالفروع وهي جميع التكاليف البدنية والمالية كان ذلك زيادة في

هذه السورة. وقيل: ما تأخر مما يكون، وهذا على طريقة مَن يجوِّز الصغائر على الأنبياء. وقال سفيان الثّوري: ما تقدّم ممّا عملت في الجاهلية وما تأخّر كل شيء لم تعمله، ويذكر مثل ذلك على طريق التأكيد، كما يقال: أعطى مَن رآه ولم يره، وضرب مَن لقيه ومَن لم يلقه. وقال عطاء الخراساني: ما تقدّم من ذنبك: يعني ذنب أبويك آدم وحوّاء ببركتك، وما تأخر ذنوب أُمتك بدعوتك. ﴿ ويتمّ نعمته عليك ﴾، بالنبوّة والحكمة، ﴿ ويهديك صراطاً مستقيماً ﴾، أي يثبتك عليه، والمعنى ليجتمع لك مع الفتح تمام النّعمة بالمغفرة والهداية إلى الصراط المستقيم وهو الإسلام. وقيل: ويهديك أي يهدي بك.

﴿ وينصرك الله نصراً عزيزاً ﴾ غالباً: وقيل: معزّاً.

﴿ هو الذي أنزل السكينة ﴾، الطمأنينة والوقار، ﴿ في قلوب المؤمنين ﴾، لئلا تنزعج نفوسهم لمّا يرد عليهم، قال ابن عباس كل سكينة في القرآن فهي طمأنينة إلّا التي في سورة البقرة [٢٤٨]، ﴿ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم ﴾، قال ابن عباس: بعث الله رسوله بشهادة أن لا إله إلّا الله، فلما صدّقوه زادهم الصلاة ثم الزكاة ثم

إيمانهم ﴿ولله جنود السموات والأرض﴾ لما قال الله عز وجل: وينصرك الله نصراً عزيزاً، وكان المؤمنون في قلة من العدد والعدد، فكأن قائلاً قال: كيف ينصره؟ فأخبره الله عز وجل أن له جنود السموات والأرض وهو قادر على نصر رسوله ﷺ ببعض جنوده بل هو قادر على أن يهلك عدوه بصيحة ورجفة وصاعقة ونحو ذلك فلم يفعل بل أنزل سكينة في قلوبكم أيها المؤمنون ليكون نصر رسول الله ﷺ وإهلاك أعدائه على أيديكم فيكون لكم الثواب ولهم العقاب وفي جنود السموات والأرض وجوه: الأول: إنهم ملائكة السموات والأرض. الثاني: أن جنود السموات الملائكة وجنود الأرض جميع الحيوانات الثالث أن جنود السموات مثل الصاعقة والصيحة والحجارة وجنود الأرض مثل الزلال والخسف والغرق ونحو ذلك ﴿وكان الله عليماً﴾ يعني بجميع جنوده الذين في السموات والأرض ﴿حكيماً﴾ يعني في تدبيره وقيل: عليماً بما في قلوبكم أيها المؤمنون حكيماً حيث جعل النصر لكم على أعدائكم.

قوله عز وجل: ﴿ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار﴾ يستدعي سابقاً تقديره هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليدخلهم جنات. وقيل: تقديره أن من علمه وحكمته إن سكّن قلوب المؤمنين بصلح الحديبية ووعدهم الفتح والنصر ليشكروه على نعمه، فيثيبهم ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار، وقد تقدم ما روي عن أنس أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿إن فتحنا لك فتحاً مبيناً ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر﴾ قال الصحابة: هنيئاً مريئاً قد بين الله تعالى ما يفعل بك فماذا يفعل بنا؟ فأنزل الله عز وجل الآية التي بعدها: ﴿ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ويكفر عنهم سيئاتهم﴾ فإن قلت تكفير السيئات إنما يكون قبل دخولهم الجنة فكيف ذكره بعد دخولهم الجنة، قلت: الواو لا تقتضي الترتيب وقيل إن تكفير السيئات والمغفرة من توابع كون المكلف من أهل الجنة فقدم الإدخال بالذكر بمعنى أنه من أهل الجنة ﴿وكان ذلك عند الله فوزاً عظيماً﴾ يعني أن ذلك الإدخال والتكفير كان في علم الله تعالى فوزاً عظيماً ﴿ويعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات﴾ يعني المنافقين والمنافقات من أهل المدينة والمشركين والمشركات من أهل مكة وإنما قدم المنافقين على المشركين هنا وفي غيره من المنافقين كانوا أشد على المؤمنين من الكفارين لأن الكافر يمكن أن يحترز منه ويجاهد لأنه عدو مبين والمنافق لا يمكن أن يحترز منه ولا يجاهد فلهذا كان شره أكثر من شر الكافر فكان تقديم المنافق بالذكر أولى ﴿الظانين بالله ظن السوء﴾ يعني أنهم ظنوا أن الله لا ينصر محمداً ﷺ والمؤمنين﴿عليهم دائرة السوء﴾ يعني عليهم دائرة العذاب والهلاك ﴿وغضب الله عليهم﴾ زيادة في تعذيبهم وهلاكهم ﴿ولعنهم﴾ يعني وأبعدهم وطردهم عن رحمته ﴿وأعدّ لهم جهنم﴾ يعني في الآخرة ﴿وساءت مصيراً﴾ يعني ساءت جهنم منقلباً.

الصيام ثم الحج ثم الجهاد، حتى أكمل لهم دينهم، فكلما أُمِروا بشيء فصدّقوه ازدادوا تصديقاً إلى تصديقهم. وقال الضحاك: يقيناً مع يقينهم. قال الكلبي: هذا في أمر الحديبية حين صدق الله رسوله الرؤيا بالحق، ﴿ ولله جنود السمٰواتِ والأرض وكان الله عليماً حكيماً ﴾.

﴿ ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنّات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ويكفّر عنهم سيئاتهم وكان ذلك عند الله فوزاً عظيماً ﴾، وقد ذكرنا عن أنس أن الصحابة قالوا لمّا نزل ليغفر لك الله هنيئاً مريئاً فما يفعل بنا فنزل: ﴿ ليُدخِل المؤمنين والمؤمنات جنّات ﴾ الآية.

﴿ ويعذّب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ﴾، يريد أهل النفاق بالمدينة وأهل الشرك بمكة، ﴿ الظانّين بالله ظنّ السوء ﴾، أن لن ينصر محمداً والمؤمنين، ﴿ عليهم دائرة السوء ﴾، بالعذاب والهلاك، ﴿ وغضب الله عليهم ولعنهم وأعدّ لهم جهنّم وساءت مصيراً ﴾.

﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۝٧ إِنَّا أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝٨ لِّتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٩ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ۝١٠﴾

﴿ولله جنود السموات والأرض﴾ تقدم تفسيره بقي ما فائدة التكرير ولم قدم ذكر جنود السموات والأرض على إدخال المؤمنين الجنة ولم أخر ذكر جنود السموات والأرض هنا بعد تعذيب المنافقين والكافرين، فنقول: فائدة التكرار للتأكيد وجنود السموات والأرض منهم من هو للرحمة ومنهم من هو للعذاب فقدم ذكر جنود السموات والأرض قبل إدخال المؤمنين الجنة ليكون مع المؤمنين جنود الرحمة فيثبتوهم على الصراط وعند الميزان فإذا دخلوا الجنة أفضوا إلى جوار الله تعالى ورحمته والقرب منه، فلا حاجة لهم بعد ذلك إلى شيء، وأخر ذكر جنود السموات والأرض بعد تعذيب الكافرين والمنافقين ليكون معهم جنود السخط فلا يفارقوهم أبداً.

فإن قلت: قال في الآية الأولى: ﴿وكان الله عليماً حكيماً﴾، وقال في هذه الآية ﴿وكان الله عزيزاً حكيماً﴾ فما معناه؟ قلت: لما كان في جنود السموات والأرض من هو للرحمة ومن هو للعذاب وعلم الله ضعف المؤمنين، ناسب أن تكون خاتمة الآية الأولى ﴿وكان الله عليماً حكيماً﴾، ولما بالغ في وصف تعذيب الكافر والمنافق وشدته، ناسب أن تكون خاتمة الآية الثانية ﴿وكان الله عزيزاً حكيماً﴾ فهو كقوله: ﴿أليس الله بعزيز ذي انتقام﴾ وقوله ﴿أخذناهم أخذ عزيز مقتدر﴾ قوله تعالى: ﴿إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً﴾ الخطاب للنبي ﷺ ذكره في معرض الامتنان عليه حيث شرفه بالرسالة وبعثه إلى الكافة شاهداً على أعمال أمته ومبشراً يعني لمن آمن به وأطاعه بالثواب ونذيراً يعني لمن خالفه وعصى أمره بالعقاب ثم بين فائدة الإرسال فقال تعالى: ﴿لتؤمنوا بالله ورسوله﴾ فالضمير فيه للناس المرسل إليهم ﴿وتعزروه﴾ يعني ويقووه وينصروه. والتعزير: نصر مع تعظيم ﴿وتوقروه﴾ يعني وتعظموه والتوقير: التعظيم والتبجيل ﴿وتسبحوه﴾ من التسبيح الذي هو التنزيه من جميع القائص أو من السبحة وهي الصلاة.

قال الزمخشري: والضمائر لله تعالى والمراد بتعزير الله تعالى. تعزير دينه ورسوله ﷺ. ومن فرق الضمائر فقد أبعد وقال غيره: الكنايات في قوله ويعزروه ويوقروه راجعة إلى الرسول ﷺ وعندها تم الكلام فالوقف عليّ ويوقروه وقف تام ثم يبتدىء بقوله ويسبحوه ﴿بكرة وأصيلاً﴾ على أن الكناية في ويسبحوه راجعة إلى الله تعالى يعني ويصلوا لله أو يسبحوا بالغداة والعشي.

﴿ ولله جنود السمٰواتِ والأرض وكان الله عزيزاً حكيماً * إنّا أرسلناك شاهداً ومبشّراً ونذيراً * لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه ﴾، أي تُعينوه وتنصروه، ﴿ وتوقّروه ﴾، تعظّموه وتفخّموه هذه الكنايات راجعة إلى النبي ﷺ وههنا وقف، ﴿ وتسبّحوه ﴾، أي تسبّحوا الله يريد تصلّوا له، ﴿ بكرةً وأصيلاً ﴾، بالغداة والعشي قرأ ابن كثير وأبو عمرو (وليؤمنوا، ويعزروه، ويوقروه، ويسبّحوه) بالياء فيهنّ لقوله: ﴿ في قلوب المؤمنين ﴾، وقرأ الآخرون بالتاء فيهنّ.

﴿ إنّ الذين يبايعونك ﴾، يا محمد بالحديبية على أن لا يفرّوا، ﴿ إنما يبايعون الله ﴾، لأنهم باعوا أنفسهم من الله بالجنة، أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا قتيبة بن سعيد ثنا حاتم بن إسماعيل عن يزيد بن أبي عبيد قال: قلت لسلمة بن الأكوع على أيّ شيء

قوله عز وجل: ﴿إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله﴾ يعني إن الذين يبايعونك يا محمد بالحديبية على أن لا يفروا إنما يبايعون الله لأنهم باعوا أنفسهم من الله عز وجل بالجنة وأصل البيعة: العقد الذي يعقده الإنسان على نفسه من بذل الطاعة للإمام، والوفاء بالعهد الذي التزمه له، والمراد بهذه البيعة بيعة الرضوان بالحديبية، وهي قرية ليست بكبيرة بينها وبين مكة أقل من مرحلة أو مرحلتين سميت ببئر هناك. وقد جاء في الحديث أن الحديبية بئر. قال مالك: هي من الحرم. وقال ابن القصار: بعضها من الحل. ويجوز في الحديبية التخفيف والتشديد والتخفيف أفصح وعامة المحدثين يشددونها (ق) عن يزيد بن عبيدة، قال: قالت لسلمة بن الأكوع على أي شيء بايعتم رسول الله ﷺ قال: على الموت (م) عن معقل بن يسار لقد رأيتني يوم الشجرة والنبي ﷺ يبايع الناس وأنا رافع غصناً عن أغصانها من رأسه ونحن أربعة عشرة مائة قال: لم نبايعه على الموت ولكن بايعناه على أن لا نفر. قال العلماء: لا منافاة بين الحديثين ومعناهما صحيح بايعه جماعة منهم سلمة بن الأكوع على الموت فلا يزالون يقاتلون بين يديه حتى يقتلوا أو ينتصروا. وبايعه جماعة منهم معقل بن يسار على أن لا يفروا (خ). عن ابن عمر قال: إن الناس كانوا مع النبي ﷺ يوم الحديبية تفرقوا في ظلال الشجر، فإذا الناس محدقون بالنبي ﷺ فقال يعني عمر: يا عبد الله انظر ما شأن الناس أحدقوا برسول الله ﷺ فذهب فوجدهم يبايعون فبايع ثم رجع إلى عمر فخرج فبايع. وقوله تعالى: ﴿يد الله فوق أيديهم﴾ قال ابن عباس: يد الله بالوفاء بما وعدهم من الخير فوق أيديهم. وقال السدي: كانوا يأخذون بيد رسول الله ﷺ فيبايعونه ويد الله فوق أيديهم كذا نقله البغوي عنه. وقال الكلبي: نعمة الله عليهم في الهداية فوق ما صنعوا من البيعة. وقال الإمام فخر الدين الرازي: يد الله فوق أيديهم يحتمل وجوهاً، وذلك لأن اليد في الموضعين إما أن تكون بمعنى واحد، وإما أن تكون بمعنيين.

فإن قلنا إنها بمعنى واحد ففيه وجهان: أحدهما: يد الله بمعنى نعمة الله عليهم فوق إحسانهم كما قال ﴿بل الله يمنُّ عليكم أن هداكم للإيمان﴾ وثانيهما: يد الله فوق أيديهم أي نصرته إياهم أقوى وأعلى من نصرتهم إياه، يقال: اليد لفلان، أي الغلبة والنصرة والقوة.

وإن قلنا: إنها بمعنيين، فنقول: اليد في حق الله تعالى بمعنى الحفظ، وفي حق المبايعين بمعنى الجارحة، فيكون المعنى: يد الله فوق أيديهم بالحفظ. وقال الزمخشري: لما قال إنما يبايعون الله أكده تأكيداً على طريقة التخيل، فقال: يد الله فوق أيديهم، يريد أن يد رسول الله ﷺ التي تعلو أيدي المبايعين هي يد الله والله منزه عن الجوارح وعن صفات الأجسام وإنما المعنى تقرير أن عقد الميثاق مع رسول الله ﷺ كعقده مع الله عز وجل من غير تفاوت بينهما كقوله تعالى ﴿من يطع الرسول فقد أطاع الله﴾ هذا مذهب أهل التأويل وكلامهم في هذه الآية ومذهب السف السكوت عن التأويل وإمرار آيات الصفات كما جاءت وتفسرها قراءتها والإيمان بها من غير تشبيه ولا تكييف ولا تعطيل.

بايعتم رسول الله ﷺ يوم الحديبية؟ قال: على الموت. أخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر أنا عبد الغافر بن محمد أنا محمد بن عيسى الجلودي ثنا إبراهيم بن محمد بن سفيان عن مسلم بن الحجّاج ثنا يحيىٰ بن يحيىٰ ثنا يزيد بن زريع عن خالد عن الحكم بن عبد الله بن الأعرج عن معقل بن يسار، قال لقد رأيتني يوم الشجرة والنبي ﷺ يبايع الناس، وأنا رافع غصناً من أغصانها عن رأسه، ونحن أربع عشرة مائة، قال: لم نبايعه على الموت ولكن بايعناه على أن لا نفرّ، قال أبو عيسى: معنى الحديثين صحيح بايعه جماعة على الموت، أي لا نزال نقاتل بين يديك ما لم نقتل، وبايعه آخرون، وقالوا: لا نفرّ. ﴿ يد الله فوق أيديهم ﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما: يد الله بالوفاء لما وعدهم من الخير فوق أيديهم. وقال السدي: كانوا يأخذون بيد رسول الله ﷺ ويبايعونه، ويد الله فوق أيديهم

وقوله تعالى: ﴿فمن نكث فإنما ينكث على نفسه﴾ يعني فمن نقض العقد الذي عقده مع النبي ﷺ ونكث البيعة فإن وبال ذلك وضره يرجع إليه ولا يضر إلا نفسه ﴿ومن أوفى بما عاهد عليه الله﴾ يعني من البيعة ﴿فسيؤتيه أجراً عظيماً﴾ يعني في الآخرة وهو الجنة.

سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾ وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَـٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾ سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾

قوله تعالى: ﴿سيقول لك المخلفون من الأعراب﴾ قال ابن عباس ومجاهد يعني أعراب غفار ومزينة وجهينة وأشجع والنخع وأسلم وذلك أن رسول الله ﷺ حين أراد المسير إلى مكة عام الحديبية معتمراً، استنفر من حول المدينة من الأعراب وأهل البوادي ليخرجوا معه حذراً من قريش أن يعرضوا له بحرب أو يصدوه عن البيت فأحرم بالعمرة وساق الهدى ليعلم الناس أنه لا يريد حرباً، فتثاقل عنه كثير من الأعراب، وتخلفوا، واعتلّوا بالشغل، فأنزل الله تعالى فيهم سيقول لك يا محمد المخلفون من الأعراب الذين خلفهم الله عز وجل عن صحبتك، إذا رجعت إليهم من عمرتك هذه وعاتبتهم على التخلف عنك ﴿شغلتنا أموالنا وأهلونا﴾ يعني النساء والذراري. يعني: لم يكن لنا من يخلفنا فيهم: فلذا تخلفنا عنك ﴿فاستغفر لنا﴾ أي إنا مع عذرنا معترفون بالإساءة فاستغفر لنا بسبب تخلفنا عنك فأكذبهم الله تعالى فقال الله تعالى: ﴿يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم﴾ يعني أنهم في طلب الاستغفار كاذبون لأنهم لا يبالون استغفر لهم النبي ﷺ أم لا ﴿قل فمن يملك لكم من الله شيئاً إن أراد بكم ضراً﴾ يعني سوءاً ﴿أو أراد بكم نفعاً﴾ وذلك أنهم ظنوا أن تخلفهم عن النبي ﷺ يدفع عنهم الضر أو يجعل لهم النفع بالسلامة في أنفسهم وأموالهم

في المبايعة. قال الكلبي: نعمة الله عليهم في الهداية فوق ما صنعوا من البيعة. ﴿ فمَن نكث ﴾، نقض البيعة، ﴿ فإنما ينكث على نفسه ﴾، عليه وباله، ﴿ ومَن أوْفَى بما عاهد عليهُ الله ﴾، ثبت على البيعة، ﴿ فسيؤتيه ﴾، قرأ أهل العراق ﴿ فسيؤتيه ﴾ بالياء، وقرأ الآخرون بالنون، ﴿ أجراً عظيماً ﴾، وهو الجنة.

﴿ سيقول لك المخلفون من الأعراب ﴾، قال ابن عباس ومجاهد: يعني أعراب بني غفار ومزينة وجهينة، وأشجع وأسلم، وذلك أن رسول الله ﷺ حين أراد المسير إلى مكة عام الحديبية معتمراً استنفر من حول المدينة من الأعراب وأهل البوادي ليخرجوا معه حذراً من قريش أن يعرضوا له بحرب، أو يصدّوه عن البيت، فأحرم بالعمرة وساق معه الهدي ليعلم الناس أنه لا يريد حرباً، فتثاقل عنه كثير من الأعراب وتخلّفوا واعتلّوا بالشغل. فأنزل الله تعالى فيهم: ﴿ سيقول لك المخلفون من الأعراب ﴾، يعني الذين خلفهم الله عزّ وجلّ عن صحبتك، فإذا انصرفت من سفرك إليهم فعاتبهم على التخلّف عنك، ﴿ شغلتنا أموالنا وأهلونا ﴾، يعني النساء والذراري أي لم يكن لنا مَن يخلفن فيهم ﴿ فاستغفرْ لنا ﴾، تخلّفنا عنك، فكذّبهم الله عزّ وجلّ في اعتذارهم، فقال: ﴿ يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم ﴾، من أمر الاستغفار، فإنهم لا يبالون أستغفر لهم النبي ﷺ أو لا، ﴿ قل فمَن يملك

فأخبرهم الله عز وجل أنه إن أراد شيئاً من ذلك لم يقدر أحد على دفعه ﴿بل كان الله بما تعملون خبيراً﴾ يعني من إظهاركم الاعتذار وطلب الاستغفار وإخفائكم النفاق ﴿بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبداً﴾ يعني ظننتم أن العدو يستأصلهم فلا يرجعون إلى أهليهم ﴿وزين ذلك في قلوبكم﴾ يعني زيَّن الشيطان ذلك الظن عندكم حتى قطعتم به، حتى صار الظن يقيناً عندكم، وذلك أن الشيطان قد يوسوس في قلب الإنسان بالشيء ويزينه له حتى يقطع به ﴿وظننتم ظن السوء﴾ يعني وظننتم أن الله يخلف وعده وذلك أنهم قالوا: إن محمداً وأصحابه أكلة رأس، يريدون بذلك قتلهم فلا يرجعون فأين تذهبون معهم انظروا ما يكون من أمرهم ﴿وكنتم قوماً بوراً﴾ يعني وصرتم بسبب ذلك الظن الفاسد قوماً بائرين هالكين ﴿ومن لم يؤمن بالله ورسوله فإنا اعتدنا للكافرين سعيراً﴾. لما بين الله تعالى حال المخلفين عن رسول الله ﷺ وبين حال ظنهم الفاسد وإن ذلك يفضي بصاحبه إلى الكفر حرضهم على الإيمان والتوبة من ذلك الظن الفاسد فقال تعالى: ﴿ومن لم يؤمن بالله ورسوله﴾ وظن أن الله يخلف وعده فإنه كافر وإنا أعتدنا للكافرين سعيراً ﴿ولله ملك السموات والأرض يغفر لم يشاء ويعذب من يشاء﴾ لما ذكر الله تعالى حال المؤمنين المبايعين لرسول الله ﷺ وحال الظانين ظن السوء أخبر أن له ملك السموات والأرض ومن كان كذلك فهو يغفر لمن يشاء بمشيئته ويعذب من يشاء ولكن غفرانه ورحمته أعم وأشمل وأتم وأكمل وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وكان الله غفوراً رحيماً﴾ قوله عز وجل: ﴿سيقول المخلفون﴾ يعني الذين تخلفوا عن الحديبية ﴿إذا انطلقتم﴾ يعني إذا سرتم وذهبتم أيها المؤمنون ﴿إلى مغانم لتأخذوها﴾ يعني غنائم خيبر وذلك أن المؤمنين لما انصرفوا من الحديبية على صلح من غير قتال ولم يصيبوا من الغنائم شيئاً وعدهم الله عز وجل فتح خيبر وجعل غنائمها لمن شهد الحديبية خاصة عوضاً عن غنائم أهل مكة حيث انصرفوا عنهم ولم يصيبوا منهم شيئاً ﴿ذرونا نتبعكم﴾ يعني إلى خيبر فنشهد معكم قتال أهلها وفي هذا بيان كذب المتخلفين عن الحديبية حيث قالوا: شغلتنا أموالنا وأهلونا إذ لم يكن لهم هناك طمع في غنيمة وهنا قالوا: ذرونا نتبعكم حيث كان لهم طمع في الغنيمة ﴿يريدون أن يبدلوا كلام الله﴾ يعني يريدون أن

لكم من الله شيئاً إن أراد بكم ضرّاً ﴾، ســواً، ﴿ أو أراد بكم نفعاً ﴾، قرأ حمزة والكسائي: ﴿ ضرّاً ﴾ بضم الضاد، وقرأ الآخرون بفتحها لأنه قابله بالنفع والنفع ضدّ الضرّ، وذلك أنهم ظنوا أن تخلّفهم عن النبي ﷺ يدفع عنهم الضرّ، ويعجّل لهم النفع بالسلامة في أنفسهم وأموالهم، فأخبرهم الله تعالى: إن أراد بهم شـيئاً من ذلك لم يقدر أحدٌ على دفعه. ﴿ بل كان الله بما تعملون خبيراً ﴾.

﴿ بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبداً ﴾ أي ظننتم أن العدو يستأصلهم فلا يرجعون، ﴿ وزيّن ذلك في قلوبكم ﴾، زيّن الشيطان ذلك الظن في قلوبكم، ﴿ وظننتم ظنّ السَّوء ﴾وذلك أنهم قالوا: إن محمداً وأصحابه أكْلة رأس، فلا يرجعون، فأين تذهبون معه انتظروا ما يكون من أمرهم. ﴿ وكنتم قوماً بوراً ﴾، هلكى لا تصلحون لخير.

﴿ ومَن لم يؤمن بالله ورسوله فإنّا أعتدنا للكافرين سعيراً* ولله مُلْك السمٰوات والأرض يغفر لمَن يشا ويعذّب مَن يشاء وكان الله غفوراً رحيماً * سيقول المخلفون ﴾، يعني هؤلاء الـذين تخلّفوا عن الحـديبية، ﴿ إذا انطلقتم ﴾، سرتم وذهبتم أيها المؤمنون، ﴿ إلى مغانم لتأخذوها ﴾، يعني غنائم خيبر، ﴿ ذرونا نتبعكم ﴾، إلى خيبر نشهد معكم قتال أهلها، وذلك أنهم لمّا انصرفوا من الحديبية وعدهم الله فتح خيبر وجعل غنائمها لمَن شهد الحديبية خاصّة عوضاً عن غنائم أهل مكة إذا انصرفوا عنهم على صلح ولم يصيبوا منهم شيئاً، قال الله تعالى: ﴿ يريدون أن يُبدلّوا كلام الله ﴾، قرأ حمزة والكسائي: (كلِـم الله) بغيـر ألف جمع كلمة، وقرأ الآخرون: ﴿ كلام الله ﴾، يريدون أن يغيّروا مواعيد الله تعالى لأهل الحديبية بغنيمة خيبر خاصة، وقال مقاتل: يعني أمر الله نبيّه ﷺ أن

يغيروا ويبدلوا مواعيد الله لأهل الحديبية حيث وعدهم غنيمة خيبر لهم خاصة وهذا قول جمهور المفسرين. وقال مقاتل: يعني أمر الله تعالى نبيه ﷺ حيث أمره أن لا يسير منهم أحداً إلى خيبر. وقال ابن زيد: هو قول الله تعالى فاستأذنوك للخروج فقل لن تخرجوا معي أبداً، والقول الأول أصوب ﴿قل﴾ أي قل لهم يا محمد ﴿لن تتبعونا﴾ يعني إلى خيبر ﴿كذلكم قال الله من قبل﴾ يعني من قبل مرجعنا إليكم غنيمة خيبر لمن شهد الحديبية ليس لغيرهم فيها نصيب ﴿فسيقولون بل تحسدوننا﴾ يعني يمنعكم الحسد أن نصيب معكم من الغنائم شيئاً ﴿بل كانوا لا يفقهون إلا قليلاً﴾ يعني لا يعلمون ولا يفهمون من الله ما لهم وما عليهم من الدين إلا قليلاً منهم وهو من تاب منهم وصدق الله ورسوله.

﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾ ۞ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾

قوله عز وجل: ﴿قل للمخلفين من الأعراب﴾ لما قال الله للنبي ﷺ: قل لن تتبعونا، وكان المخلفون جمعاً كثيراً من قبائل متشعبة، وكان فيهم من ترجى توبته وخيره بخلاف الذين مردوا على النفاق واستمروا عليه، فجعل الله عز وجل لقبول توبتهم علامة، وهي أنهم يدعون إلى قوم أولى بأس شديد، فإن أطاعوا، كانوا من المؤمنين ويؤتيهم الله أجراً حسناً وهو الجنة، وإن تولوا وأعرضوا عما دعوا إليه، كانوا من المنافقين ويعذبهم عذاباً أليماً. واختلفوا في المشار إليهم بقوله ﴿ستدعون إلى قوم أولي بأس شديد﴾ من هم فقال ابن عباس ومجاهد: هم أهل فارس. وقال كعب: هم الروم. وقال الحسن: هم فارس والروم. وقال سعيد بن جبير: هوازن وثقيف. وقال قتادة: هوازن وغطفان يوم حنين. وقال الزهري وجماعة: هم بنو حنيفة أهل اليمامة أصحاب مسيلمة الكذاب. وقال رافع بن

لا يسير منهم أحد، قال ابن زيد: هو قول الله عزّ وجلّ: ﴿ فاستأذنوك للخروج فقل لن تخرجوا معيَ أبداً ﴾ [التوبة: ٨٣]، والأول أصوب، وعليه عامّة أهل التأويل، ﴿ **قلْ لنْ تتبعونا** ﴾، إلى خيبر، ﴿ **كذلكم قال الله من قبل** ﴾، أي من قبل مرجعنا إليكم أن غنيمة خيبر لمَن شهد الحديبية ليس لغيرهم فيها نصيب، ﴿ **فسيقولون بل تحسدوننا** ﴾، أي يمنعكم الحسد من أن نصيب معكم الغنائم، ﴿ **بل كانوا لا يفقهون** ﴾، لا يعلمون عن الله ما لهم وعليهم من الدين، ﴿ **إلاّ قليلاً** ﴾، منهم وهو مَن صدق الله والرسول.

﴿ **قلْ للمخلفين من الأعراب ستدعون إلى قوم أولي بأس شديد** ﴾، قال ابن عباس ومجاهد وعطاء: هم أهل فارس. وقال كعب: هم الروم: وقال الحسن: فارس والروم. وقال سعيد بن جبير: هوازن وثقيف. وقال قتادة: هوازن وغطفان يوم حنين. وقال الزهري ومقاتل وجماعة: هم بنو حنيفة أهل اليمامة أصحاب مسيلمة الكذّاب. قال رافع بن خديج: كنّا نقرأ هذه الآية ولا نعلم مَن هم حتى دعا أبو بكر إلى قتال بني حنيفة، فعلمنا أنهم هم. وقال ابن جريج: دعاهم عمر رضي الله عنه إلى قتال فارس. وقال أبو هريرة: لم يأتِ تأويل هذه الآية بعد. ﴿ **تقاتلونهم أو يُسلمون فإن تُطيعوا يؤتكم الله أجراً حسناً** ﴾، يعني الجنة، ﴿ **وإنْ تتولّوا** ﴾، تعرضوا ﴿ **كما تولّيتم من قبل** ﴾، عام الحديبية، ﴿ **يعذّبكم عذاباً أليماً** ﴾، وهو النار، فلما نزلت هذه الآية قال أهل الزمانة: كيف بنا يا رسول الله؟.

خديج: كنا نقرأ هذه الآية ولا نعلم من هم حتى دعا أبو بكر رضي الله تعالى عنه إلى قتال بني حنيفة فعلمنا أنهم هم. وقال ابن جريج: دعاهم عمر رضي الله عنه إلى قتال فارس. وقال أبو هريرة: لم يأت تأويل هذه الآية بعد، وأقوى هذه الأقوال، قول من قال إنهم هوازن وثقيف، لأن الداعي هو رسول الله ﷺ. وأبعدها قول من قال إنهم بنو حنيفة أصحاب مسيلمة الكذاب أما الدليل على صحة القول الأول فهو أن العرب كان قد ظهر أمرهم في آخر الأمر على عهد النبي ﷺ فلم يبق إلا مؤمن تقي طاهر أو كافر مجاهر. وأما المنافقون، فكان قد علم حالهم لامتناع النبي ﷺ من الصلاة عليهم، وكان الداعي هو رسول الله ﷺ إلى حرب من خالفه من الكفار. وكانت هوازن وثقيف من أشد العرب بأساً وكذلك غطفان فاستنفر النبي ﷺ العرب لغزوة حنين وبني المصطلق، فصح بهذا البيان أن الداعي هو النبي ﷺ. فإن قيل: هذا ممتنع لوجهين: أحدهما أن النبي ﷺ قال: لن تتبعونا، وقال: لن تخرجوا معي أبداً، فكيف كانوا يتبعونه مع هذا النهي؟ الوجه الثاني: قوله ﴿أولي بأس شديد﴾، ولم يبق للنبي ﷺ حرب مع قوم أولي بأس شديد، لأن الرعب كان قد دخل قلوب العرب كافة فنقول: الجواب عن الوجه الأول من وجهين: أحدهما: أن يكون قوله: قل لن تتبعونا ولن تخرجوا معي أبداً مقيد بقيد وهو أن يكون تقديره: قل لن تتبعونا ولن تخرجوا معي أبداً ما دمتم على ما أنتم عليه من النفاق والمخالفة وهذا القيد لا بد منه لأن من أسلم وحسن إسلامه وجب عليه الجهاد ولا يجوز منعه من الخروج إلى الجهاد مع النبي ﷺ. الوجه الثاني: في الجواب عن الوجه الأول أن المراد من قوله لن تتبعونا ولن تخرجوا معي أبداً يعني في غزوة خيبر لأنها كانت مخصوصة بمن شهد بيعة الرضوان بالحديبية دون غيرهم. ثم نقول: إن النبي ﷺ لو لم يدعهم إلى الجهاد معه أو منعهم من الخروج إلى الجهاد معهما لامتنع أبو بكر وعمر من الإذن لهم في الخروج إلى الجهاد معهما كما امتنعا من أخذ الزكاة من ثعلبة لامتناع النبي ﷺ من أخذها وأما الجواب عن الوجه الثاني وهو أن النبي ﷺ لم يبق له حرب مع قوم أولي بأس شديد فغير مسلم لأن الحرب كانت باقية مع قريش وغيرهم من العرب وهم أولو بأس شديد فثبت بهذا البيان أن الداعي للمخلفين هو النبي ﷺ وأما قول من قال إن أبا بكر دعاهم إلى قتال بني حنيفة أصحاب مسيلمة الكذاب وإن عمر دعاهم إلى قتال فارس والروم فظاهر في الدلالة وفيه دليل على صحة خلافتهما لأن الله تعالى وعد على طاعتهما الجنة وعلى مخالفتهما النار.

فأنزل الله تعالى: ﴿ **ليس عل الأعمى حرج** ﴾، يعني في التخلّف عن الجهاد، ﴿ **ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج ومَن يطع الله ورسوله يدخله جنّات تجري من تحتها الأنهار ومَن يتولَّ يعذِّبْه عذاباً أليماً** ﴾، قرأ أهل المدينة والشام (ندخله) و (نعذبه) بالنون فيهما، وقرأ الآخرون بالياء لقوله: ﴿ **ومَن يطع الله ورسوله** ﴾.

﴿ **لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك** ﴾، بالحديبية على أن يناجزوا قريشاً ولا يفرّوا، ﴿ **تحت الشجرة** ﴾، وكان سمرة، قال سعيد بن المسيب: حدّثني أبي أنه كان فيمن بايع رسول الله ﷺ تحت الشجرة، قال: فلما خرجنا من العام المقبل نسيناها فلم نقدر عليها. ورُوِيَ أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه مرّ بذلك المكان بعد أن ذهبت الشجرة، فقال: أين كانت؟ فجعل بعضهم يقول هنا وبعضهم ههنا، فلما كثر اختلافهم قال سيروا قد ذهبت الشجرة. أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا علي بن عبد الله ثنا سفيان قال عمر: سمعت جابر بن عبد الله قال: قال لنا رسول الله ﷺ يوم الحديبية: «أنتم خير أهل الأرض»، وكنّا ألفاً وأربع مائة، ولو كنت أبصر اليوم لأريتكم مكان الشجرة، أخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر أنا عبد الغافر بن محمد أنا محمد بن عيسى الجلودي ثنا إبراهيم بن محمد بن سفيان عن مسلم بن الحجاج ثنا محمد بن حاتم ثنا حجّاج عن ابن جريج أخبرنا أبو الزبير أنه سمع جابراً يسأل: كم كانوا يوم الحديبية؟ قال: كنّا أربع عشرة مائة فبايعناه، وعمر آخذ بيده تحت الشجرة، وهي سمرة، فبايعناه غير جدّ بن قيس

وقوله تعالى: ﴿**تقاتلونهم أو يسلمون**﴾ فيه إشارة إلى وقوع أحد الأمرين إما الإسلام أو القتل ﴿**فإن تطيعوا يؤتكم الله أجراً حسناً**﴾ يعني الجنة ﴿**وإن تتولوا**﴾ يعني تعرضوا عن الجهاد ﴿**كما توليتم من قبل**﴾ يعني عام الحديبية ﴿**يعذبكم عذاباً أليماً**﴾ يعني النار ولما نزلت هذه الآية قال أهل الزمانة والأعذار كيف حالنا يا رسول الله ﷺ فأنزل الله عز وجل ﴿**ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج**﴾ يعني في التخلف عن الجهاد وهذه أعذار ماهرة في جواز ترك الجهاد، لأن أصحابها لا يقدرون على الكر والفر، لأن الأعمى لا يمكنه الإقدام على العدو والطلب، ولا يمكنه الاحتراز منه والهرب، وكذلك الأعرج، والمريض. وفي معنى الأعرج: الزمن المقعد والأقطع. وفي معنى المريض: صاحب السعال الشديد والطحال الكبير. والذين لا يقدرون على الكر والفر: فهذه أعذار مانعة من الجهاد ظاهرة ومن وراء ذلك أعذار أخر دون ما ذكر وهي: الفقر الذي لا يمكن صاحبه أن يستصحب معه ما يحتاج إليه من مصالح الجهاد والاشغال التي تعوق عن الجهاد كتمريض المريض الذي ليس له من قوم مقامه عليه ونحو ذلك وإنما قدم الأعمى على الأعرج، لأن عذر الأعمى مستمر لا يمكن الانتفاع به في حرس ولا غيره بخلاف الأعرج لأنه يمكن الانتفاع به في الحراسة ونحوها وقدم الأعرج على المريض لأن عذره أشد من عذر المريض لإمكان زوال المرض عن قريب ﴿**ومن يطع الله ورسوله**﴾ يعني في أمر الجهاد وغيره ﴿**يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار ومن يتول**﴾ يعني يعرض عن الساعة ويستمر على الكفر والنفاق ﴿**يعذبه عذاباً أليماً**﴾ يعني في الآخرة.

قوله عز وجل: ﴿**لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك**﴾ يعني بالحديبية على أن يناجزوا قريشاً ولا يفروا ﴿**تحت الشجرة**﴾ وكانت هذه الشجرة سمرة (ق) عن طارق بن عبد الرحمن قال انطلقت حاجاً، فمررت بقوم يصلون، فقلت: ما هذا المسجد؟ قالوا: هذه الشجرة حيث بايع رسول الله ﷺ بيعة الرضوان فأتيت ابن المسيب فأخبرته فقال سعيد: كان أبي ممن بايع تحت الشجرة قال: فلما خرجنا من العام المقبل نسيناها فعميت علينا فلم نقدر عليها. قال سعيد: فأصحاب رسول الله ﷺ لم يعلموها وعلمتموها فأنتم أعلم فضحك. وفي رواية، عن سعيد بن المسيب عن أبيه، قال: لقد رأيت الشجرة ثم أتيتها بعد عام فلم أعرفها، وروي أن عمر مر بذلك المكان بعد أن ذهبت الشجرة، فقال: أين كانت؟ فجعل بعضهم يقول هاهنا وبغضهم يقول هاهنا فلما كثر اختلافهم قال: سيروا. ذهبت الشجرة. (خ) عن ابن عمر قال رجعنا من العام المقبل فما اجتمع منا اثنان على الشجرة التي بايعنا تحتها وكانت رحمة من الله تعالى (م) عن أبي الزبير، أنه سمع جابراً يسأل: كم كانوا يوم الحديبية؟ قال: كنا أربع عشرة مائة فبايعناه وعمر آخذ بيده تحت الشجرة وهي سمرة فبايعناه جميعاً غير جد بن قيس الأنصاري اختفى تحت بطن بعيره. زاد في رواية قال: بايعناه على أن لا نفر. ولم نبايعه على الموت. وأخرجه الترمذي عن جابر في قوله تعالى: ﴿**لقد رضي الله تعالى عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة**﴾. قال: بايعنا رسول الله ﷺ على أن لا نفر ولم نبايعه على الموت. (ق) عن عمرو بن دينار قال: سمعت جابر بن عبد الله يقول: قال لنا رسول الله ﷺ يوم الحديبية. «أنتم اليوم خير أهل الأرض». وكنا ألفاً وأربعمائة قال: ولو كنت أبصر اليوم لأريتكم مكان الشجرة. وروى سالم عن جابر قال: كنا خمس عشرة مائة (ق) عن عبد الله بن أبي أوفى قال: كان أصحاب الشجرة ألفاً وثلثمائة وكانت أسلم ثمن المهاجرين وهذه البيعة تسمى بيعة الرضوان لهذه الآية وكان سبب هذه البيعة على ما ذكر محمد بن إسحاق عن بعض أهل العلم،

الأنصاري اختبأ تحت بطن بعيره. وروى سالم عن جابر قال: كنّا خمس عشرة مائة. وقال عبد الله بن أبي أوفى: كان أصحاب الشجرة ألفاً وثلثمائة، وكانت أسلم ثمن المهاجرين، وكان سبب هذه البيعة على ما ذكره محمد بن إسحاق عن أهل العلم أن رسول الله ﷺ دعا خراش بن أُميّة الخزاعي حين نزل الحديبية، فبعثه إلى قريش بمكة وحمله على جمل له، يقال له الثعلب ليبلغ أشرافهم عنه ما جاء له، فعقروا به جمل رسول الله ﷺ وأرادوا قتله فمنعته الأحابيش، فخلّوا سبيله حتى أتى رسول الله ﷺ، فدعا رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب ليبعثه إلى مكة،

أن رسول الله ﷺ دعا خراش بن أمية الخزاعي حين نزل الحديبية فبعثه إلى قريش بمكة وحمله على جمل يقال له «الثعلب» ليبلغ أشرافهم عنه ما جاء له فعقروا جمل رسول الله ﷺ وأرادوا قتله فمنعتهم الأحابيش، فخلوا سبيله حتى أتى رسول الله ﷺ فأخبره، فدعا رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب ليبعثه إلى مكة فقال: يا رسول الله إني أخاف على نفسي قريشاً وليس بمكة من بني عدي بن كعب أحد وقد عرفت قريش عداوتي إياها وغلظتي عليها ولكن أدلك على رجل هو أعزبها مني عثمان بن عفان فدعا رسول الله ﷺ عثمان فبعثه إلى أبي سفيان وأشراف قريش يخبرهم أنه لم يأت لحرب إنما جاء زائراً لهذا البيت معظماً لحرمته فخرج عثمان إلى مكة فلقيه أبان بن سعيد بن العاص حين دخل مكة أو قبل أن يدخلها فنزل عن دابته وحمله بين يديه ثم أردفه وأجاره حتى بلغ رسالة رسول الله ﷺ فقال عظماء قريش لعثمان حين فرغ من رسالة رسول الله ﷺ: إن شئت أن تطوف بالبيت، فطف به. فقال: ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله ﷺ فاحتبسته قريش عندها فبلغ، رسول الله ﷺ والمسلمين أن عثمان قد قتل فقال رسول الله ﷺ لا نبرح حتى نناجز القوم». ودعا الناس إلى البيعة فكانت بيعة الرضوان تحت الشجرة وكان الناس يقولون: بايعهم رسول الله ﷺ على الموت قال بكير بن الأشج: بايعوه على الموت، فقال رسول الله ﷺ: «بل على ما استطعتم». وقد تقدم عن جابر ومعقل بن يسار أنهما قالا: لم نبايعه على الموت، ولكن بايعناه على أن لا نفر. وقد تقدم أيضاً الجمع بين هذا وبين قول سلمة بن الأكوع بايعناه على الموت وكان أول من بايع بيعة الرضوان رجلاً من بني أسد يقال له أبو سنان بن وهب، ولم يتخلف عن بيعة الرضوان أحد من المسلمين حضرها إلا جد بن قيس أخو بني سلمة قال جابر: فكأني أنظر إليه لاصقاً بإبط ناقته يستتر بها من الناس ثم أتى رسول الله ﷺ أن الذي ذكر من أمر عثمان باطل (م) عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ «لا يدخل النار أحد ممن بايع تحت الشجرة» عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ «ليدخلن الجنة من بايع تحت الشجرة إلا صاحب الجمل الأحمر» أخرجه الترمذي وقال حديث غريب.

وقوله تعالى: ﴿**فعلم ما في قلوبهم**﴾ يعني من الصدق والإخلاص والوفاء كما علم ما في قلوب المنافقين من المرض والنفاق ﴿**فأنزل السكينة**﴾ يعني الطمأنينة ﴿**عليهم**﴾ يعني على المؤمنين المخلصين حتى ثبتوا وبايعوك على الموت وعلى أن لا يفروا وفي هذه الآية لطيفة، وهي أن هذه البيعة كانت فيها طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ وذلك موجب لرضوان الله عز وجل وهو موجب لدخول الجنة ويدل عليه قوله تعالى في الآية المتقدمة ﴿**ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار**﴾ فثبت بهذا البيان أن أهل بيعة الرضوان من أهل الجنة، ويشهد لصحة ما قلناه الحديث المتقدم.

فقال: يا رسول الله إني أخاف قريشاً على نفسي وليس من بني عدي بن كعب أحدٌ يمنعني، وقد عرفت قريش عداوتي إيَّاها وغلظتي عليها، ولكن أدلك على رجل هو أعزّ بها منّي عثمان بن عفّان، فدعا رسول الله ﷺ عثمان، فبعثه إلى أبي سفيان وأشراف قريش يخبرهم أنه لم يأتِ بحرب، وإنما جاء زائراً لهذا البيت معظِّماً لحُرمته، فخرج عثمان إلى مكة، فلقيه أبّان بن سعد بن العاص حين دخل مكة، أو قبل أن يدخلها، فنزل عن دابّته وحمله بين يديه، ثم أردفه وأجاره حتى بلغ رسالة رسول الله ﷺ، فقال أبو سفيان وعظماء قريش لعثمـان حين فرغ من رسالة رسول الله ﷺ: إنْ شئتَ أنْ تطوفَ بالبيت فطفْ به، قال: ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله ﷺ، فاحتسبته قريش عندها فبلغ رسول الله ﷺ والمسلمين أن عثمان قد قتل، فقال رسول الله ﷺ: لا نبرح حتى نناجز القوم»، ودعا الناس إلى البيعة، فكانت بيعة الرضوان تحت الشجرة، وكان الناس يقولون: بايعهم رسول الله ﷺ على الموت، قال بكير ابن الأشج: بايعوه على الموت، فقال رسول الله ﷺ: «بل على ما استطعتم». وقال جابر بن عبد الله ومعقل بن يسار: لم نبايعه على الموت ولكن بايعناه على أنْ لا نفرّ، فكان أول مَن بايع بيعة الرضوان رجلاً من بني

فإن قلت الفاء في فعلم للتعقيب وعلم الله قبل الرضا، لأنه تعالى علم ما في قلوبهم من الصدق والإيمان فرضي عنهم فكيف يفهم التعقيب في قوله ﴿فعلم ما في قلوبهم﴾.

قلت: قوله: ﴿ما في قلوبهم﴾، متعلق بقوله: ﴿إذا يبايعونك﴾، فيكون تقديره: لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك فعلم ما في قلوبهم من الصدق إشارة إلى أن الرضا لم يكن عند المبايعة فحسب بل عند المبايعة التي عندها علم الله بصدقهم والفاء في قوله: فأنزل السكينة للتعقيب، لأنه تعالى لما علم ما في قلوبهم رضي عنهم فأنزل السكينة عليهم.

وقوله تعالى: ﴿وأثابهم فتحاً قريباً﴾ يعني خيبر.

﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾ وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾﴾

﴿ومغانم كثيرة يأخذونها﴾ يعني من أموال أهل خيبر وكانت خيبر ذات نخيل وعقار وأموال فقسمها رسول الله ﷺ بينهم ﴿وكان الله عزيزاً﴾ يعني منيعاً كامل العزة غنياً عن إعانتكم ﴿حكيماً﴾ حيث حكم لكم بالغنائم ولأعدائكم بالهلاك على أيديكم.

قوله تعالى: ﴿وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها﴾ يعني المغانم التي تغنمونها من الفتوحات التي تفتح لكم إلى يوم القيامة ﴿فعجل لكم هذه﴾ يعني مغانم خيبر وفيه إشارة إلى كثرة الفتوحات والغنائم التي يعطيهم الله عز وجل في

أسد يقال له أبو سنان بن وهب، ولم يتخلّف عنه أحداً من المسلمين حضرها إلّا جدّ بن قيس أخو بني سلمة، قال جابر: لكأني أنظر إليه لَاصقاً بإبط ناقته مستتراً بها من الناس، ثم أتى رسول الله ﷺ أن الذي ذكر من أمر عثمان باطل. أخبرنا أبو سعيد الشريحي أنا أبو إسحاق الثعلبي أخبرني الحسين بن محمد بن فنجويه ثنا علي بن أحمد بن نضرويه ثنا أبو عمرَان موسى بن سهل بن عبد الحميد الجوني ثنا محمد بن رمح ثنا الليث بن سعد عن أبي الزبير عن جابر عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا يدخل النار أحد ممّن بايع تحت الشجرة». قوله عزّ وجلّ: ﴿ فعلم ما في قلوبهم ﴾، من الصدق والوفاء، ﴿ فأنزل السكينة ﴾، الطمأنينة والرضا، ﴿ عليهم وأثابهم فتحاً قريباً ﴾، يعني فتح خيبر.

﴿ ومغانم كثيرةً يأخذونها ﴾، من أموال يهود خيبر، وكانت خيبر ذات عقار وأموال، فاقتسمها رسول الله ﷺ بينهم، ﴿ وكان الله عزيزاً حكيماً ﴾.

﴿ وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها ﴾، وهي الفتوح التي تفتح لهم إلى يوم القيامة، ﴿ فعجّل لكم هذه ﴾، يعني خيبر، ﴿ وكفَّ أيديَ الناس عنكم ﴾، وذلك أن النبي ﷺ لمّا قصد خيبر وحاصر أهلها همّتْ قبائل من بني أسد وغطفان أن يُغيروا على عِيال المسلمين وذراريهم بالمدينة، فكفّ الله أيديهم بإلقاء الرعب في قلوبهم، وقيل: كفّ أيديَ الناس عنكم يعني أهل مكة بالصلح، ﴿ ولتكون ﴾، كفّهم وسلامتكم، ﴿ آيةً للمؤمنين ﴾، على صدقك ويعلموا أن الله هو المتولّي حياطَتَهم وحراستهم في مشهدهم ومغيبهم، ﴿ ويهديهم صراطاً مستقيماً ﴾، يثبتكم على الإسلام ويزيدكم بصيرة ويقيناً بصلح الحديبية، وفتح خيبر وذلك أن رسول الله ﷺ لمّا رجع من الحديبية أقام بالمدينة بقية ذي الحجة وبعض المحرّم ثم خرج في بقية المحرّم سنة سبع إلى خيبر، أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا قتيبة بن سعيد ثنا

المستقبل وإنما عجل لهم هذه كعجالة الراكب أعجلها الله لكم وهي في جنب ما وعدكم الله به من الغنائم كالقليل من الكثير ﴿وكف أيدي الناس عنكم﴾ وذلك أن النبي ﷺ لما قصد خيبر وحاصر أهلها، همت قبائل من بني أسد وغطفان أن يغيروا على عيال المسلمين وذراريهم بالمدينة، فكف الله عز وجل أيديهم بإلقاء الرعب في قلوبهم. وقيل: المعنى إن الله عز وجل كف أيدي أهل مكة بالصلح عنكم لتمام المنّة عليكم ﴿ولتكون آية للمؤمنين﴾ هو عطف على ما تقدم تقديره، فعجل لكم الغنائم لتنتفعوا بها، ولتكون آية للمؤمنين. يعني: ولتحصل من بعدكم آية تدلهم على أن ما وهبكم الله يحصل مثله لهم. وقيل: لتكون آية للمؤمنين دالة على صدق الرسول ﷺ في إخباره عن الغيوب، فيزدادوا يقيناً إلى يقينهم ويعلموا أن الله هو المتولي حياطتهم وحراستهم في مشهدهم ومغيبهم ﴿ويهديكم صراطاً مستقيماً﴾ يعني ويهديكم إلى دين الإسلام ويثبتكم عليه ويزيدكم بصيرة ويقيناً بصلح الحديبية وفتح خيبر.

(ذكر غزوة خيبر)

وذلك أن رسول الله ﷺ لما رجع من الحديبية أقام بالمدينة بقية ذي الحجة وبعض المحرم ثم خرج إلى خيبر في بقية المحرم سنة سبع (ق). عن أنس أن النبي ﷺ كان إذا غزا قوماً لم يكن يغزو بنا حتى يصبح وينظر فإن سمع أذاناً كف عنهم. وإن لم يسمع أذاناً أغار عليهم. قال: فخرجنا إلى خيبر فلما انتهينا إليهم ليلاً فلما أصبح ولم يسمع أذاناً ركب وركبت خلف أبي طلحة وإن قدمي لتمس قدم النبي ﷺ قال فخرجوا علينا بمكاتلهم ومساحيهم فلما رأوا رسول الله ﷺ قالوا محمد والخميس فلما رآهم النبي ﷺ قال «الله أكبر خربت خيبر إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين» (م) عن سلمة بن الأركع قال: خرجنا إلى خيبر مع رسول الله ﷺ فجعل عمي عامر يرتجز بالقوم:

تـالله لـولا الله مـا اهتـدينـا ... ولا تصـدقنـا ولا صلينـا
ونحـن عـن فضلـك مـا استغنينـا ... فثبـت الأقـدام إن لاقينـا
وأنـزلن سكينـة علينـا

فقال رسول الله ﷺ: «من هذا؟» قال: أنا عامر. قال: «غفر لك ربك» قال: وما استغفر رسول الله ﷺ لإنسان

إسماعيل بن جعفر عن حميد عن أنس بن مالك أن النبي ﷺ كان إذا غَزَا بِنَا قوماً لم يكن يغزو بِنَا حتى يصبح، وينظر إليهم فإن سمع أذاناً كفّ عنهم وإن لم يسمع أذاناً أغار عليهم قال: فخرجنا إلى خيبر فانتهيا إليهم ليلاً فلما أصبح ولم يسمع أذاناً ركب وركبت خلف أبي طلحة وأن قدمي لتمسُّ قدم النبيّ ﷺ، قال: فخرجوا إلينا بمكاتلهم ومساحيهم، فلما رأوا النبي ﷺ قالوا: محمد والله محمد والخميس، فلجأوا إلى الحصن، فلما رآهم رسول الله ﷺ قال: «الله أكبر الله أكبر خربت خيبر إنّا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين». أخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر أنا عبد الغافر بن محمد أنا محمد بن عيسى الجلودي ثنا إبراهيم بن محمد بن سفيان ثنا مسلم بن الحجّاج ثنا عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي أنا أبو علي الحنفي ثنا عبيد الله بن عبد المجيد ثنا عكرمة بن عمّار ثنا إياس بن سلمة حدّثني أبي قال: خرجنا إلى خيبر مع رسول الله ﷺ، قال فجعل عمّي عامر يرتجز بالقوم شعراً:

«تـاللّهِ لـولا اللّهِ مـا اهـتـدينـا ... ولا تـصـدّقـنـا ولا صـلّـينـا ... ونحنُ عن فضلك مـا استغنينـا»
«فـثـبّـت الأقـدامَ إنْ لاقـيـنـا ... وأنـزلَـنْ سـكـيـنـةً عـلـيـنـا ... إن الأُلـى قـد بـغـوا عـلـيـنـا»

فقال رسول الله ﷺ: «مَن هذا»؟ فقال: أنـا عامـر: «غفر لك ربك»، قال وما استغفر رسول الله ﷺ لإنسان يخصّه إلّا استشهد، قال: فنادى عمر بن الخطاب وهو على جمل له: يا نبيّ الله لولا متّعتنا بعامر، قال فلما قَدِمنا خيبر خرج ملكهم مرحب يخطر بسيفه يقول:

يخصه إلا استشهد. قال: فنادى عمر بن الخطاب وهو على جمل له: يا نبي الله لولا متعتنا بعامر. قال: فلما قدمنا خيبر خرج ملكهم مرحب يخطر بسيفه يقول:

قد علمت خيبر أني مرحب   شاكي السلاح بطل مجرب

إذا الحروب أقبلت تلتهب

قال: وبرز له عمي عامر فقال:

قد علمت خيبر أني عامر   شاكي السلاح بطل مغامر

قال: فاختلفا بضربتين فوقع سيف مرحب في ترس عامر، وذهب عامر يسفل له، فرجع سيفه على نفسه فقطع أكحله، فكانت فيها نفسه. قال سلمة: فخرجت فإذا نفر من أصحاب رسول الله ﷺ يقولون: بطل عمل عامر قتل نفسه فأتيت رسول الله ﷺ وأنا أبكي فقلت: يا رسول الله بطل عمل عمي عامر قال رسول الله ﷺ: من قال ذلك؟ قلت: ناس من أصحابك. قال: كذب من قال ذلك بل له أجره مرتين. ثم أرسلني إلى علي وهو أرمد فقال: لأعطين الراية رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله. قال: فأتيت علياً فجئت به أقوده وهو أرمد حتى أتيت به رسول الله ﷺ. فبصق في عينيه فبرأ، وأعطاه الراية فخرج مرحب فقال:

قد علمت خيبر أني مرحب   شاكي السلاح بطل مجرب

إذا الحروب أقبلت تلتهب

فقال علي رضي الله عنه:

أنا الذي سمتني أمي حيدره   كليث غابات كريه المنظره

أوفيهم بالصاع كيل السندره

«قد علمتْ خيبرُ أنّي مرحبُ   شاكي السلاح بطلٌ مجرِّبُ   إذا الحروب أقبلتْ تُلتهبُ»

قال: وبرز له عمّي عامر فقال:

«قد علمت خيبر أنّي عامرُ   شاكي السلاح بطلٌ مغامِرُ»

قال فاختلفا ضربتين فوقع سيف مرحب في ترس عامر وذهب عامر يسفل له، فرجع سيفه على نفسه فقطع أكحله، وكانت فيها نفسه. قال سلمة: فخرجت فإذا نفر من أصحاب النبي ﷺ يقولون: بطَلَ عملُ عامر قَتلَ نفسَه، قال: فأتيت النبي ﷺ وأنا أبكي، فقلت: يا رسول الله بَطَلَ عملُ عامر قتل نفسه، قال رسول الله ﷺ: «مَن قال ذلك»؟ قلت: ناس من أصحابك، قال: «كذب مَن قال ذلك، بل له أجره مرتين»، ثم أرسلني إلى عليّ رضي الله عنه وهو أرمد، فقال: لأعطينّ الراية غداً رجلاً يحبّ الله ورسوله ويحبّه الله ورسوله، قال: فأتيتُ علياً رضي الله عنه فجئت به أقوده وهو أرمد، حتى أتيت به رسول الله ﷺ فبصق في عينيه فبرأ، وأعطاه الراية، وخرج مرحب فقال:

«قد علمت خيبر أني مرحب   شاكي السلاح بطلٌ مجرّب   إذا الحروب أقبلت تلتهبُ»

فقال عليّ رضي الله عنه:

«أنا الذي سَمّتني أُمي حيدرة   كليث غابات كريه المنظرة   أُوفِيْهم بالصاع كيل السندرة»

قال فضرب مرحباً فقتله ثم كان الفتح على يده. أخرجه مسلم بهذا اللفظ وقد أخرج البخاري طرفاً منه قال البغوي وقد روى حديث فتح خيبر جماعة منهم سهل بن سعد وأنس بن مالك وأبو هريرة يزيدون وينقصون فيه «أن رسول الله ﷺ كان قد أخذته الشقيقة فلم يخرج إلى الناس، فأخذ أبو بكر راية رسول الله ﷺ ثم نهض فقاتل قتالاً شديداً، ثم رجع فأخذها عمر فقاتل قتالاً شديداً هو أشد من القتال الأول، ثم رجع فأخبر رسول الله ﷺ بذلك، فقال: لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله ويفتح الله على يديه، فدعا علياً فأعطاه الراية وقال له: امش ولا تلتفت حتى يفتح الله عليك فأتى خيبر فخرج مرحب صاحب الحصن وعلى رأسه مغفر من حجر قد نقبه مثل البيضة وهو يرتجز، فخرج إليه علي بن أبي طالب، فضربه فقد الحجر والمغفر وفلق رأسه حتى أخذ السيف في الأضراس، ثم خرج بعد مرحب أخوه ياسر وهو يرتجز، فخرج إليه الزبير بن العوام فقالت أمة صفية بنت عبد المطلب: يقتل ابني يا رسول الله؟ قال: ابنك يقتله إن شاء الله. ثم التقيا، فقتله الزبير. ثم كان الفتح ثم لم يزل رسول الله ﷺ يفتح الحصون ويقتل المقاتلة ويسبي الذرية ويحوز الأموال» قال محمد بن إسحاق: فكان أول حصونهم افتتح حصن ناعم وعنده قتل محمود بن مسلمة ألقت اليهود عليه حجراً فقتله ثم فتح حصن ابن أبي الحقيق فأصاب سبايا منهم صفية بنت حيي بن أخطب جاء بها بلال وبأخرى معها فمر بها على قتلى من قتلى يهود، فلما رأتهم التي مع صفية، صاحت وصكت وجهها وحثت التراب على رأسها، فلما رآها رسول الله ﷺ قال: «اعزبوا عني هذه الشيطانة» وأمر بصفية فجهزت خلفه وألقى عليها رداءه، فعرف المسلمون أن رسول الله ﷺ قد اصطفاها لنفسه وقال رسول الله ﷺ لبلال لما رأى من تلك اليهودية ما رأى أنزعت منك الرحمة يا بلال حيث تمر بامرأتين على قتلى رجالهما وكانت صفية قد رأت في المنام وهي عروس بكنانة بن الربيع بن أبي الحقيق أن قمراً وقع في حجرها،

قال: فضرب رأس مرحب فقتله، ثم كان الفتح على يديه. وروى حديث خيبر سهل بن سعد وأنس وأبو هريرة يزيدون وينقصون وفيه أن رسول الله ﷺ كان قد أخذته الشقيقة فلم يخرج إلى الناس فأخذ أبو بكر رضي الله عنه رَايةَ رسول الله ﷺ، ثم نهض فقاتل قتالاً شديداً، ثم رجع فأخذها عمر رضي الله عنه فقاتل قتالاً شديداً هو أشدّ من القتال الأول، ثم رجع، فأخبر رسول الله ﷺ بذلك فقال: «لأعطينّ الراية غداً رجلاً يحبُّ الله ورسولَهُ ويحبّه الله ورسُوله يفتح الله على يديه، فدعا عليًّ بن أبي طالب فأعطاه إياها وقال له: امشِ ولا تلتفت حتى يفتح الله عليك، فأتي مدينة خيبر، فخرج مرحب صاحب الحصن وعليه مغفر وحجر قد ثقبه مثل البيضة على رأسه، وهو يرتجز فبرز إليه عليّ فضربه فقدّ الحجر والبيضة والمغفر وفلق رأسه حتى أخذ السيف في الأضراس، ثم خرج بعد مرحب أخوه ياسر، وهو يرتجز فخرج إليه الزبير بن العوّام، فقالت أُمه صفيّة بنت عبد المطّلب: أوَ يُقتَل ابني يا رسول الله؟ قال: «لا بل ابنك يقتله إن شاء الله»، ثم التقيا فقتله الزبير، ثم لم يزل رسول الله ﷺ يفتح الحصون، ويقتل المقاتلة ويسبي الذرية، ويحوز الأموال. قال محمد بن إسحاق: وكان أول حصونهم افتتح حصن ناعم، وعنده قتل محمود بن سلمة ألقت عليه اليهود حجراً فقتله، ثم فتح العموص حصن ابن أبي الحقيق، فأصاب منه سبايا، منهم صفية بنت حيّ بن أخطب جاء بلال بها وبأخرى معها، فمرّ بهما على قتلى من قتلى يهود، فلما رأتهم التي مع صفيّة صاحت وصكّت وجهها وحثت التراب على رأسها فلما رآها رسول الله ﷺ قال: «أعزبوا عنّي هذه الشيطانة»، وأمر بصفية فحيزت خلفه وألقى عليها رداءه، فعرف المسلمون أن رسول الله ﷺ اصطفاها لنفسه، وقال رسول الله ﷺ لبلال لما رأى من تلك اليهودية ما رأى: «أنزعت منك الرحمة يا بلال حيث تمرّ بامرأتين على قتلى رجالهما»، وكانت صفية قد رأت في المنام وهي عروس بكنانة بن الربيع بن أبي الحقيق أن القمر وقع في حجرها، فعرضت رؤياها على زوجها، فقال: ما هذا إلاّ أنك تتمنّين ملك الحجاز محمداً فلطم وجهها لطمة اخضرّت عينها

فعرضت رؤياها على زوجها فقال: ما هذا إلا أنك تتمنين ملك الحجاز محمداً ثم لطم وجهها لطمة اخضرت منها عينها، فأتي بها رسول الله ﷺ وبها أثر منها فسألها عن ذلك ما هو، فأخبرته الخبر، وأتى رسول الله ﷺ بزوجها كنانة بن الربيع وكان عنده كنز بني النضير فسأله، فجحد أن يكون يعلم مكانه، فأتى رسول الله ﷺ برجل من اليهود فقال لرسول الله: ﷺ إني رأيت كنانة يطوف بهذه الخربة كل غداة فقال رسول الله ﷺ لكنانة: أرأيت إن وجدناه عندك أنقتلك قال: نعم فأمر رسول الله ﷺ بالخربة فحفرت فأخرج منها بعض كنزهم ثم سأله ما بقي، فأبى أن يؤديه إليه فأمر به رسول الله ﷺ إلى الزبير بن العوام أن يعذبه حتى يسأتصل ما عنده فكان الزبير يقدح بزنده على صدره حتى أشرف على نفسه ثم دفعه إلى محمد بن مسلمة فضرب عنقه بأخيه محمود بن مسلمة» (ق) عن أنس بن مالك، أن رسول الله ﷺ غزا خيبر فصلينا عندها صلاة الغداة بغلس فركب نبي الله ﷺ وركب أبو طلحة وأنا رديف أبي طلحة فأجرى نبي الله ﷺ في زقاق خيبر وإن ركبتي لتمس فخذ نبي الله ﷺ ثم حسر الإزار عن فخذه حتى إني أنظر بياض فخذ النبي ﷺ، فلما دخل القرية قال: الله أكبر خربت خيبر إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين قالها ثلاثاً. قال: وخرج القوم إلى أعمالهم فقالوا محمد والخميس يعني الجيش. قال: فأصبناها عنوة فجمع السبي فجاء دحية فقال: يا رسول الله ﷺ أعطني جارية من السبي. قال: اذهب فخذ جارية، فأخذ صفية بنت حيي فجاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا نبي الله أعطيت دحية صفية بنت حيي سيدة قريظة والنضير لا تصلح إلا لك قال: أدعوها فجاء بها، فلما نظر إليها النبي ﷺ قال: خذ جارية من السبي غيرها، فأعتقها النبي ﷺ وتزوجها. فقال له ثابت: يا أبا حمزة ما أصدقها قال نفسها أعتقها وتزوجها، حتى إذا كان بالطريق، جهزتها له أم سليم، فأهدتها له من الليل وأصبح النبي ﷺ عروساً فقال: من كان عنده شيء فليجيء به. وبسط نطعاً فجعل الرجل يجيء بالتمر وجعل الآخر يجيء بالسمن قال:

منها، فأتى رسول الله ﷺ بها وبها أثر منها فسألها ما هو، فأخبرته هذا الخبر وأتى رسول الله ﷺ بزوجها كنانة بن الربيع، وكان عنده كنز بني النضر فسأله فجحده أن يكون يعلم مكانه، فأتى رسول الله ﷺ برجل من اليهود فقال لرسول الله ﷺ إني قَدْ رأيتُ كنانة يطوف بهذه الخربة كل غداة، فقال رسول الله ﷺ لكنانة: «أرأيت إن وجدناه عندك أنقتلك»؟ قال: نعم، فأمر رسول الله ﷺ بالخربة فحُفِرت فأخرج منها بعض كنزهم، ثم سأله ما بقي فأبى أن يؤدِّيه، فأمر رسول الله ﷺ الزبير بن العوّام فقال: «عذِّبه حتى تستأصل ما عنده»، فكان الزبير يقدح بزنده في صدره حتى أشرف على نفسه، ثم دفعه رسول الله ﷺ إلى محمد بن مسلمة فضرب عنقه بأخيه محمود بن مسلمة. أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا يعقوب بن إبراهيم ثنا ابن علية ثنا عبد العزيز بن صهيب عن أنس أن رسول الله ﷺ غزا خيبر فصلّينا عندها صلاة الغداة بغلس، فركب رسول الله ﷺ وركب أبو طلحة وأنا رديف أبي طلحة، فأجرى نبي الله ﷺ في زقاق خيبر وإن ركبتي لتمسّ فخذ نبيّ الله، ثم حسر الإزار عن فخذه حتى إني لأنظر إلى بياض فخذ نبيّ الله ﷺ، فلما دخل القرية قال: «الله أكبر خربت خيبر، إنّا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين»، قالها ثلاثاً، قال وخرج القوم إلى أعمالهم، فقالوا: محمد، قاله عبد العزيز، وقال بعض أصحابنا: والخميس يعني الجيش، قال: فأصبناها عنوة فجمع السبي فجاء دحية فقال: يانبيّ الله أعطني جارية من السبي، قال: اذهب فخذ جارية فأخذ صفية بنت حيـي، فجاء رجل إلى نبي الله ﷺ فقال: يا نبي الله أعطيتَ دحية صفية بنت حيـي سيدة قريظة والنضير، لا تصلح إلاّ لك، قال: «ادعوه بها» فجاء بها فلما نظر إليها النبي ﷺ قال: «خذ جارية من السبي غيرها»، قال: فأعتقها النبي ﷺ وتزوجها، فقال له ثابت: يا أبا حمزة ما أصدقها؟ قال: نفسها أعتقها فتزوجها حتى إذا كان بالطريق جهّزتها له أم سليم، فأهدتها له من الليل فأصبح النبي ﷺ عروساً، فقال: مَن كان عنده شيء فليجيء به، وبسط قطعاً فجعل الرجل يجيء بالتمر

وأحسبه ذكر السويق. قال: فحاسوا حيساً فكانت وليمة رسول الله ﷺ» (ق). عن عبد الله بن أبي أوفى قال: «أصابتنا مجاعة لیالي خيبر، فلما كان يوم خيبر وقعنا في الحمر الأهلية فانتحرناها فلما غلت بها القدور نادى منادي رسول الله ﷺ أن أكفئوا القدور ولا تأكلوا من لحوم الحمر شيئاً». فقال أناس: نهى عنها لأنها لم تخمس وقال آخرون: إنما نهى عنها البتة (ق) عن أنس: «أن امرأة يهودية أتت رسول الله ﷺ بشاة مسمومة فجيء بها إلى رسول الله ﷺ فسألها عن ذلك فقالت: أردت لأقتلك فقال: ما كان الله ليسلطك على ذلك. أو قال علي قالوا أنقلتها قال لا فما زلت أعرفها في لهوات رسول الله ﷺ».

قال محمد بن إسماعيل قال يونس عن الزهري قال عروة قالت عائشة: كان النبي ﷺ يقول في مرضه الذي مات فيه: «يا عائشة ما أزال أجد ألم الطعام الذي أكلت بخيبر فهذا أوان وجدت انقطاع أبهري من ذلك السم» (خ). عن عائشة قالت: «لما فتحت خيبر قلنا الآن نشبع من التمر» (ق) عن ابن عمر «أن عمر أجلى اليهود والنصارى من أرض الحجاز وأن رسول الله ﷺ لما ظهر على خيبر أراد إخراج اليهود منها وكانت الأرض لما ظهر عليها لله ولرسوله ﷺ وللمسلمين فأراد إخراج اليهود منها فسألت اليهود رسول الله ﷺ أن يقرهم بها على أن يكفوا العمل ولهم نصف التمر، فقال لهم رسول الله ﷺ: نقركم بها على ذلك ما شئنا فقروا بها. حتى أجلاهم عمر في إمارته إلى تيماء وأريحاء. قال محمد بن إسحاق: لما سمع أهل فدك بما صنع رسول الله ﷺ بخيبر بعثوا إلى رسول الله ﷺ يسألونه أن يحقن دماءهم وأن يسيرهم ويخلوا له الأموال ففعل بهم ثم إن أهل خيبر سألوا رسول الله ﷺ أن يعاملهم على النصف ففعل على أن لنا إذا شئنا إخراجكم فصالحه أهل فدك على مثل ذلك فكانت خيبر للمسلمين وكانت فدك خالصة لرسول الله ﷺ لأنهم لم يجلبوا عليها بخيل ولا ركاب، فلما اطمأن رسول الله ﷺ، أهدت له زينب بنت الحارث امرأة سلام بن

وجعل الآخر يجيء بالسمن، قال: وأحسبه قد ذكر السويق، قال: فحاسوا حيساً فكانت وليمة رسول الله ﷺ. أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا موسى بن إسماعيل ثنا عبد الواحد الشيباني قال: سمعت ابن أبي أوفى يقول أصابتنا مجاعة ليالي خيبر، فلما كان يوم خيبر وقعنا في الحمر الأهلية فانتحرناها، فلما غلت القدور نادى منادي رسول الله ﷺ اكفؤوا القدور ولا تطعموا من لحوم الحمر شيئاً، قال عبد الله بن عباس: فقلنا إنما نهى النبي ﷺ عنها لأنها لم تخمّس، وقال آخرون: حرّمها البتّة، وسألت عنها سعيد بن جبير فقال: حرّمها البتّة. أخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر أنا عبد الغافر بن محمد أنا محمد بن عيسى الجلودي ثنا إبراهيم بن محمد بن سفيان ثنا مسلم بن الحجّاج ثنا يحيىٰ بن حبيب الحارثي أنا خالد بن الحارث ثنا شعبة عن هشام بن زيد عن أنس أن امرأة يهودية أتت رسول الله ﷺ بشاة مسمومة، فأكل منها، فجيء بها إلى رسول الله ﷺ، فسألها عن ذلك، فقالت: أردت أن أقتلك، قال: ما كان الله ليسلّطك على ذلك، أو قال عليّ، قال: قالوا ألَا تقتلها يا رسول الله؟ قال: لا وتجاوز عنها رسول الله ﷺ، قال فما زلت أعرفها في لهوات رسول الله ﷺ. وقال محمد بن إسماعيل قال يونس عن الزهري قال عروة قالت عائشة: كان النبي ﷺ يقول في مرضه الذي مات فيه: «يا عائشة ما أزال أجد ألم الطعام الذي أكلت بخيبر، فهذا أوانٌ وجدتُ انقطاع أبهري من ذلك السمّ» أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل أنا محمد بن بشّار أنا حرمي أنا شعبة قال أخبرني عمارة عن عكرمة عن عائشة قالت: لمّا فتحت خيبر قلنا: الآن نشبع من التمر. أنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا أحمد بن المقدام ثنا فضيل بن سليمان ثنا موسى بن عقبة أخبرني نافع عن ابن عمر أن عمر بن الخطاب أجلى اليهود والنصارى من أرض الحجاز، وكان رسول الله ﷺ لمّا ظهر على أهل خيبر أراد أن يخرج اليهود منها، وكانت

مشكم اليهودية شاة مصلية، يعني مشوية، وسألت أي عضو من الشاة أحب إلى رسول الله ﷺ فقيل لها: الذراع، فأكثرت فيها السم، وسمّت سائر الشاة، ثم جاءت بها فلما وضعتها بين يدي رسول الله ﷺ تناول الذراع فأخذها، فلاكَ منها قطعة فلم يسغها ومعه بشر بن البراء بن معرور، فأخذ منها كما أخذ رسول الله ﷺ، فأما بشر فأساغها يعني ابتلعها وأما رسول الله ﷺ فلفظها، ثم قال: إن هذا العظم ليخبرني أنه مسموم. ثم دعا بها فاعترفت فقال: ما حملك على ذلك؟ فقالت: بلغت من قومي ما لايخفى عليك فقلت إن كان ملكاً استرحنا منه وإن كان نبياً فسيخبرنا. فتجاوز عنها رسول الله ﷺ ومات بشر على مرضه الذي توفي فيه. فقال: يا أم بشر ما زالت أكلة خيبر التي أكلت مع ابنك تعاودني فهذا أوان انقطاع أبهري». فكان المسلمون يرون أن رسول الله ﷺ مات شهيداً مع ما أكرمه الله تعالى به من النبوة.

عن عبيد الله بن سلمان أن رجلاً من أصحاب النبي ﷺ قال: «لما فتحنا خيبر أخرجوا غنائمهم من المتاع والسبي فجعل الناس يتبايعون غنائمهم فجاء رجل فقال: يا رسول الله لقد ربحت اليوم ربحاً ما ربحه أحد من أهل هذا الوادي. قال: ويحك وما ربحت قال ما زلت أبيع وأبتاع حتى ربحت ثلاثمائة أوقية. فقال له رسول الله ﷺ: ألا أنبئك بخير ربح؟ قال: وما هو يا رسول الله قال: ركعتان بعد الصلاة» أخرجه أبو داود.

وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾

قوله تعالى: ﴿وأخرى لم تقدروا عليها﴾ يعني وعدكم الله فتح بلدة أخرى لم تقدروا عليها ﴿قد أحاط الله بها﴾

الأرض حين ظهر عليها لله ولرسوله وللمسلمين، فسأل اليهود رسول الله ﷺ أن يتركهم على أن يكفُوا العمل ولهم نصف التمر، فقال رسول الله ﷺ: «نقرّكم على ذلك ما شئنا» فأُقِرّوا حتى أجلاهم عمر في أمارته إلى تيماء وأريحاء. قال محمد بن إسحاق: فلما سمع أهل فدك بما صنع رسول الله ﷺ بخيبر بعثوا إلى رسول الله ﷺ يسألونه أن يسيّرهم ويحقن لهم دماءهم، ويخلّوا له الأموال، ففعل ثم إن أهل خيبر سألوا رسول الله ﷺ أن يعاملهم الأموال على النصف، ففعل على أنّا إذا شئنا أخرجناكم، فصالحه أهل فدك على مثل ذلك، فكانت خيبر للمسلمين وكانت فدك خالصة لرسول الله ﷺ، لأنهم لم يجلبوا عليها بخيل ولا ركاب، فلما اطمأن رسول الله ﷺ أهدت له زينب بنت الحارث امرأة سلام بن مشكم شاة مصليّة، وقد سألت أيّ عضو من الشاة أحبّ إلى رسول الله ﷺ؟ فقيل لها: الذراع، فأكثرت فيها السمّ، وسمّمت سائر الشاة، ثم جاءت بها فلما وضعتها بين يدي رسول الله ﷺ، تناول الذراع فأخذها فلاك منها مضغة فلم يسغها ومعه بشر بن البراء بن معرور، وقد أخذ منها كما أخذ رسول الله ﷺ، فأما بشر فأساغها وأما رسول الله ﷺ فلفظها، ثم قال: «إن هذا العضو ليخبرني أنه مسموم»، ثم دعا بها فاعترفت، فقال: «ما حملك على ذلك»؟ قال: بلغت من قومي ما لم يخف عليك، فقلت: إن كان ملكاً استحرت منه، وإن كان نبياً فسيُخبَر عنها، فتجاوز عنها رسول الله ﷺ، ومات بشر بن البراء من أكلته التي أكل، قال: ودخلت أُم بشر البراء على رسول الله ﷺ تعوده في مرضه الذي توفي فيه، فقال: «يا أُم بشر ما زالت أكلة خيبر التي أكلت بخيبر مع ابنك تعاودني فهذا أوان انقطاع أبهري»، وكان المسلمون يرون أن رسول الله ﷺ مات شهيداً مع ما أكرمه الله من النبوّة.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ وأخرى لم تقدروا عليها ﴾، أي وعدكم الله فتح بلدة أخرى لم تقدروا عليها، ﴿ قد أحاط

يعني حفظها لكم حتى تفتحوها ومنعها من غيركم حتى تأخذوها، وقال ابن عباس: علم الله أن يفتحها لكم واختلفوا فيها فقال ابن عباس: هي فارس والروم وما كانت العرب تقدر على قتال فارس والروم بل كانوا خولاً لهم حتى أقدرهم الله عليها بشرف الإسلام وعزه. وقيل: هي خيبر وعدها الله نبيه ﷺ قبل أن يصيبها ولم يكونوا يرجونها ففتحها الله لهم. وقيل: هي مكة. وقيل: هو كل فتح فتحه المسلمون أو يفتحونه إلى آخر الزمان **﴿وكان الله على كل شيء قديراً﴾** أي: من فتح القرى والبلدان لكم وغير ذلك **﴿ولو قاتلكم الذين كفروا﴾** أي أسد وغطفان وأهل خيبر **﴿لولّوا الأدبار﴾** أي لانهزموا عنكم **﴿ثم لا يجدون ولياً ولا نصيراً﴾** يعني من تولى الله خذلانه فلا ناصر له ولا مساعد **﴿سنة الله التي قد خلت من قبل﴾** يعني هذه سنة الله في نصر أوليائه وقهر أعدائه **﴿ولن تجد لسنة الله تبديلاً﴾** قوله عز وجل: **﴿وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم﴾** سبب نزول هذه الآية ما روي عن أنس بن مالك: «أن ثمانين رجلاً من أهل مكة هبطوا على رسول الله ﷺ من جبل التنعيم متسلحين يريدون غدر النبي ﷺ وأصحابه؛ فأخذهم سبايا فاستحياهم فأنزل الله تعالى وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم» انفرد بإخراجه مسلم وقال عبد الله بن مغفل المزني: «كنا مع رسول الله ﷺ بالحديبية في أصل الشجرة التي قال الله في القرآن وعلى ظهره غصن من أغصان تلك الشجرة فرفعته عن ظهره وعلي بن أبي طالب بين يديه يكتب كتاب الصلح فخرج علينا ثلاثون شاباً عليهم السلاح فثاروا في وجوهنا فدعا عليهم نبي الله ﷺ فأخذ الله بأبصارهم فقمنا إليهم فأخذناهم فقال لهم رسول الله ﷺ: جئتم في عهد أو هل جعل لكم أحد أماناً قالوا اللهم لا فخلى سبيلهم».

ومعنى الآية، أن الله تعالى ذكر منته بحجزه بين الفريقين حتى لم يقتتلوا وحتى اتفق بينهم الصلح الذي كان

الله بها ﴾، حتى يفتحها لكم كأنه حفظها ومنعها من غيركم حتى تأخذوها، قال ابن عباس: علم الله أنه يفتحها لكم، واختلفوا فيها، فقال ابن عباس ومقاتل: هي فارس والروم، وما كانت العرب تقدر على قتال فارس والروم، بل كانوا خولاً لهم حتى قدروا عليها بالإسلام. وقال الضحاك وابن زيد: هي خيبر وعَدَها الله نبيّه ﷺ قبل أن يصيبها، ولم يكونوا يرجونها. وقال قتادة: هي مكة. وقال عكرمة: حنين. وقال مجاهد: ما فتحوا حتى اليوم، **﴿ وكان الله على كل شيء قديراً ﴾**.

﴿ ولو قاتلكم الذين كفروا ﴾ يعني أسد وغطفان وأهل خيبر، **﴿ لولّوا الأدبار ﴾**، لانهزموا، **﴿ ثم لا يجدون وليّاً ولا نصيراً ﴾**.

﴿ سُنّة الله التي قد خلت من قبل ﴾، أي كسُنّة الله في نصر أوليائه وقهر أعدائه، **﴿ ولن تجد لسُنّة الله تبديلاً ﴾**.

قوله عزّ وجلّ: **﴿ وهو الذي كفّ أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم وكان الله بما تعملون بصيراً ﴾**، قرأ أبو عمرو بالياء، وقرأ الآخرون بالتاء، واختلفوا في هؤلاء، أخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر أنا عبد الغافر بن محمد أنا محمد بن عيسى الجلودي ثنا إبراهيم بن محمد بن سفيان ثنا مسلم بن الحجاج ثنا عمر بن محمد الناقد ثنا يزيد بن هارون أنا حمّاد بن أبي سلمة عن ثابت عن أنس بن مالك رضي الله عنهم: أن ثمانين رجلاً من أهل مكة، هبطوا على رسول الله ﷺ من جبل التنعيم متسلحين يريدون غدر النبي ﷺ وأصحابه، فأخذوا سبايا فاستحياهم، وأنزل الله عزّ وجلّ هذه الآية: **﴿ وهو الذي كفّ أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم ﴾**، وقال عبد الله بن مغفل المزني: كنّا مع النبي ﷺ بالحديبية في أصل الشجرة التي قال الله تعالى في القرآن، على ظهره غصن من أغصان تلك الشجرة فرفعته عن ظهره، وعليّ بن أبي

أعظم من الفتح وهو قوله تعالى: ﴿وهو الذي كف أيديهم عنكم﴾ يعني أيدي أهل مكة ﴿وأيديكم عنهم﴾ أي قضى بينهم وبينكم بالمكافة والمحاجزة ﴿ببطن مكة﴾ قيل: أراد به الحديبية. وقيل: التنعيم. وقيل: وادي مكة ﴿من بعد أن أظفركم عليهم﴾ أي مكنكم منهم حتى ظفرتم بهم ﴿وكان الله بما تعملون بصيراً﴾ قوله عز وجل:

﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ لَوْ تَزَيَّلُواْ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ٢٥﴾

﴿هم الذين كفروا وصدوكم عن المسجد الحرام﴾.

(ذكر صلح الحديبية)

روى الزهري عن عروة بن الزبير عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم يصدق كل واحد منهما حديث صاحبه قالا: «خرج رسول الله ﷺ من المدينة عام الحديبية في بضع عشرة مائة من أصحابه يريد زيارة البيت، لا يريد قتالاً وساق معه سبعين بدنة والناس سبعمائة رجل وكانت كل بدنة عن عشرة نفر فلما أتى ذا الحليفة قلد الهدي وأشعره وأحرم منها بعمرة وبعث عيناً له من خزاعة يخبره عن قريش. وسار النبي ﷺ حتى إذا كان بغدير الأشطاط قريباً من عسفان أتى عتبة الخزاعي. وقال: إن قريشاً قد جمعوا لك جموعاً وقد جمعوا لك الأحابيش وهم مقاتلوك وصادوك عن البيت. فقال النبي ﷺ: أشيروا عليّ أيها الناس أترون أن أميل على ذراري هؤلاء الذين عاونوهم فنصيبهم فإن قعدوا قعدوا موتورين وإن نجوا تكن عنقاً قطعها الله أو ترون أن نؤم البيت لا نريد قتال أحد ولا حرباً فمن صدنا عنه قاتلناه. فقال أبو بكر: يا رسول الله إنما جئت عامداً لهذا البيت لا تريد قتال أحد ولا حرباً فتوجه له فمن صدنا عنه قاتلناه قال: امضوا على اسم الله فنفذوا. قال النبي ﷺ: إن خالد بن الوليد بالغميم في خيل لقريش طليعة فخذوا ذات اليمين فوالله ما شعر بهم خالد حتى إذا هو بقترة الجيش فانطلق يركض نذيراً لقريش. وسار النبي ﷺ حتى إذا كان بالثنية التي يهبط عليهم منها بركت راحلته فقال الناس: حل حل. فألحت فقالوا خلأت القصواء فقال النبي ﷺ من

طالب بين يديهِ يكتب كتاب الصلح، فخرج علينا ثلاثون شاباً عليهم السلاح فثاروا في وجوهنا، فدعا عليهم نبيّ الله ﷺ فأخذ الله بأبصارهم فقمنا إليهم فأخذناهم، فقال لهم رسول الله ﷺ: «جئتم في عهدٍ أو جعلَ لكم أحدٌ أماناً»؟ فقالوا: اللّهمَّ لا، فخلّى سبيلهم، فأنزل الله عزّ وجلّ هذه الآية.

قوله عزّ وجلّ: ﴿هم الذين كفروا وصدّوكم عن المسجد الحرام﴾، الآية. روى الزهري عن عروة بن الزبير عن المسوّر بن مخرمة ومروان بن الحكم قالا: خرج رسول الله ﷺ من المدينة زمن الحديبية في بضع عشرة مائة من أصحابه، يريدون زيارة البيت، لا يريدون قتالاً، وساق معه سبعين بدنةً، والناس سبعمائة رجل، وكانت كل بدنة عن عشرة نفر، فلما أتى ذا الحُلَيفة قلّد الهدي وأشعره وأحرم منها بعمرة، وبعث عيناً له من خزاعة يخبره عن قريش، وسار النبي ﷺ حتى كان بغدير الأشطاط قريباً من عسفان، أتاه عتبة الخزاعي وقال: إن قريشاً جمعوا لك جموعاً وقد جمعوا لك الأحابيش، وهم مقاتلوك وصادّوك عن البيت، فقال النبي ﷺ: أشيروا عليّ أيها الناس، أترون أن أميل على ذراعي هؤلاء الذين عاونوهم فنصيبهم؟ فإن قعدوا قعدوا موتورين، وإن نجوتكنّ عُنقاً قطعها الله أو ترون أن تؤمّ البيت فمَن صدنا عنه قاتلناه، فقال أبو بكر: يا رسول الله إنما خرجت عامداً لهذا البيت لا تريد قتال أحد ولا حرباً، فتوجّه له فمَن صدّنا عنه قاتلناه، *قال: «امضوا على اسم الله»، فنفذوا قال النبي ﷺ: إن خالد بن

خلأت القصواء وما ذاك لها بخلق ولكن حبسها حابس الفيل ثم قال: والذي نفسي بيده لا تدعوني قريش اليوم إلى خطة يعظمون فيها حرمات الله وفيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها ثم زجرها فوثبت. قال: فعدل عنهم حتى نزل بأقصى الحديبية على ثمد قليل الماء يتربضه الناس تربضاً فلم يلبث الناس أن نزحوه. وشكا الناس إلى النبي ﷺ العطش، فنزع سهماً من كنانته وأعطاه رجلاً من أصحابه يقال له ناجية بن عمير وهو سائق بدن النبي ﷺ فنزل في البئر فغرزه في جوفه. فوالله ما زال يجيش لهم بالري حتى صدروا عنه، فبينما هم كذلك إذ جاء بديل بن ورقاء الخزاعي في نفر من قومه وكانت خزاعة عيبة نصح رسول الله ﷺ من أهل تهامة فقال: إني تركت كعب بن لؤي وعامر بن لؤي نزلوا على أعداد مياه الحديبية معهم العوذ المطافيل وهم مقاتلوك وصادوك عن البيت فقال النبي ﷺ: إنا لم نجيء لقتال أحد ولكنا جئنا معتمرين وإن قريشاً قد نهكتهم الحرب وأضرت بهم فإن شاؤوا ماددتهم ويخلوا بيني وبين الناس فإن أظهر.

فإن شاؤوا أن يدخلوا فيما دخل الناس فيه فعلوا وإلا فقد جموا وإن هم أبوا فوالذي نفسي بيده لأقاتلنهم على أمري هذا حتى تنفرد سالفتي ولينفذن الله أمره. فقال بديل: سأبلغهم ما تقول. فانطلق حتى أتى قريشاً، فقال إنا قد جئناكم من عند هذا الرجل وسمعناه يقول قولاً فإن شئتم أن نعرضه عليكم فعلنا فقال سفهاؤهم: لا حاجة لنا أن تخبرنا عنه بشيء. وقال ذوو الرأي منهم: هات ما سمعته. قال: سمعته يقول كذا وكذا فحدثهم بما قال النبي ﷺ فقام عروة بن مسعود الثقفي، فقال: أي قوم، ألستم بالولد؟ قالوا: بلى. قال: أولست بالوالد؟ قالوا: بلى. قال: فهل تتهموني؟ قالوا: لا قال: ألستم تعلمون أني استنفرت أهل عكاظ؟ فلما ألحّوا عليّ جئتكم بأهلي وولدي ومن أطاعني؟ قالوا: بلى. قال: فإن هذا الرجل قد عرض عليكم خطة رشد فأقبلوها ودعوني آتية قالوا ائته فأتاه فجعل يكلم النبي ﷺ فقال النبي ﷺ نحواً من قوله لبديل، فقال عروة عند ذلك: يا محمد أرأيت إن استأصلت قومك فهل سمعت بأحد من العرب اجتاح أصله قبلك وإن تكن الأخرى فإني والله لأرى وجوهاً وإني لأرى أشواباً من الناس خليقاً أن يفروا ويدعوك فقال له أبو بكر رضي الله عنه: امصص بظر اللات أنحن نفرُّ عنه وندعه؟ فقال: من ذا؟ قالوا: أبو

الوليد بالغميم في خيل لقريش طليعة، فخذوا ذات اليمين فوالله ما شعر بهم خالد حتى إذا هم بقترة الجيش فانطلق يركض نذيراً لقريش، وسار النبي ﷺ حتى إذا كان بالثنية التي يهبط عليهم منها بركت به راحلته، فقال الناس: حلّ حلّ، فألحّت، فقالوا: خلأت القصوا خلأت القصوا، فقال النبي ﷺ: «ما خلأت القصوا وما ذاك لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل»، ثم قال: «والذي نفسي بيده لا تدعوني قريش اليوم إلى خطّة يعظمون فيها حرمات الله وفيها صلة الرحم إلاّ أعطيتهم إيّاها»، ثم زجرها فوثبت، قال فعدل عنهم حتى نزل بأقصى الحديبية على ثمد قليل الماء، يتربصه الناس تربصاً، فلم يلبث الناس أن نزحوه، وشكى الناس إلى النبي ﷺ العطش، فانتزع سهماً من كنانته وأعطاه رجلاً من أصحابه يقال له ناجية بن عمير وهو سائق بدن النبي ﷺ، فنزل في البئر فغرزه في جوفه، فوالله ما زال يجيش لهم بالري حتى صدروا عنه، فبينما هم كذلك إذ جاء بديل بن ورقاء الخزاعي في نفر من قومه من خزاعة، وكانوا عيبة نصح رسول الله ﷺ من أهل تهامة، فقال: إني تركت كعب بن لؤي نزلوا على أعداد مياه الحديبية معهم العود المطافيل، وهم مقاتلوك وصادّوك عن البيت، فقال النبي ﷺ: «إنّا لم نجيء لقتال أحد ولكنّا جئنا معتمرين، وإن قريشاً قد نهكتهم الحرب وأضرّت بهم، فإن شاؤوا ماددتهم مدّة ويخلّوا بيني وبين البيت، وإن شاؤوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا، وإلاّ قد جموا وإنْ همْ أبوْا فَوالذي نفسي بيده لأقاتلنّهم على أمري هذا حتى تنفرد سالفتي، أو لينفذنّ الله أمره»، فقال بديل: سأُبلغهم ما تقول، فانطلق حتى أتى قريشاً، قال: إنّا جئناكم من عند هذا الرجل وسمعناه يقول قولاً فإن شئتم أن نعرضه عليكم فعلنا، قال: فقال سفهاؤهم: لا حاجة لنا أن

بكر. قال: أما والذي نفسي بيده لولا يد لك عندي ولم أجزك بها لأجبتك. قال وجعل يكلم النبي ﷺ فكلما كلمه أخذ بلحيته والمغيرة بن شعبة قائم على رأس النبي ﷺ ومعه السيف وعليه المغفر، فكلما أهوى عروة بيده إلى لحية رسول الله ﷺ ضرب يده بنصل السيف. وقال: أخر يدك عن لحية رسول الله ﷺ. فرفع عروة رأسه، فقال: من هذا قالوا المغيرة بن شعبة فقال: أي غدر ألست أسعى في غدرتك؟ وكان المغيرة قد صحب قوماً في الجاهلية فقتلهم وأخذ أموالهم ثم جاء فأسلم فقال النبي ﷺ: أما الإسلام فأقبل وأما المال فلست منه في شيء.

ثم إن عروة جعل يرمق أصحاب النبي ﷺ بعينه قال: فوالله ما تنخم رسول الله ﷺ نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم فدلك بها وجهه وجلده وإذا أمر ابتدروا أمره وإذا توضأ كادوا يقتتلون في وضوئه وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده وما يحدون النظر إليه تعظيماً له فرجع عروة إلى أصحابه وقال: أي قوم. والله لقد وفدت على الملوك ووفدت على قيصر وكسرى والنجاشي. والله إن رأيت ملكاً يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد محمداً والله ما تنخم نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم فدلك بها وجهه وجلده وإذا أمرهم ابتدروا أمره.

وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه. وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده وما يحدون النظر إليه تعظيماً له وقد عرض عليكم خطة رشد فأقبلوها فقال رجل من كنانة: دعوني آته. فقالوا: ائته. فلما أشرف على النبي ﷺ: وأصحابه قال رسول الله ﷺ هذا فلان من قوم يعظمون البدن فابعثوها له فبعث له واستقبله الناس يلبون فلما رأى ذلك قال: سبحان الله ما ينبغي لهؤلاء أن يصدوا عن البيت. فلما رجع إلى أصحابه قال: رأيت البدن قد قلدت وأشعرت فما أرى أن يصدوا عن البيت. ثم بعثوا إليه الحليس بن علقمة وكان يومئذ سيد الأحابيش فلما رآه رسول الله ﷺ قال: إن هذا من قوم يتألهون فابعثوا الهدي في وجهه حتى يراه، فلما رأى الهدي يسيل إليه من عرض الوادي في قلائده قد أكل أوباره من طول الحبس عن محله، رجع إلى قريش ولم يصل إلى رسول الله ﷺ إعظاماً لما رأى فقال: يا معشر

تخبرنا عنه بشيء، وقال ذَوُوا الرأي منهم هاتِ ما سمعته يقول: قال: سمعته يقول كذا وكذا، فحدّثهم بما قال النبي ﷺ، فقام عروة بن مسعود الثقفي فقال: أيْ قومِ ألستُ بالوالد؟ قالوا: بلى، قال: أوَ لستم بالولد؟ قالوا: بلى، قال: فهل تتّهموني؟ قالوا: لا، قال: ألستم تعلمون أني استنفرتُ أهل عكاظ، فلما بلحوا عليّ جئتكم بأهلي وولدي ومَن أطاعني؟ قالوا: بلى، قال: فإن هذا قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها ودعوني آته، قالوا: ائته، فأتاه فجعل يكلم النبي ﷺ، فقال النبي ﷺ نحواً من قوله لبديل، فقال عروة: عند ذلك يا محمد أرأيتَ إن استأصلتَ أمر قومك هل سمعت بأحد من العرب اجتاح أصله قبلك؟ وإن تكن الأخرى، فإني والله لا أرى وجوهاً وإني لا أرى أشواباً من الناس خليقاً أن يفرّوا ويدعوك، فقال له أبو بكر الصديق: امصصْ بظرَ اللات، أنحن نفرّ عنه وندعه؟ فقال: مَن ذا؟ قالوا: أبو بكر، فقال: أمَا والذي نفسي بيده لولا يد كانت لك عندي لم أجزك بها لأجبتُك، قال وجعل يكلّم النبي ﷺ، وكلّما كلّمه أخذ بلحيته، والمغيرة بن شعبة قائم على رأس النبي ﷺ ومعه السيف وعليه المغفر، فكلما أهوى عروة بيده إلى لحية النبي ﷺ ضرب يده بنعل السيف، وقال أخرْ يدك عن لحية رسول الله ﷺ، فرفع عروة رأسه فقال: مَن هذا؟ قالوا: المغيرة بن شعبة، فقال: أيْ غَدْرَ السِّتّ أسعى في غدرتك، وكان المغيرة صحب قوماً في الجاهلية فقتلهم وأخذ أموالهم ثم جاء فأسلم، فقال النبي ﷺ: «أما الإسلام فأقبل، وأما المال فلستُ منه في شيء»، ثم إنّ عروة جعل يرمق أصحاب النبي ﷺ، قال: فوالله ما تنخم رسول الله ﷺ نخامة إلاّ وقعت في كفّ رجل منهم، فَدَلَكَ بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدون إليه النظر تعظيماً له، فرجع عروة إلى أصحابه، فقال: أيْ قومِ والله لقد وفدت على الملوك ووفدت على قيصر وكسرى والنجاشي، والله إنْ رأيتُ ملكاً قطّ يعظّمه أصحابه

قريش إني قد رآيت ما لا يحل صد الهدى في قلائده قد أكل أوباره من طول الحبس عن محله قالوا له: اجلس فإنما أنت رجل أعرابي لا علم لك. فغضب الحليس عند ذلك وقال: يا معشر قريش والله ما على هذا حالفناكم ولا على هذا عاقدناكم أيصد عن بيت الله من جاءه معظماً له؟ والذي نفس الحليس بيده لتخلن بين محمد وبين ما جاء له أو لأنفرن بالأحبيش نفرة رجل واحد. فقالوا: مه كفَّ عنا يا حليس حتى نأخذ لأنفسنا ما نرضى به فقام رجل منهم يقال له مكرز بن حفص فقال: دعوني آته. فقال: ائته فلما أشرف عليهم قال النبي ﷺ: هذا مكرز وهو رجل فاجر فجعل يكلم النبي ﷺ فبينما هو يكلمه إذ جاء سهيل بن عمرو قال معمر فأخبرني أيوب عن عكرمة أنه لما جاء سهيل قال النبي ﷺ: قد سهل لكم من أمركم قال معمر قال الزهري في حديثه فجاء سهيل بن عمرو فقال هات أكتب بيننا وبينكم كتاباً فدعا رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب فقال: اكتب بسم الله الرحمن الرحيم. فقال سهيل: أما الرحمن فوالله ما أدري ما هو ولكن اكتب باسمك اللهم كما كنت تكتب فقال المسلمون والله ما نكتبها إلا بسم الله الرحمن الرحيم فقال النبي ﷺ لعلي: اكتب باسمك اللهم. ثم قال له: اكتب هذا ما قضى عليه محمد رسول الله ﷺ: فقال سهيل لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن هذا البيت ولا قاتلناك ولكن اكتب محمد بن عبد الله. فقال رسول الله ﷺ: والله إني لرسول الله وإن كذبتموني اكتب محمد بن عبد الله. قال الزهري وذلك لقوله ﷺ لا يسألوني خطة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها فكتب هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو اصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين يأمن فيها الناس ويكف بعضهم عن بعض. فقال النبي ﷺ: وعلي أن يخلوا بيننا وبين البيت فنطوف به فقال سهيل: والله لأتحدث العرب أنا أخذنا ضغطة ولكن ذلك من العام المقبل فكتب فقال سهيل وعلي أن لا يأتيك منا رجلاً وإن كان على دينك إلا رددته إلينا. فقال المسلمون: سبحان الله كيف يرد إلى المشركين من جاء مسلماً.

وروي عن البراء قصة الصلح وفيها قالوا: لو نعلم أنك رسول الله ما منعناك شيئاً ولكن أنت محمد بن عبد الله

مايعظم أصحاب محمد محمداً، والله إنْ تنخّم نخامة إلاّ وقعت في كفّ رجل منهم، فَدَلَكَ بها وجهه وجلدَه، وإذا أمرهم ابتدروا أمره وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدّون إليه النظرة تعظيماً له، وإنه قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها، فقال رجل من بني كنانة: دعوني آته، فقالوا: ائته، فلما أشرف على النبي ﷺ وأصحابه، قال رسول الله ﷺ: «هذا فلان وهو من قوم يعظّمون البدن، فابعثوها له» فبُعِثَت له واستقبله الناس يلبُّون، فلما رأى ذلك قال: سبحان الله ما ينبغي لهؤلاء أن يُصدّوا عن البيت؟ فلما رجع إلى أصحابه قال: رأيت البُدْنَ قد قُلِّدَتْ وأُشْعِرَتْ، فما أرى أن يُصَدُّوا عن البيت، ثم بعثوا إليه الحليس بن علقمة وكان يومئذ سيد الأحابيش، فلما رآه رسول الله ﷺ قال: «إن هذا من قوم يتألّهون فابعثوا بالهدي في وجهه حتى يراه»، فلما رأى الهدي يسيل عليه من عرض الوادي في قلائده قد أكل أوباره من طول الحبس، رجع إلى قريش ولم يصل إلى رسول الله ﷺ إعظاماً لما رأى، فقال: يا معشر قريش إني قد رأيت ما لا يحلّ صدّ الهدي في قلائده، وقد أكل أوباره من طول الحبس عن محلّه، فقالوا له: اجلس إنما أنت رجل أعرابي لا علم لك، فغضبَ الحليس عند ذلك، فقال: يا معشر قريش والله ما على هذا حالفناكم ولا على هذا عاقدناكم أن تصدّوا عن بيت الله مَن جاءه معظّماً له، والذي نفس الحليس بيده لتخلنّ بين محمد وبين ما جاء له، أو لأنفرنّ بالأحابيش نفرة رجل واحد، فقالوا له: مَهْ كفّ عنّا يا حليس حتى نأخذ لأنفسنا بما نرضى به، فقام رجل منهم يقال له مكرز بن حفص، فقال: دعوني آته، فقال: ائته، فلما أشرف عليهم قال النبي ﷺ هذا مكرز وهو رجل فاجر، فجعل يكلّم النبي ﷺ فبينما هو يكلّمه إذ جاء سهيل بن عمرو، وقال عكرمة فلما رآه النبي ﷺ قال: قد سهل لكم من أمركم، قال الزهري في حديثه فجاء سهيل بن عمرو، فقال: هات اكتبْ بيننا وبينكم كتاباً، فدعى رسول الله ﷺ عليَّ بـن أبي طالب رضي

قال: أنا رسول الله وأنا محمد بن عبد الله ثم قال لعلي: امح رسول الله. قال: لا والله لا أمحوك أبداً قال: فأرنيه، فأراه إياه فمحاه النبي ﷺ بيده. وفي رواية، فأخذ رسول الله ﷺ الكتاب وليس يحسن أن يكتب فكتب هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله قال البراء: على ثلاثة أشياء على أن من أتاه من المشركين رده إليهم ومن أتاه من المسلمين لم يردوه وعلى أن يدخلها من قابل ويقيم ثلاثة أيام ولا يدخلها بجلباب السلاح السيف والقوس ونحوه.

وروى ثابت عن أنس أن قريشاً صالحوا النبي ﷺ فاشترطوا أن من جاءنا منكم لم نرده عليكم ومن جاءكم منا رددتموه علينا فقالوا: يا رسول الله أنكتب هذا؟ قال: نعم إنه من ذهب منا إليهم فأبعده الله ومن جاءنا منهم سيجعل الله له فرجاً ومخرجاً.

(رجعنا إلى حديث الزهري)

قال بينما هم كذلك إذ جاء أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسف في قيوده قد انفلت وخرج من أسفل مكة حتى رمى بنفسه بين أظهر المسلمين فقال سهيل هذا: يا محمد أول من أقاضيك عليه أن ترده إليّ فقال النبي ﷺ: إنا لم نقض الكتاب بعد قال فوالله إذا لا أصالحك على شيء أبداً. قال النبي ﷺ: فأجره لي. قال: ما أنا بمجيره لك. قال: بلى فافعل. قال: ما أنا بفاعل. ثم جعل سهيل يجره ليرده إلى قريش. فقال أبو جندل: أي معشر المسلمين أرد إلى المشركين وقد جئت مسلماً ألا ترون ما لقيت، وكان قد عذب في الله عذاباً شديداً، وفي الحديث، أن رسول الله ﷺ قال: يا أبا جندل احتسب فإن الله جاعل لك ولمن معك في المستضعفين فرجاً ومخرجاً إنَّا قد عقدنا بيننا وبين القوم عقداً وصلحاً وإنا لا نغدر، فوثب عمر إلى جنب أبي جندل وجعل يقول: اصبر يا أبا جندل فإنما هم المشركون ودم أحدهم دم كلب ويدني السيف منه.

قال عمر: ورجوت أن يأخذ السيف فيضربه به فضن الرجل بأبيه وقد كان أصحاب النبي ﷺ خرجوا وهم لا يشكون في الفتح لرؤيا رآها رسول الله ﷺ، فلما رأوا ذلك، دخل الناس أمر عظيم حتى كادوا يهلكون وزادهم أمر أبي جندل شرّاً إلى ما بهم.

الله عنه فقال له: «اكتبْ بسم الله الرحمن الرحيم، فقال سهيل أمّا الرحمن فوالله ما أدري ما هو، ولكن اكتبْ باسمك اللّهمَّ كما كنت تكتب»، فقال المسلمون: والله لا نكتبها إلّا بسم الله الرحمن الرحيم، فقال النبي ﷺ لعلي: «اكتبْ باسمك اللّهمَّ»، ثم قال: «اكتب هذا ما قضى عليه محمد رسول الله، فقال سهيل: والله لو كنّا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيتِ ولا قاتلناك، ولكن اكتب محمد بن عبد الله، فقال رسول الله ﷺ: «والله إني لرسول الله وإن كذّبتموني، اكتبْ يا علي محمدُ بن عبد الله»، قال الزهري: وذلك لقوله لا يسألون خطة يعظمون فيها حُرمات الله إلّا أعطيتهم إيّاها، فكتب: هذا ما قضى عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو واصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين، يأمن فيه الناس ويكفّ بعضهم عن بعض، فقال له النبي ﷺ: «وعلى أن تخلوا بيننا وبين البيت، فنطوف به»، فقال سهيل: والله لا تتحدّث العرب إنّا أخذنا ضغطة ولكن ذلك من العام المقبل، فكتب. فقال سهيل: وعلى أنه لا يأتيك منّا رجل وإن كان على دينك إلّا رددته إلينا، قال المسلمون: سبحان الله كيف يُردُّ إلى المشركين وقد جاء مسلماً؟ وروى أبو إسحاق عن البراء قصة الصلح وفيه قالوا: لو نعلم إنك رسول الله ما منعناك شيئاً ولكن أنت محمد بن عبد الله، قال: «أنا رسول الله وأنا محمد بن عبد الله»، ثم قال لعليّ رضي الله عنه: «امحُ رسول الله»، قال علي: لا والله لا أمحوك أبداً، قال: «فأرنيه» فأراه إيّاها، فمحاه النبي ﷺ بيده وفي رواية فأخذ رسول الله ﷺ الكتاب وليس يُحسِن أن يكتب، فكتب هذا ما قضى محمد بن

قال عمر: والله ما شككت منذ أسلمت إلا يومئذ قال الزهري في حديثه عن مروان والمسور وروى أبو وائل عن سهل بن حنيف قال عمر بن الخطاب فأتيت النبي ﷺ؛ فقلت: ألست نبي الله حقاً؟ قال: بلى. قلنا: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل. قال: بلى. قلت: أليس قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار. قال: بلى. قلت: فلم نعط الدنية في ديننا إذا قال إني رسول الله ولست أعصيه وهو ناصري قلت أولست كنت تحدثنا إنّا سنأتي البيت فنطوف به؟ قال: بلى. أفأخبرتك أنك تأتيه العام؟ قلت: لا. قال: فإنك آتيه وتطرف به. قال: فأتيت أبا بكر فقلت: يا أبا بكر أليس هذا نبي الله حقاً؟ قال: بلى قلت: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟ قال: بلى. قلت: فلم نعطى الدنية في ديننا؟ قال: أيها الرجل إنه رسول الله ﷺ وليس يعصي ربه وهو ناصره فاستمسك بغرزه، فوالله إنه على الحق. قلت: أليس كان يحدثنا أنه سيأتي البيت ويطوف به؟ قال: بلى. أفأخبرك أنه آتيه العام؟ قلت: لا. قال: فإنك تأتيه وتطوف به. قال عمر: فعملت لذلك أعمالاً، فلما فرغ من قضية الكتاب. قال رسول الله ﷺ لأصحابه: قوموا فانحروا ثم احلقوا فوالله ما قام رجل منهم حتى قال ذلك ثلاث مرات فلما لم يقم أحد منهم قام النبي ﷺ فدخل على أم سلمة فذكر لها ما لقي من الناس. قالت أم سلمة: يا نبي الله أتحب ذلك اخرج ثم لا تكلم منهم أحداً كلمة حتى تنحر بدنك وتدعو حالقك فيحلقك فخرج فلم يكلم أحداً منهم حتى فعل ذلك ونحر بدنة ودعا حالقاً فحلقه، فلما رأوا ذلك، قاموا فنحروا وجعل بعضهم يحلق بعضاً حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً غماً قال ابن عمر وابن عباس: حلق رجال يوم الحديبية وقصر آخرون فقال رسول الله ﷺ: يرحم الله المحلقين. قالوا: يا رسول الله والمقصرين؟ قال: يرحم المحلقين. قالوا: يا رسول الله والمقصرين؟ قال: يرحم الله المحلقين والمقصرين قالوا: يا رسول الله فلم ظاهرت الترحم للمحلقين دون المقصرين. قال: لأنهم لم يشكوا.

قال ابن عمر: وذلك أنه تربص قوم وقالوا: لعلنا نطوف بالبيت.

قال ابن عباس: وأهدي رسول الله ﷺ عام الحديبية في هداياه جملاً لأبي جهل في رأسه برة من فضة ليغيظ المشركين بذلك. قال الزهري في حديثه: ثم جاء نسوة مؤمنات فأنزل الله تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات**﴾حتى بلغ ﴿**بعصم الكوافر**﴾ فطلق عمر امرأتين يومئذ كانتا في الشرك فتزوج إحداهما معاوية بن

عبد الله، قال البراء: صالح على ثلاثة أشياء على أن مَن أتاه من المشركين ردّه إليهم، ومَن أتاهم من المسلمين لم يردّوه، وعلى أن يدخلها من قابل، ويقيم بها ثلاثة أيام، ولا يدخلها إلّا بجلبان السلاح السيف والقوس ونحوه. وروى ثابت عن أنس: أن قريشاً صالحوا النبي ﷺ فاشترطوا: أن مَن جاءنا منكم لم نردّه عليكم، ومَن جاءكم منّا رددتموه علينا، فقالوا: يا رسول الله أنكتب هذا؟ قال: «نعم إنه مَن ذهب منّا إليهم فأبعده الله، ومَن جاءنا منهم سيجعل الله له فرجاً ومخرجاً»، رجعنا إلى حديث الزهري قال: فبينما هم كذلك إذا جاء أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسف في قيوده قد انفلت وخرج من أسفل مكة، حتى رمى بنفسه بين أظهر المسلمين، فقال سهيل: هذا يا محمد أول ما أُقاضيك عليه أن تردّه إليّ، فقال النبي ﷺ: «إنّا لم نقض الكتاب بعد»، قال: فوالله إذاً لا أُصالحك على شيء أبداً، فقال النبي ﷺ: «فأجِرْهُ لي»، فقال: فما أنا بمجيره لك، قال: «بلى فافعلْ»، قال: ما أنا بفاعل، ثم جعل سهل يجرّه ليردّه إلى قريش، قال أبو جندل: أيْ معشر المسلمين أُرَدّ إلى المشركين وقد جئت مسلماً ألا ترون ما قد لقيت؟ وكان قد عُذّب عذاباً شديداً في الله، وفي الحديث: أن رسول الله ﷺ قال: «يا أبا جندل احتسبْ فإن الله جاعلٌ لك ولمَن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً، إنّا قد عقدنا بيننا وبين القوم عقداً وصلحاً وإنّا لا نغدر» فوثب عمر يمشي إلى جنب أبي جندل، فقال: اصبر فإنما هم المشركون ودم أحدهم كدم كلب ويدني قائم السيف منه، قال عمر: رجوت أن يأخذ السيف فيضرب به إيّاه فضنّ الرجل بأبيه، وقد كان أصحاب رسول الله ﷺ

أبي سفيان والأخرى صفوان بن أمية قال: فنهاهم أن يردوا النساء وأمرهم أن يردوا الصداق. قال: ثم رجع النبي ﷺ إلى المدينة فجاءه أبو بصير عتبة بن أسيد رجل من قريش وهو مسلم؛ وكان ممن حبس بمكة فكتب فيه أزهر بن عبد عوف والأخنس بن شريق الثقفي إلى رسول الله ﷺ وبعثا في طلبه رجلاً من بني عامر بن لؤي ومعه مولى لهم فقدما على رسول الله ﷺ وقالا: العهد الذي جعلت لنا فقال رسول الله ﷺ يا أبا بصير إنا قد أعطينا هؤلاء القوم ما قد علمت ولا يصلح في ديننا الغدر وإن الله تعالى جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً ثم دفعه إلى الرجلين فخرجا به حتى إذا بلغا ذا الحليفة نزلوا يأكلون من تمر لهم. فقال أبو بصير لأحد الرجلين: والله إني لأرى سيفك هذا جيد، فاستله الآخر، فقال: أجل والله إنه لجيد لقد جربت به ثم جربت به. فقال أبو بصير: أرني أنظر إليه فأخذه، منه فضربه حتى برد وفر الآخر حتى أتى المدينة فدخل المسجد يعدو فقال رسول الله ﷺ حين رآه: لقد رأى هذا ذعراً. فلما انتهى إلى رسول الله ﷺ قال: ويلك ما لك؟ قال: قتل والله صاحبي وإني لمقتول فوالله ما برح حتى طلع أبو بصير متوشح السيف حتى وقف على رسول الله ﷺ فقال: يا نبي الله أوفى الله ذمتك قد رددتني إليهم فأنجاني الله تعالى منهم فقال النبي ﷺ: ويل أمه مسعر حرب لو كان معه أحد.

فلما سمع ذلك، عرف أن يرده إليهم، فخرج حتى أتى سيف البحر وبلغ المسلمين الذين كانوا حبسوا بمكة قول رسول الله ﷺ لأبي بصير ويل أمه مسعر حرب لو كان معه أحد فخرج عصابة منهم إليه فانفلت أبو جندل فلحق بأبي بصير حتى اجتمع إليه قريب من سبعين رجلاً فوالله ما يسمعون بعير خرجت لقريش إلى الشام إلا اعترضوا لها فقتلوهم وأخذوا أموالهم فأرسلت قريش إلى النبي ﷺ تناشده الله والرحم لما أرسلت إليهم فمن أتاه فهو آمن فأرسل إليهم النبي ﷺ فقدموا إليه المدينة وأنزل الله عز وجل: **﴿وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم﴾** حتى بلغ **﴿حمية الجاهلية﴾** وكانت حميتهم أنهم لم يقروا أنه نبي الله ولم يقروا ببسم الله الرحمن الرحيم وحالوا بينه وبين هذا البيت أخرجه البخاري بطوله سوى ألفاظ منه وهي مستثناة في الحديث. منها قوله: فنزع سهماً من كنانته، وأعطاه رجلاً من أصحابه، إلى قوله: فوالله ما زال يجيش لهم بالري ومنها قوله ثم بعثوا الحليس بن علقمة إلى قوله فقالوا كف عنا يا حليس حتى نأخذ لأنفسنا بما نرضى به ومنها قوله هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله، إلى قوله: وعليّ أن يخلوا بيننا وبين البيت. ومنها قوله: وروي عن البراء قصة الصلح، إلى قوله: رجعنا إلى حديث الزهري. ومنها قوله: وفي الحديث أن رسول الله ﷺ قال: يا أبا جندل، إلى قوله: قال عمر فأتيت النبي ﷺ فقلت ألست نبي الله حقاً؟ ومنها قوله: قال ابن عمر وابن عباس، إلى قوله: وقال الزهري في حديثه ثم جاء نسوة مؤمنات فهذه الألفاظ لم يخرجها البخاري في صحيحه.

خرجوا وهم لا يشكّون في الفتح لرؤيا رآها رسول الله ﷺ، فلما رأوا ذلك دخل الناسَ أمرٌ عظيم حتى كادوا يهلكون، وزادهم أمرُ أبي جندل شرّاً إلى ما بهم، قال عمر: والله ما شككت منذ أسلمت إلّا يومئذ، قال الزهري في حديثه عن عروة عن مروان والمثور، ورواه أبو وائل عن سهل بن حنيف قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: فأتيت النبيَّ ﷺ، فقلت: ألستَ نبيَّ الله حقاً؟ قال: «بلى»، قلتُ: ألسنا على الحق وعدوّنا على الباطل؟ قال: «بلى»، قلت: أليس قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار؟ قال: بلى، قلت: فلِمَ نُعطي الدنية في ديننا إذن؟ قال: «إني رسول الله ولستُ أعصيه وهو ناصري»، قلت: أوَ ليس كنت تحدّثنا أنّا سنأتي البيت فنطوف به؟ قال: «بلى، فأخبرتُكَ أنّا نأتيه العام»؟ قلتُ: لا، قال: «فإنك آتيه ومطوف به»، قال: فأتيتُ أبا بكر، فقلت: يا أبا بكر أليس هذا نبيَّ الله حقاً؟ قال: بلى، قلتُ: ألسنا على الحق وعدوّنا على الباطل؟ قال: بلى، قلتُ: أليس قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار؟ قال: بلى، قلتُ: فلِمَ نعطي الدنيّة في ديننا إذن؟ قال: أيها الرجل إنه رسول الله ليس يعصي ربَّه وهو ناصره،

(شرح غريب ألفاظ الحديث)

قوله: بضع عشرة، البضع: في العدد بالكسر وقد يفتح هو ما بين الثلاثة إلى التسعة. وقيل: ما بين الواحد إلى العشرة. قوله: وبعث عيناً له أي جاسوساً. قوله: وقد جمعوا لك الأحابيش: هم أحياء من القارة انضموا إلى بني ليث في محاربتهم قريشاً. وقيل: هم حلفاء قريش وهم بنو الهون بن خزيمة وبنو الحارث بن عبد مناة وبنو المصطلق من خزاعة تحالفوا تحت جبل يقال له: حبش فسموا بذلك. وقيل: هو اسم واد بأسفل مكة. وقيل: سموا بذلك لتجمعهم. والتحبيش: التجمع. قوله: فإن قعدوا قعدوا موتورين، أي منقوصين. قوله: فنفذوا: أي مضوا وتخلصوا. قوله: إن خالد بن الوليد بالغميم، اسم موضع ومنه كراع الغميم. وقوله: طليعة الطليعة، الجماعة يبعثون بين يدي الجيش ليطلعوا على أخبار العدو. قوله: وقترة الجيش: هو الغبار الساطع معه سواد. قوله: يركض نذير، النذير: الذي يعلم القوم بالأمر الحادث. قوله: حلَ حل: هو زجر للناقة. قوله خلأت القصوا: يعني أنها لما توقفت عن المشي وتقهقرت ظنوا ذلك خللاً في خلقها وهو كالحران للفرس فقال النبي ﷺ: ما خلأت أي ليس ذلك من خلقها ولكن حبسها حابس الفيل، أي منعها عن المسير. والذي منع الفيل عن مكة هو الله تعالى والقصوا اسم ناقة النبي ﷺ ولم تكن قصوا وهو شق الأذن. قوله: خطة، أي حالة وقضية يعظمون فيها حرمات الله جمع حرمة وهي فروضه وما يجب القيام به يريد بذلك حرمة الحرم ونحوه. قوله: حتى نزل بأقصى الحديبية بتخفيف الياء وتشديدها، وهي قرية ليست بالكبيرة سميت ببئر هناك عند مسجد الشجرة وبين الحديبية ومكة مرحلة وبينها وبين المدينة تسع مراحل. وقال ما لك: هي من الحرم. وقال ابن القصار: بعضها من الحل حكاه في المطالع. والثمد: الماء القليل الذي لا مادة له. والتربض: أخذ الشيء قليلاً قليلاً. وقوله: فما زال يجيش بالري، يقال: جاشت البئر بالماء إذا ارتفعت وفاضت. والري ضد العطش، والصد الرجوع بعد الورود. وقوله: وكانت خزاعة عيبة، نصح رسول الله ﷺ يقال فلان عيبة نصح فلان إذا كان موضع سره وثقته في ذلك. قوله: نزلوا على أعداد مياه الحديبية، الماء العد: الكثير الذي لا انقطاع له كالعيون وجمعه أعداد. قوله: ومعهم العوذ المطافيل، العوذ: جمع عائذ وهي الناقة إذا وضعت إلى أن يقوى ولدها، وقيل: هي كل أنثى لها سبع ليال منذ وضعت. والمطافيل: جمع مطفل وهي الناقة معها

فاستمسك بغرزه فوالله إنه على الحق، قلتُ: أليس كان يحدّثنا أنّا سنأتي البيت فنطوف به؟ قال: بلى، أفَأَخبرَكَ أنّك تأتيه العام؟ قلتُ: لا، قال: فإنك آتيه وتطوف به. قال الزهري: قال عمر: فعملت لذلك أعمالاً، قال: فلما فرغ من قضية الكتاب، قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «قوموا فانحروا، ثم احلقوا»، قال: فوالله ما قام منهم رجل، حتى قال ذلك ثلاث مرات، فلما لم يقم منهم أحد، قام فدخل على أُم سلمة فذكر لها ما لقي من الناس، فقالت أُم سلمة يا نبيّ الله أتحبّ ذلك؟ اخرجْ ثم لا تكلّم أحداً منهم كلمة حتى تنحر بدنك وتدعو حالقك فيحلقك، فخرج فلم يكلّم أحداً منهم حتى فعل ذلك، نحر بدنه ودعا حالقه فحلقه، فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا، وجعل بعضهم يحلق بعضاً حتى كاد بعضهم أن يقتل بعضاً غمّاً وحزناً، قال ابن عمر وابن عباس: حلق رجال يوم الحديبية وقصّر آخرون، فقال رسول الله ﷺ: «يرحم الله المحلّقين»، قالوا: والمقصّرين؟ قال: «يرحم الله المحلّقين»، قالوا: يا رسول الله والمقصّرين؟ قال: «والمقصّرين»، قالوا: يا رسول الله فلِمَ ظاهرت الترحّم للمحلّقين دون المقصرين؟ قال: «لأنهم لم يشكّوا»، قال ابن عمر: وذلك أنه تربص قوم وقالوا لعلّنا نطوف بالبيت، قال ابن عباس: وأهدى رسول الله ﷺ عام الحديبية في هداياه جملاً لأبي جهل في رأسه برّة من فضة ليغيظ المشركين بذلك، وقال الزهري في حديثه: ثم جاءه نسوة مؤمنات فأنزل الله تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات ﴾، حتى بلغ ﴿ بِعِصَمِ الكَوَافِرِ ﴾ [الممتحنة: ١٠]، فطلّق عمر رضي الله عنه يومئذ امرأتين كانتا له في الشرك، فتزوّج

فصيلها وهذه استعارة استعار ذلك للناس وأراد بهم أن معهم النساء والصبيان. قوله: وإن قريشاً قد نهكتهم الحرب أي، أضرت بهم وأثّرت فيهم. وقوله: ماددتهم أي جعلت بيني وبينهم مدة. قوله: وإلا فقد جموا، أي: استراحوا. والجمام: بالجيم الراحة بعد التعب. قوله: تنفرد سالفتي السالفة الصفحة والسالفتان صفحتا العنق. وقيل: السالفة حبل العنق وهو ما بينه وبين الكتف وهو كناية عن الموت لأنها لا تنفرد عنه إلا بالموت. قوله: إني استنفرت، يقال: استنفر القوم إذا دعاهم إلى قتال العدو، وعكاظ: اسم سوق كانت في الجاهلية معروفة. وقوله: بلحوا على فيه لغتان التخفيف والتشديد وأصل التبليح: الإعياء والفتور. والمراد: امتناعهم من إجابته وتقاعدهم عنه. قوله: استأصلت قومك. واجتاح: أصله من الاجتياح إيقاع المكروه بالإنسان ومنه الجائحة والاستئصال والاجتياح متقاربان في مبالغة الأذى. قوله: إني لأرى وجوهاً وأشواباً: الأشواب، مثل الأوباش وهم الأخلاط من الناس والرعاع. يقال: فلان خليق بذلك أي جدير لا يبعد ذلك من خلقه قوله امصص بظر اللات وهي اسم صنم لهم كانوا يعبدونه والبظر ما تقطعه الخافضة وهي الخاتنة من الهنة التي تكون في فرج المرأة وكان هذا اللفظ شتماً لهم يدور في ألسنتهم.

قوله: لولا يدلك عندي اليد النعمة وما يمتن به الإنسان على غيره. قوله: أي غدر معدول عن غادر وهو للمبالغة. وقوله: قد عرض عليكم خطة رشد، يقال: خطة رشد وخطة غيّ. والرشد والرشاد خلاف الغي والمراد منه أنه قد طلب منكم طريقاً واضحاً في هدى واستقامة. قوله: وهو من قوم يعظمون البدن أي الإبل تُهدى إلى البيت في حج أو عمرة، وتقليدها: هو أن يجعل في رقابها شيء كالقلادة من لحاء الشجر أو نعل أو غيره ليعلم بذلك أنه هدى. والإشعار: هو أن يشق جانب السنام فيسيل دمه عليه وقوله لما رأى الهدى يسيل عليه أي يقبل عليه كالسيل من عرض الوادي أي جانبه. وقوله: هذا مكرز وهو رجل فاجر. الفجور: الميل عن الحق وكل انبعاث في شر فهو فجور. قوله: هذا ما قاضى عليه، أي فاعل من القضاء وهو إحكام الأمر وإمضاؤه وهو في اللغة على وجوه مرجعها إلى

أحدهما معاوية بن أبي سفيان، والأخرى صفوان بن أُميّة، قال: فنهاهم أن يردّوا النساء، وأمر بردّ الصداق، قال: ثم رجع النبي ﷺ إلى المدينة، فجاءه أبو بصير عتبة بن أسيد، رجل من قريش وهو مسلم، وكان ممّن حبس بمكة فكتب فيه أزهر بن عبد عوف والأخنس بن شريق الثقفي إلى رسول الله ﷺ وبعثا في طلبه رجلاً من بني عامر بن لؤي، ومعه مولىً لهم، فقدِمَا على رسول الله ﷺ، وقالا: العهد الذي جعلت لنا، فقال رسول الله ﷺ: «يا أبا بصير إنّا قد أعطينا هؤلاء القوم ما قد علمت، ولا يصحّ في ديننا الغدر وإن الله جاعل لك ولمَن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً»، ثم دفعه إلى الرجلين فخرجا به حتى بلغا ذا الحُليفة، فنزلوا يأكلون من تمر لهم، فقال أبو بصير لأحد الرجلين والله إني لأرى سيفك هذا يا فلان جيداً فاستلّه الآخر من غمده، فقال: أجل والله إنه لجيد لقد جرّبت به ثم جرّبت به، فقال أبو بصير: وأرني أنظر إليه، فأخذوه وعلا به فضربه حتى برد، وفرّ الآخر حتى أتى المدينة فدخل المسجد يعدو، فقال رسول الله ﷺ حين رآه: «لقد رأى هذا ذعراً»، فلما انتهى إلى النبي ﷺ، قال: ويلك مَا لَكَ؟ قال: قتل والله صاحبي وإني لمقتول، فوالله ما برح حتى طلع أبو بصير متوشحاً السيف حتى وقف على رسول الله ﷺ، فقال: يا نبيّ الله قدْ والله أوفَى الله ذمّتَك قد رددتني إليهم ثم أنجاني الله منهم، فقال النبي ﷺ: «ويلٌ أمه مسعر حرب، لو كان معه أحد»، فلما سمع ذلك عرف أنه سيردّه إليهم، فخرج حتى أتى سيف البحر، وبلغ المسلمين الذين احتبسوا بمكة قول رسول الله ﷺ لأبي بصير: «ويل أمه مسعر حرب لو كان معه أحد»، فخرج عصابة منهم إليه، وانفلت أبو جندل بن سهيل فلحق بأبي بصير حتى اجتمع إليه قريب من سبعين رجلاً، فوالله ما يسمعون ببعير خرجت لقريش إلى الشام إلاّ اعترضوا لها فقتلوهم وأخذوا أموالهم، فأرسلت قريش إلى النبي ﷺ تناشده الله والرحم لَما أرسل إليهم، فمَن أتاه فهو آمن، فأرسل إليهم النبي ﷺ، فقَدِموا عليه بالمدينة، فأنزل الله

انقضاء الشيء وإتمامه. قوله: ضغطة، هو كناية عن القهر والضيق. قوله: بجلباب السلاح، بضم الجيم وسكون اللام مع تخفيف الباء ويروى بضم اللام أيضاً مع التشديد وهو وعاء من أدم شبه الجراب يوضع فيه السيف مغموداً ويعلق في مؤخرة الرحل. قوله: يرسُف بضم السين وكسرها لغتان، وهو: مشي المقيد. قوله: فأجره لي. قال ابن الأثير: يجوز أن يكون بالزاي من الإجازة أي اجعله جائزاً غير ممنوع ولا محرم أو أطلقه لي وإن كان بالراء المهملة فهو من الإجارة والحماية والحفظ وكلاهما صالح في هذا الموضوع.

قوله: فلم نعطى الدنية، أي القضية التي لا نرضى بها أي لم نرض بالأدون والأقل في ديننا؟ قوله: فاستمسك بغرزه الغرز لكور الناقة كالركاب لسرج الفرس والمعنى: فاستمسك به ولا تفارقه ساعة كما لا تفارق رجل الراكب غرز رحله فإنه على الحق الذي لا يجوز لأحد تركه. قوله: ويل أمه، هذه كلمة تقال للوافع فيما يكره ويتعجب بها أيضاً، ومسعر الحرب أي موقدها. يقال: سعرت النار وأسعرتها إذا أوقدتها. والمسعر: الخشب الذي توقد به النار وسيف البحر بكسر السين جانبه وساحله والله أعلم وأما تفسير الآية فقوله عز وجل:

﴿**هم الذين كفروا**﴾، يعني كفار مكة، ﴿**وصدوكم**﴾ أي منعوكم ﴿**عن المسجد الحرام**﴾ أن تطوفوا به ﴿**والهدي**﴾ أي وصدوا الهدي وهو البدن التي ساقها رسول الله ﷺ وكانت سبعين بدنة ﴿**معكوفاً**﴾ أي محبوساً ﴿**أن يبلغ محله**﴾ أي منحره وحيث يحل نحره وهو الحرم ﴿**ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات**﴾ يعني المستضعفين بمكة ﴿**لم تعلموهم**﴾ أي لم تعرفوهم ﴿**أن تطؤوهم**﴾ أي بالقتل وتوقعوا بهم ﴿**فتصيبكم منهم معرة بغير علم**﴾ أي إثم وقيل: غرم الدية، وقيل: كفارة قتل الخطأ، لأن الله أوجب على قاتل المؤمن في دار الحرب إذا لم يعلم إيمانه الكفارة دون الدية. وقيل: هو أن المشركين يعتبونكم ويقولون: قتلوا أهل دينهم.

والمعرة: المشقة يقول: لولا أن تطؤوا رجالاً مؤمنين ونساء مؤمنات لم تعلموهم فيلزمكم به كفارة أو سيئة وجواب لولا محذوف تقديره لأذن لكم في دخول مكة ولكنه حال بينكم وبين ذلك لهذا السبب ﴿**فيدخل الله في رحمته من يشاء**﴾ أي في دين الإسلام من يشاء من أهل مكة بعد الصلح وقيل دخولها ﴿**لو تزيلوا**﴾ أي لو تميزوا المؤمنين من

تعالى: ﴿ **وهو الذي كفّ أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم وكان الله بما تعملون بصيراً** ﴾ حتى بلغ ﴿ **حمية الجاهلية** ﴾، وكانت حميّتهم أنهم لم يقرّوا أنه نبيّ الله ﷺ، ولم يقرّوا ببسم الله الرحمن الرحيم، وحالوا بينه وبين البيت قال الله تعالى: ﴿ **هم الذين كفروا** ﴾، يعني كفّار مكة، ﴿ **وصدّوكم عن المسجد الحرام** ﴾، أن تطوفوا به، ﴿ **والهدي** ﴾، أي وصدّوا الهدي وهي البدن التي ساقها رسول الله ﷺ وكانت سبعين بدنة، ﴿**معكوفاً**﴾، محبوساً، يقال: عكفته عكفاً إذا حبستُه وعكوفاً لازم، كما يقال: رجع رجعاً ورجوعاً، ﴿**أنْ يبلغَ محله** ﴾، منحره وحيث يحلّ نحره يعني الحرم، ﴿ **ولولا رجالٌ مؤمنون ونساءٌ مؤمنات** ﴾، يعني المستضعفين بمكة، ﴿ **لم تعلموهم** ﴾، لم تعرفوهم، ﴿ **أنْ تطأوهم** ﴾، بالقتال وتوقعوا بهم، ﴿**فتصيبكم منهم معرّة بغير علم**﴾، قال ابن زيد: معرّة إثم. وقال ابن إسحاق: غرم الديّة. وقيل: الكفّارة لأن الله أوجب على قاتل المؤمن في دار الحرب إذا لم يعلم إيمانه الكفّارة دون الديّة، فقال: ﴿ فإن كان من قوم عدوٍّ لكم وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة ﴾ [النساء: ٩٢]، وقيل: هو أن المشركين يعيبونكم ويقولون قتلوا أهل دينهم، والمعرّة المشقّة، يقول: لولا أن تطؤوا رجالاً مؤمنين ونساءً مؤمنات لم تعلموهم فيلزمكم بهم كفّارة أو يلحقكم سبّة، وجواب لولا محذوف، تقديره: لأذن لكم في دخولها ولكنه حال بينكم وبين ذلك. ﴿ **ليدخل الله في رحمته مَن يشاء** ﴾، فاللام في ليدخل متعلق بمحذوفٍ دلَّ عليه معنى الكلام، يعني حال بينكم وبين ذلك ليدخل الله في رحمته في دين الإسلام مَن يشاء من أهل مكة بعد الصلح قبل أن تدخلوها، ﴿ **لو تزيلوا** ﴾، لو تميزوا يعنى المؤمنين من الكفّار، ﴿ **لعذّبنا الذين كفروا**

الكفار ﴿لعذبنا الذين كفروا منهم عذاباً أليماً﴾ أي بالسبي والقتل بأيديكم وقيل: لعذبنا جواب لكلامين أحدهما لولا رجال. والثاني: لو تزيلوا. ثم قال: ليدخل الله في رحمته من يشاء يعني المؤمنين والمؤمنات في رحمته أي في جنته. قال قتادة: في الآية إن الله تعالى يدفع بالمؤمنين عن الكفار كما دفع بالمستضعفين من المؤمنين عن مشركي مكة.

إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾ لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾

قوله تعالى: ﴿إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية﴾ أي الأنفة والغضب وذلك حين صدوا رسول الله ﷺ وأصحابه عن البيت ومنعوا الهدي محله ولم يقروا ببسم الله الرحمن الرحيم وأنكروا أن يكون محمد رسول الله. وقيل: قال أهل مكة قد قتلوا أبناءنا وإخواننا ثم يدخلون علينا، فتحدث العرب أنهم دخلوا علينا رغماً منا واللات والعزى لا يدخلونها علينا فكانت هذه ﴿حمية الجاهلية﴾ التي دخلت قلوبهم ﴿فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين﴾ أي: حتى لا يدخلهم ما دخلهم في الحمية فيعصون الله في قتالهم ﴿وألزمهم كلمة التقوى﴾.

قال ابن عباس: «كلمة التقوى لا إله إلا الله» وأخرجه الترمذي. وقال: حديث غريب. وقال علي وابن عمر: كلمة التقوى لا إله إلا الله وحده لا شريك له. له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير. وقال عطاء الخراساني: هي لا إله إلا الله محمد رسول الله ﷺ. وقال الزهري: هي بسم الله الرحمن الرحيم ﴿وكانوا أحق بها﴾ أي من كفار

منهم عذاباً أليماً﴾، بالسبي والقتل بأيديكم، وقال بعض أهل العلم: لعذّبنا جواب لكلامين أحدهما: ﴿**لولا رجال**﴾، والثاني: ﴿**لو تزيلوا**﴾، ثم قال: ﴿**لِيُدخل الله في رحمته مَن يشاء**﴾، يعني المؤمنين والمؤمنات، وقوله: ﴿**في رحمته**﴾، أي جنّته. وقال قتادة في هذه الآية: إن الله يدفع بالمؤمنين عن الكفّار كما دفع بالمستضعفين من المؤمنين عن مشركي مكة.

﴿**إذْ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحميةَ**﴾، حين صدّوا رسول الله ﷺ وأصحابه عن البيت، ولم يقرّوا ببسم الله الرحمن الرحيم، وأنكروا محمداً رسول الله ﷺ، والحمية: الأنفة، يقال: فلان ذو حمية إذا كان ذا غضب وأنفة. قال مقاتل: قال أهل مكة: قد قتلوا أبناءنا وإخواننا ثم يدخلون علينا، فتتحدّث العرب أنهم دخلوا علينا على رغم أنفنا، واللاّت والعُزّى لا يدخلونها علينا، فهذه ﴿**حميّة الجاهلية**﴾، التي دخلت قلوبهم، ﴿**فأنزل الله سكينتَه على رسوله وعلى المؤمنين**﴾، حتى لم يدخلهم ما دخلهم من الحميّة فيعصوا الله في قتالهم، ﴿**وألزمهم كلمة التقوى**﴾، قال ابن عباس ومجاهد والضحّاك وقتادة وعكرمة والسدي وابن زيد وأكثر المفسّرين: كلمة التقوى «لا إله إلاّ الله». ورُوِيَ عن أُبيّ بن كعب مرفوعاً وقال علي وابن عمر: كلمة التقوى لا إله إلاّ الله والله أكبر. وقال عطاء بن أبي رباح: هي لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير. وقال عطاء الخراساني: هي لا إله إلاّ الله محمد رسول الله. وقال الزهري: هي بسم الله الرحمن الرحيم. ﴿**وكانوا أحقّ بها**﴾، من كفّار مكة، ﴿**وأهلها**﴾، أي وكانوا أهلها في علم الله لأن الله تعالى اختار لدينه وصحبة نبيّه أهل الخير، ﴿**وكان الله بكل شيء عليماً**﴾.

مكة ﴿وأهلها﴾ أي كانوا أهلها في علم الله، لأن الله تعالى اختار لدينه وصحبة نبيه محمد ﷺ أهل الخير والصلاح ﴿وكان الله بكل شيء عليماً﴾ يعني من أمر الكفار وما كانوا يستحقونه من العقوبة وأمر المؤمنين وما كانوا يستحقونه من الخير.

قوله تعالى: ﴿لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق﴾ سبب نزول هذه الآية أن رسول الله ﷺ رأى في المنام وهو بالمدينة قبل أن يخرج إلى الحديبية أنه يدخل المسجد الحرام هو وأصحابه آمنين ويحلقوا رؤوسهم فأخبر بذلك أصحابه ففرحوا وحسبوا أنهم داخلو مكة عامهم ذلك، فلما انصرفوا ولم يدخلوا، شق عليهم ذلك وقال المنافقون: أين رؤياه التي رآها؟ فأنزل الله هذه الآية ودخلوا في العام المقبل.

وروي عن مجمع بن حارثة الأنصاري قال: «شهدنا الحديبية مع رسول الله ﷺ فلما انصرفنا عنها إذا الناس يهزون الأباعر فقال بعضهم: ما بال الناس؟ قال: أوحي إلى رسول الله ﷺ. قال: فخرجنا نرجف فوجدنا النبي ﷺ واقفاً على راحلته عند كراع الغميم فلما اجتمع الناس قرأ «إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً» فقال عمر: أهو فتح يا رسول الله؟ قال: نعم والذي نفسي بيده» ففيه دليل على أن المراد من الفتح هو صلح الحديبية، وتحقيق الرؤيا كان في العام المقبل. وقوله: لقد صدق الله ورسوله الرؤيا **بالحق،** أخبر أن الرؤيا التي أراه إياها في مخرجه إلى الحديبية أنه يدخل هو وأصحابه المسجد حق وصدق بالحق أي الذي رآه حق وصدق وقيل: يجوز أن يكون بالحق قسماً لأن الحق من أسماء الله تعالى أو قسماً بالحق الذي هو ضد الباطل وجوابه ﴿لتدخلن المسجد الحرام﴾ وقيل: لتدخلن من قول رسول الله ﷺ لأصحابه حكاية عن رؤياه فأخبر الله عز وجل أن رسول الله ﷺ أنه قال ذلك ﴿إن شاء الله آمنين﴾ قيل: إنما استثني مع علمه بدخوله تعليماً لعباده الأدب وتأكيداً لقوله: «ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله» وقيل: إن بمعنى إذ مجازه إذ شاء الله. وقيل: لما لم يقع الدخول في عام الحديبية وكان المؤمنون يريدون الدخول ويأبون الصلح قال: لتدخلن المسجد الحرام لا بقوتكم وإرادتكم ولكن بمشيئة الله تعالى، وقيل: الاستثناء واقع على إلا من لا على الدخول لأن الدخول لم يكن فيه شك فهو كقوله ﷺ: «وإنا إن شاء الله بكم لاحقون» مع أنه لا يشك في

﴿لقد صَدقَ اللَّهُ رسـولَهُ الـرؤيا بـالحقِّ لتدخلنّ المسجـدَ الحرام إنْ شـاء الله آمِنين﴾، وذلك أنّ النبي ﷺ أُرِيَ في المنام بالمدينة قبل أن يخرج إلى الحديبية أنه يدخل هو وأصحابه المسجد الحرام آمنين، ويحلقون رؤوسهم ويقصرون، فأخبر بذلك أصحابه، ففرحوا وحبّوا أنهم دخلوا مكة عامهم ذلك، فلما انصرفوا ولم يدخلوا شقّ عليهم ذلك، فأنزل الله هذه الآية. ورُوِيَ عن مجمع بن حارثة الأنصاري: قال شهدنا الحديبية مع رسول الله ﷺ، فلما انصرفنا عنها إذا الناس يهزّون الأباعر، فقال بعضهم: ما بال الناس؟ فقالوا: أُوحي إلى رسول الله ﷺ، قال فخرجنا نرجف، فوجدنا النبي ﷺ واقفاً على راحلته عند كراع الغميم، فلما اجتمع إليه الناس قرأ: ﴿ إنّا فتحنا لك فتحاً مُبيناً ﴾ [الفتح: ١]، فقال عمر: أوَ فتح هو يا رسول الله؟ قال: «نعم والذي نفسي بيده»، ففيه دليل على أن المراد بالفتح صلح الحديبية، وتحقّق الرؤيا كان في العام المقبل، فقال جلّ ذكره: ﴿ **لقد صَدَقَ اللَّهُ رسـولَه الرؤيا بالحق** ﴾، أخبر أن الرؤية التي أراها إيّاه في مخرجه إلى الحديبية أنه يدخل هو وأصحابه المسجد الحرام صدقٌ وحقٌّ. قوله: ﴿ لتدخلنّ ﴾ يعني وقال: لتدخلنّ. وقال ابن كيسان: لتدخلنّ من قول رسول الله ﷺ لأصحابه حكاية عن رؤياه، فأخبر الله عن رسول الله ﷺ أنه قال ذلك، وإنما استثنى مع علمه بدخولها بإخبار الله تعالى، تأدّباً بآداب الله، حيث قال له: ﴿ ولا تقولنّ لشيء إني فاعل ذلك غداً إلّا أن يشاء الله ﴾ [الكهف: ٢٣]. وقال أبو عبيدة: (إن) بمعنى إذْ مجازه: إذْ شاء الله، كقوله: ﴿ إن كنتم مؤمنين ﴾ [البقرة: ٩١]، وقال الحسين بن الفضل: يجوز أن يكون الاستثناء من الدخول لأن بين الرؤيا وتصديقها سنة، ومات في تلك السنـة ناس فمجـاز الآية: لتـدخلنّ المسجد

الموت ﴿**محلقين رؤوسكم**﴾ أي كلها ﴿**ومقصرين**﴾ أي تأخذون بعض شعوركم ﴿**لا تخافون**﴾ أي من عدو في رجوعكم لأن قوله آمنين في حال الإحرام لأنه لا قتال فيه. وقوله: لا تخافون يرجع إلى كمال الأمن بعد الإحرام في حال الرجوع ﴿**فعلم ما لم تعلموا**﴾ يعني علم أن الصلاح كان في الصلح وتأخير الدخول وكان ذلك سبباً لوطء المؤمنين والمؤمنات. وقيل: علم أن دخولكم في السنة الثانية ولم تعلموا أنتم فظننتم أنه في السنة الأولى ﴿**فجعل من دون ذلك**﴾ أي من قبل دخولكم الحرم ﴿**فتحاً قريباً**﴾ يعني صلح الحديبية قاله الأكثرون. وقيل: هو فتح خيبر قوله عز وجل:

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا ٢٨ مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمۡ فِي ٱلۡإِنجِيلِ كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا ٢٩﴾

﴿**هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق**﴾ هذا البيان صدق الرؤيا وذلك أن الله تعالى لا يرى رسوله ﷺ ما لا يكون فيحدث الناس فيقع خلافه فيكون سبباً للضلال فحقق الله أمر الرؤيا بقوله: «لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق» وبقوله «هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق» وفيه بيان وقوع الفتح ودخول مكة وهو قوله تعالى: ﴿**ليظهره على الدين كله**﴾ أي يعليه ويقويه على الأديان كلها فتصير الأديان كلها دونه ﴿**وكفى بالله شهيداً**﴾ أي في أنه رسول الله ﷺ وفيه تسلية لقلوب المؤمنين وذلك أنهم تأذوا من قول الكفار لو نعلم أنه رسول الله ما صددناه عن البيت فقال الله تعالى: وكفى بالله شهيداً. أي: في أنه رسول الله، ثم قال تعالى: ﴿**محمد رسول الله**﴾ أي هو محمد رسول الله الذي سبق ذكره في قوله أرسل رسوله. قال ابن عباس: شهد له بالرسالة ثم ابتدأ فقال ﴿**والذين معه**﴾ يعني أصحابه المؤمنين ﴿**أشداء على الكفار**﴾ أي غلاظ أقوياء كالأسَد على فريسته لا تأخذهم فيهم رأفة ﴿**رحماء بينهم**﴾ أي: متعاطفون متوادّون بعضهم لبعض كالولد مع الوالد. كما قال في حقهم: «أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين»

الحرام كلّكم إن شاء الله، وقيل الاستثناء واقع على الأمر لا على الدخول، لأن الدخول لم يكن فيه شك، كقول النبي ﷺ عند دخول المقبرة: «وإنّا إن شاء الله بكم لاحقون»، فالاستثناء راجع إلى اللحوق بأهل لا إلّه إلّا الله لا إلى الموت. ﴿ **محلّقين رؤوسكم** ﴾، كلها، ﴿ **ومقصّرين** ﴾، يأخذ بعض شعورها، ﴿ **لا تخافون فعلم ما لم تعلموا** ﴾، أن الصلاح كان في الصلح وتأخير الدخول، وهو قوله تعالى: ﴿ **ولولا رجالٌ مؤمنون ونساءٌ مؤمنات** ﴾ الآية. ﴿ **فجعل من دون ذلك** ﴾، أي من قبل دخولكم المسجد الحرام، ﴿ **فتحاً قريباً** ﴾، وهو صلح الحديبية عند الأكثرين، وقيل: فتح خيبر.

﴿ **هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليُظهره على الدين كله وكفى بالله شهيداً** ﴾، على أنك نبي صادق صالح فيما تخبر.

﴿ **محمدٌ رسولُ الله** ﴾، تمّ الكلام ههنا، قاله ابن عباس، شهد له بالرسالة، ثم قال مبتدئاً: ﴿ **والذين معه** ﴾، قالوا: وفيه واو الاستئناف أي والذين معه من المؤمنين، ﴿ **أشدّاءُ على الكفّار** ﴾، غلاظ عليهم كالأسد على فريسته لا تأخذهم فيهم رأفة، ﴿ **رحماءُ بينهم** ﴾، متعاطفونَ متوادّون بعضهم لبعض، كالولد مع الوالد، كما

﴿تراهم ركّعاً سجداً﴾ أخبر عن كثرة صلاتهم ومداومتهم عليها ﴿يبتغون﴾ أي يطلبون ﴿فضلاً من الله﴾ يعني الجنة ﴿ورضواناً﴾ أي أن يرضى عنهم. وفيه لطيفة وهو أن المخلص بعمله لله يطلب أجره من الله تعالى والمرائي بعمله لا يبتغي له أجراً وذكر بعضهم في قوله: والذين معه يعني أبا بكر الصديق أشداء على الكفار عمر بن الخطاب رحماء بينهم عثمان بن عفان تراهما ركعاً سجداً علي بن أبي طالب يبتغون فضلاً من الله ورضواناً بقية الصحابة ﴿سيماهم﴾ أي علامتهم ﴿في وجوههم من أثر السجود﴾ واختلفوا في هذه السيما على قولين: أحدهما: أن المراد في يوم القيامة قيل: هي نور وبياض في وجوههم يعرفون به يوم القيامة أنهم سجدوا لله في الدنيا وهي رواية عن ابن عباس. وقيل: تكون مواضع السجود في وجوههم كالقمر ليلة البدر. وقيل: يبعثون غراً محجلين يوم القيامة يعرفون بذلك. والقول الثاني: إن ذلك في الدنيا وذلك أنهم استنارت وجوههم بالنهار من كثرة صلاتهم بالليل. وقيل: هو السمت الحسن والخشوع والتواضع.

قال ابن عباس: ليس بالذي ترون ولكنه سيما الإسلام وسجيته وسمته وخشوعه. والمعنى: أن السجود أورثهم الخشوع والسمت الحسن يعرفون به وقيل هو صفوة الوجه من سهر الليل ويعرف ذلك في رجلين أحدهما سهر الليل في الصلاة والعبادة والآخر في اللهو واللعب فإذا أصبحا ظهر الفرق بينهما فيظهر في وجه المصلي نور وضياء وعلى وجه اللاعب ظلمة. وقيل: هو أثر التراب على الجباه لأنهم كانوا يصلّون على التراب لا على الأثواب. قال عطاء الخراساني: دخل في هذه الآية كل من حافظ على الصلوات الخمس ﴿ذلك مثلهم في التوراة﴾ يعني ذلك الذي ذكر صفتهم في التوراة وتم الكلام هاهنا ثم ابتدأ بذكر نعتهم وصفتهم في الإنجيل فقال تعالى: ﴿ومثلهم﴾ أي صفتهم ﴿في الإنجيل كزرع أخرج شطأه﴾ أي إفراطه قبل فراخه. قيل: هو نبت فما خرج بعده شطؤه ﴿فآزره﴾ أي: قوّاه وأعانه

قال: ﴿ أذلّة على المؤمنين أعزّة على الكافرين ﴾ [المائدة: ٥٤]. ﴿ تراهم رُكّعاً سُجّداً ﴾، أخبر عن كثرة صلاتهم ومداومتهم عليها، ﴿ يبتغون فضلاً من الله ﴾، أن يدخلهم الجنة، ﴿ ورضواناً ﴾، أن يرضى عنهم، ﴿ سيماهم ﴾، أي علامتهم، ﴿ في وجوههم من أثر السجود ﴾، اختلفوا في هذا السيما، فقال قوم: هو نورٌ وبياض في وجوههم يوم القيامة يُعرفون به أنهم سجدوا في الدنيا، وهو رواية عطية العوفي عن ابن عباس، قال عطاء بن أبي رباح والربيع بن أنس: استنارت وجوههم من كثرة ما صلّوا. وقال شهر بن حوشب: تكون مواضع السجود من وجوههم كالقمر ليلة البدر، وقال آخرون: هو السمت الحَسَن والخشوع والتواضع. وهو رواية الوالبي عن ابن عباس قال: ليس بالذي ترون لكنه سيم الإسلام وسجيّته وسِمته وخشوعه. وهو قول مجاهد: والمعنى أن السجود أورثهم الخشوع والسمت الحسن الذي يُعرفون به. وقال الضحاك: هو صُفرة الوجه من السهر. وقال الحسن: إذا رأيتهم حسبتهم مرضى وما هم بمرضى. قال عكرمة وسعيد بن جبير: هو أثر التراب على الجِباه. قال أبو العالية لأنهم يسجدون على التراب لا على الأثواب. وقال عطاء الخراساني: دخل في هذه الآية كل مَن حافظ على الصلوات الخمس. ﴿ ذلك ﴾، الذي ذكرت، ﴿ مَثَلُهم ﴾، صفتهم ﴿ في التوراة ﴾، ههنا تمّ الكلام ثم ذكر نعتهم في الإنجيل، فقال: ﴿ ومثلهم ﴾، صفتهم، ﴿ في الإنجيل كزرع أخرج شطأه ﴾، قرأ ابن كثير وابن عامر: شطأه بفتح الطاء، وقرأ الآخرون بسكونها وهما لغتان كالنهر والنهر، وأراد فراخه، يقال أشطأ الزرع فهو مشطىء، إذا أفرخ، قال مقاتل: هو نبت واحد فإذا خرج ما بعده فهو شطؤه. وقال السدي: هو أن يخرج معه الطاقة الأخرى. قوله: ﴿ فآزره ﴾، قرأ ابن عامر: ﴿ فأزره ﴾ بالقصر والباقون بالمدّ، أي قوّاه وأعانه وشدّ أزره، ﴿ فاستغلظ ﴾، ذلك الزرع، ﴿ فاستوى ﴾، أي تمّ وتلاحق نباته وقام، ﴿ على سوقه ﴾، أصوله، ﴿ يُعجب الزراع ﴾، أعجب ذلك زراعه، هذا مثل ضربه الله عزّ وجلّ لأصحاب محمد ﷺ في الإنجيل أنهم يكونون قليلاً، ثم يزدادون

وشد أزره ﴿فاستغلظ﴾ أي غلظ ذلك الزرع وقوي ﴿فاستوى﴾ أي تم وتلاحق نباته وقام ﴿على سوقه﴾ جمع ساق أي على أصوله ﴿يعجب الزراع﴾ أي يعجب ذلك الزرع زراعه وهو مثل ضربه الله عز وجل لأصحاب محمد ﷺ مكتوب في الإنجيل أنهم يكونون قليلاً ثم يزدادون ويكثرون قال قتادة: مثل أصحاب محمد ﷺ مكتوب في الإنجيل أنه سيخرج قوم ينبتون نبات الزرع يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر قيل الزرع محمد ﷺ والشطء أصحابه والمؤمنون وقيل: الزرع هو محمد ﷺ شطأه أبو بكر فآزره عمر فاستغلظ عثمان فاستوى على سوقه علي بن أبي طالب يعجب الزراع يعني جميع المؤمنين ﴿ليغيظ بهم الكفار﴾ قيل: هو قول عمر بن الخطاب لأهل مكة بعد ما أسلم لا يعبد الله سراً بعد اليوم. وقيل: قوتهم وكثرتهم ليغيظ بهم الكفار. قال مالك بن أنس: من أصبح وفي قلبه غيظ على أصحاب رسول الله ﷺ فقد أصابته هذه الآية.

(فصل في فضل أصحاب رسول الله ﷺ)

(ق) عن عبد الله بن مسعود أن رسول الله ﷺ: «قال خير الناس قرني ثم الذين يلونهم» (م).

عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: «سأل رجل النبي ﷺ أي الناس خير؟ قال: القرن الذي أنا فيه ثم الثاني ثم الثالث». قوله: خير الناس قرني ثم الذين يلونهم يعني الصحابة ثم التابعين وتابعيهم والقرن كل أهل زمان قيل هو

ويكثرون. قال قتادة: مثل أصحاب رسول الله ﷺ في الإنجيل مكتوب أنه سيخرج قوم ينبتون نبات الزرع يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر. وقيل: الزرع محمد والشطء أصحابه والمؤمنون. ورُوِيَ عن مبارك بن فضالة عن الحسن قال: ﴿ محمد رسول الله والذين معه ﴾ أبو بكر الصديق رضي الله عنه، ﴿ أشدّاء على الكفّار ﴾ عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ﴿ رحماء بينهم ﴾ عثمان بن عفّان رضي الله عنه، ﴿ تراهم رُكّعاً سجّداً ﴾ عليّ بن أبي طالب رضيَ الله عنه، ﴿ يبتغون فضلاً من الله ﴾ بقية العشرة المبشّرين بالجنة. وقيل: ﴿ كمثل زرع ﴾ محمد ﴿ أخرج شطأه ﴾ أبو بكر ﴿ فآزره ﴾ عمر﴿فاستغلظ﴾ عثمان للإسلام﴿ فاستوى على سوقه ﴾ عليّ بن أبي طالب استقام الإسلام بسيفه، ﴿يعجب الزراع﴾ قال: هم المؤمنون. ﴿ ليغيظ بهم الكفّار ﴾، قول عمر لأهل مكة بعدما أسلم: لا تعبدوا اللّهَ سرّاً بعد اليوم. حدّثنا أبو حامد أحمد بن محمد الشجاعي السرخسي إملاءً أنا أبو بكر عبد الله بن أحمد القفّال ثنا أبو أحمد عبد الله بن محمد الفضل السمرقندي ثنا شيخي أبو عبد الله محمد بن الفضل البلخي ثنا أبو رجاء قتيبة بن سعيد ثنا عبد العزيز بن محمد الدراوردي عن عبد الرحمن بن حميد عن أبيه عن عبد الرحمن بن عوف: أن النبي ﷺ قال: «أبو بكر في الجنة وعمر في الجنة وعثمان في الجنة وعليّ في الجنة وطلحة في الجنة والزبير في الجنة وعبد الرحمن بن عوف في الجنة وسعد بن أبي وقاص في الجنة وسعيد بن زيد في الجنة وأبو عبيدة بن الجراح في الجنة». حدّثنا أبو المظفر محمد بن أحمد التميمي أنا أبو محمد عبد الرحمن بن عثمان بن قاسم ثنا خيثمة بن سليمان بن حيدرة الطرابلسي ثنا أحمد بن هاشم الأنطاكي ثنا قطبة بن العلاء ثنا سفيان الثّوري عن خالد الخزاعي عن أبي قلابة عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال: «أرحم أُمتي بأمتي أبو بكر، وأشدّهم في أمر الله عمر، وأصدقهم حياءً عثمان، وأفرضهم زيد بن ثابت، وأقرأهم أُبيّ بن كعب، وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل، ولكل أُمة أمين وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح»، ورواه معمر عن قتادة مرسلاً وفيه: «وأقضاهم علي»، أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا معلى بن أسد ثنا عبد العزيز المختار قال خالد بن الحذاء ثنا عن أبي عثمان قال حدّثني عمرو بن العاص أن النبي ﷺ بعثه على جيش ذات السلاسل قال: فأتيته فقلتُ: أيُّ الناس أحبّ إليك؟ قال: «عائشة»، فقلت: من

أربعون سنة وقيل ثمانون وقيل مائة سنة عن عبد الرحمن بن عوف أن رسول الله ﷺ قال: «أبو بكر في الجنة وعمر بن الخطاب في الجنة وعثمان بن عفان في الجنة وعلي بن أبي طالب في الجنة وطلحة في الجنة والزبير في الجنة وعبد الرحمن بن عوف في الجنة وسعد بن أبي وقاص في الجنة وسعيد بن زيد في الجنة وأبو عبيدة بن الجراح في الجنة». أخرجه الترمذي.

وأخرج عن سعيد بن زيد نحوه وقال: هذا أصح من الحديث الأول عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ «أرحم أمتي بأمتي أبو بكر وأشدهم في أمر الله عمر وأشدهم حياء عثمان وأقضاهم علي وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل وأفرضهم زيد بن ثابت وأقرؤهم أبي بن كعب ولكل قوم أمين وأمينَ هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح وما أظلت الخضراء ولا أقلت الغبراء أصدق لهجة من أبي ذر أشبه عيسى في ورعه قال عمر فنعرف له ذلك يا رسول الله؟ قال نعم» أخرجه الترمذي مفرقاً في موضعين، أحدهما: إلى قوله أبو عبيدة بن الجراح، والآخر إلى أبي ذر (خ).

عن أنس أن رسول الله ﷺ صعد أحداً أبو بكر وعمر وعثمان فرجف بهم فقال: اثبت أحد أراه ضربه برجله فإنما عليك نبي وصديق وشهيدان».

عن ابن مسعود: «عن النبي ﷺ أنه قال: اقتدوا بالذين بعدي من أصحابي أبي بكر وعمر واهتدوا بهدى عثمان وتمسكوا بعهد عبد الله بن مسعود» أخرجه الترمذي وقال حديث غريب. (ق) عن عمرو بن العاص أن رسول الله ﷺ بعثه في جيش ذات السلاسل قال: فأتيته فقلت: أي الناس أحب إليك؟ قال عائشة فقلت من الرجال قال أبوها قلت ثم من؟ قال ثم عمر بن الخطاب فعد رجالاً» عن علي بن أبي طالب قال: قال رسول الله ﷺ «رحم الله أبا بكر زوجني ابنته وحملني إلى دار الهجرة وصحبني في الغار وأعتق بلالاً من ماله رحم الله عمراً ليقولن الحق وإن كان مراً تركه الحق

الرجال؟ قال: «أبوها»، قلت: ثمّ مَنْ؟ قال: «عمر»، فعدّ رجالاً فسكت مخافة أن يجعلني في آخرهم. أخبرنا أبو منصور عبد الملك وأبو الفتح نصر بن الحسين أنا علي بن أحمد بن منصور بن محمد بن الحسين بن شاذويه الطوسي بها قال ثنا أبو الحسن محمد بن أحمد بن كيسان النحوي ثنا أبو إسحاق إبراهيم بن شريك الأسدي ثنا يحيىٰ بن سلمة بن كهيل ثنا أبي عن أبيه عن سلمة عن أبي الزعراء عن ابن مسعود عن النبي ﷺ أنه قال: «اقتدوا باللذين من بعدي من أصحابي: أبي بكر وعمر، واهتدوا بهدي عمّار، وتمسكوا بعهد ابن أُمّ عبد». أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحي أنا أبو الحسين علي بن محمد بن بشران أنا إسماعيل بن محمد الصفّار ثنا أحمد بن منصور الرمادي ثنا عبد الرزاق أنا معمر عن أبي حازم عن سهل بن سعد أن أُحداً ارتجّ وعليه النبي ﷺ وأبو بكر وعثمان، فقال النبي ﷺ: «اثبتْ أُحد ما عليك إلّا نبي أو صديق أو شهيد»، أخبرنا أبو الحسن عبد الرحمن بن محمد الداودي أنا أبو الحسن أحمد بن محمد بن موسى بن الصلت ثنا أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الصمد الهاشمي ثنا أبو سعيد الأشج أنا وكيع ثنا الأعمش عن عدي بن ثابت عن زر بن حبيش عن علي قال: عهد إليّ النبي ﷺ أنه لا يُحبُّك إلّا مؤمن، ولا يبغضك إلّا منافق. أخبرنا أبو المظفر التيمي أنا عبد الرحمن بن عثمان أنا خيثمة بن سليمان ثنا محمد بن الفضل بن عطية عن عبد الله بن بريدة عن أبيه عن النبي ﷺ قال: «مَن مات من أصحابي كان نورهم وقائدهم يوم القيامة قوله عزّ وجلّ: ﴿ ليغيظَ بهمُ الكفّار ﴾»، أي إنما كثرهم وقوّاهم ليكونوا غيظاً للكافرين. قال مالك بن أنس: مَن أصبح وفي قلبه غيظ على أصحاب رسول الله ﷺ فقد أصابته هذه الآية. أخبرنا أبو الطيب طاهر بن محمد بن العلاء البغوي ثنا أبو معمر بن الفضل بن إسماعيل أنا جدي أبو بكر أحمد بن إبراهيم الإسماعيلي أخبرني الهيثم بن خلف الدوري ثنا الفضل بن غسان بن المفضل العلائي ثنا يعقوب بن إبراهيم بن سعد ثنا عتبة بن أبي رابطة عن عبد الرحمن بن زياد عن عبد الله بن معقل المزني قال: قال رسول الله ﷺ: «الله الله

وما له من صديق. رحم الله عثمان تستحي منه الملائكة، رحم الله علياً اللهم أدر الحق معه حيث دار» أخرجه الترمذي وقال حديث غريب. (م) عن زر بن حبيش قال: سمعت علياً يقول: والذي فلق الحبة وبرأ النسمة إنه لعهد النبي الأمي إلي أنه لا يحبني إلا مؤمن ولا يبغضني إلا منافق. عن عبد الله بن بريدة عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ «ما من أحد يموت من أصحابي بأرض إلا بعثه الله قائداً ونوراً لهم يوم القيامة» أخرجه الترمذي وقال حديث غريب وقد روي عن أبي بريدة مرسلاً وهو أصح. (ق) عن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله ﷺ: «لا تسبوا أصحابي فوالذي نفسي بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه» وعن أبي هريرة نحوه أخرجه مسلم عن عبد الله بن مغفل المزني قال: قال رسول الله ﷺ: «الله الله في أصحابي لا تتخذوهم غرضاً من بعدي فمن أحبهم فبحبي أحبهم ومن أبغضهم فبغضبي أبغضهم ومن آذاهم فقد آذاني ومن آذاني فقد آذى الله فيوشك أن يأخذه» أخرجه الترمذي وقال: حديث غريب.

قوله تعالى: ﴿**وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم**﴾ لفظة من في قوله منهم لبيان الجنس لا للتبعيض. كقوله: فاجتنبوا الرجس من الأوثان، فيكون معنى الآية وعد الله الذين آمنوا من جنس الصحابة. وقال ابن جرير: يعني من الشطء الذي أخرجه الزرع وهم الداخلون في الإسلام إلى يوم القيامة ورد الهاء والميم على معنى الشطء لا على لفظه ولذلك لم يقل منه ﴿**مغفرة وأجراً عظيماً**﴾ يعني الجنة. وقيل: إن المغفرة جزاء الإيمان فإن لكل مؤمن مغفرة والأجر العظيم جزاء العمل الصالح والله تعالى أعلم بمرداه.

في أصحابي، لا تتخذوهم غرضاً من بعدي، فمَن أحبّهم فبحبّي أحبّهم، ومَن أبغضهم فببغضي أبغضهم، ومَن أذاهم فقد آذاني، ومَن آذاني فقد آذى الله، ومَن آذى الله فيوشك أن يأخذه»، حدّثنا أبو المظفر بن محمد بن أحمد بن حامد التميمي أنا أبو محمد عبد الرحمن بن عثمان بن القاسم أنا أبو الحسن خيثمة بن سليمان ثنا إبراهيم بن عبد الله العبسي القصّار بالكوفة أنا وكيع بن الجرّاح عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تسبّوا أصحابي فوالذي نفسي بيده لو أن أحدهم أنفق مثل أُحدٍ ذهباً ما بلغ مُدَّ أحدهم ولا نصيفه». أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أبو عبد الله محمد بن الحسين الزعرياني ثنا أبو محمد عبد الله بن عروة ثنا محمد بن الحسين بن محمد بن إسكاف ثنا شبابة بن سوار ثنا فضيل بن مرزوق عن أبي خبّاب عن أبي سليم الهمداني عن أبيه عن علي قال: قال رسول الله ﷺ: «إنْ سرّك أن تكون من أهل الجنة فإن قوماً يتنحّلون حبّك يقرؤون القرآن لا يتجاوز تراقيهم نبزهم الرافضة فإن أدركتهم فجاهدهم فإنهم مشركون»، في إسناد هذا الحديث نظر. وقول الله عزّ وجلّ: ﴿ **وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم** ﴾، قال ابن جرير: يعني من الشطء الذي أخرجه الزرع، وهم الداخلون في الإسلام بعد الزرع إلى يوم القيامة، وردّ الهاء والميم على معنى الشطء لا على لفظه، ولذلك لم يقل: منه، ﴿ **مغفرة وأجراً عظيماً** ﴾، يعني الجنة. والله أعلم.

سورة الحجرات

(مدنية وهي ثمان عشرة آية وثلاثمائة وثلاث وأربعون كلمة وألف وأربعمائة وستة وسبعون حرفاً).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾

قوله عز وجل: ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله**﴾ من التقديم أي لا ينبغي لكم أن يصدر منكم تقديم أصلاً. وقيل: لا تقدموا فعلاً بين يدي الله ورسوله. والمعنى: لا تقدموا بين يدي أمر الله ورسوله ولا نهيهما. وقيل: لا تجعلوا لأنفسكم تقدماً عند النبي ﷺ وفيه إشارة إلى احترام رسول الله ﷺ والانقياد لأوامره ونواهيه والمعنى: لا تعجلوا بقول أو فعل قبل أن يقول رسول الله ﷺ أو قبل أن يفعله. وقيل: لاتقولوا بخلاف الكتاب والسنة واختلفوا في معنى الآية فروي عن جابر أنه في الذبح يوم الأضحى أي: لا تذبحوا قبل أن يذبح النبي ﷺ وذلك أن أناساً ذبحوا قبل النبي ﷺ فأمروا أن يعيدوا الذبح. (ق) عن البراء بن عازب قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أول ما نبدأ به في يومنا هذا أن نصلي ثم نرجع فننحر فمن فعل ذلك فقد أصاب سنتنا ومن ذبح قبل أن يصلي فإنما هو لحم عجله لأهله ليس من النسك في شيء» زاد الترمذي في أوله: قال خطبنا النبي ﷺ يوم النحر وذكر الحديث.

وروي عن عائشة أنه في النهي عن صوم يوم الشك أي لا تصوموا قبل نبيكم عن عمار بن ياسر قال: «من صام

سُوْرَةَ الحُجُرَات

مدنيّة وهي ثمان عشرة آية.

﴿ **يا أيّها الذين آمنوا لا تُقدّموا بين يدي الله ورسوله** ﴾، قرأ يعقوب: ﴿ **لا تقدّموا** ﴾ بفتح التاء والدال، من التقدّم أي لا تقدموا، وقرأ الآخرون بضمّ التاء وكسر الدال، من التقديم، وهو لازم بمعنى التقدّم، مثل بيّن وتبيّن، وقيل: هو متعدٍّ على ظاهره، والمفعول محذوف، أي: لا تقدّموا القول والفعل بين يدي الله ورسوله. قال أبو عبيدة تقول العرب: لا تقدّم بين يدي الإمام وبين يدي الأب، أي لا تعجّل بالأمر والنهي دونه، ومعنى: بين اليدين الإمـام. والقدام: أي لا تقدّموا بين يدي أمرهما ونهيهما. واختلفوا في معناه، روى الشعبي عن جابر أنه في الذبح يوم الأضحى، وهو قول الحسين، أي لا تذبحوا قبل أن يذبح النبي ﷺ، وذلك أن ناساً ذبحوا قبل صلاة النبي ﷺ، فأمرهم أن يُعيدوا الذبح، أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا محمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا سليمان بن حرب ثنا شعبة عن زيد عن الشعبي عن البراء قال خطبنا النبي ﷺ يوم النحر، قال: «إن أول ما نبدأ به في يومنا هذا أن نصلّي، ثم نرجع فننحر، فمَن فعل ذلك فقد أصاب سُنّتنا، ومَن ذبح قبل أن نصلّي فإنما هو لحم عجّله لأهله ليس من النسك في شيء»، وروى مسروق عن عائشة أنه في النهي عن صوم

في اليوم الذي يشك فيه فقد عصى أبا القاسم ﷺ» أخرجه أبو داود والترمذي وقال: حديث حسن صحيح. وقيل في سبب نزول هذه الآية: ما روي عن عبد الله بن الزبير أنه قدم وفد من بني تميم على النبي ﷺ فقال أبو بكر: أمر القعقاع بن معبد بن زرارة. وقال عمر: بل أمر الأقرع بن حابس. قال أبو بكر: ما أردت إلا خلافي. وقال عمر: ما أردت خلافك، فتماريا حتى ارتفعت أصواتهما فنزل في ذلك ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله**﴾ حتى انقضت زاد في رواية فما كان عمر يسمع رسول الله ﷺ بعد هذه حتى يستفهمه أخرجه البخاري. وقيل: نزلت الآية في ناس كانوا يقولون: لو نزل في كذا أو صنع كذا وكذا، فكره الله ذلك وقيل في معنى الآية لا تفتئتوا على رسول الله ﷺ بشيء حتى يقضيه الله على لسانه. وقيل في القتال وشرائع الدين: لا تقضوا أمراً من دون الله ورسوله ﴿**واتقوا الله**﴾ أي في تضييع حقه بمخالفة أمره ﴿**إن الله سميع**﴾ أي لأقوالكم ﴿**عليم**﴾ أي بأفعالكم.

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَـٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾

قوله تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي**﴾ أي لا تجعلوا كلامكم مرتفعاً على كلام النبي ﷺ في الخطاب وذلك، لأن رفع الصوت دليل على قلة الاحتشام وترك الاحترام. وقوله: لا تقدموا نهي عن فعل وقوله لا ترفعوا أصواتكم نهي عن قول ﴿**ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض**﴾ أمرهم أن يبجلوه ويفخموه ويعظموه ولا يرفعوا أصواتهم عنده ولا ينادوه كما ينادي بعضهم بعضاً فيقول يا محمد بل يقولون يا رسول الله يا نبي الله ﴿**أن تحبط أعمالكم**﴾ أي لئلا تحبط. وقيل: مخافة أن تحبط حسناتكم ﴿**وأنتم لا تشعرون**﴾ أي بذلك. (ق) عن أنس بن مالك قال: لما نزلت هذه الآية ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي**﴾ الآية جلس ثابت بن

يوم الشك، أي لا تصوموا قبل أن يصوم نبيّكم. أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا إبراهيم بن موسى ثنا هشام بن يوسف أن ابن جريج أخبرهم عن ابن أبي ملكة أن عبد الله بن الزبير أخبرهم أنه قدم ركب من بني تميم على النبي ﷺ، فقال أبو بكر: أمر القعقاع معبد بن زرارة. وقال عمر: بل أمر الأقرع بن حابس، قال أبو بكر: ما أردتَ إلّا خلافي، قال عمر: ما أردتُ خلافك، فتماريا حتى ارتفعت أصواتهما، فنزلت في ذلك: ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله** ﴾ حتى انقضت. ورواه نافع عن ابن عمر عن أبي مُليكة، قال فنزلت: ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي** ﴾ إلى قوله: ﴿ **أجْر عظيم** ﴾، وزاد قال ابن الزبير: فما كان عمر يسمع رسول الله ﷺ بعد هذه الآية حتى يستفهمه، ولم يذكر عن أبيه يعني أبا بكر. وقال قتادة: نزلت الآية في ناس كانوا يقولون لو أُنزل في كذا، وصُنع في كذا وكذا، فكره الله ذلك. وقال مجاهد: لا تفتأوا على رسول الله ﷺ بشيء حتى يقضيه الله على لسانه. وقال الضحاك: يعني في القتال وشرائع الدين لا تقضوا أمراً دون الله ورسوله. ﴿ **واتقوا الله** ﴾، في تضييع حقه ومخالفة أمره، ﴿ **إن الله سميع** ﴾، لأقوالكم، ﴿ **عليم** ﴾، بأفعالكم.

﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض** ﴾، أمرهم أن يبجّلوه ويفخّموه ولا يرفعوا أصواتهم عنده ولا ينادونه كما ينادي بعضهم بعضاً، ﴿ **أن تحبط أعمالكم** ﴾، لئلا تحبط حسناتكم. وقيل: مخافة أن تحبط حسناتكم، ﴿ **وأنتم لا تشعرون** ﴾، أخبرنا إسماعيل عبد القاهر أنا عبد الغافر بن محمد بن عيسى الجلودي ثنا إبراهيم بن محمد بن سفيان ثنا مسلم بن الحجّاج ثنا أبو بكر بن أبي شيبة ثنا الحسن بن موسى ثنا حمّاد بن سلمة عن ثابت البناني عن أنس بن مالك قال: لمّا نزلت هذه الآية: ﴿ **يا أيها**

قيس في بيته وقال: أنا من أهل النار. واحتبس عن النبي ﷺ فسأل النبي ﷺ سعد بن معاذ فقال: يا أبا عمرو ما شأن ثابت أيشتكي؟ فقال سعد: إنه لجاري وما علمت له شكوى. قال: فأتاه سعد فذكر له قول رسول الله ﷺ فقال ثابت: أنزلت هذه الآية ولقد علمتم أني من أرفعكم صوتاً على رسول الله ﷺ فأنا من أهل النار فذكر ذلك سعد للنبي ﷺ فقال رسول الله ﷺ بل هو من أهل الجنة.

زاد في رواية: فكنا نراه يمشي بين أظهرنا رجل من أهل الجنة مسلم وللبخاري نحوه. وروي لما نزلت هذه الآية قعد ثابت في الطريق يبكي فمر به عاصم بن عدي فقال: ما يبكيك يا ثابت؟ قال: هذه الآية أتخوف أن تكون أنزلت فيّ وأنا رفيع الصوت على النبي ﷺ أخاف أن يحبط عملي وأن أكون من أهل النار. فمضى عاصم إلى رسول الله ﷺ وغلب ثابتاً البكاء فأتى امرأته جميلة بنت عبد الله بن أبي ابن سلول فقال لها: إذا دخلت بيت فرسي فشدي على الضبة بمسمار فضربتها بمسمار. وقال: لا أخرج حتى يتوفاني الله أو يرضى عني رسول الله ﷺ فأتى عاصم رسول الله ﷺ فأخبره قال اذهب فادعه فجاء عاصم إلى المكان الذي رآه فيه فلم يجده فجاء إلى أهله فوجده في بيت الفرس. فقال له: إن رسول الله ﷺ يدعوك فقال اكسر الضبة فأتيا رسول الله ﷺ فقال له رسول الله ﷺ: ما يبكيك يا ثابت؟ فقال: أنا صيت وأتخوف أن تكون هذه الآية نزلت فيّ فقال رسول الله ﷺ: أما ترضى أن تعيش حميداً وتقتل شهيداً وتدخل الجنة؟ فقال: رضيت ببشرى الله ورسوله ﷺ لا أرفع صوتي على رسول الله ﷺ أبداً فأنزل الله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ۝٣ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۝٤﴾

﴿إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله﴾ الآية. قال أنس: فكنا ننظر إلى رجل من أهل الجنة يمشي بين أيدينا فلما كان يوم اليمامة في حرب مسيلمة رأى ثابت من المسلمين بعض انكسار وانهزمت طائفة منهم فقال: أف

الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي﴾ الآية، جلس ثابت بن قيس في بيته وقال: أنا من أهل النار واحتبس عن النبي ﷺ، فسأل النبي ﷺ سعد بن معاذ فقال: «أبا عمر وما شأن ثابت أيشتكي»؟ فقال سعد: إنه لجاري وما علمت له شكوى، قال فأتاه سعد فذكر له قول رسول الله ﷺ، فقال ثابت: أنزلت هذه الآية ولقد علمتم أني من أرفعكم صوتاً على رسول الله ﷺ، فأنا من أهل النار، فذكر ذلك سعدٌ للنبي ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «بل هو من أهل الجنة»، ورُوِيَ أنه لمّا نزلت هذه الآية قعد ثابت في الطريق يبكي، فمرّ به عاصم بن عدي فقال: ما يُبكيك يا ثابت؟ فقال: هذه الآية أتخوّف أن تكون نزلت فيّ وأنا رفيع الصوت أن يحبط عملي وأن أكون من أهل النار، فمضى عاصم إلى رسول الله ﷺ، وغلب ثابت البكاء، فأتى امرأته جميلة بنت عبد الله ابن أبي سلول، فقال: إذا دخلت بيت فرسي فشدّي عليّ الضبة بمسمار، وقال: لا أخرج حتى يتوفّاني الله أو يرضى عنّي رسول الله ﷺ، فأتى عاصمٌ رسولَ الله ﷺ، فأخبره خبره فقال له: اذهب فادعه، فجاء عاصم إلى المكان الذي رآه فلم يجده، فجاء إلى أهله فوجده في بيت الفرس، فقال له: إن رسول الله ﷺ يدعوك، فقال: اكسرِ الضبّة فكسرها، فأتيا رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «ما يُبكيك يا ثابت»؟ فقال: أنا صيّتٌ وأتخوف أن تكون هذه الآية نزلت فيّ، فقال رسول الله ﷺ: «أما ترضى أن تعيش حميداً وتُقتَل شهيداً وتدخل الجنة»؟ فقال: رضيت ببشرى الله ورسوله ولا أرفع صوتي أبداً على رسول الله ﷺ فأنزل الله:

﴿إن الذين يغضّون أصواتهم عند رسول الله﴾ الآية، قال أنس: فكنّا ننظر إلى رجل من أهل الجنة يمشي بين أيدينا، فلما كان يوم اليمامة في حرب مسيلمة الكذّاب رأى ثابت من المسلمين بعض الانكسار وانهزمت طائفة

لهؤلاء. ثم قال ثابت لسالم مولى أبي حذيفة: ما كنا نقاتل أعداء الله مع رسول الله ﷺ مثل هذا ثم ثبتا وقاتلا حتى قتلا واستشهد ثابت وعليه درع فرآه رجل من الصحابة بعد موته في المنام وأنه قال له: اعلم أن فلاناً رجلاً من المسلمين نزع درعي فذهب به وهو في ناحية من المعسكر عند فرس يستن في طيله وقد وضع على درعي برمته فأت خالد بن الوليد فأخبره حتى يسترد درعي وأتِ أبا بكر خليفة رسول الله ﷺ وقل له: إن علي ديناً حتى يقضيه عني وفلان من رقيقي عتيق فأخبر الرجل خالداً فوجد الدرع والفرس على ما وصفه فاسترد الدرع وأخبر خالد أبا بكر بتلك الرؤيا فأجاز أبو بكر وصيته قال مالك بن أنس: لا أعلم وصية أجيزت بعد موت صاحبها إلا هذه. قال أبو هريرة وابن عباس: لما نزلت هذه الآية كان أبوبكر لا يكلم رسول الله ﷺ إلا كأخي السرار. وقال ابن الزبير: لما نزلت هذه الآية ما حدث عمر النبي ﷺ بعد ذلك فسمع النبي ﷺ كلامه حتى يستفهمه مما يخفض صوته فأنزل الله تعالى: ﴿**إن الذين يغضون**﴾ أي يخفضون أصواتهم عند رسول الله ﷺ أي إجلالاً له وتعظيماً ﴿**أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى**﴾ أي اختبرها وأخلصها كما يمتحن الذهب بالنار ليخرج خالصه ﴿**لهم مغفرة وأجر عظيم**﴾ قوله عز وجل: ﴿**إن الذين ينادونك من وراء الحجرات**﴾. قال ابن عباس: بعث رسول الله ﷺ سرية إلى بني العنبر وأمر عليهم عيينة بن حصن الفزاري فلما علموا أنه توجه نحوهم، هربوا وتركوا عيالهم، فسباهم عيينة وقدم بهم على رسول الله ﷺ. فجاءه بعد ذلك رجالهم يفدون الذراري فقدموا وقت الظهيرة ووافقوا رسول الله ﷺ قائماً في أهله، فلما رأتهم الذراري أجهشوا إلى آبائهم يبكون وكان لكل امرأة من نساء رسول الله ﷺ حجرة فعجلوا قبل أن يخرج إليهم رسول الله ﷺ فجعلوا ينادون: يا محمد اخرج إلينا. حتى أيقظوه من نومه فخرج إليهم، فقالوا: يا محمد فادنا عيالنا فنزل جبريل عليه السلام فقال: إن الله تعالى يأمرك أن تجعل بينك وبينهم رجلاً. فقال لهم رسول الله ﷺ أترضوا أن يكون بيني وبينكم

منهم، فقال: أفٍّ لهؤلاء، ثم قال ثابت لسالم مولى أبي حذيفة: ما كنّا نقاتل أعداء الله مع رسول الله ﷺ مثل هذا، ثم ثبتا وقاتلا حتى قُتِلا، واستشهد ثابت وعليه درع فرآه رجل من الصحابة بعد موته في المنام وأنه قال له: اعلم أن فلان رجل من المسلمين نزع درعي فذهب بها وهي في ناحية من المعسكر عند فرس يستَنّ به في طوله وقد وضع على درعي برمة فأتِ خالد بن الوليد وأخبره حتى يستردّ درعي وأتِ أبا بكر خليفة رسول الله ﷺ وقلْ له إن عليّ ديناً حتى يقضيه عنّي، وفلان وفلان من رقيقي عتيق، فأخبر الرجل خالداً فوجد درعه والفرس على ما وصفه له، فاستردّ الدرع، وأخبر خالدٌ أبا بكر بتلك الرؤيا فأجاز أبو بكر وصيّته، قال مالك بن أنس: لا أعلم وصيّةً أُجيزتْ بعد موت صاحبها إلّا هذه. قال أبو هريرة وابن عباس: لمّا نزلت هذه الآية كان أبو بكر لا يكلّم رسول الله ﷺ إلّا كأخي السرار. وقال ابن الزبير: لمّا نزلت هذه الاية ما حدّث عمر النبي ﷺ بعد ذلك فيسمع النبي ﷺ كلامه حتى يستفهمه مما يخفض صوته، فأنزل الله تعالى: ﴿ **إن الذين يغضّون أصواتهم** ﴾، يخفضون ﴿ **أصواتهم عند رسول الله** ﴾ إجلالاً له، ﴿ **أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى** ﴾، اختبرها وأخلصها كما يمتحن الذهب بالنار فيخرج خالصه، ﴿ **لهم مغفرةٌ وأجرٌ عظيم** ﴾.

﴿ **إنّ الذين يُنادونك من وراء الحجرات** ﴾، قرأ العامّة بضمّ الجيم، وقرأ أبو جعفر بفتح الجيم، وهما لغتان، وهي جمع الحجر والحجر جمع الحجرة فهي جمع الجمع. قال ابن عباس: بعث رسول الله ﷺ سَريّة إلى بني العنبر وأمَّ عليهم عيينة بن حصن الفزاري، فلما علموا أنه توجّه نحوهم هربوا وتركوا عيالهم، فسباهم عيينة بن حصن وقَدِمَ بهم على رسول الله ﷺ، فجاء بعد ذلك رجالهم يفدون الذراري، فقَدِموا وقت الظهيرة، ووافقوا رسول الله ﷺ قائماً في أهله، فلما رأتهم الذراري أجهشوا إلى آبائهم يبكون، وكان لكل امرأة من نساء رسول الله ﷺ حجرة، فعجّلوا قبل أن يخرج إليهم رسول الله ﷺ، فجعلوا ينادون: يا محمد اخرج إلينا، ويصيحون حتى أيقظوه

سبرة بن عمرو وهو على دينكم؟ قالوا: نعم. قال سبرة: أنا لا أحكم إلا وعمي شاهد وهو الأعور بن بشامة، فرضوا به، فقال الأعور: أرى أن تفادي نصفهم وتعتق نصفهم فقال رسول الله ﷺ: قد رضيت. ففادى نصفهم، وأعتق نصفهم فأنزل الله عز وجل: إن الذين ينادونك من وراء الحجرات ﴿أكثرهم لا يعقلون﴾ وصفهم بالجهل وقلة العقل. وقيل في معنى الآية: أكثرهم إشارة إلى من يرجع منهم عن ذلك الأمر ومن لا يرجع فيستمر على حاله وهم الأكثر.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٥﴾

﴿ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم﴾ فيه بيان لحسن الأدب وهو خلاف ما جاؤوا به من سوء الأدب وطلب العجلة في الخروج ﴿لكان خيراً لهم﴾ أي الصبر لأنك كنت تعتقهم جميعاً وتطلقهم بلا فداء. وقيل: لكان حسن الأدب في طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ خيراً لهم: وقيل: نزلت الآية في ناس من أعراب تميم وكأن فيهم الأقرع بن حابس وعيينة بن حصن والزبرقان بن بدر فنادوا على الباب. ويروى ذلك عن جابر قال: جاءت بنو تميم فنادوا على الباب فقالوا: يا محمد اخرج علينا فإن مدحنا زين وذمنا شين فخرج رسول الله ﷺ وهو يقول: إنما ذلكم الله الذي مدحه زين وذمه شين قالوا نحن ناس من تميم جئنا بشاعرنا وخطيبنا جئنا نشاعرك ونفاخرك فقال رسول الله ﷺ: ما بالشعر بعثت ولا بالفخر أمرت، ولكن هاتوا. فقام منهم شاب فذكر فضله وفضل قومه فقال النبي ﷺ لثابت بن قيس بن شماس، وكان خطيب رسول الله ﷺ: قم فأجبه. فقام فأجابه وقام شاعرهم فذكر أبياتاً فقال النبي ﷺ لحسان بن ثابت: أجبه. فأجابه فقام الأقرع بن حابس فقال: إن محمد المؤتى له تكلم خطيبنا فكان خطيبهم أحسن قولاً وتكلم شاعرنا فكان شاعرهم أحسن شعراً وقولاً ثم دنا من رسول الله ﷺ فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ: ما يضرك ما كان قبل هذا. ثم أعطاهم رسول الله ﷺ وكساهم وقد كان تخلف في

من نومه، فخرج إليهم فقالوا: يا محمد فادِنا عيالنا، فنزل جبريل عليه السلام فقال: إن الله يأمرك أن تجعل بينك وبينهم رجلاً، فقال لهم رسول الله ﷺ: «أترضون أن يكون بيني وبينكم سبرة بن عمرو، وهو على دينكم»؟ فقالوا: نعم، فقال سبرة: إني لا أحكم بينهم إلاّ وعمّي شاهد وهو الأعور بن بشامة، فرضوا به، فقال الأعور: أرى أن تفادي نصفهم وتعتق نصفهم، فقال رسول الله ﷺ: «قد رضيت»، ففادى نصفهم وأعتق نصفهم، فأنزل الله تعالى: ﴿ إن الذين يُنادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون ﴾، وصفهم بالجهل وقلّة العقل.

﴿ ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيراً لهم ﴾، قال مقاتل: لكان خيراً لهم لأنك كنت تعتقهم جميعاً وتطلقهم بلا فداء، ﴿ والله غفور رحيم ﴾، وقال قتادة: نزلت في ناس من أعراب بني تميم جاؤوا إلى النبي ﷺ فنادوا على الباب. ويُروَى ذلك عن جابر قال: جاءت بنو تميم فنادوا على الباب: اخرج إلينا يا محمد، فإن مدحنا زين، وذمّنا شين، فسمعها النبي ﷺ، فخرج النبي ﷺ وهو يقول: «إنما ذلكم الله الذي مدحه زين وذمّه شين»، فقالوا: نحن ناس من بني تميم جئنا بشعرائنا وخطبائنا لنُشاعِرَك ونُفاخرك، فقال النبي ﷺ: «ما بالشعر بُعثتُ ولا بالفخار أُمرتُ، ولكن هاتوا ما عندكم»، فقام شاب منهم فذكر فضله وفضل قومه، فقال النبي ﷺ لثابت بن قيس بن شماس وكان خطيب النبي ﷺ: «قم فأجبه»، فأجابه، وقام شاعرهم فذكر أبياتاً، فقال النبي ﷺ لحسان بن ثابت: «أجبه» فأجابه، فقام الأقرع بن حابس، فقال: إن محمداً لمؤتى له والله ما أدري ما هذا الأمر تكلم خطيبنا، فكان خطيبهم أحسن من خطيبنا قولاً، وتكلم شاعرنا فكان شاعرهم أشعر وأحسن قولاً، ثم دنا من النبي ﷺ فقال: أشهد أن لا إلَه إلاّ الله وأنك رسول الله، فقال له النبي ﷺ: «ما يضرّك ما كان قبل هذا»، ثم أعطاهم رسول الله ﷺ وكساهم، وكان قد تخلّف في ركابهم عمرو بن الأهتم لحداثة سنّه، فأعطاه رسول الله ﷺ مثل ما أعطاهم، وأزرى

ركابهم عمرو بن الأهتم لحداثة سنه فأعطاه رسول الله ﷺ مثل ما أعطاهم فأزرى به بعضهم وارتفعت الأصوات وكثر اللغط عند رسول الله ﷺ فنزل فيهم: ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي**﴾ الآيات إلى قوله ﴿**والله غفور رحيم**﴾ أي لمن تاب منهم. وقال زيد بن أرقم: جاء ناس من العرب إلى رسول الله ﷺ: وقال بعضهم لبعض: انطلقوا بنا إلى رسول الله ﷺ وقال بعضهم لبعض: انطلقوا بنا إلى هذا الرجل فإن يكن نبياً فنحن أسعد الناس به، وإن يكن ملكاً نعش في جنابه فجاؤوا فجعلوا ينادونه: يا محمد يا محمد فأنزل الله هذه الآيات.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ٦
وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ
وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ٧ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٨
وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ
أَمۡرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتۡ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ وَأَقۡسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ٩

قوله تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا**﴾ الآية نزلت في الوليد بن عقبة بن أبي معيط بعثه رسول الله ﷺ إلى بني المصطلق بعد الوقعة مصدقاً وكان بينه وبينهم عداوة في الجاهلية، فلما سمع به القوم تلقوه تعظيماً لأمر رسول الله ﷺ فحدثه الشيطان أنهم يريدون قتله، فهابهم فرجع من الطريق إلى رسول الله ﷺ وقال: إن بني المصطلق قد منعوا صدقاتهم وأرادوا قتلي فغضب رسول الله ﷺ وهم أن يغزوهم فبلغ القوم رجوع الوليد فأتوا رسول الله ﷺ وقالوا: يا رسول الله سمعنا برسولك فخرجنا نتلقاه ونكرمه ونؤدي له ما قبلناه من حق الله فبدا له الرجوع فخشينا أنه إنما رده من الطريق كتاب جاءه منك لغضب غضبته علينا وإنا نعوذ بالله من غضب الله وغضب رسوله فاتهمهم رسول الله ﷺ وبعث خالد بن الوليد خفية في عسكر وأمره أن يخفي عليهم قدومه، وقال: انظر فإن رأيت منهم ما يدل على إيمانهم فخذ منهم زكاة أموالهم وإن لم تر ذلك، فاستعمل فيهم ما تستعمل في الكفار ففعل ذلك خالد. فوافاهم فسمع منهم أذان المغرب والعشاء فأخذ منهم صدقاتهم ولم ير منهم إلا الطاعة والخير فانصرف إلى رسول الله ﷺ وأخبره الخبر فأنزل الله تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق**﴾ يعني الوليد بن عقبة.

به بعضهم وارتفعت الأصوات وكثر اللغط عند رسول الله ﷺ، فنزل فيهم: ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم** ﴾ الآيات الأربع إلى قوله: ﴿ **غفور رحيم** ﴾، وقال زيد بن أرقم: جاء ناس من العرب إلى النبي ﷺ فقال بعضهم لبعض: انطلقوا بنا إلى هذا الرجل فإن يكن نبيّاً فنحن أسعد الناس به، وإن يكن ملكاً نعش في جنابه، فجاؤوا فجعلوا ينادونه، يا محمد يا محمد، فأنزل الله: ﴿ **إن الذين يُنادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون * ولو أنهم صبروا حتى تخرج لكان خيراً لهم والله غفور رحيم** ﴾.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إنْ جاءكم فاسق بنبأ فتبيّنوا** ﴾، الآية نزلت في الوليد بن عقبة بن أبي مُعيط، بعثه رسول الله ﷺ إلى بني المصطلق بعد الوقعة مصدّقاً وكان بينه وبينهم عداوة في الجاهلية، فلما سمع به القوم تلقّوه تعظيماً لأمر رسول الله ﷺ، فحدّثه الشيطان أنهم يريدون قتله فهابهم فرجع من الطريق إلى رسول الله ﷺ وقال: إن بني المصطلق قد منعوا صدقاتهم وأرادوا قتلي، فغضب رسول الله ﷺ وهمّ أن يغزوهم، فبلغ القوم رجوعه فأتوا رسول الله ﷺ، وقالوا: يا رسول الله سمعنا برسولك فخرجنا نتلقاه ونكرمه ونؤدّي إليه ما قبلناه من حقّ الله عزّ وجلّ، فبدا له الرجوع، فخشينا أنه إنما ردّه من الطريق كتاب جاءه منك لغضب غضبته علينا، وإنّا نعوذ

وقيل: هو عام نزلت لبيان التثبت وترك الاعتماد على قول الفاسق وهو أولى من حكم الآية على رجل بعينه، لأن الفسوق خروج عن الحق ولا يظن بالوليد ذلك إلا أنه ظن وتوهم فأخطأ، فعلى هذا يكون معنى الآية: إن جاءكم فاسق بنبأ، أي بخبر، فتبينوا. وقرىء: فتثبتوا، أي: فتوقفوا واطلبوا بيان الأمر وانكشاف الحقيقة ولا تعتمدوا على قول الفاسق **﴿أن تصيبوا﴾** أي كيلا تصيبوا بالقتل والسبي **﴿قوماً بجهالة﴾** أي جاهلين حاله وحقيقة أمرهم **﴿فتصبحوا على ما فعلتم﴾** أي من إصابتكم بالخطأ **﴿نادمين واعلموا أن فيكم رسول الله﴾** أي: فاتقوا الله أن تقولوا باطلاً أو تكذبوه فإن الله يخبره ويعرفه حالكم فتفتضحوا **﴿لو يطيعكم﴾** أي الرسول **﴿في كثير من الأمر﴾** أي مما تخبرونه به فيحكم برأيكم **﴿لعنتم﴾** أي لأثمتم وهلكتم عن أبي سعيد الخدري «أنه قرأ واعلموا أن فيكم رسول الله لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتم قال: هذا نبيكم يوحى إليه وخيار أئمتكم لو أطاعهم في كثير من الأمر لعنتوا فكيف بكم اليوم» أخرجه الترمذي وقال حديث حسن صحيح غريب **﴿ولكن الله حبب إليكم الإيمان﴾** أي جعله أحب الأديان إليكم **﴿وزينه﴾** أي حسنه وقربه منكم وأدخله **﴿في قلوبكم﴾** حتى اخترتموه لأن من أحب شيئاً إذا طال عليه قد يسأم منه والإيمان في كل يوم يزداد في القلب حسناً وثباتاً وبذلك تطيعون رسول الله ﷺ **﴿وكره إليكم الكفر والفسوق﴾** قال ابن عباس: يريد الكذب **﴿والعصيان﴾** جميع معاصي الله تعالى وفي هذه لطيفة، وهو أن الله تعالى ذكر هذه الثلاثة الأشياء في مقابلة الإيمان الكامل المزين في القلب المحبب إليه. والإيمان الكامل: ما اجتمع فيه ثلاثة أمور: تصديق بالجنان، وإقرار باللسان، وعمل بالأركان. فقوله: وكره إليكم الكفر في مقابله.

قوله: حبب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم وهو التصديق بالجنان والفسوق وهو الكذب في مقابلة الإقرار باللسان فكره إلى عبده المؤمن الكذب وهو الجحود وحبب إليه الإقرار بشهادة الحق والصدق وهو: لا إله إلا الله. والعصيان في مقابلة العمل بالأركان فكره إليه العصيان وحبب إليه العمل الصالح بالأركان ثم قال تعالى: **﴿أولئك هم الراشدون﴾** إشارة إلى المؤمنين المحبب إليهم الإيمان المزين في قلوبهم أي: أولئك هم المهتدون إلى محاسن الأعمال ومكارم الأخلاق **﴿فضلاً من الله﴾** أي فعل ذلك بكم فضلاً منه **﴿ونعمة﴾** عليكم **﴿والله عليم﴾** أي بكم وبما في قلوبكم **﴿حكيم﴾** في أمره بما تقتضيه الحكمة وقيل عليم بما في خزائنه من الخير والرحمة والفضل والنعمة حكيم بما ينزل من الخير بقدر الحاجة إليه على وفق الحكم.

قوله عز وجل: **﴿وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا﴾**. (ق) عن أنس قال: قيل للنبي ﷺ لو أتيت عبد الله بن

بالله من غضبه وغضب رسوله، فاتّهمهم رسول الله ﷺ، وبعث خالد بن الوليد إليهم خفية في عسكر وأمره أن يخفي عليهم قدوم قومه، وقال له: «انظر فإن رأيت منهم ما يدلّ على إيمانهم فخذ منهم زكاة أموالهم، وإن لم ترَ ذلك فاستعمل فيهم ما يُستعمل في الكفّار»، ففعل ذلك خالد ووافاهم فسمع منهم أذان صلاتي المغرب والعشاء، فأخذ منهم صدقاتهم ولم يرَ منهم إلاّ الطاعة والخير، فانصرف إلى رسول الله ﷺ وأخبره الخبر، فأنزل الله تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا إنْ جاءكم فاسق ﴾ يعني الوليد بن عقبة، ﴿ بنبأ ﴾، بخبر، ﴿ فتبيّنوا أنْ تصيبوا ﴾، كي لا تصيبوا بالقتل والقتال، ﴿ قوماً ﴾، برآء، ﴿ بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين ﴾، من إصابتكم بالخطأ.

﴿ واعلموا أنّ فيكم رسول الله ﴾، فاتقوا الله أن تقولوا باطلاً أو تكذّبوه، فإن الله يخبره ويعرّفه أحوالكم فتفتضحوا، ﴿ لو يطيعكم ﴾، أي الرسول، ﴿ في كثير من الأمر ﴾، مما تخبرونه به فيحكم برأيكم، ﴿ لعنتّم ﴾، لأثمتم وهلكتم، والعنت: الإثم والهلاك. ﴿ ولكنّ الله حبّب إليكم الإيمان ﴾، فجعله أحبّ الأديان إليكم، ﴿ وزيّنه ﴾، حسّنه، ﴿ في قلوبكم ﴾، حتى اخترتموه، وتطيعوا رسول الله ﷺ، ﴿ وكرّه إليكم الكفر والفسوق ﴾، قال ابن عباس: يريد الكذب، ﴿ والعصيان ﴾، جميع معاصي الله، ثم عاد من الخطاب إلى الخبر،

أبيّ. فانطلق إليه النبي ﷺ فركب حماراً وانطلق المسلمون يمشون معه وهي أرض سبخة، فلما أتاه النبي ﷺ قال: إليك عني والله لقد آذاني نتن حمارك. فقال رجل من الأنصار: والله لحمار رسول الله ﷺ أطيب ريحاً منك. فغضب لعبد الله رجل من قومه، فتشاتما، فغضب لكل واحد منهما أصحابه فكان بينهم ضرب بالجريد والأيدي والنعال فبلغنا أنها نزلت فيهم: وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما.

ويروى أنها لما نزلت قرأها رسول الله ﷺ عليهم فأصلحوا وكف بعضهم عن بعض. (ق) عن أسامة بن زيد أن رسول الله ﷺ ركب على حمار عليه إكاف تحته قطيفة فدكية وأردف أسامة بن زيد وراءه يعود سعد بن عبادة في بني الحارث بن الخزرج قبل وقعة بدر قال: فسار حتى مر على مجلس فيه عبد الله بن أبي ابن سلول وذلك قبل أن يسلم عبدالله بن أبيّ. وإذا في المجلس أخلاط من المسلمين والمشركين عبدة الأصنام واليهود وفي المسلمين عبد الله بن رواحة فلما غشيت المجلس عجاجة الدابة خمر عبد الله بن أبيّ أنفه بردائه ثم قال: لا تغبروا علينا. فسلم رسول الله ﷺ ثم وقف فنزل فدعاهم إلى الله تعالى وقرأ عليهم القرآن فقال عبد الله بن أبي ابن سلول: أيها المرء إنه لا أحسن مما تقول إن كان حقاً فلا تؤذونا به في مجالسنا وارجع إلى رحلك فمن جاءك فاقصص عليه فقال عبد الله بن رواحة: بلى يا رسول الله فاغشنا في مجالسنا فإنا نحب ذلك. واستبَّ المسلمون والمشركون واليهود حتى كادوا يتثاورون فلم يزل النبي ﷺ يخفضهم حتى سكتوا ثم ركب النبي ﷺ دابته.

وقال قتادة: نزلت في رجلين من الأنصار كان بينهما مماراة في حق بينهما فقال أحدهما للآخر: لآخذن حقي منك عنوة لكثرة عشيرته، وإن الآخر دعاه ليحاكمه إلى النبي ﷺ فأبى أن يتبعه فلم يزل الأمر بينهما حتى تدافعوا وتناول بعضهم بعضاً بالأيدي والنعال ولم يكن قتال بالسيوف. وقيل: كانت امرأة من الأنصار يقال لها أم زيد تحت رجل وكان بينهما وبين زوجها شيء فرقي بها إلى علية فحبسها فيها، فبلغ ذلك قومها فجاؤوا وجاء معه قومه، فاقتتلوا بالأيدي والنعال، فأنزل الله عز وجل: وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا. وقيل: المراد من الطائفتين الأوس والخزرج. ﴿فأصلحوا بينهما﴾ أي بالدعاء إلى حكم كتاب الله والرضا بما فيه لهما وعليهما ﴿فإن بغت﴾ أي تعدت

وقال: ﴿ **أولئك هم الراشدون** ﴾، المهتدون.

﴿ **فضلاً** ﴾، أي كان هذا فضلاً، ﴿ **من الله ونعمة والله عليم حكيم** ﴾.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ **وإنْ طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما** ﴾، الآية أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا مسدد ثنا معمر قال سمعت أبي يقول: إن أنساً قال: قيل للنبي ﷺ: لو أتيتَ عبد الله بن أبي، فانطلق إليه النبي ﷺ وركب حماراً وانطلق المسلمون يمشون معه، وهي أرض سبخة، فلما أتاهم النبي ﷺ فقال: إليك عنّي والله لقد آذاني نتن حمارك، فقال رجل من الأنصار: والله لحمار رسول الله ﷺ أطيب ريحاً منك، فغضب لعبد الله رجل من قومه فتشاتما، فغضب لكلِّ واحد منهما أصحابه، فكان بينهما ضرب بالجريد والأيدي والنِعال، فبلغنا أنها نزلت: ﴿ **وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما** ﴾. ويُروَى أنها لمّا نزلت قرأها رسول الله ﷺ، فاصطلحوا وكفَّ بعضهم عن بعض. وقال قتادة: نزلت في رجلين من الأنصار كانت بينهما مماراة في حقٍّ بينهما، فقال أحدهما للآخر: لآخذنّ حقي منك عنوة، لكثرة عشيرته، وإن الآخر دعاه ليحاكمه إلى نبيّ الله ﷺ فأبى أن يتبعه، فلم يزل الأمر بينهما حتى تدافعوا وتناول بعضهم بعضاً بالأيدي والنِعال، ولم يكن بينهما قتال بالسيوف. وقال سفيان عن السدي: كانت امرأة من الأنصار يقال لها أم زيد تحت رجل، وكان بينها وبين زوجها شيء فرقى بها إلى عليّة وحبسها، فبلغ ذلك قومها فجاؤوا، وجاء قومه واقتتلوا بالأيدي والنِعال، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿ **وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا**

﴿إحداهما على الأخرى﴾ وأبت الإجابة إلى حكم كتاب الله ﴿فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء﴾ أي ترجع ﴿إلى أمر الله﴾ أي إلى كتابه الذي جعله حكماً بين خلقه. وقيل: ترجع إلى طاعته في الصلح الذي أمر به ﴿فإن فاءت﴾ أي رجعت إلى الحق ﴿فأصلحوا بينهما بالعدل﴾ أي الذي يحملهما على الإنصاف والرضا بحكم الله ﴿وأقسطوا﴾ أي اعدلوا ﴿إن الله يحب المقسطين﴾ أي العادلين.

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾﴾

﴿إنما المؤمنون إخوة﴾ أي في الدين والولاية ذلك أن الإيمان وقد عقد بين أهله من السبب والقرابة كعقد النسب الملاصق وإن بينهم ما بين الإخوة من النسب والإسلام لهم كالأب قال بعضهم:

أبـــي الإســـلام لا أب لـــي ســـواه إذا افتخـــروا بقيـــس أو تميـــم

﴿فأصلحوا بين أخويكم﴾ أي إذا اختلفا واقتتلا ﴿واتقوا الله﴾ أي فلا تعصوه ولا تخالفوا أمره ﴿لعلكم ترحمون﴾ (ق).

عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يشتمه. ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته. ومن فرَّج عن مسلم كربة فرج الله بها عنه كربة من كرب يوم القيامة ومن ستر مسلماً ستره الله تعالى يوم القيامة» والله سبحانه وتعالى أعلم بمراده.

(فصل في حكم قتال البغاة)

قال العلماء: في هاتين الآيتين دليل على أن البغي لا يزيل اسم الإيمان، لأن الله تعالى سماهم إخوة مؤمنين مع

بينهما ﴾ بالدعاء إلى حكم كتاب الله والرضا بما فيه لهما وعليهما، ﴿ **فإن بغت إحداهما** ﴾، تعدّت إحداهما، ﴿ **على الأخرى** ﴾، وأبت الإجابة إلى حكم كتاب الله، ﴿ **فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء** ﴾، ترجع، ﴿ **إلى أمر الله** ﴾، في كتابه وحكمه، ﴿ **فإن فاءت** ﴾، رجعت إلى الحق، ﴿ **فأصلحوا بينهما بالعدل** ﴾، بحملهما على الإنصاف والرضا بحكم الله، ﴿ **وأقسطوا** ﴾، اعدلوا، ﴿ **إن الله يحبّ المقسطين** ﴾.

﴿ **إنما المؤمنون إخوة** ﴾، في الدين والولاية، ﴿ **فأصلحوا بين أخويكم** ﴾. إذا اختلفا واقتتلا، قرأ يعقوب (بين إخْوتكم) بالتاء على الجمع، ﴿ **واتقوا الله** ﴾، فلا تعصوه ولا تخالفوا أمره، ﴿ **لعلّكم ترحمون** ﴾، أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أبو محمد الحسين بن أحمد المخلدي أنا أبو العباس محمد بن إسحاق السراج ثنا قتيبة بن سعيد ثنا الليث عن عقيل عن الزهري عن سالم عن أبيه أنّ رسول الله ﷺ قال: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يشتمه، مَن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، ومَن فرّج عن مسلم كُرْبةً فرّج الله بها عنه كربةً من كرب يوم القيامة، ومَن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة»، وفي هاتين الآيتين دليل على أن البغي لا يُزيل اسم الإيمان، لأن الله تعالى سمّاهم إخوة مؤمنين مع كونهم باغين، يدلّ عليه ما رُوِيَ عن الحارث الأعور أن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه سُئِل وهو القدوة في قتال أهل البغي، عن أهل الجمل وصفّين: أمشركون هم؟ فقال: لا مِنَ الشرك فرّوا، فقيل: أمنافقون هم؟ فقال: لا إن المنافقين لا يذكرون الله إلاّ قليلاً، قيل: فما حالهم؟ قال: إخواننا بغوا علينا. والباغي في الشرع هو الخارج على الإمام العدل، فإذا اجتمعت طائفة لهم قوة ومنعة فامتنعوا عن طاعة الإمام العدل بتأويل محتمل، ونصبوا إماماً فالحكم فيهم أن يبعث الإمام إليهم ويدعوهم إلى طاعته، فإن أظهروا مظلمة أزالها عنهم، وإن لم يذكروا مظلمة وأصرّوا على بغيهم قاتلهم الإمام حتى يفيئوا إلى طاعته، ثم الحكم في

كونهم باغين ويدل عليه ما روي عن علي بن أبي طالب، وهو القدوة في قتال أهل البغي، وقد سئل عن أهل الجمل وصفين أمشركون هم؟ فقال: لا إنهم من الشرك فروا. فقيل: أمنافقون هم؟ فقال: لا إن المنافقين لا يذكرون الله إلا قليلاً. قيل: فما حالهم؟ قال: إخواننا بغوا علينا. والباغي في الشرع: هو الخارج على الإمام العدل فإذا اجتمعت طائفة لهم قوة ومنعة فامتنعوا عن طاعة الإمام العدل بتأويل محتمل ونصبوا لهم إماماً فالحكم فيهم أن يبعث إليهم الإمام ويدعوهم إلى طاعته، فإن أظهروا مظلمة أزالها عنهم وإن لم يذكروا مظلمة وأصروا على البغي قاتلهم الإمام حتى يفيئوا إلى طاعته. ثم الحكم في قتالهم أن لا يتبع مدبرهم ولا يقتل أسيرهم ولا يذفف على جريحهم نادى منادي على يوم الجمل: ألا لا يتبع مدبر ولا يقتل أسير ولا يذفف على جريح، وهو بذال معجمة، وهو الإجهاز على الجريح وتحرير قتله وتتميمه. وأتي علي يوم صفين بأسير فقال: لا أقتلك صبراً إني أخاف الله رب العالمين. وما أتلفت إحدى الطائفتين على الأخرى في حال القتال من نفس ومال فلا ضمان عليها قال ابن شهاب كانت في تلك الفتنة دماء يعرف في بعضها القاتل والمقتول وأتلف فيها أموال ثم صار الناس إلى أن سكنت الحرب بينهم وجرى الحكم عليهم فما رأيته اقتص من أحد ولا أغرم مالاً. أما من لم تجتمع فيه هذه الشروط الثلاثة: بأن كانوا جماعة قليلين لا منعة لهم، أو لم يكن لهم تأويل، أو لم ينصبوا إماماً، فلا يتعرض لهم إذا لم ينصبوا قتالاً ولم يتعرضوا للمسلمين فإن فعلوا ذلك فهم كقطاع الطريق في الحكم.

وروي أن علياً سمع رجلاً يقول في ناحية المسجد: لا حكم إلا الله. فقال علي: كلمة حق أريد بها باطل. لكم علينا ثلاثة: لا نمنعكم مساجد الله أن تذكروا فيها اسم الله، ولا نمنعكم الفيء ما دامت أيديكم مع أيدينا، ولا نبدؤكم بقتال.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝١١﴾

قوله عز وجل: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم﴾ الآية نزلت في ثلاثة أسباب: السبب الأول: من أولها إلى قوله خيراً منهم. قال ابن عباس: نزلت في ثابت بن قيس بن شماس وذلك أنه كان في أذنه وقر، فكان إذا أتى رسول الله ﷺ وقد سبقوه بالمجلس أوسعوا له حتى يجلس إلى جنبه فيسمع ما يقول، فأقبل ذات يوم وقد فاتته

قتالهم أن لا يتّبع مُدْبِرَهم ولا يقتل أسيرهم، ولا يذفف على جريحهم، نادى منادي عليّ رضي الله عنه يوم الجمل: ألا لا يُتّبع مدبّر ولا يُذفّف على جريح. وأُتِيَ عليّ رضي الله عنه يوم صفّين بأسير فقال له: لا أقتلك صبراً إني أخاف الله ربّ العالمين. وما أتلفتْ إحدى الطائفتين على الأخرى في حال القتال من نفس أو مال فلا ضمان عليها، قال ابن شهاب: كانت في تلك الفتنه دماء يُعرَف في بعضها القاتل والمقتول، وأتلف فيها أموال كثيرة ثم صار الناس إلى أن سكنت الحرب بينهم، وجرى الحكم عليهم فما علمتُه اقتصّ من أحد ولا أغرم مالاً أتلفه، أما مَن لم يجتمع فيهم هذه الشرائط الثلاث بأن كانوا جماعة قليلين لا مِنّة لهم، أو لم يكن لهم تأويل، أو لم ينصبوا إماماً فلا يتعرّض لهم إن لم ينصبوا قتالاً ولم يتعرّضوا للمسلمين، فإن فعلوا فهم كقطّاع الطريق. ورُوِيَ أن عليّاً سمع رجلاً يقول في ناحية المسجد: لا حكم إلاّ لله، فقال عليّ: كلمة حق أُريدَ بها باطل، لكم علينا ثلاث لا نمنعكم من مساجد الله أن تذكروا فيها اسم الله، ولا نمنعكم الفيء ما دامت أيديكم مع أيدينا، ولا نبدأكم بقتال.

وقوله عزّ وجلّ: ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم ﴾، الآية قال ابن عباس نزلت في ثابت بن قيس بن شماس وذلك أنه كان في أُذنه وقر، فكان إذا أتى رسول الله ﷺ وقد سبقوه بالمجلس أوسعوا له حتى يجلس إلى

ركعة من صلاة الفجر فلما انصرف النبي ﷺ من الصلاة، أخذ أصحابه مجالسهم فظل كل رجل بمجلسه فلا يكاد يوسع أحد لأحد وكان الرجل إذا جاء فلم يجد مجلساً قام قائماً كما هو فلما فرغ ثابت من الصلاة أقبل نحو رسول الله ﷺ يتخطى رقاب الناس ثم يقول: تفسحوا تفسحوا. فجعلوا يتفسحون له حتى انتهى إلى رسول الله ﷺ وبينه وبينه رجل فقال: تفسح. فقال له الرجل: أصبت مجلساً فاجلس. فجلس ثابت خلفه مغضباً، فلما انجلت الظلمة غمز ثابت الرجل فقال: من هذا؟ قال أنا فلان. قال له ثابت: ابن فلانة وذكر أماً له كان يعيَّر بها في الجاهلية. فنكس الرجل رأسه واستحيا فأنزل الله هذه الآية.

وقال الضحاك: نزلت في وفد بني تميم الذين ذكرناهم وكانوا يستهزئون بفقراء أصحاب رسول الله ﷺ مثل عمار وخباب وبلال وصهيب وسلمان وسالم مولى أبي حذيفة لما رأوه من رثاثة حالهم فأنزل الله تعالى يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم. أي: لا يستهزىء غني بفقير ولا مستور عليه ذنبه بمن لم يستر ولا ذو حسب بلئيم وأشباه ذلك مما ينتقصه به ولعله عند الله خير منه وهو قوله تعالى: ﴿**عسى أن يكونوا خيراً منهم**﴾ السبب الثاني قوله: ﴿**ولا نساء من نساء**﴾ أي لا يستهزىء نساء من نساء ﴿**عسى أن يكنَّ خيراً منهن**﴾ روي عن أنس أنها نزلت في نساء رسول الله ﷺ عيرن أم سلمة بالقصر. وعن ابن عباس: «أنها نزلت في صفية بنت حيي قال لها بعض نساء النبي ﷺ: يهودية بنت يهوديين. عن أنس: بلغ صفية أن حفصة قالت بنت يهودي فبكت فدخل عليها النبي ﷺ وهي تبكي فقال: ما يبكيك؟ قالت: قالت لي حفصة إني بنت يهودي فقال النبي ﷺ إنك لابنة نبي وعمك لنبي وإنك لتحت نبي ففيم تفتخر عليك ثم قال: اتقي الله يا حفصة» أخرجه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح غريب.

والسبب الثالث قوله تعالى: ﴿**ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب**﴾ عن أبي جبيرة بن الضحاك وهو أخو ثابت بن الضحاك الأنصاري قال: فينا نزلت هذه الآية في بني سلمة «قدم علينا رسول الله ﷺ وليس منا رجل إلا وله اسمان أو ثلاثة فجعل رسول الله ﷺ يقول يا فلان فيقولون مه يا رسول الله إنه يغضب من هذا الاسم فأنزل الله هذه الآية ﴿**ولا تنابزوا بالألقاب بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان**﴾» أخرجه أبو داود وفي الترمذي قال «كان الرجل منا يكون له اسمان وثلاثة فيدعى ببعضها فعسى أن يكره قال فنزلت هذه الآية ﴿**ولا تنابزوا بالألقاب**﴾.» قال الترمذي: حديث حسن. قوله تعالى: ولا تلمزوا أنفسكم أي لا يعيب بعضكم بعضاً ولا يطعن بعضكم في بعض. والمراد بالأنفس،

جنبه، فيسمع ما يقول، فأقبل ذات يوم وقد فاتته ركعة من صلاة الفجر، فلما انصرف النبي ﷺ من الصلاة أخذ أصحابه مجالسهم، فضنّ كل رجل بمجلسه فلا يكاد يُوسّع أحدٌ لأحد، فكان الرجل إذا جاء فلم يجد مجلساً يجلس فيه قام قائماً كما هو، فلما فرغ ثابت من الصلاة أقبل نحو رسول الله ﷺ يتخطّى رِقاب الناس، ويقول: تفسّحوا تفسّحوا، فجعلوا يتفسّحون له حتى انتهى إلى رسول الله ﷺ وبينه وبينه رجل فقال له الرجل تفسّح، فقال له قد أصبت مجلساً فاجلس، فجلس ثابت خلفه مغضباً، فلما انجلت الظلمة غمز ثابت الرجل، فقال: مَن هذا؟ قال: أنا فلان، فقال له ثابت: ابن فلانة، وذكر أُمّاً له كان يعيّر بها في الجاهلية، فنكّس الرجل رأسه واستحيا، فأنزل الله تعالى هذه الآية. وقال الضحاك: نزلت في وفد بني تميم الذين ذكرناهم، كانوا يستهزؤون بفقراء أصحاب النبي ﷺ مثل عمّار وخبّاب وبلال وصهيب وسلمان وسالم مولى أبي حذيفة، لما رأوا من رثاثة حالهم، فأنزل الله تعالى في الذين آمنوا منهم: ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا يسخرْ قومٌ من قوم** ﴾ أي رجال من رجال، والقوم اسم يجمع الرجال والنساء، وقد يختصّ بجمع الرجال، ﴿ **عسى أنْ يكونوا خيراً منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكنّ خيراً منهنّ** ﴾، رُوِيَ عن أنس أنها نزلت في نساء رسول الله ﷺ حين عيّرن أم سلمة بالقصر. وعن عكرمة عن ابن عباس: أنها نزلت في صفيّة بنت حُيي بن أخطب، قال لها النساء: يهودية بنت يهوديين. ﴿ **ولا تلمزوا**

الإخوان هنا. والمعنى: لا تعيبوا إخوانكم من المسلمين لأنهم كأنفسكم، فإذا عاب عائب أحداً بعيب، فكأنه عاب نفسه. وقيل: لا يخلو أحد من عيب فإذا عاب غيره فيكون حاملاً لذلك على عيبه فكأنه هو العائب لنفسه ولا تنابزوا بالألقاب أي لا تدعوا الإنسان بغير ما سمي به. وقال ابن عباس: التنابز بالألقاب أن يكون الرجل عمل السيئات ثم تاب عنها فنهي أن يعير بما سلف من عمله. وقيل: هو قول الرجل للرجل يا فاسق يا منافق يا كافر. قيل: كان الرجل اليهودي والنصراني يسلم فيقال له بعد إسلامه: يا يهودي يا نصراني فنهوا عن ذلك. وقيل: هو أن تقول لأخيك يا كلب يا حمار يا خنزير. وقال بعض العلماء: المراد بهذه الألقاب ما يكرهه المنادى به أو يفيد ذماً له، فأما الألقاب التي صارت كالأعلام لأصحابها كالأعمش والأعرج وما أشبه ذلك فلا بأس بها إذا لم يكرهها المدعو بها، وأما الألقاب التي تكسب حمداً ومدحاً تكون حقاً وصدقاً فلا يكره كما قيل لأبي بكر: عتيق، ولعمر: الفاروق، ولعثمان: ذو النورين ولعلي: أبو تراب ولخالد سيف الله ونحو ذلك ﴿**بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان**﴾ أي بئس الاسم أن تقولوا له يا يهودي أو يا نصراني بعد ما أسلم أو يا فاسق بعد ما تاب وقيل معناه أن من فعل ما نهي عنه من السخرية واللمز والنبز فهو فاسق وبئس الاسم الفسوق بعد الإيمان فلا تفعلوا ذلك فتستحقوا اسم الفسوق ﴿**ومن لم يتب**﴾ أي من ذلك كله ﴿**فأولئك هم الظالمون**﴾ أي: الضارون لأنفسهم بمعصيتهم ومخالفتهم. وقيل: ظلموا الذين قالوا لهم ذلك.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿**يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن**﴾ قيل: نزلت في رجلين اغتابا رفيقهما وذلك أن رسول الله ﷺ كان إذا غزا أو سافر ضم الرجل المحتاج إلى رجلين موسرين يخدمهما ويتقدمهما إلى المنزل فيهيء لهما ما يصلحهما من الطعام والشراب فضم سلمان الفارسي إلى رجلين في بعض أسفاره، فتقدم سلمان إلى المنزل فغلبته عيناه فنام ولم يهيء شيئاً لهما فلما قدما قالا له: ما صنعت شيئاً. قال: لا غلبتني عيناي فنمت قالا له: انطلق

أنفسكم ﴾، أي لا يعب بعضكم بعضاً، ولا يطعن بعضكم على بعض، ﴿ **ولا تنابزوا بالألقاب** ﴾، التنابز التفاعل من النبز وهو اللقب، وهو أن يدعى الإنسان بغير ما سُمّي به. قال عكرمة: وهو قول الرجل للرجل يا فاسق يا منافق يا كافر. وقال الحسن: كان اليهودي والنصراني يسلم، فيقال له بعد إسلامه يا يهودي يا نصراني، فنُهوا عن ذلك. قال عطاء: هو أن تقول لأخيك: يا كلب يا حمار يا خنزير. ورُوِيَ عن ابن عباس قال: التنابز بالألقاب أن يكون الرجل عمل السيئات ثم تاب عنها فنُهِيَ أن يُعيّر بما سلف عن عمله، ﴿ **بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان** ﴾، أي بئس الاسم أن يقول يا يهودي أو يا فاسق بعدما آمن وتاب، وقيل معناه: إن مَن فعل ما نُهِي عنه من السخرية واللمز والنبز فهو فاسق، وبئس الاسم الفسوق بعد الإيمان، فلا تفعلوا ذلك فتستحقّوا اسم الفسوق، ﴿ **ومَن لم يتبْ** ﴾، من ذلك، ﴿ **فأُولئك هم الظالمون** ﴾.

﴿ **يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن** ﴾، قيل: نزلت الآية في رجلين اغتابا رفيقهما، وذلك أن رسول الله ﷺ كان إذا غزا أو سافر ضمّ الرجل المحتاج إلى رجلين موسرين يخدمهما، ويتقدّم لهما إلى المنزل فيهيىء لهما ما يصلحهما من الطعام والشراب، فضمّ سلمان الفارسي إلى رجلين في بعض أسفاره، فتقدّم سلمان إلى المنزل فغلبته عيناه فلم يهيّىء لهما شيئاً، فلما قَدِمَا قالا له: ما صنعتَ شيئاً؟ قال: لا غلبتني عيناي، قالا له: انطلق إلى رسول الله ﷺ فاطلب لنا منه طعاماً، فجاء سلمان إلى رسول الله ﷺ وسأله طعاماً، فقال له رسول

إلى رسول الله ﷺ فاطلب لنا منه طعاماً فجاء سلمان إلى رسول الله ﷺ وسأله طعاماً فقال رسول الله ﷺ انطلق إلى أسامة بن زيد وقل له: إن كان عنده فضل طعام وأدم فليعطك وكان أسامة خازن رسول الله ﷺ وعلى رحله فأتاه فقال ما عندي شيء فرجع سلمان إليهما فأخبرهما فقالا كان عند أسامة طعام ولكن بخل فبعثا سلمان إلى طائفة من الصحابة فلم يجد عندهم شيئاً فلما رجع قالا: لو بعثناه إلى بئر سميحة لغار ماؤها ثم انطلقا يتجسسان هل عند أسامة ما أمر لهما به رسول الله ﷺ فلما جاء إلى رسول الله ﷺ قال لهما: ما لي أرى خضرة اللحم في أفواهكما؟ قالا: والله يا رسول الله ما تناولنا يومنا هذا لحماً. قال: ظللتما تأكلان لحم سلمان وأسامة فأنزل الله عز وجل: يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن يعني أن يظن بأهل الخير سوءاً فنهى الله المؤمن أن يظن بأخيه المؤمن شراً وقيل هو أن يسمع من أخيه المسلم كلاماً لا يريد به سوءاً أو يدخل مدخلاً لا يريد به سوءاً فيراه أخوه المسلم فيظن شراً لأن بعض الفعل قد يكون في الصورة قبيحاً وفي نفس الأمر لا يكون كذلك لجواز أن يكون فاعله ساهياً أو يكون الرائي مخطئاً فأما أهل السوء والفسق المجاهرون بذلك فلنا أن نظن فيهم مثل الذي يظهر منهم **﴿إن بعض الظن إثم﴾**. قال سفيان الثوري: الظن ظنان: أحدهما: إثم، وهو أن يظن ويتكلم به والآخر ليس بإثم وهو أن يظن ولا يتكلم به. وقيل: الظن أنواع فمنه واجب ومأمور به وهو الظن الحسن بالله عز وجل ومنه مندوب إليه وهو الظن الحسن بالأخ المسلم الظاهر العدالة ومنه حرام محظور وهو سوء الظن بالله عز وجل وسوء الظن بالأخ المسلم **﴿ولا تجسسوا﴾** أي لا تبحثوا عن عيوب الناس نهى الله عن البحث عن المستور من أمور الناس وتتبع عوراتهم حتى يظهر على ما ستره الله منها (ق).

عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث ولا تجسسوا ولا تحسسوا ولا تنافسوا ولا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخواناً كما أمركم المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره التقوى هاهنا التقوى هاهنا ويشير إلى صدره التقوى هاهنا.

التقوى هاهنا بحسب امرىء من الشر أن يحقر أخاه المسلم كل المسلم على المسلم حرام دمه وعرضه وماله إن الله لا ينظر إلى أجسادكم ولا إلى صوركم وأعمالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم» التجسس بالجيم التفتيش عن بواطن

الله ﷺ: «**انطلق إلى أسامة بن زيد وقلْ له إن كان عند فضل من طعام وإدام فليعطك**»، وكان أُسامة خازن رسول الله ﷺ على رَحْله، فأتاه فقال: ما عندي شيء، فرجع سلمان إليهما وأخبرهما، فقالا: كان عند أُسامة طعاماً ولكن بخل، فبعثا سلمان إلى طائفة من الصحابة فلم يجد عندهم شيئاً، فلما رجع قالا: لو بعثناك إلى بئر سميحة لغار ماؤها، ثم انطلقا يتجسسان هل عند أُسامة ما أمر لهما به رسول الله ﷺ، فلما جاءا إلى رسول الله ﷺ قال لهما: «ما لي أرى خضرة اللحم في أفواهكما»، قالا: والله يا رسول الله ما تناولنا يومنا هذا لحماً، قال: «بل ظللتم تأكلون لحم سلمان وأُسامة»، فأنزل الله عزّ وجلّ: **﴿ يا أيها الذين آمنوا اجتنبو كثيراً من الظن ﴾**، وأراد أن يظن بأهل الخير شرّاً، **﴿ إنّ بعض الظن إثم ﴾**، قال سفيان الثّوري: الظن ظنّان أحدهما إثم، وهو أن تظن وتتكلم به، والآخر ليس بإثم وهو أن تظن ولا تتكلم. **﴿ ولا تجسّسوا ﴾**، التجسّس هو البحث عن عيوب الناس، نهى الله تعالى عن البحث عن المستور من عيوب الناس وتتبّع عوراتهم حتى لا يظهر على ما ستره الله منها، أخبرنا أبو الحسن محمد بن محمد السرخسي أنا زاهر بن أحمد أنا أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الصمد الهاشمي أنا أبو مصعب عن مالك عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث، ولا تحسّسوا ولا تجسّسوا، ولا تناجشوا ولا تنافسوا، ولا تحاسدوا ولا تباغضوا، ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخواناً». أخبرنا أبو بكر محمد بن محمد بن علي بن الحسن الطوسي بها أنا أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن إبراهيم الإسفرايني أنا أبو بكر أحمد بن إبراهيم الإسماعيلي أنا عبد الله بن ناحية ثنا يحيىٰ بن أكثم أنا الفضل بن موسى الشيباني عن الحسين بن

الأمور وأكثر ما يقال في الشر ومنه الجاسوس وبالحاء هو الاستماع إلى حديث الغير. وقيل: معناهما واحد وهو طلب الأخبار. وقوله: ولا تنافسوا أي لا ترغبوا فيما يرغب فيه الغير من أسباب الدنيا وحظوظها والحسد تمني زوال النعمة عن صاحبها. قوله: ولا تدابروا أي لا يعطي كل واحد منكم أخاه دبره وقفاه فيعرض عنه ويهجره.

عن ابن عمر قال: «صعد رسول الله ﷺ المنبر فنادى بصوت رفيع يا معشر من أسلم بلسانه ولم يفض الإيمان إلى قلبه لا تؤذوا المسلمين ولا تعيروهم ولا تتبعوا عن عوراتهم فإنه من تتبع عورة أخيه المسلم تتبع الله عورته ومن يتبع الله عورته يفضحه ولو في جوف رحله». قال نافع: ونظر ابن عمر يوماً إلى الكعبة فقال: ما أعظمك وأعظم حرمتك. والمؤمن أعظم حرمة عند الله منك أخرجه الترمذي. وقال: حديث حسن غريب عن زيد بن وهب. قال: أتى ابن مسعود فقيل له: هذا فلان تقطر لحيته خمراً. فقال عبد الله: إنا قد نهينا عن التجسس ولكن إن يظهر إلينا شيء نأخذ به أخرجه أبو داود وله عن عقبة بن عامر أن رسول الله ﷺ قال: «من رأى عورة فسترها كان كمن أحيا موءودة» (م) عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «لا يستر عبد عبداً في الدنيا إلا ستره الله يوم القيامة».

قوله تعالى: ﴿**ولا يغتب بعضكم بعضاً**﴾ أي لا يتناول بعضكم بظهر الغيب بما يسوءه مما هو فيه. عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال «أتدرون ما الغيبة؟ قلت الله ورسوله أعلم قال ذكرك أخاك بما يكره قلت وإن كان في أخي ما أقول قال إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته وإن لم يكن فيه قد بهته». أخرجه مسلم عن عائشة قالت: «قلت للنبي ﷺ حسبك من صفية كذا وكذا قال بعض الرواة تعني قصيرة فقال لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته قالت وحكيت له إنساناً فقال ما أحب أني حكيت إنساناً وإن لي كذا وكذا» أخرجه أبو داود والترمذي وقال حديث حسن صحيح، قوله: لمزجته أي خالطته مخالطة يتغير بها طعمه وريحه لشدة نتنها وقبحها وهذا الحديث من أبلغ الزواجر عن الغيبة.

قوله تعالى: ﴿**أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه**﴾ قال مجاهد: لما قيل أيحب أحدكم أن يأكل

واقد عن أبي أوفى بن دلهم عن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهم أن النبي ﷺ قال: «يا معشر مَن آمن بلسانه ولم يفضِ الإيمانُ إلى قلبه، لا تغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم، فإنه مَن تبعِ عورات المسلمين، يتتبّع الله عورته، ومَن يتتبّعِ الله عورته يفضحه ولو في جوف رحْل». قال ونظر ابن عمر يوماً إلى الكعبة فقال: ما أعظمك وأعظم حرمتك، والمؤمن أعظم عند الله حُرمة منك. وقال زيد بن وهب: قيل لابن مسعود: هل لك في الوليد بن عقبة تقطر لحيته خمراً، فقال: إنّا قد نُهينا عن التجسّس، فإن يظهر لنا شيئاً نأخذهُ به. ﴿ **ولا يغتبْ بعضكم بعضاً** ﴾، يقول: لا يتناول بعضكم بعضاً بظهر الغيب بما يسوءه مما هو فيه، أخبرنا أبو عبد الله محمد بن المفضل الخرقي أنا أبو الحسن علي بن عبد الله الطيسفوني أنا عبد الله بن عمر الجوهري ثنا أحمد بن علي الكشمهيني ثنا علي بن حجر ثنا إسماعيل بن جعفر عن العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «أتدرون ما الغيبة»؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «ذكرُكَ أخاكَ بما يكره»، قيل: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال: «إن كان فيه ما تقول فقدِ اغتبته، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته». أخبرنا أبو بكر محمد بن عبد الله بن أبي توبة أنا أبو الطاهر الحارثي أنا محمد بن يعقوب الكسائي أنا عبد الله بن محمود أنا إبراهيم بن عبد الله الخلال أنا عبد الله بن المبارك عن المثنى بن الصباح عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه أنهم ذكروا عند رسول الله ﷺ رجلاً فقالوا: لا يأكل حتى يُطعم، ولا يرحل حتى يُرحّل، فقال النبي ﷺ: «اغتبتموه»، فقالوا: إنما حدّثنا بما فيه، قال: «حسبك إذا ذكرتَ أخاك بما فيه». قوله عزّ وجلّ: ﴿ **أيحبّ أحدكم أن يأكل لحم أخيه مَيْتاً فكرهتموه** ﴾، قال مجاهد: لما قيل

لحم أخيه ميتاً قالوا لا قيل فكرهتموه أي كما كرهتم هذا فاجتنبوا ذكره بسوء غالباً قيل تأويله إن ذكرك من لم يحضرك بسوء بمنزلة أكل لحمه وهو ميت لأنه لا يحس بذلك وفيه إشارة إلى أن عرض الإنسان كلحمه ودمه لأن الإنسان يتألم قلبه إذا ذكر بسوء كما يتألم جسده إذا قطع لحمه والعرض أشرف من اللحم فإذا لم يحسن من العاقل أكل لحم الناس فترك أعراضهم أولى وقوله لحم أخيه آكد في المنع لأن العدو قد يحمله الغضب على أكل لحم عدوه، وقوله ميتاً أبلغ في الزجر.

عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «لما عرج بي مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون وجوههم ولحومهم وفي نسخة وصدورهم فقلت من هؤلاء يا جبريل؟ قال هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون في أعراضهم» أخرجه أبو داود وقال ميمون بن سيار بينا أنا نائم إذا بجيفة زنجي وقائل يقول كل يا عبد الله قلت وما آكل؟ قال كل بما اغتبت بعد فلان قلت والله ما ذكرت فيه خيراً ولا شراً قال: ولكنك استمعت ورضيت، فكان ميمون لا يغتاب أحداً ولا يدع أحداً يغتاب أحداً عنده.

قوله تعالى: ﴿واتقوا الله﴾ أي في أمر الغيبة واجتناب نواهيه ﴿إن الله تواب رحيم﴾ قوله عز وجل:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ١٣﴾

﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى﴾ قال ابن عباس: نزلت في ثابت بن قيس بن شماس. وقوله في الرجل الذي لم يفسح له ابن فلانة فقال النبي ﷺ: من الذاكر فلانة؟ قال ثابت: أنا رسول الله قال انظر في وجوه القوم فنظر فقال ما رأيت يا ثابت؟ قال رأيت أبيض وأحمر وأسود قال فإنك لا تفضلهم إلا بالدين والتقوى فنزلت في ثابت هذه الآية ونزل في الذي لم يفسح له ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا قيل لكم تفسحوا في المجالس فافسحوا﴾ الآية. وقيل: لما كان يوم فتح مكة أمر رسول الله ﷺ بلالاً حتى علا على ظهر الكعبة وأذن فقال عتاب بن أسيد الحمد لله الذي قبض

لهم: ﴿أيحبّ أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً﴾ قالوا: لا، قيل: ﴿فكرهتموه﴾ أي فكما كرهتم هذا فاجتنبوا ذكره بالسوء غائباً. قال الزجّاج: تأويله: إن ذكرك مَن لم يحضرك بسوء بمنزلة أكل لحم أخيك، وهو ميت لا يحسّ بذلك. أخبرنا أحمد بن إبراهيم الشريحي أنا أبو إسحاق الثعلبي أخبرني ابن فنجويه ثنا ابن أبي شيبة ثنا الفرياني ثنا محمد بن المصطفى ثنا ابن المغيرة عبد القدّوس بن الحجّاج حدّثني صفوان بن عمرو ثنا راشد بن سعد وعبد الرحمن بن جبير عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال: «لما عُرِجَ بي مررتُ بقوم لهم أظفار من نحاس يخشمون بها وجوههم ولحومهم، فقلتُ: مَن هؤلاء يا جبريل؟ فقال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون في أعراضهم»، قال ميمون بن سيار: بينا أنا نائم إذا أنا بجيفة زنجي وقائل يقول: كلْ، قلتُ: يا عبد الله ولِمَ آكل؟ قال: بما اغتبت عبد فلان، فقلت: والله ما ذكرت فيه خيراً ولا شرّاً، قال: لكنك استمعت ورضيت به، فكان ميمون لا يغتاب أحداً ولا يدع أحداً يغتاب عنده أحداً. ﴿واتقوا الله إن الله توّاب رحيم﴾.

﴿يا أيّها الناس إنّا خلقناكم من ذَكَرٍ وأنثى﴾، الآية. قال ابن عباس: نزلت في ثابت بن قيس، وقوله للرجل الذي لم يفسح له: ابن فلانة يعيّره بأمه، قال النبي ﷺ: «مَن الذاكر فلانة»؟ فقال ثابت: أنا يا رسول الله، فقال: «انظر في وجوه القوم» فنظر فقال: «ما رأيتَ يا ثابت»؟ قال: رأيت أبيض وأحمر وأسود، قال: «فإنك لا تفضّله إلّا في الدين والتقوى»، فنزلت في ثابت هذه الآية، وفي الذي لم يتفسّح: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا قيل لكم تفسّحوا

أبي ولم ير هذا اليوم وقال الحارث بن هشام أما وجد محمد غير هذا الغراب الأسود مؤذناً وقال سهيل بن عمرو إن يكره الله شيئاً يغيره.

وقال أبو سفيان: إني لا أقول شيئاً أخاف أن يخبره رب السماء فنزل جبريل فأخبر رسول الله ﷺ بما قالوا وسألهم عما قالوا فأقروا فأنزل الله هذه الآية وزجرهم عن التفاخر بالأنساب والتكاثر بالأموال والإزراء بالفقراء فقال **﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى﴾** يعني آدم وحواء. والمعنى: إنكم متساوون في النسب فلا تفاخر لبعض على بعض لكونكم أبناء رجل واحد وامرأة واحدة. وقيل: يحتمل أن يكون المعنى إنا خلقنا كل واحد منكم أيها الموجودون من أب وأم فإن كل واحد منكم خلق كما خلق الآخر سواء فلا وجه للتفاخر والتفاضل في النسب **﴿وجعلناكم شعوباً﴾** جمع شعب بفتح الشين وهي رؤوس القبائل مثل ربيعة ومضر والأوس والخزرج سموا شعوباً لتشعب القبائل منهم وقيل لتجمعهم **﴿وقبائل﴾** جمع قبيلة وهي دون الشعوب كبكر من ربيعة وتميم من مضر ودون القبائل العمائر واحدتها عمارة بفتح العين وهم كشيبان من بكر ودارم من تميم ودون العمائر البطون واحدتها بطن وهم كبني غالب ولؤي من قريش ودون البطون الأفخاذ واحدتها فخذ وهم كبني هاشم وبني أمية من لؤي ودون الأفخاذ الفصائل واحدتها فصيلة بالصاد المهملة كبني العباس من بني هاشم ثم بعد ذلك العشائر واحدتها عشيرة وليس بعد العشيرة شيء يوصف. وقيل: الشعوب للعجم، والقبائل: للعرب، والأسباط: من بني إسرائيل. وقيل: الشعوب الذين لا ينسبون إلى أحد بل ينسبون إلى المدائن والقرى والقبائل الذين ينتسبون إلى آبائهم.

﴿لتعارفوا﴾ أي ليعرف بعضكم بعضاً في قرب النسب وبعده لا للتفاخر بالأنساب ثم بين الخصلة التي بها يفضل

في المجالس فافسحوا ﴾ [المجادلة: ١١]، وقال مقاتل: لمّا كان يوم فتح مكة أمر رسول الله ﷺ بلالاً حتى علا ظهر الكعبة وأذّن، فقال عتاب بن أسيد بن أبي العيص: الحمد لله الذي قبض أبي حتى لم يرَ هذا اليوم، قال الحارث بن هشام أما وجد محمدٌ غير هذا الغراب الأسود مؤذِّناً وقال سهيل بن عمرو: إن يُرِد الله شيئاً يغيّره. وقال أبو سفيان: إني لا أقول شيئاً أخاف أن يخبر به ربّ السماء، فأتى جبريل فأخبر رسول الله ﷺ بما قالوا، فدعاهم وسألهم عمّا قالوا فأقرّوا فأنزل الله تعالى هذه الآية، وزجرهم عن التفاخر بالأنساب والتكاثر بالأموال والإزراء بالفقراء، فقال: **﴿ يا أيها الناس إنّا خلقناكم من ذَكَرٍ وأُنثى ﴾** يعني آدم وحوّاء أي إنكم متساوون في النسب. **﴿ وجعلناكم شعوباً ﴾**، جمع شعب بفتح الشين، وهي رؤوس القبائل مثل ربيعة ومُضَر والأوس والخزرج، سُمّوا شُعوباً لتشعّبهم واجتماعهم، كشعَب أغصان الشجر، والشعَب من الأضداد يقال: شعث أي جمع وشعَب أي فرق. **﴿ وقبائل ﴾**، هي دون الشعوب، واحدتها قبيلة وهي كبكر من ربيعة وتميم من مضر، ودون القبائل العمائر، واحدتها عمارة، بفتح العين وهي كشيبان من بكر ودارم من تميم، ودون العمائر البطون، واحدتها بطن، وهي كبني غالب ولؤي من قريش، ودون البطون الأفخاذ واحدتها فخذ وهم كبني هاشم وأُميّة من بني لؤي، ثم الفصائل والعشائر واحدتها فصيلة وعشيرة، وليس بعد العشيرة حيّ يُوصَف به وقيل: الشعوب من العجم، والقبائل من العرب، والأسباط من بني إسرائيل. وقال أبو روق: الشعوب من الذين لا يعتزون إلى أحد، بل ينتسبون إلى المدائن والقرى، والقبائل العرب الذين ينتسبون إلى آبائهم. **﴿ لتعارفوا ﴾**، ليعرف بعضكم بعضاً في قُرْب النسب وبُعْده، لا ليتفاخروا. ثم أخبر أن أرفعهم منزلة عند الله أتقاهم فقال: **﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير ﴾**، قال قتادة: في هذه الآية إن أكرم الكرم التقوى، والأم اللؤم الفجور. أخبرنا أبو بكر بن أبي الهيثم الترابي أنا أبو محمد عبد الله بن أحمد بن حمويه أنا إبراهيم بن خزيم الشاشي ثنا عبد الله بن حميد ثنا يونس بن محمد ثنا سلام بن أبي مطيع عن قتادة عن الحسن عن سمرة بن جندب قال: قال رسول الله ﷺ: «الحسبُ المال، والكرم

الإنسان على غيره ويكتسب بها الشرف عند الله تعالى فقال: ﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾ قيل: أكرم الكرم التقوى، وألأم اللؤم الفجور.

وقال ابن عباس: كرم الدنيا الغنى وكرم الآخرة التقوى.

عن سمرة بن جندب قال: قال رسول الله ﷺ «الحسب المال والكرم التقوى» أخرجه الترمذي وقال حديث حسن غريب (ق). عن أبي هريرة قال: «سئل رسول الله ﷺ أي الناس أكرم؟ قال أكرمهم عند الله أتقاهم قالوا ليس عن هذا نسألك قال فأكرم الناس يوسف نبي الله ابن نبي الله ابن نبي الله ابن خليل الله قالوا ليس عن هذا نسألك قال فعن معادن العرب تسألون؟ قالوا نعم قال فخيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا» فقهوا بضم القاف على المشهور وحكي كسرها ومعناه إذا تعلموا أحكام الشرع عن ابن عمر أن النبي ﷺ طاف يوم الفتح على راحلته يستلم الأركان بمحجنه فلما خرج لم يجد مناخاً فنزل على أيدي الرجال ثم قام فخطبهم فحمد الله وأثنى عليه وقال: الحمد لله الذي أذهب عنكم غبية الجاهلية وتكبرها يا أيها الناس إن الناس رجلان بر تقي كريم على الله وفاجر شقي هين على الله ثم تلا يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ثم قال أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم» والمحجن عصا محنية الرأس كصولجان وقوله غبية الجاهلية يعني كبرها وفخرها ﴿إن الله عليم﴾ أي بظواهركم ويعلم أنسابكم ﴿خبير﴾ أي ببواطنكم لا تخفى عليه أسراركم فاجعلوا التقوى زادكم إلى معادكم قيل: التقي هو العالم بالله المواظب على الوقوف ببابه المتقرب إلى جنابه. وقيل: حد التقوى أن يجتنب العبد المناهي ويأتي بالأوامر والفضائل ولا يغتر ولا يأمن فإن اتفق أن يرتكب منهياً لا يأمن ولا يتكل بل يتبعه بحسنة ويظهر عليه توبة وندامة ومن ارتكب منهياً ولم يتب في الحال واتكل على المهلة وغره طول الأمل فليس بمتق لأن المتقي لم يترك ما أمر به ويترك ما نهي عنه وهو مع ذلك خاش لله خائف منه لا يشتغل بغير الله تعالى فإن التفت لحظة إلى نفسه وأهله وولده جعل ذلك ذنباً واستغفر منه وجدد له توبة جعلنا الله وإياكم من المتقين.

التقوى»، قال ابن عباس: كرم الدنيا الغنى، وكرم الآخرة التقوى. أخبرنا أبو بكر بن أبي الهيثم أنا عبد الله بن أحمد بن حمويه أنا إبراهيم بن خزيم ثنا عبد الله بن حميد أنا الضحاك بن مخلد عن موسى بن عبيدة عن عبد الله بن دينار عن ابن عمر أن النبي ﷺ طاف يوم الفتح على راحلته يستلم الأركان بمحجّته، فلما خرج لم يجد مَناخاً، فنزل على أيدي الرجال، ثم قام فخطبهم فحمد الله وأثنى عليه، وقال: «الحمد لله الذي أذهب عنكم غبية الجاهلية وتكبّرها بآبائها، إنما الناس رجلان بَرٌّ تقي كريم على الله، وفاجرٌ شقي هيِّن على الله، ثم تلا ﴿ يا أيها الناس إنّا خلقناكم من ذَكرٍ وأُنثى ﴾، ثم قال: أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم»، أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا محمد هو ابن سلام ثنا عبدة عن عبيد الله عن سعيد بن أبي سعيد عن أبي هريرة قال: سُئِل رسول الله ﷺ أيّ الناس أكرم؟ قال: «أكرمهم عند الله أتقاهم»، قالوا: ليس عن هذا نسألك، قال: «فأكرم الناس يوسف نبيّ الله ابن نبيّ الله ابن نبي الله ابن خليل الله». قالوا: ليس عن هذا نسألك، قال: «فعن معادن العرب تسألوني»؟ قالوا: نعم، قال: «فخيّاركم في الجاهلية خيّاركم في الإسلام إذا فقهوا». أخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر أنا عبد الغافر بن محمد أنا محمد بن عيسى الجلودي ثنا إبراهيم بن محمد بن سفيان ثنا مسلم بن الحجّاج ثنا عمرو الناقد ثنا كثير بن هشام ثنا جعفر بن برقان عن يزيد بن الأصم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم».

﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَـٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَـٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَـٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قالت الأعراب آمنا﴾ الآية نزلت في نفر من بني أسد بن خزيمة قدموا على رسول الله ﷺ في سنة مجدبة فأظهروا الإسلام، ولم يكونوا مؤمنين في السر، فأفسدوا طرق المدينة بالقذرات وأغلوا أسعارها وكانوا يغدون ويروحون إلى رسول الله ﷺ. ويقولون: أتتك العرب أنفسهم على ظهور رواحلها وجئناك بالأثقال والعيال والذراري ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان وبنو فلان، يمنون على رسول الله ﷺ بذلك ويريدون الصدقة، ويقولون: أعطنا فأنزل الله فيهم هذه الآية.

وقيل: نزلت في الأعراب الذين ذكرهم الله في سورة الفتح وهم جهينة ومزينة وأسلم وأشجع وغفار كانوا يقولون آمنا ليأمنوا على أنفسهم وأموالهم فلما استنفروا للحديبية تخلفوا عنها فأنزل الله عز وجل قالت الأعراب آمنا أي صدقنا ﴿قل لم تؤمنوا﴾ أي لم تصدقوا بقلوبكم ﴿ولكن قولوا أسلمنا﴾ أي استسلمنا وانقدنا مخافة القتل والسبي ﴿ولما يدخل الإيمان في قلوبكم﴾ أخبر أن حقيقة الإيمان هو التصديق بالقلب وأن الإقرار باللسان وإظهار شرائعه بالأبدان لا يكون إيماناً دون التصديق بالقلب والإخلاص. (ق) عن سعد بن أبي وقاص قال: «أعطى رسول الله ﷺ رهطاً وأنا جالس فترك رسول الله ﷺ رجلاً منهم هو أعجبهم إليّ فقلت ما لك عن فلان والله إني لأراه مؤمناً فقال رسول الله ﷺ أو مسلماً ذكر ذلك سعد ثلاثاً وأجابه بمثل ذلك ثم قال إني لأعطي الرجل وغيره أحب إلي منه خشية أن يكب في النار على وجهه». زاد في رواية قال الزهري: «فترى أن الإسلام الكلمة والإيمان العمل الصالح» لفظ الحميدي اعلم أن الإسلام هو الدخول في السلم وهو الانقياد والطاعة فمن الإسلام ما هو طاعة على الحقيقة باللسان والأبدان والجنان لقوله لإبراهيم عليه السلام: «أسلم قال أسلمت لرب العالمين» ومنه ما هو انقياد باللسان والقلب وذلك قوله: ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم.» وقيل: الإيمان هو التصديق بالقلب مع الثقة وطمأنينة النفس عليه والإسلام هو الدخول في السلم والخروج من أن يكون حرباً للمسلمين مع إظهار الشهادتين.

قوله تعالى: ﴿ قالت الأعراب آمنّا ﴾، الآية نزلت في نفر من بني أسد بن خزيمة قَدِموا على رسول الله ﷺ في سنة جدبة فأظهروا الإسلام ولم يكونوا مؤمنين في السرّ، فأفسدوا طرق المدينة بالقذرات وأغلوا أسعارها وكانوا يغدون ويروحون إلى رسول الله ﷺ ويقولون: أتتك العرب بأنفسها على ظهور رواحلها، وجئناك بالأثقال والعيال والذراري، ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان وبنو فلان، يمنّون على النبي ﷺ، ويريدون الصدقة، ويقولون أعطنا، فأنزل الله فيهم هذه الآية. وقال السدي: نزلت في الأعراب الذين ذكرهم الله في سورة الفتح، وهم أعراب من جهينة ومزينة وأسلم وأشجع وغفار، كانوا يقولون: آمنّا ليأمنوا على أنفسهم وأموالهم، فلما استنفروا إلى الحديبية تخلّفوا، فأنزل الله عزّ وجلّ هذه الآية فيهم، ﴿ قالتِ الأعراب آمنّا ﴾ صدقنا، ﴿ قلْ لم تُؤمنوا ولكن قولوا أسْلمنا ﴾، انقدنا واستسلمنا مخافة القتل والسبي، ﴿ ولمّا يدخلِ الإيمان في قلوبكم ﴾، فأخبر أن حقيقة الإيمان التصديق بالقلب، وأن الإقرار باللسان وإظهار شرائعه بالأبدان لا يكون إيماناً دون التصديق بالقلب والإخلاص، أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا محمد بن غرير الزهري ثنا يعقوب بن إبراهيم عن أبيه عن صالح عن ابن شهاب أخبرني عامر بن سعد عن أبيه قال أعطى رسول الله ﷺ رهطاً وأنا جالس فيهم، قال: فترك رسول الله ﷺ فيهم رجلاً لم يعطه وهو أعجبهم إليّ، فقمت إلى رسول الله ﷺ فساررته، فقلت: ما لك عن فلان والله إني لأراه مؤمناً، قال أو مسلماً، قال: فسكت قليلاً ثم غلبني

فإن قلت: المؤمن والمسلم واحد عند أهل السنة فكيف يفهم ذلك مع هذا القول.

قلت بين العام والخاص فرق فالإيمان لا يحصل إلا بالقلب والانقياد قد يحصل بالقلب وقد يحصل باللسان فالإسلام أعم والإيمان أخص لكن العام في صورة الخاص متحد مع الخاص ولا يكون أمراً غيره فالعام والخاص مختلفان في العموم والخصوص متحدان في الوجود فذلك المؤمن والمسلم.

وقوله تعالى: ﴿وإن تطيعوا الله ورسوله﴾ أي ظاهراً وباطناً سراً وعلانية وقال ابن عباس تخلصوا له الإيمان ﴿لا يلتكم﴾ أي لا ينقصكم ﴿من أعمالكم شيئاً﴾ أي من ثواب أعمالكم ﴿إن الله غفور رحيم﴾ ثم بين حقيقة الإيمان فقال تعالى:

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾﴾

﴿إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا﴾ أي لم يشكوا في دينهم ﴿وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون﴾ أي في إيمانهم ولما نزلت هاتان الآيتان أتت الأعراب رسول الله ﷺ يحلفون بالله إنهم مؤمنون صادقون وعرف الله منهم غير ذلك فأنزل الله عز وجل: ﴿قل أتعلمون الله بدينكم﴾ أي تخبرون الله بدينكم الذي أنتم عليه ﴿والله يعلم ما في السموات وما في الأرض﴾ أي لا تخفى عليه خافية ﴿والله بكل شيء عليم﴾ أي لا يحتاج إلى إخباركم ﴿يمنون عليك أن أسلموا﴾ هو قولهم أسلمنا ولم نحاربك يمنون بذلك على رسول الله ﷺ

ما أعلم منه، فقلت: يا رسول الله ما لك عن فلان فوالله إني لأراه مؤمناً قال أو مسلماً، فسكتُّ قليلاً، ثم غلبني ما أعلم منه، فقلت: يا رسول الله ما لك عن فلان فواللَّهِ إني لأراه مؤمناً قال أو مسلماً، قال: «إني لأعطي الرجلَ وغيرُه أحبّ إليّ منه خشية أن يُكبّ في النار على وجهه، فالإسلام هو الدخول في السلم وهو الانقياد والطاعة»، يقال: أسلم الرجل إذا دخل في السلم كما يقال: أشتى الرجل إذا دخل في الشتاء، وأصاف إذا دخل في الصيف، وأربع إذا دخل في الربيع، فمن الإسلام ما هو في طاعة على الحقيقة باللسان، والأبدان والجنان، كقوله عزّ وجلّ لإبراهيم عليه السلام: ﴿ أسلمْ قال أسلمتُ لربّ العالمين ﴾ [البقرة: ١٣١]، ومنه ما هو انقياد باللسان دون القلب، وذلك قوله: ﴿ ولكن قولوا أسلمنا ولمّا يدخلِ الإيمان في قلوبكم ﴾، ﴿ وإن تطيعوا الله ورسوله ﴾، ظاهراً وباطناً وسرّاً وعلانية. قال ابن عباس تخلصوا الإيمان، ﴿ لا يلتكم ﴾ قرأ أبو عمرو (يا لتكم) بالألف كقوله تعالى: ﴿ وما ألتناهم ﴾ [الطور: ٢١]، والآخرون بغير ألف وهما لغتان معناهما لا ينقصكم، يقال: ألت يألت التاً ولات يليت ليتاً إذا نقص، ﴿ من أعمالكم شيئاً ﴾، أي لا ينقص من ثواب أعمالكم شيئاً، ﴿ إن الله غفور رحيم ﴾، ثم بيّن حقيقة الإيمان.

فقال: ﴿ إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا ﴾، لم يشكّوا في دينهم، ﴿ وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون ﴾، في إيمانهم فلما نزلت هاتان الآيتان أتت الأعراب رسول الله ﷺ يحلفون بالله إنهم مؤمنون صادقون، وعرف الله غير ذلك منهم.

فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿ قلْ أتعلّمون الله بدينكم ﴾، والتعليم ههنا بمعنى الإعلام، ولذلك قال بدينكم وأدخل

فبين بذلك أن إسلامهم لم يكن خالصاً ﴿**قل لا تمنوا على إسلامكم**﴾ أي لا تعتدوا عليّ بإسلامكم ﴿**بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان**﴾ أي لله المنة عليكم أن أرشدكم وأمدكم بتوفيقه حيث هداكم للإيمان على ما زعمتم وادعيتم وهو قوله تعالى: ﴿**إن كنتم صادقين**﴾ أي إنكم مؤمنون ﴿**إن الله يعلم غيب السموات والأرض**﴾ أي إنه سبحانه وتعالى لا يخفى عليه شيء في السموات والأرض فكيف يخفى عليه حالكم بل يعلم سركم وعلانيتكم ﴿**والله بصير بما تعملون**﴾ أي بجوارحكم الظاهرة والباطنة والله سبحانه وتعالى أعلم.

الباء فيه، يقول أتخبرون الله بدينكم الذي أنتم عليه، ﴿ **والله يعلم ما في السمٰوات وما في الأرض والله بكل شيء عليم** ﴾، أي يحتاج إلى أخباركم.

﴿ **يمنّون عليك أن أسلموا قلْ لا تمنّوا عليّ إسلامكم** ﴾، أي بإسلامكم، ﴿ **بل الله يمنّ عليكم أن هداكم للإيمان** ﴾، وفي مصحف عبد الله ﴿ **إذْ هداكم للإيمان** ﴾ ﴿ **إن كنتم صادقين** ﴾، إنكم مؤمنون.

﴿ **إنّ الله يعلم غيب السمٰوات والأرض والله بصير بما تعملون** ﴾، قرأ ابن كثير بالياء وقرأ الآخرون بالياء.

سورة ق

(مكية وهي خمس وأربعون آية وثلاثمائة وسبع وخمسون كلمة وألف وأربعمائة وأربعة وتسعون حرفاً).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ﴿١﴾ بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ﴿٣﴾ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ ﴿٤﴾

قوله عز وجل: ﴿ق﴾ قال ابن عباس: هو قسم وقيل: هو اسم للسورة وقيل اسم من أسماء الله وقيل اسم من أسماء القرآن وقيل هو مفتاح اسمه القدير والقادر والقاهر والقريب والقابض والقدوس والقيوم. وقيل: معناه قضى الأمر أو قضى ما هو كائن. وقيل: هو جبل محيط بالأرض من زمردة خضراء متصلة عروقه بالصخرة التي عليها الأرض والسماء كهيئة القبة وعليه كتفاها وخضرة السماء منه والعالم داخله ولا يعلم ما وراءه إلا الله تعالى ويقال هو من وراء الحجاب الذي تغيب الشمس من ورائه بمسيرة سنة ﴿والقرآن المجيد﴾ أي الشريف الكريم على الله الكثير الخير والبركة واختلفوا في وجواب القسم قيل جوابه محذوف تقديره لتبعثن وقيل جوابه بل عجبوا وقيل ما يلفظ من قول وقيل قد علمنا ومعنى ﴿بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم﴾ إنكار لتعجبهم مما ليس بعجب وهو أن يخوفهم رجل

سُوْرَة ق

مكيّة وهي خمس وأربعون آية.

﴿ ق ﴾ قال ابن عباس: هو قسم، وقيل: هو اسم للسورة، وقيل: هو اسم من أسماء القرآن. وقال القرظي: هو مفتاح اسمه القدير، والقادر والقاهر والقريب والقابض، وقال عكرمة والضحاك: هو جبل محيط بالأرض من زمرّدة خضراء، منه خضرة السماء والسماء مقبيّة وعليه كتفاها، ويقال هو وراء الحجاب الذي تغيب الشمس من ورائه بمسيرة سنة، وقيل: معناه قضي الأمر أو قضي ما هو كائن كما قالوا في حَم [السجدة: ١] ﴿والقرآن المجيد﴾، الشريف الكريم على الله الكثير الخير واختلفوا في جواب هذا القسم، فقال أهل الكوفة جوابه بل عجبوا وقيل جوابه محذوف، مجازه: والقرآن المجيد لتبعثنّ. وقيل: جوابه قوله ما يلفظ من قول. وقيل: قد علمنا، وجوابات القسم سبعة أن الشديدة كقوله: ﴿ والفجر وليالٍ عشر ﴾ [الفجر: ١] ﴿ إنّ ربّك لبالمرصاد ﴾ [الفجر: ١٤] وما النفي كقوله: ﴿ والضحى ما ودّعك ربك ﴾ [الضحى: ١ و٣]، واللام المفتوحة كقوله: ﴿ فوربّك لنسألنّهم أجمعين ﴾ [الحجر: ٩٢] وإن الخفيفة كقوله تعالى: ﴿ إنْ كنّا لفي ضلال مبين ﴾ [الشعراء: ٩٧] ولا كقوله: ﴿ وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله مَن يموت ﴾ [النحل: ٣٨]، وقد كقوله تعالى: ﴿ والشمس وضحاها قد أفلح مَن زكّاها ﴾ [الشمس: ١ و٩]، وبل كقوله: ﴿ والقرآن المجيد ﴾.

منهم قد عرفوا وساطته فيهم وعدالته وأمانته وصدقه ﴿فقال الكافرون هذا شيء عجيب﴾ أي معجب غريب ﴿أئذا متنا وكنا تراباً﴾ أي حين نموت ونبلى نبعث وترك ذكر البعث لدلالة الكلام عليه ﴿ذلك رجع بعيد﴾ أي يبعد أن نبعث بعد الموت قال الله تعالى: ﴿قد علمنا ما تنقص الأرض منهم﴾ أي ما تأكل الأرض من لحومهم ودمائهم وعظامهم لا يعزب عن علمنا شيء ﴿وعندنا﴾ أي مع علمنا بذلك ﴿كتاب حفيظ﴾ بمعنى محفوظ أي من التبديل والتغيير وقيل حفيظ بمعنى حافظ أي حافظ لعددهم وأسمائهم ولما تنقص الأرض منهم وهو اللوح المحفوظ وقد أثبت فيه ما يكون.

بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴿٥﴾ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا
وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ
عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ
نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴿١١﴾

﴿بل كذبوا بالحق﴾ أي بالقرآن ﴿لما جاءهم﴾ قيل: معناه كذبوا به لما جاءهم. وقيل: كذبوا المنذر لما جاءهم ﴿فهم في أمر مريج﴾ أي مختلط ملتبس قيل معنى اختلاط أمرهم قولهم للنبي ﷺ مرة شاعر ومرة ساحر ومرة معلم مجنون ويقولون في القرآن مرة سحر ومرة رجز ومرة مفتري فكان أمرهم مختلطاً ملتبساً عليهم وقيل في هذه الآية من ترك الحق مرج عليه أمره والتبس عليه دينه وقيل ما ترك قوم الحق إلا مرج عليهم أمرهم؛ ثم دلهم على عظيم قدرته فقال تعالى: ﴿أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها﴾ أي: بغير عمد ﴿وزيناها﴾ أي بالكواكب ﴿وما لها من

﴿ بل عجبوا أن جاءهم منذر ﴾، مخوّف، ﴿ منهم ﴾، يعرفون نسبه وصدقه وأمانته، ﴿ فقال الكافرون هذا شيء عجيب ﴾، غريب.

﴿ أئذا متنا وكنّا تراباً ﴾، نبعث ترك ذكر البعث لدلالة الكلام عليه، ﴿ ذلك رجع ﴾، أي ردّ إلى الحياة ﴿ بعيد ﴾، وغير كائن أي يبعد أن نُبعث بعد الموت.

قال الله عزّ وجلّ: ﴿ قد علمنا ما تنقص الأرض منهم ﴾، أي ما تأكل من لحومهم ودمائهم وعظامهم لا يعزب عن علمه شيء. قال السدي: هو الموت، يقول: قد علمنا مَن يموت منهم ومَن يبقى، ﴿ وعندنا كتاب حفيظ ﴾، محفوظ من الشياطين ومن أن يُدسّ ويتغيّر، وقيل: حفيظ أي حافظ لعدّتهم وأسمائهم.

﴿ بل كذّبوا بالحق ﴾، بالقرآن، ﴿ لمّا جاءهم فهم في أمر مريج ﴾، مختلط، قال سعيد بن جبير ومجاهد: ملتبس. قال قتادة: في هذه الآية مَن ترك الحق مرج عليه أمره والتبس عليه دينه. وقال الحسن: ما ترك قوم الحق إلّا مرج أمرهم. وذكر الزجّاج معنى اختلاط أمرهم، فقال: هو أنهم يقولون للنبي ﷺ، مرة شاعر، ومرة ساحر، ومرة معلّم، ويقولون للقرآن مرة سحر، ومرة رجز، ومرة مُفترى، فكان أمرهم مختلطاً ملتبساً عليهم، ثم دلّهم على قدرته.

فقال: ﴿ أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها ﴾، بغير عمد، ﴿ وزيّنّاها ﴾، بالكواكب، ﴿ وما لها من فروج ﴾، شقوق وفتوق وصدوع واحدها فرج.

﴿ والأرضَ مددناها ﴾، بسطناها على وجه الماء، ﴿ وألقينا فيها رواسي ﴾، جبالاً ثوابت، ﴿ وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج ﴾، حسن كريم يبهج به، أي يسرّ بنظره.

﴿فروج﴾ أي: شقوق وصدوع ﴿والأرض مددناها﴾ أي بسطناها على وجه الماء ﴿وألقينا فيها رواسي﴾ أي: جبالاً ثوابت ﴿وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج﴾ أي: من كل صنف حسن كريم يبتهج به أي: يسر به ﴿تبصرة﴾ أي جعلنا ذلك تبصرة ﴿وذكرى﴾ أي تذكرة ﴿لكل عبد منيب﴾ أي: راجع إلى الله تعالى والمعنى ليتبصر ويتذكر به من أناب ﴿ونزلنا من السماء ماء مباركاً﴾ أي كثير الخير والبركة فيه حياة كل شيء وهو المطر ﴿فأنبتنا به﴾ أي: بذلك الماء ﴿جنات﴾ أي بساتين ﴿وحب الحصيد﴾ يعني البر والشعير وسائر الحبوب التي تحصد ﴿والنخل باسقات﴾ أي: طوالاً وقيل مستويات ﴿لها طلع﴾ أي: ثمر يطلع ويظهر ويسمى طلعاً قبل أن يتشقق ﴿نضيد﴾ أي: متراكب بعضه على بعض في أكمامه فإذا تشقق وخرج من أكمامه فليس بنضيد ﴿رزقاً﴾ أي: جعلنا ذلك رزقاً ﴿للعباد وأحيينا به﴾ أي: بالمطر ﴿بلدة ميتاً﴾ فأنبتنا فيها الكلأ والعشب ﴿كذلك الخروج﴾ أي: من القبور أحياء بعد الموت. قوله تعالى:

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾

﴿كذبت قبلهم قوم نوح وأصحاب الرأس وثمود وعاد وفرعون وإخوان لوط وأصحاب الأيكة﴾ قيل: كان لوط مرسلاً إلى طائفة من قوم إبراهيم ولذلك قال إخوان لوط ﴿وقوم تبع﴾ هو أبو كرب أسعد تبع الحميري وقد تقدم قصص جمعهم قيل ذم الله عز وجل قوم تبع ولم يذمه وذم فرعون لأنه هو المكذب المستخف لقومه فلهذا خص بالذكر دونهم ﴿كل كذب الرسل فحق وعيد﴾ أي: كل هؤلاء المذكورين كذبوا رسلهم فحق وعيدي أي وجب لهم عذابي

﴿ تبصرة ﴾، أي جعلنا ذلك تبصرة، ﴿ وذكرى ﴾، أي تبصيراً وتذكيراً، ﴿ لكل عبدٍ مُنيب ﴾، أي ليبصروا به ويتذكّر به.

﴿ ونزلنا من السماء ماءً مباركاً ﴾، كثير الخير وفيه حياة كل شيء وهو المطر، ﴿ فأنبتنا به جنّات وحبَّ الحصيد ﴾، يعني البرّ والشعير وسائر الحبوب التي تُحصَد فأضاف الحبّ إلى الحصيد، وهما واحد لاختلاف اللفظين، كما يقال: مسجد الجامع وربيع الأول. وقيل: حبّ الحصيد أي وحبّ النبت الحصيد.

﴿ والنخل باسقات ﴾، قال مجاهد وعكرمة وقتادة: طوالاً، يقال: بسقت النخلة بُسوقاً إذا طالت. وقال سعيد بن جبير: مستويات. ﴿ لها طلع ﴾ ثمر وحمل، سُمّي بذلك لأنه يطلع، والطلع أول ما يظهر قبل أن ينشقّ، ﴿ نضيد ﴾، متراكب متراكم منضود بعضه على بعض في أكمامه، فإذا خرج من أكمامه فليس بنضيد.

﴿ رزقاً للعباد ﴾، أي جعلناها رزقاً للعباد، ﴿ وأحيينا به ﴾، أي بالمطر، ﴿بلدة ميتاً﴾، أنبتنا فيها الكلأ، ﴿ كذلك الخروج ﴾، من القبور.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ كذّبتْ قبلهم قَومُ نوح وأصحابُ الرّس وثمود * وعادٌ وفرعونُ وإخوانُ لوط * وأصحابُ الأيكة وقومُ تُبّع ﴾، وهو تُبّع الحميري، واسمه أسعد أبو كرب، قال قتادة: ذمّ الله قومه ولم يذمّه، ذكرنا قصته في سورة الدخان. ﴿ كلٌّ كذّب الرسل ﴾، أي كلٌّ من هؤلاء المذكورين كذّب الرّسل، ﴿ فحقّ وعيد ﴾، وجب لهم عذابي ثم أنزل جواباً لقولهم ذلك رجع بعيد.

وقيل فحق وعيدي للرسل بالنصر ﴿**أفعيينا بالخلق الأول**﴾ هذا جواب لقولهم ذلك رجع بعيد والمعنى أعجزنا حين خلقناهم أولاً فنعيا بالإعادة ثانياً وذلك لأنهم اعترفوا بالخلق الأول وأنكروا البعث ﴿**بل هم في لبس**﴾ أي شك ﴿**من خلق جديد**﴾ وهو البعث.

قوله عز وجل: ﴿**ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه**﴾ أي ما يحدث به قلبه فلا تخفى علينا سرائره وضمائره ﴿**ونحن أقرب إليه من حبل الوريد**﴾ بيان لكمال علمه أي نحن أعلم به منه والوليد العرق الذي يجري فيه الدم ويصل إلى كل جزء من أجزاء البدن وهو بين الحلقوم والعلباوين ومعنى الآية أن أجزاء الإنسان وأبعاضه يحجب بعضها بعضاً ولا يحجب عن علم الله شيء. وقيل: يحتمل أن يكون المعنى ونحن أقرب إليه بنفوذ قدرتنا فيه ويجري فيه أمرنا كما يجري الدم في عروقه ﴿**إذ يتلقى المتلقيان**﴾ أي يتلقن الملكان الموكلان به وبعمله ومنطقه فيكتبانه ويحفظانه عليه ﴿**عن اليمين وعن الشمال**﴾ يعني أن أحدهما عن يمينه والآخر عن شماله فصاحب اليمين يكتب الحسنات وصاحب الشمال يكتب السيئات ﴿**قعيد**﴾ أي قاعد وكل واحد منهما قعيد فاكتفى بذكر أحدهما عن الآخر. وقيل: أراد بالقعيد الملازم الذي لا يبرح ﴿**ما يلفظ من قول**﴾ أي ما يتكلم من كلام يخرج من فيه ﴿**إلا لديه رقيب**﴾ أي حافظ ﴿**عتيد**﴾ أي حاضر أينما كان سوى وقت الغائط وعند جماعة فإنهما يتأخران عنه فلا يجوز للإنسان أن يتكلم في هاتين الحالتين حتى لا يؤذي الملائكة بدنوهما منه وهو على تلك الحالة حتى يكتبا ما يتكلم به أنهما يكتبان عليه كل شيء يتكلم به حتى أنيته في مرضه وقيل لا يكتبان إلا ما له أجر وثواب أو عليه وزر وعقاب. وقيل: إن مجلسهما

﴿ **أفعيينا بالخلق الأول** ﴾، يعني أعجزنا حين خلقناهم أولاً فنعيا بالإعادة وهذا تقرير لهم لأنهم اعترفوا بالخلق الأول وأنكروا البعث، ويقال لكل مَن عجز عن شيء عيي به. ﴿ **بل هم في لَبْس** ﴾، أي في شكٍّ، ﴿ **من خلق جديد** ﴾، وهو البعث.

﴿ **ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه** ﴾، يحدّث به قلبه فلا يخفى علينا سرائره وضمائره، ﴿ **ونحن أقرب إليه** ﴾، أعلم به، ﴿ **من حبل الوريد** ﴾، لأن أبعاضه وأجزاءه يحجب بعضها بعضاً، ولا يحجب علم الله شيء وحبل الوريد عرق العنق، وهو عرق بين الحلقوم والعلباوين، يتفرّق في سائر البدن، والحبل هو الوريد، فأضيف إلى نفسه لاختلاف اللفظين.

﴿ **إذ يتلقى المتلقيان** ﴾، إذ يتلقى ويأخذ الملكان الموكلان بالإنسان عمله ومنطقه يحفظانه ويكتبانه، ﴿ **عن اليمين وعن الشمال** ﴾، أي أحدهما عن يمينه والآخر عن شماله، فالذي عن اليمين يكتب الحسنات، والذي عن الشمال يكتب السيئات. ﴿ **قعيد** ﴾، أي قاعد، ولم يقل قعيدان لأنه أراد عن اليمين قعيد وعن الشمال قعيد، فاكتفى بأحدهما عن الآخر، هذا قول أهل البصرة، وقال أهل الكوفة: أراد قعوداً كالرسول يجعل للاثنين والجمع، كما قال الله تعالى في الاثنين: ﴿ فقولا إنّا رسول ربِّ العالمين ﴾ [الشعراء: ١٦]، قيل: أراد بالقعيد الملازم الذي لا يبرح، لا القاعد الذي هو ضدّ القائم. قال مجاهد: القعيد الرصيد.

﴿ **ما يلفظ من قول** ﴾، ما يتكلم من كلام فيلفظه أي يرميه من فِيْه، ﴿ **إلّا لديه رقيب** ﴾، حافظ، ﴿ **عتيد** ﴾، حاضر أينما كان. قال الحسن: إن الملائكة يجتنبون الإنسان على حالين عند غائطه وعند جماعه. وقال مجاهد يكتبان عليه حتى أنينه في مرضه. وقال عكرمة: لا يكتبان إلّا ما يؤجر عليه أو يؤزر فيه. وقال الضحاك: مجلسهما تحت الشعر على الحنك، ومثله عن الحسن، وكان الحسن يعجبه أن ينظف عنفقته. أخبرنا أبو سعيد الشريحي أنا أبو إسحاق الثعلبي أنا الحسين بن محمد بن الحسين الدينوري ثنا إسماعيل بن جعفر بن حمدان ثنا الفضل بن

تحت الشعر على الحنك وكان الحسن البصري يعجبه أن ينظف عنفقته روى البغوي بإسناد الثعلبي. عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ كاتب الحسنات أمين على كاتب السيئات فإذا عمل حسنة كتبها صاحب اليمين عشراً وإذا عمل سيئة قال صاحب اليمين لصاحب الشمال دعه سبع ساعات لعله يسبح أو يستغفر. قوله تعالى:

﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾ وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾﴾

﴿وجاءت سكرة الموت﴾ أي غمرته وشدته التي تغشى الإنسان وتغلب على عقله ﴿بالحق﴾ أي بحقيقة الموت وقيل بالحق من أمر الآخرة حتى يتبينه الإنسان ويراه بالعيان وقيل بما يؤول إليه أمر الإنسان من السعادة والشقاوة ﴿ذلك ما كنت منه تحيد﴾ أي يقال لمن جاءته سكرة الموت: ذلك الذي كنت عنه تميل. وقيل: تهرب وقال ابن عباس: تكره ﴿ونفخ في الصور﴾ يعني نفخة البعث ﴿ذلك يوم الوعيد﴾ أي ذلك اليوم الذي وعد الله الكفار أن يعذبهم فيه ﴿وجاءت﴾ أي في ذلك اليوم ﴿كل نفس معها سائق﴾ أي يسوقها إلى المحشر ﴿وشهيد﴾ أي يشهد عليها بما

عباس بن مهران ثنا طالوت ثنا حمّاد بن سلمة أنا جعفر بن الزبير عن القاسم بن محمد عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «كاتب الحسنات على يمين الرجل، وكاتب السيئات على يسار الرجل، وكاتب الحسنات أمير على كاتب السيئات، فإذا عمل حسنة كتبها صاحب اليمين عشراً، وإذا عمل سيئة قال صاحب اليمين لصاحب الشمال: دعه سبع ساعات لعلّه يسبّح أو يستغفر».

﴿ وجاءت سكرة الموت ﴾، غمرته وشدّته التي تغشى الإنسان وتغلب على عقله، ﴿ بالحق ﴾، أي بحقيقة الموت، وقيل: بالحق من أمر الآخرة حتى يتبيّنه الإنسان ويراه بالعيان. وقيل: بما يؤل إليه أمر الإنسان من السعادة والشقاوة. ويقال: لمَن جاءته سكرة الموت، ﴿ ذلك ما كنت منه تحيد ﴾، تميل، قال الحسن: تهرب. قال ابن عباس: تكره، وأصل الحيد الميل، يقال: حدتُ عن الشيء أحيد حيداً ومحيداً إذا ملت عنه.

﴿ ونفخ في الصور ﴾، يعني نفخة البعث، ﴿ ذلك يوم الوعيد ﴾، أي ذلك اليوم يوم الوعيد الذي وعده الله للكفّار أن يعذّبهم فيه. قال مقاتل: يعني بالوعيد العذاب أي يوم وقوع الوعيد.

﴿ وجاءت ﴾، ذلك اليوم، ﴿ كلّ نفس معها سائق ﴾، يسوقها إلى المحشر، ﴿ وشهيد ﴾، يشهد عليها بما عملت، وهو عمله، قال الضحاك: السائق من الملائكة والشاهد من أنفسهم الأيدِ والأرجل، وهي رواية العوفي عن ابن عباس. وقال الآخرون: هما جميعاً من الملائكة.

فيقول الله لها: ﴿ لقد كنت في غفلة من هذا ﴾، اليوم في الدنيا، ﴿ فكشفنا عنك غطاءك ﴾، الذي كان في الدنيا على قلبك وسمعك وبصرك، ﴿ فبصرك اليوم حديد ﴾، نافذ تبصر ما كنت تنكر في الدنيا. ورُوِيَ عن مجاهد قال: يعني نظرك إلى لسان ميزانك حين توزن حسناتك وسيئاتك.

﴿ وقال قرينه ﴾، الملك الموكل به، ﴿ هذا ما لديّ عتيد ﴾، معد محضر، وقيل: ﴿ ما ﴾ بمعنى (من)، وقال مجاهد: يقول هذا الذي وكّلتني به من ابن آدم حاضر عندي قد أحضرته وأحضرت ديوان أعماله.

فيقول الله عزّ وجلّ لقرينه: ﴿ ألقيا في جهنم ﴾، هذا خطاب للواحد بلفظ التثنية على عادة العرب، يقولون:

عملت. قال ابن عباس: السائق من الملائكة والشاهد من أنفسهم الأيدي والأرجل فيقول الله تعالى لصاحب تلك النفس ﴿لقد كنت في غفلة من هذا﴾ أي من هذا اليوم في الدنيا ﴿فكشفنا عنك غطاءك﴾ أي الذي كان على قلبك وسمعك وبصرك في الدنيا ﴿فبصرك اليوم حديد﴾ أي قوي ثابت نافذ تبصر ما كنت تتكلم به في الدنيا. وقيل: ترى ما كان محجوباً عنك وقيل نظرك إلى لسان ميزانك حين توزن حسناتك وسيئاتك ﴿وقال قرينه﴾ يعني الملك الموكل به ﴿هذا ما لدي﴾ أي عندي ﴿عتيد﴾ أي معد محضر. وقيل: يقول الملك هذا الذي وكلتني به من بني آدم قد أحضرته وأحضرت ديوان عمله ﴿ألقيا في جهنم﴾ أي يقول الله تعالى لقرينه وقيل هذا أمر للسائق والشهيد ﴿كل كفار﴾ أي شديد الكفر ﴿عتيد﴾ أي عاص معرض عن الحق معاند لله فيما أمره به.

﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ ۞قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾﴾

﴿مناع للخير﴾ أي للزكاة المفروضة وكل حق وجب عليه في ماله ﴿معتد﴾ أي ظالم لا يقر بتوحيد الله ﴿مريب﴾ أي: شاكّ في التوحيد ﴿الذي جعل مع الله إلهاً آخر فألقياه في العذاب الشديد﴾ يعني النار ﴿قال قرينه﴾ يعني الشيطان الذي قيض لهذا الكافر ﴿ربنا ما أطغيته﴾ قيل: هذا جواب لكلام مقدر وهو أن الكافر حين يلقى في النار يقول: ربنا أطغاني شيطاني فيقول الشيطان ربنا ما أطغيته أي ما أضللته وما أغويته ﴿ولكن كان في ضلال بعيد﴾ أي عن الحق فيتبرأ منه شيطانه وقال ابن عباس: قرينه يعني الملك يقول الكافر ربّ إن الملك زاد عليّ في الكتابة فيقول الملك ربنا ما أطغيته أي ما زدت عليه وما كتبت إلا ما قال وعمل ولكن كان في ضلال بعيد أي طويل لا يرجع عنه إلى الحق ﴿قال﴾ الله تعالى: ﴿لا تختصموا لدي﴾ أي لا تعتذروا عندي بغير عذر وقيل هو خصامهم مع قرنائهم ﴿وقد

ويلك ارحلاها وازجراها وخذاها وأطلقاها، للواحد، قال الفرّاء: وأصل ذلك أن أدنى أعوان الرجل في إبله وغنمه وسفره اثنان، فجرى كلام الواحد على صاحبه، ومنه قولهم في الشعر للواحد خليليّ. وقال الزجّاج: هذا أمر للسائق والشهيد، وقيل: للمتلقيين. ﴿ كلّ كفّار عنيد ﴾، عاصٍ مُعرِض عن الحق. قال عكرمة ومجاهد: مُجانب للحق مُعاند لله.

﴿ منّاع للخير ﴾، أي للزكاة المفروضة وكل حق وجب في ماله، ﴿ معتدٍ ﴾، ظالم لا يقرّ بتوحيد الله، ﴿ مريب ﴾، شاكٍّ في التوحيد، ومعناه: داخل في الريب.

﴿ الذي جعل مع الله إلهاً آخر فألقياه في العذاب الشديد ﴾، وهو النار.

﴿ قال قرينه ﴾، يعني الشيطان الذي قيّض لهذا الكافر، ﴿ ربّنا ما أطغيتُه ﴾، ما أضللته وما أغويته، ﴿ ولكن كان في ضلالٍ بعيد ﴾، عن الحق فيتبرأ منه شيطانه، قال ابن عباس وسعيد بن جبير ومقاتل: قال قرينه يعني الملك، قال سعيد بن جبير: يقول الكافر يا ربّ إن الملك زاد عليّ في الكتابة، فيقول الملك: ربّنا ما أطغيتُه، يعني ما زدتُ عليه وما كتبتُ إلاّ ما قال وعمل، ولكن كان في ضلال بعيد، طويل لا يرجع عنه إلى الحق.

﴿ قال ﴾، يعني يقول الله: ﴿ لا تختصموا لديَّ وقدْ قدّمتُ إليكم بالوعيد ﴾، في القرآن وأنذرتكم وحذّرتكم على لسان الرسول، وقضيت عليكم ما أنا قاضٍ.

﴿ ما يُبدّل القول لديّ ﴾، لا تبديل لقولي وهو قوله: ﴿ لأملأنّ جهنم من الجنة والناس أجمعين ﴾

قدمت إليكم بالوعيد﴾ أي بالقرآن وأنذرتكم على ألسن الرسل وحذرتكم عذابي في الآخرة لمن كفر **﴿ما يبدل القول لدي﴾** أي لا تبديل لقولي وهو قوله عز وجل: **﴿لأملأن جهنم﴾** وقضيت عليكم ما أنا قاضٍ فلا يغير قولي ولا يبدل وقيل معناه ولا يكذب عندي ولا يغير القول عن وجهه، لأني علام الغيوب وأعلم كيف ضلوا وهذا القول هو الأولى يدل عليه أنه قال ما يبدل القول لدي ولم يقل ما يبدل قولي **﴿وما أنا بظلام للعبيد﴾** أي: فأعاقبهم بغير جرم. وقيل: معناه فأزيد على إساءة المسيء أو أنقص من إحسان المحسن.

قوله عز وجل: **﴿يوم نقول لجهنم هل امتلأت﴾** بيان لما سبق لها من وعد الله تعالى إياها أنه يملؤها من الجنة والناس وهذا السؤال من الله تعالى لتصديق خبره وتحقيق وعده **﴿وتقول﴾** يعني جهنم **﴿هل من مزيد﴾** يعني تقول قد امتلأت ولم يبق في موضع لم يمتلىء فهو استفهام إنكاري. وقيل: هو بمعنى الاستزادة. وهو رواية عن ابن عباس. فعلى هذا يكون السؤال وهو قوله: هل امتلأت؟ قبل دخول جميع أهلها فيها.

وروي عن ابن عباس: «إن الله تعالى سبقت كلمته لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين فلما سيق أعداء الله إليها لا يلقى فيها فوج إلا ذهب فيها ولا يملؤها شيء فتقول ألست قد أقسمت لتملأني فيضع قدمه عليها فيقول هل امتلأت؟ فتقول قط قط قد امتلأت وليس في مزيد» (ق) عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا تزال جهنم يلقى فيها وتقول هل من مزيد حتى يضع رب العرش ـ وفي رواية رب العزة ـ فيها قدمه فيزوي بعضها إلى بعض وتقول قط قط بعزتك ولا يزال في الجنة فضل حتى ينشىء الله لها خلقاً فيسكنهم فضول الجنة. ولأبي هريرة نحوه وزاد «ولا يظلم الله من خلقه أحداً».

(فصل)

هذا الحديث من مشاهير أحاديث الصفات وللعلماء فيه وفي أمثاله مذهبان:

أحدهما: وهو مذهب جمهور السلف وطائفة من المتكلمين أنه لا يتكلم في تأويلها بل نؤمن بأنها حق على ما أراد الله ورسوله ونجريها على ظاهرها ولها معنى يليق بها وظاهرها غير مراد والمذهب الثاني وهو قول جمهور المتكلمين أنها تتأول بحسب ما يليق بها فعلى هذا اختلفوا في تأويل هذا الحديث. فقيل: المراد بالقدم المقدم وهو سائغ في اللغة. والمعنى: حتى يضع الله فيها من قدمه لها من أهل العذاب. وقيل: المراد به قدم بعض المخلوقين

[هود: ١١٩، السجدة: ١٣]، وقال قوم: معنى قوله: ﴿ ما يبدل القول لديّ ﴾ أي: لا يكذب القول عندي، ولا يغيّر القول عن وجهه لأني أعلم الغيب. وهذا قول الكلبي، واختيار الفرّاء لأنه قال: ﴿ ما يبدل القول لديّ ﴾ ولم يقل ما يبدل لي. ﴿ وما أنا بظلّام للعبيد ﴾، فاعقبهم بغير جرم.

﴿ يوم نقول لجهنم ﴾، قرأ نافع وأبو بكر بالياء، أي يقول الله لقوله: ﴿ قال لا تختصمُوا لديّ ﴾، وقرأ الآخرون بالنون، ﴿ هلِ امتلأتِ ﴾، وذلك لِما سبق لها من وعده إيّاها أنه يملؤها من الجنة والناس، وهذا السؤال من الله عزّ وجلّ لتصديق خبره وتحقيق وعده، ﴿ وتقول ﴾، جهنم، ﴿ هل من مزيد ﴾، قيل: معناه قد امتلأت فلم يبق فيّ موضع لم يمتلىء، فهو استفهام إنكار، هذا قول عطاء ومجاهد ومقاتل بن سليمان، وقيل: هذا استفهام بمعنى الاستزادة، وهو قول ابن عباس في رواية أبي صالح، وعلى هذا يكون السؤال بقوله: ﴿ هل امتلأتِ ﴾، قبل دخول جميع أهلها فيها، ورُوِيَ عن ابن عباس: أن الله تعالى سبقت كلمته ﴿ لأملأنّ جهنّم من الجنة والناس أجمعين ﴾ [هود: ١١٩، السجدة: ١٣]، فلما سِيقَ أعداء الله إليها لا يُلقى فيها فوج إلاّ ذهب فيها ولا يملؤها شيء، فتقول: ألستَ قد أقسمتَ لتملأنّي؟ فيضع قدمه عليها، تعالى عمّا يقول الظالمون، ثم يقول: هلِ امتلأتِ؟

فيعود الضمير في قدمه إلى ذلك المخلوق المعلوم. وقيل: إنه يحتمل أن في المخلوقات من تسمى بهذه التسمية وخلقوا لها. قال القاضي عياض: أظهر التأويل أنهم قوم استحقوها وخلقوا لها قال المتكلمون: ولا بد من صرفه عن ظاهره لقيام الدليل القطعي العقلي على استحالة الجارحة على الله تعالى والله أعلم.

قوله: قط قط أي: حسبي حسبي. قد اكتفيت. وفيها ثلاث لغات: إسكان الطاء، وكسرها منونة، وغير منونة. وقوله: ولا يظلم الله من خلقه أحداً، يعني: أنه يستحيل الظلم في حق الله تعالى فمن عذبه بذنب أو بغير ذنب فذلك عدل منه سبحانه وتعالى وقوله تعالى.

﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾﴾

﴿وأزلفت الجنة﴾ أي قربت وأدنيت ﴿للمتقين﴾ أي الذين اتقوا الشرك ﴿غير بعيد﴾ يعني أنها جعلت عن يمين العرش بحيث يراها أهل الموقف قبل أن يدخلوها ﴿هذا ما توعدن﴾ أي يقال لهم الذي وعدتم به في الدنيا على ألسنة الأنبياء ﴿لكل أواب﴾ أي رجاع عن المعصية إلى الطاعة. قال سعيد بن المسيب: هو الذي يذنب ثم يتوب ثم يذنب ثم يتوب. وقيل: هو الذي يذكر ذنوبه في الخلاء فيستغفر منها. وقيل: هو التواب، وقال ابن عباس: هو المسبح. وقيل: هو المصلي ﴿حفيظ﴾ قال ابن عباس الحافظ لأمر الله وعنه هو الذي يحفظ ذنوبه حتى يرجع عنها ويستغفر منها وقيل: حفيظ لما استودعه الله من حقه. وقيل: هو المحافظ على نفسه المتعهد لها المراقب لها. وقيل: هو المحافظ على الطاعات والأوامر ﴿ومن خشي الرحمن بالغيب﴾ أي خاف الرحمن فأطاعه وإن لم يره وقيل: خافه في الخلوة

فتقول: «قطْ قطْ فليس فيّ مزيد». أخبرنا أبو سعيد أحمد بن محمد بن العباس الحميدي أنا أبو عبد الله محمد بن عبد الله الحافظ ثنا أبو عبد الله الحسين بن الحسن بن أيوب الطوسي أنا أبو حاتم محمد بن إدريس الرازي ثنا آدم بن أبي إياس العسقلاني ثنا شيبان بن عبد الرحمن عن قتادة عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تزال جهنّم تقول هل من مزيد، حتى يضع ربُّ العزّةِ فيها قدمه، فتقول قطْ قطْ وعزّتك، وينزوي بعضُها إلى بعض، ولا يزال في الجنة فضل حتى يُنشيء الله خلقاً فيسكنه فضول الجنة».

﴿ وأُزلفتِ الجنة ﴾، قُرِّبَت وأُدنيت، ﴿ للمتّقين ﴾، الشرك، ﴿ غير بعيد ﴾، ينظرون إليها قبل أن يدخلوها.

﴿ هذا ما توعدون ﴾، قرأ ابن كثير بالياء والآخرون بالتاء، يقال لهم: هذا الذي ترونه ما توعدون على ألسنة الأنبياء عليهم السلام، ﴿ لكل أوّاب ﴾، رجّاع إلى الطاعة عن المعاصي، قال سعيد بن المسيب: هو الذي يُذنب ثم يتوب ثم يذنب ثم يتوب. وقال الشعبي ومجاهد: الذي يذكر ذنوبه في الخلاء فيستغفر منها. وقال الضحاك: هو التوّاب. وقال ابن عباس وعطاء: هو المسبِّح، من قوله: ﴿ يا جبال أوّبي معه ﴾ [سبأ: ١٠] وقال قتادة: هو المصلّي. ﴿ حفيظ ﴾، قال ابن عباس: الحافظ لأمر الله، وعنه أيضاً: هو الذي يحفظ ذنوبه حتى يرجع عنها ويستغفر منها. قال قتادة: حفيظ لما استودعه الله من حقه. قال الضحاك: المحافظ على نفسه المتعهّد لها. قال الشعبي: المراقب. قال سهل بن عبد الله: هو المحافظ على الطاعات والأوامر.

﴿ مَن خشي الرحمن بالغيب ﴾، محل من جرّ على نعت الأوّاب. وقيل رفعٌ على الاستئناف، ومعنى الآية: مَن خاف الرحمن وأطاعه بالغيب ولم يره. وقال الضحاك والسدي: يعني في الخلوة حيث لا يراه أحد. قال الحسن

بحيث لا يراه أحد إذا ألقى الستر أغلق الباب ﴿وجاء بقلب منيب﴾ أي مخلص مقبل على طاعة الله ﴿ادخلوها﴾ أي يقال لأهل هذه الصفة: ادخلوا الجنة ﴿بسلام﴾ أي بسلامة من العذاب والهموم. وقيل: بسلام من الله وملائكته عليهم وقيل: بسلامة من زوال النعم ﴿ذلك يوم الخلود﴾ أي في الجنة لأنه لا موت فيها.

لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾

﴿لهم ما يشاؤون فيها﴾ وذلك أنهم يسألون الله حتى تنتهي مسألتهم فيعطون ما سألوا ثم يزيد الله عبيده ما لم يسألوا مما لم يخطر بقلب بشر وهو قوله تعالى: ﴿ولدينا مزيد﴾ وقيل: المزيد، هو النظر إلى وجهه الكريم قيل: يتجلى لهم الرب تبارك وتعالى في كل جمعة في دار كرامته فلهذا هو المزيد.

قوله تعالى: ﴿وكم أهلكنا قبلهم﴾ أي قبل كفار مكة ﴿من قرن هم أشد منهم بطشاً﴾ يعني سطوة والبطش الأخذ بصولة وعنف ﴿فنقبوا في البلاد﴾ أي ساروا وتقلبوا في البلاد وسلكوا كل طريق ﴿هل من محيص﴾ أي فلم يجدوا لهم محيصاً أي مهرباً من أمر الله وقيل: لا يجدون لهم مفراً من الموت بل يموتون فيصيرون إلى عذاب الله وفيه تخويف لأهل مكة لأنهم على مثل سبيلهم ﴿إن في ذلك لذكرى﴾ أي إن فيما ذكر من إهلاك القرى تذكرة وموعظة ﴿لمن كان له قلب﴾. قال ابن عباس: أي عقل. وقيل: له قلب حاضر مع الله واع عن الله ﴿أو ألقى السمع﴾ أي استمع القرآن واستمع ما يقال له لا يحدث نفسه بغيره ﴿وهو شهيد﴾ أي حاضر القلب ليس بغافل ولا ساه.

قوله تعالى: ﴿ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من لغوب﴾ أي إعياء وتعب قال المفسرون نزلت في اليهود حيث قالوا: خلق الله السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام أولها الأحد وآخرها الجمعة ثم استراح يوم السبت واستلقى على العرش فلذلك تركوا العمل فيه فأنزل الله تعالى هذه الآية رداً عليهم

إذا أرخى الستر وأغلق الباب. ﴿ وجاء بقلب منيب ﴾، مخلص مقبل إلى طاعة الله.

﴿ ادخلوها ﴾، أي يُقال لأهل هذه الصفة: ادخلوها، أي ادخلوا الجنة. ﴿ بسلام ﴾، بسلامة من العذاب والهموم. وقيل: بسلام من الله وملائكته عليهم. وقيل: بسلامة من زوال النِّعَم، ﴿ ذلك يوم الخلود ﴾.

﴿ لهم ما يشاؤون فيها ﴾، وذلك أنهم يسألون الله تعالى حتى تنتهي مسألتهم فيعطون ما شاؤوا، ثم يزيدهم الله من عنده ما لم يسألوه، وهو قوله: ﴿ ولدينا مزيد ﴾، يعني الزيادة لهم في النعيم مما لم يخطر ببالهم. وقال جابر وأنس هو النظر إلى وجه الله الكريم.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أشدّ منهم بطشاً فنقبوا في البلاد ﴾، ضربوا وساروا وتقلبوا وطافوا، وأصله من النقب وهو الطريق كأنهم سلكوا كل طريق، ﴿ هل من محيص ﴾، فلم يجدوا محيصاً من أمر الله. وقيل: هل من محيص مفرّ من الموت؟ فلم يجدوا فيه، إنذاراً لأهل مكة وأنهم على مثل سبيلهم لا يجدون مفرّاً عن الموت يموتون، فيصيرون إلى عذاب الله.

﴿ إنّ في ذلك ﴾، فيما ذكرت من العِبَر والعذاب وإهلاك القرى، ﴿ لذكرى ﴾، تذكرة وعظة، ﴿ لِمَن كان له

وتكذيباً لهم في قولهم استراح يوم السبت بقوله تعالى: ﴿وما مسنا من لغوب﴾.

قال الإمام فخر الدين الرازي في تفسيره: والظاهر أن المراد الرد على المشركين والاستدلال بخلق السموات والأرض وما بينهما فقوله ﴿وما مسنا من لغوب﴾ أي ما تعبنا بالخلق الأول حتى لا نقدر على الإعادة ثانياً كما قال الله تعالى: ﴿أفعيينا بالخلق الأول﴾ الآية وأما ما قاله اليهود ونقلوه من التوراة فهو إما تحريف منهم أو لم يعلموا تأويله وذلك أن الأحد والاثنين أزمنة مستمرة بعضها بعد بعض فلو كان خلق السموات والأرض ابتدىء يوم الأحد لكان الزمان قبل الأجساد والزمان لا ينفك عن الأجساد فيكون قبل خلق الأجسام أجسام لأن اليوم عبارة عن زمان سير الشمس من الطلوع إلى الغروب وقبل السموات والأرض لم يكن شمس ولا قمر لكن اليوم قد يطلق ويراد به الوقت والحين وقد يعبر به عن مدة الزمان أي مدة كانت قوله عز وجل: ﴿فاصبر على ما يقولون﴾ الخطاب للنبي ﷺ أي: اصبر يا محمد على ما يقولون أي من كذبهم فإن الله لهم بالمرصاد وهذا قبل الأمر بقتالهم ﴿وسبح بحمد ربك﴾ أي صلِّ حامداً لله ﴿قبل طلوع الشمس﴾ أي صلاة الصبح ﴿وقبل الغروب﴾ يعني صلاة المغرب. قال ابن عباس: صلاة الظهر والعصر.

﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ۝٤٠ وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ۝٤١﴾

﴿ومن الليل فسبحه﴾ يعني صلاة المغرب والعشاء. وقيل: يعني صلاة الليل أي وقت صلى ﴿وأدبار السجود﴾ قال عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب وغيرهما: أدبار السجود الركعتان بعد المغرب، وأدبار النجوم الركعتان قبل صلاة الفجر. وهي رواية عن ابن عباس.

ويروى مرفوعاً عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت «لم يكن النبي ﷺ على شيء من النوافل أشد تعاهداً منه

قلب ﴾، قال ابن عباس: أي عقل. قال الفرّاء: هذا جائز في العربية، تقول: ما لك قلب وما قلبك معك، أي ما عقلك معك. وقيل له: قلب حاضر مع الله. ﴿ أو ألقى السمع ﴾، استمع القرآن، واستمع ما يقال له لا يحدث نفسه بغيره، تقول العرب: ألقِ إليَّ سمعكَ، يعني استمعْ، ﴿ وهو شهيد ﴾، يعني حاضر القلب ليس بغافل ولا ساهٍ.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ ولقد خلقنا السمٰواتِ والأرضَ وما بينهما في ستّة أيام وما مسّنا منْ لُغُوبٍ ﴾، إعياء وتعب، نزلت في اليهود حيث قالوا يا محمد: أخبرنا بما خلق الله من الخلق في هذه الأيام الستّة، فقال: «خلق الله الأرض يوم الأحد والاثنين، والجبال يوم الثلاثاء، والمدائن والأنهار والأقوات يوم الأربعاء، والسمٰوات والملائكة يوم الخميس إلى ثلاث ساعات من يوم الجمعة، وخلق في أول الثلاث الساعات الآجال، وفي الثانية الآفة، وفي الثالث آدم»، قالوا: صدقتَ إنْ أتممت، قال: وما ذاك؟ قالوا: ثم استراح يوم السبت، واستلقى على العرش، فأنزل الله تعالى هذه الآية ردّاً عليهم.

﴿ فاصبِرْ على ما يقولون ﴾، من كذبهم فإن الله لهم بالمرصاد، وهذا قبل الأمر بقتالهم، ﴿ وسبّحْ بحمد ربك ﴾، أي صلِّ حمداً لله، ﴿ قبل طلوع الشمس ﴾، يعني صلاة الصبح، ﴿ وقبل الغروب ﴾، يعني صلاة العصر. ورُوِيَ عن ابن عباس قال: قبل الغروب الظهر والعصر.

﴿ ومن الليل فسبِّحه ﴾، يعني صلاة المغرب والعشاء. وقال مجاهد: ومن الليل أي صلاة الليل أيَّ وقتٍ صلّي. ﴿ وأدبار السجود ﴾ قرأ أهل الحجاز وحمزة: ﴿ وأدبار السجود ﴾ بكسر الهمزة، مصدر أدبر إدباراً، وقرأ الآخرون بفتحها على جمع الدبر. قال عمر بن الخطاب وعليّ بن أبي طالب والحسن والشعبي والنخعي

على ركعتي الفجر» (م) عنها أن النبي ﷺ قال: «ركعتا الفجر خير من الدنيا وما فيها» يعني بذلك سنة الفجر، عن ابن مسعود، قال: «ما أحصى ما سمعت رسول الله ﷺ يقرأ في الركعتين بعد المغرب والركعتين قبل صلاة الفجر يقل يا أيها الكافرون وقل هو الله أحد» أخرجه الترمذي وقال حديث غريب.

وقيل: في قوله وأدبار السجود: التسبيح باللسان في أدبار الصلوات المكتوبات (خ) عن ابن عباس قال: أمر رسول الله ﷺ أن يسبح في أدبار الصلوات كلها يعني قوله وأدبار السجود (م). عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من سبح الله في دبر كل صلاة ثلاثاً وثلاثين وحمد الله ثلاثاً وثلاثين وكبر الله ثلاثاً وثلاثين فذلك تسعة وتسعون ثم قال: تمام المائة لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير غفرت ذنوبه وإن كانت مثل زبد البحر» (خ) عنه «أن فقراء المسلمين أتوا رسول الله ﷺ فقالوا يا رسول الله ذهب أهل الدثور بالدرجات والنعيم المقيم فقال وما ذاك؟ قالوا صلوا كما صلينا وجاهدوا كما جاهدنا وأنفقوا من فضول أموالهم وليست لنا أموال قال أفلا أخبركم بأمر تدركون به من كان قبلكم وتسبقون من جاء بعدكم ولا يأتي أحد بمثل ما جئتم به إلا من جاء بمثله تسبحون في دبر كل صلاة عشراً وتحمدون عشراً وتكبرون عشراً».

قوله تعالى: ﴿**واستمع يوم يناد المناد**﴾ يعني استمع يا محمد حديث يوم ينادي المنادي. وقيل: معناه انتظر

والأوزاعي: أدبار السجود الركعتان بعد صلاة المغرب، وأدبار النجوم الركعتان قبل صلاة الفجر. وهي رواية العوفي عن ابن عباس. ورُوِيَ عنه مرفوعاً، هذا قول أكثر المفسّرين، أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أبو منصور محمد بن محمد بن سمعان أنا أبو جعفر محمد بن أحمد بن عبد الجبار الرياني ثنا حميد بن زنجويه ثنا أبو أيوب الدمشقي ثنا الوليد بن مسلم ثنا ابن جريج عن عطاء عن عبيد بن عمير عن عائشة رضي الله عنها قالت: ما كان رسول الله ﷺ على شيء من النوافل أشدَّ مُعَاهدةً منه على الركعتين أمام الصبح. أخبرنا أبو عثمان سعيد بن إسماعيل الضبي أنا أبو محمد عبد الجبّار بن محمد الجراحي ثنا أبو العباس محمد بن أحمد المحبوبي ثنا أبو عيسى الترمذي ثنا صالح بن عبد الله ثنا أبو عوانة عن قتادة عن زرارة بن أبي أوْفى عن سعيد بن هشام عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: « ركعتا الفجر خير من الدنيا وما فيها». أخبرنا أبو عثمان الضبي أنا أبو محمد الجراحي أنا أبو العباس المحبوبي ثنا أبو عيسى الترمذي ثنا محمد بن المثنى ثنا بدل بن المحبر ثنا عبد الملك بن معدان عن عاصم بن بهدلة عن أبي وائل عن عبد الله بن مسعود أنه قال: ما أحصي ما سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقرأ في الركعتين بعد المغرب وفي الركعتين قبل صلاة الفجر: بقلْ يا أيّها الكافرون، وقلْ هو الله أحد. وقال مجاهد: قوله: ﴿ **أدبار السجود** ﴾ هو التسبيحُ باللسانِ في أدبار الصلوات المكتوبات. أخبرنا أبو الحسين طاهر بن الحسين الدورقي الطوسي بها، أنا أبو الحسن محمد بن يعقوب أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن أيوب أنا مسدد ثنا خالد هو ابن عبد الله ثنا سهيل عن أبي عبيد عن عطاء بن يزيد عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن سبّحَ اللّهَ في دُبُرِ كلِّ صلاةٍ ثلاثاً وثلاثين، وكبّر اللّهَ ثلاثاً وثلاثين، وحَمِدَ اللّهَ ثلاثاً وثلاثين، فذلك تسعة وتسعون، ثم قال تمام المائة: لا إلّه إلّا الله وحده لا شريك له، له المُلْك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، غُفرت خطاياهُ وإنْ كانتْ مثلَ زبد البحر». أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا إسحاق أنا يزيد أنا ورقاء عن سُميّ عن أبي صالح عن أبي هريرة قال: قالوا: يا رسول الله ذهب أهل الدثور بالدرجات العُلى والنعيم المقيم، قال: كيف ذاك؟ قال: «صلّوا كما صلّينا وجاهدوا كما جاهدنا، وأنفقوا من فضول أموالهم وليستْ لنا أموال»، قال: «أفلا أُخبركم بأمر تدركون به مَن كان قبلكم وتسبقون مَن جاء بعدكم، ولا يأتي أحد بمثل ما جئتم به إلّا مَن جاء بمثله: تسبّحون في دُبُرِ كلِّ صلاةٍ عشراً وتحمدون عشراً وتكبّرون عشراً».

صيحة القيامة والنشور. قال المفسرون: المنادي هو إسرافيل يقف على صخرة بيت المقدس فينادي بالحشر فيقول: يا أيتها العظام البالية والأوصال المتقطعة واللحوم المتمزقة والشعور المتفرقة إن الله يأمركن أن تجتمعن لفصل القضاء، وهو قوله تعالى: ﴿من مكان قريب﴾ قيل: إن صخرة بيت المقدس أقرب الأرض إلى السماء بثمانية عشر ميلاً وقيل: هي في وسط الأرض.

﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًاۚ ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍۖ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾﴾

﴿**يوم يسمعون الصيحة بالحق**﴾ أي الصيحة الأخيرة ﴿**ذلك يوم الخروج**﴾ أي من القبور ﴿**إنا نحن نحيي**﴾ أي في الدنيا ﴿**ونميت**﴾ يعني عند انقضاء الأجل ﴿**وإلينا المصير**﴾ أي في الآخرة وقيل: تقديره نميت في الدنيا ونحيي للبعث وإلينا المصير بعد البعث ﴿**يوم تشقق الأرض عنهم سراعاً**﴾ أي يخرجون سراعاً إلى المحشر وهو قوله تعالى: ﴿**ذلك حشر علينا يسير**﴾ أي هين ﴿**نحن أعلم بما يقولون**﴾ يعني كفار مكة في تكذيبك ﴿**وما أنت عليهم بجبار**﴾ أي بمسلط تجبرهم على الإسلام إنما بعثت مذكراً وذلك قبل أن يؤمر بقتالهم ﴿**فذكر بالقرآن من يخاف وعيد**﴾ أي ما أوعدت به من عصاني من العذاب قال ابن عباس: «قالوا يا رسول الله لو خوفتنا فنزلت: فذكر بالقرآن من يخاف وعيد» أي عظ بالقرآن من يخاف وعيدي والله أعلم بمراده.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ **واستمعْ يوم ينادِ المنادِ من مكانٍ قريب** ﴾، أي واستمع يا محمد صيحة القيامة والنشور يوم ينادي المنادي، قال مقاتل: يعني إسرافيل ينادي بالحشر يا أيتها العظام البالية والأوصال المتقطّعة واللحوم المتمزّقة والشعور المتفرّقة، إن الله يأمركنّ أن تجتمعن لفصل القضاء من مكان قريب من صخرة بيت المقدس، وهي وسط الأرض. قال الكلبي: هي أقرب الأرض إلى السماء بثمانية عشر ميلاً.

﴿ **يوم يسمعون الصيحة بالحق** ﴾، وهي الصيحة الأخيرة، ﴿ **ذلك يوم الخروج** ﴾، من القبور.

﴿ **إنّا نحن نحيي ونميت وإلينا المصير * يوم تشقّق الأرض عنهم سراعاً** ﴾، جمع سريع أي يخرجون سراعاً، ﴿ **ذلك حشرٌ علينا** ﴾، جمع علينا ﴿ **يسير** ﴾.

﴿ **نحنُ أعلم بما يقولون** ﴾، يعني كفّار مكة في تكذيبك، ﴿ **وما أنتَ عليهم بجبّار** ﴾، بمسلّط تجبرهم على الإسلام إنما بُعِثتَ مذكّراً، ﴿ **فذكّر بالقرآن مَن يخاف وعيد** ﴾، أي ما أوعدت به مَن عصاني من العذاب. قال ابن عباس: قالوا: يا رسول الله لو خوّفتنا، فنزلت: ﴿ **فذكّرْ بالقرآن مَن يخاف وعيد** ﴾.

سورة الذاريات

(مكية وهي ستون آية وثلاثمائة وستون كلمة وألف ومائتان وتسعة وثلاثون حرفاً)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرْوًا ﴿١﴾ فَٱلْحَٰمِلَٰتِ وِقْرًا ﴿٢﴾ فَٱلْجَٰرِيَٰتِ يُسْرًا ﴿٣﴾ فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا ﴿٤﴾

قوله عز وجل: ﴿والذاريات ذرواً﴾ يعني الرياح التي تذر التراب ﴿فالحاملات وقراً﴾ يعني السحاب يحمل ثقلاً من الماء ﴿فالجاريات يسراً﴾ يعني السفن تجري في الماء جرياً سهلاً ﴿فالمقسمات أمراً﴾ يعني الملائكة يقسمون الأمور بين الخلق على ما أمروا به وقيل: هم أربعة: جبريل صاحب الوحي إلى الأنبياء الأمين عليه وصاحب الغلظة، وميكائيل صاحب الرزق والرحمة، وإسرافيل صاحب الصور واللوح، وعزرائيل صاحب قبض الأرواح. وقيل: هذه الأوصاف الأربعة في الرياح لأنها تنشىء السحاب وتسيره ثم تحمله وتقله ثم تجري به جرياً سهلاً ثم تقسم الأمطار بتصريف السحاب أقسم الله تعالى بهذه الأشياء لشرف ذواتها ولما فيها من الدلالة على عجيب صنعته وقدرته. والمعنى: أقسم بالذاريات بهذه الأشياء، وقيل: فيه مضمر تقديره ورب الذاريات ثم ذكر جواب القسم فقال تعالى:

إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴿٥﴾ وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ ﴿٦﴾ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ ﴿٧﴾ إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ﴿٨﴾ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ
أُفِكَ ﴿٩﴾ قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴿١١﴾ يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٢﴾ يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾
ذُوقُوا۟ فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٤﴾

﴿إن ما توعدون﴾ أي من الثواب والعقاب يوم القيامة ﴿لصادق﴾ أي الحق ﴿وإن الدين﴾ أي الحساب والجزاء

سُورَة الذّارِيَات

مكيّة وهي ستّون آية.

﴿ والذاريات ذرواً ﴾، يعني الرياح التي تذرّ التراب ذرواً، يقال: ذرت الريح التراب وأذرت.

﴿ فالحاملات وِقْراً ﴾، يعني السحاب التي تحمل ثقلاً من الماء.

﴿ فالجاريات يُسراً ﴾، هي السفن تجري في الماء جرياً سهلاً.

﴿ فالمقسمات أمراً ﴾، هي الملائكة يقسمون الأمور بين الخلق على ما أُمِروا به، أقسم بهذه الأشياء لما فيها من الدلالة على صنعه وقدرته.

ثم ذكر المقسَم عليه فقال: ﴿ إنّما توعدون ﴾، من الثواب والعقاب، ﴿ لصادق ﴾.

﴿لواقع﴾ أي لكائن ثم ابتدأ قسماً آخر فقال تعالى: ﴿والسماء ذات الحبك﴾ قال ابن عباس: ذات الخلق الحسن المستوي، وقيل: ذات الزينة حبكت بالنجوم وقيل: ذات البنيان المتقن وقيل: ذات الطرائق كحبك الماء إذا ضربته الريح وحبك الرمل ولكنها لا ترى لبعدها من الناس وجواب القسم قوله ﴿إنكم﴾ يعني يا أهل مكة ﴿لفي قول مختلف﴾ يعني في القرآن وفي محمد ﷺ يقولون في القرآن سحر وكهانة وأساطير الأولين وفي محمد ﷺ ساحر وشاعر وكاهن ومجنون وقيل: لفي قول مختلف أي مصدق ومكذب ﴿يؤفك عنه من أفك﴾ أي يصرف عن الإيمان به من صرف حتى يكذبه وهو من حرمه الله الإيمان بمحمد ﷺ وبالقرآن وقيل: معناه أنهم كانوا يتلقون الرجل إذا أراد الإيمان بمحمد ﷺ فيقولون إنه ساحر وشاعر وكاهن ومجنون فيصرفونه عن الإيمان به ﴿قتل الخراصون﴾ أي: الكذابون وهم المقتسمون الذين اقتسموا عقاب مكة واقتسموا القول في النبي ﷺ ليصرفوا الناس عن الإسلام. وقيل: هم الكهنة ﴿الذين هم في غمرة﴾ أي في غفلة وعمى وجهالة ﴿ساهون﴾ أي لاهون غافلون عن أمر الآخرة والسهو الغفلة عن الشيء وذهاب القلب عنه ﴿يسألون أيان يوم الدين﴾ أي يقولون يا محمد متى يوم الجزاء يعني يوم القيامة تكذيباً واستهزاء قال الله تعالى: ﴿يوم هم﴾ أي يكون هذا الجزاء في يوم هم ﴿على النار يفتنون﴾ أي يدخلون ويعذبون بها وتقول لهم خزنة النار: ﴿ذوقوا فتنتكم﴾ أي عذابكم ﴿هذا الذي كنتم به تستعجلون﴾ أي في الدنيا تكذيباً به.

﴿ وإنّ الدين ﴾، الحساب والجزاء، ﴿ لواقع ﴾، لكائن.

ثم ابتدأ قسماً آخر فقال: ﴿ والسماءِ ذاتِ الحُبك ﴾، قال ابن عباس وقتادة وعكرمة: ذات الخلق الحَسَن المستوي، يقال للنسّاج إذا نسج الثوب فأجاد: ما أحسن حبكته! قال سعيد بن جبير: ذات الزينة. قال الحسن: حبكت بالنجوم. قال مجاهد: هي المتقنة البُنيان. وقال مقاتل والكلبي والضحّاك: ذات الطرائق كحبك الماء إذا ضربته الريح، وحبك الرمل والشعر الجعد، ولكنها لا ترى لبُعدها من الناس، وهي جمع حباك وحبيكة، وجواب القسم وله.

﴿ إنّكم ﴾، يا أهل مكة، ﴿ لفي قول مختلف ﴾، في القرآن وفي محمد ﷺ، تقولون في القرآن سحر وكهانة وأساطير الأوّلين، وفي محمد ﷺ ساحر وشاعر ومجنون. وقيل: لفي قول مختلف أي مُصدّق ومُكذّب.

﴿ يؤفك عنه مَن أفك ﴾، يُصرَف عن الإيمان به مَن صُرِفَ حتى يكذّبه، يعني مَن حرمه الله الإيمان بمحمد ﷺ وبالقرآن، وقيل: (عـن) بمعنـى: من أجل، أي يصرف من أجل هذا القول المختلف أو بسببه عن الإيمان مَن يصرف. وذلك أنهم كانوا يتلقّون الرجل إذا أراد الإيمان فيقولون: إنه ساحر وكاهن ومجنون، فيصرفونه عن الإيمان، وهذا معنى قول مجاهد.

﴿ قُتل الخرّاصون ﴾، لُعن الكذّابون، يقال: تحرص على فلان الباطل، وهم المقتسمون الذين اقتسموا عقاب مكة، واقتسموا القول في النبي ﷺ ليصرفوا الناس عن دين الإسلام. وقال مجاهد: هم الكهنة.

﴿ الذين هم في غمرة ﴾، غفلة وعمى وجهالة، ﴿ ساهمون ﴾ لاَهُون غافلون عن أمر الآخرة، والسهو: الغفلة عن الشيء، وهو ذهاب القلب عنه.

﴿ يسألون أيّان يَوم الدين ﴾، يقولون: يا محمد متى يوم الجزاء، يعني يوم القيامة تكذيباً واستهزاءً.

قال الله عزّ وجلّ: ﴿ يوم هم ﴾، أي يكون هذا الجزاء في يوم هم، ﴿ على النار يفتنون ﴾، أي يعذّبون ويحرقون بها كما يفتن الذهب بالنار. وقيل: ﴿ على ﴾ بمعنى الباء أي بالنار، وتقول لهم خَزَنَة النار:

﴿ ذُوقوا فتنتكم ﴾، عذابكم، ﴿ هذا الذي كنتم به تستعجلون ﴾، في الدنيا تكذيباً به.

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إن المتقين في جنان وعيون﴾ يعني في خلال الجنات عيون جارية ﴿آخذين ما آتاهم﴾ أي ما أعطاهم ﴿ربهم﴾ أي من الخير والكرامة ﴿إنهم كانوا قبل ذلك محسنين﴾ أي قبل دخولهم الجنة كانوا محسنين في الدنيا ثم وصف إحسانهم فقال تعالى: ﴿كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون﴾ أي كانوا ينامون قليلاً من الليل ويصلون أكثره. وقال ابن عباس: كانوا قل ليلة تمر بهم إلا صلوا فيها شيئاً إما من أولها أو من أوسطها عن أنس بن مالك في قوله: «كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون» قال: كانوا بين المغرب والعشاء أخرجه أبو داود.

وقيل: كانوا لا ينامون حتى يصلون العتمة وقيل: قل ليلة أتت عليهم هجعوها كلها، ووقف بعضهم على قوله: كانوا قليلاً، أي من الناس ثم ابتدأ من الليل ما يهجعون أي لا ينامون بالليل البتة بل يقومون الليل كله في الصلاة والعبادة ﴿وبالأسحار هم يستغفرون﴾ أي ربما مدوا عبادتهم إلى وقت السحر ثم أخذوا في الاستغفار وقيل: معناه يستغفرون من تقصيرهم في العبادة وقيل: يستغفرون من ذلك القدر القليل الذي كانوا ينامونه من الليل وقيل: معناه يصلون بالأسحار لطلب المغفرة (ق) عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ينزل ربنا كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير فيقول من يدعوني فأستجيب له من يسألني فأعطيه من يستغفرني فأغفر له» ولمسلم قال: «فيقول أنا الملك أنا الملك» وذكر الحديث وفيه «حتى يضيء الفجر» وزاد في رواية «من يقرض غير عديم ولا ظلوم».

(فصل)

هذا الحديث من أحاديث الصفات وفيه مذهبان معروفان:

أحدهما: وهو مذهب السلف وغيرهم أنه يمر كما جاء من غير تأويل ولا تعطيل ويترك الكلام فيه وفي أمثاله مع الإيمان به وتنزيه الرب تبارك وتعالى عن صفات الأجسام.

﴿ **إنّ المتّقين في جنّات وعيون * آخذين ما آتاهم** ﴾، أعطاهم، ﴿ **ربهم** ﴾، من الخير والكرامة، ﴿ **إنهم كانوا قبل ذلك** ﴾، قبل دخولهم الجنة، ﴿ **محسنين** ﴾، في الدنيا.

﴿ **كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون** ﴾، والهجوع النوم بالليل دون النهار، ﴿ **وما** ﴾ صلة، والمعنى: كانوا يهجعون قليلاً من الليل أي يصلّون أكثر الليل، وقيل: معناه كان الليل الذي ينامون فيه كلّه قليلاً، وهذا معنى قول سعيد بن جبير عن ابن عباس، يعني: كانوا أقلّ ليلة تمرّ بهم إلاّ صلّوا فيها شيئاً إمّا من أولها أو من أوسطها. قال أنس بن مالك: كانوا يصلّون ما بين المغرب والعشاء. وقال محمد بن علي: كانوا لا ينامون حتى يصلّوا العتمة. قال مطرف بن عبد الله بن الشخّير: قلّ ليلة أتتْ عليهم هجعوها كلها. قال مجاهد: كانوا لا ينامون كل الليل. ووقف بعضهم على قوله: ﴿ **قليلاً** ﴾ أي كانوا من الناس قليلاً، ثم ابتدأ: ﴿ **من الليل ما يهجعون** ﴾، وجعله جحداً أي لا ينامون بالليل البتّة، بل يقومون للصلاة والعبادة، وهو قول الضحاك ومقاتل.

﴿ **وبالأسحار هم يستغفرون** ﴾، قال الحسن: لا ينامون من الليل إلاّ أقلّه، وربما نشطوا فمدّوا إلى السحر، ثم أخذوا في الأسحار بالاستغفار. وقال الكلبي ومجاهد ومقاتل: وبالأسحار يصلّون، وذلك أن صلاتهم بالأسحار لطلب المغفرة. أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أبو محمد الحسن بن أحمد بن محمد المخلدي أنا أبو العباس

المذهب الثاني: وهو قول جماعة من المتكلمين وغيرهم أن الصعود والنزول من صفات الأجسام والله تعالى يتقدس عن ذلك. فعلى هذا يكون معناه نزول الرحمة والألطاف الإلهية وقربها من عباده والإقبال على الداعين بالإجابة واللطف. وتخصيصه بالثلث الأخير من الليل، لأن ذلك وقت التهجد والدعاء وغفلة أكثر الناس عن التعرض لنفحات رحمة الله تعالى وفي ذلك الوقت تكون النية خالصة والرغبة إلى الله تعالى متوفرة فهو مظنة لقبول الإجابة والله تعالى أعلم (ق).

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كان النبي ﷺ إذا قام من الليل يتهجد قال: اللهم لك الحمد أنت قيوم السموات والأرض ومن فيهن ولك الحمد أنت ملك السموات والأرض ومن فيهن ولك الحمد أنت نور السموات والأرض ومن فيهن ولك الحمد أنت الحق ووعدك الحق ولقاؤك الحق وقولك الحق والجنة حق والنار حق والنبيون حق ومحمد حق والساعة حق اللهم لك أسلمت وبك آمنت وعليك توكلت وإليك أنبت وبك خاصمت وإليك حاكمت فاغفر لي ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت». زاد في رواية: «وما أنت أعلم به مني أنت المقدم وأنت المؤخر لا إله إلا أنت ولا إله غيرك» زاد النسائي: «ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم» (خ) عن عبادة بن الصامت عن النبي ﷺ قال: «من تعار من الليل فقال لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير الحمد لله وسبحان الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ثم قال اللهم اغفر لي، أو قال دعا أستجيب له فإن توضأ وصلى قبلت صلاته» قوله تعار من الليل يقال: تعارَّ الرجل من نومه إذا انتبه وله صوت وقوله عز وجل:

﴿وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ۝١٩ وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ۝٢٠ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۝٢١ وَفِى ٱلسَّمَآءِ

محمد بن إسحاق السراج ثنا قتيبة ثنا يعقوب بن عبد الرحمن عن سهل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «ينزل الله إلى سماء الدنيا كل ليلة حين يبقى ثلث الليل فيقول: أنا الملك أنا الملك مَن الذي يدعوني فأستجيب له؟ مَنِ الذي يسألني فأُعطيه؟ مَن الذي يستغفرني فأغفر له»، أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا علي بن عبد الله ثنا سفيان ثنا سليمان بن أبي مسلم عن طاوس سمع ابن عباس قال: كان النبي ﷺ إذا قام من الليل يتهجد، قال: «اللّهمّ لك الحمد أنتَ قيّمُ السمٰوات والأرض ومَن فيهنّ، ولك الحمد أنتَ نورُ السمٰوات والأرض ومَن فيهنّ، ولك الحمد أنتَ ملك السمٰواتِ والأرض ومَن فيهنّ، ولك الحمد أنتَ الحقّ ووعدك الحق، ولقاؤك حق، وقولك حق، والجنة حق، والنار حق، والنبيّون حق، ومحمد حق، والساعة حق، اللّهمَّ لك أسلمتُ وبك آمنتُ وعليك توكلتُ، وإليك أنبتُ وبك خاصمتُ وإليك حاكمت، فاغفر لي ما قدّمتُ وما أخّرتُ وما أسررتُ وما أعلنت وما أنت أعلم به منّي، أنت المقدّم وأنت المؤخر، لا إلّه إلّا أنت ولا إلّه غيرك». قال سفيان: وزاد عبد الكريم أبو أُمية: ولا حول ولا قوة إلّا بالله». أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا صدقة أنا الوليد عن الأوزاعي حدّثني عمير بن هانىء حدّثني جنادة بن أبي أُميّة حدّثني عبادة عن النبي ﷺ قال: «مَن تعار من الليل فقال: لا إلّه إلّا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، وسبحان الله والحمد لله ولا إلّه إلّا الله والله أكبر ولا حول ولا قوّة إلّا بالله، ثم قال: ربِّ اغفرْ لي، أو قال: دعا استُجيب له، فإن توضأ وصلّى قُبِلَتْ صلاتُه».

رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾

﴿**وفي أموالهم حق**﴾ أي نصيب قيل إنه ما يصلون به رحماً أو يقرون به ضيفاً أو يحملون به كلاًّ أو يعينون به محروماً وليس بالزكاة قاله ابن عباس. وقيل: إنه الزكاة المفروضة ﴿**للسائل**﴾ أي الذي يسأل الناس ويطلب منهم ﴿**والمحروم**﴾ قيل هو الذي ليس له في الغنائم سهم ولا يجري عليه من الفيء شيء قال ابن عباس رضي الله عنهما: المحروم الذي ليس له في فيء الإسلام سهم. وقيل: معناه الذي حرم الخير والعطاء، وقيل: **المحروم**، المتعفف الذي لا يسأل. وقيل: هو صاحب الجائحة الذي أصيب زرعه وثمره أو نسل ماشيته وقيل: هو المحارف **المحروم** في الرزق والتجارة وقيل: هو المملوك وقيل: هو المكاتب، وأظهر الأقوال، أنه المتعفف لأنه قرنه بالسائل والمتعفف لا يسأل ولا يكاد الناس يعطون من لا يسأل إنما يفطن له متيقظ ﴿**وفي الأرض آيات**﴾ أي عبر من البحار والجبال والأشجار والثمار وأنواع النبات ﴿**للموقنين**﴾ أي بالله الذي يعرفونه ويستدلون عليه بصنائعه ﴿**وفي أنفسكم**﴾ أي آيات إذ كنتم نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم عظماً إلى أن تنفخ الروح.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: يريد اختلاف الألسنة والصور والألوان والطبائع وقيل: يريد سبيل الغائط والبول يأكل ويشرب من مدخل واحد ويخرج من سبيلين وقيل: يعني تقويم الأدوات السمع والبصر والنطق والعقل إلى غير ذلك من العجائب المودعة في ابن آدم ﴿**أفلا تبصرون**﴾ يعني كيف خلقكم فتعرفوا قدرته على البعث ﴿**وفي السماء رزقكم**﴾ قال ابن عباس هو المطر وهو سبب الأرزاق ﴿**وما توعدون**﴾ يعني من الثواب والعقاب. وقيل: من الخير والشر. وقيل: الجنة والنار ثم أقسم سبحانه وتعالى بنفسه فقال: ﴿**فورب السماء والأرض إنه لحق**﴾ أي ما ذكر من الرزق وغيره ﴿**مثل ما أنكم تنطقون**﴾ أي بلا إله إلا الله.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ **وفي أموالهم حقٌّ للسائلِ والمحروم** ﴾، السائل الذي يسأل الناس، والمحروم الذي ليس له في الغنيمة سهم، ولا يجري عليه من الفيء شيء، هذا قول ابن عباس وسعيد بن المسيب، قال: المحروم الذي ليس له في الإسلام سهم، ومعناه في اللغة: الذي مُنِع الخير والعطاء. وقال قتادة و الزهري: المحروم المتعفّف الذي لا يسأل. وقال زيد بن أسلم: هو المصاب ثمره أو زرعه أو نسل ماشيته. وهو قول محمد بن كعب القرظي، قال: المحروم صاحب الحاجة، ثم قرأ: ﴿ إنا لمغرمون بل نحن محرومون ﴾ [الواقعة: ٦٦].

﴿ **وفي الأرض آيات** ﴾، عِبَر، ﴿ **للموقنين** ﴾، إذا سَارُوا فيها من الجبال والبحار والأشجار والثمار وأنواع النبات. ﴿ **وفي أنفسكم** ﴾، آيات إذ كانت نطفةً ثم علقةً ثم مضغةً ثم عظماً إلى أن نفخ فيها الروح. وقال عطاء عن ابن عباس: يريد اختلاف الألسنة والصور والألوان والطبائع. وقال ابن الزبير: يريد سبيل الغائط والبول يأكل ويشرب من مدخل واحد ويخرج من السبيلين. ﴿ **أفلا تبصرون** ﴾، قال مقاتل: أفلا تبصرون كيف خلقكم فتعرفوا قدرته على البعث.

﴿ **وفي السماء رزقكم** ﴾، قال ابن عباس ومجاهد ومقاتل: يعني المطر الذي هو سبب الأرزاق، ﴿ **وما توعدون** ﴾، قال عطاء: من الثواب والعقاب. وقال مجاهد: من الخير والشر. وقال الضحاك: وما توعدون من الجنة والنار، ثم أقسم بنفسه فقال:

﴿ **فوربِّ السماء والأرض إنه لحق** ﴾، أي ما ذكرت من أمر الرزق لحق، ﴿ **مثل** ﴾، قرأ حمزة والكسائي

وقيل: شبه تحقيق ما أخبر عنه بتحقيق نطق الآدمي ومعناه إنه لحق كما أنك تتكلم. وقيل: إن معناه في صدقه ووجوده كالذي تعرفه ضرورة وقال بعض الحكماء معناه كما أن كل إنسان ينطق بلسان نفسه لا يمكنه أن ينطق بلسان غيره كذلك كل إنسان يأكل رزق نفسه الذي قسم له لا يقدر أن يأكل رزق غيره.

قوله تعالى: ﴿**هل أتاك حديث ضيف إبراهيم**﴾ يعني هل أتاك يا محمد حديث الذين جاؤوا إبراهيم بالبشرى فاستمع نقصصه عليك وقد تقدم ذكر عددهم وقصتهم في سورة هود ﴿**المكرمين**﴾ قيل: سماهم مكرمين لأنهم كانوا ملائكة كراماً عند الله. وقيل: لأنهم كانوا ضيف إبراهيم وهو أكرم الخلق على الله يومئذ وضيف الكريم مكرمون.

وقيل: لأن إبراهيم عليه الصلاة والسلام أكرمهم بتعجيل قراهم وخدمته إياهم بنفسه وطلاقة وجهه لهم.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: سماهم مكرمين لأنهم كانوا غير مدعوين (ق) عن أبي شريح العدوي قال: قال رسول الله ﷺ من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه.

إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ
أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا
وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾ ۞ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾
قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾

﴿**إذ دخلوا عليه فقالوا سلاماً قال سلام قوم منكرون**﴾ أي غرباء لا نعرفكم.

قال ابن عباس: قال في نفسه هؤلاء قوم لا نعرفهم وقيل: إنما أنكر أمرهم، لأنهم دخلوا بغير استئذان وقيل: أنكر سلامهم في ذلك الزمان وفي تلك الأرض ﴿**فراغ**﴾ أي عدل ومال ﴿**إلى أهله فجاء بعجل سمين**﴾ أي جيد وكان

وأبو بكر عن عاصم: ﴿**مثل**﴾ برفع اللام بدلاً من الحق، وقرأ الآخرون بالنصب أي كمثل، ﴿**ما أنكم تنطقون**﴾، فتقولون: لا إله إلاّ الله. وقيل: شبّه تحقيق ما أخبر عنه بتحقيق نطق الآدمي، كما تقول: إنه لحق كما أنت ههنا، وإنه لحق كما أنك تتكلم، والمعنى: إنه في صدقه ووجوده كالذي تعرفه ضرورة: وقال بعض الحكماء: يعني كما أن كل إنسان ينطق بلسان نفسه لا يمكنه أن ينطق بلسان غيره كذلك كل إنسان يأكل رزق نفسه الذي قسم له. ولا يقدر أن يأكل رزق غيره.

قوله عزّ وجلّ: ﴿**هل أتاك حديث ضيف إبراهيم**﴾، ذكرنا عددهم في سورة هود[٧٨]، ﴿**المكرمين**﴾، قيل: سمّاهم مكرمين لأنهم كانوا ملائكة كراماً عند الله، وقد قال الله تعالى في وصفهم: ﴿**بل عبادٌ مكرمون**﴾ [الأنبياء: ٢٦]، وقيل: لأنهم كانوا ضيف إبراهيم وكان إبراهيم أكرم الخليقة، وضيف الكرام مكرمون. وقيل: لأن إبراهيم عليه السلام أكرمهم بتعجيل قراهم، والقيام بنفسه عليهم بطلاقة الوجه. وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد: خدمته بنفسه إيّاهم. ورُوِيَ عن ابن عباس: سمّاهم مكرمين لأنهم جاؤوا غير مدعوين. وروينا عن النبي ﷺ أنه قال: «مَن كان يُؤمنُ بالله واليوم الآخر فليكرمْ ضيفَه».

﴿**إذْ دخلوا عليه فقالوا سلاماً قال**﴾، إبراهيم، ﴿**سلامٌ قومٌ منكرون**﴾، أي غرباء لا نعرفكم، قال ابن عباس: قال في نفسه هؤلاء قوم لا نعرفهم. وقيل: إنما أنكر أمرهم لأنهم دخلوا عليه من غير استئذان. وقال أبو العالية: أنكر سلامهم في ذلك الزمان وفي تلك الأرض.

مشوياً. قيل: كان عامة مال إبراهيم البقر فجاء بعجل ﴿فقربه إليهم﴾ هذا من آداب المضيف أن يقدم الطعام إلى الضيف ولا يحوجهم السعي إليه فلما لم يأكلوا ﴿قال ألا تأكلون﴾ يعني أنه حثهم على الأكل. وقيل: عرض عليهم الأكل من غير أن يأمرهم ﴿فأوجس﴾ أي فأضمر ﴿منهم خيفة﴾ لأنهم لم يتحرموا بطعامه ﴿قالوا لا تخف وبشروه بغلام عليم﴾ أي يبلغ ويعلم وقيل: عليم أي نبي ﴿فأقبلت امرأته﴾ قيل لم يكن ذلك إقبالاً من مكان إلى مكان بل كانت في البيت فهو كقول القائل أقبل يفعل كذا إذا أخذ فيه ﴿في صرة﴾ أي في صيحة والمعنى أنها أخذت تولول وذلك من عاد النساء إن سمعن شيئاً ﴿فصكت وجهها﴾ قال ابن عباس: لطمت وجهها. وقيل: جمعت أصابعها وضربت جبينها تعجباً وذلك من عادة النساء أيضاً إذا أنكرن شيئاً ﴿وقالت عجوز عقيم﴾ معناه: أتلد عجوز عقيم وذلك لأن سارة لم تلد قبل ذلك ﴿قالوا كذلك قال ربك﴾ أي كما قلنا لك قال ربك إنك ستلدين غلاماً ﴿إنه هو الحكيم العليم﴾ ثم إن إبراهيم عليه الصلاة والسلام لما علم حالهم وأنهم من الملائكة قال ﴿فما خطبكم﴾ أي فما شأنكم وما طلبكم ﴿أيها المرسلون قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين﴾ يعني قوم لوط ﴿لنرسل عليهم حجارة من طين﴾ قيل هو الآجر ﴿مسومة﴾ أي معلمة قيل على كل حجر اسم من يهلك به.

وقيل: معلمه بعلامة تدل على أنها ليست من حجارة الدنيا ﴿عند ربك للمسرفين﴾ قال ابن عباس يعني المشركين لأن الشرك أسرف الذنوب وأعظمها.

﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾ وَفِى مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾ وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾ وَفِى ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا۟ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾

﴿فأخرجنا من كان فيها﴾ أي في قرى قوم لوط ﴿من المؤمنين فما وجدنا فيها غير بيت﴾ أي أهل بيت ﴿من

﴿ فراغ ﴾، فعدل ومال، ﴿ إلى أهله فجاء بعجل سمين ﴾، مشوي.

﴿ فقرّبه إليهم ﴾، ليأكلوا فلم يأكلوا، ﴿ قال ألا تأكلون * فأوجس منهم خيفةً قالوا لا تخفْ وبشّروه بغلام عليم * فأقبلتِ امرأته في صَرّةٍ ﴾، أي صيحة، قيل: لم يكن ذلك إقبالاً من مكان إلى مكان، وإنما هو كقول القائل: أقبل يشتمني، بمعنى أخذ في شتمي، أي أخذت تُوَلْوِلُ كما قال الله تعالى: ﴿ قالت يا ويلتي ﴾ [هود: ٧٢]، ﴿ فصكّتْ وجهَها ﴾، قال ابن عباس: لطمت وجهها. وقال الآخرون: جمعت أصابعها فضربت جبينها تعجّباً، كعادة النساء إذا أنكرن شيئاً، وأصل الصكّ: ضرب الشيء بالشيء العريض. ﴿ وقالتْ عجوزٌ عقيم ﴾، مجازه: أتلدُ عجوز عقيم، وكانت سارة لم تلد قبل ذلك.

﴿ قالوا كذلك قال ربك ﴾، أي كما قلنا لك قال ربك إنك ستلدين غلاماً، ﴿ إنه هو الحكيم العليم ﴾.

﴿ قال ﴾، إبراهيم، ﴿ فما خطبكم أيّها المرسلون * قالوا إنّا أُرسلنا إلى قوم مجرمين ﴾، يعني قوم لوط.

﴿ لِنُرسلَ عليهم حجارةً من طين * مسومة ﴾، معلّمة، ﴿ عند ربك للمسرفين ﴾، قال ابن عباس: للمشركين، والشرك أشرف الذنوب وأعظمها.

﴿ فأخرجنا مَنْ كان فيها ﴾، أي في قرى قوم لوط، ﴿ من المؤمنين ﴾، وذلك قوله: ﴿ فاسْرِ بأهلك بِقِطْعٍ من الليل ﴾ [هود: ٨١، الحجر: ٦٥].

المسلمين﴾ يعني لوطاً وابنتيه وصفهم الله تعالى بالإيمان والإسلام جميعاً لأنه ما من مؤمن إلا وهو مسلم. لأن الإسلام أعم من الإيمان. وإطلاق العام على الخاص لا مانع منه فإذا سمي المؤمن مسلماً، لا يدل على اتحاد مفهوميهما ﴿وتركنا فيها﴾ أي في مدينة قوم لوط ﴿آية﴾ أي عبرة ﴿للذين يخافون العذاب الأليم﴾ والمعنى تركنا فيها علامة للخائفين تدلهم على أن الله مهلكهم فيخافون مثل عذابهم قوله عز وجل: ﴿وفي موسى﴾ أي وتركنا في إرسال موسى آية وعبرة ﴿إذ أرسلناه إلى فرعون بسلطان مبين﴾ أي حجة ظاهرة ﴿فتولى﴾ أي أعرض عن الإيمان ﴿بركنه﴾ أي بجمعه وجنوده الذين كان يتقوى بهم ﴿وقال ساحر أو مجنون فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم﴾ أي فأغرقناهم في البحر ﴿وهو مليم﴾ أي آت بما يلام عليه من دعوى الربوبية وتكذيب الرسل ﴿وفي عاد﴾ أي وفي إهلاك عاد أيضاً آية وعبرة ﴿إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم﴾ يعني التي لا خير فيها ولا بركة فلا تلقح شجراً ولا تحمل مطراً ﴿ما تذر من شيء أتت عليه﴾ أي من أنفسهم وأموالهم وأنعامهم ﴿إلا جعلته كالرميم﴾ أي كالشيء الهالك البالي وهو ما يبس وديس من نبات الأرض كالشجر والتبن ونحوه وأصله من رم العظم إذا بلي ﴿وفي ثمود إذ قيل لهم تمتعوا حتى حين﴾ يعني إلى وقت انقضاء آجالهم وذلك أنهم لما عقروا الناقة قيل لهم: تمتعوا في داركم ثلاثة أيام.

فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا اسْتَطَاعُوا مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾ وَقَوْمَ

﴿ فما وجدنا فيها غير بيت ﴾، أي غير أهل بيت، ﴿ من المسلمين ﴾، يعني لوطاً وابنتيه، وصفهم الله تعالى بالإيمان والإسلام جميعاً لأنه ما من مؤمن إلاّ وهو مسلم.

﴿ وتركنا فيها ﴾، أي في مدينة قوم لوط، ﴿ آية ﴾، عبرة، ﴿ للذين يخافون العذاب الأليم ﴾، أي علامة للخائفين تدلّهم على أن الله تعالى أهلكهم فيخافون مثل عذابهم.

﴿ وفي موسى ﴾، أي وتركنا في إرسال موسى آية وعبرة. وقيل: هو معطوف على قوله: ﴿ وفي الأرض آيات للموقنين ﴾ [الذاريات: ٢٠]، وفي موسى، ﴿ إذْ أرسلناه إلى فرعونَ بسلطانٍ مبين ﴾، بحجّة ظاهرة.

﴿ فتولى ﴾، أي فأعرض وأدبر عن الإيمان، ﴿ بركنه ﴾، أي بجمعه وجنوده الذين كانوا يتقوّى بهم، كالركن الذي يقوى به البنيان، نظيره قوله: ﴿ أو آوي إلى ركن شديد ﴾ [هود: ٨٠]، ﴿ وقال ساحرٌ أو مجنون ﴾. قال أبو عبيدة: ﴿ أو ﴾ بمعنى الواو.

﴿ فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليمّ ﴾، أغرقناهم فيه، ﴿ وهو مليم ﴾، أي آتٍ بما يُلام عليه من دعوى الربوبية وتكذيب الرسل.

﴿ وفي عاد ﴾، أي وفي إهلاك عاد أيضاً آية، ﴿ إذْ أرسلنا عليهم الريح العقيم ﴾، وهي التي لا خير فيها ولا بركة ولا تلقح سجراً ولا تحمل مطراً.

﴿ ما تذر من شيء أتت عليه ﴾، من أنفسهم وأنعامهم ومواشيهم وأموالهم، ﴿ إلاّ جعلته كالرميم ﴾، كالشيء الهالك البالي، وهو نبات الأرض إذا يبسَ ودِيْسَ. قال مجاهد: كالتبن اليابس. قال قتادة: كرميم الشجر. قال أبو العالية: كالتراب المدقوق. وقيل: أصله من العظم البالي.

﴿ وفي ثمود إذْ قيل لهم تمتعوا حتى حين ﴾، يعني وقت فناء آجالهم، وذلك أنهم لمّا عقروا الناقة قيل لهم: تمتعوا ثلاثة أيام.

نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٤٦﴾ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ فَفِرُّوٓا إِلَى ٱللَّهِ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾

﴿فعتوا عن أمر ربهم﴾ أي تكبروا عن طاعة ربهم ﴿فأخذتهم الصاعقة﴾ أي بعد مضي ثلاثة أيام من بعد عقر الناقة وهي الموت في قول ابن عباس. وقيل: أخذهم العذاب والصاعقة كل عذاب مهلك ﴿وهم ينظرون﴾ أي يرون ذلك العذاب عياناً ﴿فما استطاعوا من قيام﴾ أي فما قاموا بعد نزول العذاب بهم ولا قدروا على نهوض من تلك الصرعة ﴿وما كانوا منتصرين﴾ أي ممتنعين منا وقيل: ما كانت عندهم قوة يمتنعون بها من أمر الله ﴿وقوم نوح﴾ قرىء بكسر الميم ومعناه وفي يوم نوح وقرىء بنصبها ومعناه: وأغرقنا قوم نوح ﴿من قبل﴾ أي من قبل هؤلاء وهم عاد وثمود وقوم فرعون ﴿إنهم كانوا قوماً فاسقين﴾ أي خارجين عن الطاعة.

قوله تعالى: ﴿والسماء بنيناها بأيد﴾ أي بقوة وقدرة ﴿وإنا لموسعون﴾ قيل: هو من السعة: أي أوسعنا السماء بحيث صارت الأرض وما يحيط بها من السماء والفضاء وبالنسبة إلى سعة السماء كالحلقة الملقاة في الفلاة وقال ابن عباس: معناه قادرون على بنائها كذلك وعنه لموسعون أي الرزق على خلقنا وقيل: معناه وإنا ذوو السعة والغنى ﴿والأرض فرشناها﴾ أي بسطناها ومهدناها لكم ﴿فنعم الماهدون﴾ أي نحن ﴿ومن كل شيء خلقنا زوجين﴾ أي صنفين ونوعين مختلفين كالسماء والأرض والشمس والقمر والليل والنهار والبر والبحر والسهل والجبل والصيف والشتاء والجن والإنس والذكر والأنثى والنور والظلمة والإيمان والكفر والسعادة والشقاوة والحق والباطل والحلو

﴿ فعَتَوا عن أمر ربهم فأخذتهم الصاعقة ﴾، يعني بعد مضي الأيام الثلاثة، وهي الموت في قول ابن عباس، قال مقاتل: يعني العذاب، والصاعقة: كل عذاب مهلك، وقرأ الكسائي: (الصعقة)، وهي الصوت الذي يكون من الصاعقة، ﴿ وهم ينظرون ﴾، يرون ذلك عياناً.

﴿ فما استطاعوا من قيام ﴾، فما قاموا بعد نزول العذاب بهم ولا قدروا على نهوض. قال قتادة: لم ينهضوا من تلك الصرعة، ﴿ وما كانوا منتصرين ﴾، منتقمين منّا. قال قتادة: ما كانت عندهم قوة يمتنعون بها من الله.

﴿ وقومَ نوح ﴾، قرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي: ﴿ وقوم ﴾ بجرّ الميم، أي وفي قوم نوح، وقرأ الآخرون بنصبها بالحمل على المعنى، وهو أن قوله: ﴿ فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليمّ ﴾، معناه: أغرقناهم، كأنه قال: أغرقناهم وأغرقنا قوم نوح. ﴿ من قبل ﴾، أي من قبل هؤلاء، وهم عاد وثمود وقوم فرعون. ﴿ إنهم كانوا قوماً فاسقين ﴾.

﴿ والسماء بنيناها بأيدٍ ﴾، بقوة وقدرة، ﴿ وإنّا لَمُوسِعُون ﴾، قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: لقادرون. وعنه أيضاً: لموسعون الرزق على خلقنا. وقيل: ذو سعة. وقال الضحاك: أغنياء، دليله قوله عزّ وجلّ: ﴿ وعلى المُوْسِعِ قَدَرُه ﴾ [البقرة: ٢٣٦]، قال الحسن: المطيقون.

﴿ والأرض فرشناها ﴾، بسطناها ومهّدناها لكم، ﴿ فنِعمَ الماهدون ﴾، الباسطون نحن: قال ابن عباس: نِعْمَ ما وطّأتُ لعبادي.

﴿ ومن كل شيء خلقنا زوجين ﴾، صنفين ونوعين مختلفين كالسماء والأرض، والشمس والقمر، والليل

والمر والحامض ﴿لعلكم تذكرون﴾ أي فتعلمون أن خالق الأزواج فرد لا نظير له ولا شريك معه ﴿ففروا إلى الله﴾ أي: قل يا محمد ففروا إلى الله أي فاهربوا من عذابه إلى ثوابه بالإيمان والطاعة وقال ابن عباس ففروا منه إليه واعملوا بطاعته وقال سهل بن عبد الله ففروا مما سوى الله إلى الله ﴿إني لكم منه نذير﴾ أي مخوف ﴿مبين﴾ أي بين الرسالة بالحجة الظاهرة والمعجزة الباهرة والبرهان القاطع ﴿ولا تجعلوا مع الله إلهاً آخر﴾ أي وحدوه ولا تشركوا به شيئاً ﴿إني لكم منه نذير مبين﴾ قيل: إنما كرر قوله إني لكم منه نذير مبين عند الأمر بالطاعة والنهي عن الشرك ليعلم أن الإيمان لا ينفع إلا مع العمل كما أن العمل لا ينفع إلا مع الإيمان وأنه لا يفوز عند الله إلا الجامع بينهما.

كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾

﴿كذلك﴾ أي كما كذبك قومك وقالوا ساحر أو مجنون كذلك ﴿ما أتى الذين من قبلهم﴾ أي من قبل كفار مكة والأمم الخالية ﴿من رسول﴾ يعني يدعوهم إلى الإيمان والطاعة ﴿إلا قالوا ساحر أو مجنون﴾ قال الله تعالى: ﴿أتواصوا به﴾ أي أوصى أولهم آخرهم وبعضهم بعضاً بالتكذيب وتواطؤوا عليه وفيه توبيخ لهم ﴿بل هم قوم طاغون﴾ أي لم يتواصلوا بهذا القول لأنهم لم يتلاقوا على زمان واحد بل جمعتهم على ذلك علة واحدة وهي الطغيان وهو الحامل لهم على ذلك القول ﴿فتولَّ عنهم﴾ أي أعرض عنهم ﴿فما أنت بملوم﴾ أي لا لوم عليك فقد أديت الرسالة وبذلت المجهود وما قصرت فيما أمرت به.

قال المفسرون: لما نزلت هذه الآية حزن رسول الله ﷺ واشتد على أصحابه وظنوا أن الوحي قد انقطع وأن

والنهار، والبرّ والبحر، والسهل والجبل، والشتاء والصيف، والجنّ والإنس، والذَّكر والأُنثى، والنور والظلمة، والإيمان والكفر، والسعادة والشقاوة، والجنة والنار، والحق والباطل، والحلو والمرّ. ﴿ لعلّكم تذكّرون ﴾، فتعلمون أن خالق الأزواج فرد.

﴿ ففِرُّو إلى الله ﴾، فاهربوا من عذاب الله إلى ثوابه، بالإيمان والطاعة. قال ابن عباس: فرّوا منه إليه واعملوا بطاعته. وقال سهل بن عبد الله: فرّوا مما سوى الله إلى الله. ﴿ إنّي لكم منه نذير مبين * ولا تجعلوا مع الله إلَهاً آخر إني لكم منه نذير مبين ﴾.

﴿ كذلك ﴾، أي كما كذّبك قومك يا محمد وقالوا ساحر أو مجنون كذلك، ﴿ ما أتى الذين من قبلهم ﴾، من قبل كفّار مكة، ﴿ من رسول إلاّ قالوا ساحرٌ أو مجنون ﴾.

قال الله تعالى: ﴿ أتواصَوْا بهِ ﴾، أي أوصى أولهمُ آخرَهم وبعضُهم بعضاً بالتكذيب وتواطؤوا عليه؟ والألف فيه للتوبيخ، ﴿ بل هم قوم طاغون ﴾، قال ابن عباس: حملهم الطغيان فيما أعطيتهم ووسّعتُ عليهم على تكذيبك، ﴿ فتولَّ عنهم ﴾، فأعرض عنهم، ﴿ فما أنت بمَلوم ﴾، لا لوم عليك فقد أدّيتَ الرسالة وما قصّرت فيما أُمرت به. قال المفسّرون: لمّا نزلت هذه الآية حزن رسول الله ﷺ واشتدّ ذلك على أصحابه، وظنوا أن الوحي قد انقطع، وأن العذاب قد حضر إذْ أُمر النبي ﷺ أن يتولّى عنهم.

فأنزل الله تعالى: ﴿ وذكِّرْ فإن الذكرى تنفعُ المؤمنين ﴾، فطابت أنفسهم. قال مقاتل: معناه عِظْ بالقرآن

العذاب قد حضر إذ أمر النبي ﷺ أن يتولى عنهم فأنزل الله عز وجل: ﴿وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين﴾ فطابت نفوسهم بذلك والمعنى عظ بالقرآن كفار مكة فإن الذكرى تنفع من علم الله أنه يؤمن منهم وقيل: معناه عظ بالقرآن من آمن من قومك فإن الذكرى تنفعهم.

قوله عز وجل: ﴿وما خلقت الجن والإنس﴾ أي من المؤمنين ﴿إلا ليعبدون﴾ قيل هذا خاص بأهل طاعته من الفريقين يدل عليه قراءة ابن عباس «وما خلقت الجن والإنس من المؤمنين إلا ليعبدون» وقيل: معناه وما خلقت السعداء من الجن والإنس إلا لعبادتي والأشقياء منهم إلا لمعصيتي وهو ما جبلوا عليه من الشقاوة والسعادة. وقال علي بن أبي طالب إلا ليعبدون أي إلا لآمرهم أن يعبدوني وأدعوهم إلى عبادتي. وقيل: معناه إلا ليعرفوني وهذا حسن لأنه لو لم يخلقهم لم يعرف وجوده وتوحيده. وقيل: معناه إلا ليخضعوا لي ويتذللوا لأن معنى العبادة في اللغة التذلل والانقياد وكل مخلوق من الجن والإنس خاضع لقضاء الله متذلل للمشيئة لا يملك أحد لنفسه خروجاً عما خلق له. وقيل: معناه إلا ليوحدوني فأما المؤمن فيوحده اختياراً في الشدة والرخاء وأما الكافر فيوحده اضطراراً في الشدة والبلاء دون النعمة والرخاء ﴿ما أريد منهم من رزق﴾ أي ما أريد أن يرزقوا أحداً من خلقي ولا أن يرزقوا أنفسهم لأني أنا الرزاق المتكفل لعبادي بالرزق القائم لكل نفس بما يقيمها من قوتها ﴿وما أريد أن يطعمون﴾ أي أن يطعموا أحداً من خلقي وإنما أسند الإطعام إلى نفسه لأن الخلق كلهم عيال الله ومن أطعم عيال أحد فقد أطعمه لما صح من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «إن الله عز وجل يقول يوم القيامة يا ابن آدم مرضت فلم تعدني قال يا رب كيف أعودك وأنت رب العالمين؟ قال أما علمت أن عبدي فلاناً مرض فلم تعده أما علمت أنك لو عدته لوجدتني عنده يا ابن آدم استطعمتك فلم تطعمني قال يا رب كيف أطعمك وأنت رب العالمين قال أما علمت أنه استطعمك عبدي فلان فلم تطعمه أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندي يا ابن آدم استسقيتك فلم تسقني قال: يا رب كيف أسقيك وأنت

كفّار مكة، فإن الذكرى تنفع مَن في علم الله أن يؤمن منهم. وقال الكلبي: عِظْ بالقرآن مَن آمن من قومك فإن الذكرى تنفعهم.

﴿ وما خلقت الجنّ والإنس إلّا ليعبدون ﴾، قال الكلبي والضحاك وسفيان: هذا خاصّ لأهل طاعته من الفريقين، يدلّ عليه قراءة ابن عباس: ﴿ وما خلقت الجنّ والإنس ﴾ (من المؤمنين) ﴿ إلّا ليعبدون ﴾، ثم قال في آية أخرى: ﴿ ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجنّ والإنس ﴾ [الأعراف: ١٧٩]، وقال بعضهم: وما خلقت السعداء من الجنّ والإنس إلّا لعبادتي والأشقياء منهم إلّا لمعصيتي، وهذا معنى قول زيد بن أسلم، قال: هم على ما جُبِلُوا عليه من الشقاوة والسعادة. وقال عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه: إلّا ليعبدون أي إلّا لآمُرُهم أن يعبدوني وأدعوهم إلى عبادتي، يؤيده قوله عزّ وجلّ: ﴿ وما أُمروا إلّا ليعبدوا إلَهاً واحداً ﴾ [التوبة: ٣١]، وقال مجاهد: إلّا ليعرفوني. وهذا أحسن لأنه لو لم يخلقهم لم يعرف وجوده وتوحيده، دليله قوله تعالى: ﴿ ولئن سألتهم مَن خلقهم ليقولنّ الله ﴾ [الزخرف: ٨٧]، وقيل: معناه إلّا ليخضعوا إليّ ويتذلّلوا، ومعنى العبادة في اللغة: التذلّل والانقياد، فكل مخلوق من الجن والإنس خاضع لقضاء الله، ومتذلّل لمشيئته لا يملك أحد لنفسه خروجاً عمّا خُلق عليه قدر ذرّة من نفع أو ضرر. وقيل: إلّا ليعبدون إلّا ليوحّدون، فأما المؤمن فيجده في الشدّة والرخاء، وأما الكافر فيوحّده في الشدّة والبلاء دون النّعمة والرخاء، بيانه قوله عزّ وجلّ: ﴿ فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين ﴾ [العنكبوت: ٦٥].

﴿ ما أُريد منهم من رزق ﴾، أي أن يرزقوا أحداً من خلقي ولا أن يرزقوا أنفسهم، ﴿ وما أُريد أن يطعمون ﴾، أي أن يطعموا أحداً من خلقي، وإنما أسند الإطعام إلى نفسه، لأن الخلق عيال الله ومَن أطعم عيال

رب العالمين قال استسقاك عبدي فلان فلم تسقه أما علمت أنك لو سقيته لوجدت ذلك عندي» أخرجه مسلم ثم بين أن الرزاق هو لا غيره فقال تعالى:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ۝٥٨ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَـٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ۝٥٩ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ۝٦٠﴾

﴿**إن الله هو الرزاق**﴾ أي لجميع خلقه ﴿**ذو القوة المتين**﴾ يعني هو القوي الشديد المقتدر البليغ القوة والقدرة الذي لا يلحقه في أفعاله مشقة ﴿**فإن للذين ظلموا**﴾ أي من أهل مكة ﴿**ذنوباً**﴾ أي نصيباً من العذاب ﴿**مثل ذنوب أصحابهم**﴾ أي مثل نصيب أصحابهم الذين هلكوا من قوم نوح وعاد وثمود ﴿**فلا يستعجلون**﴾ أي بالعذاب لأنهم أخروا إلى يوم القيامة يدل عليه قوله عز وجل ﴿**فويل للذين كفروا من يومهم الذي يوعدون**﴾ يعني يوم القيامة وقيل: يوم بدر والله تعالى أعلم بمراده.

أحد فقد أطعمه. كما جاء في الحديث يقول الله: «يا ابن آدم استطعمتُك فلم تُطعمني»، أي فلم تطعم عبدي، ثم بيّن أن الرزّاق هو لا غيره فقال:

﴿ إنّ الله هو الرزّاق ﴾، يعني لجميع خلقه، ﴿ ذو القوة المتين ﴾، وهو القوي المقتدر المبالغ في القوة والقدرة.

﴿ فإنّ للذين ظلموا ﴾، كفروا من أهل مكة، ﴿ ذنوباً ﴾، نصيباً من العذاب، ﴿ مثل ذنوب أصحابهم ﴾، مثل نصيب أصحابهم الذين أهلكوا من قوم نوح وعاد وثمود، وأصل الذنوب في اللغة: الدلو العظيمة المملوءة ماء، ثم استعمل في الحظ والنصيب، ﴿ فلا يستعجلون ﴾، بالعذاب يعني أنهم أُخّروا إلى يوم القيامة.

يدلّ عليه قوله عزّ وجلّ: ﴿ فويلٌ للذين كفروا من يومهم الذي يُوعدون ﴾، يعني يوم القيامة، وقيل: يوم بدر.

سورة الطور

(مكية وهي تسع وأربعون آية وثلاثمائة واثنتا عشرة كلمة وألف وخمسمائة حرف)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلطُّورِ ﴿١﴾ وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ﴿٢﴾ فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ ﴿٣﴾

قوله عز وجل: ﴿والطور﴾ أراد به الجبل الذي كلم الله موسى عليه الصلاة والسلام بالأرض المقدسة وقيل: بمدين ﴿وكتاب مسطور﴾ أي مكتوب ﴿في رق﴾ يعني الأديم الذي يكتب فيه المصحف ﴿منشور﴾ أي مبسوط.

واختلفوا في الكتاب، فقيل: هو ما كتب الله بيده لموسى من التوراة وموسى يسمع صرير الأقلام. وقيل: هو اللوح المحفوظ. وقيل: هو دواوين الحفظة يخرج إليهم يوم القيامة منشوراً فآخذ بيمينه وآخذ بشماله. وقيل: هو القرآن.

وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ ﴿٤﴾ وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ ﴿٥﴾ وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ ﴿٦﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ﴿٧﴾ مَّا لَهُۥ مِن
دَافِعٍ ﴿٨﴾ يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ﴿٩﴾ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ﴿١٠﴾

﴿والبيت المعمور﴾ يعني بكثرة الغاشية والأهل وهو بيت في السماء السابعة قدام العرش بحيال الكعبة يقال له الصراع حرمته في السماء كحرمة الكعبة في الأرض وصح في حديث المعراج من أفراد مسلم عن أنس أن رسول الله

سُوْرَة الطّور

مكيّة وهي تسع وأربعون آية.

﴿ والطورِ ﴾، أراد به الجبل الذي كلّم الله تعالى عليه موسى عليه السلام بالأرض المقدسة أقسم الله تعالى به.

﴿ وكتابٍ مسطور ﴾، مكتوب.

﴿ في رَقٍّ مَنْشُور ﴾، الرقّ: ما يُكتَب فيه، وهو أديم المصحف والمنشور المبسوط، واختلفوا في هذا الكتاب، قال الكلبي: هو ما كتب الله بيده لموسى من التوراة وموسى يسمع صرير القلم. وقيل: هو اللوح المحفوظ. وقيل: هو دواوين الحَفَظَة تخرج إليهم يوم القيامة منشورة، فأخذ بيمينه وأخذ بشماله. دليله قوله عزّ وجلّ: ﴿ ونُخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً ﴾ [الإسراء: ١٣].

﴿ والبيت المعمور ﴾، بكثرة الغاشية والأهل، وهو بيت في السماء السابعة حذاء العرش بحيال الكعبة

ﷺ رأى البيت المعمور في السماء السابعة قال: فإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه وفي رواية أخرى قال فانتهيت إلى بناء فقلت للملك ما هذا؟ قال بناء بناه الله للملائكة يدخل فيه كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون يسبحون الله ويقدسونه.

وفي أفراد البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «أنه رأى البيت المعمور يدخله كل يوم سبعون ألف ملك» ﴿**والسقف المرفوع**﴾ يعني السماء ﴿**والبحر المسجور**﴾ يعني الموقد المحمى بمنزلة التنور المسجور وهو قول ابن عباس. وذلك ما روي أن الله تعالى يجعل البحار كلها يوم القيامة ناراً فيزاد بها في نار جهنم وجاء في الحديث عن عبدالله بن عمرو وقال قال رسول الله ﷺ «لا يركبن رجل البحر إلا غازياً أو معتمراً أو حاجاً فإن تحت البحر ناراً وتحت النار بحراً وقيل: المسجور المملوء وقيل: هو اليابس الذي ذهب ماؤه ونضب. وقيل: هو المختلط العذب بالملح.

وروي عن علي أنه قال البحر المسجور هو بحر تحت العرش غمره كما بين سبع سموات إلى سبع أرضين فيه ماء غليظ يقال له بحر الحيوان يمطر العباد بعد النفخة الأولى منه أربعين صباحاً فينبتون من قبورهم أقسم الله بهذه الأشياء لما فيها من عظيم قدرته وجواب القسم قوله تعالى: ﴿**إن عذاب ربك لواقع**﴾ يعني إنه لحق وكائن ونازل بالمشركين في الآخرة ﴿**ما له من دافع**﴾ أي مانع.

قال جبير بن مطعم: قدمت المدينة لأكلم رسول الله ﷺ في أسارى بدر فدفعت له وهو يصلي بأصحابه المغرب وصوته يخرج من المسجد فسمعته يقرأ والطور إلى قوله إن عذاب ربك لواقع ما له من دافع فكأنما صدع قلبي حين

يقال له: الضُّرَاح، حُرمته في السماء كحُرمة الكعبة في الأرض يدخله كل يوم سبعون ألفاً من الملائكة يطوفون به ويصلّون فيه ثم لا يعودون إليه أبداً.

﴿ **والسقفِ المرفوع** ﴾، يعني السماء نظيره قوله عزّ وجلّ: ﴿ **وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً** ﴾ [الأنبياء: ٣٢].

﴿ **والبحر المسجور** ﴾، قال محمد بن كعب القرظي والضحاك: يعني الموقد المحمّى بمنزلة التنّور المسجور، وهو قول ابن عباس: وذلك ما رُوِيَ أن الله تعالى جعل البحار كلها يوم القيامة ناراً فيزداد بها في نار جهنم، كما قال الله تعالى: ﴿ وإذا البحار سُجِّرتْ ﴾ [التكوير: ٦]، وجاء في الحديث عن عبد الله بن عمرو قال رسول الله ﷺ: «لا يركبنّ رجلٌ بحراً إلّا غازياً ومعتمراً أو حاجّاً، فإنّ تحتَ البحر ناراً وتحت النار بحراً» وقال مجاهد والكلبي: المسجور المملوء، يقال: سجرت الإناء إذا ملأته. وقال الحسن وقتادة وأبو العالية: هو اليابس الذي قد ذهب ماؤه ونضب. وقال الربيع بن أنس: هو المختلط العذب بالملح. وروى الضحّاك عن النزال بن سبرة عن علي أنه قال في البحر المسجور: هو بحر تحت العرش، سعته كما بين سبع سمٰوات إلى سبع أرضين، فيه ماء غليظ يقال له: بحر الحيوان، تمطر العباد بعد النفخة الأولى منه أربعين صباحاً فينبتون في قبورهم. هذا قول مقاتل: أقسم الله بهذه الأشياء.

﴿ **إن عذاب ربك لواقع** ﴾، نازل كائن.

﴿ **ما له من دافع** ﴾، مانع قال جبير بن مطعم: قَدِمت المدينة لأكلّم رسول الله ﷺ في أسارى بدر فدفعت إليه وهو يصلّي بأصحابه المغرب، وصوته يخرج من المسجد فسمعته يقرأ ﴿ **والطور** ﴾ إلى قوله: ﴿ **إن عذاب**

سمعت ولم يكن أسلم يومئذ فأسلمت خوفاً من نزول العذاب وما كنت أظن أني أقوم من مكاني حتى يقع بي العذاب ثم بين أنه متى يقع فقال تعالى: ﴿**يوم تمور السماء موراً**﴾ أي تدور كدوران الرحى وتتكفأ بأهلها تكفؤ السفينة وقيل: تتحرك وتختلف أجزاؤها بعضها من بعض وتضطرب ﴿**وتسير الجبال سيراً**﴾ أي تزول عن أماكنها وتصير هباء منثوراً والحكمة في مور السماء وسير الجبال الإنذار والأعلام بأن لا رجوع ولا عود إلى الدنيا وذلك لأن الأرض والسماء وما بينهما من الجبال والبحار وغير ذلك إنما خلقت لعمارة الدنيا وانتفاع بني آدم بذلك فلما لم يبق لهم عود إليها أزالها الله تعالى وذلك لخراب الدنيا وعمارة الآخرة.

فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ هَٰذِهِ
ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟ سَوَآءٌ
عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ
عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ
عِينٍ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ
رَهِينٌ ﴿٢١﴾

﴿**فويل**﴾ أي شدة عذاب ﴿**يومئذ للمكذبين**﴾ أي يوم القيامة ﴿**الذين هم في خوض**﴾ أي يخوضون في الباطل ﴿**يلعبون**﴾ أي غافلون لأهون عما يراد بهم ﴿**يوم يدعون**﴾ أي يدفعون ﴿**إلى نار جهنم دعا**﴾ يعني دفعاً بعنف وجفوة، وذلك أن خزنة جهنم يغلّون أيدي الكفار إلى أعناقهم ويجمعون نواصيهم إلى أقدامهم ويدفعون بها دفعاً إلى النار على وجوههم وزجّاً في أقفيتهم حتى يردوا إلى النار، فإذا دنوا منها، قال لهم خزنتها: ﴿**هذه النار التي كنتم بها تكذبون**﴾ أي في الدنيا ﴿**أفسحر هذا**﴾ ذلك أنهم كانوا ينسبون محمداً ﷺ إلى السحر وأنه يغطي على الأبصار فوبخوا بذلك وقيل

ربك لواقع * ما له من دافع ﴾، فكأنما صدع قلبي حين سمعته، ولم يكن أسلم يومئذ، قال فأسلمت خوفاً من نزول العذاب وما كنت أظن أني أقوم من مكاني حتى يقع بي العذاب. ثم بيّن أنه متى يقع فيقال:

﴿ **يوم تمور السماء موراً** ﴾، أي تدور كدوران الرحى وتتكفأ بأهلها تكفؤَ السفينة. قال قتادة: تتحرك. قال عطاء الخراساني: تختلف أجزاؤها بعضها في بعض. وقيل: تضطرب، والمور يجمع هذه المعاني فهو في اللغة: الذهاب والمجيء والتردّد والدوران والاضطراب.

﴿ **وتسيرُ الجبال سيراً** ﴾فتزول عن أماكنها وتصير هباءً منثوراً.

﴿ **فويلٌ** ﴾ فشدّة عذاب، ﴿ **يومئذ للمكذّبين * الذين هم في خوض يلعبون** ﴾، يخوضون في الباطل يلعبون غافلين لاهين.

﴿ **يوم يُدَعُّون** ﴾. يدفعون، ﴿ **إلى جهنّم دَعّاً** ﴾، دفعاً بعنف وجفوة، وذلك أن خَزَنَة جهنم يغلّون أيديهم إلى أعناقهم، ويجمعون نواصيهم إلى أقدامهم، ثم يَدفعونهم إلى النار دفعاً على وجوههم، وزجّاً في أقفيتهم حتى يَرِدُوا النار، فإذا دنوا منها قال لهم خَزَنَتها:

﴿ **هذه النار التي كنتم بها تكذبون** ﴾، في الدنيا.

لهم: أفسحر هذا ﴿أم أنتم لا تبصرون اصلوها﴾ أي قاسوا شدتها ﴿فاصبروا﴾ أي على العذاب ﴿أو لا تصبروا﴾ أي عليه ﴿سواء عليكم﴾ أي الصبر والجزع ﴿إنما تجزون ما كنتم تعملون﴾ أي من الكفر والتكذيب في الدنيا.

قوله تعالى: ﴿إن المتقين في جنات ونعيم فاكهين﴾ أي معجبين بذلك ناعمين ﴿بما آتاهم ربهم﴾ أي من الخير والكرامة ﴿ووقاهم ربهم عذاب الجحيم كلوا﴾ أي يقال لهم كلوا ﴿واشربوا هنيئاً﴾ أي مأمون العاقبة من التخمة والسقم ﴿بما كنتم تعملون﴾ أي في الدنيا من الإيمان والطاعة ﴿متكئين على سرر مصفوفة﴾ أي موضوعة بعضها إلى بعض ﴿وزوجناهم بحور عين والذين آمنوا وأتبعناهم ذرياتهم بإيمان﴾ يعني ألحقنا أولادهم الصغار والكبار بإيمانهم فالكبار بإيمانهم بأنفسهم والصغار بإيمان آبائهم فإن الولد الصغير يحكم بإسلامه تبعاً لأحد أبويه ﴿ألحقنا بهم ذرياتهم﴾ يعني المؤمنين في الجنة بدرجات آبائهم وإن لم يبلغوا بأعمالهم درجات آبائهم تكرمة لآبائهم لتقر بذلك أعينهم هذه رواية عن ابن عباس. وفي رواية أخرى عنه، أن معنى الآية والذين آمنوا واتبعناهم ذرياتهم يعني البالغين بإيمان ألحقنا بهم ذرياتهم الصغار الذين لم يبلغوا الإيمان بإيمان آبائهم أخبر الله تعالى أنه يجمع لعبده المؤمن من ذريته في الجنة كما كان يحب في الدنيا أن يجتمعوا إليه فيدخلهم الجنة بفضله ويلحقهم بدرجته بعمله من غير أن

﴿أَفسحرٌ هذا﴾، وذلك أنهم كانوا ينسبون محمداً ﷺ إلى السحر، وإلى أنه يغطّي على الأبصار بالسحر، فوُبِّخوا به، وقيل لهم: ﴿ فسحرٌ هذا أم أنتم لا تبصرون ﴾.

﴿ اصلوها ﴾، قاسوا شدّتها، ﴿ فاصبروا أو لا تصبروا سواء عليكم ﴾، الصبر والجزع، ﴿ إنّما تُجزَون ما كنتم تعملون ﴾.

﴿ إنّ المتّقين في جنّات ونعيم * فاكهين ﴾، معجبين بذلك ناعمين، ﴿ بما آتاهم ربّهم ووقاهم ربهم عذاب الجحيم ﴾، ويقال لهم:

﴿ كُلُوا واشْرَبُوا هنيئاً ﴾، مأمون العاقبة من التخمة والسقم، ﴿ بما كنتم تعملون ﴾.

﴿ متّكئين على سُرر مصفوفة ﴾، موضوعة بعضها إلى جنب بعض، ﴿ وزوّجناهم بحور عين ﴾.

﴿ والذين آمنوا واتّبعتهم ذرّيتهم بإيمان ﴾، قرأ أبو عمرو: (أتبعناهم) بقطع الألف على التعظيم، (ذريّاتهم)، بالألف وكسر التاء فيهما لقوله: ﴿ ألحقنا بهم ﴾ ﴿ وما ألتناهم ﴾، ليكون الكلام على نسق واحد، وقرأ الآخرون ﴿ واتّبعتهم ﴾ بوصل الألف وتشديد التاء بعدها وسكون التاء الأخيرة، ثم اختلفوا في ذرّيتهم، قرأ أهل المدينة الأولى بغير ألف وضمّ التاء، والثانية بالألف وكسر التاء، وقرأ أهل الشام ويعقوب كلاهما بالألف وكسر التاء في الثانية، وقرأ الآخرون بغير ألف فيهما ورفع التاء الأولى ونصبها في الثانية، واختلفوا في معنى الآية، فقال قوم: معناها والذين آمنوا واتّبعتهم ذريّتهم بإيمان يعني أولادهم الصغار والكبار، فالكبار بإيمانهم بأنفسهم، والصغار بإيمان آبائهم، فإن الولد الصغير يحكم بإسلامه تبعاً لأحد الأبوين ﴿ ألحقنا بهم ذريتهم ﴾ المؤمنين في الجنة بدرجاتهم وإن لم يبلغوا بأعمالهم درجات آبائهم تكرمةً لآبائهم لتقرَّ بذلك أعينهم. وهي رواية سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهم. وقال آخرون: معناه والذين آمنوا واتّبعتهم ذريّتهم البالغون بإيمان ألحقنا بهم ذريّتهم الصغار الذين لم يبلغوا الإيمان بإيمان آبائهم. وهو قول الضحّاك، ورواية العوفي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما، أخبر الله عزّ وجلّ أنه يجمع لعبده المؤمن ذريّته في الجنة كما كان يحبُّ في الدنيا أن يجتمعوا إليه، يُدخلهم الجنة بفضله ويُلحقهم بدرجته بعمل أبيه، من غير أن يُنقص الآباء من أعمالهم شيئاً، فذلك قوله: ﴿ وما ألتناهم ﴾، قرأ ابن كثير بكسر اللام، والباقون بفتحها أي ما نقصانهم يعني الآباء، ﴿ من عملهم من شيء ﴾،

ينقص الآباء من أعمالهم شيئاً وذلك قوله تعالى: ﴿وما ألتناهم من عملهم من شيء﴾ يعني: وما نقصنا الآباء من أعمالهم شيئاً عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ يرفع ذرية المؤمن في درجته وإن كانوا دونه في العمل لتقر بهم عينه ثم قرأ والذين آمنوا وأتبعناهم ذرياتهم بإيمان ألحقنا بهم ذرياتهم إلى آخر الآية.

عن علي قال: «سألت خديجة النبي ﷺ عن ولدين ماتا لها في الجاهلية فقال رسول الله ﷺ هما في النار فلما رأى الكراهية في وجهها قال: لو رأيت مكانهما لأبغضتهما قالت يا رسول الله ﷺ فولدي منك قال: في الجنة ثم قال رسول الله ﷺ إن المؤمنين وأولادهم في الجنة وإن المشركين وأولادهم في النار ثم قرأ النبي ﷺ والذين آمنوا وأتبعناهم ذرياتهم بإيمان ألحقنا بهم ذرياتهم» أخرج هذين الحديثين البغوي بإسناد الثعلبي.

﴿كل امرىء﴾ أي كافر ﴿بما كسب﴾ أي عمل من الشرك ﴿رهين﴾ أي مرتهن بعمله في النار والمؤمن لا يكون مرتهناً بعمله لقوله «كل نفس بما كسبت رهينة إلا أصحاب اليمين» ثم ذكر ما وعدهم به من الخير والنعمة فقال تعالى:

وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾ يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾

﴿وأمددناهم بفاكهة﴾ يعني زيادة عما كان لهم ﴿ولحم مما يشتهون﴾ أي من أنواع اللحوم ﴿يتنازعون﴾ أي يتعاطون ويتناولون ﴿فيها﴾ أي في الجنة ﴿كأساً لا لغو فيها﴾ أي لا باطل فيها ولا رفث ولا تخاصم ولا تذهب عقولهم فيلغوا ويرفثوا ﴿ولا تأثيم﴾ أي لا يكون فيها ما يؤثمهم ولا يجري بينهم ما فيه لغو وإثم كما يجري بين شربة الخمر في الدنيا. وقيل: لا يأثمون في شربها.

أخبرنا أبو سعيد أحمد بن إبراهيم الشريحي أنا أبو إسحاق الثعلبي أخبرني الحسين بن محمد بن عبد الله الحديثي ثنا سعيد بن محمد بن إسحاق الصيرفي ثنا محمد بن عثمان بن أبي شيبة جنادة بن المفلس ثنا قيس بن الربيع ثنا عمر بن مرّة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ الله يرفع ذريّة المؤمن في درجته وإن كانوا دونه في العمل، لتقرَّ بهم عينه»، ثم قرأ: ﴿ والذين آمنوا واتّبعهم ذرّيّتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريّاتِهم ﴾، إلى آخر الآية. أخبرنا أبو سعيد الشريحي أنا أبو إسحاق الثعلبي أنا عبد الله بن فنجويه الدينوري ثنا أبو بكر مالك القطيعي ثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل حدّثني عثمان بن أبي شيبة ثنا محمد بن فضل عن محمد بن عثمان عن زاذان عن عليّ رضي الله عنه قال: سألت خديجة رضي الله تعالى عنها عن النبي ﷺ عن ولدين ماتا لها في الجاهلية، فقال رسول الله ﷺ: «هما في النار»، فلما رأى الكراهية في وجهها، قال: «لو رأيتِ مكانَهما لأبغضتِهما»، قالت: يا رسول الله فولديَّ منك؟ قال: «في الجنة» ثم قال رسول الله ﷺ: «إن المؤمنين وأولادهم في الجنة، وإن المشركين وأولادهم في النار»، ثم قرأ رسول الله ﷺ ﴿ والذين آمنوا واتّبعتهم ذرّيّتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريّاتهم ﴾. ﴿ كلُّ امرىء بما كسب رهين ﴾، قال مقاتل: كل امرىء كافر بما عمل من الشرك مرتهن في النار، والمؤمن لا يكون مرتهناً، لقوله عزّ وجلّ: ﴿ كل نفس بما كسبت رهينة * إلاّ أصحاب اليمين ﴾ [المدّثر: ٣٨ و٣٩] ثـم ذكر ما يزيدهم من الخير والنعمة.

فقال: ﴿ وأمددناهم بفاكهة ﴾، زيادة على ما كان لهم، ﴿ ولحم مما يشتهون ﴾، من أنواع اللحمان.

﴿ يتنازعون ﴾، يتعاطون ويتناولون، ﴿ فيها كأساً لا لغوٌ فيها ﴾، وهو الباطل، ورُوِيَ ذلك عن قتادة، وقال مقاتل بن حيّان: لا فضول فيها. وقال سعيد بن المسيّب: لا رفث فيها. وقال ابن زيد: لا سُباب ولا تخاصم فيها. وقال القتيبي: لا تذهب عقولهم فيلغوا ويرفثوا، ﴿ ولا تأثيم ﴾، أي لا يكون منهم ما يؤثمهم. قال الزجّاج: لا يجري بينهم ما يلغي ولا ما فيه إثم كما يجري في الدنيا بشربة الخمر. وقيل: لا يأثمون في شربها.

﴿۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ۝٢٤ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ۝٢٥ قَالُوٓا إِنَّا كُنَّا
قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ۝٢٦ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ۝٢٧ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ
ٱلرَّحِيمُ ۝٢٨ فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ۝٢٩ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ۝٣٠﴾

﴿ويطوف عليهم﴾ أي للخدمة ﴿غلمان لهم كأنهم﴾ أي في الحسن والبياض والصفاء ﴿لؤلؤ مكنون﴾ أي مخزون مصون لم تمسه الأيدي وقال عبد الله بن عمرو ما من أحد من أهل الجنة إلا يسعى عليه ألف غلام كل واحد منهم على عمل غير عمل صاحبه وعن قتادة قال: «ذكر لنا أن رجلاً قال يا نبي الله هذا الخادم فكيف المخدوم؟ قال: فضل المخدوم على الخادم كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب.

قوله تعالى: ﴿وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون﴾ يعني يسأل بعضهم بعضاً في الجنة قال ابن عباس: يتذاكرون ما كانوا فيه من الخوف والتعب في الدنيا ﴿قالوا إنا كنا قبل في أهلنا﴾ أي في الدنيا ﴿مشفقين﴾ أي خائفين من العذاب ﴿فمن الله علينا﴾ أي بالمغفرة ﴿ووقانا عذاب السموم﴾ يعني عذاب النار وقيل: هو اسم من أسماء جهنم ﴿إنا كنا من قبل﴾ أي في الدنيا ﴿ندعوه﴾ أي نخلص الدعاء والعبادة له ﴿إنه هو البر﴾ قال ابن عباس: اللطيف وقيل: يعني الصادق فيما وعد. وقيل: البر العطوف على عباده المحسن إليهم الذي عم بره جميع خلقه ﴿الرحيم﴾ بعبيده.

قوله عز وجل: ﴿فذكر﴾ يعني فعظ يا محمد بالقرآن كفار مكة ﴿فما أنت بنعمة ربك﴾ أي برحمته وعصمته

﴿ ويطوف عليهم ﴾، بالخدمة، ﴿ غلمان لهم كأنهم ﴾، في الحُسْن والبياض والصفاء، ﴿ لؤلؤ مكنون ﴾، مخزون مصون لم تمسّه الأيدي. قال سعيد بن جبير: مكنون يعني في الصدف. قال عبد الله بن عمرو: ما من أحد من أهل الجنة إلّا يسعى عليه ألف غلام، وكل غلام على عمل ما عليه صاحبه. ورُوِيَ عن الحسن أنه لمّا تلا هذه الآية قال: قالوا يا رسول الله: الخادم كاللؤلؤ المكنون، فكيف المخدوم؟ وعن قتادة قال: ذكر لنا أن رجلاً قال: يا نبيّ الله هذا الخادم فكيف المخدوم؟ قال: «فضل المخدوم على الخادم كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب».

﴿ وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون ﴾، يسأل بعضهم بعضاً في الجنة. قال ابن عباس: يتذاكرون ما كانوا فيه من التعب والخوف في الدنيا.

﴿ قالوا إنّا كنّا قبلُ في أهلنا ﴾، في الدنيا، ﴿ مشفقين ﴾، خائفين من العذاب.

﴿ فمنّ الله علينا ﴾، بالمغفرة، ﴿ ووقانا عذاب السَّموم ﴾، قال الكلبي: عذاب النار. وقال الحسن: السَّموم اسم من أسماء جهنم.

﴿ إنّا كنّا من قبلُ ﴾، في الدنيا، ﴿ ندعوه ﴾، نخلص له العبادة، ﴿ إنّه ﴾، قرأ أهل المدينة والكسائي ﴿ إنه ﴾ بفتح الألف، أي لأنه أو بأنه، وقرأ الآخرون بالكسر على الاستئناف. ﴿ هو البرّ ﴾، قال ابن عباس: اللطيف. وقال الضحاك: الصادق فيما وعد ﴿ الرحيم ﴾.

﴿ فذكِّر ﴾، يا محمد بالقرآن أهل مكة، ﴿ فما أنت بنعمة ربِّك ﴾، برحمته وعصمته، ﴿ بكاهن ﴾، تبتدع القرآن وتخبر بما في غد من غير وحي، ﴿ ولا مجنون ﴾، نزلت في الذين اقتسموا عقبات مكة يرمون رسول الله ﷺ بالكهانة والسحر والجنون والشعر.

وقيل: بإنعامه عليك بالنبوة ﴿بكاهن ولا مجنون﴾ الكاهن هو الذي يوهم أنه يعلم الغيب ويخبر بما في غد من غير وحي والمعنى أنك لست كما يقول كفار مكة إنه كاهن أو مجنون إنما تنطلق بالوحي نزلت في الذين اقتسموا أعقاب مكة يرمون رسول الله ﷺ بالكهانة والسحر والشعر والجنون ﴿أم يقولون﴾ يعني هؤلاء المقتسمين ﴿شاعر﴾ أي هو شاعر ﴿نتربص به﴾ أي ننتظر به ﴿ريب المنون﴾ يعني حوادث الدهر وصروفه فيموت ويهلك كما هلك من كان قبله من الشعراء أو يتفرق عنه أصحابه وإن أباه مات وهو شاب ونحن نرجو أن يكون موته كموت أبيه والمنون اسم للموت وللدهر وأصله القطع سميا بذلك لأنهما يقطعان الأجل.

﴿قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ ۚ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَۣيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾

﴿قل تربصوا﴾ أي انتظروا بي الموت ﴿فإني معكم من المتربصين﴾ أي من المنتظرين حتى يأتي أمر الله فبكم فعذبوا يوم بدر بالقتل والسبي ﴿أم تأمرهم أحلامهم﴾ أي عقولهم ﴿بهذا﴾ وذلك أن عظماء قريش كانوا يوصفون بالأحلام والعقول فأزرى الله بعقولهم حين لم تثمر لهم معرفة الحق من الباطل ﴿أم هم قوم طاغون﴾ أي يتجاوزون الحد في الطغيان والكفر ﴿أم يقولون تقوله﴾ أي اختلق القرآن من تلقاء نفسه والتقول التكلف ولا يستعمل إلا في الكذب والمعنى ليس الأمر كما زعموا ﴿بل لا يؤمنون﴾ أي بالقرآن استكباراً ثم ألزمهم الحجة فقال تعالى: ﴿فليأتوا بحديث مثله﴾ أي مثل القرآن في نظمه وحسنه وبيانه ﴿إن كانوا صادقين﴾ يعني إن محمد تقوله من قبل نفسه ﴿أم خلقوا من غير شيء﴾.

﴿ أم يقولون ﴾، بل يقولون يعني هؤلاء المقتسمين الخرّاصين، ﴿ شاعر ﴾، أي هو شاعر، ﴿ نتربص به ريب المنون ﴾، حوادث الدهر وصروفه فيموت ويهلك كما هلك مَن قبله من الشعراء، ويتفرّق أصحابه وأن أباه مات شاباً ونحن نرجو أن يكون موته كموت أبيه، والمنون يكون بمعنى الدهر ويكون بمعنى الموت، سُمّيا بذلك لأنهما يقطعان الأجل.

﴿ قلْ تربصوا ﴾، انتظروا بي الموت، ﴿ فإني معكم من المتربصين ﴾، من المنتظرين حتى يأتي أمر الله فيكم فتعذّبوا يوم بدر بالسيف.

﴿ أم تأمرهم أحلامهم ﴾، عقولهم، ﴿ بهذا ﴾، وذلك أن عظماء قريش كانوا يُوصَفُون بالأحلام والعقول، فأزرَى الله بعقولهم حين لم تتم لهم معرفة الحق من الباطل، ﴿ أم هم ﴾، بل هم، ﴿ قومٌ طاغون ﴾.

﴿ أم يقولون تقوّله ﴾، أي تخلق القرآن من تلقاء نفسه، والتقوّل: تكلّف القول، ولا يستعمل ذلك إلاّ في الكذب وليس الأمر كما زعموا، ﴿ بل لا يؤمنون ﴾، بالقرآن استكباراً.

ثم ألزمهم الحجّة فقال: ﴿ فلْيأتُوا بحديث مثله ﴾، أي مثل القرآن في نظمه وحُسْن بيانه، ﴿ إنْ كانوا صادقين ﴾، أن محمداً تقوّله من تلقاء نفسه.

﴿ أم خُلِقُوا من غير شيء ﴾، قال ابن عباس: من غير ربٍّ، ومعناه: أخُلِقوا من غير شيء خلقهم فوُجِدُوا بلا خالق، وذلك مما لا يجوز أن يكون، لأن تعلّق الخلق بالخالق من ضرورة الاسم، فلا بدّ له من خالق، فإن أنكروا الخالق لم يجز أن يُوجَدُوا بلا خالق، ﴿ أم هم الخالقون ﴾، لأنفسهم ذلك في البطلان أشدّ، لأن ما لا وجود له

قال ابن عباس: من غير رب خالق. والمعنى: أم خلقوا من غير شيء خلقهم فوجدوا بلا خالق وذلك مما لا يجوز أن يكون لأن تعلق الخلق بالخالق من ضرورة الاسم فإن أنكروا الخالق لم يجز أن يوجدوا بلا خالق **﴿أم هم الخالقون﴾** أي لأنفسهم وذلك في البطلان أشد لأن ما لا وجود له كيف يخلق فإذا بطل الوجهان قامت الحجة عليهم بأن لهم خالقاً فليؤمنوا به وليوحدوه وليعبدوه وقيل: في معنى الآية: أخلقوا باطلاً فلا يحاسبون ولا يؤمرون ولا ينهون أم هم الخالقون أي لأنفسهم فلا يجب عليهم لله أمر **﴿أم خلقوا السموات والأرض﴾** يعني ليس الأمر كذلك **﴿بل لا يوقنون﴾** أي بالحق وهو توحيد الله تعالى وقدرته على البعث وأن الله تعالى هو خالقهم وخالق السموات والأرض فليؤمنوا به وليوقنوا أنه ربهم وخالقهم **﴿أم عندهم خزائن ربك﴾** يعني النبوة ومفاتيح الرسالة فيضعونها حيث شاؤوا وقيل: خزائن المطر والرزق **﴿أم هم المسيطرون﴾** أي المسلطون الجبارون. وقيل: الأرباب القاهرون فلا يكونون تحت أمر ولا نهي ويفعلون ما يشاؤون.

أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿٣٩﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾ وَإِن يَرَوْا۟ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُوا۟ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾

﴿أم لهم سلم﴾ يعني مرقى ومصعد إلى السماء **﴿يستمعون فيه﴾** أي يستمعون عليه الوحي من السماء فيعلمون أن ما هم عليه حق فهم به مستمسكون **﴿فليأت مستمعهم﴾** أي إن ادعوا ذلك **﴿بسلطان مبين﴾** أي بحجة بينة **﴿أم له البنات ولكم البنون﴾** هذا إنكار عليهم حيث جعلوا لله ما يكرهون لأنفسهم **﴿أم تسألهم أجراً﴾** أي جعلاً على ما جئتهم به من النبوة ودعوتهم إليه من الدين **﴿فهم من مغرم مثقلون﴾** يعني أثقلهم ذلك المغرم الذي سألتهم فمنعهم عن الإسلام **﴿أم عندهم الغيب﴾** أي علم الغيب وهو ما غاب عنهم حتى علموا أن ما يخبرهم به الرسول من أمر القيامة

كيف يخلق، فإذا بطل الوجهان قامت الحجة عليهم بأن لهم خالقاً فَلْيُؤْمنوا به، ذكر هذا المعنى أبو سليمان الخطابي، قال الزجّاج: معناه أَخُلِقُوا باطلاً لا يحاسبون ولا يُؤمرون؟ وقال ابن كيسان: أَخُلِقُوا عبثاً وتُركوا سُدىً لا يُؤمرون ولا يُنهَون، فهو كقول القائل فعلت كذا وكذا من غير شيء، أي لغير شيء، أم هم الخالقون لأنفسهم فلا يجب عليهم لله أمرٌ؟

﴿ أم خَلقوا السمٰواتِ والأرضَ ﴾، فيكونوا هم الخالقين، ليس الأمر كذلك، ﴿ بل لا يوقنون ﴾.

﴿ أم عندهم خزائن ربّك ﴾، قال عكرمة: يعني النبوّة. قال مقاتل: أبأيديهم مفاتيح ربك بالرسالة فيضعونها حيث شاؤوا؟ قال الكلبي: خزائن المطر والرزق، ﴿ أم هم المصيطرون ﴾، المسلّطون الجبّارون، قال عطاء: أرباب قاهرون فلا يكونوا تحت أمرٍ ونهيٍ، ويفعلون ما شاؤوا. ويجوز بالسين والصاد جميعاً، قرأ ابن عامر بالسين ههنا وفي قوله: (بمسيطر)، وقرأ حمزة بإشمام الزاي فيهما، وقرأ ابن كثير ههنا بالسين و﴿ بمصيطر ﴾ [الغاشية: ٢٢] بالصاد، وقرأ الآخرون بالصاد فيهما.

﴿ أم لهم سُلّم ﴾، مرقىً ومصعد إلى السماء، ﴿ يستمعون فيه ﴾، أي يستمعون عليه الوحي، كقوله: ﴿ ولأصلبنّكم في جُذوع النخل ﴾ [طه: ٧١] أي عليها، أي ألهم سُلّم يرتقون به إلى السماء، فيستمعون الوحي ويعلمون أن ما هم عليه حق بالوحي، فهم متمسكون به كذلك؟ ﴿ فلْيأتِ مستمعهم ﴾، إن دعوا ذلك، ﴿ بسلطان مبين ﴾، بحجّة بيّنة.

والبعث باطل. وقيل: هو جواب لقولهم نتربص به ريب المنون، والمعنى: اعلموا أن محمداً يموت قبلهم ﴿فهم يكتبون﴾ أي يحكمون قال ابن عباس: معناه أم عندهم اللوح المحفوظ فهم يكتبون ما فيه ويخبرون الناس به ﴿أم يريدون كيداً﴾ أي مكراً بك ليهلكوك ﴿فالذين كفروا هم المكيدون﴾ أي المجزيون بكيدهم والمعنى أن ضرر كيدهم يعود عليهم ويحيق مكرهم بهم وهو أنهم مكروا به في دار الندوة ليقتلوه فقتلوا ببدر ﴿أم لهم إله غير الله﴾ يعني يرزقهم وينصرهم ﴿سبحان الله عما يشركون﴾ المعنى: أنه نزه نفسه عما يقولون.

قوله تعالى: ﴿وإن يروا كسفاً من السماء ساقطاً﴾ هذا جواب لقولهم فأسقط علينا كسفاً من السماء يقول لو عذبناهم بسقوط قطعة من السماء عليهم لم ينتهوا عن كفرهم ﴿يقولوا﴾ لمعاندتهم هذا ﴿سحاب مركوم﴾ أي بعضه على بعض يسقينا ﴿فذرهم حتى يلاقوا﴾ أي يعاينوا ﴿يومهم الذي فيه يصعقون﴾ أي يموتون ويهلكون.

يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴿٤٩﴾

﴿يوم لا يغني عنهم كيدهم شيئاً ولا هم ينصرون﴾ أي لا ينفعهم كيدهم يوم الموت ولا يمنعهم من العذاب مانع

﴿ أم له البنات ولكم البنون ﴾، هذا إنكار عليهم حين جعلوا الله ما يكرهون، كقوله: ﴿ فاستفتهم ألِرَبِّك البناتُ ولهم البنون ﴾.

﴿ أم تسألهم أجراً ﴾، جعلاً على ما جئتهم به ودعوتهم إليه من الدين، ﴿ فهم من مغرم مُثقلون ﴾، أثقلهم ذلك الغرم الذي تسألهم، فمنعهم ذلك عن الإسلام.

﴿ أم عندهم الغيب ﴾، أي علم ما غاب عنهم حتى علموا أن ما يخبرهم الرسول من أمر القيامة والبعث باطل. وقال قتادة: هذا جواب لقولهم: ﴿ نتربص به ريب المنون ﴾، يقول: أعندهم علم الغيب حتى علموا أن محمداً ﷺ يموت قبلهم؟ ﴿ فهم يكتبون ﴾، قال القتيبي: فهم يكتبون أي يحكمون، والكتاب الحكم قال النبي ﷺ للرجلين اللذين تخاصما إليه: «أقضي بينكما بكتاب الله»، أي بحكم الله، وقال ابن عباس: معناه أم عندهم اللوح المحفوظ فهم يكتبون ما فيه ويخبرون الناس به؟

﴿ أم يريدون كيداً ﴾، مكراً بك ليهلكوك، ﴿ فالذين كفروا هم المكيدون ﴾، أي هم المجزيّون بكيدهم يريد أن ضرر ذلك يعود عليهم، ويحيق مكرهم بهم، وذلك أنهم مكروا به في دار الندوة فقتلوا ببدر.

﴿ أم لهم إلَهٌ غيرُ الله ﴾، يرزقهم وينصرهم، ﴿ سبحان الله عمّا يشركون ﴾، قال الخليل: ما في هذه السورة من ذكر أم كلمة استفهام وليس بعطف.

﴿ وإنْ يروا كسفاً ﴾، قطعة، ﴿ من السماء ساقطاً ﴾، هذا جواب لقولهم: ﴿ فأسقطْ علينا كِسَفاً من السماء ﴾ [الشعراء: ١٨٧]، يقول: لو عذّبناهم بسقوط بعض من السماء عليهم لم ينتهوا عن كفرهم، ﴿ يقولوا ﴾، لمعاندتهم هذا، ﴿ سحابٌ مركوم ﴾، بعضه على بعض يسقينا.

﴿ فذرهم حتى يلاقوا ﴾، يُعاينوا، ﴿ يومهم الذي فيه يُصعقون ﴾، يموتون، أي حتى يعاينوا الموت، قرأ ابن عامر وعاصم يصعقون بضمّ الياء أي يهلكون.

﴿ يوم لا يغني عنهم كيدُهم شيئاً ولا هم يُنصرون ﴾، أي لا ينفعهم كيدهم يوم الموت ولا يمنعهم من العذاب مانع.

﴿وإن للذين ظلموا﴾ أي كفروا ﴿عذاباً دون ذلك﴾ أي عذاباً في الدنيا قبل عذاب الآخرة قال ابن عباس يعني القتل يوم بدر وقيل: هو الجوع والقحط سبع سنين وقيل: هو عذاب القبر ﴿ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾ أي أن العذاب نازل بهم.

قوله عز وجل: ﴿واصبر لحكم ربك﴾ أي إلى أن يقع بهم العذاب الذي حكمنا عليهم به ﴿فإنك بأعيننا﴾ أي بمرأى منا.

قال ابن عباس: نرى ما يعمل بك. وقيل: معناه إنك بحيث نراك ونحفظك فلا يصلون إليك بمكروه ﴿وسبح بحمد ربك حين تقوم﴾ أي: وقل حين تقوم من مجلسك: سبحانك اللهم وبحمدك فإن كان المجلس خيراً ازددت بذلك إحساناً وإن كان غير ذلك كان كفارة لك.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من جلس مجلساً فكثر فيه لغطه فقال قبل أن يقوم: سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك إلا كان كفارة لما بينهما» أخرجه الترمذي وقال حديث حسن صحيح.

وقال ابن عباس: معناه حين تقوم من منامك. وقيل: هو ذكر الله بالليل من حين تقوم من الفراش إلى أن تدخل في الصلاة وعن عاصم بن حميد قال: «سألت عائشة بأي شيء كان يفتتح رسول الله ﷺ قيام الليل فقالت سألتني عن شيء ما سألني عنه أحد قبلك كان إذا قام كبر عشراً وحمد الله عشراً وسبح عشراً وهلل عشراً واستغفر عشراً وقال اللهم اغفر لي وارحمني واهدني وارزقني وعافني وكان يتعوذ من ضيق المقام يوم القيامة» أخرجه أبو داود والنسائي وقيل:

﴿ وإن للذين ظلموا ﴾، كفروا، ﴿ عذاباً دون ذلك ﴾، أي عذاباً في الدنيا قبل عذاب الآخرة. قال ابن عباس: يعني القتل يوم بدر وقال مجاهد: هو الجوع والقحط سبع سنين. وقال البراء بن عازب: هو عذاب القبر. ﴿ ولكنّ أكثرهم لا يعلمون ﴾، أن العذاب نازل بهم.

﴿ واصبرْ لحكم ربك ﴾، إلى أن يقع بهم العذاب الذي حكمنا عليهم، ﴿ فإنك بأعيننا ﴾، أي بمرأىً منّا، قال ابن عباس: نرى ما يعمل بك. وقال الزجّاج: معناه أنك بحيث نراك ونحفظك فلا يصلون إلى مكروهك. ﴿ وسبّحْ بحمد ربك حين تقوم ﴾، قال سعيد بن جبير وعطاء: أي قل حين تقوم من مجلسك: سبحانك اللّهمَّ وبحمدك، فإن كان المجلس خيراً ازددتَ إحساناً، وإن كان غير ذلك كان كفّارة له. أخبرنا أبو عبد الله عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد القفال أنا أبو منصور أحمد بن الفضل البروجردي أنا أبو أحمد بكر بن محمد الصيرفي ثنا أحمد بن عبد الله الترسي ثنا حجّاج بن محمد عن ابن جريج عن موسى بن عقبة عن سهيل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن جلس مجلساً فكثر فيه لَغَطُهُ، فقال قبل أن يقوم: سبحانك اللّهمَّ وبحمدك، أشهد أن لا إلّه إلاّ أنت، أستغفرك وأتوب إليك، إلاّ كان كفّارة لما بينهما». وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: معناه صلِّ لله حين تقوم من مقامك. وقال الضحاك والربيع: إذا قمت إلى الصلاة فقل سبحانك اللّهمَّ وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جدّك ولا إلّه غيرك. أخبرنا أبو عثمان الضبي أنا أبو محمد الجراحي ثنا أبو العباس المحبوبي ثنا أبو عيسى الترمذي ثنا الحسن بن عرفة ويحيـى بن موسى قال ثنا أبو معاوية عن حارثة بن أبي الرجال عن عمرة عن عائشة قالت: كان النبي ﷺ إذا افتتح الصلاة قال: «سبحانك اللّهمَّ وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جَدُّك ولا إلّه غيرك». وقال الكلبي: هو ذكر الله باللسان حين تقوم من الفراش إلى أن يدخل في صلاته. أخبرنا أبو طاهر عمر بن عبد العزيز القاشاني أنا أبو عمر القاسم بن جعفر بن عبد الواحد

إذا قمت إلى الصلاة فقل سبحانك اللهم وبحمدك يدل عليه ما روي عن عائشة قالت «كان النبي ﷺ إذا افتتح الصلاة قال سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جدك وجل ثناؤك ولا إله غيرك» أخرجه الترمذي وأبو داود وقد تكلم في أحد رواته.

وقوله تعالى: ﴿ومن الليل فسبحه﴾ أي فصلِّ له يعني صلاة المغرب والعشاء ﴿وإدبار النجوم﴾ يعني الركعتين قبل صلاة الفجر ذلك حين تدبر النجوم أي تغيب بضوء الصبح هذا قول أكثر المفسرين يدل عليه ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال «إدبار النجوم الركعتان قبل الفجر وإدبار السجود الركعتان بعد المغرب» أخرجه الترمذي وقال: حديث غريب. وقيل: إدبار النجوم هي فريضة صلاة الصبح (ق) عن جبير بن مطعم قال: «سمعت رسول الله ﷺ يقرأ في المغرب بالطور» والله تعالى أعلم بمراده وأسرار كتابه.

الهاشمي أنا أبو علي محمد بن أحمد بن عمر اللؤلؤي ثنا أبو داود بن سليمان الأشعث ثنا محمد بن نافع ثنا زيد بن حباب أخبرني معاوية بن صالح أنا أزهر بن سعيد الحرازي عن عاصم بن حميد قال: سألت عائشة رضي الله تعالى عنها بأيّ شيء كان يفتتح رسول الله ﷺ قيام الليل؟ فقالت: كان إذا قام كبّر اللَّهَ عشراً وحمدَ اللَّهَ عشراً، وسبّح الله عشراً وهلّل عشراً، واستغفر عشراً، وقال: «اللّهمَّ اغفر لي واهدني وارزقني وعافني، ويتعوّذ من ضيق المقام يوم القيامة».

﴿ ومن الليل فسبّحه ﴾، أي صلِّ له، قال مقاتل: يعني صلاة المغرب والعشاء. ﴿ وإدْبار النجوم ﴾، يعني ركعتين قبل صلاة الفجر، وذلك حين تدبر النجوم أي تغيب بضوء الصبح، هذا قول أكثر المفسّرين. وقال الضحاك: هو فريضة صلاة الصبح. أخبرنا أبو الحسن السرخسي أنا زاهر بن أحمد أنا أبو إسحاق الهاشمي أنا أبو مصعب عن مالك عن ابن شهاب عن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ قرأ في المغرب بالطّور.

سورة النجم

(مكية وهي اثنتان وستون آية وثلاثمائة وستون كلمة وألف وأربعمائة وخمسة أحرف)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾

قوله عز وجل: ﴿والنجم إذا هوى﴾ قال ابن عباس يعني الثريا إذا سقطت وغابت والعرب تسمي الثريا نجماً ومنه قولهم إذا طلع النجم عشاء ابتغى الراعي كساء وجاء في الحديث عن أبي هريرة مرفوعاً: «ما طلع النجم قط وفي الأرض من العاهة شيء إلا رفع» أراد بالنجم الثريا، وقيل: هي نجوم السماء كلها وهويها غروبها فعلى هذا لفظه واحد ومعناه الجمع. وروي عن ابن عباس أنه الرجوم من النجوم وهي ما ترمى به الشياطين عند استراق السمع. وقيل: هي النجوم إذا انتثرت يوم القيامة. وقيل: أراد بالنجم القرآن سمي نجماً لأنه نزل نجوماً متفرقة في عشرين سنة وهو قول ابن عباس أيضاً. وقيل: النجم هو النبت الذي لا ساق له وهويه سقوطه إذا يبس على الأرض. وقيل: النجم هو محمد ﷺ وهويه نزوله ليلة المعراج من السماء وجواب القسم قوله تعالى: ﴿ما ضل صاحبكم﴾ يعني محمداً ﷺ ما ضل عن طريق الهدى ﴿وما غوى﴾ أي ما جهل. وقيل: الفرق بين الضلال والغي أن الضلال هو أن لا يجد السالك إلى مقصده

سُوْرَة النَّجْم

مكيّة وهي اثنتان وستّون آية.

﴿ والنجم إذا هوى ﴾، قال ابن عباس في رواية الوالبي والعوفي: يعني الثريا إذا سقطت وغابت، وهُوِيُّهُ مَغِيبُه، والعرب تسمّي الثريا نجماً، وجاء في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً: «ما طلع النجم قطُّ وفي الأرض من العاهة شيء إلاّ رُفع» وأراد بالنجم الثريا. وقال مجاهد: هي نجوم السماء كلها حين تغرب، لفظه واحد ومعناه الجمع، سُمّي الكوكب نجماً لطلوعه، وكل طالع نجم يقال نجم السن، والقرن والنبت إذا طلع. ورُوِيَ عن عكرمة عن ابن عباس: أنه الرجوم من النجوم، يعني ما تُرمى بها الشياطين عند استراقهم السمع. وقال أبو حمزة الثمالي: هي النجوم إذا انتثرت يوم القيامة. وقيل: المراد بالنجم القرآن سُمّي نجماً لأنه نزل نجوماً متفرقة في عشرين سنة، وسُمّي التفريق: تنجيماً، والمفرق: منجماً، هذا قول ابن عباس في رواية عطاء، وقول الكلبي، والهوى: النزول من أعلى إلى أسفل. وقال الأخفش: النجم هو النبت الذي لا ساق له، ومنه قوله عزّ وجلّ: ﴿ والنجم والشجر يسجدان ﴾ [الرحمن: ٦]، وهُوِيُّهُ سُقوطُه على الأرض. وقال جعفر الصادق: يعني محمداً ﷺ إذ نزل من السماء إلى الأرض ليلة المعراج، والهوى: النزول، يقال: هوى يهوي هوياً إذا نزل، مثل مضى يمضي مضياً.

وجواب القسم. قوله: ﴿ ما ضلَّ صاحبكم ﴾، يعني محمداً ﷺ ما ضلّ عن طريق الهدى، ﴿ وما غوى ﴾

طريقاً أصلاً والغواية أن لا يكون له طريق إلى مقصده مستقيم وقيل: إن الضلال أكثر استعمالاً من الغواية ﴿وما ينطق عن الهوى﴾ أي بالهوى والمعنى لا يتكلم بالباطل وذلك أنهم قالوا: إن محمداً يقول القرآن من تلقاء نفسه ﴿إن هو﴾ أي ما هو يعني القرآن وقيل: نطقه في الدين ﴿إلا وحي﴾ من الله ﴿يوحى﴾ إليه.

﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ۝١٠ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ۝١١﴾

﴿علمه شديد القوى﴾ يعني جبريل علم محمداً ﷺ ما أوحى الله إليه عز وجل وكونه شديد القوى أنه اقتلع قرى قوم لوط وحملها على جناحه حتى بلغ بها السماء ثم قلبها وصاح صيحة بثمود فأصبحوا جاثمين وكان هبوطه بالوحي على الأنبياء أسرع من رجعة الطرف ﴿ذو مرة﴾ أي ذو قوة وشدة. وقال ابن عباس: ذو منظر حسن وقيل: ذو خلق طويل حسن.

﴿فاستوى﴾ يعني جبريل عليه الصلاة والسلام ﴿وهو﴾ يعني محمداً ﷺ والمعنى استوى جبريل ومحمد ليلة المعراج ﴿وبالأفق الأعلى﴾ عند مطلع الشمس وقيل: فاستوى يعني جبريل وهو كناية عن جبريل أيضاً أي قام في صورته التي خلقه الله فيها وهو بالأفق الأعلى وذلك أن جبريل عليه الصلاة والسلام كان يأتي رسول الله ﷺ في صورة الآدميين كما كان يأتي الأنبياء قبله فسأله رسول الله ﷺ أن يريه نفسه على صورته التي جبل عليها فأراه نفسه مرتين مرة في الأرض ومرة في السماء فأما التي في الأرض فبالأفق الأعلى والمراد بالأفق الأعلى جانب المشرق وذلك أن رسول الله ﷺ كان بحراء، فطلع له جبريل عليه الصلاة والسلام من ناحية المشرق، فسد الأفق إلى المغرب فخرَّ رسول الله ﷺ مغشياً عليه فنزل جبريل عليه، الصلاة والسلام في صورة الآدميين فضمه إلى نفسه وجعل يمسح الغبار عن وجهه وهو قوله تعالى: ﴿ثم دنا فتدلى﴾ وأما التي في السماء فعند سدرة المنتهى ولم يره أحد من الأنبياء على تلك الصورة

وما ينطق عن الهوى ﴾، يعني بالهوى يريد لا يتكلم بالباطل، وذلك أنهم قالوا: إن محمداً ﷺ يقول القرآن من تلقاء نفسه.

﴿ إنْ هو ﴾، ما نطقه في الدين، وقيل: القرآن، ﴿ إلاّ وحيٌ يُوحى ﴾، يعني وَحيٌ من الله يُوحى إليه.

﴿ علّمه شديد القُوى ﴾، وهو جبريل، والقُوى جمع القوة.

﴿ ذُو مِرّة ﴾، قوة وشدّة في خلقه، يعني جبريل. قال ابن عباس: ذو مرة يعني ذو منظر حسن. وقال قتادة: ذو خلق طويل حسن. ﴿ فاستوى ﴾، يعني جبريل.

﴿ وهو ﴾، يعني محمداً ﷺ، وأكثر كلام العرب إذا أرادوا العطف في مثل هذا أن يُظهِروا كناية المعطوف عليه، فيقولون: استوى هو وفلان، وقلّما يقولون: استوى وفلان، ونظير هذا قوله: ﴿ أئذَا كنّا تراباً وآباؤنا ﴾ [النمل: ٦٧]، عطف الآباء على المكنّى في كنّا من غير إظهار نحن، ومعنى الآية: استوى جبريل ومحمد عليهما السلام ليلة المعراج، ﴿ بالأفق الأعلى ﴾، وهو أقصى الدنيا عند مطلع الشمس، وقيل: فاستوى يعني جبريل، وهو كناية عن جبريل أيضاً، أي قام في صورته التي خلقه الله، وهو بالأفق الأعلى، وذلك أن جبريل كان يأتي رسول الله ﷺ في صورة الآدميين كما كان يأتي النبيّين، فسأله رسول الله ﷺ أن يُريه نفسه على صورته التي جُبِلَ عليها فأراه نفسه مرتين في الأرض ومرة في السماء، فأما الأرض ففي الأفق الأعلى، والمراد بالأعلى جانب المشرِق، وذلك أن محمداً ﷺ كان بحرّاء فطلع لـه جبريـل من المشرق فسدّ الأفق إلى المغرب، فخرّ رسول الله ﷺ

التي خلق عليها إلا نبينا محمد ﷺ قوله تعالى: ﴿ثم دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى﴾.

اختلف العلماء في معنى هذه الآية فروي عن مسروق بن الأجدع قال «قلت لعائشة فأين قوله ثم دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى؟ قالت ذلك جبريل كان يأتيه في صورة الرجل وإنه أتاه في هذه المرة في صورته التي هي صورته فسد الأفق» أخرجاه في الصحيحين.

وعن زر بن حبيش في قوله تعالى: ﴿فكان قاب قوسين أو أدنى﴾ وفي قوله ﴿ما كذب الفؤاد ما رأى﴾ وفي قوله ﴿لقد رأى من آيات ربه الكبرى﴾ قال: فيها كلها أن ابن مسعود قال «رأى جبريل عليه الصلاة والسلام له ستمائة جناح» زاد في رواية أخرى «رأى جبريل في صورته» أخرجه مسلم والبخاري في قوله تعالى: ﴿فكان قاب قوسين أو أدنى فأوحى إلى عبده ما أوحى﴾ فعلى هذا يكون معنى الآية ثم دنا جبريل بعد استوائه بالأفق الأعلى من الأرض فتدلى إلى محمد ﷺ فكان منه قاب قوسين أو أدنى أي: بل أدنى وبه قال ابن عباس والحسن وقتادة. وقيل: في الكلام تقديم وتأخير تقديره ثم تدلى فدنا لأن التدلي سبب الدنو. وقال آخرون: ثم دنا الرب عز وجل من محمد ﷺ فتدلى أي فقرب منه حتى كان منه قاب قوسين أو أدنى وقد ورد في الصحيحين في حديث المعراج من رواية شريك بن عبد الله بن أبي نمر عن أنس ودنا الجبار رب العزة فتدلى حتى كان منه قاب قوسين أو أدنى. وهذه رواية أبي سلمة عن

مغشيّاً عليه، فنزل جبريل في صورة الآدميين وضمّه إلى نفسه، وجعل يمسح الغبار عن وجهه، وهو قوله: ﴿ ثم دنا فتدلى ﴾، وأما في السماء فعند سدرة المنتهى، ولم يره أحد من الأنبياء على تلك الصورة إلاّ نبيّنا محمد ﷺ.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ ثم دنا فتدلّى * فكان قاب قوسين أو أدنى ﴾، اختلفوا في معناه أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا أبو أسامة ثنا زكريا بـن أبي زائدة عن أبي الأشوع عن الشعبي عن مسروق قال: قلت لعائشة فأين قوله: ﴿ ثم دنا فتدلى * فكان قاب قوسين أو أدنى ﴾؟ قالت: ذلك جبريل كان يأتيه في صورة الرجل وإنه أتاه هذه المرة في صورته التي هي صورته، فسدّ الأفق. أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا طلْق بن غنام ثنا زائدة عن الشيباني قال: سألت زرّاً عن قوله: ﴿ فكان قاب قوسين أو أدنى ﴾، قال: أخبرنا عبد الله يعني ابن مسعود أن محمداً ﷺ رأى جبريل له ستمائة جناح، فمعنى الآية: ثم دنا جبريل بعد استوائه بالأفق الأعلى من الأرض، فتدلى فنزل إلى محمد ﷺ، فكان منه قاب قوسين أو أدنى، بل أدنى، وبه قال ابن عباس والحسن وقتادة، وقيل: في الكلام تقديم وتأخير، تقديره: ثم تدلّى فدنا، لأنّ التداني سبب الدنو. وقال آخرون: ثم دنا الربُّ عزّ وجلّ من محمد ﷺ فتدلّى، فقرب منه حتى كان قاب قوسين أو أدنى. وروينا في قصة المعراج عن شريك بن عبد الله عن أنس: ودنا الجبّار ربّ العزّة فتدلّى حتى كان منه قاب قوسين أو أدنى. وهذا رواية أبي سلمة عن ابن سلمة عن ابن عباس، والتدلّي هو النزول إلى الشيء حتى يقرب منه. وقال مجاهد: دنا جبريل من ربّه. وقال الضحاك: دنا محمد ﷺ من ربّه فتدلّى فأهوى للسجود، فكان منه قاب قوسين أو أدنى، ومعنى قوله: ﴿ قاب قوسين ﴾ أي قدر قوسين، والقاب والقيب والقاد والقيد عبارة عن المقدار، والقوس: ما يرمى به في قول مجاهد وعكرمة وعطاء عن ابن عباس، فأخبر أنه كان بين جبريل وبين محمد ﷺ مقدار قوسين، قال مجاهد: معناه حيث الوتر من القوس، وهذا إشارة إلى تأكيد القصد وأصله أن الحلبفين من العرب كانا إذا أرادا عقد الصفا والعهد خرجا بقوسيهما فألصقا بينهما، يريدان بذلك أنهما متظاهران يحامي كل واحد منهما عن صاحبه. وقـال عبد الله بن مسعـود: قاب قـوسين أي قدر ذراعين، وهو قول سعيد بن جبير وشقيق بن سلمة، والقوس: الذراع يُقاس بها كل شيء، أو أدنى بل أقرب.

ابن عباس والتدلي هو النزول إلى النبي ﷺ. قال الحافظ عبدالحق في كتابه. الجمع بين الصحيحين، بعد ذكر حديث أنس من رواية شريك، وقد زاد فيه زيادة مجهولة وأتى فيه بألفاظ غير معروفة.

وقد روى حديث الإسراء جماعة من الحفاظ المتقنين كابن شهاب وثابت البناني وقتادة يعني عن أنس فلم يأت أحد منهم بما أتى به وفي رواية شريك قدم وآخر وزاد ونقص فيحتمل أن هذا اللفظ من زيادة شريك في الحديث وقال الضحاك دنا محمد ﷺ من ربه عز وجل فتدلى أي فأهوى للسجود فكان منه قاب قوسين أو أدنى والقاب القدر والقوس الذي يرمي به وهو رواية عن ابن عباس. وقيل: معناه حيث الوتر من القوس فأخبر أنه كان بين جبريل ومحمد ﷺ مقدار قوسين وهذا إشارة إلى تأكيد القرب وأصله أن الحليفين من العرب كانا إذا أرادا عقد الصفاء والعهد بينهما خرجا بقوسيهما فألصقا بينهما يريد أن بذلك أنهما متظاهران يحامي كل واحد منهما عن صاحبه. وقال عبد الله بن مسعود: قاب قوسين قدر ذراعين والقوس الذراع التي يقاس بها من قاس يقيس أو أدنى بل أقرب ﴿**فأوحى**﴾ أي فأوحى الله ﴿**إلى عبده**﴾ محمد ﷺ ﴿**ما أوحى**﴾ وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال أوحى جبريل إلى رسول الله ﷺ ما أوحى إليه ربه عز وجل وقال سعيد بن جبير: أوحى إليه ﴿**ألم يجدك يتيماً فآوى**﴾ إلى قوله ﴿**ورفعنا لك ذكرك**﴾ وقيل: أوحى إليه أن الجنة محرمة على الأنبياء حتى تدخلها أنت وعلى الأمم حتى تدخلها أمتك قوله عز وجل: ﴿**ما كذب الفؤاد**﴾ قرىء بالتشديد أي ما كذب محمد ﷺ ﴿**ما رأى**﴾ أي بعينه تلك الليلة بل صدقه وحققه وقرىء بالتخفيف أي ما كذب فؤاد محمد الذي رآه بل صدقه والمعنى: ما كذب الفؤاد فيما رأى. واختلفوا في الذي رآه، فقيل: رأى جبريل وهو قول ابن عباس وابن مسعود وعائشة وقيل: هو الله عز وجل ثم اختلفوا في معنى الرؤية فقيل جعل بصره في فؤاده وهو قول ابن عباس (م). عن ابن عباس ما كذب الفؤاد ما رأى ولقد رآه نزلة أخرى قال: رآه بفؤاده مرتين وذهب جماعة إلى أنه رآه بعينه حقيقة وهو قول أنس بن مالك والحسن وعكرمة قالوا: رأى محمد ربه عز

﴿ فأوحى ﴾، أي أوحى الله، ﴿ إلى عبده ما أوحى ﴾، محمد ﷺ، قال ابن عباس في رواية عطاء والكلبي والحسن والربيع وابن زيد: معناه أوحى جبريل إلى رسول الله ﷺ ما أوحى إليه ربّه عزّ وجلّ. قال سعيد بن جبير: أوحى إليه: ﴿ ألم يجدك يتيماً فآوى ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ ورفعنا لك ذكرك ﴾ [الانشراح: ٤]، وقيل: أوحى إليه أن الجنة محرّمة على الأنبياء حتى تدخلها أنت، وعلى الأمم حتى تدخلها أمتك.

﴿ ما كذب الفؤاد ما رأى ﴾، قرأ أبو جعفر ما كذب بتشديد الذال أي ما كذّب قلب محمد ﷺ ما رأى بعينه تلك الليلة، بل صدّقه وحقّقه، وقرأ الآخرون بالتخفيف، أي ما كذب فؤاد محمد ﷺ الذي رأى، بل صدقه، يقال: كذبه إذا قال له الكذب، وصدقه إذا قال له الصدق، مجازه: ما كذب الفؤاد فيما رأى، واختلفوا في الذي رآه، فقال قوم: رأى جبريل، وهو قول ابن مسعود وعائشة، أخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر أنا عبد الغافر بن محمد أنا محمد بن عيسى الجلودي ثنا إبراهيم بن محمد بن سفيان ثنا مسلم بن الحجّاج ثنا أبو بكر بن أبي شيبة ثنا حفص هو أبا غياث عن الشيباني عن زرّ عن عبد الله قال: ﴿ ما كذب الفؤاد ما رأى ﴾ قال: رأى جبريل وله ستمائة جناح. وقال آخرون: هو الله عزّ وجلّ. ثم اختلفوا في معنى الرؤية، فقال بعضهم: جعل بصره في فؤاده فرأى بفؤاده، وهو قول ابن عباس، أخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر أنا عبد الغافر بن محمد أنا محمد بن عيسى الجلودي ثنا إبراهيم بن محمد بن سفيان ثنا مسلم بن الحجّاج ثنا أبو سعيد الأشج ثنا وكيع ثنا الأعمش عن زياد بن الحصين عن أبي العالية عن ابن عباس: ﴿ ما كذب الفؤاد ما رأى ﴾. ﴿ ولقد رآه نزلة أخرى ﴾ قال: رآه بفؤاده مرتين، وذهب جماعة إلى أنه رآه بعينه، وهو قول أنس والحسن وعكرمة، قالوا: رأى محمد ربّه، وروى عكرمة عن ابن عباس قال: إن الله اصطفى إبراهيم بالخلّة واصطفى موسى بالكلام واصطفى محمداً ﷺ بالرؤية. وكانت عائشة رضي الله عنها تقول:

وجل. وروى عكرمة عن ابن عباس، قال: إن الله عز وجل اصطفى إبراهيم بالخلة، واصطفى موسى بالكلام، واصطفى محمداً بالرؤية. وقال كعب: إن الله قسم رؤيته وكلامه بين محمد وموسى فكلم موسى مرتين ورآه محمد مرتين أخرجه الترمذي بأطول من هذا. وكانت عائشة تقول: لم ير رسول الله ﷺ ربه. وتحمل الآية على رؤية جبريل.

عن مسروق قال: قلت لعائشة: يا أماه هل رأى محمد ربه؟ فقالت: لقد قف شعري مما قلت أين أنت من ثلاث من حدثكهن فقد كذب. من حدثك أن محمداً رأى ربه فقد كذب ثم قرأت: لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير، وما كان لبشر أن يكلمه إلا الله وحياً أو من وراء حجاب. ومن حدثك أنه يعلم ما في غد فقد كذب. ثم قرأت: وما تدري نفس ماذا تكسب غداً وما تدري نفس بأي أرض تموت ومن حدثك أن محمداً كتم أمراً فقد كذب ثم قرأت يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك ولكنه رأى جبريل في صورته مرتين. أخرجاه في الصحيحين (م) عن أبي ذر قال: «سألت رسول الله ﷺ هل رأيت ربك؟ قال: نور أني أراه». قوله عز وجل:

﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾﴾

﴿أفتمارونه على ما يرى﴾ يعني أفتجادلونه على ما يرى وذلك أنهم جادلوه حين أسري به وقالوا له صف لنا بيت المقدس وأخبرنا عن عيرنا في الطريق وغير ذلك مما جادلوه به. والمعنى: أفتجادلونه جدالاً ترومون به دفعه عما رآه وعلمه **﴿ولقد رآه نزلة أخرى﴾** يعني رأى جبريل في صورته التي خلق عليها نازلاً من السماء نزلة أخرى وذلك أنه رآه في صورته مرتين مرة في الأرض ومرة عند سدرة المنتهى (م) عن أبي هريرة ولقد رآه نزلة أخرى قال: رأى جبريل. وعلى قول ابن عباس: يعني نزلة أخرى هو أنه كانت للنبي ﷺ في تلك الليلة عرجات لمسألة التخفيف من أعداد

لم يَرَ رسول الله ﷺ ربَّه، وتحمل الآية على رؤيته جبريل عليه السلام، أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا يحيىٰ ثنا وكيع عن إسماعيل بن أبي خالد عن عامر عن مسروق قال: قلت لعائشة يا أُمّاه هلْ رأى محمد ﷺ ربَّه؟ فقالت: لقد تكلمتَ بشيء وقف له شعري مما قلت، أين أنت من ثلاث مَن حدّثكهنّ فقد كذب؟ مَن حدّثك أن محمداً رأى ربّه فقد كذب، ثم قرأت ﴿ لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير ﴾ [الأنعام: ١٠٣]، ﴿ وما كان لبشر أن يكلّمه الله إلاّ وحياً أو من وراء حجاب ﴾ [الشورى : ٥١]، ومَن حدّثك أنه يعلم ما في غد فقد كذب، ثم قرأت ﴿ وما تدري نفسٌ ماذا تكسب غداً ﴾ [لقمان: ٣٤]، ومَن حدّثك أنه كتم شيئاً فقد كذب، ثم قرأت ﴿ يا أيّها الرسول بلّغ ما أُنزل إليك من ربّك ﴾ [المائدة: ٦٧] الآية، ولكنه رأى جبريل في صورتين مرتين. أخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر أنا عبد الغافر بن محمد أنا محمد بن عيسى الجلودي ثنا إبراهيم بن محمد بن سفيان ثنا مسلم بن الحجّاج ثنا أبو بكر بن أبي شيبة ثنا وكيع عن يزيد بن إبراهيم عن قتادة عن عبد الله بن شقيق بن أبي ذرّ قال: سألت رسول الله ﷺ: هل رأيتَ ربَّك؟ قال: «نورٌ أنّى أراه».

﴿ أفتمارُونه على ما يرى ﴾، قرأ حمزة والكسائي ويعقوب: (أفتمرونه) بفتح التاء بلا ألف، أي أفتجحدونه، تقول العرب: مريتَ الرجلَ حقّه إذا جحدته، وقرأ الآخرون: ﴿ أفتمارونه ﴾ بالألف وضمّ التاء، على معنى أفتجادلونه على ما يرى، وذلك أنهم جادلوه حين أُسرِيَ به، فقالوا: صِفْ لنا بيت المقدس، وأخبرنا عن عِيرنا في الطريق، وغير ذلك مما جادلوه به، والمعنى: أفتجادلونه جدالاً ترومون به دفعه عمّا رآه وعلمه.

الصلوات فيكون لكل عرجة نزلة فرأى ربه عز جل في بعضها.

وروي عن ابن عباس أنه رأى ربه بفؤاده مرتين وعنه أنه رآه بعينه ﴿عند سدرة المنتهى﴾ (م) عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «لما أسري برسول الله ﷺ انتهى به إلى سدرة المنتهى وهي في السماء السادسة وإليها ينتهي ما يعرج من الأرض فيقبض منها وإليها ينتهي ما يهبط من فوقها فيقبض منها وقال إذ يغشى السدرة ما يغشى قال فراش من ذهب».

وفي رواية الترمذي إليها ينتهي علم الخلائق لا علم لهم فوق ذلك وفي حديث المعراج المخرج في الصحيحين «ثم صعد بي إلى السماء السابعة ثم قال ثم رفعت إلى سدرة المنتهى» فإذا نبقها مثل قلال هجر وإذا ورقها كآذان الفيلة قال: هذه سدرة المنتهى. وفي أفراد مسلم من حديث أنس قال: «ثم عرج بنا إلى السماء السابعة وذكره إلى أن قال فيه ثم ذهب بي إلى سدرة المنتهى وإذا ورقها كآذان الفيلة وإذا ثمرها كالقلال قال فلما غشيها من نور الله ما غشي تغيرت فما أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها من حسنها» وقال هلال بن يساف سأل ابن عباس كعباً عن سدرة المنتهى وأنا حاضر فقال كعب إنها سدرة في أصل العرش على رؤوس حملة العرش وإليها ينتهي علم الخلائق وما خلفها غيب لا يعلمه إلا الله عز وجل وعن أسماء بنت أبي بكر قالت: «سمعت رسول الله ﷺ ذكر سدرة المنتهى فقال: يسير الراكب

﴿ ولقد رآه نزلة أُخرى ﴾، يعني رأى جبريل في صورته التي خُلِقَ عليها نازلاً من السماء نزلة أُخرى، وذلك أنه رآه في صورته مرتين، مرة في الأرض ومرة في السماء.

﴿ عند سدرة المنتهى ﴾، وعلى قول ابن عباس معنى: ﴿ نزلة أخرى ﴾ هو أنه كانت للنبي ﷺ عرجات في تلك الليلة لمسألته التخفيف من أعداد الصلوات، فيكون لكل عرجة نزلة، فرأى ربَّه في بعضها، وروينا عنه: «أنه رأى ربَّه بفؤاده مرتين». وعنه: «أنه رآه بعينه»، وقوله: ﴿ عند سدرة المنتهى ﴾، روينا عن عبد الله بن مسعود قال: لمّا أُسري برسول الله ﷺ إلى سدرة المنتهى وهي في السماء السابعة وإليها ينتهي إلى ما يعرج به من الأرض فيقبض منها وإليها ينتهي ما يهبط به من فوقها فيقبض منها، قال: إذْ يغشى السدرة ما يغشى، قال: فراش من ذهب. وروينا في حديث المعراج: «ثم صعد بي إلى السماء السابعة فإذا أنا بإبراهيم عليه السلام فسلّمتُ عليه، ثم رُفعتُ إلى سدرة المنتهى فإذا نبقها مثل قلال هجر، وإذا ورقها مثل آذان الفيلة»، والسدرة شجرة النبق، وقيل لها: سدرة المنتهى لأنه إليها ينتهي علم الخلق. قال هلال بن يسار: سأل ابن عباس كعباً عن سدرة المنتهى وأنا حاضر، فقال كعب: إنها سدرة في أصل العرش على رؤوس حملة العرش وإليها ينتهي علم الخلائق، وما خلفها غيب لا يعلمه إلاّ الله، أخبرنا أبو سعيد الشريحي أنا أبو إسحاق الثعلبي أخبرني ابن فنجويه ثنا ابن شيبة ثنا المسوحي ثنا عبد الله بن يعيش ثنا يونس بن بكير أنا محمد بن إسحاق عن يحيىٰ بن عبّاد بن عبد الله بن الزبير عن أبيه عن جدّته أسماء بنت أبي بكر قالت: سمعتُ النبي ﷺ يذكر سدرة المنتهى، قال: «يسير الراكب في ظل الغصن منها مائة عام يستظلّ في الغصن منها مائة ألف راكب، فيها فراش من ذهب، كأنّ ثمرها القلال»، وقال مقاتل: هي شجرة تحمل الحلي والحُلل والثمار من جميع الألوان، لو أن ورقة منها وضعت في الأرض لأضاءت لأهل الأرض، وهي طوبى التي ذكرها الله تعالى في سورة الرعد.

﴿ عندها جنّة المأوى ﴾، قال عطاء عن ابن عباس: جنة المأوى جنة يأوي إليها جبريل والملائكة. وقال مقاتل والكلبي: يأوي إليها أرواح الشهداء.

﴿ إذ يغشى السدرة ما يغشى ﴾، قال ابن مسعود: فراش من ذهب. وروينا في حديث المعراج عن أنس عن

في ظل الفنن منها مائة سنة أو قال يستظل بظلها مائة ألف راكب فيها فراش الذهب كأن ثمرها القلال» أخرجه الترمذي. وقال: مقاتل هي شجرة تحمل الحلي والحلل والثمار من جميع الألوان ولو أن ورقة وضعت منها في الأرض لأضاءت لأهل الأرض وهي شجرة طوبى التي ذكرها الله في سورة الرعد ﴿**عندها جنة المأوى**﴾ قال ابن عباس: جنة المأوى يأوي إليها جبريل والملائكة وقيل: يأوي إليها أرواح الشهداء ﴿**إذ يغشى السدرة ما يغشى**﴾ قال ابن مسعود: فراش من ذهب وقيل: يغشاها ملائكة أمثال الغربان. وقيل: أمثال الطيور حتى يقعن عليها. وقيل: غشيها نور الخلاق وغشيتها الملائكة من حب الله تعالى أمثال الغربان حتى يقعن عليها وقيل: هو نور رب العزة ويروى في الحديث قال: رأيت على كل ورقة منها ملكاً قائماً يسبح الله عز وجل:

مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾

﴿**ما زاغ البصر وما طغى**﴾ يعني ما مال بصر النبي ﷺ في ذلك المقام وفي تلك الحضرة المقدسة الشريفة يميناً وشمالاً ولا جاوز ما رأى وقيل: ما أمر به وهذا وصف أدبه ﷺ في ذلك المقام الشريف إذ لم يلتفت إلى شيء سوى ما أمر به.

وفي معنى الآية إن قلنا إن الذي يغشى السدرة فراش من ذهب أي لم يلتفت إليه ولم يشتغل به وفيه بيان أدبه ﷺ إذ لم يقطع بصره عن المقصود وإن قلنا الذي يغشى السدرة هو نور رب العزة ففيه وجهان:

أحدهما: أنه ﷺ لم يلتفت عنه يمنة ولا يسرة ولا يشتغل بغير مطالعة ذلك النور.

الوجه الثاني: ما زاغ البصر بصعقة ولا غشية كما أخبر عن موسى بقوله «وخر موسى صعقاً» وذلك أنه لما تجلى رب العزة وظهر نوره على الجبل قطع نظره وغشي عليه ونبينا ﷺ ثبت في ذلك المقام العظيم الذي تحار فيه العقول وتزل فيه الأقدام وتميل فيه الأبصار فوصف الله عز وجل قوة نبينا ﷺ في ذلك المقام العظيم بقوله تعالى ما زاغ البصر وما طغى.

وقوله تعالى: ﴿**لقد رأى من آيات ربه الكبرى**﴾ يعني رأى رسول الله ﷺ الآيات العظام وقيل: أراد ما رأى تلك الليلة في مسيره ورجوعه وقيل: معناه لقد رأى من آيات ربه الآيات الكبرى (م) عن عبد الله بن مسعود قال: لقد رأى من آيات ربه الكبرى. قال: رأى جبريل في صورته له ستمائة جناح (خ) عنه قال لقد رأى من آيات ربه الكبرى قال رأى رفرفاً أخضر سد أفق السماء.

رسول الله ﷺ: «ثم عُرِجَ بي إلى سدرة المنتهى فإذا ورقها كآذان الفيلة، وإذا ثمرها كالقِلال، قال: فلما غشيها من أمر الله ما غشيها تغيّرت، فما أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها من حُسنها، وأوحى إليّ ما أوحى ففرض عليّ خمسين صلاة في كل يوم وليلة»، وقال مقاتل: يغشاها الملائكة أمثال الغربان. وقال السدي: من الطيور. ورُوِيَ عن أبي العالية عن أبي هريرة رضي الله عنه أو غيره قال: غشيها نورُ الخلائق وغشيتها الملائكة من حبّ الله أمثال الغربان، حتى يقعنّ على الشجر، قال فكلّمه عند ذلك، فقال له: سَلْ. وعن الحسن قال: غشيها نورُ ربِّ العزّة فاستنارت. ويُروَى في الحديث: «رأيت على كل ورقة منها ملكاً قائماً يسبّح الله تعالى».

﴿ **ما زاغ البصر وما طغى** ﴾، أي ما مال بصر النبي ﷺ يميناً ولا شمالاً وما طغى، أي ما جاوز ما رأى. **وقيل**: ما جاوز ما أمر به وهذا وصف أدبه في ذلك المقام إذ لم يلتفت جانباً.

﴿ **لقد رأى من آيات ربّه الكبرى** ﴾ يعني الآيات العِظام. وقيل: أراد ما رأى تلك الليلة في مسيره وعوده، **دليله قوله**: ﴿ لنُريه من آياتنا ﴾ [الإسراء: ١]، **وقيل**: معناه لقد رأى من آيات ربّه الآية الكبرى، أخبرنا

(فصل من كلام الشيخ محيي الدين النووي في معنى قوله تعالى ﴿ولقد رآه نزلة أخرى﴾ وهل رأى النبي ﷺ ربه عز وجل ليلة الإسراء)

قال القاضي عياض اختلف السلف والخلف هل رأى نبينا ﷺ ربه ليلة الإسراء فأنكرته عائشة كما وقع في صحيح مسلم. وجاء مثله عن أبي هريرة وجماعة وهو المشهور عن ابن مسعود وإليه ذهب جماعة من المحدثين والمتكلمين.

وروي عن ابن عباس أنه رآه بعينه ومثله عن أبي ذر وكعب والحسن وكان يحلف على ذلك وحكي مثله عن ابن مسعود وأبي هريرة وأحمد بن حنبل وحكى أصحاب المقالات عن أبي الحسن الأشعري وجماعة من أصحابه أنه رآه ووقف بعض مشايخنا في هذا وقال: ليس عليه دليل واضح ولكنه جائز ورؤية الله عز وجل في الدنيا جائزة وسؤال موسى إياها دليل على جوازها إذ لا يجهل نبي ما يجوز أن يمتنع على ربه. واختلفوا في أن نبينا ﷺ هل كلم ربه ليلة الإسراء بغير واسطة أم لا، فحكي عن الأشعري وقوم من المتكلمين أنه كلمه. وعزا بعضهم هذا القول إلى جعفر بن محمد وابن مسعود وابن عباس وكذلك اختلفوا في قوله: ثم دنا فتدلى فالأكثر على أن هذا الدنو والتدلي منقسم بين جبريل والنبي ﷺ أو مختص بأحدهما من الآخر أو من سدرة المنتهى.

وذكر ابن عباس والحسن ومحمد بن كعب وجعفر بن محمد وغيرهم أنه دنو من النبي ﷺ إلى ربه أو من الله فعلى هذا القول يكون الدنو والتدلي متأولاً ليس على وجهه بل كما قال جعفر بن محمد الدنو من الله لا حد له ومن العباد بالحدود فيكون معنى دنو النبي ﷺ وقربه منه ظهور عظيم منزلته لديه وإشراق أنوار معرفته عليه واطلاعه من غيبه وأسرار ملكوته على ما لم يطلع سواه عليه. والدنو من الله تعالى له إظهار ذلك وعظيم بره وفضله العظيم لديه ويكون قوله تعالى: قاب قوسين أو أدنى، هنا عبارة عن لطف المحل وإيضاح المعرفة والإشراف على الحقيقة من نبينا ﷺ ومن الله تعالى إجابة الرغبة وإبانة المنزلة هذا آخر كلام القاضي عياض.

قال الشيخ محيي الدين: وأما صاحب التحرير فإنه اختار إثبات الرؤية. قال: والحجج في المسألة وإن كانت كثيرة ولكن لا تتمسك إلا بالأقوى منها وهو حديث ابن عباس: «أتعجبون أن تكون الخلة لإبراهيم والكلام لموسى والرؤية لمحمد ﷺ وعليهم أجمعين» وعن عكرمة قال: سئل ابن عباس هل رأى محمد ﷺ ربه؟ قال: نعم. وقد روي بإسناد لا بأس به عن شعبة عن قتادة عن أنس قال: رأى محمد ربه عز وجل وكان الحسن يحلف لقد رأى محمد ﷺ ربه عز وجل.

والأصل في المسألة حديث ابن عباس حبر هذه الأمة وعالمها والمرجوع إليه في المعضلات وقد راجعه ابن عمر في هذه المسألة وراسله هل رأى محمد ﷺ ربه عز وجل فأخبره أنه رآه ولا يقدح في هذا حديث عائشة لأن عائشة

إسماعيل بن عبد القاهر أنا عبد الغافر بن محمد أنا محمد بن عيسى الجلودي ثنا إبراهيم بن محمد بن سفيان ثنا مسلم بن الحجّاج ثنا عبد الله بن معاذ العنبري ثنا أبي ثنا شعبة عن سليمان الشيباني سمع زرّ بن حبيش عن عبد الله قال لقد رأى من آيات ربه الكبرى قال: رأى جبريل في صورته له ستمائة جناح وأخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا حفص بن عمرو ثنا شعبة عن الأعمش عن إبراهيم عن علقمة عن عبد الله: لقد رأى من آيات ربّه الكبرى، قال: رأى رفرفاً أخضر سَدَّ أُفُقَ السماء.

قوله: ﴿ أفرأيتم اللاّت والعزّى ﴾، هذه أسماء أصنام اتخذوها آلهة يعبدونها، اشتقّوا لها أسماء من أسماء

لم تخبر أنها سمعت النبي ﷺ يقول: لم أر ربي وإنما ذكرت ما ذكرت متأولة لقول الله تعالى ﴿وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً﴾ ولقوله ﴿لا تدركه الأبصار﴾ والصحابي إذا قال قولاً وخالفه غيره منهم لم يكن قوله حجة وإذا قد صحت الروايات عن ابن عباس أنه تكلم في هذه المسألة بإثبات الرؤية وجب المصير إلى إثباتها لأنها ليست مما يدرك بالعقل ويؤخذ بالظن وإنما يتلقى بالسمع ولا يستجيز أحد أن يظن بابن عباس أنه تكلم في هذه المسألة بالظن والاجتهاد وقد قال معمر بن راشد حين ذكر اختلاف عائشة وابن عباس ما عائشة عندنا بأعلم من ابن عباس ثم إن ابن عباس أثبت ما نفاه غيره والمثبت مقدم على النفي هذا كلام صاحب التحرير في إثبات الرؤية.

قال الشيخ محيي الدين فالحاصل أن الراجح عند أكثر العلماء أن رسول الله ﷺ رأى ربه عز وجل بعيني رأسه ليلة الإسراء لحديث ابن عباس وغيره مما تقدم وإثبات هذا لا يأخذونه إلا بالسماع من رسول الله ﷺ هذا مما لا ينبغي أن يتشكك فيه ثم إن عائشة لم تنف الرؤية بحديث عن رسول الله ﷺ ولو كان معها حديث لذكرته وإنما اعتمدت على الاستنباط من الآيات وسنوضح الجواب عنها، فنقول: أما احتجاج عائشة رضي الله تعالى عنها بقوله تعالى: ﴿لا تدركه الأبصار﴾ فجوابه ظاهر، فإن الإدراك هو الإحاطة والله تعالى لا يحاط به وإذا ورد النص بنفي الإحاطة لا يلزم منه نفي الرؤية بغير إحاطة وهذا الجواب في نهاية الحسن مع اختصاره. وأما احتجاجها بقوله تعالى: ﴿وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً﴾ الآية، فالجواب عنه من أوجه: أحدها أنه لا يلزم مع الرؤية وجود الكلام حال الرؤية فيجوز وجود الرؤية من غير كلام، الوجه الثاني: أنه عام مخصوص بما تقدم من الأدلة.

الوجه الثالث: ما قاله بعض العلماء إن المراد بالوحي الكلام من غير واسطة وهذا القول وإن كان محتملاً لكن الجمهور.

على أن المراد بالوحي هنا إلهام والرؤية في المنام وكلاهما يسمى وحياً وأما قوله تعالى: ﴿أو من وراء حجاب﴾ فقال الواحدي وغيره معناه غير مجاهر لهم بالكلام بل يسمعون كلامه سبحانه من حديث لا يرونه وليس المراد أن هناك حجاباً يفصل موضعاً عن موضع ويدل على تحديد المحجوب فهو بمنزلة ما يسمع من وراء حجاب حيث لم ير المتكلم وقول عائشة في أول الحديث «لقد قف شعري» فمعناه قام شعري من الفزع لكوني سمعت ما لا ينبغي أن يقال تقول العرب عند إنكار الشيء: قف شعري واقشعر جلدي واشمأزت نفسي وقوله ﷺ في حديث أبي ذر «نور أني أراه» فهو بتنوين نور وبفتح الهمزة في أني وتشديد النون المفتوحة ومعناه: حجابه نور فكيف أراه قال الماوردي الضمير في أراه عائد على الله تعالى والمعنى أن النور يمنعني من الرؤية كما جرت العادة بإغشاء الأنوار الأبصار ومنعها من إدراك ما حال بين الرائي وبينه وفي رواية رأيت نوراً معناه: رأيت النور فحسب ولم أر غيره وفي رواية ذاته نور أني أراه ومعناه هو خالق النور المانع من رؤيته فيكون من صفات الأفعال ومن المستحيل أن تكون ذات

الله تعالى فقالوا: من الله اللاّت، ومن العزيز العُزّى. وقيل: العُزّى تأنيث الأعز، **أما اللاّت قال قتادة**: كانت **بالطائف، فقال ابن زيد**: بيت نخلة كانت قريش تعبده، وقرأ ابن عباس ومجاهد وأبو صالح: **اللاّت** بتشديد التاء، وقالوا: كان رجلاً يلتّ السويق للحاجّ، فلما مات عكفوا على قبره يعبدونه. وقال مجاهد: كان في رأس جبل له غنيمة يسلأ منها السمن ويأخذ منها الأقِطَ، ويجمع رسلها ثمّ يتّخذ منها حيساً فيطعم منه الحاج، وكان ببطن نخلة، فلما مات عبدوه، وهو اللاّت. وقال الكلبي: كان رجلاً من ثقيف يقال له صرمة بن غنم، وكان يسلأ السمن فيضعها على صخرة ثم تأتيه العرب فتلتّ به أسوقتهم، فلما مات الرجل حوّلتها ثقيف إلى منازلها فعبدتها، فعمدت الطائف على موضع اللاّت. وأمّا العزّى قال مجاهد: هي شجرة بغطفان كانوا يعبدونها، فبعث رسول الله ﷺ خالد بن

الله نوراً إذ النور من جملة الأجسام والله يتعالى عن ذلك هذا مذهب جميع أئمة المسلمين والله أعلم.

قوله عز وجل: ﴿أفرأيتم اللات والعزى﴾ هذه أسماء أصنام اتخذوها آلهة يعبدونها واشتقوا لها أسماء من أسماء الله عز وجل فقالوا من الله اللات ومن العزيز العزى. وقيل: العزى تأنيث الأعز. والمعنى: أخبرونا عن هذه الآلهة التي تعبدونها من دون الله هل لها من القدرة والعظمة التي وصف بها رب العزة شيء وكان اللات بالطائف وقيل: بنخلة كانت قريش تعبده وقرىء اللات بالتشديد (خ). عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان اللات رجلاً يلت السويق للحاج. قيل: فلما مات عكفوا على قبره يعبدونه. وقيل: كان في رأس جبل له غنيمة يسلأ منها السمن ويأخذ منها الأقط ويجمع رسلها ثم يتخذ حيساً فيطعم الحاج وكان ببطن نخلة فلما مات عبدوه وهو اللات. وقيل: كان رجلاً من ثقيف يقال له صرمة بن غنم وكان يسلأ السمن فيضعه على صخرة فتأتيه العرب فتلت به أسوقتهم فلما مات الرجل حولها ثقيف إلى منازلها فمرت الطائف على موضع اللات وأما العزى فقيل هي شجرة بغطفان كانوا يعبدونها فبعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد فقطعها فجعل يضربها بالفأس ويقول:

يا عز كفرانك لا سبحانك ... إني رأيت الله قد أهانك

فخرجت منها شيطانة ناشرة شعرها داعية بويلها واضعة يدها على رأسها ويقال: إن خالداً رجع إلى النبي ﷺ فقال: قد قطعتها. فقال: ما رأيت؟ فقال ما رأيت شيئاً فقال ما قطعت فعاودها ومعه المعول فقطعها واجتثت أصلها فخرجت منها امرأة عريانة فقتلها ثم رجع إلى النبي ﷺ فأخبره بذلك فقال: تلك العزى ولن تعبد أبداً.

وقيل: هي صنم لغطفان وضعها لهم سعد بن سالم الغطفاني. وقيل: إنه قدم مكة فرأى الصفا والمروة ورأى أهل مكة يطوفون بينهما فرجع إلى بطن نخلة فقال لقومه: إن لأهل مكة الصفا والمروة وليستا لكم ولهم إله يعبدونه وليس لكم قالوا فما تأمرنا؟ قال: أنا أصنع لكم كذلك فأخذ حجراً من الصفا وحجراً من المروة ونقلهما إلى نخلة فوضع الذي أخذ من الصفا وقال الصفا ثم وضع الذي أخذ من المروة. وقال: هذه المروة ثم أخذ ثلاثة أحجار وأسندها إلى شجرة. وقال: هذا ربكم فجعلوا يطوفون بين الحجرين ويعبدون الحجارة الثلاث حتى افتتح رسول الله ﷺ مكة وأمر برفع الحجارة وأمر خالد بن الوليد بالعزى فقطعها وقيل: هي بيت بالطائف كانت تعبده ثقيف. وقوله تعالى:

الوليد فقطعها فجعل خالد بن الوليد يضربها بالفأس ويقول:

يا عزّ كفرانك لا سبحانك ... إني رأيت الله قد أهانك

فخرجت منها شيطانة ناشرة شعرها داعية بويلها واضعة يدها على رأسها. ويقال: إن خالداً رجعَ إلى النبي ﷺ فقال: قد قلعتها، فقال: «ما رأيتَ»؟ قال: ما رأيت شيئاً، فقال النبي ﷺ: «ما قلعت»، فعاودوها ومعه المِعوَل فقلعها واجتثّ أصلها فخرجت منها امرأة عريانة، فقتلها ثم رجع إلى النبي ﷺ وأخبره بذلك، فقال: «تلك العزّى ولن تُعبَد أبداً»، وقال الضحاك: هي صنم لغطفان وضعها لهم سعد بن ظالم الغطفاني، وذلك أنه قَدِمَ مكة فرأى الصفا والمروة، ورأى أهل مكة يطوفون بينهما، فعاد إلى بطن نخلة، وقال لقومه: إن لأهل مكة الصفا والمروة وليستا لكم ولهم إله يعبدونه وليس لكم، قالوا: فما تأمرنا؟ قال: أنا أصنع لكم كذلك، فأخذ حجراً من الصفا وحجراً من المروة ونقلهما إلى نخلة، فوضع الذي أخذ من الصفا، فقال: هذا الصفا، ثم وضع الذي أخذه من المروة، فقال: هذه المروة، ثم أخذ ثلاثة أحجار فأسندها إلى شجرة، فقال: هذا ربّكم، فجعلوا يطوفون بين الحجرين ويعبدون الحجارة، حتى افتتح رسول الله ﷺ مكة، فأمر برفع الحجارة، وبعث خالد بن الوليد إلى العُزّى فقطعها. وقال ابن زيد: هي بيت بالطائف كانت تعبده ثقيف.

﴿وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ۝٢٠ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ۝٢١ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ۝٢٢ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ۝٢٣﴾

﴿**ومناة**﴾ قيل: هي لخزاعة كانت بقديد وقالت عائشة رضي الله تعالى عنها في الأنصار كانوا يهلون لمناة وكانت حذو قديد وقيل: هي بيت بالمشلل كانت تعبده بنو كعب. وقيل: مناة، صنم لهذيل وخزاعة وكانت تعبدها أهل مكة وقيل: اللات والعزى ومناة أصنام من الحجارة كانت في جوف الكعبة يعبدونها ﴿**الثالثة الأخرى**﴾ الثالثة نعت لمناة إذ هي الثالثة في الذكر وأما الأخرى فإن العرب لا تقول الثالثة الأخرى وإنما الأخرى هنا نعت للثلاثة قال الخليل: قالها لوفاق رؤوس الآي كقوله «مآرب أخرى» ولم يقل أخر.

وقيل: في الآية تقديم وتأخير تقديره أفرأيتم اللات والعزى الأخرى ومناة الثالثة.

وقيل: هي صفة ذم كأنه تعالى قال ومناة الثالثة المتأخرة الذليلة. فعلى هذا فالأصنام ترتب مراتب، وذلك لأن اللات كان صنماً على صورة آدمي والعزّى شجرة فهي نبات ومناة صخرة فهي جماد وهي في أخريات المراتب. ومعنى الآية: هل رأيتم هذه الأصنام حق الرؤية، وإذا رأيتموها علمتم أنها لا تصلح للعبادة لأنها لا تضر ولا تنفع وقيل: أفرأيتم أيها الزاعمون أن اللات والعزى ومناة بنات الله ألكم الذكر وله الأنثى. وقيل: كان المشركون بمكة يقولون: الأصنام والملائكة بنات الله وكان الرجل منهم إذا بشر بالأنثى كره ذلك فقال الله عز وجل منكراً عليهم ﴿**ألكم الذكر وله الأنثى تلك إذا قسمة ضيزى**﴾ قال ابن عباس: أي قسمة جائرة حيث جعلتم لربكم ما تكرهون لأنفسكم وقيل: قسمة عوجاء غير معتدلة ﴿**إن هي**﴾ أي ما هذه الأصنام ﴿**إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم**﴾ والمعنى: أنكم

﴿ **ومناة** ﴾، قرأ ابن كثير بالمدّ والهمزة، وقرأ العامّة بالقصر غير مهموز، لأن العرب سَمّتْ زيد مناة وعبد مناة، ولم يسمع فيها المدّ. قال قتادة: هي لخزاعة كانت بقديد، قالت عائشة رضي الله عنها: في الأنصار كانوا يهلّون لمناة، وكانت حذو قديد. قال ابن زيد: بيت كان بالمشلل يعبده بنو كعب. قال الضحاك: مناة صنم لهذيل وخزاعة يعبدها أهل مكة، وقال بعضهم: اللاّت والعُزّى ومناة أصنام من حجارة كانت في جوف الكعبة يعبدونها. واختلف القرّاء في الوقف على اللاّت ومناة، فوقف بعضهم عليهما بالهاء وبعضهم بالتاء. وقال بعضهم: ما كُتب في المصحف بالتاء يوقَف عليه بالتاء، وما كُتب بالهاء فيوقف عليه بالهاء. وأما قوله: ﴿ **الثالثة الأخرى** ﴾، فالثالثة نعت لمناة أي الثالثة للصنمين في الذكر، وأما الأخرى فإن العرب لا تقول الثالثة الأخرى، إنما الأخرى ههنا نعت للثالثة. قال الخليل: فالياء لوفاق رؤوس الآي، كقوله: ﴿ مآرب أُخرى ﴾ [طه: ١٨] ولم يقل: أُخَر. وقيل: في الآية تقديم وتأخير، مجازها: أفرأيتم اللاّت والعُزّى الأخرى ومناة الثالثة، ومعنى الآية: أفرأيتم أخبرونا أيها الزاعمون أن اللاّت والعُزّى ومناة بنات الله تعالى عمّا يقول الظالمون علوّاً كبيراً. وقال الكلبي: كان المشركون بمكة يقولون الأصنام والملائكة بنات الله، وكان الرجل منهم إذا بُشّر بالأُنثى كره ذلك.

فقال الله تعالى منكراً عليهم: ﴿ **أَلكمُ الذَّكَر وله الأُنثى * تلك إذاً قسمةٌ ضيزى** ﴾، قال ابن عباس وقتادة: أي قسمة جائرة حيث جعلتم لربّكم ما تكرهون لأنفسكم. قال مجاهد ومقاتل: قسمة عوجاء، وقال الحسن: غير معتدلة. قرأ ابن كثير: (ضئزى) بالهمز، وقرأ الآخرون بغير همز. قال الكسائي: يقال منه ضاز يضيز ضيزاً، وضاز يضوز ضوزاً وضاز يُضاز ضازاً إذا ظلم ونقص، وتقدير ضيزى من الكلام فُعلى بضم الفاء، لأنها صفة والصفات لا تكون إلاّ على فعلى بضم الفاء، نحو حبلى وأُنثى وبُشرى، أو فَعلى بفتح الفاء، نحو غضبى وسكرى وعطشى،

سميتموها آلهة وليست حقيقة ولا بمعبودة حقيقة وقيل: معناه قلتم لبعضها عزى ولا عزة لها فلا يكون لها مسمى حقيقة.

﴿ما أنزل الله بها من سلطان﴾ أي حجة بما تقولون إنها آلهة ﴿إن يتبعون إلا الظن﴾ أي في قولهن إنها آلهة ﴿وما تهوى الأنفس﴾ يعني هو ما زين لهم الشيطان من عبادة الأصنام وقيل: وضعوا عبادتهم بمقتضى شهواتهم والذي ينبغي أن تكون العبادة بمقتضى الشرع لا بمتابعة هوى النفس ﴿ولقد جاءهم من ربهم الهدى﴾ أي البيان بالكتاب المنزل والنبي المرسل أن الأصنام ليست بآلهة وأن العبادة لا تصلح إلا لله الواحد القهار. قوله تعالى:

﴿أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ ٱلْـَٔاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ ۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿٣٠﴾﴾

﴿أم للإنسان ما تمنى﴾ معناه أيظن الكافر أن له ما يتمنى ويشتهي من شفاعة الأصنام أي ليس الأمر كما يظن ويتمنى ﴿فلله الآخرة والأولى﴾ أي لا يملك أحد فيها شيئاً أبداً إلا بإذنه وقيل: معناه أن الإنسان إذا اختار معبوداً على ما تمناه واشتهاه فلله الآخرة والأولى يعاقبه على فعله ذلك إن شاء في الدنيا والآخرة وإن شاء أمهله إلى الآخرة ﴿وكم من ملك في السموات﴾ أي ممن يعبدهم هؤلاء ويرجون شفاعتهم عند الله ﴿لاتغني شفاعتهم شيئاً﴾ يعني أن الملائكة، مع علو منزلتهم، لا تغني شفاعتهم، شيئاً فكيف تشفع الأصنام مع حقارتها ثم أخبر أن الشفاعة لا تكون إلا بإذنه فقال تعالى: ﴿إلا من بعد أن يأذن الله﴾ أي في الشفاعة ﴿لمن يشاء ويرضى﴾ أي من أهل التوحيد قال ابن عباس

وليس في كلام العرب فِعلى بكسر الفاء في النعوت، إنما يكون في الأسماء مثل ذكرى وشعرى وكسرى، والضاد ههنا لئلا تنقلب الياء واواً وهي من بنات الباءَ كما قالوا في جمع أبيض بيض، والأصل بوض مثل جمر وصفر، فأمّا مَن قال: ضاز يضوز فالاسم منه ضُوزى مثل شُورى.

﴿ إنْ هي ﴾، ما هذه الأصنام، ﴿ إلاّ أسماء سمّيتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ﴾، حجّة وبرهان بما تقولون إنها آلهة، ثم رجع إلى الخبر بعد المخاطبة فقال: ﴿ إنْ يتّبعون إلاّ الظن ﴾، في قولهم إنها آلهة، ﴿ وما تهوى الأنفس ﴾، وهو ما زيّن لهم الشيطان، ﴿ ولقد جاءهم من ربّهم الهدى ﴾، البيان بالكتاب والرسول أنها ليست بآلهة، وأن العبادة لا تصلح إلاّ لله الواحد القهّار.

﴿ أمْ للإنسان ما تمنى ﴾، أيظن الكافر أن له ما يتمنى ويشتهي من شفاعة الأصنام.

﴿ فللّهِ الآخرةُ والأولى ﴾، ليس كما ظن الكافر وتمنّى، بل لله الآخرة والأولى لا يملك أحدٌ فيهما شيئاً إلّا بإذنه.

﴿ وكم من مَلَكٍ في السمٰوات ﴾، ممّن يعبدهم هؤلاء الكفّار ويرجون شفاعتهم عند الله، ﴿ لا تُغني شفاعتهم شيئاً إلاّ من بعد أن يأذن الله ﴾، في الشفاعة، ﴿ لمَن يشاء ويرضى ﴾، أي من أهل التوحيد. قال ابن عباس: يريد لا تشفع الملائكة إلاّ لمَن رضي الله عنه، وجمع الكناية في قوله: شفاعتهم والملك واحد لأن المراد من قوله: ﴿ وكم من ملك ﴾، الكثرة فهو كقوله: ﴿ فما منكم من أحد عنه حاجزين ﴾ [الحاقّة: ٤٧].

يريد لا تشفع الملائكة إلا لمن رضي الله عنه وقيل: إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء من الملائكة في الشفاعة لمن شاء الشفاعة له ﴿إن الذين لا يؤمنون بالآخرة﴾ يعني الكفار الذين أنكروا البعث ﴿ليسمون الملائكة تسمية الأنثى﴾ أي بتسمية الأنثى حيث قالوا إنهم بنات الله. فإن قلت كيف قال تسمية الأنثى ولم يقل تسمية الإناث.

قلت المراد منه بيان الجنس وهذا اللفظ أليق بهذا الموضع لمناسبته رؤوس الآي وقيل: إن كل واحد من الملائكة يسمونه تسمية الأنثى وذلك لأنهم إذا قالوا الملائكة بنات الله فقد سموا كل واحد منهم بنتاً وهي تسمية الأنثى ﴿وما لهم به من علم﴾ يعني بالله فيشركون به ويجعلون له ولداً وقيل: ما يستيقنون أن الملائكة أناث ﴿إن يتبعون إلا الظن﴾ يعني في تسمية الملائكة بالإناث ﴿وإن الظن لا يغني من الحق شيئاً﴾ يعني لا يقوم الظن مقام العلم الذي هو الحق وقيل معناه إنما يدرك الحق الذي هو حقيقة الشيء بالعلم واليقين لا بالظن والتوهم وقيل: الحق هو الله تعالى والمعنى أن الأوصاف الإلهية لا تستخرج بالظنون ﴿فأعرض عمن تولى عن ذكرنا﴾ يعني القرآن.

وقيل: عن الإيمان ﴿ولم يزد إلا الحياة الدنيا﴾ يعني أنهم لا يؤمنون بالآخرة حتى يردوها ويعملوا لها وفيه إشارة إلى إنكارهم الحشر ثم صغر رأيهم فقال تعالى: ﴿ذلك مبلغهم من العلم﴾ أي ذلك نهاية علمهم وقلة عقولهم أن آثروا الدنيا على الآخرة وقيل: معناه أنهم لم يبلغوا من العلم إلا ظنهم أن الملائكة بنات الله وأنهم يشفعون لهم فاعتمدوا على ذلك وأعرضوا عن القرآن والإيمان ﴿إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى﴾ أي هو عالم بالفريقين ويجازيهم بأعمالهم.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ
يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِۚ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ
فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْۖ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾﴾

﴿ولله ما في السموات وما في الأرض﴾ وهذه إشارة إلى كمال قدرته وغناه وهو معترض بين الآية الأولى وبين قوله ﴿ليجزي الذين أساؤوا بما عملوا﴾. والمعنى:

﴿ إنّ الذين لا يؤمنون بالآخرة ليسمّون الملائكة تسمية الأُنثى ﴾، أي بتسمية الأُنثى حين قالوا إنهم بنات الله.

﴿ وما لهم به من علم ﴾، قال مقاتل: معناه ما يستيقنون أنهم إناث، ﴿ إنْ يتبعون إلاّ الظنّ وإنّ الظنَّ لا يُغني من الحق شيئاً ﴾، والحق بمعنى العلم أي لا يقوم الظن مقام العلم. وقيل: الحق بمعنى العذاب، أي أظنهم لا ينقذهم من العذاب.

﴿ فأعرضْ عمّن تولّى عن ذكرنا ﴾، يعني القرآن. وقيل: الإيمان، ﴿ ولم يردْ إلاّ الحياة الدنيا ﴾.

ثم صغّر رأيهم فقال: ﴿ ذلك مبلغهم من العلم ﴾، أي ذلك نهاية علمهم وقدر عقولهم أن آثروا الدنيا على الآخرة. وقيل: لم يبلغوا من العلم إلاّ ظنهم أن الملائكة بنات الله، وأنها تشفع لهم فاعتمدوا على ذلك وأعرضوا عن القرآن. ﴿ إنّ ربّك هو أعلم بمَن ضلّ عن سبيله وهو أعلم بمَن اهتدى ﴾، أي هو عالم بالفريقين فيجازيهم.

﴿ ولله ما في السمٰوات وما في الأرض ﴾، وهذا معترض بين الآية الأولى وبين قوله: ﴿ ليجزي الذين أساؤوا بما عملوا ﴾، فاللام في قوله: ﴿ ليجزي ﴾ متعلّق بمعنى الآية الأولى، لأنه إذا كان أعلم بهم جازى كلاًّ بما

إذا كان أعلم بهم جازى كل أحد بما يستحقه فيجزي الذين أساؤوا أي أشركوا بما عملوا من الشرك ﴿ويجزي الذين أحسنوا﴾ أي وحدوا ربهم ﴿بالحسنى﴾ يعني الجنة وإنما يقدر على مجازاة المحسن والمسيء إذا كان كثير الملك كامل القدرة فلذلك قال ولله ما في السموات وما في الأرض ثم وصف المحسنين فقال عز وجل: ﴿الذين يجتنبون كبائر الإثم﴾ قيل: الإثم، الذنب الذي يستحق صاحبه العقاب وقيل: هو اسم للأفعال المبطئة عن الثواب، وقيل: هو فعل ما لا يحل وقيل: الإثم جنس يشتمل على كبائر وصغائر وجمعه آثام والكبيرة متعارفة في كل ذنب تعظم عقوبته وجمعه كبائر ﴿والفواحش﴾ جمع فاحشة، وهي ما عظم قبحه من الأفعال والأقوال وقيل: هي ما فحش من الكبائر ﴿إلا اللمم﴾ أي إلا ما قل وصغر من الذنوب وقيل: هي مقاربة المعصية من قولك ألممت بكذا إذا قاربته من غير مواقعة واختلفوا في معنى الآية فقيل هذا استثناء صحيح واللمم من الكبائر والفواحش ومعنى الآية: إلا إن يلم بالفاحشة مرة ثم يتوب أو يقع الوقعة ثم ينتهي وهو قول أبي هريرة ومجاهد والحسن ورواية عن ابن عباس. وقال عبد الله بن عمرو بن العاص: اللمم ما دون الشرك. وقال أبو صالح: سئلت عن قول الله عز وجل إلا اللمم فقلت: هو الرجل يلم بالذنب ثم لا يعاود فذكرت، ذلك لابن عباس فقال: أعانك عليها ملك كريم. عن ابن عباس في قوله عز وجل: ﴿الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم﴾.

قال: قال رسول الله ﷺ «إن تغفر اللهم تغفر جماً وأي عبد لك لا ألما» أخرجه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح غريب وقيل: أصل اللمم والإلمام ما يعمله الإنسان الحين بعد الحين ولا يكون له إعادة ولا إقامة وقيل: هو استثناء منقطع مجازه لكن اللمم ولم يجعل اللمم من الكبائر والفواحش ثم اختلفوا في معناه فقيل هو ما سلف في الجاهلية فلا يؤاخذهم به في الإسلام وذلك أن المشركين قالوا للمسلمين: إنهم كانوا بالأمس يعملون معنا فأنزل الله عز وجل هذه الآية وهذا قول زيد بن ثابت وزيد بن سلم. وقيل: اللمم هو صغار الذنوب كالنظرة والغمزة والقبلة ونحو ذلك مما هو دون الزنا وهو قول ابن مسعود وأبي هريرة ومسروق والشعبي والرواية الأخرى عن ابن عباس (ق) عن ابن عباس قال «ما رأيت شيئاً أشبه باللمم مما قال أبو هريرة عن النبي ﷺ قال إن الله عز وجل كتب على ابن آدم حظه من الزنا أدرك ذلك لا محالة فزنا العينين النظر وزنا اللسان النطق والنفس تتمنى وتشتهي والفرج يصدق ذلك أو يكذبه».

ولمسلم قال: «كتب على ابن آدم نصيبه من الزنا مدرك ذلك لا محالة العينان زناهما النظر والأذنان زناهما الاستماع واللسان زناه الكلام واليد زناها البطش والرجل زناها الخطا والقلب يهوى ويتمنى ويصدق ذلك الفرج أو يكذبه» وقيل: اللمم على وجهين، أحدهما أنه كل ذنب لم يذكر الله تعالى عليه حداً في الدنيا ولا عذاباً في الآخرة فذلك الذي تكفره الصلوات الخمس وصوم رمضان ما لم يبلغ الكبائر والفواحش.

والوجه الثاني: هو الذنب العظيم يلم به المسلم المرة بعد المرة فيتوب منه وقيل: هو ما لم على القلب أي خطر وقيل: اللمم النظرة من غير عمد فهو مغفور فإن أعاد النظر فليس بلمم فهو ذنب والله سبحانه وتعالى أعلم.

يستحقّه، **الذين** أساؤوا أي أشركوا بما عملوا من الشرك، ﴿ **ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى** ﴾، وحدّوا ربّهم بالحسنى بالجنّة، وإنما يقدر على مجازاة المُحسن والمُسيء إذا كان كثير الملك، ولذلك قال: ﴿ **ولله ما في السموات وما في الأرض** ﴾.

ثم وصفهم فقال: ﴿ **الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلاّ اللّمم** ﴾، اختلفوا في معنى الآية، فقال قوم: هذا استثناء صحيح، واللّمم: من الكبائر والفواحش، ومعنى الآية: إلاّ أن يلمّ بالفاحشة مرة ثم يتوب، ويقع الوقعة ثم ينتهي وهو قول أبي هريرة ومجاهد والحسن، ورواية عطاء عن ابن عباس، قال عبد الله بن عمرو بن

(فصل: في بيان الكبيرة وحدها وتمييزها عن الصغيرة)

قال العلماء: أكبر الكبائر الشرك بالله وهو ظاهر لا خفاء به لقوله تعالى: ﴿إن الشرك لظلم عظيم﴾ ويليه القتل بغير حق فأما ما سواهما من الزنا واللواط وشرب الخمر وشهادة الزور وأكل مال اليتيم بغير حق والسحر وقذف المحصنات وعقوق الوالدين والفرار من الزحف وأكل الربا وغير ذلك من الكبائر التي ورد بها النص فلها تفاصيل وأحكام تعرف بها مراتبها ويختلف أمرها باختلاف الأحوال والمفاسد المرتبة عليها. فعلى هذا يقال في كل واحدة منها: هي من أكبر الكبائر بالنسبة إلى ما دونها.

وقد جاء عن ابن عباس أنه سئل عن الكبائر أسبع هي قال هي إلى السبعين أقرب.

وفي رواية إلى سبعمائة أقرب وقد اختلف العلماء في حد الكبيرة وتمييزها عن الصغيرة فجاء عن ابن عباس: كل شيء نهى الله عنه فهو كبيرة. وبهذا قال الأستاذ أبو إسحاق الأسفراييني وحكاه القاضي عياض عن المحققين واحتج القائلون بهذا بأن كل مخالفة فهي بالنسبة إلى جلال الله كبيرة وذهب الجماهير من السلف والخلف من جميع الطوائف إلى انقسام المعاصي إلى صغائر وكبائر وقد تظاهرت على ذلك دلائل الكتاب والسنة واستعمال سلف الأئمة. وإذا ثبت انقسام المعاصي إلى صغائر وكبائر، فقد اختلف في ضبطها، فروي عن ابن عباس أنه قال: الكبائر كل ذنب ختمه الله بنار أو غضب أو لعنة أو عذاب وعن الحسن نحو هذا وقيل: هي ما وعد الله عليه بنار في الآخرة وأحد في الدنيا. وقال الغزالي: في البسيط الضابط الشامل في ضبط الكبيرة أن كل معصية يقدم عليها المرء من غير استشعار خوف أو استحداث ندم كالمتهاون في ارتكابها والمستجرىء عليها اعتياداً فما أشعر بهذا الاستخفاف والتهاون فهو كبيرة وما تحمل عليه فلتات النفس وفترة مراقبة التقوى ولا ينفك عن ندم يمتزج به تنغيص التلذذ بالمعصية فهذا لا يمنع العدالة وليس بكبيرة. وقال الشيخ عز الدين بن عبد السلام في كتابه القواعد:

إذا أردت معرفة الفرق بين الكبيرة والصغيرة فأعرض مفسدة الذنب على مفاسد الكبائر المنصوص عليها فإن نقصت عن أقل مفاسد الكبائر فهي من الصغائر وإن ساوت أدنى مفاسد الكبائر أو زادت عليه فهي من الكبائر فمن أمسك امرأة محصنة لمن يزني بها أو أمسك مسلماً لمن يقتله فلا شك أن مفسدة ذلك أعظم ممن أكل درهماً من مال اليتيم مع كونه من الكبائر. وكذلك لو دل الكفار على عورة المسلمين مع علمه بأنهم يستأصلونهم بدلالته فإن تسببه إلى هذه المفسدة أعظم من توليه يوم الزحف بغير عذر مع كونه من الكبائر وكذلك لو كذب على إنسان كذباً يعلم أنه يقتل بسببه. ولو كذب على إنسان كذباً يعلم أنه يؤخذ منه ثمرة بسبب كذبه لم يكن ذلك من الكبائر.

وقال الشيخ أبو عمرو بن الصلاح في فتاويه الكبيرة: كل ذنب كبر وعظم عظماً بحيث يصح معه أنه يطلق عليه اسم الكبيرة ويوصف بكونه عظيماً على الإطلاق فهذا حد الكبيرة ولها أمارات منها الحد ومنها الإيعاد عليها بالعذاب

العاص: اللّمم ما دون الشرك. وقال السدي وأبو صالح: سُئِلت عن قول الله تعالى: ﴿إلاّ اللّمم﴾، فقلت: هو الرجل يلمّ بالذنب ثم لا يعاوده، فذكرت ذلك لابن عباس فقال: لقد أعانك عليها ملك كريم. وروينا عن عطاء عن ابن عباس في قوله: ﴿إلاّ اللّمم﴾، قال: قال رسول الله ﷺ: «إنْ تغفر اللّهمَّ تغفرْ جمّاً وأيّ عبد لك إلاّ ألمّا» وأصل اللّمم والإلمام ما يعمله الإنسان الحين بعد الحين، ولا يكون له إعادة، ولا إقامة عليه. وقال آخرون: هذا استثناء منقطع مجازه لكن اللّمم، ولم يجعلوا اللّمم من الكبائر والفواحش، ثم اختلفوا في معناه، فقال بعضهم: هو ما سلف في الجاهلية فلا يؤاخذهم الله به، وذلك أن المشركين قالوا للمسلمين: إنهم كانوا بالأمس يعملون معنا؟ فأنزل الله هذه الآية، وهذا قول زيد بن ثابت وزيد بن أسلم، وقال بعضهم: هو صغار الذنوب كالنظرة والغمزة

بالنار ونحوها في الكتاب أو السنة ومنها ما وصف فاعلها بالفسق أو يضاف إليه اللعن كلعن الله من غير منار الأرض ونحو ذلك والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿إن ربك واسع المغفرة﴾ قال ابن عباس: لمن فعل ذلك ثم تاب وأناب.

وروي عن عمر بن الخطاب وابن عباس قالا: لا كبيرة في الإسلام أي لا كبيرة مع استغفار ولا صغيرة مع إصرار معناه أن الكبيرة أيضاً تمحى بالاستغفار والتوبة والصغيرة تصير كبيرة بالإصرار وقيل في حد الإصرار هو أن يتكرر منه الصغيرة تكراراً يشعر بقلة مبالاته بذنبه وتم الكلام على قوله إن ربك واسع المغفرة ثم ابتدأ فقال تعالى: **﴿هو أعلم بكم﴾** أي قبل أن يخلقكم وهو قوله: **﴿إذ أنشأكم من الأرض﴾** يعني خلق أباكم آدم من التراب **﴿وإذ أنتم أجنة﴾** جمع جنين **﴿في بطون أمهاتكم﴾** سمي جنيناً لاستتاره في بطن أمه **﴿فلا تزكوا أنفسكم﴾** قال ابن عباس: لا تمدحوها. وقال الحسن: علم الله من كل نفس ما هي صانعة وإلى ما هي صائرة فلا تزكوا أنفسكم فلا تبرئوها من الآثام ولا تمدحوها بحسن الأعمال. وقيل في معنى الآية: هو أعلم بكم أيها المؤمنون علم حالكم من أول خلقكم إلى آخر يومكم فلا تزكوا أنفسكم رياء وخيلاء ولا تقولوا لمن لم تعرفوا حقيقته أنا خير منك أو أنا أزكى منك أو أتقى منك فإن العلم عند الله وفيه إشارة إلى وجوب خوف العاقبة فإن الله يعلم عاقبة من هو على التقوى وهو قوله تعالى: **﴿هو أعلم بمن اتقى﴾** يعني بمن بر وأطاع وأخلص العمل وقيل في معنى الآية فلا تزكوا أنفسكم يعني لاتنسبوها إلى زكاء العلم وزيادة الخير والطاعات وقيل لا تنسبوها إلى الزكاة والطهارة من المعاصي ولا تثنوا عليها واهضموها فقد علم الله الزكي منكم والتقي أولاً وآخراً قبل أن يخرجكم من صلب أبيكم آدم وقبل أن تخرجوا من بطون أمهاتكم. قيل: نزلت من ناس كانوا يعملون أعمالاً حسنة ثم يقولون صلاتنا وصيامنا وحجنا فأنزل الله فيهم هذه الآية. قوله عز وجل:

والقُبلة وما كان دون الزنا، وهذا قول ابن مسعود وأبي هريرة ومسروق والشعبي، ورواية طاوس عن ابن عباس، أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا محمود بن عيلان أنا عبد الرزاق أنا معمر عن ابن طاوس عن أبيه عن ابن عباس قال: ما رأيتُ أشبه باللّمم مما قاله أبو هريرة عن النبي ﷺ: «إن الله كتب على ابن آدم حظه من الزنا أدرك ذلك لا محالة، فزنا العين النظر، وزنا اللسان النطق، والنفس تتمنى وتشتهي، والفرج يصدق ذلك ويكذبه»، ورواه سهيل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ، وزاد: «والعينان زناهما النظر، والأُذنان زناهما الاستماع، واللسان زناه الكلام، واليد زناها البطش، والرجل زناها الخطى». وقال الكلبي: اللّمم على وجهين كل ذنب لم يذكر الله عليه حدّاً في الدنيا ولا عذاباً في الآخرة فذلك الذي تكفّره الصلوات ما لم يبلغ الكبائر والفواحش، والوجه الآخر هو: الذنب العظيم يلمّ به المسلم المرة بعد المرة فيتوب منه. وقال سعيد بن المسيب: هو ما لَمّ على القلب أي خطر. وقال الحسين بن الفضل: اللّمم النظرة من غير تعمّد فهو مغفور، فإن أعاد النظرة فليس بلمم وهو ذنب. **﴿ إن ربَّك واسعُ المغفرة ﴾**، قال ابن عباس: لمَن فعل ذلك وتاب، تمّ الكلام ههنا، ثم قال: **﴿ هو أعلم بكم إذْ أنشأكم من الأرض ﴾**، أي خلق أباكم آدم من التراب، **﴿ وإذْ أنتم أجنّة ﴾**، جمع جنين، سُمّي جنيناً لاجتنانه في البطن، **﴿ في بطون أُمهاتكم فلا تزكّوا أنفسكم ﴾**، قال ابن عباس: لا تمدحوها. قال الحسن: علم الله من كل نفس ما هي صانعة وإلى ما هي صائرة، فلا تزكّوا أنفسكم، فلا تبرؤوها عن الآثام ولا تمدحوها بحُسْن أعمالها. قال الكلبي ومقاتل: كان الناس يعملون أعمالاً حسنة ثم يقولون صلاتنا وصيامنا وحجّنا وجهادنا، فأنزل الله تعالى هذه الآية: **﴿ هو أعلم بمَن اتّقى ﴾**، أي بَرَّ وأطاع وأخلص العمل لله تعالى.

﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ﴿٣٤﴾ أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴿٣٥﴾ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾﴾

﴿أفرأيت الذي تولى﴾ نزلت في الوليد بن المغيرة كان قد اتبع النبي ﷺ على دينه فغيره بعض المشركين وقالوا: أتركت دين الأشياخ وضللت. قال: إني خشيت عذاب الله فضمن له الذي عاتبه إن أعطاه كذا من ماله ورجع إلى الشرك أن يتحمل عنه عذاب الله فرجع الوليد إلى الشرك وأعطى للذي عيره بعض الذي ضمن له من المال ومنعه تمامه فأنزل الله أفرأيت الذي تولى يعني أدبر وأعرض عن الإيمان ﴿وأعطى﴾ يعني لصاحبه الذي عيره ﴿قليلاً وأكدى﴾ أي بخل بالباقي. وقيل: أعطى قليلاً يعني من الخير بلسانه وأكدى يعني قطعه وأمسك ولم يعم بالعطية.

وقيل: نزلت في العاص بن وائل السهمي وذلك أنه كان ربما يوافق النبي ﷺ في بعض الأمور.

وقيل: نزلت في أبي جهل وذلك أنه قال والله ما يأمرنا محمد إلا بمكارم الأخلاق فذلك قوله: وأعطى قليلاً وأكدى يعني لم يؤمن به ومعنى الآية أكدى يعني قطع وأصله من الكدية وهي حجر يظهر في البئر يمنع من الحفر ﴿أعنده علم الغيب فهو يرى﴾ أي ما غاب عنه يعني أن صاحبه يتحمل عنه عذابه ﴿أم لم ينبأ﴾ يعني يخبر ﴿بما في صحف موسى﴾ يعني أسفاره التوراة.

﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾﴾

﴿وإبراهيم﴾ يعني ويخبر بما في صحف إبراهيم ﴿الذي وفى﴾ يعني كمل وتمم مما أمر به وقيل: عمل بما أمر به وبلغ رسالات ربه إلى خلقه وقيل وفى فرض عليه وقيل قام بذبح ولده وقيل استكمل الطاعة. وقيل: وفى بما فرض

قوله عزّ وجلّ: ﴿ أفرأيتَ الذي تولى ﴾، نزلت في الوليد بن المغيرة، كان قد اتّبع النبي ﷺ على دينه فعيّره بعض المشركين، وقال أتركت دين الأشياخ وضللتهم؟ قال: إني خشيت عذاب الله فضمن الذي عاتبه إن هو أعطاه كذا من ماله ورجع إلى شركه أن يتحمّل عنه عذاب الله، فرجع الوليد إلى الشرك وأعطى الذي عيّره بعض ذلك المال الذي ضمن ومنعه تمامه، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿ أفرأيت الذي تولّى ﴾ أدبر عن الإيمان.

﴿ وأعطى ﴾، صاحبه، ﴿ قليلاً وأكدى ﴾، بخل بالباقي، وقال مقاتل: أعطى يعني الوليد قليلاً من الخير بلسانه، وأكدى ثم أكدى، يعني قطعة وأمسك ولم يقم على العطية. وقال السدي: نزلت في العاص بن وائل السهمي وذلك أنه كان ربما يوافق النبي ﷺ في بعض الأمور، وقال محمد بن كعب القرظي: نزلت في أبي جهل وذلك أنه قال: والله ما يأمرنا محمد إلّا بمكارم الأخلاق، فذلك قوله: ﴿ وأعطى قليلاً وأكدى ﴾، لم يؤمن به، ومعنى أكدى: يعني قطع، وأصله من الكدية وهي حجر يظهر في البئر يمنع من الحفر، تقول العرب: أكدى الحافر وأجبل إذا بلغ في الحفر الكدية والجبل.

﴿ أعنده علم الغيب فهو يرى ﴾، ما غاب عنه ويعلم أن صاحبه يتحمّل عنه عذابه.

﴿ أم لم ينبّأ ﴾، لم يخبر، ﴿ بما في صحف موسى ﴾، يعني أسفار التوراة.

﴿ وإبراهيم ﴾، وفي صحف إبراهيم عليه السلام، ﴿ الذي وَفّى ﴾، تمّم وأكمل ما أُمر به. قال الحسن وسعيد بن جبير وقتادة: عمل بما أُمر به وبلّغ رسالات ربّه إلى خلقه. قال مجاهد: وفّى بما فُرض عليه. قال الربيع:

عليه في سهام الإسلام وهو قوله ﴿وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن﴾ والتوفية الإتمام. وقيل: وفي شأن المناسك. وروى البغوي بسنده عن أبي أمامة عن النبي ﷺ قال إبراهيم الذي وفى عمله كل يوم بأربع ركعات أول النهار.

عن أبي الدرداء وأبي ذر عن رسول الله ﷺ عن الله تبارك وتعالى أنه قال «ابن آدم اركع لي أربع ركعات من أول النهار أكفك آخره» أخرجه الترمذي وقال: حديث حسن غريب ثم بين ما في صحفهما فقال تعالى: ﴿ألا تزر وازرة وزر أخرى﴾ أي لا تحمل نفس حاملة حمل نفس أخرى. والمعنى: لا تؤخذ نفس بإثم غيرها. وفي هذا إبطال قول من ضمن للوليد بن المغيرة أن يحمل عنه الإثم. وقال ابن عباس: كانوا قبل إبراهيم يأخذون الرجل بذنب غيره كان الرجل يقتل بقتل أبيه وابنه وأخيه وامرأته وعبده حتى كان إبراهيم عليه الصلاة والسلام فنهاهم عن ذلك وبلغهم عن الله تعالى: ﴿ألا تزر وازرة وزر أخرى﴾ ﴿وأن ليس للإنسان إلا ما سعى﴾ أي عمل وهذا في صحف إبراهيم وموسى أيضاً قال ابن عباس هذا منسوخ الحكم في هذه الشريعة بقوله تعالى: ﴿ألحقنا بهم ذرياتهم﴾ فأدخل الأبناء الجنة بصلاح الآباء وقيل كان ذلك لقوم إبراهيم وموسى فأما هذه الأمة فلها ما سعوا وما سعى لهم غيرهم لما روي عن ابن عباس «أن امرأة رفعت صبياً لها فقالت يا رسول الله ألهذا حج؟ قال نعم ولك أجراً» أخرجه مسلم وعنه «أن رجلاً قال لرسول الله ﷺ إن أمي توفيت أينفعها إن تصدقت عنها؟ قال نعم».

وفي رواية أن سعد بن عبادة أخا بني سعد وذكر نحوه وأخرجه البخاري وعن عائشة رضي الله عنها قالت: «إن رجلاً قال لرسول الله ﷺ إن أمي افتلتت نفسها وأظنها لو تكلمت تصدقت فهل لها أجر إن تصدقت عنها؟ قال نعم.» أخرجاه في الصحيحين. وفي حديث ابن عباس دليل لمذهب الشافعي ومالك وأحمد وجماهير العلماء أن حج الصبي منعقد صحيح يثاب عليه وإن كان لا يجزيه عن حجة الإسلام بل يقع تطوعاً. وقال أبو حنيفة: لا يصح حجه وإنما

وفّى رؤياه وقام بذبح ابنه. وقال عطاء الخراساني: استكمل الطاعة. وقال أبو العالية: وفّى سهام الإسلام. وهو قوله: ﴿ وإذِ ابتلى إبراهيم ربّه بكلمات فأتمهنّ ﴾ [البقرة: ١٢٤]، والتوفية الإتمام. وقال الضحاك: وفّى ميثاق المناسك. أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحي أنا أبو بكر أحمد بن الحسن الحيري أنا أبو جعفر محمد بن علي بن دحيم الشيباني ثنا إبراهيم بن إسحاق الزهري ثنا إسحاق بن منصور عن إسرائيل عن جعفر بن الزبير عن القاسم عن أبي أمامة عن النبي ﷺ قال: «إبراهيم الذي وفّى صلّى أربع ركعات أوّل النهار»، أخبرنا أبو عثمان الضبّي أنا أبو محمد الجراحي ثنا أبو العباس المحبوبي ثنا أبو عيسى الترمذي ثنا أبو جعفر الشيباني ثنا أبو مسهر ثنا إسماعيل بن عياش عن يحيىٰ بن سعيد عن خالد بن معدان عن جبير بن نفير عن أبي الدرداء وأبي ذرّ عن رسول الله ﷺ عن الله تبارك وتعالى أنه قال: «ابنَ آدم اركعْ لي أربعَ ركعاتٍ من أول النهار أكفِكَ آخره».

ثمّ بينّ ما في صحفهما فقال: ﴿ ألّا تزرَ وازرةٌ وِزْرَ أُخرى ﴾، أي لا تحمل نفس حاملة حمل أخرى، ومعناه: لا تؤخذ نفس بإثم غيرها، وفي هذا إبطال قول مَن ضمن للوليد بن المغيرة بأنه يحمل عنه الإثم. وروى عكرمة عن ابن عباس قال: كانوا قبل إبراهيم عليه السلام يأخذون الرجل بذنب غيره، كان الرجل يقتل بذنب أبيه وابنه وأخيه وامرأته وعبده، حتى كان إبراهيم فنهاهم عن ذلك، وبلغهم عن الله ﴿ ألّا تزر وازرة وزر أُخرى ﴾.

﴿ وأنْ ليس للإنسان إلّا ما سعى ﴾، أي عمل كقوله: ﴿ إن سعيكم لشتى ﴾ [الليل: ٤]، وهذا أيضاً في صحف إبراهيم وموسى. قال ابن عباس: هذا منسوخ الحكم في هذه الشريعة، بقوله: ﴿ ألحقنا بهم ذرياتهم ﴾ [الطور: ٢١]، فأدخل الأبناء الجنة بصلاح الآباء. وقال عكرمة: كان ذلك لقوم إبراهيم وموسى، فأما هذه الأمة

يكون ذلك تمريناً للعبادة. وفي الحديثين الآخرين دليل على أن الصدقة عن الميت تنفع الميت ويصله ثوابها. وهو إجماع العلماء.

وكذلك أجمعوا على وصول الدعاء وقضاء الدين للنصوص الواردة في ذلك ويصح الحج عن الميت حجة الإسلام وكذا لو أوصى بحج تطوع على الأصح عند الشافعي واختلف العلماء في الصوم إذا مات وعليه صوم فالراجح جوازه عنه للأحاديث الصحيحة فيه والمشهور من مذهب الشافعي أن قراءة القرآن لا يصله ثوابها. وقال جماعة من أصحابه: يصله ثوابها. وبه قال أحمد بن حنبل وأما الصلوات وسائر التطوعات فلا يصله عند الشافعي والجمهور. وقال أحمد: يصله ثواب الجميع والله أعلم.

وقيل: أراد بالإنسان الكافر. والمعنى: ليس له من الخير إلا ما عمل هو فيثاب عليه في الدنيا بأن يوسع عليه في رزقه ويعافى في بدنه حتى لا يبقى له في الآخرة خير وروي أن عبد الله بن أبي ابن سلول كان أعطى العباس قميصاً ألبسه إياه فلما مات أرسل رسول الله ﷺ قميصه ليكفن فيه فلم يبق له في الآخرة حسنة يثاب عليها. وقيل: ليس للإنسان إلا ما سعى هو من باب العدل فأما من باب الفضل فجائز أن يزيده الله ما يشاء من فضله وكرمه ﴿**وأن سعيه سوف يرى**﴾ أي يراه في ميزانه يوم القيامة وفيه بشارة للمؤمن وذلك أن الله تعالى يريه أعماله الصالحة ليفرح بها ويحزن الكافر بأعماله الفاسدة فيزداد غماً ﴿**ثم يجزاه**﴾ أي السعي ﴿**الجزاء الأوفى**﴾ أي الأتم والأكمل. والمعنى: أن الإنسان يجزى جزاء سعيه الجزاء الأوفى. قوله عز وجل:

﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾﴾

﴿**وأن إلى ربك المنتهى**﴾ أي إليه منتهى الخلق ومصيرهم إليه في الآخرة وهو مجازيهم بأعمالهم وفي المخاطب بهذا وجهان أحدهما أنه عام تقديره وأن إلى ربك أيها السامع أو العاقل كائناً من كان المنتهى فهو تهديد بليغ للمسيء وحث شديد للمحسن ليقلع المسيء عن إساءته ويزداد المحسن في إحسانه الوجه الثاني أن المخاطب بهذا

فلهم ما سعوا وما سعى لهم غيرهم، لِمَا رُوِيَ أن امرأة رفعت صبيّاً لها فقالت: يا رسول الله ألهذا حج؟ قال: «نعم ولك أجر»، وقال رجل للنبي ﷺ: إن أُمي افتلتت نفسها، فهل لها أجر إنْ تصدّقتُ عنها؟ قال: «نعم». وقال الربيع بن أنس: ﴿ **وأن ليس للإنسان إلاّ ما سعى** ﴾ يعني الكافر، فأما المؤمن فله ما سعى وما سُعِيَ له. قيل: **ليس** للكافر من الخير إلاّ ما عمل هو، فيُثاب عليه في الدنيا حتى لا يبقى له في الآخرة خير. ويُروى أن عبد الله بن أُبيّ كان أعطى العباس قميصاً ألبسه إيّاه، فلما مات أرسل رسول الله ﷺ قميصه ليكفّنه فيه، فلم يبقَ له حسنة في الآخرة يُثاب عليها.

﴿ **وأن سعيه سوف يُرى** ﴾، في ميزانه يوم القيامة، من أريته الشيء.

﴿ **ثم يُجزاه الجزاءَ الأوْفى** ﴾، الأكمل والأتم أي يُجزى الإنسان بسعيه، يقال: جزيت فلاناً سعيه وبسعيه، قال الشاعر:

إنْ أجزِ علقمة ابن سعد سعيَه ... لم أجزِه ببلاء يوم واحد

فجمع بين اللغتين.

﴿ **وأنّ إلى ربّك المنتهى** ﴾، أي منتهى الخلق ومصيرهم إليه، وهو مُجازيهم بأعمالهم. وقيل: منه ابتداء

النبي ﷺ فعلى هذا، ففيه تسلية للنبي ﷺ. والمعنى: لا تحزن فإن إلى ربك المنتهى. وقيل. في معنى الآية: منه ابتداء المنة وإليه انتهاء الآمال. وروى البغوي بإسناد الثعلبي عن أبي بن كعب عن النبي ﷺ في قوله ﴿**وإن إلى ربك المنتهى**﴾ قال لا فكرة في الرب.

وهذا مثل ما روي عن أبي هريرة مرفوعاً: «تفكروا في الخلق ولا تفكروا في الخالق فإنه لا تحيط به الفكرة». ومعناه: لا فكرة في الرب أي انتهى الأمر إليه لأنك إذا نظرت إلى سائر الموجودات الممكنة علمت أن لا بد لها من موجد وإذا علمت أن موجدها هو الله تعالى فقد انتهى الأمر إليه فهو إشارة إلى وجوده ووحدانيته سبحانه وتعالى: ﴿**وأنه هو أضحك وأبكى**﴾ أي هو القادر على إيجاد الضدين في محل واحد الضحك والبكاء ففيه دليل على أن جميع ما يعمله الإنسان فبقضاء الله وقدره وخلقه حتى الضحك والبكاء وقيل أضحك أهل الجنة في الجنة وأبكى أهل النار في النار قيل أضحك الأرض بالنبات وأبكى السماء بالمطر وقيل: أفرح وأحزن، لأن الفرح يجلب الضحك والحزن يجلب البكاء عن جابر بن سمرة قال «جلست مع النبي ﷺ أكثر من مائة مرة وكان أصحابه يتناشدون الشعر ويتذاكرون أشياء من أمر الجاهلية وهو ساكت وربما تبسم معهم إذا ضحكوا» أخرجه الترمذي وقال حديث حسن صحيح.

وفي رواية سماك بن حرب: فيضحكون ويتبسم معهم إذا ضحكوا يعني النبي ﷺ. وسئل ابن عمر: هل كان أصحاب رسول الله ﷺ يضحكون؟ قال: نعم والإيمان في قلوبهم أعظم من الجبل (ق).

عن أنس قال: «خطب رسول الله ﷺ خطبة ما سمعت مثلها قط فقال: لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً فغطى أصحاب رسول الله ﷺ وجوههم لهم خنين» وهو بالخاء المعجمة أي بكاء مع صوت يخرج من الأنف ﴿**وأنه هو أمات وأحيا**﴾ أي أمات في الدنيا وأحيا للبعث. وقيل: أمات الآباء وأحيا الأبناء. وقيل: أمات الكافر بالنكرة وأحيا المؤمن بالمعرفة ﴿**وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى**﴾ أي من كل حيوان وهو أيضاً من جملة

المنّة وإليه انتهاء الآمال. أخبرنا أبو سعيد الشريحي أنا أبو إسحاق الثعلبي أخبرني الحسن بن محمد الشيباني أنا محمد بن سليمان بن الفتح الحنبلي ثنا علي بن محمد المصري أنا أبو إسحاق بن منصور الصعدي أنا العباس بن زفر عن أبي جعفر الرازي عن أبيه عن الربيع بن أنس عن أبي العالية عن أُبيّ بن كعب عن النبي ﷺ في قوله: ﴿ **وأنّ إلى ربك المنتهى** ﴾، قال: «لا فِكْرَةَ في الربِّ»، وهذا مثل ما رُوِيَ عن أبي هريرة مرفوعاً: «تفكّروا في الخلق ولا تتفكّروا في الخالق». فإنه لا تحيط به الفكرة.

﴿ **وأنّه هو أضحك وأبكى** ﴾، فهذا يدلّ على أن كل ما يعمله الإنسان فبقضائه وخلقه حتى الضحك والبكاء، قال مجاهد والكلبي: أضحك أهل الجنة في الجنة، وأبكى أهل النار في النار. وقال الضحاك: أضحك الأرض بالنبات، وأبكى السماء بالمطر. قال عطاء بن أبي مسلم: يعني فرّح وأحزن، لأن الفرح يجلب الضحك، والحزن يجلب البكاء. أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا عبد الرحمن بن أبي شريح أنا أبو القاسم البغوي ثنا علي بن الجعد أنا قيس هو ابن الربيع الأسدي ثنا سماك بن حرب قال: قلت لجابر بن سمرة: أكنتَ تجالس النبي ﷺ؟ قال: نعم وكان أصحابه يجلسون فيتناشدون الشعر، ويذكرون أشياء من أمر الجاهلية، فيضحكون ويتبسّم معهم إذا ضحكوا، يعني النبي ﷺ. وقال معمر عن قتادة: سُئِلَ ابن عمر هل كان أصحاب رسول الله ﷺ يضحكون؟ قال: «نعم والإيمان في قلوبهم أعظم من الجبل».

﴿ **وأنه هو أمات وأحيا** ﴾، أي أمات في الدنيا وأحيا للبعث. وقيل: أمات الآباء وأحيا الأبناء. وقيل: أمات الكافر بالنكرة وأحيا المؤمن بالمعرفة.

المتضادات التي تتوارد على النطفة فيخلق بعضها ذكراً وبعضها أنثى وهذا شيء لا يصل إليه فهم العقلاء ولا يعلمونه وإنما هو بقدرة الله تعالى وخلقه لا بفعل الطبيعة ﴿من نطفة إذا تمنى﴾ أي تصب في الرحم. وقيل: تقدر. وفي هذا تنبيه على كمال قدرته، لأن النطفة شيء واحد خلق الله منها أعضاء مختلفة وطباعاً متباينة وخلق منها الذكر والأنثى وهذا من عجيب صنعته وكمال قدرته ولهذا لم يؤكده بقوله وأنه هو خلق لأنه لم يدع أحد إيجاد نفسه ولا خلقها ولا خلق غيره كما لم يقدر أحد أن يدعي خلق السموات والأرض ﴿وأن عليه النشأة الأخرى﴾ أي الخلق الثاني بعد الموت للبعث يوم القيامة.

﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَا فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُواْ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴿٥٦﴾

﴿وأنه هو أغنى وأقنى﴾ أي أغنى الناس بالأموال وأعطى القنية وهي أصول الأموال وما يدخرونه بعد الكفاية. وقيل: أغنى بالذهب والفضة وصنوف الأموال وما يدخرونه بعد الكفاية. وأقنى: بالإبل والبقر والغنم. وقيل: أقنى أي أخدم.

وقال ابن عباس: أغنى وأقنى، أي أعطى فأرضى. وقيل: أغنى يعني رفع حاجته ولم يتركه محتاجاً إلى شيء لأن الغنى ضد الفقر، وأقنى: أي زاد فوق الغنى ﴿وأنه هو رب الشعرى﴾ أي أنه رب معبودهم وكانت خزاعة تعبد الشعرى وأول من سن لهم ذلك الرجل من أشرافهم يقال له أبو كبشة عبدها وقال: لأن النجوم تقطع السماء عرضاً

﴿ وأنه خلق الزوجين الذَّكر والأُنثى ﴾، من كل حيوان.

﴿ من نطفة إذا تمنّى ﴾، أي تصبّ في الرحم، يقال منى الرجل وأمنى. قال الضحاك وعطاء بن أبي رباح وقال آخرون: تقدر، يقال: منَيتُ الشيء إذا قدرته.

﴿ وأنّ عليه النشأة الأخرى ﴾، أي الخلق الثاني للبعث يوم القيامة.

﴿ وأنه هو أغنى وأقنى ﴾، قال أبو صالح: أغنى الناس بالأموال وأقنى أي أعطى القنية وأصول الأموال وما يدّخرونه بعد الكفاية. قال الضحاك: أغنى بالذهب والفضة وصنوف الأموال بالإبل والبقر والغنم. وقال قتادة والحسن: أقنى أخدم. وقال ابن عباس: أغنى وأقنى أعطى فأرضى. قال مجاهد ومقاتل: أقنى أرضى بما أعطى وقنع. وقال ابن زيد: أغنى أكثر وأقنى أقـل، وقرأ: ﴿ يبسط الـرزق لمَن يشاء ويقـدر ﴾ [الرعد: ٢٦، الإسراء: ٣٠، سبأ: ٣٦، الزّمر: ٥٢، الشورى: ١٢]، وقال الأخفش: أقنى أفقر. وقال ابن كيسان: أولد.

﴿ وأنه هو ربُّ الشعرى ﴾، وهو كوكب خلف الجوزاء وهما شعريان، فقال لأحدهما العبور وللأخرى الغميصاء، سُمّيت بذلك لأنها أخفى من الأخرى، والمجرّة بينهما. وأراد ههنا الشعرى العبور وكانت خزاعة تعبدها، وأول مَن سنّ لهم ذلك رجل من أشرافهم يقال له أبو كبشة عبدها، وقال: لأن النجوم تقطع السماء عرضاً، والشعرى طولاً فهي مخالفة لها، فعبدتْها خزاعة، فلما خرج رسول الله ﷺ على خلاف العرب في الدين سمّوه ابن أبي كبشة لخلافه إيّاهم كخلاف أبي كبشة في عبادة الشِّعرى.

﴿ وأنه أهلك عاداً الأولى ﴾، قرأ أهل المدينة والبصرة بلام مشدّدة بعد الدال، ويهمز وَاوَهُ قالون عن نافع، والعرب تفعل ذلك فتقول: قم لآن عنّا، تريد: قم الآن عنّا، ويكون الوقف عندهم عاداً، والابتداء: أولى، بهمزة

والشعرى تقطعها طولاً فهي مخالفة لها فعبدها وعبدتها خزاعة فلما خرج رسول الله ﷺ على خلاف العرب في الدين سموه ابن أبي كبشة تشبيهاً له في خلافه إياهم كما خالفهم أبو كبشة وعبد الشعرى وهو كوكب يضيء خلف الجوازء ويسمى كلب الجبار أيضاً وهما اثنتان: يمانية وشامية يقال لإحداهما العبور والأخرى الغميصاء. سميت بذلك لأنها أخفى من العبور والمجرة بينهما. وأراد بالشعرى هنا العبور ﴿**وأنه أهلك عاداً الأولى**﴾ وهم قوم هود أهلكوا بريح صرصر وكان لهم عقب فكانوا عاداً أخرى وقيل: الأخرى إرم. وقيل: الأولى يعني أول الخلق هلاكاً بعد قوم نوح ﴿**وثمود**﴾ وهم قوم صالح أهلكهم الله بالصيحة ﴿**فما أبقى**﴾ يعني منهم أحداً ﴿**وقوم نوح من قبل**﴾ يعني أهلك قوم نوح من قبل عاد وثمود بالغرق ﴿**إنهم كانوا هم أظلم وأطغى**﴾ يعني لطول دعوة نوح إياهم وعتوّهم على الله بالمعصية والتكذيب ﴿**والمؤتفكة**﴾ يعني قرى قوم لوط ﴿**أهوى**﴾ أي أسقط وذلك أن جبريل رفعها إلى السماء ثم أهوى بها ﴿**فغشاها**﴾ أي ألبسها الله ﴿**ما غشي**﴾ يعني الحجارة المنضودة المسومة ﴿**فبأي آلاء ربك تتمارى**﴾ أي تشكُّ أيها الإنسان. وقيل: أراد الوليد بن المغيرة. قال ابن عباس: تتمارى أي تكذب ﴿**هذا نذير**﴾ يعني محمداً ﷺ ﴿**من النذر الأولى**﴾ أي رسول من الرسل المتقدمة أرسل إليكم كما أرسلت الرسل إلى قومهم وقيل: أنذر محمد كما أنذرت الرسل من قبله.

أَزِفَتِ ٱلْأَزِفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾ أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ﴿٦١﴾ فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ۩ ﴿٦٢﴾

﴿**أزفت الآزفة**﴾ أي قربت القيامة واقتربت الساعة ﴿**ليس لها من دون الله كاشفة**﴾ أي مظهرة ومبينة متى تقوم. وقيل: معناه ليس لها نفس قادرة على كشفها إذا وقعت إلا الله غير أنه لا يكشفها. وقيل: الكاشفة مصدر بمعنى

واحدة مفتوحة بعدها لام مضمومة، ويجوز الابتداء: لولى، بحذف الهمزة المفتوحة، وقرأ الآخرون: ﴿ **عاداً الأولى** ﴾، وهم قوم هود أهلكوا بريح صرصر فكان لهم عقب فكانوا عاداً الأُخرى.

﴿ **وثمودا** ﴾، وهم قوم صالح أهلكهم الله بالصيحة، ﴿ **فما أبقى** ﴾، منهم أحداً.

﴿ **وقومَ نوحٍ من قبل** ﴾، أي أهلك قوم نوح من قبل عاد وثمود، ﴿ **إنهم كانوا هم أظلم وأطغى** ﴾، لطول دعوة نوح إيّاهم وعتوّهم على الله بالمعصية والتكذيب.

﴿ **والمؤتفكة** ﴾، يعني قرى قوم لوط، ﴿ **أهوى** ﴾، أسقط أي أهواها جبريل بعدما رفعها إلى السماء.

﴿ **فغشاها** ﴾، ألبسها الله، ﴿ **ما غشى** ﴾، يعني الحجارة المنضودة المسومة.

﴿ **فبأيّ آلاء ربك** ﴾، نعم ربك أيها الإنسان، وقيل: أراد الوليد بن المغيرة، ﴿ **تتمارى** ﴾، تشكّ وتجادل، قال ابن عباس: تكذب.

﴿ **هذا نذير** ﴾، يعني محمداً، ﴿ **من النذر الأولى** ﴾، أي رسول من أرسل إليكم كما أرسلوا إلى أقوامهم، وقال قتادة يقول أنذر محمدٌ كما أنذر الرسلُ من قبله.

﴿ **أزفت الآزفة** ﴾، دنت القيامة واقتربت الساعة.

﴿ **ليس لها من دون الله كاشفة** ﴾، أي مظهرة مقيمة كقوله تعالى: ﴿ **لا يجليها لوقتها إلاّ هو** ﴾ [الأعراف: ١٨٧]، والهاء فيه للمبالغة أو على تقدير نفس كاشفة، ويجوز أن تكون الكاشفة مصدراً كالخيالة والعافية، والمعنى: ليس لها من دون الله كاشف، أي لا يكشف عنها ولا يظهرها غيره. وقيل: معناه ليس لها رادّ يعني إذا غشيت الخلق أهوالها وشدائدها لم يكشفها ولم يردّها عنهم أحد، وهذا قول عطاء وقتادة والضحاك.

الكشف كالعافية. والمعنى: لا يكشف عنها ولا يظهرها غيره. وقيل: معناه ليس لها رد يعني: إذا غشيت الخلق أهوالها وشدائدها لم يكشفها ولم يردها عنهم أحد.

قوله تعالى: ﴿أفمن هذا الحديث﴾ يعني القرآن ﴿تعجبون﴾ تنكرون ﴿وتضحكون﴾ أي استهزاء ﴿ولا تبكون﴾ أي مما فيه من الوعيد ﴿وأنتم سامدون﴾ أي لاهون غافلون قاله ابن عباس. وعنه، أن السمود هو الغناء بلغة أهل اليمن وكانوا إذا سمعوا القرآن تغنوا. ولعبوا وأصل السمود في اللغة، رفع الرأس، مأخوذ، من سمد البعير إذا رفع رأسه وجد في سيره والسامد اللاهي والمعنى. وقيل: معناه أشرون بطرون. وقال مجاهد: غضاب مبرطمون قيل له: وما البرطمة؟ قال: الإعراض ﴿فاسجدوا لله﴾ يعني أيها المؤمنون شكراً على الهداية. وقيل: هذا محمول على سجود التلاوة. وقيل: على سجود الفرض في الصلاة ﴿واعبدوا﴾ أي اعبدوا الله وإنما قال: واعبدوا، إما لكونه معلوماً، وإما لأن العبادة في الحقيقة لا تكون إلا لله تعالى (ق) عن عبد الله بن مسعود: «أن رسول الله ﷺ قرأ والنجم فسجد فيها وسجد من كان معه غير أن شيخاً من قريش أخذ كفاً من حصباء أو تراب فرفعه إلى جبهته وقال: يكفيني هذا قال عبد الله فلقد رأيته بعد قتل كافر» زاد البخاري في رواية له قال: «أول سورة نزلت فيها سجدة النجم وذكره» وقال في آخره وهو «أمية بن خلف» (خ).

عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ سجد بالنجم وسجد معه المسلمون والمشركون والجن والإنس (ق) عن زيد بن ثابت قال: «قرأت على رسول الله ﷺ النجم فلم يسجد فيها» ففي هذا الحديث دليل على أن سجود التلاوة غير واجب وهو قول الشافعي وأحمد وقال عمر بن الخطاب: إن الله لم يكتبها علينا إلا أن نشاء وذهب قوم إلى وجوبها على القارىء والمستمع وهو قول سفيان وأصحاب الرأي والله سبحانه وتعالى أعلم.

﴿ أفمن هذا الحديث ﴾، يعني القرآن، ﴿ تعجبون * وتضحكون ﴾، الاستهزاء، ﴿ ولا تبكون ﴾ لما فيه من الوعد والوعيد.

﴿ وأنتم سامدون ﴾، لاهون غافلون، والسمود الغفلة عن الشيء واللهو، يقال: دعا عنّا سمودك أي لهوك، هذا رواية الوالبي والعوفي عن ابن عباس، وقال عكرمة عنه: هو الغناء بلغة أهل اليمن وكانوا إذا سمعوا القرآن تغنّوا ولعبوا، وقال الضحاك: أشِرون بطرون. وقال مجاهد: غضاك مبروطون. فقيل له: ما البرطمة؟ قال: الإعراض.

﴿ فاسجدُوا لله واعبدوا ﴾، أي واعبدوه، أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا مسدد ثنا عبد الوارث ثنا أيوب عن عكرمة عن ابن عباس أن النبي ﷺ: سجد بالنجم وسجد معه المسلمون والمشركون والجنّ والإنس. أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا محمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل ثنا نصر بن علي أخبرني أبو أحمد ثنا إسرائيل عن أبي إسحاق عن الأسود بن يزيد عن عبد الله قال: أول سورة أُنزلت فيها سجدة النجم، قال: فسجد رسول الله ﷺ وسجد من خلفه إلّا رجلاً رأيته أخذ كفّاً من تراب فسجد عليه، فرأيته بعد ذلك قتل كافراً وهو أُميّة بن خلف. أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل أنا آدم بن أبي إياس أنا ابن ذئب أنا يزيد بن عبد الله بن قسيط عن عطاء بن يسار عن زيد بن ثابت قال: قرأت على النبي ﷺ والنجم فلم يسجد فيها، فقلت: هذا دليل على أن سجود التلاوة غير واجب. قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: إن الله لم يكتبها علينا إلّا أن نشاء. وهو قول الشافعي وأحمد. وذهب قوم إلى أن وجوب التلاوة على القارىء والمستمع جميعاً، وهو قول سفيان الثوري وأصحاب الرأي.

سورة القمر

(مكية وهي خمس وخمسون آية وثلاثمائة واثنتان وأربعون كلمة وألف وأربعمائة وثلاثون وعشرون حرفاً)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ﴿١﴾ وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣﴾

قوله عز وجل: ﴿**اقتربت الساعة**﴾ أي دنت القيامة ﴿**وانشق القمر**﴾ قيل: فيه تقديم وتأخير تقديره انشق القمر واقتربت الساعة وانشقاق القمر من آيات رسول الله ﷺ الظاهرة ومعجزاته يدل عليه ما روي عن أنس: «أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يريهم آية فأراهم انشقاق القمر مرتين».

أخرجه البخاري ومسلم. وزاد الترمذي فنزلت ﴿**اقتربت الساعة وانشق القمر**﴾ إلى قوله ﴿**سحر مستمر**﴾ ولهما عن ابن مسعود. قال: «انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ شقتين فقال رسول الله ﷺ اشهدوا» وفي رواية أخرى قال: «بينما نحن مع رسول الله ﷺ بمنى إذ انفلق القمر فلقتين، فلقة فوق الجبل، وفلقة دونه. فقال لنا رسول الله ﷺ: اشهدوا» ولهما عن ابن عباس قال: «إن القمر انشق في زمن رسول الله ﷺ» (م) عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ فلقتين فستر الجبل فلقة وكانت فلقة فوق الجبل فقال رسول الله ﷺ: اشهدوا» وعن جبير بن مطعم قال: «انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ فصار فرقتين فقالت قريش سحر محمد أعيننا، فقال بعضهم لئن كان سحرنا ما يستطيع أن يسحر الناس كلهم» أخرجه الترمذي وزاد غيره فكانوا يتلقون الركبان فيخبرونهم بأنهم قد رأوه فيكذبونهم.

قال مقاتل: انشق القمر ثم التأم بعد ذلك. وروى مسروق عن عبد الله بن مسعود قال: انشق القمر على عهد

سُوْرَة القمر

مكيّة وهي خمس وخمسون آية.

﴿ **اقتربتِ الساعةُ** ﴾، دنت القيامة، ﴿ **وانشقّ القمر** ﴾، أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا عبد الله بن عبد الوهاب أنا بشر بن المفضل ثنا سعيد بن أبي عروة عن قتادة عن أنس بن مالك أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يريهم آية فأراهم القمر شقتين حتى رأوا حرّاء بينهما، وقال شيبان عن قتادة: فأراهم انشقاق القمر مرتين. أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا مسدد ثنا يحيىٰ عن شعبة وسفيان عن الأعمش عن إبراهيم عن أبي معمر عن ابن مسعود قال: انشقّ القمر على عهد رسول الله ﷺ فرقتين، فرقة فوق الجبل وفرقة دونه، فقال

رسول الله ﷺ فقالت قريش: سحركم ابن أبي كبشة فسألوا السفارة فقالوا: نعم. قد رأيناه فأنزل الله تعالى: اقتربت الساعة وانشق القمر. فهذه الأحاديث الصحيحة قد وردت بهذه المعجزة العظيمة، مع شهادة القرآن المجيد بذلك فإنه أدل دليل وأقوى مثبت له وإمكانه لا يشك فيه مؤمن وقد أخبر عنه الصادق فيجب الإيمان به واعتقاد وقوعه.

وقال الشيخ محيي الدين النووي في شرح صحيح مسلم، قال الزجاج: وقد أنكرها بعض المبتدعة المضاهين المخالفي الملة وذلك لما أعمى الله قلبه ولا إنكار للعقل فيها لأن القمر مخلوق لله تعالى يفعل فيه ما يشاء كما يفنيه ويكوره في آخر أمره. فأما قول بعض الملاحدة لو وقع هذا النقل متواتراً واشترك أهل الأرض كلهم في رؤيتهم له ومعرفته ولم يختص بها أهل مكة فأجاب العلماء عن هذا بأن هذا الانشقاق حصل في الليل ومعظم الناس نيام غافلون والأبواب مغلقة وهم مغطون بثيابهم فقل من يتفكر في السماء أو ينظر إليها إلا الشاذ النادر. ومما هو مشاهد معتاد أن كسوف القمر وغيره مما يحدث في السماء في الليل من العجائب والأنوار والطوالع والشهب العظام ونحو ذلك يقع ولا يتحدث به إلا آحاد الناس ولا علم عند غيرهم بذلك لما ذكرناه من غفلة الناس. وكان هذا الانشقاق آية عظيمة حصلت في الليل لقوم سألوها واقترحوا رؤيتها، فلم يتأهب غيرهم لها. قال العلماء: وقد يكون القمر حينئذ في بعض المجاري والمنازل التي تظهر لبعض أهل الآفاق دون بعض كما يكون ظاهراً لقوم غائباً عن قوم وكما يجد الكسوف أهل بلد دون بلد والله أعلم وقيل في معنى الآية ينشق القمر يوم القيامة وهذا قول باطل لا يصح وشاذ لا يثبت لإجماع المفسرين على خلافه ولأن الله ذكره بلفظ الماضي وحمل الماضي على المستقبل بعيد يفتقر إلى قرينة تنقله أو دليل يدل عليه وفي قوله تعالى: ﴿**وإن يروا آية يعرضوا**﴾ دليل على وجود هذه الآية العظيمة وقد كان ذلك في زمن رسول الله ﷺ والمعنى: وإن يروا آية أي تدل على صدق رسول الله ﷺ، والمراد بالآية هنا انشقاق القمر يعرضوا أي عن التصديق بها ﴿**ويقولوا سحر مستمر**﴾ أي دائم مضطرد.

وكل شيء دام حاله قيل فيه: مستمر.

وذلك لما رأوا تتابع المعجزات وترادف الآيات فقالوا هذا سحر مستمر: وقيل مستمر أي قوي محكم شديد بعلوه يعلو كل سحر.

قيل: مستمر أي ذاهب سوف يبطل ويذهب ولا يبقى وإنما قالوا ذلك تمنية لأنفسهم وتعليلاً ﴿**وكذبوا**﴾ يعني

رسول الله ﷺ: «اشهدوا»، وقال أبو الضحى عن مسروق عبد الله قال: انشقّ القمر بمكة. وقال مقاتل: انشقّ القمر ثم الْتأم بعد ذلك. وروى أبو الضحى عن مسروق عن عبد الله قال: انشقّ القمر على عهد رسول الله ﷺ، **فقالت قريش**: سحركم ابن أبي كبشة، فاسألوا السُّفّار، فسألوهم، فقالوا: نعم قد رأيناه، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿ **اقتربتِ الساعة وانشقَّ القمر** ﴾.

﴿ **وإنْ يروا آية يُعرضوا ويقولوا سحر مستمر** ﴾، أي ذاهب وسوف يذهب ويبطل من قولهم مرّ الشيء واستمر إذا ذهب، مثل قولهم: قرّ واستقر، هذا قول مجاهد وقتادة، وقال أبو العالية والضحاك: مستمر، أي قوي شديد يعلو كل سحر من قولهم مرّ الحبل إذا صَلُبَ واشتدّ، وأمررته أنا إذا أحكمت فَتْله واستمر الشيء إذا قوي واستحكم.

﴿ **وكذبوا واتبعوا أهواءهم** ﴾، أي كذبوا النبي ﷺ وما عاينوا من قدرة الله عزّ وجلّ، واتبعوا ما زيّن لهم الشيطان من الباطل، ﴿ **وكل أمر مستقر** ﴾، قال الكلبي: لكل أمر حقيقة ما كان منه في الدنيا فسيظهر وما كان منه في الآخرة فسيعرف. وقال قتادة: كل أمر مستقر فالخير مستقر بأهل الخير، والشرّ مستقر بأهل الشر. وقيل: كل أمر

النبي ﷺ وما عاينوا من قدرة الله ﴿واتبعوا أهواءهم﴾ أي ما زين لهم الشيطان من الباطل وقيل: هو قولهم إنه سحر القمر ﴿وكل أمر مستقر﴾ أي لكل أمر حقيقة فما كان منه في الدنيا فسيظهر وما كان منه في الآخرة فسيعرف. وقيل: كل أمر مستقر. فالخير مستقر بأهله في الجنة، والشر مستقر بأهله في النار، وقيل: يستقر قول المصدقين والمكذبين حين يعرفون حقيقته بالثواب أو العقاب. وقيل: معناه لكل حديث منتهى. وقيل: ما قدر فهو كائن وواقع لا محالة. وقيل: هو جواب قولهم سحر مستمر يعني ليس أمره بذاهب كما زعمتم بل كل أمر من أموره مستقر وإن أمر محمد رسول الله ﷺ سيظهر إلى غاية يتبين فيها أنه حق

﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ۝٤ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ۝٥ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ۘ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ ۝٦ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ۝٧﴾

﴿ولقد جاءهم﴾ يعني أهل مكة ﴿من الأنباء﴾ أي من أخبار الأمم الماضية المكذبة في القرآن ﴿وما فيه مزدجر﴾ أي منتهى وموعظة ﴿حكمة بالغة﴾ يعني القرآن حكمة تامة قد بلغت الغاية ﴿فما تغني النذر﴾ يعني أي غنى تغني النذر إذا خالفوهم وكذبوهم ﴿فتول عنهم﴾ أي أعرض عنهم نسختها آية القتال ﴿يوم يدع الداع﴾ أي اذكر يا محمد يوم يدع الداعي وهو إسرافيل ينفخ في الصور قائماً على صخرة بيت المقدس ﴿إلى شيء نكر﴾ أي منكر فظيع لم يروا مثله،

من خير أو شر مستقر قراره، فالخير مستقر بأهله في الجنة، والشرّ مستقر بأهله في النار. وقيل: يستقر قول المصدقين والمكذّبين حتى يعرفوا حقيقته بالثواب والعقاب. وقال مقاتل: لكل حديث منتهى. وقيل: كل ما قدّر كائن واقع لا محالة. وقرأ أبو جعفر ﴿ مستقر ﴾ بجرّ الراء، ولا وجه له.

﴿ **ولقد جاءهم** ﴾، يعني أهل مكة، ﴿ **من الأنباء** ﴾، من أخبار الأمم المكذّبة في القرآن، ﴿ **ما فيه مزدجر** ﴾، لا منتهى مصدر بمعنى الازدجار، أي نهي وعظة، يقال زجرته وازدجرته إذا نهيته عن السوء، وأصله مزتجر، قُلبت التاء دالاً.

﴿ **حكمة بالغة** ﴾، يعني القرآن حكمة تامّة قد بلغت الغاية في الزجر، ﴿ **فما تغني النذر** ﴾، يجوز أن تكون (ما) نفياً على معنى فليست تغني النذر، ويجوز أن يكون استفهاماً، والمعنى: فأيّ شيء تغني النذر إذا خالفوهم وكذّبوهم، كقوله: ﴿ وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون ﴾ [يونس: ١٠١]، والنذر جمع نذير.

﴿ **فتولّ عنهم** ﴾، أي أعرض عنهم نسختها آية القتال. قيل: ههنا وقف تام. وقيل: فتول عنهم. ﴿ **يوم يدعُ الداعِ** ﴾، أي إلى يوم الداعي، قال مقاتل: هو إسرافيل ينفخ قائماً على صخرة بيت المقدس، ﴿ **إلى شيء نُكر** ﴾، منكر فظيع لم يروا مثله فينكرونه استعظاماً، قرأ ابن كثير: (نكر) بسكون الكاف، والآخرون بضمّها.

﴿ **خُشعاً أبصارهم** ﴾، قرأ أبو عمرو ويعقوب وحمزة والكسائي: (خاشعاً) على الواحد، وقرأ الآخرون: ﴿ **خُشّعاً** ﴾ بضم الخاء وتشديد الشين على الجمع، ويجوز في أسماء الفاعلين إذا تقدمت على الجماعة التوحيد والجمع والتذكير والتأنيث، تقول: مررتُ برجال حسن أوجههم وحسنة أوجههم وحسان أوجههم، قال الشاعر:

ورجـال حسـن أوجـهـهـم   من إيـاد بن نـزار بن معـد

وفي قراءة عبد الله: (خاشعة أبصارهم) أي ذليلة خاضعة عند رؤية العذاب. ﴿ **يخرجون من الأجداث** ﴾، من القبور، ﴿ **كأنهم جراد منتشر** ﴾، منبث حيارى، وذكر المنتشر على لفظ الجراد، نظيرها: ﴿ **كالفراش**

فينكرونه استعظاماً له ﴿خشعاً﴾ وقرىء خاشعاً ﴿أبصارهم﴾ أي ذليلة خاضعة عند رؤية العذاب ﴿يخرجون من الأجداث﴾ يعني من القبور ﴿كأنهم جراد منتشر﴾ مثل في كثرتهم وتموج بعضهم في بعض حيارى فزعين.

﴿مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ۝٨ ۞ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ۝٩ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ۝١٠ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ۝١١ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ۝١٢ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ۝١٣ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ۝١٤﴾

﴿مهطعين﴾ مسرعين مادي أعناقهم مقبلين ﴿إلى الداع﴾ يعني إلى صوت الداعي وهو إسرافيل وقيل ناظرين إليه لا يقلعون بأبصارهم ﴿يقول الكافرون هذا يوم عسر﴾ أي صعب شديد وفيه إشارة إلى أن ذلك اليوم يوم شديد على الكافرين لا على المؤمنين.

قوله تعالى: ﴿كذبت قبلهم﴾ أي قبل أهل مكة ﴿قوم نوح فكذبوا عبدنا﴾ يعني نوحاً ﴿وقالوا مجنون وازدجر﴾ أي زجروه على دعوته ومقالته بالشم والوعيد بقولهم «لئن لم تنته يا نوح لتكونن من المرجومين» ﴿فدعا﴾ يعني نوحاً ﴿ربه﴾ وقال ﴿إني مغلوب﴾ أي مقهور ﴿فانتصر﴾ أي فانتقم لي منهم ﴿ففتحنا أبواب السماء﴾ قيل هو على ظاهره وللسماء أبواب تفتح وتغلق ولا يستبعد ذلك لأنه قد صح في الحديث أن للسماء أبواباً. وقيل: هو على الاستعارة، فإن الظاهر أن يكون المطر من السحاب ﴿بماء منهمر﴾ أي منصب انصباباً شديداً لم ينقطع أربعين يوماً ﴿وفجرنا

المبثوث ﴾ [القارعة: ٤]، وأراد أنهم يخرجون فَزِعين لا جهة لأحد منهم يقصدها كالجراد لا جهة لها تكون مختلطة بعضها في بعض.

﴿ مهطعين ﴾، مسرعين مقبلين، ﴿ إلى الداع ﴾، إلى صوت إسرافيل، ﴿ يقول الكافرون هذا يوم عسر ﴾، صعب شديد.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ كذّبت قبلهم ﴾، أي قبل أهل مكة، ﴿ قوم نوح فكذبوا عبدنا ﴾، نوحاً، ﴿ وقالوا مجنون وازدجر ﴾، أي زجروه عن دعوته ومقالته بالشتم والوعيد، وقالوا: ﴿ لئن لم تنته يا نوح لتكوننّ من المرجومين ﴾ [الشعراء: ١١٦]، وقال مجاهد معنى: ازدجر أي استطير جنوناً.

﴿ فدعا ﴾، نوح، ﴿ ربّه ﴾، وقال، ﴿ أنّي مغلوب ﴾، مقهور، ﴿ فانتصر ﴾، فانتقم لي منهم.

﴿ ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر ﴾، مُنصبّ انصباباً شديداً لم ينقطع أربعين يوماً، وقال يمان: قد طبق ما بين السماء والأرض.

﴿ وفجّرنا الأرضَ عيوناً فالتقى الماء ﴾، يعني ماء السماء وماء الأرض، وإنما قال: التقى الماء والالتقاء لا يكون من واحد إنما يكون بين اثنين فصاعداً لأن الماء يكون جمعاً وواحداً، وقرأ عاصم الجحدري: فالتقى الماآن. ﴿ على أمر قد قُدِرَ ﴾، أي قضى عليهم في أُم الكتاب. وقال مقاتل: قدرالله أن يكون الماآن سواء فكانا على ما قدر.

﴿ وحملناه ﴾، يعني نوحاً، ﴿ على ذات ألواح وَدُسُرٍ ﴾، أي سفينة ذات ألواح. ذكر النعت وترك الاسم، أراد بالألواح خشب السفينة العريضة، ﴿ ودسر ﴾ أي المسامير التي تُشَدّ بها الألواح، واحدها دسار ودسير، يقال: دسرت السفينة إذا شددتها بالمسامير. وقال الحسن: الدُّسر صدر السفينة سُمّيت بذلك لأنها تدسر الماء بجؤجؤها،

الأرض عيوناً﴾ أي وجعلنا الأرض كلها عيوناً تسيل بالماء **﴿فالتقى الماء﴾** يعني ماء السماء وماء الأرض **﴿على أمر قد قدر﴾** أي قضى عليهم في أم الكتاب.

وقيل قدر الله أن يكون الماءان سواء فكانا على ما قدر **﴿وحملناه﴾** يعني نوحاً **﴿على ذات ألواح﴾** يعني سفينة ذات ألواح. وأراد بالألواح، خشب السفينة العريضة. **﴿ودسر﴾** هي المسامير التي تشد بها الألواح وقيل الدسر صدر السفينة. وقيل: هي عوارض السفينة وأضلاعها.

وقيل: الألواح: جانبا السفينة، والدسر: أصلها وطرفاها. **﴿تجري﴾** يعني السفينة **﴿بأعيننا﴾** يعني بمرأى منا. وقيل: بحفظنا. وقيل: بأمرنا **﴿جزاء لمن كان كفر﴾** يعني فعلنا ذلك به وبهم من إنجاء نوح وإغراق قومه ثواباً لنوح لأنه كان كفر به وجحد أمره. وقيل لمن بمعنى لما أي جزاء لما كان كفر من أيادي الله ونعمه عند الذين أغرقهم. وقيل: جزاء لما صنع بنوح وأصحابه.

﴿وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٢٢﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾

﴿ولقد تركناها آية﴾ يعني الفعلة التي فعلنا بهم آية يعتبر بها. وقيل: أراد السفينة. قال قتادة: أبقاها الله تعالى بأرض الجزيرة عبرة حتى نظر إليها أوائل هذه الأمة **﴿فهل من مدكر﴾** يعني متذكر معتبر متعظ خائف مثل عقوبتهم (ق) عن ابن مسعود قال «قرأت على رسول الله ﷺ مذكر فردها عليّ» وفي رواية أخرى «سمعته يقرؤها فهل من مدكر دالاً» **﴿فكيف كان عذابي ونذر﴾** يعني إنذاري **﴿ولقد يسرنا القرآن﴾** يعني سهلنا القرآن **﴿للذكر﴾** يعني ليتذكر ويعتبر

أي تدفع. وقال مجاهد: هي عوارض السفينة. وقيل: أضلاعها. وقال الضحاك: الألواح جانباها، والدسر أصلها وطرفاها.

﴿ تجري بأعيننا ﴾، أي بمرأى منّا. وقال مقاتل بن حيّان: بحفظنا، ومنه قولهم للمودع: عين الله عليك. وقال سفيان: بأمرنا. **﴿ جزاءً لِمَن كان كفر ﴾**، يعني فعلنا به وبهم من إنجاء نوح وإغراق قومه ثواباً لِمَن كان كفر به وجحد أمره، وهو نوح عليه السلام، وقيل: من بمعنى ما أي جزاء لما كان كفر من أيادي الله ونعمه عند الذين أغرقهم، أو جزاء لِمَا صنع بنوح وأصحابه وقرأ مجاهد، جزاء لِمَن كان كفر بفتح الكاف والفاء، يعني كان الغرق جزاء لِمَن كان كفر بالله وكذّب رسوله.

﴿ ولقد تركناها ﴾، يعني الفعلة التي فعلنا، **﴿ آية ﴾**، يعتبر بها. وقيل: أراد السفينة. قال قتادة: أبقاها الله بباقر دي من أرض الجزيرة، عبرة وآية حتى نظرت إليها أوائل هذه الأمة، **﴿ فهل من مدّكر ﴾**، أي متذكّر متّعظ معتبر خائف مثل عقوبتهم. أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا أبو نعيم ثنا زهير عن أبي إسحاق أنه سمع رجلاً سأل الأسود عن قوله: **﴿ فهل من مُدَّكر ﴾** أو مذكّر؟ قال: سمعت عبد الله يقرأها **﴿ فهل من مُدَّكر ﴾**، وقال سمعت النبي ﷺ يقرؤها: **﴿ فهل من مُدَّكر ﴾** دالاً.

﴿ فكيف كان عذابي ونذر ﴾، أي إنذار، قال الفرّاء: الإنذار والنذر مصدران، تقول العرب: أنذرت إنذاراً

به قال سعيد بن جبير يسرناه للحفظ والقراءة وليس شيء من كتب الله تعالى يقرأ كله ظاهراً إلا القرآن ﴿فهل من مدكر﴾ يعني متعظ بمواعظه وفيه الحث على تعليم القرآن والاشتغال به لأنه قد يسره الله وسهله على من يشاء من عباده بحيث يسهل حفظه للصغير والكبير والعربي والعجمي وغيرهم.

قوله تعالى: ﴿كذبت عاد فكيف كان عذابي ونذر﴾ أي إنذاري لهم بالعذاب ﴿إنا أرسلنا عليهم ريحاً صرصرا﴾ أي شديدة الهبوب ﴿في يوم نحس﴾ أي يوم شؤم ﴿مستمر﴾ أي دائم الشؤم استمر على جميعهم بنحو سنة فلم يبق منهم أحد إلا هلك فيه.

وقيل: كان ذلك اليوم يوم الأربعاء في آخر الشهر ﴿تنزع الناس﴾ أي الريح تقلعهم ثم ترمي بهم على رؤوسهم فتدق رقابهم. قيل: كانت تنزعهم من حفرهم ﴿كأنهم أعجاز نخل﴾ قال ابن عباس: أصول نخل ﴿منقعر﴾ أي منقطع من مكانه ساقط على الأرض. قيل: كانت الريح تبين رؤوسهم من أجسامهم فتبقي أجسامهم بلا رؤوس كعجز النخلة الملقاة ﴿فكيف كان عذابي ونذر• ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر كذبت ثمود بالنذر﴾ أي بالإنذار الذي جاء به صالح ﴿فقالوا أبشرا منا واحداً﴾ يعني آدمياً واحداً منا ﴿نتبعه﴾ أي ونحن جماعة كثيرون ﴿إنا إذاً لفي ضلال﴾ أي خطأ وذهاب عن الصواب ﴿وسعر﴾ قال ابن عباس: عذاب. وقيل: شدة عذاب وقيل إنا لفي عناء وعذاب مما يلزمنا من طاعته. وقيل: لفي جنون. وقيل: لفي بعد عن الحق.

أَءُلْقِيَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴿٢٦﴾ إِنَّا مُرْسِلُواْ ٱلنَّاقَةِ

ونذراً، كقولهم أنفقت إنفاقاً ونفقةً، وأيقنت إيقاناً ويقيناً، أُقيم الاسم مقام المصدر.

﴿ ولقد يسّرنا ﴾، سهّلنا، ﴿ القرآن للذكر ﴾، ليتذكّر ويعتبر به، وقال سعيد بن جبير: يسّرناه للحفظ والقراءة، وليس شيء من كتب الله يقرأ كله ظاهراً إلّا القرآن. ﴿ فهل من مُدَّكر ﴾، متّعظ بمواعظه.

﴿ كذبت عاد فكيف كان عذابي ونذر * إنّا أرسلنا عليهم ريحاً صرصراً ﴾، شديد الهبوب، ﴿ في يوم نحس مستمر ﴾، شديد دائم الشؤم، استمر عليهم بنحو سنة فلم يبقَ منهم أحد إلّا أهلكه، قيل: كان ذلك يوم الأربعاء في آخر الشهر.

﴿ تنزع الناس ﴾، تقلعهم ثم ترمي بهم على رؤوسهم فتدقّ رِقابهم. ورُوِيَ أنها كانت تنزع الناس من قبورهم، ﴿كأنهم أعجاز نخل ﴾، قال ابن عباس: أُصولها، وقال الضحاك: أوراك نخل. ﴿ منقعر ﴾، منقلع من مكانه ساقط على الأرض وواحد الأعجاز عجز، مثل عضد وأعضاد، وإنما قال: ﴿ أعجاز نخل ﴾ وهي أُصولها التي قطعت فروعها لأن الريح كانت تبيّن رؤوسهم من أجسادهم، فتبقى أجسادهم بلا رؤوس.

﴿ فكيف كان عذابي ونذر * ولقد يسّرنا القرآن للذكر فهل من مُدَّكر * كذّبت ثمود بالنذر ﴾، بالإنذار الذي جاءهم به صالح.

﴿ فقالوا أبشراً ﴾، آدمياً، ﴿ منّا واحداً نتّبعه ﴾، ونحن جماعة كثيرة وهو واحد، ﴿ إنّا إذاً لفي ضلال ﴾، خطأ وذهاب عن الصواب، ﴿ وسُعُر ﴾، قال ابن عباس: عذاب. وقال الحسن: شدّة عذاب. وقال قتادة: عناء، يقولون: إنّا إذاً لفي عناءٍ وعذاب مما يلزمنا من طاعته. قال سفيان بن عيينة: هو جمع سعير. وقال الفرّاء: جنون، يقال ناقة مسعورة إذا كانت خفيفة الرأس هائمة على وجهها. وقال وهب: وسُعُر: أي بُعْد عن الحق.

فِتْنَةً لَّهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾ فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾
فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾

﴿أألقي الذكر عليه﴾ يعني أأنزل الوحي عليه **﴿من بيننا بل هو كذاب أشر﴾** أي بطر متكبر يريد أن يتعظم علينا بادعائه النبوة **﴿سيعلمون غداً﴾** أي حين ينزل بهم العذاب. وقيل: يعني يوم القيامة وإنما ذكر الغد للتقريب **﴿من الكذاب الأشر﴾** أي صالح أم من كذبه **﴿إنا مرسلو الناقة﴾** أي باعثوها ومخرجوها من الهضبة التي سألوا، وذلك أنهم تعنتوا على صالح فسألوه أن يخرج لهم من صخرة حمراء ناقة عشراء فقال الله تعالى إنا مرسلو الناقة **﴿فتنة﴾** أي محنة واختباراً **﴿لهم فارتقبهم﴾** أي فانتظر ما هم صانعون **﴿واصطبر﴾** أي على أذاهم **﴿ونبئهم﴾** أي أخبرهم **﴿أن الماء قسمة بينهم﴾** أي بين الناقة وبينهم لها يوم ولهم يوم وإنما قال تعالى بينهم تغليباً للعقلاء **﴿كل شرب﴾** أي نصيب من الماء **﴿مختصر﴾** أي يحضره من كانت نوبته فإذا كان يوم الناقة حضرت شربها وإذا كان يومهم حضروا شربهم. وقيل: يعني يحضرون الماء إذا غابت الناقة فإذا جاءت حضروا اللبن **﴿فنادوا صاحبهم﴾** يعني قدار بن سالف **﴿فتعاطى﴾** أي فتناول الناقة بسيفه **﴿فعقر﴾** يعني الناقة **﴿فكيف كان عذابي ونذر﴾** ثم بين عذابهم فقال تعالى: **﴿إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة﴾** يعني صيحة جبريل **﴿فكانوا كهشيم المحتظر﴾** قال ابن عباس رضي الله عنهما: هو الرجل يحظر لغنمه حظيرة من الشجر والشوك دون السباع فما سقط من ذلك فداسته الغنم فهو الهشيم. وقيل: هو الشجر البالي الذي يهشم حين تذروه الرياح.

﴿ أأُلْقِي الذّكرُ ﴾، أُنزل الذّكر الوحي، **﴿ عليه من بيننا بل هو كذاب أشِر ﴾**، بطر متكبّر يريد أن يتعظّم علينا بادّعائه النبوّة، والأشِر المرح والتجبّر.

﴿ سيعلمون ﴾، قرأ ابن عامر وحمزة: (ستعلمون)، بالتاء على معنى قول صالح لهم، وقرأ الآخرون بالياء، يقول الله تعالى: **﴿ سيعلمون غداً ﴾**، حين ينزل بهم العذاب. وقال الكلبي: يعني يوم القيامة وذكر الغد للتقريب على عادة الناس، يقولون: إن مع اليوم غداً، **﴿ مَّنِ الكذّاب الأشِر ﴾**.

﴿ إنّا مُرْسلُوا الناقة ﴾، أي باعثوها ومُخرِجوها من الهضبة التي سألوا أن يخرجها منها، وذلك أنهم تعنّتوا على صالح، فسألوه أن يخرج لهم من صخرة ناقةً حمراء عشراءَ، فقال الله تعالى: **﴿ إنّا مُرْسلُوا الناقة فتنةً لهم ﴾**، محنةً واختباراً لهم، **﴿فارتقبهم﴾**، فانتظر ما هم صانعون، **﴿واصطبر﴾**، على ارتقابهم، وقيل: على ما يصيبك من الأذى.

﴿ ونبّئهم أن الماء قسمة بينهم ﴾، وبين الناقة، يوم لها ويوم لهم، وإنما قال بينهم لأن العرب إذا أخبرت عن بني آدم وعن البهائم غلبت بني آدم على البهائم، **﴿ كل شرب ﴾**، نصيب من الماء، **﴿ محتضر ﴾**، يحضره مَن كانت نوبته، فإذا كان يوم الناقة حضرت شربها، وإذا كان يومهم حضروا شربهم، وأحضر وحضر بمعنى واحد، قال مجاهد: يعني يحضرون الماء إذا غابت الناقة، فإذا جاءت الناقة حضروا اللبن.

﴿ فنادوا صاحبهم ﴾، وهو قدار بن سالف، **﴿ فتعاطى ﴾**، فتناول الناقة بسيفه **﴿ فعقر ﴾**، أي فعقرها.

﴿ فكيف كان عِذابي ونذر ﴾، ثم بيّن عذابهم.

فقال: **﴿ إنّا أرسلنا عليهم صيحةً واحدة ﴾**، قال عطاء: يريد صيحة جبريل عليه السلام، **﴿ فكانوا كهشيم**

والمعنى: أنهم صاروا كيبيس الشجر إذا بلي وتحطم وقيل كالعظام النخرة المحترقة وقيل هو التراب يتناثر من الحائط.

وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٣٢﴾ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ
نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا۟ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ
رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى
وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٤٠﴾ وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ
عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾

﴿ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر﴾.

قوله تعالى: **﴿كذبت قوم لوط بالنذر إنا أرسلنا عليهم حاصباً﴾** يعني الحصباء وهي الحجارة التي دون ملء الكف وقد يكون الحاصب الرامي، فعلى هذا، يكون المعنى إنا أرسلنا عليهم عذاباً يحصبهم أي يرميهم بالحجارة ثم استثنى.

فقال تعالى: **﴿إلا آل لوط﴾** يعني لوطاً وابنتيه **﴿نجيناهم﴾** يعني من العذاب **﴿بسحر نعمة من عندنا﴾** أي جعلناه نعمة منا عليهم حيث نجيناهم **﴿كذلك نجزي﴾** أي كما أنعمنا على آل لوط كذلك نجزي **﴿من شكر﴾** يعني أن من وحد الله لم يعذبه مع المشركين **﴿ولقد أنذرهم﴾** أي لوط **﴿بطشتنا﴾** يعني أخذنا إياهم بالعقوبة **﴿فتماروا بالنذر﴾**

المحتظر﴾، قال ابن عباس: هو الرجل يجعل لغنمه حظيرة من الشجر والشوك دون السِّباع، فما سقط من ذلك فداسته الغنم فهو الهشيم. وقال ابن زيد هو الشجر البالي الذي تهشّم حتى ذرته الريح، والمعنى أنهم صاروا كيبس الشجر إذا تحطم والعرب تسمّي كل شيء كان رطباً فيبس هشيماً. وقال قتادة: كالعظام النخرة المحترقة. وقال سعيد بن جبير: هو التراب الذي يتناثر من الحائط.

﴿ ولقد يسّرنا القرآن للذكر فهل من مّدّكر * كذّبت قوم لوط بالنذر * إنّا أرسلنا عليهم حاصباً ﴾، ريحاً ترميهم بالحصباء، وهي الحصا، قال الضحاك: يعني صغار الحصى. وقيل: الحصباء هي الحجر الذي دون ملء الكفّ، وقد يكون الحاصب الرامي، فيكون المعنى على هذا: أرسلنا عليهم عذاباً يحصبهم، يعني يرميهم بالحجارة، ثم استثنى فقال: **﴿ إلاّ آل لوط ﴾**، يعني لوطاً وابنتيه، **﴿ نجّيناهم ﴾**، من العذاب، **﴿ بسحر ﴾**.

﴿ نعمة من عندنا ﴾، يعني جعلناه نعمة منّا عليهم حيث أنجيناهم، **﴿ كذلك ﴾**، يعني كما أنعمنا على آل لوط، **﴿ نجزي مَن شكر ﴾**، قال مقاتل: مَن وحّد الله لم يعذّبه مع المشركين.

﴿ ولقد أنذرهم ﴾، لوط، **﴿ بطشتنا ﴾**، أخذنا إياهم بالعقوبة، **﴿ فتماروا بالنُّذر ﴾**، شكّوا بالإنذار وكذّبوا ولم يصدّقوا.

﴿ ولقد راودوه عن ضيفه ﴾، طلبوا أن يسلّم إليهم أضيافه **﴿ فطمسنا أعينهم ﴾**، وذلك أنهم لمّا قصدُوا دَارَ لوط وعالجوا الباب ليدخلوا، قالت الرسل للوط: خلِّ بينهم وبين الدخول فإن رسل ربك لن يصلوا إليك، فدخلوا الدار فصفقهم جبريل بجناحه بإذن الله فتركهم عُمْياً يترددون متحيّرين لا يهتدون إلى الباب، فأخرجهم لوط عمياً لا يبصرون. قوله: **﴿ فطمسنا أعينهم ﴾** يعني صيّرناها كسائر الوجه لا يُرى لها شق، هذا قول أكثر المفسّرين. وقال

أي شكوا بالإنذار ولم يصدقوا وكذبوا ﴿ولقد راودوه عن ضيفه﴾ أي طلبوا منه أن يسلم إليهم أضيافه ﴿فطمسنا أعينهم﴾ وذلك أنهم لما قصدوا دار لوط عالجوا الباب ليدخلوا عليهم فقالت الرسل للوط خل بينهم وبين الدخول فإنا رسل ربك لن يصلوا إليك فدخلوا الدار فصفقهم جبريل بجناحه فتركهم عمياً بإذن الله يترددون متحيرين لا يهتدون إلى الباب وأخرجهم لوط عمياً لا يبصرون.

ومعنى: فطمسنا أعينهم، يعني صيرناها كسائر الوجه لا يرى لها شق. وقيل: طمس الله أبصارهم فلم يروا الرسل فقالوا لقد رأيناهم حين دخلوا فأين ذهبوا؟ فلم يروهم ﴿فذوقوا عذابي ونذر﴾ يعني ما أنذركم به لوط من العذاب ﴿ولقد صبحهم بكرة﴾ أي جاءهم وقت الصبح ﴿عذاب مستقر﴾ يعني دائم استقر فيهم حتى أفضى بهم إلى عذاب الآخرة ﴿فذوقوا عذابي ونذر ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر﴾

قوله عز وجل: ﴿ولقد جاء آل فرعون النذر﴾ يعني موسى وهارون عليهما الصلاة والسلام. وقيل: النذر، الآيات التي أنذرهم بها موسى ﴿كذبوا بآياتنا كلها﴾ يعني الآيات التسع ﴿فأخذناهم﴾ يعني بالعذاب ﴿أخذ عزيز مقتدر﴾ يعني غالب في انتقامه قادر على إهلاكهم لا يعجزه عما أراد ثم خوف كفار مكة فقال تعالى:

﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَٰئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾﴾

﴿أكفاركم خير من أولئكم﴾ يعني أقوى وأشد من الذين أحللت بهم نقمتي مثل قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وآل فرعون وهذا استفهام إنكار، أي، ليسوا بأقوى منهم ﴿أم لكم براءة﴾ يعني من العذاب ﴿في الزبر﴾ أي في الكتب أنه لن يصيبكم ما أصاب الأمم الخالية ﴿أم يقولون﴾ يعني كفار مكة ﴿نحن جميع﴾ يعني أمرنا ﴿منتصر﴾ يعني من

الضحاك: طمس الله أبصارهم فلم يروا الرسل، فقالوا: قد رأيناهم حين دخلوا البيت فأين ذهبوا، فلم يروهم فرجعوا. ﴿ فذوقوا عذابي ونُذر ﴾، أي ما أنذركم به لوط من العذاب.

﴿ ولقد صبّحهم بُكْرةً ﴾، جاءهم وقت الصبح، ﴿ عذاب مستقر ﴾، دائم استقرّ فيهم حتى أفضى بهم إلى عذاب الآخرة، وقيل: عذاب حق.

﴿ فذوقوا عذابي ونُذر * ولقد يسّرنا القرآن للذكر فهل من مُدّكر * ولقد جاء آلَ فرعون النُّذر ﴾، يعني موسى وهارون عليهما السلام، وقيل: هي الآيات التي أنذرهم بها موسى.

﴿ كذّبوا بآياتنا كلها ﴾، وهي الآيات التسع، ﴿ فأخذناهم ﴾، بالعذاب، ﴿ أخذَ عزيزٍ ﴾، غالب في انتقامه، ﴿ مقتدر ﴾، قادر على إهلاكهم لا يعجزه ما أراد بهم، ثم خوّف أهل مكة فقال:

﴿ أكفّارُكم خيرٌ من أولئكم ﴾، أشدّ وأقوى من الذين أحللت بهم نقمتي من قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وآل فرعون؟ وهذا استفهام بمعنى الإنكار، أي ليسوا بأقوى منهم، ﴿ أم لكم براءة ﴾، من العذاب، ﴿ في الزبر ﴾، في الكتب أنه لن يصيبكم ما أصاب الأمم الخالية.

﴿ أم يقولون ﴾، يعني كفّار مكة، ﴿ نحن جميع منتصر ﴾، قال الكلبي: نحن جميع أمرنا منتصر من أعدائنا، والمعنى: نحن يَدٌ واحدة على مَن خالفنا، منتصر ممّن عادانا، ولم يقل منتصرون لموافقة رؤوس الآي.

أعدائنا والمعنى: نحن يد واحدة على من خالفنا منصرون ممن عادانا. ولم يقل منصرون لموافقة رؤوس الآي. وقيل: معناه نحن كل واحد منا منتصر كما يقال: كلهم عالم، يعني: كل واحد منهم عالم. قال الله تعالى: ﴿سيهزم الجمع﴾ يعني كفار مكة ﴿ويولون الدبر﴾ يعني الأدبار فوحد لأجل رؤوس الآي. وقيل في الإفراد، إشارة إلى أنهم في التولية والهزيمة كنفس واحدة، فلا يتخلف أحد عن الهزيمة ولا يثبت أحد للزحف فَهُمْ في ذلك كرجل واحد (خ).

عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ وهو في قبة يوم بدر «اللهم إني أنشدك عهدك ووعدك اللهم إن شئت لم تعبد بعد هذا اليوم أبداً فأخذ أبو بكر بيده فقال: حسبك يا رسول الله فقد ألححت على ربك فخرج وهو في الدرع وهو يقول: سيهزم الجمع ويولون الدبر» ﴿بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر﴾ فصدق الله وعده وهزمهم يوم بدر.

وقال سعيد بن المسيب: سمعت عمر بن الخطاب يقول: لما نزلت سيهزم الجمع ويولون الدبر: كنت لا أدري أي جمع يهزم، فلما كان يوم بدر، رأيت النبي ﷺ يثب في درعه ويقول: سيهزم الجمع ويولون الدبر فعلمت تأويلها ﴿بل الساعة موعدهم﴾ يعني جميعاً والساعة أدهى وأمر، أي أعظم داهية وأشد مرارة من الأسر والقتل يوم بدر.

قوله عز وجل: ﴿إن المجرمين﴾ يعني المشركين ﴿في ضلال وسعر﴾ قيل في بعد عن الحق وسعر أي نار تسعر عليهم.

وقيل: في ضلال في الدنيا ونار مسعرة في الآخرة. وقيل: في ضلال، أي عن طريق الجنة وسعر أي عذاب الآخرة ثم بين عذابهم فقال تعالى: ﴿يوم يسحبون﴾ أي يجرون ﴿في النار على وجوههم﴾ ويقال لهم ﴿ذوقوا مس سقر﴾ أي ذوقوا أيها المكذبون لمحمد ﷺ مس سقر.

قال الله تعالى: ﴿ سَيُهزَمُ الجمع ﴾، قرأ يعقوب: (سنهزم) بالنون، ﴿ الجمع ﴾ نصبٌ، وقرأ الآخرون بالياء وضمّها، ﴿ الجمع ﴾ رفعٌ على غير تسمية الفاعل، يعني كفّار مكة، ﴿ ويُوَلُّون الدُّبُرَ ﴾، يعني الأدبار فوحّد لأجل رؤوس الآي، كما يقال: ضربنا منهم الرؤوس وضربنا منهم الرأس إذا كان الواحد يؤدي معنى الجمع، أخبر الله أنهم يولّون أدبارهم منهزمين فصدق الله وعده وهزمهم يوم بدر. أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا محمد بن المثنى ثنا عبد الوهاب ثنا خالد عن عكرمة عن ابن عباس قال: قال النبي ﷺ وهو في قبّته يوم بدر: «اللّهمَّ إني أُنشدك عهدك ووعدك، اللّهمَّ إنْ شئتَ لم تُعبدْ بَعْدُ اليوم»، فأخذ أبو بكر بيده، فقال: حسبك يا رسول الله، فقد ألححت على ربك، وهو في الدرع، فخرج وهو يقول: ﴿ سيُهزم الجمع ويولّون الدبر ﴾.

﴿ بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمرّ ﴾، قال سعيد بن المسيب: سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: لمّا نزلت: ﴿ سيهزم الجمع ويولّون الدبر ﴾ كنت لا أدري أيّ جمع سيهزم، فلما كان يوم بدر رأيت النبي ﷺ يثب في درعه ويقول: ﴿ سيهزم الجمع ويولّون الدبر * بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمرّ ﴾، أي أعظم داهية وبليّة وأشدّ مرارة من الأسْر والقتل يوم بدر.

﴿ إن المجرمين ﴾، المشركين، ﴿ في ضلال وسُعُر ﴾، قيل: في ضلال بعد عن الحق. قال الضحاك: وسُعُر أي نار تسعر عليهم: وقيل: في ضلال ذهاب عن طريق الجنّة في الآخرة، وسُعُر: نارٌ مسعّرة، قال الحسين بن فضل: إن المجرمين في ضلال في الدنيا ونار في الآخرة. وقال قتادة: في عناء وعذاب.

ثم بَيَّن عذابهم فقال: ﴿ يوم يُسحبون ﴾، يُجرّون، ﴿ في النار على وجوههم ﴾، ويقال لهم: ﴿ ذُوقُوا مسَّ سقر ﴾.

﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٥١﴾﴾

﴿إنا كل شيء خلقناه بقدر﴾ أي مقدور ومكتوب في اللوح المحفوظ. وقيل: معناه قدر الله لكل شيء من خلقه قدره الذي ينبغي له. وقال ابن عباس: كل شيء بقدر حتى وضعك يدك على خدك.

(فصل في سبب نزول الآية وما ورد في القدر وما قيل فيه)

(م) «عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: كتب الله مقادير الخلائق كلها قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة» قال وعرشه على الماء (م).

عن أبي هريرة قال: «جاء مشركو قريش إلى النبي ﷺ يخاصمونه في القدر فنزلت هذه الآية ﴿**إن المجرمين في ضلال وسعر**﴾ إلى قوله ﴿**إنا كل شيء خلقناه بقدر**﴾ (م) عن طاوس قال: أدركت ناساً من أصحاب رسول الله ﷺ يقولون: كل شيء بقدر الله تعالى قال: وسمعت عبد الله بن عمر يقول: قال رسول الله ﷺ: كل شيء بقدر حتى العجز والكيس أو الكيس والعجز».

عن علي بن أبي طالب قال: قال رسول الله ﷺ «لا يؤمن عبد حتى يؤمن بأربع: يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله ﷺ بعثني بالحق، ويؤمن بالموت، وبالبعث بعد الموت، ويؤمن بالقدر» أخرجه الترمذي. وله عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يؤمن عبد حتى يؤمن بالقدر خيره وشره وحتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه» وقال: حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث عبد الله بن ميمون وهو منكر الحديث. وفي حديث جبريل المتفق عليه: وتؤمن بالقدر خيره وشره. قال: صدقت ففيه ذم القدرية.

عن حذيفة قال: قال رسول الله ﷺ: «لكل أمة مجوس ومجوس هذه الأمة الذين يقولون لا قدر من مات منهم فلا تشهدوا جنازته ومن مرض منهم فلا تعودوه وهم من شيعة الدجال وحق على الله أن يلحقهم بالدجال».

أخرجه أبو داود وله عن أبي هريرة مثله «وزاد فلا تجالسوهم ولا تفاتحوهم في الكلام».

وعن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ «صنفان من أمتي ليس لهما في الإسلام نصيب: المرجئة والقدرية» أخرجه الترمذي وقال: حديث حسن غريب.

وروى ابن الجوزي في تفسيره عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال «إذا جمع الله الخلائق يوم القيامة أمر منادياً فينادي نداء يسمعه الأولون والآخرون أي خصماء الله فتقوم القدرية فيأمر بهم إلى النار يقول الله ذوقوا مس سقر إنا كل شيء خلقناه بقدر».

﴿ **إِنَّا كلَّ شيء خلقناه بقدر** ﴾، أي ما خلقناه فمقدور ومكتوب في اللوح المحفوظ، قال الحسن: قدّر الله لكل شيء من خلقه قدره الذي ينبغي له، أخبرنا أبو الحسن علي بن الحسين القرشي أنا مسلم غالب بن علي الرازي أنا أبو معشر يعقوب بن عبد الجليل بن يعقوب ثنا أبو يزيد حاتم بن محبوب أنا أحمد بن نصر النيسابوري أنا عبد الله بن الوليد العدني أنا الثّوري عن زياد بن إسماعيل السهمي عن محمد بن عباد المخزومي عن أبي هريرة قال: جاء مشركوا قريش إلى النبي ﷺ يخاصمونه في القدر فنزلت هذه الآية: ﴿ **إن المجرمين في ضلال وسُعُر** ﴾ إلى قوله: ﴿ **إنّا كل شيء خلقناه بقدر** ﴾، أخبرنا أبو الحسن علي بن يوسف الجويني أنا أبو محمد محمد بن

قال ابن الجوزي: وإنما قيل: خصماء الله، لأنهم يخاصمون في أنه لا يجوز أن يقدر المعصية على العبد ثم يعذبه عليها. وروي عن الحسن قال: والله لو أن قدرياً صام حتى يصير كالحبل، وصلّى حتى يصير كالوتر، ثم أخذ ظلماً حتى يذبح بين الركن والمقام لكبه الله على وجهه في صقر ثم قيل له ذق مس صقر إنا كل شيء خلقناه بقدر. قال الشيخ محيي الدين النووي رحمه الله اعلم أن مذهب أهل الحق إثبات القدر ومعناه أن الله تعالى قدر الأشياء في القدم وعلم سبحانه وتعالى أنها ستقع في أوقات معلومة عنده سبحانه وتعالى وعلى صفات مخصوصة فهي تقع على حسن ما قدرها الله تعالى وأنكرت القدرية هذا وزعمت أنه سبحانه وتعالى لم يقدرها ولم يتقدم علمه بها وإنها مستأنفة العلم أي إنما يعلمها سبحانه وتعالى بعد وقوعها وكذبوا على الله سبحانه وتعالى عن أقوالهم الباطلة علواً كبيراً. وسميت هذه الفرقة قدرية، لإنكارهم القدر. قال أصحاب المقالات من المتكلمين: وقد انقرضت القدرية القائلون بهذا القول الشنيع الباطل ولم يبق أحد من أهل القبلة عليه. وصارت القدرية في الأزمان المتأخرة تعتقد إثبات القدر ولكن تقول الخير من الله والشر من غيره تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً.

وحكى أبو محمد بن قتيبة في كتابه غريب الحديث، وأبو المعالي إمام الحرمين في كتابه الإرشاد في أصول الدين، أن بعض القدرية قالوا: لسنا بقدرية بل أنتم القدرية لاعتقادكم إثبات القدر. قال ابن قتيبة وإمام الحرمين: هذا تمويه من هؤلاء الجهلة ومباهته وتواقح، فإن أهل الحق يفرضون أمورهم إلى الله تعالى. ويضيفون القدر والأفعال إلى الله تعالى وهؤلاء الجهلة يضيفونه إلى أنفسهم ومدعي الشيء لنفسه ومضيفه إليها أولى بأن ينسب إليه ممن يعتقده لغيره وينفيه عن نفسه.

قال إمام الحرمين: وقد قال رسول الله ﷺ «القدرية مجوس هذه الأمة» شبههم بهم لتقسيمهم الخير والشر في حكم الإرادة كما قسمت المجوس فصرفت الخير إلى يزدان والشر إلى أهرمن. ولا خفاء باختصاص هذا الحديث بالقدرية. وحديث: القدرية مجوس هذه الأمة، رواه أبوحازم عن ابن عمر عن رسول الله ﷺ وأخرجه أبو داود في سننه والحاكم أبو عبد الله في المستدرك على الصحيحين. وقال: صحيح على شرط الشيخين إن صح سماع أبي حازم عن ابن عمر وقال الخطابي: إنما جعلهم ﷺ مجوساً لمضاهاة مذهبهم مذهب المجوس لقولهم بالأصلين: النور

علي بن محمد بن شريك الشافعي الخدشاهي أنا عبد الله بن محمد بن مسلم أبو بكر الجويدري أنا يونس بن عبد الأعلى الصدفي أنا عبد الله بن وهب أخبرني أبو هانىء الخولاني عن أبي عبد الرحمن الجيلي عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السمٰوات والأرض بخمسين ألف سنة، قال: وكان عرشه على الماء». أخبرنا أبو الحسن السرخسي أنا زاهر بن أحمد أنا أبو إسحاق الهاشمي أنا أبو مصعب عن مالك عن زياد بن سعد عن عمرو بن مسلم عن طاوس اليماني قال: أدركت ناساً من أصحاب رسول الله ﷺ يقولون: «كل شيء بقدر الله»، قال وسمعت عبد الله بن عمر رضي الله عنه يقول: قال رسول الله ﷺ: «كل شيء بقدر حتى العجز والكيس، أو الكيس والعجز»، أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحي أنا أبو بكر أحمد بن الحسن الحيري أنا أبو جعفر محمد بن علي بن دحيم الشيباني أنا أحمد بن حازم بن أبي عروة أنا يعلى بن عبيد وعبد الله بن موسى وأبو نعيم عن سفيان عن منصور عن ربعي بن حراش عن رجل عن علي بن أبي طالب قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يؤمن عبدٌ حتى يؤمن بأربع: يشهد أن لا إلٰه إلّا الله وأني رسول الله بعثني بالحق، ويؤمن بالبعث بعد الموت، ويؤمن بالقدر زاد عبد الله خيره وشرّه»، ورواه أبو داود عن شعبة عن منصور وقال: عن ربعي عن علي ولم يقل: عن رجل، وهذا أصحّ.

﴿ وما أمرنا إلّا واحدة كلمح بالبصر ﴾، قوله: ﴿ واحدة ﴾، ترجع إلى المعنى دون اللفظ، أي: وما أمرنا

والظلمة يزعمون أن الخير من فعل النور والشر من فعل الظلمة فصاروا ثنوية وكذلك القدرية يضيفون الخير إلى الله والشر إلى غيره والله سبحانه وتعالى خالق كل شيء الخير والشر جميعاً لا يكون شيء منهما إلا بمشيئته فهما مضافان إليه سبحانه وتعالى خلقاً وإيجاداً وإلى الفاعلين لهما من عباده فعلاً واكتساباً. قال الخطابي: وقد يحسب كثير من الناس أن معنى القضاء والقدر إجبار الله تعالى العبد وقهره على ما قدره وقضاه وليس الأمر كما يتوهمونه وإنما معناه الإخبار عن تقدم علم الله تعالى بما يكون من اكساب العباد وصدورها عن تقدير منه وخلق لها خيرها وشرها. قال: والقدر اسم لما صدر مقدراً عن فعل القادر. ويقال: قدرت الشيء وقدرته بالتخفيف والتثقيل بمعنى واحد. والقضاء في هذا معناه الخلق كقوله تعالى: ﴿فقضاهن سبع سموات﴾ أي خلقهن. وقد تظاهرت الأدلة القطعية من الكتاب والسنة وإجماع الصحابة وأهل العقد والحل من السلف والخلف على إثبات قدر الله سبحانه وتعالى وقد قرر ذلك أئمة المتكلمين أحسن تقرير بدلائله القطعية السمعية والعقلية والله أعلم.

وأما معاني الأحاديث المتقدمة، فقوله: جاء مشركو قريش إلى قوله إنا كل شيء خلقناه بقدر المراد بالقدر هنا القدر المعروف وهو ما قدره الله وقضاه وسبق به علمه وإرادته فكل ذلك مقدر في الأزل معلوم لله تعالى مراد له، وكذلك قوله: كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة وعرشه على الماء المراد منه تحديد وقت الكتابة في اللوح المحفوظ أو غيره لا أصل القدر فإن ذلك أزلي لا أول له وقوله وعرشه على الماء أي قبل أن يخلق السموات والأرض، وقوله: كل شيء بقدر حتى العجز والكيس. أو قال: الكيس والعجز. العجز: عدم القدرة. وقيل: هو ترك ما يجب فعله بالتسويف به وتأخيره عن وقته. وقيل: يحتمل العجز عن الطاعات ويحتمل العموم في أمور الدنيا والآخرة والكيس ضد العجز وهو النشاط والحذق بالأمور. ومعنى الحديث: أن العاجز قدر عجزه والكيس قدر كيسه.

قوله تعالى: ﴿وما أمرنا إلا واحدة﴾ أي وما أمرنا إلا مرة واحدة وقيل معناه وأما أمرنا للشيء إذا أردنا تكوينه إلا كلمة واحدة ﴿كن فيكون﴾ لا مراجعة فيه فعلى هذا إذا أراد الله سبحانه وتعالى شيئاً قال له كن فيكون فهنا بان فرق بين الإرادة والقول فالإرادة قدر والقول قضاء وقوله واحدة فيه بيان أنه لا حاجة إلى تكرير القول بل هو إشارة إلى نفاذ الأمر ﴿كلمح البصر﴾ قال ابن عباس: يريد أن قضائي في خلقي أسرع من لمح البصر. وعن ابن عباس أيضاً: معناه وما أمرنا بمجيء الساعة في السرعة إلا كطرف البصر ﴿ولقد أهلكنا أشياعكم﴾ أي أشباهكم ونظراءكم في الكفر من الأمم السالفة ﴿فهل من مدكر﴾ أي متعظ بأن ذلك حق فيخاف ويعتبر.

﴿وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ ۝٥٢ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ۝٥٣ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ۝٥٤ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ۝٥٥﴾

﴿وكل شيء فعلوه﴾ يعني الأشياع من خير وشر ﴿في الزبر﴾ أي في كتب الحفظة وقيل في اللوح المحفوظ

إلّا مرة واحدة، وقيل: معناه وما أمرنا للشيء إذا أردنا تكوينه إلّا كلمة واحدة: كن فيكون، لا مراجعة فيها كلمح بالبصر. قال عطاء عن ابن عباس: يريد أن قضائي في خلقي أسرع من لمح البصر. وقال الكلبي عنه: وما أمرنا بمجيء الساعة في السرعة إلّا كطرف البصر.

﴿ ولقد أهلكنا أشياعكم ﴾، أشباهكم ونظراءكم في الكفر من الأمم السالفة، ﴿ فهل من مُّدَّكر ﴾، متّعظ يعلم أن ذلك حق فيخاف ويعتبر.

﴿ وكل شيء فعلوه ﴾، يعني فعله الأشياع من خير وشر، ﴿ في الزّبر ﴾، في كتاب الحَفَظَة، وقيل: في اللوح المحفوظ.

﴿وكل صغير وكبير﴾ أي من الخلق وأعمالهم وآجالهم ﴿مستطر﴾ أي مكتوب.

قوله عز وجل: ﴿إن المتقين في جنات﴾ أي بساتين ﴿ونهر﴾ أي أنهار وإنما وحَّده لموافقة رؤوس الآي وأراد أنها الجنة من الماء والخمر واللبن والعسل.

وقيل: معناه في ضياء وسعة ومنه النهار والمعنى لا ليل عندهم ﴿في مقعد صدق﴾ أي في مجلس حق لا لغو فيه ولا تأثيم وقيل في مجلس حسن وقيل في مقعد لا كذب فيه لأن الله صادق فمن وصل إليه امتنع عليه الكذب فهو في مقعد صدق ﴿عند مليك﴾ قيل معناه قرب المنزلة والتشريف لا معنى المكان ﴿مقتدر﴾ أي قادر لا يعجزه شيء وقيل مقربين عند مليك أمره في الملك والاقتدار أعظم شيء، فلا شيء إلا وهو تحت ملكه وقدرته فأي منزلة أكرم من تلك المنزلة وأجمع للغبطة كلها والسعادة بأسرها. قال جعفر الصادق: وصف الله تعالى المكان بالصدق، فلا يقعد فيه إلا أهل الصدق، والله أعلم بمراده وأسرار كتابه.

﴿ وكل صغير وكبير ﴾، من الخلق وأعمالهم وآجالهم، ﴿ مستطر ﴾، مكتوب، يقال: سطرت واستطرت وكتبت واكتتبت.

﴿ إن المتّقين في جنّات ﴾، بساتين، ﴿ ونَهر ﴾، أي أنهار، ووحّده لأجل رؤوس الآي، وأراد أنهار الجنة من الماء والخمر واللبن والعسل. وقال الضحاك: يعني في ضياء وسِعة ومنه النهار. وقرأ الأعرج: ﴿ ونهر ﴾ بضمتين جمع النهار يعني لا ليل لهم.

﴿ في مقعد صدق ﴾، في مجلس حق لا لغو فيه ولا تأثيم، ﴿ عند مليك مقتدر ﴾، ملك قادر لا يعجزه شيء. قال جعفر الصادق رضي الله عنه: مدح الله المكان بالصدق فلا يقعد فيه إلاّ أهل الصدق.

﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾
(قرآن كريم)

سورة الرحمن علا، وعز وجل

(وهي مكية وذكر ابن الجوزي أنها مدنية في قول من قولين عن ابن عباس وهي ست وسبعون آية وثلاثمائة وإحدى وخمسون كلمة وألف وستمائة وستة وثلاثون حرفاً).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤

قوله عز وجل: ﴿**الرحمن علم القرآن**﴾ قيل لما نزلت اسجدوا للرحمن قال كفار مكة وما الرحمن فأنكروه وقالوا لا نعرف الرحمن فأنزل الله الرحمن يعني الذي أنكرتموه هو الذي علم القرآن، وقيل هذا جواب لأهل مكة حين قالوا إنما يعلمه بشر فقال تعالى الرحمن علم القرآن يعني علَّم محمداً القرآن وقيل علَّم القرآن يسره للذكر ليحفظ ويتلى وذلك أن الله عز وجل عد نعمه على عباده فقدم أعظمها نعمة وأعلاها رتبة وهو القرآن العزيز لأنه أعظم وحي الله إلى أنبيائه وأشرفه منزلة عند أوليائه وأصفيائه وأكثره ذكراً وأحسنه في أبواب الدين أثراً وهو سنام الكتب السماوية المنزلة على أفضل البرية ﴿**خلق الإنسان**﴾ يعني آدم عليه الصلاة والسلام قاله ابن عباس ﴿**علمه البيان**﴾ يعني أسماء كل شيء وقيل علَّمه اللغات كلها فكان آدم يتكلم بسبعمائة لغة أفضلها العربية وقيل الإنسان اسم جنس وأراد به جميع الناس، فعلى هذا يكون معنى علمه البيان أي النطق الذي يتميز به عن سائر الحيوانات، وقيل علمه الكتابة والفهم والإفهام حتى عرف ما يقول وما يقال له وقيل علم كل قوم لسانهم الذي يتكلمون به وقيل أراد بالإنسان محمداً ﷺ علَّمه البيان يعني بيان ما يكون وما كان لأنه صلى الله عليه وسلم ينبيء عن خبر الأولين والآخرين وعن يوم الدين،

سُوْرَة الرّحْمٰن

مدنيّة وهي ثمانٍ وسبعون آية.

﴿ **الرحمن** ﴾ نزلت حين قالوا وما الرحمن، وقيل: هو جواب لأهل مكة حين قالوا إنّما يعلمه بشر.

﴿ **علم القرآن** ﴾، قال الكلبي علم القرآن محمداً. وقيل: علم القرآن يسّره للذكر.

﴿ **خلق الإنسان** ﴾، يعني آدم عليه السلام، قاله ابن عباس وقتادة.

﴿ **علمه البيان** ﴾، أسماء كل شيء، وقيل: علّمه اللغات كلها، وكان آدم يتكلم بسبعمائة لغة أفضلها العربية. وقال الآخرون: الإنسان اسم جنس، وأراد به جميع الناس، علّمه البيان النطق والكتابة والفهم والإفهام حتى عرف ما يقول وما يقال له، هذا قول أبي العالية وابن زيد والحسن وقال السدي: علّم كل قوم لسانهم الذي يتكلمون به. وقال ابن كيسان: ﴿ **خلق الإنسان** ﴾، يعني محمداً ﷺ ﴿ **علّمه البيان** ﴾ يعني بيان ما كان وما يكون

وقيل علمه بيان الأحكام من الحلال والحرام والحدود والأحكام.

﴿ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ ۝٥ وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ ۝٦ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِي ٱلۡمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُواْ ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ وَلَا تُخۡسِرُواْ ٱلۡمِيزَانَ ۝٩ وَٱلۡأَرۡضَ وَضَعَهَا لِلۡأَنَامِ ۝١٠ فِيهَا فَٰكِهَةٞ وَٱلنَّخۡلُ ذَاتُ ٱلۡأَكۡمَامِ ۝١١﴾

﴿الشمس والقمر بحسبان﴾ قال ابن عباس يجريان بحساب ومنازل لا يتعديانها وقيل يعني بهما حساب الأوقات والآجال ولولا الليل والنهار والشمس والقمر لم يدر أحد كيف يحسب ما يريد، وقيل الحساب هو الفلك تشبيهاً بحسبان الرحى وهو ما يدور الحجر بدورانه **﴿والنجم والشجر يسجدان﴾** قيل النجم ما ليس له ساق من النبات كالبقول والشجر ما له ساق يبقى في الشتاء وسجودهما سجود ظلها وقيل النجم هو الكوكب، وسجوده طلوعه والقول الأول أظهر لأنه ذكره مع الشجر في مقابلة الشمس والقمر ولأنهما أرضيان في مقابلة سماءين **﴿والسماء رفعها﴾** أي فوق الأرض **﴿ووضع الميزان﴾** قيل أراد بالميزان العدل لأنه آلة العدل والمعنى أنه أمر بالعدل يدل عليه قوله **﴿ألا تطغوا في الميزان﴾** أي لا تجاوزوا العدل وقيل أراد به الآلة التي يوزن بها للتوصل إلى الإنصاف والانتصاف وأصل الوزن التقدير أن لا تطغوا في الميزان أي لئلا تميلوا وتظلموا وتجاوزوا الحق في الميزان **﴿وأقيموا الوزن بالقسط﴾** يعني بالعدل وقيل أقيموا لسان الميزان بالعدل وقيل الإقامة باليد والقسط بالقلب **﴿ولا تخسروا﴾** أي لا تنقصوا **﴿الميزان﴾** أي لا تطفقوا في الكيل والوزن أمر بالتسوية ونهى عن الطغيان الذي هو اعتداء وزيادة وعن الخسران الذي هو تطفيف ونقصان وكرر لفظ الميزان تشديداً للتوصية به وتقوية للأمر باستعماله والحث عليه **﴿والأرض وضعها﴾** أي

لأنه كان يبيّن عن الأوّلين والآخرين وعن يوم الدين.

﴿ الشمس والقمر بحسبان ﴾، قال مجاهد: كحسبان الرحى يدوران في مثل قطب الرحا، قال غيره: معناه أي يجريان بحساب ومنازل لا يعدوانها، قاله ابن عباس وقتادة وقال ابن زيد وابن كيسان: يعني بهما تحسب الأوقات والآجال ولولا الليل والنهار والشمس والقمر فم يدرِ أحد كيف يحبّ شيئاً. وقال الضحاك: يجريان بقدر، والحسبان يكون مصدر حسبت حساباً وحسباناً مثل الغفران والكفران والرجحان والنقصان، وقد يكون جمع الحساب كالشبهان والركبان.

﴿ والنجم والشجر يسجدان ﴾، النجم ما ليس له ساق من النبات، والشّجر ما له ساق يبقى في الشتاء، وسجودهما سجود ظلهما كما قال: ﴿ يتفيؤ ظلاله عن اليمين والشمائل سجّداً لله ﴾ [النحل: ٤٨] وقال مجاهد: النجم هو الكوكب وسجوده طلوعه.

﴿ والسماء رفعها ﴾، فوق الأرض، **﴿ ووضع الميزان ﴾**، قال مجاهد: أراد بالميزان العدل المعنى أنه أمر بالعدل، يدلّ عليه قوله تعالى:

﴿ ألّا تطغوا في الميزان ﴾، أي لا تجاوزوا العدل. وقال الحسن وقتادة والضحاك أراد به الذي يوزن به ليوصل به الإنصاف والانتصاف، وأصل الوزن التقدير ألّا تطغوا يعني لئلا تميلوا وتظلموا وتجاوزوا الحق في الميزان.

﴿ وأقيموا الوزن بالقسط ﴾، بالعدل، وقال أبو الدرداء وعطاء: معناه أقيموا لسان الميزان بالعدل. قال ابن عيينة: الإقامة باليد والقسط بالقلب، **﴿ ولا تُخسروا ﴾**، ولا تنقصوا **﴿ الميزان ﴾**، ولا تطففوا في الكيل والوزن.

خفضها مدحوة على الماء ﴿للأنام﴾ يعني للخلق الذين بثهم فيها وهو كل ما ظهر عليها من دابة وقيل للإنس والجن فهي كالمهاد لهم يتصرفون فوقها ﴿فيها﴾ يعني في الأرض ﴿فاكهة﴾ يعني من أنواع الفاكهة وقيل ما يتفكهون به من النعم التي لا تحصى ﴿والنخل ذات الأكمام﴾ يعني الأوعية التي يكون فيها الثمر لأن ثمر النخل يكون في غلاف وهو الطلع ما لم ينشق وكل شيء ستر شيئاً فهو كم وقيل أكمامها ليفها واقتصر على ذكر النخل من بين سائر الشجر لأنه أعظمها وأكثرها بركة.

﴿وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ ﴿١٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾﴾

﴿والحب﴾ يعني جميع الحبوب التي يقتات بها كالحنطة والشعير ونحوهما وإنما أخَّر ذكر الحب على سبيل الارتقاء إلى الأعلى لأن الحب أنفع من النخل وأعم وجوداً في الأماكن ﴿ذو العصف﴾ قال ابن عباس يعني التبن وعنه أنه ورق الزرع الأخضر إذ قطع رؤوسه ويبس وقيل هو ورق كل شيء يخرج منه الحب يبدو صلاحه ولا ورق وهو العصف ثم يكون سوقاً ثم يحدث الله فيه أكماماً ثم يحدث في الأكمام الحب ﴿والريحان﴾ يعني الرزق قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما كل ريحان في القرآن فهو رزق وقيل هو الريحان الذي يشم، وقيل: العصف التبن والريحان ثمرته فذكر قوت الناس والأنعام ثم خاطب الجن والإنس فقال تعالى: ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾ يعني أيها الثقلان يريد هذه الأشياء المذكورة وكرر هذه الآية في هذه الصورة في أحد وثلاثين موضعاً تقريراً للنعمة وتأكيداً في التذكير بها، ثم عدد على الخلق آلاءه وفصل بين كل نعمتين بما ينبههم عليها ليفهمهم النعم ويقررهم بها كقول الرجل لمن

﴿ والأرض وضعها للأنام ﴾، للخلق الذين بثّهم فيها.

﴿ فيها فاكهة ﴾، يعني أنواع الفواكه، قال ابن كيسان: ما يتفكهون به من النِّعَم التي لا تُحصى، **﴿ والنخل ذات الأكمام ﴾** الأوعية التي يكون فيها التمر لأن تمر النخل يكون في غلاف ما لم ينشقّ، واحدها كم، وكل ما ستر شيئاً فهو كم، وكمة، ومنه كم القميص، ويقال للقلنسوة كمة، قال الضحاك: ذات الأكمام أي ذات الغلف. وقال الحسن: أكمامها ليفها. وقال ابن زيد: هو الطلع قبل أن ينفتق.

﴿ والحبّ ذو العصف ﴾، أراد بالحبّ جميع الحبوب التي يُقتات بها. قال مجاهد: هو ورق الزرع. قال ابن كيسان: **﴿ العصف ﴾** تحرث في الأرض والعصف ورق كل شيء يخرج منه الحبّ، يبدو أولاً ورقاً وهو العصف ثم يكون سوقاً ثم يُحدِث الله فيه أكماماً ثم يُحدِث من الأكمام الحبّ. وقال ابن عباس في رواية الوالبي: هو التبن. وهو قول الضحاك وقتادة. وقال عطية عنه: هو ورق الزرع الأخضر إذا قطع رؤوسه ويبس، نظيره: **﴿ كعصفٍ مأكول ﴾** [الفيل: ٥]. **﴿ والريحان ﴾**، هو الرزق في قول الأكثرين، قال ابن عباس: كل ريحان في القرآن فهو رزق. قال الحسن وابن زيد هو ريحانكم الذي يشمّ، قال الضحاك: العصف هو التين والريحان ثمرته، وقراءة العامّة: **﴿ والحبّ ذو العصف والريحان ﴾**، كلها مرفوعات بالردّ على الفاكهة، وقرأ ابن عامر **﴿ والحبّ ذو العصف والريحان ﴾** بنصب الباء والنون وذو بالألف على معنى: خلق الإنسان وخلق هذه الأشياء، وقرأ حمزة والكسائي **﴿ والريحان ﴾** بالجرّ عطفاً على العصف فذكر قوت الناس والأنعام ثم خاطب الجنّ والإنس.

فقال: **﴿ فبأيّ آلاء ربكما تكذبان ﴾**، أيها الثقلان يريد من هذه الأشياء المذكورة وكرّر هذه الآية في هذه السورة تقريراً للنّعمة وتأكيداً في التذكير بها على عادة العرب في الإبلاغ والإشباع، يعدّد على الخلق آلاءه ويفصل

أحسن إليه وتابع إليه بالأيادي وهو ينكرها ويكفرها ألم تكن فقيراً فأغنيتك أفتنكر هذا؟ ألم تكن عرياناً فكسوتك أفتنكر هذا؟ ألم تكن خاملاً فعززتك أفتنكر هذا؟ ومثل هذا الكلام شائع في كلام العرب حسن تقريراً وذلك لأن الله تعالى ذكر في هذه السورة ما يدل على وحدانيته من خلق الإنسان وتعليمه البيان وخلق الشمس والقمر والسماء والأرض إلى غير ذلك مما أنعم به على خلقه وخاطب الجن والإنس فقال فبأي آلاء ربكما تكذبان من الأشياء المذكورة لأنها كلها منعم بها عليكم. عن جابر رضي الله تعالى عنه قال «خرج رسول الله ﷺ على أصحابه فقرأ عليهم سورة الرحمن من أولها إلى آخرها فسكتوا فقال لقد قرأتها على الجن ليلة الجن فكانوا أحسن مردوداً منكم كنت كلما أتيت على قوله فبأي آلاء ربكما تكذبان قالوا لا بشيء من نعمك ربنا نكذب فلك الحمد» أخرجه الترمذي وقال حديث غريب وفي رواية غيره «كانوا أحسن منكم رداً وفيه ولا بشيء» قوله تعالى: ﴿**خلق الإنسان من صلصال**﴾ يعني من طين يابس له صلصلة وهو الصوت منه إذا نقر ﴿**كالفخار**﴾ يعني الطين المطبوخ بالنار وهو الخزف.

فإن قلت قد اختلفت العبارات في صفة خلق الإنسان الذي هو آدم فقال تعالى من تراب وقال من حمإٍ مسنون وقال من طين لازب وقال من ماء مهين وقال هنا من صلصال كالفخار قلت ليس في هذه العبارات اختلاف بل المعنى متفق وذلك أن الله تعالى خلقه أولاً من تراب ثم جعله طيناً لازباً لما اختلط بالماء ثم حمأ مسنوناً وهو الطين الأسود المنتن فلما يبس صار صلصالاً كالفخار ﴿**وخلق الجان**﴾ وهو أبو الجن. وقيل هو إبليس ﴿**من مارج من نار**﴾ يعني الصافي من لهب النار الذي لا دخان فيه، وقيل هو ما اختلط بعضه ببعض من اللهب الأحمر والأصفر والأخضر الذي يعلو النار إذا أوقدت.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾ رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٨﴾ مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾ وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ ﴿٢٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾﴾

﴿**فبأي آلاء ربكما تكذبان رب المشرقين**﴾ يعني مشرق الصيف وهو غاية ارتفاع الشمس ومشرق الشتاء وهو غاية انحطاط الشمس. ﴿**ورب المغربين**﴾ يعني مغرب الصيف ومغرب الشتاء، وقيل يعني مشرق الشمس ومشرق

بين كل نعمتين بما ينبّههم عليها، كقول الرجل لمَن أحسن إليه وتابع عليه بالأيادي وهو ينكرها ويكفرها: ألم تكن فقيراً فأغنيتك أفتنكر هذا؟ ألم تكن عرياناً فكسوتك أفتنكر هذا؟ ألم تكُ خاملاً فعزّزتك أفتنكر هذا؟ ومثل هذا التكرار سائغ في كلام العرب حسنٌ تقريراً، وقد خاطب بلفظ التثنية على عادة العرب تخاطب الواحد بلفظ التثنية كقوله تعالى: ﴿ ألقيا في جهنم ﴾ [قٓ: ٢٤]، ورُوِيَ عن محمد بن المنكدر عن جابر بن عبد الله قال قرأ علينا رسول الله ﷺ سورة الرحمن حتى ختمها، ثم قال: «ما لي أراكم سكوتاً لَلْجِنُّ كانوا أحسن منكم ردّاً ما قرأت عليهم هذه الآية من مرة فبأيّ آلاء ربكما تكذبان إلّا قالوا ولا بشيء من نعمك ربنا نكذب فلك الحمد».

﴿ **خلق الإنسان من صلصال كالفخار** ﴾.

﴿ **وخلق الجانّ** ﴾، وهو أبو الجنّ وقال الضحاك: هو إبليس، ﴿ **من مارج من نار** ﴾، وهو الصافي من لهب النار الذي لا دخان فيه. قال مجاهد: وهو ما اختلط بعضه ببعض من اللهب الأحمر والأصفر والأخضر الذي يعلو النار إذا أوقدت، من قولهم مرج أمر القوم إذا اختلط.

﴿ **فبأيّ آلاء ربكما تكذبان * ربّ المشرقين** ﴾، مشرق الصيف ومشرق الشتاء، ﴿ **وربّ المغربين** ﴾، مغرب الصيف ومغرب الشتاء.

القمر ومغرب الشمس ومغرب القمر ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان مرج البحرين﴾ يعني أرسل البحرين العذب والملح متجاورين متلاقين لا فصل بين الماءين لأن من شأنهما الاختلاط وهو قوله: ﴿يلتقيان﴾ لكن الله تعالى منعهما عما في طبعهما بالبرزخ وهو قوله: ﴿بينهما برزخ﴾ أي حاجز من قدرة الله ﴿لا يبغيان﴾ أي لا يبغي أحدهما على صاحبه وقيل لا يختلطان ولا يتغيران وقيل لا يطغيان على الناس بالغرق وقيل مرج البحرين بحر الروم وبحر الهند وأنتم الحاجز بينهما وقيل بحر فارس والروم بينهما برزخ يعني الجزائر وقيل بحر السماء وبحر الأرض يلتقيان في كل عام ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان يخرج منهما﴾ قيل إنما يخرج من البحر الملح دون العذب فهو كقوله ﴿وجعل القمر فيهن نوراً﴾ وقيل أراد يخرج من أحدهما فحذف المضاف وقيل لما التقى البحران فصارا كالشيء الواحد جاز أن يقال يخرج منهما كما يقال يخرج من البحر ولا يخرج من جميع البحر ولكن من بعضه وقيل يخرج من السماء وماء البحر قيل إذا أمطرت السماء تفتح الأصداف أفواهها فحيثما وقعت قطرة صارت لؤلؤة على قدر القطرة، وقوله تعالى: ﴿اللؤلؤ﴾ قيل هو ما عظم من الدر ﴿والمرجان﴾ صغاره وقيل بعكس ذلك وقيل المرجان هو الخرز الأحمر ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان وله الجوار﴾ يعني السفن الكبار ﴿المنشآت﴾ أي المرفوعات التي يرفع خشبها بعضه على بعض وقيل هي ما رفع قلعها من السفن أما ما لم يرفع قلعها فليست من المنشآت وقيل معنى المنشآت المحدثات المخلوقات المسخرات ﴿في البحر كالأعلام﴾ أي كالجبال جمع علم وهو الجبل الطويل شبه السفن في البحر بالجبل في البر ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾ قوله عز وجل:

﴿ فبأيّ آلاء ربكما تكذبان ﴾.

﴿ مرج البحرين ﴾، العذب والمالح أرسلهما وخلاهما ﴿ يلتقيان ﴾.

﴿ بينهما برزخ ﴾، حاجز من قدرة الله تعالى، ﴿ لا يبغيان ﴾، لا يختطفان ولا يتغيران ولا يبغي أحدهما على صاحبه. وقال قتادة: لا يطغيان على الناس بالغرق. وقال الحسن مرج البحرين يعني بحر الروم وبحر الهند، وأنتم الحاجز بينهما. وعن قتادة أيضاً: بحر فارس وبحر الروم بينهما برزخ يعني الجزائر. وقال مجاهد والضحّاك: بحر السماء وبحر الأرض يلتقيان كل عام.

﴿ فبأيّ آلاء ربّكما تكذبان ﴾.

﴿ يخرج منهما ﴾، قرأ أهل المدينة والبصرة ﴿ يخرج ﴾ بضم الياء وفتح الراء، وقرأ الآخرون بفتح الياء وضمّ الراء، ﴿ اللؤلؤ والمرجان ﴾، وإنما يخرج من المالح دون العذب، وهذا جائز في كلام العرب أن يذكر شيئان ثم يخصّ أحدهما بفعل كما قال عزّ وجلّ: ﴿ يا معشر الجنّ والإنس ألم يأتكم رسل منكم﴾ [الأنعام: ١٣٠] وكان الرسل من الإنس دون الجنّ وقال بعضهم يخرج من ماء السماء وماء البحر. قال ابن جريج: إذا أمطرت السماء فتحت الأصداف أفواهها فحيثما وقعت قطرة كانت لؤلؤة واللؤلؤة ما عظم من الدرّ، والمرجان صغارها. وقال مقاتل ومجاهد على الضدّ من هذا. وقيل: المرجان الخرز الأحمر. وقال عطاء الخراساني: هو البسد.

﴿ فبأيّ آلاء ربكما تكذبان * وله الجوار ﴾، السفن الكبار، ﴿ المنشئات ﴾، وقرأ حمزة وأبو بكر المنشئات بكسر الشين أي المنشئات السير يعني اللاتي ابتدأن وأنشأن السير، وقرأ الآخرون بفتح الشين أي المرفوعات وهي التي رفع خشبها بعضها على بعض. وقيل: هي ما رفع قلعه من السفن وأما ما لم يرفع قلعه فليس من المنشئات. وقيل: المخلوقات المسخّرات، ﴿ في البحر كالأعلام ﴾، كالجبال جمع علم وهو الجبل الطويل شبّه السفن في البحر وبالجبال في البرّ.

﴿ فبأيّ آلاء ربكما تكذبان ﴾.

﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٨﴾ يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٠﴾ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾﴾

﴿كل من عليها﴾ أي على الأرض من حيوان وإنما ذكره بلفظة من تغليباً للعقلاء ﴿فان﴾ أي هالك لأن وجود الإنسان في الدنيا عرض فهو غير باق وما ليس بباق فهو فان ففيه الحث على العبادة وصرف الزمن اليسير إلى الطاعة ﴿ويبقى وجه ربك﴾ يعني ذاته والوجه يعبر به عن الجملة.

وفي المخاطب وجهان أحدهما أنه كل واحد والمعنى ويبقى وجه ربك أيها الإنسان السامع.

والوجه الثاني: أنه يحتمل أن الخطاب مع النبي ﷺ ﴿ذو الجلال﴾ أي ذو العظمة والكبرياء ومعناه الذي يجله الموحدون عن التشبيه بخلقه ﴿والإكرام﴾ أي المكرم لأنبيائه وأوليائه وجميع خلقه بلطفه وإحسانه إليهم مع جلاله وعظمته ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾ عن أنس بن مالك قال قال رسول الله ﷺ «ألظوا بيا ذا الجلال والإكرام» أخرجه الترمذي وقال الحاكم حديث صحيح الإسناد ومعنى ألظوا الزموا هذه الدعوة وأكثروا منها.

قوله تعالى: ﴿يسأله من في السموات والأرض﴾ يعني من ملك وإنس وجن فلا يستغني عن فضله أهل السموات والأرض قال ابن عباس فأهل السموات يسألونه المغفرة وأهل الأرض يسألونه الرزق والمغفرة وقيل كل أحد يسأل الرحمة وما يحتاج إليه في دينه أو دنياه وفيه إشارة إلى كمال قدرة الله تعالى وأن كل مخلوق وإن جل وعظم فهو عاجز عن تحصيل ما يحتاج إليه مفتقر إلى الله تعالى: ﴿كل يوم هو في شأن﴾ قيل نزلت رداً على اليهود حيث قالوا إن الله لا يقضي يوم السبت شيئاً قال المفسرون من شأنه أنه يحيي ويميت ويرزق ويعز قوماً ويذل قوماً ويشفي مريضاً ويمرض صحيحاً ويفك عانياً ويفرج عن مكروب ويجيب داعياً ويعطي سائلاً ويغفر ذنباً إلا ما لا يحصى من أفعاله وإحداثه في خلقه ما يشاء سبحانه وتعالى وروى البغوي بإسناد الثعلبي عن ابن عباس قال «إن مما خلق الله عز وجل لوحاً من درة بيضاء دفتاه من ياقوتة حمراء قلمه نور وكتابه نور ينظر الله فيه كل يوم ثلاثمائة وستين نظرة يخلق ويرزق ويحيي ويميت

﴿ كلّ مَن عليها ﴾، أي على الأرض من حيوان فإنه، ﴿ فَانٍ ﴾، هالك.

﴿ ويبقى وجه ربِّك ذو الجلال ﴾، ذو العظمة والكبرياء، ﴿ والإكرام ﴾، أي مكرم أنبيائه وأوليائه بلطفه مع جلاله وعظمته.

﴿ فبأيّ آلاء ربّكما تكذبان * يسأله مَن في السمٰوات والأرض ﴾، من ملك وإنس وجنّ. وقال قتادة: معناه لا يستغني عنه أهل السماء والأرض. قال ابن عباس: فأهل السمٰوات يسألونه المغفرة وأهل الأرض يسألونه الرزق والتوبة والمغفرة. وقال مقاتل: يسأله أهل الأرض الرزق والمغفرة، وتسأله الملائكة أيضاً لهم الرزق والمغفرة. ﴿ كلَّ يوم هو في شأن ﴾، قال مقاتل: نزلت في اليهود حين قالوا إن الله لا يقضي يوم السبت شيئاً. قال المفسّرون: من شأنه أن يحيي ويميت ويرزق ويعزّ قوماً ويذلّ قوماً ويشفي مريضاً ويفكّ عانياً ويفرج مكروباً ويجيب داعياً ويعطي سائلاً ويغفر ذنباً إلى ما لا يحصى من أفعاله وأحداثه في خلقه ما يشاء. أخبرنا أبو سعيد أحمد بن إبراهيم الشريحي أنا أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي أنا أبو بكر محمد بن أحمد بن عبدوس المزكّي إملاءً أنا أبو حامد أحمد بن محمد بن يحيىٰ البزاز أنا يحيىٰ بن الربيع المكّي أنا سفيان بن عيينة أنا أبو حمزة اليماني عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: إن ممّا خلق الله عزّ وجلّ لوحاً من درّة بيضاء دفّتاه ياقوتة حمراء قلمه نور وكتابه نور ينظر الله عزّ وجلّ فيه كل يوم ثلاث مائة وستّين نظرة، يخلق ويرزق ويُحيي ويُميت ويُعزّ ويُذلّ ويفعل ما يشاء،

ويعز ويذل ويفعل ما يشاء فذلك قوله تعالى: ﴿**كل يوم هو في شأن**﴾ قال ابن عيينة الدهر كله عند الله يومان أحدهما مدة أيام الدنيا والآخر يوم القيامة والشأن الذي هو فيه اليوم الذي هو مدة أيام الدنيا الاختبار بالأمر والنهي والإحياء والإماتة والإعطاء والمنع وشأن يوم القيامة الجزاء والحساب والثواب والعقاب، وقال الحسين بن الفضل هو سوق المقادير إلى المواقيت ومعناه إن الله عز وجل كتب ما يكون في كل يوم وقدر ما هو كائن فإذا جاء ذلك الوقت تعلقت إرادته بالفعل فيوجده في ذلك الوقت وقال أبو سليمان الداراني في هذه الآية له في كل يوم إلى العبيد بر جديد وقيل شأنه تعالى أنه يخرج في كل يوم وليلة ثلاثة عساكر عسكراً من أصلاب الآباء إلى أرحام الأمهات وعسكراً من الأرحام إلى الدنيا وعسكراً من الدنيا إلى القبور ثم يرتحلون جميعاً إلى الله تعالى: ﴿**فبأي آلاء ربكما تكذبان سنفرغ لكم أيها الثقلان**﴾ قيل هو وعيد من الله تعالى للخلق بالمحاسبة وليس هو فراغ عن شغل لأن الله تعالى لا يشغله شأن عن شأن فهو كقول القائل لمن يريد تهديده لأتفرغن لك وما به شغل وهذا قول ابن عباس وإنما حسن ذكر هذا الفراغ لسبق ذكر الشأن وقيل معناه سنقصدكم بعد الترك والإمهال ونأخذ في أمركم فهو كقول للقائل الذي لا شغل له قد فرغت لك وقيل معناه أن الله وعد أهل التقوى وأوعد أهل الفجور فقال سنفرغ لكم مما وعدناكم وأخبرناكم فنحاسبكم ونجازيكم فننجز لكم ما وعدناكم فنتم ذلك ونفرغ منه فهو على طريق المثل وأراد بالثقلين الإنس والجن سميا ثقلين لأنهما ثقلا على الأرض أحياء وأمواتاً، وقيل كل شيء له قدر ووزن ينافس فيه فهو ثقل ومنه قول النبي ﷺ «إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي» فجعلهما ثقلين إعظاماً لقدرهما وقال جعفر بن محمد الصادق سمي الإنس والجن ثقلين لأنهما مثقلان بالذنوب.

فذلك قوله: ﴿ **كلَّ يوم هو في شأن** ﴾. قال سفيان بن عيينة: الدهر كله عند الله يومان أحدهما مدة أيام الدنيا والآخر يوم القيامة، فالشأن الذي هو فيه اليوم الذي هو مدة الدنيا الاختبار بالأمر والنهي والإحياء والإماتة والإعطاء والمنع، وشأن يوم القيامة الجزاء والحساب والثواب والعقاب. وقيل: شأنه جلّ ذكره أنه يخرج في كل يوم وليلة ثلاثة عساكر، عسكراً من أصلاب الآباء إلى أرحام الأمهات، وعسكراً من الأرحام إلى الدنيا، وعسكراً من الدنيا إلى القبور، ثم يرتحلون جميعاً إلى الله عزّ وجلّ. وقال الحسين بن الفضل: هو سَوْق المقادير إلى المواقيت. وقال أبو سليمان الداراني في هذه الآية: كل يوم له إلى العبيد برّ جديد.

﴿ **فبأيِّ آلاء ربكما تكذبان * سنفرغ لكم** ﴾، قرأ حمزة والكسائي: سيفرغ بالياء لقوله: ﴿ **يسأله مَن في السموات والأرض** ﴾، ﴿ **ويبقى وجه ربك** ﴾، ﴿ **وله الجوار** ﴾، فاتبع الخبر، وقرأ الآخرون بالنون، وليس المراد منه الفراغ عن شغل لأن الله تعالى لا يشغله شأن عن شأن ولكنه وعيد من الله تعالى للخلق بالمحاسبة، كقول القائل لأتفرغنّ لك، وما به شغل، وهذا قول ابن عباس والضحاك، وإنما حسن هذا الفراغ لسبق ذكر الشأن. وقال آخرون: معناه سنقصدكم بعد الترك والإمهال ونأخذ في أمركم، كقول القائل الذي لا شغل له قد تفرغت لك. وقال بعضهم: إن الله وعد أهل التقوى وأوعد أهل الفجور، ثم قال سنفرغ لكم مما وعدناكم، وأخبرناكم فنحاسبكم ونُجازيكم وننجز لكم ما وعدناكم، فنتمّ ذلك ونفرغ منه، وإلى هذا ذهب الحسن ومقاتل. ﴿ **أيها الثقلان** ﴾، أي الجنّ والإنس سمّيا ثقلين لأنهما ثقلا على الأرض أحياءً وأمواتاً، قال الله تعالى: ﴿ وأخرجتِ الأرضُ أثقالها ﴾ [الزلزلة: ٢]، وقال أهل المعاني: كل شيء له قدر ووزن ينافس فيه ثقل، قال النبي ﷺ: «إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي» فجعلهما ثقلين إعظاماً لقدرهما، وقال جعفر بن محمد الصادق عليهما السلام: سُمّي الجنّ والإنس ثقلين لأنهما مثقلان بالذنوب.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٣٢ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُواْ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُواْۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ۝٣٣ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٣٤ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ۝٣٥﴾

﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا﴾ أي تخرجوا **﴿من أقطار السموات والأرض﴾** أي جوانبهما وأطرافهما **﴿فانفذوا﴾** أي فاخرجوا والمعنى إن استطعتم أن تهربوا من الموت بالخروج من أقطار السموات والأرض فاهربوا واخرجوا منها فحيثما كنتم يدرككم الموت وقيل يقال لهم هذا يوم القيامة والمعنى إن استطعتم أن تخرجوا من أقطار السموات والأرض فتعجزوا ربكم حتى لا يقدر عليكم فاخرجوا وقيل معناه إن استطعتم أن تهربوا من قضائي وتخرجوا من ملكي ومن سمائي وأرضي فافعلوا وقدم الجن على الإنس في هذه الآية لأنهم أقدر على النفوذ والهرب من الإنس وأقوى على ذلك ثم قال تعالى: **﴿لا تنفذون إلا بسلطان﴾** يعني لا تقدرون على النفوذ إلا بقوة وقهر وغلبة وأني لكم ذلك لأنكم حيثما توجهتم كنتم في ملكي وسلطاني وقال ابن عباس معناه إن استطعتم أن تعلموا ما في السموات والأرض فاعلموا ولن تعلموه إلا بسلطان أي بينة من الله تعالى: **﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾** وفي الخبر **﴿يحاط على الخلق بالملائكة وبلسان من نار ثم ينادي يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض﴾** الآية فذلك قوله تعالى: **﴿يرسل عليكما شواظ من نار﴾** قال أكثر المفسرين هو اللهب الذي لا دخان فيه وقيل هو اللهب الأخضر المنقطع من النار **﴿ونحاس﴾** وقيل هو الدخان وهو رواية عن ابن

﴿ فبأيّ آلاء ربكما تكذبان * يا معشر الجنّ والإنس إن استطعتم أن تنفذوا ﴾، أي تجوزوا وتخرجوا، **﴿ من أقطار السمٰوات والأرض ﴾**، أي من جوانبهما وأطرافهما، **﴿ فانفذوا ﴾**، معناه إن استطعتم أن تهربوا من الموت بالخروج من أقطار السمٰوات والأرض. فاهربوا واخرجوا منها، والمعنى حيث ما كنتم أدرككم الموت، كما قال جلّ ذكره: ﴿ أينما تكونوا يدرككم الموت ﴾ [النساء: ٧٨]، وقيل: يقال لهم هذا يوم القيامة إن استطعتم أن تجوزوا أطراف السمٰوات والأرض فتعجزوا ربكم حتى لا يقدر عليكم فجوزوا، **﴿ لا تنفذون إلاّ بسلطان ﴾**، أي: بملك، وقيل: بحجة، والسلطان: القوة التي يتسلّط بها على الأمر، فالملك والقدرة والحجة كلها سلطان، يريد حيثما توجهتم كنتم في ملكي وسلطاني. ورُوِيَ عن ابن عباس قال: معناه إن استطعتم أن تعلموا ما في السمٰوات والأرض فاعلموا ولن تعلموه إلاّ بسلطان أي ببيّنة من الله عزّ وجلّ. وقيل قوله: إلاّ بسلطان أي إلى سلطان كقوله: ﴿ وقد أحسن بي ﴾ [يوسف: ١٠٠] أي إليّ.

﴿ فبأيّ آلاء ربكما تكذبان ﴾، وفي الخبر: يُحاط على الخلق بالملائكة وبلسان من نار ثم ينادون **﴿ يا معشر الجنّ والإنس إن استطعتم أن تنفذوا ﴾**، الآية.

فذلك قوله عزّ وجلّ: **﴿يُرْسَلُ عليكما شواظٌ من نار﴾**، قرأ ابن كثير بكسر الشين والآخرون بضمها، وهما لغتان مثل صوار من البقر وصوار وهو اللهيب الذي لا دخان فيه هذا قول أكثر المفسّرين. وقال مجاهد: هو اللهب الأخضر المنقطع من النار، **﴿ونحاس﴾**، قرأ ابن كثير وأبو عمرو ونحاس بجرّ السين عطفاً على النار، وقرأ الباقون برفعها عطفاً على الشواظ، قال سعيد بن جبير والكلبي: النحاس الدخان، وهو رواية عطاء عن ابن عباس، ومعنى الرفع يرسل عليكما شواظ، ويرسل نحاس هذا مرة وهذا مرة، ويجوز أن يرسلا معاً من غير أن يمتزج أحدهما بالآخر، ومَن جرّ بالعطف على النار يكون ضعيفاً لأنه يكون شواظ من نحاس فيجوز أن يكون تقديره شواظ من نار وشيء من

عباس وقيل هو الصفر المذاب يصب على رؤوسهم وهو الرواية الثانية عن ابن عباس وقال ابن مسعود النحاس المهل وقيل يرسل عليهما هذا مرة وهذا مرة وقيل يجوز أن يرسلا معاً من غير أن يمتزج أحدهما بالآخر ﴿فلا تنتصران﴾ أي فلا تمتنعان من الله ولا يكون لكم ناصر منه.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٣٦ فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ۝٣٧ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٣٨ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ۝٣٩ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٤٠ يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ۝٤١﴾

﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان فإذا انشقت السماء﴾ أي انفرجت فصارت أبواباً لنزول الملائكة وقيل المراد منه خراب السماء وذلك لما قال كل من عليها فان إشارة إلى أهل الأرض ذكر في هذه الآية بيان حال سكان السماء وقيل فيه تهويل وتعظيم للأمر لأن فيه إشارة إلى ما هو أعظم من إرسال الشواظ على الإنس والجن وهو تشقق السماء وذوبانها وهو قوله تعالى: ﴿فكانت وردة كالدهان﴾ جمع دهن شبه تلون السماء عند انشقاقها بتلون الفرس الورد وهو الأبيض الذي يضرب إلى الحمرة وقيل إن السماء تتلون يومئذ ألواناً كألوان الفرس الورد يكون في الربيع أصفر وفي أول الشتاء أحمر فإذا اشتد البرد صار أغبر فشبه السماء في تلونها عند انشقاقها بهذا الفرس في تلونه وقيل كالدهان أي كعصير الزيت لأنه يتلون في الساعة ألواناً وقيل تصير السماء كالدهن الذائب وذلك حين يصلها حر جهنم وقيل كالدهان أي كالأديم الأحمر ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان﴾ قيل لا يسألون عن ذنوبهم لتعلم من جهتهم لأن الله تعالى علمها منهم وكتبتها الحفظة عليهم وهذه رواية عن ابن بعاس وعنه لا تسأل الملائكة المجرمين لأنهم يعرفون بسيماهم دليله ما بعده وعن ابن عباس أيضاً في الجمع بين هذه الآية وبين قوله

نحاس، على أنه حكى أن الشواظ لا يكون من النار والدخان جميعاً، قال مجاهد وقتادة: النحاس هو الصفر المُذاب يُصبّ على رؤوسهم، وهو رواية العوفي عن ابن عباس. وقال عبد الله بن مسعود النحاس هو المهل. ﴿ فلا تنتصران ﴾، أي فلا تمتنعان من عذاب الله ولا يكون لكم ناصر منه.

﴿ فبأيِّ آلاء ربكما تكذبان * فإذا انشقّتِ ﴾، انفرجت، ﴿ السماء ﴾، فصارت أبواباً لنزول الملائكة ﴿ فكانت وردة ﴾، أي كلون الفرس الورد، وهو الأبيض الذي يضرب إلى الحمرة والصفرة، قال قتادة: إنها اليوم خضراء ويكون لها يومئذ لون آخر يضرب إلى الحمرة. وقيل: إنها تتلوّن ألواناً يومئذ كلون الفرس الورد يكون في الربيع أصفر وفي أول الشتاء أحمر فإذا اشتدّ الشتاء كان أغبر فشبّه السماء في تلوّنها عند انشقاقها بهذا الفرس في تلوّنه، ﴿ كالدهان ﴾، جمع دهن شبّه تلوّن السماء بتلوّن الورد من الخيل وشبّه الوردة في اختلاف ألوانها بالدهن واختلاف ألوانه، وهو قول الضحاك ومجاهد وقتادة والربيع، وقال عطاء بن أبي رباح: كالدهان كعصير الزيت يتلوّن في الساعة ألواناً. وقال مقاتل: كدهن الورد الصافي. وقال ابن جريج تصير السماء كالدهن الذائب وذلك حين يصيبها حرّ جهنّم. وقال الكلبي: كالدهان أي كالأديم الأحمر وجمعه أدهنة ودهن.

﴿ فبأيّ آلاء ربكما تكذبان * فيومئذٍ لا يسئل عن ذنبه إنسٌ ولا جان ﴾، قال الحسن وقتادة: لا يسألون عن ذنوبهم لتعلم من جهتهم لأن الله عزّ وجلّ علمها منهم، وكتبت الملائكة عليهم وهي رواية العوفي عن ابن عباس. وعنه أيضاً لا تسأل الملائكة المجرمين لأنهم يعرفونهم بسيماهم دليله ما بعده وهذا قول مجاهد. وعن ابن عباس في الجمع بين هذه الآية وبين قوله: ﴿ فوربِّك لنسئلنّهم أجمعين ﴾ [الحجر: ٩٢]، قال: لا يسألهم هل علمتم

تعالى: ﴿فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون﴾ قال لا يسألهم هل عملتم كذا وكذا لأنه أعلم بذلك منهم ولكنه يسألهم لم عملتم كذا وكذا وقيل إنها مواطن فيسأل في بعضها ولا يسأل في بعضها وعن ابن عباس أيضاً قال لا يسألون سؤال شفقة ورحمة إنما يسألون سؤال تقريع وتوبيخ وقيل لا يسأل غير المجرم عن ذنب المجرم ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان يعرف المجرمون بسيماهم﴾، يعني بسواد وجوههم وزرقة عيونهم ﴿فيؤخذ بالنواصي والأقدام﴾ قيل تجعل الأقدام مضمومة إلى النواصي من خلف ظهره وقيل تجعل رؤوسهم على ركبهم ونواصيهم في أصابع أرجلهم مربوطة وقيل يسحب بعضهم بالنواصي وبعضهم بالأقدام ثم يلقون في النار.

فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٥﴾ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾

﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان هذه جهنم﴾ أي يقال لهم هذه جهنم ثم يلقون فيها ﴿التي يكذب بها المجرمون﴾ يعني المشركين ﴿يطوفون بينها وبين حميم آن﴾ يعني قد انتهى حره ى أنهم يسعون بين الحميم وبين الجحيم فإذا استغاثوا من النار جعل عذابهم الحميم الأنى الذي قد صار كالمهل وقال كعب الأحبار آن واد من أودية جهنم يجمع فيه صديد أهل النار فينطلق بهم في الأغلال فيغمسون فيه حتى تنخلع أوصالهم ثم يخرجون منه وقد أحدث الله لهم خلقاً جديداً فيلقون في النار فذلك قوله تعالى: ﴿يطوفون بينها وبين حميم آن﴾ ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾ فإن قلت هذه الأمور المذكورة في هذه الآيات من قوله: ﴿كل من عليها فان﴾ إلى هنا ليست نعماً فكيف عقبها بقوله ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾.

كذا وكذا لأنه أعلم بذلك منهم، ولكن يسألهم لِمَ عملتم كذا وكذا؟ وعن عكرمة أنه قال: إنها مواطن يسأل في بعضها ولا يسأل في بعضها. وعن ابن عباس أيضاً لا يسألون سؤال شفقة ورحمة وإنما يسألون سؤال تقريع وتوبيخ. وقال أبو العالية لا يسأل غير المجرم عن ذنب المجرم.

﴿ فبأيّ آلاء ربكما تكذبان * يُعرف المجرمون بسيماهم ﴾، وهو سواد الوجوه وزُرقة العيون، كما قال جلّ ذكره: ﴿ يوم تبيضّ وجوه وتسودّ وجوه ﴾ [آل عمران: ١٠٦]، ﴿ فيؤخذ بالنواصي والأقدام ﴾.

﴿ فبأيّ آلاء ربكما تكذبان ﴾، تجعل الأقدام مضمومة إلى النواصي من خلف ويُلقون في النار.

ثم يقال لهم: ﴿ هذه جهنم التي يُكذّب بها المجرمون ﴾، المشركون.

﴿ يطوفون بينها وبين حميم آن ﴾، قد انتهى حرّه. قال الزجّاج: أنّى يأنى فهو آن إذا انتهى في النضج، والمعنى: أنهم يسعون بين الجحيم والحميم فإذا استغاثوا من حرّ النار جعل عذابهم الحمهم الآني الذي صار كالمهل، وهو قوله: ﴿ وإن يستغيثوا يُغاثوا بماء كالمهل ﴾ [الكهف: ٢٩]، وقال كعب الأحبار: آن وادٍ من أودية جهنم يجتمع فيه صديد أهل النار فينطلق بهم في الأغلال فيغمسون في ذلك الوادي حتى تنخلع أوصالهم ثم يخرجون منه وقد أحدث الله تعالى بهم خلقاً جديداً فيُلقون في النار، وذلك قوله: ﴿ يطوفون بينها وبين حميم آن ﴾.

﴿ فبأيّ آلاء ربكما تكذبان ﴾، وكلّ ما ذكر الله تعالى من قوله: ﴿ كلّ مَن عليها فانٍ ﴾ [الرحمن: ٢٦] إلى ههنا مواعظ وزواجر وتخويف، وكل ذلك نعمة من الله تعالى لأنها تزجر عن المعاصي، ولذلك ختم كل آية بقوله: ﴿ فبأيّ آلاء ربكما تكذبان ﴾، ثم ذكر ما أعدّه لمَن اتّقاه وخافه.

قلت المذكور في هذه الآيات مواعظ وزواجر وتخويف وكل ذلك نعمة من الله تعالى لأنها تزجر العبد عن المعاصي فصارت نعماً فحسن ختم كل آية منها بقوله تعالى: ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾ ثم ذكر ما أعده لمن اتقاه وخافه من عباده المؤمنين فقال تعالى: ﴿ولمن خاف مقام ربه﴾ يعني مقامه بين يدي ربه للحساب فترك الشهوة والمعصية وقيل قيام ربه عليه يعني اطلاعه عليه وهو الذي يهم بالمعصية فيذكر الله واطلاعه عليه فيدعها من مخافة الله وقيل لمن راقب الله في السر والعلانية بعمله فما عرض له من محرم تركه من خشيته وما عمل من خير أخلصه لله ولا يحب أن يطلع عليه أحد قيل إن المؤمنين خافوا ذلك المقام فعملوا لله مع الإخلاص ودأبوا الليل والنهار ﴿جنتان﴾ يعني جنة عدن وجنة نعيم وقيل جنة بخوفه ربه وجنة بتركه شهوته.

عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول «من خاف أدلج ومن أدلج بلغ المنزل ألا إن سلعة الله غالية ألا إن سلعة الله الجنة» أخرجه الترمذي قوله أدلج الإدلاج محففاً سير أول الليل ومثقلاً سير آخر الليل والمراد من الإدلاج التشمير والجد والاجتهاد في أول الأمر فإن من سار أول الليل كان جديراً ببلوغ المنزل وروى البغوي بسنده عن أبي ذر «أنه سمع النبي ﷺ يقص على المنبر وهو يقول ولمن خاف مقام ربه جنتان فقلت وإن زنى وإن سرق؟ فقال وإن زنى وإن سرق ثم قال ولمن خاف مقام ربه جنتان فقلت الثانية وإن زنى وإن سرق يا رسول الله؟ فقال وإن زنى وإن سرق ثم قال ولمن خاف مقام ربه جنتان فقلت الثالثة وإن زنى وإن سرق يا رسول الله؟ فقال وإن زنى وإن سرق على رغم أنف أبي ذر».

فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ

فقال: ﴿ولمَن خاف مقام ربّه﴾، أي مقامه بين يدي ربّه للحساب فترك المعصية والشهوة. وقيل: قيام ربّه عليه بيانه قوله: ﴿أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت﴾ [الرعد: ٣٣] وقال إبراهيم النخعي ومجاهد: هو الذي يهمّ بالمعصية فيذكر الله فيدعها من مخافة الله. وقوله: ﴿جنتان﴾ قال مقاتل جنة عدن وجنّة نعيم. قال محمد بن علي الترمذي: جنّة لخوفه ربه وجنّة لتركه شهوته. قال الضحاك هذا لمَن راقب الله في السرّ والعلانية بعلمه ما عرض له من محرم تركه من خشية الله وما عمل من خير أفضى به إلى الله لا يحبّ أن يطّلع عليه أحد. وقال قتادة: إن المؤمنين خافوا ذلك المقام فعملوا لله ودأبوا بالليل والنهار، أخبرنا أبو الحسن علي بن القرشي أنا أبو مسلم غالب بن علي الرازي حدّثنا أبو بكر محمد بن إبراهيم بن يونس أنا أبو جعفر محمد بن موسى بن عيسى الحلواني أنا محمد بن عبيد الهمداني أنا هاشم بن القاسم عن أبي عقيل هو الثقفي عن يزيد بن شيبان سمعت بكير بن فيروز قال سمعت أبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن خاف أدلج ومَن أدلج بلغ المنزل ألا إن سلعة الله غالية ألا إن سلعة الله الجنة». أخبرنا أبو عبد الله محمد بن الفضل الخرقي أنا أبو الحسن علي بن عبد الله الطيسفوني أنا عبد الله بن عمر الجوهري أنا أحمد بن علي الكشمهيني أنا علي بن حجر أنا إسماعيل بن جعفر عن محمد بن أبي حرملة مولى حويطب ابن عبد العزيز عن عطاء بن يسار عن أبي الدرداء أنه سمع رسول الله ﷺ يقصّ عل المنبر وهو يقول: ﴿ولمَن خاف مقام ربّه جنّتان﴾، قلت: وإن زنى وإن سرق يا رسول الله؟ فقال رسول الله ﷺ: ﴿ولمَن خاف مقام ربّه جنتان﴾، فقلت الثانية: وإن زنى وإن سرق يا رسول الله؟ فقال رسول الله ﷺ: ﴿ولمَن خاف مقام ربّه جنتان﴾، فقلت في الثالثة: وإن زنى وإن سرق يا رسول الله؟ قال: «وإن زنى وإن سرق على رغم أنف أبي الدرداء».

رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ۚ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾

﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾ ثم وصف الجنتين فقال تعالى: **﴿ذواتا أفنان﴾** أي أغصان واحدها فنن وهو الغصن المستقيم طولاً وقيل ذواتا ظلال وهو ظل الأغصان على الحيطان، وقال ابن عباس ذواتا ألوان يعني ألوان الفواكه وجمع عطاء بين القولين فقال في كل غصن فنون من الفاكهة وقيل ذواتا فضل وسعة على ما سواهما، **﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان فيهما عينان تجريان﴾** قال ابن عباس بالكرامة والزيادة لأهل الجنة وقيل تجريان بالماء الزلال إحداهما التسليم والأخرى السلسبيل وقيل إحداهما من ماء غير آسن والأخرى من خمر لذة للشاربين **﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان فيهما من كل فاكهة زوجان﴾** أي صنفان ونوعان وقيل معناه إن فيهما من كل ما يتفكه به ضربين رطباً ويابساً قال ابن عباس ما في الدنيا ثمرة حلوة ولا مرة إلا وهي في الجنة حتى الحنظل إلا أنه حلو **﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان متكئين على فرش﴾** جمع فراش **﴿بطائنها﴾** جمع بطانة والتي تلي الأرض من تحت الظهارة **﴿من استبرق﴾** وهو ما غلظ من الديباج قال ابن مسعود وأبو هريرة هذه البطائن فما ظنكم بالظهائر وقيل لسعيد بن جبير البطائن من استبرق فما الظهائر؟ قال هي مما قال الله تعالى: **﴿فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين﴾**، وعنه أيضاً قال بطائنها من استبرق وظواهرها من نور جامد وقال ابن عباس وصف البطائن وترك الظواهر لأنه ليس في الأرض أحد يعرف ما الظواهر وقيل ظواهرها من سندس وهو الديباج الرقيق الناعم وهذا يدل على نهاية شرف هذه الفرش لأنه ذكر أن بطائنها من الإستبرق ولا بد أن تكون الظهائر خيراً من البطائن فهو مما لا يعلمه البشر، **﴿وجنى الجنتين دان﴾** يعني أن ثمرهما

﴿ فبأيّ آلاء ربكما تكذبان ﴾ ثم وصف الجنّتين.

فقال: **﴿ ذواتا أفنان ﴾**، أغصان واحدها فنن، وهو الغصن المستقيم طولاً. وهذا قول مجاهد وعكرمة والكلبي، وقال عكـرمة ظـل الأغصان على الحيطان. قال الحسن: ذواتا ظلال. قال ابن عباس: ألوان. قال سعيد بن جبير والضحاك: ألوان الفواكه واحدها فنن من قولهم أفنن فلان في حديثه إذا أخذ في فنون منه وضروب. وجمع عطاء بين القولين فقال: في كل غصن فنون من الفاكهة. وقال قتادة: ذواتا فضل وسعة على ما سواهما.

﴿ فبأيّ آلاء ربكما تكذبان * فيهما عينان تجريان ﴾، قال ابن عباس: بالكرامة والزيادة على أهل الجنة. قال الحسن: تجريان بالماء الزلال إحداهما التسنيم والأخرى السلسبيل. وقال عطة إحداهما من ماء غير آسن والأخرى من خمر لذّة للشاربين.

﴿ فبأيّ آلاء ربكما تكذبان * فيهما من كل فاكهة زوجان ﴾، صنفان ونوعان، قيل: معناه إن فيهما من كل ما يتفكّه به ضربين رطباً ويابساً. قال ابن عباس ما في الدنيا ثمرة حلوة ولا مرّة ألا وهي في الجنة حتى الحنظل إلّا أنه حلو.

﴿ فبأيّ آلاء ربكما تكذبان * متّكئين على فرش ﴾، جمع فراش، **﴿ بطائنها ﴾**، جمع بطانة وهي التي تحت الظهارة. وقال الزجّاج: وهي مما يلي الأرض. **﴿ من استبرق ﴾**، وهو ما غلظ من الديباج. قال ابن مسعود وأبو هريرة: هذه البطائن فما ظنكم بالظواهر؟ وقيل لسعيد بن جبير: البطائن من إستبرق والظواهر؟ قال: هذا مما قال الله عزّ وجلّ: ﴿ فلا تعلم نفس ما أُخفي لهم من قُرّة أعين ﴾ [السجدة: ١٧]، وعنه أيضاً قال: بطائنها من إستبرق فظواهرها من نورٍ جامد. وقال ابن عباس: وصف البطائن وترك الظواهر لأنـه ليس في الأرض أحد يعـرف ما الـظواهر.

قريب يناله القائم والقاعد والنائم وهذا بخلاف ثمر الدنيا فإنها لا تنال إلا بكدٍّ وتعب قال ابن عباس تدنو الشجرة حتى يجنيها ولي الله إن شاء قائماً وإن شاء قاعداً وقيل لا يرد أيديهم عنها بعد ولا شوك.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾﴾

﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان فيهن﴾ فإن قلت الضمير إلى ماذا يعود؟

قلت إلى الجنتين وإنما جمع بقوله فيهن لاشتمال الجنتين على مساكن وقصور ومجالس **﴿قاصرات الطرف﴾** أي غاضات الأعين قصرن أطرافهن على أزواجهن فلا ينظرن إلى غيرهم ولا يردن سواهم قيل تقول الزوجة لزوجها وعزة ربي ما أرى في الجنة شيئاً أحسن منك فالحمد لله الذي جعلك زوجي وجعلني زوجتك **﴿لم يطمثهن﴾** أي لم يجامعهن ولم يفرعهن والمعنى لم يدمهن بالجماع وقيل معناه لم يمسهن ومنه قول الفرزدق:

خـــرجـــن إلـــي لـــم يطمثـــن قبـــل وهـــن أصـــح مـــن بيـــض النعـــام

أي لم يمسسني والمعنى لم يطأهن ولم يغشهن **﴿إنس قبلهم﴾** أي قبل أزواجهن من أهل الجنة، **﴿ولا جان﴾** قيل إنما نفي الجن لأن لهم أزواجاً في الجنة منهم وفي الآية دليل على أن الجني يغشى كما يغشى الإنسي وسئل ضمرة بن حبيب هل للجن ثواب؟ فقال نعم وقرأ هذه الآية ثم قال الإنسيات للإنس والجنيات للجن وقال مجاهد في هذه الآية إذا جامع ولم يسم انطوى الجني على إحليله فجامع معه واختلف في هؤلاء اللواتي لم يطمثن فقيل هن الحور العين لأنهن خلقن في الجنة فلم يمسهن أحد قبل أزواجهن وقيل إنهن من نساء الدنيا أنشئن خلقاً آخر أبكاراً كما وصفهن.

لم يمسهن منذ أنشئن خلقاً آخر أحد وقيل هن الآدميات اللاتي متن أبكاراً ومعنى الآية المبالغة في نفي الطمث

﴿ وجنى الجنتين دان ﴾، الجنى ما يُجتنى من الثمار، يريد ثمرهما دانٍ قريب يناله القائم والقاعد والنائم. قال ابن عباس: تدنو الشجرة حتى يجتنيها وليّ الله إن شاء قائماً وإن شاء قاعداً. قال قتادة: لا يردّ أيديهم عنها بُعْدٌ ولا شوك.

﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان * فيهنّ قاصرات الطرف ﴾، غاضّات الأعين، قصرن طرفهنّ على أزواجهنّ لا ينظرن إلى غيرهم ولا يردن غيرهم. قال ابن زيد: تقول لزوجها وعزّة ربّي ما أرى في الجنة شيئاً أحسن منك، فالحمد لله الذي جعلك زوجي وجعلني زوجتك. **﴿ لم يطمثهنّ ﴾** لم يجامعهنّ ولم يفرعهنّ، وأصله من الدم قيل للحائض طامث، كأنه قال لم يدمهنّ بالجماع، **﴿ إنس قبلهم ولا جان ﴾**، قال الزجّاج: فيه دليل على أن الجنّي يغشى كما يغشى الإنسي. قال مجاهد: إذا جامع الرجل ولم يسمِّ انطوى الجان على إحليله فجامع معه. قال مقاتل في قوله: **﴿ لم يطمثهنّ إنس قبلهم ولا جان ﴾**: لأنهنّ خلقهنّ في الجنة. فعلى قوله هؤلاء من حور الجنّة. وقال الشعبي: هنّ من نساء الدنيا لم يمسسن منذ أُنشئن، وهو قول الكلبي يعني لم يجامعهنّ في هذا الخلق الذي أُنشئن فيه إنس ولا جان. وقرأ طلحة مصرّف: **﴿ لا يطمثهنّ ﴾** بضم الميم فيهما، وقرأ الكسائي إحداهما بالضم فإن كسر الأولى ضمّ الثانية وإن ضمّ الأولى كسر الثانية، لمّا روى أبو إسحاق السبيعي قال: كنت أُصلّي خلف أصحاب علي رضي الله عنه فأسمعهم يقرؤون لم يطمثهنّ بالرفع، وكنت أُصلّي خلف أصحاب عبد الله بن مسعود فأسمعهم يقرؤون بكسر الميم، وكان الكسائي يضمّ إحداهما ويكسر الأخرى لئلا يخرج عن هذين الأثرين.

عنهن لأن ذلك أقر لأعين أزواجهن إذا لم يغشهن أحد غيرهم ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان كأنهن الياقوت والمرجان﴾ أراد صفاء الياقوت في بياض المرجان وهو صغار اللؤلؤ وأشده بياضاً وقيل شبه لونهن ببياض اللؤلؤ مع حمرة الياقوت لأن أحسن الألوان البياض المشوب بحمرة والأصح أنه شبههن بالياقوت لصفائه لأنه حجر لو أدخلت فيه سلكاً ثم استصفيته لرأيت السلك من ظاهره لصفائه وقال عمرو بن ميمون إن المرأة من الحور العين لتلبس سبعين حلة فيرى مخ ساقها من وراء الحلل كما يرى الشراب الأحمر في الزجاجة البيضاء يدل على صحة ذلك ما روي عن ابن مسعود عن النبي ﷺ قال إن المرأة من نساء أهل الجنة ليرى بياض ساقها من وراء سبعين حلة حتى يرى مخها وذلك لأن الله تعالى يقول كأنهن الياقوت والمرجان فأما الياقوت فإنه حجر لو أدخلت فيه سلكاً ثم استصفيته لرأيته من ورائه أخرجه الترمذي قال وقد روي عن ابن مسعود بمعناه ولم يرفعه وهو أصح (ق) عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ أول زمرة تلج الجنة صورهم على صورة القمر ليلة البدر زاد في رواية ثم الذين يلونهم على أشد كوكب دري في السماء إضاءة لا يبصقون فيها ولا يتمخطون ولا يتغوطون آنيتهم الذهب والفضة وأمشاطهم الذهب ومجامرهم الألوة ورشحهم المسك ولكل واحد منهم زوجتان يرى مخ سوقهما من وراء اللحم من الحسن لا اختلاف بينهم ولا تباغض قلوبهم قلب رجل واحد يسبحون الله بكرة وعشياً، وللبخاري قلوبهم على قلب رجل واحد وزاد فيه ولا يسقمون قوله مجامرهم الألوة يعني بخورهم العود.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدْهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾﴾

﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان هل جزاء الإحسان إلا الإحسان﴾ أي ما جزاء من أحسن في الدنيا إلا أن يحسن إليه

﴿ فبأيّ آلاء ربكما تكذبان * كأنهنّ الياقوت والمرجان ﴾، قال قتادة: صفاء الياقوت في بياض المرجان. وروينا عن أبي سعيد في صفة أهل الجنة عن رسول الله ﷺ: «لكل رجل منهم زوجتان على كل زوجة سبعون حلّة، يرى مخّ سوقهنّ دون لحمهما ودمائهما وجلدهما». أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل أنا أبو اليمان أنا شعيب أنا أبو الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إن أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر ثم الذين يلونهم كأشدّ كوكب درّي في السماء إضاءة قلوبهم على قلب رجل واحد لا اختلاف بينهم ولا تباغض، لكل امرىء منهم زوجتان من الحور العين يرى مخّ سوقهنّ من وراء العظم واللحم من الحُسْن، يسبّحون الله بكرةً وعشيّاً لا يسقمون ولا يبولون ولا يتغوطون، ولا يُتفلون ولا يتمخطون، آنيتهم الذهب والفضة وأمشاطهم الذهب، ووُقود مجامرهم الألوة ورشحهم المسك على خلق رجل واحد، على صورة أبيهم آدم ستّون ذراعاً في السماء». أخبرنا أبو سعيد الشريحي أنا أبو إسحاق الثعلبي أخبرنا الحسين بن محمد بن الحسين أنا هارون بن محمد بن هارون أنا حازم بن يحيىٰ الحلواني أنا سهيل بن عثمان العسكري أنا عبيدة بن حميد عن عطاء بن المسيب عن عمرو بن ميمون عن عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ قال: «إن المرأة من أهل الجنة ليُرى بياض ساقها من وراء سبعين حلّة من حرير ومخّها إن الله تعالى يقول: ﴿كأنهنّ الياقوت والمرجان﴾، فأما الياقوت فإنه حجر لو أدخلت فيه سلكاً ثم استصفيته لرأيته من ورائه. وقال عمرو بن ميمون: إن المرأة من الحور العين لتلبس سبعين حلّة فيرى مخّ ساقها من ورائها كما يرى الشراب الأحمر في الزجاجة البيضاء.

﴿ فبأيّ آلاء ربكما تكذبان * هل جزاء الإحسان إلاّ الإحسان ﴾، أي ما جزاء مَن أحسن في الدنيا إلاّ أن

في الآخرة وقال ابن عباس هل جزاء من قال لا إله إلا الله وعمل بما جاء به محمد ﷺ إلا الجنة. روى البغوي بإسناد الثعلبي عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال قرأ رسول الله ﷺ هل جزاء الإحسان إلا الإحسان ثم قال هل تدرون ما قال ربكم؟ قالوا الله ورسوله أعلم قال يقول هل جزاء من أنعمت عليه بالتوحيد إلا الجنة، وروى الواحدي بغير سند عن ابن عمر وابن عباس أن رسول الله ﷺ قال في هذه الآية يقول الله عز وجل هل جزاء من أنعمت عليه بمعرفتي وتوحيدي إلا أن أسكنه جنتي وحظيرة قدسي برحمتي، وقيل في معنى الآية هل جزاء من أتى بالفعل الحسن إلا أن يؤتى في مقابلته بفعل حسن وفي الآية إشارة إلى رفع التكليف في الآخرة لأن الله وعد المؤمنين بالإحسان وهو الجنة فلو بقي التكليف في الآخرة وتركه العبد لاستحق العقاب على ترك العمل والعقاب ترك الإحسان إليه فلا تكليف ﴿**فبأي آلاء ربكما تكذبان ومن دونهما جنتان**﴾ أي ومن دون الجنتين الأوليين جنتان أخريان وقال ابن عباس من دونهما في الدرج وقيل في الفضل وقال أبو موسى الأشعري جنتان من ذهب للسابقين وجنتان من فضة للتابعين وقال ابن جريج هن أربع جنان: جنتان للمقربين السابقين فيهما من كل فاكهة زوجان وجنتان لأصحاب اليمين والتابعين فيهما فاكهة ونخل ورمان، (ق) عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن وقال الكناني ومن دونهما جنتان يعني أمامهما وقبلهما يدل عليه قول الضحاك الجنتان الأوليان من ذهب وفضة والجنتان الأخريان من ياقوت وزبرجد وهما أفضل من الأوليين ﴿**فبأي آلاء ربكما تكذبان**﴾ ثم وصف الجنتين فقال تعالى: ﴿**مدهامتان**﴾ أي سوداوان من ريهما وشدة خضرتهما لأن الخضرة إذا اشتدت ضربت إلى السواد، ﴿**فبأي آلاء ربكما تكذبان فيهما**

يُحسَن إليه في الآخرة. وقال ابن عباس: هل جزاء مَن قال: لا إله إلاّ الله وعمل بما جاء به محمد ﷺ إلاّ الجنة؟ أخبرنا أبو سعيد الشريحي أنا أبو إسحاق الثعلبي أخبرني ابن فنجويه أنا ابن أبي شيبة أنا ابن إسحاق ابن إبراهيم بن بهرام أنا الحجّاج بن يوسف المكتب أنا بشر بن الحسين عن الزبير عدي عن أنس بن مالك قال قرأ رسول الله ﷺ: ﴿ **هل جزاء الإحسان إلاّ الإحسان** ﴾، ثم قال: هل تدرون ما قال ربكم؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «يقول هل جزاء مَن أنعمت عليه بالتوحيد إلاّ الجنّة».

﴿ **فبأيّ آلاء ربكما تكذبان * ومن دونهما جنتان** ﴾، أي من دون الجنتين الأوليين جنتان أُخريان. قال ابن عباس: من دونهما في الدرج. وقال ابن زيد: من دونهما في الفضل. وقال أبو موسى الأشعري: جنتان من ذهب للسابقين وجنتان من فضة للتابعين. وقال ابن جريج: هنّ أربع جنتان للمقرّبين السابقين فيها من كل فاكهة زوجان وجنتان لأصحاب اليمين والتابعين ﴿**فيهما فاكهة ونخل ورمّان**﴾. أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل أنا علي بن عبد الله أنا عبد العزيز بن عبد الصمد عن أبي عمران عن أبي بكر بن عبد الله بن قيس عن أبيه عن النبي ﷺ قال: «جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما، وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلاّ رداء الكبرياء على وجهه في جنّة عدن». وقال الكسائي: ﴿ **ومن دونهما** ﴾ أي أمامهما وقبلهما، يدلّ عليه قول الضحاك: الجنتان الأوليان من ذهب وفضة والأُخريان من ياقوت.

﴿ **فبأيّ آلاء ربكما تكذبان * مدهامّتان** ﴾، ناعمتان سوداوان من ريّهما وشدّة خضرتهما، لأن الخضرة إذا اشتدّت ضربت إلى السواد، يقال: إدهام الزرع إذا علاه السواد ريّاً ادهيماماً فهو مدهام.

﴿ **فبأيّ آلاء ربكما تكذبان * فيهما عينان نضّاختان** ﴾، فوّارتان بالماء لا تنقطعان والنضخ فوران الماء من

عينان نضاختان﴾ أي فوارتان بالماء لا ينقطعان وقال ابن عباس والضحاك ينضخان بالخير والبركة على أهل الجنة وقال ابن مسعود ينضخان بالمسك والكافور على أولياء الله وقال أنس بن مالك ينضخان بالمسك والعنبر في دور أهل الجنة كطش المطر.

فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾ فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾ فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٧٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِىٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾

﴿**فبأي آلاء ربكما تكذبان فيهما فاكهة ونخل ورمان**﴾ يعني فيهما من أنواع الفواكه كلها وإنما عطف النخل والرمان بالواو وإن كانا من جملة الفواكه تنبيهاً على فضلهما وشرفهما على سائر الفواكه وعلى هذا القول عامة المفسرين وأهل اللغة قالوا إنما فضلهما بالذكر للتخصيص والتفضيل فهو كقوله من كان عدواً لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال خصهما بالذكر وإن كان من جملة الملائكة لشرفهما وفضلهما وقيل بعضهم ليس النخل والرمان من الفواكه لأن ثمرة النخل فاكهة وطعام وثمرة الرمان فاكهة ودواء فلم يخلصا للتفكه ولهذا قال أبو حنيفة إذا حلف لا يأكل الفاكهة فأكل رطباً أو رماناً لم يحنث وخالفه صاحباه وهذا القول خلاف قول أهل اللغة ولا حجة له في الآية وروى البغوي بسنده عن ابن عباس موقوفاً قال نخل الجنة جذوعها زمرد أخضر وكرمها ذهب أحمر وسعفها كسوة لأهل الجنة منها حللهم وثمرها مثل القلال أو الدلاء أشد بياضاً من اللبن وأحلى من العسل وألين من الزبد ليس له عجم وروي أن الرمانة من رمان الجنة مثل البعير المقتب وقيل إن نخل أهل الجنة نضيد وثمرها كالقلال كلما نزعت منها واحدة عادت مكانها أخرى العنقود منها اثني عشر ذراعاً، ﴿**فبأي آلاء ربكما تكذبان فيهن**﴾ أي في الجنان الأربع

العين، قال ابن عباس: تنضخان بالخير والبركة على أهل الجنة، وقال ابن مسعود: تنضخان بالمسك والكافور على أولياء الله. وقال أنس بن مالك: تنضخان بالمِسك والعنبر في دور أهل الجنة كطش المطر.

﴿ **فبأيّ آلاء ربكما تكذبان * فيهما فاكهة ونخل ورمّان** ﴾، قال بعضهم: ليس النخل والرمان من الفاكهة والعامّة على أنها من الفاكهة، وإنما أعاد ذكر النخل والرمّان وهما من جملة الفواكه للتخصيص والتفصيل، كما قال تعالى: ﴿ مَن كان عدواً لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال ﴾ [البقرة: ٩٨]، أخبرنا أبو بكر محمد بن عبد الله بن أبي توبة أنا أبو طاهر محمد بن أحمد بن حارث أنا محمد بن يعقوب الكسائي أنا عبد الله بن محمود أنا إبراهيم بن عبد الله الخلال أنا عبد الله بن المبارك عن سفيان عن حمّاد عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: نخل الجنة جذوعها زمرّد أخضر وورقها ذهب أحمر وسعفها كسوة لأهل الجنة منها مقطعاتهم وحللهم، وثمرها أمثال القلال أو الدلاء أشد بيضاً من اللبن وأحلى من العسل وألين من الزبد ليس له عجم.

﴿ **فبأيّ آلاء ربكما تكذبان * فيهنّ** ﴾، يعني في الجنّات الأربع، ﴿ **خيرات حسان** ﴾، روى الحسن عن أبيه عن أُم سلمة قالت: قلت لرسول الله ﷺ: أخبرني عن قوله: ﴿ **خيرات حسان** ﴾، قال: «خيرات الأخلاق حسان الوجوه».

﴿ **فبأي آلاء ربكما تكذبان * حور مقصورات** ﴾، محبوسات مستورات في الحِجال، يقال: امرأة مقصورة وقصيرة إذا كانت مخدّرة مستورة لا تخرج. وقال مجاهد: يعني قصرن طرفهنّ وأنفسهنّ على أزواجهنّ فلا يبغين

﴿خيرات حسان﴾ روي عن أم سلمة قالت قلت لرسول الله ﷺ أخبرني عن قوله خيرات حسان قال خيرات الأخلاق حسان الوجوه، ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان حور مقصورات﴾ أي مخدرات مستورات لا يخرجن لكوامتهن وشرفهن روي عن النبي ﷺ أنه قال «لو أن امرأة من نساء أهل الجنة أطلعت إلى الأرض لأضاءت ما بين السماء والأرض ولملأت ما بينهما ريحاً ولنصيفها على رأسها خير من الدنيا وما فيها» وقيل قصرن أطرافهن وأنفسهن على أزواجهن فلا يبغين بهم بدلاً ﴿في الخيام﴾ قيل هي البيوت. قال ابن الأعرابي الخيمة لا تكون إلا من أربعة أعواد ثم تسقف بالثمام ويقال خيم فلان خيمة إذا بناها من جريد النخل وخيم بها إذا قام بها وتظلل فيها وقيل كل خيامها من در ولؤلؤ وزبرجد مجوف تضاف إلى القصور في الجنة. (ق) عن أبي موسى الأشعري أن رسول الله ﷺ قال إن للمؤمن في الجنة لخيمة من لؤلؤة واحدة مجوفة طولها في السماء وفي رواية عرضها ستون ميلاً للمؤمن فيها أهلون يطوف عليهم المؤمن فلا يرى بعضهم بعضاً ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان﴾ تقدم تفسيره، ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان متكئين على رفرف خضر﴾ قيل الرفرف رياض الجنة خضر مخصبة ويروى هذا عن ابن عباس وقيل إن الرفرف البسط، وعن ابن عباس الرفرف فضول المجالس والبسط منه وقيل هي مجالس خضر فوق الفرش وقيل هي المرافق وقيل الزرابي وقيل كل ثوب عريض عند العرب فهو رفرف ﴿وعبقري حسان﴾ قيل هي الزرابي والطنافس الثخان وقيل هي الطنافس الرقاق وقيل كل ثوب موشى عند العرب فهو عبقري وقال الخليل كل جليل نفيس فاخر من الرجال وغيرهم فهو عبقري عند العرب ومنه قول النبي ﷺ في عمر «فلم أر عبقرياً يفري فريه» وأصل هذا فيما قيل إنه نسب إلى عبقر وهي أرض يسكنها الجن فصار مثلاً لكل منسوب إلى شيء رفيع عجيب وذلك أن العرب تعتقد في الجن كل صفة عجيبة وأنهم يأتون بكل أمر عجيب ولما كانت عبقر معروفة بسكنى الجن نسبوا إليها كل شيء عجيب بديع.

بهم بدلاً، وروينا عن النبي ﷺ قال: «لو أن امرأة من نساء أهل الجنة اطّلعت إلى الأرض لأضاءت ما بين السماء والأرض ولملأت ما بينهما ريحاً ولنصيفها على رأسها خير من الدنيا وما فيها». ﴿ في الخيام ﴾ جمع خيمة، أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا محمد بن المثنى أنا عبد العزيز بن عبد الصمد أنا أبو عمران الجوني عن أبي بكر بن عبد الله بن قيس عن أبيه أن النبي ﷺ قال: «إن للمؤمن في الجنة لخيمة من لؤلؤة واحدة مجوّفة عرضها ستّون ميلاً في كل زاوية منها أهل ما يرون الآخرين يطوف عليهم المؤمن».

﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان * لم يطمثهنّ إنس قبلهم ولا جان * فبأي آلاء ربكما تكذبان * متّكئين على رَفرف خُضر ﴾، قال سعيد بن جبير: الرفرف رياض الجنة خضر مخصبة. ويُروَى ذلك عن ابن عباس، واحدتها رفرفة، وقال: الرفارف جمع الجمع، وقيل: الرفرف البسط، وهو قول الحسن ومقاتل والقرظي وروى العوفي عن ابن عباس الرفرف فضول المجالس والبسط. وقال الضحاك وقتادة: هي مجالس خضر فوق الفرش. وقال ابن كيسان: هي المرافق. وقال ابن عيينة الزرابي. وقال غيره: هي ثوب عريض عند العرب فهو رفرف. ﴿ وعبقري حسان ﴾، هي الزرابي والطنافس الثخان، وهي جمع واحدتها عبقرية، وقال قتادة: العبقري عتاق الزرابي، وقال أبو العالية هي الطنافس المخملة إلى الرقة. وقال القتيبي: كل ثوب موشّى عند العرب عبقري. وقال أبو عبيدة هو منسوب إلى أرض يعمل بها الوشي قال الخليل: كل جليل نفيس فاخر من الرجال وغيرهم عند العرب عبقري، ومنه قول النبي ﷺ في عمر رضي الله عنه: «فلم أرَ عبقرياً يفري فريه».

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٧٧ تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ۝٧٨﴾

﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان تبارك اسم ربك ذي الجلال والإكرام﴾ قيل لما ختم نعم الدنيا بقوله «ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام» وفيه إشارة إلى أن الباقي هو الله تعالى وأن الدنيا فانية ختم نعمة الآخرة بهذه الآية وهو إشارة إلى تمجيده وتحميده (م) عن ثوبان قال «كان رسول الله ﷺ إذا انصرف من صلاته استغفر ثلاثاً وقال اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت يا ذا الجلال والإكرام» وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت «كان رسول الله ﷺ إذا سلم من الصلاة لم يقعد إلا مقدار ما يقول: اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت يا ذا الجلال والإكرام» أخرجه أبو داود والنسائي غير قولها لم يقعد إلا مقدار ما يقول والله أعلم بمراده.

﴿ فبأيّ آلاء ربكما تكذبان * تبارك اسم ربك ذي الجلال والإكرام ﴾، قرأ أهل الشام (ذو الجلال) بالواو وكذلك هو في مصاحفهم إجراءً على الاسم، أخبرنا أبو الحسن علي بن يوسف الجويني أنا أبو محمد محمد بن علي بن محمد بن شريك الشافعي أنا عبد الله بن محمد بن مسلم ثنا أبو بكر الجوزي أنا أحمد بن حرب أنا أبو معاوية الضرير عن عاصم الأحول عن عبد الله بن الحارث عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ إذا سلّم من الصلاة لم يقعد إلّا مقدار ما يقول: «اللّهمّ أنت السلام ومنك السلام تباركت يا ذا الجلال والإكرام».

سورة الواقعة

(مكية وهي سبع وتسعون آية وثلاثمائة وثمان وسبعون كلمة وألف وسبعمائة وثلاثة أحرف)

روى البغوي بسنده عن أبي ظبية عن عبد الله بن مسعود قال سمعت رسول الله ﷺ يقول «من قرأ سورة الواقعة كل ليلة لم تصبه فاقة أبداً.

وكان أبو ظبية لا يدعها أبداً» وأخرجه ابن الأثير في كتابه جامع الأصول لم يعزه والله تعالى أعلم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴿١﴾ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴿٢﴾ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ﴿٣﴾ إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا ﴿٤﴾ وَبُسَّتِ الْجِبَالُ
بَسًّا ﴿٥﴾ فَكَانَتْ هَبَاءً مُّنبَثًّا ﴿٦﴾ وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ﴿٧﴾ فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾

قوله عز وجل: ﴿**إذا وقعت الواقعة**﴾ يعني إذا قامت القيامة وقيل إذا نزلت صيحة القيامة وهي النفخة الأخيرة وقيل الواقعة اسم للقيامة كالآزفة، ﴿**ليس لوقعتها**﴾ يعني لمجيئها ﴿**كاذبة**﴾ يعني ليس لها كذب والمعنى أنها تقع حقاً وصدقاً وقيل معناه ليس لوقعتها قصة كاذبة أي كل ما أخبر الله عنها وقص من خبرها قصة صادقة غير كاذبة وقيل معناه ليس لوقعتها نفس كاذبة أي إن كل من يخبر عن وقوعها صادق غير كاذب لم تكذب نفس أخبرت عن وقوعها، ﴿**خافضة رافعة**﴾ أي تخفض أقواماً إلى النار وترفع أقواماً إلى الجنة وقال ابن عباس تخفض أقواماً كانوا في الدنيا مرتفعين وترفع أقواماً كانوا في الدنيا مستضعفين وقيل تخفض أقواماً بالمعصية وترفع أقواماً بالطاعة، ﴿**إذا رجت الأرض رجاً**﴾ أي إذا حركت وزلزلت زلزالاً وذلك أن الله عز وجل إذا أوحى إليها اضطربت فرقاً وخوفاً قال المفسرون

سُورَة الوَاقِعَة

مكيّة وهي ست وتسعون آية.

﴿ **إذا وقعت الواقعة** ﴾، إذا قامت القيامة. وقيل: إذا نزلت صيحة القيامة، وهي النفخة الأخيرة.

﴿ **ليس لوقعتها** ﴾، لمجيئها، ﴿ **كاذبة** ﴾، كذب، كقول: ﴿ لا تسمع فيها لاغية ﴾ [الغاشية: ١١]، أي لغو يعني أنها تقع صدقاً وحقاً. والكاذبة اسم كالعافية والنازلة.

﴿ **خافضة رافعة** ﴾، تخفض أقواماً إلى النار وترفع آخرين إلى الجنة. وقال عطاء عن ابن عباس: تخفض أقواماً كانوا في الدنيا مرتفعين وترفع أقواماً كانوا في الدنيا مستضعفين.

﴿ **إذا رجّتِ الأرض رجّاً** ﴾، حرّكت وزلزلت زلزالاً، قال الكلبي: إن الله إذا أوحى إليها اضطربت فرقاً. قال

ترج كما يرج الصبي في المهد حتى ينهدم كل بناء عليها وينكسر كل ما فيها من جبال وغيرها وهو قوله تعالى: ﴿وبست الجبال بساً﴾ أي فتتت حتى صارت كالدقيق المبسوس وهو المبلول وقيل صارت كثيباً مهيلاً بعد أن كانت شامخة وقيل معناه قلعت من أصلها وسيرت على وجه الأرض حتى ذهب بها ﴿فكانت هباء منبثاً﴾ أي غباراً متفرقاً كالذي يرى في شعاع الشمس إذا دخل الكوة وهو الهباء، ﴿وكنتم أزواجاً﴾ أي أصنافاً ﴿ثلاثة﴾ ثم فسر الأزواج فقال تعالى: ﴿فأصحاب الميمنة﴾ يعني أصحاب اليمين.

والميمنة ناحية اليمين وهم الذين يؤخذ بهم ذات اليمين إلى الجنة وقال ابن عباس هم الذين كانوا على يمين آدم حين أخرجت الذرية من صلبه وقال الله تعالى: «هؤلاء إلى الجنة ولا أبالي» وقيل هم الذين يعطون كتبهم بأيمانهم وقيل هم الذين كانوا ميامين أي مباركين على أنفسهم وكانت أعمالهم صالحة في طاعة الله وهم التابعون بإحسان ﴿ما أصحاب الميمنة﴾ تعجيب من حالهم في السعادة. والمعنى أي شيء هم.

﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿٩﴾ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٤﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَٰبِلِينَ ﴿١٦﴾﴾

﴿وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة﴾ يعني أصحاب الشمال وهم الذين يؤخذ بهم ذات الشمال إلى النار وقال ابن عباس هم الذين كانوا على شمال آدم عند إخراج الذرية وقال الله تعالى لهم: «هؤلاء إلى النار ولا أبالي»

المفسّرون: ترجّ كما يرجّ الصبي في المهد حتى ينهدم كل بناء عليها وينكسر كل ما عليها من الجبال وغيرها. وأصل الرجّ في اللغة التحريك، يقال: رججته فارتجّ.

﴿ وبُسّتِ الجبال بسّاً ﴾، قال عطاء ومقاتل ومجاهد: فتّتت فتّاً فصارت كالدقيق المبسوس وهو المبلول. قال سعيد بن المسيب والسدي: كسرت كسراً وقال الكلبي: سيّرت على وجه الأرض تسييراً. قال الحسن: قلعت من أصلها فذهبت، نظيرها: ﴿ فقلْ ينسفها ربي نسفاً ﴾ [طه: ١٠٥] قال ابن كيسان: جعلت كثيباً مهيلاً بعد أن كانت شامخة طويلة.

﴿ فكانت هباءً منبثّاً ﴾، غباراً متفرقاً كالذي يُرى في شعاع الشمس إذا دخل الكوّة وهو الهباء.

﴿ وكنتم أزواجاً ﴾، أصنافاً، ﴿ ثلاثة ﴾.

ثم فسّرها فقال: ﴿ فأصحاب الميمنة ﴾، هم الذين يؤخذ بهم ذات اليمين إلى الجنة، وقال ابن عباس: هم الذين كانوا على يمين آدم حين أُخرجت الذريّة من صلبه، وقال الله لهم هؤلاء في الجنة ولا أُبالي. وقال الضحاك: هم الذين يعطون كتبهم بأيمانهم. وقال الحسن والربيع: هم الذين كانوا ميامين مباركين على أنفسهم، وكانت أعمارهم في طاعة الله وهم التابعون بإحسان، ثم عجب نبيّه ﷺ، فقال: ﴿ ما أصحاب الميمنة ﴾، وهذا كما يقال: زيد ما زيد يُراد زيد شديد.

﴿ وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة ﴾، يعني أصحاب الشمال، والعرب تسمّي اليد اليسرى الشؤمى، ومنه يسمى الشام واليمن لأن اليمن عن يمين الكعبة والشأم عن شمالها، وهم الذين يؤخذ بهم ذات الشمال إلى النار. وقال ابن عباس: هم الذين كانوا على شمال آدم عند إخراج الذريّة وقال الله لهم: هؤلاء في النار ولا أُبالي. وقال الضحاك: هم الذين يؤتون كتبهم بشمالهم. وقال الحسن: هم المشائيم على أنفسهم وكانت أعمارهم في المعاصي.

وقيل هم الذين يؤتون كتبهم بشمائلهم وقيل هم المشائيم على أنفسهم وكانت أعمالهم في المعاصي لأن العرب تسمي اليد اليسرى الشؤمى، ﴿والسابقون السابقون﴾ قال ابن عباس هم السابقون إلى الهجرة السابقون في الآخرة إلى الجنة وقيل هم السابقون إلى الإسلام وقيل هم الذين صلوا إلى القبلتين من المهاجرين والأنصار وقيل هم السابقون إلى الصلوات الخمس وقيل إلى الجهاد وقيل هم المسارعون إلى التوبة وإلى ما دعا الله إليه من أعمال البر والخير وقيل هم أهل القرآن المتوجون يوم القيامة.

فإن قلت لمَ أخر ذكر السابقين وكانوا أولى بالتقديم عن أصحاب اليمين.

قلت فيه لطيفة وذلك أن الله تعالى ذكر في أول السورة من الأمور الهائلة عند قيام الساعة تخويفاً لعباده فإما محسن فيزداد رغبة في الثواب وإما مسيء فيرجع عن إساءته خوفاً من العقاب فلذلك قدم أصحاب اليمين ليسمعوا ويرغبوا ثم ذكر أصحاب الشمال ليرهبوا ثم ذكر السابقين وهم الذين لا يحزنهم الفزع الأكبر ليجتهد أصحاب اليمين في القرب من جهنم ثم أثنى على السابقين فقال تعالى: ﴿أولئك المقربون﴾ يعني من الله في جواره وفي ظل عرشه ودار كرامته وهو قوله: ﴿في جنات النعيم﴾ قوله تعالى: ﴿ثلة﴾ أي جماعة غير محصورة العدد، ﴿من الأولين﴾ يعني من الأمم الماضية من لدن آدم إلى زمن نبينا ﴿وقليل من الآخرين﴾ يعني من هذه الأمة وذلك لأن الذين عاينوا جميع الأنبياء وصدقوهم من الأمم الماضية أكثر ممن عاين النبي ﷺ وآمن به وقيل إن الأولين هم أصحاب رسول الله ﷺ وقيل من الآخرين أي ممن جاء بعدهم من الصحابة، ﴿على سرور موضونة﴾ أي منسوجة من الذهب والجوهر وقيل موضونة يعني مصفوفة ﴿متكئين عليها﴾ أي على السرر ﴿متقابلين﴾ يعني لا ينظر بعضهم في قفا بعض وصفوا بحسن

﴿ والسابقون السابقون ﴾، قال ابن عباس: السابقون إلى الهجرة هم السابقون في الآخرة. وقال عكرمة: السابقون إلى الإسلام. قال ابن سيرين: هم الذين صلّوا إلى القبلتين، دليله قوله: ﴿ والسابقون الأوّلون من المهاجرين والأنصار ﴾ [التوبة: ١٠٠]، قال الربيع بن أنس: السابقون إلى إجابة الرسول ﷺ في الدنيا هم السابقون إلى الجنة في العقبى. وقال مقاتل: إلى إجابة الأنبياء صلوات الله عليهم بالإيمان. وقال عليّ بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه: إلى الصلوات الخمس. وقال الضحاك: إلى الجهاد. وقال سعيد بن جبير: هم المسارعون إلى التوبة وإلى أعمال البرّ. قال الله تعالى: ﴿ سابقوا إلى مغفرة من ربكم ﴾ [الحديد: ٢١]، ثم أثنى عليهم فقال: ﴿ أولئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون ﴾ [المؤمنون: ٦١]، قال ابن كيسان: والسابقون إلى كل ما دعا الله إليه. ورُوِيَ عن كعب قال: هم أهل القرآن المتوّجون يوم القيامة. وقيل: هم أولهم رواحاً إلى المسجد وأولهم خروجاً في سبيل الله. وقال القرظي: إلى كل خير.

﴿ أولئك المقرّبون ﴾، من الله.

﴿ في جنات النعيم * ثلّة من الأوّلين ﴾، أي من الأمم الماضية من لدن آدم عليه السلام إلى زمان نبيّنا ﷺ، والثلّة: الجماعة غير محصورة العدد.

﴿ وقليل من الآخرين ﴾، يعني من هذه الأمة، قال الزجّاج: الذين عاينوا جميع النبيّين من لدن آدم عليه الصلاة والسلام وصدّقوهم، أكثر ممّن عاين النبي ﷺ.

﴿ على سرر موضونة ﴾، منسوجة كما توضن خلق الدرع فيدخل بعضها في بعض. قال المفسّرون: هي موصولة منسوجة بالذهب والجواهر. وقال الضحاك: موضونة مصفوفة.

العشرة في المجالسة وقيل لأنهم صاروا أرواحاً نورانية صافية ليس لهم أدبار وظهور.

يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾ وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾ وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾

﴿**يطوف عليهم**﴾ أي للخدمة ﴿**ولدان**﴾ أي غلمان ﴿**مخلدون**﴾ لا يموتون ولا يهرمون ولا يتغيرون ولا ينتقلون من حالة إلى حالة وقيل مخلدون مفرطون والخلد القرط وهو الحلقة تعلق في الأذن واختلفوا في هؤلاء الولدان فقيل هم أولاد المؤمنين الذين ماتوا أطفالاً وفيه ضعف لأن الله أخبر أنه يلحقهم بآبائهم ولأن من المؤمنين من لا ولد له فلو خدمه ولد غيره كان منقصة بأبي الخادم وقيل هم صغار الكفار الذين ماتوا قبل التكليف وهذا القول أقرب من الأول لأنه قد اختلف في أولاد المشركين على ثلاثة مذاهب فقال الأكثرون هم في النار تبعاً لآبائهم وتوقف فيهم طائفة والمذهب الثالث وهو الصحيح الذي ذهب إليه المحققون أنهم من أهل الجنة ولكل مذهب دليل ليس هذا موضعه، وقيل هم أطفال ماتوا لم يكن لهم حسنات فيثابوا عليها ولا سيئات فيعاقبوا عليها ومن قال بهذه الأقوال يعلل بأن الجنة ليس فيها ولادة والقول الصحيح الذي لا معدل عنه إن شاء الله إنهم ولدان خلقوا في الجنة لخدمة أهل الجنة كالحور وإن لم يولدوا ولم يحصلوا عن ولادة أطلق عليهم اسم الولدان لأن العرب تسمي الغلام وليداً ما لم يحتلم والأمة وليدة وإن أسنت، ﴿**بأكواب**﴾ جمع كوب وهي الأقداح المستديرة الأفواه لا آذان لها ولا عرا ﴿**وأباريق**﴾ جمع إبريق وهي ذوات الخراطيم والعرا سميت أباريق لبريق لونها من الصفاء وقيل لأنها يرى باطنها كما يرى ظاهرها، ﴿**وكأس من معين**﴾ أي من خمرة جارية ﴿**لا يصدعون عنها**﴾ أي لا تصدع رؤوسهم من شربها وعنها كناية عن الكأس وقيل لا يتفرقون عنها ﴿**ولا ينزفون**﴾ أي لا يغلب على عقولهم ولا يسكرون منها وقرىء بكسر الزاي ومعناه لا ينفد شرابهم، ﴿**وفاكهة مما يتخيرون**﴾ أي يأخذون خيارها ﴿**ولحم طير مما يشتهون**﴾ قال ابن عباس يخطر على قلبه لحم الطير فيطير ممثلاً بين يديه على ما اشتهى وقيل إنه يقع على صحفة الرجل فيأكل منه ما يشتهي ثم يطير.

﴿ **متّكئين عليها متقابلين** ﴾، لا ينظر بعضهم في قفا بعض.

﴿ **يطوف عليهم** ﴾، للخدمة، ﴿ **ولدان** ﴾، غلمان، ﴿ **مخلدون** ﴾، لا يموتون ولا يهرمون ولا يتغيّرون. وقال الفرّاء: تقول العرب لمَن كبر ولمَن شمط إنه مخلد. قال ابن كيسان: يعني ولداناً لا يحوّلون من حالة إلى حالة. قال سعيد بن جبير: مقرطـون يقال خلد جـاريته إذا حـلّاها بـالخلد، وهو القـرط. قال الحسن: هم أولاد أهـل الدنيا لم تكن لهم حسنات فيُثابوا عليها ولا سيئات فيُعاقبوا عليها لأن الجنة لا ولادة فيها فهم خدم أهل الجنة.

﴿ **بأكواب وأباريق** ﴾، فالأكواب جمع كوب وهي الأقداح المستديرة الأفواه لا آذان لها ولا عُرى، والأباريق وهي ذوات الخراطيم سُمّيت أباريق لبريق لونها من الصفاء. ﴿ **وكأس من معين** ﴾، خمر جارية.

﴿ **لا يُصَدَّعُون عنها** ﴾، لا تصدع رؤوسهم من شربها، ﴿ **ولا يُنْزِفُون** ﴾، أي لا يسكرون هذا إذا قرىء بفتح الزاي ومَن كسر فمعناه لا ينفد شرابهم.

﴿ **وفاكهة مما يتخيّرون** ﴾، يختارون ما يشتهون يقال تخيّرت الشيء إذا أخذت خيره.

﴿ **ولحم طير مما يشتهون** ﴾، قال ابن عباس يخطر على قلبه لحم الطير فيصير ممثّلاً بين يديه على ما اشتهى، ويقال إنه يقع على صحفة الرجل فيأكل منه ما يشتهي ثم يطير فيذهب.

﴿ **وحور عين** ﴾، قرأ أبو جعفر وحمزة والكسائي بكسر الراء والنون، أي وبحور عين أتبعه قوله: ﴿ **بأكواب**

فإن قلت هل في تخصيص الفاكهة بالتخير واللحم بالاشتهاء بلاغة؟.

قلت نعم وكيف لا وفي كل حرف من حروف القرآن بلاغة وفصاحة والذي يظهر فيه أن اللحم والفاكهة إذا حضرا عند الجائع تميل نفسه إلى اللحم وإذا حضرا عند الشبعان تميل نفسه إلى الفاكهة فالجائع مشته والشبعان غير مشته بل هو مختار وأهل الجنة إنما يأكلون لا من جوع بل للتفكه فميلهم إلى الفاكهة أكثر فيتخيرونها ولهذا ذكرت في مواضع كثيرة من القرآن بخلاف اللحم وإذا اشتهاه حضر بين يديه على ما يشتهيه فتميل نفسه إليه أدنى ميل ولهذا قدم الفاكهة على اللحم والله أعلم، ﴿وحور عين﴾ أي ويطوف عليهم حور عين وقيل لهم حور عين وجاء في تفسير حور أي بيض عين أي ضخام العيون ﴿كأمثال اللؤلؤ المكنون﴾ أي المخزون في الصدف المصون الذي لم تمسه الأيدي ولم تقع عليه الشمس والهواء فيكون في نهاية الصفاء روي «أنه سطع نور في الجنة فقيل ما هذا؟ قيل ضوء ثغر حوراء ضحكت» وروي «أن الحوراء إذا مشت يسمع تقديس الخلاخل من ساقيها وتمجيد الأسورة من ساعديها وإن عقد الياقوت يضحك من نحرها وفي رجليها نعلان من ذهب شراكها من لؤلؤ يصران بالتسبيح».

جَزَآءَۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَـٰمًا سَلَـٰمًا ﴿٢٦﴾ وَأَصْحَـٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَـٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾

﴿جزاء بما كانوا يعملون﴾ أي فعلنا ذلك بهم جزاء بما كانوا يعملون في الدنيا بطاعتنا ﴿لا يسمعون فيها﴾ أي في الجنة، ﴿لغواً﴾ قيل اللغو ما يرغب عنه من الكلام ويستحق أن يلغى وقيل هو القبيح من القول والمعنى ليس فيها لغو فيسمع ﴿ولا تأثيماً﴾ قيل معناه أن بعضهم لا يقول لبعض أثمت لأنهم لا يتكلمون بما فيه إثم كما يتكلم به أهل الدنيا وقيل معناه لا يأتون تأثيماً أي ما هو سبب التأثيم من قول أو فعل قبيح ﴿إلا قيلاً﴾ معناه لكن يقولون قيلاً أو

وأباريق وفاكهة ولحم طير ﴾ في الإعراب وإن اختلفا في المعنى لأن الحور لا يُطاف بهنّ كقول الشاعر:

إذا ما الغانيات برزن يوماً وزججن الحواجب والعيونا

والعين لا تزجج وإنما تكحل ومثله كثير، وقيل: معناه ويكرمون بفاكهة ولحم طير وحور عين. وقرأ الباقون بالرفع أي ويطوف عليهم حور عين. وقال الأخفش رفع على معنى لهم حور عين وجاء في تفسيره حور عين بيض ضخام العيون.

﴿ كأمثال اللؤلؤ المكنون ﴾، المخزون في الصدف لم تمسّه الأيدي. ويُروَى أنه يسطع نور في الجنة قالوا وما هذا قالوا ضوء ثغر حوراء ضحكت في وجه زوجها. ويُروَى أن الحوراء إذا مشيت ليسمع تقديس الخلاخل من ساقيها وتمجيد الإسورة من ساعديها. وإن عقد الياقوت ليضحك من نحرها، وفي رجليها نعلان من ذهب شراكهما من لؤلؤ يصرّان بالتسبيح.

﴿ جزاءً بما كانوا يعملون ﴾.

﴿ لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيماً * إلاّ قيلاً ﴾، أي قولاً: ﴿ سلاماً سلاماً ﴾، نصبهما إتباعاً لقوله قيلاً أي يسمعون قيلاً سلاماً سلاماً. قال عطاء: يحيّي بعضهم بعضاً بالسلام، ثم ذكر أصحاب اليمين وعجب من شأنهم فقال جلّ ذكره:

﴿ وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين * في سدر مخضود ﴾، لا شوك فيه كأنه خضد شوكه أي قطع ونزع

يسمعون قيلاً ﴿سلاماً سلاماً﴾ يعني يسلم بعضهم على بعض وقيل تسلم الملائكة عليهم أو يرسل الرب بالسلام إليهم وقيل معناه أن قولهم يسلم في اللغو.

ثم ذكر أصحاب اليمين وعجب من شأنهم فقال تعالى: ﴿وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين﴾ لما بين حال السابقين شرع في بيان حال أصحاب اليمين فقال تعالى: ﴿في سدر مخضود﴾ أي لا شوك فيه كأنه خضد شوكه أي قطع ونزع منه وهذا قول ابن عباس وقيل هو الموقر حملاً قيل ثمرها أعظم من القلال وهو النبق قيل لما نظر المسلمون إلى وج وهو واد مخصب بالطائف فأعجبهم سدره فقالوا ليت لنا مثل هذا فأنزل الله هذه الآية ﴿وطلح﴾ قيل هو الموز عند أكثر المفسرين وقيل هو شجر له ظل بارد طيب وقيل هو شجر أم غيلان له شوك ونور طيب الرائحة فخوطبوا ووعدوا بمثل ما يحبون ويعرفون إلا أن فضله على شجر الدنيا كفضل الجنة على الدنيا ﴿منضود﴾ أي متراكم قد نضد بالحمل من أوله إلى آخره ليست له سوق بارزة بل من عروقه إلى أغصانه ثمر وليس شيء من ثمر الجنة في غلاف كثمر الدنيا مثل الباقلاء والجوز ونحوهما بل كلها مأكول ومشروب ومشموم ومنظور إليه، ﴿وظل ممدود﴾ أي دائم لا تنسخه الشمس كظل أهل الدنيا وذلك لأن الجنة ظل كلها لا شمس فيها. (ق) عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال «إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة سنة واقرؤوا إن شئتم وظل ممدود» وعن ابن عباس في قوله وظل ممدود قال شجرة في الجنة على ساق يخرج إليها أهل الجنة فيتحدثون في أصلها فيشتهي بعضهم لهو الدنيا فيرسل الله عز وجل ريحاً من الجنة فتحرك تلك الشجرة بكل لهو في الدنيا ﴿وماء مسكوب﴾ أي مصبوب يجري دائماً في غير أخدود ولا ينقطع.

منه، هذا قول ابن عباس وعكرمة. وقال الحسن: لا يعقر الأيدي. قال ابن كيسان: هو الذي لا أذى فيه. قال: وليس شيء من ثمر الجنة في غلف كما يكون في الدنيا من الباقلاء وغيره بل كلها مأكول ومشروب ومشموم ومنظور إليه. قال الضحاك ومجاهد: هو الموقر حملاً. قال سعيد بن جبير: ثمارها أعظم من القلال. قال أبو العالية والضحاك: ونظر المسلمون إلى وج وهو واد مخصب بالطائف فأعجبهم سدرها، وقالوا: يا ليت لنا مثل هذا فأنزل الله هذه الآية.

﴿ وطلح ﴾، أي موز واحدتها طلحة، عن أكثر المفسّرين. وقال الحسن: ليس هو بالموز ولكنه شجر لها ظل بارد طيب. قال الفرّاء وأبو عبيدة: الطلح عند العرب شجر عظام لها شوك. وروى مجاهد عن الحسن بن سعيد قال: قرأ رجل عند علي رضي الله عنه: ﴿ وطلح منضود ﴾، فقال: وما شأن الطلح إنما هو طلع منضود ثم قرأ طلعها هضيم، قلت: يا أمير المؤمنين إنها في المصحف بالحاء أفلا تحولها؟ فقال: إن القرآن لا يهاج اليوم ولا يحول، والمنضود المتراكم الذي قد نضد بالحمل من أوله إلى آخره، ليست هو سوق بارزة قال مسروق أشجار الجنة من عروقها إلى أفنانها ثمر كله.

﴿ وظل ممدود ﴾، دائم لا تنسخه الشمس والعرب تقول للشيء الذي لا ينقطع ممدود، أخبرنا أبو علي حسان بن سعيد المنيعي أنا أبو طاهر محمد بن محمد بن محمش الزيادي أنا أبو بكر محمد بن الحسين القطّان ثنا أبو الحسن أحمد بن يوسف السلمي ثنا عبد الرزاق أنا معمر عن همّام بن منبّه قال: ثنا أبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها»، وروى عكرمة عن ابن عباس في قوله: ﴿ وظل ممدود ﴾ قال: شجرة في الجنة على ساق العرش يخرج إليها أهل الجنة فيتحدثون في أصلها ويشتهي بعضهم لهو الدنيا فيرسل الله عزّ وجلّ عليها ريحاً من الجنة فتحرّك تلك الشجرة بكل لهو في الدنيا.

﴿ وماء مسكوب ﴾، مصبوب يجري دائماً في غير أخدود لا ينقطع.

﴿وَفَٰكِهَةٖ كَثِيرَةٖ ۝٣٢ لَّا مَقۡطُوعَةٖ وَلَا مَمۡنُوعَةٖ ۝٣٣ وَفُرُشٖ مَّرۡفُوعَةٍ ۝٣٤ إِنَّآ أَنشَأۡنَٰهُنَّ إِنشَآءٗ ۝٣٥ فَجَعَلۡنَٰهُنَّ أَبۡكَارًا ۝٣٦﴾

﴿وفاكهة كثيرة لا مقطوعة ولا ممنوعة﴾ قال ابن عباس لا تنقطع إذا جنيت ولا تمتنع من أحد إذا أراد أخذها وقيل لا مقطوعة بالأزمان ولا ممنوعة بالأثمان كما تنقطع ثمار الدنيا في الشتاء ولا يوصل إليها إلا بالثمن وقيل لا يحظر عليها كما يحظر على بساتين الدنيا وجاء في الحديث «ما قطعت ثمرة من ثمار الجنة إلا أبدل الله عز وجل مكانها ضعفين» **﴿وفرش مرفوعة﴾** قال علي مرفوعة على الأسرة وقيل بعضها فوق بعض فهي مرفوعة عالية عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ «في قوله: وفرش مرفوعة قال ارتفاعها كما بين السماء والأرض ومسيرة ما بينهما خمسمائة عام» أخرجه الترمذي وقال حديث حسن غريب قال الترمذي قال بعض أهل العلم معنى هذا الحديث ارتفاعها كما بين السماء والأرض يقول ارتفاع الفرش المرفوعة في الدرجات والدرجات ما بين كل درجتين بين السماء والأرض وقيل أراد بالفرش النساء والعرب تسمي المرأة فراشاً ولباساً على الاستعارة فعلى هذا القول يكون معنى مرفوعة أي رفعن بالفضل والجمال على نساء الدنيا ويدل على هذا التأويل قوله في عقبه، **﴿إنا أنشأناهن إنشاء﴾** أي خلقناهن خلقاً جديداً قال ابن عباس يعني الآدميات العجائز الشمط يقول خلقناهن بعد الكبر والهرم خلقاً آخر، **﴿فجعلناهن أبكاراً﴾** يعني عذارى. عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ «إن أنشأناهن إنشاء قال إن من المنشآت اللاتي كن في الدنيا عجائز عمشاً رمصاً» أخرجه الترمذي وقال حديث غريب وضعف بعض رواته وروى البغوي بسنده عن

﴿ وفاكهة كثيرة * لا مقطوعة ولا ممنوعة ﴾، قال ابن عباس: لا تنقطع إذا جنيت ولا تمتنع من أحد أراد أخذها. وقال بعضهم: لا مقطوعة بالأزمان ولا ممنوعة بالأثمان، كما ينقطع أكثر ثمار الدنيا إذا جاء الشتاء، ولا يتوصل إليها إلاّ بالثمن. وقال القتيبي: يعني لا يحظر عليها كما يحظر على بساتين الدنيا. وجاء في الحديث: «ما قطعت ثمرة من ثمار الجنة إلاّ أبدل الله مكانها ضعفين».

﴿ وفرش مرفوعة ﴾، قال علي رضي الله عنه: **﴿ وفرش مرفوعة ﴾** على الأسرّة. وقال جماعة من المفسّرين: بعضها فوق بعض فهي مرفوعة عالية. أخبرنا أبو سعيد الشريحي أنا أبو إسحاق الثعلبي أخبرني ابن فنجويه ثنا ابن حبيش ثنا أبو عبد الرحمن النسائي ثنا أبو تريب ثنا رشد بن سعد عن عمرو بن الحارث عن دراج أبي السمح عن أبي الهيثم عن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة قالا: قال رسول الله ﷺ في قوله تعالى: **﴿ وفرش مرفوعة ﴾** قال: «إن ارتفاعها لكما بين السماء والأرض، وإن ما بين السماء والأرض لمسيرة خمسمائة عام». وقيل: أراد بالفرش النساء والعرب تسمّي المرأة فراشاً ولباساً على الاستعارة، مرفوعة رفعن بالجمال والفضل على نساء الدنيا دليل هذا التأويل قوله في عقبة:

﴿ إنّا أنشأناهنّ إنشاءً ﴾، خلقناهنّ خلقاً جديداً، قال ابن عباس: يعني الآدميات العُجّز الشُمّط، يقول خلقناهنّ بعد الهرم خلقاً آخر.

﴿ فجعلناهنّ أبكاراً ﴾، عذارى، أخبرنا أبو محمد عبد الله بن عبد الصمد الجوزجاني أنا أبو القاسم علي بن أحمد الخزاعي عن الهيثم بن كليب الشاشي أنا أبو عيسى الترمذي أنا عبد بن حميد أنا مصعب بن المقدام أنا المبارك بن فضالة عن الحسن قال: أتت عجوز النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله ادع الله أن يُدخلني الجنة، فقال: «يا أُم فلان إن الجنة لا يدخلها عجوز»، قال: «فولّت تبكي»، قال: «أخبروها أنها لا تدخلها وهي عجوز إن الله تعالى يقول: **﴿ إنّا أنشأناهنّ إنشاءً فجعلناهنّ أبكاراً ﴾**». أخبرنا أبو سعيد أحمد بن إبراهيم الشريحي أنا أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي أنا أبو محمد عبد الله بن محمد بن الخطيب أنا أبو سعيد عمرو بن محمد بن

الحسن قال «أتت عجوز النبي ﷺ فقالت يا رسول الله ادع الله أن يدخلني الجنة فقال يا أم فلان إن الجنة لا يدخلها عجوز قال فولت تبكي قال أخبروها أنها لا تدخلها وهي عجوز إن الله تعالى قال **﴿إنا أنشأناهن إنشاء فجعلناهن أبكاراً﴾** هذا حديث مرسل وروي بإسناد الثعلبي عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ في قوله **﴿إنا أنشأناهن إنشاء قال عجائزكن في الدنيا عمشاً رمصاً فجعلناهن أبكاراً﴾** وقال المسيب بن شريك هن عجائز الدنيا أنشأهن الله بقدرته خلقاً جديداً كلما أتاهن أزواجهن وجدوهن أبكاراً وقيل إنهن فضلن على الحور العين بصلاتهن في الدنيا وقيل هن الحور العين أنشأهن الله لم تقع عليهن ولادة فجعلناهن أبكاراً عذارى وليس هناك وجع.

﴿عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴿٤٠﴾﴾

﴿عرباً﴾ جمع عروب وهي المتحببة إلى زوجها قاله ابن عباس في رواية عنه وعنه أنها الملقة وقيل الغنجة وعن أسامة بن زيد عن أبيه عرباً قال حسان الكلام **﴿أتراباً﴾** يعني أمثالاً في الخلق وقيل مستويات في السن على سن واحد بنات ثلاث وثلاثين، عن معاذ بن جبل عن النبي ﷺ قال «يدخل أهل الجنة الجنة جرداً مرداً مكحلين أبناء ثلاثين أو قال ثلاث وثلاثين سنة» أخرجه الترمذي وقال حديث حسن غريب **﴿لأصحاب اليمين﴾** يعني أنشأهن لأصحاب اليمين وقيل هذا الذي ذكرنا لأصحاب اليمين **﴿ثلة من الأولين﴾** يعني من المؤمنين الذين هم قبل هذه الأمة **﴿وثلة من الآخرين﴾** يعني من مؤمني هذه الأمة يدل عليه ما روى البغوي بإسناد الثعلبي عن عروة بن رويم قال «لما أنزل الله عز وجل على رسول الله ﷺ ثلة من الأولين وقليل من الآخرين بكى عمر فقال يا نبي الله آمنا برسول الله وصدقناه ومن ينجو منا قليل فأنزل الله عز وجل وثلة من الأولين وثلة من الآخرين فدعا رسول الله ﷺ عمر فقال قد أنزل الله تعالى فيما قلت فقال رضينا عن ربنا وتصديق نبينا فقال رسول الله ﷺ من آدم إلينا ثلة ومنا إلى يوم القيامة ثلة ولا يستتمها الأسودان من رعاة الإبل ممن قال لا إله إلا الله»، (ق) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال قال رسول الله ﷺ «عرضت عليّ الأمم فرأيت النبي ومعه الرهيط والنبي ومعه الرجل والرجلان والنبي وليس معه أحد إذ رفع إلى سواد عظيم

منصور أنا أبو بكر بن محمد بن سليمان بن الحارث الواسطي ببغداد أنا خلّاد بن يحيىٰ بن صفوان السلمي ثنا سفيان الثّوري عن يزيد بن أبّان عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ في قوله: **﴿ إنّا أنشأناهنّ إنشاءً ﴾**، قال: عجائز كنّا في الدنيا عمشاً رمصاً. **﴿ فجعلناهنّ أبكاراً ﴾**. وقال المسيب بن شريك: هنّ عجائز الدنيا أنشأهنّ الله تعالى خلقاً جديداً كلما أتاهنّ أزواجهنّ وجدوهنّ أبكاراً. وذكر المسيب عن غيره أنهنّ فضّلنَ على الحور العين بصلاتهنّ في الدنيا. وقال مقاتل وغيره: هنّ الحور العين أنشأهنّ الله لم يقع عليهنّ ولادة فجعلناهنّ أبكاراً عذارى وليس هناك وجع.

﴿ عرباً ﴾ قرأ حمزة وإسماعيل عن نافع وأبو بكر: **﴿ عرباً ﴾** ساكنة الراء الباقون بضمها وهي جمع عروب أي عواشق محببات إلى أزواجهنّ. قال الحسن ومجاهد وقتادة وسعيد بن جبير. وهي رواية الوالبي عن ابن عباس، وقال عكرمة عنه: ملقة. وقال عكرمة: غنجة. وقال أسامة بن زيد عن أبيه: عرباً حسنات الكلام. **﴿ أتراباً ﴾**، مستويات في السنّ على سنٍّ واحد، أخبرنا أبو سعيد الشريحي أنا أبو إسحاق الثعلبي أخبرني ابن فنجويه ثنا ابن شيبة أنا يزيد بن هارون عن حماد بن سلمة عن علي بن زيد عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «يدخل أهل الجنةِ الجنةَ جرداً مرداً بيضاً جعاداً مكحّلين أبناء ثلاث وثلاثين، على خلق آدم طوله ستّون ذراعاً في سبعة أذراع». أخبرنا أبو بكر محمد بن عبد الله بن أبي توبة أنا أبو طاهر محمد بن أحمد بن الحارث أنا محمد بن يعقوب الكسائي أنا عبد الله بن محمود ثنا أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الله الخلال ثنا عبد الله بن المبارك

فظننت أنهم أمتي فقيل لي هذا موسى وقومه ولكن انظر إلى الأفق فنظرت فإذا سواد عظيم فقيل لي انظر إلى الأفق الآخر فإذا سواد عظيم فقيل لي هذه أمتك ومعهم سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب ثم نهض فدخل منزله فخاض القوم في أولئك الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب قال بعضهم فلعلهم الذين صحبوا رسول الله ﷺ وقال بعضهم فلعلهم الذين ولدوا في الإسلام ولم يشركوا بالله وذكروا أشياء فخرج عليهم رسول الله ﷺ فقال ما الذي تخوضون فيه فأخبروه فقال هم الذين لا يرقون ولا يسترقون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون، فقام عكاشة بن محصن فقال يا رسول الله ادع الله أن يجعلني منهم فقال أنت منهم فقام رجل آخر فقال يا رسول الله ادع الله أن يجعلني منهم فقال سبقك بها عكاشة» الرهيط تصغير رهط وهم دون العشرة وقيل إلى الأربعين. (ق) عن عبد الله بن مسعود

عن رشد بن سعد حدّثني عمرو بن الحارث عن دراج أبي السمح عن أبي الهيثم عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «أدنى أهل الجنة الذي له ثمانون ألف خادم واثنتان وسبعون زوجة، وتنصب له قبّة من لؤلؤ وزبرجد وياقوت كما بين الجابية إلى صنعاء»، وبهذا الإسناد عن النبي ﷺ قال: «ينظر إلى وجهه في خدّها أصفى من المرآة، وإن أدنى لؤلؤة عليها تضيء ما بين المشرق والمغرب، وإنه ليكون عليها سبعون ثوباً ينفذها بصره حتى يرى مخّ ساقها من وراء ذلك». وبهذا الإسناد عن النبي ﷺ قال: «مَن مات من أهل الجنة من صغير أو كبير يُردّون بني ثلاثين سنة في الجنة لا يزيدون عليها أبداً، وكذلك أهل النار»، وبهذا الإسناد عن النبي ﷺ قال: «إن عليهم التيجان، إن أدنى لؤلؤة فيها تضيء ما بين المشرق والمغرب»، أخبرنا محمد بن عبد الله بن أبي توبة أنا أبو طاهر الحارثي أنا محمد بن يعقوب أنا عبد الله بن محمود أنا إبراهيم بن عبد الله الخلال أنا عبد الله بن المبارك عن محمد بن سليمان عن الحجّاج بن عتاب العبدي عن عبد الله بن معبد الرماني عن أبي هريرة قال: أدنى أهل الجنة منزلة وما منهم دنيء لمَن يغدو عليه ويروح عشرة آلاف خادم، مع كل واحد منهم طريفة ليست مع صاحبه.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ **لأصحاب اليمين** ﴾، يريد أنشأناهنّ لأصحاب اليمين.

﴿ **ثلّة من الأوّلين** ﴾، من المؤمنين الذين كانوا قبل هذه الأمة.

﴿ **وثلّة من الآخِرين** ﴾، من مؤمني هذه الأمة، هذا قول عطاء ومقاتل، أخبرنا أبو سعيد الشريحي أنا أبو إسحاق الثعلبي أخبرني الحسين بن محمد العدل ثنا عبد الله بن عبد الرحمن الدقاق ثنا محمد بن عبد العزيز ثنا عيسى بن المساور ثنا الوليد بن مسلم ثنا عيسى بن موسى عن عروة بن رويم قال: لمّا أنزل الله على رسوله ﴿ **ثلّة من الأوّلين * وقليل من الآخرين** ﴾ بكى عمر رضي الله عنه، فقال: يا نبيّ الله آمنّا برسول الله ﷺ وصدّقناه ومَن ينجو منّا قليل؟ فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿ **ثلّة من الأوّلين * وثلّة من الآخِرين** ﴾، فدعا رسول الله ﷺ عمر فقال: «قد أنزل الله عزّ وجلّ فيما قلت». فقال عمر رضي الله عنه: رضينا عن ربّنا وتصديق لنبيّنا، فقال رسول الله ﷺ: «من آدم إلينا ثلّة ومني إلى يوم القيامة ثلّة، ولا يستتمّها إلا سودان من رعاة الإبل ممّن قال لا إله إلاّ الله»، أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا مسدد ثنا حصين بن نمير عن حصين بن عبد الرحمن عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: خرج علينا رسول الله ﷺ يوماً فقال: «عُرضت عليّ الأمم فجعل يمرّ النبي ومعه الرجل والنبي ومعه الرجلان والنبي معه الرهط والنبي ليس معه أحد، ورأيت سواداً كثيراً سدّ الأفق فرجوت أن يكونوا أُمتي، فقيل: هذا موسى في قومه، ثم قيل لي: انظر فرأيت سواداً كثيراً سدّ الأفق فقيل لي: انظر هكذا وهكذا فرأيت سواداً كثيراً سدّ الأفق، فقيل: هؤلاء أُمتك ومع هؤلاء سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب، فتفرّق الناس ولم يبيّن لهم فتذاكر أصحاب النبي ﷺ فقالوا: أما نحن

قال «كنا مع رسول الله ﷺ في قبة نحواً من أربعين فقال أترضون أن تكونوا ربع أهل الجنة؟ قلنا نعم قال أترضون أن تكونوا ثلث أهل الجنة؟ قلنا نعم قال والذي نفس محمد بيده إني لأرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة وذلك أن الجنة لا يدخلها إلا نفس مؤمنة مسلمة وما أنتم في أهل الشرك إلا كالشعرة البيضاء في جلد الثور الأسود أو كالشعرة السوداء في جلد الثور الأحمر» وعن بريدة عن النبي ﷺ قال «أهل الجنة عشرون ومائة صف ثمانون منها من هذه الأمة وأربعون من سائر الأمم» أخرجه الترمذي وقال حديث حسن وذهب جماعة إلى أن الثلثين جميعاً من هذه الأمة وهو قول أبي العالية ومجاهد وعطاء بن أبي رباح والضحاك قالوا ثلة من الأولين من سابقي هذه الأمة وثلة من الآخرين من هذه الأمة أيضاً في آخر الزمان يدل على ذلك ما روى البغوي بإسناد الثعلبي عن ابن عباس في هذه الآية ثلة من الأولين وثلة من الآخرين قال قال رسول الله ﷺ «هما جميعاً من أمتي» وهذا القول هو اختيار الزجاج قال معناه جماعة ممن تبع النبي ﷺ وآمن به وعاينه وجماعة ممن آمن به وكان بعده ولم يعاينه.

فإن قلت كيف قال في الآية الأولى وقليل من الآخرين وقال في هذه الآية وثلة من الآخرين؟.

قلت: الآية الأولى في السابقين الأولين وقليل ممن يلحق بهم من الآخرين وهذه الآية في أصحاب اليمين وهم كثيرون من الأولين والآخرين وحكي عن بعضهم أن هذه ناسخة للأولى واستدل بحديث عروة بن رويم ونحوه والقول بالنسخ لا يصح لأن الكلام في الآيتين خبر والخبر لا يدخله النسخ. قوله تعالى:

فولدنا في الشرك ولكنّا آمنّا بالله ورسوله ولكن هؤلاء هم أبناؤنا فبلغ النبي ﷺ فقال: «هم الذين لا يتطيرون ولا يسترقّون ولا يكتوون وعلى ربّهم يتوكلون»، فقام عكاشة بن محصن فقال: أمنهم يا رسول الله؟ فقال: «نعم»، فقام آخر فقال: أمنهم أنا؟ قال عليه السلام: «قد سبقك بها عكاشة». ورواه عبد الله بن مسعود عن رسول الله ﷺ قال: «عرضتْ عليّ الأنبياء الليلة بأتّباعها حتى أتى عليّ موسى عليه السلام في كبكبه بني إسرائيل فلما رأيته أعجبوني، فقلت: أي ربّ هؤلاء؟ قيل: هذا أخوك موسى ومن بني إسرائيل، قلت: ربّ فأين أمتي؟ قيل: انظر عن يمينك فإذا ظراب مكة قد سدّت بوجوه الرجال، قيل: هؤلاء أمتك أرضيت؟ قلت: ربّ رضيت ربّ رضيت، قيل: انظر عن يسارك فإذا الأفق قد سُدّ بوجوه الرجال، قيل: هؤلاء أمتك أرضيت؟ قلت: ربّ رضيت، فقيل: إن مع هؤلاء سبعين ألفاً يدخلون الجنة لا حساب لهم، فقال نبي الله ﷺ إن استطعتم أن تكونوا من السبعين فكونوا وإن عجزتم وقصّرتم فكونوا من أهل الظراب وإن عجزتم فكونوا من أهل الأفق فإني قد رأيت ثمَّ أناساً يتهاوشون كثيراً»، أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا محمد بن بشّار ثنا غندر ثنا شعبة عن أبي إسحاق عن عمرو بن ميمون عن عبد الله قال: كنّا مع رسول الله ﷺ في قبّة فقال: «أترضون أن تكونوا ربع أهل الجنة»؟ قلنا: نعم، قال: «أترضون أن تكونوا ثلث أهل الجنة»؟ قلنا: نعم، قال: «والذي نفس محمد بيده إني لأرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة، وذلك أن الجنة لا يدخلها إلّا نفس مسلمة، وما أنتم في أهل الشرك إلّا كالشعرة البيضاء في جلد الثور الأسود أو كالشعرة السوداء في جلد الثور الأحمر». وذهب جماعة إلى أن الثلثين جميعاً من هذه الأمة، وهو قول أبي العالية ومجاهد وعطاء بن أبي رباح والضحاك، قالوا: ﴿ **ثلّة من الأوّلين** ﴾ من سابقي هذه الأمة ﴿ **وثلّة من الآخرين** ﴾ من هذه الأمة في آخر الزمان، أخبرنا أبو سعيد الشريحي أنا أبو إسحاق الثعلبي أخبرني الحسين بن محمد الدينوري ثنا أحمد بن إسحاق الضبّي أنا أبي خليفة الفضل بن الحباب ثنا محمد بن كثير أنا سفيان عن أبّان بن أبي عياش، عن سعيد بن جبير عن ابن عباس في هذه الآية: ﴿ **ثلّة من الأوّلين * وثلّة من الآخرين** ﴾ قال رسول الله ﷺ: «هما جميعاً من أمتي».

﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا
قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا
لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا
الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَارِبُونَ شُرْبَ
الْهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ ﴿٥٦﴾

﴿وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال﴾ قد تقدم أنه بمعنى التعجب من حالتهم وهم الذين يعطون كتبهم بشمائلهم ثم بين منقلبهم وما أعد لهم من العذاب فقال تعالى: **﴿في سموم﴾** أي في حر النار وقيل في ريح شديد الحرارة **﴿وحميم﴾** أي ماء حار يغلي، **﴿وظل من يحموم﴾** يعني في ظل من دخان شديد السواد قيل إن النار سواد وأهلها سود وكل شيء فيها أسود وقيل اليحموم اسم من أسماء النار **﴿لا بارد ولا كريم﴾** يعني لا بارد المنزل ولا كريم المنظر وذلك لأن فائدة الظل ترجع إلى أمرين أحدهما دفع الحر والثاني حسن المنظر وكون الإنسان فيه مكرماً وظل أهل النار بخلاف هذا لأنهم في ظل من دخان أسود حار، ثم بين بما استحقوا ذلك فقال تعالى: **﴿إنهم كانوا قبل ذلك﴾** يعني في الدنيا، **﴿مترفين﴾** يعني منعمين **﴿وكانوا يصرون على الحنث العظيم﴾** يعني على الذنب الكبير وهو الشرك وقيل الحنث العظيم اليمين الغموس وذلك أنهم كانوا يحلفون أنهم لا يبعثون وكذبوا في ذلك يدل عليه سياق الآية وهو قوله تعالى: **﴿وكانوا يقولون أئذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمبعوثون أو آباؤنا الأولون﴾** فرد الله تعالى عليهم بقوله **﴿قل إن الأولين والآخرين﴾** يعني الآباء والأبناء، **﴿لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم﴾** يعني أنهم يجمعون ويحشرون ليوم الحساب **﴿ثم إنكم أيها الضالون﴾** يعني عن الهدى **﴿المكذبون﴾** أي بالبعث والخطاب لكفار مكة وقيل إنه عام مع كل ضال مكذب، **﴿لآكلون من شجر من زقوم﴾** تقدم تفسيره **﴿فمالئون منها البطون**

قوله تعالى: **﴿ وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال * في سموم ﴾**، ريح حارّة، **﴿ وحميم ﴾**، ماء حارّ.

﴿ وظل من يحموم ﴾، دخان شديد السواد، تقول العرب: أسود يحموم إذا كان شديد السواد، وقال **الضحاك**: النار سوداء وأهلها سود، وكل شيء فيها أسود. وقال ابن كيسان اليحموم اسم من أسماء النار.

﴿ لا بارد ولا كريم ﴾، قال قتادة: لا بارد المنزل ولا كريم المنظر. وقال سعيد بن المسيب: ولا كريم ولا حسن، نظيره ﴿ من كل زوج كريم ﴾ [الشعراء: ٧، لقمان: ١٠]. وقال مقاتل: طيب.

﴿ إنهم كانوا قبل ذلك ﴾، يعني في الدنيا، **﴿ مترفين ﴾** منعمين.

﴿ وكانوا يصرّون ﴾، يقيمون **﴿ على الحنث العظيم ﴾**، على الذنب الكبير وهو الشرك. وقال الشعبي: الذنب العظيم اليمين الغموس. ومعنى هذا: أنهم كانوا يحلفون أنهم لا يُبعثون وكذبوا في ذلك.

﴿ وكانوا يقولون أئذا متنا وكنّا تراباً وعظاماً أئنّا لمبعوثون ﴾، قرأ أبو جعفر ونافع ويعقوب **﴿ أئذا ﴾** مستفهماً، **﴿ إنّا ﴾** بتركه، وقرأ الآخرون بالاستفهام فيهما.

﴿ أوَ آباؤنا الأوّلون * قل إن الأوّلين والآخرين * لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم * ثم إنكم أيها الضالون المكذبون * لآكلون من شجر من زقّوم * فمالؤون منها البطون * فشاربون عليه من الحميم * فشاربون شرب الهيم ﴾، قرأ أهل المدينة وعاصم وحمزة ﴿ شرب ﴾ بضم الشين، وقرأ الباقون بفتحها وهما لغتان فالفتح على

فشاربون عليه من الحميم فشاربون شرب الهيم﴾ يعني الإبل العطاش قيل إن الهيام داء يصيب الإبل فلا تروى معه ولا تزال تشرب حتى تهلك وقيل الهيم الأرض ذات الرمل التي لا تروى بالماء قيل يلقى على أهل النار العطش فيشربون من الحميم شرب الهيم فلا يروون ﴿هذا نزلهم﴾ يعني ما ذكر من الزقوم والحميم أي رزقهم وغذاؤهم وما أعد لهم ﴿يوم الدين﴾ يعني يوم يجازون بأعمالهم ثم احتج عليهم في البعث بقوله تعالى:

﴿نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾﴾

﴿نحن خلقناكم﴾ يعني ولم تكونوا شيئاً وأنتم تعلمون ذلك ﴿فلولا﴾ أي فهلا ﴿تصدقون﴾ يعني بالبعث بعد الموت.

قوله عز وجل: ﴿أفرأيتم ما تمنون﴾ يعني ما تصبون في الأرحام من النطف ﴿أأنتم تخلقونه﴾ أي أنتم تخلقون ما تمنون بشراً ﴿أم نحن الخالقون﴾ أي إنه خلق النطفة وصورها وأحياها فلم لا تصدقون بأنه واحد قادر على أن يعيدكم كما أنشأكم احتج عليهم في البعث بالقدرة على ابتداء الخلق، ﴿نحن قدرنا بينكم الموت﴾ يعني الآجال فمنكم من يبلغ الكبر والهرم ومنكم من يموت صبياً وشاباً وغير ذلك من الآجال القريبة والبعيدة وقيل معناه إنه جعل أهل السماء وأهل الأرض فيه سواء شريفهم ووضيعهم فعلى هذا القول يكون معنى قدرنا قضينا، ﴿وما نحن بمسبوقين﴾ يعني لا يفوتني شيء أريده ولا يمتنع مني أحد وقيل معناه وما نحن بمغلوبين عاجزين عن إهلاككم وإبدالكم بأمثالكم وهو قوله تعالى: ﴿على أن نبدل أمثالكم﴾ أي نأتي بخلق مثلكم بدلاً منكم في أسرع حين ﴿وننشئكم﴾ أي نخلقكم ﴿فيما لا تعلمون﴾ أي من الصور والمعنى نغير حليتكم إلى ما هو أسمح منها من أي خلق

المصدر والضم اسم بمعنى المصدر كالضعف و﴿ الهيم ﴾ الإبل العطاش، قال عكرمة وقتادة: الهيام داء يصيب الإبل لا تُروى معه ولا تزال تشرب حتى تهلك. يقال: جمل أهيم، وناقة هيماء، والإبل هيم. وقال الضحاك وابن عيينة: الهيم الأرض السهلة ذات الرمل.

﴿ هذا نزلهم ﴾، يعني ما ذكر من الزقوم والحميم، أي رزقهم وغذاؤهم وما أعدلهم، ﴿ يوم الدين ﴾، يوم يجازون بأعمالهم ثم احتجّ عليهم في البعث.

فقال تعالى: ﴿ نحن خلقناكم ﴾، قال مقاتل خلقناكم ولم تكونوا شيئاً وأنتم تعلمون ذلك، ﴿ فلولا ﴾ فهلاّ ﴿ تصدقون ﴾، بالبعث.

﴿ أفرأيتم ما تمنون ﴾، تصبّون في الأرحام من النطف.

﴿ أأنتم تخلقونه ﴾، يعني أأنتم تخلقونه ما تمنون بشراً، ﴿ أم نحن الخالقون * نحن قدّرنا ﴾، قرأ ابن كثير بتخفيف الدال والباقون بتشديدها وهما لغتان، ﴿ بينكم الموت ﴾، قال مقاتل فمنكم مَن يبلغ الهرم ومنكم مَن يموت صبيّاً وشـابّاً. وقال الضحاك: تقديره إنه جعل أهل السماء وأهل الأرض فيه سواء فعلى هذا يكون معنى قدّرنا قضينا. ﴿ وما نحن بمسبوقين ﴾، بمغلوبين عاجزين عن إهلاككم وإبدالكم بأمثالكم .

شئنا وقيل نبدل صفاتكم فنجعلكم قردة وخنازير كما فعلنا بمن كان قبلكم أي إن أردنا أن نفعل ذلك بكم ما فاتنا، وقال سعيد بن المسيب فيما لا تعلمون في حواصل طيور سود كأنها الخطاطيف تكون ببرهوت وهو واد باليمن وهذه الأقوال كلها تدل على المسخ وعلى أنه لو شاء أن يبدلهم بأمثالهم من بني آدم قدر ولو شاء أن يمسخهم في غير صورهم قدر، وقال بعض أهل المعاني هذا يدل على النشأة الثانية يكونها الله تعالى في وقت لا يعلمه العباد ولا يعلمون كيفيته كما علموا الإنشاء الأول من جهة التناسل ويكون التقدير على هذا وما نحن بمسبوقين على أن ننشئكم في وقت لا تعلمونه يعني وقت البعث والقيامة، وفيه فائدة وهو التحريض على العمل الصالح لأن التبديل والإنشاء هو الموت والبعث وإذا كان ذلك واقعاً في الأزمان ولا يعلمه أحد فينبغي أن لا يتكل الإنسان على طول المدة ولا يغفل عن إعداد العدة ﴿ولقد علمتم النشأة الأولى﴾ أي الخلقة الأولى ولم تكونوا شيئاً وفيه تقرير للنشأة الثانية يوم القيامة ﴿فلولا تذكرون﴾ أي بأني قادر على إعادتكم كما قدرت على إبدائكم أول مرة.

قوله تعالى: ﴿أفرأيتم ما تحرثون﴾ لما ذكر الله تعالى ابتداء الخلق وما فيه من دلائل الوحدانية ذكر بعده الرزق لأن به البقاء وذكر أموراً ثلاثة المأكول والمشروب وما به إصلاح المأكول والمشروب ورتبه ترتيباً حسناً فذكر المأكول أولاً لأنه هو الغذاء وأتبعه المشروب لأن به الاستمراء ثم النار التي بها الإصلاح وذكر من أنواع المأكول الحب لأنه هو الأصل ومن المشروب الماء لأنه أيضاً هو الأصل وذكر من المصلحات النار لأن بها إصلاح أكثر الأغذية، فقوله أفرأيتم ما تحرثون أي ما تثيرون من الأرض وتلقون فيه البذر ﴿أأنتم تزرعونه﴾ أي تنبتونه وتنشئونه حتى يشتد ويقوم على سوقه ﴿أم نحن الزارعون﴾ معناه أأنتم فعلتم ذلك أم الله ولا شك في أن إيجاد احب في السنبل ليس بفعل أحد غير الله تعالى وإن كان إلقاء البذر من فعل الناس، ﴿لو نشاء لجعلناه﴾ يعني ما تحرثونه وتلقون فيه من البذر، ﴿حطاماً﴾ أي تبناً لا قمح فيه وقيل هشيماً لا ينتفع به في مطعم ولا غيره وقيل هو جواب لمعاند يقول نحن نحرثه وهو بنفسه يصير زرعاً لا بفعلنا ولا بفعل غيرنا فرد الله عليّ هذا المعاند بقوله لو نشاء لجعلناه حطاماً فهل تقدرون أنتم على حفظه أو هو يدفع عن نفسه بنفسه تلك الآفات التي تصيبه ولا يشك أحد في أن دفع الآفات ليس إلا بإذن الله وحفظه،

فذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿ على أن نبدل أمثالكم ﴾، يعني نأتي بخلق مثلكم بدلاً منكم، ﴿ وننشئكم ﴾، نخلقكم ﴿ فيما لا تعلمون ﴾، من الصور، قال مجاهد: في أيّ خلق شئنا. وقال الحسن: أي نبدل صفاتكم فنجعلكم قردة وخنازير كما فعلنا بمَن كان قبلكم، يعني إن أردنا أن نفعل ذلك ما فاتنا ذلك. وقال سعيد بن المسيب: فيما لا تعلمون يعني في حواصل طير سود تكون ببرهوت كأنها الخطاطيف وبرهوت وادٍ باليمن.

﴿ ولقد علمتم النشأة الأولى ﴾، الخلقة الأولى ولم تكونوا شيئاً. ﴿ فلولا تذّكرون ﴾، أني قادر على إعادتكم كما قدرت على أعدائكم.

﴿ أفرأيتم ما تحرثون ﴾، يعني تثيرون من الأرض وتلقون فيها من البذر.

﴿ أأنتم تزرعونه ﴾، تنبتونه، ﴿ أم نحن الزارعون ﴾، المنبتون.

﴿ لو نشاء لجعلناه حطاماً ﴾، قال عطاء تبناً لا قمح فيه، وقيل: هشيماً لا ينتفع به في مطعم وغذاء، ﴿ فظلتم ﴾، وأصله فظللتم، حُذفت إحدى اللامين تخفيفاً، ﴿ تفكهون ﴾، تتعجبون بما نزل بكم في زرعكم، وهو قول عطاء والكلبي ومقاتل. وقيل: تندمون على نفقاتكم، وهو قول يمان، نظيره: ﴿ فأصبح يقلب كفّيه على ما أنفق فيها ﴾ [الكهف: ٤٢]، وقال الحسن: تندمون على ما سلف منكم من المعصية التي أوجبت تلك العقوبة. وقال عكرمة: تتلاومون. وقال ابن كيسان: تحزنون. قال الكسائي: هو تلهّف على ما فات وهو من الأضداد، تقول

﴿فظلتم تفكهون﴾ أي تتعجبون مما نزل بكم في زرعكم وقيل تندمون على نفقاتكم وقيل تندمون على ما سلف منكم من المعاصي التي أوجبت تلك العقوبة وقيل تتلاومون وقيل تحزنون وقيل هو تلهف على ما فات.

إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾

﴿إنا لمغرمون﴾ أي وتقولون فحذف القول ومعنى الغرم ذهاب المال بغير عوض وقيل معناه لموقع بنا وقال ابن عباس رضي الله عنهما لمعذبون يعني أنهم عذبوا بذهاب أموالهم بغير فائدة والمعنى إنا غرمنا الحب الذي بذرناه فذهب بغير عوض، ﴿بل نحن محرومون﴾ أي ممنوعون والمعنى حرمنا الذي كنا نطلبه من الريع في الزرع، ﴿أفرأيتم الماء الذي تشربون أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون﴾ ذكرهم الله تعالى نعمه عليهم بإنزال المطر الذي لا يقدر عليه إلا الله عز وجل: ﴿لو نشاء جعلناه أجاجاً﴾ قال ابن عباس شديد الملوحة وقيل مراً لا يمكن شربه ﴿فلولا﴾ أي فلا ﴿تشكرون﴾ يعني نعمة الله عليكم ﴿أفرأيتم النار التي تورون﴾ يعني تقدحون من الزند ﴿أأنتم أنشأتم شجرتها﴾ يعني التي تقدح منها النار وهي المرخ والعفار وهما شجرتان تقدح منهما النار وهما رطبتان وقيل أراد جميع الشجر الذي توقد منه النار ﴿أم نحن المنشئون نحن جعلناها﴾ يعني نار الدنيا ﴿تذكرة﴾ أي للنار الكبرى إذا رأى الرائي هذه النار ذكر بها نار جهنم فيخشى الله ويخاف عقابه وقيل موعظة يتعظ بها المؤمن. (ق) عن أبي هريرة رضي الله عنه أن

العرب: تفكهت أي تنعمت وتفكهت أي حزنت.

﴿ إنّا لمغرمون ﴾، قرأ أبو بكر عن عاصم (أئنا) بهمزتين وقرأ الآخرون على الخبر، ومجاز الآية فظلتم تفكهون وتقولون إنّا لمغرمون. وقال مجاهد وعكرمة لموقع بنا. وقال ابن عباس وقتادة: معذبون، والغرام العذاب. وقال الضحاك وابن كيسان: غرمنا أموالنا وصار ما أنفقنا غرماً علينا. والمغرم الذي ذهب ماله بغير عوض.

وهو قوله: ﴿ بل نحن محرومون ﴾، محدودون ممنوعون أي حرمنا ما كنّا نطلبه من الريع في الزرع.

﴿ أفرأيتم الماء الذي تشربون * أأنتم أنزلتموه من المزن ﴾، السحاب واحدتها مزنة، ﴿ أم نحن المنزلون * لو نشاء جعلناه أجاجاً ﴾، قال ابن عباس شديد الملوحة، قال الحسن: مرّاً. ﴿ فلولا تشكرون ﴾.

﴿ أفرأيتم النار التي تورون ﴾، تقدحون وتستخرجون من زندكم.

﴿ أأنتم أنشأتم شجرتها ﴾، التي تقدح منها النار وهي المرخ والعفار، ﴿ أم نحن المنشئون * نحن جعلناها ﴾، خلقناها يعني نار الدنيا، ﴿ تذكرة ﴾، للنار الكبرى إذا رآها الرائي ذكر جهنم، قاله عكرمة ومجاهد ومقاتل. وقال عطاء: موعظة يتّعظ بها المؤمن. أخبرنا أبو الحسن محمد بن محمد السرخسي أنا أبو علي زاهر بن أحمد الفقيه ثنا أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الصمد الهاشمي أنا أبو مصعب عن مالك عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «نار بني آدم التي يوقدون جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم»، قالوا: يا رسول الله إن كانت لكافية، قال: «فإنها فضلت عليها بتسعة وستّين جزءاً». ﴿ ومتاعاً ﴾، بلغة ومنفعة، ﴿ للمقوين ﴾، المسافرين والمقوي النازل في الأرض والقى والقواء هـو القفر الخالية البعيدة من العمران يقال قوت الدار إذا خلت من سكانها والمعنى أنه ينتفع بها أهل البوادي والأسفار، فإن منفعتهم بها أكثر من منفعة المقيم وذلك أنهم

رسول الله ﷺ قال «ناركم هذه التي توقدون جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم قالوا والله إن كانت لكافية يا رسول الله قال فإنها فضلت عليها بتسعة وستين جزءاً كلها مثل حرها» ﴿ومتاعاً﴾ أي بلغة ومنفعة ﴿للمقوين﴾ يعني للمسافرين والمقوي النازل في الأرض القواء وهي القفر الخالية البعيدة من العمران والمعنى أنه ينتفع بها أهل البوادي والسفار فإن منفعتهم أكثر من المقيم فإنهم يوقدونها بالليل لتهرب الشماع ويهتدي بها الضال إلى غير ذلك من المنافع هذا قول أكثر المفسرين وقيل المقوين الذين يستمتعون بها في الظلمة ويصطلون بها من البرد وينتفعون بها في الطبخ والخبز إلى غير ذلك من المنافع وقيل المقوي من الأضداد يقال للفقير مقو لخلوه من المال ويقال للغني مقو لقوته على ما يريد والمعنى أن فيها متاعاً ومنفعة للفقراء والأغنياء جميعاً لا غنى لأحد عنها.

﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ۝٧٤ ۞ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ۝٧٦ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ۝٧٧ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ۝٧٨ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ۝٧٩﴾

﴿فسبح باسم ربك العظيم﴾ لما ذكر الله ما يدل على وحدانيته وقدرته وإنعامه على سائر الخلق خاطب نبيه ﷺ ويجوز أن يكون خطاباً لكل فرد من الناس فقال تعالى فسبح باسم ربك أي برِّىء الله ونزهه عما يقول المشركون في صفته والاسم يكون بمعنى الذات والمعنى فسبح بذات ربك العظيم.

قوله عز وجل: ﴿فلا أقسم﴾ قال أكثر المفسرين معناه فأقسم ولا صلة مؤكدة وقيل لا على أصلها وفي معناها وجهان أحدهما أنها ترجع إلى ما تقدم ومعناها النهي وتقديره فلا تكذبوا ولا تجحدوا ما ذكرته من النعم والحجج.

الوجه الثاني: أن لا رد لما قاله الكفار في القرآن من أنه سحر وشعر وكهانة والمعنى ليس الأمر كما تقولون ثم استأنف القسم فقال أقسم والمعنى لا والله لا صحة لقول الكفار وقيل إن لا هنا معناها النفي فهو كقول القائل لا تسأل عما جرى وهو يريد تعظيم الأمر لا النهي عن السؤال، ﴿بمواقع النجوم﴾ قال ابن عباس أراد نجوم القرآن فإنه كان ينزل على رسول الله ﷺ متفرقاً وقيل أراد مغارب النجوم ومساقطها وقيل أراد منازلها وقيل انكدارها وانتثارها يوم القيامة وقيل مواقعها في اتباع الشياطين عند الرجم ﴿وإنه القسم لو تعلمون عظيم﴾ قيل هذا يدل على أن المراد بمواقع النجوم نزول القرآن والمعنى إن القسم بمواقع النجوم لقسم عظيم لو تعلمون عظمته لانتفعتم بذلك وقيل معنى لو

يوقدونها ليلاً لتهرب منهم السِّباع ويهتدي بها الضلّال وغير ذلك من المنافع، هذا قول أكثر المفسّرين. وقال مجاهد وعكرمة: للمقوين يعني للمستمتعين بها من الناس أجمعين المسافرين والحاضرين يستضيئون بها في الظلمة ويصطلون من البرد، وينتفعون بها في الطبخ والخبز، قال الحسن: بلغة للمسافرين يتبلغون بها إلى أسفارهم يحملونها في الخرق والجواليق. وقال ابن زيد: للجائعين تقول العرب أقويت منذ كذا وكذا أي ما أكلت شيئاً. قال قطرب: المقوي من الأضداد يقال للفقير مقو لخلوّه من المال، ويقال للغني مقو لقوّته على ما يريد، يقال: أقوى الرجل الرجل إذا قويت دوابه وكثر ماله، وصار إلى حالة القوة، والمعنى أن فيها متاعاً للأغنياء والفقراء جميعاً لا غنى لأحد عنها.

﴿ فسبّح باسم ربّك العظيم ﴾.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ فلا أُقسم بمواقع النجوم ﴾، قال أكثر المفسّرين: معناه أُقسم ولا صلة، وكان عيسى بن عمر يقرأ: فلا قسم، على التحقيق. وقيل: قوله: ﴿ لا ﴾ ردّ لما قاله الكفّار في القرآن إنه سحر وشعر وكهانة، معناه ليس الأمر كما يقولون ثم استأنف القسم، فقال: ﴿ أقسم بمواقع النجوم ﴾. قرأ حمزة والكسائي بموقع على

تعلمون أي فاعلموا عظمته وقيل إنه اعتراض بين القسم والمقسم عليه والمعنى فأقسم بمواقع النجوم، ﴿إنه لقرآن كريم﴾ أي إن الكتاب الذي أنزل على محمد ﷺ لقرآن كريم أي عزيز مكرم لأنه كلام الله تعالى ووحيه إلى نبيه ﷺ وقيل الكريم الذي من شأنه أن يعطي الكثير وسمي القرآن كريماً لأنه يفيد الدلائل التي تؤدي إلى الحق في الدين وقيل الكريم اسم جامع لما يحمد والقرآن الكريم لما يحمد فيه من الهدى والنور والبيان والعلم والحكم فالفقيه يستدل به ويأخذ منه والحكيم يستمد منه ويحتج به والأديب يستفيد منه ويتقوى به فكل عالم يطلب أصل علمه منه وقيل سمي كريماً لأن كل أحد يناله ويحفظه من كبير وصغير وذكي وبليد بخلاف غيره من الكتب، وقيل إن الكلام إذا كرر مراراً يسأمه السامعون ويهون في الأعين وتمله الآذان والقرآن عزيز كريم لا يهون بكثرة التلاوة ولا يخلق بكثرة الترداد ولا يمله السامعون ولا يثقل على الألسنة بل هو غض طري يبقى أبد الدهر كذلك ﴿في كتاب مكنون﴾ أي مصون مستور عند الله تعالى في اللوح المحفوظ من الشياطين من أن يناله بسوء وقيل المراد بالكتاب المصحف ومعنى مكنون مصون محفوظ من التبديل والتحريف والقول الأول أصح، ﴿لا يمسه﴾ أي ذلك الكتاب المكنون ﴿إلا المطهرون﴾ وهم الملائكة الموصوفون بالطهارة من الشرك والذنوب والأحداث يروى هذا القول عن ابن عباس وأنس وهو قول سعيد بن جبير وأبي العالية وقتادة وابن زيد وقيل هم السفرة الكرام البررة وعلى القول الثاني من أن المراد بالكتاب المصحف فقيل معنى لا يمسه إلا المطهرون أي من الشرك وكان ابن عباس ينهى أن تمكن اليهود والنصارى من قراءة القرآن قال الفراء لا يجد طعمه ونفعه إلا من آمن به وقيل معناه لا يقرأه إلا الموحدون وقال قوم معناه لا يمسه إلا المطهرون من الأحداث والجنابات وظاهر الآية نفي ومعناها نهي قالوا لا يجوز للجنب ولا للحائض ولا للمحدث حمل المصحف ولا مسه وهو قول عطاء وطاوس وسالم والقاسم وأكثر أهل العلم وبه قال مالك والشافعي وأكثر الفقهاء يدل عليه ما روى مالك في الموطأ عن عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم إن في الكتاب الذي كتبه رسول الله ﷺ لعمرو بن حزم «أن لا تمس القرآن إلا طاهراً» أخرجه مالك مرسلاً وقد جاء موصولاً عن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم عن أبيه عن جده أن رسول الله ﷺ كتب إلى أهل اليمن بهذا والصحيح فيه الإرسال وروى الدارقطني بسنده عن سالم عن أبيه قال قال رسول الله ﷺ «لا يمس القرآن إلا طاهر» والمراد بالقرآن المصحف سماه قرآناً على قرب الجوار والاتساع، كما روي «أن رسول الله ﷺ نهى أن يسافر بالقرآن إلى أرض العدو» وأراد به المصحف وقال الحكم وحماد وأبو حنيفة يجوز للمحدث والجنب حمل المصحف ومسه بغلافه.

التوحيد. وقرأ الآخرون بمواقع على الجميع. قال ابن عباس: أراد نجوم القرآن فإنه كان نزل على رسول الله ﷺ متفرّقاً نجوماً. وقال جماعة من المفسّرين: أراد مغارب النجوم ومساقطها. وقال عطاء بن أبي رباح أراد منازلها. وقال الحسن: أراد انكدارها وانتثارها يوم القيامة.

﴿ وإنه لقسم لو تعلمون عظيم * إنه ﴾، يعني هذا الكتاب وهو موضع القسم. ﴿ لقرآن كريم ﴾، عزيز مكرم لأنه كلام الله. قال بعض أهل المعاني: الكريم الذي من شأنه أن يعطي الخير الكثير.

﴿ في كتاب مكنون ﴾، مصون عند الله في اللوح المحفوظ محفوظ من الشياطين.

﴿ لا يمسّه ﴾، أي ذلك الكتاب المكنون، ﴿ إلاّ المطهّرون ﴾، وهم الملائكة الموصوفون بالطهارة يُروى هذا عن أنس وهو قول سعيد بن جبير وأبي العالية، وقتادة وابن زيد: أنهم الملائكة، وروى حسّان عن الكلبي قال هم السفرة الكِرام البَرَرَة وروى محمد بن الفضل عنه لا يقرؤه إلاّ الموحدون. قال عكرمة: وكان ابن عباس ينهى أن يمكّن اليهود والنصارى من قراءة القرآن. قال الفرّاء: لا يجد طعمه ونفعه إلاّ مَن آمن به. وقال قوم: معناه لا يمسّه إلاّ المطهّرون من الأحداث والجنابات. وظاهر الآية نفي ومعناها نهي، قالوا: لا يجوز للجُنُب ولا للحائض ولا

فإن قلت: إذا كان الأصح أن المراد من الكتاب هو اللوح المحفوظ وأن المراد من «لا يمسه إلا المطهرون» هم الملائكة ولو كان المراد نفي الحدث لقال لا يمسه إلا المتطهرون من التطهر فكيف يصح قول الشافعي لا يصح للمحدث مس المصحف.

قلت من قال إن الشافعي أخذه من صريح الآية حمله على التفسير الثاني وهو القول بأن المراد من الكتاب هو المصحف ومن قال إنه أخذه من طريق الاستنباط قال المس بطهر صفة دالة على التعظيم والمس بغير طهر نوع استهانة وهذا لا يليق بمباشرة المصحف الكريم والصحيح أنه أخذه من السنة ودليله ما تقدم من الأحاديث والله أعلم. قوله تعالى:

﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾﴾

﴿**تنزيل من رب العالمين**﴾ صفة للقرآن أي القرآن منزل من عند رب العالمين سمي المنزل تنزيلاً على اتساع اللغة يقال للمقدور قدر وللمخلوق خلق وفيه رد على من قال إن القرآن شعر أو سحر أو كهانة فقال الله تعالى بل القرآن تنزيل من رب العالمين.

قوله عز وجل: ﴿**أفبهذا الحديث**﴾ يعني القرآن ﴿**أنتم**﴾ أي يا أهل مكة ﴿**مدهنون**﴾ قال ابن عباس مكذبون وقيل كافرون والمدهن والمداهن الكذاب والمنافق والإدهان الجري في الباطل على خلاف الظاهر هذا أصله ثم قيل للمكذب والكافر مدهن وإن صرح بالتكذيب والكفر، ﴿**وتجعلون رزقكم**﴾ أي حظكم ونصيبكم من القرآن ﴿**أنكم تكذبون**﴾ قال الحسن في هذه الآية خسر عبد لا يكون حظه من كتاب الله إلا التكذيب وقال جماعة من المفسرين معناه وتجعلون شكركم أنكم تكذبون أي بنعمة الله عليكم وهذا في الاستسقاء بالأنواء وذلك أنهم كانوا إذا مطروا يقولون مطرنا بنوء كذا ولا يرون ذلك المطر من فضل الله عليهم فقيل لهم أتجعلون رزقكم أي شكركم بما رزقكم التكذيب فمن نسب الإنزال إلى النجم فقد كذب برزق الله تعالى ونعمه وكذب بما جاء به القرآن والمعنى أتجعلون بدل الشكر التكذيب، (ق) عن يزيد بن خالد الجهني قال «صلى بنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح بالحديبية في أثر سماء كانت من الليل فلما انصرف أقبل على الناس فقال هل تدرون ماذا قال ربكم؟ قالوا الله ورسوله أعلم قال قال أصبح من عبادي

المحدث حمل المصحف ولا مسّه، وهو قول عطاء وطاوس وسالم والقاسم وأكثر أهل العلم، وبه قال مالك والشافعي وقال الحكم وحمّاد وأبو حنيفة: يجوز للمحدث والجنب حمل المصحف ومسّه بغلاف، والأول قول أكثر الفقهاء، أخبرنا أبو الحسن السرخسي أنا زاهر بن أحمد أنا أبو إسحاق الهاشمي أنا أبو مصعب عن مالك عن عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم أن في الكتاب الذي كتبه رسول الله ﷺ لعمرو بن حازم أن لا يمسّ القرآن إلّا طاهر والمراد بالقرآن المصحف، سمّاه قرآنا على قرب الجوار والاتّساع. كما رُوِيَ أن رسول الله ﷺ: «نهى أن يُسافَر بالقرآنِ إلى أرضِ العدو»، وأراد به المصحف.

﴿ **تنزيل من ربّ العالمين** ﴾، أي القرآن مُنَزَل من عند ربّ العالمين سُمّي المُنزَل تنزيلاً على اتّساع اللغة، كما يقال للمقدور قدر وللمخلوق خلق.

﴿ **أفبهذا الحديث** ﴾، يعني القرآن، ﴿ **أنتم** ﴾، يا أهل مكة، ﴿ **مدهنون** ﴾، قال ابن عباس: مكذبون. وقال مقاتل بن حيّان: كافرون نظيره: ﴿ ودُّوا لو تدهن فيدهنون ﴾ [القلم: ٩]، والمدهن والمداهن الكذاب

مؤمن بي وكافر فأما من قال مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي كافر بالكواكب وأما من قال مطرنا بنوء كذا وكذا فذلك كافر بي مؤمن بالكواكب» رواه مسلم وفيه عن ابن عباس عن رسول الله ﷺ بمعناه وزاد فنزلت هذه الآية فلا أقسم بمواقع النجوم إلى قوله وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون، وفيه عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال ما أنزل الله من السماء من بركة إلا أصبح فريق من الناس بها كافرين ينزل الله الغيث فيقولون الكوكب كذا وكذا وفي رواية بكوكب كذا وكذا عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ «وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون قال شكركم تقولون مطرنا بنوء كذا وكذا وبنجم كذا وكذا» وفي رواية بكوكب كذا وكذا أخرجه الترمذي وقال حديث حسن غريب.

قوله في أثر سماء أي أثر مطر والنوء الكوكب يقال ناء النجم ينوء إذا سقط وغاب وقيل ناء إذا نهض وطلع واختلف العلماء في معنى الحديث وكفر من قال مطرنا بنوء كذا على قولين أحدهما أنه كفر بالله تعالى سالب لأصل الإيمان مخرج عن ملة الإسلام وذلك فيمن قال ذلك معتقداً أن الكوكب فاعل مدبر منشىء للمطر كما كان بعض الجاهلية يزعم فمن اعتقد هذا فلا شك في كفره، وهذا القول هو الذي ذهب إليه جماهير العلماء منهم الشافعي وهو ظاهر الحديث وعلى هذا لو قال مطرنا بنوء كذا وكذا وهو معتقد أن إيجاد المطر من الله ورحمته وأن النوء ميقات له ومراده إنا مطرنا في وقت طلوع نجم كذا ولم يقصد إلى فعل النجم كما جاء عن عمر أنه استسقى بالمصلى ثم نادى العباس كم بقي من نوء الثريا؟ فقال إن العلماء يزعمون أنها تعترض في الأفق سبعاً بعد وقوعها فوالله ما مضت تلك السبع حتى غيث الناس وإنما أراد عمركم بقي من الوقت الذي جرت العادة أنه إذا تم أتى الله بالمطر فهذا جائز لا كفر فيه واختلفوا في كراهية هذا والأظهر أنها كراهية تنزيه لا إثم فيها ولا تحريم وسبب هذه الكراهة أنها كلمة مترددة بين الكفر وغيره فيساء الظن بقائلها ولأنها من شعار الجاهلية ومن سلك مسلكهم، والقول الثاني في تأويل أصل الحديث أن المراد بالكفر كفر النعمة لله تعالى لاقتصاره على إضافة الغيث إلى الكواكب وهذا جار فيمن لا يعتقد تدبير الكواكب

والمنافق، وهو من الادهان وهو الجري في الباطن على خلاف الظاهر، هذا أصله ثم قيل للمكذِّب مدهن وإن صرّح بالتكذيب والكفر.

﴿ **وتجعلون رزقكم** ﴾، حظّكم ونصيبكم من القرآن، ﴿ **أنكم تكذبون** ﴾، قال الحسن في هذه الآية: خسر عبد لا يكون حظه من كتاب الله إلّا التكذيب به. وقال جماعة من المفسّرين: معناه وتجعلون شكركم أنكم تكذبون. وقال الهيثم بن عدي: إن من لغة أزد شنوءة ما رزق فلان بمعنى ما شكر وهذا في الاستسقاء بالأنواء وذلك أنهم كانوا يقولون: إذا مطروا مطرنا بنوء كذا ولا يرون ذلك من فضل الله تعالى، فقيل لهم: أتجعلون رزقكم أي شكركم بما رزقتم يعني شكر رزقكم التكذيب، فحذف المضاف وأُقيم المضاف إليه مقامه، أخبرنا أبو الحسن السرخسي أنا زاهر ابن أحمد أنا أبو إسحاق الهاشمي أنا أبو مصعب عن ملك عن صالح بن كيسان عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود عن زيد بن خالد الجهني قال: صلّى بنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح بالحديبية على أثر سماء كانت من الليل، فلما انصرف أقبل على الناس فقال: «هل تدرون ماذا قال ربكم»؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «قال أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما مَن قال مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي، وكافر بالكواكب، وأما مَن قال: مطرنا بنوء كذا وكذا، فذلك كافر بي ومؤمن بالكواكب». ورواه ابن عباس عن رسول الله ﷺ وزاد: فنزلت هذه الآية ﴿ **فلا أُقسم بمواقع النجوم** ﴾ إلى قوله: ﴿ **وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون** ﴾، أخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر أنا عبد الغافر بن محمد أنا محمد بن عيسى الجلودي أنا إبراهيم بن محمد بن سفيان ثنا مسلم بن الحجّاج حدّثني محمد بن سلمة المرادي ثنا عبد الله بن وهب عن عمرو بن الحارث أنا أبو يونس حدّثه عن أبي

ويؤيد هذا التأويل حديث أبي هريرة «ما أنزل الله من السماء من بركة إلا أصبح فريق من الناس بها كافرين» فقوله بها يدل على أنه كفر بالنعمة والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿فلولا﴾ أي فهلا ﴿إذا بلغت الحلقوم﴾ أي النفس أو الروح إلى الحلقوم عند الموت ﴿وأنتم﴾ يعني يا أهل الميت ﴿حينئذ تنظرون﴾ يعني إلى الميت متى تخرج نفسه وقيل تنظرون إلى أمري وسلطاني لا يمكنكم الدفع ولا تملكون شيئاً.

﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾﴾

﴿ونحن أقرب إليه منكم﴾ أي بالعلم والقدرة والرؤية وقيل ورسلنا الذين يقبضون روحه أقرب إلى الميت منكم ﴿ولكن لا تبصرون﴾ أي الذين حضروه من الملائكة لقبض روحه وقيل لا تبصرون أي لا تعلمون ذلك ﴿فلولا إن كنتم غير مدينين﴾ أي مملوكين وقيل محاسبين ومجزيين ﴿ترجعونها إن كنتم صادقين﴾ أي تردون نفس هذا الميت إلى جسده بعد ما بلغت الحلقوم فأجاب عن قوله فلولا إذا بلغت الحلقوم وعن قوله فلولا إن كنتم غير مدينين بجواب واحد وهو قوله ترجعونها والمعنى إن كان الأمر كما تقولون إنه لا بعث ولا حساب ولا إله يجازي فهلا تردون نفس من يعز عليكم إذا بلغت الحلقوم وإذا لم يمكنكم ذلك فاعلموا أن الأمر إلى غيركم وهو الله تعالى فآمنوا به ثم ذكر

هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ما أنزل الله من السماء من بركة إلاّ أصبح فريق من الناس بها كافرين، ينزل الله تعالى الغيث فيقولون: مطرنا بكوكب كذا وكذا».

قوله عزّ وجلّ: ﴿ فلولا ﴾، فهلاّ، ﴿ إذا بلغت الحلقوم ﴾، أي بلغت النفس الحلقوم عند الموت.

﴿ وأنتم حينئذ تنظرون ﴾، يريد وأنتم يا أهل الميت تنظرون إليه متى تخرج نفسه. وقيل: معنى قوله تنظرون أي إلى أمري وسلطاني لا يمكنكم الدفع ولا تملكون شيئاً.

﴿ ونحن أقرب إليه منكم ﴾، بالعلم والقدرة والرؤية. وقيل: ورسلنا الذين يقبضون روحه أقرب إليه منكم، ﴿ ولكن لا تبصرون ﴾، الذين حضروه.

﴿ فلولا ﴾، فهلاّ ﴿ إن كنتم غير مدينين ﴾، مملوكين، وقال أكثرهم: محاسبين ومجزيين.

﴿ ترجعونها إن كنتم صادقين ﴾، أي تردون نفس هذا الميت إلى جسده بعدما بلغت الحلقوم فأجاب عن قوله: ﴿ فلولا إذا بلغت الحلقوم ﴾ وعن قوله: ﴿ فلولا إن كنتم غير مدينين ﴾ بجواب واحد، ومثله قوله عزّ وجلّ: ﴿ فإما يأتينّكم منّي هدى فمَن تبع هداي فلا خوف عليهم ﴾ [البقرة: ٣٨] أجيبا بجواب واحد، معناه إن كان الأمر كما تقولون أنه لا بعث ولا حساب ولا إله يجازي فهلاّ تردّون نفس مَن يعزّ عليكم إذا بلغت الحلقوم، وإذ لم يمكنكم ذلك فاعلموا أن الأمر إلى غيركم وهو الله عزّ وجلّ فآمنوا به، ثم تذكر طبقات الخلق عند الموت وبين درجاتهم فقال:

﴿ فأما إن كان من المقرّبين ﴾، وهم السابقون.

طبقات الخلق عند الموت وبين درجاتهم فقال تعالى: ﴿فأما إن كان من المقربين﴾ يعني السابقين. ﴿فروح﴾ أي فله روح وهو الراحة وقيل فله فرح وقيل رحمة ﴿وريحان﴾ أي وله استراحة وقيل رزق وقيل هو الريحان الذي يشم قال أبو العالية لا يفارق أحد من المقربين الدنيا حتى يؤتى بغصن من ريحان الجنة فيشمه فتقبض روحه ﴿وجنة نعيم﴾ أي وله جنة النعيم يفضي إليها في الآخرة قال أبو بكر الوراق الروح النجاة من النار والريحان رضوان دار القرار ﴿وأما إن كان﴾ يعني المتوفى ﴿من أصحاب اليمين فسلام لك من أصحاب اليمين﴾ أي فسلامة لك يا محمد منهم والمعنى فلا تهتم لهم فإنهم سلموا من عذاب الله أو إنك ترى فيهم ما تحب من السلامة وقيل هو أن الله يتجاوز عن سيئاتهم ويقبل حسناتهم وقيل معناه مسلم لك أنهم من أصحاب اليمين أو يقال لصاحب اليمين مسلم لك أنك من أصحاب اليمين وقيل فسلام عليك من أصحاب اليمين، ﴿وأما إن كان من المكذبين﴾ أي بالبعث ﴿الضالين﴾ أي عن الهدى وهم أصحاب الشمال.

﴿فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾﴾

﴿فنزل من حميم﴾ أي الذي يعد لهم حميم جهنم ﴿وتصلية جحيم﴾ أي وإدخال نار عظيمة ﴿إن هذا﴾ يعني ما ذكر من قصة المحتضرين ﴿لهو حق اليقين﴾ أي لا شك فيه وقيل إن هذا الذي قصصناه عليك في هذه السورة من

﴿ فروح ﴾ قرأ يعقوب ﴿ فروح ﴾ بضم الراء والباقون بفتحها فمَن قرأ بالضم، قال الحسن معناه: تخرج روحه في الريحان، وقال قتادة: الروح الرحمة أي له الرحمة، وقيل: معناه فحياة وبقاء لهم، ومَن قرأ بالفتح معناه فله روح وهو الراحة، وهو قول مجاهد. وقال سعيد بن جبير: فرح. وقال الضحاك: مغفرة ورحمة. ﴿ وريحان ﴾، استراحة، وقال مجاهد وسعيد بن جبير: رزق. وقال مقاتل: هو الرزق بلسان حمير، يقال خرجت أطلب ريحان الله أي رزق الله. وقال آخرون: هو الريحان الذي يشمّ قال أبو العالية: لا يفارق أحد من المقرّبين الدنيا حتى يُؤتى بغصن من ريحان الجنة فيشمّه ثم تقبض روحه. ﴿ وجنة نعيم ﴾، قال أبو بكر الورّاق: الروح النجاة من النار والريحان دخول دار القرار.

﴿ وأما إن كان ﴾ المتوفّى، ﴿ من أصحاب اليمين * فسلام لك من أصحاب اليمين ﴾، أي سلامة لك يا محمد منهم فلا تهتم لهم فإنهم سلموا من عذاب الله أو أنك ترى فيهم ما تحبّ من السلامة. قال مقاتل: هو أن الله تعالى يتجاوز عن سيئاتهم ويقبل حسناتهم. وقال الفرّاء وغيره: فسلام لك إنهم من أصحاب اليمين، أو يقال لصاحب اليمين: سلام لك إنك من أصحاب اليمين فألقيت إن كان الرجل يقول إني مسافر عن قليل، فتقول له: أنت مصدق مسافر عن قليل، وقيل: فسلام لك أي عليك من أصحاب اليمين.

﴿ وأما إن كان من المكذبين ﴾، بالبعث، ﴿ الضالّين ﴾، عن الهدى وهم أصحاب المشأمة.

﴿ فنزل من حميم ﴾، فالذي يعدلهم حميم جهنم.

﴿ وتصلية جحيم ﴾، وإدخال نار عظيمة.

﴿ إن هذا ﴾، يعني ما ذكر من قصة المحتضرين، ﴿ لهو حق اليقين ﴾، أي الحق اليقين أضافه إلى نفسه.

﴿ فسبّح باسم ربّك العظيم ﴾، قيل: فصلِّ بذكر ربك وأمره. وقيل: الباء زائدة أي فسبّح اسم ربّك العظيم. أخبرنا أحمد بن إبراهيم الشريحي أنا أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي أنا ابن فنجويه أنا ابن شيبة ثنا حمزة بن محمد الكاتب ثنا نعيم بن حمّاد ثنا عبد الله بن المبارك عن موسى بن أيوب الغافقي عن عمّه وهو إياس بن

الأقاصيص وما أعد الله لأوليائه من النعم وما أعد لأعدائه من العذاب الأليم وما ذكر مما يدل على وحدانيته يقين لا شك فيه، ﴿فسبح باسم ربك العظيم﴾ أي فنزه ربك العظيم عن كل سوء وقيل معناه فصل بذكر ربك العظيم وبأمره.

عن عقبة بن عامر الجهني قال «لما نزلت فسبح باسم ربك العظيم قال رسول الله ﷺ اجعلوها في ركوعكم ولما نزلت سبح اسم ربك الأعلى قال اجعلوها في سجودكم» أخرجه أبو داود عن حذيفة أنه صلى مع النبي ﷺ فكان يقول في ركوعه «سبحان ربي العظيم وفي سجوده سبحان ربي الأعلى وما أتى على آية رحمة إلا وقف وسأل وما أتى على آية عذاب إلا وقف وتعوذ» أخرجه الترمذي وقال حديث حسن صحيح وله عن جابر عن النبي ﷺ قال «من قال سبحان الله وبحمده غرست له نخلة في الجنة». (م) عن أبي ذر قال قال رسول الله ﷺ «ألا أخبرك بأحب الكلام إلى الله تعالى قال سبحان الله وبحمده». (ق) عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ «كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان حبيبتان إلى الرحمن سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم» هذا الحديث آخر حديث في صحيح البخاري والله أعلم.

عامر عن عقبة بن عامر الجهني قال: لمّا نزلت على رسول الله ﷺ ﴿فسبّح باسم ربك العظيم﴾، قال: اجعلوها في ركوعكم، ولما نزلت ﴿سبّح اسم ربك الأعلى﴾ [الأعلى: ١] قال رسول الله ﷺ: «اجعلوها في سجودكم» أخبرنا أبو عثمان الضبي أنا أبو محمد الجراحي ثنا أبو العباس المحبوبي ثنا أبو عيسى الترمذي ثنا محمود بن غيلان ثنا أبو داود قال أنا شعبة عن الأعمش قال: سمعت سعيد بن عبيدة يحدّث عن المستورد عن صلة بن زفر عن حذيفة أنه صلّى مع النبي ﷺ فكان يقول في ركوعه: «سبحان ربي العظيم وفي سجوده سبحان ربي الأعلى، وما أتى على آية رحمة إلّا وقف وسأل، وما أتى على آية عذاب إلّا وقف وتعوّذ» أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا قتيبة بن سعيد ثنا محمد بن فضيل أنا عمارة بن القعقاع عن أبي زرعة عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم»، أخبرنا أبو نصر محمد بن الحسن الجعفري حدّثني أبو القاسم تمام بن محمد بن عبد الله الرازي بدمشق ثنا علي بن الحسين البزاز وأحمد بن سليمان بن حكم وابن راشد قالوا أخبرنا بكّار بن قتيبة ثنا روح بن عبادة ثنا حجّاج الصراف عن أبي الزبير عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن قال سبحان الله العظيم وبحمده غُرِسَت له نخلة في الجنة»، أخبرنا عبد الواحد المليحي قال أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا أبو منصور محمد بن محمد بن سمعان ثنا أبو جعفر محمد بن أحمد بن عبد الجبار الرياني ثنا حميد بن زنجويه ثنا يونس بن عبد الأعلى أنا ابن وهب أخبرني السري بن يحيىٰ أن شجاعاً حدّثه عن أبي طيبة عن عبد الله بن مسعود قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَن قرأ سورة الواقعة كل ليلة لم تصبه فاقة أبداً»، وكان أبو طيبة لا يدعها أبداً.

سورة الحديد

مدنية وهي تسع وعشرون آية وخمسمائة وأربع وأربعون كلمة وألفان وأربعمائة وستة وسبعون حرفاً

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢﴾ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٥﴾

قوله عز وجل: ﴿سبح لله ما في السموات والأرض﴾ يعني كل ذي روح وغيره يسبح الله تعالى فتسبيح العقلاء تنزيه الله عز وجل عن كل سوء وعما لا يليق بجلاله وتسبيح غير العقلاء من ناطق وجماد اختلفوا فيه فقيل تسبيحه دلالته على صانعه فكأنه ناطق بتسبيحه وقيل تسبيحه بالقول يدل عليه قوله «ولكن لا تفقهون تسبيحهم» أي قولهم والحق أن التسبيح هو القول الذي لا يصدر إلا من العاقل العارف بالله تعالى وما سوى العاقل ففي تسبيحه وجهان أحدهما أنها تدل على تعظيمه وتنزيهه والثاني أن جميع الموجودات بأسرها منقادة له يتصرف فيها كيف يشاء فإن حملنا التسبيح المذكور في الآية على القول كان المراد بقوله ما في السموات والأرض من في السموات وهم الملائكة ومسبحي الأرض وهم المؤمنون العارفون بالله وإن حملنا التسبيح على التسبيح المعنوي فجميع أجزاء السموات وما فيها من شمس وقمر ونجوم وغير ذلك وجميع ذرات الأرضين وما فيها من جبال وبحار وشجر ودواب وغيره ذلك كلها مسبحة خاشعة خاضعة لجلال عظمة الله جل جلاله وتقدست أسماؤه وصفاته منقادة له يتصرف فيها كيف يشاء.

فإن قلت قد جاء في بعض فواتح السور سبح بلفظ الماضي وفي بعضها يسبح بلفظ المضارع فما معناه.

قلت فيه إشارة إلى كون جميع الأشياء مسبحاً لله أبداً غير مختص بوقت دون وقت بل هي كانت مسبحة أبداً في الماضي وستكون مسبحة أبداً في المستقبل ﴿وهو العزيز﴾ أي الغالب الكامل القدرة الذي لا ينازعه شيء، ﴿الحكيم﴾ أي الذي جميع أفعاله على وفق الحكمة والصواب ﴿له ملك السموات والأرض﴾ أي أنه الغني عن جميع

سُورَة الحَدِيْد

مدنيّة وهي تسع وعشرون آية.

﴿سبّح لله ما في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم * له ملك السموات والأرض يُحيي ويُميت وهو على كل شيء قدير * هو الأول والآخر والظاهر والباطن﴾، يعني هو الأول قبل كل شيء بلا ابتداء بل كان هو ولم يكن

خلقه وكلهم محتاجون إليه، ﴿يحيي ويميت﴾ أي يحيـي الأموات للبعث ويميت الأحياء في الدنيا ﴿وهو على كل شيء قدير﴾ قوله عز وجل: ﴿هو الأول والآخر والظاهر والباطن﴾ يعني هو الأول قبل كل شيء بلا ابتداء كان هو ولم يكن شيء موجوداً والآخر بعد فناء كل أحد بلا انتهاء يفني الأشياء ويبقى هو والظاهر الغالب العالي على كل شيء والباطن العالم بكل شيء هذا معنى قول ابن عباس وقيل هو الأول بوجوده ليس قبله شيء والآخر ليس بعده شيء وقيل هو الأول بوجوده في الأزل وقيل الابتداء والآخر بوجوده في الأبد وبعد الانتهاء والظاهر بالدلائل الدالة على وحدانيته والباطن الذي احتجب عن العقول أن تكيفه، وقيل هو الأول الذي سبق وجوده كل موجود والآخر الذي يبقى بعد كل مفقود وقال الإمام أبو بكر بن الباقلاني معناه أنه تعالى الباقي بصفاته من العلم والقدرة وغيرهما التي كان عليها في الأزل، ويكون كذلك بعد موت الخلائق وذهاب علومهم وقدرهم وحواسهم وتفرق أجسامهم قال وتعلقت المعتزلة بهذا الاسم فاحتجوا لمذهبهم في فناء الأجسام وذهابها بالكلية قالوا معناه أنه الباقي بعد فناء خلقه ومذهب أهل الحق يعني أهل السنة بخلاف ذلك وأن المراد الآخر بصفاته بعد ذهاب صفاتهم كما يقال آخر من بقي من بني فلان فلان يراد حياته ولا يراد فناء أجسام موتاه وذهابها بالكلية هذا آخر كلام ابن الباقلاني، وقيل هو الأول السابق للأشياء والآخر الباقي بعد فناء الأحياء والظاهر بحججه الباهرة وبراهينه النيرة الزاهرة وشواهده الدالة على وحدانيته والباطن الذي احتجب عن أبصار الخلق فلا تستوي عليه الكيفية وقيل هو الأول القديم والآخر الرحيم والظاهر الحكيم والباطن العليم، وقيل هو الأول ببره إذ عرفك توحيده والآخر بجوده إذ عرفك طريق التوبة عما جنيت والظاهر بتوفيقه إذ وفقك للسجود له والباطن بستره إذا عصيت يستر عليك، وقال الجنيد هو الأول بشرح القلوب والآخر بغفران الذنوب والظاهر بكشف الكروب والباطن بعلم الغيوب وسأل عمر كعباً عن هذه الآية فقال معناها أن علمه بالأول كعلمه بالآخر وعلمه الظاهر كعلمه بالباطن ﴿وهو بكل شيء عليم﴾ (م) عن سهيل بن أبي صالح قال كان أبو صالح يأمرنا إذا أراد أحدنا أن ينام أن يضطجع على شقه الأيمن ثم يقول «اللهم رب السموات ورب الأرض ورب العرش العظيم ربنا ورب كل شيء فالق الحب والنوى منزل التوراة والإنجيل والقرآن أعوذ بك من شر كل شيء أنت آخذ بناصيته» وفي رواية «من شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها اللهم أنت الأول فليس قبلك شيء وأنت الآخر فليس بعدك شيء وأنت الظاهر فليس فوقك شيء وأنت الباطن فليس دونك شيء اقض عنا الدين وأغننا من الفقر» وكان يروى ذلك عن أبي هريرة عن النبي ﷺ وعن أبي هريرة أيضاً قال «بينما النبي ﷺ جالس وأصحابه إذ أتى عليهم سحاب فقال رسول الله ﷺ أتدرون ما هذا؟ قالوا الله ورسوله أعلم قال هذه العنان هذه روايا الأرض يسوقها الله تعالى إلى قوم لا يشكرونه ولا

شيء موجوداً والآخر بعد فناء كل شيء بلا انتهاء، تفنى الأشياء ويبقى هو والظاهر الغالب العالي على كل شيء، والباطن العالم بكل شيء، هذا معنى قول ابن عباس. وقال يمان: هو الأول القديم والآخر الرحيم، والظاهر الحليم، والباطن العليم. وقال السدي: هو الأول ببرّه إذ عرفك توحيده والآخر بجوده إذْ عرفك التوبة على ما جنيتَ، والظاهر بتوفيقه إذْ وفّقك للسجود له، والباطن بستره إذْ عصيته فستر عليك. وقال الجنيد: هو الأول بشرح القلوب، والآخر بغفران الذنوب، والظاهر بكشف الكروب، والباطن بعلم الغيوب. وسأل عمر رضي الله تعالى عنه كعباً عن هذه الآية فقال: معناها إن علمه بالأول كعلمه بالآخر، وعلمه بالظاهر كعلمه بالباطن. ﴿ وهو بكل شيء عليم ﴾، أخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر أنا عبد الغافر بن محمد أنا محمد بن عيسى الجلودي ثنا إبراهيم بن محمد بن سفيان ثنا مسلم بن الحجّاج حدّثني زهير بن حرب ثنا جرير عن سهيل قال كان أبو صالح يأمرنا إذا أراد أحدنا أن ينام أن يضطجع على شقّه الأيمن ثم يقول: اللّهمَّ ربّ السموات وربّ الأرض وربّ كل شيء فالق الحبّ والنوى منزِل التوراة والإنجيلِ والقرآن، أعوذ بك من شرّ كل ذي شر أنت آخذ بناصيته، أنت الأول فليس قبلك شيء وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء وأنت الباطن فليس دونك شيء، اقضِ عنّي

يدعونه ثم قال هل تدرون ما فوقكم؟ قالوا الله ورسوله أعلم قال فإنها الرقيع سقف محفوظ وموج مكفوف ثم قال هل تدرون كم بينكم وبينها؟ قالوا الله ورسوله أعلم قال بينكم وبينها خمسمائة سنة ثم قال هل تدرون ما فوق ذلك؟ قالوا الله ورسوله أعلم قال سماءان بعد ما بينهما خمسمائة سنة حتى عد سبع سموات ما بين كل سماء كما بين السماء والأرض، ثم قال هل تدرون ما فوق ذلك؟ قالوا الله ورسوله أعلم قال فإن فوق ذلك العرش وبينه وبين السماء بعد ما بين السماءين ثم قال هل تدرون ما الذي تحتكم؟ قالوا الله ورسوله أعلم قال فإنها الأرض ثم قال هل تدرون ما الذي تحت ذلك؟ قالوا الله ورسوله أعلم قال فإن تحتها أرضاً أخرى بينهما مسيرة خمسمائة سنة حتى عد سبع أرضين بين كل أرضين مسيرة خمسمائة سنة ثم قال والذي نفس محمد بيده لو أنكم دليتم بحبل إلى الأرض السابعة السفلى لهبط على الله ثم قرأ هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم» أخرجه الترمذي وقال حديث غريب قال الترمذي قال بعض أهل العلم في تفسير هذا الحديث إنما أراد لهبط على علم الله وقدرته وسلطانه وعلم الله وقدرته وسلطانه في كل مكان وهو على العرش كما وصف نفسه في كتابه.

العنان اسم للسحاب ومعنى روايا الأرض الحوامل والرقيع اسم للسماء وقيل هو اسم لسماء الدنيا قوله عز وجل: ﴿**هو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها**﴾ تقدم تفسيره ﴿**وهو معكم أينما كنتم**﴾ أي بالعلم والقدرة فليس ينفك أحد من تعليق علم الله تعالى وقدرته أينما كان من أرض أو سماء براً وبحراً وقيل هو معكم بالحفظ والحراسة.

وقوله تعالى: ﴿**والله بما تعملون بصير**﴾ يدل على صحة القول الأول، ﴿**له ملك السموات والأرض وإلى الله ترجع الأمور**﴾.

يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۚ وَهُوَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٦ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا
جَعَلَكُم مُّسۡتَخۡلَفِينَ فِيهِۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَأَنفَقُواْ لَهُمۡ أَجۡرٞ كَبِيرٞ ۝٧ وَمَا لَكُمۡ لَا تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلرَّسُولُ يَدۡعُوكُمۡ
لِتُؤۡمِنُواْ بِرَبِّكُمۡ وَقَدۡ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ۝٨ هُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦٓ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ لِّيُخۡرِجَكُم مِّنَ
ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ۝٩ وَمَا لَكُمۡ أَلَّا تُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَا
يَسۡتَوِي مِنكُم مَّنۡ أَنفَقَ مِن قَبۡلِ ٱلۡفَتۡحِ وَقَٰتَلَۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡظَمُ دَرَجَةٗ مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَقَٰتَلُواْۚ وَكُلّٗا وَعَدَ ٱللَّهُ
ٱلۡحُسۡنَىٰۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ۝١٠

﴿**يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وهو عليم بذات الصدور**﴾ تقدم تفسيره.

قوله تعالى: ﴿**آمنوا بالله ورسوله**﴾ لما ذكر أنواعاً من الدلائل الدالة على التوحيد والعلم والقدرة شرع يخاطب

الدَّين واغنني من الفقر. وكان يُروَى ذلك عن أبي هريرة عن النبي ﷺ.

﴿ هو الذي خلق السمٰوات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو معكم ﴾، بالعلم، **﴿ أينما كنتم والله بما تعملون بصير ﴾**.

﴿ له ملك السمٰوات والأرض وإلى الله ترجع الأمور.

﴿ يُولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وهو عليم بذات الصدور * آمنوا بالله ورسوله ﴾، يخاطب

كفار قريش ويأمرهم بالإيمان بالله ورسوله ويأمرهم بترك الدنيا والإعراض عنها والنفقة في جميع وجوه البر وهو قوله تعالى: ﴿**وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه**﴾ يعني المال الذي كان بيد غيركم فأهلكهم وأعطاكم إياه فكنتم في ذلك المال خلفاء عمن مضى ﴿**فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير وما لكم لا تؤمنون بالله والرسول يدعوكم لتؤمنوا بربكم**﴾ يعني وأي عذر لكم في ترك الإيمان بالله والرسول يدعوكم إليه وينبهكم عليه ويتلو عليكم الكتاب الناطق بالبرهان والحجج، ﴿**وقد أخذ ميثاقكم**﴾ أي أخذ الله ميثاقكم حين أخرجكم من ظهر آدم عليه السلام بأن الله ربكم لا إله لكم سواه وقيل أخذ ميثاقكم حيث ركب فيكم العقول ونصب لكم الأدلة والبراهين والحجج التي تدعو إلى متابعة الرسول، ﴿**إن كنتم مؤمنين**﴾ أي يوماً ما فالآن أحرى الأوقات أن تؤمنوا لقيام الحجج والإعلام ببعثة الرسول ﷺ وهو قوله تعالى: ﴿**هو الذي ينزل على عبده**﴾ يعني محمداً ﷺ ﴿**آيات بينات**﴾ يعني القرآن ﴿**ليخرجكم**﴾ يعني الله بالقرآن وقيل الرسول بالدعوة ﴿**من الظلمات إلى النور**﴾ أي من ظلمات الشرك إلى نور الإيمان ﴿**وإن الله بكم لرؤوف رحيم**﴾ قوله تعالى: ﴿**وما لكم ألا تنفقوا في سبيل الله ولله ميراث السموات والأرض**﴾ يقول أي شيء لكم في ترك الإنفاق فيما يقربكم من الله تعالى وأنتم ميتون تاركون أموالكم لغيركم فالأولى أن تنفقوها أنتم فيما يقربكم إلى الله تعالى وتستحقون به الثواب ثم بين فضل من سبق بالإنفاق في سبيل الله وبالجهاد فقال تعالى: ﴿**لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل**﴾ يعني فتح مكة في قول أكثر المفسرين وقيل هو صلح الحديبية، والمعنى لا يستوي في الفضل من أنفق ماله وقاتل العدو مع رسول الله ﷺ قبل فتح مكة مع من أنفق ماله وقاتل بعد الفتح ﴿**أولئك أعظم درجة من الذين**

كفّار مكة، ﴿ **وأنفقوا ممّا جعلكم مستخلفين فيه** ﴾، مملكين فيه يعني المال الذي كان بيد غيرهم فأهلكهم وأعطاه قريشاً فكانوا في ذلك المال خلفاء عمّن مضوا. ﴿ **فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجرٌ كبير** ﴾.

﴿ **وما لكم لا تؤمنون بالله والرسولُ يدعوكم لتؤمنوا بربكم وقد أخذ ميثاقكم** ﴾، قرأ أبو عمرو ﴿ **أخذ** ﴾ بضمّ الهمزة وكسر الخاء ﴿ **ميثاقكم** ﴾ برفع القاف على ما لم يُسَمَّ فاعله، وقرأ الآخرون بفتح الهمزة والخاء ونصب القاف، أي: أخذ الله ميثاقكم حين أخرجكم من ظهر آدم عليه السلام، بأن الله ربّكم لا إلّه لكم سواه، قاله مجاهد. وقيل: أخذ ميثاقكم بإقامة الحجج والدلائل التي تدعو إلى متابعة الرسول ﷺ. ﴿ **إن كنتم مؤمنين** ﴾ يوماً، فالآن أحرى الأوقات أن تؤمنوا لقيام الحجج والإعلام ببعثة محمد ﷺ ونزول القرآن.

﴿ **هو الذي يُنزِّل على عبده** ﴾، محمد ﷺ، ﴿ **آياتٍ بيّنات** ﴾، يعني القرآن، ﴿ **ليخرجكم** ﴾، الله بالقرآن، ﴿ **من الظلمات إلى النور** ﴾، وقيل: ليخرجكم الرسول بالدعوة من الظلمات إلى النور أي من ظلمات الشرك إلى نور الإيمان، ﴿ **وإن الله بكم لرؤوف رحيم** ﴾.

﴿ **وما لكم ألّا تنفقوا في سبيل الله ولله ميراث السمٰوات والأرض** ﴾، يقول: أيّ شيء لكم في ترك الإنفاق فيما يقرب من الله وأنتم ميّتون تاركون أموالكم، ثم بيّن فضل مَن سبق بالإنفاق في سبيل الله وبالجهاد فقال: ﴿ **لا يستوي منكم مَن أنفق من قبل الفتح** ﴾، يعني فتح مكة في قول أكثر المفسّرين، وقال الشعبي: هو صلح الحديبية، ﴿ **وقاتل** ﴾، يقول لا يستوي في الفضل مَن أنفق ماله وقاتل العدو مع رسول الله ﷺ قبل فتح مكة مع مَن أنفق وقاتل بعده، ﴿ **أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا** ﴾، وروى محمد بن فضيل عن الكلبي أن هذه الآية نزلت في أبي بكر الصدّيق رضي الله عنه فإنه أول مَن أسلم وأول مَن أنفق ماله في سبيل الله. وقال عبد الله بن مسعود: أول مَن أظهر إسلامه بسيفه النبي ﷺ وأبو بكر، أخبرنا أحمد بن إبراهيم الثعلبي أنا عبد الله بن حامد بن محمد أنا أحمد بن إسحاق بن أيوب أنا محمد بن يونس ثنا العلاء بن عمرو الشيباني ثنا أبو إسحاق الفزاري ثنا

أنفقوا من بعد وقاتلوا﴾ قال الكلبي إن هذه الآية نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه لأنه أول من أسلم وأول من أنفق ماله في سبيل الله وذهب عن رسول الله ﷺ وقال عبد الله بن مسعود أول من أظهر إسلامه سبع منهم النبي ﷺ وأبو بكر وروى البغوي بإسناد الثعلبي عن ابن عمر رضي الله عنهما قال «كنت عند رسول الله ﷺ وعنده أبو بكر وعليه عباءة قد خلها في صدره بخلال فنزل جبريل فقال ما لي أرى أبا بكر عليه عباءة قد خلها في صدره بخلال فقال أنفق ماله علي قبل الفتح قال فإن الله عز وجل يقول اقرأ عليه السلام وقل له أراض أنت عني في فقرك هذا أم ساخط فقال رسول الله ﷺ يا أبا بكر إن الله يقرئك السلام ويقول لك أراض أنت في فقرك هذا أم ساخط فقال أبو بكر أأسخط على ربي إني على ربي راض إني على ربي راض» ﴿وكلاً وعد الله الحسنى﴾ يعني الجنة قال عطاء درجات الجنة تتفاضل فالذين أنفقوا قبل الفتح في أفضلها، ﴿والله بما تعملون خبير﴾.

﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾ يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾﴾

﴿من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً﴾ أي صادقاً محتسباً بالصدقة طيبة بها نفسه وسمي هذا الإنفاق قرضاً من حيث إنه وعد به الجنة تشبيهاً بالقرض قال بعض العلماء القرض لا يكون حسناً حتى تجمع فيه أوصاف عشرة وهي أن يكون المال من الحلال وأن يكون من أجود المال وأن تتصدق به وأنت محتاج إليه وأن تصرف صدقتك إلى الأحوج إليها وأن تكتم الصدقة ما أمكنك وأن لا تتبعها بالمن والأذى وأن تقصد بها وجه الله ولا ترائي بها الناس وأن تستحقر

سفيانَ بن سعيد عن آدم بن علي عن ابن عمر قال: كنت عند رسول الله ﷺ وعنده أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وعليه عباءة قد خلّها في صدره بخلال، فنزل عليه جبريل فقال: ما لي أرى أبا بكر عليه عباءة قد خلّها في صدره بخلال؟ فقال: «أنفق ماله عليّ قبل الفتح»، قال: فإن الله عزّ وجلّ يقول: اقرأ عليه السلام وقلْ له أراضٍ أنت عنّي في فقرك هذا أم ساخط؟ فقال رسول الله ﷺ: «يا أبا بكر إن الله عزّ وجلّ يقرأ عليك السلام ويقول لك: أراضٍ أنت في فقرك هذا أم ساخط»؟ فقال أبو بكر: أأسخط على ربّي إني عن ربّي راضٍ إني عن ربّي راضٍ. ﴿ وكلاً وعد الله الحسنى ﴾، أي كِلا الفريقين وعدهم الله الجنة. قال عطاء: درجات الجنة تتفاضل، فالذين أنفقوا قبل الفتح في أفضلها. وقرأ ابن عامر وكل بالرفع، ﴿ والله بما تعملون خبير ﴾.

﴿ مَن ذا الذي يُقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له وله أجر كريم * يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم ﴾، يعني على الصراط، ﴿ بين أيديهم وبأيمانهم ﴾، يعني عن أيمانهم. قال بعضهم: أراد جميع جوانبهم فعبّر بالبعض عن الكل وذلك دليلهم إلى الجنة. وقال قتادة: ذكر لنا أن نبيّ الله ﷺ قال: «إن من المؤمنين مَن يضيء نوره، يعني: على الصراط، من المدينة إلى عدن أبين وصنعاء ودون ذلك، حتى أن من المؤمنين مَن لا يضيء نوره إلّا موضع قدميه». وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنهما: يؤتون نورهم على قدر أعمالهم فمنهم مَن يؤتى نوره كالنخلة، ومنهم مَن يؤتى نوره كالرجل القائم، وأدناهم نوراً من نوره أعلى إبهامه فيطفأ مرة ويَقِدُ مرة. وقال الضحاك ومقاتل: يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم كتبهم يريد أن كتبهم التي أُعطوها بأيمانهم ونورهم بين أيديهم، وتقول لهم الملائكة: ﴿بشراكم اليوم جنّات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك هو الفوز العظيم﴾.

ما تعطي وتتصدق به وإن كان كثيراً وأن يكون من أحب أموالك إليك وأن لا ترى عز نفسك وذل الفقير فهذه عشرة أوصاف إذا اجتمعت في الصدقة كانت قرضاً حسناً، ﴿فيضاعفه له﴾ يعني يعطيه أجره على إنفاقه مضاعفاً، ﴿وله أجر كريم﴾ يعني وذلك الأجر كريم في نفسه.

قوله عز وجل: ﴿يوم ترى المؤمنين والمؤمنات﴾ يعني على الصراط ﴿يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم﴾ أي عن أيمانهم وقيل أراد جميع الجوانب فعبر بالبعض عن الكل وذلك دليلهم إلى الجنة، وقال قتادة ذكر لنا أن رسول الله ﷺ قال «من المؤمنين من يضيء نوره من المدينة إلى عدن أبين وصنعاء ودون ذلك حتى إن من المؤمنين من لا يضيء نوره إلا موضع قدميه» وقال عبد الله بن مسعود يؤتون نورهم على قدر أعمالهم فمنهم من يؤتي نوره كالنخلة ومنهم من يؤتي نوره كالرجل القائم وأدناهم نوراً من نوره على إبهامه فيطفأ مرة ويوقد مرة وقيل في معنى الآية يسعى نورهم بين أيديهم أي يعطون كتبهم بأيمانهم وتقول لهم الملائكة ﴿بشراكم اليوم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك هو الفوز العظيم يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا﴾ أي انتظرونا ﴿نقتبس من نوركم﴾ أي نستضيء من نوركم قيل تغشى الناس ظلمة شديدة يوم القيامة فيعطي الله المؤمنين نوراً على قدر أعمالهم يمشون به على الصراط ويعطي المنافقين أيضاً نوراً خديعة لهم فبينما هم يمشون إذ بعث الله ريحاً وظلمة فأطفأت نور المنافقين فذلك قوله تعالى ﴿يوم لا يخزي الله النبي والذين آمنوا معه نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم يقولون ربنا أتمم لنا نورنا﴾ مخافة أن يسلبوا نورهم كما سلب نور المنافقين وقيل بل يستضيئون بنور المؤمنين ولا يعطون النور فإذا سبقهم المؤمنون بقوا في الظلمة وقالوا للمؤمنين انظرونا نقتبس من نوركم، ﴿قيل ارجعوا وراءكم﴾ قال ابن عباس يقول لهم المؤمنون وقيل يقول لهم الملائكة ارجعوا وراءكم من حيث جئتم وقيل ارجعوا إلى الدنيا فاعملوا فيها أعمالاً يجعلها الله لكم نوراً وقيل معناه لا نور لكم عندنا فارجعوا وراءكم ﴿فالتمسوا﴾ أي اطلبوا لأنفسكم هناك ﴿نوراً﴾ أي لا سبيل لكم إلى الاقتباس من نورنا فيرجعون في طلب النور فلا يجدون شيئاً فينصرفون إليهم ليلقوهم فيميز بينهم وبين المؤمنين فذلك قوله تعالى: ﴿فضرب بينهم﴾ أي المؤمنين والمنافقين ﴿بسور﴾ وهو حائط بين الجنة والنار ﴿له﴾ أي لذلك السور ﴿باب باطنه فيه الرحمة﴾ أي في باطن ذلك السور الرحمة وهي الجنة ﴿وظاهره من قبله العذاب﴾ أي من قبل ذلك الظاهر العذاب وهو النار وروي عن عبد الله بن عمر قال إن السور الذي ذكر في القرآن هو سور بيت المقدس

﴿ يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا ﴾، قرأ الأعمش وحمزة: ﴿ انظرونا ﴾ بفتح الهمزة وكسر الظاء يعني أمهلونا. وقيل: انتظرونا. وقرأ الآخرون بحذف الألف في الوصل وضمّها في الابتداء وضمّ الظاء، تقول العرب: انظرني وأنظرني يعني انتظرني. ﴿ نقتبسْ من نوركم ﴾، نستضيء من نوركم، وذلك أن الله تعالى يعطي المؤمنين نوراً على قدر أعمالهم يمشون به على الصراط، ويعطي المنافقين أيضاً نوراً خديعة لهم، وهو قوله عزّ وجلّ: ﴿ وهو خادعهم ﴾ [النساء: ١٤٢]، فبينا هم يمشون إذ بعث الله عليهم ريحاً وظلمةً فأطفأت نور المنافقين، فذلك قوله: ﴿ يوم لا يخزي الله النبي والذين آمنوا معه نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم يقولون ربنا أتمم لنا نورنا ﴾ [التحريم: ٨] مخافة أن يُسلَبوا نورهم كما سُلب نور المنافقين. وقال الكلبي: بل يستضيء المنافقون بنور المؤمنين ولا يعطون النور فإذا سبقهم المؤمنون وبقوا في الظلمة قالوا للمؤمنين انظرونا نقتبس من نوركم، ﴿ قيل ارجعوا وراءكم ﴾، قال ابن عباس: يقول لهم المؤمنون، وقال قتادة: تقول لهم الملائكة ارجعوا وراءكم من حيث جئتم، ﴿ فالْتمِسُوا نوراً ﴾، فاطلبوا هناك لأنفسكم نوراً فإنه لا سبيل لكم إلى الاقتباس من نورنا، فيرجعون في طلب النور فلا يجدون شيئاً فينصرفون إليهم ليلقوهم فيميِّز بينهم وبين المؤمنين، وهو قوله: ﴿ فضُرِبَ بينهم بسور ﴾، أي سور، والباء صلة يعني بين المؤمنين والمنافقين، وهو حائط بين الجنة والنار، ﴿ له ﴾ أي لذلك

الشرقي باطنه فيه المسجد وظاهره من قبله العذاب وادي جهنم وقال ابن شريح كان كعب يقول في الباب الذي يسمى باب الرحمة في بيت المقدس إنه الباب الذي قال الله تعالى: ﴿فضرب بينهم بسور له باب﴾ الآية.

﴿يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ (١٤) فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٥)﴾

﴿ينادونهم﴾ يعني ينادي المنافقون المؤمنين من وراء ذلك السور حين حجز بينهم وبقوا في الظلمة **﴿ألم نكن معكم﴾** أي في الدنيا نصلي ونصوم **﴿قالوا بلى ولكنكم فتنتم أنفسكم﴾** أي أهلكتموها بالنفاق والكفر واستعملتموها في المعاصي والشهوات وكلها فتنة **﴿وتربصتم﴾** أي بالإيمان والتوبة وقيل تربصتم بمحمد ﷺ وقلتم يوشك أن يموت فنستريح منه **﴿وارتبتم﴾** أي شككتم في نبوته وفيما أوعدكم به **﴿وغرتكم الأماني﴾** أي الأباطيل وذلك ما كنتم تتمنون من نزول الدوائر بالمؤمنين **﴿حتى جاء أمر الله﴾** يعني الموت وقيل هو إلقاؤهم في النار وهو قوله تعالى: **﴿وغركم بالله الغرور﴾** يعني الشيطان قال قتادة ما زالوا على خدعة من الشيطان حتى قذفهم الله في النار **﴿فاليوم لا يؤخذ منكم فدية﴾** أي عوض وبدل بأن تفدوا أنفسكم من العذاب وقيل معناه لا يقبل منكم إيمان ولا توبة **﴿ولا من الذين كفروا﴾** يعني المشركين وإنما عطف الكفار على المنافقين وإن كان المنافق كافراً في الحقيقة لأن المنافق أبطن الكفر والكافر أظهره فصار غير المنافق فحسن عطفه على المنافق **﴿مأواكم النار﴾** أي مصيركم، **﴿هي مولاكم﴾** أي وليكم وقيل هي أولى بكم لما أسلفتم من الذنوب والمعنى هي التي تلي عليكم لأنها ملكت أمركم وأسلمتم إليها فهي أولى بكم من كل شيء وقيل معنى الآية لا مولى لكم ولا ناصر لأن من كانت النار مولاه فلا مولى له **﴿وبئس المصير﴾**.

السور، **﴿ باب باطنه فيه الرحمة﴾**، أي في باطن ذلك السور الرحمة وهي الجنة، **﴿ وظاهره ﴾**، أي خارج ذلك السور، **﴿ من قبله ﴾**، أي من قبل ذلك الظاهر، **﴿ العذاب ﴾**، وهو النار.

﴿ ينادونهم ﴾ رُوِيَ عن عبد الله بن عمر قال: إن السور الذي ذكر الله تعالى في القرآن **﴿ فضُرِبَ بينهم بسور له باب ﴾** هو سور بيت المقدس الشرقي باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب، وادي جهنم. وقال ابن شريح: كان كعب يقول: في الباب الذي يسمى باب الرحمة في بيت المقدس إنه الباب الذي قال الله عزّ وجلّ: **﴿ فضُرِبَ بينهم بسور له باب ﴾** الآية، ينادونهم يعني: ينادون المنافقون المؤمنين من وراء السور حين حجب بينهم بالسور وبقوا في الظلمة: **﴿ ألَمْ نكنْ معكم ﴾** في الدنيا نصلّي ونصوم؟ **﴿ قالوا بلى ولكنكم فتنتم أنفسكم ﴾**، أهلكتموها بالنفاق والكفر واستعملتموها في المعاصي والشهوات، وكلها فتنة، **﴿ وتربصتم ﴾**، بالإيمان والتوبة. قال مقاتل: وتربصتم بمحمد ﷺ وقلتم يوشك أن يموت فنستريح منه، **﴿ وارْتبتُم ﴾**، شككتم في نبوّته وفيما أوعدكم به، **﴿ وغرّتكم الأماني ﴾**، الأباطيل وما كنتم تتمنّون من نزول الدوائر بالمؤمنين، **﴿ حتى جاء أمر الله ﴾**، يعني الموت، **﴿ وغرّكم بالله الغرور ﴾**، يعني الشيطان، قال قتادة: ما زالوا على خدعة من الشيطان حتى قذفهم الله في النار.

﴿ فاليوم لا يؤخذ منكم فدية ﴾، قرأ أبو جعفر وابن عامر ويعقوب (تؤخذ) بالتاء، وقرأ الآخرون بالياء، **﴿ فدية ﴾** بدل وعوض بأن أنقذوا أنفسكم من العذاب، **﴿ ولا من الذين كفروا ﴾**، يعني المشركين، **﴿ مأواكم النار هي مولاكم ﴾**، صاحبكم وأولى بكم لما أسلفتم من الذنوب، **﴿ وبئس المصير ﴾**.

﴿۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴿١٦﴾ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَـٰتِ وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَـٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله﴾ قيل نزلت في المنافقين بعد الهجرة بسنة وذلك أنهم قالوا لسلمان الفارسي ذات يوم حدثنا عن التوراة فإن فيها العجائب فنزل ﴿نحن نقص عليك أحسن القصص﴾ فأخبرهم أن القرآن أحسن من غيره فكفوا عن سؤال سلمان ما شاء الله ثم عادوا فسألوه مثل ذلك فنزل ﴿الله نزل أحسن الحديث﴾ الآية فكفوا عن سؤاله ما شاء الله ثم عادوا فسألوه فنزلت هذه الآية فعلى هذا القول يكون تأويل قوله: ﴿ألم يأن للذين آمنوا﴾ يعني في العلانية باللسان ولم يؤمنوا بالقلب، وقيل نزلت في المؤمنين وذلك أنهم لما قدموا المدينة أصابوا من لين العيش ورفاهيته ففتروا عن بعض ما كانوا عليه فعوتبوا ونزل في ذلك ألم يأن للذين آمنوا الآية قال ابن مسعود ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية إلا أربع سنين أخرجه مسلم وقال ابن عباس إن الله تعالى استبطأ قلوب المؤمنين فعاتبهم على رأس ثلاث عشرة سنة من نزول القرآن فقال ألم يأن يعني أما حان للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم أي ترق وتلين وتخضع قلوبهم لذكر الله أي لمواعظ الله ﴿وما نزل من الحق﴾ يعني القرآن ﴿ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل﴾ يعني اليهود والنصارى، ﴿فطال عليهم الأمد﴾ أي الزمان الذي بينهم وبين أنبيائهم ﴿فقست قلوبهم﴾ قال ابن عباس مالوا إلى الدنيا وأعرضوا عن مواعظ القرآن والمعنى أن الله نهى المؤمنين أن يكونوا في صحبة القرآن كاليهود والنصارى الذين قست قلوبهم لما طال عليهم الدهر روي عن أبي موسى الأشعري أنه بعث إلى قراء البصرة فدخل عليه ثلاثمائة رجل قد قرؤوا القرآن فقال أنتم خيار أهل البصرة وقراؤهم فاتلوه ولا يطولن عليكم الأمد

قوله عزّ وجلّ: ﴿ **ألم يَأْنِ للذين آمنوا أنْ تخشع قلوبهم لذكر الله** ﴾، قال الكلبي ومقاتل: نزلت في المنافقين بعد الهجرة بسنة، وذلك أنهم سألوا سلمان الفارسي ذات يوم فقالوا حدّثنا عن التوراة فإن فيها العجائب، فنزلت: ﴿ نحن نقصّ عليك أحسن القصص ﴾ [يوسف: ٣]، فأخبرهم أن القرآن أحسن قصصاً من غيره فكفّوا عن سؤال سلمان ما شاء الله، ثم عادوا فسألوا سلمان عن مثل ذلك فنزل: ﴿ الله نزّل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً ﴾ [الزّمر: ٢٣]، فكفّوا عن سؤاله ما شاء الله ثم عادوا فقالوا: حدّثنا عن التوراة فإن فيها العجائب فنزلت هذه الآية. فعلى هذا تأويل قوله: ﴿ **ألم يَأْنِ للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله** ﴾، يعني في العلانية وباللسان. وقال الآخرون: نزلت في المؤمنين. قال عبد الله بن مسعود: ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية: ﴿ **ألمْ يَأْنِ للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله** ﴾، إلاّ أربع سنين. وقال ابن عباس: إن الله استبطأ قلوب المؤمنين فعاتبهم على رأس ثلاث عشرة سنة من نزول القرآن، فقال: ﴿ **ألم يَأْنِ** ﴾، ألم يحن للذين آمنوا أن تخشع ترقّ وتلين وتخضع قلوبهم لذكر الله، ﴿ **وما نَزَلَ** ﴾، قرأ نافع وحفص عن عاصم بتخفيف الزاي، وقرأ الآخرون بتشديدها، ﴿ **من الحق** ﴾، وهو القرآن، ﴿ **ولا يكونوا كالذين أُوتوا الكتاب من قبل** ﴾، وهم اليهود والنصارى، ﴿ **فطال عليهم الأمد** ﴾، الزمان بينهم وبين أنبيائهم، ﴿ **فقستْ قلوبُهم** ﴾، قال ابن عباس: مالُوا إلى الدنيا وأعرضوا عن مواعظ الله، والمعنى أن الله عزّ وجلّ ينهى المؤمنين أن يكونوا في صحة القرآن كاليهود الذين قَسَت قلوبهم لمّا طال عليهم الدهر. رُوِيَ أن أبا موسى الأشعري بعث إلى قرّاء أهل البصرة فدخل عليه ثلثمائة رجل قد قرؤوا القرآن فقال لهم: أنتم خيار أهل البصرة وقرّاؤهم فاتلوه ولا يطولنّ عليكم الأمد فتقسوا قلوبكم كما قست قلوب مَن كان قبلكم.

فتقسو قلوبكم كما قست قلوب من كان قبلكم ﴿وكثير منهم فاسقون﴾ يعني الذين تركوا الإيمان بعيسى ومحمد ﷺ قوله عز وجل: ﴿اعلموا أن الله يحيي الأرض﴾ أي بالمطر ﴿بعد موتها﴾ أي يخرج منها النبات بعد يبسها فكذلك يقدر على إحياء الموتى وقال ابن عباس يلين القلوب بعد قسوتها فيجعلها مخبتة منيبة وكذلك يحيي القلوب الميتة بالعلم والحكمة وإلا فقد علم إحياء الأرض بالمطر مشاهدة ﴿قد بينا لكم الآيات﴾ أي الدالة على وحدانيتنا وقدرتنا ﴿لعلكم تعقلون إن المصدقين والمصدقات وأقرضوا الله قرضاً حسناً﴾ أي بالنفقة والصدقة في سبيل الله ﴿يضاعف لهم﴾ أي ذلك القرض ﴿ولهم أجر كريم﴾ أي ثواب حسن وهو الجنة.

وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٩﴾ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَـٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَـٰمًا ۖ وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾

﴿والذين آمنوا بالله ورسوله أولئك هم الصديقون﴾ أي الكثير والصدق قال مجاهد كل من آمن بالله ورسوله فهو صديق وتلا هذه الآية فعلى هذا الآية عامة في كل من آمن بالله ورسوله وقيل إن الآية خاصة في ثمانية نفر من هذه الأمة سبقوا أهل الأرض في زمانهم إلى الإسلام وهم أبو بكر وعلي وزيد وعثمان وطلحة والزبير وسعد وحمزة وتاسعهم عمر بن الخطاب ألحقه الله بهم لما عرف من صدق نيته، ﴿والشهداء عند ربهم﴾ قيل أراد بالشهداء المؤمنين المخلصين قال مجاهد كل مؤمن صديق شهيد وتلا هذه الآية وقيل هم التسعة الذين تقدم ذكرهم وقيل تم الكلام عند قوله هم الصديقون ثم ابتدأ والشهداء عند ربهم وهم الأنبياء الذين يشهدون على الأمم يروى ذلك عن ابن عباس وقيل هم الذين استشهدوا في سبيل الله، ﴿لهم أجرهم﴾ أي بما عملوا من العمل الصالح ﴿ونورهم﴾ يعني على الصراط ﴿والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم﴾ لما ذكر حال المؤمنين أتبعه بحال الكافرين.

﴿ وكثير منهم فاسقون ﴾، يعني الذين تركوا الإيمان بعيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام.

وقوله عزّ وجلّ: ﴿اعلموا أن الله يحيي الأرض بعد موتها قد بيّنا لكم الآيات لعلّكم تعقلون * إن المصَّدِّقين والمصَّدِّقات ﴾، قرأ ابن كثير وأبو بكر عن عاصم بتخفيف الصاد فيهما من التصديق أي المؤمنين والمؤمنات، وقرأ الآخرون بتشديدهما أي المتصدقين والمتصدقات أُدغمت التاء في الصاد، ﴿ وأقرضوا الله قرضاً حسناً ﴾، بالصدقة والنفقة في سبيل الله عزّ وجلّ، ﴿ يُضاعَفُ لهم ﴾، ذلك القرض ﴿ ولهم أجرٌ كريم ﴾، ثواب حسن وهو الجنة.

﴿ والذين آمنوا بالله ورسوله أولئك هم الصدّيقون ﴾، والصدّيق الكثير الصدق، قال مجاهد: كلّ مَن آمن بالله ورسله فهو صدّيق وتلا هذه الآية. قال الضحاك: هم ثمانية نفر من هذه الأمة سبقوا أهل الأرض في زمانهم إلى الإسلام أبو بكر وعلي وزيد وعثمان وطلحة والزبير وسعد وحمزة، وتاسعهم عمر بن الخطاب رضوان الله تعالى عليهم أجمعين ألحقه الله بهم لما عرف من صدق نيّته. ﴿ والشهداء عند ربهم ﴾، اختلفوا في نظم هذه الآية منهم مَن قال: هي متصلة بما قبلها والواو واو النسق، وأراد بالشهداء المؤمنين المخلصين. وقال الضحاك: هم الذين سمّيناهم. وقال مجاهد: كل مؤمن صدّيق شهيد، وتلا هذه الآية. وقال قوم: تمّ الكلام عند قوله: ﴿ هم الصدّيقون ﴾، ثم ابتدأ فقال: والشهداء عند ربهم، والواوُ واوُ الاستئناف، وهو قول ابن عباس ومسروق وجماعة، ثم اختلفوا فيهم فقال قوم هم الأنبياء الذين يشهدون على الأمم يوم القيامة، يُروَى ذلك عن ابن عباس وهو قول

قوله عز وجل: ﴿اعلموا أنما الحياة الدنيا﴾ أي مدة الحياة في هذه الدار الدنيا وإنما أراد من صرف حياته في غير طاعة الله فحياته مذمومة ومن صرف حياته في طاعة الله فحياته خير كلها ثم وصفها بقوله ﴿لعب﴾ أي باطل لا حاصل له كلعب الصبيان ﴿ولهو﴾ أي فرح ساعة ثم ينقضي عن قريب ﴿وزينة﴾ أي منظر يتزينون به ﴿وتفاخر بينكم﴾ يعني إنكم تشتغلون في حياتكم بما يفتخر به بعضكم على بعض ﴿وتكاثر في الأموال والأولاد﴾ أي مباهاة بكثرة الأموال والأولاد وقيل بجمع ما لا يحل له فيتطاول بماله وخدمه وولده على أولياء الله تعالى وأهل طاعته ثم ضرب لهذه الحياة مثلاً فقال تعالى: ﴿كمثل غيث أعجب الكفار﴾ أي الزراع إنما سمي الزراع كفاراً لسترهم الأرض بالبذر ﴿نباته﴾ أي ما نبت بذلك الغيث ﴿ثم يهيج﴾ أي ييبس ﴿فتراه مصفراً﴾ أي بعد خضرته ﴿ثم يكون حطاماً﴾ أي يتحطم ويتكسر بعد يبسه ويفنى ﴿وفي الآخرة عذاب شديد﴾ أي لمن كانت حياته بهذه الصفة قال أهل المعاني زهد الله بهذه الآية في العمل للدنيا وهذه صفة حياة الكافرين وحياة من يشتغل باللعب واللهو ورغب في العمل للآخرة بقوله: ﴿ومغفرة من الله ورضوان﴾ أي لأوليائه وأهل طاعته وقيل عذاب شديد لأعدائه ومغفرة من الله ورضوان لأوليائه لأن الآخرة إما عذاب وإما جنة ﴿وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور﴾ أي لمن عمل لها ولم يعمل للآخرة فمن اشتغل في الدنيا بطلب الآخرة فهي له بلاغ إلى ما هو خير منه وقيل متاع الغرور لمن لم يشتغل فيها بطلب الآخرة.

سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٢١﴾ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ﴿٢٢﴾ لِّكَيۡلَا تَأۡسَوۡاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا تَفۡرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِۗ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ﴿٢٤﴾ لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَأَنزَلۡنَا ٱلۡحَدِيدَ فِيهِ بَأۡسٞ شَدِيدٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ ﴿٢٥﴾

قوله عز وجل: ﴿سابقوا إلى مغفرة من ربكم﴾ معناه لتكن مفاخرتكم ومكاثرتكم في غير ما أنتم عليه بل

مقاتل بن حيان. وقال مقاتل بن سليمان: هم الذين استشهدوا في سبيل الله، ﴿ لهم أجرهم ﴾، بما عملوا من العمل الصالح، ﴿ ونورهم ﴾، على الصراط ﴿ والذين كفروا وكذّبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم ﴾.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ اعلموا أنما الحياة الدنيا ﴾، أي أن الحياة الدنيا، و(ما) صلة أي إن الحياة في هذه الدار، ﴿ لعب ﴾، باطل لا حاصل له، ﴿ ولهو ﴾، فرح ثم ينقضي، ﴿ وزينة ﴾، منظر تتزينون به، ﴿ وتفاخر بينكم ﴾، تفخر به بعضكم على بعض، ﴿ وتكاثر في الأموال والأولاد ﴾، أي مباهاة بكثرة الأموال والأولاد، ثم ضرب لها مثلاً فقال: ﴿ كمثل غيث أعجب الكفّار ﴾، أي الزرّاع، ﴿ نباته ﴾، ما نبت من ذلك الغيث، ﴿ ثم يهيج ﴾، ييبس، ﴿ فتراه مصفراً ﴾، بعد خضرته ونضرته، ﴿ ثم يكون حطاماً ﴾، يتحطم ويتكسّر بعد يبسه ويفنى، ﴿ وفي الآخرة عذاب شديد ﴾، قال مقاتل: لأعداء الله، ﴿ ومغفرة من الله ورضوان ﴾ لأوليائه وأهل طاعته، ﴿ وما الحياة الدنيا إلّا متاع الغرور ﴾، قال سعيد بن جبير: متاع الغرور لمَن يشتغل فيها بطلب الآخرة ومَن اشتغل بطلبها فله متاع بلاغ إلى ما هو خير منه.

﴿ سابقوا ﴾، سارعوا، ﴿ إلى مغفرة من ربكم وجنّة عرضها كعرض السماء والأرض ﴾، لو وُصل بعضها

احرصوا على أن تكون مسابقتكم في طلب الآخرة والمعنى سارعوا مسارعة المسابقين في المضمار إلى مغفرة أي إلى ما يوجب المغفرة وهي التوبة من الذنوب وقيل سابقوا إلى ما كلفتم به من الأعمال فتدخل فيه التوبة وغيرها، ﴿**وجنة عرضها كعرض السماء والأرض**﴾ قيل إن السموات السبع والأرضين السبع لو جعلت صفائح وألزق بعضها ببعض لكان عرض الجنة في قدرها جميعاً وقال ابن عباس إن لكل واحد من المطيعين جنة بهذه السعة وقيل إن الله تعالى شبه عرض الجنة بعرض السموات والأرضين ولا شك أن الطول يكون أزيد من العرض فذكر العرض تنبيهاً على أن طولها أضعاف ذلك وقيل إن هذا تمثيل للعباد بما يعقلونه ويقع في نفوسهم وأفكارهم وأكثر ما يقع في نفوسهم مقدار السموات والأرض فشبه عرض الجنة بعرض السموات والأرض على ما يعرفه الناس، ﴿**أعدت للذين آمنوا بالله ورسله**﴾ فيه أعظم رجاء وأقوى أمل لأنه ذكر أن الجنة أعدت لمن آمن بالله ورسله ولم يذكر مع الإيمان شيئاً آخر يدل عليه قوله في سياق الآية ﴿**ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء**﴾ فبين أنه لا يدخل أحد الجنة إلا بفضل الله تعالى لا بعمله، ﴿**والله ذو الفضل العظيم**﴾ (ق) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ «لن يدخل أحداً منكم الجنة عمله قالوا ولا أنت يا رسول الله؟ قال ولا أنا إلا أن يتغمدني الله بفضل رحمته» وقد تقدم الكلام على معنى هذا الحديث والجمع بينه وبين قوله ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون في تفسير سورة النحل.

قوله تعالى: ﴿**ما أصاب من مصيبة في الأرض**﴾ يعني عدم المطر وقلة النبات ونقص الثمار، ﴿**ولا في أنفسكم**﴾ يعني الأمراض وفقد الأولاد ﴿**إلا في كتاب**﴾ يعني في اللوح المحفوظ ﴿**من قبل أن نبرأها**﴾ أي من قبل أن نخلق الأرض والأنفس وقال ابن عباس من قبل أن نبرأ المصيبة ﴿**إن ذلك على الله يسير**﴾ أي إثبات ذلك على كثرته هين على الله عز وجل: ﴿**لكيلا تأسوا**﴾ أي تحزنوا ﴿**على ما فاتكم**﴾ من الدنيا ﴿**ولا تفرحوا**﴾ أي لا تبطروا ﴿**بما آتاكم**﴾ أي أعطاكم قال عكرمة ليس أحد إلا وهو يفرح ويحزن ولكن اجعلوا الفرح شكراً والحزن صبراً قال صاحب الكشاف: إن قلت ما من أحد يملك نفسه عند مضرة تنزل به ولا عند منفعة ينالها أن لا يحزن ولا يفرح قلت المراد الحزن المخرج إلى ما يذهل صاحبه عن الصبر والتسليم لأمر الله ورجاء ثواب الصابرين والفرح المطغي الملهي عن الشكر فأما الحزن الذي لا يكاد الإنسان يخلو منه مع الاستسلام والسرور بنعمة الله والاعتداد بها مع الشكر فلا بأس بهما والله أعلم وقال جعفر بن محمد الصادق يا ابن آدم ما لك تأسف على مفقود لا يرده إليك الفوت وما لك تفرح

ببعض، ﴿ **أُعِدّت للذين آمنوا بالله ورسله ذلك فضل الله يؤتيه مَن يشاء والله ذو الفضل العظيم** ﴾، فبيّن أن أحداً لا يدخل الجنة إلّا بفضل الله.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ **ما أصاب من مصيبة في الأرض** ﴾، يعني قحط المطر وقلّة النبات ونقص الثمار، ﴿ **ولا في أنفسكم** ﴾، يعني الأمراض وفَقْد الأولاد. ﴿ **إلّا في كتاب** ﴾، يعني اللوح المحفوظ، ﴿ **من قبل أن نبرأها** ﴾، من قبل أن نخلق الأرض والأنفس. قال ابن عباس: من قبل أن نبرأ المصيبة. وقال أبو العالية: يعني النسمة، ﴿ **إنّ ذلك على الله يسير** ﴾، أي إثبات ذلك على كثرته هيّن على الله عزّ وجلّ.

﴿ **لكيلا تأسَوْا** ﴾، تحزنوا، ﴿ **على ما فاتكم** ﴾، من الدنيا، ﴿ **ولا تفرحوا بما آتاكم** ﴾، قرأ أبو عمرو بقصر الألف لقوله: ﴿ **فاتكم** ﴾، فجعل الفعل له، وقرأ الآخرون ﴿ **آتاكم** ﴾ بمدّ الألف، أي: أعطاكم. قال عكرمة: ليس أحد إلّا وهو يفرح ويحزن ولكن اجعلوا الفرح شكراً والحزن صبراً. ﴿ **والله لا يحبّ كل مختال** ﴾، متكبّر بما أُوتي من الدنيا، ﴿ **فخور** ﴾، يفخر به على الناس. قال جعفر بن محمد الصادق: يا ابن آدم ما لك تأسف على مفقود لا يردّه إليك الفوت، وما لك تفرح بموجود لا يتركه في يدك الموت.

﴿ **الذين يبخلون** ﴾، قيل: هو في محل الخفض على نعت المختال. وقيل: هو رفع بالابتداء وخبره فيما

بموجود لا يتركه في يديك الموت، ﴿والله لا يحب كل مختال﴾ أي متكبر بما أوتي من الدنيا ﴿فخور﴾ أي بذلك الذي أوتي على الناس ﴿الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل﴾ قيل هذه الآية متعلقة بما قبلها والمعنى والله لا يحب الذين يبخلون يريد إذا رزقوا مالاً وحظاً من الدنيا فلحبهم له وعزته عندهم يبخلون به ولا ينفقونه في سبيل الله ووجوه الخير ولا يكفيهم أنهم بخلوا به حتى يأمروا الناس بالبخل وقيل إن الآية كلام مستأنف لا تعلق له بما قبله وإنها في صفة اليهود الذين كتموا صفة محمد ﷺ وبخلوا ببيان نعته ﴿ومن يتول﴾ قال ابن عباس عن الإيمان ﴿فإن الله هو الغني﴾ أي عن عباده ﴿الحميد﴾ أي إلى أوليائه.

قوله عز وجل: ﴿لقد أرسلنا رسلنا بالبينات﴾ أي بالدلالات والآيات والحجج ﴿وأنزلنا معهم الكتاب﴾ أي المتضمن للأحكام وشرائع الدين ﴿والميزان﴾ يعني العدل أي وأمرنا بالعدل وقيل المراد بالميزان هو الآلة التي يوزن بها وهو يرجع إلى العدل أيضاً وهو قوله ﴿ليقوم الناس بالقسط﴾ أي ليتعاملوا بينهم بالعدل، ﴿أنزلنا الحديد﴾ قيل إن الله تعالى أنزل مع آدم عليه الصلاة والسلام لما أهبط إلى الأرض السندان والمطرقة والكلبتين وروي عن ابن عمر يرفعه «إن الله أنزل أربع بركات من السماء إلى الأرض الحديد والنار والماء والملح» وقيل أنزلنا هنا بمعنى أنشأنا وأحدثنا الحديد وذلك أن الله تعالى أخرج لهم الحديد من المعادن وعلمهم صنعته بوحيه وإلهامه، ﴿فيه بأس شديد﴾ أي قوة شديدة فمنه جنة وهي آلة الدفع ومنه سلاح وهي آلة الضرب ﴿ومنافع للناس﴾ أي ومنه ما ينتفعون به في مصالحهم كالسكين والفأس والإبرة ونحو ذلك، إذ الحديد آلة لكل صنعة فلا غنى لأحد عنه ﴿وليعلم الله﴾ أي وأرسلنا رسلنا وأنزلنا معهم هذه الأشياء ليتعامل الناس بالحق والعدل وليرى الله ﴿من ينصره﴾ أي من ينصر دينه ﴿ورسله بالغيب﴾ أي الذين لم يروا الله ولا الآخرة وإنما يحمد ويثاب من أطاع بالغيب وقال ابن عباس ينصرونه ولا يبصرونه ﴿إن الله قوي﴾ في أمره ﴿عزيز﴾ في ملكه.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ

بعده. ﴿ ويأمرون الناس بالبخل ومَن يتولَّ ﴾، أي يُعرِض عن الإيمان ﴿ فإن الله هو الغني الحميد ﴾، قرأ أهل المدينة والشام: ﴿ فإن الله الغني ﴾، بإسقاط هو وكذلك هو في مصاحفهم.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ لقد أرسلنا رسلنا بالبيّنات ﴾، بالآيات والحجج، ﴿ وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ﴾، يعني العدل. وقال مقاتل بن سليمان: هو ما يوزن به أي ووضعنا الميزان كما قال: ﴿ والسماء رفعها ﴾ [الرحمن: ٧]، بأن وضع ﴿ الميزان ليقوم الناس بالقسط ﴾، ليتعاملوا بينهم بالعدل، ﴿ وأنزلنا الحديد ﴾، رُوِيَ عن ابن عمر يرفعه: إن الله أنزل أربع بركات من السماء إلى الأرض الحديد والنار والماء والملح، وقال أهل المعاني معنى قوله: ﴿ أنزلنا الحديد ﴾، أنشأنا وأحدثنا، أي أخرج لهم الحديد من المعادن وعلّمهم صنعته بوحيه. وقال قطرب: هذا من النزل كما يقال أنزل الأمير على فلان نزلاً حسناً فمعنى الآية أنه جعل ذلك نزلاً لهم. ومثله قوله: ﴿ وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج ﴾ [الزمر: ٦]. ﴿ فيه بأس شديد ﴾، قوة شديدة يعني السلاح للحرب. قال مجاهد: فيه جنّة وسلاح يعني آلة وآلة الضرب، ﴿ ومنافع للناس ﴾، مما ينتفعون به في مصالحهم كالسكّين والفأس والإبرة ونحوها إذْ هو آلة لكل صنعة، ﴿ وليعلم الله ﴾، أي أرسلنا رسلنا وأنزلنا معهم هذه الأشياء ليتعامل الناس بالحق والعدل وليعلم الله وليرى الله، ﴿ مَنْ ينصره ﴾، أي دينه، ﴿ ورسله بالغيب ﴾، أي قام بنصرة الدين ولم يرَ الله ولا الآخرة وإنما يحمد ويُثاب من أطاع الله بالغيب. ﴿ إن الله قويٌّ عزيز ﴾، قوي في أمره عزيز في مُلكه.

فَسِقُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٧﴾

﴿ولقد أرسلنا نوحاً وإبراهيم وجعلنا في ذريتهما النبوة والكتاب﴾ معناه أنه تعالى شرف نوحاً وإبراهيم بالرسالة وجعل في ذريتهما النبوة والكتاب فلا يوجد نبي إلا من نسلهما ﴿فمنهم﴾ أي من الذرية ﴿مهتد وكثير منهم فاسقون ثم قفينا﴾ أي اتبعنا ﴿على آثارهم رسلنا﴾ والمعنى بعثنا رسولاً بعد رسول إلى أن انتهت الرسالة إلى عيسى ابن مريم وهو قوله تعالى: ﴿وقفينا بعيسى ابن مريم وآتيناه الإنجيل وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه﴾ أي على دينه، ﴿رأفة ورحمة﴾ يعني أنهم كانوا متوادين بعضهم لبعض، ﴿ورهبانية ابتدعوها﴾ ليس هذا عطفاً على ما قبله والمعنى أنهم جاؤوا بها من قبل أنفسهم وهي ترهبهم في الجبال والكهوف والغيران والديرة فروا من الفتنة وحملوا أنفسهم المشاق في العبادة الزائدة وترك النكاح واستعمال الخشن في المطعم والمشرب والملبس مع التقلل من ذلك ﴿ما كتبناها عليهم﴾ أي ما فرضناها نحن عليهم ﴿إلا ابتغاء رضوان الله﴾ أي لكنهم ابتدعوها ابتغاء رضوان الله ﴿فما رعوها حق رعايتها﴾ يعني أنهم يرعوا تلك الرهبانية حق رعايتها بل ضيعوها وضموا إليها التثليث والاتحاد وكفروا بدين عيسى ودخلوا في دين ملوكهم وأقام أناس منهم على دين عيسى حتى أدركوا محمداً ﷺ فآمنوا به فذلك قوله تعالى: ﴿فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم﴾ وهم الذين ثبتوا على الدين الصحيح، ﴿وكثير منهم فاسقون﴾ وهم الذين تركوا الرهبانية وكفروا بدين عيسى ﷺ وروى البغوي بإسناد الثعلبي عن ابن مسعود قال دخلت على رسول الله ﷺ فقال يا ابن مسعود «اختلف من كان

﴿ ولقد أرسلنا نوحاً وإبراهيم وجعلنا في ذريتهما النبوّة والكتاب فمنهم مُهتدٍ وكثيرٌ منهم فاسقون * ثم قفّينا على آثارهم برسلنا وقفّينا بعيسى ابن مريم وآتيناه الإنجيل وجعلنا في قلوب الذين اتّبعوه ﴾، على دينه، ﴿ رأفة ﴾، وهي أشدّ الرقّة، ﴿ ورحمة ﴾، كانوا متوادّين بعضهم لبعض، كما قال الله تعالى في وصف أصحاب النبي ﷺ: ﴿ رحماء بينهم ﴾ [الفتح: ٢٩]، ﴿ ورهبانية ابتدعوها ﴾، من قبل أنفسهم وليس هذا بعطف على ما قبله وانتصابه بفعل مضمر كأنه قال: وابتدعوا رهبانية أي جاؤوا بها من قبل أنفسهم، ﴿ ما كتبناها ﴾، أي ما فرضناها، ﴿ عليهم إلّا ابتغاء رضوان الله ﴾، يعني ولكنهم ابتغوا رضوان الله بتلك الرهبانية وتلك الرهبانية ما حمّلوا أنفسهم من المشاق في الامتناع من المطعم والمشرب والملبَس والنكاح والتعبّد في الجبال، ﴿ فما رعوها حقّ رعايتها ﴾، أي لم يرعو الرهبانية حقّ رعايتها بل ضيّعوها وكفروا يدين عيسى فتهوّدوا وتنصّروا ودخلوا في دين ملوكهم وتركوا الترهيب، وأقام منهم أُناس على دين عيسى عليه الصلاة والسلام حتى أدركوا محمداً ﷺ فآمنوا به، وذلك قوله تعالى: ﴿ فآتينا الذين آمنوا منهم أجْرهم ﴾، وهم الذين ثبتوا عليها وهم أهل الرأفة والرحمة، ﴿ وكثير منهم فاسقون ﴾، وهم الذين تركوا الرهبانية وكفروا بدين عيسى عليه الصلاة والسلام، أخبرنا أبو سعيد الشريحي أنا أبو إسحاق الثعلبي أنبأني عبد الله بن حامد أنا أحمد بن عبد الله المزني ثنا محمد بن عبد الله بن سليمان ثنا شيبان بن فروخ ثنا الصعق بن حرب عن عقيل الجعدي عن أبي إسحاق عن سويد بن غفلة عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: دخلت على رسول الله ﷺ فقال: «يا ابن مسعود اختلف مَن كان قبلكم على اثنتين وسبعين فرقة نجا منها ثلاث وهلك سائرهنّ فرقة وازت الملوك وقاتلوهم على دين عيسى عليه الصلاة والسلام، فأخذوهم وقتلوهم وفرقة لم تكن لهم طاقة بموازاة الملوك ولا بأن يقيموا بين ظهرانيهم يدعونهم إلى دين الله ودين عيسى عليه السلام فساحوا في البلاد وترهّبوا، وهم الذين قال الله عزّ وجلّ فيهم: ﴿ ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم ﴾ فقال

قبلكم على اثنتين وسبعين فرقة نجا منها ثلاث وهلك سائرهن: فرقة وازت الملوك وقاتلوهم على دين عيسى فأخذوهم وقتلوهم، وفرقة لم تكن لهم طاقة بموازاة الملوك ولا أن يقيموا بين ظهرانيهم يدعونهم إلى دين الله ودين عيسى فساحوا في البلاد وترهبوا وهم الذين قال الله عز وجل فيهم ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم» قال ﷺ «من آمن بي وصدقني واتبعني فقد رعاها حق رعايتها ومن لم يؤمن بي فأولئك هم الهالكون». وعنه قال كنت رديف رسول الله ﷺ على حمار فقال لي «يا ابن أم عبد هل تدري من أين أخذت بنو إسرائيل الرهبانية؟ قلت الله ورسوله أعلم قال ظهرت عليهم الجبابرة بعد عيسى يعملون بالمعاصي فغضب أهل الإيمان فقاتلوهم فهزم أهل الإيمان ثلاث مرات فلم يبق منم إلا القليل فقالوا إن ظهرنا لهؤلاء فتنونا ولم يبق أحد يدعو إليه تعالى فتعالوا لنتفرق في الأرض إلى أن يبعث الله النبي الذي وعدنا عيسى به ـ يعنون محمداً ﷺ ـ فتفرقوا في غيران الجبال وأحدثوا الرهبانية فمنهم من تمسك بدينه ومنهم من كفر ثم تلا هذه الآية ﴿ورهبانية ابتدعوها﴾ إلى ﴿فآتينا الذين آمنوا منهم﴾ أي من الذين ثبتوا عليها أجرهم ثم قال النبي ﷺ «يا ابن أم عبد أتدري ما رهبانية أمتي؟ قلت الله ورسوله أعلم قال الهجرة والصلاة والجهاد والصوم والحج والعمرة والتكبير على التلاع»، وروي عن أنس عن النبي ﷺ قال «إن لكل أمة رهبانية ورهبانية هذه الأمة الجهاد في سبيل الله» وعن ابن عباس قال «كانت ملوك بعد عيسى عليه الصلاة والسلام بدلوا التوراة والإنجيل وكان فيهم جماعة مؤمنون يقرؤون التوراة والإنجيل ويدعونهم إلى دين الله فقيل لملوكهم لو جمعتم هؤلاء الذين شقوا عليكم فقتلتموهم أو دخلوا فيما نحن فيه فجمعهم ملكهم وعرض عليهم القتل أو يتركوا قراءة التوراة والإنجيل إلا ما بدلوا منها فقالوا ما تريدون إلى ذلك دعونا نحن نكفيكم أنفسنا فقالت طائفة منهم ابنوا لنا اسطواناً ثم ارفعونا فيه ثم أعطونا شيئاً نرفع به طعامنا وشرابنا فلا نرد عليكم وطائفة قالت دعونا نسيح في الأرض ونهيم ونشرب كما يشرب الوحش فإن قدرتم علينا في أرضكم فاقتلونا. وقالت طائفة منهم ابنوا لنا دوراً في الفيافي ونحتفر الآبار ونحترث

النبي ﷺ: «مَن آمن بي وصدّقني واتّبعني فقد رعاها حقّ رعايتها، ومَن لم يؤمن بي فأولئك هم الهالكون». ورُوِيَ عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: كنت رديف النبي ﷺ على حمار فقال لي: «يا ابن أُم عبد هل تدري من أين اتخذت بنو إسرائيل الرهبانية»: قلت: الله ورسوله أعلم، قال: ظهرت عليهم الجبابرة بعد عيسى عليه السلام يعملون بالمعاصي فغضب أهل الإيمان فقاتلوهم فهزم أهل الإيمان ثلاث مرات فلم يبقَ منهم إلا القليل، فقالوا: إن ظهرنا لهؤلاء أفنونا ولم يبقَ للدين أحدٌ يدعو إليه، فقالوا: تعالوا نتفرّق في الأرض إلى أن يبعث الله النبي الذي وعدنا به عيسى عليه السلام»، يعنون محمداً ﷺ، فتفرقوا في غِيْرَانِ الجبال، وأحدثوا رهبانية فمنهم مَن تمسّك بدينه ومنهم مَن كفر، ثم تلا هذه الآية: ﴿ ورهبانية ابتدعوها ﴾ الآية، ﴿ فآتينا الذين آمنوا منهم ﴾، يعني مَن ثبتوا عليها أجرهم، ثم قال النبي ﷺ: «يا ابن أُم عبد أتدري ما رهبانية أمتي»؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال: «الهجرة والجهاد والصلاة والصوم والحج والعمرة والتكبير على التلاع»، ورُوِيَ عن أنس عن النبي ﷺ قال: «إن لكل أُمة رهبانية ورهبانية هذه الأمة الجهاد في سبيل الله»، وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كانت ملوك بني إسرائيل بعد عيسى عليه السلام بدّلوا التوراة والإنجيل، وكان فيهم مؤ منون يقرؤون التوراة والإنجيل ويدعونهم إلى دين الله فقيل لملوكهم لو جمعتهم هؤلاء الذين شقّوا عليكم فقتلتموهم أو دخلوا فيما نحن فيه، فجمعهم ملكهم وعرض عليهم القتل أو يتركوا قراءة التوراة والإنجيل إلّا ما بدّلوا منها، فقالوا: نحن نكفيكم أنفسنا فقالت طائفة ابنوا لنا أسطوانة، ثم ارفعونا إليها ثم أعطونا شيئاً نرفع به طعامنا وشرابنا، ولا نرد عليكم، وقالت طائفة: دعونا نسيح في الأرض ونهيم ونشرب كما يشرب الوحش، فإن قدرتم علينا بأرض فاقتلونا، وقالت طائفة: ابنوا لنا دوراً في الفيافي نحتفر الآبار ونحترث البقول فلا نَرِدُ عليكم ولا نمرّ بكم، ففعلوا بهم ذلك فمضى أولئك

البقول ولا نرد عليكم ولا نمر عليكم وليس أحد من القبائل إلا وله حميم فيهم قال ففعلوا ذلك فمضى أولئك على منهاج عيسى وخلف قوم من بعدهم ممن غيروا الكتاب فجعل الرجل يقول نكون في مكان فلان نتعبد كما تعبد فلان ونسيح كما ساح فلان ونتخذ دوراً كما اتخذ فلان وهم على شركهم لا علم لهم بإيمان الذين اقتدوا بهم فذلك قول الله عز وجل: ﴿ورهبانية ابتدعوها﴾ يعني ابتدعها الصالحون فما رعوها حق رعايتها يعني الآخرين الذين جاؤوا من بعدهم ﴿فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم﴾ يعني الذين ابتدعوها ﴿ابتغاء رضوان الله وكثير منهم فاسقون﴾ وهم الذين جاؤوا من بعدهم فلما بعث النبي ﷺ ولم يبق منهم إلا القليل انحط رجل من صومعته وجاء سائح من سياحته وصاحب دير من ديره فآمنوا به وصدقوه فقال الله تعالى:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾

﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته﴾ أجرين بإيمانهم بعيسى وبالتوراة والإنجيل وبإيمانهم بمحمد ﷺ وتصديقهم له وقال ﴿ويجعل لكم نوراً تمشون به﴾ القرآن واتباعهم النبي ﷺ وقال ﴿لئلا يعلم أهل الكتاب﴾ الذين يتشبهون بكم ﴿ألا يقدرون على شيء من فضل الله﴾ الآية أخرجه النسائي موقوفاً على ابن عباس وقال قوم انقطع الكلام عند قوله ورحمة ثم قال ورهبانية ابتدعوها وذلك أنهم تركوا الحق فأكلوا الخنزير وشربوا الخمر وتركوا الوضوء والغسل من الجنابة والختان، «فما رعوها» يعني الملة والطاعة حق رعايتها كناية عن غير مذكور ﴿فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم﴾ وهم أهل الرأفة والرحمة ﴿وكثير منهم فاسقون﴾ وهم الذين غيروا وبدلوا وابتدعوا الرهبانية ويكون معنى قوله: ﴿ابتغاء رضوان الله﴾ على هذا التأويل: ﴿ما كتبناها عليهم﴾ ولكن ابتغاء رضوان الله وابتغاء رضوان الله اتباع ما أمر به دون الترهب لأنه لم يأمر به.

قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله﴾ الخطاب لأهل الكتابين من اليهود والنصارى يعني يا أيها الذين آمنوا بموسى وعيسى اتقوا الله في محمد وآمنوا به وهو قوله تعالى: ﴿وآمنوا برسوله﴾ يعني بمحمد ﷺ ﴿يؤتكم كفلين﴾ أي

على منهاج عيسى عليه الصلاة والسلام، وخلف قوم من بعدهم ممّن قد غيّر الكتاب، فجعل الرجل يقول نكون في مكان فلان فنتعبّد كما تعبّد فلان ونسيح كما ساح فلان ونتخذ دوراً كما اتخذ فلان وهم على شركهم لا علم لهم بإيمان الذين اقتدوا بهم فذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿ ورهبانية ابتدعوها ﴾ أي ابتدعها هؤلاء الصالحون فما رعوها حقّ رعايتها، يعني الآخرين الذين جاؤوا من بعدهم، فآتينا الذين آمنوا منهم أجْرهم، يعني الذين ابتدعوها ابتغاء رضوان الله، وكثير منهم فاسقون الذين جاؤوا من بعدهم، قال: فلما بُعث النبي ﷺ ولم يبق منهم إلاّ قليل انحطّ رجل من صومعته وجاء سيّاح من سياحته وصاحب دير من ديره وآمنوا به.

فقال الله عزّ وجلّ: ﴿ يا أيّها الذين آمنوا اتّقوا الله ﴾، الخطاب لأهل الكتابين من اليهود والنصارى، يا أيها الذين آمنوا بموسى وعيسى اتقوا الله في محمد ﷺ ﴿ وآمنوا برسوله ﴾، محمد ﷺ، ﴿ يؤتكم كفلين ﴾، نصيبين، ﴿ من رحمته ﴾، يعني يؤتكم أجرين لإيمانكم بعيسى عليه الصلاة والسلام، والإنجيل وبمحمد ﷺ والقرآن، وقال قوم: انقطع الكلام عند قوله: ﴿ ورحمة ﴾ ثم قال: ورهبانية ابتدعوها وذلك أنهم تركوا الحق فأكلوا الخنزير وشربوا الخمر وتركوا الوضوء والغسل من الجنابة والختان، فما رعوها يعني الطاعة والملّة حقّ رعايتها كناية عن غير مذكور، فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم، وهم أهل الرأفة والرحمة وكثير منهم فاسقون، وهم الذين ابتدعوا

نصيبين ﴿من رحمته﴾ يعني يؤتكم أجرين لإيمانكم بعيسى والإنجيل وبمحمد ﷺ والقرآن (ق) عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «ثلاثة لهم أجران رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بمحمد ﷺ والعبد المملوك الذي أدى حق مواليه وحق الله ورجل كانت عنده أمة يطؤها فأدبها فأحسن تأديبها وعلمها فأحسن تعليمها ثم أعتقها فتزوجها فله أجران»، ﴿ويجعل لكم نوراً تمشون به﴾ يعني على الصراط وقال ابن عباس: النور هو القرآن وقيل هو الهدى والبيان أي يجعل لكم سبيلاً واضحاً في الدين تهتدون به ﴿ويغفر لكم﴾ أي ما سلف من ذنوبكم قبل الإيمان بمحمد ﷺ، ﴿والله غفور رحيم لئلا يعلم أهل الكتاب﴾ قيل لما سمع من لم يؤمن من أهل الكتاب قوله: ﴿أولئك يؤتون أجرهم مرتين﴾، قالوا للمسلمين أما من آمن منا بكتابكم فله أجره مرتين لإيمانه بكتابكم وكتابنا ومن لم يؤمن فله أجر كأجركم فما فضلكم علينا فنزل ﴿لئلا يعلم﴾ أي ليعلم ولا صلة أهل الكتاب يعني الذين لم يؤمنوا بمحمد ﷺ وحسدوا المؤمنين ﴿ألا يقدرون﴾ يعني أنهم لا يقدرون ﴿على شيء من فضل الله﴾ والمعنى جعلنا الأجرين لمن آمن بمحمد ﷺ ليعلم الذين لم يؤمنوا به أنهم لا أجر لهم ولا نصيب من فضل الله وقيل لما نزل في مسلمي أهل الكتاب ﴿أولئك يؤتون أجرهم مرتين﴾ افتخروا على المسلمين بزيادة الأجر فشق ذلك على المسلمين فنزل لئلا يعلم أهل الكتاب يعني المؤمنين منهم أن لا يقدرون على شيء من فضل الله، ﴿وأن الفضل بيد الله﴾ يعني الذي خصكم به فإنه فضلكم على جميع الخلائق وقيل يحتمل أن يكون الأجر الواحد أكثر من الأجرين وقيل قالت اليهود يوشك أن يخرج منا نبي يقطع الأيدي والأرجل فلما خرج من العرب كفروا به فأنزل هذه الآية فعلى هذا يكون فضل الله النبوة ﴿يؤتيه من يشاء﴾ يعني محمداً ﷺ وهو قوله ﴿وأن الفضل بيد الله﴾ أي في ملكه وتصرفه يؤتيه من يشاء لأنه قادر مختار، ﴿والله ذو الفضل العظيم﴾ (خ) عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال سمعت رسول الله ﷺ وهو قائم على المنبر يقول «إنما بقاؤكم فيمن سلف قبلكم من الأمم كما بين صلاة العصر إلى غروب الشمس أوتي أهل التوراة التوراة فعملوا بها حتى انتصف النهار ثم عجزوا فأعطوا قيراطاً قيراطاً ثم أوتي أهل الإنجيل الإنجيل فعملوا إلى صلاة العصر ثم عجزوا فأعطوا قيراطاً قيراطاً ثم أوتينا القرآن فعملنا إلى غروب الشمس فأعطينا قراطين قيراطين فقال

الرهبانية، وإليه ذهب مجاهد، معنى قوله: ﴿ إلّا ابتغاء رضوان الله ﴾ على هذا التأويل ما أمرناهم وما كتبناها عليهم إلّا ابتغاء رضوان الله، وما أمرنا لهم بالترهّب. قوله عزّ وجلّ: ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ﴾ أي يا أيها الذين آمنوا بموسى وعيسى اتقوا الله وآمنوا برسوله محمد ﷺ يؤتكم كفلين نصيبين من رحمته. وروينا عن أبي موسى عن النبي ﷺ أنه قال: «ثلاثة يُؤتَون أجرَهم مرتين: رجل كانت له جارية فأدّبها فأحسن تأديبها ثم أعتقها وتزوّجها، ورجل من أهل الكتاب آمن بكتابه وآمن بمحمد ﷺ، وعبد أحسن عبادة الله ونصح سيده» ﴿ ويجعل لكم نوراً تمشون به ﴾، قال ابن عباس ومقاتل: يعني على الصراط، كما قال: ﴿ نورهم يسعى بين أيديهم ﴾ [التحريم: ٨]، ويُروَى عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النور هو القرآن. وقال مجاهد: هو الهدى والبيان، أي يجعل لكم سبيلاً واضحاً في الدين تهتدون به، ﴿ ويغفر لكم والله غفور رحيم ﴾، وقيل: لمّا سمع مَن لم يؤمن من أهل الكتاب قوله عزّ وجلّ: ﴿ أولئك يُؤتَون أجرهم مرتين ﴾ [القصص: ٥٤] قالوا للمسلمين: أما مَن آمن منّا بكتابكم فله أجره مرتين لإيمانه بكتابكم وبكتابنا وأمّا مَن لم يؤمن منّا فله أجر كأجوركم فما فضّلكم علينا؟ فأنزل الله تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ﴾، فيجعل لهم الأجرين إذا آمنوا برسوله محمد ﷺ وزادهم النور والمغفرة.

ثم قال: ﴿ لئلا يعلم أهل الكتاب ﴾، قال قتادة: حسد الذين لم يؤمنوا من أهل الكتاب المؤمنين منهم، فأنزل الله تعالى: ﴿ لئلا يعلم أهل الكتاب ﴾ قال مجاهد: قالت اليهود يوشك أن يخرج منّا نبي يقطع الأيدي

أهل الكتابين أي ربنا أعطيت هؤلاء قيراطين قيراطين وأعطيتنا قيراطاً قيراطاً ونحن أكثر عملاً قال الله تعالى هل ظلمتكم من أجركم شيئاً قالوا لا قال فهو فضلي أوتيه من أشاء» وفي رواية «إنما أجلكم في أجل من خلا من الأمم كما بين صلاة العصر إلى غروب الشمس وإنما مثلكم ومثل اليهود والنصارى كرجل استعمل عمالاً فقال من يعمل لي إلى نصف النهار على قيراط قيراط فعملت اليهود إلى نصف النهار على قيراط قيراط ثم قال من يعمل لي من نصف النهار إلى صلاة العصر على قيراط قيراط فعملت النصارى من نصف النهار إلى صلاة العصر على قيراط قيراط ثم قال من يعمل لي من صلاة العصر إلى غروب الشمس على قيراطين قراطين ألا فأنتم الذين يعملون من صلاة العصر إلى غروب الشمس ألا لكم الأجر مرتين فغضبت اليهود والنصارى وقالوا نحن أكثر عملاً وأقل عطاء قال الله عز وجل وهل ظلمتكم من حقكم شيئاً قالوا لا قال فإنه فضلي أصيب به من شئت» أي أعطيه من شئت (خ) عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال «مثل المسلمين واليهود والنصارى كمثل رجل استأجر قوماً يعملون له إلى الليل على أجر معلوم فعملوا إلى نصف النهار فقالوا لا حاجة لنا إلى أجرك الذي شرطت لنا وما عملنا باطل فقال لهم لا تفعلوا اعملوا بقية يومكم وخذوا أجركم كاملاً فأبوا وتركوا واستأجر آخرين بعدهم فقال اعملوا بقية يومكم ولكم الذي شرطت لهم من الأجر فعملوا حتى إذا كان حين صلاة العصر قالوا ما عملنا باطل ولك الأجر الذي جعلت لنا فيه فقال أكملوا بقية عملكم فإن ما بقي من النهار شيء يسير فأبوا فاستأجر قوماً أن يعملوا بقية يومهم فعملوا بقية يومهم حتى غابت الشمس واستكملوا أجر الفريقين كليهما فذلك مثلهم ومثل ما قبلوا من هذا النور» والله سبحانه وتعالى أعلم.

والأرجل، فلما خرج من العرب كفروا به، فأنزل الله تعالى: ﴿**لئلا يعلم أهل الكتاب**﴾ أي ليعلم و(لا) صلة، ﴿**ألا يقدرون على شيء من فضل الله**﴾، أي ليعلم الذين لم يؤمنوا أنهم لا أجر لهم ولا نصيب لهم في فضل الله، ﴿**وأن الفضل بيد الله يؤتيه مَن يشاء والله ذو الفضل العظيم**﴾، أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا قتيبة بن سعيد ثنا الليث عن نافع عن ابن عمر عن رسول الله ﷺ قال: «إنما أجلكم في أجل مَن خلا من الأمم كما بين صلاة العصر إلى مغرب الشمس وإنما مثلكم ومثل اليهود والنصارى كرجل استعمل عمّالاً فقال مَن يعمل لي إلى نصف النهار على قيراط قيراط، فعملت اليهود إلى نصف النهار على قيراط قيراط، ثم قال مَن يعمل لي من نصف النهار إلى صلاة العصر على قيراط قيراط، فعملت النصارى من نصف النهار إلى صلاة العصر على قيراط قيراط، ثم قال مَن يعمل لي من صلاة العصر إلى مغرب الشمس على قيراطين قيراطين، ألا فأنتم الذين تعملون من صلاة العصر إلى مغرب الشمس ألَا لكم الأجْر مرتين، فغضبت اليهود والنصارى وقالوا: نحن أكثر عملاً وأقلّ عطاءً؟ قال الله تعالى: «**هل ظلمتكم من حقكم شيئاً**»؟ قالوا: لا، قال: «فإنه فضلي أُعطيه مَن شئت». أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل حدّثني محمد بن العلماء ثنا أبو أُسامة عن يزيد عن أبي بردة عن أبي موسى عن النبي ﷺ قال: «مثل المسلمين واليهود والنصارى كمثل رجل استأجر قوماً يعملون له عملاً إلى الليل على أجْر معلوم فعملوا إلى نصف النهار، فقالوا لا حاجة لنا إلى أجْرك الذي شرطت لنا وما عملناه باطل، فقال لهم: لا تفعلوا أكملوا بقية عملكم وخذوا أجركم كاملاً، فأبوا وتركوا واستأجر قوماً آخرين بعدهم، فقال أكملوا بقية يومكم هذا ولكم الذي شرطت لهم من الأجْر فعملوا حتى إذا كان حين الصلاة العصر قالوا ما عملنا باطل ولك الأجْر الذي جعلت لنا فيه، فقال أكملوا بقية عملكم فإنما بقي من النهار شيء يسير، فأبوا فاستأجر قوماً أن يعملوا له بقية يومهم فعملوا بقية يومهم حتى غابت الشمس، فاستكملوا أجْر الفريقين كليهما فذلك مثلهم ومثل ما قبلوا من هذا النور».

سورة المجادلة

مدنية وهي اثنان وعشرون آية وأربعمائة وثلاث وسبعون كلمة وألف وسبعمائة واثنان وتسعون حرفاً

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ ﴿١﴾

قوله عز وجل: ﴿قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها﴾ «نزلت في خولة بنت ثعلبة وقيل اسمها جميلة وزوجها أوس بن الصامت أخو عبادة بن الصامت وكان به لمم وكانت هي حسنة الجسم فأرادها فأبت عليه فقال لها أنت عليّ كظهر أمي ثم ندم على ما قال وكان الظهار والإيلاء من طلاق أهل الجاهلية فقال ما أظنك إلا قد حرمت عليّ فقالت والله ما ذاك طلاق فأتت رسول الله ﷺ وعائشة تغسل شق رأسه فقالت يا رسول الله إن زوجي أوس بن الصامت تزوجني وأنا شابة غنية ذات أهل ومال حتى إذا أكل مالي وأفنى شبابي وتفرق أهلي وكبر سني ظاهر مني وقد ندم فهل من شيء يجمعني وإياه وتنعشني به فقال رسول الله ﷺ حرمت عليه فقالت يا رسول الله والذي أنزل عليك الكتاب ما ذكر الطلاق وإنه أبو ولدي وأحب الناس إليّ فقال رسول الله ﷺ حرمت عليه فقالت أشكو إلى الله فاقتي ووحدتي قد طالت له صحبتي ونثرت له بطني فقال رسول الله ﷺ ما أراك إلا قد حرمت عليه ولم أومر في شأنك بشيء فجعلت

سُوْرَة المُجَادلَة

مدنيّة وهي اثنتان وعشرون آية.

﴿قدْ سمعَ الله قول التي تجادلك في زوجها﴾، الآية نزلت في خولة بنت ثعلبة كانت تحت أوس بن الصامت وكانت حسنة الجسم وكان به لمم فأرادها فأبت فقال لها أنت عليّ كظهر أمي، ثم ندم على ما قال وكان الظهار والإيلاء من طلاق أهل الجاهلية، فقال لها: ما أظنك إلاّ قد حرمت عليّ فقالت: والله ما ذاك طلاق وأتت رسول الله ﷺ وعائشة رضي الله عنها تغسل شقّ رأسه، فقالت: يا رسول الله إن زوجي أوس بن الصامت تزوّجني وأنا شابّة غنية ذات مال وأهل حتى إذا أكل مالي وأفنى شبابي وتفرّق أهلي وكبر سنّي ظاهر منّي، وقد ندم فهل من شيء يجمعني وإيّاه تنعشني به؟ فقال رسول الله ﷺ: «حُرمتِ عليه»، فقالت: يا رسول الله والذي أنزل عليك الكتاب ما ذكر طلاقاً وإنه أبو ولديّ وأحبّ الناس إليّ، فقال رسول الله ﷺ: «حُرمتِ عليه»، فقالت أشكو إلى الله فاقتي ووحدتي قد طالت صحبتي ونفضت له بطني، فقال رسول الله ﷺ: «ما أراك إلاّ قد حُرمتِ عليه ولم أؤمر في شأنك بشيء»، فجعلت تراجع رسول الله ﷺ، وإذا قال لها رسول الله ﷺ: «حُرّمتِ عليه» هتفت، وقالت أشكو إلى الله فاقتي وشدّة حالي وإن لي صبيةً صغاراً إن ضممتهم إليه ضاعوا وإن ضممتهم إليّ جاعوا، وجعلت ترفع رأسها إلى السماء وتقول: اللّهمّ إني أشكو إليك، اللّهمّ فأنزل على لسان نبيّك فرجي، وكان هذا أول ظهار في الإسلام،

تراجع رسول الله ﷺ وكلما قال لها رسول الله ﷺ حرمت عليه هتفت وقالت أشكو إلى الله فاقتي ووحدتي وشدة حالي وإن لي صبية صغاراً إن ضممتهم إليّ جاعوا وإن ضممتهم إليه ضاعوا وجعلت ترفع رأسها إلى السماء وتقول اللهم أشكو إليك اللهم فأنزل على لسان نبيك فرجي وهذا كان أول ظهار في الإسلام، فقامت عائشة تغسل شق رأسه الآخر فقالت انظر في أمري جعلني الله فداءك يا نبي الله فقالت عائشة أقصري حديثك ومجادلتك أما ترين وجه رسول الله ﷺ إذا نزل عليه الوحي أخذه مثل السبات فلما قضي الوحي قال ادعي لي زوجك فتلا عليه رسول الله ﷺ قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها الآية (ق) عن عائشة قالت الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات لقد جاءت المجادلة خولة إلى رسول الله ﷺ وكلمته في جانب البيت وما أسمع ما تقول فأنزل الله ﴿**سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله**﴾ الآية وأما تفسير الآية فقوله تعالى قد سمع الله قول التي تجادلك أي تحاورك وتخاصمك وتراجعك في زوجها أي في أمر زوجها ﴿**وتشتكي إلى الله**﴾ أي شدة حالها وفاقتها ووحدتها، ﴿**والله يسمع تحاوركما**﴾ أي مراجعتكما الكلام ﴿**إن الله سميع**﴾ أي لمن يناجيه ويتضرع إليه ﴿**بصير**﴾ أي بمن يشكو إليه ثم ذم الظهار فقال تعالى:

﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْۖ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ۝٢﴾

﴿**الذين يظاهرون منكم من نسائهم**﴾ يعني يقولون لهن أنتن كظهور أمهاتنا ﴿**ما هن أمهاتهم**﴾ أي ما اللواتي يجعلونهن من زوجاتهن كالأمهات بأمهات والمعنى ليس هن بأمهاتهم ﴿**إن أمهاتهم**﴾ أي ما أمهاتهم ﴿**إلا اللائي ولدنهم وإنهم**﴾ يعني المظاهرين ﴿**ليقولون منكراً من القول**﴾ يعني لا يعرف في الشرع ﴿**وزوراً**﴾ يعني كذباً وقيل إنما وصفه بكونه منكراً من القول وزوراً لأن الأم محرمة تحريماً مؤبداً والزوجة لاتحرم عليه بهذا القول تحريماً مؤبداً فلا جرم صار ذلك منكراً من القول وزوراً ﴿**وإن الله لعفو غفور**﴾ عفا الله عنهم وغفر لهم بإيجاب الكفارة عليهم.

(فصل في أحكام الظهار: وفيه مسائل)

المسألة الأولى: في معناه لغة قيل إن مشتق من الظهر وهو العلو وليس هو من ظهر الإنسان إذ ليس الظهر بأولى من سائر الأعضاء التي هي مواضع التلذذ والمباضعة فثبت بهذا أنه مأخوذ من الظهر الذي هو العلو لأن امرأة الرجل مركب له وظهر يدل عليه قول العرب في الطلاق نزلت عن امرأتي أي طلقتها وفي قولهم أنت علي كظهر أمي حذف

فقامت عائشة تغسل شقّ رأسه الآخر، فقالت: انظر في أمري جعلني الله فداءك يا نبيّ الله، فقالت عائشة: أقصري حديثك ومجادلتك أما ترين وجه رسول الله ﷺ؟ وكان رسول الله ﷺ إذا نزل عليه أخذه مثل السبات، فلما قضى الوحي قال لها: ادعي زوجك فدعته، فتلا عليه رسول الله ﷺ: ﴿ **قد سمع الله قول التي تجادلك** ﴾، الآيات، قالت عائشة: تبارك الذي وَسِعَ سمعه الأصوات كلها إن المرأة لتحاور رسول الله ﷺ وأنا في ناحية البيت أسمع بعض كلامها ويخفى عليّ بعضه إذْ أنزل الله ﴿ **قد سمع الله** ﴾ الآيات، ومعنى قوله: ﴿ **قول التي تجادلك** ﴾ وتخاصمك وتحاورك وتراجعك في زوجها، ﴿ **وتشتكي إلى الله والله يسمع تحاوركما** ﴾، مراجعتكما الكلام، ﴿ **إن الله سميع بصير** ﴾، سميع لما تناجيه وتتضرّع إليه بصير بمَن يشكو إليه، ثم ذمّ الظهار.

فقال: ﴿ **الذين يظاهرون منكم من نسائهم** ﴾، قرأ عاصم ﴿ **يظاهرون** ﴾ فيها بضم الياء وتخفيف الظاء وألف بعدها وكسر الهاء، وقرأ ابن عامر وأبو جعفر وحمزة والكسائي بفتح الياء والهاء، وتشديد الظاء وألف بعدها، وقرأ الآخرون بفتح الياء وتشديد الظاء والهاء من غير ألف. ﴿ **ما هنّ أمّهاتهم** ﴾، أي ما اللواتي يجعلونهنّ من

وإضمار لأن تأويله ظهرك علي أي ملكي إياك وعلوي عليك حرام كعلوي أمي وعلوه عليها حرام.

المسألة الثانية: كان الظهار من أشد طلاق أهل الجاهلية لأنه في التحريم آكد ما يمكن فإن كان ذلك الحكم صار مقرراً بالشرع كانت الآية ناسخة له وإلا لم يعد نسخاً لأن النسخ إنما يدخل في الشرائع لا في أحكام الجاهلية وعادتهم.

المسألة الثالثة: في الألفاظ المستعملة لهذا المعنى في الشريعة وعرف الفقهاء الأصل في هذا قوله أنت عليّ كظهر أمي وأنت مني أو معي أو عندي كظهر أمي وكذا لو قال أنت عليّ كبطن أمي أو كرأس أمي أو كيد أمي أو قال بطنك أو رأسك أو يدك عليّ كظهر أمي أو شبه عضواً منها بعضو من أعضاء أمه يكون ذلك ظهاراً وقال أبو حنيفة إن شبهها ببطن أمه أو بفرجها أو بفخذها يكون ظهاراً وإن بشبهها بعضو غير هذه الأعضاء لا يكون ظهاراً ولو قال أنت عليّ كأمي أو كروح أمي وأراد به الإعزاز والإكرام لا يكون ظهاراً حتى ينويه ويريده ولو شبهها بجدته فقال أنت عليّ كظهر جدتي يكون ظهاراً وكذلك لو شبهها بامرأة محرمة عليه بالقرابة بأن قال أنت علي كظهر أختي أو عمتي أو خالتي أو شبهها بامرأة محرمة عليه بالرضاع يكون ظهاراً على الأصح.

المسألة الرابعة: فيمن يصح ظهاره قال الشافعي الضابط في هذا أن كل من صح طلاقه صح ظهاره فعلى هذا يصح ظهار الذمي وقال أبو حنيفة لا يصح احتج الشافعي بعموم قوله ﴿**والذين يظاهرون من نسائهم**﴾ واحتج أبو حنيفة بأن هذا خطاب للمؤمنين فيدل على أن الظهار مخصوص بالمؤمنين وأجيب عنه بأن هذا خطاب يتناول جميع الحاضرين فلم قلتم إنه مختص بالمؤمنين.

﴿وَالَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۚ ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿**والذين يظاهرون من نسائهم**﴾ يعني يمتنعون بهذا اللفظ من جماعهن ﴿**ثم يعودون لما قالوا**﴾ اختلف العلماء في معنى العود في قوله «ثم يعودون لما قالوا» ولا بد أولاً من بيان أقوال أهل العربية ثم بيان أقوال الفقهاء فنقول قال الفراء لا فرق في اللغة بين أن يقال يعودون لما قالوا وفيما قالوا وقال أبو علي الفارسي كلمة إلى

زوجاتهم كالأمهات بأُمهات وخفض التاء في أُمهاتهم على خبر ﴿ ما ﴾ ومحله نصب كقوله: ﴿ ما هذا بشراً ﴾ [يوسف: ٣١] المعنى ليس هنّ بأُمهاتهم، ﴿ **إن أُمهاتهم** ﴾ أي ما أُمهاتهم، ﴿ **إلّا اللائي ولدنهم وإنهم ليقولون منكراً من القول** ﴾، لا يعرف في شرع ﴿ **وزوراً** ﴾، كذباً، ﴿ **وإن الله لعفوٌ غفور** ﴾، عفا عنهم وغفر لهم بإيجاب الكفّارة عليهم، وصورة الظهار أن يقول الرجل لامرأته أنت عليّ كظهر أُمي، أو أنت منّي أو معي أو عندي كظهر أُمي، وكذلك لو قال: أنت عليّ كبطن أُمي أو كرأس أُمي أو كبد أُمي أو قال بطنك أو رأسك أو يدك عليّ كظهر أُمي أو شبّه عضواً منها بعضو آخر من أعضاء أمّه فيكون ظهاراً. وعند أبي حنيفة رضي الله عنه إن شبّهها ببطن الأم أو فرجها أو فخذها يكون ظهاراً وإن شبّهها بعضو آخر لا يكون ظهاراً. ولو قال أنت عليّ كأمي أو كروح أُمي وأراد به الإعزاز والكرامة فلا يكون ظهاراً حتى يريده، ولو شبّهها بجدّته فقال أنت عليّ كظهر جدّتي يكون ظهاراً وكذلك لو شبّهها بامرأة محرّمة عليه بالقرابة بأن قال أنت عليّ كظهر أُختي أو عمّتي أو خالتي أو شبّهها بامرأة محرّمة عليه بالرضاع يكون ظهاراً على الأصح من الأقاويل.

﴿ **والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة** ﴾، ثم حكم الظهار أنه يحرم على الزوج

اللام تتعاقبان كقوله ﴿وأوحى إلى نوح ـ وبأن ربك أوحى لها﴾ وأما لفظة «ما» في قوله لما فهي بمعنى الذي والمعنى يعودون إلى الذي قالوا وفي الذي قالوا. وفيه وجهان:

أحدهما: إنه لفظ الظهار والمعنى أنهم يعودون إلى ذلك اللفظ.

الوجه الثاني: أن المراد لما قالوا أي القول فيه وهو الذي حرموه على أنفسهم بلفظ الظهار تنزيلاً للقول منزلة المقول فيه وعلى هذا المعنى قوله ثم يعودون لما قالوا أي يعودون إلى شيء وذلك الشيء هو الذي قالوا فيه ذلك القول ثم إذا فسر هذا اللفظ بالوجه الأول يجوز أن يكون المعنى عاد لما فعل أي فعله مرة أخرى وعلى الوجه الثاني يجوز أن يقال عاد لما فعل أي نقض ما فعل وذلك أن من فعل شيئاً ثم أراد أن يفعله ثانياً فقد عاد إليه وكذا من فعل شيئاً ثم أراد إبطاله فقد عاد إليه بالتصرف فيه فقد ظهر بما تقدم أن قوله ثم يعودون لما قالوا يحتمل أن يكون المراد ثم يعودون إليه بأن يفعلوا مثله مرة أخرى ويحتمل أن يكون المراد ثم يعودون إليه بالنقض والرفع والإزالة وإلى هذا الاحتمال ذهب أكثر المجتهدين ثم اختلفوا فيه على وجوه:

الأول: وهو قول الشافعي إن معنى العود لما قالوا هو السكوت عن الطلاق بعد الظهار زماناً يمكنه أن يطلقها فيه وذلك لأنه لما ظاهر فقد قصد التحريم فإن وصله بالطلاق فقد تمم ما شرع فيه من إيقاع التحريم ولا كفارة عليه فإذا سكت عن الطلاق فذلك يدل على أنه ندم على ما ابتدأ به من التحريم فحينئذ تجب عليه الكفارة وفسر ابن عباس العود بالندم فقال يندمون فيرجعون إلى الألفة.

الوجه الثاني: في تفسير العود وهو قول أبي حنيفة إنه عبارة عن استباحة الوطء والملامسة والنظر إليها بالشهوة وذلك أنه لما شبهها بالأم في حرمة هذه الأشياء ثم قصد استباحة ذلك كان مناقضاً لقوله أنت علي كظهر أمي.

الوجه الثالث: وهو قول مالك إن العود إليها عبارة عن العزم على وطئها وهو قريب من قول أبي حنيفة.

الوجه الرابع: وهو قول الحسن وقتادة وطاوس والزهري إن العود إليها عبارة عن جماعها وقالوا لا كفارة عليه

وطؤها بعد الظهار ما لم يكفّر، والكفّارة تجب بالعود بعد الظهار. لقوله تعالى: ﴿ **ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة** ﴾، واختلف أهل العلم في العود فقال أهل الظاهر: هو إعادة لفظ الظهار، وهو قول أبو العالية، وقال: ثم يعودون لما قالوا أي إلى ما قالوا أي إعادة مرة أخرى فإن لم يكرّر اللفظ فلا كفّارة عليه، وذهب قوم إلى أن الكفّارة تجِب بنفس الظهار والمراد من العود هو العود إلى ما كانوا عليه في الجاهلية من نفس الظهار، وهو قول مجاهد والثوري. وقال قوم: المراد من العود الوطء، وهو قول الحسن وقتادة وطاوس والزهري، وقالوا لا كفّارة عليه ما لم يطأها، وقال قوم هو العزم على الوطء، وهو قول مالك وأصحاب الرأي، وذهب الشافعي إلى أن العود هو أن يمسكها عقيب الظهار زماناً يمكنه أن يفارقها، فلم يفعل فإن طلّقها عقيب الظهار في الحال أو مات أحدهما في الوقت فلا كفّارة عليه لأن العود للقول هو المخالفة، وفسّر ابن عباس العود بالندم، فقال: يندمون فيرجعون إلى الألفة ومعناه هذا، قال الفرّاء: يقال عاد فلان لما قال أي فيما قال وفي نقض ما قال يعني رجع عمّا قال، وهذا يبيّن ما قال الشافعي وذلك أنّ قصده بالظهار التحريم فإذا أمسكها على النكاح فقد خالف قوله ورجع عمّا قاله فتلزمه الكفّارة حتى قال لو ظاهر عن امرأته الرجعية ينعقد ظهاره ولا كفّارة عليه حتى يراجعها فإن راجعها صار عائداً ولزمته الكفّارة قوله: ﴿ **فتحرير رقبة من قبل أن يتماسّا** ﴾ والمراد بالتّماس المجامعة فلا يحلّ للمظاهر وطء امرأته التي ظاهر عنها ما لم يكفر سواء أراد التكفير بالإعتاق أو بالصيام أو بالإطعام، وعند مالك: إن أراد التكفير بالإطعام يجوز له الوطء قبله لأن الله تعالى قيّد العتق والصوم بما قبل المسيس وقال في الإطعام: ﴿ فمَن لم يستطع فإطعام ستّين

ما لم يطأها قال العلماء والعود المذكور هنا هب أنه صالح للجماع أو للعزم عليه أو لاستباحته إلا أن الذي قاله الشافعي هو أقل ما ينطلق عليه الاسم فيجب تعليق الحكم عليه لأنه هو الذي به يتحقق مسمى العود وأما الباقي فزيادة لا دليل عليه وأما الاحتمال الأول في قوله ثم يعودون أي يفعلون مثل ما فعلوه فعلى هذا الاحتمال في الآية وجوه أيضاً الأول قال مجاهد والثوري العود هو الإتيان بالظهار في الإسلام وتجب الكفارة به والمراد من العود هو العود إلى ما كانوا عليه في الجاهلية ذلك أن أهل الجاهلية كانوا يطلقون بالظهار فجعل الله حكم الظهار في الإسلام على خلاف حكمه عندهم فمعنى ثم يعودون لما قالوا أي في الإسلام فيقولون في الإسلام مثل ما كانوا يقولون في الجاهلية فكفارته كذا وكذا على الوجه الثاني قال أبو العالية إذا كرر لفظ الظهار فقد عاد وإلا لم يكن عود وهذا قول أهل الظاهر واحتجوا عليه بأن ظاهر قوله ثم يعودون لما قالوا يدل على إعادة ما فعلوه وهذا لا يكون إلا بالتكرير وإن لم يكرر اللفظ فلا كفارة عليه.

وقوله تعالى: ﴿**فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا**﴾ المراد بالتماس المجامعة فلا يحل للمظاهر وطء امرأته التي ظاهر منها ما لم يكفر، ﴿**ذلكم توعظون به**﴾ يعني أن غلظ الكفارة وعظ لكم حتى تتركوا الظهار ولا تعاودوه ﴿**والله بما تعملون**﴾ أي من التكفير وتركه ﴿**خبير**﴾ ثم ذكر حكم العاجز عن الرقبة فقال تعالى:

﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤﴾﴾

﴿**فمن لم يجد**﴾ أي الرقبة ﴿**فصيام شهرين**﴾ أي فكفارته وقيل فعليه صيام شهرين ﴿**متتابعين من قبل أن يتماسا فمن لم يستطع**﴾ أي الصيام (فـ) ـكفارته ﴿**إطعام ستين مسكيناً ذلك**﴾ أي الفرض الذي وصفناه، ﴿**لتؤمنوا بالله ورسوله**﴾ أي لتصدقوا الله فيما أمر به وتصدقوا الرسول ﷺ فيما أخبر به عن الله تعالى: ﴿**وتلك حدود الله**﴾ يعني ما وصف من الكفارة في الظهار ﴿**وللكافرين**﴾ أي لمن جحد هذا وكذب به ﴿**عذاب أليم**﴾ أي في نار جهنم يوم القيامة.

مسكيناً ﴾ [المجادلة: ٤] ولم يقل من قبل أن يتماسّا، وعند الآخرين الإطلاق في الطعام محمول على المقيد في العتق والصيام، واختلفوا في تحريم ما سوى الوطء من المباشرات قبل التكفير كالقبلة والتلذّذ فذهب أكثرهم إلى أنه لا يحرم سوء الوطء وهو قول الحسن وسفيان الثّوري وأظهر قول الشافعي، كما أن الحيض يحرم الوطء دون سائر الاستمتاعات وذهب بعضهم إلى أنه يحرم لأن اسم التماس يتناول الكل ولو جامع المظاهر قبل التكفير يعصى الله تعالى، والكفّارة في ذمّته ولا يجوز أن يعود ما لم يكفّر ولا يجب بالجماع كفّارة أخرى، وقال بعض أهل العلم: إذا واقعها قبل التكفير عليه كفّارتان وكفّارة الظهار مرتّبة عليه يجب عليه عتق رقبة مؤمنة، فإن لم يجد فعليه صيام شهرين متتابعين، فإن أفطر يوماً متعمّداً أو نسي النيّة يجب عليه استئناف الشهرين، فإن عجز عن الصوم يجب عليه أن يطعم ستّين مسكيناً، وقد ذكرنا في سورة المائدة مقدار ما يطعم كل مسكين، ﴿ **ذلكم توعظون به** ﴾، تؤمرون به، ﴿ **والله بما تعملون خبير** ﴾.

﴿ **فَمَن لم يجد** ﴾، يعني الرقبة، ﴿ **فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسّا** ﴾، فإن كانت له رقبة إلاّ أنه محتاج إلى خدمته أو له ثمن رقبة لكنه محتاج إليه لنفقته ونفقة عياله فله أن ينتقل إلى الصوم. وقال مالك والأوزاعي: يلزمه الإعتاق إذا كان واجداً للرقبة أو ثمنها وإن كان محتاجاً إليه. وقال أبو حنيفة: إن كان واجد العين الرقبة يجب عليه إعتاقها، وإن كان محتاجاً إليها فأما إذا كان واجداً لثمن الرقبة وهو محتاج إليه فله أن يصوم فلو شرع المظاهر في صوم شهرين ثم جامع في خلال الشهر بالليل يعصي الله تعالى بتقديم الجماع على الكفّارة، ولكن لا

(فصل: في أحكام الكفارة، وما يتعلق بالظهار)

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: اختلفوا فيما يحرمه الظهار فللشافعي قولان: أحدهما أنه يحرم الجماع فقط. والقول الثاني وهو الأظهر أنه يحرم جميع جهات الاستمتاع وهو قول أبي حنيفة.

المسألة الثانية: اختلفوا فيمن ظاهر مراراً فقال الشافعي وأبو حنيفة لكل ظهار كفارة إلا أن يكون في مجلس واحد وأراد التكرار للتأكيد فإن عليه كفارة واحدة وقال مالك من ظاهر من امرأته في مجالس متفرقة فليس عليه إلا كفارة واحدة.

المسألة الثالثة: الآية تدل على إيجاب الكفارة قبل المماسّة سواء أراد التكفير بالإعتاق أو بالصيام أو بالإطعام وعند مالك إن أراد التكفير بالإطعام يجوز له الوطء قبله لأن الله تعالى قيد العتق والصوم بما قبل المسيس ولم يقل في الإطعام «من قبل أن يتماسا» فدل على ذلك. وعند الآخرين الإطلاق في الطعام محمول على المقيد في العتق والصيام فإن جامع قبل أن يكفر لم يجب عليه إلا كفارة واحدة وهو قول أكثر أهل العلم كمالك وأبي حنيفة والشافعي وأحمد وسفيان وقال بعضهم وإن واقعها قبل أن يكفر فعليه كفارتان وهو قول عبد الرحمن بن مهدي.

المسألة الرابعة: كفارة الظهار مرتبة فيجب عليه عتق رقبة مؤمنة وقال أبو حنيفة هذه الرقبة تجزي سواء كانت مؤمنة أو كافرة لقوله تعالى: ﴿**فتحرير رقبة**﴾ فهذا اللفظ يفيد العموم في جميع الرقاب.

دليلنا أنا أجمعنا على أن الرقبة في كفارة القتل مقيدة بالايمان فكذا هنا وحمل المطلق على المقيد أولى.

المسألة الخامسة: الصوم فمن لم يجد الرقبة فعليه صيام شهرين متتابعين فإن أفطر يوماً متعمداً أو نسي النية يجب عليه استئناف الشهرين ولو شرع في الصوم ثم جامع في خلال الشهرين بالليل عصى الله تعالى بتقديم الجماع على الكفارة لكن لا يجب عليه استئناف الشهرين وعند أبي حنيفة يجب عليه استئناف الشهرين.

المسألة السادسة: إن عجز عن الصوم لمرض أو كبر أو فرط شهوة بحيث لا يصبر عن الجماع يجب عليه إطعام ستين مسكيناً كل مسكين مد من الطعام الذي يقتات به أهل البلد من حنطة أو شعير أو أرز أو ذرة أو تمر أو نحو ذلك

يجب عليه استئناف الشهرين، وعند أبي حنيفة يجب عليه استئناف الشهرين. قوله عزّ وجلّ: ﴿ **فمَن لم يستطع فإطعام ستّين مسكيناً** ﴾، يعني المظاهر إذا لم يستطع الصوم لمرض أو كبر أو فرط شهوة لا يصبر عن الجماع يجب عليه إطعام ستّين مسكيناً. أخبرنا أبو عبد الله بن محمد بن الفضل الخرقي أنا أبو الحسن علي بن عبد الله الطيسفوني أنا عبد الله بن عمر الجوهري ثنا أحمد بن علي الكشمهيني ثنا علي بن حجر ثنا إسماعيل بن جعفر عن محمد بن أبي حرملة عن عطاء بن يسار أن خولة بنت ثعلبة كانت تحت أوس بن الصامت، فظاهر منها وكان به لمم، فجاءت إلى رسول الله ﷺ فقالت: إن أوساً ظاهر منّي وذكرت أن بـه لمماً فقالت: والذي بعثك بالحق ما جئتك إلّا رحمة له إنّ له فيّ منافع، فأنزل القرآن فيهما فقال رسول الله ﷺ: «مُريه فليعتق رقبة»، فقالت: والذي بعثك بالحق ما عنده رقبة ولا ثمنها، قال: «مريه فليصم شهرين متتابعين»، فقالت: والذي بعثك بالحق لو كلّفته ثلاثة أيام ما استطاع، قال: «مريه فليطعم ستّين مسكيناً، قالت: والذي بعثك بالحق ما يقدر عليه، قال: «مريه فليذهب إلى فلان ابن فلان فقد أخبرني أن عنده شطر تمر صدقة فليأخذه صدقة عليه ثم ليتصدق به على ستّين مسكيناً». وروى سليمان بن يسار عن سلمة بن صخر قال: كنت امرأً أُصيب من النساء ما لم يصب غيري فلما دخل

وقال أبو حنيفة يعطي لكل مسكين نصف صاع من بر أو دقيق أو سويق أو صاعاً من تمر أو صاعاً من شعير ولو أطعم مسكيناً واحداً ستين جزءاً لا يجزيه عند الشافعي وقال أبو حنيفة يجزيه.

حجة الشافعي ظاهر الآية وهو أن الله تعالى أوجب إطعام ستين مسكيناً فوجب رعاية ظاهر الآية وحجة أبي حنيفة أن المقصود دفع الحاجة وهو حاصل.

وأجيب عنه بأن إدخال السرور على قلب ستين مسكيناً أولى من إدخال السرور على قلب مسكين واحد.

المسألة السابعة: إذا كانت له رقبة إلا أنه محتاج إلى الخدمة أو له ثمن الرقبة لكنه محتاج إليه لنفقته ونفقة عياله فله أن ينتقل إلى الصوم وقال مالك والأوزاعي يلزمه الإعتاق إذا كان واجداً للرقبة أو ثمنها وإن كان محتاجاً إليه وقال أبو حنيفة إن كان واجداً لعين الرقبة يجب عليه إعتاقها وإن كان محتاجاً إليه، وإن كان واجداً لثمن الرقبة لكنه محتاج إليه فله أن يصوم.

المسألة الثامنة: قال أصحاب الشافعي الشبق المفرط والغلمة الهائجة عذر في الانتقال من الصيام إلى الإطعام والدليل عليه ما روي عن سلمة بن صخر البياضي قال «كنت امرأً أصيب من النساء ما لا يصيب غيري فلما دخل شهر رمضان خفت أن أصيب من امرأتي شيئاً تتابع بي حتى أصبحت فظاهرت منها حتى ينسلخ شهر رمضان فبينما هي تخدمني ذات ليلة إذ انكشف لي منها شيء فما لبثت أن نزوت عليها فلما أصبحت خرجت إلى قومي فأخبرتهم الخبر قال فقلت امشوا معي إلى رسول الله ﷺ قالوا لا والله فانطلقت إلى رسول الله ﷺ فأخبرته فقال أنت بذاك يا سلمة قلت أنا بذاك يا رسول الله مرتين وأنا صابر لأمر الله فاحكم بما أمرك الله به. قال حرر رقبة قلت والذي بعثك بالحق نبياً ما أملك رقبة غيرها وضربت صفحة رقبتي قال فصم شهرين متتابعين قال وهل أصبت الذي أصبت إلا من الصيام قال فأطعم وسقاً من تمر ستين مسكيناً قلت والذي بعثك بالحق نبياً لقد بتنا وحشين لا نملك لنا طعاماً قال فانطلق إلى صاحب صدقة بني زريق فليدفعها إليك فأطعم ستين مسكيناً وسقاً من تمر وكُل أنت وعيالك بقيتها فرجعت إلى قومي فقلت وجدت عندكم الضيق وسوء الرأي ووجدت عند النبي ﷺ السعة وحسن الرأي وقد أمر لي بصدقتكم وبنو بياضة بطن من بني زريق» أخرجه أبو داود.

قوله نزوت عليها أي وثبت عليها وأراد به الجماع وقوله تتابع به التتايع الوقوع في الشر واللجاج فيه والوسق ستون صاعاً، وقوله وحشين يقال رجل وحش إذا لم يكن له طعام وأوحش الرجل إذا جاع.

وعن خولة بنت مالك بن ثعلبة قالت «ظاهر مني زوجي أوس بن الصامت فجئت رسول الله ﷺ أشكو إليه ورسول الله ﷺ يجادلني فيه ويقول اتقي الله فإنه ابن عمك فما برحت حتى نزل القرآن قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها إلى الفرض قال يعتق رقبة قلت لا يجد قال فليصم شهرين متتابعين قلت يا رسول الله إنه شيخ كبير ما به من صيام قال فليطعم ستين مسكيناً قلت ما عنده شيء يتصدق به قال فإني سأعينه بعرق من تمر قلت يا رسول الله وأنا أعينه

شهر رمضان خفت أن أُصيب من امرأتي شيئاً فظاهرت منها حتى ينسلخ شهر رمضان فبينما هي تحدّثني ذات ليلة إذ تكشّف لي منها شيء فلم ألبث أن وقعت عليها، فانطلقت إلى رسول الله ﷺ فأخبرته فقالت: أنتَ بذاك، فقلت: أنا بذاك قاله ثلاثاً، قلت أنا بذاك وها أنا ذَا فامضِ في حكم الله فإني صابر لذلك، قال: «فاعتق رقبة» فضربتُ صفحة عنقي بيدي فقلت: لا والذي بعثك بالحق ما أملك غيرها، قال: «فصم شهرين متتابعين»، فقلت: يا رسول الله وهل أصابني ما أصابني إلا من الصيام؟ قال «فأطعم ستّين مسكيناً»، قلت: والذي بعثك بالحق لقد بتنا ليلتنا هذه وحشياً ما لنا عشياً، قال: «اذهب إلى صاحب صدقة بني زريق فقل له فليدفعها إليك فأطعم عنك منها وسقاً

بعرق آخر قال قد أحسنت اذهبي فأطعمي بهما عنه ستين مسكيناً ارجعي إلى ابن عمك» أخرجه أبو داود وفي رواية «قلت إن أوساً ظاهر مني وذكرت أن به لمماً وقالت والذي بعثك بالحق ما جئتك إلا رحمة له إن له في منافع وذكرت نحوه» العرق بفتح العين والراء المهملتين زنبيل يسع ثلاثين صاعاً وقيل خمسة عشر صاعاً وقولها إن به لمماً اللمم طرف من الجنون وقال الخطابي لبس المراد من اللمم هنا الجنون والخبل إن لو كان به ذلك ثم ظاهر في تلك الحال لم يلزمه شيء بل معنى اللمم هاهنا الإلمام بالنساء وشدة الحرص والشبق والله أعلم.

إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُوا۟ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٦﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا۟ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَيَتَنَٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ ۚ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٨﴾

قوله عز وجل: ﴿**إن الذين يحادون الله ورسوله**﴾ أي يعادون الله ورسوله ويشاقون ويخالفون أمرهما، ﴿**كبتوا**﴾ أي ذلوا وأخزوا وأهلكوا ﴿**كما كبت الذين من قبلهم**﴾ أي كما أخزي من كان قبلهم من أهل الشرك، ﴿**وقد أنزلنا آيات بينات**﴾ يعني فرائض وأحكاماً. ﴿**وللكافرين**﴾ أي الذين لم يعملوا بها وجحدوها ﴿**عذاب مهين يوم يبعثهم الله جميعاً فينبئهم بما عملوا أحصاه الله**﴾ أي حفظ الله أعمالهم ﴿**ونسوه**﴾ أي نسوا ما كانوا يعملون في الدنيا، ﴿**والله على كل شيء شهيد**﴾ قوله تعالى: ﴿**ألم تر**﴾ أي ألم تعلم ﴿**أن الله يعلم ما في السموات وما في الأرض**﴾ يعني أنه سبحانه وتعالى عالم بجميع المعلومات لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماوات ثم أكد ذلك بقوله تعالى: ﴿**ما يكون من نجوى ثلاثة**﴾ أي من أسرار ثلاثة وهي المسارة والمشاورة والمعني ما من شيء يناجي به الرجل صاحبه وقيل ما يكون من متناجين ثلاثة يسارر بعضهم بعضاً ﴿**إلا هو رابعهم**﴾ أي بالعلم يعني يعلم نجواهم كأنه حاضر معهم

ستّين مسكيناً، ثم استعن بسائره عليك وعلى عيالك»، قال: فرجعت إلى قومي فقلت وجدت عندكم الضيق وسوء الرأي، ووجدت عند رسول الله ﷺ السّعة والبركة أمر لي بصدقتكم فدفعوها إليه. ﴿ **ذلك لتؤمنوا بالله ورسوله** ﴾، لتصدقوا ما أتى به الرسول ﷺ من الله عزّ وجلّ، ﴿ **وتلك حدود الله** ﴾، يعني ما وصف من الكفّارات في الظهار، ﴿ **وللكافرين عذاب أليم** ﴾، قال ابن عباس: لمَن جحده وكذب به.

﴿ **إن الذين يحادّون الله ورسوله** ﴾، أي يعادون الله ورسوله ويشاقّون ويخالفون أمرهما، ﴿ **كبِتوا** ﴾، أُذلّوا وأُخزوا وأُهلكوا، ﴿ **كما كبت الذين من قبلهم وقد أنزلنا** ﴾، إليك، ﴿ **آيات بيّنات وللكافرين عذاب مهين** ﴾.

﴿ **يوم يبعثهم الله جميعاً فينبئهم بما عملوا أحصاه الله** ﴾، حفظ الله أعمالهم، ﴿ **ونسوه والله على كل شيء شهيد * ألم ترَ أن الله يعلم ما في السمٰوات وما في الأرض ما يكـون** ﴾، قرأ أبو جعفر بالتاء لتأنيث النجوى، وقرأ الآخرون بالياء لأجل الحائل، ﴿ **من نجوى ثلاثة** ﴾، أي من سرار ثلاثة يعني من المسارة، أي: ما من شيء يناجي به الرجل صاحبه، ﴿ **إلاّ هو رابعهم** ﴾، بالعلم وقيل: معناه ما يكون من متناجين ثلاثة يسار بعضهم بعضاً إلا هو

ومشاهدهم كما تكون نجواهم معلومة عند الرابع الذي يكون معهم ﴿**ولا خمسة إلا هو سادسهم**﴾ فإن قلت لما خص الثلاثة والخمسة.

قلت: أقل ما يكفي في المشاورة ثلاثة حتى يتم الغرض فيكون اثنان كالمتنازعين في النفي والإثبات والثالث كالمتوسط الحاكم بينهما فحينئذ تحمد تلك المشاورة ويتم ذلك الغرض وهكذا كل جمع يجتمع للمشاورة لا بد من واحد يكون حكماً بينهم مقبول القول وقيل إن العدد الفرد أشرف من الزوج فلهذا خص الله تعالى الثلاثة والخمسة ثم قال تعالى: ﴿**ولا أدنى من ذلك ولا أكثر**﴾ يعني ولا أقل من ثلاثة وخمسة ولا أكثر من ذلك العدد ﴿**إلا هو معهم أينما كانوا**﴾ أي بالعلم والقدرة، ﴿**ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شيء عليم**﴾ قوله عز وجل: ﴿**ألم تر إلى الذين نهوا عن النجوى**﴾ نزلت في اليهود والمنافقين وذلك أنهم كانوا يتناجون فيما بينهم دون المؤمنين وينظرون إلى المؤمنين ويتغامزون بأعينهم ويوهمون المؤمنين أنهم يتناجون بما يسوءهم فيحزن المؤمنين لذلك ويقولون ما نراهم إلا قد بلغهم عن إخواننا الذين خرجوا في السرايا قتل أو هزيمة فيقع ذلك في قلوبهم ويحزنهم فلما طال على المؤمنين وكثر شكوا إلى رسول الله ﷺ فأمرهم أن لا يتناجوا دون المؤمنين فلم ينتهوا فأنزل الله ألم تر إلى الذين نهوا عن النجوى أي المناجاة فيما بينهم، ﴿**ثم يعودون لما نهوا عنه**﴾ أي يرجعون إلى المناجاة التي نهوا عنها ﴿**ويتناجون بالإثم والعدوان**﴾ يعني ذلك السر الذي كان بينهم لأنه إما مكر وكيد بالمسلمين أي شيء يسوءهم وكلاهما إثم وعدوان، ﴿**ومعصية الرسول**﴾ وذلك أن رسول الله ﷺ كان قد نهاهم عن النجوى فعصوه وعادوا إليها وقيل معناه يوصي بعضهم بعضاً بمعصية الرسول ﴿**وإذا جاؤوك**﴾ يعني اليهود ﴿**حيوك بما لم يحيك به الله**﴾ وذلك أن اليهود كانوا يدخلون على النبي ﷺ ويقولون السام عليك والسام الموت وهم يوهمونه بأنهم يسلمون عليه وكان النبي ﷺ **يرد** فيقول عليكم ﴿**ويقولون في أنفسهم**﴾ يعني إذا خرجوا من عنده قالوا ﴿**لولا يعذبنا الله بما نقول**﴾ يريدون لو كان نبياً لعذبنا الله بما نقول من الاستخفاف به قال الله تعالى: ﴿**حسبهم جهنم يصلونها فبئس المصير**﴾ المعنى أن تقديم العذاب إنما يكون بحسب المشيئة والمصلحة وإذا لم تقتض المشيئة والمصلحة تقديم العذاب فعذاب جهنم يوم القيامة كافيهم (ق) عن

رابعهم بالعلم يعلم نجواهم ﴿ **ولا خمسة إلاّ هو سادسهم** ﴾. ﴿ **ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا** ﴾ قرأ يعقوب أكثر بالرفع على محل الكلام قبل دخول من ﴿ **ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شيء عليم** ﴾.

﴿ **ألم ترَ إلى الذين نُهوا عن النجوى** ﴾، نزلت في اليهود والمنافقين وذلك أنهم كانوا يتناجون فيما بينهم دون المؤمنين وينظرون إلى المؤمنين ويتغامزون بأعينهم يوهمون المؤمنين أنهم يتناجون فيما يسوءهم، فيحزنون لذلك ويقولون ما نراهم إلا وقد بلغهم عن إخواننا الذين جرحوا في السرايا قتل أو موت أو هزيمةٍ فيقع ذلك في قلوبهم ويحزنهم، فلما طال ذلك عليهم وكثر شكوا إلى رسول الله ﷺ فأمرهم أن لا يتناجوا دون المسلمين، فلم ينتهوا عن ذلك وعادوا إلى مناجاتهم فأنزل الله: ﴿ **ألم ترَ إلى الذين نُهوا عن النجوى** ﴾ أي المناجاة ﴿ **ثم يعودون لما نُهوا عنه** ﴾، أي يرجعون إلى المناجاة التي نهوا عنها ﴿ **ويتناجون** ﴾، قرأ الأعمش وحمزة و(ينتجون) على وزن يفتعلون، وقرأ الآخرون ﴿ **ويتناجون** ﴾ لقوله: ﴿ **إذا تناجيتم فلا تتناجوا بالإثم والعدوان ومعصية الرسول** ﴾، وذلك أن النبي ﷺ كان قد نهاهم عن النجوى فعصوه، ﴿ **وإذا جاؤوك حيّوك بما لم يحيّك به الله** ﴾، وذلك أن اليهود كانوا يدخلونها على النبي ﷺ، ﴿ **ويقولون** ﴾، السام عليك، والسام الموت وهم يوهمونه أنهم يقولون السلام عليك، وكان النبي ﷺ يردّ عليهم فيقول عليكم فإذا خرجوا قالوا: ﴿ **في أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول** ﴾، يريدون لو كان نبياً حقاً لعذبنا الله بما نقول، قال الله عزّ وجلّ: ﴿ **حسبهم جهنّم يصلونها فبئس**

عائشة رضي الله تعالى عنها قالت «دخل رهط من اليهود على رسول الله ﷺ فقالوا السام عليك قالت عائشة ففهمتها فقلت عليكم السام واللعنة قالت فقال رسول الله ﷺ مهلاً يا عائشة إن الله يحب الرفق في الأمر كله فقلت يا رسول الله ألم تسمع ما قالوا؟ قال رسول الله ﷺ قد قلت عليكم» وللبخاري «إن اليهود أتوا النبي ﷺ فقالوا السام عليك فقال وعليكم فقالت عائشة السام عليكم ولعنكم الله وغضب عليكم فقال رسول الله ﷺ يا عائشة عليك بالرفق وإياك والعنف والفحش قالت أولم تسمع ما قالوا؟ قال أولم تسمعي ما قلت رددت عليهم فيستجاب لي فيهم ولا يستجاب لهم في» السام الموت قال الخطابي عامة المحدثين يروون إذا سلم عليكم أهل الكتاب فإنما يقولون السام عليكم فقولوا وعليكم الحديث فيثبتون الواو في وعليكم وكان سفيان بن عيينة يرويه بغير واو قال وهو الصواب لأنه إذا حذف الواو صار قولهم الذي قالوه مردوداً عليهم بعينه وإذا أثبت الواو وقع الاشتراك معهم لأن الواو تجمع بين الشيئين، والعنف ضد الرفق واللين، والفحش الرديء من القول.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَٰجَيۡتُمۡ فَلَا تَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَمَعۡصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ٩ إِنَّمَا ٱلنَّجۡوَىٰ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ لِيَحۡزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيۡسَ بِضَآرِّهِمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١٠﴾

قوله تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا إذا تناجيتم فلا تتناجوا بالإثم والعدوان ومعصية الرسول**﴾ في المخاطبين بهذه الآية قولان أحدهما أنه خطاب للمؤمنين وذلك أنه لما ذم اليهود والمنافقين على التناجي بالإثم والعدوان ومعصية الرسول أتبعه بأن نهى المؤمنين أن يسلكوا مثل طريقهم وأن يفعلوا كفعلهم فقال لا تتناجوا بالإثم وهو ما يقبح من القول والعدوان وهو ما يؤدي إلى الظلم ومعصية الرسول وهو ما يكون خلافاً عليه.

والقول الثاني: وهو الأصح أنه خطاب للمنافقين والمعنى. يا أيها الذين آمنوا بألسنتهم وقيل آمنوا بزعمهم كأنه قال لهم لا تتناجوا بالإثم والعدوان ومعصية الرسول ﴿**وتناجوا بالبر والتقوى**﴾ أي بالطاعة وترك المعصية ﴿**واتقوا الله الذي إليه تحشرون إنما النجوى من الشيطان**﴾ أي من تزيين الشيطان وهو ما يأمرهم به. من الإثم والعدوان ومعصية الرسول ﴿**ليحزن الذين آمنوا**﴾ إنما يزين ذلك ليحزن المؤمنين (ق) عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال

المصير ﴾، أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا قتيبة بن سعيد ثنا عبد الوهاب ثنا أبو أيوب عن ابن أبي مليكة عن عائشة أن اليهود أتوا النبي ﷺ وقالوا: السام عليك قال وعليكم، فقالت عائشة السام عليكم ولعنكم الله وغضب عليكم، فقال رسول الله ﷺ مهلاً يا عائشة عليك بالرفق وإياك والعنف والفحش، قالت أو لم تسمع ما قالوا؟ قال: أوَلم تسمعي ما قلتُ ردَدتُ عليهم، فيستجاب لي فيهم ولا يُستجاب لهم في، ثم إن الله نهى المؤمنين أن يتناجوا فيما بينهم كفعل المنافقين واليهود.

فقال: ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إذا تناجيتم فلا تتناجوا بالإثم والعدوان ومعصية الرسول** ﴾، أي كفعل المنافقين واليهود وقال مقاتل أراد بقوله: آمنوا المنافقين أي آمنوا بلسانهم قال عطاء: يريد الذين آمنوا بزعمهم قال لهم لا تتناجوا بالإثم والعدوان ومعصية الرسول، ﴿ **وتناجوا بالبرّ والتقوى واتقوا الله الذي إليه تُحشَرون** ﴾.

﴿ **إنّما النجوى من الشيطان** ﴾، أي من تزيين الشيطان، ﴿ **ليحزن الذين آمنوا** ﴾، أي إنما يزيّن لهم ذلك ليحزن المؤمنين، ﴿ **وليس** ﴾، التناجي، ﴿ **بضارّهم شيئاً** ﴾، وقيل: ليس الشيطان بضارّهم شيئاً، ﴿ **إلّا بإذن الله وعلى الله فليتوكّلِ المؤمنون** ﴾، أخبرنا أبو سعيد عبد الله بن أحمد الطاهري أنا جدّي أبو سهل عبد الصمد بن

«إذا كانوا ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون الثالث» زاد ابن مسعود في رواية «فإن ذلك يحزنه» وهذه الزيادة لأبي داود ﴿وليس بضارهم شيئاً﴾ يعني ذلك التناجي وقيل الشيطان ليس بضارهم شيئاً ﴿إلا بإذن الله﴾ أي إلا ما أراد الله تعالى وقيل إلا بإذن الله في الضر ﴿وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾ أي فليكل المؤمنون أمرهم إلى الله تعالى ويستعيذوا به من الشيطان فإن من توكل على الله لا يخيب أمله ولا يبطل سعيه.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِى ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُواْ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾

قوله عز وجل: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا قيل لكم تفسحوا في المجالس فافسحوا﴾ الآية قيل في سبب نزولها «إن النبي ﷺ كان يكرم أهل بدر من المهاجرين والأنصار فجاء ناس منهم يوماً وقد سبقوا إلى المجلس فقاموا حيال النبي ﷺ فسلموا عليه فرد عليهم ثم سلموا على القوم فردوا عليهم ثم قاموا على أرجلهم ينتظرون أن يوسع لهم فلم يفسحوا وشق ذلك على النبي ﷺ فقال لمن حوله قم يا فلان وأنت يا فلان فأقام من المجلس بقدر أولئك النفر الذين كانوا بين يديه من أهل بدر فشق ذلك على من أقيم من مجلسه وعرف النبي ﷺ الكراهية في وجوههم فأنزل الله هذه الآية» وقيل نزلت في ثابت بن قيس بن شماس وقد تقدمت القصة في سورة الحجرات، وقيل كانوا يتنافسون في مجلس رسول الله ﷺ ويحبون القرب منه فكانوا إذا رأوا من جاءهم مقبلاً تضاموا في مجلسهم فأمرهم الله أن يفسح بعضهم لبعض وقيل كان ذلك يوم الجمعة في الصفة والمكان ضيق والأقرب أن المراد مجلس رسول الله ﷺ لأنهم كانوا يتضامون فيه تنافساً على القرب من رسول الله ﷺ وحرصاً على استماع كلامه فأمر الله المؤمنين بالتواضع وأن يفسحوا في المجلس لمن أراد الجلوس عند النبي ﷺ ليتساوى الناس في الأخذ بالحظ منه وقرىء في المجالس لأن لكل واحد مجلساً ومعناه ليفسح كل رجل في مجلسه فافسحوا أي فأوسعوا في المجلس أمروا بأن يوسعوا في المجالس لغيرهم، ﴿يفسح الله لكم﴾ أي يوسع الله لكم في الجنة والمجالس فيها (ق) عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال

عبد الرحمن البزار أنا أبو بكر محمد بن زكريا العذافري أنا إسحاق بن إبراهيم الدبري ثنا عبد الرزاق أنا مَعْمَر عن أيوب عن نافع عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون الثالث إلّا بإذنه، فإن ذلك يحزنه».

قوله عزّ وجلّ: ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا قيل لكم تفسّحوا في المجالس فافسحوا ﴾، الآية، قال مقاتل بن حيّان: كان النبي يكرم أهل بدر من المهاجرين والأنصار فجاء ناس منهم يوماً وقد سبقوا إلى المجلس فقاموا حيال النبي ﷺ وسلّموا عليه فردّ عليهم ثم سلّموا على القوم فردّوا عليهم فقاموا على أرجلهم ينتظرون أن يُوسع لهم، فلم يفسحوا لهم فشقّ ذلك على النبي ﷺ، فقال لمَن حوله: «قم يا فلان وأنت يا فلان فأقام من المجلس بقدر النفر الذين قاموا بين يديه من أهل بدر»، فشقّ ذلك على مَن أُقيم من مجلسه وعرف النبي ﷺ الكراهية في وجوههم فأنزل الله هذه الآية. وقال الكلبي: نزلت في ثابت بن قيس بن شماس وقد ذكرنا في سورة الحجرات قصته. وقال قتادة: كانوا يتنافسون في مجلس النبي ﷺ وكانوا إذا رأوا مَن جاءهم مقبلاً ضنّوا بمجلسهم فأمرهم الله أن يفسح بعضهم لبعض، وقيل: كان ذلك يوم الجمعة فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا قيل لكم تفسحوا ﴾ أي توسّعوا في المجلس، قرأ الحسن وعاصم في المجالس لأن الكل جالس مجلساً معناه ليتفسّح كل رجل في مجلسه، وقرأ الآخرون (في المجلس) على التوحيد لأن المراد منه مجلس النبي ﷺ، فافسحوا: أَوْسِعُوا، يقال فسح يفسح فسحاً إذا وسّع في المجلس، ﴿ يفسحِ الله لكم ﴾، يوسِع الله لكم الجنة، والمجالس فيها. أخبرنا

«لا يقيمن أحدكم رجلاً من مجلسه ثم يجلس فيه ولكن توسعوا وتفسحوا يفسح الله لكم»، (م) عن جابر بن عبد الله قال «لا يقيمن أحدكم أخاه يوم الجمعة ثم يخالف إلى مقعده فيقعد فيه ولكن يقول افسحوا» ذكره الحميدي في أفراد مسلم موقوفاً على جابر ورفعه غير الحميدي وقيل في معنى الآية إن هذا في مجالس العرب ومقاعد القتال كان الرجل يأتي القوم وهم في الصف فيقول توسعوا فيأبون عليه لحرصهم على القتال ورغبتهم في الشهادة فأمروا بأن يوسعوا لإخوانهم لأن الرجل الشديد البأس قد يكون متأخراً عن الصف الأول والحاجة داعية إلى تقدمه فلا بد من التفسح له ثم يقاس على ذلك سائر المجالس كمجالس العلم والقرآن والحديث والذكر ونحو ذلك لأن كل من وسع على عباد الله أنواع الخير والراحة وسع الله عليه خيري الدنيا والآخرة. ﴿وإذا قيل انشزوا فانشزوا﴾ أي إذا قيل ارتفعوا عن مواضعكم حتى توسعوا لإخوانكم فارتفعوا وقيل كان رجال يتثاقلون عن الصلاة في الجماعة إذا نودي لها فأنزل الله تعالى هذه الآية والمعنى إذا نودي إلى الصلاة فانهضوا إليها وقيل إذا قيل لكم انهضوا إلى الصلاة وإلى الجهاد وإلى كل خير فانهضوا إليه ولا تقصروا عنه، ﴿يرفع الله الذين آمنوا منكم﴾ أي بطاعتهم لله ولرسوله وامتثال أوامره في قيامهم من مجالسهم وتوسعتهم لإخوانهم ﴿والذين أوتوا العلم﴾ أي ويرفع الذين أوتوا العلم من المؤمنين بفضل علمهم وسابقتهم ﴿درجات﴾ أي على من سواهم في الجنة قيل يقال للمؤمن الذي ليس بعالم إذا انتهى إلى باب الجنة أدخل ويقال للعالم قف فاشفع في الناس أخبر الله عز وجل أن رسوله ﷺ مصيب فيما أمروا أن أولئك المؤمنين مثابون فيما ائتمروا وأن النفر من أهل بدر مستحقون لما عوملوا به من الإكرام ﴿والله بما تعملون خبير﴾ قال الحسن قرأ ابن مسعود هذه الآية وقال يا أيها الناس افهموا هذه الآية ولنرغبنكم في العلم فإن الله تعالى يقول يرفع المؤمن العالم فوق المؤمن

عبد الوهاب بن محمد الخطيب أنا عبد العزيز بن أحمد الخلال ثنا أبو العباس الأصم أنا الربيع أنا الشافعي أنا سفيان بن عيينة عن نافع عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يقمن أحدكم الرجل من مجلسه ثم يخلفه فيه، ولكن تفسحوا وتوسعوا». أخبرنا عبد الوهاب بن الخطيب أنا عبد العزيز بن أحمد الخلال أنا أبو العباس الأصم أنا الربيع أنا الشافعي أنا عبد المجيد عن ابن جريج قال: قال سليمان بن موسى عن جابر بن عبد الله أن النبي ﷺ قال: «لا يقيمـنّ أحدكم أخاه يوم الجمعة ولكن ليقل افسحوا»، وقال أبو العالية والقرظي والحسن: هذا في مجالس الحرب ومقاعد القتال، كان الرجل يأتي القوم في الصف فيقول توسعوا فيأبون عليه لحرصهم على القتال ورغبتهم في الشهادة. ﴿ وإذا قيل انشزوا فانشزوا ﴾، قرأ أهل المدينة والشام وعاصم بضم الشين، وقرأ الآخرون بكسرهما، وهما لغتان أي ارتفعوا، قيل: ارتفعوا عن مواضعكـم حتى تُوسِعُوا لإخوانكم. وقال عكرمة والضحاك: كان رجال يتثاقلون عن الصلاة إذا نُودِيَ لها فأنزل الله تعالى هذه الآية، معناه: إذا نُودِيَ للصلاة فانهضوا لها. وقال مجاهد وأكثر المفسّرين: معناه إذا قيل لكم انهضوا إلى الصلاة وإلى الجهاد وإلى مجالس كل خير وحق فقوموا لها ولا تقصروا، ﴿ يرفعِ اللَّهُ الذين آمنوا منكم ﴾، بطاعتهم لرسوله ﷺ وقيامهم من مجالسهم وتوسعتهم لإخوانهم، ﴿ والذين أوتوا العلم ﴾، من المؤمنين بفضل علمهم ومسابقتهم، ﴿ درجات ﴾، فأخبر الله عزّ وجلّ أن رسوله ﷺ مُصيب فيما أمر وأن أولئك المؤمنين مُثابون فيما ائتمروا، وأن النفر من أهل بدر مستحقّون لِما عُوملوا من الإكرام، ﴿ والله بما تعملون خبير ﴾، قال الحسن: قرأ ابن مسعود هذه الآية وقال: أيها الناس افهموا هذه الآية ولنرغبنّكم في العلم فإن الله تعالى يقول: ﴿ يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أُوتوا العلم درجات ﴾ المؤمن العالم فوق الذي لا يعلم درجات. أخبرنا الإمام أبو علي الحسين بن محمد القاضي ثنا الإمام أبو الطيب سهل بن محمد بن سليمان ثنا أبو علي حامد بن محمد بن عبد الله الهروي أنا محمد بن يونس القرشي أنا عبد الله بن داود ثنا عاصم بن رجاء بن حيوة حدّثني داود بن جميل عن كثير بن قيس قال: كنت جالساً مع أبي

الذي ليس بعالم درجات وقيل إن العالم يحصل له بعلمه من المنزلة والرفعة ما لا يحصل لغيره لأنه يقتدي بالعالم في أقواله وفي أفعاله كلها عن قيس بن كثير قال قدم رجل من المدينة على أبي الدرداء وهو بدمشق فقال ما أقدمك يا أخي قال حديث بلغني أنك تحدثه عن رسول الله ﷺ قال أما جئت لحاجة غيره؟ قال لا قال أما قدمت في تجارة؟ قال لا قال ما جئت إلا في طلب هذا الحديث؟ قال نعم قال فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول «من سلك طريقاً يبتغي فيه علماً سلك الله به طريقاً إلى الجنة وإن الملائكة تضع أجنحتها رضا لطالب العلم وإن العالم ليستغفر له من في السموات ومن في الأرض حتى الحيتان في الماء وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب، وإن العلماء ورثة الأنبياء وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً إنما أورثوا العلم فمن أخذه فقد أخذ بحظ وافر» أخرجه الترمذي ولأبي داود نحوه، (ق) عن معاوية بن أبي سفيان قال سمعت رسول الله ﷺ يقول «من يريد الله به خيراً يفقهه في الدين» وعن ابن عباس مثله أخرجه الترمذي وروى البغوي بسنده عن عبد الله بن عمرو بن العاص «أن رسول الله ﷺ مر بمجلسين في مسجده أحد المجلسين يدعون إلى الله ويرغبون إليه والآخر يتعلمون الفقه ويعلمونه فقال كلا المجلسين على خير وأحدهما أفضل من صاحبه».

أما هؤلاء فيدعون إلى الله ويرغبون إليه وأما هؤلاء فيتعلمون الفقه ويعلمون الجاهل فهؤلاء أفضل وإنما بعثت معلماً ثم جلس فيهم» قوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٢)﴾

﴿يا أيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدي نجواكم صدقة﴾ يعني إذا أردتم مناجاة رسول الله ﷺ فقدموا أمام ذلك صدقة وفائدة ذلك إعظام مناجاة رسول الله ﷺ فإن الإنسان إذا وجد الشيء بمشقة استعظمه وإن وجده بسهولة استحقره ونفع كثير من الفقراء بتلك الصدقة المقدمة قبل المناجاة قال ابن عباس إن الناس سألوا رسول

الدرداء في مسجد دمشق فجاء رجل فقال: يا أبا الدرداء إني جئتك من مدينة الرسول ﷺ لحديث بلغني أنك تحدّثه عن رسول الله ﷺ، قال: ما كانت لك حاجة غيره؟ قال: لا، قال: ولا جئت لتجارة؟ قال: لا، قال: ولا جئت إلا رغبة فيه؟ قال: نعم، قال: فإني سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «مَن سلك طريقاً يطلب فيه علماً سلك الله به طريقاً من طرق الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضاً لطالب العلم، وإن السمٰوات والأرض والحوت في الماء لتدعوا له، وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب، وإن العلماء وَرَثَة الأنبياء وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً، وإنما ورّثوا العلم فمَن أخذه فقد أخذ بحظٍّ وافر»، أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أبو علي الحسين بن أحمد بن إبراهيم السراج أنا الحسن بن يعقوب العدل ثنا محمد بن عبد الوهاب الفرّاء ثنا جعفر بن عون، أنا عبد الرحمن بن زياد عن عبد الرحمن بن رافع عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ مرّ بمجلسين في مسجده أحد المجلسين يدعون الله ويرغبون إليه والآخر يتعلمون الفقه ويعلّمونه، قال: «كِلا المجلسين على خير وأحدهما أفضل من صاحبه، أما هؤلاء فيدعون الله ويرغبون إليه فإن شاء أعطاهم وإن شاء منعهم، وأما هؤلاء فيتعلمون الفقه ويعلمون الجاهل، فهؤلاء أفضل وإنما بُعِثت معلّماً، ثم جلس فيهم».

قوله عزّ وجلّ: ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول فقدّموا بين يدي نجواكم ﴾، أمام مناجاتكم، ﴿ صدقةً ﴾، قال ابن عباس: وذلك أن النـاس سألوا رسول الله ﷺ وأكثروا حتى شقّوا عليه، فأراد الله أن يخفّف على نبيّه ويثبطهم ويردعهم عن ذلك فأمرهم أن يقدموا صدقةً على المناجاة مع الرسول ﷺ. وقال مقاتل بن حيان:

الله ﷺ وأكثروا حتى شق عليه فأراد الله تعالى أن يخفف على نبيه ﷺ ويثبطهم عن ذلك فأمرهم أن يقدموا صدقة على مناجاة رسول الله ﷺ وقيل نزلت في الأغنياء وذلك أنهم كانوا يأتون رسول الله ﷺ فيكثرون مناجاته ويغلبون الفقراء على المجالس حتى كره رسول الله ﷺ طول جلوسهم ومناجاتهم فلما أمروا بالصدقة كفوا عن مناجاته فأما الفقراء وأهل العسرة فلم يجدوا شيئاً وأما الأغنياء وأهل الميسرة فضنوا واشتد ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ فنزلت الرخصة وقال مجاهد نهوا عن المناجاة حتى يتصدقوا فلم يناجه إلا علي بن أبي طالب تصدق بدينار وناجاه ثم نزلت الرخصة فكان علي يقول آية في كتاب الله لم يعمل بها أحد قبلي ولا يعمل بها أحد بعدي وهي آية المناجاة. وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال لما نزلت ﴿**يا أيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدي نجواكم صدقة**﴾ قال لي النبي ﷺ ما ترى ديناراً قلت لا يطيقونه قال فنصف دينار قلت لا يطيقونه قال فكم قلت شعيرة قال إنك لزهيد قال فنزلت.

ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَـٰتٍ ۚ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا۟ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَـٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٦﴾

﴿**أأشفقتم أن تقدموا بين يدي نجواكم صدقات**﴾ الآية قال فبي خفف الله عن هذه الأمة أخرجه الترمذي وقال حديث حسن غريب قوله قلت شعيره أي وزن شعيرة من ذهب وقوله إنك لزهيد يعني قليل المال قدرت على قدر حالك.

فإن قلت في هذه الآية منقبة عظيمة لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه إذ لم يعمل بها أحد غيره.

قلت هو كما قلت وليس فيها طعن على غيره من الصحابة ووجه ذلك أن الوقت لم يتسع ليعملوا بهذه الآية ولو اتسع الوقت لم يتخلفوا عن العمل بها وعلى تقدير اتساع الوقت ولم يفعلوا ذلك إنما هو مراعاة لقلوب الفقراء الذين لم يجدوا ما يتصدقون به لو احتاجوا إلى المناجاة فيكون ذلك سبباً لحزن الفقراء إذ لم يجدوا ما يتصدقون به عند

نزلت في الأغنياء وذلك أنهم كانوا يأتون النبي ﷺ فيكثرون مناجاته ويغلبون الفقراء على المجالس، حتى كره النبي ﷺ طول جلوسهم ومناجاتهم، فلما رأوا ذلك انتهوا عن مناجاته فأما أهل العسرة فلم يجدوا شيئاً وأما أهل الميسرة فضنّوا واشتدّ ذلك على أصحاب النبي ﷺ، فنزلت الرخصة. قال مجاهد: نهوا عن المناجاة حتى يتصدقوا فلم يناجه إلّا عليّ رضي الله عنه تصدّق بدينار وناجاه، ثم نزلت الرخصة فكان عليّ رضي الله عنه يقول: آية في كتاب الله لم يعمل بها أحد قبلي ولا يعمل بها أحد بعدي وهي آية المناجاة. ورُوِيَ عن عليّ رضي الله عنه قال: لما نزلت هذه الآية دعاني رسول الله ﷺ فقال: «أما ترى ديناراً»؟ قلت: لا يطيقونه، قال: «فكم قلت حبّة أو شعير»، قال: إنك لزهيد، فنزلت: ﴿ **أأشفقتم أن تقدموا بين يدي نجواكم صدقات** ﴾، قال عليّ رضي الله تعالى عنه فبي قد خفّف الله عن هذه الأمة. ﴿ **ذلك خير لكم** ﴾، يعني تقديم الصدقة على المناجاة، ﴿ **وأطهر فإن لم تجدوا فإن الله غفور رحيم** ﴾، يعني الفقراء الذين لا يجدون ما يتصدّقون به معفو عنهم.

﴿ **أأشفقتم أن تقدموا** ﴾ قال ابن عباس: أبخلتم؟ والمعنى: أخفتم العيلة والفاقة إن قدمتم، ﴿ **بين يدي نجواكم صدقات فإذ لم تفعلوا** ﴾، ما أُمرتم به، ﴿ **وتاب الله عليكم** ﴾، تجاوز عنكم ولم يعاقبكم بترك الصدقة،

مناجاته ووجه آخر وهو أن هذه المناجاة لم تكن من المفروضات ولا من الواجبات ولا من الطاعات المندوب إليها بلى إنما كلفوا هذه الصدقة ليتركوا هذه المناجاة ولما كانت هذه المناجاة أولى بأن تترك لم يعملوا بها وليس فيها طعن على أحد منهم، وقوله: ﴿**ذلك خير لكم**﴾ يعني تقديم الصدقة على المناجاة لما فيه من طاعة الله وطاعة رسوله ﴿**وأطهر**﴾ أي لذنوبكم ﴿**فإن لم تجدوا**﴾ يعني الفقراء الذين لا يجدون ما يتصدقون به ﴿**فإن الله غفور رحيم**﴾ يعني أنه تعالى رفع عنهم ذلك ﴿**أأشفقتم**﴾ قال ابن عباس أبخلتم والمعنى أخفتم العيلة والفاقة إن قدمتم وهو قوله ﴿**أن تقدموا بين يدي نجواكم صدقات فإذا لم تفعلوا**﴾ أي ما أمرتم به، ﴿**وتاب الله عليكم**﴾ أي تجاوز عنكم ونسخ الصدقة قال مقاتل بن حيان كان ذلك عشر ليال ثم نسخ، وقال الكلبي ما كان إلا ساعة من نهار ثم نسخ ﴿**فأقيموا الصلاة**﴾ أي المفروضة ﴿**وآتوا الزكاة**﴾ أي الواجبة ﴿**وأطيعوا الله ورسوله**﴾ أي فيما أمر ونهى ﴿**والله خبير بما تعملون**﴾ أي إنه محيط بأعمالكم ونيتكم.

قوله عز وجل: ﴿**ألم تر إلى الذين تولوا قوماً غضب الله عليهم**﴾ نزلت في المنافقين وذلك أنهم تولوا اليهود ونصحوهم ونقلوا أسرار المؤمنين إليهم فأراد بقوله قوماً غضب الله عليهم اليهود ﴿**ما هم**﴾ يعني المنافقين ﴿**منكم**﴾ أي من المؤمنين في الدين والولاء ﴿**ولا منهم**﴾ يعني ولا من اليهود ﴿**ويحلفون على الكذب وهم يعلمون**﴾ أي أنهم كذبة «نزلت في عبد الله بن نبتل المنافق وكان يجالس رسول الله ﷺ ويرفع حديثه إلى اليهود فبينا رسول الله ﷺ في حجرة من حجره إذ قال يدخل عليكم الآن رجل قلبه قلب جبار ينظر بعيني شيطان فدخل عبد الله بن نبتل وكان أزرق العينين فقال له النبي ﷺ علام تشتمني أنت وأصحابك فحلف بالله ما فعل وجاء بأصحابه فحلفوا بالله ما سبوه فأنزل الله هذه الآية» ﴿**أعد الله لهم عذاباً شديداً إنهم ساء ما كانوا يعملون اتخذوا أيمانهم**﴾ يعني الكاذبة ﴿**جنة**﴾ أي يستجنون بها من القتل ويدفعون بها عن أنفسهم وأموالهم ﴿**فصدوا عن سبيل الله**﴾ يعني أنهم صدوا المؤمنين عن جهادهم بالقتل وأخذ أموالهم بسبب أيمانهم، وقيل معناه صدوا الناس عن دين الله الذي هو الإسلام ﴿**فلهم عذاب مهين**﴾ يعني في الآخرة.

وقيل: الواو صلة مجازه فإن لم تفعلوا تاب الله عليكم تجاوز عنكم وخفّف عنكم، ونسخ الصدقة. قال مقاتل بن حيان: كان ذلك عشر ليالٍ ثم نسخ. وقال الكلبي: ما كانت إلّا ساعة من نهار. ﴿ **فأقيموا الصلاة** ﴾، المفروضة، ﴿ **وآتوا الزكاة** ﴾، الواجبة، ﴿ **وأطيعوا الله ورسوله والله خبير بما تعملون** ﴾.

﴿ **ألم ترَ إلى الذين تولّوا قوماً غضب الله عليهم** ﴾، نزلت في المنافقين تولّوا اليهود وناصحوهم ونقلوا أسرار المؤمنين إليهم وأراد بقوله: ﴿ **غضب الله عليهم** ﴾ اليهود، ﴿ **ما هم منكم ولا منهم** ﴾، يعني المنافقين ليسوا من المؤمنين في الدين والولاية ولا من اليهود والكافرين، كما قال: ﴿ مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ﴾ [النساء: ١٤٣]، ﴿ **ويحلفون على الكذب وهم يعلمون** ﴾، قال السدي ومقاتل: نزلت في عبد الله بن نبتل المنافق كان يجالس رسول الله ﷺ ثم يرفع حديثه إلى اليهود، فبينما رسول الله ﷺ في حجرة من حجراته إذ قال: يدخل عليكم الآن رجل قلبه قلب جبّار وينظر بعيني شيطان، فدخل عبد اللهبن نبتل وكان أزرق العينين، فقال النبي ﷺ: «علام تشتمني أنت وأصحابك فحلف بالله ما فعل وجاء بأصحابه فحلفوا بالله ما سبّوه، فأنزل الله عزّ وجلّ هذه الآيات، فقال: ﴿ **ويحلفون على الله الكذب وهم يعلمون** ﴾ أنهم كذبة.

﴿ **أعدّ الله لهم عذاباً شديداً إنهم ساء ما كانوا يعملون * اتخذوا أيمانهم** ﴾، الكاذبة، ﴿ **جُنّةً** ﴾، يستجنّون بها من القتل ويدفعون بها عن أنفسهم وأموالهم، ﴿ **فصدّوا عن سبيل الله** ﴾، صدّوا المؤمنين عن جهادهم بالقتل وأخذ أموالهم، ﴿ **فلهم عذاب مهين** ﴾.

لَّن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ
جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٨﴾ ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ
ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى
ٱلْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ
ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ
كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ
رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾

﴿لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم﴾ يوم القيامة **﴿من الله شيئاً أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون يوم يبعثهم الله جميعاً فيحلفون له﴾** يعني كاذبين أنهم ما كانوا مشركين **﴿كما يحلفون لكم﴾** أي في الدنيا وقيل كان الحلف جنة لهم في الدنيا فظنوا أنه ينفع في الآخرة أيضاً **﴿ويحسبون أنهم على شيء﴾** يعني من أيمانهم الكاذبة **﴿ألا إنهم هم الكاذبون﴾** يعني في أقوالهم وأيمانهم، **﴿استحوذ عليهم الشيطان﴾** أي غلب واستولى عليهم وملكهم **﴿فأنساهم ذكر الله أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون إن الذين يحادون الله ورسوله أولئك في الأذلين﴾** يعني في جملة من يلحقهم الذل في الدنيا والآخرة لأن ذل أحد الخصمين على حسب عز الخصم الثاني.

ولما كانت عزة الله غير متناهية كانت ذلة من ينازعه غير متناهية **﴿كتب الله لأغلبن أنا ورسلي﴾** أي قضى ذلك قضاء ثابتاً قيل غلبة الرسل على نوعين فمنهم من يؤمر بالحرب فهو غالب بالحرب ومن لم يؤمر بالحرب فهو غالب بالحجة، **﴿إن الله قوي﴾** أي على نصر رسله وأوليائه **﴿عزيز﴾** أي غالب على أعدائه.

قوله تعالى: **﴿لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله﴾** أخبر الله تعالى أن إيمان المؤمنين يفسد بموادة الكافرين وأن من كان مؤمناً لا يوالي من كفر لأن من أحب أحداً امتنع أن يحب عدوه فإن قلت قد أجمعت الأمة على أنه تجوز مخالفتهم ومعاشرتهم فما هذه المودة المحظورة قلت المودة المحظورة هي مناصحتهم وإرادة الخير لهم ديناً ودنيا مع كفرهم، فأما ما سوى ذلك فلا حظر فيه ثم إنه تعالى بالغ في الذكر عن

﴿ لن تغني عنهم ﴾، يوم القيامة، **﴿ أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون * يوم يبعثهم الله جميعاً فيحلفون له ﴾**، كاذبين ما كانوا مشركين، **﴿ كما يحلفون لكم ﴾**، في الدنيا **﴿ ويحسبون أنهم على شيء ﴾** من أيمانهم الكاذبة، **﴿ ألا إنهم هم الكاذبون ﴾**.

﴿ اسْتَحْوَذَ ﴾، غلب واستولى، **﴿ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله أولئك حزب الشيطان ألا إنّ حزب الشيطان هم الخاسرون * إن الذين يحادون الله ورسوله أولئك في الأذلين ﴾**، الأسفلين أي هم في جملة مَن يلحقهم للذلّ في الدنيا والآخرة.

﴿ كتب الله ﴾، قضى الله قضاءً ثابتاً، **﴿ لأغلبنّ أنا ورسلي إن الله قويٌّ عزيز ﴾**، نظيره قوله: ﴿ ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين أنهم لهم المنصورون ﴾ [الصّافّات: ١٧١ و١٧٢]، قال الزجّاج: غلبة الرسل على نوعين مَن بُعِث منهم بالحرب فهو غالب بالحرب، ومَن لم يؤمر بالحرب فهو غالب بالحجّة.

مودتهم بقوله ﴿ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم﴾ يعني أن الميل إلى هؤلاء من أعظم أنواع الميل ومع هذا فيجب أن يطرح الميل إلى هؤلاء والمودة لهم بسبب مخالفة الدين قيل نزلت هذه الآية في حاطب بن أبي بلتعة حين كتب إلى أهل مكة وستأتي قصته في سورة الممتحنة وروي عن عبد الله بن مسعود في هذه الآية قال ولو كانوا آباءهم يعني أبا عبيدة بن الجراح قتل أباه الجراح يوم أحد أو أبناءهم يعني أبا بكر الصديق رضي الله تعالى عنه دعا ابنه يوم بدر إلى البراز وقال يا رسول الله دعني أكن في الرعلة الأولى فقال له رسول الله ﷺ «متعنا بنفسك يا أبا بكر» أو إخوانهم يعني مصعب بن عمير قتل أخاه عبد الله بن عمير أو عشيرتهم يعني عمر بن الخطاب قتل خاله العاص بن هشام بن المغيرة يوم بدر وعلي بن أبي طالب وحمزة وأبا عبيدة قتلوا عتبة وشيبة ابني ربيعة والوليد بن عتبة يوم بدر، ﴿أولئك كتب في قلوبهم الإيمان﴾ أي أثبت التصديق في قلوبهم فهي مؤمنة موقنة مخلصة وقيل حكم لهم بالإيمان وإنما ذكر القلوب لأنها موضعه ﴿وأيدهم بروح منه﴾ أي قواهم بنصر منه وإنما سمى نصره إياهم روحاً لأن به حيي أمرهم.

وقيل بالإيمان وقيل بالقرآن وقيل بجبريل وقيل برحمته ﴿ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها رضي الله عنهم ورضوا عنه﴾ إنما ذكر رضوانه عليهم بعد دخلولهم الجنة لأن أعظم النعم وأجل المراتب ثم لما ذكر هذه النعم أتبعه بما يوجب ترك المودة لأعداء الله سبحانه وتعالى فقال ﴿أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون﴾ والله أعلم بمراده.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادّون مَن حادّ اللَّهَ ورسولَهُ ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم ﴾، الآية أخبر أن إيمان المؤمنين يفسد بموادّة الكفّار وأن مَن كان مؤمناً لا يوالي مَن كفر، وإن كان من عشيرته. قيل: نزلت في حاصب بن أبي بلتعة حين كتب إلى أهل مكة وسيأتي في سورة الممتحنة، إن شاء الله عزّ وجلّ. وروى مقاتل بن حيان عن مرّة الهمداني عن عبد الله بن مسعود في هذه الآية قال: ولو كانوا آباءهم يعني أبا عبيدة بن الجرّاح، قتل أباه عبد الله بن الجرّاح يوم أُحُد أو أبناءهم، يعني أبا بكر دعا ابنه يوم بدر إلى البراز، وقال: يا رسول الله دعني أكن في الرحلة الأولى، فقال له رسول الله ﷺ: «متّعنا بنفسك يا أبا بكر»، أو إخوانهم يعني مصعب بن عمير قتل أخاه عبيد بن عمير يوم أُحُد، عشيرتهم يعني عمر قتل خاله العاص بن هشام بن المغيرة يوم بدر، وعليّاً وحمزة وعبيدة قتلوا يوم بدر عتبة وشيبة ابني ربيعة والوليد بن عتبة. ﴿ أولئك كتب في قلوبهم الإيمان ﴾، أثبت التصديق في قلوبهم فهي موقنة مخلصة. وقيل: حكم لهم بالإيمان فذكر القلوب لأنها موضعه. ﴿ وأيّدهم بروح منه ﴾، قوّاهم بنصر منه قال الحسن: سمّى نصره إياهم روحاً لأن أمرهم يحيا به. وقال السدي: يعني بالإيمان. وقال الربيع، يعني بالقرآن وحججه، كما قال: ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ﴾ [الشورى: ٥٢]، وقيل: برحمة منه. وقيل: أمدّهم بجبريل عليه السلام. ﴿ ويدخلهم جنّات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها رضي الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله ألا إنّ حزب الله هم المفلحون ﴾.

سورة الحشر

قال سعيد بن جبير قلت لابن عباس سورة الحشر فقال قل سورة النضير وهي مدنية أربع وعشرون آية وأربعمائة وخمس وأربعون كلمة وألف وتسعمائة وثلاثة عشر حرفاً

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾

قوله عز وجل: ﴿**سبح لله ما في السموات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم**﴾ قال المفسرون نزلت هذه السورة في بني النضير وهم طائفة من اليهود وذلك «أن النبي ﷺ لما دخل المدينة صالحه بنو النضير على أن لا يقاتلوه ولا يقاتلوا معه فقبل ذلك رسول الله ﷺ فلما غزا رسول الله ﷺ بدراً وظهر على المشركين قال بنو النضير والله إنه النبي الأمي الذي نجد نعته في التوراة لا ترد له راية فلما غزا أحداً وهزم المسلمون ارتابوا وأظهروا العداوة لرسول الله ﷺ وللمؤمنين ونقضوا العهد الذي كان بينهم وبين رسول الله ﷺ، وركب كعب بن الأشرف في أربعين راكباً من اليهود إلى مكة فأتوا قريشاً فحالفوهم وعاقدوهم على أن تكون كلمتهم واحدة على محمد ﷺ ودخل أبو سفيان في أربعين من قريش وكعب بن الأشرف في أربعين من اليهود المسجد الحرام وأخذ بعضهم على بعض الميثاق بين أستار الكعبة ثم رجع كعب وأصحابه إلى المدينة فنزل جبريل عليه الصلاة والسلام فأخبر النبي ﷺ بما تعاقد عليه كعب وأبو سفيان وأمره بقتل كعب بن الأشرف فقتله محمد بن مسلمة غيلة»

سُوْرَة الحَشْر

مدنيّة وهي أربع وعشرون آية. قال سعيد بن جبير: قلت لابن عباس: سورة الحشر، قال: قل: سورة النضير.

﴿ **سبّح لله ما في السمٰوات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم** ﴾، قال المفسّرون: نزلت هذه السورة في بني النضير، وذلك أن النبي ﷺ دخل المدينة فصالحته بنو النضير على أن لا يقاتلوه ولا يقاتلوا معه، فقبل ذلك رسول الله ﷺ منهم فلما غزا رسول الله ﷺ بدراً وظهر على المشركين قالت بنو النضير: والله إنه النبي الذي وجدنا نعته في التوراة لا تردّ له راية، فلما غزا أُحُداً وهزم المسلمون ارتابوا وأظهروا العداوة لرسول الله ﷺ والمؤمنين، ونقضوا العهد الذي كان بينهم وبين رسول الله ﷺ، وركب كعب بن الأشرف في أربعين راكباً من اليهود إلى مكة فأتوا قريشاً فحالفوهم وعاقدوهم على أن تكون كلمتهم واحدة على محمد ﷺ، ودخل أبو سفيان في أربعين وكعب في أربعين من اليهود المسجد الحرام وأخذ بعضهم على بعض الميثاق بين الأستار والكعبة، ثم رجع كعب وأصحابه إلى المدينة ونزل جبريل فأخبر النبي ﷺ بما تعاقد عليه كعب وأبو سفيان، فأمر النبي ﷺ بقتل كعب بن

وقد تقدمت القصة في سورة آل عمران وكان النبي ﷺ قد اطلع منهم على خيانة حين أتاهم يستعينهم في دية الرجلين المسلمين اللذين قتلهما عمرو بن أمية الضمري في منصرفه من بئر معونة فهموا بطرح حجر على النبي ﷺ من الحصن فعصمه الله منهم وأخبره بذلك وقد تقدمت القصة في سورة المائدة.

فلما قتل كعب بن الأشرف أصبح رسول الله ﷺ وأمر الناس بالمسير إلى بني النضير وكانوا بقرية يقال لها زهرة فلما سار إليها النبي ﷺ وجدهم ينوحون على كعب بن الأشرف فقالوا يا محمد واعية على أثر واعية وباكية على أثر باكية قال نعم فقالوا ذرنا نبك شجونا ثم ائتمر أمرك فقال النبي ﷺ اخرجوا من المدينة فقالوا الموت أقرب إلينا من ذلك ثم تنادوا بالحرب وأذنوا بالقتال ودس المنافقون عبد الله بن أبي وأصحابه إليهم أن لا تخرجوا من الحصين فإن قاتلوكم فنحن معكم ولا نخذلكم ولننصرنكم ولئن أخرجتم لنخرجن معكم فدربوا على الأزقة وحصنوها ثم إنهم أجمعوا على الغدر برسول الله ﷺ فأرسلوا إليه أن اخرج إلينا في ثلاثين رجلاً من أصحابك وليخرج منا ثلاثون حتى نلتقي بمكان نصف بيننا وبينك فيسمعوا منك فإن صدقوك وآمنوا بك آمنا كلنا فخرج النبي ﷺ في ثلاثين من أصحابه وخرج إليه ثلاثون حبراً من اليهود حتى كانوا في براز من الأرض فقال بعض اليهود لبعض كيف تخلصون إليه ومعه ثلاثون رجلاً من أصحابه كلهم يحب الموت قبله ولكن أرسلوا إليه كيف نفهم ونحن ستون اخرج في ثلاثة من أصحابك ويخرج إليك ثلاثة من علمائنا فيسمعون منك فإن آمنوا بك آمنا بك وصدقناك، فخرج رسول الله ﷺ في ثلاثة من أصحابه وخرج ثلاثة من اليهود معهم الخناجر وأرادوا الفتك برسول الله ﷺ فأرسلت امرأة ناصحة من بني النضير إلى أخيها وهو رجل مسلم من الأنصار فأخبرته بما أراد بنو النضير من الغدر برسول الله ﷺ فأقبل أخوها سريعاً حتى أدرك النبي ﷺ فساره بخبرهم قبل أن يصل إليهم فرجع النبي ﷺ فلما كان من الغد صبحهم رسول الله ﷺ بالكتائب

الأشرف، فقتله محمد بن مسلمة ذكرناه في سورة آل عمران. وكان النبي ﷺ اطّلع منهم على خيانة حين أتاهم يستعينهم في ديّة المسلمين الذين قتلهما عمرو بن أُمية الضمري في منصرفه من بئر معونة، فهمّوا بطرح حجر عليه من فوق الحصن، فعصمه الله وأخبره بذلك، ذكرناه في سورة المائدة، فلما قتل كعب بن الأشرف أصبح رسول الله ﷺ وأمر الناس بالمسير إلى بني النضير، وكانوا بقرية يقال لها زهرة فلما سار إليهم النبي ﷺ وجدهم ينوحون على كعب بن الأشرف، فقالوا: يا محمد واعية على أثر واعية وباكية على أثر باكية؟ قال: «نعم»، قالوا: ذرنا نبكي شجوناً ثم أئتمر بأمرك، فقال النبي ﷺ: «أخرجوا من المدينة»، فقالوا: الموت أقرب إلينا من ذلك فتنادوا بالحرب وأذنوا بالقتال، ودسّ المنافقون عبد الله بن أبي سلول وأصحابه إليهم أن لا تخرجوا من الحصن، فإن قاتلوكم فنحن معكم ولا نخذلكم ولننصرنّكم ولئن أخرجتم لنخرجنّ معكم فدُرّبوا على الأزقّة وحصّنوها، ثم إنهم أجمعوا على الغدر برسول الله ﷺ فأرسلوا إليه أن اخرج في ثلاثين رجلاً من أصحابك وليخرج منّا ثلاثون حتى نلتقي بمكان بيننا وبينك، فيستمعوا منك فإن صدّقوك وآمنوا بك آمنّا كلنا، فخرج النبي ﷺ في ثلاثين من أصحابه وخرج إليه ثلاثون حَبْراً من اليهود حتى إذا كانوا في براز من الأرض قال بعض اليهود لبعض: كيف تخلصون إليه ومعه ثلاثون رجلاً من أصحابه كلهم يحبّ أن يموت قبله؟ فأرسلوا إليه كيف نفهم ونحن ستّون رجلاً؟ أخرج في ثلاثة من أصحابك ونخرج إليك في ثلاثة من علمائنا فيستمعوا منك، فإن آمنوا بك آمنّا كلّنا بك وصدّقناك، فخرج النبي ﷺ في ثلاثة من أصحابه، وخرج ثلاثة من اليهود، واشتملوا على الخناجر وأرادوا الفتك برسول الله ﷺ، فأرسلت امرأة ناصحة من بني النضير إلى أخيها وهو رجل مسلم من الأنصار فأخبرته بما أراد بنو النضير من الغدر برسول الله ﷺ فأقبل أخوها سريعاً حتى أدرك النبي ﷺ، فسارّه بخبرهم قبل أن يصل النبي ﷺ إليهم، فرجع النبي ﷺ، فلما كان الغد غدا عليهم رسول الله ﷺ بالكتائب فحاصرهم إحدى وعشرين ليلة، فقذف الله في قلوبهم الرعب وأيسوا من نصر

فحاصرهم إحدى وعشرين ليلة فقذف الله في قلوبهم الرعب وأيسوا من نصر المنافقين فسألوا رسول الله ﷺ الصلح فأبى عليهم إلا أن يخرجوا من المدينة على ما يأمرهم به فقبلوا ذلك فصالحهم على الجلاء وعلى أن لهم ما أقلت الإبل من أموالهم إلا الحلقة وهي السلاح وعلى أن يخلوا لهم ديارهم وعقارهم وسائر أموالهم».

وقال ابن عباس «على أن يحمل كل أهل بيت على بعير ما شاؤوا من متاعهم وللنبي ﷺ ما بقي» وقيل أعطى كل ثلاثة نفر بعيراً وسقاء ففعلوا ذلك وخرجوا من ديارهم إلى أذرعات وأريحاء من أرض الشام إلا أهل بيتين منهم آل أبي الحقيق وآل حيي بن أخطب فإنهم لحقوا بخيبر ولحقت طائفة بالحيرة، فذلك قوله عز وجل:

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مِن دِيَـٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ ﴿٢﴾﴾

﴿**هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب**﴾ يعني بني النضير ﴿**من ديارهم**﴾ يعني التي كانت بالمدينة.

قال ابن إسحاق كان إجلاء بني النضير مرجع النبي ﷺ من أحد، وفتح قريظة مرجعه من الأحزاب وبينهما سنتان ﴿**لأول الحشر**﴾ قال الزهري كانوا من سبط لم يصبهم جلاء فيما مضى وكان الله قد كتب عليهم الجلاء ولولا ذلك لعذبهم في الدنيا قال ابن عباس من شك أن المحشر بالشام فليقرأ هذه الآية فكان هذا أول حشر إلى الشام قال النبي ﷺ أخرجوا قالوا إلى أين؟ قال إلى أرض المحشر ثم يحشر الخلق يوم القيامة إلى الشام وقيل إنما قال لأول الحشر لأنهم كانوا أول من أجلي من أهل الكتاب من جزيرة العرب ثم أجلي آخرهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه وقيل كان هذا أول الحشر من المدينة والحشر الثاني من خيبر وجميع جزيرة العرب إلى أذرعات وأريحاء من أرض الشام في أيام عمر، وقيل كان هذا أول الحشر والحشر الثاني نار تحشرهم يوم القيامة من المشرق إلى المغرب تبيت معهم حيث

المنافقين، فسألوا رسول الله ﷺ الصلح، فأبى عليهم إلّا أن يخرجوا من المدينة على ما يأمرهم به النبي ﷺ فقبلوا ذلك فصالحهم على الجلاء وعلى أن لهم ما أقلّت الإبل من أموالهم إلّا الحلقة وهي السلاح، وعلى أن يخلّوا لهم ديارهم وعقارهم وسائر أموالهم. وقال ابن عباس: على أن يحمل كل أهل ثلاثة أبيات على بعير ما شاؤوا من متاعهم، ولنبي الله ﷺ ما بقي. وقال الضحّاك: أعطي كل ثلاثة نفر بعيراً وسقاه ففعلوا وخرجوا من المدينة إلى الشام إلى أذرعات وأريحاء إلّا أهل بيتين منهم آل أبي الحقيق وآل حيي بن أخطب فإنهم لحقوا بخيبر، ولحقت طائفة منهم بالحيرة.

فذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿ **هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب** ﴾، يعني بني النضير، ﴿ **من ديارهم** ﴾، التي كانت بيثرب، قال ابن إسحاق: كان إجلاء بني النضير بعد مرجع النبي ﷺ من أُحُد وفتح قريظة عند مرجعه من الأحزاب وبينهما سنتان. ﴿ **لأول الحشر** ﴾، قال الزهري: كانوا من سبط لم يصبهم جلاء فيما مضى، وكان الله عزّ وجلّ قد كتب عليهم الجلاء، ولولا ذلك لعذّبهم في الدنيا. قال ابن عباس: مَن شكّ أن المحشر بالشام فليقرأ هذه الآية فكان هذا أول حشر إلى الشام، قال لهم النبي ﷺ: «أخرجوا»، قالوا: إلى أين؟ قال: «إلى أرض المحشر»، ثم يحشر الخلق يوم القيامة إلى الشام، وقال الكلبي: إنما قال لأول الحشر لأنهم كانوا أول مَن أُجليَ من أهل الكتاب من جزيرة العرب، ثم أجلى آخرهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه. قال مرّة الهمداني: كان أول الحشر من المدينة والحشر الثاني من خيبر وجميع جزيرة العرب إلى أذرعات وأريحاء من الشام

باتوا وتقيل معهم حيث قالوا ﴿ما ظننتم﴾ يعني أيها المؤمنين ﴿أن يخرجوا﴾ أي من المدينة لعزتهم ومنعتهم وذلك أنهم كانوا أهل حصون وعقار ونخل كثير ﴿وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله﴾ أي وظن بنو النضير أن حصونهم تمنعهم من سلطان الله ﴿فأتاهم الله﴾ أي أتاهم أمر الله وعذابه ﴿من حيث لم يحتسبوا﴾ وهو أن الله أمر نبيه ﷺ بقتالهم وإجلائهم وكانوا لا يظنون ذلك، ﴿وقذف في قلوبهم الرعب﴾ أي الخوف الشديد بقتل سيدهم كعب بن الأشرف ﴿يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين﴾ قال الزهري وذلك أن النبي ﷺ لما صالحهم على أن لهم ما أقلت الإبل كانوا ينظرون إلى الخشب في منازلهم فيهدمونها وينزعون ما استحسنوه منها فيحملونه على إبلهم ويخرب المؤمنون باقيها وقيل كانوا يقلعون العمد وينقضون السقوف وينقبون الجدران لئلا يسكنها المؤمنون حسداً منهم وبغضاً وقيل كان المسلمون يخربون ما يليهم من ظاهرها ويخربها اليهود من داخلها وقال ابن عباس كلما ظهر المسلمون على دار من دورهم هدموها لتتسع لهم المقاتل وجعل أعداء الله ينقبون دورهم من أدبارها فيخرجون إلى التي بعدها فيتحصنون فيها ويكسرون ما يليهم ويرمون بالتي خرجوا منها أصحاب رسول الله ﷺ، ﴿فاعتبروا﴾ يعني فاتعظوا وانظروا ما نزل بهم ﴿يا أولي الأبصار﴾ يعني يا ذوي العقول والبصائر.

﴿وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤﴾ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾﴾

﴿ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء﴾ يعني الخروج من الوطن ﴿لعذبهم في الدنيا﴾ يعني بالقتل والسبي كما فعل ببني قريظة ﴿ولهم في الآخرة عذاب النار ذلك﴾ أي الذي لحقهم ونزل بهم ﴿بأنهم شاقوا الله ورسوله﴾ أي خالفوا الله ورسوله ﴿ومن يشاق الله فإن الله شديد العقاب﴾ قوله تعالى: ﴿ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن

في أيام عمر، وقال قتادة: كان هذا أول الحشر والحشر الثاني نار تحشرهم من المشرق إلى المغرب تبيت معهم حيث باتوا وتقيل معهم حيث قالوا: ﴿ ما ظننتم ﴾، أيها المؤمنون ﴿ أن يخرجوا ﴾، من المدينة لعزّتهم ومنعتهم وذلك أنهم كانوا أهل حصون وعقار ونخيل كثيرة، ﴿ وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله ﴾، أي وظن بنو النضير أن حصونهم تمنعهم من سلطان الله، ﴿ فأتاهم الله ﴾، أي أمر الله وعذابه، ﴿ من حيث لم يحتسبوا ﴾، وهو أنه أمر نبيّه ﷺ بقتالهم وإجلائهم وكانوا لا يظنون ذلك، ﴿ وقذف في قلوبهم الرعب ﴾، بقتل سيدهم كعب بن الأشرف، ﴿ يخربون ﴾، قرأ أبو عمرو بالتشديد والآخرون بالتخفيف ومعناهما واحد، ﴿ بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين ﴾، قال الزهري: وذلك أن النبي ﷺ لمّا صالحهم على أن لهم ما أقلّت الإبل كانوا ينظرون إلى الخشب في منازلهم فيهدمونها وينزعون منها ما يستحسنونه فيحملونه على إبلهم، ويخرّب المؤمنون باقيها. قال ابن زيد: كانوا يقلعون العُمُد وينقضون السقوف وينقبون الجدران ويقلعون الخشب حتى الأوتاد يخرّبونها لئلا يسكنها المؤمنون حسداً منهم وبُغضاً. قال قتادة: كان المسلمون يخرّبون ما يليهم من ظاهرها ويخرّبها اليهود من داخلها. قال ابن عباس رضي الله عنهما: كلما ظهر المسلمون على دار من دورهم هدموها لتتّسع لهم المقاتل، وجعل أعداء الله ينقبون دورهم في أدبارها فيخرجون إلى التي بعدها فيتحصّنون فيها ويكسرون ما يليهم ويرمون بالتي خرجوا منها أصحاب رسول الله ﷺ، فذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿ يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين فاعتبروا ﴾، فاتّعظوا وانظروا فيما نزل بهم، ﴿ يا أُولي الأبصار ﴾، يا ذوي العقول والبصائر.

﴿ ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء ﴾، الخروج من الوطن، ﴿ لعذّبهم في الدنيا ﴾، بالقتل والسبي كما فعل

الله﴾ الآية وذلك أن النبي ﷺ لما نزل ببني النضير وتحصنوا بحصونهم أمر بقطع نخيلهم وأحرقها فجزع أعداء الله عند ذلك وقالوا يا محمد زعمت أنك تريد الصلاح أفمن الصلاح عقر الشجر وقطع النخل وهل وجدت فيما زعمت أنه أنزل عليك الفساد في الأرض فوجد المسلمون في أنفسهم من قولهم وخشوا أن يكون ذلك فساداً.

واختلفوا في ذلك فقال بعضهم لا تقطعوا فإنه مما أفاء الله علينا وقال بعضهم بل نغيظهم بقطعه فأنزل الله هذه الآية بتصديق من نهى عن قطعه وتحليل من قطعه من الإثم وأن ذلك كان بإذن الله تعالى (ق) عن ابن عمر قال: حرق رسول الله ﷺ نخل بني النضير وقطع وهي البويرة فنزل **﴿ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله وليخزي الفاسقين البويرة﴾** اسم موضع لبني النضير وفي ذلك يقول حسان بن ثابت:

وهـــان علـــى ســـراة بنـــي لـــؤي حـــريـــق بـــالبـــويـــرة مستطيـــر

قال ابن عباس النخل كلها لينة ما خلا العجوة وكان النبي ﷺ يقطع نخلهم إلا العجوة، وأهل المدينة يسمون ما خلا العجوة من التمر الألوان وقيل النخل كلها لينة إلا العجوة والبرنية وقيل اللينة النخل كلها من غير استثناف وقال ابن عباس في رواية أخرى عنه هي لون من النخل وقيل كرام النخل وقيل هي ضرب من النخل يقال لتمرها اللون وهو شديد الصفرة ويرى نواه من خارج يغيب فيه الضرس وكان من أجود تمرهم وأعجبه إليهم وكانت النخلة الواحدة ثمنها ثمن وصيف وأحب إليهم من وصيف فلما رأوهم يقطعونها شق عليهم ذلك وقالوا للمؤمنين إنكم تكرهون الفساد وأنتم تفسدون دعوا هذا النخل قائماً هو لمن غلب عليه فأخبر الله أن قطعها كان بإذنه، **﴿وليخزي الفاسقين﴾** يعني اليهود والمعنى ولأجل إخزاء اليهود أذن الله في قطعها احتج العلماء بهذه الآية على أن حصون الكفار وديارهم لا بأس

بني قريظة، **﴿ ولهم في الآخرة عذاب النار * ذلك ﴾**، الذي لحقهم، **﴿ بأنهم شاقّوا اللّهَ ورسولَه ومَن يشاقِ اللّهَ فإن الله شديد العقاب ﴾**.

﴿ ما قطعتم من لينة ﴾، الآية، وذلك أن رسول الله ﷺ لمّا نزل ببني النضير وتحصّنوا بحصونهم أمر بقطع نخيلهم وإحراقها، فجزع أعداء الله عند ذلك وقالوا: يا محمد زعمت أنك تريد الصلاح أفمن الصلاح عقر الشجر وقطع النخيل؟ فهل وجدت فيما زعمت أنه أنزل عليك الفساد في الأرض، فوجد المسلمون في أنفسهم من قولهم وخشوا أن يكون ذلك فساداً، واختلفوا في ذلك فقال بعضهم: لا تقطعوا فإنه مما أفاء الله علينا. وقال بعضهم: بل نغيظهم بقطعها، فأنزل الله هذه الآية بتصديق مَن نهى عن قطعه وتحليل مَن قطعه من الإثم. أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا آدم ثنا الليث عن نافع عن ابن عمر قال: حرق رسول الله ﷺ نخل بني النضير وقطع وهي البويرة، فنزلت: **﴿ ما قطعتم من ليّنة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله ﴾**، أخبر الله في هذه الآية إن ما قطعتموه وما تركوه فبإذن الله، **﴿ وليخزي الفاسقين ﴾**، واختلفوا في اللّينة فقال قوم: النخل كلها ليّنة ما خلا العجوة، وهو قول عكرمة وقتادة، ورواه زاذان عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان النبي ﷺ يقطع نخلهم إلاّ العجوة وأهل المدينة يسمّون ما خلا العجوة من التمر الألوان واحدها لون ولينة. وقال الزهري: هي ألوان النخل كلها إلاّ العجوة والبرنية. وقال مجاهد وعطية: هي النخل كلها من غير استثناء. وقال العوفي عن ابن عباس رضي الله عنهم: هي لون من النخل. وقال سفيان: هي كرام النخل. وقال مقاتل: هي ضرب من النخل يقال لثمرها اللون، وهو شديد الصُّفرة يرى نواه من خارج يغيب فيها الضرس، وكان من أجود تمرهم وأعجبها إليهم، وكانت النخلة الواحدة منها ثمنها ثمن وصيف، وأحبّ إليهم من وصيف، فلما رأوهم يقطعونها شقّ ذلك عليهم وقالوا للمؤمنين إنكم تكرهون الفساد في الأرض وأنتم المفسدون دعوا هذا

أن تهدم وتحرق وترمى بالمجانيق وكذلك قطع أشجارهم ونحوها.

﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿وما أفاء الله على رسوله﴾ أي ما رد الله على رسوله ﴿منهم﴾ أي من يهود بني النضير ﴿فما أوجفتم عليه﴾ يعني أوضعتم وهو سرعة السير ﴿من خيل ولا ركاب﴾ يعني الإبل التي تحمل القوم وذلك أن بني النضير لما تركوا رباعهم وضياعهم طلب المسلمون من رسول الله ﷺ أن يقسمها بينهم كما فعل بغنائم خيبر فبين الله تعالى في هذه الآية أنها لم يوجف المسلمون عليها خيلاً ولا ركاباً ولم يقطعوا إليها شقة ولا نالوا مشقة وإنما كانوا يعني بني النضير على ميلين من المدينة فمشوا إليها مشياً ولم يركب إلا رسول الله ﷺ كان على جمل، ﴿ولكن الله يسلط رسله على من يشاء﴾ من أعدائه ﴿والله على كل شيء قدير﴾ أي فهي له خاصة يضعها حيث يشاء فقسمها رسول الله ﷺ بين المهاجرين ولم يعط الأنصار منها شيئاً إلا ثلاثة نفر كانت بهم حاجة وهم أبو دجانة سماك بن خرشة وسهل بن حنيف والحارث بن الصمة (ق) عن مالك بن أوس النضري أن عمر دعاه إذ جاءه حاجبه يرفأ فقال هل لك يا أمير المؤمنين في عثمان وعبد الرحمن بن عوف والزبير وسعد يستأذنون؟ قال نعم فأدخلهم فلبث قليلاً ثم جاء يرفأ فقال هل لك في عباس وعلي يستأذنان؟ قال نعم فأذن لهما فلما دخلا قال العباس يا أمير المؤمنين اقض بيني وبين هذا فقال القوم أجل يا أمير المؤمنين اقض بينهما وأرح أحدهما من الآخر قال مالك بن أوس يخيل إليّ أنهم قد كانوا قدموهم لذلك فقال عمر اتئدوا أنشدكم بالله الذي بإذنه تقوم السماء والأرض هل تعلمون أن رسول الله ﷺ قال «لا نورث ما تركنا صدقة» يريد بذلك نفسه قالوا نعم ثم أقبل عمر على العباس وعلي وقال أنشدكما بالله الذي بإذنه تقوم

النخل قائماً هو لمَن غلب عليه، فأخبر الله تعالى أن ذلك بإذنه.

﴿ وما أفاء الله على رسوله ﴾، أي ردّه على رسوله، يقال فاء يفيء أي رجع وفاءها الله، ﴿ منهم ﴾ أي من يهود بني النضير، ﴿ فما أوجفتم ﴾، أوضعتم، ﴿ عليه من خيل ولا ركاب ﴾، يقال: وجف الفرس والبعير يجف وجيفاً وهو سرعة السير، وأوجفه صاحبه إذا حمله على السير، وأراد بالركاب الإبل التي تحمل القوم. وذلك أن بني النضير لمّا تركوا رِباعهم وضياعهم طلب المسلمون من رسول الله ﷺ أن يقسمها بينهم، كما فعل بغنائم خيبر، فبيّن الله تعالى في هذه الآية أنه فيء لم يوجف المسلمون عليها خيلاً ولا ركاباً ولم يقطعوا إليها شقّة ولا نالوا مشقّة ولم يلقوا حرباً، ﴿ ولكن الله يسلّط رسله على مَن يشاء والله على كل شيء قدير ﴾، فجعل أموال بني النضير لرسول الله ﷺ خاصّة يضعها حيث يشاء، فقسمها رسول الله ﷺ بين المهاجرين ولم يُعطِ الأنصار منها شيئاً إلّا ثلاثة نفر كانت بهم حاجة وهم أبو دجانة سماك بن خرشة وسهل بن حنيف والحارث بن الصمّة، أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا أبو اليمان أنا شعيب عن الزهري أخبرني مالك بن أوس بن الحدثان النضري أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه دعاه إذ جاءه حاجبه يرفأ، فقال: هل لك في عثمان وعبد الرحمن والزبير وسعد يستأذنون؟ قال: نعم، فلما دخلا قال ابن عباس: يا أمير المؤمنين اقضِ بيني وبين هذا وهما يختصمان في الذي أفاء الله على رسوله من بني النضير، فقال الرهط: يا أمير المؤمنين اقضِ بينهما وأرِحْ أحدهما من الآخر، قال: اتئدوا أنشدكم بالله الذي بإذنه تقوم السماء والأرض هل تعلمون أن رسول الله ﷺ قال: «لا نورث ما تركنا صدقة» يريد رسول الله ﷺ نفسه؟ قالوا: قد قال ذلك، فأقبل عمر على عليّ وعباس، فقال: أنشدكما بالله هل تعلمان أن رسول الله ﷺ قال ذلك؟ قالا: نعم، قال: فإني أُحدّثكم عن هذا الأمر

السماء والأرض أتعلمان أن رسول الله ﷺ قال «لا نورث ما تركنا صدقة» قالا نعم قال عمر إن الله خص رسول الله ﷺ بخاصة لم يخصص بها أحداً غيره فقال «وما أفاء الله على رسوله منهم فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب» الآية قال فقسم رسول الله ﷺ بينكم أموال بني النضير فوالله ما استأثرها عليكم ولا أخذها دونكم فقد أعطاكموها وقسمها فيكم حتى بقي هذا المال وكان رسول الله ﷺ يأخذ منه نفقة سنة ثم ما بقي يجعله مجعل مال الله فعمل بذلك رسول الله ﷺ حياته ثم أنشدكم بالله الذي بإذنه تقوم السماء والأرض أتعلمون ذلك؟ قالوا نعم قال ثم نشد عباساً وعلياً بمثل ما نشد القوم أتعلمان ذلك؟ قالا نعم قال فلما توفي رسول الله ﷺ قال أبو بكر أنا ولي رسول الله ﷺ فقبضه أبو بكر فعمل فيه بما عمل رسول الله ﷺ وأنتم حينئذ وأقبل على علي وعباس وقال تذاكران أن أبا بكر عمل فيه كما تقولان والله يعلم إنه لصادق راشد تابع للحق ثم توفى الله أبا بكر فقلت أنا ولي رسول الله ﷺ وأبي بكر فقبضته سنتين من إمارتي أعمل فيهما بما عمل فيه رسول الله ﷺ وأبو بكر والله يعلم إني فيه لصادق بار راشد تابع للحق ثم جئتماني كلاكما وكلمتكما واحدة وأمركما جميع فقلت لكما إن رسول الله ﷺ قال «لا نورث ما تركنا صدقة» قلتم ادفعها إلينا فلما بدا لي أن أدفعها إليكما قلت إن شئتما دفعته إليكما على أن عليكما عهداً لله وميثاقه لتعملان فيه بما عمل فيه رسول الله ﷺ وأبو بكر وما عملت فيه منذ وليت وإلا فلا تكلماني فقلتما ادفعه إلينا بذلك فدفعته إليكما أفتلتمسان مني قضاء غير ذلك فوالله الذي بإذنه تقوم السماء والأرض لا أقضي فيه بقضاء غير ذلك حتى تقوم الساعة فإن عجزتما عنه فادفعاه إليّ فإني أكفيكماه.

﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾

قوله تعالى: ﴿ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى﴾ يعني من أموال كفار أهل القرى قال ابن عباس هي قريظة

أن الله كان خصّ رسول الله ﷺ في هذا الفيء بشيء لم يعطه أحداً غيره، فقال: **﴿وما أفاء الله على رسوله منهم فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب﴾**، إلى قوله: **﴿قدير﴾**، وكانت هذه خالصة لرسول الله ﷺ ما احتازها دونكم ولا استأثرها عليكم لقد أعطاكموها وبثّها فيكم حتى بقي منها هذا المال، فكان رسول الله ﷺ ينفق على أهله نفقة سنتهم من هذا المال ثم يأخذ ما بقي فيجعله مجعل مال الله، فعمل بذلك رسول الله ﷺ حياته، ثم توفي النبي ﷺ، فقال أبو بكر: أنا وليّ رسول الله ﷺ فقبضها أبو بكر رضي الله تعالى عنه فعمل بها بما عمل به فيها رسول الله ﷺ، وأنتما حينئذ جميع، وأقبل على عليّ وعباس: تذكران أن أبا بكر فعل فيه كما تقولاَن والله يعلم أنه فيها صادق بارّ راشد تابع للحق، ثم توفّى اللّهُ أبا بكر، فقلت: أنا وليّ رسول الله ﷺ وأبي بكر فقبضتها سبتين من إمارتي أعمل فيها بما عمل رسول الله ﷺ، وأبو بكر والله يعلم أني فيه صادق بارّ راشد تابع للحق، ثم جئتماني كِلاَكُما وكلمتكما واحدة، وأمركما جميع فقلت لكما: إن رسول الله ﷺ قال: «لا نورث ما تركنا صدقة»، فلما بدا لي أن أدفعه إليكما قلت إن شئتما دفعته إليكما على أن عليكما عهد الله وميثاقه لتعملان فيها بما عمل به رسول الله ﷺ وأبو بكر، وبما عملت به فيها منذ وليتها، وإلاّ فلا تكلّماني فيها، فقلتما ادفعها إلينا بذلك فدفعتها إليكما أفتلتمسان منّي قضاء غير ذلك، فوالله الذي بإذنه تقوم السماء والأرض لا أقضي فيها قضاء غير ذلك حتى تقوم الساعة، فإن عجزتما عنها فادفعاها إليّ فإني أكفيكماها.

قوله عزّ وجلّ: **﴿ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى﴾**، يعني من أموال كفّار أهل القرى، قال ابن

والنضير وفدك وخيبر وقرى عرينة ﴿فلله وللرسول ولذي القربى﴾ يعني بني هاشم وبني المطلب ﴿واليتامى والمساكين وابن السبيل﴾ قد تقدم تفسيره في سورة الأنفال في حكم الغنيمة وقسمتها وأما حكم الفيء فإنه لرسول الله ﷺ مدة حياته يضعه حيث يشاء فكان ينفق على أهله منه نفقة سنتهم ويجعل ما بقي مجعل مال الله في الكراع والسلاح عدة في سبيل الله.

واختلف العلماء في مصرف الفيء بعد رسول الله ﷺ فقال قوم هو للأئمة بعده وللشافعي فيه قولان أحدهما أنه للمقاتلة والثاني هو لمصالح المسلمين ويبدأ بالمقاتلة ثم بالأهم فالأهم من المصالح.

واختلفوا في تخميس مال الفيء فذهب قوم إلى أنه يخمس فخمس لأهل خمس الغنيمة وأربعة للمقاتلة أو للمصالح وذهب الأكثرون إلى أنه لا يخمس بل مصرف جميعه واحد ولجميع المسلمين فيه حق قرأ عمر بن الخطاب «ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى حتى بلغ للفقراء المهاجرين إلى قوله والذين جاؤوا من بعدهم» ثم قال هذه استوعبت المسلمين عامة قال وما على وجه الأرض مسلم إلا وله في هذا الفيء حق إلا ما ملكت أيمانكم ﴿كيلا يكون﴾ الفيء ﴿دولة﴾ والدولة اسم للشيء الذي يتداوله القوم بينهم ﴿بين الأغنياء منكم﴾ يعني بين الرؤساء والأقوياء فيغلبوا عليه الفقراء والضعفاء وذلك أن أهل الجاهلية كانوا إذا غنموا غنيمة أخذ الرئيس ربعها لنفسه وهو المرباع ثم يصطفي بعده ما شاء فجعله الله لرسول الله ﷺ يقسمه فيما أمره به ﴿وما آتاكم الرسول فخذوه﴾ أي من مال الفيء والغنيمة ﴿وما نهاكم عنه﴾ أي من الغلول وغيره ﴿فانتهوا﴾ وهذا نازل في أموال الفيء وهو عام في كل ما أمر به النبي ﷺ أو نهي عنه من قول أو عمل من واجب أو مندوب أو مستحب أو نهى عن محرم فيدخل فيه الفيء وغيره (ق) عن عبد الله بن مسعود أنه قال «لعن الله الواشمات والمستوشمات والمتنمصات والمتفلجات للحسن المغيرات خلق الله فبلغ ذلك امرأة من بني أسد يقال لها أم يعقوب وكانت تقرأ القرآن فأتته فقالت ما حديث بلغني عنك أنك قلت كذا وكذا وذكرته فقال عبد الله وما لي لا ألعن من لعن رسول الله ﷺ وهو في كتاب الله تعالى فقالت المرأة لقد قرأت لوحي

عباس: هي قريظة والنضير وفدك وخيبر وقرى عرينة، ﴿ فللَّه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ﴾، قد ذكرنا في سورة الأنفال حكم الغنيمة وحكم الفيء إن مال الفيء كان لرسول الله ﷺ في حياته يضعه حيث يشاء وكان ينفق منه على أهله نفقة سنتهم ويجعل ما بقي مجعل مال الله. واختلف أهل العلم في مصرف الفيء بعد رسول الله ﷺ، فقال قوم: هـو للأئمة بعده. وللشافعي فيه قولان: أحدهما هو للمقاتلة، والثاني لمصالح المسلمين، ويبدأ بالمقاتلة ثم بالأهم فالأهم من المصالح. واختلفوا في تخميس مال الفيء فذهب بعضهم إلى أنه يخمّس فخمسه لأهل خمس الغنيمة وأربعة أخماسه للمقاتلة وللمصالح، وذهب الأكثرون إلى أنه لا يخمّس بل مصرف جميعه واحد، ولجميع المسلمين فيه حق، قرأ عمر بن الخطاب: ﴿ ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى ﴾، حتى بلغ: ﴿ للفقراء المهاجرين والذين جاؤوا من بعدهم ﴾، ثم قال: هذه استوعبت المسلمين عامّة، وقال: ما على وجه الأرض مسلم إلّا له في هذا الفيء حق إلّا ما ملكت أيمانكم. ﴿ كيلا يكون دولة ﴾، قرأ العامّة بالياء، ﴿ دولة ﴾ نصب أي لكيلا يكون الفيء دولة، وقرأ أبو جعفر (تكون) بالتاء ﴿ دولة ﴾ بالرفع على اسم كان أي كيلا يكون الأمر إلى دولة، وجعل الكينونة بمعنى الوقوع وحينئذ لا خبر له والدولة اسم للشيء الذي يتداوله القوم بينهم، ﴿ بين الأغنياء منكم ﴾، يعني بين الرؤساء والأقوياء، معناه كيلا يكون الفيء دولة بين الأغنياء والأقوياء فيغلبوا عليه الفقراء والضعفاء، وذلك أن أهل الجاهلية كانوا إذا اغتنموا غنيمة أخذ الرئيس ربعها لنفسه، وهو المِرباع، ثم يصطفي منها بعد المِرباع ما شاء، فجعله الله لرسوله ﷺ يقسمه فيما أمر به، ثم قال: ﴿ وما آتاكم ﴾، أعطاكم، ﴿ الرسول ﴾، من الفيء والغنيمة، ﴿ فخذوه وما نهاكم عنه ﴾، من الغلول وغيره،

المصحف فما وجدته فقال إن كنت قرأته لقد وجدته قال الله عز وجل: ﴿**وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا**﴾ الوشم هو غرز العضو من الإنسان بالإبرة ثم يحشى بكحل والمستوشمة هي التي تطلب أن يفعل بها ذلك والنامصة هي التي تنتف الشعر من الوجه والمتفلجة هي التي تتكلف تفريج ما بين ثناياها بصناعة وقيل هي التي تتفلج في مشيتها فكل ذلك منهي عنه (ق) عن عائشة رضي الله عنها قالت قال رسول الله ﷺ «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد» وفي رواية «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد» عن أبي رافع أن رسول الله ﷺ قال «لا ألفين أحدكم متكئاً على أريكته يأتيه أمر مما أمرت به ونهيت عنه فيقول لا أدري ما وجدناه في كتاب الله اتبعناه» أخرجه أبو داود والترمذي.

وقال هذا حديث حسن الأريكة كل ما اتكىء عليه من سرير أو فراش أو منصة أو نحو ذلك ﴿**واتقوا الله**﴾ أي في أمر الفيء ﴿**إن الله شديد العقاب**﴾ أي على ترك ما أمركم به رسول الله ﷺ أو نهاكم عنه ثم بين من له الحق في الفيء فقال عز وجل:

لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾

﴿**للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم**﴾ يعني ألجأهم كفار مكة إلى الخروج ﴿**يبتغون فضلاً من الله**﴾ أي رزقاً وقيل ثواباً من الله ﴿**ورضواناً**﴾ أي أخرجوا من ديارهم طلباً لرضا الله عز وجل: ﴿**وينصرون الله ورسوله**﴾ أي بأنفسهم وأموالهم والمراد بنصر الله نصر دينه وإعلاء كلمته ﴿**أولئك هم الصادقون**﴾ أي في إيمانهم قال قتادة المهاجرون الذين تركوا الديار والأموال والعشائر وخرجوا حباً لله ولرسوله واختاروا الإسلام على ما كانوا فيه من شدة حتى ذكر لنا أن الرجل كان يعصب الحجر على بطنه ليقيم به صلبه من الجوع وكان الرجل يتخذ الحفيرة في الشتاء ما له دثار غيرها (م) عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال سمعت رسول الله ﷺ يقول «إن فقراء

﴿**فانتهوا**﴾، وهذا نازل في أموال الفيء، وهو عامّ في كل ما أمر به النبي ﷺ ونهى عنه، أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا سفيان عن منصور عن إبراهيم عن علقمة عن عبد الله قال: لعن الله الواشمات والمستوشمات والمتنمصات والمتفلّجات للحسن المغيّرات خلق الله، فبلغ ذلك امرأة من بني أسد يقال لها أم يعقوب، فجاءت فقالت: إنه بلغني أنك لعنت كيت وكيت، فقال: وما لي لا ألعن مَن لعن رسول الله ﷺ وهو في كتاب الله تعالى، فقالت: لقد قرأت ما بين اللوحين فما وجدت فيه ما تقول، قال: لئن كنت قرأتيه لقد وجدتيه أمَا قرأت: ﴿ **وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا** ﴾؟ قالت: بلى، قال: فإنه قد نهى عنه. ﴿ **واتقوا الله إن الله شديد العقاب** ﴾، ثم بيّن مَن له الحق في الفيء فقال:

﴿ **للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً** ﴾ رزقاً ﴿ **من الله ورضواناً** ﴾، أي أُخرجوا إلى دار الهجرة طلباً لرضا الله عزّ وجلّ، ﴿ **وينصرون اللّهَ ورسولَهُ أولئك هم الصادقون** ﴾، في إيمانهم. قال قتادة: هؤلاء المهاجرون الذين تركوا الديار والأموال والعشائر وخرجوا حبّاً لله ولرسوله، واختاروا الإسلام على ما كانوا فيه من شدّة، حتى ذكر لنا أن الرجل كان يعصب الحجر على بطنه ليقيم به صلبه من الجوع، وكان الرجل يتّخذ الحفيرة في الشتاء ما لـه دثـار غيرها، أخبرنا محمد بن الحسن المروزي أنا أبو العباس الطحّان أنا أبو أحمد بن محمد بن قيس بن سليمان أنا علي بن عبـد العزيـز المكّي أنا أبـو عبد القـاسم بن سلام حـدّثني

المهاجرين يسبقون الأغنياء يوم القيامة إلى الجنة بأربعين خريفاً» وعن أبي سعيد قال قال رسول الله ﷺ «أبشروا صعاليك المهاجرين بالنور التام يوم القيامة تدخلون الجنة قبل أغنياء الناس بنصف يوم وذلك خمسمائة سنة» أخرجه أبو داود.

﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُو الدَّارَ وَالْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝٩﴾

قوله عز وجل: ﴿**والذين تبوءوا الدار والإيمان**﴾ يعني الأنصار توطنوا الدار وهي المدينة واتخذوها سكناً ﴿**من قبلهم**﴾ يعني أنهم أسلموا في ديارهم وآثروا الإيمان وابتنوا المساجد قبل قدوم النبي ﷺ بسنتين والمعنى والذين تبوءوا الدار من قبل المهاجرين وقد آمنوا لأن الإيمان ليس بمكان يتبوأ ﴿**يحبون من هاجر إليهم**﴾ وذلك أنهم أنزلوا المهاجرين في منازلهم وأشركوهم في أموالهم ﴿**ولا يجدون في صدورهم حاجة**﴾ أي حزازة وغيظاً وحسداً ﴿**مما أوتوا**﴾ أي أعطي المهاجرين من الفيء دونهم وذلك أن رسول الله ﷺ قسم أموال بني النضير بين المهاجرين ولم يعط الأنصار منها شيئاً إلا ثلاثة فطابت أنفس الأنصار بذلك ﴿**ويؤثرون على أنفسهم**﴾ أي ويؤثر الأنصار المهاجرين بأموالهم ومنازلهم على أنفسهم ﴿**ولو كان بهم خصاصة**﴾ أي فاقة وحاجة إلى ما يؤثرون به (ق) عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال «جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال إني مجهود فأرسل إلى بعض نسائه فقالت والذي بعثك بالحق ما عندي إلا الماء ثم أرسل به إلى أخرى فقالت مثل ذلك وقلن كلهن مثل ذلك فقال رسول الله ﷺ من يضيفه يرحمه الله فقام رجل من الأنصار يقال له أبو طلحة فقال أنا يا رسول الله ﷺ فانطلق به إلى رحله فقال لامرأته هل عندك شيء؟ قالت لا إلا قوت صبياني قال فعلليهم بشيء ونوميهم فإذا دخل ضيفنا فأريه أنا نأكل فإذا هوى بيده ليأكل فقومي إلى السراج كي تصلحيه فأطفئيه ففعلت فقعدوا وأكل الضيف وباتا طاويين فلما أصبح غدا على رسول الله ﷺ فقال رسول

عبد الرحمن بن مهدي عن سفيان عن أبي إسحاق عن أُميّة بن خالد بن عبد الله بن أسيد عن النبي ﷺ: أنه كان يستفتح بصعاليك المهاجرين. قال أبو عبيد: هكذا قال عبد الرحمن وهو عندي أمية بن عبد الله بن خالد بن أسيد. وروينا عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال: «أبشروا يا معشر صعاليك المهاجرين بالنور التام يوم القيامة، تدخلون الجنة قبل أغنياء الناس بنصف يوم، وذلك مقدار خمسمائة سنة».

﴿ **والذين تبوّؤا الدارَ والإيمان** ﴾، وهم الأنصار تبوّؤا الدار توطنوا الدار، أي المدينة اتخذوها دار الهجرة والإيمان، ﴿ **من قبلهم** ﴾، أي أسلموا في ديارهم وآثروا الإيمان وابتنوا المساجد قبل قدوم النبي ﷺ بسنتين. ونظم الآية والذين تبوّؤا الدار من قبلهم أي من قبل قدوم المهاجرين عليهم، وقد آمنوا لأن الإيمان ليس بمكان تبوء، ﴿ **يحبّون مَن هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة** ﴾، حزازة وغيظاً وحسداً، ﴿ **مما أُوتوا** ﴾، أي مما أعطى المهاجرين دونهم من الفيء، وذلك أن رسول الله ﷺ قسم أموال بني النضير بين المهاجرين، ولم يعطِ منها الأنصار فطابت أنفس الأنصار بذلك، ﴿ **ويؤثرون على أنفسهم** ﴾، أي يؤثرون على إخوانهم من المهاجرين بأموالهم ومنازلهم على أنفسهم، ﴿ **ولو كان بهم خصاصة** ﴾، فاقة وحاجة إلى ما يؤثرون، وذلك أنهم قاسموهم ديارهم وأموالهم، أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا مسدد ثنا عبد الله بن داود عن فضيل بن غزوان عن أبي حازم عن أبي هريرة أن رجلاً أتى النبي ﷺ فاستضافه فبعث إلى نسائه هل عندكنّ من شيء؟ فقلن: ما معناه إلاّ الماء، فقال رسول الله ﷺ: «مَن يضمّ أو يضيف هذا»؟ فقال رجل من الأنصار: أنا يا رسول الله، فانطلق به إلى امرأته فقال أكرمي ضيف رسول الله ﷺ،

الله ﷺ لقد عجب الله أو ضحك الله من فلان وفلانة» زاد في رواية «فأنزل الله ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة» (ق) عن أبي هريرة قال «قالت الأنصار للنبي ﷺ أقسم بيننا وبين إخواننا النخيل قال لا فقالوا تكفونا ونشرككم في الثمر قالوا سمعنا وأطعنا» (خ) عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال «دعا رسول الله ﷺ الأنصار إلى أن يقطع لهم البحرين فقالوا لا إلا أن تقطع لإخواننا من المهاجرين مثلها فقال أما لا فاصبروا حتى تلقوني على الحوض فإنه سيصيبكم أثرة بعدي» وفي رواية «ستلقون بعدي أثرة فاصبروا حتى تلقوني على الحوض» الأثرة بفتح الهمزة والثاء والراء وضبطه بعضهم بضم الهمزة وإسكان الثاء والأول أشهر ومعناه الاستئثار وهو أن يستأثر عليكم بأمور الدنيا ويفضل غيركم عليكم ولا يجعل لكم في الأمر نصيب وقيل هو من آثر إذا أعطى أراد يستأثر عليكم غيركم فيفضل في نصيبه من الفيء والاستئثار الانفراد بالشيء وقيل الأثرة الشدة والأول أظهر وعن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ يوم النضير للأنصار «إن شئتم قسمتم للمهاجرين من أموالكم ودياركم وتشاركونهم في هذه الغنيمة وإن شئتم كانت لكم أموالكم ودياركم ولم نقسم لكم شيئاً من الغنيمة فقالت الأنصار بل نقسم لهم من أموالنا وديارنا ونؤثرهم بالغنيمة ولا نشاركهم فيها فأنزل الله عز وجل ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون» والشح في كلام العرب البخل مع الحرص وقد فرق بعض العلماء بين البخل والشح فقال البخل نفس المنع والشح هو الحالة النفسانية التي تقتضي ذلك المنع.

فقالت: ما عندنا إلّا قوت الصبيان، فقال هيئي طعامك وأصبحي سراجك ونوّمي صبيانك، إذا أرادوا عشاءً، فهيّأت طعامها وأصبحت سراجها، ونوّمت صبيانها، ثم قامت كأنها تصلح سراجها فأطفأته، فجعلا يُريانه أنهما يأكلان، فباتا طاويين، فلما أصبح غدا إلى رسول الله ﷺ، فقال: ضحك الله الليلة أو عجب من فِعالكما، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿ **ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة** ﴾. ﴿ **ومَن يُوقَ شُحَّ نفسه فأولئك هم المفلحون** ﴾، أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا الحكيم بن نافع أنا شعيب ثنا أبو الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة قال: قالت الأنصار: اقسم بيننا وبين إخواننا النخيل، قال: لا، فقالوا: تكفونا المؤنة ونشرككم في الثمرة، قالوا: سمعنا وأطعنا. أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا عبد الله بن محمد ثنا سفيان عن يحيىٰ بن سعيد سمع أنس بن مالك حين خرج معه إلى الوليد قال: دعا النبي ﷺ الأنصار إلى أن يقطع لهم البحرين، فقالوا: لا إلّا أن تقطع لإخواننا من المهاجرين مثلها، قال: «ألا فاصبروا حتى يلقوني على الحوض، فإنه سيصيبكم أثَرَة بعدي».

ورُوِيَ عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ يوم النضير للأنصار: «إن شئتم قسمتم للمهاجرين من أموالكم ودياركم وتشاركونهم في هذه الغنيمة، وإن شئتم كانت لكم دياركم وأموالكم ولم يقسم لكم شيء من الغنيمة»، فقالت الأنصار: بل نقسم لهم من أموالنا وديارنا ونؤثرهم بالغنيمة ولا نشاركهم فيها، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿ **ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومَن يُوقَ شُحَّ نفسه فأولئك هم المفلحون** ﴾. والشحّ في كلام العرب: البخل ومنع الفضل. وفرّق العلماء بين الشحّ والبخل. رُوِيَ أن رجلاً قال لعبد الله بن مسعود: إني أخاف أن أكون قد هلكت، فقال: وما ذاك؟ قال: أسمع الله يقول: ﴿**ومَن يوق شحّ نفسه فأولئك هم المفلحون**﴾، وأنا رجل شحيح، لا يكاد يخرج من يدي شيء، فقال عبد الله: ليس ذاك بالشحّ الذي ذكر الله عزّ وجلّ في القرآن، ولكن الشحّ أن تأكل مال أخيك ظلماً ولكن ذلك البخل وبئس الشيء البخل. وقال ابن عمر: ليس الشحّ أن يمنع الرجل ماله إنما الشحّ أن تطمح عين الرجل إلى ما ليس له. وقال سعيد بن جبير: الشحّ هو أخذ الحرام ومنع الزكاة. وقيل: الشحّ هو الحرص الشديد الذي يحمله على ارتكاب المحارم. قال ابن زيد: مَن لم يأخذ شيئاً نهاه الله عنه،

ولما كان الشح من صفات النفس لا جرم قال الله تعالى: ﴿ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون﴾ أي الفائزون بما أرادوا وروي أن رجلاً قال لابن مسعود إني أخاف أن أكون قد هلكت قال وما ذاك قال إني أسمع الله يقول ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون وأنا رجل شحيح لا يكاد يخرج من يدي شيء فقال عبد الله ليس ذلك بالشح الذي ذكر الله في القرآن ولكن الشح أن تأكل مال أخيك ظلماً ولكن ذلك البخل وبئس الشيء البخل وقال ابن عمر ليس الشح أن يمنع الرجل ماله إنما الشح أن تطمع عين الرجل فيما ليس له وقيل الشح هو الحرص الشديد الذي يحمل صاحبه على ارتكاب المحارم وقيل من لم يأخذ شيئاً نهاه الله عن أخذه ولم يمنع شيئاً أمره الله بإعطائه فقد وقاه شح نفسه (م) عن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال «اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلّوا محارمهم» عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال «شر ما في الرجل شح هالع وجبن خالع» أخرجه أبو داود الهلع أشد الجزع والمراد منه أن الشحيح يجزع جزعاً شديداً ويحزن على شيء يفوته أو يخرج من يده والخالع الذي خلع فؤاده لشدة خوفه وفزعه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «لا يجتمع غبار في سبيل الله ودخان جهنم في جوف عبد أبداً ولا يجتمع الشح والإيمان في قلب عبد أبداً» أخرجه النسائي.

﴿وَالَّذِينَ جَاءُو مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿والذين جاؤوا من بعدهم﴾ يعني من بعد المهاجرين والأنصار وهم التابعون لهم إلى يوم القيامة ﴿يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان﴾ أخبر أنهم يدعون لأنفسهم بالمغفرة ولإخوانهم الذين سبقوهم بالإيمان ﴿ولا تجعل في قلوبنا غلاً﴾ أي غشاً وحسداً وبغضاً ﴿للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم﴾ فكل من كان في قلبه غل أو بغض لأحد من أصحاب رسول الله ﷺ ولم يترحم على جميعهم فإنه ليس ممن عناه الله بهذه الآية لأن الله تعالى رتب المؤمنين على ثلاث منازل المهاجرين ثم من بعدهم التابعون الموصوفون بما ذكر فمن لم يكن من

ولم يدعه الشحّ إلى أن يمنع شيئاً من شيء أمره الله به فقد وقاه شحّ نفسه. أخبرنا الإمام محمد بن أبي الحسين بن محمد القاضي أنا أبو سعد خلف بن عبد الرحمن بن محمد بن أبي نزار ثنا أبو بكر أحمد بن محمد بن أحمد بن حراز القهندري ثنا أبو عبد الله محمد بن إسحاق السعيدي ثنا أحمد بن منصور الرمادي ثنا القعنبي ثنا داود بن قيس الفرّاء عن عبيد الله بن مقسم عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال: «اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة. واتقوا الشحّ فإن الشحّ أهلك مَن كان قبلكم حملهم على أن استحلّوا دماءهم واستحلّوا محارمهم». أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحي أنا أبو سعيد محمد بن موسى الصيرفي ثنا أبو العباس الأصم أنا محمد بن عبد الله بن عبد الحكم أنا أبي وشعيب قالا: أنا الليث عن يزيد بن الهاد عن سهيل بن أبي صالح عن صفوان بن يزيد عن القعقاع هو ابن اللجلاج عن أبي هريرة أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «لا يجتمع غبار في سبيل الله ودخان جهنم في جوف عبد أبداً، ولا يجتمع الشحّ والإيمان في قلب عبد أبداً».

﴿ والذين جاؤوا من بعدهم ﴾، يعني التابعين وهم الذين يجيئون بعد المهاجرين والأنصار إلى يوم القيامة، ثم ذكر أنهم يدعون لأنفسهم ولِمَن سبقهم بالإيمان والمغفرة، فقال: ﴿ يقولون ربّنا اغفرْ لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعلْ في قلوبنا غلاً ﴾، غشّاً وحسداً وبُغضاً، ﴿ للذين آمنوا ربّنا إنك رؤوف رحيم ﴾، فكل مَن كان في قلبه غِلٌ على أحد من الصحابة ولم يترحّم على جميعهم فإنه ليس ممّن عناه الله بهذه الآية، لأن الله تعالى رتّب

التابعين بهذه الصفة كان خارجاً من أقسام المؤمنين وليس له في المسلمين نصيب وقال ابن أبي ليلى الناس على ثلاثة منازل الفقراء المهاجرون والذين تبوءوا الدار والإيمان والذين جاؤوا من بعدهم فاجتهد أن لا تكون خارجاً من هذه الثلاث منازل (ق) عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ «لا تسبوا أصحابي فلو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه» (م) عن عروة بن الزبير قال قالت عائشة «يا ابن أختي أمروا أن يستغفروا لأصحاب رسول الله ﷺ فسبوهم» عن عبد الله بن مغفل قال سمعت رسول الله ﷺ يقول «الله الله في أصحابي لا تتخذوهم غرضاً بعدي فمن أحبهم فبحبي أحبهم ومن أبغضهم فبغضبي أبغضهم ومن آذاهم فقد آذاني ومن آذاني فقد آذى الله ومن آذى الله فيوشك أن يأخذه» أخرجه الترمذي وقال مالك بن أنس: من انتقص أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ أو كان في قلبه غل عليهم فليس له حق في فيء المسلمين ثم تلا هذه الآية **﴿ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى إلى والذين جاؤوا من بعدهم ـ إلى ـ رؤوف رحيم﴾** وقال مالك بن مغول قال الشعبي يا مالك تفاضلت اليهود والنصارى على الرافضة بخصلة سئلت اليهود من خير أهل ملتكم؟ قالوا أصحاب موسى وسئلت النصارى من خير أهل ملتكم؟ قال حواري عيسى وسئلت الرافضة من شر أهل ملتكم؟ فقالوا أصحاب محمد رسول الله ﷺ أمروا أن يستغفروا لهم فسبوهم والسيف مسلول عليهم إلى يوم القيامة لا تقوم لهم راية ولا يثبت لهم قدم ولا تجمع لهم كلمة كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله بسفك دمائهم وتفريق شملهم وإدحاض حجتهم أعاذنا الله وإياكم من الأهواء المضلة.

وروي عن جابر قال قيل لعائشة إن ناساً يتناولون أصحاب رسول الله ﷺ حتى أبا بكر وعمر فقالت وما تعجبون من هذا انقطع عنهم العمل فأحب الله أن لا يقطع عنهم الأجر.

وروي أن ابن عباس سمع رجلاً ينال من أصحاب رسول الله ﷺ فقال له من أمن المهاجرين الأولين أنت؟ قال لا قال أفمن الأنصار أنت؟ قال لا قال فأنا أشهد بأنك لست من التابعين لهم بإحسان قوله عز وجل:

المؤمنين على ثلاثة منازل: المهاجرين والأنصار والتابعين الموصوفين بما ذكر، فمَن لم يكن من التابعين بهذه الصفة كان خارجاً من أقسام المؤمنين. قال ابن أبي ليلى الناس على ثلاثة منازل: المهاجرين، والذين تبوؤا الدار والإيمان، والذين جاؤوا من بعدهم، فاجتهدْ أن لا تكون خارجاً من هذه المنازل. أخبرنا أبو سعيد الشريحي أنا أبو إسحاق الثعلبي أنا عبد الله بن حامد أنا أحمد بن عبد الله بن سليمان ثنا محمد بن عبد الله ثنا ابن نمير ثنا أبي عن إسماعيل بن إبراهيم عن عبد الملك بن عمير عن مسروق عن عائشة رضي الله عنها قالت: أُمرتم بالاستغفار لأصحاب محمد ﷺ، فسببتموهم سمعت نبيّكم ﷺ يقول: «لا تذهب هذه الأمة حتى يلعن آخرها أولها»، وقال مالك بن مغول: قال عامر بن شرحبيل الشعبي: يا مالك تفاضلت اليهود والنصارى على الرافضة بخصلة سئلت اليهود مَن خير أهل ملّتكم، فقالت أصحاب موسى عليه السلام، وسئلت النصارى مَن خير أهل ملّتكم، فقالوا حواري عيسى عليه السلام، وسئلت الرافضة مَن شرّ أهل ملّتكم، فقالوا أصحاب محمد ﷺ أُمروا بالاستغفار لهم فسبّوهم، فالسيف عليهم مسلول إلى يوم القيامة لا تقوم لهم راية ولا يثبت لهم قدم، ولا تجتمع لهم كلمة كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله بسفك دمائهم وتفريق شملهم وإدحاض حجّتهم، أعاذنا الله وإياكم من الأهواء المُضِلّة. قال مالك بن أنس مَن يبغض أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ أو كان في قلبه عليهم غلّ فليس له حق في فيء المسلمين، ثم تلا: ﴿ ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى ﴾ [الحشر: ٨ و٩]، حتى أتى على هذه الآية: ﴿ للفقراء المهاجرين والذين تبوؤا الدار والإيمان والذين جاؤوا من بعدهم ﴾ [الحشر: ٨ و٩]، إلى قوله: ﴿ **رؤوف رحيم** ﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١١) لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ (١٢)﴾

﴿ألم تر إلى الذين نافقوا﴾ يعني أظهروا خلاف ما أضمروا وهم عبد الله بن أبيّ ابن سلول وأصحابه ﴿يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب﴾ يعني اليهود من بني قريظة وبني النضير وإنما جعل المنافقين إخوانهم لأنهم كفار مثلهم ﴿لئن أخرجتم﴾ أي من المدينة ﴿لنخرجن معكم﴾ أي منها ﴿ولا نطيع فيكم أحداً أبداً﴾ يعني إن سألنا أحد خلافكم وخذلانكم فلا نطيعه فيكم ﴿وإن قوتلتم لننصرنكم﴾ أي لنعيننكم ولنقاتلن معكم﴾ ﴿والله يشهد إنهم﴾ يعني المنافقين ﴿لكاذبون﴾ أي فيما قالوا ووعدوا ثم أخبر الله عن حال المنافقين فقال تعالى: ﴿لئن أخرجوا لا يخرجون معهم ولئن قوتلوا لا ينصرونهم﴾ وكان الأمر كذلك فإنهم أخرجوا ولم يخرج المنافقون معهم وقوتلوا فلم ينصروهم ﴿لئن نصروهم ليولن الأدبار﴾ يعني لو قدروا نصرهم أو لو قصدوا نصر اليهود لولوا الأدبار منهزمين ﴿ثم لا ينصرون﴾ يعني بني النضير لا يصيرون منصورين إذا انهزم ناصروهم.

﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ (١٣) لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ (١٤) كَمَثَلِ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٥) كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (١٦)﴾

﴿لأنتم﴾ يعني يا معشر المسلمين ﴿أشد رهبة في صدورهم من الله﴾ أصل الرهبة والرهب الخوف الشديد مع حزن واضطراب والمعنى أنهم يرهبون ويخافون منكم أشد من رهبتهم من الله ﴿ذلك﴾ أي الخوف منكم ﴿بأنهم قوم لا يفقهون﴾ يعني عظمة الله تعالى: ﴿لا يقاتلونكم جميعاً إلا في قرى محصنة﴾ أي لا يبرزون لقتالكم إنما يقاتلونكم

قوله عزّ وجلّ: ﴿ ألم ترَ إلى الذين نافقوا ﴾، أي أظهروا خلاف ما أضمروا يعني عبد الله بن أُبيّ بن سلول وأصحابه، ﴿ يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهلِ الكتاب ﴾، وهم اليهود من بني قريظة والنضير جعل المنافقين إخوانهم في الدين، لأنهم كفّار مثلهم. ﴿ لئن أُخرجتم ﴾، من المدينة، ﴿ لنخرجنّ معكم ولا نطيع فيكم أحداً ﴾، يسألنا خذلانكم وخلافكم، ﴿ أبداً وإن قوتلتم لننصرنّكم والله يشهد إنهم ﴾، يعني المنافقين ﴿ لكاذبون ﴾.

﴿ لئن أُخرجوا لا يخرجون معهم ولئن قُوتلوا لا ينصرونهم ﴾، وكان الأمر كذلك، فإنهم أُخرجوا من ديارهم فلم يخرج المنافقون معهم، وقُوتلوا فلم ينصروهم. قوله تعالى: ﴿ ولئن نصروهم ليولنّ الأدبار ﴾، أي لو قدّر وجود نصرهم. قال الزجّاج معناه لو قصدوا نصر اليهود لولّوا الأدبار منهزمين، ﴿ ثم لا ينصرون ﴾، يعني بني النضير لا يصيرون منصورين إذا انهزم ناصرهم.

﴿ لأنتم ﴾، يا معشر المسلمين، ﴿ أشدّ رهبة في صدورهم من الله ﴾، أي يرهبونكم أشدّ من رهبتهم من الله، ﴿ ذلك ﴾، أي ذلك الخوف منكم، ﴿ بأنهم قوم لا يفقهون ﴾، عظمة الله.

متحصنين بالقرى والجدران وهو قوله تعالى: ﴿أو من وراء جدار﴾ وقرىء جدر ﴿بأسهم بينهم شديد﴾ أي بعضهم فظ على بعض أو عداوة بعضهم بعضاً شديدة وقيل بأسهم فيما بينهم من وراء الحيطان والحصون شديد فإذا خرجوا إليكم فهم أجبن خلق الله ﴿تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى﴾ أي متفرقة مختلفة قال قتادة أهل الباطل مختلفة أهواؤهم مختلفة أعمالهم مختلفة شهاداتهم وهم مجتمعون في عداوة أهل الحق وقيل أراد أن دين المنافقين وآراءهم يخالف دين اليهود وآراءهم ﴿ذلك بأنهم قوم لا يعقلون﴾ ثم ضرب لليهود مثلاً فقال تعالى: ﴿كمثل الذين من قبلهم قريباً﴾ يعني مشركي مكة ﴿ذاقوا وبال أمرهم﴾ يعني القتل ببدر وكان ذلك قبل غزوة بني النضير وقال ابن عباس «كمثل الذين من قبلهم» يعني بني قينقاع وقيل مثل قريظة كمثل بني النضير وكان بينهما سنتان ﴿ولهم عذاب أليم﴾ أي في الآخرة ثم ضرب مثلاً آخر للمنافقين واليهود جميعاً في تخاذلهم وتخلي بعضهم عن بعض فقال تعالى ﴿كمثل الشيطان﴾ أي مثل المنافقين مع بني النضير وخذلانهم إياهم كمثل الشيطان ﴿إذ قال للإنسان اكفر﴾ وذلك ما روي عن عطاء وغيره عن ابن عباس قال كان راهب في الفترة يقال له برصيصا تعبد في صومعة له سبعين سنة لم يعص الله فيها طرفة عين وأن إبليس أعياه في أمره الحيل فجمع ذات يوم مردة الشياطين وقال ألا أحد منكم يكفيني أمر برصيصا؟ فقال الأبيض وهو صاحب الأنبياء وهو الذي تصدى للنبي ﷺ وجاء في صورة جبريل ليوسوس إليه على وجه الوحي فلحقه جبريل عليه السلام فدفعه إلى أقصى أرض الهند لإبليس أنا أكفيك أمره فانطلق فتزين بزينة الرهبان وحلق وسط رأسه وأتى صومعة برصيصا فناداه فلم يجبه وكان لا يفتل عن صلاته إلا في كل عشرة أيام ولا يفطر إلا في كل عشرة أيام مرة فلما رأى الأبيض أنه لا يجيبه أقبل على العبادة في أصل الصومعة فلما انفتل برصيصا من صلاته اطلع من صومعته فرأى الأبيض قائماً يصلي في هيئة حسنة على هيئة الرهبان فلما رأى ذلك من حاله ندم في نفسه أي لام نفسه حين لم يجبه فقال له إنك ناديتني وكنت مشتغلاً عنك فما حاجتك قال الأبيض حاجتي أني جئت لأكون معك فأتأدب بأدبك وأقتبس من

﴿ لا يقاتلونكم ﴾، يعني اليهود، ﴿ جميعاً إلّا في قرى محصنة ﴾، أي لا يبرزون لقتالكم إنما يقاتلونكم متحصّنين بالقرى والجدران، وهو قوله: ﴿ أو من وراء جُدر ﴾، قرأ ابن كثير وأبو عمرو ﴿ جدار ﴾ على الواحد، وقرأ الآخرون (جُدر) بضم الجيم والدال على الجمع. ﴿ بأسهم بينهم شديد ﴾، أي بعضهم فظّ على بعض وعداوة بعضهم بعضاً شديدة. وقيل: بأسهم فيما بينهم من وراء الحيطان والحصون شديد، فإذا خرجوا لكم فهم أجبن خلق الله، ﴿ تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتّى ﴾، متفرقة مختلفة، قال قتادة: أهل الباطل مختلفة أهواؤهم مختلفة شهادتهم، مختلفة أعمالهم، وهم مجتمعون في عداوة أهل الحق. وقال مجاهد: أراد أن دين المنافقين يخالف دين اليهود. ﴿ ذلك بأنهم قوم لا يعقلون ﴾.

﴿ كمثل الذين من قبلهم ﴾، يعني مثل هؤلاء اليهود كمثل الذين من قبلهم، ﴿ قريباً ﴾، يعني مشركي مكة، ﴿ ذاقوا وبال أمرهم ﴾، يعني القتل ببدر، وكان ذلك قبل غزوة بني النضير، قاله مجاهد. وقال ابن عباس: كمثل الذين من قبلهم يعني بني قينقاع. وقيل: مثل قريظة كمثل بني النضير وكان بينهما سنتان. ﴿ ولهم عذاب أليم ﴾، ثم ضرب مثلاً للمنافقين واليهود جميعاً في تخادعهم.

فقال: ﴿ كمثل الشيطان ﴾، أي مثل المنافقين في غرورهم بني النضير وخذلانهم كمثل الشيطان، ﴿ إذْ قال للإنسان اكفرْ فلما كفرَ قال إني بريء منك ﴾، وذلك ما روى عطاء وغيره عن ابن عباس قال: كان راهب في الفترة يقال له برصيصاً تعبّد في صومعة له سبعين سنة لم يعصَ الله فيها طرفة عين، وإن إبليس أعياه في أمره الحيل، فجمع ذات يوم مَرَدَة الشياطين فقال ألا أجد أحداً منكم يكفيني أمر برصيصا؟ فقال الأبيض وهو صاحب الأنبياء وهو الذي تصدّى للنبي ﷺ، وجاءه في صورة جبرائيل ليوسوس إليه على وجه الوحي فدفعه جبرائيل إلى أقصى أرض

عملك ونجتمع على العبادة فتدعو لي وأدعو لك قال برصيصا إني لفي شغل عنك فإن كنت مؤمناً فإن الله سيجعل لك فيما للمؤمنين نصيباً إن استجاب لي ثم أقبل على صلاته وترك الأبيض وأقبل الأبيض يصلي فلم يلتفت إليه برصيصا أربعين يوماً فلما انفتل بعدها رآه قائماً يصلي فلما رأى برصيصا شدة اجتهاد الأبيض قال له ما حاجتك؟ قال حاجتي أن تأذن لي فأرتفع إليك فأذن له فارتفع إليه في صومعته فأقام حولاً يتعبد لا يفطر إلا في كل أربعين يوماً مرة ولا ينفتل عن صلاته إلا كذلك وربما مد إلى الثمانين فلما رأى برصيصا اجتهاده تقاصرت إليه نفسه وأعجبه شأن الأبيض فلما حال الحول قال الأبيض لبرصيصا إني منطلق فإن لي صاحباً غيرك ظننت أنك أشد اجتهاداً مما رأيت وكان يبلغنا عنك غير الذي رأيت فدخل من ذلك على برصيصا أمر شديد وكره مفارقته لما رأى من كثرة اجتهاد ولما ودعه الأبيض قال له إن عندي دعوات أعلمكها تدعو بهن فهو خير لك مما أنت فيه يشفي الله بها السقم ويعافي بها المبتلى والمجنون قال برصيصا أنا أكره هذه المنزلة لأن لي في نفسي شغلاً وإني أخاف إن علم الناس شغلوني عن العبادة فلم يزل به الأبيض حتى علمه ثم انطلق حتى أتى إبليس فقال قد والله أهلكت الرجل فانطلق الأبيض فتعرض لرجل فخنقه ثم جاء في صورة رجل متطبب فقال لأهله إن بصاحبكم جنوناً أفأعالجه؟ قالوا نعم فعالجه فلم يفد فقال لهم إني لا أقوى على جنته ولكن سأرشدكم إلى من يدعو الله فيعافيه انطلقوا إلى برصيصا فإن عنده الاسم الذي إذا دعا به أجيب قال انطلقوا إليه فسألوه ذلك فدعا بتلك الكلمات فذهب عنه الشيطان فكان الأبيض يفعل ذلك بالناس ويرشدهم إلى برصيصا فيدعو لهم فيعافون فانطلق الأبيض فتعرض لجارية من بنات ملوك بني إسرائيل ولها ثلاثة إخوة وكان أبوهم هو الملك فلما مات استخلف أخاه فكان عم تلك الجارية ملك بني إسرائيل فخنقها وعذبها، ثم جاء إليهم كما كان يأتي الناس في صورة متطبب فقال لهم أعالجها؟ قالوا نعم فقال إن الذي عرض لها مارد لا يطاق ولكن سأرشدكم إلى من تثقون به تدعونها عنده فإذا جاء شيطانها دعا لها فإذا علمتم أنها قد عوفيت تردونها صحيحة قالوا ومن هو؟ قال برصيصا قالوا

الهند، فقال الأبيض لإبليس أنا أكفيك أمره، فانطلق فتزيّن بزينة الرهبان وحلق وسط رأسه وأتى صومعة برصيصا فناداه فلم يجبه، وكان لا ينفتل عن صلاته إلاّ في كل عشرة أيام ولا يفطر إلاّ في عشرة أيام مرة، فلما رأى الأبيض أنه لا يُجيبه أقبل على العبادة في أصل صومعته، فلما انفتل برصيصاً اطّلع من صومعته فرأى الأبيض قائماً يصلّي في هيئة حسنة من هيئة الرهبان، فلما رأى ذلك من حاله ندم في نفسه حين لم يجبه، فقال له: إنك ناديتني وكنت مشتغلاً عنك، فما حاجتك؟ قال: حاجتي أني أحببت أن أكون معك، فأتأدب بك وأقتبس من عملك وعلمك، ونجتمع على العبادة فتدعو لي وأدعو لك، فقال برصيصاً: إني لفي شغل عنك فإن كنت مؤمناً فإن الله سيجعل لك فيما أدعو للمؤمنين نصيباً إن استجاب لي، ثم أقبل على صلاته وترك الأبيض، وأقبل الأبيض يصلّي فلم يلتفت إليه برصيصاً أربعين يوماً بعدها، فلما انفتل رآه قائماً يصلّي فلما رأى برصيصاً شدّة اجتهاده قال له: ما حاجتك؟ قال: حاجتي أن تأذن لي فأرتفع إليك فأذِنَ له فارتفع إليه في صومعته، فأقام معه حولاً يتعبّد لا يفطر إلاّ في كل أربعين يوماً ولا ينفتل عن صلاته إلاّ في كل أربعين يوماً مرة، وربما مدّ إلى الثمانين، فلما رأى برصيصاً اجتهاده تقاصرت إليه نفسه وأعجبه شأن الأبيض، فلما حال الحَوْل قال الأبيض لبرصيصاً: إني منطلق فإن لي صاحباً غيرك ظننت أنك أشدّ اجتهاداً مما أرى، وكان يبلغنا عنك غير الذي رأيت، فدخل من ذلك على برصيصاً أمر شديد وكره مفارقته للذي رأى من شدّة اجتهاده، فلما ودّعه قال له الأبيض: إن عندي دعوات أُعلِّمكها تدعونهنّ فهنّ خير مما أنت فيه يشفي الله بها السقيم ويعافي بها المبتلي والمجنون، قال برصيصاً: إني أكره هذه المنزلة لأن لي في نفسي شغلاً وإني أخاف إن علم به الناس شغلوني عن العبادة، فلم يـزل به الأبيض حتى علمه، ثم انطلق حتى أتى إبليس فقال قد والله أهلكت الرجل، قال: فانطلق الأبيض فتعرّض لرجل فخنقه ثم جاء في صورة رجل متطبّب فقال

وكيف لنا أن يجـيبنا إلى هذا وهو أعظم شأناً من ذلك قال فانطلقوا فابنوا صومعة إلى جنب صومعته حتى تشرف عليه فإن قبلها وإلا فضعوها في صومعتها وقولوا له هذه أمانة عندك فاحتسب أمانتك قال فانطلقوا فسألوه ذلك فأبى عليهم فبنوا صومعة على ما أمرهم الأبيض ثم انطلقوا فوضعوا الجارية في صومعتها وقالوا يا برصيصا هذه أختنا أمانة عندك فاحتسب فيها ثم انصرفوا فلما انفتل برصيصا عن صلاته حتى عاين الجارية وما هي عليه من الجمال فوقعت في قلبه ودخل عليه أمر عظيم فجاءها الشيطان فخنقها فدعا برصيصا بتلك الدعوات فذهب الشيطان عنها ثم أقبل برصيصا على صلاته فجاءها الشيطان فخنقها فكانت تكشف عن نفسها وتتعرض لبرصيصا فجاءه الشيطان وقال له ويحك واقعها فلم تجد مثلها وستتوب بعد ذلك فتدرك ما تريد من الأمر فلم يزل به حتى واقعها فلم يزل كذلك يأتيها حتى حملت وظهر حملها فقال له الشيطان ويحك يا برصيصا قد افتضحت فهل لك أن تقتلها وتتوب؟ فإن سألوك فقل ذهب بها شيطانها فلم أقف عليه فقتلها ثم انطلق بها فدفنها إلى جانب الجبل فجاء الشيطان وهو يدفنها بالليل فأخذ بطرف إزارها فبقي خارجاً من التراب ثم رجـع برصيصا إلى صومعته وأقبل على صلاته إذ جاء إخوتها يتعاهدون أختهم وكانوا يجيئون في بعض الأيام يسألون عنها ويوصونه بها فقالوا يا برصيصا ما فعلت أختنا قال قد جاء شيطانها فذهب بها ولم أطقه فصدقوه وانصرفوا فلما أمسوا وهم مكروبون جاء الشيطان إلى أكبرهم في منامه فقال ويحك إن برصيصا فعل بأختك كذا وكذا وإنه دفنها في موضع كذا وكذا فقال هذا حلم وهو من الشيطان إن برصيصا خير من ذلك فتتابع

لأهله إن بصاحبكم جنوناً أفأُعالجه؟ قالوا: نعم، فقال لهم: إني لا أقوى على جِنّته ولكن سأُرشدكم إلى مَن يدعو الله فيعافيه، انطلقوا إلى برصيصاً فإن عنده الاسم الأعظم الذي إذا دعا به أُجيب، فانطلقوا إليه فسألوه ذلك فدعا بتلك الكلمات فذهب عنه الشيطان، فكان الأبيض يفعل ذلك بالناس ويرشدهم إلى برصيصاً، فيدعو فيُعافَون، فانطلق الأبيض فتعرّض لجارية من بنات ملوك بني إسرائيل بين ثلاثة إخوة وكان أبوهم ملكهم، فمات واستخلف أخاه فكان عمّها ملك بني إسرائيل، فعذّبها وخنقها ثم جاء إليهم في صورة متطبّب فقال لهم: أتريدون أن أُعالجها؟ قالوا: نعم، قال: إن الذي عرض لها مارد لا يُطاق، ولكن سأُرشدكم إلى رجل تنفعون به تدعونها عنده إذا جاء شيطانها دعا لها حتى تعلموا أنها قد عُوفِيَت وتردّونها صحيحة، قالوا: ومَن هو؟ قال: برصيصاً، قالوا: وكيف لنا أن يجيبنا إلى هذا وهو أعظم شأناً من ذلك؟ قال: فانطلقوا فابنوا صومعة إلى جانب صومعته حتى تشرفوا عليه، فإن قبلها وإلا فضعوها في صومعته، ثم قولوا له هي أمانة عندك، فاحتسب فيها، قال: فانطلقوا إليه فسألوه فأبى عليهم، فبنوا صومعة على ما أمرهم الأبيض ووضعوا الجارية في صومعته، وقالوا هذه أُختنا أمانة فاحتسب فيها، ثم انصرفوا فلما انفتل برصيصاً عن صلاته عاين الجارية وما بها من الحُسْن والجمال، فوقعت في قلبه ودخل عليه أمر عظيم، ثم أقبل في صلاته فجاءها الشيطان فخنقها فدعا برصيصاً بتلك الدعوات فذهب عنها الشيطان، ثم أقبل على صلاته فجاءها الشيطان فخنقها فدعا برصيصاً بتلك الدعوات، ثم أقبل على صلاته فجاءها الشيطان فخنقها، وكانت تكشف عن نفسها، فجاءه الشيطان وقال واقعها فستتوب بعد ذلك والله تعالى غفّار للذنوب والخطايا، فتدرك ما تريد من الأمر، فلم يزل به حتى واقعها فلم يزل على ذلك يأتيها حتى حملت وظهر حملها، فقال له الشيطان: ويحك يا برصيصاً قد افتضحت فهل لك أن تقتلها وتتوب، فإن سألوك فقل ذهب بها شيطانها فلم أقدر عليه، فدخل فقتلها ثم انطلق بها فدفنها إلى جانب الجبل فجاء الشيطان وهو يدفنها ليلاً فأخذ بطرف إزارها فبقي طرف خارجاً من التراب، ثم رجع برصيصاً إلى صومعته فأقبل على صلاته إذ جاء إخوتها يتعاهدون أُختهم وكانوا يجيئون في بعض الأيام يسألون عنها ويوصونه بها، فقالوا: يا برصيصاً ما فعلت أُختنا؟ قال قد جاء شيطانها فذهب بها ولم أطقه فصدّقوه وانصرفوا، فلما أمسوا وهم مكروبون جاء الشيطان إلى أكبرهم في منامه فقال ويحك إن برصيصاً فعل

عليه ثلاث ليال فلم يكترث به فانطلق الشيطان إلى أوسطهم فقال الأوسط مثل ما قال الأكبر ولم يخبر به أحداً فانطلق إلى أصغرهم بمثل ذلك قال الأصغر لأخويه والله لقد رأيت كذا وكذا فقال الأوسط أنا والله قد رأيت مثله فقال الأكبر أنا والله قد رأيت مثله فانطلقوا إلى برصيصا فقالوا يا برصيصا ما فعلت أختنا فقال أليس قد أعلمتكم بحالها فكأنكم قد اتهمتموني فقالوا لا والله لا نتهمك واستحيوا منه وانصرفوا فجاءهم الشيطان فقال ويحكم إنها لمدفونة في موضع كذا وكذا وإن طرف إزارها خرج من التراب فانطلقوا فرأوا أختهم على ما رأوه في النوم فمشوا في مواليهم وغلمانهم معهم الفؤوس والمساحي فهدموا صومعة برصيصا وأنزلوه منها وكتفوه ثم انطلقوا به للملك فأقر على نفسه وذلك أن الشيطان أتاه فوسوس له فقال له تقتلها ثم تكابر يجتمع عليك أمران قتل ومكابرة اعترف فلما اعترف أمر الملك بقتله وصلبه على خشبة فلما صلب أتاه الأبيض فقال يا برصيصا أتعرفني؟ قال لا فقال أنا صاحبك الذي علمتك الدعوات وكنت إذا دعوت بهن يستجاب لك ويحك ما اتقيت الله في أمانتك خنت أهلها وإنك زعمت أنك أعبد بني إسرائيل أما استحيت فلم يزل يعيره ويعنفه حتى قال في آخر ذلك ألم يكفك ما صنعت حتى أقررت على نفسك وفضحت أشباهك من الناس وفضحت نفسك فإن مت على هذه الحالة لن تفلح أبداً ولن يفلح أحد من نظرائك قال فكيف أصنع؟ قال تطيعني في خصلة واحدة حتى أخلصك مما أنت فيه فآخذ بأعينهم وأخرجك من مكانك قال وما هي؟ قال تسجد لي قال ما أستطيع أفعل قال بطرفك افعل فسجد له برصيصا فقال يا برصيصا هذا الذي أردت منك صارت عاقبة أمرك إلى أن كفرت بربك، ﴿فلما كفر قال إني بريء منك إني أخاف الله رب العالمين﴾ قال الله تعالى:

﴿فَكَانَ عَـٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَـٰلِدَيْنِ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٧﴾﴾

﴿فكان عاقبتهما﴾ يعني الشيطان وذلك الإنسان ﴿أنهما في النار خالدين فيها وذلك جزاء الظالمين﴾ قال ابن

بأُختك كذا وكذا وإنه خاف منكم فقتلها ودفنها في موضع كذا وكذا فقال الأخ في نفسه هذا حلم وهو من عمل الشيطان، فإن برصيصاً خير من ذلك، قال فتتابع عليه ثلاث ليالٍ فلام يكترث، فانطلق إلى الأوسط بمثل ذلك فقال الأوسط مثل ما قاله الأكبر فلم يخبر أحداً فانطلق إلى أصغرهم بمثل ذلك فقال أصغرهم لأخويه والله لقد رأيت كذا وكذا، وقال الأوسط وأنا والله قد رأيت مثله، وقال الأكبر وأنا رأيت مثله، فانطلقوا إلى برصيصاً وقالوا: يا برصيصاً ما فعلت أُختنا؟ قال: أليس قد أعلمتكم بحالها فكأنكم اتهمتموني، فقالوا: والله لا نتّهمك واستحيوا منه فانصرفوا، فجاءهم الشيطان فقال: ويحكم إنها لمدفونة في موضع كذا وإن طرف إزارها خارج من التراب فانطلقوا فرأوا أُختهم على ما رأوا في النوم، فمشوا في مواليهم وغلمانهم ومعهم الفؤوس والمساحي فهدموا صومعته وأنزلوه ثم كتّفوه فانطلقوا به إلى الملك فأقرّ على نفسه، وذلك أن الشيطان أتاه فقال تقتلها ثم تكابر يجتمع عليك أمران قتل ومكابرة اعترف، فلما اعترف أمر الملك بقتله وصلبه على خشبة، فلما صُلِبَ أتاه الأبيض فقال: يا برصيصاً أتعرفني؟ قال: لا، قال: أنا صاحبك الذي علّمتك الدعوات فاستُجيب لك ويحك ما اتّقيت الله في أمانتك خنت أهلها وإنك زعمت أنك أعبد بني إسرائيل، أما استحييت، فلم يزل يعيّره، ثم قال في آخر ذلك ألم يكفِك ما صنعت حتى أقررت على نفسك وفضحت نفسك وفضحت أشباهك من الناس، فإن متّ على هذه الحالة لم يفلح أحد من نظرائك، قال: فكيف أصنع قال تطيعني في خصلة واحدة حتى أُنجيك مما أنت فيه فآخذ بأعينهم فأُخرجك من مكانك؟ قال: وما هي قال تسجد لي، قال ما أستطيع أفعل، قال: «بطرفك افعل فسجد له فقال يا برصيصاً هذا الذي كنت أردت منك صارت عاقبة أمرك إلى أن كفرت بربّك إني بريء منك ﴿ إني أخاف الله ربّ العالمين ﴾».

يقول الله تعالى: ﴿ فكان عاقبتهما ﴾، يعني الشيطان وذلك الإنسان ﴿ أنهما في النار خالدين فيها وذلك

عباس ضرب الله هذا المثل ليهود بني النضير والمنافقين من أهل المدينة وذلك أن الله تعالى أمر نبيه ﷺ بإجلاء بني النضير فدس المنافقون إلى اليهود وقالوا لا تجيبوا محمداً إلى ما دعاكم ولا تخرجوا من دياركم فإن قاتلكم فإنا معكم وإن أخرجكم خرجنا معكم فأجابوهم ودربوا على حصونهم وتحصنوا في ديارهم رجاء نصر المنافقين فخذلوهم وتبرؤوا منهم كما تبرأ الشيطان من برصيصا وخذله فكان عاقبة الفريقين النار قال ابن عباس فكان الرهبان بعد ذلك لا يمشون في بني إسرائيل إلا بالتقية والكتمان وطمع أهل الفسق والفجور في الأحبار ورموهم بالبهتان والقبيح حتى كان من أمر جريج الراهب ما كان فلما برأه الله مما رموه به من الزنا انبسطت الرهبان بعده وظهروا للناس وكانت قصة جريج على ما روي عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال «لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة عيسى ابن مريم وصاحب جريج وصاحب يوسف وكان جريج رجلاً صالحاً عابداً فاتخذ صومعة فكان فيها فأتته أمه وهو يصلي فيها فقالت يا جريج فقال يا رب أمي وصلاتي فأقبل على صلاته فانصرفت فلما كان من الغد أتته فقالت يا جريج فقال يا رب أمي وصلاتي فأقبل على صلاته فانصرفت فلما كان من الغد أتته فقالت يا جريج فقال يا رب أمي وصلاتي فأقبل على صلاته فقالت اللهم لا تمته حتى ينظر في وجوه المومسات فتذاكر بنو إسرائيل جريجاً وعبادته وكانت امرأة بغي يتمثل بحسنها معهم، فقالت إن شئتم لأفتننه لكم قال فتعرضت له فلم يلتفت إليها فأتت راعياً كان يأوي إلى صومعته فأمكنته من نفسها فوقع عليها فحملت فلما ولدت قالت هو من جريج فأتوه فاستنزلوه وهدموا صومعته وجعلوا يضربونه فقال ما شأنكم فقالوا زنيت بهذه البغي فولدت منك فقال أين الصبي فجاؤوا فقال دعوني حتى أصلي فصلى؟ فلما انصرف أتى الصبي فطعن في بطنه وقال يا غلام من أبوك قال فلان الراعي قال فأقبلوا على جريج يقبلونه ويتمسحون به وقالوا له نبني لك صومعتك من ذهب قال أعيدوها من طين كما كانت ففعلوا وبينا صبي يرضع من أمه

جزاء الظالمين ﴾، قال ابن عباس ضرب الله هذا المثل ليهود بني النضير والمنافقين من أهل المدينة، وذلك أن الله عزّ وجلّ أمر نبيّه ﷺ بإجلاء بني النضير عن المدينة فدسّ المنافقون إليهم، وقالوا: لا تجيبوا محمداً إلى ما دعاكم ولا تخرجوا من دياركم فإن قاتلكم فإنّا معكم وإن أخرجكم خرجنا معكم، فأجابوهم ودُرِّبوا على حصونهم وتحصّنوا في ديارهم رجاء نصر المنافقين، حتى جاءهم النبي ﷺ فناصبوه الحرب يرجون نصر المنافقين، فخذلوهم وتبرؤوا منهم كما تبرأ الشيطان من برصيصاً وخذله، فكان عاقبة الفريقين النار. قال ابن عباس رضي الله عنه: فكان الرهبان بعد ذلك في بني إسرائيل لا يمشون إلّا بالتّقية والكتمان، وطمع أهل الفسوق والفجور في الأحبار ورموهم بالبهتان والقبيح حتى كان أمر جريج الراهب، فلما برّأه الله مما رموا به انبسطت بعده الرهبان وظهروا للناس، وكانت قصة جريج على ما أخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر أنا عبد الغافر بن محمد ثنا محمد بن عيسى الجلودي ثنا إبراهيم بن محمد بن سفيان ثنا مسلم بن الحجّاج حدّثني زهير بن حرب ثنا يزيد بن هارون أنا جرير بن حازم ثنا محمد بن سيرين عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «لم يتكلم في المهد إلّا ثلاثة عيسي ابن مريم عليه السلام وصاحب جريج وصاحب يوسف وكان جريج رجلاً عابداً فاتخذ صومعة فكان فيها فأتته أمه وهو يصلّي فقالت: يا جريج، فقال: يا رب أمي وصلاتي فأقبل على صلاته، فانصرفت فلما كان من الغد أتته وهو يصلّي، فقالت: يا جريج، فقال: أيْ ربّ أمي وصلاتي؟ فأقبل على صلاته، فقالت اللّهمّ لا تُمِتْه حتى ينظر إلى وجوه المومسات، فتذاكر بنو إسرائيل جريجاً وعبادته وكانت امرأة بغي يتمثّل بحُسْنها، فقالت: إن شئتم لأفتننه لكم قال فتعرّضت له فلم يلتفت إليها، فأتت راعياً كان يأوي إلى صومعته فأمكنته من نفسها فوقع عليها فحملت فلما ولدت قالت: هو من جريج، فأتوه فاستنزلوه من صومعته وهدموا صومعته وجعلوا يضربونه، فقال: ما شأنكم؟ قالوا: زنيت بهذه البغية فولدت منك، فقال: أين الصبي؟ فجاؤوا به، فقال دعوني حتى أُصلّي فصلّى فلما انصرف أتى الصبي وطعن في بطنه

فمر رجل راكب على دابة فارهة ذو شارة حسنة فقالت أمه اللهم اجعل ابني مثل هذا فترك الثدي وأقبل عليه فنظر إليه فقال اللهم لا تجعلني مثل هذا ثم أقبل على ثديه فجعل يرضع قال فكأني أنظر إلى رسول الله ﷺ وهو يحكي ارتضاعه بأصبعه السبابة في فيه فجعل يمصها قال ومر بجارية وهم يضربونها ويقولون زنيت وسرقت وهي تقول حسبي الله ونعم الوكيل فقالت أمه اللهم لا تجعل ابني مثلها فترك الرضاع ونظر إليها فقالت اللهم اجعلني مثلها فهنالك تراجعا الحديث، فقالت مر رجل حسن الهيئة فقالت اللهم اجعل إبني مثله فقلت اللهم لا تجعلني مثله ومروا بهذه الأمة وهم يضربونها ويقولون زنيت وسرقت فقلت اللهم لا تجعل ابني مثلها فقلت اللهم اجعلني مثلها فقال إن ذلك الرجل كان جباراً فقلت اللهم لا تجعلني مثله وإن هذه يقولون لها زنيت ولم تزن وسرقت ولم تسرق فقلت اللهم اجعلني مثلها» أخرجه مسلم بتمامه وهذا لفظه وأخرجه البخاري مفرقاً حديث جريج تعليقاً وحديث المرأة وابنها خاصة.

المومسات الزواني جمع مومسة وهي المرأة الفاجرة والبغي الزانية أيضاً وقوله يتمثل بحسنها أي يتعجب منه ويضرب به المثل وقوله ذو شارة حسنة أي صاحب جمال ظاهر في الهيئة والملبس والمركب ونحو ذلك والجبار العاتي المتكبر القاهر للناس.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١٩﴾ لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾ لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد**﴾ أي لينظر أحدكم إلى شيء قدم لنفسه من الأعمال عملاً صالحاً ينجيه أم سيئاً يوبقه والمراد بالغد يوم القيامة وقربه على الناس كان يوم القيامة يأتي غداً وكل ما

وقال: يا غلام مَن أبوك؟ قال: فلان الراعي، قال فأقبلوا على جريح يقبّلونه ويتمسّحون به، وقالوا نبني لك صومعتك من ذهب، قال: لا أعيدوها من طين كما كانت، ففعلوا. وبينا صبي يرضع من أمه فمرّ رجل راكب على دابّة فارهة وشارة حسنة فقالت أُمه اللّهمّ اجعل ابني مثل هذا فترك الثدي وأقبل عليه ونظر إليه فقال اللّهمّ لا تجعلني مثله، ثم أقبل على ثديه فجعل يرضع، قال فكأني أنظر إلى رسول الله ﷺ وهو يحكي ارتضاعه بأصبعه السبّابة في فمه، فجعل يمصّها، قال: ومرّوا بجارية وهم يضربونها ويقولون زنيت وسرقت وهي تقول حسبي الله ونِعْمَ الوكيل، فقالت أُمه اللّهمّ لا تجعل ابني مثلها فترك الرضاع ونظر إليها فقال: اللّهمّ اجعلني مثلها، فهناك تراجعا الحديث، فقالت مرّ رجل حسن الهيئة فقلتُ اللّهمّ اجعل ابني مثله، فقلت: اللّهمّ لا تجعلني مثله، ومرّوا بهذه الأمة وهم يضربونها ويقولون زنيت وسرقت، فقلتُ: اللّهمّ لا تجعل ابني مثلها، فقلت: اللّهمّ اجعلني مثلها، قال: إن ذاك الرجل كان جبّاراً فقلت اللّهمّ لا تجعلني مثله، وإن هذه يقولون لها زنيت ولم تزنِ وسرقتِ ولم تسرق، فقلت اللّهمّ اجعلني مثلها».

قوله عزّ وجلّ: ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظرْ نفسٌ ما قدّمت لغد** ﴾، يعني ليوم القيامة، أي لينظر

هو آت فهو قريب، **﴿واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون﴾** قيل كرر الأمر بالتقوى تأكيداً وقيل معنى الأول اتقوا الله في أداء الواجبات ومعنى الثاني واتقوا الله فلا تأتوا المنهيات **﴿ولا تكونوا كالذين نسوا الله﴾** أي تركوا أمر الله **﴿فأنساهم أنفسهم﴾** أي أنساهم حظوظ أنفسهم حتى لم يقدموا لها خيراً ينفعها وعنده **﴿أولئك هم الفاسقون لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون﴾** لما أرشد المؤمنين إلى ما يصلحهم بقوله «ولتنظر نفس ما قدمت لغد هدد الكافرين بقوله نسوا الله فأنساهم أنفسهم بين الفرق بين الفريقين بقوله لا يستوي أصحاب النار يعني الذين هم في العذاب الدائم وأصحاب الجنة يعني الذين هم في النعيم المقيم ثم أتبعه بقوله أصحاب الجنة هم الفائزون ومعلوم أن من جعل له النعيم المقيم فقد فاز فوزاً عظيماً.

قوله تعالى: **﴿لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله﴾** قيل معناه أنه لو جعل في الجبل تمييزاً وعقلاً كما جعل فيكم وأنزل عليه القرآن لخشع أي تطأطأ وخضع وتشقق وتصدع من خشية الله والمعنى أن الجبل مع صلابته ورزانته مشقق من خشية الله، وحذر من أن لا يؤدي حق الله تعالى في تعظيم القرآن والكافر مستخف بحقه معرض عما فيه من العبر والأحكام كأنه لم يسمعها.

وصفه بقساوة القلب فهو غافل عما يتضمنه القرآن من المواعظ والأمثال والوعيد وتمييز الحق من الباطل والواجب مما لا يجب بأحسن بيان وأوضح برهان ومن وقف على هذا وفهمه أوجب له الخشوع والخشية وهذا تمثيل لأن الجبل لا يتصور منه الخشوع والخشية إلا أن يخلق الله تعالى له تمييزاً وعقلاً يدل على أنه تمثيل.

قوله تعالى: **﴿وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون﴾** أي الغرض من هذا التمثيل التنبيه على فساد قلوب هؤلاء الكفار وقساوتها وغلظ طباعهم.

ولما وصف القرآن بالعظم أتبعه بوصف عظمته فقال تعالى: **﴿هو الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة﴾** يعني أنه تعالى أعلم بما غاب عن العباد مما لم يعاينوه ولم يعلموه وعلم ما شاهدوه وما علموه وقيل استوى في علمه تعالى السر والعلانية والموجود والمعدوم وقيل علم حال الدنيا والآخرة **﴿هو الرحمن الرحيم﴾** اسمان مشتقان اشتقاقهما من الرحمة وهما صفتان لله تعالى ومعناهما ذو الرحة ورحمة الله إرادته الخير والنعمة والإحسان إلى خلقه وقيل إن الرحمن أشد مبالغة من الرحيم ولهذا قيل هو رحمن الدنيا ورحيم الآخرة لأن إحسانه تعالى في الدنيا يعم المؤمن والكافر وفي الآخرة يختص إحسانه وإنعامه بالمؤمنين **﴿هو الله الذي لا إله إلا هو الملك﴾** أي المتصرف بالأمر والنهي في جميع خلقه المالك لهم فهم تحت ملكه وقهره وإرادته **﴿القدوس﴾** أي الطاهر عن كل عيب المنزه عما لا يليق به وقيل هو الذي كثرت بركته **﴿السلام﴾** أي الذي سلم من النقائص وكل آفة تلحق الخلق.

أحدكم أيّ شيء قدّم لنفسه عملاً صالحاً يُنجيه أم سيئاً يوبقه، **﴿ واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون ﴾**.

﴿ ولا تكونوا كالذين نسوا الله ﴾، تركوا أمر الله، **﴿ فأنساهم أنفسهم ﴾**، أي حظوظ أنفسهم حتى لم يقدّموا لها خيراً، **﴿ أولئك هم الفاسقون ﴾**.

﴿ لا يستوي أصحابُ النار وأصحابُ الجنة أصحابُ الجنة هم الفائزون ﴾.

قوله عزّ وجلّ: **﴿ لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدّعاً من خشية الله ﴾**، قيل: لو جعل في الجبل تمييز وأنزل عليه القرآن لخشع وتشقّق وتصدّع من خشية الله مع صلابته ورزانته، حذراً من أن لا يؤدّي حق الله عزّ وجلّ في تعظيم القرآن، والكافر يعرض عمّا فيه من العِبَر كأن لم يسمعها، يصفه بقساوة القلب، **﴿ وتلك الأمثال نضربها للناس لعلّهم يتفكّرون ﴾**.

فإن قلت على هذا التفسير لا يبقى بين القدوس والسلام فرق فيكون كالتكرار وذلك لا يليق بفصاحة القرآن.

قلت الفرق بينهما أن القدوس إشارة إلى براءته عن جميع العيوب والنقائص في الماضي والحاضر والسلام إشارة إلى أنه لا يطرأ عليه شيء من العيوب والنقائص في المستقبل فإن الذي يطرأ عليه شيء من ذلك تزول سلامته ولا يبقى سليماً، وقيل السلام أي سلم خلقه ممن ظلمه، ﴿المؤمن﴾ قال ابن عباس هو الذي أمن الناس من ظلمه وأمن من آمن به من عذابه وقيل هو المصدق لرسله بإظهار المعجزات لهم والمصدق للمؤمنين بما وعدهم من الثواب وبما أوعد الكافرين من العذاب ﴿المهيمن﴾ قال ابن عباس أي الشهيد على عباده بأعمالهم الذي لا يغيب عنه شيء وقيل هو القائم على خلقه برزقه وأنشد في معناه:

ألا إن خيـــر النـــاس بعـــد نبيـــه ... مهيمنـــه التـاليـــه فـــي العـــرب والنكـــر

أي القائم على الناس بعده وقيل هو الرقيب الحافظ، وقيل هو المصدق وقيل هو القاضي وقيل هو بمعنى الأمين والمؤتمن وقيل بمعنى العلي ومنه قول العباس يمدح النبي ﷺ في أبيات منها:

حتـــى احتـــوى بينـــك المهيمـــن مـــن ... خنـــدف عليـــاً زانهـــا النطـــق

وقيل: المهيمن اسم من أسماء الله تعالى هو أعلم بتأويله وأنشدوا في معناه:

جـــل المهيمـــن عـــن صفـــات عبيـــده ... ولقـــد تعـــالـــى عـــن عقـــول أولـــي النهـــى
رامـــوا بـــزعمهـــم صفـــات مليكهـــم ... والـــوصـــف يعجـــز عـــن مليـــك لا يـــرى

﴿العزيز﴾ أي الذي لا يوجد له نظير وقيل الغالب القاهر ﴿الجبار﴾ قال ابن عباس الجبار هو العظيم وجبروت الله عظمته فعلى هذا هو صفة ذات وقيل هو من الجبر يعني الذي يغني الفقير ويجبر الكسير فعلى هذا هو صفة فعل وهو سبحانه وتعالى كذلك يجبر كل كسير ويغني كل فقير وقيل هو الذي يجبر الخلق ويقهرهم على ما أراد: وسئل بعضهم عن معنى الجبار فقال هو القهار الذي إذا أراد أمراً فعله لا يحجزه عنه حاجز وقيل الجبار هو الذي لا ينال ولا يداني والجبار في صفة الله تعالى صفة مدح وفي صفة الناس صفة ذم وكذلك ﴿المتكبر﴾ في صفة الناس صفة ذم لأن المتكبر هو الذي يظهر من نفسه الكبر وذلك نقص في حقه لأنه ليس له كبر ولا علو بل له الحقارة والذلة فإذا أظهر الكبر كان كذاباً في فعله فكان مذموماً في حق الناس وأما المتكبر في صفة الله تعالى فهو صفة مدح لأن له جميع

﴿ هو الله الذي لا إله إلّا هو عالم الغيب والشهادة ﴾ الغيب ما غاب عن العباد مما لم يعاينوه ولم يعلموه، والشهادة ما شاهدوه وما علموه، ﴿ هو الرحمن الرحيم ﴾.

﴿ هو الله الذي لا إله إلّا هو الملك القدّوس ﴾، الطاهر من كل عيب المنزّه عمّا لا يليق به، ﴿ السلام ﴾، الذي سَلِمَ من النقائص، ﴿ المؤمن ﴾، قال ابن عباس: هو الذي أمِنَ الناس من ظلمه وأمِنَ مَن آمن به من عذابه، هو من الأمان الذي هو ضدّ التخويف كما قال: ﴿ وآمنهم من خوف ﴾ [قريش: ٤]، وقيل: معناه الصدق لرسله بإظهار المعجزات، والمصدِّق للمؤمنين بما وعدهم من الثواب، وللكافرين بما أوعدهم من العقاب. ﴿ المهيمن ﴾، الشهيد على عباده بأعمالهم، وهو قول ابن عباس ومجاهد وقتادة والسدي ومقاتل، يقال: هيمن يهيمن فهو مهيمن إذا كان رقيباً على الشيء، وقيل: هو في الأصل مؤيمن قلبت الهمزة هاء، كقولهم أرقت وهرقت، ومعناه المؤمن، وقال الحسن: الأمين. وقال الخليل: هو الرقيب الحافظ. وقال ابن زيد: المصدّق. وقال سعيد بن المسيب والضحّاك: القاضي. وقال ابن كيسان: هو اسم من أسماء الله تعالى في الكتب والله أعلم بتأويله. ﴿ العزيز الجبّار ﴾، قال ابن عباس: الجبّار هو العظيم، وجبروت الله عظمته، وهو على هذا القول صفة ذات الله،

صفات العلو والعظمة ولهذا قال في آخر الآية ﴿سبحان الله عما يشركون﴾ كأنه قيل إن بعض الخلق يتكبر فيكون ذلك نقصاً في حقه أما الله تعالى فله العلو والعظمة والعزة والكبرياء فإن أظهر ذلك كان ضم كمال إلى كمال قال ابن عباس المتكبر هو الذي تكبر بربوبيته فلا شيء مثله وقيل هو الذي تكبر عن كل سوء وقيل هو المتعظم عما لا يليق بجماله وجلاله وقيل هو المتكبر عن ظلم عباده وقيل الكبر والكبرياء الامتناع، وقيل هو ذو الكبرياء وهو الملك سبحان الله عما يشركون أي من ادعاء الكبر لأنفسهم.

هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾

﴿هو الله الخالق﴾ أي المقدر لما يوجده فهو سبحانه وتعالى قدر أفعاله على وجوه مخصوصة فهو راجع إلى الإرادة، وقيل المقدر لقلب الشيء بالتدبير إلى غيره ﴿البارىء﴾ أي المخترع المنشىء للأعيان من العدم إلى الوجود ﴿المصور﴾ أي الذي يخلق صورة الخلق على ما يريده وقيل معناه الممثل للمخلوقات بالعلامات التي يتميز بعضها عن بعض وقيل الخالق المبدىء للخلق المخترع له على غير مثال سبق البارىء المنشىء لما يريد بخلقه فيظهره من العدم إلى الوجود المصور لما خلقه وأنشأه على صور مختلفة وأشكال متباينة وقيل معنى التصوير التخطيط والتشكيل فأولاً يكون خلقاً ثم برءاً ثم تصويراً وإنما قدم الخالق على البارىء لأن تأثير الإرادة مقدم على تأثير القدرة وقدم البارىء على المصور لأن إيجاد الذات مقدم على إيجاد الصفات ﴿له الأسماء الحسنى يسبح له ما في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم﴾ عن معقل بن يسار رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال «من قال حين يصبح ثلاث مرات أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم وقرأ الثلاث الآيات من آخر سورة الحشر وكل به سبعين ألف ملك يصلون عليه حتى يمسي فإن مات في ذلك اليوم مات شهيداً ومن قالها حين يمسي كان كذلك» أخرجه الترمذي وقال حديث غريب والله أعلم.

وقيل: هو من الجبر وهو الإصلاح، يقال: جبرت الكسر والأمر، وجبرت العظم إذا أصلحته بعد الكسر، فهو يغني الفقير ويُصلح الكسير. وقال السدي ومقاتل: هو الذي يقهر الناس ويجبرهم على ما أراد. وسأل بعضهم عن بعض عن معنى الجبار فقال: هو القهّار الذي إذا أراد أمراً فعله لا يحجزه عنه حاجز. ﴿ **المتكبّر** ﴾، الذي تكبّر عن كل سوء. وقيل: المتعظّم عمّا لا يليق به وأصل الكبر والكبرياء الامتناع. وقيل: ذو الكبرياء وهو الملك، ﴿ **سبحان الله عمّا يشركون** ﴾.

﴿**هو الله الخالق**﴾، المقدّر والمقلّب للشيء بالتدبير إلى غيره، كما قال يخلقكم في بطون أُمهاتكم خلقاً من بعد خلق، ﴿ **البارىء** ﴾، المنشىء للأعيان من العدم إلى الوجود ﴿ **المصوّر** ﴾، الممثّل للمخلوقات بالعلامات التي يتميّز بعضها عن بعض. يقال: هذه صورة الأمر أي مثاله، فأولاً يكون خلقاً ثم برءاً ثم تصويراً. ﴿ **له الأسماء الحسنى يسبّح له ما في السموٰات والأرض وهو العزيز الحكيم** ﴾، أخبرنا أحمد بن إبراهيم الشريحي أنا أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي أخبرني ابن فنجويه ثنا ابن شيبة ثنا ابن وهب ثنا أحمد بن أبي شريح وأحمد بن منصور الرمادي قالا أنا أبو أحمد الرمادي قالا أنا أبو أحمد الزبيري ثنا خالد بن طهمان حدّثني نافع بن أبي نافع عن معقل بن يسار أن رسول الله ﷺ قال: «مَن قال حين يُصبح ثلاث مرات أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، وقرأ الثلاث الآيات من آخر سورة الحشر وُكّل به سبعين ألف مَلَك يصلّون عليه حتى يُمسي، فإن مات في ذلك اليوم مات شهيداً، ومَن قال حين يُمسي كان بتلك المنزلة» ورواه أبو عيسى عن محمود بن غيلان عن أبي أحمد الزبيري بهذا الإسناد، وقال: هذا حديث غريب لا نعرفه إلّا من هذا الوجه.

سورة الممتحنة

(مدنية وهي ثلاث عشرة آية وثلاثمائة وثمان وأربعون كلمة وألف وخمسمائة وعشرة أحرف)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ ۙ أَن تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى ۚ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ ۚ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١﴾

قوله عز وجل: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء﴾ الآية (ق) عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال «بعثني رسول الله ﷺ أنا والزبير والمقداد فقال انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ فإن بها ظعينة معها كتاب فخذوه منها قال فانطلقنا تتعادى بنا خيلنا حتى أتينا الروضة فإذا نحن بالظعينة فقلنا أخرجي الكتاب فقالت ما معي من كتاب فقلنا لتخرجي الكتاب أو لنلقين الثياب فأخرجته من عقاصها فأتينا به النبي ﷺ فإذا فيه من حاطب بن أبي بلتعة إلى ناس من المشركين من أهل مكة يخبرهم ببعض أمر النبي ﷺ فقال رسول الله ﷺ يا حاطب ما هذا فقال يا رسول الله لا تعجل علي إني كنت امرأ ملصقاً في قريش ولم أكن من أنفسهم وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون بها أهليهم وأموالهم بمكة فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب فيهم أن أتخذ فيهم يداً يحمون بها قرابتي وما فعلته كفراً ولا ارتداداً عن ديني ولا رضا بالكفر بعد الإسلام، فقال رسول الله ﷺ إنه قد صدقكم فقال عمر دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق فقال رسول الله ﷺ إنه قد شهد بدراً وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر فقالوا اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم فأنزل الله عز وجل ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء إلى قوله سواء السبيل﴾

سُورَة المُمْتَحَنَة

مدنيّة وهي ثلاث عشرة آية.

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوّي وعدوّكم أولياء ﴾، الآية أخبرنا عبد الواحد المليحي ثنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا قتيبة بن سعيد ثنا سفيان عن عمرو بن دينار أخبرني الحسن بن محمد أنه سمع عبد الله بن أبي رافع يقول سمعت عليّاً رضي الله عنه يقول: بعثني رسول الله ﷺ أنا والزبير والمقداد فقال: «انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ فإن بها ظعينة معها كتاب فخذوه منها»، قال: فانطلقنا تتعادى بنا خيلنا حتى أتينا الروضة فإذا نحن بالظعينة، فقلنا أخرجي الكتاب، فقالت: ما معي كتاب فقلنا لتخرجنّ الكتاب أو لتلقينّ الثياب، قال: فأخرجته من عقاصها، فأتينا به رسول الله ﷺ فإذا فيه من حاطب بن أبي بلتعة إلى ناس بمكة من المشركين يخبرهم ببعض أمر رسول الله ﷺ، فقال: «يا حاطب ما هذا»؟ قال: يا رسول الله لا تعجل عليّ

روضة خاخ موضع بقرب حمراء الأسد من المدينة وقيل إنه موضع قريب من مكة والأول أصح والظعينة المرأة المسافرة سميت بذلك لملازمتها الهودج والعقاص الشعر المضفور قال المفسرون نزلت هذه الآية في حاطب بن أبي بلتعة كما جاء في الحديث وذلك أن سارة مولاة أبي عمرو بن صيفي بن هاشم بن عبد مناف أتت المدينة من مكة ورسول الله ﷺ يتجهز لفتح مكة فقال لها رسول الله ﷺ أمسلمة جئت؟ قالت لا قال أمهاجرة جئت؟ قالت لا قال فما جاء بك؟ قالت كنتم الأهل والعشيرة والموالي وقد ذهبت موالي وقد احتجت حاجة شديدة فقدمت عليكم لتعطوني وتكسوني وتحملوني فقال لها وأين أنت من شباب مكة وكانت مغنية نائحة قالت ما طلب مني شيء بعد وقعة بدر فحث عليها بني عبد المطلب فأعطوها نفقة وكسوها وحملوها فأتاها حاطب بن أبي بلتعة حليف بني أسد بن عبد العزي فكتب معها إلى أهل مكة وأعطاها عشرة دنانير وكساها برداً على أن توصل الكتاب إلى أهل مكة وكتب في الكتاب من حاطب بن أبي بلتعة إلى أهل مكة إن رسول الله ﷺ يريدكم فخذوا حذركم فخرجت سارة ونزل جبريل عليه السلام فأخبر النبي ﷺ بما فعل فبعث رسول الله ﷺ علياً وعماراً والزبير وطلحة والمقداد بن الأسود وأبا مرثد فرساناً فقال انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ فإن بها ظغينة معها كتاب من حاطب بن أبي بلتعة إلى المشركين فخذوه منها وخلوا سبيلها وإن لم تدفعه لكم فاضربوا عنقها فخرجوا حتى أدركوها في ذلك المكان الذي قال رسول الله ﷺ فقالوا لها أين الكتاب؟ فحلفت بالله ما معها من كتاب فبحثوا وفتشوا متاعها فلم يجدوا معها كتاباً فهموا بالرجوع،

إني كنت امرأً ملصقاً في قريش، يقول كنت حليفاً ولم أكن من أنفسها، وكان مَن معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون بها أهليهم وأموالهم فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب فيهم أن أتخذ عندهم يداً يحمون قرابتي ولم أفعله ارتداداً عن ديني ولا رِضاً بالكفر بعد الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: «أما أنه قد صدقكم»، فقال عمر: يا رسول الله دعني أضرب عنق هذا المنافق، فقال إنه شهد بدراً وما يُدريك لعلّ الله اطّلع على مَن شهد بدراً فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم، فأنزل الله تعالى هذه السورة: ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوّي وعدوّكم أولياء تُلقون إليهم بالمودّة** ﴾ إلى قوله: ﴿ **سواء السبيل** ﴾، قال المفسّرون: نزلت الآية في حاطب بن أبي بلتعة كما جاء في الحديث، وذلك أن سارة مولاة أبي عمرو بن صيفي بن هاشم بن عبد مناف أتت المدينة من مكة، ورسول الله ﷺ يتجهّز لفتح مكة، فقال لها رسول الله ﷺ: «أمسلمة جئت»؟ قالت: لا، قال: «أمهاجرة جئت»؟ قالت: لا، قال: «فما جاء بك»؟ قالت: كنتم الأصل والعشيرة والموالي وقد ذهبت مواليّ وقد احتجت حاجة شديدة فقَدِمت عليكم لتعطوني وتكسوني وتحملوني، فقال لها: «وأين أنت من شبّان مكة»؟ وكانت مغنيّة نائحة، قالت: ما طُلِبَ منّي شيء بعد وقعة بدر، فحثّ رسول الله ﷺ بني عبد المطّلب وبني المطّلب فأعطوها نفقة وكسوها وحملوها، فأتاها حاطب بن أبي بلتعة حليف بني أسد بن عبد العزّى، فكتب معها إلى أهل مكة وأعطاها عشرة دنانير وكساها بُرداً على أن تُوصِل الكتاب إلى أهل مكة، وكتب في الكتاب من حاطب بن أبي بلتعة إلى أهل مكة إن رسول الله ﷺ يريدكم فخذوا حذركم، فخرجت سارة، ونزل جبريل فأخبر النبي ﷺ بما فعل فبعث رسول الله ﷺ عليّاً وعمّاراً والزبير وطلحة والمقداد بن الأسود وأبا مرثد فرساً، فقال لهم: «انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ فإن بها ظعينة معها كتاب من حاطب بن أبي بلتعة إلى المشركين، فخذوه منها وخلّوا سبيلها، وإن لم تدفعه إليكم فاضربوا عنقها»، قال: فخرجوا حتى أدركوها في ذلك المكان الذي قال رسول الله ﷺ، فقالوا لها: أين الكتاب فحلفت بالله ما معها كتاب فبحثوها وفتّشوا متاعها فلم يجدوا معها كتاباً، فهمّوا بالرجوع، فقال عليٌّ رضي الله عنه: والله ما كذبنا ولا كذب رسول الله ﷺ وسَلّ سيفه فقال أخرجي الكتاب وإلّا لأجرّدَنّك ولأضربنّ عنقك، فلما رأت الجِدّ أخرجته من ذؤابتها، وكانت قد خبّأته في شعرها، فخلّوا سبيلها ولم يتعرّضوا لها ولا لما معها، فرجعوا بالكتاب إلى رسول

فقال علي والله ما كذبنا ولا كذب رسول الله ﷺ وسل السيف وقال أخرجي الكتاب وإلا لأجردنك ولأضربن عنقك فلما رأت الجد أخرجته من ذوائبها وكانت قد خبأته في شعرها فخلوا سبيلها ولم يتعرضوا لها ولا لما معها ورجعوا بالكتاب إلى رسول الله ﷺ فأرسل رسول الله ﷺ إلى حاطب فأتاه فقال له هل تعرف الكتاب قال نعم قال فما حملك على ما صنعت؟ فقال والله ما كفرت منذ أسلمت ولا غششتك منذ نصحتك ولا أحببتهم منذ فارقتهم ولكن لم يكن أحد من المهاجرين إلا وله بمكة من يمنع عشيرته وكنت غريباً منهم وكان أهلي بين ظهرانيهم فخشيت على أهلي فأردت أن أتخذ لي عندهم يداً وقد علمت أن الله تعالى ينزل بهم بأسه وأن كتابي لا يغني عنهم شيئاً فصدقه رسول الله ﷺ وعذره فقام عمر بن الخطاب فقال يا رسول الله دعني أضرب عنق هذا المنافق فقال رسول الله ﷺ وما يدريك يا عمل لعل الله قد اطلع على أهل بدر فقال لهم اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم فأنزل الله في شأن حاطب بن أبي بلتعة: يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء يعني أصدقاء وأنصاراً ﴿**تلقون إليهم بالمودة**﴾ أي بأسباب المحبة وقيل معناه تلقون إليهم أخبار النبي ﷺ وسره بالمودة التي بينكم وبينهم ﴿**وقد كفروا**﴾ أي وحالهم أنهم كفروا ﴿**بما جاء من الحق**﴾ يعني القرآن ﴿**يخرجون الرسول وإياكم**﴾ يعني من مكة ﴿**أن تؤمنوا**﴾ أي لأن آمنتم، كأنه قال يفعلون ذلك لإيمانكم ﴿**بالله ربكم إن كنتم خرجتم**﴾ هذا شرط جوابه متقدم والمعنى إن كنتم خرجتم ﴿**جهاداً في سبيلي وابتغاء مرضاتي**﴾ فلا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء.

وقوله: ﴿**تسرون إليهم بالمودة**﴾ أي بالنصيحة ﴿**وأنا أعلم بما أخفيتم**﴾ أي من المودة للكفار ﴿**وما أعلنتم**﴾ أي أظهرتم بألسنتكم منها ﴿**ومن يفعله منكم**﴾ أي الإسرار وإلقاء المودة إليهم فقال: ﴿**فقد ضل سواء السبيل**﴾ أي أخطأ طريق الهدى ثم أخبر عن عداوة الكفار فقال تعالى:

إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُواْ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ ۝٢ لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ ۚ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٣ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ

الله ﷺ فأرسل رسول الله ﷺ إلى حاطب، فأتاه فقال: «هل تعرف الكتاب»؟ قال: نعم، قال: «فما حالك على ما صنعت»؟ فقال: يا رسول الله والله ما كفرت منذ أسلمت ولا غششتك منذ نصحتك، ولا أحببتهم منذ فارقتهم، ولكن لم يكن أحد من المهاجرين إلّا وله بمكة مَن يمنع عشيرته وكنت غريباً فيهم، وكان أهلي بين ظهرانيهم، فخشيت على أهلي، فأردت أن أتخذ عندهم يداً وقد علمت أن الله ينزل بهم بأسه، وأن كتابي لا يُغني عنهم شيئاً، فصدّقه رسول الله ﷺ وعذره، فقام عمر بن الخطاب فقال: دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق، فقال رسول الله ﷺ: «وما يدريك يا عمر لعلّ الله قد اطّلع على أهل بدر؟ فقال لهم: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم»، فأنزل الله عزّ وجلّ في شأن حاطب: ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تتّخذوا عدوّي وعدوّكم أولياء** ﴾، ﴿ **تلقون إليهم بالمودّة** ﴾، قيل: أي المودّة، والباء زائدة كقوله: ﴿ ومَن يُرد فيه بإلحاد بظلم ﴾ [الحج: ٢٥]، وقال الزجّاج: معناه تلقون إليهم أخبار النبي ﷺ، وسرّه بالمودّة التي بينكم وبينهم، ﴿ **وقد كفروا** ﴾، الواو للحال أي وحالهم أنهم كفروا، ﴿**بما جاء من الحق** ﴾، يعني القرآن ﴿ **يخرجون الرسول وإيّاكم** ﴾، من مكة، ﴿ **أن تؤمنوا** ﴾، أي لأن آمنتم، كأنه قال يفعلون ذلك لإيمانكم، ﴿ **بالله ربكم إن كنتم خرجتم** ﴾، هذا شرط جوابه متقدّم وهو قوله: ﴿ **لا تتخذوا عدوّي وعدوّكم أولياء تلقون إليهم بالمودّة وقد كفروا بما جاءكم من الحق إن كنتم خرجتم** ﴾، ﴿ **جهاداً في سبيلي وابتغاء مرضاتي تسرّون إليهم بالمودّة** ﴾، قال مقاتل بالنصيحة، ﴿ **وأنا أعلم بما أخفيتم** ﴾، من المودّة للكفّار، ﴿ **وما أعلنتم** ﴾، أظهرتم بألسنتكم ومَن يفعله منكم ﴿ **فقد ضلّ سواء السبيل** ﴾، أخطأ طريق الهدى.

وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذۡ قَالُواْ لِقَوۡمِهِمۡ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمۡ وَمِمَّا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرۡنَا بِكُمۡ وَبَدَا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةُ وَٱلۡبَغۡضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥٓ إِلَّا قَوۡلَ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسۡتَغۡفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمۡلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۖ رَّبَّنَا عَلَيۡكَ تَوَكَّلۡنَا وَإِلَيۡكَ أَنَبۡنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٤﴾ رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ وَٱغۡفِرۡ لَنَا رَبَّنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٥﴾

﴿إن يثقفوكم﴾ أي يظفروا بكم ويروكم **﴿يكونوا لكم أعداء ويبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء﴾** أي بالضرب والقتل والشم والسب **﴿وودوا﴾** أي تمنوا **﴿لو تكفرون﴾** أي ترجعون إلى دينهم كما كفروا والمعنى أن أعداء الله لا يخلصون المودة لأولياء الله ولا يناصحونهم لما بينهم من الخلاف فلا تناصحوهم أنتم ولا توادوهم **﴿لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم﴾** أي لا يدعونكم ولا يحملنكم ذوو أرحامكم وقراباتكم وأولادكم الذين بمكة إلى خيانة رسول الله ﷺ والمؤمنين وترك مناصحتهم ونقل أخبارهم وموالاة أعدائهم فإنه لا تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم الذين عصيتم الله لأجلهم **﴿يوم القيامة يفصل بينكم﴾** أي يدخل أهل طاعته الجنة وأهل معصيته النار **﴿والله بما تعملون بصير﴾** قوله تعالى: **﴿قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم﴾** يخاطب حاطباً والمؤمنين ويأمرهم بالاقتداء بإبراهيم عليه الصلاة والسلام، **﴿والذين معه﴾** أي من أهل الإيمان **﴿إذ قالوا لقومهم﴾** يعني المشركين **﴿إنا برآء منكم﴾** جمع بريء **﴿ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم﴾** أي جحدناكم وأنكرنا دينكم **﴿وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده﴾** والمعنى أن إبراهيم عليه السلام وأصحابه تبرؤوا من قومهم وعادوهم لكفرهم فأمر حاطباً والمؤمنين أن يتأسوا بهم **﴿إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك﴾** يعني لكم أن تتأسوا بإبراهيم في جميع أموره إلا في الاستغفار لأبيه المشرك فلا تتأسوا به فإن إبراهيم كان قد قال لأبيه لأستغفرن لك فلما تبين له إقامته على الكفر تبرأ منه **﴿وما أملك لك**

﴿ إن يَثْقَفُوكم ﴾، يظفروا بكم ويروكم، **﴿ يكونوا لكم أعداء ويبسطوا إليكم أيديهم ﴾**، بالضرب والقتل، **﴿ وألسنتهم بالسوء ﴾**، بالشتم، **﴿ وودّوا لو تكفرون ﴾**، كما كفروا يقول لا تناصحوهم فإنهم لا يناصحونكم ولا يوادّونكم.

﴿ لن تنفعكم أرحامكم ﴾، معناه لا يدعونكم ولا يحملنّكم ذوو أرحامكم وقراباتكم وأولادكم التي بمكة إلى خيانة الرسول ﷺ والمؤمنين وترك مناصحتهم وموالاة أعدائهم فلن تنفعكم أرحامكم، **﴿ ولا أولادكم ﴾**، الذين عصيتم الله لأجلهم، **﴿ يوم القيامة يفصل بينكم ﴾**، فيدخل أهل طاعته الجنة وأهل معصيته النار، قرأ عاصم ويعقوب **﴿ يفصل ﴾** بفتح الياء وكسر الصاد مخففاً وقرأ حمزة والكسائي بضمّ الياء وكسر الصاد مشدّداً، وقرأ ابن عامر بضم الياء وفتح الصاد مشدّداً، وقرأ الآخرون بضم الياء وفتح الصاد مخفّفاً. **﴿ والله بما تعملون بصير ﴾**.

﴿ قد كانت لكم أُسوة ﴾، قدوة، **﴿ حسنة في إبراهيم والذين معه ﴾**، من أهل الإيمان **﴿ إذْ قالوا لقومهم ﴾**، من المشركين، **﴿ إنّا برآء منكم ﴾**، جمع بريء، **﴿ ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم ﴾**، جحدنا وأنكرنا دينكم، **﴿ وبدَا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده ﴾**، يأمر حاطباً والمؤمنين بالاقتداء بإبراهيم عليه الصلاة والسلام، والذين معه من المؤمنين في التبرؤ من المشركين، **﴿ إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرنّ لك ﴾**، يعني لكم أسوة حسنة في إبراهيم وأموره إلاّ في استغفاره لأبيه المشرك فإن إبراهيم عليه الصلاة والسلام كان قد قال لأبيه لأستغفرنّ لك، ثم تبرّأ منه على ما ذكرناه في سورة التوبة، **﴿ وما أملك لك من الله من شيء ﴾**، يقول إبراهيم لأبيه ما أغني عنك ولا أدفع عنك عذاب الله إن عصيته وأشركت به، **﴿ ربنا عليك توكلنا ﴾**، يقوله إبراهيم ومَن معه من المؤمنين، **﴿ وإليك أنبنا وإليك المصير ﴾**.

من الله من شيء﴾ هذا من قول إبراهيم لأبيه يعني ما أغني عنك ولا أدفع عنك عذاب الله إن عصيته وأشركت به وإنما وعده بالاستغفار رجاء إسلامه وكان من دعاء إبراهيم ومن معه من المؤمنين ﴿ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا﴾ أي لا تظهرهم علينا فيظنوا أنهم على الحق، وقيل معناه لا تعذبنا بأيديهم ولا بعذاب من عندك فيقولوا لو كان هؤلاء على الحق ما أصابهم ذلك ﴿واغفر لنا ربنا إنك أنت العزيز الحكيم﴾.

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ ۚ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ۝٦ ۞ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً ۚ وَٱللَّهُ قَدِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٧ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٨﴾

﴿لقد كان لكم فيهم﴾ يعني في إبراهيم ومن معه ﴿أسوة حسنة﴾ أي اقتداء حسن ﴿لمن كان يرجو الله واليوم الآخر﴾ أي إن هذه الأسوة لمن يخاف الله ويخاف عذاب الآخرة ﴿ومن يتول﴾ أي يعرض عن الإيمان ويوالي الكفار ﴿فإن الله هو الغني﴾ أي عن خلقه ﴿الحميد﴾ أي إلى أهل طاعته وأوليائه فلما أمر الله المؤمنين بعداوة الكفار عادى المؤمنون أقرباءهم المشركين وأظهروا لهم العداوة والبراءة وعلم الله شدة وجد المؤمنين بذلك فأنزل الله تعالى ﴿عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم﴾ أي من كفار مكة ﴿مودة﴾ ففعل الله تعالى ذلك بأن أسلم كثير منهم فصاروا لهم أولياء وإخواناً وخالطوهم وناكحوهم وتزوج النبي ﷺ أم حبيبة بنت أبي سفيان ولان لهم أبو سفيان ﴿والله قدير﴾ أي علي جعل المودة بينكم ﴿والله غفور رحيم﴾ أي لمن تاب منهم وأسلم ثم رخص في صلة الذين لم يعادوا المؤمنين ولم يقاتلوهم فقال تعالى: ﴿لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم﴾ أي لا ينهاكم الله عن بر الذين لم يقاتلوكم ﴿وتقسطوا إليهم﴾ أي وتعدلوا فيهم بالإحسان إليهم والبر ﴿إن الله

﴿ ربّنا لا تجعلنا فتنةً للذين كفروا ﴾، قال الزجّاج: لا تظهرهم علينا فيظنّوا أنهم على الحق فيفتتنوا. وقال مجاهد: لا تعذّبنا بأيديهم ولا بعذاب من عندك فيقولون لو كان هؤلاء على الحق ما أصابهم ذلك. ﴿ واغفرْ لنا ربنا إنك أنت العزيز الحكيم ﴾.

﴿ لقد كان لكم فيهم ﴾، أي في إبراهيم ومَن معه ﴿ أُسوة حسنة لمَن كان يرجوا الله واليوم الآخر ﴾، هذا بدل من قوله لكم وبيان أن هذه الأسوة لمَن يخاف الله ويخاف عذاب الآخرة، ﴿ ومَن يتولَّ ﴾، يعرض عن الإيمان ويوالِ الكفّار، ﴿ فإن الله هو الغني ﴾، عن خلقه، ﴿ الحميد ﴾، فولّى أوليائه وأهل طاعته. قال مقاتل: فلما أمر الله المؤمنين بعداوة الكفّار عادى المؤمنون أقرباءهم المشركين وأظهروا لهم العداوة والبراءة، ويعلم الله شدّة وَجْد المؤمنين بذلك فأنزل الله:

﴿ عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم ﴾، أي من كفّار مكة، ﴿ مودّة ﴾، ففعل الله ذلك بأن أسلم كثير منهم فصاروا لهم أولياء وإخواناً وخالطوهم وناكحوهم، ﴿ والله قدير، والله غفور رحيم ﴾، ثم رخّص الله تعالى في صلة الذين لم يُعادوا المؤمنين ولم يقاتلوهم فقال:

﴿ لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبرّوهم ﴾، أي لا ينهاكم الله عن برّ الذين لم يقاتلوكم، ﴿ وتقسطوا إليهم ﴾، تعدلوا فيهم بالإحسان والبرّ، ﴿ إن الله يحبّ المقسطين ﴾، قال ابن عباس: نزلت في خزاعة كانوا قد صالحوا النبيّ ﷺ على أن لا يقاتلوه ولا يُعينوا عليه أحداً، فرخّص الله في برّهم. وقال عبد الله بن الزبير: نزلت في أسماء بنت أبي بكر وذلك أن أُمهاتهم قتيلة بنت عبد العزّى قَدِمت عليها

يحب المقسطين﴾ أي العادلين قال ابن عباس نزلت في خزاعة وذلك أنهم صالحوا رسول الله ﷺ على أن لا يقاتلوه ولا يعينوا عليه أحداً فرخص الله في برهم وقال عبد الله بن الزبير نزلت في أمه وهي أسماء بنت أبي بكر وذلك أن أمها قتيلة بنت عبد العزى قدمت عليها المدينة بهدايا ضباباً وأقطاً وسمناً وهي مشركة فقالت أسماء لا أقبل منك هدية ولا تدخلي عليّ بيتاً حتى أستأذن رسول الله ﷺ فسألته فأنزل الله تعالى هذه الآية فأمرها رسول الله ﷺ أن تدخلها منزلها وأن تقبل هديتها وتكرمها وتحسن إليها»، (ق) عن أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنهما قالت «قدمت على أمي وهي مشركة في عهد قريش إذ عاهدوا رسول الله ﷺ ومدتهم فاستفتيت رسول الله ﷺ فقلت يا رسول الله إن أمي قدمت عليّ وهي راغبة أفأصلها قال نعم صليها»، زاد في رواية قال ابن عيينة فأنزل الله فيها ﴿لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين﴾ ثم ذكر الله الذي نهى عن صلتهم وبرهم فقال تعالى:

﴿إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ ۖ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ ۖ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ۖ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۚ وَلَا تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْ ۚ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ ۖ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾

﴿إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين أخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم﴾ وهم مشركو مكة ﴿أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون﴾ قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن﴾ الآية (خ) عن عروة بن الزبير أنه سمع مروان والمسور بن مخرمة يخبران عن أصحاب رسول الله ﷺ، وقال لما كاتب سهيل بن عمرو يومئذ كان فيما اشترط سهيل بن عمرو عن النبي ﷺ إنه لا يأتيك منا أحد وإن كان على دينك إلا رددته إلينا وخليت بيننا وبينه وكره المؤمنون ذلك وأبي سهيل إلا ذلك فكاتبه النبي ﷺ على ذلك فرد يومئذ

المدينة بهدايا ضباباً وأقطاً وسمناً وهي مشركة، فقالت أسماء: لا أقبل منك هدية ولا تدخلي عليّ بيتي حتى أستأذن رسول الله ﷺ، فسألت رسول الله ﷺ فأنزل الله هذه الآية فأمرها رسول الله ﷺ أن تُدخِلها منزلها وتقبل هديتها وتكرمها وتُحسِن إليها. أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا قتيبة ثنا حاتم عن هشام بن عروة عن أبيه عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما قالت: قَدِمتُ على أمي وهي مشركة في عهد قريش إذ عاهدوا رسول الله ﷺ ومدّتهم فاستفتيت رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله إني أمي قَدِمَت عليّ وهي راغبة أفأصلها؟ قال: «صِلِيها»، ورُوِيَ عن ابن عيينة قال: فأنزل الله فيها ﴿ **لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين** ﴾ ثم ذكر الذين نهاهم عن صلتهم فقال:

﴿ **إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم** ﴾، وهم مشركوا مكة، ﴿ **أن تولوهم ومَن يتولّهم فأولئك هم الظالمون** ﴾.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهنّ** ﴾، الآية، أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا يحيىٰ بن بكير ثنا الليث عن عقيل عن ابن شهاب أخبرني عروة بن الزبير أنه سمع مروان والمسور بن مخرمة يخبران عن أصحاب رسول الله ﷺ قالا: لمّا كاتب سهيل بن عمرو يومئذ كان فيما اشترط سهيل بن عمرو على النبي ﷺ أنه لا يأتيك منّا أحد وإن كان

أبا جندل إلى أبيه سهيل بن عمرو ولم يأته أحد من الرجال إلا رده في تلك المدة وإن كان مسلماً وجاءت المؤمنات مهاجرات وكانت أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط ممن خرج إلى رسول الله ﷺ يومئذ وهي عاتق فجاء أهلها يسألون عنها النبي ﷺ أن يرجعها إليهم فلم يرجعها حتى أنزل الله فيهن ﴿**إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن الله أعلم بإيمانهن ـ إلى ـ ولا هم يحلون لهن**﴾ قال عروة فأخبرتني عائشة أن رسول الله ﷺ كان يمتحن بهذه الآية ﴿**يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات ـ إلى قوله غفور رحيم**﴾ قال عروة قالت عائشة فمن أقرت بهذا الشرط منهن؟ قال لها رسول الله ﷺ قد بايعتك كلاماً يكلمها والله ما مست يده يد امرأة قط في المبايعة ولا بايعهن إلا بقوله وقال ابن عباس «أقبل رسول الله ﷺ معتمراً حتى إذا كان بالحديبية صالحه مشركو مكة على أن من أتاه من أهل مكة رده إليهم ومن أتى مكة من أصحابه لم يردوه إليه وكتبوا بذلك كتاباً وختموا عليه فجاءت سبيعة بنت الحارث الأسلمية مسلمة بعد فراغ الكتاب وأقبل زوجها مسافر من بني مخزوم وقيل هو صيفي بن الراهب في طلبها وهو كافر فقال يا محمد اردد علي امرأتي فإنك قد شرطت أن ترد علينا من أتاك منا وهذه طية الكتاب لم تجف بعد فأنزل الله: يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات أي من دار الكفر إلى دار الإسلام فامتحنوهن قال ابن عباس امتحانها أن تستحلف ما خرجت من بغض زوج ولا رغبة عن أرض إلى أرض ولا لحدث أحدثته ولا التماس دنيا وما خرجت إلا رغبة في الإسلام وحباً لله ولرسوله ﷺ فإذا حلفت على ذلك لم يردها فاستحلف رسول الله ﷺ سبيعة فحلفت فلم يردها وأعطى زوجها مهرها وما أنفق عليها فتزوجها عمر بن الخطاب قال المفسرون المراد بقوله يا أيها الذين آمنوا رسول الله ﷺ

على دينك إلّا رددته إلينا، وخلّيت بيننا وبينه، فكره المؤمنون ذلك وأبى سهيل إلّا ذلك فكاتبه النبي ﷺ على ذلك، فردّ النبي ﷺ يومئذ أبا جندل إلى أبيه سهيل بن عمرو ولم يأتِه أحَد من الرجال إلّا ردّه في تلك المدّة وإن كان مسلماً، وجاءت المؤمنات مهاجرات، وكانت أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط ممّن خرج إلى رسول الله ﷺ يومئذ مهاجرة وهي عاتق، فجاء أهلها يسألون النبي ﷺ أن يُرجعها إليهم فلم يُرْجِعْها إليهم لما أنزل الله فيهنّ: ﴿ **إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهنّ الله أعلم بإيمانهنّ** ﴾ إلى ﴿ **ولا هم يحلّون لهنّ** ﴾، قال عروة فأخبرتني عائشة رضي الله تعالى عنها: أن رسول الله ﷺ كان يمتحنهنّ بهذه الآية: ﴿ **يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات** ﴾ إلى قوله: ﴿ **غفور رحيم** ﴾ قال عروة قالت عائشة رضي الله عنها: فمَن أقرّت بهذا الشرط منهنّ قال لها رسول الله ﷺ: «قد بايعتك كلاماً يكلّمها به»، والله ما مسّت يده يد امرأة قطّ في المبايعة ما بايعهنّ إلّا بقوله. قال ابن عباس: أقبل رسول الله ﷺ معتمراً حتى إذا كان بالحديبية صالحه مشركو مكة على أن مَن أتاه من أهل مكة ردّه إليهم ومَن أتى أهل مكة من أصحاب رسول الله ﷺ لم يردّوه عليه وكتبوا بذلك كتاباً وختموا عليه، فجاءت سبيعة بنت الحارث الأسلمية مسلمة بعد الفراغ من الكتاب، فأقبل زوجها مسافر من بني مخزوم، وقيل مقاتل صيفي بن الراهب في طلبها، وكان كافراً، فقال: يا محمد رُدّ عليّ امرأتي فإنك قد شرطت أن تردّ علينا مَن أتاك منّا وهذه طيّة الكتاب لم تجفّ بعد، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات** ﴾ من دار الكفر إلى دار الإسلام، ﴿ **فامتحنوهنّ** ﴾ قال ابن عباس: امتحانها أن تستحلف ما خرجت لبغض زوجها ولا عشقاً لرجل من المسلمين ولا رغبة عن أرض إلى أرض ولا لحدَث أحدثته ولا لالتماس دنيا، وما خرجت إلّا رغبة في الإسلام وحبّاً لله ولرسوله، قال: فاستحلفها رسول الله ﷺ على ذلك فحلفت فلم يردّها، وأعطى زوجها مهرها وما أنفق عليها، فتزوجها عمر بن الخطاب رضي الله عنه وكان يردّ من جاءه من الرجال، ويحبس مَن جاءه من النساء بعد الامتحان ويعطي أزواجهنّ مهورهنّ، ﴿ **الله أعلم بإيمانهنّ** ﴾ أي هذا الامتحان لكم والله أعلم بإيمانهنّ، ﴿ **فإن علمتموهنّ مؤمنات فلا تُرجعوهنّ إلى الكفّار لا هنّ حِلٌ لهم ولا هم يحلّون لهنّ** ﴾، ما أحلّ الله مؤمنة لكافر، ﴿ **وآتوهم** ﴾،

لأنه هو الذي تولى امتحانهن بنفسه فكان يمسك من جاءه من النساء بعد الامتحان ويعطي أزواجهن مهورهن ويرد من جاء من الرجال.

واختلف العلماء هل دخل رد النساء في عقد الهدنة لفظاً أو عموماً فقيل قد كان شرط ردهن في عقد الهدنة لفظاً صريحاً فنسخ الله تعالى ردهن من العقد ومنع منه وأبقاه في الرجال على ما كان في العقد وقيل لم يشترط ردهن في العقد لفظاً صريحاً وإنما أطلق العهد فكان ظاهره العموم لاشتماله على النساء وعلى الرجال فبين الله تعالى خروجهن من عموم العقد وفرق بينهن وبين الرجال في الحكم، ﴿**الله أعلم بإيمانهن**﴾ أي هذا الامتحان لكم والله أعلم بإيمانهن ﴿**فإن علمتموهن مؤمنات فلا ترجعوهن إلى الكفار لا هن حل لهم ولا هم يحلون لهن**﴾ إي إذا أقررن بالإيمان فلا تردوهن إلى الكفار لأن الله لم يبح مؤمنة لكفار ﴿**وآتوهم**﴾ يعني أزواجهن ﴿**ما أنفقوا**﴾ أي عليهن من المهر الذي دفعوه إليهن، ﴿**ولا جناح عليكم أن تنكحوهن إذا آتيتموهن أجورهن**﴾ أي مهورهن أباح الله للمسلمين نكاح المهاجرات من دار الحرب إلى دار الإسلام وإن كان لهن أزواج كفار في دار الحرب لأن الإسلام فرق بينهن وبين أزواجهن الكفار ووقفت الفرقة بانقضاء عدتها فإن أسلم الزوج قبل انقضاء عدتها فهي زوجته وبه قال الأوزاعي والليث بن سعد ومالك والشافعي وأحمد وقال أبو حنيفة تقع الفرقة باختلاف الدارين، ﴿**ولا تمسكوا بعصم الكوافر**﴾ جمع عصمة وهي ما اعتصم به من العقد: والسبب نهى الله تعالى المؤمنين عن المقام على نكاح المشركات يقول الله تعالى وإن كانت له امرأة كافرة بمكة فلا يعتد بها فقد انقطعت عصمة الزوجية بينهما.

قال الزهري لما نزلت هذه الآية طلق عمر بن الخطاب امرأتين كانتا بمكة مشركتين قريبة بنت أبي أمية بن المغيرة فتزوجها معاوية بن أبي سفيان وهما على شركهما بمكة والأخرى أم كلثوم بنت عمرو بن جرول الخزاعية وهي أم ابنه عبيد الله فتزوجها أبو جهم بن حذافة بن غنم وهما على شركهما.

وكانت أروى بنت ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب تحت طلحة بن عبيد الله فهاجر طلحة وبقيت هي على دين قومها ففرق الإسلام بينهما فتزوجها بعده في الإسلام خالد بن سعيد بن العاص بن أمية قال الشعبي وكانت زينب بنت رسول الله ﷺ امرأة أبي العاص بن الربيع أسلمت وهاجرت ولحقت بالنبي ﷺ وأقام أبو العاص بمكة مشركاً ثم أتى المدينة فأسلم فردها عليه رسول الله ﷺ ﴿**واسألوا**﴾ أي أيها المؤمنون ﴿**ما أنفقتم**﴾ يعني إن لحقت امرأة منكم

يعني أزواجهنّ الكفّار، ﴿ **ما أنفقوا** ﴾، عليهنّ يعني المهر الذي دفعوا إليهنّ. ﴿ **ولا جُناح عليكم أن تنكحوهنّ إذا آتيتموهنّ أُجورهنّ** ﴾، أي مهورهنّ، أباح الله نكاحهنّ للمسلمين، وإن كان لهنّ أزواج في دار الكفر لأن الإسلام فرّق بينهنّ وبين أزواجهنّ الكفّار، ﴿ **ولا تمسكوا** ﴾، قرأ أبو عمرو ويعقوب بالتشديد، والآخرون بالتخفيف من الإمساك، ﴿ **بِعِصَم الكوافر** ﴾، والعِصَم جمع العصمة وهي ما يعتصم به من العقد والنسب، والكوافر جمع الكافرة، نهى الله المؤمنين عن المقام على نكاح المشركات، يقول مَن كانت له امرأة كافرة بمكة فلا يعتدّ بها فقد انقطعت عصمة الزوجية بينهما، قال الزهري: فلما نزلت هذه الآية طلّق عمر بن الخطاب رضي الله عنه امرأتين كانتا له بمكة مشركتين قريبة بنت أبي أمية بن المغيرة، فتزوجها بعده معاوية بن أبي سفيان، وهما على شركهما بمكة، والأخرى أُم كلثوم بنت عمرو بن جرول الخزاعية أُم ابنه عبيد الله بن عمر، فتزوّجها أبو جهم بن حذافة بن غانم وهما على شركهما، وكانت أروى بنت ربيعة بن الحرث بن عبد المطلب تحت طلحة بن عبيد الله فهاجر طلحة وهي بمكة على دين قومها، ففرّق الإسلام بينهما فتزوجها في الإسلام خالد بن سعيد بن العاص بن أُمية، قال الشعبي: وكانت زينب بنت رسول الله ﷺ امرأة أبي العاص بن الربيع أسلمت ولحقت بالنبي ﷺ وأقام أبو العاص بمكة مشركاً ثم أتى المدينة فأسلم فردّها عليه رسول الله ﷺ، ﴿ **واسئلوا** ﴾، أيها المؤمنون، ﴿ **ما**

بالمشركين مرتدة فاطلبوا ما أنفقتم من المهر إذا منعوها ممن تزوجها منهم ﴿وليسألوا﴾ يعني المشركين الذين لحقت أزواجهم بكم ﴿ما أنفقوا﴾ من المهر ممن تزوجها منكم ﴿ذلكم حكم الله يحكم بينكم والله عليم حكيم﴾ قال الزهري ولولا الهدنة والعهد الذي كان بين رسول الله ﷺ وبين قريش لأمسك النساء ولم يرد الصداق وكذلك صنع بمن جاء من المسلمات قبل العهد فلما نزلت هذه الآية أقر المؤمنون بحكم الله تعالى وأدوا ما أمروا به من أداء نفقات المشركين على نسائهم وأبى المشركون أن يقروا بحكم الله فيما أمر من أداء نفقات المسلمين فأنزل الله عز وجل:

﴿وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَـَٔاتُوا۟ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾﴾

﴿وإن فاتكم﴾ أيها المؤمنون ﴿شيء من أزواجكم إلى الكفار﴾ أي فلحقن بهم مرتدات ﴿فعاقبتم﴾ معناه غزوتم فغنمتم وأصبتم من الكفار عقبي وهي الغنيمة وقيل معناه ظهرتم وكانت العاقبة لكم ﴿فآتوا الذين ذهبت أزواجهم﴾ أي إلى الكفار ﴿مثل ما أنفقوا﴾ معناه أعطوا الذين ذهبت أزواجهم منكم إلى الكفار مرتدات مثل ما أنفقوا عليها من الغنائم التي صارت في أيديكم من أموال الكفار قال ابن عباس لحق بالمشركين من نساء المؤمنين المهاجرين ست نسوة أم الحكم بنت أبي سفيان وكان تحت عياض بن شداد الفهري وفاطمة[1] بنت أبي أمية بن المغيرة أخت أم سلمة وكانت تحت عمر بن الخطاب فلما أراد عمر أن يهاجر بها أبت وارتدت وبروع بنت عقبة وكانت تحت شماس بن عثمان وعزة بنت عبد العزيز بن نضلة وتزوجها عمرو بن عبد ود وهند بنت أبي جهل بن هشام وكانت تحت هشام بن العاص بن وائل وأم كلثوم وكانت تحت عمر بن الخطاب فكلهن رجعن عن الإسلام فأعطى رسول الله ﷺ أزواجهن مهور نسائهم من الغنيمة واختلف القول في رد مهر من أسلمت من النساء إلى زوجها هل كان واجباً أو مندوباً وأصل

أنفقتم ﴾، أي إن لحقت امرأة منكم بالمشركين مرتدّة فاسألوا ما أنفقتم من المهر إذا منعوها ممّن تزوجها منهم، **﴿ وليسئلوا ﴾**، يعني المشركين الذين لحقت أزواجهم بكم **﴿ما أنفقوا﴾**، من المهر ممّن تزوجها منكم، **﴿ ذلكم حكم الله يحكم بينكم والله عليم حكيم ﴾**، قال الزهري: لولا الهدنة والعهد الذي كان بين رسول الله ﷺ وبين قريش يوم الحديبية لأمسك النساء ولم يردّ الصداق، وكذلك كان يصنع بمَن جاءه من المسلمات قبل العهد، فلما نزلت هذه الآية أقرّ المؤمنون بحكم الله عزّ وجلّ وأدّوا ما أُمروا به من نفقات المشركين على نسائهم، وأبى المشركون أن يقرّوا بحكم الله فيما أُمروا من أداء نفقات المسلمين على نسائهم.

فأنزل الله عزّ وجلّ: **﴿ وإن فاتكم ﴾**، أيها المؤمنون، **﴿ شيء من أزواجكم إلى الكفّار ﴾**، فلحقن بهم مرتدّات، **﴿ فعاقبتم ﴾**، قال المفسّرون معناه غنمتم أي غزوتم فأصبتم من الكفّار عقبى وهي الغنيمة، وقيل ظهرتم وكانت العاقبة لكم، وقيل: أصبتموهم في القتال بعقوبة حتى غنمتم، قرأ حميد الأعرج (فعقبتم) بالتشديد وقرأ الزهري (فعقبتم) خفيفة بغير ألف، وقرأ مجاهد (فأعبتم) أي صنعتم بهم كما صنعوا بكم وكلها لغات بمعنى واحد، يقال: عاقب وعقب وعقب وأعقب وتعقب وتعاقب واعتقب، إذا غنم، وقيل: التعقيب غزوة بعد غزوة، **﴿ فآتوا الذين ذهبت أزواجهم ﴾**، إلى الكفّار منكم، **﴿ مثل ما أنفقوا ﴾**، عليهنّ من الغنائم التي صارت في أيديكم من أموال الكفّار. وقيل: فعاقبتم المرتدّة بالقتل. ورُوِيَ عن ابن عباس رضي الله عنه قال: لحق بالمشركين من نساء المؤمنين المهاجرين ستّ نسوة أُم الحكم بنت أبي سفيان كانت تحت عياض بن شدّاد القهري وفاطمة بنت أبي

---

(١) قوله فاطمة، تقدم أن إسمها قريبة فلعل في إسمها خلافاً، وذكر الخطيب أولاً أن إسمها قريبة وثانياً فاطمة كما هنا والله أعلم اهـ.

هذه المسألة أن الصلح هل كان وقع على رد النساء أم لا فيه قولان أحدهما أنه وقع على رد الرجال والنساء جميعاً لما روي أنه لا يأتيك منا أحد إلا رددته ثم صار الحكم في رد النساء منسوخاً بقوله تعالى ﴿فلا ترجعوهن إلى الكفار﴾ فعلى هذا كان رد المهر واجباً. والقول الثاني أن الصلح لم يقع على رد النساء لأنه روي عن علي أنه قال لا يأتيك منا رجل وإن كان على دينك إلا رددته وذلك لأن الرجل لا يخشى عليه من الفتنة في الرد ما يخشى على المرأة من إصابة المشرك إياها وأنه لا يؤمن عليها الردة إذا خوفت وأكرهت عليها لضعف قلبها وقلة هدايتها إلى المخرج من الكفر بإظهار كلمة الكفر مع التورية وإضمار كلمة الإيمان وطمأنينة القلب عليه ولا يخشى ذلك على الرجل لقوته وهدايته إلى التقية فعلى هذا كان المهر مندوباً.

واختلفوا في أنه هل يجب العمل به اليوم في رد المال إذا شرط في معاقدة الكفار فقال قوم لا يجب وزعموا أن الآية منسوخة وهم عطاء ومجاهد وقتادة قال قوم الآية غير منسوخة ويرد عليهم ما أنفقوا قوله تعالى: ﴿**واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون**﴾.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَـٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَـٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾

﴿**يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبايعنك**﴾ الآية قال المفسرون لما فتح رسول الله ﷺ مكة وفرغ من بيعة الرجال وهو على الصفا أتته النساء يبلغنه وعمر بن الخطاب أسفل منه يبلغهن عنه وهند بنت عتبة امرأة أبي سفيان

أُمية بن المغيرة أُخت أم سلمة كانت تحت عمر بن الخطاب، فلما أراد عمر أن يهاجر أبت وارتدّت، وبروع بنت عقبة كانت تحت شماس بن عثمان، وعزّة بنت عبد العزيز بن نضلة وتزوّجها عمرو بن عبد وِدّ، وهند بنت أبي جهل بن هشام كانت تحت هشام بن العاص بن وائل، وأُم كلثوم بنت جرول كانت تحت عمر بن الخطاب، فكلّهنّ يرجعن إلى الإسلام، فأعطى رسول الله ﷺ أزواجهنّ مهور نسائهم من الغنيمة. ﴿ **واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون** ﴾، واختلف القول في أن ردّ مهر مَن أسلمت من النساء إلى أزواجهنّ، كان واجباً أو مندوباً وأصله أن الصلح هل كان وقع على ردّ النساء، فيه قولان أحدهما أنه وقع على ردّ الرجال والنساء جميعاً لِما روينا أنه لا يأتيك منّا أحد وإن كان على دينك إلّا رددته إلينا، ثم صار الحكم في ردّ النساء منسوخاً بقوله: ﴿ **فلا ترجعوهنّ إلى الكفّار** ﴾، فعلى هذا كان ردّ المهر واجباً والقول الآخر أن الصلح لم يقع على ردّ النساء، لأنه رُوِيَ عن علي أنه لا يأتيك منّا رجل وإن كان على دينك إلّا رددته إلينا، وذلك لأن الرجل لا يُخشَى عليه من الفتنة في الردّ ما يُخشى على المرأة من إصابة المشرك إيّاها، وأنه لا يؤمن عليها الردّة إذا خُوّفت، وأُكرهت عليها لضعف قلبها، وقلّة عقلها وقلّة هدايتها إلى المخرج منها بأظهار كلمة الكفر مع التورية، وإضمار الإيمان، ولا يخشى ذلك على الرجل لقوّته وهدايته إلى التقية، فعلى هذا كان ردّ المهر مندوباً واختلفوا في أنه هل يجب العمل به اليوم في ردّ المال إذا شرط في معاقدة الكفّار، فقال قوم: لا يجب وزعموا أن الآية منسوخة، وهو قول عطاء ومجاهد وقتادة، وقال قوم: هي غير منسوخة ويردّ إليهم ما أنفقوا.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ **يا أيّها النبي إذا جاءك المؤمنات يبايعنك** ﴾، الآية، وذلك يوم فتح مكة لما فرغ رسول الله ﷺ من بيعة الرجال، وهو على الصفا وعمر بن الخطاب أسفل منه، وهو يبايع النساء بأمر رسول الله ﷺ ويبلغهنّ

متنقبة متنكرة مع النساء خوفاً من رسول الله ﷺ أن يعرفها فقال رسول الله ﷺ أبايعهن ﴿**على أن لا يشركن بالله شيئاً**﴾ فرفعت هند رأسها وقالت والله إنك لتأخذ علينا أمراً وما رأيناك أخذته على الرجال وكان قد بايع الرجال يومئذ على الإسلام والجهاد فقط فقال النبي ﷺ ﴿**ولا يسرقن**﴾ فقالت هند إن أبا سفيان رجل شحيح وإني أصبت من ماله هنات فلا أدري يحل لي أم لا فقال أبو سفيان ما أصبت من شيء فيما مضى وفيما غبر فهو حلال فضحك النبي ﷺ وعرفها فقال لها وإنك لهند بنت عتبة قالت نعم فاعف عما سلف عفا الله عنك فقال ﴿**ولا يزنين**﴾ فقالت هند أو تزني الحرة فقال ﴿**ولا يقتلن أولادهن**﴾ فقالت هند ربيناهم صغاراً وقتلتموهم كباراً فأنتم وهم أعلم وكان ابنها حنظلة بن أبي سفيان قد قتل يوم بدر فضحك عمر حتى استلقى وتبسم رسول الله ﷺ ﴿**ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن**﴾ فقالت هند والله إن البهتان لقبيح وما تأمرنا إلا بالرشد ومكارم الأخلاق، ﴿**ولا يعصينك في معروف**﴾ فقالت هند ما جلسنا مجلسنا هذا وفي أنفسنا أن نعصيك في شيء فأقر النسوة بما أخذ عليهن من البيعة قال ابن الجوزي وجملة من أحصى من المبايعات أربعمائة وسبعة وخمسون امرأة ولم يصافح في البيعة امرأة وإنما بايعهن بالكلام، (ق) عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت «كان رسول الله ﷺ يبايع النساء بالكلام بهذه الآية على أن لا يشركن بالله شيئاً وما مست يد رسول الله ﷺ يد امرأة لا يملكها» وأما تفسير الآية فقوله تعالى: ﴿**ولا يقتلن أولادهن**﴾ أراد به وأد البنات الذي كان يفعله أهل الجاهلية ثم هو عام في كل نوع من قتل الولد ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن يعني لا تلحق المرأة بزوجها غير ولده وذلك أن المرأة كانت تلتقط المولود فتقول لزوجها هذا ولدي منك فهذا هو البهتان المفتري وليس المراد منه نهيهن عن الزنا لأن النهي عنه قد تقدم ذكره ومعنى بين أيديهن وأرجلهن أن الولد إذا وضعته الأم سقط بين يديها ورجليها ولا يعصينك في معروف أي في كل ما تأمرهن به أو تنهاهن عنه وقيل في كل أمر وافق

عنه، وهند بنت عتبة امرأة أبي سفيان متنقّبة متنكّرة مع النساء خوفاً من رسول الله ﷺ أن يعرفها، فقال رسول الله ﷺ: «أُبايعهنّ ﴿ **على أن لا يشركن بالله شيئاً** ﴾»، فرفعت هند رأسها وقالت والله إنـك لتأخذ علينا أمراً ما رأيناك أخذته على الرجال، وبايع الرجال يومئذ على الإسلام والجهاد فقط، فقال النبي ﷺ: «ولا يسرقن»، فقالت هند: إن أبا سفيان رجل شحيح وإني أصبت من ماله هنات فلا أدري أيحلّ لي أم لا؟ فقال أبو سفيان: ما أصبت من شيء فيما مضى وفيما غبر فهو لك حلال، فضحك رسول الله ﷺ وعرفها، فقال لها: «وإنك لهند بنت عتبة»؟ قالت: نعم، فاعفُ عمّا سلف عفا الله عنك، فقال: ﴿ **ولا يزنين** ﴾، فقالت هند أوَ تزني الحرّة؟ فقال: ﴿ **ولا يقتلن أولادهنّ** ﴾، فقالت هند: ربّيناهنّ صغاراً وقتلتموهم كباراً فأنتم وهم أعلم، وكان ابنها حنظلة بن أبي سفيان قد قتل يوم بدر، فضحك عمر رضي الله عنه حتى استلقى، وتبسّم رسول الله ﷺ، فقال: ﴿ **ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهنّ وأرجلهنّ** ﴾، وهي أن تقذف ولداً على زوجها ليس منه، قالت هند: والله إن البهتان لقبيح وما تأمرنا إلّا بالرشد ومكارم الأخلاق، فقال: ﴿ **ولا يعصينك في معروف** ﴾، قالت هند ما جلسنا مجلسنا هذا وفي أنفسنا أن نعصيك في شيء فأقرّ النسوة بما أخذ عليهنّ، قوله: ﴿ **ولا يقتلن أولادهنّ** ﴾ أراد وأد البنات الذي كان يفعل أهل الجاهلية، قوله: ﴿ **ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهنّ وأرجلهنّ** ﴾: ليس المراد منه نهيهنّ عن الزنا لأن النهي عن الزنا قد تقدّم ذكره، بل المراد منه أن تلتقط مولوداً وتقول لزوجها هذا ولدي منك، فهو البهتان المُفترى بين أيديهنّ وأرجلهنّ، لأن الولد إذا وضعته الأم سقط بين يديها ورجليها، قوله: ﴿ **ولا يعصينك في معروف** ﴾: أي في كل أمر وافق طاعة الله. قال بكر بن عبد الله المزني في كل أمر فيه رشدهنّ. وقال مجاهد: لا تخلو المرأة بالرجال. وقال سعيد بن المسيب والكلبي وعبد الرحمن بن زيد: هو النهي عن النوح والدعاء بالويل وتمزيق الثوب وحلق الشعر ونتفه وخمش الوجه، ولا تحدّث المرأة الرجال إلّا ذا محرم، ولا تخلو برجل غير ذي محرم، ولا تسافر إلّا مع ذي

طاعة الله وكل أمر فيه رشد وقيل هو النهي عن النوح والدعاء بالويل وتمزيق الثياب وحلق الشعر ونتفه وخمش الوجه وأن لا تحدث المرأة الرجال الأجانب ولا تخلو برجل غير ذي محرم ولا تسافر مع غير ذي محرم قال ابن عباس في قوله ولا يعصينك في معروف إنما هو شرط شرطه الله على النساء أخرجه البخاري (ق) عن أم عطية قالت «بايعنا رسول الله ﷺ فقرأ علينا أن لا يشركن بالله شيئاً ونهانا عن النياحة فقبضت امرأة منا يدها فقالت فلانة أسعدتني فأنا أريد أن أجزيها فما قال لها النبي ﷺ شيئاً فانطلقت ثم رجعت فبايعها»، (ق) عن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال «ليس منا من ضرب الخدود وشق الجيوب ودعا بدعوى الجاهلية» عن أسيد بن أسيد عن امرأة من المبايعات قالت «كان فيما أخذ علينا رسول الله ﷺ من المعروف الذي أخذ علينا أن لا نعصيه فيه أن لا نخمش وجهاً ولا ندعو ويلاً ولا نشق جيباً ولا ننشر شعراً» أخرجه أبو داود عن أنس رضي الله عنه «إن رسول الله ﷺ أخذ على النساء حين بايعهن أن لا ينحن فقلن يا رسول الله نساء أسعدتنا في الجاهلية فنسعدهن فقال رسول الله ﷺ لا إسعاد في الإسلام» أخرجه النسائي، (م) عن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ «النائحة إذا لم تتب قبل موتها تقوم يوم القيامة وعليها سربال من قطران ودرع من جرب» وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال «لعن رسول الله ﷺ النائحة والمستمعة» أخرجه أبو داود، وقوله تعالى: ﴿فبايعهن﴾ يعني إذا بايعنك على هذه الشروط فبايعهن ﴿واستغفر لهن الله إن الله غفور رحيم﴾ عن أميمة بنت رقية قالت «بايعت رسول الله ﷺ في نسوة فقال لنا فيما استطعتن وأطقتن قلنا الله ورسوله أرحم بنا منا بأنفسنا قلت يا رسول الله بايعنا قال سفيان يعني صافحنا فقال رسول الله ﷺ إنما قولي لمائة امرأة كقولي لامرأة واحدة» أخرجه الترمذي وقال حديث حسن صحيح.

محرم. أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا أبو معمر ثنا عبد الوارث ثنا أيوب عن حفصة بنت سيرين عن أُم عطية قالت: بايعنا رسول الله ﷺ فقرأ علينا ﴿ أن لا يشركن بالله شيئاً ﴾، ونهانا عن النياحة فقبضت امرأة يدها فقالت أسعدتني فلانة أُريد أن أُجزيها، فما قال لها النبي ﷺ شيئاً، فانطلقت ورجعت وبايعها. أخبرنا أحمد بن إبراهيم الشريحي أنا أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي أنا الحسين بن محمد بن الحسين الدينوري ثنا أحمد بن محمد بن إسحاق ثنا أبو يعلى الموصلي ثنا هدبة بن خالد ثنا أبَان بن يزيد ثنا يحيىٰ بن أبي كثير أن زيداً حدّثه أن أبا سلام حدّثه أن أبا مالك الأشعري حدّثه أن رسول الله ﷺ قال: «أربع في أُمتي من أمر الجاهلية لا يتركونهنّ: الفخر في الأحساب والطعن في الأنساب والاستسقاء بالنجوم والنياحة». وقال: «النائحة إذا لم تتب قبل موتها تقوم يوم القيامة وعليها سربال من قطران، ودرع من جرب»، أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا عمرو بن حفص ثنا أبي أنا الأعمش عن عبد الله بن مرّة عن مسروق عن عبد الله قال: قال النبي ﷺ: «ليس منّا مَن ضرب الخدود وشقّ الجيوب ودعا بدعوى الجاهلية». قوله: ﴿ فبايعهنّ ﴾، يعني إذا بايعنك فبايعهنّ، ﴿ واستغفر لهنّ الله إن الله غفور رحيم ﴾، أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل حدّثني محمود ثنا عبد الرزّاق أنا معمر عن الزهري عن عروة عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان النبي ﷺ يبايع النساء بالكلام بهذه الآية: ﴿ لا يشركن بالله شيئاً ﴾ قالت: وما مسّتْ يَدُ رسول الله ﷺ يَدَ امرأة إلّا امرأة يملكها. أخبرنا أحمد بن إبراهيم الشريحي أنا أبو إسحاق الثعلبي أنا محمد بن عبد الله بن حمدون أنا مكّي بن عبدان ثنا عبد الرحمن بن بشر ثنا سفيان بن عيينة عن محمد بن المنكدر سمع أُميمة بنت رقيّة تقول: بايعت رسول الله ﷺ في نسوة، فقال لنا: «فيما استطعتنّ وأطقتنّ»، فقلت: رسول الله ﷺ أرحم بنا من أنفسنا، قلت: يا رسول الله بايعنا، قال سفيان: يعني صافحنا، فقال: «إني لا أصافح النساء، إنّما قولي لامرأةٍ كقولي لمائة امرأة».

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا۟ مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلْقُبُورِ ﴿١٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تتولوا قوماً غضب الله عليهم**﴾ يعني من اليهود وذلك أن ناساً من فقراء المسلمين كانوا يخبرون اليهود بأخبار المسلمين يتوصلون إليهم بذلك فيصيبون من ثمارهم فنهاهم الله عن ذلك» ﴿**قد يئسوا من الآخرة**﴾ يعني اليهود وذلك أنهم عرفوا محمداً ﷺ وأنه رسول الله ﷺ فكذبوا به فيئسوا من أن يكون لهم ثواب أو خير في الآخرة ﴿**كما يئس الكفار من أصحاب القبور**﴾ يعني كما يئس الذين ماتوا على الكفر وصاروا في القبور من أن يكون لهم ثواب في الآخرة وذلك أن الكفار إذا دخلوا قبورهم أيسوا من رحمة الله تعالى وقيل معناه كما يئس الكفار من أصحاب القبور أن يرجعوا إليهم والمعنى: أن اليهود الذين عاينوا رسول الله ﷺ ولم يؤمنوا به قد يئسوا من ثواب الآخرة كما يئس الكفار من أصحاب القبور أن يرجعوا إليهم، والله سبحانه وتعالى أعلم.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تتولّوا قوماً غضب الله عليهم** ﴾، وهم اليهود وذلك أن أُناساً من فقراء المسلمين كانوا يخبرون اليهود أخبار المسلمين، يتوصلون إليهم بذلك فيصيبون من ثمارهم، فنهاهم الله عن ذلك، ﴿ **قد يئسوا** ﴾، يعني هؤلاء اليهود، ﴿ **من الآخرة** ﴾، بأن يكون لهم فيها ثواب وخير، ﴿ **كما يئس الكفّار من أصحاب القبور** ﴾، أي كما يئس الكفّار الذين ماتوا وصاروا في القبور من أن يكون لهم حظّ وثواب في الآخرة. قال مجاهد: الكفّار حين دخلوا قبورهم أيِسوا من رحمة الله. قال سعيد بن جبير: يئسوا من الآخرة كما يئس الكفار الذين ماتوا فعاينوا الآخرة. وقيل: كما يئس الكفّار من أصحاب القبور أن يرجعوا إليهم.

سورة الصف

وفيها قولان: أحدهما أنها مدنية وهو قول ابن عباس والجمهور.

والثاني أنها مكية وهي أربع عشرة آية ومائتان وإحدى وعشرون كلمة وتسعمائة حرف.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا
تَفۡعَلُونَ ﴿٢﴾

قوله عز وجل: ﴿سبح لله ما في السموات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون﴾ قيل سبب نزولها ما روي عن عبدالله بن سلام رضي الله عنه قال «قعدنا نفراً من أصحاب رسول الله ﷺ فتذاكرنا فقلنا لو نعلم أي الأعمال أحب إلى الله لعملنا فأنزل الله تعالى سبح لله ما في السموات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون قال عبد الله بن سلام فقرأها علينا رسول الله ﷺ» أخرجه الترمذي وقال المفسرون إن المؤمنين قالوا لو علمنا أحب الأعمال إلى الله لعلمناه ولبذلنا فيها أموالنا وأنفسنا فأنزل الله عز وجل: ﴿إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً وأنزل الله هل أدلكم على تجارة﴾ الآية فابتلوا بذلك يوم أحد فولوا مدبرين وكرهوا الموت وأحبوا الحياة فأنزل الله تعالى لم تقولون ما لا تفعلون وقيل لما أخبر الله تعالى رسوله ﷺ بثواب أهل بدر قالت الصحابة لئن لقينا قتالاً لنفرغن فيه وسعنا ففروا يوم أحد فعيرهم الله بهذه الآية وقيل نزلت في شأن القتال كان الرجل يقول قاتلت ولم يقاتل وأطعمت ولم يطعم وضربت ولم يضرب فنزلت هذه الآية وقيل نزلت في المنافقين وذلك أنهم كانوا يعدون النصر للمؤمنين وهم كاذبون.

كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفّٗا
كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٞ مَّرۡصُوصٞ ﴿٤﴾ وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ لِمَ تُؤۡذُونَنِي وَقَد تَّعۡلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ

سُوْرَة الصَّف

مدنيّة وقال عطاء: مكيّة وهي أربع عشرة آية.

﴿ سبّح لله ما في السمٰوات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم * يا أيها الذين آمنوا لِمَ تقولون ما لا تفعلون ﴾، قال المفسّرون إن المؤمنين قالوا لو نعلم أيّ الأعمال أحبّ إلى الله عزّ وجلّ لعملناه ولبذلنا فيه أموالنا وأنفسنا، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿ إن الله يحبّ الذين يقاتلون في سبيله صفّاً ﴾ [الصّف: ٤] فابتلوا بذلك يوم أُحُد فولّوا مدبرين، فأنزل الله تعالى ﴿ لِمَ تقولون ما لا تفعلون ﴾، وقـال محمد بن كعب: لمّـا أخبر الله تعـالى رسولـه ﷺ بثواب شهداء بدر، قالت الصحابة: لئن لقينا بعده قتالاً لنفرغنّ فيه وسعنا، ففرّوا يوم أُحُد فعيّرهم الله بهذه الآية. وقال قتادة والضحاك: نزلت في شأن القتال، كان الرجل يقول: قاتلت ولم يقاتل، وطعنت ولم يطعن، وضربت ولم يضرب، فنزلت هذه الآية. قال ابن زيد: نزلت في المنافقين كانوا يعدون النصر للمؤمنين وهم كاذبون.

إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾

﴿كبر مقتاً عند الله﴾ أي عظم بغضاً عند الله ﴿أن تقولوا ما لا تفعلون﴾ معناه أن يعدوا من أنفسهم شيئاً ولم يفوا به ﴿إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً﴾ أي يصفون أنفسهم عند القتال صفاً ولا يزولون عن أماكنهم ﴿كأنهم بنيان مرصوص﴾ أي قد رص بعضه ببعض وألزق بعضه إلى بعض وأحكم فليس فيه فرجة ولا خلل ومنه الحديث «تراصوا في الصف» ومعنى الآية إن الله يحب من يثبت في الجهاد في سبيله ويلزم مكانه كثبوت البناء المرصوص.

قوله تعالى: ﴿وإذ قال موسى لقومه﴾ أي واذكر يا محمد لقومك إذ قال موسى لقومه بني إسرائيل ﴿يا قوم لم تؤذونني﴾ قيل: إنهم كانوا يؤذونه بأنواع من الأذى التعنت منها قولهم أرنا الله جهرة وقولهم لن نصبر على طعام واحد ومنها أنهم رموه بالأدرة ﴿وقد تعلمون أني رسول الله إليكم﴾ يعني تؤذونني وأنتم عالمون علماً قطعياً أني رسول الله إليكم والرسول يعظم ويوقر ويحترم ولا يؤذي ﴿فلما زاغوا﴾ أي عدلوا ومالوا عن الحق ﴿أزاغ الله قلوبهم﴾ أي أمالها عن الحق إلى غيره ﴿والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾ أي لا يهدي من سبق في علمه أنه فاسق خارج عن طاعته وهدايته وهذا تنبيه على عظم إيذاء الرسل حتى إن أذاهم يؤدي إلى الكفر وزيغ القلوب عن الهدى ﴿وإذ قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم﴾ أي إني رسول أرسلت إليكم بالوصف الذي وصفت به في التوراة ﴿مصدقاً لما بين يدي من التوراة﴾ أي مقر معترف بأحكام التوارة وكتب الله وأنبيائه جميعاً ممن قد تقدم ﴿ومبشراً برسول يأتي من بعدي﴾ أي يصدق بالتوراة على مثل تصديقي فكأنه قيل ما اسمه فقال ﴿اسمه أحمد﴾ عن أبي موسى قال «أمر رسول الله ﷺ أصحابه أن يأتوا النجاشي» وذكر الحديث، وفيه قال سمعت النجاشي يقول أشهد أن محمداً رسول الله ﷺ بشر به عيسى ولولا ما أنا فيه من الملك وما تحملت من أمر الناس لأتيته حتى أحمل نعليه» أخرجه أبو داود وعن عبد الله بن سلام قال مكتوب في التوراة صفة محمد وعيسى ابن مريم يدفن معه فقال أبو داود المدني قد بقي في البيت موضع قبر أخرجه الترمذي عن كعب الأحبار أن الحواريين قالوا لعيسى ﷺ يا روح الله هل بعدنا من أمة؟ قال نعم[1] يأتي بعدكم أمة حكماء علماء أبرار أتقياء كأنهم في الفقه أنبياء يرضون من الله باليسير من الرزق ويرضى الله منهم باليسير من العمل (ق) عن جبير بن مطعم رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «لي خسمة أسماء أنا محمد وأنا أحمد

﴿ كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ﴾، قوله: ﴿ أن تقولوا ﴾ في موضع رفع فهو كقولك بئس رجلاً أخوك، ومعنى الآية أي عظم ذلك في المقت والبغض عند الله أي إن الله يبغض بغضاً شديداً أن تقولوا، ﴿ ما لا تفعلون ﴾، أي تعدوا من أنفسكم شيئاً ثم لم تفوا به.

﴿ إن الله يحبّ الذين يقاتلون في سبيله صفّاً ﴾، أي يصفّون أنفسهم عند القتال صفّاً ولا يزولون عن أماكنهم، ﴿ كأنهم بنيان مرصوص ﴾، قد رصّ بعضه ببعض أي ألزق بعضه ببعض وأحكم فليس فيه فرجه ولا خلل. وقيل أحكم بالرصاص.

﴿ وإذْ قال موسى لقومه ﴾، من بني إسرائيل، ﴿ يا قوم لِمَ تُؤذونني ﴾، وذلك حين رموه بالأدرة، ﴿ وقد تعلمون أني رسول الله إليكم ﴾، والرسول يُعظّم ويُحترَم، ﴿ فلما زاغوا ﴾، عدلوا عن الحق، ﴿ أزاغ الله قلوبهم ﴾، أمالها عن الحق، يعني أنهم لمّا تركوا الحق بإيذاء نبيّهم أمال الله قلوبهم عن الحق، ﴿ والله لا يهدي

---

(١) قوله قال نعم الخ كذلك في نسخة وفي أخرى قال نعم أمة أحمد حكماء اهـ من هامش.

وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي يوم القيامة وأنا العاقب الذي ليس بعدي نبي وقد سماه الله تعالى رؤوفاً رحيماً» وأحمد يحتمل معنيين أحدهما أنه مبالغة من الفاعل ومعناه أن الأنبياء كلهم حمادون لله عز وجل وهو أكثر حمداً لله من غيره والثاني أنه مبالغة من المفعول ومعناه أن الأنبياء كلهم محمودون لما فيهم من الخصال الحميدة وهو أكثر مبالغة وأجمع للفضائل والمحاسن والأخلاق التي يحمد بها من غيره، ﴿**فلما جاءهم بالبينات**﴾ قيل هو عيسى ﷺ وقيل هو محمد ﷺ ﴿**قالوا هذا سحر مبين**﴾ أي ظاهر.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ ۖ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ ﴿١٤﴾﴾

﴿**ومن أظلم ممن افترى على الله للكذب**﴾ أي ومن أقبح ظلماً ممن بلغ افتراؤه أن يكذب على الله وذلك أنهم علموا أن ما نالوه من نعمة فمن الله ثم كفروا به ﴿**وهو يدعى إلى الإسلام**﴾ معنى الآية أي الناس أشد ظلماً ممن يدعوه ربه على لسان نبيه ﷺ إلى الإسلام الذي له فيه سعادة الدارين فيجعل مكان إجابته افتراء الكذب على الله بقوله هذا سحر مبين ﴿**والله لا يهدي القوم الظالمين**﴾ أي لا يوفقهم للهداية علم من حالهم عقوبة لهم ﴿**يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم**﴾ يعني إرادتهم إبطال الإسلام بقولهم في القرآن هذا سحر ﴿**والله متم نوره**﴾ يعني متم للحق ومظهره ومبلغه غايته وقال ابن عباس مظهر دينه ﴿**ولو كره الكافرون هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله**﴾ أي ليعليه على الأديان المخالفة له ولقد فعل ذلك فلم يبق دين من الأديان إلا وهو مغلوب ومقهور بدين الإسلام ﴿**ولو كره المشركون**﴾، قوله عز وجل: ﴿**يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم**﴾ نزلت هذه الآية

القوم الفاسقين ﴾، قال الزجّاج: يعني لا يهدي مَن سبق في علمه أنه فاسق.

﴿ **وإذْ قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدّقاً لما بين يديّ من التوراة ومبشّراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد** ﴾، والألف فيه للمبالغة في الحمد، وله وجهان أحدهما أنه مبالغة من الفاعل أي الأنبياء كلهم حمّادون لله عزّ وجلّ وهو أكثر حمد الله من غير والثاني أنه مبالغة من المفعول أي الأنبياء كلهم محمودون لما فيهم من الخصال الحميدة وهو أكثر مناقب وأجمع للفضائل والمحاسن التي يحمد بها ﴿ **فلما جاءهم بالبيّنات قالوا هذا سحر مبين** ﴾.

﴿ **ومَن أظلم مِنّ افترى على الله الكذب وهو يُدعى إلى الإسلام والله لا يهدي القوم الظالمين * يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله مُتمّ نوره ولو كره الكافرون** ﴾.

﴿ **هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليُظهِره على الدين كله ولو كره المشركون** ﴾.

﴿ **يا أيها الذين آمنوا هل أدلّكم على تجارة تُنجيكم** ﴾، قرأ ابن عامر تنجيكم بالتشديد والآخرون بالتخفيف، ﴿ **من عذاب أليم** ﴾، نزل هذا حين قالوا: لو نعلم أيّ الأعمال أحبّ إلى الله عزّ وجلّ لعملناه، وجعل ذلك بمنزلة

حين قالوا لو نعلم أي الأعمال أحب إلى الله عز وجل لعملناه وإنما سماه تجارة لأنهم يربحون فيه رضا الله عز وجل ونيل جنته والنجاة من النار ثم بين تلك التجارة فقال تعالى: ﴿**تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلك خير لكم**﴾ أي الذي آمركم به من الإيمان والجهاد في سبيله ﴿**إن كنتم تعلمون يغفر لكم ذنوبكم**﴾ هذا جواب قوله تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون لأن معناه معنى الأمر والمعنى آمنوا بالله وجاهدوا في سبيل الله أي إذا فعلتم ذلك يغفر لكم ذنوبكم ﴿**ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار ومساكن طيبة في جنات عدن ذلك الفوز العظيم**﴾ يعني هذا الجزاء الذي ذكر هو الفوز العظيم، ﴿**وأخرى تحبونها**﴾ أي ولكم تجارة أخرى وقيل لكم خصلة أخرى تحبونها في العاجل مع ثواب الآخرة وتلك الحصلة ﴿**نصر من الله وفتح قريب**﴾، قيل هو النصر على قريش وفتح مكة وقيل فتح مدائن فارس والروم ﴿**وبشر المؤمنين**﴾ أي يا محمد بالنصر في الدنيا والجنة في الآخرة ثم حضهم على نصر الدين وجهاد المخالفين فقال تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله كما قال عيسى ابن مريم للحواريين من أنصاري إلى الله**﴾ أي مع الله والمعنى انصروا دين الله كما نصر الحواريون دين الله لما قال لهم عيسى من أنصاري إلى الله ﴿**قال الحواريون نحن أنصار الله**﴾ وكانوا اثني عشر رجلاً أول من آمن بعيسى عليه الصلاة والسلام وحواري الرجل صفيه وخلاصته ومنه قوله ﷺ «حواري» الزبير ﴿**فآمنت طائفة من بني إسرائيل وكفرت طائفة**﴾ قال ابن عباس في زمن عيسى عليه الصلاة والسلام وذلك أنه لما رفع تفرق قومه ثلاث فرق فرقة قالوا كان الله فارتفع وفرقة قالوا كان ابن الله فرفعه وفرقة قالوا كان عبد الله ورسوله فرفعه وهم المؤمنون واتبع كل فرقة منهم طائفة من الناس فاقتتلوا فظهرت الفرقتان الكافرتان على المؤمنين حتى بعث الله محمداً ﷺ فظهرت الفرقة المؤمنة على الكافرة فذلك قوله تعالى: ﴿**فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين**﴾ أي غالبين وقيل معناه فأصبحت حجة من آمن بعيسى ظاهرة بتصديق محمد ﷺ أن عيسى روح الله وكلمته والله أعلم بمراده وأسرار كتابه.

التجارة لأنهم يربحون فيها رضا الله ونيل جنّته والنجاة من النار ثم بيّن تلك التجارة فقال:

﴿ **تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خيرٌ لكم إن كنتم تعلمون * يغفرْ لكم ذنوبكم ويدخلْكم جنّاتٍ تجري من تحتها الأنهار ومساكن طيبة في جنّات عدن ذلك الفوز العظيم** ﴾.

﴿ **وأُخرى تحبّونها** ﴾، ولكم خصلة أخرى تحبّونها في العاجل مع ثواب الآخرة وتلك الخصلة، ﴿ **نصر من الله وفتح قريب** ﴾، قال الكلبي: هو النصر على قريش، وفتح مكة. وقال عطاء: يريد فتح فارس والروم. ﴿ **وبشّرِ المؤمنين** ﴾، يا محمد بالنصر في الدنيا والجنة في الآخرة ثم حضّنهم على نصرة الدين وجهاد المخالفين.

فقال: ﴿ **يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله** ﴾، قرأ أهل الحجاز وأبو عمرو (أنصاراً) بالتنوين (لله) بلام الإضافة، وقرأ الآخرون ﴿ **أنصار الله** ﴾ بالإضافة كقوله: ﴿ **نحن أنصار الله** ﴾، ﴿ **كما قال عيسى ابن مريم للحواريين** ﴾، أي انصروا دين الله مثل نصرة الحواريين لمّا قال لهم عيسى عليه السلام: ﴿ **مَن أنصاري إلى الله** ﴾، أي مَن ينصرني مع الله، ﴿ **قال الحواريون نحن أنصار الله فآمنت طائفة من بني إسرائيل وكفرتْ طائفة** ﴾، قال ابن عباس: يعني في زمن عيسى عليه السلام، وذلك أنه لمّا رفع تفرّق قومه ثلاث فِرَق: فرقة قالوا كان الله فارتفع، وفرقة قالوا كان ابن الله فرفعه الله إليه، وفرقة قالوا كان عبد الله ورسوله فرفعه إليه وهم المؤمنون، واتّبع كل فرقة منهم طائفة من الناس، فاقتتلوا فظهرت الفرقتان الكافرتان على المؤمنين حتى بعث الله محمداً ﷺ فظهرت المؤمنة على الكافرة، فذلك قوله تعالى: ﴿ **فأيّدنا الذين آمنوا على عدوّهم فأصبحوا ظاهرين** ﴾، غالبين عالين، وروى مغيرة عن إبراهيم قال فأصبحت حجة مَن آمن بعيسى ظاهرة بتصديق محمد ﷺ أن عيسى كلمة الله وروحه.

سورة الجمعة

(مدنية وهي إحدى عشرة آية ومائة وثلاثون كلمة وسبعمائة وعشرون حرفاً)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ رَسُولًا
مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾ وَءَاخَرِينَ
مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾

قوله عز وجل: **﴿يسبح لله ما في السموات وما في الأرض الملك القدوس العزيز الحكيم هو الذي بعث في الأميين﴾** يعني العرب وكانت العرب أمة أمية لا تكتب ولا تقرأ حتى بعث فيهم نبي الله وقيل الأمي هو الذي على ما خلق عليه كأنه منسوب إلى أمه **﴿رسولاً منهم﴾** يعني محمد ﷺ يعلمون نسبه وهو من جنسهم وقيل أمياً مثلهم وإنما كان أمياً لأن نعته في كتب الأنبياء النبي الأمي وكونه بهذه الصفة أبعد من توهم الاستعانة بالكتابة على ما أتى به من الوحي والحكمة ولتكون حاله مشاكلة لحال أمته الذين بعث فيهم وذلك أقرب إلى صدقه **﴿يتلو عليهم آياته﴾** أي التي يبين رسالته وقيل آياته التي يتميز بها الحلال من الحرام والحق من الباطل **﴿ويزكيهم﴾** أي يطهرهم من دنس الشرك

سُوْرَةُ الجُمعة

مدنيّة وهي إحدى عشرة آية.

﴿ يسبّح لله ما في السموات وما في الأرض الملك القدّوس العزيز الحكيم * هو الذي بعث في الأمّيين ﴾، يعني العرب كانت أمة أمّيّة لا تكتب ولا تقرأ **﴿ رسولاً منهم ﴾**، يعني محمداً ﷺ نسبُه نسبُهم، **﴿ يتلوا عليهم آياته ويزكّيهم ويعلّمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين ﴾**، أي ما كانوا قبل بعثة الرسول إلاّ في ضلال مبين يعبدون الأوثان.

﴿ وآخرين منهم ﴾، وفي آخرين وجهان من الإعراب أحدهما الخفض على الردّ إلى الأمّيّين مجازه وفي آخرين والثاني النصب على الردّ إلى الهاء والميم في قوله: **﴿ ويعلمهم ﴾** أي ويعلم آخرين منهم، أي المؤمنين الذين يدينون بدينهم، لأنهم إذا أسلموا صاروا منهم، فإن المسلمين كلهم أمّة واحدة، واختلف العلماء فيهم فقال قوم: هم العجم، وهو قول ابن عمر وسعيد بن جبير ورواية ليث عن مجاهد، والدليل عليه ما أخبرنا أبو جعفر محمد بن عبد الله بن محمد المعلم الطوسي بها ثنا أبو الحسن محمد بن يعقوب أنا أبو النصر محمد بن محمد بن يوسف ثنا الحسين بن سفيان وعلي بن طيفور وأبو العباس الثقفي قالوا حدّثنا قتيبة ثنا عبد العزيز عن ثور عن أبي الغيث عن أبي هريرة قال: كنّا جلوساً عند النبي ﷺ إذْ نزلت عليه سورة الجمعة، فلما قرأ: **﴿ وآخرين منهم لما**

﴿ويعلمهم الكتاب﴾ أي القرآن وقيل الفرائض ﴿والحكمة﴾ قيل هي السنة ﴿وإن كانوا من قبل﴾ أي من قبل إرسال محمد ﷺ ﴿لفي ضلال مبين وآخرين منهم﴾ أي من المؤمنين الذين ظهروا يدينون بدينم لأنهم إذا أسلموا صاروا منهم فإن المسلمين كلهم أمة واحدة، وقيل أراد بالآخرين العجم وهو قول ابن عمر وسعيد بن جبير ورواية عن مجاهد يدل عليه ما روي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال «كنا جلوساً عند النبي ﷺ إذ نزلت سورة الجمعة فتلاها فلما بلغ وآخرين منهم لما يلحقوا بهم قال له رجل يا رسول الله من هؤلاء الذين لم يلحقوا بنا فلم يكلمه حتى سأله ثلاثاً قال وسلمان الفارسي فينا فوضع رسول الله ﷺ يده على سلمان وقال والذي نفسي بيده لو كان الإيمان بالثريا لتناوله رجال من هؤلاء» أخرجاه في الصحيحين، وقيل هم جميع من دخل في الإسلام بعد النبي ﷺ إلى يوم القيامة ﴿لما يلحقوا بهم﴾ لم يدركوهم ولكنهم جاؤوا بعدهم وقيل لم يلحقوا بهم في الفضل والسابقة لأن التابعين لا يدركون شأو الصحابة ﴿وهو العزيز﴾ أي الغالب الذي قهر الجبابرة ﴿الحكيم﴾ أي الذي جعل كل مخلوق يشهد بوحدانيته.

ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤﴾ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓا۟ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦﴾ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾

﴿ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء﴾ يعني الإسلام وقيل النبوة خص بها محمداً ﷺ ﴿والله ذو الفضل العظيم﴾ أي على خلقه حيث أرسل فيهم رسوله محمداً ﷺ.

قوله تعالى: ﴿مثل الذين حملوا التوراة﴾ يعني اليهود حيث كلفوا القيامة بها والعمل بما فيها وليس هو من الحمل على الظهر وإنما هو من الحمالة والحميل والكفيل ﴿ثم لم يحملوها﴾ أي لم يعملوا بما فيها ولم يؤدوا حقها، ﴿كمثل الحمار يحمل أسفاراً﴾ جمع سفر الكتب العظام من العلم سمى سفراً لأنه سفر عما فيه من المعنى وهذا مثل ضربه الله تعالى لليهود الذين أعرضوا عن العمل بالتوراة والإيمان بمحمد ﷺ شبهوا إذا لم ينتفعوا بما في التوراة الدال

يلحقوا بهم ﴾ قال رجل: مَن هؤلاء يا رسول الله فلم يراجعه النبي ﷺ حتى سأله مرتين أو ثلاثاً، قال: وفينا سلمان الفارسي؟ قال: فوضع النبي ﷺ يده على سلمان، ثم قال: «لو كان الإيمان عند الثريا لناله رجال من هؤلاء»، أخبرنا أبو سعيد عبد الله بن أحمد الطاهري أنا جدّي عبد الصمد بن عبد الصمد الرحمن البزار أنا محمد بن زكريا العذافري أنا إسحاق الدبري ثنا عبد الرزاق أنا معمر عن جعفر الجرزي عن يزيد بن الأصم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لو كان الدين عند الثريا لذهب إليه رجل أو قال رجال من أبناء فارس حتى يتناولوه»، وقال عكرمة ومقاتل: هم التابعون. وقال ابن زيد: هم جميع مَن دخل في الإسلام بعد النبي ﷺ. وهي رواية ابن أبي نجيح عن مجاهد. قوله: ﴿ لمّا يلحقوا بهم ﴾، أي لم يدركوهم ولكنهم يكونون بعدهم. وقيل لمّا يلحقوا بهم أي في الفضل والسابقة لأن التابعين لا يدركون شيئاً والصحابة. ﴿ وهو العزيز الحكيم ﴾.

﴿ ذلك فضل الله يؤتيه مَن يشاء ﴾، يعني الإسلام والهداية. ﴿ والله دو الفضل العظيم ﴾.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ مَثَلُ الذين حُمِّلُوا التوراة ﴾، أي كُلِّفوا القيام بها والعمل بما فيها، ﴿ ثم لم يحملوها ﴾، لم يعملوا بما فيها ولم يؤدّوا حقها، ﴿ كمثل الحمار يحمل أسفاراً ﴾، أي كتباً من العلم واحدها سفر، قال الفرّاء:

على الإيمان بمحمد ﷺ بالحمار الذي يحمل الكتب ولا يدري ما فيها ولا ينتفع بها كذلك اليهود الذين يقرؤون التوراة ولا ينتفعوا بها لأنهم خالفوا ما فيها وهذا المثل يلحق من لم يفهم معاني القرآن ولم يعمل بما فيه وأعرض عنه إعراض من لا يحتاج إليه ولهذا قال ميمون بن مهران يا أهل القرآن اتبعوا القرآن قبل أن يتبعكم ثم تلا هذه الآية ثم ذم هذا المثل والمراد منهم ذمهم فقال تعالى: ﴿**بئس مثل القوم**﴾ يعني بئس مثلاً مثل القوم ﴿**الذين كذبوا بآيات الله**﴾ يعني محمداً ﷺ وما أتي من آيات القرآن وقيل المراد من الآيات آيات التوراة لأنهم كذبوا بها حين تركوا الإيمان بمحمد ﷺ ﴿**والله لا يهدي القوم الظالمين**﴾ أي لا يهدي من سبق في علمه أن يكون ظالماً وقيل يعني الذين ظلموا أنفسهم بتكذيب آيات الله وأنبيائه ﴿**قل**﴾ أي قل يا محمد ﴿**يا أيها الذين هادوا إن زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس**﴾ أي من دون محمد ﷺ وأصحابه ﴿**فتمنوا الموت**﴾ ادعوا على أنفسكم ﴿**بالموت إن كنتم صادقين**﴾ يعني فيما زعمتم أنكم أبناء الله وأحباؤه فإن الموت هو الذي يوصلكم إليه لأن الآخرة خير لأولياء الله من الدنيا ﴿**ولا يتمنونه أبداً بما قدمت أيديهم**﴾ أي بسبب ما قدموا من الكفر والتكذيب ﴿**والله عليم بالظالمين قل إن الموت الذي تفرون منه فإنه ملاقيكم**﴾ أي لا ينفعكم الفرار منه ﴿**ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون**﴾ فيه وعيد وتهديد.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾

قوله عز وجل: ﴿**يا أيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة**﴾ أي لوقت الصلاة ﴿**من يوم الجمعة**﴾ أي في يوم الجمعة وأراد بهذا النداء الإذن عند قعود الإمام على المنبر للخطبة لأنه لم يكن في عهد رسول الله ﷺ نداء سواه «كان إذا جلس ﷺ على المنبر أذن بلال» (خ) عن السائب بن يزيد قال «كان النداء يوم الجمعة أوله إذا جلس الإمام على المنبر على عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر فلما كان عثمان وكثر الناس زاد النداء الثاني على الزوراء» زاد في رواية «فثبت الأمر على ذلك»، ولأبي داود قال «كان يؤذن بين يدي النبي ﷺ إذا جلس على المنبر يوم الجمعة على باب المسجد وذكر نحوه» الزوراء موضع عند سوق المدينة قريب من المسجد وقيل كان مرتفعاً كالمنارة.

هي الكتب العِظام يعني كما أن الحمار يحملها ولا يدري ما فيها ولا ينتفع بها، كذلك اليهود يقرؤون التوراة ولا ينتفعون بها لأنهم خالفوا ما فيها، ﴿ **بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدي القوم الظالمين** ﴾، الذين ظلموا أنفسهم بتكذيب الأنبياء يعني مَن سبق في علمه أنه لا يهديهم.

﴿ **قل يا أيها الذين هادوا إن زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس** ﴾، محمد ﷺ وأصحابه، ﴿ **فتمنّوا الموت** ﴾، فدعوا بالموت على أنفسكم، ﴿ **إن كنتم صادقين** ﴾، أنكم أبناء الله وأحباؤه فإن الموت هو الذي يوصلكم إليه.

﴿ **ولا يتمنّونه أبداً بما قدّمت أيديهم والله عليم بالظالمين * قل إن الموت الذي تفرّون منه فإنه مُلاقيكم ثم تُردّون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون** ﴾.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إذا نُودِيَ للصلاة من يوم الجمعة** ﴾، أي في يوم الجمعة كقوله: ﴿ أروني ماذا خلقوا من الأرض ﴾ [فاطر: ٤٠] أي في الأرض، وأراد بهذا النداء الأذان عند قعود الإمام على المنبر للخطبة، أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا آدم ثنا ابن أبي ذئب عن الزهري عن السائب بن يزيد قال: كان النداء يوم الجمعة أوله إذا جلس الإمام على المنبر على عهد النبي ﷺ وأبي بكر وعمر، فلما كان عثمان وكثر الناس زاد النداء الثاني على الزوراء، قرأ الأعمش:

واختلفوا في تسمية هذا اليوم جمعة فقيل لأن الله تعالى جمع فيه خلق آدم وقيل لأن الله تعالى فرغ من خلق الأشياء فيه فاجتمعت فيه المخلوقات وقيل لاجتماع الجماعات فيه للصلاة وقيل أول من سمى هذا اليوم جمعة كعب بن لؤي قال أبو سلمة أول من قال أما بعد كعب بن لؤي وكان أول من سمى الجمعة جمعة وكان يقال لها يوم العروبة، عن ابن سيرين قال جمع أهل المدينة قبل أن يقدم النبي ﷺالمدينة وقبل أن تنزل الجمعة وهم الذين سموا الجمعة وقالوا لليهود يوم يجتمعون فيه كل سبعة أيام وللنصارى يوم فهلم فلنجعل يوماً نجتمع فيه فنذكر اسم الله تعالى ونصلي فقالوا يوم السبت لليهود ويوم الأحد للنصارى فاجعلوه يوم العروبة ثم أنزل الله تعالى في ذلك اليوم ﴿**يا أيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة**﴾ الآية عن كعب بن مالك أنه كان إذا سمع النداء يوم الجمعة ترحم لأسعد بن زرارة فقال له ابنه عبد الرحمن يا أبت إذا سمعت النداء ترحمت لأسعد بن زرارة قال لأنه أول من جمع بنا في هزم النبيت من حرة بني بياضة في نقيع يقال له نقيع الخضمات قلت له كم كنتم يومئذ؟ قال أربعون» أخرجه أبو داود وأما أول جمعة جمعها رسول الله ﷺ فذكر أصحاب السير أن النبي ﷺ لما دخل المدينة مهاجراً نزل قباء على بني عمرو بن عوف وذلك يوم الاثنين لثنتي عشرة خلت من ربيع الأول حين امتد الضحى فأقام بقباء يوم الاثنين والثلاثاء والأربعاء ويوم الخميس وأسسس مسجدهم ثم خرج من بين أظهرهم يوم الجمعة عامداً إلى المدينة فأدركته صلاة الجمعة في بني سالم بن عوف في بطن واديهم وقد اتخذوا في ذلك الموضع مسجداً فجمع فيه رسول الله ﷺ وخطب.

وقوله تعالى: ﴿**فاسعوا إلى ذكر الله**﴾ أي فامضوا إليه واعملوا له وليس المراد من السعي الإسراع في المشي

﴿ **من يوم الجمعة** ﴾ بسكون الميم، وقرأ العامّة بضمّها، واختلفوا في تسمية هذا اليوم جمعة، منهم مَن قال: لأن الله تعالى جمع فيه خلق آدم عليه السلام. وقيل: لأن الله تعالى فرغ من خلق جميع الأشياء فاجتمعت فيه المخلوقات. وقيل: لاجتماع الجماعات فيها. وقيل: لاجتماع الناس فيها للصلاة. وقيل: أول مَن سمّاها جمعة كعب بن لؤي قال أبو سلعة: أول مَن قال أما بعد كعب بن لؤي، وكان أول مَن سمّى الجمعة جمعة، وكان يقال له يوم العروبة. وعن ابين سيرين قال: جمع أهل المدينة قبل أن يقدم النبي ﷺ المدينة. وقيل: إن ينزل يوم الجمعة وهم الذين سمّوها الجمعة. وقالوا لليهود يوم يجتمعون فيه كل سبعة أيام، وللنصارى يوم، فهلمّ فلنجعل يوماً نجتمع فيه، فنذكر الله ونصلّي فيه، فقالوا: يوم السبت لليهود، ويوم الأحد للنصارى، فاجعلوه يوم العروبة، فاجتمعوا إلى أسعد بن زرارة فصلّى بهم ركعتين وذكرهم فسمّوه يوم الجمعة، ثم أنزل الله عزّ وجلّ في ذلك بعد. ورُوِيَ عن عبد الله بن كعب بن مالك عن أبيه عن كعب أنه كان إذا سمع النداء يوم الجمعة ترحّم لأسعد بن زرارة، فقلت له: إذا سمعت النداء ترحمت لأسعد بن زرارة؟ قال: لأنه أول مَن جمع بنا في هزم النبيت من حرّة بني بياضة في بقيع يقال له بقيع الخضمات، قلت له: كم كنتم يومئذ؟ قال: أربعون، وأما أول جمعة جمعها رسول الله ﷺ بأصحابه فذكر أهل السِّير أن النبي ﷺ لمّا قَدِمَ المدينة مُهاجراً نزل قباء على بني عمرو بن عوف، وذلك يوم الإثنين لثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول حين امتد الضحى، فأقام ببقاء يوم الإثنين والثلاثاء والأربعاء ويوم الخميس، وأسّسَ مسجدهم، ثم خرج من بين أظهرهم يوم الجمعة عامداً المدينة فأدركته صلاة الجمعة في بني سالم بن عوف في بطن وادٍ لهم، وقد اتخذوا في ذلك الموضع مسجداً فجمع هناك وخطب، قوله تعالى: ﴿ **فاسعوا إلى ذكر الله** ﴾، أي فامضوا إليه واعملوا له، وليس المراد من السعي الإسراع إنما المراد منه العمل والفعل، كما قال: ﴿ وإذا تولى سعى في الأرض ﴾ [البقرة: ٢٠٥]، وقال: ﴿ إن سعيكم لشتّى ﴾ [الليل: ٤]، وكان عمر بن الخطاب يقرأ: فامضوا إلى ذكر الله، وكذلك هي في قراءة عبد الله بن مسعود. وقال الحسن: أما والله ما هو بالسعي على الأقدام ولقد نهوا أن يأتوا الصلاة إلّا وعليهم السكينة والوقار، ولكن بالقلوب والنيّة والخشوع.

وإنما المراد منه العمل وكان عمر بن الخطاب يقرأ فامضوا إلى ذكر الله وقال الحسن أما والله ما هو بالسعي على الاقدام ولقد نهوا أن يأتوا إلى الصلاة إلا وعليهم السكينة والوقار ولكن بالقلوب والنية والخشوع.

وعن قتادة في هذه الآية فاسعوا إلى ذكر الله قال السعي أن تسعى بقلبك وعملك وهو المشي إليها وكان يتأول قوله: ﴿فلما بلغ معه السعي﴾ بقوله فلما مشى معه (ق) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «إذا سمعتم الإقامة فامشوا إلى الصلاة وعليكم السكينة والوقار ولا تسرعوا فما أدركتم فصلوا وما فاتكم فأتموا» وفي رواية «فإذا أقيمت الصلاة فلا تأتوها تسعون وأتوها تمشون وعليكم السكينة» وذكره زاد مسلم «فإن أحدكم إذا كان يعمد إلى الصلاة فهو في الصلاة» والمراد بقوله فاسعوا إلى ذكر الله الصلاة وقال سعيد بن المسيب هو موعظة الإمام ﴿وذروا البيع﴾ يعني البيع والشراء لأن البيع اسم يتناولهما جميعاً وهو من لوازمه وإنما يحرم البيع والشراء عند الأذان الثاني وقال الزهري عند خروج الإمام وقال الضحاك إذا زالت الشمس حرم البيع والشراء ﴿ذلكم﴾ أي الذي ذكرت من حضور الجمعة وترك البيع والشراء ﴿خير لكم﴾ أي من المبايعة في ذلك الوقت ﴿إن كنتم تعلمون﴾ أي من مصالح أنفسكم والله تعالى أعلم.

(فصل: في فضل الجمعة وأحكامها وإثم تاركها)

وفيه مسائل:

(المسألة الأولى): في فضلها (م) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة فيه خلق آدم وفيه أدخل الجنة وفيه أخرج لما منها»، زاد في رواية «ولا تقوم الساعة إلا في يوم الجمعة» (ق) عنه «أن رسول الله ﷺ ذكر يوم الجمعة فقال: فيه ساعة لا يوافقها عبد مسلم وهو يصلي يسأل فيها شيئاً

وعن قتادة في هذه الآية: فاسعوا إلى ذكر الله، قال: فالسعي أن تسعى بقلبك وعملك وهو المشي إليها، وكان يتأوّل قوله: ﴿ فلما بلغ معه السعي ﴾ [الصّافّات: ١٠٢] يقول فلما مشى معه. أخبرنا الإمام أبو علي الحسين بن محمد القاضي أنا أبو بكر أحمد بن الحسن الحيري أنا محمد بن محمد بن معقل الميداني ثنا محمد بن يحيىٰ ثنا عبد الرزّاق أنا معمر عن الزهري عن ابن المسيب عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أُقيمت الصلاة فلا تأتوها تسعون، ولكن ائتوها تمشون وعليكم السكينة والوقار، فما أدركتم فصلّوا وما فاتكم فأتمّوها»، قوله: ﴿ **إلى ذكر الله** ﴾ أي الصلاة، وقال سعيد بن المسيب: ﴿ **فاسعوا إلى ذكر الله** ﴾ قال هو موعظة الإمام، ﴿ **وذَروا البيع** ﴾، يعني البيع والشراء لأن اسم البيع يتناولهما جميعاً. وإنّما يَحْرُم البيع والشراء عند الأذان الثاني، وقال الزهري عند خروج الإمام. وقال الضحاك: إذا زالت الشمس حرُم البيع والشراء، ﴿ **ذلكم** ﴾، الذي ذكرت من حضور الجمعة وترك البيع، ﴿ **خير لكم** ﴾، من المبايعة، ﴿ **إن كنتم تعلمون** ﴾، مصالح أنفسكم، واعلم أن صلاة الجمعة من فروض الأعيان فتجب على كل مَن جمع العقل والبلوغ والحرية والذكورة والإقامة إذا لم يكن له عذر فمَن تركها استحق الوعيد أما الصبي والمجنون فلا جمعة عليهما، لأنهما ليسا من أهل أن يلزمهما فرض الأبدان لنقصان أبدانهما، ولا جمعة على النساء بالاتّفاق، أخبرنا عبد الوهاب بن محمد الخطيب أنا عبد العزيز أحمد الخلال أنا أبو العباس الأصم أنا الربيع أنا الشافعي أنا إبراهيم بن محمد حدّثني سلمة بن عبد الله الخطمي عن محمد بن كعب أنه سمع رجلاً من بني وائل يقول: قال النبي ﷺ: «تجب ترك الجمعة على كل مسلم إلّا امرأة أو صبيّاً أو مملوكاً» وذهب أكثرهم إلى أنه لا جمعة على العبيد. وقال الحسن وقتادة والأوزاعي: تجب على العبد المخارج ولا على المسافر عند الأكثرين. وقال النخعي والزهري: تجب على المسافر إذا سمع النداء،

إلا أعطاه إياه وأشار بيده يقللها» (ق) عنه أن رسول الله ﷺ قال «من اغتسل يوم الجمعة غسل الجنابة ثم راح في الساعة الأولى فكأنما قرب بدنة، ومن راح في الساعة الثانية فكأنما قرب بقرة ومن راح في الساعة الثالثة فكأنما قرب كبشاً أقرن ومن راح في الساعة الرابعة فكأنما قرب دجاجة ومن راح في الساعة الخامسة فكأنما قرب بيضة فإذا أحرم الإمام حضرت الملائكة يستمعون الذكر»، وفي رواية «إذا كان يوم الجمعة كان على كل باب من أبواب المساجد ملائكة يكتبون الأول فالأول فإذا جلس الإمام طووا الصحف وجاؤوا يستمعون الذكر» قوله من اغتسل يوم الجمعة غسل الجنابة معناه غسلاً كغسل الجنابة (م) عنه أن رسول الله ﷺ قال «من توضأ فأحسن الوضوء ثم أتى الجمعة واستمع وأنصت غفر له ما بينه وبين الجمعة الأخرى وزيادة ثلاثة أيام ومن مس الحصى فقد لغا» قوله ومن مس الحصى فقد لغا معناه أنه يشغله عن سماع الخطبة كما يشغله الكلام فجعله كاللغو (خ) عن عبادة قال أدركني أبو عيسى وأنا ذاهب إلى الجمعة فقال سمعت النبي ﷺ يقول «من اغبرت قدماه في سبيل الله حرمه الله على النار» عن أبي هريرة رضي الله عنه قال خرجت إلى الطور فرأيت كعب الأحبار فجلست معه فحدثني عن التوراة وحدثته عن رسول الله ﷺ وكان فيما حدثته أن قلت له قال رسول الله ﷺ «خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة فيه خلق آدم وفيه أهبط وفيه مات وفيه تيب عليه وفيه تقوم الساعة وما دابة إلا وهي مصيخة يوم الجمعة من حين تصبح حتى تطلع الشمس شفقاً من الساعة إلا الجن والإنس وفيها ساعة لا يوافقها عبد مسلم وهو يصلي يسأل الله تعالى شيئاً إلا أعطاه إياه» قال كعب ذاك في كل سنة يوماً فقلت بل في كل جمعة فقرأ كعب التوراة فقال صدق رسول الله ﷺ قال أبو هريرة ثم لقيت عبد الله بن سلام فحدثته بمجلسي مع كعب الأحبار وما حدثته في يوم الجمعة فقال عبد الله بن سلام قد علمت أي ساعة هي قال أبو هريرة فقلت أخبرني بها ولا تكن عني، وفي رواية تضن عليّ قال هي آخر ساعة في يوم الجمعة قال أبو هريرة قلت وكيف تقول آخر ساعة في يوم الجمعة وقد قال رسول الله ﷺ لا يصادفها عبد مسلم وهو يصلي وتلك الساعة لا يصلي

وكل مَن له عذر من مرض أو تعهّد مريض أو خوف، جاز له ترك الجمعة، وكذلك له تركها بعذر المطر والوحل، أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل أخبرنا عبد المجيد صاحب الزيادي ثنا عبد الله بن الحارث بن عمر ثنا محمد بن سيرين قال ابن عباس لمؤذّنه في يوم مطير: إذا قلت أشهد أن محمداً رسول الله فلا تقل حيّ على الصلاة قل صلّوا في بيوتكم، فكأن الناس استنكروا، فقال فعله مَن هو خير منّي إن الجمعة عزيمة وإني كرهت أن أُخرجكم من بيوتكم فتمشون في الطين والدحض، وكل مَن لا يجب عليه حضور الجمعة، فإذا حضر وصلّى مع الإمام الجمعة سقط عنه فرض الظهر، ولكن لا يكمل به عدد الجمعة إلّا صاحب العذر، فإنه إذا حضر يكمل به العدد، أخبرنا الإمام أبو الحسن عبد الرحمن بن محمد الداودي أنا أبو محمد عبد الله بن أحمد بن حمويه السرخسي في سنة إحدى وثمانين وثلثمائة أنا عيسى بن عمر بن العباس السمرقندي ثنا أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي السمرقندي أنا يحيىٰ بن حسان ثنا معاوية بن سلام أخبرني زيد بن سلام أنه سمع أبا سلام يقول حدّثني الحكم بن مينا أن ابن عمر حدّثه وأبا هريرة أنهما سمعا رسول الله ﷺ يقول وهو على أعواد مِنبره: «لينتهينّ أقوام عن ودعهم الجمعات أو ليختمن الله على قلوبهم ثم ليكوننّ من الغافلين». أخبرنا أبو عثمان الضبّي أنا أبو محمد الخزاعي ثنا أبو العباس المحبوبي ثنا أبو عيسى الترمذي ثنا علي بن خشرم أنا عيسى بن يونس عن محمد بن عمرو عن عبيدة بن سفيان عن أبي الجعد يعني الضميري قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن ترك الجمعة ثلاثة مرات تهاوناً بها طبع الله على قلبه»، واختلف أهل العلم في موضع إقامة الجمعة وفي العدد الذي تنعقد به الجمعة، وفي المسافة التي يجب أن يؤتى منها، أما الموضع فذهب قوم إلى أن كل قرية اجتمع فيها أربعون رجلاً من أهل الكمال، بأن يكونوا أحراراً عاقلين بالغين مُقيمين لا

فيها قال عبد الله بن سلام ألم يقل رسول الله ﷺ «من جلس مجلساً ينتظر الصلاة فهو في صلاة حتى يصليها» قال أبو هريرة فقلت بلى قال فهو ذلك أخرجه مالك في الموطأ والنسائي (خ) عن سلمان قال: قال رسول الله ﷺ «لا يغتسل رجل يوم الجمعة ويتطهر ما استطاع من الطهور ويدهن من دهنه ويمس من طيب بيته ثم يخرج فلم يفرق بين اثنين ثم يصلي ما كتب له ثم ينصت إذا تكلم الإمام إلا غفر له ما بينه وبين الجمعة» الأخرى عن أوس بن أوس الثقفي قال سمعت رسول الله ﷺ يقول «من غسل واغتسل وبكر وابتكر ومشى ولم يركب ودنا من الإمام ولم يلغ واستمع كان له بكل خطوة أجر عمل سنة صيامها وقيامها» أخرجه أبو داود والنسائي قال أبو داود سئل مكحول عن غسل واغتسل قال غسل رأسه وجسده.

(المسألة الثانية): في إثم تاركها (م) عن عبد الله بن عمرو بن العاص وأبي هريرة أنهما سمعا رسول الله ﷺ يقول على منبره «لينتهين أقوام عن ودعهم الجمعات أو ليختمن الله على قلوبهم ثم ليكونن من الغافلين» عن أبي الجعد الضمري وكان له صحبة أن رسول الله ﷺ قال من «ترك ثلاث جمع تهاوناً طبع الله على قلبه» أخرجه أبو داود والنسائي وللترمذي نحوه (م) عن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال لقوم يتخلفون عن الجمعة «هممت أن آمر رجلاً يصلي بالناس ثم أحرق على رجال يتخلفون عن الجمعة بيوتهم».

(المسألة الثالثة): في تأكيد وجوبها قال العلماء صلاة الجمعة هي من فروض الأعيان فتجب على كل مسلم حر بالغ عاقل ذكر مقيم إذا لم يكن له عذر في تركها ومن تركها من غير عذر استحق الوعيد أما الصبي والمجنون فلا جمعة عليهما لأنهما ليسا من أهل الفرض ولا جمعة على النساء بالاتفاق يدل عليه ما روي عن طارق بن شهاب أن رسول

يظعنون عنها شتاءً ولا صيفاً، إلا ظعن حاجة، تجب عليهم إقامة الجمعة فيها، وهو قول عبيد الله بن عبد الله وعمر بن عبد العزيز، وبه قال الشافعي وأحمد وإسحاق، وقالوا: لا تنعقد الجمعة بأقل من أربعين رجلاً على هذه الصفة وشرط عمر بن عبد العزيز مع عدد الأربعين أن يكون فيهم والٍ، والوالي غير شرط عند الشافعي، وقال علي لا جمعة إلّا في مِصْر جامع وهو قول أصحاب الرأي، ثم عند أبي حنيفة رضي الله عنه تنعقد بأربعة والوالي شرط، وقال الأوزاعي وأبو يوسف: تنعقد بثلاثة إذا كان فيهم والٍ. وقال الحسن وأبو ثور: تنعقد باثنين كسائر الصلوات. وقال ربيعة: تنعقد باثني عشر رجلاً، والدليل على جواز إقامتها في القرى ما أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف محمد بن إسماعيل ثنا محمد بن المثنى أنا أبو عامر العقدي ثنا إبراهيم بن طهمان عن أبي جمرة الضبعي عن ابن عباس قال: إن أول جمعة جمعت بعد جمعة في مسجد رسول الله ﷺ في مسجد عبد القيس بحؤاتي من البحرين، وإذا كان الرجل مقيماً في قرية لا تُقام فيها الجمعة، أو كان مقيماً في برية، فذهب قوم إلى أنه إن كان يبلغهم النداء في موضع الجمعة يلزمهم حضور الجمعة، وإن كان لا يبلغهم النداء فلا جمعة عليهم، وهو قول الشافعي وأحمد وإسحاق، والشرط أن يبلغهم نداء مؤذّن جهوري الصوت مؤذّن في وقت تكون الأصوات فيه هادئة والرياح ساكنة، فكل قرية تكون من موضع الجمعة في القُرْب على هذا القدر يجب على أهلها حضور الجمعة. وقال سعيد بن المسيب: تجب على كل مَن آواه المبيت. وقال الزهري: تجب على مَن كان على ستّة أميال. وقال ربيعة: على أربعة أميال. وقال مالك والليث: على ثلاثة أميال. وقال أبو حنيفة رضي الله عنه: لا جمعة على أهل السواد قريبة كانت القرية أو بعيدة. وكلّ مَن تلزمه صلاة الجمعة لا يجوز له أن يسافر يوم الجمعة بعد الزوال قبل أن يصلّي الجمعة، وجوّز أصحاب الرأي أن يسافر بعد الزوال إذا كان يفارق البلد قبل خروج الوقت، أما إذا سافر قبل الزوال قبل طلوع الفجر فيجوز، غير أنه يكره إلّا أن يكون سفره سفر طاعة من حج أو غزو، وذهب بعضهم إلى أنه إذا أصبح يوم الجمعة مُقيماً فلا يسافر حتى يصلّي الجمعة، والدليل على

الله ﷺ قال «الجمعة حق واجب على كل مسلم في جماعة إلا على أربعة عبد مملوك أو امرأة أو صبي أو مريض»، أخرجه أبو داود وقال طارق «رأى النبي ﷺ وبعضاً من أصحاب النبي ﷺ ولم يسمع منه شيئاً عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال «الجمعة على من سمع النداء» أخرجه أبو داود وقال رواه جماعة ولم يرفعوه وإنما أسنده قبيصة عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال «الجمعة على من آواه الليل إلى أهله»، أخرجه الترمذي ولا تجب الجمعة على العبيد وقال الحسن وقتادة والأوزاعي تجب على العبد المكاتب وعن أحمد في العبيد روايتان وتجب الجمعة على أهل القرى والبوادي إذا سمعوا النداء من موضع تقام فيه الجمعة يلزمهم الحضور وإن لم يسمعوا فلا جمعة عليهم وبه قال الشافعي وأحمد وإسحاق والشرط أن يبلغهم نداء مؤذن جهوري الصوت يؤذن في وقت تكون الأصوات فيه هادئة والرياح ساكنة فكل قرية تكون من موضع الجمعة في القرب على هذا القدر يجب على أهلها حضور الجمعة وقال سعيد بن المسيب تجب الجمعة على من آواه المبيت وقال الزهري تجب على كل من كان على ستة أميال وقال ربيعة على أربعة أميال، وقال مالك والليث على ثلاثة أميال وقال أبو حنيفة لا جمعة على أهل السواد سواء كانت القرية قريبة أو بعيدة دليل الشافعي ومن وافقه ما روي البخاري عن ابن عباس قال «إن أول جمعة جمعت بعد جمعة في مسجد رسول الله ﷺ في مسجد عبد القيس بجؤاثى من البحرين» ولأبي داود نحوه فيه بجؤائى قرية من قرى البحرين.

(المسألة الرابعة): في تركها لعذر كل من له عذر من مرض أو تعهد مريض أو خوف جاز له ترك الجمعة وكذا له تركها بعذر المطر والوحل يدل على ذلك ما روي عن ابن عباس «أنه خطب في يوم ذي ردغ فأمر المؤذن فلما بلغ حي

جوازه ما أخبرنا أبو عثمان الضبي أنا أبو محمد الجراحي أنا أبو العباس المحبوبي أنا أبو عيسى ثنا أحمد بن منيع ثنا معاوية عن الحجّاج عن الحكم عن مقسم عن ابن عباس قال: بعث النبي ﷺ عبد الله بن رواحة في سَرِيَّة فوافق ذلك في يوم الجمعة فغدا أصحابه وقال أتخلّف فأُصلّي مع رسول الله ﷺ ثم ألحقهم، فلما صلّى مع النبي ﷺ رآه فقال: «ما منعك أن تغدوا مع أصحابك»؟ قال: أردت أن أُصلّي معك ثم ألحقهم، فقال: «لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما أدركت فضل غدوتهم». ورُوِيَ أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه سمع رجلاً عليه هيئة السفر يقول لولا أن اليوم يوم الجمعة لخرجت، فقال عمر: اخرجْ فإن الجمعة لا تحبس أحداً عن سفر. وقد ورد أخبار في سُنن يوم الجمعة وفضله منها ما أخبرنا أبو الحسن محمد بن محمد السرخسي أنا زاهر بن أحمد الفقيه أنا أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الصمد الهاشمي أنا أبو مصعب عن مالك عن يزيد بن عبد الله بن الهاد عن محمد بن إبراهيم بن الحارث التيمي عن أبي سلمة بن عبد الرحمن عن أبي هريرة أنه قال: خرجت إلى الطور فلقيت كعب الأحبار فجلست معه فحدّثني عن التوراة وحدّثته عن رسول الله ﷺ، فكان فيما حدّثته أن قلت: قال رسول الله ﷺ: «خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة فيه خلق آدم، وفيه أُهبط وفيه تِيبَ عليه، وفيه مات وفيه تقوم الساعة، وما من دابّة إلّا وهي مصيخة يوم الجمعة من حين تصبح حين تطلع الشمس شفقاً من الساعة إلّا الجنّ والإنس، وفيه ساعة لا يصادفها عبد مسلم وهو يصلّي يسأل الله شيئاً إلّا أعطاه إيّاه»، قال كعب: ذلك في كل سنة يوم، فقلت: بل في كل جمعة، قال: فقرأ كعب التوراة قال: فصدق رسول الله ﷺ. قال أبو هريرة: ثم لقيت عبد الله بن سلام فحدّثته بمجلسي مع كعب الأحبار وما حدّثته في يوم الجمعة، قال عبد الله بن سلام: قد علمت أيّة ساعة هي هي آخر ساعة في يوم الجمعة، قال أبو هريرة: وكيف تكون آخر ساعة في يوم الجمعة؟ وقد قال رسول الله ﷺ: «لا يصادفها عبد مسلم وهو يصلّي فيها» وتلك ساعة لا يصلّى فيها؟ فقال عبد الله بن سلام: ألم يقل رسول الله ﷺ: «مَن جلس مجلساً تنتظر الصلاة فهو في صلاة حتى يصلّيها»؟ قال أبو هريرة: بلى، قال: فهو ذاك. أخبرنا أبو الحسن

على الصلاة قال قل الصلاة في الرحال فنظر بعضهم إلى بعض كأنهم أنكروا ذلك فقال كأنكم أنكرتم هذا إن هذا فعله من هو خير مني يعني النبي ﷺ وإنها عزمة وإني كرهت أن أخرجكم» زاد في رواية «فتمشون في الطين والدحض والزلق»، أخرجه البخاري ومسلم وكل من لا تجب عليه الجمعة فإذا حضر وصلى مع الإمام الجمعة سقط عنه فرض الظهر ولكن لا يكمل به عدد الذين تنعقد بهم الجمعة إلا صاحب العذر فإنه إذا حضر كمل به العدد.

(المسألة الخامسة): في العدد الذي تنعقد به الجمعة اختلف أهل العلم في العدد الذي تنعقد به الجمعة فقيل لا تنعقد بأقل من أربعين رجلاً وهو قول عبيد الله بن عبد الله وعمر بن عبد العزيز وبه قال الشافعي وأحمد وإسحاق قالوا لا تنعقد الجمعة بأقل من أربعين رجلاً من أهل الكمال وذلك بأن يكونوا أحراراً بالغين عاقلين مقيمين في موضع لا يظعنون عنه شتاء ولا صيفاً إلا ظعن حاجة، وشرط عمر بن عبد العزيز أن يكون فيهم وال والوالي غير شرط عند الشافعي وقال علي بن أبي طالب: لا جمعة إلا في مصر جامع وهو قول أصحاب الرأي ثم عند أبي حنيفة تنعقد بأربعة والوالي شرط عنده وقال الأوزاعي وأبو يوسف تنعقد بثلاثة إذا كان فيهم وال وقال الحسن تنعقد باثنين وكسائر الصلوات وقال ربيعة تنعقد باثني عشر رجلاً ولا يكمل العدد بمن لا تجب عليه الجمعة كالعبد والمرأة والمسافر والصبي ولا تنعقد إلا في موضع واحد من البلد وبه قال الشافعي ومالك وأبو يوسف وقال أحمد تصح بموضعين إذا كثر الناس وضاق الجامع.

(المسألة السادسة): لا يجوز أن يسافر الرجل يوم الجمعة بعد الزوال قبل أن يصلي الجمعة وجوز أصحاب الرأي أن يسافر بعد الزوال إذا كان يفارق البلد قبل خروج الوقت أما إذا سافر قبل الزوال وبعد طلوع الفجر فإنه يجوز غير أنه يكره إلا أن يكون سفره سفر طاعة كحج أو غزو، وذهب بعضهم إلى أنه إذا أصبح يوم الجمعة مقيماً فلا يسافر حتى يصلي الجمعة يدل على جوازه ما روي عن ابن عباس قال «بعث رسول الله ﷺ عبد الله بن رواحة في سرية فوافق

السرخسي أنا زاهر بن أحمد أنا أبو إسحاق الهاشمي أنا أبو مصعب عن مالك عن نافع عن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «إذا جاء أحدكم الجمعة فليغتسل»، أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي ثنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل ثنا آدم ثنا ابن أبي ذئب عن سعيد المقبري أخبرني أبي عن عبد الله بن وديعة عن سلمان الفارسي قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يغتسل رجل يوم الجمعة ويتطهّر ما استطاع من طهر، ويدهن من دهنه أو يمسّ من طيب بيته ثم يخرج فلا يفرّق بين اثنين ثم يصلّي ما كُتب له، ثم ينصت إذا تكلم الإمام إلّا غفر له ما بينه وبين الجمعة الأخرى»، أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أبو منصور محمد بن محمد بن سمعان ثنا أبو جعفر محمد بن أحمد بن عبد الجبّار الرياني ثنا حميد بن زنجويه ثنا أحمد بن خالد ثنا محمد بن إسحاق عن محمد بن إبراهيم عن أبي سلمة بن عبد الرحمن وعن أبي أمامة يعني ابن سهل بن حنيف حدّثاه عن أبي سعيد وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «مَن اغتسل يوم الجمعة واستنّ ومسّ من طيب إن كان عنده ولبس من أحسن ثيابه ثم خرج حتى يأتي المسجد، فلم يتخطَّ رقاب الناس ثم ركع ما شاء الله أن يركع، وأنصت إذا خرج الإمام كانت كفّارة لما بينها وبين الجمعة التي كانت قبلها»، وقال أبو هريرة وزيادة ثلاثة أيام لأن الله تعالى يقول: ﴿مَن جاء بالحسنة فله عشر أمثالها﴾ [الأنعام: ١٦٠]، أخبرنا أبو طاهر عمر بن عبد العزيز القاشاني أنا أبو القاسم بن جعفر الهاشمي أنا أبو علي بن أحمد بن عمر اللؤلؤي ثنا أبو داود سليمان بن الأشعث ثنا محمد بن حاتم الجرجرائي ثنا ابن المبارك عن الأوزاعي حدّثنا حسّان بن عطية حدّثني أبو الأشعث الصنعاني حدّثني أوس بن أوس الثقفي قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَن غسل يوم الجمعة واغتسل وبكّر وابتكر ومشى ولم يركب، ودنا من الإمام واستمع، ولم يلغُ كان له بكل خطوة عمل سنة أجْر صيامها وقيامها». أخبرنا عبد الوهاب بن محمد الخطيب أنا

ذلك يوم الجمعة فغدا أصحابه وقال أتخلف فأصلي مع رسول الله ﷺ ثم ألحقهم فلما صلى مع النبي ﷺ رآه فقال ما منعك أن تغدو مع أصحابك؟ قال أردت أن أصلي معك ثم ألحقهم فقال لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما أدركت فضل غدوتهم» أخرجه الترمذي وروى أن عمر رأى رجلاً عليه أهبة السفر وسمعه يقول لولا أن اليوم يوم الجمعة لخرجت فقال له عمر اخرج فإن الجمعة لا تحبس عن سفر.

وللجمعة شرائط وسنن وآداب مذكورة في كتب الفقه وفي هذا القدر كفاية والله أعلم.

﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا رَأَوْا۟ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓا۟ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا ۚ قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ ۚ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿**فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض**﴾ أي إذا فرغ من صلاة الجمعة فانتشروا في الأرض للتجارة والتصرف في حوائجكم ﴿**وابتغوا من فضل الله**﴾ يعني الرزق وهذا أمر إباحة قال ابن عباس إن شئت فاخرج وإن شئت فاقعد وإن شئت فصل إلى العصر وقيل قوله فانتشروا في الأرض ليس لطلب دنيا ولكن لعيادة مريض وحضور جنازة وزيارة أخ في الله وقيل وابتغوا من فضل الله هو طلب العلم وعن عراك بن مالك أنه كان إذا صلى الجمعة انصرف فوقف على باب المسجد وقال اللهم أجبت دعوتك وصليت فريضتك وانتشرت كما أمرتني فارزقني من فضلك وأنت خير الرازقين ﴿**واذكروا الله كثيراً**﴾ أي إذا فرغتم من الصلاة ورجعتم إلى التجارة والبيع والشراء فاذكروا الله كثيراً قيل باللسان وقيل بالطاعة قيل لا تكون من الذاكرين الله كثيراً حتى تذكره قائماً وقاعداً ومضطجعاً ﴿**لعلكم تفلحون**﴾ قوله تعالى: ﴿**وإذا رأوا تجارة أو لهواً انفضوا إليها وتركوك قائماً**﴾ (ق) عن جابر قال «بينما نحن نصلي مع رسول الله ﷺ إذ أقبلت عير تحمل طعاماً فانفتلوا إليها حتى ما بقي مع النبي ﷺ إلا إثنا عشر رجلاً فنزلت هذه الآية وإذا رأوا تجارة أو لهواً انفضوا إليها وتركوك قائماً» وفي رواية «أن النبي ﷺ كان يخطب قائماً فجاءت عير من الشام وذكر نحوه» وفيه «إلا اثنا عشر رجلاً فيهم أبو بكر وعمر» ولمسلم «كنا مع النبي ﷺ يوم الجمعة فقدمت سويقة قال فخرج الناس إليها فلم يبق إلا اثنا عشر رجلاً أنا فيهم» وذكر الحديث وهو حجة من يرى صحة الجمعة باثني عشر رجلاً.

عبد العزيز بن أحمد الخلال ثنا أبو العباس الأصم أنا الربيع أنا الشافعي أنا سفيان عن الزهري عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا كان يوم الجمعة وقفت على كل باب من أبواب المسجد ملائكة يكتبون الناس على منازلهم، الأول فالأول فإذا خرج الإمام طويت الصحف واستمعوا الخطبة والمهجر إلى الصلاة كالمهدي بدنةً، ثم الذي يليه كالمهدي بقرة، ثم الذي يليه كالمهدي شاة ثم الذي يليه كالمهدي كبشا حتى ذكر الدجاجة والبيضة».

قوله عزّ وجلّ: ﴿ **فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض** ﴾، أي إذا فرغ من الصلاة فانتشروا في الأرض للتجارة والتصرّف في حوائجكم، ﴿ **وابتغوا من فضل الله** ﴾، يعني الرزق وهذا أمر إباحة كقوله: ﴿ **وإذا حللتم فاصطادوا** ﴾ [المائدة: ٢]، قال ابن عباس: إن شئت فاخرج وإن شئت فاقعد وإن شئت فصلِّ إلى العصر، وقيل: فانتشروا في الأرض ليس لطلب الدنيا ولكن لعيادة مريض وحضور جنازة وزيارة أخ في الله. وقال الحسن وسعيد بن جبير ومكحول: ﴿ **وابتغوا من فضل الله** ﴾ هو طلب العلم. ﴿ **واذكروا الله كثيراً لعلّكم تفلحون** ﴾.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ **وإذا رأوا تجارةً أو لهواً انفضّوا إليها وتركوك قائماً** ﴾ الآية، أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا حفص بن عمر ثنا خالد بن عبد الله أنا

وأجيب عنه بأنه ليس فيه بيان أنه أقام بهم الجمعة حتى يكون الحديث حجة لاشتراط هذا العدد وقال ابن عباس في رواية عنه لم يبق في المسجد إلا ثمانية رهط قال الحسن وأبو مالك «أصاب أهل المدينة جوع وغلاء سعر فقدم دحية بن خليفة الكلبي بتجارة زيت وطعام من الشام والنبي ﷺ يخطب فلما رأوه بالبقيع قاموا إليه خشية أن يسبقوا إليه فلم يبق مع النبي ﷺ إلا رهط فيهم أبو بكر وعمر، فنزلت هذه الآية فقال النبي ﷺ والذي نفس محمد بيده لو تتابعتم حتى لا يبقى منكم أحد لسال بكم الوادي ناراً» وقال مقاتل «بينا رسول الله ﷺ يخطب يوم الجمعة إذ قدم دحية بن خليفة الكلبي من الشام بالتجارة وكان إذا قدم لم تبق عاتق بالمدينة إلا أتته وكان يقدم بكل ما يحتاج إليه من دقيق وبر وزيت وغيره وينزل عند أحجار الزيت وهو مكان في سوق المدينة ثم يضرب بالطبل ليؤذن الناس بقدومه فيخرج إليه الناس ليبتاعوا منه فقدم ذات جمعة وذلك قبل أن يسلم ورسول الله ﷺ قائم على المنبر يخطب فخرج إليه الناس ولم يبق في المسجد إلا اثنا عشر رجلاً وامرأة فقال النبي ﷺ كم بقي في المسجد؟ فقالوا اثني عشر رجلاً وامرأة، فقال النبي ﷺ لولا هؤلاء لسومت لهم الحجارة من السماء فأنزل الله هذه الآية» وأراد باللهو الطبل وكانت العير إذا قدمت استقبلوها بالطبل والتصفيق، وقوله تعالى انفضوا أي تفرقوا وذهبوا نحوها والضمير في إليها راجع إلى التجارة لأنها أهم إليهم وتركوك قائماً اتفقوا على أن القيام كان في الخطبة للجمعة قال علقمة «سئل ابن مسعود أكان النبي ﷺ يخطب قائماً أو قاعداً؟ قال أما تقرؤون وتركوك قائماً» قال العلماء الخطبة فريضة في صلاة الجمعة وقال داود الظاهري هي مستحبة ويجب أن يخطب الإمام قائماً خطبتين يفصل بينهما بجلوس وقال أبو حنيفة وأحمد لا يشترط القيام ولا القعود وتشترط الطهارة في الخطبة عند الشافعي في أحد القولين وأقل ما يقع عليه اسم الخطبة أن يحمد الله ويصلي على النبي ﷺ ويوصي بتقوى الله هذه الثلاث شروط في الخطبتين جميعاً ويجب أن يقرأ في الأولى آية من القرآن ويدعو للمؤمنين في الثانية ولو ترك واحدة من هذه الخمسة لم تصح خطبته ولا جمعته عند الشافعي وذهب أبو

حصين عن سالم بن أبي الجعد وعن أبي سفيان عن جابر بن عبد الله قال: أقبلت عير يوم الجمعة ونحن مع النبي ﷺ، فثار الناس إلّا اثني عشر رجلاً فأنزل الله: ﴿ **وإذا رأوا تجارةً أو لهواً انفضّوا إليها** ﴾ ويحتجّ بهذا الحديث مَن يرى الجمعة باثني عشر رجلاً وليس فيه بيان أنه أقام بهم الجمعة حتى يكون حجة، لاشتراط هذا العدد. وقال ابن عباس في رواية الكلبي: لم يبقَ في المسجد إلّا ثمانية رهط. وقال الحسن وأبو مالك: أصاب أهل المدينة جوع وغلاء سعر فقَدِمَ دحية بن خليفة بتجارة زيت من الشام والنبي ﷺ يخطب يوم الجمعة، فلما رأوه قاموا إليه بالبقيع خشوا أن يسبقوا إليه، فلم يبقَ مع النبي ﷺ إلّا رهط منهم أبو بكر وعمر فنزلت هذه الآية، فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفس محمد بيده لو تتابعتم حتى لا يبقى منكم أحد لسال بكم الوادي ناراً»، وقال مقاتل: بينا رسول الله ﷺ يخطب يوم الجمعة إذ قَدِمَ دحية بن خليفة الكلبي من الشام بالتجارة، وكان إذا قَدِمَ لم تبقَ بالمدينة عاتق إلّا أتته، وكان يقدم إذا قَدِمَ بكل ما يحتاج إليه من دقيق وبُرٍّ وغيره، فينزل عند أحجار الزيت وهو مكان في سوق المدينة ثم يضرب بالطبل ليؤذن الناس بقدومه فيخرج إليه الناس ليبتاعوا منه، فقَدِمَ ذات جمعة وكان ذلك قبل أن يسلم ورسول الله ﷺ قائم على المنبر يخطب، فخرج إليه الناس فلم يبقَ في المسجد إلّا اثني عشرة رجلاً وامرأة، فقال النبي ﷺ: «كم بقي في المسجد»؟ فقالوا: اثني عشر رجلاً وامرأة، فقال النبي ﷺ: «لولا هؤلاء لسوّمت لهم الحجارة من السماء»، فأنزل الله هذه الآية وأراد باللهو الطبل. وقيل: كانت العير إذا قَدِمَت المدينة استقبلوها بالطبل والتصفيق. وقوله: ﴿ **انفضّوا إليها** ﴾ ردّ الكناية إلى التجارة لأنها أهم. وقال علقمة: سُئِلَ عبد الله بن عمر: أكان النبي ﷺ يخطب قائماً أو قاعداً؟ قال: أما تقرأ وتركوك قائماً. أخبرنا عبد الوهاب بن محمد الخطيب أنا عبد العزيز بن أحمد الخلال ثنا أبو العباس الأصم أنا الربيع أنا الشافعي أنا إبراهيم بن محمد أخبرني

حنيفة إلى أنه لو أتى بتسبيحة أو تحميدة أو تكبيرة أجزأه وهذا القدر لا يقع عليه اسم الخطبة وهو مأمور بالخطبة والسنة للإمام إذا صعد المنبر أن يستقبل الناس وأن يسلم عليهم خلافاً لأبي حنيفة ومالك وهل يحرم الكلام في حال الخطبة فيه خلاف بين العلماء والأصح أنه يحرم على المستمع دون الخاطب ويستحب أن يصلي تحية المسجد إذا دخل والإمام يخطب خلافاً لأبي حنيفة ومالك.

(ذكر الأحاديث الواردة الدالة على هذه الأحكام)

(ق) عن ابن عمر رضي الله عنهما قال «كان النبي ﷺ يخطب خطبتين يقعد بينهما» وفي رواية أخرى «كان يخطب يوم الجمعة وهو قائم ثم يقوم فيتم كما يفعلون الآن» (م) عن جابر بن سمرة رضي الله عنه قال «كانت للنبي ﷺ خطبتان يجلس بينهما يقرأ القرآن ويذكر الناس» زاد في رواية «فمن حدثك أنه كان يخطب جالساً فقد كذب»، (م) عن كعب بن عجرة رضي الله عنه أنه دخل المسجد وعبد الرحمن بن الحكم يخطب جالساً فقال انظروا إلى هذا الخبيث يخطب قاعداً وقد قال الله تعالى: ﴿**وإذا رأوا تجارة أو لهواً انفضوا إليها وتركوك قائماً**﴾، (م) عن جابر بن سمرة رضي الله عنه قال «كنت أصلي مع رسول الله ﷺ الصلاة فكانت صلاته قصداً وخطبته قصداً» زاد أبو داود ويقرأ آيات من القرآن ويذكر الناس عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال «كل خطبة ليس فيها تشهد فهي كاليد الجذماء» أخرجه أبو داود والترمذي ولأبي داود عنه أن رسول الله ﷺ قال «كل كلام لا يبدأ فيه بالحمد لله فهو أجذم» عن ابن مسعود رضي الله عنه «أن رسول الله ﷺ كان إذا تشهد قال الحمد لله نستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا من يهدي الله فهو المهتد ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله أرسله بالحق بشيراً ونذيراً بين يدي الساعة من يطع الله ورسوله فقد رشد ومن يعصيهما فإنه لا يضر إلا نفسه ولا يضر الله شيئاً» وفي رواية أن يونس سأل ابن شهاب عن تشهد رسول الله ﷺ يوم الجمعة فذكر نحوه وقال فيه «ومن يعصيهما فقد غوى ونسأل الله ربنا أن يجعلنا ممن يطيعه ويطيع رسوله ويتبع رضوانه ويجتنب سخطه إنما نحن به وله» أخرجه أبو داود (م) عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال «كانت خطبة رسول الله ﷺ يوم الجمعة يحمد الله ويثني عليه بما هو أهله ثم يقول على أثر ذلك وقد علا صوته واشتد غضبه حتى كأنه منذر جيش يقول صبحكم ومساكم ويقول بعثت أنا والساعة

جعفر بن محمد عن أبيه عن جابر بن عبد الله: كان النبي ﷺ يخطب يوم الجمعة خطبتين قائماً يفصل بينهما بجلوس. أخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر أنا عبد الغافر بن محمد أنا محمد بن عيسى ثنا إبراهيم بن محمد بن سفيان ثنا مسلم بن الحجّاج ثنا أبو بكر بن أبي شيبة أنا أبو الأحوص عن سماك عن جابر بن سمرة قال: كان للنبي ﷺ خطبتان يجلس بينهما يقرأ القرآن ويذكر الناس. وبهذا الإسناد عن جابر بن سمرة قال: كنت أُصلّي مع النبي ﷺ، فكانت صلاته قصداً وخطبته قصداً والخطبة فريضةً في صلاة الجمعة، ويجب أن يخطب قائماً خطبتين وأقلّ ما يقع عليه اسم الخطبة أن يحمد الله ويصلّي على النبي ﷺ ويوصي بتقوى الله هذه الثلاثة فرض في الخطبتين جميعاً، ويجب أن يقرأ في الأولى آية من القرآن يدعو للمؤمنين في الثانية فلو ترك واحدة من هذه الخمس لا تصحّ جمعته عند الشافعي، وذهب أبو حنيفة رضي الله عنه إلى أنه لو أتى بتسبيحة أو تحميدة أو تكبيرة أجزأه وهذا القدر لا يقع عليه اسم الخطبة، وهو مأمور بالخطبة. أخبرنا الإمام أبو علي الحسين بن محمد القاضي أنا عبد الله بن يوسف بن محمد بن مأمونة أنا أبو سعيد أحمد بن محمد بن زياد البصري بمكة ثنا الحسن بن الصباح الزعفراني ثنا عبد الوهاب بن عبد المجيد الثقفي عن جعفر بن محمد عن أبيه عن عبد الله بن أبي رافع أن مروان استخلف أبا هريرة على المدينة، فصلّى بهم أبو هريرة الجمعة فقرأ سورة الجمعة في الركعة الأولى وفي الثانية: ﴿إذا جاءك المنافقون﴾ [المنافقون: ١] فقال عبيد الله: فلما انصرف مشيت إلى جنبه فقلت له لقد قرأت بسورتين سمعت

كهاتين ويقرن بين أصبعيه السبابة والوسطى ويقول أما بعد فإن خير الحديث كتاب الله وخير الهدى هدى محمد وشر الأمور محدثاتها وكل بدعة ضلالة ثم يقول أنا أولى بكل مؤمن من نفسه من ترك مالاً فلأهله ومن ترك ديناً أو ضياعاً فإليّ وعليّ» عن ابن مسعود رضي الله عنه قال «كان رسول الله ﷺ إذا استوى على المنبر استقبلناه بوجوهنا أخرجه الترمذي (ق) عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال «إذا قلت لصاحبك يوم الجمعة انصت والإمام يخطب فقد لغوت» عن نافع أن ابن عمر رأى رجلين يتحدثان والإمام يخطب يوم الجمعة فحصبهما أن اصمتا أخرجه مالك في الموطأ قال ابن شهاب خروج الإمام يقطع الصلاة وكلامه يقطع الكلام «فأما صفة صلاة الجمعة» فركعتان يجهر فيهما بالقراءة ولجواز الجمعة خمس شروط الوقت وهو وقت الظهر ما بين زوال الشمس إلى دخول وقت العصر والعدد والإمام والخطبة ودار الإقامة فإن فقد شرط من هذه الشروط لخمس يجب أن يصلي ظهراً ولا يجوز للإمام أن يبتدىء الخطبة قبل تمام العدد وهو أربعون عند الشافعي فلو اجتمعوا وخطب بهم ثم انفضوا قبل افتتاح الصلاة أو انفض واحد من العدد لا يجوز أن يصلي بهم الجمعة بل يصلي الظهر ولو افتتح بهم الصلاة ثم انفضوا فأصح أقوال الشافعي أن بقاء الأربعين شرط إلى آخر الصلاة كما أن بقاء الوقت شرط إلى آخر الصلاة فلو نقص واحد قبل أن يسلم الإمام يجب على الباقين أن يصلوها ظهراً، وفيه قول آخر وهو أنه إن بقي معه اثنان أتمها جمعة وقيل إن بقي معه واحد أتمها جمعة وعند المزني إن انفضوا بعد ما صلى بهم الإمام ركعة أتمها جمعة وإن بقي وحده وإن كان في الركعة الأولى يتمها أربعاً وإن انفض من العدد واحداً، وبه قال أبو حنيفة لكن في العدد الذي يشترط كالمسبوق إذا أدرك مع الإمام ركعة من الجمعة فإذا سلم الإمام أتمها جمعة وإن أدرك أقل من ركعة أتمها أربعاً (خ) عن أنس رضي الله عنه «أن النبي ﷺ كان يصلي الجمعة حين تميل الشمس» (م) عن عبيد الله بن أبي رافع قال «استخلف مروان أبا هريرة على المدينة وخرج إلى مكة فصلى بنا أبو هريرة الجمعة فقرأ بعد الحمد سورة الجمعة في الأولى وإذا جاءك المنافقون في الثانية قال فأدركت أبا هريرة حين انصرف فقلت له إنك قرأت سورتين كان علي بن أبي طالب يقرأ بهما في الكوفة فقال أبو هريرة إني سمعت رسول الله ﷺ يقرأ بهما يوم الجمعة»، (م) عن النعمان بن بشير رضي الله تعالى عنه قال «كان رسول الله ﷺ يقرأ في العيدين وفي الجمعة بسبح اسم ربك الأعلى وهل أتاك حديث الغاشية قال وإذا اجتمع العيد والجمعة في

علي بن أبي طالب يقرأ بهما في الصلاة، فقال سمعت النبي ﷺ يقرأ بهما. أخبرنا أبو الحسن السرخسي أنا زاهر بن أحمد أنا أبو إسحاق الهاشمي أنا أبو مصعب عن مالك عن ضمرة بن سعيد المازني عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة أن الضحاك بن قيس سأل النعمان بن بشير ماذا كان يقرأ به رسول الله ﷺ يوم الجمعة على أثر سورة الجمعة، فقال: كان يقرأ بهل أتاك حديث الغاشية. أخبرنا أبو عثمان الضبّي أنا أبو محمد الجراحي ثنا أبو العباس المحبوبي ثنا أبو عيسى ثنا قتيبة ثنا أبو عوانة عن إبراهيم بن محمد بن المنتشر عن أبيه عن حبيب بن سالم عن النعمان بن بشير قال: كان النبي ﷺ يقرأ في العيدين وفي الجمعة بسبّح اسم ربك الأعلى، وهلى أتاك حديث الغاشية، وربما اجتمع في يوم واحد فيقرأ بهما، ولجواز الجمعة خمس شرائط: الوقت الظهر ما بين زوال الشمس إلى دخول وقت العصر، والعدد، والإمام، والخطبة، ودار الإقامة، فإذا فقد شرط من هذه الخمسة يجب أن يصلّوها ظهراً، ولا يجوز للإمام أن يتبدىء الخطبة قبل اجتماع العدد، وهو عدد الأربعين عند الشافعي، فلو اجتمعوا وخطب بهم ثم انفضّوا قبل افتتاح الصلاة أو انتقص واحد من العدد لا يجوز أن يصلّي بهم الجمعة، بل يصلّي الظهر ولو افتتح بهم الصلاة ثم انفضّوا، فأصحّ أقوال الشافعي أن بقاء الأربعين شرط إلى آخر الصلاة، كما أن بقاء الوقت شرط إلى آخر الصلاة ولو انتقص واحد منهم قبل أن يسلّم الإمام يجب على الباقين أن يصلّوها أربعاً، وفيه قول آخر إن بقي معه اثنان أتمّها جمعة. وقيل: إن بقي معه واحد أتمّها جمعة، وعند المزني إذا انفضّوا

يوم واحد يقرأ بهما في الصلاتين» عن سمرة بن جندب رضي الله عنهما «أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في الجمعة بسبح اسم ربك الأعلى وهل أتاك حديث الغاشية» أخرجه أبو داود والنسائي.

وقوله تعالى: ﴿**قل ما عند الله**﴾ أي ما عند الله من الثواب والأجر على الصلاة والثبات مع النبي ﷺ ﴿**خير من اللهو ومن التجارة**﴾ الذي جاء بهما دحية ﴿**والله خير الرازقين**﴾ يعني أنه تعالى موجد الأرزاق وأصلها منه فإياه فاسألوا ومنه فاطلبوا، والله تعالى أعلم.

بعد ما صلّى الإمام بهم ركعة أتمّها جمعة، وإن بقي وحده فإن كان في الركعة الأولى يتمّها أربعاً وإن انتقص من العدد واحد، وبه قال أبو حنيفة في العدد الذي يشترطه كالمسبوق إذا أدرك مع الإمام ركعة من الجمعة فإذا سلّم الإمام أتمّها جمعة فإن أدرك أقلّ من ركعة أتمّها أربعاً. قوله عزّ وجلّ: ﴿ **قلْ ما عند الله خير من اللهو ومن التجارة** ﴾، أي ما عند الله من الثواب على الصلاة والثبات مع النبيﷺ خير من اللهو ومن التجارة، ﴿ **والله خير الرازقين** ﴾، لأنه مُوجِد الأرزاق فإيّاه فاسألوا ومنه فاطلبوا.

سورة المنافقين

مدنية وهي إحدى عشرة آية ومائة وثمانون كلمة وتسعمائة وستة وسبعون حرفاً

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴿١﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾

قوله عز وجل: ﴿**إذا جاءك المنافقون**﴾ يعني عبد الله بن أبي ابن سلول وأصحابه قالوا ﴿**نشهد إنك لرسول الله**﴾ وتم الخبر عنهم ثم ابتدأ فقال تعالى: ﴿**والله يعلم إنك لرسوله**﴾ أي هو الذي أرسلك فهو عالم بك ﴿**والله يشهد إن المنافقين لكاذبون**﴾ يعني في قولهم نشهد إنك لرسول الله لأنهم أضمروا خلاف ما أظهروا وذلك لأن حقيقة الإيمان أن يواطىء اللسان القلب وكذلك الكلام فمن أخبر عن شيء واعتقد خلافه أو أضمر خلاف ما أظهر فهو كاذب ألا ترى أنهم كانوا يقولون بألسنتهم نشهد إنك لرسول الله وسماه كذباً لأن قولهم خالف اعتقادهم ﴿**اتخذوا أيمانهم جنة**﴾ أي سترة يستترون بها من القتل ومعنى أيمانهم ما أخبر الله عنهم من حلفهم إنهم لمنكم وقولهم نشهد إنك لرسول الله ﴿**فصدوا عن سبيل الله**﴾ أي أعرضوا بأنفسهم عن طاعة الله وطاعة رسوله وقيل منعوا الناس عن الجهاد وعن الإيمان بمحمد ﷺ ﴿**إنهم ساء ما كانوا يعملون**﴾ يعني حيث آثروا الكفر على الإيمان ﴿**ذلك بأنهم آمنوا**﴾ أي في الظاهر وذلك إذا رأوا المؤمنين أقروا بالإيمان ﴿**ثم كفروا**﴾ أي في السر وذلك إذا خلوا مع المشركين وفيه تأكيد لقوله والله يشهد إنهم لكاذبون ﴿**فطبع على قلوبهم**﴾ أي بالكفر ﴿**فهم لا يفقهون**﴾ أي الإيمان وقيل لا يتدبرون القرآن.

سُورَة المُنافِقُون

مدنيّة وهي إحدى عشرة آية.

﴿ **إذا جاءك المنافقون** ﴾، يعني عبد الله بن أُبيّ بن سلول وأصحابه، ﴿ **قالوا نشهد إنك لرسول الله والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون** ﴾، لأنهم أضمروا خلاف ما أظهروا.

﴿ **اتخذوا أيمانهم جنّة** ﴾، سترة، ﴿ **فصدّوا عن سبيل الله** ﴾، منعوا الناس عن الجهاد والإيمان بمحمد ﷺ، ﴿ **إنهم ساء ما كانوا يعملون** ﴾.

﴿ **ذلك بأنهم آمنوا** ﴾، أقرّوا باللسان إذا رأوا المؤمنين، ﴿ **ثم كفروا** ﴾، إذا خلوا إلى المشركين، ﴿ **فطبع على قلوبهم** ﴾، بالكفر، ﴿ **فهم لا يفقهون** ﴾، الإيمان.

﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٦﴾﴾

﴿**وإذا رأيتهم**﴾ يعني المنافقين مثل عبد الله بن أبي ابن سلول ﴿**تعجبك أجسامهم**﴾ يعني أن لهم أجساماً ومناظر حسنة ﴿**وإن يقولوا تسمع لقولهم**﴾ أي فتحسب أنه صدق قال ابن عباس كان عبد الله بن أبي ابن سلول جسيماً فصيحاً ذلق اللسان فإذا قال سمع النبي ﷺ قوله ﴿**كأنهم خشب مسندة**﴾ أي أشباح بلا أرواح وأجسام بلا أحلام شبههم بالخشب المسندة إلى جدر وليست بأشجار مثمرة ينتفع بها ﴿**يحسبون كل صيحة عليهم**﴾ يعني أنهم لا يسمعون صوتاً في العسكر بأن ينادي مناد أو تنفلت دابة أو تنشد ضالة إلا ظنوا من خبثهم وسوء ظنهم أنهم يرادون بذلك وظنوا أنهم قد أتوا لما في قلوبهم من الرعب وقيل إنهم على خوف ووجل من أن ينزل فيهم أمر يهتك أستارهم ويبيح دماءهم وتم الكلام عند قوله عليهم ثم ابتدأ فقال تعالى: ﴿**هم العدو فاحذرهم**﴾ أي لا تأمنهم فإنهم وإن كانوا معك ويظهرون تصديقك أعداء لك فاحذرهم ولا تأمنهم على سرك لأنهم عيون لأعدائك من الكفار ينقلون إليهم أسرارك ﴿**قاتلهم الله**﴾ أي لعنهم الله ﴿**أنى يؤفكون**﴾ أي يصرفون عن الحق.

قوله تعالى: ﴿**وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لووا رؤوسهم**﴾ أي أمالوها وأعرضوا بوجوههم رغبة عن الاستغفار ﴿**ورأيتهم يصدون**﴾ أي يعرضون عما دعوا إليه ﴿**وهم مستكبرون**﴾ أي عن استغفار رسول الله صلى الله عليه وسلم لهم ﴿**سواء عليهم استغفرت لهم**﴾ أي يا محمد ﴿**أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم إن الله لا يهدي القوم الفاسقين**﴾.

﴿ **وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم** ﴾، يعني أن لهم أجساماً ومناظر، ﴿ **وإن يقولوا تسمع لقولهم** ﴾، فتحسب أنه صدق، قال عبد الله بن عباس: كان عبد الله بن أبي جسيماً فصيحاً ذَلِق اللسان فإذا قال سمع النبي ﷺ قوله: ﴿ **كأنهم خُشُبٌ مُسنَّدة** ﴾، أشباح بلا أرواح وأجسام بلا أحلام، قرأ أبو عمرو والكسائي: ﴿ **خشب** ﴾ بسكون الشين، وقرأ الباقون بضمّها، ﴿ **مّسندّة** ﴾ مُمالة إلى جدار من قولهم أسندت الشيء إذا أملته، والثقيل للتكثير، وأراد أنها ليست بأشجار تثمر ولكنها خشب مّسندّة إلى حائط، ﴿ **يحسبون كل صيحة عليهم** ﴾، أي لا يسمعون صوتاً في العسكر بأن نادى مُنادٍ أو انفلتت دابّة أو أنشدت ضالّة لا ظنوا من جبنهم وسوء ظنهم أنهم يُرادون بذلك وظنوا أنهم قد أتوا لما في قلوبهم من الرعب. وقيل: ذلك لكونهم على وجل من أن ينزل الله فيهم أمراً يهْتك أستارهم ويبيح دماءهم ثم قال: ﴿ **هم العدو** ﴾، هذا ابتداء وخبره، ﴿ **فاحذرهم** ﴾، ولا تأمنهم، ﴿ **قاتلهم الله** ﴾، لعنهم الله ﴿ **أنّى يؤفكون** ﴾، يُصرفون عن الحق.

﴿ **وإذا قيل لهم تعالوا يستغفرْ لكم رسول الله لووا رؤوسهم** ﴾، أي عطفوا وأعرضُوا بِوُجوههم رغبةً عن الاستغفار، قرأ نافع ويعقوب ﴿ **لووا** ﴾ بالتخفيف وقرأ الآخرون بالتشديد، لأنهم فعلوها مرة بعد مرة. ﴿ **ورأيتهم يصدّون** ﴾، يُعرضون عمّا دُعُوا إليه، ﴿ **وهم مستكبرون** ﴾، متكبّرون عن استغفار رسول الله ﷺ لهم.

﴿ **سواء عليهم أستغفرت لهم** ﴾، يا محمد، ﴿ **أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم إن الله لا يهدي القوم**

(ذكر القصة: في سبب نزول هذه الآية)

قال محمد بن إسحاق وغيره من أصحاب السير إن رسول الله ﷺ بلغه أن بني المصطلق يجتمعون لحربه وقائدهم الحارث بن أبي ضرار وهو أبو جويرية زوج النبي ﷺ فلما سمع رسول الله ﷺ بذلك خرج إليهم حتى لقيهم على ماء من مياههم يقال له المريسيع من ناحية قديد إلى الساحل فتزاحم الناس واقتتلوا فهزم الله تعالى بني المصطلق وأمكن منهم وقيل من قتل منهم ونقل رسول الله ﷺ أبناءهم ونساءهم وأموالهم فأفاءها عليهم فبينما الناس على ذلك الماء إذ وردت واردة الناس ومع عمر بن الخطاب أجير له من بني غفار يقال له جهجاه بن سعيد الغفاري يقود له فرسه فازدحم جهجاه وسنان بن وبر الجهني حليف بني عوف بن الخزرج على الماء فاقتتلا فصرخ الجهني يا معشر الأنصار وصرخ الغفاري يا معشر المهاجرين وأعان جهجاهاً رجل من المهاجرين يقال له جعال وكان فقيراً فقال عبدالله بن أبي الجعال وإنك لهناك فقال جعال وما يمنعني أن أفعل ذلك فغضب عبد الله بن أبي وعنده رهط من قومه فيهم زيد بن أرقم وهو غلام حديث السن فقال عبد الله بن أبي افعلوها قد نافرونا وكاثرونا في بلادنا والله ما مثلنا زائدة ومثلهم إلا كما قال القائل سمن كلبك يأكلك أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ثم أقبل على من حضر من قومه فقال هذا ما فعلتم بأنفسكم أحللتموهم بلادكم وقاسمتموهم أموالكم أما والله لو أمسكتم عن جعال وذويه فضل الطعام لم يركبوا رقابكم ولتحولوا إلى غير بلادكم فلا تنفقوا عليهم حتى ينفضوا من حول محمد فقال زيد بن أرقم أنت والله الذليل القليل المبغض في قومك ومحمد ﷺ في عز من الرحمن ومودة من المسلمين فقال عبد الله بن أبي اسكت لقد كنت ألعب فمشى زيد بن أرقم إلى رسول الله ﷺ وذلك بعد فراغه من الغزو فأخبره الخبر وعنده عمر بن الخطاب فقال دعني أضرب عنقه يا رسول الله قال كيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه ولكن أذن بالرحيل وذلك في ساعة لم يكن رسول الله ﷺ يرتحل فيها فارتحل الناس وأرسل رسول الله ﷺ إلى عبد الله بن أبي

الفاسقين﴾، ذكر محمد بن إسحاق وغيره من أصحاب رسول الله ﷺ بلغه أن بني المصطلق يجتمعون لحربه وقائدهم الحارث بن أبي ضرار أبو جويريّة زوج النبي ﷺ، فلما سمع بهم رسول الله ﷺ خرج إليهم حتى لقيهم على ماء من مياههم يقال له المريسيع من ناحية قديد إلى الساحل، فتزاحف الناس واقتتلوا فهزم الله بني المصطلق، وقتل مَن قتل منهم، ونقل رسول الله ﷺ أبناءهم ونساءهم وأموالهم فأفاءها عليهم، فبينما الناس على ذلك الماء إذ وردت واردة الناس ومع عمر بن الخطاب أجير له من بني غفار، يقال له جهجاه بن سعيد الغفاري يقود له فرسه فازدحم جهجاه وسنان بن وبر الجهني حليف بني عوف بن الخزرج على الماء فاقتتلا، فصرخ الجهني يا معشر الأنصار وصرخ الغفاري يا معشر المهاجرين وأعان جهجهاها الغفاري رجل من المهاجرين يقال له جعال، وكان فقيراً وغضب عبد الله بن أبي سلول وعنده رهط من قومه فيهم زيد بن أرقم غلام حديث السنّ، فقال ابن أُبيّ أفعلوها؟ فقد نافرونا وكاثرونا في بلادنا والله ما مثلنا ومثلهم إلاّ كما قال القائل سمّن كلبك يأكلك، أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنّ الأعزّ منها الأذلّ، يعني بالأعزّ نفسه وبالأذلّ رسول الله ﷺ، ثم أقبل على مَن حضره من قومه فقال: هذا ما فعلتم بأنفسكم أحللتموهم بلادكم، وقاسمتموهم أموالكم، أما والله لو أمسكتم عن جعال وذويه فضل الطعام لم يركبوا رقابكم ولتحوّلوا إلى عير بلادكم، فلا تنفقوا عليهم حتى ينفضّوا من حول محمد. فقال زيد بن أرقم أنت والله الذليل القليل المبغض في قومك محمد ﷺ في عزٍّ من الرحمن عزّ وجلّ ومودّة من المسلمين، فقال عبد الله بن أُبيّ اسكت فإنما كنت ألعب قال فمشى زيد بن أرقم إلى رسول الله ﷺ، وذلك بعد فراغه من الغزو فأخبره الخبر وعنده عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه، فقال: دعني أضرب عنقه يا رسول الله، قال: «كيف يا عمر إذا تحدّث الناس أن محمداً يقتل أصحابه»؟ ولكن أذِّن بالرحيل وذلك في ساعة لم يكن رسول

فأتاه فقال أنت صاحب هذا الكلام الذي بلغني فقال عبد الله بن أبي والذي أنزل عليك الكتاب ما قلت شيئاً من ذلك وإن زيداً لكاذب وكان عبد الله في قومه شريفاً عظيماً فقال من حضر من الأنصار من أصحابه يا رسول الله عسى أن يكون الغلام قد وهم في حديثه ولم يحفظ ما قاله فعذره النبي ﷺ وفشت الملامة لزيد في الأنصار وكذبوه وقال له عمه وكان زيد معه ما أردت إلا أن كذبك رسول الله ﷺ والناس ومقتوك وكان زيد يساير النبي ﷺ فاستحيا بعد ذلك أن يدنو من النبي ﷺ فلما استقل رسول الله ﷺ وسار لقيه أسيد بن حضير فحياه بتحية النبوة وسلم عليه ثم قال يا رسول الله ﷺ لقد رحت في ساعة منكرة ما كنت تروح فيها فقال له رسول الله ﷺ أو ما بلغك ما قال صاحبك عبد الله بن أبي فقال أسيد وما قال؟ قال يزعم أنه إن رجع إلى المدينة أخرج الأعز منها الأذل فقال أسيد أنت والله يا رسول الله تخرجه هو والله الذليل وأنت والله العزيز ثم قال يا رسول الله ارفق به فوالله لقد جاء الله بك وإن قومه لينظمون له الخرز ليتوجوه فإنه ليرى أنك قد سلبته ملكاً وبلغ عبد الله بن عبد الله بن عبد الله بن أبي ما كان من أبيه فأتى رسول الله ﷺ وقال يا رسول الله إنه بلغني أنك تريد قتل عبد الله بن أبي لما بلغك عنه فإن كنت فاعلاً فمرني فأنا أحمل إليك رأسه فوالله لقد علمت الخزرج ما كان بها رجل أبر بوالديه مني وإني أخشى أن تأمر به غيري فيقتله فلا تدعني نفسي أن أنظر إلى قاتل عبد الله بن أبي يمشي على الأرض فأقتله فأقتل مؤمناً بكافر فأدخل النار فقال رسول الله ﷺ بل نرفق به ونحسن صحبته ما بقي معنا قالوا وسار رسول الله ﷺ يومه ذلك حتى أمسى وليلته حتى أصبح وصدر يومه حتى آذتهم الشمس فنزل بالناس فلم يكن إلا أن وجدوا مس الأرض فوقعوا نياماً وإنما فعل ذلك ليشتغل الناس عن حديث عبد الله بن أبي الذي كان منه بالأمس ثم راح بالناس حتى نزل على ماء بالحجاز فويق البقيع يقال لها نقعاء فهاجت ريح شديدة آذتهم وتخوفوها وضلت ناقة رسول الله ﷺ وذلك بالليل فقال رسول الله ﷺ لا تخافوا فإنما هبت لموت عظيم من عظماء الكفار توفي بالمدينة فقيل من هو؟ قال رفاعة بن زيد بن التابوت فقال رجل من المنافقين كيف يزعم أنه يعلم الغيب

الله ﷺ يرتحل فيها فارتحل الناس وأرسل رسول الله ﷺ إلى عبد الله بن أُبيّ فأتاه فقال له أنت صاحب هذا الكلام الذي بلغني؟ فقال عبد الله: والذي أنزل عليك الكتاب ما قلت شيئاً من ذلك، وإن زيداً لكاذبٌ، وكان عبد الله في قومه شريفاً عظيماً، فقال مَن حضر من أصحابه من الأنصار: يا رسول الله عسى أن يكون الغلام وهم في حديثه ولم يحفظ ما قاله، فعذره النبي ﷺ وفَشَت المَلاَمة في الأنصار لزيد وكذّبوه، وقال له عمّه وكان زيد معه: ما أردت إلى أن كذبك رسول الله ﷺ والناس كلهم يقولون إن عبد الله شيخنا وكبيرنا لا يصدق عليه كلام غلام من غلمان الأنصار، ومقتوك وكان زيد يساير النبي ﷺ فاستحيا بعد ذلك أن يدنوا من النبي ﷺ، فلما استقبل رسول الله ﷺ وسار لقيه أسيد بن حضير فحيّاه بتحيّة النبوّة وسلّم عليه، ثم قال: يا رسول الله لقد رحت في ساعة منكرة ما كنت تروح فيها، فقال له رسول الله ﷺ: «أوَ ما بلغك ما قال صاحبكم عبد الله بن أُبيّ»؟ قال: وما قال؟ قال: «زعم إن رجع إلى المدينة أخرج الأعزّ منها الأذلّ» فقال أسيد: فأنت والله يا رسول الله تُخرِجه إن شئت، هو والله الذليل وأنت العزيز، ثم قال: يا رسول الله أرفِق به فوالله لقد جاء الله بك، وإن قومه لينظمون له الخرز ليتوّجوه فإنه ليرى أنك قد استلبته ملكاً وبلغ عبد الله بن عبد الله بن أُبيّ ما كان من أمر أبيه فأتى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله إنه بلغني أنك تريد قتل عبد الله بن أُبيّ لما بلغك عنه، فإن كنت فاعلاً فمرني به فأنا أحمل إليك رأسه، فوالله لقد علمت الخزرج ما كان بها رجل أبرّ بوالديه منّي وإني أخشى أن تأمر به غيري فيقتله فلا تدعني نفسي أن أنظر إلى قاتل عبد الله بن أُبيّ يمشي في الناس فأقتله، فأقتل مؤمناً بكافر. فأدخل النار، فقال رسول الله ﷺ: «بل نرفق به ونُحسِن صحبته ما بقي معنا»، قال: وسار رسول الله ﷺ يومه ذلك حتى أمسى وليلته، حتى أصبح وصدر يومه ذلك حتى آذتهم الشمس، ثم نزل بالناس فلم يكن إلاّ أن وجدوا مسّ الأرض فوقعوا نياماً، وإنما فعل ذلك ليشغل الناس

ولا يعلم بمكان ناقته ألا يخبره الذي يأتيه بالوحي فأتاه جبريل عليه الصلاة والسلام فأخبره بقول المنافق وبمكان ناقته فأخبر بذلك رسول الله ﷺ أصحابه وقال ما أزعم أني أعلم الغيب ولا أعلمه ولكن الله أخبرني بقول المنافق وبمكان ناقتي هي في الشعب وقد تعلق زمامها بشجرة فخرجوا يسعون قبل الشعب فإذا هي كما قال فجاؤوا بها فآمن ذلك المنافق وحسن إيمانه فلما قدموا المدينة وجدوا رفاعة بن زيد بن التابوت قد مات في ذلك اليوم وكان من عظماء اليهود وكهفاً للمنافقين فلما وافى رسول الله ﷺ المدينة قال زيد بن أرقم جلست في البيت لما بي من الهم والحياء فأنزل الله عز وجل سورة المنافقين في تصديق زيد بن أرقم وتكذيب عبد الله بن أبي فلما نزلت أخذ رسول الله ﷺ بإذن زيد وقال يا زيد إن الله قد صدقك وأوفى بإذنك (ق) عن زيد بن أرقم قال «خرجنا مع رسول الله ﷺ في سفر أصاب الناس فيه شدة فقال عبد الله بن أبي لا تنفقوا عليّ من عند رسول الله ﷺ حتى ينفضوا من حوله وقال لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل قال فأتيت رسول الله ﷺ فأخبرته بذلك فأرسل إلى عبد الله بن أبي فسأله فاجتهد يمينه ما فعل فقالوا كذب زيد رسول الله ﷺ قال فوقع في نفسي مما قالوه شدة حتى أنزل الله بتصديقي إذا جاءك المنافقون قال ثم دعاهم رسول الله ﷺ ليستغفر لهم قال فلووا رؤوسهم وقوله كأنهم خشب مسندة قال كانوا رجالاً أجمل شيء» (ق) عن جابر قال «غزونا مع رسول الله ﷺ وقد بات معه ناس من المهاجرين حتى كثروا وكان من المهاجرين رجل لعاب فكسع أنصارياً فغضب الأنصاري غضباً شديداً حتى تداعوا وقال الأنصاري يا للأنصار وقال المهاجري يا للمهاجرين فخرج رسول الله ﷺ فقال ما بال دعوى الجاهلية ثم قال ما شأنهم فأخبر بسكعة المهاجري الأنصاري فقال دعوها فإنها خبيثة وقال عبد الله بن أبي ابن سلول أقد تداعوا علينا لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل قال عمر ألا أقتل يا نبي الله هذا الخبيث لعبد الله فقال النبي ﷺ لا يتحدث الناس أنه كان يقتل أصحابه» ولمسلم رواية «وفيها فقال لا بأس ولينصر الرجل أخاه ظالماً كان أو مظلوماً إن كان ظالماً فلينهه فإنه له نصر وإن كان مظلوماً فلينصره» وزاد الترمذي فيه «فقال له ابنه عبد الله بن عبد الله لا تنقلب حتى تقر أنك أنت الذليل ورسول الله ﷺ العزيز ففعل» قال أصحاب السير وكان عبد الله بن أبي بقرب المدينة فلما أراد أن يدخلها جاءه ابنه عبد الله حتى أناخ على مجامع طرق المدينة فلما جاء عبد الله بن أبي قال له ابنه وراءك قال ويلك ما لك قال لا والله لا

عن الحديث الذي كان بالأمس من حديث عبد الله بن أُبيّ، ثم راح بالناس حتى نزل على ماء بالحجاز فويق البقيع، يقال له نقعاء فهاجت ريح شديدة آذتهم وتخوّفوا منها، وضلّت ناقة النبي ﷺ وذلك ليلًا، فقال رسول الله ﷺ: «لا تخافوا فإنما هبت لموت عظيم من عظماء الكفّار توفي بالمدينة»، قيل: مَن هو؟ قال: «رفاعة بن زيد بن التابوت»، فقال رجل من المنافقين: كيف يزعم أنه يعلم الغيب ولا يعلم مكان ناقته ألا يخبره الذي يأتيه بالوحي، فأتاه جبريل فأخبره بقول المنافق وبمكان الناقة، وأخبر بذلك رسول الله ﷺ أصحابه، وقال: «ما أزعم أني أعلم الغيب وما أعلمه ولكن الله أخبرني بقول المنافق وبمكان ناقتي هي في الشعب قد تعلق زمامها بشجرة، فخرجوا يسعون قبل الشعب فإذا هي كما قال: فجاؤوا بها من ذلك الشعب وآمن ذلك المنافق، فلما قَدِموا المدينة وجدوا رفاعة بن زيد بن التابوت قد مات ذلك اليوم، وكان من عظماء اليهود وكهفاً للمنافقين، فلما وافى رسول الله ﷺ المدينة قال زيد بن أرقم: جلست في البيت لما بي من الهمّ والحياء فأنزل الله تعالى سورة المنافقين في تصديق زيد وتكذيب عبد الله بن أُبيّ فلما نزلت أخذ رسول الله ﷺ بإذن زيد وقال: «يا زيد إن الله قد صدقك وأوفى بإذنك وكان عبد الله بن أُبيّ أتى بقرب المدينة، فلما أراد أن يدخلها جاءه ابنه عبد الله بن عبد الله حتى أناخ على مجامع طرق المدينة، فلما جاء عبد الله بن أُبيّ قال: وراءك، قال: ما لك ويلك؟ قال: لا والله لا تدخلها أبداً إلّا بإذن رسول الله ﷺ، ولتعلمنّ اليوم مَن الأعزّ من الأذلّ، فشكا عبد الله إلى رسول الله ﷺ ما صنع ابنه، فأرسل رسول الله ﷺ أن خلِّ عنه حتى يدخل، فقال: أما إذا جاء أمر رسول الله ﷺ فنعم، فدخل فلم يلبث إلّا أياماً قلائل

تدخلها أبداً إلا أن يأذن رسول الله ﷺ ولتعلمن اليوم من الأعز ومن الأذل فشكا عبد الله بن أبي إلى رسول الله ﷺ ما صنع ابنه عبد الله فأرسل رسول الله ﷺ أن خل عنه يدخل فقال عبد الله أما إذا جاء أمر رسول الله ﷺ فنعم فدخل قالوا فلما نزلت هذه السورة وتبين كذب المنافقين قيل يا أبا حباب إنه قد نزل فيك آي شداد فاذهب إلى رسول الله ﷺ يستغفر لك فلوى رأسه وقال أمرتموني أن أؤمن فآمنت وأمرتموني أن أعطي زكاة مالي فقد أعطيت فما بقي إلا أن أسجد لمحمد ﷺ فأنزل الله ﴿وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لووا رؤوسهم﴾ الآية ونزل.

هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟ ۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩﴾

﴿**هم الذين يقولون لا تنفقوا علي من عند رسول الله ﷺ حتى ينفضوا**﴾ أي يتفرقوا عنه ﴿**ولله خزائن السموات والأرض**﴾ يعني بيده مفاتيح الرزق فلا يعطي أحد أحداً شيئاً إلا بإذنه ولا يمنعه إلا بمشيئته ﴿**ولكن المنافقين لا يفقهون**﴾ يعني أن أمر الله إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ﴿**يقولون لئن رجعنا إلى المدينة**﴾ يعني من غزوة بني المصطلق ﴿**ليخرجن الأعز منها الأذل**﴾ فرد الله عليهم بقوله ﴿**ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين**﴾ فعزة الله تعالى قهره وغلبته على من دونه وعزة رسوله ﷺ إظهار دينه على الأديان كلها وعزة المؤمنين نصر الله إياهم على أعدائهم ﴿**ولكن المنافقين لا يعلمون**﴾ أي ذلك لو علموا ما قالوا هذه المقالة قال أصحاب السير فلما نزلت هذه الآية في عبد الله بن أبي ابن سلول لم يلبث إلا أياماً قلائل حتى اشتكى ومات على نفاقه.

قوله تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم**﴾ أي لا تشغلكم ﴿**أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله**﴾ يعني عن الصلوات الخمس والمعنى لا تشغلكم أموالكم ولا أولادكم كما شغلت المنافقين عن ذكر الله ﴿**ومن يفعل ذلك**﴾ أي

حتى اشتكى ومات، قالوا: فلما نزلت الآية وبان كذب عبد الله بن أُبيّ قيل له: يا أبا حباب إنه قد نزل فيك أي شداد فاذهب إلى رسول الله ﷺ يستغفر لك، فلوى رأسه ثم قال: أمرتموني أن أُؤمن فآمنت، وأمرتموني أن أُعطي زكاة مالي فقد أعطيت فما بقي، إلاّ أن أسجد لمحمد ﷺ فأنزل الله تعالى: ﴿ **وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لووا رؤوسهم** ﴾ الآية.

ونزل: ﴿ **هم الذين يقولون لا تنفقوا على مَن عند رسول الله حتى ينفضّوا** ﴾، يتفرقوا، ﴿ **ولله خزائن السموات والأرض** ﴾، فلا يعطي أحد أحداً شيئاً إلاّ بإذنه ولا يمنعه إلاّ بمشيئته، ﴿ **ولكن المنافقين لا يفقهون** ﴾، أن أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون.

﴿ **يقولون لئن رجعنا إلى المدينة** ﴾، عن غزوة بني المصطلق، ﴿ **ليخرجنّ الأعزُّ منها الأذلّ ولله العزّة ولرسوله وللمؤمنين** ﴾، فعزّة الله قهره من دونه، وعزّة رسوله إظهار دينه على الأديان كلها، وعزّة المؤمنين نصر الله إيّاهم على أعدائهم. ﴿ **ولكن المنافقين لا يعلمون** ﴾ ذلك ولو علموا ما قالوا هذه المقالة.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم** ﴾ لا تشغلكم ﴿ **أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله** ﴾ قال المفسّرون يعني الصلوات الخمس نظيره قوله: ﴿ لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ﴾ [النور: ٣٧] ﴿ **ومَن يفعل ذلك** ﴾ أي مَن شغله ماله وولده عن ذكر الله ﴿ **فأولئك هم الخاسرون** ﴾.

ومن شغله ماله وولده عن ذكر الله ﴿**فأولئك هم الخاسرون**﴾ أي في تجارتهم حيث آثروا الفاني على الباقي.

﴿وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾﴾

﴿**وأنفقوا مما رزقناكم**﴾ قال ابن عباس يريد زكاة الأموال ﴿**من قبل أن يأتي أحدكم الموت**﴾ أي دلائل الموت ومقدماته وعلاماته فيسأل الرجعة ﴿**فيقول رب لولا أخرتني**﴾ أي هلا أمهلتني وقيل لو أخرت أجلي ﴿**إلى أجل قريب فأصدق**﴾ أي فأزكي مالي ﴿**وأكن**﴾ وقرىء وأكون ﴿**من الصالحين**﴾ أي المؤمنين وقيل نزلت هذه الآية في المنافقين ويدل على هذا أن المؤمن لا يسأل الرجعة وقيل نزلت في المؤمنين والمراد بالصلاح هنا الحج قال ابن عباس ما من أحد يموت وكان له مال ولم يؤد زكاته أو أطاق الحج ولم يحج إلا سأل الرجعة عند الموت وقرأ هذه الآية وأكون من الصالحين أي أحج وأزكي ﴿**ولن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها**﴾ يعني أنه تعالى لا يؤخر من حضر أجله وانقضت مدته ﴿**والله خبير بما تعملون**﴾ يعني أنه لو رد إلى الدنيا وأجيب إلي ما سأل ما حج وما زكى وقيل هو خطاب شائع لكل عامل عملاً من خير أو شر، والله سبحانه وتعالى أعلم.

﴿ **وأنفقوا مما رزقناكم** ﴾، قال ابن عباس: يريد زكاة الأموال، ﴿ **من قبل أن يأتي أحدَكم الموتُ** ﴾، فيسأل الرجعة، ﴿ **فيقول ربِّ لولا أخّرتني** ﴾، هلاّ أخّرتني أمهلتني، وقيل: ﴿ **لا** ﴾ صلة فيكون الكلام بمعنى التمنّي أي لو أخّرتني، ﴿ **إلى أجل قريب فأصدّق** ﴾، فأتصدّق وأُزكّي مالي، ﴿ **وأكن من الصالحين** ﴾، أي من المؤمنين نظيره، قوله تعالى: ﴿ ومَن صلح من آبائهم ﴾ [الرعد: ٢٣]، هذا قول مقاتل وجماعة، وقالوا: نزلت الآية في المنافقين. وقيل: نزلت الآية في المؤمنين. والمراد بالصلاح هنا الحج، وروى الضحاك وعطية عن ابن عباس أنه قال: ما من أحد يموت وكان له مال لم يؤدِّ زكاته وأطاق الحج فلم يحجّ إلاّ سأل الرجعة عند الموت. وقرأ هذه الآية. وقال: ﴿ **وأكن من الصالحين** ﴾ قرأ أبو عمرو وأكون بالواو ونصب النون على جواب التمنّي وعلى لفظ فأصّدق، قال: إنما حذفت الواو من المصحف اختصاراً، وقرأ الآخرون وأكن بالجزم عطفاً على قوله فأصدّق لو لم يكن فيه الفاء لأنه لو لم يكن فيه الفاء لكان جزماً يعني إن أخّرتني أصدّق وأكن ولأنه مكتوب في المصحف بحذف الواو.

﴿ **ولن يؤخرَ الله نفساً إذاجاء أَجَلها والله خبير بما تعملون** ﴾، قرأ أبو بكر يعملون بالياء وقرأ الآخرون بالتاء.

سورة التغابن

وهي مدنية في قول الأكثر وقيل هي مكية إلا ثلاث آيات من قوله تعالى ﴿**يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم**﴾ إلى آخر ثلاث آيات وهي ثماني عشرة آية ومائتان وإحدى وأربعون كلمة وألف وسبعون حرفاً.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝١ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٢﴾

قوله عز وجل: ﴿**يسبح له ما في السموات وما في الأرض له الملك وله الحمد**﴾ يعني أنه تعالى متصرف في ملكه كيف يشاء تصرف اختصاص لا شريك له فيه وله **الحمد** لأن أصول النعم كلها منه وهو الذي يحمد على كل حال فلا محمود في جميع الأحوال إلا هو ﴿**وهو على كل شيء قدير**﴾ يعني أنه سبحانه وتعالى يفعل ما يشاء كما يشاء بلا مانع ولا مدافع ﴿**هو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن**﴾ قال ابن عباس إن الله تعالى خلق بني آدم مؤمناً وكافراً ثم يعيدهم يوم القيامة كما خلقهم مؤمناً وكافراً (م) عن عائشة رضي الله تعالى عنها أن رسول الله ﷺ قال «إن الله خلق للجنة أهلاً خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم وخلق للنار أهلاً خلقهم لهم وهم في أصلاب آبائهم» (ق) عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال «وكل الله بالرحم ملكاً فيقول أي رب نطفة أي رب علقة أي رب مضغة فإذا أراد الله

سُورَة التّغَابُن

قال عطاء هي مكيّة إلاّ ثلاث آيات من قوله: ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم﴾ [التغابن: ١٤] إلى آخرهنّ، وهي ثماني عشرة آية.

﴿ **يسبّح لله ما في السمٰوات وما في الأرض له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير * هو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن والله بما تعملون بصير** ﴾، قال ابن عباس: إن الله خلق بني آدم مؤمناً وكافراً ثم يُعيدهم يوم القيامة كما خلقهم مؤمناً وكافراً. وروينا عن ابن عباس عن أُبيّ بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الغلام الذي قتله الخَضر عليه السلام طبع كافراً». وقال جلّ ذكره: ﴿ ولا يلدوا إلاّ فاجراً كفّاراً ﴾ [نوح: ٢٧] أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا سليمان بن حرب ثنا حمّاد عن عبد الله بن أبي بكر عن أنس عن النبي ﷺ قال: «وكّل الله بالرحم ملكاً فيقول: أيْ ربِّ نطفة، أيْ ربِّ علقة، أيْ ربِّ مضغة، فإذا أراد الله أن يقضي خلقها قال: يا ربّ أذكرٌ أم أُنثى أشقي أم سعيد؟ فما الرزق فما الأجل؟ فيكتب كذلك في بطن أُمه». وقال جماعة: معنى الآية إن الله خلق الخلق ثم كفروا وآمنوا، لأن الله تعالى ذكر الخلق ثم وصفهم بفعلهم، فقال: ﴿ **فمنكم كافر ومنكم مؤمن** ﴾، كما قال الله تعالى: ﴿ والله

أن يقضي خلقها قال يا رب أذكر أم أنثى أشقي أم سعيد فما الزرق فما الأجل فيكتب ذلك وهو في بطن أمه» وقال جماعة في معنى الآية إن الله تعالى خلق الخلق ثم كفروا وآمنوا لأن الله ذكر الخلق ثم وصفهم بفعلهم فقال فمنكم كافر ومنكم مؤمن ثم اختلفوا في تأويلها فروي عن أبي سعيد الخدري أنه قال فمنكم كافر حياته مؤمن في العاقبة ومنكم مؤمن حياته كافر في العاقبة وقال عطاء بن أبي رباح فمنكم كافر بالله مؤمن بالكواكب ومنكم مؤمن بالله كافر بالكواكب وقيل فمنكم كافر أي بأن الله خلقه وهم الدهرية وأصحاب الطبائع ومنكم مؤمن أي بأن الله خلقه وجملة القول فيه أن الله تعالى خلق الكافر وكفره فعلاً له وكسباً وخلق المؤمن وإيمانه فعلاً له وكسباً فلكل واحد من الفريقين كسب واختيار وكسبه واختياره بتقدير الله وبمشيئته فالمؤمن بعد خلق الله إياه يختار الإيمان لأن الله تعالى أراد ذلك منه وقدره عليه وعلمه منه والكافر بعد خلق الله إياه يختار الكفر لأن الله تعالى قدر ذلك عليه وعلمه منه هذا طريق أهل السنة فمن سلك هذا أصاب الحق وسلم من مذهب الجبرية والقدرية ﴿**والله بما تعملون بصير**﴾ أي أنه عالم بكفر الكافر وإيمان المؤمن.

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّ وَصَوَّرَكُمۡ فَأَحۡسَنَ صُوَرَكُمۡۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ۝٣ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَيَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٤ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبۡلُ فَذَاقُواْ وَبَالَ أَمۡرِهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ۝٥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأۡتِيهِمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٞ يَهۡدُونَنَا فَكَفَرُواْ وَتَوَلَّواْۚ وَّٱسۡتَغۡنَى ٱللَّهُۚ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٞ ۝٦﴾

﴿**خلق السموات والأرض بالحق وصوركم فأحسن صوركم**﴾ أي إنه أتقن وأحكم صوركم على وجه لا يوجد مثله في الحسن والمنظر من حسن القامة والمناسبة في الأعضاء وقد علم بهذا أن صورة الإنسان أحسن صورة وأكملها ﴿**وإليه المصير**﴾ أي المرجع في القيامة ﴿**يعلم ما في السموات والأرض ويعلم ما تسرون وما تعلنون والله عليم بذات الصدور**﴾ معناه أنه لا تخفى عليه خافية فاستوى في علمه الظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم قوله تعالى: ﴿**ألم**

خلق كل دابّة من ماء فمنهم مَن يمشي على بطنه﴾ [النور: ٤٥] فالله خلقهم والمشي فعلهم ثم اختلفوا في تأويلها، فرُوِيَ عن أبي سعيد الخدري أنه قال: فمنكم كافر في حياته مؤمن في العاقبة، ومنكم مؤمن في حياته كافر في العاقبة. وقال عطاء بن أبي رباح: فمنكم كافر بالله مؤمن بالكواكب، ومنكم مؤمن بالله كافر بالكواكب. وقيل: فمنكم كافر بأن الله تعالى خلقه وهو مذهب الدهرية، ومنكم مؤمن بأن الله خلقه. وجملة القول فيه: أن الله خلق الكافر، وكفره فعلاً له وكسباً، وخلق المؤمن، وإيمانه فعلاً له وكسباً، فلكل واحد من الفريقين كسب واختيار وكسبه واختياره بتقدير الله ومشيئته، فالمؤمن بعد خلق الله إيّاه يختار الإيمان لأن الله تعالى أراد ذلك منه وقدّره عليه وعلّمه منه، والكافر بعد خلق الله تعالى إيّاه يختار الكفر لأن الله تعالى أراد ذلك منه وقدّره عليه وعلّمه منه، وهذا طريق أهل السُّنّة والجماعة مَن سلكه أصاب الحق وسَلِمَ من الجبر والقدر.

﴿ **خلق السمٰوات والأرض بالحقّ وصوّركم فأحسن صوركم وإليه المصير يعلم ما في السمٰوات والأرض** ﴾.

﴿ **ويعلم ما تسرّون وما تعلنون والله عليم بذات الصدور * ألم يأتكم** ﴾، يخاطب كفّار مكة، ﴿ **نبأ الذين كفروا من قبل** ﴾، يعني الأمم الخالية، ﴿ **فذاقوا وبال أمرهم** ﴾، يعني ما لحقهم من العذاب في الدنيا، ﴿ **ولهم عذاب أليم** ﴾، في الآخرة.

يأتكم يخاطب كفار مكة ﴿**نبأ الذين كفروا من قبل**﴾ يعني خبر الأمم الخالية ﴿**فذاقوا وبال أمرهم**﴾ أي جزاء أعمالهم وهو ما لحقهم من العذاب في الدنيا ﴿**ولهم عذاب أليم**﴾ أي في الآخرة ﴿**ذلك**﴾ أي الذي نزل بهم من العذاب ﴿**بأنه كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فقالوا أبشر يهدوننا**﴾ معناه أنهم أنكروا أن يكون الرسول بشراً وذلك لقلة عقولهم وسخافة أحلامهم ولم ينكروا أن يكون معبودهم حجراً ﴿**فكفروا**﴾ أي جحدوا وأنكروا ﴿**وتولوا**﴾ أي أعرضوا ﴿**واستغنى الله**﴾ أي عن إيمانهم وعبادتهم ﴿**والله غني**﴾ أي عن خلقه ﴿**حميد**﴾ أي في أفعاله ثم أخبر الله تعالى عن إنكارهم البعث فقال تعالى:

زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ
وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَاۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا
يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ
كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٠﴾ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ
إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ
فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٢﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾

﴿**زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل**﴾ أي قل لهم يا محمد ﴿**بلى وربي لتبعثن**﴾ أي يوم القيامة ﴿**ثم لتنبئن**﴾ أي لتخبرن ﴿**بما عملتم وذلك على الله يسير**﴾ أي أمر البعث والحساب يوم القيامة ﴿**فآمنوا بالله ورسوله**﴾ لما ذكر حال الأمم الماضية المكذبة وما نزل بهم من العذاب قال فآمنوا أنتم بالله ورسوله لئلا ينزل بكم ما نزل بهم من العقوبة ﴿**والنور الذي أنزلنا**﴾ يعني القرآن سماه نوراً لأنه يهتدى به في ظلمات الضلال كما يهتدى بالنور في الظلمة ﴿**والله بما تعملون خبير**﴾ يعني أنه مطلع عليكم عالم بأحوالكم جميعاً فراقبوه وخافوه.

قوله عز وجل: ﴿**يوم يجمعكم ليوم الجمع**﴾ يعني يوم القيامة يجمع الله فيه الأولين والآخرين وأهل السموات وأهل الأرضين ﴿**ذلك يوم التغابن**﴾ من الغبن وهو فوت الحظ والمراد في المجازاة والتجارة وذلك أنه إذا أخذ الشيء بدون قيمته فقد غبن والمغبون من غبن أهله ومنازله في الجنة وذلك لأن كل كافر له أهل ومنزل في الجنة لو أسلم فيظهر يومئذ غبن كل كافر يتركه الإيمان ويظهر غبن كل مؤمن بتقصيره في الإحسان وقيل إن قوماً في النار يعذبون

﴿ **ذلك** ﴾، العذاب، ﴿ **بأنه كانت تأتيهم رسلهم بالبيّنات فقالوا أبشرٌ يهدوننا** ﴾، ولم يقل يهدينا لأن البشر وإن كان لفظه واحد فإنه في معنى الجمع، وهو اسم الجنس لا واحد له من لفظه، وواحده إنسان، ومعناه ينكرون ويقولون آدمي مثلنا يهدينا، ﴿ **فكفروا وتولّوا واستغنى الله** ﴾، عن إيمانهم، ﴿ **والله غني** ﴾، عن خلقه، ﴿ **حميد** ﴾، في أفعاله، ثم أخبر عن إنكارهم البعث.

فقال جلّ ذكره: ﴿ **زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل** ﴾، يا محمد، ﴿ **بلى وربّي لتبعثنّ ثم لتنبؤنّ بما عملتم وذلك على الله يسير * فآمنوا بالله ورسوله والنور الذي أنزلنا** ﴾، وهو القرآن، ﴿**والله بما تعملون خبير**﴾.

﴿ **يوم يجمعكم ليوم الجمع** ﴾، يعني يوم القيامة يجمع فيه أهل السمٰوات والأرض، ﴿ **ذلك يوم التغابن** ﴾، وهو تفاعل من الغبن وهو فوت الحظ، والمراد فالمغبون من غبن عن أهله ومنازله في الجنة فيظهر يومئذ غبن كل كافر بتركه الإيمان، وغبن كل مؤمن بتقصيره في الإحسان، ﴿ **ومَن يؤمن بالله ويعمل صالحاً يكفّر عنه سيئاته**

وقوماً في الجنة ينعمون فلا غبن أعظم من هذا وقل هو غبن المظلوم للظالم لأن المظلوم مغبون في الدنيا فصار في الآخرة غابناً لظالمه وأصل الغبن في البيع والشراء وقد ذكر الله في حق الكافرين «انهم خسروا وغبنوا في شرائهم فقال تعالى: ﴿اشتروا الضلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة﴾ وقال في حق المؤمنين ﴿هل أدلكم على تجارة﴾ وقال «إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة» فخسرت صفقة الكافرين وربحت صفقة المؤمنين ﴿ومن يؤمن بالله﴾ على ما جاءت به الرسل من الإيمان بالبعث والجنة والنار ﴿ويعمل صالحاً﴾ أي في إيمانه إلى أن يموت على ذلك ﴿يكفر عنه سيئاته ويدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم والذين كفروا﴾ أي بوحدانية الله وقدرته ﴿وكذبوا بآياتنا﴾ أي الدالة على البعث ﴿أولئك أصحاب النار خالدين فيها وبئس المصير ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله﴾ أي بقضاء الله وقدره وإرادته ﴿ومن يؤمن بالله﴾ أي يصدق أنه لا يصيبه مصيبة من موت أو مرض أو ذهاب مال ونحو ذلك إلا بقضاء الله وقدره وإذنه ﴿يهد قلبه﴾ أي يوفقه لليقين حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه فيسلم لقضاء الله تعالى وقدره وقيل يهد قلبه للشكر عند الرخاء والصبر عند البلاء ﴿والله بكل شيء عليم وأطيعوا الله﴾ أي فيما أمر ﴿وأطيعوا الرسول﴾ أي فيما جاء به عن الله وما أمركم به ﴿فإن توليتم﴾ أي عن إجابة الرسول فيما دعاكم إليه ﴿فإنما على رسولنا البلاغ المبين الله لا إله إلا هو﴾ أي لا معبود ولا مقصود إلا هو ﴿وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡۚ وَإِن تَعۡفُواْ وَتَصۡفَحُواْ وَتَغۡفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ﴿١٥﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ وَٱسۡمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيۡرٗا لِّأَنفُسِكُمۡۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿١٦﴾

قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم فاحذروهم﴾ عن ابن عباس قال هؤلاء رجال أسلموا من أهل مكة وأرادوا أن يأتوا النبي ﷺ فأبى أزواجهم وأولادهم أن يدعوهم أن يأتوا النبي ﷺ فلما أتوا رسول الله ﷺ رأوا الناس قد فقهوا في الدين فهموا أن يعاقبوهم فأنزل الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم

﴿ويُدخله جنّات تجري من تحتها الأنهار﴾، قرأ أهل المدينة والشام نكفّر (وندخله)، وفي سورة الطلاق [١١] ﴿ندخله﴾ بالنون فيهنّ وقرأ الآخرون بالياء، ﴿خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم﴾.

﴿والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار خالدين فيها وبئس المصير﴾.

﴿ما أصاب من مصيبة إلاّ بإذن الله﴾، بإرادته وقضائه، ﴿ومَن يؤمن بالله﴾، فيصدّق أنه لا يصيبه مصيبة إلاّ بإذن الله، ﴿يهد قلبه﴾، يوفّقه لليقين حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه فيسلّم لقضائه، ﴿والله بكل شيء عليم﴾.

﴿وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول فإن توليتم فإنما على رسولنا البلاغ المبين﴾.

﴿الله لا إلَه إلاّ هو وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾.

قوله عزّ وجلّ: ﴿يا أيها الذين آمنوا إنَّ من أزواجكم وأولادكم عدوّاً لكم فاحذروهم﴾، قال ابن عباس: هؤلاء رجال من أهل مكة أسلموا وأرادوا أن يهاجروا إلى المدينة فمنعهم أزواجهم وأولادهم، وقالوا صبرنا على إسلامكم فلا نصبر على فراقكم فأطاعوهم، وتركوا الهجرة، فقال تعالى: ﴿فاحذروهم﴾ أن تطيعوهم وتدعو

وأولادكم عدواً لكم فاحذروهم﴾ الآية أخرجه الترمذي وقال حديث حسن صحيح وعنه قالوا لهم صبرنا على إسلامكم فلا صبر لنا على فراقكم فأطاعوهم وتركوا الهجرة فقال تعالى فاحذروهم أي أن تطيعوهم وتدعوا الهجرة ﴿وإن تعفوا وتصفحوا وتغفروا﴾ هذا فيمن أقام على الأهل والولد ولم يهاجر ثم هاجر فرأى الذين قد سبقوه بالهجرة فقد فقهوا في الدين فهم أن يعاقب زوجته وولده الذين ثبطوه ومنعوه عن الهجرة لما لحقوا به ولا ينفق عليهم ولا يصيبهم بخير فأمره الله بالعفو والصفح عنهم وقال عطاء بن يسار نزلت في عوف بن مالك الأشجعي وكان ذا أهل وولد فإذا أراد أن يغزو بكوا عليه ورققوه وقالوا إلى من تدعنا فيرق عليهم فيقيم فأنزل الله تعالى إن من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم بحملهم إياكم على ترك طاعة الله فاحذروهم أي أن تقبلوا منهم وإن تعفوا وتصفحوا وتغفروا أي فلا تعاقبوهم على خلافكم ﴿فإن الله غفور رحيم إنما أموالكم وأولادكم فتنة﴾ أي بلاء واختبار وشغل عن الآخرة وقد يقع الإنسان بسببهم في العظائم ومنع الحق وتناول الحرام وغصب مال الغير ونحو ذلك ﴿والله عنده أجر عظيم﴾ يعني الجنة والمعنى لا تباشروا المعاصي بسبب أولادكم ولا تؤثروهم على ما عند الله من الأجر العظيم قال بعضهم لما ذكر الله العداوة أدخل من للتبعيض فقال إن من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم لأنهم كلهم ليسوا بأعداء ولم يذكر من في قوله إنما أموالكم وأولادكم فتنة لأنهم لم يخلوا من الفتنة واشتغال القلب بهم وكان عبد الله بن مسعود يقول لا يقولن أحدكم اللهم إني أعوذ بك من الفتنة فإنه ليس أحد منكم يرجع إلى أهل ومال وولد إلا يشتمل على فتنة ولكن ليقل اللهم إني أعوذ بك من مضلات الفتن.

عن بريدة رضي الله تعالى عنه قال «كان رسول الله ﷺ يخطبنا فجاء الحسن والحسين وعليهما قميصان أحمران يمشيان ويعثران فنزل رسول الله ﷺ عن المنبر فحملهما فوضعهما بين يديه ثم قال صدق الله إنما أموالكم وأولادكم

الهجرة، ﴿ وإن تعفوا وتصفحوا وتغفروا فإن الله غفور رحيم ﴾، هذا فيمن أقام على الأهل والولد ولم يهاجر فإذا هاجر رأى الذين سبقوه بالهجرة وقد فقهوا في الدين همّ أن يعاقب زوجته وولده الذين ثبطوه عن الهجرة، وإن لحقوا في دار الهجرة لم ينفق عليهم ولم يصبهم بخير، فأمرهم الله عزّ وجلّ بالعفو عنهم والصّفح، وقال عطاء بن يسار: نزلت في عوف بن مالك الأشجعي: كان ذا أهل وولد وكان إذا أراد الغزو بكوا إليه ورقّقوه، وقالوا إلى مَن تدعنا فيرقّ لهم ويقيم، فأنزل الله ﴿ إنّ من أزواجكم وأولادكم عدوّاً لكم ﴾ بحملهم إياكم على ترك الطاعة، فاحذروهم أن تقبلوا منهم، ﴿ وإن تعفوا وتصفحوا وتغفروا ﴾ فلا تعاقبوهم على خلافهم إيّاكم فالله غفور رحيم.

﴿ إنما أموالكم وأولادكم فتنة ﴾، بلاء واختبار وشغل عن الآخرة، يقع بسببها الإنسان في العظائم ومنع الحق وتناول الحرام، ﴿ والله عنده أجر عظيم ﴾، قال بعضهم: لمّا ذكر الله العداوة أدخل فيه من للتبعيض، فقال: إن من أزواجكم وأولادكم عدوّاً لكم لأن كلهم ليسوا بأعداء، ولم يذكر مَن في قوله: ﴿ إنما أموالكم وأولادكم فتنة ﴾ لأنها لا تخلو عن الفتنة واشتغال القلب. وكان عبد الله بن مسعود يقول: لا يقولنّ أحدكم اللّهمَّ إني أعوذ بك من الفتنة فإنه ليس منكم أحد يرجع إلى مال وأهل وولد إلاّ وهو مشتمل على فتنة، ولكن ليقل: اللّهمَّ إني أعوذ بك من مضلّات الفتن. أخبرنا أبو منصور محمد بن عبد الملك المظفري أنا أبو سعيد أحمد بن محمد بن الفضل الفقيه أنا أبو الحسن أحمد بن إسحاق الفقيه ثنا أحمد بن بكر بن سيف ثنا علي بن الحسن أنا الحسين بن واقد عن عبد الله بن بريدة قال سمعت أبا بريدة يقول: كان رسول الله ﷺ يخطبنا فجاء الحسن والحسين وعليهما قميصان أحمران يمشيان ويعثران فنزل رسول الله ﷺ عن المنبر فحملهما فوضعهما بين يديه ثم قال: صدق الله ﴿ إنما أموالكم وأولادكم فتنة ﴾ نظرت إلى هذين الصبيين يمشيان ويعثران فلم أصبر حتى قطعت حديثي ورفعتهما.

فتنة نظرت إلى هذين الصبيين يمشيان ويعثران فلم أصبر حتى قطعت حديثي ورفعتهما» أخرجه الترمذي وقال حديث حسن غريب.

وقوله تعالى: ﴿**فاتقوا الله ما استطعتم**﴾ أي ما أطقتم وهذه الآية ناسخة لقوله «اتقوا الله حق تقاته» ﴿**واسمعوا وأطيعوا**﴾ أي لله ولرسوله فيما يأمركم به وينهاكم عنه ﴿**وأنفقوا**﴾ أي من أموالكم حق الله الذي أمركم به ﴿**خيراً لأنفسكم**﴾ أي ما أنفقتم في طاعة الله ﴿**ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون**﴾ تقدم تفسيره.

إِن تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾

﴿**إن تقرضوا الله قرضاً حسناً**﴾ القرض الحسن هو التصدق من الحلال مع طيبة نفس يعني إن تقرضوا أي تنفقوا في طاعة الله متقربين إليه بالإنفاق ﴿**يضاعفه لكم**﴾ أي يجزكم بالضعف إلى سبعمائة إلى ما يشاء من الزيادة ﴿**ويغفر لكم والله شكور**﴾ يعني يحب المتقربين إليه ﴿**حليم**﴾ أي لا يعاجل بالعقوبة مع كثرة ذنوبهم ﴿**عالم الغيب والشهادة العزيز الحكيم**﴾ والله أعلم.

﴿ **فاتقوا الله ما استطعتم** ﴾، أي أطقتم، هذه الآية ناسخة لقوله تعالى: ﴿ **اتقوا الله حقَّ تقاته** ﴾ [آل عمران: ١٠٢] ﴿ **واسمعُوا وأطيعوا** ﴾، الله ورسوله، ﴿ **وأنفقوا خيراً لأنفسكم** ﴾، أي أنفقوا من أموالكم خيراً لأنفسكم. ﴿ **وَمَن يُوقَ شُحَّ نفسه** ﴾ حتى يعطي حق الله من ماله ﴿ **فأولئك هم المفلحون** ﴾.

﴿ **إن تقرضوا الله قرضاً حسناً يضاعفه لكم ويغفر لكم والله شكور حليم * عالم الغيب والشهادة العزيز الحكيم** ﴾.

سورة الطلاق

مدنية وهي اثنتا عشرة آية ومائتان وتسع وأربعون كلمة وألف وستون حرفاً

بسم الله الرحمن الرحيم

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحۡصُواْ ٱلۡعِدَّةَۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمۡۖ لَا تُخۡرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخۡرُجۡنَ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدۡ ظَلَمَ نَفۡسَهُۥۚ لَا تَدۡرِي لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحۡدِثُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ أَمۡرٗا (١)

قوله عز وجل: ﴿**يا أيها النبي إذا طلقتم النساء**﴾ نادى النبي ﷺ ثم خاطب أمته لأنه المقدم عليهم فإذا خوطب خطاب لجمع كانت أمته داخلة في ذلك الخطاب وقيل معناه يا أيها النبي قل لأمتك فأضمر القول إذا طلقتم النساء أي إذا أردتم تطليقهن ﴿**فطلقوهن لعدتهن**﴾ أي لزمان عدتهن وهو الطهر لأنها تعتد بذلك الطهر من عدتها وتحصل في العدة عقيب الطلاق فلا يطول عليها زمان العدة وكان ابن عباس وابن عمر يقرآن فطلقوهن في قبل عدتهن وهذا في المدخول بها لأن غير المدخول بها لا عدة عليها نزلت هذه الآية في عبد الله بن عمر كان قد طلق امرأته في حال الحيض (ق) عن ابن عمر رضي الله عنهما «أنه طلق امرأته وهي حائض فذكر ذلك عمر لرسول الله ﷺ فتغيظ منه رسول الله ﷺ ثم قال مره فليراجعها ثم يمسكها حتى تطهر ثم تحيض ثم تطهر فإن بدا له أن يطلقها فليطلقها قبل أن يمسها فتلك العدة التي أمر الله أن يطلق لها النساء» زاد في رواية «كان عبد الله طلقها تطليقة فحسبت من طلاقها وراجعها عبد الله كما أمر رسول الله ﷺ» وفي رواية لمسلم «إنه طلق امرأته وهي حائض فذكر ذلك عمر للنبي ﷺ فقال مره فليراجعها ثم ليطلقها طاهراً أو حاملاً» ولمسلم من حديث أبي الزبير أنه سمع عبد الرحمن بن أيمن مولى عروة يسأل

سُورَة الطّلَاق

مدنيّة وهي اثنتا عشرة آية.

﴿ **يا أيّها النبي إذا طلّقتم النساء** ﴾، نادى النبي ﷺ ثم خاطب أُمته لأنه السيد المقدّم، فخاطب الجميع معه، وقيل: مجازه يا أيها النبي قل لأمتك إذا طلّقتم النساء، أي إذا أردتم تطليقهنّ، كقوله عزّ وجلّ: ﴿ **فإذا قرأت القرآن فاستعذْ بالله** ﴾[النحل: ٩٨] أي إذا أردت القراءة. ﴿ **فطلّقوهنّ لعدّتهنّ** ﴾، أي لطهرهنّ بالذي يقضينه من عدّتهنّ، وكان ابن عباس وابن عمر يقرآن (فطلّقوهنّ في قبل عدّتهنّ)، نزلت هذه الآية في عبد الله بن عمر كان قد طلّق امرأته في حال الحيض، أخبرنا أبو الحسن محمد بن محمد السرخسي أنا زاهر بن أحمد الفقيه أنا أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الصمد الهاشمي أنا أبو مصعب عن مالك عن نافع عن عبد الله بن عمر أنه طلّق امرأته وهي حائض

عمر وأبو الزبير يسمع كيف ترى في رجل طلق امرأته حائضاً فقال «طلق ابن عمر امرأته وهي حائض على عهد رسول الله ﷺ فقال النبي ﷺ ليراجعها فردها وقال إذا طهرت فليطلق أو ليمسك قال ابن عمر وقرأ النبي ﷺ يا أيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن في قبل عدتهن»[١].

(فصل)

اعلم أن الطلاق في حال الحيض والنفاس بدعة وكذلك في الطهر الذي جامعها فيه لقول النبي ﷺ وإن شاء طلق قبل أن يمس، والطلاق السني أن يطلقها في طهر لم يجامعها فيه وهذا في حق امرأة تلزمها العدة بالأقراء فأما إذا طلق غير المدخول بها في حال الحيض أو طلق الصغيرة التي لم تحض أو الآيسة بعد ما جامعها أو طلق الحامل بعد ما جامعها أو طلق التي لم تر الدم لا يكون بدعياً ولا سنة، ولا بدعة في طلاق هؤلاء لأن النبي ﷺ قال «ثم ليطلقها طاهراً أو حاملاً» والخلع في حال الحيض أو في طهر جامعها فيه لا يكون بدعياً لأن النبي ﷺ أذن لثابت بن قيس في مخالعة زوجته قبل أن يعرف حالها ولولا جوازه في جميع الأحوال لأمره أن يتعرف الحال؛ ولو طلق امرأته في حال الحيض أو في طهر جامعها فيه قصداً عصى الله تعالى ووقع الطلاق لأن النبي ﷺ أمر ابن عمر بالمراجعة فلولا وقوع الطلاق لم يأمره بالمراجعة، وإذا راجعها في حال الحيض يجوز أن يطلقها في حال الطهر الذي يعقب تلك الحيضة قبل المسيس كما رواه يونس بن جبير وأنس بن سيرين عن ابن عمر ولم يقولا ثم تحيض ثم تطهر وما رواه نافع عن ابن عمر ثم يمسكها حتى تطهر ثم تحيض ثم تطهر فأمر استحباب استحب تأخير الطلاق إلى الطهر الثاني حتى لا تكون مراجعته إياها للطلاق كما أنه يكره النكاح للطلاق، ولا بدعة في الجمع بين الطلقات الثلاث عند بعض أهل العلم فلو طلق امرأته في حال الطهر ثلاثاً لا يكون بدعياً وهو قول الشافعي وأحمد وذهب بعضهم إلى أنه بدعة وهو قول مالك وأصحاب الرأي.

في عهد رسول الله ﷺ فسأل عمر بن الخطاب رسول الله ﷺ عن ذلك، فقال: يا عمر مُرْهُ فليراجعها ثم ليمسكها حتى تطهر ثم تحيض ثم تطهر، ثم إن شاء أمسك بعد وإن شاء طلّق قبل أن يمسّ، فتلك العدّة التي أمر الله أن تُطلّق لها النساء. ورواه سالم عن ابن عمر قال: «فمُرْهُ فليراجعها ثم ليطلّقها طاهراً أو حاملاً»، ورواه يونس بن جبير وأنس بن سيرين عن ابن عمر: ولم يقولا ثم تحيض ثم تطهر، أخبرنا عبد الوهاب بن محمد الخطيب أنا عبد العزيز أحمد الخلال أنا أبو العباس الأصم أنا الربيع أنا الشافعي أنا مسلم وسعيد بن سالم عن ابن جريج قال: أخبرني أبو الزبير أنه سمع عبد الرحمن بن أيمن مولى عروة يسأل عبد الله بن عمر وأبو الزبير يسمع فقال: كيف ترى في رجل طلّق امرأته حائضاً؟ فقال ابن عمر: طلّق عبد الله بن عمر امرأته حائضاً، فقال النبي ﷺ: «مُرْهُ فليراجعها فإذا طهرت فليطلّق أو ليمسك»، قال ابن عمر: وقال الله عزّ وجلّ: «يا أيها النبي إذا طلّقتم النساء فطلّقوهنّ في قبل عدّتهنّ أو لقبل عدّتهنّ»، الشافعي يشكّ. ورواه حجّاج بن محمد عن ابن جريج. وقال: قال ابن عمر: وقرأ النبي ﷺ: يا أيها النبي إذا طلّقتم النساء فطلّقوهنّ في قبل عدّتهنّ.

فصل

اعلم أن الطلاق في حال الحيض والنفاس بدعة وكذلك في الطّهر الذي جامعها فيه، لقول النبي ﷺ: «وإن شاء طلّق قبل أن يمسّ». والطلاقّ السنّي أن يطلّقها في طهر لم يجامعها فيه، وهذا في حق امرأة تلزمها العدّة

---

(١) قوله في قبل عدتهن. قال في شرح مسلم هير قراءة ابن عباس وابن عمر وهي شاذة لا تثبت قرآناً بالإجماع ولا يكون لها حكم خبر الواحد عندنا اهـ.

قوله تعالى: ﴿وأحصوا العدة﴾ أي عدة أقرائها فاحفظوها؛ قيل أمر بإحصاء العدة لتفريق الطلاق على الأقراء إذا أراد أن يطلق ثلاثاً، وقيل للعلم ببقاء زمان الرجعة ومراعاة أمر النفقة والسكنى ﴿واتقوا الله ربكم﴾ أي واخشوا الله ولا تعصوه فيما أمركم به ﴿لا تخرجوهن من بيوتهن﴾ يعني إذا كان المسكن الذي طلقها فيه الزوج له بملك أو إكراء وإن كان عارية فارتجعت كان على الزوج أن يكري لها منزلاً غيره ولا يجوز للزوج أن يخرج المرأة من المسكن الذي طلقها فيه ﴿ولا يخرجن﴾ يعني ولا يجوز للمرأة أن تخرج ما لم تنقض عدتها لحق الله تعالى فإن خرجت لغير ضرورة أثمت فإن وقعت ضرورة بأن خافت هدماً أو غرقاً جاز لها أن تخرج إلى منزل آخر وكذلك إذا كان لها حاجة ضرورية من بيع غزل أو شراء قطن جاز لها الخروج نهاراً ولا يجوز ليلاً، يدل على ذلك أن رجالاً استشهدوا بأحد فقالت نساؤهم نستوحش في بيوتنا فأذن لهن رسول الله ﷺ أن يتحدثن عند إحداهن فإذا كان وقت النوم تأوي كل امرأة إلى بيتها وأذن رسول الله ﷺ لخالة جابر وقد كان طلقها زوجها أن تخرج لجذاذ نخلها فإذا لزمتها العدة في السفر تعتد في أهلها ذاهبة وراجعة والبدوية تتبوأ حيث يتبوأ أهلها في العدة لأن الانتقال في حقهم كالإقامة في حق المقيم.

بالأقراء، فأما إذا طلّق غير المدخول بها في حال الحيض أو طلّق الصغيرة التي لم تحض قطّ أو الآيسة بعد ما جامعها، أو طلّق الحامل بعد ما جامعها، أو في حال رؤية الدم لا يكون بدعياً ولا سُنّة ولا بدعة، في طلاق هؤلاء لأن النبي ﷺ قال: «ثم ليطلّقها طاهراً أو حاملاً». والخلع في حال الحيض أو في طُهْر جامعها فيه لا يكون بدعياً لأن النبي ﷺ أذِنَ لثابت بن قيس في مخالعة زوجته من غير أن يعرف حالها، ولولا جوازه في جميع الأحوال لأشبه أن يتعرّف الحال، ولو طلّق امرأته في حال الحيض أو في طهر جامعها فيه قصداً يعصي الله تعالى، ولكن يقع الطلاق لأن النبي ﷺ أمر ابن عمر بالمراجعة ولولا وقوع الطلاق لكان لا يأمره بالمراجعة، وإذا راجعها في حال الحيض يجوز أن يطلّقها في الطهر الذي يعقب تلك الحيضة قبل المسيس، كما رواه يونس بن جبير وأنس بن سيرين عن ابن عمر، وما رواه نافع عن ابن عمر: ثم ليمسكها حتى تطهر ثم تحيض ثم تطهر، فاستحباب استحبّ تأخير الطلاق إلى الطهر الثاني حتى لا يكون مراجعته إيّاها للطلاق كما يكره النكاح للطلاق، ولا بدعة في الجمع بين الطلقات الثلاث عند بعض أهل العلم، حتى لو طلّق امرأته في حال الطهر ثلاثاً لا يكون بدعياً وهو قول الشافعي وأحمد، وذهب بعضهم إلى أنه بدعة وهو قول مالك وأصحاب الرأي. قوله عزّ وجلّ: ﴿ وأحصوا العدّة ﴾، أي عدد أقرائها فاحفظوها، قيل: أمر بإحصاء العدّة لتفريق الطلاق على الأقراء إذا أراد أن يطلّق ثلاثاً. وقيل: للعلم ببقاء زمان الرجعة ومراعاة أمر النفقة والسكنى. ﴿ واتقوا الله ربكم لا تخرجوهنّ من بيوتهنّ ﴾. أراد به إذا كان المسكن الذي طلّقها فيه للزوج لا يجوز أن يُخرِجها منه، ﴿ ولا يخرجن ﴾، ولا يجوز لها أن تخرج ما لم تنقض العدّة، فإن خرجت لغير ضرورة أو حاجة أثِمَت، فإن وقعت ضرورة بأن خافت هدماً أو غرقاً لها أن تخرج إلى منزل آخر، وكذلك إن كانت لها حاجة من بيع غزل أو شراء قطن فيجوز لها الخروج نهاراً ولا يجوز ليلاً، فإن رجالاً استشهدوا بأُحُد فقالت نساؤهم: نستوحش في بيوتنا، فأذِنَ لهنّ النبي ﷺ أن يتحدّثن عند إحداهنّ، فإذا كان وقت النوم تأوي كل امرأة إلى بيتها، وأذن النبي ﷺ لخالة جابر حين طلّقها زوجها أن تخرج لجداد نخلها، وإذا لزمتها العدّة في السفر تعتدّ في أهلها ذاهبة وجائية، والبدوية تتبوأ حيث يتبوأ أهلها في العدّة، لأن الانتقال في حقّهم كالإقامة في حق المقيم. قوله: ﴿ إلاّ أن يأتين بفاحشة مُبينة ﴾، قال ابن عباس: الفاحشة المُبينة أن تبدأ على أهل زوجها فيحلّ إخراجها، وقال جماعة: أراد بالفاحشة أن تزني فتخرج لإقامة الحدّ عليها، ثم ترد إلى منزلها، ويُروَى ذلك عن ابن مسعود، وقال قتادة: معناه إلاّ أن يطلّقها على نشوزها فلها أن تتحوّل من بيت زوجها. والفاحشة: النشوز. وقال ابن عمر والسدي: خروجها قبل انقضاء العدّة فاحشة. ﴿ وتلك حدود الله ﴾، يعني ما

وقوله تعالى: **﴿إلا أن يأتين بفاحشة مبينة﴾** قال ابن عباس الفاحشة المبينة بذاءتها على أهل زوجها فيحل إخراجها لسوء خلقها وقيل أراد بالفاحشة أن تزني فتخرج لإقامة الحد عليها ثم ترد إلى منزلها يروى ذلك عن ابن مسعود وقيل معناه إلا أن يطلقها على نشوزها فلها أن تتحول من بيت زوجها والفاحشة النشوز وقيل خروجها قبل انقضاء عدتها فاحشة **﴿وتلك حدود الله﴾** يعني ما ذكر من سنة الطلاق وما بعده من الأحكام **﴿ومن يتعد حدود الله﴾** أي فيطلق لغير السنة أو تجاوز هذه الأحكام **﴿فقد ظلم نفسه﴾** أي ضر نفسه **﴿لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً﴾** أي يوقع في قلب الزوج مراجعتها بعد الطلقة والطلقتين وهذا يدل على أن المستحب أن يفرق الطلقات ولا يوقع الثلاث دفعة واحدة حتى إذا ندم أمكنه المراجعة.

عن محارب بن دثار أن رسول الله ﷺ قال «ما أحل الله شيئاً أبغض إليه من الطلاق» وأخرجه أبو داود مرسلاً وله في رواية عنه عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال «أبغض الحلال إلى الله الطلاق» عن ثوبان أن رسول الله ﷺ قال «أيما امرأة سألت زوجها الطلاق من غير بأس به حرام عليها رائحة الجنة» وأخرجه أبو داود والترمذي.

﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ﴿٢﴾﴾

قوله تعالى: **﴿فإذا بلغن أجلهن﴾** أي إذا قربن من انقضاء عدتهن **﴿فأمسكوهن﴾** أي راجعوهن **﴿بمعروف أو فارقوهن بمعروف﴾** أي اتركوهن حتى تنقضي عدتهن فيبن منكم **﴿وأشهدوا ذوي عدل منكم﴾** أي على الرجعة وعلى الفراق أمر بالإشهاد على الرجعة وعلى الطلاق.

عن عمران بن حصين أنه سئل عن رجل يطلق امرأته ثم يقع عليها ولم يشهد على طلاقها ولا على رجعتها فقال طلقت لغير سنة وراجعت لغير سنة أشهد على طلاقها وعلى رجعتها ولا تعد. أخرجه أبو داود وهذا الإشهاد مندوب إليه عند أبي حنيفة كما في قوله وأشهدوا إذا تبايعتم وعند الشافعي هو واجب في الرجعة مندوب إليه في الفرقة وفائدة هذا الإشهاد أن لا يقع بينهما التجاحد وأن لا يتهم في إمساكها وأن لا يموت أحد الزوجين فيدعي الآخر ثبوت الزوجية ليرث؛ وقيل أمر بالإشهاد للاحتياط مخافة أن تنكر الزوجة المراجعة فتنقضي العدة فتنكح زوجاً غيره **﴿وأقيموا الشهادة﴾** يعني أيها الشهود **﴿لله﴾** أي طلباً لمرضاة الله وقياماً بوصيته والمعنى اشهدوا بالحق وأدوها على الصحة **﴿ذلكم يوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ومن يتق الله يجعل له مخرجاً﴾** قيل معناه ومن يتق الله فيطلق للسنة يجعل له مخرجاً إلى الرجعة.

ذكر من سُنة الطلاق وما بعدها، **﴿ ومَن يتعدَّ حدود الله فقد ظلم نفسه لا تدري لعلّ الله يُحدِث بعد ذلك أمراً ﴾**، يُوقِع في قلب الزوج مراجعتها بعد الطلقة والطلقتين، وهذا يدلّ على أن المستحبّ أن يفرّق الطلقات، ولا يُوقِع الثلاث دفعة واحدة حتى إذا ندم أمكنته المراجعة.

﴿ فإذا بلغن أجلهنّ ﴾، أي قربن من انقضاء عدّتهنّ، **﴿ فأمسكوهنّ ﴾**، أي راجعوهنّ، **﴿ بمعروف أو فارقوهنّ بمعروف ﴾**، أي اتركوهنّ حتى تنقضي عدّتهنّ فتبين منكم، **﴿ وأشهدوا ذوي عدل منكم ﴾**، على الرجعة أو الفراق أمر بالإشهاد على الرجعة وعلى الطلاق. **﴿ وأقيموا الشهادة لله ﴾**، أيها الشهود، **﴿ ذلكم يُوعَظ به مَن كان يؤمن بالله واليوم الآخر. ومَن يتّقِ اللّهَ يجعلْ له مخرجاً ﴾**، قال عكرمة والشعبي والضحاك: ومَن يتّقِ الله فيطلّق للسُّنة يجعل له مخرجاً إلى الرجعة، وأكثر المفسّرين قالوا: نزلت في عوف بن مالك الأشجعي أسر المشركون ابناً له يسمى مالكاً فأتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله أسر العدو ابني وشكا إليه أيضاً الفاقة، فقال له

وقال أكثر المفسرين نزلت في عوف بن مالك أسر ابن له يسمى مالكاً فأتى النبي ﷺ فقال يا رسول الله أسر العدو ابني وشكا إليه أيضاً فاقة فقال له النبي ﷺ اتق الله واصبر وأكثر من قول لا حول ولا قوة إلا بالله ففعل الرجل ذلك فبينا هو في بيته إذ أتاه ابنه وقد غفل عنه العدو فأصاب منهم إبلاً وجاء بها إلى أبيه.

وعن ابن عباس قال غفل عنه العدو فاستاق غنمهم فجاء بها إلى أبيه وهي أربعة آلاف شاة فنزلت ﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجاً﴾ أي في ابنه.

﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾﴾

﴿**ويرزقه من حيث لا يحتسب**﴾ يعني ما ساق من الغنم وقيل أصاب غنماً ومتاعاً ثم رجع إلى أبيه فانطلق أبوه إلى النبي ﷺ وأخبره الخبر وسأله أيحل له أن يأكل ما أتى به ابنه؟ فقال له النبي ﷺ نعم ونزلت الآية وقال ابن مسعود ومن يتق الله يجعل له مخرجاً من كل شيء ويرزقه من حيث لا يحتسب هو أن يعلم أنه من قبل الله وأن الله رازقه وقال الربيع بن خثيم **يجعل** له محرجاً من كل شيء ضاق على الناس وقيل محرجاً من كل شدة وقيل مخرجاً عما نهاه الله عنه ﴿**ومن يتوكل على الله فهو حسبه**﴾ يعني من يتق الله فيما نابه كفاه ما أهمه وروي أن النبي ﷺ قال «لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً» ﴿**إن الله بالغ أمره**﴾ أي منفذ أمره وممض في خلقه ما قضاه ﴿**قد جعل الله لكل شيء قدراً**﴾ أي جعل لكل شيء من شدة أو رخاء أجلاً ينتهى إليه وقال مسروق في هذه الآية إن الله بالغ أمره توكل عليه أم لم يتوكل عليه غير أن المتوكل يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجراً.

﴿وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ وَٱلَّٰٓـِٔي لَمْ يَحِضْنَ وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ

النبي ﷺ: «اتّقِ الله واصبرْ وأكثر من قول لا حول ولا قوّة إلاّ بالله»، ففعل الرجل ذلك، فبينما هو في بيته إذ أتاه ابنه وقد غفل عنه العدو، فأصاب إبلاً وجاء بها إلى أبيه. وروى الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس قال: فغفل عنه العدو فاستاق غنمهم فجاء بها إلى أبيه، وهي أربعة آلاف شاة. فنزلت: ﴿ **وَمَن يتّقِ الله يجعل له مخرجاً** ﴾ في ابنه.

﴿ **ويرزقه من حيث لا يحتسب** ﴾، ما ساق من الغنم، وقال مقاتل: أصاب غنماً ومتاعاً ثم رجع إلى أبيه فانطلق أبوه إلى النبي ﷺ وأخبره الخبر، وسأله أيحلّ له أن يأكل ما أتى به ابنه؟ فقال له النبي ﷺ: «نعم»، فأنزل الله هذه الآية. قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما وابن مسعود: ﴿ **وَمَن يتّقِ الله يجعل له مخرجاً** ﴾ هو أن يعلم أنه من قبل الله وأن الله رازقه. وقال الربيع بن خيثم: ﴿ **يجعل له مخرجاً** ﴾ من كل شيء ضاق على الناس. وقال أبو العالية: ﴿ **يجعل له مخرجاً** ﴾ من كل شدّة. وقال الحسن: ﴿ **مخرجاً** ﴾ عمّا نهاه الله عنه. ﴿ **وَمَن يتوكّلْ على الله فهو حسبه** ﴾، يتّق الله فيما نابه كفاه ما أهمّه. وروينا أن النبي ﷺ قال: «لو أنكم تتوكلون على الله حقّ توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً». ﴿ **إنّ الله بالغ أمره** ﴾، قرأ طلحة بن مصرف وحفص عن عاصم ﴿ **بالغ أمره** ﴾ بالإضافة، وقرأ الآخرون ﴿ **بالغ** ﴾ بالتنوين ﴿ **أمره** ﴾ نصب، أي منفذ أمره ممض في خلقه قضاءه. ﴿ **قد جعل الله لكل شيء قدراً** ﴾، أي جعل الله لكل شيء من الشدّة والرخاء أجلاً ينتهي إليه. قال مسروق: في هذه الآية ﴿ **إن الله بالغ أمره** ﴾، توكل عليه أو لم يتوكل غير أن المتوكّل عليه يكفّر عنه سيئاته ويعظّم له أجراً.

أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ﴿٤﴾ ذَٰلِكَ أَمْرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا ﴿٥﴾

قوله عز وجل: ﴿**والّلائي يئسن من المحيض من نسائكم**﴾ قيل لما نزلت ﴿**والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء**﴾ قال خلاد بن النعمان بن قيس الأنصاري يا رسول الله فما عدة من تحيض والتي لم تحض وعدة الحبلى فأنزل الله عز وجل: ﴿**واللائي يئسن من المحيض من نسائكم**﴾ يعني القواعد اللاتي قعدن عن الحيض فلا يرجى أن يحضن وهن العجائز الآيسات من الحيض ﴿**إن ارتبتم**﴾ أي شككتم في حكمهن ولم تدروا ما عدتهن ﴿**فعدتهن ثلاثة أشهر واللائي لم يحضن**﴾ يعني الصغائر اللاتي لم يحضن بعد فعدتهن أيضاً ثلاثة أشهر أما الشابة التي كانت تحيض فارتفع حيضها قبل بلوغ سن الآيسات فذهب أكثر أهل العلم إلى أن عدتها لا تنقضي حتى يعاودها الدم فتعتد بثلاثة أقراء وتبلغ سن الآيسات فتعتد بثلاثة أشهر وهذا قول عثمان وعلي وزيد بن ثابت وعبد الله بن مسعود وبه قال عطاء وإليه ذهب الشافعي وأصحاب الرأي وحكي عن عمر أنها تتربص تسعة أشهر فإن لم تحض فتعتد بثلاثة أشهر وهو قول مالك وقال الحسن تتربص سنة فإن لم تحض فتعتد بثلاثة أشهر وهذا كله في عدة الطلاق وأما المتوفى عنها زوجها فعدتها أربعة أشهر وعشر سواء كانت ممن تحيض أو لا تحيض وأما الحامل فعدتها بوضع الحمل سواء طلقها زوجها أو مات عنها وهو قوله تعالى: ﴿**وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن**﴾ (ق) «عن سبيعة الأسلمية أنها كانت تحت سعد بن خولة وهو من بني عامر بن لؤي وكان ممن شهد بدراً فتوفي عنها في حجة الوداع وهي حامل فلم تنشب أن وضعت حملها بعد وفاته فلما تعلت من نفاسها تجملت للخطاب فدخل عليها أبو السنابل بن بعكك رجل من بني عبد الدار فقال لها ما لي أراك تجملت للخطاب ترجين النكاح وأنت والله ما أنت بناكح حتى يمر عليك أربعة أشهر وعشر قالت سبيعة فلما قال لي ذلك جمعت علي ثيابي حتى أمسيت وأتيت رسول الله ﷺ فسألته عن ذلك فأفتاني بأني قد حللت حين وضعت حملي وأمرني بالتزوج إن بدا لي» لفظ البخاري ولمسلم نحوه وزاد قال ابن شهاب ولا أرى

قوله عزّ وجلّ: ﴿ **والّلائي يئسن من المحيض من نسائكم** ﴾، فلا يرجون أن يحضن، ﴿ **إن ارتبتم** ﴾، أي شككتم فلم تدروا ما عدّتهنّ، ﴿ **فعدّتهنّ ثلاثة أشهر** ﴾، قال مقاتل: لمّا نزلت: ﴿ والمطلّقات يتربصن بأنفسهنّ ثلاثة قروء ﴾ [البقرة: ٢٢٨]، قال خلّاد بن النعمان بن القيس الأنصاري: يا رسول الله فما عدّة مَن لا تحيض والتي لم تحض وعدّة الحبلى؟ فأنزل الله: ﴿ **واللائي يئسن من المحيض من نسائكم** ﴾ يعني القواعد اللائي قعدن عن الحيض ﴿ **إن ارتبتم** ﴾ شككتم في حكمهنّ ﴿ **فعدّتهنّ ثلاثة أشهر** ﴾. ﴿ **واللائي لم يحضن** ﴾، يعني الصغائر اللائي لم يحضن فعدّتهنّ أيضاً ثلاثة أشهر أما الشابّة التي كانت تحيض فارتفع حيضها قبل بلوغها سنّ الآيسات، فذهب أكثر أهل العلم إلى أن عدّتها لا تنقضي حتى يعاودها الدم فتعتدّ بثلاثة أقراء أو تبلغ سنّ الآيسات فتعتدّ بثلاثة أشهر، وهو قول عثمان وعلي وزيد بن ثابت وعبد الله بن مسعود، وبه قال عطاء وإليه ذهب الشافعي وأصحاب الرأي، وحُكِيَ عن عمر: أنها تتربص تسعة أشهر فإن لم تحض تعتدّ بثلاثة أشهر وهو قول مالك. وقال الحسن: تتربص سنة فإن لم تحض تعتدّ بثلاثة أشهر. وهذا كله في عدّة الطلاق، أما المتوفّى عنها زوجها فعدّتها أربعة أشهر وعشر سواء كانت ممّن تحيض أو لا تحيض، وأما الحامل فعدّتها بوضع الحمل سواء طلّقها زوجها أو مات عنها لقوله تعالى: ﴿ **وأُولات الأحمال أجَلَهنّ أن يضعن حملهنّ** ﴾، أخبرنا عبد الوهاب بن محمد الخطيب أنا عبد العزيز بن أحمد **الخلّال** أنا أبو العباس الأصم أنا الربيع أنا الشافعي أنا سفيان أنا الزهري عن عبيد الله بن عبد الله عن أبيه أن سبيعة بنت الحارث وضعت بعد وفاة زوجها بليالٍ فمرّ بها أبو السنابل بن بعكك فقال قد

بأساً أن تتزوج حين وضعت وإن كانت في دمها غير أنها لا يقربها زوجها حتى تطهر ﴿**ومن يتق الله يجعل له من أمره يسراً**﴾ أي يسهل عليه أمر الدنيا والآخرة ﴿**ذلك**﴾ أي ذلك الذي ذكر من الأحكام ﴿**أمر الله أنزله إليكم**﴾ أي لتعلموا به ﴿**ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجراً**﴾

أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُواْ عَلَيْهِنَّ وَإِن كُنَّ أُوْلَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُواْ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُواْ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ ﴿٦﴾ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾

قوله تعالى: ﴿**أسكنوهن**﴾ يعني مطلقات نسائكم ﴿**من حيث سكنتم من وجدكم**﴾ أي من سعتكم وطاقتكم فإن كان موسراً يوسع عليها في المسكن والنفقة وإن كان فقيراً فعلى قدر الطاقة ﴿**ولاتضاروهن**﴾ أي لا تؤذوهن ﴿**لتضيقوا عليهن**﴾ يعني في مساكنهن فيخرجن ﴿**وإن كن أولات حمل فأنفقوا عليهن حتى يضعن حملهن**﴾ أي فيخرجن من عدتهن.

(فصل: في حكم الآية)

اعلم أن المعتدة الرجعية تستحق على الزوج النفقة والسكنى ما دامت في العدة ونعني بالسكنى مؤنة السكنى فإن كانت الدار التي طلقها الزوج فيها ملك الزوج يجب عليه أن يخرج منها ويترك الدار لها مدة عدتها وإن كانت بإجارة فعلى الزوج الأجرة وإن كانت عارية فرجع المعير فعليه أن يكتري لها داراً تسكنها وأما المعتدة البائنة بالخلع أو بالطلاق الثلاث أو باللعان فلها السكنى حاملاً كانت أو غير حامل عند أكثر أهل العلم وروي عن ابن عباس أنه قال لا سكنى لها إلا أن تكون حاملاً وهو قول الحسن والشعبي.

تصنّعت للأزواج أنها أربعة أشهر وعشر، فذكرت ذلك سبيعة لرسول الله ﷺ فقال: «كذب أبو السنابل أوَ ليس كما قال أبو السنابل قد حللت فتزوّجي. ﴿ **وَمَن يتّقِ الله يجعل له من أمره يسراً** ﴾، أي يسهل عليه أمر الدنيا والآخرة.

﴿ **ذلك** ﴾، يعني ما ذكر من الأحكام، ﴿ **أمر الله أنزله إليكم ومَن يتق الله يكفّر عنه سيئاته ويعظّم له أجراً** ﴾.

﴿ **اسكنوهنّ** ﴾، يعني مطلّقات نسائكم ﴿ **من حيث سكنتم** ﴾، ﴿ **من** ﴾ صلة أي اسكنوهنّ حيث سكنتم، ﴿ **من وجْدِكم** ﴾، سعتكم وطاقتكم يعني إن كان موسراً يوسِع عليها في المسكن والنفقة، وإن كان فقيراً فعلى قدر الطاقة، ﴿ **ولا تضارّوهنّ** ﴾، لا تؤذوهنّ، ﴿ **لتضيقوا عليهنّ** ﴾، مساكنهنّ فيخرجن، ﴿ **وإن كنّ أُولات حمل فأنفقوا عليهنّ حتى يضعن حملهنّ** ﴾، فيخرجن من عدّتهنّ.

فصــل

اعلم أن المعتدّة الرجعية تستحق على الزوج النفقة والسكنى ما دامت في العدّة ونعني بالسكنى مؤنة السكنى فإن كانت الدار التي طلّقها فيها ملكاً للزوج يجب على الزوج أن يخرج منها ويترك الدار لها مدة عدّتها، وإن كانت بإجارة فعلى الزوج الأُجرة، وإن كانت عارية ورجع المُعير فعليه أن يكتري لها داراً تسكنها، فأما المعتدّة البائنة بالخلع أو بالطلقات الثلاث أو باللعان فلها السكنى حاملاً كانت أو حائلاً عند أكثر أهل العلم. رُوِيَ ذلك عن ابن عباس أنه قال: لا سكنى لها إلّا أن تكون حاملاً وهو قول الحسن وعطاء والشعبي، واختلفوا في نفقتها فذهب قوم

واختلفوا في نفقتها فذهب قوم إلى أنه لا نفقة لها إلا أن تكون حاملاً، يروى ذلك، عن ابن عباس وهو قول الحسن والشعبي وبه قال الشافعي وأحمد ومنهم من أوجبها بكل حال يروى ذلك عن ابن مسعود وهو قول إبراهيم النخعي، وبه قال الثوري وأصحاب الرأي وظاهر القرآن يدل على أنها لا تستحق النفقة إلا أن تكون حاملاً لقوله تعالى: **﴿وإن كن أولات حمل فأنفقوا عليهن حتى يضعن حملهن﴾** وأما الدليل على ذلك من السنة فما روي عن فاطمة بنت قيس أن أبا عمرو بن حفص طلقها البتة وهو غائب فأرسل إليها وكيله بشعير فسخطته فقال والله ما لك علينا من شيء فجاءت رسول الله ﷺ فذكرت ذلك له فقال لها ليس لك عليه نفقة وأمرها أن تعتد في بيت أم شريك ثم قال تلك امرأة يغشاها أصحابي فاعتدي عند ابن أم مكتوم فإنه رجل أعمى تضعين ثيابك عنده فإذا حللت فآذنيني قالت فلما حللت ذكرت له أن معاوية بن أبي سفيان وأبا جهم خطباني فقال رسول الله ﷺ أما أبو جهم فلا يضع عصاه عن عاتقه وأما معاوية فصعلوك لا مال له انكحي أسامة بن زيد فكرهته ثم قال انكحي أسامة بن زيد فنكحته فجعل الله فيه خيراً واغتبطت به» أخرجه مسلم واحتج بهذا الحديث من لم يجعل لها سكنى وقال إن النبي ﷺ أمرها أن تعتد في بيت عبد الله بن أم مكتوم ولا حجة له فيه لما روي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت كانت فاطمة في مكان وحش فخيف على ناحيتها وقال سعيد بن المسيب إنما نقلت فاطمة لطول لسانها على أحمائها وكان في لسانها ذرابة: وأما المعتدة عن وطء الشهبة والمفسوخ نكاحها بعيب أو خيار عتق فلا سكنى لها ولا نفقة وإن كانت حاملاً وأما المعتدة عن وفاة الزوج فلا نفقة لها عند أكثر أهل العلم وروي عن علي أن لها النفقة إن كانت حاملاً من التركة حتى تضع وهو قول شريح والشعبي والنخعي والثوري.

واختلفوا في سكناها وللشافعي فيه قولان:

إلى أنه لا نفقة لها إلّا أن تكون حاملاً. رُوِيَ ذلك عن ابن عباس وهو قول الحسن وعطاء والشعبي، وبه قال الشافعي وأحمد ومنهم مَن أوجبها بكل حال رُوِيَ ذلك عن ابن مسعود، وهو قول إبراهيم النخعي وبه قال الثّوري وأصحاب الرأي وظاهر القرآن يدلّ على أنها لا تستحق إلّا أن تكون حاملاً لأن الله تعالى قال: **﴿ وإن كنّ أُولات حمل فأنفقوا عليهنّ ﴾** والدليل عليه من جهة السُّنّة ما أخبرنا أبو الحسن محمد بن أحمد السرخسي أنا زاهر بن أحمد أنا أبو إسحاق الهاشمي أنا مصعب عن مالك عن عبد الله بن يزيد مولى الأسود بن سفيان عن أبي سلمة عن عبد الرحمن عن فاطمة بنت قيس أن أبا عمرو بن حفص طلّقها البتّة وهو غائب بالشام فأرسل إليها وكيله بشعير فسخطته، فقال: والله ما لك علينا من شيء فجاءت رسول الله ﷺ فذكرت ذلك له، فقال لها: «ليس لك عليه نفقة وأمرها أن تعتدّ في بيت أُم شريك»، ثم قال: «تلك امرأة يغشاها أصحابي فاعتدّي عند ابن أُم مكتوم فإنه رجل أعمى تضعين ثيابك فإذا حللت فآذنيني»، قالت: فلما حللت ذكرت له أن معاوية بن أبي سفيان وأبا جهم خطباني، فقال رسول الله ﷺ: «أما أبو جهم فلا يضع عصاه عن عاتقه، وأما معاوية فصعلوك لا مال له، انكحي أُسامة بن زيد»، قالت فكرهته، ثم قال: «انكحي أُسامة بن زيد»، فنكحته فجعل الله فيه خيراً واغتبطت به. واحتجّ مَن لم يجعل لها السكنى بحديث فاطمة بنت قيس أن النبي ﷺ أمرها أن تعتدّ في بيت عبد الله ابن أُم مكتوم ولا حجة فيه لما رُوِيَ عن عائشة أنها قالت كانت فاطمة في مكان وحش فخِيفَ على ناحيتها. وقال سعيد بن المسيب: إنما نقلت فاطمة لطول لسانها على أحمائها وكان للسانها ذرابة أما المعتدّة عن وطء الشبهة والمفسوخ نكاحها بعيب أو خيار عتق فلا سكنى لها ولا نفقة وإن كانت حاملاً، والمعتدّة عن وفاء الزوج لا نفقة لها حاملاً كانت أو حائلاً عند أكثر أهل العلم، ورُوِيَ عن علي رضي الله تعالى عنه أن لهذه النفقة إن كانت حاملاً من التَرِكَة حتى تضع، وهو قول شريح والشعبي والنخعي والثّوري، واختلفوا في سكناها وللشافعي رضي الله عنه فيه قولان أحدهما لا سكنى لها بل

أحدهما: أنه لا سكنى لها بل تعتد حيث تشاء وهو قول علي وابن عباس وعائشة وبه قال عطاء والحسن وهو قول أبي حنيفة.

والثاني: أن لها السكنى وهو قول عمر وعثمان وعبد الله بن مسعود وعبدالله بن عمر وبه قال مالك والثوري وأحمد وإسحاق.

واحتج من أوجب لها السكنى بما روي عن الفريعة بنت مالك بن سنان وهي أخت أبي سعيد الخدري «أنها جاءت إلى رسول الله ﷺ وسألته أن ترجع إلى أهلها في بني خدرة فإن زوجها خرج في طلب أعبد له أبقوا حتى إذا كان بطرف القدوم لحقهم فقتلوه قالت فسألت رسول الله ﷺ أن أرجع إلى أهلي في بني خدرة فإن زوجي لم يتركني في مسكن يملكه ولا نفقة قالت فقال رسول الله ﷺ نعم قالت فانصرفت حتى إذا كنت في الحجرة ناداني رسول الله ﷺ أو أمر بي فنوديت فقال كيف قلت فرددت عليه القصة التي ذكرت له من شأن زوجي فقال امكثي في بيتك حتى يبلغ الكتاب أجله قالت فاعتددت فيه أربعة أشهر وعشراً قالت فلما كان عثمان أرسل إليّ فسألني عن ذلك فأخبرته فاتبعه وقضى به» أخرجه أبو داود والترمذي، فمن قال بهذا القول قال إذنه لفريعة أولاً بالرجوع صار منسوخاً بقوله آخراً «امكثي في بيتك حتى يبلغ الكتاب أجله» ومن لم يوجب السكنى قال أمرها بالمكث في بيتها آخراً استحباباً لا وجوباً.

قوله عز وجل: ﴿**فإن أرضعن لكم**﴾ يعني أولادكم ﴿**فآتوهن أجورهن**﴾ يعني على إرضاعهن، وفيه دليل على أن اللبن وإن كان قد خلق لمكان الولد فهو ملك للأم وإلا لم يكن لها أن تأخذ عليه أجراً وفيه دليل على أن حق الرضاع والنفقة على الأزواج في حق الأولاد ﴿**وأتمروا بينكم بمعروف**﴾ أي ليقبل بعضكم من بعض إذا أمره بالمعروف وقيل يتراضى الأب والأم على أجر مسمى والخطاب للزوجين جميعاً أمرهم أن يأتوا بالمعروف وما هو الأحسن ولا يقصدوا الضرار، وقيل المعروف هاهنا لا أن يقصر الرجل في حق المرأة ونفقتها ولا المرأة في حق الولد ورضاعه ﴿**وإن تعاسرتم**﴾ أي في حق الولد وأجرة الرضاع فأبى الزوج أن يعطي المرأة أجرة رضاعها وأبت الأم أن ترضعه فليس له

تعتدّ حيث تشاء، وهو قول علي وابن عباس وعائشة، وبه قال عطاء والحسن وهو قول أبي حنيفة رضي الله عنه، والثاني: لها السكنى وهو قول عمر وعثمان وعبد الله بن مسعود وعبد الله بن عمر، وبه قال مالك وسفيان الثّوري وأحمد وإسحاق، واحتجّ مَن أوجب لها السكنى بما أخبرنا أبو الحسن السرخسي أنا زاهر بن أحمد أنا أبو إسحاق الهاشمي أنا أبو مصعب عن مالك عن سعيد بن إسحاق بن كعب بن عجرة عن عمّته زينب بنت كعب أن الفريعة بنت مالك بن سنان وهي أُخت أبي سعيد الخدري أخبرتها أنها جاءت إلى رسول الله ﷺ تسأله أن ترجع إلى أهلها في بني خدرة فإن زوجها خرج في طلب أعبد له أبقوا حتى إذا كان بطرف القدوم لحقهم، فقتلوه فسألت رسول الله ﷺ أن أرجع إلى أهلي فإن زوجي لم يتركني في منزل يملكه ولا نفقة فقالت: قال رسول الله ﷺ: «نعم»، فانصرفتُ حتى إذا كنت في الحجرة أو في المسجد دعاني أو أمر بي رسول الله ﷺ فدُعِيت له، فقال رسول الله ﷺ: «كيف»؟ قلت: قالت فرددت عليه القصة التي ذكرت من شأن زوجي، فقال: «امكثي في بيتك حتى يبلغ الكتاب أجله»، قالت: فاعتددت فيه أربعة أشهر وعشراً، قالت: فلما كان عثمان أرسل إليّ فسألني عن ذلك فأخبرته فاتّبعه وقضى به، فمَن قال بهذا القول قال: إذنه لفريعة أولاً بالرجوع إلى أهلها صار منسوخاً بقوله آخراً: «امكثي في بيتك حتى يبلغ الكتاب أجله، ومَن لم يوجِب السكنى قال أمرها بالمكث في بيتها آخراً استحباباً لا وجوباً. قوله عزّ وجلّ: ﴿ **فإن أرضعن لكم** ﴾، أي أرضعن أولادكم، ﴿ **فآتوهنّ أُجورهنّ** ﴾، على إرضاعهنّ ﴿ **واتّمروا بينكم بمعروف** ﴾، ليقبل بعضكم من بعض إذا أمره بالمعروف، وقال الشافعي: شاوروا قال مقاتل

إكراهها على إرضاعه بل يستأجر للصبي مرضعاً غير أمه وذلك قوله: ﴿فسترضع له أخرى لينفق ذو سعة من سعته﴾ أي على قدر غناه ﴿ومن قدر﴾ أي ضيق ﴿عليه رزقه﴾ فكان بمقدار القوت ﴿فلينفق مما آتاه الله﴾ أي على قدر ما آتاه الله من المال ﴿لا يكلف الله نفساً﴾ أي في النفقة ﴿إلا ما آتاها﴾ يعني من المال والمعنى لا يكلف الفقير مثل ما يكلف الغني في النفقة ﴿سيجعل الله بعد عسر يسراً﴾ أي بعد ضيق وشدة غنى وسعة. قوله تعالى:

﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ يَٰٓأُولِى ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ۚ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَّسُولًا يَتْلُوا عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا ﴿١١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾﴾

﴿وكأين من قرية عتت﴾ أي عصت وطغت والمراد أهل القرية ﴿عن أمر ربها ورسله﴾ أي وأمر رسله ﴿فحاسبناها حساباً شديداً﴾ أي بالمناقشة والاستقصاء وقيل حاسبها بعملها في الكفر فجزاها النار وهو قوله ﴿وعذبناها عذاباً نكراً﴾ أي منكراً فظيعاً وقيل في الآية تقديم وتأخير مجازها فعذبناها في الدنيا بالجوع والقحط والسيف وسائر أنواع البلاء وحاسبناها في الآخرة حساباً شديداً ﴿فذاقت وبال أمرها﴾ أي شدة أمرها وجزاء كفرها ﴿وكان عاقبة أمرها خسراً﴾ أي خسراناً في الدنيا والآخرة ﴿أعد الله لهم عذاباً شديداً﴾ يخوف كفار مكة أن ينزل بهم مثل ما نزل بالأمم الماضية ﴿فاتقوا الله يا أولي الألباب﴾ أي يا ذوي العقول ثم نعتهم فقال تعالى: ﴿الذين آمنوا قد أنزل الله إليكم ذكراً﴾ يعني القرآن ﴿رسولاً﴾ أي وأرسل إليكم رسولاً ﴿يتلو عليهم آيات الله مبينات﴾ قرىء مبينات

بتراضي الأب والأم على أجْر مسمى، والخطاب للزوجين جميعاً يأمرهم أن يأتوا بالمعروف وبما هو الأحسن ولا يقصدوا الضرار، ﴿ وإن تعاسرتم ﴾، في الرضاع والأُجرة فأبى الزوج أن يعطي المرأة أُجرتها وأبت الأم أن تُرضِعه فليس له إكراهها على إرضاعه، ولكنه يستأجر للصبي مُرضِعاً غير أمه وذلك قوله: ﴿ فستُرضِع له أخرى ﴾.

﴿ لينفق ذو سعة من سعته ﴾، على قدر غناه، ﴿ ومَن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله ﴾، من المال، ﴿ لا يكلّف الله نفساً ﴾، في النفقة، ﴿ إلاّ ما آتاها ﴾، أعطاها من المال، ﴿ سيجعل الله من بعد عسرٍ يُسراً ﴾، بعد ضيق وشدّة غنىً وسِعة.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ وكأيّن من قرية عتت ﴾، عصت وطغت، ﴿ عن أمر ربها ورسله ﴾، أي وأمر رسله، ﴿ فحاسبناها حساباً شديداً ﴾، بالمناقشة والاستقصاء، قال مقاتل: حاسبها بعملها في الدنيا فجازاها بالعذاب، وهو قوله: ﴿ وعذّبناها عذاباً نكراً ﴾، منكراً فظيعاً وهو عذاب النار لفظهما ماضٍ ومعناهما الاستقبال، وقيل: في الآية تقديم وتأخير مجازها فعذبناها في الدنيا بالجوع والقحط والسيف وسائر البلايا وحاسبناها في الآخرة حساباً شديداً.

﴿ فذاقت وِبال أمرها ﴾، جزاء أمرها، وقيل: ثقل عاقبة كفرها، ﴿ وكان عاقبة أمرها خسراً ﴾، خسراناً في الدنيا والآخرة.

﴿ أعدّ الله لهم عذاباً شديداً فاتّقوا الله يا أُولي الألباب الذين آمنوا قد أنزل الله إليكم ذكراً ﴾، يعني القرآن.

﴿ رسولاً ﴾ بدلاً من الذكر، وقيل: أنزل إليكم قرآناً وأرسل رسولاً وقيل مع الرسول، وقيل: الذكر هو

بالخفض أي تبين الحلال من الحرام والأمر والنهي وقرىء بالنصب ومعناه أنها واضحات **﴿ليخرج الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الظلمات إلى النور﴾** أي من ظلمة الكفر إلى نور الإيمان ومن ظلمة الجهل إلى نور العلم **﴿ومن يؤمن بالله ويعمل صالحاً يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً قد أحسن الله له رزقاً﴾** يعني الجنة التي لا ينقطع نعيمها وقيل يرزقون طاعة في الدنيا وثواباً في الآخرة **﴿الله الذي خلق سبع سموات﴾** يعني بعضها فوق بعض **﴿ومن الأرض مثلهن﴾** أي في العدد **﴿يتنزل الأمر بينهن﴾** أي الوحي إلى خلقه من السماء العليا إلى الأرض السفلى وقيل هو ما يدبر فيهن من عجائب تدبيره ينزل المطر ويخرج النبات ويأتي بالليل والنهار وبالصيف والشتاء ويخلق الحيوان على اختلاف هيئاته وينقله من حال إلى حال فيحكم بحياة بعض وموت بعض وسلامة هذا وهلاك هذا، وقيل في كل سماء من سمواته وأرض من أرضيه خلق من خلقه وأمر من أمره وقضاء من قضائه **﴿لتعلموا أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً﴾** يعني أنه سبحانه وتعالى عالم بكل شيء لا تخفى عليه خافية وأنه قادر على الإنشاء بعد الإفناء وكل الكائنات جارية تحت قدرته داخلة في علمه والله تعالى أعلم.

الرسول، وقيل: ذكراً أي شرفاً ثم بيّن ما هو فقال: **﴿ يتلوا عليكم آيات الله مبيّنات ليُخرِج الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الظلمات إلى النور ومَن يؤمن بالله ويعمل صالحاً يُدخله جنّات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً قد أحسن الله له رزقاً ﴾**، يعني الجنة التي لا ينقطع نعيمها.

﴿ الله الذي خلق سبع سمٰوات ومن الأرض مثلهنّ ﴾، في العدد، **﴿ يتنزّل الأمر بينهنّ ﴾**، بالوحي من السماء السابعة إلى الأرض السفلى، قال أهل المعاني: هو ما يدبر فيهنّ من عجيب تدبيره فيُنزِل المطر ويُخرِج النبات، ويأتي بالليل والنهار والصيف والشتاء، ويخلق الحيوان على اختلاف هيئاتها وينقلها من حال إلى حال. وقال قتادة: في كل أرض من أرضه وسماء من سمائه خلق من خلقه وأمر من أمره وقضاء من قضائه. **﴿ لتعلموا أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً ﴾**، فلا يُخفى عليه شيء.

سورة التحريم

(مدنية وهي اثنتا عشرة آية ومائتان وسبع وأربعون كلمة وألف وستون حرفاً)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١)

قوله عز وجل: **﴿يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك تبتغي مرضاة أزواجك والله غفور رحيم﴾** ذكر سبب نزولها، (ق) عن عائشة رضي الله عنها قالت «كان رسول الله ﷺ يحب الحلواء والعسل وكان إذا انصرف من العصر دخل على نسائه فيدنو من إحداهن فدخل على حفصة بنت عمر فاحتبس عندها أكثر مما كان يحتبس فغرت فسألت عن ذلك فقيل لي أهدت لها امرأة من قومها عكة من عسل فسقت النبي ﷺ منه شربة فقلت أما والله لنحتالن له فذكرت ذلك لسودة وقلت إذا دخل عليك فإنه سيدنو منك فقولي له يا رسول الله أكلت مغافير فإنه سيقول لا فقولي ما هذه الريح التي أجد وكان رسول الله ﷺ يشتد عليه أن يوجد منه الريح فإنه سيقول لك سقتني حفصة شربة عسل فقولي له جرست نحله العرفط وسأقول ذلك وقولي أنت يا صفية ذلك فلما دخل على سودة قالت تقول سودة والله الذي لا إله إلا هو لقد كدت أبادئه بالذي قلت لي وإنه لعلى الباب فرقاً منك فلما دنا منها قالت له سودة يا رسول الله أكلت

سُوْرَة التَّحْرِيم

مدنيّة وهي اثنتا عشرة آية.

﴿ يا أيها النبي لِمَ تحرّم ما أحلّ الله لك تبتغي مرضاة أزواجك والله غفور رحيم ﴾، وسبب نزولها ما أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا عبيد الله بن إسماعيل ثنا أبو أسامة عن هشام عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يحبّ الحلواء والعسل وكان إذا صلّى العصر دخل على نسائه فيدنو منهنّ فدخل على حفصة فاحتبس عندها أكثر مما كان يحتبس فسألت عن ذلك، فقيل لي أهدت لها امرأة من قومها عكّة عسل فسقت رسول الله ﷺ منها شربة فقلت أما والله لنحتالنّ له فذكرت ذلك لسودة، وقلت إذا دخل عليك فإنه سيدنو منك فقولي له يا رسول الله أكلت مغافير فإنه سيقول لا فقولي له ما هذه الريح، وكان رسول الله ﷺ يشتدّ عليه أن يوجد منه الريح فإنه سيقول سقتني حفصة شربة عسل، فقولي له رسول الله جرست نحله العرفط، سأقول ذلك وقوليه أنتِ يا صفيّة، فلما دخل على سودة قالت سودة: والله الذي لا إله إلّا هو لقد كدت أن أُبادئه بالذي قلت لي وإنه لعلى الباب فرقاً منك، فلما دنا رسول الله ﷺ قلت: يا رسول الله أكلت مغافير، قال: «لا»، قالت: فما بال هذه الريح؟ قال: «سقتني حفصة شربة عسل»، قالت: جرست نحله العرفط، فلما دخل عليّ قلت له مثل ذلك، ودخل على صفية فقالت مثل ذلك. فلما دخل

مغافير؟ قال لا قالت فما هذه الريح التي أجد منك؟ قال سقتني حفصة شربة عسل قال جرست نحله العرفط فلما دخل عليّ قلت له مثل ذلك ثم دخل على صفية فقالت له مثل ذلك فلما دخل على حفصة قالت له يا رسول الله ألا أسقيك منه؟ قال لا حاجة لي فيه قالت تقول سودة سبحان الله لقد حرمناه قلت لها اسكتي» (ق) عن عائشة رضي الله عنها «أن النبي ﷺ كان يمكث عند زينب بنت جحش فيشرب عندها عسلاً فتواطيت أنا وحفصة أن أيتنا دخل عليها النبي ﷺ فلتقل له إني أجد منك ريح مغافير أكلت مغافير فدخل على إحداهما فقالت ذلك له فقال بل شربت عسلاً عند زينب بنت جحش ولن أعود له فنزلت ﴿يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك﴾ إلى قوله ﴿إن تتوبا إلى الله﴾ لعائشة وحفصة «وإذ أسر النبي إلى بعض أزواجه حديثاً» لقوله «بل شربت عسلاً ولن أعود له وقد حلفت فلا تخبري بذلك أحداً» زاد في رواية «يبتغي بذلك مرضاة أزواجه».

(شرح غريب ألفاظ الحديثين وما يتعلق بهما)

قولها كان رسول الله ﷺ يحب الحلواء والعسل الحلواء بالمد وهو كل شيء حلو وذكر العسل بعدها وإن كان داخلاً في جملة الحلواء تنبيهاً على شرفه ومزيته وهو من باب ذكر الخاص بعد العام قولها في الحديث الثاني فتواطيت أنا وحفصة هكذا ذكر في الرواية وأصله فتواطأت أي اتفقت أنا وحفصة قولها إني لأجد منك ريح مغافير هو بغين معجمة وفاء بعدها ياء وراء وهو صمغ حلو كالناطف وله رائحة كريهة ينضحه شجر يقال له العرفط بضم العين المهملة وبالفاء يكون بالحجاز وقيل العرفط نبات له ورق عريض يفرش على الأرض له شوكة وثمره خبيث الرائحة، وقال أهل اللغة العرفط من شجر العضاه وهو كل شجر له شوك، وقيل رائحته كرائحة النبيذ وكان النبي ﷺ يكره أن يوجد منه رائحة كريهة قولها جرست نحله العفرط هو بالجيم والراء وبالسين المهملتين ومعناه أكلت نحله العرفط فصار منه العسل قولها في الحديث الثاني فقال شربت عسلاً عند زينب بنت جحش وفي الحديث الأول أن الشرب كان عند حفصة بنت عمر بن الخطاب وأن عائشة وسودة وصفية هن اللواتي تظاهرن عليه قال القاضي عياض والصحيح الأول قال النسائي إسناد حديث حجاج بن محمد عن ابن جريج صحيح حيد غاية وقال الأصيلي حديث حجاج أصح وهو أولى بظاهر كتاب الله وأكمل فائدة يريد قوله تعالى: ﴿وإن تظاهرا عليه﴾ وهما ثنتان لا ثلاثة وأنهما عائشة وحفصة كما اعترف به عمر في حديث ابن عباس وسيأتي الحديث قال وقد انقلبت الأسماء على الراوي في الرواية الأخرى يعني الحديث الأول الذي فيه أن الشرب كان عند حفصة قال القاضي عياض: والصواب أن شرب العسل كان عند زينب بنت جحش ذكره الشيخ محيي الدين النووي في شرح مسلم وكذا ذكره القرطبي أيضاً وقال المفسرون في سبب النزول «إن النبي ﷺ كان يقسم بين نسائه فلما كان يوم حفصة استأذنت رسول الله ﷺ في زيارة أبيها فأذن لها فلما خرجت أرسل رسول الله ﷺ جاريته مارية القبطية فأدخلها بيت حفصة وخلا بها فلما رجعت حفصة وجدت الباب

على حفصة قالت له: يا رسول الله ألا أسقيك منه قال: «لا حاجة لي به»، قالت تقول سودة: سبحان الله لقد حرمناه، قالت: قلت لها: اسكتي. وأخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا الحسن بن محمد الصباح ثنا الحجاج عن أبي جريج قال: زعم عطاء أنه سمع عبيد بن عمير يقول سمعت عائشة رضي الله عنها تقول: إن رسول الله ﷺ كان يمكث عند زينب بنت جحش فيشرب عندها عسلاً فتواطيت أنا وحفصة أن أيّتنا دخل عليها النبي ﷺ فلتقل إني أجد منك ريح مغافير، أكلت مغافير، فدخل على إحداهما فقالت له ذلك، فقال: لا بأس شربت عسلاً عند زينب بنت جحش ولن أعود له، فنزلت: ﴿ يا أيها النبي لِمَ تُحرّم ما أحلّ الله لك تبتغي مرضات أزواجك ﴾ إلى قوله: ﴿ إن تتوبا إلى الله ﴾ لعائشة وحفصة، ﴿ وإذ أسرّ النبي إلى بعض أزواجه حديثاً ﴾ لقوله: بل شربت عسلاً، وبهذا الإسناد قال: حدّثنا محمد بن إسماعيل أنا

مغلقاً فجلست عند الباب فخرج رسول الله ﷺ ووجهه يقطر عرقاً وحفصة تبكي فقال ما يبكيك؟ قالت إنما أذنت لي من أجل هذا أدخلت أمتك بيتي ووقعت عليها في يومي وعلى فراشي أما رأيت لي حرمة وحقاً ما كنت تصنع هذا بامرأة منهن فقال رسول الله ﷺ أليس هي جاريتي قد أحلها الله لي اسكتي فهي علي حرام ألتمس بذلك رضاك فلا تخبري بهذا امرأة منهن فلما خرج رسول الله ﷺ قرعت حفصة الجدار الذي بينها وبين عائشة فقالت ألا أبشرك أن رسول الله ﷺ قد حرم عليه أمته مارية وقد أراحنا الله منها وأخبرت عائشة بما رأت وكانتا متصافيتين متظاهرتين على سائر أزواج النبي بها ﷺ فغضبت عائشة فلم تزل بنبي الله ﷺ حتى حلف أن لا يقربها عن أنس بن مالك رضي الله عنه «أن رسول الله ﷺ كانت له أمة يطؤها بها فلم تزل به عائشة وحفصة حتى حرمها على نفسه فأنزل الله تعالى: ﴿يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك﴾ الآية أخرجه النسائي قال العلماء الصحيح في سبب نزول الآية أنها في قصة العسل لا في قصة مارية المروية في غير الصحيحين ولم تأت قصة مارية من طريق صحيح قال النسائي إسناد حديث عائشة في العسل جيد صحيح غاية، ﴿وأما التفسير﴾ فقوله ﴿يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك﴾ أي من العسل أو ملك اليمين على اختلاف الرواية فيه وهذا التحريم تحريم امتناع عن الانتفاع بها أو بالعسل لا تحريم اعتقاد بكونه حراماً بعد ما أحله الله فالنبي «ﷺ امتنع عن الانتفاع بذلك مع اعتقاده أن ذلك حلال تبتغي مرضاة أزواجك أي تطلب رضاهن بترك ما أحل الله لك والله غفور رحيم أي غفر لك ذلك التحريم.

قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾ وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٣﴾

﴿**قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم**﴾ أي بين وأوجب لكم تحليل أيمانكم بالكفارة وهو ما ذكر في سورة المائدة فأمره الله أن يكفر عن يمينه ويراجع أمته فأعتق رقبة ﴿**والله مولاكم**﴾ أي وليكم وناصركم ﴿**وهو العليم**﴾ أي بخلقه ﴿**الحكيم**﴾ أي فيما فرض من حكمه.

إبراهيم بن موسى أنا هشام بن يوسف عن ابن جريج عن عطاء بإسناده وقال: قال: لا ولكن كنت أشرب عسلاً عند زينب بنت جحش فلن أعود لـه، وقد حلفت فلا تخبري بذلك أحداً، يبتغي بذلك مرضات أزواجه، وقال المفسِّرون: وكان رسول الله ﷺ يقسم بين نسائه، فلما كان يوم حفصة استأذنت رسول الله ﷺ في زيارة أبيها فأذِنَ لها، فلما خرجت أرسل رسول الله ﷺ إلى جاريته مارية القبطية فأدخلها بيت حفصة، فوقع عليها فلما رجعت حفصة وجدت الباب مغلقاً، فجلست عند الباب فخرج رسول الله ﷺ ووجهه يقطر عرقاً، وحفصة تبكي فقال: «ما يُبكيك»؟ فقالت: إنما أذنت لي من أجل هذا أدخلت أَمَتك بيتي ثم وقعت عليها في يومي وعلى فراشي أما رأيت لي حُرمة وحقاً ما، كنت تصنع هذا بامرأة منهنّ، فقال رسول الله ﷺ: «أليست هي جاريتي أحلّها الله لي اسكتي فهي حرام عليّ ألتمس بذلك رضاك، فلا تخبري بهذا امرأة منهنّ»، فلما خرج رسول الله ﷺ قرعت حفصة الجدار الذي بينها وبين عائشة فقالت: ألا أبشّرك أن رسول الله ﷺ قد حرّم عليه أمته مارية، وقد أراحنا الله منها وأخبرت عائشة بما رأت وكانتا متصافيتين متظاهرتين على سائر أزواج النبي ﷺ، فغضبت عائشة فلم تزل بنبيّ الله ﷺ حتى حلف أن لا يقربها، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿ **يا أيها النبي لِمَ تُحرّمُ ما أحلّ الله لك** ﴾ يعني العسل ومارية ﴿ **تبتغي مرضات أزواجك والله غفور رحيم** ﴾ وأمر أن يكفّر يمينه ويراجع أمته، فقال:

﴿ **قد فرض الله لكم تحلّة أيمانكم** ﴾، أي بيّن وأوجب أن تكفّروها إذا حنثتم وهي ما ذكر في سورة المائدة

(فصل)

اختلف العلماء في لفظ التحريم فقيل ليس هو بيمين فإن قال لزوجته أنت علي حرام أو قال حرمتك فإن نوى طلاقاً فهو طلاق وإن نوى ظهاراً فظهار وإن نوى تحريم ذاتها أو أطلق فعليه كفارة اليمين بنفس اللفظ وإن قال ذلك لجاريته فإن نوى عتقاً عتقت وإن نوى تحريم ذاتها أو أطلق فعليه كفارة اليمين وإن قال لطعام حرمته على نفسي فلا شيء عليه وهذا قول أبي بكر وعمر وغيرهما من الصحابة والتابعين وإليه ذهب الشافعي وإن لم ينو شيئاً ففيه قولان للشافعي أحدهما أنه يلزمه كفارة اليمين، والثاني لا شيء عليه وأنه لغو فلا يترتب عليه شيء من الأحكام وذهب جماعة إلى أنه يمين فإن قال ذلك لزوجته أو جاريته فلا تجب عليه الكفارة ما لم يقربها كما لو حلف أن لا يطؤها وإن حرم طعاماً فهو كما لو حلف أن لا يأكله فلا كفارة عليه ما لم يأكله وإليه ذهب أبو حنيفة وأصحابه (ق) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال «إذا حرم الرجل امرأته فهي يمين يكفرها وقال لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة» وفي رواية «إذا حرم امرأته ليس بشيء وقال لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة» لفظ الحميدي.

قوله تعالى: ﴿وإذ أسر النبي إلى بعض أزواجه حديثاً﴾ يعني ما أسر إلى حفصة من تحريم مارية على نفسه واستكتمها ذلك وهو قوله لا تخبري بذلك أحداً وقال ابن عباس أسر أمر الخلافة بعده فحدثت به حفصة قال الكلبي أسر إليها إن أباك وأبا عائشة يكونان خليفتين على أمتي من بعدي، وقيل لما رأى الغيرة في وجه حفصة أراد أن

---

[٨٩]، ﴿والله مولاكم﴾، وليّكم وناصركم، ﴿وهو العليم الحكيم﴾، واختلف أهل العلم في لفظ التحريم، فقال قوم: ليس هو بيمين فإن قال لزوجته أنت عليّ حرام أو حرّمتك فإن نوى به طلاقاً فهو طلاق، وإن نوى به ظهاراً فظهار، وإن نوى تحريم ذاتها أو أطلق فعليه كفّارة اليمين بنفس اللفظ، وإن قال ذلك لجاريته فإن نوى عتقاً عتقت، وإن نوى تحريم ذاتها أو أطلق فعليه كفّارة اليمين، فإن قال لطعام حرّمته على نفسي فلا شيء عليه، وهذا قول ابن مسعود وإليه ذهب الشافعي، وذهب جماعة إلى أنه يمين، فإن قال ذلك لزوجته أو جاريته فلا تجب عليه الكفّارة ما لم يقربها، كما لو حلف أن لا يطأها وإن حرّم طعاماً فهو كما لو حلف أن لا يأكله فلا كفّارة عليه ما لم يأكل، يُروَى ذلك عن أبي بكر وعائشة، وبه قال الأوزاعي وأبو حنيفة رضي الله عنه، أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا معاذ بن فضالة ثنا هشام عن يحيىٰ عن ابن حكيم وهو يعلى بن حكيم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال في الحرام يكفر، وقال ابن عباس: ﴿لقد كان لكم في رسول الله أُسوة حسنة﴾ [الأحزاب: ٢١].

﴿وإذْ أسرَّ النبي إلى بعض أزواجه حديثاً﴾، وهو تحريم فتاته على نفسه، وقوله لحفصة: «لا تخبري بذلك أحداً»، وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس: أسرّ أمرك الخلافة بعده فحدّثت به حفصة. قال الكلبي: أسرّ إليها أن أباك وأبا عائشة يكونان خليفتين على أُمتي من بعدي. وقال ميمون بن مهران: أسرّ إليها أن أبا بكر خليفتي من بعدي. ﴿فلما نبّأت به﴾، أخبرت به حفصة عائشة، ﴿وأظهره الله عليه﴾، أي أطلع الله تعالى نبيّه على أنها أنبأت به، ﴿عرف بعضه﴾، قرأ عبد الرحمن السلمي والكسائي ﴿عرف﴾ بتخفيف الراء أي عرف بعض الفعل الذي فعلته من إفشاء سرّه، أي غضب من ذلك عليها وجازاها به، من قول القائل لمَن أساء إليه لأعرفنّ لك ما فعلت، أي لأُجازينّك عليه، وجازاها به عليه بأن طلّقها، فلما بلغ ذلك عمر قال: لو كان في آل الخطاب خير لما طلّقك رسول الله ﷺ، فجاء جبريل وأمره بمراجعتها واعتزل رسول الله ﷺ نساءه شهراً وقعد في مشربة أُم إبراهيم مارية، حتى نزلت آية التخيير. وقال مقاتل بن حيان: لم يطلّق رسول الله ﷺ حفصة وإنما همّ بطلاقها فأتاه جبريل

يراضيها فسرها بشيئين بتحريم مارية على نفسه وأن الخلافة بعده في أبي بكر وأبيها عمر ﴿**فلما نبأت به**﴾ أي أخبرت بذلك حفصة عائشة ﴿**وأظهره الله عليه**﴾ أي أطلع الله نبيه ﷺ على قول حفصة لعائشة ﴿**عرف بعضه**﴾ قرىء بتخفيف الراء أي عرف بعض الذي فعلته حفصة فغضب من إفشاء سره وجازاها عليه بأن طلقها فلما بلغ عمر قال لها لو كان في آل الخطاب خير لما طلقك رسول الله ﷺ فجاءه جبريل عليه السلام وأمره بمراجعتها وقيل لم يطلق رسول الله ﷺ حفصة وإنما هم بطلاقها فأتاه جبريل فقال لا تطلقها فإنها صوامة قوامة وإنها من نسائك في الجنة وقرىء عرف بالتشديد، ومعناه عرف حفصة بعض الحديث وأخبرها ببعض ما كان منها ﴿**وأعرض عن بعض**﴾ أي لم يعرفها إياه ولم يخبرها به قال الحسن ما استقصى كريم قط قال الله تعالى عرف بعضه وأعرض عن بعض والمعنى أن النبي ﷺ أخبر حفصة ببعض ما أخبرت به عائشة وهو تحريم الأمة وأعرض عن ذكر الخلافة لأنه ﷺ كره أن ينتشر ذلك في الناس ﴿**فلما نبأها به**﴾ أي أخبر حفصة بما أظهره الله عليه ﴿**قالت**﴾ يعني حفصة ﴿**من أنبأك هذا**﴾ أي من أخبرك بأني أفشيت السر ﴿**قال نبأني العليم**﴾ أي بما تكنه الضمائر ﴿**الخبير**﴾ أي بخفيات الأمور.

إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾

قوله عز وجل: ﴿**إن تتوبا إلى الله**﴾ يخاطب عائشة وحفصة أي من التعاون على رسول الله ﷺ والإيذاء له ﴿**فقد صغت قلوبكما**﴾ أي زاغت ومالت عن الحق واستوجبتما أن تتوبا وذلك بأن سرهما ما كره رسول الله ﷺ وهو اجتناب مارية، (ق) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال «لم أزل حريصاً على أن أسأل عمر بن الخطاب عن المرأتين من أزواج النبي ﷺ اللتين قال الله عز وجل إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما حتى حج عمر وحججت معه فلما كان عمر ببعض الطريق عدل وعدلت معه بالإداوة فتبرز ثم أتاني فصببت على يديه فتوضأ فقلت يا أمير المؤمنين من المرأتان من أزواج

عليه السلام، وقال: لا تطلّقها فإنها صوّامة قوّامة وإنها من جملة نسائك في الجنة، فلم يطلّقها. وقرأ الآخرون ﴿ **عرف** ﴾ بالتشديد أي عرف حفصة بعد ذلك الحديث، أي أخبرها ببعض القول الذي كان منها، ﴿ **وأعرض عن بعض** ﴾، يعني لم يعرّفها إياه، ولم يخبرها به، قال الحسن: ما استقصى كريم قطّ، قال الله تعالى: ﴿ **عرف بعضه وأعرض عن بعض** ﴾، وذلك أن النبي ﷺ لمّا رأى الكراهية في وجه حفصة أراد أن يتراضاها فأسرّ إليها شيئين: تحريم الأمة على نفسه وتبشيرها بأن الخلافة بعده في أبي بكر وفي أبيها عمر رضي الله عنها، وأطلع الله نبيّه عليه، عرف حفصة وأخبرها ببعض ما أخبرت به عائشة وهو تحريم الأمة وأعرض عن بعض يعني ذكر الخلافة، كره رسول الله ﷺ أن ينتشر ذلك في الناس، ﴿ **فلما نبّأها به** ﴾، أي أخبر النبي ﷺ حفصة بما أظهره الله عليه، ﴿ **قالت** ﴾، حفصة، ﴿ **مَن أنبأك هذا** ﴾، أي مَن أخبرك بأني أفشيت السرّ؟ ﴿ **قال نبّأني العليم الخبير** ﴾.

﴿ **إن تتوبا إلى الله** ﴾، أي من التعاون على النبي ﷺ بالإيذاء يخاطب عائشة وحفصة، ﴿ **فقد صغت قلوبكما** ﴾، أي زاغت ومالت عن الحق واستوجبتما التوبة. قال ابن زيد: مالت قلوبكما بأن سرّهما ما كره رسول الله ﷺ من اجتناب جاريته. أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا أبو اليمان أنا شعيب الزهري أخبرنا عبيد الله بن عبد الله بن أبي ثور أنا عبد الله بن عباس قال: لم أزل حريصاً على أن أسأل عمر بن الخطاب عن المرأتين من أزواج النبي ﷺ اللتين قال الله تعالى لهما: ﴿ **إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما** ﴾، حتى حجّ فحججت معه وعدل وعدلت معه بإداوة فتبرز ثم جاء فسكبت على يديه من الإداوة، فتوضأ فقلت له: يا أمير المؤمنين مَن المرأتان من أزواج النبي ﷺ اللتان قال الله عزّ وجلّ

النبي ﷺ اللتان قال الله تعالى إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما قال عمر واعجباً لك يا ابن العباس قال الزهري كره منه ما سأله عنه ولم يكتمه قال هما عائشة وحفصة ثم أخذ يسوق الحديث قال كنا معشر قريش قوماً نغلب النساء فلما قدمنا المدينة وجدنا قوماً تغلبهم نساؤهم فطفق نساؤنا يتعلمن من نسائهم قال وكان منزلي في بني أمية بن زيد بالعوالي فغضبت يوماً على امرأتي فإذا هي تراجعني فأنكرت أن تراجعني فقالت ما تنكر أن أراجعك فوالله إن أزواج النبي ﷺ ليراجعنه وتهجره إحداهن اليوم إلى الليل فانطلقت فدخلت على حفصة فقلت أتراجعن رسول الله ﷺ؟ فقالت نعم فقلت أتهجره إحداكن اليوم إلى الليل؟ قالت نعم قلت لقد خابت من فعلت ذلك منكن وخسرت أفتأمن إحداكن أن يغضب الله عليها لغضب رسول الله ﷺ فإذا هي قد هلكت لا تراجعي رسول الله ﷺ ولا تسأليه شيئاً وسليني ما بدا لك ولا يغرنك أن كانت جارتك هي أوسم وأحب إلى رسول الله ﷺ منك يريد عائشة وكان لي جار من الأنصار فكنا نتناوب النزول إلى رسول الله ﷺ فينزل يوماً ويأتيني بخبر الوحي وغيره وآتيه بمثل ذلك وكنا نتحدث أن غسان تبعث الخيل لتغزونا فنزل صاحبي الأنصاري يوم نوبته ثم أتاني عشاء فضرب بابي ثم ناداني فخرجت إليه فقال حدث أمر عظيم قلت ماذا أجاءت غسان؟ قال لا بل أعظم من ذلك وأهول طلق رسول الله ﷺ نساءه قلت قد خابت حفصة وخسرت قد كنت أظن هذا يوشك أن يكون حتى إذا صليت الصبح شددت على ثيابي ثم نزلت فدخلت على حفصة وهي تبكي فقلت أطلقكن رسول الله ﷺ؟ قالت لا أدري ها هو ذا معتزل في هذه المشربة فأتيت غلاماً له أسود فقلت

لهما: ﴿ **إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما** ﴾؟ فقال: واعجباً لك يا ابن عباس هما عائشة وحفصة. ثم استقبل عمر الحديث يسوقه فقال: إني كنت أنا وجارٌ لي من الأنصار في بني أُمية بن زيد وهي من عوالي المدينة، وكنّا نتناوب النزول على النبي ﷺ فينزل يوماً وأنزل يوماً فإذا نزلت حدّثته بما حدث من خبر ذلك اليوم من الأمر أو غيره وإذا نزل فعل مثله، وكنّا معشر قريش نغلب النساء، فلما قَدِمنا على الأنصار إذا هم قوم تغلبهم نساؤهم، فطفق نساؤنا يأخذن من أدب نساء الأنصار فصحت على امرأتي فراجعتني فأنكرت أن تراجعني، فقالت: ولِمَ تنكر أن أُراجعك فوالله إن أزواج النبي ﷺ ليراجعنه، وإن إحداهنّ لتهجره اليوم حتى الليل. فأفزعني فقلت: خابت مَن فعلت منهنّ بعظيم، ثم جمعت عليّ ثيابي فدخلت على حفصة، فقلت: أيْ حفصة أتغاضب إحداكنّ النبيَّ ﷺ حتى الليل؟ فقالت: نعم، فقلت: خابت وخسرت أفتـأمنين أن يغضب الله تعالى لغضب رسـوله فتهلكي لا تستكثـري على النبـي ﷺ ولا تراجعيه في شيء، ولا تهجريه وسليني ما بدا لك، ولا يغرنّك إن كانت جارتك هي أوضأ منك وأحبّ إلى النبي ﷺ يريد عائشة، قال عمر: وكنّا تحدّثنا أن غسان تبعث الخيل لتغزونا فنزل صاحبي يوم نوبته، فرجع عشاء فضرب بابي ضرباً شديداً وقال: أثَمَّ هو، ففزعت فخرجت إليه فقال: حدث عظيم؟ فقلت: ما هو أجاءت غسان؟ قال: لا بل أعظم منه وأطول طلّق النبي ﷺ نساءه، فقلت قد خابت حفصة وخسرت كنت أظن أن هذا يوشك أن يكون، فجمعت عليّ ثيابي فصلّيت صلاة الفجر مع النبي ﷺ، فدخل مشربة له فاعتزل فيها فدخلت على حفصة فإذا هي تبكي، فقلت: ما يُبكيك أوَ لَمْ أكن حذّرتك؟ أطلّقكنّ النبي ﷺ؟ قالت: لا أدري هو ذا في المشربة، فخرجت فجئت المنبر فإذا حوله رهط يبكي بعضهم، فجلست معهم قليلاً ثم غلبني ما أجد، فجئت المشربة التي فيها النبي ﷺ فقلت لغلام له أسود: استأذن لعمر، فدخل فكلّم النبي ﷺ ثم رجع إليّ فقال: قد كلّمت النبي ﷺ فذكرتك له فصمت، فانصرفت حتى جلست مع الرهط الذين عند المنبر، ثم غلبني ما أجد فجئت فقلت للغلام: استأذن لعمر، فدخل ثم رجع إليّ فقال: قد ذكرتك له فصمت، فرجعت فجلست مع الرهط الذين عند المنبر، ثم غلبني ما أجد فجئت الغلام فقلت: استأذن لعمر، فاستأذن ثم رجع إليّ فقال، قد ذكرتك له فصمت، فلما ولّيت منصرفاً فإذا الغلام يدعوني، فقال: قد أذِنَ لك النبي ﷺ، فدخلت على رسول الله ﷺ فإذا هو

استأذن لعمر فدخل ثم خرج إليّ فقال قد ذكرتك له فصمت فانطلقت حتى أتيت المنبر فإذا عنده رهط جلوس يبكي بعضهم فجلست قليلاً ثم غلبني ما أجد فأتيت الغلام فقلت استأذن لعمر فدخل ثم خرج فقال قد ذكرتك له فصمت فجلست إلى المنبر ثم غلبني ما أجد فأتيت الغلام فقلت استأذن لعمر فدخل ثم خرج فقال قد ذكرتك له فصمت فوليت مدبراً فإذا الغلام يدعوني فقال ادخل فقد أذن لك فدخلت فسلمت على رسول الله ﷺ فإذا هو متكىء على رمال حصير قد أثر في جنبه فقلت أطلقت يا رسول الله نساءك فرفع رأسه إليّ وقال لا فقلت الله أكبر لو رأيتنا يا رسول الله قد كنا معشر قريش نغلب النساء فلما قدمنا المدينة وجدنا قوماً تغلبهم نساؤهم فطفق نساؤنا يتعلمن من نسائهم فغضبت على امرأتي يوماً فإذا هي تراجعني فأنكرت إذ راجعتني فقالت ما تنكر أن أراجعك فوالله إن أزواج النبي ﷺ ليراجعنه وتهجره إحداهن اليوم إلى الليل فقلت قد خاب من فعل ذلك منهن وخسر أفتأمن إحداهن أن يغضب الله عليها لغضب رسول الله ﷺ فإذا هي قد هلكت فتبسم رسول الله ﷺ فقلت يا رسول الله قد دخلت علي حفصة فقلت لا يغرنك أن كانت جارتك هي أوسم وأحب إلى رسول الله ﷺ منك فتبسم أخرى فقلت استأنس يا رسول الله قال نعم قال فجلست فرفعت رأسي في البيت فوالله ما رأيت فيه ما يرد البصر إلا أهبة ثلاثة فقلت يا رسول الله ادع الله أن يوسع على أمتك فقد وسع على فارس والروم وهم لا يعبدون الله فاستوى جالساً ثم قال أفي اشك أنت يا ابن الخطاب أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم في الحياة الدنيا فقلت استغفر لي يا رسول الله وكان قد أقسم أن لا يدخل عليهن شهراً من أجل ذلك الحديث حين أفشته حفصة لعائشة من شدة موجدته عليهن حتى عاتبه الله تعالى» قال الزهري فأخبرني عروة عن عائشة قالت «لما مضت تسع وعشرون دخل علي رسول الله ﷺ بدأ بي فقلت يا رسول الله إنك أقسمت أن لا تدخل علينا شهراً وإنك دخلت في ليلة تسع وعشرين أعدهن فقال إن الشهر يكون تسعاً وعشرين زاد في رواية وكان ذلك الشهر تسعاً وعشرين ليلة ثم قال يا عائشة إني ذاكر لك أمراً فلا عليك أن لا تعجلي حتى تستأمري أبويك ثم قال يا أيها

مضطجع على رمال حصير ليس بينه وبينه فراش، قد أثّر الرمال بجنبه متّكئاً على وسادة من أدم حشوها ليف، فسلّمت عليه ثم قلت وأنا قائم: يا رسول الله أطلّقتَ نساءك؟ فرفع إليّ بصره فقال: «لا»، فقلت: الله أكبر، ثم قلت وأنا قائم: أستأنس يا رسول الله لو رأيتني، وكنّا معشر قريش نغلب النساء فلما قَدِمنا المدينة إذا قوم تغلبهم نساؤهم، فتبسّم رسول الله ﷺ، ثم قلت: يا رسول الله لو رأيتني، ودخلت على حفصة فقلت لها لا يغرّنّك إن كانت جارتك أوضأ منك وأحبّ إلى رسول الله ﷺ يريد عائشة، فتبسم النبي ﷺ تبسمة أخرى، فجلست حين رأيته يتبسم فرفعت بصري في بيته فوالله ما رأيت فيه شيئاً يردّ البصر غير أُهبة ثلاثة، فقلت: يا رسول الله ادع الله تعالى فليوسع على أُمّتك فإن فارس والروم قد وُسِّع عليهم وأُعطوا من الدنيا وهم لا يعبدون الله تعالى، فجلس النبي ﷺ وكان متكئاً فقال: «أوَ في هذا أنت يا ابن الخطاب؟ إن أولئك قوم عجّلوا طيّباتهم في الحياة الدنيا»، فقلت: يا رسول الله استغفر لي فاعتزل النبي ﷺ، وسلّم نساءه من أجل ذلك الحديث حين أفشته حفصة إلى عائشة تسعاً وعشرين ليلة، وكان يقول: «ما أنا بداخل عليهنّ شهراً من شدّة موجدته عليهنّ حين عاتبه الله تعالى، فلما مضت تسعاً وعشرون ليلة، دخل على عائشة رضي الله عنها فبدأ بها، فقالت له عائشة: يا رسول الله إنك كنت أقسمت أن لا تدخل علينا شهراً فإنما أصبحت من تسع وعشرين ليلة أعدّها عدّاً؟ فقال: «الشهر تسع وعشرون»، وكان ذلك الشهر تسعاً وعشرين ليلة. قالت عائشة: ثم أنزل الله آية التخيير فبدأ بي أول امرأة من نسائه، فاخترته ثم خيّر نساءه كلهنّ فقلن مثل ما قالت عائشة، أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا أبو اليمان أنا شعيب عن الزهري أخبرني أبو سلمة بن عبد الرحمن أن عائشة زوج النبي ﷺ أخبرته أن رسول الله ﷺ جاءها حين أمر الله تعالى أن يخيّر أزواجه فبدأ بي رسول الله ﷺ، فقال: «إني ذاكر لك

النبي قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها حتى بلغ إلى قوله عظيماً قالت عائشة قد علم رسول الله والله أن أبوي لم يكونا ليأمراني بفراقه فقلت أفي هذا أستأمر أبوي فإني أريد الله ورسوله والدار الآخرة»، زاد في رواية «أن عائشة قالت لا تخبر نساءك أني اخترتك فقال لها النبي ﷺ إن الله أرسلني مبلغاً ولم يرسلني متعنتاً» ولمسلم عن ابن عباس عن عمر نحوه وفيه قال «دخلت عليه فقلت يا رسول الله ما يشق عليك من شأن النساء فإن كنت طلقتهن فإن الله معك وملائكته وجبريل وميكائيل وأنا وأبو بكر والمؤمنون معك وقلما تكلمت وأحمد الله بكلام إلا رجوت أن يكون الله يصدق قولي الذي أقول فنزلت هذه الآية عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكن وإن تظاهرا عليه فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير»، وفيه أنه استأذن رسول الله ﷺ أن يخبر الناس أنه لم يطلق نساءه فأذن له وأنه قام على باب المسجد فنادى بأعلى صوته لم يطلق رسول الله ﷺ نساءه.

(شرح بعض ألفاظه)

قوله فعدلت معه بالإداوة أي فملت معه بالركوة فتبرز أي أتى البراز وهو الفضاء من الأرض لقضاء الحاجة.

العوالي جمع عالية وهي أماكن بأعلى أراضي المدينة قوله ولا يغرنك أن كانت جارتك يريد بها الضرة وهي عائشة أوسم منك أي أكثر حسناً وجمالاً منك قوله فكنا نتناوب النزول التناوب هو أن يفعله الإنسان مرة ويفعله الآخر بعده المشربة بضم الراء وفتحها الغرفة قوله فإذا هو متكىء على رمال حصير يقال رملت الحصير إذا ضفرته ونسجته والمراد به أنه لم يكن على السرير وطاء سوى الحصير قوله ما رأيت فيه ما يرد البصر إلا أهبة ثلاثة الأهبة والأهب جمع إهاب وهو الجلد قوله من شدة موجدته الموجدة الغضب.

قوله تعالى: ﴿**وإن تظاهرا عليه**﴾ أي تعاونا على إيذاء النبي ﷺ ﴿**فإن الله هو مولاه**﴾ أي وليه وناصره ﴿**وجبريل**﴾ يعني وجبريل وليه وناصره أيضاً وإنما أفرده وإن كان داخلاً في جملة الملائكة تعظيماً له وتنبيهاً على علو منزلته ومكانته ﴿**وصالح المؤمنين**﴾ روي عن ابن مسعود وأبي بن كعب صالح المؤمنين أبو بكر وعمر وقيل هم المخلصون من المؤمنين الذين ليسوا بمنافقين وقيل هم الأنبياء ﴿**والملائكة بعد ذلك**﴾ أي بعد نصر الله وجبريل

أمراً فلا عليك أن لا تعجلي بالجواب حتى تستأمري أبويك»، وقد علم أن أبويّ لم يكونا يأمراني بفراقه، ثم قال: ﴿ يا أيها النبي قل لأزواجك ﴾ [الأحزاب: ٢٨ و٥٩] إلى تمام الآيتين، فقلت: أوَ في هذا أستأمر أبويّ فإني أُريد الله ورسوله والدار الآخرة. أخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر أنا عبد الغافر بن محمد أنا محمد بن عيسى ثنا إبراهيم بن محمد بن سفيان ثنا مسلم بن الحجّاج حدّثني زهير بن حرب ثنا عمر بن يونس الحنفي ثنا عكرمة بن عمّار عن سماك بن زميل حدّثنا عبد الله بن عباس حدّثني عمر بن الخطاب قال: لمّا اعتزل النبي ﷺ نساءه وذكر الحديث. وقال: دخلت عليه فقلت: يا رسول الله ما يشقّ عليك من شأن النساء فإن كنت طلّقتهنّ فإن الله معك وملائكته وجبريل وميكائيل وأنا وأبو بكر والمؤمنون معك. وقلّما تكلّمت وأحمد الله تعالى بكلام إلاّ رجوت أن يكون الله يصدق قولي الذي أقول، ونزلت هذه الآية: ﴿ عسى ربّه إن طلّقكنّ أن يبدله أزواجاً خيراً منكنّ ﴾ [التحريم: ٥]. ﴿ **وإن تظاهرا عليه فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير** ﴾. قوله: ﴿ **وإن تظاهرا عليه** ﴾، أي تتظاهرا أو تتعاونا على أذى النبي ﷺ، قرأ أهل الكوفة بتخفيف الظاء، والآخرون بتشديدها، ﴿ **فإن الله هو مولاه** ﴾، أي وليّه وناصره قوله: ﴿ **وجبريل وصالح المؤمنين** ﴾، رُوِيَ عن ابن مسعود وأُبيّ بن كعب: ﴿ **وصالح المؤمنين** ﴾ أبو بكر وعمر رضي الله عنهما، وقال الكلبي: هم المخلصون الذين ليسوا بمنافقين. قوله: ﴿ **والملائكة بعد ذلك ظهير** ﴾، قال مقاتل: بعد الله وجبريل وصالح المؤمنين ظهير، أي: أعوان للنبي ﷺ، وهذا

وصالح المؤمنين ﴿ظهير﴾ أي أعوان للنبي ﷺ ينصرونه.

﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا ۝٥﴾

﴿عسى ربه﴾ أي واجب من الله ﴿إن طلقكن﴾ يعني رسول الله ﷺ ﴿أن يبدله أزواجاً خيراً منكن﴾ ثم وصف الأزواج اللواتي كان يزوجه بهن فقال ﴿مسلمات﴾ أي خاضعات لله بالطاعة ﴿مؤمنات﴾ أي مصدقات بتوحيد الله تعالى: ﴿قانتات﴾ أي طائعات وقيل داعيات وقيل مصليات بالليل ﴿تائبات﴾ أي تاركات للذنوب، لقبحها أو كثيرات التوبة ﴿عابدات﴾ وكثيرات العبادة ﴿سائحات﴾ أي صائمات وقيل مهاجرات وقيل يسحن معه حيث ساح ﴿ثيبات﴾ جمع ثيب وهي التي تزوجت ثم بانت بوجه من الوجوه ﴿وأبكاراً﴾ أي عذارى جمع بكر وهذا من باب الإخبار عن القدرة لا عن الكون لأنه قال إن طلقكن وقد علم أنه لا يطلقهن فأخبر عن قدرته أنه إن طلقهن أبدله أزواجاً خيراً منهن تخويفاً لهن.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا
يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۝٦ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَعْتَذِرُوا۟ ٱلْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٧
يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ
تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ
يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٨ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ
وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ۝٩﴾

قوله عز وجل: ﴿يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم﴾ قال ابن عباس بالانتهاء عما نهاكم الله عنه والعمل بطاعته ﴿وأهليكم﴾ يعني مروهم بالخير وانهوهم عن الشر وعلموهم وأدبوهم تقوهم بذلك، ﴿ناراً وقودها الناس والحجارة﴾ يعني الكبريت، لأنه أشد الأشياء حراً وأسرع إيقاداً ﴿عليها ملائكة﴾ يعني خزنة النار وهم الزبانية ﴿غلاظ﴾ أي فظاظ على أهل النار ﴿شداد﴾ يعني أقوياء يدفع الواحد منهم بالدفعة الواحدة سبعين ألفاً في النار لم

من الواحد الذي يؤدّي عن الجمع، كقوله: ﴿ وحَسُنَ أولئك رفيقاً ﴾ [النساء: ٦٩].

﴿ عسى ربّه إن طلّقكنّ ﴾، أي واجب من الله إن طلّقكنّ رسوله، **﴿ أن يبدله أزواجاً خيراً منكنّ مسلمات ﴾، خاضعات لله بالطاعة، ﴿ مؤمنات ﴾**، مصدّقات بتوحيد الله، **﴿ قانتات ﴾**، طائعات، وقيل: داعيات وقيل مصلّيات، **﴿ تائبات عابدات سائحات ﴾**، صائمات، وقال زيد بن أسلم: مهاجرات. وقيل: يسحن معه حيث ما ساح، **﴿ ثيّبات وأبكاراً ﴾**، وهذا في الأخبار عن القدرة لا عن الكون لأنه قال: **﴿ إن طلّقكنّ ﴾** وقد علم أنه لا يطلّقهنّ وهذا كقوله: ﴿ وإن تتولّوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم ﴾ [محمد: ٣٨]، وهذا إخبار عن القدرة لأن في الوجود أمة هم خير من أمة محمد ﷺ.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم ﴾، قال عطاء عن ابن عباس: أي بالانتهاء عمّا نهاكم الله تعالى عنه والعمل بطاعته، ﴿ وأهليكم ناراً ﴾، يعني مُرُوهم بالخير وانهوهم عن الشر، وعلّموهم وأدّبوهم تقوهم

يخلق الله الرحمة فيهم ﴿لا يعصون الله ما أمرهم﴾ أي لا يخالفون الله فيما أمرهم به ونهاهم عنه ﴿ويفعلون ما يؤمرون﴾ أي لا تأخذهم رأفة في تنفيذ أوامره والانتقام من أعدائه ﴿يا أيها الذين كفروا لا تعتذروا اليوم﴾ أي يقال لهم لا تعتذروا اليوم وذلك حين يعاينون النار وشدتها لأنه قد قدم إليهم الإنذار والإعذار فلا ينفعهم الاعتذار لأنه غير مقبول بعد دخول النار ﴿إنما تجزون ما كنتم تعملون﴾ يعني أن أعمالكم السيئة ألزمتكم العذاب.

قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحاً﴾ أي ذات نصح تنصح صاحبها بترك العود إلى الذنب الذي تاب منه قال عمر بن الخطاب وأبي بن كعب ومعاذ التوبة النصوح أن يتوب ثم لا يعود إلى الذنب كما لا يعود اللبن إلى الضرع وقال الحسن هي أن يكون العبد نادماً على ما مضى مجمعاً على أن لا يعود إليه وقال الكلبي أن يستغفر باللسان ويندم بالقلب ويمسك بالبدن وقال سعيد بن المسيب معناه توبة تنصحون بها أنفسكم وقال محمد بن كعب القرظي التوبة النصوح يجمعها أربعة أشياء الاستغفار باللسان والإقلاع بالأبدان وإضمار ترك العود بالجنان ومهاجرة سيىء الإخوان.

(فصل)

وقال العلماء التوبة واجبة من كل ذنب على الفور ولا يجوز تأخيرها سواء كانت المعصية صغيرة أو كبيرة فإن كانت المعصية بين العبد وبين الله تعالى لا تتعلق بحق آدمي فلها ثلاث شروط:

أحدها: أن يقلع عن المعصية؛ والثاني أن يندم على فعلها، والثالث أن يعزم على أن لا يعود إليها أبداً فإذا اجتمعت هذه الشروط في التوبة كانت نصوحاً وإن فقد شرط منها لم تصح توبته فإن كانت المعصية تتعلق بحق آدمي فشروطها أربعة هذه الثلاثة المتقدمة والرابع أن يبرأ من حق صاحبها فإن كانت المعصية مالاً ونحوه رده إلى صاحبه وإن كان حد قذف أو نحوه مكنه من نفسه أو طلب عفوه وإن كانت غيبة استحله منها ويجب أن يتوب العبد من جميع الذنوب فإن تاب من بعضها صحت توبته من ذلك الذنب وبقي عليه ما لم يتب منه هذا مذهب أهل السنة، وقد تظاهرت دلائل الكتاب والسنة وإجماع الأمة على وجوب التوبة (م) عن الأغر بن يسار المزني قال: قال رسول الله ﷺ «يا أيها الناس توبوا إلى الله فإني أتوب في اليوم مائة مرة» (خ) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول «والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة»، (ق) عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ «لله أفرح بتوبة عبده المؤمن من أحدكم سقط على بعيره وقد أضله في أرض فلاة الحديث (م) عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال «إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ويبسط يده بالنهار ليتوب

بذلك ناراً، ﴿وَقُودُها الناس والحجارة عليها ملائكة﴾، يعني خَزَنَة النار، ﴿غِلاظ﴾، فِظاظ على أهل النار، ﴿شِداد﴾، أقوياء يدفع الواحد منهم بالدفعة الواحدة سبعين ألفاً في النار وهم الزبانية لم يخلق الله فيهم الرحمة، ﴿لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون﴾.

﴿يا أيها الذين كفروا لا تعتذروا اليوم إنما تُجزَون ما كنتم تعملون * يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبةً نصوحاً﴾، قرأ الحسن وأبو بكر عن عاصم ﴿نصوحاً﴾ بضم النون، وقرأ العامّة بفتحها أي توبة ذات نصح تنصح صاحبها بترك العَوْد إلى ما تاب منه، واختلفوا في معناه قال عمر وأبي ومعاذ: التوبة النصوح أن يتوب ثم لا يعود إلى الذنب، كما لا يعود اللبن إلى الضرع. قال الحسن: هي أن يكون العبد نادماً على ما مضى مجمعاً على ألاّ يعود فيه. قال الكلبي أن يستغفر باللسان ويندم بالقلب ويمسك بالبدن. قال سعيد بن المسيب: توبة تنصحون بها أنفسكم. قال القرظي: يجمعها أربعة أشياء الاستغفار باللسان والأقلام بالأبدان وإضمار ترك العَوْد بالجِنان ومهاجرة سيِّىء الإخوان. ﴿عسى ربكم أن يكفِّر عنكم سيئاتكم ويُدخلكم جنّات تجري من تحتها الأنهار يوم لا يخزي الله

مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها» عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال «إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر» أخرجه الترمذي وقال حديث حسن.

وقوله تعالى: ﴿عسى ربكم أن يكفر عنكم سيئاتكم﴾ هذا إطماع من الله تعالى لعباده في قبول التوبة وذلك تفضلاً وتكرماً لا وجوباً عليه ﴿ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار يوم لا يخزي الله النبي والذين آمنوا معه﴾ أي لا يعذبهم بدخول النار ﴿نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم﴾ يعني على الصراط ﴿يقولون ربنا﴾ يعني إذا انطفأ نورا المنافقين ﴿أتمم لنا نورنا واغفر لنا إنك على كل شيء قدير يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير﴾ تقدم تفسيره.

ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾

قوله تعالى: ﴿ضرب الله مثلاً﴾ أي بين شبهها وحالاً ﴿للذين كفروا امرأة نوح﴾ واسمها واعلة ﴿وامرأة لوط﴾ واسمها واهلة وقيل اسمهما والعة ووالهة ﴿كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين﴾ وهما نوح ولوط عليهما الصلاة والسلام وقوله من عبادنا إضافة تشريف وتعظيم ﴿فخانتاهما﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما ما بغت امرأة نبي قط وإنما كانت خيانتهما أنهما كانتا على غير دينهما وكانت امرأة نوح تقول للناس إنه مجنون وإذا آمن أحد أخبرت به الجبابرة من قومها وأما امرأة لوط فإنها كانت تدل قومها على أضيافه إذا نزل به ضيف بالليل أوقدت النار وإذا نزل به ضيف بالنهار دخنت لتعلم قومها بذلك وقيل أسرتا النفاق وأظهرتا الإيمان ﴿فلم يغنيا عنهما من الله شيئاً﴾ أي لم يدفعا عن امرأتيهما مع نبوتهما عذاب الله ﴿وقيل ادخلا النار مع الداخلين﴾ وهذا مثل ضربه الله تعالى للصالحين والصالحات

النبي والذين آمنوا معه﴾، أي لا يعذّبهم الله بدخول النار، ﴿**نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم**﴾، على الصراط، ﴿**يقولون**﴾، إذ طُفِىء نور المنافقين، ﴿**ربّنا أتممْ لنا نورنا واغفرْ لنا إنك على كل شيء قدير**﴾.

﴿**يا أيها النبي جاهد الكفّار والمنافقين واغلظْ عليهم ومأْوَاهم جهنم وبئس المصير**﴾، ثم ضرب الله مثلاً للصالحين والصالحات من النساء.

فقال جلّ ذكره: ﴿**ضرب الله مثلاً للذين كفروا امرأة نوح**﴾، واسمها واعلة، ﴿**وامرأة لوط**﴾، واسمها واهلة. وقال مقاتل: والعة ووالهة، ﴿**كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين**﴾، وهما نوح ولوط عليهما السلام، ﴿**فخانتاهما**﴾، قال ابن عباس: ما بغت امرأة نبيّ قطّ وإنما كانت خيانتهما أنهما كانتا على غير دينهما، فكانت امرأة نوح تقول للناس: إنه مجنون وإذا آمن به أحد أخبرت به الجبابرة، وأما امرأة لوط فإنها كانت تدلّ قومه على أضيافه إذا نزل به ضيف بالليل أوقدت النار، وإذا نزل بالنهار دخّنت ليعلم قومه أنه نزل به ضيف. وقال الكلبي: أسرّتا النفاق وأظهرتا الإيمان، ﴿**فلم يُغنيا عنهما من الله شيئاً**﴾، لم يدفعا عنهما مع نبوّتهما عذاب الله، ﴿**وقيل ادخلا النار مع الداخلين**﴾، قطع الله بهذه الآية طمع كل مَن يركب المعصية أن ينفعه صلاح غيره، ثم أخبر أن معصية غيره لا تضرّه إذا كان مطيعاً.

من النساء وأنه لا ينفع العاصي طاعة غيره ولا يضر المطيع معصية غيره وإن كانت القرابة متصلة بينهم وأن القريب كالأجانب بل أبعد وإن كان القريب الذي يتصل به الكافر نبياً كامرأة نوح وامرأة لوط لما خانتاهما لم يغن هذان الرسولان عن امرأتيهما شيئاً فقطع بهذه الآية طمع من يرتكب المعصية ويتكل على صلاح غيره وفي هذا المثل تعريض بأمي المؤمنين عائشة وحفصة وما فرط منهما وتحذير لهما على أغلظ وجه وأشده ثم ضرب مثلاً آخر يتضمن أن معصية الغير لا تضره إذا كان مطيعاً وأن وصلة المسلم بالكافر لا تضر المؤمن فقال تعالى: **﴿وضرب الله مثلاً للذين آمنوا امرأة فرعون﴾** يعني آسية بنت مزاحم قال المفسرون لما غلب موسى السحرة آمنت به امرأة فرعون فلما تبين لفرعون إسلامها أوتد يديها ورجليها بأربعة أوتاد وألقاها في الشمس فكانت تعذب في الشمس فإذا انصرفوا عنها أظلتها الملائكة **﴿إذ قالت رب ابن لي عندك بيتاً في الجنة﴾** فكشف الله لها عن بيتها في الجنة وقيل إن فرعون أمر بصخرة عظيمة لتلقى عليها فلما أتوها بالصخرة قالت رب ابن لي عندك بيتاً في الجنة فأبصرت بيتها في الجنة، من درة بيضاء وانتزعت روحها فألقيت الصخرة على جسد لا روح فيه ولم تجد ألماً وقيل رفع الله امرأة فرعون إلى الجنة فهي تأكل وتشرب فيها **﴿ونجني من فرعون وعمله﴾** يعني وشركه وقال ابن عباس عمله يعني جماعه **﴿ونجني من القوم الظالمين﴾** يعني الكافرين **﴿ومريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها﴾** أي عن الفواحش والمحصنة العفيفة **﴿فنفخنا فيه﴾** أي في جيب درعها ولذلك ذكر الكناية **﴿من روحنا﴾** إضافة تمليك وتشريف كبيت الله وناقة الله **﴿وصدقت بكلمات ربها﴾** يعني الشرائع التي شرعها الله لعباده بكلماته المنزلة على أنبيائه **﴿وكتبه﴾** يعني الكتب المنزلة على إبراهيم وموسى وداود وعيسى عليهم الصلاة والسلام، **﴿وكانت من القانتين﴾** يعني كانت من القوم القانتين أي المطيعين وهم رهطها وعشيرتها لأنهم كانوا أهل بيت صلاح وطاعة الله عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «حسبك من نساء العالمين مريم ابنة عمران وخديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد وآسية امرأة فرعون» أخرجه الترمذي وقال حديث صحيح. والله أعلم بمراده.

فقال: **﴿ وضرب الله مثلاً للذين آمنوا امرأت فرعون ﴾**، وهي آسية بنت مُزاحم، قال المفسّرون: لمّا غلب موسى السَّحَرَة آمنت امرأة فرعون لما تبيّن لفرعون إسلامها أَوْتَدَ يديها ورجليها بأربعة أوتاد وألقاها في الشمس. قال سلمان: كانت امرأة فرعون تُعَذَّب بالشمس فإذا انصرفوا عنها ظلّتها الملائكة **﴿ إذْ قالت ربِّ ابنِ لي عندك بيتاً في الجنّة ﴾**، فكشف الله لها عن بيتها في الجنة حتى رأته في القصة أن فرعون أمر بصخرة عظيمة لتلقى عليها، فلما أتوها بالصخرة قالت: ربِّ ابنِ لي عندك بيتاً في الجنة فأبصرت بيتها في الجنة من درّة، وانتزع روحها فأُلقيت الصخرة على جسد لا روح فيه، ولم تجد ألماً. وقال الحسن وابن كيسان: رفع الله امرأة فرعون إلى الجنة فهي فيها تأكل وتشرب. **﴿ ونجّني من فرعون وعمله ﴾**، قال مقاتل: وعمله يعني الشرك. وقال أبو صالح عن ابن عباس: وعمله، قال: جِمَاعه. **﴿ ونجّني من القوم الظالمين ﴾**، الكافرين.

﴿ ومريم ابنت عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه ﴾، أي في جيب درعها، ولذلك ذكر الكناية، **﴿ من روحنا وصدّقت بكلمات ربها ﴾**، يعني الشرائع التي شرعها الله للعباد بكلماته المنزلة، **﴿ وكتبه ﴾**، قرأ أهل البصرة وحفص **﴿ وكتبه ﴾** على الجمع، وقرأ الآخرون (وكتابه) على التوحيد، والمراد منه الكثرة أيضاً. وأراد الكتب التي أُنزلت على إبراهيم وموسى وداود وعيسى عليهم السلام. **﴿ وكانت من القانتين ﴾**، أي من القوم القانتين المطيعين لربّها ولذلك لم يقل من القانتات. وقال عطاء: من القانتين أي من المصلّين ويجوز أن يريد بالقانتين رهطها وعشيرتها فإنهم كانوا أهل صلاح مطيعين لله. وروينا عن النبي ﷺ قال: «حسبك من نساء العالمين: مريم بنت عمران وخديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد وآسية امرأة فرعون».

سورة الملك

مكية وهي ثلاثون آية وثلاثمائة وثلاثون كلمة وألف وثلاثمائة وثلاثة عشر حرفاً.

عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال «إن من القرآن سورة ثلاثون آية شفعت لرجل حتى غفر له وهي تبارك الذي بيده الملك» أخرجه الترمذي وقال حديث حسن ولأبي داود ونحوه، وفيه «تشفع لصاحبها» عن ابن عباس قال «ضرب بعض أصحاب رسول الله ﷺ خباءه على قبر وهو لا يحسب أنه قبر فإذا هو قبر إنسان يقرأ سورة الملك حتى ختمها فأتى النبي ﷺ فقال يا رسول الله ضربت خبائي على قبر إنسان وأنا لا أحب أنه قبر فإذا هو قبر إنسان يقرأ سورة الملك حتى ختمها فقال النبي ﷺ هي المانعة هي المنجية تنجيه من عذاب القبر» أخرجه الترمذي وقال حديث غريب.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾

قوله عز وجل: ﴿**تبارك الذي بيده الملك**﴾ أي له الأمر والنهي والسلطان فيعز من يشاء ويذل من يشاء ﴿**وهو على كل شيء قدير**﴾ أي من الممكنات ﴿**الذي خلق الموت والحياة**﴾ قيل أراد موت الإنسان وحياته في الدنيا جعل الله الدنيا دار حياة وفناء وجعل الآخرة دار جزاء وبقاء وإنما قدم الموت لأنه أقرب إلى قهر الإنسان، وقيل قدمه لأنه أقدم وذلك لأن الأشياء كانت في الابتداء في حكم الموتى كالتراب والنطفة والعلقة ونحو ذلك ثم طرأ عليها الحياة وقال ابن عباس خلق الموت على صورة كبش أملح لا يمر بشيء ولا يجد ريحه شيء إلا مات وخلقت الحياة على صورة فرس بلقاء وهي التي كان جبريل والأنبياء يركبونها لا تمر بشيء ولا يجد ريحها شيء إلا حيي وهي التي أخذ السامري قبضة من أثرها فألقاها في العجل فخار وحيي وقيل إن الموت صفة وجودية مضادة للحياة، وقيل الموت عبارة عن زوال

سُورَة المُلْك

مكيّة وهي ثلاثون آية.

﴿ **تبارك الذي بيده المُلْك وهو على كل شيء قدير * الذي خلق الموت والحياة** ﴾، قال عطاء عن ابن عباس: يريد الموت في الدنيا والحياة في الآخرة. وقال قتادة: أراد موت الإنسان وحياته في الدنيا، جعل الله الدنيا دار حياة وفناء، وجعل الآخرة دار جزاء وبقاء. قيل: إنما قدّم الموت لأنه إلى القهر أقرب. وقيل: قدّمه لأنه أقدم لأن الأشياء في الابتداء كانت في حكم الموت كالنطفة والتراب ونحوهما، ثم طرأت عليها الحياة. وقال ابن عباس: خلق الموت على صورة كبش أملح لا يمرّ بشيء ولا يجد ريحه شيء إلاّ مات وخلق الحياة على صورة فرس

القوة الحيوانية وإبانة الروح عن الجسد وضده الحياة وهي القوة الحساسة مع وجود الروح في الجسد وبه سمي الحيوان حيواناً وقيل إن الموت نعمة لأن الفاصل بين حال التكليف في هذه الدار وحال المجازاة في دار القرار والحياة أيضاً نعمة إذ لولاها لم يتنعم أحد في الدنيا ولم يصل إليه الثواب في الآخرة ﴿**ليبلوكم**﴾ أي ليختبركم فيما بين الحياة إلى الموت ﴿**أيكم أحسن عملاً**﴾ روي عن ابن عمر مرفوعاً أحسن عملاً أحسن عقلاً وأورع عن محارم الله وأسرع في طاعته وقال الفضيل بن عياض أحسن عملاً أخلصه وأصوبه، وقال أيضاً العمل لا يقبل حتى يكون خالصاً صواباً فالخالص إذا كان لله والصواب إذا كان على السنة وقيل أيكم أزهد في الدنيا ﴿**وهو العزيز**﴾ أي الغالب المنتقم ممن عصاه ﴿**الغفور**﴾ أي لمن تاب إليه ورجع عن إساءته.

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗاۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖۖ فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ ﴿٣﴾ ثُمَّ ٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ كَرَّتَيۡنِ يَنقَلِبۡ إِلَيۡكَ ٱلۡبَصَرُ خَاسِئٗا وَهُوَ حَسِيرٞ ﴿٤﴾ وَلَقَدۡ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلۡنَٰهَا رُجُومٗا لِّلشَّيَٰطِينِۖ وَأَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ﴿٥﴾ وَلِلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ عَذَابُ جَهَنَّمَۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٦﴾ إِذَآ أُلۡقُواْ فِيهَا سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقٗا وَهِىَ تَفُورُ ﴿٧﴾ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۖ كُلَّمَآ أُلۡقِىَ فِيهَا فَوۡجٞ سَأَلَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَذِيرٞ ﴿٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿**الذي خلق سبع سموات طباقاً**﴾ يعني طبقاً على طبق بعضها فوق بعض كل سماء مقبية على الأخرى وسماء الدنيا كالقبة على الأرض قال كعب الأحبار سماء الدنيا موج مكفوف والثانية مرمرة بيضاء والثالثة حديد والرابعة صفر أو قال نحاس والخامسة فضة والسادسة ذهب والسابعة ياقوتة حمراء وما بين السماء إلى الحجب السبعة صحار من نور، ﴿**ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت**﴾ أي ما ترى يا ابن آدم في شيء مما خلق الرحمن اعوجاجاً ولا اختلافاً ولا تناقضاً بل خلقهن مستقيمة مستوية ﴿**فارجع البصر**﴾ أي كرر النظر ﴿**هل ترى من فطور**﴾ أي من شقوق وصدوع ﴿**ثم ارجع البصر كرتين**﴾ قال ابن عباس مرة بعد مرة ﴿**ينقلب**﴾ أي ينصرف ﴿**إليك**﴾ فيرجع ﴿**البصر خاسئاً**﴾ أي صاغراً ذليلاً مبعداً لم ير ما يهوي ﴿**وهو حسير**﴾ أي كليل منقطع لم يدرك ما طلب ﴿**ولقد زينا السماء الدنيا**﴾ أي القربى من الأرض وهي التي يراها الناس ﴿**بمصابيح**﴾ أي بكواكب كالمصابيح في الإضاءة وهي

بلقاء أنثى وهي التي كان جبريل والأنبياء يركبونها لا تمرّ بشيء ولا يجد ريحها شيء إلّا حيّ، وهي التي أخذ السامري قبضة من أثرها فألقى على العجل فحيّ ﴿ **ليبلوكم** ﴾، فيما بين الحياة إلى الموت، ﴿ **أيّكم أحسن عملاً** ﴾، رُوِيَ عن ابن عمر مرفوعاً أحسن عملاً أحسن عقلاً وأورع عن محارم الله، وأسرع في طاعة الله. وقال الفضيل بن عياض: أحسن عملاً أخلصه وأصوبه. وقال: العمل لا يقبل حتى يكون خالصاً صواباً فالخالص إذا كان لله والصواب إذا كان على السُّنّة. وقال الحسن: أيّكم أزهد في الدنيا وأترك لها. وقال الفرّاء: لم تقع البلوى على أيٍّ إلّا وبينهما إضمار كما تقول بلوتكم لأنظر أيّكم أطوع ومثله سلهم أيّهم بذلك زعيم أي سَلهم وانظر أيّهم، فإن رفع على الابتداء وأحسن خبره، ﴿ **وهو العزيز** ﴾، في انتقامه ممّن عصاه، ﴿ **الغفور** ﴾، لمَن تاب إليه.

﴿ **الذي خلق سبع سمٰوات طِباقاً** ﴾، طبقاً على طبق بعضها فوق بعض، ﴿ **ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت** ﴾، قرأ حمزة والكسائي من تفوّت بتشديد الواو بلا ألف، وقرأ الآخرون بتخفيف الواو وألف قبلها، وهما لغتان كالتحمّل والتحامل والتظهّر والتظاهر، ومعناه: ما ترى يا ابن آدم في خلق الرحمن من اعوجاج واختلاف وتناقض، بل هي مستقيمة مستوية وأصله من الفَوْت وهو أن يفوت بعضها بعضاً لقلّة استوائها، ﴿ **فارجع البصر** ﴾، كرّر النظر، معناه: انظر ثم ارجع، ﴿ **هل ترى من فطور** ﴾، شقوق وصدوع.

﴿ **ثم ارجعِ البصر كرّتين** ﴾، قال ابن عباس مرة بعد مرة، ﴿ **ينقلب** ﴾، ينصرف ويرجع ﴿ **إليك البصر**

أعلام الكواكب، وقال ابن عباس بنجوم لها نور وقيل خلق الله النجوم لثلاث زينة للسماء وعلامات يهتدى بها في ظلمات البر والبحر ورجوماً للشياطين وهو قوله تعالى: ﴿**وجعلناها رجوماً للشياطين**﴾ قال ابن عباس يرجم بها الشياطين الذين يسترقون السمع.

فإن قلت جعل الكواكب زينة للسماء يقتضي بقاءها وجعلها رجوماً للشياطين يقتضي زوالها فكيف الجمع بين هاتين الحالتين.

قلت قالوا إنه ليس المراد أنهم يرمون بأجرام الكواكب بل يجوز أن تنفصل من الكواكب شعلة وترمي الشياطين بتلك الشعلة وهي الشهب ومثلها كمثل قبس يؤخذ من النار وهي على حالها ﴿**وأعتدنا لهم**﴾ أي وأعتدنا للشياطين بعد الاحتراق في الدنيا ﴿**عذاب السعير**﴾ أي في الآخرة وهي النار الموقدة ﴿**وللذين كفروا بربهم**﴾ أي ليس العذاب مختصاً بالشياطين بل لكل من كفر بالله من إنس وجن ﴿**عذاب جهنم وبئس المصير**﴾ ثم وصف جهنم فقال تعالى: ﴿**إذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقاً**﴾ هو أول صوت نهيق الحمار وذلك أقبح الأصوات ﴿**وهي تفور**﴾ أي تغلي بهم كغلي المرجل وقيل تفور بهم كما يفور الماء الكثير بالحب القليل، ﴿**تكاد تميز**﴾ أي تتقطع ﴿**من الغيظ**﴾ من تغيظها عليهم ﴿**كلما ألقى فيها فوج**﴾ أي جماعة ﴿**سألهم خزنتها**﴾ يعني سؤال توبيخ وتقريع ﴿**ألم يأتكم نذير**﴾ أي رسول ينذركم.

قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ
نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ
لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾ وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ
ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾ ءَأَمِنتُم مَّن فِى
ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ﴿١٦﴾

﴿**قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا**﴾ يعني للرسول ﴿**ما نزل الله من شيء**﴾ وهذا اعتراف منهم بأنه أزاح

خاسئاً﴾، صاغراً ذليلاً مبعداً لم يرَ ما يهوي، ﴿ **وهو حسير** ﴾، كليل منقطع لم يدرك ما طلب. ورُوِيَ عن كعب أنه قال: الساء الدنيا موج مكفوف، والثانية من درّة بيضاء، والثالثة حديد، والرابعة صفراء، وقال نحاس، والخامسة فضة، والسادسة ذهب، والسابعة ياقوتة حمراء، ومن السماء السابعة إلى الحجب السبعة صحارى نور.

﴿ **ولقد زيّنّا السمـاء الدنيا بمصابيـح** ﴾، أراد الأدنى من الأرض وهي التي يراهـا النـاس. وقـوله: ﴿ **بمصابيح** ﴾ الكواكب، واحدها مصباح، وهو السراج سُمّي الكوكب مصباحاً لإضاءته، ﴿ **وجعلناها رجوماً** ﴾، مرامي، ﴿ **للشياطين** ﴾، إذا استرقوا السمع، ﴿ **وأعتدنا لهم** ﴾، في الآخرة، ﴿ **عذاب السعير** ﴾، النار المُوقدةِ.

﴿ **وللذين كفروا بربّهم عذاب جهنم وبئس المصير * إذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقاً** ﴾، وهو أول نهيق الحمار وذلك أقبح الأصوات، ﴿ **وهي تفور** ﴾، تغلي بهم كغلي المِرْجَل. وقال مجاهد: تفور بهم كما يفور الماء الكثير بالحب القليل.

﴿ **تكاد تميز** ﴾، تتقطّع، ﴿ **من الغيظ** ﴾، من تغيظها عليهم، قال ابن قتيبة: تكاد تنشقّ غيظاً على الكفّار، ﴿ **كلما أُلقي فيها فوج** ﴾، جماعة منهم، ﴿ **سألهم خزَنَتها** ﴾، سؤال توبيخ، ﴿ **ألمْ يأتكم نذير** ﴾، رسول ينذركم.

﴿ **قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذّبنا وقلنا** ﴾، للرسل، ﴿ **ما نزل الله من شيء إن أنتم إلاّ في ضلال كبير** ﴾.

عللهم ببعثة الرسل ولكنهم كذبوا وقالوا ما نزل الله من شيء ﴿إن أنتم إلا في ضلال كبير﴾ فيه وجهان أحدهما وهو الأظهر أنه من جملة قول الكفار للرسل والثاني يحتمل أن يكون من كلام الخزنة للكفار والمعنى لقد كنتم في الدنيا في ضلال كبير ﴿وقالوا لو كنا نسمع﴾ أي من الرسل ما جاؤوا به ﴿أو نعقل﴾ أي نفهم منهم، قال ابن عباس لو كنا نسمع الهدى أو نعقله فنعمل به ﴿ما كنا في أصحاب السعير﴾ وقيل معناه لو كنا نسمع سمع من يعي ونعقل عقل من يميز وننظر ونتفكر ما كنا في أصحاب السعير ﴿فاعترفوا بذنبهم﴾ هو في معنى الجمع أي بتكذيبهم الرسل وقولهم «ما نزل الله من شيء» ﴿فسحقاً﴾ أي بعداً ﴿لأصحاب السعير﴾ قوله عز وجل: ﴿إن الذين يخشون ربهم بالغيب﴾ أي يخافون ربهم ولم يروه فيؤمنوا به خوفاً من عذابه ﴿لهم مغفرة﴾ أي لذنوبهم ﴿وأجر كبير﴾ يعني جزاء أعمالهم الصالحة ﴿وأسروا قولكم أو أجهروا به﴾ قال ابن عباس نزلت في المشركين كانوا ينالون من رسول الله ﷺ فيخبره جبريل بما قالوا فقال بعضهم لبعض أسروا قولكم كي لا يسمع إله محمد فأخبره الله أنه لا يخفى عليه خافية فقال تعالى: ﴿إنه عليم بذات الصدور﴾ ثم أكد ذلك بقوله تعالى: ﴿ألا يعلم من خلق﴾ يعني ألا يعلم من خلق مخلوقه، وقيل ألا يعلم الله من خلق والمعنى ألا يعلم الله ما في صدور من خلق ﴿وهو اللطيف﴾ أي باستخراج ما في الصدور ﴿الخبير﴾ بما فيها من السر والوسوسة.

قوله تعالى: ﴿هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً﴾ الذلول المنقاد من كل شيء والمعنى جعلها لكم سهلة لا يمتنع المشي فيها لحزونتها وغلظها ﴿فامشوا في مناكبها﴾ أمر إباحة وكذا قوله ﴿وكلوا من رزقه﴾ ومناكبها جوانبها وأطرافها ونواحيها وقيل طرقها وفجاجها وقال ابن عباس جبالها والمعنى هو الذي سهل لكم السلوك في جبالها وهو

﴿ وقالوا لو كنّا نسمع ﴾، من الرّسل ما جاؤونا به، ﴿ أو نعقل ﴾، منهم، وقال ابن عباس: لو كنّا نسمع الهدى أو نعقله فنعمل به، ﴿ ما كنّا في أصحاب السعير ﴾، قال الزجّاج: لو كنّا نسمع سمع مَن يعي ويتفكّر أو نعقل عقل مَن يميّز وينظر ما كنّا من أهل النار.

﴿ فاعترفوا بذنبهم فسحقاً ﴾، بُعداً، ﴿ لأصحاب السعير ﴾، قرأ أبو جعفر والكسائي ﴿ فسحقاً ﴾ بضمّ الحاء، وقرأ الباقون بسكونها، وهما لغتان مثل الرعب والرعب والسحت والسحت.

﴿ إن الذين يخشون ربهم بالغيب لهم مغفرة وأجر كبير * وأسرّوا قولكم أوِ اجهروا به إنه عليم بذات الصدور ﴾، قال ابن عباس: نزلت في المشركين كانوا ينالون من رسول الله ﷺ فيخبره جبريل عليه السلام بما قالوا، فقال بعضهم لبعض أسرُّوا قولكم كي لا يسمع إلّه محمد.

فقال الله جلّ ذكره: ﴿ ألا يعلم مَن خلق ﴾، ألا يعلم ما في الصدور مَن خلقها، ﴿ وهو اللطيف الخبير ﴾، لطيف علمه في القلوب الخبير بما فيها من السرّ والوسوسة. وقيل: ﴿ مَن ﴾ يرجع إلى المخلوق، أي ألا يعلم الله مخلوقه

﴿ هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً ﴾، سهلاً لا يمتنع المشي فيها بالحزونة، ﴿ فامشوا في مناكبها ﴾، قال ابن عباس وقتادة: في جبالها. وقال الضحاك: في آكامها. وقال مجاهد: في طرقها وفِجاجها. قال الحسن: في سبلها. وقال الكلبي: في أطرافها. وقال مقاتل: في نواحيها. قال الفرّاء: في جوانبها. والأصل في الكلمة الجانب، ومنه منكب الرجل، الريح النكباء وتنكب فلان. ﴿ وكلوا من رزقه ﴾، مما خلقه رزقاً لكم في الأرض، ﴿ وإليه النشور ﴾، أي وإليه تُبعثون من قبوركم.

أبلغ التذلل وكلوا من رزقه أي مما خلقه الله لكم في الأرض ﴿وإليه النشور﴾ أي وإليه تبعثون من قبوركم ثم خوف كفار مكة فقال تعالى: ﴿أأمنتم من في السماء﴾ قال ابن عباس يعني عقاب من في السماء إن عصيتموه ﴿أن يخسف بكم الأرض فإذا هي تمور﴾ أي تتحرك بأهلها وقيل تهوي بهم والمعنى أن الله تعالى يحرك الأرض عند الخسف بهم حتى يقلبهم إلى أسفل وتعلو الأرض عليهم وتمور فوقهم أي تجيء وتذهب.

أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾ أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾ قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٦﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ﴿٢٧﴾

﴿أم أمنتم من في السماء أن يرسل عليكم حاصباً﴾ يعني ريحاً ذات حجارة كما فعل بقوم لوط ﴿فستعلمون﴾ أي عند الموت في الآخرة ﴿كيف نذير﴾ أي إنذاري إذا عاينتم العذاب ﴿ولقد كذب الذين من قبلهم﴾ أي من قبل كفار مكة وهم الأمم الخالية ﴿فكيف كان نكير﴾ أي إنكاري عليهم أليس وجدوا العذاب حقاً.

قوله عز وجل: ﴿أولم يروا إلى الطير فوقهم صافات﴾ أي باسطات أجنحتهن في الجو عند طيرانها ﴿ويقبضن﴾ أي يضممن أجنحتهن إذا ضربن بهن جنوبهن بعد البسط ﴿ما يمسكهن﴾ أي حال القبض والبسط ﴿إلا الرحمن﴾ والمعنى: أن الطير مع ثقلها وضخامة جسمها لم يكن بقاؤها وثبوتها في الجو إلا بإمساك الله عز وجل إياها وحفظه لها

ثم خوّف الكفّار فقال: ﴿أأمنتم مَنْ في السماء﴾، قال ابن عباس: أي عذاب مَن في السماء إن عصيتموه، ﴿أن يخسف بكم الأرض فإذا هي تمور﴾، قال الحسن: تتحرك بأهلها. وقيل: تهوي بهم، والمعنى: أن الله تعالى يحرّك الأرض عند الخسف بهم حتى تلقيهم إلى أسفل تعلو عليهم وتمرّ فوقهم. يقال: مارَ يمور إذا جاء وذهب.

﴿أم أمنتم مَن في السماء أن يرسل عليكم حاصباً﴾، ريحاً ذات حجارة كما فعل بقوم لوط. ﴿فستعلمون﴾، في الآخرة وعند الموت، ﴿كيف نذير﴾، أي إنذاري إذا عاينتم العذاب.

﴿ولقد كذب الذين من قبلهم﴾، يعني كفّار الأمم الماضية، ﴿فكيف كان نكير﴾، أي إنكاري عليهم بالعذاب.

﴿أوَ لم يروا إلى الطير فوقهم صافّات﴾، تصفّ أجنحتها في الهواء، ﴿ويقبضن﴾، أجنحتهنّ بعد البسط، ﴿ما يمسكهنّ﴾، في حال القبض والبسط أن يسقطن، ﴿إلّا الرحمن إنه بكل شيء بصير﴾.

﴿أمّن هذا الذي هو جند لكم﴾، استفهام إنكار. قال ابن عباس: أي منعة لكم، ﴿ينصركم من دون الرحمن﴾، يمنعكم من عذابه ويدفع عنكم ما أراد بكم. ﴿إنِ الكافرون إلّا في غرور﴾، أي في غرور من الشيطان يغرّهم بأن العذاب لا ينزل بهم.

﴿إنه بكل شيء بصير﴾ يعني أنه تعالى لا تخفى عليه خافية ﴿أمن هذا الذي هو جند لكم﴾ استفهام إنكار أي لا جند لكم ﴿ينصركم﴾ أي يمنعكم ﴿من دون الرحمن﴾ أي من عذاب الله قال ابن عباس أي من ينصركم مني إن أردت عذابكم ﴿إن الكافرون إلا في غرور﴾ أي من الشيطان يغرهم بأن العذاب لا ينزل بهم ﴿أمن هذا الذي يرزقكم إن أمسك رزقه﴾ يعني من ذا الذي يرزقكم المطر إن أمسكه الله عنكم ﴿بل لجوا﴾ أي تمادوا ﴿في عتو﴾ أي نبو وتكبر ﴿ونفور﴾ أي تباعد عن الحق ثم ضرب مثلاً للكافر والمؤمن فقال تعالى: ﴿أفمن يمشي مكباً على وجهه﴾ أي كاباً رأسه في الضلالة والجهالة أعمى القلب والعين لا يبصر يميناً ولا شمالاً وهو الكافر أكب على الكفر والمعاصي في الدنيا فحشره الله على وجهه يوم القيامة ﴿أهدى﴾ أي هو أهدى، ﴿أمن يمشي سوياً﴾ أي قائماً معتدلاً لا يبصر الطريق ﴿على صراط مستقيم﴾ يعني المؤمن يمشي يوم القيامة سوياً ﴿قل هو الذي أنشأكم﴾ أي خلقكم ﴿وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة﴾ يعني أنه تعالى ركب فيكم هذه القوى لكنكم ضيعتموها فلم تقبلوا ما سمعتموه ولا اعتبرتم بما أبصرتموه ولا تأملتم ما عقلتموه فكأنكم ضيعتم هذه النعم فاستعملتموها في غير ما خلقت له فلهذا قال ﴿قليلاً ما تشكرون﴾ وذلك لأن شكر نعم الله صرفها في وجه مرضاته فلما صرفتموها في غير مرضاته فكأنكم ما شكرتم رب هذه النعم الواهب لها ﴿قل هو الذي ذرأكم﴾ أي خلقكم وبثكم ﴿في الأرض وإليه تحشرون﴾ أي يوم القيامة والمعنى أن القادر على الإبداء قادر على الإعادة ﴿ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين﴾ هذا سؤال يحتمل وجهين: أحدهما أنه سؤال عن نزول العذاب بهم والثاني أنه سؤال عن يوم القيامة فأجاب الله عن ذلك بقوله ﴿قل إنما العلم عند الله وإنما أنا نذير مبين﴾ أمره بإضافة العلم إلى الله تعالى وتبليغ ما أوحي إليه ﴿فلما رأوه﴾ يعني العذاب في الآخرة على قول أكثر المفسرين، وقيل يعني العذاب ببدر ﴿زلفة﴾ أي قريباً ﴿سيئت وجوه الذين كفروا﴾ أي اسودت وعلتها الكآبة والمعنى قبحت وجوههم بالسواد ﴿وقيل﴾ لهم أي وقالت لهم الخزنة ﴿هذا الذي كنتم به تدعون﴾ من الدعاء أي تتمنون وتطلبون أن يعجله لكم وقيل من الدعوى أي تدعون أنه باطل.

﴿ أَمَّن هذا الذي يرزقكم إنْ أمسك رزقه ﴾، أي مَن الذي يرزقكم المطر إن أمسك الله عنكم، ﴿ بل لَجّوا في عُتُوٍّ ﴾، تمادوا في الضلال، ﴿ ونفور ﴾، تباعد من الحق.

ثم ضرب مثلاً فقال: ﴿ أفمن يمشي مُكِبّاً على وجهه ﴾، راكباً رأسه في الضلالة والجهالة أعمى العين والقلب لا يبصر يميناً ولا شمالاً وهو الكافر. قال قتادة: راكباً على المعاصي في الدنيا فحشره الله على وجهه يوم القيامة، ﴿ أهدى أمَّن يمشي سوياً ﴾، معتدلاً يبصر الطريق وهو، ﴿ على صراط مستقيم ﴾، وهو مؤمن. قال قتادة: يمشي يوم القيامة سوياً.

﴿ قل هو الذي أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون ﴾، قال مقاتل: يعني أنهم لا يشكرون ربَّ هذه النِّعَم.

﴿ قل هو الذي ذرأكم في الأرض وإليه تُحشرون * ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين * قل إنما العلم عند الله وإنما أنا نذير مبين * فلما رأوه ﴾، يعني العذاب في الآخرة على قول أكثر المفسّرين. وقال مجاهد: يعني العذاب ببدر، ﴿ زلفة ﴾، أي قريباً وهو اسم يوصف به المصدر يستوي فيه المذكّر والمؤنث والواحد والاثنان والجمع، ﴿ سيئت وجوه الذين كفروا ﴾، اسودّت وعلتها الكآبة، فالمعنى قبحت وجوههم بالسواد يقال ساء الشيء يسوء فهو سيىء إذا قبح، وسيىء يُساء إذا قبح، ﴿ وقيل ﴾ لها أي قال لهم الخَزَنَة، ﴿ هذا ﴾، أي هذا العذاب، ﴿ الذي كنتم به تدعون ﴾، تفتعلون من الدعاء أي أن تدعوه وتتمنّوه أنه يجعله لكم، وقرأ يعقوب تدعون بالتخفيف، وهي قراءة قتادة ومعناهما واحد مثل تذكرون وتذكرون.

قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍۭ ﴿٣٠﴾

﴿قل﴾ يا محمد لمشركي مكة الذين يتمنون هلاكك ﴿أرأيتم إن أهلكني الله ومن معي﴾ أي من المؤمنين ﴿أو رحمنا﴾ أي فأبقانا وأخر في آجالنا ﴿فمن يجير الكافرين من عذاب أليم﴾ أي إنه واقع بهم لا محالة وقيل في معنى الآية قل أرأيتم إن أهلكني الله أي فعذبني ومن معي أو رحمنا أي فغفر لنا فنحن مع إيماننا خائفون أن يهلكنا بذنوبنا لأن حكمه نافذ فينا فمن يجيركم أو يمنعكم من عذاب أليم وأنتم كافرون وهذ قول ابن عباس، ﴿قل﴾ أي قل لهم في إنكارك عليهم وتوبيخك لهم ﴿هو الرحمن آمنا به وعليه توكلنا﴾ أي نحن آمنا به وعبدناه وأنتم كفرتم به ﴿فستعلمون﴾ أي عند معاينة العذاب ﴿من هو في ضلال مبين﴾ أي نحن أم أنتم وهذا تهديد لهم ثم ذكرهم ببعض نعمه عليهم على طريق الاحتجاج فقال تعالى: ﴿قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم﴾ قيل يريد ماء زمزم وقيل غيرها من المياه ﴿غوراً﴾ أي غائراً ذاهباً في الأرض لا تناله الأيدي ولا الدلاء ﴿فمن يأتيكم بماء معين﴾ أي ظاهر تراه العيون وتناله الأيدي والدلاء، وقال ابن عباس معين أي جار والمقصود من الآية أن يجعلهم مقرين ببعض نعمه عليهم ويريهم قبح ما هم عليه من الكفر والمعنى أخبروني إن صار ماؤكم ذاهباً في الأرض فمن يأتيكم بماء معين فلا بد أن يقولوا هو الله تعالى فيقال لهم حينئذ فلم تجعلون معه من لا يقدر على شيء أصلاً شريكاً له في العبودية فهذا محال، والله أعلم.

﴿ قل ﴾، يا محمد لمشركي مكة الذين يتمنّون هلاكك، ﴿ أرأيتم إن أهلكني الله ومَن معي ﴾، من المؤمنين، ﴿ أو رحمنا ﴾، فأبقاها إلى منتهى آجالنا، ﴿ فمَن يُجير الكافرين من عذاب أليم ﴾، فإنه واقع بهم لا محالة، وقيل: معناه أرأيتم إن أهلكني الله فيعذّبني ومَن معي أو رحمنا فيغفر لنا، فنحن مع إيماننا خائفون أن يهلكنا بذنوبنا لأن حكمه نافذ فينا فمَن يُجير الكافرين، فمَن يجيركم ويمنعكم من عذابه وأنتم كافرون، وهذا معنى قول ابن عباس.

﴿ قلْ هو الرحمن ﴾، الذي نعبده، ﴿ آمنّا به وعليه توكلنا فستعلمون ﴾، قرأ الكسائي بالياء وقرأ الباقون بالتاء. ﴿ مَن هو في ضلال مبين ﴾، أي ستعلمون عند معاينة العذاب مَن الضالّ أنحن أم أنتم.

﴿ قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غوراً ﴾، أي غائراً ذاهباً في الأرض لا تناله الأيدي والدلاء. قال الكلبي ومقاتل: يعني ماء زمزم، ﴿ فمَن يأتيكم بماء معين ﴾، ظاهر تراه العيون وتناله الأيدي والدلاء. وقال عطاء عن ابن عباس: معين أي جارٍ. أخبرنا أبو سعيد الشريحي أنا أبو إسحاق الثعلبي أخبرني الحسن الفارسي ثنا أبو عبد الله محمد بن يزيد ثنا أبو يحيىٰ البزاز ثنا محمد بن يحيىٰ ثنا أبو داود ثنا عمران عن قتادة عن ابن عباس الجشمي عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: إن سورة من كتاب الله ما هي إلاّ ثلاثون آية شفعت لرجل فأخرجته يوم القيامة وأدخلته الجنة، وهي سورة تبارك.

سورة نٓ

مكية وهي إثنان وخمسون آية وثلاثمائة كلمة وألف ومائتان وستة وخمسون حرفاً

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾

قوله عز وجل: ﴿نٓ﴾ قال ابن عباس هو الحوت الذي على ظهره الأرض وعنه «إن أول ما خلق الله القلم فجرى بما هو كائن إلى يوم القيامة ثم خلق النون فبسط الأرض على ظهره فتحرك النون فمادت الأرض فأثبتت الجبال فإن الجبال لتفخر على الأرض ثم قرأ نٓ والقلم وما يسطرون» قيل اسم النون بهموت وقيل لوثيا وعن علي بلهوث.

قال أصحاب السير والأخبار لما خلق الله الأرض وفتقها سبع أرضين بعث من تحت العرش ملكاً فهبط إلى الأرض حتى دخلت تحت الأرضين السبع وضبطها فلم يكن لقدميه موضع قرار فأهبط الله تعالى من الفردوس ثوراً له أربعون ألف قرن وأربعون ألف قائمة وجعل قرار قدم الملك على سنامه فلم تستقر قدمه فأخذ الله ياقوتة خضراء من أعلى درجة الفردوس غلظها مسيرة خمسمائة سنة فوضعها بين سنام الثور إلى أذنه فاستقر عليها قدما الملك وقرون ذلك الثور خارجة من أقطار الأرض ومنخراه في البحر فهو يتنفس كل يوم نفساً فإذا تنفس مد البحر وإذا رد نفسه جزر البحر فلم يكن لقوائم الثور قرار فخلق الله تعالى صخرة كغلظ سبع سموات وسبع أرضين فاستقرت قوائم الثور عليها وهي الصخرة التي قال لقمان لابنه فتكن في صخرة فلم يكن للصخرة مستقر فخلق الله تعالى نوناً وهو الحوت العظيم

سُوْرَة القَلَم

مكيّة وهي اثنتان وخمسون آية.

﴿ نٓ ﴾ اختلفوا فيه فقال ابن عباس: هو الحوت الذي على ظهره الأرض. وهو قول مجاهد ومقاتل والسدي والكلبي. وروى أبو ظبيان عن ابن عباس قال: أول ما خلق الله القلم، فجرى بما هو كائن إلى يوم القيامة، ثم خلق النون فبسط الأرض على ظهره فتحرّك النون فمادت الأرض، فأثبتت بالجبال وأن الجبال لتفخر على الأرض، ثم قرأ ابن عباس: ﴿ نٓ والقلم وما يسطرون ﴾. واختلفوا في اسمه، فقال الكلبي ومقاتل: بهموت. وقال الواقدي: ليوثاً. وقال كعب: لوثيا. وعن علي: اسمه بلهوث: وقال الرواة: لمّا خلق الله الأرض وفتقها بعث من تحت العرش ملكاً فهبط إلى الأرض حتى دخل تحت الأرضين السبع فوضعها على عاتقه إحدى يديه بالمشرق والأخرى بالمغرب باسطتين قابضتين على الأرضين السبع، حتى ضبطها فلم يكن لقدميه موضع قرار، فأهبط الله عليه من الفردوس ثوراً له أربعون ألف قرن وأربعون ألف قائمة، وجعل قرار قدمي الملك على سنامه، فلم تستقر قدماه فأخذ الله ياقوتة خضراء من أعلى درجة في الفردوس غلَظها مسيرة خمسمائة عام فوضعها بين سنام الثور إلى أُذنه فاستقرت

فوضع الصخرة على ظهره وسائر جسده خال والحوت على البحر والبحر على متن الريح والريح على القدرة قيل فكل الدنيا بما عليها حر فان قال لها الجبار سبحانه وتعالى وتنزه وتقدس كوني فكانت.

قال كعب الأحبار إن إبليس تغلغل إلى الحوت الذي على ظهر الأرض فوسوس إليه فقال له أتدري ما على ظهرك يا ليوثا من الأمم والدواب والشجر والجبال لو نفضتهم لألقيتهم على ظهرك فهم ليوثا أن يفعل ذلك فبعث له دابة فدخلت منخره فوصلت إلى دماغه فعج الحوت إلى الله تعالى منها فأذن لها فخرجت قال كعب الأحبار فوالذي نفسي بيده إنه لينظر إليها وتنظر إليه إن هم بشيء من ذلك عادت كما كانت وعن ابن عباس أيضاً أن النون هو الدواة ومنه قول الشاعر:

إذا مـــا الشـــوق بـــرح بـــي إليهـــم ألقـــت النـــون بـــالـــدمـــع السجـــام

أراد بالنون الدواة وعن ابن عباس أيضاً أن نوناً حرف من حروف الرحمن إذا جمعت الرحمن وقيل هو مفتاح اسمه ناصر ونصير وقيل اسم للسورة ﴿والقلم﴾ هو القلم الذي كتب الله به الذكر وهو قلم من نور طوله ما بين السماء والأرض ويقال أول ما خلق الله القلم فنظر إليه فانشق نصفين ثم قال اجر بما هو كائن إلى يوم القيامة فجرى على اللوح المحفوظ بذلك وإنما يجري الناس على أمر قد فرغ منه ﴿وما يسطرون﴾ أي وما يكتب الحفظة من أعمال بني آدم وقيل إن حملنا القلم على ذلك القلم المعين فيحتمل أن يكون المراد وما يسطرون فيه وهو اللوح المحفوظ ويكون الجمع في وما يسطرون للتعظيم لا للجمع.

مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجۡرًا غَيۡرَ مَمۡنُونٖ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ ﴿٤﴾

﴿ما أنت﴾ يا محمد ﴿بنعمة ربك بمجنون﴾ هذا جواب القسم أقسم الله بنون والقلم وما يسطرون وما أنت

عليها قدماه، وقرون ذلك الثور خارجة من أقطار الأرض، ومِنخراه في البحر فهو يتنفس كل يوم نفساً فإذا تنفس مدّ البحر وأزبد وإذا ردّ نفسه جزر فلم يكن لقوائم الثور موضع قرار، فخلق الله تعالى صخرة كغلظ سبع سمٰوات وسبع أرضين فاستقرت قوائم الثور عليها وهي الصخرة التي قال لقمان لابنه فتكن في صخرة ولم يكن للصخرة مستقر، فخلق الله نوناً وهو الحوت العظيم، فوضع الصخرة على ظهره وسائر جسده خالٍ والحوت على البحر، والبحر على متن الريح، والريح على القدرة. قيل: فكلّ الدنيا كلها بما عليها حرفان قال لها الجبّار: كوني فكانت. كعب الأحبار: إن إبليس تغلغل إلى الحوت الذي على ظهره الأرض فوسوس إليه، فقال له: أتدري ما على ظهرك يا لوثيا من الأمم والدواب والشجر والجبال لو نفضتهم ألقيتهم عن ظهرك، فهمّ لوثيا أن يفعل ذلك فبعث الله دابّة فدخلت مِنْخَــره فوصلت إلى دماغه فعــجّ الحــوت إلى الله منها فأذِنَ لها فخرجت. قال كعب: فوالذي نفسي بيده إنه لينظر إليها وتنظر إليه إن همّ بشيء من ذلك عادت إلى ذلك كما كانت. وقال بعضهم: إن نون آخر حروف الرحمن، وهي رواية عكرمة عن ابن عباس. وقال الحسن وقتادة والضحاك: النون الدواة. وقيل: هو قَسَم أقسم الله به. وقيل: فاتحة السورة. وقال عطاء: افتتاح اسمه نور وناصر. وقال محمد بن كعب: أقسم الله بنصرته المؤمنين. ﴿ **والقلم** ﴾، هو الذي كتب الله به الذكر وهو قلم من نور طوله ما بين السماء والأرض، ويقال أول ما خلق الله القلم ونظر إليه فانشقّ نصفين، ثم قال: آجرِ بما هو كائن إلى يوم القيامة فجرى على اللوح المحفوظ بذلك. ﴿ **وما يسطرون** ﴾، يكتبون أي ما تكتب الملائكة الحَفَظَة من أعمال بني آدم.

﴿ **ما أنت بنعمة** ﴾، بنبوّة، ﴿ **ربّك بمجنون** ﴾، هذا جواب لقولهم: ﴿ يا أيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون ﴾ [الحجر: ٦] فأقسم الله بالنون والقلم وما يكتب من الأعمال فقال: ﴿ **ما أنت بنعمة ربّك** ﴾، بنبوّة ربك

بنعمة ربك بمجنون وهو رد لقولهم ﴿يا أيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون﴾ والمعنى إنك لا تكون مجنوناً وقد أنعم الله عليك بالنبوة والحكمة فنفى عنه الجنون وقيل معناه ما أنت بمجنون والنعمة لله وهو كما يقال ما أنت بمجنون والحمد لله وقيل إن نعمة الله كانت ظاهرة عليه من الفصاحة التامة والعقل الكامل والسيرة المرضية والأخلاق الحميدة والبراءة من كل عيب والاتصاف بكل مكرمة وإذا كانت هذه النعم محسوسة ظاهرة فوجودها ينفي حصول الجنون فنبه الله تعالى بهذه الآية على كونهم كاذبين في قولهم إنك لمجنون ﴿وإن لك لأجراً غير ممنون﴾ أي غير منقوص ولا مقطوع ومنه قول لبيد:

عبس كواسب ما يمن طعامها

أي ما يقطع يصف بذلك كلاباً ضارية، وقيل في معنى الآية إنه غير مكدر عليك بسبب المنة والقول هو الأول ومعناه إن لك على احتمالك الطعن وصبرك على هذا القول القبيح وافترائهم عليك أجراً عظيماً دائماً لا ينقطع، وقيل إن لك على إظهار النبوة وتبليغ الرسالة ودعاء الخلق إلى الله تعالى والصبر على ذلك وبيان الشرائع لهم أجراً عظيماً فلا تمنعك نسبتهم إياك إلى الجنون عن الاشتغال بهذا الأمر العظيم الذي قد حملته ثم وصفه بما يخالف حال المجنون فقال تعالى: ﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾ وهذا كالتفسير لقوله ﴿ما أنت بنعمة ربك بمجنون﴾ لأن الأخلاق الحميدة والأفعال المرضية كانت ظاهرة عليه ومن كان كذلك لم تجز إضافة الجنون إليه ولما كانت أخلاق رسول الله ﷺ كاملة حميدة وأفعاله المرضية الجميلة وافرة وصفها الله تعالى بأنها عظيمة وحقيقة الخلق قوى نفسانية يسهل على المتصف بها الإتيان بالأفعال الحميدة والآداب المرضية فيصير ذلك كالخلقة في صاحبه ويدخل في حسن الخلق التحرز من الشح والبخل والتشديد في المعاملات ويستعمل في حسن الخلق التحبب إلى الناس بالقول والفعل والبذل وحسن الأدب والمعاشرة بالمعروف مع الأقارب والأجانب والتساهل في جميع الأمور والتسامح بما يلزم من الحقوق وترك التقاطع والتهاجر واحتمال الأذى من الأعلى والأدنى مع طلاقة الوجه وإدامة البشر فهذه الخصال تجمع جميع محاسن

﴿ بمجنون ﴾، هذا جواب القسم أي: إنك لا تكون مجنوناً وقد أنعم الله عليك بالنبوّة والحكمة. وقيل: بعصمة ربك. وقيل: هو كما يقال ما أنت بمجنون والحمد لله. وقيل: معناه ما أنت بمجنون والنعمة لربِّك، كقولهم: سبحانك اللّهمَّ وبحمدك أي والحمد لك.

﴿ وإن لك لأجراً غير ممنون ﴾، أي منقوص ولا مقطوع بصبرك على افترائهم عليك.

﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾، قال ابن عباس ومجاهد: دين عظيم لا دين أحبَّ إليّ ولا أرضى عندي منه، وهو دين الإسلام. وقال الحسن: هو آداب القرآن. سُئلت عائشة رضي الله عنها عن خُلق رسول الله ﷺ فقالت: كان خلقه القرآن. قال قتادة: هو ما كان يأتمر به من أمر الله وينتهي عنه من نهي الله، والمعنى إنك لعلى الخُلُق الذي أمرك الله به في القرآن. وقيل: سمّى الله خلقه عظيماً لأنه امتثل تأديب الله إيّاه بقوله: ﴿ خذ العفو ﴾ [الأعراف: ١٩٩] الآية، وروينا عن جابر أن النبي ﷺ قال: «إن الله بعثني لتمام مكارم الأخلاق، وتمام محاسن الأفعال». أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا أحمد بن سعيد أبو عبد الله ثنا إسحاق بن منصور ثنا إبراهيم بن يوسف عن أبيه عن أبي إسحاق قال سمعت البراء يقول: كان رسول الله ﷺ أحسن الناس وجهاً وأحسنهم خَلْقاً ليس بالطويل البائن ولا بالقصير. أخبرنا عبد الله بن عبد الصمد الجورجاني أنا أبو القاسم علي بن أحمد الخزاعي أنا أبو سعيد الهيثم بن كليب الشاشي ثنا أبو عيسى الترمذي ثنا قتيبة بن سعيد ثنا جعفر بن سليمان الضبعي عن ثابت عن أنس بن مالك قال: خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين فما قال لي أفٍّ قطُّ وما قال لشيء صنعتُه لِمَ صنعتَه، ولا لشيء تركتُه، وكان رسول الله ﷺ من أحسن

الأخلاق ومكارم الأفعال ولقد كان جميع ذلك في رسول الله ﷺ ولهذا وصفه الله تعالى بقوله **﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾**، وقال ابن عباس معناه على دين عظيم لا دين أحب إليّ ولا أرضى عندي منه وهو دين الإسلام وقال الحسن هو آداب القرآن سئلت عائشة رضي الله عنها عن خلق رسول الله ﷺ فقالت كان خلقه القرآن وقال قتادة هو ما كان يأتمر من أوامر الله وينتهي عنه من مناهي الله تعالى والمعنى وإنك لعلى الخلق الذي أمرك الله به في القرآن وقيل سمى الله خلقه عظيماً لأنه امتثل تأديب الله إياه بقوله **﴿خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين﴾** والله سبحانه وتعالى أعلم.

(فصل: في فضل حسن الخلق وما كان عليه رسول الله ﷺ)

من ذلك ما روى جابر أن النبي ﷺ قال «إن الله بعثني لتمام مكارم الأخلاق وتمام محاسن الأفعال»(م) عن النواس بن سمعان قال «سألت رسول الله ﷺ عن البر والإثم فقال رسول الله ﷺ: البر حسن الخلق والإثم ما حاك في صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس»، عن عائشة رضي الله عنها قالت سمعت رسول الله ﷺ يقول «إن المؤمن ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم» أخرجه أبو داود وعنها قالت: قال رسول الله ﷺ «إن من أكمل الناس إيماناً أحسنهم خلقاً وألطفهم بأهله» أخرجه الترمذي وقال حديث حسن.

عن أبي الدرداء أن رسول الله ﷺ قال «ما من شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من خلق حسن وإن الله تعالى يبغض الفاحش البذيء» أخرجه الترمذي وقال حديث حسن صحيح، وله عن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال «إن من أحبكم إلى الله وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً»، (ق) عن البراء رضي الله عنه قال

الناس خُلقاً وما مسست خزّاً قطّ ولا حريراً ولا شيئاً كان ألين من كفّ رسول الله ﷺ، ولا شممت مِسكاً ولا عطراً كان أطيب من عَرَقِ رسول الله ﷺ. أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحي أنا أبو سعيد محمد بن موسى الصيرفي أنا عبد الله محمد بن عبد الله الصفار ثنا أحمد بن محمد بن عيسى البَرْني ثنا محمد بن كثير ثنا سفيان الثّوري عن الأعْمش عن أبي وائل عن مسروق عن عبد الله بن عمرو قال: إن رسول الله ﷺ لم يكن فاحشاً ولا متفحّشاً وكان يقول: «خياركم أحاسنكم أخلاقاً». أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحي أنا أبو سعيد محمد بن موسى الصيرفي أنا أبو العباس الأصم ثنا محمد بن هشام بن ملاس ثنا مروان الفزاري ثنا حميد الطويل عن أنس أن امرأة عرضت لرسول الله ﷺ في طريق من طرق المدينة فقالت: يا رسول الله إن لي إليك حاجة فقال: «يا أم فلان اجلسي في أي سكك المدينة شئت أجلسْ إليك»، قال: ففعلت فقعد إليها رسول الله ﷺ، حتى قضت حاجتها. أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل قال: قال لي محمد بن عيسى ثنا هشام أنا حميد الطويل ثنا أنس بن مالك قال: إن كانت الأمة من إماء أهل المدينة لتأخذ بيد رسول الله ﷺ فتنطلق به حيث شاءت. وأخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أبو محمد بن عبد الرحمن بن أبي شريح أنا أبو القاسم عبد الله بن محمد بن عبد العزيز البغوي ثنا علي بن الجعد أخبرنا عمران بن يزيد الثعلبي عن زيد العمي عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ كان إذا صافح الرجل لم ينزع يده حتى يكون هو الذي ينزع يده ولا يصرف وجهه عن وجهه حتى يكون هو الذي يصرف وجهه عن وجهه، ولم يُرَ مقدّماً ركبتيه بين يدي جليس له. أخبرنا عبد الله بن عبد الصمد أنا أبو القاسم الخزاعي أنا الهيثم بن كليب ثنا أبو عيسى ثنا هارون بن إسحاق الهمداني ثنا عبدة عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة قالت: ما ضرب رسول الله ﷺ بيده شيئاً قطّ إلاّ أن يجاهد في سبيل الله، ولا ضرب خادماً ولا امرأة. أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل أنا

«كان رسول الله ﷺ أحسن الناس وجهاً وأحسنهم خلقاً ليس بالطويل ولا بالقصير» (ق) عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال «إن رسول الله ﷺ لم يكن فاحشاً ولا متفحشاً» وكان يقول «خياركم أحاسنكم أخلاقاً» (ق) عن أنس رضي الله عنه قال «خدمت النبي ﷺ عشر سنين والله ما قال لي أف قط ولا قال لشيء لم فعلت كذا وهلا فعلت كذا» زاد الترمذي «وكان رسول الله ﷺ من أحسن الناس خلقاً وما مسست خزاً قط ولا حريراً ولا شيئاً كان ألين من كف رسول الله ﷺ ولا شممت مسكاً قط ولا عطراً كان أطيب من عرق رسول الله ﷺ»، (خ) عنه قال «إن كانت الأمة لتأخذ بيد رسول الله ﷺ فتنطلق به حيث شاءت» زاد في رواية «ويجيب إذا دعي» وعنه قال «كان رسول الله ﷺ إذا استقبله الرجل فصافحه لا ينزع يده من يده حتى يكون الرجل ينزع يده ولا يصرف وجهه حتى يكون الرجل هو الذي يصرفه ولم ير مقدماً ركبتيه بين يدي جليس له» أخرجه الترمذي، (ق) عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت «ما خير رسول الله ﷺ بين أمرين قط إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثماً فإن كان إثماً كان أبعد الناس منه وما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه في شيء قط إلا أن تنتهك حرمة الله فينتقم»، زاد مسلم عنها «وما ضرب رسول الله ﷺ شيئاً قط بيده ولا امرأة ولا خادماً إلا أن يجاهد في سبيل الله تعالى» (ق) عن أنس قال «كنت أمشي مع رسول الله ﷺ وعليه برد نجراني غليظ الحاشية فأدركه أعرابي فجبذه جبذة شديدة حتى نظرت إلى صفحة عاتق رسول الله ﷺ قد أثرت بها حاشية البرد من شدة جبذته ثم قال يا محمد مر لي من مال الله الذي عندك فالتفت إليه رسول الله ﷺ وضحك وأمر له بعطاء»، (ق) عنه رضي الله عنه قال «كان رسول الله ﷺ أحسن الناس خلقاً وكان لي أخ يقال له أبو عمير وكان فطيماً كان إذا جاءنا قال يا أبا عمير ما فعل النغير لنغير كان يلعب به» النغير طائر صغير يشبه العصفور إلا أنه أحمر المنقار (م) عن الأسود قال «سألت عائشة ما كان رسول الله ﷺ يفعل في بيته؟ قالت: كان يكون في مهنة أهله فإذا حضرت الصلاة يتوضأ ويخرج إلى الصلاة» المهنة الخدمة عن عبد الله بن الحارث بن جزء قال «ما رأيت أحداً أكثر تبسماً من رسول الله ﷺ» أخرجه الترمذي قوله تعالى:

إسماعيل بن عبد الله حدّثني مالك بن إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة عن أنس قال كنت أمشي مع رسول الله ﷺ ببرد نجراني غليظ الحاشية فأدركه أعرابي فجبذه بردائه جبذة شديدة، ورجع النبي ﷺ في نحر الأعرابي حتى نظرت إلى صفحة عاتق رسول الله ﷺ قد أثّرت بها حاشية البرد من شدّة جبذته، ثم قال: يا محمد مُرْ لي من مال الله الذي عندك، فالتفت إليه رسول الله ﷺ ثم ضحك ثم أمر له بعطاء. أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أبو منصور محمد بن محمد بن سمعان أنا أبو جعفر محمد بن أحمد بن عبد الجبار الرياني ثنا حميد بن زنجويه ثنا علي المديني ثنا ابن عيينة عن عمرو بن دينار عن ابن أبي مليكة عن يعلى بن مملك عن أم الدرداء تحدّث عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ قال: «إن أثقل شيء يوضع في ميزان المؤمن يوم القيامة خُلُق حَسَن، والله تعالى يبغض الفاحش البذيء»، أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أبو منصور السمعاني أنا أبو جعفر الرياني ثنا حميد بن زنجويه ثنا أبو نعيم ثنا داود بن يزيد الأودي سمعت أبي سمعت أبا هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «أتدرون ما أكثر ما يُدخل الناس النار»؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «فإن أكثر ما يدخل الناس النار الأجوفان: الفرج والفم، أتدرون ما أكثر ما يدخل الناس الجنة»؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «إن أكثر ما يدخل الناس الجنة تقوى الله وحُسْن الخُلُق». أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحي أنا أبو سعيد محمد بن موسى الصيرفي ثنا أبو العباس الأصم ثنا محمد بن عبد الله بن عبد الحكم أنا أبي شعيب قالا ثنا الليث عن أبي المهاد عن عمرو بن أبي عمرو عن عبد المطّلب بن عبد الله عن عائشة، قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن المؤمن ليدرك بحُسْن خلقه درجة قائم الليل وصائم النهار».

﴿فَسَتُبۡصِرُ وَيُبۡصِرُونَ ۝٥ بِأَييِّكُمُ ٱلۡمَفۡتُونُ ۝٦ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ۝٧ فَلَا تُطِعِ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ۝٨﴾

﴿**فستبصر**﴾ أي يا محمد ﴿**ويبصرون**﴾ يعني أهل مكة إذا نزل بهم العذاب ﴿**بأيكم المفتون**﴾ قال ابن عباس معناه بأيكم المجنون وقيل الباء بمعنى «في» معناه فستبصر ويبصرون في أي الفريقين المجنون في فريقك أو فريقهم وقيل المفتون هو الشيطان الذي فتن بالجنون ﴿**إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين**﴾ معناه إنهم رموه بالجنون والضلال ووصفوا أنفسهم بالعقل والهداية فأعلم الله تعالى أنه هو العالم بالفريقين الضال والمهتدي والمجنون والعاقل ﴿**فلا تطع المكذبين**﴾ يعني مشركي مكة وذلك أنهم دعوه إلى دين آبائه فنهاه الله أن يطيعهم.

﴿وَدُّواْ لَوۡ تُدۡهِنُ فَيُدۡهِنُونَ ۝٩ وَلَا تُطِعۡ كُلَّ حَلَّافٖ مَّهِينٍ ۝١٠﴾

﴿**ودوا لو تدهن فيدهنون**﴾ أصل الإدهان اللين والمصانعة والمقاربة في الكلام وقيل أدهن الرجل في دينه وداهن في أمره إذا خان فيه وأظهر خلاف ما أبطن ومعنى الآية أنهم تمنوا أن تترك بعض ما أنت عليه مما لا يرضونه مصانعة لهم فيفعلوا مثل ذلك ويتركوا بعض ما لا ترضى به فتلين لهم ويلينون لك وقيل معناه ودوا لو تكفر فيكفرون وهو أن تعبد آلهتهم مدة ويعبدون الله مدة ﴿**ولا تطع كل حلاف**﴾ أي كثير الحلف بالباطل ﴿**مهين**﴾ أي ضعيف حقير ذليل وقيل هو من المهانة وهي قلة الرأي والتمييز وقال ابن عباس كذاب وهو قريب من الأول لأن الإنسان إنما يكذب لمهانة نفسه عليه قيل هو الوليد بن المغيرة وقيل هو الأسود بن عبد يغوث وقيل هو الأخنس بن شريق.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ **فستبصر ويبصرون** ﴾، فسترى يا محمد ويرون يعني أهل مكة إذا نزل بهم العذاب.

﴿ **بأيّكم المفتون** ﴾، قيل معناه بأيّكم المجنون فالمفتون مفعول بمعنى المصدر، كما يُقال ما بفلان مجلود ومعقول، أي جلادة وعقل، وهذا معنى قول الضحاك ورواية العوفي عن ابن عباس. وقيل: الباء بمعنى في، مجازه: فستبصر ويبصرون في أيّ الفريقين المجنون في فريقك أو في فريقهم. وقيل: بأيّكم المفتون وهو الشيطان الذي فتن بالجنون، وهذا قول مجاهد. وقال آخرون: الباء فيه زائدة معناه: أيّكم المفتون؟ أي المجنون الذي فتن بالجنون، وهذا قول قتادة.

﴿ **إنّ ربك هو أعلم بمَن ضلّ عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين * فلا تطع المكذّبين** ﴾، يعني مُشرِكي مكة فإنهم كانوا يدعونه إلى دين آبائه فنهاه أن يطيعهم.

﴿ **ودّوا لو تُدْهِنُ فيُدْهِنُون** ﴾، قال الضحاك: لو تكفر فيكفرون. وقال الكلبي: لو تلين لهم فيلينون لك. قال الحسن: لو تصانعهم في دينك فيصانعون في دينهم. قال زيد بن أسلم: لو تنافق وتُرائي فينافقون. قال ابن قتيبة: أرادوا على أن تعبد آلهتهم مدة ويعبدون الله مدة.

﴿ **ولا تطعْ كل حلّاف** ﴾، كثير الحلف بالباطل. قال مقاتل: يعني الوليد بن المغيرة. وقيل: الأسود بن عبد يغوث: وقال عطاء: الأخنس بن شريق. قوله: ﴿ **مهين** ﴾، ضعيف حقير. قيل: هو فعيل من المهانة وهي قلّة الرأي والتمييز. وقال ابن عباس: كذاب، وهو قريب من الأول لأن الإنسان إنما يكذب لمهانة نفسه عليه.

﴿هَمَّازٖ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٖ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٖ لِّلۡخَيۡرِ مُعۡتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلِّۭ بَعۡدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ أَن كَانَ ذَا مَالٖ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾﴾

﴿همار﴾ أي مغتاب يأكل لحوم الناس بالطعن والعيب وقيل هو الذي يغمز بأخيه في المجلس ﴿مشاء بنميم﴾ أي فتان يسعى بالنميمة ليفسد بين الناس ﴿مناع للخير﴾ أي بخيل بالمال وقال ابن عباس مناع للخير أي يمنع ولده وعشيرته عن الإسلام يقول لئن دخل واحد منكم في دين محمد لا أنفعه بشيء أبداً، ﴿معتد﴾ أي ظلوم يتعدى الحق ﴿أثيم﴾ أي فاجر يتعاطى الإثم ﴿عتل﴾ أي غليظ جاف وقيل هو الفاحش السيىء الخلق وقيل هو الشديد في الخصومة بالباطل وقيل هو الشديد في كفره وقيل العتل الأكول الشروب القوي الشديد ولا يزن في الميزان شعيرة يدفع الملك من أولئك سبعين ألفاً في النار دفعة واحدة ﴿بعد ذلك زنيم﴾ أي مع ما وصفناه به من الصفات المذمومة زنيم وهو الدعي الملصق في القوم وليس منهم قال ابن عباس يريد مع هذا هو دعي في قريش وليس منهم قيل إنما ادعاه أبوه بعد ثمان عشرة سنة وقيل الزنيم هو الذي له زنمة كزنمة الشاة وقال ابن عباس في هذه الآية نعت من لا يعرف حتى قيل زنيم فعرف وكانت له زنمة في عنقه يعرف بها وعنه أيضاً قال يعرف بالشر كما تعرف الشاة بزنمتها قال ابن قتيبة لا نعلم أن

﴿ همّاز ﴾، مغتاب يأكل لحوم الناس بالطعن والغيبة. وقال الحسن هو الذي يغمز بأخيه في المجلس، كقوله: ﴿ همزة ﴾ [الهمزة: ١] ﴿ مشّاء بنميم ﴾. قتّات يسعى بالنميمة بين الناس ليفسد بينهم.

﴿ منّاع للخير ﴾. بخيل بالمال قال ابن عباس منّاع للخير أي للإسلام يمنع ولده وعشيرته عن الإسلام، يقول: لئن دخل واحد منكم في دين محمد لا أنفعه بشيء أبداً. ﴿ مُعْتدٍ ﴾، ظلوم يتعدّى الحق، ﴿ أثيم ﴾. فاجر.

﴿عُتلٍّ﴾، العتل: الغليظ الجافي. وقال الحسن: هو الفاحش الخلق السيء الخلق. قال الفرّاء: هو الشديد الخصومة في الباطل. وقال الكلبي: هو الشديد في كفره، وكل شديد عند العرب عتل، وأصله من العتل وهو الدفع بالعنف. قال عبيد بن عمير: العتل الأكول الشروب القوي الشديد لا يزن في الميزان شعيرة، يدفع الملك من أولئك سبعين ألفاً دفعة واحدة. ﴿ بعد ذلك ﴾، أي مع ذلك يريد مع ما وصفناه به، ﴿ زنيم ﴾، وهو الدَّعِي الملصق بالقوم، وليس منهم، قال عطاء عن ابن عباس: يريد مع هذا هو دَعِيٌّ في قريش وليس منهم. قال مرّة الهمداني: إنما ادّعاه أبوه بعد ثماني عشرة سنة. وقيل: الزنيم الذي له زنمة كزنمة الشاة. وروى عكرمة عن ابن عباس أنه قال في هذه الآية نعت مَن لا يعرف حتى قيل زنيم فعرف، وكانت له زنمة في عنقه يُعرَف بها. وقال سعيد بن جبير: عن ابن عباس قال: يُعرَف بالشرّ كما تُعرَف الشاة بزنمتها. قال ابن قتيبة: لا نعلم أن الله وصف أحداً ولا ذكر من عيوبه ما ذكر من عيوب الوليد بن المغيرة، فألحق به عاراً لا يفارقه في الدنيا والآخرة. أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أبو منصور محمد بن محمد بن سمعان الواعظ حدّثني أبو محمد بن زنجويه بن محمد ثنا علي بن الحسين الهمداني ثنا عبد الله بن الوليد العوفي عن سفيان حدّثني معبد بن خالد القيسي عن حارث بن وهب الخزاعي قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أُخبركم بأهل الجنّة كل ضعيف متضعّف لو أقسم على الله لا أبرّه، ألا أُخبركم بأهل النار كل عتل جوّاظ متكبّر».

﴿ أن كان ذَا مالٍ وبنين ﴾، قرأ أبو جعفر وابن عامر وحمزة وأبو بكر ويعقوب (أأن) بالاستفهام، ثم حمزة وأبو بكر يخفّفان الهمزتين بلا مدّ، ويمدّ الهمزة الأولى أبو جعفر وابن عامر ويعقوب، ويليّنون الثانية، وقرأ الآخرون

الله وصف أحداً ولا ذكر من عيوبه مثل ما ذكر من عيوب الوليد بن المغيرة فألحق به عاراً لا يفارقه في الدنيا ولا في الآخرة ﴿أن كان ذا مال وبنين﴾ قرىء على الخبر ومعناه فلا تطع كل حلاف مهين لأن كان ذا مال وبنين أي لا تطعه لماله وبنيه وقرىء أأن كان ذا مال وبنين بالاستفهام ومعناه ألأن كان ذا مال وبنين ﴿إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين﴾ أي جعل مجازاة النعم التي خولها من المال والبنين الكفر بآياتنا وقيل لأن كان ذا مال وبنين تطيعه ثم أوعده فقال تعالى:

﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾ إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾﴾

﴿سنسمه على الخرطوم﴾ أي على الأنف والمعنى نسود وجهه فنجعل له علماً يعرف به في الآخرة وهو سواد الوجه فعبر بالأنف عن الوجه وقال ابن عباس سنسمه بالسيف وفعل به ذلك يوم بدر، وقيل معناه سنلحق به شيئاً لا يفارقه أي سنسمه ميسم سوء يريد نلحق به عاراً لا يفارقه كما أن السمة لا تمحى ولا يعفى أثرها.

وقد ألحق الله به بما ذكر من عيوبه عاراً لا يفارقه في الدنيا ولا في الآخرة كالوسم على الخرطوم الذي لا يخفى قط وقيل معناه سنكويه على وجهه.

وقوله تعالى: ﴿إنا بلوناهم﴾ أي اختبرنا أهل مكة بالقحط والجوع ﴿كما بلونا أصحاب الجنة﴾ روي عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة﴾ قال بستان باليمن يقال له الضروان دون صنعاء بفرسخين يطؤه أهل الطريق وكان غرسه قوم من أهل الصلاة وكان لرجل فمات فورثه ثلاث بنين له وكان يترك للمساكين إذا صرموا نخلهم كل شيء تعداه المنجل إذا طرح من فوق النخل إلى البساط وكل شيء يخرج من المنجل إلى البساط فهو أيضاً للمساكين وإذا حصدوا زرعهم فكل شيء تعداه المنجل فهو للمساكين وإذا داسوه كان لهم كل

بلا استفهام على الخبر، فمَن قرأ بالاستفهام فمعناه: ألأن كان ذا مال وبنين.

﴿ إذا تُتلى عليه آياتنا قال أساطير الأوّلين ﴾، أي جعل مجازاة النِّعَم التي خوّلها من البنين والمال الكفر بآياتنا. وقيل: معناه ألأن كان ذا مال وبنين تطيعه. ومَن قرأ على الخبر فمعناه: لا تُطِعْ كل حلّاف مهين لأن كان ذا مال وبنين، أي لا تطعه لماله وبنيه، ﴿ إذا تُتلى عليه آياتنا قال أساطير الأوّلين ﴾.

ثم أوعده فقال: ﴿ سَنَسِمُه على الخُرْطُوم ﴾، والخرطوم الأنف. قال أبو العالية ومجاهد: أي نسوّد وجهه فنجعل له علماً في الآخرة يُعرَف به وهو سواد الوجه. قال الفرّاء: خصّ الخرطوم بالسِّمَة وأنه في مذهب الوجه لأن بعض الشيء يعبّر به عن كلّه. وقال ابن عباس: سنخطمه بالسيف، وقد فعل ذلك يوم بدر. وقال قتادة: سنلحق به شيئاً لا يفارقه. قال القتيبي تقول العرب للرجل: سبّ الرجل سبّة قبيحة قد وسَمَه مَيْسَم سوء، يريد ألصق به عاراً لا يفارقه، كما أن السِّمة لا ينمحي ولا يعفو أثرها، وقد ألحق الله بما ذكر من عيوبه عاراً لا يفارقه في الدنيا والآخرة، كالوسم على الخرطوم. وقال الضحاك والكسائي: سنكويه على وجهه.

﴿ إنّا بلوناهم ﴾، يعني اختبرنا أهل مكة بالقحط والجوع، ﴿ كما بلونا ﴾، ابتلينا، ﴿ أصحاب الجنّة ﴾، روى محمد بن مروان عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس في قوله عزّ وجلّ: ﴿ إنّا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة ﴾، قال: كان بستان باليمن يقال له الضروان دون صنعاء بفرسخين يطؤه أهل الطريق كان غرسه قوم من أهل

شيء ينتثر أيضاً فلما مات الأب وورثه بنوه هؤلاء الإخوة الثلاثة قالوا والله إن المال قليل وإن العيال كثير وإنما كان هذا الأمر يفعل لما كان المال كثيراً والعيال قليلاً فأما إذا قل المال وكثر العيال فإنا لا نستطيع أن نفعل فتحالفوا بينهم يوماً أن يغدوا غدوة قبل خروج الناس فليصر من نخلهم فذلك قوله تعالى: ﴿إذ أقسموا﴾ أي تحالفوا ﴿ليصرمنها﴾ أي ليقطعن ثمرها ﴿مصبحين﴾ أي إذا أصبحوا قبل أن يخرج إليهم المساكين وقبل أن يعلم بها المساكين، ﴿ولا يستثنون﴾ أي ولم يقولوا إن شاء الله وقيل لا يستثنون شيئاً للمساكين من ثمر جنتهم ﴿فطاف عليها طائف من ربك﴾ أي عذاب من ربك ولا يكون الطائف إلا بالليل وهو قوله تعالى: ﴿وهم نائمون﴾ وكان ذلك الطائف ناراً أنزلت من السماء فأحرقتها وهو قوله تعالى: ﴿فأصبحت﴾ أي الجنة ﴿كالصريم﴾ أي كالليل الأسود المظلم وقيل تصرم منها الخير فليس فيها شيء ينتفع به وقال ابن عباس كالرماد الأسود وهو بلغة خزيمة.

فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ اغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ ﴿٣١﴾

﴿فتنادوا﴾ أي فنادى بعضهم بعضاً ﴿مصبحين﴾ يعني لما أصبحوا ﴿أن اغدوا على حرثكم﴾ يعني الثمار والزرع والأعناب ﴿إن كنتم صارمين﴾ أي قاطعين ثماركم ﴿فانطلقوا﴾ أي مشوا إليها ﴿وهم يتخافتون﴾ أي يتسارون يقول

الصلاة وكان لرجل فمات فورثه ثلاثة بنين له وكان يكون للمساكين إذا صرموا نخلهم كل شيء تعدّاه المِنجَل إذا طرح من فوق النخل إلى البساط فكل شيء يسقط على البساط فهو أيضاً للمساكين، وإذا حصدوا زرعهم فكل شيء تعدّاه المِنجَل فهو للمساكين، وإذا داسوا كان لهم كل شيء يُنتَثَر أيضاً، فلما مات الأب وورثه هؤلاء الإخوة عن أبيهم، فقالوا: والله إن المال لقليل وإن العيال لكثير، وإنما كان هذا الأمر يُفعَل إذا كان المال كثيراً والعيال قليلاً فأما إذا قلّ المال وكثر العيال فإنّا لا نستطيع أن نفعل هذا، فتحالفوا بينهم يوماً ليغدون غدوة قبل خروج الناس فليصرمنّ نخلهم ولم يستثنوا، يعني لم يقولوا: إن شاء الله، فغدا القوم بسدفة من الليل إلى جنتهم ليصرموها قبل أن يخرج المساكين، فرأوها مسودّة وقد طاف عليها من الليل طائف من العذاب فأحرقها فأصبحت كالصريم فذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿ إذْ أقسموا ﴾، حلفوا، ﴿ ليصرمنّها مُصبِحين ﴾، ليقطعنّ ثمرها إذا أصبحوا قبل أن يعلم المساكين، ﴿ ولا يستثنون ﴾، لا يقولون إن شاء الله.

﴿ فطاف عليها طائف ﴾، عذاب، ﴿ من ربك ﴾، ليلاً ولا يكون الطائف إلاّ بالليل وكان ذلك الطائف ناراً نزلت من السماء فأحرقتها، ﴿ وهم نائمون ﴾.

﴿ فأصبحت كالصريم ﴾، كالليل المظلم الأسود. وقال الحسن: أي صرم منها الخير فليس فيها شيء. وقال الأخفش كالصبح الصريم من الليل وأصل الصريم المصروم، مثل قتيل ومقتول وكل شيء قطع فهو صريم فالليل صريم والصبح صريم، لأن كل واحد منهما ينصرم عن صاحبه. وقال ابن عباس كالرماد الأسود بلغة خزيمة.

﴿ فتنادوا مصبحين ﴾، نادى بعضهم بعضاً لمّا أصبحوا.

﴿ أنِ اغدوا على حرثكم ﴾ يعني الثمار والزروع والأعناب، ﴿ إن كنتم صارمين ﴾، قاطعين للنخل.

﴿ فانطلقوا ﴾، مشوا إليها، ﴿ وهم يتخافتون ﴾، يتسارّون يقول بعضهم لبعض سرّاً.

بعضهم لبعض سراً ﴿أن لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين وغدوا على حرد﴾ أي على قصد ومنع وقيل معناه على جد وجهد وقيل على أمر مجتمع قد أسسوه بينهم وقيل على حنق وغضب من المساكين وقال ابن عباس على قدرة ﴿قادرين﴾ أي عند أنفسهم على جنتهم وثمارها لا يحول بينهم وبينها أحد ﴿فلما رأوها﴾ أي رأوا الجنة محترقة ﴿قالوا إنا لضالون﴾ أي لمخطئون الطريق أضللنا عن مكان جنتنا وليست هذه جنتنا ﴿بل نحن محرومون﴾ أي قال بعضهم قد حرمنا خيرها ونفعها بمنعنا المساكين وتركنا الاستثناء ﴿قال أوسطهم﴾ أي أعدلهم وأعقلهم وأفضلهم ﴿ألم أقل لكم لولا تسبحون﴾ أي هلا تستثنون أنكر عليهم ترك الاستثناء في قولهم ليصرمنها مصبحين سماه تسبيحاً لأنه تعظيم لله وإقرار بأنه لا يقدر أحد على شيء إلا بمشيئته، وعلى التفسير الثاني أن الاستثناء بمعنى لا يتركون شيئاً للمساكين من ثمر جنتهم يكون معنى لولا تسبحون أي تتوبون وتستغفرون الله من ذنوبكم وتفريطكم ومنعكم حق المساكين وقيل كان استثناؤهم سبحان الله وقيل هلا تسبحون الله وتشكرونه على ما أعطاكم من نعمه ﴿قالوا سبحان ربنا﴾ معناه أنهم نزهوه عن الظلم فيما فعل وأقروا على أنفسهم بالظلم فقالوا ﴿إنا كنا ظالمين﴾ أي بمنعنا المساكين حقوقهم ﴿فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون﴾ أي يلوم بعضهم بعضاً ﴿قالوا يا ويلنا﴾ دعوا على أنفسهم بالويل ﴿إنا كنا طاغين﴾ أي في منعنا حق الفقراء والمساكين وقيل معناه طغينا في نعم الله فلم نشكرها ولم نصنع ما كان يصنع آباؤنا من قبل ثم رجعوا إلى أنفسهم فقالوا:

﴿ أن لا يدخلنّها اليومَ عليكم مسكين * وغَدَوْا على حردٍ ﴾، الحرْدُ في اللغة يكون بمعنى القصد والمنع والغضب، قال الحسن وقتادة وأبو العالية: على جدٍّ وجهد. وقال القرظي ومجاهد وعكرمة: على أمر مجتمع قد أسّسوه بينهم، وهذا على معنى القصد لأن القاصد إلى الشيء جادّ مجمِع على الأمر. وقال أبو عبيدة والقتيبي: غدوا من بيتهم على منع المساكين، يقال: حاردت السنة إذا لم يكن لها مطر، وحاردت الناقة إذا لم يكن لها لبن. وقال الشعبي وسفيان: على حنق وغضب من المساكين. وعن ابن عباس: على قدرة، ﴿ قادرين ﴾، عند أنفسهم على جنّتهم وثمارها لا يحول بينها وبينهم أحد.

﴿ فلما رأوها قالوا إنّا لضالّون ﴾، أي لمّا رأوا الجنة محترقة قالوا: إنّا لمخطئون الطريق أضللنا مكان جنّتنا ليست هذه بجنّتنا.

فقال بعضهم: ﴿ بل نحن محرومون ﴾، حُرِمنا خيرها ونفعها لمنْعِنا المساكين وتركنا الاستثناء.

﴿ قال أوسطهم ﴾، أعدلهم وأعقلهم وأفضلهم، ﴿ ألَمْ أقلْ لكم لولا تسبّحون ﴾، هلّا تستثنون، أنكر عليهم ترك الاستثناء في قولهم ليصرمنّها مُصبِحين، وسمّي الاستثناء تسبيحاً لأنه تعظيم لله وإقرار بأنه لا يقدر أحد على شيء إلّا بمشيئته. وقال أبو صالح: كان استثناؤهم سبحان الله، وقيل: هلّا تسبّحون الله وتقولوا سبحان الله وتشكرونه على ما أعطاكم. وقيل: هلّا تستغفرونه من فعلكم.

﴿ قالوا سبحان ربّنا ﴾، نزّهوه عن أن يكون ظالماً فيما فعل وأقرّوا على أنفسهم بالظلم فقالوا: ﴿ إنّا كنّا ظالمين ﴾، بمنعنا المساكين.

﴿ فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون ﴾، يلوم بعضهم بعضاً في منع المساكين حقوقهم ونادوا على أنفسهم بالويل.

﴿ قالوا يا ويلنا إنّا كنّا طاغين ﴾، في منعنا حق الفقراء. وقال ابن كيسان: طغينا نِعَمَ الله فلم نشكرها ولم نصنع ما صنع آباؤنا من قبل.

عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٣٤﴾ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾

﴿عسى ربنا أن يبدلنا خيراً منها إنا إلى ربنا راغبون﴾ قال ابن مسعود بلغني أن القوم أخلصوا وعرف الله منهم الصدق فأبدلهم بها جنة يقال لها الحيوان فيها عنب يحمل البغل منه عنقوداً قال الله تعالى: ﴿كذلك العذاب﴾ أي كفعلنا بهم نفعل بمن تعدى حدودنا وخالف أمرنا يخوف بذلك كفار مكة ثم قال تعالى: ﴿ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون﴾ ثم أخبر بما أعد الله للمتقين فقال تعالى: ﴿إن للمتقين عند ربهم جنات النعيم﴾ أي عند ربهم في الآخرة ولما نزلت هذه الآية قال المشركون إنا نعطي في الآخرة أفضل مما تعطون فقال الله تعالى تكذيباً للمشركين ﴿أفنجعل المسلمين كالمجرمين﴾ يعني أن التسوية بين المسلم والمجرم غير جائزة فكيف يكون أفضل أو يعطى أفضل منه ولما قال تعالى ذلك على سبيل الاستبعاد والإنكار قال لهم على طريق الالتفات ﴿ما لكم كيف تحكمون﴾ يعني هذا الحكم المعوج ﴿أم لكم كتاب﴾ أي نزل من عند الله ﴿فيه﴾ أي في ذلك الكتاب ﴿تدرسون﴾ أي تقرؤون ﴿إن لكم فيه﴾ أي في ذلك الكتاب ﴿لما تخيرون﴾ أي تختارون وتشتهون ﴿أم لكم أيمان علينا بالغة﴾ معناه ألكم عهود ومواثيق مؤكدة عاهدناكم عليها فاستوثقتم بها منا ﴿إلى يوم القيامة﴾ أي لا تنقطع تلك الأيمان والعهود إلى يوم القيامة ﴿إن لكم﴾ أي في ذلك العهد ﴿لما تحكمون﴾ أي لأنفسكم من الخير والكرامة عند الله تعالى ثم قال الله تعالى لنبيه ﷺ ﴿سلهم أيهم بذلك زعيم﴾ أي أيهم كفيل لهم بأن لهم في الآخرة ما للمسلمين ﴿أم لهم شركاء﴾ أي بل لهم شركاء

ثــم رجعوا إلى أنفسهم فقالوا: ﴿ عسى ربنا أن يبدلنا خيراً منها إنّا إلى ربنا راغبون ﴾، قال عبد الله بن مسعود: بلغني أن القوم أخلصوا وعرف الله منهم الصدق فأبدلهم بها جنّة يقال لها الحيوان فيها عنب يحمل البغل منه عنقوداً واحداً.

﴿ كذلك العذاب ﴾، أي كفعلنا بهم نفعل بمَن تعدّى حدودنا وخالف أمرنا، ﴿ ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمــون ﴾.

ثم أخبر بما عنده للمتّقين فقال: ﴿ إنّ للمتّقين عند ربّهم جنّات النعيم ﴾، فقال المشركون: إنّا نعطى في الآخرة أفضل مما تُعطون فقال الله تكذيباً لهم:

﴿ أفنجعل المسلمين كالمجرمين * ما لكم كيف تحكمون أم لكم كتاب ﴾، نزل من عند الله، ﴿ فيه ﴾. في هذا الكتاب، ﴿ تدرسون ﴾، تقرؤون.

﴿ إن لكم فيه ﴾، في ذلك الكتاب، ﴿ لما تخيّرون ﴾، تختارون وتشتهون.

﴿ أم لكم أيمان ﴾، عهود ومواثيق، ﴿ علينا بالغة ﴾، مؤكدة عاهدناكم عليها، فاستوثقتم بها منّا فلا تنقطع، ﴿ إلى يوم القيامة إن لكم ﴾، كسر ﴿ إن ﴾ لدخول اللام في الخبر ذلك العهد، ﴿ لما تحكمون ﴾ لأنفسكم من الخير والكرامة عند الله.

ثم قال لنبيّه ﷺ: ﴿ سَلْهم أيّهم بذلك زعيم ﴾، كفيل أي أيّهم يكفل لهم بأن لهم في الآخرة ما للمسلمين.

يعني ما كانوا يجعلونه لله شريكاً وإنما أضاف الشركاء إليهم لأنهم هم جعلوها شركاء لله، وقيل معنى شركاء شهداء يشهدون بصدق ما ادعوه ﴿فليأتوا بشركائهم إن كانوا صادقين﴾ أي في دعواهم ﴿يوم يكشف﴾ أي فليأتوا بشركائهم في ذلك اليوم لتنفعهم وتشفع لهم ﴿عن ساق﴾ أي عن أمر فظيع شديد قال ابن عباس هو أشد ساعة في القيامة تقول العرب للرجل إذا وقع في أمر عظيم فظيع يحتاج فيه إلى الجد ومقاساة الشدة شمر عن ساقك إذا قام في ذلك الأمر ويقال إذا اشتد الأمر في الحرب كشفت الحرب عن ساق وسئل ابن عباس عن هذه الآية فقال إذا خفي عليكم شيء من القرآن فابتغوه في الشعر فإنه ديوان العرب أما سمعتم قول الشاعر:

سن لنا قومك ضرب الأعناق ... وقامت الحرب بنا على ساق

ثم قال ابن عباس هو يوم كرب وشدة وأنشد أهل اللغة أبياتاً في هذا المعنى فمنها ما أنشده أبو عبيدة لقيس بن زهير:

فإن شمرت لك عن ساقها ... فدنها ربيع ولا تسأم

ومنها قول جرير:

ألا رب ساهي الطرف من آل مازن ... إذا شمرت عن ساقها الحرب شمرا

وقد كثر مثل هذا في كلام العرب حتى صار كالمثل للأمر العظيم الشديد (ق) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن ناساً في زمن النبي ﷺ قالوا يا محمد هل نرى ربنا يوم القيامة قال رسول الله ﷺ نعم هل تضارون في رؤية الشمس بالظهيرة صحوا ليس معها سحاب وهل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر صحوا ليس فيها سحاب قالوا لا يا رسول الله قال ما تضارون في رؤية الله يوم القيامة إلا كما تضارون في رؤية أحدهما إذا كان يوم القيامة أذن مؤذن لتتبع كل أمة ما كانت تعبد فلا يبقى أحد كان يعبد غير الله من الأصنام والأنصاب إلا يتساقطون في النار حتى إذا لم يبق إلا من كان يعبد الله من بر وفاجر وغير أهل الكتاب فيدعى اليهود فيقال لهم ما كنتم تعبدون قالوا كنا نعبد عزيراً ابن الله قال كذبتم ما اتخذ الله من صاحبة ولا ولد فماذا تبغون فيقولون عطشنا يا ربنا فاسقنا فيشار إليهم ألا تردون فيحشرون

﴿ أم لهم شركاء ﴾، أي عندهم شركاء لله أرباب تفعل هذا. وقيل: شهداء يشهدون لهم بصدق ما يدعونه. **﴿ فليأتوا بشركائهم إن كانوا صادقين ﴾**.

﴿يوم يكشف عن ساق﴾، قيل يوم ظرف لقوله فليأتوا بشركائهم أي فليأتوا بها في ذلك اليوم لتنفعهم وتشفع لهم، يوم يكشف عن ساق، قيل: عن أمر فظيع شديد، قال ابن عباس: هو أشدّ ساعة في القيامة. قال سعيد بن جبير: يوم يكشف عن ساق: عن شدّة الأمر. وقال ابن قتيبة: تقول العرب للرجل إذا وقع في أمر عظيم يحتاج فيه إلى الجدّ ومقاساة الشدّة شمّر عن ساقه، ويقال: إذا اشتدّ الأمر في الحرب كشفت الحرب عن ساق. أخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر أنا عبد الغافر بن محمد ثنا محمد بن عيسى الجلودي أنا إبراهيم بن محمد بن سفيان ثنا مسلم بن الحجّاج حدّثني سويد بن سعيد حدّثني حفص بن ميسرة عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن أُناساً في زمن النبي ﷺ قالوا: يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة؟ قال رسول الله ﷺ: «نعم هل تضارّون في رؤية الشمس بالظهيرة صحواً ليس معها سحاب؟ وهل تضارّون في رؤية القمر ليلة البدر صحواً ليس فيها سحاب»: قالوا: لا يا رسول الله، قال: «ما تضارّون في رؤية الله يوم القيامة إلّا كما تضارّون في رؤية أحدهما، إذا كان يوم القيامة أذّن مؤذّن لتتبع كل أمة ما كانت تعبد فلا يبقى أحد كان يعبد غير الله من

إلى النار كأنها سراب يحطم بعضها بعضاً فيتساقطون في النار ثم تدعى النصارى فيقال لهم ما كنتم تعبذون قالوا كنا نعبد المسيح ابن الله فيقال لهم كذبتم ما اتخذ الله من صاحبة ولا ولد فيقال لهم ماذا تبغون فيقولون عطشنا يا ربنا فاسقنا فيشار إليهم ألا تردون فيحشرون إلى جهنم كأنها سراب يحطم بعضها بعضاً فيتساقطون في النار حتى إذا لم يبق إلا من كان يعبد الله من بر وفاجر أتاهم رب العالمين في أدنى صورة من التي رأوه فيها قال فماذا تنتظرون لتتبع كل أمة ما كانت تعبد فيقولون يا ربنا فارقنا الناس في الدنيا أفقر ما كنا إليهم ولم نصاحبهم فيقول أنا ربكم فيقولون نعوذ بالله منك لا نشرك بالله شيئاً مرتين أو ثلاثاً حتى إن بعضهم ليكاد أن ينقلب فيقول هل بينكم وبينه آية لتعرفونه بها فيقولون نعم فيكشف عن ساق فلا يبقى من كان يسجد من تلقاء نفسه إلا أذن له بالسجود ولا يبقى من كان يسجد نفاقاً ورياء إلا جعل الله ظهره طبقة واحدة كلما أراد أن يسجد خر على قفاه ثم يرفعون رؤوسهم وقد تحول في صورته التي رأوه فيها أول مرة فقال أنا ربكم فيقولون أنت ربنا ثم يضرب الجسر على جهنم وتحل الشفاعة ويقولون اللهم سلم سلم، قيل يا رسول الله وما الجسر قال دحض مزلة فيه خطاطيف وكلاليب وحسكة تكون بنجد فيها شويكة يقال لها السعدان فيمر المؤمنون كطرف العين وكالبرق وكالريح وكالطير وكأجاويد الخيل والركاب فناج مسلم ومخدوش مرسل ومكردس في نار جهنم حتى إذا خلص المؤمنون من النار فوالذي نفسي بيده ما من أحد منكم بأشد منا شدة لله في استقصاء الحق من المؤمنين لله يوم القيام لإخوانهم الذين في النار فيقولون ربنا كانوا يصومون معنا ويصلون ويحجون فيقال لهم أخرجوا من عرفتم فتحرم صورهم على النار فيخرجون خلقاً كثيراً وقد أخذت النار إلى نصف ساقيه وإلى ركبتيه، ثم يقولون ربنا ما بقي فيها أحد ممن أمرتنا به ثم يقول ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال دينار من خير فأخرجوه فيخرجون خلقاً كثيراً ثم يقولون ربنا لم نذر فيها أحداً ممن أمرتنا به فيقول ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال نصف دينار من خير فأخرجوه فيخرجون خلقاً كثيراً ثم يقولون ربنا لم نذر فيها أحداً ممن أمرتنا به ثم يقول ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال ذرة من خير فأخرجوه فيخرجون خلقاً كثيراً ثم يقولون ربنا لم نذر فيها خيراً، وكان أبو سعيد يقول إن لم تصدقوني بهذا الحديث فاقرؤوا إن شئتم: إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً فيقول الله عز وجل شفعت الملائكة وشفع النبيون وشفع المؤمنون ولم يبق إلا أرحم الراحمين فيقبض قبضة من النار فيخرج منها قوماً لم يعملوا خيراً قط قد عادوا حمماً فيلقيهم في نهر في أفواه الجنة

الأصنام والأنصاب إلّا يتساقطون في النار، حتى إذا لم يبقَ إلّا مَن كان يعبد الله من برٍّ وفاجر وغير أهل الكتاب فتُدعى اليهود فيقالُ لهم: ما كنتم تعبدون؟ قالوا: كنّا نعبد عزير ابن الله فيقال كذبتم ما اتخذ الله من صاحبة ولا ولد، فماذا تبغون؟ فقالوا: عطشنا يا ربّنا فاسقنا فيُشار إليهم ألا تَردون فيُحشرون إلى النار كأنها سراب يحطّم بعضها بعضاً فيتساقطون في النار، ثم تدعى النصارى فيقال لهم: ما كنتم تعبدون؟ قالوا: كنّا نعبد المسيح ابن الله، فيقال لهم كذبتم ما اتخذ الله من صاحبة ولا ولد، فيقال لهم: ماذا تبغون؟ فيقولون: عطشنا يا ربنا فاسقنا فيُشار إليهم ألا تَردون فيُحشرون إلى جهنم كأنها سراب يحطّم بعضها بعضاً، فيتساقطون في النار حتى إذا لم يبقَ إلّا مَن كان يعبد الله من برٍّ وفاجر أتاهم ربُّ العالمين في أدنى صورة من التي رأوه فيها، قال: فماذا تنتظرون؟ لتتبع كل أُمة ما كانت تعبد، قالوا يا ربنا فارقنا الناس في الدنيا أفقر ما كنّا إليهم ولم نصاحبهم فيقول أنا ربكم، فيقولون نعوذ بالله منك لا نشرك بالله شيئاً مرتين أو ثلاثاً حتى إن بعضهم ليكاد أن ينقلب فيقول هل بينكم وبينه آية تعرفونه بها، فيقولون: نعم فيكشف عن ساق فلا يبقى مَن كان يسجد لله من تلقاء نفسه إلّا أذِنَ الله له بالسجود، فلا يبقى مَن كان يسجد نفاقاً ورياءً إلّا جعل الله ظهره طبقة واحدة كلما أراد أن يسجد خرّ على قفاه ثم يرفعون رؤوسهم وقد تحوّل في الصورة التي رأوه فيها أول مرة فقال: أنا ربكم، فيقولون أنت ربّنا، ثم يضرب الجسر على جهنم وتحلّ الشفاعة، ويقولون اللّهمَّ سلّم سلّم»، قيل: يا رسول الله وما الجسر؟ قال: «دحض مُزِلّة فيه خطاطيف وكلاليب وحسكة يكون

يقال له نهر الحياة فيخرجون كما تخرج الحبة في حميل السيل ألا ترونها تكون إلى الحجر أو إلى الشجر ما يكون إلى الشمس أصفر أو أخضر وما يكون منها إلى الظل يكون أبيض قال فيخرجون كاللؤلؤ في رقابهم الخواتم تعرفهم أهل الجنة هؤلاء عتقاء الله الذين أدخلهم الله الجنة بغير عمل عملوه ولا خير قدموه ثم يقول ادخلوا الجنة فما رأيتموه فهو لكم فيقولون ربنا أعطيتنا ما لم تعط أحداً من العالمين فيقول لكم عندي أفضل من هذا فيقولون ربنا أي شيء أفضل من هذا؟ فيقول رضائي فلا أسخط عليكم أبداً» لفظ مسلم والبخاري نحوه بمعناه.

(فصل: في شرح ألفاظ الحديث وما يتعلق به)

أما الرؤية وما يتعلق بها فسيأتي الكلام عليها في موضعها إن شاء الله تعالى.

قوله «حتى إذا لم يبق إلا من كان يعبد الله من بر وفاجر أتاهم رب العالمين في أدنى صورة من التي رأوه فيها وفي رواية أبي هريرة فيأتيهم الله في صورة غير صورته التي يعرفون فيقول أنا ربكم فيقولون نعوذ بالله منك هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا فإذا جاء عرفناه فيأتيهم الله في صورته التي يعرفون فيقول أنا ربكم فيقولون أنت ربنا فيتبعونه» قال الشيخ محيي الدين النووي رحمه الله وغيره اعلم أن هذا الحديث من أكبر أحاديث الصفات وأعظمها وللعلماء فيه وفي أمثاله قولان:

أحدهما: وهو قول معظم السلف أو كلهم أنه لا يتكلم في معناها بل يقولون يجب علينا أن نؤمن بها ونعتقد أن لها معنى يليق بجلال الله تعالى وعظمته مع اعتقادنا الجازم أن الله تعالى ليس كمثله شيء وأنه منزه عن التجسيم والانتقال والتحيز في جهة وعن سائر صفات المخلوقين وهذا القول هو مذهب جماعة من المتكلمين واختاره جماعة من محققيهم وهو أسلم وقال الخطابي هذا الحديث تهيب القول فيه شيوخنا فأجروه على ظاهر لفظه ولم يكشفوا عن باطن معناه على نحو مذهبهم في التوقف عن تفسير كل ما لا يحيط العلم بكنهه من هذا الباب.

والقول الثاني: وهو مذهب معظم المتكلمين أنها تتأول على ما يليق بها على حسب مواقعها وإنما يسوغ تأويلها لمن كان من أهله فعلى هذا المذهب يقال في قوله ﷺ فيأتيهم الله أن الإتيان عبارة عن رؤيتهم إياه لأن العادة أن من غاب عن غيره لا يمكنه رؤيته بالإتيان فعبر بالإتيان والمجيء هنا عن الرؤية مجازاً وقيل الإتيان فعل من أفعال الله تعالى سماه إتياناً وقيل المراد بيأتيهم الله يأتيهم بعض ملائكته قال القاضي عياض وهذا الوجه أشبه عندي بالحديث قال ويكون هذا الملك هو الذي جاءهم في الصورة التي أنكروها من سمات الحدوث الظاهرة على الملك والمخلوق قال أو يكون معناه يأتيهم الله في صورة أي يصور ويظهر لهم من صور ملائكته ومخلوقاته التي لا تشبه صفات الإله

بنجد فيها شويكة يقال لها السعدان فيمرّ المؤمنون كطرف العين وكالبرق وكالريح وكالطير وكأجاويد الخيل والركاب فناجٍ مسلم ومخدوش مرسل ومكردس في نار جهنـم، حتى إذا خلص المؤمنون من النار فوالذي نفسي بيده ما من أحد منكم بأشدّ مناشدة لله في استيفاء الحق من المؤمنين لله يوم القيامة لإخوانهم الذين في النار، يقولون: ربّنا كانوا يصومون معنا ويصلّون ويحجّون، فيقال لهم: أخرجوا مَن عرفتم فتحرّم صورهم على النار فيُخرِجون خلقاً كثيراً قد أخذت النار إلى نصف ساقه وإلى ركبتيه، ثم يقولون: ربنا ما بقي فيها أحد ممّن أمرتنا به، فيقول: ارجعوا فمَن وجدتم في قلبه مثقال دينار من خير فأخرجوه، فيُخرِجون خلقاً كثيراً، ثم يقولون: ربّنا لم نذر فيها أحداً ممّن أمرتنا به، ثم يقول: ارجعوا فمَن وجدتم في قلبه مثقال نصف دينار من خير فأخرجوه، فيُخرجون خلقاً كثيراً، ثم يقولون: ربنا لم نذر فيها ممّن أمرتنا به أحداً، ثم يقول: ارجعوا فمَن وجدتم في قلبه مثقال ذرّة من خير فأخرجوه، فيُخرجون خلقاً كثيراً، ثم يقولون: ربنا لم نذر فيها أحداً فيه خير ممّن أمرتنا به»، وكان أبو سعيد الخدري يقول: إن

ليختبرهم وهذا آخر امتحان المؤمنين فإذا قال لهم هذا الملك أو هذه الصورة أنا ربكم رأوا عليه علامة من علامات المخلوقات مما ينكرونه ويعلمون بذلك أنه ليس ربهم فيستعيذون بالله منه.

وأما قوله ﷺ فيأتيهم الله في صورته التي يعرفون فالمراد بالصورة هنا الصفة ومعناه فيتجلى الله تعالى لهم في الصفة التي يعلمونها ويعرفونه بها وإنما عرفوه بصفته وإن لم تكن تقدمت لهم رؤية له سبحانه وتعالى لأنهم على هذه الصفة يرونه شيئاً من مخلوقاته وقد علموا أنه لا يشبه شيئاً من مخلوقاته فيعلمون بذلك أنه ربهم فيقولون أنت ربنا وإنما عبر عن الصفة بالصورة لمشابهتها إياها ولمجانسة الكلام فإنه تقدم ذكر الصورة.

وقوله في حديث أبي سعيد «أتاهم رب العالمين في أدنى صورة من التي رأوه فيها» معنى رأوه فيها أي علموها وهي صفته المعلومة للمؤمنين وهي أنه لا يشبهه شيء وقولهم «نعوذ بالله منك لا نشرك بالله» إنما استعاذوا منه لما قدمناه من كونهم رأوا عليه سمات المخلوق.

قوله «فيكشف عن ساق وفي رواية للبخاري يكشف ربنا عن ساقه» ذكر هذه الرواية البيهقي في كتاب الأسماء والصفات، قال أبو سليمان الخطابي فيحتمل أن يكون معنى قوله فيكشف عن ساقه أي عن قدرته التي تكشف عن الشدة وضبط يكشف بفتح الياء وضمها وقد تقدم تفسير كشف الساق وقيل المراد بالساق في هذا الحديث نور عظيم. وورد ذلك في حديث عن النبي ﷺ وهو ما روي عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه عن النبي ﷺ في قوله «يوم يكشف عن ساق قال نور عظيم يخرون له سجداً تفرد به روح بن حبان مولى عمر بن عبد العزيز وهو شامي يأتي بأحاديث منكرة لا يتابع عليها وموالي عمر بن عبد العزيز كثيرون ففي إسناده مجهول أيضاً وقال ابن فورك ومعنى ذلك ما يتجدد للمؤمن عند رؤية الله تعالى من الفوائد والألطاف قال القاضي عياض وقيل قد يكون الساق علامة بينه وبين المؤمنين من ظهور جماعة من الملائكة على خلقة عظيمة وقد تكون ساقاً مخلوقة جعلها الله تعالى علامة للمؤمنين خارجة عن السوق المعتادة، قيل معناه كشف الحزن وإزالة للرعب عنهم وما كان غلب على عقولهم من الأهوال فتطمئن حينئذ نفوسهم عند ذلك ويتجلى الله لهم فيخرون سجداً قال الخطابي وهذه الرؤية في هذا المقام يوم القيامة غير الرؤية التي هي في الجنة لكرامة أولياء الله وإنما هذه الرؤية امتحان الله لعباده وقوله فلا يبقى من كان يسجد لله تعالى من تلقاء نفسه إلا أذن الله له في السجود ولا يبقى من كان يسجد نفاقاً ورياء إلا جعل الله ظهره طبقة واحدة هذا السجود امتحان من الله تعالى لعباده ومعنى طبقة واحدة أي فقارة واحدة كالصحيفة فلا يقدر على السجود وقوله ثم يرفعون رؤوسهم وقد تحول في صورته التي رأوه فيها أول مرة معناه ثم يرفعون رؤوسهم وقد أزال المانع لهم من رؤيته وتجلى لهم فيقولون أنت ربنا وقوله ثم يضرب الجسر على جهنم الجسر بفتح الجيم وكسرها لغتان وهو الصراط

لم تصدقوني بهذا الحديث فاقرؤوا إن شئتم: ﴿إن الله لا يظلم مثقال ذرّة وإن تكُ حسنة يضاعفْها ويؤْتِ من لدنه أجراً عظيماً﴾ [النساء: ٤٠]، فيقول الله شفعت الملائكة وشفع النبيّون وشفع المؤمنون ولم يبقَ إلا أرحم الراحمين، فيقبض قبضة من النار فيُخرِج منها قوماً لم يعملوا خيراً قطّ قد عادوا حمماً فيلقيهم في نهر في أفواه الجنة يقال له نهر الحياة، فيخرجون كما تخرج الحبّة في حميل السيل ألا ترونها تكون إلى الحجر أو إلى ما يكون إلى الشمس أُصيفر وأُخيضر، وما يكون منها إلى الظل يكون أبيض، قال: فيخرجون كاللؤلؤ في رقابهم الخواتيم تعرفهم أهل الجنة هؤلاء عتقاء الله من النار الذين أدخلهم الله الجنة بغير عمل عملوه ولا خير قدّموه، ثم يقول: «ادخلوا الجنة فما رأيتموه فهو لكم فيقولون ربنا: أعطيتنا ما لم تعطِ أحداً من العالمين، فيقول: لكم عندي أفضل من هذا فيقولون: يا ربنا أيّ شيء أفضل من هذا؟ فيقول رضائي فلا أسخط عليكم بعده أبداً». وروى محمد بن إسماعيل هذا الحديث عن يحيىٰ بن بكير عن الليث عن خالد بن يزيد عن سعيد بن أبي هلال عن زيد بن أسلم بهذا

وتحل للشفاعة بكسر الحاء وقيل بضمها من حل ومعناه وتقع الشفاعة ويؤذن فيها قوله دحض مزلة أي تزلق فيه الأقدام ولا تثبت قوله فيه خطاطيف جمع خطاف وهو الذي يخطف الشيء وكلاليب جمع كلوب وهو الحديدة التي يعلق بها اللحم والحسك الذي يقال له السعدان نبت له شوك عظيم من كل جانب قوله فناج مسلم ومخدوش مرسل ومكردس في نار جهنم معناه أنهم ثلاثة أقسام قسم يسلم فلا يناله شيء أصلاً وقسم يخدش ثم يرسل فيخلص وقسم يكردس أي يلقى ويسقط في جهنم وفي هذا إثبات الصراط وهو مذهب أهل السنة وأهل الحق وهو جسر يجعل على متن جهنم وهو أرق من الشعر وأحد من السيف فيمر عليه الناس كلهم فالمؤمنون ينجون على حسب منازلهم وأعمالهم والآخرون يسقطون في جهنم أعاذنا الله منها، ومعنى مناشدة المؤمنين لله يوم القيامة لإخوانهم الذين في النار شفاعتهم لهم وقوله فمن وجدتم في قلبه مثقال دينار من خير ومثقال نصف دينار من خير ومثقال ذرة قال القاضي عياض قيل معنى الخير اليقين قال والصحيح أن معناه شيء زائد على مجرد الإيمان لأن الإيمان الذي هو التصديق لا يتجزأ وإنما يكون هذا الخير زائداً عليه من عمل صالح وذكر خفي وعمل من أعمال القلب من شفقة على مسكين أو خوف من الله تعالى أو نية صادقة ومثقال الذرة مثل لأقل الخير لأن ذلك أقل المقادير وقول المؤمنين لم نذر فيها خيراً أي صاحب خير وقوله تعالى: «شفعت الملائكة هو بفتح الفاء وشفع النبيون وشفع المؤمنون ولم يبق إلا أرحم الراحمين فيقبض قبضة من النار فيخرج منها قوماً لم يعملوا خيراً قط» هؤلاء الذين معهم مجرد الإيمان فقط ولم يعملوا خيراً قط وتفرد الله تعالى بعلم ما تكنه القلوب فالرحمة لمن ليس عنده إلا مجرد الإيمان فقط ومعنى قبض قبضة أي جمع جماعة.

قوله قد عادوا حمماً أي صاروا فحماً فيلقيهم في نهر في أفواه الجنة جمع فوهة وهي أول النهر.

قوله فيخرجون كاللؤلؤ أي في الصفاء في رقابهم الخواتم قيل معناه أنه يعلق في رقابهم أشياء من ذهب أو غير ذلك مما يعرفون بها والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿**ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون**﴾ السجود يعني الكفار والمنافقين تصير أصلابهم كصياصي البقر أو كصفيحة نحاس فلا يستطيعون السجود.

خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ تَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۖ وَقَدۡ كَانُواْ يُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمۡ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾

﴿**خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة**﴾ وذلك أن المؤمنين يرفعون رؤوسهم من السجود ووجوههم أشد بياضاً من الثلج وقد علاها النور والبهاء وتسود وجوه الكفار والمنافقين ويغشاهم ذل وخسران وندامة ﴿**وقد كانوا يدعون إلى السجود**﴾ يعني في دار الدنيا كانوا يدعون إلى الصلاة المكتوبة بالأذان والإقامة وذلك أنهم كانوا يسمعون حي على

المعنى، أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا آدم ثنا الليث عن خالد بن يزيد عن سعيد بن أبي هلال عن يزيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: سمعتُ النبي ﷺ يقول: «يكشف ربنا عن ساقه فيسجد له كل مؤمن ومؤمنة ويبقى مَن كان يسجد في الدنيا رياءً وسُمعةً فيذهب ليسجد فيعود ظهره طبقاً واحداً». قوله عزّ وجلّ: ﴿ **يدعون إلى السجود فلا يستطيعون** ﴾، يعني الكفّار والمنافقون، تصير أصلابهم كصياصي البقر فلا يستطيعون السجود.

﴿ **خاشعة أبصارهم** ﴾، وذلك أن المؤمنين يرفعون رؤوسهم من السجود ووجوههم أشدّ بياضاً من الثلج، وتسودّ وجوه الكافرين والمنافقين، ﴿ **ترهقهم ذلّة** ﴾، يغشاهم ذلّ الندامة والحسرة، ﴿ **وقد كانوا يدعون إلى السجود** ﴾، قال إبراهيم التيمي: يعني إلى الصلاة المكتوبة بالأذان والإقامة. وقال سعيد بن جبير: كانوا يسمعون حيّ على الصلاة حيّ على الفلاح فلا يجيبون، ﴿ **وهم سالمون** ﴾، أصحّاء فلا يأتونه، قال كعب الأحبار: والله ما

الصلاة حي على الفلاح فلا يجيبون ﴿وهم سالمون﴾ يعني أنهم كانوا يدعون إلى الصلاة وهم أصحاء فلا يأتونها قال كعب الأحبار والله ما نزلت هذه الآية إلا في الذين يتخلفون عن الجماعة.

فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿٤٥﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾

قوله عز وجل: ﴿فذرني ومن يكذب بهذا الحديث﴾ أي دعني والمكذبين بالقرآن وخل بيني وبينهم ولا تشغل قلبك بهم وكلهم إليّ فإني أكفيك إياهم ﴿سنستدرجهم﴾ أي سنأخذهم بالعذاب ﴿من حيث لا يعلمون﴾ فعذبوا يوم بدر بالقتل والأسر، وقيل في معنى الآية كلما أذنبوا ذنباً جددنا لهم نعمة وأنسيناهم الاستغفار والتوبة. وهذا هو الاستدراج لأنهم يحسبونه تفضيلاً لهم على المؤمنين وهو في الحقيقة سبب إهلاكهم فعلى العبد المسلم إذا تجددت عنده نعمة أن يقابلها بالشكر وإذا أذنب ذنباً أن يعاجله بالاستغفار والتوبة. ﴿وأملي لهم﴾ أي أمهلهم وأطيل لهم المدة. وقيل معناه أمهلهم إلى الموت فلا أعاجلهم بالعقوبة ﴿إن كيدي متين﴾ أي عذابي شديد وقيل الكيد ضرب من الاحتيال فيكون بمعنى الاستدراج المؤدي إلى العذاب ﴿أم تسألهم أجراً﴾ أي على تبليغ الرسالة ﴿فهم من مغرم مثقلون﴾ المغرم الغرامة والمعنى أتطلب منهم أجراً فيثقل عليهم حمل الغرامات في أموالهم فيثبطهم ذلك عن الإيمان ﴿أم عندهم الغيب فهم يكتبون﴾ أي عندهم اللوح المحفوظ فهم يكتبون منه ما يحكمون به وهو استفهام على سبيل الإنكار ﴿فاصبر لحكم ربك﴾أي اصبر على أذاهم لقضاء ربك قيل إنه منسوخ بآية السيف ﴿ولا تكن﴾ في الضجر والعجلة ﴿كصاحب الحوت﴾ يعني يونس بن متى ﴿إذ نادى﴾ ربه أي في بطن الحوت ﴿وهو مكظوم﴾ أي مملوء غماً ﴿لولا أن تداركه نعمة من ربه﴾ أي حين رحمه وتاب عليه، ﴿لنبذ بالعراء﴾ أي لطرح بالفضاء من بطن الحوت على الأرض ﴿وهو مذموم﴾ أي يذم ويلام بالذنب. وقيل في معنى الآية لولا أن تداركته نعمة من ربه لبقي في بطن الحوت إلى يوم القيامة ثم ينبذ بعراء القيامة أي بأرضها وفضائها فإن قلت هل يدل قوله وهو مذموم على كونه كان فاعلاً للذنب.

قلت الجواب عنه من ثلاثة أوجه: أحدها: أن كلمة لولا دلت على أنه لم يحصل منه ما يوجب الذم الثاني لعل المراد منه ترك الأفضل فإن حسنات الأبرار سيئات المقربين الثالث لعل هذه الواقعة كانت قبل النبوة يدل عليه قوله

نزلت هذه الآية إلّا عن الذين يتخلّفون عن الجماعات.

﴿ فذرني ومَن يكذب بهذا الحديث ﴾، أي فدعني والمكذّبين بالقرآن، وخلِّ بيني وبينهم. قال الزجّاج: معناه لا تشغل قلبك به وكَلْهُ إليّ فإني أكفيك أمره، ﴿ سنستدرجهم ﴾، سنأخذهم بالعذاب، ﴿ من حيث لا يعلمون ﴾، فعذّبوا يوم بدر.

﴿ وأملي لهم إن كيدي متين ﴾، ﴿ أم تسألهم أجراً فهم من مغرم مثقلون * أم عندهم الغيب فهم يكتبون * فاصبرْ لحكم ربّك ﴾، اصبر على أذاهم لقضاء ربك، ﴿ ولا تكن ﴾، في الضجر والعجلة، ﴿ كصاحب الحوت ﴾، وهو يونس بن متّى، ﴿ إذ نادى ﴾، ربّه وهو في بطن الحوت، ﴿ وهو مكظوم ﴾، مملوء غمّاً.

﴿ لولا أن تداركه ﴾، أدركه ﴿ نعمة من ربّه ﴾، حين رحمه وتاب عليه، ﴿ لَنُبِذَ بالعَراء ﴾، لطرح بالفضاء من بطن الحوت، ﴿ وهو مذموم ﴾، يذمّ ويُلاَم بالذنب.

تعالى: ﴿فاجتباه ربه﴾ والفاء للتعقيب أي اصطفاه ورد عليه الوحي وشفعه في قومه ﴿فجعله من الصالحين﴾ أي النبيين.

قوله تعالى: ﴿وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم﴾ وذلك أن الكفار أرادوا أن يصيبوا النبي ﷺ بالعين فنظرت قريش إليه وقالوا ما رأينا مثله ولا مثل حججه، وقيل كانت العين في بني أسد حتى أن كانت الناقة أو البقرة لتمر بأحدهم فيعاينها ثم يقول لجاريته خذي المكتل والدراهم فائتينا بلحم من لحم هذه فما تبرح حتى تقع بالموت فتنحر. وقيل كان رجل من العرب يمكث لا يأكل يومين أو ثلاثة ثم يرفع جانب خبائه فتمر به الإبل فيقول لم أر كاليوم إبلاً ولا غنماً أحسن من هذه فما تذهب إلا قليلاً حتى يسقط ما عناه فسأل الكفار هذا الرجل أن يصيب رسول الله ﷺ بالعين ويفعل به مثل ذلك فعصم الله نبيه ﷺ وأنزل وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم قال ابن عباس: معناه ينفذونك وقيل يصيبونك بعيونهم كما يصيب العائن بعينه ما يعجبه. وقيل يصرعونك وقيل يصرفونك عما أنت عليه من تبليغ الرسالة وإنما أراد أنهم ينظرون إليك إذا قرأت القرآن نظراً شديداً بالعداوة والبغضاء يكاد يسقطك، ومنه قولهم نظر إلي نظراً يكاد يصرعني أو يكاد يهلكني يدل على صحة هذا المعنى أنه قرن هذا النظر بسماع القرآن وهو قوله ﴿لما سمعوا الذكر﴾ لأنهم كانوا يكرهون ذلك أشد الكراهة ويحدون النظر إليه بالبغضاء ﴿ويقولون إنه لمجنون﴾ أي ينسبونه إلى الجنون إذا سمعوه يقرأ القرآن قال تعالى رداً عليهم.

وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ (٥٢)

﴿وما هو﴾ يعني القرآن ﴿إلا ذكر للعالمين﴾ قال ابن عباس موعظة للمؤمنين قال الحسن: دواء من أصابته

﴿ فاجتباه ربّه ﴾، اصطفاه، ﴿ فجعله من الصالحين * وإن يكاد الذين كفروا لَيُزْلِقُونَك بأبصارهم ﴾، وذلك أن الكفّار أرادوا أن يصيبوا رسول الله ﷺ بالعين فنظر إليه قوم من قريش وقالوا ما رأينا مثله ولا مثل حججه. وقيل: كانت العين في بني أسد حتى كانت الناقة والبقرة السمينة تمرّ بأحدهم فيعاينها ثم يقول يا جارية خذي المكتل والدراهم فائتينا بشيء من لحم هذه فما تبرح حتى تقع بالموت، فتنحر. وقال الكلبي: كان رجل من العرب يمكث لا يأكل يومين أو ثلاثاً ثم يرفع جانب خبائه فتمرّ به الإبل فيقول لم أرَ كاليوم إبلاً ولا غنماً أحسن من هذه، فما تذهب إلّا قليلاً حتى تسقط منها طائفة وعدّة، فسأل الكفّار هذا الرجل أن يصيب رسول الله ﷺ ويفعل به مثل ذلك، فعصم الله نبيّه وأنزل: ﴿ وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم ﴾، أي ويكاد، ودخلت اللام في ﴿ ليزلقونك ﴾ لمكان أن، وقرأ أهل المدينة ﴿ ليزلقونك ﴾ بفتح الياء، والآخرون بضمهـا، وهما لغتان، يقال: زلقه يزلقه زلقاً وأزلقه يزلقه أزلاقاً. قال ابن عباس: معناه ينفذونك، يقال: زلق السهم إذا أنفذ، قال السدي: يصيبونك بعيونهم. قال النضير بن شميل: يعينونك. وقيل: يزيلونك. وقال الكلبي: يصرعونك. وقيل: يصرفونك عمّا أنت عليه من تبليغ الرسالة. قال ابن قتيبة: ليس يريد أنهم يصيبونك بأعينهم كما يصيب العائن بعينه ما يعجبه، وإنما أراد أنهم ينظرون إليك إذا قرأت القرآن نظراً شديداً بالعداوة والبغضاء، يكاد يسقطك. وقال الزجّاج: يعني من شدّة عداوتهم يكادون ينظرهم نظر البغضاء أن يصرعوك، وهذا مستعمل في الكلام يقول القائل: نظر إليّ يكاد يصرعني، ونظراً يكاد يأكلني، يدلّ على صحة هذا المعنى أنه قرن هذا النظر بسماع القرآن. وهو قوله: ﴿ لمّا سمعوا الذكر ﴾، وهم كانوا يكرهون ذلك أشدّ الكراهية فيحدّون إليه النظر بالبغضاء، ﴿ ويقولون إنه لمجنون ﴾، أي ينسبونه لجنون إذا سمعوه يقرأ القرآن.

فقال الله تعالى: ﴿ وما هو ﴾، يعني القرآن، ﴿ إلاّ ذكر للعالمين ﴾، قال ابن عباس: موعظة للمؤمنين. قال

العين أن تقرأ عليه هذه الآية (ق)، عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ «العين حق» زاد البخاري «ونهى عن الوشم» (م) عن ابن عباس عن رسول الله ﷺ قال: «العين حق ولو كان شيء سابق القدر سبقته العين وإذا استغسلتم فاغسلوا» وعن عبيد الله بن رفاعة الزرقي «أن أسماء بنت عميس كانت تقول يا رسول الله إن ولد جعفر تسرع إليهم العين أفأسترقي لهم؟ قال: نعم ولو كان شيء سابق القدر لسبقته العين» أخرجه الترمذي قوله العين حق أخذ بظاهر هذا الحديث جماهير العلماء وقالوا العين حق وأنكره طوائف من المبتدعة والدليل على فساد قولهم «أن كل معنى ليس مخالفاً في نفسه ولا يؤدي إلى قلب حقيقة ولا إفساد دليل فإنه من مجوزات العقول فإذا أخبر الشارع بوقوعه وجب اعتقاده ولا يجوز تكذيبه ومذهب أهل السنة أن العين إنما تفسد وتهلك عند مقابلة هذا الشخص الذي هو العائن لشخص آخر فتؤثر فيه بقدرة الله تعالى وفعله وقوله ولو كان شيء سابق القدر لسبقته العين، فيه إثبات القدر وأنه حق والمعنى أن الأشياء كلها بقدر الله ولا يقع شيء إلا على حسب ما قدر الله وسبق به علمه ولا يقع شرر العين وغيره من الخير والشر إلا بقدرة الله وفيه صحة إثبات العين وأنها قوية الضرر إذا وافقها القدر، والله أعلم.

الحسن: دواءُ إصابةِ العين أن يقرأ الإنسانُ هذه الآية. أخبرنا أبو علي حسّان بن سعيد المنيعي أنا أبو طاهر محمد بن محمد بن محمش الزيادي ثنا أبو بكر محمد بن الحسين القطّان أنا أحمد بن يوسف السلمي ثنا عبد الرزّاق أنا معمر عن همّام بن منبّه أنا أبو هريرة رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «العين حق» ونهى عن الوشم أخبرنا الإمام أبو علي الحسين بن محمد القاضي ثنا السيد أبو الحسن بن محمد بن الحسين بن داود العلوي، أنا أبو نضر بن محمد بن حمدويه بن سهل المروزي ثنا محمود بن آدم المروزي ثنا سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار عن عروة بن عامر عن عبيد بن رفاعة الزرقي أن أسماء بنت عميس قالت: يا رسول الله إن ابني جعفر تصيبهم العين أفأسترقي لهم؟ قال: «نعم فلو كان شيء يسبق القضاء لسبقته العين».

سورة الحاقة

مكية وهي اثنتان وخمسون آية ومائتان وست وخمسون كلمة وألف وأربع وثلاثون حرفاً

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الْحَاقَّةُ (1) مَا الْحَاقَّةُ (2) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ (3)

قوله عز وجل: ﴿الحاقة﴾ يعني القيامة سميت حاقة من الحق الثابت يعني أنها ثابتة الوقوع لا ريب فيها. وقيل لأن فيها تحقيق الأمور فتعرف على الحقيقة وفيها يحق الجزاء على الأعمال أي يجب. وقيل الحاقة النازلة التي حقت فلا كاذبة لها. وقيل الحاقة هي التي تحق على القوم أي تقع بهم، ﴿ما الحاقة﴾ استفهام ومعناه التفخيم لشأنها والتهويل لها والمعنى أي شيء هي الحاقة ﴿وما أدراك ما الحاقة﴾ أي إنك لا تعلمها إذ لم تعاينها ولم تر ما فيها من الأهوال على أنه من العظم والشدة أمر لا تبلغه دراية أحد ولا فكره وكيف قدرت حالها فهي أعظم من ذلك.

كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ (4) فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ (5) وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ (6) سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ (7) فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ (8) وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ (9) فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً (10)

﴿كذبت ثمود وعاد بالقارعة﴾ قال ابن عباس بالقيامة سميت قارعة لأنها تقرع قلوب العباد بالمخافة. وقيل كذبت بالعذاب أي الذي أوعدهم نبيهم حتى نزل بهم فقرع قلوبهم ﴿فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية﴾ أي طغيانهم

سُوْرَة الحَاقّة

مكيّة وهي اثنتان وخمسون آية.

﴿ الحاقّةُ ﴾، يعني القيامة سُمّيت حاقّة لأنها حقّت فلا كاذبة لها. وقيل: لأن فيها حواق الأمور وحقائقها، ولأن فيها يحقّ الجزاء على الأعمال، أي يجب، يقال: حقّ عليه الشيء إذا وجب يحقّ حقوقاً، قال الله تعالى: ﴿ ولكن حقّت كلمة العذاب على الكافرين ﴾ [الزّمر: ٧١] قال الكسائي: الحاقّة يوم الحق.

﴿ مَا الحاقّةُ ﴾، هذا استفهام معناه التفخيم لشأنها، كما يقال: زيدٌ مَا زيدٌ، على التعظيم لشأنه.

﴿ وما أدراك ما الحاقّة ﴾، أي أنك لا تعلمها إذ لم تعاينها ولم ترَ ما فيها من الأهوال.

﴿ كذّبتْ ثمودُ وعادٌ بالقارعة ﴾، قال ابن عباس وقتادة: بالقيامة سُمّيت قارعة لأنها تقرع قلوب العباد

وكفرهم. وقيل الطاغية الصيحة الشديدة المجاوزة الحد في القوة. وقيل الطاغية الفرقة التي عقروا الناقة فأهلك قوم ثمود بسببهم ﴿**وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر**﴾ أي شديدة الصوت في الهبوب لها صرصرة. وقيل هي الباردة من الصر كأنها التي كرر فيها البرد وكثر فهي تحرق بشدة بردها ﴿**عاتية**﴾ أي عتت على خزنتها فلم تطعهم ولم يكن لهم عليهم سبيل وجاوزت الحد والمقدار فلم يعرفوا مقدار ما خرج منها. وقيل عتت على عاد فلم يقدروا على دفعها عنهم بقوة ولا حيلة ﴿**سخرها عليهم**﴾ أي أرسلها وسلطها عليهم وفيه رد على من قال إن سبب ذلك كان باتصال الكواكب فنفى هذا المذهب بقوله سخرها عليهم وبين الله تعالى أن ذلك بقضائه وقدره وبمشيئته لا باتصال الكواكب، ﴿**سبع ليال وثمانية أيام**﴾ ذات برد ورياح شديدة. قال وهب هي الأيام التي سماها العرب العجوز لأنها أيام ذات برد ورياح شديدة وسميت عجوزاً لأنها تأتي في عجز الشتاء وقيل لأن عجوزاً من قوم عاد دخلت سربها فاتبعتها الريح حتى قتلتها ﴿**حسوماً**﴾ أي متتابعة دائمة ليس فيها فتور، وذلك أن الريح المهلكة تتابعت عليهم في هذه الأيام فلم يكن لها فتور ولا انقطاع حتى أهلكتهم، وقيل حسوماً شؤماً وقيل لهذه الأيام حسوماً لأنها تحسم الخير عن أهلها والحسم القطع. والمعنى أنها حسمتهم بعذاب الاستئصال فلم تبق منهم أحداً ﴿**فترى القوم فيها**﴾ أي في تلك الليالي والأيام ﴿**صرعى**﴾ أي هلكى جمع صريع قد صرعهم الموت ﴿**كأنهم أعجاز نخل خاوية**﴾ أي ساقطة وقيل خالية الأجواف شبههم بجذوع نخل ساقطة ليس لها رؤوس ﴿**فهل ترى لهم من باقية**﴾ أي من نفس باقية، قيل إنهم لما أصبحوا موتى في اليوم الثامن كما وصفهم الله تعالى بقوله ﴿**أعجاز نخل خاوية**﴾ حملتهم الريح فألقتهم في البحر فلم يبق منهم أحد.

بالمخافة. وقيل: كذّبت بالعذاب الذي أوعدهم نبيّهم حتى نزل بهم فقرع قلوبهم.

﴿ **فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية** ﴾، أي بطغيانهم وكفرهم. قيل: هي مصدر، وقيل: نعت، أي بأفعالهم الطاغية، وهذا معنى قول مجاهد، كما قال: ﴿ كذبت ثمود بطغواها ﴾ [الشمس: ١١] وقال قتادة: بالصيحة الطاغية، وهي التي جاوزت مقادير الصياح فأهلكتهم. وقيل: طغَت على الخزّان كما طغى الماء على قوم نوح.

﴿ **وأمّا عادٌ فأهلكوا بريح صرصر عَاتية** ﴾، عتت على خزائنها فلم تطعهم ولم يكن لهم عليها سبيل، وجاوزت المقدار فلم يعرفوا كم خرج منها.

﴿ **سخّرها عليهم** ﴾. أرسلها عليهم. وقال مقاتل: سلّطها عليهم. ﴿ **سبع ليالٍ وثمانية أيام** ﴾، قال وهب: هي الأيام التي تسمّيها العرب أيام العجوز ذات برد ورياح شديدة. قيل: سُمّيت عجوزاً لأنها عجز الشتاء. وقيل: سُمّيت بذلك لأن عجوزاً من قوم عاد دخلت سرباً فتبعتها الريح، فقتلتها اليوم الثامن من نزول العذاب وانقطع العذاب. ﴿ **حُسوماً** ﴾، قال مجاهد وقتادة: متتابعة ليس فيها فترة، فعلى هذا هو حسم الكيّ، وهو أن يتابع على موضع الداء بالمكوة حتى يبرأ، ثم قيل لكل شيء توبع: حاسم، وجمعه حسوم، مثل شاهد وشهود، وقال الكلبي ومقاتل: حسوماً دائمة. وقال النضر بن شميل: حسمتهم قطعتهم وأهلكتهم، والحسم: القطع والمنع ومنه حسم الداء. قال الزجّاج: أي تحسمهم حسوماً تفنيهم وتُذهِبهم. وقال عطية شؤماً كأنها حسمت الخير عن أهلها. ﴿ **فترى القوم فيها** ﴾، أي في تلك الليالي والأيام، ﴿ **صرعى** ﴾، هلكى جمع صريع، ﴿ **كأنهم أعجاز نخل خاوية** ﴾، ساقطة، وقيل: خالية الأجواف.

﴿ **فهل ترى لهم من باقية** ﴾، أي من نفس باقية يعني لم يبقَ منهم أحد.

﴿ **وجاء فرعون ومَن قبله** ﴾، قرأ أهل البصرة والكسائي بكسر القاف، وفتح الباء أي ومَن معه من جنوده

قوله تعالى: ﴿وجاء فرعون ومن قبله﴾ قرىء بكسر القاف وفتح الباء أي ومن معه من جنوده وأتباعه وقرىء بفتح القاف وسكون الباء أي ومن قبله من الأمم الكافرة ﴿المؤتفكات﴾ يعني قرى قوم لوط يريد أهل المؤتفكات، وقيل يريد الأمم الذين ائتفكوا بخطيئتهم وهو قوله ﴿بالخاطئة﴾ أي بالخطيئة والمعصية وهو الشرك ﴿فعصوا رسول ربهم﴾، قيل يعني موسى بن عمران وقيل لوطاً والأولى أن يقال المراد بالرسول كلاهما لتقدم ذكر الأمتين جميعاً ﴿فأخذهم أخذة رابية﴾ يعني نامية وقال ابن عباس شديدة وقيل زائدة على عذاب الأمم.

إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴿١٢﴾ فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾ وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴿١٧﴾

﴿إنا لما طغى الماء﴾ أي عتا وجاوز حده حتى علا على كل شيء وارتفع فوقه وذلك في زمن نوح عليه الصلاة والسلام وهو الطوفان ﴿حملناكم في الجارية﴾ يعني حملنا آباءكم وأنتم في أصلابهم فصح خطاب الحاضرين في الجارية أي السفينة التي تجري في الماء ﴿لنجعلها﴾ أي لنجعل تلك الفعلة التي فعلناها من إغراق قوم نوح ونجاة من حملنا معه، ﴿لكم تذكرة﴾ أي عبرة وموعظة ﴿وتعيها﴾ أي تحفظها ﴿أذن واعية﴾ أي حافظة لما جاء من عند الله. وقيل أذن سمعت وعقلت ما سمعت وقيل لتحفظها كل أذن فتكون عظة وعبرة لمن يأتي بعد والمراد صاحب الإذن والمعنى ليعتبر ويعمل بالموعظة.

قوله عز وجل: ﴿فإذا نفخ في الصور نفخة واحدة﴾ يعني النفخة الأولى ﴿وحملت الأرض والجبال﴾ أي رفعت من أماكنها ﴿فدكتا دكة واحدة﴾ أي كسرتا وفتتتا حتى صارتا هباء منبثاً والضمير عائد إلى الأرض والجبال فعبر عنهما بلفظ الاثنين ﴿فيومئذ وقعت الواقعة﴾ أي قامت القيامة ﴿وانشقت السماء فهي يومئذ واهية﴾ أي ضعيفة لتشققها ﴿والملك﴾ يعني الملائكة ﴿على أرجائها﴾ يعني نواحيها وأقطارها وهو الذي لم ينشق منها قال الضحاك تكون الملائكة على حافتها حتى يأمرهم الرب فينزلون فيحيطون بالأرض ومن عليها ﴿ويحمل عرش ربك فوقهم﴾ أي فوق

وأتباعه، وقرأ الآخرون بفتح القاف وسكون الباء، أي ومَن قبله من الأمم الكافرة، ﴿ والمؤتفكات ﴾، يعني أي قرى قوم لوط يريد أهل المؤتفكات. وقيل: يريد الأمم الذين ائتفكوا بخطيئتهم، ﴿ بالخاطئة ﴾، أي بالخطيئة والمعصية وهي الشرك.

﴿ فعصوا رسول ربّهم ﴾، يعني لوطاً وموسى، ﴿ فأخذهم أخذة رابية ﴾، نامية، قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: شديدة. وقيل: زائدة على عذاب الأمم.

﴿ إنّا لما طغى الماء ﴾، أي عتا وجاوز حدّه حتى علا على كل شيء وارتفع فوقه يعني زمن نوح عليه السلام. ﴿ حملناكم ﴾، أي حملنا آباءكم وأنتم في أصلابهم، ﴿ في الجارية ﴾، في السفينة التي تجري في الماء.

﴿ لنجعلها ﴾، أي لنجعل تلك الفعلة التي فعلنا من إغراق قوم نوح ونجاة مَن حملنا معه، ﴿ لكم تذكرة ﴾، عبرة وعظة ﴿ وتعيها ﴾، قرأ القوّاس عن ابن كثير وسليم عن حمزة باختلاس العين، وقرأ الآخرون بكسرها أي تحفظها، ﴿ أذن واعية ﴾، أي: حافظة لما جاء من عند الله. قال قتادة: أذن سمعت وعقلت ما سمعت. قال الفرّاء: لتحفظها كل أذن فتكون عبرة وموعظة لمَن يأتي بعد.

رؤوسهم يعني الحملة ﴿يومئذ﴾ أي يوم القيامة ﴿ثمانية﴾ يعني ثمانية أملاك، وجاء في الحديث أنهم اليوم أربعة فإذا كان يوم القيامة أيدهم الله بأربعة آخرين فكانوا ثمانية على صورة الأوعال بين أظلافهم إلى ركبهم كما بين سماء إلى سماء. الأوعال تيوس الجبل وروى السدي عن أبي مالك قال إن الصخرة التي تحت الأرض السابعة ومنتهى علم الخلائق على أرجائها يحملها أربعة من الملائكة لكل واحد منهم أربعة وجوه إنسان ووجه أسد ووجه ثور ووجه نسر فهم قيام عليها قد أحاطوا بالسموات والأرض ورؤوسهم تحت العرش، وعن عروة بن الزبير قال حملة العرش منهم من صورته على صورة الإنسان ومنهم من صورته على صورة النسر ومنهم من صورته على صورة الثور ومنهم من صورته على صورة الأسد. وعن ابن عباس قال صدق النبي ﷺ أمية بن أبي الصلت في شيء من الشعر فقال:

رجـل وثـور تحـت رجـل يمينـه والنسـر لـلأخـرى وليـث يـرصـد

عن جابر رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال «أذن لي أن أحدث عن ملك من ملائكة الله من حملة العرش إن ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام أخرجه أبو داود بإسناد صحيح غريب عن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه عم النبي ﷺ قال «كنت جالساً في البطحاء في عصابة ورسول الله ﷺ فيهم إذ مرت سحابة فنظروا إليها فقال رسول الله ﷺ هل تدرون ما اسم هذه قلنا نعم هذا السحاب قال والمزن قالوا والمزن قال رسول الله ﷺ والعنان قالوا والعنان ثم قال لهم رسول الله ﷺ هل تدرون كم بعد ما بين السماء والأرض؟ قالوا لا والله ما ندري قال: فإن بعد ما بينهما إما قال واحدة وإما قال اثنتان وإما ثلاث وسبعون سنة وبعد التي فوقها كذلك وكذلك حتى عدهن سبع سموات كذلك ثم فوق السماء السابعة بحراً أعلاه وأسفله كما بين سماء إلى سماء وفوق ذلك ثمانية أوعال بين أظلافهن وركبهن كما بين سماء إلى سماء ثم فوق ظهورهن العرش بين أسفله وأعلاه مثل ما بين السماء إلى السماء والله عز وجل فوق ذلك» أخرجه الترمذي وأبو داود زاد في رواية «وليس يخفى عليه من أعمال بني آدم شيء»، عن ابن مسعود قال ما بين السماء والأرض مسيرة خمسمائة عام وما بين كل سماء وسماء خمسمائة عام وفضاء كل سماء وأرض مسيرة خمسمائة

﴿ فإذا نفخ في الصور نفخة واحدة ﴾، وهي النفخة الأولى.

﴿ وحملت الأرض والجبال ﴾، رفعت أماكنها، ﴿ فدكّتا ﴾، كسرتا، ﴿ دكّة ﴾ كسرة، ﴿ واحدة ﴾، فصارتا هباءً منثوراً.

﴿ فيومئذ وقعتِ الواقعة ﴾، قامت القيامة.

﴿ وانشقّت السماء فهي يومئذ واهية ﴾، ضعيفة قال الفرّاء: وهيها تشقّقها.

﴿ والملك ﴾، يعني الملائكة، ﴿ على أرجائها ﴾، نواحيها وأقطارها ما لم ينشقّ منها واحدها رجا وتثنيته رجوان. قال الضحاك: تكون الملائكة على حافّاتها حتى يأمرهم الربّ فينزلون فيحيطون بالأرض ومَن عليها. ﴿ ويحمل عرش ربّك فوقهم ﴾، أي فوق رؤوسهم يعني الحَمَلَة، ﴿ يومئذ ﴾، يوم القيامة، ﴿ ثمانية ﴾، أي ثمانية أملاك، جاء في الحديث: «إنهم اليوم أربعة فإذا كان يوم القيامة أيّدهم الله بأربعة أخرى، فكانوا ثمانية على صورة الأوعال ما بين أظلافهم إلى ركبهم كما بين سماء إلى سماء»، وجاء في الحديث: «لكل ملك منهم وجه رجل ووجه أسد ووجه ثور ووجه نسر». أخبرنا أبو بكر بن الهيثم الترابي أنا أبو الفضل محمد بن الحسين الحدادي أنا محمد بن يحيىٰ الخالدي أنا إسحاق بن إبراهيم الحنظلي ثنا عبد الرزّاق ثنا يحيىٰ بن العلاء الراعي عن عمّه شعيب بن خالد ثنا سماك بن حرب عن عبد الله بن عمير عن العباس بن عبد المطّلب قال: كنّا جلوساً عند النبي ﷺ بالبطحاء فمرّت سحابة فقال النبي ﷺ: «أتدرون ما هذا»؟ قلنا: السحاب، قال: «والمزن»، قلنا: والمزن، قال:

عام وما بين السماء السابعة والكرسي مسيرة خمسمائة عام وما بين الكرسي والماء مسيرة خمسمائة عام والعرش على الماء والله على العرش لا يخفى عليه شيء من أعمالكم». أخرجه أبو سعيد الدارمي وابن خزيمة وغيرهما موقوفاً على ابن مسعود قال ابن خزيمة اختلاف خبر العباس وابن مسعود في قدر المسافة على اختلاف سير الدواب. وعن ابن عباس قال: «لحملة العرش قرون ما بين أخمص أحدهم إلى كعبه مسيرة خمسمائة عام ومن كعبه إلى ركبته مسيرة خمسمائة عام ومن ترقوته إلى موضع القرط مسيرة خمسمائة عام».

وعن عبد الله بن عمر قال «الذين يحملون العرش ما بين موق أحدهم إلى مؤخر عينيه خمسمائة عام» وعن شهر بن حوشب قال «حملة العرش ثمانية فأربعة منهم يقولون سبحانك اللهم وبحمدك لك الحمد على حلمك بعد علمك، وأربعة منهم يقولون سبحانك اللهم وبحمدك لك الحمد على عفوك بعد قدرتك» وروي عن ابن عباس في قوله يومئذ ثمانية قال ثمانية صفوف من الملائكة لا يعلم عدتهم إلا الله عز وجل:

﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾﴾

﴿يومئذ تعرضون﴾ أي على الله تعالى للحساب **﴿لا تخفى منكم خافية﴾** أي فعلة خافية. والمعنى أنه تعالى عالم بأحوالكم لا يخفى عليه شيء منها وأن عرضكم يوم القيامة عليه ففيه المبالغة والتهديد، وقيل معناه لا يخفى منكم يوم القيامة ما كان مخفياً في الدنيا فإنه يظهر أحوال الخلائق فالمحسنون يسرون بإحسانهم والمسيئون يحزنون بإساءتهم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «تعرض الناس يوم القيامة ثلاث عرضات فأما عرضتان فجدال ومعاذير وأما العرضة الثالثة فعند ذلك تطير الصحف في الأيدي فآخذ بيمينه وآخذ بشماله» أخرجه الترمذي وقال ولا يصح هذا الحديث من قبل أن الحسن لم يسمع من أبي هريرة وقد رواه بعضهم عن الحسن عن أبي موسى عن النبي ﷺ.

«والعنان»، فقلنا: والعنان، فسكتنا فقال: «هل تدرون كم بين السماء والأرض»؟ قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: «بينهما مسيرة خمسمائة سنة، ومن كل سماء إلى سماء مسيرة خمسمائة سنة، وكذلك غلظ كل سماء خمسمائة سنة، وفوق السماء السابعة بحر بين أعلاه وأسفله ما بين السماء والأرض، ثم فوق ذلك ثمانية أوعال بين أظلافهنّ وركبهنّ كما بين السماء والأرض، وفوق ذلك العرش بين أسفله وأعلاه كما بين السماء والأرض والله تعالى فوق ذلك، وليس يخفى عليه من أعمال بني آدم شيء». ويُروى هذا عن عبد الله بن عمير عن الأحنف بن قيس عن العباس. ورُوِيَ عن ابن عباس أنه قال: فوقهم يومئذ ثمانية أي ثمانية صفوف من الملائكة لا يعلم عدّتهم إلاّ الله.

﴿ يومئذ تعرَضون ﴾، على الله، **﴿ لا تخفى ﴾**، قرأ بالياء، وقرأ الآخرون بالتاء، **﴿ منكم خافية ﴾**، أي فِعْلَةٌ خافية. قال الكلبي: لا يخفى على الله منكم شيء. قال أبو موسى: يعرض الناس ثلاث عرضات، فأما عرضتان فجدال ومعاذير، وأما العرضة الثالثة فعندها تطاير الصحف فأخذ بيمينه وأخذ بشماله.

وذلك قوله عزّ وجل: **﴿ فأما مَن أُوتي كتابه بيمينه فيقول هاؤم اقرؤوا كتابيه ﴾**، الهاء في **﴿ كتابيه ﴾** هاء الوقف.

﴿ إني ظننت ﴾ علمت وأيقنت، **﴿ أني مُلاقٍ حسابيه ﴾**، أي أُحاسَب في الآخرة.

قوله تعالى: ﴿فأما من أوتي﴾ أي أعطي ﴿كتابه بيمينه فيقول هاؤم﴾ أي تعالوا ﴿اقرؤوا كتابيه﴾ والمعنى أنه لما بلغ الغاية في السرور وعلم أنه من الناجين بإعطاء كتابه بيمينه أحب أن يظهر ذلك لغيره حتى يفرحوا له، وقيل يقول ذلك لأهله وأقربائه ﴿إني ظننت﴾ أي عملت وأيقنت وإنما أجرى الظن مجرى العلم لأن الظن في الغالب يقوم مقام العلم في العادات والأحكام ﴿أني ملاق حسابيه﴾ أي في الآخرة والمعنى أني كنت في الدنيا أستيقن أني أحاسب في الآخرة ﴿فهو في عيشة راضية﴾ أي في حالة من العيش مرضية وذلك بأنه لقي الثواب وأمن من العقاب ﴿في جنة عالية﴾ رفيعة ﴿قطوفها دانية﴾ أي ثمارها قريبة لمن يتناولها ينالها قائماً وقاعداً ومضطجعاً يقطفونها كيف شاؤوا ﴿كلوا﴾ أي يقال لهم كلوا ﴿واشربوا هنيئاً بما أسلفتم﴾ أي بما قدمتم لآخرتكم من الأعمال الصالحة ﴿في الأيام الخالية﴾ أي الماضية يريد أيام الدنيا.

وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّى سُلْطَٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾

﴿وأما من أوتي كتابه بشماله﴾، قيل تلوى يده اليسرى خلف ظهره ثم يعطى كتابه بها. وقيل تنزع يده اليسرى من صدره إلى خلف ظهره ثم يعطى كتابه بها ﴿فيقول يا ليتني لم أوت كتابيه﴾ وذلك لما نظر في كتابه ورأى قبائح أعماله مثبتة عليه تمنى أنه لم يؤت كتابه لما حصل له من الخجل والافتضاح ﴿ولم أدر ما حسابيه﴾ أي لم أدر أي شيء حسابي لأنه لا طائل ولا حاصل له وإنما كله عليه لا له ﴿يا ليتها كانت القاضية﴾ تمنى أنه لم يبعث للحساب والمعنى يا ليت الموتة التي متها في الدنيا كانت القاضية عن كل ما بعدها والقاطعة للحياة أي ما أحيا بعدها قال قتادة تمنى الموت ولم يكن شيء عنده أكره منه إليه أي من الموت في الدنيا لأنه رأى تلك الحالة أشنع وأمر مما ذاقه من الموت ﴿ما أغنى عني ماليه﴾ أي لم يدفع عني يساري ومالي من العذاب شيئاً ﴿هلك عني سلطانيه﴾ أي ضلت عني حجتي التي كنت أحتج بها في الدنيا وقيل ضلت عنه حجته حين شهدت عليه الجوارح بالشرك وقيل معناه زال عني ملكي وقوتى وتسلطي على الناس وبقيت ذليلاً حقيراً فقيراً ﴿خذوه﴾ أي يقول الله تعالى لخزنة جهنم خذوه ﴿فغلوه﴾ أي

﴿ فهو في عيشة ﴾، يعني حالة من العيش، ﴿ راضية ﴾، مرضية كقوله: ﴿ ماء دافق ﴾ [الطارق: ٦] يريد برضاها بأن لقي الثواب وأَمِنَ العقاب.

﴿ في جنّة عالية ﴾، رفيعة.

﴿ قطوفها دانية ﴾، ثمارها قريبة لِمَن يتناولها ينالها قائماً وقاعداً ومضطجعاً يقطعون كيف شاؤوا.

ويقال لهم: ﴿ كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم ﴾، قدّمتم لآخرتكم من الأعمال الصالحة، ﴿ في الأيام الخالية ﴾، الماضية يريد أيام الدنيا.

﴿ وأما مَن أُوتي كتابه بشماله ﴾، قال ابن السائب تُلْوَى يده اليسرى خلف ظهره ثم يُعطى كتابه. وقيل: تُنزَع يده اليسرى من صدره إلى خلف ظهره ثم يُعطى كتابه. ﴿ فيقول يا ليتني لم أُوْتَ كتابيه ﴾، يتمنى أنه لم يُؤْتَ كتابه لما يرى فيه من قبائح أعماله.

﴿ ولم أدرِ ما حسابيه * يا ليتها كانت القاضية ﴾، يقول يا ليت الموتة التي متّها في الدنيا كانت القاضية من كل ما بعدها، والقاطعة للحياة، فلم أحيَ بعدها. والقاضية موت لا حياة بعدها يتمنى أنه لم يُبعَث للحساب. قال

أجمعوا يديه إلى عنقه ﴿**ثم الجحيم صلوه**﴾ أي أدخلوه معظم النار لأنه كان يتعاظم في الدنيا ﴿**ثم في سلسلة**﴾ وهي حلق منتظمة كل حلقة منها في حلقة ﴿**ذرعها**﴾ أي مقدارها والذرع التقدير بالذراع من اليد أو غيرها ﴿**سبعون ذراعاً**﴾ قال ابن عباس بذرع الملك. وقال نوفر البكالي سبعون ذراعاً كل ذراع سبعون باعاً كل باع أبعد مما بينك وبين مكة وكان في رحبة الكوفة. وقال سفيان كل ذراع سبعون ذراعاً، وقال الحسن الله أعلم أي ذراع هو عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال قال رسول الله ﷺ «لو أن رضاضة مثل هذه وأشار إلى مثل الجمجمة أرسلت من السماء إلى الأرض وهي مسيرة خمسمائة سنة لبلغت الأرض قبل الليل ولو أنها أرسلت في رأس السلسلة لسارت أربعين خريفاً الليل والنهار قبل أن تبلغ قعرها أو أصلها» أخرجه الترمذي وقال حديث حسن.

الرضاض الحصباء الصغار، وقوله مثل هذه وأشار إلى مثل الجمجمة.

الجمجمة قدح من خشب وجمعه جماجم والجمجمة الرأس وهو أشرف الأعضاء وقال وهب لو جمع حديد الدنيا ما وزن حلقة منها وقوله تعالى: ﴿**فاسلكوه**﴾ أي أدخلوه فيها قال ابن عباس تدخل في دبره وتخرج من منخره. وقيل تدخل في فيه وتخرج من دبره ﴿**إنه كان لا يؤمن بالله العظيم**﴾ أي لا يصدق بوحدانية الله وعظمته، ﴿**ولا يحض على طعام المسكين**﴾ أي ولا يحث نفسه على إطعام المسكين ولا يأمر أهله بذلك وفيه دليل على تعظيم الجرم في حرمان المساكين لأن الله تعالى عطفه على الكفر وجعله قرينه. قال الحسن في هذه الآية أدركت أقواماً يعزمون على أهليهم أن لا يردوا سائلاً وعن بعضهم أنه كان يأمر أهله بكثير المرقة لأجل المساكين ويقول خلعنا نصف السلسلة بالإيمان أفلا نخلع النصف الثاني بالإطعام.

قتادة: يتمنى الموت وإن لم يكن عنده في الدنيا شيء أكره من الموت.

﴿ **ما أغنى عني ماليه** ﴾، لم يدفع عنّي من عذاب الله شيئاً.

﴿ **هلك عنّي سلطانيه** ﴾، ضلّت عنّي حجّتي، عن أكثر المفسّرين، وقال ابن زيد: زال عنّي مُلكي وقوّتي. قال مقاتل: يعني حين شهدت عليه الجوارح بالشرك يقول الله لخَزَنَة جهنم:

﴿ **خذوه فغلّوه** ﴾، اجمعوا يده إلى عنقه.

﴿ **ثم الجحيم صلوه** ﴾، أي أدخلوه الجحيم.

﴿ **ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً فاسلكوه** ﴾، فأدخلوه فيها. قال ابن عباس: سبعون ذراعاً بذراع الملك، فيدخل في دبره ويخرج من مِنخره. وقيل: يدخل في فِيْه ويخرج من دبره. وقال نوف البكالي: سبعون ذراعاً كل ذراع سبعون باعاً كل باع أبعد مما بينك وبين مكة، وكان في رحبة الكوفة. وقال سفيان: كل ذراع سبعون ذراعاً. وقال الحسن: الله أعلم أيّ ذراع هو. أخبرنا أبو بكر محمد بن عبد الله بن أبي توبة أنا أبو طاهر محمد بن أحمد بن الحارث أنا أبو الحسن محمد بن يعقوب الكسائي أنا عبد الله بن محمود ثنا أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الله الخلال ثنا عبد الله بن المبارك عن سعيد بن يزيد عن أبي السمح عن عيسى بن هلال الصدفي عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله ﷺ: «لو أن رضاضة مثل هذه، وأشار إلى مثل الجمجمة أُرسلت من السماء إلى الأرض وهي مسيرة خمسمائة سنة، لبلغت الأرض قبل الليل، ولو أنها أُرسلت من رأس السلسلة التي ذكرها الله في القرآن لسارت أربعين خريفاً الليل والنهار. قبل أن تبلغ أصلها». وعن كعب قال: لو جمع حديد الدنيا ما وزن حلقة منها.

﴿فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ ﴿٣٧﴾ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا
لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ
مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾﴾

﴿فليس له اليوم هاهنا حميم﴾ أي ليس له في الآخرة قريب ينفعه أو يشفع له **﴿ولا طعام إلا من غسلين﴾** يعني صديد أهل النار مأخوذ من الغسل كأنه غسالة جروحهم وقروحهم وقيل هو شجر يأكله أهل النار **﴿لا يأكله إلا الخاطئون﴾** أي الكافرون.

قوله عز وجل: **﴿فلا أقسم﴾** قيل إن لا صلة والمعنى أقسم. وقيل لا رد لكلام المشركين كأنه قال ليس الأمر كما يقول المشركون ثم قال تعالى أقسم وقيل لا هنا نافية للقسم على معنى أنه لا يحتاج إليه لوضوح الحق فيه كأنه قال لا أقسم على أن القرآن قول رسول كريم فكأنه لوضوحه استغنى عن القسم.

وقوله **﴿بما تبصرون وما لا تبصرون﴾** يعني بما ترون وتشاهدون وبما لا ترون وما لا تشاهدون أقسم بالأشياء كلها فيدخل فيه جميع المكونات والموجودات، وقيل أقسم بالدنيا والآخرة. وقيل بما تبصرون يعني على ظهر الأرض وما لا تبصرون أي ما في بطنها. وقيل بما تبصرون يعني الأجسام وما لا تبصرون يعني الأرواح. وقيل بما تبصرون يعني الإنس وما لا تبصرون يعني الملائكة والجن. وقيل بما تبصرون من النعم الظاهرة وما لا تبصرون من النعم الباطنة. وقيل بما تبصرون هو ما أظهره الله من مكنون غيبه لملائكته واللوح والقلم وجميع خلقه وما لا تبصرون هو ما استأثر الله بنعمه فلم يطلع عليه أحداً من خلقه، ثم ذكر المقسم عليه فقال تعالى **﴿إنه﴾** يعني للقرآن **﴿لقول رسول كريم﴾** يعني تلاوة رسول كريم وهو محمد ﷺ وقيل: الرسول هو جبريل عليه السلام فعلى هذا يكون المعنى إنه لرسالة رسول كريم والقول الأول أصح لأنهم لم يصفوا جبريل بالشعر والكهانة وإنما وصفوا بهما محمداً ﷺ.

﴿ إنه كان لا يؤمن بالله العظيم * ولا يحضّ على طعام المسكين ﴾، لا يطعم المسكين في الدينا ولا يأمر أهله بذلك.

﴿ فليس له اليوم ههنا حميم ﴾، قريب ينفعه ويشفع له.

﴿ ولا طعام إلّا من غسلين ﴾، وهو صديد أهل النار مأخوذ من الغسل كأنه غُسالة جروحهم وقروحهم. قال الضحّاك والربيع: هو شجر يأكله أهل النار.

﴿ لا يأكله إلّا الخاطئون ﴾، أي الكافرون.

﴿ فلا أُقسم ﴾، لا ردّ لكلام المشركين كأنه قال: ليس كما يقول المشركون أُقسم، **﴿ بما تبصرون * وما لا تبصرون ﴾**، أي بما ترون وبما لا ترون. قال قتادة: أُقسم بالأشياء كلها فيدخل فيه جميع المكوّنات والموجودات. وقال: أُقسم بالدنيا والآخرة. وقيل: ما تبصرون ما على وجه الأرض وما لا تبصرون ما في بطنها. وقيل: ما تبصرون من الأجسام وما لا تبصرون من الأرواح. وقيل: ماتبصرون: الإنس وما لا تبصرون: الملائكة والجنّ. وقيل: النِّعَم الظاهرة والباطنة. وقيل: ما تبصرون ما أظهر الله للملائكة واللوح والقلم، وما لا تبصرون ما استأثر بعلمه فلم يطلع عليه أحداً.

﴿ إنه ﴾ يعني القرآن، **﴿ لقول رسول كريم ﴾**، أي تلاوة رسول كريم يعني محمداً ﷺ.

﴿ وما هو بقول شاعر قليلاً ما تؤمنون * ولا بقول كاهن قليلاً ما تذكرون ﴾، قرأ ابن كثير وابن عامر ويعقوب

فإن قلت قد توجه هنا سؤال وهو أن جمهور الأمة وهم أهل السنة مجمعون على أن القرآن كلام الله فكيف يصح إضافته إلى الرسول.

قلت أما إضافته إلى الله تعالى فلأنه هو المتكلم به وأما إضافته إلى الرسول فلأنه هو المبلغ عن الله تعالى ما أوحى إليه ولهذا أكده بقوله ﴿**تنزيل من رب العالمين**﴾ ليزول هذا الإشكال. قال ابن قتيبة لم يرد أنه قول الرسول وإنما أراد أنه قول الرسول المبلغ عن الله تعالى. وفي الرسول ما يدل على ذلك فاكتفى به عن أن يقول عن الله تعالى وقوله تعالى: ﴿**وما هو بقول شاعر**﴾ يعني أن هذا القرآن ليس بقول رجل شاعر ولا هو من ضروب الشعر ولا تركيبه ﴿**قليلاً ما تؤمنون**﴾ أراد بالقليل عدم إيمانهم أصلاً. والمعنى أنكم لا تصدقون بأن القرآن من عند الله تعالى: ﴿**ولا بقول كاهن**﴾ أي وليس هو بقول رجل كاهن ولا هو من جنس الكهانة ﴿**قليلاً ما تذكرون**﴾ يعني لا تتذكرون البتة ﴿**تنزيل**﴾ أي هو تنزيل يعني القرآن، ﴿**من رب العالمين**﴾ وذلك أنه لما قال إنه لقول رسول كريم أتبعه بقوله تنزيل من رب العالمين ليزول هذا الإشكال.

قوله تعالى: ﴿**ولو تقول علينا**﴾ أي اختلق علينا محمد ﴿**بعض الأقاويل**﴾ يعني أتى بشيء من عند نفسه لم نقله نحن ولم نوجه إليه ﴿**لأخذنا منه باليمين**﴾ أي لأخذناه بالقوة والقدرة وانتقمنا منه باليمين أي بالحق. قال ابن عباس لأخذناه بالقوة والقدرة قال الشماخ يمدح عرابة ملك اليمن:

إذا مـــا رايـــة رفعـــت لمجـــد   تلقـــاهـــا عـــرابـــة بـــاليميـــن

أي بالقوة فعبر عن القوة باليمين لأن قوة كل شيء في ميامنه. والمعنى لأخذنا منه اليمين أي سلبناه القوة فعلى هذا المعنى الباء زائدة. وقيل معنى الآية ذللناه وأهناه كفعل السلطان بمن يريد أن يهينه، يقول لبعض أعوانه خذ بيده فأقمه. وإنما أخص اليمين بالذكر لأنه أشرف العضوين.

﴿ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَـٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٥١﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٥٢﴾﴾

﴿**ثم لقطعنا منه الوتين**﴾ قال ابن عباس يعني نياط القلب، وقيل هو حبل الظهر. وقيل هو عرق يجري في الظهر

(يؤمنون ويذكرون) بالياء فيهما، وقرأ الآخرون بالتاء، وأراد بالقليل نفي إيمانهم أصلاً كقولك لمَن لا يزول: قلّما تأتينا وأنت تريد لا تأتينا أصلاً.

﴿ **تنزيلٌ من ربِّ العالمين * ولو تقوّل** ﴾، تحرّضَ واختلق، ﴿ **علينا** ﴾، محمد، ﴿ **بعض الأقاويل** ﴾، وأتى بشيء من عند نفسه.

﴿ **لأخذنا منه باليمين** ﴾، قيل: (من) صلة، مجازه: لأخذناه وانتقمنا منه باليمين أي بالحق، كقوله: ﴿ كنتم تأتوننا عن اليمين ﴾ [الصّافّات: ٢٨]، أي: من قبل الحق. وقال ابن عباس: لأخذناه بالقوة والقدرة. قال الشماخ يمدح عرابة ملك اليمن:

إذا مـا رايـة رفعت لمجـد   تلقـاهـا عـرابـة بـاليـمن

أي بالقوة عبّر عن القوة باليمن لأن قوة كل شيء في ميامنه. وقيل: معناه لأخذنا بيده اليمنى، وهو مثلُ معناه: لأذللناه، وأهنّاه كالسلطان إذا أراد الاستخفاف ببعض مَن بين يديه، يقول لبعض أعوانه: خذ بيده فأقمه.

﴿ **ثم لقطعنا منه الوتين** ﴾، قال ابن عباس: أي نِياط القلب، وهو قول أكثر المفسّرين. وقال مجاهد: الحبل

حتى يتصل بالقلب فإذا انقطع مات صاحبه. وقيل هو عرق يتصل من القلب بالرأس، قال ابن قتيبة لم يرد أنا نقطعه بعينه بل المراد منه أنه لو كذب علينا لأمتناه فكان كمن قطع وتينه والمعنى أنه لو كذب علينا وتقول علينا قولاً لم نقله لمنعناه من ذلك إما بواسطة إقامة الحجة عليه بأن نقيض له من يعارضه ويظهر للناس كذبه فيكون ذلك إبطالاً لدعواه، وإما أن نسلب عنه قوة التكلم بذلك القول الكذب حتى لا يشتبه الصادق بالكاذب، وإما أن نميته، ﴿**فما منكم من أحد عنه حاجزين**﴾ أي مانعين يحجزوننا عن عقوبته والمعنى أن محمداً لا يتكلم الكذب علينا لأجلكم مع علمه أنه لو تكلمه لعاقبناه ولا يقدر أحد على دفع عقوبتنا عنه وإنما قال حاجزين بلفظ الجمع وهو وصف أحد رداً على معناه ﴿**وإنه**﴾ يعني القرآن وذلك أنه لما وصفه بأنه تنزيل من رب العالمين بواسطة جبريل إلى النبي ﷺ بين ما هو فقال تعالى: ﴿**لتذكرة**﴾ أي لعظة ﴿**للمتقين**﴾ أي لمن اتقى عقاب الله ﴿**وإنا لنعلم أن منكم مكذبين**﴾ فيه وعيد لمن كذب بالقرآن ﴿**وإنه**﴾ يعني القرآن ﴿**لحسرة على الكافرين**﴾ يعني يوم القيامة والمعنى أنهم يندمون على ترك الإيمان به لما يرون من ثواب من آمن به ﴿**وإنه لحق اليقين**﴾ معناه أنه حق معين لا بطلان فيه ويقين لا شك ولا ريب فيه ﴿**فسبح باسم ربك العظيم**﴾ أي نزه ربك العظيم واشكره على أن جعلك أهلاً لإيحائه إليك والله سبحانه وتعالى أعلم.

الذي في الظهر. وقيل هو عرق يجري في الظهر حتى يتصل بالقلب، فإذا انقطع مات صاحبه.

﴿ **فما منكم من أحد عنه حاجزين** ﴾، مانعين يحجزوننا عن عقوبته، والمعنى: أن محمداً لا يتكلّف الكذب لأجلكم مع علمه بأنه لو تكلّمه لعاقبناه ولا يقدر أحد على دفع عقوبتنا عنه، وإنما قال: ﴿ **حاجزين** ﴾ بالجمع وهو فعل واحد ردّاً على معناه كقوله: ﴿ لا نفرّق بين أحد من رسله ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

﴿ **وإنه** ﴾، يعني القرآن، ﴿ **لتذكرة للمتّقين** ﴾، أي لعظة لمَن اتّقى عقاب الله.

﴿ **وإنّا لنعلم أنّ منكم مكذّبين * وإنه لحسرة على الكافرين** ﴾، يوم القيامة يندمون على ترك الإيمان به.

﴿ **وإنه لحقُّ اليقين** ﴾، أضافه إلى نفسه لاختلاف اللفظين.

﴿ **فسبّحْ باسمِ ربِّك العظيم** ﴾.

سورة سأل سائل

وتسمى المعارج مكية وهي أربع وأربعون آية ومائتان وأربع وعشرون كلمة وتسعة وعشرون حرفاً.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴿١﴾

قوله عز وجل: ﴿**سأل سائل**﴾ قرىء بغير همزة وفيه وجهان الأول أنه لغة في السؤال والثاني أنه من السيل. ومعناه اندفع عليهم واد بعذاب وقيل سال واد من أودية جهنم. وقرىء سأل سائل بالهمز من السؤال ﴿**بعذاب**﴾ قيل الباء بمعنى عن أي عذاب ﴿**واقع**﴾ أي نازل وكائن وعلى من ينزل ولمن ينزل ولمن ذلك العذاب فقال الله تعالى مجيباً لذلك السؤال.

لِّلْكَـٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ ﴿٢﴾ مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ ﴿٣﴾ تَعْرُجُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾

﴿**للكافرين**﴾ وذلك أن أهل مكة لما خوفهم النبي ﷺ بالعذاب قال بعضهم لبعض: من أهل هذا العذاب ولمن هو سلوا عنه محمداً فسألوه فأنزل الله تعالى سأل سائل بعذاب واقع للكافرين أي هو للكافرين. والباء صلة ومعنى الآية دعا داع وطلب طالب عذاباً واقعاً للكافرين. وهذا السائل هو النضر بن الحارث حيث دعا على نفسه وسأل العذاب فقال «اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك» الآية فنزل به ما سأل فقتل يوم بدر صبراً وهذا قول ابن عباس،

سُوْرَة المَعارِج

مكيّة وهي أربع وأربعون آية.

﴿ **سأل سائل** ﴾، قرأ أهل المدينة والشام ﴿ **سأل** ﴾ بغير همز وقرأ الآخرون بالهمز، فمَن همز فهو من السؤال، ومَن قرأ بغير همز قيل: هو لغة في السؤال، يقال: سال يسال مثل خاف يخاف، يعني سال يسال خفف الهمزة وجعلها ألفاً. وقيل: هو من السيل. وسال وادٍ من أودية جهنم، يُروَى ذلك عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، والأول أصح. واختلفوا في الباء في قوله: ﴿ **بعذاب** ﴾، قيل: هي بمعنى (عن) كقوله: ﴿ فاسْئلْ به خبيراً ﴾ [الفرقان: ٥٩] أي عنه خبير، ومعنى الآية سأل سائل عن عذاب، ﴿ **واقع** ﴾، نازل كائن على مَن ينزل ولمَن ذلك العذاب.

فقال الله مبيّناً مُجيباً لذلك السائل: ﴿ **للكافرين** ﴾، وذلك أن أهل مكة لمّا خوّفهم النبي ﷺ بالعذاب قال بعضهم لبعض: مَن أهل هذا العذاب؟ ولمَن هو؟ سلوا عنه محمداً فسألوه فأنزل الله: ﴿ **سأل سائل بعذاب واقع**

﴿**ليس له دافع**﴾ أي أن العذاب واقع بهم لا محالة سواء طلبوه أو لم يطلبوه إما في الدنيا بالقتل وإما في الآخرة، لأن العذاب واقع بهم في الآخرة لا يدفعه دافع ﴿**من الله**﴾ أي بعذاب من الله، والمعنى ليس لذلك العذاب الصادر من الله للكافرين دافع يدفعه عنهم ﴿**ذي المعارج**﴾ قال ابن عباس ذي السموات سماها معارج لأن الملائكة تعرج فيها. وقيل ذي الدرجات وهي المصاعد التي تعرج الملائكة فيها. وقيل ذي الفواضل والنعم وذلك لأن أفضاله وأنعامه مراتب وهي تصل إلى الخلق على مراتب مختلفة، ﴿**تعرج الملائكة والروح**﴾ يعني جبريل عليه الصلاة والسلام وإنما أفرده بالذكر وإن كان من جملة الملائكة لشرفه وفضل منزلته. وقيل إن الله تعالى إذا ذكر الملائكة في معرض التخويف والتهويل أفرد الروح بالذكر وهذا يقتضي أن الروح أعظم الملائكة ﴿**إليه**﴾ أي إلى الله عز وجل ﴿**في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة**﴾ أي من سني الدنيا. والمعنى أنه لو صعد غير الملك من بني آدم من منتهى أمر الله تعالى من أسفل الأرض السابعة إلى منتهى أمر الله تعالى من فوق السماء السابعة لما صعد في أقل من خمسين ألف سنة والملك يقطع ذلك كله في ساعة واحدة وأقل من ذلك وذكر أن مقدار ما بين الأرض السابعة السفلى إلى منتهى العرش مسافة خمسين ألف سنة. وقيل إن ذلك اليوم هو يوم القيامة قال الحسن هو يوم القيامة وأراد أن موقفهم للحساب حتى يفصل بين الناس في مقدار خمسين ألف سنة من سني الدنيا وليس يعني أن مقدار طول ذلك اليوم خمسون ألف سنة دون غيره من الأيام لأن يوم القيامة له أول وليس له آخر لأنه يوم ممدود لا آخر له. ولو كان له آخر لكان منقطعاً وهذا الطول في حق الكفار دون المؤمنين. قال ابن عباس يوم القيامة يكون على الكافرين مقدار خمسين ألف سنة. وروى البغوي بسنده عن أبي سعيد الخدري قال «قيل لرسول الله ﷺ في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة فما أطول هذا اليوم فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده إنه ليخفف على المؤمن حتى يكون عليه أخف من صلاة مكتوبة يصليها في

للكافرين ﴾ أي هو للكافرين، هذا قول الحسن وقتادة. وقيل: التاء صلة ومعنى الآية: دعا داعٍ وسأل سائل عذاباً واقعاً للكافرين أي على الكافرين، اللام بمعنى على، وهو النضر بن الحارث حيث دعا على نفسه وسأل العذاب، فقال: اللّهمَّ إن كان هذا هو الحق من عندك، الآية، فنزل به ما سأل يوم بدر فقتل صبراً. وهذا قول ابن عباس ومجاهد. ﴿ **ليس له دافع** ﴾.

﴿ **من الله** ﴾، أي بعذاب من الله، ﴿ **ذي المعارج** ﴾، قال ابن عباس: أي ذي السمٰوات، سمّاها معارج لأن الملائكة تعرج فيها. وقال سعيد بن جبير: ذي الدرجات. وقال قتادة: ذي الفواضل والنِّعَم، ومعارج الملائكة.

﴿ **تعرج الملائكة** ﴾، قرأ الكسائي (يعرج) بالياء، وهي قراءة ابن مسعود، وقرأ الآخرون ﴿ **تعرج** ﴾ بالتاء، ﴿ **والروح** ﴾، يعني جبريل عليه السلام، ﴿ **إليه** ﴾ أي إلى الله عزّ وجلّ، ﴿ **في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة** ﴾، من سني الدنيا لو صعد غير الملك من بني آدم من منتهى أمر الله تعالى من أسفل الأرض السابعة إلى منتهى أمر الله تعالى من فوق السماء السابعة، لما صعد في أقل من خمسين ألف سنة والملك يقطع ذلك كله في ساعة واحدة. وروى ليث عن مجاهد أن مقدار هذا خمسين ألف سنة. وقال محمد بن إسحاق: لو سار بنو آدم من الدنيا إلى موضع العرش ساروا خمسين ألف سنة. وقال عكرمة وقتادة: هو يوم القيامة. وقال الحسن أيضاً: هو يوم القيامة. وأراد أن موقفهم للحساب حتى يفصل بين الناس خمسون ألف سنة من سني الدنيا، ليس يعني به أن مقدار طوله هذا دون غيره لأن يوم القيامة له أول وليس له آخر لأنه يوم ممدود، ولو كان له آخر لكان منقطعاً. وروى ابن أبي طلحة عن ابن عباس قال: هو يوم القيامة يكون على الكافرين مقدار خمسين ألف سنة، أخبرنا أبو الفرج المظفر بن إسماعيل التميمي أنا أبو القاسم حمزة بن يوسف السهمي أنا أبو أحمد عبد الله بن عدي الحافظ ثنا عبد الله بن سعيد ثنا أسد بن موسى ثنا ابن لهيعة عن دراج أبي السمح عن أبي الهيثم عن أبي سعيد الخدري قال:

الدنيا» وقال ابن عباس معناه لو ولي محاسبة العباد في ذلك اليوم غير الله لم يفرغ منه في خمسين ألف سنة. وقال عطاء ويفرغ الله تعالى منها في مقدار نصف يوم من أيام الدنيا. وقال الكلبي يقول الله تعالى لو وليت حساب ذلك اليوم الملائكة والجن والإنس وطوقتهم محاسبتهم لم يفرغوا منه في خمسين ألف سنة وأنا أفرغ منه في ساعة من نهار. وقال يمان هو يوم القيامة فيه خمسون موطناً كل موطن ألف سنة فعلى هذا يكون المعنى ليس له دافع من الله في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة. وقيل معناه سأل سائل بعذاب واقع في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة وفيه تقديم وتأخير.

فَٱصۡبِرۡ صَبۡرٗا جَمِيلًا ۝٥ إِنَّهُمۡ يَرَوۡنَهُۥ بَعِيدٗا ۝٦ وَنَرَىٰهُ قَرِيبٗا ۝٧ يَوۡمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلۡمُهۡلِ ۝٨ وَتَكُونُ ٱلۡجِبَالُ كَٱلۡعِهۡنِ ۝٩ وَلَا يَسۡـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمٗا ۝١٠ يُبَصَّرُونَهُمۡۚ يَوَدُّ ٱلۡمُجۡرِمُ لَوۡ يَفۡتَدِي مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِئِذِۭ بِبَنِيهِ ۝١١ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ۝١٢ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِي تُـٔۡوِيهِ ۝١٣ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا ثُمَّ يُنجِيهِ ۝١٤

﴿فاصبر﴾ أي يا محمد على تكذيبهم إياك ﴿صبراً جميلاً﴾ أي لا جزع فيه وهذا قبل أن يؤمر بالقتال ثم نسخ بآية السيف، ﴿إنهم يرونه﴾ أي العذاب ﴿بعيداً﴾ أي غير كائن ﴿ونراه قريباً﴾ أي كائناً لا محالة لأن كل ما هو آت قريب، وقيل الضمير في يرونه بعيداً يعود إلى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة والمعنى أنهم يستبعدونه على جهة الانكسار والإحالة ونحن نراه قريباً في قدرتنا غير بعيد علينا فلا يتعذر علينا إمكانه ﴿يوم تكون السماء كالمهل﴾ أي كعكر الزيت وقال الحسن كالفضة المذابة ﴿وتكون الجبال كالعهن﴾ أي الصوف المصبوغ. وإنما شبه الجبال بالمصبوغ من الصوف لأنها ذات ألوان أحمر وأبيض وغرابيب سود ونحو ذلك فإذا بست الجبال وسيرت أشبهت العهن المنفوش إذا طيرته الريح. وقيل العهن الصوف الأحمر وهو أضعف الصوف وأول ما تتغير الجبال تصير رملاً مهيلاً ثم عهناً منفوشاً

قيل لرسول الله ﷺ في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة: فما أطول هذا اليوم؟ فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده إنه ليخفّف على المؤمن حتى يكون أخفّ من صلاة مكتوبة يصلّيها في الدنيا». وقيل: معناه لو وُلِّي محاسبة العباد في ذلك اليوم غير الله لم يفرغ منه في خمسين ألف سنة. وهذا معنى قول عطاء عن ابن عباس ومقاتل. وقال عطاء ويفرغ الله منه في مقدار نصف يوم من أيام الدنيا. وروى محمد بن الفضل عن الكلبي قال: يقول لو ولّيتُ حسابَ ذلك اليوم الملائكةَ والجنَّ والإنسَ وطوّقتُهم محاسبتهم لم يفرغوا منه في خمسين ألف سنة، وأنا أفرغ منها في ساعة من النهار. وقال يمان: هو يوم القيامة فيه خمسون موطناً كل موطن ألف سنة. وفيه تقديم وتأخير كأنه قال: ليس له دافع من الله ذي المعارج في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة تعرج الملائكة والروح إليه.

﴿ فاصبرْ صبراً جميلاً ﴾، يا محمد على تكذيبهم، وهذا قبل أن يؤمر بالقتال.

﴿ إنهم يرونه بعيداً ﴾، يعني العذاب، ﴿ ونراه قريباً ﴾، لأن ما هو آت قريب وهو يوم القيامة.

﴿ يوم تكون السماء كالمهل ﴾، كعكر الزيت. وقال الحسن: كالفضة إذا أُذيبت.

﴿ وتكون الجبال كالعهن ﴾، كالصوف المصبوغ. ولا يقال: عهن إلّا للمصبوغ. وقال مقاتل: كالصوف المنفوش. وقال الحسن: كالصوف الأحمر وهو أضعف الصوف، وأول ما تتغير الجبال تصير رملاً مهيلاً ثم عهناً منفوشاً ثم تصير هباءً منثوراً.

﴿ ولا يسأل حميم حميماً ﴾، قرأ البزّي عن ابن كثير ﴿ ولا يسأل ﴾ بضم الياء أي لا يسأل حميم عن حميم، أي لا يقال له أين حميمك؟ وقرأ الآخرون بفتح الياء، أي لا يسأل قريب قريباً لشغله بشأن نفسه.

ثم تصير هباء منثوراً ﴿ولا يسأل حميم حميماً﴾ أي لا يسأل قريب قريبه لشغله بشأن نفسه والمعنى لا يسأل الحميم حميمه كيف حالك ولا يكلمه لهول ذلك اليوم وشدته. وقيل لا يسأله الشفاعة ولا يسأله الإحسان إليه ولا الرفق به كما كان يسأله في الدنيا وذلك لشدة الأمر وهول يوم القيامة ﴿يبصرونهم﴾ أي يرونهم وليس في القيامة مخلوق من جن أو إنس إلا وهو نصف عين صاحبه فيبصر الرجل أباه وأخاه وقرابته فلا يسألهم ويبصر حميمه فلا يكلمه لاشتغاله بنفسه. وقال ابن عباس يتعارفون ساعة من النهار ثم لا يتعارفون بعد ذلك، وقيل يعرف الحميم حميمه ومع ذلك لا يسأله عن حاله لشغله بنفسه. وقيل يبصرونهم أي يعرفونهم أما المؤمن فيعرف ببياض وجهه وأما الكافر فيعرف بسواد وجهه ﴿يود المجرم﴾ أي يتمنى المشرك ﴿لو يفتدي من عذاب يومئذ﴾ أي عذاب يوم القيامة ﴿ببنيه وصاحبته﴾ أي زوجته ﴿وأخيه وفصيلته﴾ أي عشيرته وقيل قبيلته وقيل أقربائه الأقربين ﴿التي تؤويه﴾ أي تضمه ويأوي إليها ﴿ومن في الأرض جميعاً﴾ يعني أنه يتمنى لو ملك هؤلاء وكانوا تحت يده ثم إنه يفتدي بهم جميعاً ﴿ثم ينجيه﴾ أي ذلك الفداء من عذاب الله.

كَلَّآ إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾ تَدْعُواْ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ ﴿١٨﴾ ۞ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾

﴿كلا﴾ أي لا ينجيه من عذاب الله شيء ثم ابتدأ فقال تعالى ﴿إنها لظى﴾ يعني النار ولظى اسم من أسمائها وقيل: الدركة الثانية من النار سميت لظى لأنها تتلظى أي تلتهب، ﴿نزاعة للشوى﴾ يعني الأطراف كاليدين والرجلين مما ليس بمقتل. والمعنى أن النار تنزع الأطراف فلا تترك عليها لحماً ولا جلداً. وقال ابن عباس تنزع العصب والعقب وقيل تنزع اللحم دون العظام وقيل تأكل الدماغ كله ثم يعود كما كان ثم تأكله فذلك دأبها. وقيل لمكارم خلقه ومحاسن وجهه وأطرافه، ﴿تدعو﴾ يعني النار إلى نفسها ﴿من أدبر﴾ أي عن الإيمان ﴿وتولى﴾ أي عن الحق فتقول له إليّ يا مشرك إليّ يا منافق إليّ إليّ. قال ابن عباس تدعو الكافر والمنافق بأسمائهم بلسان فصيح ثم تلتقطهم كما يلتقط

﴿ يبصّرونهم ﴾ يرونهم وليس في القيامة مخلوق إلاّ وهو نصب عين صاحبه من الجنّ والإنس فيبصر الرجل أباه وأخاه وقرابته فلا يسأله، ويبصر حميمه فلا يكلّمه لاشتغاله بنفسه. قال ابن عباس: يتعارفون ساعة من النهار ثم لا يتعارفون بعده. وقيل: يبصرونهم يعرفونهم أي يعرف الحميم حميمه حتى يعرفه، ومع ذلك لا يسأله عن شأنه لشغله بنفسه. وقال السدي: يعرفونهم أمّا المؤمن فببياض وجهه، وأما الكافر فبسواد وجهه، ﴿ يودّ المجرم ﴾، يتمنى المشرك، ﴿ لو يفتدي من عذاب يومئذ ببنيه ﴾.

﴿ وصاحبته ﴾، زوجته، ﴿ وأخيه * وفصيلته ﴾، عشيرته التي فصل منهم. وقال مجاهد: قبيلته. وقال غيره: أقربائه الأقربين. ﴿ التي تؤويه ﴾، أي تعنيه ويأوي إليها.

﴿ ومَنْ في الأرض جميعاً ﴾، يودّ لو يفتدي بهم جميعاً، ﴿ ثم ينجيه ﴾، ذلك الفداء من عذاب الله.

﴿ كلا ﴾، لا ينجيه من عذاب الله شيء، ثم ابتدأ فقال: ﴿ إنها لظى ﴾، وهي اسم من أسماء جهنم. وقيل: هي الدركة الثانية، سُمّيت بذلك لأنها تتلظى أي تتلهب.

﴿ نزّاعة للشّوى ﴾، قرأ حفص عن عاصم ﴿ نزّاعة ﴾ نصب على الحال والقطع، وقرأ الآخرون بالرفع أي هي نزّاعة للشّوى، وهي الأطراف: اليدان، والرجلان، والأطراف. وقال مجاهد: لجلود الرأس. وروى إبراهيم بن المهاجر عنه: اللحم دون العظام. قال مقاتل: تنزع النار الأطراف فلا تترك لحماً ولا جلداً. وقال الضحاك: تنزع

الطير الحب. وقيل تدعو أي تعذب قال أعرابي لآخر دعاك الله أي عذبك الله ﴿وجمع فأوعى﴾ يعني وتدعو من جمع المال في الوعاء ولم يؤد حق الله منه، ﴿إن الإنسان خلق هلوعاً﴾ قال ابن عباس الهلوع الحريص على ما لا يحل. وقيل شحيحاً بخيلاً. وقيل ضجوراً وقيل جزوعاً، وقيل ضيق القلب والهلع شدة الحرص وقلة الصبر وقال ابن عباس تفسيره ما بعده وهو قوله تعالى: ﴿إذا مسه الشر جزوعاً وإذا مسه الخير منوعاً﴾ يعني إذا أصابه الفقر لم يصبر وإذا أصابه المال لم ينفق. وقال ابن كيسان خلق الله الإنسان يحب ما يسره ويهرب مما يكره ثم تعبده بإنفاق ما يحب والصبر على ما يكره. قيل أراد بالإنسان هنا الكافر وقيل هو على عمومه ثم استثنى الله عز وجل فقال تعالى: ﴿إلا المصلين﴾ وهذا استثناء الجمع من الواحد لأن الإنسان واحد وفيه معنى الجمع ﴿الذين هم على صلاتهم دائمون﴾ يعني يقيمونها في أوقاتها وهي الفرائض.

فإن قلت كيف قال على صلاتهم دائمون ثم قال بعده على صلاتهم يحافظون؟

قلت معنى إدامتهم عليها أن يواظبوا على أدائها، وأن لا يتركوها في شيء من الأوقات وأن لا يشتغلوا عنها بغيرها إذا دخل وقتها، والمحافظة عليها ترجع إلى الاهتمام بحالها وهو أن يأتي بها العبد على أكمل الوجوه. وهذا إنما يحصل بأمور ثلاثة منها ما هو سابق للصلاة كاشتغاله بالوضوء وستر العورة وإرصاد المكان الطاهر للصلاة، وقصد الجماعة وتعلق القلب بدخول وقتها وتفريغه عن الوسواس والالتفات إلى ما سوى الله عز وجل. وأما الأمور المقارنة للصلاة فهي أن لا يلتفت في الصلاة يميناً ولا شمالاً وأن يكون حاضر القلب في جميعها بالخشوع والخوف

الجلد واللحم عن العظام. قال سعيد بن جبير عن ابن عباس: للعصب والعقب. وقال الكلبي: لأُم الرأس تأكل الدماغ كله ثم يعود كما كان، ثم تعود لأكله فتأكله فذلك دأبها. وقال قتادة: لمكارم خلقه وأطرافه. وقال أبو العالية: لمحاسن وجهه. وقال ابن جرير: الشّوى جوارح الإنسان ما لم يكن مقتلاً، يقال: رمى فأشوى إذا أصاب الأطراف ولم يصب المقتل.

﴿ تدعو ﴾، النار إلى نفسها، ﴿ مَن أدبر ﴾، على الإيمان، ﴿ وتولى ﴾، عن الحق فتقول إليّ يا مشرك إليّ يا منافق إليّ إليّ. قال ابن عباس: تدعو الكافرين والمنافقين بأسمائهم بلسان فصيح ثم تلتقطهم كما يلتقط الطير الحب. حُكِيَ عن الخليل: أنه قال: تدعو أي تعذب. وقال: قال أعرابي لآخر: دَعاك الله أي عذّبك الله.

﴿ وجمع ﴾، أي جمع المال، ﴿ فأوعى ﴾، أمسكه في الوعاء ولم يُؤدِّ حق الله منه.

﴿ إن الإنسان خُلق هلوعاً ﴾، روى السدي عن أبي صالح عن ابن عباس قال: الهلوع الحريص على ما لا يحلّ له. وقال سعيد بن جبير: شحيحاً. وقال عكرمة: ضجوراً. وقال الضحاك والحسن: بخيلاً. وقال قتادة: جزوعاً. وقال مقاتل: ضيّق القلب. والهلع: شدّة الحرص، وقلّة الصبر. وقال عطية عن ابن عباس: تفسيره ما بعد.

وهو قوله: ﴿ إذا مسّه الشرُّ جزوعاً * وإذا مسّه الخيرُ منوعاً ﴾، يعني إذا أصابه الفقر لم يصبر، وإذا أصابه المال لم ينفق. قال ابن كيسان: خلق الإنسان يحبّ ما يسرّه ويهرب مما يكره، ثم تعبده بإنفاق ما يحبّ والصبر على ما يكره.

ثم استثنى فقال: ﴿ إلاّ المصلّين ﴾، استثنى الجمع من الواحد لأن الإنسان في معنى الجمع.

﴿ الذين هم على صلاتهم دائمون ﴾، يقيمونها في أوقاتها يعني الفرائض. أخبرنا أبو بكر محمد بن

وإتمام ركوعها وسجودها. وأما الأمور الخارجة عن الصلاة فهو أن يحترز عن الرياء والسمعة خوف أن لا تقبل منه مع الابتهال والتضرع إلى الله تعالى في سؤال قبولها وطلب الثواب فالمداومة على الصلاة ترجع إلى نفسها والمحافظة عليها ترجع إلى أحوالها وهيئاتها. وروى البغوي بسنده عن أبي الخير قال سألنا عقبة بن عامر عن قوله عز وجل الذين هم على صلاتهم دائمون أهم الذين يصلون أبداً؟ قال لا ولكنه إذا صلى لم يلتفت عن يمينه ولا عن شماله ولا خلفه.

وَالَّذِينَ فِيٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿٢٦﴾ وَالَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ
رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ
فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٣١﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٣٢﴾ وَالَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ
قَآئِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُولَٰٓئِكَ فِي جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ ﴿٣٥﴾ فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ﴿٣٦﴾ عَنِ الْيَمِينِ
وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٧﴾ أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾ كَلَّآ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾

﴿**والذين في أموالهم حق معلوم**﴾ يعني الزكاة المفروضة لأنها مقدرة معلومة. وقيل هي صدقة التطوع وذلك بأن يوظف الرجل على نفسه شيئاً من الصدقة يخرجه على سبيل الندب في أوقات معلومة ﴿**للسائل**﴾ يعني الذي يسأل ﴿**والمحروم**﴾ يعني الفقير المتعفف عن السؤال فيحسب غنياً فيحرم ﴿**والذين يصدقون بيوم الدين**﴾ أي يؤمنون بالبعث بعد الموت والحشر والنشر والجزاء يوم القيامة ﴿**والذين هم من عذاب ربهم مشفقون**﴾ أي خائفون ثم أكد ذلك الخوف فقال تعالى: ﴿**إن عذاب ربهم غير مأمون**﴾ يعني أن الإنسان لا يمكنه القطع بأنه أدى الواجبات كما ينبغي ولا اجتنب المحظورات بالكلية كما ينبغي بل قد يكون وقع منه تقصير من الجانبين فلا جرم ينبغي أن يكون بين الخوف والرجاء.

قوله تعالى: ﴿**والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون**﴾ تقدم تفسيره في سورة المؤمنين.

قوله تعالى: ﴿**والذين هم بشهاداتهم قائمون**﴾ أي يقومون فيها عند الحكام ولا يكتمونها ولا يغيرونها وهذه الشهادة من جملة الأمانات إلا أنه خصها بالذكر لفضلها لأن بها تحيا الحقوق وتظهر وفي تركها تموت وتضيع، وقيل أراد بالشهادة الشهادة له بأن لا إله إلا الله واحد لا شريك له ولهذا عطف عليها ﴿**والذين هم على صلواتهم يحافظون**﴾

عبدالله بن أبي توبة ثنا أبو طاهر محمد بن أحمد بن الحارث أنا محمد بن يعقوب الكسائي أنا عبد الله بن محمود أنا أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الله الخلال ثنا عبد الله بن المبارك عن أبي لهيعة حدّثني يزيد بن أبي حبيب أن أبا الخير أخبره قال: سألنا عقبة بن عامر عن قول الله تعالى: ﴿ **الذين هم على صلاتهم دائمون** ﴾ أهم الذين يصلّون أبداً؟ قال: لا ولكنهم إذا صلّوا لم يلتفتوا عن يمينهم ولا عن شمائلهم ولا خلفهم.

﴿ **والذين في أموالهم حقٌّ معلوم * للسائل والمحروم * والذين يُصدِّقون بيوم الدين * والذين هم من عذاب ربهم مشفقون * إن عذاب ربّهم غير مأمون * والذين هم لفروجهم حافظون * إلّا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين * فمَن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون * والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون * والذين هم بشهاداتهم قائمون** ﴾، قرأ حفص عن عاصم ويعقوب بشهاداتهم على الجمع، وقرأ الآخرون بشهادتهم على التوحيد. ﴿ **قائمون** ﴾ أي يقومون فيها بالحق ولا يكتمونها ولا يغيّرونها.

ثم ذكر ما أعده لهم فقال تعالى: ﴿أولئك﴾ يعني من هذه صفته ﴿في جنات مكرمون﴾ قوله تعالى: ﴿فمال الذين كفروا﴾ أي فما بالهم ﴿قبلك مهطعين﴾ أي مسرعين مقبلين إليك مادي أعناقهم ومديمي النظر إليك متطلعين نحوك، نزلت في جماعة من الكفار كانوا يجتمعون حول النبي ﷺ يسمعون كلامه ويستهزئون به ويكذبونه فقال الله تعالى ما لهم ينظرون إليك ويجلسون عندك وهم لا ينتفعون بما يسمعون منك ﴿عن اليمين وعن الشمال عزين﴾ يعني أنهم كانوا عن يمينه وعن شماله مجتمعين حلقاً وفرقاً، والعزون جماعات في تفرقة ﴿أيطمع كل امرىء منهم أن يدخل جنة نعيم﴾ قال ابن عباس معناه أيطمع كل رجل منهم أن يدخل جنتي نعيم كما يدخلها المسلمون ويتنعمون فيها وقد كذبوا نبيي، ﴿كلا﴾ أي لا يدخلها ثم ابتدأ فقال تعالى ﴿إنا خلقناهم مما يعلمون﴾ أي من الأشياء المستقذرة من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة نبه الله على أنهم خلقوا من أصل واحد وشيء واحد وإنما يتفاضلون بالمعرفة ويستوجبون الجنة بالإيمان والطاعة. روى البغوي بإسناد الثعلبي عن بشر بن جحاش قال: قال رسول الله ﷺ وبصق يوماً في كفه ووضع عليها أصبعه فقال «يقول الله عز وجل يا ابن آدم أنى تعجزني وقد خلقتك من مثل هذه حتى إذا سويتك وعدلتك ومشيت بين بردين والأرض منك وئيد فجمعت ومنعت حتى إذا بلغت التراقي قلت أتصدق وأنى أوان الصدقة»، وأخرجه ابن الجوزي في تفسيره بلا إسناد. وقيل في معنى الآية إنا خلقناهم من أجل ما يعلمون وهو الأمر والنهي والثواب والعقاب. وقيل معناه إنا خلقناهم ممن يعلمون ويعقلون ولم نخلقهم كالبهائم بلا علم ولا عقل.

فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَمَا نَحۡنُ بِمَسۡبُوقِينَ ﴿٤١﴾ فَذَرۡهُمۡ يَخُوضُواْ وَيَلۡعَبُواْ حَتَّىٰ

﴿ والذين هم على صلاتهم يحافظون * أولئك في جنّات مكرمون ﴾.

﴿ فمالِ الذين كفروا ﴾، أي فما بال الذين كفروا، كقوله: ﴿ فما لهم عن التذكرة مُعرِضين ﴾ [المدّثر: ٤٩]، ﴿ قِبَلك مهطعين ﴾، مسرعين مقبلين إليك مادّي أعناقهم ومُديمي النظر إليك متطلعين نحوك، نزلت في جماعة من الكفّار كانوا يجتمعون حول النبي ﷺ يستمعون كلامه ويستهزئون به ويكذبونه، فقال الله تعالى: ما لهم ينظرون إليك ويجلسون عندك وهم لا ينتفعون بما يستمعون.

﴿ عن اليمين وعن الشمال عِزين ﴾، حلقاً وفرقاً، والعزون: جماعات في تفرقة واحدتها عزة.

﴿ أَيَطْمَعُ كلُّ امرىء منهم أن يدخل جنّة نعيم ﴾، قال ابن عباس: معناه أيطمع كل رجل منهم أن يدخل جنتي كما يدخلها المسلمون ويتنعم فيها وقد كذب نبي؟

﴿ كلّا ﴾، لا يدخلونها، ثم ابتدأ فقال: ﴿ إنّا خلقناهم مما يعلمون ﴾، أي من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة، نبّه الناس على أنهم خلقوا من أصل واحد وإنما يتفاضلون ويستوجبون الجنة بالإيمان والطاعة. أخبرنا أحمد بن إبراهيم الشريحي أنا أحمد بن إبراهيم الثعلبي أخبرنا الحسين بن محمد بن فنجويه ثنا موسى بن محمد بن علي ثنا جعفر بن محمد الفريابي ثنا صفوان بن صالح ثنا الوليد بن مسلم ثنا جرير بن عثمان الرحبي عن عبد الرحمن بن ميسرة عن جبير بن نفير عن بشر بن جحاش قال: قال النبي ﷺ وبصق يوماً في كفّه ووضع عليها إصبعه فقال: «يقول الله عزّ وجلّ: ابـن آدم أنّى تعجزني وقد خلقتُك من مثل هذه، حتى إذا سوّيتُك وعدلتُك، ومشيت بين بردين، والأرض منك وئيد فجمعت ومنعت حتى إذا بلغت التراقي قلت أتصدّق، وأنى أوان الصدقة»؟ وقيل: معناه إنّا خلقناهم من أجل ما يعلمون وهو الأمر والنهي والثواب والعقاب. وقيل: (ما) بمعنى (من)، مجازه: إنّا خلقناهم ممّن يعلمون ويعقلون لا كالبهائم.

يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾

﴿**فلا أقسم**﴾ يعني وأقسم وقد تقدم بيانه ﴿**برب المشارق والمغارب**﴾ يعني مشرق كل يوم من السنة ومغربه. وقيل يعني مشرق كل نجم ومغربه ﴿**إنا لقادرون على أن نبدل خيراً منهم**﴾ معناه إنا لقادرون على إهلاكهم وعلى أن نخلق أمثل منهم وأطوع لله ﴿**وما نحن بمسبوقين**﴾ أي بمغلوبين عاجزين عن إهلاككم وإبدالكم بمن هو خير منكم ﴿**فذرهم يخوضوا**﴾ أي في أباطيلهم ﴿**ويلعبوا**﴾ في دنياهم ﴿**حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون**﴾ نسختها آية القتال ثم فسر ذلك فقال تعالى: ﴿**يوم يخرجون من الأجداث**﴾ يعني القبور ﴿**سراعاً**﴾ أي إلى إجابة الداعي ﴿**كأنهم إلى نصب**﴾ يعني إلى شيء منصوب كالعلم والراية ونحوه. وقرىء بضم النون والصاد وهي الأصنام التي كانوا يعبدونها ﴿**يوفضون**﴾ أي يسرعون ومعنى الآية أنهم يخرجون من الأجداث يسرعون إلى الداعي مستبقين إليه كما كانوا يستبقون إلى نصبهم ليستلموها ﴿**خاشعة أبصارهم**﴾ أي ذليلة خاضعة ﴿**ترهقهم ذلة**﴾ أي يغشاهم هوان ﴿**ذلك اليوم الذي كانوا يوعدون**﴾ يعني يوم القيامة الذي كانوا يوعدون به في الدنيا، والله سبحانه وتعالى أعلم.

﴿ **فلا أُقسم بربّ المشارق والمغارب** ﴾، يعني مشرق كل يوم من السنة ومغربه، ﴿ **إنّا لقادرون * على أن نبدل خيراً منهم** ﴾، على أن نخلق أمثل منهم وأطوع لله، ﴿ **وما نحن بمسبوقين** ﴾.

﴿ **فذرهم يخوضوا** ﴾، في باطلهم، ﴿ **ويلعبوا** ﴾، في دنياهم، ﴿ **حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون** ﴾، نسختها آية القتال.

﴿ **يوم يخرجون من الأجداث** ﴾، أي القبور، ﴿ **سراعاً** ﴾، إلى إجابة الداعي، ﴿ **كأنهم إلى نصب** ﴾، قرأ ابن عامر وحفص ﴿ **نصب** ﴾، بضم النون والصاد، وقرأ الآخرون بفتح النون وسكون الصاد، يعنون إلى شيء منصوب، يقال: فلان نُصْبَ عيني. وقال الكلبي: إلى علم ودراية. ومَن قرأ بالضم. قال مقاتل والكسائي: يعني إلى أوثانهم التي كانوا يعبدونها من دون الله. قال الحسن: يسرعون إليها أيّهم يستلمها أولاً. ﴿ **يوفضون** ﴾، أي يسرعون.

﴿ **خاشعة** ﴾، ذليلة خاضعة ﴿ **أبصارهم ترهقهم ذلّة** ﴾، يغشاهم هوان، ﴿ **ذلك اليوم الذي كانوا يوعدون** ﴾، يعني يوم القيامة.

سورة نوح

مكية وهي ثمان وعشرون آية ومائتان وأربعة وعشرون كلمة وتسعمائة وتسعة وتسعون حرفاً.

بسم الله الرحمن الرحيم

إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾
أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ
كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ
لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾

قوله عز وجل: ﴿**إنا أرسلنا نوحاً إلى قومه أن أنذر قومك**﴾ أي بأن خوف قومك وحذرهم ﴿**من قبل أن يأتيهم عذاب أليم**﴾ يعني الغرق بالطوفان والمعنى إنا أرسلناه لينذرهم بالعذاب إن لم يؤمنوا ﴿**قال يا قوم إني لكم نذير مبين**﴾ أي أنذركم وأبين لكم ﴿**أن اعبدوا الله**﴾ أي وحدوه ولا تشركوا به شيئاً ﴿**واتقوه**﴾ أي وخافوه بأن تحفظوا أنفسكم مما يؤثمكم ﴿**وأطيعون**﴾ أي فيما آمركم به من عبادة الله وتقواه ﴿**يغفر لكم من ذنوبكم**﴾ أي يغفر لكم ذنوبكم. ومن صلة وقيل يغفر لكم ما سلف من ذنوبكم إلى وقت الإيمان وذلك بعض الذنوب ﴿**ويؤخركم إلى أجل مسمى**﴾ أي إلى منتهى آجالكم فلا يعاقبكم ﴿**إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر لو كنتم تعلمون**﴾، معناه يقول آمنوا قبل الموت تسلموا من العذاب فإن أجل الله وهو الموت إذا جاء لا يؤخر، قال الزمخشري إن قلت كيف قال ويؤخركم مع الإخبار بامتناع تأخير الأجل وهل هذا إلى تناقض قلت قضى مثلاً أن قوم نوح إن آمنوا عمرهم ألف سنة وإن بقوا على كفرهم أهلكهم

سُورَة نُوح

مكيّة وهي ثمانٍ وعشرون آية.

﴿ **إنّا أرسلنا نوحاً إلى قومه أن أنذر قومك** ﴾، بأن أنذر قومك، ﴿ **من قبل أن يأتيهم عذاب أليم** ﴾، المعنى: إنّا أرسلناه لينذرهم بالعذاب إن لم يؤمنوا.

﴿ **قال يا قوم إني لكم نذير مبين** ﴾، أُنذركم وأُبيّن لكم.

﴿ **أنِ اعبدوا الله واتقوه وأطيعون * يغفر لكم من ذنوبكم** ﴾، ﴿ **من** ﴾ صلة أي يغفر لكم ذنوبكم. وقيل: يعني ما سلف من ذنوبكم إلى وقت الإيمان، وذلك بعض ذنوبهم، ﴿ **ويؤخّركم إلى أجَلٍ مسمى** ﴾، أن يعافيكم إلى منتهى آجالكم فلا يعاقبكم، ﴿ **إنّ أجلَ الله إذا جاء لا يؤخّر لو كنتم تعلمون** ﴾، يقول آمنوا قبل الموت، تسلموا من العذاب، فإن أجل الله إذا جاء لا يؤخّر ولا يمكنكم الإيمان.

على رأس تسعمائة سنة فقيل لهم آمنوا يؤخركم إلى أجل مسمى أي إلى وقت سماه الله وضربه أمداً تنتهون إليه لا تتجاوزونه وهو الوقت الأطول تمام الألف. ثم أخبر أنه إذا جاء ذلك الأجل لا يؤخر كما يؤخر هذا الوقت ولم تكن حيلة فبادروا في أوقات الإمهال والتأخير عنكم وحيث يمكنكم الإيمان، ﴿**قال**﴾ يعني نوحاً عليه الصلاة والسلام ﴿**رب إني دعوت قومي ليلاً ونهاراً فلم يزدهم دعائي إلا فراراً**﴾ أي نفاراً وإدباراً عن الإيمان ﴿**وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم**﴾ أي ليؤمنوا بك فتغفر لهم ﴿**جعلوا أصابعهم في آذانهم**﴾ لئلا يسمعوا دعوتي ﴿**واستغشوا ثيابهم**﴾ أي غطوا وجوههم بثيابهم لئلا يرون ﴿**وأسروا**﴾ على كفرهم ﴿**واستكبروا**﴾ عن الإيمان بك ﴿**استكباراً**﴾ أي تكبراً عظيماً ﴿**ثم إني دعوتهم جهاراً**﴾ أي معلناً قال ابن عباس بأعلى صوتي.

ثُمَّ إِنِّيٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾

﴿**ثم إني أعلنت لهم**﴾ أي كررت لهم الدعاء معلناً ﴿**وأسررت لهم إسراراً**﴾ قال ابن عباس يريد الرجل بعد الرجل أكلمه سراً بيني وبينه أدعوه إلى عبادتك وتوحيدك ﴿**فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفاراً يرسل السماء عليكم مدراراً**﴾ وذلك أن قوم نوح لما كذبوه زماناً طويلاً حبس الله عنهم المطر وأعقم أرحام نسائهم أربعين سنة فهلكت أموالهم ومواشيهم فقال لهم استغفروا ربكم أي من الشرك واطلبوا المغفرة بالتوحيد حتى يفتح عليكم أبواب نعمه وذلك لأن الاشتغال بالطاعة يكون سبباً لاتساع الخير والرزق.

وأن الكفر سبب لهلاك الدنيا فإذا اشتغلوا بالإيمان والطاعة حصل ما يحتاجون إليه في الدنيا. وروى الشعبي أن

﴿ **قال ربِّ إني دعوت قومي ليلاً ونهاراً * فلم يزدهم دعائي إلّا فراراً** ﴾، نفاراً وإدباراً عن الإيمان.

﴿ **وإني كلما دعوتهم** ﴾، إلى الإيمان بك، ﴿ **لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم** ﴾، لئلا يسمعوا دعوتي، ﴿ **واستغشوا ثيابهم** ﴾، غطّوا بها وجوههم لئلا يروني، ﴿ **وأصرّوا** ﴾، على كفرهم. ﴿ **واستكبروا** ﴾، عن الإيمان بك، ﴿ **استكباراً** ﴾.

﴿ **ثم إني دعوتهم جهاراً** ﴾، معناه: بالدعاء. قال ابن عباس: بأعلى صوتي.

﴿ **ثم إني أعلنت لهم** ﴾، أي كرّرت الدعاء مُعلناً، ﴿ **وأسررت لهم إسراراً** ﴾، قال ابن عباس: يريد الرجل بعد الرجل أكلمه سرّاً بيني وبينه، أدعوه إلى عبادتك وتوحيدك.

﴿ **فقلتُ استغفروا ربَّكم إنه كان غفّاراً * يرسل السماء عليكم مدراراً** ﴾، وذلك أن قوم نوح لمّا كذّبوه زماناً طويلاً حبس الله عنهم المطر وأعقم أرحام نسائهم أربعين سنة، فهلكت أولادهم وأموالهم ومواشيهم، فقال لهم نوح: استغفروا ربكم من الشرك، أي استدعوا المغفرة بالتوحيد، يرسلِ السماء عليكم مدراراً. وروى مطرف عن الشعبي أن عمر رضي الله تعالى عنه خرج يستسقي بالناس، فلم يزد على الاستغفار حتى رجع، فقيل له: ما سمعناك استسقيت؟ فقال: طلبت الغيث بمجاديح السماء التي يستنزل بها القطر، ثم قرأ: ﴿ **استغفروا ربكم إنه كان غفّاراً * يرسل السماء عليكم مدراراً** ﴾.

عمر بن الخطاب خرج يستسقي بالناس فلم يزد على الاستغفار حتى يرجع فقيل له ما سمعناك استسقيت فقال طلبت الغيث بمجاديح السماء التي يستنزل بها القطر ثم قرأ ﴿**استغفروا ربكم إنه كان غفاراً**﴾ الآية قوله بمجاديح السماء واحدها مجدح وهو نجم من النجوم. وقيل هو الدبران وقيل هي ثلاثة كواكب كالأثافي تشبيهاً بالمجدح الذي له شعب وهي عند العرب من الأنواء الدالة على المطر فجعل عمر الاستغفار مشبهاً بالأنواء مخاطبة لهم بما يعرفون وكانوا يزعمون أن من شأنها المطر لا أنه يقول بالأنواء.

وعن بكر بن عبد الله أن أكثر الناس ذنوباً أقلهم استغفاراً وأكثرهم استغفاراً أقلهم ذنوباً. وعن الحسن أن رجلاً شكا إليه الجدب فقال له استغفر الله وشكا آخر إليه الفقر وقلة النسل وآخر قلة ريع أرضه فأمرهم كلهم بالاستغفار فقال له الربيع بن صبيح أتاك رجال يشكون أنواعاً فأمرتهم كلهم بالاستغفار؟ فتلا هذه الآية وقوله يرسل السماء عليكم أي يرسل ماء السماء وذلك لأن ماء المطر ينزل من السماء إلى السحاب ثم ينزل من السحاب إلى الأرض. وقيل أراد بالسماء السحاب، وقيل أراد بالسماء المطر من قول الشاعر

إذا نزل السماء بأرض قوم فحلوا حيثما نزل السماء

يعني المطر مدراراً أي كثير الدر وهو حلب الشاة حالاً بعد حال. وقيل مدراراً أي متتابعاً ﴿**ويمددكم بأموال وبنين**﴾ أي يكثر أموالكم وأولادكم ﴿**ويجعل لكم جنات**﴾ أي البساتين ﴿**ويجعل لكم أنهاراً**﴾ وهذا كله مما يميل طبع البشرية إليه ﴿**ما لكم لا ترجون لله وقاراً**﴾ قال ابن عباس أي لا ترون لله عظمة. وقيل معناه لا تخافون عظمته فالرجاء بمعنى الخوف، والوقار العظمة من التوقير وهو التعظيم. وقيل التعظيم وقيل معناه ما لكم لا تعرفون لله حقاً ولا تشكرون له نعمة وقيل معناه ما لكم لا ترجون في عبادة الله أن يثيبكم على توقيركم إياه خيراً ﴿**وقد خلقكم أطواراً**﴾ يعني تارة بعد تارة وحالاً بعد حال نطفة ثم علقة ثم مضغة إلى تمام الخلق. وقيل معناه خلقكم أصنافاً مختلفين لا يشبه بعضكم بعضاً وهذا مما يدل على وحدانية الله وسعة قدرته ﴿**ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقاً**﴾ أي بعضها فوق بعض.

﴿**وجعل القمر فيهن نوراً**﴾ يعني في سماء الدنيا وقوله فيهن هو كما يقال أتيت بني تميم وإنما أتى رجلاً منهم ﴿**وجعل الشمس سراجاً**﴾ يعني مصباحاً مضيئة. قال عبد الله بن عمرو إن الشمس والقمر وجوههما إلى السموات وضوء الشمس والقمر فيهن جميعاً وأقفيتهما إلى الأرض ويروى هذا عن ابن عباس أيضاً، ﴿**والله أنبتكم من الأرض**

﴿ **ويُمددكم بأموالٍ وبنينَ** ﴾، قال عطاء: يكثّر أموالكم وأولادكم، ﴿ **ويجعل لكم جنّات ويجعل لكم أنهاراً * ما لكم لا ترجون لله وقاراً** ﴾، قال ابن عباس ومجاهد: لا ترون لله عظمة. وقال سعيد بن جبير: ما لكم لا تعظّمون الله حق عظمته. وقال الكلبي: لا تخافون الله حقّ عظمته. والرجاء: بمعنى الخوف، والوقار: العظمة، اسم من التوقير وهو التعظيم. قال الحسن: لا تعرفون لله حقاً ولا تشكرون له نعمة. قال ابن كيسان: ما لكم لا ترجون في عبادة الله أن يثيبكم على توقيركم إياه خيراً.

﴿ **وقد خلقكم أطواراً** ﴾، تارات، حال بعد حال، نطفة ثم علقة ثم مضغة إلى تمام الخلق.

﴿ **ألم تروا كيف خلق الله سبع سمٰوات طباقاً * وجعل القمر فيهنّ نوراً** ﴾، قال الحسن: يعني في السماء الدنيا، كما يقال أتيت بني تميم وإنما أتى بعضهم، وفلانٌ متوارٍ في دور بني فلان وهو دار واحدة. وقال عبد الله بن عمرو: إن الشمس والقمر وجوههما إلى السمٰوات وضوء الشمس ونور القمر فيهنّ وأقفيتهما إلى الأرض. ويُروى هذا عن ابن عباس.

نباتاً﴾ أراد مبدأ خلق آدم وأصل خلقه من الأرض والناس كلهم من ولده وقوله نباتاً اسم جعل في موضع المصدر أي إنباتاً. وقيل تقديره أنبتكم فنبتم نباتاً وفيه دقيقة لطيفة وهي أنه لو قال أنبتكم إنباتاً كان المعنى أنبتكم إنباتاً عجيباً غريباً ولما قال أنبتكم نباتاً كان المعنى أنبتكم نباتاً عجيباً وهذا الثاني أولى لأن الانبات صفة الله تعالى وصفة الله تعالى غير محسوسة لنا فلا يعرف أن ذلك الانبات إنبات عجيب كامل إلا بواسطة إخبار الله تعالى وهذا المقام مقام الاستدلال على كمال قدرة الله تعالى فكان هذا موافقاً لهذا المقام فظهر بهذا أن العدول عن تلك الحقيقة إلى هذا المجاز كان لهذا السر اللطيف.

ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾ قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾

﴿ثم يعيدكم فيها﴾ أي في الأرض بعد الموت **﴿ويخرجكم﴾** أي منها يوم البعث **﴿إخراجاً﴾** يعني إخراجاً حقاً لا محالة **﴿والله جعل لكم الأرض بساطاً﴾** أي فرشها لكم مبسوطة تتقلبون عليها كما يتقلب الرجل على بساطه **﴿لتسلكوا منها سبلاً فجاجاً﴾** أي طرقاً واسعة.

قوله تعالى: **﴿قال نوح رب إنهم عصوني﴾** أي لم يجيبوا دعوتي **﴿واتبعوا من لم يزده ماله وولده إلا خساراً﴾** يعني اتبع السفلة والفقراء القادة والرؤساء الذين لم تزدهم كثرة المال والولد إلا ضلالاً في الدنيا وعقوبة في الآخرة **﴿ومكروا مكراً كباراً﴾** يعني كبيراً عظيماً يقال كبيراً وكباراً بالتشديد والتخفيف والتشديد أشد وأعظم في المبالغة والماكرون هم الرؤساء والقادة ومكرهم احتيالهم في الدين وكيدهم لنوح عليه الصلاة والسلام وتحريش السفلة على أذاه وصد الناس عن الإيمان به والميل إليه والاستماع منه. وقيل مكرهم هو قولهم لا تذرن آلهتكم وتعبدوا إله نوح،

﴿ وجعل الشمس سراجاً ﴾، مصباحاً مضيئاً.

﴿ والله أنبتكم من الأرض نباتاً ﴾، أراد مبدأ خلق أبي البشر آدم خلقه من الأرض، والناس ولده، قوله: **﴿ نباتاً ﴾** اسم جعل في موضع المصدر أي نباتاً، قال الخليل: مجازه فنبتّم نباتاً.

﴿ ثم يعيدكم فيها ﴾، بعد الموت، **﴿ ويخرجكم ﴾**، منها يوم البعث أحياء، **﴿ إخراجاً ﴾**.

﴿ والله جعل لكم الأرض بساطاً ﴾، فرشها وبسطها لكم.

﴿ لتسلكوا منها سبلاً فِجاجاً ﴾، طرقاً واسعةً.

﴿ قال نوح ربِّ إنهم عصوني ﴾، يعني لم يُجيبوا دوني، **﴿ واتّبعوا مَن لم يزده ماله وولده إلّا خساراً ﴾**، يعني اتّبع السَّفلَة والفقراء القادة والرؤوساء الذين هم لم يزدهم كثرة المال والولد إلّا ضلالاً في الدنيا وعقوبة في الآخرة.

﴿ ومكروا مكراً كُبّاراً ﴾، أي كبيراً عظيماً، يقال: كبير وكُبَار، بالتخفيف، وكبار بالتشديد، شدّد للمبالغة، وكلها بمعنى واحد كما يقال: أمر عجيب وعجاب وعجّاب بالتشديد أشدّ في المبالغة، واختلفوا في مكرهم. قال ابن عباس: قالوا قولاً عظيماً. قال الضحاك: افتروا على الله وكذبوا رسله. وقيل منع الرؤوساء أتباعهم عن الإيمان بنوح وحرّشوهم على قتله.

وقال ابن عباس في مكرهم قالوا قولاً عظيماً. وقيل افتروا على الله الكذب وكذبوا رسله ﴿وقالوا﴾ يعني القادة للأتباع ﴿لا تذرن آلهتكم﴾ أي لا تتركن عبادتها ﴿ولا تذرن وداً ولا سواعاً ولا يغوث ويعوق ونسراً﴾ هذه أسماء آلهتهم وإنما أفرد بالذكر وإن كانت داخلة في جملة قوله لا تذرن آلهتكم لأنهم كانت لهم أصنام هذه الخمسة المذكورة هي أعظمها عندهم. قال محمد بن كعب هذه أسماء قوم صالحين كانوا بين آدم ونوح فلما ماتوا كان أتباعهم يقتدون بهم ويأخذون بعدهم بأخذهم في العبادة فجاءهم إبليس وقال لهم: لو صورتم صورهم كان ذلك أنشط لكم وأشوق إلى العبادة ففعلوا ذلك ثم نشأ قوم بعدهم فقال لهم إبليس إن الذين من قبلكم كانوا يعبدونهم. فابتداء عبادة الأوثان كان من ذلك وسميت تلك الصور بهذه الأسماء لأنهم صوروها على صورة أولئك القوم الصالحين من المسلمين، (خ) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: صارت الأوثان التي كانت تعبد قوم نوح في العرب بعد. أما ود فكانت لكلب بدومة الجندل وأما سواع فكانت لهذيل، وأما يغوث فكانت لمراد ثم صارت لبني غطيف بالجرف عند سبأ، وأما يعوق فكانت لهمدان وأما نسر فكانت لحمير لآل ذي الكلاع. وروى سفيان عن موسى عن محمد بن قيس في قوله ولا تذرن وداً ولا سواعاً ولا يغوث ويعوق ونسراً، قال كانت أسماء رجال صالحين من قوم نوح فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصاباً وسموها بأسمائهم ففعلوا فلم تعبد حتى هلك أولئك ونسخ العلم فعبدت الأوثان، وروي عن ابن عباس أن تلك الأوثان دفنها الطوفان وطمها التراب فلم تزل مدفونة حتى أخرجها الشيطان لمشركي العرب، وكانت للعرب أصنام أخر فاللات كانت لثقيف والعزى لسليم وغطفان وجشم، ومناة كانت لخزاعة بقديد وإساف ونائلة وهبل كانت لأهل مكة. ولذلك سمت العرب أنفسهم بعبد ود وعبد يغوث وعبد العزى ونحو ذلك من الأسماء.

وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ﴿٢٤﴾ مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ
اللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا

﴿ وقالوا ﴾، لهم ﴿ لا تذرنّ آلهتكم ﴾، أي عبادتها، ﴿ ولا تذرنّ وَدّاً ﴾، قرأ أهل المدينة بضمّ الواو والباقون بفتحها، ﴿ ولا سُواعاً ولا يغوث ويعوق ونَسْراً ﴾، هذه أسماء آلهتهم. قال محمد بن كعب: هذه أسماء قوم صالحين كانوا بين آدم ونوح، فلما ماتوا كان لهم أتباع يقتدون بهم ويأخذون بعدهم مأخذهم في العبادة فجاءهم إبليس وقال لهم: لو صوّرتم صورهم كان أنشط لكم وأشوق إلى العبادة، ففعلوا ثم نشأ قوم بعدهم فقال لهم إبليس: إن الذين من قبلكم كانوا يعبدونهم فعبدوهم، فابتداء عبادة الأوثان كان من ذلك وسمّيت تلك الصور بهذه الأسماء لأنهم صوّروها على صور أولئك القوم من المسلمين. أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا إبراهيم بن موسى ثنا هشام عن ابن جريج وقال عطاء عن ابن عباس: صارت الأوثان التي كانت تُعبَد في قوم نوح في العرب بعده، أمّا وَدّ فكانت لكلب بدومة الجندل، وأمّا سُواع فكانت لهذيل، وأما يَغُوث فكانت لمراد ثم لبني غطيف بالجرف عند سبأ، وأما يَعُوق فكانت لهمدان، وأما نَسْر فكانت لحمير لآل ذي الكلاع. وهذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصاباً وسمّوها بأسمائهم، ففعلوا فلم تُعبَد، حتى إذا هلك أولئك ونسخ العلم عُبِدَتْ. ورُوِيَ عن ابن عباس: أن تلك الأوثان دفنها الطوفان وطمّها التراب، فلم تزل مدفونة حتى أخرجها الشيطان لمشركي العرب، وكانت للعرب أصنام أُخَر، فاللاّت كانت لثقيف، والعُزّى لسليم وغطفان وجشم، ومَنَاة لقديد، وإساف ونائلة وهُبل لأهل مكة.

فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ رَّبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴿٢٨﴾

﴿وقد أضلوا كثيراً﴾ أي ضل بسبب الأصنام كثير من الناس. وقيل أضل كبراء قوم نوح كثيراً من الناس ﴿ولا تزد الظالمين إلا ضلالاً﴾ يعني ولا تزد المشركين بعبادتهم الأصنام إلا ضلالاً وهذا دعاء عليهم وذلك أن نوحاً عليه السلام كان قد امتلأ قلبه غضباً وغيظاً عليهم فدعا عليهم.

فإن قلت كيف يليق بمنصب النبوة أن يدعو بمزيد الضلال وإنما بعث ليصرفهم عنه.

قلت إنما دعا عليهم بعد أن أعلمه الله أنهم لا يؤمنون وهو قوله تعالى: ﴿إنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن﴾ وقيل إنما أراد بالضلال في أمر الدنيا وما يتعلق بها لا في أمر الآخرة ﴿مما خطيئاتهم أغرقوا﴾ أي بالطوفان ﴿فأدخلوا ناراً﴾ أي في حالة واحدة وذلك في الدنيا كانوا يغرقون من جانب ويحترقون من جانب. واستدل بعضهم بهذه الآية على صحة عذاب القبر وذلك لأن الفاء تقتضي التعقيب في قوله تعالى أغرقوا فأدخلوا ناراً، وهذا يدل على أنه إنما حصل دخول النار عقيب الإغراق ولا يمكن حمله على عذاب الآخرة لأنه يبطل دلالة الفاء، وقيل معناه أنهم سيدخلون ناراً في الآخرة فعبر عن المستقبل بلفظ الماضي لصدق الوعد في ذلك والأول أصح ﴿فلم يجدوا لهم من دون الله أنصاراً﴾ يعني تنصرهم وتمنعهم من العذاب الذي نزل بهم ﴿وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً﴾ يعني أحد يدور في الأرض فيذهب ويجيء من الدوران. وقيل أصله من الدار أي نازل دار ﴿إنك إن تذرهم يضلوا عبادك﴾ قال ابن عباس وغيره كان الرجل ينطلق بابنه إلى نوح فيقول له احذر هذا فإنه كذاب وإن أبي حذرنيه، فيموت الكبير وينشأ الصغير على ذلك ﴿ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً﴾ إنما قال نوح هذا حين أخرج الله كل مؤمن من أصلابهم وأرحام نسائهم وأعقم بعد ذلك أرحام النساء وأيبس أصلاب الرجال وذلك قبل نزول العذاب بأربعين سنة. وقيل بسبعين سنة وأخبر الله نوحاً أنهم لا يؤمنون ولا يلدون مؤمناً فحينئذ دعا عليهم فأجاب الله دعوته فأهلكم جميعاً

﴿ وقد أضلّوا كثيراً ﴾، أي ضلّ بسبب الأصنام كثير من الناس كقوله عزّ وجلّ: ﴿ ربِّ إنهنّ أضللن كثيراً من الناس ﴾ [إبراهيم: ٣٦]، وقال مقاتل: أضلّ كبراؤهم كثيراً من الناس. ﴿ ولا تزد الظالمين إلّا ضلالاً ﴾، هذا دعاء عليهم بعدما أعلم الله نوحاً أنهم لا يؤمنون، وهو قوله: ﴿ أنه لن يؤمن من قومك إلّا مَنْ قد آمن ﴾ [هود: ٣٦].

﴿ مما خطيئاتهم ﴾، أي من خطيئاتهم، و(ما) صلة، وقرأ أبو عمرو (خطاياهم) وكلاهما جمع خطيئة، ﴿ أغرقوا ﴾، بالطوفان، ﴿ فأُدخلوا ناراً ﴾، قال الضحاك هي في حالة واحدة في الدنيا يغرقون من جانب ويحترقون من جانب، وقال مقاتل: فأُدخلوا ناراً في الآخرة، ﴿ فلم يجدوا لهم من دون الله أنصاراً ﴾، لم يجدوا أحداً يمنعهم من عذاب الله الواحد القهّار.

﴿ وقال نوح ربِّ لا تذر على الأرض من الكافرين ديّاراً ﴾، أحداً يدور في الأرض فيذهب ويجيء من الدوران، وقال القتيبي: إن أصله من الدار أي نازل دار.

﴿ إنك إن تذرهم يضلّوا عبادك ﴾، قال ابن عباس والكلبي ومقاتل: كان الرجل ينطلق بابنه إلى نوح فيقول احذر هذا فإنه كذاب وإن أبي حذّرنيه فيموت الكبير وينشأ الصغير عليه، ﴿ ولا يلد إلّا فاجراً كفّاراً ﴾، قال محمد بن كعب ومقاتل والربيع وغيرهم: إنما قال نوح هذا حين أخرج الله كل مؤمن من أصلابهم وأرحام نسائهم

ولم يكن معهم صبي وقت العذاب لأن الله تعالى أعقمهم قبل العذاب ﴿رب اغفر لي﴾ وذلك أنه لما دعا على الكفار قال رب اغفر لي يعني ما صدر مني من ترك الأفضل، وقيل يحتمل أنه لما دعا على الكفار قال رب اغفر لي يعني ما صدر مني من ترك الأفضل. وقيل يحتمل أنه حين دعا على الكفار أنه إنما دعا عليهم بسبب تأذيه منهم فكان ذلك الدعاء عليهم كالانتقام منهم فاستغفر من ذلك لما فيه من طلب حظ النفس أو لأنه ترك الاحتمال. ﴿ولوالدي﴾ وكان اسم أبيه ملك بن متوشلخ واسم أمه سمخاء بنت أنوش وكانا مؤمنين وقيل لم يكن بين آدم ونوح عليهما السلام من آبائه كافر وكان بينهما عشرة آباء ﴿ولمن دخل بيتي مؤمناً﴾ أي داري وقيل مسجدي وقيل سفينتي ﴿وللمؤمنين والمؤمنات﴾ وهذا عام في كل مؤمن آمن بالله وصدق الرسل، وإنما بدأ بنفسه لأنها أولى بالتخصيص والتقديم ثم ثنى بالمتصلين به لأنهم أحق بدعائه من غيرهم ثم عمم جميع المؤمنين والمؤمنات ليكون ذلك أبلغ في الدعاء، ﴿ولا تزد الظالمين إلا تباراً﴾ أي هلاكاً ودماراً فاستجاب الله تعالى دعاءه فأهلكهم جميعاً والله أعلم.

وأعقم أرحام نسائهم وأيبس أصلاب رجالهم قبل العذاب بأربعين سنة. وقيل: سبعين سنة وأخبر الله نوحاً أنهم لا يؤمنون ولا يلدون مؤمناً فحينئذ دعا عليهم نوح فأجاب الله دعاءه، وأهلكهم كلهم ولم يكن فيهم صبي وقت العذاب لأن الله تعالى قال: ﴿وقوم نوح لمّا كذبوا الرسل أغرقناهم﴾ [الفرقان: ٣٧]، ولم يوجد التكذيب من الأطفال.

﴿ربِّ اغفرْ لي ولوالديّ﴾، واسم أبيه لمك بن متوشلخ واسم أُمه سمحاء بنت أنوش وكانا مؤمنين، ﴿ولمَن دخل بيتي﴾، داري ﴿مؤمناً﴾، وقال الضحاك والكلبي: مسجدي. وقيل: سفينتي. ﴿وللمؤمنين والمؤمنات﴾، هذا عامّ في كل مَن آمن بالله وملائكته وصدّق الرّسل، ﴿ولا تزد الظالمين إلاّ تباراً﴾، هلاكاً ودماراً فاستجاب الله دعاءه فأهلكهم.

سورة الجن

وهي ثمان وعشرون آية ومائتان وخمس وثمانون كلمة وثمانمائة وسبعون حرفاً.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ
بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴿٢﴾ وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾ وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا ﴿٤﴾

قوله عز وجل: **﴿قل أوحي إلى أنه استمع نفر من الجن﴾** اختلف الناس قديماً وحديثاً في ثبوت وجود الجن فأنكر وجودهم معظم الفلاسفة، واعترف بوجودهم جمع منهم وسموهم بالأرواح السفلية، وزعموا أنهم أسرع إجابة من الأرواح الفلكية إلا أنهم أضعف. وأما جمهور أرباب الملل وهم أتباع الرسل والشرائع فقد اعترفوا بوجود الجن لكن اختلفوا في ماهيتهم، فقيل الجن حيوان هوائي يتشكل بأشكال مختلفة، وقيل إنها جواهر وليست بأجسام ولا أعراض ثم هذه الجواهر أنواع مختلفة بالماهية فبعضها خيرة كريمة محبة للخيرات وبعضها دنيئة خسيسة شريرة محبة للشرور والآفات ولا يعلم عدة أنواعهم إلا الله تعالى، وقيل إنهم أجسام مختلفة الماهية لكن تجمعهم صفة واحدة وهي كونهم حاصلون في الحيز موصوفون بالطول والعرض والعمق، وينقسمون إلى لطيف وكثيف وعلوي وسفلي ولا يمتنع في بعض الأجسام اللطيفة الهوائية أن تكون مخالفة لسائر أنواع الأجسام في الماهية وأن يكون لها علم مخصوص وقدرة مخصوصة على أفعال عجيبة أو شاقة يعجز البشر عن مثلها. وقد يتشكلون بأشكال مختلفة وذلك بإقدار الله تعالى إياهم على ذلك، وقيل إن الأجسام متساوية في تمام الماهية وليست البنية شرطاً للحياة وهذا قول الأشعري وجمهور أتباعه، وشذ تأويل المعتزلة من هذه الأمة فأنكروا وجود الجن وقالوا البنية شرط للحياة وإنه لا بد من صلابة البنية حتى يكون قادراً على الأفعال الشاقة، وهذا قول منكر وصاحب هذا القول ينكر خرق العادات ورد ما ثبت وجوده بنص الكتاب والسنة.

(فصل)

اختلف الرواة هل رأى النبي ﷺ الجن فأثبتها ابن مسعود فيما رواه عنه مسلم في صحيحه وقد تقدم حديثه في

سُورَة الجِنّ

مكيّة وهي ثمانٍ وعشرون آية.

﴿ قلْ أُوحي إليّ أنه استمع نفر من الجنّ ﴾، وكانوا تسعة من جنّ نصيبين. وقيل: سبعة، استمعوا قراءة النبي ﷺ ذكرنا خبرهم في سورة الأحقاف[٢٩]. **﴿فقالوا﴾**، لمّا رجعوا إلى قومهم: **﴿إنّا سمعنا قرآناً عجباً﴾**، قال ابن عباس: بليغاً أي قرآناً ذا عجب يُعجَب منه لبلاغته.

تفسير سورة الأحقاف عند قوله تعالى: ﴿**وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن**﴾ وأنكرها ابن عباس فيما رواه عنه البخاري ومسلم. قال ابن عباس «ما قرأ رسول الله ﷺ عن الجن ولا رآهم، انطلق رسول الله ﷺ في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء وأرسل عليهم الشهب فرجعت الشياطين إلى قومهم فقالوا ما لكم فقيل حيل بيننا وبين خبر السماء وأرسلت علينا الشهب؟ قالوا وما ذاك إلا من شيء قد حدث فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها فانظروا ما هذا الذي حال بيننا وبين خبر السماء. فانطلقوا يضربون مشارق الأرض ومغاربها فمر النفر الذين أخذوا نحو تهامة بالنبي ﷺ وهو بنخلة عامدين إلى سوق عكاظ وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر فلما سمعوا القرآن استمعوا له وقالوا: هذا الذي حال بيننا وبين خبر السماء فرجعوا إلى قومهم فقالوا ﴿**يا قومنا إنا سمعنا قرآناً عجباً يهدي إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحداً**﴾ فأنزل الله تعالى على نبيه ﴿**قل أوحي إلى أنه استمع نفر من الجن**﴾ زاد في رواية «وإنما أوحي إليه قول الجن» أخرجاه في الصحيحين، قال القرطبي في شرح مسلم في حديث ابن عباس هذا معناه أنه لم يقصدهم بالقراءة بل لما تفرقوا يطلبون الخبر الذي حال بينهم وبين استراق السمع، صادف هؤلاء النفر رسول الله ﷺ يصلي بأصحابه وعلى هذا فهو ﷺ لم يعلم باستماعهم ولم يكلمهم وإنما أعلمه الله عز وجل بما أوحي إليه من قوله قل أوحى إليّ أنه استمع نفر من الجن وأما حديث ابن مسعود فقضية أخرى وجن آخرون.

والحاصل من الكتاب والسنة العلم القطعي بأن الجن والشياطين موجودون متعبدون بالأحكام الشرعية على النحو الذي يليق بخلقتهم وبحالهم، وأن النبي ﷺ رسول إلى الإنس والجن فمن دخل في دينه فهو من المؤمنين ومعهم في الدنيا والآخرة والجنة، ومن كفر به فهو من الشياطين المبعدين المعذبين فيها والنار مستقره. وهذا الحديث يقتضي أن الرجم بالنجوم ولم يكن قبل المبعث. وذهب قوم إلى أنه كان قبل مبعثه وآخرون إلى أنه كان لكن زاد بهذا المبعث وبهذا القول يرتفع التعارض بين الحديثين هذا آخر كلام القرطبي والله أعلم.

عكاظ سويقة معروفة بقرب مكة كان العرب يقصدونها في كل سنة مرة في الجاهلية وأول الإسلام وتهامة كل ما نزل عن نجد من بلاد الحجاز سميت تهامة لتغير هوائها. ومكة من تهامة معدودة ونخلة واد من أودية مكة قريب منها.

وأما التفسير فقوله سبحانه وتعالى: ﴿**قل أوحي إليّ**﴾ أمر الله نبيه ﷺ أن يظهر لأصحابه واقعة الجن وكما أنه مبعوث إلى الإنس فهو أيضاً مبعوث إلى الجن لتعلم قريش أن الجن مع تمردهم لما سمعوا القرآن عرفوا إعجازه فآمنوا به وقوله استمع نفر من الجن النفر ما بين الثلاثة إلى العشرة قيل كانوا تسعة من جن نصيبين. وقيل سبعة سمعوا قراءة النبي ﷺ ﴿**فقالوا**﴾ أي لما رجعوا إلى قومهم، ﴿**إنا سمعنا قرآناً عجباً**﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما بليغاً أي ذا عجب يعجب منه لبلاغته وفصاحته ﴿**يهدي إلى الرشد**﴾ أي يدعو إلى الصواب يعني التوحيد والإيمان ﴿**فآمنا به**﴾ أي بالقرآن ﴿**ولن نشرك بربنا أحداً**﴾ أي ولن نعود إلى ما كنا عليه من الشرك. وفيه دليل على أن أولئك النفر كانوا مشركين قيل كانوا يهوداً وقيل كانوا نصارى وقيل كانوا مجوساً ومشركين ﴿**وأنه تعالى جد ربنا**﴾ أي جلال ربنا وعظمته، ومنه قول أنس «كان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران جد فينا» أي عظم قدره وقيل الجد الغنى. ومنه الحديث

﴿ **يهدي إلى الرشد** ﴾، يدعو إلى الصواب من التوحيد والإيمان، ﴿ **فآمنّا به ولن نشرك بربّنا أحداً** ﴾.

﴿ **وأنه تعالى جَدُّ ربّنا** ﴾، قرأ أهل الشام والكوفة غير أبي بكر عن عاصم ﴿ **وأنه تعالى** ﴾ بفتح الهمزة وكذلك ما بعده إلى قوله: ﴿ **وإنّا منّا المسلمون** ﴾، وقرأ الآخرون بكسرهنّ وفتح أبو جعفر منها ﴿ **وأنه** ﴾ وهو ما كان مردوداً على الوحي، وكسر ما كان حكاية عن الجنّ، والاختيار كسر الكل لأنه من قول الجنّ لقومهم، فهو معطوف على قوله: ﴿ **فقالوا إنّا سمعنا قرآناً عجباً** ﴾، وقالوا: ﴿ **وأنه تعالى** ﴾ ومَن فتح على قوله: ﴿ **فآمنّا به** ﴾ وآمنّا بكل ذلك، ففتح (أن) لوقوع الإيمان عليه، ﴿ **جَدُّ ربّنا** ﴾ جلال ربّنا وعظمته، قاله مجاهد وعكرمة وقتادة، يقال: جَدّ

«ولا ينفع ذا الجد منك الجد» أي لا ينفع ذا الغنى غناه. وقال ابن عباس عظمت قدرة ربنا وقيل أمر ربنا وقيل فعله وقيل آلاؤه ونعماؤه على خلقه وقيل علا ملك ربنا **﴿ما اتخذ صاحبة ولا ولداً﴾** أي أنه تعالى جلال ربنا وعظمته عن أن يتخذ صاحبة أو ولداً لأن الصاحبة تتخذ للحاجة والولد للاستئناس به والله تعالى منزه عن كل نقص **﴿وأنه كان يقول سفيهنا﴾** يعني جاهلنا قيل هو إبليس **﴿على الله شططاً﴾** أي كذباً وعدواناً وهو وصفه تعالى بالشريك والولد أي الشطط وهو مجاوزة الحد في كل شيء.

﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۝٥ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۝٦ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا۟ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا ۝٧ وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ۝٨ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ۝٩﴾

﴿وأنا ظننا أن لن تقول الإنس والجن على الله كذباً﴾ أي كنا نظن أن الإنس والجن صادقون في قولهم إن لله صاحبة وولداً وأنهم لا يكذبون على الله في ذلك فلما سمعنا القرآن علمنا أنهم قد كذبوا على الله.

قوله تعالى: **﴿وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن﴾** وذلك أن الرجل من العرب في الجاهلية كان إذا سافر فأمسى في أرض قفر قال أعوذ بسيد هذا الوادي من شر سفهاء قومه فيبيت في أمن وجوار منهم حتى يصبح. روى البغوي بإسناد الثعلبي عن كردم بن أبي السائب الأنصاري قال خرجت مع أبي إلى المدينة في حاجة وذلك أول ما ذكر رسول الله ﷺ بمكة فآوانا المبيت إلى راعي غنم فلما انتصف الليل جاء ذئب فأخذ حملاً من الغنم فوثب الراعي فقال: يا عامر الوادي جارك فنادى مناد لا نراه يا سرحان أرسله فأتى الحمل يشتد حتى دخل الغنم ولم تصبه كدمته فأنزل الله على رسوله ﷺ بمكة وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن، **﴿فزادوهم رهقاً﴾** وذكره ابن

الرجل أي عظم، ومنه قول أنس: إذا كان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران جَدّ فينا، أي عظم قدره، وقال السدي: **﴿ جدّ ربّنا ﴾** أي أمر ربنا. وقال الحسن: غنى ربنا. ومنه قيل للجدّ: حظ، ورجل مجدود. وقال ابن عباس: قدرة ربنا. قال الضحاك: فعله. وقال القرظي: آلاؤه ونعماؤه على خلقه. وقال الأخفش: علا ملك ربنا. **﴿ ما اتخذ صاحبةً ولا ولداً ﴾**، قيل: تعالى جلاله وعظمته عن أن يتخذ صاحبةً وولداً.

﴿ وأنه كان يقول سفيهنا ﴾، هو إبليس، **﴿ على الله شططاً ﴾**، كذباً وعدواناً وهو وصفه بالشريك والولد.

﴿ وأنّا ظننا ﴾، حسبنا، **﴿ أن لن تقول الإنس والجنّ ﴾**، قرأ يعقوب **﴿ تقول ﴾** بفتح الواو وتشديدها، **﴿ على الله كذباً ﴾**، أي كنّا نظنهم في قولهم إن لله صاحبةً وولداً حتى سمعنا القرآن.

قال الله: **﴿ وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجنّ ﴾**، وذلك أن الرجل من العرب في الجاهلية كان إذا سافر فأمسى في هذا الوادي من شرّ أرض قفر، قال: أعوذ بسيد سفهاء قومه، فيبيت في أمن وجوار منهم حتى يصبح، أخبرنا أحمد بن إبراهيم الشريحي أنا أبو إسحاق الثعلبي أنا ابن فنجويه ثنا عبد الله بن يوسف بن أحمد بن مالك ثنا أبو القاسم عبد الله بن محمد بن إسحاق المروزي ثنا موسى بن سعيد بن النعمان بن برطوس ثنا فروة بن أبي المعز الكندي ثنا القاسم بن مالك عن عبد الرحمن بن إسحاق عن أبيه عن كردم بن أبي سائب الأنصاري قال: خرجت مع أبي إلى المدينة في حاجة وذلك أول ما ذكر رسول الله ﷺ بمكة، فآوانا المبيت إلى راعي غنم، فلما انتصف الليل جاء ذئب فأخذ حملاً من الغنم، فوثب الراعي فقال: يا عامر الوادي جارك فنادى منادٍ لا نراه، يقول يا سرحان أرسله فأتى الحمل يشتدّ حتى دخل الغنم ولم تصبه كدمته، فأنزل الله عزّ وجلّ على

الجوزي في تفسيره بغير سند ومعنى الآية زاد الإنس الجن باستعاذتهم بقادتهم رهقاً، قال ابن عباس إثماً. وقيل طغياناً وقيل غياً وقيل شراً وقيل عظمة وذلك أنهم كانوا يزدادون بهذا التعوذ طغياناً وعظمة ويقولون يعني عظماء الجن سدنا الجن والإنس. والرهق في كلام العرب الإثم وغشيان المحارم ﴿وأنهم ظنوا﴾ يعني الجن ﴿كما ظننتم﴾ أي يا معشر الكفار من الإنس ﴿أن لن يبعث الله أحداً﴾ يعني يقول الجن وأنا ﴿لمسنا السماء﴾ أي طلبنا بلوغ السماء الدنيا واستماع كلام أهلها ﴿فوجدناها ملئت حرساً﴾ يعني من الملائكة ﴿شديداً وشهباً﴾ أي من النجوم ﴿وأنا كنا نقعد منها﴾ أي من السماء ﴿مقاعد للسمع﴾ يعني كنا نجد فيها بعض المقاعد خالية من الحرس والشهب والآن قد ملئت المقاعد كلها ﴿فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصداً﴾ أي أرصد له ليرمى به. وقيل شهاباً من الكواكب ورصداً من الملائكة، عن ابن عباس قال «كان الجن يصعدون إلى السماء يستمعون الوحي فإذا سمعوا الكلمة زادوا عليها تسعاً، فأما الكلمة فتكون حقاً وأما ما زاد فيكون باطلاً. فلما بعث رسول الله ﷺ منعوا مقاعدهم فذكروا ذلك لإبليس ولم تكن النجوم يرمى بها قبل ذلك فقال لهم إبليس ما هذا إلا من أمر قد حدث في الأرض فبعث جنوده فوجدوا رسول الله ﷺ قائماً يصلي بين جبلين أراه قال بمكة فأخبروه فقال هذا الحدث في الأرض»، أخرجه الترمذي وقال حديث حسن صحيح. وقال ابن قتيبة إن الرجم كان قبل مبعث النبي ﷺ ولكن لم يكن مثل ما كان بعد مبعثه في شدة الحراسة وكانوا يسترقون في بعض الأحوال فلما بعث منعوا من ذلك أصلاً فعلى هذا القول يكون حمل الجن على الضرب في الأرض. وطلب السبب إنما كان لكثرة الرجم ومنعهم عن الاستراق بالكلية.

وَأَنَّا لَا نَدْرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾ وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا ﴿١٢﴾ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾ وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾ وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾

﴿وأنا لا ندري أشر أريد بمن في الأرض﴾ أي برمي الشهب ﴿أم أراد بهم ربهم رشداً﴾ ومعنى الآية لا ندري هل

رسوله ﷺ بمكة ﴿ وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجنّ ﴾، ﴿ فزادوهم ﴾، يعني زاد الإنسُ والجنُّ باستعاذتهم بقادتهم، ﴿ رهقاً ﴾، قال ابن عباس: إثماً. وقال مجاهد: طغياناً. وقال مقاتل: غيّاً. قال الحسن: شرّاً. قال إبراهيم: عظمة وذلك أنهم كانوا يزدادون بهذا التعوّذ طغياناً، يقولون: سدنا الجنّ والإنس، والرهق في كلام العرب الإثم وغشيان المحارم.

﴿ وأنهم ظنوا ﴾، يقول الله تعالى إن الجنّ ظنوا، ﴿ كما ظننتم ﴾، يا معشر الكفّار من الإنس، ﴿ أن لن يبعث الله أحداً ﴾، بعد موته.

﴿ وأنا ﴾، يقول الجنّ، ﴿ لمسنا السماء ﴾، قال الكلبي: السماء الدنيا، ﴿ فوجدناها مُلِئت حرساً شديداً ﴾، من الملائكة ﴿ وشهباً ﴾، من النجوم.

﴿ وأنّا كنّا نقعد منها ﴾، من السماء، ﴿ مقاعد للسمع ﴾، أي كنّا نستمع، ﴿ فمَن يستمع الآن يجد له شهَاباً رصداً ﴾، أرصد له ليرمى به، قال ابن قتيبة: إن الرجم كان قبل مبعث النبي ﷺ ولكن لم يكن مثل ما كان بعد مبعثه في شدّة الحراسة، وكان يسترقّون في بعض الأحوال، فلما بعث النبي ﷺ منعوا من ذلك أصلاً ثم قالوا:

﴿ وأنّا لا ندري أشرٌّ أُريدَ بمَن في الأرض ﴾، برمي الشهب، ﴿ أم أراد بهم ربّهم رشداً ﴾.

المقصود من المنع من الاستراق هو شر أريد بأهل الأرض أم أريد بهم صلاح وخير **﴿وأنا منا الصالحون﴾** أي المؤمنون المخلصون **﴿ومنا دون ذلك﴾** أي دون الصالحين مرتبة. قيل المراد بهم غير الكاملين في الصلاح وهم المقتصدون فيدخل فيهم الكافر وغيره **﴿كنا طرائق قدداً﴾** أي جماعات متفرقين وأصنافاً مختلفة والقدة القطعة من الشيء، قال مجاهد يعنون مسلمين وكافرين. وقيل أهواء مختلفة وشيعاً متفرقة لكل فرقة هوى كأهواء الناس وذلك أن الجن فيهم القدرية والمرجئة والرافضة والخوارج وغير ذلك من أهل الأهواء، فعلى هذا التفسير يكون معنى طرائق قدداً أي سنصير طرائق قدداً وهو بيان للقسمة المذكورة أي كنا ذوي مذاهب مختلفة متفرقة، وقيل معناه كنا في اختلاف أحوالنا مثل الطرائق المختلفة **﴿وأنا ظننا﴾** الظن هنا بمعنى العلم واليقين أي علمنا وأيقنا **﴿أن لن نعجز الله في الأرض﴾** أي لن نفوته إن أراد بنا أمراً **﴿ولن نعجزه هرباً﴾** أي إن طلبنا فلن نعجزه أينما كنا **﴿وأنا لما سمعنا الهدى آمنا به﴾** أي لما سمعنا القرآن آمنا به وبمحمد ﷺ **﴿فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخساً﴾** أي نقصاناً من عمله وثوابه **﴿ولا رهقاً﴾** يعني ظلماً وقيل مكروهاً يغشاه **﴿وأنا منا المسلمون﴾** وهم الذين آمنوا بالنبي ﷺ **﴿ومنا القاسطون﴾** أي الجائرون العادلون عن الحق، قال ابن عباس وهم الذين جعلوا لله أنداداً **﴿فمن أسلم فأولئك تحروا رشداً﴾** أي قصدوا طريق الله وتوخوه **﴿وأما القاسطون﴾** يعني الذين كفروا **﴿فكانوا لجهنم حطباً﴾** يعني وقوداً للنار يوم القيامة.

فإن قلت قد يتمسك بظاهر هذه الآية من لا يرى لمؤمني الجن ثواباً وذلك لأن الله تعالى ذكر عقاب الكافرين منهم ولم يذكر ثواب المؤمنين منهم.

قلت ليس فيه تمسك له وكفى بقوله فأولئك تحروا رشداً فذكر سبب الثواب والله أعدل وأكرم من أن يعاقب القاسط ولا يثيب الراشد.

فإن قلت كيف يعذب الجن بالنار وقد خلقوا منها.

﴿ وأنّا منّا الصالحون ومنّا دون ذلك ﴾، دون الصالحين، **﴿ كنّا طرائق قِدداً ﴾**، أي جماعات متفرقين وأصنافاً مختلفة، والقدة: القطعة من الشيء، يقال: صار القوم قدداً إذا اختلف حالاتهم، وأصلها من القدّ وهو القطع، قال مجاهد: يعنون مسلمين وكافرين، وقيل: أهواء مختلفة. وقال الحسن والسدي: الجنّ أمثالكم فمنهم قدرية ومرجئة ورافضة. وقال ابن كيسان: شيعاً وفِرَقاً ولكل فرقة هوىً كأهواء الناس. وقال سعيد بن جبير: ألواناً شتّى. وقال أبو عبيدة: أصنافاً.

﴿ وأنّا ظننّا ﴾، علمنا وأيقنّا، **﴿ أن لن نعجز اللّهَ في الأرض ﴾**، أي لن نفوته إن أراد بنا أمراً، **﴿ ولن نعجزه هرباً ﴾**، إن طلبنا.

﴿ وأنّا لمّا سمعنا الهدى ﴾، القرآن وما أتى به محمد، **﴿ آمنّا به فمَن يؤمن بربه فلا يخاف بخساً ﴾**، نقصاناً من عمله وثوابه، **﴿ ولا رَهَقاً ﴾**، ظمأ. وقيل: مكروهاً يغشاه.

﴿ وأنّا منّا المسلمون ﴾، وهم الذين آمنوا بمحمد ﷺ، **﴿ ومنّا القاسطون ﴾**، الجائرون العادلون عن الحق. قال ابن عباس: الذين جعلوا لله نداً، يقال: أقسط الرجل إذا عدل فهو مقسط، وقسط إذا جار فهو قاسط. **﴿ فمَن أسلم فأولئك تحرّوا رشداً ﴾**، أي قصدوا طريق الحق وتوخّوه.

﴿ وأما القاسطون ﴾، الذين كفروا، **﴿ فكانوا لجهنم حطباً ﴾**، كانوا وقود النار يوم القيامة.

ثم رجع إلى كفّار مكة فقال: **﴿ وأنْ لو استقاموا على الطريقة ﴾**، اختلفوا في تأويلها، فقال قوم: لو استقاموا

قلت وإن خلقوا من النار فقد تغيروا عن تلك الهيئة وصاروا خلقاً آخر والله تعالى قادر أن يعذب النار بالنار قوله عز وجل: ﴿**وأن لو استقاموا على الطريقة**﴾.

اختلفوا فيمن يرجع الضمير إليه فقيل هو راجع إلى الجن الذين تقدم ذكرهم ووصفهم والمعنى لو استقام الجن على الطريقة المثلى الحسنى لأنعمنا عليهم وإنما ذكر الماء كناية عن طيب العيش وكثرة المنافع وقيل معناه لو ثبت الجن الذين سمعوا القرآن. على الطريقة التي كانوا عليها قبل استماع القرآن ولم يسلموا ﴿**لأسقيناهم ماء غدقاً**﴾ أي لوسعنا الرزق عليهم.

لِّنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِۚ وَمَن يُعۡرِضۡ عَن ذِكۡرِ رَبِّهِۦ يَسۡلُكۡهُ عَذَابٗا صَعَدٗا ﴿١٧﴾ وَأَنَّ ٱلۡمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدۡعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدٗا ﴿١٨﴾ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبۡدُ ٱللَّهِ يَدۡعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيۡهِ لِبَدٗا ﴿١٩﴾

﴿**لنفتنهم فيه**﴾ وقيل الضمير راجع إلى الإنس وتم الخبر عن الجن ثم رجع إلى خطاب الإنس فقال تعالى: ﴿**وأن لو استقاموا**﴾ يعني كفار مكة على الطريقة يعني على طريقة الحق والإيمان والهدى وكانوا مؤمنين مطيعين «لأسقيناهم ماء غدقاً» يعني كثيراً وذلك بعد ما رفع عنهم المطر سبع سنين.

والمعنى لو آمنوا لوسعنا عليهم في الدنيا ولأعطيناهم ماء كثيراً وعيشاً رغداً. وإنما ذكر الماء الغدق مثلاً لأن الخير والرزق كله أصله من المطر وقوله «لنفتنهم فيه» أي لنختبرهم كيف شكرهم فيما خولوا فيه. وقيل في معنى الآية لو استقاموا أي ثبتوا على طريقة الكفر والضلالة لأعطيناهم مالاً كثيراً ولوسعنا عليهم لنفتنهم فيه عقوبة لهم واستدراجاً لهم حتى يفتنوا به فنعذبهم والقول الأول أصح لأن الطريقة معرفة بالألف واللام وهي طريقة الهدى والقول بأن الآية في الإنس أولى لأن الإنس هم الذين ينتفعون بالمطر ﴿**ومن يعرض عن ذكر ربه**﴾ أي عن عبادة ربه وقيل عن مواعظه

على طريقة الحق والإيمان والهدى فكانوا مؤمنين مطيعين، ﴿ **لأسقيناهم ماءً غدقاً** ﴾، كثيراً، قال مقاتل: وذلك بعدما رفع عنهم المطر سبع سنين. وقالوا: معناه لو آمنوا لَوسّعنا عليهم في الدنيا وأعطيناهم مالاً كثيراً وعيشاً رغداً، وضرب الماء الغدق مثلاً لأن الخير والرزق كله في المطر، كما قال: ﴿ ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أُنزل إليهم من ربّهم لأكلوا من فوقهم ﴾ [المائدة: ٦٦]، الآية. وقال: ﴿ لو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء ﴾ [الأعراف: ٩٦] الآية.

وقوله تعالى: ﴿ **لنفتنهم فيه** ﴾، أي لنختبرهم كيف شكرهم فيما خُوّلوا. وهذا قول سعيد بن المسيب وعطاء بن أبي رواح والضحاك وقتادة ومقاتل والحسن. وقال آخرون: معناها وأن لو استقاموا على طريقة الكفر والضلالة لأعطيناهم مالاً كثيراً ولوسّعنا عليهم لنفتنهم فيه عقوبة لهم واستدراجاً حتى يفتتنوا بها فنعذبهم، وهذا قول الربيع بن أنس وزيد بن أسلم والكلبي وابن كيسان، كما قال الله: ﴿ فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء ﴾ [الأنعام: ٤٤] الآية. ﴿ **ومَن يُعرِضْ عن ذكر ربّه يسلكه** ﴾، قرأ أهل الكوفة ويعقوب ﴿ **يسلكه** ﴾ بالياء، وقرأ الآخرون بالنون، أي ندخله، ﴿ **عذاباً صَعَداً** ﴾، قال ابن عباس شاقّاً، والمعنى ذا صعد أي ذا مشقّة. قال قتادة: لا راحة فيه. وقال مقاتل: لا فرح فيه. قال الحسن: لا يزداد إلّا شدّة. والأصل فيه أن الصعود يشقّ على الإنسان.

﴿ **وأن المساجد لله** ﴾، يعني المواضع التي بُنيت للصلاة وذكر الله، ﴿ **فلا تدعوا مع الله أحداً** ﴾، قال قتادة: كانت اليهود والنصارى إذا دخلوا كنائسهم وبِيَعهم أشركوا بالله، فأمر الله المؤمنين أن يُخلِصوا لله الدعوة إذا دخلوا

﴿يسلكه﴾ أي يدخله ﴿عذاباً صعداً﴾، قال ابن عباس شاقاً وقيل عذاباً لا راحة فيه وقيل لا يزداد إلا شدة.

قوله تعالى: ﴿وأن المساجد لله﴾ يعني المواضع التي بنيت للصلاة والعبادة، وذكر الله تعالى فيدخل فيه مساجد المسلمين والكنائس والبيع التي لليهود والنصارى ﴿فلا تدعوا مع الله أحداً﴾ قال قتادة كان اليهود والنصارى إذا دخلوا كنائسهم وبيعهم أشركوا بالله فيها فأمر الله عز وجل المؤمنين أن يخلصوا الدعوة لله إذا دخلوا المساجد كلها. وقيل أراد بالمساجد بقاع الأرض كلها لأن الأرض كلها جعلت مسجداً للنبي ﷺ فعلى هذا يكون المعنى فلا تسجدوا على الأرض لغير الله تعالى، قال سعيد بن جبير «قالت الجن للنبي ﷺ كيف لنا أن نشهد معك الصلاة ونحن ناؤون عنك فنزلت وأن المساجد لله» وروي عنه أيضاً أن المراد بالمساجد الأعضاء التي يسجد عليها الإنسان وهي سبعة الجبهة واليدان والركبتان والقدمان والمعنى أن هذه الأعضاء التي يقع عليها السجود مخلوقة لله فلا تسجدوا عليها لغيره، (م) عن العباس بن عبد المطلب أنه سمع النبي ﷺ يقول «إذا سجد العبد سجد معه سبعة آراب وجهه وكفاه وركبتاه وقدماه» الآراب الأعضاء، (ق) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال «أمرنا النبي ﷺ أن نسجد على سبعة أعضاء وأن لا نكف شعراً ولا ثوباً: الجبهة واليدين والركبتين والقدمين» وفي رواية أن النبي ﷺ قال «أمرت أن أسجد على سبعة أعضاء على الجبهة وأشار بيده إلى أنفه واليدين والركبتين وأطراف القدمين ولا نكفف الثياب ولا الشعر» كف شعره عقصه وغرز طرفه في أعلى الضفيرة وقد نهي عن ذلك.

قوله عز وجل: ﴿وأنه لما قام عبد الله﴾ يعني النبي ﷺ ﴿يدعوه﴾ يعني يعبد الله ويقرأ القرآن وذلك حين كان يصلي الفجر ببطن نخلة ﴿كادوا﴾ يعني الجن ﴿يكونون عليه لبداً﴾ يعني يركب بعضهم بعضاً من الازدحام عليه حرصاً على استماع القرآن، قاله ابن عباس. وعنه أيضاً أنه من قول النفر من الجن الذين رجعوا إلى قومهم فأخبروهم عن طاعة أصحاب النبي ﷺ له واقتدائهم به في الصلاة. وقيل في معنى الآية لما قدم عبد الله بالدعوة تلبدت الإنس والجن

المساجد وأراد بها المساجد كلها. وقال الحسن: أراد بها البقاع كلها لأن الأرض جُعِلَت كلها مسجداً للنبي ﷺ. وقال سعيد بن جبير: قالت الجنّ للنبي ﷺ: كيف لنا أن نشهد معك الصلاة ونحن نـاؤن؟ فنزلت: ﴿ وأن المساجد لله ﴾. ورُوِيَ عن سعيد بن جبير أيضاً: أن المراد بالمساجد الأعضاء التي يسجد عليها الإنسان وهي سبعة: الجبهة واليدان والركبتان والقدمان، يقول: هذه الأعضاء التي يقع عليها السجود مخلوقة لله فلا تسجدوا عليها لغيره. أخبرنا أبو سعيد أحمد بن محمد بن العباس الحميدي أنا أبو عبد الله محمد بن عبد الله الحافظ أنا عبد الله محمد بن يعقوب ثنا علي بن الحسن الهلالي والسري بن خزيمة قالا ثنا يعلى بن أسد ثنا وهيب عن عبد الله بن طاوس عن أبيه عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «أُمِرتُ أن أسجد على سبعة أعضاء الجبهة، وأشار بيده إليها، واليدين والركبتين وأطراف القدمين، ولا أكفّ الثوب ولا الشعر»، فإن جعلت المساجد مواضع الصلاة فواحدها مسجد بكسر الجيم، وإن جعلتها الأعضاء فواحدها مسجد بفتح الجيم.

﴿ وأنه ﴾، قرأ نافع وأبو بكر بكسر الهمزة، وقرأ الباقون بفتحها، ﴿ لمّا قام عبد الله ﴾، يعني النبي ﷺ، ﴿ يدعوه ﴾، يعني يعبده ويقرأ القرآن وذلك حين كان يصلّي ببطن نخلة ويقرأ القرآن، ﴿ كادوا ﴾، يعني الجنّ، ﴿ يكونون عليه لبداً ﴾، أي يركب بعضهم بعضاً، ويزدحمون حرصاً على استماع القرآن، هذا قول الضحاك ورواية عطية عن ابن عباس. وقال سعيد بن جبير عنه: هذا من قول النفر الذين رجعوا إلى قومهم من الجنّ أخبروهم بما رأوا من طاعة أصحاب النبي ﷺ واقتدائهم به في الصلاة. وقال الحسن وقتادة وابن زيد: يعني لمّا قام عبد الله بالدعوة تلبّدت الإنس والجنّ، وتظاهروا عليه ليبطلوا الحق الذي جاءهم به، ويطفؤوا نور الله فأبى الله إلاّ

وتظاهروا عليه ليبطلوا الحق الذي جاءهم به ويطفئوا نور الله فأبى الله إلا أن يتم نوره ويظهر هذا الأمر وينصره على من ناوأه وعاداه. وأصل اللبد الجماعة بعضهم فوق بعض.

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّي وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦۚ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾ قُلْ إِنْ أَدْرِيٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّيٓ أَمَدًا ﴿٢٥﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾﴾

﴿قل﴾ يعني النبي ﷺ وقرىء على الأمر ﴿إنما أدعو ربي﴾ وذلك أن كفار مكة قالوا للنبي ﷺ لقد جئت بأمر عظيم فارجع عنه فنحن نجيرك فقال لهم النبي ﷺ «إنما أدعو ربي ﴿ولا أشرك به أحداً قل إني لا أملك لكم ضراً ولا رشداً﴾» أي لا أقدر على أن أدفع عنكم ضراً ولا أسوق إليكم رشداً وإنما الضار والنافع والمرشد والمغوي هو الله تعالى. ﴿قال إني لن يجيرني من الله أحد﴾ أي لن يمنعني منه أحد إن عصيته ﴿ولن أجد من دونه ملتحداً﴾ أي ملجأ ألجأ إليه. وقيل حرزاً أحترز به وقيل مدخلاً في الأرض مثل السرب أدخل فيه ﴿إلا بلاغاً من الله ورسالاته﴾ أي ففيه الجوار والأمن والنجاة. وقيل معناه ذلك الذي يجبرني من عذاب الله يعني التبليغ وقيل إلا بلاغاً من الله فذلك الذي أملكه بعون الله وتوفيقه. وقيل معناه لا أملك لكم ضراً ولا رشداً لكن أبلغ بلاغاً عن الله عز وجل فإنما أنا مرسل لا أملك إلا ما ملكت، ﴿ومن يعص الله ورسوله﴾ يعني ولم يؤمن ﴿فإن له نار جهنم خالدين فيها أبداً حتى إذا رأوا ما يوعدون﴾ يعني العذاب يوم القيامة ﴿فسيعلمون﴾ أي عند نزول العذاب ﴿من أضعف ناصراً وأقل عدداً﴾ أهم أم المؤمنون ﴿قل إن أدري﴾ أي ما أدري ﴿أقريب ما توعدون﴾ يعني العذاب وقيل يوم القيامة ﴿أم يجعل له ربي أمداً﴾ أي أجلاً وغاية تطول مدتها والمعنى أن علم وقت العذاب غيب لا يعلمه إلا الله عز وجل ﴿عالم الغيب﴾ أي هو عالم ما غاب عن العباد ﴿فلا يظهر﴾ أي فلا يطلع ﴿على غيبه﴾ أي الغيب الذي يعلمه وانفرد به ﴿أحداً﴾ أي من الناس ثم استثنى فقال تعالى: ﴿إلا من ارتضى من رسول﴾ يعني إلا من يصطفيه

أن يتمّ نوره، ويتمّ هذا الأمر وينصره على مَن ناوأه. وقرأ هشام عن ابن عامر ﴿ لبداً ﴾ بضمّ اللام، وأصل اللّبد الجماعات بعضها فوق بعض، ومنه سُمّي اللبد الذي يفرش لتراكمه وتلبّد الشعر إذا تراكم.

﴿ قلْ إنما أدعوا ربّي ﴾، قرأ أبو جعفر وعاصم وحمزة ﴿ قل ﴾ على الأمر، وقرأ الآخرون (قال) يعني رسول الله ﷺ: «إنما أدعو ربّي»، قال مقاتل: وذلك أن كفّار مكّة قالوا للنبي ﷺ: لقد جئت بأمر عظيم فارجع عنه فنحن نُجيرك، فقال لهم: «إنما أدعو ربّي»، ﴿ ولا أُشرك به أحداً ﴾.

﴿ قل إني لا أملك لكم ضرّاً ﴾، لا أقدر أن أدفع عنكم ضرّاً، ﴿ ولا رشداً ﴾، أي لا أسوق لكم أو إليكم رشداً، أي خيراً يعني أن الله يملكه.

﴿ قلْ إني لن يجيرني من الله أحد ﴾، لن يمنعني منه أحد إن عصيته. ﴿ ولن أجد من دونه ملتحداً ﴾، ملجأ أميل إليه. ومعنى الملتحد أي المائل، قال السدي: حرزاً. وقال الكلبي: مدخلاً في الأرض مثل السرب.

﴿ إلاّ بلاغاً من الله ورسالاته ﴾، ففيه الجوار والأمن والنجاة، قاله الحسن. قال مقاتل: ذلك الذي يُجيرني

لرسالته ونبوته فيظهره على ما يشاء من الغيب حتى يستدل على نبوته بما يخبر به من المغيبات فيكون ذلك معجزة له وآية دالة على نبوته. قال الزمخشري وفي هذا إبطال الكرامات لأن الذين تضاف إليهم الكرامات وإن كانوا أولياء مرتضين فليسوا برسل وقد خص الله الرسل من بين المرتضين بالاطلاع على الغيب وفيه أيضاً إبطال الكهانة والتنجيم لأن أصحابهما أبعد شيء من الارتضاء وأدخله في السخط. قال الواحدي وفي هذا دليل على أن من ادعى أن النجوم تدله على ما يكون من حياة أو موت ونحو ذلك فقد كفر بما في القرآن. فأما الزمخشري فأنكر كرامات الأولياء جرياً على قاعدة مذهبه في الاعتزال ووافق الواحدي وغيره من المفسرين في إبطال الكهانة والتنجيم قال الإمام فخر الدين ونسبة الآية في الصورتين واحدة فإن جعل الآية دالة على المنع من أحكام النجوم فينبغي أن يجعلها دالة على المنع من الكرامات قال: وعندي أن الآية لا دلالة فيها على شيء من ذلك والذي تدل عليه أن قوله ﴿**فلا يظهر على غيبه أحداً**﴾ ليس فيه صيغة عموم فيكفي في العمل بمقتضاه أن لا يظهر الله تعالى خلقه على غيب واحد من غيوبه فنحمله على وقت وقوع القيامة، فيكون المراد من الآية أنه تعالى لا يظهر هذا الغيب لأحد فلا يبقى في الآية دلالة على أنه لا يظهر شيئاً من الغيوب لأحد ثم إنه يجوز أن يطلع الله على شيء من المغيبات غير الرسل كالكهنة وغيرهم وذكر ما يدل على صحة قوله.

والذي ينبغي أن مذهب أهل السنة إثبات كرامات الأولياء خلافاً للمعتزلة وأنه يجوز أن يلهم الله بعض أوليائه وقوع بعض الوقائع في المستقبل فيخبر به وهو من إطلاع الله إياه على ذلك. ويدل على صحة ذلك ما روي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ «لقد كان فيمن كان قبلكم من الأمم ناس محدثون من غير أن يكونوا أنبياء وإن يكن في أمتي أحد فإنه عمر بن الخطاب» أخرجه البخاري قال ابن وهب تفسير محدثون ملهمون.

ولمسلم عن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ أنه كان يقول «قد كان يكون في الأمم قبلكم محدثون فإن يكن في أمتي منهم أحد فإن عمر بن الخطاب منهم»، ففي هذا إثبات كرامات الأولياء ولا يقال لو جازت الكرامة للولي لما تميزت معجزة النبي عن غيرها ولا نسد الطريق إلى معرفة الرسول من غيره فنقول الفرق بين معجزة النبي وكرامة الولي أن المعجزة أمر خارق للعادة مع عدم المعارضة مقرون بالتحدي، ولا يجوز للولي أن يدعي خرق العادة مع التحدي إذ لو ادعاه الولي لكفر من ساعته فبان الفرق بين المعجزة والكرامة وقد يظهر على يد الولي أمر خارق للعادة من غير دعواه. وهذا أيضاً يدل على ثبوت نبوة النبي لأن الكرامة إنما تظهر على يد من هو معتقد للرسول متابع له فلو لم تكن

من عذاب الله، يعني التبليغ. وقال قتادة: إلّا بلاغاً من الله فذلك الذي أملكه بعون الله وتوفيقه. وقيل: لا أملك لكم ضرّاً ولا رشداً لكن أبلغ بلاغاً من الله فإنما أنا مُرسَل به لا أملك إلّا ما ملكت. ﴿ **ومَن يعصِ اللَّهَ ورسولَهُ** ﴾، ولم يؤمن، ﴿ **فإن له نار جهنم خالدين فيها أبداً** ﴾.

﴿ **حتى إذا رأوا ما يُوعدون** ﴾، يعني العذاب يوم القيامة، ﴿ **فسيعلمون** ﴾، عند نزول العذاب، ﴿ **مَن أضعف ناصراً وأقلّ عدداً** ﴾، أهم أم المؤمنون.

﴿ **قلْ إنْ أدري** ﴾، أي ما أدري، ﴿ **أقريب ما توعدون** ﴾، من العذاب وقيل يوم القيامة، ﴿ **أم يجعل له ربّي أمداً** ﴾.

﴿ **عالم الغيب** ﴾، رفع على نعت أجلاً وغايةً تطول مدّتها يعني: أن علم وقت العذاب غيب لا يعلمه إلّا الله. قوله: ﴿ **ربّي** ﴾، وقيل: هو عالم الغيب؛ ﴿ **فلا يظهر** ﴾، لا يطلع، ﴿ **على غيبه أحداً * إلّا مَن ارتضى من رسول** ﴾، إلّا مَن يصطفيه لرسالته فيُظهِره على ما يشاء من الغيب لأنه يستدلّ على نبوّته بالآية المعجزة التي تخبر

نبوته حقاً لما ظهر الخارق على يد متابعه. وأما الكاهن فليس بمتبع للرسول وقد انسد باب الكهانة بمبعث النبي ﷺ فمن ادعى منهم اطلاعاً على غيب فقد كفر بما جاء به القرآن وكذلك حكم المنجم والله تعالى أعلم، وقوله تعالى: ﴿**فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه**﴾ أي من بين يدي الرسول ومن خلفه وذكر البعض دال على جميع الجهات ﴿**رصداً**﴾ أي حفظه من الملائكة يحفظونه من الشيطان أن يسترق السمع من الملائكة ويحفظونه من الجن أن يسمعوا الوحي فيلقوه إلى الكهنة فيخبروا به قبل الرسول. وقيل إن الله تعالى كان إذا بعث رسولاً أتاه إبليس في صورة ملك يخبره فيبعث الله من بين يديه ومن خلفه رصداً من الملائكة يحرسونه ويطردون الشيطان عنه فإذا جاءه شيطان في صورة ملك أخبروه بأنه شيطان فاحذره وإن جاء ملك قالوا له هذا رسول ربك.

لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا ﴿٢٨﴾

﴿**ليعلم**﴾ أي ليعلم محمد ﷺ ﴿**أن**﴾ أي أن جبريل قد بلغ إليه رسالات ربه وقيل معناه ليعلم محمد أن الرسل قبله قد أبلغوا رسالات ربهم وأن الله قد حفظهم ودفع عنهم. وقيل معناه ليعلم الله أن الرسل ﴿**قد أبلغوا رسالات ربهم**﴾ فيعلم الله ذاك ظاهراً موجوداً فيوجب فيه الثواب ﴿**وأحاط بما لديهم**﴾ أي علم الله ما عند الرسل فلا يخفى عليه شيء من أمورهم ﴿**وأحصى كل شيء عدداً**﴾ قال ابن عباس أحصى ما خلق وعرف ما خلق لم يفته شيء حتى مثاقيل الذر والخردل، والله سبحانه وتعالى أعلم بمراده وأسرار كتابه.

عن الغيب، ﴿ **فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً** ﴾، ذكر بعض الجهات دلالة على جميعها رصداً أي يجعل بين يديه وخلفه حَفَظَة من الملائكة يحفظونه من الشياطين أن يسترقوا السمع، ومن الجنّ أن يستمعوا الوحي فيلقوا إلى الكهنة. قال مقاتل وغيره: كان الله إذا بعث رسولاً أتاه إبليس في صورة ملك يخبره فيبعث الله من بين يديه ومن خلفه رصداً من الملائكة يحرسونه ويطردون الشياطين، فإذا جاءه شيطان في صورة ملك أخبروه بأنه شيطان، فاحذره وإذا جاءه ملك قالوا له: هذا رسول ربك.

﴿ **ليعلم** ﴾، قرأ يعقوب ليعلم بضمّ الياء أي ليعلم الناس، ﴿ **أن** ﴾ الرسل، ﴿ **قد أُبلغوا** ﴾، وقرأ الآخرون بفتح الياء أي ليعلم الرسول أن الملائكة قد أبلغوا، ﴿ **رسالات ربّهم وأحاط بما لديهم** ﴾، أي علم الله ما عند الرسل فلم يُخفَ عليه شيء، ﴿ **وأحصى كل شيء عدداً** ﴾، قال ابن عباس: أحصى ما خلق وعرف عدد ما خلق فلم يفته علم شيء حتى مثاقيل الدرّ والخردل، ونصب ﴿ **عدداً** ﴾ على الحال، وإن شئت على المصدر، أي عدّ عدداً.

سورة المزمل

مكية قيل غير آيتين منها وهما قوله ﴿واصبر على ما يقولون﴾ وقيل غير آية وهي ﴿إن ربك يعلم أنك تقوم﴾ الآية وهي عشرون آية ومائتان وخمس وثمانون كلمة وثمانمائة وثمانية وثلاثون حرفاً

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾

قوله عز وجل: ﴿يا أيها المزمل﴾ هذا خطاب للنبي ﷺ وأصله المتزمل وهو الذي تزمل في ثيابه أي تلفف.

قال المفسرون كان النبي ﷺ يتزمل في ثيابه أول ما جاءه جبريل فرقاً منه فكان يقول زملوني زملوني حتى أنس به. وقيل خرج يوماً من البيت وقد لبس ثيابه فناداه جبريل يا أيها المزمل، وقيل معناه متزمل النبوة أي حاملها والمعنى زملت هذا الأمر فقم به واحمله فإنه أمر عظيم وإنما لم يخاطب بالنبي والرسول لأنه كان في أول الأمر ومبدئه، ثم خوطب بالنبي والرسول بعد ذلك، وقيل كان ﷺ قد نام وهو متزمل في ثوبه فنودي يا أيها المزمل ﴿قم الليل﴾ أي للصلاة والعبادة واهجر هذه الحالة واشتغل بالصلاة والعبودية وكان قيام الليل فريضة في ابتداء الإسلام ﴿إلا قليلاً﴾ أي صل الليل إلا قليلاً تنام فيه وهو الثلث ثم بين قدر القيام فقال تعالى: ﴿نصفه﴾ أي قم نصف الليل ﴿أو انقص منه قليلاً﴾ أي إلى الثلث.

أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾

﴿أو زد عليه﴾ أي على النصف إلى الثلثين خيره بين هذه المنازل فكان النبي ﷺ وأصحابه يقومون على هذه

سُوْرَة المُزمِّل

مكيّة وهي عشرون آية.

﴿يا أيها المزّمّل﴾، أي الملتفف بثوبه، وأصله المتزمّل أُدغمت التاء في الزاي، ومثله المدّثّر أُدغمت التاء في الدال، يقال: تزمّل وتدثّر بثوبه إذا تغطى به. وقال السدي: أراد يا أيها النائم قم فصلِّ. قال الحكماء: كان هذا الخطاب للنبي ﷺ في أول الوحي قبل تبليغ الرسالة ثم خوطب بعد بالنبي والرسول.

﴿ قمِ الليلَ ﴾، أي للصلاة، ﴿ إلاّ قليلاً ﴾، وكان قيام الليل فريضة في الابتداء ثم بيّن قدره فقال:

﴿ نصفه أو أنقصْ منه قليلاً ﴾، إلى الثلث.

﴿ أو زِدْ عليه ﴾، على النصف إلى الثلثين، خيّره بين هذه المنازل، فكان النبي ﷺ وأصحابه يقومون على

المقادير وكان الرجل منهم لا يدري متى ثلث الليل أو متى نصفه أو متى ثلثاه، فكان يقوم الليل كله حتى يصبح مخافة أن لا يحفظ القدر الواجب واشتد ذلك عليهم حتى انتفخت أقدامهم فرحمهم الله وخفف عنهم ونسخها عنهم بقوله ﴿فاقرؤوا ما تيسر منه﴾ قيل ليس في القرآن سورة نسخ آخرها أولها إلا هذه السورة وكان بين نزول أولها ونزول آخرها سنة. وقيل ستة عشر شهراً. وكان قيام الليل فرضاً ثم نسخ بعد ذلك في حق الأمة بالصلوات الخمس وثبتت فريضته على النبي ﷺ بقوله تعالى: ﴿ومن الليل فتهجد به نافلة لك﴾ (م) عن سعد بن هشام قال «انطلقت إلى عائشة فقلت يا أم المؤمنين أنبئيني عن خلق رسول الله ﷺ قالت ألست تقرأ القرآن قلت بلى قالت فإن خلق رسول الله ﷺ كان القرآن. قلت فقيام رسول الله ﷺ يا أم المؤمنين؟ قالت ألست تقرأ المزمل قلت بلى قالت فإن الله افترض القيام في أول هذه السورة فقام رسول الله ﷺ وأصحابه حولاً حتى انتفخت أقدامهم وأمسك الله خاتمتها اثني عشر شهراً في السماء ثم أنزل التخفيف في آخر هذه السورة فصار قيام الليل تطوعاً بعد الفريضة».

وقوله تعالى: ﴿ورتل القرآن ترتيلاً﴾ قال ابن عباس بينه بياناً وعنه أيضاً «اقرأه على هينتك ثلاث آيات وأربعاً وخمساً»، وقيل الترتيل هو التوقف والترسل والتمهل والإفهام وتبيين القراءة حرفاً حرفاً أثره في أثر بعض بالمد والإشباع والتحقيق. وترتيلاً تأكيد في الأمر به وأنه لا بد للقارىء منه، وقيل إن الله تعالى لما أمر بقيام الليل أتبعه بترتيل القرآن حتى يتمكن المصلي من حضور القلب والتأمل والفكر في حقائق الآيات ومعانيها فعند الوصول إلى ذكر الله تعالى يستشعر بقلبه عظمة المذكور وجلاله وعند ذكر الوعد والوعيد يحصل الرجاء والخوف وعند ذكر القصص

هذه المقادير، وكان الرجل لا يدري متى ثلث الليل ومتى النصف ومتى الثلثان، فكان يقوم حتى يصبح مخافة أن لا يحفظ القدر الواجب، واشتدّ ذلك عليهم حتى انتفخت أقدامهم فرحمهم الله وخفّف عنهم ونسخها بقوله: ﴿ فاقرؤوا ما تيسّر من القرآن علم أن سيكون منكم مرضى ﴾ [المزّمّل: ٢٠] الآية، فكان بين أول السورة وآخرها سنة. أخبرنا الإمام أبو علي الحسين بن محمد القاضي أنا أبو نعيم عبد الملك بن الحسن الأسفرايني أنا أبو عوانة يعقوب بن إسحاق الحافظ ثنا الحسن بن علي بن عفّان ثنا يحيىٰ بن بشر ثنا سعيد يعني ابن أبي عروبة ثنا قتادة عن زرادة بن أوفى عن سعيد بن هشام قال: انطلقت إلى عائشة فقلت: يا أُمّ المؤمنين أنبئيني عن خُلق رسول الله ﷺ، فقالتْ: ألستَ تقرأ القرآن؟ قلت: بلى، قالت: فإن خُلق نبيّ الله ﷺ كان القرآن، قلت: فقيام رسول الله ﷺ يا أمّ المؤمنين؟ قالتْ: ألستَ تقرأ ﴿ يا أيّها المزّمّل ﴾؟ قلت: بلى، قالت: فإن الله افترض القيام في أول هذه السورة، فقام رسول الله ﷺ وأصحابه حولاً حتى انتفخت أقدامهم وأمسك الله خاتمتها اثني عشر شهراً في السماء ثم أنزل الله التخفيف في آخر هذه السورة، فصار قيام الليل تطوّعاً بعد الفريضة. قال مقاتل وابن كيسان: كان هذا بمكة قبل أن تُفرَض الصلوات الخمس، ثم نسخ ذلك بالصلوات الخمس، ﴿ ورتّلِ القرآنَ ترتيلاً ﴾، قال ابن عباس: بيّنه بياناً. قال الحسن: أقرأه قراءة بيّنة. قال مجاهد: ترسّل فيه ترسّلاً. قال قتادة: فثبت فيه تثبّتاً. وعن ابن عباس أيضاً: اقرأه على هينتك ثلاث آيات أو أربعاً أو خمساً. أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا عمرو بن عاصم ثنا هشام عن قتادة قال: سُئِلَ أنس كيف كانت قراءة النبي ﷺ؟ فقال: كانت مدّاً مدّاً ثم قرأ بسم الله الرحمن الرحيم يمدّ بسم الله ويمدّ الرحمٰن ويمدّ الرحيم. أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا آدم ثنا شعبة ثنا عمرو بن مرّة قال: سمعت أبا وائل قال: جاء رجل إلى ابن مسعود، قال: قرأت المفصل الليلة في ركعة، فقال: هذّاً كهذّ الشعر، لقد عرفت النظائر التي كان النبي ﷺ يقرن بينهنّ فذكر عشرين سورة من المفصل كل سورتين في ركعة. أخبرنا أبو جعفر أحمد بن أبي أحمد منويه أنا الشريف أبو القاسم علي بن محمد بن علي الحسيني الحرّاني

والأمثال يحصل الاعتبار فيستنير القلب عند ذلك بنور المعرفة، والإسراع في القراءة لا يحصل فيها ذلك فظهر بذلك أن المقصود من الترتيل إنما هو حضور القلب عند القراءة.

(فصل)

(خ) عن قتادة قال «سئل أنس كيف كانت قراءة رسول الله ﷺ فقال كانت مداً ثم قرأ بسم الله الرحمن الرحيم يمد بسم الله ويمد الرحمن ويمد الرحيم» عن أم سلمة رضي الله عنها وقد سألها يعلى بن مالك عن قراءة رسول الله ﷺ وصلاته فقالت «ما لكم وصلاته ثم نعتت قراءته فإذا هي تنعت قراءة مفسرة حرفاً حرفاً»، أخرجه النسائي وللترمذي قالت «كان رسول الله ﷺ يقطع قراءته يقول الحمد لله رب العالمين ثم يقف الرحمن الرحيم، ثم يقف وكان يقول مالك يوم الدين ثم يقف» وفي رواية أبي داود قالت «قراءة رسول الله ﷺ بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين يقطع قراءته آية آية» (ق) عن عبدالله بن مغفل قال «رأيت رسول الله ﷺ يوم فتح مكة على ناقته يقرأ سورة الفتح فرجع في قراءته»، (ق) عن أبي وائل شقيق بن سلمة قال «جاء رجل إلى ابن مسعود قال إني لأقرأ المفصل في ركعة قال عبد الله هذّاً كهذّ الشعر إن أقواماً يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم ولكن إذا وقع في القلب فرسخ نفع، إن أفضل الصلاة الركوع والسجود إني لأعرف النظائر التي كان رسول الله ﷺ يقرن بينهن سورتين في كل ركعة» وفي رواية «فذكر عشرين سورة من المفصل» الهذ سرعة القطع والمراد به هنا سرعة القراءة والعجلة فيها، وقوله لا يجاوز تراقيهم التراقي جمع ترقوة وهي العظم الذي بين ثغرة النحر والعاتق وعند مخرج الصوت، والنظائر جمع نظير وهو الشبه والمثل. عن عائشة رضي الله عنها قالت «قام النبي ﷺ بآية من القرآن»، أخرجه الترمذي وللنسائي عن أبي ذر نحوه وزاد «والآية إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم» عن سهل بن سعد قال «خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن نقرأ فقال: الحمد لله كتاب الله واحد وفيكم الأحمر وفيكم الأبيض وفيكم الأسود اقرؤوا القرآن قبل أن يقرأه أقوام يقيمونه كما يقال السهل يتعجل لقراءته ولا يتأجله» أخرجه أبو داود وزاد غيره في رواية «لا يجاوز تراقيهم» عن جابر رضي الله عنه قال خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن نقرأ القرآن وفينا العربي والعجمي فقال: اقرؤوا فكل حسن وسيجيء أقوام يقومونه كما يقوم القدح يتعجلونه ولا

فيما كتبه إليّ، أنا أبو بكر محمد بن الحسين الآجري أنا أبو بكر عبد الله بن محمد بن حميد الواسطي ثنا زيد بن أجروم ثنا محمد بن الفضل ثنا سعيد بن زيد عن أبي حمزة عن إبراهيم عن علقمة عن عبد الله يعني ابن مسعود قال: لا تنثروه نثرَ الدقل ولا تهذوه هذا الشعر، قفوا عند عجائبه وحرّكوا به القلوب، ولا يكنِ همّ أحدكم آخر السورة. أخبر أبو جعفر أحمد بن أبي أحمد بن منويه أنا الشريف أبو القاسم علي بن محمد علي الحسيني الحرّاني كتب إليّ ثنا أبو بكر محمد بن الحسين الآجري ثنا أبو محمد يحيىٰ بن محمد بن ساعد ثنا الحسين بن الحسن المروي ثنا ابن المبارك الحنبلي أنا أبو بكر محمد بن عبد الله بن أبي توبة أنا أبو طاهر محمد بن أحمد بن الحارث أنا أبو الحسن محمد بن يعقوب الكسائي أنا عبد بن محمود أنا إبراهيم بن عبد الله الخلال ثنا عبد الله بن المبارك عن موسى بن عبيدة عن عبد الله بن عبيدة وهو أخوه عن سهل بن سعد الساعدي قال: بينا نحن نقرأ إذ خرج علينا رسول الله ﷺ فقال: «الحمد لله كتاب الله واحد وفيكم الأحمر والأسود والأبيض اقرؤوا القرآن قبل أن يأتي أقوام يقرؤونه، يقيمون حروفه كما يُقام السهم لا يجاوز تراقيهم، يتعجّلون أجره ولا يتأجّلونه» أخبرنا أبو عثمان الضبي أنا أبو محمد الجراحي ثنا أبو العباس المحبوبي ثنا أبو عيسى الترمذي ثنا أبو بكر محمد بن نافع البصري ثنا عبد الصمد بن عبد الوارث عن إسماعيل بن مسلم العبدي عن أبي المتوكل الناجي عن عائشة رضي الله عنها قالت: قام النبي ﷺ بآية من القرآن ليلة. ورواه أبو ذرّ، قال: قام النبي ﷺ حتى أصبح بآية، والآية: ﴿ إنْ تعذّبهم

يتأجلونه» أخرجه أبو داود عن ابن مسعود قال «لا تنثروه نثر الدقل ولا تهذوه هذّ الشعر قفوا عند عجائبه وحركوا به القلوب ولا يكن هم أحدكم آخر السورة» قوله تعالى:

﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴿٦﴾﴾

﴿إنا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً﴾ قال ابن عباس شديداً. وقيل ثقيلاً يعني كلاماً عظيماً جليلاً ذا خطر وعظمة لأنه كلام رب العالمين وكل شيء له خطر ومقدار فهو ثقيل والمعنى فصير نفسك مستعدة لقبول هذا القول العظيم الثقيل الشاق، وقيل سماه ثقيلاً لما فيه من الأوامر والنواهي فإن فيه مشقة وكلفة على الأنفس وقيل ثقيلاً لما فيه من الوعد والوعيد والحلال والحرام والحدود والفرائض والأحكام. وقيل ثقيلاً على المنافقين لأنه يبين عيوبهم ويظهر نفاقهم، وقيل هو خفيف على اللسان بالتلاوة ثقيل في الميزان بالثواب يوم القيامة. وقيل ثقيلاً أي ليس بالخفيف ولا السفساف لأنه كلام ربنا تبارك وتعالى. وقيل معناه أنه قول مبين في صحته وبيانه ونفعه كما تقول هذا كلام رصين وهذا قول له وزن إذا استجدته وعلمت أنه صادق الحكمة والبيان. وقيل سماه ثقيلاً لما فيه من المحكم والمتشابه والناسخ والمنسوخ. وقيل ثقيلاً في الوحي وذلك أنه ﷺ «كان إذا نزل عليه القرآن والوحي يجد له مشقة»، (ق) عن عائشة رضي الله عنها «أن الحارث بن هشام سأل رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله كيف يأتيك الوحي؟ فقال رسول الله ﷺ أحياناً يأتيني في مثل صلصلة الجرس وهذا أشده علي فيفصم عني وقد وعيت ما قال، وأحياناً يتمثل إلي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول. قالت عائشة ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقاً» (م) عن عبادة بن الصامت قال «كان رسول الله ﷺ إذا نزل عليه الوحي كرب لذلك وتربد له وجهه» وفي رواية «كان إذا نزل عليه الوحي عرفنا ذلك في فيه وغمض عينيه وتربد وجهه» قوله مثل صلصلة الجرس الصلصلة الصوت

فإنهم عبادُك وإنْ تغفرْ لهم فإنك أنت العزيز الحكيم ﴾ [المائدة: ١١٨].

﴿ إنّا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً ﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما: شديداً. قال الحسن: إن الرجل ليهذّ السورة ولكن العمل بها ثقيل. قال قتادة: ثقيلاً هو والله فرائضه وحدوده. قال مقاتل: ثقيل لما فيه من الأمر والنهي والحدود. قال أبو العالية: ثقيل بالوعد والوعيد والحلال والحرام. وقال محمد بن كعب: ثقيل على المنافقين: قال الحسين بن الفضل: قولاً خفيفاً على اللسان ثقيلاً في الميزان. قال الفرّاء: ثقيلاً ليس بالخفيف السفساف لأنه كلام ربّنا. قال ابن زيد: هو والله ثقيل مبارك كما ثقل في الدنيا ثقل في الموازين يوم القيامة. أخبرنا أبو الحسن السرخسي أنا زاهر بن أحمد السرخسي أنا أبو إسحاق الهاشمي أنا أبو مصعب عن مالك عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة زوج النبي ﷺ أن الحارث بن هشام سأل رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله كيف يأتيك الوحي؟ فقال رسول الله ﷺ: «أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس، وهذا أشدّه عليّ فيفصم عنّي وقد وعيت ما قال، وأحياناً يتمثّل لي الملك رجلاً فيكلّمني فأعي ما يقول». قالت عائشة: ولقد رأيته ينزل عليه في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وأن جبينه ليتفصّد عرقاً.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ إنّ ناشئة الليل ﴾، أي ساعته كلها وكل ساعة منه ناشئة، سمّيت بذلك لأنها تنشأ أي تبدو ومنه نشأت السحابة إذا بدت وكل ما حدث بالليل وبدأ فقد نشأ فهو ناشىء، والجمع ناشئة. وقال ابن أبي مليكة: سألت ابن عباس وابن الزبير عنها، فقالا: الليل كله ناشئة. وقال سعيد بن جبير وابن زيد: أي ساعة قام من الليل فقد نشأ وهو بلسان الحبش القيام، يقال: نشأ فلان أي قام. وقالت عائشة: الناشئة القيام بعد النوم. وقال ابن كيسان: هي القيام من آخر الليل. وقال عكرمة: هي القيام من أول الليل. يُروَى عن علي بن الحسين أنه كان

الشديد الصلب اليابس من الأشياء الصلبة كالجرس ونحوه. قوله فيفصم أي ينفصل عني ويفارقني وقد وعيت ما قال أي حفظت. وقولها ليتفصد عرقاً أي يجري عرقه كما يجري الدم من الفاصد. قوله تربد وجهه الربدة في الألوان غبرة مع سواد، وقوله تعالى: ﴿إن ناشئة الليل﴾ أي ساعاته كلها وكل ساعة منه ناشئة، لأنها تنشأ عن التي قبلها وقال ابن أبي مليكة سألت ابن عباس وابن الزبير عنها فقالا الليل كله ناشئة وهي عبارة عن الأمور التي تحدث وتنشأ في الليل وقالت عائشة الناشئة القيام بعد النوم. وقيل هي قيام آخر الليل وقيل أوله، وقيل أي ساعة قام الإنسان من الليل فقد نشأ. روي عن زين العابدين علي بن الحسين أنه كان يصلي بين المغرب والعشاء ويقول هذه ناشئة الليل، وقيل كل صلاة بعد العشاء الآخرة فهي ناشئة الليل، وقيل ناشئة الليل قيامه وقيل ناشئة الليل وطاؤه ﴿هي أشد وطأ﴾ قرىء بكسر الواو مع المد يعني من المواطأة والموافقة وذلك لأن مواطأة القلب اللسان والسمع والبصر تكون بالليل أكثر مما تكون بالنهار. وقرىء وطأ بفتح الواو وسكون الطاء أي أشد على المصلي وأثقل. من صلاة النهار لأن الليل جعل للنوم والراحة فكان قيامه على النفس أشد وأثقل وقال ابن عباس كانت صلاتهم أول الليل هي أشد وطأ يقول هي أجدر أن يحصوا ما فرض الله عليهم من القيام وذلك أن الإنسان إذا نام لا يدري متى يستيقظ. وقيل أثبت للخير وأحفظ للقراءة من النهار وقيل هي أوطأ للقيام وأسهل على المصلي من ساعات النهار لأنه خلق لتصرف العباد والليل والخلوة برب العباد ولأن الليل أفرغ للقلب من النهار ولا يعرض له في الليل حوائج وموانع مثل النهار وأمنع من الشيطان وأبعد من الرياء وهو قوله تعالى: ﴿وأقوم قيلاً﴾ أي أصوب قراءة وأصح قولاً من النهار لهدأة الناس وسكون الأصوات وقيل معناه أبين قولاً بالقرآن.

والحاصل أن عبادة الليل أشد نشاطاً وأتم إخلاصاً وأبعد عن الرياء وأكثر بركة وأبلغ في الثواب وأدخل في القبول.

﴿إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحًا طَوِيلًا ۝٧ وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلًا ۝٨ رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلًا ۝٩ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهۡجُرۡهُمۡ هَجۡرًا جَمِيلًا ۝١٠﴾

﴿إن لك في النهار سبحاً طويلاً﴾ أي تصرفاً وتقلباً وإقبالاً وإدباراً في حوائجك واشتغالك. وقيل فراغاً وسعة لنومك وتصرفك في حوائجك أفضل من الليل ﴿واذكر اسم ربك﴾ أي بالتوحيد والتعظيم والتقديس والتسبيح ﴿وتبتل

يصلّي بين المغرب والعشاء، ويقول: هذه ناشئة الليل. وقال الحسن: كل صلاة بعد العشاء الآخرة فهي ناشئة من الليل. وقال الأزهري: ناشئة الليل قيام الليل، مصدر جاء على فاعلة كالعـافية بمعنى العفـو. ﴿ هي أشدّ وطـأً ﴾، قرأ ابن عامر وأبو عمر وطاء بكسر الواو ممدوداً بمعنى المواطأة والموافقة، يقال وطأت فلاناً مواطأة القلب والسمع والبصر واللسان، بالليل تكون أكثر مما يكون بالنهار. وقرأ الآخرون بفتح الواو وسكون الطاء أي أشدّ على المصلّي وأثقل من صلاة النهار، لأن الليل للنوم والراحة ومنه قوله ﷺ: «اللّهمَّ أشدد وطأتك على مضر»، وقال ابن عباس: كانت صلاتهم أول الليل هي أشدّ وطأً، يقول هي أجدر أن تحصوا ما فرض الله عليكم من القيام، وذلك أن الإنسان إذا نام لم يدرِ متى يستيقظ. وقال قتادة: أثبت في الخير وأحفظ للقراءة. وقال الفرّاء: أثبت قياماً أي أوطأ للقيام وأسهل للمصلّي من ساعات النهار، لأن النهار خُلِقَ لتصرف العبادة، والليل للخلوة فالعبادة فيه أسهل. وقيل: أشدّ نشاطاً. وقال ابن زيد: أفرغ له قلباً من النهار لأنه لا تُعرَض فيه حوائج. وقال الحسن: أشدّ وطأً في الخير وأمنع من الشيطان. ﴿ وأقوم قيلاً ﴾، وأصوب قراءة وأصحّ قولاً لهدأة الناس وسكون الأصوات. وقال الكلبي: أبين قولاً بالقرآن، وفي الجملة عبادة الليل أشدّ نشاطاً وأتمّ إخلاصاً وأكثر بركة وأبلغ في الثواب.

﴿ إن لك في النهار سبحاً طويلاً ﴾، أي تصرّفاً وتقلّباً وإقبالاً وإدباراً في حوائجك وأشغالك، وأصل السبح

﴿إليه تبتيلاً﴾ قال ابن عباس أخلص إليه إخلاصاً وقيل تفرغ لعبادته وانقطع إليه انقطاعاً والمعنى بتل إليه نفسك واقطعها عن كل شيء سواه. وقيل التبتل رفض الدنيا وما فيها والتماس ما عند الله. وقيل معناه وتوكل عليه توكلاً واجتهد في العبادة وقيل يقال للعابد إذا ترك كل شيء وأقبل على العبادة قد تبتل أي انقطع عن كل شيء إلا من عبادة الله وطاعته.

فإن قلت كيف قال تبتيلاً مكان تبتلاً ولم يجيء على مصدره؟

قلت جاء تبتيلاً على بتل نفسك إليه تبتيلاً فوقع المصدر موضع مقارنة في المعنى ويكون التقدير وبتل نفسك إليه تبتيلاً فهو كقوله والله أنبتكم من الأرض نباتاً، وقيل لأن معنى تبتل بتل نفسك فجيء به على معناه مراعاة لحق الفواصل. وقيل الأصل في تبتل أن يقال تبتلت تبتيلاً وتبتلت تبتيلاً فتبتيلاً محمول على معنى بتل إليه تبتيلاً وقيل إنما عدل عن هذه العبارة لدقيقة لطيفة وهي أن المقصود إنما هو التبتل فأما التبتيل فهو تصرف والمشتغل بالتصرف لا يكون متبتلاً إلى الله تعالى لأن المشتغل بغير الله لا يكون منقطعاً إليه إلا أنه لا بد من التبتيل حتى يحصل التبتل فذكر أولاً التبتل لأنه المقصود وذكر التبتيل ثانياً إشعاراً بأنه لا بد منه ﴿رب المشرق والمغرب﴾ يعني أن التبتل والانقطاع لا يليق إلا لله تعالى الذي هو رب المشرق والمغرب ﴿لا إله إلا هو فاتخذه وكيلاً﴾ أي فوض أمرك إليه وتوكل عليه. وقيل معناه اتخذ يا محمد ربك كفيلاً بما وعدك من النصر على الأعداء ﴿واصبر على ما يقولون﴾ أي من التكذيب لك والأذى ﴿واهجرهم هجراً جميلاً﴾ أي واعتزلهم اعتزالاً حسناً لا جزع فيه وهذه الآية منسوخة بآية القتال.

وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُو۟لِي ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾ إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾
يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴿١٤﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ
رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾
ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا ﴿١٨﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿١٩﴾

﴿وذرني والمكذبين﴾ أي دعني ومن كذبك لا تهتم به فإني أكفيكه ﴿أولي النعمة﴾ أي أصحاب النعم والترفه

سرعة الذهاب، ومنه السباحة في الماء، وقيل: سبحاً طويلاً أي فراغاً وسِعة لنومك وتصرّفك في حوائجك فصلٍ من الليل، وقرأ يحيىٰ بن يعمر ﴿ سبخاً ﴾ بالخاء المعجمة أي استراحةً وتخفيفاً للبدن، منه قول النبي ﷺ لعائشة، وقد دعت على سارق: (لا تسبخي عنه بدعائك عليه)، أي لا تخففي.

﴿ واذكر اسمَ ربك ﴾، بالتوحيد والتعظيم، ﴿ وتبتّل إليه تبتيلاً ﴾، قال ابن عباس وغيره: أخلص إليه إخلاصاً. قال الحسن: اجتهد. وقال ابن زيد: تفرّغ لعبادته. وقال سفيان: توكّل عليه توكّلاً. وقيل: انقطع إليه في العبادة انقطاعاً، وهو الأصل في الباب، يقال: تبتلت الشيء أي قطعته وصدّقه، قولهم: أنت بتة بتلة أي مقطوعة عن صاحبها لا سبيل له عليها، والتبتيل: تفعيل، منه يقال: بتلته فتبتّل، المعنى: بتل إليه نفسك، ولذلك قال: تبتيلاً. قال ابن زيد: التبتّل رفض الدنيا وما فيها، والتماس ما عند الله تعالى.

﴿ ربّ المشرق والمغرب ﴾، قرأ أهل الحجاز وأبو عمرو وحفص ﴿ ربّ ﴾ برفع الباء على الابتداء، وقرأ الآخرون بالجرّ على نعت الربّ في قوله: ﴿ اذكر اسم ربّك ﴾، ﴿ لا إله إلاّ هو فاتخذه وكيلاً ﴾، قيّماً بأمورك ففوّضها إليه.

﴿ واصبرْ على ما يقولون واهجرهم هجراً جميلاً ﴾، نسختها آية القتال.

﴿ وذرني والمكذبين أُولي النَّعمة ومهّلهم قليلاً ﴾، نزلت في صناديد قريش المستهزئين. وقال مقاتل بن

نزلت في صناديد قريش المستهزئين وقيل نزلت في المطعمين ببدر ﴿ومهلهم قليلاً﴾ يعني إلى يوم بدر فلم يكن إلا يسير حتى قتلوا ببدر. وقيل أراد بالقليل أيام الدنيا ثم وصف عذابهم فقال تعالى: ﴿إن لدينا﴾ أي عندنا في الآخرة ﴿أنكالاً﴾ يعني قيوداً عظاماً ثقالاً لا تنفك أبداً وقيل أغلالاً من حديد ﴿وجحيماً وطعاماً ذا غصة﴾ أي غير سائغ في الحلق لا ينزل ولا يخرج وهو الزقوم والضريع ﴿وعذاباً أليماً﴾ أي وجيعاً ﴿يوم ترجف الأرض والجبال﴾ أي تتزلزل وتتحرك وهو يوم القيامة ﴿وكانت الجبال كثيباً مهيلاً﴾ يعني رملاً سائلاً وهو الذي إذا أخذت منه شيئاً يتبعك ما بعده ﴿إنا أرسلنا إليكم﴾ يعني يا أهل مكة ﴿رسولاً﴾ يعني محمداً ﷺ ﴿شاهداً عليكم﴾ أي بالتبليغ وإيمان من آمن منكم وكفر من كفر ﴿كما أرسلنا إلى فرعون رسولاً﴾ يعني موسى بن عمران عليه الصلاة والسلام، قيل إنما خص فرعون وموسى بالذكر من بين سائر الأمم والرسل لأن محمداً ﷺ آذاه أهل مكة واستخفوا به لأنه ولد فيهم كما أن فرعون ازدرى بموسى وآذاه لأنه رباه ﴿فعصى فرعون الرسول فأخذناه﴾ أي فرعون ﴿أخذاً وبيلاً﴾ أي شديداً ثقيلاً يعني عاقبناه عقوبة غليظة، خوّف بذلك كفار مكة ثم خوّفهم يوم القيامة فقال تعالى: ﴿فكيف تتقون إن كفرتم﴾ أي كيف لكم بالتّقوى يوم القيامة إن كفرتم أي في الدنيا، المعنى لا سبيل لكم إلى التّقوى إذا وافيتم القيامة. وقيل معنى الآية فكيف تتقون العذاب يوم القيامة، وبأي شيء تتحصنون من عذاب ذلك اليوم، وكيف تنجون منه إن كفرتم في الدّنيا ﴿يوماً يجعل الولدان شيباً﴾ يعني شيوخاً شمطاً من هول ذلك اليوم وشدته وذلك حين يقال لآدم عليه الصّلاة والسّلام قم، فابعث بعث النار من ذريتك. (ق) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «يقول الله عز وجل يوم القيامة: يا آدم فيقول لبيك وسعديك» زاد في رواية «والخير في يديك فينادى بصوت إن الله يأمرك أن تخرج من ذريتك بعث النّار قال يا رب، وما بعث النار؟ قال من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون، فحينئذ تضع الحامل حملها، ويشيب الوليد وترى النّاس سكارى، وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد، فشق ذلك على الناس حتى تغيرت وجوههم قالوا: يا رسول الله أينا ذلك الرجل فقال النبي ﷺ أبشروا فإن من يأجوج ومأجوج تسعمائة وتسعاً وتسعين ومنكم واحد ثم قال: أنتم في الناس كالشعرة السوداء في جنب الثّور الأبيض، أو كالشّعرة البيضاء في جنب الثّور الأسود، وفي رواية كالرّقمة في ذراع الحمار، وإني لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة، فكبرنا ثم قال: ثلث أهل الجنة فكبرنا ثم قال شطر أهل الجنة فكبرنا» أما ما يتعلق بمعنى الحديث فقوله أن تخرج من ذريتك بعث النار فمعناه ميز أهل الجنة من أهل النار، وأما الرقمة بفتح الراء وإسكان القاف فهي الأثرة في باطن عضد الحمار. وقوله إني لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة وثلث أهل الجنة، وشطر أهل الجنة فيه البشارة العظيمة لهذه الأمة وجعلهم ربع أهل الجنة أولاً ثم الثلث ثم الشّطر لفائدة حسنة، وهي أن ذلك أوقع في نفوسهم، وأبلغ في إكرامهم فإن إعطاء الإنسان مرة بعد مرة

حيان: نزلت في المطعمين ببدر فلم يكن إلاّ يسير حتى قتلوا ببدر.

﴿ إن لدينا ﴾، عندنا في الآخرة، ﴿ أنكالاً ﴾، قيوداً عِظاماً لا تنفكّ أبداً واحدها نكل. قال الكلبي: أغلالاً من حديد، ﴿ وجحيماً ﴾.

﴿ وطعاماً ذَا غُصّة ﴾، غير سائغة يأخذ بالحق لا ينزل ولا يخرج وهو الزقّوم والضريع. ﴿ وعذاباً أليماً ﴾.

﴿ يوم ترجف الأرض والجبال ﴾، أي تتزلزل وتتحرّك، ﴿ وكانت الجبال كثيباً مهيلاً ﴾، رملاً سائلاً. قال الكلبي: هو الرمل الذي أخذت منه شيئاً تبعك ما بعده، يقال: أهلت الرمل أهيله هيلاً إذا حرّكتَ أسفله حتى انهال من أعلاه.

﴿ إنّا أرسلنا إليكم رسولاً شاهداً عليكم كما أرسلنا إلى فرعون رسولاً ﴾.

دليل على الاعتناء به، ودوام ملاحظته وفيه تكرير البشارة مرة بعد أخرى، وفيه أيضاً حملهم على تجديد شكر الله وحمده على إنعامه عليهم، وهو تكبيرهم لهذه البشارة العظيمة، وسرورهم بها، وأما ما. يتعلق بمعنى الآية الكريمة، والحديث في قوله تعالى: ﴿فكيف تتقون إن كفرتم يوماً يجعل الولدان شيباً﴾ وقوله ﷺ «ويشيب الوليد» ففيه وجهان: الأول عند زلزلة السّاعة قبل خروجهم من الدّنيا، فعلى هذا هو على ظاهره الثاني أنه في القيامة، فعلى هذا يكون ذكر الشّيب مجازاً، لأن القيامة ليس فيها شيب، وإنما هو مثل في شدة الأمر، وهوله يقال في اليوم الشّديد يوم تشيب فيه نواصي الأطفال، والأصل فيه أن الهموم والأحزان إذا تعاقب على الإنسان أسرع فيه الشيب. قال المتنبي:

والهــم يختــرم الجسيــم نحــافــة ويشيــب نــاصيــة الصبــي ويهــرم

فلما كان الشّيب من لوازم كثرة الهموم والأحزان جعلوه كناية عن الشّدة والهول، وليس المراد أن هول ذلك اليوم يجعل الولدان شيباً حقيقة لأن الطفل لا تمييز له، وقيل يحتمل أن يكون المراد وصف ذلك اليوم بالطول، وأن الأطفال يبلغون سن الشّيخوخة والشّيب. ﴿السماء منفطر به﴾ وصف اليوم بالشّدة أيضاً وأن السّماء مع عظمها تنفطر به، وتتشقق فما ظنك بغيرها من الخلائق، وقيل تتشقق لنزول الملائكة، وقيل به أي بذلك المكان، وقيل الهاء ترجع إلى الرّب سبحانه وتعالى أي بأمره وهيبته. ﴿كان وعده مفعولاً﴾ أي كائناً لا محالة فيه، ولا خلف ﴿إن هذه﴾ أي آيات القرآن ﴿تذكرة﴾ أي مواعظ يتذكر بها ﴿فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلاً﴾ بالإيمان والطاعة. قوله تعالى:

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿٢٠﴾

﴿إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي اللّيل﴾ أي أقل من ثلثي الليل ﴿ونصفه وثلثه﴾ أي تقوم نصفه وثلثه ﴿وطائفة من الذين معك﴾ يعني المؤمنين، وكانوا يقومون معه الليل ﴿والله يقدر اللّيل والنّهار﴾ يعني أن العالم بمقادير الليل والنهار وأجزائهما وساعاتهما هو الله تعالى. لا يفوته علم ما يفعلون، فيعلم القدر الذي يقومون من اللّيل والذي

﴿ فعصى فرعون الرسول فأخذناه أخذاً وبيلاً ﴾، شديداً ثقيلاً، يعني عاقبناه عقوبة غليظة يخوّف كفّار مكة.

﴿ فكيف تتّقون إن كفرتم ﴾، أي كيف لكم بالتقوى يوم القيامة إذ كفرتم في الدنيا يعني لا سبيل لكم إلى التقوى إذا وافيتم يوم القيامة؟ وقيل: معناه كيف تتّقون العذاب يوم القيامة وبأيّ شيء تتحصّنون منه إذا كفرتم؟ ﴿ يوماً يجعل الولدان شيباً ﴾، شمطاً من هوله وشدّته، وذلك حين يقال لآدم قم فابعث بعث النار من ذرّيّتك.

ثم وصف هول ذلك اليوم فقال: ﴿ السماء منفطرٌ به ﴾، منشقّ لنزول الملائكة به أي بذلك المكان. وقيل: الهاء ترجع إلى الربّ أي بأمره وهيبته، ﴿ كان وعده مفعولاً ﴾، كائناً.

﴿ إن هذه ﴾، أي آيات القرآن ﴿ تذكرة ﴾، تذكير وموعظة ﴿ فمَن شاء اتخذ إلى ربّه سبيلاً ﴾، بالإيمان والطاعة.

﴿ إنّ ربّك يعلم أنك تقوم أدنى ﴾، أقلّ من، ﴿ثلثي الليل ونصفه وثلثه ﴾، قرأ أهل مكة والكوفة ﴿ نصفه وثلثه ﴾ بنصب الفاء والثاء وإشباع الهاءين ضمّاً، أي وتقوم نصفه وثلثه وقرأ الآخرون بجرّ الفاء والثاء وإشباع

ينامون منه. ﴿علم أن لن تحصوه﴾ يعني أن لن تطيقوا معرفته على الحقيقة. قيل قاموا حتى انتفخت أقدامهم، فنزل: علم أن لن تحصوه أي لن تطيقوه، قيل كان الرجل يصلي الليل كله مخافة أن لا يصيب ما أمر الله به من القيام فقال تعالى: علم أن لن تحصوه أي لن تطيقوا معرفة ذلك ﴿فتاب عليكم﴾ أي فعاد عليكم بالعفو والتخفيف، والمعنى عفا عنكم ما لم تحيطوا بعلمه ورفع المشقة عنكم ﴿فاقرؤوا ما تيسر من القرآن﴾ فيه قولان:

أحدهما: أن المراد بهذه القراءة. القراءة في الصلاة، وذلك لأن القراءة أحد أجزاء الصّلاة، فأطلق اسم الجزء على الكل، والمعنى فصلوا ما تيسر عليكم. وقال الحسن: يعني في صلاة المغرب والعشاء، قال قيس بن أبي حازم: صليت خلف ابن عباس بالبصرة فقرأ في أول ركعة بالحمد، وأول آية من البقرة، ثم قام في الثانية، فقرأ بالحمد والآية الثانية من البقرة، ثم ركع فلما انصرف أقبل علينا بوجهه فقال: إن الله تعالى يقول فاقرؤوا ما تيسر منه، وقيل نسخ ذلك التّهجد، واكتفي بما تيسر ثم نسخ ذلك أيضاً بالصّلوات الخمس وذلك في حق الأمة وثبت قيام اللّيل في حقه ﷺ بقوله تعالى: ﴿ومن اللّيل فتهجد به نافلة لك﴾ .

القول الثاني: أن المراد بقوله فاقرؤوا ما تيسر من القرآن دراسته، وتحصيل حفظه وأن لا يعرض للنسيان، فقيل يقرأ مائة آية ونحوها، وقيل إن قراءة السورة القصيرة كافية. روى البغوي بإسناده عن أنس رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول «من قرأ خمسين آية في يوم أو ليلة لم يكتب من الغافلين، ومن قرأ مائة آية كتب من القانتين، ومن قرأ مائتي آية، لم يحاجه القرآن يوم القيامة، ومن قرأ خمسمائة آية كتب له قنطار من الأجر». وذكره الشّيخ محيي الدّين في كتابه الأذكار ولم يضعفه وقال: في رواية «من قرأ أربعين آية بدل خمسين وفي رواية عشرين» وفي رواية عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «من قرأ عشر آيات لم يكتب من الغافلين» (ق) عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: قال لي رسول الله ﷺ «ألم أخبر أنك تصوم الدهر، وتقرأ القرآن كل ليلة قلت

الهاءين كسراً عطفاً على ثلثي، ﴿ وطائفة من الذين معك ﴾ يعني المؤمنين وكانوا يقومون معه، ﴿ والله يقدّر الليل والنهار ﴾، قال عطاء: يريد لا يفوته علم ما تفعلون، أي أنه يعلم مقادير الليل والنهار فيعلم القدر الذي تقومون من الليل، ﴿ علم أن لن تحصوه ﴾، قال الحسن: قاموا حتى انتفخت أقدامهم، فنزل: ﴿ علم أن لن تحصوه ﴾، لن تطيقوه. وقال مقاتل: كان الرجل يصلّي الليل كله، مخافة أن لا يصيب ما أمر به من قيام، فقال: علم أن لن يحصوه لن تطيقوا معرفة ذلك. ﴿ فتاب عليكم ﴾، فعاد عليكم بالعفو والتخفيف، ﴿ فاقرؤوا ما تيسّرَ من القرآن ﴾، يعني في الصلاة، قال الحسن: يعني في صلاة المغرب والعشاء. قال قيس بن حازم: صلّيت خلف ابن عباس بالبصرة فقرأ في أول ركعة بالحمد وأول آية من البقرة، ثم قام في الثانية فقرأ بالحمد والآية الثانية من البقرة، ثم ركع، فلما انصرف أقبل علينا بوجهه فقال: إن الله عزّ وجلّ يقول: فاقرؤوا ما تيسّر منه. أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أبو منصور السمعاني ثنا أبو جعفر الرياني ثنا حميد بن زنجويه ثنا عثمان بن صالح ثنا ابن لهيعة حدّثني حميد بن مخراق عن أنس بن مالك أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «مَن قرأ خمسين آية في يوم أو في ليلة لم يكتب من الغافلين، ومَن قرأ مائة آية كتب من القانتين، ومَن قرأ مائتي آية لم يحاجّه القرآن يوم القيامة، ومَن قرأ خمسمائة آية كُتب له قنطارٌ من الأجْر». أخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر أنا عبد الغافر بن محمد أنا محمد بن عيسى ثنا إبراهيم بن محمد ثنا مسلم بن الحجّاج حدّثني القاسم بن زكريا بن عبيد الله بن موسى عن شيبان عن يحيىٰ عن محمد بن عبد الرحمن مولى بن زهرة عن أبي سلمة عن عبد الله بن عمرو قال: قال لي رسول الله ﷺ: «اقرأ القرآن في كل شهر»، قال: قلت: إني أجد قوّة، قال: «فاقرأه في عشرين ليلة»، قال: قلت: إني أجد قوّة، قال: «فاقرأه في سبع ولا تزد على ذلك». قوله عزّ وجلّ: ﴿ علم أن سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل

بلى يا رسول الله، ولم أرد بذلك إلا الخير قال فصم صوم داود وكان أعبد النّاس واقرأ القرآن في كل شهر مرة قال قلت يا نبي الله إني أطيق أفضل من ذلك قال فاقرأه في كل عشر قال: قلت يا نبي الله إني أطيق أفضل من ذلك قال فاقرأه في سبع ولا تزد على ذلك» ثم ذكر الله حكمة النّسخ والتّخفيف. فقال تعالى: ﴿**علم أن سيكون منكم مرضى**﴾ يعني أن المريض يضعف عن التّهجد باللّيل فخفف الله عز وجل عنه لأجل ضعفه وعجزه عنه ﴿**وآخرون يضربون في الأرض**﴾ يعني المسافرين للتجارة ﴿**يبتغون من فضل الله**﴾ أي يطلبون من رزق الله وهو الربح في التجارة ﴿**وآخرون يقاتلون في سبيل الله**﴾ يعني الغزاة والمجاهدين، وذلك لأن المجاهد والمسافر مشتغل في النهار بالأعمال الشّاقة، فلو لم ينم بالليل لتوالت عليه أسباب المشقة، فخفف الله عنهم لذلك. روي عن ابن مسعود: قال «أيما رجل جلب شيئاً إلى مدينة من مدائن المسلمين صابراً محتسباً، فباعه بسعر يومه كان عند الله بمنزلة الشّهداء ثم قرأ عبد الله: وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون في سبيل الله» ﴿**فاقرؤوا ما تيسر منه**﴾ أي من القرآن وإنما أعاده للتأكيد ﴿**وأقيموا الصّلاة**﴾ يعني المفروضة ﴿**وآتوا الزكاة**﴾ أي الواجبة. ﴿**وأقرضوا الله قرضاً حسناً**﴾ قال ابن عباس: يريد سوى الزكاة من صلة الرحم وقرى الضيف، وقيل يريد سائر الصّدقات، وذلك بأن يخرجها على أحسن وجه من كسب طيب، ومن أكثر الأموال نفعاً للفقراء ومراعاة النيّة والإخلاص وابتغاء مرضاة الله تعالى بما يخرج والصرف إلى المستحق. ﴿**وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله**﴾ أي ثوابه وأجره ﴿**هو خيراً وأعظم أجراً**﴾ يعني أن الذي قدمتم لأنفسكم خير من الذي أخرتموه ولم تقدموه وروى البغوي بسنده عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ «أيكم ماله أحب إليه من مال وارثه قالوا يا رسول الله ما منا أحد إلا ما له أحب إليه من مال وارثه قال اعلموا ما تقولون قالوا ما نعلم إلا ذلك يا رسول الله قال ما منكم رجل إلا مال وارثه أحب إليه من ماله، قالوا كيف يا رسول الله؟ قال: إنما قال أحدكم ما قدم ومال وارثه ما أخر» ﴿**واستغفروا الله**﴾ أي لذنوبكم وتقصيركم في قيام الليل ﴿**إن الله غفور رحيم**﴾ أي لجميع الذنوب والله تعالى أعلم.

الله ﴾، يعني المسافرين للتجارة يطلبون من رزق الله، ﴿ **وآخرون يقاتلون في سبيل الله** ﴾، لا يطيقون قيام الليل، روى إبراهيم عن ابن مسعود قال: أيما رجل جلب شيئاً ما إلى مدينة من مدائن المسلمين صابراً محتسباً فباعه بسعر يومه كان عند الله بمنزلة الشهداء، ثم قرأ عبد الله: ﴿ **وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله، وآخرون يُقاتلون في سبيل الله** ﴾. ﴿ **فاقرؤوا ما تيسّر منه** ﴾، أي ما تيسّر عليكم من القرآن. قال أهل التفسير كان هذا في صدر الإسلام ثم نسخ بالصلوات الخمس، وذلك قوله: ﴿ **وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأقرضوا الله قرضاً حسناً** ﴾، قال ابن عباس: يريد سوى الزكاة من صلة الرّحم، وقري الضيف. ﴿ **وما تقدّموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيراً** ﴾، تجدوا ثوابه في الآخرة أفضل مما أعطيتم، ﴿ **وأعظم أجراً** ﴾، من الذي أخّرتم، ولم تقدّموه، ونصب (خير وأعظم) على المفعول الثاني، فإن الوجود إذا كان بمعنى الرؤية يتعدّى إلى مفعولين، وهو فصل في قول البصريين، وعماد في قول الكوفيين، لا محل لها في الإعراب، أخبرنا أبو القاسم يحيىٰ بن علي الكشمهيني أنا أبو نصر أحمد بن علي البخاري بالكوفة أنا أبو القاسم نصر بن أحمد الفقيه بالموصل ثنا أبو يعلى الموصلي ثنا أبو خثيمة ثنا جرير عن الأعمش عن إبراهيم التيمي عن الحارث بن سويد قال: قال عبد الله قال رسول الله ﷺ: «أيّكم ماله أحبّ إليه من مال وارثه»؟ قالوا: يا رسول الله ما منّا من أحد إلاّ ماله أحبّ إليه من مال وارثه، قال: «اعلموا ما تقولون»، قالوا: ما نعلم إلاّ ذلك يا رسول الله، قال: «ما منكم رجل إلاّ مال وارثه أحبّ إليه من ماله»، قالوا: كيف يا رسول الله؟ قال: «إنما مال أحدكم ما قدّم ومال وارثه ما أخّر». ﴿ **واستغفروا الله** ﴾، لذنوبكم، ﴿ **إن الله غفور رحيم** ﴾.

سورة المدثر

وهي مكية وقيل غير آية من آخرها وهي ست وخمسون آية ومائتان وخمس وخمسون كلمة وألف حرف وعشرة أحرف.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴿٥﴾

قوله عز وجل: ﴿**يا أيها المدثر**﴾ (ق) عن يحيى بن كثير قال «سألت أبا سلمة بن عبد الرحمن عن أول ما نزل من القرآن قال يا أيها المدثر قلت يقولون اقرأ باسم ربك قال أبو سلمة سألت جابراً عن ذلك وقلت له مثل الذي قلت فقال لي جابر لا أحدثك إلا ما حدثنا به رسول الله ﷺ قال «جاورت بحراء شهراً فلما قضيت جواري هبطت فنوديت فنظرت عن يميني فلم أر شيئاً ونظرت عن شمالي فلم أر شيئاً ونظرت خلفي فلم أر شيئاً فرفعت رأسي فرأيت شيئاً.

فأتيت خديجة فقلت دثروني فد ثروني» وصبوا علي ماء بارداً فنزلت ﴿**أيا أيها المدثر قم فأنذر وربك فكبر وثيابك فطهر والرجز فاهجر**﴾ وذلك قبل أن تفرض الصلاة وفي رواية «فلما قضيت جواري هبطت فاستبطنت الوادي ـ وذكر نحوه ـ فإذا هو قاعد على عرش في الهواء ـ يعني جبريل ـ فأخذتني رجفة شديدة» (ق) عن جابر رضي الله عنه من رواية الزهري «عن أبي سلمة عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يحدث عن فترة الوحي فقال لي في حديثه: فبينما أنا أمشي سمعت صوتاً من السماء فرفعت رأسي فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض فجئثت منه رعباً فقلت زملوني زملوني فدثروني فأنزل الله عز وجل ﴿**يا أيها المدثر**﴾ إلى ﴿**والرجز فاهجر**﴾ وفي رواية «فجئثت منه حتى هويت إلى الأرض فجئت إلى أهلي» وذكره وفيه قال أبو سلمة الرّجز الأوثان قال ثم حمى الوحي بعد وتتابع.

سُورَة المُدّثّر

مكيّة وهي ستّ وخمسون آية.

أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا يحيىٰ ثنا وكيع عن علي بن المبارك عن يحيىٰ بن أبي كثير قال: سألت أبا سلمة بن عبد الرحمن عن أول ما نزل من القرآن؟ قال: ﴿ **يا أيها المدّثّر** ﴾، قلت: يقولون: ﴿ إقرأ باسم ربِّك ﴾ [العلق: ١]؟ وقال أبو سلمة: سألت جابر بن عبد الله عن ذلك، وقلت له مثل الذي قلت، فقال لي جابر لا أُحدّثك إلّا بما حدّثنا رسول الله ﷺ، قال: «جاورت بحراء شهراً فلما قضيت جواري هبطت فنوديت فنظرت عن يميني فلم أرَ شيئاً ونظرت عن شمالي فلم أرَ شيئاً ونظرت أمامي فلم أرَ شيئاً ونظرت من خلفي فلم أرَ شيئاً، فرفعت رأسي فرأيت شيئاً فأتيت خديجة فقلت:

فإن قلت دل هذا الحديث على أن سورة المدثر أول ما نزل من القرآن، ويعارضه حديث عائشة رضي الله عنها المخرج في الصحيحين أيضاً في بدء الوحي، وسيأتي في موضعه إن شاء الله تعالى وفيه «فغطني الثالثة حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال: ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق﴾، حتى بلغ ـ ﴿ما لم يعلم﴾ ـ فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده» الحديث.

قلت الصّواب الذي عليه جمهور العلماء أن أول ما نزل من القرآن على الإطلاق ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق﴾، كما صرح به في حديث عائشة، وقول من قال إن سورة المدثر أول ما نزل من القرآن على الإطلاق ضعيف لا يعتد به، وإنما كان نزولها بعد فترة الوحي كما صرح به في رواية الزّهري عن أبي سلمة عن جابر، ويدل عليه أيضاً قوله في الحديث وهو يحدث عن فترة الوحي إلى أن قال وأنزل الله تعالى يا أيها المدثر ويدل عليه أيضاً قوله «فإذا الملك الذي جاءني بحراء ثم قال وأنزل الله تعالى: يا أيها المدثر» وأيضاً قوله «ثم حمي الوحي بعد وتتابع» فالصواب إن أول ما نزل من القرآن على رسول الله ﷺ سورة ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق﴾ وإن أول ما نزل بعد فترة الوحي سورة المدثر فحصل بهذا الذي بيناه الجمع بين الحديثين، والله أعلم قوله «فإذا هو قاعد على عرش بين السّماء والأرض» يريد به السرير الذي يجلس عليه وقوله يحدث عن فترة الوحي، أي عن احتباسه وعدم تتابعه، وتواليه في النزول قوله «فجئثت منه» روى بجيم مضمومة ثم همزة مكسورة ثم ثاء مثلثة ساكنة ثم تاء الضّمير وروى بثاءين مثلثتين بعد الجيم، ومعناه فرعبت منه وفزعت. وقوله «وحمى الوحي بعد وتتابع» أي كثر نزوله، وازداد بعد فترته من قولهم حميت الشّمس والنّار إذا ازداد حرهما، وقوله وصبوا علي ماء فيه أنه ينبغي لمن فزع أن يصب عليه ماء حتى يسكن فزعه والله أعلم.

وأما التّفسير فقوله عز وجل: يا أيها المدثر أصله المتدثر وهو الذي يتدثر في ثيابه ليستدفىء بها، وأجمعوا على أنه رسول الله ﷺ وإنما سماه مدثراً لقوله ﷺ دثروني، وقيل معناه يا أيّها المدثر بدثار النّبوة والرّسالة من قولهم ألبسه الله لباس التقوى، فجعل النّبوة كالدثار واللباس، مجازاً ﴿قم فأنذر﴾ أي حذرهم من عذاب ربك إن لم يؤمنوا والمعنى قم من مضجعك ودثارك، وقيل قم قيام عز واشتغل بالإنذار الذي تحملته ﴿وربك فكبر﴾ أي عظم ربك عما يقوله عبدة الأوثان ﴿وثيابك فطهر﴾ فيه أربعة أوجه: أحدها أن ينزل لفظ الثّياب والتّطهير على الحقيقة، والثاني أن

دثّروني وصبّوا عليّ ماءً بارداً، قال: فدثّروني وصبّوا عليّ ماءً بارداً، قال فنزلت: ﴿ يا أيّها المدّثّر قمْ فأنذرْ وربَّك فكبّرْ ﴾»، أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا عبد الله بن يوسف ثنا الليث عن عقيل قال ابن شهاب: سمعت أبا سلمة قال أخبرني جابر بن عبد الله قال: سمعت رسول الله ﷺ يحدّث عن فترة الوحي قال: «فبينا أنا أمشي سمعت صوتاً من السماء فرفعت بصري فإذا الملك الذي جاءني بحراء قاعد على كرسي بين السماء والأرض، فجئثت منه رعباً حتى هويت إلى الأرض، فجئت أهلي فقلت: زمّلوني زمّلوني فزمّلوني، فأنزل الله تعالى: ﴿ يا أيّها المدّثّر قمْ فأنذرْ ﴾، إلى قوله: ﴿ فاهجرْ ﴾، قال أبو سلمة: والرجز الأوثان، ثم حمى الوحي بعدُ وتتابع.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ يا أيّها المدّثر * قمْ فأنذر ﴾، أي أنذر كفّار مكة.

﴿ وربّك فكبّر ﴾، أي عظّمه عمّا يقوله عَبَدَة الأوثان.

﴿ ثيابك فطهّر ﴾، قال قتادة ومجاهد: نفسك فطهّر من الذنب، فكنّى عن النفس بالثوب، وهو قول إبراهيم والضحّاك والشعبي والزهري. وقال عكرمة: سُئِلَ ابن عباس عن قوله: ﴿ وثيابك فطهّر ﴾، فقال: لا تلبسها على معصية ولا على غدر. ثم قال: أما سمعت قول غيلان بن سلمة الثقفي: «وإني بحمد الله لا ثوب فاجر

ينزل لفظ الثياب على الحقيقة والتطهير على المجاز والثالث أن ينزل لفظ الثّياب على المجاز، والتّطهير على الحقيقة والرابع أن ينزل لفظ الثّياب والتّطهير على المجاز.

أما الوجه الأول: فمعناه وثيابك فطهر من النّجاسات والمستقذرات، وذلك أن المشركين لم يكونوا يحترزون عنها فأمر ﷺ بصون ثيابه من النجاسات، وغيرها خلافاً للمشركين.

الوجه الثاني: معناه وثيابك فقصر وذلك لأن المشركين كانوا يطولون ثيابهم ويجرون أذيالهم على النّجاسات وفي الثّوب الطّويل من الخيلاء والكبر والفخر ما ليس في الثوب القصير فنهى عن تطويل الثوب وأمر بتقصيره لذلك، وقيل معناه وثيابك فطهر عن أن تكون مغصوبة أو محرمة بل تكون من وجه حلال وكسب طيب.

الوجه الثالث: معناه حمل الثوب على النفس قال عنترة:

وشككت بالرمح الأصم ثيابه ليس الكريم على القنا بمحرم

يريد نفسه والمعنى ونفسك فطهر عن الذّنوب والرّيب وغيرهم وكنى بالثياب عن الجسد لأنها تشتمل عليه.

الوجه الرابع: وهو حمل الثّياب والتّطهير على المجاز، فقيل معناه وقلبك فطهر عن الصّفات المذمومة، وقيل معناه وخلقك فحسن وسئل ابن عباس عن قوله، وثيابك فطهر فقال: لا تلبسها على معصية ولا غدر أما سمعت قول غيلان بن سلمة الثقفي:

وإني بحمد الله لا ثوب فاجر لبست ولا من غدرة أتقنع

والعرب تقول في وصف الرّجل بالصّدق والوفاء هو طاهر الثّياب، وتقول لمن غدر إنه لدنس الثّوب، والسّبب في ذلك أن الثوب كالشّيء الملازم للإنسان فلهذا جعلوه كناية عن الإنسان كما يقال الكرم في ثوبه والعفة في أزاره، وقيل إن من طهر باطنه طهر ظاهره.

وقوله تعالى: ﴿**والرجز فاهجر**﴾ يعني أترك الأوثان ولا تقربها وقال ابن عباس: اترك المآثم، وقيل الشّرك والمعنى اترك كل ما أجب لك العذاب من الأعمال والأقوال.

لبست ولا من غدرة أتقنّع» والعرب تقول في وصف الرجل بالصدق والوفاء إنه طاهر الثياب، وتقول لمَن غدر إنه لدنس الثياب، وقال أُبيّ بن كعب: لا تلبسها على غدر ولا على ظلم ولا على إثم، البسها وأنت برّ طاهر. وروى أبو روق عن الضحاك معناه: وعملك فأصلح. قال السدي: يقال للرجل إذا كان صالحاً إنه لطاهر الثياب، وإذا كان فاجراً إنه لخبيث الثياب. وقال سعيد بن جبير: وقلبك ونيّتك فطهّر. وقال الحسن والقرظي: وخلقك فحسّنْ. وقال ابن سيرين وابن زيد: أمر بتطهير الثياب من النجاسات التي لا تجوز الصلاة معها، وذلك أن المشركين كانوا لا يتطهرون ولا يطهرون ثيابهم. وقال طاوس: وثيابك فقصّر لأن تقصير الثياب طُهْرة لها.

﴿ **والرجزَ فاهجرْ** ﴾، قرأ أبو جعفر وحفص عن عاصم ويعقوب والرجز بضمّ الراء، وقرأ الآخرون بكسرهما وهما لغتان ومعناهما واحد. قال مجاهد وعكرمة وقتادة والزهري وابن زيد وأبو سلمة: المراد بالرجز الأوثان، قال: فاهجرها ولا تقربها. وقيل: الزاي فيه منقلبة عن السين، والعرب تعاقب بين السين والزاي لقُرْب مخرجهما، ودليل هذا التأويل قوله: ﴿ فاجتنبوا الرجس من الأوثان ﴾ [الحج: ٣٠]، ورُوِيَ عن ابن عباس أن معناه: اترك المآثم، وقال أبو العالية والربيع: الرجز بضمّن الراء الصنم، وبالكسر النجاسة والمعصية. قال الضحاك: يعني الشرك. وقال الكلبي: يعني العذاب، ومجاز الآية اهجر ما أوجب لك العذاب من الأعمال.

﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ۝٧ فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ ۝٨ فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝٩ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ۝١٠ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۝١١ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا ۝١٢ وَبَنِينَ شُهُودًا ۝١٣ وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا ۝١٤﴾

﴿**ولا تمنن تستكثر**﴾ يعني لا تعط مالك مصانعة لتعطي أكثر منه هذا قول أكثر المفسرين وهذا النهي مختص بالنبي ﷺ وإنما نهى عن ذلك تنزيهاً لمنصب النبوة لأن من أعطى شيئاً لغيره يطلب منه الزيادة عليه لا بد وأن يتواضع لذلك الذي أعطاه، ومنصب النّبوة بحل عن ذلك وهذا غير موجود في حق الأمة، فيجوز لغيره من الأمة ذلك كما قيل هما رباءان حلال وحرام فالحلال الهدية يهديها الرجل لغيره ليعطيه أكثر منها وأما الحرام فالربا المحرم بنص الشرع، وقيل معناه لا تعط شيئاً لمجازاة الدنيا أعط لله وأراد به وجه الله. وقيل معناه لا تمنن على الله بعملك فتستكثره، ولا يكثرن عملك في عينك فإنه مما أنعم الله به عليك وأعطاك. وقيل معناه لا تمنن على أصحابك بما تعلمهم من أمر الدين وتبلغهم من أمر الوحي كالمستكثر بذلك عليهم، وقيل لا تمنن عليهم بنبوتك فتأخذ منهم على ذلك أجراً تستكثر به، وقيل معناه لا تمنن لا تضعف عن الخير تستكثر منه، وقيل معناه لا تمنن على النّاس بما تنعم عليهم وتعطيهم استكثاراً منك لتلك العطية، فإن المن يحبط العمل ﴿**ولربك فاصبر**﴾ أي على طاعته وأوامره ونواهيه لأجل ثواب الله تعالى؛ وقيل معناه فاصبر لله على ما أوذيت فيه، وقيل معناه إنك حملت أمراً عظيماً فيه محاربة العرب والعجم، فاصبر على ذلك لله عز وجل، وقيل معناه فاصبر تحت موارد القضاء لأجل الله ﴿**فإذا نقر في الناقور**﴾ أي نفخ في الصور وهو القرن الذي ينفخ فيه إسرافيل وهي النّفخة الأولى، وقيل الثانية وهو الأصح ﴿**فذلك يومئذ**﴾ يعني يوم النفخة وهو يوم القيامة ﴿**يوم عسير**﴾ أي شديد ﴿**على الكافرين**﴾ يعني يعسر عليهم في ذلك اليوم الأمر، فيعطون كتبهم بشمائلهم وتسود وجوههم ﴿**غير يسير**﴾ أي غير هين.

فإن قلت ما فائدة قوله غير يسير وعسير مغن عنه.

﴿ **ولا تمنن تستكثرْ** ﴾، أي لا تعطِ مالكَ مصانعةً لتُعطى أكثر منه، وهذا قول أكثر المفسّرين، قال الضحاك ومجاهد: كان هذا للنبي ﷺ خاصة. قال الضحاك: هما رِباً من حلال وحرام، فأمّا الحلال فالهدايا، وأما الحرام فالرِبا. قال قتادة: لا تعطِ شيئاً طمعاً لمجازاة الدنيا، يعني أعطِ لربّك وأردْ به اللّهَ. وقال الحسن: معناه **لا تمنن على الله بعملك** فتستكثره، قال الربيع: لا يكثرنّ عملك في عينك فإنه فيما أنعم الله عليك وأعطاك قليل. وروى خصيف عن مجاهد: ولا تضعفْ أن تستكثر من الخير، من قولهم: حبل متين إذا كان ضعيفاً دليله قراءة ابن مسعود (ولا تمنن أن تستكثر من الخير)، وقال ابن زيد معناه: لا تمنن بالنبوّة على الناس فتأخذ عليها أجْراً أو عرضاً من الدنيا.

﴿ **ولربِّك فاصبرْ** ﴾، قيل: فاصبر على طاعته وأوامره ونواهيه لأجل ثواب الله. وقال مجاهد: فاصبر لله على ما أُوذيت فيه. وقال ابن زيد: معناه حملت أمراً عظيماً فيه محاربة العرب والعجم فاصبر عليه لله عزّ وجلّ. وقيل: فاصبر تحت موارد القضاء لأجل الله.

﴿ **فإذا نُقِرَ في الناقور** ﴾، أي نُفِخَ في الصور، وهو القرن الذي ينفخ فيه إسرافيل يعني النفخة الثانية.

﴿ **فذلك** ﴾ أي النفخ في الصور، ﴿ **يومئذ** ﴾، يعني يوم القيامة، ﴿ **يوم عسير** ﴾، شديد.

﴿ **على الكافرين** ﴾، يعسر فيه الأمر عليهم، ﴿ **غير يسير** ﴾، غير هيّن.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ **ذرني ومَن خلقتُ وحيداً** ﴾، أي خلقته في بطن أُمه وحيداً فريداً لا مال له ولا ولد، نزلت

قلت فائدة التكرار التّأكيد كقوله: أنا محب لك غير مبغض، وقيل لما كان على الكافرين غير يسير دل على أنه يهون على المؤمنين بخلاف الكفار فإنه عليهم عسير لا يسر فيه ليزداد غيظ الكافرين وبشارة المؤمنين قوله تعالى: ﴿ذرني ومن خلقت وحيداً﴾ أي خلقته في بطن أمه وحيداً فريداً لا مال له ولا ولد، وقيل معناه خلقته وحدي لم يشاركني في خلقه أحد، والمعنى ذرني وإيّاه، فأنا أكفيكه نزلت هذه الآية في الوليد بن المغيرة المخزومي، وكان يسمى الوحيد في قومه. ﴿وجعلت له مالاً ممدوداً﴾ أي كثير يمد بعضه بعضاً دائماً غير منقطع، وقيل ما يمد بالنماء كالزرع والضرع والتجارة واختلفوا في مبلغه، فقيل كان ألف دينار وقيل أربعة آلاف درهم، وقيل ألف ألف وقال ابن عباس: تسعة آلاف مثقال فضة وعنه كان له بين مكة والطّائف إبل وخيل ونعم، وكان له غنم كثيرة وعبيد وجوار: وقيل كان له بستان بالطّائف لا تنقطع ثماره شتاء ولا صيفاً، وقيل كان له غلة شهر بشهر، ﴿وبنين شهوداً﴾ أي حضوراً بمكة لا يغيبون عنه لأنهم كانوا أغنياء غير محتاجين إلى الغيبة لطلب الكسب، وقيل معنى شهوداً أي رجالاً يشهدون معه المحافل والمجامع، قيل كانوا عشرة وقيل سبعة وهم الوليد بن الوليد وخالد وعمارة وهشام والعاص وقيس وعبد شمس أسلم منهم ثلاثة نفر خالد وهشام وعمارة ﴿ومهدت له تمهيداً﴾ أي بسطت له في العيش وطول العمر بسطاً مع الجاه العريض والرياسة في قومه، وكان الوليد من أكابر قريش وكان يدعى ريحانة قريش.

﴿ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّآ إِنَّهُۥ كَانَ لِءَايَٰتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾﴾

﴿ثم يطمع﴾ أي يرجو ﴿أن أزيد﴾ أي أزيده مالاً وولداً وتمهيداً ﴿كلا﴾ أي لا أفعل ولا أزيده قالوا فما زال الوليد بعد نزول هذه الآية في نقصان ماله وولده حتى هلك ﴿إنه كان لآياتنا عنيداً﴾ أي معانداً والمعنى أنه كان معانداً في جميع دلائل التوحيد والقدرة والبعث والنبوة منكراً للكل، وقيل كان كفره كفر عناد وهو أنه كان يعرف هذا بقلبه وينكره بلسانه وهو أقبح الكفر وأفحشه ﴿سأرهقه صعوداً﴾ يعني سأكلفه مشقة من العذاب لا راحة له فيها، وعن أبي

في الوليد بن المغيرة المخزومي كان يسمى الوحيد في قومه.

﴿ وجعلت له مالاً ممدوداً ﴾. أي كثيراً. قيل: هو ما يُمَدّ بالنماء كالزرع والضرع والتجارة. واختلفوا في مبلغه، قال مجاهد وسعيد بن جبير: مائة ألف دينار. وقال قتادة: أربعة آلاف دينار. وقال سفيان الثّوري: ألف ألف. وقال ابن عباس تسعة آلاف مثقال فضة. وقال مقاتل: كان له بستان بالطائف لا تنقطع ثماره شتاءً ولا صيفاً. وقال عطاء عن ابن عباس: كان له بين مكة والطائف إبل وخيل ونَعَم، وكان له عير كثيرة وعبيد وجَوَارٍ. وقيل: مالاً ممدوداً غلّة شهر بشهر.

﴿ وبنين شهوداً ﴾ حضوراً بمكة لا يغيبون عنه وكانوا عشرة، قاله مجاهد وقتادة. وقال مقاتل: كانوا سبعة وهم الوليد بن الوليد وخالد وعمارة وهشام والعاص وقيس وعبد شمس، أسلم منهم ثلاثة خالد وهشام وعمارة.

﴿ ومهّدتُ له تمهيداً ﴾، أي بسطت له في العيش وطول العمر بسطاً. وقال الكلبي: يعني المال بعضه على بعض كما يمهد الفرش.

﴿ ثم يطمع ﴾، يرجو، ﴿ أن أزيد ﴾، أي أن أزيده مالاً وولداً، وتمهيداً.

﴿ كلا ﴾، لا أفعل ولا أزيده، قالوا: فما زال الوليد بعد نزول هذه الآية في نقصان من ماله وولده حتى هلك. ﴿ إنه كان لآياتنا عنيداً ﴾، معانداً.

﴿ سأرهقه صُعوداً ﴾، سأكلّفه مشقّة من العذاب لا راحة له فيها، وروينا عن أبي سعيد عن النبي ﷺ قال:

سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «الصعود عقبة في النار يتصعد فيها الكافر سبعين خريفاً ثم يهوي فيها سبعين خريفاً فهو كذلك أبداً» أخرجه الترمذي. وقال حديث غريب وروى البغوي بإسناد الثعلبي عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ في قوله سأرهقه صعوداً. قال هو جبل من نار يكلف أن يصعده فإذا وضع يده ذابت فإذا رفعها عادت، وإذا وضع رجله ذابت فإذا رفعها عادت وقال الكلبي الصعود صخرة ملساء في النّار يكلف الكافر أن يصعدها لا يترك يتنفس في صعوده يجذب من أمامه بسلاسل الحديد، ويضرب من خلفه بمقامع من حديد فيصعدها في أربعين عاماً، فإذا بلغ ذروتها أحدر إلى أسفلها، ثم يكلف أن يصعدها يجذب من أمامه، ويضرب من خلفه فذلك دأبه أبداً قوله عز وجل ﴿إنه فكر وقدر﴾ أي فكر في الأمر الذي يريده ونظر فيه وتدبره ورتب في قلبه كلاماً، وهيأه لذلك لأمر وهو المراد بقوله ﴿وقدر﴾ أي وقدر ذلك الكلام في قلبه وذلك أن الله تعالى لما أنزل على نبيه ﷺ ﴿حمٓ تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم﴾ إلى قوله ﴿المصير﴾ قام النبي ﷺ في المسجـد يصلي والوليد بن المغيرة قريب منه يسمع قراءته فلما فطن النبي ﷺ لاستماعه أعاد قراءة الآية فانطلق الوليد حتى أتى مجلس قومه من بني مخزوم فقال والله لقد سمعت من محمد آنفاً كلاماً ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن، والله إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغدق، وإنه يعلو وما يعلي ثم انصرف إلى منزله فقالت قريش صبأ والله الوليد ولتصبون قريش كلهم فقال أبو جهل: إنا أكفيكموه فانطلق حتى جلس إلى جنب الوليد حزيناً فقال له الوليد ما لي أراك حزيناً يا ابن أخي؟ فقال وما يمنعني أن لا أحزن وهذه قريش يجمعون لك نفقة يعينونك على كبر سنك، ويزعمون أنك زينت كلام محمد، وإنك تدخل على ابن أبي كبشة، وابن أبي قحافة لتنال من فضل طعامهم. فغضب الوليد وقال ألم تعلم قريش

«الصعود جبل من نار يتصعّد فيه سبعين خريفاً، ثم يهوي». أخبرنا أحمد بن إبراهيم الشريحي أنا أبو إسحاق الثعلبي أخبرني ابن فنجويه ثنا عمر بن الخطاب ثنا عبد الله بن الفضل أنا منجاب بن الحارث أنا شريك عن عمّار الذهني عن عطية عن أبي سعيد عن النبي ﷺ في قوله: «سأرهقه صعوداً» قال: «هو جبل في النار من نار يكلّف أن يصعده فإذا وضع يده ذابت، فإذا رفعها عادت فإذا وضع رجله ذابت، وإذا رفعها عادت». وقال الكلبي: الصعود صخرة ملساء في النار يُكلّف أن يصعدها لا يُترَك أن يتنفس في صعوده ويجذب من أمامه بسلاسل من حديد ويُضرَب من خلفه بمقامع من حديد، فيصعدها في أربعين عاماً فإذا بلغ ذروتها أُحدر إلى أسفلها، ثم يكلّف أن يصعدها ويجذب مَن أمامه ويضرب مَن خلفه فذلك دأبه أبداً.

﴿ إنه فكر وقدر ﴾ الآيات، وذلك أن الله تعالى لمّا أنزل على النبي ﷺ ﴿حمٓ تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم﴾، إلى قوله: ﴿ المصير ﴾ [غافر: ١ ـ ٣٢] قام النبي ﷺ في المسجد والوليد بن المغيرة قريب منه يسمع قراءته فلما فطن النبي ﷺ لاستماعه لقراءته أعاد قراءة الآية، فانطلق الوليد حتى أتى مجلس قومه من بني مخزوم، فقال: والله لقد سمعت من محمد آنفاً كلاماً ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجنّ، وإن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وأنه يعلو وما يُعلى، ثم انصرف إلى منزله فقالت قريش: صبأ والله الوليد، والله لتصبونّ قريش كلهم، وكان يقال للوليد: ريحانة قريش، فقال لهم أبو جهل: أنا أكفيكموه فانطلق فقعد إلى جنب الوليد حزيناً، فقال له الوليد: ما لي أراك حزيناً يا ابن أخي؟ قال: وما يمنعني أن لا أحزن وهذه قريش يجمعون لك نفقة يعينونك على كبر سنّك ويزعمون أنـك زيّنت كلام محمـد وأنك تـدخل على ابن أبي كبشـة، وابن أبي قحافة لتنال من فضل طعامهم، فغضب الوليد، فقال: ألم تعلم قريش أني من أكثرهم مالاً وولداً، وهـل شبع محمد وأصحابه من الطعام فيكون لهم فضل، ثم قام مع أبي جهل حتى أتى مجلس قومه، فقال لهم: تزعمون أن محمداً مجنون فهل رأيتموه يخنق قطّ؟ قالوا: اللّهمّ لا، قال: تزعمون أنه كاهن فهل رأيتموه قطّ تكهّن؟ قالوا:

أني من أكثرهم مالاً وولداً؟ وهل شبع محمد وأصحابه من الطعام حتى يكون لهم فضل طعام ثم قام مع أبي جهل حتى أتى مجلس قومه، فقال لهم تزعمون أن محمداً مجنون فهل رأيتموه يخنق قط؟ قالوا اللّهم لا قال تزعمون أنه كاهن فهل رأيتموه قط تكهن؟ قالوا اللّهم لا قال تزعمون أنه شاعر فهل رأيتموه ينطق بشعر قط؟ قالوا اللهم لا قال تزعمون أنه كذاب فهل جربتم عليه شيئاً من الكذب، قالوا اللّهم لا وكان رسول الله ﷺ يسمى الأمين قبل النبوة لصدقه، فقالت قريش للوليد فما هو فتفكر في نفسه، ثم قال ما هو إلا ساحر أما رأيتموه يفرق بين الرجل، وأهله، وولده، ومواليه فهو ساحر وما يقوله سحر يؤثر. فذلك قوله عز وجل: ﴿إنه فكر﴾ أي في أمر محمد ﷺ والقرآن وقدر في نفسه ماذا يمكنه أن يقول في محمد ﷺ والقرآن.

﴿فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾

﴿فقتل كيف قدر﴾ أي عذب، وقيل لعن كيف قدر وهو على طريق التعجب والإنكار والتوبيخ ﴿ثم قتل كيف قدر﴾ كرره للتأكيد، وقيل معناه لعن على أي حال قدر من الكلام ﴿ثم نظر﴾ أي في طلب ما يدفع به القرآن ويرده ﴿ثم عبس وبسر﴾ أي كلح وقطب وجهه كالمهتم المتفكر في شيء يدبره ﴿ثم أدبر﴾ أي عن الإيمان ﴿واستكبر﴾ أي حين دعى إليه ﴿فقال إن هذا﴾ الذي يقوله محمد ويقرؤوه ﴿إلا سحر يؤثر﴾ يروى ويحكى عن السحرة ﴿إنْ هذا إلا قول البشر﴾ يعني يساراً وجبراً فهو يأثره عنهما الله قال الله تعالى: ﴿سأصليه﴾ أي سأدخله ﴿سقر﴾ هو اسم من أسماء جهنّم وقيل آخر دركاتها ﴿وما أدراك ما سقر﴾ أي وما أعلمك أي شيء هي سقر، وإنما ذكره على سبيل التّهويل والتّعظيم لأمرها ﴿لا تبقى ولا تذر﴾ قيل هما بمعنى كما تقول صد عني وأعرض عني وقيل لا بد من الفرق وإلا لزم

اللّهمَّ لا، قال: تزعمون أنه شاعر فهل رأيتموه ينطق بشعر قطّ؟ قالوا: اللّهمَّ لا. قال: تزعمون أنه كذاب فهل جرّبتم عليه شيءٍ من الكذب؟ قالوا: لا، وكان رسول الله ﷺ يسمّى الأمين قبل النبوّة من صدقه، فقالت قريش للوليد: فما هو؟ فتفكّر في نفسه ثم نظر وعبس، فقال: ما هو إلاّ ساحر، أمَا رأيتموه يفرّق بين الرجل وأهله وولده ومواليه؟ فهو ساحر وما يقوله سحر يؤثر، فذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿ إنه فكّر ﴾ في محمد والقرآن ﴿ وقدر ﴾ في نفسه ماذا يمكنه أن يقول في محمد والقرآن.

﴿ فقتل ﴾، لعن، وقال الزهري: عُذّب، ﴿ كيف قدّر ﴾، على طريق التعجّب والإنكار والتوبيخ

﴿ ثم قتل كيف قدّر ﴾، كرّره للتأكيد، وقيل: معناه لعن على أي حال قدر من الكلام، كما يقال لأضربنّه كيف صنع أي على أيّ حالٍ صنع.

﴿ ثم نظر ﴾ في طلب ما يدفع به القرآن ويردّه.

﴿ ثم عبس وبسر ﴾، كلح وقطب وجهه فنظر بكراهية شديدة كالمهتمّ المتفكّر في شيء.

﴿ ثم أدبر ﴾، عن الإيمان، ﴿ واستكبر ﴾، تكبّر حين دعى إليه.

﴿ فقال إن هذا ﴾، ما هذا الذي يقرأه محمد، ﴿ إلاّ سحر يؤثر ﴾، يُروَى ويُحكى عن السَّحَرَة.

﴿ إن هذا إلاّ قول البشر ﴾، يعني يساراً وجبراً فهو يأثره عنهما. وقيل: يرويه عن مسلمة صاحب اليمامة.

قال الله تعالى: ﴿ سأصليه ﴾، سأُدخله، ﴿ سقر ﴾، وسقر اسم من أسماء جهنم.

التكرار فقيل معناه لا تبقى أحداً من المستحقين للعذاب إلا أخذته، ثم لا تذر من لحوم أولئك شيئاً إلا أكلته وأهلكته، وقيل لا يموت فيها ولا يحيا أي لا تبقى من فيها حياً ولا تذر من فيها ميتاً كلما احترقوا جددوا وأعيدوا، وقيل لا تبقى لهم لحماً ولا تذر منهم عظماً، وقيل لكل شيء ملال وفترة إلا جهنم ليس لها ملال ولا فترة فهي لا تبقى عليهم ولا تذرهم ﴿لواحة للبشر﴾ جمع بشرة أي مغيرة للجلد حتى تجعله أسود قال مجاهد: تلفح الجلد حتى تدعه أشد سواداً من اللّيل وقال ابن عباس: محرقة للجلد، وقيل تلوح لهم جهنم حتى يروها عياناً.

عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾ وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ
أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ
ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾ كَلَّا وَٱلْقَمَرِ ﴿٣٢﴾

﴿عليها تسعة عشر﴾ أي على النار تسعة عشر من الملائكة وهم خزنتها مالك ومعه ثمانية عشر جاء في الأثر «إن أعينهم كالبرق الخاطف وأنيابهم كالصّياصي يخرج لهب النار من أفواههم ما بين منكبي أحدهم مسيرة سنة قد نزعت منهم الرّحمة يدفع أحدهم سبعين ألفاً فيرميهم حيث أراد من جهنم» وقال عمرو بن دينار: إن أحدهم يدفع بالدفعة الواحدة في جهنم أكثر من ربيعة ومضر وقال ابن عباس: لما نزلت هذه الآية. قال أبو جهل: لقريش ثكلتكم أمهاتكم أسمع من ابن أبي كبشة يخبر أن خزنة النار تسعة عشر، وأنتم الدهم يعني الشجعان أفيعجز كل عشر منكم أن تبطش بواحد منهم يعني خزنة جهنم، فقال أبو الأشد بن أسيد بن كلدة بن خلف الجمحي أنا أكفيكم منهم سبعة عشر عشرة على ظهري، وسبعة على بطني، وأكفوني أنتم اثنين ويروى عنه أنه قال أنا أمشي بين أيديكم على الصّراط فأدفع عشرة بمنكبي الأيمن وتسعة بمنكبي الأيسر في النار ونمضي فندخل الجنة. فأنزل الله تعالى: ﴿وما جعلنا أصحاب النار إلا

﴿ وما أدراك ما سقر * لا تُبقي ولا تذر ﴾، أي لا تبقي ولا تذر فيها شيئاً إلاّ أكلته وأهلكته. وقال مجاهد: لا تُميت ولا تحيي يعني لا تُبقي فيها حيّاً ولا تذر مَن فيها ميتاً كلما احترقوا جُدِّدوا. وقال السدي: لا تُبقي لهم لحماً ولا تذر لهم عظماً. وقال الضحاك: إذا أخذت فيهم لم تُبقِ منهم شيئاً وإذا أُعيدوا لم تذرهم حتى تفنيهم، ولكل شيء ملالة وفترة إلاّ جهنم.

﴿ لوّاحةٌ للبشر ﴾، مغيّرة للجلد حتى تجعله أسود، يقال: لاحه السقم والحزن إذ غيّره، قال مجاهد: تلفح الجلد حتى تدعه أشدّ سواداً من الليل. وقال ابن عباس وزيد بن أسلم: محرِقة للجلد. وقال الحسن وابن كيسان: تلوح لهم جهنم حتى يروها عياناً نظيره قوله: ﴿ وبُرِّزتِ الجحيم للغاوين ﴾ [الشعراء: ٩١]، و﴿ لوّاحة ﴾ رفع على نعت، ﴿ سقر ﴾ في قوله: ﴿ وما أدراك ما سقر ﴾، و﴿ البشر ﴾ جمع بشرة وجمع البشر أبشار.

﴿ عَليها تسعة عشر ﴾، أي على النار تسعة عشر من الملائكة، وهم خَزَنَتها مالك ومعه ثمانية عشر، وجاء في الأثر: أعينهم كالبرق الخاطف وأنيابهم كالصياصي يخرج لهب النار من أفواههم ما بين منكبي أحدهم مسيرة سنة، نُزعت منهم الرحمة يرفع أحدهم سبعين ألفاً فيرميهم حيث أراد من جهنم. قال عَمرو بن دينار: إن واحداً منهم يدفع بالدفعة الواحدة في جهنم أكثر من ربيعة ومضر. قال ابن عباس وقتادة والضحاك: لمّا نزلت هذه الآية قال أبو جهل لقريش ثكلتكم أُمّهاتكم أسمع ابن أبي كبشة يخبر أن خَزَنَة جهنم تسعة عشر وأنتم الدهم أي الشجعان أفيعجز كل عشرة منكم أن يبطشوا بواحد من خَزَنَة جهنم؟ قال أبو الأشد أسيد بن كلدة بن خلف الجمحي: أنا أكفيكم منهم سبعة عشر، عشرة على ظهري وسبعة على بطني، فاكفوني أنتم اثنين. ورُوِيَ أنه قال: أنا أمشي بين أيديكم على

ملائكة﴾ يعني لا رجالاً آدميين فمن ذا يغلب الملائكة وإنما جعلهم ملائكة ليكونوا من غير جنس المعذبين وأشد منهم لأن الجنسية مظنة الرّأفة والرّحمة **﴿وما جعلنا عدتهم﴾** أي عددهم في القلة **﴿إلا فتنة للذين كفروا﴾** أي ضلالة لهم حتى قالوا ما قالوا، وقيل فتنتهم هي قولهم لم لم يكونوا عشرين، وما الحكمة في تخصيص هذا العدد وقيل فتنتهم هي قولهم كيف يقدر هذا العدد، القليل على تعذيب جميع من في النار.

وأجيب عن قولهم لم لم يكونوا عشرين بأن أفعال الله تعالى لا تعلل ولا يقال فيها لم، وتخصيص الزبانية بهذا العدد لأمر اقتضته الحكمة، وقيل وجه الحكمة في كونهم تسعة عشر أن هذا العدد يجمع أكثر القليل، وأقل الكثير، ووجه ذلك أن الآحاد أقل الأعداد وأكثرها تسعة، وأقل الكثير عشرة فوقع الاقتصار على عدد يجمع أقل الكثير وأكثر القليل لهذه الحكمة، وما سوى ذلك من الأعداد فكثير لا يدخل تحت الحصر.

وأجيب عن قولهم كيف يقدر هذا العدد القليل على تعذيب جميع أهل النّار، وذلك بأن الله جلّ جلاله يعطي هذا القليل من القوة والقدرة ما يقدرون به على ذلك، فمن اعترف بكمال قدرة الله، وأنه على كل شيء قدير وأن أحوال القيامة على خلاف أحوال الدنيا زال عن قلبه هذا الاستبعاد بالكلية. **﴿ليستيقن الذين أوتوا الكتاب﴾** يعني أن هذا العدد مكتوب في التّوراة والإنجيل أنهم تسعة عشر **﴿ويزداد الذين آمنوا إيماناً﴾** يعني من آمن من أهل الكتاب يزدادون تصديقاً بمحمد ﷺ، وذلك أن العدد كان موجوداً في كتابهم وأخبر به النّبي ﷺ على وفق ما عندهم من غير سابقة دراسة، وتعلم علم إنما حصل له ذلك بالوحي السّماوي، فازدادوا بذلك إيماناً وتصديقاً بمحمد ﷺ. **﴿ولا يرتاب﴾** أي ولا يشك **﴿الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون﴾** يعني في عددهم وإنما قال ولا يرتاب وإن كان الاستيقان يدل على نفي الارتياب ليجمع لهم بين إثبات اليقين ونفي الشّك، وذلك أبلغ وآكد لأن فيه تعريضاً بحال غيرهم كأنه قال: وليخالف حالهم حال الناس المرتابين من أهل الكفر، والنفاق **﴿وليقول الذين في قلوبهم مرض﴾** أي شك ونفاق **﴿والكافرون﴾** أي مشركو مكة.

فإن قلت لم يكن بمكة نفاق فكيف قال، وليقول الذين في قلوبهم مرض وهم المنافقون وهذه السورة مكية.

قلت لأنه كان في علم الله تعالى أن النفاق سيحدث فأخبره عما سيكون وهو كسائر الإخبار بالغيوب فعلى هذا تصير الآية معجزة للنبي ﷺ لأنه إخبار عن غيب سيقع وقد وقع على وفق الخبر، وقيل يحتمل أن يراد بالّذين في قلوبهم مرض أهل مكة لأن فيهم من هو شاك وفيهم من هو قاطع بالكذب **﴿ماذا أراد الله بهذا مثلاً﴾** يعني أي شيء أراد الله بهذا المثل العجيب، وإنما سموه مثلاً لأنه استعارة من المثل المضروب لأنه مما غرب من الكلام وبدع استغراباً منهم لهذا العقد واستبعاداً له، والمعنى أيّ غرض قصد في جعل الملائكة تسعة عشرة لا عشرين ومرادهم بذلك إنكار

الصراط فأدفع عشرة بمنكبي الأيمن وتسعة بمنكبي الأيسر في النار ونمضي فندخل الجنة.

فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿ وما جعلنا أصحاب النار إلاّ ملائكة ﴾، لا رجالاً آدميين فمَن ذا يغلب الملائكة؟ ﴿ وما جعلنا عدّتهم ﴾، أي عددهم في القلّة، ﴿ إلاّ فتنةً للذين كفروا ﴾، أي ضلالة لهم حتى قالوا ما قالوا، ﴿ ليستيقن الذين أُوتوا الكتاب ﴾، لأنه مكتوب في التوراة والإنجيل إنهم تسعة عشر، ﴿ ويزداد الذين آمنوا إيماناً ﴾، يعني مَن آمن من أهل الكتاب يزدادون تصديقاً بمحمد ﷺ إذا وجدوا ما قاله موافقاً لما في كتبهم، ﴿ ولا يرتاب ﴾، لا يشك، ﴿ الذين أُوتوا الكتاب والمؤمنون ﴾، في عددهم، ﴿ وليقول الذين في قلوبهم مرض ﴾، شك ونفاق، ﴿ والكافرون ﴾، مشركوا مكة ﴿ ماذا أراد الله بهذا مثلاً ﴾، أي شيء أراد بهذا الحديث؟ وأراد بالمثل الحديثَ نفسَه. ﴿ كذلك ﴾، أي كما أضلّ الله مَن أنكر عدد الخَزَنَة وهدى مَن صدق كذلك، ﴿ يضلّ الله مَن يشاء ويهدي مَن يشاء وما يعلم جنود ربك إلاّ هو ﴾، قال مقاتل: هذا جواب أبي جهل حين قال: أما لمحمد أعوان إلاّ

هذا من أصله وإنه ليس من عند الله فلهذا سموه مثلاً ﴿كذلك﴾ أي كما أضل من أنكر عدد الخزنة وهدى من صدق به كذلك ﴿يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء﴾ لأن الله تعالى بيده الهداية والإضلال ﴿وما يعلم جنود ربك إلا هو﴾ هذا جواب لأبي جهل حين قال: أما لمحمد أعوان إلا تسعة عشر، والمعنى أن الخزنة تسعة عشر، ولهم أعوان وجنود من الملائكة لا يعلم عددهم إلا الله تعالى خلقوا لتعذيب أهل النار وقيل كما أن مقدورات الله تعالى غير متناهية فكذلك جنوده غير متناهية، ﴿وما هي﴾ يعني النار ﴿إلا ذكرى للبشر﴾ أي إلا تذكرة وموعظة للناس، وقيل ما هي يعني آيات القرآن ومواعظه إلا تذكرة للناس يتعظون بها ﴿كلا﴾ أي لا يتعظون ولا يتذكرون، وقيل معناه ليس الأمر كما يقول من زعم أنه يكفي أصحابه خزنة النار وقيل كلا هنا بمعنى حقاً ﴿والقمر﴾.

وَٱلَّيۡلِ إِذۡ أَدۡبَرَ ﴿٣٣﴾ وَٱلصُّبۡحِ إِذَآ أَسۡفَرَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهَا لَإِحۡدَى ٱلۡكُبَرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرًا لِّلۡبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَتَقَدَّمَ أَوۡ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّآ أَصۡحَٰبَ ٱلۡيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِي جَنَّٰتٖ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿٤١﴾

﴿والليل إذا أدبر﴾ أي ولى ذاهباً، وقيل دبر بمعنى أقبل تقول العرب دبرني فلان أي جاء خلفي فالليل يأتي خلف النهار ﴿والصبح إذا أسفر﴾ أي أضاء وتبين وهذا قسم وجوابه ﴿إنها لإحدى الكبر﴾ يعني إن سقر لإحدى الأمور العظام، وقيل أراد بالكبر دركات النار وهي سبعة جهنم ولظى والحطمة والسّعير وسقر والجحيم والهاوية ﴿نذيراً للبشر﴾ قيل يحتمل أن يكون نذيراً صفة للنار، والمعنى أن النّار نذير للبشر قال الحسن: والله ما أنذر بشيء أدهى من النار، وقيل يجوز أن يكون نذيراً صفة لله تعالى، والمعنى أنا لكم منها نذير فاتقوها وقيل هو صفة للنبي ﷺ ومعناه يا أيها المدثر قم نذيراً للبشر فأنذر ﴿لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر﴾ أي يتقدم في الخير والطّاعة أو يتأخر عنهما فيقع في الشر والمعصية، والمعنى أن الإنذار قد حصل لكل واحد ممن آمن أو كفر، وقد تمسك بهذه الآية من يرى أن العبد غير مجبور على الفعل وأنه متمكن من فعل نفسه.

تسعة عشر؟ قال عطاء: وما يعلم جنود ربك إلّا هو يعني من الملائكة الذين خلقهم لتعذيب أهل النار، لا يعلم عدّتهم إلّا الله، والمعنى إن تسعة عشر هم خَزَنَة النار، ولهم من الأعوان والجنود من الملائكة ما لا يعلمهم إلّا الله عزّ وجلّ، ثم رجع إلى ذكر سقر فقال: ﴿ وما هي ﴾، يعني النار، ﴿ إلّا ذكرى للبشر ﴾، إلّا تذكرة وموعظة للناس.

﴿ كلا والقمر ﴾، هذا قسم يقول حقاً.

﴿ والليل إذا أدبر ﴾، قرأ نافع وحمزة وحفص ويعقوب ﴿ إذ ﴾ بغير ألف، ﴿ أدبر ﴾ بالألف، وقرأ الآخرون (إذا) بالألف، (دبر) بلا ألف، لأنه أشدّ موافقة لما يليه، وهو قوله: ﴿ والصبح إذا أسفر ﴾، ولأنه ليس في القرآن قسم بجانبه إذ وإنما بجانب الأقسام إذا وكلاهما لغة، يقال: دبر الليل وأدبر إذا ولّى ذاهباً. قال أبو عمرو: دبر لغة قريش، وقال قطرب: دبر أي أقبل، تقول العرب: دبرني فلان أي جاء خلفي، فالليل يأتي خلف النهار.

﴿ والصبح إذا أسفر ﴾، أضاء وتبيّن.

﴿ إنها لإحدى الكِبَر ﴾، يعني أن سقر لإحدى الأمور العظام، وواحد الكُبَر كبرى، قال مقاتل والكلبي: أراد بالكبر دركات جهنم وهي سبعة: جهنم ولظى والحطمة والسعير وسقر والجحيم والهاوية.

﴿ نذيراً للبشر ﴾، يعني النار نذيراً للبشر. قال الحسن: والله ما أنذر الله بشيء أدهى منها، وهو نصب على القطع من قوله لإحدى الكِبَر إنها معرّفة، ونذيراً نكرة، قال الخليل: النذير مصدر كالنكير. ولذلك وصف به المؤنث، وقيل: هو من صفة الله سبحانه وتعالى، مجازه: وما جعلنا أصحاب النار إلّا ملائكة نذيراً للبشر أي إنذاراً

وأجيب عنه بأن مشيئته تابعة لمشيئة الله تعالى؛ وقيل إضافة المشيئة إلى المخاطبين على سبيل التهديد كقوله ﴿اعملوا ما شئتم﴾ وقيل هذه المشيئة لله تعالى، والمعنى لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر.

قوله تعالى: ﴿كل نفس بما كسبت رهينة﴾ أي مرتهنة في النّار بكسبها ومأخوذة بعملها ﴿إلا أصحاب اليمين﴾ فإنهم غير مرتهنين بذنوبهم في النار، ولكن الله يغفرها لهم، وقيل معناه فكوا رقاب أنفسهم بأعمالهم الحسنة كما يفك الراهن رهنه بأداء الحق الذي عليه.

واختلفوا في أصحاب اليمين من هم فقيل هم المؤمنون المخلصون، وقيل هم الذين يعطون كتبهم بإيمانهم، وقيل هم الذين كانوا على يمين آدم يوم أخذ الميثاق وحين قال الله تعالى لهم: ﴿هؤلاء في الجنة ولا أبالي﴾ وقيل هم الذين كانوا ميامين أي مباركين على أنفسهم، وروى عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنهم أطفال المسلمين وهو أشبه بالصواب لأن الأطفال لم يكتسبوا إثماً يرتهنون به وعن ابن عباس قال هم الملائكة ﴿في جنات﴾ أي هم في بساتين ﴿يتساءلون عن المجرمين﴾ أي يتساءلون المجرمين وعن صلة فيقولون لهم.

﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰ أَتَانَا الْيَقِينُ ﴿٤٧﴾ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ ﴿٤٨﴾ فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾﴾

﴿ما سلككم في سقر﴾ قيل وهذا يقوي قول من قال إن أصحاب اليمين هم الأطفال لأنهم لم يعرفوا الذنوب التي توجب النّار، وقيل معناه يسأل بعضهم بعضاً عن المجرمين، فعلى هذا التفسير يكون معنى ما سلككم، أيّ يقول المسؤولون للسّائلين قلنا للمجرمين ما سلككم، أي أدخلكم وقيل ما حبسكم في سقر، وهذا سؤال توبيخ وتقريع

لهم قال أبو رزين يقول أنا لكم منها نذير، فاتقوها. وقيل: هو صفة محمد ﷺ معناه: يا أيها المدّثّر قم نذيراً للبشر، فأنذر، وهذا معنى قول ابن زيد.

﴿ لِمَن شاء ﴾، بدل من قوله للبشر: ﴿ منكم أن يتقدم ﴾، في الخير والطاعة، ﴿ أو يتأخر ﴾، عنها في الشرّ والمعصية، والمعنى: أن الإنذار قد حصل لكل واحد ممّن آمن أو كفر.

﴿ كلّ نفس بما كسبت رهينة ﴾، مرتهنة في النار بكسبها مأخوذة بعملها.

﴿ إلاّ أصحاب اليمين ﴾، فإنهم لا يرتهنون بذنوبهم في النار ولكن يغفرها الله لهم. قال قتادة: علق الناس كلهم إلا أصحاب اليمين. واختلفوا فيهم رُوِيَ عن عليّ رضي الله عنه أنهم أطفال المسلمين. وروى أبو ظبيان عن ابن عباس: هم الملائكة. وقال مقاتل: هم أصحاب الجنة الذين كانوا على يمين آدم يوم الميثاق، حين قال الله لهم: هؤلاء في الجنة ولا أبالي وعنه أيضاً: هم الذين أُعطوا كتبهم بأيمانهم، وعنه أيضاً: هم الذين كانوا ميامين على أنفسهم. وقال الحسن: هم المسلمون المخلصون. وقال القاسم: كلّ نفس مأخوذة بكسبها من خير أو شرّ إلاّ مَن اعتمد على الفضل، وكلّ مَن اعتمد على الكسب فهو رهين به، ومَن اعتمد على الفضل فهو غير مأخوذ به.

﴿ في جنّات يتساءلون * عن المجرمين ﴾، المشركين.

﴿ ما سلككم ﴾، أدخلكم، ﴿ في سقر ﴾، فأجابوا.

و﴿ قالوا لَمْ نكُ من المصلّين ﴾، لله.

﴿ ولم نكُ نطعم المسكين * وكنّا نخوض ﴾، في الباطل، ﴿ مع الخائضين * وكنّا نكذب بيوم الدين *

﴿قالوا﴾ مجيبين لهم ﴿لم نك من المصلين﴾ أي لله في الدّنيا ﴿ولم نك نطعم المسكين﴾ أي لم نتصدق عليه ﴿وكنا نخوض مع الخائضين﴾ أي في الباطل ﴿وكنا نكذب بيوم الدين﴾ أي بيوم الجزاء على الأعمال وهو يوم القيامة ﴿حتى أتانا اليقين﴾ يعني الموت قال الله تعالى: ﴿فما تنفعهم شافعة الشّافعين﴾ قال ابن مسعود: تشفع الملائكة والنّبيون والشهداء والصحالون وجميع المؤمنين فلا يبقى في النار إلا أربعة ثم تلا ﴿قالوا لم نك من المصلين﴾ الآية، وقال عمران بن حصين: الشّفاعة نافعة لكل أحد دون هؤلاء الذين تسمعون. روى البغوي بسنده عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ «يصف أهل النار فيعذبون قال فيمر بهم الرجل من أهل الجنة، فيقول للرجل منهم يا فلان فيقول ما تريد فيقول أما تذكر رجلاً سقاك شربة يوم كذا وكذا قال؛ فيقول وإنك لأنت هو فيقول نعم فيشفع له فيشفع فيه قال، ثم يمر بهم الرجل من أهل الجنة فيقول يا فلان فيقول ما تريد فيقول أما تذكر رجلاً وهب لك وضوءاً يوم كذا وكذا، فيقول وإنك لأنت هو فيقول نعم فيشفع له فيشفع فيه» ﴿فما لهم عن التذكرة معرضين﴾ أيّ عن مواعظ القرآن ﴿كأنهم حمر﴾ جمع حمار ﴿مستنفرة﴾ قرىء بالكسر أي نافرة وقرىء بالفتح أي منفرة مذعورة محمولة على النفار ﴿فرت من قسورة﴾ قيل القسورة جماعة الرّماة لا واحد له من لفظه، وهي رواية عن ابن عباس وعنه أنها القناص وعنه قال: هي حبال الصيادين، وقيل معناه فرت من رجال أقوياء وكل ضخم شديد عند العرب قسورة وقسور وقيل القسورة لغط القوم وأصواتهم وقيل القسورة شدة سواد ظلمة اللّيل وقال أبو هريرة: هي الأسد وذلك لأن الحمر الوحشية إذا عاينت الأسد هربت فكذلك هؤلاء المشركون إذا سمعوا النبي ﷺ يقرأ القرآن هربوا منه شبههم بالحمر في

حتى أتانا اليقين ﴾، وهو الموت.

قال الله عزّ وجلّ: ﴿ **فما تنفعهم شفاعة الشافعين** ﴾، قال ابن مسعود: تشفع الملائكة والنبيّون والشهداء والصالحون وجميع المؤمنين، فلا يبقى في النار إلّا أربعة، ثم تلا: ﴿ **قالوا لم نكُ من المصلّين** ﴾ إلى قوله: ﴿ **يوم الدين** ﴾، قال عمران بن الحصين: الشفاعة نافعة لكل واحد دون هؤلاء الذين تسمعون. أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحي أنا أحمد بن الحسين الحيري أنا حاجب بن أحمد الطوسي ثنا محمد بن حماد ثنا أبو معاوية عن الأعمش عن يزيد الرقاشي عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ يصف أهل النار فيعذبون قال: «فيمرّ بهم الرجل من أهل الجنة فيقول الرجل منهم يا فلان قال: فيقول: ما تريد؟ فيقول: أما تذكر رجلاً سقاك شربة ماء يوم كذا وكذا؟ قال: فيقول: وإنك لأنت هو؟ فيقول: نعم، فيشفع له فيُشفّع فيه. قال: ثم يمر بهم الرجل من أهل الجنة فيقول: يا فلان، فيقول: ما تريد؟ فيقول: أما تذكر رجلاً وهب لك وضوءاً يوم كذا وكذا؟ فيقول: إنك لأنت هو؟ فيقول: نعم فيشفع له فيُشفّع فيه».

﴿ **فما لهم عن التذكرة مُعرِضين** ﴾، عن مواعظ القرآن مُعرِضين نصب على الحال، وقيل صاروا معرضين.

﴿ **كأنهم حُمُر** ﴾، جمع حمار، ﴿ **مستنفرة** ﴾، قرأ أهل المدينة والشام بفتح الفاء، وقرأ الباقون بكسرها، فمَن قرأ بالفتح فمعناها مُنفِرة مذعورة، ومَن قرأ بالكسر فمعناها نافرة، يقال: نفر واستنفر بمعنى واحد، كما يقال عجب واستعجب.

﴿ **فرّتْ من قسورة** ﴾، قال مجاهد وقتادة والضحاك: القسورة جماعة الرّماة لا واحد لها من لفظها، وهي رواية عطاء عن ابن عباس. وقال سعيد بن جبير: هم القنّاص وهي رواية عطية عن ابن عباس. وقال زيد بن أسلم: من رجال أقوياء وكل ضخم شديد عند العرب قسور وقسورة. وعن أبي المتوكل قال: هي لغط القوم وأصواتهم. وروى عكرمة عن ابن عباس قال: هي حبال الصيادين. وقال أبو هريرة: هي الأسد، وهو قول عطاء والكلبي،

البلادة والبله، وذلك أنه لايرى مثل نفار حمر الوحش إذا خافت من شيء.

﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ۝٥٢ كَلَّا ۖ بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۝٥٣ كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ۝٥٤ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۝٥٥ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ۝٥٦﴾

﴿**بل يريد كل امرىء منهم أن يؤتى صحفاً منشرة**﴾ قال المفسرون إن كفار قريش قالوا لرسول الله ﷺ ليصبح عند رأس كل رجل منا كتاب منشور من الله إنك رسوله نؤمر فيه بإتباعك، وقيل إن المشركين قالوا يا محمد بلغنا أن الرجل من بني إسرائيل كان يصبح، وعند رأسه ذنبه وكفارته فأتنا بمثل ذلك ﴿**كلا**﴾ أي لا يؤتون الصحف وهو ردع لهم عن هذه الاقتراحات ﴿**بل لا يخافون الآخرة**﴾ أي لا يخافون عذاب الآخرة والمعنى أنهم لو خافوا النّار لما اقترحوا هذه الآيات بعد قيام الأدلة، لأنه لما حصلت المعجزات الكثيرة كفت في الدّلالة على صحة النّبوة فطلب الزّيادة يكون من باب التعنت ﴿**كلا**﴾ أي حقاً ﴿**إنه تذكرة**﴾ يعني إنه عظة عظيمة ﴿**فمن شاء ذكره**﴾ أي اتعظ به فإنما يعود نفع ذلك عليه ﴿**وما يذكرون إلا أن يشاء الله**﴾ أي إلا أن يشاء الله لهم الهدى فيتذكروا ويتعظوا ﴿**هو أهل التقوى وأهل المغفرة**﴾ أي هو حقيق بأن يتقيه عباده ويخافوا عقابه فيؤمنوا به ويطيعوه، وهو حقيق بأن يغفر لهم ما سلف من كفرهم وذنوبهم. وقيل هو أهل أن تتقي محارمه، وأهل أن يغفر لمن اتقاه عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال في هذه الآية: هو أهل التّقوى وأهل المغفرة قال الله تبارك، وتعالى أنا أهل أن أتقي فمن اتقاني فلم يجعل معي إلهاً فأنا أهل أن أغفر له أخرجه التّرمذي، وقال حديث غريب وفي إسناده سهيل بن عبد الله القطيعي وليس بالقوي في الحديث وقد تفرد به عن ثابت، والله تعالى أعلم بمراده.

وذلك أن الحمر الوحشية إذا عاينت الأسد هربت، كذلك هؤلاء المشركين إذا سمعوا النبي ﷺ يقرأ القرآن هربوا منه. قال عكرمة: هي ظلمة الليل، ويقال لسواد أول الليل قسورة.

﴿ **بل يريد كل امرىء منهم أن يُؤتى صحفاً منشرة** ﴾، قال المفسّرون: إن كفّار قريش قالوا لرسول الله ﷺ: ليصبح عند رأس كل رجل منّا كتاب منشور من الله أنك لرسوله نؤمر فيه باتّباعك. قال الكلبي: إن المشركين قالوا: يا محمد بلغنا أن الرجل من بني إسرائيل كان يصبح مكتوباً عند رأسه ذنبه وكفّارته، فاتنا بمثل ذلك، والصحف الكتب وهي جمع الصحيفة ومنشرة منشورة.

فقال الله تعالى: ﴿ **كلا** ﴾، لا يؤتون الصحف. وقيل: حقاً وكل ما ورد عليك منه فهذا وجهه بل، ﴿ **لا يخافون الآخرة** ﴾، أي لا يخافون عذاب الآخرة، والمعنى أنهم لو خافوا النار لما اقترحوا هذه الآيات بعد قيام الأدلّة.

﴿ **كلا** ﴾، حقاً، ﴿ **إنه** ﴾، يعني القرآن، ﴿ **تذكرة** ﴾، موعظة.

﴿ **فمَن شاء ذكره** ﴾، اتّعظ به.

﴿ **وما يذكرون** ﴾، قرأ نافع ويعقوب تذكرون بالتاء والآخرون بالياء، ﴿ **إلاّ أن يشاء الله** ﴾، قال مقاتل: إلاّ أن يشاء الله لهم الهدى. ﴿ **هو أهل التقوى وأهل المغفرة** ﴾، أي أهل أن يُتّقى محارمه وأهل أن يغفر لمَن اتّقاه، أخبرنا أحمد بن إبراهيم الشريحي أنا أبو إسحاق الثعلبي أنا ابن فنجويه ثنا عمر بن الخطاب ثنا عبد الله بن الفضل ثنا هدبة بن خالد ثنا سهيل بن أبي حزم عن ثابت عن أنس أن رسول الله ﷺ قال في هذه الآية: ﴿ **هو أهل التقوى وأهل المغفرة** ﴾ قال: قال ربّكم عزّ وجلّ: «أنا أهل أن أُتقى ولا يُشرك بي غيري، وأنا أهل لمَن اتّقى أن يشرك بي أن أغفر له»، وسهيل هو ابن عبد الرحمن القطيعي أخو حزم القطيعي.

سورة القيامة

مكية وهي أربعون آية ومائة وتسع وتسعون كلمة وستمائة واثنان وخمسون حرفاً.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ (١) وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ (٢) أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ (٣)

قوله عز وجل: ﴿**لا أقسم بيوم القيامة**﴾ اتفقوا على أن المعنى أقسم، واختلفوا في لفظ لا فقيل إدخال لفظة لا على القسم مستفيض في كلام العرب، وأشعارهم قال امرؤ القيس:

لا وأبيك ابنة العامري ... لا يدعي القوم أني أفر

قالوا: وفائدتها تأكيد القسم كقولك لا والله ما ذاك كما تقول تريد والله فيجوز حذفها. لكنه أبلغ في الرّد مع إثباتها، وقيل إنها صلة كقول الله تعالى: ﴿**لئلا يعلم أهل الكتاب**﴾ وفيه ضعف لأنها لا تزاد إلا في وسط الكلام لا في أوله.

وأجيب عنه بأن القرآن في حكم السّورة الواحدة بعضه متصل ببعض يدل عليه أنه قد يجيء ذكر الشيء في سورة، ويذكر جوابه في سورة أخرى كقوله: ﴿**يا أيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون**﴾ وجوابه في سورة ﴿**ما أنت بنعمة ربك بمجنون**﴾ وإذا كان كذلك كان أول هذه السورة جارياً مجرى الوسط وفيه ضعف أيضاً لأن القرآن في حكم السّورة الواحدة في عدم التناقض لا أن تقرن سورة بما بعدها فذلك غير جائز، وقيل لا رد لكلام المشركين المنكرين للبعث أي ليس الأمر كما زعموا، ثم ابتدأ فقال أقسم بيوم القيامة وأقسم بالنفس اللّوامة، وقيل الوجه فيه أن يقال إن لا هي للنفي، والمعنى في ذلك كأنه قال لا أقسم بذلك اليوم ولا بتلك النّفس إلا إعظاماً لهما فيكون الغرض تعظيم المقسم به وتفخيم شأنه، وقيل معناه لا أقسم بهذه الأشياء على إثبات هذا المطلوب فإنه إثباته أظهر من أن يقسم عليه. وروى البغوي في تفسير القيامة عن المغيرة بن شعبة قال: يقولون القيامة وقيامة أحدهم موته وشهد علقمة

سُورَة القِيَامَة

مكيّة وهي أربعون آية.

﴿ **لا أُقسم بيوم القيامة** ﴾، قرأ القواس عن ابن كثير (لا قسم) الحرف الأول بلا ألف قبل الهمزة.

﴿ **ولا أُقسم بالنفس اللوّامة** ﴾، بالألف وكذلك قرأ عبد الرحمن الأعرج، على معنى أنه أقسم بيوم القيامة، ولم يقسم بالنفس اللوّامة والصحيح، أنه أقسم بهما جميعاً و﴿ **لا** ﴾ صلة فيهما أي أُقسم بيوم القيامة وبالنفس اللوّامة. وقال أبو بكر بن عياش: هو تأكيد للقَسم كقولك لا والله. وقال الفرّاء: لا ردّ لكلام المشركين المنكرين،

جنازة فلما دفنت قال أما هذا فقد قامت قيامته وفيه ضعف لاتفاق المفسرين على أن المراد به القيامة الكبرى لسياق الآيات في ذلك. وقوله ﴿**ولا أقسم بالنفس اللوامة**﴾ قيل هي التي تلوم على الخير والشر ولا تصبر على السراء والضراء، وقيل اللوامة هي التي تندم على ما فات فتقول لو فعلت ولو لم تفعل وقيل ليس من نفس برة ولا فاجرة إلا وهي تلوم نفسها إن كانت عملت خيراً تقول هلا ازددت وإن عملت شراً تقول يا ليتني لم أفعل وقال الحسن: هي نفس المؤمن إن المؤمن ما تراه إلا يلوم نفسه ما أردت بكلامي ما أردت بأكلي، وإن الكفار يمضي ولا يحاسب نفسه، ولا يعاتبها، وقيل هي النّفس الشّريفة التي تلوم النّفوس العاصية يوم القيامة بسبب ترك التّقوى، وقيل هي النّفس الشريفة التي لا تزال تلوم نفسها وإن اجتهدت في الطاعة وقيل هي النّفس الشّقية العاصية يوم القيامة بسبب ترك التقوى، وقيل هي النفس الشقية تلوم نفسها حين تعاين أهوال يوم القيامة فتقول «يا حسرتي على ما فرطت في جنب الله» فإن قلت أيّ مناسبة بين يوم القيامة، وبين النّفس اللّوامة حتى جمع بينهما في القسم.

قلت وجه المناسبة أن في يوم القيامة تظهر أحوال النفوس اللّوامة من الشقاوة أو السعادة فلهذا حسن الجمع بينهما في القسم وقيل إنما وقع القسم بالنفس اللوامة على معنى التعظيم لها من حيث إنها أبداً تستحقر فعلها واجتهادها في طاعة الله تعالى؛ وقيل إنه تعالى: أقسم بيوم القيامة ولم يقسم بالنّفس اللّوامة فكأنه قال أقسم بيوم القيامة تعظيماً لها ولا أقسم بالنفس اللوامة تحقيراً لها لأن النّفس الكافرة أو الفاجرة لا يقسم بها، فإن قلت المقسم به هو يوم القيامة، والمقسم عليه هو يوم القيامة، فيصير حاصله أنه أقسم بيوم القيامة على وقوع القيامة وفيه إشكال.

قلت إن المحققين قالوا: القسم بهذه الأشياء قسم بربها في الحقيقة، فكأنه قال أقسم برب القيامة، وقيل لله تعالى أن يقسم بما يشاء من خلقه وجواب القسم محذوف تقديره لتبعثن ثم لتحاسبن يدل عليه قوله تعالى: ﴿**أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه**﴾ وقيل جواب القسم قوله:

ثم ابتدأ فقال أُقسم بيوم القيامة وأُقسم بالنفس اللوّامة. وقال المغيرة بن شعبة: يقولون القيامة وقيامة أحدهم موته، وشهد علقمة جنازة فلما دفنت قال: أما هذا فقد قامت قيامته. ﴿ **ولا أُقسم بالنفس اللوّامة** ﴾ قال سعيد بن جبير وعكرمة: تلوم على الخير والشر ولا تصبر على السرّاء والضرّاء. قال قتادة: اللوّامة الفاجرة. قال مجاهد: تندم على ما فات وتقول لو فعلت ولو لم أفعل. قال الفرّاء: ليس من نفس برّة ولا فاجرة إلاّ وهي تلوم نفسها، إن كانت عملت خيراً قالت: هلاّ ازددت، وإن عملت شرّاً قالت: ليتني لم أفعل. قال الحسن: هي النفس المؤمنة قال: إن المؤمن والله ما تراه إلاّ يلوم نفسه ما أردت بكلامي ما أردت بأكلتي وإن الفاجر يمضي قُدُماً لا يحاسب نفسه ولا يعاتبها. قال مقاتل: هي النفس الكافرة تلوم نفسها في الآخرة على ما فرّطت في أمر الله في الدنيا.

﴿ **أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه** ﴾، نزلت في عدي بن ربيعة حليف بني زهرة ختن الأخنس بن شريق الثقفي، وكان النبي ﷺ يقول: اللّهمَّ اكفني جاري السوء يعني عدياً والأخنس. وذلك أن عدي بن ربيعة أتى النبي ﷺ فقال: يا محمد حدّثني عن القيامة متى تكون وكيف أمرها وحالها؟ فأخبره النبي ﷺ فقال: لو عاينت ذلك اليوم لم أُصدّقك ولم أُومن بك أو يجمع الله العظام، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿ **أيحسب الإنسان** ﴾ يعني الكافر ﴿ **أن لن نجمع عظامه** ﴾ بعد التفرّق والبلى فنُحييه، قيل: ذكر العظام وأراد نفسه لأن العظام قالب النفس لا يستوي الخلق إلاّ باستوائها. وقيل: هو خارج على قول المنكر أو يجمع الله العظام كقوله: ﴿ قال مَن يُحيـي العظام وهي رميم ﴾ [يّس: ٧٨].

﴿بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ۝٤ بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ۝٥﴾

﴿بلى قادرين على أن نسوي بنانه﴾ ومعنى أيحسب الإنسان أيظن هذا الكافر أن العظام بعد تفرقها ورجوعها رميماً، ورفاتاً مختلطة بالتراب وبعد ما نسفتها الريح فطيرتها في أباعد الأرض أن لن نجمع عظامه، أي لا يمكننا جمعها مرة أخرى وكيف خطر بباله هذا الخاطر الفاسد، وما علم أن القادر على الإبداء قادر على الإعادة نزلت هذه الآية في عدي بن ربيعة حليف بني زهرة وهو ختن الأخنس بن شريق الثقفي وكان النبي ﷺ يقول اللهم اكفني جاري السوء يعني عدياً والأخنس وذلك أن عدياً أتى النبي ﷺ فقال يا محمد حدثني متى تكون القيامة وكيف أمرها وحالها فأخبره النبي ﷺ فقال عدي بن ربيعة لو عاينت ذلك اليوم لم أصدقك، ولم أؤمن بك أو يجمع الله العظام فأنزل الله عز وجل. أيحسب الإنسان يعني هذا الكافر أن لن نجمع عظامه يعني بعد التفرق والبلاء فنحييه ما كان أول مرة، وقيل ذكر العظام وأراد بها نفسه جميعها لأن العظام قالب النّفوس، ولا يستوي الخلق إلا باستوائها، وقيل إنما خرج على وفق قول هذا المنكر، أو يجمع الله العظام بلى قادرين يعني على جمع عظامه، وتأليفها وإعادتها إلى التركيب الأول والحالة، والهيئة الأولى وعلى ما هو أعظم من ذلك، وهو أن نسوي بنانه يعني أنامله فنجعل أصابع يديه ورجليه شيئاً واحداً كخف البعير، أو كحافر الحمار، فلا يقدر أن يرتفق بها بالقبض والبسط والأعمال اللطيفة كالكتابة والخياطة وغيرهما، وقيل معناه أظن الكافر أن لن نقدر على عظامه بلى نقدر على جمع عظامه حتى نعيدالسّلاميات على صغرها إلى أماكنها، ونؤلف بينها حتى نسوي البنان فمن يقدر على جمع العظام الصغار، فهو على جمع كبارها أقدر وهذا القول أقرب إلى الصواب، وقيل إنما خص البنان بالذكر لأنه آخر ما يتم به الخلق.

قوله تعالى: **﴿بل يريد الإنسان ليفجر أمامه﴾** أي ليدوم على فجوره فيما يستقبله من الزمان ما عاش لا ينزع عن المعاصي ولا يتوب وقال سعيد بن جبير يقدم الذّنب ويؤخر التوبة، ويقول سوف أتوب سوف أعمل حتى يأتيه الموت وهو على سوء حاله وشر أعماله، وقيل هو طول الأمل يقول أعيش فأصيب من الدّنيا كذا وكذا ولا يذكر الموت وقال ابن عباس: يكذب بما أمامه من البعث والحساب، وأصل الفجور الميل وسمي الكافر والفاسق فاجراً لميله عن الحق.

﴿ بلى قادرين ﴾، أي نقدر استقبال صرف إلى الحال، قال الفرّاء: **﴿ قادرين ﴾** نصب على الخروج من نجمع كما تقول في الكلام أتحسب أن لا نقدر عليك؟ بلى قادرين على أقوى منك، يريد بل قادرين على أكثر من ذا، مجاز الآية: بلى نقدر على جمع عظامه وعلى ما هو أعظم من ذلك، وهو: **﴿ على أن نسوّي بنانه ﴾**، أنامله فنجعل أصابع يديه ورجليه شيئاً واحداً كخفّ البعير وحافر الحمار فلا يرتفق بها بالقبض والبسط والأعمال اللطيفة كالكتابة والخياطة وغيرها، هذا قول أكثر المفسّرين. وقال الزجّاج وابن قتيبة: معناه ظنّ الكافر أنّا لا نقدر على جمع عظامه بلى نقدر على أن نُعيد السلاميات على صغرها فنؤلّف بينها حتى نسوّي البنان، فمَن قدر على جمع صغار العظام فهو على جمع كبارها أقدر.

﴿ بل يريد الإنسان ليفجر أمامه ﴾، يقول لا يجهل ابن آدم أن ربّه قادر على جمع عظامه لكنه يريد أن يفجر أمامه أي يمضي قُدُماً في الله ما عاش راكباً رأسه لا ينزع عنها ولا يتوب، هذا قول مجاهد والحسن وعكرمة والسدي. وقال سعيد بن جبير: ليفجر أمامه يقدم على الذنب ويؤخّر التوبة فيقول سوف أتوب سوف أعمل حتى يأتيه الموت على شرّ أحواله وأسوأ أعماله. وقال الضحاك: هو الأمل يقول أعيش فأُصيب من الدنيا كذا وكذا ولا يذكر الموت. وقال ابن عباس وابن زيد: يكذب بما أمامه من البعث والحساب. وأصل الفجور الميل وسُمّي الفاسق والكافر فاجراً لميله عن الحق.

﴿يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ ۝٦ فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ۝٧ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ۝٨ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۝٩ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ۝١٠ كَلَّا لَا وَزَرَ ۝١١ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ۝١٢ يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ۝١٣﴾

﴿يسأل أيان يوم القيامة﴾ أيّ متى يكون يوم القيامة والمعنى أن الكافر يسأل سؤال متعنت مستبعد لقيام السّاعة قال الله تعالى: ﴿فإذا برق البصر﴾ أي شخص البصر عند الموت فلا يطرف مما يرى من العجائب التي كان يكذب بها في الدنيا، وقيل تبرق أبصار الكفار عند رؤية جهنم، وقيل برق إذا فزع وتحير لما يرى من العجائب، وقيل برق أي شق عينه وفتحها من البريق وهو التلألؤ ﴿وخسف القمر﴾ أي أي أظلم وذهب ضوءه ﴿وجمع الشمس والقمر﴾ يعني أسودين مكورين كأنهما ثوران عقيران، وقيل يجمع بينهما في ذهاب الضّوء، وقيل يجمعان ثم يقذفان في البحر فهناك نار الله الكبرى ﴿يقول الإنسان﴾ يعني الكافر المكذب ﴿يومئذ﴾ أي القيامة ﴿أين المفر﴾ أي المهرب وهو موضع الفرار ﴿كلا﴾ أي لا ملجأ لهم يهربون إليه وهو قوله ﴿لا وزر﴾ أي لا حرز ولا ملجأ ولا جبل، وكانوا إذا فزعوا لجؤوا إلى الجبل فتحصنوا به، فقيل لهم لا جبل لكم يومئذ تتحصنون به وأصل الوزر الجبل المنيع، وكل ما التجأت إليه وتحصنت به فهو وزر ومنه قول كعب بن مالك.

النـــاس آلـــت علينـــا فيـــك ليـــس لنـــا إلا السيـــوف وأطـــراف القنـــا وزر

ومعنى الآية إنه لا شيء يعصمهم من أمر الله تعالى لا حصن ولا جبل يوم القيامة يستندون إليه من النار ﴿إلى ربك يومئذ المستقر﴾ يعني مستقر الخلق وقال عبد الله بن مسعود إليه الصمير والمرجع وهو بمعنى لاستقرار، وقيل إلى ربك مستقرهم أي موضع قرارهم من جنة أو نار، وذلك مفوض إلى مشيئته فمن شاء أدخله الجنة برحمته ومن

﴿ يسأل أيّان يوم القيامة ﴾، أي متى يكون ذلك تكذيباً به.

قال الله تعالى: ﴿ فإذا برق البصر ﴾، قرأ أهل المدينة ﴿ برق ﴾ بفتح الراء وقرأ الآخرون بكسرها وهما لغتان. قال قتادة ومقاتل: شخص البصر فلا يطرف مما يرى من العجائب التي كان يكذب بها في الدنيا. قيل: ذلك عند الموت. وقال الكلبي: عند رؤية جهنم تبرق أبصار الكفّار. وقال الفرّاء والخليل برق بالكسر أي فزع وتحيّر لما يرى من العجائب، وبرق بالفتح أي شقّ عينه وفتحها من البريق وهو التلألؤ.

﴿ وخسف القمر ﴾، أظلم وذهب نوره وضوءه.

﴿ وجمع الشمس والقمر ﴾، أي صارا أسودين مكوّرين كأنهما ثوران عقيران. وقيل: يجمع بينهما في ذهاب الضياء. وقال عطاء بن يسار يجمعان يوم القيامة ثم يقذفان في البحر فيكونان نار الله الكبرى. وقيل: يجمعان ثم يقذفان في النار. وقيل: يجمعان فيطلعان من المغرب.

﴿ يقول الإنسان ﴾، أي الكافر المكذّب ﴿ يومئذ أين المفر ﴾، أي المهرب وهو موضع الفرار. وقيل: هو مصدر أي أين الفرار.

قال الله تعالى: ﴿ كلا لا وزر ﴾، لا حصن ولا حرز ولا ملجأ. وقال السدي: لا جبل وكانوا إذا فزعوا لجؤوا إلى الجبل فتحصنوا به. وقال تعالى: لا جبل يومئذ يمنعهم.

﴿ إلى ربّك يومئذ المستقر ﴾، أي مستقر الخلق. وقال عبد الله بن مسعود: المصير والمرجع نظيره قوله تعالى: ﴿ إلى ربّك الرجعى ﴾ [العلق: ٨] ﴿ وإلى الله المصير ﴾ [آل عمران: ٢٨، النور: ٤٢، فاطر: ١٨] وقال

شاء أدخله النار بعدله ﴿ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر﴾ قال ابن مسعود وابن عباس: بما قدم قبل موته من عمل صالح أو سيىء وما أخر بعد موته من سنة حسنة، أو سيئة يعمل بها، وعن ابن عباس أيضاً بما قدم من المعصية وأخر من الطاعة، وقيل بما قدم من طاعة الله وأخر من حق الله فضيعه، وقيل بأول عمله وآخره وهو ما عمله في أول عمره وفي آخره، وقيل بما قدم من ماله لنفسه قبل موته وما آخر من ماله لورثته.

﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴿٢١﴾﴾

﴿**بل الإنسان على نفسه بصيرة**﴾ أي بل الإنسان على نفسه من نفسه رقباء يرقبونه ويشهدون عليه بعمله وهي سمعه وبصره وجوارحه، وإنما دخلت الهاء في البصيرة لأن المراد من الإنسان جوارحه، وقيل معناه بل الإنسان على نفسه عين بصيرة وفي رواية عن ابن عباس بل الإنسان على نفسه شاهد فتكون الهاء للمبالغة كعلامة ﴿**ولو ألقى معاذيرة**﴾ يعني ولو اعتذر بكل عذر وجادل عن نفسه، فإنه لا ينفعه لأنه قد شهد عليه شاهد من نفسه، وقيل معناه ولو اعتذر فعليه من نفسه ما يكذب عذره، وقيل إن أهل اليمن يسمون السّتر معذاراً وجمعه معاذير، فعلى هذا يكون معناه ولو أرخى السّتور وأغلق الأبواب ليخفي ما يعمل، فإن نفسه شاهدة عليه، وهذا في حق الكافر لأنه ينكر يوم القيامة فتشهد عليه جوارحه بما عمل في الدنيا.

قوله عز وجل: ﴿**لا تحرك به لسانك لتعجل به**﴾ (ق) عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله عز وجل: ﴿**لا تحرك به لسانك لتعجل به**﴾ قال كان النبي ﷺ يعالج من التّنزيل شدة وكان مما يحرك شفتيه قال ابن جبير: قال ابن عباس أنا أحركهما كما كان رسول الله ﷺ يحركها فحرك شفتيه فأنزل الله عز وجل ﴿**لا تحرك به لسانك لتعجل به إن علينا جمعه وقرآنه**﴾ قال: جمعه في صدرك ثم تقرأه، فإذا قرأناه فاتبع قرآنه. قال فاستمع وأنصت ثم إن علينا أن تقرأه، قال فكان رسول الله ﷺ إذا أتاه جبريل بعد ذلك استمع، فإذا انطلق جبريل قرأه النبي ﷺ كما قرأه، وفي رواية

السدي: المنتهى نظيره: ﴿ وإن إلى ربك المنتهى ﴾ [النجم: ٤٢].

﴿ **ينبّأ الإنسان يومئذ بما قدّم وأخّر** ﴾، قال ابن مسعود وابن عباس بما قدّم قبل الموت من عمل صالح وسيىء، وما أخّر بعد موته من سنة حسنة أو سيئة يعمل بها. وقال عطية عن ابن عباس بما قدّم من المعصية وأخّر من الطاعة. وقال قتادة: بما قدّم من طاعة الله وأخّر من حق الله فضيّعه. وقال مجاهد: بأول عمله وآخره. وقال عطاء: قدّم في أول عمره وما أخّر في آخر عمره. وقال زيد بن أسلم بما قدّم من أمواله لنفسه وما أخّر خلفه للوَرَثَة.

﴿ **بل الإنسان على نفسه بصيرة** ﴾، قال عكرمة ومقاتل والكلبي معناه بل الإنسان على نفسه من نفسه رقباء يرقبونه ويشهدون عليه بعمله، وهي سمعه وبصره وجوارحه، ودخل الهاء في البصيرة لأن المراد بالإنسان ههنا جوارحه ويحتمل أن يكون معناه بل الإنسان على نفسه بصيرة، يعني لجوارحه، فحذف حرف الجرّ كقوله: ﴿ وإن أردتم أن تسترضعوا أولادكم ﴾ [البقرة: ٢٣٣] أي لأولادكم، ويجوز أن يكون نعتا لاسم مؤنث أي بل الإنسان على نفسه عين بصيرة. وقال أبو العالية وعطاء بل الإنسان على نفسه شاهد وهي رواية العوفي عن ابن عباس والهاء في بصيرة للمبالغة دليل هذا التأويل. قوله عزّ وجلّ: ﴿ كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً ﴾ [الإسراء: ١٤].

﴿ **ولو ألقى معاذيره** ﴾، يعني يشهد عليه الشاهد ولو اعتذر وجادل عن نفسه لم ينفعه، كما قال: ﴿ يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ﴾ [غافر: ٥٢]، وهذا قول مجاهد وقتادة وسعيد بن جبير وابن زيد وعطاء: قال الفرّاء: ولو اعتذر فعليه الإلقاء القول كما قال: ﴿ فألقوا إليهم القول إنكم لكاذبون ﴾ [النحل: ٨٦]. وقال الضحاك والسدي:

كما وعده الله تعالى لفظ الحميدي، ورواه البغوي من طريق البخاري وقال: فيه كان النبي ﷺ إذا نزل عليه جبريل بالوحي، كان مما يحرك لسانه وشفتيه فيشتد عليه، وكان يعرف منه فأنزل الله عز وجل الآية، التي في لا أقسم بيوم القيامة لا تحرك به لسانك لتعجل به إن علينا جمعه وقرآنه، قال إن علينا أن نجمعه في صدرك، وتقرأه فإذا قرأناه، فاتبع قرآنه، فإذا أنزلناه فاستمع ثم إن علينا بيانه علينا أن نبينه بلسانك. قال فكان إذا أتاه جبريل أطرق فإذا ذهب قرأه كما وعده الله تعالى؛ وفي رواية كان يحرك شفتيه إذا نزل عليه يخشى أن ينفلت منه فقيل له لا تحرك به لسانك لتعجل به إن علينا جمعه وقرآنه، أيّ نجمعه في صدرك وقرآنه أن تقرأه، ومعنى الآية لا تحرك بالقرآن لسانك، وإنما جاز هذه الإضمار وإن لم يجر له ذكر لدّلالة الحال عليه لتجعل به أي بأخذه ﴿إن علينا جمعه﴾ أي جمعه في صدرك وحفظك إياه ﴿وقرآنه﴾ أي قراءته علينا والمعنى سنقرئك يا محمد بحيث تصير لا تنساه ﴿فإذا قرآناه فاتبع قرآنه﴾ أي لا تكن قراءتك مقارنة لقراءة جبريل عليك بل اسكت حتى يتم جبريل ما يوحى إليك، فإذا فرغ جبريل من القراءة، فخذ أنت فيها، وجعل قراءة جبريل قراءته لأنه بأمره نزل بالوحي ونظيره. «من يطع الرسول فقد أطاع الله» وقيل معناه اعمل به واتبع حلاله، وحرامه، والقول الأول أولى لأن هذا ليس موضع الأمر باتباع حلاله وحرامه وإنما هو موضع الأمر بالاستماع حتى يفرغ جبريل من قراءته فكان النبي ﷺ بعد ذلك إذا نزل عليه جبريل بالوحي أصغى إليه فإذا فرغ من قراءته وعاه النبي ﷺ وحفظه ﴿ثم إن علينا بيانه﴾ أي أن نبينه بلسانك فتقرأه كما أقرأك جبريل وقيل إذا أشكل شيء من معانيه فنحن نبينه لك، وعلينا بيان ما فيه من الأحكام والحلال والحرام، وذلك أن النبي ﷺ كان إذا أشكل عليه شيء سأل جبريل عن معانيه لغاية حرصه على العلم فقيل له نحن نبينه لك.

قوله تعالى: ﴿كلا﴾ أي حقاً ﴿بل تحبون العاجلة وتذرون الآخرة﴾ أي تختارون الدنيا على العقبى وتعملون لها يخاطب كفار مكة.

﴿ ولو ألقى معاذيره ﴾ يعني ولو أرخى الستور وأغلق الأبواب من نفسه مَن يكذب عذره. ومعنى وأهل اليمن يسمّون الستر معذاراً وجمعه معاذير، ومعناه على هذا القول: وإن أسبل الستر ليخفي ما كان يعمل فإن نفسه شاهدة عليه.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ لا تحرّكْ به لسانك لتعجل به ﴾، أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي ثنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا قتيبة بن سعيد ثنا جرير عن موسى بن أبي عائشة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله عزّ وجلّ: ﴿ لا تحرّك به لسانك لتعجل به ﴾ قال: كان رسول الله ﷺ إذا نزل جبريل بالوحي كان يحرّك لسانه وشفتيه فيشتدّ عليه، وكان يعرف منه فأنزل الله عزّ وجلّ الآية التي في لا أُقسم بيوم القيامة، ﴿ لا تحرّك به لسانك لتعجل به ﴾.

﴿ إن علينا جمعه وقرآنه ﴾، قال علينا أن نجمعه في صدرك، قرآنه.

﴿ فإذا قرأناه فاتّبـعْ قرآنه ﴾، فإذا أنزلناه فاستمع.

﴿ ثم إن علينا بيانه ﴾، علينا أن نبيّنه بلسانك. قال: وكان إذا أتاه جبريل أطرق فإذا ذهب قرأه كما وعده الله عزّ وجلّ: ورواه محمد بن إسماعيل عن عبد الله بن موسى عن إسرائيل عن موسى بن أبي عائشة بهذا الإسناد وقال: كان يحرّك شفتيه إذا نزل عليه يخشى أن ينفلت منه، فقيل له: ﴿ لا تحرّك به لسانك ﴾ ﴿ إن علينا جمعه ﴾ أن نجمعه في صدرك ﴿ وقرآنه ﴾ أن تقرأه.

﴿ كلّا بل تحبّون العاجلة * وتذرون الآخرة ﴾. قرأ أهل المدينة والكوفة تحبّون وتذرون بالتاء فيهما، وقرأ الآخرون بالياء أي يختارون الدنيا على العقبى ويعملون لها يعني كفّار مكة، ومَن قرأ بالتاء فعلى تقدير قل لهم يا محمد: بل تحبّون وتذرون.

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾ كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ ﴿٢٩﴾﴾

﴿**وجوه يومئذ**﴾ أي يوم القيامة ﴿**ناضرة**﴾ من النضارة، وهي الحسن قال ابن عباس: حسنة وقيل مسرورة بالنعيم، وقيل ناعمة، وقيل مسفرة مضيئة، وقيل بيض يعلوها نور وبهاء وقيل مشرقة بالنعيم. ﴿**إلى ربها ناظرة**﴾ قال ابن عباس وأكثر المفسرين: تنظر إلى ربها عياناً بلا حجاب قال الحسن حق لها أن تنظر وهي تنظر إلى الخالق سبحانه وتعالى، وروي عن مجاهد وأبي صالح أنهما فسرا النّظر في هذه الآية بالانتظار قال مجاهد تنتظر من ربها ما أمر لها به وقال أبو صالح تنتظر الثّواب من ربها قال الأزهري ومن قال إن معنى قوله ﴿**إلى ربها ناظرة**﴾ بمعنى منتظرة فقد أخطأ لأن العرب لا تقول نظرت إلى الشيء بمعنى انتظرته إنما تقول نظرت فلاناً أي انتظرته ومنه قول الحطيئة:

وقـد نظـرتكـم أعشـاء صـادرة ... للـورد طـال بهـا حـوري وتنسـاسـي

فإذا قلت نظرت إليه لم يكن إلا بالعين، وإذا قلت نظرت في الأمر احتمل أن يكون تفكر فيه وتدبر بالقلب، وهذا آخر كلامه ويشهد لصحة هذا أن النظر الوارد في التّنزيل بمعنى الانتظار كثير ولم يوصل في موضع بالي كقوله ﴿**انظرونا نقتبس من نوركم**﴾ وقوله ﴿**هل ينظرون إلا تأويله ـ هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله**﴾ والوجه إذا وصف بالنظر وعدي بإلى لم يحتمل غير الرؤية، وأما قوله أنظر إلى الله ثم إليك على معنى أتوقع فضل لله ثم فضلك، فيكون النّظر إلى الوجه لم يحتمل نظر القلب إنما يجوز هذا إذا لم يسند إلى الوجه، فإذا أسند النظر إلى الوجه لم يحتمل نظر القلب، ولا الانتظار وإذا بطل المعنيان لم يبق لبقاء الرّؤية كلام وإن شق ذلك عليهم، والأحاديث الصحيحة تعضد قول من فسر النظر في هذه الآية بالرؤية وسنذكرها إن شاء الله تعالى.

(فصل: في إثبات رؤية المؤمنين ربهم سبحانه وتعالى في الآخرة)

قال علماء أهل السنة رؤية الله سبحانه وتعالى ممكنة غير مستحيلة عقلاً، وأجمعوا على وقوعها في الآخرة، وأن المؤمنين يرون الله سبحانه، وتعالى دون الكافرين بدليل قوله تعالى: ﴿**كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون**﴾ وزعمت طوائف من أهل البدع كالمعتزلة والخوارج، وبعض المرجئة أن الله تعالى لا يراه أحد من خلقه، وأن رؤيته مستحيلة عقلاً، وهذا الذي قالوه خطأ صريح وجهل قبيح، وقد تظاهرت أدلة الكتاب والسنة وإجماع الصحابة، فمن بعدهم من سلف الأمة على إثبات رؤية الله تعالى، وقد رواها نحو من عشرين صحابياً عن رسول الله ﷺ وآيات القرآن فيها مشهورة، واعتراضات المبتدعة عليها لها أجوبتها مشهورة في كتب المتكلمين من أهل السنة، وكذلك باقي شبههم وأجوبتها مشهورة مستفاضة في كتب الكلام، وليس هذا موضع ذكرها، ثم مذهب أهل الحق أن الرؤية قوة يجعلها الله في خلقه، ولا يشترط فيها اتصال الأشعة، ولا مقابلة المرئي ولا غير ذلك.

﴿ **وجوه يومئذ** ﴾، يوم القيامة ﴿ **ناضرة** ﴾، قال ابن عباس حسنة، وقال مجاهد: مسرورة. وقال ابن زيد: ناعمة. وقال مقاتل: بيض يعلوها النور. وقال السدي: مضيئة. وقال يمان: مسفرة. وقال الفرّاء: مُشرِقة بالنعيم. يقال: نضر الله وجهه ينضر نضراً، ونضره الله وأنضره ونضر وجهه ينضر نضرة ونضارة. قال الله تعالى: ﴿ تعرف في وجوههم نضرة النعيم ﴾ [المطففين: ٢٤]، ﴿ **إلى ربّها ناظرة** ﴾، قال ابن عباس: وأكثر الناس تنظر إلى ربّها عَياناً بلا حجاب. قال الحسن: تنظر إلى الخالق وحقّ لها أن تنضر وهي تنظر إلى الخالق. أخبرنا أبو بكر بن أبي الهيثم الترابي أنا عبد الله بن أحمد الحموي أنا إبراهيم بن خزيم الشاشي أنا عبد الله بن حميد ثنا شبابة عن إسرائيل عن

وأما الأحاديث الواردة في إثبات الرّؤية فمنها ما روى عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «إن أدنى أهل الجنة منزلة لمن ينظر إلى جنانه، وأزواجه، ونعيمه وخدمه، وسروره مسيرة ألف سنة، وأكرمهم على الله من ينظر إلى وجهه غدوة وعشية، ثم قرأ رسول الله ﷺ وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة» أخرجه التّرمذي وقال: هذا حديث غريب، وقال: وقد روى عن ابن عمر رضي الله عنهما ولم يرفعه (ق) عن جرير بن عبد الله قال «كنا عند رسول الله ﷺ فنظر إلى القمر ليلة البدر، وقال إنكم سترون ربكم عياناً كما ترون هذا القمر لا تضامون في رؤيته، فإن استطعتم أن لا تغلبوا عن صلاة قبل طلوع الشمس، وقبل غروبها فافعلوا ثم قرأ وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشّمس، وقبل الغروب» قوله «لا تضامون» روي بفتح التاء وتشديد الميم وقد تضم التاء مع التّشديد أيضاً ومعناه لا ينضم بعضكم إلى بعض ولا تزدحمون وقت النظر إليه، وروي بتخفيف الميم ومعناه لا ينالكم ضيم في رؤيته فيراه بعضكم دون بعض وقوله ﴿**إنكم سترون ربكم عياناً كما ترون القمر**﴾ معناه تشبيه الرّؤية بالرّؤية في الوضوح وزوال الشّك والمشقة لا تشبيه المرئي بالمرئي عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه «أن أناساً قالوا: يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة قال رسول الله ﷺ: هل تضارون في القمر ليلة البدر، قالوا: لا يا رسول الله قال: هل تضارون في الشّمس ليس دونها سحاب، قالوا: لا يا رسول الله قال رسول الله ﷺ فإنكم سترونه كذلك» أخرجه أبو داود وأخرجه التّرمذي. وليس عنده في أوله أن أناساً سألوا رسول الله ﷺ ولا قوله ليس دونها سحاب. قال الترمذي وقد روى مثل هذا الحديث عن أبي سعيد وهو صحيح، وهذا الحديث طرف من حديث طويل قد أخرجه البخاري ومسلم، ومعنى تضارون وتضامون واحد.

عن أبي رزين العقيلي قال: «قلت يا رسول الله أكلنا يرى ربه مخلياً به يوم القيامة، قال نعم قلت وما آية ذلك في خلقه قال يا أبا رزين أليس كلكم يرى القمر ليلة البدر مخلياً به قلت بلى قال: فالله أعظم إنما هو خلق من خلق الله يعني القمر فالله أجل وأعظم» أخرجه أبو داود (م) عن صهيب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إذا دخل أهل الجنة الجنة يقول الله تبارك وتعالى: تريدون شيئاً أزيدكم فيقولون ألم تبيض وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار؟ قال: فيكشف الحجاب فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم تبارك وتعالى» والأحاديث في الباب كثيرة وهذا القدر كاف والله أعلم. قوله عز وجل: ﴿**ووجوه يومئذ باسرة**﴾ أي عابسة كالحة متغيرة مسودة قد أظلمت ألوانها، وعدمت آثار النعمة، والسرورة منها لما أدركها من اليأس من رحمة الله تعالى: وذلك حين يميز بين أهل الجنة والنار ﴿**تظن**﴾ أي تستيقن والظّن هنا بمعنى اليقين ﴿**أن يفعل بها فاقرة**﴾ أن يفعل بهم أمر عظيم من العذاب

ثوير قال: سمعت ابن عمر يقول: قال رسول الله ﷺ: « إن أدنى أهل الجنة منزلة لَمَن ينظر إلى جنانه وأزواجه ونعيمه وخدمه وسُرُره مسيرة ألف سنة، وأكرمهم على الله مَن ينظر إلى وجهه غدوةً وعشيّةً»، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿ **وجوه يومئذ ناضرة إلى ربّها ناظرة** ﴾.

﴿ **ووجوه يومئذ باسرة** ﴾، عابسة كالحة مغبرّة مسودّة.

﴿ **تظن أن يفعل بها فاقرة** ﴾، تستيقن أن يعمل بها عظيمة من العذاب، والفاقرة: الداهية العظيمة، والأمر الشديد يكسر فِقار الظهر. قال سعيد بن المسيب: قاصمة الظهر. قال ابن زيد: هي دخول النار. وقال الكلبي: هي أن يحتجب عن رؤية الربّ عزّ وجلّ.

﴿ **كلا إذا بلغت** ﴾، يعني النفس كناية عن غير مذكور، ﴿ **التراقي** ﴾، فحشرج بها عند الموت والتراقي جمع الترقوة، وهي العظام بين ثغرة النحر والعاتق ويكنّى ببلوغ النفس التراقي عن الإشراف على الموت.

﴿ **وقيل مَن راقٍ** ﴾، أي قال مَن حضره الموت هل من طبيب يرقيه ويداويه فيشفيه برُقْيته أو دوائه، وقال

والفاقرة الدّاهية العظيمة والأمر الشّديد الذي يكسر فقار الظهر ويقصمه وقيل الفاقرة دخول النار، وقيل هي أن تحجب تلك الوجوه عن رؤية الله تعالى: ﴿كلا﴾ أي حقاً ﴿إذا بلغت﴾ يعني النفس كناية عن غير مذكور ﴿التراقي﴾ جمع ترقوة وهي العظام التي بين ثغرة النحر والعاتق ويكنى ببلوغ النفس التراقي عن الإشراف على الموت ومنه قول دريد بن الصمة:

ورب عظيمـــــة دافعـــــت عنهـــــا وقـــد بلغـــت نفـــوسهـــم التـــراقـــي

﴿وقيل﴾ يعني وقال من حضره ﴿من راق﴾ أي هل من طبيب يرقيه ويداويه مما نزل به ويشفيه ويخلصه من ذلك برقيته ودوائه، وقيل لما نزل به من قضاء الله ما نزل التّمسوا له الأطباء، فلم يغنوا عنه من قضاء الله شيئاً، وقيل هذا من قول الملائكة الذين يحضرونه عند الموت يقول بعضهم لبعض من يرقى بروحه إذا خرجت فيصعد بها ملائكة الرحمة أو ملائكة العذاب، ﴿وظن﴾ أي أيقن الذين بلغت روحه التراقي ﴿أنه الفراق﴾ يعني الخروج من الدنيا وفراق المال والأهل والولد ﴿والتفت﴾ أي اجتمعت ﴿الساق بالساق﴾ أي الشدة بالشدة يعني شدة مفارقة الدنيا مع شدة الموت وكربه، وقيل شدة الموت بشدة الآخرة، وقيل تتابعت عليه الشدائد لا يخرج من كرب إلا جاءه ما هو أشد منه، وقال ابن عباس: أمر الدنيا بأمر الآخرة فكان في آخر يوم من أيام الدّنيا وأول يوم من أيام الآخرة، وقيل الناس يجهزون جسده والملائكة يجهزون روحه، وقيل هما ساقا الميت إذا لفتا في الكفن، وقيل هما ساقاه عند الموت ألا تراه كيف يضرب بإحدى رجليه على الأخرى عند النزع، وقيل إذا مات يبست ساقاه فالتفت إحداهما بالأخرى.

إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ﴿٣٣﴾ أَوْلَىٰ لَكَ
فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ ﴿٣٥﴾ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ
فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧيَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾

﴿إلى ربك يومئذ المساق﴾ أي مرجع العباد إلى الله تعالى يساقون إليه يوم القيامة ليفصل بينهم.

قوله تعالى: ﴿فلا صدق ولا صلى﴾ يعني أبا جهل لم يصدق بالقرآن، ولم يصل لله تعالى: ﴿ولكن كذب

قتادة: التمسوا له الأطباء فلم يغنوا عنه من قضاء الله شيئاً. وقال سليمان التيمي ومقاتل بن سليمان: هذا من قول الملائكة يقول بعضهم لبعض مَن يرقى بروحه فتصعد بها ملائكة الرحمة أو ملائكة العذاب.

﴿ وظن ﴾، أيقن الذي بلغت روحه التراقي، ﴿ أنه الفراق ﴾، من الدنيا.

﴿ والتفّت الساق بالساق ﴾، قال قتادة الشدّة بالشدّة. قال عطاء شدّة الموت بشدّة الآخرة قال سعيد بن جبير تتابعت عليه الشدائد، قال السدي: لا يخرج من كرب إلا جاءه أشدّ منه قال ابن عباس: أمر الدنيا بأمر الآخرة فكان في آخر يوم من الدنيا وأول يوم من أيام الآخرة، وقال مجاهد اجتمع فيه الحياة والموت. وقال الضحاك: الناس يجهّزون جسده والملائكة يجهّزون روحه. وقال الحسن: هما ساقاه إذا التفّا في الكفن. وقال الشعبي: هما ساقاه إذا التفّا عند الموت.

﴿ إلى ربك يومئذ المساق ﴾، أي مرجع العباد إلى الله يُساقون إليه.

﴿ فلا صدّق ولا صلّى ﴾، يعني أبا جهل لم يصدّق بالقرآن ولا صلّى لله.

﴿ ولكن كذّب وتولى ﴾، عن الإيمان.

وتولى﴾ أي أعرض عن الإيمان والتصديق ﴿ثم ذهب إلى أهله يتمطى﴾ أي يتبختر ويختال في مشيته، وقيل أصله يتمطط أي يتمدد من المط، وقيل من المطا وهو الظهر لأنه يلويه. ﴿أولى لك فأولى﴾ هذا وعيد على وعيد من الله تعالى لأبي جهل. وهي كلمة موضوعة للتهديد والوعيد ومعناه، ويل لك مرة بعد مرة وهودعاء عليه بأن يليه ما يكرهه، وقيل معناه أنك أجدر بهذا العذاب. وأحق وأولى به. يقال ذلك لمن يصيبه مكروه يستوجبه قال قتادة: ذكر لنا «أن النبي ﷺ لما نزلت هذه الآية أخذ بمجامع ثوب أبي جهل بالبطحاء وقال له أولى لك فأولى ﴿ثم أولى لك فأولى﴾ فقال أبو جهل أتوعدوني يا محمد والله ما تستطيع أنت ولا ربك أن تفعلا بي شيئاً وإني لأعز من مشى بين جبليها فلما كان يوم بدر صرعه وقتله أشد قتله» وكان نبي الله يقول ﷺ إن لكل أمة فرعوناً وإن فرعون هذه الأمة أبو جهل» ﴿أيحسب الإنسان أن يترك سدى﴾ أي هملاً لا يؤمر ولا ينهى ولا يكلف في الدنيا ولا يحاسب في الآخرة ﴿ألم يك نطفة﴾ أي ماء قليلاً ﴿من مني يمنى﴾ أي يصيب في الرحم، والمعنى كيف يليق بمن خلق من شيء قذر مستقذر أن يتكبر ويتمرد عن الطاعة. ﴿ثم كان علقة﴾ أي صار الإنسان علقة بعد النطفة ﴿فخلق فسوى﴾ أي فقدر خلقه وسواه وعدله وقيل نفخ فيه الروح وكمل أعضاءه ﴿فجعل منه﴾ أي من الإنسان ﴿الزوجين﴾ أي الصنفين ثم فسرهما فقال ﴿الذكر والأنثى﴾ أي خلق من مائة أولاداً ذكوراً وإناثاً ﴿أليس ذلك﴾ أي الذي فعل وأنشأ الأشياء أول مرة ﴿بقادر على أن يحيي الموتى﴾ أي بقادر على إعادته بعد الموت عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «من قرأ منكم

﴿ ثم ذهب إلى أهله ﴾، رجع إليهم، ﴿ يتمطّى ﴾، يتبختر ويحتال في مشيه قيل: أصله يتمطّط أي يتمدّد والمطّ هو المدّ.

﴿ أولى لك فأولى * ثم أولى لك فأولى ﴾، هذا وعيد على وعيد من الله عزّ وجلّ لأبي جهل، وهي كلمة موضوعة للتهديد والوعيد. وقال بعض العلماء: معناه إنك أجدر بهذا العذاب وأحقّ وأولى به، تُقال للرجل حيث يصيبه مكروه يستوجبه. وقيل: هي كلمة تقولها العرب لمَن قاربه المكروه وأصلها من الولي وهو القرب قال الله تعالى قاتلوا الذين يلونكم من الكفّار. وقال قتادة: ذكر لنا أن النبي ﷺ لمّا نزلت هذه الآية أخذ بمجامع ثوب أبي جهل بالبطحاء وقال له: ﴿ أولى لك فأولى * ثم أولى لك فأولى ﴾، فقال أبو جهل: أتوعدني يا محمد والله ما تستطيع أنت ولا ربك أن تفعلا بي شيئاً وإني لأعزّ مَن مشى بين جبليها؟ فلما كان يوم بدر صرعه الله شرّ مصرع، وقتله أسوأ قتلة. وكان النبي ﷺ يقول: إن لكل أُمة فرعوناً وإن فرعون هذه الأمة أبو جهل.

﴿ أيحسب الإنسان أن يُترَك سُدىً ﴾، هملاً لا يُؤمر ولا يُنهى، قال السدي: معناه المهمل وإبل سدى إذا كانت ترعى حيث شاءت بلا راعٍ.

﴿ ألم يكُ نطفةً مّن مَّنِيٍ يُمْنَى ﴾، تصف في الرحم، قرأ حفص عن عاصم ﴿ يمنى ﴾ بالياء وهي قراءة الحسن، وقرأ الآخرون بالتاء لأجل النطفة.

﴿ ثم كان علقة فخلق فسوّى ﴾، فجعل فيه الروح وسوّى خلقه.

﴿ فجعل منه الزوجين الذَّكَر والأُنثى ﴾، خلق من مائه أولاداً ذُكوراً وإناثاً.

﴿ أليس ذلك ﴾، الذي فعل هذا، ﴿ بقادر على أن يُحيـي الموتى ﴾، أخبرنا أبو طاهر عمر بن عبد العزيز القاشاني أنا أبو عمر القاسم بن جعفر الهاشمي أنا أبو علي محمد بن أحمد بن عمر اللؤلؤي ثنا أبو داود سليمان بن أشعث ثنا عبد الله بن محمد الزهري ثنا سفيان حدّثني إسماعيل بن أُميّة قال: سمعت أعرابياً يقول سمعت أبا هريرة

﴿والتين والزيتون﴾، فانتهى إلى آخرها ﴿أليس الله بأحكم الحاكمين﴾ فليقل بلى وأنا على ذلك من الشاهدين. ومن قرأ ﴿لا أقسم بيوم القيامة﴾ فانتهى إلى ﴿أليس ذلك بقادر على أن يحيـي الموتى﴾، فليقل بلى ومن قرأ ﴿والمرسلات فبلغ، فبأي حديث بعده يؤمنون﴾ فليقل آمنا بالله» أخرجه أبو داود وله عن موسى بن أبي عائشة قال «كان رجل يصلي فوق بيته. فكان إذا قرأ أليس ذلك بقادر على أن يحيـي الموتى قال سبحانك بلى فسألوه عن ذلك فقال سمعته من رسول الله ﷺ» والله سبحانه وتعالى أعلم:

يقول: قال رسول الله ﷺ: «مَن قرأ منكم والتين والزيتون فانتهى إلى آخرها: ﴿ أليس الله بأحكم الحاكمين ﴾ [التين: ٨] فليقل: بلى، وأنا على ذلك من الشاهدين، ومَن قرأ: ﴿ لا أُقسم بيوم القيامة ﴾ [القيامة: ١] فانتهى إلى: ﴿ أليس ذلك بقادر على أن يُحيـي الموتى ﴾ فليقل: بلى، ومَن قرأ: ﴿ والمرسلات ﴾، فبلغ ﴿ فبأيّ حديث بعده يؤمنون ﴾ [الأعراف: ١٨٥] فليقل: آمنّا بالله». أخبرنا عمر بن العزيز أنا أبو القاسم بن جعفر أنا أبو علي اللؤلؤي أنا أبو داود ثنا محمد بن المثنى ثنا محمد بن جعفر ثنا شعبة عن موسى بن أبي عائشة قال: كان رجل يصلّي فوق بيته وكان إذا قرأ: ﴿ أليس ذلك بقادر على أن يُحيـي الموتى﴾ قال: سبحانك بلى، فسألوه عن ذلك فقال: سمعته من رسول الله ﷺ.

سورة هل أتى

وتسمى سورة الإنسان أيضاًوهي مدنية كذا قال مجاهد، وقتادة والجمهور، وقيل مكية يحكى ذلك عن ابن عباس وعطاء بن يسار ومقاتل، وقيل فيها مكي ومدني، فالمكي منها قوله ﴿ولا تطع منهم آثماً أو كفوراً﴾ وباقيها مدني قاله الحسن وعكرمة وقيل إن المدني من أولها إلى قوله تعالى: ﴿إنا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلاً﴾ ومن هذه الآية إلى آخرها مكي حكاه الماوردي وهي إحدى وثلاثون آية ومائتان وأربعون كلمة وألف وأربعة وخمسون حرفاً.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿١﴾ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾

قوله عز وجل: ﴿هل أتى﴾ أي قد أتى ﴿على الإنسان﴾ يعني آدم عليه الصلاة والسلام ﴿حين من الدهر﴾ يعني مدة أربعين سنة وهو من طين ملقى (م) عن أنس رضي الله تعالى عنه عن رسول الله ﷺ قال «لما صور الله آدم في الجنة تركه ما شاء الله أن يتركه فجعل إبليس يطوف به وينظر إليه فلما رآه أجوف عرف أنه خلف لا يتمالك» قوله يطوف أي يدور حوله فلما رآه أجوف أي صاحب جوف وقيل هو الذي داخله خال قوله عرف أنه خلق لا يتمالك، أي لا يملك نفسه ويحبسها عن الشهوات، وقيل لا يملك دفع الوسواس عنه، وقيل لا يملك نفسه عند الغضب.

وروي في تفسير الآية أن آدم بقي أربعين سنة طيناً، وبقي أربعين سنة حمأ مسنوناً وأربعين سنة صلصالاً كالفخار

سُوْرَة الإنْسَان

مدنيّة وهي إحدى وثلاثون آية.

قال عطاء: هي مكيّة. وقال مجاهد وقتادة: مدنيّة. وقال الحسن وعكرمة: هي مدنيّة إلاّ آية وهي قوله: ﴿ فاصبر لحكم ربك ﴾، ﴿ ولا تطعْ منهم آثماً أو كفوراً ﴾ [٢٤] وهي إحدى وثلاثون آية.

﴿ هلْ أتى ﴾، قد أتى، ﴿ على الإنسان ﴾، يعني آدم عليه السلام، ﴿ حين من الدهر ﴾، أربعون سنة وهو من طين مُلقى بين مكة والطائف قبل أن ينفخ فيه الروح، ﴿ لم يكن شيئاً مذكوراً ﴾، لا يذكر ولا يعرف ولا يدري ما اسمه ولا ما يراد به، يريد كان شيئاً ولم يكن مذكوراً، وذلك من حين خلقه من طين إلى أن نفخ فيه الروح، رُوِيَ أن عمر سمع رجلاً يقرأ هذه الآية: ﴿ لم يكن شيئاً مذكوراً ﴾ فقال عمر: ليتها تمّت يريد ليته بقي على ما كان، قال ابن عباس: ثم خلقه بعد عشرين ومائة سنة.

﴿ إنّا خلقنا الإنسان ﴾، يعني ولد آدم، ﴿ من نطفة ﴾، يعني منيّ الرجل ومنيّ المرأة. ﴿ أمشاج ﴾، أخلاط

فتم خلقه بعد مائة وعشرين سنة ﴿لم يكن شيئاً مذكوراً﴾ أي لا يذكر ولا يعرف ولا يدري ما اسمه، ولا ما يراد به وذلك قبل أن ينفخ فيه الروح كان شيئاً ولم يكن شيئاً يذكر.

روي عن عمر أنه سمع رجلاً يقرأ هذه الآية: لم يكن شيئاً مذكوراً فقال عمر ليتها تمت يعني ليته بقي على ما كان عليه ويروى نحوه عن أبي بكر وابن مسعود، وقيل المراد بالإنسان جنس الإنسان وهم بنو آدم بدليل قوله ﴿إنا خلقنا الإنسان﴾ فالإنسان في الموضعين واحد فعلى هذا يكون معنى قوله حين من الدهر طائفة من الدهر غير مقدرة لم يكن شيئاً مذكوراً يعني أنهم كانوا نطفاً في الأصلاب. ثم علقاً، ومضغاً في الأرحام لم يذكروا بشيء إنا خلقنا الإنسان يعني ولد آدم ﴿من نطفة﴾ أي مني الرجل ومني المرأة ﴿أمشاج﴾ أي أخلاط قال ابن عباس وغيره: يعني ماء الرجل، وماء المرأة يختلطان في الرحم فيكون منهما الولد فماء الرجل أبيض غليظ، وماء المرأة أصفر رقيق فأيهما علا صاحبه كان الشبه له وما كان من عصب، وعظم فمن نطفة الرجل، وما كان من لحم ودم وشعر فمن ماء المرأة، وقيل الأمشاج اختلاف ألوان النطفة، فنطفة الرجل بيضاء ونطفة المرأة صفراء. وكل لونين اختلطا فهو أمشاج. وقال ابن مسعود: هي العروق التي تكون في النطفة، وقيل هي نطفة مشجت أي خلطت بدم وهو دم الحيض فإذا حبلت المرأة ارتفع دم الحيض، وقيل الأمشاج أطوار الخلق نطفة ثم علقة ثم مضغة، ثم عظما ثم يكسوه لحماً ثم ينشئه خلقاً آخر، وقيل إن الله تعالى جعل في النطفة أخلاطاً من الطبائع التي تكون في الإنسان من الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة فعلى هذا يكون التقدير من نطفة ذات أمشاج. ﴿نبتليه﴾ أي لنختبره بالأمر والنهي ﴿فجعلناه سميعاً بصيراً﴾ قيل فيه تقديم وتأخير تقديره فجعلناه سميعاً بصيراً لنبتليه لأن الابتلاء لا يقع إلا بعد تمام الخلقة، وقيل معناه إنا خلقنا الإنسان من هذه الأمشاج للابتلاء والامتحان ثم ذكر أنه أعطاه ما يصح معه الابتلاء، وهو السمع والبصر وهما كنايتان عن الفهم والتمييز وقيل المراد بالسمع والبصر الحاستان المعروفتان، وإنما خصهما بالذكر لأنهما أعظم الحواس وأشرفها.

﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝٣ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۟ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا ۝٤ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝٥﴾

﴿إنا هديناه السبيل﴾ أي بينا له سبيل الحق والباطل والهدى والضلالة، وعرفناه طريق الخير والشر، وقيل معناه أرشدناه إلى الهدى لأنه لا يطلق اسم السبيل إلا عليه والمراد من هداية السبيل نصب الدلائل، وبعثه الرسل وإنزال

واحدها مشج ومشيج، مثل خدن وخدين، قال ابن عباس والحسن ومجاهد والربيع: يعني ماء الرجل وماء المرأة يختلطان في الرحم فيكون منهما الولد، فماء الرجل أبيض غليظ وماء المرأة أصفر رقيق، فأيّهما علا صاحبه كان الشبه له وما كان من عصب وعظم فهو من نطفة الرجل، وما كان من لحم ودم وشعر فمن ماء المرأة. وقال الضحاك: أراد بالأمشاج اختلاف ألوان النطفة فنطفة الرجل بيضاء وحمراء ونطفة المرأة خضراء وحمراء وصفراء، وهي رواية الوالبي عن ابن عباس. وكذلك قال الكلبي: قال: الأمشاج البياض في الحمرة والصفرة. وقال يمان: كل لونين اختلطا فهو أمشاج. وقال ابن مسعود: هي العروق التي تكون في النطفة. وقال الحسن: نطفة مشجت بدم وهو دم الحيضة فإذا حبلت ارتفع الحيض. وقال قتادة: هي أطوار الخلق نطفة، ثم علقة ثم مضغة، ثم عظماً ثم يكسوه لحماً ثم ينشئه خلقاً آخر. ﴿ نبتليه ﴾ نختبره بالأمر والنهي، ﴿ فجعلناه سميعاً بصيراً ﴾ قال بعض أهل العربية: وفيه تقديم وتأخير، مجازه: فجعلناه سميعاً بصيراً لنبتليه، لأن الابتلاء لا يقع إلّا بعد تمام الخلقة.

﴿ إنّا هديناه السبيل ﴾، أي بيّنّا له سبيل الحق والباطل والهدى والضلالة، وعرّفناه طريق الخير والشر. ﴿ إمّا

الكتب. ﴿إما شاكراً وإما كفوراً﴾ يعني إما موحداً طائعاً لله، وإما مشركاً بالله في علم الله وذلك أن الله تعالى بين سبيل التوحيد ليتبين شكر الإنسان من كفره، وطاعته عن معصيته، وقيل في معنى الآية إما مؤمناً سعيداً وإما كافراً شقياً. وقيل معناه الجزاء أي بينا له الطريق إن شكر أو كفر، وقيل المراد من الشاكر الذي يكون مقراً معترفاً بوجوب شكر خالقه سبحانه وتعالى عليه، والمراد من الكفور الذي لا يقر بوجوب الشكر عليه ثم بين ما للفريقين فوعد الشاكر، وأوعد الكافر فقال تعالى: ﴿إنا أعتدنا﴾ أي هيأنا في جهنم ﴿للكافرين سلاسل﴾ يعني يشدون بها ﴿وأغلالاً﴾ أي في أيديهم تغل بها إلى أعناقهم ﴿وسعيراً﴾ يعني وقوداً لا توصف شدته وهذا من أعظم أنواع الترهيب والتخويف ثم ذكر ما أعد للشاكرين الموحدين فقال تعالى: ﴿إن الأبرار﴾ يعني المؤمنين الصادقين في إيمانهم المطيعين لربهم، واحدهم بار وبرو وأصله التوسع فمعنى البر المتوسع في الطاعة ﴿يشربون من كأس﴾ يعني فيها شراب ﴿كان مزاجها كافوراً﴾ قيل يمزج لهم شرابهم بالكافور ويختم بالمسك.

فإن قلت إن الكافور غير لذيذ، وشربه مضر فما وجه مزج شرابهم به.

قلت قال أهل المعاني: أراد بالكافور بياضه، وطيب ريحه وبرده. لأن الكافور لا يشرب وقال ابن عباس: هو اسم عين في الجنة والمعنى أن ذلك الشراب يمازجه شراب ماء هذه العين التي تسمى كافوراً، ولا يكون في ذلك ضرر لأن أهل الجنة لا يمسهم ضرر فيما يأكلون، ويشربون وقيل هو كافور لذيذ طيب الطعم ليس فيه مضرة، وليس ككافور الدنيا ولكن الله سمى ما عنده بما عندكم بمزج شرابهم. بذلك الكافور والمسك والزنجبيل.

عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ

شاكراً وإمّا كفوراً ﴾، إما مؤمناً سعيداً وإما كافراً شقيّاً. وقيل: معنى الكلام الجزاء يعني بينّا له الطريق إن شكر أو كفر.

ثم بيّن ما للفريقين فقال: ﴿ إنّا أعتدنا للكافرين سلاسلا ﴾، يعني في جهنم، قرأ أهل المدينة والكسائي وأبو بكر عن عاصم (سلاسلاً) و﴿قوارير ﴾ [النمل: ٤٤، الإنسان: ١٥] «قواريرا» بالألف في الوقف وبالتنوين في الوصل فيهنّ جميعاً، وقرأ حمزة ويعقوب بلا ألف في الوقف، ولا تنوين في الوصل فيهنّ، وقرأ ابن كثير ﴿ قوارير ﴾ الأولى بالألف في الوقف وبالتنوين في الوصل، و﴿ سلاسل ﴾ و﴿ قوارير ﴾ الثانية بلا ألف ولا تنوين وقرأ أبو عمرو وابن عامر وحفص (سلاسلاً وقواريراً) الأولى بالألف في الوقف على الخط وبغير تنوين في الوصف، و﴿ قوارير ﴾ الثانية بغير ألف ولا تنوين، قوله: ﴿ وأغلالاً ﴾ يعني في أيديهم تغلّ في أعناقهم، ﴿ وسعيراً ﴾، وقوداً شديداً.

﴿ إن الأبرار ﴾، يعني المؤمنين الصادقين في إيمانهم المُطيعين لربهم واحدهم بارّ، مثل شاهد وأشهاد، وناصر وأنصار، وبَرّ أيضاً مثل نهر وأنهار، ﴿ يشربون ﴾، في الآخرة، ﴿ من كأس ﴾، فيه شراب ﴿ كان مزاجها كافوراً ﴾، قال قتادة يمزج لهم بالكافور ويختم بالمِسك، قال عكرمة مزاجها طعمها، وقال أهل المعاني أراد كالكافور في بياضه وطيب ريحه وبرده لأن الكافور لا يُشرَب، وهو كقوله: ﴿ حتى إذا جعله ناراً ﴾ [الكهف: ٩٦] أي كنار، وهذا معنى قول مجاهد ومقاتل وقتادة: يمازجه ريح الكافور. وقال ابن كيسان: طيّبت بالكافور والمِسْك والزنجبيل. قال عطاء والكلبي: الكافور اسم لعين ماء في الجنة.

﴿حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾﴾

﴿**عيناً**﴾ بدلاً من الكافور وقيل أعني عيناً ﴿**يشرب بها**﴾ أي يشرب منها ﴿**عباد الله**﴾ قال ابن عباس أولياء الله ﴿**يفجرونها تفجيراً**﴾ أي يقودونها إلى حيث شاؤوا من منازلهم وقصورهم تفجيراً سهلاً لا يمتنع عليهم.

قوله تعالى: ﴿**يوفون بالنذر**﴾ لما وصف الله تعالى ثواب الأبرار في الآخرة وصف أعمالهم في الدنيا التي يستوجبون بها هذا الثواب والمعنى كانوا في الدنيا يوفون بالنذر والنذر الإيجاب. والمعنى يوفون بما فرض الله عليهم فيدخل فيه جميع الطاعات من الأيمان والصلاة، والزكاة والصوم والحج، والعمرة، وغير ذلك من الواجبات، وقيل النذر في عرف الشرع. واللغة أن يوجب الرجل على نفسه شيئاً ليس بواجب عليه، وذلك بأن يقول الله على كذا وكذا من صدقه أو صلاة أو صوم أو حج أو عمرة يعلق ذلك بأمر يلتمسه من الله. وذلك بأن يقول إن شفى الله مريضي أو قدم غائبي كان لله على كذا، ولو نذر في معصية لا يجب الوفاء به (خ) عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول «من نذر أن يطيع الله فليف بنذره، ومن نذر أن يعصي الله فلا يف به» وفي رواية «فليطعه ولا يعصيه» وعنها أن رسول الله ﷺ قال «لا نذر في معصية الله وكفارته كفارة يمين» أخرجه الترمذي وأبو داود والنسائي (ق) عن ابن عباس قال: «استفتى سعد بن عبادة رسول الله ﷺ في نذر كان على أمه فتوفيت قبل أن تقضيه فأمره أن يقضيه عنها» أخرجه الجماعة. وفي الآية دليل على وجوب الوفاء بالنذر، وهذا مبالغة في وصفهم بأداء الواجبات لأن من وفى بما أوجبه على نفسه كان لما أوجبه الله عليه أوفى. ﴿**ويخافون يوماً كان شره مستطيراً**﴾ أي منتشراً فاشياً ممتداً، وقيل استطار خوفه في أهل السموات والأرض، وفي أولياء الله وأعدائه، وقيل فشا سره في السموات. فانشقت وتناثرت الكواكب وفزعت، الملائكة وكورت الشمس، والقمر وفي الأرض. فتشققت الجبال وغارت المياه وكسر كل شيء على الأرض من جبل وبناء، والمعنى أنهم يوفون بالنذر وهم خائفون من شر ذلك اليوم وهوله وشدته.

قوله عز وجل: ﴿**ويطعمون الطعام على حبه**﴾ أي حب الطعام وقلته وشهوتهم له والحاجة إليه فوصفهم الله تعالى: بأنهم يؤثرون غيرهم على أنفهسم بالطعام، ويواسون به أهل الحاجة، وذلك لأن أشرف أنواع الإحسان والبر إطعام الطعام. لأن به قوام الأبدان، وقيل على حب الله عز وجل أي لحب الله ﴿**مسكيناً**﴾ يعني فقيراً وهو الذي لا مال له ولا يقدر على الكسب ﴿**ويتيماً**﴾ أي صغيراً وهو الذي لا أب له يكتسب له، وينفق عليه ﴿**وأسيراً**﴾ قيل هو المسجون من أهل القبلة يعني من المسلمين، وقيل هو الأسير من أهل الشرك. أمر الله بالأسرى أن يحسن إليهم وإن

﴿ **عيناً** ﴾، نصب تبعاً للكافور. وقيل: نصب على المدح. وقيل: أعني عيناً. وقال الزجّاج: الأجود أن يكون المعنى من عين، ﴿ **يشرب بها** ﴾، قيل: يشربها والباء صلة وقيل بها أي منها، ﴿ **عباد الله** ﴾، قال ابن عباس أولياء الله، ﴿ **يفجرونها تفجيراً** ﴾، أي يقودونها حيث شاؤوا من منازلهم وقصورهم، كمَن يكون له نهر يفجّره ههنا إلى حيث يزيد.

﴿ **يوفون بالنذر** ﴾، هذا من صفاتهم في الدنيا أي كانوا في الدنيا كذلك، قال قتادة: أراد يوفّون بما فرض الله عليهم من الصلاة والزكاة والصوم والحج والعمرة، وغيره من الواجبات، ومعنى النذر الإيجاب. وقال مجاهد وعكرمة: إذا نذروا في طاعة الله وفّوا به. أخبرنا أبو الحسن السرخسي أنا زاهر بن أحمد أنا أبو إسحاق الهاشمي أنا أبو مصعب عن مالك عن طلحة بن عبد الملك الأيلي عن القاسم بن محمد عن عائشة زوج النبي ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «مَن نذر أن يطيع الله فليطعه، ومَن نذر أن يعصي الله فلا يعصه» ﴿ **ويخافون يوماً كان شرّه**

أسراهم يومئذ أهل الشرك. فعلى هذا الوجه يجوز إطعام الأسرى، وإن كانوا على غير ديننا، وأنه يرجى ثوابه، ولا يجوز أن يعطوا من الصدقة الواجبة كالزكاة والكفارة، وقيل الأسير المملوك، وقيل الأسير المرأة لقول النبي ﷺ «اتقوا الله في النساء فإنهن عندكم عوان» يعني أسرى، وقيل غريمك أسيرك فأحسن إلى أسيرك.

واختلفوا في سبب نزول الآية، فقيل نزلت في رجل من الأنصار يقال له أبو الدحداح صام يوماً فلما كان وقت الإفطار جاءه مسكين، ويتيم، وأسير فأطعمهم ثلاثة أرغفة، وبقي له ولأهله رغيف واحد. فنزلت هذه الآية فيه، وروي عن ابن عباس أنها نزلت في علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه وذلك أنه عمل ليهودي بشيء من شعير فقبض ذلك الشعير فطحن منه ثلثه، وأصلحوا منه شيئاً يأكلونه فلما فرغ أتى مسكين فسأل فأعطوه ذلك ثم عمل الثلث الثاني فلما فرغ أتى يتيم فسأل فأعطوه ذلك، ثم عمل الثلث الباقي فلما تم نضجه أتى أسير من المشركين فسأل فأعطوه ذلك وطووا يومهم وليلتهم فنزلت هذه الآية. وقيل هذه عامة في كل من أطعم المسكين واليتيم والأسير لله تعالى وآثر على نفسه **﴿إنما نطعمكم لوجه الله﴾** أي لأجل وجه الله تعالى: **﴿لا نريد منكم جزاء ولا شكوراً﴾** قيل إنهم لم يتكلموا به ولكن علم الله ذلك من قلوبهم. فأثنى به عليهم، وقيل قالوا ذلك منعاً للمحتاجين من المكافأة، وقيل قالوا ذلك ليقتدي بهم غيرهم في ذلك وذلك أن الإحسان إلى الغير تارة يكون لأجل الله تعالى لا يراد به غيره. فهذا هو الإخلاص، وتارة يكون لطلب المكافأة أو لطلب الحمد من الناس أو لهما، وهذان القسمان مردودان لا يقبلهما الله تعالى لأن فيهما شركاً، ورياء فنفوا ذلك عنهم بقولهم إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكوراً.

إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾

مستطيراً ﴾، فاشياً ممتدّاً، يقال: استطار الصبح إذا امتدّ وانتشر. قال مقاتل: كان شرّه فاشياً في السموات فانشقّت وتناثرت الكواكب وكوّرت الشمس والقمر وفزعت الملائكة، وفي الأرض فنسفت الجبال وغارت المياه وتكسّر كل شيء على الأرض من جبل وبناء.

﴿ ويطعمون الطعام على حبّه ﴾، أي على حبّ الطعام وقلّته وشهوتهم له وحاجتهم إليه. وقيل: على حبّ الله، **﴿ مسكيناً ﴾**، فقيراً لا مال له، **﴿ ويتيماً ﴾**، صغيراً لا أب له **﴿ وأسيراً ﴾**، قال مجاهد وسعيد بن جبير وعطاء: هو المسجون من أهل القِبلة. وقال قتادة: أمر الله بالأمراء أن يُحسَن إليهم وإن أسراهم يومئذ لأهل الشرك. وقيل: الأسير المملوك. وقيل المرأة، يقول النبي ﷺ: «اتقوا الله في النساء فإنهنّ عندكم عوان» أي أسراء، واختلفوا في سبب نزول هذه الآية، قال مقاتل: نزلت في رجل من الأنصار أطعم في يوم واحد مسكيناً ويتيماً وأسيراً. ورُوِيَ عن مجاهد وعطاء عن ابن عباس: أنها نزلت في عليّ بن أبي طالب، وذلك أنه عمل ليهودي بشيء من شعير، فقبض الشعير فطحن ثلثه فجعلوا منه شيئاً ليأكلوه، فلما تمّ إنضاجه أتى مسكين فسأل فأخرجوا إليه الطعام، ثم عمل الثلث الثاني فلما تمّ إنضاجه أتى يتيم فسأل فأطعموه، ثم عمل الثلث الباقي فلما تمّ إنضاجه أتى أسير من المشركين، فسأل فأطعموه، وطووا يومهم ذلك. وهذا قول الحسن وقتادة، أن الأسير كان من أهل الشرك، وفيه دليل على أن إطعام الأسارى وإن كانوا من أهل الشرك حَسَن يُرجَى ثوابه.

﴿ إنّما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاءً ولا شكوراً ﴾، والشكور مصدر كالعقود والدخول والخروج. قال مجاهد وسعيد بن جبير: إنهم لم يتكلموا به ولكن علم الله ذلك من قلوبهم، فأثنى عليهم.

﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَا۟ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾﴾

﴿**إنا نخاف من ربنا يوماً**﴾ يعني أن إحساننا إليكم للخوف من شدة ذلك اليوم لا لطلب مكافأتكم ﴿**عبوساً**﴾ وصف ذلك اليوم بالعبوس مجازاً كما يقال نهاره صائم، والمراد أهله والمعنى تعبس فيه الوجوه من هوله وشدته وقيل وصف اليوم بالعبوس لما فيه من الشدة. ﴿**قمطريراً**﴾ يعني شديداً كريهاً يقبض الوجوه والجباه بالتعبيس، وقيل العبوس الذي لا انبساط فيه، والقمطرير الشديد، وقيل هو أشد ما يكون من الأيام وأطوله في البلاء ﴿**فوقاهم الله شر ذلك اليوم**﴾ أي الذي يخافونه ﴿**ولقاهم نضرة**﴾ أي حسناً في وجوههم ﴿**وسروراً**﴾ أي في قلوبهم ﴿**وجزاهم بما صبروا**﴾ أي على طاعة الله واجتناب معصيته، وقيل على الفقر والجوع مع الوفاء بالنذر والإيثار ﴿**جنة وحريراً**﴾ أي أدخلهم الجنة وألبسهم الحرير ﴿**متكئين فيها**﴾ أي في الجنة ﴿**على الأرائك**﴾ جمع أريكة وهي السرر في الحجال ولا تسمى أريكة إلا إذا اجتمعا ﴿**لا يرون فيها شمساً ولا زمهريراً**﴾ يعني لا يؤذيهم حر الشمس، ولا برد الزمهرير كما كان يؤذيهم في الدنيا والزمهرير أشد البرد وحكى الزمخشري قولاً إن الزمهرير هوالقمر وعن ثعلب أنه في لغة طيىء وأنشد:

وليلـــة ظـــلامهـــا قـــد اعتكـــر قطعتهـــا والـــزمهـــريـــر مـــا زهـــر

والمعنى أن الجنة ضياء لا يحتاج فيها إلى شمس وقمر ﴿**ودانية عليهم ظلالها**﴾ أي قريبة منهم ظلال أشجارها ﴿**وذللت**﴾ أي سخرت وقربت ﴿**قطوفها**﴾ أي ثمارها ﴿**تذليلاً**﴾ أي يأكلون من ثمارها قياماً وقعوداً ومضطجعين، ويتناولونها كيف شاؤوا وعلى أي حال أرادوا. ﴿**ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب**﴾ قيل هي الكيزان التي لا عرى

﴿ **إنّا نخاف من ربّنا يوماً عبوساً** ﴾، تعبس فيه الوجوه من هوله وشدّته، ونسب العبوس إلى اليوم، كما يقال يوم صائم وليل نائم. وقيل: وصف اليوم بالعبوس لما فيه من الشدّة، ﴿ **قمطريراً** ﴾، قال قتادة ومجاهد ومقاتل: القمطرير الذي يقبض الوجوه والجِباه بالتعبيس. وقال الكلبي: العبوس الذي لا انبساط فيه، والقمطرير: الشديد، قال الأخفش: القمطرير: أشدّ ما يكون من الأيام وأطوله في البلاء، يقال: يوم قمطرير وقماطر إذا كان شديداً كريهاً، واقمطرّ اليوم فهو مقمطر.

﴿ **فَوَقاهم اللّهُ شَرَّ ذلك اليوم** ﴾، الذي يخافون، ﴿ **ولقاهم نضرة** ﴾، حسناً في وجوههم، ﴿ **وسُروراً** ﴾، في قلوبهم.

﴿ **وجزاهم بما صبروا** ﴾، على طاعة الله واجتناب معصيته، وقال الضحاك: على الفقر. وقال عطاء: على الجوع. ﴿ **جنّةً وحريراً** ﴾، قال الحسن: أدخلهم الله الجنّة وألبسهم الحرير.

﴿ **متّكئين** ﴾، على الحال، ﴿ **فيها** ﴾ في الجنة، ﴿ **على الأرائك** ﴾، السُّرُر في الحجال، ولا تكون أريكة إلّا إذا اجتمعا، ﴿ **لا يرون فيها شمساً ولا زمهريراً** ﴾، أي صيفاً ولا شتاءً. قال مقاتل: يعني شمساً يؤذيهم حرّها ولا زمهريراً يؤذيهم برده، لأنهما يؤذيان في الدنيا. والزمهرير: البرد الشديد.

﴿ **ودانية عليهم ظلالها** ﴾، أي قريبة منهم ظلال أشجارها، ونصب ﴿ **دانية** ﴾ بالعطف على قوله: ﴿ **متّكئين** ﴾، وقيل: على موضع قوله: ﴿ **لا يرون فيها شمساً ولا زمهريراً** ﴾ ويرون ﴿ **دانية** ﴾، وقيل: على المدح، ﴿ **وذُلّلت** ﴾، سُخّرت وقُرّبت، ﴿ **قطوفها** ﴾، ثمارها، ﴿ **تذليلاً** ﴾، يأكلون من ثمارها قياماً وقعوداً ومضطجعين ويتناولونها كيف شاؤوا على أيّ حال كانوا.

لها كالقدح ونحوه ﴿كانت قواريراً قوارير من فضة﴾ قال أهل التفسير أراد بياض الفضة في صفاء القوارير وهو الزجاج، والمعنى أن آنية أهل الجنة من فضة بيضاء في صفاء الزجاج، والمعنى يرى ما في باطنها من ظاهرها، قال الكلبي: إن الله تبارك وتعالى جعل قوارير كل قوم من تراب أرضهم، وإن أرض الجنة من فضة فجعل منها قوارير يشربون فيها، وقيل إن القوارير التي في الدنيا من الرمل والقوارير التي في الجنة من الفضة، ولكنها أصفى من الزجاج. ﴿قدروها تقديراً﴾ أي قدروا الكؤوس على قدر ريهم، وكفايتهم لا تزيد ولا تنقص. والمعنى أن السقاة والخدم الذين يطوفون عليهم يقدرونها لهم ثم يسقونهم.

﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ ۖ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾﴾

﴿ويسقون فيها﴾ أي في الجنة ﴿كأساً كان مزاجها زنجبيلاً﴾ قيل إن الزنجبيل هو اسم للعين التي يشرب منها الأبرار يوجد منها طعم الزنجبيل يشرب بها المقربون صرفاً، ويمزج لسائر أهل الجنة، وقيل هو النبت المعروف، والعرب كانوا يجعلون الزنجبيل في شرابهم لأنه يحصل فيه ضرب من اللذع قال الأعشى:

كأن القرنفل والزنجبيـ ... ـل باتا بفيها وأريا مشورا

الأري العسل والمشور المستخرج من بيوت النحل وقال المسيب بن علس:

فكأن طعم الزنجبـ ... ـيل به إذ ذقته وسلافة الخمر

فلما كان الزنجبيل مستطاباً عند العرب وصف الله تعالى: شراب أهل الجنة بذلك، وقيل إن شرب أهل الجنة على برد الكافور، وطعم الزنجبيل وريح المسك قال ابن عباس: كل ما ذكر الله تعالى في القرآن مما في الجنة وسماه ليس له مثل في الدنيا، وذلك لأن زنجبيل الجنة لا يشبه زنجبيل الدنيا ﴿عيناً فيها تسمى سلسبيلاً﴾ أي سلسلة منقادة

﴿ ويُطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب كانت قواريراً * قوارير من فضة ﴾، قال المفسّرون: أراد بياض الفضة في صفاء القوارير، فهي من فضة في صفاء الزجاج، يرى ما في داخلها من خارجها. قال الكلبي: إن الله جعل قوارير كل قوم من تراب أرضهم، وإن أرض الجنة من فضة، فجعل منها قوارير يشربون فيها، **﴿ قدّروها تقديراً ﴾**، قدّروا الكأس على قدر ربّهم لا يزيد ولا ينقص، أي قدّرها لهم السُّقاة والخَدَم الذين يطوفون عليهم يقدّرونها ثم يسقون.

﴿ ويسقون فيها كأساً كان مزاجها زنجبيلاً ﴾، يشوق ويطرب، والزنجبيل: مما كانت العرب تستطيبه جدّاً، فوعدهم الله تعالى أنهم يسقون في الجنة الكأس الممزوجة بزنجبيل الجنة. قال مقاتل: لا يشبه زنجبيل الدنيا. قال ابن عباس: كل ما ذكر الله القرآن مما في الجنة وسماه ليس له في الدنيا مثل. وقيل: هو عين في الجنة يوجد منها طعم الزنجبيل. قال قتادة: يشربها المقرّبون صرفاً، ويمزج لسائر أهل الجنة.

﴿ عيناً فيها تُسمى سلسبيلاً ﴾، قال قتادة: سلسلة منقادة لهم يصرفونها حيث شاؤوا، قال مجاهد: حديدة الجرية. قال أبو العالية ومقاتل بن حيان: سُمّيت سلسبيلاً لأنها تسيل عليهم في الطرق وفي منازلهم تنبع من أصل العرش من جنّة عدن إلى أهل الجنان وشراب الجنة على برد الكافور وطعم الزنجبيل وريح المِسك. قال الزجّاج:

لهم يصرفونها حيث شاؤوا وقيل حديدة الجرية سميت سلسبيلاً لأنها تسيل عليها في طرقهم، ومنازلهم تنبع من أصل العرش من جنة عدن إلى سائر الجنان، وقيل سميت بذلك لأنها في غاية السلاسة تتسلسل في الحلق ومعنى تسمى أي توصف لأن أكثر العلماء على أن سلسبيلا صفة لا اسم ﴿**ويطوف عليهم ولدان مخلدون**﴾ أي في الخدمة وقيل مخلدون مسروون ومقرطون ﴿**إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤاً منثوراً**﴾ يعني في بياض اللؤلؤ الرطب وحسنه، وصفائه، واللؤلؤ إذا انتثر على البساط كان أصفى منه منظوماً، وقيل إنما شبهوا بالمنثور لانتثارهم في الخدمة.

قوله عز وجل: ﴿**وإذا رأيت**﴾ قيل الخطاب للنبي ﷺ وقيل لكل واحد ممن يدخل الجنة والمعنى إذا رأيت ببصرك ونظرت به ﴿**ثم**﴾ يعني إلى الجنة ﴿**رأيت نعيماً**﴾ أي لا يوصف عظمه ﴿**وملكاً كبيراً**﴾ قيل هو أن أدناهم منزلة من ينظر في ملكه مسيرة ألف عام يرى أقصاه كما يرى أدناه، وقيل هو أن رسول رب العزة من الملائكة لا يدخل عليه إلا بإذنه وهو استئذان الملائكة عليهم وقيل معناه ملكاً لا زوال له ولا انتقال ﴿**عاليهم**﴾ أي فوقهم ﴿**ثياب سندس خضر**﴾ وهو مارق من الديباج ﴿**وإستبرق**﴾ وهو ما غلظ منه وكلاهما داخل في اسم الحرير ﴿**وحلوا أساور من فضة وسقاهم ربهم شراباً طهوراً**﴾ يعني طاهراً من الأقذار والأردان لم تمسه الأيدي، ولم تدنسه الأرجل كخمر الدنيا وقيل إنه لا يستحيل بولاً، ولكنه يستحيل رشحاً في أبدانهم كرشح المسك، وذلك أنهم يؤتون بالطعام ثم من بعده يؤتون بالشراب الطهور فيشربون منه فتطهر بطونهم ويصير ما أكلوا رشحاً يخرج من جلودهم أطيب من المسك الأذفر، وتضمر بطونهم وتعود شهواتهم، وقيل الشراب الطهور هو عين ماء على باب الجنة من شرب منه نزع الله ما كان في قلبه من غل وغش وحسد.

سُمّيت سلسبيلاً لأنها في غاية السلاسة تتسلسل في الحلق، ومعنى قوله: ﴿ **تسمى** ﴾ أي توصف لأن أكثر العلماء على أن سلسبيلاً صفة لا اسم.

﴿ **ويطوف عليهم ولدان مخلدون إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤاً منثوراً** ﴾، قال عطاء: يريد في بياض اللؤلؤ وحُسْنه واللؤلؤ إذا نثر من الخيط على البساط، كان أحسن منه منظوماً. وقال أهل المعاني: إنما شُبِّهوا بالمنثور لانتثارهم في الخدمة، فلو كانوا صفّاً لشُبِّهوا بالمنظوم.

﴿ **وإذا رأيتَ ثَمَّ** ﴾، أي إذا رأيت ببصرك ونظرت به ثم يعني في الجنة، ﴿ **رأيت نعيماً** ﴾، لا يوصف، ﴿ **وملكاً كبيراً** ﴾، وهو أن أدناهم منزلة ينظر إلى ملكه في مسيرة ألف عام يرى أقصاه كما يرى أدناه. قال مقاتل والكلبي: هو أن رسول ربِّ العزّة من الملائكة لا يدخل عليه إلاّ بإذنه. وقيل: ملكاً لا زوال له.

﴿ **عاليهم ثياب سندس** ﴾، قرأ أهل المدينة وحمزة ﴿ **عاليهم** ﴾ ساكنة الياء مكسورة الهاء، فيكون في موضع رفع بالابتداء، وخبره ثياب سندس، وقرأ الآخرون بنصب الياء وضمّ الهاء على الصفة، أي فوقهم وهو نصب على الظرف ثياب سندس، ﴿ **خضر واستبرق** ﴾، قرأ نافع وحفص ﴿ **خضر واستبرق** ﴾ مرفوعان عطفاً على الثياب، وقرأهما حمزة والكسائي مجرورين، وقرأ ابن كثير وأبو بكر ﴿ **خضر** ﴾ جرّ ﴿ **واستبرق** ﴾، رفع، وقرأ أبو جعفر وأهل البصرة والشام علىٰ ضدّه فالرفع على نعت الثياب والجرّ على نعت السندس. ﴿ **وحلّوا أساور من فضة وسقاهم ربّهم شراباً طهوراً** ﴾، قيل: طاهراً من الأقذار والإقذاء لم تدنّسه الأيدي والأرجل كخمر الدنيا. وقال أبو قلابة وإبراهيم: إنه لا يصير بولاً نجساً ولكنه يصير رشحاً في أبدانهم، كريح المِسك، وذلك أنهم يُؤتون بالطعام فيأكلون، فإذا كان آخر ذلك أُتوا بالشراب الطهور، فيشربون فتطهر بطونهم ويصير ما أكلوا رشحاً يخرج من جلودهم أطيب من المِسك الإذفر، وتضمر بطونهم وتعود شهوتهم. وقال مقاتل: هو عين ماء على باب الجنة مَن شرب منها نزع الله ما كان في قلبه من غلٍّ وغشٍّ وحسد.

إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾ نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ ۖ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿٢٨﴾

﴿إن هذا كان لكم جزاء﴾ أي يقال لأهل الجنة بعد دخولهم فيها ومشاهدتهم نعيمها. إن هذا كان لكم جزاء قد أعده الله لكم إلى هذا الوقت. فهو لكم بأعمالكم، وقيل هو إخبار من الله تعالى لعباده المؤمنين أنه قد أعده لهم في الآخرة ﴿وكان سعيكم مشكوراً﴾ أي شكرتكم عليه وآتيتكم أفضل منه، وهو الثواب، وقيل شكر الله لعباده هو رضاء منهم بالقليل من الطاعة وإعطاؤه إياهم الكثير من الخيرات.

قوله عز وجل: ﴿إنا نحن نزلنا عليك﴾ أي يا محمد ﴿القرآن تنزيلاً﴾ قال ابن عباس: متفرقاً آية بعد آية ولم ننزله جملة واحدة، والمعنى أنزلنا عليك القرآن متفرقاً لحكمة بالغة تقتضي تخصيص كل شيء بوقت معين، والمقصود من ذلك تثبيت قلب رسول الله ﷺ وشرح صدره وإن الذي أنزله إليه وحي منه ليس بكهانة، ولا سحر لتزول تلك الوحشة التي حصلت له من قول الكفار إنه سحر أو كهانة. ﴿فاصبر لحكم ربك﴾ أي لعبادته فهي من الحكمة المحضة، وقيل معناه فاصبر لحكم ربك في تأخير الإذن في القتال، وقيل هو عام في جميع التكاليف، أي فاصبر لحكم ربك في كل ما حكم الله به سواء كان تكليفاً خاصاً كالعبادات والطاعات أو عاماً متعلقاً بالغير كالتبليغ، وأداء الرسالة وتحمل المشاق وغير ذلك. ﴿ولا تطع منهم آثماً أو كفوراً﴾ قيل أراد به أبا جهل، وذلك أنه لما فرضت الصلاة على النبي ﷺ نهاه أبو جهل عنها، وقال لئن رأيت محمداً يصلي لأطأن عنقه، وقيل أراد بالآثم عتبة بن ربيعة، وبالكفور الوليد بن المغيرة وذلك أنهما قالا للنبي ﷺ إن كنت صنعت ما صنعت لأجل النساء، والمال فارجع عن هذا الأمر، وقال عتبة أنا أزوجك ابنتي وأسوقها إليك بغير مهر، وقال الوليد أنا أعطيك من المال حتى ترضى فارجع عن هذا الأمر فأنزل الله تعالى هذه الآية.

فإن قلت هل من فرق بين الآثم والكفور قلت نعم. الآثم هو المقدم على المعاصي أي معصية كانت، والكفور

﴿ إن هذا كان لكم جزاءً وكان سعيكم مشكوراً ﴾، أي ما وصف من نعيم الجنة كان لكم جزاء بأعمالكم وكان سعيكم عملكم في الدنيا بطاعة الله مشكوراً، قال عطاء: شكرتكم عليه وأثبتكم أفضل الثواب.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ إنّا نحن نزّلنا عليك القرآن تنزيلاً ﴾، قال ابن عباس: متفرّقاً آية بعد آية، ولم ينزل جملة واحدة.

﴿ فاصبرْ لحكم ربك ولا تطع منهم ﴾، يعني من مشركي مكة، ﴿ آثماً أو كفوراً ﴾، يعني وكفوراً، والألف صلة، قال قتادة: أراد بالآثم والكفور أبا جهل وذلك أنه لمّا فُرِضت الصلاة على النبي ﷺ نهاه أبو جهل عنها، وقال: لئن رأيت محمداً يصلّي لأطأنّ عنقه. وقال مقاتل: أراد بالآثم عتبة بن ربيعة، وبالكفور الوليد بن المغيرة، قالا للنبي ﷺ: إن كنت صنعت ما صنعت لأجل النساء والمال فارجع عن هذا الأمر، قال عتبة: فأنا أُزوّجك ابنتي وأسوقها إليك بغير مهر، وقال الوليد: أنا أُعطيك من المال حتى ترضى، فارجع عن هذا الأمر، فأنزل الله هذه الآية.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ واذكر اسم ربك بكرةً وأصيلاً * ومن الليل فاسجد له ﴾، يعني صلاة المغرب والعشاء،

هو الجاحد فكل كفور آثم، ولا ينعكس لأن من عبد غير الله فقد اجتمع في حقه هذان الوصفان لأنه لما عبد غير الله فقد عصاه وجحد نعمه عليه. **﴿واذكر اسم ربك بكرة وأصيلاً﴾** قيل المراد من الذكر الصلاة، والمعنى وصل لربك بكرة يعني صلاة الصبح وأصيلاً يعني صلاة الظهر والعصر **﴿ومن الليل فاسجد له﴾** يعني صلاة المغرب والعشاء فعلى هذا تكون الآية جامعة لمواقيت الصلاة الخمس **﴿وسبحه ليلاً طويلاً﴾** يعني صلاة التطوع بعد المكتوبة وهو التهجد بالليل، وقيل المراد من الآية هو الذكر باللسان، والمقصود أن يكون ذاكراً لله تعالى في جميع الأوقات في الليل والنهار بقلبه وبلسانه. قوله عز وجل: **﴿إن هؤلاء﴾** يعني كفار مكة **﴿يحبون العاجلة﴾** يعني الدار العاجلة، وهي الدنيا. **﴿ويذرون وراءهم﴾** يعني أمامهم **﴿يوماً ثقيلاً﴾** يعني شديداً وهو يوم القيامة والمعنى أنهم يتركونه فلا يؤمنون به، ولا يعملون له **﴿نحن خلقناهم وشددنا﴾** أي قوينا وأحكمنا **﴿أسرهم﴾** أي خلقهم وقيل أوصالهم شددنا بعضها إلى بعض بالعروق والأعصاب، وقيل الأسر مجرى البول والغائط، وذلك أنه إذا خرج الأذى انقبضا. **﴿وإذا شئنا بدلنا أمثالهم تبديلاً﴾** أي إذا شئنا أهلكناهم، وآتينا بأشباههم فجعلناهم بدلاً منهم.

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾ يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًۢا ﴿٣١﴾﴾

﴿إن هذه﴾ أي السورة **﴿تذكرة﴾** أي تذكير وعظة **﴿فمن شاء اتخذ﴾** أي لنفسه في الدنيا **﴿إلى ربه سبيلاً﴾** أي وسيلة بالطاعة، والتقرب إليه وهذه مما يتمسك بها القدرية يقولون اتخاذ السبيل هو عبارة عن التقرب إلى الله تعالى، وهو إلى اختيار العبد، ومشيئته قال أهل السنة ويرد عليهم قوله عز وجل في سياق الآية. **﴿وما تشاؤون إلا أن يشاء الله﴾** أي لستم تشاؤون إلا بمشيئة الله تعالى لأن الأمر إليه، ومشيئة الله مستلزمة لفعل العبد فجميع ما يصدر عن العبد بميشئة الله جلّ جلاله وتعالى شأنه **﴿إن الله كان عليماً﴾** أي بأحوال خلقه وما يكون منهم **﴿حكيماً﴾** أي حيث خلقهم مع علمه بهم **﴿يدخل من يشاء في رحمته﴾** أي في دينه وقيل في جنته فإن فسرت الرحمة بالدين كان ذلك من الله تعالى وإن فسرت بالجنة كان دخول الجنة بسبب مشيئة الله جلّ جلاله وتعالى شأنه وفضله وإحسانه لا بسبب الاستحقاق **﴿والظّالمين﴾** يعني المشركين **﴿أعد لهم عذاباً أليماً﴾** أي مؤلماً، والله سبحانه وتعالى أعلم.

﴿ وسبّحه ليلاً طويلاً ﴾، يعني التطوّع بعد المكتوبة.

﴿ إن هؤلاء ﴾، يعني كفّار مكة **﴿ يحبّون العاجلة ﴾**، أي الدار العاجلة وهي الدنيا. **﴿ ويذرون وراءهم ﴾**، يعني أمامهم، **﴿ يوماً ثقيلاً ﴾**، شديداً وهو يوم القيامة. أي يتركون فلا يؤمنون به ولا يعملون له.

﴿ نحن خلقناهم وشددنا ﴾، قوّينا وأحكمنا، **﴿ أسْرَهم ﴾**، قال مجاهد وقتادة ومقاتل: أسرهم أي خلقهم، يقال رجل حسن الأسر أي الخلق، وقال الحسن: يعني أوصالهم شددنا بعضها إلى بعض بالعروق والعصب. ورُوِيَ عن مجاهد في تفسير الأسر قال: الفرج يعني موضع مصر في البول والغائط إذا خرج الأذى انقبضا. **﴿ وإذا شئنا بدّلنا أمثالهم تبديلاً ﴾**، أي إذا شئنا أهلكناهم وأتينا بأشباههم فجعلناهم بدلاً منهم.

﴿ إن هذه ﴾، يعني هذه السورة، **﴿ تذكرة ﴾**، تذكير وعِظة، **﴿ فمَن شاء اتخذ إلى ربّه سبيلاً ﴾** وسيلة للطـــــاعة.

﴿ وما تشاؤون ﴾، قرأ ابن كثير وابن عامر وأبو عمرو (يشاؤون) بالياء، وقرأ الآخرون بالتاء، **﴿ إلاّ أن يشاء الله ﴾** أي لستم تشاؤون إلاّ بمشيئة الله عزّ وجلّ، لأن الأمر إليه **﴿ إن الله كان عليماً حكيماً * يُدخِل مَن يشاء في رحمته والظالمين ﴾**، أي المشركين. **﴿ أعدّ لهم عذاباً أليماً ﴾**.

سورة المرسلات

(مكية وهي خمسون آية ومائة وثمانون كلمة وثمانمائة وستة عشر حرفاً)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ۝١ فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ۝٢ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا ۝٣ فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا ۝٤

قوله عز وجل: ﴿**والمرسلات عرفاً فالعاصفات عصفاً والناشرات نشراً فالفارقات فرقاً فالملقيات ذكراً عذراً أو نذراً**﴾ أعلم أن المفسرين ذكروا في هذه الكلمات الخمس وجوها:

الأول: أن المراد بأسرها الرّياح ومعنى المرسلات عرفاً الرياح أرسلت متتابعة كعرف الفرس، وقيل عرفاً أي كثيراً ﴿**فالعاصفات عصفاً**﴾ يعني الرّياح الشّديدة الهبوب، ﴿**والناشرات نشراً**﴾. يعني الرياح اللّينة، وقيل هي الرياح التي أرسلها نشراً بين يدي رحمته، وقيل هي الرّياح التي تنشر السحاب، وتأتي بالمطر فالفارقات فرقاً يعني الرياح التي تفرق السحاب، وتبدده فالملقيات ذكراً يعني أن الرياح إذا أرسلت عاصفة شديدة قلعت الأشجار، وخربت الديار، وغيرت الآثار. فيحصل بذلك خوف للعباد في القلوب، فيلجئون إلى الله تعالى ويذكرونه، فصارت تلك الرياح كأنها ألقت الذكر، والمعرفة في القلوب عند هبوبها.

الوجه الثاني: أن المراد بأسرها الملائكة الذين أرسلهم الله تعالى ومعنى والمرسلات عرفاً. الملائكة الذين أرسلوا بالمعروف من أمر الله، ونهيه وهذا القول رواية عن ابن مسعود فالعاصفات عصفاً يعني الملائكة تعصف في طيرانهم، ونزولهم كعصف الرياح في السرعة، والناشرات نشراً يعني أنهم إذا نزلوا إلى الأرض نشروا أجنحتهم، وقيل هم الذين ينشرون الكتب، ودواوين الأعمال يوم القيامة فالفارقات فرقاً. قال ابن عباس: يعني الملائكة تأتي بما يفرق بين الحق والباطل، فالملقيات ذكراً يعني الملائكة تلقي الذكر إلى الأنبياء، وقيل يجوز أن يكون الذكر هو القرآن

سُورَةُ المُرْسَلَات

مكيّة وهي خمسون آية.

﴿ **والمرسلات عُرْفاً** ﴾، يعني الرياح أُرسلت متتابعة كعُرف الفرس. وقيل: عُرفاً أي كثير تقول العرب: الناس إلى فلان عرف واحد، إذا توجّهوا إليه فأكثروا، هذا معنى قول مجاهد وقتادة، قال مقاتل: يعني الملائكة التي أُرسلت بالمعروف من أمر الله ونهيه، وهي رواية مسروق عن ابن مسعود.

﴿ **فالعاصفات عصفاً** ﴾، يعني الرياح الشديدة الهبـوب.

﴿ **والناشرات نشراً** ﴾، يعني الرياح الليّنة. وقال الحسن: هي الرياح الليّنة. وقال الحسن: هي الرياح التي

خاصة فعلى هذا يكون الملقى هو جبريل وحده، وإنما ذكره بلفظ الجمع على سبيل التعظيم.

الوجه الثالث: أن المراد بأسرها آيات القرآن، ومعنى المرسلات عرفاً آيات القرآن المتتابعة في النزول على محمد ﷺ بكل عرف وخير فالعاصفات عصفاً يعني آيات القرآن تعصف القلوب بذكر الوعيد حتى تجعلها كالعصف وهو النبت المتكسر، والناشرات نشراً يعني آيات القرآن تنشر أنوار الهداية والمعرفة في قلوب المؤمنين. فالفارقات فرقاً يعني آيات القرآن تفرق بين الحق والباطل فالملقيات ذكراً يعني آيات القرآن هي الذكر الحكيم الذي يلقى الإيمان والنور في قلوب المؤمنين.

﴿فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ۝٥ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ۝٦ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ ۝٧ فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ ۝٨ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ ۝٩ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ ۝١٠ وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ ۝١١ لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ۝١٢ لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ ۝١٣ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ۝١٤ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١٥ أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٦ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْآخِرِينَ ۝١٧ كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ۝١٨ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١٩ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٢٠ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝٢١ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ۝٢٢ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ۝٢٣﴾

الوجه الرابع: أنه ليس المراد من هذه الكلمات الخمس شيئاً واحداً بعينه فعلى هذا يكون المراد بقوله تعالى: **﴿والمرسلات عرفاً فالعاصفات عصفاً والناشرات نشراً الرياح﴾** ويكون المراد بقوله **﴿فالفارقات فرقاً فالملقيات ذكرا﴾** الملائكة.

فإن قلت وما المجانسة بين الرياح والملائكة حتى جمع بينهما في القسم قلت الملائكة روحانيون فهم بسبب لطافتهم، وسرعة حركاتهم شابهوا الرياح فحصلت المجانسة بينهما من هذا الوجه فحسن الجمع بينهما في القسم عذراً أو نذراً أي للإعذار والإنذار من الله، وقيل عذراً من الله ونذراً منه إلى خلقه، وهذه كلها أقسام وجواب القسم قوله تعالى: **﴿إن ما توعدون﴾** أي من أمر الساعة ومجيئها **﴿لواقع﴾** أي لكائن نازل لا محالة، وقيل معناه إن ما

يرسلها الله بشراً بين يدي رحمته. وقيل: هي الرياح التي تنشر السحاب وتأتي بالمطر. وقال مقاتل: هم الملائكة ينشرون الكتب.

﴿ فالفارقات فرقاً ﴾، قال ابن عباس ومجاهد والضحاك: يعني الملائكة تأتي بما يفرّق بين الحق والباطل. وقال قتادة والحسن: هي آي القرآن تفرّق بين الحلال والحرام. ورُوِيَ عن مجاهد قال: هي الرياح تفرّق السحاب وتبدّده.

﴿ فالملقيات ذكراً ﴾، يعني الملائكة تلقي الذكر إلى الأنبياء، نظيرها: **﴿ يلقي الروح من أمره ﴾** [غافر: ١٥].

﴿ عذراً أو نذراً ﴾، أي للإعذار والإنذار، قرأ الحسن **﴿ عذراً ﴾** بضمّ الذال واختلف فيه عن أبي بكر عن عاصم، وقراءة العامّة بسكونها، وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي وحفص **﴿ نذراً ﴾** ساكنة الذال، وقرأ الباقون بضمّها، ومَن سكّن قال لأنهما في موضع مصدرين بمعنى الإنذار والإعذار وليسا بجمع فينقلا إلى ههنا أقسام ذكرها على قوله:

﴿ إنما تُوعدون ﴾، من أمر الساعة والبعث، **﴿ لواقع ﴾**، لكائن ثم ذكر متى يقع.

فقال: **﴿ فإذا النجوم طُمست ﴾**، مُحِيَ نورها.

توعدون به من الخير والشر لواقع بكم. ثم ذكر متى يقع فقال تعالى: ﴿فإذا النجوم طمست﴾ أي محي نورها وقيل محقت ﴿وإذا السماء فرجت﴾ أي شقت وقيل فتحت ﴿وإذا الجبال نسفت﴾ أي قلعت من أماكنها ﴿وإذا الرسل أقتت﴾ وقرىء وقتت بالواو ومعناهما وأحد أي جمعت لميقات يوم معلوم، وهو يوم القيامة ليشهدوا على الأمم ﴿لأي يوم أجلت﴾ أي أخرت وضرب الأجل لجميعهم كأنه تعالى يعجب لعباده من تعظيم ذلك اليوم، والمعنى جمعت الرسل في ذلك اليوم لتعذيب من كذبهم وتعظيم من آمن بهم، ثم بين ذلك اليوم فقال تعالى: ﴿ليوم الفصل﴾ قال ابن عباس يوم فصل الرحمن فيه بين الخلائق ثم أتبع ذلك تعظيماً وتهويلاً فقال تعالى: ﴿وما أدراك ما يوم الفصل﴾ أي وما أعلمك بيوم الفصل وهو له وشدته ﴿ويل يومئذ للمكذبين﴾ أي بالتوحيد والنبوة والمعاد والبعث والحساب.

قوله تعالى: ﴿ألم نهلك الأولين﴾ يعني الأمم الماضية بالعذاب في الدنيا حين كذبوا رسلهم ﴿ثم نتبعهم الآخرين﴾ يعني السالكين سبيلهم في الكفر والتكذيب، وهم كفار قريش، أي نهلكهم بتكذيبهم محمداً ﷺ ﴿كذلك نفعل بالمجرمين﴾ أي إنما نفعل بهم ذلك لكونهم مجرمين ﴿ويل يومئذ للمكذبين ألم نخلقكم من ماء مهين﴾ يعني النطفة ﴿فجعلناه في قرار مكين﴾ يعني الرحم ﴿إلى قدر معلوم﴾ يعني وقت الولادة وهو معلوم لله تعالى لا يعلم ذلك غيره ﴿فقدرنا﴾ قرىء بالتشديد من التقدير، أي قدرنا ذلك تقديراً ﴿فنعم القادرون﴾ أي المقدرون له وقرىء بالتخفيف من القدرة، أي قدرنا على خلقه، وتصويره كيف شئنا فنعم القادرون حيث خلقناه في أحسن صورة وهيئة.

وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ﴿٢٦﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ وَأَسْقَيْنَٰكُم

﴿ وإذا السماء فُرِجَت ﴾، شُقّت.

﴿ وإذا الجبال نُسِفَت ﴾، قُلِعَت من أماكنها.

﴿ وإذا الرسل أُقّتت ﴾، قرأ أهل البصرة (وقتت) بالواو، وقرأ أبو جعفر بالواو وتخفيف القاف، وقرأ الآخرون بالألف وتشديد القاف، وهما لغتان. والعرب تعاقبت بين الواو والهمزة كقولهم: وكدت وأكدت، ورّخت وأرّخت، ومعناهما جمعاً لميقات يوم معلوم، وهو يوم القيامة ليشهدوا على الأمم.

﴿ لأيّ يوم أُجلت ﴾، أي أُخّرت، وضرب الأجل لجمعهم فعجب العباد من ذلك اليوم.

ثم بيّن فقال: ﴿ ليوم الفصل ﴾، قال ابن عباس: يوم فصل الرحمن بين الخلائق.

﴿ وما أدراك ما يوم الفصل * وويل يومئذ للمكذّبين * ألم نهلك الأوّلين ﴾، يعني الأمم الماضية بالعذاب في الدنيا حين كذّبوا رسلهم.

﴿ ثم نتبعهم الآخرين ﴾، السالكين سبيلهم في الكفر والتكذيب يعني كفّار مكة بتكذيبهم محمداً ﷺ.

﴿ كذلك نفعل بالمجرمين * ويل يومئذ للمكذّبين * ألم نخلقكم من ماء مهين ﴾، يعني النطفة.

﴿ فجعلناه في قرار مكين ﴾، يعني الرحم.

﴿ إلى قدر معلوم ﴾، وهو وقت الولادة.

﴿ فقدرنا ﴾، قرأ أهل المدينة والكسائي ﴿ فقدّرنا ﴾ بالتشديد من التقدير، وقرأ الآخرون بالتخفيف من القدرة، لقوله: ﴿ فنِعمَ القادرون ﴾، وقيل: معناهما واحد، وقوله: ﴿ فنعم القادرون ﴾ أي المقدّرون.

مَّآءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾ ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ﴿٣٢﴾

﴿**ويل يومئذ للمكذبين**﴾ أي المنكرين للبعث لأن القادر على الابتداء قادر على الإعادة ﴿**ألم نجعل الأرض كفاتاً**﴾ يعني وعاء وأصله الضم والجمع ﴿**أحياء وأمواتاً**﴾ يعني تكفتهم أحياء على ظهرها بمعنى تضمهم في دورهم ومنازلهم وتكفتهم أمواتاً في بطنها في قبورهم، ولذلك تسمى الأرض أما لأنها تضم الناس كالأم تضم ولدها ﴿**وجعلنا فيها**﴾ أي في الأرض ﴿**رواسي شامخات**﴾ يعني جبالاً عاليات ﴿**وأسقيناكم ماء فراتاً**﴾ يعني عذاباً ﴿**ويل يومئذ للمكذبين**﴾ يعني أن هذا كله أعجب عن البعث فالقادر عليه قادر على البعث.

قوله عز وجل: ﴿**انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون**﴾ يعني يقال للمكذبين بيوم القيامة في الدنيا انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون وهو العذاب ثم فسره بقوله ﴿**انطلقوا إلى ظل ذي ثلاث شعب**﴾ يعني دخان جهنم إذا سطع وارتفع تشعب، وتفرق ثلاث فرق، وكذلك شأن الدخان العظيم. فيقال لهم كونوا فيه إلى أن يفرغ من الحساب كما يكون أولياء الله تعالى في ظل عرشه، وقيل يخرج عنق من النار فيتشعب ثلاث شعب على رؤوسهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ﴿**لا ظليل**﴾ أي إن ذلك الظل لا يظل من حر ﴿**ولا يغني من اللهب**﴾ أي لا يرد عنهم لهب جهنم والمعنى أنهم إذا استظلوا بذلك الظل لا يدفع عنهم حر اللهب ﴿**إنها**﴾ يعني جهنم ﴿**ترمي بشرر**﴾ جمع شرارة وهي ما تطاير من النار

﴿ **ويلٌ يومئذ للمكذبين * ألم نجعلِ الأرض كِفَاتاً** ﴾، وعاءً، ومعنى الكفت: الضمّ والجمع، يقال: كفت الشيء إذا ضمّه وجمعه. وقال الفرّاء يريد تكفتهم أحياء على ظهرها في دُورهم ومنازلهم وتكفتهم أمواتاً في بطنها أي تحوزهم.

وهو قوله: ﴿ **أحياءً وأمواتاً * وجعلنا فيها رواسي** ﴾، جبالاً ﴿ **شامخات** ﴾، عاليات، ﴿ **وأسقيناكم ماءً فراتاً** ﴾، عذباً.

﴿ **ويلٌ يومئذ للمكذبين** ﴾، قال مقاتل: وهذا كله أعجب من البعث الذي تكذبون به، ثم أخبر أنه يقال لهم يوم القيامة.

﴿ **انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون** ﴾، في الدنيا.

﴿ **انطلقوا إلى ظل ذي ثلاث شعب** ﴾، يعني دخان جهنم إذا ارتفع انشعب وافترق ثلاث فِرَق. وقيل: يخرج عنق من النار فيتشعب ثلاث نور ودخان ولهب، فأما النور فيقف على رؤوس المؤمنين، والدخان يقف على رؤوس المنافقين، واللهب الصافي يقف على رؤوس الكافرين.

ثم وصف ذلك الظل فقال: ﴿ **لا ظليل** ﴾ يظلّ من الحرّ، ﴿ **ولا يُغني من اللهب** ﴾، قال الكلبي: لا يردّ لهب جهنم عنكم، والمعنى أنهم إذا استظلّوا بذلك الظل لم يدفع عنهم حرّ اللهب.

﴿ **إنها** ﴾، يعني جهنم، ﴿ **ترمي بشرر** ﴾، وهو ما تطاير من النار، واحدها شررة. ﴿ **كالقصر** ﴾، وهو البناء العظيم، قال ابن مسعود: يعني الحصون. وقال عبد الرحمن بن عباس عن قوله: ﴿ **إنها ترمي بشرر كالقصر** ﴾ قال: هي الخشب العِظام المقطّعة، وكنّا نعمد إلى الخشب فنقطعها ثلاثة أذرع وفوق ذلك ودونه ندّخرها للشتاء، فكنّا نسمّيها القصر. وقال سعيد بن جبير والضحاك: هي أصول النخل والشجر العِظام، واحدتها قصرة، مثل تمرة

﴿كالقصر﴾ يعني كالبناء العظيم ونحوه قيل هي أصول الشجر، والنخل العظام واحدتها قصرة وسئل ابن عباس عن قوله، ﴿ترمي بشرر كالقصر﴾ فقال هي الخشب العظام المقطعة وكنا نعمد إلى الخشبة فنقطعها ثلاثة أذرع، وفوق ذلك ودونه وندخرها للشتاء، وكنا نسميها القصر.

كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾ هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾ وَيْلٌ
يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾ هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَٰكُمْ وَالْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾ إِنَّ
الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيٓـًٔا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي
الْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾ كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ
ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾

﴿كأنه﴾ يعني الشرر ﴿جمالات﴾ جمع الجمال، وقال ابن عباس: هي حبال السفن يجمع بعضها إلى بعض حتى تكون كأوساط الجمال ﴿صفر﴾ جمع أصفر يعني أن لون ذلك الشرر أصفر وأنشد بعضهم:

دعتهم بأعلى صوتها ورمتهم ... بمثل الجمال الصفر نزاعة الشوى

وقيل الصفر هنا معناه الأسود لأنه جاء في الحديث أن شرر نار جهنم أسود كالقيز، والعرب تسمى سود الإبل صفراً لأنه يشوب سوادها شيء من الصفرة، وقيل هي قطع النحاس، والمعنى أن هذا الشرر يرتفع كأنه شيء مجموع غليظ أصفر. ﴿ويل يومئذ للمكذبين﴾ قوله عز وجل: ﴿هذا يوم لا ينطقون﴾ يعني بحجة تنفعهم قيل هذا في بعض مواطن القيامة ومواقفها، وذلك لأن في بعضها يتكلمون وفي بعضها يختصمون، وفي بعضها يختم على أفواههم فلا ينطقون ﴿ولا يؤذن لهم فيعتذرون﴾ عطف على يؤذن واختير ذلك لأن رؤوس الآي بالنون فلو قال فيتعذروا لم يوافق الآيات، والعرب تستحب وفاق الفواصل كما تستحب وفاق القوافي، والقرآن نزل على ما تستحب العرب من موافقة المقاطع، والمعنى لا يكون إذن واعتذار قال الجنيدي: أي عذر لمن أعرض عن منعمه وكفر بأياديه ونعمه.

فإن قلت قد توهم أن لهم عذراً، ولكن قد منعوا من ذكره.

قلت ليس لهم عذر في الحقيقة لأنه قد تقدم الإعذار والإنذار في الدّنيا فلم يبق لهم عذر في الآخرة، ولكن ربما تخيلوا خيالاً فاسداً أن لهم عذراً فلم يؤذن لهم في ذلك العذر الفاسد ﴿ويل يومئذ للمكذبين﴾ يعني أنه لما تبين إنه لا

وتمر، وجمرة وجمر، وقرأ علي وابن عباس ﴿ كالقصر ﴾ بفتح الصاد، أي أعناق النخل، والقصرة العنق، وجمعها قصر وقصرات.

﴿ كأنّه ﴾ ردّ الكناية إلى اللفظ، ﴿ جِمَالةٌ ﴾. قرأ حمزة والكسائي وحفص ﴿ جمالة ﴾ على جمع الجمل مثل حجر وحجارة، وقرأ يعقوب بضم الجيم بلا ألف أراد الأشياء العِظام المجموعة، وقرأ الآخرون ﴿ جمالات ﴾ بالألف وكسر الجيم على جمع الجمال، وقال ابن عباس رضي الله عنهما وسعيد بن جبير: هي حبال السفن يجمع بعضها إلى بعض، حتى يكون كأوساط الرجال، ﴿ صُفْرٌ ﴾، جمع الأصفر، يعني لون قنانٍ، وقيل: الصفر معناه السود لأنه جاء في الحديث أن شرر نار جهنم أسود كالقير، والعرب تسمّي سود الإبل صفر لأنه يشوب سوادها شيء من صفرة كما يقال لبيض الظباء: أدم لأنها بياضها يعلوه كدرة.

﴿ ويل يومئذ للمكذبين * هذا يوم لا ينطقون ﴾، أي في القيامة لأن فيها مواقف، ففي بعضها يختصمون ويتكلمون وفي بعضها يختم على أفواههم فلا ينطقون.

عذر لهم، ولا حجة فيما أتوا به من الأعمال السيئة، ولا قدرة لهم على دفع العذاب عنهم لا جرم قال في حقهم ﴿**ويل يومئذ للمكذبين هذا يوم الفصل**﴾ يعني بين أهل الجنة وأهل النار، وقيل هو الفصل بين العباد في الحقوق والمحاكمات ﴿**جمعناكم والأولين**﴾ يعني مكذبي هذه الأمة والذين كذبوا أنبياءهم من الأمم الماضية. ﴿**فإن كان لكم كيد فكيدون**﴾ أي إن كانت لكم حيلة تحتالون بها لأنفسكم فاحتالوا وهم يعلمون أن الحيل يومئذ منقطعة لا تنفع وهذا في نهاية التوبيخ والتقريع فلهذا عقبة بقوله ﴿**ويل يومئذ للمكذبين**﴾ قوله عزوجل ﴿**إن المتقين**﴾ أي الذين اتقوا الشرك ﴿**في ظلال**﴾ جمع ظل وهو ظل الأشجار ﴿**وعيون**﴾ أي في ظلهم عيون ماء ﴿**وفواكه مما يشتهون**﴾ أي يتلذذون بها ﴿**كلوا واشربوا**﴾ أي ويقال لهم كلوا واشربوا، وهذا القول يحتمل أن يكون من جهة الله تعالى بلا واسطة، وما أعظمها من نعمة أو يكون من جهة الملائكة على سبيل الإكرام ﴿**هنيئاً**﴾ أي خالص اللّذة لا يشوبه تنغيص ﴿**بما كنتم تعملون**﴾ أي في الدنيا من الطاعات ﴿**إنا كذلك نجزي المحسنين**﴾ قيل المقصود منه تذكير الكفار ما فاتهم من النعم العظيمة، ليعلموا أنهم لو كانوا من المتقين المحسنين لفازوا بمثل ذلك الخير العظيم. فلما لم يفعلوا ذلك وقعوا في قوله. ﴿**ويل يومئذ للمكذبين**﴾ قوله عز وجل: ﴿**كلوا وتمتعوا قليلاً**﴾ يقول الكفار مكة كلوا وتمتعوا قليلاً في الدنيا إلى منتهى آجالكم، وهذا وإن كان ظاهر اللفظ أمراً إلا أنه في المعنى نهي بليغ وزجر عظيم ﴿**إنكم مجرمون**﴾ أي مشركون بالله مستحقون للعقاب لا جرم أتبعه بقوله ﴿**ويل يومئذ للمكذبين وإذا قيل لهم اركعوا لا يركعون**﴾ أي وإذا قيل لهم صلوا مع محمد وأصحابه لا يصلون فعبر عن الصلاة بلفظ الركوع لأنه ركن من أركانها وقال ابن عباس: إنما يقال لهم هذا يوم القيامة حين يدعون إلى السجود فلا يستطيعون.

وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ فَبِأَيِّ حَدِيثِۭ بَعۡدَهُۥ يُؤۡمِنُونَ ﴿٥٠﴾

﴿**ويل يومئذ للمكذبين فبأي حديث بعده يؤمنون**﴾ أي بعد نزول القرآن إذا لم يؤمنوا به فبأي شيء يؤمنون والله أعلم.

﴿ **ولا يؤذن لهم فيعتذرون** ﴾، قال الجنيد: أي لا عذر لمَن أعرض عن منعمه وكفر بأياديه ونِعَمِه.

﴿ **ويلٌ يومئذ للمكذبين * هذا يوم الفصل** ﴾، بين أهل الجنة والنار، ﴿ **جمعناكم والأوّلين** ﴾، يعني مكذّبي هذه الأمة والأوّلين الذين كذبوا أنبياءهم.

﴿ **فإن كان لكم كيدٌ فكيدون** ﴾، قال مقاتل: إن كانت لكم حيلة فاحتالوا لأنفسكم.

﴿ **ويلٌ يومئذ للمكذّبين * إن المتّقين في ظلال** ﴾، جمع ظل أي في ظلال الشجر، ﴿ **وعيون** ﴾، الماء.

﴿ **وفواكه مما يشتهون** ﴾.

ويقال لهم: ﴿ **كلوا واشربوا هنيئاً بما كنتم تعملون** ﴾، في الدنيا بطاعتي.

﴿ **إنّا كذلك نجزي المحسنين * ويلٌ يومئذ للمكذبين** ﴾.

ثم قال لكفّار مكة: ﴿ **كُلوا وتمتعوا قليلاً** ﴾، في الدنيا، ﴿ **إنكم مجرمون** ﴾، مشركون بالله عزّ وجلّ مستحقّون للعذاب.

﴿ **ويلٌ يومئذ للمكذبين * وإذا قيل لهم اركعوا** ﴾، يعني صلّوا، ﴿ **لا يركعون** ﴾، لا يصلّون، وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: إنما يقال لهم هذا يوم القيامة حين يدعون إلى السجود فلا يستطيعون.

﴿ **ويلٌ يومئذ للمكذبين * فبأيّ حديث بعده** ﴾، أي بعد القرآن، ﴿ **يؤمنون** ﴾، إذا لم يؤمنوا به.

سورة النبأ

وتسمى سورة عم يتساءلون والتساؤل مكية وهي أربعون آية ومائة وثلاث وسبعون كلمة وتسعمائة وسبعون حرفاً

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ﴿٢﴾ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴿٣﴾ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ﴿٦﴾ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ﴿٨﴾

قوله عز وجل: ﴿عم﴾ أصله عن ما ﴿يتساءلون﴾ عن أي شيء يتساءلون يعني المشركين ولفظه استفهام، ومعناه التفخيم كقولك، أي شيء زيد إذا عظمت شأنه، وذلك أن النبي ﷺ لما دعاهم إلى التوحيد، وأخبرهم بالبعث بعد الموت، وتلا عليهم القرآن جعلوا يتساءلون فيما بينهم فيقول بعضهم لبعض ماذا جاء به محمد ﷺ ثم ذكر عما ذا تساؤلهم فقال تعالى: ﴿عن النبأ العظيم﴾ يعني الخبر العظيم الشأن قال الأكثرون هو القرآن، وقيل هو البعث وقيل نبوة محمد ﷺ وما جاء به ﴿الذي هم فيه مختلفون﴾ فمن فسر النبأ العظيم بالقرآن قال اختلافهم فيه هو قولهم إنه سحر أو شعر أو كهانة أو نحو ذلك مما قالوه في القرآن، ومن فسر النبأ العظيم بالبعث قال اختلافهم فيه فمن مصدق به، وهم المؤمنون ومن مكذب به، وهم الكافرون ومن فسره بنبوة محمد ﷺ قال اختلافهم فيه كاختلافهم في القرآن ﴿كلا﴾ هي ردع وزجر وقيل هي نفي لاختلافهم، والمعنى ليس الأمر كما قالوا ﴿سيعلمون﴾ أي عاقبة تكذيبهم حين ينكشف الأمر يعني في القيامة ﴿ثم كلا سيعلمون﴾ وعيد على أثر وعيد، وقيل معناه كلا سيعلمون يعني الكافرين عاقبة

سُوْرَة النَّبَأ

مكيّة وهي أربعون آية.

﴿ عمَّ ﴾، أصله (عن ما) فأُدغمت النون في الميم وحذفت ألف ما كقوله: (فيم)، و(بم)، ﴿ يتساءلون ﴾، أي عن أي شيء يتساءل هؤلاء المشركون، وذلك أن النبي ﷺ لمّا دعاهم إلى التوحيد وأخبرهم بالبعث بعد الموت، وتلا عليهم القرآن جعلوا يتساءلون بينهم فيقولون: ماذا جاء به محمد ﷺ، قال الزجّاج: اللفظ لفظ استفهام ومعناه التفخيم، كما تقول: أيّ شيء زيد؟ إذا أعظمت أمره وشأنه.

ثم ذكر أن تساؤلهم عمّاذا فقال: ﴿ عن النبأ العظيم ﴾، قال مجاهد والأكثرون: هو القرآن، دليله قوله: ﴿ قل هو نبأ عظيم ﴾ [صٓ: ٦٧]، وقال قتادة: هو البعث.

﴿ الذي هم فيه مختلفون ﴾، فمصدّق ومكذّب، ﴿ كلا سيعلمون ﴾، كلا نفي يقول هم سيعلمون عاقبة تكذيبهم حين تنكشف الأمور.

تكذيبهم وكفرهم ثم كلا سيعلمون يعني المؤمنين عاقبة تصديقهم وإيمانهم ثم ذكر أشياء من عجائب صنائعه ليستدلوا بذلك على توحيده، ويعلموا أنه قادر على إيجاد العالم وفنائه بعد إيجاده وإيجاده مرة أخرى للبعث والحساب، والثواب، والعقاب فقال تعالى: ﴿**ألم نجعل الأرض مهاداً**﴾ أي فراشاً وبساطاً لتستقر عليها الأقدام ﴿**والجبال أوتاداً**﴾ يعني للأرض حتى لا تميد ﴿**وخلقناكم أزواجاً**﴾ يعني أصنافاً ذكوراً وإناثاً.

وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَاتِ مَآءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَٰتًا ﴿١٧﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾

﴿**وجعلنا نومكم سباتاً**﴾ أي راحة لأبدانكم وليس الغرض أن السبات للراحة بل المقصود منه أن النوم يقطع التعب ويزيله، ومع ذلك تحصل الراحة، وأصل السبت القطع، ومعناه أن النوم يقطع عن الحركة والتصرف في الأعمال ﴿**وجعلنا الليل لباساً**﴾ أي غطاء وغشاء يستر كل شيء بظلمته عن العيون، ولهذا سمي الليل لباساً على وجه المجاز، ووجه النعمة في ذلك هو أن الإنسان يستتر بظلمة الليل عن العيون إذا أراد هرباً من عدو ونحو ذلك. ﴿**وجعلنا النهار معاشاً**﴾ أي سبباً للمعاش والتصرف في المصالح وقال ابن عباس تبتغون فيه من فضل الله وما قسم لكم من رزقه ﴿**وبنينا فوقكم سبعاً شداداً**﴾ يعني سبع سموات محكمة ليس يتطرق عليها شقوق ولا فطور على ممر الزمان إلى أن يأتي أمر الله تعالى: ﴿**وجعلنا سراجاً وهاجاً**﴾ يعني الشمس مضيئة منيرة، وقيل الوهاج الوقاد، وقيل جعل في

﴿ **ثم كلا سيعلمون** ﴾، وعيد لهم على أثر وعيد. قال الضحاك: كلا سيعلمون يعني الكافرين ثم كلا سيعلمون يعني المؤمنين ثم ذكر صنائعه ليعلموا توحيده.

فقال: ﴿ **ألم نجعل الأرض مهاداً** ﴾، فراشاً.

﴿ **والجبال أوتاداً** ﴾، للأرض حتى لا تميد.

﴿ **وخلقناكم أزواجاً** ﴾، أصنافاً ذكوراً وإناثاً.

﴿ **وجعلنا نومكم سُباتاً** ﴾، أي راحة لأبدانكم. قال الزجّاج: السبات أن ينقطع عن الحركة والروح فيه. وقيل: معناه جعلنا نومكم قطعاً لأعمالكم لأن أصل السبت القطع.

﴿ **وجعلنا الليل لباساً** ﴾، غطاءً وعشاءً يستر كل شيء بظلمته.

﴿ **وجعلنا النهار معاشاً** ﴾، المعاش العيش وكلّ ما يُعاش فيه فهو معاش، أي جعلنا منها سبباً للمعاش والتصرّف في المصالح. قال ابن عباس: يريد تبتغون فيه من فضل الله، وما قسم لكم من رزقه.

﴿ **وبنينا فوقكم سبعاً شِداداً** ﴾، يريد سبع سمٰوات.

﴿ **وجعلنا سِراجاً** ﴾، يعني الشمس، ﴿ **وهّاجاً** ﴾، مضيئاً منيراً. قال الزجّاج: الوهّاج الوقّاد. وقال مقاتل: جعل فيه نوراً وحرارة، والوهج يجمع النور والحرارة.

﴿ **وأنزلنا من المعصرات** ﴾، قال مجاهد وقتادة ومقاتل والكلبي: يعني الرياح التي تعصر السحاب، وهي رواية العوفي عن ابن عباس، قال الأزهري: هي الرياح ذوات الأعاصير، وعلى التأويل تكون من بمعنى الباء أي

الشمس حرارة ونوراً والوهج يجمع النور والحرارة ﴿**وأنزلنا من المعصرات**﴾ يعني الرياح التي تعصر السحاب. وهي رواية عن ابن عباس: وقيل هي الرياح ذوات الأعاصير، وعلى هذا المعنى تكون من بمعنى الباء، أي وأنزلنا بالمعصرات، وذلك لأن الريح تستدر المطر من السّحاب، وقيل هي السحاب وفي الرواية الأخرى عن ابن عباس المعصرات السّحابة التي حان لها أن تمطر، ولما تمطر وقيل المعصرات المغيثات والعاصر هو الغيث، وقيل المعصرات السّموات، وذلك لأن المطر ينزل من السّماء إلى السحاب ﴿**ماء ثجاجاً**﴾ أي صباباً مدراراً متتابعاً يتلو بعضه بعضاً، ومنه الحديث «أفضل الحج العج والثج»، أي رفع الصوت بالتلبية وصب دماء الهّدى ﴿**لنخرج به**﴾ أي بذلك الماء ﴿**حباً**﴾ أي ما يأكله الإنسان كالحنطة ونحوها ﴿**ونباتاً**﴾ أي ما ينبت في الأرض من الحشيش مما يأكل منه الأنعام ﴿**وجنات ألفافاً**﴾ أي ملتفة بالشجر ليس بينها خلال فدل على البعث بذكر ابتداء الخلق ثم أخبر عنه بقوله تعالى: ﴿**إن يوم الفصل**﴾ أي الحساب ﴿**كان ميقاتاً**﴾ أي لما وعده الله من الثواب والعقاب وقيل ميقاتاً يجمع فيه الخلائق ليقضي بينهم ﴿**يوم ينفخ في الصور**﴾ يعني النفخة الأخيرة ﴿**فتأتون أفواجاً**﴾ يعني زمراً زمراً من كل مكان للحساب.

وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾

﴿**وفتحت السماء فكانت أبواباً**﴾ يعني فكانت ذوات أبواب لنزول الملائكة، وقيل تنحل وتتناثر حتى يصير فيها أبواب وطرق ﴿**وسيرت الجبال**﴾ أي عن وجه الأرض ﴿**فكانت سراباً**﴾ أي هباء منبثاً كالسراب في عين الناظر ﴿**إن جهنم كانت مرصاداً**﴾ أي طريقاً وممراً فلا سبيل لأحد إلى الجنة حتى يقطع النار وروي عن ابن عباس «إن على جسر جهنم سبع محابس يسئل العبد عند أولها عن شهادة أن لا إله إلا الله فإن جاء بها تامة جاز إلى الثاني فيسأل عن

بالمعصرات، وذلك أن الريح تستدّر المطر، وقال أبو العالية والربيع والضحاك: المعصرات هي السحاب وهي رواية الوالبي عن ابن عباس، وقال الفرّاء: المعصر السحابة التي تتحلب بالمطر ولا تمطر، كالمرأة المعصر هي التي دنا حيضها ولم تحض. وقال ابن كيسان: هي المُغيثات من قوله: ﴿ **فيه يُغاث الناس وفيه يعصرون** ﴾ [يوسف: ٤٩]. وقال الحسن وسعيد بن جبير وزيد بن أسلم ومقاتل بن حيّان: من المعصرات أي من السمٰوات. ﴿ **ماءً ثجاجاً** ﴾، أي صباباً، وقال مجاهد: مدراراً. وقال قتادة: متتابعاً يتلو بعضه بعضاً. وقال ابن زيد: كثيراً.

﴿ **لنخرج به** ﴾، أي بذلك الماء، ﴿ **حبّاً** ﴾، وهو ما يأكله الناس، ﴿ **ونباتاً** ﴾، ما تنبته الأرض مما تأكله الأنعام.

﴿ **وجنات ألفافاً** ﴾، ملتفّة بالشجر واحدها لف وليف، وقيل: هو جمع الجمع، يقال جنة لفا وجمعها لف، بضم اللام وجمع الجمع ألفاف.

﴿ **إن يوم الفصل** ﴾، يوم القضاء بين الخلق، ﴿ **كان ميقاتاً** ﴾، لما وعد الله من الثواب والعقاب.

﴿ **يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجاً** ﴾، زمراً زمراً من كل مكان للحساب.

﴿ **وفتحت السماء** ﴾، قرأ أهل الكوفة فتحت بالتخفيف، وقرأ الآخرون بالتشديد، أي شقّت لنزول الملائكة، ﴿ **فكانت أبواباً** ﴾، أي ذات أبواب. وقيل: تنحلّ وتتناثر حتى تصير فيها أبواب وطرق.

﴿ **وسُيّرَتِ الجبالُ** ﴾، عن وجه الأرض، ﴿ **فكانت سراباً** ﴾، أي هباءً منبثّاً لعين الناظر كالسراب.

الصّلوات فإن جاء بها تامة جاز إلى الثالث فيسأل عن الزّكاة فإن جاء بها تامة جاز إلى الرابع فيسأل عن الصوم، فإن جاء به تاماً جاز إلى الخامس، فيسأل عن الحج فإن جاء به تاماً جـاز إلى السادس، فيسأل عن العمرة فإن جاء بها تامة جاز إلى السابع، فيسأل عن المظالم فإن خرج منها، وإلا يقال انظروا فإن كان له تطوع أكملت به أعماله فإذا فرغ انطلق به إلى الجنة»، وقيل كانت مرصادا أي معدة لهم، وقيل هو من رصدت الشيء أرصده إذا ترقبته، والمرصاد المكان الذي يرصد فيه الراصد العدو، والمعنى إن جهنم ترصد الكفار أي تنتظرهم ﴿**للطاغين**﴾ أي الكافرين ﴿**مآباً**﴾ أي مرجعاً يرجعون إليها ﴿**لابثين فيها**﴾ أي في جهنم ﴿**أحقاباً**﴾ جمع حقب وهو ثمانون سنة كل سنة اثنا عشر شهراً كل شهر ثلاثون يوم كل يوم ألف سنة يروى ذلك عن علي بن أبي طالب، وقيل الحقب الواحد سبعة عشر ألف سنة.

فإن قلت الأحقاب وإن طالت فهي متناهية وعذاب الكفار في جهنم غير متناه فما معنى قوله أحقاباً.

قلت ذكروا فيه وجوهاً:

أحدها: ما روي عن الحسن قال: إن الله تعالى لم يجعل على النار مدة بل قال لابثين فيها أحقاباً، فوالله ما هو إلا أنه إذا مضى حقب دخل حقب آخر، ثم آخر إلى الأبد فليس للأحقاب عدة إلا الخلود وروي عن عبد الله بن مسعود قال: «لو علم أهل النار أنهم يلبثون في النار عدد حصى الدنيا لفرحوا، ولو علم أهل الجنة أنهم يلبثون في الجنة عدد حصى الدنيا لحزنوا».

الوجه الثاني: أن لفظ الأحقاب لا يدل على نهاية، والحقب الواحد متناه، والمعنى أنهم يلبثون فيها أحقاباً لا

﴿ **إن جهنم كانت مرصاداً** ﴾، طريقاً وممرّاً فلا سبيل لأحد إلى الجنة حتى يقطع النار. وقيل: **كانت** مرصاداً أي مُعدّة لهم، يقال: أرصدت الشيء إذا أعددته له. وقيل: هو من رصدت الشيء أرصده إذا ترقبته والمرصاد المكان الذي يرصد الراصد فيه العدو. وقوله: ﴿ **إن جهنم كانت مرصاداً** ﴾، أي ترصد الكفّار. وروى مقسم عن ابن عباس: أن على جسر جهنم سبع محابس يُسئل العبد عند أولها عن شهادة أن لا إلّه إلّا الله فإن جاء بها تامّة جاز إلى الثاني، فيُسئل عن الصلاة فإن جاء بها تامّة جاز إلى الثالث، فيُسئل عن الزكاة فإن جاء بها تامّة جاز إلى الرابع، فيُسئل عن الصوم فإن جاء به تامّاً جاز إلى الخامس، فيُسئل عن الحج فإن جاء به تامّاً جاز إلى السادس، فيُسئل عن العمرة فإن جاء بها تامّة جاز إلى السابع، فيُسئل عن المظالم فإن خرج منها وإلا يقال: انظروا فإن كان له تطوّع أكمل به أعماله، فإذا فرغ انطلق به إلى الجنة.

﴿ **للطاغين** ﴾، للكافرين، ﴿ **مآباً** ﴾، مرجعاً يرجعون إليه.

﴿ **لابثين** ﴾، قرأ حمزة ويعقوب (لبثين) بغير ألف، وقرأ العامّة ﴿ **لابثين** ﴾ بالألف وهما لغتان. ﴿ **فيها أحقاباً** ﴾، جمع حقب، والحقب الواحد: ثمانون سنة، كل سنة اثنا عشر شهراً، كل شهر ثلاثون يوماً، كل يوم ألف سنة. رُوِيَ ذلك عن عليّ بن أبي طالب، وقال مجاهد: الأحقاب ثلاثة وأربعون حقباً، كل حقب سبعون خريفاً، كل خريف سبعمائة سنة، كل سنة ثلاثمائة وستّون يوماً، كل يوم ألف سنة. قال الحسن: إن الله لم يجعل لأهل النار مدة، بل قال: ﴿ **لابثين فيها أحقاباً** ﴾ فوالله ما هو إلّا إذا مضى حقب دخل آخر ثم آخر إلى الأبد، فليس للأحقاب عدّة إلّا الخلود. وروى السدي عن مُرّة عن عبد الله قال: لو علم أهل النار أنهم يلبثون في النار عدد حصى الدنيا لفرحوا، ولو علم أهل الجنة أنهم يلبثون في الجنة عدد حصى الدنيا لحزنوا. وقال مقاتل بن حيان: الحقب الواحد سبع عشرة ألف سنة. قال: وهذه الآية منسوخة نسختها ﴿ فلن نزيدكم إلّا عذاباً ﴾ [النبأ: ٣٠] يعني أن العدد قد ارتفع والخلود قد حصل.

يذوقون فيها أي في تلك الأحقاب برداً ولا شراباً إلا حميماً وغساقاً، فهذا توقيت لأنواع العذاب الذي يبدلونه ولا توقيت للبثهم فيها.

الوجه الثالث: أن الآية منسوخة بقوله فلن نزيدكم إلا عذاباً يعني أن العدد قد ارتفع والخلود قد حصل. ﴿**لا يذوقون فيها برداً**﴾ قال ابن عباس: البرد النوم وقيل برداً أي روحاً وراحة، وقيل لا يذوقون برداً ينفعهم. ﴿**ولا شراباً**﴾ أي يغنيهم عن عطش ﴿**إلا حميماً وغساقاً**﴾ أي لكن يشربون حميماً قيل هو الصفر المذاب، وقيل هو الماء الحار الذي انتهى حره وغساقاً قال ابن عباس الغساق الزمهرير يحرقهم ببرده، وقيل هو صديد أهل النار.

جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾ رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾

﴿**جزاء وفاقاً**﴾ أي جازيناهم جزاء وافق أعمالهم، وقيل وافق العذاب الذنب فلا ذنب أعظم من الشرك، ولا عذاب أعظم من النار. ﴿**إنهم كانوا لا يرجون حساباً**﴾ أي لا يخافون أن يحاسبوا، والمعنى أنهم كانوا لا يؤمنون بالبعث ولا بأنهم يحاسبون ﴿**وكذبوا بآياتنا**﴾ أي التي جاءت بها الأنبياء، وقيل كذبوا بدلائل التوحيد والنّبوة والبعث والحساب ﴿**كذابا**﴾، أي تكذيباً قال الفراء هي لغة يمانية فصيحة يقولون في مصدر التفعيل فعال، قال وقد سألني أعرابي منهم يستفتيني الحلق أحب إليك أم القصار يريد التقصير ﴿**وكل شيء**﴾ أي من الأعمال ﴿**أحصيناه**﴾ أي بيناه وأثبتناه ﴿**كتاباً**﴾ أي في كتاب وهو اللوح المحفوظ، وقيل معناه وكل شيء علمناه علماً لا يزول ولا يتغيرولا يتبدل

﴿ **لا يذوقون فيها برداً ولا شراباً** ﴾، رُوِي عن ابن عباس: أن البرد النوم، ومنه ما قال الكسائي وأبو عبيدة، تقول العرب: منع البرد البرد أي أذهب البرد النوم. وقال الحسن وعطاء: لا يذوقون فيها برداً أي روحاً وراحة. قال مقاتل: لا يذوقون فيها برداً ينفعهم من حرّ ولا شراباً ينفعهم من عطش.

﴿ **إلاّ حميماً وغساقاً** ﴾، قال: الغساق الزمهرير يحرقهم ببرده. وقيل: صديد أهل النار، وقد ذكرناه في سورة صّ [٥٧].

﴿ **جزاءً وفاقاً** ﴾، أي جازيناهم جزاء وافق أعمالهم. وقال مقاتل: وافق العذاب الذنب فلا ذنب أعظم من الشرك ولا عذاب أعظم من النار.

﴿ **إنهم كانوا لا يرجون حساباً** ﴾، لا يخافون أن يحاسبوا، والمعنى: أنهم كانوا لا يؤمنون بالبعث ولا بأنهم يحاسبون.

﴿ **وكذبوا بآياتنا** ﴾، أي بما جاء به الأنبياء، ﴿ **كِذّاباً** ﴾، يعني تكذيباً، قال الفرّاء: هي لغة يمانية فصيحة، يقولون في مصدر التفعيل فعال قال: قال لي أعرابي منهم، على المروة يستفتيني: الحلق أحبّ إليك أم القصار.

﴿ **وكلّ شيء أحصيناه كتاباً** ﴾، أي وكل شيء من الأعمال بيّناه في اللوح المحفوظ، كقوله: ﴿ وكل شيء أحصيناه في إمام مبين ﴾ [يٓس: ١٢].

﴿ **فذوقوا** ﴾، أي يقال لهم فذوقوا، ﴿ **فلن نزيدكم إلاّ عـذاباً** ﴾.

والمعنى أنا عالم بجميع ما فعلوه من خير وشر، وأنا أجازيهم على قدر أعمالهم جزاء وفاقاً ﴿فذوقوا﴾ أي يقال لهم ذوقوا ﴿فلن نزيدكم إلا عذاباً﴾ قيل هذه الآية أشد آية في القرآن على أهل النار كلما استغاثوا من نوع من العذاب أغيثوا بأشد منه.

قوله عز وجل: ﴿إن للمتقين مفازاً﴾ أي فوزاً أي نجاة من العذاب، وقيل فوزاً بما طلبوه من نعيم الجنة، ويحتمل أن يفسر الفوز بالأمرين جميعاً لأنهم فازوا بمعنى نجوا من العذاب، وفازوا بما حصل لهم من النّعيم. ثم فسره فقال ﴿حدائق﴾ جمع حديقة وهي البستان المحوط فيه كل ما يشتهون ﴿وأعنابا﴾ التنكير يدل على تعظيم ذلك العنب ﴿وكواعب﴾ جمع كاعب يعني جواري نواهد قد تكعبت ثديهن ﴿أترابا﴾ يعني مستويات في السن ﴿وكأساً دهاقاً﴾ قال ابن عباس: مملوءة مترعة، وقيل متتابعة، وقيل صافية ﴿لا يسمعون فيها﴾ أي في الجنة، وقيل في حالة شربهم لأن أهل الدنيا يتكلمون بالباطل في حالة شربهم ﴿لغواً﴾ أي باطلاً من الكلام ﴿ولا كذاباً﴾ أي تكذيباً والمعنى أنه لا يكذب بعضهم بعضاً ولا ينطقون به ﴿جزاء من ربك عطاء حساباً﴾ أي جازاهم جزاء وأعطاهم عطاء حساباً أي كافياً وافياً، وقيل حساباً يعني كثيراً، وقيل جزاء بقدر أعمالهم ﴿رب السموات والأرض وما بينهما الرّحمن لا يمكلون منه خطاباً﴾ أي لا يقدر الخلق أن يكلموا الرب إلا بإذنه، وقيل لا يملكون منه خطاباً أي لا يملكون شفاعة إلا بإذنه في ذلك اليوم.

يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ فَمَن

قوله عزّ وجلّ: ﴿ إن للمتّقين مفازاً ﴾، فوز ونجاة من النار، وقال الضحاك: متنزهاً.

﴿ حدائق وأعناباً ﴾، يريد أشجار الجنّة وثمارها.

﴿ وكواعب ﴾، جواري نواهد قد تكعبت ثديهنّ، واحدتها كاعب، ﴿ أتراباً ﴾، مستويات في السنّ.

﴿ وكأساً دِهَاقاً ﴾، قال ابن عباس والحسن وقتادة وابن زيد: مترعة مملوءة. وقال سعيد بن جبير ومجاهد: متتابعة. قال عكرمة: صافية.

﴿ لا يسمعون فيها لغواً ﴾، باطلاً من الكلام، ﴿ ولا كِذّاباً ﴾، تكذيباً، لا يكذب بعضهم بعضاً. وقرأ الكسائي ﴿ كذاباً ﴾ بالتخفيف مصدر المكاذبة، وقيل: هو الكذب. وقيل: هو بمعنى التكذيب كالمشدد.

﴿ جزاء من ربك عطاءً حساباً ﴾، أي جازاهم جزاءً وأعطاهم عطاءً حساباً أي كافياً وافياً، يقال: أحسبت فلاناً أي أعطيته ما يكفيه حتى قال حسبي. وقال ابن قتيبة: عطاءً حساباً أي كثيراً. وقيل: هو جزاء بقدر أعمالهم.

﴿ ربّ السمٰوات والأرض وما بينهما الرحمن ﴾، قرأ أهل الحجاز وأبو عمرو ﴿ ربّ ﴾ رفع على الاستئناف والرحمن خبره وقرأ الآخرون بالجرّ إتباعاً لقوله من ربّك وقرأ ابن عامر وعاصم ويعقوب ﴿ الرحمن ﴾ جرّاً إتباعاً لقوله: ﴿ ربّ السمٰوات والأرض ﴾، وقرأ الآخرون بالرفع، فحمزة والكسائي يقرآن ﴿ ربّ ﴾ بالخفض لقربه من قوله: ﴿ جزاءً من ربّك ﴾ ويقرآن ﴿ الرحمن ﴾ بالرفع لبعده منه على الاستئناف، وقوله: ﴿ لا يملكون ﴾ في موضع رفع خبره، ومعنى: ﴿ لا يملكون منه خطاباً ﴾، قال مقاتل: لا يقدر الخلق على أن يكلّموا الربّ إلّا بإذنه. وقال الكلبي: لا يملكون شفاعة إلّا بإذنه.

شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾ إِنَّآ أَنذَرْنَـٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَـٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا ﴿٤٠﴾

﴿يوم يقوم الروح والملائكة صفاً﴾ قيل هو جبريل عليه الصلاة والسلام وقال ابن عباس: الروح ملك من الملائكة ما خلق الله مخلوقاً أعظم منه، فإذا كان يوم القيامة قام وحده صفاً، وقامت الملائكة كلهم صفاً واحداً فيكون من عظم خلقه مثلهم، وقال ابن مسعود: الروح ملك عظيم أعظم من السموات والأرض والجبال وهو في السماء الرابعة يسبح الله كل يوم اثني عشر ألف تسبيحة يخلق الله من كل تسبيحة ملكاً يجيء يوم القيامة صفاً وحده، وقيل الروح خلق على صورة بني آدم وليسوا بناس يقومون صفاً والملائكة صفاً هؤلاء جند وهؤلاء جند وقال ابن عباس الروح خلق على صورة بني آدم وما ينزل من السماء ملك إلا ومعه واحد منهم، وعنه أنهم بنو آدم يقومون صفاً والملائكة صفاً، وقيل يقوم سماطان سماط من الروح وسماط من الملائكة ﴿لا يتكلمون﴾ يعني الخلق كلهم إجلالاً لعظمته تعالى جلّ جلاله وتعالى عطاؤه وشأنه من هول ذلك اليوم ﴿إلا من أذن له الرحمن﴾ أي في الكلام ﴿وقال صواباً﴾ أي حقاً في الدنيا وعمل به، وقيل قال لا إله إلا الله قيل الاستثناء يرجع إلى الروح والملائكة، ومعنى الآية لا يشفعون إلا في شخص أذن الرحمن في الشفاعة له، وذلك الشخص ممن كان يقول صواباً في الدنيا، وهو لا إله إلا الله ﴿ذلك اليوم الحق﴾ أي الكائن الواقع لا محالة وهو يوم القيامة. ﴿فمن شاء اتخذ إلى ربه مآباً﴾ أي سبيلاً يرجع إليه وهو طاعة الله وما يتقرب به إليه ﴿إنا أنذرناكم﴾ أي خوفناكم في الدنيا ﴿عذاباً قريباً﴾ أي في الآخرة وكل ما هو آت قريب ﴿يوم ينظر المرء ما قدمت يداه﴾ يعني من خير أو شر مثبتاً في صحيفته ينظر إليه يوم القيامة. ﴿ويقول الكافر يا ليتني كنت تراباً﴾ قال عبد الله بن عمرو «إذا كان يوم القيامة مدت الأرض مد الأديم وحشر الدّواب والبهائم والوحوش، ثم يجعل القصاص بين البهائم حتى يقتص للشّاة الجماء من الشاة القرناء نطحتها. فإذا فرغ من القصاص

﴿ يوم يقوم الروح ﴾، أي في ذلك اليوم، ﴿ والملائكة صفّاً ﴾، واختلفوا في هذا الروح، قال الشعبي والضحاك: هو جبريل. وقال عطاء عن ابن عباس: الروح ملك من الملائكة ما خلق الله مخلوقاً أعظم منه، فإذا كان يوم القيامة قام وحده صفّاً وقامت الملائكة كلّهم صفّاً واحداً، فيكون عظم خلقه مثلهم. وعن ابن مسعود: الروح ملك أعظم من السمٰوات ومن الجبال، ومن الملائكة وهو في السماء الرابعة، يسبّح كل يوم اثني عشر ألف تسبيحة، يخلق الله من كل تسبيحة ملكاً يجيء يوم القيامة صفّاً وحده. وقال مجاهد وقتادة وأبو صالح: الروح خلق على صورة بني آدم وليسوا بناس يقومون صفّاً والملائكة صفّاً، هؤلاء جند وهؤلاء جند. وروى مجاهد عن ابن عباس قال: هم خلق على صورة بني آدم وما ينزل من السماء ملك إلا معه واحد منهم. وقال الحسن: هم بنو آدم. ورواه قتادة عن ابن عباس، وقال: هذا مما كان يكتمه ابن عباس، والملائكة صفّاً، قال الشعبي: هما سماطا ربِّ العالمين، يوم يقوم سماط من الروح وسماط من الملائكة. ﴿ لا يتكلمون إلاّ مَن أذِنَ له الرحمن وقال صواباً ﴾، في الدنيا، أي حقّاً. وقيل: قال: لا إلٰه إلاّ الله.

﴿ ذلك اليوم الحق ﴾، الكائن الواقع يعني يوم القيامة، ﴿ فمَن شاء اتخذ إلى ربّه مآباً ﴾، مرجعاً وسبيلاً بطاعته، أي فمَن شاء رجع إلى الله بطاعته.

﴿ إنّا أنذرناكم عذاباً قريباً ﴾، يعني العذاب في الآخرة، وكلّ ما هو آتٍ قريب. ﴿ يوم ينظر المرء ما قدّمت يداه ﴾، أي كل امرىء يرى في ذلك اليوم ما قدّم من العمل مثبتاً في صحيفته، ﴿ ويقول الكافر يا ليتني كنت تراباً ﴾، قال عبد الله بن عمرو: إذا كان يوم القيامة مُدّت الأرض مدّ الأديم، وحشر الدواب والبهائم والوحوش، ثم

قيل لها كوني تراباً فعند ذلك يقول الكافر يا ليتني كنت تراباً» وقيل يقول الله عز وجل للّبهائم بعد القصاص ﴿**إنا خلقناكم وسحرناكم لبني آدم وكنتم مطيعين لهم أيام حياتكم فارجعوا إلى ما كنتم عليه كونوا تراباً**﴾، فإذ رأى الكافر ذلك تمنى، وقال يا ليتني كنت في الدّنيا في صورة بعض هذه البهائم، وكنت اليوم تراباً وإذا قضى الله بين الناس وأمر بأهل الجنة إلى الجنة، وأهل النار إلى النار، وقيل لسائر الأمم سوى الناس والجن عودوا تراباً فيعودون تراباً فحينئذ يقول الكافر يا ليتني كنت تراباً، وقيل معناه إن الكافر إذا رأى ما أنعم الله به على المؤمنين من الخير، والرحمة، قال يا ليتني كنت تراباً يعني متواضعاً في طاعة الله في الدنيا، ولم أكن جباراً متكبراً، وقيل إن الكافر هاهنا هو إبليس، وذلك أنه عاب آدم وكونه خلق من تراب، وافتخر عليه بأنه خلق من نار فإذا كان يوم القيامة، ورأى ما فيه آدم وبنوه المؤمنين من الثواب والرحمة، وما هو فيه من الشّدة والعذاب قال يا ليتني كنت تراباً قال أبو هريرة رضي الله عنه يقول التراب لاولا كرامة لك من جعلك مثلي، والله سبحانه وتعالى أعلم بمراده وأسرار كتابه.

يجعل القصاص بين البهائم حتى يقتصّ للشاة الجماء من الشاة القرناء تنطحها، فإذا فرغ من القصاص قيل لها: كوني تراباً، فعند ذلك يقول الكافر: يا ليتني كنت تراباً. ومثله عن مجاهد، وقال مقاتل: يجمع الله الوحوش والبهائم والهوام والطير فيقضي بينهم حتى يقتصّ للجماء من القرناء، ثم يقول لهم: إنما خلقتكم وسخّرتكم لبني آدم وكنتم مطيعين إياهم أيام حياتكم، فارجعوا إلى الذي كنتم كونوا تراباً فإذا التفت الكافر إلى شيء صار تراباً يتمنى، فيقول: يا ليتني كنت في الدنيا في صورة خنزير، وكنت اليوم تراباً. وعن أبي الزناد عبد الله بن ذكوان قال: إذا قضى الله بين الناس وأمر بأهل الجنة إلى الجنة، وأهل النار إلى النار، وقيل لسائر الأمم ولمؤمني الجنّ عودوا تراباً فحينئذ يقول الكافر: يا ليتني كنت تراباً. وبه قال ليث بن أبي ثليم، مؤمنوا الجنّ يعودون تراباً. وقيل: إن الكافر ههنا إبليس، وذلك أنه عابَ آدم وأنه خلق من التراب وافتخر بأنه خلق من النار، فإذا عاين يوم القيامة ما فيه آدم وبنوه المؤمنون من الثواب والرحمة، وما هو فيه من الشدّة والعذاب، قال: يا ليتني كنت تراباً. قال أبو هريرة فيقول: التراب لا ولا كرامة لك من جعلك مثلي؟

سورة النازعات

مكية وهي ست وقيل خمس وأربعون آية ومائة وسبع وتسعون كلمة وسبعمائة وثلاثة وخمسون حرفاً

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا ﴿١﴾ وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا ﴿٢﴾

قوله عز وجل: ﴿والنازعات غرقاً والناشطات نشطاً والسابحات سبحاً فالسابقات سبقاً﴾ اختلفت عبارات المفسرين في هذه الكلمات هل هي صفات لشيء واحد أم لأشياء مختلفة على أوجه واتفقوا على أن المراد بقوله ﴿فالمدبرات أمراً﴾ وصف لشيء واحد وهم الملائكة:

الوجه الأول: في قوله تعالى: ﴿والنازعات غرقاً﴾ يعني الملائكة تنزع أرواح الكفار من أقاصي أجسامهم. كما يغرق النازع في القوس فيبلغ بها غاية المد، والغرق من الإغراق أي، والنازعات إغراقاً وقال ابن مسعود: «إن ملك الموت، وأعوانه ينزعون روح الكافر كما ينزع السفود الكثير الشعب من الصوف المبتل، فتخرج نفس الكافر كالغريق في الماء» ﴿والناشطات نشطاً﴾ الملائكة تنشط نفس المؤمن أي تسلها سلاً رفيقاً فتقبضها كما ينشط العقال من يد البعير، وإنما خص النزع بنفس الكافر والنشط بنفس المؤمن، لأن بينهما فرقاً فالنزع جذب بشدة والنشط جذب برفق،

سُوْرَة النّازِعَات

مكيّة وهي ستّ وأربعون آية.

﴿ والنازعات غرقاً ﴾، يعني الملائكة تنزع أرواح الكفّار من أجسادهم، كما يغرق النازع في القوس فيبلغ بها غاية المدّ، والغرق اسم أُقيم مقام الإغراق، أي والنازعات إغراقاً والمراد بالإغراق المبالغة في المدّ، وقال ابن مسعود: ينزعها ملك الموت من تحت كل شعرة ومن الأظافر وأصول القدمين، ويردّدها في جسده بعدما ينزعها حتى إذا كادت تخرج ردّها في جسده بعدما ينزعها، فهذا عمله بالكفّار. وقال مقاتل: ملك الموت وأعوانه ينزعون روح الكفّار كما ينزع السفود الكثير الشعب من الصوف المبتلّ، فتخرج نفسه كالغريق في الماء. وقال مجاهد: هو الموت ينزع النفوس. وقال السدي: هي النفس حين تغرق في الصدر. وقال الحسن وقتادة وابن كيسان: هي النجوم تنزع من أُفق إلى أُفق تطلع ثم تغيب. وقال عطاء وعكرمة: هي القسي. وقيل: هم الغزاة الرماة.

﴿ والناشطات نشطاً ﴾، هي الملائكة تنشط نفس المؤمن، أي تحلّ حلّاً رفيقاً فتقبضها، كما ينشط العقال من يد البعير، أي يحلّ برفق، حكي الفرّاء هذا القول، ثم قال: والذي سمعت من العرب أن يقولوا: أنشطت العقال إذا حللته ونشطته إذا عقدته بأنشوطة. وفي الحديث: كأنما أنشط من عقال. وعن ابن عباس: هي نفس

﴿والسابحات سبحاً﴾ يعني الملائكة يقبضون أرواح المؤمنين يسلونها سلاً رفيقاً، ثم يدعونها حتى تستريح، ثم يستخرجونها كالسابح في الماء يتحرك فيه برفق ولطافة، وقيل هم الملائكة ينزلون من السماء مسرعين كالفرس الجواد إذا أسرع في جريه. يقال له سابح ﴿فالسابقات سبقاً﴾ يعني الملائكة سبقت ابن آدم بالخير والعمل الصالح، وقيل هم الملائكة تسبق بأرواح المؤمنين إلى الجنة.

الوجه الثاني: في قوله ﴿والنازعات غرقاً﴾ يعني النفس حين تنزع من الجسد، فتغرق في الصدر ثم تخرج ﴿والناشطات نشطاً﴾، قال ابن عباس: هي نفوس المؤمنين تنشط للخروج عند الموت لما ترى من الكرامة، وذلك لأنه يعرض عليه مقعده في الجنة قبل أن يموت وقال علي بن أبي طالب: هي أرواح الكفار تنشط بين الجلد، والأظفار حتى تخرج من أفواههم بالكرب والغم.

وَٱلسَّـٰبِحَـٰتِ سَبۡحٗا ﴿٣﴾ فَٱلسَّـٰبِقَـٰتِ سَبۡقٗا ﴿٤﴾ فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ أَمۡرٗا ﴿٥﴾ يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾ تَتۡبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ﴿٧﴾

﴿والسابحات سبحاً﴾ يعني أرواح المؤمنين حين تسبح في الملكوت ﴿فالسابقات سبقاً﴾ يعني استباقها إلى الحضرة المقدسة.

الوجه الثالث: في قوله تعالى: ﴿والنّازعات غرقاً﴾ يعني النجوم تنزع من أفق إلى أفق تطلع ثم تغيب ﴿والناشطات نشطاً﴾، يعني النجوم تنشط من أفق إلى أفق، أي تذهب ﴿والسابحات سبحاً﴾، يعني النجوم والشمس والقمر يسبحون في الفلك. ﴿فالسابقات سبقا﴾ يعني النجوم يسبق بعضها بعضاً في السير.

الوجـه الرابع: في قوله تعالى ﴿والنّازعات غرقاً﴾. يعني خيل الغزاة تنزع في أعنتها وتغرق في عرقها وهي الناشطات نشطاً لأنها تخرج بسرعة إلى ميدانها، وهي السابحات في جريها، وهي السابقات سبقاً لاستباقها إلى الغاية.

المؤمن من تنشط للخروج عند الموت، لما يرى من الكرامة لأنه تعرض عليه الجنة قبل أن يموت. وقال علي بن أبي طالب: هي الملائكة تنشط أرواح الكفّار مما بين الجلد والأظفار حتى تخرجها من أفواههم بالكرب والغمّ، والنشط: الجذب والنزع، يقال: نشطت الدلو نشطاً إذا نزعتها، قال الخليل: النشط والأنشاط مدّك الشيء إلى نفسك، حتى ينحلّ. وقال مجاهد: هو الموت ينشّط النفوس. وقال السدي: هي النفس تنشط من القدمين أي بجذب. وقال قتادة: هي النجوم تنشط من أُفق إلى أُفق، أي تذهب، يقال: نشط من بلد إلى بلد إذا خرج في سرعة، ويقال حمارنا شطّ ينشط من بلد إلى بلد، وقال عطاء وعكرمة: هي الإرهاق.

﴿ والسابحات سبحاً ﴾، هم الملائكة يقبضون أرواح المؤمنين يسلّونها سلّاً رفيقاً، ثم يدعونها حتى تستريح كالسابح بالشيء في الماء يرفق به. وقال مجاهد وأبو صالح: هم الملائكة ينزلون من السماء مسرعين كالفرس الجواد يقال له سابح إذا أسرع في جريه. وقيل: هي خيل الغزاة. وقال قتادة: هي النجوم والشمس والقمر، قال الله تعالى: ﴿ وكلٌّ في فلك يسبحون ﴾ [يٓس: ٤٠]، وقال عطاء: هي السفن.

﴿ فالسابقات سبقاً ﴾، قال مجاهد: هي الملائكة سبقت ابن آدم بالخير والعمل الصالح. وقال مقاتل: هي الملائكة تسبق بأرواح المؤمنين إلى الجنة. وعن ابن مسعود قال: هي أنفس المؤمنين تتسارع وتسبق إلى الملائكة الذين يقبضونها شوقاً إلى لقاء الله وكرامته، وقد عاينت السرور. وقال قتادة: هي النجوم يسبق بعضها بعضاً في السير. وقال عطاء: هي الخيل.

﴿ فالمدبرات أمراً ﴾، قال ابن عباس: هم الملائكة وُكّلوا بأمور عرّفهم الله عزّ وجلّ العمل بها. قال

الوجه الخامس: في قوله ﴿**والنازعات غرقاً**﴾ يعني الغزاة حين تنزع قسيها في الرمي فتبلغ غاية المد وهو قوله غرقاً، ﴿**والنّاشطات نشطاً**﴾، أي السّهام في الرمي ﴿**والسّابحات سبحاً، فالسّابقات سبقاً**﴾ يعني الخيل والإبل حين يخرجها أصحابها إلى الغزو.

الوجه السادس: ليس المراد بهذه الكلمات شيئاً واحداً، فقوله والنازعات يعني ملك الموت ينزع النفوس غرقاً حتى بلغ بها الغاية، ﴿**والناشطات نشطاً**﴾ يعني النفس تنشط من القدمين بمعنى تجذب، ﴿**والسابحات سبحاً**﴾ يعني السفن، ﴿**والسابقات سبقاً**﴾ يعني مسابقة نفوس المؤمنين إلى الخيرات والطاعات.

أما قوله: ﴿**فالمدبرات أمراً**﴾، فأجمعوا على أنهم الملائكة قال ابن عباس: هم الملائكة وكلوا بأمور عرفهم الله عز وجل: العمل بها وقال عبد الرّحمن بن سابط يدبر الأمر في الدنيا أربعة أملاك جبريل، وميكائيل، وإسرافيل، وملك الموت، واسمه عزرائيل، فأما جبريل فموكل بالرّياح والجنود، وأما ميكائيل فموكل بالقطر والنّبات، وأما ملك الموت فموكل بقبض الأنفس، وأما إسرافيل فهو ينزل عليهم بالأمر من الله تعالى أقسم الله بهذه الأشياء لشرفها، ولله أن يقسم بما يشاء من خلقه، أو يكون التقدير، ورب هذه الأشياء، وجواب القسم محذوف تقديره لتبعثن، ولتحاسبن، وقيل جوابه «إن في ذلك لعبرة لمن يخشى» وقيل هو قوله:

قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴿٨﴾ أَبْصَـٰرُهَا خَـٰشِعَةٌ ﴿٩﴾ يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى ٱلْحَافِرَةِ ﴿١٠﴾ أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا نَّخِرَةً ﴿١١﴾ قَالُوا۟ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴿١٢﴾ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾

﴿**قلوب يومئذ واجفة**﴾ ﴿**يوم ترجف الراجفة**﴾ يعني النفخة الأولى يتزلزل ويتحرك لها كل شيء، ويموت منها

عبد الرحمن بن سابط: يدبر الأمر في الدنيا أربعة جبريل وميكائيل وملك الموت وإسرافيل عليهم السلام، أما جبريل فموكل بالوحي والبطش وهزم الجيوش، وأما ميكائيل فموكل بالمطر والنبات والأرزاق، وأما ملك الموت فموكل بقبض الأنفس، وأما إسرافيل فهو صاحب الصور، ولا ينزل إلّا للأمر العظيم، وجواب هذه الأقسام محذوف على تقديره: لتبعثنّ ولتحاسبنّ. وقيل: جوابه قوله: إن في ذلك لعبرة لمَن يخشى. وقيل: فيه تقديم وتأخير تقديره: يوم ترجف الراجفة تتبعها الرادفة والنازعات غرقاً.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ **يوم ترجف الراجفة** ﴾، يعني النفخة الأولى يتزلزل ويتحرك لها كل شيء، ويموت منها جميع الخلق.

﴿ **تتبعها الرادفة** ﴾، وهي النفخة الثانية ردفت الأولى وبينهما أربعون سنة. قال قتادة: هما صيحتان فالأولى تُميت كل شيء والأخرى تُحيي كل شيء بإذن الله عزّ وجلّ. وقال مجاهد: ترجف الراجفة تتزلزل الأرض والجبال، **تتبعها** الرادفة حين تنشقّ السماء، وتُحمل الأرض والجبال فدكّتا دكّة واحدة. وقال عطاء: الراجفة القيامة، والرادفة البعث. وأصل الرجفة: الصوت والحركة. أخبرنا أحمد بن إبراهيم الشريحي أنا أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي أخبرني ابن فنجويه ثنا عبد الله بن يوسف بن أحمد بن مالك ثنا محمد بن هارون الحضرمي ثنا الحسن بن عرفة ثنا قبيصة بن عقبة عن سفيان الثّوري عن عبد الله بن محمد بن عقيل عن الطفيل بن أُبيّ بن كعب عن أُبيّ بن كعب قال: كان رسول الله ﷺ إذا ذهب ربع الليل قام، وقال: «يا أيها الناس اذكروا الله، اذكروا الله، جاءت الراجفة تتبعها الرادفة، جاء الموت بما فيه، جاء الموت بما فيه».

﴿ **قلوبٌ يومئذ واجفة** ﴾، خائفة قلقة مضطربة، وسُمّي الوجيف في السير لشدة اضطرابه، يقال: وجف

جميع الخلق ﴿**تتبعها الرادفة**﴾ يعني النفخة الثانية ردفت الأولى وبينهما أربعون سنة، وقال قتادة: هما صيحتان فالأولى تميت كل شيء، والأخرى تحيـي كل شيء بإذن الله عز وجلّ وقيل الرّاجفة التي تزلزل الأرض، والجبال والرادفة التي تشق السماء، وقيل الراجفة القيامة والرّادفة البعث يوم القيامة روى البغوي بسند الثعلبي عن أبي بن كعب قال: «كان رسول الله ﷺ إذا ذهب ربع اللّيل قام وقال: أيّها الناس اذكروا الله جاءت الراجفة تتبعها الرادفة جاء الموت بما فيه.

قوله عز وجل: ﴿**قلوب يومئذ واجفة**﴾ أي خافقة قلقة مضطربة، وقيل وجلّه زائلة عن أماكنها ﴿**أبصارها خاشعة**﴾ أي أبصار أهلها خاشعة ذليلة، والمراد بها لكفار بدليل قوله تعالى: ﴿**يقولون**﴾ يعني المنكرين للبعث إذا قيل لهم إنكم مبعوثون بعد الموت. ﴿**أئنا لمردودون في الحافرة**﴾ يعني أنرد إلى أول الحال، وابتداء الأمر فنصير أحياء بعد الموت كما كنا أول مرة والعرب تقول رجع فلان في حافرته، أي رجع من حيث جاء فالحافرة عنده اسم لابتداء الشيء وأول الشيء ويقال رجع فلان في حافرته أي في طريقه الذي جاء منه يحفره بمشيئته، فحصل بأثر قدميه حفر فهي محفورة في الحقيقة، وقيل الحافرة الأرض التي تحفر فيها قبورهم سميت حافرة لأنها يستقر عليها الحافر، والمعنى أئنا لمردودون إلى الأرض فنبعث خلقاً جديداً نمشي عليها، وقيل الحافرة النار ﴿**أئذا كنا عظاماً نخرة**﴾ أي بالية وقرىء ناخرة وهما بمعنى، وقيل الناخرة المجوفة التي يمر فيها الريح فتنخر أي توصت ﴿**قالوا**﴾ يعني المنكرين للبعث إذا عاينوا أهول القيامة ﴿**تلك إذا كرة خاسرة**﴾ أي رجعة غابنة يعني إن رددنا بعد الموت لنخسرن بما يصيبنا بعد الموت. ﴿**فإنما هي**﴾ يعني النفخة الأخيرة ﴿**زجرة واحدة**﴾ أي صيحة واحدة يجمعون بها جميعاً ﴿**فإذا هم بالساهرة**﴾ يعني وجه الأرض سميت ساهرة لأن عليها نوم الحيوان وسهرهم، وقيل هي التي كثر الوطء عليها كأنها

القلب ووجف وجوفاً ووجيفاً ووجوباً ووجيباً. وقال مجاهد: وجلة. وقال السدي: زائلة عن أماكنها، نظيره ﴿ إِذِ القلوب لدى الحناجر ﴾ [غافر: ١٨].

﴿ **أبصارها خاشعة** ﴾، ذليلة كقوله: ﴿ خاشعين من الذلّ ﴾ [الشورى: ٤٥] الآية.

﴿ **يقولون** ﴾ يعني المنكوبين للبعث إذا قيل لهم إنكم مبعوثون من بعد الموت: ﴿ **أئنا لمردودون في الحافرة** ﴾؟ أي إلى أول الحال وابتداء الأمر فنصير أحياءً بعد الموت كما كنّا؟ تقول العرب: رجع فلان في حافرته أي رجع من حيث جاء، والحافرة عندهم اسم لابتداء الشيء، وأول الشيء. وقال بعضهم: الحافرة وجه الأرض التي تُحفَر فيها قبورهم، سُمّيت الحافرة بمعنى المحفورة، كقوله: ﴿ عيشة راضية ﴾ [الحاقة: ٢١، القارعة: ٧]، أي مرضية. وقيل: سُمّيت حافرة لأنها مستقر الحوافر، أي أئنا لمردُودون إلى الأرض فنبعث خلقاً جديداً نمشي عليها؟ وقال ابن زيد: الحافرة النار.

﴿ **أئذا كنّا عِظاماً نخرة** ﴾، قرأ نافع وابن عامر والكسائي ويعقوب (أئنا) مستفهم، (إذا) بتركه، ضدّه أبو جعفر، الباقون باستفهامها، وقرأ حمزة والكسائي وأبو بكر ﴿ **عظاماً ناخرة** ﴾، والآخرون (نخرة) وهما لغتان، مثل الطمع والطامع والحذر والحاذر، ومعناهما البالية، وفرّق قوم بينهما، فقالوا: النخرة البالية والناخرة المجوّفة التي تمرّ فيها الريح فتنخر أي تصوّت.

﴿ **قالوا** ﴾، يعني المنكرين، ﴿ **تلك إذاً كرّة خاسرة** ﴾، رجعة خائبة، يعني إن رددنا بعد الموت لنخسرنّ بما يصيبنا بعد الموت.

قال الله عزّ وجلّ: ﴿ **فإنما هي** ﴾، يعني النفخة الأخيرة، ﴿ **زجرة** ﴾، صيحة، ﴿ **واحدة** ﴾، يسمعونها.

سهرت، والمعنى أنهم كانوا في بطن الأرض. فلما سمعوا الصيحة صاروا على وجهها، وقيل هي أرض الشام وقيل أرض القيامة، وقيل هي أرض جهنم.

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴿٢٦﴾ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿**هل أتاك حديث موسى**﴾ يا محمد وذلك أنه ﷺ شق عليه حين كذبه قومه، فذكر له قصة موسى عليه الصلاة والسلام وأنه كان يتحمل المشاق من قومه ليتأسى به ﴿**إذ ناداه ربه بالواد المقدس**﴾ أي المطهر ﴿**طوى**﴾ هو اسم واد بالشام عند الطور ﴿**اذهب إلى فرعون إنه طغى**﴾ أي علا وتكبر وكفر بالله ﴿**فقل هل لك إلى أن تزكى**﴾ أي تتطهر من الشّرك والكفر، وقيل معناه تسلم وتصلح العمل وقال ابن عباس: تشهد أن لا إله إلا الله ﴿**وأهديك إلى ربك**﴾ أي أدعوك إلى عبادة ربك وتوحيده ﴿**فتخشى**﴾ يعني عقابه وإنما خص فرعون بالذكر، وإن كانت دعوة موسى شاملة لجميع قومه لأن فرعون كان أعظمهم فكانت دعوته دعوة لجميع قومه ﴿**فأراه**﴾ أي أرى موسى فرعون ﴿**الآية الكبرى**﴾ يعني اليد البيضاء والعصا ﴿**فكذب**﴾ يعني فرعون بأنها من الله ﴿**وعصى**﴾ أي تمرد وأظهر التجبر ﴿**ثم أدبر**﴾ أي أعرض عن الإيمان ﴿**يسعى**﴾ يعمل الفساد في الأرض ﴿**فحشر**﴾ أي فجمع قومه وجنوده ﴿**فنادى**﴾ أي لما اجتمعوا ﴿**فقال**﴾ يعني فرعون لقومه ﴿**أنا ربكم الأعلى**﴾ أي لا رب فوقي، وقيل أراد أن الأصنام أرباب وهو ربها وربهم ﴿**فأخذه الله نكال الآخرة والأولى**﴾ أي عاقبة فجعله عبرة لغيره بأن أغرقه في الدنيا ويدخله النار

﴿ **فإذا هم بالساهرة** ﴾، يعني وجه الأرض أي صاروا على وجه.الأرض بعدما كانوا في جوفها. والعرب تسمّي الفلاة ووجه الأرض: ساهرة. قال بعض أهل اللغة: تراهم سمّوها ساهرة لأن فيها نوم الحيوان وسهرهم. قال سفيان: هي أرض الشام، وقال قتادة: هي جهنم.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ **هل أتاك حديث موسى** ﴾، يقول قد جاءك يا محمد حديث موسى.

﴿ **إذْ ناداه ربُّه بالوادِ المقدس طُوى** ﴾.

فقال يا موسى: ﴿ **اذهبْ إلى فرعون إنه طغى** ﴾، علا وتكبّر وكفر بالله.

﴿ **فقلْ هلْ لك إلى أن تزكّى** ﴾، قرأ أهل الحجاز ويعقوب بتشديد الزاي: أي تتزكّى وتتطهّر من الشرك، وقرأ الآخرون بالتخفيف أي تسلم وتصلح، قال ابن عباس: تشهد أن لا إلّه إلاّ الله.

﴿ **وأهديك إلى ربك فتخشى** ﴾، أي أدعوك إلى عبادة ربّك وتوحيده فتخشى عقابه.

﴿ **فأراه الآية الكبرى** ﴾، وهي العصا واليد البيضاء.

﴿ **فكذب** ﴾، بأنهما من الله، ﴿ **وعصى** ﴾.

﴿ **ثم أدبر** ﴾، تولّى وأعرض عن الإيمان ﴿ **يسعى** ﴾، يعمل بالفساد في الأرض.

﴿ **فحشر** ﴾، فجمع قومه وجنوده، ﴿ **فنادى** ﴾، لما اجتمعوا.

في الآخرة، وقيل أراد بالآخرة والأولى كلمتي فرعون وهما قوله ﴿ما علمت لكم من إله غيري﴾ وقوله ﴿أنا ربكم الأعلى﴾ وكان بينهما أربعون سنة ﴿إن في ذلك﴾ أي في الذي فعل بفرعون حين كذب وعصى ﴿لعبرة﴾ أي عظة ﴿لمن يخشى﴾ أي يخاف الله عز وجل ثم عاتب منكري البعث فقال تعالى: ﴿أأنتم أشد خلقاً أم السماء بناها﴾ معناه أخلقكم بعد الموت أشد أم خلق السّماء عندكم في تقديركم. فإن كلا الأمرين بالنسبة إلى قدرة الله واحد، لأن خلق الإنسان على صغره وضعفه إذا أضيف إلى خلق السماء مع عظمها وعظم أحوالها كان يسيراً فبين تعالى: أن خلق السماء أعظم، وإذا كان كذلك كان خلقكم بعد الموت أهون على الله تعالى: فكيف تنكرون ذلك مع علمكم بأنه خلق السموات والأرض ولا تنكرون ذلك. ثم إنه تعالى ذكر كيفية خلق السّماء والأرض فقال تعالى:

﴿رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا
وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا
سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ
خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن
ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾﴾

﴿رفع سمكها﴾ يعني علو سمتها، وقيل رفعها بغير عمد ﴿فسواها﴾ أي أتقن بناءها، فليس فيها شقوق، ولا فطور، ﴿وأغطش﴾ أي أظلم ﴿ليلها﴾ والغطش الظلمة ﴿وأخرج﴾ أي وأظهر وأبرز ﴿ضحاها﴾ أي نهارها، وإنما عبر عن النهار بالضحى لأنه أكمل أجزاء النهار في النور، والضوء، وإنما أضاف الليل والنهار إلى السماء لأنهما يجريان بسبب غروب الشمس وطلوعها، وهي في السماء ثم وصف كيفية خلق الأرض. فقال تعالى: ﴿والأرض بعد ذلك دحاها﴾ أي بسطها ومدها قال أمية بن أبي الصلت:

﴿ فقال أنا ربكم الأعلى ﴾، فلا ربّ فوقي. وقيل: أراد أن الأصنام أرباب وأنا ربّكم وربّها.

﴿ فأخذه الله نكال الآخرة والأولى ﴾، قال الحسن وقتادة: عاقبه الله فجعله نكال الآخرة والأولى، أي في الدنيا بالغرق وفي الآخرة بالنار. وقال مجاهد وجماعة من المفسّرين: أراد بالآخرة والأولى كلمتي فرعون قوله: ﴿ ما علمتُ لكم من إله غيري ﴾ [القصص: ٣٨] وقوله: ﴿ أنا ربّكم الأعلى ﴾، وكان بينهما أربعون سنة.

﴿ إنّ في ذلك ﴾، الذي فعل بفرعون حين كذب وعصى، ﴿ لعبرة ﴾، عظة، ﴿ لمَن يخشى ﴾، اللّهَ عزّ وجلّ.

ثم خاطب مُنكرِي البعث فقال: ﴿ أأنتم أشدُّ خلقاً أمِ السماء ﴾، يعني أخلقكم بعد الموت أشدّ عندكم وفي تقديركم أم السماء؟ وهما في قدرة الله واحد، كقوله: ﴿ لَخلقُ السمٰواتِ والأرضِ أكبرُ من خلقِ الناس ﴾ [غافر: ٥٧]، ثم وصف من خلق السماء فقال: ﴿ بناها ﴾.

﴿ رفع سمكها ﴾، سقفها ﴿ فسوّاها ﴾، بلا شقوق ولا فطور.

﴿ وأغطش ﴾، أظلم، ﴿ ليلها ﴾، والغطش والغبش الظلمة، ﴿ وأخرج ضحاها ﴾، أبرز وأظهر نهارها ونورها، وأضافهما إلى السماء لأن الظلمة والنور كلاهما ينزل من السماء.

﴿ والأرض بعد ذلك ﴾، بعد خلق السماء، ﴿ دحاها ﴾، بسطها، والدحو: البسط. قال ابن عباس: خلق

دحــوت البـــلاد فســـويتهـــا وأنـــت علـــى طيهـــا قـــادر

فإن قلت ظاهر هذه الآية، يقتضي أن الأرض خلقت بعد السّماء بدليل قوله تعالى ﴿**بعد ذلك**﴾ وقد قال تعالى: في حمَ السّجدة ﴿**ثم استوى إلى السماء**﴾ فكيف الجمع بين الآيتين وما معناهما.

قلت خلق الله الأرض، أولاً مجتمعة، ثم سمك السماء ثانياً: ثم دحا الأرض بمعنى مدها وبسطها. ثالثاً: فحصل بهذا التفسير الجمع بين الآيتين، وزال الإشكال قال ابن عباس: خلق الله الأرض بأقواتها، من غير أن يدحوها قبل السماء ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات، ثم دحا الأرض بعد ذلك، وقيل معناه والأرض مع ذلك دحاها كقوله ﴿**عتل بعد ذلك زنيم**﴾ أي مع ذلك ﴿**أخرج منها ماءها ومرعاها**﴾ أي فجر من الأرض عيونها، ومرعاها أي رعيها، وهي ما يأكله النّاس، والأنعام واستعير الرعي للإنسان على سبيل التّجوز. ﴿**والجبال أرساها**﴾ أي أثبتها ﴿**متاعاً لكم ولأنعامكم**﴾ أي الذي أخرج من الأرض هو بلغة لكم ولأنعامكم.

قوله عز وجل: ﴿**فإذا جاءت الطّامة الكبرى**﴾ يعني النّفخة الثانية، التي فيها البعث، وقيل الطامة القيامة سميت بذلك لأنها تطم على كل شيء فتعلو عليه، والطامة عند العرب الداهية التي لا تستطاع. ﴿**يوم يتذكر الإنسان ما سعى**﴾ أي ما عمل في الدنيا من خير، أو شر. ﴿**وبرزت الجحيم لمن يرى**﴾ يعني أنه ينكشف عنها الغطاء فينظر إليها الخلق ﴿**فأما من طغى**﴾ أي كفر ﴿**وآثر الحياة الدّنيا**﴾ أي على الآخرة ﴿**فإن الجحيم هي المأوى**﴾ أي لمن هذه صفته ﴿**وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى**﴾ أي المحارم التي يشتهيها وقيل هوالرجل يهم بالمعصية، فيذكر مقامه بين يديه جلّ جلاله للحساب فيتركها لذلك ﴿**فإن الجنة هي المأوى**﴾ أي لمن هذه صفته.

قوله عز وجل: ﴿**يسألونك**﴾ أي يا محمد ﴿**عن الساعة أيّان مرساها**﴾ أي متى ظهورها وقيامها ﴿**فيم أنت من ذكراها**﴾ أي لست في شيء من علمها وذكراها حتى تهتم لها وتذكر وقتها ﴿**إلى ربك منتهاها**﴾ أي منتهى علمها لا

الله الأرض بأقواتها من غير أن يدحوها قبل السماء ثم استوى إلى السماء فسوّاهنّ سبع سمٰوات، ثم دحا الأرض بعد ذلك. وقيل: معناه إذِ الأرض مع ذلك دحاها، كقوله عزّ وجلّ: ﴿ عتل بعد ذلك زنيم ﴾ [القلم: ١٣] أي مع ذلك.

﴿ **أخرج منها ماءها ومرعاها * والجبال أرساها * متاعاً لكم ولأنعامكم * فإذا جاءت الطّامّة الكبرى** ﴾، يعني النفخة الثانية التي فيها البعث وقامت القيامة، وسُمّيت القيامة طامّة لأنها تطم على كل هائلة من الأمور فتعلو فوقها وتغمر ما سواها والطامّة عند العرب الداهية التي لا تستطاع.

﴿ **يوم يتذكر الإنسان ما سعى** ﴾، ما عمل في الدنيا من خير وشرّ.

﴿ **وبرزت الجحيم لمَن يرى** ﴾، قال مقاتل يكشف عنها الغطاء فينظر إليها الخلق.

﴿ **فأمّا مَن طغى** ﴾، في كفره.

﴿ **وآثر الحياة الدنيا** ﴾، على الآخرة.

﴿ **فإن الجحيم هي المأوى * وأما مَن خاف مقام ربّه ونهى النفس عن الهوى** ﴾، عن المحارم التي تشتهيها، قال مقاتل: هو الرجل يهمّ بالمعصية فيذكر مقامه للحساب فيتركها.

﴿ **فإن الجنة هي المأوى * يسألونك عن الساعة أيّان مُرْساها** ﴾، متى ظهورها وثبوتها.

يعلم متى تقوم الساعة إلا هو، وقيل معناه فيم إنكار لسؤالهم، أي فيم هذا السّؤال، ثم قال أنت يا محمد من ذكراها، أي من علامتها، لأنك آخر الرّسل، وخاتم الأنبياء، فكفاهم ذلك دليلاً على دنوها، ووجوب الاستعداد لها.

﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾﴾

﴿**إنما أنت منذر من يخشاها**﴾ أي إنما ينفع إنذارك من يخافها. ﴿**كأنهم**﴾ يعني الكفار ﴿**يوم يرونها**﴾ أي يعاينون يوم القيامة. ﴿**لم يلبثوا**﴾ أي في الدنيا، وقيل في قبورهم ﴿**إلا عشية أو ضحاها**﴾.

فإن قلت العشية ليس لها ضحى فما معنى قوله ﴿**أو ضحاها**﴾.

قلت قيل إن الهاء والألف صلة، والمعنى لم يلبثوا إلا عشية، أو ضحى، وقيل إضافة الضّحى إلى العشية، إضافة إلى يومها، كأنه قال: إلا عشية أو ضحى يومها. والله أعلم بمراده وأسرار كتابه.

﴿ **فيمَ أنتَ من ذكراها** ﴾، لست في شيء من علمها وذكرها، أي لا تعلمها.

﴿ **إلى ربك منتهاها** ﴾، أي منتهى علمها عند الله.

﴿ **إنما أنت منذر مَن يخشاها** ﴾، قرأ أبو جعفر منذر بالتنوين أي أنت مخوّف مَن يخاف قيامها، أي إنما ينفع إنذارك مَن يخافها.

﴿ **كأنهم** ﴾، يعني كفّار قريش، ﴿ **يوم يرونها** ﴾، يعاينون يوم القيامة، ﴿ **لم يلبثوا** ﴾، في الدنيا، وقيل: في قبورهم، ﴿ **إلاّ عشيّةً أو ضحاها** ﴾، قال الفرّاء: ليس للعشيّة ضحى إنما الضحى اسم لصدر النهار، ولكن هذا ظاهر من كلام العرب أن يقولوا: آتيك العشية أو غداتها، إنما معناه آخر يوم أو أوله، نظيره قوله: ﴿ يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلاّ ساعة من نهار ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

سورة عبس

مكية وهي إحدى وأربعون آية ومائة وثلاثون وخمسمائة وثلاثة وثلاثون حرفاً

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾

قوله عز وجل: ﴿عبس وتولى﴾ أي كلح وقطب وجهه وتولى أي أعرض بوجهه. ﴿أن جاءه الأعمى﴾ يعني ابن أم مكتوم، واسمه عمرو، وقيل عبد الله بن شريح بن مالك بن ربيعة، وقيل عمرو قيس بن زائدة بن الأصم بن زهرة بن رواحة القرشي الفهري من بني عامر بن لؤي، واسم أمه عاتكة بنت عبد الله المخزومية، وهو ابن خالة خديجة بنت خويلد أسلم قديماً بمكة، وذلك أنه أتى النبي ﷺ، وهو يناجي عتبة بن ربيعة، وأبا جهل بن هشام والعباس بن عبد المطلب، وأبي بن خلف، وأخاه أمية بن خلف ويدعوهم إلى الله يرجو إسلامهم فقال ابن أم مكتوم: يا رسول الله أقرئني وعلمني مما علمك الله؛ وجعل يناديه ويكرر النّداء، وهو لا يدري أنه مقبل على غيره حتى ظهرت الكراهة في وجه رسول الله ﷺ لقطعه كلامه، وقال في نفسه يقول هؤلاء الصّناديد إنما اتبعه الصّبيان، والعبيد، والسّفلة فعبس وجهه وأعرض عنه، وأقبل على القوم الذين كان يكلمهم، فأنزل الله هذه الآيات معاتبة لرسول الله ﷺ فكان رسول الله ﷺ بعد ذلك يكرمه إذا رآه، ويقول مرحباً بمن عاتبني الله فيه ويقول له هل لك من حاجة، واستخلفه على المدينة مرتين في غزوتين وكان من المهاجرين الأولين، وقيل قتل شهيداً بالقادسية قال أنس: رأيته يوم القادسية، وعليه درع ومعه راية سوداء، عن عائشة رضي الله عنها قالت «أنزلت ﴿عبس وتولى﴾ في ابن أم مكتوم الأعمى أتى رسول الله ﷺ فجعل يقول يا رسول الله أرشدني، وعند رسول الله ﷺ عظماء قريش من المشركين فجعل رسول الله ﷺ

سُورَة عَبَسَ

مكيّة وهي اثنتان وأربعون آية.

﴿ عبس ﴾، كلح، ﴿ وتولى ﴾، أعرض بوجهه.

﴿ أنْ جاءه الأعمى ﴾، وهو ابن أُم مكتوم واسمه عبد الله بن شريح بن مالك بن ربيعة الفهري من بني عامر بني لؤي، وذلك أنه أتى رسول الله ﷺ، وهو يناجي عتبة بن ربيعة وأبا جهل بن هشام، والعباس بن عبد المطلب وأبيّ بن خلف، وأخاه أمية يدعوهم إلى الله، يرجو إسلامهم، فقال ابن أم مكتوم: يا رسول الله أقرئني وعلّمني مما علّمك الله، فجعل يناديه ويكرّر النداء ولا يدري أنه مقبل على غيره حتى ظهرت الكراهة في وجه رسول الله ﷺ لقطعه كلامه، وقال في نفسه يقول هؤلاء الصناديد إنما أتباعه العميان والعبيد والسَّفَلَة، فعبس وجهه وأعرض عنه، وأقبل على القوم الذين يكلّمهم فأنزل الله هذه الآية، فكان رسول الله ﷺ بعد ذلك يكرهه، وإذا رآه قال مرحباً بمَن عاتبني فيه ربّي، ويقول له هل لك من حاجة واستخلفه على المدينة مرتين في غزوتين غزاهما رسول الله ﷺ، قال

يعرض عنه ويقبل على الآخرين ويقول أترى بما أقول بأساً فيقول لا ففي هذا أنزلت» أخرجه الترمذي، وقال حديث غريب ﴿وما يدريك﴾ أي أي شيء يجعلك دارياً ﴿لعله يزكى﴾ أي يتطهر من الذنوب بالعمل الصالح وما يتعلمه منك.

﴿أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾ كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾﴾

﴿أو يذكر﴾ أي يتعظ ﴿فتنفعه الذكرى﴾ أي الموعظة ﴿أما من استغنى﴾ قال ابن عباس: عن الله وعن الإيمان بما له من المال ﴿فأنت له تصدى﴾ أي تتعرض له، وتقبل عليه وتصغى إلى كلامه ﴿وما عليك ألا يزكى﴾ أي لا يؤمن، ولا يهتدي وإنما عليك البلاغ ﴿وأما من جاءك يسعى﴾ يعني يمشي يعني ابن أم مكتوم ﴿وهو يخشى﴾ أي الله عز وجل ﴿فأنت عنه تلهى﴾ أي تتشاغل وتعرض عنه ﴿كلا﴾ أي لا تفعل بعدها مثلها ﴿إنها﴾ يعني الموعظة وقيل آيات القرآن ﴿تذكرة﴾ أي موعظة للخلق ﴿فمن شاء﴾ أي من عباد الله ﴿ذكره﴾ أي اتعظ به يعني القرآن ثم وصف

أنس بن مالك: فرأيته يوم القادسية عليه درع ومعه راية سوداء.

﴿ وما يُدريك لعلّه يزكّى ﴾، يتطهر من الذنوب بالعمل الصالح وما يتعلمه منك، وقال ابن زيد: يسلم.

﴿ أو يذّكر ﴾، يتّعظ، ﴿ فتنفعه الذكرى ﴾، الموعظة قرأ عاصم فتنفعه بنصب العين على جواب لعلّ بالفاء وقراءة العامّة بالرفع نسقاً على قوله: ﴿ يذّكر ﴾.

﴿ أما من استغنى﴾، قال ابن عباس عن الله وعن الإيمان بما له من المال.

﴿ فأنتَ له تصدّى ﴾، تتعرض له وتقبل عليه وتصغي إلى كلامه، قرأ أهل الحجاز ﴿ تصدّى ﴾ بتشديد الصاد، أي تتصدى، وقرأ الآخرون بتخيف الصاد على الحذف.

﴿ وما عليك ألاّ يزكّى ﴾، أن لا يؤمن ولا يهتدي، إنْ عليك إلاّ البلاغ.

﴿ وأما مَن جاءك يسعى ﴾، يمشي يعني ابن أُم مكتوم.

﴿ وهو يخشى ﴾، الله عزّ وجلّ.

﴿ فأنت عنهة تلهى ﴾، تتشاغل وتعرض عنه.

﴿ كلا ﴾، زجر أي لا تفعل بعدها مثلها، ﴿ إنها ﴾، يعني هذه الموعظة. وقال مقاتل: آيات القرآن، ﴿ تذكرة ﴾، موعظة وتذكير للخلق.

﴿ فمَن شاء ﴾، من عباد الله، ﴿ ذكره ﴾، أي اتّعظ به. وقال مقاتل: فمَن شاء الله ذكره وفهمه واتّعظ بمشيئته وتفهيمه، والهاء في ﴿ ذكره ﴾ راجعة إلى القرآن والتنزيل والوعظ. ثم أخبر عن جلالته عنده فقال:

﴿ في صحف مكرّمة ﴾، يعني اللوح المحفوظ. وقيل: كتب الأنبياء، دليله قوله تعالى: ﴿ إنّ هذا لفي الصحف الأولى صحف إبراهيم وموسى ﴾ [الأعلى: ١٨ و١٩].

﴿ مرفوعة ﴾، رفيعة القدر عند الله عزّ وجلّ. وقيل: مرفوعة يعني في السماء السابعة. ﴿ مطهرة ﴾، لا يمسّها إلاّ المطهرون، وهم الملائكة.

جلالة القرآن، ومحله عنده فقال عز وجل ﴿في صحف مكرمة﴾ يعني القرآن في اللّوح المحفوظ ﴿مرفوعة﴾ أي رفيعة القدر عند الله، وقيل مرفوعة في السّماء السابعة ﴿مطهرة﴾ يعني الصحف لا يمسها إلا المطهرون، وهم الملائكة ﴿بأيدي سفرة﴾ قال ابن عباس: يعني كتبه، وهم الملائكة الكرام الكاتبون، واحدهم سافر ومنه قيل للكتاب سفر، وقيل هم الرّسل من الملائكة إلى الأنبياء واحدهم سفير، ثم أثنى عليهم. بقوله:

﴿كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾ قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾﴾

﴿كرام﴾ أي هم كرام على الله ﴿بررة﴾ أي مطيعين له جمع بار.

قوله عز وجل: ﴿قتل الإنسان﴾ أي لعن الكافر وطرد ﴿ما أكفره﴾ أي أشد كفره بالله مع كثرة إحسانه إليه، وأياديه عنده وهذا على سبيل التّعجب، أي أعجبوا من كفره وقيل معناه أي شيء حمله على الكفر، نزلت هذه الآية في عتبة بن أبي لهب، وقيل في أمية بن خلف، وقيل في الذين قتلوا يوم بدر، وقيل الآية عامة في كل كافر، ثم بين من أمره ما كان ينبغي أن يعلم أن الله تعالى: خالقه منه فقال تعالى: ﴿من أي شيء خلقه﴾ لفظة استفهام ومعناه التّقرير، ثم فسر ذلك فقال تعالى ﴿من نطفة خلقه فقدره﴾ يعني خلقه أطواراً نطفة ثم علقة، ثم مضغة، إلى آخر خلقه، وقيل قدره يعني خلق رأسه، وعينيه ويديه، ورجليه على قدر ما أراده ﴿ثم السبيل يسره﴾ أي سهل له طريق خروجه من بطن

﴿ بأيدي سفرة ﴾، قال ابن عباس ومجاهد: كتبة، وهم الملائكة الكرام الكاتبون، واحدهم سافر، يقال: سفرت أي كتبت. ومنه قيل للكتاب: سِفْرٌ وجمعه أسفار. وقال الآخرون: هم الرسل من الملائكة واحدهم سفير، وهو الرسول، وسفير القوم الذي يسعى بينهم بالصلح، وسفرت بين القوم إذا أصلحت بينهم.

ثم أثنى عليهم فقال: ﴿ كرام بررة ﴾، أي كرام على الله بررة مطيعين جمع بارّ.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ قُتل الإنسان ﴾، أي لعن الكافر. قال مقاتل: نزلت في عتبة بن أبي لهب ﴿ ما أكفره ﴾، ما أشدّ كفره مع كثرة إحسانه إليه وأياديه عنده، على طريق التعجّب، قال الزجّاج: معناه اعجبوا أنتم من كفره. قال الكلبي ومقاتل: هو ﴿ ما ﴾ الاستفهام، يعني أيّ شيء حمله على الكفر؟ ثم بيّن من أمره ما كان ينبغي معه أن يعلم أن الله خالقه.

فقال: ﴿ من أيّ شيء خلقه ﴾، لفظه استفهامٌ ومعناه التقرير.

ثم فسَّره فقال: ﴿ من نطفة خلقه فقدّره ﴾، أطواراً: نطفة ثم علقة إلى آخر خلقه. قال الكلبي: قدر خلقه رأسه وعينيه ويديه ورجليه.

﴿ ثم السبيل يسّره ﴾، أي طريق خروجه من بطن أُمه. قال السدي ومقاتل، وقال الحسن ومجاهد: يعني طريق الحق والباطل سهّل له العلم به، كما قال: ﴿ إنّا هديناه السبيل ﴾ [الإنسان: ٣] ﴿ وهديناه النجدين ﴾ [البلد: ١٠]، وقيل: يسّر على كل أحد ما خلقه له وقدر عليه.

﴿ ثم أماته فأقبره ﴾، جعل له قبراً يوارى فيه. قال الفرّاء: جعله مقبوراً ولم يجعله ممّن يلقى كالسِّباع والطيور. يقال قبرت الميت إذا دفنته، وأقبره الله أي صيّره بحيث يقبر، وجعله ذا قبر، كما يقال: طردت فلاناً والله أطرده أي صيّره طريداً.

أمه، وقيل سهل له العلم بطريق الحق والباطل، وقيل يسر على كل أحد ما خلق له وقدر عليه. ﴿ثم أماته فأقبره﴾ أي جعل له قبراً يوارى فيه، وقيل جعله مقبوراً، ولم يجعله ملقى للسّباع، والوحوش والطّيور، أو أقبره معناه ستره الله بحيث يقبروجعله ذا قبر يدفن فيه، وهذه تكرمة لبني آدم على سائر الحيوانات. ثم قال تعالى: ﴿ثم إذا شاء أنشره﴾ أي أحياه بعد موته للبعث، والحساب وإنما قال تعالى﴿ثم إذا شاء أنشره﴾ لأن وقت البعث غير معلوم لأحد فهو إلى مشيئة الله تعالى متى شاء أن يحيـي الخلق أحياهم ﴿كلا﴾ ردع وزجر للإنسان عن تكبره وتجبره وترفعه، وعن كفره وإصراره على إنكار التوحيد، وإنكار البعث والحساب ﴿لما يقض ما أمره﴾ أي لم يفعل ما أمره به ربه، ولم يؤد ما فرض عليه، ولما ذكر خلق ابن آدم ذكر رزقه ليعتبر فإنه موضع الاعتبار فقال تعالى: ﴿فلينظر الإنسان إلى طعامه﴾ إلى قدرة ربه فيه أي كيف قدره ربه، ويسره ودبره له وجعله سبباً لحياته، وقيل مدخل طعامه ومخرجه. ثم بين ذلك فقال تعالى: ﴿أنا صببنا الماء صباً﴾ يعني المطر.

ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾

﴿ثم شققنا الأرض شقاً﴾ أي بالنبات ﴿فأنبتنا فيها﴾ أي بذلك الماء ﴿حباً﴾ يعني الحبوب التي يتغذى بها الإنسان ﴿وعنباً﴾ يعني أنه غذاء من وجه، وفاكهة من وجه، فلهذا أتبعه الحب ﴿وقضباً﴾ يعني القت وهو الرطب سمي بذلك لأنه يقتضب، أي يقطع في كل الأيام، وقيل القضب هو العلف كله الذي تعلف به الدواب. ﴿وزيتوناً﴾ وهو ما يعصر منه الزيت ﴿ونخلاً وحدائق﴾ جمع حديقة ﴿غلباً﴾ يعني غلاظ الأشجار، وقيل الغلب الشجر الملتف

﴿ ثم إذا شاء أنشره ﴾، أحياه بعد موته.

﴿ كلا ﴾، ردّ عليه أي ليس كما يقول ويظن هذا الكافر وقال الحسن: حقاً. ﴿ لمّا يقضِ ما أمره ﴾، أي لم يفعل ما أمره به ربّه ولم يؤدّ ما فرض عليه، ولمّا ذكر خلق ابن آدم ذكر رزقه ليعتبر.

فقال: ﴿ فلينظرِ الإنسان إلى طعامه ﴾، كيف قدّره ربـه ودبّره له وجعله سبباً لحياته. وقال مجاهد: إلى مدخله ومخرجه.

ثم بيّن فقال: ﴿ أنّا ﴾ قرأ أهل الكوفة ﴿ أنا ﴾ بالفتح على تكرير الخافض، مجازه فلينظر إلى أنا، وقرأ الآخرون بالكسر على الاستئناف. ﴿ صببنا الماء صبّاً ﴾، يعني المطر.

﴿ ثم شققنا الأرض شقاً ﴾، بالنبات.

﴿ فأنبتنا فيها حبّاً ﴾، يعني الحبوب التي يتغذى بها.

﴿ وعنباً وقضباً ﴾، وهو القت الرطب، سُمّي بذلك لأنه يقضب في كل الأيام أي يقطع. وقال الحسن: القضب العلف للدواب.

﴿ وزيتوناً ﴾، وهو ما يعصر منه الزيت، ﴿ ونخلاً ﴾، جمع نخلة.

﴿ وحدائق غلباً ﴾، غلاظاً، الأشجار واحدها أغلب، ومنه قيل: الغليظ الرقبة أغلب. وقال مجاهد ومقاتل: الغلب الشجر الملتفة بعضها في بعض، قال ابن عباس: طوالاً.

بعضه على بعض. وقال ابن عباس: طوالاً ﴿وفاكهة﴾ يعني جميع ألوان الفاكهة ﴿وأبا﴾ يعني الكلأ والمرعى الذي لم يزرعه الناس مما يأكله الدواب والأنعام، وقيل فاكهة ما يأكله الناس، والأب ما يأكله الدّواب. وقال ابن عباس: ما أنبتت الأرض مما يأكل الناس. والأنعام روى إبراهيم التيمي أن أبا بكر سئل عن قوله: ﴿وفاكهة وأبا﴾ فقال أي سماء تظلني، وأي أرض تقلني إذا قلت في كتاب الله ما لا أعلم (خ) عن أنس أن عمر قرأ ﴿وفاكهة وأبا﴾ قال فما الأب، ثم قال ما كلفنا أو قال ما أمرنا بهذا لفظ البخاري، وزاد غيره ثم قال اتبعوا ما بين لكم هذا الكتاب وما لا فدعوه. ﴿متاعاً لكم﴾ يعني الفواكه والحب، والعشب منفعة لكم ﴿ولأنعامكم﴾ ثم ذكر أهوال القيامة فقال تعالى: ﴿فإذا جاءت الصّاخة﴾ يعني صيحة القيامة سميت صاخة لأنها تصخ أسماع الخلق، أي تبالغ في أسماعهم حتى تكاد تصمها ﴿يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته، وبنيه﴾ أي إنه لا يلتفت إلى واحد من هؤلاء لشغله بنفسه، والمراد من الفرار التّباعد، والسبب في ذلك الاحتراز عن المطالبة بالحقوق فالأخ يقول ما واسيتني بمالك، والأبوان يقولان قصرت في برنا، والصاحبة تقول لم توفني حقي والبنون يقولون ما علمتنا وما أرشدتنا، وقيل أول من يفر هابيل من أخيه قابيل، والنبي ﷺ من أمه وإبراهيم عليه الصّلاة والسّلام من أبيه ولوط من صاحبته ونوح من ابنه، وقيل يفر المؤمن من موالاة هؤلاء، ونصرتهم والمعنى أن هؤلاء الذين كانوا يقربونهم في الدنيا، ويتقوون بهم ويتعززون بهم يفرون منهم في الدّار الآخرة، وفائدة الترتيب كأنه قيل يوم يفر المرء من أخيه بل من أبويه لأنهما أقرب من الإخوة بل من الصّاحبة، والولد لأن تعلقه بهما أشد من تعلقه بالأبوين ﴿لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه﴾ أي يشغله شأن نفسه عن شأن غيره عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «تحشرون حفاة عراة غرلاً، فقالت امرأة أيبصر أحدنا، أو يرى بعضنا عورة بعض قال: يا

﴿ وفاكهة ﴾، يريد ألوان الفواكه، ﴿ وأباً ﴾، يعني الكلأ والمرعى الذي لم يزرعه الناس، مما يأكله الأنعام والدواب. قال عكرمة: الفاكهة ما يأكل الناس، والأب ما يأكله الدواب. ومثله عن قتادة قال: الفاكهة لكم والأب لأنعامكم. وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: ما أنبتت الأرض مما يأكل الناس والأنعام. ورُوِيَ عن إبراهيم التيمي أن أبا بكر سُئِل عن قوله: ﴿ وفاكهة وأباً ﴾ فقال: أيّ سماء تظلّني وأيّ أرض تقلّني إذا قلت في كتاب الله ما لا أعلم. وروى ابن شهاب عن أنس أنه سمع عمر بن الخطاب قرأ هذه الآية ثم قال: كلّ هذا قد عرفنا فما الأبُّ؟ ثم رفع عصاً كانت بيده وقال: هذا لَعَمْرُ الله التكلّف، وما عليك يا ابن أُم عمر أن لا تدري ما الأبّ، ثم قال: اتّبعوا ما تبين لكم من هذا الكتاب، وما لا فدعوه.

﴿ متاعاً لكم ﴾، منفعة لكم يعني الفاكهة، ﴿ ولأنعامكم ﴾، يعني العشب.

ثم ذكر القيامة فقال: ﴿ فإذا جاءت الصاخّة ﴾، يعني صيحة القيامة سُمّيت بذلك لأنها تصخّ الأسماع، أي تبالغ في أسماعها حتى تكاد تصمّها.

﴿ يوم يفرّ المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه ﴾، لا يلتفت إلى واحد منهم لشغله بنفسه، حكي عن قتادة قال في هذه الآية: يفرّ المرء من أخيه، قال: يفرّ هابيل من قابيل، ويفرّ النبيّ ﷺ من أُمه، وإبراهيم عليه السلام من أبيه، ولوط عليه السلام من صاحبته، ونوح عليه السلام من ابنه.

﴿ لكل امرىءٍ منهم يومئذ شأن يُغنيه ﴾، يشغله عن شأن غيره. أخبرنا أحمد بن إبراهيم الشريحي أنا أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي أخبرني الحسين بن محمد بن عبد الله أنا عبد الله بن عبد الرحمن ثنا محمد بن عبد العزيز ثنا ابن أبي أويس ثنا أبي عن محمد بن أبي عياش عن عطاء بن يسار عن سودة زوج النبي ﷺ قالت: قال رسول الله ﷺ: «يُبعث الناسُ حفاةً عُراةً غرلاً، قد ألجمهم العرق وبلغ شحوم الآذان»، فقلتُ: يا رسول الله

فلانة لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه» أخرجه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح ولما ذكر الله تعالى حال القيامة، وأهوالها بين حال المكلفين، وأنهم على قسمين منهم السعداء والأشقياء. فوصف السّعداء بقوله تعالى:

وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾

﴿**وجوه يومئذ مسفرة**﴾ أي مشرقة مضيئة من أسفر الصبح إذا أضاء، وقيل مسفرة من قيام اللّيل، وقيل من أثر الوضوء، وقيل من الغبار في سبيل الله ﴿**ضاحكة**﴾ أي عند الفراغ من الحساب ﴿**مستبشرة**﴾ أي بالسرور فرحة بما تنال من كرامة الله، ورضوانه. ثم وصف الأشقياء فقال تعالى: ﴿**ووجوه يومئذ عليها غبرة**﴾ أي سواد وكآبة للهم الذي نزل بهم ﴿**ترهقها قترة**﴾ أي تعلوها، وتغشاها ظلمة، وكسوف وقال ابن عباس: تغشاها ذلة والفرق بين الغبرة والقترة أن الغبرة ما كان أسفل في الأرض، والقترة ما ارتفع من الغبار فلحق بالسماء ﴿**أولئك**﴾ أي الذين صنع بهم هذا ﴿**هم الكفرة الفجرة**﴾ جميع كافر وفاجر والله سبحانه وتعالى أعلم بمراده وأسرار كتابه.

واسوأتاه ينظر بعضها إلى بعض؟ فقال: «**قد شغل الناس لكل امرىءٍ منهم يومئذ شأن يُغنيه**».

﴿ **وجوه يومئذ مسفرة** ﴾، مشرقة مضيئة.

﴿ **ضاحكة** ﴾، بالسرور ﴿ **مستبشرة** ﴾، فرحَة بما نالت من كرامة الله عزّ وجلّ.

﴿ **ووجوه يومئذ عليها غبرة** ﴾، سواد وكآبة مما يشاهدونه من الغمّ والهمّ.

﴿ **ترهقها قترة** ﴾، تعلوها وتغشاها ظلمة وكسوف. قال ابن عباس: تغشاها ذلّة. قال ابن زيد الفرق بين الغبرة والقترة أن القترة ما ارتفع من الغبار فلحق بالسماء، والغبرة ما كان أسفل في الأرض.

﴿ **أولئك** ﴾، الذين يصنع بهم هذا، ﴿ **هم الكَفرة الفَجَرَة** ﴾، جمع الكافر والفاجر.

سورة التكوير

مكية وهي تسع وعشرون آية ومائة، وأربع كلمات وخمسمائة وثلاثون حرفاً.

عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «من سره أن ينظر إلى يوم القيامة كأنه رأى العين فليقرأ: ﴿إذا الشّمس كورت﴾ ﴿وإذا السّماء انفطرت﴾ ﴿وإذا السّماء انشقت﴾» أخرجه الترمذي.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴿٤﴾ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥﴾ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿٦﴾ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴿٧﴾

قوله عز وجل: ﴿إذا الشّمس كورت﴾ قال ابن عباس: أظلمت، وغورت، وقيل اضمحلت، وقيل لفت كما تلف العمامة، وأصل التكوير جمع بعض الشيء إلى بعض ومعناه أن الشّمس يجمع بعضها إلى بعض، ثم تلف فإذا فعل بها ذلك ذهب ضوءها، قال ابن عباس: يكور الله الشّمس، والقمر، والنّجوم يوم القيامة في البحر، ثم يبعث عليها ريحاً دبوراً فتضربها فتصير ناراً. (خ) عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «الشّمس والقمر يكوران يوم القيامة» قيل إن الشّمس، والقمر، جمادان فإلقاؤهما في النّار يكون سبباً لازدياد الحر في جهنم. ﴿وإذا النّجوم انكدرت﴾ أي تناثرت من السماء، وسقطت على الأرض. قال الكلبي وعطاء: تمطر السّماء يومئذ نجوماً، فلا يبقى نجم إلا وقع ﴿وإذا الجبال سيرت﴾ أي عن وجه الأرض، فصارت هباء منثوراً. ﴿وإذا العشار عطلت﴾ يعني النوق الحوامل التي أتى عليها عشرة أشهر من حملها، واحدتها عشراء، ثم لا يزال ذلك اسمها حتى تضع لتمام سنة، وهي أنفس مال عند العرب فإذا كان ذلك اليوم عطلت، وتركت هملاً بلا راع أهملها أهلها، وقد كانوا لازمين لأذنابها ولم يكن مال أعجب

سُوْرَة التّكوير

مكيّة وهي تسع وعشرون آية.

أخبرنا أبو سعيد أحمد بن إبراهيم الشريحي أنا أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي ثنا أبو الحسن علي بن محمد بن سهل الماسرجسي إملاءً أنا أبو الوفاء المؤمل بن الحسن بن عيسى الماسرجسي ثنا أحمد بن منصور الرمادي ثنا إبراهيم بن خالد ثنا عبد الله بن بحير القاضي قال سمعت عبد الرحمن بن زيد الصنعاني قال سمعت ابن عمر يقول: قال رسول الله ﷺ: «مَن أحبَّ أن ينظر في أحوال القيامة فليقرأ: ﴿ إذا الشمس كُوِّرت ﴾».

قوله عزّ وجلّ: ﴿ إذا الشمس كُوِّرت ﴾، قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: أظلمت، وقال قتادة ومقاتل والكلبي: ذهب ضوءها. وقال سعيد بن جبير: غوّرت. وقال مجاهد: اضمحلّت. وقال الزجّاج: لفّت كما تلفّ

إليهم منها لما جاءهم من أهوال يوم القيامة. ﴿وإذا الوحوش﴾ يعني من دواب البر ﴿حشرت﴾ أي جمعت يوم القيامة ليقتص لبعضها من بعض. وقال ابن عباس: حشرها موتها قال: وحشر كل شيء موته غير الجن والإنس، فإنهما يوقفان يوم القيامة. ﴿وإذا البحار سجرت﴾ قال ابن عباس: أوقدت فصارت ناراً تضطرم، وقيل فجر بعضها في بعض العذاب، والملح حتى صارت البحار كلها بحراً واحداً وقيل صارت مياهها من حميم أهل النّار، وقيل سجرت أي يبست، وذهب ماؤها فلم تبق فيها قطرة.

قال أبي بن كعب: ست آيات قبل يوم القيامة، بينما النّاس في أسواقهم إذ ذهب ضوء الشّمس، فبينما هم كذلك إذ وقعت الجبال على الأرض، فبينما هم كذلك إذ تناثرت النّجوم فتحركت، واضطربت، وفزعت الإنس، والجن، واختلطت الدّواب، والطّير، والوحش، وماج بعضهم في بعض. فذلك قوله تعالى: ﴿إذا الشّمس كورت وإذا النّجوم انكدرت وإذا الجبال سيرت وإذا العشار عطلت وإذا الوحوش حشرت وإذا البحار سجرت﴾ فحينئذ تقول: الجن

العمامة، يقال كوّرت العمامة على رأسي أُكوّرها كوراً وكوّرتها تكويراً إذا لفقتها، وأصل التكويرجمع بعض الشيء إلى بعض، فمعناه أن الشمس يجمع بعضها إلى بعض ثم تلفّ، فإذا فعل بها ذلك ذهب ضوءها. قال ابن عباس: يكوّر الله الشمس والقمر والنجوم يوم القيامة في البحر، ثم يبعث عليها ريحاً دبوراً فتضربها فتصير ناراً. أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا مسدد ثنا عبد العزيز بن المختار ثنا عبد الله الداناج حدّثني أبو سلمة بن عبد الرحمن عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «الشمس والقمر يكوّران يوم القيامة».

﴿ وإذا النجوم انكدرت ﴾، أي تناثرت من السماء وتساقطت على الأرض، يقال: انكدر الطائر إذا سقط عن عشّه، قال الكلبي وعطاء: تمطر السماء يومئذ نجوماً فلا يبقى نجم إلاّ وقع.

﴿ وإذا الجبال سُيّرت ﴾، على وجه الأرض فصارت هباءً منبثّاً.

﴿ وإذا العِشَار عُطّلت ﴾، وهي النوق الحوامل التي أتى على حملها عشرة أشهر، واحدتها عشراء، ثم لا يزال ذلك اسمها حتى تضع لتمام سنة، وهي أنفس مال عند العرب، عُطّلت تركت هملاً بلا راعٍ أهملها أهلها، وكانوا لازمين لأذنابها، ولم يكن لهم مال أعجب إليهم منها لما جاءهم من أهوال يوم القيامة.

﴿ وإذا الوحوش ﴾، يعني دواب البرّ، ﴿ حشرت ﴾، جمعت بعد البعث ليقتصّ لبعضها من بعض. وروى عكرمة عن ابنِ عباس قال: حشرها موتها. وقال: حشر كل شيء الموت غير الجنّ والإنس، فإنهما يوقفان يوم القيامة. وقال أُبيّ بن كعب: اختلطت.

﴿ وإذا البحار سُجّرت ﴾، قرأ أهل مكة والبصرة بالتخفيف، وقرأ الباقون بالتشديد، قال ابن عباس: أوقدت فصارت ناراً تضطرم. وقال مجاهد ومقاتل: يعني فجر بعضها في بعض العذب والملح، فصارت البحور كلها بحراً واحداً. وقال الكلبي. ملئت، وهذا أيضاً معنى قوله: ﴿ والبحر المسجور ﴾ [الطور: ٦]، والمسجور: المملوء، وقيل: صارت مياهها بحراً واحداً من الحميم لأهل النار. وقال الحسن: يبست وهو قول قتادة قال ذهب ماؤها فلم يبق فيها قطرة، وروى أبو العالية عن أُبيّ بن كعب، قال: ستّ آيات قبل يوم القيامة: بينما الناس في أسواقهم إذ ذهب ضوء الشمس، فبينما هم كذلك إذ تناثرت النجوم، فبينما هم كذلك إذ وقعت الجبال على وجه الأرض فتحرّكت واضطربت، وفزعت الجنّ إلى الإنس والإنس إلى الجنّ، واختلطت الدواب والطير والوحش والسِّباع، وماج بعضهم في بعض، فذلك قوله: ﴿ وإذا الوحوش حُشرت ﴾، واختلطت، ﴿ وإذا العشار عطّلت * وإذا

للإنس نحن نأتيكم بالخبر، فينطلقون إلى البحر، فإذا هو نار تأجج، فبينما هم كذلك إذ انصدعت الأرض صدعة واحدة إلى الأرض السابعة السفلى، وإلى السماء السابعة العليا، فبينما هم كذلك إذ جاءتهم ريح فأماتتهم، وعن ابن عباس قال: هي اثنتا عشرة خصلة ستة في الدنيا، وستة في الآخرة، وهي ما ذكر بعد هذه. وهو قوله تعالى: ﴿وإذا النفوس زوجت﴾ روى النعمان بن بشير عن عمر بن الخطاب أنه سئل عن هذه الآية، فقال: يقرن بين الرّجل الصّالح مع الرجل الصالح في الجنة، ويقرن بين الرجل السّوء مع الرجل السوء في النّار، وقيل ألحق كل امرىء بشيعته اليهود باليهود، والنصارى بالنصارى، وقيل يحشر الرجل مع صاحب عمله، وقيل زوّجت النّفوس بأعمالها، وقيل زوّجت نفوس المؤمنين بالحور العين، وقرنت نفوس الكافرين بالشّياطين، وقيل معنى زوّجت ردت الأرواح إلى الأجساد.

وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ﴿١١﴾ وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴿١٣﴾

﴿وإذا الموءودة سئلت﴾ يعني الجارية التي دفنت، وهي حية سميت بذلك لما يطرح عليها من التراب، فيؤدبها، أي يثقلها حين تموت، وكانت العرب تفعل ذلك في الجاهلية. تدفن البنات حية مخافة العار، والحاجة، وروي عن ابن عباس قال: كانت المرأة في الجاهلية إذا حملت، وكان أوان ولادتها حفرت حفيرة، فتمخضت على رأس الحفيرة فإن ولدت جارية رمت بها في الحفيرة، وإذا ولدت غلاماً حبسته، وقيل كان الرجل في الجاهلية إذا ولدت له بنت، وأراد بقاءها حية ألبسها جبة صوف، أو شعر وتركها ترعى الإبل، والغنم في البادية، وإذا أراد قتلها تركها حتى تشب، فإذا بلغت قال لأمها طيبيها وزينيها حتى أذهب بها إلى أحمائها، وقد حفر بئراً في الصّحراء، فيبلغ بها البئر فيقول لها: انظري فيها، فإذا نظرت دفعها من ورائها، ويهيل عليها التراب حتى تستوي بالأرض، عن ابن

البحار سجرت ﴾، قال: قالت الجنّ للإنس نحن نأتيكم بالخير فانطلقوا إلى البحر فإذا هو نار تأجّج، قال فبينما هم كذلك إذ تصدّعت الأرض صدعة واحدة إلى الأرض السابعة السفلى، وإلى السماء السابعة العليا، فبينما هم كذلك إذ جاءتهم الريح فأماتتهم. وعن ابن عباس أيضاً قال: هي اثنتا عشرة خصلة ستّة في الدنيا وستّة في الآخرة.

وهي ما ذكره بقوله عزّ وجلّ: ﴿ **وإذا النفوس زُوّجت** ﴾، روى النعمان بن بشير عن عمر بن الخطاب أنه سُئِل عن هذه الآية فقال يقرن بين الرجل الصالح مع الرجل الصالح في الجنة، ويقرن بين الرجل السوء مع الرجل السوء في النار، وهذا قول عكرمة، وقال الحسن وقتادة: ألحق كل امرىء بشيعته، اليهودي باليهودي والنصراني بالنصراني، قال الربيع بن خيثم: يحشر الرجل مع صاحب عمله. وقيل: زُوّجت النفوس بأعمالها. وقال عطاء ومقاتل: زُوّجت نفوس المؤمنين بالحور العين، وقرنت نفوس الكافرين بالشياطين. ورُوِيَ عن عكرمة قال: وإذا النفوس زُوِّجت رُدّت الأرواح في الأجساد.

﴿ **وإذا الموؤدة سُئِلت** ﴾، وهي الجارية المدفونة حيّة سُمّيت بذلك لما يُطرَح عليها من التراب فيؤودها، أي يثقلها حتى تموت وكانت العرب تدفن البنات حيّة مخافة العار والحاجة، يقال: وَأَدَ يئِدُ وأداً، فهو وائد والمفعول موؤد، روى عكرمة عن ابن عباس: كانت المرأة في الجاهلية إذا حملت وكان أوان ولادتها حفرت حُفرة فتمخضت على رأس الحُفرة فإن ولدت جارية رمت بها في الحفرة، وإن ولدت غلاماً حبسته.

﴿ **بأيّ ذنب قتلت** ﴾، قرأ العامّة على الفعل المجهول فيهما، وأبو جعفر يقرأ: ﴿ **قتلت** ﴾ بالتشديد، ومعناه تسئل الموؤدة، فيقال لها ﴿ **بأيّ ذنب قتلت** ﴾، ومعنى سؤالها توبيخ قاتلها لأنها تقول: قُتلتُ بغير ذنب. ورُوِيَ أن

مسعود قال: قال رسول الله ﷺ «الوائدة، والموءودة في النّار» أخرجه أبو داود، وكان صعصعة بن ناجية ممن منع الوأد، ولم يئد فافتخر به الفرزدق في شعره فقال:

ومنـــا الـــذي منـــع الـــوائـــدات وأحيـــا الـــوئيـــد فلـــم تـــوأد

﴿بأي ذنب قتلت﴾ معناه تسأل الموءودة، فيقال لها، بأي ذنب قتلت، ومعنى سؤالها لها توبيخ قاتلها. لأنها قتلت بغير ذنب. ﴿وإذا الصّحف نشرت﴾ يعني صحائف الأعمال تنشر للحساب ﴿وإذا السّماء كشطت﴾ أي نزعت، وطويت، وقيل قلعت كما يقلع السقف، وقيل كشفت، وأزيلت عمن فيها. ﴿وإذا الجحيم سعرت﴾ أوقدت لأعداء الله تعالى﴿وإذا الجنة أزلفت﴾ أي قربت لأولياء الله.

عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾ فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾

﴿علمت نفس ما أحضرت﴾ يعني عند ذلك تعمل كل نفس ما أحضرت من خير، أو شر وهذا جواب لقوله إذا الشّمس كورت إلى هنا.

قوله عز وجل: ﴿فلا أقسم﴾ لا زائدة والمعنى أقسم، وقد تقدم ذلك في قوله ﴿لا أقسم بيوم القيامة﴾. ﴿بالخنس الجوار الكنس﴾ يعني النّجوم تبدو بالليل، فتظهر، وتخنس بالنهار تحت نور الشّمس، ونحو هذا المعنى روي عن علي بن أبي طالب، وقيل هي النّجوم الخمسة زحل، والمشترى، والمريخ، والزهرة، وعطارد، تخنس في مجاريها، أي ترجع وراءها في الفلك، وتنكس، أي تستر وقت اختفائها، وقيل إنها تخنس، أي تتأخر عن مطالعها،

جابر بن زيد كان يقرأ: ﴿ وإذا الموؤدة سُئِلت * بأيّ ذنب قُتلت ﴾، ومثله قرأ أبو الضحى.

﴿ وإذا الصحف نشرت ﴾، قرأ أهل المدينة والشام وعاصم ويعقوب ﴿ نشرت ﴾ بالتخفيف، وقرأ الآخرون بالتشديد، لقوله: ﴿ يؤتى صحفاً منشرة ﴾ [المدّثر: ٥٢]، يعني صحائف الأعمال تنشر للحساب.

﴿ وإذا السماء كشطت ﴾، قال الفرّاء: نزعت فطويت. وقال الزجّاج: قلعت كما يقلع السقف. وقال مقاتل: تكشف عمّن فيها. ومعنى الكشط رفعك شيئاً عن شيء قد غطاه كما يكشط الجلد عن السنام.

﴿ وإذا الجحيم سُعّرت ﴾، قرأ أهل المدينة والشام وحفص عن عاصم ﴿ سعرت ﴾ بالتشديد، وقرأ الباقون بالتخفيف أي أوقدت لأعداء الله.

﴿ وإذا الجنة أُزلفت ﴾، قُرّبت لأولياء الله.

﴿ علمت ﴾، عند ذلك كل، ﴿ نفس ما أحضرت ﴾، من خير أو شر، وهذا جواب لقوله: ﴿إذا الشمس كوّرت ﴾ وما بعدها.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ فلا أُقسم بالخنس * الجوار الكنّس ﴾، ولا زائدة معناه أقسم بالخنس، قال قتادة: هي النجوم تبدو بالليل وتخنس بالنهار، فتخفى فلا ترى. وعن علي أيضاً: أنها الكواكب تخنس بالنهار فلا ترى، وتكنس بالليل فتأوي إلى مجاريها. وقال قوم: هي النجوم الخمسة زُحَل والمشتري والمرّيخ والزهرة وعُطارد، تخنس في مجراها أي ترجع وراءها وتكنس تستتر وقت اختفائها وغروبها، كما تكنس الظباء في مغارها. وقال ابن زيد: معنى الخنس أنها تخنس أي تتأخر عن مطالعها في كل عام تأخراً تتأخره عن تعجيل ذلك الطلوع، تخنس عنه

والكنس معناه أنها لا ترى بالنهار، وقيل هي الظباء، وهي رواية عن ابن عباس، وأصل الخنوس الرّجوع إلى وراء، والكنوس هو أن تأوي إلى كناسها، وهو الموضع الذي يأوي إليه الوحوش. ﴿واللّيل إذا عسعس﴾ أي أقبل بظلامه وقيل أدبر، والعسعسة رقة الظّلام، وذلك يكون في طرف الليل. ﴿والصّبح إذا تنفس﴾ أي أقبل وبدا أوله وقيل أسفر.

وفي تنفسه قولان أحدهما: أن في إقبال الصبح روحاً، ونسيماً فجعل ذلك نفساً على المجاز الثاني، أنه شبه الليل بالمكروب المحزون، فإذا تنفس وجد راحة، فكأنه تخلص من الحزن، فعبر عنه بالتنفس، فهو استعارة لطيفة، ولما ذكر المقسم به أتبعه بالمقسم عليه فقال تعالى: ﴿إنه﴾ يعني القرآن ﴿لقول رسول كريم﴾ يعني جبريل عليه الصلاة والسلام والمعنى أن جبريل نزل به عن الله عز وجل: ﴿ذي قوة﴾ وكان من قوته أنه اقتلع قرى قوم لوط الأربع من الماء الأسود، وحملها على جناحه، فرفعها إلى السماء، ثم قلبها، وأنه أبصر إبليس يكلم عيسى عليه الصلاة والسلام على بعض عقاب الأرض المقدسة، فنفحه بجناحه نفحة ألقاه إلى أقصى جبل بالهند، وأنه صاح صيحة بثمود، فأصبحوا جاثمين، وأنه يهبط من السّماء إلى الأرض، ثم يصعد في أسرع من رد الطّرف ﴿عند ذي العرش مكين﴾ أي في المنزلة والجاه ﴿مطاع ثم﴾ أي في السموات تطيعه الملائكة، ومن طاعة الملائكة له أنهم فتحوا أبواب السّموات ليلة المعراج بقوله لرسول الله ﷺ وفتح خزنة الجنة أبوابها بقوله ﴿أمين﴾ يعني على وحي الله تعالى إلى أنبيائه ﴿وما صاحبكم﴾ يعني محمداً ﷺ يخاطب كفار مكة ﴿بمجنون﴾ وهذا أيضاً من جواب القسم أقسم على أن القرآن نزل به جبريل وأن محمداً ﷺ ليس بمجنون كما يقول أهل مكة، وذلك أنهم قالوا إنه مجنون، وأن ما يقوله ليس هو إلا من عند نفسه فنفى الله عنه الجنون، وكون القرآن من عند نفسه.

بتأخرها. والكنس أي تكنس بالنهار فلا ترى. وروى الأعمش عن إبراهيم عن عبد الله أنها هي الوحش. وقال سعيد بن جبير: هي الظباء. وهي رواية العوفي عن ابن عباس. وأصل الخنوس: الرجوع إلى وراء، والكنوس أي تأوي إلى مكانسها، وهي المواضع التي تأوي إليها الوحوش.

﴿ والليل إذا عسعس ﴾، قال الحسن: أقبل بظلامه. وقال الآخرون أدبر. تقول العرب: عسعس الليل وسعسع إذا أدبر ولم يبقَ منه إلاّ اليسير.

﴿ والصبح إذا تنفس ﴾، أقبل وبدا أوله وقيل امتد ضوءه وارتفع.

﴿ إنه ﴾، يعني القرآن. ﴿ لقول رسول كريم ﴾، يعني جبريل أي نزل به جبريل عن الله تعالى.

﴿ ذي قوة ﴾، وكان من قوته أنه اقتلع قريات قوم لوط من الماء الأسود وحملها على جناحه فرفعها إلى السماء ثم قلبها، وأنه أبصر إبليس يكلّم عيسى على بعض عقاب الأرض المقدسة فنفخه بجناحه نفخة ألقاه إلى أقصى جبل بالهند، وأنه صاح صيحة بثمود فأصبحوا جاثمين، وأنه يهبط من السماء إلى الأرض ويصعد في أسرع من الطرف، ﴿ عند ذي العرش مكين ﴾، في المنزلة.

﴿ مطاع ثَمّ ﴾، أي في السمٰوات تطيعه الملائكة ومن طاعة الملائكة إياه أنهم فتحوا أبواب السمٰوات ليلة المعراج، بقوله لرسول الله ﷺ وفتح خَزَنَة الجنة أبوابها بقوله: ﴿ أمين ﴾، على وحي الله ورسالته إلى أنبيائه.

﴿ وما صاحبكم بمجنون ﴾، يقول لأهل مكة وما صاحبكم يعني محمداً ﷺ بمجنون. وهذا أيضاً من جواب القسم أقسم على أن القرآن نزل به جبريل، وأن محمداً ليس كما يقوله أهل مكة، وذلك أنهم قالوا إنه مجنون، وما يقول يقوله من عند نفسه.

وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنْ هُوَ
إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾

﴿ولقد رآه﴾ يعني رأى النبي ﷺ جبريل عليه الصلاة والسلام على صورته التي خلق فيها ﴿بالأفق المبين﴾ يعني بالأفق الأعلى من ناحية المشرق حيث تطلع الشّمس، وروى البغوي بإسناد الثعلبي عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ لجبريل عليه الصّلاة والسّلام «إني أحب أن أراك في صورتك التي تكون فيها في السّماء قال: لن تقوى على ذلك قال، بلى قال فأين تشاء أن أتخيل لك قال بالأبطح، قال لا يسعني ذلك، قال: فبمنى قال لا يسعني ذلك قال فبعرفات، قال: لا يسعني ذلك قال بحراء قال إن يسعني فواعده فخرج النبي ﷺ في ذلك الوقت. فإذا هو بجبريل قد أقبل من حيال عرفات بخشخشة، وكلكلة قد ملأ ما بين المشرق، والمغرب، ورأسه في السماء، ورجلاه في الأرض، فلما رآه النبي ﷺ خر مغشياً عليه، فتحول جبريل عن صورته، وضمه إلى صدره، وقال: يا محمد لا تخف، فكيف لو رأيت إسرافيل، ورأسه تحت العرش، ورجلاه في تخوم الأرض السابعة، وإن العرش لعلى كاهله، وإنه ليتضاءل أحياناً من مخافة الله جلّ جلاله وعلا علاؤه وشأنه حتى يصير كالصّعو، يعني العصفور حتى ما يحمل عرش ربك إلا عظمته» ﴿وما هو﴾ يعني محمداً ﷺ ﴿على الغيب﴾ أي الوحي وخبر السّماء، وما اطلع عليه مما كان غائباً عن علمه من القصص والأنباء. ﴿بضنين﴾ قرأ بالظاء، ومعناه بمتهم والمظنة التهمة، وقرىء بضنين بالضاد، ومعناه

﴿ ولقد رآه ﴾، يعني رأى النبي ﷺ جبريل عليه السلام على صورته، ﴿ بالأفق المبين ﴾، وهو الأفق الأعلى من ناحية المشرق، قاله مجاهد وقتـادة أخبرنا أحمد بن إبراهيم الشريحي أنا أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي أخبرني ابن فنجويه ثنا محمد بن جعفر ثنا الحسن ابن عليوة ثنا إسماعيل بن عيسى ثنا إسحاق بن بشر أنا ابن جريج عن عكرمة بن خالد ومقاتل عن عكرمة عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ لجبريل: «إني أُحبّ أن أراك في صورتك التي تكون فيها في السماء»، قال: لن تقوى على ذلك، قال: «بلى»، قال: فأين تشاء أن أتخيل لك؟ قال: «بالأبطح»، قال: لا يسعني، قال: «فههنا»، قال: لا يسعني، قال: «فبعرفات»، قال: ذلك بالحرّان يسعني فواعده، فخرج النبي ﷺ في الوقت فإذا هو بجبريل قد أقبل من جبال عرفات بخشخشة وكلكلة، قد ملأ ما بين المشرق والمغرب، ورأسه في السماء ورجلاه في الأرض، فلما رآه النبي ﷺ كبّر وخرّ مغشيّاً عليه. قال: فتحوّل جبريل في صورته فضمّه إلى صدره، وقال: يا محمد لا تخف فكيف لو رأيت إسرافيل ورأسه من تحت العرش ورجلاه في تخوم الأرض السابعة، وأن العرش لعلى كاهله، وإنـه ليتضاءل أحيـاناً من مخـافة الله عـزّ وجلّ حتى يصير مثل الصعو يعني العصفور، حتى ما يحمل عرش ربّك إلاّ عظمته.

﴿ وما هو ﴾، يعني محمداً ﷺ، ﴿ على الغيب ﴾، أي الوحي، وخبر السماء وما أطلع عليه مما كان غائباً عنه من الأنباء والقصص، ﴿ بضنين ﴾، قرأ أهل مكة والبصرة والكسائي بالظاء أي بمتّهم، يقال: فلان يظن بمال ويزن أي يتّهم به والظنّة التهمة، وقرأ الآخرون بالضاد أي يبخل يقول إنه يأتيه علم الغيب فلا يبخل به عليكم بل يعلمكم ويخبركم به، ولا يكتمه كما يكتم الكاهن ما عنده حتى يأخذ عليه حلواناً، تقول العرب: ضننت بالشيء بكسر النون أضنّ به ضنّاً وضنانةً فأنا به ضنين أي بخيل.

﴿ وما هو ﴾، يعني القرآن، ﴿ بقول شيطان رجيم ﴾، قال الكلبي: يقول إن القرآن ليس بشعر ولا كهانة كما قالت قريش.

ببخيل يقول إنه يأتيه علم الغيب، ولا يبخل به عليكم، ويخبركم به، ولا يكتمه كما يكتم الكاهن ما عنده حتى يأخذ عليه حلواناً، وهو أجرة الكاهن، وقراءة الظاء أولى لأنهم لم يبخلوه، وإنما اتهموه، فنفى الله عنه تلك التهمة، ولو أراد البخل لقال وما هو بالغيب. ﴿**وما هو**﴾ يعني القرآن ﴿**بقول شيطان رجيم**﴾ يعني إن القرآن ليس بشعر، ولا كهانة كما قالت قريش، وقيل كانوا يقولون إن شيطاناً يلقيه على لسانه، فنفى الله ذلك عنه، ﴿**فأين تذهبون**﴾ أي فأين تعدلون عن القرآن، وفيه الشفاء، والهدى، والبيان، وقيل معناه أي طريق تسلكون أبين من هذه الطريقة التي قد بينت لكم. ﴿**إن هو**﴾ يعني ما في القرآن ﴿**إلا ذكر للعالمين**﴾ أي موعظة للخلق أجمعين ﴿**لمن شاء منكم أن يستقيم**﴾ أي يتبع الحق، ويقيم عليه، وينتفع به ثم بين أن مشيئة العبد موقوفة بمشيئته فقال تعالى: ﴿**وما تشاؤون إلا أن يشاء الله رب العالمين**﴾ أعلمهم الله أن المشيئة في التوفيق للاستقامة إليه، وأنهم لا يقدرون على ذلك إلا بمشيئة الله، وتوفيقه، وفيه إعلام أن أحداً لا يعمل خيراً إلا بتوفيق الله تعالى؛ ولا شراً إلا بخذلانه، ومشيئته والله تعالى أعلم.

﴿ **فأين تذهبون** ﴾، أي أين تعدلون عن هذا القرآن، وفيه الشفاء والبيان قال الزجّاج: أي طريق تسلكون أبين من هذه الطريقة التي قد بيّنت لكم.

ثم بيّن فقال: ﴿ **إنْ هو** ﴾، أي ما القرآن، ﴿ **إلّا ذكرٌ للعالمين** ﴾، موعظة للخلق أجمعين.

﴿ **لِمَن شاء منكم أن يستقيم** ﴾، أي يتبع الحق ويقيم عليه.

﴿ **وما تشاؤون إلّا أن يشاء الله ربّ العالمين** ﴾، أي أعلمهم أن المشيئة في التوفيق إليه وأنهم لا يقدرون على ذلك إلّا بمشيئة الله وفيه إعلام أن أحداً لا يعمل خيراً إلّا بتوفيق الله ولا شرّاً إلّا بخذلانه.

سورة الانفطار

مكية وهي تسع عشرة آية وثمانون كلمة وثلاثمائة وسبعة وعشرون حرفاً

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴿٤﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴿٥﴾ يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴿٦﴾

قوله عز وجل: ﴿**إذا السّماء انفطرت**﴾ أي انشقت ﴿**وإذا الكواكب انتثرت**﴾ أي تساقطت ﴿**وإذا البحار فجرت**﴾ أي فجر بعضها في بعض واختلط العذب بالملح، فصارت بحراً واحداً، وقيل معنى فجرت فاضت. ﴿**وإذا القبور بعثرت**﴾ أي بحثرت، وقلب ترابها وبعث من فيها منه الموتى أحياء. ﴿**علمت نفس ما قدمت وأخرت**﴾ يعني علمت في ذلك اليوم ما قدمت من عمل صالح، أو سيىء، وأخرت بعدها من حسنة أو سيئة، وقيل ما قدمت من الصّدقات وأخرت من الزّكوات، وهذه أحوال يوم القيامة. قوله عز وجل: ﴿**يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم**﴾ أي ما خدعك، وسول لك الباطل حتى صنعت ما صنعت، وضيعت ما أوجب عليك، والمعنى ماذا أمنك من عقابه، قيل

سُوْرَة الانفطار

مكيّة وهي تسع عشرة آية.

﴿ **إذا السماء انفطرت** ﴾، انشقّت.

﴿ **وإذا الكواكب انتثرت** ﴾، تساقطت.

﴿ **وإذا البحار فجرت** ﴾، فجّر بعضها في بعض واختلط العذب بالملح فصارت بحراً واحداً. وقال الربيع: فجرت فاضت.

﴿ **وإذا القبور بعثرت** ﴾، بحثرت وقلب ترابها وبعث مَن فيها من الموتى أحياءً، يقال: بعثرت الحوض وبحثرته إذا قلبته فجعلت أسفله أعلاه.

﴿ **علمت نفسٌ ما قدّمت وأخّرت** ﴾، قيل ما قدّمت من عمل صالح أو سيىء، وما أخّرت من سنة حسنة أو سيئة. وقيل: ما قدّمت من الصدقات وأخّرت من التِركات، على ما ذكرنا في قوله: ﴿ ينبأ الإنسان يومئذ بما قدّم وأخّر ﴾ [القيامة: ١٣].

﴿ **يا أيها الإنسان ما غرّك بربك الكريم** ﴾، ما خدعك وسوَّل لك الباطل حتى أضعت ما وجب عليك، والمعنى: ماذا أمنك من عقابه؟ قال عطاء: نزلت في الوليد بن المغيرة. وقال الكلبي ومقاتل: نزلت في أبي الشريق

نزلت في الوليد بن المغيرة، وقيل في أبي الشّريق، واسمه أسيد بن كلدة، وقيل كلدة بن خلف، وكان كافراً ضرب النبي ﷺ فلم يعاقبه الله وأنزل الله هذه الآية، وقيل الآية عامة في كل كافر، وعاص يقول ما الذي غرك، قيل غره حمقه، وجهله وقيل تسويل الشّيطان له، وقيل غره عفو الله عنه حيث لم يعاجله بالعقوبة في أول مرة بربك الكريم، أي المتجاوز عنك، فهو بكرمه لك لم يعاجلك بعقوبته بل بسط لك المدة لرجاء التّوبة. قال ابن مسعود «ما منكم من أحد إلا سيخلو الله عز وجل به يوم القيامة. فيقول: يا ابن آدم ما غرك بي يا ابن آدم! ماذا عملت؟ فيما علمت يا ابن آدم؟ ماذا أجبت المرسلين»، وقيل للفضيل بن عياض لو أقامك الله يوم القيامة فيقول لك يا ابن آدم ما غرك بربك الكريم؛ ماذا كنت تقول. قال: أقول غرني ستورك المرخاة، وقال يحيى بن معاذ: لو أقامني بين يديه، وقال ما غرك بي أقول غرني بربك بي سالفاً وآنفاً، وقال أبو بكر الوراق لو قال لي ما غرك بربك الكريم لقلت غرني كرم الكريم، وقال بعض أهل الإشارة. إنما قال بربك الكريم دون سائر أسمائه، وصفاته كأنه لقنه حجته في الإجابة حتى يقول غرني كرم الكريم.

﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾ كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ﴿٩﴾ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَـٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَـٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿١٥﴾﴾

﴿**الذي خلقك**﴾ أي أوجدك من العدم إلى الوجود ﴿**فسواك**﴾ أي جعلك سوياً سالم الأعضاء، تسمع وتبصر ﴿**فعدلك**﴾ أي عدل خلقك في مناسبة الأعضاء فلم يجعل بعضها أطول من بعض، وقيل معناه جعلك قائماً معتدلاً حسن الصّورة، ولم يجعلك كالبهيمة المنحنية ﴿**في أي صورة ما شاء ركبك**﴾ أي في أي شبه من أب أو أم أو خال أو عم، وجاء في الحديث «إن النطفة إذا استقرت في الرحم. أحضر كل عرق بينه وبين آدم ثم قرأ: ﴿**في أي صورة ما**

ضرب النبي ﷺ فلم يعاقبه الله عزّ وجلّ، فأنزل الله هذه الآية يقول: ما الذي غرّك بربك الكريم المتجاوز عنك إذ لم يعاقبك عاجلاً بكفرك؟ قال قتادة: غرّه عدوّه المسلّط عليه يعني الشيطان. قال مقاتل: غرّه عفو الله حين لم يعاقبه في أول مرة. وقال السدي: غرّه رفق الله به. وقال ابن مسعود: ما منكم من أحد إلّا سيخلو الله به يوم القيامة. فيقول: يا ابن آدم ما غرّك بي؟ يا ابن آدم ماذا عملت فيما علمت؟ يا ابن آدم ماذا أجبت المرسلين؟ وقيل للفضيل بن عياض: لو أقامك الله يوم القيامة فقال: يا فضيل ما غرّك بربّك الكريم؟ ماذا كنت تقول؟ قال: أقول غرّني ستورك المرخاة. وقال يحيىٰ بن معاذ لو أقامني بين يديه فقال: يا يحيىٰ ما غرّك بي؟ قلت: غرّني بك برّك بي سالفاً وآنفاً. وقال أبو بكر الورّاق: لو قال لي: ما غرّك بربك الكريم؟ لقلت: غرّني بك كرم الكريم. قال بعض أهل الإشارة: إنما قال بربك الكريم دون سائر أسمائه وصفاته كأنه لقّنه الإجابة حتى يقول: غرّني كرم الكريم.

﴿ **الذي خلقك فسوّاك فعدلك** ﴾، قرأ أهل الكوفة وأبو جعفر ﴿ **فَعَدَلَكَ** ﴾ بالتخفيف فصرفك وأمالك إلى أيّ صورة شاء حسناً وقبيحاً وطويلاً وقصيراً. وقرأ الآخرون بالتشديد أي قومك وجعلك معتدل الخلق والأعضاء.

﴿ **في أيّ صورة ما شاء ركّبك** ﴾، قال مجاهد والكلبي ومقاتل: في أيّ شبه من أب أو أُم أو خال أو عم وجاء في الحديث أن النطفة إذا استقرت في الرحم أحضر كل عرق بينه وبين ابن آدم ثم قرأ ﴿ **في أيّ صورة ما شاء ركّبك** ﴾، وذكر الفرّاء والزجّاج قولاً آخر ﴿ **في أيّ صورة ما شاء ركّبك** ﴾ إمّا طويلاً أو قصيراً أو حسناً أو غير ذلك. قال عكرمة وأبو صالح في أيّ صورة ما شاء ركّبك، إن شاء في صورة إنسان وإن شاء في صورة دابّة، أو حيوان آخر.

شاء ركبك﴾»، وقيل معناه إن شاء ركبك في صورة إنسان، وإن شاء في صورة دابة أو حيوان، وقيل في أي صورة ما شاء ركبك من الصور المختلفة بحسب الطول، والقصر، والحسن، والقبح والذكورة، والأنوثة، وفي هذه دلالة على قدرة الصانع المختار القادر. وذلك أنه لما اختلفت الهيئات، والصفات دل ذلك على كمال القدرة، واتساع الصنعة، وأن المدبر المختار هو الله تعالى.

قوله عز وجل: ﴿**كلا بل تكذبون بالدين**﴾ أي بيوم الحساب والجزاء ﴿**وإن عليكم لحافظين**﴾ يعني رقباء من الملائكة يحفظون عليكم أعمالكم ﴿**كراماً**﴾ أي على الله ﴿**كاتبين**﴾ أي يكتبون أقوالكم وأعمالكم ﴿**يعلمون ما تفعلون**﴾ يعني من خير أو شر. قوله عز وجل ﴿**إن الأبرار**﴾ يعني الذين بروا وصدقوا في إيمانهم بأداء ما افترض الله عليهم، واجتناب معاصيه. ﴿**لفي نعيم**﴾ يعني نعيم الجنة ﴿**وإن الفجار لفي جحيم**﴾ روي أن سليمان بن عبد الملك قال: لأبي حازم المزني ليت شعري ما لنا عند الله، فقال له: اعرض عملك على كتاب الله، فإنك تعلم ما لك عند الله، قال: أين أجد ذلك في كتاب الله؟ قال: عند قوله ﴿**إن الأبرار لفي نعيم وإن الفجار لفي جحيم**﴾ قال سليمان فأين رحمة الله قال قريب من المحسنين ﴿**يصلونها يوم الدين**﴾ يعني يوم القيامة لأنه يوم الجزاء.

وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ﴿١٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾

﴿**وما هم عنها بغائبين**﴾ أي عن النّار ثم عظم شأن ذلك اليوم فقال تعالى: ﴿**وما أدراك ما يوم الدين**﴾ قيل

﴿ **كلا بل تكذبون** ﴾، قرأ أبو جعفر بالياء، وقرأ الآخرون بالتاء لقوله: ﴿ **وإنّ عليكم لحافظين** ﴾، ﴿ **بالدين** ﴾، بالجزاء والحساب.

﴿ **وإنّ عليكم لحافظين** ﴾، رقباء من الملائكة يحفظون عليكم أعمالكم.

﴿ **كراماً** ﴾ على الله، ﴿ **كاتبين** ﴾، يكتبون أقوالكم وأعمالكم.

﴿ **يعلمون ما تفعلون** ﴾، من خير أو شرّ.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ **إنّ الأبرار لفي نعيم** ﴾، الأبرار الذين برّوا وصدقوا في إيمانهم بأداء فرائض الله عزّ وجلّ واجتناب معاصيه.

﴿ **وإنّ الفجّار لفي جحيم** ﴾، رُوِيَ أن سليمان بن عبد الملك قال لأبي حازم المزني: ليت شعري ما لنا عند الله؟ قال: أعرض عملك على كتاب الله فإنك تعلم ما لك عند الله؟ فقال: فأين أجده في كتاب الله؟ فقال عند قوله: ﴿ **إن الأبرار لفي نعيم * وإن الفجّار لفي جحيم** ﴾، قال سليمان فأين رحمة الله؟ قال: ﴿ قريب من المحسنين ﴾ [الأعراف: ٥٦].

قوله عزّ وجلّ: ﴿ **يصلونها** ﴾، يدخلونها، ﴿ **يوم الدين** ﴾، يوم القيامة.
﴿ **وما هم عنها بغائبين** ﴾.

ثم عظم ذلك اليوم، فقال: ﴿ **وما أدراك ما يوم الدين** ﴾، كرّر تفخيماً لشأنه.

فقال: ﴿ **ثم ما أدراك ما يوم الدين * يوم لا تملك** ﴾، قرأ أهل مكة والبصرة يوم برفع الميم ردّاً على اليوم

المخاطب بذلك هو الكافر، وهو على وجه الزّجر له، وقيل هو خطاب للنبي ﷺ: والمعنى أي شيء أعلمك به لو لم نعرفك أحواله ﴿**ثم ما أدراك ما يوم الدين**﴾ التكرير لتعظيم ذلك اليوم، وتفخيم شأنه ﴿**يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً**﴾ أي لا تملك نفس كافرة لنفس كافرة شيئاً من المنفعة ﴿**والأمر يومئذ لله**﴾ يعني أنه لم يملك الله في ذلك أحداً شيئاً كما ملكهم في الدنيا، والله أعلم.

الأول، وقرأ الآخرون بنصبها أي في يوم يعني هذه الأشياء في يوم لا تملك. ﴿ **نفسٌ لنفسٍ شيئاً** ﴾، قال مقاتل: يعني لنفس كافرة شيئاً من المنفعة، ﴿ **والأمر يومئذ لله** ﴾، أي يوم لا يُملّك الله في ذلك اليوم أحداً شيئاً كما ملّكهم في الدنيا.

سورة المطففين

مدنية في قول ومكية في قول: وقيل فيها ثمان آيات مكية وهي من قوله: ﴿إن الذين أجرموا﴾ إلى آخرها، وقيل فيها آية مكية، وهي قوله تعالى: ﴿إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين﴾ وقيل إنها نزلت بين مكة، والمدينة زمن الهجرة، وهي ست وثلاثون آية ومائة وتسع وستون كلمة وسبعمائة وثلاثون حرفاً.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾

قوله عز وجل: ﴿ويل﴾ أي قبح وهي كلمة تذكر عند وقوع البلاء، يقال ويل له وويل عليه، وقيل ويل إسم واد في جهنم ﴿للمطففين﴾ يعني الذين ينقصون المكيال والميزان لأنه لا يكاد المطفف يسرق في الكيل والوزن، إلا الشيء اليسير الطّفيف قال ابن عباس: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة كانوا من أخبث النّاس كيلاً. فأنزل الله عز وجل: ﴿ويل للمطففين﴾ فأحسنوا الكيل، وقيل لما قدم رسول الله ﷺ المدينة، وبها رجل يقال له أبو جهينة، ومعه صاعان يكيل بأحدهما، ويكتال بالآخر، فأنزل الله هذه الآية وجعل الويل للمطففين ثم بين من هم. فقال تعالى: ﴿الذين إذا اكتالوا على النّاس يستوفون﴾ يعني أنهم إذا اكتالوا من النّاس، ومن وعلى يتعاقبان، وقيل معناه إذا اكتالوا من النّاس، أي اشتروا شيئاً استوفوا عليهم لأنفسهم الكيل والوزن.

سُورَة المُطفِّفِين

مكيّة أو مدنيّة وهي ستّ وثلاثون آية.

﴿ ويلٌ للمطفّفين ﴾، يعني الذين ينقصون المكيال والميزان ويبخسون حقوق الناس. قال الزجّاج: إنما قيل للذي ينقص المكيال والميزان مطفّف لأنه لا يكاد يسرق في المكيال والميزان إلاّ الشيء اليسير الطفيف. أخبرنا أبو بكر يعقوب بن أحمد بن محمد علي الصيرفي ثنا أبو محمد الحسن بن أحمد المخلدي أنا أبو حامد أحمد بن محمد بن الحسن الحافظ ثنا عبد الرحمن بن بشر ثنا علي بن الحسين بن واقد حدّثني أبي حدّثني يزيد النحوي أن عكرمة حدّثه عن ابن عباس قال: لمّا قَدِمَ رسول الله ﷺ المدينة كانوا من أخبث الناس كيلاً، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿ ويلٌ للمطففين ﴾ فأحسنوا الكيل. وقال السدي: قَدِمَ رسول الله ﷺ المدينة وبها رجل يقال له أبو جهينة ومعه صاعان يكيل بأحدهما ويكتال بالآخر فأنزل الله هذه الآية، فالله تعالى جعل الويل للمطفّفين.

ثم بيّن أن المطففين مَن هم فقال: ﴿ الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون ﴾، وأراد إذا اكتالوا من الناس أي أخذوا منهم، و(مَنْ)، و(عَلى) يتعاقبان. قال الزجّاج: المعنى إذا اكتالوا من الناس استوفوا عليهم الكيل، وأراد الذين إذا اشتروا لأنفسهم استوفوا في الكيل والوزن.

﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣ أَلَا يَظُنُّ أُولَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ۝٧﴾

﴿**وإذ كالوهم أو وزنوهم**﴾ يعني وإذا كالوا لهم أو وزنوا لهم للناس كما يقال نصحتك ونصحت لك. ﴿**يخسرون**﴾ أي ينقصون الكيل والوزن وهذا الوعيد يلحق من يأخذ لنفسه زائداً ويدفع إلى غيره ناقصاً، ويتناول الوعيد القليل والكثير لكن إذا لم يتب، منه فإن تاب منه ورد الحقوق إلى أهلها قبلت توبته ومن فعل ذلك، وأصر عليه كان مصراً على كبيرة من الكبائر، وذلك لأن عامة الخلق محتاجون إلى المعاملات وهي مبنية على أمر الكيل والوزن والذرع، فلهذا السبب عظم الله أمر الكيل والوزن، قال نافع: كان ابن عمر يمر بالبائع فيقول له اتق الله أوف الكيل والوزن، فإن المطففين يوقفون يوم القيامة حتى يلجمهم العرق، وقال قتادة: أوف يا ابن آدم كما تحب أن يوفى لك، واعدل كما تحب أن يعدل لك قال الفضيل: بخس الميزان سواد يوم القيامة. ﴿**ألا يظن**﴾ أي ألا يعلم ويستيقن ﴿**أولئك**﴾ أي الذين يفعلون هذا الفعل، وهم المطففون ﴿**أنهم مبعوثون ليوم عظيم**﴾ يعني يوم القيامة ﴿**يوم يقوم النّاس**﴾ يعني من قبورهم ﴿**لرب العالمين**﴾ أي لأمره وجزائه وحسابه (ق) عن نافع «أن ابن عمر تلا ﴿**ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم يوم يقوم النّاس لرب العالمين**﴾، قال يقوم أحدهم في رشحه إلى أنصاف أذنيه»، وروي مرفوعاً عن المقداد قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول «تدنو الشّمس من رؤوس الخلائق يوم القيامة حتى تكون منهم

﴿ **وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون** ﴾، أي كالوا لهم أو وزنوا لهم أي للناس يقال وزنتك حقك وكلتك طعامك أي وزنت لك وكلت لك كما يقال نصحتك ونصحت لك وشكرتك وشكرت لك كتبك وكتبت لك. قال أبو عبيدة وكان عيسى بن عمر يجعلهما حرفين يقف على (كالوا أو وزنوا) ويتبدىء (هم يخسرون) قال أبو عبيدة: والاختيار الأولى يعني أن كل واحدة كلمة واحدة، لأنهم كتبوهما بغير ألف، ولو كانتا مقطوعتين لكتب: (كالوا أو وزنوا) بالألف كسائر الأفعال مثل جاؤوا وقالوا: واتفقت المصاحف على إسقاط الألف، ولأنه يقال في اللغة: كلتك وزنتك كما يقال كلت لك وزنت لك. وقوله: ﴿ **يخسرون** ﴾ أي ينقصون، قال نافع: كان ابن عمر يمرّ بالبائع فيقول اتّق الله أوفِ الكيل والوزن، فإن المطففين يوقفون يوم القيامة حتى إن العرق ليلجمهم إلى أنصاف آذانهم.

﴿ **ألا يظن** ﴾، يستيقن، ﴿ **أولئك** ﴾، الذين يفعلون ذلك، ﴿ **أنهم مبعوثون * ليوم عظيم** ﴾، يعني يوم القيامة.

﴿ **يوم يقوم الناس** ﴾، من قبورهم، ﴿ **لربّ العالمين** ﴾، أي لأمره ولجزائه ولحسابه، أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل أنا إبراهيم بن المنذر أنا معن حدّثني مالك عن نافع عن عبد الله بن عمر أن النبي ﷺ قال: «يقوم الناس لربّ العالمين حتى يغيب أحدهم في رشحه إلى أنصاف أذنيه». أخبرني أبو بكر محمد بن عبد الله بن أبي توبة الكشميهني أنا أبو طاهر محمد بن أحمد بن الحارث ثنا محمد بن يعقوب الكسائي ثنا عبد الله بن محمود ثنا إبراهيم بن عبد الله الخلال ثنا عبد الله بن المبارك عن عبد الرحمن بن يزيد عن جابر حدّثني سليم بن عامر حدّثني المقداد صاحب رسول الله ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا كان يوم القيامة أدنيت الشمس من العباد حتى تكون قدر ميل أو ميلين»، قال سليم: لا أدري أيّ الميلين يعني مسافة الأرض أو الميل الذي تكحل به العين، قال: «فتصهرهم الشمس فيكونون في العرق بقدر أعمالهم، فمنهم مَن يأخذه إلى عقبيه ومنهم مَن يأخذه إلى ركبتيه ومنهم مَن يأخذه إلى حقويه،

كمقدار ميل» زاد الترّمذي أو ميلين «قال سليم بن عامر والله ما أدري ما يعني بالميل مسافة الأرض، أو الميل ما تكتحل به العين قال فيكون النّاس على قدر أعمالهم في العرق فمنهم من يكون إلى كعبيه ومنهم من يكون إلى ركبتيه ومنهم من يكون إلى حقويه ومنهم من يلجمه العرق إلجاماً، وأشار رسول الله ﷺ بيديه إلى فيه» قوله عز وجل: ﴿**كلا**﴾ قيل إنه ردع وتنبيه أي ليس الأمر على ما هم عليه من بخس الكيل والميزان، فليرتدعوا عنه فعلى هذا تم الكلام هنا، وقيل كلا ابتداء يتصل بما بعده على معنى حقاً ﴿**إن كتاب الفجار**﴾ أي الذي كتبت فيه أعمالهم ﴿**لفي سجين**﴾ قال ابن عمر هي الأرض السابعة السفلى، وفيها أرواح الكفار وروى البغوي بإسناد الثعلبي عن البراء قال: قال رسول الله ﷺ «سجين أسفل سبع أرضين وعليون في السماء السابعة تحت العرش» وقال شمر بن عطية: جاء ابن عباس إلى كعب الأحبار فقال أخبرني عن قول الله عز وجل ﴿**إن كتاب الفجار لفي سجين**﴾ قال إن روح الفاجر يصعد بها إلى السماء، فتأبى السماء أن تقبلها ثم يهبط بها إلى الأرض، فتأبى أن تقبلها فتدخل تحت سبع أرضين حتى ينتهي بها إلى سجين، وهو موضع جند إبليس فيخرج لها من سجين رق، فليقم ويختم ويوضع تحت جند إبليس لمعرفتها الهلاك بحساب يوم القيامة، وقيل هي صخرة تحت الأرض السابعة السفلى خضراء خضرة السماء منها فتقلب، ويجعل كتاب الفجار تحتها، قال وهب: هي آخر سلطان إبليس وجاء في الحديث «الفلق جب في جهنم مغطى وسجين جب في جهنم مفتوح»، وقيل معناه لفي سجين لفي خسار وضلال، وقيل إنه مشتق من السجن، ومعناه لفي حبس وضيق شديد.

وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾ كِتَـٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿١١﴾ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا

ومنهم مَن يلجمه إلجاماً» فرأيت رسول الله ﷺ، وهو يشير بيده إلى فيه يقول: «يلجمه إلجاماً».

قوله عزّ وجلّ: ﴿ **كلا** ﴾، ردع أي ليس الأمر على ما هم عليه فليرتدعوا، وتمام الكلام ههنا، وقال الحسن: كلّا ابتداء يتصل بما بعده على معنى حقاً، ﴿ **إنّ كتاب الفجار** ﴾، الذي كتبت فيه أعمالهم، ﴿ **لفي سجين** ﴾، قال عبد الله بن عمرو وقتادة ومجاهد والضحاك: ﴿ **سجين** ﴾ هي الأرض السابعة السفلى فيها أرواح الكفّار. أخبرنا أبو سعيد الشريحي أنا أبو إسحاق الثعلبي أنا الحسين بن محمد بن فنجويه: ثنا موسى بن محمد ثنا الحسن بن علويه أنا إسماعيل بن عيسى ثنا المسيب ثنا الأعمش عن المنهال عن زاذان عن البراء قال: قال رسول الله ﷺ سجين أسفل سبع أرضين، وعليون في السماء السابعة تحت العرش. وقال سمرة بن عطية: جاء ابن عباس إلى كعب الأحبار فقال: أخبرني عن قول الله عزّ وجلّ: ﴿ **إن كتاب الفجار لفي سجين** ﴾، فقال: إن روح الفاجر يصعد بها إلى السماء فتأبى السماء أن تقبلها ثم تهبط بها إلى الأرض، فتأبى الأرض أن تقبل فتدخل تحت سبع أرضين حتى ينتهي بها إلى سجين، وهو موضع جند إبليس، فيخرج لها من سجين من تحت جند إبليس رقّ فيرقم ويختم ويوضع تحت جند إبليس، لمعرفتها الهلاك بحساب يوم القيامة، وإليه ذهب سعيد بن جبير، قال: سجين تحت جند إبليس. وقال عطاء الخراساني: هي الأرض السفلى، وفيها إبليس وذريّته، وقال الكلبي: هي صخرة تحت الأرض السابعة السفلى خضراء، وخضرة السماء منها يجعل كتاب الفجّار تحتها. وروى ابن أبي نجيح عن مجاهد أيضاً قال: سجين صخرة تحت الأرض السفلى تقلب فيجعل كتاب الفجار فيها. وقال وهب: هي آخر سلطان إبليس. وجاء في الحديث: «الفلق حبٌّ في جهنم مغطى، وسجين حبّ في جهنّم مفتوح». وقال عكرمة: ﴿ **لفي سجين** ﴾ أي لفي خسار وضلال. وقال الأخفش: هو فعيل من السجن، كما يقال: فسيق وشريب، معناه لفي حبس وضيق شديد.

﴿كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾

﴿وما أدراك ما سجين﴾ أي ليس ذلك مما كنت تعلمه أنت، ولا قومك، وقيل إنما قال ذلك تعظيماً لأمر سجين **﴿كتاب مرقوم﴾** ليس هذا تفسيراً للسجن وإنما هو بيان للكتاب المذكور في قوله **﴿إن كتاب الفجار﴾** والمعنى إن كتاب الفجار مرقوم أي مكتوب فيه أعمالهم مثبتة عليهم كالرقم في الثّوب لا ينسى ولا يمحى حتى يحاسبوا به، ويجازوا عليه، وقيل مرقوم رقم عليه بشر كأنه علم بعلامة يعرف بها أنه كافر، وقيل مرقوم أي مختوم وهو بلغة حمير **﴿ويل يومئذ للمكذبين﴾** قيل إنه متصل بقوله يوم يقوم النّاس لرب العالمين ومعنى الآية ويل لمن كذب بهذا اليوم، وقيل معناه مرقوم بالشّقاوة، ثم قال ويل يومئذ للمكذبين أي في ذلك اليوم من ذلك الكتاب المرقوم عليهم بالشقاوة **﴿الذين يكذبون بيوم الدين﴾** أي بيوم القيامة لأنه يوم الجزاء **﴿وما يكذب به﴾** أي بيوم القيامة **﴿إلا كل معتد﴾** أي متجاوز عن نهج الحق **﴿أثيم﴾** هو مبالغة في الآثم وهو المرتكب الإثم والمعاصي **﴿إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين﴾** أي أكاذيب الأولين.

قوله عز وجل: **﴿كلا﴾** أي لا يؤمن ثم استأنف فقال **﴿بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون﴾** عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال «إن العبد إن أخطأ خطيئة نكت في قلبه نكتة فإذا هو نزع واستغفر وتاب صقل قلبه وإن عاد زيد فيها حتى تعلو قلبه، وهو الران الذي قال الله: **﴿بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون﴾**» أخرجه التّرمذي وقال: حديث حسن صحيح وأصل الرّان الغلبة ومعنى الآية أن الذّنوب والمعاصي غلبت على قلوبهم وأحاطت بها، وقيل هو الذنب على الذّنب حتى يميت القلب وقال ابن عباس: ران على قلوبهم طبع عليها، وقيل الرين أن يسود القلب من الذّنوب، والطّبع أن يطبع على القلب وهو أشد من الرّين والإقفال أشد من الطّبع وقيل الرّين التغطية، والمعنى أنه يغشى القلب شيء كالصدى فيغطيه فعند ذلك يموت القلب.

﴿ وما أدراك ما سجين ﴾، قال الزجّاج: أي ليس ذلك مما كنت تعلمه أنت ولا قومك.

﴿ كتاب مرقوم ﴾، ليس هذا تفسير السجين بل هو بيان الكتاب المذكور في قوله: إن كتاب الفجّار أي هو كتاب الفجّار مرقوم أي هو كتاب مرقوم، أي مكتوب فيه أعمالهم مثبتة عليهم كالرقم في الثوب، لا يُنسى ولا يُمحى حتى يُجازوا به. وقال قتادة ومقاتل: رقم عليه بشركائه عُلِّم بعلامة يُعرَف بها أنه كافر. وقيل: مختوم بلغة حمير.

﴿ ويلٌ يومئذ للمكذبين * الذين يكذبون بيوم الدين * وما يكذب به إلاّ كل معتدٍ أثيم * إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأوّلين ﴾.

﴿ كلا ﴾، قال مقاتل: أي لا يؤمنون، ثم استأنف فقال: **﴿ بلْ رانَ على قلوبهم ما كانوا يكسبون ﴾**، أخبرنا أبو بكر محمد بن عبد الصمد الترابي ثنا أبو محمد عبد الله بن أحمد بن حمويه السرخسي أنا إبراهيم بن حزيم الشاشي أنا أبو محمد عبد الله بن حميد الكمنتي ثنا صفوان بن عيسى عن ابن عجلان عن القعقاع بن حكيم عن أبي صالح عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن المؤمن إذا أذنب كانت نكتة سوداء في قلبه، فإن تاب ونزع واستغفر صقل قلبه منها، وإن زاد زادت حتى تعلو قلبه»، فذلك الران الذي ذكر الله في كتابه: **﴿ كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون ﴾**. وأصل الرين الغلبة، يقال: رانت الخمر على عقله ترين ريناً وريوناً إذا غلبت عليه حتى سكر، ومعنى الآية: غلبت على قلوبهم المعاصي وأحاطت بها. قال الحسن: هو الذنب على الذنب حتى يموت القلب. قال ابن عباس: ران على قلوبهم طبع عليها.

﴿كَلَّآ إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّمَحۡجُوبُونَ ١٥ ثُمَّ إِنَّهُمۡ لَصَالُواْ ٱلۡجَحِيمِ ١٦ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ١٧ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡأَبۡرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ١٨ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ١٩ كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ ٢٠﴾

﴿كلا﴾ قال ابن عباس يريد لا يصدقون وقيل معناه ليس الأمر كما يقولون إن لهم في الآخرة خيراً ثم استأنف فقال تعالى: ﴿إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون﴾ قيل عن كرامته ورحمته ممنوعون، وقيل إن الله لا ينظر إليهم ولا يزكيهم وهذا التّفسير فيه ضعف أما حمله على منع الكرامة والرّحمة فهو عدول عن الظّاهر بغير دليل، وكذا الوجه الثاني فإن من حجب عن الله فإن الله لا ينظر إليه نظر رحمة، ولا يزكيه والذي ذهب إليه أكثر المفسرين أنهم محجوبون عن رؤية الله، وهذا هو الصّحيح واحتج بهذه الآية من أثبت الرّؤية للمؤمنين قالوا: لولا ذلك لم يكن للتّخصيص فائدة، ووجه آخر وهو أنه تعالى ذكر الحجاب في معرض الوعيد والتّهديد للكفار، وما يكون وعيداً وتهديداً للكفار لا يجوز حصوله في حق المؤمنين، فوجب أن لا يحصل هذا الحجاب في حق المؤمنين قال الحسن: لو علم الزّاهدون والعابدون أنهم لا يرون ربهم في المعاد لزّهقت أنفسهم في الدّنيا.

وقيل كما حجبهم في الدّنيا عن توحيده حجبهم في الآخرة عن رؤيته وسئل مالك عن هذه الآية، فقال: لما حجب الله أعداءه فلم يروه تجلى لأوليائه حتى رأوه، وقال الشافعي في قوله ﴿كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون﴾ دلالة على أن أولياء الله يرون الله جلّ جلاله وعنه كما حجب قوماً بالسّخط دل على أن قوماً يرونه بالرضا، ثم أخبر أن الكفار مع كونهم محجوبون عن الله يدخلون النّار. فقال عز من قائل ﴿ثم إنهم لصالو الجحيم﴾ أي لداخلوا النّار ﴿ثم يقال﴾ أي تقول لهم الخزنة ﴿هذا﴾ أي هذا العذاب ﴿الذي كنتم به تكذبون﴾ يعني في الدنيا ﴿كلا﴾ أي ليس الأمر كما يتوهمه الفجار من إنكار البعث، وقيل كلا أي لا يؤمنون بالعذاب الذي يصلونه، ثم بين محل كتاب الأبرار فقال تعالى: ﴿إن كتاب الأبرار لفي عليين﴾ جمع علي من العلو، وقيل هو موضوع على صفة الجمع لا واحد له من لفظه

﴿ كلا إنهم عن ربّهم يومئذ لمحجوبون ﴾، قال ابن عباس: كلا يريد لا يصدقون، ثم استأنف فقال: ﴿ إنهم عن ربّهم يومئذ لمحجوبون ﴾، قال بعضهم: عن كرامته ورحمته ممنوعون. وقال قتادة: هو ألاّ ينظر إليهم ولا يزكّيهم. وقال أكثر المفسّرين: عن رؤيته. قال الحسن: لو علم الزاهدون العابدون أنهم لا يرون ربهم في المعاد لزهقت أنفسهم في الدنيا. قال الحسين بن الفضل كما حجبهم في الدنيا عن توحيده حجبهم في الآخرة عن رؤيته. وسُئِلَ مالك عن هذه الآية فقال: لمّا حجب أعداءه فلم يروه تجلّى لأوليائه حتى رأوه. وقال الشافعي رضي الله عنه في قوله: ﴿ كلا إنهم عن ربّهم يومئذ لمحجوبون ﴾: دلالة على أن أولياء الله يرون الله عياناً، ثم أخبر أن الكفّار مع كونهم محجوبين عن الله يدخلون النار فقال:

﴿ ثم إنهم لصالوا الجحيم ﴾، لداخلوا النار.

﴿ ثم يقال ﴾، أي تقول لهم الخَزَنَة، ﴿ هذا ﴾، أي هذا العذاب، ﴿ الذي كنتم به تكذبون ﴾.

﴿ كلا ﴾، قال مقاتل: لا يؤمن بالعذاب الذي يصلاه، ثم بيّن محل كتاب الأبرار فقال: ﴿ إنّ كتاب الأبرار لفي علّيّين ﴾، روينا عن البراء مرفوعاً: «أن علّيين في السماء السابعة تحت العرش». وقال ابن عباس: هو لوح من زبرجدة خضراء معلّق تحت العرش أعمالهم مكتوبة فيه، وقال كعب وقتادة: هو قائمة العرش اليمنى. وقال عطاء عن ابن عباس: هو الجنة. وقال الضحاك: سدرة المنتهى، وقال بعض أهل المعاني: علو بعد علو وشرف بعد شرف، ولذلك جمعت بالياء والنون. وقال الفرّاء: هو اسم موضوع على صيغة الجمع لا واحد له من لفظه مثل عشرين وثلاثين.

وتقدم من حديث البراء المرفوع إن عليين في السّماء السابعة تحت العرش وقال ابن عباس: هو لوح من زبرجدة خضراء معلق تحت العرش أعمالهم مكتوبة فيه، وقيل هو قائمة العرش اليمنى وقال ابن عباس في رواية عنه هي الجنة، وقيل هي سدرة المنتهى، وقيل معناه علو بعد علو وشرف بعد شرف، وقيل هي مراتب عالية محفوفة بالجلالة وقد عظّمها الله وأعلاها. ﴿وما أدراك ما عليون﴾ تنبيهاً له على عظم شأنه ﴿كتاب مرقوم﴾ ليس تفسير العليين، والمعنى أن كتاب الأبرار كتاب مرقوم في عليين فيه ما أعد لهم في الآخرة من الكرامة، وقيل مكتوب فيه أعمالهم وعليون محل الملائكة وضده سجين، وهو محل إبليس وجنوده.

﴿يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾﴾

﴿يشهده المقربون﴾ يعني الملائكة الذين هم في عليين يشهدون، أي يحضرون ذلك المكتوب ومن قال أنه كتاب الأعمال قال: يشهد ذلك الكتاب إذا صعد به إلى عليين المقربون من الملائكة لكرامة المؤمن.

قوله تعالى: ﴿إن الأبرار﴾ يعني المطيعين لله ﴿لفي نعيم﴾ يعني نعيم الجنة ﴿على الأرائك﴾ جمع أريكة وهي الأسرة في الحجال ﴿ينظرون﴾ أي إلى ما أعد الله لهم من نعيم الجنة، وقيل ينظرون إلى أعدائهم كيف يعذبون في النّار، وقيل ينظرون إلى ربهم سبحانه وتعالى ﴿تعرف في وجوههم نضرة النعيم﴾ يعني أنك إذا رأيتهم تعرف أنهم من أهل النعمة لما ترى على وجوههم من النّور والحسن والبياض، قيل النضرة في الوجه والسرور في القلب ﴿يسقون من رحيق﴾ يعني الخمر الصّافية الطّيبة البيضاء ﴿مختوم﴾ يعني ختم على ذلك الشراب ومنع من أن تمسه الأيدي إلى أن يفك ختمه الأبرار.

فإن قلت قد قال في سورة محمد ﷺ ﴿وأنهار من خمر﴾ والنهر لا يختم عليه فكيف طريق الجمع بين الآيتين، قلت يحتمل أن يكون المذكور في هذه الآية. في أوان مختوم عليها، وهي غير تلك الخمر التي في الأنهار، وإنما ختم

﴿ وما أدراك ما عليون * كتاب مرقوم ﴾، ليس هذا بتفسير علّيّين هو بيان الكتاب المذكور في قوله: ﴿ إن كتاب الأبرار لفي علّيين ﴾، أي مكتوب أعمالهم كما ذكرنا في كتاب الفجّار، وقيل: كتب هناك ما أعدّ الله لهم من الكرامة، وهو معنى قول مقاتل، وقيل: رقم لهم بخير وتقدير الآية على التقديم والتأخير مجازها: إنّ كتاب الأبرار كتاب مرقوم في علّيّين، وهو محل الملائكة، ومثله كتاب الفجّار كتاب مرقوم في سجين، وهو محل إبليس وجنده.

﴿ يشهده المقرّبون ﴾، يعني الملائكة الذين في علّيّين يشهدون ويحضرون ذلك المكتوب، وذلك الكتاب إذا صعد به إلى علّيّين.

﴿ إن الأبرار لفي نعيم * على الأرائك ينظرون ﴾، إلى ما أعطاهم الله من الكرامة والنعمة، وقال مقاتل: ينظرون إلى عدوّهم كيف يعذّبون.

﴿ تعرف في وجوههم نضرة النعيم ﴾، إذا رأيتهم عرفت أنهم من أهل النعمة مما ترى في وجوههم من النور والحُسْن والبياض، قال الحسن: النضرة في الوجه والسرور في القلب، وقرأ أبو جعفر ويعقوب ﴿ تعرف ﴾ بضمّ التاء وفتح الراء على غير تسمية الفاعل ﴿ نضرة ﴾ رفع وقرأ الباقون بفتح التاء وكسر الراء ﴿ نضرة ﴾ نصب.

﴿ يسقون من رحيق ﴾، خمر صافية طيبة قال مقاتل: الخمر البيضاء. ﴿ مختوم ﴾، ختم ومنع من أن تمسّه

عليها لشرفها ونفاستها ﴿**ختامه مسك**﴾ أي طينته التي ختم عليه بها مسك بخلاف خمر الدّنيا فإن ختامها طين وقال ابن مسعود مختوم أي ممزوج ختامه أي آخر طعمه، وعاقبته مسك، وقيل يمزج لهم بالكافور ويختم لهم بالمسك ﴿**وفي ذلك فليتنافس المتنافسون**﴾ أي فليرغب الرّاغبون بالمبادرة إلى طاعة الله عز وجل، ليحصل لهم هذا الشّراب المختوم بالمسك وقيل أصله من الشيء النّفيس الذي تحرص عليه نفوس الناس، ويريده كل أحد لنفسه وينفس به على غيره أي يضن ويبخل ﴿**ومزاجه من تسنيم**﴾ أي شراب ينصب عليهم من غرفهم ومنازلهم وقيل يجري في الهواء مسنماً فيصب في أواني أهل الجنة على قدر ملئها فإذا امتلأت أمسك وأصل هذه الكلمة من العلو ومنه سنام البعير لأنه أعلاه، وقيل هو شراب اسمه تسنيم وهو من أشرف شراب أهل الجنة وقال ابن مسعود وابن عباس، هو خالص للمقربين يشربونه صرفاً ويمزج لسائر أهل الجنة، وسئل ابن عباس عن قوله من تسنيم فقال: هذا مما قال الله تعالى: ﴿**فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين**﴾.

عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرْسِلُوا۟ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾

﴿**عيناً يشرب بها**﴾ أي منها وقيل يشربها ﴿**المقربون**﴾ أي صرفاً وقوله عز وجل: ﴿**إن الذين أجرموا**﴾ أي أشركوا يعني كفار قريش أبا جهل والوليد بن المغيرة والعاص بن وائل وأصحابهم من مترفي أهل مكة ﴿**كانوا من الذين آمنوا**﴾ أي من عمار وخباب وصهيب وبلال وأصحابهم من فقراء المؤمنين ﴿**يضحكون**﴾ أي منهم ويستهزئون

يد إلى أن يفكّ ختمه الأبرار، قال مجاهد: ﴿ **مختوم** ﴾ أي مطيّن.

﴿ **ختامه** ﴾، أي طينه، ﴿ **مسك** ﴾، كأنه ذهب إلى هذا المعنى، قال ابن زيد: ختامه عند الله **مسك** وختام الدنيا طين. وقال ابن مسعود: مختوم أي ممزوج ختامه أي آخر طعمه، وعاقبته **مسك** فالمختوم الذي له ختام، أي آخر وختم كل شيء الفراغ منه. وقال قتادة: يمزج لهم بالكافور ويختم بالمسك وقراءة العامّة ﴿ **ختامه مسك** ﴾ بتقديم التاء، وقرأ الكسائي (خاتمه) وهي قراءة عليّ وعلقمة ومعناهما واحد كما يقال: فلان كريم الطابع والطباع والخاتم والختام آخر كل شيء. ﴿ **وفي ذلك فليتنافسِ المتنافسون** ﴾، فليرغب الراغبون بالمبادرة إلى طاعة الله عزّ وجلّ. وقال مجاهد: فليعمل العاملون، نظيره قوله تعالى: ﴿ لمثل هذا فليعملِ العاملون ﴾ [الصّافّات: ٦١]، وقال مقاتل بن سليمان: فليتنازع **المتنازعون**. وقال عطاء: فليستبق المستبقون، وأصله من الشيء النفيس الذي تحرص عليه نفوس الناس، ويريده كل أحد لنفسه وينفس به على غيره، أي يضنّ.

﴿ **ومزاجه من تسنيم** ﴾، شراب ينصبّ عليهم من علو في غرفهم ومنازلهم، وقيل: **يجري في الهواء متسنماً** فينصبّ في أواني أهل الجنة على قدر ملئها فإذا امتلأت أمسك وهذا معنى قول قتادة وأصل كلمة السنام من العلو، يقال للشيء المرتفع سنام ومنه سنام البعير. قال الضحاك: هو شراب اسمه تسنيم وهو أشرف الشراب. قال ابن مسعود وابن عباس: هو خالص للمقرّبين يشربونها صرفاً ويمزج لسائر أهل الجنة. وهو قوله: ﴿ **ومزاجه من تسنيم** ﴾.

﴿ **عيناً يشرب بها المقرّبون** ﴾، وروى يوسف بن مهران عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه سُئِلَ عن قوله: ﴿ **من تسنيم** ﴾ قال هذا مما قاله الله تعالى: ﴿ فلا تعلم نفسٌ ما أُخفي لهم من قرّة أعين ﴾ [السجدة: ١٧]، ﴿ **عيناً** ﴾ نصبٌ على الحال، ﴿ **يشرب بها** ﴾ أي منها، وقيل: يشرب بها المقرّبون صرفاً.

بهم ﴿وإذا مروا بهم﴾ يعني مر المؤمنون الفقراء بالكفار الأغنياء ﴿يتغامزون﴾ يعني يتغامز الكفار والغمز الإشارة بالجفن والحاجب أي يشيرون إليها بالأعين استهزاء بهم ﴿وإذا انقلبوا إلى أهلهم﴾ يعني الكفار ﴿انقلبوا فكهين﴾ أي معجبين بما هم فيه، وقيل ينقلبون بذكرهم كأنهم يتفكهون بحديثهم ﴿وإذا رأوهم﴾ يعني رأوا أصحاب محمد ﷺ ﴿قالوا إن هؤلاء لضالون﴾ أي هم في ضلال يأتون محمداً ويرون أنهم على شيء. قال الله عز وجل: ﴿وما أرسلوا﴾ يعني المشركين ﴿عليهم﴾ يعني على المؤمنين ﴿حافظين﴾ أي لأعمالهم والمعنى أنهم لم يوكلوا بحفظ أعمالهم قوله عز وجل: ﴿فاليوم﴾ يعني في الآخرة ﴿الذين آمنوا من الكفار يضحكون﴾ وسبب هذا الضحك أن الكفار لما كانوا في الدّنيا يضحكون من المؤمنين لما هم فيه من الشدة والبلاء فلما أفضوا إلى الآخرة انعكس ذلك الأمر فصار المؤمنون في السرور والنّعيم وصار الكفار في العذاب والبلاء، فضحك المؤمنون من الكافرين لما رأوا حالهم وقال أبو صالح: تفتح للكافرين أبواب النّار وهم فيها ويقال لهم اخرجوا فإذا انتهوا إليها أغلقت دونهم فيفعل ذلك بهم مراراً والمؤمنون ينظرون إليهم ويضحكون منهم وقال كعب بين الجنة والنّار كوى، فإذا أراد المؤمن أن ينظر إلى عدوه في الدّنيا من الكفار اطلع عليه من تلك الكوى وهو يعذب فيضحك منه فذلك قوله تعالى: ﴿فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون﴾.

عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾

﴿على الأرائك﴾ جمع أريكة وهو السرير ويتخذ في الحجلة وهي الكلة يزين بها البيت، وأرائك الجنة من الدر

قوله عزّ وجلّ: ﴿ إن الذين أجرموا ﴾، أشركوا يعني كفّار قريش أبا جهل والوليد بن المغيرة والعاص بن وائل وأصحابهم من مُتَرَفي مكة، ﴿ كانوا من الذين آمنوا ﴾ عمّار وخبّاب وصُهيب وبلال وأصحابهم من فقراء المؤمنين. ﴿ يضحكون ﴾، وبهم يستهزؤون.

﴿ وإذا مرُّوا بهم ﴾، يعني مرّ المؤمنون بالكفّار، ﴿ يتغامزون ﴾، والغمز الإشارة بالجفن والحاجب، أي يشيرون إليهم بالأعين استهزاءً.

﴿ وإذا انقلبوا ﴾، يعني الكفّار، ﴿ إلى أهلهم انقلبوا فَكِهين ﴾، معجبين بما هم فيه يتفكّهون بذكرهم.

﴿ وإذا رأوهم ﴾، رأوا أصحاب النبي ﷺ، ﴿ قالوا إنّ هؤلاء لضالّون ﴾، يأتون محمداً ﷺ يرون أنهم على شيء.

﴿ وما أرسلوا ﴾، يعني المشركين، ﴿ عليهم ﴾، يعني على المؤمنين، ﴿ حافظين ﴾، أعمالهم أي لم يُوكلوا بحفظ أعمالهم.

﴿ فاليوم ﴾، يعني في الآخرة، ﴿ الذين آمنوا من الكفّار يضحكون ﴾، قال أبو صالح: وذلك أنه يفتح للكفّار وهم في النار أبوابها، ويقال لهم: اخرجوا فإذا رأوها مفتوحة أقبلوا إليها ليخرجوا والمؤمنون ينظرون إليهم فإذا انتهوا إلى أبوابها غلقت دونهم، يفعل بهم ذلك مراراً والمؤمنون يضحكون. وقال كعب: بين الجنة والنار كوىً فإذا أراد المؤمن أن ينظر إلى عدوٍّ له كان في الدنيا اطّلع عليه من تلك الكوى، كما قال: ﴿ فاطّلع فرآه في سواء الجحيم ﴾ [الصّافّات: ٥٥]، فإذا اطّلعوا في الجنة إلى أعدائهم وهم يُعذّبون في النار ضحكوا فذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿ فاليوم الذين آمنوا من الكفّار يضحكون ﴾.

﴿ على الأرائك ﴾، من الدرّ والياقوت، ﴿ ينظرون ﴾، إليهم في النار.

والياقوت ﴿**ينظرون**﴾ يعني إليهم وهم في النّار يعذبون قال الله تعالى﴿**هل ثوب الكفار**﴾ أي جوزي الكفار ﴿**ما كانوا يفعلون**﴾ أي بالمؤمنين من الاستهزاء والضحك وهذا الاستفهام بمعنى التقرير وثوب، وأثيب بمعنى قال أوس.

سـأجـزيـك أو يجـزيـك عنـي مثـوب وحسبـك أن يثنـى عليـك وتحمـدي

والله سبحانه وتعالى أعلم.

قال الله تعالى: ﴿ **هل ثوّب** ﴾، هل جُوزِيَ، ﴿ **الكفّار ما كانوا يفعلون** ﴾، أي جزاء استهزائهم بالمؤمنين ومعنى الاستفهام ههنا التقرير. وثوّب وأثاب بمعنى واحد.

سورة الانشقاق

(مكية وهي خمس وعشرون آية ومائة وسبع كلمات وأربعمائة وثلاثون حرفاً)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ﴿١﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ﴿٣﴾ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴿٤﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا
وَحُقَّتْ ﴿٥﴾ يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ ﴿٦﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ﴿٧﴾

قوله عز وجل: ﴿**إذا السّماء انشقت**﴾ يعني عند قيام السّاعة وهي من علاماتها ﴿**وأذنت لربها**﴾ أي سمعت أمر ربها بالانشقاق، وأطاعته من الأذن وهو الاستماع ﴿**وحقت**﴾ أي حق لها أن تطيع أمر ربها ﴿**وإذا الأرض مدت**﴾ يعني مد الأديم العكاظي وزيد في سعتها، وقيل سويت فلا يبقى فيها بناء ولا جبل ﴿**وألقت ما فيها**﴾ أي أخرجت ما في بطنها من الموتى والكنوز ﴿**وتخلت**﴾ أي من ذلك الذي كان في بطنها من الموتى والكنوز ﴿**وأذنت لربها وحقت**﴾ واختلفوا في جواب إذاً فقيل جوابه محذوف تقديره إذا كان هذه الأشياء يرى الإنسان الثواب أو العقاب، وقيل جوابه يا أيّها الإنسان إنك كادح والمعنى إذا انشقت السّماء لقي كل كادح ما عمله وقيل جوابه وأذنت وحينئذ تكون الواو زائدة ﴿**يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً**﴾ أي ساع إليه في عملك سعياً والكدح عمل الإنسان وجهده في

سُوْرَة الانشِقَاق

مكيّة وهي خمس وعشرون آية.

﴿ **إذا السماء انشقّت** ﴾، انشقاقها من علامات القيامة.

﴿ **وأذِنَت لربّها** ﴾، أي سمعت أمر ربها بالانشقاق وأطاعته، من الأُذن وهو الاستماع، ﴿ **وحُقّت** ﴾، أي وحقّ لها أن تطيع ربّها.

﴿ **وإذا الأرض مُدّت** ﴾، مدّ الأديم العكاظي، وزِيدَ في سِعتها. وقال مقاتل: سُوّيت كمدّ الأديم فلا يبقى فيها بناء ولا جبل.

﴿ **وألقت** ﴾، أخرجت، ﴿ **ما فيها** ﴾ من الموتى والكنوز، ﴿ **وتخلّت** ﴾، خلت منها.

﴿ **وأذِنت لربها وحُقّت** ﴾، واختلفوا في جواب إذا قيل: جوابه محذوف تقديره: إذا كانت هذه الأشياء يرى الإنسان الثواب والعقاب.

وقيل جوابه: ﴿ **يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربّك كدحاً** ﴾، ومجازه إذا السماء انشقّت لقي كل كادح ما عمله. وقيل: جوابه وأذِنت، وحينئذ تكون الواو زائدة ومعنى قوله: ﴿ **كادح إلى ربك كدحاً** ﴾، أي ساعٍ إليه في

الأمرين الخير والشّر، وقيل معناه عامل لربك عملاً وقيل معناه إنك كادح في لقاء ربك وهو الموت، والمعنى أن هذا الكدح يستمر بك إلى الموت، وقيل معناه إنك تكدح في دنياك كدحاً تصير به إلى ربك. ﴿فملاقيه﴾ أي فملاق جزاء عملك.

فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾ بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ﴿١٥﴾ فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾

﴿فسوف يحاسب حساباً يسيراً﴾ سوف من الله واجب والحساب اليسير هو أن تعرض عليه أعماله، فيعرف بالطاعة، والمعصية ثم يثاب على الطاعة، ويتجاوز له عن المعصية فهذا هو الحساب اليسير لأنه لا شدة فيه على صاحبه، ولا مناقشة ولا يقال له لم فعلت هذا ولا يطالب بالعذر فيه، ولا الحجة عليه فإنه متى طولب بذلك لم يجد عذراً، ولا حجة فيفتضح (ق) عن ابن أبي مليكة أن عائشة كانت لا تسمع شيئاً لا تعرفه إلا راجعت فيه حتى تعرفه وأن النبي ﷺ قال: من حوسب عذب قال: فقلت، أوليس يقول الله عز وجل فسوف يحاسب حساباً يسيراً قالت فقال إنما ذلك العرض ولكن من نوقش الحساب عذب. ﴿وينقلب إلى أهله﴾ يعني في الجنة من الحور العين والآدميات ﴿مسروراً﴾ أي بما أوتي من الخير والكرامة ﴿وأما من أوتي كتابه وراء ظهره﴾ يعني أنه تغل يده اليمنى إلى عنقه، وتجعل يده اليسرى وراء ظهره، فيعطي كتابه بشماله من وراء ظهره، وقيل تخلع يده الشّمال فتخرج من وراء ظهره فيعطي بها كتابه ﴿فسوف يدعو ثبوراً﴾ يعني عند إعطائه كتابه بشماله من وراء ظهره يعلم أنه من أهل النّار فيدعو بالويل

عملك، والكدح: سعي الإنسان وجهده في الأمر من الخير والشر حتى يكدح ذلك فيه، أي يؤثر. وقال قتادة والكلبي والضحاك: عامل لربك عملاً، ﴿ فملاقيه ﴾، أي ملاقي جزاء عملك خيراً كان أو شرّ.

﴿ فأما مَن أُوتي كتابه ﴾، ديوان أعماله، ﴿ بيمينه * فسوف يحاسب حساباً يسيراً ﴾، أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنـا سعيد بن أبي مـريم أنا نـافع عن ابن عمر حدّثني ابن أبي مليكة أن عائشة زوج النبي ﷺ كانت لا تسمع شيئاً لا تعرفه إلاّ راجعت فيه حتى تعرفه، وإن النبي ﷺ قال: «مَنْ حُوسِبَ عُذِّبَ» قالت عائشة رضي الله عنها فقلت: يا رسول الله أَوَليس يقول الله عزّ وجلّ: ﴿ فسوف يحاسب حساباً يسيراً ﴾؟ قالت: فقال: «إنما ذلك العرض، ولكن مَن نُوقش في الحساب يهلك».

﴿ وينقلب إلى أهله ﴾، يعني في الجنة من الحور العين والآدميات، ﴿ مسروراً ﴾، بما أُوتي من الخير والكرامة.

﴿ وأما مَن أُوتي كتابه وراء ظهره ﴾، فتغلّ يده اليمنى إلى عنقه وتُجعَل يده الشمال وراء ظهره، فيؤتى كتابه بشماله من وراء ظهره. وقال مجاهد: تُخلَع يده اليسرى من وراء ظهره.

﴿فسوف يدعوا ثُبوراً﴾، ينادي بالويل والهلاك إذا قرأ كتابه يقول: يا ويلاه يا ثبوراه، لقوله تعالى: ﴿ دعوا هنالك ثبوراً ﴾ [الفرقان: ١٣].

﴿ ويصلى سعيراً ﴾، قرأ أبو جعفر وأهل البصرة وعاصم وحمزة ويصلى بفتح الياء خفيفاً كقوله: ﴿ يصلى النار الكبرى ﴾ [الأعلى: ١٢]، وقرأ الآخرون بضمّ الياء وفتح الصاد وتشديد اللام لقوله: ﴿ وتصلية جحيم ﴾

والهلاك، فيقول يا ويلاه يا ثبوراه ﴿ويصلى سعيراً﴾ أي ويقاسي التّهاب النّار وحرها ﴿إنه كان في أهله﴾ يعني في الدنيا ﴿مسروراً﴾ يعني بإتباع هواه وركوب شهواته ﴿إنه ظن أن لن يحور﴾ أي لن يرجع إلينا ولن يبعث والحور الرجوع ﴿بلى﴾ ليس الأمر كما ظن بل يحور إلينا، ويبعث ويحاسب ﴿إن ربه كان به بصيراً﴾ أي من يوم خلقه إلى أن يبعث قوله عز وجل: ﴿فلا أقسم بالشفق﴾ تقدم الكلام ﴿لا أقسم﴾ في سورة القيامة.

وأما الشّفق فقال مجاهد: هو النهار كله وحجته في ذلك أنه عطف عليه فيجب أن يكون المذكور أولاً هو النهار فعلى هذا الوجه يكون القسم باللّيل والنهار اللذين فيهما معاش العالم وسكونه، وقيل هو ما بقي من النّهار وقال ابن عباس، وأكثر المفسرين: هو الحمرة التي تبقى في الأفق بعد غروب الشّمس، وهو مذهب عامة العلماء، وقيل هو البياض الذي يعقب تلك الحمرة وهو مذهب أبي حنيفة ﴿واللّيل وما وسق﴾ أي جمع وضم ما كان منتشراً بالنهار من الخلق والدواب والهوام وذلك أن اللّيل إذا أقبل أوى كل شيء إلى مأواه، وقيل وما عمل فيه ويحتمل أن يكون ذلك تهجد العباد، فيجوز أن يقسم به.

﴿وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ۝١٨ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ۝١٩ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٢٠ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ ۩ ۝٢١﴾

﴿والقمر إذا اتسق﴾ أي اجتمع وتم نوره وذلك في الأيام البيض، وقيل استدار واستوى، ولما ذكر المقسم به أتبعه بالمقسم عليه فقال تعالى ﴿لتركبن﴾ قرىء بفتح الباء وهو خطاب الواحد والمعنى لتركبن يا محمد ﴿طبقاً عن طبق﴾ يعني سماء بعد سماء وقد فعل الله ذلك معه ليلة أسري به، فأصعده سماء بعد سماء، وقيل درجة بعد درجة،

[الواقعة: ٩٤]، ﴿ ثم الجحيم صلوه ﴾ [الحاقّة: ٣١].

﴿ إنه كان في أهله مسروراً ﴾، يعني في الدنيا باتّباع هواه وركوب شهوته.

﴿ إنه ظن أن لن يحور ﴾، أن لن يرجع إلينا ولن يُبعَث.

ثم قال: ﴿ بلى ﴾، أي ليس كما ظن بل يحور إلينا ويبعث، ﴿ إنّ ربّه كان به بصيراً ﴾، خلقه إلى أن بعثه.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ فلا أُقسم بالشفق ﴾، قال مجاهد: هو النهار كله. وقال عكرمة: ما بقي من النهار. وقال ابن عباس وأكثر المفسّرين: هو الحمرة التي تبقى في الأفق بعد غروب الشمس. وقال قوم: هو البياض الذي يعقب تلك الحُمْرة.

﴿ والليل وما وسق ﴾، أي جمع وضمّ يقال وسقته اسقه وسقاً أي جمعته واستوثقت الإبل إذا اجتمعت وانضمّت، والمعنى: والليل وما جمع وضمّ ما كان بالنهار منتشراً من الدواب، وذلك أن الليل إذا أقبل آوى كل شيء إلى مأواه. روى منصور عن مجاهد قال: ما لفّ وضمّ وأظلم عليه. وقال مقاتل بن حيّان: ما أقبل من ظلمة أو كوكب. وقال سعيد بن جبير. وما عمل فيه.

﴿ والقمر إذا اتّسق ﴾، اجتمع واستوى وتمّ نوره وهو في الأيام البيض. وقال قتادة: استدار وهو افتعل من الوسق الذي هو الجمع.

﴿ لتركبنّ طبقاً عن طبق ﴾، قرأ أهل مكة وحمزة والكسائي ﴿ لتركبنّ ﴾ بفتح الباء، يعني لتركبنّ يا محمد. قال الشعبي ومجاهد: سماء بعد سماء. قال الكلبي: يعني تصعد فيها. ويجوز أن يكون درجة بعد درجة ورتبة بعد

ورتبة بعد رتبة في القرب من الله تعالى: وقيل معناه لتركبن حالاً بعد حال (خ) عن ابن عباس قال: لتركبن طبقاً عن طبق حالاً بعد حال هذا لنبيكم ﷺ ومعنى هذا يكون لك الظفر والغلبة على المشركين حتى يختم لك بجميل العاقبة فلا يحزنك تكاذيبهم وتماديهم في كفرهم وقرىء لتركبن بضم الباء، وهو الأشبه ويكون خطاب الجمع والمعنى لتركبن أيها النّاس حالاً بعد حال وأمراً بعد أمر، وذلك في موقف القيامة تتقلب بهم الأحوال فيصيرون في الآخرة على غير الحال التي كانوا عليها في الدنيا. وقال ابن عباس يعني الشّدائد وأهوال الموت ثم البعث ثم العرض، وقيل حال الإنسان حالاً بعد حال رضيع ثم فطيم ثم غلام ثم شاب ثم كهل ثم شيخ، وقيل معناه لتركبن سنن من كان قبلكم وأحوالهم. (ق) عن أبي سعيد الخدري أن النبي ﷺ قال «لتتبعن سنن من كان قبلكم وأحوالهم شبراً بعد شبر وذراعاً بعد ذراع حتى لو دخلوا جحر ضب لتبعتموهم قلنا يا رسول الله اليهود والنّصارى قال فمن»، وقيل في معنى الآية إنه أراد به السّماء تتغير لوناً بعد لون فتصير تارة وردة كالدّهان وتارة كالمهل وتنشق مرة وتطوي أخرى ﴿**فما لهم لا يؤمنون**﴾ يعني بالبعث والحساب وهو استفهام إنكار ﴿**وإذا قرىء عليهم القرآن لا يسجدون**﴾ يعني لا يصلون فعبر بالسّجود عن الصّلاة لأنه جزء منها، وقيل أراد به سجود التلاوة وهذه السّجدة أحد سجدات القرآن عند الشّافعي ومن وافقه (ق) عن رافع قال «صليت مع أبي هريرة العتمة فقرأ ﴿**إذا السّماء انشقت**﴾ فسجد، فقلت ما هذا قال: سجدت

رتبة في القرب من الله تعالى والرِّفعة. أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا سعيد بن النضر أنا هيثم أنا أبو بشر عن مجاهد قال: قال ابن عباس: لتركبنّ طبقاً عن طبق حالاً بعد حال، قال: هذا نبيّكم ﷺ. وقيل: أراد به السماء تتغيّر لوناً بعد لون، فتصير تارة كالدهان وتارة كالمهل، فتنشقّ بالغمام مرة وتطوي أخرى. وقرأ الآخرون بضمّ الباء لأن المعنى بالناس أشبه لأنه ذكر من قبل: فأمّا مَن أُوتي كتابه بيمينه، وشماله وذكر من بعد ﴿ **فما لهم لا يؤمنون** ﴾، وأراد لتركبنّ حالاً بعد حال وأمراً بعد أمر في موقف القيامة، يعني الأحوال تنقلب بهم فيصيرون في الآخرة على غير الحال التي كانوا عليها في الدنيا. و﴿ **عن** ﴾ بمعنى بعد، وقال مقاتل: يعني الموت ثم الحياة ثم الموت ثم الحياة. وقال عطاء: مرة فقيراً ومرة غنيّاً. وقال عمرو بن دينار عن ابن عباس: يعني الشدائد والأهوال الموت، ثمّ البعث ثم العرض. وقال عكرمة: حالاً بعد حال رضيع ثم فطيم ثم غلام ثم شابّ ثم شيخ. وقال أبو عبيدة: لتركبنّ سُنن مَن كان قبلكم وأحوالهم. أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا محمد بن عبد العزيز أنا أبو عمرو الصنعاني من اليمن عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ: «لتتبعنّ سُنَن مَن كان قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع، حتى لو دخلوا جُحْرَ ضبٍّ لتبعتموهم» قيل: يا رسول الله اليهود والنصارى؟.

قال فمن قوله عزّ وجلّ: ﴿ **فما لهم لا يؤمنون** ﴾، استفهام إنكار.

﴿ **وإذا قرىء عليهم القرآن لا يسجدون** ﴾. قال الكلبي ومقاتل: لا يصلّون. أخبرنا أبو عثمان سعيد بن إسماعيل الضبّي أنا أبو محمد عبد الجبّار بن محمد الجراحي ثنا أبو العباس محمد بن أحمد المحبوبي ثنا أبو عيسى الترمذي ثنا قتيبة ثنا سفيان بن عيينة عن أيوب بن موسى عن عطاء بن مينا عن أبي هريرة قال: سجدنا مع رسول الله ﷺ في إقرأ باسم ربك وإذا السماء انشقّت. أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا مسدد أنا معمر قال: سمعت أبي قال حدّثني بكر عن أبي رافع قال: صلّيت مع أبي هريرة العتمة فقرأ إذا السماء انشقّت، فسجد فقلت: ما هذا؟ قال: سجدت بها خلف أبي القاسم ﷺ. فلا أزال أسجد فيها حتى ألقاه.

بها خلف أبي القاسم ﷺ فلا أزال أسجد فيها حتى ألقاه ولمسلم عنه قال: «سجدنا مع رسول الله ﷺ في ﴿اقرأ باسم ربك﴾ ﴿إذا السّماء انشقت﴾.

بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍۭ ﴿٢٥﴾

﴿بل الذين كفروا يكذبون﴾ يعني بالقرآن والبعث ﴿والله أعلم بما يوعون﴾ يعني يجمعون في صدورهم من التكذيب ﴿فبشرهم بعذاب أليم﴾ يعني على عنادهم وكفرهم ﴿إلا الذين آمنوا وعملوا الصّالحات لهم أجر غير ممنون﴾ يعني غير مقطوع ولا منقوص في الآخرة، والله سبحانه وتعالى أعلم بمراده وأسرار كتابه.

﴿ بل الذين كفروا يكذبون ﴾، بالقرآن والبعث.

﴿ والله أعلم بما يوعـون ﴾. في صدورهم من التكذيب. قال مجاهد: يكتمون.

﴿ فبشّرهم بعذاب أليم * إلاّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون ﴾، غير مقطوع ولا منقوص.

سورة البروج

مكية وهي اثنتان وعشرون آية ومائة وتسع كلمات وأربعمائة وخمسة وستون حرفاً

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ﴿١﴾ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ﴿٢﴾ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴿٣﴾ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ﴿٤﴾

قوله عز وجل: ﴿**والسّماء ذات البروج**﴾ يعني البروج الاثني عشر وإنما حسن القسم بها لما فيها من عجيب حكمة الباري جلّ جلاله، وهو سير الشّمس والقمر الكواكب فيها على قدر معلوم لا يختلف وقيل البروج والكواكب العظام سميت بروجاً لظهورها ﴿**واليوم الموعود**﴾ يعني يوم القيامة ﴿**وشاهد ومشهود**﴾ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «اليوم الموعود يوم القيامة، والمشهود يوم عرفة، والشّاهد يوم الجمعة ما طلعت الشمس ولا غربت على يوم أفضل من يوم الجمعة فيه ساعة لا يوافقها عبد مؤمن يدعو الله بخير إلا استجاب الله له ولا يستعيذ من شر إلا أعاذه الله منه» أخرجه الترمذي وضعف أحد رواته من قبل حفظه وهذا قول ابن عباس والأكثرين أن الشاهد يوم الجمعة والمشهود يوم عرفة وقيل الشاهد يوم الجمعة والمشهود يوم النحر وقيل الشاهد يوم التّروية، والمشهود يوم عرفة وإنما حسن القسم بهذه الأيام لعظمها وشرفها، واجتماع المسلمين فيها، وقيل الشاهد هو الله تعالى والمشهود يوم القيامة، وقيل الشّاهد هم الأنبياء والمشهود أي عليهم هم الأمم وقيل الشاهد هو الملك والمشهود أي عليه هو آدم وذريته، وقيل الشّاهد هذه الأمة ونبيها ﷺ والمشهود عليهم هم الأمم المتقدمة، وقيل الشّاهد الأنبياء والمشهود له هو

سُوْرَة البُرُوْج

مكيّة وهي اثنتان وعشرون آية.

﴿ **والسماء ذات البروج * واليوم الموعود** ﴾، هو يوم القيامة.

﴿ **وشاهد ومشهود** ﴾، أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أبو منصور محمد بن محمد بن سمعان أنا أبو جعفر محمد بن أحمد بن عبد الجبّار الرياني ثنا حميد بن زنجويه ثنا عبد الله بن موسى بن عبيدة عن أيوب بن خالد عن عبد الله بن رافع عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «اليوم الموعود يوم القيامة، واليوم المشهود يوم عرفة، والشاهد يوم الجمعة، وما طلعت الشمس ولا غربت عليّ يوم أفضل منه فيه ساعة لا يوافقها عبد مؤمن يدعو الله فيها بخير إلاّ استجاب الله له، ولا يستعيذ من شيء إلاّ أعاذه منه»، وهذا قول ابن عباس والأكثرون: أن الشاهد يوم الجمعة والمشهود يوم عرفة. ورُوِيَ عن ابن عمر الشاهد يوم الجمعة والمشهود يوم النحر. قال سعيد بن المسيّب: الشاهد يوم التروية، والمشهود يوم عرفة. وروى يوسف بن مهران عن ابن عباس قال: الشاهد محمد ﷺ والمشهود يوم القيامة، ثم تلا: ﴿ فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً ﴾ [النساء: ٤١] وقال: ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود. وقال عبد العزيز بن يحيى الشاهد محمد ﷺ، والمشهود الله عزّ وجلّ

محمد ﷺ لأن الأنبياء قبله شهدوا له بالنبوة وقوله، ﴿والسّماء ذات البروج واليوم الموعود وشاهد ومشهود﴾ أقسام أقسم الله تعالى بها لشرفها، وعظمها. وجواب القسم قوله تعالى: ﴿قتل أصحاب الأخدود﴾ أي لعن وقتل وقيل جوابه ﴿إن بطش ربك لشديد﴾ والأخدود الشق المستطيل في الأرض.

واختلفوا فيهم فروي عن صهيب أن رسول الله ﷺ قال «كان ملك فيمن كان قبلكم وكان له ساحر فلما كبر الساحر قال للملك إني قد كبرت فابعث إلي غلاماً أعلمه السحر فبعث إليه غلاماً يعلمه، وكان في طريقه إذا سلك إليه راهب فقعد إليه وسمع كلامه فأعجبه فكان إذا أتى السّاحر مر بالراهب، وقعد إليه فإذا أتى السّاحر ضربه، وإذا رجع من الساحر قعد إلى الراهب وسمع كلامه، فإذا أتى أهله ضربوه فشكا ذلك إلى الراهب فقال إذا خشيت الساحر، فقل حبسني أهلي وإذا خشيت أهلك فقل حبسني الساحر فبينما هو كذلك إذا أتى على دابة عظيمة قد حبست الناس، فقال اليوم أعلم الرّاهب أفضل أم الساحر فأخذ حجراً ثم قال اللّهم إن كان أمر الرّاهب أحب إليك من أمر السّاحر، فاقتل هذه الدّابة حتى يمضي الناس، فرماها فقتلها فمضى الناس، فأتى الراهب فأخبره فقال له الراهب: أي بني أنت أفضل مني قد بلغ من أمرك ما أرى، وإنك ستبتلي فإن ابتليت فلا تدل عليّ فكان الغلام يبرىء الأكمه والأبرص، ويداوي النّاس من سائر الأدواء، فسمع جليس للملك كان قد عمي فأتاه بهدايا كثيرة فقال ما ها هنالك أجمع إن أنت شفيتني قال إني لا أشفي أحداً إنما يشفي الله عز وجل، فإن آمنت بالله دعوت الله عز وجل فشفاك فآمن به فشفاه الله عز وجل فأتى الملك فجلس إليه كما كان يجلس فقال له الملك من رد عليك بصرك فقال ربي: فقال أو لك رب غيري قال ربي، وربك الله فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دله على الغلام فجيء بالغلام، فقال له الملك أي بني إنه قد بلغ من سحرك ما تبرىء الأكمة والأبرص وتفعل وتفعل، فقال إني لا أشفي أحداً إنما يشفي الله عز وجل فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دل على الرّاهب فجيء له بالرّاهب، فقيل له ارجع عن دينك فأبى فدعا بالميشار فوضع الميشار في مفرق رأسه فشقه

بيانه قوله: ﴿ وجئنا بك على هؤلاء شهيدا ﴾ [النساء: ٤١]. وروى ابن أبي نجيح عن مجاهد قال: الشاهد آدم والمشهود يوم القيامة. وقال عكرمة الشاهد: الإنسان والمشهود يوم القيامة. وعنه أيضاً: الشاهد الملك يشهد على ابن آدم، والمشهود يوم القيامة. وتلا: ﴿ وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد ﴾ [قٓ: ٢١]، و﴿ ذلك يوم مشهود ﴾ [هود: ١٠٣]، وقيل: الشاهد الحَفَظَة والمشهود بنو آدم. وقال عطاء بن يسار: الشاهد آدم وذريته، والمشهود يوم القيامة. وروى الوالبي عن ابن عباس: الشاهد هو الله عزّ وجلّ والمشهود يوم القيامة. وقال الحسين بن الفضل: الشاهد هذه الأمة والمشهود سائر الأمم. بيانه: ﴿ وكذلك جعلناكم أُمةً وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ﴾ [البقرة: ١٤٣]. وقال سالم بن عبد الله: سألت سعيد بن جبير عن قوله: ﴿ وشاهد ومشهود ﴾، فقال: الشاهد هو الله والمشهود نحن، بيانه: ﴿ وكفى بالله شهيداً ﴾ [الفتح: ٢٨] وقيل: الشاهد أعضاء بني آدم، بيانه: ﴿ يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم ﴾ [النور: ٢٤] الآية. وقيل: الشاهد الأنبياء والمشهود محمد، بيانه قوله: ﴿ وإذ أخذ الله ميثاق النبيّين ﴾ إلى قوله: ﴿ فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين ﴾ [آل عمران: ٨١].

﴿ قتل أصحاب الأخدود ﴾، أي لعن، والأخدود: الشقّ المستطيل في الأرض كالنهر، وجمعه أخاديد. واختلفوا فيهم. أخبرنا أبو حامد أحمدأبن عبد الله الصالحي أنا أبو الحسن علي بن أحمد بن أبي عبد الله بن سعدان الخطيب أخبرني أبو أحمد محمد بن أحمد بن محمد بن قريش بن نوح بن رستم ثنا أبو عبد الله محمد بن إبراهيم البوشنجي ثنا هدبة بن خالد ثنا حمّاد بن سلمة ثنا ثابت البناني عن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن صهيب أن رسول الله ﷺ قال: «كان ملك فيمن كان قبلكم وكان له ساحر، فلما كبر قال: إني قد كبرت فابعث إليّ غلاماً أُعلّمه السحر، فبعث إليه غلاماً يعلّمه، وكان في طريقه إذا سلك إليه راهب، فقعد إليه وسمع كلامه فأعجبه، وكان إذا

به حتى وقع شقاه ثم جيء بجليس الملك، فقيل له ارجع عن دينك فدعا بالميشار فوضع الميشار في مفرق رأسه فشقه به حتى وقع شقاه ثم جيء بالغلام فقيل له ارجع عن دينك فأبى فدفعه إلى نفر من أصحابه فقال لهم اذهبوا به إلى جبل كذا وكذا فاصعدوا به الجبل فإذا بلغتم ذروته فإن رجع عن دينه وإلا فاطرحوه فذهبوا به فصعدوا به الجبل فقال اللّهم اكفنيهم بما شئت فرجف بهم الجبل، فسقطوا وجاء يمشي إلى الملك فقال له الملك: ما فعل أصحابك؟ قال كفانيهم الله فدفعه إلى نفر من أصحابه فقال اذهبوا به فاحملوه في قرقور فتوسطوا به البحر فإن رجع عن دينه وإلا فاقذفوه، فذهبوا به فقال اللهم اكفنيهم بما شئت فانكفأت بهم السفينة، فغرقوا وجاء يمشي إلى الملك فقال له الملك ما فعل أصحابك؟ قال كفانيهم الله تعالى فقال للملك إنك لست بقاتلي حتى تفعل ما آمرك به فقال: وما هو قال تجمع الناس في صعيد واحد وتصلبني على جذع نخل ثم خذ سهماً من كنانتي، ثم ضع السهم في كبد القوس، ثم قل بسم الله رب الغلام ثم ارمني به فإنك إن فعلت ذلك قتلتني فجمع الناس في صعيد واحد وصلبه على جذع ثم أخذ سهماً من

أتى الساحر مرّ بالراهب، وقعد إليه فإذا أتى الساحر ضربه، وإذا رجع من عند الساحر قعد إلى الراهب وسمع كلامه فإذا أتى أهله ضربوه، فشكا إلى الراهب، فقال: إذا خشيت الساحر فقل: حبسني أهلي، وإذا خشيت أهلك فقل: حبسني الساحر، فبينما هو كذلك إذْ أتى على دابّة عظيمة قد حبست الناس، فقال: اليوم أعلم الراهب أفضل أم الساحر، فأخذ حجراً ثم قال اللّهمَّ: إن كان أمر الراهب أحبَّ إليك من أمر الساحر فاقتل هذه الدابّة حتى يمضي الناس، فرماها فقتلها فمضى الناس، فأتى الراهب فأخبره فقال له الراهب: أيْ بني أنت اليوم أفضل منّي قد بلغ من أمرك ما أرى، وإنك ستبتلى فإن ابتليت فلا تدلّ عليّ وكان الغلام يبرىء الأكمه والأبرص ويداوي الناس من سائر الأدواء، فسمع جليسٌ للملك وكان قد عَمِيَ، فأتاه بهدايا كثيرة، فقال: ما هذا؟ قال: هذا لك أجمع إن أنت شفيتني، قال: إني لا أُشفي أحداً إنما يشفي الله، فإن آمنت بالله دعوت الله لك فشفاك، فآمن بالله فشفاه الله، فأتى الملك فجلس إليه كما كان يجلس، فقال له الملك: مَن ردّ عليك بصلك؟ قال: ربّي عزّ وجلّ، قال: أوَ لكَ ربٌّ غيري؟ قال: ربّي وربّك الله، فأخذه فلم يزل يعذّبه حتى دلّ على الغلام، فجِيء بالغلام، فقال له الملك: أي بني قد بلغ من سحرك ما تبرىء به الأكمة والأبرص وتفعل كذا وتفعل كذا، قال: إني لا أُشفي أحداً إنما يشفي الله، فأخذه فلم يزل يعذّبه حتى دلّ على الراهب، فجيء بالراهب فقيل له: ارجع عن دينك، فأبى فدعا بالميشار فوضع الميشار في مفرق رأسه فشقّه به حتى وقع شقّاه، ثم جيء بجليس الملك فقيل له: ارجع عن دينك فأبى فوضع الميشار في مفرق رأسه فشقّه به حتى وقع شقّاه، ثم جيء بالغلام فقيل له: ارجع عن دينك فأبى فدفعه إلى نفر من أصحابه فقال: اذهبوا به إلى جبل كذا وكذا فاصعدوا به فإذا بلغتم ذروته فإن رجع عن دينه وإلاّ فاطرحوه، فذهبوا به فصعدوا به الجبل، فقال: اللّهمّ اكفينهم بما شئت، فرجف بهم الجبل فسقطوا، فجاء يمشي إلى الملك، فقال له الملك: ما فعل أصحابك؟ فقال: كفانيهم الله، فدفعه إلى نفر من أصحابه فقال: اذهبوا به فاحملوه في قرقور فتوسّطوا به البحر فإن رجع عن دينه وإلاّ فاقذفوه، فذهبوا به فقال: اللّهمَّ اكفينهم بما شئت، فانكفأت بهم السفينة فغرقوا وجاء يمشي إلى الملك، فقال له الملك: ما فعل أصحابك؟ قال: كفانيهم الله، فقال للملك: إنك لست بقاتلي حتى تفعل ما آمرك به، قال: وما هو؟ قال: تجمع الناس في صعيد واحد وتصلبني على جذع ثم خذ سهماً من كنانتي ثم ضع السهم في كبد القوس وقل: بسم الله ربّ الغلام، ثم ارمني فإنك إذا فعلت ذلك قتلتني، فجمع الناس في صعيد واحد، وصلبه على جذع، ثم أخذ سهماً من كنانته ثم وضع السهم في كبد قوسه، ثم قال: بسم الله ربّ الغلام، ثم رماه فوقع السهم في صدغه فوضع يده على صدغه في موضع السهم، فمات، فقال الناس: آمنّا بربّ الغلام ثلاثاً فأُتِيَ الملك، فقيل له: أرأيت ما كنت تحذر قد والله نزل بك حذرُك، قد آمن الناسُ، فأمر

كنانته ثم وضع السهم في كبد القوس ثم قال بسم الله رب الغلام ثم رماه فوقع السهم في صدغه فوضع يده على صدغه موضع السهم فمات، فقال الناس آمنا برب الغلام ثلاثاً، فأتى الملك فقيل له أرأيت ما كنت تحذر قد، والله نزل بك حذرك قد آمن الناس فأمر بالأخدود في أفواه السّكك فخدت وأضرم النيران وقال من لم يرجع عن دينه فأقتحموه فيها ففعلوا ذلك حتى جاءت امرأة ومعها صبي لها فتقاعست أن تقع فيها فقال لها الغلام يا أماه اصبري ولا تقاعسي فإنك على الحق». هذا حديث صحيح أخرجه مسلم.

وفي هذا الحديث إثبات كرامات الأولياء، وفيه جواز الكذب في مصلحة ترجع إلى الدين، وفيه إنقاذ النفسَ من الهلاك والأكمه هو الذي خلق أعمى، والميشار بالياء وتخفيف الهمزة وروي بالنون وذروة الجبل بالضم والكسر أعلاه، ورجف تحرك واضطرب والقرقور بضم القاف الأولى السفينة الصغيرة وانكفأت انقلبت، والصّعيد هنا الأرض البارزة والسّكك الطّرق والأخدود الشّق العظيم في الأرض، وأقحموه أي ارموه وتقاعست أي تأخرت وكرهت

بالأخدود بأفواه السكك، فخدّت وأضرم بنيران، وقال: مَن لم يرجع عن دينه فأقحموه فيها أو قيل له اقتحم، قال: ففعلوا حتى جاءت امرأة معها صبي لها فتقاعست أن تقع فيها، فقال لها الغلام: يا أُمّاه اصبري فإنك على الحق»، هذا حديث صحيح أخرجه مسلم بن الحجّاج عن هدبة بن خالد عن حمّاد بن سلمة وذكر محمد بن إسحاق عن وهب بن منبّه أن رجلاً كان قد بقي على دين عيسى فوقع إلى نجرّان فدعاهم فأجابوه فسار إليه ذو نواس اليهودي بجنوده من حمير وخيّرهم بين النار واليهودية، فأبوا عليه فخدّ الأخاديد وأحرق اثني عشر ألفاً، ثم غلب أرياط على اليمن فخرج ذو نواس هارباً فاقتحم البحر بفرسه فغرق، قال الكلبي: وذو نواس قتل عبد الله بن التامر. وقال محمد بن إسحاق عن عبد الله بن أبي بكر أن خربة احتفرت في زمن عمر بن الخطاب فوجدوا عبد الله بن التامر واضعاً يده على ضربة في رأسه إذا أُميطت يده عنها انبعثت دماً وإذا تُركَت ارتدّت مكانها، وفي يده خاتم من حديد فيه مكتوب ربّي الله، فبلغ ذلك عمر فكتب أن أعيدوا عليه الذي وجدتم عليه. وروى عطاء عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: كان بنجرّان ملك من ملوك حمير يقال له: يوسف ذو نواس بن شراحيل في الفترة قبل مولد النبي ﷺ سبعين سنة، وكان في بلاده غلام يقال له عبد الله بن تامر، وكان أبوه قد سلّمه إلى معلّم يعلّمه السحر فكره ذلك الغلام ولم يجد بدّاً من طاعة أبيه فجعل يختلف إلى المعلّم وكان في طريقه راهب حَسَن القراءة حَسَن الصوت، فأعجبه ذلك، وذكر قريباً من معنى حديث صهيب إلى أن قال الغلام للملك: إنك لا تقدر على قتلي إلّا أن تفعل ما أقول لك، قال: فكيف أقتلك؟ قال: تجمع أهل مملكتك وأنت على سريرك فترميني بسهم باسم إلّهي، ففعل الملك فقتله، فقال الناس: لا إلّه إلّا الله إلّه عبد الله بن تامر لا دين إلّا دينه، فغضب الملك وأغلق باب المدينة وأخذ أفواه السكك وخدّ أخدوداً وملأه ناراً ثم عرضهم رجلاً رجلاً فمَن رجع عن الإسلام تركه، ومَن قال: ديني دين عبد الله بن تامر ألقاه في الأخدود فأحرقه، وكان في مملكته امرأة أسلمت فيمن أسلم ولها أولاد ثلاثة أحدهم رضيع، فقال لها الملك: ارجعي عن دينك وإلّا ألقيتك وأولادك في النار، فأبت فأخذ ابنها الأكبر فألقاه في النار، ثم قال لها: ارجعي عن دينك، فأبت، فألقي الثاني في النار، ثم قال لها: ارجعي، فأبت، فأخذوا الصبي منها ليلقوه في النار فهمّت المرأة بالرجوع، فقال الصبي: يا أمّاه لا ترجعي عن الإسلام فإنك على الحق، ولا بأس عليك، فألقي الصبي في النار، وأُلقيت أمه على أثره. وقال سعيد بن جبير وابن أبزي: لمّا انهزم أهل إسفندهار قال عمر بن الخطاب: أي شيء يجري على المجوس من الأحكام فإنهم ليسوا بأهل كتاب، فقال عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه: بلى قد كان لهم كتاب وكانت الخمر أُحِلّت لهم فتناولها ملك من ملوكهم فغلبته على عقله فتناول أُخته فوقع عليها فلما ذهب عنه السُّكْر ندم، وقال لها: ويحك ما هذا الذي أتيت، وما المخرج منه قالت: المخرج

الدخول في النار. وقال ابن عباس: «كان بنجران ملك من ملوك حمير يقال له يوسف ذو نواس بن شرحبيل بن شراحيل في الفترة قبل مولد النبي ﷺ بسبعين سنة، وكان في بلاده غلام يقال له عبدالله بن تامر، وكان أبوه يسلمه إلى معلم يعلمه السحر فكره ذلك الغلام ولم يجد بداً من طاعة أبيه فجعل يختلف إلى المعلم وكان في طريقه راهب حسن القراءة حسن الصوت فأعجبه ذلك». وذكر نحو حديث صهيب وقال وهب بن منبه: إن رجلاً كان قد بقي على دين عيسى، فوقع إلى نجران فأحبوه فسار إليه ذو نواس اليهود بجنوده من حمير وخيرهم بين النّار واليهودية، فأبوا عليه فخد الأخدود وحرق اثني عشر ألفاً ثم غلب أرياط على اليمن فخرج ذو نواس هارباً، فاقتحم البحر بفرسه فغرق.

وقال: محمد بن إسحاق عن عبد الله بن أبي بكر إن خربة احتفرت في زمن عمر بن الخطاب، فوجدوا عبد الله بن تامر واضعاً يده على ضربة في رأسه، إذا أميطت يده عنها انبعثت دماً، وإذا تركت ارتدت مكانها وفي يده خاتم حديد فيه مكتوب ربي الله فبلغ ذلك عمر، فكتب أن أعيدوا عليه الذي وجدتم عليه.

وقال: سعيد بن جبير وابن أبزي لما انهزم أهل اسفندهار، قال: عمر بن الخطاب أيُّ شيء يجري على المجوس من الأحكام، فإنهم ليسوا بأهل كتاب، فقال علي بن أبي طالب بلى قد كان لهم كتاب، وكانت الخمر قد أحلّت لهم فتناولها ملك من ملوكهم، فغلبت على عقله فوقع على أخته فلما ذهب عنه السكر ندم، وقال لها ويحك ما هذا الذي أتيت وما المخرج منه قالت: المخرج منه إنّك تخطب الناس وتقول إنّ الله قد أحل نكاح الأخوات فإذا ذهب في الناس وتناسوه خطبتهم فحرمته. فقام خطيباً بذلك فقال إن الله قد أحل لكم نكاح الأخوات فقال الناس بأجمعهم معاذ الله أن نؤمن بهذا أو نقر به، ما جاءنا به من نبي، ولا أنزل علينا في كتاب، فبسط فيهم السوط فأبوا أن يقروا، فجرد فيهم السيف فأبوا أن يقروا به فجرد لهم الأخدود، وأوقدوا فيها النيران وعرضهم عليها فمن أبى قذفه في النار ومن أجـاب أطلقه. وروي عن علي قال كان أصحاب الأخدود نبيهم حبشي بعث من الحبشة إلى قومه ثم قرأ عليّ

منه أن تخطب الناس، وتقول: إن الله قد أحلّ نكاح الأخوات فإذا ذهب في الناس وتناسوه خطبتهم فحرّمته، فقام خطيباً فقال: إن الله قد أحلّ لكم نكاح الأخوات، فقال الناس بأجمعهم معاذ الله أن نؤمن بهذا، أو نقرّ به، وما جاءنا به نبيّ ولا أنزل علينا فـي كتاب، فبسط فيهم السوط فأبوا أن يقرّوا فجرّد فيهم السيف. فأبوا أن يقرّوا. فخدّ لهم أخدوداً وأوقد فيه النيران وعرضهم عليها فمَن أبى ولم يطعه قذفه في النار ومَن أجاب خلّى سبيله. وقال الضحاك: أصحاب الأخدود من بني إسرائيل أخذوا رجالاً ونساءً فخدّوا لهم أخدوداً ثم أوقدوا فيها النيران فأقاموا المؤمنين عليها، فقالوا: أتكفرون أم نقذفكم في النار؟ ويزعمون أنه دانيال وأصحابه، وهذه رواية العوفي عن ابن عباس رضي الله عنهما. وقال أبو الطفيل عن علي رضي الله عنه: كان أصحاب الأخدود نبيّهم حبشي بُعِثَ من الحبشة إلى قومه، ثم قرأ عليّ رضي الله عنه: ﴿ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك منهم مَن قصصنا عليك﴾ [غافر: ٧٨]، الآية، فدعاهم فتابعه ناس فقاتلهم أصحابه فأخذوا وأوثقوا مَن أفلت منهم فخدّوا أخدوداً فملؤوها ناراً فمَن اتّبع النبي رُمِيَ فيها، ومَن تابعهم تركوه، فجاؤوا بامرأة ومعها صبي رضيع فجزعت، فقال الصبي: يا أُماه مرّي ولا تنافقي. وقال عكرمة: كانوا من النبط أُحرقوا بالنار. وقال مقاتل: كانت الأخدود ثلاثة واحدة بنجرّان باليمن، والأخرى بالشام، والأخرى بفارس، أما التي بالشام فهو أُبطاموس الرومي، وأما التي بفارس فبختنصّر، وأما التي بأرض العرب فهو ذو نواس يوسف، فأما التي بالشـام وفارس فلم يُنـزّل الله فيهما قـرآناً وأنـزل في التي كانت بنجـرّان، وذلك أن رجلاً مسلماً ممّن يقرأ الإنجيل آجر نفسه في عمل، وجعل يقرأ الإنجيل فرأت بنت المستأجر النور يضيء من قراءة الإنجيل، فذكرت ذلك لأبيها فرمقه حتى رآه فسأله فلم يخبره، فلم يزل به حتى أخبره بالدين والإسلام،

﴿ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك﴾ الآية، فدعاهم فتابعه أناس فقاتلهم الكفار، فقتل أصحابه وأخذ من انفلت منهم فأوثقوه ثم خدوا له أخدوداً فملؤوها ناراً، فمن تبع ذلك النبي رمي به في النار ومن تابعهم تركوه فجاؤوا بامرأة معها صبي رضيع فجزعت، فقال الصبي يا أماه قعي ولا تقاعسي وقيل كانت الأخدود ثلاثة واحدة بنجران باليمن، والأخرى بالشام، والأخرى بفارس حرقوا بالنار فأما التي بالشام فهو أبطاموس الرومي وأما التي بفارس فبختنصر ويزعمون أنهم أصحاب دانيال وأما التي باليمن فذو نواس يوسف؛ فأما التي بالشام وفارس فلم ينزل الله فيهم قرآناً وأنزل في التي بنجران اليمن وذلك أن هذه القصة كانت مشهورة عند أهل مكة، فذكر الله تعالى ذلك لأصحاب رسول الله ﷺ يحملهم بذلك على الصبر، وتحمل المكاره في الدين.

﴿ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ۝٥ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝٦ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۝٧ وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝٨ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ۝٩ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ۝١٠﴾

وقوله تعالى: ﴿**النار ذات الوقود**﴾، هو تعظيم لأمر تلك النار قال الربيع بن أنس نجى الله المؤمنين الذين ألقوا في النار بقبض أرواحهم، قبل أن تمسهم النار وخرجت النار إلى من على شفير الأخدود من الكفار فأحرقتهم ﴿**إذ هم عليها قعود**﴾، أي جلوس عند الأخدود ﴿**وهم**﴾ يعني الملك الذي خد الأخدود وأصحابه ﴿**على ما يفعلون بالمؤمنين**﴾ أي من عرضهم على النار وإرادتهم أن يرجعوا إلى دينهم ﴿**شهود**﴾ أي حضور وقيل يشهدون أن المؤمنين ضلال حين تركوا عبادة الصنم، ﴿**وما نقموا منهم**﴾ قال ابن عباس ما كرهوا منهم ﴿**إلا أن يؤمنوا بالله**﴾، وقيل ما عابوا ولا علموا فيهم عيباً إلا إيمانهم بالله ﴿**العزيز**﴾، يعني إن الذي يستحق العبادة هو الله العزيز الغالب القاهر الذي لا يغالب ويدافع، ﴿**الحميد**﴾ يعني الذي يستحق أن يحمد ويثني عليه، وهو أهل لذلك وهو الله جل جلاله، ﴿**الذي له**

فتابعه هو وسبعة وثمانون إنساناً من بين رجل وامرأة، وهذا بعدما رفع عيسى عليه السلام إلى السماء، فسمع ذلك يوسف ذو نواس فخدّ لهم في الأرض وأوقد فيها ناراً فعرضهم على الكفر، فمَن أبى أن يكفر قذفه في النار ومَن رجع عن دين عيسى لم يقذفه، وإن امرأة جاءت ومعها ولد صغير لا يتكلم، فلما قامت على شفير الخندق نظرت إلى ابنها فرجعت عن النار، فضُربت حتى تقدّمت فلم تزل كذلك ثلاث مرات، فلما كانت في الثالثة ذهبت ترجع فقال لها ابنها: يا أُمّاه إني أرى أمامك ناراً لا تطفأ، فلما سمعت ذلك قذفا جميعاً أنفسهما في النار، فجعلها الله وابنها في الجنة، فقذف في النار في يوم واحد سبعة وسبعون ألف إنسان. فذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿ **قتل أصحاب الأخدود** ﴾.

﴿ **النار ذات الوقود** ﴾، بدل من الأخدود، قال الربيع بن أنس: نجّى الله المؤمنين الذين أُلقوا في النار بقبض أرواحهم قبل أن تمسّهم النار وخرجت النار إلى مَن على شفير الأخدود من الكفّار فأحرقتهم.

﴿ **إذْ هم عليها قعود** ﴾، أي عند النار جلوس يعذبون المؤمنين. قال مجاهد: كانوا قعوداً على الكراسي عند الأخدود.

﴿ **وهم** ﴾، يعني الملك وأصحابه الذين خدّوا الأخدود، ﴿ **على ما يفعلون بالمؤمنين** ﴾، من عرضهم على النار وإِرادتهم أن يرجعوا إلى دينهم، ﴿ **شهود** ﴾، حضور، وقال مقاتل: يعني يشهدون أن المؤمنين ضلّال حين تركوا عبادة الصنم.

ملك السموات والأرض﴾ أي فهو المستحق للعبادة **﴿والله على كل شيء﴾** أي من أفعالهم بالمؤمنين. **﴿شهيد﴾** وفيه وعد عظيم للمؤمنين ووعيد عظيم للكافرين.

قوله عزَّ وجلَّ: **﴿إن الذين فتنوا﴾** أي عُذِّبوا وأحرِقوا **﴿المؤمنين والمؤمنات﴾** أي بالنار **﴿ثم لم يتوبوا﴾** أي لم يرجعوا عما هم عليه من الكفر وفيه دليل على أنهم إذا تابوا وآمنوا يقبل منهم، ويخرجون من هذا الوعيد، وأن الله تعالى يقبل منهم التوبة، وأن توبة القاتل مقبولة، وأنهم إن لم يتوبوا **﴿فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق﴾** يعني لهم عذاب جهنم بكفرهم، ولهم عذاب الحريق بما أحرقوا المؤمنين، وقيل لهم عذاب الحريق في الدنيا وذلك أن الله أحرقهم بالنار التي أحرقوا بها المؤمنين ارتفعت إليهم من الأخدود فأحرقتهم، ولهم عذاب جهنم في الآخرة ثم ذكر ما أعد للمؤمنين فقال تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ﴿١١﴾ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطُۢ ﴿٢٠﴾﴾

﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات تجري من تحتها الأنهار ذلك الفوز الكبير﴾. قوله عزّ وجلّ: **﴿إن بطش ربك لشديد﴾** قال ابن عباس إن أخذه بالعذاب إذا أخذ الظلمة لشديد. **﴿إنه هو يبدىء ويعيد﴾** أي يخلقهم أولاً في الدنيا، ثم يعيدهم أحياء بعد الموت ليجازيهم بأعمالهم في القيامة **﴿وهو الغفور﴾** يعني لذنوب جميع المؤمنين. **﴿الودود﴾** أي المحب لهم، وقيل المحبوب أي يوده أولياؤه ويحبونه، وقيل يغفر ويود أن يغفر، وقيل هو

﴿ وما نقموا منهم ﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما: ما كرهوا منهم، **﴿ إلّا أن يؤمنوا بالله ﴾**، قال مقاتل ما عابوا منهم. وقيل: ما علموا فيهم عيباً. قال الزجّاج: ما أنكروا عليهم ذنباً إلّا إيمانهم بالله، **﴿ العزيز الحميد ﴾**.

﴿ الذي له مُلك السمٰوات والأرض والله على كل شيء ﴾، من أفعالهم، **﴿ شهيد ﴾**.

﴿ إنّ الذين فتنوا ﴾، عذّبوا وأحرقوا، **﴿ المؤمنين والمؤمنات ﴾**، يقال: فتنت الشيء إذا أحرقته، نظيره: **﴿ يومهم على النار يفتنون ﴾** [الذاريات: ١٣]، **﴿ ثم لم يتوبُوا فلهم عذابُ جهنم ﴾**، بكفرهم، **﴿ ولهم عذاب الحريق ﴾**، بما أحرقوا المؤمنين. وقيل: ولهم عذاب الحريق في الدنيا، وذلك أن الله أحرقهم بالنار التي أحرقوا بها المؤمنين، ارتفعت إليهم من الأخدود، قاله الربيع بن أنس والكلبي.

ثم ذكر ما أعدّ للمؤمنين فقال: **﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنّاتٌ تجري من تحتها الأنهارُ ذلك الفوزُ الكبير ﴾**، واختلفوا في جواب القسم فقال بعضهم: جوابه **﴿ قُتل أصحابُ الأخدود ﴾**، يعني لقد قتل، وقيل: فيه تقديم وتأخير تقديره: قتل أصحاب الأخدود والسماء ذات البروج. وقال قتادة: جوابه:

﴿ إنّ بطش ربّك لشديد ﴾، قال ابن عباس: إن أخذه بالعذاب إذا أَخَذَ الظَلمةَ لشديدٌ، كقوله: **﴿ إن أخذَهُ أليمٌ شديد ﴾** [هود: ١٠٢].

﴿ إنه هو يُبديءُ ويُعيد ﴾، أي بخلقهم أولاً في الدنيا ثم يعيدهم أحياءً بعد الموت.

﴿ وهو الغفور ﴾، لذنوب المؤمنين، **﴿ الودود ﴾**، المحبّ لهم، وقيل: معناه المودود، كالحلوب

المتودد إلى أوليائه بالمغفرة. ﴿ذو العرش﴾ أي خالقه ومالكه. ﴿المجيد﴾ قرىء بالرفع على أنه صفة لله تعالى لأن المجد من صفات التعالي والجلال، وذلك لا يليق إلا بالله تعالى. وقرىء المجيد بالكسر على أنه صفة للعرش أي للسرير العظيم إذ لا يعلم صفة العرش وعظمته إلا الله تعالى وقيل أراد حسنه فوصفه بالمجيد فقد قيل إن العرش أحسن الأجسام، ثم قال تعالى: ﴿فعال لما يريد﴾ يعني أنه لا يعجزه شيء ولا يمنع منه شيء طلبه، وقيل فعال لما يريد لا يعترض عليه معترض، ولا يغلبه غالب، فهو يدخل أولياءه الجنة برحمته، لا يمنعه من ذلك مانع، ويدخل أعداءه النار لا ينصرهم منه ناصر. ﴿هل أتاك﴾ أي قد أتاك ﴿حديث الجنود﴾ أي خبر الجموع الكافرة الذين تجندوا على الأنبياء ثم بين من هم فقال تعالى: ﴿فرعون﴾ يعني وقومه ﴿وثمود﴾ وكانت قصتهم عند أهل مكة مشهورة ﴿بل الذين كفروا﴾ أي من قومك يا محمد. ﴿في تكذيب﴾ يعني لك وللقرآن كما كذب من كان قبلهم من الأمم، ولم يعتبروا بمن أهلكنا منهم ﴿والله من ورائهم محيط﴾، أي عالم بهم لا يخفى عليه شيء من أعمالهم يقدر أن ينزل بهم ما أنزل بمن كان قبلهم.

بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ﴿٢٢﴾

﴿بل هو قرآن مجيد﴾ أي كريم شريف كثير النفع والخير ليس هو كما زعم المشركون أنه شعر وكهانة. ﴿في لوح محفوظ﴾ قرىء بالرفع على أنه نعت للقرآن، محفوظ يعني أن القرآن من التبديل والتغيير والتحريف، وقرىء محفوظ بالكسر على أنه نعت للوح لأنه يعرف باللوح المحفوظ وهو أم الكتاب، ومنه تنسخ الكتب وسمي محفوظاً

والركوب، بمعنى المحلوب والمركوب. وقيل: يغفر ويودّ أن يغفر، وقيل: المتودّد إلى أوليائه بالمغفرة.

﴿ ذو العرش المجيد ﴾، قرأ حمزة والكسائي ﴿ المجيد ﴾ بالجرّ على صفة العرش أي السرير العظيم. وقيل: أراد حُسنه فوصفه بالمجد كما وصفه بالكرم، فقال: ﴿ ربّ العرش الكريم ﴾ [المؤمنون: ١١٦]، ومعناه الكمال، والعرش: أحسن الأشياء وأكملها، وقرأ الآخرون بالرفع على صفة ذو العرش.

﴿ فعّال لما يريد ﴾، لا يعجزه شيء يريده ولا يمتنع منه شيء طلبه.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ هل أتاك حديث الجنود ﴾، قد أتاك خبر الجموع الكافرة الذين تجندوا على الأنبياء، ثم بيّن مَن هم؟

فقال: ﴿ فرعون وثمود * بل الذين كفروا ﴾، من قومك يا محمد، ﴿ في تكذيب ﴾، لك وللقرآن كدأب مَن قبلهم، ولم يعتبروا بمَن كان قبلهم من الكفّار.

﴿ والله من ورائهم محيط ﴾، عالم بهم لا يخفى عليه شيء من أعمالهم، يقدر أن يُنزِل بهم ما أنزل بمَن كان قبلهم.

﴿ بل هو قرآن مجيد ﴾، كريم شريف كثير الخير، ليس كما زعم المشركون أنه شِعر وكهانة.

﴿ في لوح محفوظ ﴾، قرأ نافع محفوظ بالرفع على نعت القرآن فإن القرآن محفوظ من التبديل والتغيير والتحريف، قال الله تعالى: ﴿ إنّا نحنُ نزّلنا الذكر وإنّا له لحافظون ﴾ [الحجر: ٩]، وقرأ الآخرون بالجرّ على نعت اللوح وهو الذي يُعرَف باللوح المحفوظ، وهو أُمّ الكتاب، ومنه تنسخ الكتب، محفوظ من الشياطين، ومن الزيادة فيه والنقصان، أخبرنا أحمد بن إبراهيم الشريحي أنا أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي أنا الحسين بن محمد بن

لأنه حفظ من الشياطين من الزيادة والنقص، وهو عن يمين العرش، وروى البغوي بإسناد الثعلبي عن ابن عباس قال «إن في صدر اللوح لا إله إلا الله وحده دينه الإسلام، ومحمد عبده ورسوله، فمن آمن بالله عزّ وجلّ وصدق بوعده واتبع رسله، أدخله الجنة» وقال: واللوح لوح من درة بيضاء طوله ما بين السماء والأرض، وعرضه ما بين المشرق والمغرب، وحافتاه الدر والياقوت، ودفتاه ياقوتة حمراء، وقلمه من نور، وكلامه سر معقود بالعرش وأصله في حجر ملك والله تعالى أعلم بمراده.

فنجويه أنا مخلد بن جعفر ثنا الحسن بن علويه أنا إسماعيل بن عيسى ثنا إسحاق بن بشر أخبرني مقاتل وابن جريج عن مجاهد عن ابن عباس قال: إن في صدر اللوح لا إلٰه إلاّ الله وحده، دينه الإسلام ومحمد عبده ورسوله، فمَن آمن بالله عزّ وجلّ وصدّق بوعده واتّبع رُسُله أدخله الجنة، قال واللوح لوح من درّة بيضاء طوله ما بين السماء والأرض، وعرضه ما بين المشرق والمغرب وحافّتاه الدرّ والياقوت ودفّتاه ياقوتة حمراء، وقلمه نور، وكلامه قديم، وكل شيء فيه مستور. وقيل: أعلاه معقود بالعرش، وأصله في حجر ملك قال مقاتل: اللوح المحفوظ عن يمين العرش.

سورة الطارق

مكية وهي سبع عشرة آية، وإحدى وستون كلمة، ومائتان وتسعة وثلاثون حرفاً.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ۝١ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ۝٢ ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ ۝٣﴾

قوله عز وجل: ﴿والسماء والطارق﴾ قيل نزلت في أبي طالب وذلك أنه أتى النبي ﷺ فأتحفه بخبز ولبن فبينما هو جالس يأكل إذا انحط نجم فامتلأ ماء ثم ناراً ففزع أبو طالب، وقال: أي شيء هذا فقال النبي ﷺ: هذا نجم رمي به، وهو آية من آيات الله، فعجب أبو طالب فأنزل الله والسماء والطارق يعني النجم يظهر بالليل، وكل ما أتاك بالليل فهو طارق، ولا يسمى ذلك بالنهار، وسمي النجم طارقاً لأنه يطرق بالليل قالت هند:

نحن بنات طارق نمشي على النمارق

تريد أن أباها نجم في علوه وشرفه. ﴿وما أدراك ما الطارق﴾ قيل لم يكن ﷺ يعرفه، حتى بينه الله له بقوله ﴿النجم الثاقب﴾، أي المضيء المنير، وقيل المتوهج، وقيل المرتفع العالي، وقيل هو الذي يرمى به الشيطان فيثقبه أي ينفذه، وقيل النجم الثاقب هو الثريا لأن العرب تسميها النجم، وقيل هو زحل سمي بذلك لارتفاعه، وقيل هو كل نجم يرمى به الشيطان لأنه يثقبه فينفذه، وهذه أقسام أقسم الله بها، وقيل تقديره ورب هذه الأشياء وجواب القسم قوله تعالى:

﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ۝٤ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝٦ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ۝٧ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ۝٨ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ۝٩﴾

﴿إن كل نفس لما عليها حافظ﴾، يعني أن كل نفس عليها حافظ من ربها يحفظ عملها ويحصي عليها ما تكسب

سُورَة الطّارِق

مكيّة وهي سبع عشرة آية.

﴿ والسماء والطارق ﴾، قال الكلبي: نزلت في أبي طالب وذلك أنه أتى النبي ﷺ فأتحفه بخبز ولبن، فبينما هو جالس يأكل إذ انحطّ نجم فامتلأ ماءً ثم ناراً، ففزع أبو طالب وقال: أيّ شيء هذا؟ فقال رسول الله ﷺ: «هذا نجم رُمِيَ به وهو آية من آيات الله عزّ وجلّ، فعجب أبو طالب، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿ والسماء والطارق ﴾، وهذا قسم، والطارق النجم يظهر بالليل، وما أتاك ليلاً فهو طارق.

﴿ وما أدراك ما الطارق ﴾.

ثم فسّره فقال: ﴿ النجم الثاقب ﴾، أي المضيء المُنير، قال مجاهد: المتوهّج، قال ابن زيد: أرادَ به

من خير أو شر، قال ابن عباس: هم الحفظة من الملائكة، وقيل حافظ من الله تعالى يحفظها، ويحفظ قولها، وفعلها، حتى يدفعها ويسلمها إلى المقادير، ثم يحل عنها، وقيل يحفظها من المهالك والمعاطب إلا ما قدر لها.

قوله عزّ وجلّ: ﴿**فلينظر الإنسان**﴾ يعني نظر تفكر واعتبار ﴿**مم خلق**﴾ أي من أيّ شيءٍ خلقه ربه، ثم بيّن ذلك فقال تعالى: ﴿**خلق من ماء**﴾ يعني من مني ﴿**دافق**﴾، أي مدفوق مصبوب في الرحم، وأراد به ماء الرجل، وماء المرأة، لأن الولد مخلوق منهما وإنما جعله واحداً لامتزاجهما ﴿**يخرج**﴾ يعني ذلك الماء وهو المني، ﴿**من بين الصلب والترائب**﴾ يعني صلب الرجل، وترائب المرأة، وهي عظام الصدر والنحر. قال ابن عباس: هي موضع القلادة من الصدر، وعنه أنها بين ثديي المرأة، قيل إن المني، يخرج من جميع أعضاء الإنسان، وأكثر ما يخرج من الدماغ، فينصب في عرق في ظهر الرجل، وينزل في عروق كثيرة من مقدم بدن المرأة، وهي الترائب، فلهذا السبب خصّ الله تعالى، هذين العضوين بالذكر ﴿**إنه على رجعه لقادر**﴾ يعني إن الله تعالى قادر على أن يرد النطفة في الإحليل، وقيل قادر على رد الماء في الصلب الذي خرج منه، وقيل قادر على رد الإنسان ماء كما كان من قبل، وقيل معناه إن شئت رددته من الكبر إلى الشباب، ومن الشباب إلى الصبا ومن الصبا، إلى النطفة وقيل إنَّه على حبس ذلك الماء حتى لا يخرج لقادر، وقيل معناه إن الذي قدر على خلق الإنسان ابتداء قادر على إعادته حياً بعد موته، وهو أهون عليه، وهذا القول هو الأصح، والأولى بمعنى الآية لقوله تعالى بعده ﴿**يوم تبلى السرائر**﴾ وذلك يوم القيامة.

الثريا، والعرب تسمّيه النجم. وقيل: هو زُحَل سُمّي بذلك لارتفاعه، تقول العرب للطائر إذا لحق ببطن السماء ارتفاعاً: قد ثقب.

﴿ إنْ كلُّ نفسٍ ﴾، جواب القسم، ﴿ لمّا عليها حافظ ﴾، قرأ أبو جعفر وابن عامر وعاصم وحمزة ﴿ لما ﴾ بالتشديد يعنون ما كل نفس إلاّ عليها حافظ، وهي لغة هذيل يجعلون ﴿ لما ﴾ بمنزلة (إلاّ) يقولون: نشدتك الله لمّا قمت، أي إلاّ قمت، وقرأ الآخرون بالتخفيف جعلوا (ما) صلة، مجازه: إن كل نفس لعليها حافظ، وتأويل الآية: كل نفس عليها حافظ من ربّها يحفظ عملها ويحصي عليها ما تكتسب من خير وشرّ. قال ابن عباس: هم الحَفَظَة من الملائكة. قال الكلبي: حافظ من الله يحفظها ويحفظ قولها وفعلها حتى يدفعها ويسلّمها إلى المقادير، ثم يخلّي عنها.

﴿ فلينظرِ الإنسانُ مِمَّ خُلق ﴾، أي فليتفكّر من أيّ شيء خلقه ربّه، أي فلينظر نظر المتفكّر.

ثم بيّن فقال: ﴿ خُلق من ماء دافق ﴾، مدفوق أي مصبوب في الرحم، وهو المني، فاعل بمعنى مفعول كقوله: ﴿ عيشة راضية ﴾ [القارعة: ٧، الحاقّة: ٢١]، والدّفق الصبّ وأراد ماء الرجل وماء المرأة لأن الولد مخلوق منهما، وجعله واحداً لامتزاجهما.

﴿ يخرج من بين الصلب والترائب ﴾، يعني صلب الرجل وترائب المرأة والترائب جمع التربية وهي عظام الصدر والنحر. قال ابن عباس: هي موضع القلادة من الصدر، وروى الوالبي عنه: بين ثديي المرأة. وقال قتادة: النحر. وقال ابن زيد: الصدر.

﴿ إنه على رجعه لقادر ﴾، قال مجاهد: على ردّ النطفة في الإحليل. وقال عكرمة: على ردّ الماء في الصلب الذي خرج منه. وقال الضحاك: إنه على ردّ الإنسان ماءً كما كان من قبل لقادر. وقال مقاتل بن حيّان: إن شئت رددته من الكبر إلى الشباب ومن الشباب إلى الصبا ومن الصبا إلى النطفة. وقال ابن زيد: إنه على حبس ذلك الماء لقادر حتى لا يخرج. وقال قتادة: إن الله تعالى على بعث الإنسان وإعادته بعد الموت قادر. وهذا أولى الأقاويـــــل.

قيل معناه تظهر الخبايا. وقيل معنى تبلى تختبر، وقيل السرائر هي فرائض الأعمال كالصوم، والصلاة، والوضوء، والغسل من الجنابة، فكل هذه سرائر بين العبد وبين ربّه عزّ وجلّ وذلك لأن العبد قد يقول صليت ولم يصلِّ، وصمت ولم يصم، واغتسلت ولم يغتسل، فإذا كان يوم القيامة يختبر حتى يظهر من أداها ومن ضيعها. قال عبد الله بن عمر: يبدي الله تعالى يوم القيامة كل سر، فيكون زينا في وجوه وشينا في وجوه، يعني من أدى الفرائض كما أمر كان وجهه مشرقاً، مستنيراً يوم القيامة، ومن ضيعها أو انتقص منها كان وجهه أغبر.

﴿فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٖ وَلَا نَاصِرٖ ١٠ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجۡعِ ١١ وَٱلۡأَرۡضِ ذَاتِ ٱلصَّدۡعِ ١٢ إِنَّهُۥ لَقَوۡلٞ فَصۡلٞ ١٣ وَمَا هُوَ بِٱلۡهَزۡلِ ١٤ إِنَّهُمۡ يَكِيدُونَ كَيۡدٗا ١٥ وَأَكِيدُ كَيۡدٗا ١٦ فَمَهِّلِ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَمۡهِلۡهُمۡ رُوَيۡدَۢا ١٧﴾

﴿**فماله**﴾ أي لهذا الإنسان المنكر البعث. ﴿**من قوة**﴾ أي يمتنع بها من عذاب الله ﴿**ولا ناصر**﴾ أي ينصره من الله، ثم ذكر قسماً آخر فقال تعالى ﴿**والسماء ذات الرجع**﴾ أي ذات المطر، سمي به لأنه يجيء ويرجع ويتكرر ﴿**والأرض ذات الصدع**﴾ أي تتصدع وتنبثق عن النبات، والشجر، والأنهار، وجواب القسم.

قوله تعالى: ﴿**إنَّه**﴾ يعني القرآن ﴿**لقول فصل**﴾ أي إنه لحق وجد يفصل بين الحق والباطل. ﴿**وما هو بالهزل**﴾ أي باللعب والباطل. ﴿**إنهم**﴾ يعني مشركي مكة، ﴿**يكيدون كيداً**﴾ يعني يحتالون بالمكر بالنبي ﷺ، وذلك حين اجتمعوا في دار الندوة وتشاوروا فيه. ﴿**وأكيد كيداً**﴾ يعني أجازيهم على كيدهم بأن استدرجهم من حيث لا يعلمون فأنتقم منهم في الدنيا بالسيف، وفي الآخرة بالنار ﴿**فمهل الكافرين**﴾ أي لا تستعجل ولا تدع بهلاكهم. قال ابن عباس: هذا وعيد لهم من الله عز وجل، ثم لمّا أمره بإمهالهم بيّن أن ذلك الإمهال قليل. فقال تعالى: ﴿**أمهلهم رويداً**﴾ يعني قليلاً، فأخذهم الله يوم بدر ونسخ الإمهال بآية السيف، والله سبحانه وتعالى أعلم بمراده.

لقوله: ﴿ **يوم تُبلى السرائر** ﴾، وذلك يوم القيامة تُبلى السرائر تظهر الخفايا. قال قتادة ومقاتل: تختبر. قال عطاء بن أبي رباح: السرائر فرائض الأعمال، كالصوم والصلاة والوضوء والاغتسال من الجنابة، فإنها سرائر بين الله تعالى وبين العبد، فلو شاء العبد لقال: صمتُ ولم يصم. وصلّيت ولم يصلِّ، واغتسلتُ ولم يغتسل، فيختبر حتى يظهر مَن أدّاها ممّن ضيّعها. قال ابن عمر: يبدي الله عزّ وجلّ يوم القيامة كلّ سر فيكون زيناً في وجوه وشيناً في وجوه، يعني مَن أدّاها كان وجهه مُشرِقاً ومَن ضيّعها كان وجهه أغبر.

﴿ **فما له من قوة ولا ناصر** ﴾، أي ما لهذا الإنسان المنكر للبعث من قوة يمتنع بها من عذاب الله ولا ناصر ينصره من الله.

ثم ذكر قسماً آخر فقال: ﴿ **والسماءِ ذاتِ الرجع** ﴾، أي ذات المطر لأنه يرجع كل عام ويتكرّر. وقال ابن عباس: هو السحاب يرجع المطر.

﴿ **والأرضِ ذاتِ الصدع** ﴾، أي تصدّع وتنشقّ عن النبات والأشجار والأنهار.

وجواب القسم قوله: ﴿ **إنه** ﴾، يعني القرآن، ﴿ **لقولٌ فصل** ﴾، حقٌّ وجد يفصل بين الحق والباطل.

﴿ **وما هو بالهزل** ﴾، باللعب والباطل.

ثم أخبر عن مُشرِكي مكة فقال: ﴿ **إنهم يكيدون كيداً** ﴾، يخافون النبي ﷺ ويُظهِرون ما هم على خلافه.

﴿ **وأكيد كيداً** ﴾، وكيد الله استدراجهم إياهم من حيث لا يعلمون.

﴿ **فمهِّلِ الكافرين** ﴾، قال ابن عباس: هذا وعيد من الله عزّ وجلّ لهم. ﴿ **أمهلهم رُويداً** ﴾، قليلاً ومعنى مهل وأمهل انظر ولا تعجل فأخذهم الله يوم بدر، ونسخ الإمهال بآية السيف.

سورة الأعلى

مكية وهي تسع عشرة آية، واثنتان وسبعون كلمة، ومائتان وأحد وتسعون حرفاً

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴿١﴾ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾ وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَىٰ ﴿٤﴾

قوله عزّ وجلّ: ﴿**سبح اسم ربك الأعلى**﴾ أي قل سبحان ربي الأعلى، وهو قول جماعة من الصحابة والتابعين يدل عليه ما روي عن ابن عباس «أن النبي ﷺ قرأ ﴿**سبّح اسم ربك الأعلى**﴾، فقال سبحان ربي الأعلى»، ذكره البغوي بإسناد الثعلبي، وقيل معناه نزه ربك الأعلى عما يصفه الملحدون، فعلى هذا يكون الاسم صلة، وقيل معناه نزه تسمية ربك الأعلى بأن تذكره وأنت له معظم، ولذكره محترم. وقال ابن عباس: سبّح أي صل بأمر ربك الأعلى عن عقبة بن عامر، قال: «لما نزلت فسبح باسم ربك العظيم قال النبي ﷺ اجعلوها في ركوعكم، ولما نزلت ﴿**سبّح اسم ربك الأعلى**﴾ قال: اجعلوها في سجودكم» أخرجه أبو داود ﴿**الذي خلق فسوى**﴾ أي خلق كل ذي روح فسوى اليدين والرجلين والعينين، وقيل خلق الإنسان مستوياً معتدل القامة. ﴿**والذي قدر فهدى**﴾ قيل قدر الأرزاق وهدى لاكتسابها، وقيل قدر لكل شيء شكله فهدى، أي فعرف كيف يأتي الذكر الأنثى وقيل قدر مدة الجنين في الرحم وهداه

سُورَة الأعْلَى

مكيّة وهي تسع عشرة آية.

﴿ **سبّحِ اسمَ ربِّكَ الأعلى** ﴾، يعني قلْ سبحان ربّي الأعلى وإلى هذا ذهب جماعة من الصحابة والتابعين أخبرنا أحمد بن إبراهيم الشريحي أنا أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي أنا عبد الله بن حامد أنا أحمد بن عبد الله ثنا محمد بن عبد الله ثنا عبد الله بن عمر بن أبّان ثنا وكيع عن إسرائيل عن أبي إسحاق عن مسلم البطين عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أن النبي ﷺ قرأ: ﴿ **سبّح اسم ربّك الأعلى** ﴾ فقال: «سبحان ربّي الأعلى». وقال قوم: معناه نزّه ربّك الأعلى عمّا يصفه به الملحدون، واجعلوا الاسم صلة، ويحتجّ بهذا مَن يجعل الاسم والمسمّى واحداً إلّا أن أحداً لا يقول: سبحان اسم الله، وسبحان اسم ربّنا، إنما يقولون: سبحان الله وسبحان ربّنا، وكان معنى سبّح اسم ربّك. وقال آخرون: نزّه تسمية ربّك بأن تذكره وأنت معظّم ولذِكره محترم، وجعلوا الاسم بمعنى التسمية. وقال ابن عباس: سبّح أي صلِّ بأمر ربك الأعلى.

﴿ **الذي خلق فسوّى** ﴾، قال الكلبي: خلق كل ذي روح فسوّى اليدين والرجلين والعينين. قال الزجّاج: خلق الإنسان مستوياً، ومعنى سوّى: عدل قامته.

﴿ **والذي قدّرَ فهدى** ﴾، قرأ الكسائي ﴿ **قدر** ﴾ بتخفيف الدال، وشدّدها الآخرون، وهما بمعنى واحد.

إلى الخروج منه، وقيل قدر السعادة لأقوام، والشقاوة لأقوام، ثم هدى كل فريق من الطائفتين لسلوك سبيل ما قدر له، وعليه، وقيل قدر الخير والشر، وهدى إليهما، وقيل قدر أي أعطى كل حيوان ما يحتاج إليه، وهدى الأنعام وسائر الحيوانات لمراعيها، وهو قوله تعالى: ﴿والذي أخرج المرعى﴾ أي أنبت العشب وما ترعاه الأنعام من أخضر وأصفر وأحمر وأبيض وغير ذلك.

فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ ﴿٥﴾ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴿٦﴾ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ﴿٧﴾ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٨﴾ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٩﴾ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ﴿١١﴾ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿١٣﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾

﴿فجعله﴾ يعني المرعى بعد الخضرة ﴿غثاء﴾ أي هشيماً يابساً بالياً كالغثاء الذي تراه فوق السيل. ﴿أحوى﴾ أي أسود بعد الخضرة، وذلك أن الكلأ إذا جف ويبس سود.

قوله عزّ وجلّ: ﴿سنقرئك﴾ أي نعلمك القرآن بقراءة جبريل عليك. ﴿فلا تنسى﴾ يعني ما يقرأ عليك، وذلك أن النبي ﷺ كان إذا نزل جبريل بالوحي، لم يفرغ من آخر الآية حتى يتكلم رسول الله ﷺ بأولها، مخافة أن ينساها، فأنزل الله تعالى ﴿سنقرئك فلا تنسى﴾ فلم ينس شيئاً بعد ذلك ﴿إلا ما شاء الله﴾ يعني أن تنساه وهو ما نسخ الله تعالى تلاوته من القرآن ورفعه من الصدور، وقيل معناه إلا ما شاء الله أن تنساه، ثم تذكره بعد ذلك، كما صح من حديث عائشة رضي الله عنها. قال: «سمع رسول الله ﷺ رجلاً يقرأ في سورة بالليل فقال يرحمه الله لقد أذكرني كذا وكذا، آية

وقال مجاهد: هدى الإنسان لسبيل الخير والشرّ والسعادة والشقاوة، وهدى الأنعام لمراتعها. وقال مقاتل والكلبي: قدّر لكل شيء مسلكه فهدى، عرّفها كيف يأتي الذَّكَر والأُنثى. وقيل: قدّر الأرزاق فهدى لاكتساب الأرزاق والمعاش. وقيل: خلق المنافع في الأشياء وهدى الإنسان لوجه استخراجها منها. وقال السدي: قدّر مدة الجنين في الرحم ثم هداه للخروج من الرحم. قال الواسطي: قدّر السعادة والشقاوة عليهم، ثم يسّر لكل واحد من الطائفتين سلوك سبيل ما قدر عليه.

﴿ والذي أخرج المرعى ﴾، أنبت العشب وما ترعاه النَعَم، من بين أخضر وأصفر وأحمر وأبيض.

﴿ فجعله ﴾، بعد الخُضرة، ﴿ غُثاءً ﴾، هشيماً بالياً، كالغثاء الذي تراه فوق السيل. ﴿ أحوى ﴾، أسود بعد الخُضرة، وذلك أن الكلأ إذا جفّ ويبس أسود.

﴿ سنقرئك ﴾، سنُعلِمك بقراءة جبريل عليك، ﴿ فلا تنسى * إلاّ ما شاء الله ﴾، أن تنساه وما نسخ الله تلاوته من القرآن، كما قال: ﴿ ما ننسخ من آية أو ننسها ﴾ [البقرة: ١٠٦]، والإنساء نوع من النسخ. وقال مجاهد والكلبي: كان النبي ﷺ إذا نزل عليه جبريل لم يفرغ من آخر الآية حتى يتكلم رسول الله ﷺ بأولها مخافة أن ينساها، فأنزل الله: ﴿ سنقرئك فلا تنسى ﴾، فلم ينسَ بعد ذلك شيئاً. ﴿ إنه يعلم الجهر ﴾، من القول والفعل، ﴿ وما يخفى ﴾، منهما، والمعنى: أنه يعلم السرّ والعلانية.

﴿ ونيسرك لليسرى ﴾، قال مقاتل: نهوّن عليك عمل الجنة، وهو معنى قول ابن عباس، نيسّرك لأن تعمل خيراً، واليسرى عمل الخير. وقيل: نوفّقك للشريعة اليسرى وهي الحنيفية السمحة. وقيل: هو متصل بالكلام الأول ومعناه: أنه يعلم الجهر مما تقرأه على جبريل إذا فرغ من التلاوة، وما يخفى ما تقرأ في نفسك مخافة

كنت أنسيتها من سورة كذا وكذا» وفي رواية «كنت أسقطتهن من سورة كذا» أخرجاه في الصحيحين، وقيل هذا الاستثناء لم يقع، ولم يشأ الله أن ينسيه شيئاً. ﴿إنه يعلم الجهر﴾ يعني من القول والفعل. ﴿وما يخفى﴾ يعني منهما والمعنى، أنه تعالى يعلم السر والعلانية. ﴿ونيسرك لليسرى﴾ أي نهون عليك أن تعمل خيراً ونسهله عليك حتى تعمله، وقيل نوفقك للشريعة اليسرى وهي الحنيفية السمحة، وقيل هو متصل بالكلام الأول، والمعنى إنه يعلم الجهر مما تقرؤوه على جبريل إذا فرغ من التلاوة، وما يخفى مما تقرؤوه في نفسك مخافة النسيان، ثم وعده فقال: ونيسرك لليسرى أي نهون عليك الوحي حتى تحفظه، ولا تنساه. ﴿فذكر﴾ أي فعظ بالقرآن. ﴿إن نفعت الذكرى﴾ أي مدة نفع الموعظة، والتذكير، والمعنى عظ أنت، وذكر أن نفعت الذكرى، أو لم تنفع، إنما عليك البلاغ. ﴿سيذكر من يخشى﴾ أي سيتعظ من يخشى الله تعالى. ﴿ويتجنبها﴾ أي الذكرى ويتباعد عنها. ﴿الأشقى﴾ أي في علم الله تعالى، ﴿الذي يصلى النار الكبرى﴾ أي النار العظيمة الفظيعة، وقيل النار الكبرى هي نار الآخرة، والنار الصغرى هي نار الدنيا ﴿ثم لا يموت فيها﴾ أي في النار فيستريح ﴿ولا يحيى﴾ أي حياة طيبة تنفعه.

قوله عزّ وجلّ: ﴿قد أفلح من تزكى﴾ أي تطهّر من الشرك وقال لا إله إلا الله قاله ابن عباس: وقيل قد أفلح من كان عمله زاكياً، وقيل هو صدقة الفطر، روي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه في قوله: ﴿قد أفلح من تزكى﴾ قال: أعطي صدقة الفطر.

وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾ إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾

﴿وذكر اسم ربه فصلى﴾ قال: خرج إلى العيد فصلى وكان ابن مسعود يقول رحم الله امرأ تصدق ثم صلى. ثم يقرأ هذه الآية وقال نافع: كان ابن عمر إذا صلى الغداة يعني يوم العيد قال: يا نافع أخرجت الصدقة، فإن قلت نعم

النسيان، ثم وعده فقال: ﴿ ونيسّرك لليسرى ﴾أي نهوّن عليك الوحي حتى تحفظه وتعلمه.

﴿ فذكّرْ ﴾، عظْ بالقرآن، ﴿ إنْ نفعتِ الذكرى ﴾، الموعظة والتذكير، والمعنى: نفعت أو لم تنفع، ولم يذكر الحالة الثانية، كقوله: ﴿ سرابيل تقيكم الحرّ ﴾ [النحل: ٨١]، وأراد الحرّ والبرد جميعاً.

﴿ سيذكّر ﴾، سيتّعظ، ﴿ مَن يخشى ﴾، الله عزّ وجلّ.

﴿ ويتجنبها ﴾، أي يتجنب الذكرى ويتباعد عنها، ﴿ الأشقى ﴾، الشقيّ في علم الله.

﴿ الذي يصلى النار الكبرى ﴾، العظيمة والفظيعة لأنها أعظم وأشدّ حرّاً من نار الدنيا.

﴿ ثم لا يموت فيها ﴾، فيستريح، ﴿ ولا يحيىٰ ﴾، حياة تنفعه.

﴿ قد أفلح مَن تزكّى ﴾، تطهّر من الشرك وقال: لا إلّه إلّا الله، هذا قول عطاء وعكرمة، ورواية الوالبي وسعيد بن جبير عن ابن عباس. وقال الحسن: مَن كان عمله زاكياً. وقال آخرون: هو صدقة الفطر رُوِيَ عن أبي سعيد الخدري في قوله: ﴿ قد أفلح مَن تزكّى ﴾ قال: أعطى صدقة الفطر.

﴿ وذكر اسم ربّه فصلّى ﴾، قال خرج إلى العيد فصلّى صلاته، وكان ابن مسعود يقول: رحم الله امرءاً تصدّق ثم صلّى، ثم يقرأ هذه الآية. وقال نافع: كان ابن عمر إذا صلّى الغداة يعني من يوم العيد قال: يا نافع خرجت الصدقة فإن قلت نعم مضى إلى المصلّى، وإن قلت لا قال فالآن فأخرج فإنما نزلت هذه الآية في هذا

مضى إلى المصلى، وإن قلت لا قال: فالآن فأخرج، فإنما هذه الآية في هذا قد أفلح من تزكى، وذكر اسم ربه فصلى.

فإن قلت فما وجه هذا التأويل، وهذه السورة مكية، ولم يكن بمكة عيد ولا زكاة فطر.

قلت يجوز أن يكون النزول سابقاً على الحكم، كما قال: ﴿**وأنت حل بهذا البلد**﴾ وهذه السورة مكية، وظهر أثر الحل يوم الفتح، وكذا نزل بمكة ﴿**سيهزم الجمع ويولون الدبر**﴾، وكان ذلك يوم بدر. قال عمر بن الخطاب: كنت لا أدري أي جمع سيهزم، فلما كان يوم بدر رأيت النبي ﷺ يثب في الدرع، ويقول سيهزم الجمع ويولون الدبر.

ووجه آخر وهو أنه كان في علم الله تعالى أنه سيكون ذلك فأخبر عنه، وقيل وذكر اسم ربه فصلى يعني الصلوات الخمس، وقيل أراد بالذكر تكبيرات العيد، وبالصلاة صلاة العيد.

قوله عزّ وجلّ: ﴿**بل تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى**﴾ يعني أن الدنيا فانية والآخرة باقية، والباقي خير من الفاني، وأنتم تؤثرون الفاني على الباقي قال عرفجة الأشج: كنا عند ابن مسعود فقرأ هذه الآية فقال لنا أتدرون لم آثرنا الحياة الدنيا على الآخرة. قلنا لا قال: لأن الدنيا حضرت، وعجل لنا طعامها وشرابها ونساؤها ولذاتها وبهجتها، وإن الآخرة تغيبت وزويت عنا فأحببنا العاجل، وتركنا الآجل، وقيل إن أريد بذلك الكفار، فالمعنى أنهم يؤثرون الدنيا على الآخرة، لأنهم لا يؤمنون بالآخرة، وإن أريد بذلك المسلمون بالمعنى يؤثرون الاستكثار من الدنيا على الثواب الذي يحصل في الآخرة، وهو خير وأبقى. ﴿**إن هذا**﴾ أي الذي ذكر من قوله قد أفلح من تزكى إلى هنا، وهو أربع آيات. ﴿**لفي الصحف الأولى**﴾ أي الكتب المتقدمة التي نزلت قبل القرآن، ذكر في تلك الصحف فلاح من تزكى والمصلي وإيثار الدنيا وإن الآخرة خير وأبقى ثم بيّن ذلك فقال تعالى: ﴿**صحف إبراهيم وموسى**﴾ يعني أن هذا القدر المذكور في صحف إبراهيم وموسى، وقيل إنّه مذكور في جميع صحف الأنبياء التي منها صحف إبراهيم وموسى لأن هذا القدر المذكور في هذه الآيات لا تختلف فيه شريعة، بل جميع الشرائع متفقة عليه.

عن أبي ذرّ رضي الله عنه قال «دخلت المسجد فقال رسول الله ﷺ إن للمسجد تحية فقلت وما تحيته يا رسول الله، قال: ركعتان تركعهما، قلت يا رسول الله هل أنزل الله عليك شيئاً مما كان في صحف إبراهيم وموسى؟ قال: يا

﴿ **قد أفلح مَن تزكّى * وذكر اسم ربّه فصلّى** ﴾، وهو قول أبي العالية وابن سيرين، وقال بعضهم: لا أدري ما وجه هذا التأويل لأن هذه السورة مكيّة ولم يكن بمكة عيد ولا زكاة فطر، قال الشيخ الإمام محيي السُّنّة رحمه الله: يجوز أن يكون النزول سابقاً على الحكم كما قال: ﴿ وأنت حِلٌّ بهذا البلد ﴾ [البلد: ٢] فالسورة مكيّة، وظهر أثر الحلّ يوم الفتح حتى قال عليه الصلاة والسلام: «أُحلّتْ لي ساعة من نهار» وكذلك نزل بمكة: ﴿ سيهزم الجمع ويولّون الدبر ﴾ [القمر: ٤٥]، قال عمر بن الخطاب: كنت لا أدري أيّ جمع يهزم، فلما كان يوم بدر رأيت النبي ﷺ يثب في الدرع ويقول: سيُهزَم الجمع ويولّون الدبر، وذكر اسم ربّه فصلّى، أي وذكر ربّه فصلّى، وقيل: الذكر تكبيرات العيد والصلاة صلاة العيد، وقيل: الصلاة ههنا الدعاء.

﴿ **بل تؤثرون** ﴾، قرأ أبو عمرو ويعقوب بالياء يعني الأشقَين الذين ذكروا وقرأ الآخرون بالتاء دليله قراءة أُبيّ بن كعب ﴿ **بل أنتم تؤثرون الحياة الدنيا** ﴾.

﴿ **والآخرة خير وأبقى** ﴾، قال عرفجة الأشجعي: كنّا عند ابن مسعود فقرأ هذه الآية فقال لنا: أتدرون لِمَ آثرنا الحياة الدنيا على الآخرة؟ قلنا: لا، قال: لأن الدنيا أحضرت وعجّل لنا طعامها وشرابها ونساؤها ولذّاتها وبهجتها، وأن الآخرة نعتت لنا وزويت عنّا فأحببنا العاجل وتركنا الآجل.

أبا ذر اقرأ قد أفلح من تزكى، وذكر اسم ربه فصلى بل تؤثرون الحياة الدنيا، والآخرة خير وأبقى، إن هذا لفي الصحف الأولى، صحف إبراهيم وموسى، قلت يا رسول الله، فما كان صحف موسى، قال: كانت عبراً كلها: عجبت لمن أيقن بالموت، كيف يفرح؟! عجبت لمن أيقن بالنار كيف يضحك؟! عجبت لمن رأى الدنيا وتقلبها بأهلها كيف يطمئن؟ عجبت لمن أيقن بالقدر ثم ينصب! عجبت لمن أيقن بالحساب ثم لا يعمل»! أخرج هذا الحديث رزين في كتابه، وذكره ابن الأثير في كتابه جامع الأصول. ولم يعلم عليه شيئاً عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كان النبي ﷺ يقرأ في الوتر بسبح اسم ربك الأعلى، وقل يا أيها الكافرون، وقل هو الله أحد في ركعة ركعة». أخرجه الترمذي والنسائي. وعن عبد العزيز بن جريج قال «سألنا عائشة بأي شيء كان يوتر رسول الله ﷺ قالت كان يقرأ في الأولى بسبح اسم ربك الأعلى، وفي الثانية يقل يا أيها الكافرون، وفي الثالثة يقل هو الله أحد المعوذتين»، أخرجه أبو داود، والنسائي، والترمذي. وقال: حديث حسن غريب، والله أعلم.

﴿ **إن هذا** ﴾، يعني ما ذكر من قوله: ﴿ **قد أفلح مَن تزكّى** ﴾، إلى أربع آيات، ﴿ **لفي الصحف الأولى** ﴾، أي الكتب الأولى التي أنزلت قبل القرآن ذكر فيها فلاح المتزكّي والمصلّي وإيثار الخلق الدنيا، وأن الآخرة خير وأبقى.

ثم بيّن الصحف فقال: ﴿ **صحف إبراهيم وموسى** ﴾، قال عكرمة والسدي: هذه السورة في صحف إبراهيم وموسى أخبرنا الإمام أبو علي الحسين بن محمد القاضي أنا أبو بكر أحمد بن الحسن الحيري أنا محمد بن أحمد بن مغفل الميداني ثنا محمد بن يحيىٰ ثنا سعيد بن كثير ثنا يحيىٰ بن أيوب عن يحيىٰ بن سعيد عن عمرة بنت عبد الرحمن عن عائشة. قالت: كان النبي ﷺ يقرأ في الركعتين اللتين يوتر بعدهما بسبّح اسم ربّك الأعلى وقل يا أيها الكافرون، وفي الوتر بقل هو الله أحد وقل أعوذ بربّ الفلق وقل أعوذ بربّ الناس.

سورة الغاشية

مكية وهي ست وعشرون آية واثنتان وتسعون كلمة وثلاثمائة واحد وثمانون حرفاً

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ﴿١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ ﴿٣﴾ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ ﴿٥﴾ لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ ﴿٦﴾

قوله عزّ وجلّ: ﴿هل أتاك﴾ أي قد أتاك ﴿حديث الغاشية﴾ يعني القيامة، سمِّيت غاشية لأنها تغشي كل شيء بأهوالها، وقيل الغاشية النار، سُمِّيت بذلك لأنها تغشى وجوه الكفار ﴿وجوه يومئذ﴾ يعني يوم القيامة ﴿خاشعة﴾ يعني ذليلة، والمراد بالوجوه أصحابها فعبر بالجزء عن الكل، ولأن الوجه أشرف أعضاء الإنسان، فعبر به عنه. ﴿عاملة ناصبة﴾ قال ابن عباس: يعني الذين عملوا ونصبوا في الدنيا على غير دين الإسلام من عبدة الأوثان وكفار أهل الكتاب، مثل الرهبان وأصحاب الصوامع، لا يقبل الله منهم اجتهاداً في ضلال بل يدخلون النار يوم القيامة. ومعنى النصب الدؤوب في العمل بالتعب. (ق) عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد»، وفي رواية «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد»، أما الرواية فإنها تختص بمن أحدث في دين الإسلام شيئاً ابتدعه من عنده فهو مردود عليه لا يقبل منه. وأما الرواية الثانية فإنها تشتمل على كل عامل في دين الإسلام، أو غير دين الإسلام فإنه مردود عليه إذا لم يكن تابعاً لنبينا ﷺ. وقيل في معنى الآية عاملة في الدنيا بالمعاصي ناصبة في الآخرة في النار. وقيل عاملة ناصبة في النار، لأنها لم تعمل لله في الدنيا فأعملها وأنصبها في النار

سُورَةُ الغَاشِيَة

مكيّة وهي ستّ وعشرون آية.

﴿ هل أتاك حديث الغاشية ﴾، قد أتاك حديث القيامة تغشى كل شيء بالأهوال.

﴿ وجوه يومئذ ﴾، يعني يوم القيامة، ﴿ خاشعة ﴾، ذليلة.

﴿ عاملة ناصبة ﴾، قال عطاء عن ابن عباس: يعني الذين عملوا ونصبوا في الدنيا على غير دين الإسلام من عبدة الأوثان وكفّار أهل الكتاب مثل الرهبان وغيرهم لا يقبل الله منهم اجتهاداً في ضلالة، يدخلون النار يوم القيامة، وهو قول سعيد بن جبير وزيد بن أسلم، ومعنى النصب الدأب في العمل بالتعب، وقال عكرمة والسدي: عاملة في الدنيا بالمعاصي، ناصبة في الآخرة في النار. وقال بعضهم: عاملة في النار ناصبة فيها. قال الحسن: لم تعمل لله في الدنيا فأعملها وأنصبها في النار بمعالجة السلاسل، والأغلال، وبه قال قتادة: وهي رواية العوفي عن ابن عباس، قال ابن مسعود: تخوض في النار كما تخوض الإبل في الوحل، قال الكلبي: يُجَرّون على وجوههم في النار. وقال الضحاك: يكلّفون ارتقاء جبل من حديد في النار والكلام خرج على الوجوه والمراد منها أصحابها.

بمعالجة السلاسل والأغلال، وهي رواية عن ابن عباس قال ابن مسعود: تخوض في النار كما تخوض الإبل في الوحل، وقيل يجرون على وجوههم في النار، وقيل يكلفون ارتقاء جبل من حديد في النار وهو قوله تعالى: ﴿تصلي ناراً حامية﴾ قال ابن عباس: قد حميت فهي تتلظى على أعداء الله عزّ وجلّ: ﴿تسقى من عين آنية﴾ أي متناهية في الحرارة قد أوقدت عليها جهنم مذ خلقت لو وقعت منها قطرة على جبال الدنيا لذابت فيدفعون إليها وروداً عطاشاً، فهذا شرابهم، ثم ذكر طعامهم فقال تعالى: ﴿ليس لهم طعام إلا من ضريع﴾ قيل هو نبت ذو شوك لا طيء بالأرض تسميه قريش الشبرق فإذا هاج سموه الضريع، وهو أخبث طعام وأبشعه، وهي رواية عن ابن عباس، فإذا يبس لا تقربه دابة، وقيل الضريع في الدنيا هو الشوك اليابس الذي له ورق، وهو في الآخرة شوك من نار، وجاء في الحديث عن ابن عباس يرفعه الضريع شيء في النار يشبه الشوك، أمر من الصبر، وأنتن من الجيفة، وأشد حراً من النار، قال أبو الدرداء: إن الله تعالى يرسل على أهل النار الجوع حتى يعدل عندهم ما هم فيه من العذاب فيستغيثون فيغاثون بطعام ذي غصة فيذكرون أنهم كانوا يجيزون الغصص في الدنيا بالماء فيستسقون فيعطشهم ألف سنة ثم يسقون من عين آنية شربة لا هنيئة، ولا مريئة، فإذا أدنوه من وجوههم سلخ جلدة وجوههم، وشواها، فإذا وصل إلى بطونهم قطعها فذلك قوله تعالى: ﴿وسقوا ماء حميماً فقطع أمعاءهم﴾ قال المفسرون فلما نزلت هذه الآية قال المشركون إن إبلنا لتسمن على الضريع وكذبوا في ذلك، فإن الإبل إنما ترعاه رطباً فإذا يبس لا تأكله فأنزل الله تعالى:

لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ ﴿٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً ﴿١١﴾ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴿١٦﴾ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾

﴿لا يسمن ولا يغني من جوع﴾ يعني إن هذ الطعام لا تقدر البهائم على أكله فكيف يقدر الإنسان على أكله، فهو إذاً لا يسمن ولا يغني من جوع.

﴿ تصلى ناراً ﴾، قرأ أهل البصرة وأبو بكر (تُصلى) بضم التاء اعتباراً بقوله: ﴿ تُسقى من عين آنية ﴾، وقرأ الآخرون بفتح التاء، ﴿ حامية ﴾، قال ابن عباس: قد حميت فهي تتلظى على أعداء الله.

﴿ تُسقى من عين آنية ﴾، متناهية في الحرارة قد أوقدت عليها جهنم منذ خلقت، فدفعوا إليها وِرْداً عطاشاً. قال المفسّرون لو وقعت منها قطرة على جبال الدنيا لذابت، هذا شرابهم ثم ذكر طعامهم.

فقال: ﴿ ليس لهم طعام إلاّ من ضريع ﴾، قال مجاهد وعكرمة وقتادة: هو نبت ذو شوك لاطىء بالأرض، تسمية قريش الشبرق فإذا هاج سمّوها الضريع، وهو أخبث طعام وأبشعه. وهو رواية العوفي عن ابن عباس. قال الكلبي: لا تقربه دابّة إذا يبست. قال ابن زيد: أما في الدنيا فإن الضريع الشوك اليابس الذي يبس له ورق، وهو في الآخرة شوك من نار، جاء في الحديث عن ابن عباس: الضريع شيء في النار يشبه الشوك أمرّ من الصبر، وأنتن من الجيفة وأشدّ حرّاً من النار، قال أبو الدرداء والحسن: إن الله تعالى يرسل على أهل النار الجوع حتى يعدل عندهم ما هم فيه من العذاب، فيستغيثون فيُغاثون بالضريع، ثم يستغيثون فيُغاثون بطعام ذي غُصّة، فيذكرون أنهم كانوا يُجيزون الغصص في الدنيا بالماء فيستسقون فيعطشهم ألف سنة، ثم يسقون من عين آنية شربة لا هنيئة ولا مريئة، كلما أدنوه من وجوههم، سلخ جلود وجوههم وشواها فإذا وصل إلى بطونهم قطعها فذلك قوله: ﴿ وسُقوا ماء حميماً فقطّع أمعاءهم ﴾ [محمد: ١٥]، قال المفسّرون: فلما نزلت هذه الآية قال المشركون: إن إبلنا لتسمن على الضريع، وكذّبوا في ذلك، فإن الإبل إنما ترعاه ما دام رطباً تسمى شبرقاً فإذا يبس لا يأكله شيء.

فأنزل الله ﴿ لا يُسمِن ولا يُغني من جوع ﴾.

فإن قلت قد ذكر الله تعالى في هذه الآية أنّه لا طعام لهم إلا من ضريع، وذكر في موضع آخر أنه لا طعام لهم إلا من غسلين، فكيف الجمع بينهما؟!.

قلت إن النار دركات فعلى قدر الذنوب تقع العقوبات، فمنهم من طعامه الزقوم لا غير، ومنهم من طعامه الضريع، ومنهم من طعامه الغسلين.

ثم وصف أهل الجنة فقال تعالى: ﴿وجوه يومئذ ناعمة﴾ أي متنعّمة ذات بهجة وحسن، ونعمة، وكرامة ﴿لسعيها راضية﴾ أي لسعيها في الدنيا راضية في الآخرة حيث أعطيت الجنة بعملها. ﴿في جنة عالية﴾ قيل هو من العلو الذي هو الشرف، وقيل من العلو في المكان، وذلك لأن الجنة درجات بعضها أعلى من بعض، كل درجة كما بين السماء والأرض. ﴿لا تسمع فيها لاغية﴾ أي ليس فيها لغو ولا باطل. ﴿فيها عين جارية﴾ على وجه الأرض في غير أخدود، وقيل تجري حيث أرادوا من منازلهم، وقصورهم. ﴿فيها سرر مرفوعة﴾ قال ابن عباس: ألواحها من ذهب، مكللة بالزبرجد، والياقوت، مرتفعة ما لم يجيء أهلها، فإذا أراد أهلها الجلوس عليها تواضعت لهم حتى يجلسوا عليها، ثم ترتفع إلى مواضعها ﴿وأكواب﴾ يعني الكيزان التي لا عري لها. ﴿موضوعة﴾ يعني عندهم بين أيديهم، وقيل موضوعة على حافات العين الجارية كلما أرادوا الشرب منها وجدوها مملوءة. ﴿ونمارق مصفوفة﴾ يعني وسائد ومرافق مصفوفة، بعضها جنب بعض أينما أراد أن يجلس ولي الله جلس على واحدة، واستند إلى الأخرى. ﴿وزرابي﴾ يعني البسط العريضة قال ابن عباس: هي الطنافس التي لها خمل، واحدتها زربية ﴿مبثوثة﴾ أي مبسوطة، وقيل متفرقة في المجالس.

قوله عزّ وجلّ: ﴿أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت﴾ قال أهل التفسير لما نعت الله عزّ وجلّ ما في هذه السورة مما في الجنة عجب من ذلك أهل الكفر وكذبوه، فذكرهم الله صنعه، فقال: أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت وإنما بدأ بالإبل لأنها من أنفس أموال العرب، ولهم فيها منافع كثيرة والمعنى إن الذي صنع لهم هذا في الدنيا هو الذي صنع لأهل الجنة ما صنع؛ وتكلمت علماء التفسير في وجه تخصيص الإبل بالذكر من بين سائر الحيوانات، فقال: مقاتل لأن العرب لم يروا بهيمة قط أعظم منها، ولم يشاهد الفيل إلا النادر منهم، وقال الكلبي لأنها تنهض بحملها وقد كانت باركة، وقال قتادة: لما ذكر الله تعالى ارتفاع سرر الجنة وفرشها قالوا كيف نصعدها فأنزل الله تعالى هذه الآية.

وسئل الحسن عن هذه الآية، وقيل له الفيل أعظم في الأعجوبة فقال: أما الفيل فإن العرب بعيدة العهد به، ثم

ثم وصف أهل الجنة فقال: ﴿ وجوه يومئذ ناعمة ﴾، قال مقاتل في نعمة وكرامة.

﴿ لسعيها ﴾، في الدنيا، ﴿ راضية ﴾، في الآخرة حين أُعطيت الجنة بعملها.

﴿ في جنة عالية لا تسمع فيها لاغية ﴾، لغواً وباطلاً قرأ أهل مكة والبصرة (لا يسمع) بالياء وضمّها، ﴿ لاغية ﴾ رفع، وقرأ نافع بالتاء وضمّها، ﴿ لاغية ﴾ رفع، وقرأ الآخرون بالتاء وفتحها ﴿ لاغية ﴾ بالنصب على الخطاب للنبي ﷺ.

﴿ فيها عين جارية * فيها سُرُرٌ مرفوعة ﴾، قال ابن عباس: ألواحها من ذهب مكلّلة بالزبرجد والدرّ والياقوت مرتفعة ما لم يجيء أهلها، فإذا أراد أن يجلس عليها تواضعت له حتى يجلس عليها ثم ترتفع إلى مواضعها.

﴿ وأكواب موضوعة ﴾، عندهم.

﴿ ونمارق ﴾، وسائد ومرافق، ﴿ مصفوفة ﴾، بعضها بجنب بعض واحدتها نمرقة بضمّ النون.

هو لا خير فيه لأنه لا يركب على ظهره، ولا يؤكل لحمه، ولا يحلب دره، والإبل أعزّ مال للعرب، وأنفسه تأكل النوى وألقت وغيره، وتخرج اللبن، ومن منافع الإبل أنها مع عظمها تلين للحمل الثقيل، وتنقاد للقائد الضعيف حتى أن الصبي الصغير يأخذ بزمامها فيذهب بها حيث شاء، ومنها أنها فضلت على سائر الحيوانات بأشياء، وذلك أن جميع الحيوانات إنما تقتنى إما للزينة أو للركوب، أو للحمل، أو للبن، أو لأجل اللحم، ولا توجد جميع هذه الخصال إلا في الإبل، فإنها زينة، وتركب فيقطع عليها المفازات البعيدة، وتحمل الثقيل، وتحلب الكثير، ويأكل من لحمها الجم الغفير، وتصبر على العطش عدة أيام، ومنها أن يحمل عليها، وهي باركة ثم تنهض بحملها بخلاف سائر الحيوانات، ومنها أنها ترعى في كل نبات في البراري مما لا يرعاه غيرها من الحيوانات، وهي سفن البر يحمل عليها الثقيل، ويقطع عليها المفاوز البعيدة. وكان شريح يقول: اخرجوا بنا إلى الكناسة حتى ننظر إلى الإبل كيف خلقت.

فإن قلت كيف حسن ذكر الإبل مع السماء والأرض والجبال، ولا مناسبة بينهما ولم بدأ بذكر الإبل قبل السماء والأرض والجبال.

قلت لما كان المراد ذكر الدلائل الدالة على توحيده وقدرته، وأنه هو الخالق لهذه الأشياء جميعها، وكانت الإبل من أعظم شيء عند العرب فينظرون إليها ليلاً ونهاراً، ويصاحبونها ظعناً وإسفاراً ذكرهم عظيم نعمته عليهم فيها ولهذا بدأ بها ولأنها من أعجب الحيوانات عندهم.

وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ رُفِعَتۡ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلۡجِبَالِ كَيۡفَ نُصِبَتۡ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَيۡفَ سُطِحَتۡ ﴿٢٠﴾ فَذَكِّرۡ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٞ ﴿٢١﴾ لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَكۡبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيۡنَآ إِيَابَهُمۡ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾

﴿**وإلى السماء كيف رفعت**﴾ يعني فوق الأرض بغير عمد، ولا ينالها شيء. ﴿**وإلى الجبال كيف نصبت**﴾ أي

﴿ **وزرابيّ** ﴾، يعني البسط العريضة قال ابن عباس: هي الطنافس التي لها حمل واحدتها زربية، ﴿ **مبثوثة** ﴾، مبسوطة، وقيل متفرّقة في المجالس.

﴿ **أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت** ﴾، قال أهل التفسير: لمّا نعت الله تعالى في هذه السورة ما في الجنّة عجب من ذلك أهل الكفر وكذّبوه، فذكر لهم الله تعالى صنعه فقال: ﴿ **أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خُلقت** ﴾ وكانت الإبل أعظم عيس العرب، لهم فيها منافع كثيرة فكما صنع لهم ذلك في الدنيا صنع لأهل الجنة فيها ما صنع وتكلمت الحكماء في وجه تخصيص الإبل من بين سائر الحيوانات، فقال مقاتل: لأنهم لم يروا بهيمة قطّ أعظم منها، ولم يشاهدوا الفيل إلّا الشاذ منهم. وقال الكلبي: لأنها تنهض بحملها وهي باركة، وقال قتادة: ذكر الله ارتفاع سُرُر الجنة وفرشها، فقالوا: كيف نصعدها فأنزل الله هذه الآية. وسُئِلَ الحسن عن هذه الآية وقيل له: الفيل أعظم في الأعجوبة؟ فقال: أما الفيل فالعرب بعيدة العهد بها، ثم هو خنزير لا يُركب ظهرها ولا يُؤكل لحمها ولا يُحلب درّها، والإبل من أعزّ مال للعرب وأنفسها تأكل النوى والقتّ وتُخرِج اللبن. وقيل: أنها مع عظمها تلين للحمل الثقيل وتنقاد للقائد الضعيف، حتى إن الصبي الصغير يأخذ بزمامها فيذهب بها حيث شاء، وكان شريح القاضي يقول: اخرجوا بنا إلى الكناسة حتى ننظر إلى الإبل كيف خُلقت.

﴿ **وإلى السماء كيف رُفعت** ﴾، عن الأرض حتى لا ينالها شيء يغيّرها.

على الأرض نصباً ثابتاً راسخاً لا يزول. ﴿وإلى الأرض كيف سطحت﴾ أي بسطت، ومهدت بحيث يستقر على ظهرها كل شيء. قال ابن عباس: المعنى هل يقدر أحد أن يخلق مثل الإبل، أو يرفع مثل السماء أو ينصب مثل الجبال، أو يسطح مثل الأرض غير الله القادر على كل شيء. ولما ذكر الله تعالى دلائل التوحيد ولم يعتبروا ولم يتفكروا فيها خاطب نبيه ﷺ فقال تعالى ﴿فذكر إنما أنت مذكر﴾ أي فعظ إنما أنت واعظ ﴿لست عليهم بمسيطر﴾ أي بمسلط فتكرههم على الإيمان، وهذه الآية منسوخة نسختها آية القتال. ﴿إلا من تولى وكفر﴾ استثناء منقطع عما قبله معناه لكن من تولى وكفر بعد التذكير ﴿فيعذبه الله العذاب الأكبر﴾ وهو أن يدخله النار، وإنما قال: الأكبر لأنهم عذبوا في الدنيا بأنواع من العذاب مثل الجوع، والقحط والقتل، والأسر، فكانت النار أكبر من هذا كله. ﴿إن إلينا إيابهم﴾ أي رجوعهم بعد الموت. ﴿ثم إن علينا حسابهم﴾ يعني جزاءهم بعد الرجوع إلينا، والله أعلم.

﴿ وإلى الجبال كيف نُصبت ﴾، على وجه الأرض مرساة لا تزول.

﴿ وإلى الأرض كيف سُطِحَت ﴾، بسطت، قال عطاء عن ابن عباس: هل يقدر أحد أن يخلق مثل الإبل أو يرفع مثل السماء أو ينصب مثل الجبال أو يسطح مثل الأرض غيري؟

﴿ فذكّر إنّما أنت مذكّر * لست عليهم بمصيطر ﴾، بمسلّط فتقتلهم وتُكرِههم على الإيمان نسختها آية القتال.

﴿ إلاّ مَن تولى ﴾، استثناء منقطع عمّا قبله معناه لكن مَن تولّى، ﴿ وكفر ﴾، بعد التذكير.

﴿ فيعذّبه الله العذاب الأكبر ﴾ وهو أن يدخله النار وإنما قال الأكبر لأنهم عُذّبوا في الدنيا بالجوع والقحط والقتل والأسْر.

﴿ إن إلينا إيابهم ﴾، رجوعهم بعد الموت، يقال: آب يؤوب أوباً وإياباً، وقر أبو جعفر ﴿ إيابهم ﴾ بتشديد الياء وهو شاذ لم يُجِزْه أحد غير الزجّاج فإنه قال يقال: أيب إياباً على فعل فيعالاً.

﴿ ثم إن علينا حسابهم ﴾، يعني جزاءهم بعد المرجع إلى الله عزّ وجلّ.

سورة الفجر

مكية وهي تسع وعشرون آية وقيل ثلاثون آية ومائة وتسعون كلمة وخمسمائة وسبعة وتسعون حرفاً.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالْفَجْرِ ﴿١﴾ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴿٢﴾ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ﴿٣﴾

قوله عزّ وجلّ: ﴿**والفجر**﴾ أقسم الله عزّ وجلّ بالفجر وما بعده لشرفها وما فيها من الفوائد الدينية وهي أنها دلائل باهرة، وبراهين قاطعة، على التوحيد، وفيها من الفوائد الدنيوية أنها تبعث على الشكر.

واختلفوا في معاني هذه الألفاظ، فروي عن ابن عباس، أنه قال: الفجر هو انفجار الصبح في كل يوم، أقسم الله تعالى به لما يحصل فيه من انقضاء الليل، وظهور الضوء، وانتشار الناس، وسائر الحيوانات في طلب الأرزاق، وذلك يشبه نشر الموتى من قبورهم للبعث. وعن ابن عباس أيضاً أنه صلاة الفجر، والمعنى أنه أقسم بصلاة الفجر لأنها مفتتح النهار، ولأنها مشهودة يشهدها ملائكة الليل، وملائكة النهار، وقيل إنه فجر معين.

واختلفوا فيه، فقيل هو فجر أول يوم من المحرم، لأن منه تنفجر السنة، وقيل هو فجر ذي الحجة، لأنه قرن به الليالي العشر، وقيل هو فجر يوم النحر، لأن فيه أكثر مناسك الحج، وفيه القربات. ﴿**وليال عشر**﴾ قيل إنما نكرها لما فيها من الفضل، والشرف الذي لا يحصل في غيرها. روي عن ابن عباس أنها العشر الأول من ذي الحجة لأنها أيام الاشتغال بأعمال الحج، وأخرج الترمذي عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «ما من أيام العمل فيهن أحب إلى الله من هذه الأيام العشر»، وذكر الحديث، وروي عن ابن عباس قال: هي العشر الأواخر من رمضان، لأن فيها ليلة

سُورَةُ الفَجْر

مكيّة وهي ثلاثون آية.

﴿ **والفجر** ﴾ أقسم الله عزّ وجلّ بالفجر، روى أبو صالح عن ابن عباس قال: هو انفجار الصبح كل يوم. وهو قول عكرمة، وقال عطية عنه: صلاة الصبح. وقال قتادة: هو فجر أول يوم من المحرّم تنفجر منه السنة. وقال الضحاك: فجر ذي الحجة لأنه قرن به الليالي العشر.

﴿ **وليالٍ عشر** ﴾، رُوِيَ عن ابن عباس: أنها العشر الأُوَل من ذي الحجة. وهو قول مجاهد وقتادة والضحاك والسدي والكلبي، وقال أبو روق عن الضحاك: هي العشر الأُوَل من شهر رمضان. وروى أبو ظبيان عن ابن عباس قال: هي العشر الأواخر من شهر رمضان. وقال يمن بن رباب: هي العشر الأُوَل من المحرّم التي عاشِرُها يوم عاشوراء.

﴿ **والشفع والوتر** ﴾، قرأ حمزة والكسائي الوتر بكسر الواو، وقرأ الآخرون بفتحها، واختلفوا في الشفع

القدر، ولأن رسول الله ﷺ كان إذا دخل العشر الأخير من رمضان أحيا ليلة، وشد مئزره، وأيقظ أهله، يعني للعبادة؛ وقيل هي العشر الأول من المحرم، وهو تنبيه على شرفه، ولأن فيه يوم عاشوراء. ﴿والشفع والوتر﴾ قيل الشفع هو الخلق، والوتر هو الله تعالى يروي ذلك عن أبي سعيد الخدري، وقيل الشفع هو الخلق كالإيمان والكفر، والهدى، والضلالة، والسعادة، والشقاوة، والليل، والنهار، والأرض، والسماء، والشمس، والقمر، والبر، والبحر، والنور، والظلمة، والجن، والإنس. والوتر هو الله تعالى، وقيل الخلق كله فيه شفع وفيه وتر. وقيل هما الصلوات منها شفع ومنها وتر عن عمران بن حصين رضي الله عنه «أن رسول الله ﷺ سئل عن الشفع والوتر قال: هي الصلاة بعضها شفع وبعضها وتر» أخرجه الترمذي. وقال: حديث غريب وعن ابن عباس قال: الشفع صلاة الغداة، والوتر صلاة المغرب، وعن عبد الله بن الزبير قال: الشفع النفر الأول، والوتر النفر الأخير، وروى أن رجلاً سأله عن الشفع، والوتر، والليالي العشر فقال: أما الشفع والوتر فقول الله عزّ وجلّ: **﴿فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه ومن تأخر فلا إثم عليه﴾** فهما الشفع والوتر، وأما الليالي العشر فالثمان، وعرفة والنحر، وقيل الشفع الأيام، والليالي؛ والوتر اليوم الذي لا ليلة معه، وهو يوم القيامة، وقيل الشفع درجات الجنة لأنها ثمان، والوتر دركات النار لأنها سبع، فكأنه أقسم بالجنة، والنار. وقيل الشفع أوصاف المخلوقين المتضادة، مثل العز، والذل، والقدرة، والعجز، والقوة، والضعف، والغنى، والفقر، والعلم، والجهل، والبصر، والعمي، والموت، والحياة، والوتر، صفات الله تعالى التي تفرد بها عزّ بلا ذل، وقدرة بلا عجز، وقوة بلا ضعف، وغنى بلا فقر، وعلم بلا جهل، وحياة بلا موت.

﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ ۝٤ هَلۡ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٞ لِّذِي حِجۡرٍ ۝٥ أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلۡعِمَادِ ۝٧ ٱلَّتِي لَمۡ يُخۡلَقۡ مِثۡلُهَا فِي ٱلۡبِلَٰدِ ۝٨﴾

﴿والليل إذا يسر﴾ أي إذا سار وذهب، وقيل إذا جاء، وأقبل، وأراد به كل ليلة، وقيل هي ليلة المزدلفة، وهي

والوتر، قيل: الشفع الخلق، قال الله تعالى: ﴿ وخلقناكم أزواجاً ﴾ [النبأ: ٨] والوتر: هو الله عزّ وجلّ. رُوِيَ ذلك عن أبي سعيد الخدري، وهو قول عطية العوفي، وقال مجاهد ومسروق: الشفع الخلق كله، كما قال الله تعالى: ﴿ ومن كل شيء خلقنا زوجين ﴾ [الذاريات: ٤٩]، الكفر والإيمان، والهدى والضلالة، والسعادة والشقاوة، والليل والنهار، والسماء والأرض، والبرّ والبحر، والشمس والقمر، والجنّ والإنس، والوتر هو الله، قال الله تعالى: ﴿ قل هو الله أحد ﴾ [الإخلاص: ١]، قال الحسن وابن زيد: الشفع والوتر الخلق كله منه شفع ومنه وتر. وروى قتادة عن الحسن قال: هو العدد منه شفع ومنه وتر. وقال قتادة: هما الصلوات منها شفع ومنها وتر. ورُوِيَ ذلك عن عمران بن حصين مرفوعاً، وروى عطية عن ابن عباس: الشفع صلاة الغداة، والوتر صلاة المغرب. وعن عبد الله بن الزبير قال: الشفع يوم النفر الأول والوتر يوم النفر الأخير. رُوِيَ أن رجلاً سأله عن الشفع والوتر والليالي العشر، فقال: أما الشفع والوتر فقول الله عزّ وجلّ: ﴿ فمَن تعجّل في يومين فلا إثم عليه ومَن تأخر فلا إثم عليه ﴾ [البقرة: ٢٠٣] فهما الشفع والوتر، وأما الليالي العشر فالثمان وعرفة والنحر. وقال مقاتل بن حيان: الشفع الأيام والليالي والوتر اليوم الذي لا ليلة بعده وهو يوم القيامة. وقال الحسين بن الفضل: الشفع درجات الجنة لأنها ثمانٍ، والوتر دركات النار لأنها سبع، كأنه أقسم بالجنة والنار، وسُئِلَ أبو بكر الورّاق عن الشفع والوتر فقال: الشفع تضاد أوصاف المخلوقين من العزّ والذلّ، والقدرة والعجز، والقوة والضعف، والعلم والجهل، والبصر والعمى، والحياة والموت، والوتر انفراد صفات الله عِزٌّ بلا ذُلّ، وقدرة بلا عجز، وقوة بلا ضعف، وعلم بلا جهل، وحياة بلا موت.

﴿ والليل إذا يسر ﴾، أي إذا سار وذهب كما قال: ﴿ والليل إذ أدبر ﴾ [المدّثر: ٣٣]، وقال قتادة: إذا جاء

ليلة النحر التي يسار فيها من عرفات إلى مزدلفة فعلى هذا يكون المعنى والليل الذي يسار فيه. ﴿**هل في ذلك**﴾ أي فيما ذكرت ﴿**قسم**﴾ مقنع ومكتفي في القسم فهو استفهام بمعنى التأكيد. ﴿**لذي حجر**﴾ أي لذي عقل سمي بذلك لأنه يحجر صاحبه عما لا يحل له، ولا ينبغي كما سمي عقلاً لأنه يعقل صاحبه عن القبائح، وسمي نهيه لأنه ينهى عما لا يحل، ولا ينبغي وأصل الحجر المنع، ولا يقال ذو حجر إلا لمن هو قاهر لنفسه ضابط لها عما لا يليق، كأنه حجر على نفسه ومنعها ما تريد، والمعنى إن من كان ذا لب، وعقل علم أن ما أقسم الله عزّ وجلّ به من هذه الأشياء فيه عجائب، ودلائل تدل على توحيده، وربوبيته. فهو حقيق بأن يقسم به لدلالته على خالقه. قيل جواب القسم قوله تعالى ﴿**إن ربك لبالمرصاد**﴾، واعترض بين القسم وجوابه قوله تعالى ﴿**ألم تر كيف فعل ربك بعاد**﴾، وقيل جواب القسم محذوف وتقديره ورب هذه الأشياء ليعذبن الكافر يدل عليه قوله تعالى ﴿**ألم تر كيف فعل ربك بعاد**﴾؟ إلى قوله ﴿**فصب عليهم ربك سوط عذاب**﴾، وقوله عزّ وجلّ ﴿**ألم تر كيف فعل ربك**﴾؟ أي ألم تعلم وإنما أطلق لفظ الرؤية على العلم لأن أخبار عاد وثمود وفرعون كانت معلومة عندهم.

وقوله: ﴿**ألم تر**﴾ خطاب للنبي ﷺ ولكنه عام لكل أحد. ﴿**كيف فعل ربك بعاد إرم ذات العماد**﴾ المقصود من ذلك تخويف أهل مكة وكيف أهلكهم وهم كانوا أطول أعماراً، وأشد قوة، من هؤلاء فأما عاد فهو عاد بن عوص بن ارم بن سام بن نوح، ومنهم من يجعل عاداً اسماً للقبيلة لقوله تعالى: ﴿**وأنه أهلك عاداً الأولى وإرم**﴾ هو جد عاد على ما ذكر في نسبه عاد. وقيل إن المتقدمين من قوم عاد كانوا يسمون بإرم اسم جدهم. وقيل إرم هم قبيلة من عاد، وكان فيهم الملك، وكانوا بمهرة اسم موضع باليمن وكان عاد أباهم فنسبوا إليه وهو إرم بن عاد بن شيم بن سام بن نوح؛ وقال الكلبي: إرم هو الذي يجتمع إليه نسب **عاد** وثمود أهل السواد، وأهل الجزيرة، وكان يقال عاد إرم وثمود إرم فأهلك عاد وثمود، وأبقى أهل السواد، وأهل الجزيرة؛ وقال سعيد بن المسيب: إرم ذات العماد دمشق وقيل الإسكندرية، وفيه ضعف لأن منازل عاد كانت من عمان إلى حضر موت، وهي بلاد الرمال والأحقاف. وقيل إن عاداً كانوا أهل عمد وخيام وماشية سيارة في الربيع فإذا هاج العود ويبس رجعوا إلى منازلهم، وكانوا أهل جنان وزروع ومنازلهم بوادي القرى، وهي التي قال الله تعالى: ﴿**التي لم يخلق مثلها في البلاد**﴾ وسموا ذات العماد لأنهم كانوا أهل عمد سيارة، وهو قول قتادة ومجاهد والكلبي، ورواية ابن عباس. وقيل سموا ذات العماد لطول قامتهم يعني طولهم، مثل **العماد** في الشبه، قال مقاتل: كان طول أحدهم اثني عشر ذراعاً، وقوله ﴿**التي يخلق مثلها في البلاد**﴾ يعني لم يخلق مثل تلك القبيلة في الطول، والقوة، وهم الذين قالوا «من أشد منا قوة». وقيل سموا ذات **العماد** لبناء بناه بعضهم، فشيد عمده ورفع بناءه، وقيل كان لعاد ابنان شداد وشديد فملكا بعده، وقهرا البلاد والعباد فمات شديد وخلص الملك لشداد فملك الدنيا ودانت له ملوكها وكان يحب قراءة الكتب القديمة فسمع بذكر الجنة وصفتها فدعته نفسه إلى بناء مثلها عتواً على الله وتجبراً؛ روى وهب بن منبه عن عبد الله بن قلابة أنه خرج في طلب إبل له شردت

وأقبل وأراد كل ليلة. وقال مجاهد وعكرمة والكلبي: هي ليلة المزدلفة، قرأ أهل الحجاز والبصرة (يسري) بالياء في الوصل ويقف ابن كثير ويعقوب بالياء أيضاً، والباقون يحذفونها في الحالين، فمَن حذف فلِوَفَاق رؤوس الآي، ومَن أثبت فلأنها لام الفعل، والفعل لا يُحذَف منه في الوقف، نحو قوله: هو يقضي وأنا أقضي، وسُئِلَ الأخفش عن العلّة في سقوط الياء، فقال: الليل لا يسري ولكن يُسرَى فيه، فهو مصروف فلما صرفه بخسه حقه من الإعراب، كقوله: ﴿ وما كانت أُمك بغياً ﴾ [مريم: ٢٨]، ولم يقل بغية لأنه صرف من باغية.

﴿ **هل في ذلك** ﴾، أي فيما ذكرت، ﴿ **قسم** ﴾، أي مقنع ومكتفى في القسم، ﴿ **لذي حِجْر** ﴾، لذي عقل سُمّي بذلك لأنه يحجر صاحبه عمّا لا يحلّ ولا ينبغي، كما يسمّى عقلاً لأنه يعقله عن القبائح، ونهي لأنه ينهى عمّا

فبينما هو يسير في صحارى عدن إذا وقع على مدينة في تلك الفلوات عليها حصن وحول الحصن قصور كثيرة فلما دنا منها ظن أن فيها أحداً يسأله عن إبله فلم ير خارجاً ولا داخلاً فنزل عن دابته وعقلها، وسل سيفه ودخل من باب المدينة فإذا هو ببابين عظيمين وهما مرصعان بالياقوت الأحمر فلما رأى ذلك دهش، ففتح الباب ودخل، فإذا هو بمدينة لم ير أحد مثلها، وإذا فيها قصور في كل قصر منها غرف، وفوق الغرف غرف مبنية بالذهب، والفضة، وأحجار اللؤلؤ والياقوت؛ وإذا أبواب تلك القصور مثل مصاريع باب المدينة يقابل بعضها بعضاً وهي مفروشة كلها باللؤلؤ وبنادق المسك والزعفران، فلما عاين ذلك ولم ير أحداً هاله ذلك ثم نظر إلى الأزقة فإذا في تلك الأزقة أشجار مثمرة، وتحت تلك الأشجار أنهار مطردة يجري ماؤها في قنوات من فضة فقال الرجل في نفسه هذه الجنة وحمل معه من لؤلؤ ترابها ومن بنادق مسكها وزعفرانها، ورجع إلى اليمن وأظهر ما كان معه وحدّث بما رأى فبلغ ذلك معاوية، فأرسل إليه فقدم عليه فسأله عن ذلك فقص عليه ما رأى فأرسل معاوية إلى كعب الأحبار فلما أتاه قال له: يا أبا إسحاق هل في الدنيا مدينة من ذهب وفضة قال نعم هي إرم ذات العماد بناها شداد بن عاد قال: فحدثني حديثها فقال لما أراد شداد بن عاد عملها أمر عليها مائة قهرمان مع كل قهرمان ألف من الأعوان، وكتب إلى ملوك الأرض أن يمدوه بما في بلادهم من الجواهر فخرجت القهارمة يسيرون في الأرض ليجدوا أرضاً موافقة فوقفوا على صحراء نقية من التلال وإذا فيها عيون ماء ومروج فقالوا هذه الأرض التي أمر الملك أن نبني فيها فوضعوا أساسها من الجزع اليماني، وأقاموا في بنائها ثلاثمائة سنة، وكان عمر شداد تسعمائة سنة فلما أتوه وقد فرغوا منها قال: انطلقوا فاجعلوا حصناً يعني سوراً واجعلوا حوله ألف قصر وعند كل قصر ألف علم ليكون في كل قصر وزير من وزرائي ففعلوا وأمر الملك وزراءه وهم ألف وزير أن يتهيؤا للنقلة إلى إرم ذات العماد، وكان الملك وأهله في جهازهم عشر سنين ثم ساروا إليها فلما كانوا من المدينة على مسيرة يوم وليلة بعث الله عليه وعلى من كان معه صيحة من السماء فأهلكتهم

لا ينبغي، وأصل الحجر المنع وجواب القسم قوله: ﴿ إن ربّك لبالمرصاد ﴾ [الفجر: ١٤]، واعترض بين القسم وجوابه قوله عزّ وجلّ:

﴿ **ألم ترَ** ﴾، قال الفرّاء: ألم تخبر. وقال الزّجّاج: ألم تعلم ومعناه التعجّب. ﴿ **كيف فعل ربك بعادٍ * إرم** ﴾، يخوّف أهل مكة يعني كيف أهلكهم، وهم كانوا أطول أعماراً وأشدّ قوة من هؤلاء، واختلفوا في إرم فقال سعيد بن المسيب إرم ﴿ **ذات العماد** ﴾: دمشق، وبه قال عكرمة، وقال القرظي هي الإسكندرية، وقال مجاهد: هي أمة. وقيل: معناها القديمة. وقال قتادة ومقاتل: هم قبيلة من عاد. قال مقاتل: كان فيهم الملك وكانوا بمهرة وكان عاد أباهم فنسبهم إليه وهو رام بن عاد بن شيم بن سام بن نوح. وقال محمد بن إسحاق هو جدّ عاد وهو عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح، وقال الكلبي: إرم هو الذي يجتمع إليه نسب عاد وثمود وأهل الجزيرة، كان يقال: عاد إرم وثمود إرم، فأهلك الله عاداً ثم ثمود وبقي أهل السواد والجزيرة، وكانوا أهل عمد وخيام وماشية سيّارة في الربيع، فإذا هاج العود رجعوا إلى منازلهم، وكانوا أهل جنان وزروع ومنازلهم بوادي القرى، وهي التي يقول الله فيها:

﴿ **التي لم يُخلق مثلها في البلاد** ﴾، وسمّوا ذات العماد لهذا لأنهم كانوا أهل عمد سيّارة، وهو قول قتادة ومجاهد والكلبي، ورواية عطاء عن ابن عباس، وقال بعضهم: سُمّوا ذات العماد لطول قامتهم. قال ابن عباس: يعني طولهم مثل العماد. وقال مقاتل: كان طول أحدهم اثني عشر ذراعاً. وقوله: ﴿ **لم يخلق مثلها في البلاد** ﴾، أي لم يُخلَق مثل تلك القبيلة في الطول والقوة، وهم الذين قالوا: ﴿ مَن أشدُّ منّا قوة ﴾ [فصّلت: ١٥]، وقيل: سُمّوا ذات العماد لبناء بناه بعضهم فشيّد عنده، ورفع بناءه، يقال: بناه شدّاد بن عاد على صفة لم يُخلَق في الدنيا

جميعاً، ولم يبق منهم أحد ثم قال كعب: وسيدخلها رجل من المسلمين في زمانك أحمر أشقر قصير على حاجبه خال، وعلى عنقه خال، يخرج في طلب إبل له ثم التفت فأبصر عبد الله بن قلابة فقال: هذا والله ذلك الرجل.

﴿وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ۝٩ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ۝١٠﴾

قوله عزّ وجلّ: ﴿**وثمود**﴾ أي وفعل بثمود مثل ما فعل بعاد ﴿**الذين جابوا**﴾ أي قطعوا ﴿**الصخر**﴾ أي الحجر ﴿**بالواد**﴾ يعني بوادي القرى وكانت ثمود أول من قطّع الصخر ونحته واتخذوا مساكن في الجبال وبيوتاً. ﴿**وفرعون ذي الأوتاد**﴾ سمي بذلك لكثرة جنوده وكثرة مضاربهم وخيامهم التي كانوا يضربونها، إذا نزلوا، وقيل معناه ذي الملك كما قيل في ظل ملك راسخ الأوتاد.

وقيل سمي بذلك لأنه كان يعذب الناس بالأوتاد وروى البغوي بإسناد الثعلبي عن ابن عباس أن فرعون إنما سمي ذا الأوتاد لأنه كانت عنده امرأة مؤمنة وهي امرأة خازنة حزقيل وكان مؤمناً كتم إيمانه مائة سنة وكانت امرأته ماشطة بنت فرعون فبينما هي ذات يوم تمشط رأس بنت فرعون إذ سقط المشط من يدها فقالت تعس من كفر بالله فقالت بنت فرعون وهل لك من إله غير أبي فقالت إلهي وإله أبيك وإله السموات والأرض واحد لا شريك له فقامت ودخلت على أبيها وهي تبكي فقال لها ما يبكيك قالت الماشطة امرأة خازنك تزعم أن إلهك وإلهنا وإله السموات والأرض واحد لا شريك له فأرسل إليها فسألها عن ذلك فقالت صدقت فقال لها: ويحك اكفري بإلهك وقري أني إلهك قالت لا أفعل فمدها بين أربعة أوتاد ثم أرسل عليها الحيات والعقارب وقال لها: اكفري بالله وإلا عذبتك بهذا العذاب شهرين فقالت لو عذبتني سبعين شهراً ما كفرت بالله وكان لها ابنتان فجاء بابنتها الكبرى فذبحها على قلبها ثم قال اكفري بالله وإلا ذبحت الصغرى على فيك وكانت رضيعاً فقالت لو ذبحت من في الأرض على فيّ ما كفرت بالله

مثله وسار إليه في قومه، فلما كان منه على مسيرة يوم وليلة بعث الله عليه وعلى قومه صيحة من السماء فأهلكتهم جميعاً.

﴿ **وثمود** ﴾، أي وبثمود، ﴿ **الذين جابوا الصخر** ﴾، قطعوا الحجر، صخرة واحداتها، ﴿ **بالواد** ﴾، يعني وادي القرى كانوا يقطعون الجبال فيجعلون فيها بيوتاً، وأثبت ابن كثير ويعقوب الياء في الوادي وصلاً ووقفاً على الأصل، وأثبتها ورش وصلاً والآخرون بحذفها في الحالين على وفق رؤوس الآي.

﴿**وفرعون ذي الأوتاد**﴾، سُمّي بذلك لأنه كان يعذب الناس بالأوتاد، وقد ذكرناه في سورة صٓ [١٢]. أخبرنا أبو سعيد الشريحي أنا أبو إسحاق الثعلبي أنا ابن فنجويه ثنا مخلد بن جعفر ثنا الحسن بن علويه ثنا إسماعيل بن عيسى ثنا إسحاق بن بشر عن سمعان عن عطاء عن ابن عباس: أن فرعون إنما سُمّي ذا الأوتاد لأنه كانت له امرأة، وهي امرأة خازنة حزقيل، وكان مؤمناً كتم إيمانه مائة سنة، وكانت امرأته ماشطة بنت فرعون فبينما هي ذات يوم تمشط رأس بنت فرعون إذ سقط المشط من يدها، فقالت: تعس مَن كفر بالله، فقالت بنت فرعون: وهل لك من إلٰه غير أبي؟ فقالت: إلٰهي وإلٰه أبيك وإلٰه السمٰوات والأرض واحد لا شريك له، فقامت فدخلت على أبيها وهي تبكي، فقال: ما يُبكيك؟ قالت: الماشطة امرأة خازنك تزعم أن إلٰهك وإلٰهها وإلٰه السمٰوات والأرض واحد لا شريك له، فأرسل إليها فسألها عن ذلك، فقالت: صدقت، فقال لها: ويحك اكفري بإلٰهك وأقرّي بأني إلٰهك، قالت: لا أفعل فمدّها بين أربعة أوتاد ثم أرسل عليها الحيّات والعقارب، وقال لها: اكفري بالله وإلاّ عذّبتك بهذا العذاب شهرين، فقالت له: ولو عذّبتني سبعين شهراً ما كفرت بالله، وكان لها ابنتان فجاء بابنتها الكبرى فذبحها على قلبها، وقال لها: اكفري بالله وإلاّ ذبحت الصغرى على فِيْك، وكانت رضيعاً، فقالت: لـو ذبحت مَن على وجه الأرض على فِيّ مـا

عزّ وجلّ فأتى بابنتها فلما اضطجعت على صدرها وأراد ذبحها جزعت المرأة فأطلق الله لسان ابنتها فتكلمت وهي من الأربعة الذين تكلموا في المهد صغاراً أطفالاً وقالت يا أماه لا تجزعي فإن الله قد بنى لك بيتاً في الجنة فاصبري فإنك تفضين إلى رحمة الله وكرامته فذبحت فلم تلبث الأم أن ماتت فأسكنها الله الجنة قال: وبعث في طلب زوجها حزقيل فلم يقدروا عليه فقيل لفرعون إنه قد رؤي في موضع كذا في جبل كذا فبعث رجلين في طلبه فانتهى إليه الرجلان، وهو يصلي وثلاثة صفوف من الوحش خلفه يصلون فلما رأوا ذلك انصرفوا فقال، حزقيل: اللّهم إنك تعلم أني كتمت إيماني مائة سنة ولم يظهر عليّ أحد فأيما هذين الرجلين كتم عليّ فاهده إلى دينك وأعطه من الدنيا سؤاله وأيما هذين الرجلين أظهر عليّ فعجل عقوبته في الدنيا واجعل مصيره في الآخرة إلى النار فانصرف الرجلان إلى فرعون فأما أحدهما فاعتبر وآمن وأما الآخر فأخبر فرعون بالقصة على رؤوس الملأ فقال له فرعون وهل معك غيرك قال نعم فلان فدعا به فقال أحق ما يقول هذا قال ما رأيت مما يقول شيئاً فأعطاه فرعون وأجزل وأما الآخر فقتله ثم صلبه قال: وكان فرعون قد تزوج امرأة من أجمل نساء بني إسرائيل يقال لها آسية بنت مزاحم، فرأت ما صنع فرعون بالماشطة، فقالت وكيف يسعني أن أصبر على ما يأتي فرعون وأنا مسلمة وفرعون كافر؟ فبينما هي كذلك تؤامر نفسها إذ دخل عليها فرعون فجلس قريباً منها، فقالت يا فرعون أنت أشر الخلق وأخبثهم، عمدت إلى الماشطة فقتلتها قال فلعل بك الجنون الذي كان بها، قالت: ما بي جنون وإن إلهها وإلهك وإلهي وإله السموات والأرض واحد لا شريك له فبصق عليها وضربها، وأرسل إلى أبيها، وأمها فدعاهما وقال لهما إن الجنون الذي كان بالماشطة أصابها، قالت: أعوذ بالله من ذلك، إني أشهد أن ربي وربك ورب السموات والأرض واحد لا شريك له، فقال لها أبوها يا آسية ألست من خير نساء العماليق، وزوجك إله العماليق قالت: أعوذ بالله من ذلك إن كان ما يقول حقاً فقولا له أي يتوجني تاجاً تكون

كفرت بالله عزّ وجلّ، فأتى بابنتها الصغرى فلما اضطجعت على صدرها وأرادوا ذبحها جزعت المرأة فأطلق الله لسان ابنتها فتكلمت وهي من الأربعة الذين تكلموا أطفالاً، فقالت: يا أُمّاه لا تجزعي فإن الله قد بنى لك بيتاً في الجنة، اصبري فإنك تفضين إلى رحمة الله وكرامته، فذبحت فلم تلبث أن ماتت فأسكنها الله الجنة، قال: وبعث في طلب زوجها حزقيل فلم يقدروا عليه، فقيل لفرعون: إنه قد رُؤِيَ في موضع كذا في جبل كذا، فبعث رجلين في طلبه فانتهيا إليه وهو يصلّي ويليه صفوف من الوحش خلفه يصلّون، فلما رأيا ذلك انصرفا، فقال حزقيل: اللّهمَّ إنك تعلم أني كتمت إيماني مائة سنة ولم يظهر على أحد فأيّما هذان الرجلين كتم عليّ فاهده إلى دينك وأعطه من الدنيا سؤله، وأيما هذين الرجلين أظهر عليّ فعجّل عقوبته في الدنيا واجعل مصيره في الآخرة إلى النار، فانصرف الرجلان إلى فرعون فأما أحدهما فاعتبر وآمن، وأما الآخر فأخبر فرعون بالقصة على رؤوس الملأ، فقال له فرعون: وهل كان معك غيرك؟ قال: نعم فلان، فدعا به فقال: أحقٌّ ما يقول هذا؟ قال: لا ما رأيت مما قال شيئاً فأعطاه فرعون وأجزل وأما الآخر فقتله، ثم صلبه، قال: وكان فرعون قد تزوج امرأة من نساء بني إسرائيل يقال لها آسية بنت مُزاحم فرأت ما صنع فرعون بالماشطة، فقالت: وكيف يسعني أن أصبر على ما يأتي فرعون وأنا مسلمة وهو كافر؟ فبينما هي كذلك تؤامر نفسها إذ دخل عليها فرعون فجلس قريباً منها، فقالت: يا فرعون أنت أشرّ الخلق وأخبثهم عمدت إلى الماشطة فقتلتها، قال: فلعلّ بك الجنون الذي كان بها قالت: ما بي من جنون، وإن إلٓهي وإلٓهك وإلٓه السمٰوات والأرض واحد لا شريك له، فمزّق عليها ثيابها وضربها وأرسل إلى أبويها فدعاهما، فقال لهما: ألا تريان أن الجنون الذي كان بالماشطة أصابها، قالت: أعوذ بالله من ذلك إني أشهد أن ربّي وربّك وربّ السمٰوات والأرض واحد لا شريك له، فقال أبوها: يا آسية ألستِ من خير نساء العماليق وزوجك إلٓه العماليق؟ قالت: أعوذ بالله من ذلك، إن كان ما يقول حقاً فقولا له أن يتوّجني تاجاً تكون الشمس أمامه والقمر خلفه والكواكب

الشمس أمامه والقمر خلفه والكواكب حوله. فقال لهما فرعون أخرجا عني ثم مدها بين أربعة أوتاد يعذبها ففتح الله لها باباً إلى الجنة ليهون عليها ما يصنع بها فرعون، فعند ذلك «قالت رب ابنِ لي عندك بيتاً في الجنة ونجّني من فرعون وعمله»، فقبض الله روحها وأدخلها الجنة.

﴿ٱلَّذِينَ طَغَوۡاْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ۝١١ فَأَكۡثَرُواْ فِيهَا ٱلۡفَسَادَ ۝١٢ فَصَبَّ عَلَيۡهِمۡ رَبُّكَ سَوۡطَ عَذَابٍ ۝١٣ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلۡمِرۡصَادِ ۝١٤ فَأَمَّا ٱلۡإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكۡرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَكۡرَمَنِ ۝١٥﴾

قوله عزّ وجلّ: ﴿**الذين طغوا في البلاد**﴾ يعني عاداً وثموداً وفرعون عملوا بالمعاصي، وتجبروا، ثم فسر ذلك الطغيان بقوله ﴿**فأكثروا فيها الفساد**﴾ يعني القتل والفساد ضد الصلاح، فكما أن الصلاح يتناول جميع أقسام البر فكذلك **الفساد** يتناول جميع أقسام الإثم. ﴿**فصب عليهم ربك سوط عذاب**﴾ يعني لوناً من العذاب صبّه عليهم، وقيل هو تشبيه بما يكون في الدنيا من العذاب بالسوط، وقيل هو إشارة إلى ما خلط لهم من العذاب، لأن أصل السوط خلط الشيء بعضه ببعض؛ وقيل هذا على الاستعارة، لأن السوط غاية العذاب فجرى ذلك لكل نوع منه. وقيل جعل سوطه الذي ضربهم به العذاب، وكان الحسن إذا قرأ هذه الآية يقول إن عند الله أسواطاً كثيرة، فأخذهم بسوط منها. ﴿**إن ربك لبالمرصاد**﴾ قال ابن عباس يعني بحيث يرى ويسمع، وقيل عليه طريق العباد، لا يفوته أحد وقيل عليه ممر الناس لأن الرصد والمرصاد الطريق. وقيل ترجع الخلق إلى حكمه وأمره وإليه مصيرهم، وقيل إنه يرصد أعمال بني آدم. والمعنى أنه لا يفوته شيء من أعمال العباد، كما لا يفوت من المرصاد، وقد قيل أرصد النار على طريقهم حتى تهلكهم.

قوله عزّ وجلّ: ﴿**فأما الإنسان إذا ما ابتلاه**﴾ أي امتحنه ﴿**ربه**﴾ أي بالنعمة ﴿**فأكرمه**﴾ أي بالمال ﴿**ونعمه**﴾ أي بما يوسع عليه ﴿**فيقول ربي أكرمن**﴾ أي بما أعطاني من المال والنعمة.

حوله، فقال لهما فرعون: اخرجا عنّي، فمدّها بين أربعة أوتاد يعذبها ففتح الله لها باباً إلى الجنة ليهوّن عليها ما يصنع بها فرعون، فعند ذلك قالت: ﴿ ربِّ ابنِ لي عندك بيتاً في الجنة ونجِّني من فرعون وعمله، ونجِّني من القوم الظالمين ﴾ [التحريم: ١١]، فقبض الله روحها وأسكنها الجنة.

﴿ **الذين طغوا في البلاد** ﴾، يعني عاداً وثمود وفرعون عملوا في الأرض بالمعاصي وتجبّروا.

﴿ **فأكثروا فيها الفساد * فصبَّ عليهم ربّهم سوط عذاب** ﴾، قال قتادة: يعني لوناً من العذاب صبّه عليهم، قال أهل المعاني: هذا على الاستعارة لأن السوط عندهم غاية العذاب، فجرى ذلك لكل نوع من العذاب. قال الزجّاج: جعل سوطه الذي ضربهم به العذاب.

﴿ **إنّ ربّك لبالمرصاد** ﴾، قال ابن عباس: يعني بحيث يرى ويسمع ويُبصِر ما تقول وتفعل وتهجس به العباد. قال الكلبي: عليه طريق العباد لا يفوته أحد. قال مقاتل: ممرّ الناس عليه والمرصاد، والمرصد: الطريق. وقيل: مرجع الخلق إلى حكمه وأمره وإليه مصيرهم. وقال الحسن وعكرمة: يرصد أعمال بني آدم. والمعنى: أنه لا يفوته شيء من أعمال العباد كما لا يفوت مَن هو بالمرصاد. وقال السدي: أرصد الله النار على طريقهم حتى يهلكهم.

﴿ **فأما الإنسان إذا ما ابتلاه** ﴾، امتحنه، ﴿ **ربّه** ﴾، بالنعمة، ﴿ **فأكرمه** ﴾، بالمال، ﴿ **ونعمه** ﴾، بما وسّع عليه، ﴿ **فيقول ربّي أكرمنِ** ﴾، بما أعطاني.

﴿وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾ كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾﴾

﴿وأما إذا ما ابتلاه﴾ يعني بالفقر ﴿فقدر عليه﴾ أي فضيق عليه، وقيل قتر. ﴿رزقه﴾ أي وقد أعطاه ما يكفيه. ﴿فيقول ربي أهانن﴾ أي أذلني بالفقر، قيل نزلت في أمية بن خلف الجمحي الكافر، وقيل ليس المراد به واحداً بعينه، بل المراد جنس الكافر، وهو الذي تكون الكرامة والهوان عنده بكثرة المال والحظ في الدنيا وقلته فرد الله تعالى على من ظن أن سعة الرزق إكرام وأن الفقر إهانة فقال تعالى: ﴿كلا﴾ أي ليس الأمر كذلك، أي لم ابتله بالغنى لكرامته، ولم ابتله بالفقر لهوانه، فأخبر أن الإكرام والإهانة لا يدوران على المال، وسعة الرزق وقلته، ولكن الغنى والفقر بتقدير الله جلّ جلاله وحكمته فقد يوسع على الكافر لا لكرامته، ويضيق على المؤمن لا لهوانه، لكن لأمر اقتضته حكمة الله تعالى، وإنما يكرم المرء بطاعته، ويهينه بمعصيته، وقد يوسع على الإنسان من أصناف المال ليختبره، أيشكر أم يكفر، ويضيق عليه ليختبره، أيصبر أم يضجر، ويقلق. ﴿بل لا تكرمون اليتيم﴾ أي لا يعطونه حقه الثابت له في الميراث قال مقاتل: كان قدامة بن مظعون يتيماً في حجر أمية بن خلف، فكان يدفعه عن حقه. ﴿ولا تحضون على طعام المسكين﴾ أي لا يطعمون مسكيناً، ولا يأمرون بإطعامه، وقرىء ولا يحاضون ومعناه، ولا يحض بعضهم بعضاً على ذلك. ﴿وتأكلون التراث﴾ أي الميراث ﴿أكلاً لما﴾ أي شديداً، والمعنى أنه يأكل نصيبه ونصيب غيره، وذلك أنهم كانوا في الجاهلية لا يورثون النساء، ولا الصبيان، ويأكلون نصيبهم، وقيل الآكل اللم الذي يأكل كل شيء يجده لا يسأل أحلال أم حرام، فيأكل الذي له ولغيره. ﴿وتحبون المال حباً جماً﴾ أي كثيراً والمعنى يحبون جمع

﴿ وأما إذا ما ابتلاه ﴾، بالفقر، ﴿ فقدّر عليه رزقه ﴾، قرأ أبو جعفر وابن عامر ﴿ فقدر ﴾ بتشديد الدال، وقرأ الآخرون بالتخفيف، وهما لغتان أي ضيّق عليه رزقه. وقيل: قدر بمعنى قتر وأعطاه قدر ما يكفيه. ﴿ فيقول ربّي أهاننِ ﴾، أذلّني بالفقر. وهذا يعني به الكافر تكون الكرامة والهوان عنده بكثرة المال والحظ في الدنيا وقلّته. قال الكلبي ومقاتل: نزلت في أُميّة بنت خلف الجمحي الكافر فردّ الله عل مَن ظن أن سِعَة الرزق إكرام وأن الفقر إهانة.

فقال: ﴿ كلا ﴾ لم أبتله بالغنى لكرامته ولم أبتله بالفقر لهوانه، فأخبر أن الإكرام والإهانة لا تدور على المال وسِعَة الرزق، ولكن الفقر والغنى بتقديره فيوسع على الكافر لا لكرامته، ويقدر على المؤمن لا لهوانه، إنما يكرم المرء بطاعته ويهينه بمعصيته. وقرأ أهل الحجاز والبصرة (أكرمني وأهانني) بإثبات الياء في الوصل، ويقف ابن كثير ويعقوب بالياء، والآخرون يحذفونها وصلاً ووقفاً. ﴿ بل لا تكرمون اليتيم ﴾، قرأ أهل البصرة (يكرمـون، ويحضّون، ويأكلون، ويحبّون) بالياء فيهنّ، وقرأ الآخرون بالتاء، ﴿ لا تكرمون اليتيم ﴾، لا تحسنوا إليه. وقيل: لا تعطونه حقه. قال مقاتل كان قُدامة بن مظعون يتيماً في حجر أُمية بن خلف وكان يدفعه عن حقه.

﴿ ولا تحاضّون على طعام المسكين ﴾، أي لا تأمرون بإطعامه، وقرأ أبو جعفر وأهل الكوفة ﴿ تحاضّون ﴾ بفتح الحاء وألف بعدها أي لا يحضّ بعضكم بعضاً عليه.

﴿ وتأكلون التراث ﴾، أي الميراث، ﴿ أكلاً لمّاً ﴾، شديداً يأكل نصيبه ونصيب غيره، وذلك أنهم كانوا لا يُورِّثون النساء ولا الصبيان، ويأكلون نصيبهم. قال ابن زيد: الأكل اللم الذي يأكل كل شيء يجده لا يسأل عنه أحلال هو أم حرام، ويأكل الذي له ولغيره، يقال: لممت على الخوان إذا أتيت ما عليه فأكلته.

المال، ويولعون به، وبحبه. ﴿كلا﴾ أي لا ينبغي أن يكون الأمر هكذا، من الحرص على جمع المال وحبه. وقيل معناه لا يفعلون ما أمروا به من إكرام اليتيم وغيره من المسلمين، ثم أخبر عن تلهّفهم على ما سلف منهم، وذلك حين لا ينفعهم الندم. فقال تعالى: ﴿إذا دكت الأرض دكاً دكاً﴾ أي دقت وكسرت مرة بعد مرة، وكسر كل شيء عليها من جبل وبناء وغيره، حتى لا يبقى على ظهرها شيء.

وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴿٢٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾

﴿وجاء ربك﴾ اعلم أن هذه الآية من آيات الصفات التي سكت عنها وعن مثلها عامة السلف وبعض الخلف، فلم يتكلموا فيها وأجروها كما جاءت من غير تكييف ولا تشبيه ولا تأويل، وقالوا يلزمنا الإيمان بها وأجراؤها على ظاهرها، وتأولها بعض المتأخرين، وغالب المتكلمين فقالوا ثبت بالدليل العقلي، أن الحركة على الله محال، فلا بد من تأويل الآية. فقيل في تأويلها وجاء أمر ربك بالمحاسبة والجزاء. وقيل جاء أمر ربك وقضاؤه. وقيل وجاء دلائل آيات ربك فجعل مجيئها مجيئاً له تفخيماً لتلك الآيات. ﴿والملك صفاً صفاً﴾ أي تنزل ملائكة كل سماء صفاً صفاً على حدة، فيصطفون صفاً بعد صف، محدقين بالجن والإنس، فيكونون سبع صفوف. ﴿وجيء يومئذ﴾ يعني يوم القيامة ﴿بجهنم﴾ قال ابن مسعود: في هذه الآية تقاد جهنم بسبعين ألف زمام، كل زمام بيد سبعين ألف ملك، لها تغيظ وزفير حتى تنصب عن يسار العرش ﴿يومئذ﴾ يعني يوم يجاء بجهنم ﴿يتذكر الإنسان﴾ أي يتعظ الكافر ويتوب.

﴿ **وتحبّون المال حبّا جمّاً** ﴾، أي كثيراً يعني يحبّون جمع المال ويولعون به، يقال: جمّ الماء في الحوض إذا كثر واجتمع.

﴿ **كلا** ﴾، ما هكذا ينبغي أن يكون الأمر. وقال مقاتل: أي لا يفعلون ما أُمِروا به من إكرام اليتيم وإطعام المسكين، ثم أخبر عن تلهفهم على ما سلف منهم حين لا ينفعهم، فقال عزّ من قائل: ﴿ **إذا دُكّت الأرض دكّاً دكّاً** ﴾، مرة بعد مرة وكسر كل شيء على ظهرها من جبل وبناء وشجر فلم يبقَ على ظهرها شيء.

﴿ **وجاء ربّك** ﴾، قال الحسن: جاء أمره وقضاؤه. وقال الكلبي: ينزل حكمه، ﴿ **والملك صفّاً صفّاً** ﴾، قال عطاء: يريد صفوف الملائكة، وأهل كل سماء صف على حِدة. قال الضحاك: أهل كل سماء إذا نزلوا يوم القيامة كانوا صفّاً مختلطين بالأرض ومَن فيها فيكون سبع صفوف.

﴿ **وجيء يومئذٍ بجهنم** ﴾، قال عبد الله بن مسعود ومقاتل في هذه الآية: تُقاد جهنم سبعين زماماً بيد كل زمام سبعين ألف ملك لها تغيظ وزفير حتى تنصب على يسار العرش. ﴿ **يومئذ** ﴾ يعني يوم يُجاء بجهنم، ﴿ **يتذكّر الإنسان** ﴾، يتّعظ ويتوب الكافر، ﴿ **وأنّى له الذكرى** ﴾، قال الزجّاج: يظهر التوبة ومن أين له التوبة.

﴿ **يقول يا ليتني قدّمتُ لحياتي** ﴾، أي قدّمت الخير والعمل الصالح لحياتي في الآخرة، أي لآخرتي التي لا موت فيها.

﴿ **فيومئذ لا يُعذِّب عذابه أحدٌ * ولا يُوثِق وَثَاقَهُ أحدٌ** ﴾، قرأ الكسائي ويعقوب ﴿ **لا يعذَّب** ﴾، ﴿ **ولا يوثَق** ﴾ بفتح الذال والثاء على معنى لا يعذّب أحدٌ في الدنيا كعذاب الله يومئذ، ولا يوثق كوثاقه يومئذ، وقيل: هو رجل بعينه، وهو أُميّة بن خلف، يعني لا يعذّب كعذاب هذا الكافر أحد، ولا يوثق كوِثاقه أحد، وقرأ الآخرون بكسر

﴿وأنى له الذكرى﴾ يعني أنه يظهر التوبة، ومن أين له التوبة. **﴿يقول يا ليتني قدمت لحياتي﴾** أي قدمت الخير، والعمل الصالح لحياتي في الآخرة التي لا موت فيها. **﴿فيومئذ لا يعذب عذابه أحد﴾** أي لا يعذب أحد في الدنيا كعذاب الله الكافر يومئذ. **﴿ولا يوثق وثاقه أحد﴾** يعني لا يبلغ أحد من الخلق كبلاغ الله في العذاب، والوثاق هو الأسر في السلاسل، والأغلال، وقرىء لا يعذب، ولا يوثق بفتح الذال والثاء، ومعناه لا يعذب عذاب هذا الكافر أحد، ولا يوثق وثاقه أحد، وهو أمية بن خلف، وذلك لشدة كفره وعتوه.

قوله عزّ وجلّ: **﴿يا أيتها النفس المطمئنة﴾** أي الثابتة على الإيمان، والإيقان، المصدقة بما قال الله تعالى، الموقنة التي قد أيقنت بالله تعالى، وبأن الله ربها، وخضعت لأمره، وطاعته، وقيل المطمئنة المؤمنة، الموقنة، وقيل هي الراضية بقضاء الله، وقيل هي الآمنة من عذاب الله، وقيل هي المطمئنة بذكر الله؛ قيل نزلت في حمزة بن عبد المطلب حين استشهد بأُحُد، وقيل في حبيب بن عدي الأنصاري، وقيل في عثمان حين اشترى بئر رومة وسبلها وقيل في أبي بكر الصديق؛ والأصح أن الآية عامة في كل نفس مؤمنة مطمئنة، لأن هذه السورة مكية **﴿ارجعي إلى ربك﴾** أي إلى ما وعد ربك من الجزاء والثواب، قيل يقال لها ذلك عند خروجها من الدنيا. قال عبد الله بن عمر: إذا توفي العبد المؤمن أرسل الله عزّ وجلّ إليه ملكين، وأرسل إليه بتحفة من الجنة، فيقال اخرجي أيتها النفس المطمئنة اخرجي إلى روح وريحان، وربك عنك راض، فتخرج كأطيب ريح مسك وجده أحد في أنفه، والملائكة على أرجاء السماء يقولون قد جاء من الأرض روح طيبة ونسمة طيبة فلا تمر بباب إلا فتح لها، ولا بملك، إلا صلى عليها حتى يؤتي بها الرحمن جل جلاله، فتسجد له ثم يقال لميكائيل اذهب بهذه النفس فاجعلها مع أنفس المؤمنين، ثم يؤمر فيوسع عليه قبره سبعون ذراعاً عرضه، وسبعون ذراعاً، طوله وينبذ له فيه الروح والريحان، فإن كان معه شيء من القرآن كفاه نوره، وإن لم يكن جعل له نور مثل الشمس في قبره، ويكون مثله مثل العروس ينام فلا يوقظه إلا أحب

الذال والثاء، أي لا يعـذّب أحد في الدنيا كعذاب الله الكافر يومئذ، ولا يوثق كوثاقه أحد، يعني لا يبلغ أحد من الخلق كبلاغ الله في العذاب، والوثاق وهو الإسار في السلاسل والأغلال.

قوله عزّ وجلّ: **﴿ يا أيتها النفس المطمئنة ﴾**، إلى ما وعد الله المصدّقة بما قال الله. قال مجاهد: المطمئنة التي أيقنت أن الله تعالى ربّها وصبرت جأشاً لأمره وطاعته. وقال الحسن: المؤمنة الموقنة. وقال عطية: الراضية بقضاء الله تعالى. وقال الكلبي: الآمنة من عذاب الله. وقيل المطئنة بذكر الله، بيانه قوله: **﴿ وتطمئن قلوبهم بذكر الله ﴾** [الرعد: ٢٨]، واختلفوا في وقت هذه المقالة، فقال قوم: يقال لها ذلك عند الموت فيقال لها:

﴿ ارجعي إلى ربّك ﴾، إلى الله، **﴿ راضيةً ﴾**، بالثواب، **﴿ مرضيّة ﴾**، عنك، وقال الحسن: إذا أراد الله قبضها اطمأنت إلى الله ورضيت عن الله ورضي الله عنها. قال عبد الله بن عمرو: إذا توفي العبد المؤمن أرسل الله عزّ وجلّ ملكين وأرسل إليه بتحفة من الجنة، فيقال لها: أُخرجي يا أيتها النفس المطمئنة، أُخرجي إلى روح وريحان وربٍّ عنك راضٍ، فتخرج كأطيب ريح مسك وجده أحد في أنفه، والملائكة على أرجاء السماء يقولون: قد جاء من الأرض روح طيبة ونسمة طيبة. فلا تمرّ بباب إلاّ فتح لها ولا بملك إلاّ صلّى عليها، حتى يُؤتى بها الرحمن فتسجد، ثم يقال لميكائيل: اذهب بهذه فاجعلها مع أنفس المؤمنين، ثم يُؤمَر فيوسع عليه قبره سبعون ذراعاً عرضه وسبعون ذراعاً طوله، وينبذ له الريحان، وإن كان معه شيء من القرآن كفاه نوره، وإن لم يكن جعل له نوره مثل الشمس في قبره، ويكون مثله مثل العروس ينام فلا يوقظه إلاّ أحبّ أهله إليه. وإذا توفي الكافر أرسل الله إليه ملكين وأرسل قطعة من بجاد أنتن وأخشن من كل خشن، فيقال: يا أيتها النفس الخبيثة أُخرجي إلى جهنم

أهله إليه، وإذا توفي الكافر أرسل الله إليه ملكين، وأرسل قطعة من بجاد أي من كساء أنتن من كل نتن، وأخشن من كل خشن، فيقال أيتها النفس الخبيثة، اخرجي إلى جهنم وعذاب أليم، وربك عليك غضبان وقيل في معنى قوله **﴿ارجعي إلى ربك﴾** أي إلى صاحبك وهو الجسد، وإنما يقال لها ذلك عند البعث فيأمر الله الأرواح أن ترجع إلى أجسادها، وهو قول عكرمة وعطاء والضحاك ورواية عن ابن عباس. وقيل ارجعي إلى ثواب ربك وكرامته **﴿راضية﴾** أي عن الله بما أعد لك **﴿مرضية﴾** أي رضي الله عنها، وقيل لها في الدنيا ارجعي إلى ربك راضية مرضية، فإذا كان يوم القيامة قيل لها.

﴿فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ﴿٢٩﴾ وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴿٣٠﴾﴾

﴿فادخلي في عبادي﴾ أي في جملة عبادي، الصالحين المصطفين **﴿وادخلي جنتي﴾** قال سعيد بن جبير مات ابن عباس بالطائف فشهدت جنازته، فجاء طائر لم ير على خلقه طائر قط، فدخل نعشه ثم لم ير خارجاً منه، فلما دفن تليت هذه الآية على شفير القبر لا يدرى من تلاها **﴿يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية وادخلي في عبادي وادخلي جنتي﴾**، وقال: بعض أهل الإشارة في تفسير هذه الآية يا أيتها النفس المطمئنة إلى الدنيا، ارجعي إلى ربك بتركها، والرجوع إليه هو سلوك سبيل الآخرة والله أعلم.

وعذاب أليم وربٌّ عليك غضبان. وقال أبو صالح في قوله: ﴿ **ارجعي إلى ربك راضية مرضية** ﴾، قال: هذا عند خروجها من الدنيا فإذا كان يوم القيامة قيل: ﴿ **ادخلي في عبادي وادخلي جنتي** ﴾، وقال آخرون إنما يقال لها ذلك عند البعث ارجعي إلى ربك، أي إلى صاحبك وجسدك، فيأمر الله الأرواح أن ترجع إلى الأجساد، وهذا قول عكرمة وعطاء والضحاك، ورواية العوفي عن ابن عباس، وقال الحسن: معناه ارجعي إلى ثواب ربّك وكرامته راضية عن الله بما أعدّ لها مرضيّة رضي عنها ربّها.

﴿ **فادخلي في عبادي** ﴾، أي مع عبادي في جنتي. وقيل: في جملة عبادي الصالحين المُطيعين المصطفين، نظيره: ﴿ وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين ﴾ [النمل: ١٩].

﴿ **وادخلي جنتي** ﴾، وقال بعض أهل الإشارة: يا أيتها النفس المطمئنة إلى الدنيا ارجعي إلى الله بتركها، والرجوع إلى الله هو سلوك سبيل الآخرة. وقال سعيد بن جبير: مات ابن عباس بالطائف فشهدت جنازته، فجاء طائر لم ترَ على صورة خلقه فدخل نعشه، ثم لم ترَ خارجاً منه فلما دفن تُلِيَت هذه الآية على شفير القبر، ولم ندرِ مَن قرأها: ﴿ **يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربّك راضيةً مرضيةً فادخلي في عبادي وادخلي جنتي** ﴾.

سورة البلد

(مكية وهي عشرون آية، واثنتان وثمانون كلمة، وثلاثمائة وعشرون حرفاً)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴿١﴾ وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴿٢﴾ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ﴿٤﴾

قوله عزّ وجلّ: ﴿**لا أقسم بهذا البلد**﴾ تقدم الكلام على قوله لا أقسم في أول سورة القيامة، والبلد هي مكة في قول جميع المفسرين. ﴿**وأنت حل بهذا البلد**﴾ أي مقيم به، نازل فيه، فكأنه عظّم حرمة مكة من أجل أنه ﷺ مقيم بها وقيل حل أي حلال، والمعنى أحلت لك تصنع فيها ما تريد من القتل، والأسر، ليس عليك ما على الناس من الإثم في استحلالها، أحل الله عزّ وجلّ له مكة يوم الفتح حتى قاتل، وأمر بقتل ابن خطل، وهو متعلق بأستار الكعبة، ومقيس بن صبابة وغيرهما، وأحل دماء قوم، وحرم دماء قوم آخرين، فقال من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن، ثم قال بعد ذلك إن الله حرم مكة يوم خلق السموات والأرض، ولم تحل لأحد قبلي، ولا تحل لأحد بعدي، وإنما أحلت لي ساعة من نهار فهي حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، والمعنى أن الله تعالى لما أقسم بمكة دل ذلك على عظم قدرها، وشرفها، وحرمتها، ومع ذلك فقد وعد نبيه ﷺ، أنه يحلها له حتى يقاتل فيها، وأن يفتحها على يده، فهذا وعد من الله تعالى في الماضي، وهو مقيم بمكة أن يفتحها عليه في المستقبل بعد الهجرة، وخروجه منها، فكان كما وعده، وقيل في معنى قوله ﴿**وأنت حلّ بهذا البلد**﴾، أي أنهم

سُوْرَة البَلَد

مكيّة وهي عشرون آية.

﴿ **لا أُقسم** ﴾، يعني أقسم، ﴿ **بهذا البلد** ﴾، يعني مكة.

﴿ **وأنتَ حِلٌّ** ﴾، أي حلال، ﴿ **بهذا البلد** ﴾، تصنع فيه ما تريد من القتل والأسر ليس عليك ما على الناس فيه من الإثم أحلّ الله لنبيّه ﷺ مكة يوم الفتح، حتى قاتل وقتل وأمر بقتل ابن خطل، وهو متعلّق بأستار الكعبة، ومقيس بن صبابة وغيرهما، فأحلّ دماء قوم وحرّم دماء قوم، فقال: مَن دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ثم قال: إن الله حرّم مكة يوم خلق السمٰوات والأرض ولم تحلّ لأحد قبلي ولا تحلّ لأحد بعدي، وإنما أُحِلّت لي ساعة من نهار، فهي حرام بحُرمة الله إلى يوم القيامة، والمعنى: أن الله تعالى لمّا أقسم بمكة دلّ ذلك على عظيم قدرها مع حرمته فوعد نبيّه ﷺ أنه يحلّها له حتى يقاتِل فيها، وأن يفتحها على يده فهذا وعد من الله عزّ وجلّ بأن يحلّها له. قال شرحبيل بن سعد: ومعنى قوله وأنت حِلٌّ بهذا البلد، قال: يحرّمون أن يقتلوا بها صيداً ويستحلّون إخراجك وقتلك؟.

يحرمون أن يقتلوا به صيداً، ويستحلون قتلك فيه، وإخراجك منه. ﴿ووالد وما ولد﴾ يعني آدم وذريته أقسم الله تعالى بمكة لشرفها، وحرمتها، وبآدم، وبالأنبياء والصالحين من ذريته، لأن الكافر وإن كان من ذريته فلا حرمة له حتى يقسم به، وجواب القسم قوله تعالى: ﴿لقد خلقنا الإنسان في كبد﴾ قال ابن عباس: في نصب، وقيل يكابد مصائب الدنيا، وشدائد الآخرة، وعنه أيضاً قال: في شدة من حمله، وولادته، ورضاعه، وفطامه، وفصاله، ومعاشه، وحياته، وموته وأصل الكبد الشدة، وقيل لم يخلق الله خلقاً يكابد، ما يكابد ابن آدم، وهو مع ذلك أضعف الخلق، وعن ابن عباس أيضاً قال: الكبد الاستواء، والاستقامة، فعلى هذا يكون المعنى، خلقنا الإنسان منتصباً معتدل القامة، وكل شيء من الحيوان يمشيء منكباً، وقيل منتصباً، رأسه في بطن أمه فإذا أذن الله في خروجه انقلب رأسه إلى أسفل، وقيل في كبد أي في قوة نزلت في أبي الأشد أسيد بن كلدة بن جمح، وكان شديداً قوياً يضع الأديم العكاظي تحت قدميه، ويقول من أزالني عنه فله كذا وكذا فلا يطاق أن ينزع من تحت قدميه إلا قطعاً، ويبقى من ذلك الأديم بقدر موضع قدميه.

أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴿٥﴾ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ﴿٦﴾ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٧﴾ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾

﴿أيحسب﴾ أبا الأشد من قوته ﴿أن لن يقدر عليه أحد﴾ يعني أيظن لشدته في نفسه، أنه لا يقدر عليه الله، وقيل هو الوليد بن المغيرة المخزومي. ﴿يقول﴾ يعني هذا الكافر ﴿أهلكت﴾ أي أنفقت ﴿مالاً لبداً﴾ أي كثيراً من التلبيد

﴿ ووالد وما ولد ﴾، يعني آدم عليه السلام وذرّيّته.

﴿ لقد خلقنا الإنسان في كبد ﴾، روى الوالبي عن ابن عباس: في نصب. قال الحسن: يكابد مصائب الدنيا وشدائد الآخرة. وقال قتادة: في مشقّة فلا تلقاه إلّا يكابد أمر الدنيا. قال سعيد بن جبير: في شدّة. وقال عطاء عن ابن عباس: في شدّة خلق حمله وولادته ورضاعه، وفطامه وفصاله ومعاشه وحياته وموته. وقال عمرو بن دينار: عند نبات أسنانه. قال يمان: لم يخلق الله خلقاً يكابد ما يكابد ابن آدم وهو مع ذلك أضعف الخلق. وأصل الكبد: الشدّة. وقال مجاهد وعكرمة وعطية والضحاك: يعني منتصباً معتدل القامة، وكل شيء خلق فإنه يمشي مُكبّاً، وهي رواية مقسم عن ابن عباس، والكبد الاستواء والاستقامة. وقال ابن كيسان: منتصباً رأسه في بطن أُمه فإذا أذِنَ الله في خروجه انقلب رأسه إلى رجلي أُمه. وقال مقاتل: في كبد، أي في قوة نزلت في أبي الأشد واسمه أسيد بن كلدة الجمحي، وكان شديداً قوياً يضع الأديم العكاظي تحت قدميه فيقول: مَن أزالني عنه فله كذا وكذا، فلا يُطاق أن ينزع من تحت قدميه إلّا قطعاً ويبقى موضع قدميه.

﴿ أيحسب ﴾، يعني أبا الأشد من قوّته، ﴿ أن لن يقدر عليه أحد ﴾، أي يظن من شدّته أن لن يقدر عليه الله تعالى. وقيل: هو الوليد بن المغيرة.

﴿ يقول أهلكت ﴾، يعني أنفقت، ﴿ مالاً لبداً ﴾، أي كثيراً بعضه على بعض من التلبيد في عداوة محمد ﷺ، قرأ أبو جعفر لبداً بتشديد الباء على جمع لاَبِد، مثل راكع وركع، وقرأ الآخرون بالتخفيف على جمع (لبدة)، وقيل على الواحد مثل قُثم وحطم.

﴿ أيحسب أن لم يَرَه أحد ﴾، قال سعيد بن جبير وقتادة: أيظن أن الله لم يره، ولا يسأله عن ماله من أين اكتسبه، وأين أنفقه؟ وقال الكلبي: إنه كان كاذباً في قوله أنفقت كذا وكذا، ولم يكن أنفق جميع ما قال يقول أيظن

الذي يكون بعضه فوق بعض. يعني في عداوة محمد ﷺ ﴿أيحسب أن لم يره أحد﴾ يعني أيظن أن الله لم يره، ولا يسأله عن ماله من أين اكتسبه، وفيم أنفقه، وقيل كان كاذباً في قوله، إنه أنفق ولم ينفق جميع ما قال والمعنى أيظن أن الله لم ير ذلك منه فيعلم مقدار نفقته. ثم ذكره نعمه عليه ليعتبر فقال تعالى: ﴿ألم نجعل له عينين ولساناً وشفتين﴾ يعني أن نعم الله على عبده متظاهرة، يقروه بها كي يشكره، وجاءه في الحديث «إن الله عزّ وجلّ يقول: ابن آدم إن نازعك لسانك فيما حرمت عليك فقد أعنتك عليه بطبقتين فأطبق عليه، وإن نازعك بصرك فيما حرمت عليك فقد أعنتك عليه بطبقتين فأطبق عليه، وإن نازعك فرجك فيما حرمت عليك فقد أعنتك عليه بطبقتين فأطبق عليه». ﴿وهديناه النجدين﴾ قال أكثر المفسرين طريق الخير والشر والحق، والباطل، والهدى، والضلالة، وقال ابن عباس: الثديين ﴿فلا أقتحم العقبة﴾ أي فهلا أنفق ماله فيما يجوز به العقبة من فك الرقاب وإطعام المساكين يكون ذلك خيراً له من إنفاقه في عداوة من أرسله الله إليه، وهو محمد ﷺ، وقيل معناه لم يقتحمها ولا جاوزها والاقتحام الدّخول في الأمر الشّديد، وذكر العقبة مثل ضربه الله تعالى: لمجاهدة النّفس، والهوى، والشّيطان في أعمال الخير، والبر، فجعله كالذي يتكلف صعود العقبة يقول الله عزّ وجلّ: لم يحمل على نفسه المشقة بعتق الرّقبة، والإطعام، وقيل إنه شبه ثقل الذنوب على مرتكبها بالعقبة، فإذا أعتق رقبة وأطعم المساكين. كان كمن اقتحم العقبة وجاوزها، وروي عن ابن عمر أن هذه العقبة جبل في جهنم، وقيل هي عقبة شديدة في النار دون الجسر فاقتحموها بطاعة الله ومجاهدة النفس، وقيل هي الصّراط يضرب على متن جهنم كحد السّيف مسيرة ثلاثة آلاف سنة سهلاً وصعوداً وهبوطاً، وأن بجنبيه كلاليب وخطاطيف، كأنها شوك السّعدان فناج مسلم، وناج مخدوش، ومكردس في الناس منكوس، فمن الناس من يمر كالبرق الخاطف، ومنهم من يمر كالريح العاصف، ومنهم من يمر كالفارس، ومنهم من يمر كالرّجل

أن الله عزّ وجلّ لم يَرَ ذلك منه فيعلم مقدار نفقته ثم ذكّره نِعَمه ليعتبر.

فقال: ﴿ ألم نجعل له عينين ولساناً وشفتين ﴾، قال قتادة: نعم الله متظاهره يقررك بها كيما تشكر، وجاء في الحديث: أن الله عزّ وجلّ يقول ابن آدم إن نازعك لسانك فيما حرّمت عليك فقد أعنتك عليه بطبقتين فأطبق، وإن نازعك بصرك إلى بعض ما حرّمت عليك، فقد أعنتك عليه بطبقتين. فأطبق، وإن نازعك فرجك إلى ما حرّمت عليك فقد أعنتك عليه بطبقتين فأطبق.

﴿ وهديناه النجدين ﴾، قال: أكثر المفسّرين طريق الخير والشرّ، والحق والباطل، والهدى والضلالة، كقوله: ﴿ إنّا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً ﴾ [الإنسان: ٣] وقال محمد بن كعب عن ابن عباس: وهديناه النجدين قال: الثديين، وهو قول سعيد بن المسيب والضحاك، والنجد: طريق ارتفاع.

﴿ فلا اقتحم العقبة ﴾، يقول: فهلّا أنفقَ ماله فيما يجوزُ به العقبة من فكّ الرّقاب وإطعام السغبان، فيكون خيراً له من إنفاقه على عداوة محمد ﷺ، هذا قول ابن زيد وجماعة، وقيل: فلا اقتحم العقبة أي لم يقتحمها ولا جاوزها. والاقتحام: الدخول في الأمر الشديد، وذكرُ العقبة ههنا مَثَلٌ ضربه الله لمجاهدة النفس والهوى والشيطان في أعمال البرّ، فجعله كالذي يتكلّف صعود العقبة، تقول لم يحمل على نفسه المشقّة بعتق الرقبة ولا طعام، وهذا معنى قول قتادة. وقيل: إنه شبّه ثقل الذنوب على مرتكبها بعقبة فإذا أعتق رقبة وأطعم كان كمَن اقتحم العقبة وجاوزها، ورُوِيَ عن ابن عمر: أن هذه العقبة جبل في جهنم، وقال الحسن وقتادة: عقبة شديدة في النار دون الجسر، فاقتحموها بطاعة الله تعالى. وقال مجاهد والضحاك والكلبي: هي صراط يُضرَب على جهنم كحدّ السيف مسيرة ثلاثة آلاف سنة سهلاً وصعوداً وهبوطاً، وإن بجنبيه كلاليب وخطاطيف كأنها شوك السعدان، فناجٍ مسلم، وناجٍ مخدوش، ومكردس في النار منكوس، فمن الناس مَن يمرّ كالبرق الخاطف، ومنهم مَن يمرّ كالريح

يعدو، ومنهم من يمر كالرجل يسير، ومنهم من يزحف زحفاً ومنهم الزّالون ومنهم من يكردس في النار، وقيل معنى الآية: فهلا سلك طريق النجاة ثم بين ما هي. فقال تعالى:

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾﴾

﴿وما أدراك ما العقبة﴾ أي وما أدراك ما اقتحام العقبة ﴿فك رقبة﴾ يعني عتق الرقبة وهو إيجاب الحرية لها، وإبطال الرق، والعبودية عنها، وذلك بأن يعتق الرجل الرّقبة التي في ملكه، أو يعطي مكاتباً ما يصرفه في فكاك رقبته ومن أعتق رقبة كانت فداءه من النار (ق) عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ «من أعتق رقبة مسلمة أعتق الله بكل عضو منها عضواً منه من النار حتى فرجه بفرجه» وروى البغوي بسنده عن البراء بن عازب قال: «جاء أعرابي إلى رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله علمني عملاً يدخلني الجنة قال لئن كنت أقصرت الخطبة لقد أعرضت المسألة أعتق النّسمة، وفك الرّقبة قال أوليسا واحداً قال لا عتق النسمة أن تنفرد بعتقها، وفك الرقبة أن تعين في ثمنها والمنحة الوكوف والفيء على ذي الرحم الظّالم، فإن لم تطق ذلك فأطعم الجائع واسق الظّمآن وأمر بالمعروف وأنه عن المنكر، فإن لم تطق ذلك فكف لسانك إلا من خير» وقيل في معنى الآية وفك رقبة من رق الذّنوب بالتّوبة وبما يتكلفه من العبادات، والطاعات التي يصير بها إلى رضوان الله، والجنة فهي الحرية الكبرى ويتخلص بها

العاصف، ومنهم مَن يمرّ كالفارس، ومنهم من يمرّ عليه كالرجل يعدو، ومنهم مَن يمرّ كالرجل يسير، ومنهم مَن يزحف زحفاً، ومنهم الزالّون، ومنهم مَن يكردس في النار. قال ابن زيد: يقول فهلاّ سلك الطريق التي فيها النجاة ثم بيّن ما هي فقال:

﴿ وما أدراك ما العقبة ﴾، ما اقتحم العقبة، قال سفيان بن عيينة: كلُّ شيء، قال: وما أدراك فإنه أخبر به، وما قال: وما يدريك فإنه لم يخبر به.

﴿ فكّ رقبة * أو إطعام ﴾، قرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائي ﴿ فكّ ﴾ بفتح الكاف، ﴿ رقبة ﴾ نصب، (أو أطعم) بفتح الهمزة والميم على الماضي، وقرأ الآخرون ﴿ فكّ ﴾ برفع الكاف، ﴿ رقبة ﴾ جرّاً، ﴿ أو إطعام ﴾ على المصدر، وأراد بفكّ الرقبة إعتاقها وإطلاقها، ومَن أعتق رقبة كانت الرقبة فداءه من النار. أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أبو منصور محمد بن محمد بن سمعان ثنا أبو جعفر بن محمد بن أحمد بن عبد الجبّار الربّاني ثنا حميد بن زنجويه ثنا عبد الله بن صالح حدّثني الليث بن سعد حدّثني ابن الهاد عن عمر بن علي بن حسين عن سعيد بن حارثة قال: سمعته يحدّث عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَن أعتق رقبة مؤمنة أعتق الله بكل عضو منه عضواً من النار، حتى يعتق فرجه بفرجه». أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أبو منصور السمعاني أنا أبو جعفر الرياني ثنا حميد بن زنجويه ثنا محمد بن كثير العبدي ثنا عيسى بن عبد الرحمن السلمي عن طلحة بن مصرف اليامي عن عبد الرحمن بن عوسجة عن البراء بن عازب قال: جاء أعرابي إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله علّمني عملاً يدخلني الجنة، قال: «لئن كنت أقصرت الخطبة لقد أعرضت المَسألة، أعتق النسمة وفكّ الرقبة»، قال: أوَ ليسا واحداً؟ قال: «لا عتق النسمة أن تنفرد بعتقها وفكّ الرقبة أن تُعين في ثمنها، والمنحة الوكوف، والفيء على ذي الرحم الظالم، فإن لم تطق ذلك فأطعم الجائع واسقِ الظمآن، وأْمر بالمعروف وانهَ عن المنكر، فإن لم تطق ذلك فكفّ لسانك إلاّ من خير». وقال عكرمة قوله: ﴿ فكّ رقبة ﴾، يعني فكّ رقبة من الذنوب بالتوبة ﴿ أو إطعام في يوم ذي مسغبة ﴾، مجاعة، يقال: سغب يسغب سغباً إذا جاع.

من النار ﴿أو إطعام في يوم ذي مسغبة﴾ أي في يوم ذي مجاعة والسغب الجوع ﴿يتيماً ذا مقربة﴾ أي ذا قرابة يريد يتيماً بينك وبينه قرابة ﴿أو مسكيناً ذا متربة﴾ يعني قد لصق بالتراب من فقره وضره وقال ابن عباس: هو المطروح في التّراب لا يقيه شيء والمتربة الفقر، ثم بين أن هذه القرب لا تنفع إلا مع الإيمان بقوله ﴿ثم كان من الذين آمنوا﴾ والمعنى أنه كان مؤمناً تنفعه هذه القرب، وكان مقتحماً العقبة، وإن لم يكن مؤمناً لا تنفعه هذه القرب ولا يقتحم العقبة ﴿وتواصوا بالصبر﴾ يعني وصى بعضهم بعضاً على الصبر على أداء الفرائض، وجميع أوامر الله ونواهيه. ﴿وتواصوا بالمرحمة﴾ أي برحمة الناس وفيه الإشارة إلى تعظيم أمر الله والشفقة على خلق الله.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿١٩﴾ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌۢ ﴿٢٠﴾﴾

﴿أولئك﴾ يعني أهل هذه الخصال ﴿أصحاب الميمنة والذين كفروا بآياتنا هم أصحاب المشأمة عليهم نار مؤصدة﴾ يعني مطبقة عليهم أبوابها لا يدخل فيها روح ولا يخرج منها غم.

والله سبحانه وتعالى أعلم بمراده.

﴿ يتيماً ذا مقربة ﴾، أي ذا قرابة يريد يتيماً بينك وبينه قرابة.

﴿ أو مسكيناً ذا متربة ﴾، لقد لصق بالتراب من فقره وضرّه. وقال مجاهد عن ابن عباس: هو المطروح في التراب لا يقيه شيء. والمتربة مصدر ترب يترب ترباً ومتربةً إذا افتقر.

﴿ ثم كان من الذين آمنوا ﴾، ثم بيّن أن هذا القرب إنما ينفع مع الإيمان، وقيل: ﴿ ثم ﴾ بمعنى الواو، ﴿ وتواصوا ﴾، أوصى بعضهم بعضاً، ﴿ بالصبر ﴾، على فرائض الله وأوامره، ﴿ وتواصوا بالمرحمة ﴾، برحمة الناس.

﴿ أولئك أصحاب الميمنة * والذين كفروا بآياتنا هم أصحاب المشأمة * عليهم نار مؤصدة ﴾، مطبقة عليهم أبوابها لا يدخل فيها روح ولا يخرج منها غمّ، قرأ أبـو عمرو وحمـزة وحفص بالهمـزة هاهنـا، وفي الهُمَزَة [٨]، وقرأ الآخرون بلا همز وهما لغتان، يقال: آصدت الباب وأوصدته إذا أغلقته وأطبقته، وقيل: معنى الهمزة المطبقة وغير الهمزة المغلقة.

سورة الشمس

مكية وهي خمس عشرة آية وأربع وخمسون كلمة ومائتان وسبعة وأربعون حرفاً.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ﴿١﴾ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ﴿٢﴾ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ﴿٣﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ﴿٤﴾

قوله عزّ وجلّ: ﴿**والشّمس وضحاها**﴾ أي إذا بدا ضوءها والضّحى حين ترتفع الشّمس، ويصفو ضوءها، وقيل الضّحى النهار كله لأن الضحى هو نور الشمس، وهو حاصل في النهار كله، وقيل الضحى هو حر الشمس لأن حرها ونورها متلازمان، فإذا اشتد نورها قوى حرها وهذا أضعف الأقوال. ﴿**والقمر إذا تلاها**﴾ أي تبعها وذلك في النصف الأول من الشهر إذا غربت الشمس تلاها القمر في الإضاءة وخلفها في النور، وقيل تلاها في الاستدارة وذلك حين يكمل ضوءه، ويستدير وذلك في اللّيالي البيض، وقيل تلاها تبعها في الطلوع، وذلك في أول ليلة من الشّهر إذا غربت الشمس ظهر الهلال فكأنه تبعها. ﴿**والنهار إذا جلاها**﴾ يعني جلا ظلمة الليل بضيائه وكشفها بنوره، وهو كناية عن غير مذكور لكونه معروفاً ﴿**والليل إذا يغشاها**﴾ أي يغشى الشمس حين تغيب فتظلم الآفاق وحاصل هذه الأقسام الأربعة ترجع إلى الشمس في الحقيقة. لأن بوجودها يكون النهار ويشتد الضحى، وبغروبها يكون الليل ويتبعها القمر.

وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ﴿٥﴾ وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ﴿٦﴾ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾

﴿**والسماء وما بناها**﴾ أي ومن بناها، وقيل والذي بناها فعلى هذا كأنه أقسم به وبأعظم مخلوقاته، ومعنى بناها

سُورَة الشَّمْس

مكيّة وهي خمس عشرة آية.

﴿ **والشمس وضحاها** ﴾، قال مجاهد والكلبي: ضوءها، والضحى: حين تطلع الشمس، فيصفو ضوءها. قال قتادة: هو النهار كله. وقال مقاتل: حرّها، كقوله في طه[١١٩] ﴿ ولا تضحى ﴾، يعني لا يؤذيك الحرّ.

﴿ **والقمر إذا تلاها** ﴾، تبعها وذلك في النصف الأول من الشهر إذا غربت الشمس، تلاها القمر في الإضاءة وخلفها في النور. وقال الزجّاج: وذلك حين استدار يعني كمل ضَوْءَهُ فصار تابعاً للشمس في الإنارة وذلك في الليالي البيض.

﴿ **والنهار إذا جلاها** ﴾، يعني إذا جلى الظلمة كناية عن غير مذكور لكونه معروفاً.

﴿ **والليل إذا يغشاها** ﴾، يعني يغشى الشمس حين تغيب فتظلم الآفاق.

﴿ **والسماء وما بناها** ﴾، قال الكلبي ومَن بناها وخلقها كقوله: ﴿ فأنكحوا ما طاب لكم من النساء ﴾

خلقها، وقيل ما بمعنى المصدر أي والسماء وبنائها ﴿والأرض وما طحاها﴾ أي بسطها وسطحها على الماء ﴿ونفس وما سواها﴾ أي عدل خلقها وسوى أعضاءها هذا إن أريد بالنّفس الجسد وإن أريد بها المعنى القائم بالجسد فيكون معنى سواها أعطاها القوى الكثيرة كالقوة الناطقة، والسامعة والباصرة، والمفكرة، والمخيلة وغير ذلك من العلم، والفهم، وقيل إنما نكرها لأنه أراد بها النّفس الشّريفة المكلفة التي تفهم عنه خطابه، وهي نفس جميع من خلق من الإنس والجن ﴿فألهما فجورها وتقواها﴾ قال ابن عباس: بين لها الخير والشّر وعنه علمها الطّاعة والمعصية، وعنه عرفها ما تأتي وما تتقي، وقيل ألزمها فجورها، وتقواها، وقيل وجعل فيها ذلك بتوفيقه إيّاها للتّقوى، وخذلانه إياها للفجور، وذلك لأن الله تعالى خلق في المؤمن التّقوى، وفي الكافر الفجور (م) عن أبي الأسود الديلي قال: قال لي عمران بن حصين أرأيت ما يعمل الناس اليوم ويكدحون فيه أشيء قضى عليهم، ومضى عليهم من قدر قد سبق أو فيما يستقبلونه مما أتاهم به نبيهم ﷺ وثبتت الحجة عليهم، فقلت بل شيء قضى عليهم ومضى عليهم، فقال أفلا يكون ظلماً قال ففزعت من ذلك فزعاً شديداً، وقلت كل شيء خلق الله وملك يده فلا يسأل عما يفعل، وهم يسألون فقال لي يرحمك الله إني لم أرد بما سألتك إلا لأختبر عقلك «إن رجلين من مزينة أتيا رسول الله ﷺ فقالا يا رسول الله أرأيت ما يعمل الناس اليوم، ويكدحون فيه أشيء قضى عليهم، ومضى عليهم، من قدر قد سبق أو فيما يتسقبلون مما أتاهم به نبيهم ﷺ وثبتت الحجة عليهم فقال لا بل شيء قضى عليهم، ومضى فيهم، وتصديق ذلك في كتاب الله عز وجل، ونفس وما سواها، فألهمها فجورها وتقواها» (م) عن جابر قال: «جاء سراقة بن مالك بن جعشم فقال: يا رسول الله بين لنا ديننا كأننا خلقنا الآن فيم العمل اليوم فيما جفت به الأقلام، وجرت به المقادير أو فيما يستقبل قال: لا بل فيما

[النساء: ٣]، أي مَن طاب قال عطاء: يريد والذي بناها. وقال الفرّاء والزجّاج: ﴿ ما ﴾ بمعنى المصدر، أي وبنائها كقوله: ﴿ بما غفر لي ربّي ﴾ [يٓس: ٢٧].

﴿ والأرض وما طحاها ﴾، بسطها.

﴿ ونفس وما سواها ﴾، عدل خلقها وسوّى أعضاءها قال عطاء يريد جميع ما خلق من الجنّ والإنس.

﴿ فألهمها فجورها وتقواها ﴾، قال ابن عباس في رواية علي بن أبي طلحة: بيّن لها الخير والشر. وقال في رواية عطية: علّمها الطاعة والمعصية. وروى الكلبي عن أبي صالح عنه: عرّفها ما تأتي وما تتّقي. وقال سعيد بن جبير: ألزمها فجورها وتقواها. قال ابن زيد: جعل فيها ذلك يعني بتوفيقه إيّاها للتقوى، وخذلانه إياها للفجور. واختار الزجّاج هذا، وحمل الإلهام على التوفيق والخذلان، وهذا يبيّن أن الله عزّ وجلّ خلق في المؤمن التقوى وفي الكافر الفجور، أنا أحمد بن إبراهيم الشريحي أنا أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي أخبرني الحسين بن محمد بن الحسين بن عبد الله ثنا موسى بن محمد ثنا علي بن عبد الله أنا عبد الله بن محمد بن سفيان ثنا مسلم بن إبراهيم أنا عروة بن ثابت الأنصاري، ثنا يحيىٰ بن عقيل عن يحيىٰ بن يعمر عن الأسود الدبلي قال: قال لي عمران بن حصين: أرأيت ما يعمل الناس ويكادحون فيه أشيء قضي عليهم ومضى فيهم من قدر سبق؟ أو فيما يستقبلون مما آتاهم به نبيّهم وأكدت عليهم الحجّة؟ قلت: بلى شيء قد قضي عليهم، قال: فهل يكون ذلك ظلماً؟ قال: ففزعت منه فزعاً شديداً، وقلت: إنه ليس شيء إلّا وهو خلقه وملك يده لا يسأل عمّا يفعل وهم يسألون، فقال لي: سدّدك الله إنما سألتك لأختبر عقلك أن رجلاً من جهينة أو مزينة أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله أرأيت ما يعمل الناس ويكادحون فيه أشيء قضي عليهم ومضى فيهم من قدر سبق؟ أو فيما يستقبلون به مما أتاهم نبيّهم وأكدت به عليهم الحجّة؟ فقال: «لا بل شيء قد قُضِي عليه ومضى فيهم»، قال: قلت: ففِيمَ العمل إذاً؟ قال: «مَن كان الله خلقه

جفت به الأقلام، وجرت به المقادير قال: ففيم العمل؟ فقال اعملوا فكل ميسر لما خلق له» وهذه أقسام أقسم الله تعالى بالشمس وضحاها وما بعدها لشرفها ومصالح العالم بها، وقيل فيه إضمار تقديره ورب الشمس وما بعدها.

وأورد على هذا القول أنه قد دخل في جملة هذا القسم قوله، ﴿والسّماء وما بناها﴾ وذلك هو الله تعالى، فيكون التقدير رب السماء، ورب من بناها، وهذا خطأ لا يجوز وأجيب عنه بأن ما إن فسرت بالمصدرية فلا إشكال وإن فسرت بمعنى من فيكون التقدير ورب السّماء الذي بناها وجواب القسم قوله تعالى:

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴿١١﴾ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَـٰهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَـٰهَا ﴿١٥﴾﴾

﴿قد أفلح من زكاها﴾ المعنى لقد أفلح من زكاها أي فازت وسعدت نفس زكاها الله أي أصلحها وطهرها من الذّنوب، ووفقها للطاعة. ﴿وقد خاب من دساها﴾ أي خابت وخسرت نفس أضلها الله تعالى، وأفسدها، وأصله من دس الشّيء إذا أخفاه فكأنه سبحانه وتعالى أقسم بأشرف مخلوقاته على فلاح من طهره، وزكاه، وخسارة من خذله، وأضله حتى لا يظن أحد أنه يتولى تطهير نفسه، أو إهلاكها بالمعصية من غير قدر متقدم وقضاء سابق (م) عن زيد بن أرقم قال: كان رسول الله ﷺ يقول «اللّهم إني أعوذ بك من العجز، والكسل، والبخل، والهرم وعذاب القبر، اللّهم آت نفسي تقواها وزكها أنت خير من زكاها أنت وليها، ومولاها، اللّهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع، ومن قلب لا يخشع ومن نفس لا تشبع، ومن دعوة لا يستجاب لها».

لإحدى المنزلتين يهيئه الله لها»، وتصديق ذلك في كتاب الله عزّ وجلّ: ﴿ **ونفس وما سواها * فألهمها فجورها وتقواها** ﴾، أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أبو محمد عبد الرحمن بن أبي شريح أنا أبو القاسم عبد الله بن محمد بن عبد العزيز البغوي ثنا علي بن الجعد ثنا زهير بن معاوية عن أبي الزبير عن جابر قال جاء سُراقة بن مالك بن جعشم فقال: يا رسول الله بيّن لنا ديننا كأنّنا خُلقنا الآن، أرأيتَ عمرتنا هـذه ألعامنـا هذا أم لـلأبد؟ قـال: «بل للأبد»، قال: يا رسول الله بيّن لنا ديننا كأننا خلقنا الآن فيما العمل اليوم فيما جفّت به الأقلام وجرت به المقادير؟ أو فيما نستقبل؟ قال: «لا بل فيما جفّت به الأقلام وجرت به المقادير»، قال: ففيـمَ العمل ؟ فقال زهير: كلمة خفيت عليّ فسألت عنها نسي بعد فذكر أنه سمعها، فقال: «اعملوا فكلٌّ مُيسِّر لما خلق له».

﴿ **قد أفلح مَن زكّاها** ﴾، وهذا موضع القسم أي فازت وسعدت نفس زكّاها الله، أي أصلحها وطهّرها من الذنوب ووفّقها للطاعة.

﴿ **وقد خاب مَن دسّاها** ﴾، أي خانت وخسرت نفس أضلّها الله فأفسدها. وقال الحسن: معناه قد أفلح مَن زكّى نفسه فأصلحها وحملها على طاعة الله عزّ وجلّ، ﴿ **وقد خاب مَن دسّاها** ﴾ أهلكها وأضلّها وحملها على المعصية، فجعل الفعل للنفس، ودسّاها أصله: دسسها من التدسيس، وهو إخفاء الشيء، فأُبدلت السين الثانية ياءً، والمعنى ههنا: أخملها وأخفى محلها بالكفر والمعصية، أخبرنا أبو الحسن علي بن يوسف الجويني أنا أبو محمد بن محمد بن علي بن محمد بن شريك الشافعي أنا عبد الله بن محمد بن مسلم ثنا أبو بكر الجوربردي ثنا أحمد بن حرب ثنا أبو معاوية عن عاصم عن أبي عثمان وعبد الله بن الحارث عن زيد بن أرقم قال: لا أقول لكم إلّا ما قال رسول الله ﷺ لنا: «اللّهمَّ إني أعوذ بك من العجز والكسل والبخل والجُبْن والهرم وعذاب القبر، اللّهمَّ آتِ نفسي تقواها وزكّها أنت خير مَن زكّاها أنت وليّها ومولاها، اللّهمَّ إني أعوذ بك من علم لا ينفع ومن نفس لا تشبع

قوله عز وجل: ﴿كذبت ثمود﴾ وهم قوم صالح عليه الصّلاة والسّلام ﴿بطغواها﴾ أي بطغيانها وعدوانها، والمعنى أن الطغيان حملهم على التكذيب حتى كذبوا ﴿إذا انبعث أشقاها﴾ أي قام وأسرع وذلك أنهم لما كذبوا بالعذاب، وكذبوا صالحاً انبعث أشقى القوم وهو قدار بن سالف، وكان رجلاً أشقر أزرق العين قصيراً فعقر الناقة (ق) عن عبد الله بن زمعة «أنه سمع النبي ﷺ يخطب وذكر الناقة، والذي عقرها فقال رسول الله ﷺ: إذا انبعث أشقاها انبعث لها رجل عزيز عارم منيع في أهله مثل أبي زمعة» لفظ البخاري قوله عارم أي شديد ممتنع.

قوله تعالى: ﴿فقال لهم رسول الله﴾ يعني صالحاً عليه الصّلاة والسّلام ﴿ناقة الله﴾ أي ذروا ناقة الله وإنما قال لهم ذلك لما عرف منهم أنهم قد عزموا على عقرها وإنما أضافها إلى الله تعالى لشرفها كبيت الله. ﴿وسقياها﴾ أي وشربها ولا تتعرضوا للماء يوم شربها ﴿فكذبوه﴾ يعني صالحاً ﴿فعقروها﴾ يعني الناقة ﴿فدمدم عليهم ربهم﴾ أي فدمر عليهم ربهم وأهلكهم والدمدمة هلاك استئصال، وقيل دمدم أي أطبق عليهم العذاب طبقاً حتى لم ينفلت منهم أحد ﴿بذنبهم﴾ أي فعلنا ذلك بهم بسبب ذنبهم، وهو تكذيبهم صالحاً عليه الصّلاة والسّلام وعقرهم الناقة ﴿فسواها﴾ أي فسوى الدّمدمة عليهم جميعاً وعمهم بها، وقيل معناه فسوى بين الأمة وأنزل بصغيرهم، وكبيرهم، وغنيهم، وفقيرهم العذاب، ﴿ولا يخاف عقباها﴾ أي لا يخاف الله تبعة من أحد في هلاكهم كذا قال ابن عباس: وقيل هو راجع إلى العاقر والمعنى لا يخاف العاقر عقبي ما قدم عليه من عقر الناقة، وقيل هو راجع إلى صالح عليه الصّلاة والسّلام والمعنى لا يخاف صالح عاقبة ما أنزل الله بهم من العذاب أن يؤذيه أحد بسب ذلك والله أعلم.

ومن قلب لا يخشع، ومن دعوة لا يُستجاب لها».

قوله عزّ وجلّ: ﴿ كذّبتْ ثمودُ بطغواها ﴾، بطغيانها وعدوانها أي الطغيان حملهم على التكذيب.

﴿ إذ انبعث أشقاها ﴾، أي قام، والإنبعاث: هو الإسراع في الطاعة للباعث، أي كذبوا بالعذاب وكذّبوا صالحاً لمّا انبعث أشقاها وهو: قدارُ بن سالف، وكان أشقر أزرق قصيراً قام لعقر الناقة. أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل أنا موسى بن إسماعيل ثنا وهب ثنا هشام عن أبيه أنه أخبره عبد الله بن زمعة أنه سمع النبي ﷺ يخطب وذكر الناقة والذي عقرها فقال رسول الله ﷺ: ﴿ إذ انبعث أشقاها ﴾، انبعث لها رجل عزيز عارم منيع في أهله مثل أبي زمعة».

﴿ فقال لهم رسول الله ﴾، صالح، ﴿ ناقة الله ﴾، أي احذروا عقر ناقة الله. وقال الزجّاج: منصوب على معنى ذروا ناقة الله، ﴿ وسقياها ﴾، شربها أي ذروا ناقة الله وذروا شربها من الماء، فلا تعرضوا للماء يوم شربها.

﴿ فكذّبوه ﴾ يعني صالحاً، ﴿ فعقروها ﴾، يعني الناقة.

﴿ فدمدم عليهم ربّهم ﴾، قال عطاء ومقاتل: فدمّر عليهم ربّهم فأهلكهم. قال المؤرّخ: الدمدمة الهلاك باستئصال. ﴿ بذنبهم ﴾، بتكذيبهم الرسول وعقرهم الناقة، ﴿ فسوّاها ﴾، فسوّى الدمدمة عليهم جميعاً، وعمّهم بها فلم يفلت منهم أحد. وقال الفرّاء: سوى الأمة وأنزل العذاب بصغيرها وكبيرها، يعني سوّى بينهم، ﴿ ولا يخاف عقباها ﴾، قرأ أهل المدينة والشام فلا بالفاء وكذلك في مصاحفهم، وقرأ الباقون بالواو وهكذا في مصاحفهم ﴿ عُقباها ﴾ عاقبتها. قال الحسن: معناه لا يخاف الله من أحد تَبِعَةً في إهلاكهم. وهي رواية ابن عباس، وقال الضحاك والسدي والكلبي: هو راجع إلى العاقر في الكلام تقديم وتأخير تقديره: إذ انبعث أشقاها ولا يخاف عقباها.

سورة والليل

مكية وهي إحدى وعشرون آية وإحدى وسبعون كلمة وثلاثمائة وعشرة أحرف.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ (١) وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ (٢) وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ (٣) إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ (٤) فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ (٥)

قوله عز وجل: ﴿**والّليل إذا يغشى**﴾ أي يغشى النّهار بظلمته فيذهب الله بضوئه. أقسم الله تعالى بالليل لأنه سكن لكافة الخلق يأوى فيه كل حيوان إلى مأواه، ويسكن عن الاضطراب، والحركة، ثم أقسم بالنهار بقوله ﴿**والنهار إذا تجلى**﴾ أي بان وظهر بعد الظلمة لأن فيه حركة الخلق في طلب الرزق ﴿**وما خلق الذكر والأنثى**﴾ أي ومن خلق فعلى هذا يكون أقسم بنفسه تعالى، والمعنى والقادر العظيم الذي قدر على خلق الذكر، والأنثى من ماء واحد إن أريد به جنس الذكر والأنثى، وقيل هما آدم وحواء، وإنما أقسم بهما لأنه تعالى ابتدأ خلق آدم من طين وخلق منه حواء من غير أم وجواب القسم قوله تعالى: ﴿**إن سعيكم لشتى**﴾ أي إن أعمالكم لمختلفة فساع في فكاك نفسه، وساع في عطبها روى أبو مالك الأشعري عن رسول الله ﷺ أنه قال: «كل الناس يغدو فبائع نسه فمعتقها أو موبقها» قوله موبقها أي مهلكها.

قوله تعالى: ﴿**فأما من أعطى**﴾ أي أنفق ماله في سبيل الله عز وجل: ﴿**واتقى**﴾ أي ربه، وفيه إشارة إلى الاحتراز عن كل ما لا ينبغي.

سُوْرَة اللّيْل

مكيّة وهي إحدى وعشرون آية.

﴿ **والليل إذا يغشى** ﴾، أي يغشى النهار بظلمة فيذهب بضوئه.

﴿ **والنهار إذا تجلّى** ﴾، بانَ وظهر من بين الظلمة.

﴿ **وما خلق الذَّكر والأُنثى** ﴾، يعني ومَن خلق، وقيل: هيَ ﴿ **ما** ﴾ المصدرية أي خلق الذَّكر والأنثى. قال مقاتل والكلبي: يعني آدم وحوّاء وفي قراءة ابن مسعود وأبي الدرداء والذَّكر والأُنثى جواب القسم.

قوله: ﴿ **إن سعيكم لشتّى** ﴾، إن أعمالكم لمختلفة فساعٍ في فكاك نفسه وساعٍ في عطبها. روى أبو مالك الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «كل الناس يغدو فبائع نفسَه فمعتقها أو موبقها».

﴿ **فأما مَن أعطى** ﴾، ماله في سبيل الله، ﴿ **واتّقى** ﴾، ربّه.

﴿وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ۝١٠﴾

﴿وصدق بالحسنى﴾ قال ابن عباس صدق بقول لا إله إلا الله وعنه صدق بالخلف به، أي أيقن أن الله سيخلف عليه ما أنفقه في طاعته، وقيل صدق بالجنة، وقيل صدق بموعد الله عز وجل الذي وعده أنه يثيبه **﴿فسنيسره﴾** فسنهيئه في الدنيا **﴿لليسرى﴾** أي للخلة والفعلة اليسرى، وهو العمل بما يرضاه الله.

قوله عز وجل: **﴿وأما من بخل﴾** أي بالنفقة في الخير والطاعة **﴿واستغنى﴾** أي عن ثواب الله تعالى فلم يرغب فيه **﴿وكذب بالحسنى﴾** أي بلا إله إلا الله أو كذب بما وعده الله عز وجل من الجنة والثواب **﴿فسنيسره للعسرى﴾** أي فسنهيئه للشّر بأن نجريه على يديه حتى يعمل بما لا يرضى الله تعالى فيستوجب بذلك النار، وقيل نعسر عليه أن يأتي خيراً وفي الآية دليل لأهل السّنة وصحة قولهم في القدر وأن التّوفيق والخذلان والسّعادة والشّقاوة بيد الله تعالى، ووجوب العمل بما سبق له في الأزل (ق) عن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه قال: «كنا في جنازة في بقيع الغرقد، فأتانا رسول الله ﷺ فقعد وقعدنا حوله ومعه مخصرة فنكس، وجعل ينكت بمخصرته ثم قال ما منكم من أحد إلا، وقد كتب مقعده من النار ومقعده من الجنة» زاد مسلم[1] «وإلا وقد كتبت شقية أو سعيدة فقالوا: يا رسول الله أفلا نتكل على كتابنا وندع العمل فقال اعملوا فكل ميسر لما خلق له أما من كان من أهل السّعادة فيصير لعمل أهل السّعادة وأما من كان من أهل الشّقاوة، فيصير لعمل أهل الشّقاوة ثم قرأ **﴿فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى، وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى﴾** المخصرة بكسر الميم كالسّوط والعصا، ونحو ذلك مما يمسكه الإنسان بيده، والنكت بالتاء المثناة فوق ضرب الأرض بذلك أو غيرها مما يؤثر فيه الضرب، وهذه

﴿ وصدّق بالحسنى ﴾، قال أبو عبد الرحمن السلمي والضحاك: وصدّق بلا إلّه إلّا الله، وهي رواية عطية عن ابن عباس. وقال مجاهد: بالجنة دليله قوله تعالى: **﴿ للذين أحسنوا الحسنى ﴾** [يونس: ٢٦]، يعني الجنة. وقيل: صدّق بالحسنى أي بالخلف، أي أيقن أن الله تعالى سيخلفه. وهي رواية عكرمة عن ابن عباس. وقال قتادة ومقاتل والكلبي: بموعود الله عزّ وجلّ الذي وعده أن يفي به.

﴿ فسنيسّره ﴾، فسنهيّئه في الدنيا، **﴿ لليسرى ﴾**، أي للخلّة اليسرى وهي العمل بما يرضاه الله عزّ وجلّ.

﴿ وأما مَن بخل ﴾، بالنفقة في الخير، **﴿ واستغنى ﴾**، عن ثواب الله فلم يرغب فيه.

﴿ وكذّب بالحسنى * فسنيسّره للعسرى ﴾، سنهيّئه للشرّ بأن نجريه على يديه حتى يعمل بما لا يرضى الله، فيستوجب به النار. قال مقاتل: نعسر عليه أن يأتي خيراً، وروينا عن علي عن النبيّ ﷺ قال: «ما من نفس منفوسة إلّا قد كُتب مكانُها من الجنة أو النار»، فقال رجل: أفلا نتّكل على كتابنا وندع العمل؟ قال: «لا ولكن اعملوا فكلٌّ ميسرٌ لما خُلق له، أما أهل الشقاء فييسّرون لعمل أهل الشقاء، وأما أهل السعادة فسييسّرون لعمل أهل السعادة»، ثم تلا: **﴿ فأما مَن أعطى واتقى ﷺ وصدّق بالحسنى * فسنيسره لليسرى * وأما مَن بخل واستغنى * وكذب بالحسنى * فسنيسره للعسرى ﴾**. قيل: نزلت في أبي بكر الصدّيق اشترى بلالاً من أميّة بن خلف ببردة وعشر أواق، فأعتقه فأنزل الله تعالى: **﴿ والليل إذا يغشى ﴾** إلى قوله: **﴿ إنّ سعيكم لشتى ﴾** يعني سعي أبي بكر وأمية.

وروى علي بن حجر عن إسحاق عن أبي نجيح عن عطاء، قال: كان لرجل من الأنصار نخلة وكان له جار يسقط من

---

(١) (قوله زاد مسلم الخ) حديث مسلم «ما من نفس منفوسة إلا وقد كتب الله مكانها من الجنة والنار وإلا وقد كتبت شقية أو سعيدة» الخ.

الآية نزلت في أبي بكر الصديق، وذلك أنه اشترى بلالاً من أمية بن خلف ببردة وعشرة أواق فأعتقه، فأنزل الله تعالى ﴿والليل إذا يغشى﴾ إلى قوله ﴿إن سعيكم لشتى﴾ يعني سعى أبي بكر وأمية بن خلف، وقيل كان لرجل من الأنصار نخلة وفرعها في دار رجل فقير وله عيال، فكان صاحب النخلة إذا طلع نخلته ليأخذ منها التمر فربما سقطت التمرة، فيأخذها صبيان ذلك الفقير، فينزل الرجل عن نخلته حتى يأخذ التمرة من أيديهم وإن وجدها في فم أحدهم أدخل أصبعه في فيه حتى يخرجها فشكا ذلك الرّجل الفقير إلى النبي ﷺ فلقي النّبي ﷺ صاحب النّخلة فقال له: تعطيني نخلتك التي فرعها في دار فلان، ولك بها نخلة في الجن فقال الرجل: إن لي نخلاً، وما فيه أعجب إليّ منها ثم ذهب، فسمع بذلك أبو الدحداح رجل من الأنصار، فقال لصاحب النخلة هل لك أن تبيعها بحش يعني حائطاً له فيه نخل، فقال هي لك فأتى الدّحداح للنبي ﷺ فقال يا رسول الله ﷺ تشتريها مني بنخلة في الجنة، فقال نعم فقال هي لك فدعا النبي ﷺ ذلك الرجل الفقير جار الأنصاري صاحب النخلة قال خذها لك ولعيالك فأنزل الله هذه الآية، وهذا القول فيه ضعف لأن هذه السورة مكية، وهذه القصة كانت بالمدينة فإن كانت القصة صحيحة تكون هذه السورة قد نزلت بمكة، وظهر حكمها بالمدينة، والصحيح أنها نزلت في أبي بكر الصديق وأمية بن خلف لأن سياق الآيات يقتضي ذلك.

﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ۝١١ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ۝١٢ وَإِنَّ لَنَا لَلْءَاخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ ۝١٣ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ۝١٤ لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ۝١٥ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۝١٦ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ۝١٧ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ۝١٨﴾

قوله عز وجل: ﴿وما يغني عنه ماله﴾ أي الذي بخل به ﴿إذا تردى﴾ أي إذا مات، وقيل هوى في جهنم ﴿إن علينا للهدى﴾ أي إن علينا أن نبين طريق الهدى من طريق الضّلالة وذلك أنه لما عرفهم ما للمحسن من اليسرى، وما للمسيء من العسرى أخبرهم أن بيده الإرشاد والهداية وعليه تبيين طريقها، وقيل معناه إن علينا للهدى والإضّلال فاكتفى بذكر أحدهما، والمعنى أرشد أوليائي إلى العمل بطاعتي وأصرف أعدائي عن العمل بطاعتي، وقيل معناه من سلك سبيل الهدى فعلى الله سبيله. ﴿وإن لنا للآخرة والأولى﴾ أي لنا ما في الدّنيا والآخرة فمن طلبهما من غير

بلحها في داره، وكان صبيانه يتناولون منه فشكا ذلك إلى النبي ﷺ فقال له النبي ﷺ: «بعنيها بنخلة في الجنة»، فأبى، فخرج فلقيه أبو الدحداح، فقال له: هل لك أن تبيعها بحش، يعني حائطاً له، فقال: هي لك فأتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله أتشتريها منّي بنخلة في الجنة، قال: «نعم» قال: هي لك، فدعا النبي ﷺ جار الأنصاري فقال: «خذها». فأنزل الله تعالى: ﴿ والليل إذا يغشى ﴾ إلى قوله: ﴿ إنّ سعيكم لشتى ﴾، أبو الدحداح والأنصاري صاحب النخلة، ﴿ فأما مَن أعطى واتّقى ﴾ أبو الدحداح، ﴿ وصدّق بالحسنى * فنيسّره لليسرى ﴾ يعني الجنة، ﴿ وأما مَن بخل واستغنى ﴾ يعني الأنصاري، ﴿ وكذّب بالحسنى ﴾ يعني الثواب، ﴿ فسنيسّره للعسرى ﴾، يعني النار.

﴿ وما يُغني عنه ماله ﴾، الذي بخل به، ﴿ إذا تردّى ﴾، قال مجاهد: إذا مات. وقال قتادة وأبو صالح: هوى في جهنّم.

﴿ إنّ علينا للهدى ﴾، يعني البيان. قال الزّجاج: علينا أن نبيّن طريق الهدى من طريق الضلال، وهو قول قتادة، قال: على الله بيان حلاله وحرامه. قال الفرّاء: يعني مَن سلك الهدى فعلى الله سبيله، كقوله تعالى: ﴿ وعلى الله قصد السبيل ﴾ [النحل: ٩] يقول: مَن أراد الله فهو على السبيل القاصد. وقيل معناه: إن علينا للهدى والإضلال كقوله: ﴿ بيدك الخير ﴾ [آل عمران: ٢٦].

مالكهما فقد أخطأ الطريق ﴿ ﴿فأنذرتكم﴾ أي يا أهل مكة ﴿ناراً تلظى﴾ أي تتوقد وتتوهج ﴿لا يصلاها إلا الأشقى﴾ يعني الشّقي ﴿الذي كذب﴾ يعني الرّسل ﴿وتولى﴾ أي عن الإيمان ﴿وسيجنبها الأتقى﴾ يعني التّقي ﴿الذي يؤتي﴾ أي يعطي ﴿ماله يتزكى﴾ أي يطلب عند الله أن يكون زاكياً لا يطلب بما ينفقه رياء ولا سمعة وهو أبو بكر الصديق في قول جميع المفسرين قال ابن الزبير: كان يبتاع الضعفاء فيعتقهم، فقال له أبوه أي بني لو كنت تبتاع من يمنع ظهرك، قال منع ظهري أريد فأنزل الله ﴿وسيجنبها الأتقى﴾ إلى آخر السّورة، وذكر محمد ابن إسحاق قال: كان بلال لبعض بني جمح وهو بلال بن رباح، واسم أمه حمامة، وكان صادق الإسلام طاهر القلب، وكان أمية بن خلف يخرجه إذا حميت الشّمس فيطرحه على ظهره ببطحاء مكة ثم يأمر بالصّخرة العظيمة فتوضع على صدره، ثم يقول له لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد فيقول وهو في ذلك أحد أحد قال محمد بن إسحاق عن هشام بن عروة عن أبيه قال: مر به أبو بكر يوماً وهم يصنعون به ذلك، وكانت دار أبي بكر في بني جمح فقال لأمية: ألا تتقي الله في هذا المسكين قال: أنت أفسدته فأنقذه مما ترى فقال أبو بكر أفعل عندي غلام أسود أجلد منه، وأقوى، وهو على دينك أعطيكه قال قد فعلت فأعطاه أبو بكر غلامه وأخذ بلالاً فأعتقه، وكان قد أعتق ست رقاب على الإسلام قبل أن يهاجر بلال سابعهم، وهم عامر بن فهيرة شهد بدراً وأحداً، وقتل يوم بئر معونة شهيداً، وأم عميس وزهرة فأصيب بصرها حين أعتقها أبو بكر فقالت قريش: ما أذهب بصرها إلا اللات والعزى فقالت: كذبوا ورب البيت ما تضر اللاّت، والعزى، ولا تنفعان فرد الله تعالى: عليها بصرها وأعتق النّهدية وابنتها، وكانتا لامرأة من بني عبد الدار، فرآهما أبو بكر وقد بعثتهما سيدتهما يحتطبان لها وهي تقول والله لا أعتقهما أبداً فقال أبو بكر كلا يا أم فلان فقالت كلا أنت أفسدتهما فأعتقهما، قال فبكم قالت بكذا وكذا قال قد أخذتهما وهما حرتان ومر بجارية من بني المؤمل وهي تعذب فابتاعها وأعتقها فقال عمار بن ياسر: يذكر بلالاً وأصحابه وما كانوا فيه من البلاء وإعتاق أبي بكر إيّاهم وكان اسم أبي بكر عتيقاً فقال في ذلك:

جـزى الله خيـراً عـن بـلال وصحبـه ... عتيقـاً وأخـزى فـاكهـاً وأبـا جهـل
عشيـة همـا فـي بـلال بسـوءة ... ولـم يحـذرا أمـا يحـذر المـرء ذو العقـل
بتـوحيـد رب الأنـام وقـولـه ... شهـدت بـأن الله ربـي علـى مهـل
فـإن تقتلـونـي فـاقتلـونـي فلـم أكـن ... لأشـرك بـالـرحمـن مـن خيفـة القتـل

﴿ وإن لنا للآخرة والأولى ﴾، فمَن طلبهما من غير مالكهما فقد أخطأ الطريق.

﴿ فأنذرتكم ﴾، يا أهل مكة، ﴿ ناراً تلظى ﴾، أي تتلظى يعني تتوقد وتتوهج.

﴿ لا يصلاها إلاّ الأشقى الذي كذب ﴾ الرسول، ﴿ وتولى ﴾، عن الإيمان.

﴿ وسيجنبها الأتقى ﴾، يريد بالأشقى الشقي، وبالأتقى التقي.

﴿ الذي يُؤتي ماله ﴾، يعطي ماله، ﴿ يتزكى ﴾، يطلب أن يكون عند الله زاكياً لا رياء ولا سمعة، يعني أبا بكر الصديق، في قول الجميع، قال ابن الزبير: كان أبو بكر يبتاع الضَّعَفَة فيعتقهم، فقال أبوه: أيْ بنيَّ لو كنت تبتاع مَن يمنع ظهرك؟ قال: منعَ ظهري أريدُ، فنزلَ: ﴿ وسيجنبها الأتقى ﴾ إلى آخر السورة. وذكل محمد بن إسحاق قال: كان بلال لبعض بني جمع وهو بلال بن رباح واسم أُمه حمامة، وكان صادق الإسلام طاهر القلب، وكان أُمية بن خلف يُخرِجه إذا حميت الظهيرة فيطرحه على ظهره ببطحاء مكة، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره، ثم يقول له لا تزال هكـذا حتى تموت، أو تكفـر بمحمد، فيقـول وهو في ذلـك البلاء: أحدٌ أحد، وقـال

فيـا رب إبـراهيـم والعبـد يـونـس وموسى وعيسى نجني ثـم لا تملـي
لمـن ظـل يهـوى الغـي مـن آل غـالـب علـى غيـر حـق كـان منـه ولا عـدل

قال سعيد بن المسيب: بلغني أن أمية بن خلف قال لأبي بكر في بلال حين قال له أتبيعه قال نعم أبيعه بنسطاس عبد لأبي بكر وكان نسطاس صاحب عشرة آلاف دينار وغلمان وجوار ومواش وكان مشركاً حمله أبو بكر على الإسلام على أن يكون ماله له فأبى، فأبغضه أبو بكر، فلما قال أمية أبيعه بغلامك نسطاس اغتنمه أبو بكر، وباعه به فقال المشركون ما فعل ذلك أبو بكر ببلال إلا ليد كانت لبلال عنده. فأنزل الله عز وجل:

﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ۝١٩ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٢٠ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ۝٢١﴾

﴿وما لأحد عنده﴾ أي عند أبي بكر **﴿من نعمة تجزى﴾** أي من يد يكافئه عليها **﴿إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى﴾** أي لم يفعل ذلك مجازاة لأحد ولا ليد كانت له عنده لكن فعله ابتغاء وجه ربه الأعلى وطلب مرضاته **﴿ولسوف يرضى﴾** أي بما يعطيه الله عز وجل في الآخرة من الجنة والخير والكرامة جزاء على ما فعل، والله أعلم.

محمد بن إسحاق عن هشام بن عروة عن أبيه قال: مرّ به أبو بكر يوماً وهم يصنعون به ذلك، وكانت دار أبي بكر في بني جمح، فقال لأمية: ألا تتّقي الله تعالى في هذا المسكين؟ قال: أنت أفسدته فأنقذه مما ترى، قال أبو بكر: أفعل! عندي غلام أسود أجلد منه وأقوى، على دينك، أعطيكه؟ قال: قد فعلت فأعطاه أبو بكر غلامه وأخذه فأعتقه، ثم أعتق معه على الإسلام قبل أن يهاجر ستَّ رِقاب، بلال سابعهم، عامر بن فهيرة شهد بدراً وأُحداً، وقتل يوم بئر معونة شهيداً، وأم عميس، وزهرة فأُصيب بصرها وأعتقها، فقالت قريش: ما أذهب بصرها إلّا اللات والعُزّى، فقالت: كذبوا وبيت الله ما تضرّ اللّات والعُزّى وما تنفعان، فردّ الله إليها بصرها، وأعتق النهدية وابنتها، وكانتا لامرأة من بني عبد الدار فمرّ بهما وقد بعثتهما سيدتهما تطحنان لها وهي تقول والله لا أعتقكما أبداً، فقال أبو بكر: كلا يا أم فلان، فقالت: كلا أنت أفسدتهما فأعتقهما، قال: فبِكَم؟ قالت: بكذا وكذا، قال: قد أخذتهما وهما حرّتان، ومرّ بجارية بني المؤمل وهي تُعَذّب فابتاعها فأعتقها. وقال سعيد بن المسيب: بلغني أن أُمية بن خلف قال لأبي بكر في بلال حين قال: أتبيعه؟ قال: نعم أبيعه بنسطاس، وكان نسطاس عبداً لأبي بكر صاحب عشرة آلاف دينار، وغلمان وجَوارٍ ومواشٍ، وكان مشركاً حمله أبو بكر على الإسلام على أن يكون ماله، فأبى فأبغضه أبو بكر، فلما قال له أُميّة أبيعه بغلامك نسطاس اغتنمه أبو بكر وباعه منه، فقال المشركون: ما فعل ذلك أبو بكر إلّا ليد كانت لبلال عنده.

فأنزل الله: ﴿ **وما لأحد عنده من نعمة تجزى** ﴾، يد يكافئه عليها.

﴿ **إلّا** ﴾، لكن ﴿ **ابتغاء وجه ربّه الأعلى** ﴾، يعني لا يفعل ذلك مجازاة لأحد بيد له عنده، ولكنه يفعله ابتغاء وجه ربّه الأعلى وطلب رضاه.

﴿ **ولسوف يرضى** ﴾، بما يعطيه الله عزّ وجلّ في الآخرة من الجنة والكرامة جزاء على ما فعل.

سورة والضّحى

مكية وهي إحدى عشرة آية وأربعون كلمة ومائة واثنان وسبعون حرفاً.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾

قوله عز وجل: ﴿والضّحى﴾ اختلفوا في سبب نزول هذه السّورة على ثلاثة أقوال: القول الأول (ق) «عن جندب بن سفيان البجلي قال اشتكى رسول الله ﷺ فلم يقم ليلتين أو ثلاثاً فجاءت امرأة فقالت: يا محمد إني لأرجو أن يكون شيطانك قد تركك لم أره قربك ليلتين أو ثلاثاً فأنزل الله عز جل: ﴿والضّحى واللّيل إذا سجى ما ودعك ربك وما قلى﴾» وأخرجه التّرمذي عن جندب قال كنت مع النبي ﷺ في غار فدميت أصبعه فقال النبي ﷺ:

سُورَة الضّحَىٰ

مكيّة وهي إحدى عشرة آية.

أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا أحمد بن يونس ثنا زهير ثنا الأسود بن قيس قال: سمعت جندب بن سفيان قال اشتكى رسول الله ﷺ فلم يقم ليلتين أو ثلاثاً فجاءت امرأة فقالت: يا محمد إني لأرجو أن يكون شيطانك قد تركك لم أره قربك منذ ليلتين أو ثلاث، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿ والضحى * والليل إذا سجى * ما ودّعك ربّك وما قلى ﴾، وقيل: إن المرأة التي قالت ذلك أُم جميل امرأة أبي لهب. وقال المفسّرون سألت اليهود رسول الله ﷺ عن ذي القرنين وأصحاب الكهف وعن الروح فقال سأُخبركم غداً، ولم يقل: إن شاء الله، فاحتبس عنه الوحي. وقال زيد بن أسلم: كان سبب احتباس جبريل عليه السلام عنه كان جرواً في بيته، فلما نزل عاتبه رسول الله ﷺ على إبطائه، فقال: إنّا لا ندخل بيتاً فيه كلب ولا صورة. واختلفوا في مدة احتباس الوحي عنه، فقال ابن جريج: اثنا عشر يوماً. وقال ابن عباس: خمسة عشر يوماً. وقال مقاتل: أربعون يوماً. قال المفسّرون فقال المشركون: إن محمداً ودّعه ربه وقلاه، فأنزل الله تعالى هذه السورة، فقال النبي ﷺ: «يا جبريل ما جئت حتى اشتقت إليك»، فقال جبريل: «إني كنت أشدّ شوقاً إليكم، ولكني عبدٌ مأمور»، فأنزل: ﴿ وما نتنزّل إلاّ بأمر ربّك ﴾ [مريم: ٦٤].

قوله عزّ وجلّ: ﴿ والضحى ﴾، أقسم بالضحى وأراد به النهار كله بدليل أنه قابله بالليل إذا سجى، نظيره قوله: ﴿ أن يأتيهم بَأْسُنَا ضحىً ﴾ [الأعراف: ٩٨]، أي نهاراً. وقال قتادة ومقاتل: يعني وقت الضحى، وهي الساعة التي فيها ارتفاع الشمس، واعتدال النهار في الحرّ والبرد والصيف والشتاء.

﴿ والليل إذا سجى ﴾، قال الحسن: أقبل بظلامه، وهي رواية العوفي عن ابن عباس، وقال الوالبي عنه: إذا

هــــل أنــــت إلا أصبـــع دميـــت وفـــي سبيــــل الله مـــا لقيـــت

قال: فأبطأ عليه جبريل فقال المشركون قد ودع محمداً ربه فأنزل الله عز وجل:

﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ۝٥﴾

﴿ما ودعك ربك وما قلى﴾ وقيل إن المرأة المذكورة في الحديث المتفق عليه هي أم جميل امرأة أبي لهب.

القول الثاني: قال المفسرون: سألت اليهود رسول الله ﷺ عن الرّوح، وعن ذي القرنين، وأصحاب الكهف، فقال سأخبركم غداً، ولم يقل إن شاء الله فاحتبس الوحي عليه.

القول الثالث: قال زيد بن أسلم: كان سبب احتباس الوحي، وجبريل عنه أن جروا كان في بيته، فلما نزل عليه عاتبه رسول الله ﷺ على إبطائه فقال إنا لا ندخل بيتاً فيه كلب ولا صورة.

واختلفوا في مدة احتباس الوحي عنه، فقيل اثنا عشر يوماً وقال ابن عباس: خمسة عشر يوماً، وقيل أربعون يوماً فلما نزل جبريل عليه الصلاة والسلام قال النبي ﷺ يا جبريل ما جئت حتى اشتقت إليك فقال جبريل: إني كنت إليك أشد شوقاً، ولكني عبد مأمور. ونزل ﴿وما نتنزل إلا بأمر ربك﴾ وأنزل الله هذه السّورة قوله عز وجل: ﴿والضحى﴾ قيل أراد به النهار كله بدليل أنه قابله باللّيل كله في قوله، ﴿واللّيل إذا سجى﴾، وقيل وقت الضحى وهي السّاعة التي فيها ارتفاع الشّمس واعتدال النهار في الحر والبرد في الصيف والشتاء. ﴿والليل إذا سجى﴾ قال ابن عباس أقبل بظلامه وعنه إذا ذهب وقيل معناه غطى كل شيء بظلاّمه، وقيل معناه سكن فاستقر ظلامه فلا يزاد بعد ذلك، وهذا قسم أقسم الله تعالى بالضحى والليل إذا سجى وجواب القسم قوله تعالى: ﴿ما ودعك ربك وما قلى﴾ أي ما تركك ربك منذ اختارك ولا أبغضك منذ أحبك، وإنما قال قلى ولم يقل قلاك لموافقة رؤوس الآي، وقيل معناه وما قلى أحداً من أصحابك ومن هو على دينك إلى يوم القيامة. ﴿وللآخرة خير لك من الأولى﴾ أي الذي أعطاك ربك في الآخرة خير لك وأعظم من الذي أعطاك في الدّنيا، وروى البغوي بسنده عن ابن مسعود قال قال رسول الله ﷺ: «إنا أهل البيت اختار الله لنا الآخرة على الدّنيا» ﴿ولسوف يعطيك ربك فترضى﴾ قال ابن عباس هي الشفاعة في أمته حتى يرضى (م) عن عبد الله بن عمرو بن العاص «أن النبي ﷺ رفع يديه وقال: اللّهم أمتي أمتي وبكى فقال الله عز وجل يا جبريل اذهب إلى محمد، واسأله ما يبكيك، وهو أعلم فأتى جبريل، وسأله فأخبره رسول الله ﷺ بما قال وهو أعلم، فقال الله يا جبريل إذهب إلى محمد وقل له إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوءك» (ق) عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ قال: «لكل نبي دعوة مستجابة فتعجل كل نبي دعوته وإني اختبأت دعوتي شفاعتي لأمتي يوم القيامة فهي

ذهب، قال عطاء والضحاك: غطّى كل شيء بالظلمة. وقال مجاهد: استوى. وقال قتادة وابن زيد: سكن واستقر ظلامه فلا يزداد بعد ذلك. يقال: ليل ساجٍ وبحر ساجٍ إذا كان ساكناً.

قوله تعالى: ﴿ ما ودّعك ربّك وما قلى ﴾، هذا جواب القسم: أي ما تركَكَ منذ اختارَكَ ولا أبغضكَ منذ أحبّك.

﴿ وللآخرة خيرٌ لك من الأولى ﴾، حدّثنا المطهر بن علي الفارسي أنا محمد بن إبراهيم الصالحاني أنا عبد الله بن محمد بن جعفر أبو الشيخ الحافظ أنا ابن أبي عاصم أنا أبو بكر بن أبي شيبة أنا معاوية بن هشام عن علي بن صالح عن يزيد بن زياد عن إبراهيم عن علقمة عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّا أهل بيت اختار الله لنا الآخرة على الدنيا».

نائلة إن شاء الله تعالى من مات من أمتي لا يشرك بالله شيئاً» عن عوف بن مالك أن رسول الله ﷺ قال «أتاني آت من عند ربي فخيرني بين أن يدخل نصف أمتي الجنة وبين الشّفاعة فاخترت الشّفاعة، فهي نائلة إن شاء الله تعالى من مات لا يشرك بالله شيئاً» أخرجه التّرمذي قال حرب بن شريح سمعت جعفر بن محمد بن علي يقول إنكم يا معشر أهل العراق تقولون أرجى آية في القرآن ﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله﴾ وإنا أهل البيت نقول أرجى آية في كتاب الله ﴿ولسوف يعطيك ربك فترضى﴾ وقيل في معنى الآية ولسوف يعطيك ربك من الثواب فترضى، وقيل من النّصر والتّمكين وكثرة المؤمنين فترضى وحمل الآية على ظاهرها من خيري الدّنيا والآخرة معاً أولى، وذلك أن الله تعالى أعطاه في الدّنيا النصر الظفر على الأعداء وكثرة الأتباع، والفتوح في زمنه، وبعده إلى يوم القيامة وأعلى دينه وإن أمته خير الأمم، وأعطاه في الآخرة الشّفاعة العامة، والخاصة، والمقام المحمود وغير ذلك، مما أعطاه في الدّنيا والآخرة ثم أخبر عن حاله صغيراً وكبيراً قبل الوحي وذكر نعمه عليه وإحسانه إليه. فقال عز وجل:

﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ۝٨﴾

﴿ألم يجدك يتيماً﴾ أي صغيراً ﴿فآوى﴾ أي ألم يعلمك الله يتيماً من الوجود الذي هو بمعنى العلم، والمعنى ألم يجدك يتيماً صغيراً حين مات أبوك، ولم يخلف لك مالاً، ولا مأوى فجعل لك مأوى تأوي إليه وضمك إلى عمك أبي طالب حتى أحسن تربيتك وكفاك المؤنة.

وذلك أن عبد الله مات ورسول الله ﷺ حمل فكفله جده عبد المطلب، فلما مات عبد المطلب، كفله عمه أبو طالب إلى أن قوي، واشتد وتزوج خديجة، وقيل هو من قولهم درة يتيمة، والمعنى ألم يجدك واحداً في قريش عديم النّظير فآواك إليه وأيدك وشرفك بنبوته واصطفاك برسالته. ﴿ووجدك ضالاً﴾ أي عما أنت عليه اليوم ﴿فهدى﴾ أي فهداك إلى توحيده ونبوته، وقيل وجدك ضالاً عن معالم النّبوة وأحكام الشّريعة، فهداك إليها وقال ابن عباس: إن رسول الله ﷺ ضل في شعاب مكة وهو صبي صغير، فرآه أبو جهل منصرفاً من أغنامه، فرده إلى جده عبد المطلب، وقال سعيد بن المسيب: خرج رسول الله ﷺ مع عمه أبي طالب في قافلة ميسرة غلام خديجة فبينما هو راكب ذات ليلة مظلمة إذ جاء إبليس فأخذ بزمام ناقته، فعدل به عن الطريق، فجاء جبريل عليه السّلام فنفخ إبليس نفخة وقع منها إلى

﴿ ولسوف يعطيك ربك فترضى ﴾، قال عطاء عن ابن عباس: هو الشفاعة في أمته حتى يرضى، وهو قول علي والحسن. وروينا عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن النبي ﷺ قال: «اللّهمَّ أُمتي أُمتي وبكى، فقال الله: يا جبريل اذهبْ إلى محمد فقل له إنّا سنُرضيك في أُمتك، ولا نسوءك فيهم». وقال حرب بن شريح سمعت أبا جعفر محمد بن علي يقول: إنكم معشر أهل العراق تقولون أرجى آية في القرآن: ﴿ قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ﴾ [الزمر: ٥٣]، وإنّا أهل البيت نقول أرجى آية في كتاب الله ﴿ ولسوف يعطيك ربّك فترضى ﴾، قيل: ﴿ ولسوف يعطيك ربّك ﴾ من الثواب. وقيل: من النصر والتمكين وكثرة المؤمنين، ﴿ فترضى ﴾. ثم أخبره الله عزّ وجلّ عن حالته التي كان عليها قبل الوحي، وذكّره نِعَمه فقال جلّ ذكره:

﴿ ألم يجدك يتيماً فآوى ﴾، أخبرنا أبو سعيد أحمد بن إبراهيم الشريحي أنا أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي فقال: أنبأني عبد الله بن حامد الأصفهاني أنا محمد بن عبد الله النيسابوري ثنا محمد بن عيسى أنا أبو عمرو الحوضي وأبو الربيع الزهراني عن حمّاد بن زيد عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «سألت ربّي مسألةً ووددت إني لم أكن سألته، قلت: يا ربّ إنك آتيت سليمان بن داود مُلْكاً عظيماً، وآتيت فلاناً كذا، وآتيت فلاناً كذا»، قال: يا محمد ألم أجدك يتيماً فآويتُك؟

الحبشة، ورد رسول الله ﷺ إلى القافلة فمنّ الله عليه بذلك، وقيل وجدك ضالاً نفسك لا تدري من أنت فعرفك نفسك وحالك، وقيل ووجدك بين أهل الضّلال فعصمك من ذلك وهداك إلى الإيمان وإلى إرشادهم، وقيل الضلال هنا بمعنى الحيرة وذلك لأنه كان ﷺ يخلو في غار حراء في طلب ما يتوجه به إلى ربه حتى هداه الله لدينه، وقال الجنيد: ووجدك متحيراً في بيان ما أنزل الله إليك، فهداك لبيانه فهذا ما قيل في هذه الآية ولا يلتفت إلى قول من قال إنه ﷺ كان قبل النّبوة على ملة قومه، فهداه الله إلى الإسلام لأن نبينا ﷺ، وكذلك الأنبياء قبله منذ ولدوا نشؤوا على التّوحيد، والإيمان قبل النّبوة وبعدها، وأنهم معصومون قبل النبوة من الجهل بصفات الله تعالى وتوحيده ويدل على ذلك أن قريشاً لما عابوا النبي ﷺ ورموه بكل عيب سوى الشّرك وأمر الجاهلية فإنهم لم يجدوا لهم عليه سبيلاً إذ لو كان فيه لما سكتوا عنه ولنقل ذلك فبرأه الله تعالى من جميع ما قالوه فيه وعيروه به. ويؤكد هذا ما روي في قصة بحير الرّاهب حين استحلف النبي ﷺ باللاّت والعزى، وذلك حين سافر مع عمه أبي طالب إلى الشام فرأى بحيراً علامة النّبوة فيه وهو صبي فاختبره بذلك فقال النبي ﷺ: لا تسألني بهما فوالله ما أبغضت شيئاً بغضهما، ويؤكد هذا شرح صدره ﷺ في حال الصغر واستخراج العلقة منه وقول جبريل هذا حظ الشيطان منك وملؤه حكمة وإيماناً وقوله تعالى: **﴿ما ضل صاحبكم وما غوى﴾** وقال الزّمخشري: ومن قال كان على أمر قومه أربعين سنة فإن أراد أنه على خلوهم من العلوم والسمعية، فنعم وإن أراد أنه كان على دين قومه، فمعاذ الله والأنبياء يجب أن يكونوا معصومين قبل النّبوة وبعدها من الكبائر، والصّغائر الشّائنة، فما بال الكفر والجهل بالصّانع **﴿ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء﴾** والله أعلم.

قوله عز وجل: **﴿ووجدك عائلاً فأغنى﴾** يعني فقيراً فأغناك بمال خديجة ثم بالغنائم، وقيل أرضاك بما أعطاك من الرّزق، وهذه حقيقة الغني (ق) عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ «ليس الغنى عن كثرة العرض، ولكن الغنى غنى النفس» العرض بفتح العين والراء المال (م) عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال «قد أفلح من أسلم ورزق كفافاً وقنعه الله بما أتاه» وروى البغوي بإسناد الثّعلبي عن ابن عباس قال، قال رسول الله ﷺ: «سألت ربي عز وجل مسألة وددت أني لم أكن سألته قلت: يا رب إنك أتيت سليمان بن داود مُلكاً عظيماً، وآتيت فلاناً كذا وفلاناً كذا قال يا محمد ألم أجدك يتيماً فآويتك؟ قلت بلى يا رب» قال:

قلت: «بلى أيْ ربِّ»، قال: ألم أجدك ضالاً فهديتُك؟ قلت: «بلى أيْ ربِّ»، قال: ألم أجدك عائلاً فأغنيتُك؟ قلت: «بلى أيْ ربِّ»، وزاد غيره عن حمّاد قال: ألم نشرح لك صدرك ووضعتُ عنك وزرك؟ قلت: «بلى أيْ ربِّ»، ومعنى الآية: ألم يجدك يتيماً صغيراً فقيراً حين مات أبواك ولم يخلفا لك مالاً ولا مأوًى، فجعل لك مأوى تأوي إليه وضمّك إلى عمّك أبي طالب حتى أحسن تربيتك وكفاك المؤونة.

﴿ ووجدك ضالاً فهدى ﴾، يعني ضالاً عمّا أنت عليه فهداك للتوحيد والنبوّة: قال الحسن والضحاك وابن كيسان: **﴿ ووجدك ضالاً ﴾** عن معالم النبوّة وأحكام الشريعة غافلاً عنها، فهداك إليها، كما قال: ﴿ وإنْ كنتَ من قبله لمن الغافلين ﴾ [يوسف: ٣] وقال: ﴿ ما كنتَ تدري ما الكتاب ولا الإيمان ﴾ [الشورى: ٥٢]، وقيل: ضالاً في شِعاب مكة فهداك إلى جدّك عبد المطّلب. روى أبو الضحى عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ ضلّ في شِعاب مكة وهو صبي صغير، فرآه أبو جهل منصرفاً من أغنامه فردّه إلى عبد المطّلب: وقال سعيد بن المسيب: خرج رسول الله ﷺ مع عمّه أبي طالب في قافلة مسيرة غلام خديجة فبينما هو راكب ذات ليلة ظلماء ناقة جاء إبليس فأخذ بزمام الناقة فعدل به عن الطريق، فجاء جبريل فنفخ إبليس نفخة وقع منها إلى أرض الحبشة، وردّه إلى القافلة فمنّ الله عليه بذلك. وقيل: وجدك ضالاً نفسك لا تدري مَن أنت، فعرّفك نفسك وحالك.

﴿ ووجدك عائلاً فأغنى ﴾، أي فقيراً فأغناك بمال خديجة ثم بالغنائم، وقال مقاتل: فرضّاك بما أعطاك من

ألم أجدك ضالاً فهديتك؟ قلت بلى يا رب قال ألم أجدك عائلاً فأغنيتك؟ قلت بلى يا رب زاد في رواية «ألم أشرح لك صدرك ووضعت عنك وزرك؟ قلت بلى يا رب».

فإن قلت كيف يحسن بالجواد الكريم أن يمن بإنعامه على عبده، والمن مذموم في صفة المخلوق، فكيف يحسن بالخالق تبارك وتعالى.

قلت إنما حسن ذلك لأنه سبحانه وتعالى: قصد بذلك أن يقوي قلبه، ويعده بدوام نعمه عليه فظهر الفرق بين امتنان الله تعالى الممدوح وبين امتنان المخلوق المذموم لأن امتنان الله تعالى زيادة إنعامه، كأنه قال ما لك تقطع رجاءك عني ألست الذي ربيتك وآويتك وأنت يتيم صغير أتظنني تاركك ومضيعك كبيراً. بل لا بد وأن أتم نعمتي عليك فقد حصل الفرق بين امتنان الخالق، وامتنان المخلوق، ثم أوصاه باليتامى، والمساكين، والفقراء فقال عز وجل:

فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾

﴿**فأما اليتيم فلا تقهر**﴾ أي لا تحقر اليتيم فقد كنت يتيماً، وقيل لا تقهره على ماله فتذهب به لضعفه، وكذا كانت العرب في الجاهلية تفعل في أمر اليتامى يأخذون أموالهم، ويظلمونهم حقوقهم روى البغوي بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «خير بيت في المسلمين بيت فيه يتيم يحسن إليه وشر بيت في المسلمين بيت فيه يتيم يساء إليه ثم قال: أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا ويشير بأصبعيه» (خ) عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله

الرزق. واختاره الفرّاء. وقال: لم يكن غنيّاً عن كثرة المال ولكن الله رضّاه بما آتاه وذلك حقيقة الغنى، أخبرنا حسان بن سعيد المنيعي أنبأنا أبو طاهر محمد بن محمد بن محمش الزيادي أنا أبو بكر محمد بن الحسين القطّان ثنا أحمد بن يوسف السلمي ثنا عبد الرزاق أنا معمر عن همّام بن منبّه أنه قال أنا أبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس الغنى عن كثرة العَرْضِ، ولكّن الغنى غنى النفس»، أنا عبد الواحد المليحي أنا أبو عبد الله محمد بن الحسين الزعفراني أنا أحمد بن سعيد أنا أبو يحيىٰ محمد بن عبد الله ثنا أبي حدّثني شرحبيل بن شريك عن أبي عبد الرحمن الحبلي عن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «قد أفلح مَن أسلم ورُزق كفافاً وقنّعه الله بما آتاه»، ثم أوصاه باليتامى والفقراء.

فقال: ﴿ **فأما اليتيم فلا تقهر** ﴾، قال مجاهد: لا تحتقر اليتيم فقد كنت يتيماً. وقال الفرّاء والزجّاج: لا تقهره على ماله فتذهب بحقه لضعفه، وكذا كانت العرب تفعل في أمر اليتامى، تأخذ أموالهم وتظلمهم حقوقهم. أخبرنا أبو بكر محمد عبد الله بن أبي توبة أنا أبو طاهر محمد بن أحمد بن الحارث أنا أبو الحسن محمد بن يعقوب الكسائي أنا عبد الله بن محمود أنا أبو إسحاق بن إبراهيم بن الخلال ثنا عبد الله بن المبارك عن سعيد بن أبي أيوب عن يحيىٰ بن سليمان عن يزيد بن أبي عتاب عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «خَيْرُ بيتٍ في المسلمين بيتٌ فيه يتيم يُحسَن إليه، وشرّ بيت في المسلمين بيتٌ فيه يتيم يُساء إليه»، ثم قال بأصبعه: «أنا وكافل اليتيم في الجنّةهكذا وهو يشير بأصبعه السبّابة والوسطى».

﴿ **وأما السائل فل تنهر** ﴾، قال المفسّرون: يريد السائل على الباب، يقول: لا تنهره لا تزجره إذا سألك، فقد كنت فقيراً فإما أن تطعمه وإما أن تردّه ردّاً ليّناً، يقال: نهره وانتهره إذا استقبله بكلام يزجره. قال قتادة: ردّ السائل برحمة ولين قال إبراهيم بن أدهم نِعمَ القوم السؤال يحملون زادنا إلى الآخرة. وقال إبراهيم النخعي السائل يريدنا إلى الآخرة يجيء إلى باب أحدكم فيقول: هلْ توجّهون إلى أهليكم بشيء؟ ورُوِيَ عن الحسن في قوله: ﴿ **أما السائل فلا تنهر** ﴾، قال: طالب العلم.

ﷺ «أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا وأشار بالسبابة، والوسطى، وفرج بينهما» ﴿وأما السائل فلا تنهر﴾ يعني السائل على الباب يقول لا تزجره إذا سألك فقد كنت فقيراً فإما أن تطعمه وإما أن ترده رداً ليناً برفق ولا تكهر بوجهك في وجهه وقال إبراهيم بن أدهم: نعم القوم السؤال يحملون زادنا إلى الآخرة وقال إبراهيم النّخعي السّائل: يريدنا إلى الآخرة يجيء إلى باب أحدكم فيقول هل توجهون إلى أهليكم بشيء وقيل السائل هو طالب العلم فيجب إكرامه وإسعافه بمطلوبه ولا يعبس في وجهه ولا ينهر ولا يلقى بمكروه ﴿وأما بنعمة ربك فحدث﴾ قيل أراد بالنّعمة النّبوة أي بلغ ما أرسلت به وحدث بالنبوة التي أتاك الله، وقيل النعمة هي القرآن أمره أن يقرأه ويقرئه غيره، وقيل أشكره لما ذكره نعمه عليه في هذه السّورة من جبر اليتيم والهدى بعد الضّلاله والإغناء بعد العيلة والفقر أمره أن يشكره على إنعامه عليه، والتحدث بنعمة الله تعالى شكرها.

عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال: «من أعطى عطاء فليجزيه إن وجد فإن لم يجد فليثن عليه فإن من أثنى عليه فقد شكره، ومن كتمه فقد كفره ومن تحلى بما لم يعط كان كلابس ثوبي زور» أخرجه التّرمذي وله عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: «من لا يشكر الناس لا يشكر الله» وله عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال

﴿ وأمّا بنعمة ربّك فحدّث ﴾، قال مجاهد يعني النبوّة روى عنه أبو بشر واختاره الزجّاج وقال: أي بلّغ ما أُرسلتَ به، وحدث بالنبوّة التي آتاك. وقال الليث عن مجاهد: يعني القرآن وهو قول الكلبي، أمره أن يقرأه، وقال مقاتل: أشكر لما ذكّر من النعمة عليك في هذه السورة من جبر اليتيم والهدي بعد الضلالة والإغناء بعد العيلة، والتحدّث بنعمة الله شكراً. أخبرنا أبو سعيدبكر بن محمد بن محمد عبد محمي البسامي ثنا أبو الحسن عبد الرحمن بن إبراهيم بن محمد بن يحيىٰ ابن شختويه أنا عبد الله بن محمد بن الحسين النصر أبادي ثنا علي بن سعيد النسوي أنا سعيد بن عفير ثنا يحيىٰ بن أيوب عن عمارة بن غزية عن شرحبيل مولى الأنصاري، عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال: «مَن صُنع إليه معروفٌ فليجزيه إن وُجد، فإن لم يجد ما يُجزي به فليثنِ عليه فإنه إذا أثنى عليه فقد شكره، وإن كتمه فقد كفره، ومَن تحلّى بما لم يُعطَ كان كلابس ثوبي زور»، أخبرنا أبو سعيد الشريحي أنا أبو إسحاق الثعلبي أنا الحسين بن محمد بن الحسين ثنا أحمد بن محمد بن إسحاق ثنا أبو القاسم بن منيع ثنا منصور بن أبي مزاحم ثنا وكيع عن أبي عبد الرحمن يعني القاسم بن الوليد عن الشعبي عن النعمان بن بشير قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول على المنبر: «مَن لم يشكرِ القليلَ لم يشكرِ الكثيرَ، ومَن لم يشكرِ الناسَ لم يشكرِ اللَّهَ، التحدّث بنعمة الله شكر، وتركه كفر، والجماعة رحمة والفرقة عذاب»، والسُّنّة في قراءة أهل مكة أن يكبّر من أول سورة والضحى على رأس كل سورة حتى يختم القرآن، فيقول: الله أكبر، كذلك قرأته على الإمام المقرىء أبي نصر محمد بن أحمد بن علي الحامدي بمرو، قال: قرأت على أبي القاسم طاهر بن علي الصيرفي، قال: قرأت على أبي بكر أحمد بن الحسين بن مهران، قال: قرأت على أبي علي محمد بن أحمد بن حامد الصفّار المقرىء، قال: قرأت على أبي بكر محمد بن موسى الهاشمي، قال: قرأت على أبي ربيعة والحسين بن محمد الحداد، وهما قرآ على أبي الحسين بن أبي بزّة وأخبرهما ابن أبي بزّة أنه قرأ على عكرمة بن سليمان بن كثير المكّي، وأخبره عكرمة أنه قرأ على شبل بن عباد وإسماعيل بن قسطنطين، وأخبراه أنهما قرآ على عبد الله بن كثير، وأخبرهما عبد الله أنه قرأ على مجاهد، وأخبره مجاهد أنه قرأ على ابن عباس، وأخبره ابن عباس أنه قرأ على أُبيّ بن كعب، وأخبرنا الإمام المقرىء أبو نصر محمد بن أحمد بن علي وقرأت عليه بمرو، وقال: أنا الشريف أبو القاسم علي بن محمد الزبدي بالتكبير، وقرأت عليه بثغر حرّان، قال ثنا أبو بكر محمد بن الحسن بن زياد الموصلي المعروف بالنقاش، وقرأت عليه بمدينة السلام ثنا أبو ربيعة محمد بن إسحاق الربعي، وقرأت عليه بمكة

رسول الله ﷺ «الطّاعم الشّاكر بمنزلة الصّائم الصّابر» وروى البغوي بإسناد الثّعلبي عن النّعمان بن بشير قال: سمعت رسول الله ﷺ على المنبر يقول «من لم يشكر القليل لم يشكر الكثير ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله، والتحدث بنعمة الله شكر وتركه كفر والجماعة رحمة والفرقة عذاب» والسنة في قراءة أهل مكة أن يكبر من أول سورة الضّحى على رأس كل سورة حتى يختم القرآن فيقول الله أكبر وسبب ذلك أن الوحي لما احتبس عن رسول الله ﷺ قال المشركون: هجره شيطانه، وودعه، فاغتم النبي ﷺ لذلك فلما نزلت والضّحى كبر رسول الله ﷺ فرحاً بنزول الوحي، فاتخذه سنة، والله سبحانه وتعالى أعلم.

ثنا أبو الحسن أحمد بن محمد بن عبد الله بن أبي بزّة، وقرأت عليه قال لي: قرأتُ على عكرمة بن سليمان، وأخبرني أنه قرأ على إسماعيل بن قسطنطين وشبل بن عباد فلما بلغت ﴿ والضحى ﴾ قالا لي: كبّرْ حتى تختم، مع خاتمة كل سورة، فإنّا قرأنا على ابن كثير فأمرنا بذلك. وأخبرنا أنه قرأ على مجاهد فأمره بذلك، وأخبره مجاهد أنه قرأ على ابن عباس فأمره بذلك، وأخبره ابن عباس أنه قرأ على أُبيّ بن كعب فأمره بذلك وأخبره أُبيّ أنه قرأ على النبي ﷺ فأمره بذلك، وكان سبب التكبير أن الوحي لمّا احتبس قال المشركون هجره شيطانه، وودّعه، فاغتمّ النبي ﷺ لذلك، فلما نزل ﴿ والضحى ﴾ كبّر رسول الله ﷺ فرحاً بنزول الوحي، فاتخذوه سُنّةً.

سورة ألم نشرح

مكية وهي ثمان آيات وسبع وعشرون كلمة ومائة وثلاثة أحرف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾

قوله عز وجل: ﴿ألم نشرح لك صدرك﴾ استفهام بمعنى التّقرير، أي قد فعلنا ذلك ومعنى الشرح الفتح بما يصده عن الإدراك والله تعالى فتح صدر نبيه ﷺ للهدى، والمعرفة بإذهاب الشّواغل التي تصده عن إدراك الحق، وقيل معناه ألم نفتح قلبك ونوسعه ونلينه بالإيمان، والموعظة، والعلم، والنبوة، والحكمة، وقيل هو شرح صدره في صغره (م) عن أنس رضي الله عنه «أن رسول الله ﷺ أتاه جبريل عليه السّلام وهو يلعب مع الغلمان، فأخذه فصرعه فشق عن قلبه، فاستخرجه فاستخرج منه علقة فقال: هذا حظ الشّيطان منك ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم، ثم لأمه ثم أعاده إلى مكانه، وجاء الغلمان يسعون إلى أمه يعني ظئره فقالوا: إن محمداً قد قتل فاستقبلوه، وهو منتقع اللون. قال أنس: وقد كنت أرى أثر المخيط في صدره» ﴿ووضعنا عنك وزرك﴾ أي حططنا عنك وزرك الذي سلف منك في الجاهلية فهو كقوله ﴿ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر﴾ وقيل الخطأ والسّهو وقيل ذنوب أمتك فأضافها إليه لاشتغال قلبه بها، وقيل المراد بذلك ما أثقل ظهره من أعباء الرسالة حتى يبلغها لأن الوزر في اللغة الثقل تشبيهاً بوزر الجبل، وقيل معناه عصمناك عن الوزر الذي ينقض ظهرك لو كان ذلك الوزر حاصلاً فسمي العصمة وضعاً مجازاً.

واعلم أن القول في عصمة الأنبياء قد تقدم مستوفى في سورة طه عند قوله تعالى: ﴿وعصى آدم ربه فغوى﴾ وعند قوله ﴿ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر﴾.

الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾

﴿الذي أنقض ظهرك﴾ أي أثقله وأوهنه حتى سمع له نقيض وهو الصوت الخفي الذي يسمع من المحمل، أو

سُوْرَة الشَّرْح

مكيّة وهي ثمان آيات.

﴿ أَلَمْ نشرحْ لكَ صدرك ﴾، ألم نفتح ونوسع ونلين لك قلبك بالإيمان والنبوّة والعلم والحكمة؟.

﴿ ووضعنا عنك وزرك ﴾، قال الحسن ومجاهد وقتادة والضحاك: حططنا عنك الذي سلف منك في الجاهلية، وهو كقوله: ﴿ ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ﴾ [الفتح: ٢]. وقال الحسين بن الفضل: يعني الخطأ والسهو. وقيل: ذنوب أُمتك فأضافها إليه لاشتغال قلبه بهم.

﴿ الذي أنقض ظهرك ﴾، أثقل ظهرك فأوهنه حتى سمع له نقيض أي صوت. وقال عبد العزيز بن يحيىٰ وأبو

الرحل فوق البعير، فمن حمل الوزر على ما قبل النّبوة قال هو اهتمام النبي ﷺ بأمور كان فعلها قبل نبوته إذ لم يرد عليه شرع بتحريمها، فلما حرمت عليه بعد النبوة عدها أوزاراً وثقلت عليه وأشفق منها فوضعها الله عنه وغفرها له ومن حمل ذلك على ما بعد النبوة قال: هو ترك الأفضل لأن حسنات الأبرار سيئات المقربين، وقوله عز وجل: ﴿ورفعنا لك ذكرك﴾ روى البغوي بإسناد الثعلبي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ «أنه سأل جبريل عن هذه الآية، ورفعنا لك ذكرك قال: قال الله عز وجل: إذا ذكرت ذكرت معي» قال ابن عباس: يريد الأذان، والإقامة، والتّشهد، والخطبة على المنابر، فلو أن عبداً عبد الله وصدقه في كل شيء، ولم يشهد أن محمداً ﷺ لم ينتفع من ذلك بشيء وكان كافراً، وقال قتادة: رفع الله ذكره في الدّنيا والآخرة فليس خطيب ولا متشهد ولا صاحب صلاة إلا ينادي أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله وقال الضحاك: لا تقبل صلاة إلا به ولا تجوز خطبة إلا به، وقال مجاهد يريد التأذين وفيه يقول حسان بن ثابت:

أغــر عليــه للنبــوة خــاتــم ... مــن الله مشهــود يلــوح ويشهــد
وضــم الإلــه اسـم النبـي مـع اسمـه ... إذا قــال فــي الخمـس المـؤذن أشهـد
وشــق لــه مــن اسمــه ليجلــه ... فـذو العـرش محمـود وهـذا محمـد

وقيل رفع ذكره بأخذ ميثاقه على النّبيين، وإلزّامهم الإيمان به، والإقرار بفضله، وقيل رفع ذكره بأن قرن اسمه باسمه في قوله «محمد رسول الله» وفرض طاعته على الأمة بقوله: «أطيعوا الله وأطيعوا الرسول» ومن يطع الله ورسوله فقد فاز، ونحو ذلك مما جاء في القرآن وغيره من كتب الأنبياء ثم وعده باليسر، والرخاء بعد الشّدة والعناء، وذلك أنه

عبيدة: يعني خفّفنا عنك أعباءَ النبوّة والقيام بأمرها.

﴿ ورفعنا لك ذكرك ﴾، أخبرنا أحمد بن إبراهيم الشريحي أنا أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي أنا أبو القاسم عبد الخالق بن علي المؤذّن ثنا أبو بكر بن حبيب ثنا أبو إسماعيل محمد بن إسماعيل ثنا صفوان يعني بن صالح أبو عبد الملك ثنا الوليد يعني بن مسلم حدّثني عبد الله بن لهيعة عن دراج عن أبي الهيتم عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ أنه سأل جبريل عليه السلام عن هذه الآية ﴿ ورفعنا لك ذكرك ﴾ قال: قال الله تعالى: «إذا ذُكِرْتَ ذُكرتَ معي»، وعن الحسن قال: ﴿ ورفعنا لك ذكرك ﴾ إذا ذكرتُ ذكرتَ. وقال عطاء عن ابن عباس: يريد الأذان والإقامة والتشهّد والخطبة على المنابر، ولو أن عبداً عبد الله وصدقه في كل شيءولم يشهد أن محمداً رسول الله لم ينتفع بشيء، وكان كافراً. وقال قتادة: رفع الله ذكره في الدنيا والآخرة، فليس خطيب ولا متشهّد ولا صاحب صلاة إلّا ينادي أشهد أن لا إلَه إلّا الله وأشهد أن محمداً رسول الله. وقال الضحاك: لا تُقبَل صلاة إلّا به ولا تجوز خطبة إلّا به. وقال مجاهد: يعني بالتأذين، وفيه يقول حسّان بن ثابت:

ألـم تـرَ أن الله أرسـل عـبـدَهُ ... بـبـرهـانـه واللَّهُ أعلى وأمجـدُ
أغـرّ عـلـيـه لـلـنـبـوّة خـاتـمُ ... مـن الله مشهـودٌ يلوحُ ويشهـدُ
وضمّ الإلَـهُ اسمَ النبيِّ مع اسمه ... إذا قال في الخمسِ المؤذنُ أشهدُ
وشـقَّ لـه مـن اسمـهِ لِيُـجِـلّه ... فـذو العرش محمودٌ وهذا محمدُ

وقيل رفعه بأخذ ميثاقه على النبيّين وإلزامهم الإيمان به والإقرار بفضله، ثم وعده اليُسْر والرخاء بعد الشدّة، وذلك أنه كان بمكة في شدّة.

كان في شدة بمكة فقال تعالى ﴿فإن مع اليسر يسراً﴾ أي مع الشدة التي أنت فيها من جهاد المشركين يسراً ورخاء بأن يظهرك عليهم حتى ينقادوا للحق الذي جئتهم به ﴿إن مع العسر يسراً﴾ وإنما كرره لتأكيد الوعد وتعظيم الرّجاء قال الحسن: لما نزلت هذه الآية قال رسول الله ﷺ: «أبشروا فقد جاءكم اليسر لن يغلب عسر يسرين» وقال ابن مسعود: لو كان العسر في جحر لطلبه اليسر حتى يدخله عليه ويخرجه إنه لن يغلب عسر يسرين قال المفسرون في معنى قوله لن يغلب عسر يسرين إن الله تعالى كرر لفظ العسر، وذكره بلفظ المعرفة، وكرر اليسر بلفظ النكرة، ومن عادة العرب. إذا ذكرت اسماً معرفاً ثم أعادته كان الثاني هو الأول وإذا ذكرت اسماً نكرة ثم أعادته كان الثاني غير الأول كقولك كسبت درهماً فأنفقت درهماً. فالثاني غير الأول وإذا قلت كسبت درهماً، فأنفقت الدرهم فالثاني هو الأول، فالعسر في الآية مكرر بلفظ التعريف فكان عسراً واحداً، واليسر مكرر بلفظ التنكير فكانا يسرين، فكأنه قال فإن مع العسر يسراً إن مع ذلك العسر يسراً آخر وزيف أبو على الحسن بن يحيى الجرجاني صاحب النظم هذا القول، وقال قد تكلم الناس في قوله لن يغلب عسر يسرين فلم يحصل منه غير قولهم إن العسر معرفة، واليسر نكرة، فوجب أن يكون عسر واحد ويسران وهو قول مدخول فيه إذا قال الرجل إن مع الفارس سيفاً إن مع الفارس سيفاً فهذا لا يوجب أن يكون الفارس واحداً والسيف اثنين فمجاز قوله لن يغلب عسر يسرين أن الله عز وجل بعث نبيه ﷺ وهو مقل مخف، فكانت قريش تعيره بذلك حتى قالوا: إن كان بك طلب الغنى جمعنا لك مالاً حتى تكون كأيسر أهل مكة فاغتم النبي ﷺ لذلك، وظن أن قومه إنما كذبوه لفقره فعدد الله نعمه عليه في هذه السّورة، ووعده الغني ليسليه بذلك عما خامره من الغم. فقال تعالى: ﴿فإن مع العسر يسراً﴾ أي لا يحزنك الذي يقولون فإن مع العسر الذي في الدّنيا يسراً عاجلاً، ثم أنجز ما وعده وفتح عليه القرى القريبة، ووسع ذات يده حتى كان يعطي المئين من الإبل، ويهب الهبة السّنية ثم ابتدأ فضلاً آخر من أمور الآخرة فقال تعالى: ﴿إن مع العسر يسراً﴾ والدّليل على ابتدائه تعريه من الفاء والواو، وهذا وعد لجميع المؤمنين، والمعنى أن مع العسر الذي في الدّنيا للمؤمن يسراً في الآخرة وربما اجتمع له اليسران يسر الدنيا وهو ما ذكره في الآية الأولى ويسر الآخرة وهو ما ذكره في الآية الثانية فقوله لن يغلب عسر يسرين أي إن عسر الدنيا

فقال: ﴿ فإن مع العسر يسراً * إن مع العسر يسراً ﴾ أي مع الشدّة التي أنت فيها من جهاد المشركين يسراً ورخاءً بأن يُظهرك عليهم حتى ينقادوا للحق الذي جئتهم به إن مع العسر يسراً كرّره لتأكيد الوعد وتعظيم الرجاء وقال الحسن لمّا نزلت هذه الآية قال رسول الله ﷺ: «أبشروا قد جاءكم اليُسْر، لن يغلب عسرٌ يسرين»، قال ابن مسعود رضي الله تعالى عنه: لو كان العسر في حجر لطلبه اليسر حتى يدخل، إنه لن يغلب عسرٌ يسرين. قال المفسّرون: ومعنى قوله: «لن يغلب عسر يسرين» إن الله تعالى كرّر العُسرَ بلفظ المعرفة واليُسَر بلفظ النكرة، ومن عادة العرب إذا ذكرت اسماً معرّفاً، ثم عادته كان الثاني هو الأول، وإذا ذكرت نكرة ثم أعادته مثله صار اثنين، وإذا عادته معرّفة فالثاني هو الأول، كقولك: إذا كسبتُ درهماً أنفقتُ الدرهم، فالثاني غير الأول، وإذا قلت إذا كسبتَ درهماً فأنفقْ درهماً، فالثاني هو الأول، فالعسر في الآية مكرّر بلفظ التعريف، فكان عسراً واحداً، واليسر مكرر بلفظ النكرة، فكانا يسرين، كأنه قال: فإن مع العسر يسران، مع ذلك العسر يسراً آخر. وقال أبو علي الحسين بن يحيىٰ بن نضر الجرجاني صاحب النظم تكلم الناس في قوله: «لن يغلب عسر يسرين»، فلم يحصل منه غير قولهم: إن العسر معرفة واليُسْر نكرة. فوجب أن يكون عسرٌ واحد ويسران، وهذا قول مدخول، إذا قال الرجل: إن مع الفارس سيفاً إن مع الفارس سيفاً، فهذا لا يُوجِب أن يكون الفارس واحد والسيف اثنان، فمجاز قوله: لن يغلب عُسْرٌ يسرين أن الله بعث نبيّه ﷺ وهو مقل مخف، فكانت قريش تعيّره بذلك، حتى قالوا: إن كان بك طلب الغنى جمعنا لك مالاً حتى تكون كأيسر أهل مكة، فاغتمّ النبي ﷺ لذلك، فظن أن قومه إنما يكذّبونه لفقره، فعدّد الله نعمه عليه في هذه

لن يغلب اليسر الذي وعده الله للمؤمنين في الدنيا واليسر الذي وعدهم في الآخرة إنما يغلب أحدهما وهو يسر الدنيا فأما يسر الآخرة، فدائم أبداً غير زائل، أي لا يجتمعان في الغلبة فهو كقوله ﷺ «شهرا عبد لا ينقصان» أي لا يجتمعان في النقص قال القشيري: كنت يوماً في البادية بحالة من الغم فألقى في روعي بيت شعر فقالت:

أرى الموت لمن أصـ ... ـبح مغموماً له أروح

فلما جن الليل سمعت هاتفاً يهتف في الهواء:

ألا يا أيها المرء الـ ... ـذي الهم به برح
وقد أنشد بيتاً لم ... يزل في فكره يسنح
إذا اشتد بك العسر ففـ ... ـكر في ألم نشرح
فعسر بين يسرين ... إذا أبصرته فافرح

قال فحفظت الأبيات ففرج الله عني وقال إسحاق بن بهلول القاضي:

فلا تيأس إذا أعسرت يوماً ... فقد أيسرت في دهر طويل
ولا تظنن بربك ظن سوء ... فإن الله أولى بالجميل
فإن العسر يتبعه يسار ... وقول الله أصدق كل قيل

وقال أحمد بن سليمان في المعنى:

توقع لعسر دهاك سروراً ... ترى العسر عنك بيسر تسرى
فما الله يخلف ميعاده ... وقد قال إن مع العسر يسرا

وقال غيره:

وكل الحادثات إذا تناهت ... يكون وراءها فرج قريب

﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ۝٨﴾

قوله عز وجل: ﴿فإذا فرغت فانصب﴾ لما عدد الله على نبيه ﷺ نعمه السالفة حثه على الشكر، والاجتهاد في

السورة، ووعده الغنى يسلّيه بذلك عمّا خامره من الغمّ، فقال: ﴿ فإن مع العسر يسراً ﴾، مجازه: لا يحزنك ما يقولون فإن مع العسر يسراً في الدنيا عاجلاً، ثم أنْجَزَهُ ما وَعَدهُ، وفتح عليه القرى العربية ووسّع عليه ذات يده، حتى كان يعطي المئين من الإبل ويهب الهبات السَنِيّة، ثم ابتدأ فضلاً آخر من أمر الآخرة، فقال: إن مع العسر يسراً، والدليل على ابتدائه تعرّيه من الفاء والواو وهذا وعد لجميع المؤمنين، ومجازه: إن مع العسر يسراً أي إن مع العسر في الدنيا للمؤمن يسراً في الآخرة، فربما اجتمع له اليسران يُسر الدنيا وهو ما ذكره في الآية الثانية، فقوله عليه السلام: لن يغلب عسرٌ يسرين، أي: لن يغلب عسر الدنيا اليسر الذي وعده للمؤمنين في الدنيا واليسر الذي وعدهم في الآخرة، وإنما يغلب أحدهما هو يسر الدنيا، وأما يسر الآخرة فدائم غير زائل أي لا يجمعهما في الغلبة، كقوله ﷺ: «شهر عيدٍ لا ينقصان» أي لا يجتمعان في النقصان.

﴿ فإذا فرغت فانصب ﴾، أي فاتعب، والنصب: التعب، قال ابن عباس وقتادة والضحاك ومقاتل والكلبي: فإذا فرغت من الصلاة المكتوبة فانصب إلى ربك في الدعاء، وارغب إليه في المسألة يعطك. وروى عبد الوهاب بن مجاهد عن أبيه قال: إذا صلّيت فاجتهد في الدعاء والمسألة. وقال ابن مسعود: إذا فرغت من

العبادة، والنصب فيها وأن لا يخليّ وقتاً من أوقاته منها، فإذا فرغ من عبادة أتبعها بأخرى، والنصب التعب قال ابن عباس: إذا فرغت من الصّلاة المكتوبة، فانصب إلى ربك في الدعاء، وارغب إليه في المسألة وقال ابن مسعود: إذا فرغت من الفرائض، فانصب في قيام اللّيل، وقيل إذا فرغت من التّشهد فادع لدنياك وآخرتك، وقيل إذا فرغت من جهاد عدوك فانصب في عبادة ربك، وقيل إذا فرغت من تبليغ الرّسالة فانصب في الاستغفار لك وللمؤمنين. قال عمر بن الخطاب إني لأكره أن أرى أحدكم فارغاً سبهللاً لا في عمل دنياه ولا في عمل آخرته. السبهلل الذي لا شيء معه، وقيل السبهلل الباطل ﴿**وإلى ربك فارغب**﴾ أي تضرع إليه راغباً في الجنة راهباً من النار، وقيل اجعل رغبتك إلى الله تعالى في جميع أحوالك لا إلى أحد سواه والله أعلم.

الفرائض فانصب في قيام الليل. وقال الشعبي: إذا فرغت من التشهّد فادعُ لدنياكَ وآخرتك. وقال الحسن وزيد بن أسلم: إذا فرغت من جهاد عدوّك فانصب في عبادة ربّك. وقال منصور عن مجاهد: إذا فرغت من أمر الدنيا فانصب في عبادة ربك وصلِّ. وقال حيّان عن الكلبي: إذا فرغت من تبليغ الرسالة فانصب، أي: استغفر لذنبك وللمؤمنين.

﴿ وإلى ربك فارغب ﴾، قال عطاء تضرّع إليه راهباً من النار راغباً في الجنة. وقيل: فارغب إليه في جميع أحوالك. قال الزجّاج: أي اجعل رغبتك إلى الله وحده.

سورة والتين

(مكية وهي ثمان آيات وأربع وثلاثون كلمة ومائة وخمسة أحرف)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ﴿١﴾ وَطُورِ سِينِينَ ﴿٢﴾ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴿٥﴾

قوله عز وجل: ﴿والتين والزيتون﴾ قال ابن عباس: هو تينكم الذي تأكلون وزيتونكم الذي تعصرون منه الزيت، قيل إنما خص التين بالقسم لأنه فاكهة مخلصة من شوائب التّنغيص، وفيه غذاء ويشبه فواكه الجنة لكونه بلا عجم.

ومن خواصه أنه طعام لطيف سريع الهضم لا يمكث في المعدة يخرج بطريق الرشح ويلين الطبيعة، ويقلل البلغم وأما الزيتون فإنه من شجرة مباركة فيه إدام ودهن يؤكل ويستصبح به وشجرته في أغلب البلاد ولا يحتاج إلى خدمة وتربية وينبت في الجبال التي ليست فيها دهنية ويمكث في الأرض ألوفاً من السنين، فلما كان فيهما من المنافع، والمصالح الدّالة على قدرة خالقهما لا جرم أقسم الله بهما، وقيل هما جبلان فالتين الجبل الذي عليه دمشق والزيتون الجبل الذي عليه بيت المقدس، واسمهما بالسريانية طور تيناً وطور زيتاً لأنهما ينبتان التين والزيتون، وقيل هما مسجدان فالتين مسجد دمشق والزيتون مسجد بيت المقدس، وإنما حسن القسم بهما لأنهما موضع الطاعة، وقيل التين مسجد أصحاب الكهف والزيتون مسجد إيلياء، وقيل التين مسجد نوح الذي بناه على الجودى والزيتون مسجد

سُوْرَة التِّيْن

مكيّة وهي ثمان آيات.

﴿ والتين والزيتون ﴾، قال ابن عباس والحسن ومجاهد وإبراهيم وعطاء بن أبي رباح ومقاتل والكلبي: هو تينكم الذي تأكلونه وزيتونكم هذا الذي تعصرون منه الزيت. قيل: خصّ التين بالقسم لأنها فاكهة مختصّة لا عجم فيها، شبيهة بفواكه الجنة. والزيتون شجرة مباركة جاء بها الحديث وهو تمر ودهن يصلح للاصطباغ والاصطباح. وقال عكرمة: هما جبلان. قال قتادة: التين الجبل الذي عليه دمشق والزيتون الجبل الذي عليه بيت المقدس لأنهما ينبتان التين والزيتون. وقال الضحاك: هما مسجدان بالشام. قال ابن زيد: التين مسجد دمشق والزيتون مسجد بيت المقدس. وقال محمد بن كعب: التين مسجد أصحاب الكهف والزيتون مسجد إيليا.

﴿ وطور سينين ﴾، يعني الجبل الذي كلّم الله عليه موسى عليه السلام وذكرنا معناه عند قوله: ﴿ وشجرة تخرج من طور سيناء ﴾ [المؤمنون: ٢٠].

بيت المقدس ﴿وطور سينين﴾ يعني الجبل الذي كلم الله موسى عليه الصّلاة والسّلام وسينين اسم للمكان الذي فيه الجبل سمي سينين وسيناء لحسنه ولكونه مباركاً وكل جبل فيه أشجار مثمرة يسمى سينين وسيناء ﴿وهذا البلد الأمين﴾ يعني الآمن، وهو مكة حرسها الله تعالى لأنه الحرم الذي يأمن فيه الناس في الجاهلية والإسلام لا ينفر صيده ولا يعضد شجره، ولا تلتقط لقطته إلا لمنشد وهذه أقسام أقسم الله بها لما فيها من المنافع والبركة وجواب القسم قوله تعالى: ﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم﴾ يعني في أعدل قامة، وأحسن صورة، وذلك أنه تعالى خلق كل حيوان منكباً على وجهه يأكل بفيه إلا الإنسان فإنه خلقه مديد القامة حسن الصورة يتناول مأكوله بيده مزيناً بالعلم، والفهم، والعقل، والتّمييز، والمنطق. ﴿ثم رددناه أسفل سافلين﴾ يعني إلى الهرم وأرذل العمر فيضعف بدنه وينقص عقله والسّافلون هم الضّعفاء، والزمنى والأطفال والشّيخ الكبير أسفل من هؤلاء جميعاً لأنه لا يستطيع حيلة، ولا يهتدي سبيلاً لضعف بدنه وسمعه وبصره وعقله، وقيل ثم رددناه إلى النّار لأنها دركات بعضها أسفل من بعض ثم استثنى. فقال تعالى:

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ ﴿٧﴾ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَـٰكِمِينَ ﴿٨﴾﴾

﴿إلا الذين آمنوا وعملوا الصّالحات﴾ فإنهم لا يردون إلى النار أو إلى أسفل سافلين وعلى القول الأول يكون الاستثناء منقطعاً، والمعنى ثم رددناه أسفل سافلين فزال عقله وانقطع عمله فلا تكتب له حسنة لكن الذين آمنوا وعملوا الصّالحات ولازموا عليها إلى أيام الشيخوخة والهرم والضّعف، فإنه يكتب لهم بعد الهرم والخرف مثل الذي كانوا يعملون في حالة الشّباب والصّحة وقال ابن عباس: هم نفر ردوا إلى أرذل العمر على زمن النبي ﷺ فأنزل الله عذرهم وأخبرهم أن لهم أجرهم الذي عملوا قبل أن تذهب عقولهم فعلى هذا القول السبب خاص وحكمه عام قال عكرمة ما يضر هذا الشيخ كبره إذا ختم الله له بأحسن ما كان يعمل وروي عن ابن عباس: قال إلا الذين قرؤوا القرآن وقال: من

﴿ وهذا البلد الأمين ﴾، أي الآمن، يعني مكة يأمن فيه الناس في الجاهلية والإسلام، هذه أقسام والمقسم عليه قوله:

﴿ لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ﴾، أعدل قامة وأحسن صورة، وذلك أنه خلق كل حيوان منكبّاً على وجهه إلاّ الإنسان خلقه مديد القامة يتناول مأكوله بيده مزيّناً بالعقل والتمييز.

﴿ ثم رددناه أسفل سافلين ﴾، يريد إلى الهرم وأرذل العمر، فينقص عقله ويضعف بدنه، والسافلون هم الضعفاء والزّمْنَى والأطفال، فالشيخ الكبير من هؤلاء جميعاً، وأسفل سافلين نكرة تعمّ الجنس، كما تقول: فلان أكرم قائم. وفي مصحف عبد الله ﴿أسفل السافلين﴾. وقال الحسن وقتادة ومجاهد: يعني ثم رددناه إلى النار، يعني إلى أسفل السافلين، لأن جهنم بعضها أسفل من بعض. قال أبو العالية: يعني إلى النار في شرّ صورة في صورة خنزير.

ثم استثنى فقال: ﴿ إلاّ الذين آمنوا ﴾، فإنهم لا يردون إلى النار. ومَن قال بالقول الأول قال: رددناه أسفل سافلين، فزالت عقولهم وانقطعت أعمالهم، فلا يكتب لهم حسنة إلاّ الذين آمنوا. ﴿ وعملوا الصالحات ﴾، فإنه يكتب لهم بعد الهرم، والخرف، مثل الذي كانوا يعملون في حال الشباب والصحة. وقال ابن عباس: هم نفرٌ رُدُّوا إلى أرذل العمر على عهد رسول الله ﷺ، فأنزل الله تعالى عذرهم، فأخبر أن لهم أجرهم الذي عملوا قبل أن تذهب عقولهم. قال عكرمة: لم يضرّ هذا الشيخ كبره إذ ختم الله له بأحسن ما كان يعمل. وروى عاصم الأحول عن

قرأ القرآن لم يرد إلى أرذل العمر ﴿**فلهم أجر غير ممنون**﴾ يعني غير مقطوع لأنه يكتب له بصالح ما كان يعمل قال الضّحاك: أجر بغير عمل ثم قال الزاماً للحجة. ﴿**فما يكذبك**﴾ يعني يا أيها الإنسان وهو خطاب على طريق الالتفات ﴿**بعد**﴾ أي بعد هذه الحجة والبرهان ﴿**بالدين**﴾ أي بالحساب والجزاء، والمعنى فما الذي يلجئك أيها الناس إلى هذا الكذب ألا تتفكر في صورتك وشبابك، ومبدأ خلقك، وهرمك، فتعتبر وتقول أن الذي فعل ذلك قادر على أن يبعثني ويحاسبني، فما الذي يكذبك بالمجازاة، وقيل هو خطاب للنبي ﷺ والمعنى فمن يكذبك أيها الرّسول بعد ظهور هذه الدّلائل، والبراهين ﴿**أليس الله بأحكم الحاكمين**﴾ أي بأقضى القاضين يحكم بينكم وبين أهل التّكذيب يوم القيامة عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ «من قرأ والتين والزيتون، فقرأ أليس الله بأحكم الحاكمين، فليقل بلى وأنا على ذلك من الشّاهدين» أخرجه الترمذي وعن البراء أن النبي ﷺ كان في سفر فصلى العشاء الأخيرة فقرأ في إحدى الركعتين بالتين والزيتون فما سمعت أحداً أحسن صوتاً أو قراءة منه ﷺ» والله تعالى أعلم.

عكرمة عن ابن عباس قال: ﴿ **إلّا الذين آمنوا وعملوا الصالحات** ﴾ قال: إلّا الذين قرؤوا القرآن، وقال: مَن قرأ القرآن لم يرد إلى أرذل العمر. ﴿ **فلهم أجر غير ممنون** ﴾، غير مقطوع لأنه يُكتَب له كصالح ما كان يعمل. قال الضحاك: أجْر بغير عمل، ثم قال: إلزاماً للحجة.

﴿ **فما يكذبك** ﴾، أيها الإنسان، ﴿ **بعد** ﴾، أي بعد هذه الحجة والبرهان، ﴿ **بالدين** ﴾، بالحساب والجزاء والمعنى، ألّا تتفكّر في صورتك وشبابك وهرمك فتعتبر وتقول إن الذي فعل ذلك قادر على أن يبعثني ويحاسبني، فما الذي يكذبك بالمجازاة بعد هذه الحجج.

﴿ **أليس الله بأحكم الحاكمين** ﴾، بأقضى القاضين، قال مقاتل: يحكم بينك وبين أهل التكذيب يا محمد. وروينا أن رسول الله ﷺ قال: «مَن قرأ والتين والزيتون فانتهى إلى آخرها: أليسَ اللَّهُ بأحكم الحاكمين، فليقل: بلى وأنا على ذلك من الشاهدين». أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل أنا أبو الوليد ثنا شعبة عن عدي قال: سمعت البراء قال: إن النبي ﷺ كان في سفر فقرأ في العشاء في إحدى الركعتين بالتين والزيتون.

سورة العلق

(مكية وهي تسع عشرة آية واثنتان وتسعون كلمة ومائتان وثمانون حرفاً)

قال أكثر المفسرين هذه السّورة أول سورة نزلت من القرآن وأول ما نزل خمس آيات من أولها إلى قوله **﴿ما لم يعلم﴾** (ق) عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت: «أول ما بدىء به رسول الله ﷺ من الوحي الرّؤيا الصّالحة» ولمسلم «الصّادقة في النوم فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ثم حببت إليه الخلاء فكان يخلو بغار حراء يتحنث فيه، وهو التعبد الليالي ذوات العدد قبل أن يرجع إلى أهله، ويتزود لذلك ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها حتى جاءه الوحي» وفي رواية حتى فجأه الحق وهو في غار حراء فجاءه الملك فقال اقرأ قال ما أنا بقارىء قال: فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال: اقرأ قلت ما أنا بقارىء فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال اقرأ فقلت ما أنا بقارىء فأخذني فغطني الثالثة حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني، فقال **﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم﴾** حتى بلغ **﴿ما لم يعلم﴾** فرجع بها رسول الله ﷺ ترجف بوادره حتى دخل على خديجة بنت خويلد فقال زملوني زملوني فزملوه حتى ذهب عنه الرّوع ثم قال لخديجة أي خديجة مالي وأخبرها الخبر قال لقد خشيت على نفسي قالت له خديجة كلا أبشر فوالله لا يخزيك الله أبداً إنك لتصل الرّحم وتصدق الحديث، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقرى الضيف وتعين على نوائب الحق فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزي وهو ابن عم خديجة، وكان امرؤ تنصر في الجاهلية وكان يكتب الكتاب العبراني فكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب وكان شيخاً كبيراً قد عمي فقالت له خديجة: أيّ ابن عم اسمع من ابن أخيك فقال: له ورقة يا ابن أخي ماذا ترى فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى فقال له ورقة هذا الناموس الذي أنزل الله على موسى يا ليتني فيها جذعاً ليتني أكون حياً إذ يخرجك قومك فقال رسول الله ﷺ، أو مخرجي هم قال نعم لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك حياً أنصرك نصراً مؤزراً ثم لم يلبث ورقة أن توفي وفتر الوحي» زاد البخاري قال: حتى حزن النبي ﷺ فيما بلغنا حزناً غدا منه مراراً كي يتردى من رؤوس شواهق الجبال فكلما أوفى بذروة جبل لكي يلقي نفسه منه تبدى له جبريل فقال يا محمد إنك رسول الله ﷺ حقاً فيسكن لذلك جأشه وتقر عينه، فيرجع فإذا طالت عليه فترة الوحي غدا لمثل ذلك، فإذا أوفى بذروة الجبل لكي يلقي نفسه منه تبدى له جبريل فقال له مثل ذلك.

سُوْرَة العَلَق

مكيّة وهي تسع عشرة آية.

﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق ﴾، أكثر المفسرين: على أن هذه أول سورة نزلت من القرآن، وأول ما نزل خمس آيات من أولها إلى قوله: **﴿ ما لم يعلم ﴾** أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا يحيىٰ بن بكير ثنا الليث عن عقيل عن ابن شهاب عن عروة بن الزبير

(فصل)

في هذا الحديث دليل صحيح صريح على أن سورة اقرأ أول ما نزل من القرآن وفيه رد على من قال إن المدثر أول ما نزل من القرآن، وقد تقدم الكلام على ذلك والجمع بين القولين في أول سورة المدثر وهذا الحديث من مراسيل الصحابة لأن عائشة لم تدرك هذه القصة فيحتمل أنها سمعتها من النبي ﷺ أو من غيره من الصحابة ومرسل الصحابي حجة عند جميع العلماء إلا ما انفرد به الأستاذ أبو إسحاق الإسفرايني، وإنما ابتدىء ﷺ بالرؤيا لئلا يفجأه الملك، فيأتيه بصريح النبوة بغتة فلا تحملها القوى البشرية، فبدىء بأول علامات النبوة توطئه للوحي، وأما التّحنث فقد فسر في الحديث بالتعبد، وهو تفسير صحيح لأن أصل التحنث من الحنث، وهو الإثم، والمعنى أنه فعل فعلاً يخرج به من الإثم وقولها فجأة الحق أي جاءه الحق بالوحي بغتة.

قوله: فغطني بالغين المعجمة، والطاء المشالة المهملة، أي عصرني، وضمني ضماً شديداً، وهو قوله حتى بلغ مني الجهد قال العلماء: والحكمة في الغط شغله عن الالتفات إلى غيره، والمبالغة في صفاء قلبه ولهذا كرره ثلاثاً.

قوله زملوني زملوني كذا هو في الروايات مكرر مرتين، ومعناه غطوني بالثياب، وقوله حتى ذهب عنه الرّوع أي الفزع قولها كلا أبشر فوالله لا يخزيك الله أبداً يروى بضم الياء وبالخاء المعجمة من الخزي أي لا يفضحك الله، ولا يكسرك، ولا يهينك ولا يذلك وروي بفتح الياء وبالحاء المهملة وبالنون أي لا يحزنك من الحزن الذي هو ضد الفرح وقولها وتحمل الكل أي الثقيل والحوائج المهمة، وتكسب المعدوم أي تعطي المال لمن هو معدوم عنده ومعنى كلام خديجة أنك لا يصيبك مكروه لما جعل فيك من مكارم الأخلاق وحميد الفعال. وخصال الخير وذلك سبب السلامة من مصارع السوء.

عن عائشة أمّ المؤمنين أنها قالت: أول ما بُدىء به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، وكان لا يرى رؤياً إلّا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حُبّب إليه الخلاء، فكان يخلو بغار حِراء، فيتحنث فيه، وهو التعبّد الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله، ويتزوّد لذلك ثم يرجع إلى خديجة، فيتزوّد لمثلها حتى جاءه الحق، وهو في غار حِراء فجاءه الملك فقال: «ما أنا بقارىء»، قال: «فأخذني فغطّني حتى بلغ منّي الجهد ثم أرسلني»، فقال: اقرأ، فقلت: «ما أنا بقارىء»، قال: «فأخذني فغطّني الثانية حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني»، فقال: اقرأ، فقلت: «ما أنا بقارىء»، «فأخذني فغطّني الثالثة، ثم أرسلني»، فقال: ﴿**اقرأ باسم ربّك الذي خلق * خلق الإنسان من علق * اقرأ وربّك الأكرم * الذي علّم بالقلم * علّم الإنسان ما لم يعلم**﴾ فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده، فدخل على خديجة بنت خويلد، فقال: «زمّلوني» فزمّلوه حتى ذهب عنه الروع، فقال لخديجة وأخبرها الخبر، وقال: «لقد خشيت على نفسي»، فقالت خديجة: كلا والله ما يخزيك الله أبداً إنك لتصل الرحم وتحمل الكلّ وتُكسب المعدوم وتَقري الضيف وتُعين على نوائب الحق، فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزّى بن عمّ خديجة، وكان امرءاً تنصّر في الجاهلية وكان يكتب الكتاب العربي، فيكتب من الإنجيل بالعربية ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخاً كبيراً قد عَمِيَ، فقالت له خديجة: يا ابن عم اسمع من ابن أخيك، فقال له ورقة: يا ابن أخي ماذا ترى، فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى، فقال له ورقة: هذا الناموس الذي أنزل الله على موسى، يا ليتني فيها جذعاً ليتني أكون حيّاً إذْ يخرجك قومك، فقال رسول الله: «أوَ مُخرِجيَّ هم»؟ قال: نعم لم يأتِ رجل قطّ ما جئت به إلّا عُودِيَ، وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً، ثم لم ينشب ورقة إلى أن توفي، وفتر الوحي. وروى محمد بن إسماعيل هذا الحديث في موضع آخر من كتابه عن يحيى بن بكير بهذا الإسناد، وقال:

قولها وكان يكتب الكتاب العبراني فيكتب من الإنجيل بالعبرانية وفي رواية مسلم «وكان يكتب الكتاب العربي يكتب من الإنجيل بالعربية ما شاء الله تعالى أن يكتب» ومعناهما صحيح وحاصله أنه تمكن من دين النصرانية بحيث صار يتصرف في الإنجيل، فيكتب أي موضع شاء منه بالعبرانية إن أراد، أو بالعربية إن أراد ذلك، قوله هذا النّاموس الذي أنزل الله على موسى هو بالنون والسين المهملة، يعني جبريل عليه الصّلاة والسّلام ومعنى النّاموس صاحب خبر الخير. إنما سمي جبريل بذلك لأن الله خصه بالوحي إلى الأنبياء عليهم الصّلاة والسّلام قوله يا ليتني فيها، أي في أيام النّبوة وإظهار الرّسالة جذعاً أي شاباً قوياً حتى أبالغ في نصرتك، وهو قوله وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً أي قوياً بالغاً قولها ثم لم يلبث ورقة أن توفي أي فلم يلبث أن مات قبل ظهور النبي ﷺ قوله كي يتردى التّردي الوقوع من علو، وذروة الجبل أعلاه قوله تبدى له أي ظهر له قوله فيسكن لذلك جأشه أي قلبه، وقيل الجأش هو ثبوت القلب عند الأمر العظيم المهول، وقيل الجأش هو ما ثار من فزعه وهاج من حزنه والله أعلم.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾

قوله عزّ وجلّ: ﴿**اقرأ باسم ربك**﴾ قيل الباء زائدة مجازه اقرأ اسم ربك، والمعنى اذكر اسم ربك أمر أن يبتدىء القراءة باسم الله تأديباً، وقيل الباء على أصلها والمعنى اقرأ القرآن مفتتحاً باسم ربك أي قل بسم الله، ثم اقرأ فعلى هذا يكون في الآية دليل على استحباب البداءة بالتسمية في أول القراءة، وقيل معناه اقرأ القرآن مستعيناً باسم ربك على ما تتحمله من النبوة وأعباء الرّسالة ﴿**الذي خلق**﴾ يعني جميع الخلائق وقيل الذي حصل منه الخلق واستأثر به لا خالق سواه وقيل الذي خلق كل شيء.

خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ﴿٨﴾ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾

﴿**خلق الإنسان**﴾ يعني آدم وإنما خص الإنسان بالذكر من بين سائر المخلوقات لأنه أشرفها، وأحسنها خلقه ﴿**من علق**﴾ جمع علقة ولما كان الإنسان اسم جنس في معنى الجمع جمع العلق ولمشاكله رؤوس الآي أيضاً ﴿**اقرأ**﴾ كرره تأكيداً وقيل الأول اقرأ في نفسك، والثاني اقرأ للتبليغ وتعليم أمتك ثم استأنف. فقال تعالى: ﴿**وربك الأكرم**﴾

حدّثني عبد الله بن محمد ثنا عبد الرزاق أنا معمر قال الزهري فأخبرني عروة عن عائشة وذكر الحديث، وقال: ﴿ اقرأ باسم ربّك الذي خلق ﴾ حتى بلغ ﴿ ما لم يعلم ﴾ وزاد في آخره فقال: وفتر الوحي فترة حتى حزن النبي ﷺ، فيما بلغنا حزناً غدا منه مراراً حتى يتردّى من رؤوس شواهق الجبال، فلما أوفى بذروة جبل لكي يلقي نفسه منه، تبدّى له جبريل فقال: يا محمد إنك رسول الله حقاً، فيسكن لذلك جأشه وتقرّ نفسه فيرجع، فإذا طالت عليه فترة الوحي غدا لمثل ذلك، فإذا أوفى بذروة جبل تبدّى له جبريل، فقال له مثل ذلك. أخبرنا محمد بن إبراهيم الشريحي أنا أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي أنا عبد الله بن حامد الورّاق أنا مكّي بن عبدان أنا عبد الرحمن بن بشر ثنا سفيان عن محمد بن إسحاق عن الزهري عن عروة عن عائشة قالت: أول سورة نزلت قوله عزّ وجلّ: ﴿ إقرأ باسم ربك ﴾، قال أبو عبيدة مجازه: إقرأ اسم ربّك يعني أن الباء زائدة، والمعنى: اذكر اسمه، أمرَ أن يبتدىء القراءة باسم الله تأديباً، ﴿ الذي خلق ﴾ قال الكلبي: يعني الخلائق ثم فسّره فقال:

﴿ خلق الإنسان ﴾ يعني ابن آدم، ﴿ من علق ﴾، جمع علقة.

يعني الذي لا يوازيه كريم ولا يعادله في الكرم نظير وقد يكون الأكرم بمعنى الكريم كما جاء الأعز بمعنى العزيز، وغاية الكريم إعطاؤه الشيء من غير طلب العوض، فمن طلب العوض فليس بكريم، وليس المراد أن يكون العوض عيناً بل المدح والثّواب عوض والله سبحانه وجلَّ جلاله وتعالى علاؤه وشأنه يتعالى عن طلب العوض ويستحيل ذلك في وصفه لأنه أكرم الأكرمين، وقيل الأكرم هو الذي له الابتداء في كل كرم وإحسان وقيل هو الحليم عن جهل العباد فلا يعجل عليهم بالعقوبة، وقيل يحتمل أن يكون هذا حثاً على القراءة، والمعنى اقرأ وربك الأكرم لأنه يجزي بكل حرف عشر حسنات ﴿**الذي علم بالقلم**﴾ أي الخط والكتابة التي بها تعرف الأمور الغائبة وفيه تنبيه على فضل الكتابة لما فيها من المنافع العظيمة لأن بالكتابة ضبطت العلوم، ودونت الحكم وبها عرفت أخبار الماضين، وأحوالهم وسيرهم ومقالاتهم ولولا الكتابة ما استقام أمر الدين والدنيا قال قتادة: القلم نعمة من الله عظيمة. لولا القلم لم يقم دين ولم يصلح عيش، فسأل بعضهم عن الكلام، فقال ربح لا يبقى قيل له فما قيده قال الكتابة لأن القلم ينوب عن اللّسان ولا ينوب اللّسان عنه ﴿**علم الإنسان ما لم يعلم**﴾ قيل يحتمل أن يكون المراد علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم، فيكون المراد من ذلك معنى واحداً، وقيل علمه من أنواع العلم، والهداية، والبيان، ما لم يكن يعلم، وقيل علم آدم الأسماء كلها، وقيل المراد بالإنسان هنا محمد ﷺ.

قوله عزّ وجلّ: ﴿**كلا**﴾ أي حقاً ﴿**إن الإنسان ليطغى**﴾ أي يتجاوز الحد، ويستكبر على ربه ﴿**أن**﴾ أي لأن ﴿**رآه استغنى**﴾ أي رأى نفسه غنياً وقيل يرتفع عن منزلته إلى منزلة أخرى في اللّباس والطعام وغير ذلك، نزلت في أبي جهل

﴿ **إقرأ** ﴾، كرّره تأكيداً ثم استأنف فقال: ﴿ **وربّك الأكرم** ﴾، فقال الكلبي: الحليم عن جهل العباد لا يعجّل عليهم بالعقوبة.

﴿ **الذي علّم بالقلم** ﴾، يعني الخط والكتابة.

﴿ **علّم الإنسان ما لم يعلم** ﴾، من أنواع الهدى والبيان. وقيل: علّم آدم الأسماء كلها. وقيل: الإنسان ههنا محمد ﷺ، بيانه: «وعلّمك ما لم تكن تعلم».

﴿ **كلا** ﴾، حقاً، ﴿ **إن الإنسان ليطغى** ﴾، ليتجاوز حدّه ويستكبر على ربّه.

﴿ **أن** ﴾، لأن، ﴿ **رآه استغنى** ﴾، أن رأى نفسه غنياً، قال الكلبي: يرتفع عن منزلة إلى منزلة في اللباس والطعام وغيرهما. وقال مقاتل: نزلت في أبي جهل كان إذا أصاب مالاً زاد في ثيابه ومركبه وطعامه فذلك طغيانه.

﴿ **إن إلى ربك الرُّجعى** ﴾، أي المرجع في الآخرة.

﴿ **أرأيتَ الذي ينهى * عبداً إذا صلّى** ﴾، نزلت في أبي جهل نهى النبي ﷺ عن الصلاة. أخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر أنا عبد الغافر بن محمد أنا محمد بن عيسى الجلودي ثنا إبراهيم بن محمد بن سفيان ثنا مسلم بن الحجاج ثنا عبد الله بن معاذ ومحمد بن عبد الأعلى القيسي قالا ثنا المعتمر عن أبيه حدّثني نعيم بن أبي هند عن أبي حازم عن أبي هريرة قال: قال أبو جهل: هل يعفّر محمد وجهه بين أظهركم؟ فقيل: نعم، فقال: واللاّت والعُزّى لئن رأيته يفعل ذلك لأطأنّ على رقبته ولأعفرنّ وجهه في التراب، قال: فأتى رسولَ الله ﷺ وهو يصلّي، زعم ليطأ على رقبته، فما فجأهم منه إلاّ وهو ينكص على عقبيه، ويتّقي بيديه، قال: فقيل له: ما لك يا أبا الحكم؟ قال: إن بيني وبينه لخندقاً من نار، وهولاً وأجنحةً، فقال رسول الله ﷺ: «لو دنا مني لاختطفته الملائكة عضواً عضواً»، قال: فأنزل الله ـ لا ندري في حديث أبي هريرة أو شيء بلغه ـ ﴿ **كلا إن الإنسان ليطغى * أن رآه**

وكان قد أصاب مالاً فزاد في ثيابه ومركبه وطعامه فذلك طغيانه ﴿إن إلى ربك الرجعى﴾ أي المرجع في الآخرة وفيه تهديد، وتحذير لهذا الإنسان من عاقبة الطغيان، ثم هو عام لكل طاغ متكبر.

﴿أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴿١٢﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ﴿١٩﴾﴾

﴿أرأيت الذي ينهي عبداً إذا صلى﴾ نزلت في أبي جهل وذلك أنه نهى النبي ﷺ عن الصّلاة (م) عن أبي هريرة قال: قال أبو جهل هل يعفر محمد وجهه بين أظهركم، فقيل نعم فقال واللاّت والعزّى لئن رأيته يفعل ذلك لأطأن على رقبته، ولأعفرن وجهه في التراب قال فأتى رسول الله ﷺ وهو يصلي ليطأ على رقبته قال فما فجأهم منه إلا وهو ينكص على عقبيه ويتقي بيديه، فقيل له ما لك قال إن بيني وبينه خندقاً من نار وهو لا وأجنحة فقال النبي ﷺ «لو دنا مني لاختطفته الملائكة عضواً» عضواً فأنزل الله هذه الآية، لا أدري في حديث أبي هريرة أو شيء بلغه كلا إن الإنسان ليطغى إلى قوله كلا لا تطعه قال: وأمره بما أمره به زاد في رواية، فليدع ناديه يعني قومه (خ) عن ابن عباس قال قال أبو جهل لئن رأيت محمداً يصلي عند البيت لأطأن على عنقه. فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: «لو فعله لأخذته الملائكة» زاد التّرمذي عياناً ومعنى أرأيت تعجباً للمخاطب وهو رسول الله ﷺ وفائدة التنكير في قوله عبداً تدل على أنه كامل العبودية، والمعنى أرأيت الذي ينهي أشد الخلق عبودية عن العبودية، وهذا دأبه وعادته، وقيل إن هذا الوعيد يلزم لكل من ينهى عن الصلاة عن طاعة الله تعالى، ولا يلزم منه عدم جواز المنع من الصّلاة في الدّار المغصوبة، وفي الأوقات المكروهة لأنه قد ورد النهي عن ذلك في الأحاديث الصّحيحة، ولا يلزم من ذلك أيضاً عدم جواز منع المولى عبده، والرجل زوجته عن قيام الليل، وصوم التّطوع والاعتكاف لأن ذلك استيفاء مصلحة إلا أن يأذن فيه المولى أو الزوج ﴿أرأيت إن كان على الهدى﴾ يعني العبد المنهي وهو النبي ﷺ ﴿أو أمر بالتقوى﴾ يعني في الإخلاص والتوحيد ﴿أرأيت إن كذب﴾ يعني أبا جهل ﴿وتولى﴾ أي عن الإيمان وتقدير نظم الآية أرأيت الذي ينهي عبداً إذا صلى وهو على الهدى آمر بالتّقوى والنّاهي مكذب متول عن الإيمان أي أعجب من هذا ﴿ألم يعلم﴾ يعني أبا جهل ﴿بأن الله

استغنى * إنّ إلى ربك الرجعى * أرأيتَ الذي ينهى * عبداً إذا صلّى ﴾ الآيات. ومعنى أرأيت ههنا تعجيب للمخاطب، وكرّر هذه اللفظة للتأكيد.

﴿ أرأيت إن كان على الهدى ﴾، يعني العبد المنهي وهو محمد ﷺ.

﴿ أو أمر بالتقوى ﴾، يعني بالإخلاص والتوحيد.

﴿ أرأيت إن كذب ﴾، يعني أبا جهل، ﴿ وتولى ﴾، عن الإيمان، وتقدير نظم الآية أرأيت الذي ينهى عبداً إذا صلّى وهو على الهدى، أمر بالتقوى، والناهي مكذّب متولّ عن الإيمان، فما أعجب من هذا.

﴿ ألم يعلم ﴾، يعني أبا جهل، ﴿ بأن الله يرى ﴾، ذلك فيجازيه به.

﴿ كلا ﴾، لا يعلم ذلك، ﴿ لئن لم ينته ﴾، عن إيذاء محمد ﷺ وتكذيبه، ﴿ لنسفعاً بالناصية ﴾، لنأخذنّ بناصيته فلنجرنّه من النار، كما قال: ﴿ فيؤخذ بالنواصي والأقدام ﴾ [الرحمٰن: ٤١]، يقال: سعفت بالشيء إذا أخذته وجذبته جذباً شديداً، والناصية: شعر مقدّم الرأس.

ثم قال على البدل: ﴿ ناصية كاذبة خاطئة ﴾، أي صاحبها كاذب خاطىء، قال ابن عباس: لمّا نهى أبو جهل

يرى﴾ يعني يرى ذلك الفعل فيجازيه به، وفيه وعيد شديد وتهديد عظيم **﴿كلا﴾** أي لا يعلم ذلك أبو جهل **﴿لئن لم ينته﴾** يعني عن إيذاء محمد ﷺ وعن تكذيبه **﴿لنسفعاً بالناصية﴾** أي لنأخذن بناصيته فلنجرنه إلى النّار، يقال سفعت بالشيء إذا أخذته وجذبته جذباً شديداً والناصية شعر مقدم الرأس والسفع الضرب أي لنضربن وجهه في النار، ولنسودن وجهه ولنذلنه ثم قال على البدل **﴿ناصية كاذبة خاطئة﴾** أي صاحبها كاذب خاطىء.

قال ابن عباس: لما نهى أبو جهل رسول الله ﷺ عن الصلاة انتهره رسول الله ﷺ فقال أبو جهل: أتنتهرني فوالله لأملأن عليك هذا الوادي إن شئت خيلاً جرداً، ورجالاً مرداً وعن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ يصلي فجاءه أبو جهل فقال: ألم أنهك عن هذا؟ فانصرف النبي ﷺ فزبره فقال أبو جهل إنك لتعلم ما بها ناد أكثر مني فأنزل الله تعالى **﴿فليدع ناديه سندع الزبانية﴾** قال ابن عباس: والله لو دعا ناديه لأخذته زبانية الله أخرجه التّرمذي، وقال حديث حسن غريب صحيح، ومعنى فليدع ناديه أي عشيرته قومه فلينتصر بهم، وأصل النادي المجلس الذي يجمع الناس، ولا يسمى نادياً ما لم يكن فيه أهله سندع الزبانية يعني الملائكة الغلاظ الشداد قال ابن عباس: يريد زبانية جهنم سموا بذلك لأنهم يدفعون أهل النّار إليها بشدة مأخوذ من الزّبن وهو الدفع **﴿كلا﴾** أي ليس الأمر على ما هو عليه أبو جهل **﴿لا تطعه﴾** أي في ترك الصّلاة **﴿واسجد﴾** يعني صل لله **﴿واقترب﴾** أي من الله (م) عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فأكثروا من الدعاء» وهذه السّجدة من عزائم سجود التلاوة عند الشّافعي فيسن للقارىء، والمستمع أن يسجد عند قراءتها يدل عليه ما روي عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال «سجدنا مع رسول الله ﷺ في اقرأ باسم ربك وإذا السماء انشقت» أخرجه مسلم والله سبحانه وتعالى أعلم.

رسولَ الله ﷺ عن الصلاة انتهره رسول الله ﷺ، فقال أبو جهل: أتنتهرني؟ فوالله لأملأنّ عليك هذا الوادي إن شئت خيلاً جرداً ورجالاً مرداً.

قال الله عزّ وجلّ: **﴿فليدعُ ناديه﴾**، أي قومه وعشيرته، أي فليستنصر بهم.

﴿سندع الزبانية﴾، جمع زبنى مأخوذ من الزبن، وهو الدفع، قال ابن عباس: يريد زبانية جهنم سُمّوا بها لأنهم يدفعون أهل النار إليها، قال الزجّاج: هم الملائكة الغِلاظ الشداد، قال ابن عباس: لو دعا ناديه لأخذته زبانية الله.

ثم قال: **﴿كلا﴾**، ليس الأمر على ما عليه أبو جهل، **﴿لا تطعه﴾**، في ترك الصلاة، **﴿واسجد﴾**، صلِّ لله، **﴿واقتربْ﴾**، من الله. أخبرنا أبو طاهر عمر بن عبد العزيز القاشاني أنا أبو عمر القاسم بن جعفر الهاشمي ثنا أبو علي محمد بن أحمد اللؤلؤي ثنا أبو داود سليمان بن الأشعث ثنا أحمد بن صالح وأحمد بن عمرو بن السراج ومحمد بن سلمة قالوا: أخبرنا وهب أخبرني عمرو بن الحارث عن عمارة بن غزية عن سَميّ مولى أبي بكر أنه سمع أبا صالح ذكوان يُحدّث عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «أقرب ما يكون العبدُ من ربِّه وهو ساجدٌ، فأكثرُوا الدعاء».

سورة القدر

وهي مدنية وقيل إنها مكية والقول الأول أصح، وهو قول الأكثرين، قيل إنها أول ما نزل بالمدينة وهي خمس آيات وثلاثون كلمة ومائة واثنا عشر حرفاً

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ﴿٢﴾

قوله عزّ وجلّ: ﴿إنا أنزلناه﴾ يعني القرآن كناية عن غير مذكور ﴿في ليلة القدر﴾ وذلك أن الله تعالى أنزل القرآن العظيم جملة واحدة من اللّوح المحفوظ إلى السّماء الدّنيا ليلة القدر فوضعه في بيت العزة، ثم نزل به جبريل عليه السّلام على النبي ﷺ نجوماً متفرقة في مدة ثلاث وعشرين سنة، فكان ينزل بحسب الوقائع، والحاجة إليه، وقيل إنما أنزله إلى السّماء الدّنيا لشرف الملائكة بذلك ولأنها كالمشترك بيننا وبين الملائكة، فهي لهم سكن ولنا سقف وزينة وسميت ليلة القدر لأن فيها تقدير الأمور، والأحكام، والأرزاق، والآجال، وما يكون في تلك السنة إلى مثل هذه اللّيلة من السّنة المقبلة يقدر الله ذلك في بلاده وعباده، ومعنى هذا أن الله يظهر ذلك لملائكته ويأمرهم بفعل ما هو من وظيفتهم بأن يكتب لهم ما قدره في تلك السنة ويعرفهم إيّاه، وليس المراد منه أن يحدثه في تلك اللّيلة لأن الله تعالى قدر المقادير قبل أن يخلق السّموات والأرض في الأزل، قيل للحسين بن الفضل أليس قد قدر الله المقادير قبل أن يخلق السّموات والأرض قال: نعم قيل له فما معنى ليلة القدر قال سوق المقادير إلى المواقيت وتنفيذ القضاء المقدر، وقيل سميت ليلة القدر لعظم قدرها وشرفها على اللّيالي من قولهم لفلان قدر عند الأمير، أي منزلة وجاه، وقيل

سُوْرَة القَدْر

مكيّة وهي خمس آيات.

﴿ إنّا أنزلناه في ليلة القدر ﴾، يعني القرآن كناية عن غير مذكور، أنزله جملة واحدة في ليلة القدر من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا، فوضعه في بيت العزّة، ثم كان ينزل به جبريل عليه السلام نجوماً في عشرين سنة.

ثم عجب نبيّه فقال: ﴿ وما أدراك ما ليلةُ القدر ﴾، سُمّيتْ ليلة القدر لأنها ليلة تقدير الأمور والأحكام، يقدّر الله فيها أمر السنة في عباده وبلاده إلى السنة المقبلة، كقوله تعالى: ﴿ فيها يفرّق كل أمر حكيم ﴾ [الدخان: ٤]، وهو مصدر قولهم: قدر الله الشيء بالتخفيف قدراً وقدراً، كالنهر والنهر والشعر والشعر، وقدّره بالتشديد تقديراً بمعنى واحد، قيل للحسين بن الفضل: أليس قد قدّر الله المقادير قبل أن يخلق السمٰوات والأرض؟ قال: نعم، قيل: فما معنى ليلة القدر؟ قال: سوق المقادير التي خلقها إلى المواقيت، وتنفيذ القضاء المقدور. وقال الأزهري: وليلة العظمة والشرف من قول الناس: لفلان عند الأمير قدر، أي جاه ومنزلة، يقال: قدرتُ فلاناً أي عظّمتُه. قال

سميت بذلك لأن العمل الصّالح يكون فيها ذا قدر عند الله لكونه مقبولاً، وقيل سميت بذلك لأن الأرض تضيق بالملائكة فيها.

(فصل في فضل ليلة القدر وما ورد فيها)

(ق) عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه»، واختلف العلماء في وقتها فقال بعضهم إنها كانت على عهد رسول الله ﷺ ثم رفعت لقوله ﷺ حين تلاحى الرجلان «إني خرجت لأخبركم بليلة القدر فتلاحى فلان وفلان فرفعت وعسى أن يكون خيراً لكم» وهذا غلط ممن قال بهذا القول لأن آخر الحديث يرد عليهم فإنه ﷺ قال في آخره «فالتمسوها في العشر الأواخر في التاسعة والسابعة والخامسة»، فلو كان المراد رفع وجودها لم يأمر بالتّماسها وعامة الصّحابة والعلماء فمن بعدهم على أنها باقية إلى يوم القيامة، روي عن عبد الله بن خنيس مولى معاوية قال قلت لأبي هريرة زعموا أن ليلة القدر رفعت قال كذب من قال ذلك قلت هي في كل شهر رمضان استقبله قال نعم.

ومن قال ببقائها ووجودها اختلفوا في محلها، فقيل هي منتقلة تكون في سنة في ليلة وفي سنة أخرى في ليلة أخرى هكذا أبداً قالوا: وبهذا يجمع بين الأحاديث الواردة في أوقاتها المختلفة وقال: مالك والثّوري وأحمد، وإسحاق وأبو ثور، إنها تنتقل في العشر الأواخر من رمضان، وقيل بل تنتقل في رمضان كله، وقيل إنها في ليلة معينة لا تنتقل عنها أبداً في جميع السنين لا تفارقها، فعلى هذا هي في ليلة من السّنة كلها وهو قول ابن مسعود وأبي حنيفة، وصاحبيه وروي عن ابن مسعود أنه قال: من يقم الحول يصبها فبلغ ذلك عبد الله بن عمر فقال يرحم الله أبا عبد الرحمن. أما إنه علم أنها في شهر رمضان ولكن أراد أن لا يتكل الناس وقال جمهور العلماء: أنها في شهر رمضان، واختلفوا في تلك الليلة فقال أبو رزين العقبلي: في أول ليلة من شهر رمضان، وقيل هي ليلة سبعة عشر وهي الليلة التي كانت صبيحتها وقعة بدر يحكى هذا عن زيد بن أرقم وابن مسعود أيضاً، والحسن والصّحيح الذي عليه الأكثرون أنها في العشر الأواخر من رمضان والله سبحانه وتعالى أعلم.

الله تعالى: ﴿وما قدروا اللَّهَ حقَّ قدره﴾ [الأنعام: ٩١، الزّمر: ٦٧، الحج: ٧٤]، أي: ما عظّموه حق تعظيمه. وقيل: لأن العمل الصالح فيه يكون ذا قدر عند الله لكونه مقبولاً. واختلفوا في وقتها فقال بعضهم: إنها كانت على عهد رسول الله ﷺ ثم رفعت، وعامّة الصحابة والعلماء على أنها باقية إلى يوم القيامة. ورُوِيَ عن عبد الله بن الحسين مولى معاوية قال: قلت لأبي هريرة: زعموا أن ليلة القدر قدْ رُفعتْ؟ قال: كذب مَن قال ذلك، قلت: هي في كل شهر؟ قال: لا بل في شهر رمضان، فاستقبله. وقال بعضهم: هي ليلة من ليالي السنة حتى لو علّق رجل طلاق امرأته وعتق عبده بليلة القدر لا يقع ما لم تمضِ سنة من حين حلف، يُروى ذلك عن ابن مسعود، قال: مَن يقم الحول يصبها فبلغ ذلك عبد الله بن عمر فقال: يرحم الله أبا عبد الرحمن أما إنه علم أنها في شهر رمضان، ولكن أراد أن لا يتّكل النـــاس والجمهور من أهل العلم على أنها في شهر رمضان، واختلفوا في تلك الليلة، قال أبو رزين العقيلي: هي أول ليلة من شهر رمضان، وقال الحسن: ليلة سبع عشرة، وهي الليلة التي كانت صبيحتها وقعة بدر. والصحيح والذي عليه الأكثرون: أنها في العشر الأواخر من شهر رمضان، أخبرنا أبو عثمان سعيد بن إسماعيل الضبي أنا أبو محمد عبد الجبار بن محمد الجراحي ثنا أبو العباس محمد بن أحمد المحبوبي ثنا أبو عيسى الترمذي ثنا هارون بن إسحاق الهمداني ثنا عبدة بن سليمان عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يجاور في العشر الأواخر من رمضان، ويقول: «تحرّوا ليلة القدر في العشر الأواخر من رمضان». أخبرنا أبو عثمان الضبي أنا أبو محمد الجراحي ثنا أبو العباس المحبوبي ثنا أبو عيسى ثنا قتيبة ثنا

(ذكر الأحاديث الواردة في ذلك)

(ق) عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: «كان رسول الله ﷺ يجاور العشر الأواخر من رمضان ويقول تحروا ليلة القدر في العشر الأواخر من رمضان» (م) عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال «أريت ليلة القدر ثم أيقظني بعض أهلي فنسيتها فالتمسوها في العشر الأواخر من رمضان» وذهب الشّافعي إلى أنها ليلة إحدى وعشرين (ق) عن أبي هريرة أن أبا سعيد قال «اعتكفنا مع رسول الله ﷺ العشر الأواسط فلما كانت صبيحة عشرين نقلنا متاعنا فأتانا النبي ﷺ فقال من كان اعتكف فليرجع إلى معتكفه، وأنا رأيت هذه الليلة، ورأيتني أسجد في ماء وطين، فلما رجع إلى معتكفه هاجت السماء فمطرنا فوالذي بعثه بالحق لقد هاجت السماء من آخر ذلك اليوم، وكان المسجد على عريش، ولقد رأيت على أنفه وأرنبته أثر الماء والطين»، وفي رواية نحوه إلا أنه قال «حتى إذا كانت ليلة إحدى وعشرين وهي اللّيلة التي يخرج من صبيحتها من اعتكافه قال من اعتكف معي فليعتكف العشر الأواخر»، وورد في فضل ليلة القدر اثنان وعشرون حديثاً عن عبد الله بن أنيس قال: «كنت في مجلس لبني سلمة وأنا أصغرهم فقالوا من يسأل لنا رسول الله ﷺ عن ليلة القدر وذلك في صبيحة إحدى وعشرين من رمضان فخرجت فوافيت رسول الله ﷺ فقلت أرسلني إليك رهط من بني سلمة يسألونك عن ليلة القدر، فقال كم اللّيلة فقلت اثنتان وعشرون فقال هي اللّيلة، ثم رجع فقال أو القابلة يريد ثلاثاً وعشرين» أخرجه أبو داود.

وذهب جماعة من الصّحابة وغيرهم أن ليلة القدر ليلة ثلاث وعشرين ومال إليه الشّافعي أيضاً (خ) عن الصّنابحي، أنه سأل رجلاً هل سمعت في ليلة القدر شيئاً قال، أخبرني بلال مؤذن رسول الله ﷺ أنها في أول السبع من العشر الأواخر، وهذا اللفظ مختصر عن عبد الله بن أنيس قال: «قلت يا رسول الله إن لي بادية أكون فيها وأنا أصلي فيها بحمد الله فمرني بليلة أنزلها إلى هذا المسجد، فقال أنزل ليلة ثلاث وعشرين قيل لابنه كيف كان أبوك يصنع قال: كان يدخل المسجد إذا صلى العصر فلا يخرج إلا لحاجة حتى يصلي الصبح، فإذا صلى الصبح وجد دابته على باب المسجد فجلس عليها ولحق بباديته» أخرجه أبو داود ولمسلم عنه أن رسول الله ﷺ قال «أريت ليلة القدر ثم أنسيتها وأراني أسجد صبيحتها في ماء وطين» قال فمطرنا ليلة ثلاث وعشرين فصلى بنا رسول الله ﷺ وانصرف وإن أثر الماء والطين على جبهته وأنفه، ويحكى عن بلال وابن عباس والحسن أنها ليلة أربع وعشرين (خ) عن ابن عباس قال

عبد الواحد بن زياد عن الحسن بن عبيد الله عن إبراهيم عن الأسود عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ يجتهد في العشر الأواخر ما لا يجتهد في غيرها. أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا علي بن عبد الله ثنا سفيان عن أبي يعقوب عن أبي الضحى عن مسروق عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت كان رسول الله ﷺ إذا دخل العشر الأواخر من رمضان شَدّ مئزره وأحيا ليله، وأيقظ أهله.

واختلفوا في أنها في أيّ ليلة من العشر أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا قتيبة بن سعيد ثنا إسماعيل بن جعفر ثنا أبو سهيل عن أبيه عن عائشة أن النبي ﷺ قال: «تحرّوا ليلة القدر في الوتر من العشر الأواخر من رمضان». أخبرنا أحمد بن إبراهيم الشريحي أنا أبو إسحاق الثعلبي أنا عبد الله بن حامد الوزّان أنا مكّي بن عبدان ثنا عبد الله بن هاشم بن حيّان ثنا يحيىٰ بن سعيد القطّان ثنا عيينة بن عبد الرحمن حدّثني أبي قال: ذكرتُ ليلةَ القدر عند أبي بَكرة، فقال: ما أنا بطالبها بعد شيء سمعتُه من رسول الله ﷺ إلّا في العشر الأواخر، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «التمسوها في العشر الأواخر من تسع يبقين أو سبع يبقين أو خمس يبقين أو ثلاث يبقين أو آخر ليلة»، وكان أبو بكرة إذا دخل رمضان يصلّي كما يصلّي في سائر السنة، فإذا دخل العشر الأواخر اجتهد. وأخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن

التمسوها في أربع وعشرين، وقيل في ليلة خمس وعشرين دليله قوله ﷺ «تحروا ليلة القدر في الوتر من العشر الأواخر من رمضان»، وقيل هي ليلة سبع وعشرين يحكى ذلك عن جماعة من الصحابة منهم أبي بن كعب وابن عباس وإليه ذهب أحمد (م) عن زر بن حبيش قال سمعت أبي بن كعب يقول وقيل له إن عبد الله بن مسعود يقول من قام السنة أصاب ليلة القدر قال أبي والله الذي لا إله إلا هو إنها لفي رمضان يحلف، ولا يستثني، فوالله إني لأعلم أي ليلة هي هي الليلة التي أمرنا رسول الله ﷺ بقيامها، وهي ليلة سبع وعشرين وأمارتها أن تطلع الشّمس من صبيحة يومها بيضاء لا شعاع لها عن معاوية عن النبي ﷺ «في ليلة القدر، قال ليلة سبع وعشرين» أخرجه أبو داود، وقيل هي ليلة تسع وعشرين دليله قوله «تحروا ليلة القدر في العشر الأواخر من رمضان» وقيل هي ليلة آخر الشهر، عن ابن عمر قال: «سئل رسول الله ﷺ عن ليلة القدر وأنا أسمع، فقال هي في كل رمضان» أخرجه أبو داود قال ويروى موقوفاً عليه.

(ذكر ليال مشتركة)

عن ابن مسعود قال: قال لنا رسول الله ﷺ في ليلة القدر «اطلبوها ليلة سبع وعشرين من رمضان، وليلة إحدى وعشرين وليلة ثلاث وعشرين، ثم سكت» أخرجه أبو داود عن عتبة بن عبد الرّحمن قال: حدثني أبي قال ذكرت ليلة القدر عند أبي بكرة فقال ما أنا بملتمسها بشيء سمعته من رسول الله ﷺ، إلا في العشر الأواخر، فإني سمعته يقول «التمسوها في تسع يبقين أو في خمس يبقين، أو في ثلاث يبقين أواخر الشهر» قال وكان أبو بكرة يصلي في العشرين من رمضان كصلاته في سائر السنة، فإذا دخل العشر الأواخر اجتهد أخرجه التّرمذي (خ) عن عبادة بن الصّامت قال: خرج «رسول الله ﷺ ليخبر بليلة القدر، فتلاحى رجلان من المسلمين فقال النبي ﷺ: إني خرجت لأخبركم بليلة القدر فتلاحى فلان وفلان فرفعت وعسى أن يكون خيراً لكم فالتمسوها في التاسعة والسابعة والخامسة» قوله فتلاحى رجلان أي تخاصم رجلان، وقوله فرفعت لم يرد رفع عينها، وإنما أراد رفع بيان وقتها، ولو كان المراد رفع وجودها لم يأمر بالتماسها، (خ) عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ «هي في العشر في سبع مضين أو سبع يبقين يعني القدر» وفي رواية «في تاسعة تبقى في سابعة تبقى في خامسة تبقى» قال أبو عيسى: «روي عن النبي ﷺ في ليلة القدر أنها ليلة إحدى وعشرين، وليلة ثلاث وعشرين، وخمس وعشرين، وسبع وعشرين، وتسع وعشرين، وآخر ليلة من

يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا محمد بن المثنى حدّثني خالد بن الحارث ثنا حميد ثنا أنس عن عبادة بن الصامت قال: خرج النبي ﷺ ليخبرنا بليلة القدر فَتَلَاحَى رجلان من المسلمين، فقال: «خرجت لأُخبركم بليلة القدر فَتَلَاحَى فلانٌ وفلانٌ فرُفعتْ، وعسى أن يكون خيراً لكم، فالتمسوها في التاسعة والسابعة والخامسة»، أخبرنا أبو الحسن السرخسي أنا زاهر بن أحمد أنا أبو إسحاق الهاشمي أنا أبو مصعب عن مالك عن نافع عن عبد الله بن عمر أن رجالاً من أصحاب النبي ﷺ رأوا ليلةَ القدر في المنام في السبع الأواخر من رمضان فقال رسول الله ﷺ: «إني أرى رؤياكم قد تواطأت في السبع الأواخر فمَن كان متحرّيها فليتحرّاها في السبع الأواخر». ورُوِيَ عن أبي سعيد الخدري: أنها ليلة إحدى وعشرين. أخبرنا أبو الحسن السرخسي أنا زاهر بن أحمد أنا أبو إسحاق الهاشمي أنا أبو مصعب عن مالك عن يزيد بن عبد الله بن الهاد عن محمد بن إبراهيم بن الحارث التيمي عن أبي سلمة بن عبد الرحمن عن أبي سعيد الخدري أنه قال: كان النبي ﷺ يعتكف العشر الوسطى من رمضان، واعتكف عاماً حتى إذا كانت ليلة إحدى وعشرين وهي الليلة التي يخرج صبحها من اعتكافه، قال: «مَن كان اعتكف معي فليعتكف العشر الأواخر، وقد رأيت هذه الليلة ثم أنسيتها، وقد رأيتني أسجد في صبيحتها في ماء وطين، فالتمسوها في العشر الأواخر والتمسوها في كل وتر»، فقال أبو سعيد الخدري: فمطرت السماء تلك الليلة، وكان المسجد على عريش

رمضان» قال الشّافعي: كان هذا عندي والله أعلم أن النبي ﷺ كان يجيب على نحو ما يسأل عنه يقال له نلتمسها في كذا، فقال التمسوها في ليلة كذا قال الشّافعي: وأقوى الروايات عندي في ليلة إحدى وعشرين قال البغوي وبالجملة أبهم الله تعالى هذه الليلة على الأمة ليجتهدوا في العبادة ليالي شهر رمضان طمعاً في إدراكها، كما أخفى ساعة الإجـابة في يوم الجمعة، وأخفى الصّلاة الوسطى في الصّلوات الخمس، واسمه الأعظم في القرآن في أسمائه، ورضاه في الطّاعات ليرغبوا في جميعها، وسخطه في المعاصي لينتهوا عن جميعها، وأخفى قيام السّاعة ليجتهدوا في الطاعات حذراً من قيامها، ومن علاماتها. ما روى الحسن رفعه «إنها ليلة بلجة سمحة لا حارة ولا باردة تطلع الشمس صبيحتها بيضاء لا شعاع لها» (ق) عن عائشة قالت: «كان رسول الله ﷺ إذا دخل العشر الأواخر أحيا اللّيل، وأيقظ أهله، وجد وشد المئزر» ولمسلم عنها قالت «كان رسول الله ﷺ يجتهد في العشر الأواخر من رمضان ما لا يجتهد في غيره» (ق) عنها أن النبي ﷺ كان يعتكف العشر الأواخر من رمضان حتى توفاه الله عز وجل ثم اعتكف أزواجه من بعده (ق) عن ابن عمر رضي الله عنهما «أن رسول الله ﷺ كان يعتكف العشر الأواخر من رمضان» عن عائشة قالت «قلت يا رسول الله إن علمت ليلة القدر ما أقول فيها قال: قولي اللّهم إنك عفو كريم تحب العفو فاعف عني» أخرجه التّرمذي، وقال حديث حسن صحيح أخرجه النسائي وابن ماجه.

فوكف المسجد، قال أبو سعيد: فبصرت عيناي رسول الله ﷺ قد انصرف علينا وعلى جبهته وأنفه أثر الماء والطين من صبيحة إحدى وعشرين. وقال بعضهم: هي ليلة ثلاث وعشرين. أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أبو منصور السمعاني ثنا أبو جعفر الرياني ثنا حميد بن زنجويه ثنا أحمد بن خالد الحمصي ثنا محمد بن إسحاق عن محمد بن إبراهيم حدّثني عبد الله بن أنس عن أبيه أنه قال لرسول الله ﷺ: إني أكون ببادية يقال لها الوطأة وأني بحمد الله أصلّي بهم فمُرْني بليلة من هذا الشهر أنزلها إلى المسجد فأُصلّيها فيه، فقال: «انزل ليلة ثلاث وعشرين فصلّها فيه، وإن أحببت أن تستتمّ آخر الشهر فافعل، وإن أحببت فكُفّ». قال: فكان إذا صلّى العصر دخل المسجد فلم يخرج إلاّ من حاجة حتى يصلّي الصبح، فإذا صلّى الصبح كانت دابّته بباب المسجد. أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أبو منصور السمعاني ثنا أبو جعفر الرياني ثنا حميد بن زنجويه ثنا يعلى بن عبيد ثنا الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة قال: تذاكرنا ليلة القدر فقال رسول الله ﷺ: «كم مضى من الشهر»؟ فقلنا: اثنان وعشرون وبقي ثمان، فقال: «مضى اثنتان وعشرون وبقي سبع، اطلبوها الليلة الشهر تسع وعشرون» وقال قوم: في ليلة سبع وعشرين، وهو قول علي وأُبيّ وعائشة، أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أبو منصور السمعاني ثنا أبو جعفر الرياني ثنا حميد بن زنجويه ثنا يعلى بن عبيد ثنا سفيان عن عاصم عن زر بن حبيش قال: قلت لأُبيّ بن كعب: يا أبا المنذر أخبرنا عن ليلة القدر، فإن ابن مسعود عبد الله يقول: مَن يقمِ الحولَ يصبها، فقال: رحم الله أبا عبد الرحمن، أما إنه قد علم أنها في رمضان ولكن كره أن يخبركم فتتّكلوا هي والذي أنزل القرآن على محمد ﷺ ليلة سبع وعشرين، فقلنا: يا أبا المنذر أنّى علمت هذا؟ قال: بالآية التي أخبرنا النبي ﷺ فحفظناها وعددناها هي والله لا تُنسى، قال: قلنا: وما الآية؟ قال: تطلع الشمس كأنها طاس ليس لها شعاع، ومن علاماتها ما رُوِيَ عن الحسن رفعه: أنها ليلة بلجة سمِحة لا حارّة ولا باردة، تطلع الشمس صبيحتها لا شعاع لها. وفي الجملة أبهم الله هذه الليلة على هذه الأمة ليجتهدوا في العبادة ليالي رمضان طمعاً في إدراكها، كما أخفى ساعة الإجابة في يوم الجمعة وأخفى الصلاة الوسطى في الصلوات الخمس، واسمه الأعظم في الأسماء ورضاه في الطاعات ليرغبوا في جميعها، وسخطه في المعاصي لينتهوا عن جميعها، وأخفى قيام الساعة ليجتهدوا في الطاعات حذراً من قيامها.

﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝٣ تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ۝٤ سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ ۝٥﴾

قوله عزّ وجلّ: ﴿**وما أدراك ما ليلة القدر**﴾ أي شيء يبلغ درايتك قدرها ومبلغ فضلها، وهذا على سبيل التعظيم لها، والتّشويق إلى خيرها ثم ذكر فضلها من ثلاثة أوجه:

فقال تعالى: ﴿**ليلة القدر خير من ألف شهر**﴾ قال ابن عباس: ذكر لرسول الله ﷺ رجل من بني إسرائيل حمل السّلاح على عاتقه في سبيل الله ألف شهر، فعجب رسول الله ﷺ لذلك، وتمنى ذلك لأمته فقال: يا ربِ جعلت أمتي أقصر الأمم أعماراً، وأقلها أعمالاً، فأعطاه الله تبارك وتعالى ليلة القدر، فقال ليلة القدر خير من ألف شهر التي حمل فيها الإسرائيلي السّلاح في سبيل الله لك ولأمتك إلى يوم القيامة، وعن مالك أنه سمع من يثق به من أهل العلم أن النّبي ﷺ أرى أعمار الناس قبله، أو ما شاء الله من ذلك، فكأنه تقاصر أعمار أمته أي لا يبلغوا من العمل مثل الذي يبلغ غيرهم في طول العمر فأعطاه الله ليلة القدر خيراً من ألف شهر أخرجه مالك في الموطأ قال المفسرون: معناه العمل الصّالح في ليلة القدر خير من العمل في ألف شهر ليس فيها ليلة القدر، وإنما كان كذلك لما يريد الله تعالى فيها من المنافع والأرزاق وأنواع الخير والبركة.

الوجه الثاني: من فضلها قوله عزّ وجلّ: ﴿**تنزل الملائكة**﴾ يعني إلى الأرض وسبب هذا أنهم لما قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها وظهر أن الأمر بخلاف ما قالوه وتبين حال المؤمنين وما هم عليه من الطاعة، والعبادة، والجد، والاجتهاد نزلوا إليهم ليسلموا عليها ويعتذروا مما قالوه، ويستغفروا لهم لما يرون من تقصير قد يقع من بعضهم ﴿**والروح**﴾ يعني جبريل عليه الصّلاة والسّلام قاله أكثر المفسرين: وفي حديث أنس عن رسول الله ﷺ قال: «إذا كانت ليلة القدر نزل جبريل في كبكبة من الملائكة يصلون، ويسلمون على كل عبد قائم أو قاعد يذكر الله عزّ وجلّ» ذكره ابن

قوله عزّ وجلّ: ﴿ **ليلةُ القدر خيرٌ من ألف شهر** ﴾، قال عطاء عن ابن عباس: ذُكر لرسول الله ﷺ رجل من بني إسرائيل حمل السلاح على عاتقه في سبيل الله ألف شهر، فعجب رسول الله ﷺ لذلك وتمنى ذلك لأمته، فقال: **«يا رب جعلتَ أُمتي أقصرَ الأمم أعماراً وأقلّها أعمالاً»؟** فأعطاه الله ليلة القدر، فقال: ﴿ **ليلة القدر خير من ألف شهر** ﴾ التي حمل فيها الإسرائيلي السلاح في سبيل الله، ولأمتك إلى يوم القيامة. قال المفسّرون: ﴿ **ليلة القدر خير من ألف شهر** ﴾ **معناه**: عمل صالح في ليلة القدر خير من عمل ألف شهر ليس فيها ليلة القدر، حدّثنا أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري إملاءً ثنا أبو نعيم الإسفراييني أنا أبو عوانة ثنا أبو إسماعيل ثنا الحميدي ثنا سفيان ثنا الزهري أخبرني أبو سلمة عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «مَن قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غُفِرَ له ما تقدّم من ذنبه». وقال سعيد بن المسيب: مَن شهد المغرب والعشاء في جماعة فقد أخذ بحظه من ليلة القدر. أخبرنا أحمد بن إبراهيم الشريحي أنا أبو إسحاق الثعلبي أنا أبو بكر بن عبدوس المزكي ثنا أبو العباس محمد بن يعقوب ثنا الحسن بن مكرم ثنا يزيد بن هارون أنا كهمس عن عبد الله بن بريدة أن عائشة قالت للنبي ﷺ: إن وافيتُ ليلةَ القدر فما أقول؟ قال: «قولي اللّهمَّ إنك عفوٌّ تحبُّ العفوَ فاعفُ عنّي».

قوله عزّ وجلّ: ﴿ **تنزّل الملائكة والروح** ﴾، يعني جبريل عليه السلام معهم، ﴿ **فيها** ﴾، أي في ليلة القدر، ﴿ **بإذن ربّهم من كل أمر** ﴾، أي بكل أمر من الخير والبركة، كقوله: ﴿ **يحفظونه من أمر الله** ﴾ [الرعد: ١١] أي بأمر الله.

الجوزي، وقيل إن الرّوح طائفة من الملائكة لا تراهم الملائكة إلا في تلك الليلة ينزلون من لدن غروب الشّمس إلى طلوع الفجر، وقيل إن الروح ملك عظيم ينزل مع الملائكة، تلك الليلة ﴿فيها﴾ أي في ليلة القدر ﴿بإذن ربهم﴾ أي بأمر ربهم ﴿من كل أمر﴾ أي بكل أمر من الخير والبركة، وقيل بكل ما أمر به وقضاه من كل أمر.

الوجه الثالث: من فضلها قوله تعالى: ﴿سلام﴾ أي سلام على أولياء الله وأهل طاعته قال الشّعبي: هو تسليم الملائكة في ليلة القدر على أهل المساجد من حين تغيب الشمس إلى أن يطلع الفجر، وقيل الملائكة ينزلون فيها كلما لقوا مؤمناً أو مؤمنة يسلمون عليه من ربه عزّ وجلّ، وقيل تم الكلام عند قوله ﴿من كل أمر﴾ ثم ابتدأ فقال تعالى: ﴿سلام هي﴾ يعني القدر سلامة وخير ليس فيها شر، وقيل لا يقدر الله في تلك اللّيلة ولا يقضي إلا السلامة، وقيل إن ليلة القدر سالمة لا يستطيع الشيطان أن يعمل فيها سوءاً أو يحدث فيها أذى ﴿حتى مطلع الفجر﴾ أي أن ذلك السّلام أو السّلامة تدوم إلى مطلع الفجر، والله سبحانه وتعالى أعلم بمراده.

﴿ سلامٌ ﴾، قال عطاء يريد سلام على أولياء الله وأهل طاعته. قال الشعبي: هو تسليم الملائكة ليلة القدر على أهل المساجد من حين تغيب الشمس إلى أن يطلع الفجر. قال الكلبي: الملائكة ينزلون فيها كلما لقوا مؤمناً أو مؤمنة سلّموا عليه من ربّه حتى يطلع الفجر. وقيل: تمّ الكلام عند قوله: ﴿ بإذن ربّهم من كل أمر ﴾ ثم ابتدأ فقال: ﴿ سلامٌ هي ﴾، أي ليلة القدر سلام وخير كلها، ليس فيها شرّ. قال الضحّاك: لا يُقدّر الله في تلك الليلة ولا يقضي إلّا السلامة. وقال مجاهد: يعني أن ليلة القدر سالمة لا يستطيع الشيطان أن يعمل فيها سوءاً، ولا أن يحدث فيها أذىً، ﴿ حتى مطلع الفجر ﴾، أي إلى مطلع الفجر، قرأ الكسائي مطلع بكسر اللام، والآخرون بفتحها وهو الاختيار بمعنى الطلوع على المصدر، يقال: طلع الفجر طلوعاً ومطلعاً، والكسر موضع الطلوع.

سورة لم يكن

وتسمى سورة البينة وهي مدنية قاله الجمهور، وفي رواية عن ابن عباس أنها مكية هي ثمان آيات، وأربع وتسعون كلمة وثلاثمائة وتسعة وتسعون حرفاً

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ۝١ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا
مُّطَهَّرَةً ۝٢ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ۝٣ وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ۝٤﴾

قوله عزّ وجلّ: ﴿لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب﴾ يعني اليهود والنّصارى ﴿والمشركين﴾ أي ومن المشركين، وهم عبدة الأوثان، وذلك أن الكفار كانوا جنسين أحدهما أهل كتاب وسبب كفرهم ما أحدثوه في دينهم، أما اليهود فقولهم عزيز ابن الله وتشبيههم الله بخلقه، وأما النّصارى فقولهم المسيح ابن الله وثالث ثلاثة وغير ذلك، والثاني المشركون أهل الأوثان الذين لا ينتسبون إلى كتاب الله، فذكر الله الجنسين في قوله: ﴿لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين﴾ أي منتهين عن كفرهم وشركهم وقيل معناه زائلين ﴿حتى تأتيهم﴾ أي حتى أتتهم لفظه مضارع ومعناه الماضي ﴿البينة﴾ أي الحجة الواضحة يعني محمداً ﷺ أتاهم بالقرآن فبين لهم ضلالتهم، وشركهم وما كانوا عليه من الجاهلية، ودعاهم إلى الإيمان، فآمنوا فأنقذهم الله من الجهالة والضّلالة ولم يكونوا منفصلين عن كفرهم قبل بعثه إليهم، والآية فيمن آمن من الفريقين، قال الواحدي في بسيطه، وهذه الآية من أصعب ما في القرآن نظماً، وتفسيراً وقد تخبط فيها الكبار من العلماء.

قال الإمام فخر الدين في تفسيره إنه لم يخلص كيفية الإشكال، فيها وأنا أقول وجه الإشكال أن تقدير الآية لم يكن الذين كفروا منفكين عن كفرهم حتى تأتيهم البينة التي هي الرّسول، ثم إنه تعالى لم يذكر أنهم منفكون عماذا لكنه معلوم إذ المراد هو الكفر الذي كانوا عليه، فصار التقدير لم يكن الذين كفروا منفكين عن كفرهم حتى تأتيهم البينة، التي هي الرسول، ثم إن كلمة حتى لانتهاء الغاية، فهذه الآية تقتضي أنهم صاروا منفكين عن كفرهم عند إتيان الرّسول ثم قال بعد ذلك وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة، وهذا يقتضي أن كفرهم قد ازداد عند

سُوْرَة البيِّنَة

مدنيّة وهي ثمان آيات.

﴿ لمْ يكنِ الذينَ كفروا من أهل الكتاب ﴾، وهم اليهود والنصارى، ﴿ والمشركين ﴾، وهم عَبَدَة الأوثان، ﴿ منفكّين ﴾، زائلين منفصلين، يقال: فككت الشيء فانفكّ أي انفصل، ﴿ حتى تأتيهم البيِّنة ﴾، لفظه مستقبل ومعناه الماضي أي حتى أتتهم الحجة الواضحة، يعني محمد ﷺ أتاهم بالقرآن فبيّن لهم ضلالتهم وجهالتهم ودعاهم إلى الإسلام والإيمان، فهذه الآية فيمن آمن من الفريقين، أخبر أنهم لم ينتهوا عن الكفر حتى أتاهم

مجيء الرّسول، فحينئذ يحصل بين الآية الأولى والثانية مناقضة في الظاهر، وهذا منتهى الإشكال في ظني قال والجواب عنه من وجوه:

أولها: وأحسنها الوجه، الذي لخصه صاحب الكشاف وهو أن الكفار من الفريقين أهل الكتاب، وعبدة الأوثان كانوا يقولون قبل مبعث محمد ﷺ لا ننفك عما نحن عليه من ديننا، ولا نتركه حتى يبعث النبي الموعود الذي هو مكتوب في التّوراة، والإنجيل وهو محمد ﷺ فحكى الله تعالى عنهم ما كانوا يقولونه، ثم قال ﴿**وما تفرق الذين أوتوا الكتاب**﴾، أي أنهم كانوا يعدلون اجتماع الكلمة والاتفاق على الحق إذا جاءهم الرسول، ثم ما فرقهم عن الحق ولا أقرهم على الكفر إلا مجيء الرسول، ونظيره في الكلام ما يقول الفاسق الفقير لمن يعظه لست بمنفك مما أنا فيه من الأفعال القبيحة حتى يرزقني الله الغنى فيرزقه الله الغنى فيزداد فسقاً، فيقول واعظه لم تكن منفكاً عن الفسق حتى توسر وما غمست رأسك في الفسق إلا بعد اليسار فيذكره ما كان يقول توبيخاً، وإلزاماً قال الإمام فخر الدين: وحاصل هذا الجواب يرجع إلى حرف واحد وهو أن قوله تعالى لم يكن الذين كفروا منفكين عن كفرهم حتى تأتيهم البينة مذكور حكاية عنهم، وقوله وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إخبار عن الواقع، والمعنى أن الذي وقع كان بخلاف ما ادعوا أو ثانيها أن تقدير الآية لم يكن الذين كفروا منفكين عن كفرهم وإن جاءتهم البينة وعلى هذا التقدير يزول الإشكال إلا أن تفسير لفظة حتى بهذا ليس من اللغة في شيء وذكر وجوهاً أخر قال: والمختار هو الأول ثم فسر البينة فقال تعالى: ﴿**رسول من الله**﴾ أي تلك البينة رسول من الله ﴿**يتلوا**﴾ أي يقرأ الرسول ﷺ ﴿**صحفاً**﴾ أي كتباً يريد ما تضمنه المصحف من المكتوب فيه وهو القرآن لأنه كان ﷺ يقرأ عن ظهر قلبه لا عن كتاب ﴿**مطهرة**﴾ أي من الباطل والكذب، والزّور، والمعنى أنها مطهرة من القبيح، وقيل معنى مطهرة معظمة، وقيل مطهرة أي لا ينبغي أن يمسها إلا المطهرون ﴿**فيها**﴾ أي في الصحف ﴿**كتب**﴾ أي الآيات المكتوبة وقيل الكتب بمعنى الأحكام ﴿**قيمة**﴾ أي عادلة مستقيمة غير ذات عوج، وقيل قيمة بمعنى قائمة مستقلة بالحجة من قولهم قام بالأمر إذا أجراه على وجهه، ثم ذكر من لم يؤمن من أهل الكتاب فقال تعالى: ﴿**وما تفرق الذين أوتوا الكتاب**﴾ يعني في أمر محمد ﷺ ﴿**إلا من بعد ما جاءتهم البينة**﴾ يعني جاءتهم البنية في كتبهم أنه نبي مرسل قال المفسرون لم يزل أهل الكتاب مجتمعين في تصديق

الرسول فدعاهم إلى الإيمان فآمنوا فأنقذهم الله من الجهل والضلالة.

ثم فسّر البيّنة فقال: ﴿ **رسولٌ من الله يتلو** ﴾، يقرأ، ﴿ **صُحفاً** ﴾، كتاباً، يريد ما يتضمنه الصحف من المكتوب فيها، وهو القرآن لأنه كان يتلو عن ظهر قلبه لا عن كتاب، قوله: ﴿ **مطهّرة** ﴾، من الباطل والكذب والزور.

﴿ **فيها** ﴾، أي في الصحف، ﴿ **كتبٌ** ﴾، يعني الآيات والأحكام المكتوبة فيها، ﴿ **قيمة** ﴾، عادلة مستقيمة غير ذات عوج.

ثم ذكر مَن لم يؤمن من أهل الكتاب فقال: ﴿ **وما تفرّق الذين أُوتوا الكتاب** ﴾، في أمر محمد ﷺ، ﴿ **إلاّ من بعد ما جاءتهم البيّنة** ﴾، أي البيان في كتبهم أنه نبيّ مرسل. قال المفسّرون: لم يزل أهل الكتاب مجتمعين في تصديق محمد ﷺ حتى بعثه الله، فلما بُعث تفرّقوا في أمره واختلفوا، فآمن به بعضُهم، وكفر آخرون. وقال بعض أئمة اللغة: معنى قوله: ﴿ **منفكّين** ﴾ أي هالكين، من قولهم: انفكّ صلاء المرأة عند الولادة، وهو أن ينفصل فلا يلتئم فتهلك. ومعنى الآية: لم يكونوا هالكين معذّبين إلاّ من بعد قيام الحجة عليهم بإرسال الرسول وإنزال الكتاب، والأول أصح، ثم ذكر ما أُمروا به في كتبهم فقال:

محمد ﷺ حتى بعثه الله تعالى فلما بعث تفرقوا في أمره، واختلفوا فيه، فآمن به بعضهم وكفر به آخرون، ثم ذكر ما أمروا به في كتبهم فقال تعالى:

﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ٥ إِنَّ
ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ شَرُّ ٱلۡبَرِيَّةِ ٦ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ
وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ ٧ جَزَآؤُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ
رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ ٨﴾

﴿**وما أمروا**﴾ يعني هؤلاء الكفار ﴿**إلا ليعبدوا الله**﴾ أي وما أمروا إلا أن يعبدوا الله قال ابن عباس: ما أمروا في التوراة، والإنجيل، إلا بإخلاص العبادة لله موحدين له ﴿**مخلصين له الدين**﴾ الإخلاص عبارة عن النّية الخالصة، وتجريدها عن شوائب الرّياء، وهو تنبيه على ما يجب من تحصيل الإخلاص من ابتداء الفعل إلى انتهائه، والمخلص هو الذي يأتي بالحسن لحسنه والواجب لوجوبه والنّية الخالصة لما كانت معتبرة. كانت النية معتبرة فقد دلت الآية على أن كل مأمور به فلا بد وأن يكون منوياً فلا بد من اعتبار النية في جميع المأمورات، قال أصحاب الشّافعي: الوضوء مأمور به ودلت هذه الآية على أن كل مأمور به يجب أن يكون منوياً، فتجب النية في الوضوء، وقيل الإخلاص محله القلب وهو أن يأتي بالفعل لوجه الله تعالى مخلصاً له، ولا يريد بذلك رياء ولا سمعة ولا غرضاً آخر حتى قالوا في ذلك لا يجعل طلب الجنة مقصوداً ولا النجاة من النار مطلوباً، وإن كان لا بد من ذلك بل يجعل العبد عبادته لمحض العبودية واعترافاً لربه عزّ وجلّ بالرّبوبية، وقيل في معنى مخلصين له الدّين مقرين له بالعبودية، وقيل قاصدين بقلوبهم رضا الله تعالى بالعبادة (م) عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ «إن الله تعالى لا ينظر إلى أجسامكم، ولا صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم» ﴿**حنفاء**﴾ أي مائلين عن الأديان كلها إلى دين الإسلام، وقيل متبعين ملة إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام، وقيل حنفاء أي حجاجاً وإنما قدمه على الصّلاة والزّكاة لأن فيه صلاة وإنفاق مال، وقيل حنفاء أي مختونين محرمين لنكاح المحارم، وقيل الحنيف الذي آمن بجميع الأنبياء والرّسل، ولا يفرق بين أحد منهم فمن لم يؤمن بأشرف الأنبياء وهو محمد ﷺ فليس بحنيف ﴿**ويقيموا الصلاة**﴾ أي المكتوبة في أوقاتها ﴿**ويؤتوا الزكاة**﴾ أي المفروضة عند محلها ﴿**وذلك**﴾ أي الذي أمروا به ﴿**دين القيمة**﴾ أي الملة المستقيمة والشّريعة المتبوعة، وإنما أضاف الدين إلى القيمة وهي نعته لاختلاف اللفظين وأنث القيمة رداً إلى الملة، وقيل الهاء في القيمة للمبالغة كعلامة، وقيل القيمة الكتب التي جرى ذكرها، أي وذلك دين أصحاب الكتب القيمة، وقيل القيمة جمع القيم، والقيم، والقائم واحد والمعنى وذلك دين القائمين لله بالتوحيد واستدل بهذه الآية من يقول إن الإيمان قول وعمل لأن الله تعالى ذكر الاعتقاد أولاً وأتبعه بالعمل ثانياً ثم قال وذلك دين القيمة والدين هو الإسلام والإسلام هو الإيمان بدليل قوله ﴿**فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين**﴾ ثم ذكر ما للفريقين فقال تعالى: ﴿**إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين**﴾ فإن قلت لم قدم أهل الكتاب على المشركين.

﴿ **وما أمروا** ﴾، يعني هؤلاء الكفّار، ﴿ **إلاّ ليعبدوا الله** ﴾ يعني إلاّ أن يعبدوا الله، ﴿ **مخلصين له الدين** ﴾، قال ابن عباس: ما أمروا في التوراة والإنجيل إلاّ بإخلاص العبادة لله موحّدين، ﴿ **حنفاء** ﴾، مائلين عن الأديان كلها إلى دين الإسلام، ﴿ **ويقيموا الصلاة** ﴾، المكتوبة في أوقاتها، ﴿ **ويُؤتوا الزكاة** ﴾، عند محلها، ﴿ **وذلك** ﴾، الذي أمروا به، ﴿ **دين القيّمة** ﴾، أي الملّة والشريعة المستقيمة، أضاف الدين إلى القيّمة وهي نعته لاختلاف اللفظين، وأنّث القيّمة ردّاً بها إلى الملّة، وقيل: الهاء فيه للمبالغة، وقيل: القيّمة هي الكتب التي جرى ذكرها، أي

قلت لأن جنايتهم أعظم في حق رسول الله ﷺ وذلك أنهم كانوا يستفتحون به قبل بعثته ويقرون بنبوته، فلما بعث أنكروه وكذبوه وصدوه مع العلم به فكانت جنايتهم أعظم من المشركين فلهذا قدمهم عليهم.

فإن قلت إن المشركين أعظم جناية من أهل الكتاب لأن المشركين أنكروا الصانع والنّبوة، والقيامة وأهل الكتاب اعترفوا بذلك غير أنهم أنكروا نبوة محمد ﷺ وإذا كان كذلك كان كفرهم أخف فلم سوى بين الفريقين في العذاب.

قلت لما أراد أهل الكتاب الرّفعة في الدّنيا بإنكارهم نبوة محمد ﷺ أذلهم الله في الدّنيا، وأدخلهم أسفل سافلين في الآخرة ولا يمنع من دخولهم النّار مع المشركين أن تتفاوت مراتبهم في العذاب. **﴿في نار جهنم خالدين فيها أولئك هم شر البرية﴾** أي هم شر الخلق والمعنى أنهم لما استحقوا النار بسبب كفرهم قالوا: فهل إلى خروج من سبيل فقال بل تبقون خالدين فيها، فكأنهم قالوا لم ذلك قال لأنكم شر البرية. **﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصّالحات أولئك هم خير البرية﴾** يعني أنهم بسبب أعمالهم الصّالحة واجتنابهم الشرك استحقوا هذا الاسم **﴿جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً رضي الله عنهم ورضوا عنه﴾** قيل الرّضا ينقسم إلى قسمين: رضا به ورضا عنه، فالرضا به أن يكون ربا ومدبراً، والرّضا عنه فيما يقضي ويدبر قال السري: إذا كنت لا ترضى عن الله فكيف تسأله الرضا عنك، وقيل رضى الله أعمالهم، ورضوا عنه بما أعطاهم من الخير والكرامة **﴿ذلك﴾** أي هذا الجزاء والرضا **﴿لمن خشي ربه﴾** أي لمن خاف ربه في الدّنيا وانتهى عن المعاصي (ق) عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ لأبي بن كعب «إن الله أمرني أن أقرأ عليك **﴿لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب﴾** قال وسماني قال نعم فبكى» وفي رواية البخاري «أن النبي ﷺ قال لأبي بن كعب إن الله أمرني أن أقرأ عليك القرآن، قال الله سماني لك، قال نعم قال وقد ذكرت عند رب العالمين قال نعم قيل فذرفت عيناه»:

(شرح غريب الحديث)

أما بكاء أبي فإنه بكى سروراً، واستصغاراً لنفسه عن تأهله لهذه النّعمة العظيمة وإعطائه تلك المنزلة الكريمة، والنعمة عليه فيها من وجهين أحدهما: كونه منصوصاً عليه بعينه والثاني قراءة النبي ﷺ، فإنها منقبة عظيمة لم يشاركه فيها أحد من الصّحابة، وقيل إنما بكى خوفاً من تقصيره في شكره هذه النعمة.

وأما تخصيص هذه السّورة بالقراءة، فإنها مع وجازتها جامعة لأصول وقواعد ومهات عظيمة، وكان الحال

وذلك دين الكتب القيّمة فيما تدعو إليه وتأمر به، كما قال: ﴿ وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ﴾ [البقرة: ٢١٣]. قال النضر بن شميل: سألت الخليل بن أحمد عن قوله: **﴿ وذلك دين القيّمة ﴾** فقال: القيّمة جمع القيم، والقيّمُ والقائمُ واحد، مجاز الآية: وذلك دين القائمين لله بالتوحيد.

ثم ذكر ما للفريقين فقال: **﴿ إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين في نار جهنم خالدين فيها أولئك هم شرُّ البَرِيّة ﴾**، قرأ نافع وابن عامر (البريئة) بالهمزة في الحرفين لأنه من قولهم: برأ الله الخلق، وقرأ الآخرون مشدّداً بغير همز كالذريّة، ترك همزها في الاستعمال.

﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البَرِيّة * جزاؤهم عند ربهم جنّات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمَن خشيَ ربَّه ﴾، وتناهَى عن المعاصي، وقيل: الرضا ينقسم إلى قسمين: رضاً به ورضاً عنه، فالرضا به: ربّاً ومُدبِّراً، والرضا عنه: فيما يقضي ويقدِّر. قال السري

يقتضي الاختصار، وأما الحكمة في أمر النبي ﷺ بالقراءة على أبي فهي أن يتعلم أبي القراءة من ألفاظه ﷺ، وضبط أسلوب الوزن المشروع وقدره بخلاف ما سواه من النّعم المستعملة في غيره فكانت قراءته على أبي ليتعلم أبي منه لا ليتعلم هو من أبي وقيل إنما قرأ على أبي ليتعلم غيره التواضع والأدب وأن لا يستنكف الشريف وصاحب الرتبة العالية أن يتعلم القرآن ممن هو دونه، وفيه تنبيه على فضيلة أبي والحث عن الأخذ عنه وتقديمه في ذلك فكان كذلك بعد النبي ﷺ رأساً وإما ما في القراءة وغيرها، وكان أحد علماء الصحابة رضي الله عنهم أجمعين والله سبحانه وتعالى أعلم بمراده وأسرار كتابه.

رحمه الله: إذا كنت لا ترضى عن الله فكيف تسأله الرضا عنك؟ أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا محمد بن بشّار ثنا غندر ثنا شعبة سمعت قتادة عن أنس بن مالك قال النبي ﷺ لأُبيّ: «إن الله تعالى أمرَني أن أقرأ عليك: ﴿ لم يكنِ الذين كفروا ﴾»، قال: وسمّاني ربّي؟ قال: «نعم»، فبكى، وقال همّام عن قتادة: «أمرني أن أقرأ عليك القرآن».

سورة الزلزلة

وهي مكية وقيل مدنية وهي ثمان آيات وخمس وثلاثون كلمة ومائة وتسعة وأربعون حرفاً عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ «إذا زلزلت تعدل نصف القرآن، وقل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن، وقال يا أيها الكافرون تعدل ربع القرآن» أخرجه الترمذي وقال: حديث غريب وله عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «من قرأ ﴿إذا زلزلت﴾ عدلت له نصف القرآن ومن قرأ ﴿قل يا أيها الكافرون﴾ عدلت له ربع القرآن ومن قرأ ﴿قل هو الله أحد﴾ عدلت له ثلث القرآن» وقال حديث غريب.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ﴿٣﴾ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٦﴾

قوله عزّ وجلّ: ﴿إذا زلزلت الأرض زلزالها﴾ أي تحركت حركة شديدة، واضطربت، وذلك عند قيام الساعة، وقيل تزلزل من شدة صوت إسرافيل حتى ينكسر كل ما عليها من شدة الزّلزلة ولا تسكن حتى تلقي ما على ظهرها من جبل، وشجر، وبناء وفي وقت هذه الزّلزلة قولان أحدهما: وهو قول الأكثرين، أنها في الدّنيا، وهي من أشراط السّاعة والثاني أنها زلزلت يوم القيامة. ﴿وأخرجت الأرض أثقالها﴾ فمن قال إن الزّلزلة تكون في الدّنيا قال أثقالها كنوزها، وما في بطنها من الدّفائن، والأموال فتلقيها على ظهرها يدل على صحة هذا القول، ما روي عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ «تقيء الأرض أفلاذ كبدها أمثال الأسطوانة من الذهب، والفضة، فيجيء القاتل فيقول في هذا قتلت ويجيء القاطع، فيقول في هذا قطعت رحمي، ويجيء السّارق فيقول في هذا قطعت يدي،

سُورَة الزّلزَلَة

مدنيّة وهي ثمان آيات.

﴿ إذا زلزلتِ الأرضُ ﴾، حرّكت الأرض حركة شديدة لقيام الساعة، ﴿ زلزالها ﴾، تحريكها.

﴿ وأخرجتِ الأرضُ أثقالها ﴾، موتاها وكنوزها فتلقيها على ظهرها، أخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر بن عبد الغافر بن محمد أنا محمد بن عيسى الجلودي حدّثنا إبراهيم بن محمد بن سفيان حدّثنا مسلم بن الحجّاج حدّثنا واصل بن عبد الأعلى ثنا محمد بن فضيل عن أبيه عن أبي حازم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «تقيء الأرض أفلاذ كبدها أمثال الأسطوانة من الذهب والفضة، فيجيء القاتل فيقول في هذا قتلت، ويجيء القاطع فيقول في هذا قطعت رحمي، ويجيء السارق فيقول في هذا قطعت يدي، ثم يدعونه فلا يأخذون منه شيئاً».

﴿ وقال الإنسان ما لها ﴾؟ قيل: في الآية تقديم وتأخير تقديره:

ثم يدعونه فلا يأخذون منه شيئاً» أخرجه مسلم والأفلاذ جمع فلذة وهي القطعة المستطيلة شبه ما يخرج من باطنها بإقطاع كبدها، لأن الكبد مستور في الجوف، وإنما خص الكبد لأنها من أطيب ما يشوى عند العرب من الجزور، واستعار القيء للإخراج، ومن قال بأن الزّلزلة تكون يوم القيامة، قال أثقالها الموتى فتخرجهم إلى ظهرها قيل إن الميت إذا كان في بطن الأرض، فهو ثقل لها وإذا كان فوقها، فهو ثقل عليها، ومنه سميت الجن والإنس بالثقلين لأن الأرض تثقل بهم أحياء وأمواتاً. ﴿**وقال الإنسان ما لها**﴾ يعني ما لها تزلزلت هذه الزلزلة العظيمة، ولفظت ما في بطنها وفي الإنسان وجهان. أحدهما أنه اسم جنس يعم المؤمن والكافر، وهذا على قول من جعل الزّلزلة من أشراط السّاعة، والمعنى أنها حين وقعت لم يعلم الكل أنها من أشراط السّاعة، فيسأل بعضهم بعضاً عن ذلك، والثاني أنه اسم للكافر خاصة وهذا على قول من جعلها زلزلة القيامة لأن المؤمن عارف بها فلا يسأل عنها، والكافر جاحد لها، فإذا وقعت سأل عنها، وقيل مجاز الآية ﴿**يومئذ تحدث أخبارها**﴾ فيقول الإنسان ما لها، والمعنى أن الأرض تحدث بكل ما عمل على ظهرها من خير أو شر، فتشكوا العاصي، وتشهد عليه وتشكر الطّائع وتشهد له «عن أبي هريرة قال: قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية ﴿**يومئذ تحدث أخبارها**﴾ قال أتدرون ما أخبارها قالوا الله ورسوله أعلم، قال فإن أخبارها أن تشهد على كل عبد أو أمة بما عمل على ظهرها تقول عمل يوم كذا كذا وكذا فهذه أخبارها» أخرجه التّرمذي، وقال حديث حسن صحيح ﴿**بأن ربك أوحى لها**﴾ أي أمرها بالكلام وأذن لها أن تخبر بما عمل عليها قال ابن عباس: أوحى إليها قيل إن الله تعالى يخلق في الأرض الحياة، والعقل، والنطق حتى تخبر بما أمر الله به وهذا مذهب أهل السنة.

قوله تعالى: ﴿**يومئذ يصدر النّاس**﴾ أي عن موقف الحساب بعد العرض ﴿**أشتاتاً**﴾ أي متفرقين فآخذ ذات اليمين إلى الجنة وآخذ ذات الشمال إلى النار ﴿**ليروا أعمالهم**﴾ قال ابن عباس ليروا جزاء أعمالهم، وقيل معناه ليروا صحائف أعمالهم التي فيها الخير والشّر وهو قوله تعالى:

فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾

﴿**فمن يعمل مثقال ذرة**﴾ قال وزن نملة صغيرة وقيل هو ما لصق من التراب باليد ﴿**خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة**

﴿ **يومئذ تحدّث أخبارها** ﴾، فيقول الإنسان: ما لها، أي تخبر الأرض بما عمل عليها، أخبرنا أبو بكر محمد بن عبد الله بن أبي توبة أنا طاهر محمد بن أحمد بن الحارث أنا محمد بن يعقوب الكسائي أنا عبد الله بن محمود أنا إبراهيم بن عبد الله الخلال ثنا عبد الله بن المبارك عن سعيد بن أبي أيوب ثنا يحيـىٰ بن أبي سليمان عن سعيد المقبري عن أبي هريرة قال: قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية ﴿ **يومئذ تحدّث أخبارها** ﴾ قال: «أتدرون ما أخبارها»؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «فإن أخبارها أن تشهد على كل عبد وأمة بما عمل على ظهرها، تقول: عمل يوم كذا وكذا كذا كذا، قال: فهذه أخبارها».

﴿ **بأنّ ربك أوحى لها** ﴾، أي أمرها بالكلام وأذن لها بأن تخبر بما عمل عليها. قال ابن عباس والقرظي: أوحى إليها، ومجاز الآية: يوحي الله إليها، يقال: أوحى لها وأوحى إليها ووحّى لها ووحّى إليها واحد.

قوله تعالى: ﴿ **يومئذ يصدر الناس** ﴾، يرجع الناس عن موقف الحساب بعد العرض، ﴿ **أشتاتاً** ﴾، متفرقين فأخذ ذات اليمين إلى الجنة وأخذ ذات الشمال إلى النار، كقوله: ﴿ يومئذ يتفرقون ﴾ [الروم: ١٤] ﴿ **يومئذ يصدعون** ﴾ [الروم: ٤٣]. ﴿ **ليروا أعمالهم** ﴾، قال ابن عباس: ليروا جزاء أعمالهم، والمعنى أنهم يرجعون عن الموقف فرقاً لينزلوا منازلهم من الجنة والنار.

﴿ **فمَن يعمل مثقال ذرّة** ﴾، وزن نملة صغيرة أصغر ما يكون من النمل. ﴿ **خيراً يره** ﴾.

شراً يره﴾ قال ابن عباس: ليس مؤمن ولا كافر عمل خيراً أو شراً في الدّنيا إلا أراه الله إياه يوم القيامة، فأما المؤمن فيرى حسناته وسيئاته فيغفر الله له سيئاته، ويثيبه بحسناته، وأما الكافر، فيرد حسناته ويعذبه بسيئاته، وقال محمد بن كعب القرظي فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره من كافر يرى ثوابه في الدّنيا في نفسه وولده وأهله وماله حتى يخرج من الدّنيا وليس له عند الله خير ومن يعلم مثقال ذرة شراً يره من مؤمن يرى عقوبته في الدّنيا في نفسه، وماله، وولده وأهله حتى يخرج من الدّنيا وليس له عند الله شر قيل نزلت هذه الآية في رجلين وذلك أنه لما نزلت **﴿ويطعمون الطعام على حبه﴾** وكان أحدهما يأتيه السائل، فيستقل أن يطعمه التّمرة والكسرة، والجوزة ونحو ذلك ويقول هذا ليس بشيء يؤجر عليه إنما يؤجر على ما يعطي ونحن نحبه، وكان الآخر يتهاون بالذّنب الصّغير مثل الكذبة والنظرة وأشباه ذلك ويقول إنما وعد الله النار على الكبائر وليس في هذا، إثم فأنزل الله هذه الآية يرغبهم في القليل من الخير أن يعطوه فإنه يوشك أن يكثر ويحذرهم من اليسير من الذّنب، فإنه يوشك أن يكبر والإثم الصغير في عين صاحبه يصير مثل الجبل العظيم يوم القيامة قال ابن مسعود: أحكم آية في القرآن **﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره﴾** وسمي رسول الله ﷺ هذه الآية الجامعة الفاذة حين سأل عن زكاة الحمير، فقال ما أنزل الله فيها شيئاً إلا هذه الآية الجامعة الفاذة، **﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره﴾** وتصدق عمر بن الخطاب وعائشة كل واحد منهما بحبة عنب، وقالا فيها مثاقيل كثيرة، قلت إنما كان غرضهما تعليم الغير وإلا فهما من كرماء الصحابة رضي الله تعالى عنهم وقال الربيع بن خيثم: مر رجل بالحسن وهو يقرأ هذه السّورة فلما بلغ آخرها قال حسبي الله قد انتهت الموعظة، والله سبحانه وتعالى أعلم بمراده وأسرار كتابه.

﴿ ومَن يعمل مثقال ذرّة شرّاً يره ﴾، وقال ابن عباس: ليس مؤمن ولا كافر عمل خيراً أو شرّاً في الدنيا إلّا أراه الله له يوم القيامة، فأما المؤمن فيرى حسناته وسيئاته فيغفر الله سيئاته ويثيبه بحسناته، وأما الكافر فيردّ حسناته ويعذّب بسيئاته. قال محمد بن كعب: في هذه الآية: **﴿ فمَن يعمل مثقال ذرّة خيراً يره ﴾**، من كافر يرى ثوابه في الدنيا في نفسه وماله وأهله وولده، حتى يخرج من الدنيا وليس له عند الله خير، **﴿ ومَن يعمل مثقال ذرّة شرّاً يره ﴾** من مؤمن يرى عقوبته في الدنيا في نفسه وماله وأهله وولده، حتى يخرج من الدنيا وليس له عند الله شر. قال مقاتل: نزلت هذه الآية في رجلين وذلك أنه لمّا نزل ﴿ ويطعمون الطعام على حبّه ﴾ [الإنسان: ٨] كان أحدهما يأتيه السائل فيستقل أن تعطيه التمرة والكسرة والجوزة ونحوها، يقول: ما هذا بشيء إنما تؤجر على ما تعطي ونحن نحبّه، وكان الآخر يتهاون بالذنب اليسير كالكذبة والغيبة والنظرة وأشباه ذلك، ويقول: إنما وعد الله النار على الكبائر، وليس في هذا إثم، فأنزل الله تعالى هذه الآية يرغّبهم في القليل من الخير أن يعطوه، فإنه يوشك أن يكثر، ويحذّرهم اليسير من الذنب فإنه يوشك أن يكثر، فالإثم الصغير في عين صاحبه أعظم عند الله من الجبال يوم القيامة، وجميع محاسنه أقل من كل شيء. قال ابن مسعود: أحكم آية في القرآن **﴿ فمَن يعمل مثقال ذرّة خيراً يره * ومَن يعمل مثقال ذرّة شرّاً يره ﴾**». وكان رسول الله ﷺ يسمّيها الجامعة الفاذّة حين سُئِلَ عن زكاة الحمير فقال: «ما أنزل عليّ فيها شيء إلّا هذه الآية الجامعة الفاذّة **﴿ فمَن يعمل مثقال ذرّة خيراً يره * ومَن يعمل مثقال ذرّة شرّاً يره ﴾**». وتصدّق عمر بن الخطاب وعائشة بحبّة عنب، وقالا: فيها مثاقيل كثيرة. وقال الربيع بن خيثم: مرّ رجل بالحسن وهو يقرأ هذه السورة فلما بلغ آخرها قال: حسبي قد انتهت الموعظة. أخبرنا أحمد بن إبراهيم الشريحي أنا أبو إسحاق الثعلبي أخبرنا محمد بن القاسم ثنا أبو بكر محمد بن عبد الله ثنا الحسن بن سفيان ثنا علي بن حجر ثنا يزيد بن هارون ثنا اليمان بن المغيرة ثنا عطاء عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «**﴿ إذا زلزلت الأرض ﴾** تعدل نصف القرآن، و﴿ قل هو الله أحد ﴾ [الإخلاص: ١] تعدل ثلث القرآن، و﴿ قل يا أيها الكافرون ﴾ [الكافرون: ١] تعدل ربع القرآن».

سورة العاديات

وهي مكية في قول ابن مسعود وغيره مدنية في قول ابن عباس، وهي إحدى عشرة آية وأربعون كلمة ومائة وثلاثة وستون حرفاً

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلۡعَٰدِيَٰتِ ضَبۡحٗا ﴿١﴾ فَٱلۡمُورِيَٰتِ قَدۡحٗا ﴿٢﴾ فَٱلۡمُغِيرَٰتِ صُبۡحٗا ﴿٣﴾ فَأَثَرۡنَ بِهِۦ نَقۡعٗا ﴿٤﴾

قوله عزّ وجلّ: ﴿والعاديات ضبحاً﴾ فيه قولان أحدهما، أنها الإبل في الحج قال عليّ كرم الله وجهه: هي الإبل تعدو من عرفة إلى المزدلفة ومن المزدلفة إلى منى، وعنه قال كانت أول غزاة في الإسلام بدراً، وما كان معنا إلا فرسان فرس للزّبير، وفرس للمقداد بن الأسود، فكيف تكون العاديات؟ فعلى هذا القول يكون معنى ضبحها مد

سُوْرَة العَادِيَات

مكيّة وهي إحدى عشرة آية.

﴿ والعاديات ضبحاً ﴾، قال ابن عباس وعطاء ومجاهد وعكرمة والحسن والكلبي وقتادة ومقاتل وأبو العالية وغيرهم: هي الخيل العادية في سبيل الله تضبح، والضبح صوت أجوافها إذا عَدَتْ. قال ابن عباس: وليس شيء من الحيوانات يضبح غير الفرس والكلب والثعلب، وإنما تضبح هذه الحيوانات إذا تغيّر حالها من تعب أو فزع وهو من قول العرب: ضبحته النار إذا غيّرت لونه. وقوله: ﴿ ضبحاً ﴾ نصب على المصدر، مجازه: والعاديات تضبح ضبحاً. وقال عليّ: هي الإبل في الحج تعدو من عرفة إلى المزدلفة ومن المزدلفة إلى منى، وقال: كانت أولُ غزوة في الإسلام بدراً، وما كان معنا إلاّ فَرَسان فرس للزبير وفرس للمقداد بن الأسود، فكيف تكون الخيل العاديات؟ وإلى هذا ذهب ابن مسعود ومحمد بن كعب والسدي. وقال بعض مَن قال: هي الإبل قوله: ﴿ ضبحاً ﴾ يعني ضباحاً تمدّ أعناقها في السير.

﴿ فالموريات قدحاً ﴾، قال عكرمة وعطاء والضحاك ومقاتل والكلبي: هي الخيل تواري النار بحوافرها إذا سارت في الحجارة، يعني والقادحات قدحاً يقدحن بحوافرهنّ. وقال قتادة: هي الخيل تهيج الحرب ونار العداوة بين فرسانها. وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس: هي الخيل تغزو في سبيل الله ثم تأوي بالليل فيورون نارهم ويصنعون طعامهم. وقال مجاهد وزيد بن أسلم: هي مكر الرجال، يعني رجال الحرب، والعرب تقول إذا أراد الرجل أن يمكر بصاحبه: أما والله لأقدحنّ لك ثم لأورينّ لك. وقال محمد بن كعب: هي النيران بجمع.

﴿ فالمغيرات صبحاً ﴾، هي الخيل تُغِير بفرسانها على العدو عند الصباح، هذا قول أكثر المفسّرين. وقال

أعناقها في السير وأصله من حركة النار في العود. ﴿فالموريات قدحاً﴾ يعني أن أخفاف الإبل ترمي بالحجارة من شدة عدوها فيضرب الحجر حجراً آخر فيوري النّار، وقيل هي النيران بجمع ﴿فالمغيرات صبحا﴾ يعني الإبل تدفع بركبانها يوم النّحر من جمع إلى منى والسنة أن لا يدفع حتى يصبح والإغارة سرعة السير، ومنه قولهم أشرق ثبير كيما نغير ﴿فأثرن به نقعاً﴾ أي هيجن بمكان سيرها غباراً.

﴿فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ۝٥ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ۝٦ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ۝٧ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ۝٨ ۞ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ۝٩ وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ ۝١٠ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌۢ ۝١١﴾

﴿فوسطن به جمعاً﴾ أي وسطن بالنقع جمعاً وهو مزدلفة، فوجه القسم على هذا أن الله تعالى أقسم بالإبل لما فيها من المنافع الكثيرة، وتعريضه بإبل الحج للتّرغيب وفيه تقريع لمن لم يحج بعد القدرة عليه، فإن الكنود هو الكفور، ومن لم يحج بعد الوجوب موصوف بذلك القول الثاني في تفسير، والعاديات قال ابن عباس وجماعة هي الخيل العادية في سبيل الله والضبح صوت أجوافها إذا غدت قال ابن عباس: وليس شيء من الحيوانات يضبح سوى الفرس، والكلب، والثعلب، وإنما تضبح هذه الحيوانات إذا تغير حالها من فزع أو تعب، وهو من قول العرب ضبحته النّار إذا غيرت لونه، ﴿فالموريات قدحاً﴾ يعني أنها تورى النّار بحوافرها إذا سارت في الحجارة، وقيل هي الخيل تهيج الحرب ونار العداوة بين فرسانها وقال ابن عباس: هي الخيل تغزو في سبيل الله ثم تأوي باللّيل فيورى أصحابها ناراً، ويصنعون طعامهم، وقيل هو مكر الرّجال في الحرب، والعرب تقول إذا أراد الرجل أن يمكر بصاحبه أما والله لأقدحن لك ثم لأورين لك، ﴿فالمغيرات صبحاً﴾ يعني الخيل تغير بفرسانها على العدو عند الصّباح لأن النّاس في غفلة في ذلك الوقت عن الاستعداد، فأثرن به أي بالمكان نقعاً أي غباراً فوسطن به جمعاً أي دخلن به أي بذلك النّقع وهو الغبار، وقيل صرن بعدوهن وسط جمع العدو، وهم الكتيبة وهذا القول في تفسير هذه الآيات أولى بالصّحة، وأشبه بالمعنى، لأن الضبح من صفة الخيل، وكذا إيراء النار بحوافرها، وإثارة الغبار أيضاً، وإنما أقسم الله بخيل الغزاة لما فيها من المنافع الدينية، والدنيوية، والأجر، والغنيمة، وتنبيهاً على فضلها، وفضل رباطها في سبيل الله عزّ وجلّ، ولما ذكر الله تعالى المقسم به ذكر المقسم عليه. فقال تعالى: ﴿إن الإنسان لربه لكنود﴾ أي لكفور وهو جواب القسم قال ابن عباس: الكنود الكفور الجحود لنعمة الله تعالى، وقيل الكنود هو العاصي، وقيل هو الذي يعد

القرطبي: هي الإبل تدفع بركبانها يوم النحر من جمع إلى منى، والسُّنّة أن لا تدفع حتى تصبح، والإغارة سرعة السير، ومنه قولهم: أشرق ثبير كيما نُغير.

﴿ فأثرن به ﴾، أي هيّجن بمكان سيرها كناية عن غير مذكور لأن المعنى مفهوم، ﴿ نقعاً ﴾، غباراً والنقع الغبار.

﴿ فوسطن به جمعاً ﴾، أي دخلن به وسط العدو، وهم الكتيبة يقال: وسطت القوم بالتخفيف، ووسطتهم بالتشديد وتوسطهم بالتشديد كلها بمعنى واحد. قال القرظي: يعني جمع منى أقسم الله بهذه الأشياء.

﴿ إنّ الإنسان لربّه لكنود ﴾، قال ابن عباس ومجاهد وقتادة: لكنود لكفور جحود لنِعَم الله تعالى. قال الكلبي: هو بلسان مُضَر وربيعة الكفور، وبلسان كندة وحضرموت العاصي. وقال الحسن: هو الذي يعدّ المصائب وينسى النِّعَم. وقال عطاء: هو الذي لا يعطي في النائبة مع قومه. وقال أبو عبيدة: هو قليل الخير، والأرض الكنود التي لا تنبت شيئاً. وقال الفضيل بن عياض: الكنود الذي آنسته الخصلة الواحدة من الإساءة الخِصال الكثيرة من الإحسان، والشكور الذي آنسته الخصلة الواحدة من الإحسان الخصال الكثيرة من الإساءة.

المصائب، وينسى النّعم، وقيل هو قليل الخير مأخوذ من الأرض الكنود، وهي التي لا تنبت شيئاً، وقال الفضيل بن عياض الكنود: الذي أنسته الخصلة الواحدة من الإساءة الخصال الكثيرة من الإحسان، وضده الشّكور الذي أنسته الخصلة الواحدة من الإحسان الخصال الكثيرة من الإساءة **﴿وإنه على ذلك لشهيد﴾** قال أكثر المفسرين: وإن الله على كونه كنود الشّاهد، وقيل الهاء راجعة إلى الإنسان، والمعنى أنه شاهد على نفسه بما صنع **﴿وإنه﴾** يعني الإنسان **﴿لحب الخير﴾** أي المال **﴿لشديد﴾** أي لبخيل والمعنى أنه من أجل حب المال لبخيل، وقيل معناه وإنه لحب المال وإيثار الدّنيا لقوي شديد **﴿أفلا يعلم﴾** يعني هذا الإنسان **﴿إذا بعثر﴾** أي أثير وأخرج **﴿ما في القبور﴾** يعني من الموتى **﴿وحصل ما في الصدور﴾** أي ميز وأبرز ما فيها من الخير والشر **﴿إن ربهم بهم﴾** أي جمع الكناية لأن الإنسان اسم جنس **﴿يومئذ لخبير﴾** أي عالم والله تعالى خبير بهم في ذلك اليوم، وفي غيره، ولكن المعنى أنه يجازيهم في ذلك اليوم على كفرهم وإنما خص أعمال القلوب بالذّكر في قوله، **﴿وحصل ما في الصّدور﴾** لأن أعمال الجوارح تابعة لأعمال القلوب، فإنه لولا البواعث والإرادات التي في القلوب لما حصلت أعمال الجوارح والله أعلم.

﴿ وإنّه على ذلك لشهيد ﴾، قال أكثر المفسّرين: وإن الله على كونه كنوداً لشاهد. وقال ابن كيسان: الهاء راجعة إلى الإنسان أي إنّه شاهد على نفسه بما يصنع.

﴿ وإنه ﴾، يعني الإنسان، **﴿ لحبّ الخير ﴾**، أي لحب المال، **﴿ لشديد ﴾** أي لبخيل، أي إنه من أجل حبّ المال لبخيل. يقال للبخيل: شديد ومتشدّد. وقيل: معناه وإنه لحبّ الخير لقوي أي شديد الحبّ للخير، أي المال.

﴿ أفلا يعلم ﴾، هذا الإنسان، **﴿ إذا بعثر ﴾**، أثير وأُخرج، **﴿ ما في القبور ﴾**.

﴿ وحصّل ما في الصدور ﴾، أي مُيّز وأبرز ما فيها من خير أو شر.

﴿ إنّ ربّهم بهم ﴾، جمع الكناية لأن الإنسان اسم الجنس، **﴿ يومئذ لخبير ﴾**، عالم، قال الزجّاج: الله خبير بهم في ذلك اليوم وفي غيره ولكن المعنى أنه يجازيهم على كفرهم في ذلك اليوم.

سورة القارعة

مكية وهي ثمان آيات وست وثلاثون كلمة ومائة واثنان وخمسون حرفاً

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ٱلْقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٣﴾ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ
ٱلْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴿٥﴾ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِى
عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ
حَامِيَةٌۢ ﴿١١﴾

قوله عزّ وجلّ: ﴿القارعة﴾ أصل القرع الصّوت الشّديد، ومنه قوارع الدّهر أي شدائده، والقارعة من أسماء القيامة. سميت بذلك لأنها تقرع القلوب بالفزع، والشدائد وقيل سميت قارعة بصوت إسرافيل لأنه إذا نفخ في الصور مات جميع الخلائق من شدة صوت نفخته، ﴿ما القارعة﴾ تهويل وتعظيم، والمعنى أنها فاقت القوارع في الهول والشّدة ﴿وما أدراك ما القارعة﴾ معناه لا علم لك بكنهها لأنها في الشدة بحيث لا يبلغها فهم أحد وكيفما قدرت أمرها فهي أعظم من ذلك ﴿يوم يكون الناس كالفراش المبثوث﴾ الفراش هذه الطير التي تراها تتهافت في النار سميت بذلك لفرشها، وانتشارها، وإنما شبه الخلق عند البعث بالفراش، لأن الفراش إذا ثار لم يتجه لجهة واحدة. بل كل واحدة تذهب إلى غير جهة الأخرى، فدل بهذا التشبيه على أن الخلق في البعث يتفرقون، فيذهب كل واحد إلى غير جهة الآخر، والمبثوث المتفرق، وشبههم أيضاً بالجراد فقال: كأنهم جراد منتشر وإنما شبههم بالجراد لكثرتهم قال

سُوْرَة القارِعَة

مكيّة وقيل مدنية وهي إحدى عشرة آية.

﴿ القارعة ﴾، اسم من أسماء القيامة لأنها تقرع القلوب بالفزع.

﴿ ما القارعة ﴾، تهويل وتعظيم.

﴿ وما أدراك ما القارعة * يوم يكون الناس كالفراش المبثوث ﴾، الفراش الطير التي تراها تتهافت في النار والمبثوث المفرّق. وقال الفرّاء: كغوغاء الجراد شبّه الناس عند البعث بها يموج بعضهم في بعض ويركب بعضهم بعضاً من الهول كما قال: ﴿ كأنهم جراد منتشر ﴾ [القمر: ٧].

﴿ وتكون الجبال كالعهن المنفوش ﴾، كالصوف المندوف.

الفراء: كغوغاء الجراد يركب بعضه بعضاً فشبه الناس عند البعث بالجراد لكثرتهم بموج بعضهم في بعض، ويركب بعضهم بعضاً من شدة الهول. ﴿وتكون الجبال كالعهن المنفوش﴾ أي كالصّوف المندوف، وذلك لأنها تتفرق أجزاؤها في ذلك اليوم حتى تصير كالصّوف المتطاير عند الندف، وإنما ضم بين حال الناس وحال الجبال، كأنه تعالى نبه على تأثير تلك القارعة في الجبال العظيمة الصّلدة الصّلبة حتى تصير كالعهن المنفوش، فكيف حال الإنسان الضّعيف عند سماع صوت القارعة ثم لما ذكر حال القيامة قسم الخلق على قسمين فقال تعالى: **﴿فأما من ثقلت موازينه﴾** يعني رجحت موازين حسناته قيل هو جمع موزون، وهو العمل الذي له قدر وخطر عند الله تعالى، وقيل هو جمع ميزان وهو الذي له لسان وكفتان توزن فيه الأعمال فيؤتى بحسنات المؤمن في أحسن صورة فتوضع في كفة الميزان، فإن رجحت فالجنة له ويؤتى بسيئات الكافر في أقبح صورة فتخف ميزانه، فيدخل النار، وقيل إنما توزن أعمال المؤمنين فمن ثقلت حسناته على سيئاته دخل الجنة، ومن ثقلت سيئاته على حسناته دخل النار، فيقتص منه على قدرها ثم يخرج منها، فيدخل الجنة أو يعفو الله عنه بكرمه، فيدخل الجنة بفضل الله وكرمه، ورحمته، وأما الكافرون فقد قال: في حقهم **﴿فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً﴾** روى عن أبي بكر الصّديق أنه قال: إنما ثقلت موازين من ثقلت موازينه يوم القيامة بإتباعهم الحق في دار الدّنيا، وثقله عليهم وحق لميزان يوضع فيه الحق غداً أن يكون ثقيلاً، وإنما خفت موازين من خفت موازينه يوم القيامة بإتباعهم الباطل في الدّنيا وخفته عليهم، وحق لميزان يوضع فيه الباطل غداً أن يكون خفيفاً.

قوله تعالى: **﴿فهو في عيشة راضية﴾** أي مرضية في الجنة، وقيل في عيشة ذات رضا يرضاها صاحبها **﴿وأما من خفت موازينه﴾** أي رجحت سيئاته على حسناته **﴿فأمه هاوية﴾** أي مسكنة النّار سمي المسكن أما لأن الأصل في السكون الأمهات، وقيل معناه فأم رأسه هاوية في النّار، والهاوية اسم من أسماء النار، وهي المهواة التي لا يدرك قعرها فيهوون فيها على رؤوسهم، وقيل كان الرجل إذا وقع في أمر شديد يقال هوت أمه أي هلكت حزناً وثكلاً **﴿وما أدراك ماهيه﴾** يعني الهاوية ثم فسرها فقال **﴿نار حامية﴾** أي جارة قد انتهى حرها نعوذ بالله وعظمته منها والله سبحانه وتعالى أعلم.

﴿ فأما مَن ثقلت موازينه ﴾، رجحت حسناته، **﴿ فهو في عيشة راضية ﴾**، مرضيّة في الجنة. قال الزجّاج ذات رِضاً يرضاها صاحبها.

﴿ وأما مَن خفّت موازينه ﴾، رجحت سيآته على حسناته.

﴿ فأمّه هاوية ﴾، مسكنه النار سُمّي المسكن أما لأن الأصل في السكون إلى الأمهات، والهاوية اسم من أسماء جهنم، وهو الهواة لا يدرك قعرها، وقال قتادة: وهي كلمة عربية كان الرجل إذا وقع في أمر شديد، يقال: هوت أُمه. وقيل: أراد أُم رأسه يعني أنهم يهوون في النار على رؤوسهم، وإلى هذا التأويل ذهب قتادة وأبو صالح.

﴿ وما أدراك ماهيه﴾، يعني الهاوية وأصلها ما هي أدخل الهاء فيها للوقف ثم فسّرها.

فقال: **﴿ نار حامية ﴾**، أي حارّة قد انتهى حرّها.

سورة التكاثر

مكية وهي ثمان آيات وثمان وعشرون كلمة ومائة وعشرون حرفاً

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴿٢﴾

قوله عزّ وجلّ: ﴿ألهاكم التكاثر﴾ أي شغلتكم المفاخرة، والمباهات، والمكاثرة بكثرة المال، والعدد، والمناقب عن طاعة الله ربكم، وما ينجيكم من سخطه، ومعلوم أن من اشتغل بشيء أعرض عن غيره، فينبغي للمؤمن العاقل أن يكون سعيه وشغله في تقديم الأهم وهو ما يقربه من ربه عزّ وجلّ. فالتفاخر بالمال والجاه والأعوان، والأقرباء تفاخر بأخس المراتب، والاشتغال به يمنع الإنسان من الاشتغال بتحصيل السّعادة الأخروية التي هي سعادة الأبد، ويدل على أن المكاثرة، والمفاخرة بالمال مذمومة، ما روي عن مطرف بن عبد الله بن الشخير عن أبيه قال: انتهيت إلى رسول الله ﷺ وهو يقرأ هذه الآية ﴿ألهاكم التكاثر﴾ «فقال يقول ابن آدم مالي مالي وهل لك من مالك إلا ما تصدقت، فأمضيت أو أكلت فأفنيت أو لبست فأبليت» أخرجه الترمذي وقال حديث حسن صحيح (خ) عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ «يتبع الميت ثلاثة فيرجع اثنان ويبقى معه واحد يتبعه ماله وأهله وعمله فيرجع أهله وماله ويبقى عمله» ﴿حتى زرتم المقابر﴾ أي حتى متم ودفنتم في المقابر يقال لمن مات زار قبره وزار رمسه، فيكون معنى الآية ألهاكم حرصكم على تكثير أموالكم عن طاعة ربكم حتى أتاكم الموت، وأنتم على ذلك قيل نزلت هذه الآية في اليهود، قالوا نحن أكثر من بني فلان، وبنو فلان أكثر من بني فلان، شغلهم ذلك حتى ماتوا ضلالاً، وقيل نزلت في حيين من قريش، وهما بنو عبد مناف، وبنو سهم بن عمرو، وكان بينهم تفاخر فتعادوا القادة، والأشراف

سُوْرَة التكاثر

مكية وهي ثمان آيات.

﴿ ألهاكم التكاثر ﴾، شغلتكم المباهاة والمفاخرة بكثرة المال والعدد عن طاعة ربكم وما ينجيكم من سخطه.

﴿ حتى زرتم المقابر ﴾، حتى مُتّم ودفنتم في المقابر. وقال قتادة: نزلت في اليهود قالوا نحن أكثر من بني فلان وبنو فلان أكثر من بني فلان، شغلهم ذلك حتى ماتوا ضلالاً. وقال مقاتل والكلبي: نزلت في حيّين من قريش بني عبد مناف بن قصيّ وبني سهم بن عمرو كان بينهم تفاخر، فتعادوا السادة والأشراف أيّهم أكثر عدداً، فقال بنو عبد مناف: نحن أكثر سيداً وأعزّ عزيزاً وأعظم نفراً وأكثر عدداً، وقال بنو سهم مثل ذلك، فكثرهم بنو عبد مناف، ثم قالوا: نعدّ موتانا حتى زاروا القبور فعدّوهم، فقالوا: أهذا قبر فلان وهذا قبر فلان فكثرهم بنو سهم بثلاثة أبيات

أيّهم أكثر فقال بنو عبد مناف نحن أكثر سيداً، وأعز عزيزاً، وأعظم نفراً، وأكثر عدداً، وقال بنو سهم مثل ذلك، فكاثرهم بنو بعد مناف، ثم قالوا نعد موتانا فعدوا الموتى حتى زار والقبور، فعدوهم فقالوا هذا قبر فلان وهذا قبر فلان فكثرهم بنو سهم بثلاثة أبيات لأنهم كانوا في الجاهلية أكثر عدداً فأنزل الله هذه الآية، وهذا القول أشبه بظاهر القرآن لأن قوله ﴿حتى زرتم المقابر﴾ يدل على أمر مضى، فكأنه تعالى يعجبهم من أنفسهم ويقول مجيباً هب إنكم أكثر عدداً، فماذا ينفع ثم رد الله تعالى عليهم فقال:

﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ۝٧ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ۝٨﴾

﴿كلا﴾ أي ليس الأمر كما يتوهمه هؤلاء بالتّكاثر والتّفاخر، وقيل المعنى حقاً ﴿سوف تعلمون﴾ وعيد لهم ﴿ثم كلا سوف تعلمون﴾ كرره توكيداً والمعنى سوف تعلمون عاقبة تكاثركم وتفاخركم إذا نزل بكم الموت، فهو وعيد بعد وعيد، وقيل معناه كلا سوف تعلمون يعني الكافرين ثم كلا سوف تعلمون يعني المؤمنين وصاحب هذا القول يقرأ الأولى بالياء والثانية بالتاء. ﴿كلا لو تعلمون علم اليقين﴾ أي علماً يقيناً وجواب لو محذوف والمعنى لو تعلمون علماً يقيناً لشغلكم ما تعلمون عن التّكاثر والتّفاخر، قال قتادة كنا نحدث أن علم اليقين أن يعلم أن الله باعثه بعد الموت ﴿لترون الجحيم﴾ اللام تدل على أنه جواب قسم محذوف والقسم لتوكيد الوعيد، وإن ما أوعدوا به لا يدخله شك ولا

لأنهم كانوا في الجاهلية أكثر عدداً، فأنزل الله هذه الآية، أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحي أنا أبو بكر أحمد بن الحسين الحيري أنا حاجب بن أحمد الطوسي ثنا عبد الرحيم بن منيب ثنا النضر بن شميل عن قتادة عن مطرف بن عبد الله الشخيري عن أبيه قال: انتهيت إلى رسول الله ﷺ وهو يقرأ هذه الآية: ﴿ ألهاكم التكاثر ﴾، قال: «يقول ابن آدم: مالي مالي وهل لك من مالك إلاّ ما أكلت فأفنيت أو لبست فأبليت أو تصدّقت فأمضيت»؟ أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا الحميدي ثنا سفيان ثنا عبد الله أبي بكر بن عمرو بن حزم سمع أنس بن مالك يقول: قال رسول الله ﷺ: «يتبع الميت ثلاثةٌ فيرجع اثنان ويبقى معه واحد، يتبعه أهله وماله وعمله فيرجع أهله وماله، ويبقى عمله» ثم ردّ الله عليهم فقال:

﴿ كلا ﴾، ليس الأمر بالتكاثر، ﴿ سوف تعلمون ﴾، وعيد لهم ثم تكرره تأكيداً فقال:

﴿ ثمّ كلا سوف تعلمون ﴾، قال الحسن ومقاتل هو وعيد بعد وعيد والمعنى سوف تعلمون عاقبة تكاثركم وتفاخركم إذا نزل بكم الموت. وقال الضحاك: ﴿ كلاّ سوف تعلمون ﴾ يعني الكفّار، ﴿ ثم كلاّ سوف تعلمون ﴾ يعني المؤمنين وكان يقرأ الأولى بالتاء والثانية بالياء.

﴿ كلا لو تعلمون علم اليقين ﴾، أي علماً يقيناً فأضاف العلم إلى اليقين كقوله: ﴿ لهو حق اليقين ﴾ [الواقعة: ٩٥]، وجواب ﴿ لو ﴾ محذوف أي لو تعلمون علماً يقيناً لشغلكم ما تعلمون عن التكاثر والتفاخر. قال قتادة: كنّا نتحدث أن علم اليقين أن يعلم أن الله باعثه بعد الموت.

﴿ لترونّ الجحيم ﴾، قرأ ابن عامر والكسائي ﴿ لترونّ ﴾ بضم التاء من أريته الشيء، وقرأ الآخرون بفتح التاء أي ترونها بأبصاركم من بعد.

﴿ ثم لترونّها ﴾، مشاهدة، ﴿ عين اليقين ﴾.

﴿ ثم لتُسئلنّ يومئذ عن النعيم ﴾، قال مقاتل: يعني كفّار مكة كانوا في الدنيا في الخير والنعمة، فيسألون يوم

ريب، والمعنى أنكم ترون الجحيم بأبصاركم بعد الموت ﴿ثم لترونها﴾ يعني مشاهدة ﴿عين اليقين﴾ وإنما كرر الرّؤية لتأكيد الوعيد ﴿ثم لتسألن يومئذ عن النّعيم﴾ يعني أن كفار مكة كانوا في الدّنيا في الخير والنعمة، فيسألون يوم القيامة عن شكر ما كانوا فيه لأنهم لم يشكروا رب النّعيم حيث عبدوا غيره ثم يعذبون على ترك الشكر، وذلك لأن الكفار لما ألهاهم التكاثر بالدّنيا، والتّفاخر بلذاتها عن طاعة الله والاشتغال بشكره سألهم عن ذلك، وقيل أن هذا السّؤال يعم الكافر، والمؤمن، وهو الأولى لكن سؤال الكافر توبيخ، وتقريع لأنه ترك شكر ما أنعم الله به عليه، والمؤمن يسأل سؤال تشريف وتكريم لأنه شكر ما أنعم الله به عليه، وأطاع ربه فيكون السّؤال في حقه تذكرة بنعم الله عليه. يدل على ذلك ما روي «عن الزّبير قال لما نزلت ﴿ثم لتسألن يومئذ عن النعيم﴾ قال الزبير: يا رسول الله وأي نعيم نسأل عنه وإنما هما الأسودان التّمر والماء قال أما أنه سيكون» أخرجه الترمذي وقال حديث حسن واختلفوا في النعيم الذي يسأل العبد عنه، فروي عن ابن مسعود رفعه قال لتسألن يومئذ عن النّعيم قال الأمن، والصحة عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «أول ما يسأل عنه العبد يوم القيامة من النعيم أن يقال له ألم نصح لك جسمك ونروك من الماء البارد» أخرجه التّرمذي وقال حديث غريب (م) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال «خرج رسول الله ﷺ ذات يوم أو ليلة فإذا هو بأبي بكر وعمر فقال ﷺ ما أخرجكما من بيوتكما هذه السّاعة، قالا الجوع يا رسول الله قال وأنا والذي نفسي بيده لأخرجني الذي أخرجكما، فقوموا فقاموا معه فأتى رجلاً من الأنصار، فإذا هو ليس في بيته فلما رأته المرأة قالت

القيامة عن شكر ما كانوا فيه، ولم يشكروا ربَّ النعيم حيث عبدوا غيره، ثم يعذبون على ترك الشكر، هذا قول الحسن، وعن ابن مسعود رفعه قال: ﴿لتُسئلنّ يومئذ عن النعيم﴾ قال: «الأمن والصحة». وقال قتادة: إن الله يسأل كل ذي نعمة عمّا أنعم عليه، أخبرنا أبو بكر بن الهيثم الترابي أنا عبد الله بن أحمد بن حمويه السرخسي ثنا إبراهيم بن خزيم الشاشي ثنا عبد الله بن حميد ثنا شبابة عن عبد الله بن العلاء عن الضحاك بن عرزم الأشعري قال سمعت أبا هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ: «إن أول ما يُسأل العبدُ يوم القيامة من النعيم أن يقال: ألم نصحِ جسمك؟ ونروكِ من الماء البارد»؟ أخبرنا أبو محمد عبد الله بن عبد الصمد الجوزجاني أنا أبو القاسم علي بن أحمد الخزاعي أنا أبو سعيد الهيثم بن كليب الشاشي أنا أبو عيسى الترمذي أنا محمد بن إسماعيل ثنا آدم بن أبي إياس ثنا شيبان أبو معاوية ثنا عبد الملك بن عمير عن أبي سلمة بن عبد الرحمن عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: خرج رسول الله ﷺ في ساعة لا يخرج فيها ولا يلقاه فيها أحد، فأتاه أبو بكر فقال: «ما جاء بك يا أبا بكر»؟ فقال: خرجت لألقى رسول الله ﷺ وأنظر إلى وجهه وللتسليم عليه، فلم يلبث أن جاء عمر، فقال: «ما جاء بك يا عمر»؟ قال: الجوع يا رسول الله، قال النبي ﷺ: «وأنا قد وجدت بعض ذلك»، فانطلقوا إلى منزل أبي الهيثم بن التيهان الأنصاري، وكان رجلاً كثير النخل والشاه، ولم يكن له خدم فلم يجدوه فقالوا لامرأته: أين صاحبك؟ فقالت: انطلق ليستعذب لنا الماء، فلم يلبث أن جاء أبو الهيثم بقربة زعبها ماءً فوضعها، ثم جاء يلتزم رسول الله ﷺ ويفديه بأبيه وأمه، ثم انطلق بهم إلى حديقته فبسط لهم بساطاً، ثم انطلق إلى نخلة فجاء بقنو فوضعه، فقال النبي ﷺ: «أفلا تنقيت لنا من رطبه وبسره»، فقال: يا رسول الله إني أردت أن تتخيروا من رطبه وبسره، فأكلوا وشربوا من ذلك الماء، فقال النبي ﷺ: «هذا والذي نفسي بيده من النعيم الذي تسألون عنه يوم القيامة، ظلّ بارد ورطب طيب وماء بارد»، فانطلق أبو الهيثم ليصنع لهم طعاماً فقال النبي ﷺ: «لا تذبحن ذات در»، فذبح لهم عناقاً أو جدياً فأتاهم بها، فأكلوا، فقال النبي ﷺ: «هل لك خادم»؟ قال: لا، قال النبي ﷺ: «فإذا أتانا صبيٌّ فأتنا»، فأُتي النبيُّ ﷺ برأسين ليس معها ثالث، فأتاه أبو الهيثم فقال النبي ﷺ: «اختر منهما»، فقال: يا نبي الله اختر لي، فقال النبي ﷺ: «إن المستشار مؤتمن، خذْ هذه فإني رأيته يصلّي واستوصِ به معروفاً» فانطلق به أبو الهيثم إلى امرأته فأخبرها

مرحباً وأهلاً، فقال لها رسول الله ﷺ أين فلان قالت ذهب يستعذب لنا الماء إذا جاء الأنصاري، فنظر إلى رسول الله ﷺ وصاحبيه ثم قال: الحمد لله ما أحد اليوم أكرم أضيافاً مني قال فانطلق فجاءهم بعذق فيه بسر، وتمر، ورطب فقال: كلوا وأخذ المدية فقال له رسول الله ﷺ إياك والحلوب، فذبح لهم شاة فأكلوا من الشاة ومن ذلك العذق وشربوا فلما شبعوا ورووا قال رسول الله ﷺ لأبي بكر وعمر والذي نفسي بيده لتسألن عن هذا النّعيم يوم القيامة أخرجكم من بيوتكم الجوع ثم لم ترجعوا حتى أصابكم هذا النّعيم» وأخرجه التّرمذي بأطول من هذا «وفيه ظل بارد ورطب طيب وماء بارد» وروي عن ابن عباس قال: النّعيم صحة الأبدان والأسماع والأبصار يسأل الله العبيد يوم القيامة فيم استعملوها وهو أعلم بذلك منهم، وقيل يسأل عن الصحة والفراغ والمال (خ) عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ «نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس الصحة والفراغ»، وقيل الذي يسأل العبد عنه هو القدر الزائد على ما يحتاج إليه فإنه لا بد لكل أحد من مطعم، ومشرب، وملبس، ومسكن، وقيل يسأل عن تخفيف الشرائع وتيسير القرآن، وقيل عن الإسلام فإنه أكبر النّعم، وقيل يسأل عما أنعم به عليكم وهو محمد ﷺ الذي أنقذكم به من الضّلال إلى الهدى، والنّور وامتن به عليكم والله أعلم.

بقول رسول الله ﷺ، فقالت امرأته: ما أنت ببالغ فيه ما قال رسول الله ﷺ إلاّ أن تعتقه، قال: فهو عتيق، فقال النبي ﷺ: «إن الله تبارك وتعالى لم يبعث نبياً ولا خليفة إلاّ وله بطانتان بطانة تأمره بالمعروف وتنهاه عن المنكر، وبطانة لا تألوه إلاّ خبالاً، ومَن يُوقَ بطانة السوء فقد وُقي» ورُوِيَ عن ابن عباس قال: النعيم صحة الأبدان والأسماع والأبصار يسأل الله العبيد فِيمَ استعملوها، وهو أعلم بذلك منهم، وذلك قوله: ﴿إنّ السمعَ والبصرَ والفؤادَ كلّ أولئك كان عنه مسؤولاً﴾ [الإسراء: ٣٦]، قال عكرمة: عن الصحة والفراغ. وقال سعيد بن جبير: عن الصحة والفراغ والمال. أخبرنا الإمام أبو الحسن عبد الرحمن بن محمد الداودي ثنا أبو الحسن أحمد بن محمد بن موسى بن الصلت ثنا أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الصمد الهاشمي ثنا الحسين بن الحسن بمكة ثنا عبد الله بن المبارك والفضل بن موسى قالا ثنا عبد الله بن سعيد بن أبي هند عن أبيه عن أبي هند عن أبيه عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ». قال محمد بن كعب: يعني عمّا أنعم عليكم بمحمد ﷺ. وقال أبو العالية: عن الإسلام والسُّنن. وقال الحسين بن الفضل: تخفيف الشرائع وتيسير القرآن.

سورة العصر

مكية قاله ابن عباس والجمهور وقيل هي مدنية وهي ثلاث آيات وأربع عشر كلمة وثمانية وستون حرفاً.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴿٣﴾

قوله عزّ وجلّ: ﴿**والعصر**﴾ قال ابن عباس: هو الدّهر قيل أقسم الله به لما فيه من العبر، والعجائب للنّاظر وقد ورد في الحديث «لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر» وذلك لأنهم كانوا يضيفون النّوائب والنّوازل إلى الدهر، فأقسم به تنبيهاً على شرفه وإن الله هو المؤثر فيه فما حصل فيه من النّوائب والنّوازل كان بقضاء الله وقدره، وقيل تقديره ورب العصر، وقيل أراد بالعصر اللّيل والنّهار لأنهما يقال لهما العصران، فنبه على شرف الليل والنهار لأنهما خزانتان لأعمال العباد، وقيل أراد بالعصر آخر طرفي النهار أقسم بالعشى كما أقسم بالضّحى، وقيل أراد صلاة العصر أقسم بها لشرفها ولأنها الصّلاة الوسطى في قول بدليل قوله تعالى: ﴿**حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى**﴾ لما قيل هي صلاة العصر والذي في مصحف عائشة رضي الله عنها وحفصة والصّلاة الوسطى صلاة العصر وفي الصحيحين «شغلونا عن الصّلاة الوسطى صلاة العصر» وقال ﷺ «من فاتته صلاة العصر فكأنما وتر أهله وماله»، وقيل أراد بالعصر زمن رسول الله ﷺ أقسم بزمانه كما أقسم بمكانه في قوله ﴿**لا أقسم بهذا البلد وأنت حل بهذا البلد**﴾ نبه بذلك على أنه زمانه أفضل الأزمان وأشرفها، وجواب القسم. قوله تعالى: ﴿**إن الإنسان لفي خسر**﴾ أي لفي خسران ونقصان قيل أراد بالإنسان جنس الإنسان بدليل قولهم كثر الدرهم في أيدي الناس أي الدرهم وذلك لأن الإنسان لا ينفك عن خسران، لأن الخسران هو تضييع عمره وذلك لأن كل ساعة تمر من عمر الإنسان إما أن تكون تلك السّاعة في طاعة أو معصية،

سُوْرَةَ العَصْر

مكيّة وقيل مدنية وهي ثلاث آيات.

﴿ **والعصر** ﴾، قال ابن عباس: والدهر. قيل: أقسم به لأن فيه عبرة للناظر. وقيل: معناه وربّ العصر، وكذلك في أمثاله. وقال ابن كيسان: أراد بالعصر الليل والنهار، يقال لهما العصران. وقال الحسن: من بعد زوال الشمس إلى غروبها. وقال قتادة: آخر ساعة من ساعات النهار. وقال مقاتل: أقسم بصلاة العصر وهي الصلاة الوسطى.

﴿ **إن الإنسان لفي خُسْر** ﴾، أي خسران ونقصان، قيل: أراد به الكافر بدليل أنه استثنى المؤمنين، والخسران ذهاب رأس مال الإنسان في هلاك نفسه وعمره بالمعاصي، وهما أكبر رأس ماله.

فإن كانت في معصية فهو الخسران المبين الظاهر وإن كانت في طاعة، فلعل غيرها أفضل وهو قادر على الإتيان بها فكان فعل غير الأفضل تضييعاً وخسراناً، فبان بذلك أنه لا ينفك أحد من خسران، وقيل إن سعادة الإنسان في طلب الآخرة وحبها والإعراض عن الدّنيا ثم إن الأسباب الداعية إلى حب الآخرة خفية، والأسباب الدّاعية إلى حب الدّنيا ظاهرة، فلهذا السبب كان أكثر الناس مشتغلين بحب الدّنيا مستغرقين في طلبها، فكانوا في خسار وبوار قد أهلكوا أنفسهم بتضييع أعمارهم، وقيل أراد بالإنسان الكافر بدليل أنه استثنى المؤمنين فقال تعالى: **﴿إلا الذين آمنوا وعملوا الصّالحات﴾** يعني فإنهم ليسوا في خسر، والمعنى أن كل ما مر من عمر الإنسان في طاعة الله تعالى فهو في صلاح وخير وما كان بضده فهو في خسر وفساد وهلاك. **﴿وتواصوا﴾** أي أوصى بعض المؤمنين بعضاً **﴿بالحق﴾** يعني بالقرآن والعمل بما فيه، وقيل بالإيمان والتّوحيد **﴿وتواصوا بالصبر﴾** أي على أداء الفرائض وإقامة أمر الله وحدوده، وقيل أراد أن الإنسان إذا عمر في الدّنيا وهرم لفي نقص وتراجـع إلا الذين آمنوا، وعملوا الصّالحات فإنهم تكتب أجورهم ومحاسن أعمالهم التي كانوا يعملونها في شبابهم وصحتهم وهي مثل قوله **﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين إلا الذين آمنوا وعملوا الصّالحات فلهم أجر غير ممنون﴾** والله سبحانه وتعالى أعلم.

﴿ إلّا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾، فإنهم ليسوا في خسران، **﴿وتواصوا﴾**، أوصى بعضهم بعضاً، **﴿ بالحق ﴾**، بالقرآن قاله الحسن وقتادة، وقال مقاتل: بالإيمان والتوحيد. **﴿ وتواصوا بالصبر ﴾**، على أداء الفرائض وإقامة أمر الله. وروى ابن عون عن إبراهيم قال: أراد أن الإنسان إذا عمر في الدنيا وهرم لفي نقص وتراجع إلّا المؤمنين فإنهم يكتب لهم أجورهم ومحاسن أعمالهم التي كانوا يعملونها في شبابهم وصحتهم، وهي مثل قوله: ﴿ لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين إلّا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ [التين: ٤ و٥ و٦].

سورة الهمزة

مكية وهي تسع آيات وثلاثون كلمة ومائة وثلاثون حرفاً

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴿١﴾

قوله عزّ وجلّ: ﴿ويل﴾ أي قبح، وقيل اسم واد في جهنم ﴿لكل همزة لمزة﴾ قال ابن عباس هم المشاؤون بالنميمة المفرقون بين الأحبة الباغون للبرآء العيب وقيل معناهما واحد وهو العياب المغتاب للناس في بعضهم قال الشاعر:

إذا لقيتك من كره تكاشرني   وإن تغيبت كنت الهامزا اللمزا

وقيل بل يختلف معناهما فقيل الهمزة الذي يعيبك في الغيب، واللّمزة الذي يعيبك في الوجه، وقيل هو على ضده، وقيل الهمزة الذي يهمز الناس بيده ويضربهم، واللّمزة الذي يلمزهم بلسانه ويعيبهم، وقيل هو الذي يهمز بلسانه ويلزم بعينه، وقيل الهمزة الذي يؤذي جليسه بسوء اللفظ، واللمزة الذي يرمق بعينه ويشير برأسه ويرمز بحاجبه، وقيل الهمزة المغتاب للناس واللمزة الطعان في أنسابهم وحاصل هذه الأقاويل يرجع إلى أصل واحد، وهو الطعن وإظهار العيب وأصل الهمز الكسر والقبض على الشيء بالعنف، والمراد منه هنا الكسر من أعراض الناس والغض منهم، والطعن فيهم، ويدخل فيه من يحاكي الناس بأقوالهم، وأفعالهم، وأصواتهم ليضحكوا منه، وهما نعتان للفاعل على نحو سخرة وضحكة للذي يسخر ويضحك من الناس، واختلفوا فيمن نزلت هذه الآية، فقيل نزلت في الأخنس بن شريق بن وهب. كان يقع في الناس ويغتابهم وقال محمد بن إسحاق: ما زلنا نسمع أن سورة الهمزة

سُوْرَة الهُمَزَة

مكيّة وهي تسع آيات.

﴿ ويلٌ لكل همزة لمزة ﴾، قال ابن عباس: هم المشّاؤون بالنميمة المفرّقون بين الأحبّة الباغون للبرآء العنت، ومعناهما واحد وهو العيّاب. وقال مقاتل: الهمزة الذي يعيبك في الغيب واللمزة الذي يعيبك في الوجه. وقال أبو العالية والحسن بضدّه، وقال سعيد بن جبير وقتادة: الهُمزة الذي يأكل لحوم الناس ويغتابهم، واللمزة الطعّان عليهم. وقال ابن زيد: الهُمزة الذي يهمز الناس بيده ويضربهم، واللمزة الذي يلمزهم بلسانه ويعيبهم. وقال سفيان الثوري: ويهمز بلسانه ويلمز بعينيه. ومثله قال ابن كيسان الهمزة الذي يؤذي جليسه بسوء اللفظ واللمزة الذي يومض بعينه ويشير برأسه، ويرمز بحاجبه وهما لغتان للفاعل نحو سخرة وضحكة للذي يسخر ويضحك من

نزلت في أمية بن خلف الجمحي، وقيل نزلت في الوليد بن المغيرة كان يغتاب النبي ﷺ من ورائه ويطعن عليه في وجهه، وقيل نزلت في العاص بن وائل السّهمي، وقيل هي عامة في كل شخص هذه صفته كائناً من كان، وذلك لأن خصوص السبب لا يقدح في عموم اللفظ والحكم، ومن قال إنها في أناس معينين قال أن يكون اللّفظ عاماً لا ينافي أن يكون المراد منه شخصاً معيناً وهو تخصيص العام بقرينة العرف والأولى أن تحمل على العموم في كل من هذه صفته ثم وصفه فقال تعالى:

﴿ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ۝٢ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ۝٣ كَلَّا ۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ۝٤ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ۝٥ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ۝٦ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ۝٧ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ۝٨ فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍۭ ۝٩﴾

﴿الذي جمع مالاً﴾ وإنما وصفه بهذا الوصف لأنه يجري مجرى السبب والعلة في الهمز واللمز يعني وهو بإعجابه بما جمع من المال يستصغر الناس ويسخر منهم، وإنما نكر مالاً لأنه بالنسبة إلى مال هو أكثر منه كالشّيء الحقير وإن كان عظيماً عند صاحبه فكيف يليق بالعاقل أن يفتخر بالشيء الحقير **﴿وعدده﴾** أي أحصاه من العدد، وقيل هو من العدة أي استعده وجعله ذخيرة وغنى له **﴿يحسب أن ماله أخلده﴾** أي يظن أنه يخلد في الدّنيا ولا يموت ليساره وغناه قال الحسن ما رأيت يقيناً لا شك فيه أشبه بشك لا يقين فيه من الموت ومعناه أن الناس لا يشكون في الموت مع أنهم يعملون عمل من يظن أنه يخلد في الدّنيا ولا يموت **﴿كلا﴾** رد عليه أي لا يخلده ماله بل يخلده ذكر العلم، والعمل الصّالح ومنه قول علي مات خزان المال، وهم أحياء والعلماء باقون ما بقي الدهر، وقيل معناه حقاً **﴿لينبذن﴾** واللام في لينبذن جواب القسم فدل ذلك على حصول معنى القسم، ومعنى لينبذن ليطرحن **﴿في الحطمة﴾** أي في النار، وهو اسم من أسمائها مثل سقر ولظي، وقيل هو اسم للدركة الثانية منها وسميت حطمة لأنها تحطم العظام وتكسرها، والمعنى يا أيّها الهمزة اللمزة الذي يأكل لحوم الناس، ويكسر من أعراضهم إن وراءك الحطمة التي تأكل

الناس، وأصل الهمز الكسر والعضّ على الشيء بالعنف، واختلفوا فيمن نزلت هذه الآية، قال الكلبي: نزلت في الأخنس بن شُريقٍ بن وهب الثقفي كان يقع في الناس ويغتابهم. وقال محمد بن إسحاق: ما زلنا نسمع أن سورة الهمزة نزلت في أُميّة بن خلف الجمحي. وقال مقاتل: نزلت في الوليد بن المغيرة، كان يغتاب النبي ﷺ من ورائه ويطعن عليه في وجهه. وقال مجاهد: هي عامّة في حقّ كلّ مَن هذه صفته.

ثم وصفه فقال: **﴿ الذي جمع مالاً ﴾**، قرأ أبو جعفر وابن عامر وحفص وحمزة والكسائي (جمّع) بتشديد الميم على التكثير، وقرأ الآخرون بالتخفيف. **﴿ وعدّده ﴾**، أحصاه، وقال مقاتل: استعدّه وادّخره وجعله عتاداً له، يقال: أعددت الشيء وعددته إذا أمسكته.

﴿ يحسب أن ماله أخلده ﴾، في الدنيا يظن أنه لا يموت مع يساره.

﴿ كلا ﴾، ردّ عليه أن لا يخلده ماله، **﴿ لينبذنّ ﴾**، ليطرحنّ، **﴿ في الحطمة ﴾**، في جهنم والحطمة من أسماء النار مثل سقر ولظى سمّيت حطمة لأنها تحطم العظام وتكسرها.

﴿ وما أدراك ما الحطمة * نار الله الموقدة * التي تطّلع على الأفئدة ﴾، أي التي يبلغ ألمها ووجعها إلى القلوب، والاطّلاع والبلوغ التطلّع بمعنى واحد، يحكى عن العرب متى طلعت أرضنا أي بلغت، ومعنى الآية: أنها تأكل كل شيء منه حتى تنتهي إلى فؤاده، قاله القرظي والكلبي.

﴿ إنّها عليهم مؤصدة ﴾، مطبقة مغلقة.

اللحوم وتكسر العظام ﴿**وما أدراك ما الحطمة**﴾ أي نار لا كسائر النيران ﴿**نار الله**﴾ إنما أضافها إليه على سبيل التفخيم والتعظيم لها ﴿**الموقدة**﴾ أي لا تخمد أبداً عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «أوقد على النّار ألف سنة حتى احمرت ثم أوقد عليها ألف سنة حتى ابيضت ثم أوقد عليها ألف سنة حتى اسودت فهي سوداء مظلمة» أخرجه التّرمذي قال ويروى عن أبي هريرة موقوفاً وهو أصح ﴿**التي تطلع على الأفئدة**﴾ أي يبلغ ألمها ووجعها إلى القلوب، والمعنى أنها تأكل كل شيء حتى تنتهي إلى الفؤاد، وإنما خص الفؤاد بالذكر لأنه ألطف شيء في بدن الإنسان، وأنه يتألم بأدنى شيء، فكيف إذا اطلعت عليه واستولت عليه، ثم إنه مع لطافته لا يحترق إذ لو احترق لمات صاحبه، وليس في النار موت، وقيل إنما خصه بالذكر لأن القلب موطن الكفر، والعقائد، والنيات الفاسدة. ﴿**إنها عليهم مؤصدة**﴾ أي مطبقة مغلقة ﴿**في عمد ممددة**﴾ قال ابن عباس: أدخلهم في عمد فمدت عليهم بعماد وفي أعناقهم السلاسل سدت عليهم بها الأبواب، وقال قتادة: بلغنا أنهم عمد يعذبون بها في النّار، وقيل هي أوتاد الأطباق التي تطبق على أهل النار، والمعنى أنها مطبقة عليهم بأوتاد ممدودة، وقيل أطبقت الأبواب عليهم ثم سدت بأوتاد من حديد من نار حتى يرجع عليهم غمها وحرها، فلا ينفتح عليهم باب، ولا يدخل عليهم روح، وممددة صفة العمد، أي مطولة فتكون أرسخ من القصيرة نعوذ بالله من النار، وحرها والله سبحانه وتعالى أعلم.

﴿ **في عمد ممدّدة** ﴾، قرأ حمزة والكسائي وأبو بكر في ﴿ **عمد** ﴾ بضم العين والميم، وقرأ الآخرون بفتحهما كقوله تعالى: ﴿ رفع السمٰوات بغير عمد ترونها ﴾ [الرعد: ٢]، وهما جميعاً جمع عمود مثل أديم وأَدَم وأُدُم، قاله الفرّاء، وقال أبو عبيدة: جمع عماد مثل إهاب وأهب وأُهب. قال ابن عباس: أدخلهم في عمد فمدّت عليهم بعماد، وفي أعناقهم السلاسل سدّت عليهم بها الأبواب، وقال قتادة: بلغنا أنها عمد يعذّبون بها في النار. وقيل: هي أوتاد الأطباق التي تطبق على أهل النار، أي أنها مطبقة عليهم بأوتاد ممدودة وهي في قراءة عبد الله (بعمد) بالباء، قال مقاتل: أطبقت الأبواب عليهم ثم سُدّت بأوتاد من حديد من نار حتى يرجع عليهم غمّها وحرّها فلا يُفتح عليهم باب ولا يدخل عليهم ريح، والممدّدة من صفة العمد، أي مطوّلة فتكون أرسخ من القصيرة.

سورة الفيل

مكية وهي خمس آيات وعشرون كلمة وستة وتسعون حرفاً

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾

قوله عزّ وجلّ: ﴿**ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل**﴾ كانت قصة أصحاب الفيل على ما ذكره محمد بن إسحاق عن بعض أهل العلم عن سعيد بن جبير، وعكرمة عن ابن عباس، وذكره الواقدي أن النجاشي ملك الحبشة كان بعث أرياط إلى اليمن، فغلب عليها فقام رجل من الحبشة يقال له أبرهة بن الصّباح بن يكسوم، فساخط أرياط في أمر الحبشة حتى انصدعوا صدعين، فكان طائفة مع أرياط، وطائفة مع أبرهة، فتزاحفا فقتل أبرهة أرياط، واجتمعت الحبشة لأبرهة، وغلب على اليمن، وأقره النّجاشي على عمله، ثم إن أبرهة رأى النّاس يتجهزون أيام الموسم إلى مكة لحج بيت الله عزّ وجلّ، فبنى كنيسة بصنعاء، وكتب إلى النّجاشي إني قد بنيت لك بصنعاء كنيسة لم يبن لملك مثلها، ولست منتهياً حتى أصرف إليها حج العرب فسمع بذلك مالك بن كنانة فخرج لها ليلاً، فدخل وتغوط فيها ولطّخ بالعذرة قبلتها، فبلغ ذلك أبرهة فقال: من اجترأ عليّ، فقيل صنع ذلك رجل من العرب من أهل ذلك البيت سمع بالذي قلت، فحلف أبرهة عند ذلك ليسيرن إلى الكعبة حتى يهدمها، فكتب إلى النجاشي يخبره بذلك، وسأله أن يبعث إليه بفيله، وكان له فيل يقال له محمود، وكان فيلاً لم ير مثله عظماً، وجسماً، وقوة، فبعث به إليه، فخرج

سُوْرَةُ الفِيْل

مكيّة وهي خمس آيات.

﴿ **ألم ترَ كيف فعل ربّك بأصحاب الفيل** ﴾؟ وكانت قصة أصحاب الفيل على ما ذكره محمد بن إسحاق عن بعض أهل العلم عن سعيد بن جبير وعكرمة عن ابن عباس وذكره الواقدي: أن النجاشي ملك الحبشة كان قد بعث أرياطاً إلى أرض اليمن فغلب عليها، فقام رجل من الحبشة يقال له أبرهة بن الصباح أبو مكتوم، فساخط أرياط في أمر الحبشة حتى انصدعوا صدعين وكانت طائفة مع أرياط وطائفة مع أبرهة فتزاحفا فقتل أبرهة أرياط، واجتمعت الحبشة لأبرهة وغلب على اليمن وأقرّه النجاشي على عمله، ثم إن أبرهة رأى الناس يتجهّزون أيام الموسم إلى مكة لحجّ بيت الله، فبنى كنيسة بصنعاء وكتب إلى النجاشي: إني قد بنيت لك بصنعاء كنيسة لم يُبْنَ لملك مثلها، ولست منتهياً حتى أصرف إليها حجّ العرب، فسمع به رجل من بني مالك بن كنانة فخرج إليها مستخفياً فدخلها ليلاً فقعد فيها وتغوّط بها ولطخ بالعذرة قِبلتها، فبلغ ذلك أبرهة فقال: مَن اجترأ عليّ ولطّخ كنيستي بالعذرة؟ فقيل له: صنع ذلك رجل من العرب من أهل ذلك البيت سمع بالذي قلت، فحلف أبرهة عند ذلك ليسيرنّ إلى الكعبة حتى

أبرهة في الحبشة سائراً إلى مكة، وخرج معهم الفيل، فسمعت العرب بذلك، فعظموه ورأوا جهاده حقاً عليهم، فخرج ملك من ملوك اليمن يقال له ذو نفر بمن أطاعه من قومه، فقاتلوه فهزمه أبرهة، وأخذ ذا نفر فقال يا أيها الملك استبقني فإن بقائي خير لك من قتلي فاستحياه وأوثقه وكان أبرهة رجلاً حليماً، ثم سار حتى إذا دنا من بلاد خثعم، خرج إليه نفيل بن حبيب الخثعمي في خثعم ومن اجتمع إليه من قبائل اليمن، فقاتلوه فهزمهم، وأخذ نفيلاً فقال نفيل أيها الملك إني دليل بأرض العرب، وهاتان يداي على قومي بالسمع والطّاعة، فاستبقاه وخرج معه يدله حتى إذا مر بالطائف خرج إليه مسعود بن مغيث في رجال من ثقيف فقال: أيّها الملك نحن عبيدك ليس عندنا خلاف لك، إنما تريد البيت الذي بمكة نحن نبعث معك من يدلك عليه، فبعثوا معه أبا رغال مولى لهم، فخرج حتى إذا كان بالمغمس مات أبو رغال وهو الذي يرجم قبره، وبعث أبرهة رجلاً من الحبشة يقال له الأسود بن مسعود على مقدمة خيله، وأمره بالغارة على نعم الناس، فجمع الأسود أموال أصحاب الحرم، وأصاب لعبد المطلب مائتي بعير، ثم إن أبرهة أرسل بحناطة الحميري إلى أهل مكة، وقال له: سل عن شريفها، ثم أبلغه ما أرسلك به إليه أخبره أني لم آت لقتال، إنما جئت لأهدم هذا البيت، فانطلق حتى دخل مكة، فلقي عبد المطلب بن هاشم فقال له إن الملك أرسلني إليك لأخبرك أنه لم يأت لقتال، إلا أن تقاتلوه، إنما جاء لهدم هذا البيت ثم الانصراف عنكم، فقال عبد المطلب: ما له عندنا قتال ولا لنابه يد إنا سنخلي بينه وبين ما جاء له، فإن هذا بيت الله الحرام، وبيت إبراهيم خليله عليه الصّلاة والسّلام، فإن يمنعه فهو بيته وحرمه وإن يخل بينه وبين ذلك فوالله ما لنا به قوة قال فانطلق معي إلى الملك، فزعم

يهدمها، فكتب إلى النجاشي يخبره بذلك وسأله أن يبعث إليه بفيله، وكان له فيل يقال له محمود وكان فيلاً لم يرَ مثله عظيماً جسيماً وقوّة، فبعث به إليه فخرج أبرهة من الحبشة سائراً إلى مكة، وأخرج معه الفيل، فسمعت العرب بذلك فاستعظموه ورأوا جهاده حقاً عليهم، فخرج ملك من ملوك اليمن يقال له ذو نفر بمَن أطاعه من قومه، فقاتله فهزمه أبرهة وأخذ ذا نفر، فقال: أيها الملك لا تقتلني فإنّ استبقائي خيراً لك من قتلي فاستحياه وأوثقه، وكان أبرهة رجلاً حليماً ثم سار حتى إذا دنا من بلاد خثعم، خرج نفيل بن حبيب الخثعمي في خثعم ومَن اجتمع إليه من قبائل اليمن، فقاتلوه فهزمهم وأخذ نفيل، فقال نفيل: أيها الملك إني دليل بأرض العرب وهاتان يداي على قومي بالسمع والطاعة فاستبقاه، وخرج معه يدلّه حتى إذا مرّ بالطائف خرج إليه مسعود بن مغيث في رجال من ثقيف فقال: أيها الملك نحن عبيدك ليس لك عندنا خلاف وقد علمنا أنك تريد البيت الذي بمكة نحن نبعث معك مَن يدلّك عليه، فبعثوا أبا رغال مولى لهم فخرج حتى إذا كان بالمغمس مات أبو رغال وهو الذي يرجم قبره، وبعث أبرهة من المغمس رجلاً من الحبشة يقال له الأسود بن مسعود على مقدمة خيله وأمره بالغارة على نَعَمِ الناس، فجمع الأسود إليه أموال الحرم، وأصاب لعبد المطّلب مائتي بعير، ثم إن أبرهة بعث حناطة الحميري إلى أهل مكة، فقال: سَلْ عن شريفها ثم أبلغه ما أرسلك به إليه، أخبرْ أني لم آتِ لقتال إنما جئت لأهدم هذا البيت، فانطلق حتى دخل مكة فلقي عبد المطّلب بن هاشم، فقال: إن الملك أرسلني إليك لأُخبرك أنه لم يأتِ لقتال إلاّ أن تقاتلوه، إنما جاء لهدم هذا البيت ثم الانصراف عنكم، فقال عبد المطّلب: ما له عندنا قتال ولا له عندنا إلاّ أن نخلي بينه وبين ما جاء له، فإن هذا بيت الله الحرام وبيت خليله إبراهيم عليه السلام، فإن يمنعه فهو بيته وحرمه، وإن يخلِ بينه وبين ذلك فوالله ما لنا قوة إلاّ به، قال: فانطلق معي إلى الملك، فزعم بعض العلماء أنه أردفه على بغلة كان عليها وركب معه بعض بنيه حتى قَدِمَ المعسكر، وكان ذو نفير صديقاً لعبد المطّلب فأتاه فقال: يا ذا نفير هل عندك من غناء فيما نزل بنا؟ فقال: ما غناء رجل أسير لا يأمن أن يقتل بكرةً أو عشيّاً، ولكن سأبعث إلى أنيس سائس الفيل فإنه لي صديق فأسأله أن يصنع لك عند الملك ما استطاع من خير ويعظم خطرك ومنزلتك عنده، قال: فأرسل إلى أنيس فأتاه فقال

بعض العلماء أنه أردفه على بغلة كان عليها، وركب معه بعض بنيه حتى قدم على العسكر، وكان ذو نفر صديقاً لعبد المطلب، فأتاه فقال: يا ذا نفر هل عندك من غناء فيما نزل بنا؟ قال فما غناء رجل أسير لا يأمن من أن يقتل بكرة أو عشية، ولكن سأبعث إلى أنيس سائس الفيل، فإنه لي صديق، فأسأله أن يصنع لك عند الملك ما استطاع من خير، ويعظم خطرك، ومنزلتك عنده قال فأرسل إلى أنيس، فأتاه فقال، له إن هذا سيد قريش، وصاحب عير مكة يطعم النّاس في السّهل، والوحوش في رؤوس الجبال، وقد أصاب الملك له مائتي بعير فإن استطعت أن تنفعه عنده، فانفعه فإنه صديق لي أحب ما وصل إليه من الخير، فدخل أنيس على أبرهة فقال: أيها الملك هذا سيد قريش، وصاحب عير مكة الذي يطعم الناس في السّهل، والوحوش في رؤوس الجبال يستأذن عليك، وأنا أحب أن تأذن له، فيكلمك فقد جاء غير ناصب، ولا مخالف عليك، فأذن له وكان عبد المطلب رجلاً جسيماً، وسيما فلما رآه أبرهة عظمه، وأكرمه، وكره أن يجلس معه على السرير وأن يجلس تحته، فهبط إلى البساط فجلس عليه، ثم دعاه، فأجلسه معه ثم قال لترجمانه قل له ما حاجتك إلى الملك فقال الترجمان: ذلك له فقال له عبد المطلب حاجتي إلى الملك أن يرد عليّ مائتي بعير أصابها لي، فقال أبرهة لترجمانه قل له كنت أعجبتني حين رأيتك، ولقد زهدت الآن فيك قال لم قال جئت إلى بيت هو دينك، ودين آبائك، وهو شرفكم، وعصمتكم لأهدمه لم تكلمني فيه، وتكلمني في مائتي بعير أصبتها لك، قال عبد المطلب: أنا رب هذه الإبل، ولهذا البيت رب سيمنعه منك، قال ما كان ليمنعه مني قال فأنت وذاك فأمر بإبله فردت عليه، فلما ردت الإبل على عبد المطلب خرج، فأخبر قريشاً الخبر وأمرهم أن يتفرقوا في الشّعاب ويتحرزوا في رؤوس الجبال تخوفاً عليهم من معرة الحبش، ففعلوا وأتى عبد المطلب الكعبة، وأخذ حلقة الباب وجعل يقول:

يـــا رب لا أرجـــوا لهـــم ســـواكـــا   يـــا رب فـــامنـــع منهـــم حمـــاكـــا
إن عـــدو البيـــت مـــن عـــاداكـــا   امنعهـــم أن يخـــربـــوا قـــراكـــا

له: إن هذا سيد قريش صاحب عِيْر مكة الذي يطعم الناس في السهل والوحوش في رؤوس الجبال، وقد أصاب له الملك مائتي بعير فإن استطعت أن تنفعه عنده فانفعه فإنه صديق لي أحبّ ما وصل إليه من الخير، فدخل أنيس على أبرهة فقال: أيها الملك هذا سيد قريش وصاحب عِيْر مكة الذي يطعم الناس في السهل والوحوش في رؤوس الجبال، يستأذن إليك وأحبّ أن تأذن له فيكلّمك وقد جاء غير ناصب لك ولا مخالف عليك، فأذِنَ له وكان عبد المطّلب رجلاً جسيماً وسيماً فلما رآه أبرهة أعظمه وأكرمه، وكره أن يجلس معه على سريره وأن يجلس تحته فهبط إلى البساط فجلس عليه ثم دعاه فأجلسه معه، ثم قال لترجمانه قل له: ما حاجتك إلى الملك؟ فقال له الترجمان ذلك، فقال عبد المطلب: حاجتي إلى الملك أن يردّ إليّ مائتي بعير أصابها لي، فقال أبرهة لترجمانه قل له: لقد كنت أعجبتني حين رأيتك، ولقد زهدت فيك، قال: لِمَ؟ قال: جئتُ إلى بيت هو دينك ودين آبائك وهو شرفكم وعصمتكم لأهدمنّه لم تكلمني فيه وتكلمني في مائتي بعير أصبتها؟ قال عبد المطّلب: أنا ربّ هذه الإبل وإن لهذا البيت ربّاً سيمنع عنه مَن يقصده بسوء، قال: ما كان ليمنعه منّي، قال: فأنت وذاك، فأمر بإبله فرُدّتْ عليه، فلما رُدّتِ الإبل إلى عبد المطلب خرج فأخبر قريشاً الخبر الذي وقع بينه وبين أبرهة، وأمرهم أن يتفرّقوا في الشّعاب ويتحرّزوا في رؤوس الجبال تخوّفاً عليهم من معرّة الحبش فيهم، ففعلوا وأتى عبد المطّلب الكعبة وأخذ بحلقة الباب وجعل يقول:

يــا رب لا أرجــو لـهم ســواكــا   يــا ربّ فــامنــع منهم حمــاكــا
إن عــدوّ الـبيـت مَـن عــاداكــا   امنعـهـم أن يـخـرّبـوا قــراكــا

وقال أيضاً:

لا هـــم إن العبـــد يمـ ـنـع رحلـه فـامنـع رحـالـك
وانصـــر علـــى آل الصليـ ـب وعـابـديـه اليَـوم آلـك
لا يغلبـــن صليبهـــم ومحـالهـم عـدوا محـالـك
جـروا جمـوع بـلادهـم والفيـل كـي يسبـوا عيـالـك
عمـدوا حمـاك بكيـدهـم جهـلاً ومـا رقبـوا جـلالـك
إن كنـت تـاركهـم وكعـ ـبتنـا فـأمـر مـا بـدا لـك

ثم ترك عبد المطلب الحلقة، وتوجه في بعض تلك الوجوه مع قومه، وأصبح أبرهة بالمغمس، وقد تهيأ للدخول، وهيأ جيشه، وهيأ فيله، وكان فيلاً لم ير مثله في العظم والقوة، ويقال كان معه اثنا عشر فيلاً، فأقبل نفيل إلى الفيل الأعظم، ثم أخذ بإذنه، وقال له أبرك محمود وارجع راشداً من حيث جئت، فإنك ببلد الله الحرام، فبرك الفيل، فبعثوه فأبى، فضربوه بالمعول في رأسه، فأدخلوا محاجنهم تحت مراقه، ومرافقه، ففزعوه ليقوم فأبى فوجهوه راجعاً إلى اليمن، فقام يهرول ووجهوه إلى الشام، ففعل مثل ذلك، ووجوه إلى المشرق ففعل مثل ذلك فصرفوه إلى الحرم، فبرك وأبى أن يقوم، وخرج نفيل يشتد حتى صعد الجبل، وأرسل الله عزّ وجلّ طيراً من البحر أمثال الخطاطيف مع كل طائر منها ثلاثة أحجار حجران في رجليه وحجر في منقاره أمثال الحمص، والعدس، فلما غشين القوم أرسلنها عليهم، فلم تصب تلك الحجارة أحداً إلا هلك، وليس كل قوم أصابت وخرجوا هاربين لا

وقال أيضاً:

لَا هُـمَّ إن الـعـبـد يـمـ ـنـع رحـلـه فـامـنـع رحـالـكْ
وانـصـرْ عـلـى آل الـصـلـ ـيـب وعـابـديـه الـيـوم آلـكْ
لا يـغـلـبـنّ صـلـيـبـهـم ومـحـالـهـم عـدوّاً مـحـالـكْ
جـرّوا جـمـوع بـلادهـم والـفـيـل كي يـسـبـوا عـيـالـكْ
عـمـدوا حـمـاك بـكـيـدهـم جـهـلوا ومـا رقـبـوا جـلالـكْ
إن كـنـت تـاركـهـم وكـعْـ ـبـتـنـا فـأمـرْ مـا بـدا لـكْ

ثم ترك عبد المطّلب الحلقة وتوجّه في بعض تلك الوجوه مع قومه، وأصبح بأبرهة بالمغمس قد تهيّأ للدخول وهيّأ جيشه وهيّأ فيله وكان فيلاً عظيماً لم يُرَ مثله في العِظَم والقوّة، ويقال كان معه اثني عشر فيلاً، فأقبل نفيل إلى الفيل الأعظم ثم أخذ بأُذنه فقال: أبرك محمود وارجعْ راشداً من حيث جئت فإنك في بلد الله الحرام، فبرك الفيل فبعثوه فأبى فضربوه بالمِعوَل في رأسه فأبى، فأدخلوا محاجنهم تحت مراقه ومرافقه فنزعوه ليقوم فأبى، فوجّهوه راجعاً إلى اليمن فقام يهرول، ووجّهوه إلى الشام ففعل مثل ذلك، ووجّهوه إلى المشرق ففعل مثل ذلك، فصرفوه إلى الحرم فبرك وأبى أن يقوم، وخرج نفيل يشتدّ حتى صعد في أعلى وأرسل الله عليهم طيراً من البحر أمثال الخطاطيف مع كل طائر منها ثلاثة أحجار حجران في رجليه وحجر في مِنقاره أمثال الحمص والعدس، فلما غشيت القوم أرسلنها عليهم فلم تصب تلك الحجارة أحداً إلّا هلك، وليس كل القوم أصابت وخرجوا هاربين لا يهتدون إلى الطريق الذي جاؤوا منه، وهم يتساءلون عن نفيل بن حبيب ليدلّهم على الطريق إلى اليمن، ونفيل ينظر إليهم من بعض تلك الجبال، فصرخ القوم وماجَ بعضهم في بعض يتساقطون بكل طريق ويهلكون على كلّ منهل، وبعث

يهتدون إلى الطريق الذي جاؤوا منه ويتساءلون عن نفيل بن حبيب ليدلهم على الطريق إلى اليمن، ونفيل ينظر إليهم من بعض الجبال وفي ذلك يقول نفيل:

فإنك ما رأيت ولن تراه لدى حين المحصب ما رأينا
حمدت الله إذ أبصرت طيراً وحصب حجارة تلقى علينا
وكلهم يسائل عن نفيل كأن علي للحبشان دينا

وخرج القوم وماج بعضهم في بعض يتساقطون بكل طريق، ويهلكون في كل منهل، وبعث الله على أبرهة داء في جسده، فجعل تتساقط أنامله كلما سقطت أنملة تبعتها مدة من قيح، ودم، فانتهى إلى صنعاء، وهو مثل فرخ الطير، فيمن بقي من أصحابه، وما مات حتى انصدع صدره عن قلبه، ثم هلك قال الواقدي: وأما محمود فيل النجاشي فربض ولم يشجع على الحرم، والفيل الآخر شجعوا، فحصبوا أي رموا بالحصباء، وقال بعضهم أنفلت أبو يكسوم وزير أبرهة، وتبعه طير، فحلّق فوق رأسه حتى بلغ النّجاشي فقص عليه القصة، فلما أنهاها وقع عليه حجر من ذلك الطير، فخر ميتاً بين يدي النجاشي قال أمية بن أبي الصّلت:

إن آيات ربنا ساطعات ما يماري فيهن إلا الكفور
حبس الفيل بالمغمس حتى ظل يعوي كأنه معقور

وروي عن عائشة رضي الله عنها قالت: رأيت قائد الفيل وسائسه بمكة يستطعمان الناس، وزعم مقاتل بن سليمان أن السبب الذي جرأ أصحاب الفيل، أن فئة من قريش أجعوا ناراً حين خرجوا تجاراً إلى أرض النّجاشي، فدنوا من ساحل البحر، وثم بيعة للنّصارى تسميها قريش الهيكل، فنزلوا فأججوا النّار واشتووا، فلما ارتحلوا تركوا النار كما هي في يوم عاصف، فهاجت الريح، فاضطرم الهيكل ناراً فانطلق الصّريخ إلى النّجاشي فأسف غضباً للبيعة، فبعث أبرهة لهدم الكعبة، وكان في مكة يومئذ أبو مسعود الثقفي وكان مكفوف البصر يصيف بالطائف ويشتو بمكة، وكان رجلاً نبيهاً نبيلاً تستقيم الأمور برأيه، وكان خليلاً لعبد المطلب فقال له عبد المطلب: ماذا عندك فهذا يوم لا يستغنى فيه عن رأيك؟ فقال أبو مسعود اصعد بنا إلى حراء، فصعد الجبل فقال أبو مسعود لعبد المطلب اعمد إليّ مائة من الإبل، فاجعلها لله وقلدها نعلاً، واجعلها لله ثم أبثثها في الحرم، فلعل بعض السودان يعقر منها شيئاً، فيغضب

الله على أبرهة داءً في جسده فجعل تتساقط منه أنامله كلما سقطتْ أُنملةٌ اتبعتها مدة من قيح ودم، فانتهى إلى صنعاء وهو مثل فرخ الطائر فيمَن بقي من أصحابه، وما مات حتى انصدع صدره من قلبه ثم هلك. قال الواقدي: وأما محمود فيل النجاشي فربض ولم يشجّع على الحرم فنجا والفيل الآخر شجعوا فحصبوا، وزعم مقاتل بن سليمان أن السبب الذي جرّأ أصحاب الفيل: أن فتية من قريش خرجوا تجّاراً إلى أرض النجاشي فدنوا من ساحل البحر ثـم بيعة للنصارى تسمّيها قريش الهيكل، فنزلوا فأجّجوا ناراً فاصطلوا فلما ارتحلوا تركوا النار كما هي في يوم عاصف فهاجت الريح فاضطرم الهيكل ناراً فانطلق الصغير إلى النجاشي فأسف، واغتاظ غيظاً شديداً، فبعث أبرهة لهدم الكعبة، وقال فيه: إنه كان بمكة يومئذ أبو مسعود الثقفي وكان مكفوف البصر يصيف بالطائف ويشتو بمكة، وكان رجلاً نبيهاً نبيلاً تستقيم الأمور برأيه، وكان خليلاً لعبد المطّلب، فقال له عبد المطّلب: ماذا عندك هذا يوم لا يُستغنى فيه عن رأيك؟ فقال أبو مسعود: اصعد بنا إلى حرّاء فصعد الجبل، فقال أبو مسعود لعبد المطّلب: اعمد إلى مائة من الإبل فاجعلها لله وقلّدها نعلاً ثم أرسلها في الحرم لعلّ بعض هذه السودان يعقر منها شيئاً، فيغضب ربّ هذا البيت فيأخذهم، ففعل ذلك عبد المطّلب فعمد القوم إلى تلك الإبل فحملوا عليها وعقروا بعضها وجعل

رب هذا البيت، فيأخذهم ففعل ذلك عبد المطلب فعمد القوم إلى تلك الإبل، فحملوا عليها، وعقروا بعضها وجعل عبد المطلب يدعو فقال أبو مسعود إن لهذا البيت رباً يمنعه فقد نزل تبع ملك اليمن صحن هذا البيت، وأراد هدمه فمنعه الله وابتلاه، وأظلم عليه ثلاثة أيام، فلما رأى تبع ذلك كساه القباطي البيض، وعظمه ونحر له جزوراً، فانظر نحو البحر، فنظر عبد المطلب فقال: أرى طيراً بيضاء نشأت من شاطىء البحر فقال ارمقها ببصرك أين قرارها قال أراها قد دارت على رؤوسنا، قال: هل تعرفها؟ قال والله ما أعرفها ما هي بنجدية، ولا بتهامية، ولا عربية، ولا شامية، قال: ما قدرها؟ قال: أشباه اليعاسيب في مناقيرها حصى، كأنها حصى الخذف قد أقبلت كالليل يتبع بعضها بعضاً أمام كل رفقة طير يقودها أحمر المنقار أسود الرأس طويل العنق، فجاءت حتى إذا حاذت عسكر القوم ركدت فوق رؤوسهم، فلما توافت الرجال كلهم أهالت الطير ما في مناقيرها على من تحتها مكتوب على كل حجر اسم صاحبه، ثم إنها رجعت من حيث جاءت فلما أصبحا انحطا من ذروة الجبل، فمشيا حتى صعدا ربوة، فلم يؤنسا أحداً ثم دنوا فلم يسمعا حساً فقال بات القوم سامرين، فأصبحوا نياماً فلما دنوا من عسكر القوم فإذا هم خامدون وكان يقع الحجر على بيضة أحدهم فيخرقها حتى تقع في دماغه، وتخرق الفيل والدّابة ويغيب الحجر في الأرض من شدة وقعه، فعمد عبد المطلب، فأخذ فأساً من فؤوسهم، فحفر حتى أعمق في الأرض، فملأه من الذهب الأحمر، والجواهر، وحفر لصاحبه مثله فملاه ثم قال لأبي مسعود اختر إن شئت حفرتي وإن شئت حفرتك، وإن شئت فهما لك معاً فقال أبو مسعود فاختر لي على نفسك، فقال عبد المطلب إني أرى أجود المتاع في حفرتي فهي لك وجلس كل واحد منهما على حفرته ونادى عبد المطلب في الناس فتراجعوا، وأصابوا من فضلهما حتى ضاقوا به، وساد عبد المطلب بذلك قريشاً، وأعطته القادة فلم يزل عبد المطلب وأبو مسعود في أهليهما في غنى من ذلك المال، ودفع الله عزّ وجلّ عن كعبته، واختلفوا في تاريخ عام الفيل، فقيل كان قبل مولد النبي ﷺ بأربعين سنة وقيل بثلاث وعشرين سنة، والأصح الذي عليه الأكثرون من علماء السير، والتواريخ، وأهل التفسير أنه كان في العام الذي ولد فيه رسول الله ﷺ فإنهم يقولون ولد عام الفيل، وجعلوه تاريخاً لمولده ﷺ وأما التّفسير فقوله عزّ وجلّ ﴿ألم تر﴾ أي ألم تعلم، وذلك لأن هذه الواقعة كانت قبل مبعثه بزمان طويل إلا أن العلم بها كان حاصلاً عنده لأن الخبر بها كان مستفيضاً

عبد المطّلب يدعو، فقال أبو مسعود: إن لهذا البيت ربّاً يمنعه، فقد نزل تبّع ملك اليمن صحن هذا البيت وأراد هدمه فمنعه الله وابتلاه، وأظلم عليه ثلاثة أيام، فلما رأى تبّع ذلك كساه القباطي البيض، وعظّمه وتحوّله جزوراً، ثم قال أبو مسعود: انظر نحو البحر، فنظر عبد المطّلب فقال: أرى طيراً أبيض نشأت من شاطىء البحر، فقال: ارمقها ببصرك أين قرارها، قال: أراها قد دارت على رؤوسنا، قال: فهل تعرفها؟ قال: فوالله ما أعرفها ما هي بنجدية ولا تهامية ولا عربية ولا شامية، قال: ما قدرها؟ قال أشباه اليعاسيب في مِنقارها حصى كأنها حصى الخذف، قد أقبلت كالليل يكسع، بعضُها بعضاً أمام كل رفقة طير يقودها أحمر المنقار أسود الرأس طويل العنق، فجاءه حتى إذا حازت بعسكر القوم ركدت فوق رؤوسهم، فلما توفّت الرجال كلها أهالت الطير ما في مناقرها على مَن تحتها، مكتوب في كل حجر اسم صاحبه، ثم أنها انصاعت راجعة من حيث جاءت، فلما أصبحا انحطّا من ذروة الجبل، فمشيا ربوة فلم يؤنسا أحداً ثم دنوا ربوة فلم يسمعا حِسّاً، فقالا: بات القوم سامرين، فأصبحوا نِياماً فلما دنوا من عسكر القوم فإذا هم خامدون، وكان يقع الحجر على بيضة أحدهم فيخرقها حتى يقع في دماغه ويخرق الفيل والدابّة ويغيب الحجر في الأرض من شدّة وقعه، فعمد عبد المطّلب فأخذ فأساً من فؤوسهم فحفر حتى أعمق في الأرض حُفرة فملأها من أموالهم من الذهب الأحمر والجوهر، وحفر لصاحبه حُفرة فملأها كذلك، ثم قال لأبي مسعود: هات فاختر إن شئت حُفرتي وإن شئت حُفرتك، وإن شئت فهما لك معاً، قال أبو مسعود: اخترْ لي على نفسك، فقال

معروفاً بمكة وإذا كان كذلك فكأنه ﷺ علمه وشاهده يقيناً، فلهذا قال تعالى ﴿**ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل**﴾، قيل كان معهم فيل واحد، وقيل كانوا فيلة ثمانية، وقيل اثني عشر وإنما وحده لأنه نسبهم إلى الفيل الأعظم الذي كان يقال له محمود، وقيل وإنما وحده لو فاق الآي، وفي قصة أصحاب الفيل دلالة عظيمة على قدرة الله تعالى وعلمه، وحكمته إذ يستحيل في العقل أن طيراً تأتي من قبل البحر تحمل حجارة ترمي بها ناساً مخصوصين، وفيها دلالة عظيمة على شرف محمد ﷺ ومعجزة ظاهرة له وذلك أن الله تعالى إنما فعل ذلك لنصر من ارتضاه، وهو محمد ﷺ الدّاعي إلى توحيده، وإهلاك من سخط عليه، وليس ذلك لنصرة قريش، فإنهم كانوا كفاراً لا كتاب لهم، والحبشة لهم كتاب فلا يخفى على عاقل، أن المراد بذلك نصر محمد ﷺ فكأنه تعالى قال أنا الذي فعلت ما فعلت بأصحاب الفيل تعظيماً لك، وتشريفاً لقدومك، وإذ قد نصرتك قبل قدومك فكيف أتركك قبل ظهورك.

أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾

﴿**ألم يجعل كيدهم**﴾ يعني مكرهم، وسعيهم في تخريب الكعبة ﴿**في تضليل**﴾ أي تضييع وخسار، وإبطال ما أرادوا أضل كيدهم، فلم يصلوا إلى ما أرادوا من تخريب البيت، بل رجع كيدهم عليهم، فخربت كنيستهم، واحترقت، وهلكوا وهو قوله تعالى: ﴿**وأرسل عليهم طيراً أبابيل**﴾ يعني طيراً كثيرة متفرقة يتبع بعضها بعضاً، وقيل أبابيل أقاطيع كالإبل المؤبلة، وقيل أبابيل جماعات في تفرقة قيل لا واحد لها من لفظها، وقيل واحدها أبالة، وقيل أبيل، وقيل أبول مثل عجول قال ابن عباس: كانت طيراً لها خراطيم، كخراطيم الطير، وأكف كأكف الكلاب، وقيل رؤوس كرؤوس السباع، وقيل لها أنياب كأنياب السباع، وقيل طير خضر لها مناقير صفر، وقيل طير سود جاءت من قبل البحر فوجاً فوجاً مع كل طائر ثلاثة أحجار، حجران في رجليه، وحجر في منقاره لا تصيب شيئاً إلا هشمته، ووجه الجمع بين هذه الأقاويل في اختلاف أجناس هذه الطير أنه كانت فيها هذه الصفات كلها فبعضها على ما حكاه

عبد المطّلب: إني لم أرَ أن أجعل أجود المتاع في حُفرتي فهو لك، وجلس كل واحد منهما على حُفرته، ونادى عبد المطّلب في الناس فتراجعوا وأصابوا من فضلهما حتى ضاقوا به ذرعاً، وساد عبد المطّلب بذلك قريشاً وأعطته القيادة، فلم يزل عبد المطّلب وأبو مسعود في أهليهما في غنىً من ذلك المال، ودفع الله عن كعبته وبيته.

واختلفوا في تاريخ عام الفيل، فقال مقاتل: كان قبل مولد النبي ﷺ بأربعين سنة. وقال الكلبي: بثلاث وعشرين سنة. والأكثرون على أنه كان في العام الذي وُلِدَ فيه رسول الله ﷺ. قوله عزّ وجلّ: ﴿ **ألم ترَ كيف فعل ربّك بأصحاب الفيل** ﴾؟ قال مقاتل: كان معهم فيل واحد. وقال الضحّاك: كانت الفيلة ثمانية. وقيل: اثني عشر سوى الفيل الأعظم، وإنما وحّد لأنه نسبهم إلى الفيل الأعظم. وقيل: لِوِفَاق رُؤوس الآي.

﴿ **ألم يجعلْ كيدهم في تضليل** ﴾، كيدهم يعني مكرهم وسعيهم في تخريب الكعبة. وقوله: **في تضليل** عمّا أرادوا ضلّل كيدهم حتى لم يصلوا إلى الكعبة، وإلى ما أرادوه بكيدهم. قال مقاتل: **في** خسارة. وقيل: **في** بلاطن.

﴿ **وأرسل عليهم طيراً أبابيل** ﴾، كثيرة متفرّقة يتبع بعضها بعضاً. وقيل: أقاطيع كالإبل المؤبلة. قال أبو عبيدة: أبابيل جماعات في تفرقة، يقال: جاءت الخيل أبابيل من ههنا وههنا. قال الفرّاء: لا واحد لها، من لفظها. وقيل: واحدها إبالة. وقال الكسائي: إني كنت أسمع النحويين يقولون واحدها أبول، مثل عجول وعجاجيل. وقيل: واحدها من لفظها أبيل. قال ابن عباس: كانت طيراً لها خراطيم كخراطيم الطير وأكفّ كأكفّ الكلاب. وقال

ابن عباس، وبعضها على ما حكاه غيره، فأخبر كل واحد بما بلغه من صفاتها، والله أعلم.

قوله عزّ وجلّ: **﴿ترميهم بحجارة﴾** قال ابن مسعود: صاحت الطّير، ورمتهم بالحجارة، وبعث الله ريحاً، فضربت بالحجارة، فزادتها شدة، فما وقع حجر منها على رجل إلا خرج من الجانب الآخر، وإن وقع على رأسه خرج من دبره **﴿من سجيل﴾** قيل السّجيل اسم علم للدّيوان الذي كتب فيه عذاب الكفار، واشتقاقه من الأسحال، وهو الإرسال، والمعنى ترميهم بحجارة من جملة العذاب المكتوب المدون بما كتب الله في ذلك الكتاب، وقيل معناه من طين مطبوخ كما يطبخ الأجر، وقيل سجيل حجر، وطين مختلط، وأصله سنك، وكل فارسي معرب، وقيل سجيل الشّديد. **﴿فجعلهم كعصف مأكول﴾** يعني كزرع وتبن أكلته الدّواب، ثم راثته، فيبس، وتفرقت أجزاؤه شبه تقطع أوصالهم، وتفرقها بتفرق أجزاء الرّوث، وقيل العصف ورق الحنطة، وهو التبن، وقيل كالحب إذا أكل، فصار أجوف وقال ابن عباس: هو القشر الخارج الذي يكون على حب الحنطة كهيئة الغلاف، والله تعالى أعلم.

عكرمة: لها رؤوس كرؤوس السِّباع. قال الربيع: لها أنياب كأنياب السِّباع. وقال سعيد بن جبير: خضر لها مناقير صفر. وقال قتادة طير سود جاءت من قبل البحر فوجاً فوجاً مع كل طائر ثلاثة أحجار حجران في رجليه وحجر في مِنقاره لا تصيب شيئاً إلاّ هشمته.

﴿ ترميهم بحجارة من سجّيل ﴾، قال ابن مسعود صاحت الطير ورمتهم بالحجارة فبعث الله ريحاً فضربت الحجارة فزادتها شدّة فما وقع منها حجر على رجل إلاّ خرج من الجانب الآخر، وإن وقع على رأسه خرج من دُبره.

﴿ فجعلهم كعصف مأكول ﴾، كزرع وتين أكلته الدواب فراثته فيبس وتفرّقت أجزاؤه، شبّه تقطّع أوصالهم بتفرّق أجزاء الروث. قال مجاهد: العصف ورق الحنطة. وقال قتادة: هو التبن. وقال عكرمة: كالحبّ إذا أكل فصار أجوف. وقال ابن عباس: هو القشر الخارج الذي يكون على حبّ الحنطة كهيئة الغلاف له.

سورة قريش

مكية وقيل مدنية والأول أصح وأكثر وهي أربع آيات وسبع عشرة كلمة وثلاثة وسبعون حرفاً

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ﴿١﴾

قوله عزّ وجلّ: ﴿**لإيلاف قريش**﴾ اختلفوا في هذه اللام، فقيل هي متعلقة بما قبلها وذلك أن الله تعالى ذكر أهل مكة عظيم نعمته عليهم بما صنع بالحبشة، فقال فجعلهم كعصف مأكول لإيلاف قريش، أي هلك أصحاب الفيل لتبقى قريش، وما ألفوا من رحلة الشتاء والصيف، ولهذا جعل أبي بن كعب هذه السّورة وسورة الفيل واحدة ولم يفصل بينهما في مصحفه ببسم الله الرحمن الرحيم والذي عليه الجمهور من الصحابة وغيرهم، وهو المشهور أن هذه السّورة منفصلة عن سورة الفيل وأنه لا تعلق بينهما وأجيب عن مذهب أبي بن كعب في جعل هذه السّورة، والسورة التي قبلها سورة واحدة بأن القرآن كالسورة الواحدة يصدق بعضه بعضاً ويبين بعضه معنى بعض وهو معارض أيضاً بإطباق الصّحابة، وغيرهم على الفصل بينهما، وأنهما سورتان فعلى هذا القول اختلفوا في العلة الجالبة للام في قوله ﴿**لإيلاف**﴾، فقيل هي لام التعجب، أي اعجبوا الإيلاف قريش رحلة الشّتاء والصّيف، وتركهم عبادة رب هذا البيت، ثم أمرهم بعبادته، فهو كقوله على وجه التعجب اعجبوا لذلك، وقيل هي متعلقة بما بعدها تقديره، فليعبدوا رب هذا البيت لإيلافهم رحلة الشتاء والصيف، أي ليجعلوا عبادتهم شكراً لهذه النعمة والإيلاف من ألفت الشيء إلفاً وهو بمعنى الإئتلاف فيكون المعنى لإيلاف قريش هاتين الرحلتين فتتصلا ولا تتقطعا، وقيل هو من ألفت كذا، أي لزمته وألفنيه الله ألزمنيه الله، وقريش هم ولد النضر بن كنانة، فكل من ولده النضر، فهو من قريش، ومن لم يلده النضر، فليس بقرشي (م) عن واثلة بن الأسقع قال: قال رسول الله ﷺ «إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى

سُورَة قُرَيش

مكيّة وهي أربع آيات.

﴿ **لإيلافِ قريشٍ** ﴾، قرأ أبو جعفر (ليلاف) بغير همز (إلا فهم) طلباً للخفّة، وقرأ ابن عامر (لالآف) بهمزة مختلسة من غير ياء بعدها، وقرأ الآخرون بهمزة مشبعة وياء بعدها، واتفقوا غير أبي جعفر في ﴿ **إيلافهم** ﴾ أنها بياء بعد الهمزة إلّا عبد الوهاب بن فليح عن ابن كثير فإنه قرأ (الفهم) ساكنة اللام بغير ياء وعدّ بعضهم سورة الفيل. وهذه السورة واحدة منهم أُبيّ بن كعب لا فصل بينهما في مصحفه، وقالوا: اللام في ﴿ **لإيلاف** ﴾ تتعلق بالسورة التي قبلها، وذلك أن الله تعالى ذكّر أهلَ مكة عظيم نعمته عليهم فيما صنع بالحبشة، وقال: ﴿ **لإيلاف قريش** ﴾، وقال الزجّاج: المعنى جعلهم كعصف مأكول لإيلاف قريش، أي هلك أصحاب الفيل لتبقى قريش، وما أَلِفوا من

قريشاً من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم» (م) عن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال «الناس تبع لقريش في الخير والشر» (ق) عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال «إن الناس تبع لقريش في هذا الشّأن مسلمهم لمسلمهم وكافرهم لكافرهم» عن سعيد بن زيد قال: قال رسول الله ﷺ «من أراد هوان قريش أهانه الله» أخرجه التّرمذي وقال حديث حسن غريب عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ «اللهم أذقت أول قريش نكالاً، فأذق آخرهم نوالاً» أخرجه التّرمذي وقال حديث حسن صحيح غريب.

النكال: العذاب، والمشقة، والشّدة، والنّوال: العطاء، والخير، وسموا قريشاً من القرش، والتقريش وهو الجمع، والتكسب، يقال فلان يقرش لعياله، ويقترش لهم، أي يكتسب وذلك لأن قريشاً كانوا قوماً تجاراً وعلى جمع المال، والأفضال حراصاً، وقال أبو ريحانة سأل معاوية عبد الله بن عباس لم سميت قريش قريشاً قال لدابة تكون في البحر هي من أعظم دوابه يقال لها القرش لا تمر بشيء من الغث والسمين إلا أكلته، وهي تأكل ولا تؤكل وتعلو، ولا تعلى، قال وهل تعرف العرب ذلك في أشعارها قال نعم وأنشده شعر الجمحي.

وقريش هي التي تسكن البحـ ـر بها سميت قريش قريشا
سلطت بالعلو في لجة البحـ ـر وعلى سائر البحور جيوشا
تأكل الغث والسمين ولا تتـ ـرك فيه لذي الجناحين ريشا
هكذا في الكتاب حي قريش يأكلون البلاد أكلاً كشيشا

رحلة الشتاء والصيف. وقال مجاهد: أِلفوا ذلك فلا يشقّ عليهم في الشتاء والصيف، والعامّة على أنهما سورتان، واختلفوا في العلّة الجالبة للام في قوله: ﴿لإيلاف﴾ قال الكسائي والأخفش: هي لام التعجّب، يقول: أعجبوا لإيلاف قريش رحلة الشتاء والصيف، وتركهم عبادة ربِّ هذا البيت، ثم أمرهم بعبادته كما الحبشة يقال له الأسود بن مسعود على مقدمة خيله وأمره بالغارة على نَعَمِ الناس، فجمع الأسود إليه أموال تقول في الكلام لزيد وإكرامنا إيّاه على وجه التعجّب، أي اعجبوا لذلك، والعرب إذا جاءت بهذه اللام اكتفوا بها دليلاً على التعجّب من إظهار الفعل منه. وقال الزجّاج: هي مردودة إلى ما بعدها تقديره: فليعبدوا ربَّ هذا البيت لإيلافهم رحلة الشتاء والصيف. وقال ابن عيينة: لنعمتي على قريش، وقريش هم ولد النضر بن كنانة، وكلّ من ولده النضر فهو قرشي، ومَن لم يلده النضر فليس بقرشي، أخبرنا أبو الحسن علي بن يوسف الجويني أنا أبو محمد محمد بن علي بن محمد بن شريك الشافعي أنا عبد الله بن مسلم أبو بكر الجوربردي ثنا يونس بن عبد الأعلى الصدفي أنا بشر بن بكر عن الأوزاعي حدّثني شدّاد أبو عمّار ثنا واثلة بن الأسقع قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى من كنانة قريشاً، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم»، وسُمّوا قريشاً من القرش والتقرّش وهو التكسّب والجمع، يقال: فلان يقرش لعياله ويقترش أي يكتسب وهم كانوا تجّاراً حرصاً على جمع المال والأفضال. وقال أبو ريحانة: سأل معاوية عبد الله بن عباس لِمَ سُمّيت قريش قريشاً؟ قال: لدابّة تكون في البحر من أعظم دوابّه يقال لها القرش لا تمرّ بشيء من الغثّ والسمين إلاّ أكلته، وهي تأكل ولا تُؤكل، وتعلو ولا تُعلى، قال: وهل تعرف العرب ذلك في أشعارها؟ قال: نعم، فأنشده شعر الجمحي:

وقريش هي التي تسكن البحـ ـر سمّيت قريش قريشا
سلّطت بالعلو في لجّة البحـ ـر على سائر البحور جيوشا
تأكل الغثّ والسمين ولا تتـ ـرك فيه لذي الجناحين ريشا
هكذا في البلاد حيّ قريش يأكلون البلاد أكلاً كميشا

ولهم في آخر الزمان نبي يكثر القتل فيهم والخموشا
يملأ الأرض خيلة ورجالاً يحشرون المطي حشراً كميشا

وقيل إن قريشاً كانوا متفرقين في غير الحرم، فجمعهم قصي بن كلاب، وأنزلهم الحرم فاتخذوه مسكناً فسموا قريشاً لتجمعهم، والتقرش التجمع يقال تقرش القوم إذا تجمعوا، وسمي قصي مجمعاً لذلك قال الشاعر:

أبوكم قصي كان يدعى مجمعا به جمع الله القبائل من فهر

﴿إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ۝٤﴾

وقوله تعالى: ﴿إيلافهم﴾ هو بدل من الأول تفخيماً لأمر الإيلاف، وتذكيراً لعظم المنة فيه. ﴿رحلة الشتاء والصيف﴾ قال ابن عباس كانوا يشتون بمكة ويصيفون بالطائف فأمرهم الله تعالى أن يقيموا بالحرم، ويعبدوا رب هذا البيت، وقال الأكثرون كانت لهم رحلتان في كل عام للتجارة: رحلة في الشتاء إلى اليمن لأنها أدفأ، ورحلة في الصيف إلى الشام، وكان الحرم وادياً مجدباً لا زرع فيه، ولا ضرع، وكانت قريش تعيش بتجارتهم ورحلتهم، وكانوا لا يتعرض لهم أحد بسوء، وكانوا يقولون قريش سكان حرم الله وولاة بيته وكانت العرب تكرمهم، وتعزهم، وتعظمهم لذلك، فلولا الرحلتان لم يكن لهم مقام بمكة ولولا الأمن بجوار البيت لم يقدروا على التصرف، فشق عليهم الاختلاف إلى اليمن والشام، فأخصبت بتالة وجرش من بلاد اليمن، فحملوا الطعام إلى مكة، أهل الساحل حملوا طعامهم في البحر على السفن إلى مكة وأهل البر حملوا على الإبل والحمير فألقى أهل الساحل بجدة وأهل البر بالمحصب وأخصب الشام فحملوا الطعام إلى مكة وألفوا بالأبطح فامتار أهل مكة من قريب، وكفاهم الله مؤنة الرحلتين جميعاً وقال ابن عباس: كانوا في ضر ومجاعة حتى جمعهم هاشم على الرحلتين، فكانوا يقسمون ربحهم

ولهم في آخر الزمان نبيّ يُكثر القتل فيهم والخموشا

قوله تعالى: ﴿ إيلافهم ﴾، بدل من الإيلاف الأول، ﴿ رحلة الشتاء والصيف ﴾، ﴿ رحلة ﴾ نصب على المصدر، أي ارتحالهم رحلة الشتاء والصيف. روى عكرمة وسعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كانوا يشتُون بمكة ويصيْفون بالطائف فأمرهم الله تعالى أن يقيموا بالحرم ويعبدوا ربَّ هذا البيت. وقال الآخرون: كانت لهم رحلتان في كل عام للتجارة إحداهما في الشتاء إلى اليمن لأنها أدفأ، والأخرى في الصيف إلى الشام. وكان الحرم وادياً جدباً لا زرع فيه ولا ضرع، وكانت قريش تعيش بتجارتهم ورحلتهم، وكان لا يتعرّض لهم أحد بسوء، كانوا يقولون: قريش سكان حرم الله وولاة بيته فلولا الرحلتان لم يكن لهم مقام بمكة، ولولا الأمن بجوار البيت لم يقدروا على التصرّف، وشقّ عليهم الاختلاف إلى اليمن والشام فأخصبت تبالة وجرش من بلاد اليمن، فحملوا الطعام إلى مكة أهل الساحل من البحر على السفن وأهل البرّ على الإبل والحمير فألقى أهلُ الساحل بجدّة، وأهل البرّ بالمحصّب، وأخصب الشام فحملوا الطعام إلى مكة فألقوا بالأبطح، فامتاروا من قريب وكفاهم الله مؤونة الرحلتين، وأمرهم بعبادة ربِّ البيت.

فقال: ﴿ فليعبدوا ربَّ هذا البيت ﴾، أي الكعبة.

﴿ الذي أطعمهم من جوع ﴾، أي من بعد جوع بحمل الميرة إلى مكة، ﴿ وآمنهم من خوف ﴾، بالحرم

بين الغني، والفقير حتى كان فقيرهم كغنيهم، وقال الكلبي: كان أول من حمل السمراء يعني القمح إلى الشام، ورحل إليها الإبل هاشم بن عبد مناف وفيه يقول الشاعر:

قل للّذي طلب السّماحة والنّدى ... هلاّ مررت بآل عبد مناف
هلا مررت بهم تريد قراهم ... منعوك من ضر ومن إكفاف
الرّائشين وليس يوجد رائش ... والقائلين هلم للأضياف
والخالطين غنيهم بفقيرهم ... حتى يكون فقيرهم كالكافي
والقائمين بكل وعد صادق ... والرّاحلين برحلة الإيلاف
عمرو العلا هشيم الثّريد لقومه ... ورجال مكة مسنتون عجاف
سفرين سنهما له ولقومه ... سفر الشتاء ورحلة الأصياف

قوله عزّ وجلّ: ﴿فليعبدوا رب هذا البيت﴾ يعني الكعبة، وذلك أن الأنعام على قسمين أحدهما: دفع ضر، وهو ما ذكره في سورة الفيل، والثاني جلب نفع، وهو ما ذكره في هذه السّورة، ولما دفع الله عنهم الضّر، وجلب لهم النفع، وهما نعمتان عظيمتان أمرهم بالعبودية، وأداء الشكر، وقيل إنه تعالى لما كفاهم أمر الرّحلتين أمرهم أن يشتغلوا بعبادة رب هذا البيت. فإنه هو ﴿الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف﴾ ومعنى الذي أطعمهم من جوع، أي من بعد جوع بحمل الميرة إليهم من البلاد في البر والبحر، وقيل في معنى الآية أنهم لما كذبوا محمداً ﷺ دعا عليهم، فقال اللّهم اجعلها عليهم سنين كسني يوسف فاشتد عليهم القحط، وأصابهم الجوع، والجهد، فقالوا: يا محمد ادع الله لنا فإنا مؤمنون فدعا رسول الله ﷺ فأخصبت البلاد، وأخصبت أهل مكة بعد القحط، والجهد، فذلك قوله تعالى ﴿الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف﴾، أي بالحرم وكونهم من أهل مكة حتى لم يتعرض لهم أحد في رحلتهم، وقيل آمنهم من خوف الجذام فلا يصيبهم ببلدهم الجذام، وقيل آمنهم بمحمد ﷺ وبالإسلام والله أعلم.

وكونهم من أهل مكة حتى لم يتعرّض لهم في رحلتهم. وقال عطاء عن ابن عباس: إنهم كانوا في ضرٍّ ومجاعة حتى جمعهم هاشم على الرحلتين، وكانوا يقسمون ربحهم بين الفقير والغني حتى كان فقيرهم كغنيِّهم. قال الكلبي: وكان أول مَن حمل السمراء من الشام ورحل إليها الإبل هاشم بن عبد مناف وفيه يقول الشاعر:

قلْ للذي طلب السماحة والندى ... هلّا مررت بآل عبدِ مَنافِ
هلّا مررتَ بهم تريد قِرَاهم ... منعوكَ من ضَرّ ومن أكفافِ
الرائشينَ وليسَ يُوجدُ رائِش ... والقائلين هلمَّ للأضيافِ
والخالطين فقيرَهم بغنيِّهم ... حتى يكونَ فقيرُهم كالكافي
والقائمين بكل وعدٍ صادق ... والراحلينَ برحلةِ الإيلافِ
عَمْرو العَلا هَشَمَ الثريدَ لقومه ... ورجالُ مكةَ مسنتون عجافِ
سَفَرَيْنِ سنّهما له ولقومه ... سفرَ الشتاءِ ورحلةَ الأصيافِ

وقال الضحاك والربيع وسفيان: ﴿وآمنهم من خوف﴾ من خوف الجذام، فلا يصيبهم ببلدهم الجذام.

سورة الماعون

مكية وقيل نزل نصفها بمكة في العاص بن وائل والنصف الثاني بالمدينة في عبد الله بن أبي بن سلول المنافق.

وهي سبع آيات وخمس وعشرون كلمة ومائة وخمسة وعشرون حرفاً.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾

قوله عزّ وجلّ: ﴿أرأيت الذي يكذب بالدين﴾ قيل نزل في العاص بن وائل السّهمي، وقيل في الوليد بن المغيرة، وقيل في عمرو بن عائد المخزومي، وفي رواية عن ابن عباس أنها في رجل من المنافقين، ومعنى الآية هل عرفت الذي يكذب بيوم الجزاء، والحساب، فإن لم تعرفه.

فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣﴾ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴿٧﴾

﴿فذلك الذي يدع اليتيم﴾ ولفظ أرأيت استفهام، والمراد به المبالغة في التّعجب من حال هذا المكذب بالدّين وهو خطاب للنبي ﷺ، وقيل هو خطاب لكل واحد، والمعنى أرأيت يا أيها الإنسان أو يا أيّها العاقل هذا الذي يكذب بالدين بعد ظهور دلائله، ووضوح بيانه، فكيف يليق به ذلك الذي يدع اليتيم، أي يقهره، ويدفعه عن حقه، والدع الدفع بعنف، وجفوة، والمعنى أنه يدفعه عن حقه، وماله بالظلم، وقيل يترك المواساة له وإن لم تكن المواساة واجبة، وقيل يزجره، ويضربه، ويستخف به، وقرىء يدعو بالتخفيف، أي يدعوه ليستخدمه قهراً واستطالة. ﴿ولا يحض على طعام المسكين﴾ أي لا يطعمه ولا يأمر بإطعامه لأنه يكذب بالجزاء، وهذا غاية البخل، لأنه يبخل بماله وبمال غيره بالإطعام.

سُورَة المَاعُون

مكيّة وهي سبع آيات.

﴿ أرأيتَ الذي يُكذّب بالدين ﴾، قال مقاتل: نزلت في العاص بن وائل السهمي. وقال السدي ومقاتل بن حيان وابن كيسان: في الوليد بن المغيرة. قال الضحاك: نزلت في عمرو بن عائذ المخزومي. وقال عطاء عن ابن عباس: في رجل من المنافقين. ومعنى يُكذّب بالدين أي بالجزاء والحساب.

﴿ فذلك الذي يدعُّ اليتيم ﴾، يقهره ويدفعه عن حقه، والدع: الدفع بالعنف والجفوة.

﴿ ولا يحضّ على طعام المسكين ﴾، لا يطعمه ولا يأمر بإطعامه لأنه يكذب بالجزاء.

قوله تعالى: ﴿فويل للمصلين﴾ يعني المنافقين، ثم نعتهم فقال تعالى: ﴿الذين هم عن صلاتهم ساهون﴾ روى البغوي بسنده عن سعد «سئل قال رسول الله ﷺ عن الذين هم عن صلاتهم ساهون قال إضاعة الوقت» وقال ابن عباس: هم المنافقون يتركون الصلاة إذا غابوا عن الناس. ويصلون في العلانية إذا حضروا معهم لقوله تعالى ﴿الذين هم يراؤون﴾ وقال تعالى في وصف المنافقين ﴿وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراؤون الناس﴾، وقيل ساه عنها لا يبالي صلى أو لم يصل، وقيل لا يرجون لها ثواباً إن صلوا ولا يخافون عليها عقاباً إن تركوا، وقيل غافلون عنها ويتهاونون بها، وقيل هم الذين إن صلوا صلوها رياء وإن فاتتهم لم يندموا عليها وقيل هم الذين لا يصلونها لمواقيتها، ولا يتمون ركوعها، ولا سجودها، وقيل لما قال تعالى عن صلاتهم ساهون بلفظة عن علم أنها في المنافقين، والمؤمن قد يسهو في صلاته والفرق بين السهوين أن سهو المنافق هو أن لا يتذكرها، ويكون فارغاً عنها، والمؤمن إذا سها في صلاته تداركه في الحال، وجبره بسجود السهو فظهر الفرق بين السّهوين، وقيل السّهو عن الصّلاة هو أن يبقى ناسياً لذكر الله في جميع أجزاء الصّلاة، وهذا لا يصدر إلا من المنافق الذي يعتقد أنه لا فائدة في الصّلاة، فأما المؤمن الذي يعتقد فائدة صلاته، وأنها عليه واجبة، ويرجوا الثواب على فعلها، ويخاف العقاب على تركها، فقد يحصل له سهو في الصّلاة يعني أن يصير ساهياً في بعض أجزاء الصّلاة بسبب وارد يرد عليه بوسوسة الشّيطان أو حديث النّفس، وذلك لا يكاد يخلو منه أحد، ثم يذهب ذلك الوارد عنه، فثبت بهذا الفرق أن السّهو عن الصّلاة من أفعال المنافق والسّهو في الصّلاة من أفعال المؤمن. ﴿الذين هم يراؤون﴾ يعني يتركون الصّلاة في السّر ويصلونها في العلانية، والفرق بين المنافق، والمرائي أن المنافق هو الذي يبطن الكفر ويظهر الإيمان، والمرائي يظهر الأعمال مع زيادة الخشوع ليعتقد فيه من يراه أنه من أهل الدّين والصّلاح أما من يظهر النّوافل ليقتدى به ويأمن على نفسه من الرّياء، فلا بأس بذلك وليس بمراء ثم وصفهم بالبخل. فقال تعالى: ﴿ويمنعون الماعون﴾ روي عن علي أنه قال هي الزكاة، وهو قول ابن عمر والحسن، وقتادة، والضحاك ووجه ذلك أن الله تعالى ذكرها بعد الصلاة فذمهم على ترك الصّلاة، ومنع الزكاة وقال ابن مسعود: الماعون الفاس والدلو والقدر، وأشباه ذلك، وهي رواية عن ابن عباس، ويدل عليه ما روي عنه قال كنا نعد الماعون على عهد رسول الله ﷺ عارية الدّلو، والقدر، أخرجه أبو داود، وقال مجاهد: الماعون

﴿ فويلٌ للمصلّين * الذين هم عن صلاتهم ساهون ﴾، أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحي أنا أبو سعيد محمد بن موسى الصيرفي أنا أبو عبد الله محمد بن عبد الله الصفّار أنا أبو جعفر محمد بن غالب بن تمام الضبّي ثنا حَرَمي بن حفص القسملي ثنا عكرمة بن إبراهيم الأزدي ثنا عبد الكريم بن عمير عن مصعب بن سعد عن أبيه أنه قال: سُئِلَ رسول الله ﷺ عن ﴿ الذين هم عن صلاتهم ساهون ﴾، قال: «إضاعة الوقت»، قال ابن عباس: هم المنافقون يتركون الصلاة إذا غابوا عن الناس، ويصلّونها في العلانية إذا حضروا.

لقوله تعالى: ﴿ الذين هم يُراؤون ﴾، وقال في وصف المنافقين: «وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يُرَاؤُون النّاسَ»، وقال قتادة: ساهٍ عنها لا يبالي صلّى أم لم يُصلِّ. قيل: لا يرجون لها ثواباً إن صلّوا ولا يخافون عقاباً إن تركوا. وقال مجاهد: غافلون عنها يتهاونون بها. وقال الحسن: هو الذي إن صلّاها صلّاها رياءً، وإن فاتته لم يندم. وقال أبو العالية: لا يصلّونها لمواقيتها ولا يتمّون ركوعها وسجودها.

﴿ ويمنعون الماعون ﴾، رُوِيَ عن عليّ رضي الله عنه أنه قال: هي الزكاة، وهو قول ابن عمر والحسن وقتادة والضحاك. وقال عبد الله بن مسعود: الماعون الفأس والدلو والقدر وأشباه ذلك، وهي رواية سعيد بن جبير عن ابن عباس. قال مجاهد: الماعون العارية. وقال عكرمة: أعلاها الزكاة المعروفة، وأدناها عارية المتاع. وقال محمد بن كعب والكلبي: الماعون المعروف الذي يتعاطاه الناس فيما بينهم. قال قطرب: أصلِ الماعون من القلّة،

العارية وقال عكرمة: الماعون أعلاه الزكاة المفروضة، وأدناه عارية المتاع، وقال محمد بن كعب القرظي، الماعون المعروف كله الذي يتعاطاه الناس فيما بينهم وقيل أصل الماعون من القلة فسمي الزّكاة والصّدقة، والمعروف ماعوناً لأنه قليل من كثير، وقيل الماعون ما لا يحل منعه مثل الماء، والملح، والنار، ويلتحق بذلك البئر، والتنور في البيت فلا يمنع جيرانه من الانتفاع بهما، ومعنى الآية الزجر عن البخل بهذه الأشياء القليلة الحقيرة، فإن البخل بها في نهاية البخل قال العلماء ويستحب أن يستكثر الرجل في بيته مما يحتاج إليه الجيران فيعيرهم ويتفضل عليهم ولا يقتصر على الواجب والله أعلم.

تقول العرب: ما له سعة ولا منعة، أي شيء قليل، فسمّى الزكاة والصدقة والمعروف ماعوناً لأنه قليل من كثير. وقيل: الماعون ما لا يحلّ منعه مثل الماء والملح والنار.

سورة الكوثر

وهي مكية قاله ابن عباس والجمهور، وقيل إنها مدنية قاله الحسن وعكرمة، وقتادة وهي ثلاث آيات وعشر كلمات واثنان وأربعون حرفاً

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴿٢﴾ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴿٣﴾

قوله عزّ وجلّ: ﴿**إنا أعطيناك الكوثر**﴾ نهر في الجنة أعطاه الله محمداً ﷺ، وقيل الكوثر القرآن العظيم، وقيل هو النّبوة، والكتاب، والحكمة، وقيل هو كثرة أتباعه، وأمته، وقيل الكوثر الخير الكثير كما فسره ابن عباس (خ) عن أبي بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال الكوثر الخير الكثير الذي أعطاه الله إياه، قال أبو بشر قلت لسعيد بن جبير أن ناساً يزعمون أنه نهر في الجنة، فقال سعيد النهر الذي في الجنة من الخير الكثير الذي أعطاه الله إياه، وأصل الكوثر فوعل من الكثرة، والعرب تسمي كل شيء كثير في العدد أو كثير القدر والخطر كوثراً، وقيل الكوثر الفضائل الكثيرة التي فضل بها على جميع الخلق فجميع ما جاء في تفسير الكوثر فقد أعطيه النبي ﷺ أعطي النبوة، والكتاب، والحكمة، والعلم، والشفاعة، والحوض المورود، والمقام المحمود، وكثرة الأتباع، والإسلام، وإظهاره على الأديان كلها، والنّصر على الأعداء، وكثرة الفتوح في زمنه وبعده إلى يوم القيامة.

وأولى الأقاويل في الكوثر الذي عليه جمهور العلماء، أنه نهر في الجنة كما جاء مبيناً في الحديث (ق) عن أنس قال «بينا رسول الله ﷺ ذات يوم بين أظهرنا إذ أغفى إغفاءه ثم رفع رأسه متبسماً، فقلنا ما أضحكك يا رسول الله قال أنزلت علي آنفاً سورة، فقرأ بسم الله الرحمن الرحيم ﴿**إنا أعطيناك الكوثر فصل لربك وانحر إن شانئك هو الأبتر**﴾، ثم قال أتدرون ما الكوثر، قلنا الله ورسوله أعلم قال، فإنه نهر وعدنيه ربي عزّ وجلّ فيه خير كثير هو حوض ترد عليه أمتي يوم القيامة. آنيته عدد نجوم السماء، فيختلج العبد منهم، فأقول رب إنه من أمتي. فيقول ما تدري ما أحدث بعدك» لفظ مسلم وللبخاري قال: قال رسول الله ﷺ «لما عرج بي إلى السّماء أتيت على نهر حافتاه قباب اللؤلؤ المجوف، فقلت ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا الكوثر الذي أعطاك ربك فإذا طينه أو طينته مسك أذفر» شك الراوي عن أنس رضي الله عنه قال «سئل رسول الله ﷺ ما الكوثر قال ذلك نهر أعطانيه الله يعني في الجنة أشد بياضاً من اللبن، وأحلى من

سُورَة الكَوْثَر

مكيّة وهي ثلاث آيات.

﴿ **إنّا أعطيناك الكوثر** ﴾، أخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر أنا عبد الغافر بن محمد أنا محمد بن عيسى الجلودي ثنا إبراهيم بن محمد بن سفيان ثنا مسلم بن الحجّاج ثنا أبو بكر بن أبي شيبة ثنا علي بن مسهر عن المختار يعني ابن فلفل عن أنس قال: بينا رسول الله ﷺ ذات يوم بين أظهرنا إذا أغفي إغفاءةً ثم رفع رأسه متبسّماً،

العسل فيه طير أعناقها، كأعناق الجزور قال عمر إن هذه لناعمة فقال رسول الله ﷺ أكلتها أنعم منها» أخرجه الترّمذي، وقال حديث حسن صحيح.

عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ «الكوثر نهر في الجنة حافتاه من ذهب ومجراه على الدر، والياقوت تربته أطيب من المسك، وماؤه أحلى من العسل وأبيض من الثلج» أخرجه الترّمذي، وقال حديث حسن صحيح (خ) «عن عامر بن عبد الله بن مسعود رضي الله عنهما قال سألت عائشة عن قوله تعالى ﴿**إنا أعطيناك الكوثر**﴾، فقالت الكوثر نهر أعطيه نبيكم ﷺ شاطئاه در مجوف آنيته كعدد نجوم السماء» (ق) عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ «حوضي مسيرة شهر ماؤه أبيض من اللبن، وريحه أطيب من المسك، وكيزانه كنجوم السماء من شرب منها لا يظمأ أبداً» زاد في رواية «وزواياه سواء» (ق) عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال «أمامكم حوضي ما بين جنبيه كما بين جربا وأذرح» قال بعض الرواة هما قريتان بالشام بينهما مسيرة ثلاثة أيام، وفي رواية «فيه أباريق كنجوم السّماء من ورده فشرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبد» (ق) عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال «ما بين ناحيتي وفي رواية لابتي حوضي كما بين صنعاء والمدينة» وفي رواية «مثل ما بين المدينة وعمان» وفي رواية قال «إن قدر حوضي كما بين أيلة وصنعاء من اليمن، وإن فيه من الأباريق كعدد نجوم السماء» (م) عن أبي ذر رضي الله عنه قال «قلت يا رسول الله ما آنية الحوض قال والذي نفسي بيده لآنيته أكثر من عدد نجوم السماء، وكواكبها ألا في الليلة المظلمة المصحية آنية الجنة من شرب منها لم يظمأ آخر ما عليه يشخب فيه ميزابان من الجنة من شرب منه لم يظمأ عرضه، مثل طوله ما بين عمان إلى أيلة ماؤه أشد بياضاً من اللبن وأحلى من العسل» (م) عن ثوبان رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال «إني لبعقر حوضي أذود الناس لأهل اليمن أضرب بعصاي، أي حتى يرفض عليهم، فسئل عن عرضه فقال من مقامي إلى عمان وسئل عن شرابه فقال أشد بياضاً من اللبن وأحلى من العسل يغت فيه ميزابان يمدانه من الجنة أحدهما: من ذهب، والآخر من الورق» (ق) عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «أنا فرطكم على الحوض وليرفعن إلى رجال منكم حتى إذا أهويت إليهم لأناولهم اختلجوا دوني، فأقول أي ربي أصحابي، فيقال إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك» (ق) عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ «قال ليردن على الحوض رجال ممن صاحبني حتى إذا رفعوا إليّ اختلجوا دوني، فلأقولن أي رب أصحابي أصحابي فليقالن لي إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك» وفي رواية «يردن على ناس من أمتي الحديث» وفي آخره «فأقول سحقاً لمن بدل بعدي» (ق) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال إن رسول الله ﷺ قال «يرد على يوم القيامة رهطان من أصحابي أو قال من أمتي فيجلون عن الحوض، فأقول رب أصحابي، فيقول إنه لا علم لك بما أحدثوا بعدك إنهم ارتدوا على أدبارهم القهقرى» ولمسلم أن رسول الله ﷺ قال «ترد على أمتي الحوض، وأنا أذود الناس عنه كما يذود الرجل إبل الرجل عن إبله قالوا أيا نبي الله تعرفنا قال نعم لكم سيما ليست لأحد غيركم تردون على غرا محجلين من آثار الوضوء وليصدن عني طائفة منكم فلا يصلون إليّ فأقول يا رب هؤلاء من أصحابي فيجيبني ملك فيقول وهل تدري ما أحدثوا بعدك»

فقلنا: ما أضحكك يا رسول الله؟ قال: «نزلت عليّ آنفاً سورة، فقرأ: بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿ **إنّا أعطيناك الكوثر * فصلِّ لربّك وانحرْ * إنّ شانئك هو الأبتر** ﴾، ثم قال: تـدرون ما الكوثـر»؟ قلنا: اللّهُ ورسولُه أعلم، قال: «فإنه نهر وعدنيه ربّي فيه خير كثير هو حوض تَرِدُ عليه أمتي يوم القيامة، آنيته عدد النجوم فيختلج العبد منهم، فأقول: ربِّ إنه منّي، فيقول: ما تدري ما أحدث بعدك». أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا عمرو بن محمد ثنا هاشم ثنا أبو بشر وعطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس: قال الكوثر الخير الكثير الذي أعطاه الله إيّاه. قال أبو بشر قلت لسعيد بن جبير: إنّ أُناساً يزعمون أنه نهر في الجنة؟ فقال سعيد: النهر الذي في الجنة من الخير الذي أعطاه الله إيّاه. قال الحسـن: هو

(ق) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ «والذي نفسي بيده لأذودن رجالاً عن حوضي كما تذاد الغريبة من الإبل عن الحوض» (م) عن حذيفة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال «إن حوضي لأبعد من أيلة إلى عدن، والذي نفسي بيده لأذودن عنه الرجل كما يذود الرجل الإبل الغريبة عن إبله قالوا يا رسول الله وتعرفنا؟ قال نعم تردون على غرا محجلين من آثار الوضوء ليس لأحد غيركم» عن زيد بن أرقم رضي الله عنه قال «كنا مع رسول الله ﷺ فنزلنا منزلاً فقال ما أنتم إلا جزء من مائة ألف جزء ممن يرد على الحوض، قيل كم كنتم يومئذ قال سبعمائة أو ثمانمائة» أخرجه أبو داود.

(فصل في شرح هذه الأحاديث وذكر ما يتعلق بالحوض)

قال الشّيخ محي الدّين النّووي: قال القاضي عياض أحاديث الحوض صحيحة، والإيمان به فرض، والتصديق به من الإيمان، وهو على ظاهره عند أهل السنة، والجماعة لا يتأول، ولا يختلف فيه، وحديثه متواتر النقل رواه الخلائق من الصحابة، فذكره مسلم من رواية ابن عمر وأبي سعيد، وسهل بن سعد، وجندب بن عبد الله، وعبدالله بن عمر وعائشة وأم سلمة، وعقبة بن عامر، وابن مسعود، وحذيفة، وحارثة بن وهب، والمستورد وأبي ذر وثوبان، وأنس، وجابر بن سمرة، ورواه غير مسلم من رواية أبي بكر الصّديق وزيد بن أرقم وأبي أمامة وعبد الله بن زيد وأبي برزة وسويد بن حبلة وعبد الله بن الصنابحي والبراء بن عازب وأسماء بنت أبي بكر الصّديق وخولة بنت قيس وغيرهم، قال الشيخ محيـي الدّين، ورواه البخاري ومسلم أيضاً من رواية أبي هريرة ورواه غيرهما من رواية عمر بن الخطاب وعائذ بن عمرو وآخرين، وقد جمع ذلك كله الإمام الحافظ أبو بكر البيهقي في كتابه البعث، والنشور بأسانيده وطرقه، المتكاثرة قلت وقد اتفقا على إخراج حديث الحوض وعن جماعة ممن تقدم ذكرهم من الصّحابة على ما سبق ذكره في الأحاديث، وفيه بيان ما اتفقا عليه، وانفرد به كل واحد منهما، وأخرجا أيضاً حديث الحوض عن أسماء بنت أبي بكر الصّديق وذكرها القاضي عياض، فيمن خرج له في غير الصحيحين قال القاضي عياض وفي بعض هذا ما يقتضي كون الحديث متواتراً، وأما صفة الحوض، ومقداره فقد قال في رواية «حوضي مسيرة شهر وفي رواية ما بين جنبيه كما بين جرباء، وأذرح، وفي رواية كما بين أيلة، وصنعاء اليمن، وفي رواية عرضه مثله طوله ما بين عمان إلى أيلة، وفي رواية إن حوضي لأبعد من أيلة إلى عدن» فهذا الاختلاف في هذه الروايات في قدر الحوض ليس موجباً للاضطراب فيها لأنه لم يأت في حديث واحد بل في أحاديث مختلفة الرواة عن جماعات من الصّحابة سمعوها من النبي ﷺ في مواطن مختلفة ضربها النبي ﷺ مثلاً لبعد أقطار الحوض وسعته وقرب ذلك على إفهام السامعين لبعد ما بين هذه البلاد المذكورة لأعلى التقدير الموضوع للتحديد بل لإعلام السامعين عظم بعد المسافة

القرآن. قال عكرمة: النبوّة والكتاب. وقال أهل اللغة: الكوثر فوعل من الكثرة، كنوفل فوعل من النفل، والعرب تسمّي كل شيء كثير في العدد أو كثير في القدر والخطر: كوثراً. والمعروف: أنه نهر في الجنة أعطاه الله رسول الله ﷺ كما جاء في الحديث: أخبرنا أبو عبد الله محمد بن الفضل الخرقي أنا أبو الحسن علي بن عبد الله الطيسفوني أنا عبد الله بن عمر الجوهري ثنا أحمد بن علي الكشمهيني ثنا علي بن حجر ثنا إسماعيل بن جعفر ثنا حميد عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «دخلت الجنة فإذا أنا بنهر يجري بياضه بياض اللّبن، وأحلى من العسل، وحافّتاه خيام اللؤلؤ، فضربت بيدي فإذا الثرى مسك أذفر، فقلت لجبريل: ما هذا»؟ قال: الكوثر الذي أعطاكه الله عزّ وجلّ. أخبرنا عبد الرحمن بن محمد الداودي أنا أبو الحسن أحمد بن محمد بن موسى الصّلت ثنا أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الصمد الهاشمي أنا أبو سعيد الأشج ثنا محمد بن فضيل عن عطاء بن السائب عن محارب بن دثار عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «الكوثر نهر في الجنة حافّتاه الذهب مجراه على الدرّ والياقوت تربته أطيب

وسعة الحوض وليس في ذكر القليل من هذه المسافة منع من الكثير، فإن الكثير ثابت على ظاهره، وصحت الرواية به، والقليل داخل فيه فلا معارضة، ولا منافاة بينهما وكذلك القول في آنية الحوض من أن العدد المذكور في الأحاديث على ظاهره، وأنها أكثر عدداً من نجوم السّماء ولا مانع يمنع من ذلك إذ قد وردت الأحاديث الصّحيحة الثّابتة بذلك وكذلك القول في الواردين إلى الحوض الشّاربين منه، وكثرتهم وقوله ﷺ «ما أنتم إلا جزء من مائة ألف جزء ممن يرد الحوض» لم يرد به الحصر بهذا العدد المذكور وإنما ضربه مثلاً لأكثر العدد المعروف للسّامعين ويدل على هذا قوله ﷺ «من ورد شرب منه» فهذا صريح في أن جميع الواردين يشربون، وإنما يمنع منه الذين يزدادون، ويمنعون الورود لارتدادهم، وتبديلهم وهو قوله ﷺ «فيختلج العبد منهم فأقول رب إنه من أمتي، فيقول ما تدري ما أحدث بعدك، وفي رواية وليرفعن إلى رجال منكم حتى إذا أهويت لأناولهم اختلجوا دوني، فأقول أي رب أصحابي، فيقول إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك» ونحو هذا من الروايات المذكورة في الأحاديث السابقة، وهذا مما اختلف العلماء في معناه، وفي المراد به من هم، فقيل المراد بهم المنافقون، والمرتدون في زمن النبي ﷺ فيحتمل أنهم إذا حشروا عرفهم النبي ﷺ للسيما التي عليهم فيناديهم، فيقال له ليس هؤلاء ممن وعدت بهم إنهم قد بدلوا بعدك، أي لم يكونوا على ما ظهر من إسلامهم، وقيل المراد بهم من أسلموا في زمن النبي ﷺ ثم ارتدوا بعده في زمن أبي بكر الصّديق وهم الذين قاتلهم على الردة، وهم أصحاب مسيلمة الكذاب، فيناديهم النبي ﷺ لما كان يعرفه من إيمانهم في حياته فيقال له قد ارتدوا بعدك، وقيل المراد بهم أصحاب البدع الذين لم يخرجوا ببدعتهم عن الإسلام، وأصحاب المعاصي، والكبائر الذين ماتوا على التّوحيد، ولم يتوبوا من بدعتهم ومعاصيهم فعلى هذا القول لا يقطع لهؤلاء المطرودين عن الحوض بالنّار بل يجوز أن يزدادوا عنه عقوبة لهم ثم يرحمهم الله، فيدخلهم الجنة من غير عذاب، وقال ابن عبد البر كل من أحدث في الدين كالخوارج والروافض وسائر أصحاب الأهواء فهو من المطرودين عن الحوض قال وكذلك الظلمة المسرفون في الجور، وغمط الحق، والمعلنون بالكبائر فكل هؤلاء يخاف أن يكونوا ممن عنى بهذا الحديث وقوله من شرب منه لم يظمأ أبداً قال القاضي عياض: ظاهر هذا الحديث أن الشرب منه يكون بعد الحساب، والنجاة من النار، ويحتمل أن من شرب منه من هذه الأمة وقدر عليه دخول النار لا يعذب فيها بالظمأ بل يكون عذابه بغير ذلك لأن ظاهر الحديث أن جميع الأمة تشرب منه إلا من ارتد، وصار كافراً، وقيل إن جميع المؤمنين يأخذون كتبهم بأيمانهم، ثم يعذب الله من شاء من عصاتهم، وقيل إنما يأخذ بيمينه الناجون منهم خاصة، والشرب من الحوض مثله.

(شرح غريب ألفاظ الأحاديث)

قوله فيختلج العبد منهم، أي ينتزع ويجذب منهم، قوله ما بين جنبيه كما بين جرباً، وأذرح أما جربا فبجيم ثم

من المسك وأشدّ بياضاً من الثلج». أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف حدّثنا محمد بن إسماعيل ثنا سعيد بن أبي مريم ثنا نافع عن ابن عمر عن ابن أبي مليكة قال: قال عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «حوضي مسيرة شهر، ماؤه أبيض من اللبن، وريحه أطيب من المسك، وكيزانه كنجوم السماء، مَن يشرب منها لم يظمأ أبداً». أخبرنا أبو سعيد عبد الله بن أحمد الطاهري أنا جدّي عبد الصمد بن عبد الرحمن البزاز أنا محمد بن زكريا العذافري أنا إسحاق بن إبراهيم الدبري ثنا عبد الرزاق أنا معمر عن قتادة عن سالم بن أبي الجعد عن معدان بن أبي طلحة عن ثوبان قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا عند عقر حوضي أُزود الناس عنه لأهل اليمن»، أي أضربهم بعصاي حتى يرفضوا عنه، «وإنه ليغت فيه ميزابان من الجنة أحدهما من ورق والآخر من ذهب، طوله ما بين بُصرَى وصنعاء، أو ما بين أيلة ومكة، أو من مقامي هذا إلى عُمان».

راء ساكنة ثم باء موحدة ثم ألف مقصورة، ووقع عند بعض رواة البخاري فيها المد والقصر أولى، وهي قرية من الشام، وأما أذرح فبهمزة ثم ذال معجمة ثم راء ثم حاء مهملة، وهي في طرف الشام قريب من الشّوبك، وأما عمان فبفتح العين وتشديد الميم بليدة بالبلقاء من أرض الشّام، وأما أيلياء فبفتح الهمزة وإسكان المثناة تحت وفتح اللام مدينة معروفة في طرف الشام على ساحل البحر متوسطة بين دمشق ومصر بينها وبين المدينة نحو خمس عشرة مرحلة وبينها وبين مصر ثمان مراحل وإلى دمشق اثنا عشر مرحلة وهي آخر الحجاز وأول الشّام، وأما صنعاء فهي قاعدة اليمن، وأكبر مدنه، وإنما قيد باليمن في الحديث لأن بدمشق موضعاً يعرف بصنعاء دمشق وقد تقدم الكلام على اختلاف هذه المسافات والجمع بين رواتها قوله يشخب فيه ميزابان هو بفتح الياء المثناة تحت وبالشين والخاء المعجمتين، أي يسيل فيه وفي الحديث الآخر يغت بفتح الياء وبالغين المعجمة وكسرها، وتشديد التاء المثناة فوق، أي يدفق منه ميزابان تدفقاً شديداً متتابعا قوله إني لبعقر حوضي هو بضم العين المهملة، وإسكان القاف وهو موقف الإبل من الحوض إذا وردته للشرب، وقيل هو مؤخر الحوض قوله أذود الناس، أي أضرب الناس لأهل اليمن بعصاي حتى يرفض عليهم، معناه أطرد الناس عنه غير أهل اليمن، ومعنى يرفض أي يسيل عليهم، وفيه منقبة عظيمة لأهل اليمن قوله أنا فرطكم على الحوض الفرط بفتح الفاء والراء هو الذي يتقدم على الواردين ليصلح لهم الحياض، والدّلاء ونحوها من آلات الاستقاء، والمعنى أنا سابقكم على الحوض كالمهيىء له قوله سحقاً، أي بعداً وفيه دليل لمن قال إنهم أهل الردة إذ لا يقال للمؤمن سحقاً بل يشفع قلت في حديث أنس الأول دليل لمن يقول أن سورة الكوثر مدنية وهو الأظهر لقوله بينا رسول الله ﷺ بين أظهرنا إذا أغفى إغفاءه يعني نام نومة ثم رفع رأسه متبسماً والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿**فصل لربك وانحر**﴾ معناه أن ناساً كانوا يصلون لغير الله تعالى وينحرون لغير الله فأمر الله نبيه ﷺ أن يصلي له وينحر له متقرباً إلى ربه بذلك، وقيل معناه **فصل لربك** صلاة العيد يوم النحر، وانحر نسكك، وقيل معناه فصل الصّلاة المفروضة بجمع، وانحر البدن بمنى وقال ابن عباس: ﴿**فصل لربك ونحر**﴾ أي ضع يدك اليمنى على اليسرى في الصّلاة عند النّحر، وقيل هو رفع اليدين مع التكبير إلى النّحر حكاه ابن الجوزي، ومعنى الآية قد أعطيتك ما لا نهاية لكثرته من خير الدّارين وخصصتك بما لم أخص به أحداً غيرك، فاعبد ربك الذي أعطاك هذا العطاء الجزيل، والخير الكثير، وأعزك، وشرفك على كافة الخلق، ورفع منزلتك فوقهم فصل له واشكره على إنعامه عليك، وانحر البدن متقرباً إليه ﴿**إن شانئك**﴾ يعني عدوك ومبغضك ﴿**هو الأبتر**﴾ يعني هو الأذل المنقطع دابره نزلت في العاص بن وائل السهمي وذلك أنه رأى النبي ﷺ خارجاً من المسجد وهو داخل فالتقيا عند باب بني سهم وتحدثا وأناس من صناديد قريش جلوس في المسجد فلما دخل العاص قالوا له من الذي كنت تتحدث معه فقال ذلك الأبتر

قوله عزّ وجلّ: ﴿ **فصلِّ لربِّك وانحر** ﴾، قال محمد بن كعب: إن أُناساً كانوا يصلّون لغير الله وينحرون لغير الله، فأمر الله نبيّه ﷺ أن يصلّي وينحر لله عزّ وجلّ. وقال عكرمة وعطاء وقتادة: فصلِّ لربّك صلاة العيد يوم النحر وانحر نسكك. وقال سعيد بن جبير ومجاهد: فصلِّ الصلوات المفروضة بجمع وانحر البدن بمنى ورُوِيَ عن أبي الجوزاء عن ابن عباس قال: ﴿ **فصلِّ لربك وانْحر** ﴾ قال وضع اليمين على الشمال في الصلاة عند النحر.

قوله تعالى: ﴿ **إنّ شانئك** ﴾، عدوّك ومبغضك، ﴿ **هو الأبتر** ﴾، هو الأقلّ الأذلّ المنقطع دابره، نزلت في العاص بن وائل السهمي، وذلك أنه رأى النبي ﷺ يخرج من المسجد وهو يدخل فالتقيا عند باب بني سهم وتحدّثا، وأناس من صناديد قريش جلوس في المسجد فلما دخل العاص قالوا له: مَنِ الذي كنت تتحدّث معه؟ قال: ذلك الأبتر يعني النبي ﷺ، وكان قد توفي ابن لرسول الله ﷺ من خديجة رضي الله عنها، وذكر محمد بن إسحاق عن يزيد بن رومان قال: كان العاص بن وائل إذا ذكر رسول الله ﷺ قال: دعوه لنا فإنه رجل أبتر، لا عقب

يعني به النبي ﷺ وكان قد توفي ابن لرسول الله ﷺ من خديجة، وقيل إن العاص بن وائل كان إذا ذكر رسول الله ﷺ قال دعوه فإنه رجل أبتر لا عقب له، فإذا هلك انقطع ذكره، فأنزل الله تعالى هذه السّورة وقال ابن عباس: نزلت في كعب بن الأشرف، وجماعة من قريش، وذلك أنه لما قدم كعب بن الأشرف مكة قالت له قريش نحن أهل السقاية والسدانة وأنت سيد أهل المدينة فنحن خير أم هذا الصّنبور المنبتر من قومه، فقال أنتم فنزلت فيه ﴿**ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت**﴾ ونزلت في الذين قالوا إنه أبتر ﴿**إن شانئك هو الأبتر**﴾ أي المنقطع من كل خير قولهم في النبي ﷺ هذا الصّنبور أرادوا أنه فرد ليس له ولد، فإذا مات انقطع ذكره شبهوه بالنخلة المفردة يدق أسفلها، وتسمى الصنبور، وقيل هي النّخلة التي تخرج في أصل أخرى تغرس، وقيل الصّنابر سعفات تنبت من جذع النّخلة تضربها ودواؤها أن تنقطع تلك الصّنابر منها فأراد كفار مكة أن محمداً ﷺ بمنزلة الصّنابر تنبت في جذع نخلة فإذا انقلع استراحت النّخلة فكذا محمد إذا مات انقطع ذكره، وقيل الصّنبور الوحيد الضعيف الذي لا ولد له ولا عشيرة ولا ناصر من قريب ولا غريب فأكذبهم الله تعالى في ذلك ورد عليهم أشنع رد فقال إن شانئك يا محمد هو الأبتر الضعيف، الوحيد، الحقير، وأنت الأعز، الأشرف الأعظم، والله أعلم بمراده.

له فإذا هلك انقطع ذكره، فأنزل الله تعالى هذه السورة. وقال عكرمة عن ابن عباس: نزلت في كعب بن الأشرف وجماعة من قريش، وذلك أنه لمّا قَدِمَ كعب مكة قالت له قريش: نحن أهل السقاية والسدانة، وأنت سيد أهل المدينة فنحن خير أم هذا الصنبور المنبتر من قومه؟ فقال: بل أنتم خير منه، فنزلت: ﴿ ألم ترَ إلى الذين أُوتُوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ﴾ [النساء: ٥١] الآية، ونزل في الذين قالوا إنه أبتر: ﴿ **إن شانئك هو الأبتر** ﴾ أي المنقطع من كل خير.

سورة قل يا أيها الكافرون

مكية وهي ست آيات وست وعشرون كلمة وأربعة وتسعون حرفاً

عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ «من قرأ ﴿إذا زلزلت﴾ عدلت له نصف القرآن ومن قرأ ﴿قل يا أيها الكافرون﴾ عدلت له ربع القرآن ومن قرأ ﴿قل هو الله أحد﴾ عدلت له ثلث القرآن» أخرجه الترمذي وقال حديث غريب وله عن ابن عباس نحوه، وقال فيه غريب، ووجه كون هذه السّورة تعدل ربع القرآن أن القرآن مشتمل على الأمر والنهي، وكل واحد منهما ينقسم إلى ما يتعلق بعمل القلوب، وإلى ما يتعلق بعمل الجوارح، فحصل من ذلك أربعة أقسام وهذه السّورة مشتملة على النهي عن عبادة غير الله تعالى وهي من الاعتقاد وذلك من أفعال القلوب، فكانت هذه السورة ربع القرآن على هذا التقسيم، والله سبحانه وتعالى أعلم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴿١﴾ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾

قوله عزّ وجلّ: ﴿قل يا أيها الكافرون﴾ إلى آخر السّورة نزلت في رهط من قريش منهم الحارث بن قيس السّهمي، والعاص بن وائل السهمي والوليد بن المغيرة، والأسود بن عبد يغوث، والأسود بن عبد المطلب بن أسد، وأمية بن خلف قالوا يا محمد هلم اتبع ديننا ونتبع دينك، ونشركك في ديننا كله تعبد آلهتنا سنة، ونعبد إلهك سنة فإن كان الذي جئت به خيراً كنا قد شركناك فيه، وأخذنا حظنا منه، وإن كان الذي بأيدينا خيراً كنت قد شركتنا في أمرنا، وأخذت بحظك منه فقال له رسول الله ﷺ معاذ الله أن أشرك به غيره قالوا فاستلم بعض آلهتنا نصدقك، ونعبد إلهك قال حتى أنظر ما يأتي من ربي فأنزل الله ﴿قل يا أيها الكافرون﴾ إلى آخر السورة فغدا رسول الله ﷺ إلى المسجد الحرام وفيه أولئك الملأ من قريش، فقام على رؤوسهم ثم قرأها عليهم حتى فرغ من السّورة فأيسوا منه عند ذلك وآذوه وأصحابه، وقيل إنهم لقوا العباس، فقالوا يا أبا الفضل لو أن ابن أخيك استلم بعض آلهتنا لصدقناه فيما يقول، ولآمنا بإلهه، فأتاه العباس، فأخبره بقولهم، فنزلت هذه السّورة وقيل نزلت في أبي جهل والمستهزئين ومن لم يؤمن منهم.

سُوْرَة الكَافِرُون

مكيّة وهي ستّ آيات.

﴿ **قلْ يا أيها الكافرون** ﴾، إلى آخر السورة نزلت في رهط من قريش منهم: الحارث بن قيس السهمي، والعاص بن وائل والوليد بن المغيرة، والأسود بن عبد يغوث، والأسود بن المطّلب بن أسد، وأُميّة بن خلف، قالوا: يا محمد هلمّ فاتبعْ ديننا ونتبع دينك ونشركك في أمرنا كله، تعبد آلهتنا سنة ونعبد إلٰهك سنة، فإن كان الذي جئت به خيراً كنّا قد شركناك فيه وأخذنا حظّنا منه، وإن كان الذي بأيدينا خيراً كنت قد شركتنا في أمرنا وأخذت بحظك

ومعنى ذلك، أن النبي ﷺ كان مأموراً بتبليغ الرّسالة بجميع ما أوحي إليه فلما قال الله تعالى ﴿**قل يا أيّها الكافرون**﴾ أداه النبي ﷺ كما سمعه من جبريل عليه السّلام فكأنه ﷺ قال أمرت بتبليغ جميع ما أنزل الله عليّ، وكان فيما نزل عليه ﴿**قل يا أيها الكافرون**﴾ وقيل إن النّفوس تأبى سماع الكلام الغليظ الشّنيع من النّظير، ولا أشنع ولا أغلظ من المخاطبة بالكفر فكأنه ﷺ قال ليس هذا من عندي إنما هو من عند الله عزّ وجلّ وقد أنزل الله على قل يا أيها الكافرون والمخاطبون بقوله يا أيّها الكافرون كفرة مخصوصون قد سبق في علم الله أنهم لا يؤمنون ﴿**لا أعبد ما تعبدون**﴾ في معنى الآية قولان: أحدهما أنه لا تكرار فيها، فيكون المعنى لا أعبد ما تعبدون لا أفعل في المستقبل ما تطلبونه مني من عبادة آلهتكم ﴿**ولا أنتم عابدون ما أعبد**﴾ أي ولا أنتم فاعلون في المستقبل ما أطلبه منكم من عبادة إلهي ثم قال ﴿**ولا أنا عابد ما عبدتم**﴾ أي ولست في الحال بعابد معبودكم ﴿**ولا أنتم عابدون ما أعبد**﴾ أي ولا أنتم في الحال بعابدين معبودي وقيل يحتمل أن يكون الأول للحال، والثاني للإستقبال، وقيل يصلح كل واحد منهما أن يكون للحال، والاستقبال، ولكن يختص أحدهما بالحال والثاني للإستقبال لأنه أخبر أولاً عن الحال ثم أخبر ثانياً عن الاستقبال، فيكون المعنى لا أعبد ما تعبدون في الحال ولا أنتم عابدون ما أعبد في الاستقبال وما بمعنى من أي من أعبد ويحتمل أن تكون بمعنى الذي أي الذي أعبد.

القول الثاني: حصول التكرار في الآية، وعلى هذا القول يقال إن التكرار يفيد التّوكيد، وكلما كانت الحاجة إلى التّوكيد أشد كان التكرار أحسن، ولا موضع أحوج إلى التوكيد من هذا الموضع لأن الكفار راجعوا النبي ﷺ في هذا المعنى مراراً فحسن التوكيد، والتكرار في هذا الموضع لأن القرآن نزل بلسان العرب وعلى مجاري خطابهم، ومن مذاهبهم التّكرار إرادة التّوكيد، والإفهام كما أن من مذاهبهم الاختصار إرادة التّخفيف، والإيجاز، وقيل تكرار الكلام لتكرار الوقت، وذلك أنهم قالوا للنبي ﷺ إن سرك أن ندخل في دينك عاماً فأدخل في ديننا عاماً، فنزلت هذا السّورة جواباً لهم على قولهم ﴿**لكم دينكم ولي ديني**﴾ أي لكم كفركم ولي إخلاصي، وتوحيدي، والمقصود منه التّهديد فهو كقوله ﴿**اعملوا ما شئتم**﴾ وهذه الآية منسوخة بآية القتال، والله أعلم.

منه، **فقال: معاذ الله أن أُشرك به غيره، قالوا: فاستلم بعض آلهتنا نصدّقك ونعبد إلّهك، فقال**: حتى أنظر ما يأتي من عند ربّي، **فأنزل الله عزّ وجلّ**: ﴿ **قلْ يا أيها الكافرون** ﴾ **إلى آخر السورة، فغدَا رسول الله ﷺ إلى المسجد الحرام وفيه الملأ من قريش، فقام على رؤوسهم ثم قرأها عليهم حتى فرغ من السورة، فأيسوا منه عند ذلك وآذوه وأصحابه**.

ومعنى الآية: ﴿ **لا أعبد ما تعبدون** ﴾، في الحال.

﴿ **ولا أنتم عابدون ما أعبد** ﴾، في الحال، ﴿ **ولا أنا عابدٌ ما عبدتم** ﴾، في الاستقبال، ﴿ **ولا أنتم عابدون ما أعبد** ﴾، في الاستقبال، وهذا خطاب لمَن سبق في علم الله أنهم لا يؤمنون، وقوله: ﴿ **ما أعبد** ﴾ أي مَن أعبد، لكنه ذكره لمقابلة ما تعبدون، ووجه التكرار: قال أكثر أهل المعاني: هو أن القرآن نزل بلسان العرب، وعلى مجازي خطابهم، ومن مذاهبهم التكرار إرادة التوكيد والإفهام، كما أن من مذاهبهم الاختصار إرادة التخفيف والإيجاز. وقال القتيبي: تكرار الكلام لتكرار الوقت، وذلك أنهم قالوا: **إنْ سرّك أن ندخل في دينك عاماً فادخل في ديننا عاماً، فنزلت هذه السورة**.

﴿ **لكم دينكم** ﴾، الشرك، ﴿ **وليَ دين** ﴾، الإسلام، قرأ ابن كثير ونافع وحفص: ﴿ **ولي** ﴾ بفتح الياء، والآخرون بإسكانها.

تفسير سورة النّصر

مدنية وهي ثلاث آيات وسبع عشرة كلمة وسبعة وسبعون حرفاً.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴿٣﴾

قوله عزّ وجلّ: ﴿إذا جاء نصر الله والفتح﴾ يعني فتح مكة وكانت قصة الفتح على ما ذكره محمد بن إسحاق، وأصحاب الأخبار «أن رسول الله ﷺ لما صالح قريشاً عام الحديبية اصطلحوا على وضع الحرب بين الناس عشرين سنة، وقيل عشر سنين يأمن فيهن الناس، ويكف بعضهم عن بعض وأنه من أحب أن يدخل في عقد محمد ﷺ وعهده دخل فيه ومن أحب أن يدخل في عقد قريش، وعهدهم دخل فيه. فدخلت بنو بكر في عهد قريش، ودخلت خزاعة في عهد النبي ﷺ وكان بينهما شر قديم ثم إن بني بكر عدت على خزاعة، وهم على ماءلهم أسفل مكة يقال له الوتير، فخرج نوفل بن معاوية الدؤلي في بني الدئل من بني بكر حين بقيت خزاعة على الوتير، فأصابوا منهم رجلاً، وتحاوروا واقتتلوا، وردفت قريش بني بكر بالسلاح، وقاتل معهم من قريش من قاتل بالليل مستخفياً حتى حازوا خزاعة إلى الحرم، وكان ممن أعان بني بكر من قريش على خزاعة ليلتئذ بأنفسهم بكر بن صفوان بن أمية، وعكرمة بن أبي جهل، وسهيل بن عمرو مع عبيدهم، فلما انتهوا إلى الحرم قالت بنو بكر يا نوفل إنا قد دخلنا إلى إلهك فقال كلمة عظيمة إنه لا إله اليوم يا بني بكر أصيبوا ثأركم فلعمري إنكم لتسرفون في الحرم، أفلا تصيبون ثأركم فيه قال: فلما

سُوْرَة النّصْر

مدنيّة وهي ثلاث آيات.

﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ﴾، أراد فتح مكة وكانت قصته على ما ذكر محمد بن إسحاق وأصحاب الأخبار أن رسول الله ﷺ لمّا صالح قريشاً عام الحديبية، واصطلحوا على وضع الحرب بين الناس عشر سنين يأمن فيهنّ الناس ويكفّ بعضهم عن بعض، وأنه مَن أحبّ أن يدخل في عقد رسول الله ﷺ وعهده دخل فيه، ومَن أحبّ أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه، فدخلت بنو بكر في عقد قريش، ودخلت خزاعة في عهد رسول الله ﷺ، وكان بينهما شرٌّ قديم، ثم إن بني بكر عدت على خزاعة، وهم على ماء لهم بأسفل مكة، يقال له الوتير، فخرج نوفل بن معاوية الدؤلي في بني الدئل من بني بكر حتى بيت خزاعة، فأصابوا منهم رجلاً وتحاربوا واقتتلوا، ورفدت قريش بني بكر بالسلاح وقاتل معهم من قريش مَن قاتل مستخفياً بالليل، حتى حازوا خزاعة إلى الحرم، وكان ممّن أعان بني بكر من قريش على خزاعة ليلتئذ بأنفسهم متنكرين: صفوان بن أُمية، وعكرمة بن أبي جهل، وسهيل بن عمرو،

تظاهر بنو بكر وقريش على خزاعة، وأصابوا منهم ما أصابوا ونقضوا ما كان بيهم وبين رسول الله ﷺ من العهد والميثاق بما استحلوا من خزاعة، وكانوا في عقده خرج عمرو بن سالم الخزاعي حتى قدم على رسول الله ﷺ المدينة، وكان ذلك مما أهاج فتح مكة فوقف عليه وهو في المسجد جالس بين ظهراني الناس فقال:

يـــا رب إنـــي نـــاشـــد محمـــداً حلـــف أبينـــا وأبيـــه الأتلـــدا
قـــد كنتمـــو ولـــداً وكنـــا والـــدا ثمـــت أسلمنـــا فلـــم ننـــزع يـــدا
فـــانصـــر هـــداك الله نصـــراً أعتـــدا وادع عبـــاد الله يـــأتـــوا مـــددا
فيهـــم رســـول الله قـــد تجـــردا إن سيـــم خسفـــاً وجهـــه تـــربـــدا
فـــي فيلـــق كـــالبحـــر يجـــري مـــزبـــدا إن قـــريشـــاً أخلفـــوك المـــوعـــدا
ونقضـــوا ميثـــاقـــك المـــؤكـــدا وجعلـــوا لـــي فـــي كـــداء رصـــدا
وزعمـــوا أن لســـت أدعـــو أحـــدا وهـــم أذل وأقـــل عـــددا
هـــم بيتـــونـــا بـــالـــوتيـــر هجـــدا وقتلـــونـــا ركعـــا وسجـــدا
فانصـر هـداك الله نصراً أيـدا

فقال رسول الله ﷺ: قد نصرت يا عمرو بن سالم ثم عرض لرسول الله ﷺ عنان من السماء، فقال إن هذه السحابة لتشهد بنصر بني كعب، وهم رهط عمرو بن سالم، ثم خرج بديل بن ورقاء في نفر من خزاعة حتى قدموا على رسول الله ﷺ المدينة فأخبروه بما أصيب منهم، وبمظاهرة قريش بني بكر عليهم ثم انصرفوا راجعين إلى مكة، وقد كان رسول الله ﷺ قال للناس كأنكم بأبي سفيان قد جاء يشدد في العقد ويزيد في المدة، ومضى بديل بن ورقاء وأصحابه حتى لقوا أبا سفيان بعسفان قد بعثته قريش إلى رسول الله ﷺ يشدد في العقد ويزيد في المدة وقد رهبوا من الذي صنعوا، فلما لقى أبا سفيان بديلاً قال: من أين أقبلت يا بديل وظن أنه أتى رسول الله ﷺ قال: سرت في خزاعة

مع عبيدهم فلما انتهوا إلى الحرم قالت بنو بكر: يا نوفل إنّا دخلنا الحرم إلى إلٓهك فقال كلمة عظيمة إنه لا إلٓه لي اليوم، أصيبوا ثأركم فيه، فلما تظاهرت قريش على خزاعة وأصابوا منهم ونقضوا ما بينهم وبين رسول الله ﷺ من العهد بما استحلّوا من خزاعة، وكانوا في عقده خرج عمرو بن سالم الخزاعي حتى قَدِمَ على رسول الله ﷺ المدينة، وكان ذلك مما هاج فتح مكة، فوقف عليه وهو في المسجد جالس بين ظهراني الناس، فقال:

لا هـــمَّ إنـي نـاشـدٌ مـحـمـداً حِـلْف أبـيـنـا وأبـيـه الأتـلـدا
إن قـريشـاً أخلفـوك الـمـوعـدا ونـقـضُـوا مـيـثـاقَـك الـمـؤكـدا

الأبيات كما ذكرنا في سورة التوبة، فقال رسول الله ﷺ: «قد نُصرتَ يا عمرو بن سالم»، ثم عرض لرسول الله ﷺ عنان بين السماء، فقال: «إن هذه السحابة لتسهّل بنصر بني كعب»، وهم رهط عمرو بن سالم، ثم خرج بديل بن ورقاء في نفر من خزاعة حتى قَدِموا على رسول الله ﷺ فأخبروه بما أُصيب منهم ومظاهرة قريش بني بكر عليهم، ثم انصرفوا راجعين إلى مكة، وقد كان رسول الله ﷺ قال للناس: «كأنكم بأبي سفيان قد جاء ليشدّد العقد ويزيد في المدّة»، ومضى بديل بن ورقاء فلَقِيَ أبا سفيان بعسفان، قد بعثته قريش إلى رسول الله ﷺ، ليشدّد العقد ويزيد في المدة، وقد رهبوا الذي صنعوا فلما لَقِيَ أبو سفيان بديلاً قال: من أين أقبلت يا بديل؟ وظن أنه قد أتى رسول الله ﷺ، قال: سرت إلى خزاعة في هذا الساحل وفي بطن هذا الوادي، قال: أوَما أتيت محمداً؟ قال: لا، فلما راح بديل إلى مكة قال أبو سفيان: لئن كان جاء المدينة لقد علف ناقته بها النوى فعمد إلى مبرك ناقته فأخذ من

في هذا الساحل، وفي بطن هذا الوادي قال: وهل أتيت محمداً قال: لا فلما راح بديل إلى مكة قال أبو سفيان لئن كان جاء المدينة لقد علف منها النوى فعمد إلى مبرك ناقته فأخذ من بعرها ففته فرأى فيه النوى فقال أحلف بالله لقد جـاء بديل محمداً ثم خرج أبو سفيان حتى قدم على رسول الله ﷺ المدينة فدخل على ابنته أم حبيبة بنت أبي سفيان، فلما ذهب ليجلس على فراش رسول الله ﷺ طوته عنه فقال: أي بنية أرغبت بي عن هذا الفراش أم رغبت به عني فقالت بل هو فراش رسول الله ﷺ، وأنت رجل مشرك نجس لم أحب أن تجلس على فراش رسول الله ﷺ فقال: والله لقد أصابك يا بنية بعدي شر، ثم خرج حتى أتى رسول الله ﷺ فكلمه، فلم يرد عليه شيئاً، ثم ذهب إلى أبي بكر، فكلمه أن يكلم له رسول الله ﷺ فقال: ما أنا بفاعل، ثم أتى عمر بن الخطاب، فكلمه فقال أنا لا أشفع لك إلى النبي ﷺ. فوالله لو لم أجد إلا الذر لجاهدتكم به، ثم خرج فدخل على علي بن أبي طالب، وعنده فاطمة بنت رسول الله ﷺ وعندها الحسن بن علي غلاماً يدب بين يديها فقال: يا علي إنك أمس القوم بي رحماً، وأقربهم مني قرابة، وقد جئت في حاجة فلا أرجعن كما جئت خائباً، فاشفع لي إلى رسول الله ﷺ فقال: ويحك يا أبا سفيان لقد أرى عزم رسول الله ﷺ على أمر ما نستطيع أن نكلمه فيه. فالتفت إلى فاطمة وقال: يا بنت محمد هل لك أن تأمري بنيك هذا فيجير بين الناس فيكون سيد العرب إلى آخر الدهر. فقالت: والله ما بلغ بني أن يجير بين الناس، وما يجير أحد على رسول الله ﷺ فقال: يا أبا الحسن إني أرى الأمور قد اشتدت عليّ، فانصحني قال والله لا أعلم شيئاً يغني عنك، ولكنك سيد بني كنانة، فقم فأجر بين الناس ثم الحق بأرضك قال: وترى ذلك مغنياً عني شيئاً قال لا والله ما أظن ذلك ولكن لا أجد لك غير ذلك. فقام أبو سفيان في المسجد، فقال أيها الناس إني قد أجرت بين الناس، ثم ركب بعيره، فانطلق فلما قدم على قريش قالوا ما رواءك قال: جئت محمداً فكلمته فوالله ما رد علي شيئاً ثم جئت ابن أبي قحافة، فلم أجد عنده خيراً، ثم جئت ابن الخطاب فوجدته أعدى القوم، ثم أتيت علي بن أبي طالب فوجدته ألين القوم وقد أشار عليّ بشيء

بَعْرها ففتّه فرأى فيه النوى، فقال: أحلف بالله لقد جاء بديل محمداً، ثم خرج أبو سفيان حتى قَدِمَ على رسول الله ﷺ المدينة، فدخل على ابنته أُم حبيبة بنت أبي سفيان، فلما ذهب ليجلس على فراش رسول الله ﷺ طَوَتْه عنه، فقال: يا بنيّة أرغبت بي عن هذا الفراش أم أرغبت به عنّي؟ قالت: بلى هو فراش رسول الله ﷺ، وأنت رجل مُشرِكٌ نَجِس، فلم أُحبَّ أن تجلس على فراش رسول الله ﷺ، فقال: والله لقد أصابك يا بُنَيّة بعدي شيء، ثم خرج حتى أتى رسول الله ﷺ فكلّمه فلم يردّ عليه شيئاً، ثم ذهب إلى أبي بكر فكلّمه أن يكلّم له رسول الله ﷺ، فقال ما أنا بفاعل، ثم أتى عمر بن الخطاب فكلّمه فقال أنا لا أشفع لكم إلى رسول الله ﷺ، فوالله لو لم أجد إلاّ الذرّ لجاهدتكم به، ثم خرج فدخل على عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه وعنده فاطمة بنت رسول الله ﷺ وعندها الحسن بن علي رضي الله عنهما غلام يدبّ بين يديها، فقال: يا عليّ إنّك أمسّ القوم بي رحماً وأقربهم منّي قرابة، وقد جئت في حاجة فلا أرجعنّ كما جئت خائباً، إشفع لنا إلى رسول الله ﷺ، فقال: ويحك يا أبا سفيان لقد عزم رسول الله ﷺ على أمر ما نستطيع أن نكلّمه فيه، فالتفت إلى فاطمة فقال: يا بنت محمد هل لك أن تأمري بنيك هذا فيُجير بين الناس فيكون سيّد العرب إلى آخر الدهر؟ قالت: والله ما بلغ بنيّ أن يُجير بين الناس، وما يُجير على رسول الله ﷺ أحد، فقال: يا أبا الحسن أرى الأمور قد اشتدت عليّ فانصحني، قال: والله ما أعلم شيئاً يغني عنك، ولكنك سيد بني كنانة، فقم فاجْرِ بين الناس، ثم الحق بأرضك، قال: أوَ ترَ ذلك مُغنياً عنّي؟ قال: لا والله ما أظن ولكن لا أجد لك غير ذلك، فقام أبو سفيان في المسجد فقال: يا أيها الناس إني قد أجرت بين الناس، ثم ركب بعيره فانطلق فلما قَدِمَ على قريش قالوا: ما وراءك؟ قال: جئتُ محمداً فكلّمته والله ما ردّ عليّ شيئاً ثم جئت ابن أبي قحافة، فلم أجد عنده خيراً، فجئت ابن الخطاب فوجدته أعدى القوم، ثم أتيت عليَّ بن أبي طالب فوجدته

صنعته فوالله ما أدري هل يغني ذلك شيئاً أم لا قالوا: وما ذاك قال أمرني أن أجير بين الناس، ففعلت قالوا فهل أجاز ذلك محمد قال لا قالوا ويلك والله ما زاد على أن لعب بك فما يغني عنك ما قلت قال لا والله ما وجدت غير ذلك قال: وأمر رسول الله ﷺ بالجهاز وأمر أهله أن يجهزوه، فدخل أبو بكر على ابنته عائشة، وهي تصلح بعض جهاز رسول الله ﷺ فقال أي بنية أمركم رسول الله ﷺ أن تجهزوه، قالت نعم. قال فأين ترينه يريد قالت لا والله ما أدري ثم إن رسول الله ﷺ أعلم الناس أنه سائر إلى مكة، وأمرهم بالجد والتهيؤ وقال اللّهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها في بلادها، فتجهز الناس وكتب حاطب بن أبي بلتعة كتاباً إلى قريش يخبرهم بالذي أجمع عليه رسول الله ﷺ، وقد تقدمت قصته في تفسير سورة الممتحنة ثم مضى رسول الله ﷺ لسفره، واستخلف على المدينة أبارهم كلثوم بن حصين بن عتبة بن خلف الغفاري وخرج رسول الله ﷺ عامداً إلى مكة لعشر بقين من رمضان سنة ثمان من الهجـرة فصام النبي ﷺ وصام الناس معه حتى إذا كان بالكديد بين عسفان، وأمج أفطر ثم مضى حتى نزل بمر الظّهران في عشرة آلاف من المسلمين. ولم يتخلف من الأنصار والمهاجرين عنه أحد فلما نزل بمر الظّهران، وقد عميت الأخبار عن قريش، ولا يأتيهم خبر عن رسول الله ﷺ، ولا يدرون ما هو فاعل خرج في تلك اللّيالي أبو سفيان بن حرب، وحكيم بن حزام وبديل بن ورقاء يتجسسون الأخبار وينظرون هل يجدون خبراً أو يسمعون به وقد كان العباس بن عبد المطلب لقي رسول الله ﷺ ببعض الطريق قال ابن هشام: لقيه بالجحفة مهاجراً بعياله، وقد كان قبل ذلك مقيماً بمكة على سقايته، ورسول الله ﷺ عنه راض فلما نزل رسول الله ﷺ مر الظّهران قال العباس بن عبد المطلب. ليلتئذ وأصباح قريش، والله لئن دخل رسول الله ﷺ مكة عنوة قبل أن يأتوه فيستأمنوه إنه الهلاك لقريش إلى آخر الدهر. قال فجلست على بغلة رسول الله ﷺ البيضاء، فخرجت عليها حتى جئت الأراك لعلي أجد حطاباً، أو صاحب لبن أو ذا حاجة يدخل مكة، فيخبرهم بمكان رسول الله ﷺ ليخرجوا إليه فيستأمنوه قبل أن يدخلها عنوة قال العباس: فوالله إني

ألين القوم، وقد أشار علي بشيء صنعته فوالله ما أدري هل يغنيني شيئاً أم لا؟ قالوا: وماذا أمرك؟ قال: أمرني أن أُجير بين الناس ففعلت، قالوا: فهل أجاز ذلك محمد ﷺ؟ قال: لا، قالوا: والله إن زاد عليٌّ على أن لعب بك فلا يغني عنّا ما قلت، قال: لا والله ما وجدت غير ذلك، قال وأمر رسول الله ﷺ الناس بالجهاز، وأمر أهله أن يجهزوه، فدخل أبو بكر على ابنته عائشة رضي الله عنها وهي تصلح بعض جهاز رسول الله ﷺ، فقال: أيّ بُنيّة أمركم رسول الله ﷺ بأن تجهّزوه؟ قالت: نعم فتجهّز، قال: فأين ترينه يريد؟ قالت: ما أدري ثم إن رسول الله ﷺ أعلم الناس أنه سائر إلى مكة، وأمرهم بالجدّ والتهيّؤ، وقال: اللّهمَّ خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها في بلادها، فتجهز الناس وكتب حاطب بن أبي بلتعة كتاباً إلى قريش ذكرناها في سورة الممتحنة، ثم استخلف رسول الله ﷺ على المدينة أبا رهم كلثوم بن حصين بن خلف الغفاري، وخرج عامداً إلى مكة لعشر مضين من رمضان سنة ثمانٍ، فصام رسول الله ﷺ وصام الناس معه، حتى إذا كان بالكديب ما بين عسفان وأمج أفطر، ثم مضى حتى نزل بمرّ الظهران في عشرة آلاف من المسلمين، ولم يتخلّف من المهاجرين والأنصار عنه أحد، فلما نزل بمرّ الظهران وقد عميت الأخبار عن قريش، فلا يأتيهم خبر عن رسول الله ﷺ ولا يدرون ما هو فاعل، فخرج في تلك أبو سفيان بن حرب وحكيم بن حزام وبديل بن رقاء يتجسّسون الأخبار هل يجدون خبراً، وقد قال العباس بن عبد المطّلب ليلتئذٍ: وَا صباحَ قريش، والله لئن بغتها رسول الله ﷺ في بلادها فدخل مكة عنوة إنها لهلاك قريش إلى آخر الدهر، فخرج العباس على بغلة رسول الله ﷺ وقال اخرج إلى الأراك لعلّي أرى حطّاباً أو صاحبَ لبنٍ أو داخلاً يدخل مكة فيخبرهم بمكان رسول الله ﷺ فيأتونه فيستأمنونه قبل أن يدخلها عليهم عنوة، قال العباس فخرجت وإني لأطوف في الأراك ألتمس ما خرجتُ له إذْ سمعتُ صوتَ أبي سفيان وحكيم وحزام وبديل بن ورقاء، وقد خرجوا يتجسّسون

لأسير عليها وألتمس ما خرجت له إذ سمعت كلام أبي سفيان وبديل بن ورقاء، وهما يتراجعان، وأبو سفيان يقول ما رأيت كالليلة نيراناً قط. فقال بديل هذه والله نيران خزاعة حمشتها الحرب، فقال أبو سفيان خزاعة أذل وأقل من أن تكون هذه نيرانها، فعرفت صوته فقلت يا أبا حنظلة فعرف صوتي، فقال يا أبا الفضل فقلت نعم قال مالك فداك أبي وأمي قلت: ويحك يا أبا سفيان هذا رسول الله ﷺ قد جاء بما لا قبل لكم به بعشرة آلاف من المسلمين قال: وما الحيلة قلت والله لئن ظفر بك ليضربن عنقك، فاركب عجز هذه البغلة حتى آتي بك رسول الله ﷺ فأستأمنه لك فردفني، ورجع صاحباه فخرجت أركض به على بغلة رسول الله ﷺ كلما مررت بنار من نيران المسلمين ينظرون إليّ، ويقولون عم رسول الله ﷺ على بغلة رسول الله ﷺ حتى مررت بنار عمر بن الخطاب فقال من هذا فقام إليّ فلما رأى أبا سفيانَ على عجز البغلة، قال أبو سفيان عدو الله الحمد لله الذي أمكن منك بغير عقد، ولا عهد ثم خرج يشتد نحو رسول الله ﷺ، وركضت البغلة فسبقته كما تسبق الدابة البطيئة الرجل البطيء قال فاقتحمت عن البغلة سريعاً، فدخلت على رسول الله ﷺ، ودخل عليه عمر فقال: يا رسول الله هذا عدو الله أبو سفيان قد أمكن الله منه بغير عقد، ولا عهد فدعني أضرب عنقه قال فقلت يا رسول الله إني قد أجرته ثم جلست إلى رسول الله ﷺ فأخذت برأسه، وقلت والله لا ينجيك الليلة أحد دوني فلما أكثر عمر في شأنه قلت مهلاً يا عمر. فوالله ما تصنع هذا إلا أنه رجل من بني عبد مناف، ولو كان من بني عدي بن كعب ما قلت هذا، فقال مهلاً يا عباس، فوالله لإسلامك يوم أسلمت كان أحب إليّ من إسلام الخطاب لو أسلم، وما ذاك إلا لأني أعلم أن إسلامك كان أحب إلى رسول الله ﷺ من إسلام الخطاب لو أسلم فقال رسول الله ﷺ اذهب به يا عباس إلى رحلك، فإذا أصبحت فائتني به قال فذهبت به إلى رحلي فبات عندي، فلما أصبح غدوت به إلى رسول الله ﷺ، فلما رآه قال ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أن لا إله إلا الله وأني رسول الله ﷺ قال بأبي أنت وأمي ما أحلمك وأكرمك وأوصلك والله لقد ظننت أن لو كان مع الله إله غيره لقد أغنى عني شيئاً

الخبر، فسمعتُ أبا سفيان يقول: والله ما رأيت كالليلة قطّ نيراناً، وقال بديل: هذه والله نيران خزاعة حمشتها الحرب، فقال أبو سفيان خزاعة ألأمُ من ذلك وأذلّ، فعرفت صوته فقلت: يا أبا حنظلة، فعرف صوتي فقال: يا أبا الفضل، فقلت: نعم، فقال: ما لك فداك أبي وأُمي؟ قلت: ويحك يا أبا سفيان هذا والله رسول الله ﷺ قد جاء بما لا قِبَل لكم به بعشرة آلاف من المسلمين، قال: وما الحيلة؟ قلت: والله لئن ظفر بك ليضربنّ عنقك فاركب في عجز هذه البغلة حتى آتي بك رسول الله ﷺ فأستأمنه، فردفني ورجع صاحباه فخرجت أركض به بغلة رسول الله ﷺ، كلما مررت بنار من نيران المسلمين فنظروا إليّ قالوا: هذا عمّ رسول الله ﷺ، حتى مررت بنار عمر بن الخطاب، فقال: مَن هذا؟ وقام إليّ فلما رأى أبا سفيان على عجز الدابّة، قال أبو سفيان عدو الله الحمد لله الذي أمكن منك بغير عهد ولا عقد، ثم اشتدّ نحو رسول الله ﷺ فركضت البغلة وسبقته بما تسبق الدابّة البطيئة الرجل البطيء، فاقتحمتُ عن البغلة فدخلت على رسول الله ﷺ ودخل عليه عمر، فقال: يا رسول الله هذا أبو سفيان عدو الله قد أمكن الله منه بغير عهد ولا عقد، فدعني أضرب عنقه، فقلت: يا رسول الله إني قد أجرته، ثم جلست إلى رسول الله ﷺ فأخذت برأسه وقلت: والله لا يُنجيه الليلة أحدٌ دوني، فلما أكثر فيه عمر رضي الله عنه قلت: مهلاً يا عمر فوالله ما تصنع هذا إلاّ أنه رجل من بني عبد مناف، ولو كان من بني عديّ بن كعب ما قلت هذا، قال: مهلاً يا عباس فوالله لإسلامك يوم أسلمت كان أحبّ إليّ من إسلام الخطاب لو أسلم، وذلك لأني أعلم أن إسلامك كان أحبّ إلى رسول الله ﷺ من إسلام الخطاب لو أسلم، فقال رسول الله ﷺ: «اذهبْ به يا عباس إلى رَحْلك فإذا أصبحت فأتني به»، قال فذهبت إلى رحْلي فبات عندي، فلما أصبح غدوت به إلى رسول الله ﷺ، فلما رآه قال: «ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أن لا إلّه إلاّ الله»؟ قال: بأبي أنت وأُمي ما أحلمك وأكرمك وأوصلك،

بعد قال ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله، قال بأبي أنت وأمي ما أحلمك وأكرمك، وأوصلك أما هذه فإن في النفس منها حتى الآن شيئاً فقال العباس: ويحك أسلم واشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله قبل أن تضرب عنقك فتشهد شهادة الحق وأسلم قال العباس: فقلت يا رسول الله إن أبا سفيان هذا رجل يحب الفخر، فاجعل له شيئاً قال نعم من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن فلما ذهب لينصرف قال رسول الله ﷺ: يا عباس احبسه بمضيق الوادي عند خطم الجبل حتى تمر به جنود الله قال فخرجت به حيث أمرني رسول الله ﷺ أن أحبسه قال ومرت به القبائل على راياتها كلما مرت به قبيلة قال من هؤلاء يا عباس، فأقول سليم فيقول ما لي ولسليم، ثم القبيلة فيقول من هؤلاء، فأقول مزينة فيقول ما لي ولمزينة حتى نفدت القبائل. لا تمر قبيلة إلا سألني عنها، فإذا أخبرته عنها. فيقول ما لي، ولبني فلان حتى مر رسول الله ﷺ في كتيبته الخضراء، وإنما قيل لها الخضراء لكثرة الحديد، وظهوره فيها وفيها المهاجرون والأنصار لا يرى منهم إلا الحدق من الحديد فقال سبحان الله من هؤلاء يا عباس؟ قلت هذا رسول الله ﷺ في المهاجرين، والأنصار. قال ما لأحد بهؤلاء من قبل ولا طاقة، والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيماً قلت ويحك إنها النبوة، قال فنعم إذا فقلت الحق الآن بقومك فحذرهم، فخرج سريعاً حتى أتى مكة، فصرخ في المسجد بأعلى صوته يا معشر قريش هذا محمد قد جاءكم بما لا قبل لكم به قالوا فمه قال: قال من دخل دار أبي سفيان فهو آمن. قالوا ويحك، وما تغني عنا دارك قال من دخل المسجد، فهو آمن ومن أغلق عليه بابه فهو آمن فتفرق الناس إلى دورهم، وإلى المسجد قال وجاء حكيم بن حزام وبديل بن ورقاء إلى رسول الله ﷺ فأسلما وبايعاه، فلما بايعاه بعثهما رسول الله ﷺ بين يديه إلى قريش يدعوانهم إلى الإسلام، ولما خرج حكيم بن حزام وبديل بن ورقاء من عند رسول الله ﷺ عامدين إلى مكة بعث في أثرهما الزبير وأعطاه رايته وأمره على خيل المهاجرين والأنصار وأمره أن يركز رايته بأعلى مكة بالحجون، وقال لا تبرح حيث

والله لقد ظننتُ أن لو كان مع الله إلَهٌ غيره فقد أغنى عني شيئاً بعدُ، قال: «ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله»؟ قال: بأبي أنت وأمي ما أحلمك وأكرمك وأوصلك، أمّا هذه فإن في النفس منها حتى الآن شيئاً، قال العباس: قلت له ويحك أسلم واشهد أن لا إلَه إلاّ الله وأن محمداً رسول الله، قبل أن يضرب عنقك، قال فشهد شهادة الحق وأسلم، قال العباس قلت يا رسول الله إن أبا سفيان رجل يحبّ الفخر فاجعل له شيئاً، قال: «نعم مَن دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومَن أغلق عليه بابه فهو آمن ومَن دخل المسجد فهو آمن»، فلما ذهب لينصرف قال رسول الله ﷺ: «يا عباس احبسه بمضيق الوادي عند خطم الجبل حتى تمرّ به جنود الله فيراها»، قال: فخرجت به حتى حبسته حيث أمرني رسول الله ﷺ، قال ومرّت به القبائل على راياتها، كلما مرّت قبيلة قال: مَن هؤلاء يا عباس؟ قال: أقول سليم، قال: يقول: ما لي ولسليم، ثم تمرّ القبيلة فيقول: مَن هؤلاء؟ فأقول: مزينة، فيقول: ما لي ولمزينة، حتى نفذت القبائل لا تمرّ قبيلة إلاّ سألني عنها، فإذا أخبرته يقول: ما لي ولبني فلان حتى مرّ رسول الله ﷺ في الخضراء كتيبة رسول الله ﷺ فيها المهاجرون والأنصار، لا يرى منهم إلاّ الحدق من الحديد، قال: سبحان الله مَن هؤلاء يا عباس؟ قلت: هذا رسول الله ﷺ في المهاجرين والأنصار، فقال: والله ما لأحد بهؤلاء من قِبَل ولا طاقة، والله يا أبا الفضل لقد أصبح مُلْك ابن أخيك عظيماً، فقال: ويحك إنها النبوّة، قال: نعم إذاً، فقلت: إلحقِ الآن بقومك فحذّرهم، فخرج سريعاً حتى أتى مكة فصرخ في المسجد بأعلى صوته يا معشر قريش هذا محمد قد جاءكم فيما لا قِبَل لكم به، قالوا: فمه؟ قال: مَن دخل دار أبي سفيان فهو آمن، قالوا: ويحك وما تغني عنّا دارك؟ قال: ومَن دخل المسجد فهو آمن، ومَن أغلق عليه بابه فهو آمن، فتفرّق الناس إلى دورهم وإلى المسجد، قال: وجاء حكيم بن حزام وبديل بن ورقاء إلى رسول الله ﷺ بمرّ الظهران فأسلما وبايعاه، فلما بايعاه

أمرتك أن تركز رايتي حتى آتيك، ثم إن رسول الله ﷺ لما انتهى إلى ذي طوى وقف على راحلته معتجراً بشقه عليه برد حبرة، وإن رسول الله ﷺ ليضع رأسه تواضعاً لله عز وجل حين رأى ما أكرمه به من الفتح حتى أن عثنونه ليكاد يمس واسطة الرحل، ثم إن رسول الله ﷺ دخل مكة وضرب قبته بأعلى مكة، وأمر خالد بن الوليد، فيمن أسلم من قضاعة، وبني سليم أن يدخلوا من أسفل مكة وبها بنو بكر، وقد استنفرتهم قريش، وبنو الحارث بن عبد مناف ومن كان من الأحابيش أمرتهم قريش أن يكونوا بأسفل مكة، وأن صفوان بن أمية وعكرمة بن أبي جهل، وسهيل بن عمرو كانوا قد جمعوا ناساً بالخندمة ليقاتلوا وقال النبي ﷺ لخالد والزبير حين بعثهما لا تقاتلا إلا من قاتلكما، وأمر سعد بن عبادة أن يدخل في بعض الناس من كدي فقال سعد: حين توجه داخلاً اليوم يوم الملحمة اليوم يوم تستحل الحرمة فسمعها رجل من المهاجرين قيل: هو عمر بن الخطاب فقال: لرسول الله ﷺ اسمع ما قال سعد بن عبادة، وما نأمن أن يكون له في قريش صولة فقال النبي ﷺ لعلي بن أبي طالب أدركه بهذه الراية. فكن أنت الذي تدخن بها، فلم يكن بأعلى مكة من قبل الزبير قتال، وأما خالد بن الوليد، فقدم على قريش وبني بكر، والأحابيش بأسفل مكة، فقاتلوه فهزمهم الله، ولم يكن بمكة قتال غير ذلك، وقتل من المشركين اثنا عشر رجلاً أو ثلاثة عشر رجلاً، ولم يقتل من المسلمين إلا رجل من جهينة يقال له سلمة بن الميلاء من خيل خالد بن الوليد ورجلان يقال لهما كرز بن جابر، وخنيس بن خالد بن الوليد شذا وسلكا طريقاً غير طريقه، وكان رسول الله ﷺ قد عهد إلى أمرائه من المسلمين حين أمرهم أن يدخلوا مكة أن لا يقاتلوا إلا من قاتلهم إلا نفراً منهم سماهم أمر بقتلهم، وإن وجدوا تحت أستار الكعبة منهم عبد الله بن سعد ابن أبي سرح، وإنما أمر بقتله لأنه كان قد أسلم فارتد مشركاً ففر إلى عثمان، وكان أخاه من الرضاعة فغيبه حتى أتى به رسول الله ﷺ بعد أن اطمأن أهل مكة فاستأمنه له وعبد الله بن خطل رجل من بني تميم بن غالب، وإنما أمر بقتله لأنه كان مسلماً فبعثه رسول الله ﷺ مصدقاً، وكان له مولى يخدمه، وكان مسلماً فنزل منزلاً وأمر

بعثهما رسول الله ﷺ بين يديه إلى قريش يَدْعُوَانهم إلى الإسلام، ولما خرج حكيم بن حزام وبديل بن ورقاء من عند النبي ﷺ عامدين إلى مكة بعث في إثرهما الزبير وأعطاه رايته وأمره على خيل المهاجرين والأنصار، وأمره أن يركّز رايته بأعلى مكة بالحجون، وقال: لا تبرح حيث أمرتك أن تركّز رايتي حتى آتيك، ومن ثم دخل رسول الله ﷺ مكة وضُرِبَت هناك قبّته، وأمر خالد بن الوليد فيمن أسلم من قضاعة وبني سليم أن يدخل من أسفل مكة وبها بنو بكر قد استنفرتهم قريش وبنو الحارث بن عبد مناف ومَن كان من الأحابيش أمرتهم قريش أن يكونوا بأسفل مكة، وإن صفوان بن أميّة وعكرمة بن أبي جهل وسهيل بن عمرو، وكانوا قد جمعوا أناساً بالخندمة ليقاتلوا، وقال لي النبي ﷺ لخالد والزبير حين بعثهما لا تقاتلا إلاّ مَن قاتلكم، وأمر سعد بن عبادة أن يدخل في بعض الناس من كِدَى، فقال سعد حين توجّه داخلاً: اليوم يوم الملحمة اليوم تستحلّ الحُرمة، فسمعها رجل من المهاجرين فقال: يا رسول الله اسمع ما قال سعد بن عبادة، وما نأمن أن يكون له في قريش صولة، فقال رسول الله ﷺ لعليّ بن أبي طالب: أدركه فخذ الراية منه، فكن أنت الذي تدخل بها، فلم يكن يا عليّ مِنْ قبل الزبير قتال، وأما خالد بن الوليد فقَدِمَ على قريش وبني بكر والأحابيش بأسفل مكة، فقاتلهم فهزمهم الله، ولم يكن بمكة قتال غير ذلك، وقتل من المشركين قريبٌ من اثني عشر أو ثلاثة عشر، ولم يُقتل من المسلمين إلاّ رجل من جهينة يقال له سلمة بن الميلاء من خيل خالد بن الوليد، ورجلان يقال لهما كرز بن جابر وخنيس بن خالد كانا في خيل خالد بن الوليد. فشذّا عنه وسلكا طريقاً غير طريقه، فقتلا جميعاً، وكان رسول الله ﷺ قد عهد إلى أمرائه من المسلمين حين أمرهم أن يدخلوا مكة أن لا يقاتلوا أحداً إلاّ مَن قاتلهم، إلاّ في نفر سمّاهم أمر بقتلهم، وإنْ وُجدوا تحتَ أستار الكعبة، منهم: عبد الله بن سعد بن أبي سرح، وإنما أمر بقتله لأنه كان قد أسلم فارتدّ مشركاً، ففرّ إلى عثمان وكان أخاه من

المولى أن يذبح له تيساً ويصنع له طعاماً ونام فاستيقظ، ولم يصنع له شيئاً فعدا عليه فقتله ثم ارتد مشركاً، وكان له قينتان يغنيان بهجاء رسول الله ﷺ فأمر بقتلهما معه والحويرث بن نقيد بن وهب، وكان ممن يؤذيه بمكة ومقيس صبابة، وإنما أمر بقتله لقتله الأنصاري الذي قتل أخاه خطأ، ورجوعه إلى قريش مرتداً، وسارة مولاة لبني عبد المطلب، وكانت ممن يؤذيه بمكة، وعكرمة بن أبي جهل فأما عكرمة فهرب إلى اليمن، وأسلمت امرأته أم حكيم بنت الحارث بن هشام، فاستأمنت له رسول الله ﷺ فأمنه فخرجت في طلبه حتى أتت به رسول الله ﷺ، وأما عبد الله بن خطل فقتله سعيد بن الحارث المخزومي وأبو برزة الأسلمي اشتركا في دمه وأما مقيس بن صبابة فقتله نميلة بن عبد الله رجل من قومه وأما قينتا ابن خطل فقتلت إحداهما، وهربت الأخرى حتى استؤمن لها رسول الله ﷺ فأمنها وأما سارة فتغيبت حتى استؤمن لها رسول الله ﷺ فعاشت حتى أوطأها رجل من الناس فرساً له في زمن عمر بن الخطاب بالأبطح فقتلها، وأما الحويرث ابن نقيد فقتله علي بن أبي طالب قالت أم هانىء: لما نزل رسول الله ﷺ بأعلى مكة فر إلى رجلين من أحمائي من بني مخزوم، وكانت عند هبيرة بن أبي وهب المخزومي قالت: فدخل عليّ علي بن أبي طالب أخي فقال: والله لأقتلنهما، فأغلقت عليهما باب بيتي، ثم جئت رسول الله ﷺ، وهو بأعلى مكة، فوجدته يغتسل من جفنة وأن فيها لأثر العجين، وفاطمة ابنته تستره بثوبه فلما اغتسل أخذ ثوبه فتوشح به، ثم صلى ثمان ركعات الضحى، ثم انصرف إليّ فقال مرحباً وأهلاً بأم هانىء ما جاء بك. فأخبرته خبر الرجلين وخبر علي بن أبي طالب فقال: قد أجرنا من أجرت وأمنا من آمنت فلا نقتلهما ثم إن رسول الله ﷺ خرج لما اطمأن الناس حتى جاء البيت فطاف به سبعاً على راحلته يستلم الركن بمحجن في يده فلما قضى طوافه دعا عثمان بن طلحة، وأخذ منه مفتاح الكعبة ففتحت له فدخلها فوجد فيها حمامة من عيدان فكسرها بيده ثم طرحها، ثم وقف على باب الكعبة، وقد استكف له الناس في المسجد فقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب

الرضاعة، فغيّبه حتى أتى به رسول الله ﷺ بعد أنِ اطمأن أهل مكة، فاستأمن له، وعبد الله بن خطل كان رجلاً من بني تميم بن غالب، وإنما أمر بقتله لأنه كان مسلماً فبعثه رسول الله ﷺ مصدّقاً، وكان لـه مولى يخدمه وكان مسلماً، فنزل منزلاً وأمر المولى أن يذبح له تيساً ويصنع له طعاماً، ونام فاستيقظ ولم يصنع له شيئاً فعدا عليه فقتله، ثم ارتدّ مشركاً، وكانت له قينتان تغنيان بهجاء رسول الله ﷺ، فأمر بقتلهما معه، والحويرث بن نقيد بن وهب كان ممّن يؤذيه بمكة، ومقيس بن صبابة، وإنما أمر بقتله لقتله الأنصاري الذي قتل أخاه خطأً ورجوعه إلى قريش مرتدّاً، وسارة مولاة كانت لبعض بني المطّلب كانت ممّن يؤذيه بمكة، وعكرمة بن أبي جهل، فأما عكرمة فهرب إلى اليمن وأسلمت امرأته أُم حكيم بنت الحارث بن هشام فاستأمنت له رسول الله ﷺ فأمّنه، فخرجت في طلبه حتى أتت به رسول الله ﷺ فأسلم، وأما عبد الله بن خطل فقتله سعد بن حريث المخزومي وأبو برزة الأسلمي اشتركا في دمه، وأما مقيس بن صبابة فقتله نميلة بن عبد الله رجل من قومه، وأما قينتا ابن خطل فقُتلتْ إحداهما وهربت الأخرى حتى استُؤمن لها رسول الله ﷺ، فأمّنها، وأما سارة فتغيّبت حتى استُؤمن لها فأمّنها، فعاشت حتى أوطأها رجلٌ من الناس فَرَساً له في زمن عمر بن الخطاب بالأبطح فقتلها، وأما الحويرث بن نقيد فقتله علي بن أبي طالب، فلما دخل رسول الله ﷺ مكة وقف قائماً على باب الكعبة وقال: لا إله إلاّ الله وحده، صدقَ وعدَه، ونصرَ عبدَه، وهزمَ الأحزابَ وحده، إلاّ إن كل مأثرةٍ أو دمٍ أو مالٍ في الجاهلية يُدعى فهو تحت قدمي هاتين، إلاّ سدانة البيت وسقاية الحاج، يا معشر قريش إن الله قد أذهبَ عنكم نخوة الجاهلية وتعظيمها بالآباء، الناس من آدم وآدم خلق من تراب، ثم تلا: ﴿ يا أيها الناس إنّا خلقناكم من ذكرٍ وأُنثى ﴾ [الحجرات: ١٣] الآية، يا أهل مكة ماذا ترون أني فاعل بكم؟ قالوا: خيراً أخٌ كريم وابنُ أخٍ كريم قال: اذهبوا فأنتم الطلقاء، فأعتقهم رسول الله ﷺ، وقد كان الله أمكنه

وحده، ألا كل مأثرة أو دم أو مال يدعى فهي تحت قدمي هاتين إلا سدانة البيت، وسقاية الحاج ألا قتل الخطأ شبه العمد بالسوط، والعصا، ففيه الدية مغلظة مائة من الإبل أربعون منها خلفة في بطونها أولادها. يا معشر قريش إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية، وتعظيمها بالآباء الناس من آدم وآدم من تراب، ثم تلا هذه الآية: **﴿يا أيّها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى﴾** الآية ثم قال يا معشر قريش ما ترون إني فاعل فيكم، قالوا خيراً أخ كريم وابن أخ كريم قال فاذهبوا فأنتم الطلقاء، فأعتقهم رسول الله ﷺ في المسجد، وكان الله أمكنه منهم عنوة فبذلك سموا أهل مكة الطلقاء، ثم جلس رسول الله ﷺ فقام إليه علي بن أبي طالب ومفتاح الكعبة بيده فقال: يا رسول الله اجمع لنا بين الحجابة، والسقاية فقال رسول الله ﷺ أين عثمان بن طلحة فدعي له فقال هاك مفتاحك يا عثمان اليوم يوم وفاء وبر، قال واجتمع الناس للبيعة فجلس إليهم رسول الله ﷺ على الصفا، وعمر بن الخطاب أسفل منه يأخذ على الناس. فبايعونه على السمع والطاعة فيما استطاعوا، فلما فرغ من بيعة الرجال بايع النساء قال عروة بن الزبير: خرج صفوان بن أمية يريد جدة ليركب منها إلى اليمن فقال عمير بن وهب الجمحي يا رسول الله إن صفوان بن أمية سيد قومي قد خرج هارباً منك ليقذف بنفسه في البحر، فأمنه يا رسول الله، فقال هو آمن قال: يا رسول الله أعطني شيئاً يعرف به أمانك، فأعطاه رسول الله ﷺ عمامته التي دخل بها مكة، فخرج بها عمير حتى أدركه بجدة، وهو يريد أن يركب البحر فقال يا صفوان فداك أبي وأمي أذكرك الله في نفسك أن تهلكها، فهذا أمان رسول الله ﷺ جئتك به؟ فقال ويلك أغرب عني لا تكلمني قال: فداك أبي وأمي أفضل الناس، وأبر النّاس وأحلم الناس، وخير الناس ابن عمتك عزه عزك وشرفه شرفك، وملكه ملكك، قال إني أخافه على نفسي قال: هو أحلم من ذلك، وأكرم فرجع به معه حتى وقف به على رسول الله ﷺ، فقال صفوان: إن هذا يزعم أنك آمنتني قال صدق، قال فاجعلني في ذلك بالخيار شهرين قال: أنت بالخيار أربعة أشهر «قال ابن هشام وبلغني أن النبي ﷺ حين افتتح مكة، ودخلها قام على الصّفا يدعو، وقد أحدقت به الأنصار فقالوا فيما بينهم أترون أن رسول الله ﷺ إذا فتح الله عليه مكة أرضه، وبلاده يقيم بها فلما فرغ من دعائه قال ماذا قلتم قالوا لا شيء يا رسول الله فلم يزل بهم حتى أخبروه.

فقال النّبي ﷺ معاذ الله المحيا محياكم والممات مماتكم» قال ابن إسحاق: وكان جميع من شهد فتح مكة من المسلين عشرة آلاف، وكان فتح مكة لعشر ليال بقين من رمضان سنة ثمان، وأقام رسول الله ﷺ بمكة بعد فتحها خمس عشرة ليلة يقصر الصلاة ثم خرج إلى هوازن وثقيف، وقد نزلوا حنيناً (ق) عن أبي هريرة أن خزاعة قتلوا رجلاً

من رقابهم عنوة، فلذلك سُمّي أهلُ مكة الطلقاء، ثم اجتمع الناس للبيعة فجلس لهم رسول الله ﷺ على الصفاء، وعمر بن الخطاب أسفل منه يأخذ على الناس، فبايعوه على السمع والطاعة فيما استطاعوا، فلما فرغ من بيعة الرجال بايع النساء. قال عروة بن الزبير: خرج صفوان بن أُميّة يريد جدّة ليركب منها إلى اليمن فقال عمير بن وهب الجمحي: يا نبيّ الله إن صفوان بن أُميّة سيّدُ قومي، وقد خرج هارباً منك ليقذف نفسه في البحر، فآمنه، قال رسول الله ﷺ: «هو آمن»، قال: يا رسول الله أعطني شيئاً يعرف به أمانك، فأعطاه رسول الله ﷺ عمامته التي دخل بها مكة، فخرج بها عمير حتى أدركه بجدّة، وهو يريد أن يركب البحر، فقال: يا صفوان فداك أبي وأُمي أذكّركَ اللَّهَ في نفسك أن تهلكها، فهذا أمان رسول الله ﷺ قد جئتك به، فقال: ويلك اغرب عنّي فلا تكلّمني، قال: أيْ صفوان فداك أبي وأُمي أفضل الناس وأبرّ الناس وأحلم الناس وخير الناس ابن عمّتك عِزّه عزّك وشرفه شرفك وملكه ملكك، قال: إني أخافه على نفسي، قال: هو أحلم من ذلك وأكرم، فرجع به معه حتى وقف به على رسول الله ﷺ، فقال صفوان: إن هذا يزعم أنّك أمّنتني؟ قال: «صدق»، قال: فاجعلني في أمري بالخيار شهرين، قال أنت فيه بالخيار أربعة أشهر، قال ابن إسحاق وكان جميع مَن شهد فتح مكة من المسلمين عشرة آلاف وكان فتح

من بني ليث عام الفتح بقتيل لهم في الجاهلية فقام رسول الله ﷺ في الناس فحمد الله، وأثنى عليه وقال: إن الله حبس عن مكة الفيل، وسلط عليها رسوله والمؤمنين ألا وإنها لم تحل لأحد قبلي، ولا تحل لأحد من بعدي ألا، وإنما أحلت لي ساعة من نهار إلا، وإنها ساعتي هذه فلا ينفر صيدها ولا يختلي خلاها، ولا يقطع شوكها، ولا تحل ساقطتها ألا لمنشد، ومن قتل له قتيل، فهو بخير النظرين. إما أن يفتدى وإما أن يقيد فقال العباس: إلا الأذخر فإنا نجعله لقبورنا وبيوتنا، فقال رسول الله ﷺ إلا الأذخر، فقام أبو شاه رجل من أهل اليمن فقال اكتبوا لي يا رسول الله فقال رسول الله ﷺ: اكتبوا لأبي شاه قال الأوزاعي: يعني الخطبة التي سمعها من رسول الله ﷺ».

(وأما التفسير)

فقوله تعالى: ﴿إذا جاء نصر الله﴾ يعني إذا جاءك يا محمد نصر الله، ومعونته على من عاداك وهم قريش.

ومعنى مجيء النصر أن جميع الأمور مرتبطة بأوقاتها يستحيل تقدمها عن وقتها أو تأخرها عنه فإذا جاء ذلك الوقت المعين حضر معه ذلك الأمر المقدر، فلهذا المعنى قال ﴿إذا جاء نصر الله والفتح﴾ يعني فتح مكة في قول جمهور المفسرين، وقيل هو جنس نصر الله المؤمنين وفتح بلاد الشرك عليهم على الإطلاق، والفرق بين النصر والفتح. أن النصر هو الإعانة والإظهار على الأعداء وهو تحصيل المطلوب، وهو كالسبب للفتح. فلهذا بدأ بذكر النصر وعطف عليه الفتح، وقيل النصر هو إكمال الدين وإظهاره، والفتح هو الإقبال الذي هو تمام النعمة. ﴿ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجاً﴾ يعني زمراً وأرسالاً القبيلة بأسرها. والقوم بأجمعهم من غير قتال قال الحسن: لما فتح الله على رسول الله ﷺ مكة قالت العرب بعضها لبعض إذا ظفر الله محمد بأهل الحرم، وكان قد أجارهم من أصحاب الفيل فليس لكم به يدان فكانوا يدخلون في دين الله أفواجاً. بعد أن كانوا يدخلون واحداً واحداً واثنين اثنين. وقيل أراد بالناس أهل اليمن (ق) عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال «أتاكم أهل اليمن هم أضعف قلوباً، وأرق أفئدة الإيمان يمان، والحكمة يمانية ودين الله هو الإسلام» وأضافه إليه تشريفاً وتعظيماً، كبيت الله وناقة الله قوله ﴿فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً﴾ يعني فإنك حينئذ لاحق به (ق) عن ابن عباس: قال كان عمر يدخلني مع أشياخ بدر فقال: بعضهم لم يدخل هذا الفتى معنا، ولنا أبناء مثله فقال إنه ممن قد علمتم قال فدعاهم ذات يوم ودعاني معهم.

قال وما رأيت أنه كان دعاني يومئذ إلا ليريهم مني.

مكة لعشر ليالٍ بقين من رمضان سنة ثمان، وأقام رسول الله ﷺ بمكة بعد فتحها خمس عشرة ليلة يقصر الصلاة، ثم خرج إلى هوازن وثقيف، وقد نزلوا حُنيناً. أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا أبو نعيم ثنا شيبان عن يحيىٰ بن سلمة عن أبي هريرة أن خزاعة قتلوا رجلاً، وقال محمد بن إسماعيل، قال عبد الله بن رجاء ثنا حرب عن يحيىٰ ثنا أبو سلمة أنا أبو هريرة أنه قال: عام فتح مكة قتلتْ خزاعةُ رجلاً من بني ليث بقتيل لهم في الجاهلية، فقام رسول الله ﷺ فقال: إن الله حبس عن مكة الفيل وسلّط عليهم رسوله والمؤمنين، ألا وإنها لم تحلّ لأحد قبلي ولا تحلّ لأحد بعدي، ألا وإنما أُحلّتْ لي ساعة من نهار، ألا وإنها ساعتي هذه حرام لا يختلى شوكها ولا يعضد شجرها، ولا يلتقط ساقطتها إلا منشد، ومَن قتل له قتيل فهو بخير النظر إما يؤدّوا وإما يُفادوا، فقام رجل من أهل اليمن يقال له أبو شاه فقال: اكتبْ لي يا رسول الله، فقال رسول الله ﷺ اكتبوا لأبي شاه، ثم قام رجل من قريش فقال: يا رسول الله إلاّ الأذخر فإنّا نجعله في بيوتنا وقبورنا، فقال رسول الله ﷺ: «إلاّ الأذخر». أخبرنا أبو الحسن السرخسي أنا زاهر بن أحمد أنا أبو إسحاق الهاشمي أنا أبو مصعب عن مالك عن أبي النضر مولى عمر بن عبيد الله أن أبا مرّة مولى أُم هانىء بنت أبي طالب أخبره أنه

قال ما تقولون في قول الله تعالى: ﴿إذا جاء نصر الله والفتح﴾ حتى ختم السورة، فقال بعضهم أمرنا أن نحمد الله، ونستغفره إذ نصرنا، وفتح علينا، وسكن بعضهم فلم يقل شيئاً فقال لي أكذلك تقول يا ابن عباس، قال: قلت؛ لا قال فما هو قلت هو أجل رسول الله ﷺ أعلمه، فقال ﴿إذا جاء نصر الله والفتح﴾، فذلك علامة أجلك فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً، قال عمر: ما أعلم منها إلا ما تعلم (ق) عن عائشة قالت: «ما صلى رسول الله ﷺ صلاة بعد أن أنزلت عليه إذا جاء نصر الله والفتح، إلا يقول فيها سبحانك ربنا، وبحمدك اللهم اغفر لي، وفي رواية قالت: كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده سبحانك اللهم وبحمدك اللهم اغفر لي يتأول القرآن، وفي رواية قالت كان رسول الله ﷺ يكثر القول من سبحان الله، وبحمده أستغفر الله وأتوب إليه، وقال أخبرني ربي أني سأرى علامة في أمتي. فإذا رأيتها أكثرت من قول سبحان الله وبحمده وأستغفر الله وأتوب إليه قد رأيتها إذا جاء نصر الله والفتح فتح مكة، ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجاً فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً». قال ابن عباس: لما نزلت هذه السورة علم النبي ﷺ أنه نعيت إليه نفسه.

وقال الحسن أعلم أنه قد اقترب أجله فأمر بالتسبيح والتوبة، ليختم بالزيادة في العمل الصالح قيل عاش النبي ﷺ بعد نزول هذه السورة سنتين، وقيل في معنى السورة إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجاً فاشتغل أنت بالتسبيح والتحميد، والاستغفار، فالاشتغال بهذه الطاعة يصير سبباً لمزيد درجاتك في الدنيا والآخرة.

وفي معنى التسبيح وجهان: أحدهما نزه ربك عما لا يليق بجلاله ثم احمده.

سمع أُم هانىء بنت أبي طالب تقول: ذهبت إلى رسول الله ﷺ عام الفتح فوجدته يغتسل وفاطمة ابنته تستره بثوب، قالت: فسلّمتُ، فقال: «مَن هذه»؟ فقلت: أنا أُم هانىء بنت أبي طالب، قال: «مرحباً بأُم هانىء»، فلما فرغ من غسله قام فصلّى ثمان ركعات ملتحفاً في ثوب واحد، ثم انصرف فقلت له: يا رسول الله زعم ابن أُمي عليّ بن أبي طالب أنه قاتلٌ رجلاً أجرتُه فلان بن هبيرة، فقال رسول الله ﷺ: «قد أجرنا مَن أجرتِ يا أُم هانىء، وذلك ضحى». قوله عزّ وجلّ: ﴿ إذا جاء نصر الله ﴾ يا محمد على مَن عاداك وهم قريش، والفتح فتح مكة.

﴿ورأيت الناسَ يدخلون في دين الله أفواجاً﴾، زُمراً وأرسالاً القبيلة بأسرها والقوم بأجمعهم من غير قتال. قال الحسن: لمّا فتح الله عزّ وجلّ مكة على رسوله قالت العرب بعضها لبعض: إذا ظفر محمد بأهل الحرم، وقد كان الله أجارهم من أصحاب الفيل، فليس لكم به يدان، فكانوا يدخلون في دين الله أفواجاً بعد أن كانوا يدخلون واحداً واحداً، واثنين اثنين. وقال عكرمة ومقاتل: أراد بالناس أهل اليمن، أنا أبو عبد الله محمد بن الفضل الخرقي أنا أبو الحسن علي بن عبد الله الطيسفوني أنا عبد الله بن عمر الجوهري ثنا أحمد بن الكشمهيني ثنا علي بن حجر ثنا إسماعيل بن جعفر ثنا محمد بن عمرو بن علقمة عن أبي سلمة عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «أتاكم أهل اليمن هم أضعف قلوباً وأرقّ أفئدة، الإيمان يمان والحكمة يمانية». ﴿ فسبّحْ بحمدِ ربِّك واستغفره إنه كان توّاباً ﴾، فإنك حينئذ لاحقٌ به. أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا أبو النعمان ثنا أبو عوانة عن أبي بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: كان عمر يدخلني مع أشياخ بدر، فقال بعضهم: لِمَ تُدخِل هذا الفتى معنا ولنا أبناء مثله؟ فقال: إنه ممّن قد علمتم، قال: فدعاهم ذات يوم ودعاني معهم، قال: وما رأيتُه دعاني يومئذ إلاّ لُيريهم منّي، فقال: ما تقولون في قوله: ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ﴾ حتى ختم السورة؟ فقال بعضهم: أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا جاء نصر وفتح علينا، وقال

والثاني فصل لربك لأن التسبيح جزء من أجزاء الصلاة، ثم قيل عني به صلاة الشكر، وهو ما صلاه رسول الله ﷺ يوم فتح مكة ثمان ركعات.

وقيل هي صلاة الضحى. وفي الآية دليل على فضيلة التسبيح، والتحميد حيث جعل ذلك كافياً في أداء ما وجب عليه من شكر نعمة النصر والفتح.

فإن قلت ما معنى هذا الاستغفار، وقد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر.

قلت إنه تعبده الله بذلك ليقتدى به غيره. إذ لا يأمن كل واحد من نقص يقع في عبادته واجتهاده ففيه تنبيه على أن النبي ﷺ مع عصمته وشدة اجتهاده ما كان يتسغني عن الاستغفار فكيف بمن هو دونه وقيل هو ترك الأفضل والأولى لا عن ذنب صدر منه ﷺ وعلى قول من جوز الصغائر على الأنبياء يكون المعنى، واستغفره لما عسى أن يكون قد وقع من تلك الأمور منه، وقيل المراد منه الاستغفار لذنوب أمته، وهذا ظاهر لأن الله تعالى أمره بذلك في قوله **﴿واستغفر لذنبك، وللمؤمنين، والمؤمنات﴾** والله سبحانه وتعالى أعلم.

بعضهم: لا ندري، ولم يقل بعضهم شيئاً، فقال لي: يا ابن عباس أكذلك تقول؟ قلت: لا، قال: فما تقول؟ قلت: هو أجل رسول الله ﷺ أعلمه به: ﴿ **إذا جاء نصر الله والفتح** ﴾ فتح مكة، فذلك علامة أجلك.

﴿ **فسبّح بحمد ربّك واستغفره إنه كان توّاباً** ﴾، فقال عمر: ما أعلم منها إلا ما تعلم. أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل حدّثني عثمان بن أبي شيبة ثنا جرير عن منصور عن أبي الضحى عن مسروق عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده سبحانك اللّهمَّ وبحمدك اللّهمَّ اغفر لي، يتأوّل القرآن. أخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر أنا عبد الغافر بن محمد بن عيسى الجلودي ثنا إبراهيم بن محمد بن سفيان ثنا مسلم بن الحجّاج ثنا محمد بن المثنى حدّثني عبد الأعلى ثنا داود عن عامر عن مسروق عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ يُكثر من قول: سبحان الله وبحمده استغفر الله وأتوب إليه، قالت: فقلت يا رسول الله أراك تكثر من قول سبحان الله وبحمده أستغفر الله وأتوب إليه؟ فقال: «أخبرني ربّي أني سأرى علامة في أُمتي، فإذا رأيتُها أكثر من قول سبحان الله وبحمده أستغفر الله وأتوب إليه، فقدْ رأيتُها: ﴿ **إذا جاء نصر الله والفتح** ﴾، فالفتح فتح مكة، ﴿ **ورأيتَ الناس يدخلون في دين الله أفواجاً * فسبّح بحمد ربّك واستغفره إنه كان توّاباً** ﴾» قال ابن عباس: لمّا نزلت هذه السورة علم النبي ﷺ أنه نُعيتْ إليه نفسه. قال الحسن: أعلم أنه قد اقترب أجله فأمر بالتسبيح والتوبة ليختم له بالزيادة في العمل الصالح. قال قتادة ومقاتل: عاش النبي ﷺ بعد نزول هذه السورة سبعين يوماً.

سورة المسد

مكية وهي خمس آيات وعشرون كلمة وسبعة وسبعون حرفاً.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصۡلَىٰ نَارٗا ذَاتَ لَهَبٖ ﴿٣﴾
وَٱمۡرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ ﴿٤﴾ فِي جِيدِهَا حَبۡلٞ مِّن مَّسَدِۭ ﴿٥﴾

قوله عز وجل: ﴿**تبت يدا أبي لهب وتب**﴾ (ق) «عن ابن عباس قال: لما نزلت ﴿**وأنذر عشيرتك الأقربين**﴾ صعد النبي ﷺ على الصفا، ونادى يا بني فهر يا بني عدي لبطون من قريش حتى اجتمعوا، فجعل الرجل إذا لم يستطع أرسل رسولاً لينظر ما هو، فجاء أبو لهب وقريش، فقال أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي، قالوا نعم ما جربنا عليك إلا صدقاً قال فإني لكم نذير بين يدي عذاب شديد، فقال أبو لهب تباً لك سائر اليوم ألهذا جمعتنا؟ فنزلت ﴿**تبت يدا أبي لهب وتب ما أغنى عنه ماله وما كسب**﴾ وفي رواية «أن النبي ﷺ خرج إلى البطحاء فصعد الجبل، فنادى يا صباحاه فاجتمعت عليه قريش». الحديث وذكر نحوه ومعنى تبت خابت وخسرت، والتباب هو الخسار المفضي إلى الهلاك، والمراد من اليد صاحبها وجملة بدنه، وذلك على عادة العرب في التعبير ببعض الشيء عن كله، وجميعه، وقيل إنه رمى النبي ﷺ بحجر، فأدمى عقبه فلهذا ذكرت اليد، وإن كان المراد جملة البدن فهو كقولهم خسرت يده، وكسبت يده فأضيفت الأفعال إلى اليد، وأبو لهب هو عبد العزي بن عبد المطلب بن هاشم عم النبي ﷺ وكني بأبي لهب لحسنه وإشراق وجهه.

سُوْرَة المَسَد

مكيّة وهي خمس آيات.

﴿ **تبّتْ يدا أبي لهب وتبّ** ﴾، أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحي أنا أبو بكر أحمد بن الحسن الحيري أنا حاجب بن أحمد الطوسي حدّثنا محمد بن حمّاد ثنا أبو معاوية عن الأعمش عن عمرو بن مرّة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: صعد رسول الله ﷺ ذات يوم على الصفا فقال: «يا صاحباه»، قال: فاجتمعت إليه قريش، فقالوا له: ما لك؟ قال: «أرأيتم لو أخبرتكم أن العدو مصبّحكم أما كنتم تصدّقوني»؟ قالوا: بلى، قال: «فإني نذيرٌ لكم بين يدي عذاب شديد»، فقال أبو لهب: تبّاً ألهذا دعوتنا جميعاً؟ فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿ **تبّتْ يدا أبي لهب وتبّ** ﴾ إلى آخرها. قوله: ﴿ **تبّت** ﴾ أي خابت وخسرت يدا أبي لهب، أي هو أخبر عن يديه، والمراد به نفسه على عادة العرب في التعبير ببعض الشيء عن كله. وقيل: اليد صلة، كما يقال: يد الدهر ويد الرزايا والبلايا. وقيل: المراد به ماله وملكه، يقال: فلان قليل ذات اليد، يعنون به المال والثياب والخسار الهلاك. وأبو لهب هو ابن عبد المطّلب

فإن قلت لم كناه وفي الكنية تشريف وتكرمة قلت فيه وجوه أحدها أنه كان مشتهراً بالكنية دون الاسم، فلو ذكره باسمه لم يعرف الثاني أنه كان اسمه عبد العزى، فعدل عنه إلى الكنية لما فيه من الشرك الثالث. أنه لما كان من أهل النّار ومآله إلى النار، والنار ذات لهب وافقت حاله كنيته، وكان جديراً بأن يذكر بها. ﴿وتب﴾ قيل الأول أخرج مخرج الدعاء عليه، والثاني أخرج مخرج الخبر كما يقال أهلكه الله، وقد هلك وقيل ثبت يدا أبي لهب، يعني ماله وملكه، كما يقال فلان قليل ذات اليد يعنون به المال، وتب يعني نفسه أي وقد أهلكت نفسه ﴿ما أغنى عنه ماله وما كسب﴾ قال ابن مسعود: لما دعى رسول الله ﷺ أقرباءه إلى الله تعالى قال أبو لهب: إن كان ما تقول يا ابن أخي حقاً، فأنا أفتدي نفسي بمالي وولدي، فأنزل الله تعالى: ﴿ما أغنى عنه ماله﴾، أي شيء يغني عنه ماله، أي ما يدفع عنه عذاب الله، وما كسب يعني من المال، وكان صاحب مواشي، أي ما جمع من المال أو ما كسب من المال، أي الربح بعد رأس ماله، وقيل وما كسب يعني ولده لأن ولد الإنسان من كسبه، كما جاء في الحديث «إن أطيب ما أكلتم من كسبكم، وإن أولادكم من كسبكم» أخرجه الترمذي ثم أوعده بالنّار فقال تعالى: ﴿سيصلى ناراً ذات لهب﴾ أي ناراً تلتهب عليه ﴿وامرأته﴾ يعني أم جميل بنت حرب بن أمية أخت أبي سفيان بن حرب عمة معاوية بن أبي سفيان، وكانت في نهاية العداوة لرسول الله ﷺ. ﴿حمالة الحطب﴾ قيل كانت تحمل الشّوك، والحسك والعضاه باللّيل، فتطرحه في طريق رسول الله ﷺ وأصحابه لتؤذيهم بذلك وهي رواية عن ابن عباس فإن قلت إنها كانت من بيت العز

عمّ النبي ﷺ، واسمه عبد العزّى. قال مقاتل كُنّي بأبي لهب لحُسْنه وإشراق وجهه. وقرأ ابن كثير ﴿ أبي لهب ﴾ ساكنة الهاء وهي مثل نهر ونهر. واتفقوا في ذات ﴿ لهب ﴾ أنها مفتوحة الهاء لِوِفَاقِ الفواصل، وتبّ أبو لهب، وقرأ عبد الله: وقد تبّ. قال الفرّاء: الأول دعاء، والثاني خبر، كما يقال: أهلكه الله، وقد فعل.

﴿ ما أغنى عنه ماله وما كسب ﴾، قال ابن مسعود: لمّا دعا رسول الله ﷺ أقرباءه إلى الله عزّ وجلّ قال أبو لهب: إن كان ما يقول ابن أخي حقاً فإني أفتدي نفسي بمالي وولدي، فأنزل الله تعالى: ﴿ما أغنى عنه ماله﴾ أي ما يغني، وقيل: أي شيء يُغني عنه ماله، أي ما يدفع عنه عذاب الله ما جمع من المال؟ وكان صاحب مواشٍ، ﴿ وما كسب ﴾ قيل: يعني ولده لأن ولد الإنسان من كسبه كما جاء في الحديث: «أطيبُ ما يأكل أحدُكم من كسبه، وإنّ ولده من كسبه».

ثم أوعده بالنار فقال: ﴿ سيصلى ناراً ذات لهب ﴾، أي ناراً تلتهب عليه.

﴿ وامرأتُه ﴾، أم جميل بنت حرب بن أُمية أُخت أبي سفيان ﴿ حمّالة الحطب ﴾، قال زيد والضحاك: كانت تحمل الشوك والعضاة فتطرحه في طريق رسول الله ﷺ، وأصحابه لتعقرهم، وهي رواية عطية عن ابن عباس. وقال قتادة ومجاهد والسدي: كانت تمشي بالنميمة وتنقل الحديث فتلقي العداوة بين الناس، وتوقد نارها كما توقد النار الحطب، يقال: فلان يحطب على فلان إذا كان يغري به. وقال سعيد بن جبير: حمّالة الخطايا، دليله قوله: ﴿ وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم ﴾ [الأنعام: ٣١]، قرأ عاصم ﴿ حمّالة ﴾ بالنصب على الذمّ، كقوله: ﴿ ملعونين ﴾ [الأحزاب: ٦١]، وقرأ الآخرون بالرفع وله وجهان أحدهما ﴿ سيصلى ناراً ﴾ هو، ﴿ وامرأته حمّالة الحطب ﴾ والثاني: ﴿ وامرأته حمّالة الحطب ﴾ في النار أيضاً.

﴿ في جيدها ﴾، في عنقها، وجمعه أجياد، ﴿ حبل من مسد ﴾، واختلفوا فيه قال ابن عباس وعروة بن الزبير: سلسلة من حديد ذرعها سبعون ذراعاً تدخل في فيها وتخرج من دبرها، ويكون سائرها في عنقها، وأصله من المسد وهو الفتل، والمسد ما فتل وأُحكم من أيّ شيء كان، يعني السلسلة التي في عنقها ففتلت من الحديد

والشرف فكيف يليق بها حمل الحطب؟ قلت يحتمل أنها كانت مع كثرة مالها، وشرفها في نهاية البخل والخسة، فكان يحملها بخلها على حمل الحطب بنفسها، ويحتمل أنها كانت تفعل ذلك لشّدة عداوتها لرسول الله ﷺ ولا ترى أنها تستعين في ذلك بأحد بل تفعله هي بنفسها، وقيل كانت تمشي بالنميمة وتنقل الحديث وتلقي العداوة بين النّاس وتوقد نارها، كما توقد النار الحطب يقال فلان يحطب على فلان إذا كان يغري به، وقيل حمالة الخطايا والآثام التي حملتها في عداوة رسول الله ﷺ لأنها كانت كالحطب في مصيرها إلى النار. ﴿**في جيدها**﴾ أي عنقها ﴿**حبل من مسد**﴾ قال ابن عباس: سلسلة من حديد ذرعها سبعون ذراعاً تدخل من فيها، وتخرج من دبرها، ويكون سائرها في عنقها. فتلت من حديد فتلا محكماً وقيل هو حبل من ليف، وذلك الحبل هو الذي كانت تحتطب به، فبينما هي ذات يوم حاملة الحزمة أعيت، فقعدت على حجر تستريح أتاها ملك، فجذبها من خلفها، فأهلكها، وقيل هو حبل من شجر ينبت باليمن يقال له المسد، وقيل قلادة من ودع، وقيل كانت لها خرزات في عنقها، وقيل كانت لها قلادة فاخرة. قالت لأنفقنها في عداوة محمد ﷺ والله تعالى أعلم.

فتلاً محكماً. وروى الأعمش عن مجاهد: من مسد أي من حديد، والمسد الحديدة التي تكون في البكرة، يقال لها المحور، وقال الشعبي ومقاتل: من ليف. قال الضحاك وغيره: في الدينا من ليف وفي الآخرة من نار، وذلك الليف هو الحبل الذي كانت تحتطب به، فبينما هي ذات يوم حاملة حزمة فأعيت فقعدت على حجر تستريح فأتاها ملك فجذبها من خلفها فأهلكها، قال ابن زيد: حبل من شجر ينبت باليمن يقال له مسد، قال قتادة: قلادة من ودع. وقال الحسن: كانت خرزات في عنقها. وقال سعيد بن المسيب: كانت لها قلادة في عنقها فاخرة، فقالت: لأنفقنّها في عداوة محمد ﷺ.

سورة الإخلاص

(وهي مكية وقيل مدنية وهي أربع آيات، وخمس عشرة كلمة وسبعة وأربعون حرفاً)

(فصل في فضلها)

(خ) عن أبي سعيد الخدري «أن رجلاً سمع رجلاً يقرأ ﴿قل هو الله أحد﴾ يرددها، فلما أصبح جاء إلى النبي ﷺ، فذكر ذلك له وكان الرجل يتقالها فقال رسول الله ﷺ: والذي نفسي بيده إنها لتعدل ثلث القرآن»، وفي رواية قال: قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «أيعجز أحدكم أن يقرأ ثلث القرآن في ليلة فشق ذلك عليهم فقالوا: أيّنا يطيق ذلك يا رسول الله فقال: ﴿قل هو الله أحد﴾، الله الصّمد ثلث القرآن» (م) عن أبي الدّرداء أن النبي ﷺ قال «إن الله جزأ القرآن ثلاثة أجزاء، فجعل قل هو الله أحد جزءاً من القرآن» (م) عن أبي هريرة قال: «خرج علينا رسول الله ﷺ فقال أقرأ عليكم ثلث القرآن، فقرأ ﴿قل هو الله أحد الله الصّمد﴾، حتى ختمها»، وقد ذكر العلماء رضي الله عنهم في كونه ﷺ جعل سورة الإخلاص تعدل ثلث القرآن أقوال متناسبة متقاربة، فقيل إن القرآن العزيز لا يعدو ثلاثة أقسام، وهي الإرشاد إلى معرفة ذات الله تعالى: وتقديسه أو صفاته وأسمائه أو معرفة أفعاله، وسنته مع عباده، ولما اشتملت سورة الإخلاص على أحد هذه الأقسام الثلاثة، وهو التّقديس وازنها رسول الله ﷺ بثلث القرآن لأن منتهى التقديس في أن يكون واحداً في ثلاثة أمور لا يكون حاصلاً منه من هو من نوعه وشبهه ودل عليه. قوله ﴿لم يلد﴾، ولا يكون حاصلاً ممن هو نظيره، وشبيهه، ودل عليه قوله ﴿ولم يولد﴾، ولا يكون أحد في درجته وإن لم يكن أصلاً له، ولا فرعاً منه، ودل عليه قوله ﴿ولم يكن له كفواً أحد﴾، ويجمع ذلك كله قوله ﴿قل هو الله أحد﴾، وجملته وتفصيله، هو قولك لا إله إلا الله فهذا سر من أسرار القرآن المجيد الذي لا تتناهى أسراره، ولا تنقضي عجائبه وقال الإمام فخر الدين الرّازي: لعل الغرض منه أن يكون المقصود الأشرف في جميع الشرائع، والعبادات معرفة ذات الله جلّ جلاله وتعالى علاؤه وثناؤه، ومعرفة أفعاله، وهذه السورة مشتملة على معرفة ذات الله تعالى، فلهذا كانت هذه السورة معادلة لثلث القرآن، وقال الشّيخ محيي الدين النّووي رحمه الله، قيل معناه إن القرآن على ثلاثة أنحاء قصص، وأحكام وصفات الله تعالى، وقل هو الله أحد متضمنة للصفات، فهي ثلث القرآن، وجزء من ثلاثة أجزاء، وقيل معناه أن ثواب قراءتها يتضاعف بقدر ثواب قراءة ثلث القرآن بغير تضعيف. قوله يتقللها يقال استقللت الشيء، وتقللته وتقاللته أي عددته قليلاً في بابه، ونظرت إليه بعين القلة قيل سميت ﴿قل هو الله أحد﴾ سورة الإخلاص. إما لأنها خالصة لله تعالى في صفته أو لأن قارئها قد أخلص لله التوحيد، ومن فوائد هذه السّورة أن الاشتغال بقراءتها يفيد الاشتغال بالله، وملازمة الأعراض عما سوى الله تعالى وهي متضمنة تنزيه الله تعالى، وبراءته، عن كل ما لا يليق به لأنها مع قصرها جامعة لصفات الأحديّة والصّمدانية، والفردانية، وعدم النّظير عن أنس عن النبي ﷺ قال: «من قرأ كل يوم مائتي مرة قل هو الله أحد، محيت عنه ذنوب خمسين سنة إلا أن يكون عليه دين»، وفي رواية عنه عن النبي ﷺ قال: «من أراد أن ينام على فراشه، فنام على يمينه فقرأ قل هو الله أحد مائة مرة فإذا كان يوم القيامة يقول الرب جلّ جلاله يا عبدي ادخل عن يمينك الجنة» أخرجه التّرمذي وقال: حديث غريب وعنه «أن رجلاً قال يا رسول الله إني أحب هذه السّورة ﴿قل هو الله

أحد﴾، قال حبك إيّاها أدخلك الجنة» أخرجه التّرمذي عن أبي هريرة قال «أقبلت مع رسول الله ﷺ، فسمع رجلاً يقرأ ﴿قل هو الله أحد الله الصمد﴾، فقال رسول الله ﷺ وجبت قلت: وما وجبت قال الجنة» أخرجه الترمذي، وقال حديث حسن غريب صحيح، والله سبحانه وتعالى أعلم بمراده.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿٤﴾

قوله عز وجل: ﴿قل هو الله أحد﴾ عن أبي بن كعب «أن المشركين قالوا لرسول الله ﷺ انسب لنا ربك، فأنزل الله ﴿قل هو الله أحد الله الصمد﴾ والصّمد الذي لم يلد، ولم يولد لأنه ليس شيء يولد إلا سيموت، وليس شيء يموت إلا سيورث، وإن الله لا يموت ولا يورث، ولم يكن له كفواً أحد. قال لم يكن له شبيه، ولا عديل، وليس كمثله شيء» أخرجه التّرمذي وقال: وقد روي عن أبي العالية أن النبي ﷺ ذكر آلهتهم، فقالوا انسب لنا ربك، فأتاه جبريل بهذه السّورة ﴿قل هو الله أحد﴾ وذكر نحوه، ولم يذكر فيه عن أبي بن كعب، وهذا أصح وقال ابن عباس أن عامر بن الطفيل، وأربد بن ربيعة أتيا النبي ﷺ فقال عامر: إلاّم تدعونا يا محمد قال إلى الله قال صفه لنا أمن ذهب هو أم من فضة، أم من حديد، أم من خشب، فنزلت هذه السّورة، ﴿وأهلك الله أربد بالصاعقة وعامر بالطاعون﴾ وقد تقدم ذكرهما في سورة الرّعد، وقيل جاء ناس من أحبار اليهود إلى النبي ﷺ، فقالوا صف لنا ربك لعلنا نؤمن بك، فإن الله تعالى أنزل نعته في التوراة، فأخبرنا من أي شيء هو، وهل يأكل ويشرب، وممن ورث الربوبية، ولمن يورثها، فأنزل الله هذه السّورة ﴿قل هو الله أحد﴾ يعني الذي سألتموني عنه هو الله الواحد في الألوهية، والرّبوبية الموصوف بصفات الكمال والعظمة المنفرد عن الشبه، والمثل والنظير، وقيل لا يوصف أحد بالأحدية غير الله تعالى فلا يقال رجل أحد، ودرهم أحد بل أحد صفة من صفات الله تعالى. استأثر بها فلا يشركه فيها أحد، والفرق بين الواحد، والأحد أن الواحد يدخل في الأحد، ولا ينعكس، وقيل إن الواحد يستعمل في الإثبات والأحد في النفي تقول في الإثبات رأيت رجلاً واحداً، وفي النفي ما رأيت أحداً، فتفيد العموم، وقيل الواحد هو المنفرد بالذات فلا يضاهيه أحد، والأحد هو

سُورَةِ الإخلاص

مكيّة وهي أربع آيات.

﴿ قل هو الله أحد ﴾، روى أبو العالية عن أُبيّ بن كعب أن المشركين قالوا لرسول الله ﷺ: أنسِبْ لنا ربَّك، فأنزل الله تعالى هذه السورة. وروى أبو ظبيان وأبو صالح عن ابن عباس أن عامر بن الطفيل وأربد بن ربيعة أتيا النبي ﷺ فقال عامر: إلاَمَ تدعونا يا محمد؟ قال: إلى الله، قال: صِفْهُ لنا أمن ذهب هو؟ أم من فضة؟ أم من حديد،؟ أم من خشب؟ فنزلت هذه السورة. فأهلك الله أربد بالصاعقة وعامر بن الطفيل بالطاعون، ذكرناه في سورة الرعد [١٣]. وقال الضحاك وقتادة ومقاتل: جاء ناسٌ من أحبار اليهود إلى النبي ﷺ فقالوا: صف لنا ربك يا محمد لعلّنا نؤمن بك، فإن الله أنزل نعته في التوراة، فأخبرنا من أيّ شيء هو؟ وهل يأكل ويشرب؟ ومَن يرث السماء؟ ومَن يرث الأرض؟ فأنزل الله هذه السورة: ﴿ قل هو الله أحد ﴾ أي واحد، ولا فرق بين الواحد والأحد، يدلّ عليه قراءة ابن مسعود: قل هو الله الواحد.

﴿ الله الصّمد ﴾، قال ابن عباس ومجاهد والحسن وسعيد بن جبير: الصمد الذي لا جوف له. قال الشعبي:

المنفرد بالمعنى فلا يشاركه فيه أحد ﴿الله الصمد﴾ قال ابن عباس: الصمد الذي لا جوف له وبه قال جماعة من المفسرين، ووجه ذلك من حيث اللّغة أن الصّمد الشيء المصمد الصّلب الذي ليس فيه رطوبة، ولا رخاوة، ومنه يقال لسداد القارورة الصماد. فإن فسر الصمد بهذا كان من صفات الأجسام، ويتعالى الله جلّ وعزّ عن صفات الجسمية، وقيل وجه هذا القول إن الصمد الذي ليس بأجوف، معناه هو الذي لا يأكل، ولا يشرب، وهو الغني عن كل شيء، فعلى هذا الاعتبار هو صفة كمال، والقصد بقوله الله الصّمد التّنبيه على أنه تعالى بخلاف من أثبتوا له الإلهية، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام﴾ وقيل الصّمد الذي ليس بأجوف شيئان أحدهما دون الإنسان، وهو سائر الجمادات الصّلبة والثاني أشرف من الإنسان وأعلى منه وهو الباريء جل وعز وقال أبي بن كعب الصمد الذي لم يلد، ولم يولد لأن من يولد سيموت، ومن يموت يورث منه. وروى البخاري في أفراده عن أبي وائل شقيق بن سلمة قال: الصّمد هو السّيد الذي انتهى سودده، وهي رواية عن ابن عباس، أيضاً قال هو السيد الذي كمل فيه جميع أوصاف السودد، وقيل هو السيد المقصود في جميع الحوائج المرغوب إليه في الرغائب المستعان به عند المصائب، وتفريج الكرب وقيل هو الكامل في جميع صفاته وأفعاله وتلك دالة على أنه المتناهي في السودد والشرف، والعلو والعظمة، والكمال والكرم والإحسان، وقيل الصمد الدائم الباقي بعد فناء خلقه، وقيل الصمد الذي ليس فوقه أحد، وهو قول علي، وقيل هو الذي لا تعتريه الآفات ولا تغيره الأوقات وقيل هو الذي لا عيب فيه وقيل الصمد هو الأول الذي ليس له زوال والآخر الذي ليس لملكه انتقال. والأولى أن يحمل لفظ الصمد على كل ما قيل فيه لأنه محتمل له، فعلى هذا يقتضي أن لا يكون في الوجود صمد سوى الله تعالى

الذي لا يأكل ولا يشرب. وقيل: تفسيره ما بعده. روى أبو العالية عن أُبيّ بن كعب قال: الصمد الذي لم يلد ولم يولد لأن مَن يولد سيموت ومَن يرث يورث منه. قال أبو وائل شقيق بن سلمة: هو السيد الذي قد انتهى سُؤدُده، وهو رواية عليّ بن أبي طلحة عن ابن عباس، قال: هو السيد الذي قد كمل في جميع أنواع السؤدد. وعن سعيد بن جبير أيضاً: هو الكامل في جميع صفاته وأفعاله. وقيل: هو السيد المقصود في الحوائج. وقال السدي: هو المقصود إليه في الرغائب المستغاث به عند المصائب، تقول العرب: صمدت فلاناً أصمده صمداً بسكون الميم إذا قصدته، والمقصود صمد بفتح الميم. وقال قتادة: الصمد الباقي بعد فناء خلقه. وقال عكرمة: الصمد الذي ليس فوقه أحد، وهو قول علي. وقال الربيع: الذي لا تعتريه الآفات. قال مقاتل بن حيان: الذي لا عيب فيه.

﴿ لم يلد ولم يولد * ولم يكن له كفواً أحد ﴾، قرأ حمزة وإسماعيل (كفؤاً) ساكنة الفاء مهموزاً، وقرأ حفص عن عاصم بضمّ الفاء من غير همز، وقرأ الآخرون بضمّ الفاء مهموزاً، وكلها لغات صحيحة، ومعناه: المثل أي هو أحد، وقيل: هو على التقديم والتأخير مجازه: لم يكن له أحد كفواً أي مثلاً. قال مقاتل: قال مشركوا العرب: الملائكة بنات الله، وقالت اليهود: عزير ابن الله، وقالت النصارى: المسيح ابن الله، فأكذبهم الله ونفى عن ذاته الولادة والمثل. أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا أبو اليمان أنا شعيب عن الزهري أنا أبو الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «قال الله تعالى: كذبني ابنُ آدم ولم يكن له ذلك، وشتمني ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إيّاي فقوله: لن يعيدني كما بدأني وليس أول الخلق بأهون عليّ من إعادته، وأما شتمه إيّاي فقوله: اتخذ الله ولداً وأنا الأحد الصمد الذي لم ألد ولم أولد ولم يكن لي كفواً أحد». أخبرنا أبو الحسن محمد بن محمد السرخسي أنا أبو علي زاهر بن أحمد أنا أبو إسحاق الهاشمي أنا أبو مصعب عن مالك عن عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي صعصعة الأنصاري عن أبيه عن أبي سعيد الخدري أن رجلاً سمع رجلاً يقرأ: ﴿ قلْ هو الله أحد ﴾ ويردّد، فلما أصبح أتى رسولَ الله ﷺ فذكر ذلك له، وكان

العظيم القادر على كل شيء وأنه اسم خاص بالله تعالى انفرد به له الأسماء الحسنى والصّفات العليا ﴿**ليس كمثله شيء وهو السّميع البصير**﴾.

قوله عز وجل: ﴿**لم يلد ولم يولد**﴾ وذلك أن مشركي العرب قالوا الملائكة بنات الله، وقالت اليهود عزيز ابن الله، وقالت النّصارى المسيح ابن الله فكذبهم الله عز وجل، ونفى عن نفسه ما قالوا بقوله ﴿**لم يلد**﴾ يعني كما ولد عيسى، وعزير، ﴿**ولم يولد**﴾ معناه أن من ولد كان له والد فنفى عنه إحاطة النسب من جميع الجهات، فهو الأول الذي لم يتقدمه، والد كان عنه وهو الآخر الذي لم يتأخر عنه ولد يكون عنه، ومن كان كذلك فهو الذي لم يكن له كفواً أحد، أي ليس له من خلقه مثل، ولا نظير ولا شبيه فنفى عنه. بقوله ﴿**ولم يكن له كفواً أحد**﴾ العديل والنّظير، والصّاحبة والولد (خ) عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «قال الله عز وجل كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك وشتمني، ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إيّاي فقوله لن يعيدني كما بدأني، وليس أول الخلق بأهون عليّ من إعادته، وأما شتمه إياي فقوله اتخذ الله ولداً وأنا الأحد الصمد الذي لم يلد، ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد» والله سبحانه وتعالى أعلم.

الرجل يتقالها، فقال له رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده إنها لتعدل ثلث القرآن»، أخبرنا أبو سعيد الشريحي أنا أبو إسحاق الثعلبي أنا أبو بكر محمد بن الحسن الأصفهاني أنا عبد الله بن جعفر بن أحمد بن فارس ثنا يونس بن حبيب ثنا أبو داود الطيالسي ثنا شعبة عن قتادة سمعت سالم بن أبي الجعد يحدّث عن معدان بن أبي طلحة عن أبي الدرداء أن النبي ﷺ قال: «أيعجز أحدكم أن يقرأ ثلث القرآن في ليلة»؟ قلت: يا رسول الله ومَن يطيق ذلك؟ قال: اقرؤوا قُلْ هو الله أحد»، وأخبرنا أبو الحسن السرخسي أنا زاهر بن أحمد أنا أبو إسحاق الهاشمي أنا أبو مصعب عن مالك عن عبيد الله بن عبد الرحمن عن عبيد بن جبير مولى زيد بن الخطاب أنه قال: سمعت أبا هريرة يقول أقبلت مع رسول الله ﷺ فسمع رجلاً يقرأ: ﴿ قلْ هو الله أحد * الله الصمد * لم يلد ولم يولد * ولم يكن له كفواً أحد ﴾. فقال رسول الله ﷺ: «وجبتْ»، فسألته: ماذا يا رسول الله؟ فقال: «الجنة». فقال أبو هريرة: فأردت أن أذهب إلى الرجل فأبشّره، ثمّ فرقت أن يفوتني الغداء مع رسوْل الله ﷺ فآثرت الغداء، ثم ذهبت إلى الرجل فوجدته قد ذهب. أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحي أنا أبو بكر أحمد بن الحسن الحيري أنا حاجب بن أحمد الطوسي ثنا عبد الرحيم بن منيب ثنا يزيد بن هارون ثنا المبارك بن فضالة عن ثابت عن أنس قال: قال رجل لرسول الله ﷺ: إني أُحبّ هذه السورة: ﴿ قل هو الله أحد ﴾: قال: «حبّكَ إياها أدخلك الجنة».

سورة الفلق

مدنية وقيل مكية والأول أصح وهي خمس آيات وثلاث وعشرون كلمة وأربعة وسبعون حرفاً.

(م) عن عقبة بن عامر أن رسول الله ﷺ قال «ألم تر آيات أنزلت هذه اللّيلة لم ير مثلهن قط، ﴿**قل أعوذ برب الفلق**﴾، ﴿**وقل أعوذ برب الناس**﴾ فيه بيان عظيم فضل هاتين السورتين، وفيه دليل واضح على كونهما من القرآن، وفيه رد على من نسب إلى ابن مسعود خلاف هذا، وفيه بيان أن لفظة **قل** من القرآن أيضاً وأنه من أول السورتين بعد البسملة، وقد اجتمعت الأمة على هذا كله بعد خلاف ذكر فيه (خ) عن زر بن حبيش قال: «سألت أبي بن كعب عن المعوذتين قلت يا أبا الوليد إن أخاك ابن مسعود يقول كذا، وكذا، فقال سألت رسول الله ﷺ فقال: قيل لي فقلت فنحن نقول كما قال رسول الله ﷺ»، وفي رواية مثلها ولم يذكر ابن مسعود عن عبد الله بن حبيب قال «أصابنا طش وظلمة فانتظرنا رسول الله ﷺ يصلي بنا فخرج فقال قلت ما أقول قال ﴿**قل هو الله أحد الله الصّمد**﴾، والمعوذتين حين تمسي وحين تصبح تكفيك كل شيء» وفي رواية «قال كنت مع رسول الله ﷺ بطريق مكة فأصبت خلوة من رسول الله ﷺ، فدنوت منه فقال **قل** قلت ما أقوال قال ﴿**قل أعوذ برب الفلق**﴾، حتى تختمها ثم ﴿**قل أعوذ برب الناس**﴾، حتى تختمها ثم قال ما تعوذ بالنّاس بأفضل منهما» أخرجه النسائي عن جابر بمثله، ومعنى الطّش الطشيش المطر الضّعيف، وهو قول أبي الدّرداء.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴿١﴾ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾ وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ﴿٤﴾ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿٥﴾

قوله عز وجل: ﴿**قل أعوذ برب الفلق**﴾ قال ابن عباس وعائشة: «كان غلام من اليهود يخدم النبي ﷺ فدبت إليه اليهود، فلم يزالوا به حتى أخذ من مشاطة رأس رسول الله ﷺ وعدة من أسنان مشطه، فأعطاها اليهود، فسحروه فيها، وتولى ذلك لبيد بن الأعصم رجل من اليهود فنزلت السورتان فيه». (ق) عن عائشة «أن النبي ﷺ سحر حتى كان يخيل إليه أن يصنع الشيء ولم يصنعه» وفي رواية «أنه يخيل إليه فعل الشيء، وما فعله حتى إذا كان يوم، وهو عندي دعا الله، ودعاه ثم قال أشعرت يا عائشة أن الله قد أفتاني فيما استفتيته فيه قلت، وما ذاك يا رسول الله قد جاءني رجلان،

سُورَة الفَلَقْ

مكيّة وقيل مدنيّة وهي خمس آيات.

﴿ **قل أعوذ بربِّ الفلق** ﴾، قال ابن عباس وعائشة: كان غلام من اليهود يخدم رسول الله ﷺ فدبّت إليه اليهود، فلم يزالوا به حتى أخذ مشاطة رأس النبي ﷺ وعدّة أسنان من مشطة، **فأعطاها اليهود** فسحروه فيها، وتولى

فجلس أحدهما عند رأسي، والآخر عند رجلي، ثم قال أحدهما لصاحبه ما وجع الرجل قال مطبوب، قال ومن طبه قال لبيد بن الأعصم اليهودي من بني زريق قال: فيما ذا قال في مشط ومشاطة، وجف طلعة ذكر قال فأين هو قال في بئر ذروان، ومن الرواة من قال في بئر بني زريق فذهب النبي ﷺ في أناس من أصحابه إلى البئر فنظر إليها وعليها نخل ثم رجع إلى عائشة فقال والله لكأن ماءها نقاعة الحناء، ولكأن نخلها رؤوس الشياطين قلت يا رسول الله فأخرجه. قال أما أنا فقد عافاني الله وشفاني، وخفت أن أثير على الناس منه شراً». وفي رواية للبخاري «أنه كان يرى أنه يأتي النساء، ولا يأتيهن قال سفيان وهذا أشد ما يكون من السحر إذا كان كذلك» عن زيد بن أرقم قال «سحر رجل من اليهود النبي ﷺ فاشتكى ذلك أياماً فأتاه جبريل فقال إن رجلاً من اليهود سحرك، وعقد لك عقداً في بئر كذا فأرسل رسول الله ﷺ علياً فاستخرجها، فجاء بها فحلها فجعل كلما حل عقدة وجد لذلك خفة فقام رسول الله ﷺ كأنما نشط من عقال، فما ذكر ذلك لليهودي، ولا رآه في وجهه قط» أخرجه النسائي وروى «أنه كان تحت صخرة في البئر فرفعوا الصخرة وأخرجوا جف الطلعة، فإذا فيه مشاطة من رأسه ﷺ وأسنان من مشطه»، وقيل كان في وتر عقد عليه إحدى عشرة عقدة وقيل كان مغروزاً بالإبر فأنزل الله هاتين السورتين، وهما إحدى عشرة آية سورة الفلق خمس آيات، وسورة الناس ست آيات، فكان كلما قرأ آية انحلت عقدة حتى انحلت العقد كلها، فقام النبي ﷺ كأنما نشط من عقال وروى «أنه لبث ستة أشهر، واشتد عليه ذلك ثلاث ليال فنزلت المعوذتان» (م) عن أبي سعيد الخدري «أن جبريل أتى النبي ﷺ، فقال يا محمد اشتكيت قال نعم قال بسم الله أرقيك من كل شيء يؤذيك، ومن شر كل نفس أو عين حاسد الله يشفيك بسم الله أرقيك».

(فصل وقبل الشروع في التفسير نذكر معنى الحديث، وما قيل فيه، وما قيل في السحر، وما قيل في الرقى)

قولها في الحديث إن النبي ﷺ سحر حتى كان يخيل إليه أنه يصنع الشيء، ولم يصنعه.

قال الإمام المازري مذهب أهل السّنة، وجمهور علماء الأمة على إثبات السحر، وأن له حقيقة كحقيقة غيره من الأشياء الثّابتة خلافاً لمن أنكر ذلك، ونفى حقيقته، وأضاف ما يقع منه إلى خيالات باطلة لا حقائق لها، وقد ذكره الله في كتابه، وذكر أنه مما يتعلم، وذكر ما فيه إشارة إلى أنه مما يكفر به، وأنه يفرق بين المرء، وزوجه وهذا كله لا يمكن أن يكون مما لا حقيقة له وهذا الحديث الصحيح مصرح بإثباته، ولا يستنكر في العقل إن الله تعالى يخرق العادة عند النطق بكلام ملفق أو تركيب أجسام أو المزج بين قوي لا يعرفها إلا الساحر، وأنه لا فاعل إلا الله تعالى، وما يقع من ذلك فهو عادة أجراها الله تعالى على يد من يشاء من عباده.

ذلك لبيد بن الأعصم رجل من اليهود، فنزلت السورتان فيه، أخبرنا أبو حامد أحمد بن عبد الله الصالحي أنا أبو سعيد محمد بن موسى الصيرفي ثنا أبو العباس محمد بن يعقوب الأصم ثنا محمد بن عبد الله بن عبد الحكم أنا أنس بن عياض عن هشام عن أبيه عن عائشة أن النـبيّ ﷺ طبّ حتى أنه ليخيّل إليه أنه قد صنع شيئاً وما صنعه وإنه دعا ربّه ثم قال أشعرت أن الله أفتاني فيما استفتيته فيه، فقالت عائشة: وما ذاك يا رسول الله؟ قال: جاءني رجلان فجلس أحدهما عند رأسي والآخر عند رجليّ، فقال أحدهما لصاحبه: ما وجع الرجل؟ قال الآخر: هو مطبوب، قال: مَن طبّه؟ قال لبيد بن الأعصم، قال: فيماذا قال في مشط ومشاطة وجف طلعة ذكر، قال: فأين هو؟ قال: في ذروان، وذروان بئر في بني زريق، قالت عائشة: فأتاها رسول الله ﷺ ثم رجع إلى عائشة، فقال: والله لكأن ماءها نقاعة الحنّاء ولكأن نخلها رؤوس الشياطين، قالت: فقلت له يا رسول الله فهلّا أخرجته؟ قال: «أما أنا فقد شفاني الله فكرهت أن أُثير على الناس به شرّاً»، ورُويَ أنه كان تحت صخرة في البئر فرفعوا الصخرة وأخرجوا جفّ الطلعة فإذا

فإن قلت المستعاذ منه هل هو بقضاء الله، وقدره فذلك قدح في القدرة.

قلت كل ما وقع في الوجود هو بقضاء الله، وقدره والاستشفاء بالتّعوذ، والرّقى من قضاء الله، وقدره يدل على صحة ذلك. ما روى التّرمذي عن ابن أبي خزامة عن أبيه قال: «سألت رسول الله ﷺ فقلت يا رسول الله أرأيت رقى نسترقي بها، ودواء نتداوى به، وتقاة نتقيها هل ترد من قدر الله شيئاً، قال: هي من قدر الله تعالى» قال التّرمذي: هذا حديث حسن وعن عمر نفر من قدر الله إلى قدر الله تعالى.

(فصل)

وقد أنكر بعض المبتدعة حديث عائشة المتفق عليه، وزعم أنه يحط منصب النّبوة ويشكك فيها وأن تجويزه يمنع الثّقة بالشّرع.

ورد على هذا المبتدع بأن الذي ادعاه باطل لأن الدّلائل القطعية، والنقلية قد قامت على صدقه ﷺ، وعصمته فيما يتعلق بالتبليغ، والمعجزة شاهدة بذلك، وتجويز ما قام الدليل بخلافه باطل.

وأما ما يتعلق ببعض أمور الدنيا، وهو ما يعرض للبشر فغير بعيد أن يخيل إليه من أمور الدنيا ما لا حقيقة له.

وقد قيل إنه كان يخيل إليه أنه وطىء زوجاته، وليس واطىء، وهذا مثل ما يتخيله الإنسان في المنام. فلا يبعد أن يتخيله في اليقظة، ولا حقيقة له، وقيل إنه يخيل إليه أنه فعله وما فعله، ولكن لا يعتقد ما تخيله فتكون اعتقاداته على السّداد قال القاضي: وقد جاءت في بعض روايات هذا الحديث مبينة أن السحر إنما سلط على بدنه وظواهر جوارحه لا على قلبه وعقله واعتقاده وليس في ذلك ما يوجب لبساً على الرسالة ولا طعناً لأهل الزّيغ والضّلالة، وقوله ما وجع الرجل قال مطبوب أي مسحور قوله، وجف طلعة ذكر يروى بالباء ويروى بالفاء، وهو وعاء طلع النخل.

وأما الرّقي والتّعاويذ فقد اتفق الاجماع على جواز ذلك إذا كان بآيات من القرآن، أو إذ كانت وردت في الحديث، ويدل على صحته الأحاديث الواردة في ذلك منها حديث أبي سعيد المتقدم أن جبريل رقي النبي ﷺ، ومنها ما روي عن عبيد بن رفاعة الزرقي «أن أسماء بنت عميس قالت يا رسول الله إن ولد جعفر تسرع إليهم العين. أفأسترقي لهم قال نعم فإنه لو كان شيء سابق القدر لسبقته العين» أخرجه التّرمذي وقال: حديث صحيح وعن أبي سعيد الخدري «أن النبي ﷺ كان يتعوذ ويقول أعوذ بالله من الجان، وعين الإنسان فلما نزلت المعوذتان أخذ بهما، وترك ما سواهما» أخرجه التّرمذي وقال: حديث حسن غريب فهذه الأحاديث تدل على جواز الرّقية، وإنما المنهي عنه منها ما كان فيه كفر أو شرك أو ما لا يعرف معناه مما ليس بعربي لجواز أن يكون فيه كفر والله أعلم.

فيه مشاطة رأسه وأسنان مشطه فيها. أخبرنا المطهر بن علي الفارسي أنا محمد بن إبراهيم الصالحاني ثنا عبد الله بن محمد بن جعفر أبو الشيخ الحافظ أنا ابن أبي عاصم ثنا أبو بكر بن أبي شيبة ثنا أبو معاوية عن الأعمش عن يزيد بن حيان عن زيد بن أرقم قال: سحر النبي ﷺ رجلٌ من اليهود، قال فاشتكى لذلك أياماً، قال: فأتاه جبريل، فقال: إن رجلاً من اليهود سحرك وعقد لك عقداً، فأرسل رسول الله ﷺ علياً فاستخرجها فجاء بها، فجعل كلّما حلّ عقدة وجد لذلك خفّة، فقام رسول الله ﷺ كأنما نشط من عقال، فما ذكر ذلك لليهود ولا رأوه في وجهه قطّ، قال مقاتل والكلبي: كان في وتر عقد عليه إحدى عشرة عقدة. وقيل: كانت العقدة مغروزة بالإبرة، فأنزل الله هاتين السورتين وهي إحدى عشرة آية، سورة الفلق خمس آيات، وسورة الناس ستّ آيات، كلما قرأ آية انحلّت عقدة، حتى انحلّت العقد كلها، فقام النبي ﷺ كأنما نشط من عقال. ورُوِيَ: أنه لبث فيه ستّة أشهر واشتدّ عليه ثلاث ليالٍ، فنزلت المعوذتان، أخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر أنا عبد الغافر بن محمد أنا محمد بن عيسى الجلودي ثنا

(وأما التفسير)

فقوله عز وجل ﴿قل أعوذ برب الفلق﴾، أراد بالفلق الصبح، وهو قول الأكثرين، ورواية عن ابن عباس لأن الليل ينفلق عن الصبح وسبب تخصيصه في التعوذ أن القادر على إزالة هذه الظلمة عن العالم قادر على أن يدفع عن المستعيذ ما يخافه، ويخشاه، وقيل إن طلوع الصبح كالمثال لمجيء الفرج، كما أن الإنسان ينتظر طلوع الصّباح، فكذلك الخائف يترقب مجيء النجاح، وقيل إن تخصيص الصبح بالذكر في هذا الموضع لأنه وقت دعاء المضطرين، وإجابة الملهوفين، فكأنه يقول قل أعوذ برب الوقت، الذي يفرج فيه هم المهمومين والمغمومين، وروي عن ابن عباس أن الفلق سجن في جهنم، وقيل هو واد في جهنم إذ فتح استعاذ أهل النار من حره، ووجهه أن المستعيذ قال: أعوذ برب هذا العذاب، القادر عليه من شر عذابه، وغيره وروي عن ابن عباس أيضاً أن الفلق الخلق، ووجه هذا التأويل، أن الله تعالى فلق ظلمات بحر العدم بإيجاد الأنوار، وخلق منه الخلق، فكأنه قال قل أعوذ برب جميع الممكنات، ومكون جميع المحدثات ﴿من شر ما خلق﴾ قيل يريد به إبليس خاصة لأنه لم يخلق الله خلقاً هو شر منه، ولأن السحر لا يتم إلا به وبأعوانه وجنوده، وقيل من شر كل ذي شر، وقيل من شر ما خلق من الجن، والإنس. ﴿ومن شر غاسق إذا وقب﴾ عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت «إن رسول الله ﷺ نظر إلى القمر فقال يا عائشة استعيذي بالله من شر هذا، فإن هذا هو الغاسق إذا وقب» أخرجه التّرمذي وقال حديث حسن صحيح، فعلى هذا الحديث المراد به القمر إذا خسف، واسود ومعنى وقب دخل في الخسوف، أو أخذ في الغيبوبة، وقيل سمي به لأنه إذا خسف اسود، وذهب ضوءه وقيل إذا وقب دخل في المحاق، وهو آخر الشهر وفي ذلك الوقت يتم السحر المورث للتمريض، وهذا مناسب لسبب نزول هذه الآية. وقال ابن عباس: الغاسق الليل إذا وقب أي أقبل بظلمته من المشرق، وقيل سمي الليل غاسقاً لأنه أبرد من النهار، والغسق البرد وإنما أمر بالتعوذ من الليل لأن فيه تنتشر الآفات، ويقل الغوث وفيه يتم السحر، وقيل الغاسق الثريا إذا سقطت، وغابت، وقيل إن الأسقام تكثر عند وقوعها، وترتفع عند طلوعها فلهذا أمر بالتعوذ من الثريا عند سقوطها ﴿ومن شر النفاثات في العقد﴾ يعني السواحر اللاتي ينفثن في عقد الخيط حين يرقين عليها، وقيل المراد بالنفاثات بنات لبيد بن الأعصم اللاتي سحرن النبي ﷺ، والنفث النفخ مع ريق قليل، وقيل إنه النفخ فقط.

إبراهيم بن محمد بن سفيان ثنا مسلم بن الحجّاج ثنا بشر بن هلال الصوّاف ثنا عبد الوارث ثنا عبد العزيز بن صهيب عن أبي نضرة عن أبي سعيد: أن جبريل عليه السلام أتى النبي ﷺ فقال: يا محمد اشتكيت؟ قال: نعم، قال: «بسم الله أرقيك من كل نفس أو عين حاسد الله يشفيك، بسم الله أرقيك». قوله عزّ وجلّ: ﴿ قلْ أعوذ بربّ الفلق ﴾، أراد بالفلق الصبح، وهو قول جابر بن عبد الله والحسن وسعيد بن جبير ومجاهد وقتادة وأكثر المفسّرين، وهي رواية العوفي عن ابن عباس بدليل قوله: ﴿ فالق الإصباح ﴾ [الأنعام: ٩٦] ورُوِيَ عن ابن عباس: أنه سجن في جهنم. وقال الكلبي: وادٍ في جهنم. وقال الضحاك: يعني الخلق، وهي رواية الوالبي عن ابن عباس، والأول المعروف.

﴿ من شرِّ ما خلق * ومن شرِّ غاسق إذا وقب ﴾، أخبرنا أبو الحسن السرخسي أنا زاهر بن أحمد أنا جعفر بن محمد المغلس ثنا هارون بن إسحاق الهمداني ثنا وكيع عن ابن أبي ذئب عن خالد بن الحارث بن عبد الرحمن عن أبي سلمة عن عائشة قالت: أخذ النبي ﷺ بيدي فنظر إلى القمر فقال: «يا عائشة استعيذي بالله من شرّ غاسق إذا وقب، هذا غاسق إذا وقب» فعلى هذا المراد به القمر إذا خسف واسودّ: وَقَبَ، أي دخل في الخسوف أو أخذ في الغيبوبة وأظلم. وقال ابن عباس: الغاسق الليل إذا أقبل بظلمته من المشرق ودخل في كل شيء وأظلم، والغسق

واختلفوا في جواز النّفث في الرّقى، والتّعاويذ الشّرعية المستحبة فجوزه الجمهور من الصحابة والتابعين، ومن بعدهم، ويدل عليه حديث عائشة قالت: «كان رسول الله ﷺ إذا مرض أحد من أهله نفث عليه بالمعوذات» الحديث وأنكر جماعة التّفل، والنّفث في الرقى، وأجازوا النّفخ بلا ريق قال عكرمة: لا ينبغي للرّاقي أن ينفث ولا يمسح ولا يعقد، وقيل النفث في العقد إنما يكون مذموماً إذا كان سحراً مضراً بالأرواح والأبدان، وإذا كان النفث لإصلاح الأرواح والأبدان وجب أن لا يكون مذموماً، ولا مكروهاً بل هو مندوب إليه. ﴿ومن شر حاسد إذا حسد﴾ الحاسد هو الذي يتمنى زوال نعمة الغير، وربما يكون مع ذلك سعى، فلذلك أمر الله تعالى بالتعوذ منه، وأراد بالحاسد هنا اليهود، فإنهم كانوا يحسدون النبي ﷺ أو لبيد بن الأعصم وحده والله سبحانه، وتعالى أعلم بمراده وأسرار كتابه.

الظلمة، يقال غسق الليل وأغسق إذا أظلم، وهو قول الحسن ومجاهد، يعني: الليل إذا أقبل ودخل، والوقوب: الدخول، وهو دخول الليل بغروب الشمس. قال مقاتل: يعني ظلمة الليل إذا دخل سواده في ضوء النهار. وقيل: سُمّي الليل غاسقاً لأنه أبرد من النهار، والغسق البرد. وقال ابن زيد: يعني الثريا إذا سقطت. ويقال: إن الأقسام تكثر عند وقوعها وترتفع عند طلوعها.

﴿ومن شرّ النفّاثات في العقد﴾، يعني السواحر اللاّتي ينفثن في عقد الخيط حين يرقين عليها. قال أبو عبيدة: هنّ بنات لبيد بن الأعصم سحرن النبي ﷺ.

﴿ومن شرِّ حاسد إذا حسد﴾، يعني اليهود فإنهم كانوا يحسدون النبيّ ﷺ.

سورة الناس

وهي مدنية وقيل مكية والأول أصح وهي ست آيات وعشرون كلمة وتسعة وسبعون حرفاً.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ النَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَٰهِ النَّاسِ ﴿٣﴾ مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴿٦﴾

قوله عز وجل: ﴿قل أعوذ برب الناس﴾ إنما خصص الناس بالذّكر، وإن كان رب جميع المحدثات لأنه لما أمر بالاستعاذة من شر الوسواس، فكأنه قال أعوذ من شر الموسوس إلى الناس بربهم الذي يملك عليهم أمورهم، وهو إلههم ومعبودهم فإنه هو الذي يعيذهم من شرهم، وقيل إن أشرف المخلوقات هم الناس، فلهذا خصهم بالذكر. ﴿ملك الناس إله النّاس﴾ إنما وصف نفسه أولاً: بأنه رب الناس، لأن الرب قد يكون ملكاً، وقد لا يكون ملكاً فنبه بذلك على أنه ربهم، وملكهم ثم إن الملك لا يكون إلهاً، فنبه بقوله ﴿إله الناس﴾ على أن الإلهية خاصة بالله سبحانه، وتعالى لا يشاركه فيها أحد، والسبب في تكرير لفظ الناس يقتضي مزيد شرفهم على غيرهم ﴿من شر الوسواس﴾ يعني الشّيطان ذا الوسواس، والوسوسة الهمز، والصوت الخفي. ﴿الخناس﴾ يعني الرجاع من الذي عادته أن يخنس أي يتأخر. قيل إن الشيطان جاثم على قلب الإنسان، فإذا غفل وسها وسوس، وإذا ذكر الله تعالى خنس الشيطان عنه، وتأخر وقال قتادة الخناس له خرطوم كخرطوم الكلب وقيل كخرطوم الخنزير في صدر الإنسان فإذا ذكر العبد ربه خنس، ويقال رأسه كرأس الحية واضع رأسه على ثمرة القلب يمسه ويجذبه، فإذا ذكر الله تعالى خنس وإذا لم يذكر الله

سُوْرَة النّاس

مكيّة وقيل مدنيّة وهي ستّ آيات.

﴿ **قلْ أعوذ بربِّ الناس * مَلِكِ الناس * إلَهِ الناس * من شرِّ الوسواس الخنّاس** ﴾، يعني الشيطان يكون مصدراً واسماً، قال الزَّجّاج: يعني الشيطان ذا الوسواس الخنّاس الرجّاع، وهو الشيطان جاثم على قلب الإنسان، فإذا ذكر الله خنس وإذا غفل وسوس. قال: الخنّاس له خرطوم كخرطوم الكلب في صدر الإنسان فإذا ذكر العبد ربّه خنس. ويقال: رأسه كرأس الحيّة واضع رأسه على ثمرة القلب يُمينّه ويحدّثه، فإذا ذكر الله خنس وإذا لم يذكر يرجع ويضع رأسه.

فذلك ﴿ **الذي يوسوس في صدور الناس** ﴾، بالكلام الخفي الذي يصل مفهومه إلى القلب من غير سماع.

﴿ **من الجنة والناس** ﴾، يعني يدخل في الجنّي كما يدخل في الإنسي، ويوسوس الجنّي كما يوسوس

تعالى رجع، ووضع رأسه على القلب فذلك قوله تعالى: ﴿**الذي يوسوس في صدور الناس**﴾ يعني بالكلام الخفي الذي يصل مفهومه إلى القلب من غير سماع، والمراد بالصدر القلب ﴿**من الجنة**﴾ يعني الجن ﴿**والناس**﴾ وفي معنى الآية وجهان:

أحدهما: أن الناس لفظ مشترك بين الجن والإنس، ويدل عليه قول بعض العرب جاء قوم من الجن، فقيل من أنتم قالوا أناس من الجن، وقد سماهم الله تعالى رجالاً في قوله ﴿**يعوذون برجال من الجن**﴾ فعلى هذا يكون معنى الآية؛ أن الوسواس الخناس يوسوس للجن كما يوسوس للإنس.

الوجه الثاني: أن الوسواس الخناس قد يكون من الجنة، وهم الجن وقد يكون من الإنس، فكما أن شيطان الجن قد يوسوس للإنسان تارة، ويخنس أخرى، فكذلك شيطان الإنس قد يوسوس للإنسان كالنّاصح له فإن قبِل زاد في الوسوسة، وإن كره السامع ذلك انخنس وانقبض فكأنه تعالى أمر أن يستعاذ به من شر الجن والإنس جميعاً (ق) عن عائشة رضي الله تعالى عنها «أن رسول الله ﷺ كان إذا أوى إلى فراشه كل ليلة جمع كفيه ثم ينفث فيهما، فيقرأ

الإنسي، قاله الكلبي، وقوله: ﴿ **في صدور الناس** ﴾ أراد بالناس ما ذكر من بعد وهو الجِنّة والناس، فسمّى الجنّ ناساً كما سمّاهم رجالاً، فقال: ﴿ وإنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن ﴾ [الجنّ: ٦]، وقد ذكر عن بعض العرب أنه قال وهو يحدّث جاء قوم من الجنّ فوقعوا، فقيل: مَن أنتم؟ قالوا: أُناس من الجنّ. وهذا معنى قول الفرّاء، قال بعضهم: ثبت أن الوسواس للإنسان من الإنسان كالوسوسة للشيطان من الشيطان، فجعل الوسواس من فعل الجنة والناس جميعاً، كما قال: ﴿ وكذلك جعلنا لكل نبيّ عدوّاً شياطين الإنس والجنّ ﴾ [الأنعام: ١١٢]، كأنه أمر أن يستعيذ من شرّ الجنّ والإنس جميعاً، أخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر أنا عبد الغافر بن محمد أنا محمد بن عيسى ثنا إبراهيم بن محمد بن سفيان ثنا مسلم بن الحجّاج ثنا قتيبة بن سعيد ثنا جويرية عن بنان عن قيس بن أبي حازم عن عقبة بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: «ألم ترَ آيات أُنزلت الليلة لم يُرَ مثلهنّ قطّ، ﴿ قل أعوذ بربّ الفلق ﴾ [الفلق: ١]، ﴿ **وقل أعوذ بربّ الناس** ﴾، أخبرنا أبو سعيد الشريحي أنا أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي أنا أبو الحسن بن عبد الرحمن بن إبراهيم العدل ثنا أبو العباس محمد بن يعقوب ثنا أبو العباس بن الوليد بن مرثد أخبرني أبي ثنا الأوزاعي حدّثني يحيىٰ بن كثير حدّثني محمد بن إبراهيم بن الحارث التيمي عن عقبة بن عامر الجهني أن رسول الله ﷺ قال: «ألا أُخبرك بأفضل ما تعوّذ به المتعوّذون»؟ قلت: بلى، قال: «﴿ قل أعوذ بربّ الفلق ﴾ [الفلق: ١]، و﴿ **قل أعوذ بربّ الناس** ﴾»، أخبرنا أبو محمد عبد الله بن عبد الصمد الجوزجاني أنا أبو القاسم علي بن أحمد الخزاعي أنا أبو سعيد الهيثم بن كليب الشاشي أنا أبو عيسى الترمذي ثنا قتيبة ثنا المفضل بن فضالة عن عقيل عن الزهري عن عروة عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ إذا أوى إلى فراشه كل ليلة جمع كفّيه ثم نفث فيهما، فقرأ فيهما: ﴿ قل هو الله أحد ﴾ [الإخلاص: ١] و﴿ قل أعوذ بربّ الفلق ﴾ [الفلق: ١] و﴿ **قل أعوذ بربّ الناس** ﴾ ثم يمسح بهما ما استطاع من جسده يبدأ بهما على رأسه ووجهه وما أقبل من جسده، يفعل ذلك ثلاث مرّات. أخبرنا أبو الحسن السرخسي أنا زاهر بن أحمد أنا أبو إسحاق الهاشمي أنا أبو مصعب عن مالك عن ابن شهاب عن عروة بن الزبير عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ: كان إذا اشتكى يقرأ على نفسه بالمعوذات وينفث، فلما اشتد وجعه كنت أقرأ عليه وأمسح عليه بيده رجاء بركتهما. أخبرنا الإمام أبو علي الحسين بن محمد القاضي وأبو حامد أحمد بن عبد الله الصالحي قالا: ثنا أبو بكر أحمد بن الحسين الخيري أنا محمد بن أحمد بن معقل الميداني أنا محمد بن يحيىٰ ثنا عبد الرزاق أنا معمر عن الزهري عن سالم عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «لا حسد إلّا في اثنتين رجل آتاه

﴿قل هو الله أحد﴾، ﴿وقل أعوذ برب الفلق﴾، ﴿وقل أعوذ برب الناس﴾، ثم يمسح بهما ما استطاع من جسده يبدأ بهما على رأسه، وما أقبل من جسده يفعل ذلك ثلاث مرات» عن عائشة رضي الله عنها «أن رسول الله ﷺ كان إذا اشتكى يقرأ على نفسه بالمعوذات، وينفث، فلما اشتد وجعه كنت أقرأ عليه، وأمسح عنه بيديه رجاء بركتهما» أخرجه مالك في الموطأ ولهما بمعناه (ق) عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: «لا حسد إلا في اثنتين رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل، وأطراف النهار، ورجل آتاه الله مالاً، فهو ينفق منه آناء الليل وأطراف النهار» عن ابن عباس قال: «قيل يا رسول الله أي الأعمال أحب إلى الله تعالى، قال الحال المرتحل قيل، وما الحال المرتحل قال الذي يضرب من أول القرآن إلى آخره كلما حل ارتحل» أخرجه التّرمذي، والله سبحانه، وتعالى أعلم بمراده، وأسرار كتابه.

الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار، ورجل آتاه الله مالاً فهو ينفق منه آناء الليل وآناء النهار»، أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا إبراهيم بن حمزة حدّثني ابن أبي حازم عن يزيد يعني ابن الهادي عن محمد بن إبراهيم عن أبي سلمة بن عبد الرحمن عن أبي هريرة أنه سمع النبي ﷺ يقول: «ما أذِنَ الله لشيء ما أذِنَ لنبيٍّ حسن الصوت بالقرآن يجهر به».

والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنّا لنهتدي لولا أن هدانا الله، ربّنا لا تُزِغْ قلوبنا بعد إذْ هديتنا وهبْ لنا من لدنك رحمةً إنك أنت الوهّاب. وصلّى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلّم تسليماً إلى يوم الدين، والحمد لله ربّ العالمين.

* * *

تفسير الخازن

المسمى

لباب التأويل في معاني التنزيل

للإمام علاء الدين علي بن محمد بن ابراهيم البغدادي

الشهير بالخازن

المتوفى سنة ٧٢٥ هـ

ومعه

تفسير البغوي

المسمى

معالم التنزيل

للإمام أبي محمد الحسين بن مسعود

الفراء البغوي الشافعي

المتوفى سنة ٥١٦ هـ

ضبطه وصححه

عبد السلام محمد علي شاهين

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان